فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري
"١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري
"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبدالله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الأول

المكتبة العصرية
صيدا . بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

- تعريف بالكتاب والمؤلف
- سورة الفاتحة
- سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب ومؤلفه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

الكتاب:

«فتح البيان في مقاصد القرآن» درة نادرة بين كتب التفسير، لأن علاّمتنا، أبا الطيب صديق خان نتيجة لمدارسته كتب التفسير المختلفة، وعى حقيقة مهمة وهي أن بعض كتب التفسير لا تخلو مما دسه الأعداء وأهل الأهواء على الإسلام، بقصد هدم هذا الدين المتين عن طريق الدسّ والوضع حينما أعيتهم الحيل من النيل منه عن طريق الحرب والقوة أو عن طريق الدليل والحجة. فجرد حسامه وبرى يراعته للدفاع عن كتاب الله تعالى فقرأ جُلّ ما كتب الأقدمون وتبين له ان النحوي ليس له هم في تفسيره إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وان كانت بعيدة...

والفقيه يكاد يسرد في تفسيره الفقه جميعاً وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي ربما لا تعلّق لها بالآية أصلاً.

والإخباري: ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها والإخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة.

والمبتدع: ليس له إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد.

والملحد: لا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله.

ومن المفسرين مَنْ اقتصر في تفسيره على مجرد الرواية ومنهم من اكتفى بمجرد الدراية وقليل من جمع بين الرواية والدراية فاختار الشيخ صديق خان أن يكتب تفسيراً خالياً من الإسرائيليات والخرافات التي يقوم الدليل على بطلانها. وكذلك الجدل المذهبي والمناقشات الكلامية، فجمع بين الرواية والدراية مع تجديد ما طال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد ايقاظاً للنائمين وتحريضاً للمتثبطين.

فاختار صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوي لأنه الحجة المتبعة التي لا يسوغ مخالفتها.

ثم تفاسير عظماء الصحابة المختصين برسول الله ﷺ.

ثم تفاسير التابعين ومن بعدهم من سلف الأمة وأئمتها المعتبرين.

ثم أهل اللغة العربية الذين يفسرون كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة ومجازاً إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية تراعي النقل عن السلف أو رعاية الأصول المعتبرة أو قواعد اللغة العربية.

وكان رضي الله عنه في تفسيره يتحرى الدقة والصحة فيما ينقل، إن ذكر حديثاً عزاه إلى رواية من غير بيان حال الإسناد لأنه أخذه من الأصول المعتبرة.

وقد سلك في أمور العقائد وفق منهج السلف وخاصة في آيات الصفات وبالجملة فإن تفسيره تنزاح عنه شبه المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين، خلى من كثرة الحشو والدخيل والخرافات التي لا يقوم عليها دليل. فكان درة بين كتب التفسير.

ولا داعي للإطناب في المدح فالكتاب بين يديك راجع أي مَوْضِع فيه تجد صدق ما قلناه وأكثر مما كتبناه.

المؤلف

هو السيد الإمام والعلامة الهمام صدر العلماء الأعلام، المُسندين في الهند، وعمدة الكرام المحدثين المعتمدين، محيي السنة وقامع البدعة الحبر في التفسير والحديث والأصول الذي انتشرت بوجوده علوم السنة والآثار وصنف في ذلك الأسفار الكبار.

المحدث المفسر الأصولي[1].

أبو الطيب صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنّوجي[2] الهندي.

الذي شهد بكماله الداني والقاصي.

---

(١) مصادر ترجمته. أبجد العلوم ٢٧١/٣ لصديق خان
حلية البشر ٧٣٨/٢ الشيخ عبد الرزاق البيطار
الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٤٧٤ محمد عبد الرحيم الحميري
جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص ٤٨ السيد نعمان خير الدين الألوسي
هدية العارفين ٣٨٨/٢ اسماعيل باشا البغدادي
ايضاح المكنون ١٠/١ اسماعيل باشا البغدادي
مقدمة كتاب الروضة الندية طبعت في بولاق ١٢٩٦
الاعلام ١٦٧/٦ خير الدين الزركلي
معجم المؤلفين ٩٠/١٠ عمر رضا كحالة
فهرس الفهارس ١٠٥٥/٢ عبد الحي الكتاني
المسلمون في الهند ص ٤٠ أبو الحسن الندوي

(٢) قال الحميري: قِنّوج أفخر بلاد الهند اسماً وشأناً وأعظمها صيتاً وأقدمها بنياناً. ص: ٤٧٤.
ورد في الحاشية، ان مدينة قنّوج في أيام ابن بطوطة مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة كثيرة السكّر وعليها سور عظيم.

مولده:

ولد ضحى يوم الأحد لعله التاسع عشر من جمادى الأولى ١٢٤٨ سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية على صاحبها أفضل سلام وأزكى تحية ببلدة «بريلي» بالهند، موطن جده القريب من جهة الأم، ثم جاءت به أمه الكريمة من «بريلي» إلى «قِنّوج» بالهند موطن آبائه الكرام.

ولما ناهز السادسة من عمره انتقل والده إلى رحمة ربه وبقي في حجر أمه يتيماً، تهتم به وتربيه على العفاف والطهارة وحب العلم والعلماء فهو سليل بيت علم وتقوى.

والده:

هو الماجد الفاضل حسن بن علي، تتلمذ على الشيخ عبد الباسط القِنوجي ثم رحل إلى لكنهو فاكتسب عن الشيخ العالم محمد نور وغيره من علماء عصره. ثم انتقل إلى دهلي وتتلمذ على الشيخ عبد العزيز والشيخ رفيع الدين ابني الشيخ الأجل «شاه ولي الله المحدث الدهلوي». وأخذ الإجازة لكتب التفسير والحديث وغيرهما، وصحب العالم المجدد أحمد البريلوي مجدد المائة الثالثة عشرة. واستمر معه حتى صار خليفته في دعوة الحق إلى دين الله، واقتداء الدليل ورد الشرك والبدع إلى أن توفاه الله تعالى ١٢٥٣هـ. من مؤلفاته: كتاب في الحدود والقصاص، وكتاب تقوية اليقين في الرد على عقائد المشركين، ورسالة في رد التعزية والضريح. وغير ذلك من المؤلفات النافعة التي تنهج طريقة السلف الصالح.

أخوه الأكبر:

هو العلامة الشيخ أحمد بن حسن بن علي القِنوجي ولد ١٢٤٦هـ وجمع العلوم والفنون المتفرقة من بلاد شتى، على أكابر العلماء في دهلي وغيرها من البلدات. تتلمذ على المولوي عبد الجليل الكولي، وأجاز له الشيخ عبد الغني المجددي الدهلوي وخاتمة المجتهدين الشيخ صالح بن محمد العمري الشهير الفلاني.

سافر قاصداً بيت الله الحرام، إلا أنه مات في الطريق ١٢٧٧هـ. له كتاب الشهاب الثاقب وغيره.

وقد استفاد الشيخ صديق خان من أخيه وأبيه اتباع طريق السلف والبعد عن التقليد، فهما كانا مدرسته الأولى.

صفاته:

كان شيخنا المفسر ربعة من القوم، قليل الشيب شعره إلى شحمة أذنيه. كريماً جواداً شجاعاً جمع إلى الإيمان والتقوى الفراغ من ملاذ النفس وهوى الشيطان. فصيح اللسان سريع الكتابة سريع الحفظ والمطالعة، إذا ذكرت مسألة من مسائل الخلاف استدل ورجح، وهذا يدل على سعة **ثقافته** ورجحان عقله.

ادعى الإجتهاد لاجتماع شروطه فيه، كان إذا استدل ما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً للسنة المطهرة وعزوها منه.

لا تمنعه صولة صائل في تحرير الحق والعمل به.

شيوخه:

رحل الشيخ صديق في سبيل طلب العلم وأخذه عن أكابر أطراف وطنه، فقد شمر عن ساق الجد لتحصيل العلوم، وشد الرحل الى «دهلي» حيث أخذ عن مفتيها الشيخ محمد صدر الدين خان، من تلاميذه الشيخ عبد العزيز وأخيه رفيع الدين ابني العالم المحدث أحمد ابن عبد الرحيم شاه ولي الله الدهلوي.

وقد استفاد العلوم من التفاسير والأحاديث من مشيخة اليمن والهند. فأخذ عن الشيخ حسين بن محسن اليمني، تلميذ الشيخ محمد بن ناصر تلميذ العلامة المجتهد محمد ابن علي الشوكاني. وأقام سلسلة الأسانيد فكتب الحديث الشريف واستحصل سند القرآن الكريم عن الشيخ محمد يعقوب الدهلوي، أخي الشيخ اسحاق حفيد الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي.

وأخذ الإجازة عن الشيخ المعمّر عبد الحق الهندي تلميذ الإمام الشوكاني.

وممن استجاز منه العالم المحدث الشيخ يحيى بن محمد الحازمي قاضي عدن. وأخذ عن شيوخ غيرهم كثير.

وكلهم أجازوا له مشافهة وكتابة إجازة مأثورة عامة تامة. فكل واحد أجاز له بما هو مذكور في ثبتهم الجامع لجميع أصناف العلوم وأنواع الفنون.

وقد جمع الشيخ صديق شيوخه في كتاب سمّاه «سلسلة العسجد في ذكر مشايخ السند». ذكر فيه من أخذ عنه ومن أجاز له والأسانيد التي تلقاها عنهم.

ومن دهلي إلى قِنّوج إلى الحرمين، حيث بقي عاكفاً ثمانية أشهر ثم عاد إلى بهوبال، حيث استوطن واستقر يشتغل بالدرس والتأليف. حتى صار رأساً في المعقول والمنقول

وإماماً في علمي الفروع والأصول، وجدّ واجتهد في اتقان القرآن والسنة وتدوين علومهما ينصر السنة ويروج مصنفاتها ويؤلف مؤلفاته الشريفة، المتعة النافعة باللسان العربي ولغة الفرس والهند، ويبذل المال الكثير في إذاعتها بالطبع والتقسيم.

أقوال العلماء فيه:

قال الإمام الآلوسي: إن الحنابلة بأجمعهم معظمون للشيخ صديق خان ولعقيدته قابلون، ولكلامه سامعون.

وقال الإمام الكتّاني: ان الشيخ صديق من كبار علماء الهند الذين لهم اليد الطولى في إحياء كثير من كتب الحديث وعلومه، وغيره من العلوم. وقد عدّ صاحب «عون الودود على سنن أبي داود» صديق خان أحمد المجددين على رأس المائة الرابعة عشرة.

أما الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي فقال: ان الإمام صديق خان سيد علماء الهند، كان ملياً بالعلوم مجتهداً في إشاعتها مجدداً لإذاعتها أحيا السنن الميتة بالأدلة البيض من السنة والفرقان.

وزاد العلامة محمد منير الدمشقي المصري فقال: كم له من أيادٍ بيض في خدمة العلم والعلماء وان جحد فضله الحاسدون وضعفاء العقول.

وختم العلامة الهندي أبو الحسن الندوي فقال: وقد قام صديق خان شخصياً بما لا تقوم به مجامع علمية، في أكثر الأحيان لكثرة المؤلفات وضخامة الإنتاج.

وبالجملة ان الشيخ صديق خان كان موسوعة علمية، لم يدون أحد في عصره من علماء الهند أحكام الكتاب العزيز وعلوم السنة المطهرة في العبادة والمعاملة وغيرهما خالصة من آراء الرجال نقيةً من أقوال العلماء على هذه الكيفية المشاهدة في هذا السِفر المبارك «فتح البيان في مقاصد القرآن» مثله.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى أواخر جمادى الثانية عام ١٣٠٧هـ ودفن ببهوبال بالهند.

وقد خلف ولدين أكبرهما أبو الخير محمد الحسن، صاحب الشرح المطبوع على بلوغ المرام.

مؤلفاته:

له في الكتابة سرعة عجيبة، وفي التأليف ملكة غريبة، يكتب الكراريس العديدة في يوم واحد.

تبلغ مؤلفاته اثني وعشرين ومائتين ٢٢٢ كتاباً منها حوالي ستة وخمسون ٥٦ كتاباً في العربية. منها:

فتح البيان في مقاصد القرآن.
شرح تجريد الصحيح للشرجي واسمه عون الباري بحلّ أدلة البخاري.
وشرح اختصار مسلم للمنذري.
وأبجد العلوم.
وهدية السائل إلى أدلة المسائل.
ويقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار
ومسك الختام شرح بلوغ المرام.
الروضة الندية شرح الدرر البهية.
منهج الوصول إلى إصطلاح أحاديث الرسول.
اتحاف النبلاء المتقين باحياء مآثر الفقهاء المحدّثين.
الإدراك في تخريج أحاديث الإشراك.
الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة.
أربعون حديثاً في فضائل الحج والعمرة.
افادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ.
بلوغ السول من أقضية الهول.
تميمة الصبي في ترجمة الأربعين من أحاديث النبي.
الجنة في الأسوة الحسنة بالسنة.
الحطة بذكر الصحاح الستة.
الحرز المكنون من لفظ المعصوم المأمون.
رياض الجنة في تراجم أهل السنة.
غنية القاري في ترجمة ثلاثيات البخاري.
فتح المغيث بفقه الحديث.
قطف الثمر من عقائد أهل الأثر.
الاحتواء على مسألة الاستواء.
بدور الأهلة من ربط المسائل بالأدلة.
الانتقاد الرجيح في شرح الاعتقاد الصحيح.
حصول المأمول من علم الأصول.

ذخر المحتي من آداب المفتي.
الصافية في شرح الشافية في علم الصرف.
ظفر اللاضي بما يجب في القضاء على القاضي.
العلم الخفاق من علم الاشتقاق.
غصن البان المورق بمحسنات البيان.
نيل المرام من تفسير آيات الأحكام.
هدية السائل إلى أدلة المسائل.
حسن الأسوة.
الفرع النامي من الأصل السامي.

وغيرها من الكتب التي تشهد له أنه من كبار من لهم اليد الطولى في إحياء كثير من علوم الكتاب والسنة وسائر الفنون.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وبين له من معالم العلم وشعائر الشرائع ومشاعر الملل كل ما جل ودق، ونزل عليه كتاباً معجزاً أفحم مصاقع الخطباء من العرب العرباء وخطاباً مفحماً أعجز بواقع البلغاء من عصابة الأدباء، بأظهر بينات وأبهر حجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، أمر فيه وزجر، وبشر وأنذر، وذكر المواعظ ليتذكر، وقص عن أيام الأمم الخالية ليعتبر، وضرب فيه ضروب الأمثال ليتدبر، ودل على آيات التوحيد ليتفكر، أنزله بحسب المصالح والحكم منجماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعاذة مختتماً، وأوحاه متشابهاً ومحكماً، مزاياه ظاهرة باهرة في كل وجهٍ وكل زمان، دائرة من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، كادت الرواسي لهيبته تمور، ويذوب من خشيته الحديد ويميع منه صم الصخور، فمن تمسك بعروته الوثقى وحبله المتين، وسلك جادته الواضحة وصراطه المبين، فقد فاز بمناه، ومن نبذه وراء ظهره وعصاه، واتخذ إلهه هواه، فقد هوى في تخوم الشقاء وتردى في مهاوي الردى والاشتباه، فأي عبارة تبلغ أيسر ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم، وأي إشارة تصلح لبيان أقل ما ينبغي له من التوصيف والتكريم.

كلا والله إن بلاغة البلغاء وسحرة البيان وإن طالت ذيولها، وفصاحة الفصحاء ومهرة قحطان وإن سالت سيولها تتقاصر عن الوفاء بأدنى أوصافه وإن جالت بميادينها خيولها، وتتصاغر عن التشبث بأقصر أطرافه وإن أفلقت في إطرائها فحولها، فتعود ألسنتهم عنه قاصرة، وصفقتهم في أسواقه خاسرة، كيف وتلك الآيات والدلائل، وتيك البينات والمخايل، وهذه العبارات العبقرية، وما في تضاعيفها من أسرار البرية، مما لا تحيط به ألباب البشر، ولا

تدرك كنهه طباع العالم الأكبر والأصغر، بحيث لو اجتمعت الانس والجن على معارضته ومباراته، لعجزوا عن الاتيان بمثل أقصر آية من آياته فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه كلام الملك العلام، من الاطراء والاكرام، أوفق بما يقتضيه الحال من الاجلال والاعظام.

والصلاة والسلام على من أرسله الله إلى الخلق هادياً وبشيراً، ونزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً، فهداهم به إلى الحق وهم في ضلال مبين، وسلك بهم مسلك الهداية حتى أتاهم اليقين، أكمل به بنيان النبوة والجلالة، وختم به ديوان الوحي والرسالة، وأتم به مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، على ألطف أسلوب وأحسن أحوال، أعلى به من الدين معالمه، ومن الحق مراسمه، وبيّن من البرهان سبيله، ومن الإيمان دليله، وأقام للحق حجته، وأنار للشرع محجته، حتى انشرحت الأفئدة بأنوار البينات، وانزاح عن الضمائر صدأ الشبهات فهو حجة نيرة واضحة المكنون، وآية بينة لقوم يعقلون، بل برهان جلي لا ريب فيه، ومنهج سوي لا يضل من ينتحيه، مظهر لتفاصيل الشرائع والأديان بالاستحقاق، مفسر لمشكلات آيات الأنفس والآفاق، كاشف عن خفايا حظائر القدس، مطلع على خبايا سرائر الأنس، بحر علم لا ينزف، وعيلم فضل لا ينشف، به يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وبه تكتسب الملكات الفاخرة، كلامه شفاء للسقام، ومرهم للأوهام، وحديثه قاطع للخصام، عند تفاوت الافهام وتباين الاقدام، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي، وإليه يستند في معرفة حقائق الأشياء كما هي، أفلح من اتبعه ووالاه، وخاب من أعرض عنه وعاداه.

وصلى الله وسلم على آله البررة، وصحبه الخيرة، مصابيح الأمم، ومفاتيح الكرم، خلفاء الدين، وحلفاء اليقين، الذين بلغوا من محاسن الفضائل غاية الغايات، ووصلوا من مكارم الفواضل نهاية النهايات، قارعوا على الإسلام فكشفوا عنه القوارع والكروب، وسارعوا إلى الإيمان فصرفوا عنه العوادي والخطوب، فابتسم ثغر الدين، وانتظم أمر المسلمين، واتضح الوعد من الله وحق عليه نصر المؤمنين، لا يتسنى العروج إلى معارجهم الرفيعة، ولا

يتأتى الرقي إلى مدارجهم المنيعة، لعلو شأنهم ونهاية الاعضال، وصعوبة مرامهم وعزة المنال، فهم شموس الهدى على فلك السعادة، وبدور الدجى لهم الحسنى وزيادة. وعلى من تبعهم بالإحسان، صلاة وسلاماً دائمين ما تناوب النيران وتعاقب الملوان.

(وبعد) فيقول الفقير إلى مولاه الغني به عمن سواه، عبده وابن أمته وعبده (أبو الطيب صديق بن حسن بن علي القنوجي) أصلح الله حاله ومآله قبل أن يخرج الأمر من يده:

إن أعظم العلوم مقداراً، وأرفعها شرفاً ومناراً، وأعلاها على الإطلاق، وأولاها تفضيلاً بالاستحقاق، وأساس قواعد الشرائع والعلوم، ومقياس ضوابط المنطوق والمفهوم، ورأس الملل الإسلامية وأسها، وأصل النحل الايمانية واستقصها، وأعز ما يرغب فيه ويعرج عليه، وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه، هو علم التفسير لكلام العزيز القدير، لكونه أوثق العلوم بنياناً، وأصدقها قيلاً وأحسنها تبياناً، وأكرمها نتاجاً، وأنورها سراجاً، وأصحها حجة ودليلاً، وأوضحها محجة وسبيلاً، وقد حاموا جميعاً حول طلابه، وراموا طريقاً إلى جنابه، والتمسوا مصباحاً على قبابه، ومفتاحاً إلى فتح بابه.

وهو علم باحث عن نظم نصوص القرآن، وآيات سور الفرقان بحسب الطاقة البشرية وبوفق ما تقتضيه القواعد العربية، قال الفناري: الأولى أن يقال: علم التفسير معرفة أحوال كلام الله سبحانه وتعالى من حيث القرآنية، ومن حيث دلالته على ما يعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة الانسانية انتهى، وهذا يتناول أقسام البيان بأسرها، ولا يرد عليه ما يرد على سائر الحدود، ومباديه العلوم اللغوية وأصول التوحيد وأصول الفقه وغير ذلك من العلوم الجمة.

والغرض منه معرفة معاني النظم ومعرفة الأحكام الشرعية العملية، وفائدته حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة وموضوعه كلام الله سبحانه الذي هو منبع كل حكمة ومعدل كل فصلة وغايته التوصل إلى فهم معاني القرآن واستنباط حكمه ليفوز به إلى السعادة الدنيوية

والأخروية، وشرف العلم وجلالته باعتبار شرف موضوعه وغايته، فهو أشرف العلوم وأعظمها، ذكره أبو الخير وابن صدر الدين.

والقرآن الكلام العربي المنزل على محمد ﷺ المتحدى بأقصر سورة منه المنقول تواتراً، ودليله الكتاب والسنة ولفظ العرب العرباء، واستمداده من علمي أصول الدين والفقه وهو قسمان «تفسير» وهو ما لا يدرك إلا بالنقل كأسباب النزول «وتأويل» وهو ما يمكن إدراكه بالقواعد العربية فهو مما يتعلق بالدراية.

والسر في جواز التأويل بشروطه دون التفسير، أن التفسير كشهادة على الله وقطع بأنه عنى بهذا اللفظ هذا المعنى ولا يجوز إلا بتوقيف، ولذا جزم الحاكم بأن تفسير الصحابي مطلقاً في حكم المرفوع، والتأويل ترجيح لأحد المحتملات بلا قطع، فاغتفر، أفاد ذلك جماعة من أهل العلم ذكرهم سليمان الجمل في حاشية الجلالين.

وقد تصدى لتفسير عويصاته أساطين الأمة، وتولى لتيسير معضلاته سلاطين الأئمة من الصحابة والتابعين، وأئمة اللغة والنحويين، ثلة من الأولين وأمة من الآخرين، فغاصوا في بحار لججه، وخاضوا في أنهار ثبجه، فنظموا في سلك التقرير فرائده، وأبرزوا في معرض التحرير فوائده، وألفوا كتباً جليلة المقدار، وصنفوا زبراً جميلة الآثار، وفصلوا مجمله، وبينوا معضله مع تحقيق للمقاصد وفق ما يرتاد، وتنقيح للمعاقد فوق ما يعتاد.

فالمفسرون من الصحابة الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبيّ بن كعب، والرواية عن علي أكثر، وعن الثلاثة في ندرة جداً، والسبب فيه تقدم وفاتهم، وروي عن ابن مسعود أكثر مما روي عن علي ومات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين.

وأما ابن عباس المتوفى سنة ثمان وستين بالطائف فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة ورئيس المفسرين دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين

وعلمه التأويل[1]» وقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة لكن أحسن الطرق عنه طريقة علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة واعتمد على هذه البخاري في صحيحه، وأوهى الطرق عنه طريق الكلبي أبي النصر محمد بن السائب، فان انضم إليه رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب، وكذلك طريق مقاتل بن سليمان الأزدي، وطريق الضحاك عنه منقطعة فانه لم يلقه، ومن جيد الطرق عنه طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب وطريق ابن اسحق صاحب السير.

وأما أبيّ بن كعب المتوفى سنة عشرين على خلاف فيه، فعنه نسخة كبيرة عن طريق أبي العالية، وهذا إسناد صحيح، ومن الصحابة من ورد عنه اليسير من التفسير غير هؤلاء منهم أنس بن مالك المتوفى بالبصرة سنة إحدى وتسعين وأبو هريرة المتوفى بالمدينة سنة سبع وخمسين، وعبدالله بن عمر بن الخطاب المتوفى بمكة المكرمة سنة ثلاث وسبعين، وجابر بن عبدالله المتوفى بالمدينة سنة أربع وسبعين، وأبو موسى الأشعري المتوفى سنة أربع وأربعين، وابن عمرو بن العاص المتوفى سنة ثلاث وستين، وهو أحدُ العبادلة الذين استقر عليهم أمر العلم في آخر عهد الصحابة، وزيد بن ثابت الأنصاري كاتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتوفى سنة خمس وأربعين.

وأما المفسرون من التابعين فمنهم أصحاب ابن عباس وهم علماء مكة المكرمة، ومنهم مجاهد بن جبر المتوفى سنة ثلاث ومائة واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري، وسعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وتسعين، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومائة، وطاوس بن كيسان اليماني المتوفى سنة ست ومائة، وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة أربع عشرة ومائة.

ومنهم أصحاب ابن مسعود وهم علماء الكوفة كعلقمة بن قيس المتوفى سنة اثنتين ومائة، والأسود بن يزيد المتوفى سنة خمس ومائة، ومنهم أصحاب زيد بن أسلم كعبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس، ومنهم الحسن البصري

---

(١) المستدرك على الصحيحين برواية: اللهم علمه تأويل القرآن وفقهه في الدين واجعله من اهل الايمان ٥٣٦/٣

المتوفى سنة إحدى وعشرين ومائة: وعطاء بن أبي سلمة ميسرة الخراساني، ومحمد بن كعب القرظي المتوفى سنة سبع عشرة ومائة: وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفى سنة تسعين: والضحاك بن مزاحم: وعطية بن سعيد العوفي المتوفى سنة إحدى عشرة ومائة: وقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة سبع عشرة ومائة: والربيع بن أنس والسدي.

ثم بعد هذه الطبقة الذين صنفوا كتب التفاسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين كسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس، وإسحق بن راهويه، وروح بن عبادة، وعبدالله بن حميد، وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين.

ثم بعد هؤلاء طبقة أخرى منهم عبد الرزاق وعلي بن أبي طلحة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن ماجة والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ بن حيان وابن المنذر في آخرين.

ثم انتصبت طبقة بعدهم إلى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الأسانيد مثل أبي إسحق الزجاج وأبي علي الفارسي ومكي بن أبي طالب وأبي العباس المهدوي، وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيراً ما استدرك الناس عليهما.

ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال بتراء، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من سنح له قول يورده، ومن خطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك خلف عن سلف ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن هم القدوة في هذا الباب.

قال السيوطي رأيت في تفسير قوله سبحانه ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين﴾ نحو عشرة أقوال مع أن الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى، حتى قال ابن أبي حاتم لا أعلم في ذلك خلافاً من المفسرين.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم، ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء، فالنحوي تراه ليس له إلا الاعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر، والاخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها والاخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة، ومنهم الثعلبي، والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية أصلاً، والجواب عن الأدلة للمخالفين كالقرطبي وصاحب المظهري وصاحب العلوم العقلية خصوصاً فخر الدين الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب، قال أبو حيان في البحر: جمع الامام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لو لاح له شارد من بعيد اقتنصه أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، كما نقل عن البلقيني أنه قال استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش، منها أنه قال في قوله سبحانه وتعالى ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أي فوز أعظم من دخول الجنة، وأشار به إلى عدم الرؤية.

والملحد لا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله ما لم يقله، كقول بعضهم في تفسير قوله تعالى ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ ما على العباد أضر من ربهم، وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب.

ومن ذلك القبيل الذين يتكلمون في القرآن بلا سند ولا نقل عن السلف، ولا رعاية للأصول الشرعية، والقواعد العربية، كتفسير محمود بن حمزة الكرماني ضمنه أقوالاً هي عجائب عند العوام، وغرائب عما عهد عن السلف الكرام، وهي أقوال منكرة لا يحل الاعتقاد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير.

ومن ذلك قول من قال في ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ إنه الحب والعشق، ومن ذلك قولهم في ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ إنه الذكر إذا قام، وقولهم في ﴿من ذا الذي يشفع عنده﴾ معناه من ذل أي من الذل وذي اشارة إلى النفس، ويشف من الشفاء جواب «من» و (ع) أمر من الوعي.

وسئل البلقيني عمن فسر بهذا فأفتى بأنه ملحد.

(قلت) وقد نبغت في هذا الزمان طائفة تفسر القرآن برأيها، وتحذف منه الآيات المتواليات تسمى بالنيفرية، وهم الذين أنكروا وجود الملائكة والجن والشياطين إلى غير ذلك، وقد عمت فتنتهم بلاد الهند الاسلامية، فرّق الله جمعهم، وبدد شملهم وأنزل بهم بأسه الذي لا يرده عن القوم المجرمين.

وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير، قال ابن الصَّلاح في فتاواه: وجدت عن الامام الواحدي أنه قال: صنف السلمي حقائق التفسير إن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر.

قال النسفي في عقائده: النصوص تحمل على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد، وقال التفتازاني في شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان باطنة.

قال صاحب مفتاح السعادة: الايمان بالقرآن هو التصديق بأنه كلام الله سبحانه قد أنزل على رسوله محمد ﷺ بواسطة جبرائيل عليه السلام، وأنه دال على صفة أزلية له سبحانه، وأن ما دل هو عليه بطريق القواعد العربية مما هو مراد الله سبحانه حق لا ريب فيه، ثم تلك الدلالة على مراده سبحانه بواسطة القوانين الأدبية الموافقة للقواعد الشرعية والأحاديث النبوية مراد الله تعالى، وقد ثبت في الحديث أن لكل آية ظهراً وبطناً[1] وذلك المراد الآخر لما لم يطلع عليه كل أحد بل من أعطى فهماً وعلماً من لدنه تعالى يكون الضابط في صحته أن لا يرفع ظاهر المعاني المنفهمة عن الألفاظ بالقوانين العربية وأن لا يخالف القواعد الشرعية، ولا يباين إعجاز القرآن، ولا يناقض النصوص الواقعة

(١) أين هذا الحديث: من رواه؟ من أخرجه؟ لم نجده في أي كتاب لدينا.

فيها، فإن وجدت فيه هذه الشرائط فلا طعن فيه وإلا فهو بمعزل عن القبول.

قال الزمخشري: من حق التفسير أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليماً من القادح.

وكما بينوا في التفسير شرائط، بينـوا في المفسر أيضاً شـرائط لا يحل التعاطي لمن عرى عنها أو هو فيهـا راجل وهي أن يعـرف اللغة والنحـو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقرآت وأصول الدين وأصول الفقه، وأسباب النزول والقصص والناسخ والمنسوخ والفقه، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، وعلم الموهبة، وهو علم يورثه الله سبحانه لمن عمل بما علم انتهى.

ثم إن تفسير القرآن ثلاثة أقسام:

الأول ما لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه من معرفة كنه ذاته ومعرفة حقائق أسمائه وصفاته، وهذا لا يجوز لأحد الكلام فيه.

والثاني ما أطلع الله سبحانه نبيه عليه من أسرار الكتاب واختصه به فلا يجوز الكلام فيه إلا له ﷺ أو لمن أذن له، قيل: وأوائل السور من هذا القسم، وقيل من الأول وهو الراجح.

والثالث علوم علمها الله نبيه وأمره بتعليمها، وهذا ينقسم إلى قسمين منه ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ واللغات والقرآت وقصص الأمم وإخبار ما هو كائن، ومنه ما يؤخذ بطريق النظر والاستنباط من الألفاظ، وهو قسمان قسم اختلفوا في جوازه وهو تأويل الآيات المتشابهات، وقسم اتفقوا عليه وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والاعرابية، وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والاشارات لا يمتنع استنباطها منه لمن له أهلية ذلك، وما عدا هذه الأمور هو التفسير بالرأي الذي نهى عنه، وفيه خمسة أنواع:

الأول التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، والثاني

تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والثالث التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً له فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً، الرابع التفسير بأن مراد الله سبحانه كذا على القطع من غير دليل، الخامس التفسير بالاستحسان والهوى والتقليد.

(أقول) إن التفسير الذي ينبغي الاعتداد به والرجوع إليه هو تفسير كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة ومجازاً إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية فان ثبتت فهي مقدمة على غيرها، وكذلك إذا ثبت تفسير ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو أقدم من كل شيء بل حجة متبعة لا يسوغ مخالفتها لشيء آخر، ثم تفاسير علماء الصحابة المختصين برسول الله ﷺ فانه يبعد كل البعد أن يفسر أحدهم كتاب الله تعالى ولم يسمع في ذلك شيئاً عن رسول الله ﷺ، وعلى فرض عدم السماع فهو أحد العرب الذين عرفوا من اللغة دِقّها وجلّها، وأما تفاسير غيرهم من التابعين ومن بعدهم فان كان من طريق الرواية نظرنا في صحتها سواء كان المرويّ عنه الشارع أو أهل اللغة، وإن كان بمحض الرأي فليس ذلك بشيء ولا يحل التمسك به ولا جعله حجة، بل الحجة ما قدمناه، ولا نظن بعالم من علماء الإسلام أن يفسر القرآن برأيه فان ذلك مع كونه من الإقدام على ما لا يحل بما لا يحل قد ورد النهي عنه في حديث «من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ومن فسر القرآن برأيه فأخطأ فقد كفر»[1] أو كما قال.

إلا أنا لم نتعبد بمجرد هذا الإحسان للظن على أن نقبل تفسير كل عالم كيفما كان بل إذا لم نجده مستنداً إلى الشارع ولا إلى أهل اللغة لم يحل لنا العمل به مع التمسك بحمل صاحبه على السلامة، ونظير ذلك اختلاف العلماء في المسائل العلمية، فهو إن كان إحسان الظن مسوغاً للعمل بما ورد عن كل واحد منهم لوجب علينا قبول الأقوال المتناقضة في تفسير آية واحدة أو في مسألة علمية واللازم باطل فالملزوم مثله.

وإذا عرفت هذه الفوائد فاعلم أن كتب التفاسير كثيرة ذكر منها ملا

(١) الترمذي كتاب التفسير الباب الأول بلفظ: من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ.

كاتب الجلبي في كشف الظنون ما يزيد على ثلثمائة تفسير مرتباً على حروف الهجاء وزدنا عليه في كتابنا الأكسير في أصول التفسير، فمنها تفسير ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازي الحافظ المتوفى سنة خمس وتسعين ومائتين. وانتقاه الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة في مجلد، ومنها تفسير ابن جرير أبي جعفر محمد الطبري المتوفى سنة عشرة وثلثمائة قال السيوطي في الاتقان: وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والاعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين ا هـ.

وقد قال النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري، وعن أبي حامد الاسفرايني أنه قال: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً.

ومنها تفسير ابن كثير الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني رحمه الله تعالى، وهو كبير في عشر مجلدات فسر بالأحاديث والآثار مسندة عن أصحابها مع الكلام على ما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً.

ومنها تفسير ابن المنذر وهو الإمام أبو بكر محمد بن ابراهيم النيسابوري المتوفى سنة ثمان عشرة وثلثمائة، ومنها تفسير البخاري وهو ما ذكره في صحيحه وجعله كتاباً منه، وله التفسير الكبير غير هذا ذكره الفربري، ومنها تفسير النحاس وهو أبو جعفر أحمد بن محمد النحوي المصري المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة قصد فيه الاعراب لكن ذكر القرآت التي يحتاج أن يبين إعرابها والعلل التي فيها وما يحتاج فيه من المعاني، ومنها تفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز وتسمى هذه الثلاثة الحاوي لجميع المعاني.

ومنها تفسير المهدوي وهو أبو العباس أحمد بن عمار التميمي المتوفى بعد الثلاثين وأربعمائة.

ثم من المفسرين من اقتصر في تفسيره على مجرد الرواية وقنع برفع هذه الراية كجلال الدين السيوطي في الدر المنثور وغيره في غيره من المسطور،

ومنهم من اكتفى بمجرد الدراية وجرد نظره إلى مقتضى اللغة العربية بصحيح العناية وهم الأكثرون، ومنهم من جمع بين الأمرين، وسلك المسلكين، وقليل ما هم وقليل من عبادي الشكور.

ومن أحسن التفاسير جمعاً بين الرواية والدراية فيما علمت تفسير الإمام الحافظ القاضي محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني المتوفى سنة خمسين ومائتين وألف الهجرية، وهو تفسير كبير بالقول في مجلدات أربع.

وطالما يدور في خلدي أن أحرر في التفسير كتاباً يحتوي على أمرين، ويجمع طريقين على الوجه المعتبر في الورد والصدر، غير مشوب بشيء من التفسير بالرأي الذي هو من أعظم الخطر، وكنت أنتهز له الفرصة في البلاد والقرى، وأقدم رجلاً وأؤخر أخرى لصعوبة المرام، وعزة المقام، فأين الحضيض من الذرى والثريا من الثرى، فحال بيني وبين ما كنت أخال، تراكم المهمات وتزاحم الأشغال وابتليت بتدبير مصالح العباد في مدينة بهوبال، وانصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال، وأنا أصرف جهدي والمراد ينصرف، والمقصود يتقاعس عن الحصول وينحرف، والأيام تحول وتحجز، والليالي تعد ولا تنجز، حتى سألني جماعة من أهل العلم ممن يتحرى إتباع السنة والكتاب، ويجتنب الإبتداع في كل باب، وألحوا علي وأظهروا الفقر إلي ولم يسعني إلا إسعاف ما أمِلوه، وإنجاح ما سألوه، فأجبتهم معتمداً على فضل الله وتيسيره ممتثلاً بوصية رسول الله ﷺ فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدري ويرفعه: «إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»(1) ومقتدياً بالسلف الماضين في تدوين علوم الدين إبقاء على الخلق وإيفاء للحق.

وليس على ما جمعوه وصنفوه مزيد، ولكن لا بد في كل زمان من تجديد ما طال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد، إيقاظاً للنائمين، وتحريضاً للمتثبطين، فحررت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوه واستمنحوه كتاباً في أيسر زمان وأحسن تقدير، متوسطاً بين الطويل الممل والقصير المخل،

(1) الترمذي كتاب العلم باب ٤.

وجمعته جمعاً حسناً بعبارة سهلة وألفاظ يسيرة مع تعرض للترجيح بين التفاسير المعارضة في مواضع كثيرة، وبيان للمعنى العربي والإعرابي واللغوي مع حرص على إيراد صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوي ومن عظماء الصحابة وعلماء التابعين، ومن دونهم من سلف الأمة وأئمتها المعتبرين كابن عباس حبر هذه الأمة ومن بعده من الأئمة مثل مجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وأبي العالية والقرظي والكلبي والضحاك ومقاتل والسدي وغيرهم من علماء اللغة والنحو كالفراء والزجاج وسيبويه والمبرد والخليل والنحاس.

ولكن الثابت الصحيح من التفسير المرفوع إلى النبي وإن كان المصير إليه متعيناً. وتقديمه متحتماً، هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن. والثابت من التفسير عن الصحابة ومن تبعهم بالاحسان: إن كان من اللفظ الذي قد نقله الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي فهو مقدم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم، فإذا خالف ذلك المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب العرباء فبالأولى تفاسير من بعدهم من تابعيهم وسائر الأئمة.

وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي يتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير اللغة لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه؛ وقد قال سفيان ليس في تفسير القرآن اختلاف. إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا؛ وقال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً.

وأخرج ابن سعد أن علياً قال لابن عباس: «اذهب إليهم (يعني الخوارج) ولا تخاصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة».

وأيضاً لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن. ولا اعتبار بما لا يصح كالتفسير

المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صح إسناده إليه، وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين والتحلي بالوصفين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي أردته والمسلك الذي قصدته.

وأذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأني آخذه من الأصول التي نقلت عنها كذلك كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطي، ويبعد كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً ولا يبينوه، ولا ينبغي أن يقال فيما أطلقوه أنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة والحسن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها ويعزون ما في تفاسيرهم إليها فلينظر في أسانيدها موفقاً إن شاء الله تعالى.

واعلم أن تفسير السيوطي المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما في تفسيرات السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتفاسير الصحابة ومن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر، وقد اشتمل هذا التفسير مني على جميع ما تدعو إليه الحاجة مما يتعلق بالتفسير مع اختصار لما تكرر لفظاً واتحد معنى بقولي ومثله أو ونحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها زبر أهل الرواية، ووجدتها في غيرها من تفاسير علماء الدراية، وعوائد لاحت لي من تصحيح أو تحسين أو تضعيف أو تعقب أو جمع أو ترجيح، مع تحرير للمقاصد بحسب ما يراد ولا يذاد، وتقرير للمعاقد بحيث لا يضاد ولا يصاد، ولم آل جهداً في حسن تحريره وتهذيبه وسعياً في لطافة مزجه بالمفسر وترتيبه بألفاظ تنفتح لها الآذان وتنشرح بها الصدور، ومعان تتهلل بها وجوه الأوراق وتتبسم ثغور السطور، رغبة إلى الدخول من أبوابه والكون من أحزابه، ونشاطاً إلى القعود في محرابه، وبذلاً للقوة في إيراد مباحث قلت عناية المتأخرين بها من المفسرين، وقد بالغ في الاعتناء بها المحققون من المتقدمين، لا سيما السمعيات التي هي المطلب الأعلى، والمقصد الأقصى في

أصول الدين، والعروة الوثقى والعمدة القصوى لأهل الحق واليقين، مع تنقيح للكلام، وتوضيح للمرام، يهتزله علماء البلاد في كل ناد، ولا يغض منه إلا كل هائم في واد، من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلله فما له من هاد.

ووطنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة، مقتصراً فيه على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وقصص لا تصح وأعاريب محلها كتب العربية.

وحيث ذكرت فيه شيئاً من القراآت فهو من السبع المشهورات إلا ما شاء الله، وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها أو لورودها وإذا قرع سمعك ما لم تسمع به من المحصلين، فلا تُسرع وقف وقفة المتأملين لعلك تطلع بوميض برق إلهي، وتألق نور رباني من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة على برهان له جلي أو بيان من سلف صالح واضح وضي.

وقد تلقيت هذا التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم، وانتشرت واشتهرت مآثرهم، جمعني الله وإياهم وجميع المسلمين ومن أخلفهم في مستقر رحمته من فراديس جنته.

فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه وأصاب غرض الحق سهمه، مفيد لمن أقبل على تحصيله، مفيض على من تمسك بذيل إجماله وتفصيله، وقد اشتمل على جميع ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد وقواعد شوارد، من صحيح الدراية، وصريح الرواية.

فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة أنظر تفاسير المعتمدين على الرواية ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب اللباب وعجب العجاب، وذخيرة الطلاب ونهاية مآرب أرباب الألباب، وأسوة المتبعين، وقدوة الناسكين، وهدى للمتقين.

وقد جاء بحمد لله كنزاً مدفوناً من جواهر الفوائد، وبحراً مشحوناً بنفائس الفرائد، في لطائف طالما كانت مخزونة، وعن الاضافة مصونة، بتقارير ترتاح لها نفوس المحصلين الكاملين وتنزاح منها شُبه المبطلين، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وتضحَى أنوارها في قلوب السعداء وتطلع نيرانها على أفئدة الأعداء لا يعقل بيناتها إلا العالمون، ولا يجحد بآياتها إلا القوم الظالمون وسميته: **﴿فتح البيان في مقاصد القرآن﴾** وهو اسم له تاريخي، مستمداً من الله سبحانه بلوغ الغاية، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجياً منه جل جلاله أن يديم به الانتفاع، ويجعله من الذخائر التي ليس لها انقطاع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جداً ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته.

قال القرطبي[1] ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وينبغي له أن يعرف المكي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخره وما فرض في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن انتهى.

وقد جمعت في بيان ناسخ القرآن والحديث ومنسوخهما مؤلفاً سميته إفادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ، وهو بالفارسية.

وأجاب الشوكاني رحمه الله تعالى عمن سأله عن العوام والنساء الذين

(١) راجع تفسير القرطبي ٣٢ وما بعدها.

يقرؤون القرآن من غير معرفة حلاله وحرامه ومعانيه هل لهم الأجر الوارد من غير نقص أم لا، فقال: «الأجر على تلاوة القرآن ثابت لكنه إذا كان بتدبر معانيه فأجره مضاعف، وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك في حصوله، والله سبحانه لا يضيع عمل عامل منهم انتهى، فيمكن حمل ما ذكر هنا أولاً على مضاعفة الأجر الموعود به لا مجرد الإثابة على نفس التلاوة».

وأما ما جاء عن الصحابة والتابعين في فضل التفسير فعن علي أنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم وقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله، وقال الشعبي: رحل مسروق في تفسير آية إلى البصرة فقيل له إن الذي يفسرها رجل في الشام فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها، وقال عكرمة: في قوله سبحانه ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. قال ابن عبد البر: هو ضميرة بن حبيب، وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابته فسألته فقال: هي حفصة وعائشة.

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤن القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤا ما في الكتاب.

وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر، وعن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1] رواه البخاري، وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[2] متفق عليه.

---

(١) البخاري/ ٥٠٢٧ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه
(٢) مسلم/ ٢٤٤ ـ ابن ماجة/ ٥٢ ـ مسند احمد ٦/ ٩٨

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين[١]» رواه مسلم، وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه[٢]» رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «يقال لصاحب القرآن اقرأ وآرقَ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها[٣]» رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.

وأخرج الدارمي والترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «إن الذي ليس في جوفه من القرآن كالبيت الخرب»[٤] قال الترمذي هذا حديث صحيح، وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[٥] رواه الترمذي والدارمي والبيهقي في شعب الإيمان، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ا ل م حرف، ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[٦] رواه الترمذي وصححه والدارمي وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو جعل القرآن في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق»[٧] رواه الدارمي، وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار» رواه أحمد والترمذي واستغربه ابن ماجة

---

(١) مسلم/٢٦٩ ـ صحيح الجامع الصغير ١٨٩٢
(٢) مسلم /٨٠٤ ـ
(٣) ابو داود /١٤٦٤ ـ الترمذي/٢٩١٤
(٤) الترمذي/ ٢٩١٣
(٥) الترمذي ٢٩٢٦ بخلافات يسيرة في الرواية
(٦) الترمذي ٢٩١٠
(٧) الدارمي كتاب فضائل القرآن الباب الأول.

والدارمي وفيه حفص بن سليمان يضعف في الحديث[1].

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها[2]» متفق عليه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الإعتصام بالكتاب والسنة.

وأما أحاديث فضائل القرآن سورة سورة فلا خلاف بين من يعرف الحديث إنها موضوعة مكذوبة، وقد أقر به واضعها أخزاه الله بأنه الواضع لها وليس بعد الاقرار شيء، ولا اغترار بمثل ذكر الزمخشري لها في آخر كل سورة فإنه وإن كان إمام اللغة والآلات على اختلاف أنواعها، فلا يفرق في الحديث بين أصح الصحيح وأكذب الكذب، ولا يقدح ذلك في علمه الذي بلغ فيه غاية التحقيق. ولكل علم رجال، وقد وزع الله سبحانه الفضائل بين عباده، والزمخشري نقل هذه الأحاديث عن تفسير الثعلبي، وهو مثله في عدم المعرفة بعلم السنة.

وقد أخطأ من قال إنه يجوز التساهل في الأحاديث الواردة في فضائل الأعمال، وذلك لأن الأحكام الشرعية متساوية الاقدام، لا فرق بين واجبها ومحرمها ومسنونها ومكروهها ومندوبها فلا يحل إثبات شيء منها إلا بما تقوم به الحجة: وإلا فهو من التقول على الله بما لم يقل ومن التجرىء على الشريعة المطهرة بإدخال ما لم يكن منها فيها، وقد صح تواتراً أن النبي ﷺ قال «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[3]» فهذا الكذاب الذي كذب على رسول الله ﷺ محتسباً للناس بحصول الثواب لم يربح إلا كونه من أهل النار.

وأما الذي يقرأ القرآن ولا يعرف معناه كالعوام فالأجر على تلاوة القرآن

---

(١) مشكاة المصابيح ٢١٤٠.

(٢) البخاري/٥٠٣٣ ـ مسلم/٧٩١

(٣) البخاري ١/٢٨ وانظر الى ما كتبه السيوطي حول هذا الحديث حيث جمع له اكثر من سبعين رواية في كتابه القيم تحذير الخواص من اكاذيب القصاص وقد صدر بتحقيق د. محمد الصباغ.

ثابت، لكنه إذا كان يتدبر معانيه ويمكنه فهمها فأجره مضاعف، وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك فيه والله سبحانه لا يضيع عمل عامل، وتلاوة القرآن كتابه سبحانه من أشرف الأعمال لفاهم ولغير فاهم، وإذا أضاع أحد ما اشتمل عليه القرآن من الأحكام أثم من جهة الاضاعة لا من جهة التلاوة والله أعلم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «نزل القرآن على خمسة: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فأحلوا الحلال وحرموا الحرام واعملوا بالمحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال[1]»، أخرجه البغوي، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[2]) ، رواه الترمذي.

وعن أبي هريرةقال: قال رسول الله ﷺ: «المراء في القرآن كفر[3]» وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي ﷺ قوماً يتدارءون في القرآن فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه[4]» رواه أحمد وابن ماجة.

قال البغوي في تفسيره قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه، وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيئاً من غير علم، فأما التأويل وهو صرف الآية إلى معنى يحتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط فقد رخص فيه لأهل العلم، أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها فلا يجوز إلا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل.

---

(١) مشكاة المصابيح /١٨٢

(٢) مشكاة المصابيح /٢٣٤ والترمذي وسنده ضعيف

(٣) صحيح الجامع الصغير /٦٥٦٣ ومشكاة المصابيح /٢٣٦

(٤) احمد ١/١٨٥ المشكاة /٢٣٧

وأصل التفسير من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصتها، واشتقاق التأويل من الأول وهو الرجوع يقال أولته فآل أي صرفته فانصرف انتهى، والفرق بينهما أن التفسير موقوف على النقل المسموع، والتأويل موقوف على الفهم الصحيح.

وفي الحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»(1) واختلفوا في المراد بها على أقوال ذكرتها في الأكسير.

والسور باعتبار الناسخ والمنسوخ على أقسام، ذكر سليمان الجمل بعض ذلك في حاشيته على الجلالين، وقد أوضحت المرام في إفادة الشيوخ بما لا مزيد عليه، وتفصيل حروف القرآن ذكرها النسفي في كتابه (مجمع العلوم ومطلع النجوم) وليست هذه من التفسير في شيء وأما علوم القرآن فقد استوعبها السيوطي في الاتقان، على وجه البسط والإيقان، ولا دخل لكلها في فن التفسير، وعقد النظام النيسابوري في تفسيره مقدمات أكثرها بمعزل عن علم التفسير، ولهذا لم نتكلم عليها في تفسيرنا هذا إلا في الشيء اليسير.

وها أنا أشرع الآن بحمد الله في تحرير ما هو بصائر أولي النهى والتمييز، في تفسير الكتاب العزيز، وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير والمعطي كل مسؤول.

المؤلف

---

(1) صحيح الجامع /١٥٠٧ وانظر مقدمة تفسير القرطبي حول هذا الموضوع ص ٣٨ وما بعدها.

سورة الفاتحة

أي فاتحة الكتاب معناها أول ما من شأنه أن يفتتح به الكتاب، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام، والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية أو هي مصدر بمعنى الفتح أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر، وإشعاراً بأصالته كأنه نفس الفتح والإضافة بمعنى اللام كما في جزء الشيء لا بمعنى (من) كما في خاتم فضة، لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف إليه لا جزئي له، وسميت بذلك لأن القرآن افتتح بها إذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن، وقد اشتهرت بهذا الإسم في أيام النبوة، قيل أنها مكية وهو قول أكثر العلماء، وقيل مدنية وهو قول مجاهد، وقيل أنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلوات الخمس، ومرة بالمدينة حين حولت القبلة جمعاً بين الروايات، والأول أصح قاله البغوي، ورجحه البيضاوي.

وأسماء السور توقيفية وكذا ترتيب السور والآيات أي تتوقف على نقلها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل غير ذلك، وإنما هذا على الارجح، والسورة طائفة من القرآن لها أول وآخر وترجمة باسم خاص بها بتوقيف، والسورة قد يكون لها إسم واحد، وقد يكون لها إسمان أو أكثر.

وأسماء السور في المصاحف لم يثبتها الصحابة في مصاحفهم، وإنما هو شيء ابتدعه الحجاج كما ابتدع إثبات الأعشار والأسباع، وسميت هذه أم القرآن لكونها أصلاً ومنشأً له إما لمبدئيتها له وإما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل، والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده، أو على جملة

معانيه من الحكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب، وسميت أيضاً أم الكتاب لأنه يبدأ بقراءتها في الصلاة، قاله البخاري في الصحيح.

وقال أبو السعود مناط التسمية ما ذكر في أم القرآن لا ما أورده البخاري، فإنه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير إليه، قال ابن كثير وصحح تسميتها بالسبع المثاني لأنها سبع آيات وتثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة أو لتكرر نزولها وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «هي أم القرآن وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم»(١)وأخرج ابن جرير عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم: «قال هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني»(٢)؛ وأخرج نحوه ابن مردويه والدارقطني من حديثه: «وقال كلهم ثقات.

ومن أسمائها كما حكاه في الكشاف سورة الكنز والوافية، وسورة الحمد، وسورة الصلاة، وتسمى الكافية لأنها تكفي عن سواها في الصلاة ولا يكفى سواها عنها، وسورة الشفاء والشافية لقوله صلّى الله عليه وآله وسلم: «هي الشفاء من كل داء» وأخرج الثعلبي عن الشعبي أن رجلاً اشتكى إليه وجع الخاصرة فقال عليك بأساس القرآن(٣) .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «إن الله أعطاني فيما مَنَّ به عليَّ فاتحة الكتاب وقال: هي كنز من كنوز عرشي(٤)»، وأخرج إسحق بن راهويه في مسنده عن علي نحوه مرفوعاً، وذكر القرطبي للفاتحة اثني عشر اسماً، وقد ذكر السيوطي في الاتقان خمسة وعشرين اسماً للفاتحة.

---

(١) الإمام أحمد ١٥٢/٢ وانظر الفتح الرباني جزء ٦٦/١٨.
(٢) رواه أحمد الترمذي وصححه والبخاري تفسير ١/١ وتمام الحديث ص ٣٠.
(٣) راجع زاد المسير ١٠/١. (٤) ضعيف الجامع /١٥٦١.

وهي سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير في تفسيره، قال القرطبي: أجمعت الأمة على أنها سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست وهو شاذ، وعن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إياك نعبد﴾ آية فهي عنده ثمان وهو شاذ انتهى، وإنما اختلفوا في البسملة كما سيأتي:

وقد أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وابن الانباري في المصاحف عن محمد بن سيرين أن أبيّ بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين، ولم يكتب ابن مسعود شيئاً منهن، وقد خالف في ذلك إجماع الصحابة وسائر أهل البيت ومن بعدهم، وأخرج ابن حميد عن إبراهيم قال كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال لو كتبتها لكتبت في أول كل شيء.

وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث: منها ما أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال له «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، قال فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال نعم: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[1].

وأخرج أحمد والنسائي والترمذي وصححه من حديث أبيّ بن كعب أن النبي ﷺ قال له أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها[2]؟ ثم أخبره أنها الفاتحة.

وأخرج أحمد في المسند من حديث عبد الله بن جابر: «أن رسول الله ﷺ قال له: ألا أخبرك بآخر سورة في القرآن؟ قلت بلى يا رسول الله، قال: اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها[3]،» وفي سنده ابن عقيل، وقد احتج به

(١) النسائي /٢٦ ـ ابو داود الوتر /١٥ ـ احمد ٢١١/٤ ـ البخاري تفسير ١/١.
(٢) الترمذي ـ ثواب القرآن ١ ـ احمد ٤١٣/٢ و ١١٤/٥.
(٣) احمد وصحيح الجامع الصغير ٢٥٨٩.

كبار الأئمة وبقية رجاله ثقات، وابن جابر هذا هو العبدي كما قال ابن الجوزي وقيل الأنصاري البياضي كما قال ابن عساكر.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال لما أخبره بأن رجلاً رقى سليماً بفاتحة الكتاب: «وما كان يدريه أنها رقية» الحديث(١).

وأخرج مسلم والنسائي عن ابن عباس قال «بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبرائيل بصره الى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح لنبيٍّ قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته(٢)».

وأخرج مسلم والنسائي والترمذي وصححه عن أبي هريرة «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثاً غير تمام»(٣) وأخرج البزار في مسنده بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء إلا الموت(٤)».

وأخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم(٥)»، وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه وحديث أبي هريرة مرفوعاً، وأخرج الدارمي والبيهقي في شعب الإيمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك ابن عمير قال: قال رسول الله ﷺ في فاتحة الكتاب «شفاء من كل داء(٦)».

---

(١) انظر الحديث بتمامه مسلم ٢٢٠١/٤ والبخاري ١١٣٢.
(٢) انظر الحديث بتمامه مسلم ٨٠٦/١.
(٣) انظر الحديث بتمامه مسلم ٣٩٥/١.
(٤) ضعيف الجامع ٨٢٢.
(٥) (٦) ضعيف الجامع ٣٩٥٤ و٣٩٥٥.

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن السني في عمل اليوم والليلة وابن جرير والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله أعندك ما تداوي به هذا فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غدوة وعشية أجمع بناني ثم أتفل فبرأ فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي صلى الله عليهه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال «كل فمن أكل برقية باطلة فقد أكلت برقية حق[1]».

وعن ابن عباس قال: فاتحة الكتاب ثلثا القرآن[2]، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن»، وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ «فاتحة الكتاب تعدل بثلث القرآن[3]» وأخرج الحاكم وصححه وأبو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في الشعب عن أنس قال كان النبي ﷺ في مسير له فنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن فتلا عليه الحمد لله رب العالين[4]».

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «فاتحة الكتاب تجزىء ما لا يجزىء شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات[5]».

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ

(١) صحيح الجامع ٤٣٧٠.
(٢) انظر ضعيف الجامع ٥٩٥٣.
(٣) من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن الزوائد ١٤٦/٧.
(٤) الحاكم ١/٥٦٠.
(٥) ضعيف الجامع /٣٩٥٢.

من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، إلى غير ذلك من الأحاديث.

ثم الاستعاذة قبل القراءة سنة عند الجمهور لقوله تعالى ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ واختلفوا في لفظها المختار، ولا يأتي بكثير فائدة، ومعنى أعوذ بالله ألتجىء إليه وأمتنع به مما أخشاه، من عاذ يعوذ والشيطان أصله من شطن أي تباعد من الرحمة أو من شاط إذا هلك واحترق، والأول أولى.

والشيطان اسم لكل عات من الجن والإنس، والرجيم من يرجم بالوسوسة أو مرجوم بالشهب عند استراق السمع أو بالعذاب أو مطرود عن الرحمة.

والاستعاذة تطهر القلب عن كل شيء شاغل عن الله.

ومن لطائفها أن قوله﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾إقرار من العبد بعجزه وضعفه وبقدرة الباري على دفع جميع المضرات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

اختلف أهل العلم في البَسْمَلَة: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها، أو هي بعض آية من أول كل سورة أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها أو أنها ليست بآية في الجميع وإنما كتبت للفصل؟ والأقوال وأدلتها مبسوطة في موضع الكلام على ذلك وقد اتفقوا على أنها بعض آية في سورة النمل، وقد جزم قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقالوا إنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها.

وبالأول قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في أحد قوليه، وإسحق وعلي بن أبي طالب والزهري ومحمد ابن كعب والثوري، وهو القول الجديد للشافعي، ولذلك يجهر بها عنده.

وبالثاني قال الأوزاعي ومالك وأبو حنيفة وأصحابه، قال أبو السعود وهو الصحيح من مذهب الحنفية.

وقد أثبتها السلف في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ايس منه، ولذا لم يكتبوا آمين. وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أن

رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة، وفي رواية انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم، وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين.

وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية، وفي إسناده عمر بن هارون البلخي وفيه ضعف. وروى نحوه الدارقطني مرفوعاً عن أبي هريرة، وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني[1]، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها، رواه الدارقطني وقال رجال إسناده كلهم ثقات، ورواه البخاري في تاريخه، وروي موقوفاً أيضاً.

وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر[2]» الحديث.

قال البيهقي أحسن ما احتج به أصحابنا في أن البسملة من القرآن وأنها من فواتح السور سوى سورة براءة ما روينا في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف، وأنهم كتبوا فيها البسملة على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاث عشرة آية ليست من القرآن، وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنه كان يعد البسملة آية من الفاتحة ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن، رواه الشافعي.

وكما وقع الخلاف في إثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة وقد أخرج النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ، وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي

(١) صحيح الجامع ٧٤٢ ـ الدار قطني ٣١٢/١.
(٢) صحيح الجامع ١٥١٠ ـ مسلم ٥٣/١ ـ ابو داود ٢٣ ـ النسائي ٢١.

وغيرهم، وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم، قال الترمذي وليس إسناده بذاك، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس بلفظ كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم[1]، ثم قال صحيح.

وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال كانت قراءته مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم، وأخرج أحمد في المسند وأبو داود في السنن وابن خزيمة في صحيحه والحاكم في مستدركه، عن أم سلمة أنها قالت كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين[2]، وقال الدارقطني إسناده صحيح.

وبهذا قال من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير، ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلي بن الحسين وسالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي وابن سيرين وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وزيد بن اسلم ومكحول وغيرهم، وإليه ذهب الشافعي.

واحتج من قال إنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وفي الصحيحين عن أنس قال صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في اول القراءة ولا في آخرها[3]، وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل، وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة

---

(١) الحاكم ١/٢٠٨.
(٢) ضعيف الجامع /٤٨٧٦.
(٣) مسلم/٣٩٩ - البخاري/ ٤٥٣.

كابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم، ومن التابعين الحسن والشعبي وابراهيم النخعي وقتادة والأعمش والثوري، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة واحمد وغيرهم.

وأحاديث الترك وإن كانت أصح. ولكن الإثبات ارجح مع كونه خارجاً من مخرج صحيح فالأخذ به أوفى ولا سيما مع إمكان تأويل الترك، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي أعني كونها قرآناً، والوصفي اعني الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتتح بها من السور في الصلاة.

والحاصل أن البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها من السور، وحكمها من الجهر والإسرار حكم الفاتحة فيجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية، ويسر بها مع الفاتحة في الصلاة السرية، وبهذا يحصل الجمع بين الروايات.

ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالاً ورداً وتعقباً ودفعاً، ورواية ودراية موضع غير هذا، وقد استوفاه الشوكاني في شرحه للمنتقى، وله جواب عن سؤال نظماً ونثراً.

ومتعلق الباء محذوف وهو اقرأ أو اتلو، وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص، ويظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام ولا يعارضه قوله تعالى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ لأن المقام مقام القراءة فكان الأمر بها أهم، وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة، والباء للاستعانة أو للمصاحبة تبركاً، ورجح الثاني الزمخشري، والإسم هو اللفظ الدال على المسمّى، ومن زعم أن الإسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة وسيبويه والباقلاني وابن الفورك «وحكاه الرازي عن الحشوية والكرامية والأشعرية، فقد غلط غلطاً بيناً، وجاء بما لا يعقل مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب ولا من السنة ولا من لغة العرب، بل العلم الضروري حاصل بأن الإسم الذي هو أصوات منقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله، والبحث مبسوط في علم الكلام.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة[1]، وقال الله عز وجل ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾.

﴿الله﴾ علم عربي مرتجل جامد عند الأكثر، خاص لذات الواجب الوجود تفرد به الباري سبحانه لم يطلق على غيره، ولا يشركه فيه أحد، وعند الزمخشري اسم جنس صار علماً بالغلبة، والأول هو الصحيح، ولم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن، أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا فإنها تكون تارة بذاته تعالى وتارة باسمه عز وعلا، فوجب تعيين المراد بذكر الإسم وعند المحققين أنه اسم الله الأعظم، وقد ذكره الله تعالى في ألفين وثلثمائة وستين موضعاً من القرآن.

﴿الرحمن﴾ من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل، وقال أبو علي الفارسي الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ﴿الرحيم﴾ إنما هو في جهة المؤمنين قال تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ وعن ابن عباس قال هما إسمان أحدهما أرق من الآخر، وقيل معناهما ذو الرحمة جمع بينهما للتأكيد وقيل غير ذلك، والأول أولى، وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم.

والرحمة إرادة الخير والإحسان لأهله، وقيل ترك عقوبة من يستحق العقاب: وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحق، فهو على الأول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل، وأسماء الله تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادىء التي هي انفعالات، وإفراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة، وهل الرحمن مصروف أو لا، فيه قولان، مال التفتازاني إلى جواز الأمرين، وقد ورد في فضلها أحاديث ينبغي البحث عن أسانيدها والكلام

---

(١) صحيح الجامع/ ٢١٦٣. وفي رواية مسلم إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة الا واحداً. . . . مسلم/٢٦٧٧ البخاري ٢٠٩٨.

عليها، وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء، وعند الذبيحة، وعند الأكل وعند الجماع وغير ذلك.

﴿الحمد لله﴾ هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري على قصد التبجيل، وبهذا فارق المدح، وقال الزمخشري إنهما أخوان، والحمد أخص من الشكر مورداً، وأعم منه متعلقاً، وبه صرح في الفائق، لكن الأوفق ما عليه الأكثر أنهما غير مترادفين بل متشابهان معنى أو اشتقاقاً كبيراً، وتعريفه لاستغراق إفراد الحمد، وأنها مختصة بالرب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله عز وجل، أو على أن حمده هو الفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائياً، ورجح الزمخشري أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الإستغراق، وإليه نحا أبو السعود، والصواب ما ذكرناه وعليه الجمهور.

وقد جاء في الحديث «اللهم لك الحمد كله»(١) قال ابن جرير الحمد ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله، ثم رجح اتحاد الحمد والشكر مستدلاً على ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر، قال ابن كثير وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، انتهى.

ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين فإن ذلك لا يرد على ابن جرير ولا تقوم به الحجة هذا إذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية فإن ثبتت وجب تقديمها.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة الشكر،

---

(١) ورد أحاديث كثيرة فيها هذا اللفظ ومنها ما أخرجه مسلم ٧٦٩ - ٤٧٦.

وإذا قال العبد الحمد لله قال الله: شكرني عبدي[١]، وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك».

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والخطابي في الغريب والبيهقي في الأدب والديلمي في مسند الفردوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمده»[٢] وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن النواس بن سمعان قال: «سرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال: لئن ردها الله عليّ لأشكرن ربي فرجعت، فلما رآها قال الحمد لله فانتظروا هل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوم أو صلاة فظنوا أنه نسي، فقالوا يا رسول الله كنت قد قلت لئن ردها الله عليّ لأشكرن ربي؛ قال ألم أقل الحمد لله».

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث: منها ما أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه البخاري في الأدب المفرد عن الأسود بن سريع قال: قلت يا رسول الله ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك وتعالى؟ فقال أما إن ربك يحب الحمد[٣].

وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن حبان والبيهقي عن جابر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: (أفضل الذكر لا إلّه إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله)[٤].

---

(١) وفي الحديث الطويل لمسلم ٣٩٥/ قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي.... قال الله حمدني عبدي.
(٢) الدارقطني ٣١١/١٠.
(٣) ضعيف الجامع/ ٢٧٨٩.
(٤) صحيح الجامع ١١١٥/١ ـ الأحاديث الصحيحة /١٤٩٧. ابن حبان/ ٢٣٢٦.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «ما من عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد أفضل منها» وأخرج مسلم والنسائي وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول ﷺ «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان»[1] وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ما شيء أحب إلى الله من الحمد»، وفي الباب أحاديث.

وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع»[2] وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[3].

وإيثار الرفع على النصب الذي هو الأصل للإيذان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت؛ وأن ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب.

﴿رب العالمين﴾ قال في الصحاح الرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة وقد قالوه في الجاهلية للملك وقال الزمخشري «الرب» المالك كما يقال رب الدار ورب الشيء أي مالكه قال القرطبي والرب السيد ومنه قوله تعالى: ﴿اذكرني عند ربك﴾ وفي الحديث «أن تلد الأمة ربتها»[4] والرب المصلح والمدبر والمربي والجابر والقائم قال والرب المعبود. والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه، وهو اسم لما يعلم به غلب فيما يعلم

---

(١) صحيح الجامع/ ٣٨٥٢.

(٢) ضعيف الجامع/ ٤٢٢١.

(٣) صحيح الجامع/ ١٨١٢ ـ الأحاديث الصحيحة /١٦٥١. مسلم ٨٧/٨ الترمذي ٣٣٤/١ أحمد ١٠٠/٣.

(٤) مسلم ٨/ من الحديث الجامع عن عمر بن الخطاب بينا نحن جلوس عند رسول الله... وانظر الأربعين نووية الحديث الأول.

به الصانع من المصنوعات، قال أبو السعود وهو الأحق الأظهر أو اسم لكل موجود سوى الله تعالى، قال قتادة فيدخل فيه جميع الخلق، وهو ظاهر كلام الجوهري، وقيل أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن مفضل، وقال ابن عباس العالمون هم الجن والإنس، وقيل اسم جمع عالم بالفتح وليس جمعاً له لأن العالم عام في العقلاء وغيرهم، والعالمين مختص بالعقلاء، والخاص لا يكون جمعاً لما هو أعم منه، قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام في توضيحه، وذهب كثير إلى أنه جمع عالم على حقيقة الجمع، وقال الفراء وأبو عبيد: العالم عبارة عما يعقل وهم أربعة أمم الانس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل، حكاها القرطبي وذكر أدلتها، وقال إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق موجود، دليله قوله تعالى: ﴿قال فرعون وما رب العالمين، قال رب السموات والأرض وما بينهما﴾ وقيل عنى به الناس فإن كل واحد منهم عالم، وفيه بعد.

قال الزجاج: العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة وعلى هذا يكون جمعه بالياء والنون تغليباً للعقلاء على غيرهم وعن ابن عباس في الآية قال إلّه الخلق كله، السموات كلهن ومن فيهن والأرضين كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ولا يعلم، وفيه دليل على ان رب العالمين جرى مجرى الدليل على وجود الإلّه القديم وبيان لشمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس، فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه لا تلاحظه العيون بأنظارها، ولا تطالعه العقول بأفكارها شأنه لا يضاهى، واحسانه لا يتناهى، ونحن في معرفته حائرون، وفي اقامة مراسم شكره قاصرون.

وأتى بجمع القلة تنبيهاً على أنهم وإن كثروا قليلون في جنب عظمته وكبريائه تعالى، واختلف في مبلغ عدد العالم على أقوال لم يصح شيء منها، والحق ما قاله سبحانه وتعالى ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾.

﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة والرحمن

أشد مبالغة من الرحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى وقال ابن الانباري والزجاج أن الرحمن عبراني، والرحيم عربي، وخالفهما غيرهما (قال القرطبي) وصف نفسه بهما لأنه لما كان باتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع، وقيل فائدة تكريره هنا بعد الذكر في البسملة أن العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور، وإن الحاجة إليها أكثر، فنبه سبحانه بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه، وفيه اثبات الصفات الذاتية كما في التي قبلها إثبات الصانع وحدوث العالم.

﴿مالك﴾ قد اختلف العلماء أيما أبلغ «ملك» أو «مالك» والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر، ذكرهما الترمذي، فذهب إلى الأول أبو عبيد والمبرد، ورجحه الزمخشري، وإلى الثاني أبو حاتم والقاضي أبو بكر بن العربي، والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعاية، فأحدهما أقوى من الآخر في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله وقيل بينهما عموم مطلق، فكل ملك مالك، ولا عكس، لعموم ولاية الملك التزاماً لا مطابقة، قاله التفتازاني، وقيل هما بمعنى.

وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ «ملك» بغير ألف . وأخرج نحوه ابن الانباري عن أنس، وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر

وعمر وعثمان كانوا يقرؤون«مالك» بالألف وأخـرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعاً، وأخرج نحوه أيضاً وكيع في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلاً، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داوود عن ابن المسيب مرفوعاً مرسلاً،[١] وقد روي هذا من طرق كثيرة فهو أرجح من الأول ومالك بمعنى المستقبل، قاله القرطبي، وإضافته إلى ما بعده حقيقية أو لفظية، والتعويل على القرائن والمقامات، قاله الكرخي، وهذا أمس بالعربية وأقعد في طريقها، قاله أبو القاسم الزجاجي.

قال الخطيب والتقييد بقوله ﴿يوم الدين﴾ لا ينافي الاستمرار لأنه من غير اعتبار حدوث في أحد الازمنة انتهى. واليوم في العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان، وفي الشرع عما بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس والمراد هنا مطلق الوقت، والدين الجزاء خيراً كان أو شراً.

ويوم الدين يوم الجزاء من الرب لعبـاده يقال كما تدين تدان أي كما تفعل تجازى؛ ويدل قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ والإضافة هذه على طريق الإتساع لأدنى ملابسة؛ أي مالك الأمر كله في يوم الجزاء للعباد لأن الأمر فيه لله وحده؛ ولذا خص بالذكر، وعن ابن مسعود وناس من الصحابة انهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب، وقال قتادة يوم يدين الله العباد بأعمالهم وقيل في معنى الدين غير ذلك، والأولى ما ذكرناه، وهذه الأوصاف التي أجريت على الله من كونه رباً للعالمين موجداً لهم ومنعماً بالنعم كلها ومالكاً للأمر كله يوم الجزاء بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله ﴿الحمد لله﴾ دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والثناء عليه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له، وفي هذه الآية اثبات المعاد.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٦.

﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾ أي نخصك بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك ومنك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا، وفي هذه الآية إبطال الجبر والقدر معاً كما أشار إليه التغلبي في تفسيره، و«إيَّا» عند سيبويه اسم مضمر والكاف حرف خطاب ولا محل له من الإعراب وهو الأصح وقد ارتضاه القاضي، وعند الخليل اسم مضمر أضيف «إيَّا» إليه لأنه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل، وقال الكوفيون إياك بكمالها اسم، وجملة الأقوال فيه سبعة عد منها الخفاجي خمسة فقط، وتقديم المفعول على الفعل لقصد الاختصاص والحصر والقصر، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما، ولا تزاحم بين المقتضيات.

والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل، والعبودية أدنى منها، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده ولا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى، قال ابن كثير: وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، والاستعانة طلب المعونة، وهي ضرورية وغير ضرورية.

والعدول عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الإلتفاف وتلوين النظم من باب إلى باب، وفيه الترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود ومن المعقول إلى المحسوس، اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، وقد يكون من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ أي بكم وقوله ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ أي فساقه، وقد يكون من التكلم إلى الغيبة، فهذه أربعة أقسام ذكرها البيضاوي، والتحقيق أنها ستة وهي ظاهرة لأن الملتفت منه والملتفت إليه اثنان وكل منهما إما غيبة أو خطاب أو تكلم، والعرب يستكثرون منه لفوائد تستدعيه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب آخر كان أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأُ لاستلذاذ اصغائه وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة وقليل ما هم.

ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء وأجرى عليه تلك الصفات، تعلق العلم بمعلوم على الذات، سمى الصفات، حري بالثناء وغاية التذلل والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم للتميز بتلك الأوصاف، فقيل إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك، والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الاخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد أو عن سائر الموحدين، وفيه اشعار على التزام الجماعة، وقدمت العبادة على الاستعانة لتوافق رؤوس الآي ولكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق العبادة والاستعانة لقصد التعميم لتتناول كل معبود به ومستعان فيه، واستحسنه الزمخشري وقال لتلاؤم الكلام، وأخذ بعضه بحجزة بعض، وتكرير الضمير للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة منهما ولإبراز الالتذاذ بالمناجاة والخطاب.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي[1]، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال مالك يوم الدين قال: مجدني عبدي، وربما قال فوض إليّ عبدي، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال اهدناالصراط المستقيم الخ قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وعن أبي طلحة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة نلقى العدو فسمعته يقول يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين قال: فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها. أخرجه البغوي والماوردي معاً في معرفة الصحابة والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إفراد لمعظم أفراد المعونة المسؤولة بالذكر،

(١) مسلم/٣٩٥.

وتعيين لما هو الأهم أو بيان لها أي أرشدنا وقيل ثبتنا على المنهاج الواضح، أو اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية والثبات عليه، لأن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى، قال الله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ الآية وقال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ والهداية هي الإرشاد والتوفيق والتبيين أو الإلهام أو الدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية. ثم هي قد يتعدى فعلها بنفسه كما هنا وكقوله ﴿وهديناه النجدين﴾ وقد يتعدى بإلى كقوله ﴿اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ وقوله ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم -وانك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ وقد يتعدى باللام كقوله ﴿هدانا لهذا﴾ وقوله ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾ وقال الزمخشري أصله أن يتعدى باللام أو بإلى، انتهى.

وفرق كثير من المتأخرين بين المتعدي بنفسه وغير المتعدي، فقالوا معنى الأول الإيصال ومعنى الثاني الدلالة، والصراط بالصاد الخالصة لغة قريش، وهي الجادة، والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، فالتذكير لغة تميم، والتأنيث لغة الحجاز، وجمعه صُرُط، وقد تشم الصاد صوت الزاي تحرياً للقرب من المبدل منه، وقد قرىء بهن جميعاً وفصحاهن الصاد، وهي الثابتة في الإمام أي في مصحف عثمان رضي الله عنه كتابة وخطاً المسمى إماماً عند القراء والمفسرين وغيرهم، فإن الإمام لغة ما يؤتم ويقتدى به فيتبع وإن لم يكن من العقلاء، ولهذا أطلق على اللوح والكتاب كما قال تعالى: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ فسمى الكتاب إماماً على وجه.

وقد كان سنة ثلاثين لما سار حذيفة رضي الله عنه لبعض الغزوات وعاد قال لعثمان رضي الله تعالى عنه إني رأيت أمراً عجيباً رأيت الناس يقول بعضهم لبعض قراءتي خير من قراءتك، فإن تركوا ليختلفوا في القرآن فيكون لذلك أمر، فجمع عثمان الصحابة رضي الله عنهم واستشارهم فأشاروا عليه

بجمعهم على مصحف واحد فأرسل إلى حفصة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها لترسل الصحف لتنسخ، وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه جمعها لما كثر قتل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باليمامة وهو الجمع الأول، فأرسلتها إليه فأمر عثمان رضي الله تعالى عنه زيد بن ثابت وابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث فنسخوها في مصاحف اختلف في عددها كما في شرح الرائية للسخاوي رحمه الله تعالى، وأرسل إلى كل مصر مصحفاً، وحرق ما سواها(١)، فسمى كل من تلك المصاحف إماماً لا المصحف الذي كان عند عثمان رضي الله تعالى عنه وحده كما قيل، ذكره الخفاجي.

والمستقيم المستوي والمراد به طريق الحق وملة الإسلام، قال ابن كثير أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو كذلك في لغة جميع العرب وهي الملة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط.

وعن جابر بن عبد الله أنه قال هو دين الإسلام وهو أوسع مما بين السماء والأرض، وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم(١)، قال ابن كثير، هو إسناد حسن صحيح.

وعن ابن مسعود هو كتاب الله وقيل السنة والجماعة، وعن أبي العالية هو رسول الله ﷺ وصاحباه من بعده، وعن الفضيل بن عياض أنه طريق الحج، وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة، وعن ابن عباس أن معناه

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٣٧٨٢.

ألهمنا دينك الحق، وهو الأولى لاعتبار العموم.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل كل من كل، وفائدته التوكيد والتنصيص على أن صراط المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة والاستواء على آكد وجه وأبلغِهِ بحيث لا يذهب الوهم عند ذكره إلا إليه، والإنعام إيصال النعمة والإحسان إلى الغير إذا كان من العقلاء، ونعم الله تعالى مع استحالة إحصائها ينحصر أصولها في دنيوي وأخروي، وأطلقه ليشمل كل إنعام، فإن نعمة الإسلام عنوان النعم كلها، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها.

ثم المراد بالوصول هم الأربعة المذكورة في سورة النساء حيث قال ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد ﷺ وأهل بيته وقيل هم الأنبياء خاصة وقيل مطلق المؤمنين، والأول أولى، وفيه الإشارة إلى الإقتداء بالسلف الصالح وهو غير التقليد.

﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل كل من كل أي غير صراط الذين غضبت عليهم وهم اليهود لقوله تعالى فيهم ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ قال القرطبي الغضب في اللغة الشدة وفي صفة الله إرادة العقوبة فهو صفة ذاته أو نفس العقوبة، ومنها حديث أن الصدقة لتطفىء غضب الرب فهو صفة فعله، وغضب الله لا يلحق عصاة المؤمنين، وإنما يلحق الكافرين، والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها، وفي ﴿عليهم﴾ عشر لغات وكلها صواب، قاله ابن الأنباري.

﴿ولا الضآلين﴾ لا زائدة قاله الطبري والزمخشري وقيل هي تأكيد، حكاه مكي والمهدوي وقيل بمعنى غير قاله الكوفيون والمحلي أي وغير الضالين عن الهدى، وهم النصارى لقوله عز وجل ﴿قد ضلوا من قبل﴾ الآية.

وأصل الضلال الغيبوبة والهلاك ومنه ضل اللبن في الماء أي غاب وقال القرطبي هو في لسان العرب الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق، أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن حبان وصححه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود[1]، وإن الضالين النصارى» ورواه أبو الشيخ عن عبد الله شقيق مرفوعاً، وابن مردويه عن أبي ذر مثله، وبه قال ربيع ابن أنس ومجاهد وابن جبير، وإنما سموا بها الاختصاص كل منهما بما غلب عليه، وقيل أراد المغضوب عليهم بالبدعة، والضالين عن السنة قاله القرطبي، وقيل اللفظ يعم الكفار والعصاة والمبتدعة لقول الله تعالى: في القاتل عمداً ﴿وغضب الله عليه﴾ وقال: ﴿فماذا بعد الحق إلاّ الضلال﴾ وقال: ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ وقيل غير ذلك.

وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف إليه مما قبله، فالمصير إلى التفسير النبوي متعين وهو الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف، قال ابن أبي حاتم لا أعلم خلافاً بين المفسرين في هذا التفسير، ويشهد له آيات من القرآن كما تقدم.

قال القرطبي: سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هي مناط الدين أحدها علم الأصول وإليه الإشارة بقوله ﴿الحمد لله إلى الرحيم﴾ ومعرفة النبوات وهي قوله ﴿أنعمت عليهم﴾ ومعرفة المعاد هي قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ وثانيها علم الفروع وأعظمه العبادات وهي ﴿إياك نعبد﴾ والعبادة مالية وبدنية وثالثها علم الأخلاق وهو قوله ﴿إياك نستعين إلى المستقيم﴾ ورابعها علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة السعداء منهم والأشقياء وهو المراد بقوله ﴿أنعمت عليهم﴾ إلى آخر السورة انتهى ملخصاً.

وللإمامين الغزالي والرازي في تقرير اشتمالها على علوم القرآن بسط كثير حتى استخرج الرازي منها عشرة آلاف مسألة، وأول السورة مشتمل على

(١) يراجع تفسير القرطبي فقد أورد معاني كثيرة حول هذه الآية. ١/ ١٥٠.

الحمدَلَة وآخرها على الذم للمعرضين عن الإيمان، وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله، ورأس الآفات وأُس المخالفات هو الإعراض عنه والبعد عن طاعته، وعاقبة ذلك الغضب والضلال.

واعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلت على مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة، فمن ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقال آمين مد بها صوته.

ولأبي داود رفع بها صوته، وقد حسنه الترمذي، وأخرجه أيضاً النسائي وابن أبي شيبة وابن ماجة والحاكم وصححه، وفي لفظ من حديثه أنه ﷺ قال «رب اغفر لي آمين» أخرجه الطبراني[1].

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إذا قرأ يعني الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله» وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وأحمد وابن أبي شيبة وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال «إذا أمَّن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[2] زاد الجرجاني في أماليه «وما تأخر» قيل هم الحفظة، وقيل غيرهم من الملائكة، ويعني الذنوب الصغائر دون الكبائر.

وفي الباب أحاديث بين صحيح منها وضعيف.

وآمين اسم فعل بمعنى اللهم اسمع واستجب لنا وتقبل، عند أكثر أهل العلم قاله القرطبي وفي الصحاح معناه كذلك فليكن، وبه قال ابن عباس، وعنه قال: قلت يا رسول الله ما معنى آمين[3] قال: «رب افعل» أخرجه جويبر في تفسيره، وعن هلال بن يساف ومجاهد قالا آمين اسم من أسماء الله، وقال الترمذي معناه لا تخيب رجانا، وقيل هو خاتم الله على عباده يدفع به عنهم

(١) جزء من حديث صحيح الجامع/ ٣٤٨٠. «رب اغفر لي».
(٢) مسلم/ ٤١٠ ـ البخاري/ ٤٧٤.
(٣) صحيح الجامع الصغير/ ٣٨٨.

الآثام، رواه الطبراني عن علي بسند ضعيف وعنه ﷺ أنه كالختم على الكتاب، رواه أبو داود، والأول أولى.

قيل وليس من القرآن إجماعاً بدليل أنه لم يثبت في المصاحف، وفيه لغتان المد وهو اسم عجمي لأنه بزنة قابيل وهابيل، والقصر على وزن يمين، قال مجنون ليلى:

يا رب لا تسلبني حبها أبدا ويرحم الله عبداً قال آمينا

أي بالمد وقال جبير لما سأل فطحلاً:

تباعد عني فطحل إذ سألته آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

فذكره مقصوراً قال الجوهري وتشديد الميم خطأ، ولكنه روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد وبه قال الحسن بن الفضل من أم إذا قصد أي نحن قاصدون خيرك يا الله.

وهو مبني على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين ويقال منه أمن فلان تأميناً وهذه الكلمة لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون، كذا ذكر الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس بن مالك مرفوعاً، وقيل بل هي خاصة بهذه الأمة لما روي عن النبي ﷺ «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين(١)» أخرجه ابن ماجة، وفي الباب أحاديث.

وقد اختلف أهل العلم في الجهر بها وفي أن الإمام يقولها أم لا. وذلك مبين في مواطنه، وكذلك اختلفوا في وجوب قراءة الفاتحة فذهب جمهور العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد إلى وجوبها وإنها متعينة في الصلاة لا تجزيء إلا بها لقوله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب(٢)» أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت، وذهب أبو حنيفة إلى أنها لا تتعين على المصلي بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار لقوله تعالى ﴿فاقرؤا ما

---

(١) صحيح الجامع ٥٤٨٩.

(٢) صحيح الجامع/ ٧٣٨٨.

تيسر منه﴾ والأول أرجح ويدل عليه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تجزيء صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب»(١)» أخرجه الدارقطني، وقال إسناده صحيح، والكلام في هذا يطول، وقد بينه الشوكاني في نيل الأوطار، وأوضحناه في مسك الختام، وسيأتي إن شاء الله تعالى في آخر الأعراف شيء مما يتعلق بهذا المقام.

هذا وقد اتفق أهل العلم على أن أعظم المقصود من تنزيل الكتاب العزيز هو إخلاص التوحيد لله عز وجل، وقطع علائق الشرك كائنة ما كانت وذلك لا يحتاج إلى أن تنقل فيه أقوال الرجال، أو يستدل عليه بالأدلة، فإنه الأمر الذي بعث الله لأجله رسله، وأنزل فيه كتبه، وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل، ومن شك في هذا فعليه بالتفكر بالقرآن الكريم فإنه سيجده من أعظم مقاصده وأكبر موارده، فإن عجز عن ذلك فلينظر في سورة من سوره.

فإن قلت: أريد منك مثالاً أقتدي به وأمشي على طريقته وأهتدي إلى التفكر الذي أرشدتني إليه بتقديم النظر فيه فنقول: ها نحن نقرب لك المسافة ونسهل عليك ما استصعبته هذه فاتحة الكتاب العزيز التي يكررها كل مصلٍ في كل صلاة ويفتتح بها التالي لكتاب الله والمتعلم له فإن فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد في ثلاثين موضعاً.

الأول: قوله تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فإن علماء المعاني والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متأخراً ليفيد اختصاص البداية باسم الله تعالى لا باسم غيره، وفي هذا المعنى ما لا يخفى من إخلاص التوحيد.

الثاني: والثالث: الإسم الشريف أعني لفظ الله عز وجل، فإن مفهومه كما حققه علماء هذا الشأن الواجب الوجود المختص بجميع المحامد، فكان في هذا المفهوم إشارة إلى إخلاص التوحيد أحدهما تفرده بواجب الوجود، وثانيهما

(١) الدارقطني ١/٣٢١ (صحيح المعنى).

اختصاصه بجميع المحامد، فاستفيد من الاسم الشريف الذي أضيف إليه لفظ اسم هذان الأمران.

الرابع: تحلية الرحمن باللام فإنها من أدوات الاختصاص سواء كانت موصولة كما هو شأن آلة التعريف إذا دخلت على المشتقات أو لمجرد التعريف كما يكون إذا دخلت على غيرها من الأسماء والصفات، وقد أوضح هذا المعنى أهل البيان بما لا مزيد عليه.

الخامس: اللام الداخلة على قوله الرحيم والكلام فيها كالكلام في الرحمن.

السادس: اللام الداخلة على قوله ﴿الحمد لله﴾ فإنها تفيد أن كل حمد له لا يشاركه فيه غيره، وفي هذا أعظم دلالة على إخلاص توحيده.

السابع: لام الاختصاص الداخلة على الإسم الشريف، وقد تقرر أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الإختياري لقصد التعظيم فلا ثناء إلا عليه، ولا جميل إلا منه، ولا تعظيم إلا له، وفي هذا من أدلة إخلاص التوحيد ما لا يقادر قدره.

الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر قوله ﴿رب العالمين﴾ فإن لفظ الرب باعتبار معناه اللغوي مشعر أتم إشعار باخلاص توحيده هذا باعتبار معناه الإفرادي دون الإضافي، ثم في معناه الإضافي دلالة أخرى: فإن كونه رب العالمين يدل على ذلك أبلغ دلالة: ثم في لفظ العالمين معنى ثالث لما تقرر لغة وشرعاً أن العالم هو اسم لما عدا الله عز وجل؛ فيدخل في هذا كل شيء غير الله سبحانه فلا رب غيره؛ وكل ما عداه فهو مربوب؛ وصيغ الحصر إذا تتبعتها من كتب المعاني والبيان والتفسير والأصول بلغت ثلاث عشرة صيغة فصاعداً، ومن شك في هذا فليتبع كشاف الزمخشري فإنه سيجد فيه ما ليس له ذكر في كتب المعاني والبيان كالقلب فإنه جعله من مقتضيات الحصر، ولعله ذكر ذلك عند تفسيره للطاغوت وغير ذلك مما لا يقتضي المقام بسطه، ومع الإحاطة بصيغ الحصر المذكورة تكثر الأدلة الدالة على إخلاص التوحيد وإبطال

الشرك بجميع أقسامه، ولو أراد رجل أن يجمع ما ورد في هذا المعنى من الكتاب والسنة لكان مجلداً ضخماً.

ثم في تعريفه باللام معنى رابع كمثل ما قدمنا فإنها تفيد زيادة الإختصاص وتقرر ذلك المفهوم في هذا الموضع، ثم في صيغة الجمع معنى خامس بزيادة تأكيد وتقرير، فإن العالم إن كان اسماً لما عدا الله لم يكن جمعه إلا لمثل هذا المعنى، وعلى فرض انهدامه باللام فهو لا يقتضي ذهاب هذا المعنى المستفاد من أصل الجمع.

الثالث عشر والرابع عشر قوله ﴿الرحمن الرحيم﴾ وتقرير الكلام فيهما كما سلف.

الخامس عشر والسادس عشر: قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ فإن لفظ مالك معناه الإفرادي من غير نظر إلى معناه الإضافي يفيد استحقاقه باخلاص توحيده، ثم في معناه الإضافي إلى يوم الدين معنى ثان، فإن من كان له الملك في مثل هذا اليوم الذي هو يوم الجزاء لكل العباد وفيه يجتمع العالم أولهم وآخرهم، سابقهم ولاحقهم، جنهم وإنسهم، وملائكتهم، فيه إشارة إلى استحقاقه إخلاص توحيده.

السابع عشر: ما يستفاد من نفس لفظ الدين من غير نظر إلى كونه مضافاً اليه.

الثامن عشر: ما يستفاد من تعريفه، فإن في ذلك زيادة احاطة وشمول فإن ذلك الملك إذا كان في يوم هو يوم الدين الذي يشتمل على كل دين كان من له هذا الملك حقيقاً بأن يخلص العباد توحيده ويفردونه بالعبادة كما تفرد بملك يوم له هذا الشأن.

فإن قلت إن هذين المعنيين في لفظ ﴿الدين﴾ باعتبار أصله وباعتبار تعريفه قد أخذا في المعنى الإضافي حسبما ذكرته سابقاً. قلت لا تزاحم بين المقتضيات ولا يستنكر النظر إلى الشيء باعتبار معناه الإفرادي تارة وباعتبار معناه الإضافي أخرى، وليس ذلك بممنوع ولا محجور عند من يعرف العلم الذي تستفاد منه دقائق العربية وأسرارها وهم أهل علم المعاني والبيان.

التاسع عشر: والموفى والحادي والعشرون قوله ﴿إياك نعبد﴾ فإن تقديم الضمير معمولاً للفعل الذي بعده يفيد اختصاص العبادة به، ومن اختص بالعبادة فهو الحقيق بإخلاص توحيده، ثم مادة هذا الفعل أعني لفظ نعبد تفيد معنى آخر، ثم المجيء بنون الجماعة الموجبة لكون هذا الكلام صادراً عن كل من تقوم به العبادة من العابدين كذلك، فكانت الدلالات في هذه الجملة ثلاثاً (الأولى) في ﴿إياك﴾ مع النظر إلى الفعل الواقع بعده (الثانية) ما تفيده مادة نعبد مع ملاحظة كونها واقعة لمن ذلك الضمير عبارة عنه وإشارة إليه (الثالثة) ما تفيده النون مع ملاحظة الأمرين المذكورين ولا تزاحم بين المقتضيات.

الثاني والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون: قوله ﴿وإياك نستعين﴾ فإن تقديم الضمير معمولاً لهذا الفعل له معنى، ثم مادة هذا الفعل لها معنى آخر فإن من كان لا يستعان بغيره لا ينبغي أن يكون له شريك، بل يجب إفراده بالعبادة وإخلاص توحيده إذ وجود من لا يستعان به كعدمه. وتقرير الكلام في الثلاث الدلالات كتقريره في إياك نعبد فلا نعيده.

الخامس والعشرون والسادس والعشرون والسابع والعشرون: قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فإن طلب الهداية منه وحده باعتبار كون هذا الفعل واقعاً بعد الفعلين اللذين تقدم معمولهما فكان له حكمهما وإن كان قد تغير أسلوب الكلام في الجملة، حيث لم يقل نستهدي أو نطلب الهداية حتى يصح أن يكون ذلك الضمير المتقدم المنصوب معمولاً له تقديراً، لكن مع بقاء المخاطبة وعدم الخروج عما يقتضيه لم يقطع النظر عن ذلك الضمير الواقع على تلك الصورة لتوسطه بين هذا الفعل؛ أعني اهدنا وبين من أسند اليه، ثم في ضمير الجماعة معنى يشير إلى استحقاقه سبحانه إخلاص التوحيد على الوجه الذي قدمناه في الفعلين السابقين. ثم في كون هذه الهداية هي هداية الصراط المستقيم التي هي الهداية بالحقيقة، ولا اعتبار بهداية إلى صراط لا استقامة فيه معنى ثالث يشير إلى ذلك المدلول.

الثامن والعشرون: قوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ فإن من يهدى إلى هذا الصراط الذي هو صراط من أنعم الله عليهم يستحق أن لا يشتغل بغيره ولا ينظر إلى سواه، لأن الإيصال إلى طرائق النعم هو المقصود من المشي والمراد بحركات السائرين، وذلك كناية عن الوصول إلى النعم نفسها إذ لا اعتبار بالوصول إلى طرائقها من دون وصول اليها، فكان وقوع الهداية على الصراط المستقيم نعمة بمجردها، لأن الاستقامة اذا تصورت عند تصور الاعوجاج كان فيها راحة بهذا الاعتبار، فكيف اذا كان ذلك كناية عن طريق الحق، فكيف اذا كان حقاً موصلاً الى الفوز بنعم الله سبحانه.

التاسع والعشرون: قوله ﴿غير المغضوب عليهم﴾ ووجه ذلك أن الوصول إلى النعم قد يكون منغصاً مكدراً بشيء من غضب المنعم سبحانه، فإذا صفا ذلك عن هذا الكدر وانضم الى الظفر بالنعم الظفر بما هو أحسن منها موقعاً عند العارفين، وأعظم قدراً في صدور المتقين، وهو رضا رب العالمين، كان في ذلك من البهجة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ولا الوقوف على حقيقته ولا تصور معناه. واذا كان المولى لهذه النعمة والمتفضل بها هو الله تعالى ولا يقدر على ذلك غيره ولا يتمكن منه سواه، فهو المستحق لإخلاص توحيده وافراده بالعبادة.

الموفى ثلاثين: قوله ﴿ولا الضآلين﴾ ووجهه أن الوصول الى النعم مع الرضا قد يكون مشوباً بشيء من الغواية، مكدراً بنوع من أنواع المخالفة وعدم الهداية، وهذا باعتبار أصل الوصول الى نعمة من النعم مع رضا المنعم بها فإنه لا يستلزم سلب كون المنعم عليه على ضلالة لا باعتبار هذه النعمة الخاصة من هذا المنعم عز وجل.

ولما كان الأمر في الأصل هكذا كان في وصول النعم الى المنعم عليه من المنعم بها مع كونه راضياً عليه غير غاضب عنه، اذا كان ذلك الوصول مصحوباً بكون صاحبه على ضلالة في نفسه قصور عن وصولها الى من كان

جامعاً بين كونه واصلاً الى المنعم فائزاً برضا المنعم عليه خالصاً من كدر كونه في نفسه على ضلالة، وتقرير الدلالة من هذا الوجه على اخلاص التوحيد كتقريرها في الوجه الذي قبله.

فهذه ثلاثون دليلاً مستفادة من سورة الفاتحة باعتبار ما يستفاد من تراكيبها العربية مع ملاحظة ما يفيده ما اشتملت عليه من تلك الدقائق والأسرار التي هي راجعة الى العلوم الآلية، وداخلة فيها تقتضيه تلك الألفاظ بحسب المادة والهيئة والصورة مع قطع النظر عن التفسير بمعنى خاص قاله بعض السلف، أو وقف عنده من بعدهم من الخلف.

فإن قلت[1] هذه الأدلة التي استخرجتها من هذه السورة المباركة وبلغت بها الى هذا العدد وجعلتها ثلاثين دليلاً على مدلول واحد، لم نجد لك فيها سلفاً ولا سبقك بها غيرك.

قلت: هذي شكاة ظاهر عنك عارها، واعتراض غير واقع موقعه، ولا مصادف محزه، فإن القرآن عربي، وهذا الاستخراج لما ذكرناه من الأدلة هو على مقتضى اللغة العربية، وبحسب ما تقتضيه علومها التي دونها الثقات، ورواها العدول الاثبات، وليس هذا من التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه، والزجر لفاعله، بل من الفهم الذي يعطاه الرجل في كتاب الله كما أشار اليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كلامه المشهور، وما كان من هذا القبيل فلا يحتاج فيه الى سلف، وكفى بلغة العرب وعلومها المدونة بين ظهراني الناس وعلى ظهر البسيطة سلفاً.

وبالجملة فهذه ثلاثون موضعاً في فاتحة الكتاب يفيد كل واحد منها اخلاص التوحيد مع أن فاتحة الكتاب ليست الا سبع آيات، فما ظنك بما في سائر الكتاب العزيز، فذكرنا لهذه المواضع في فاتحة الكتاب كالبرهان على ما ذكرناه من أن في الكتاب العزيز من ذلك ما يطول تعداده وتتعسر الإحاطة به.

(١) المقصود القارىء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البقرة

قال القرطبي مدنية نزلت في مدد شتى، وقيل هي أول سورة نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ فإنها آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في يوم حجة الوداع بمنى، قاله ابن عباس؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن؛ وقد ورد في فضلها أحاديث وآثار كثيرة في الصحاح والسنن وغيرها؛ ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي وما هو خاص بخواتيم هذه السورة؛ وما هو في فضلها وفضل آل عمران؛ وما هو في فضل السبع الطوال، وليطلب ذلك من مواطنه.

وهي مائتان وست وقيل وسبع وثمانون آية. قال ابن العربي فيها ألف أمر، وألف نهي؛ وألف حكم؛ وألف خبر، أخذها بركة؛ وتركها حسرة لا تستطيعها البطلة، وهم السحرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿الٓمٓ﴾ قال القرطبي اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور؛ فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين هي سر الله في القرآن؛ ولله في كل كتاب من كتبه سر؛ فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه؛ ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونمرها كما جاءت، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب؛ قال وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر؛ وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها فهي مما استأثر الله بعلمه.

وقال أبو حاتم لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله عز وجل؛ وقال جمع من العلماء كثير: بل نحب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فروي عن ابن عباس وعلي أيضاً أن الحروف المقطعة من القرآن اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها، وقال قطرب والمبرد والفراء وغيرهم واختاره جمع عظيم من المحققين هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من الحروف التي بني كلامهم عليها ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم، قال قطرب كانوا ينفرون عند استماع القرآن فلما نزل (ألم، المص) استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم[١].

وقال جماعة هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بعينها كقول ابن عباس وغيره الألف من الله واللام من جبريل، والميم من محمد، وذهب إلى هذا الزجاج فقال اذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى، وقد تكلمت العرب بحروف مقطعة كقوله «فقلت لها قفي فقالت قاف» أي وقفت وفي الحديث «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق هو أن يقول في أقتل أق. كما قال النبي ﷺ كفى بالسيف شا أي شافياً[٢].

وقال بعضهم الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، والمعنى أن الله الواحد أنزل ثلاثين جزأ من القرآن على محمد ﷺ بعدما بلغ أربعين سنة التي بعثه عندها إلى الخلق، وقال زيد بن أسلم هي أسماء للسور، وقال الكلبي هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه، وقيل إن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب مستوية فيها بخلاف النطق باساميها وهو خاص بمن خط وقرأ والنبي ﷺ أمي فأتى بها كذلك زيادة في الإعجاز، وقيل غير ذلك مما لا يأتي عليه الحصر، وقد ذكر شطراً منها الرازي في تفسيره.

ومن أدق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما ذكره الزمخشري في الكشاف حيث قال إنك إذا تأملت ما أورده الله سلطانه في الفواتح من هذه الاسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٤١٧٩

(٢) ضعيف الجامع الصغير ٥٤٥٤.

المجهورة نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها الألف والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء، ومن المنفتحة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء.

ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دق في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم.

ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثر وقوعها فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر، انتهى وتبعه في ذلك جماعة من أهل التفسير منهم الخازن والنسفي والبيضاوي والخطيب وأبو السعود وغيرهم.

(أقول) هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيت كما قال فهذا متيسر بأن يقال لهم هذا القرآن هو من الحروف التي يتكلمون بها ليس من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتاً وإلزاماً يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح هو أيضاً مما لا يفهمه أحد من السامعين

ولا يتعقل شيئاً منه فضلاً أن يكون تبكيتاً له وإلزاماً للحجة إياه فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه، ولم يفهم السامع هذا، ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلاً عن كله.

ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتملاً على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا تتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقر، ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، ولا يصلح أن يكون مقصداً من مقاصد الرب سبحانه الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به.

وهب أن هذه صناعة عجيبة، ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيداً أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى تتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم، ولا مدخل فيها ذكر.

وأيضاً لو فرض أنها كلمات متركبة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألغاز والتعمية، وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في ورد ولا صدر، بل من عكسها وضد رسمها.

وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله عز وجل فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على حرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فانهم لم

يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره، ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا.

وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين (الأول) التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه والتنكب عن طريقه، وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به ويضعون حماقات أنظارهم، وخزعبلات أفكارهم عليه (الثاني) التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيع الواضح والسبيل القويم بل الجادة التي ما سواها مردوم، والطريقة العامرة التي ما عداها مهدوم، فمن وجد شيئاً من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه ويتكلم بما وصل إليه علمه، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري أو الله أعلم بمراده، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه، مع كونه ألفاظاً عربية، وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصدده، فإنه ينبغي أن يقال فيه أنه متشابه المتشابه، على فرض أن للفهم إليه سبيلاً، ولكلام العرب فيه مدخلاً، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير.

وانظر كيف فهم اليهود عند سماع ﴿الٓمٓ﴾ فإنهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذي يجعلونه لها كما أخرج ابن اسحق والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال: مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿الٓمٓ ذلك الكتاب﴾ فقال أنت سمعته فقال نعم، فمشى حيي في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد ألم

يذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿الٓمٓ ذلك الكتاب﴾ قال بلى قالوا أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال نعم، قالوا لقد بعث الله من قبلك الأنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك، فقال حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد هل مع هذا غيره قال نعم قال وما ذاك قال ﴿المٓصٓ﴾ قال هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره، قال نعم وما ذاك قال ﴿الٓرٰ﴾ قال هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان، هذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان، فهل مع هذا غيره قال نعم ﴿الٓمٓر﴾ قال فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان، ثم قال لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً اعطيت أم كثيراً. ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حيي ومن معه من الاحبار ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة، فقالوا لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾[1].

فانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع، فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه

(١) لم أجده في صحاح الكتب بين يدي.

عند سماع ﴿الٓمٓ ذلك الكتاب﴾ من ذلك العدد موجباً للتثبيط عن الإجابة له والدخول في شريعته، فلو كان لذلك معنى يعقل ومدلول يفهم لدفع رسول الله ﷺ ما ظنوه بادىء بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاؤوا به من التشكيك على من معهم.

فإن قلت هل ثبت عن رسول الله ﷺ في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به.

قلت لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[1] وله طرق عن ابن مسعود.

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعي ونحوه مرفوعاً.

فإن قلت هل روي عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلي.

قلت قد روي عن ابن مسعود أنه قال ﴿الٓمٓ﴾ حرف اشتقت من حروف اسم الله وعنه قال هي اسم الله الأعظم، وعن ابن عباس في قوله ﴿الٓمٓ وحٰمٓ ونٓ﴾ قال اسم مقطع وعنه في فواتح السور قال هو قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله.

وعن الربيع بن أنس قال «ألف» مفتاح اسمه الله «ولام» مفتاح اسمه لطيف «وميم» مفتاح اسمه مجيد وقد روي نحو هذه التفاسير عن جماعة من

---

(١) الدارمي ٢/٤٢٩ - الترمذي ٤/٥٣ - مشكاة المصابيح /٢١٣٧ وفي رواية للديلمي ١/١٣ والخطيب في التاريخ ١/٢٨٥ برواية: اقرؤا القرآن فانكم تؤجرون إليه أما اني لا اقول الم. . . .

التابعين، فيهم عكرمة والشعبي والسدي وقتادة ومجاهد والحسن.

فإن قلت هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال في تفسير شيء من هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه.

قلت لا لما قدمنا إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله ﷺ.

فإن قلت هذا مما لا مجال للاجتهاد فيها ولا مدخل للغة العرب فلم لا يكون له حكم الرفع.

قلت تنزيل هذا منزلة المرفوع وإن قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم فليس مما تنشرح له صدور المنصفين، ولا سيما إذا كان في مثل هذا المقام، وهو التفسير لكلام الله سبحانه، فإنه دخول من أعظم الخطر مما لا برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم أنه يبعد من الصحابي كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال للاجتهاد فيه، وليس مجرد الاستبعاد مسوغاً للوقوع في خطر الوعيد الشديد.

على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيراً في تفاسيرهم المنقولة عنهم، وتجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه.

ثم ههنا مانع آخر؛ وهو أن المروي عن الصحابة في هذا مختلف متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكماً لا وجه له، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض، ولا يجوز، ثم ههنا مانع غير هذا المانع وهو أنه لو كان شيء مما قالوه مأخوذاً عن النبي ﷺ لاتفقواعليه ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه، فلما اختلفوا في هذا علمنا أنه لم يكن مأخوذاًعن النبي ﷺ، ثم لو كان عندهم شيء عن النبي ﷺ في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعه إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها.

ولا يقال قد اختلفوا في غيره من الأحكام فيلزم عدم الأخذ به، لأنا نقول اختلافهم في ذلك من قبيل الأخذ بالأخص أو الأعم أو المتقدم أو

المتأخر، وفي كثير مما اختلفوا فيه إن علموا بالنص تركوا ذلك بخلاف ما هنا، والله أعلم.

والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأئمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الإعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا، ولا تهتدي إليها أفهامنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوز، وسيأتي لنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات هنَّ أم الكتاب، وأخر متشابهات﴾ كلام طويل الذيول وتحقيق تقبله صحيحات الافهام وسليمات العقول.

﴿ذلك الكتاب﴾ أي القرآن، وقيل فيه اضمار أي هذا الكتاب الذي وعدتك به أو وعدت به على لسان موسى وعيسى أن أنزله عليك، قال ابن عباس في الآية يعني هذا الكتاب، وبه قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم وابن جريج، وحكاه البخاري عن أبي عبيدة، والإشارة إلى الكتاب المذكور بعده، والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب، مكان الإشارة الى القريب الحاضر، ومنه قوله تعالى ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة﴾ وقوله ﴿تلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ وقوله ﴿تلك آيات الكتاب﴾ وقوله ﴿ذلكم حكم الله﴾ قال أبو السعود وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للايذان بعلو شأنه، وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف، انتهى.

وقيل إن الإشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب، فقيل هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق، وقيل الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي[1]» وفي رواية «سبقت» وقيل الاشارة الى ما قد

(١) مسلم /٢٧٥١ وفي رواية لما خلق الله الخلق... البخاري /١٥٠٩.

نزل بمكة، وقيل إلى ما في التوراة والإنجيل، وقيل إلى قولـه قبله ﴿الم﴾ ورجحه الزمخشري.

وقد وقع الإختلاف في ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبما حكاه القرطبي وأرجحها ما صدرناه، والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم والجمع، ومنه يقال للجند كتيبة لاجتماعها، والكتاب يجمع الحروف بعضها إلى بعض، وهو اسم من أسماء القرآن.

﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق، وقيل هو خبر بمعنى النهي أي لا ترتابوا فيه والريب والشك مع التهمة مصدر، وهو قلق النفس واضطرابها، ومنه قوله ﷺ «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1] فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة، ومنه ريـب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، وقيل الريب هو الشك مطلقاً، وقال ابن أبي حاتم لا أعلم في هذا خلافاً، وقد يستعمل الريب في التهمة والحاجة، حكى ذلك القرطبي، ومعنى هذا النفي العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالته وضوحاً يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغي الإرتياب فيه بوجه من الوجوه.

﴿هدى﴾ أي رشاد وبيان، وأنه يذكر وهو الكثير وبعضهم يؤنث أي هو هدى أو هذه هدى أو هو هاد لهم إلى الحق، والهدى مصدر، وهذا وزن نادر في المصادر لم يرد منه فيما قيل إلا الهدى والتقى والسرى والبكا بالقصر في لغة، وزاد الشاطبي: لغى بالضم في لغة أيضاً قال الزمخشري: وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلال في مقابلته، انتهى.

قال القرطبي: الهدى هديان، هدى دلالة وهو الذي يقدر عليه الرسل واتباعهم، قال الله تعالى ﴿ولكل قوم هاد﴾ وقال ﴿وإنك لتهدي إلى صراط

(١) النسائي ٢/٣٣٤ - الترمذي ٢/٨٤ - الدارمي ٢/٢٥٤ - الحاكم ٢/١٣ - مسند احمد ١/٢٠٠ - ابو نعيم ٦/٣٥٢.

مستقيم﴾ فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد سبحانه بالهدى الذي معناه التـأييد والتـوفيق فقال لنبيـه ﷺ ﴿إنك لا تهـدي من أحببت﴾ فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ وقوله ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

﴿للمتقين﴾ أي من ثبتت لهم التقوى، وتخصيص الهدى بالمتقين لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره وإن كانت بهدايته شاملة لكل ناظر من مؤمن وكافر، ولذا أطلقت في قوله ﴿هدى للناس﴾ قاله أبو السعود قال ابن فارس وأصلها في اللغة قلة الكلام، وقال في الكشاف المتقي في اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية الصيانة، وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك انتهى قال ابن مسعود وهم المؤمنون.

وعن معاذ بن جبل أنه قيـل له من المتقون فقال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة، وعن أبي هريرة أن رجلاً قال له ما التقوى؟ قال هل وجدت طريقاً ذا شوك، قال نعم، قال فكيف صنعت قال إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال ذلك التقوى، وعن أبي الدرداء قال تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خيفة أن يكون حراماً يكون حجاباً بينه وبين الله وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس» فالمصير إلى ما أفاده هذا الحديث واجب، ويكون هذا معنى شرعياً للمتقي أخص من المعنى الذي قدمنا عن صاحب الكشاف زاعماً أنه المعنى الشرعي.

وقد أطال القوم في ذكر تعاريف التقوى ورسوم المتقي لا حاجة لنا إلى التطويل بذكر تلك الأقوال، فالمرفوع يغني عن المرقوع، والصباح يغني عن المصباح.

﴿الذين يؤمنونَ بالغيب﴾ هو وصف للمتقين كاشف، وأصل الإيمان في اللغة التصديق، قال تعالى ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي بمصدق وتعديته بالباء لتضمنه معنى الإعتراف، وقد يطلق بمعنى الوثوق وكلا الوجهين حسن هنا، والغيب في كلام العرب كل ما غاب عنك. قال القرطبي واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا فقالت فرقة الغيب هو الله سبحانه، وضعفه ابن العربي، وقال آخرون القضاء والقدر. وقال آخرون القرآن وما فيه من الغيوب وقيل القلب أي يصدقون بقلوبهم، وقيل الغيب الخفاء، وقال آخرون الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهدي إليه العقول من أشراط الساعة، وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار.

قال ابن عطية وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها. قال وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبرائيل حين قال للنبي ﷺ «فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت» انتهى، وهذا الحديث هو ثابت في الصحيح بلفظ «والقدر خيره وشره»[1].

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وأبو نعيم كلاهما في معرفة الصحابة عن نزيلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة واستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ رسول الله ﷺ

(١) جزء من الحديث الطويل عن عمر بن الخطاب انظر تمامة مسلم /٨.

فقال «أولئك قوم آمنوا بالغيب » وأخرج البزار وأبو يعلى والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كنت جالسا مع النبي ﷺ قال: «أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيماناً» فقالوا يا رسول الله الملائكة قال هم كذلك ويحق لهم، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها قالوا يا رسول الله «الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالته ونبوته» قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها قالوا يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء. قال هم كذلك وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة. قالوا فمن يا رسول الله؟ قال «أقوام في أصلاب الرجال يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني ويصدقوني ولم يروني يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً»[1] وفي إسناده محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف.

وأخرج حسن بن عرفة في جزئه المشهور والبيهقي في الدلائل عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ، فذكر نحو الحديث الأول وفي إسناده المغيرة بن قيس البصري وهو منكر الحديث وأخرج نحوه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً والإسماعيلي عن أبي هريرة مرفوعاً أيضاً والبزار عن أنس مرفوعاً.

وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يا ليتني قد لقيت إخواني » قالوا يا رسول الله ألسنا إخوانك، قال« بلى ولكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدقوني تصديقكم وينصروني نصركم، فيا ليتني قد لقيت إخواني»[2] وعن أبي جمعة الأنصاري قال:

---

(١) الدارمي رقاق ٣١، احمد بن حنبل ٤/ ١٠٦. المستدرك ٤/ ٨٥.

(٢) احمد بن حنبل ٣/ ٧١ ـ ٥/ ٢٤٨ ـ ٢٥٧ ـ ٢٦٤.

قلت يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً: آمنا بك واتبعناك قال: ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدكم، يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون بي ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً[1]» أخرجه أحمد والدارمي والبارودي وابن قانع معاً في معجم الصحابة، والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات» أخرجه الطيالسي وأحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم.

وأخرج أحمد وابن حبان عن أبي سعيد أن رجلاً قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني» وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه، وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث أنس نحو حديث الباهلي المتقدم.

وعن ابن مسعود أنه قال والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿الٓمٓ﴾ الآية، وللتابعين أقوال، والراجح ما تقدم من أن الإيمان الشرعي يصدق على جميع ما ذكر هنا.

وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح كلاماًمفيداً في حديث عمر بن الخطاب المتقدم باعتبار ما ورد في الصحابة، وحاصله أن فضيلة الصحابة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، ومجرد زيادة الأجر لا يستلزم أفضلية غير الصحابة على الصحابة لأن الأجر إنما يقع مفاضلة بالنسبة إلى ما يماثله من العمل، ومشاهدة النبي ﷺ لا يعدلها عمل، هذا حاصل ما أشار إليه وهو محتاج إليه لأنه كثيراً ما يستشكل الجمع بين الأحاديث والله أعلم.

قال ابن جرير في هذه الآية: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان

---

(١) احمد بن حنبل ٣/ ٧١ ـ ٥/ ٢٤٨ ـ ٢٥٧ ـ ٢٦٤.

بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، وتدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل، وقال ابن كثير إن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاًوعملاً، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وقد ورد فيه آثار كثيرة انتهى.

وقد أنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه، وقال أهل السنة إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها، وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر النصوص من الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه، وبين أصله من اللغة.

والدليل على أن الأعمال من الإيمان قوله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان[1]» أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

ولشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام كلام في معنى الغيب وعالمه في كتاب العقل والنقل حاصله أن من زعم أن عالم الغيب الذي أخبر به الله والرسل هو العالم العقلي الذي يثبته هؤلاء الفلاسفة فهو من أضل الناس، فإن ابن سينا ومن سلك سبيله في هذا كالشهرستاني والرازي وغيرهما يقولون إن الإلهيين يثبتون العالم العقلي ويردون على الطبيعيين منهم الذين لا يثبتون إلا العالم الحسي ويدعون أن العالم العقلي الذي يثبتونه هو ما أخبرت به الرسل من الغيب الذي أمروا بالإيمان به مثل وجود الرب والملائكة والجنة، وليس الأمر كذلك، فإن ما يثبتونه من العقليات إذا حقق الأمر لم يكن لها وجود إلا في العقل، وسميت مجردات ومفارقات لأن العقل يجرد الأمور الكلية

---

(١) مسلم /٣٥ ـ البخاري /٩.

عن المغيبات، وأما تسميتها مفارقات فكان أصله أن النفس الناطقة تفارق البدن وتصير حينئذ عقلاً وكانوا يسمون ما جامع المادة بالتدبير لها كالنفس قبل الموت نفساً وما فارقها بالكلية فلم يتعلق بها لا تعلق تدبير ولا غيره عقلاً، ولا ريب أن النفس الناطقة قائمة بنفسها باقية بعد الموت منعمة أو معذبة كما دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ثم تعاد إلى الأبدان.

والمقصود هنا أن ما يثبتونه من العقليات إذا حققت لم يكن إلا ما ثبت في عقل الإنسان، ولهذا كان منتهى تحقيقهم الوجود المطلق، وهو الوجود المترك بين الموجودات. وهذا إنما يكون مطلقاً في الأذهان لا في الأعيان، والمتفلسفة يجعلون الكلي المشترك موضوع العلم الإلهي، وأما الوجود الواجب فتارة يقولون هو الوجود المقيد بالقيود السلبية كما يقوله ابن سينا، وتارة يجعلونه المجرد عن كل قيد سلبي وثبوتي كما يقوله بعض الملاحدة من باطنية الرافضة والإتحادية، وتارة يجعلونه نفس وجود الموجودات فلا يجعلون للممكنات وجوداً غير الوجود الواجب، وغايتهم أنهم يجعلون في أنفسهم شيئاً ويظنون أن ذلك موجود في الخارج، ولهذا يمدهم الشياطين، فإن الشياطين تتصرف في الخيال وتلقي في خيالات الناس أموراً لا حقيقة لها، ومحققو هؤلاء يقولون أرض الحقيقة هي أرض الخيال.

وأما ما أخبرت به الرسل موجودة من الغيب، فهو أمور ثابتة أكمل وأعظم مما نشاهده نحن في هذه الدار وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكن أن يشاهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك ليست عقلية قائمة بالعقل، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشاهدها أن تلك غيب وهذه شهادة قال تعالى ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وكون الشيء غائباً وشاهداً أمر إضافي بالنسبة إلينا، فإذا غاب عنا كان غيباً، وإذا شاهدناه كان شهادة، ليس هو فرقاً يعود إلى أن ذاته تعقل ولا

تشاهد ولا تحس، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يشاهد بحال فإنما يكون في الذهن، والملائكة يمكن أن يشاهدوا ويروا الرب تعالى، ويمكن رؤيته بالأبصار والمؤمنون يرونه يوم القيامة وفي الجنة كما تواترت النصوص في ذلك عن النبي ﷺ، واتفق على ذلك سلف الأمة وأئمتها، وإمكان رؤيته يعلم بالدلائل العقلية القاطعة، لكن ليس هو الدليل الذي سلكه طائفة من أهل الكلام كأبي الحسن وأمثاله حيث ادعوا أن كل موجود يمكن رؤيته، بل قالوا ويمكن أن يتعلق به الحواس الخمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس، فإن هذا مما يعلم فساده بالضرورة عند جماهير العلماء، وهذا من أغاليط بعض المتكلمين، هذا. قوله﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يداومون عليها، والإقامة في الأصل الدوام والثبات، وليس من القيام على الرجل، وإنما هو من قولك قام الحق أي ظهر وثبت، وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها وحدودها وزيغ في أفعالها وإتمام أركانها، والصلاة أصلها في اللغة الدعاء من صلى يصلي إذا دعا، ذكر هذا الجوهري وغيره، وقال قوم هي مأخوذة من الصلا، وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب، ذكر هذا القرطبي، وهذا هو المعنى اللغوي.

وأما المعنى الشرعي فهو هذه الصلاة التي هي ذات الأركان والأذكار، قال ابن عباس المراد به الصلوات الخمس وقال قتادة إن إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي يخرجون ويتصدقون في طاعة الله وفي سبيله والرزق عند الجمهور ما صلح للإنتفاع به حلالاً كان أو حراماً خلافاً للمعتزلة فقالوا إن الحرام ليس برزق، وللبحث في هذه المسألة موضع غير هذا، والإنفاق إخراج المال من اليد وأنفق الشيء وأنفده أخوان، ولو استقريت الألفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالاً على معنى الذهاب والخروج.

وفي المجيء بمن التبعيضية ههنا نكتة سرية هي الإرشاد إلى ترك

الإسراف والتبذير، وتقديم المفعول للاهتمام به والمحافظة على رؤوس الآي، قال أبو بكر الباقلاني: ذهب الأشاعرة كلهم إلى نفي السجع عن القرآن، وذهب كثير ممن خالفهم إلى إثباته انتهى، قال البقاعي الثاني فاسد، وأطال في بيان ذلك بلاطائل، والحق أنه في القرآن من غير التزام له في الأكثر، وكأن من نفاه نفى التزامه أو أكثريته، ومن أثبته أراد وروده فيه في الجملة، فاحفظه ولا تلتفت لما سواه، والذي عليه العلماء أنه تطلق الفواصل عليه دون السجع قاله الخفاجي.

قال: ابن عباس يعني زكاة أموالهم، وعن قتادة يعني الإنفاق في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله كالزكاة والنذر وفي الجهاد وعلى النفس وقال ابن مسعود هي نفقة الرجل على أهله، واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم وصدقة الفرض والنفل، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يصدق عليها مسمى الإنفاق يشعر أتم إشعار بالتعميم(١).

---

(١) وقد ذكر ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير في علم التفسير لهذه الآية اراء عدة منها: «انها النفقة التي كانت واجبة قبل وجوب الزكاة، ذكره بعض المفسرين، وقالوا: إنه كان فرض على الرجل ان يمسك مما في يده مقدار كفايته يومه وليلته، ويفرق باقيه على الفقراء. فعلى قول هؤلاء الآية منسوخة بآية الزكاة، وغير هذا القول اثبت.

واعلم ان الحكمة في الجمع بين الايمان بالغيب وهو عقد القلب وبين الصلاة وهي فعل البدن، وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال، انه ليس في التكليف قسم رابع، اذا ما عدا هذه الاقسام فهو ممتزج بين اثنين منها كالحج والصوم ونحوهما إ ـهـ. (زاد المسير ١/٢٦).

وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿والذين يؤمنون﴾ أي يصدقون ﴿بما أنزل اليك﴾ المراد به ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، والتعبير بالماضي مع كون بعضه مترقباً لتغليب المحقق على المقدر أو لتنزيل ما في شرف الوقوع منزلة الواقع، قال القاضي الانـزال نقل الشيء من أعلى الى أسفل، وهو انما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها، قال الامام المراد من إنزال القرآن ان جبريل عليه السلام في السماء سمع كلام الله فنزل به على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يقال نزلت رسالة الامير من القصر، والرسالة لا تنزل ولكن كان المستمع في علو فنزل وأدى في سفل، وقول الامير لا يفارق ذاته اهـ.

قال الخفاجي وذهب بعض السلف الى أنه من المتشابه أي يجزم بالنزول من غير معرفة بكيفيته وهو الحق اذ مثل هذا من التدقيقات الفلسفية لا ينبغي ذكره في التفسير اهـ حاصله.

قلت ويرد على مذهب بعض السلف ما ورد في الاحاديث الصحيحة من بيان كيفية الوحي وبدئه وبه ترجم البخاري، وهو أول باب عنون به كتابه الصحيح. وقد نطق به القرآن، ولا شك أن كلامه سبحانه المنزل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مسموع بالآذان مقروء بالالسنة محفوظ في الصدور، مكتوب في المصاحف، له حرف وصوت كما دلت عليه السنة المطهرة في غير موضع من دواوين الاسلام وزبر الايمان، وليس هذا موضع بسطه، وسيأتي الكلام عليه تحت تفسير قوله تعالى ﴿حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾.

﴿وما أنزل من قبلك﴾ وهو الكتب السالفة المنزلة على الانبياء من قبل كالتوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وغيرها، والايمان بالكل جملة فرض عين، وبالقرآن تفصيلاً فرض كفاية، قيل هو مؤمنو أهل الكتاب، وفيهم نزلت، وقد رجح هذا ابن جرير، ونقله السدي عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة، واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم﴾ وبقوله تعالى ﴿والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ والآية الأولى نزلت في مؤمني العرب، وقيل إن الآيتين جميعاً في المؤمنين على العموم، وعلى هذا فالجملة عطف على الجملة الاولى صفة للمتقين بعد صفة أو مرفوعة على الاستئناف، أو عطف على المتقين، والتقدير هدى لهم وللذين يؤمنون، الحق ان هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها وليس مجرد ذكر الايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل الى من قبله بمقتضى لجعل ذلك وصفاً لمؤمني أهل الكتاب، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا، ولا في نظم القرآن ما يقتضي ذلك، وقد ثبت الثناء على من جمع بين الامرين من المؤمنين في غير آية فمن ذلك قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وقوله تعالى ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم﴾ وقوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ وقال ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾.

﴿وبالآخرة﴾ أي بالدار الآخرة، تأنيث الآخر الذي هو نقيض الاول كما أن الدنيا تأنيث الادنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الاسماء وهي صفة الدار بدليل قوله تعالى ﴿تلك الدار الآخرة﴾ وسميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها ﴿هم يوقنون﴾ الايقان ايقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، قال في الكشاف فالمراد أنهم يوقنون بالبعث والنشور وسائر أمور الآخرة من دون شك، وفي تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير إشعار بالحصر، وان ما

عدا هذا الامر الذي هو أساس الايمان ورأسه ليس بمستأهل عندهم للايقان به والقطع بوقوعه، وفيه تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب، فان اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلاً عن الوصول الى مرتبة اليقين.

﴿أولئك﴾ أي الذين هذه صفتهم وما فيه من البعد للاشعار بعلو درجتهم ورفعة مرتبتهم في الفضل وهو مبتدأ وخبره ﴿على هدى من ربهم﴾ أي على رشاد ونور، وقيل على استقامة منحوها من عنده وأوتوها من قبله، وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير والترقي الى الافضل فالافضل والابهام المفهوم من التنكير في (هدى) لكمال تفخيمه أي على هدى أي هدى، لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره، وهذا كلام مستأنف بياني، ويمكن أن يكون خبراً عن الذين يؤمنون بالغيب فيكون متصلاً بما قبله.

قال في الكشاف: قوله ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من آعتلى الشيء وركبه، ونحوه هو على الحق وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك في قوله جعل الغواية مركباً، وامتطى الجهل، واقتعد غارب الهوى اهـ.

وقال أبو السعود وإيراد كلمة الاستعلاء على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للإيذان بقوة تمكنهم منه، وكمال رسوخهم فيه انتهى.

وقال الخفاجي الاستعارة في الحرف تبعية متعلقة وهو المعنى الكلي الشامل له كما حققوه والتمثيل ضرب المثل والإتيان بمثال ومطلق التشبيه والمركب منه، وهذا ظاهر لا نزاع فيه، وإنما النزاع في الاستعارة التبعية هل تكون تمثيلية أم لا، فذهب الفاضل المحقق إلى جوازه متمسكاً بما صرح

العلامة في مواضع من كشافه كما صرح به هنا وقد سبقه إليه الطيبي، وقال إنه مسلك الشيخين الزمخشري والسكاكي ولم يرتضه المدقق في الكشف، فأول ما في عباراتهم وتبعه فيه السيد وشنع على الفاضل حتى كأنه أبو عذرته وهي المعركة العظمى التي عقدت لها المجالس، وصنفت فيها الرسائل ما هو أشهر من «قفا نبك».

والحاصل أن استعارة «على» استعارة تبعية تستلزم كون الاستعلاء مشبهاً به وتركب الطرفين يستلزم أن لا يكون مشبهاً به فلا يجتمعان. ومن الفضلاء من رده، وانتصر للسعد سعد جده فقال هو ممنوع.

والحاصل أنه يجري في الحرف التمثيل بمعنى انتزاع الحالة من الأمور المتعددة ولا يجري فيه التشبيه في المفصل المركب قصداً.

والذي يخطر بالبال، بعد طي شقة القيل والقال، أن الخلاف بينهم في حرف واحد إذ لا خلاف في أن التمثيل التفصيلي المعروف يستدعي تركب الطرفين حقيقة، وأن التمثيل الآخر الذي هو محل النزاع هل يشترط فيه التركيب بعد الاتفاق على أنه لا يلزم التصريح بأجزائه لفظاً ولا تقديراً فذهب الشريف إلى أنه يشترط فيه أن تكون أجزاؤه مرادة منوية فلا يكون ما اقتصر عليه من الحرف ونحوه مما هو عمدة المعنى المجازي مستعملاً في معنى مجازي، بل حقيقة وإلا كان مجازاً مفرداً لا تمثيلاً، أو لا يشترط فيه ذلك بل يكفي تركب المأخذ المنتزع منه ذلك، ويكون الحرف المذكور مع ما يدل عليه بالالتزام من طرفي التشبيه وما يتممه متجوزاً فيه وإلا لم يصح دخول (على) على الهدى كما مشى عليه السعد، ومن مشى على جادته. فالنزاع كاللفظي انتهى حاصله.

قلت: وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام، واختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين، وقد جمع العلامة الشوكاني في ذلك رسالة مستقلة سماها الطود المنيف، في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف، فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام، ويجمع بين أطراف

الكلام على التمام، وحاصلها أن الحق في جانب السعد وأن الصواب بيده، وقد تقدمه إلى مثل هذا العلوي في حاشيته على الكشاف، وليس للسعد فيه زيادة على ما يفيده كلام الزمخشري إلا مجرد الإيضاح، ولم يأت بشيء من طرفه يستحق المؤاخذة عليه انتهى.

أقول فالحق اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية، وذلك هو محل النزاع وقد اعترف الشريف بأن المقام صالح لهما لكن ادعى امتناع اجتماعهما، ويدلك على أن الاستعارة التبعية تمثيلية الاستقراء، وبه يشعر قول إمام الفن السكاكي صاحب المفتاح، وهذا صريح فيما صرح به السعد والله أعلم.

﴿وأولئك﴾ في تكرير إسم الإشارة دلالة على أن كُلًّا من الهداية الماضية والفلاح الآتي بحيث لو انفرد أحدهما لكفى مميزاً على حياله.

﴿هم المفلحون﴾ أي المنجحون الناجون الفائزون نجوا من النار، وفازوا بالجنة، والمفلح الظافر بالمطلوب، والفلاح أصله في اللغة الشق والقطع قاله أبو عبيد، قال القرطبي: وقد يستعمل في الفوز والبقاء وهو أصله أيضاً في اللغة فمعناه الفائزون بالجنة، والباقون فيها، وقال في الكشاف: المفلح الفائز بالبغية كأنه الذي أنفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه، إنتهى.

وقد استعمل الفلاح في السحور، ومنه الحديث الذي رواه أبو داود «حتى كاد يفوتنا الفلاح قلت ما الفلاح ؟ قال السحور: وكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمي فلاحاً، وضمير الفصل ويسمى عماداً له فوائد ذكرها الخفاجي منها الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره، وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث.

ثم ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق الخير قاطعاً لهذا الكلام عن الكلام الأول معنوناً له بما يفيدان شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم، وأنه لا يترتب عليه ما هو المطلوب منهم من الإيمان وأن وجود ذلك كعدمه فقال:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

﴿إن الذين﴾ التعريف للعهد أو للجنس، والثاني أولى ﴿كفروا﴾ أي جحدوا وأنكروا، وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية ومنه سمي الكافر كافراً لأنه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان ﴿سواء عليهم﴾ أي متساو لديهم، وسواء إسم مصدر بمعنى الاستواء وارتفاعه على أنه خبر لأن ﴿أأنذرتهم﴾ أي خوفتهم وحذرتهم، والإنذار الإبلاغ والإعلام مع التخويف فكل منذر معلم، وليس كل معلم منذراً، قرىء بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية **ألفاً**، قال البيضاوي وهذا الإبدال لحن، ورد عليه على القارى بأن ما قاله تقليداً للكشاف خطأ لأن القراءة به متواترة عن النبي ﷺ فإنكارها كفر، وتمام هذا البحث في الجمل ﴿أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون.

قال القرطبي واختلف العلماء في تأويل هذه الآية فقيل هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب وسبق في علم الله أنه يموت على كفره أراد الله تعالى أن يُعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً، وقال ابن عباس والكلبي نزلت في رؤساء اليهود حيي بن أخطب وكعب ابن الأشرف ونظرائهما وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح فان من عين أحداً فإنما مثل عن كشف الغيب بموته على الكفر انتهى.

﴿ختم الله على قلوبهم﴾ أي طبع الله عليها واستوثق فلا تعي خيراً ولا

تفهمه والختم والكتم أخوان، وأصل الختم مصدر معناه التغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ولا يخرج منه ما حصل فيه، ومنه ختم الكتاب والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل الى ما فيه ولا يوضع فيه غيره، فشبه هذا المعنى بضرب الخاتم على الشيء تشبيه معقول بمحسوس، والجامع انتفاء القبول لمانع منع منه، وكذا يقال في الختم على الاسماع، واسناد الختم الى الله قد احتج به أهل السنة على المعتزلة، وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما ذكره صاحب الكشاف والكلام على مثل هذا متقرر في مواطنه.

﴿وعلى سمعهم﴾ أي مواضعه، وانما وحد السمع مع جمع القلوب كما تقدم والابصار كما سيأتي لانه مصدر يقع على القليل والكثير، أو لوحدة المسموع وهو الصوت، وانما خص هذه الأعضاء بالذكر لانها طرق العلم، فالقلب محله وطريقه إما السماع وإما الرؤية ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الغشاوة الغطاء وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة، ومنه غاشية السرج وهي غطاء التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده قيل المراد بالختم والغشاوة ههنا هما المعنويان لا الحسيان، ويكون الطبع والختم على القلوب والاسماع، والغشاوة على الابصار كما قاله جماعة قال تعالى ﴿فان يشأ الله يختم على قلبك﴾ وقال ﴿ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ يعني في الآخرة وقيل الاسر والقتل في الدنيا والعذاب الدائم في العقبى والعذاب هو كل ما يؤلم الانسان هو مأخوذ من الحبس والمنع، يقال في اللغة أعذبه عن كذا حبسه ومنعه ومنه عذوبة الماء لانها حبست في الاناء حتى صفت، وقيل هو الايجاع الشديد، والعظيم نقيض الحقير، والكبير نقيض الصغير، فكان العظيم فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير، ويستعملان في الجثث والاحداث جميعاً.

﴿ومن الناس﴾ جمع إنسان أو اسم جمع لانسان قاله سيبويه والجمهور، وأصله الناس وذهب الكسائي الى أنه اسم تام، وقال سلمة كل من ناس

وأناس مادة مستقلة، والفرق بين الجمع واسم الجمع ان اسم الجمع ما دل على ما فوق الاثنين ولم يكن على أوزان الجموع سواء كان له مفرد أو لا ويشترط فيه أيضاً أن لا يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة ولا بالياء كزنج وزنجي، فإنه اسم جنس جمعي، ويعرف باطراد تصغيره من غير رد الى المفرد، وقد يراد باسم الجمع الجمع الوارد على خلاف القياس، وهذا في عرف النحاة، وأما أهل اللغة فاسم الجمع عندهم يسمى جمعاً حقيقة ذكره الخفاجي سمي به لانه عهد اليه فنسي أو لانه يستأنس بمثله، ولام التعريف فيه للجنس أو للعهد.

﴿من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخلص، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص، ثم ذكر ثالثاً المنافقين في الآيات الثلاث عشرة وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين بل صاروا فرقة ثالثة لانهم وافقوا في الظاهر الطائفة الاولى، وفي الباطن الطائفة الثانية، ولذا نزل فيهم ﴿إن المنافقين في الدرك الاسفل من النار﴾ قيل نزلت في عبد الله بن أبيّ ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم، والمراد باليوم الآخر، الوقت الذي لا ينقطع بل هو دائم أبداً وهو يوم القيامة ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نفى عنهم الايمان بالكلية في جميع الازمنة كما تفيده الجملة الاسمية ففيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره

﴿يخادعون الله﴾ أي يخالفونه، ﴿والذين آمنوا﴾ والخداع في أصل اللغة الفساد حكاه ثعلب عن ابن الاعرابي وقيل أصله الإخفاء حكاه ابن فارس وغيره والمراد أنهم صنعوا صنع الخادعين وان كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يخدع، وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الاسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه باظهار الاسلام وابطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه، والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله

به من أحكام الاسلام ظاهراً، وان كانوا يعلمون فساد بواطنهم كما أن المنافقين خادعوهم باظهار الاسلام وابطان الكفر، وقد يكون الخداع حسناً اذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال الى الرشد ومن ذلك استدراجات التنزيل على لسان الرسل في دعوة الأمم، قاله الطيبي، والآية من قبيل الإستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم في معاملتهم لله بحال المخادع مع صاحبه من حيث القبح أو من باب المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية، وأصل التركيب يخادعون رسول الله أو من باب التورية حيث ذكر معاملتهم لله بلفظ الخداع.

والمراد بقوله ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع، فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك، والمراد أنهم يمنونها الأماني الباطلة، وهي كذلك تمنيهم، والنفس ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للقلب والروح والدم والماء نفس، والمراد بالأنفس هنا ذواتهم أو قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم ﴿وما يشعرون﴾ أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم.

قال أهل اللغة: شعرت بالشيء فطنت، قال في الكشاف الشعور علم الشيء علم حس من الشعار ومشاعر الإنسان حواسه، وقيل الشعور إدراك الشيء من وجه يدق ويخفى من الشعر لدقته، والأول أولى، قال ابن عباس إنهم المنافقون من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم، عن ابن سيرين قال لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾

﴿في قلوبهم مرض﴾ المرض كل ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير في أمر، قاله ابن فارس وقيل هو الألم فيكون على هذا مستعاراً للفساد الذي في عقائدهم إما شكاً ونفاقاً، أو جحداً وتكذيباً ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ أي كفراً ونفاقاً، والمراد بزيادة المرض الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله ﷺ من النعم، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية، ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك وترادف الحسرة وفرط النفاق، وفسر ابن عباس المرض بالشك والنفاق، وقال ابن زيد: هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجسام، وقال عكرمة وطاوس المرض الرياء، والقراء مجمعون على فتح الراء من مرض إلا أبا عمرو فإنه قرأ بالسكون. ﴿ولهم عذاب﴾ أي نكال

﴿أليم﴾ أي مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم، قال ابن عباس كل شيء في القرآن أليم فهو الموجع انتهى، ووصف به العذاب للمبالغة ﴿بما كانوا يكذبون﴾ أي يبدلون ويحرفون، قاله ابن مسعود، وقيل المعنى بتكذيبهم الله ورسوله في السر، وقيل بكذبهم إذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين، والكذب هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به وهو حرام كله لأنه علل به استحقاق العذاب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ يعني المنافقين والقائل لهم هو الله أو الرسول أو المؤمنون، والمعنى لا تفسدوا بالنفاق وموالاة الكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن: فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان وخراب الديار، وبطلان الذرائع وخراب العالم كما هو مشاهد عند ثوران الفتن وهيج الحروب والتنازع، والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والاعتدال، والصلاح ضده، وكلاهما يعمان كل ضار ونافع

﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ يعني يقولونه كذباً «وإنما» من أدوات القصر كما هو مبين في علم المعاني، والصلاح ضد الفساد، وهذا الجواب منهم رد للناصح على أبلغ وجه لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض.

﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ في الأرض بالكفر وهو أشد الفساد، رد لما أدعوه أبلغ رد للاستئناف به وتصديره بحرفي التأكيد، و (ألا) حرف تنبيه ينبه بها المخاطب وهي المنبهة على تحقيق ما بعدها. قال ابن مسعود الفساد هنا الكفر والعمل بالمعصية ﴿ولكن لا يشعرون﴾ وذلك لأنهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد، وقيل لا يشعرون ما أعد الله لهم من العذاب، والأول أولى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤)﴾

﴿وإذا قيل لهم﴾ أي للمنافقين. . نصحوهم من وجهين (أحدهما) النهي عن الفساد وهو عبارة عن التخلي عن الرذائل (وثانيهما) الأمر بالإيمانوهو عبارة عن التحلي بالفضائل، فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين ﴿كما آمن الناس﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار، وقيل الناس عبد الله بن سلام وأصحابه و «ما» مصدرية أو كافة واللام للعهد أو للجنس، وأستدل به على قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان ﴿قالوا﴾ أي أجابوا بأحمق جواب وأبعده عن الحق والصواب ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أي الجهال، الهمزة للإنكار واللام مشار بها الى الناس أو للجنس بأسره وهم مندرجون فيه، نسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء واستخفافاً فتسببوا بذلك إلى تسجيل الله عليهم بالسفه بأبلغ عبارة وآكد قول وحصر كما قال تعالى:

﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ أي الجهال، وأصل السفه والسفاهة رقة الحلوم وفساد البصائر وسخافة العقول، وخفة النهي، وإنما سمى الله المنافقين سفهاء لأنهم كانوا عندأنفسهم عقلاء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء، ورد أبلغ رد في تجهيلهم

﴿ولكن لا يعلمون﴾ أنهم كذلك إما حقيقة أو مجازاً تنزيلاً لإصرارهم على السفه منزلة عدم العلم، وإنما ذكر العلم هنا، والشعور فيما قبل، لأنه أكثر طباقاً بذكر السفه، والتمييز بين الحق والباطل يفتقر إلى نظرة وفكرة، والنفاق يدرك بأدنى تفطن وتأمل من قولهم وفعلهم.

عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود.

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا﴾ أي المهاجرين والأنصار، ومعنى لقيته ولاقيته استقبلته قريباً.

﴿قالوا آمنا﴾ كإيمانكم.

﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ أي رجعوا إليهم قيل هو من الخلوة وقيل (إلى) بمعنى الباء وقيل بمعنى مع وخلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذم أي مضى عنك، ومنه القرون الخالية أو من خلوت به إذا سخرت منه، وعدي بإلى لتضمين معنى الإنهاء.

والمراد بالشياطين رؤساؤهم وكهنتهم، وقيل المراد بالشياطين المماثلون منهم للشياطين في التمرد والعناد، المظهرون لكفرهم أو كبار المنافقين، والقائلون صغارهم.

﴿قالوا إنا معكم﴾ في الدين والاعتقاد أي إنا مصاحبوكم في دينكم وموافقوكم عليه.

﴿إنما نحن مستهزؤن﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن من شرهم ونقف على سرهم، ونأخذ من غنائمهم، تأكيد لما قبله أو بدل منه أو استئناف.

قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيّ وأصحابه، والهزء السخرية واللعب والاستخفاف يقال هزأت واستهزأت بمعنى، وأصله الخفة وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ مات فجأة وتهزأ به ناقته أي تسرع به وتخف، والمراد درؤهم للإسلام ودفعهم للحق.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى
ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا
يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾

﴿الله يستهزىء بهم﴾ أي ينـزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم ويستخف بهم انتصافاً منهم لعباده المؤمنين، وجزاء لاستهزائهم بهم، فسمى الجزاء باسمه، لأنه في مقابلته، وورد ذلك في القرآن كثيراً ومنه ﴿جزاء سيئة سيئة مثلها، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ والجزاء لا يكون سيئة، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق، ومنه ﴿ومكروا ومكر الله﴾ ﴿إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً﴾ ﴿وتعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ وهو في السنة كثير كقوله ﷺ «إن الله لا يمل حتى تملوا»، وإنما قال ﴿الله يستهزىء بهم﴾ لأنه يفيد التجدد وقتاً بعد وقت وهو أشد عليهم وأنكى لقلوبهم، وأوجع لهم من الإستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الإسمية لأنه يألفه ويوطن نفسه عليه، قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فإذا انتهوا إليه سد عنهم وردوا إلى النار.

﴿ويمدهم﴾ أي يتركهم ويمهلهم ويطيل لهم المدة كما قال ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ والمد الزيادة قال يونس بن حبيب يقال أمد في الشر وأمد في الخير، ومنه ﴿وأمددناهم بأموال وبنين، وأمددناهم بفاكهة﴾ وقال الأخفش مددت له إذا تركته وأمددته إذا أعطيته ﴿في طغيانهم﴾ أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد ومنه ﴿إنا لما طغى الماء﴾ والغلو في الكفر ﴿يعمهون﴾ أي يترددون في الضلالة متحيرين، والعمه والعامه الحائر المتردد، والعمه في القلب كالعمى في العين، قال في الكشاف: العمه مثل العمى إلا أن العمى في البصر

والرأي، والعمه في الرأي خاصة انتهى، فبينها عموم وخصوص مطلقاً.

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ يعني المنافقين استبدلوا الكفر بالإيمان، وإنما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعاً على سبييل الاستعارة، فالشراء ههنا مستعار للاستبدال كقوله تعالى ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين وما كانوا على الهدى فيبيعوا إيمانهم؛ والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء، وأصل الضلالة الحيرة والجور عن القصد وفقد الإهتداء، ويطلق على النسيان ومنه قوله تعالى ﴿فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ وعلى الهلاك كقوله تعالى ﴿إذا ضللنا في الأرض﴾ والهدى التوجه إلى القصد، وقد استعير الأول للعدول عن الصواب في الدين، والثاني للإستقامة عليه، قال ابن عباس في الآية اشتروا الكفر بالإيمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا؛ وقال قتادة قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم، وأصل الربح الفضل عن رأس المال والتجارة صناعة التاجر، وأسند الربح اليها على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل كما هو مقرر في علم المعاني، والمراد ربحوا وخسروا ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي مصيبين في تجارتهم لأن رأس المال هو الإيمان، فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى، وقيل في شرائعهم الضلالة وقيل في سابق علم الله.

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ المثل قول يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه. وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في

نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته: وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه واستوقد بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب، فالسين والياء زائدتان، ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها.

﴿فلما أضاءت ما حوله﴾ يعني النار، والإضاءة فرضاً الإنارة وفعلها يكون لازماً ومتعدياً ﴿ذهب الله بنورهم﴾ الذهاب زوال الشيء ﴿وتركهم﴾ اي أبقاهم، وترك في الأصل بمعنى طرح وخلى ﴿في ظلمات﴾ جمع ظلمة والظلمة عدم النور ﴿لا يبصرون﴾ هذا المثل للمنافقين لبيان ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام كمثل المستوقد الذي أضاءت ناره ثم طفئت، فإنه يعود إلى الظلمة ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة فكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده.

قال ابن عباس في الآية نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقي في ظلمة حائراً متخوفاً، فكذلك حال المنافقين، أظهروا كلمة الإيمان وأمنوا بها على أنفسهم و أموالهم وأولادهم، وناكحوا المسلمين وقاسموهم في الغنائم فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف، وقيل ذهاب نورهم ظهور عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل في القبر أو على الصراط، والأول أولى.

وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل لأن الباطل كذلك يسطع لهب ناره لحظة ثم تخفت ومنه قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل.

وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأناً عظيماً في إبراز خفيات المعاني ورفع أستار محجبات الدقائق، ولهذا استكثر الله تعالى ذلك في كتابه

العزيز، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ذلك في مخاطباته ومواعظه.

قال ابن جرير: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال ﴿رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ وقال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾.

﴿صم﴾: أي عن استماع الحق لأنهم لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه والصمم الانسداد ﴿بكم﴾ أي خرس عن النطق بالخير فهم لا يقولونه، والأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل الأبكم والأخرس واحد ﴿عمي﴾ أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى، والعمى ذهاب البصر، كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم، وأن ينظروا إليه بعيونهم، جعلوا كمن تعطلت حواسه، وذهب إدراكه كما قال الشاعر:(1)

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به   وإن ذكرت بسوء كلهم أذن

﴿فهم لا يرجعون﴾ أي عن ضلالتهم ونفاقهم.

(١) ومن ذلك قوله مسكين الداري

ما ضرَّ جاراً لي أجاوره   ألا يكون لبابه ستر

أعمى إذا ما جارتي خرجت   حتى يواري جارتي الخدر

وتصمُّ عما بينهم أذني   حتى يكون كأنه وقر

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أو كصيب من السماء﴾ أو: حرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أي مثلوهم بهذا أو هذا، وهي وإن كانت في الأصل للشك فقد توسع فيها حتى صارت لمجرد التساوي من غير شك، وقال الفراء وغيره أنها بمعنى الواو، والصيب المطر واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل، وكل ما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب، والسماء في الأصل كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت سماء، والسماء أيضاً المطر سمي بها لنزوله منها، واطلاق السماء على المطر واقع كثيراً في كلام العرب، وقيل من السماء بعينها، وانما ذكر الله تعالى من السماء وإن كان المطر لا ينزل إلا منها ليرد على زعم أن المطر ينعقد من أبخرة الأرض فأبطل مذهب الحكماء بقوله﴿من السماء﴾ ليعلم أن المطر منها لا كما هو زعمهم الباطل.

﴿فيه ظلمات﴾ أي في الصيب، وبه قال جمهور المفسرين، وقال السيوطي في السحاب وهو خلاف ظاهر نظم الآية، وقيل (في) بمعنى مع، وإنما جمع الظلمات أشارة الى أنه انضم إلى ظلمة الليل، ظلمة الغيم والمطر ﴿ورعد﴾ اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب، وقد أخرج الترمذي من حديث ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟، قال «ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله» قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر،

قالت صدقت، الحديث بطوله وفي إسناده مقال، وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، وقيل هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها والى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعاً للفلاسفة وجهلة المتكلمين، وقيل غير ذلك، قال ابن عباس: الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرق لمعان سوطه من نور يزجر به السحاب، وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب[1] إذا تبددت جمعها وضمها فإذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق ﴿وبرق﴾ النار التي تخرج منه، أي مخراق بيد الملك الذي يسوق السحاب، وإليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق، وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة ان البرق ما ينقدح من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الأبخرة المتصعدة المشتملة على جزء ناري يلهب عند الاصطكاك.

﴿يجعلون﴾ أي أصحاب الصيب ﴿أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ إطلاق الأصابع على بعضها مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية لأن الذي يجعل في الأذن إنما هو رأس الاصبع لاكلها، والصواعق، ويقال الصواعق هي قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها، ويدل على ذلك حديث ابن عباس المذكور قريباً، وبه قال كثير من علماء الشريعة، ومنهم من قال انها نار تخرج من فم الملك، وقال الخليل هي الوقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه، وقال أبو زيد الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد، وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة ومن قال بقولهم إنها نار لطيفة تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامها، وسيأتي في سورة الرعد إن شاء الله تعالى في تفسير الرعد والبرق والصواعق ما له مزيد فائدة وإيضاح، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ **كان اذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»**، أخرجه الترمذي وقال حديث غريب ﴿حذر الموت﴾

---

(١) فقد روى أحمد في مسنده (٢٤٨٣) والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح غريب وفي حديث طويل اجابه به ﷺ اليهود.

أي مخافة الهلاك، والموت ضد الحياة ﴿والله محيط بالكافرين﴾ أي عالم بحالهم وقيل يجمعهم ويعذبهم والإحاطة الأخذ من جميع الجهات حتى لا يفوت المحاط به بوجه من الوجوه.

﴿يكاد البرق﴾ أي يقرب يقال كاد يفعل ولم يفعل ﴿يخطف أبصارهم﴾ أي يختلسها والخطف استلاب الشيء والأخذ بسرعة ﴿كلما أضاء لهم﴾ يعني البرق ﴿مشوا فيه﴾ أي في إضاءته ونوره ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي وقفوا متحيرين ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم﴾ أي بصوت الرعد ﴿وأبصارهم﴾ بوميض البرق ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه، والآية على عمومها بلا استثناء، وفيه دليل على ان الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران لا كما زعم المعتزلة من أن الاستطاعة قبل الفعل.

وهذا مثل آخر ضربه الله للمنافقين، والمنافقون أصناف منهم من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، ومنهم من قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان وورد بلفظ أربع وزاد وإذا خاصم فجر، وورد بلفظ إذا عاهد غدر، وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين.

﴿يا أيها الناس﴾ لم يقع النداء في القرآن بغير «يا» من الأدوات والنداء في الأصل طلب الإقبال والمراد به هنا التنبيه وأي مبني على الضم في محل نصب والناس نعت لأي على اللفظ وحركته إعرابية وحركة أي بنائية، واستشكل رفع التابع مع عدم عامل الرفع، والنداء على سبع مراتب: نداء مدح كقوله: ﴿يا أيها النبي﴾ و﴿يا أيها الرسول﴾، ونداء ذم كقوله: ﴿يا أيها الذين هادوا﴾ ﴿يا أيها الذين كفروا﴾ ونداء تنبيه كقوله: ﴿يا أيها الإنسان﴾ ﴿يا أيها الناس﴾ ونداء إضافة كقوله: ﴿يا عبادي﴾ ونداء نسبة كقوله: ﴿يا بني آدم﴾ ﴿يا بني إسرائيل﴾، ونداء تسمية كقوله: ﴿يا داود﴾ ﴿يا ابراهيم﴾، ونداء تضيف كقوله:

﴿يا أهل الكتاب﴾، قاله الكرخي.

قال ابن عباس ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب لأهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين، والحق أن ما قاله ابن عباس أكثري لا كُلّي، فإن البقرة والنساء والحجرات مدنيات وفاقاً، وقد قال في كل منها يا أيها الناس[1].

﴿أعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ قال ابن عباس وحدوا، وكل ما ورد في القرآن من العبادة قيل معناه التوحيد. وأصل العبادة غاية التذلل، وقد تقدم تفسيرها والمعنى ابتدع خلقكم من غير مثال سبق، وإنما خص نعمة الخلق وامتن بها عليهم لأن جميع النعم مترتبة عليها وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها بدونها، وأيضاً فالكفار يقرون بأن الله هو الخالق (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) فامتن عليهم بما يعترفون به فلا ينكرونه، وفي أصل معنى الخلق وجهان أحدهما التقدير يقال خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته قبل القطع (الثاني) الإنشاء والاختراع والإبداع.

﴿والذين من قبلكم﴾ بالذات أو الزمان أي وخلقهم ﴿لعلكم تتقون﴾ ولعل أصلها الترجي والطمع والتوقع والإشفاق، وذلك مستحيل على الله تعالى ولكنه لما كان في المخاطبة منه للبشر كان بمنزلة قوله لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع، وبهذا قال جماعة من أهل العربية منهم سيبويه، وقيل بمعنى لام كي أي لتتقوا وبهذا قال جماعة منهم قطرب والطبري، وقيل إنها بمعنى التعرض للشيء كأنه قال متعرضين للتقوى وإليه مال أبو البقاء وغيره.

---

(١) وقد اختلف العلماء فيمن عنى بهذا الخطاب وعلى اربعة اقوال.
انه عام لجميع الناس وهو قول ابن عباس.
انه خطاب لليهود دون غيرهم قاله الحسن ومجاهد.
انه خطاب للكفار من مشرعي العرب وغيرهم قاله السدي.
انه خطاب للمنافقين واليهود قاله مقاتل انظر (زاد المسير ١/٤٧).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاء مذللة ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، والحزن ما غلظ من الأرض، «وجعل» هنا بمعنى صير وجاء بمعنى صار وطفق وأوجد، والتصيير يكون بالفعل تارة وبالقول والعقد أخرى، والفراش وطاء يستقرون عليها، واستدل به أكثر المفسرين على أن شكل الأرض بسيط ليس بكروي.

﴿والسماء بناء﴾ أي سقفاً مرفوعاً قيل إذا تأمل المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها، والسماء اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد، وقيل جمع سماة، والبناء مصدر سمى به المبنى بيتاً كان أو قبة أو خباء، وأصل البناء وضع لبنة على أخرى فجعل السماء كالقبة المضروبة عليهم، والسقف للبيت الذي يسكنونه كما قال (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً).

﴿وأنزل من السماء﴾ يعني السحاب ﴿ماء﴾ يعني المطر ﴿فأخرج به﴾ أي بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ جمع ثمرة ﴿رزقاً لكم﴾ والمعنى أخرجنا لكم ألواناً من الثمرات وأنواعاً من النبات، ليكون ذلك متاعاً لكم وعلفاً لدوابكم إلى حين، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس

الأسباب والمواد، ولكن له في الإنشاء مدرجاً من حال إلى حال صنائع وحكماً يجدد فيها لأولي الأبصار عبراً وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس ذلك في إيجادها دفعة ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ جمع ند وهو المثل والنظير، وفي جعله جمع نديد نظر ﴿وأنتم تعلمون﴾ بعقولكم أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله وأنه واحد خالق لجميع الأشياء وإنه لا مثل له ولا ند ولا ضد، وفي الآية دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن ماجة وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ ماشاء الله وشئت قال «جعلتني لله نداً[1]. ما شاء الله وحده» وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ لا تقولوا ماشاء الله وشاء فلان قولوا ماشاء الله ثم شاء فلان » وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

﴿وإن كنتم في ريب﴾ أي شك لأن الله عليم بأنهم شاكون ﴿مما نزلنا على عبدنا﴾ أن القرآن أنزله على محمد ﷺ وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم

---

(١) وقد روى مسلم عن عبدالله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم اي الذنب أعظم عند الله ؛ قال: «ان تجعل لله نداً وهو خلقك» قال قلت له: ان ذلك لعظيم، قال قلت: ثم أي؟ قال: ثم ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك (أي يأكل) قال قلت: ثم اي قال ثم ان تزاني حليلة جارك.

وفي رواية: قال: ان تدعو لله نداً وقد خلقك.

قال ابن حجر في الفتح: . . . ولا ينسب شيء في الخلق لغير الله تعالى فيكون شريكاً ونداً ومساوياً له في نسبه الفعل اليه، وقد نبه الله تعالى عباده على ذلك بالآيات المذكورة وغيرها المصرحة بنفي الانداد والآلهة المدعوة معه، فتضمنت الرد على ما يزعم أنه يخلق افعاله، ومنها ما حذر به المؤمنين أو أثنى عليهم، ومنها ما وبخ به الكافرين وحديث الباب (المذكور) ظاهر في ذلك.

للتفخيم، لأن قبله اعبدوا ربكم فكان حق المقام أن يقول مما نزل على عبده والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل، وعبدنا إضافة تشريف لمحمد ﷺ، والتنزيل التدريج والتنجيم ﴿فأتوا بسورة﴾ أي من سورة، والسورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص سميت بذلك لأنها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلدة عليها، وأقل ما تتألف منه السورة ثلاث آيات استدل به من قال أنه يتعلق الإعجاز بأقل من سورة ورد به على من قال من المعتزلة بانه يتعلق بجميع القرآن ﴿من مثله﴾ الضمير عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم، وقيل على التوراة والإنجيل لأن المعنى إنها تصدق مافيه، وقيل يعود على النبي ﷺ، والمعنى من بشر مثل محمد ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ، والأول أوجه وأولى، ويدل عليه أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في التحدي، وإنما وقع الكلام في المنزل لا في المنزل عليه ﴿وادعوا شهداءكم﴾ جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو المعاون، والمراد هنا الآلهة أي استعينوا بآلهتكم التي تعبدونها ﴿من دون الله﴾ وقيل المعنى وادعوا ناساً يشهدون لكم، ومعنى دون: أدنى مكان من الشيء واتسع فيه حتى استعمل في تخطي شيء إلى شيء آخر ومنه ما في هذه الآية، وله معان أخر منها التقصير عن الغاية والحقارة، والعرب تقول هذا دون ذلك أي اقرب منه ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما قلتم إنكم تقدرون على المعارضة. وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم، أو أن محمداً ﷺ يقوله من تلقاء نفسه، والأول أولى، والصدق خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع أو الإعتقاد أو لهما على الخلاف المعروف في علم المعاني.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿فإن لم تفعلوا﴾ فيما مضى ﴿ولن تفعلوا﴾ ذلك فيما يأتي وتبين لكم عجزكم عن المعارضة وذلك ان النفوس الأبيَّة إذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع في الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لأتوا به، فحيث لم يأتوا بشيء ظهرت المعجزة للنبي ﷺ وبان عجزهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآن من جنس كلامهم وكانوا حراصاً على إطفاء نوره وإبطال أمره، ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم ورضوا بسبي الذراري وأخذ الأموال والقتل، وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح صدق رسول الله ﷺ، وإذا كان الأمر كذلك وجب ترك العناد.

وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها لأنها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيام النبوة وفيما بعدها وإلى الآن، وقد كرر الله سبحانه تحدي الكفار لهذا في مواضع من القرآن منها هذا، ومنها قوله تعالى في سورة القصص ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ وقال في سورة سبحان ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وقال في سورة هود ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ وقال في سورة يونس ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه

في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر أو كان العجز عن المعارضة الصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه، والحق الأول فإن القرآن يأتي تارة بالقصة باللفظ الطويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولا يخل بالمقصود،وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الأشعار والخطب والرسائل ولهذا تحدت العرب به فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله، وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، والكلام في هذا مبسوط في مواطنه.

﴿فاتقوا النار﴾ بالإيمان بالله وكتبه ورسله والقيام بفرائضه واجتناب مناهيه وقيل المعنى فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله فإنه مستوجب للعقاب بالنار ﴿التي وقودها الناس والحجارة﴾ أي حطبها والوقود بالفتح الحطب وبالضم التوقد، وقيل كل من الفتح والضم يجري في الآلة والمصدر والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها لأنهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا فجعلت وقوداً للنار معهم، ويدل على هذا قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ وقيل المراد بها حجارة الكبريت لأنها أكثر التهاباً قاله ابن عباس، وقيل جميع الحجارة، وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها وفي هذا من التهويل ما لا يقادر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها.

﴿أعدت للكافرين﴾ أي لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر، قاله ابن عباس والمعنى جعلت عدة لعذابهم وهيئت لذلك، واخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وقودها الناس والحجارة قال أوقد عليها الف عام حتى احمرت وألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهبها، وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً مثله،

وأخرج أحمد ومالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا يا رسول الله إن كانت لكافية قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها.

وعن أبي هريرة قال أترونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقدون ، انها لأشد سواداً من القار، والآية دلت على أنها مخلوقة الآن إذ الإخبار عن إعدادها بلفظ الماضي دليل على وجودها وإلا لزم الكذب في خبر الله تعالى، فما زعمته المعتزلة من أنها تخلق يوم الجزاء مردود، وتأويلهم بأنه يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع ومثله كثير في القرآن مدفوع بأنه خلاف الظاهر، ولا يصار إليه إلا بقرينة، والأحاديث الصحيحة المتقدمة تدفعه.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه، والتبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرة وهي الجلدة الظاهرة من البشر والسرور، والمأمور بالتبشير قيل هو النبي ﷺ وقيل هو كل أحد كما في قوله ﷺ «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » والصالحات الأعمال المستقيمة، والمراد هنا الاعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم، وفيه رد على من يقول أن الإيمان بمجرده يكفي، فالجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح قيل هو ما كان فيه أربعة أشياء العلم والنية والصبر والإخلاص، يعني عن الرياء قاله عثمان.

﴿أن لهم جنات﴾ جمع جنة وهي البساتين وإنما سميت جنات لأنها تجن من فيها أي تستره بشجرها أو تسترها بالأشجار والأوراق، وقيل الجنة ما فيه نخل والفردوس ما فيه كرم وهي إسم لدار الثواب كلها وهي مشتملة على جنات كثيرة ﴿تجري﴾ أي على ظهر الأرض من غير حفيرة بل هي متماسكة

بقدرة الله ﴿من تحتها﴾ أي تحت الجنات لاشتمالها على الأشجار أي من تحت أشجارها، قال مسروق إنها تجري من غير أخدود ﴿الأنهار﴾ جمع نهر وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات، والمراد الماء الذي يجري فيها لأن الأنهار لا تجري، واسند الجري إليها مجازاً فالجاري حقيقة هو الماء كما في قوله تعالى ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ أي أهلها، والنهر يجوز فيه فتح الهاء وسكونها وكذا كل ما عينه حرف حلقي، وجمع الأول أنهر، وجمع الآخر أنهار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك».

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً﴾ أي أطعموا من الجنة طعاماً والمراد بثمرة النوع لا الفرد قاله سعد التفتازاني، وأطال الكلام فيه ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ في الدنيا ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ وصف آخر للجنات أو جملة مستأنفة والمراد أنه شبيهه ونظيره لا أنه هو، لأن ذات الحاضر لا يكون عين ذات الغائب لاختلافهما، وذلك أن اللون يشبه اللون وإن كان الحجم والطعم والرائحة والمأدبة متخالفة والضمير في «به» عائد الى الرزق وقيل المراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهاً فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجدوا له طعماً غير طعم الأول، عن ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء، وعن الحسن في قوله ﴿متشابهاً﴾ قال خيار كله يشبه بعضه بعضاً لا رذال فيه ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه.

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبزقون، يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس، طعامهم جشاء، ورشحهم كرشح المسك، وفي لفظ ورشحهم المسك» أخرجه مسلم، والمعنى أن فضول طعامهم يخرج في الجشاء وهو تنفس المعدة، والرشح العرق.

﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي في الجنات من الحور العين المطهرة من البول والغائط والحيض والولد وسائر الأقذار، وقيل هي عجائز الدنيا الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوي الأخلاق والمعنى أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض والنفاس والغائط والبزاق والنخامة، وسائر الأدناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا، والأزواج جمع زوج وهو ما يكون معه آخر فيقال زوج للرجل والمرأة، وزوجة بالتاء قليل وأنها لغة تميم، قاله الفراء، والزوج أيضاً الصنف والتثنية زوجان، والطهارة النظافة ﴿وهم فيها خالدون﴾ أي ماكثون أبداً، والخلد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع، وقد يستعمل مجازاً فيما يطول دام أم لم يدم، والمراد هنا الأول لما يشهد له الآيات والأحاديث، والمعنى لا يخرجون منها ولا يموتون.

وعن ابن عباس في قوله ﴿وهم فيها خالدون﴾ قال يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له، وعن سعيد بن جبير خالدون يعني لا يموتون، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت، يا أهل الجنة لا موت، كل خالد فيما هو فيه[1]» وأخرج الطبراني وابن

(١) وقد وردت الاحاديث الكثيرة في صفة أهل الجنة نقتطف منها من صحيح مسلم الأحاديث التالية:
- عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».
- عن ابي هريرة عن رسول الله ﷺ: انه قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة».
- عن ابي هريرة: ان النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا! وسعديك. والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ يا رب وقد اعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».
- عن ابي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة من أمتي، على صورة القمر ليلة البدر. ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء اضاءة. ثم هم بعد ذلك منازل لا يتغوطون =

مردويه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا، ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد. وقد أخرج ابن ماجة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي وابن مردويه عن أسامة بن زيد قال رسول الله ﷺ «ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة وفاكهة خضراء » الحديث.

والاحاديث في وصف الجنة كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما، وكذلك في صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه، فلينظر في دواوين الإسلام، وقد ألف الحافظ محمد بن أبي بكر القيم الجوزي كتاباً في أحوال الجنة سماه (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) لم يؤلف في الإسلام قبله مثله، وهو أجمع ما جمع في هذا الباب، وقد لخصته بحذف الزوائد والأسانيد وسميته (مثير ساكن الغرام إلى روضات دار السلام) فليرجع إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ في صفات أهل الجنة في الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتمخطون ولا يتغوطون.

= ولا يبولون ولا يمتخطون ولا يبزقون أمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك أخلاقهم على خلق رجل واحد على طول أبيهم آدم ستون ذراعاً». انظر صحيح مسلم / ١٨٢٢ وما بعده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة﴾ أنزل الله هذه الآية رداً على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال كقوله ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ قوله ﴿أو كصيب من السماء﴾ فقالوا إن الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال، وقد قال الرازي أن الله تعالى لما بين الدليل كون القرآن معجزاً أورد ههنا شبهة أوردها الكفار قدحاً في ذلك؛ وأجاب عنها، وتقرير الشبهة أنه جاء في القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء؛ فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً؛ وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملاً على حكمة بالغة انتهى.

ولا يخفاك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له ولا دليل عليه؛ وقد تقدمه الى شيء من هذا صاحب الكشاف؛ والظاهر ما ذكرناه أولاً لكون هذه الآية جاءت بعقب المثلين اللذين هما مذكوران قبلها؛ ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحاً في الفصاحة والإعجاز، والحياة تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم، كذا في الكشاف وتبعه الرازي في مفاتيح الغيب، وقال القرطبي الاستحياء الانقباض عن الشيء والإمتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح، وهذا محال على الله انتهى.

وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من ذكر الحياة فقيل ساغ ذلك لكونه واقعاً في الكلام المحكى عن الكفار، وقيل هو من باب المشاكلة كما

تقدم، وقيل هو جار على سبيل التمثيل، وضرب المثل اعتماده وصنعه، والبعوض صغار البق، الواحدة بعوضة سميت بذلك لصغرها، قاله الجوهري وغيره، وهو من عجيب خلق الله في غاية الصغر شديد اللسع وله ستة أرجل وأربعة أجنحة وله ذنب وخرطوم مجوف، وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية.

﴿فما فوقها﴾ يعني الذباب والعنكبوت وما هو أعظم منها في الجثة، قال الكسائي والفراء، الفاء هنا بمعنى إلى، وقيل معناه فما دونها وأصغر منها، وهذا القول أشبه بالآية لأن الغرض بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً للدنيا بجناح البعوضة وهو أصغر منها، وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات فقيل هو أحقر من ذرة، وأجمع من نملة، وأطيش من فراشة، وألح من ذبابة.

﴿فأما الذين آمنوا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿فيعلمون أنه﴾ يعني ضرب المثل ﴿الحق﴾ أي الثابت الواقع موقعه، وهو المقابل للباطل، والحق واحد الحقوق، والمراد هنا الأول، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه ﴿من ربهم﴾ لا يجوز إنكاره لأن ضرب الأمثال من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي بهذا المثل، والإرادة نقيض الكراهة، وقيل هي نزوع أي اشتياق النفس وميلها إلى فعل بحيث يحملها عليه، أو هي قوة هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل، والثاني قبله، وإرادته سبحانه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بالإيقاع أو معنى يوجب هذا الترجيح، والإرادة صفة له ذاتية قديمة زائدة على العلم.

﴿يضل به كثيراً﴾ أي من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً ﴿ويهدي به كثيراً﴾ يعني المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه حق، وهو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بإما فهو خبر من الله سبحانه، وقيل هو حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى، وليس هذا بصحيح، فإن الكافرين لا يقرون بأن في

القرآن شيئاً من الهداية، ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة.

وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا وفي نسبته إلى الله سبحانه وقد نقح الرازي في تفسيره في هذا الموضع تنقيحاً نفيساً، وجوده وطوله وأوضح فروعه وأصوله فليرجع إليه فإنه مفيد جداً، وأما صاحب الكشاف فقد اعتمد هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه لكونه سبباً فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي، وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله يضل يخذل.

﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ يعني الكافرين وقيل المنافقين وقيل اليهود، ولا خلاف في أن هذا من كلام الله سبحانه، قال القرطبي، فيه دلالة لمذهب أهل السنة أن الهدى والضلال من الله، والفسق الخروج عن الشيء، ذكر معنى هذا الفراء، وقد زعم ابن الاعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم «فاسق» وهذا مردود عليه فقد حكى ذلك عن العرب وأنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس والجوهري وابن الانباري وغيرهم.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «خمس فواسق» الحديث، وقال في الكشاف الفسق الخروج عن القصد، ثم قال والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة ١ هـ. وقال القرطبي الفسق في عرف الإستعمال الشرعي الخروج عن طاعة الله عز وجل فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان١ هـ.وهذا هو أنسب للمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض.

قال الرازي في تفسيره واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أو كافر، فعند أصحابنا هو مؤمن، وعند الخوارج أنه كافر، وعند المعتزلة أنه لا مؤمن ولا كافر، واحتج المخالف بقوله (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) قوله (ان المنافقين هم الفاسقون) وقوله (حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) وهذه المسألة طويلة مذكورة في علم الكلام إهـ.

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ
فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿الذين ينقضون عهد الله﴾ النقض إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد، والنقاضة ما نقض من حبل الشعر، وقيل أصل النقض الفسخ وفك المركب، والمعنى متقارب، والمعنى يتركون ويخالفون، وأصل العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال والعهد قيل هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره وهو قوله ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ وقيل هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسن رسله، ونقضهم ذلك ترك العمل به، وقيل بل هو نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر مخلوقاته، ونقضه ترك النظر فيه، وقيل هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس.

﴿من بعد ميثاقه﴾ الضمير للعهد أو لله تعالى، قاله السمين، وعلى الأول مصدر مضاف إلى المفعول، وعلى الثاني مضاف للفاعل، «ومن» لابتداء الغاية فإن ابتداء النقض بعد الميثاق، والميثاق العهد المؤكد باليمين مفعال من الوثاقة وهي الشدة في العقد والربط جميعاً، والجمع المواثيق والمياثيق، واستعمال النقض في إبطال العهد على سبيل الإستعارة.

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ القطع معروف والمصدر في الرحم القطيعة، واختلفوا ما هو الشيء الذي أمر الله بوصله فقيل الأرحام وموالاة

المؤمنين، وقيل وصل القول بالعمل لزوم الجماعات المفروضة، وقيل أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب البعض الآخر، وقيل المراد به حفظ شرائعه وحدوده التي أمر في كتبه المنزلة على ألسن رسله بالمحافظة عليها، وقيل سائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين عبده فهي عامة، وبه قال الجمهور وهو الحق، والأمر هو القول الطالب للفعل، وقيل مع العلو، وقيل مع الاستعلاء، وبه الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر فإنه مما يؤمر به.

﴿ويفسدون في الأرض﴾ يعني بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه، فالمراد بالفساد في الأرض الأفعال والأقوال المخالفة لما أمر الله به كعبادة غيره، والإضرار بعباده، وتغيير ما أمر بحفظه، وبالجملة فكل ما خالف الصلاح شرعاً أو عقلا فهو فساد، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل كان عملهم فساداً لما نقضوا أنفسهم من الفلاح والربح، وعن قتادة قال ما نعلم الله أوعد في ذنب ما أوعد في نقض هذا الميثاق، فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به الله، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث ثابتة في الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهي عن نقض العهد والوعيد الشديد عليه.

﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي المغبونون باهمال العقل عن النظر، واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، وأصل الخسار والخسران النقصان، والخاسر هو الذي نقص نفسه من الفلاح والفوز، قال مقاتل: الخاسرون هم أهل النار، وقال ابن عباس كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام مثل خاسر ومسرف وظالم ومجرم وفاسق فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذم.

﴿كيف﴾ هو للسؤال عن الأحوال، والمراد هنا الأحوال التي يقع عليها

الكفر على الطريق البرهاني من العسر واليسر والسفر والاقامة والكبر والصغر والعز والذل وغير ذلك، وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم، وفيه تبكيت وتعنيف لهم ﴿تكفرون بالله﴾ بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته، والخطاب على طريقة الإلتفات ثم ذكر الدلائل فقال ﴿وكنتم أمواتاً﴾ يعني نطفاً في أصلاب آبائكم وعلقاً ومضغاً ﴿فأحياكم﴾ يعني في الأرحام بنفخ الروح وفي الدنيا ﴿ثم يميتكم﴾ أي عند انقضاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ بالنشور يوم نفخ الصور، واختلف المفسرون في ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، والحاصل أن المراد بالموت الأول العدم السابق، وبالحياة الأولى الخلق، وبالموت الثاني الموت المعهود، وبالحياة الثانية الحياة للبعث، فجاءت الفاء وثم على بابيهما من التعقيب والتراخي على هذا التفسير، وهو أحسن الأقوال، وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم.

قال ابن عطية وهذا القول هو المراد بالآية وهو الذي لا محيد للكفار عنه، وإذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين ثم أحياء في الدنيا ثم أمواتاً فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى، قال غيره والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا، وقيل أن المراد كنتم أمواتاً في ظهر آدم عليه السلام ثم أخرجكم من ظهره كالذر ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم، وقيل كنتم أمواتاً أي نطفاً في اصلاب الرجال ثم يحييكم حياة الدنيا، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم في القبور ثم يميتكم فيها ثم يحييكم الحياة التي ليس بعدها موت، قال القرطبي فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتات وثلاث إحياءات، وكونهم موتى في ظهر آدم وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً في أصلاب الرجال، فعلى هذا يجيء أربع موتات وأربع إحياءات، وقد قيل إن الله أوجدهم قبل خلق آدم كالبهائم وأماتهم فيكون على هذا خمس موتات وخمس إحياءات، وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في الحديث «ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم إلى أن قال:

فينبتون نبات الحبة في حميل السيل» وهو في الصحيح من حديث أبي سعيد.

﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي تردون في الآخرة إلى الله سبحانه فيجازيكم بأعمالكم، قال في الكشاف عطف الأول بالفاء وما بعده بثم، لأن الاحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الاحياء، والاحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به احياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع الى الجزاء أيضاً متراخ عن النشور، انتهى.

ولا يخفاك أنه إن أراد بقوله ان الاحياء الأول قد تعقب الموت انه وقع على ما هو متصف بالموت فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة وإن أراد أنه وقع الاحياء الأول عند أول اتصافه بالموت بخلاف الثاني فغير مسلم فإنه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثاني عند آخر أوقات حياته، فتأمل هذا، وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال لم تكونوا شيئاً فخلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة.

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض﴾ قال ابن كيسان أي خلق من أجلكم ما فيها من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار لتنتفعوا به في مصالح الدين والدنيا، أما الدين فهو الاعتبار والتفكر في عجائب مخلوقات الله الدالة على وحدانيته، وأما الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها، وقيل اللام للاختصاص، وقيل للملك والإباحة، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله ﴿جميعاً﴾ أقوى دلالة على هذا.

وقد استدل بهذه الآية على تحريم أكل الطين لأنه تعالى خلق لنا ما في الأرض، دون نفس الارض، وقال الرازي في تفسيره إن لقائل أن يقول أن في جملة الأرض ما يطلق عليه أنه في الارض فيكون جامعاً للوصفين، ولا شك

أن المعادن داخلة في ذلك، وكذلك عروق الأرض وما يجري مجرى البعض لها، ولأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه إهـ.

وقد ذكر صاحب الكشاف ما هو أوضح من هذا فقال: فإن قلت هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة. قلت إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية جاز ذلك فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية أ هـ. وأما التراب فقد ورد في السنة تحريمه وهو أيضاً ضار ليس مما ينتفع به أكلاً، ولكنه ينتفع به في منافع أخرى، وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل بل كل ما يصدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه، وأما السم القاتل ففيه نفع لأجل دفع الحيوانات المؤذية وقتلها فلا يراد أنه لا نفع فيه.

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد وأقبل على خلقها. وقيل عمد، وقال ابن عباس ارتفع وقال الأزهري صعد أمره، وكذا ذكره صاحب المحكم، وذلك أن الله خلق الأرض أولاً ثم عمد الى خلق السماء، وأصل «ثم» يقتضي تراخياً زمانياً ولا زمان هنا فقيل هي اشارة إلى التراخي بين رتبتي خلق الأرض والسماء. قاله القرطبي، والاستواء في اللغة الاعتدال والانتصاب والاستقامة، وضده الاعوجاج قاله في الكشاف والرازي، ويطلق على الإرتفاع والعلو على الشيء، قال تعالى: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ وقال ﴿لتستووا على ظهوره﴾ وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية.

وقد قيل ان هذه الآية من المشكلات، وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها وترك التعرض لتفسيرها، وخالفهم آخرون، وقد استدل بقوله ﴿ثم استوى﴾ على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء، وكذلك الآية التي في ﴿حم﴾ السجدة وقال تعالى في النازعات ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ فوصف خلقها ثم قال ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض، وكذلك قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي خلق السموات

والأرض﴾ وقد قيل أن خلق جرم الأرض متقدم على السماء، ودحوها متأخر وقد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم، وهذا جمع جيد لا بد من المصير إليه، ولكن خلق ما في الأرض لا يكون إلا بعد الدحو والآية المذكورة هنا دلت على أنه خلق ما في الأرض قبل خلق السماء، وهذا يقتضي بقاء الإشكال وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع، قاله الشوكاني.

قلت: ذكر رحمه الله في السورتين المذكورتين أن «ثم» للتراخي الرتبي لا للتراخي الزماني، أو أن «بعد» بمعنى مع كما في قوله ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ أو أنها بمعنى قبل كقوله ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ أي من قبل الذكر فيزول ما ذكره رحمه الله تعالى من بقاء الإشكال.

وقال الفراء الإستواء في كلام العرب على وجهين (أحدهما) أن يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته أو يستوي من اعوجاج، وقال البيهقي الاستواء بمعنى الإقبال صحيح لأن الإقبال هو القصد، والقصد هو الإرادة وذلك جائز في صفات الله، وقال سفيان بن عيينة أي قصد إليها وقيل علا دون تكييف ولا تحديد واختاره الطبري، وقال أبو العالية استوى ارتفع وقال قتادة إن السماء خلقت أولاً، حكاه عنه الطبري، والبحث في ذلك يطول، وقد استوفاه الرازي في تفسيره، وأجاب عنه بوجوه ثم قال: الجواب الصحيح أن قوله «ثم» ليس للترتيب ههنا، وإنما هو على جهة تعديد النعم والله أعلم.

﴿فسواهن﴾ أي عدل خلقهن فلا اعوجاج فيه ولا فطور، وقيل معناه سوى سطوحهن بالإملاس وقيل جعلهن سواء ﴿سبع سموات﴾ مستويات لا صدع فيها ولا فطور، وفي هذا التصريح بأن السموات سبع، وأما الأرض فلم يأت في ذكر عددها إلا قوله تعالى ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ فقيل في العدد وقيل في غلظهن وما بينهن. وقال الماوردي أن الأرض سبع، ولكن لم يفتق بعضها من بعض، والصحيح أنها سبع كالسموات: وعلى أنها سبع أرضين متفاصلة

بعضها فوق بعض تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا، ولا تلزم من في غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز، وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم للضوء منها قولان (أحدهما) أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها، وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة (والثاني) أنهم لا يشاهدون السماء فإن الله تعالى خلق لهم ضياء يستمدون منه، وهذا قول من جعل الأرض كروية، وفي الآية قول ثالث حكاه الطيبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض، تفرق بينها البحار وتظل جميعها السماء انتهى، وسيأتي تحقيق ما هو الحق في آخر سورة الطلاق إن شاء الله تعالى.

وقد ثبت في الصحيح قوله ﷺ «من أخذ من الأرض شبراً ظلماً طوقه الله من سبع أرضين»، وهوثابت من حديث عائشة وسعيد بن زيد.

وقد أطنب الرازي في تفسيره في بيان السموات هل هي سبع أو ثمان، وذكر مذاهب الحكماء في ذلك وأجابهم بوجوه ثم قال: أعلم أن هذا الخبط مما ينبهك على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى إدراك هذه الأشياء، وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها فوجب الإقتصار فيه على الدلائل السمعية.

فإن قال قائل: فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفي العدد الزائد؟ قلنا الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد انتهى، وفي هذا إشارة إلى ما ذكره الحكماء من الزيادة على السبع.

ونحن نقول أنه لم يأتنا عن الله ولا عن رسوله الا السبع فنقتصر على ذلك ولا نعمل بالزيادة الا إذا جاءت من طريق الشرع، ولم يأت شيء من ذلك، عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة في هذه الآية قالوا إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء

فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها سبع أرضين في يومين الأحد والإثنين، فخلق الأرض على حوت وهو الذي ذكره في قوله ﴿ن والقلم﴾ والحوت قائم على ظهر صفاة والصفاة ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت فذلك قوله تعالى ﴿وجعل لها رواسي أن تميد بكم﴾ وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وسخرها وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء، وذلك قوله ﴿أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض﴾ إلى قوله ﴿وبارك فيها﴾ يقول أنبت شجرها فيها ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ يقول أقوات أهلها في أربعة أيام سواء للسائلين يقول من سأل، فهكذا الأمر ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ قال خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش أخرجه البيهقي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن جرير.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة في الصحيح قال أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيدي فقال «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيه الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلثاء وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر[1]».

---

(١) هناك رجال مغرمون بالتجديد، فلم يجدوا غير حديث الرسول ﷺ يتخذونه مطية لهم: يردونه تارة، ويؤولونه تارة، فلما رأوا في هذا الحديث أن الخلق بدأ يوم السبت وانتهى يوم الجمعة، فتصير سبعة أيام، وقد روي في الصحيح، طاروا فرحاً، وقالوا كيف يصح وهو معارض بالآيات القائلة أن الخلق في ستة =

وقد ثبت عن النبي ﷺ من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث في وصف السموات وإن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام، وأنها سبع سموات، وأن الأرض سبع أرضين، ولم يأت في التنزيل ولا في السنة المطهرة تصريح بأن فيهن من يعقل من العوالم والاوادم وأنبيائهم، والآثار من الصحابة ومن بعدهم إن جاءت بسند صحيح لا تصلح للاحتجاج على ذلك، فكيف بما لم يصح سنده أو صح ولكن لم يتابع عليه أو توبع عليه ولكن لم يساعده نص من الله ورسوله، وكذلك ثبت في وصف السماء آثار من جماعة من الصحابة وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور بعض ذلك في تفسير هذه الآية، وإنما تركنا ذكره هنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص بل هو متعلق بما هو أعم منها.[1]

﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات وأنما أثبت سبحانه لنفسه العلم بكل شيء لأنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما ثبت أنه خالقه.

= أيام، وعموا عن نص الآيات والحديث، فالآيات تنص على أن خلق السموات والأرض في ستة أيام وأما الحديث فيتفق معها تماماً، لأنه يقول إن الذي خلق في السابع إنما هو آدم وآدم غير السموات والأرض، وإنما هو أصل النوع الذي يعمر الأرض، وتسخر له السموات وما فيها.

(١) جاء في فتح الباري ٢٩٣/٦.

روى احمد والترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ان بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وان سمك كل سماء كذلك وان بين كل أرض وأرض خمسمائة عام» وأخرجه اسحق بن راهويه والبزار من حديث ابي ذر نحوه ولابي داود والترمذي من حديث العباس بن عبد المطلب مرفوعاً «بين كل سماء وسماء احدى أو اثنتان وسبعون سنة» وجمع بين الحديثين بأن اختلاف المسافة بينهما باعتبار بطء السير وسرعته.

وروى ابن جرير من طريق شعبة عن عمر بن مرة عن ابي الضحى عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ قال: «في كل أرض مثل ابراهيم، ونحو ما على الأرض من الخلق، هكذا أخرجه مختصراً واسناده صحيح. وأخرجه الحاكم والبيهقي من طريق عطاء بن السائب عن أبي الضحى مطولاً، وأوله أي سبع أرضين، في كل أرض آدم كآدمكم، ونوح كنوحكم، وابراهيم كابراهيمكم، وعيسى كعيسى. ونبي كنبيكم» قال البيهقي اسناده صحيح، إلا انه شاذ بمرة، وروى ابن ابي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: لو حدثتكم بتفسير هذه الآية لكفرتم وكفركم تكذيبكم بها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وإذ قال ربك﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال، وكل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، وقيل إذ زائدة والأول أوجه ﴿للملائكة﴾ جمع ملك بوزن فعل قاله ابن كيسان، وقيل جمع ملاك بوزن مفعل، قاله أبو عبيده، وأراد بالملائكة الذين كانوا في الأرض، وذلك أن الله تعالى خلق الأرض وأسكن فيها الجن واسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجن في الأرض فبعث اليهم طائفة من الملائكة فطردتهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، وأقاموا مكانهم[1]، وقيل: القول لمطلق الملائكة وكان ذلك تعليماً للمشاورة وتعظيماً لآدم، وبياناً لكون الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره على شره، واللام في ﴿للملائكة﴾ للتبليغ وهو أحد المعاني التي جاءت لها اللام.

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي خالق بدلاً منكم ورافعكم إلي، وجاعل هنا من جعل المتعدي إلى مفعولين، وذكر المطرزي أنه بمعنى الخالق، وذلك يقتضي أنه متعد إلى مفعول واحد، وصيغة إسم الفاعل بمعنى المستقبل، والأرض هنا هي هذه الغبراء، ولا يختص ذلك بمكان دون مكان، وقيل إنها مكة كما ورد في مرسل ضعيف، وقال ابن كثير أنه مدرج، والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى المخلوف أي يخلفه غيره، قيل هو آدم كما دل عليه السياق، وقيل كل من له خلافة في الارض، ويقوي الأول قوله ﴿خليفة﴾ دون الخلائف واستغنى بذكر آدم عن ذكر من

---

(١) لم نعثر على دليل على هذا القول.

بعده، والصحيح أنه إنما سمي خليفة لأنه خليفة الله في أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه، قيل خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة ولكن لاستخراج ما عندهم، قيل وفيه إرشاد عباده إلى المشاورة وأن الحكمة تقتضي اتخاذ ما يغلب خيره وإن كان فيه نوع شر، وأنه لا رأي مع وجود النص، وهو أصل في المسائل التعبدية.

قال بعض المفسرين أن في الكلام حذفاً والتقدير إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا فكرهوا ذلك و ﴿قالوا﴾ أي أستكشافاً عما خفي عليهم من الحكمة الباهرة، وليس باعتراض على الله ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله ﴿بل عباد مكرمون﴾ وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله أو تلق من اللوح المحفوظ أو مقياس لأحد الثقلين على الآخر ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي بمقتضى القوة الشهوانية، والفساد ضد الصلاح ﴿ويسفك الدماء﴾ بغير حق بمقتضى القوة الغضبية كما فعل الجن، وسفك الدم صبه، قاله ابن فارس والجوهري والمهدوي ولا يستعمل السفك إلا في الدم.

﴿ونحن نسبح﴾ أي نقول سبحان الله وبحمده وهي صلاة الخلق وعليها يرزقون، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل قال «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده»[1] أخرجه مسلم، وقال ابن عباس كل ما جاء في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلي لك، وأصل التسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم، فيكون المعنى ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة ﴿بحمدك﴾ أي حامدين لك أو متلبسين بحمدك فإنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك ﴿ونقدس لك﴾ وأصل التقديس التطهير أي ونطهرك عن النقائص وعن كل ما لا يليق بك من سوء ومما نسبه إليك الملحدون، وافتراه الجاحدون،

---

(١) مسلم /٢٧٣١.

وذكر في الكشاف أن معنى التسبيح والتقديس واحد وهو تبعيد الله من السوء، وفي القاموس وغيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما ذكرناه، والتأسيس خير من التأكيد خصوصاً في كلام الله سبحانه، وقيل معناه نطهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك والأول أولى.

وعن ابن مسعود وناس من الصحابة نقدس لك أي نصلي لك، وقال مجاهد نعظمك ونكبرك واللام زائدة، والجملة حال أي فنحن أحق بالاستخلاف.

ولما كان سؤالهم واقعاً على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم أجاب الله سبحانه عليهم فقال ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل، لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقاً بأن يسلم له ما يصدر عنه، وعلى من لا يعرف أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة، ولم يذكر متعلق قوله ﴿تعلمون﴾ ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويقر بالقصور.

عن ابن عباس قال: إن الله أخرج آد م من الجنة قبل أن يخلقه قال وقد كان فيها أي في الأرض قبل أن يخلق بألفي عام: الجن بنو الجان فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فلما قال ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ كما فعل اولئك الجان فقال ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أخرجه الحاكم وصححه عنه.

وفي الباب آثار من الصحابة كثيرة، وعن قتادة كان في علم الله أنه سيكون من الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، وقيل أعلم أنهم

يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم، وقيل أعلم من وجود المصلحة والحكمة ما لا تعلمون أنتم.

وقد ثبت في كتب الحديث المعتبرة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة، في صفة خلقه سبحانه لآدم وهي موجودة فلا نطول بذكرها، قيل خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم ذلك السؤال فيجابون بذلك الجواب، وقيل لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم، وظاهره أنهم استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض لكونهم مظنة للإفساد في الأرض، وإنما قالوا هذه المقالة قبل أن تتقدم لهم معرفة ببني آدم بل قبل وجود آدم، فضلاً عن ذريته لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه، لأنهم لا يعلمون الغيب، قال بهذا جماعة من المفسرين.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض وهو وجهها وقيل لأنه كان آدم اللون، والأدمة هي السمرة، ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الأشياء كلها قال في الكشاف وما آدم إلا اسم أعجمي وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالخ وفالع وأشباه ذلك اهـ واشتقاقه من الأدمة وغيرها تعسف قاله البيضاوي، وقال السمين بعد كلام طويل أن ادعاء الاشتقاق فيه بعيد لأن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاق ولا تصريف اهـ.

والأسماء هي العبارات والمراد أسماء المسميات قال بذلك أكثر العلماء، وهو المعنى الحقيقي للإسم والتأكيد بقوله ﴿كلها﴾ يفيد أنه علمه جميع الأسماء ولم يخرج؛ عن هذا شيء منها كائناً ما كان، وقال ابن جرير إنها أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم، ثم رجح هذا وهو غير راجح، وقيل صنعة كل شيء قال ابن عباس علمه إسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة، وقيل خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك وعلم آدم الأسماء كلها فقال يا آدم هذا بعير، وهذا فرس، وهذه شاة حتى أتى على آخرها، وقيل علمه اللغات كلها أي جميع اللغات لكن بنوه تفرقوا في اللغات فحفظ بعضهم العربية ونسي

غيرها، والمراد علم الأسماء لفظاً ومعنى، مفرداً ومركباً، حقيقة ومجازاً، والمراد بالإسم ما يدل على معنى ذاتاً كان أو عرضاً، فهو أعم من الإسم والفعل والحرف، وقال في المظهري وعندي ان الله علم آدم الأسماء الإلٰهية كلها ثم رجح هذا بكلام طويل وهو غير راجح مع ما فيه من البعد والتكلف، ولم يقل به أحد من المفسرين، ويأباه ظاهر النظم وسياقه، واستدل بالآية من قال إن اللغات توقيفية وضعها الله وعلمها بالوحي.

﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ يعني تلك الأشخاص، وإنما قال عرضهم ولم يقل عرضها لتغليب العقلاء عليهم، واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات أو الأسماء، والظاهر الأول لأن عرض نفس الأسماء غير واضح، وعرض الشيء إظهاره، قال ابن عطية والذي يظهر أن الله علم آدم الأسماء وعرض عليه مع ذلك الأجناس أشخاصاً ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن أسماء مسمياتها التي قد تعلمها آدم فقال لهم آدم هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، قال الماوردي فكان الأصح توجه العرض إلى المسمى، ثم في زمن عرضهم قولان (أحدهما) أنه عرضهم بعد أن خلقهم (الثاني) أنه صورهم بقلوب الملائكة ثم عرضهم.

﴿فقال أنبؤني﴾ أي أخبروني أمر تعجيز، والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة وإيثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها ﴿بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ أني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منهم وأعلم، أمره سبحانه للملائكة بهذا لقصد التبكيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك ﴿قالوا﴾ يعني الملائكة ﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك وذلك لما ظهر عجزهم، وفيه إشعار بأن سؤالهم كان استفساراً، ولم يكن اعتراضاً ﴿وسبحان﴾ مصدر لا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله كمعاذ الله ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ أي إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا ﴿إنك أنت العليم﴾ أي بخلقك، وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات ﴿الحكيم﴾ أي في أمرك. وله معنيان ﴿أحدهما﴾ أنه القاضي العدل ﴿الثاني﴾ المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قال﴾ يعني الله تعالى ﴿يا آدم﴾ استدل به على أن آدم نبي متكلم ﴿أنبئهم بأسمائهم﴾ وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شيء باسمه وذكر وجه الحكمة التي خلق لأجلها بأن قال لهم هذا الجرم يسمى القصعة وحكمته وضع الطعام فيه وهكذا ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ فيه دليل على مزية العلم، وأنه شرط في الخلافة وفضل آدم على الملائكة، قال الإمام لما أراد الله إظهار فضل آدم على الملائكة لم يظهره إلا بالعلم فلو كان في الإمكان شيء أشرف من العلم كان إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم، ولذلك أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له لأجل فضيلة العلم.

قلت ويؤخذ من هذا استحباب القيام للعالم، وقال الطيبي أفادت هذه الآية علم اللغة فوق التخلي بالعبادة فكيف علم الشريعة.

﴿قال﴾ يعني الله تعالى ﴿ألم أقل لكم﴾ يا ملائكتي ﴿أني أعلم غيب السموات والأرض﴾ يعني ما كان وما سيكون، وذلك أنه سبحانه علم أحوال آدم قبل ان يخلقه، وفي اختصاصه بعلم غيب السموات والأرض رد لما يتكلفه كثير من العباد من الاطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين والكهان، وأهل الرمل والسحر والشعوذة ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ أي ما تظهرون وما تسرون كما يفيده معنى ذلك عند العرب، ومن فسره بشيء خاص فلا يقبل منه ذلك الا بدليل.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ قيل هذا خطاب مع ملائكة الارض والاصح انه خطاب مع جميع الملائكة وهو الظاهر من قوله ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ والسجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع، وغايته وضع الوجه على الأرض، والإسجاد إدامة النظر، وفي هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكته وقيل ان السجود كان لله ولم يكن لآدم، وإنما كانوا مستقبلين له عند السجود، ولا ملجأ لهذا فان السجود للبشر قد يكون جائزاً في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح، وقد دلت هذه الآية على ان السجود لآدم وكذلك الآية الاخرى أعني قوله ﴿فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ وقال تعالى ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً﴾ فلا يستلزم تحريمه لغير الله في شريعة نبينا محمد ﷺ ان يكون كذلك في سائر الشرائع.

ومعنى السجود هنا وضع الجبهة على الارض واليه ذهب الجمهور، قال قوم هو مجرد التذلل والانقياد والاول أولى، وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الاسماء أم بعده؟ وقد أطال البحث في ذلك البقاعي في تفسيره، وظاهر السياق أنه وقع التعليم وتعقبه الامر بالسجود وتعقبه اسكانه الجنة ثم إخراجه منها واسكانه الارض.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة في تفضيل الأنبياء على الملائكة، وهذه القصة ذكرت في القرآن في سبع سور، في هذه السورة والاعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص، ولعل السر في تكريرها تسلية رسول الله ﷺ فإنه كان في محنة عظيمة في قومه وأهل زمانه، فكأنه قال أو لا ترى أن أول الأنبياء وهو آدم كان في محنة عظيمة للخلق، ذكره الخطيب والظاهر أنه لإظهار شرف آدم وفضله على سائر الخلق حتى الملائكة، وليس في هذه القصة ما يدل على

محنة آدم.

﴿فسجدوا﴾ وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، قيل أول من سجد لآدم جبرائيل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون، والله أعلم ﴿إلا ابليس﴾ استثناء متصل، لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور، قال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين كان من الجن الذين كانوا في الأرض فيكون الاستثناء على هذا منقطعاً، واستدلوا على هذا بقوله تعالى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وبقوله تعالى ﴿إلا إبليس كان من الجن﴾ والجن غير الملائكة[1] وأجاب الأولون بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس عن جملة الملائكة لما سبق في علم الله من شقائه عدلاً منه ﴿لا يسئل عما يفعل﴾ وليس في خلقه من نار ولا تركب الشهوة فيه حين غضب الله عليه ما يدفع أنه من الملائكة، وأيضاً على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلاً تغليباً للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذي هو فرد واحد بين أظهرهم، وسمي به لأنه أبلس من رحمة الله أي يئس وكان اسمه عزازيل بالسريانية، وبالعربية الحرث، فلما عصى غير اسمه فسمي ابليس وغيرت صورته.

قال ابن عباس كان ابليس من الملائكة بدليل أنه استثناه منهم، وقيل أنه من الجن وأنه أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، والأول أصح لأن الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناه منهم وعليه أكثر المفسرين كالبغوي والواحدي والقاضي، وقالوا المعنى كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً أو لأن الملائكة قد يسمون جناً لاختفائهم.

﴿أبى﴾ امتنع من فعل ما أمر به من السجود فلم يسجد، فيه رد على

(١) إبليس كان من الجن، ولم يكن من الملائكة ولا طاوس الملائكة كما يزعمون، والأمر بالسجود كان موجهاً إلى الملائكة والجن، وإنما جاء القرآن بذكر الملائكة فقط اكتفاء بذكر الأشرف، وذلك كما تقول: سار خلف نعش الزعيم: الوزراء والأمراء والكبراء، مع أن هذا لا ينفي أنه سار خلفه طبقات العمال والفلاحين والتلاميذ.

الجبرية إذ لا يوصف بالإباء إلا من هو قادر على المطلوب ﴿واستكبر﴾ أي تعظم عن السجود لآدم والاستكبار والاستعظام للنفس، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ «ان الكبر بطر الحق وغمط الناس» وفي رواية غمص الناس، وإنما قدم الإباء عليه وإن كان متأخراً عنه في الترتيب لأنه من الأفعال الظاهرة بخلاف الاستكبار فإنه من أفعال القلوب، واقتصر في سورة ص على ذكر الاستكبار، وفي سورة الحجر على ذكر الإباء ﴿وكان من الكافرين﴾ أي من جنسهم في علم الله تعالى، وإنما وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته، وقيل إن ﴿كان﴾ هنا بمعنى صار قال ابن فورك أنه خطأ ترده الأصول.

وأفادت الآية استقباح التكبر والخوض في سر الله تعالى، وإن الأمر للوجوب، وان الذي علم الله من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة إذ العبرة بالخواتيم وإن كان بحكم الحال مؤمناً، وهذه مسئلة الموافاة المنسوبة إلى أبي الحسن الأشعري ومعناها أن العبرة بالإيمان الذي يوافي العبد عليه أي يأتي متصفاً به في آخر حياته وأول منازل آخرته، وحيث أطلقت مسئلة الموافاة فالمراد بها ذلك، وهي مما اختلف فيها الشافعية والحنفية والماتريدية، وللسبكي فيها تأليف مستقل، ومن فروعها أنه يصح أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، ويبتنى عليها مسئلة الإحباط في الأعمال بالردة.

قال الخفاجي مسئلة الموافاة من أمهات المسائل وفصلها النسفي في شرح التمهيد فقال ما حاصله ان الشافعي يقول ان الشقي شقي في بطن أمه وكذا السعيد فلا تبديل في ذلك ويظهر ذلك عند الموت ولقاء الله وهو معنى الموافاة والماتريدية يقولون يمحو الله ما يشاء ويثبت فيصير السعيد شقياً والشقي سعيداً إلا أنهم يقولون من مات مسلماً مخلد في الجنة ومن مات كافراً مخلد في العذاب باتفاق الفريقين فلا ثمرة للخلاف أصلاً، إلا أن يقال إن من كان مسلماً وورث أباه المسلم إذا مات كافراً يرد ما أخذه إلى بقية الورثة المسلمين، وكذا الكافر وتبطل جميع أعماله، والمنقول في المذهب خلافه فحينئذ لا ثمرة له إلا أنه يصلح منه أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله بقصد التعليق في المستقبل حتى

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ
ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا
ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن
رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)﴾

لا يكون شكا في الايمان حالاً، ولا حاجة لتأويله، والماتريدية يمنعون ذلك مطلقاً انتهى.

﴿وقلنا﴾ هو من خطاب الأكابر والعظماء أخبر سبحانه عن نفسه بصيغة الجمع لأنه ملك الملوك ﴿يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي اتخذ الجنة مأوى ومنزلاً ومسكناً وهو محل السكون، وأما ما قاله بعض المفسرين أن قوله ﴿أسكن﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا يكون ملكاً، وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلاً منزلاً له فإنه لا يملكه بذلك وإن له أن يخرجه منه، فهو معنى عرفي، والواجب الأخذ بالمعنى العربي إذا لم يثبت في اللفظ حقيقة شرعية.

والزوج هي حواء بالمد وهي في اللغة الفصيحة بغير هاء وقد جاء بها قليلاً كما في صحيح مسلم قال يا فلان «هذه زوجتي فلانة» الحديث، وكان خلق حواء من ضلعه الأيسر فلذا كان كل إنسان ناقصاً ضلعاً من الجانب الأيسر، فجهة اليمين أضلاعها ثمانية عشر، وجهة اليسار أضلاعها سبعة عشر، وقصة خلقها مبسوطة في كتب السنة لا نطول بذكرها هنا فيه دلالة عن أن الجنة مخلوقة الآن.

واختلفوا في الجنة التي أمر آدم بسكناها فقيل إنها جنة كانت في الأرض، وقيل هي دار الجزاء والثواب، لأنها المعهودة، وقيل هي جنة بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان، خلقها الله امتحاناً لآدم، وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما في قوله تعالى ﴿اهبطوا مصراً﴾ لما أن خلق آدم كان في الأرض بلا خلاف، ولم يذكر في هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى

بالذكر والتذكير، لما أنه من أعظم النعم، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس وقيل أنها كانت في السماء السابعة بدليل ﴿اهبطوا﴾ ثم أن الأهباط الأول كان منها الى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض، وقيل الكل ممكن والأدلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع، قاله أبو السعود.

قلت وقد استوعب الحافظ ابن القيم في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح دلائل الفريقين من غير تصريح برجحان أحد القولين والله تعالى أعلم.

﴿وكلا منها﴾ أي اجمعا بين الإستقرار والأكل من رزق الجنة ﴿رغداً﴾ رغد العيش اتسع ولان أي رزقاً واسعاً ليناً، وأرغد القوم أخصبوا الرغيدة الزبد ﴿حيث شئتما﴾ أي في أي مكان من الجنة شئتما، وسع الأمر عليهما إزاحة للعلة والعذر في التناول من الشجرة المنهى عنها من بين أشجارها التي لا تنحصر ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ يعني للأكل، والقرب الدنو.

قال الأصمعي: والنهي عن القرب فيه سد للذريعة وقطع للوسيلة ولهذا جاء به عوضاً عن الأكل، ولا يخفى أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل لأنه قد يأكل من ثمرة الشجرة من هو بعيد عنها إذا حمل إليه، فالأولى أن يقال المنع من الأكل مستفاد من المقام، والشجر ما كان له ساق من نبات الأرض وواحده شجرة.

واختلف أهل العلم في تعيين هذه الشجرة فقيل هي الكرم وقيل هي السنبلة قاله ابن عباس، وله عنه طريق صحيحة، وقيل التين، وقيل الحنطة، وقيل اللوز، وقيل النخلة، وقيل هي شجرة القلم، وقيل الكافور، وقيل الأترج، وقيل هي شبه البر وتسمى الدعة، وهذا مروي عن جماعة من الصحابة فمن بعدهم، وقيل عن جنس من الشجرة، وقيل ليس في ظاهر الكلام ما يدل على التبيين إذ لا حاجة إليه لأنه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصوداً لا يجب بيانه.

﴿فتكونا من الظالمين﴾ يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما فمن جوز ارتكاب الذنوب على الأنبياء قال ظلم نفسه بالمعصية، والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه، ومن لم يجوز ذلك على الأنبياء حمل الظلم على أنه فعل ما كان الاولى ان لا يفعله، وكلام أهل العلم في عصمة الانبياء واختلاف مذاهبهم في ذلك مدون في مواطنه، وقد أطال البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع فليرجع اليه فانه مفيد.

﴿فأزلهما الشيطان﴾ أي استزل آدم وحواء ﴿عنها﴾ أي الجنة ودعاهما إلى الزلة وهي الخطيئة أي إستزلها وأوقعهما فيها، وقيل من الإزالة وهي التنحية أي نحاهما وقيل من الزوال.

وقد اختلف أهل العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في إزلالهما فقيل أنه كان ذلك بمشافهة منه لهما واليه ذهب الجمهور، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ والمقاسمة ظاهرها المشافهة، وقيل لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة، والمفاعلة ليست على بابها بل للمبالغة وقيل غير ذلك.

﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية، وقيل الضمير للجنة، وعلى هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما، وانما نسب ذلك إلى الشيطان لانه هو الذي تولى اغواء آدم حتى أكل من الشجرة ﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي انزلوا إلى الارض، خطاب لآدم وحواء وخوطبا بما يخاطب به الجمع لان الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية، وقيل انه خطاب لهما ولابليس وللحية.

فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود، وأهبطت حواء بجدة وابليس بالايلة من أعمال البصرة والحية باصبهان، وقيل خطاب

لهما ولذريتهما لانهما لما كانا أصل هذا النوع الانساني جعلا بمنزلته، ويدل على ذلك قوله (بعضكم لبعض عدو) فإن هذه الجملة الواقعة حالاً مبيناً للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبوط تفيد ذلك يعني العداوة التي بين المؤمنين من ذرية آدم وبين ابليس.

واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾ والعدو خلاف الصديق وهو من عدا اذا ظلم، والعدوان الظلم الصراح وقيل إنه مأخوذ من المجاوزة يقال عداه اذا جاوزه، والمعنيان متقاربان، فإن من ظلم فقد تجاوز.

قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة، والعداوة التي بين ذرية آدم والحية هي ما روى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا، ما سالمناهن منذ حاربناهن» أخرجه أبو داود، وله عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثارهن فليس مني» وفي رواية إلا الجان الأبيض «الذي كأنه قضيب فضة» وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة جناً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان «وفي رواية» أن بهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم منها شيئاً فحرجوا عليه ثلاثاً فإن ذهب وإلا فاقتلوه فانه كافر».

﴿ولكم في الارض مستقر﴾ المراد بالمستقر موضع الإستقرار، ومنه ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ وقد يكون بمعنى الاستقرار، ومنه ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ فالآية محتملة للمعنيين ومثلها قوله ﴿جعل لكم الأرض قراراً﴾ ﴿ومتاع﴾ المتاع ما يستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها أي بلغة ومستمتع ﴿الى حين﴾ أي إلى وقت انقضاء آجالكم.

واختلف المفسرون في قوله ﴿حين﴾ فقيل إلى الموت وقيل إلى قيام الساعة، وأصل معنى الحين في اللغة الوقت البعيد، ومنه ﴿هل أتى على

الإنسان حين من الدهر﴾ والحين الساعة ومنه ﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ والحين القطعة من الدهر ومنه ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ أي حتى تفنى آجالهم ويطلق على السنة وقيل على ستة أشهر، ومنه ﴿تؤتى اكلها كل حين﴾ ويطلق على المساء والصباح ومنه ﴿حين تمسون وحين تصبحون﴾ قال ابن العربي الحين المجهول لا يتعلق به حكم والحين المعلوم سنة.

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ ومعنى التلقي أخذه لها وقبوله لما فيها وعلمه بها وقيل فهمه لها وفطانته لما تضمنته(1)، وأصل معنى التلقي الاستقبال أي أستقبل الكلمات الموحاة إليه، وقيل إن معنى تلقي تلقن، ولا وجه له في العربية، واختلف السلف في تعيين هذه الكلمات فعن ابن عباس قال هي قوله ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وعنه قال علم شأن الحج وهي الكلمات، وعن عبد الله بن زيد قال لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت أرحم الراحمين، وروي نحوه عن أنس وسعيد بن جبير ﴿فتاب عليه﴾ أي فتجاوز عنه وغفر له، وأصل التوبة من تاب يتوب إذا رجع ﴿إنه هو التواب﴾ أي الرجاع على عبادة بقبول التوبة ﴿الرحيم﴾ بخلقه.

---

(١) ألم تخلقني بيدك؛ قال: بلى: قال: ألم تنفخ فيّ من روحك قال: بلى قال: ألم تسبق رحمتك إليّ قبل غضبك؟ قال: بلى، قال: ألم تسجد لي ملائكتك وتسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: اي رب [أرأيت] ان تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم.
وفي رواية أنه قال: اللهم لا إله الا انت، سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، إنك خير الغافرين، اللهم لا إله الا انت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني، فأنت خير الراحمين [اللهم] لا إله الا انت، سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي. إنك انت التواب الرحيم.. رواه ابن ابي نجيع عن مجاهد.

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ
بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ إما في زمان واحد أو في أزمنة متفرقة، لأن المراد الاشتراك في أصل الفعل، وهذا هو الفرق بين جاءوا جميعاً، وجاءوا معاً يعني هؤلاء الأربعة أو آدم وحواء وذريتهما، وكرر قوله اهبطوا للتوكيد والتغليظ، وقيل إنه لما تعلق به حكم غير الحكم الأول كرره، ولا تزاحم بين المقتضيات، فقد يكون التكرير للأمرين معاً أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وعنه ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى أهبط من الجنة، وعن الحسن قال لبث آدم في الجنة ساعة من نهار. تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا.

وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم[1]، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»، وقد ثبت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما في محاجة آدم وموسى عليهما السلام، وحج موسى بقوله أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال أول ما أهبط الله آدم إلى أرض الهند وعنه إلى أرض بين مكة والطائف، وعن علي أطيب ريح الأرض الهند

(١) المستدرك ٤/١٧٥.

هبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة، وقد روي عن جماعة من الصحابة أن آدم أهبط إلى أرض الهند، منهم جابر وابن عمر وعلي، وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة وما أهبط معه وما صنع عند وصوله إلى الأرض، ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك، وقد ذكر طرفاً منها الحافظ ابن القيم في الحادي.

﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي رشد وبيان وشريعة، وقيل كتاب ورسول، وقيل التوفيق للهداية ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلهم، وقيل عند الفزع الأكبر ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي على ما خلفوا وفاتهم من الدنيا، وقال ابن جبير لا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون للموت، والخوف هو الذعر، ولا يكون إلا في المستقبل، والحزن ضد السرور، قال اليزيدي حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم.

﴿والذين كفروا﴾ أي جحدوا عطف على ﴿فمن تبع﴾ قسيم له ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي بالقرآن ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي يوم القيامة وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران والملازمة ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، وبقي قسم ثالث وهو من آمن ولم يعمل الطاعات فليس داخلاً في الآيتين، وقد تقدم تفسير الخلود.

﴿يا بني اسرائيل﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله، لأن إسر في لغتهم هو العبد، وإيل هو الله، وكذلك جبريل هو عبد الله وميكائيل عبد الله، قال القفال إن إسر بالعبرانية في معنى إنسان فكأنه قيل رجل الله، وقيل معناه صفوة الله، والأول أولى، والمعنى يا أولاد يعقوب.

والخطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب في أيام محمد ﷺ، قيل أن له إسمين. وقيل أن اسرائيل لقب له وهو اسم أعجمي غير منصرف، وقد تصرفت فيه العرب بلغات كثيرة أفصحها لغة القرآن وهي

قراءة الجمهور، استدل به على دخول أولاد الأولاد في الوقف على الأولاد.

﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي اشكروا، وإنما عبر عنه بالذكر لأن من ذكر النعمة فقد شكرها، ومن جحدها فقد كفرها: والذكر بالكسر هو ضد الإنصات، وبالضم ضد النسيان، وجعله بعض أهل العلم مشتركاً بين ذكر القلب واللسان، وقال الكسائي ما كان بالقلب فهو مضموم الذال، وما كان باللسان فهو مكسور الذال.

قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية اذكر واشكر نعمتي فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة وهي اسم جنس، وحدها أنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، وقيل المنفعة الحسنة والأول أولى، والكلام على قيود هذا الحد وضروب النعمة مستوفى في تفسير الرازي فليراجعه.

والنعم المخصوصة ببني إسرائيل كثيرة من جملتها أنه جعل منهم أنبياء وأنزل عليهم الكتاب والمن والسلوى، وأخرج لهم الماء من الحجر ونجاهم من آل فرعون وفلق لهم البحر وأغرق فرعون وظللهم بالغمام وغير ذلك من نعم كثيرة، وقيل إن هذه النعمة هي إدراك المخاطبين بها زمن محمد صلى الله عليه وسلم والأول أولى قال ابن الفارس فيه دليل على ان لله على الكفار نعمة خلافاً لمن قال لا نعمة لله عليهم، وإنما النعمة للمؤمنين.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ أي امتثلوا أمري، يقال أوفى ووفى مشدداً، ووفى مخففاً ثلاث لغات بمعنى واحد وقيل يقال وفيت ووفيت بالعهد وأوفيت بالكيل لا غير، واختلف أهل العلم في العهد المذكور في هذه الآية ما هو فقيل هو المذكور في قوله تعالى ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ وقيل هو ما في قوله ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ وقيل هو قوله ﴿ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ وقيل أن المراد من هذا العهد ما أثبته في الكتب المتقدمة من وصف محمد ﷺ وإنه سيبعثه على ما صرح بذلك في سورة المائدة بقوله ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ الى قوله ﴿لأكفرن عنكم سيآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وقال في سورة الأعراف

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾.

وأما عهد الله معهم فهو أن ينجز لهم ما وعدهم من وضع ما كان عليهم من الإصر والاغلال التي كانت في أعناقهم، وقال ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق﴾ الآية وقال ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وقال ابن عباس إن الله تعالى كان عهد إلى بني إسرائيل في التوراة إني باعث من بني اسماعيل نبياً أمياً فمن تبعه وصدق بالنور الذي يأتي به أي بالقرآن غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين، أجراً باتباع ما جاء به موسى وجاءت به سائر أنبياء بني اسرائيل، وأجراً باتباع ما جاء به محمد النبي الأمي من ولد اسماعيل، وتصديق هذا في القرآن في قوله تعالى ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ إلى قوله ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾.

وكان علي بن عيسى يقول تصديق ذلك في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾ وتصديقه أيضاً فيما روى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بعيسى ثم آمن بمحمد ﷺ فله أجران ، ورجل أدب أَمَتَهُ فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ورجل أطاع الله وأطاع سيده فله أجران».

ولنذكر الآن بعض ما جاء في كتب الأنبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد ﷺ.

فالأول: جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة إن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك الله فقال لها يا هاجر أين تريدين ومن أين أقبلت، قالت أهرب من سيدتي سارة فقال لها ارجعي إلى سيدتك واخفضي لها فإن

الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابناً وتسميه إسماعيل من أجل أن الله سمع تبتلك وخشوعك، وهو يكون عين الناس، وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة اليه بالخضوع وهو يشكر على رغم جميع إخوته.

وآعلم أن الاستدلال بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله بالظلم والجور، وبأمر لا يتم الا بالكذب على الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين في الكل أعني في معظم الدنيا ومعظم الأمم، ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل الإستيلاء إلا بالإسلام لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام الا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الشرق والغرب بالإسلام ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة.

فلو لم يكن النبي ﷺ صادقاً لكانت هذه المخالطة منهم للأمم ومن الأمم لهم معصية لله تعالى وخروجاً عن طاعته إلى طاعة الشيطان، والله يتعالى عن أن يبشر بما هذا سبيله.

والثاني: جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: أن الرب إلهكم يقيم لكم نبياً مثلي من بينكم ومن إخوانكم، وفي هذا الفصل أن الرب تعالى قال لموسى إني مقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه.

وهذا الكلام يدل على أن النبي الذي يقيمه الله تعالى ليس من بني إسرائيل كما أن من قال لبني هاشم أنه سيكون من إخوانكم إمام، عقل منه أنه لا يكون من بني هاشم، ثم أن يعقوب عليه السلام هو إسرائيل ولم يكن له أخ إلا العيص، ولم يكن للعيص ولد من الأنبياء سوى أيوب، وأنه كان قبل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يكون موسى عليه السلام مبشراً به، وأما إسماعيل فإنه كان أخاً لإسحاق والد يعقوب، ثم أن كل نبي بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل، فالنبي عليه السلام ما كان منهم، لكنه كان من

إخوانهم لأنه من ولد إسماعيل الذي هو أخو إسحاق عليهم السلام.

فإن قيل قوله «من بينكم» يمنع من أن يكون المراد محمداً ﷺ، لأنه لم يقم من بين بني إسرائيل.

قلنا بل قد قام من بينهم لأنه عليه السلام ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كانوا كخيبر وبني قينقاع والنضير وغيرهم، وأيضاً فإن الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشام، فإذا قام محمد ﷺ بالحجاز فقد قام من بينهم وأيضاً فإنه إذا كان من اخوانهم فقد قام من بينهم فإنه ليس ببعيد منهم.

والثالث: قال في الفصل العشرين من هذا السفر: أن الرب تعالى جاء في طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصف عن يمينه عنوات القديسين فمنحهم العز وحببهم إلى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة.

وجه الاستدلال أن جبل فاران وهو بالحجاز لأن في التوراة ان اسماعيل تعلم الرمي في برية فاران ومعلوم أنه إنما سكن بمكة.

إذا ثبت هذا فنقول إن قوله «فمنحهم العز» لا يجوز أن يكون المراد اسماعيل عليه السلام لأنه لم يحصل عقيب سكنى اسماعيل عليه السلام هناك عز ولا اجتمع هناك ربوات القديسين، فوجب حمله على محمد ﷺ، قالت اليهود المراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضاً ومن جبل فاران أيضاً فانتشرت في هذه المواضع.

قلنا هذا لا يصح لأن الله تعالى لو خلق ناراً في موضع فإنه لا يقال جاء الله في ذلك الموضع إلا إذا تبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك، وعندكم أنه لم يتبع ظهور النار وحي ولا كلام إلا من طور سيناء، فما كان ينبغي إلا أن يقال جاء الله من طور سيناء، فأما أن يقال ظهر من ساعير ومن جبل فاران فلا يجوز وروده كما لا يقال جاء الله من الغمام إذا ظهر في الغمام احتراق ونيران كما يتفق ذلك في أيام الربيع.

وأيضاً ففي كتاب حبقوق بيان ما قلنا وهو جاء الله من طور سيناء والقدس من جبل فاران لو انكشفت السماء من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمده يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزه تسير المنايا أمامه، ويصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الأرض وتأمل الامم وبحث عنها فتضعضعت الجبال القديمة واتضعت الروابي الدهروية وتزعزعت ستور أهل مدين، ركبت الخيول وعلوت مراكب الانقياد والغوث وستنزع في قسيك اغراقاً ونزعاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء وتخور الأرض بالأنهار، ولقد رأتك الجبال فارتاعت وانحرف عنك شؤبوب السيل، ونفرت المهاري نفيراً ورعباً ورفعت أيديها وجلاً وفرقاً وتوقفت الشمس والقمر عن مجراهما، وسارت العساكر في برق سهامك ولمعان بيانك تدوخ الأرض غضباً، وتدوس الامم زجراً لأنك ظهرت بخلاص أمتك، وانقاذ تراب ابائك، هكذا نقل عن ابن رزين الطبري.

أما النصارى فقال أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب الغرر قد رأيت في نقولهم «وظهر من جبال فاران لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود وترتوي السهام بأمرك المحمود لأنك ظهرت بخلاص أمتك وانقاذ مسيحك».

فظهر بما ذكرنا أن قوله تعالى في التوراة ظهر الرب من جبال فاران، ليس معناه ظهور النار منه بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات، وما ذاك إلا رسولنا محمد ﷺ.

فإن قالوا المراد مجيء الله تعالى، ولهذا قال في آخر الكلام: وانقاذ مسيحك.

قلنا لا يجوز وصف الله تعالى بأنه يركب الخيول وبأن شعاع منظره مثل النور، وبأنه جاز المشاعر القديمة، وأما قوله: وانقاذ مسيحك فإن محمداً عليه السلام أنقذ المسيح من كذب اليهود والنصارى.

والرابع: ما جاء في كتاب شعيا في الفصل الثاني والعشرين منه «قومي

فازهري مصباحك، يريد مكة فقد دنا وقتك وكرامة الله تعالى طالعة عليك، فقد تجلل الأرض الظلام وغطى على الامم الضباب، والرب يشرق عليك إشراقاً، ويظهر كرامته عليك، تسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك، وارفعي بصرك إلى ما حولك، وتأملي فإنهم مستجمعون عندك ويحجونك ويأتيك ولدك من بعيد لأنك أم القرى، فأولاد سائر البلاد كأنهم أولاد مكة وتتزين ثيابك على الارائك والسرر حين ترين ذلك تسرين وتبتهجين من أجل أنه يميل إليك ذخائر البحر، ويحج إليك عساكر الأمم، ويساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ ويتحدثون بنعم الله ويمجدونه وتسير إليك أغنام فاران، ويرفع إلى مذبحي ما يرضيني وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمداً».

فوجه الاستدلال أن هذه الصفات كلها موجودة لمكة فإنه قد حج إليها عساكر الامم ومال إليها ذخائر البحر، وقوله أحدث لبيت محمدتي حمداً، معناه أن العرب كانت تلبي قبل الإسلام فتقول لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ثم صار في الإسلام: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، فهذا هو الحمد الذي جدده الله لبيت محمدته.

فإن قيل المراد بذلك بيت المقدس وسيكون ذلك فيما بعد.

قلنا لا يجوز أن يقول الحكيم قد دنا وقتك مع أنه ما دنا بل الذي دنا أمر لا يوافق رضاه ومع ذلك لا يحذر منه.

وأيضاً فإن كتاب شعيا مملوء من ذكر البادية وصفتها وذلك يبطل قولهم.

الخامس: روى السمان في تفسيره في السفر الأول من التوراة أن الله تعالى أوحى إلى ابراهيم عليه السلام قال قد أجبت دعاءك في اسماعيل، وباركت عليه فكبرته وعظمته جداً جداً، وسيلد اثني عشر عظيماً وأجعله لأمة عظيمة.

والاستدلال به أنه لم يكن في ولد اسماعيل من كان لأمة عظيمة غير نبينا محمد ﷺ فأما دعاء ابراهيم عليه السلام واسماعيل فكان لرسولنا عليه الصلاة والسلام لما فرغا من بناء الكعبة وهو قوله ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو

عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ولهذا كان يقول عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة أبي ابراهيم، وبشارة عيسى» وهو قوله ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، فإنه مشتق من الحمد، والاسم المشتق من الحمد ليس الا لنبينا، فإن اسمه محمد وأحمد ومحمود، وقيل أن صفته في التوراة ان مولده بمكة ومسكنه بطيبة وملكه بالشام وأمته الحمادون[١].

والسادس: قال المسيح للحواريين أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه، انما يقول كما يقال له، وتصديق ذلك ﴿إن أتبع الا ما يوحى الي﴾ وقوله ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ أما الفارقليط ففي تفسيره وجهان ﴿**أحدهما**﴾ أنه الشافع المشفع، وهذا أيضاً صفته عليه الصلاة والسلام ﴿**الثاني**﴾ قال بعض النصارى الفارقليط هو الذي يفرق بين الحق والباطل، وكان في الأصل فاروق، كما يقال راووق للذي يروق به، وأما ليط فهو التحقيق في الأمر كما يقال شيب أشيب ذو شيب، وهذا أيضاً صفة شرعنا لأنه هو الذي يفرق بين الحق والباطل.

والسابع: قال دانيال لبخت نصر حين سأله عن الرؤيا التي كان رآها من غير أن قصها عليه رأيت أيها الملك منظراً هائلاً رأسه من الذهب الإبريز وساعده من الفضة وبطنه وفخذاه من نحاس وساقاه من حديد وبعض رجليه من حديد وبعضها من خزف، ورأيت حجراً يقطع من غير قاطع، وصك

---

(١) عن جابر بن عبدالله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عرض علي الأنبياء، فإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة (قبيلة من اليمن)، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا اقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت ابراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم (يعني نفسه) ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً ـ دحية.

رجل ذلك الصنم ودقها دقاً شديداً فتفتت الصنم كله حديده ونحاسه وفضته وذهبه وصارت رفاتاً، وعصفت بها الرياح فلم يوجد لها أثر، وصار ذلك الحجر الذي صك ذلك الرجل من ذلك الصنم جبلاً عالياً امتلأت به الأرض، فهذا رؤياك أيها الملك.

وأما تفسيرها فأنت الرأس الذي رأيته من الذهب ويقوم بعدك مملكة أخرى دونك والمملكة الثالثة التي تشبه النحاس تنبسط على الأرض كلها، والمملكة الرابعة تكون قوتها مثل الحديد، وأما الرجل التي كان بعضها من حديد وبعضها من خزف، فإن بعض المملكة يكون عزيزاً وبعضها يكون ذليلاً، وتكون كلمة الملك متفرقة ويقيم إله السماء في تلك الأيام مملكة أبدية لا تتغير ولا تزول. وأنها تزيل جميع الممالك، وسلطانها يبطل جميع السلاطين، وتقوم هي إلى الدهر، فهذا تفسير الحجر الذي رأيت أنه يقطع من جبل بلا قاطع حتى دق الحديد والنحاس والخزف، والله أعلم بما يكون في آخر الزمان.

فهذه هي البشارات الواردة في الكتب المتقدمة بمبعث رسولنا محمد ﷺ ذكره الرازي، وقال الزجاج المراد بالعهد ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد ﷺ، وقيل هو أداء الفرائض، وقيل أراد جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكليف دون بعض، ولا مانع من حمله على جميع ذلك.

﴿أوف بعهدكم﴾ أي بما ضمنت لكم من الجزاء، وقيل بالقبول والثواب عليه بدخول الجنة ﴿وإياي فارهبون﴾ أي فخافون في نقضكم العهد، والرهب والرهبة الخوف، ويتضمن الأمر به معنى التهديد، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص، قال صاحب الكشاف وهو آكد في إفادة التخصيص من ﴿إياك نعبد﴾ والفاء جواب أمر مقدر أي تنبهوا فارهبون، أو زائدة وسقطت الياء من قوله فارهبون لأنه رأس آية.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ يعني القرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي لما في التوراة من التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ المراد أهل الكتاب لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء وما يلزم من التصديق، أي لا تكونوا يا معشر اليهود أول كافر بهذا النبي ﷺ مع كونكم قد وجدتموه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، مبشراً به في الكتب المنزلة عليكم.

وقد حكى الرازي في تفسيره في هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات برسول الله ﷺ في الكتب السابقة، وقيل الضمير في «به» عائد إلى القرآن المدلول عليه بقوله «بما أنزلت» وقيل عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله لما معكم، والخطاب لجماعة، والكافر لفظه واحد وهو في معنى الجمع أي أول الكفار أو أول فريق كافر، ومفهوم الصفة غير مراد هنا فلا يرد أن المعنى بل آخر كافر، وإنما ذكرت الأولية لأنها أفحش لما فيها من الابتداء بالكفر، بل يجب أن تكونوا أول فريق مؤمن به لأنكم أهل نظر في معجزاته والعلم بشأنه وصفاته.

﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا ببيان صفة محمد ﷺ التي في التوراة عوضاً يسيراً من الدنيا لأن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالشيء اليسير الحقير الذي لا قيمة له والذي كانوا يأخذونه من الدنيا كالشيء اليسير بالنسبة إلى جميعها فهو قليل القليل، وهذه الآية وإن كانت خطاباً لبني اسرائيل ونهياً لهم، فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به أو إثبات باطل نهى الله عنه، أو

امتنع من تعليم ما علمه الله وكتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ﴿وإياي فاتقون﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن حطام الدنيا.

ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادىء لما في الآية الثانية فصلت بالرهبة التي هي من مقدمات التقوى، أو لأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين، وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى وباقي الكلام فيه كالكلام في قوله ﴿وإياي فارهبون﴾ وقد تقدم قريباً.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي ولا تكتبوا في التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، وقيل لا تخلطوا الحق من صفة محمد ﷺ بالباطل من تغيير صفته، واللبس الخلط، وقيل هو مأخوذ من التغطية أي لا تغطوا الحق بالباطل، والأول أولى، والباء للإلصاق على الأول وقيل للاستعانة واستبعده أبو حيان، وقال فيه صرف عن الظاهر من غير ضرورة، قال السمين ولا أدري ما هذا الاستبعاد مع وضوح هذا المعنى الحسن، والباطل في كلام العرب الزائل، والباطل الشيطان والمراد به هنا خلاف الحق والمراد النهي عن كتم حجج الله التي أوجب عليهم تبليغها وأخذ عليهم بيانها، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشيء معين ومعنى خاص كما تقدم فلم يصب إن أراد أن ذلك هو المراد دون غيره لا إن أراد أنه مما يصدق عليه.

﴿وتكتموا الحق﴾ لما فيه من الضرر والفساد، وفيه أن العالم بالحق يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانه، وفيه تنبه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة عاماً في المعنى، فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتم الحق ﴿وأنتم تعلمون﴾ فيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل، وذلك أغلظ للذنب وأوجب للعقوبة، وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس والكتمان مع الجهل لأن الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شيء

حتى يعلم بحكمه خصوصاً في أمور الدين، فإن التكلم فيها والتصديق للإصدار والإيراد في أبوابها إنما أذن الله به لمن كان رأساً في العلم فرداً في الفهم، وما للجهال والدخول فيما ليس من شأنهم، والقعود في غير مقاعدهم.

وأعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهى عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف. فجاؤا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الأنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه ومن تأخره.

وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزل الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالاً وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحيناً في عبادة، وحيناً في معاملة، ووقتاً في ترغيب، ووقتاً في ترهيب، وآونة في بشارة وآونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا، وطوراً في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية، ومرة في أقاصيص ماضية.

وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الإختلاف، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الإئتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتبار نفسه مختلف كاختلافها فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون، والماء والنار،

والملاح والحادي، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة؛ وتبين الأمر الموجب للإرتباط؛ فإن وجد الإختلاف بين الآيات رجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك فوجده تكلفاً محضاً وتعسفاً بيناً، انقدح في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة.

هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف، فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب وأيسر حظ من معرفته، يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم، رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول المطلعين على حوادث النبوة فإنه يثلج صدره ويزول عنه الريب بالنظر في سورة من السور المتوسطة فضلاً عن المطولة فإنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة، وأوقات متباينة، لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها في الترتيب، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ وبعده ﴿يا أيها المدثر، يا أيها المزمل﴾ وينظر أين موضع هذه الآيات والسور في ترتيب المصحف.

وإذا كان الأمر هكذا فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة. وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمرته، وأحقر فائدته، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات وانفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس.

وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله

رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشاآته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحاً وأخرى هجاء وحيناً تشبيباً وحيناًرثاء وغير ذلك من الأنواع المتخالفة فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه، ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد والخطبة التي خطبها في الحج والخطبة التي خطبها في النكاح، ونحو ذلك وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء وما يشابه ذلك لعد هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله، متلاعباً بأوقاته، عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله.

وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة وهو ركوب الأحموقة في كلام البشر، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلغاء العرب، وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان، وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى فيه مجاريهم في الخطاب، وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون مختلفة وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين فضلاً عن المقامات، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً، وكذلك شاعرهم.

ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي يعثر في ساحاتها كثير من المحققين، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام، فإذا قال متكلف كيف ناسب هذا ما قبله قلنا لا كيف:

فدع عنك نهباً صيح في حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ المراد هنا الصلاة المعهودة وهي صلاة المسلمين، يعني الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها، على أن التعريف للعهد، ويجوز أن يكون للجنس ومثلها الزكاة، والإيتاء الإعطاء، والزكاة مأخوذة من الزكاء وهو النماء، وسمي إخراج جزء من المال زكاة أي زيادة مع أنه نقص منه لأنها تكثر بركته أو يكثر أجر صاحبه، وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال زكى فلان أي طهر.

والظاهر أن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها قد نقلها الشرع إلى معان شرعية، هي المرادة بما هو مذكوره في الكتاب والسنة منها، وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه، وقد اختلف أهل العلم في المراد بالزكاة هنا فقيل المفروضة لاقترانها بالصلاة، وقيل صدقة الفطر، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك.

﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي صلوا مع المصلين يعني محمداً ﷺ، والركوع في اللغة الانحناء وكل منحن راكع، ويستعار الركوع أيضاً للانحطاط في المنزلة، وإنما خص الركوع بالذكر هنا لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم، وقيل لكونه كان ثقيلاً على أهل الجاهلية، وقيل أنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة، والركوع الشرعي هو أن ينحني الرجل ويمد ظهره وعنقه، ويفتح أصابع يديه ويقبض بها على ركبتيه ثم يطمئن راكعاً ذاكراً بالذكر المشروع.

وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما ما هو معروف.

وفي الآية حث على إقامة الصلاة في الجماعة وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم في كون ذلك عيناً أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أنه سنة مؤكدة مرغب فيها وليس بواجب وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة، وثبت في الصحيح عنه ﷺ الذي يصلي مع الإمام أفضل من الذي يصلي وحده ثم ينام، والبحث طويل الذيول كثير النقول، استوفاه الشوكاني رحمه الله تعالى في شرحه للمنتقى.

﴿اتأمرون الناس بالبر﴾ الهمزة للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه، بل سبب ترك فعل البر المستفاد من قوله ﴿وتنسون أنفسكم﴾ تتركونها فلا تأمرونها به مع تزكية النفس والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاماً للناس وتلبيساً عليهم، نزلت في علماء اليهود، والبر: الطاعة والعمل الصالح وسعة الخير والمعروف والصدق.

فالبر: اسم جامع لجميع أعمال الخير والطاعات، والنسيان هو هنا بمعنى الترك، وفي الأصل خلاف الذكر والحفظ أي زوال الصورة التي كانت محفوظة عن المدركة والحافظة، وإنما عبر عن الترك بالنسيان لأن نسيان الشيء يلزمه تركه فهو من استعمال الملزوم في اللازم أو السبب في المسبب، وسر هذا التجوز الإشارة إلى أن ترك ما ذكر لا ينبغي أن يصدر عن العاقل إلا نسياناً، والنفس: الروح، ومنه قوله تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ يريد الأرواح والنفس الجسد، والمعنى وتعدلون عما لها فيه نفع.

﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ جملة حالية مشتملة على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت، أي كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل، وشدة الوعيد عليه كما ترونه في الكتاب

الذي تتلونه وتدرسونه، والآيات التي تقرؤنها من التوراة،والتلاوة: القراءة وهي المراد هنا وأصلها الاتباع.

﴿أفلا تعقلون﴾ استفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم، وهو أشد من الأول وأشد، ولشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولاً أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم من ذلك الأمر الذي قاموا به في المجامع، ونادوا به في المجالس إيهاماً للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه وموصلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه، وهم اترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه.

ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لأستارهم، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة، والخصلة الفظيعة، على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمة لتلاوته وهم في ذلك كما قال المعري:

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لا حب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع، ومن توبيخ إلى توبيخ، فقال أنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدّراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ذائداً لكم عنه، زاجراً لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم؟ والعقل في أصل اللغة المنع ومنع عقال البعير لأنه يمنعه عن الحركة ومنه العقل في الدية لأنه يمنع الولي عن قتل الجاني، والعقل نقيض الجهل.

ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية، ويصح أن يكون معنى الآية أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من

العلم، والعقل قوة تهيء قبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة العقل.

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ رأيت ليلة أسرى بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء قال هؤلاء خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون.

وثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه.

وفي الباب أحاديث معناها أن يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم بم دخلتم النار، وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم ، قالوا إنا كنا نأمركم ولا نفعل، وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه[1]».

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٥٧٠٧ برواية «وينسى نفسه».

وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم
مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي
فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ
وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ قيل إن المخاطبين بهذا هم المؤمنون وقيل اليهود لما عاقهم عن الإيمان الشره وحب الرياسة فأمروا بالصبر، وهو الصوم لأنه يكسر الشهوة، والصلاة لأنها تورث الخشوع وتنفي الكبر، وأفرد الصلاة بالذكر تعظيماً لشأنها، والمعنى استعينوا على حوائجكم إلى الله وقيل على ما يشغلكم من أنواع البلايا، وقيل على طلب الآخرة بالصبر.

والصبر في اللغة الحبس والمراد هنا استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات وقصرها على الطاعات، على دفع ما يرد عليكم من المكروهات، وقيل الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة وأداء الفرائض، واستدل هذا القائل بقوله تعالى ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما يفيده الألف واللام الداخلة على الصبر من الشمول، كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما يصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة ونافلة، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

وعن ابن عباس أنه نعى له أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما السجود ثم قام إلى راحلته وهو يقول ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر والترغيب فيه والجزاء للصابرين، ولم نذكرها ههنا لأنها ليست بخاصة بهذه الآية، بل هي واردة في مطلق الصبر، وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ههنا

منها شطراً صالحاً، وفي الكتاب العزيز من الثناء على ذلك والترغيب فيه الكثير الطيب.

وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وأخرج احمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي ﷺ قال كانوا يعني الأنبياء يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة ، وعن ابن عباس أنه كان في مسير له فنعى إليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال فعلنا كما أمرنا الله تعالى ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين.

واختلف المفسرون في مرجع للضمير في قوله ﴿وانها لكبيرة﴾ فقيل انه راجع إلى الصلاة وإن كان المتقدم هو الصبر والصلاة فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما، كما قال تعالى ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ إذا كان أحدهما داخلاً تحت الآخر بوجه من الوجوه، وقيل انه عائد إلى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لان الصبر هو عليها كما قيل سابقاً، وقيل ان الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مراداً منها لكن لما كانت آكد وأعم تكليفاً واكثر ثواباً كانت الكناية بالضمير عنها، ومنه قوله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ كذا قيل، وقيل إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة ومثل ذلك قوله ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ رجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت أعم نفعاً وأكثر وجوداً والتجارة هي الحاملة على الإنفضاض.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الأول الصبر هناك جعل داخلاً تحت الصلاة وهنا لم يكن داخلاً وإن كان مراداً، وقيل إن المراد الصبر والصلاة ولكن ارجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، ومنه قوله تعالى ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ أي ابن مريم آية وأمه آية، وقيل رجع الضمير

اليهما بعد تأويلهما بالعبادة، وقيل رجع الى المصدر المفهوم من قوله ﴿واستعينوا﴾ وهو الاستعانة وقيل رجع إلى جميع الأمور التي نهى عنها بنو إسرائيل، والأول هو الظاهر الجاري على قاعدة كون الضمير للأقرب، والكبيرة التي يكبر أمرها ويتعاظم شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ومنه ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم اليه﴾.

﴿الا﴾ استثناء مفرغ وشرطه أن يسبق بنفي فيؤول الكلام هنا بالنفي أي أنها لا تخف ولا تسهل إلا.

﴿على الخاشعين﴾ يعني المؤمنين، وقيل الخائقين، وقيل المطيعين المتواضعين لله، والخاشع هو المتواضع، قال في الكشاف الخشوع هو الإخبات والتطامن، فاللين والإنقياد انتهى.

وقال الزجاج الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه، وخشعت الأصوات أي سكنت، وخشع ببصره إذا غضه، وقال سفيان الثوري سألت الأعمش عن الخشوع فقال يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع، ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطىء الرأس لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء، وتخشع لله في. وأما الخضوع كل فرض افترض عليك انتهى.

وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته أنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع، واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة وأتعابهم لأنفسهم اتعاباً عظيماً في الأسباب الموجبة للحضور والخضوع لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب تسهل عليهم تلك المتاعب، ويتذلل لهم ما يركبونه من

المصاعب، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة وراحة عندهم محضة.

﴿الذين يظنون﴾ أي يستيقنون وقيل يعلمون، والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيهْ﴾وقوله﴿وظنوا أنهم مواقعوها﴾ وقيل أن الظن في الآية على بابه ويضمر في الكلام بذنوبهم فكأنهم توقعوا لقاءه مذنبين، ذكره الماوردي والأول أولى، وأصل الظن الشك مع الميل إلى أحد الطرفين، وقد يقع موقع اليقين في مواضع منها هذه الآية.

ومعنى ﴿أنهم ملاقوا ربهم﴾ ملاقوا جزاءه، والمفاعلة هنا ليست على بابها، ولا أرى في حمله على أصل معناه من دون تقدير المضاف بأساً أي يوقنون أنهم يرونه، وفي هذا مع ما بعده من قوله ﴿وأنهم إليه راجعون﴾. إقرار بالبعث وما وعد الله به في اليوم الآخر، وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة.

﴿يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ إنما كرر ذلك سبحانه توكيداً للحجة عليهم وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد وهو قوله ﴿واتقوا يوماً﴾ قيل المراد بالنعمة أيادي الله عندهم وأيامه، قاله سفيان بن عيينة، وعن مجاهد التي أنعم بها على بني إسرائيل فيما سمى وفيما سوى ذلك، فجّر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى وأنجاهم من عبودية آل فرعون، وكان عمر بن الخطاب إذا تلا هذه الآية قال مضى القوم وإنما يعني أنتم.

﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ يعني على عالمي زمانكم، فلا يتناول من مضى ولا من يوجد بعدهم، وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف للأبناء، قيل فيه ورود العام المراد به الخصوص، لأن المراد بالعالمين عالمو زمانهم، وقيل على جميع العالمين بما جعل فيهم الأنبياء، وقال في

الكشاف على الجم الغفير من الناس كقوله ﴿باركنا فيها للعالمين﴾ يقال رأيت عالماً من الناس يراد الكثرة انتهى، قال الرازي في تفسيره وهذا ضعيف لأن لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل، وكلما كان دليلاً على الله كان علماً وكان من العالم، وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات، انتهى.

أقول هذا الاعتراض ساقط أما أولاً فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، وأما ثانياً فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجوداً بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق إسم العلم عليه، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات، وأما إنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان، فليس في اللفظ ما يفيد هذا ولا في اشتقاقه ما يدل عليه، وأما من جعل العالم أهل العصر فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور، لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ ولا على ما بعده من العصور.

ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ وعند قوله تعالى ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ وعند قوله تعالى ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾.

فإن قيل أن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم.

قلت لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزماً لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات.

﴿واتقوا يوماً﴾ أي واخشوا عذاب يوم، أمر معناه الوعيد والمراد باليوم يوم القيامة أي عذابه.

﴿لا تجزي﴾ لا تكفي ولا تقضي.

﴿نفس عن نفس شيئاً﴾ يعني حقاً لزمها، وقيل معناه لا تنوب نفس عن نفس يوم القيامة ولا ترد عنها شيئاً مما أصابها، بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وقيل أن طاعة المطيع لا تقضي عن العاصي ما كان واجباً عليه، والنفس الأولى هي المؤمنة والثانية هي الكافرة ومعنى التنكير التحقير أي شيئاً يسيراً حقيراً ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ أي في ذلك اليوم، وذلك أن اليهود قالوا يشفع لنا آباؤنا فرد الله عليهم ذلك، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الإثنان تقول استشفعته أي سألته أن يشفع لي أي يضم جاهه إلى جاهك عند المشفوع إليه ليصل النفع إلى المشفوع له، وضمير (منها) يرجع إلى النفس المذكورة ثانياً أي إن جاءت بشفاعة شفيع، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أولاً أي إذا شفعت لم يقبل منها.

﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي فدية وهو مماثلة الشيء بالشيء، والعدل بفتح العين الفداء وبكسرها المثل، وقيل بالفتح المساوي للشيء قيمة وقدراً وبالكسر المساوي له في جنسه وجرمه، وأما العدل واحد الأعدال فهو بالكسر لا غير قاله السمين، والضمير يرجع إلى النفوس المدلول عليها بالنكرة في سياق النفي، والنفس تذكر وتؤنث والمعنى كما قال السدي لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً.

﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا يمنعون من العذاب، والنصر العون والأنصار الأعوان ومنه ﴿من أنصاري إلى الله﴾ والنصر أيضاً الانتقام يقال انتصر زيد لنفسه من خصمه أي انتقم منه لها والنصر أيضاً الإتيان يقال نصرت أرض بني فلان أي أتيتها.

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي واذكروا إذ خلصنا أسلافكم وأجدادكم، فاعتده نعمة ومنة عليهم، لأنهم نجوا بنجاة أسلافهم، وهذا شروع في تفصيل نعم الله عليهم، وفصلت بعشرة أمور تنتهي بقوله: ﴿وإذ استسقى موسى﴾ والنجاة النجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها، ثم سمى كل فائز وخارج من ضيق إلى سعة ناجياً وإن لم يلق على نجوة «وآل فرعون» قومه والآل يضاف إلى ذوي الخطر ولا يضاف إلى البلدان فلا يقال من آل المدينة، وجوزه الأخفش، واختلفوا هل يضاف إلى المضمر أم لا فمنعه قوم وسوغه آخرون وهو الحق.

وفرعون قيل هو إسم ذلك الملك بعينه، وقيل إنه اسم لكل ملك من ملوك العمالقة أولاد عمليق بن لاوز بن أرم بن سام بن نوح كما يسمى من ملك الفرس كسرى، ومن ملك الروم قيصر، ومن ملك الحبشة النجاشي، وقيل فرعون إسم علم لمن كان يملك مصر من القبط والعماليق، وإسم فرعون موسى المذكور هنا قابوس في قول أهل الكتاب، وقال وهب اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، وعَمّر أكثر من أربعمائة سنة، وعاش موسى مائة وعشرين سنة، قال المسعودي لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية، وقال الجوهري ان كل عات يقال له فرعون، وقد تفرعن، وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر، وقال في الكشاف تفرعن فلان اذا عتى وتجبر.

﴿يسومونكم﴾ أي يكلفونكم ويولونكم قاله أبو عبيدة، وقيل يذوقونكم ويلزمونكم اياه، وأصل السوم الدوام، ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرعي، وفي

الكشاف أصله في سام السلعة اذا طلبها كأنه بمعنى يبيعونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه، انتهى.

﴿سوء العذاب﴾ أي أشده وأسوأه وأفظعه، وان كان كله سيئاً، والسوء كل ما يغم الإنسان من أمر دنيوي أو أخروي.

﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ الذبح في الأصل الشق وهو فري أوداج المذبوح، قيل ذبحوا منهم اثني عشر ألفا، وقيل سبعين ألفا، وهل نساء جمع نسوة أو جمع امرأة من حيث المعنى قولان، والمراد يتركون نساءكم أحياء ليستخدموهن ويمتهنوهن، وأنما امر بذبح الأبناء واستحياء النساء لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده، وعبر عن البنات باسم النساء لأنه جنس يصدق عليهن، وقالت طائفة انه أمر بذبح الرجال واستدلوا بقوله نساءكم والأول أصح بشهادة السبب، ولا يخفى ما في قتل الأبناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها من انزال الذل بهم وإلصاق الإهانة الشديدة بجميعهم لما في ذلك من العار.

والإشارة بقوله ﴿وفي ذلكم﴾ إلى جملة الأمر من الإنجاء والذبح، قاله ابن عطية.

﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ أي اختيار وامتحان، والبلاء يطلق تارة على الخير وتارة على الشر، فإن أريد به هنا الشر، كانت الإشارة إلى ما حل بهم من النقمة بالذبح ونحوه، وان أريد به الخير كانت الإشارة الى النعمة التي أنعم الله عليهم بالإنجاء وما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين، وقد اختلف السلف ومن بعدهم في مرجع الإشارة فرجح الجمهور الأول ورجح الآخرون الآخر، قال ابن كيسان أبلاه وبلاه في الخير والشر، وقيل الأكثر في الخير أبليته وفي الشر بلوته، وفي الاختبار ابتليته وبلوته قاله النحاس، استدل به بعض من يقول بالتناسخ وقال إن القوم كانوا هم بأعيانهم، فلما تطاولت عليهم مدة التلاشي والبلى نسوا فذكروا، قال الكرماني وهذا محال وجهل بكلام

العرب، فإن العرب تخاطب بمثل هذا وتعني الجد الأعلى والأب الأبعد.

﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فلقنا، وأصل الفلق الفرق والفصل، ومنه فرق الشعر، ومنه ﴿وقرآنا فرقناه﴾ أي فصلناه، والباء في ﴿بكم﴾ بمعنى اللام أو السببية والمراد أن فرق البحر كان بسبب دخولهم فيه لما صاروا بين المائين صار الفرق بهم، وأصل البحر في اللغة الإتساع أطلق على البحر الذي هو مقابل البر لما فيه من الاتساع بالنسبة إلى النهر والخليج ويطلق على الماء المالح، وقال السيوطي في مفحمات الأقران البحر هو القلزم وكنيته أبو خالد كما روي عن قيس بن عباد، قال ابن عساكر كأنه كني بذلك لطول بقائه، وروى ابو يعلى بسند ضعيف عن النبي ﷺ قال: «فلق البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء» انتهى.

﴿فأنجيناكم﴾ أي أخرجناكم منه.

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ فيه، ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى ذلك اليوم شكراً لله عز وجل، والمراد بآل فرعون هنا هو وقومه وأتباعه، والغرق الرسوب في الماء وتجوز به عن المداخلة في الشيء، تقول غرق فلان في اللهو فهو غرق، قاله السمين.

﴿وأنتم تنظرون﴾ يعني إلى إهلاكهم، وقيل إلى مصارعهم أي حال كونكم ناظرين اليهم بأبصاركم أو المعنى ينظر بعضكم إلى بعض آخر من السالكين في البحر، وقيل نظروا إلى أنفسهم ينجون وإلى آل فرعون يغرقون، قيل أن البحر قذفهم حتى نظروا اليهم.

وهذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال، ونعمة عظيمة لأوائل بني إسرائيل موجبة عليهم شكرها باللسان والبال، كذلك اقتصاصها على ما هي عليه من رسول الله ﷺ معجزة جليلة تطمئن بها القلوب

الأبية، وتنقاد لها النفوس الغبية، موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالاذعان ويقبلوها بصميم الجنان، فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها، ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها، فيالها من عصابة ما أعصاها، وطائفة ما أطغاها وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس. قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم؟ قالوا هذا يوم صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى فقال رسول الله ﷺ «نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصومه[1]».

﴿وإذ واعدنا﴾ قراءة الجمهور واعدنا قال النحاس وهي اجود وأحسن وليس هو من الوعد والوعيد في شيء، وإنما هو من باب الموافاة يعني من المواعدة وهو من الله الأمر، ومن موسى القبول، وذلك أن الله وعده بمجيء الميقات.

و ﴿موسى﴾ اسم أعجمي عبري معرب غير منصرف، فموشى بالعبرية الماء والشجر، سمي موسى لأنه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سيناً فسمي موسى.

﴿أربعين ليلة﴾ قال الزجاج تمام أربعين ليلة وهي عند أكثر المفسرين ثلاثون من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة وبه قال أبو العالية، وإنما خص الليالي بالذكر دون الايام لانها غرر الشهور، ولأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة وقيل لأن الأشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لأن الظلمة أقدم من الضوء والمعاني متقاربة.

﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي جعلتم العجل إلٰهاً، قال الحسن البصري كان اسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه «بهموت» وقيل بهبوت ﴿من بعده﴾ أي

---

(١) صحيح مسلم/ ١١٣٠؛ =

بعد مضي موسى إلى الطور، وقد ذكر بعض المفسرين أنهم عدوا عشرين يوماً وعشرين ليلة وقالوا قد اختلف موعده فاتخذوا العجل وهذا غير بعيد منهم فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل مخالفة لما يخاطبون به بل ويشاهدونه بأبصارهم، فلا يقال كيف يعدون الايام والليالي على تلك الصفة، وقد صرح لهم في الوعد بأنها أربعون ليلة والمعنى من بعد عبادتكم العجل، وسمى العجل عجلاً لاستعجالهم عبادته، كذا قيل وليس بشيء لان العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر، وقد كان جعله لهم السامري على صورة العجل.

﴿وأنتم ظالمون﴾ أي وانتم ضارون لأنفسكم بالمعصية حيث وضعتم العبادة في غير موضعها وقيل إنما سماهم ظالمين لأنهم أشركوا بالله وخالفوا موعد نبيهم قيل والذين عبدوه منهم ثمانية آلاف وقيل كلهم إلا هارون مع اثني عشر ألفاً وهذا أولى.

= وفي يوم عاشوراء احاديث كثيرة نورد منها:
عن حميد بن عبد الرحمن، انه سمع معاوية بن ابي سفيان، خطيباً بالمدينة خطبهم يوم عاشوراء فقال اين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هذا يوم عاشوراء. ولم يكتب الله عليكم صيامه، وانا صائم فمن أحب منكم أن يصوم فليصم ومن أحب ان يُفطر فليفطر.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ثم عفونا عنكم﴾ أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم، والعفو يجوز أن يكون بعد العقوبة والغفران لا يكون معها، وهذا هو الفرق بينهما وهو من الاضداد يقال عفت الريح الأثر أي أذهبه وعفا الشيء أي كثر، ومنه (حتى عفوا) وقال أبو السعود العفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجيء لازماً قال:

عرفت المنزل الخالي عفاه بعد أحوال
عفاه كل هتان كثير الوبل هطال

﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد عبادتكم العجل.

﴿لعلكم تشكرون﴾ ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذي وقعتم فيه وتستمرون بعد ذلك على الطاعة، وأصل الشكر في اللغة الظهور، قال الجوهري الشكر الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام افصح والشكران خلاف الكفران.

﴿وإذْ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ الكتاب التوراة بالإجماع من المفسرين واختلفوا في الفرقان فقال الفراء وقطرب المعنى آتينا موسى التوراة ومحمد الفرقان، وقد قيل أن هذا غلط أوقعهما فيه أن الفرقان مختص بالقرآن وليس كذلك فقد قال تعالى ﴿ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان﴾ قال الزجاج أن الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيداً وقيل أن الواو صلة وهي قد تزاد في

النعوت، وقيل أن المعنى ذلك المنزل جامع بين كونه كتاباً وفارقاً بين الحق والباطل وهو كقوله (آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي احسن وتفصيلاً لكل شيء) وقيل الفرقان الفرق بينهم وبين قوم فرعون أنجى الله هؤلاء وأغرق هؤلاء، وقال ابن زيد الفرقان الفراق البحر والشرع الفارق بين الحلال والحرام، وقيل الفرقان الفرج من الكرب أو النصر وقيل أنه الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه كأنه قال آتينا موسى التوراة والآيات التى ارسلناه بها معجزة له ﴿لعلكم تهتدون﴾ يعني بالتوراة أي لكي تهتدوا للتدبر والتفكر فيه والعمل والاعتقاد بما يحويه.

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ يعني الذين عبدوا العجل، والقوم يطلق تارة على الرجال دون النساء، ومنه قوله تعالى ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ ثم قال ﴿ولا نساء من نساء﴾ ومنه﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أراد الرجال وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ والمراد هنا بالقوم عبدة العجل، وهذا شروع في بيان كيفية العفو، والقوم ليس له واحد من لفظه ومفرده رجل ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ يعني إلهاً تعبدونه فكأنهم قالوا ما نصنع فقال ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي ارجعوا الى خالقكم واعزموا وصمموا بالتوبة.

والبارىء الخالق وقيل البارىء هو المبدع المحدث، والخالق هو المقدر الناقل من حال إلى حال، وفي ذكر البارىء هنا اشارة إلى عظيم جرمهم أي فتوبوا الى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره وأصل التركيب لخلوص الشيء عن غيره إما على سبيل التفصي كبرءِ المريض من مرضه، والمديون من دينه، أو الإنشاء كبرأ الله آدم من الطين.

﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي اجعلوا القتل متعقباً للتوبة تماماً لها، قال القرطبي وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده

قيل قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً وقيل وقف الذين عبدوا العجل ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلام فقتلوهم فتاب الله على الباقين منهم، عن ابن عباس قال أمر موسى قومه عن أمر من ربه أن يقتلوا أنفسهم، واحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة جعل يقتل بعضهما بعضاً فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة، وعن علي قال قالوا لموسى ما توبتنا قال يقتل بعضكم بعضاً فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله تعالى إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقي(١).

﴿ذلكم﴾ يعني هذا القتل وتحمل هذه الشدة.

﴿خير لكم﴾ لأن الموت لا بد منه ﴿عند بارئكم﴾ من حيث أنه طهرة من الشرك ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿فتاب عليكم﴾ أي فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم، وهذه الفاء فاء التفسير وفاء التفصيل، وهذا من كلام الله تعالى خاطبهم به على طريق الإلتفات من التكلم الذي يقتضيه السياق إلى الغيبة وقيل أنه من جملة كلام موسى لقومه، والأول أولى ﴿إنه هو التواب﴾ أي الرجاع بالمغفرة القابل للتوبة البالغ في قبولها منهم ﴿الرحيم﴾ بخلقه.

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير ١/٨٢: واختلفوا فيمن خوطب بهذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خطاب للكل، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنه خطاب لمن لم يعبد ليقتل من عبد، قاله مقاتل. والثالث: أنه خطاب للعابدين فحسب، أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الاشارة بقوله: «ذا» في: «ذلكم» قولان. أحدهما: أنه يعود إلى القتل. والثاني: أنه يعود إلى التوبة.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك﴾ أي لا نصدقك. بأن ما نسمعه كلام الله ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أي عياناً، ظاهر السياق أن القائلين بهذه المقالة هم قوم موسى، قيل هم السبعون الذين اختارهم ممن لم يعبدوا العجل وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله، قالوا له بعد ذلك هذه المقالة معتذرين عن عبادة أصحابهم العجل، فخرج بهم موسى، وقيل عشرة آلاف من قومه والمؤمن به، والجهرة استعيرت للمعاينة وأصلها الظهور ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل، قيل هي الموت وفيه ضعف، وقيل سبب الموت، واختلفوا في ذلك السبب فقيل ان ناراً نزلت من السماء فأحرقتهم وقيل جاءت صيحة من السماء وقيل أرسل جموعاً من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة، والأول أولى، والمراد بأخذ الصاعقة إصابتها إياهم وسيأتي في الأعراف أنهم ماتوا بالرجفة أي الزلزلة، ويمكن الجمع بأنه حصل لهم الجميع، وقيل المراد بالصاعقة الموت، واستدل عليه بقوله الآتي ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير لأن المصعوق قد يموت كما في هذه الآية وقد يغشى عليه ثم يفيق كما في قوله تعالى ﴿وخر موسى صعقاً فلما أفاق﴾ ومما يوجب بعد ذلك قوله.

﴿وأنتم تنظرون﴾ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كثير معنى، بل قد يقال أنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت، قيل أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذي ماتوا عنده، والمعنى ينظر بعضكم الى بعض كيف يأخذه الموت وكيف يحيا، وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لأنهم طلبوا ما لم يأذن به الله من رؤيته في الدنيا.

﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ المراد بذلك الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت فبعثوا بعد الموت ليستوفوا آجالهم، قاله أنس، ولو أنهم قد ماتوا لانقضاء آجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة، وأصل البعث الإثارة للشيء من محله وقد تكون عن إغماء ونوم، ولهذا قيد البعث بالموت.

وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا والآخرة، وذهب من عداهم إلى جوازها في الدنيا والآخرة، ووقوعها في الآخرة، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة وهي قطعيَّة الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب، وسيأتيك بيان ما تمسكوا به من الأدلة القرآنية، وكلها خارج عن محل النزاع، بعيد من موضع الحجة، وليس هذا موضع المقال في هذه المسألة، وقد استوعب الحافظ ابن القيم الكلام عليها في كتابه حادي الأرواح بما يشفي العليل ويروي الغليل فليرجع إليه ﴿لعلكم تشكرون﴾ إنعامنا ذلك أي بالبعث بعد الموت، قاله أبو السعود أو ما كفرتموه قاله البيضاوي.[1]

---

(١) ورد في صحيح مسلم اثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى.
ـ (١/١٨١) عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اذا دخل اهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون؛ ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل». وفي رواية: «ثم تلا هذه الآية للذين احسنوا الحسنى وزيادة » يونس/ ٢٦.
ـ وعن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما. وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما. وما بين القوم وبين ان ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن (مسلم/ ١٨٠).

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أي جعلناه كالظلة، والغمام جمع غمامة قاله الأخفش، قال الفراء ويجوز غمائم قال ابن عباس غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، وكان معهم في التيه، وقال قتادة كان هذا الغمام في البرية ظلل عليهم من الشمس وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن قمر، والتيه واد بين الشام ومصر وقدره تسعة فراسخ مكثوا فيه اربعين سنة متحيرين لا يهتدون إلى الخروج.

﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ يعني في التيه، قال قتادة أطعمهم ذلك حين برزوا إلى البرية، فكان المن يسقط عليهم في محلتهم طلوع الفجر الى طلوع الشمس سقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقي عنده لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة، ولا لطلبة شيء، وهذا كله في البرية.

وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقالوا لموسى ﴿اذهب انت وربك فقاتلا﴾ وسيأتي بسطه في سورة المائدة، وكان عدد الذين تاهوا ستمائة ألف وماتوا كلهم في التيه إلا من لم يبلغ العشرين، ومات فيه موسى وهارون، وكان موت موسى بعد هارون

بسنة، والمن قيل هو الترنجبين وعلى هذا أكثر المفسرين وهو طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ، ذكر معناه في القاموس، وقيل المن العسل وقيل شراب حلو، وقيل خبز الرقاق، قاله وهب، وقيل هو مصدر يعم جميع ما مَنَّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع، ومنه ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث سعيد بن زيد عن النبي ﷺ إن الكمأة من المن الذي انزل على موسى، وقد ثبت مثله من حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي.

ومن حديث جابر وأبي سعيد وابن عباس عند النسائي، وقد قالوا يا موسى قد قتلنا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فأرسل الله عليهم السلوى، قيل هو السماني كحباري طائر يذبحونه فيأكلونه يبعثهما عليهم الجنوب، قال ابن عطية السلوى طائر باجماع المفسرين، قال القرطبي ما ادعاه من الإجماع لا يصح، وقد قال المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير أنه العسل، وبه قال الجوهري: وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السماني وخاصيته أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت إذا سمع صوت الرعد كما أن الخطاف يقتله البرد فيلهمه الله تعالى أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون فيها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض، قال الأخفش السلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته، وقال الخليل واحده سلواة، وقال الكسائي السلوى واحدة وجمعه سلاوى، وقيل هو السماني بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوماً وليلة فإذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت شيء.

﴿كلوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا ﴿من طيبات﴾ أي حلالات أو مستلذات ﴿ما رزقناكم﴾ ولا تدخروا لغد، استدل به على أن الضيف لا يملك ما قدم له وأنه لا يتصرف إلا بإذن ﴿وماظلمونا﴾ أي وما بخسوا حقنا ﴿ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون﴾ بأخذهم أكثر مما حد لهم فاستحقوا بذلك عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب في الدنيا، ولا حساب في العقبى، فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر، وتقديم الأنفس يفيد الاختصاص، وفيه ضرب تهكم بهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر.

﴿وإذْ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ سميت قرية لاجتماع الناس فيها وقد يطلق عليهم مجازاً وقوله تعالى ﴿وأسأل القرية﴾ يحتمل الوجهين مشتقة من قريت أي جمعت لجمعها لأهلها تقول قريت الماء في الحوض أي جمعته واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف، قال جمهور المفسرين القرية هي بيت المقدس وبه قال مجاهد، وقال ابن عباس هي أريحاء قرية الجبارين، قال ابن الأثير قرية بالغور قريبة من بيت المقدس، وجزم القاضي وغيره بالأول، وقيل كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة، فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لأنه هو الذي فتح اريحاء بعد موسى، لأن موسى مات في التيه، وعلى الأول القائل موسى عليه السلام، وقيل قرية من قرى الشام.

﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾ أمر إباحة، ورغداً كثيراً واسعاً أي أكلاً رغداً ﴿وادخلوا الباب﴾ الذي أمرتم بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة، وقيل هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو اسرائيل، ومن قال ان القرية اريحاء قال ادخلوا من أي باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب.

﴿سجداً﴾ أي منحنين كالراكعين أو خضعاً متواضعين، والسجود قيل هو هنا الانحناء وقيل التواضع والخضوع، واستدلوا على ذلك بأنه لو كان المراد السجود الحقيقي الذي هو وضع الجبهة على الأرض لامتنع الدخول المأمور به لأنه لا يمكن الدخول حال السجود.

قال في الكشاف: انهم أمروا بالسجود عند الانتهاء الى الباب شكراً لله وتواضعاً واعترضه أبو حيان في النهر الماد فقال لم يؤمروا بالسجود بل هو قيد في وقوع المأمور به وهو الدخول، والأحوال نسب تقييدية والأوامر نسب اسنادية انتهى، ويجاب عنه بأن الأمر بالمقيد أمر بالقيد، فمن قال أخرج مسرعاً فهو أمر بالخروج على هذه الهيئة، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفاً للأمر، ولا ينافي هذا كون الأحوال نسباً تقييدية فإن اتصافها بكونها قيوداً مأموراً بها هو شيء زائد على مجرد التقييد.

﴿وقولوا حطة﴾ قيل الحطة في الاصل اسم للهيئة من الحط كالجلسة والقعدة وقيل هي التوبة معناه الاستغفار، وقال ابن فارس في المجمل: حطة كلمة أمروا بها لو قالوها لحطت أوزارهم أي لا يدري معناها، قال الرازي في تفسيره أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وذلك لأن التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها.

وإذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب، لأن التوبة لا تتم إلا به انتهى، وكون التوبة لا تتم إلا بذلك، لا دليل عليه بل مجرد عقد القلب عليها يكفي سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا، وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله عز وجل أحب إلى الله وأقرب إلى مغفرته وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية فذلك باب آخر.

﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أي نسترها عليكم من الغفر وهو الستر، لأن المغفرة تستر الذنوب، وخطايا جمع خطية ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي نزيدهم ثواباً أو إحساناً إلى إحسانهم المتقدم وهو اسم فاعل من أحسن.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سئل عن الإحسان فقال: «ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ قيل انهم قالوا حنطة وقيل قالوا بلسانهم حنطاً سمقاثاً أي حنطة حمراء، استخفافاً منهم بأمر الله وقيل غير ذلك، والصواب أنهم قالوا حبة في شعيرة قالوا ذلك استهزاء أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفي رواية عن ابن عباس عن ابن جرير وابن المنذر: حنطة في شعيرة، والأول أرجح لكونه في الصحيحين، وبدلوا الفعل أيضاً حيث دخلوا يزحفون على أستاههم، قال الكيا الهراسي: فيه دليل على أنه لا يجوز تغيير الأقوال المنصوص عليها وأنه يتعين اتباعها.

وقال الرازي يحتج به فيما ورد من التوقيف في الاذكار والأقوال وانه غير جائز تغييرها، وربما احتج به علينا المخالف في تجويز تحريمة الصلاة بلفظ التعظيم والتسبيح وفي تجويز القراءة بالفارسية وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة وما جرى مجرى ذلك.

﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ هو من وضع الظاهر موضع المضمر لنكتة تقدر في كل محل بما يناسبه تعظيماً كقوله ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله﴾ وتحقيراً كقوله ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان﴾ أو ازالة لبس أو غير ذلك وهي مبسوطة في الاتقان للجلال السيوطي، وكما تقرر في علم البيان وهي هنا تعظيم الأمر عليهم ومبالغة في تقبيح فعلهم وشأنهم ﴿رجزاً من

السماء﴾ يعني عذاباً، والرجز العذاب، قيل أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً.

وأخرج مسلم غيره من حديث أسامة بـن زيد وسعد بن مالك وخزيمة ابن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ ان هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به اناس من قبلكم ، فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها، ومن المعلوم أن الطاعون ضرب الجن للإنس فهو أرضي لا سماوي وانما قيل فيه من السماء لأن القضاء به يقع فيها، قال الجلال السيوطي فهلك منهم في ساعة سبعون ألفاً أو أقل انتهى، وهذا الوباء غير الذي حل بهم في التيه.

﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي يعصون ويخرجون عن أمر الله تعالى، وفي الأعراف (يظلمون) تنبيهاً على أنهم جامعون بين هذين الوصفين.

﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أي طلب السقيا لقـومه، وذلـك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل، والاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر ومعناه في اللغة طلب السقيا، وفي الشرع ما ثبت عن النبي ﷺ في صفته من الصلاة والدعاء، وهذا تذكير لنعمة أخرى كفروها ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً واسمها عليق وقيل نبغة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاها موسى، كذا قيل والله أعلم، والحجر يحتمل أن يكون معيناً فيكون اللام للعهد وهو الـذي فر بثوبه فلما سألوه السقيا ضربه، ويحتمل أن لا يكون معيناً فتكون للجنس وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة.

﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً﴾ يعني على عدد أسباط بني إسرائيل والمعنى فضربه فانفجرت والإنفجار الإنشقاق وانفجر الماء انفتح، قال المفسرون

انفجرت وانبجست بمعنى واحد وقيل انبجست عرقت، وانفجرت سالت، قال ابن عطية ولا خلاف أنه كان حجراً مربعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضرب موسى سالت العيون، وإذا استغنوا عن الماء جفت

﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ المشرب موضع الشرب وقيل هو المشروب نفسه، وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركهم غيرهم، قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها إلى غيرها، والأسباط ذرية الاثني عشر من أولاد يعقوب وكل عين تسيل في قناة الى سبط، وكانوا ستمائة ألف، وسعة العسكر اثنا عشر ميلا.

﴿كلوا﴾ أي قلنا لهم كلوا المن والسلوى ﴿واشربوا﴾ أي الماء المتفجر من الحجر ﴿من رزق الله﴾ فهذا كله من رزقه كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة ولا تعثوا في الارض مفسدين عثى يعثي عثياً وعثا يعثو عثواً وعاث يعيث عيثاً لغات بمعنى أفسد، قال في الكشاف العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تمادوا في الفساد في حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه انتهى، وفي هذه الآية معجزة عظيمة لموسى عليه السلام حيث انفجر من الحجر الصغير ما روى منه الجمع والكثير، ومعجزة نبينا ﷺ أعظم منه لأنه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الجم الغفير لأن انفجار الماء من بين الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر.(١)

---

(١) ويؤيد هذا ما رواه الامام مسلم في صحيحه/ ٤٢٧٩.
عن انس بن مالك انه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الاناء يده وامر الناس ان يتوضئوا منه قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه. فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم.
وفي رواية: ان النبي صلى الله عليه وسلم كان بالزوراء (والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد فيما ثَمَّهْ) دعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل ينبع من بين اصابعه فتوضأ جميع اصحابه قال قلت: كم كانوا يا ابا حمزة قال: قالوا زهاء الثلاثمائة.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وإذ قلتم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل إذ قال أسلافكم، وهذا تذكير لجناية أخرى صدرت منهم وإسناد الفعل إلى فروعهم وتوجيه التوبيخ إليهم لما بينهم وبين أصولهم من الأتحاد.

﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ هذا تضجر منهم بما صاروا فيه من النعمة والرزق الطيب، والعيش المستلذ، ونزوع ما ألفوه قبل ذلك من خشونة العيش، ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقاً إلى ما كانوا فيه وبطراً لما صاروا إليه من المعيشة الرافهة بل هو باب من تعنتهم وشعبة من شعب تعجرفهم كما هو دأبهم وهجيرهم في غالب ما قص علينا من أخبارهم.

وقال الحسن البصري أنهم كانوا أهل كراث وأبصال واعداس فنزعوا إلى مكرهم مكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا لن نصبر على طعام واحد أي نوع منه والمراد بالطعام الواحد هو المن والسلوى، وهما وإن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاماً واحداً وقيل لتكررهما في كل يوم وعدم وجود غيرهما معهما ولا تبدلة بهما، والبقل كل نبات ليس له ساق والشجر ما له ساق.

وقال في الكشاف البقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطائب

البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها انتهى وجمعه بقول، والقثاء معروف الواحد قثاءة وفيها لغتان كسر القاف وضمها والمشهور الكسر والفوم قيل هو الثوم وقد قرأه ابن مسعود بالثاء وروي نحو ذلك عن ابن عباس، وقيل الفوم الحنطة، واليه ذهب أكثر المفسرين كما قال القرطبي، وقد رجح هذا ابن النحاس، قال الجوهري: وممن قال بهذا الزجاج والأخفش وقال بالأول الكسائي والنضر بن شميل، وقيل الفوم السنبلة وقيل الحمص وقيل الفوم كان حباً يخبز، والعدس والبصل معروفان، قيل إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد الا في البلاد، وكان غرضهم الوصول الى البلاد لا تلك الأطعمة والأول أولى.

﴿قال﴾ يعني موسى عليه السلام لهم وقيل القائل هو الله والأول أولى ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى﴾ أي أخس وأردأ، وهو الذي طلبوه والاستبدال وضع الشيء موضع الآخر، قال الزجاج أدنى مأخوذ من الدنو أي القرب وقيل من الدناءة وقيل أصله أدون من الدون أي الرديء، والهمزة للانكار مع التوبيخ، والمراد أتضعون هذه الاشياء التي هي دون موضع المن والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه، والحل الذي لا تطرقه الشبهة وعدم الكلفة بالسعي له والتعب في تحصيله ﴿بالذي هو خير﴾ أي أشرف وأفضل وهو ما هم فيه.

﴿اهبطوا مصراً﴾ أي انزلوا مصراً وانتقلوا من هذا المكان إلى مكان آخر، فالهبوط لا يختص بالنزول من المكان العالي إلى الاسفل بل قد يستعمل في الخروج من أرض إلى أرض مطلقاً قاله الشهاب، وظاهر هذا ان الله أذن لهم بدخول مصر، وقيل ان الأمر للتعجيز والاهانة لانهم كانوا في التيه لا يمكنهم هبوط مصر لانسداد الطرق عليهم اذ لو عرفوا طريق مصر لما أقاموا أربعين سنة متحيرين لا يهتدون إلى طريق من الطرق، فهو مثل قوله تعالى ﴿كونوا

حجارة أو حديداً﴾ قال الخليل وسيبويه أراد مصراً من الأمصار ولم يرد المدينة المعروفة وهو خلاف الظاهر، بل يجوز صرفه مع حصول العلمية والتأنيث لأنه ثلاثي ساكن الأوسط وبه قال الأخفش والكسائي، والمصر في الاصل الحد الفاصل بين الشيئين وقيل المصر البلدة العظيمة.

﴿فإن لكم ما سألتم﴾ يعني من نبات الأرض ﴿وضربت عليهم﴾ أي على فروعهم وأخلافهم ﴿الذلة﴾ أي الهوان وقيل الجزية وزي اليهودية وفيه بعد والأول أولى والمعنى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان بسبب قتلهم عيسى في زعمهم، والذلة بالكسر الصغار والحقارة والذلة بالضم ضد العجز.

﴿والمسكنة﴾ أي الفقر والفاقة وسمى الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، ومعنى ضرب الذلة والمسكنة إلزامهم بذلك والقضاء به عليهم قضاء مستمراً لا يفارقهم ولا ينفصل عنهم مع دلالته على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، أو لازم لهم لزوم الدرهم المضرب لسكته.

وهذا الخبر الذي أخبر الله تعالى به وهو معلوم في جميع الازمنة فان اليهود أقمأهم الله أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغراً، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية بل مازالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في الكثرة أي مبلغ فهو متظاهر بالفقر مرتد بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجارىء على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه، فلا ترى أحداً من أهل الملل أذل ولا أحرض على المال من اليهود كأنهم فقراء وإن كانوا أغنياء مياسير.

﴿وباءوا﴾ رجعوا يقال باء بكذا أي رجع والمراد أنهم رجعوا ﴿بغضب من الله﴾ أو صاروا أحقاء بغضبه، وقال أبو عبيدة والزجاج احتملوه وقيل أقروا به وقيل استحقوه وقيل لازموه، وهو الاوجه يقال بوأته منزلاً فتبوأ أي ألزمته فلزمه ﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من ضرب الذلة وما بعده.

﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أي بسبب كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال أنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم وتعظيمه وأنه ظلم بحت في نفس الأمر، ويمكن أن يقال أنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل لأن الأنبياء لم يعارضوهم في مال ولا جاه بل أرشدوهم إلى مصالح الدين والدنيا كما كان من شعيا وزكريا ويحيى فإنهم قتلوهم وهم يعلمون ويعتقدون أنهم ظالمون وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى، عن ابن مسعود قال كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

﴿ذلك﴾ تكرير الاشارة لقصد التأكيد وتعظيم الأمر عليهم وتهويله، ومجموع ما بعد الاشارة الأولى والاشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة وما بعده، وقيل يجوز أن يكون الاشارة الثانية الى الكفر والقتل فيكون ما بعدها سبباً للسبب قاله الزمخشري وهو بعيد جداً ﴿بما عصوا﴾ أمري ﴿وكانوا يعتدون﴾ الاعتداء تجاوز الحد في كل شيء أي يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿إن الذين آمنوا﴾ قيل أن المراد بهم المنافقون بدلالة جعلهم مقترنين باليهود والنصارى والصابئين أي آمنوا في الظاهر، والأولى أن يقال ان المراد الذين صدقوا النبي ﷺ وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الاسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع الى شيء واحد وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحق ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كله، والأجر دقه وجله.
بالإيمان ههنا هو ما بينه رسول الله ﷺ من قوله لما سأله جبريل عليه السلام عن الايمان فقال «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره» ولا يتصف بهذا الايمان إلا من دخل في الملة الاسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ولم يبق يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً.

﴿والذين هادوا﴾ معناه صاروا يهوداً قيل هو نسبة لهم إلى يهوذا بن يعقوب بالذال المعجمة فقلبتها العرب دالا مهملة، وقيل معنى هادوا تابوا لتوبتهم عن عبادة العجل، ومنه قوله تعالى ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا، وقيل أن معناه السكون والموادعة وقال في الكشاف معناه دخل في اليهودية.

﴿والنصارى﴾ قال سيبويه مفرده نصران ونصرانة كندمان وندمانة، ولكن لا يستعمل إلا بياء النسب، فيقال رجل نصراني وامرأة نصرانية، وقال الخليل واحد النصارى نصري، وقال الجوهري ونصران قرية بالشام تنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة فعلى هذا فالياء للنسب، وقال في الكشاف أن الياء للمبالغة كالتي في أحمري سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح.

﴿والصابئين﴾ جمع صابيء وقيل صاب، والصابيء في اللغة من خرج ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ، سموا هذه الفرقة صابئة لأنها خرجت من دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة وقيل عبدوا الكواكب، وقال البيضاوي إنهم قوم بين اليهود والمجوس انتهى، ثم جعل هذا اللقب علماً لطائفة من الكفار، وقيل هم يدعون أنهم على دين صابيء بن شيث بن آدم والأول أولى.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه في الرد على المنطقيين إن حران كانت دار هؤلاء الصابئة وفيها ولد إبراهيم عليه السلام أو انتقل إليها من العراق على اختلاف القولين، وكان بها هيكل العلة هيكل العقل الأول هيكل النفس الكلية هيكل زحل هيكل المشتري هيكل المريخ هيكل الشمس، وكذلك الزهرة وعطارد والقمر، وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم، ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين حتى جاء الإسلام ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة في دولة الاسلام إلى آخر وقت، ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها أطباء وكتاباً وبعضهم لم يسلم.

ولما قدم الفارابي حران في أثناء المائة الرابعة دخل عليهم وتعلم منهم وأخذ عنهم ما أخذ من المتفلسفة، وكان ثابت بن قرة الحراني صاحب الزيج قد شرح كلام أرسطو في الإلهيات، وقد رأيته وبينت بعض ما فيه من الفساد، فإن فيه ضلالاً كثيراً، وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور دين النصرانية وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي، ولهذا يوجد في دمشق مساجد قديمة فيها قبلة إلى القطب الشمالي، وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة إلى القطب الشمالي كان لهؤلاء، فإن الصابئة نوعان صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون، فالأول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هذه الملل الاربع: المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل، والصابئون الذين كانوا قبل

هؤلاء كالمتبعين لملة إبراهيم إمام الحنفاء قبل نزول التوراة والإنجيل، وهذا بخلاف المجوس والمشركين فإنه ليس فيهم مؤمن، فلهذا قال تعالى ﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشـركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ فذكـر الملل الست هؤلاء، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة لم يذكر في الست من كان مؤمناً، وإنما ذكر ذلك في الأربعة فقط، ثم إن الصابئين ابتدعوا الشـرك فصاروا مشركين، والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين.

وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم ويقرون بمعاد الأبدان، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم، ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه، وكذلك المشركون من الهند، وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين هو ارسطو، انتهى المقصود منه.

﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ في زمن نبينا ﴿وعمل صالحاً﴾ بشريعته ﴿فلهم أجرهم﴾ أي ثواب أعمالهم، والأجر في الاصل مصدر يقال أجره الله يأجره أجراً، وقد يعبر به عن نفس الشيء المجازى به، والآية الكريمة تحتمل المعنيين.

﴿عند ربهم﴾ «عند» ظرف مكان لازم للإضافة لفظاً ومعنى أي لهم أجرهم ثابتاً عند ربهم.

وقد تقدم تفسير قوله تعالى: ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي في الآخرة حين يخاف الكفار من العذاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر، وتفويت الثواب.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أي عهدكم يا معشر اليهود والمراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق أن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة أو بما هو أعم من ذلك أو أخص ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ يعني الجبل العظيم، والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة فيه، قال ابن عباس وكان بنو إسرائيل أسفل منه، وقيل هو اسم لكل جبل بالسريانية، وفي القاموس يطلق على أي جبل كان وصرح به السمين ويطلق أيضاً على جبال مخصوصة بأعيانها، وهذا الجبل رفع فوقهم كان من جبال فلسطين، وعن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح قال لهم خذوها والتزموها فقالوا لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك فصعقوا ثم أحيوا، فقال لهم خذوها والتزموها فقالوا لا فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم فجعل عليهم مثل الظلمة واوتوا ببحر من خلفهم ونار من قبل وجوههم وقيل لهم خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق، قيل وسجدوا على أنصاف وجوههم اليسرى وجعلوا يلاحظون الجبل بأعينهم اليمنى وهم سجود، فصار ذلك سنة في سجود اليهود، قيل فكأنه حصل لهم بعد هذا القسر والإلجاء قبول وإذعان اختياري، وكان يكفي في الأمم السابقة مثل هذا الايمان.

قال ابن جرير عن بعض العلماء لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق، قال ابن عطية والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت

سجودهم الإيمان لأنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة انتهى، وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم من قواعد مذهبية قد سكن قلبه اليها كغيره، وكل عاقل يعلم انه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا أو أشد منه، ونحن نقول أكرههم الله على الايمان فآمنوا مكروهين ورفع عنهم العذاب بهذا الايمان، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عمن تكلم بكلمة الإسلام والسيف مصلت قد هزه حامله على رأسه.

وقد ثبت في الصحيح ان النبي ﷺ قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً عن قتله بأنه قالها تقية ولم يكن عن قصد صحيح «أأنت فتشت عن قلبه[1]» وقال «لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس » قال القفال إنه ليس إجباراً على الإسلام لأن الجبر ما سلب الاختيار بل كان إكراهاً وهو جائز ولا يسلب الاختيار كالمحاربة مع الكفار؛ فأما قوله ﴿لا إكراه في الدين﴾ وقوله ﴿ أفأنت تكره الناس﴾ فقد كان قبل الأمر بالقتال ثم نسخ؛ ذكره الشهاب.

﴿خذوا ما آتيناكم﴾ أي قلنا لهم خذوا ما اعطيناكم ﴿بقوة﴾ القوة الجد والاجتهاد ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي ادرسوا ولا تنسوه؛ والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظاً عندهم ليعملوا به ﴿ لعلكم تتقون﴾ أي لكي تنجو من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى أو رجاء منكم أن تكونوا متقين.

---

(١) فقد روى مسلم في صحيحه/ ٩٦ عن اسامة بن زيد بن حارثة يحدث قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة، فَصَبَّحْنا القوم فهزمناهم ولحقت انا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال لا إله الا الله فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته.
قال: فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا اسامة اقتلته بعدما قال لا إله الا الله قال؛ قلت: يا رسول الله انه كان متعوذاً (أي معتصماً) قال: فقتلته بعدما قال لا إله الا الله. فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن اسلمت قبل ذلك اليوم.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ثم توليتم﴾ أصل التولي الإدبار عن الشيء والإعراض بالجسم ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً ﴿من بعد ذلك﴾ أي الميثاق أو رفع الطور أو إيتاء التوراة؛ والمراد هنا إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم من بعد البرهان لهم والترهيب بأشد ما يكون وأعظم ما تجوزه العقول. وتقدره الأفهام، وهو رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم.

﴿فلولا﴾ حرف امتناع لوجود تختص بالجمل الإسمية ﴿فضل الله عليكم﴾ بأن تدارككم بلطفه؛ والفضل الزيادة والخير والأفضال والإحسان قاله ابن فارس في المجمل ﴿ورحمته﴾ حتى أظهروا التوبة ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أي المغبونين بذهاب الدنيا والهالكين بالعذاب في العقبى: والخسران النقصان.

﴿ولقد علمتم﴾ أي عرفتم فيتعدى لواحد فقط والفرق بينهما أن العلم يستدعي معرفة الذات وما هي عليه من الاحوال، والمعرفة تستدعي معرفة الذات او الفرق ان المعرفة يسبقها جهل بخلاف العلم ولذلك لا يجوز إطلاقها عليه سبحانه.

﴿الذين اعتدوا منكم﴾ أي جاوزوا الحد ﴿في السبت﴾ يقال سبت اليهود لأنهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم، وأصل السبت في اللغة القطع لأن الأشياء تمت فيه وانقطع العمل، وقيل هو مأخوذ من السبوت وهو الراحة والدعة، وقال في الكشاف السبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت انتهى، وفيه نظر، فان هذا اللفظ موجود واشتقاقه مذكور في لسان العرب قبل

فعل اليهود ذلك.

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين، ففرقة اعتدت في السبت أي جاوزت ما أمر الله به من العمل فيه فصادوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه، والفرقة الأخرى انقسمت الى فرقتين: ففرقة جاهرت بالنهي واعتزلت، وفرقة لم توافق المعتدين ولا صادوا معهم لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهي، ولا اعتزلوا عنهم، فمسخهم الله جميعاً ولم ينج إلا الفرقة الأولى فقط.

وهذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في العجرفة وعاندوا أنبياءهم وما زالوا في كل موطن يظهرون من حماقاتهم وسخف عقولهم وتعنتهم نوعاً من أنواع التعسف، وشعبة من شعب التكلف، فإن الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾ فاحتالوا لصيدها وحفروا الحفائر وشقوا الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة وكانت هذه القصة في زمن داود بأرض أيلة.

﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أمر تحويل وتسخير وتكوين وهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم عن الحقيقة البشرية إلى حقيقة القردة أي كونوا مبعدين عن الرحمة مطرودين عن الشرف، وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات، والخاسيء المبعد، ومنه قوله تعالى ﴿ينقلب اليك البصر خاسئاً﴾ أي مبعداً وقوله ﴿اخسئوا فيها﴾ أي تباعدوا تباعد سخط ويكون الخاسيء بمعنى الصاغر، والمراد هنا كونوا بين المصير إلى أشكال القردة مع كونهم مطرودين صاغرين، فقردة خبر الكون، وخاسئين خبر آخر، وقيل انه صفة لقردة، والاول أظهر.

وعن ابن عباس قال مسخهم الله قردة بمعصيتهم ولم يعش مسيخ قط فوق ثلاثة ايام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، قال الحسن انقطع ذلك النسل، وقال مجاهد مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، إنما هو مثل ضربه الله لهم كقوله ﴿مثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ وقال ابن عباس صار شباب القوم قردة، والمشيخة صاروا خنازير(١).

واختلف في مرجع الضمير في قوله ﴿فجعلناها﴾ فقيل المسخة والعقوبة وقيل الأمة، وقيل القرية، وقيل القردة، وقيل الحيتان، والأول أظهر ﴿نكالا﴾ أي عقوبة وعبرة، والنكال الزجر والعقاب، والنكل القيد لأنه يمنع صاحبه ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ أي عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم إلى يوم القيامة، وقيل من الذنوب التي عملوا قبل وبعد، قاله ابن عباس ﴿وموعظة للمتقين﴾ من قومهم أو لكل متق سمعها. الموعظة مأخوذ من الاتعاظ والإزجار والوعظ التخويف، وقال الخليل الوعظ التذكير بالخير.

---

(١) روى عثمان بن عطاء عن أبيه قال: نودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات. نودوا: يا أهل القرية، فانتبهت طائفة أكثر من الأولى، ثم نودوا: يا أهل القرية، فانتبه الرجال والنساء والصبيان، فقال الله لهم: (كونوا قردة خاسئين) فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: بلى. قال قتادة: فصار القوم قردة تعاوي، لها أذناب بعدما كانوا رجالاً ونساء.

وفي رواية عن قتادة: صار الشبان قردة، والشيوخ خنازير، وما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم. وقال غيره: كانوا نحواً من سبعين ألفاً وعلى هذا القول العلماء، غير ما روي عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم تمسخ أبدانهم، وهو قول بعيد، قال ابن عباس: لم يحيوا على الأرض إلا ثلاثة أيام، ولم يحيا مسخ في الأرض فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام، وماتوا في اليوم الثامن، وهذا كان في زمان داود عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿واذ قال موسى لقومه﴾ توبيخ آخر لأخلاف بني إسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت من أسلافهم، أي اذكروا وقت قول موسى لأصولكم وقد قتل لهم قتيل لا يدرى قاتله، وسألوه أن يدعو الله أن يبينه لهم فدعاه، والقتيل اسمه عاميل.

﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قيل إن قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة ومؤخر في المعنى على قوله تعالى ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾ ويجوز أن يكون قوله ﴿إذ قتلتم﴾ مقدماً في النزول ويكون الأمر بالذبح مؤخراً، قال الكرخي وإنما أخر أول القصة تقديماً لذكر مساويهم وتعديداً لها ليكون أبلغ في توبيخهم على القتل، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمروا أن يضربوا ببعضها، هذا على فرض أن الواو تقتضي الترتيب، وقد تقرر في علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب ولا معية.

والبقرة اسم للأنثى ويقال للذكر ثور، وقيل إنها تطلق عليهما وأصله من البقر وهو الشق لأنها تشق الأرض بالحرث، قال الأزهري البقر اسم جنس وجمعه باقر ﴿قالوا اتتخذنا هزواً﴾ أي نحن نسألك أمر القتيل وأنت تأمرنا بذبح بقرة، وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه، والهزو هنا اللعب والسخرية، وإنما يفعل ذلك أهل الجهل لأنه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء، ولهذا أجابهم موسى بالاستعاذة بالله

سبحانه من الجهل.

﴿قال﴾ يعني موسى ﴿أعوذ بالله﴾ أي أمتنع به ﴿أن أكون من الجاهلين﴾ أي بالجواب لا على وفق السؤال أو من المستهزئين بالمؤمنين، وهذا أبلغ من قولك أن أكون جاهلاً.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي ما سنها، وهذا السؤال عن صفة البقرة لا عن حقيقتها فإنها معروفة، وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به، ولو تركوا التعنت والأسئلة المتكلفة لأجزاهم ذبح بقرة من عرض البقر، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم.

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أي لا هي كبيرة ولا صغيرة، والفارض المسنة التي لم تلد ومعناه في اللغة الواسع، قال في الكشاف وكأنها سميت فارضاً لأنها فرضت سنها أي قطعتها وبلغت آخرها انتهى، ويقال للشيء القديم فارض، والبكر الصغيرة الفتية التي لم تحمل ولم تلد، ويطلق في اناث البهائم وبني آدم على ما لم يفتحله الفحل، ويطلق أيضا على الأول من الأولاد.

﴿عوان بين ذلك﴾ أي نصف بين سنين، والعوان المتوسطة بين سني الفارض والبكر وهي التي قد ولدت بطناً أو بطنين، ويقال هي التي ولدت مرة بعد مرة والجمع عون بالضم، والإشارة إلى الفارض والبكر وهما وإن كانتا مؤنثتين فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذكور كأنه قال ذلك المذكور، وجاز دخول «بين» المقتضية لشيئين لأن المذكور متعدد.

﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ به أي من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال وهذا تجديد للأمر وتأكيد له وزجر لهم عن التعنت فلم ينفعهم ذلك ولا نجع فيهم، بل رجعوا إلى طينتهم، وعادوا إلى عكرهم واستمروا على عادتهم المألوفة.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

و ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول أنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ اللون واحد الألوان، وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء، قال بعضهم حتى قرنها وظلفها، وقال الحسن وسعيد بن جبير أنها كانت صفراء القرن والظلف فقط وهو خلاف الظاهر، والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة، وروي عن الحسن أن صفراء معناه سوداء، وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها، وليت شعري كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو أقبح الألوان أنه يسر الناظرين، وكيف يصح وصفه بالفقوع الذي يعرف كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجري على الأسود بوجه من الوجوه، فإنهم يقولون في وصف الأسود حالك وحلكوك ودجوجي وغربيب، قال الكسائي يقال فقع لونها إذا خلصت صفرته، وقال في الكشاف الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، ومعنى ﴿تسر الناظرين﴾ تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجاباً بها واستحساناً للونها، قال وهب كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها يعجبهم حسنها وصفاء لونها[1].

---

(١) وروى السدي عن أشياخه أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ فقير، فخطب إليه ابنته، فأبى، فغضب وقال: والله لأقتلن عمي، ولآخذن ماله ولأنكحن ابنته، ولآكُلَنَّ ديته، فأتاه فقال: قد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فانطلق معي فخذ لي من تجارتهم لعلي أصيب فيها ربحاً، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط، قتله الفتى، ثم رجع، فلما أصبح، جاء كأنه يطلب عمه لا يدري أين هو، فاذا بذلك السبط قد اجتمعوا عليه، فأمسكهم وقال: قتلتم عمي وجعل يبكي وينادي: واعماه. قال أبو العالية: والذي سأل موسى أن يسأل الله البيان: **القاتل**. وقال غيره: بل القوم اجتمعوا فسألوا موسى، فلما أمرهم بذبح بقرة، قالوا: أتتخذنا هزواً.

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي سائمة أو عاملة وعلى هذا فليس هذا السؤال تكريراً للسؤال الأول كما ادعاه بعضهم، قاله الخطيب ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي التبس واشتبه أمرها علينا أي أن جنس البقر متشابه عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ وعدوا من أنفسهم بالإهتداء إلى ما دلهم عليه والامتثال لما أمروا به، قيل لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر.

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول﴾ أي ليست مذللة والذلول التي يذللها العمل ﴿تثير الأرض﴾ أي تقلبها للزراعة ﴿ولا تسقي الحرث﴾ أي ليست بسانية يعني من النواضح التي يسنى عليها ويسقى الزرع، وحرف النفي الآخر توكيد للأول أي هذه بقرة غير مذللة بالحرث ولا بالنضح، ولهذا قال الحسن كانت البقرة وحشية، وقال قوم إن قوله تثير فعل مستأنف والمعنى إيجاب الحرث لها والنضح بها والأول أرجح لأنها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذللة ريضة وقد نفى الله ذلك عنها.

﴿مُسلَّمة﴾ أي بريئة من العيوب، والمسلمة هي التي لا عيب فيها وقيل مسلمة من العمل وهو ضعيف لأن الله سبحانه قد نفى ذلك عنها، والتأسيس خير من التأكيد، والإفادة أولى من الإعادة ﴿لاشية فيها﴾ أي لا لون فيها غير لونها، والشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين مختلفين، وثور موشى: في وجهه وقوائمه سواد ويقال ثور أشيه وفرس أبلق وكبش أخرج

وتيس أبرق وغراب أبقع، كل ذلك بمعنى أبلق والمراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر، فلما سمعوا هذه الاوصاف التي لا يبقى بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه أقصروا من غوايتهم وانتبهوا من رقدتهم، وغرقوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي أوضحت لنا الوصف وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات، قيل «أل» في الآن للتعريف الحضوري وقيل زائدة لازمة ﴿فذبحوها﴾ وامتثلوا الامر الذي كان يسيراً فعسروه وكان واسعاً فضيقوه.

﴿وما كادوا يفعلون﴾ ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة فكان ذلك مظنة للاستبعاد محلاً للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط والتعنت الكائن منهم، وقيل أنهم كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، وقيل لارتفاع ثمنها، وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول والأول أرجح.

وقد استدل جماعة من المفسرين والاصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل امكان الفعل، وليس ذلك عندي بصحيح لوجهين:

(الأول) أن هذه الأوصاف، المزيدة بسبب تكرار السؤال هي من باب التقييد للمأمور به لا من باب النسخ، وبين البابين بون بعيد كما هو مقرر في علم الأصول.

(الثاني) أما لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه فانه قد كان يمكنهم بعد الامر الاول ان يعمدوا إلى بقرة من عرض البقر فيذبحوها ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان والصفرة، ولا دليل يدل على أن هذه المحاوره بينهم وبين موسى عليه السلام واقعة في لحظة واحدة، بل الظاهر أن هذه الاسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤون عليها ويديرون

الـرأي بينهم في أمرهـا ثم يوردونها، وأقـل الاحوال الاحتمـال القادح في الاستدلال.

وعن عبيدة السلماني قال كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن اخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذو الرأي منهم علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم، فأتوا موسى فذكروا ذلك له فقال ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ الآية قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا من قتلك، فقال هذا لإبن أخيه، ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً ولم يورث قاتل بعده.

وعن ابن عباس أن القتيل وجد بين قريتين وأن البقرة كانت لرجل كان يبر أباه فاشتروها بوزنها ذهباً، وقد روي في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة.

وفي القصة أحكام منها الاستدلال بقوله ﴿إن الله يأمركم﴾ على أن الآمر لا يدخل في عموم الأمر فإن موسى لم يدخل في الأمر بدليل قوله (فذبحوها) ومنها الاستدلال على أن السنة في البقرة الذبح، ومنها الاستدلال على جواز ورود الأمر مجملاً وتأخير بيانه، ومنها دلالة قوله لا فارض ولا بكر وقوله مسلمة على جواز الأجتهاد واستعمال غالب الظن في الأحكام لأن ذلك لا يعلم إلا بالإجتهاد، ومنها أن المستهزيء يستحق سمة الجهل، ومنها دلالة قوله (إن شاء الله) على الاستثناء في الأمور، ومنها دليل أهل السنة في أن الأمر لا يستلزم المشيئة، ومنها الدلالة على حصر الحيوان بالوصف وجواز السلم فيه، ومنها دلالة قوله ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ على أن الأمر على الفور ويدل على ذلك أنه استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمرهم به وقال فذبحوها وما كادوا يفعلون.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت قتل هذه النفس وما وقع فيه من القصة والخطاب لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، واسناد القتل والتدارىء إليهم، لأن ما يصدر عن الاسلاف ينسب للاخلاف توبيخاً وتقريعاً.

قال الرازي في تفسيره اعلم أن وقوع القتل لا بد أن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح، فأما الإخبار عن وقوع القتل وعن أنه لا بد أن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يقدم ذكر السبب على الحكم، وأخرى على العكس من ذلك، فكأنهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة فلما ذبحوها قال ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ من قبل، ونسب القتل إليهم لكون القاتل منهم انتهى، والقتيل اسمه عاميل ذكره الكرماني وقيل نكار حكاه الماوردي وقاتله ابن أخيه وقيل أخوه.

﴿فادارأتم فيها﴾ اختلفتم وتنازعتم لأن المتنازعين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدفعه ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي ما كتمتم بينكم من أمر القتل فالله مظهره لعباده ومبينه لهم، وعن المسيب بن رافع قال ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كتاب الله.

﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا

باب لها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائناً ما كان.

وأخرج البيهقي من حديث عثمان قال: قال رسول الله ﷺ من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به، والموقوف أصح، ولجماعة من الصحابة والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى.

﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ يعني القتيل، واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا به القتيل فقيل بلسانها وقيل بعجب الذنب.وقيل بفخذها اليمين، وقال ابن عباس بالعظم الذي يلي الغضروف، وهو أصل الاذن، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفينا أن نقول أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها فأي بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان، وليس في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ما يدل على ذلك البعض ما هو، وذلك يقتضي التخيير.

﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾ أي كمثل هذا الاحياء يوم القيامة، فلا فرق بينهما في الجواز والامكان، والغرض من هذا الرد عليهم في انكار البعث، وهذا يقتضي أن يكون الخطاب مع العرب لا مع اليهود لانهم يقرون بالبعث والجزاء، وعلى هذا الجملة اعتراض في خلال الكلام المسوق في شأن اليهود ﴿ويريكم آياته﴾ أي علاماته ودلائله الدالة على كمال قدرته، وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة ويحتمل أن يكون خطاباً للموجودين عند نزول القرآن، والرؤية هنا بصرية ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي تمنعون أنفسكم من المعاصي.

وقد اخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قصة طويلة في ذكر البقرة وصاحبها لا حاجة إلى التطويل بذكرها وقد استوفاها السيوطي في الدر المنثور.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثم﴾ موضوعة للتراخي في الزمان ولا تراخي هنا فهي محمولة على الإستبعاد مجازاً ﴿قست قلوبكم﴾ أي يبست وجفت وقيل غلظت واسودت وصلبت، وقساوة القلب إنتزاع الرحمة منه والقسوة الصلابة واليبس وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والاذعان لآيات الله مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة من احياء القتيل وتكلمه وتعيينه لقاتله، وفيه استعارة تبعية تمثيلية تشبيهاً لحال القلوب في عدم الإعتبار والإتعاظ بالقسوة.

والإشارة بقوله ﴿من بعد ذلك﴾ إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلب ورقته التي جاء بها موسى أو احياء القتيل بعد ضربه ببعض البقرة، وهذا مؤكد للاستبعاد المذكور أشد تأكيد ﴿فهي﴾ أي القلوب في الغلظة والشدة ﴿كالحجارة﴾ أي كالشيء الصلب الذي لا تخلخل فيه.

قيل (أو) في قوله ﴿أو أشد قسوة﴾ بمعنى الواو كما في قوله تعالى ﴿آثماً أو كفوراً﴾ وقيل هي بمعنى بل واختاره أبو حيان، وعلى أن «أو» على أصلها أو بمعنى الواو فالعطف على قوله كالحجارة أي هذه القلوب هي كالحجارة أو هي أشد قسوة منها فشبهوها بأي الأمرين شئتم فإنكم مصيبون في هذا التشبيه، وقد أجاب الرازي في تفسيره عن وقوع أو ههنا مع كونها للترديد الذي لا يليق بعلام الغيوب بثمانية أوجه.

﴿وإن من الحجارة﴾ قال في الكشاف إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة وتقرير لقوله أو أشد قسوة انتهى، وفيه أن مجيء البيان بالواو غير معروف ولا مألوف والأولى جعل ما بعد الواو تذييلاً أو حالاً ﴿لما

يتفجر منه الانهار﴾ قيل أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى ليسقي الاسباط، والتفجر التفتح بالسعة والكثرة ﴿وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ يعني العيون الصغار التي هي دون الانهار، التفجر التفتح والشق واحد الشقوق وهو يكون بالطول أو بالعرض بخلاف الانفجار فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق، والمراد أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار والانشقاق.(١)

﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ أي أن من الحجارة لما ينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه من الخشية التي تداخله وتحل به، وقيل أن الهبوط مجاز عن الخشوع منها والتواضع الكائن فيها انقياداً لله عز وجل، فهو مثل قوله تعالى ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ واختاره ابن عطية، وقد حكى ابن جرير عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار، وذكر الجاحظ أن الضمير في قوله ﴿وإن منها﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة وهو فاسد فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت في القسوة وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق والتأثر للمواعظ إلى مكان لا تبلغ إليه الحجارة التي هي أشد الاجسام صلابة وأعظمها صلادة، فإنها ترجع إلى نوع من اللين وهو تفجرها بالماء وتشققها عنه، وقبولها لما توجبه الخشية لله من الخشوع والانقياد بخلاف تلك القلوب.

وفي قوله ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه مطلعاً عليه، غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.

---

(١) قال مجاهد: كل حجر ينفجر منه الماء، ينشق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل فهو من خشية الله. زاد السير ١/١١٢.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿افتطمعون﴾ الهمزة للاستفهام وتدخل على ثلاثة من حروف العطف الفاء كما هنا والواو كقوله الآتي ﴿أو لا يعلمون﴾ وثم كقوله ﴿أثم إذا ما وقع﴾ واختلف في مثل هذه التراكيب فذهب الجمهور إلى أن الهمزة مقدمة من تأخير لأن لها الصدر، والتقدير فأتطمعون وألا يعلمون وثم أإذا. وذهب الزمخشري إلى أنها داخلة على محذوف دل عليه سياق الكلام والتقدير هنا أتسمعون اخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون ﴿أن يؤمنوا لكم﴾ مع أنهم لم يؤمنوا بموسى، هذا الاستفهام فيه معنى الانكار كأنه أيسها من إيمان هذه الفرقة من اليهود، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ، أوله ﷺ والجمع للتعظيم ﴿وقد كان فريق منهم﴾ قيل المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى عليه السلام يوم الميقات والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه.

﴿يسمعون كلام الله﴾ أي التوراة وقيل انهم سمعوا خطاب الله لموسى عليه السلام حين كلمه، وعلى هذا فيكون الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى ﴿ثم يحرفونه﴾ أي يغيرونه ويبدلونه والتحريف الامالة والتحويل، وثم للتراخي إما في الزمان أو في الرتبة، والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة فجعلوا حلاله حراماً أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ، واسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى عليه السلام فزادوا فيه ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال، أي ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم ﴿من بعدما عقلوه﴾ أي علموا صحة كلام الله ومراده فيه ﴿وهم يعلمون﴾ أي ذلك الذي فعلوه هو تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا

في المعصية عالمين بها وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالتهم.

واعلم أن التوراة والانجيل اللذين عند اليهود والنصارى الآن اختلف فيهما هل هما مبدلان ومحرفان لفظاً أو تأويلاً، فأما التوراة فأفرط فيها قوم وقالوا كلها أو جلها مبدل، وذهبت طائفة من الفقهاء والمحدثين إلى أن ذلك إنما وقع في التأويل فقط كما صرح به البخاري، واختاره الفخر الرازي وغيره لقوله تعالى ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ وهو أمر للنبي ﷺ بالاحتجاج بها، والمبدل لا يحتج به ولما اختلفوا في الرجم لم يمكنهم تغيير آيته منها، وتوسطت طائفة وهو الحق فقالوا بدل بعض منها وحرف لفظه، وأول بعض منها بغير المراد منه، وأنه لم يعط منها موسى لبني اسرائيل غير سورة واحدة وجعل ما عداها عند أولاد هارون، فلم تزل عندهم حتى قتلوا عن آخرهم في وقعة بختنصر، وبعد ذلك جمع عزير بعضاً منها ممن حفظها فهو الذي عندهم اليوم، وليس أصلها، وفيه زيادة ونقص وخلاف وترجمة وتأويل.[1]

وأما الإنجيل ففيه تبديل وتحريف في بعض ألفاظه ومعانيه وهو مختلف النسخ، والأناجيل أربعة كما فصله بعضهم في كتاب عقده لذلك سماه المفيد في التوحيد.

---

(١) وقد ذكر ابن الجوزي عند تفسيره لهذه الآية:
وفي المخاطبين بهذه الآية ثلاثة أقوال:
انه النبي صلى الله عليه وسلم خاصة قاله ابن عباس ومقاتل.
أنهم المؤمنون تقديره افتطمعون ان تصدقوا نبيكم.
انهم الانسان. فانهم لما اسلموا أحبوا اسلام اليهود للرضاعة التي كانت بينهم.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ نزلت في اليهود، قال ابن عباس ان منافقي اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم آمنا بالذي آمنتم به وأن صاحبكم صادق وقوله حق، وانا نجد نعته وصفته في كتابنا ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ يعني كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب ابن يهودا رؤساء اليهود لاموا منافقي اليهود على ذلك، وعن عكرمة أنها نزلت في ابن صوريا.

﴿قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ وذلك أن ناساً من اليهود أسلموا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به آباؤهم، وقيل ان المراد ما فتح الله عليهم في التوراة في صفة محمد ﷺ، والفتح عند العرب القضاء والحكم والفتاح القاضي بلغة اليمن، والفتح النصر، ومن ذلك قوله تعالى ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ وقوله ﴿ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ ومن الأول ﴿ثم يفتح بيننا بالحق وهو خير الفاتحين﴾ أي الحاكمين ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين وقيل معناه الانزال، وقيل الاعلام أو التبيين أو المنّ أي ما منّ به عليكم من نصركم على عدوكم.

﴿ليحاجوكم به﴾ أي ليخاصمكم أصحاب محمد ﷺ ويحتجوا عليكم بقولكم فيقولون لكم قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم ألا تتبعونه ﴿عند ربكم﴾ في الدنيا والآخرة وقيل عند بمعنى في، وقيل عند ذكر ربكم والأول أولى، والمحاجة إبراز الحجة أي لا تخبروهم بما حكم عليكم الله به من العذاب

فيكون ذلك حجة لهم عليكم فيقولون نحن أكرم على الله منكم وأحق بالخير منه، والحجة الكلام المستقيم، وحاججت فلاناً فحججته أي غلبته بالحجة ﴿أفلا تعقلون﴾ ما فيه الضرر عليكم من هذا التحديث الواقع منكم لهم، وهذا من تمام مقولهم.

ثم وبخهم الله سبحانه فقال ﴿أو لا يعلمون﴾ أي اليهود ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ ما يخفون وما يبدون ويظهرون من جميع أنواع الأسرار، وأنواع الإعلان، ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان وتحريف الكلم عن مواضعه، قال ابن عباس هذه الآيات في المنافقين من اليهود، وقال أبو العالية ما يسرون من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمنا، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف.

﴿ومنهم أميون﴾ أي ومن اليهود، والأمي منسوب إلى الأمة الأميّة التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، وقال أبو عبيدة إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب فكأنه قال ومنهم أهل كتاب، وقيل هم نصارى العرب وقيل هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها، وقيل هم المجوس حكاه المهدوي وقيل غير ذلك والراجح الأول، وقيل أميون أي عوام ومن هذا شأنه لا يطمع في إيمانه.

﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي أنهم لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأماني التي يتمنونها ويعللون بها أنفسهم، والأماني جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون ولا يقرؤون المكتوب، والاستثناء منقطع أي لكن الأماني ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم، وقيل الأماني الأكاذيب المختلفة، قاله ابن عباس أي ولكن يعتقدون أكاذيب اخذوها تقليداً من المحرفين أو مواعيد فارغة

سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وقيل الأماني التلاوة، ومنه قوله تعالى ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي إذا تلى ألقى الشيطان في تلاوته أي لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، وقراءة عارية عن معرفة المعنى، وقيل الأماني التقدير، قال الجوهري يقال مني له أي قدر، قال في الكشاف والاشتقاق من منى إذا قدر لأن المتمني يقدر في نفسه ويحرز ما يتمناه، وكذلك المختلق والقاريء يقدران كلمة كذا بعد كذا انتهى، وقيل هو من التمني وهو قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ وغير ذلك مما تمنوه، والمعنى لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم[1].

﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أي ليسوا على يقين، والظن هو التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم كذا في القاموس، أي ما هم إلا يترددون بغير جزم ولا يقين: وقيل الظن هنا بمعنى الكذب وقيل هو مجرد الحدس.

لما ذكر الله سبحانه أهل العلم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلون على الأماني ويعتمدون على الظن الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره ولا يظفرون بسواه.

---

(١) ويؤيد هذا ما رواه مقاتل:
كان المسلم يلقى حليفه أو أخاه من الرضاعة من اليهود.
فيسأله: اتجدون محمداً في كتابكم.
فيقولون: نعم إنه لح.
فسمع كعب بن الاشرف وغيره. فقال لليهود في السر:
اتحدثون اصحاب محمد بما فتح الله عليكم من امر محمد ليخاصموكم به عند ربكم باعترافكم انه نبي، أفلا تعقلون انه حجة عليكم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ الويل الهلاك قال الفراء الأصل في الويل وي أي حزن كما تقول وي لفلان أي حزن له فوصلته العرب باللام، وقال الخليل ولم يسمع على بنائه إلا ويح وويس وويه وويك وويب، وكله متقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم وهي مصادر لم تنطق العرب بأفعالها وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء، وقال ابن عباس الويل شدة العذاب، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب، والخريف السنة، والكتابة معروفة والمعنى أنهم يكتبون الكتاب المحرف ولا يبينون ولا ينكرونه على فاعله أو ما يكتبونه من التأويلات الزائفة، وقوله ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لأن الكتابة لا تكون إلا باليد، فهو مثل قوله ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ وقوله ﴿يقولون بأفواههم﴾ قال ابن السراج هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وفيه أنه قد دل على أنه من تلقائهم قوله ﴿يكتبون الكتاب﴾ فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك.

﴿ثم يقولون هذا﴾ أي جميعاً على الأول وبخصوصه على الثاني وثم للتراخي الرتبي فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل ﴿من عند الله ليشتروا به﴾ أي بما كتبوا ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي المآكل والرشاء، والاشتراء الاستبدال ووصفه بالقلة لكونه فانياً لا ثواب فيه أو لكونه حراماً لا تحل به البركة فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا

بالتحريف، ولا بالكتابة لذلك المحرف حتى نادوا في المحافل بأنه من عند الله لينالوا بهذه المعاصي المتكررة هذا العرض المزر، والعوض الحقير، واستدل به النخعي على كراهة كتابة المصحف بالأجرة.

﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ تأكيد لقوله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ ومع ذلك فيه نوع مغايرة لأن هذا وقع تعليلاً فهو مقصود وذلك وقع صلة فهو غير مقصود، والكلام في هذا كالذي فيما قبله من جهة أن التكرير للتأكيد ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ قيل من الرشاء ونحوها وقيل من المعاصي، وكرر الويل تغليظاً عليهم وتعظيماً لفعلهم وهتكاً لأستارهم. وقال السعد التفتازاني إنما كرر ليفيد أن الهلاك مرتب على كل واحد من الفعلين على حدة لا على مجموع الأمرين، والكسب مسبب فجاء النظم على هذا الترتيب.

وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثاراً عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستدلين بهذه الآية، ولا دلالة فيها على ذلك، ثم ذكر آثاراً عن جماعة منهم أنهم جوزوا ذلك ولم يكرهوه.

﴿وقالوا﴾ أي اليهود ﴿لن تمسنا﴾ أي تصيبنا ﴿النار إلا أياماً معدودة﴾ استثناء مفرغ أي قدراً مقدراً يحصرها العد، ويلزمها في العادة القلة ثم يرفع عنا العذاب، وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية، قال ابن عباس إن اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله في ذلك هذه الآية.

وعن عكرمة قال اجتمعت يهود يوماً فخاصموا النبي ﷺ فقالوا لن تمسنا النار إلا أربعين يوماً ثم يخلفنا فيها ناس، وأشاروا إلى النبي ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ ورد يديه على رأسه كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا نخلفكم

فيها إن شاء الله أبداً ففيهم نزلت هذه الآية، وأخرج أحمد والبخاري والدارمي والنسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ سأل اليهود في خيبر من أهل النار؟ قالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ «اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا »(١).

والمراد بقوله ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً﴾ الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة أي لم يتقدم لكم مع الله عهد بهذا ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصدق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك وعدم إخلاف العهد أي إن اتخذتم عهداً ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ هذا جواب الاستفهام المتقدم في قوله ﴿أتخذتم﴾ وقال ابن عطية هذا اعتراض بين أثناء الكلام قال الرازي العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد، وإنما سمى خبره سبحانه عهداً لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة ﴿أم تقولون﴾ أم متصلة وحينئذ الاستفهام للتقرير المؤدي إلى التبكيت أو منقطعة والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه ﴿على الله ما لا تعلمون﴾.

---

(١) يقول ابن الجوزي لماذا قدروها بأربعين فيه ثلاثة أقوال:

انهم قالوا بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة ونحن نقطع مسيرة كل سنة في يوم ثم ينقضي العذاب وتهلك النار. قاله ابن عباس.

انهم قالوا: عتب علينا ربنا في أمر فاقسم ليعذبنا اربعين ليلة ثم يدخلنا الجنة، فلن تمسنا النار إلا اربعين يوماً تحلة القسم وهذا قول الحسن وابي العالية.

انها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل قاله مقاتل.

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد حرف النفي مختص به خبراً واستفهاماً أي بلىٰ تمسكم النار أبداً لا على الوجه الذي ذكرتم من كونه أياماً معدودة ﴿من كسب سيئة﴾ المراد بها الجنس هنا ومثله قـوله تعـالى ﴿وجزاء سيئـة سيئة مثلهـا، ومن يعمل سوءاً يجز به﴾ ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار بل لا بد أن يكون سببه محيطاً به فقال ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي أحدقت به من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة وسدت عليه مسالك النجاة، قيل هي الشرك قاله ابن عباس ومجاهد، وقيل هي الكبيرة، وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في السنة تواتراً من خروج عُصاة الموحدين من النار، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وعليه إجماع المفسرين، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج، قال الحسن كل ما وعد الله عليه النار فهو الخطيئة استدل به على أن المعلق على شرطين لا ينجز بأحدهما ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ والخلود في النار هو للكفار والمشركين فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك.[1]

---

(١) روى مسلم في صحيحه/ ١٩٣.

عن انس بن مالك: ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: يخرج من النار من قال لا إلَه الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة.

ثم يخرج من النار من قال لا إلَه الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة.

وفي رواية:

اني لاعرف آخر اهل النار خروجاً من النار رجل يخرج منها زحفاً فيقال له انطلق فادخل الجنة قال فيذهب فيدخل الجنة...

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ٨٣﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإن قلت لو دل الإيمان على العمل لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكراراً، قلت آمنوا يفيد الماضي وعملوا يفيد المستقبل، فكأنه قال آمنوا ثم داموا عليه آخراً، ويدخل فيه جميع الأعمال الصالحة ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها ولا يموتون، وأتى بالفاء في الشق الأول دون الثاني إيذاناً بتسبب الخلود في النار على الشرك وعدم تسبب الخلود في الجنة عن الإيمان، بل هو بمحض فضل الله تعالى.

﴿وإذْ أخذنا﴾ الخطاب مع بني إسرائيل وهم اليهود المعاصرون للنبي ﷺ بما وقع من أسلافهم توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم أي اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم، وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، والأول أولى لأن المقام مقام تذكيرهم، وهذا شروع في تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود بما ينادي بعدم إيمان أخلافهم ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمانهم ﴿ميثاق بني إسرائيل﴾ الذين كانوا في زمن موسى، وقد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل، وقال مكي إن الميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا هو ما أخذه عليهم في حياتهم على ألسن أنبيائهم وهو قوله ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ خبر بمعنى النهي وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من الاعتناء بشأن المنهى عنه، وتأكد طلب امتثاله حتى كأنه امتثل وأخبر عنه، وعبادة الله إثبات توحيده

وتصديق رسله، والعمل بما أنزل الله في كتبه.

﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما وامتثال أمرهما وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق، ومنه البر بهما والرحمة لهما والنزول عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه، ولا يؤذيهما وإن كانا كافرين، وأن يدعوهما إلى الإيمان بالرفق واللين، وكذا إن كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف من غير عنف، ولا يقول لهما أف

﴿وذي القربى﴾ أي القرابة عطف على الوالدين لأن حقها تابع لحقهما، والإحسان إليهم إنما هو بواسطة الوالدين، والقربى مصدر كالرجعى والعقبى وهم القرابة، والإحسان بهم صلتهم والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة وبقدر ما تبلغ إليه القدرة.

﴿واليتامى﴾ جمع يتيم، واليتيم في بني آدم من فقد أبوه، وفي سائر الحيوانات من فقدت أمه وأصله الانفراد يقال صبي يتيم أي منفرد من أبيه فإذا بلغ الحلم زال عنه اليتم، وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور لصغره ويتمه ولخلوه عمن يقوم بمصلحته إذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه ولا يقوم بحوائجه

﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وهو من أسكنته الحاجة وذللته وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه، وروي عن الشافعي أن الفقير أسوأ حالا من المسكين، وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة في مواطنها.

﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي قولاً حسناً سماه حسناً مبالغة، وقريء حسناً بضمتين وهي لغة أهل الحجاز، وحسنى بغير تنوين على أنه مصدر كبشرى، والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد، حكاه الأخفش، قال النحاس وهذا لا يجوز في العربية لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى، وهذا قول سيبويه، وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود حسناً قال

الأخفش هما بمعنى واحد مثل البخل والبخل، والرشد والرشد، فهو صفة مشبهة لا مصدر، كما فهم من عبارة القاموس فسقط ما للكرخي هنا، والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين بل كل ما صدق عليه انه حسن شرعاً كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر، وقد قيل إن ذلك هو كلمة التوحيد، وقيل الصدق، وقيل الأمر بالمعروف، وقيل هو اللين في القول والعشرة وحسن الخلق والنهي عن المنكر وقيل غير ذلك، قيل إن الخطاب للحاضرين من اليهود في زمن النبي ﷺ فلهذا عدل عن الغيبة إلى الخطاب قاله ابن عباس، وقيل إن المخاطبين به هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، وإنما عدل من الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات.

وتقدم تفسير قوله ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وهو خطاب لبني إسرائيل فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها والزكاة التي كانوا يخرجونها قال ابن عطية وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يقبل ولا تنزل على ما لا يقبل.

والخطاب في قوله ﴿ثم توليتم﴾ قيل للحاضرين منهم في عصر النبي ﷺ لأنهم مثل سلفهم في ذلك، وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب أي أعرضتم عن العهد، ومن فوائد الالتفات تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد كما هو مقرر في محله، والإعراض والتولي بمعنى واحد وقيل التولي بالجسم والإعراض بالقلب ﴿إلا قليلاً منكم﴾ منصوب على الإستثناء وهو من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وأنتم معرضون﴾ كإعراض آبائكم، أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لها المنزلة عنده بما التزموا به ثم أخبر عنهم أنهم ما وفوا بذلك.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

﴿وإذْ أخذنا ميثاقكم﴾ قيل هو خطاب لمن كان في زمن النبي ﷺ من اليهود، والمراد أسلافهم المعاصرون لموسى على سنن التذكيرات السابقة، وهذا شروع في بيان ما فعلوه بالعهد المتعلق بحقوق العباد بعد بيان ما فعلوا بالعهد المتعلق بحقوق الله وما يجري مجراها، وقيل لآبائهم وفيه تقريع لهم وتوبيخ ﴿لا تسفكون﴾ أي لا تريقون والسفك الصب وقد تقدم ﴿دماءكم﴾ أي لا يفعل ذلك بعضكم ببعض أو لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم فهو من باب المجاز بأدنى ملابسة، أو لأنه يوجبه قصاصاً فهو من باب إطلاق المسبب على السبب ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، وقيل لا تفعلوا شيئاً فتخرجوا بسببه من دياركم، والدار المنزل الذي فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال، وقال الخليل كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم يكن فيه أبنية، وقيل سميت دار لدورها على سكانها كما يسمى الحائط حائطاً لأحاطته على ما يحويه ﴿ثم أقررتم﴾ من الإقرار أي حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم أنه حق ﴿وأنتم تشهدون﴾ يا معشر اليهود، الشهادة هنا بالقلوب، وقيل هي بمعنى الحضور أي أنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك، وعلى هذا إسنادا لإقرار إليهم مجاز وكان الله سبحانه قد أخذ في التوراة على بني إسرائيل أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يسترقه.(١)

---

(١) روى السدي عن أشياخه مختصراً. . . .

كانت قريظة يقاتلون في حرب سمير. واذا اسر الرجل جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك كيف تقاتلون وتفدون فيقولون: امرنا ان نفديهم وحرم علينا قتلهم. فيقولون لهم: فلم تقاتلونهم فيقولون: نستحي ان يستذل حلفاؤنا، فعيرهم الله بالآية التالية.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ أي أنتم هؤلاء الحاضرون المشاهدون تخالفون ما أخذه الله عليكم في التوراة، وأصل المظاهرة المعاونة مشتقة من الظهر، لأن بعضهم يقوي بعضاً فيكون له كالظهر، ومنه قوله تعالى ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ وقوله ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ والمعنى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم، والاثم في الاصل الذنب وجمعه آثام ويطلق على الفعل الذي يستحق به صاحبه الذم واللوم، وقيل هو ما تنفر منه النفس ولا يطمئن إليه القلب، والآية تحتمل ما ذكرنا وتحتمل أن يتجوز به عما يوجب الاثم إقامة للسبب مقام المسبب، والعدوان التجاوز في الظلم وهو مصدر كالكفران والغفران، والمشهور ضم فائه وفيه لغة بالكسر.

﴿وإن يأتوكم﴾ أي الفريق الذي تخرجونه من دياره وقت الحرب حال كونه ﴿أسارى﴾ جميع أسير وهو من يؤخذ قهراً، فعيل بمعنى مفعول، أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح، وبه قرأ حمزة، قال أبو حاتم ولا يجوز أسارى، وقال الزجاج يقال أسارى كما يقال سكارى، قال ابن فارس يقال في جمع أسير أسرى وأسارى انتهى، فالعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في التنزيل وقرأ به الجمهور، والاسير مشتق من السير وهو القد الذي يشد به المحمل فسمي أسيراً، لأنه يشد وثاقه ثم سمى كل أخيذ أسيراً وإن لم يشد

﴿تفادوهم﴾ أي بالمال وهو استنقاذهم بالشراء وقيل تبادلوهم وهو مفاداة الأسير، والفداء هو ما يؤخذ من الأسير ليفك به أسره، يقال فداه وفاداه أعطى فداءه وأنقذه ﴿وهو﴾ ضمير الشأن ويسمى ضمير القصة ولا يرجع إلا على ما بعده وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه ﴿محرم عليكم إخراجهم﴾ قال المفسرون كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة أربعة عهود: ترك القتل وترك الاخراج وترك المظاهرة وفداء أسراهم فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء فوبخهم الله على ذلك بقوله:

﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ أي إن وجدتموهم في يد غيركم فديتموهم وأنتم تقتلونهم بأيديكم فكان إيمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضاً فذمهم على مناقضة أفعالهم لأنهم أتوا ببعض ما يوجب عليهم وتركوا البعض، وهذا هو مناط التوبيخ حسب ما يفيده ترتيب النظم الكريم لأن من قضية الإيمان ببعضه الإيمان بالباقي لكون الكل من عند الله داخلاً في الميثاق ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم﴾ يا معشر اليهود ﴿إلا خزى في الحياة الدنيا﴾ .

الخزي الهوان والعذاب، وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به الملاعين اليهود موفراً فصاروا في خزي عظيم بما الصق بهم من الذل والمهانة بالاسر والقتل وضرب الجزية والجلاء، فكان خزي بني قريظة القتل والسبي، وخزي بني النضير الإجلاء والنفي من منازلهم إلى أريحا وأذرعات من أرض الشام .

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ يعني النار لأنهم جاؤا بذنب شديد ومعصية فظيعة، وهذا اخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون في عذاب موفر لازم لهم بالجزية والصغار والذلة والمهانة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد وتهديد عظيم.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا
عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ
أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾

أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ بأن آثروها عليها لأن الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن، فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة، قال قتادة استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أبداً ما داموا ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا يمنعون من عذاب الله، لا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عدوهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطيناه التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة، شروع في بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية، لاظهار كمال الاعتناء به ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ أي أتبعنا، والتقفية الاتباع والارداف وهو أن يقفو إثر الآخر مأخوذ من القفا وهو مؤخر العنق، والمراد أن الله سبحانه أرسل على إثره رسلاً جعلهم تابعين له وكانت الرسل من بعد موسى الى زمن عيسى متواترة يظهر بعضهم في إثر بعض والشريعة واحدة، وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثون من بعده كالشموئيل بن بابل والياس ومنشائل واليسع ويونس وزكريا ويحي وشعياء وحزقيل وداود وسليمان وأرمياء وهو الخضر وعيسى ابن مريم، **فهؤلاء** الرسل بعثهم الله وانتخبهم من أمة موسى وأخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ان يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة أمته، وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله عيسى ، فجاءهم بشريعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله:

﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات، وهي الأدلة

التي ذكرها الله في آل عمران والمائدة، وهي الآيات التي وضع على يديه من أحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وخلقه من الطين كهيئة الطير وابراء الأسقام والإخبار بكثير من الغيوب، وما ورد عليه من التوراة والانجيل الذي أحدث الله إليه، وقيل هي الإنجيل، واسم عيسى بالسريانية ايشوع، ومريم بالسريانية بمعنى الخادم ثم سمي به فلذلك لم ينصرف، وفي لسان العرب هي المرأة التي تكره مخالطة الرجال، قال أبو السعود وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال، ووزنه مفعل إذا لم يثبت فعيل، ذكر السيوطي في التحبير أن مدة ما بين موسى وعيسى ألف وتسعمائة سنة وخمس وعشرون سنة.

﴿وأيدناه بروح القدس﴾ التأييد التقوية، وروح القدس من إضافة الصفة الى الموصوف أي الروح المقدسة والقدس الطهارة والمقدس المطهر قيل هو جبريل، قاله ابن مسعود أيد الله به عيسى، وسمي جبريل روحاً وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة، وقيل القدس هو الله عز وجل وروحه جبريل وقيل المراد بروح القدس الاسم الذي كان يحيي به عيسى الموتى واسم الله الأعظم، وقيل المراد به الإنجيل، وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه أيده الله به لما فيه من القوة وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «اللهم أيد حسان بروح القدس» وكان جبريل يسير مع عيسى حيث سافر فلم يفارقه حتى صعد به الى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم﴾ أي بما لا يوافقها ويلائمها، وأصل الهوى الميل الى الشيء، قال الجوهري وسمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ ﴿استكبرتم﴾ عن إجابته احتقاراً للرسل واستبعاداً للرسالة، والسين زيادة للمبالغة ﴿ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ الفاء للتفصيل ومن الفرق المكذبين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ومن الفرق المقتولين يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام وسائر من قتلوه.

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف المراد به هنا الذي عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام اليه فلا يعي ولا يفقه، قال في الكشاف هو مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقوله ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وقيل إن الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أي قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وعينا علماً كثيراً فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، فرد الله عليهم ما قالوه فقال ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم وأبعده من كل خير، وأصل اللعن في كلام العرب الطرد والابعاد ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ وصف إيمانهم بالقلة لأنهم الذين قص الله علينا من عنادهم وعجرفتهم وشدة لجاجهم وبعدهم من إجابة الرسل ما قصه، ومن جملة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

وقال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره، قال الواقدي معناه لا يؤمنون قليلاً ولا كثيراً، قال الكسائي تقول العرب مررنا بأرض قلما تنبت الكراث والبصل أي لا تنبت شيئاً، وأخرج أحمد بسند جيد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» وقال قتادة لا يؤمن منهم إلا قليل لأن من آمن من المشركين كان

أكثر منهم، وقيل فزماناً قليلاً يؤمنون فهو على حد قوله ﴿آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾،

﴿ولما جاءهم﴾ أي اليهود ﴿كتاب من عند الله﴾ هو القرآن ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة والانجيل أنه يخبرهم بما فيهما ويصدقه ولا يخالفه ﴿وكانوا من قبل﴾ مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يستفتحون﴾ أي يستنصرون به، والاستفتاح الاستنصار أي كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة، وقيل الاستفتاح هنا بمعنى الفتح أي يخبرونهم بأنه سيبعث ويعرفونهم بذلك ﴿على الذين كفروا﴾ يعني مشركي العرب، وذلك أنهم كانوا إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم مع قتل عاد وإرم[1].

﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وعرفوا أنه نبي من غير بني إسرائيل ﴿كفروا به﴾ أي جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي عليهم وضعاً للظاهر موضع المضمر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم واستعلت عليهم وشملتهم، واللام للعهد أو للجنس ودخلوا فيه دخولاً أولياً.

---

(١) اورد القرطبي في تفسيره:
قال ابن عباس: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود.
فعادت يهود بهذه الدعاء وقالوا: إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا ان تخرجه في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم.
قال: فكانوا اذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا فانزل الله هذه الآيات.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١)﴾

﴿بئس ما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بئس الشيء وقال الفراء بئسما بجملته شيء واحد ركب كحبذا بئسما باعوا به حظ أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ يعني القرآن ﴿بغياً﴾ أي حسداً، قال الأصمعي البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح إذا فسد، وقيل أصله الطلب ولذلك سميت الزانية بغياً وهو علة لقوله يكفروا قاله القاضي ، وقال الزمخشري هو علة لقوله اشتروا وقوله الآتي ان ينزل علة لقوله بغياً أي لأن ينزل، والمعنى أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسداً ومنافسة ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ وليس بواجب عليه ﴿على من يشاء من عباده فباؤا﴾ أي فرجعوا وصاروا أحقاء ﴿بغضب على غضب﴾ قيل الغضب الأول لعبادتهم العجل والثاني لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل لكفرهم بعيسى عليه السلام والانجيل ثم لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وقيل لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم البغي عليه، وقال ابن عباس الأول بتضييعهم التوراة وتبديلها والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك، والتنكير للتعظيم ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ ذو إهانة مأخوذ من الهوان، وقيل وهو ما اقتضى الخلود في النار.

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ وهو القرآن وقيل كل كتاب أي صدقوا بالقرآن او صدقوا بما أنزل الله من الكتب ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ أي

التوراة﴿ويكفرون ﴾ الواو للحال ﴿بما وراءه﴾ أي بما سواه من الكتب، قاله الفراء وبما بعده يعني الأنجيل والقرآن قاله أبو عبيده، قال الجوهري وراء بمعنى خلف وقد يكون بمعنى قدام وأمام فهي من الاضداد ومنه قوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي قدامهم، وفي الموازنة للآمدي وراء ليست من الأضداد إنما هو من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء، خلفاً كان او قداماً إذا لم تره ولم تشاهده، فأما إذا رأيته فلا يكون وراءك ومنه قوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي أنه كان أمامهم وصح ذلك لأنهم لم يعاينوه ولم يشاهدوه انتهى.

قال الخفاجي وهذا لا ينافي قوله البيضاوي ولذلك عد من الاضداد لأن معناه أنه لما أطلق على خلف وقدام وهما ضدان عد ضداً تسمحاً على عادة أهل اللغة ، وإن كان موضوعاً لمعنى شامل لهما لأنه مصدر بمعنى الستر فيهما لكنه قد يستعمل بمعنى الساتر وقد يستعمل بمعنى المستور، ولذا قال في القاموس هو من الاضداد أولاً، وقيل أنه مضاف الى الفاعل مطلقاً لأن الرجل يواري ما خلفه على من هو قدامه وما قدامه على من هو خلفه انتهى.

﴿وهو الحق﴾ يعني القرآن ﴿مصدقاً لما معهم﴾ يعني التوراة ﴿قل﴾ يا محمد ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء، وهذا تكذيب لهم لأن الإيمان بالتوراة مناف لقتل أشرف خلقه، وهذا الخطاب وإن كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم، ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم، وفي الآية دليل على أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها[1].

---

(١) وتقتلون هنا بمعنى قتلتم، فوضع المستقبل في موضع الماضي، لأن الوهم لا يذهب الى غيره وأنشدوا في ذلك:

شهد الحطيئة حين يلقي ربه ... ان الوليد أحق بالعذر

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)

﴿ولقد جاءكم موسى﴾ هذا داخل تحت الأمر السابق أي وقل لهم لقد جاءكم موسى والغرض منه بيان كذبهم، هكذا أفاده البيضاوي وكثير من المفسرين وفيه نظر أشار له أبو السعود ﴿بالبينات﴾ أي بالدلالات الواضحة والمعجزات الظاهرة، والبينات يجوز ان يراد بها التوراة او التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ ويجوز أن يراد بها الجميع ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ أي من بعد النظر في تلك البينات او من بعد موسى لما ذهب الى الميقات ليأتي بالتوراة ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عناداً بعد قيام الحجة عليكم، وإنما كرره تبكيتاً لهم وتأكيداً للحجة عليهم.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ قد تقدم تفسير أخذ الميثاق ورفع الطور، والأمر بالسماع معناه الطاعة والقبول وليس المراد مجرد الأدراك بحاسة السمع ومنه قولهم «سمع الله لمن حمده» أي قبل وأجاب ﴿قالوا سمعنا﴾ أي سمعنا قولك بحاسة السمع ﴿وعصينا﴾ يعني أمرك بقلوبنا أي لا نقبل ما تأمرنا به، ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم سمعنا ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة في مخاطبة أنبيائهم، وذلك بأن يحملوا قوله تعالى ﴿إسمعوا﴾ على معناه الحقيقي أي السماع بالحاسة ثم أجابوا بقولهم سمعنا أي أدركنا ذلك بأسماعنا عملاً بموجب ما تأمرنا به، ولكنهم لما

كانوا يعلمون أن هذا غير مراد لله عز وجل بل مراده بالأمر بالسماع الأمر بالطاعة والقبول لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا الى ذلك ما هو الجواب عندهم فقالوا وعصينا.

﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي تداخل حبه في قلوبهم ورسخ فيها صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن، وفيه تشبيه بليغ أي جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه ، وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل في الاعضاء حتى يصل الى باطنها، والطعام يتجاوزها ولا يتغلغل فيها، قال أبو السعود ﴿في قلوبهم﴾ بيان لمكان الإشراب كما في قوله تعالى ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير «قد» انتهى.

قيل أن موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى في النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقي في قلبه شيء من حب العجل ظهر سحالة الذهب على شاربه وما أبعده، والإشراب مخالطة المائع للجامد ثم اتسع فيه حتى قيل في الألوان نحو اشرب بياضه حمرة.

﴿بكفرهم﴾ الباء للسببية أي بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك، قيل كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسماً أعجب منه فتمكن في قلوبهم ما سول لهم السامري ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ الذي زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بما وراءه، فإن هذا الصنع وهو في قولكم سمعنا وعصينا في جواب ما أمرتم به في كتابكم وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء بخلاف ما زعمتم، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على أنكم كاذبون في قولكم نؤمن بما أنزل علينا لا صادقون، فإن زعمتم إن كتابكم الذي آمنتم به أمركم بهذا فبئس ما يأمركم به إيمانكم بكتابكم، وفي هذا من التهكم ما لا يخفى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ بزعمكم، والمعنى لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل والمراد آباؤهم أي فكذلك لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتم محمداً والإيمان بها لا يأمر بتكذيبه.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله﴾ أي نعيمها لأن الدار الآخرة في الحقيقة هي انقضاء الدنيا وهي للفريقين، وهذا رد عليهم لما ادعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركهم في دخولها غيرهم، وإلزام لهم بما تبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى، وأنها صادرة منهم لا عن برهان ﴿خالصة﴾ مصدر كالعافية والعاقبة وهو بمعنى الخلوص، والمراد أنه لا يشاركهم فيها غيرهم إذا كانت اللام في قوله ﴿من دون الناس﴾ للجنس أو لا يشاركهم فيها المسلمون إن كانت اللام للعهد، وهذا أرجح لقولهم في الآية الأخرى ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهو مؤكد له لأن «دون» تستعمل للاختصاص يقال هذا لي دونك أو من دونك أي لا حق لك فيه، وقد تأتي في غير هذا للانتقاص في المنزلة او المكان او المقدار ﴿فتمنوا الموت﴾ أي فاطلبوه واسألوه، وإنما أمرهم بتمني الموت لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة إذ لا سبيل الى دخولها إلا بعد الموت، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا ﴿إن كنتم صادقين﴾ في قولكم ودعواكم ولهذا قال سبحانه[1]:

---

(١) وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:
لو ان اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم [مقامهم] في النار وقيل أيضاً:
ان الله صرفهم عن اظهار التمني، وقصرهم عن الامساك ليجعل ذلك آية لنبيه صلى الله عليه وسلم.

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ
وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ هو ظرف زمان يصدق بالماضي والمستقبل تقول ما فعلت أبداً ذكره السمين، وقال هنا «لن» وفي الجمعة «لا» لأن لن أبلغ في النفي من لا ودعواهم هنا بالغة قاطعة فناسب ذكر لن فيها، ودعواهم في الجمعة قاصرة مردودة وهي زعمهم أنهم أولياء الله فناسب ذكر «لا» فيها ﴿بما قد مت أيديهم﴾ أي بما قدمته من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة فضلاً عن كونها خالصة له مختصة به، وإنما أضاف العمل الى اليد لأن أكثر جنايات الإنسان تكون خالصة له مختصة به، وإنما أضاف العمل الى اليد لأن أكثر جنايات الإنسان تكون من يده.

وقيل أن الله سبحانه صرفهم عن التمني ليجعل ذلك آية لنبيه ، والمراد بالتمني هنا هو التلفظ بما يدل عليه لا مجرد خطوة بالقلب وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يراد في مقام المحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني او صرفهم عنه معجزة لرسول الله فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف والتجري على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل، فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت إما لأمر قد علموه أو للصرفة من الله عز وجل، وقد يقال قد ثبت النهي عن النبي في شريعته ، ويجاب بأن المراد هنا إلزامهم الحجة وإقامة البرهان على بطلان دعواهم.

عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله إن كنتم في مقالتكم صادقين فقولوا اللهم أمتنا ، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه

فمات مكانه، وعنه لو أن اليهود تمنوا لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيه تخويف وتهديد لهم، وإنما خصهم بالظلم لأنه أعم من الفكر لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً فلهذا كان أعم وكانوا أولى به.

﴿ولتجدنهم﴾ اللام للقسم والنون للتأكيد أي والله لتجدنهم يا محمد، وهذا أبلغ من قوله ﴿ ولن يتمنوه أبداً﴾ ﴿أحرص الناس على حياة﴾ زيادة على عدم تمني الموت، والحرص أشد الطلب، وتنكير «حياة» للتحقير أي أنهم أحرص الناس على حقير حياة وأقل لبث في الدنيا فكيف بحياة كثيرة ولبث متطاول، وقال في الكشاف أنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة، وتبعه في ذلك الرازي والخازن في تفسيريها ﴿ومن الذين أشركوا﴾، ووجه ذكرهم بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم للدلالة مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم، فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغاً في الحرص الى غاية لا يقادر قدرها.

وإنما بلغوا في الحرص الى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين لأنهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب في الآخرة بخلاف المشركين من العرب ونحوهم فإنهم لا يقرون بذلك، فكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود، والأول وإن كان فيه خروج من الكلام في اليهود الى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكلف ولا ضير في استطراد ذكر حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود، وقال الرازي إن الثاني أرجح ليكون ذلك ابلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم أن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا انتهى، ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحاً قد أفاده قوله تعالى ﴿ولتجدنهم أحرص الناس﴾ ولا يستلزم استئناف الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس.

﴿يود أحدهم﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف وهم المجوس أي يتمنى أحدهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ أي تعمير ألف سنة، وإنما خص الألف

بالذكر لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغـة، ولأنها نهاية العقـود ولأنها تحية المجوس فيما بينهم يقولون «زي هزارسال» أي عش الف سنة أو ألف نيـروز أو ألف مهرجان، فهـذه تحيتهم، وهذا كنـاية عن الكثـرة فليس المراد خصـوص هذا العدد، والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلـك.

﴿وما هو بمزحزحه﴾ أي بمباعده قيل هو راجع إلى أحدهم كما جـرى عليه الجلال، وعلى هذا يكون قوله ﴿أن يعمر﴾ فاعلاً لمزحزحه وقيـل هو لمـا دل عليه يعمر من مصدره أي وما التعمير بمزحزحه ويكون قـوله ﴿أن يعمـر﴾ بدلاً منـه، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت هو عماد، وقيل هـو ضمير الشـأن وإليه نحـا الفارسي تبعاً للكوفيين، وقيل «ما» تميمة وهو مبتدأ خبره بمزحزحه على زيادة الباء وقيل ما هي الحجازية والضمير اسمها وما بعده خبـرها والأول أرجـح، وكذلـك الثاني والثالث ضعيف جـداً لأن العماد لا يكـون إلا بين شيئـين، ولهذا يسمـونه ضمير الفصل والرابع فيه أن ضمير الشأن يفسر بجملة سالمـة عن حرف جـر كما حكاه ابن عطية عن النحاة، والزحزحة التنحية يقال زحزحته فتزحـزح أي نحيته فتنحى وتباعد ﴿من العذاب﴾ «من» بمعنى عن أي النار ﴿أن يعمر﴾ أي لو عمر طول عمره لا ينقذه من العذاب ﴿والله بصير بما تعملون﴾ لا يخفى عليـه خافيـة من أحوالهم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ أي بسبب نزوله بالقرآن المشتمل على سبهم وتكذيبهم، هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت في اليهود، قال ابن جرير الطبري وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك فقال بعضهم إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر نبوته، ثم ذكر روايات في ذلك، وجبريل اسم ملك وهو أعجمي فلذلك لم ينصرف والقول باشتقاقه من جبروت الله بعيد، لأن الاشتقاق لا يكون في الأسماء الأعجمية، وكذا قول من قال أنه مركب تركيب الاضافة أو تركيب مزج نحو حضرموت، وفيه ثلاث عشرة لغة أفصحها وأشهرها بزنة قنديل.

والضمير في قوله ﴿فإنه﴾ يحتمل وجهين الأول أن يكون لله ويكون الضمير في قوله ﴿نَزَّلَهُ﴾ لجبريل أي فإن الله سبحانه نزل جبريل ﴿على قلبك﴾ وفيه ضعف كما أي يفيده قوله ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ الثاني أنه لجبريل والضمير في قوله ﴿نَزَّلَهُ﴾ للقرآن فإن جبريل نزل القرآن على قلبك وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وخزانة الحفظ وبيت الرب، وقد قيل أنه في الدماغ ﴿بإذن الله﴾ أي بعلمه وإرادته وتيسيره وتسهيله. وقال ابن الخطيب تفسير الإذن هنا بالأمر أي بأمر الله أولى من تفسيره بالعلم لأنه حقيقة في الأمر، مجاز في العلم، ويجب الحمل على الحقيقة ما أمكن وإذا كان نزوله بإذن الله فلا وجه للعداوة، وإنما يكون لها وجه لو كان النزول برأيه

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ هو التوراة كما سلف أو جميع الكتب المنزلة، وفي

هذا دليل على شرف جبريل وارتفاع منزلته وأنه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما ذكر من تنزيل الكتاب على قلبك أو تنزيل الله له على قلبك، وهذا وجه الربط بين الشرط والجواب، أي من كان معادياً لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة دون العداوة، أو من كان معادياً له فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل، وليس ذلك بذنب له وإن كرهوه فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان، لأن هذا الكتاب الذي نزل به هو مصدق لكتابهم وموافق له ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي في القرآن هداية للمؤمنين الى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها إذا أتوا بها، وعذاب وشدة على الكافرين.

ثم انه اتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط وجزاء تتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب والوعيد الشديد له فقال ﴿من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾ العداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله تعالى والبغض لأوليائه، والعداوة من الله للعبد هي تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له، قال الكرماني قدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب، ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله، فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب ، وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما، وأنهما وإن كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما ذكره صاحب الكشاف ، وقرره علماء البيان.

وفي جبريل ثلاث عشرة لغة ذكرها ابن جرير الطبري وغيره، وفي ميكائيل ست لغات، وهما إسمان أعجميان قيل معناهما عبد الله لأن جبروميك بالسريانية هو العبد، والإيل هو الله، والعرب إذا نطقت بالعجمى تساهلت فيه، وقال ابن جني خلطت فيه، والأولى ما ذكرناه ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ فأما عداوتهم لله فإنها لا تضره ولا تؤثر، وعداوته لهم تؤديهم الى العذاب الأليم الدائم الذي لا ضرر أعظم منه.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿ولقد أنزلنا إليك﴾ يا محمد ﴿آيات بينات﴾ أي واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام، أو علامات دالة على نبوتك ﴿وما يكفر بها﴾ أي ما يجحد بهذه الآيات إلا الفاسقون ـ أي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به، والظاهر أن المراد جنس الفاسقين ويحتمل أن يراد اليهود لأن الكلام معهم، والأول أولى لأنهم داخلون فيه دخولاً اولوياً.

﴿أو كلما عاهدوا عهداً﴾ استفهام إنكار ﴿نبذه فريق﴾ أصل النبذ الطرح والألقاء ومنه سمي اللقيط منبوذاً، ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء، وهو حقيقة في الاجرام، وإسناده الى العهد مجاز ﴿منهم﴾ يعني اليهود ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ يعني كفر فريق منهم بنقض العهد وفريق منهم بالجحد للحق، والمعنى على إنكار اللياقة والمناسبة أي لا ينبغي منهم نبذ العهد كلما عقدوه.

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ يعني محمداً ﷺ، هذا أشنع عليهم مما قبله ﴿مصدق لما معهم﴾ أي بصحة التوراة وأن التوراة بشرت بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان مجرد مبعثه مصدقاً للتوراة فاتفقت التوراة والقرآن ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب﴾ أي اليهود ﴿كتاب الله﴾ أي التوراة قال السدي لما جاءهم صلى الله عليه وآله وسلم

عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن، أو لأنهم لما كفروا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم في التوراة الإيمان به وتصديقه واتباعه، وبين لهم صفته، كان ذلك منهم نبذاً للتوراة ونقضاً لها ورفضاً لما فيها، ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أي لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذي جاء به هذا الرسول، والأول أولى، لأن النبذ لا يكون إلا بعد التمسك والقبول، ولم يتمسكوا بالقرآن.[1]

﴿وراء ظهورهم﴾ هذا مثل يضرب لمن يستخف بالشيء فلا يعمل به، تقول العرب اجعل هذا خلف ظهرك ودبر أذنك وتحت قدمك أي اتركه وأعرض عنه

﴿كأنهم لا يعلمون﴾ تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئاً مع كونهم يعلمون علماً يقيناً من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي، ولكنهم لما لم يعلموا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم، وهم علماء اليهود تجاهلوا، وحملهم على ذلك عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا قليلاً.

قال ابن عباس: رضي الله عنه:
هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد ما جئتنا بشيء تعرفه، وما انزل عليك من آية بينة فنتبعك بها فأنزل الله هذه الآية ولقد انزلنا إليك. . .

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿واتبعوا﴾ عطف على نبذ ﴿ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ يعني اليهود والتلاوة القراءة، قال الزجاج على عهد سليمان، وقيل المعنى في زمن ملكه وقيل في قصصه وصفاته وأخباره، قال الفراء تصلح «على وفى» في هذا الموضع والأول أظهر وقيل يضمن تتلو معنى تتقول أي تتقول على ملك سليمان وهذا أولى، فإن التجوز في الأفعال أولى من التجوز في الحروف، وقد كانوا يظنون أن هذا هو علم سليمان وأنه يستجيزه ويقول به فرد الله ذلك عليهم وقال ﴿وما كفر سليمان﴾ يعني بالسحر ولم يعمل به، وسليمان علم أعجمي فلذلك لم ينصرف، وقال أبو البقاء فيه العجمة والتعريف والألف والنون وهذا إنما يثبت إذا دخله الاشتقاق والتصريف، وقد تقدم أنهما لا يدخلان في الأسماء الأعجمية، وفيه تنزيه سليمان عن السحر، ولم يتقدم أن أحداً نسب سليمان الى الكفر ولكن لما نسبته اليهود الى السحر صاروا بمنزلة من نسبه الى الكفر، لأن السحر يوجب ذلك وقالوا إن سليمان ملك الناس بالسحر، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين فقال ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ أي بتعليمهم قرأ ابن عامر والكوفيون سوى عاصم ولكن بالتخفيف ورفع الشياطين والباقون بالتشديد والنصب.

عن ابن عباس قال إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء فإذا سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة فأشربتها قلوب الناس واتخذوها

دواوين فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود فأخذها فدفنها تحت الكرسي، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع، قالوا نعم فأخرجوه فإذا هو سحر فتناسختها الأمم وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر ، فقال ﴿واتبعوا﴾ الآية، أخرجه الحاكم وصححه.

وأخرج النسائي وابن ابي حاتم عنه قال كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل به، فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿واتبعوا﴾ الآية.

﴿يعلمون الناس السحر﴾ وهو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي يحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة او الدابة من أن الجبال تسير ، وهو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته، وقيل أصله الخفاء فإن الساحر يفعله خفية، وقيل أصله الصرف لأن السحر مصروف عن جهته ، وقيل أصله الاستمالة لأن من سحرك استمالك، وقال الجوهري السحر الأخذة وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، والساحر العالم.

وقال الغزالي السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور، ويترصد له وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها الى الاستغاثة بالشياطين، ، وتحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور انتهى، وقد ذكر ابو السعود أنواعاً من السحر فليرجع إليه.

وقد اختلف هل له حقيقة أم لا فذهبت المعتزلة وأبو حنيفة الى أنه خدع لا

أصل له ولا حقيقة، وذهب من عداهم الى أن لـه حقيقة مؤثـرة، وقد صـح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي حتى كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه ثم شفاه الله سبحانه، والكلام في ذلـك يطول، وعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السحر من الكبائر وثناه بالشرك كما في الصحيحين.

﴿و﴾ أي ويعلمـون الناس ﴿مـا نزل عـلى الملكـين﴾ فهـو معـطوف عـلى السحر، والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقـوى منه، أو عـلى ما تتلو وما بينهما اعتراض أي ﴿واتبعـوا ما أنـزل﴾ الخ قـال السدي هـذا سحر آخر خاصموه به فإن كلام الملائكة فيـما بينهم إذا علمته الأنس فصنـع وعمل بـه كان سحراً ﴿ببابل﴾ أي في بابل وهو إسم أرض أو بلد في سواد العراق أو أرض الكوفة، قاله ابن مسعود وقيل جبل دماويد،وقيـل نهاوند، وقيـل نصيبين، وقيـل المغـرب ومنع الصـرف للعجمة والعلميـة أو للتـأنيث والعلميـة، سميت بـذلـك لتبلبل ألسنة الخلائق بها، والبلبلة التفرقة، وقيل أن «ما» في قوله ﴿وما أنزل على الملكين﴾ نافية، والواو عاطفة على قولـه ﴿وما كفـر سليمان﴾ وفي الكـلام تقديم وتأخير والتقدير: وما كفر سليمان وما أنـزل على الملكـين ولكن الشياطـين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل.

﴿هـاروت وماروت﴾ فهـاروت وماروت بـدل من الشيـاطـين عـلى قـراءة التشديد والنصب في قوله ﴿ولكن الشياطين كفـروا﴾ ذكر ابن جـرير، وأمـا على قـراءة التخفيف والرفـع فهو منصـوب على الـذم وهو بـدل بعض، ومن فسرهمـا بقبيلتين من الجن يكون عنده بدل كل.

وقال ابن جرير فإن قال لنا القائل وكيف وجه تقديم ذلك، قيل تقديمه أن يقال واتبعوا ما تتلـو الشياطين على ملـك سليمان وما كفر سليمان ومـا أنزل الله عـلى الملكـين ولكن الشيـاطـين كفـروا يعلمـون النـاس السحـر ببـابـل هـاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكـين جبريـل وميكائيـل، لأن سحرة اليهـود فيما ذكـر كـانت تزعم أن الله أنـزل السحر عـلى لسان جبـريل وميكـائيل إلى سليمـان بن

داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وإن الذي يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم انتهى، يعني أنه بدل من الناس أي يعلمان الناس خصوصاً هاروت وماروت.

وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الأنس النساء وخاصة في حال طمثهن، قال الله ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾.

ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلاً من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه! ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن «الملكين» بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته، وعندي أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن لله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان ﴿إنما نحن فتنة﴾ ويؤيده ما قال أبو السعود أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام، فإن الابدال في حكم تنحية المبدل منه. وقال هاروت وماروت عطف بيان للملكين علمان لهما، وقرىء بالرفع على هما هاروت وماروت انتهى المراد منه.

قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان، وكان عبد الرحمن بن أبزي

يقرؤها ﴿وما أنزل على الملكين داود وسليمان﴾ وقال الضحاك هما علجان من أهل بابل، وهاروت وماروت إسمان أعجميان لا ينصرفان وهما سريانيان، ويجمعان على هواريت ومواريت وهوارية وموارية، وليس من زعم اشتقاقهما من الهرت والمرت وهو الكسر بمصيب لعدم انصرافهما، ولو كانا مشتقين كما ذكر لانصرفا.

أخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشرفت الملائكة على الدنيا فرأت بني آدام يعصون فقالت يا رب ما أجهل هؤلاء وما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك فقال الله لو كنتم في مسلاخهم لعصيتموني، قالوا كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال اختاروا منكم ملكين فاختاروا هاروت وماروت، ثم أهبطا إلى الأرض وركبت فيهما شهوات بني آدم، ومثلت لهما امرأة فما عصما حتى واقعها المعصية، فقال الله اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول، قال أقول إن عذاب الدنيا منقطع، وإن عذاب الآخرة لا ينقطع، فاختار عذاب الدنيا فهما اللذان ذكر الله في كتابه ﴿وما أنزل على الملكين﴾ الآية، وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بألفاظ وفي بعضها أنه يروي ذلك ابن عمر عن كعب الاحبار كما أخرجه جماعة من أهل الأثر.

وأخرج الحاكم[1] وصححه عن علي بن أبي طالب أن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة والعجم «أناهيد» قال ابن كثير وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جداً. وعن ابن عباس الزهرة امرأة وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه أن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت فهذه هي الكوكبة الحمراء يعني الزهرة، وقيل وكانت من لخم أو من أهل فارس ملكة في بلدها، وكانت من أجمل النساء فمسخها الله كوكبا، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عنه، فذكر قصة طويلة وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر وزنيا

(١) المستدرك ٢/٢٦٥.

بالمرأة وقتلاها، وعن ابن مسعود قال أنها أنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة وأنهما وقعا في الخطيئة.

وقد روي في هذا الباب قصص طويلة، وروايات مختلفة استوفاها السيوطي في الدر المنثور، وذكر ابن كثير في تفسيره بعضها ثم قال وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني اسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع متصل الأسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن على ما أراده الله تعالى، والله تعالى أعلم انتهى.

وقال أبو السعود هما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما، وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة، وهذا مما لا تعويل عليه، لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل انتهى، ومثله في الخازن ونحوه في المظهري،

وهذا القول يقتضي أن هذه القصة **غير صحيحة** وأنها لم تثبت بنقل معتبر، وتبع أبو السعود في ذلك البيضاوي التابع في ذلك للفخر الرازي والسعد التفتازاني وغيرهما ممن أطال في ردها. لكن قال الشيخ زكريا الأنصاري: الحق ما أفاده شيخنا حافظ عصره الشهاب ابن حجر أن لها طرقاً تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الامام أحمد وابن حبان والبيهقي وغيرهم، وموقوفة على علي وابن مسعود وابن عباس، وغيرهم بأسانيد صحيحة، قال الخفاجي قال المحدثون وجميع رجاله غير موثوق بهم، لكن قال خاتمة الحفاظ الشهاب ابن حجر أن له طرقاً كثيرة جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها لكثرتها وقوة مخارجها. وقال بعضهم بلغت طرقه نيفاً وعشرين انتهى.

(قلت والبيضاوي لما استبعد هذا المنقول ولم يطلع عليه قال إنه محكي عن اليهود، ولعله من رموز الأولين، ذكره الخطيب.)

وكـذا أهل الكـلام طعنوا في هـذه القصـة وعـدوهـا من المحـالات لمسـخ الإنسان كوكباً كما بينوه في كتبهم. وحاول البيضاوي التوفيق بأنها تمثيلات كقصة ابسال وسلامان وحرير مقطان وغير ذلك مما وضعه المتقـدمون والمتـأخرون إشـارة إلى أن القـوى لو ركبت في تلك لعصت. وأسـماء الله ومنـاجـاتـه تلحق السفـلى بالعلوى ونحوه.

هذا؛ وقد أطنب الشيخ ابن حجر المكي في جواب الرازي واستبعاده لهذه القصة في كتابه الزواجر بما لا مزيد عليه.

وقال القرطبي بعد سياق بعض تلك، قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح منه شيء؛ فإنه قـول تدفعـه الأصول في المـلائكة الـذين هم أمناء الله على وحيـه؛ وسفراؤه إلى رسله ﴿لا يعصـون الله ما أمـرهـم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ثم ذكر ما معناه أن العقل يجوز وقوع ذلك منهم لكن وقوع هذا الجـائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح انتهى.

وأقول هذا مجرد استبعاد وقد ورد الكتاب العزيز في هـذا الموضـع تراه ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات؛ وما ذكره من أن الأصول تدفع ذلـك؛ فعلى فرض وجود هذه الأصول فهي مخصصة بمـا وقع في هـذه القصة، ولا وجـه لمنع التخصيص، وقد كان إبليس بتلك المنزلة العظيمـة وصار أشر البـرية وأكفـر العالمين[1]

﴿وما يعلمان من أحـد﴾ أي هاروت ومـاروت أو الرجـلان والأول أولى؛ قال الزجاج تعليم انذار من السحر لا تعليم دعاء إليه؛ قال وهو الذي عليه أكثر أهـل اللغة والنـظر؛ ومعناه أنهما يعلمـان على النهي فيقـولان لهم لا تفعلوا كذا، وقد قيل أن قوله ﴿يعلمان﴾ من الإعلام لا من التعليم وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كـما حكاه ابن الانبـاري وابن الأعرابي وهـو كثـير في أشعـارهـم ﴿حتى يقـولا﴾ أي إلا أن ينصحاه أولا أو أن يقـولا.

(١) قوله: كان ابليس بتلك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين دعوى لا دليل عليها.

﴿إنما نحن فتنة﴾ هو على ظاهره أي ابتلاء واختبار من الله لعباده ومحنة، وقيل إنه استهزاء منهما لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحقق ضلاله والأول أولى، والمعنى إنما نحن ابتلاء فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر، ومن توقى عن العمل به واتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقي على الايمان، فلا تكفر باعتقاد حقيته وجواز العمل به قاله أبو السعود.

قال الخفاجي وفيه إشارة إلى أن الاجتناب واجب احتياطاً وكما لا يحرم الفلسفة للمنصوب للذب عن الدين برد الشبهة وإن كان أغلب احواله التحريم، كذلك تعلم السحر إن فرض فشوه في صقع وأريد تبيين فساده لهم ليرجعوا إلى الحق، وهو لا ينافي إطلاق القول بالتحريم فاعرفه، انتهى.

قلت أخرج البزار (بإسناد صحيح والحاكم وصححه عن ابن مسعود «من أتى كاهناً أو ساحراً وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج البزار عن عمر ان بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له، ومن عقد عقدة ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من تعلم شيئاً من السحر قليلاً أو كثيراً كان آخر عهده من الله».

وفي قولهما ﴿فلا تكفر﴾ أبلغ إنذار وأعظم تحذير أي أن هذا ذنب يكون من فعله كافراً فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد، وبين من تعلمه ليكون ساحراً، ومن تعلمه ليقدر على دفعه، وبه قال أحمد.

﴿فيتعلمون منهما﴾ يعني من الملكين ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي سحراً سبباً في التفريق بينهما كالتمويه والتخييل والنفث في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى، وفي إسناد التفريق إلى السحرة وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد، وقد ذهب

طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة، لأن الله ذكر ذلك في معرض الذم للسحر وبين ما هو الغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره، وقالت طائفة أخرى أن ذلك خرج مخرج الأغلب وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه، وقيل ليس للسحر تأثيراً في نفسه أصلاً لقوله تعالى.

﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ والحق أنه لا تنافي بين القولين المذكورين، فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثير في نفسه وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة كما تقدم وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال.

﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ يعني السحر لأنهم يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالبا، وفيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ولا يجلب إليه منفعة بل هو ضرر محض، وخسران صرف، وشر بحت، قال أبو السعود فيه أن الاجتناب عما لا تؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية، وإن قال من قال:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

﴿ولقد علموا﴾ يعني اليهود ﴿لمن اشتراه﴾ أي اختار السحر، والمراد بالشراء هنا الاستبدال أي من استبدل ما يتلو الشياطين ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من نصيب كما عند اهل اللغة، كذا قال الزجاج ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي باعوها وقد أثبت لهم العلم في قوله ولقد علموا، ونفاه عنهم في قوله ﴿لو كانوا يعلمون﴾ واختلفوا في توجيه ذلك فقال قطرب والأخفش أن المراد بقوله ﴿ولقد علموا﴾ الشياطين والمراد بقوله ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الأنس وقال الزجاج أن الأول للملكين وإن كان بصيغة الجمع فهو مثل قولهم الزيدان قاموا، والثاني المراد به علماء اليهود، وإنما قال لو كانوا يعلمون لأنهم تركوا العمل بعلمهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ
وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ
وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿ولو أنهم آمنوا﴾ أي اليهود بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من القرآن ﴿واتقوا﴾ ما وقعوا فيه من السحر والكفر ﴿لمثوبة من عند الله﴾ أي لكان ثواب الله إياهم ﴿خير﴾ لهم يعني هذا الثواب، والمثوبة وزنها مفعولة قاله الواحدي أو مفعلة كمشورة ومتربة وكان من حقها الإعلال فيقال مثابة كمقالة إلا أنهم صححوها، قاله السمين ﴿لو كانوا يعلمون﴾ ذلك هو إما للدلالة على أنه لا علم لهم أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ أي راقبنا واحفظنا ويجوز أن يكون من أعرنا سمعك أي فرغه لكلامنا، ووجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبا قيل إنه في لغتهم بمعنى إسمع لا سمعت، وقيل غير ذلك فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطنين أنهم يقصدون السب الذي هو معنى هذا اللفظ في لغتهم، وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص وإن لم يقصد المتكلم بها هذا المعنى المفيد للشتم سداً للذريعة ودفعا للوسيلة، وقطعا لمادة المفسدة والتطرق إليه.

ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال ﴿وقولوا انظرنا﴾ أي أقبل علينا وانظر الينا وهو من

باب الحذف والإيصال، وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا، وقرأ الأعمش أنظرنا بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك، وأمرهم بعد هذا النهي والأمر بأمر آخر وهو قوله.

﴿واسمعوا﴾ أي اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه، معناه أطيعوا الله في ترك خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك اللفظ وخاطبوه بما أمرتم به، ولا تخاطبوه بما يسر اليهود، بل تخيروا لخطابه صلى الله عليه وآله وسلم من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أدقها، ويحتمل أن يكون معناه اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة.

قال ابن جرير والصواب من القول عندنا في ذلك أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذي ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي» وما أشبه ذلك، ثم توعد اليهود بقوله ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ ويحتمل ان يكون وعيداً شاملاً لجنس الكفرة.

﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يودون إنزال الخير عليهم من الله سبحانه، وقد قيل بأن الخير الوحي وقيل غير ذلك والظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أي خير كان فهو لا يختص بنوع معين كما يفيده وقوع هذه النكرة في سياق النفي، وتأكيد العموم بدخول «من» المزيدة عليها وإن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص.

﴿والله يختص برحمته﴾ أي يميز ﴿من يشاء﴾ تمييزه والرحمة قيل هي القرآن والاسلام، وقيل النبوة وقيل جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة الى ضميره تعالى ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فكيف لا يودون أن يختص برحمته من يشاء من عباده وكل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم فإنه منه ابتداء وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك، بل له الفضل والمنة على خلقه.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ما ننسخ من آية﴾ كلام مستأنف قاله أبو السعود، وقال البهنسي لم يعطف لشدة ارتباطه بما قبله، والنسخ في كلام العرب على وجهين.

أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً أعني من اللوح المحفوظ، ولا مدخل لهذا المعنى في هذه الآيةومنهإنا كنانستنسخ ما كنتم تعملون أي نأمر بنسخه.

الثاني الابطال والازالة وهو المقصود هنا، وهذا القسم الثاني ينقسم الى قسمين عند أهل اللغة أحدهما إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله ﴿ما ننسخ من آية﴾ وفي صحيح مسلم«لم تكن نبوة قط الاتناسخت» أي تحولت من حال الى حال (والثاني) ازالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيله، وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب ومنه ما روي عن أبّي وعائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول.

قال ابن فارس النسخ الكتاب والنسخ أن يزيل أمراً اكان من قبل يعمل به ثم ينسخه بحادث غيره كالآية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه، يقال نسخ الشيب الشباب، وتناسخ الورثة أن تموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم وكذا تناسخ الأزمنة والقرون.

وقال ابن جرير معنى ما ننسخ ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك ان يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً والمباح محظوراً والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك الا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الإخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب

وهو نقله من نسخة إلى أخرى فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره انما هو تحويله إلى غيره، وسواء نسخ حكمها أو خطها إذ هي في كلتي حالتيها منسوخة انتهى.

وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره بل نحيل من أراد الاستيفاء عليه على كتابنا [حصول المأمول من علم الأصول] فليرجع اليه، وقد اتفق أهل الاسلام على ثبوته سلفاً وخلفاً[1] وهو جائز عقلاً وواقع سمعاً، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لايعتد بخلافه ولا يؤبه بقوله، وقد اشتهر عن اليهود أقمأهم الله إنكاره وهم محجوجون بما في التوراة فإن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة إني قد جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريتك وأطلعت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه، ثم قد حرم على موسى وعلى بني اسرائيل كثيراً من الحيوان.

وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج الأخ من الأخت وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره، وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه ثم قال الله له لا تذبحه وأن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم، وحرم عليهم العمل يوم السبت ولم يحرمه على من كان قبلهم ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم، والقرآن الكريم نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما، ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً، وإنساؤها إذهابها من القلوب.

﴿أو ننسأها﴾ بفتح النون والسين والهمز ومعنى هذه القراءة نؤخرها عن النسخ من قولهم نسأت هذا الأمر إذا أخرته، قال ابن فارس ويقولون نسأ الله في أجلك وأنسأ الله أجلك، وقد انتسأ القوم إذا تأخروا وتباعدوا ونسأتهم أنا أي أخرتهم، وقيل معناه نؤخر نسخ لفظها أي نتركه في أم الكتاب فلا يكون، وقيل

(١) وللشيخ زكريا علي يوسف كتاب سماه (الايمان وآثاره) ذكر فيه فصلاً طويلا رد فيه على المجددين الذين أنكروا النسخ في القرآن بغير دليل أو برهان.

نـذهبها عنكم لا تقـرأ ولا تذكـر، وقرىء ننسهـا بضم النون من النسيـان الذي بمعنى الترك أي نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها.

ومنه قوله تعالى ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب، وحكى الأزهري أن معناه نأمر بتركها يقال أنسيته الشيء أي أمرته بتـركه ونسيتـه تركته، وقال الزجـاج أن القراءة بضم النـون لا يتوجـه فيها معنى التـرك لا يقال أنسى بمعنى ترك، قال وما روي عن ابن عباس أو ننسها أي نتركهـا لا نبدلهـا فلا يصح.

والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى أو ننسهـا نبح لكم تـركها من نسي إذا ترك ثم تعديـه، وقد ثبت في البخـاري وغيره عن أنس «أن الله أنـزل في الذين قتلوا في بئر معونة أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنـا وأرضانا» ثم نسخ، وهكذا ثبت في مسلم وغيره عن أبي موسى قال «كنا نقـرأ سورة نشبههـا في الطول والشدة براءة فأنسيتهـا غير أني حفـظت منها لـو كان لابن آدم واديـان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوفه إلا التراب» وكنا نقرأ سورة نشبهها بـإحدى المسبحات أولها سبح لله ما في السمـوات فأنسينـاها غـير أني حفظت منها ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ فتكتب شهادة في أعنـاقكم فتسئلوا عنها يـوم القيامة، وقد روي مثل هذا من طريق جمـاعة من الصحـابة ومنـه آية الـرجم كما رواه عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر.

﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ أي نـأت بما هـو أنفع للنـاس منها في العـاجل والآجل أو في احدهما أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، ومـرجع ذلـك إلى إعمال النظر في المنسوخ والناسخ فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم في العـاجل، وقـد يكون أثقـل وثوابـه أكثر فيكـون أنفع في الآجـل، وقد يستـويـان فتحصـل المماثلة، وقال الشافعي الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة وتابعه على ذلك طائفـة، واستدل بهذه الآية وليس بصحيح، والحق جواز نسخ الكتـاب بالسنـة، والكلام في هذا معروف في أصول الفقه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ هذه الآية تفيد أن النسخ من مقدوراته وأن انكاره انكار للقدرة الإلهية والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد هو وأمته وفيه دليل على جواز النسخ والاستفهام للتقرير وهكذا قوله ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي له التصرف فيهما بالايجاد والاختراع ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها، وشرعها لهم، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأشخاص، وهذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لكنه فيه تكذيب لليهود المنكرين للنسخ.

﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ بينهما عموم وخصوص من وجه فإن الولي قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، وفيه إشارة إلى تعلق الخطابين السابقين بالأمة أيضا، وهذا صنع من لا وليّ لهم غيره ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والاجلال.

وقد ذهب جمهور أهل الأصول إلى جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وخالف في ذلك الشافعي وتابعه على ذلك طائفة، واختلف المانعون فمنهم من منعه عقلاً كالحرث المحاسبي وعبد الله بن سعيد القلانسي، وهو رواية عن أحمد ابن حنبل، ومنهم من منعه سمعاً كالشيخ أبي حامد الاسفرايني، احتج الجمهور بأن التكليف بمتواتر السنة كالتكليف بالآية القرآنية وبأن ذلك قد وقع في هذه الشريعة المطهرة، واحتج الآخرون بقوله تعالى ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وتقرير الدلالة من وجهين.

احدهما أن ما ينسخ به القرآن يجب أن يكون خيرا أو مثلا، والسنة ليست كذلك.

ثانيهما أنه قال ﴿نأت﴾ والضمير لله سبحانه، فيجب أن لا ينسخ إلا بما يأتي به الله وهو القرآن.

وأجاب الأولون عن ذلك بأن المراد بقوله نأت بخير منها أو مثلها أي بحكم خير منها أو مثلها في حق المكلف باعتبار الثواب وهذا صحيح، ولا يخالفه الضمير في قوله ﴿نأت﴾ فإن القرآن والسنة جميعاً من عند الله سبحانه، قال الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ والكلام في المسألة طويل وهو مدون في الاصول بما لا يتسع المقام لبسطه، فالحق الجواز.

وأما نسخ الكتاب بما صح من آحاد السنة فقد منعه الجمهور لأن الآحاد لا تفيد القطع والكتاب مقطوع به، وذهب جماعة من متأخري الحنفية إلى جواز نسخ القرآن بالخبر المشهور، وقال في جمع الجوامع أن نسخ القرآن بالآحاد جائز غير واقع، وقال أبو بكر الباقلاني والغزالي وأبو عبدالله البصري أنه جائز في عصره صلى الله عليه وآله وسلم لا بعده، وذهب جمع من الظاهرية إلى جوازه ووقوعه.

وأقول أن النزاع إن كان في قطعية المتن فلا شك أن القرآن كذلك وما صح من آحاد السنة ليس بقطع، وإن النزاع في الدلالة فإن كان القرآن المنسوخ عموماً أو محتملاً فدلالته ظنية كدلالة ما صح من الآحاد، والذي يصلح أن يكون محلاً للنزاع هنا هو الثاني لا الأول، على أنه قد وقع نسخ القطعي بالظني فإن استقبال بيت المقدس ثبت ثبوتاً قطيعاً متواتراً، ثم أن أهل قباء استداروا إلى الكعبة وهم في الصلاة بخبر واحد، ولم ينكر عليهم ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك ثبت نسخ الوصية للوالدين والأقربين

بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «لا وصية لـوارث» وكذلك نسخ قوله تعالى ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ بقول عائشة رضي الله تعالى عنها ما توفي رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما يشاء، ونسخ قوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً﴾ الآية بنهيه ﷺ عن أكل كل ذي ناب، والكلام في هذا يطول ومحله مطولات كتب الأصول، فإن استيفاء الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى رسالة مستقلة والله أعلم.

وعدة الآيات المنسوخات قد بلغها بعضهم إلى خمسمائة آية لكن قال الشيخ أحمد ولي الله الدهلوي وعلى ما حررنا لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات انتهى، وعندي أن في هذه الخمس نظراً أيضا كما بينته في دليل الطالب.

وأما الأحاديث المنسوخة فعدتها عند ابن الجوزي أحد وعشرون حديثاً، وعند الحافظ ابن القيم أقل من عشرة أحاديث كما أفاد في أعلام الموقعين، وقال النسخ الواقع في الاحاديث الذي أجمعت عليه الأمة لا يبلغ عشرة أحاديث البتة ولا شطرها انتهى.[1]

وقال الزرقاني في شرح الموطأ: مذهب المحدثين والأصوليين والفقهاء أنه متى أمكن الجمع بين الحديثين وجب الجمع انتهى، وفي الدراسات لمحمد معين: قد تكلمت على بطلان النسخ الاجتهادي في أجزاء مفردة سميتها غاية الفسخ لمسئلة النسخ، وهو الأكثر في دعاوى المتأخرين لا سيما الفقهاء الحنفيين، والنسخ المعول عليه عند المتقدمين هو المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما غيره فتعدية وتجاوز من التعبد إلى التشريع انتهى وتفصيل ذلك ذكرناه في إفادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ.

---

(١) وقد كثرت المصنفات حول الناسخ والمنسوخ منها.
- فيضة البيان في ناسخ ومنسوخ القرآن.
- اخبار اهل الرسوخ لابن الجوزي.
- الناسخ والمنسوخ من كتاب الله وغيرها فليرجع إليها.

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

﴿أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ أم بمعنى بل وفي هذا توبيخ وتقريع أي سؤالاً مثل ما سئل موسى حيث سألوه أن يريهم الله جهرة إلى غير ذلك، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ورُويت في سبب نزول هذه الآية روايات لا نطول بذكرها(١)

﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ أي يستبدل ويأخذه بدله بترك النظر في الآيات البينات واقتراح غيرها والباء للعوض كما استظهره السفاقسي لا للسبب، كما قال به أبو البقاء، قيل خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الطريق المستوي أي المعتدل أي الحق، ومعنى ضل أخطأ، وسواء هو الوسط من كل شيء قاله أبو عبيدة ومنه قوله تعالى:

﴿وفي سواء الجحيم﴾ وقال الفراء: السواء القصد أي ذهب عن قصد الطريق وسمته أي طريق طاعة الله.

---

(١) أن رجلاً قال: يا رسول الله لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي، ﷺ: «اللهم لا نبغيها، ما أعطاكم الله، خير مما أعطى بني اسرائيل، كانوا إذا أصاب أحدهم الخطيئة؛ وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فان كفرها كانت له خزياً في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة، فقد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني اسرائيل. فقال: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه [ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً]) النساء: ١١٠. وقال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن» فنزلت هذه الآية. قاله أبو العالية.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ أي تمنى كثير من اليهود، فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم وردهم عن الإسلام والتشكيك عليهم في دينهم ﴿لو﴾ مصدرية.

﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله ود أي ودوا ذلك من عند أنفسهم ويحتمل أن يتعلق بقوله حسداً أي حسداً ناشئاً من عند أنفسهم وهو علة لقوله ود، والحسد تمني زوال نعمة الإنسان.

﴿من بعدما تبين لهم الحق﴾ يعني في التوراة أن قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودينه حق لا يشكون فيه فكفروا به بغياً وحسداً.

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ والعفو ترك المؤاخذة بالذنب والصفح إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه وقد ضربت عنه صفحاً إذا أعرضت عنه، وقيل هما متقاربان، والعطف على هذا للتأكيد وحسنه تغاير اللفظين، وفيه الترغيب في ذلك والإرشاد إليه، وقد نسخ ذلك بالأمر بالقتال قاله أبو عبيدة ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ أي افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه وما قد قضى به في سابق علمه وهو قتل من قتل منهم وإجلاء من أجلى وضرب الجزية على من ضربت عليه، والسلام على من أسلم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيه وعيد وتهديد لهم عظيم.

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ
نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم وينصرهم على المخالفين لهم ﴿تجدوه عند الله﴾ يعني ثوابه وأجره حتى التمرة واللقمة مثل أحد ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال وكثيرها وفيه ترغيب في الطاعات وأعمال البر، وزجر عن المعاصي.

﴿وقالوا﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ قال الفراء: يجوز أن يكون هوداً بمعنى يهوديا وأن يكون جمع هائد، والنصارى جمع نصران أو نصرى والمراد يهود المدينة ونصارى نجران وقدمت اليهود على النصارى لفظا لتقدمهم زماناً، قيل في هذا الكلام حذف وأصله وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً هكذا قال كثير من المفسرين وسبقهم إلى ذلك بعض السلف، وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول وأنهم يختصون بذلك دون غيرهم، ووجه القول بأن في الكلام حذفاً ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى، وتنفي عنها انها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة كما في هذا الموضع فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت ﴿ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾.

﴿تلك أمانيهم﴾ أي شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير حق،

والاماني جمع أمنية قد تقدم تفسيرها، والإشارة بقوله تلك إلى ما تقدم لهم من الأماني التي آخرها انه لا يدخل الجنة غيرهم وقيل ان الإشارة إلى هذه الأمنية الآخرة، والتقدير مثال تلك الأمنية أمانيهم على حذف المضاف ليطابق أمانيهم[١].

﴿قل هاتوا﴾ يقال للمفرد المذكر هات وللمؤنث هاتي، وهو اسم فعل بمعنى احضر، وقيل اسم صوت بمعنى ها التي بمعنى احضر وقيل فعل أمر، وهذا هو الصحيح ﴿برهانكم﴾ أي حجتكم على دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهوديا أو نصرانيا دون غيرهم، والبرهان الدليل الذي يحصل عنده اليقين، قال ابن جرير: طلب الدليل هنا يقتضي اثبات النظر، ويرد على من ينفيه، والبرهان مشتق من البره وهو القطع ومنه برهة من الزمان أي القطعة منه، وقيل نونه أصلية لثبوتها في برهن يبرهن برهنة، والبرهنة البيان ووزنه فعلل لا فعلن ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في تلك الأماني المجردة والدعاوى الباطلة، قال الرازي دلت الآية على أن المدعي سواء ادعى نفياً وإثباتاً فلا بد له من الدليل والبرهان، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد، انتهى.

---

(١) قال ابن عباس: اختصم يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي ﷺ، فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، ولا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، وكفروا بالتوراة وموسى؛ فقال الله تعالى ﴿تلك أمانيهم﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ثم رد عليهم فقال ﴿بلى﴾ وهو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أي ليس كما تقولون بل يدخلها ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي استسلم، وقيل أخلص وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع السجود، ومجمع الحواس والمشاعر الظاهرة وفيه يظهر العز والذل، وقيل أن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء وإن المعنى هنا الوجه وغيره، وقيل المراد بالوجه هنا المقصد أي من أخلص مقصده، ومجموع الشرط والجزاء رد على أهل الكتاب وإبطال لتلك الدعوى ﴿وهو محسن﴾ موحد أي متبع في عمله لله ﴿فله أجره عند ربه﴾ أي ثواب عمله وهو الجنة ﴿ولا خوف عليهم﴾ أي في الآخرة وأما في الدنيا فالمؤمنون أشد خوفاً وحزناً من غيرهم لأجل خوفهم من العاقبة ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من الدنيا أو للموت.

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ قاله رافع بن حرملة ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه أثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم، قيل نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران تناظروا عند النبي ﷺ وارتفعت أصواتهم وقالوا هذا القول وفيه أن كل طائفة تنفي الخير عن الأخرى، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها تحجراً لرحمة الله سبحانه، قال في الكشاف: أن الشيء هو الذي يصح ويعتد به قال: وهذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الإعتداد به إلى ما ليس بعده،

وهكذا قولهم أقل من لا شيء.

﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي التوراة والإنجيل، وليس فيهما هذا الاختلاف فكان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه، فإن كتب الله تعالى متصادقة وقيل المراد جنس الكتاب وفي هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان، هو وإن كان قبيحاً على الإطلاق لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشد قبحاً وأفظع جرماً وأعظم ذنباً.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الذي سمعت به بعينه لا قولاً مغايراً له.

﴿قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا مثل مقالة اليهود اقتداء بهم لانهم جهلة لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون انه من اهل العلم، وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى وهم الذين لا علم عندهم، وقال عطاء هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قالوا في أنبيائهم أنهم ليسوا على شيء..

﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة﴾ أي بين المحق والمبطل.

﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين، أخبر سبحانه بأن هو المتولي لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه فيعذب من يستحق التعذيب وينجي من يستحق النجاة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

قال الرازي: واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد ﷺ فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن انتهى.

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم غير متناه وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم أي لا أحد أظلم ممن يمنع مساجد الله أي من يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه ﴿وسعى في خرابها﴾ قال أبو البقاء: الخراب اسم مصدر بمعنى التخريب، وقال غيره: هو مصدر خرب المكان يخرب خراباً وهو هنا السعي في هدمها ورفع بنيانها، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها فيكون أعم من قوله ﴿أن يذكر فيها اسمه﴾ فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد لتعلم العلم وتعليمه والقعود للاعتكاف وانتظار الصلاة، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما في قوله تعالى ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾.

﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ هذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما كان ينبغي للمانعين دخولها في جميع الأحوال إلا حال خوفهم وخشوعهم، وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم، قال ابن عباس: لم يدخلها بعد عمارتها رومي أو نصراني إلا خائفاً إن علم به قتل، وقيل أخيفوا بالجزية والقتل، فالجزية على الذمي، والقتل على الحربي، وقيل خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية وورومية وعمورية والأول أولى.

وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله

من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد، وبين كافر وكافر كما يفيده عموم اللفظ، ولا ينافيه حصول السبب الخاص وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يفطن لهم أحد من المسلمين فينزلون بهم ما يوجب الإهانة والإذلال، وليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا من دخول مساجدنا، وقيل معناه ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يمنعوهم منها، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر واستخلاص المساجد منهم وقد أنجز وعده.

﴿لهم في الدنيا خزي﴾ يعني الصغار والذل والقتل والسبي وقيل هو ضرب الجزية عليهم وإذلالهم وقيل غير ذلك وقد تقدم تفسيره ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ يعني النار.

قال ابن عباس: أن قريشا منعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام يعني في ابتداء الإسلام فأنزل الله ﴿ومن أظلم﴾ الآية نزلت في خراب بيت المقدس على يد فلطيوس الرومي ولم يزل خراباً حتى بناه المسلمون في عهد عمر رضي الله تعالى عنه، وقال السدي: هم الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس، وليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، وقد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها، وأما بخزيهم في الدنيا فإنه إذا قام المهدي وفتحت القسطنطينية قتلهم فذلك الخزي، وعن قتادة أنهم الروم، وعن كعب أنهم النصارى لما ظهروا على بيت المقدس حرقوه، وفيه أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح بدهر طويل، والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف يكونون مع بختنصر في تخريب بيت المقدس.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: هم المشركون حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن البيت يوم الحديبية، قال أبوصالح:

ليس للمشركين أن يدخلوا المسجد إلا خائفين، عن قتادة قال: يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، وقال ﴿مساجد الله﴾ وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام لأن الحكم عام، وإن كان السبب خاصاً.

ورجح الطبري القول الأول، وقال: إن النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل أن مشركي العرب لم يسعوا في خراب المسجد الحرام وإن كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأوقات من الصلاة فيه.

وأيضاً الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب، ولم يجر لمشركي مكة ذكر، ولا للمسجد الحرام، فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس، ورجح غيره القول الثاني بدليل أن النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود، فكيف يسعون في خرابه وهو موضع حجهم.

وقال الرازي: وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم وهو أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة وفي تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا التأويل أولى مما قبله انتهى، وفي أحكام القرآن أنه كل مسجد، قال: وهو الصحيح لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو بيعض الأزمنة محال.

قلت وهذا هو الصواب فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدخل فيه السبب الخاص دخولاً أولياً.

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ المشرق موضع الشروق والمغرب موضع الغروب، وهما إسما مكان وقيل إسما مصدر أي الإشراق والإغراب، أي هما ملك لله وما بينهما من الجهات والمخلوقات فيشمل الأرض كلها أي جهة تستقبلونها فهناك وجه الله أي المكان الذي يرتضي لكم استقباله، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ قال في الكشاف: والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص أماكنها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان، انتهى.

وهذا التخصيص لا وجه له فإن اللفظ أوسع منه وإن كان المقصود به بيان السبب فلا بأس «وأين» هنا إسم شرط وهي ظرف مكان وتكون إسم استفهام أيضا فهي مشترك بينهما و«ثم» إسم إشارة للمكان البعيد خاصة مثل هنا، وقال أبو البقاء: نائب عن هناك، وليس بشيء ﴿إن الله واسع عليم﴾ فيه إرشاد إلى سعة رحمته وأنه يوسع على عباده في دينهم ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شيء كما قال وسع كل شيء علماً، وقال الفراء: الواسع الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء.

عن ابن عباس قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة قال الله تعالى ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ الآية فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم

صرفه الله إلى البيت العتيق ونسخها فقال ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يصلّي على راحلته تطوعاً أينما توجهت به ثم قرأ ابن عمر هذه الآية ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾ وقال في هذا أنزلت هذه الآية[١]، وأخرج نحوه عنه ابن جرير والدارقطني والحاكم وصححه.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر وغيره عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي على راحلته قبل المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى[١]، وأخرج عبد بن حميد والترمذي وضعفه وابن ماجة وابن جرير وغيرهم عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة سوداء[٢] مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلي فيه فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ الآية فقال «مضت صلاتكم[٣]» عن ابن عباس قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما بين المشرق والمغرب[٤] قبلة أخرجه ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن ماجة.

﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ القائل هم اليهود والنصارى، فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وقيل هم كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله أخرج البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٢ باب ٤.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٤٨٤١.
(٣) ابن كثير ١/١٥٨.
(٤) صحيح الجامع الصغير ٥٤٦٠.

قال: «قال الله تعالى كذبني ابن آدم وشتمني، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً(١)» وأخرج نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة، وفي الباب أحاديث.

والمراد بقوله ﴿سبحانه﴾ تنزيه الله تعالى عما نسبوا إليه من اتخاذ الولد، وفيه رد على القائلين بأنه اتخذ ولداً لأن اتخاذ الولد لبقاء النوع، والله منزه عن الفناء والزوال ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ أي بل هو مالك لما فيهما فكيف ينسب إليه الولد، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه والولد من جنسهم لا من جنسه، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد ﴿كل له قانتون﴾ أي مطيعون ومقرون له بالعبودية، والقانت المطيع الخاضع أي كل من في السموات والأرض كائناً ما كان من أولي العلم وغيرهم مطيعون له خاضعون لعظمته، خاشعون لجلاله، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته، والقنوت في أصل اللغة القيام، قال الزجاج: فالخلق قانتون أي قائمون بالعبودية إما إقراراً وإما أن يكونوا على خلاف ذلك فأثر الصنعة بين عليهم، وقيل أصله الطاعة ومنه ﴿والقانتين والقانتات﴾ وقيل السكوت ومنه ﴿قوموا لله قانتين﴾ ولهذا قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت ﴿وقوموا لله﴾ الآية فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام، وقيل القنوت الصلاة والأولى أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة قيل هي ثلاثة عشر معنى وهي مبينة وقد نظمها بعض أهل العلم، واختلف في حكم الآية فقيل هو خاص وقيل عام لأن لفظة كل تقتضي الشمول والإحاطة(٢).

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٢٠٣.

(٢) وقد ورد الحديث: «افضل الصلاة طول القنوت».

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

﴿بديع السمٰوات والأرض﴾ أبدع الشيء أنشأه لا عن مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، والأصل بديع سمٰواته أي بدعت لمجيئها على شكل فائق حسن غريب ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي أحكمه وأتقنه، قال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، قيل هو مشترك بين معان يقال قضى بمعنى خلق ومنه ﴿فقضاهن سبع سمٰوات﴾ وبمعنى أعلم، ومنه ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ وبمعنى أمر ومنه ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وبمعنى ألزم منه ﴿قضى عليه القاضي﴾ وبمعنى أوفاه ومنه ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ وبمعنى أراد ومنه ﴿فإذا قضى أمراً﴾ والتقدير إذا قضى أمراً يكون ويحصل، فلفظ يكون المقدر هو العامل في «إذا».

والأمر واحد الأمور، وقد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى.

(الأول): الدين، ومنه ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾.

(الثاني): بمعنى القول ومنه ﴿فإذا جاء أمرنا﴾.

(الثالث): العذاب ومنه ﴿لما قضى الأمر﴾.

(الرابع): عيسى ومنه ﴿فإذا قضى أمراً﴾ أي أوجد عيسى عليه السلام.

(الخامس): القتل ومنه ﴿فإذا جاء أمر الله﴾.

(السادس): فتح مكة ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾.

(السابع): قتل بني قريظة وجلاء النضير ومنه ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾.

(الثامن): القيامة ومنه ﴿أتى أمر الله﴾.

(التاسع): القضاء ومنه ﴿يدبر الأمر﴾.

(العاشر): الوحي ومنه ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾.

(والحادي عشر): أمر الخلائق ومنه ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾.

(والثاني عشر): النصر ومنه ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾.

(والثالث عشر): الذنب ومنه ﴿فذاقت وبال أمرها﴾.

(والرابع عشر): الشأن ومنه ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ هكذا أورد هذه المعاني بأطول من هذا بعض المفسرين، وليس تحت ذلك كثير فائدة، فإطلاقه على الأمور المختلفة لصدق اسم الأمر عليها.

﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ الظاهر في هذا المعنى الحقيقي، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ وقال تعالى ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وقال ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقد قيل أن ذلك مجاز وأنه لا قول، وإنما هو قضاء يقضيه فعبر عنه بالقول، وقال البيضاوي ليس المراد حقيقة أمر وامتثال، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف انتهى، وهذا من أنفاسه الفلسفية وكم له من أشباه ذلك وأمثاله.[1]

(١) وقد استدل العلماء على قدم القرآن بقوله ﴿كن﴾.
فقالوا: لو كانت(كن) مخلوقة لافتقرت إلى ايجادها بمثلها وتسلل ذلك. والمتسلسل محال...
فإن قيل: هذا خطاب لمعدوم فالجواب: انه خطاب تكوين يظهر أثر القدرة ويستحيل ان يكون المخاطب موجوداً ـ زاد المسير ١/١٣٧، ١٣٨.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ قيل هم اليهود وقيل النصارى، ورجحه ابن جرير لأنهم المذكورون في الآية، وقيل مشركو العرب وعليه أكثر المفسرين ﴿لولا﴾ حرف تحضيض أي هلا

﴿يكلمنا الله﴾ مشافهة من غير واسطة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فنعلم أنه نبي أو بواسطة الوحي إلينا لا إليك، وهذا منهم استكبار وتعنت ﴿أو تأتينا﴾ لذلك ﴿آية﴾ أي علامة على نبوته، وهذا منهم جحود ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد.

﴿قال الذين من قبلهم﴾ قيل هم اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب، أو الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى، أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى ﴿مثل قولهم﴾ وذلك أن اليهود سألوا موسى أن يريهم الله جهرة، وأن يسمعهم كلام الله وسألوه من الآيات ما ليس لهم مسئلته ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي في التعنت والعمى والعناد والاقتراح، وقال الفراء: في اتفاقهم على الكفر، وإلا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة ﴿قد بينا الآيات﴾ أي نزلناها بينة بأن جعلناها كذلك في أنفسها كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل، لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة ﴿لقوم يوقنون﴾ أي يعترفون بالحق وينصفون في القول، ويذعنون لأوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أي بالصدق وقال ابن عباس: بالقرآن وقيل بالإسلام وقيل معناه لم نرسلك عبثاً بل أرسلناك بالحق ﴿بشيراً﴾ أي مبشراً لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب العظيم ﴿ونذيراً﴾ أي منذراً ومخوفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم ﴿ولا تسئل عن أصحاب الجحيم﴾ قرأ الجمهور بالرفع مبنياً للمجهول أي حال كونك غير مسئول، وقريء بالرفع مبنيا للمعلوم، قال الأخفش: ويكون في موضع الحال عطفاً على بشيراً ونذيراً أي حال كونك غير سائل عنهم لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم، وقرأ نافع ولا تسأل بالجزم، والمعنى ولا يصدر منك السؤال عن هؤلاء وعمن مات منهم على كفره ومعصيته تعظيماً لحاله وتغليظاً لشأنه، أي إن هذا أمر فظيع وخطب شنيع، يتعاظم المتكلم أن يجري على لسانه، ويتعاظم السمع أن يسمعه وفي القاموس الجحيم النار الشديدة التأجج وكل نار بعضها فوق بعض، والجحيم ما عظم من النار، قاله أبو مالك، والمعنى لا تسأل عن حالهم التي تكون لهم في القيامة فإنها شنيعة ولا يمكنك في هذه الدار الإطلاع عليها وهذا فيه تخويف لهم وتسلية له صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد ابن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت هذه الآية فما ذكرهما حتى توفاه الله، قال السيوطي هذا مرسل ضعيف الإسناد ثم رواه من طريق ابن جرير عن داود بن أبي عاصم مرفوعاً وقال هو معضل الإسناد لا تقوم به ولا بالذي قبله حجة.

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ أي ليس

غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات، ويوردونه من التعنتات، فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون وأجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك حتى تدخل في دينهم وتتبع ملتهم، والملة اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على ألسن أنبيائه وهكذا الشريعة، وقال ابن عباس: هذا في أمر القبلة أيسوا منه أن يوافقهم عليها، والرضا ضد الغضب وهو من ذوات الواو لقولهم الراضون ﴿قل إن هدى الله﴾ أي الإسلام ﴿هو الهدى﴾ الحقيقي لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة والكتب المحرفة.

ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ فقال ﴿ولئن﴾ هذه تسمى اللام الموطئة للقسم وعلامتها أن تقع قبل أدوات الشرط، وأكثر مجيئها مع إن، وقد تأتي مع غيرها نحو ﴿لما آتيتكم من كتاب، لمن تبعك منهم﴾ ﴿اتبعت أهواءهم﴾ أي أهواء اليهود والنصارى ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ أي البيان بأن دين الله هو الإسلام، وأن القبلة هي قبلة إبراهيم وهي الكعبة، ويحتمل أن يكون تعريضاً لأمته وتحذيراً لهم أن يواقعوا شيئاً من ذلك، أو يدخلوا في أهواء أهل الملل ويطلبوا رضا أهل البدع، أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله هذه الآية.

وجواب القسم قوله ﴿ما لك من الله من ولي﴾ يلي أمرك ويقوم بك ﴿ولا نصير﴾ ينصرك ويمنعك من عقابه، وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتنصدع منه الأفئدة ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً وأبان من أخلاقه ليناً لا يرضيه إلا اتباع بدعته والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسنة

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة وجهالة بينة، ورأي منهار، وتقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ماله من الله من ولي ولا نصير، ومن كان كذلك فهو لا محالة مخذول وهالك بلا شك وشبهة.

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى قاله قتادة وقيل هم المسلمون، والكتاب هو القرآن وقيل من أسلم من أهل الكتاب، وقال ابن عباس: نزلت في اهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب، وكانوا أربعين رجلاً ثمانية من رهبان الشام منهم بحيرى الراهب والباقي من الحبشة وقيل هم المؤمنون عامة ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ أي يقرؤونه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ، وقيل المراد بالتلاوة أنهم يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه، فيكون من تلاه يتلوه إذا اتبعه أي يتبعونه حق اتباعه، ومنه قوله تعالى ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي اتبعها قاله ابن عباس، وقال عمر بن الخطاب: يعني إذ مر بذكر الجنة يسأل الجنة وإذا مر بذكر النار تعوذ من النار، وقال زيد بن أسلم: يتكلمون به كما أنزل ولا يكتمونه، عن قتادة قال: هم أصحاب محمد ﷺ، وعن الحسن قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه، وقيل يتدبرونه حق تدبره ويتفكرون في معانيه وحقائقه وأسراره،

﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي يصدقون به، فإن كانت الآية في أهل الكتاب فالمعنى أن المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد ﷺ لأن في

التوراة نعته وصفته، وإن كانت في المؤمنين عامة فالمعنى ظاهر ﴿ومن يكفر به﴾ أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ قد مر مثل هذا في صدر السورة وقد تقدم تفسيره وهذا من العام الذي يراد به الخاص كقوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة إذا وجب عليها العذاب ولم تستحق سواه، وقيل: أنه رد على اليهود في قولهم أن آباءنا يشفعون لنا، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي، ذكر معناه ابن كثير في تفسيره وقيل للتوكيد وتذكير النعم، وفيه عظة لليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال البقاعي في تفسيره: أنه لما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم والتحذير من حلول النقم، يوم يجمع الأمم، ويدوم فيه الندم، لمن زلت به القدم، ليعلم أن ذلك فذلكة القصة والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة انتهى.

وأقول: ليس هذا بشيء، فإنه لو كان سبب التكرار ما ذكره من طول المدى، وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار، والأحق بإعادة الذكر هو قوله سبحانه ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدكم أوف بعدهكم وإياي فارهبون﴾ فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم والخطاب لهم في هذه السورة، هي أيضا أولى بأن تعاد وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم والوفاء بالعهد، والرهبة لله سبحانه، وبهذا

تعرف صحة ما قدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه في خطاب بني إسرائيل من هذه السورة فراجعه.

ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الحراني أنه قال: كرره تعالى إظهاراً لمقصد التئام آخر الخطاب بأوله ليتخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلاً لما يمكن بأن يرد من نحوه في سائر القرآن، حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمة يجب أن يلحظ القلب بداية تلك الغاية فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي الثناء، وفي تفهمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى انتهى.

وأقول لو كان هذا سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك، وأما قوله وليتخذ ذلك أصلاً لما يرد من التكرار في سائر القرآن، فمعلوم أن حصول هذا الأمر في الأذهان وتقرره في الأفهام لا يختص بتكرار آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها، فلم تتم حينئذ النكتة في تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما، ولله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الأفهام ولا تدركها العقول، فليس في تكلف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هنالك فتذكر.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لبني إسرائيل والابتلاء الاختبار والامتحان أي ابتلاه بما أمره به وهو استعارة تبعية واقعة على طريق التمثيل، أي فعل معه فعلاً مثل فعل المختبر، والغرض من هذا التذكير توبيخ أهل الملل المخالفين، وذلك لأن إبراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديماًوحديثاً، فحكى الله عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين واليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن ما أوجبه الله على إبراهيم جاء به محمد، وفي ذلك حجة عليهم.

وإبراهيم اسم أعجمي معناه في السريانية أب رحيم كذا قال الماوردي، قال ابن عطية: ومعناه في العربية ذلك، قال السهيلي: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي، وفيه لغات، وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز، وقيل ببابل، وقيل بكوثي، وهي قرية من سواد الكوفة، وقيل بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهي أرض نمروذ الجبار.

وقد أورد صاحب الكشاف هنا سؤالاً في رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير، وأجاب عنه بأنه قد تقدم لفظاً فرجع إليه، والأمر في هذا أوضح من أن يشتغل بذكره أو ترد في مثله الأسئلة أو يسود وجه القرطاس بإيضاحه.

وقد اختلف العلماء في تعيين الكلمات فقيل هي شرائع الإسلام وقيل ذبح ابنه وقيل أداء الرسالة وقيل هي خصال الفطرة، وقيل قوله ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقيل الطهارة، قال الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن

هذا كله مما ابتلي به إبراهيم انتهى، وظاهر النظم القرآني أن الكلمات هي قوله ﴿إني جاعلك﴾ وما بعده ويكون ذلك بياناً للكلمات، وجاء عن بعض السلف ما يوافق ذلك وعن آخرين ما يخالفه، والحق أنه إذا لم يصح شيء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة في تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول أنها ما ذكره الله سبحانه في كتابه قال ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ ويكون ذلك بياناً للكلمات، أو السكوت وإحالة العلم في ذلك على الله سبحانه.

وأما ما روي عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم في تعيينها فهو أولاً أقوال الصحابة ولا تقوم بها الحجة فضلاً عن أقوال من بعدهم، وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك وان له حكم الرفع فقد اختلفوا في التعيين اختلافاً يمنع معه العمل ببعض ما روي عنهم دون البعض الآخر، بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما روي عن ابن عباس فكيف يجوز العمل بذلك، وبهذا تعرف ضعف قول من قال: أنه يصار إلى العموم، ويقال تلك الكلمات هي جميع ما ذكر ههنا، فان هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة، وعلى هذا فيكون قوله ﴿إني جاعلك﴾ مستأنفاً كأنه قيل ما ذا قال له.

وقال ابن جرير: ما حاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له، ثم قال: إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب، يعني أن الكلمات هي قوله ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقوله ﴿وعهدنا إلى إبراهيم﴾ وما بعده، ورجح ابن كثير(١) أنها تشمل جميع ما ذكر وفيه بعد.

---

(١) ابن كثير ١/١٦٦.

﴿فأتمهن﴾ أي قام بهن أتم قيام، وامتثل اكمل امتثال، واختلف هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فقيل بالأول بدليل السياق فانه يدل على أن قيامه عليه السلام بهن كالسبب لأن يجعله الله إماماً، والسبب يتقدم على المسبب، وقيل بالثاني لأن التكليف لا يعلم إلا من جهة الوحي الإلهي، وذلك بعد النبوة، وقيل إن فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة، وإن فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة.

﴿قال إني جاعلك للناس﴾ أي لأجلهم ﴿إماماً﴾ يقتدي بدينك وهديك وسنتك، والإمام هو الذي يؤتم به، ومنه قيل للطريق إمام وللبناء إمام لأنه يؤتم بذلك أي يهتدي به السالك، والإمام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتمون به ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه في الجملة، وإبراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديماً وحديثاً، فأما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه، وأنهم من أولاده، وأما العرب في الجاهلية فانهم أيضاً يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده، ومن ساكني حرمه، وخدام بيته، ولما جاء الإسلام زاده الله شرفاًوفضلاً، فحكى الله عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، لأن ما أوجبه الله على إبراهيم هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب في وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان به وتصديقه.

﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم أي واجعل من بعض ذريتي أئمة، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم لقصد الإستفهام وإن لم يكن بصيغته أي ومن ذريتي ماذا يكون يا رب، فأخبره أن فيهم عصاة وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك ولا يقومون به، ولا ينالهم عهد الله سبحانه، وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحاله

إمامة الكل، وإن كانوا على الحق، عن قتادة قال هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظالماً، فأما في الدنيا فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين وغادوهم وناكحوهم، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه، وعن مجاهد قال لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به، وعن ابن عباس قال يخبره أنه إن كان في ذريته ظالماً لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره، والنيل الادراك وهو العطاء، والذرية مأخوذة من الذر، لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم كالذر، وقيل مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم إذا خلقهم، وفي الكتاب العزيز ﴿فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ وقال الخليل: إنما سموا ذرية لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزراع البذر، قال ابن عباس: يؤخذ من هذا إباحة السعي في منافع الذرية والقرابة وسؤال من بيده ذلك.

واختلف في المراد بالعهد فقيل الإمامة وقيل النبوة وقيل عهد الله أمره وقيل الأمان من عذاب الآخرة ورجحه الزجاج، والأول أظهر كما يفيده السياق.

وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالماً ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد وما يفيده الإضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتباراً بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية.

وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه، انتهى، ولا يخفاك أنه لا جدوى لكلامه هذا فالأولى أن يقال أن هذا الخبر في معنى الأمر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالماً، وإنما قلنا أنه في معنى الأمر لأن إخباره تعالى لا يجوز أن يتخلف، وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة وغيرها كثير من الظالمين.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾

﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ أي لأجلهم أو لأجل مناسكهم، والبيت هو الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، ويدخل فيه جميع الحرم لوصفه بكونه آمناً كما سيأتي، ومثابة مصدر من ثاب يثوب مثاباً ومثابة أي مرجعاً يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، وقيل المثابة من الثواب أي يثابون هنالك قال مجاهد المراد أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الأخفش ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه كعلامة ونسابة، وقال غيره هي للتأنيث وليست للمبالغة وهو مصدر أو اسم مكان، قولان.

﴿وأمناً﴾ هو اسم مكان أي موضع أمن وهو أظهر من جعله اسم الفاعل على سبيل المجاز كقوله ﴿حرماً آمنا﴾ فإن الآمن هو الساكن والملتجىء والأول لا مجاز فيه، وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ إليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ وقيل إن ذلك منسوخ، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه فقال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: إلا الأذخر» أخرجه البخاري ومسلم(١) وكان الناس يأمنون فيه من أذى المشركين فإنهم كانوا لا يتعرضون لأهل مكة ويقولون هم أهل الله، وقال ابن عباس في الآية معاذاً وملجأً.

---

(١) رواه مسلم/ ١٣٥٣ وقد ورد في فضائل مكة احاديث كثيرة صحيحة.

﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ قرىء على أنه فعل ماض أي واتخذوه مصلى، وقرىء على صيغة الأمر، ويجوز أن يكون تقديره وقلنا آتخذوا والمقام في اللغة موضع القيام قال النحاس هو من قام يقوم يكون مصدراً واسماً للموضع، ومقام من أقام، ومن للتبعيض وهذا هو الظاهر، وقيل بمعنى في وقيل زائدة على قول الأخفش وليسا بشيء، اختلف في تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذي يعرفه الناس ويصلون عنده ركعتي الطواف، وقيل المقام الحرم كله روي ذلك عن عطاء ومجاهد وقيل عرفة والمزدلفة، وقال الشعبي: الحرم كله مقام، والمعنى اتخذوا مصلى كائناً عند مقام إبراهيم، والعندية تصدق بجهاته الأربع والتخصيص بكون المصلى خلفه إنما استفيد من فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والصحابة بعده.

أخرج البخاري وغيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال: «وافقت ربي في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت هذه الآية وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساؤه في الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك» وأخرجه مسلم وغيره مختصراً من حديث ابن عمر عنه[1].

وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وفي مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة في الأمهات وغيرها، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع

(١) وانظر الحديث بطوله في صحيح مسلم/ ١٤٧٩.

الجدار أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه كما في البخاري من حديث ابن عباس، وهو الذي كان ملصقا بجدار الكعبة وأول من نقله عمر بن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق والبيهقي بإسناد صحيح، وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق مختلفة.

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث جابر في وصف حج النبي ﷺ قال لما طاف النبي ﷺ قال له عمر هذا مقام إبراهيم، قال نعم، وأخرج نحوه ابن مردويه قيل: كان أثر أصابع رجلي إبراهيم فيه فاندرست بكثرة المسح بالأيدي، وإنما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله.

وقد روى البخاري في بدء قصة المقام أثراً طويلا عن ابن عباس وقد ورد في حديث الترمذي أن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما[1].

واختلفوا في قوله ﴿مصلى﴾ فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلى مدعى من الصلاة التي هي الدعاء، ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقامه قبلة أمروا بالصلاة عنده، وهذا هو الصحيح لان لفظ الصلاة إذا أطلق لا يعقل منه إلا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود ولأن مصلى الرجل هو الموضع الذي يصلي فيه.

﴿وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ معنى عهدنا هنا أمرنا أو أوحينا، وقيل ألزمنا وأوجبنا، ومن أغرب ما نقل في تسمية اسماعيل أن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولداً ويقول في دعائه اسمع يا إيل، وإيل بلسان السريانية هو الله، فلما رزق الولد سماه به وقيل هو إسم أعجمي، وفيه لغتان اللام والنون ويجمع على سماعله وسماعيل وأساميع، والمراد بالتطهير قيل من الأوثان قاله ابن عباس، وقيل من الآفات

(١) الترمذي كتاب الحج الباب ٤٩ ـ احمد بن حنبل ٢/٢١٢، ٢١٤.

والريب وقول الزور والرجس، قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، وقيل من الكفار، وقيل من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث، والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع وأن كل ما يصدق عليه مسمى التطهير فهو يتناوله إما تناولاً شمولياً أوبدلياً.

والإضافة في قوله «بيتي» للتشريف والتكريم، والمراد بالبيت الكعبة، والطائف الذي يطوف به أي الدائر حوله، وقيل الغريب الطاريء على مكة والعاكف المقيم، وأصل العكوف في اللغة اللزوم واللبث والإقبال على الشيء، وقيل هو المجاور دون المقيم من أهلها، والمراد بقوله ﴿الركع السجود﴾ المصلون، وخص هذين الركنين بالذكر لأنهما أشرف أركان الصلاة، عن ابن عباس قال: إذا كان قائماً فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين، وإذا كان مصلياً فهو من الركع السجود، وعن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون في المسجد فقال: هم العاكفون.

وفي الآية مشروعية طهارة المكان للطواف والصلاة، قال الرازي والكيا الهراسي وفيها دلالة على أن الطواف للغرباء أفضل، والصلاة للمقيم أمثل

(قلت): ولم يظهر لي وجه ذلك، قالا وفيها دلالة على جواز الصلاة في نفس الكعبة حيث قال (بيتي) خلافاً لمالك (قلت): وفيه أن الطواف لا يكون في نفس الكعبة، قال الرازي: وفيها دلالة على أن الطواف قبل الصلاة (قلت) وقد سبقه بذلك ابن عباس، وفيها دلالة على جواز المجاورة بمكة لأن قوله ﴿والعاكفين﴾ يحتمله، والسجود جمع ساجد نحو قاعد وقعود، وهو مناسب لما قبله، وقيل أنه مصدر نحو الدخول والقعود، والمعنى ذوي السجود، ذكره أبو البقاء والأول أولى، ولتقارب الأخيرين ذاتاً وزماناً ترك العاطف بينهما وجمع صفتين جمع سلامة وأخريين جمع تكسير لأجل المقابلة وهو نوع من الفصاحة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا﴾ أي مكة وقيل الحرم ﴿بلداً آمنا﴾ والمراد الدعاء لأهله من ذريته وغيرهم كقوله عيشة راضية أي راض صاحبها أو الإسناد إلى المكان مجاز كما في ليل نائم أي نائم فيه، قاله السعد التفتازاني، وعلى هذا المراد أمن الملتجىء اليه فأسند إليه مبالغة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة واني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها[1]» كما أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث جابر وقد روي بهذا المعنى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وهي حرام الى يوم القيامة[2]» أخرجه البخاري وأهل السنن من حديث أبي هريرة تعليقاً، وابن ماجة من حديث صفية بنت شيبة، وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا.

ولا تعارض بين هذه الأحاديث فإن ابراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرمها وأنها لم تزل حرماً آمناً نسب إليه أنه حرمها أي أظهر للناس حكم الله فيها، وإلى هذا الجمع ذهب ابن عطية وابن كثير، وقال ابن جرير: أنها كانت حراماً ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم فحرمها وتعبدهم بذلك انتهى وكلا الجمعين حسن.

---

(١) مسلم ١٣٦٢.
(٢) صحيح الجامع الصغير ١٧٤٧.

﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ انما سأل ابراهيم ذلك لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمرة فاستجاب الله له وجعل مكة حرماً آمناً تجبى اليه ثمرات كل شيء، عن محمد بن مسلم الطائفي قال: بلغني أنه لما دعا ابراهيم للحرم نقل الله الطائف من فلسطين ﴿ومن﴾ للتبعيض أي بعض الثمرات، ولم يقل من الحبوب لما في تحصيله من الذل الحاصل بالحرث وغيره، فاقتصاره على الثمرات لتشريفهم، وقيل «من» للبيان وليس بشيء اذ لم يتقدم مبهم يبين بها، والمراد بالأمن المذكور في قوله ﴿مثابة للناس وآمنا﴾ هو الأمن من الأعداء والخسف والمسخ والمراد هنا من الأمن هو الأمن من القحط، ولهذا قال ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ ذكره الكرخي.

والمعنى وارزق من آمن من أهله دون من كفر، وسبب هذا التخصيص أن إبراهيم لما سأل ربه أن يجعل النبوة والإمامة في ذريته: فأجابه الله بقوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ وصار ذلك تأديباً له في المسئلة فلا جرم خص هنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين، ثم أعلمه أن الرزق في الدنيا يستوي فيه المؤمن والكافر بقوله:

﴿قال ومن كفر فأمتعه﴾ أي سأرزق الكافر أيضاً ﴿قليلاً﴾ أي في الدنيا مدة حياته، وعن محمد بن كعب القرظي قال: دعا إبراهيم للمؤمنين وترك الكفار، ولم يدع لهم بشيء فقال تعالى ﴿ومن كفر فأمتعه﴾ الآية. وعن ابن عباس قال: كان إبراهيم احتجزها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر فأنا أرزقهم أيضاً كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزقهم، ثم قرأ ابن عباس ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء﴾ الآية، فالظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه رداً على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم، ويحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً بياناً لحال من كفر ويكون في حكم الإخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية، أي من كفر فإني أمتعه في هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق الى منتهى أجله وذلك قليل لأنه ينقطع.

﴿ثم أضطره﴾ أي ألزه لز المضطر لكفره بعد هذا التمتع ﴿الى عذاب النار﴾ أخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير الا تمتعهم في هذه الدنيا، وليس لهم بعد ذلك الا ما هو شر محض، وأما على قراءة من قرأ فأمتعه وأضطره بصيغة الأمر فهي مبنية على أن ذلك من جملة كلام إبراهيم، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالإمتاع قليلاً، ثم دعا عليهم بأن يضطرهم الله الى عذاب النار، وحاصل معنى أضطره ألزمه حتى أصيره مضطراً لذلك لا يجد عنه مخلصاً ولا منه متحولاً ﴿وبئس المصير﴾ أي المرجع هي، والواو فيه ليست للعطف والالزم عطف الإنشاء على الإخبار بل للاستئناف كما قال في المغنى في قوله ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾.

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل﴾ حكاية حال ماضية استحضاراً لصورته العجيبة، والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس، قاله أبو عبيدة والفراء وهي صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات، ولعله مجاز من المقابل للقيام ومنه قعدك الله، وقال الكسائي: هي الجدر والمراد برفعها رفع ما هو مبنى فوقها لا رفعها في نفسها فإنها لم ترفع، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه أو المراد بها سافات البناء، فإن كل ساف قاعدة لما يبنى عليه وبرفعها بناؤها أو المراد رفع مكانته ودعاء الناس إلى حجه، وفي إبهام القواعد وتبيينها ثانياً بقوله من البيت تفخيم لشأنها.

﴿ربنا﴾ أي قائلين ربنا، وقرأ أبيّ وابن مسعود يقولان ربنا ﴿تقبل منا﴾ أي طاعتنا إياك وعبادتنا لك﴿إنك أنت السميع﴾ لدعائنا ﴿العليم﴾ بنياتنا.

وقد أكثر المفسرون في تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف في كيفية بناء البيت، ومن أي أحجار الأرض بني، وفي أي زمان عرف، ومن حجه، وما ورد فيه من الأدلة الدالة على فضله أو فضل بعضه كالحجر الأسود، وفي الدر المنثور من ذلك ما لم يكن في غيره فليرجع إليه، وفي تفسير ابن كثير بعض من ذلك.

ولما لم يكن ما ذكروه متعلقا بالتفسير لم نذكره

وفي القسطلاني على البخاري بنيت الكعبة عشر مرات:

الأول: بناء الملائكة.

الثاني: بناء آدم.

الثالث: بناء ابنه شيث بالطين والحجارة وغرق بالطوفان.

الرابع: بناء إبراهيم.(١)

الخامس: بناء العمالقة.

السادس: بناء جرهم والذي بناه منهم هو الحرث بن مضاض الأصغر.

السابع: بناء قصي خامس جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الثامن؛ بناء قريش.

التاسع: بناء عبد الله بن الزبير في أوائل سنة أربع وستين.

العاشر: بناء الحجاج انتهى حاصله، قال سليمان الجمل وهذا بحسب ما اطلع عليه وإلا فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألف وتسع وثلاثين كما نقله بعض المؤرخين، قال الرازي فيه: أن بناء المسجد قربة وفيه استحباب الدعـاء بقبول الأعمال.

---

(١) روى أنس عن النبي ﷺ، قال: كانت الملائكة تحج إلى البيت قبل آدم. وقال ابن عباس: لما أهبط آدم؛ قال الله تعالى: يا آدم! اذهب فابن لي بيتاً فطف به، واذكرني حوله كما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي. فأقبل يسعى حتى انتهى إلى البيت الحرام، وبناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، وطور زيتا، والجودي، وحراء، فكان آدم أول من أسس البيت، وطاف به، ولم يزل كذلك حتى بعث الله الطوفان، فدرس موضع البيت، فبعث الله إبراهيم وإسماعيل. وقال علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه: لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت؛ ضاق به ذرعاً، ولم يدر كيف يصنع، فأنزل الله عليه كهيئة السحابة، فيها رأس يتكمل، فقال: يا إبراهيم! علّم على ظلي، فلما علّم ارتفعت. وفي رواية أنه كان يبني عليها كل يوم صقال: وحفر إبراهيم من تحت السكينة، فأبدى عن قواعد، ما تحرك القاعدة منها دون ثلاثين رجلاً. فلما بلغ موضع الحجر، قال لإسماعيل: التمس لي حجراً، فذهب يطلب حجراً، فجاء جبريل بالحجر الأسود، فوضعه، فلما جاء إسماعيل، قال: من جاءك بهذا الحجر؟ قال: جاء به من يتكل على بنائي وبنائك.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ أي ثابتين عليه أو زدنا منه، قيل المراد بالإسلام هنا مجموع الإيمان والأعمال ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ من للتبعيض أو للتبيين، قال ابن جرير: إنه أراد بالذرية العرب خاصة، وكذا قال السهيلي، قال ابن عطية: وهذا ضعيف لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به، والأمة الجماعة في هذا الموضع وقد تطلق على الواحد ومنه قوله تعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله﴾ وتطلق على الدين ومنه ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ وتطلق على الزمان ومنه ﴿وادَّكر بعد أمةٍ﴾ قيل أراد بالأمة أمة محمد ﷺ بدليل قوله ﴿وابعث فيهم رسولاً منهم﴾.

﴿وأرنا مناسكنا﴾ هي من الرؤية البصرية، والمناسك جمع نسك وأصله في اللغة الغسل يقال نسك ثوبه إذا غسله، وهو في الشرع اسم للعبادة، وقيل واحدها منسك والمراد هنا مناسك الحج، وقيل مواضع الذبح، وقيل جمع التعبدات، قال علي: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: قد فعلت أي رب فأرنا مناسكنا أبرزها لنا وعلمناها، فبعث الله جبريل فحج به[1]، وفي الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومن بعدهم يتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك، وفي أكثرها أن الشيطان تعرض له.

---

(١) وقال ابو مجلز: لما فرغ إبراهيم من البيت أتاه جبريل، فأراه الطواف، ثم أتى به جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبعاً، وقال له: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به جمرة الوسطى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى ابراهيم سبع حصيات، فقال: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به الجمرة القصوى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات. فقال له: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان، ثم أتى به منى، فقال: ها هنا يحلق الناس رؤوسهم، ثم اتى به جمعاً، فقال: ها هنا يجمع الناس، ثم اتى به عرفة، فقال: اعرفت؟ قال: نعم. قال: فمن ثم سميت عرفات.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾

﴿وتب علينا﴾ أي تجاوز عنا والمراد بالتوبة التثبيت، لأنهما معصومان لا ذنب لهما وقيل المراد وتب على الظلمة منا ﴿إنك أنت التواب﴾ أي المتجاوز عن عباده ﴿الرحيم﴾ بهم.

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ ضمير فيهم راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقاً وقرأ أبيّ في آخرهم، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الذرية وهم العرب من ولد اسماعيل، وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة فبعث في ذريته رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أخبر عن نفسه أنه دعوة إبراهيم كما أخرجه أحمد من حديث العرباض بن سارية[1] وغيره[2] ومراده هذه الدعوة، وقد أجمع على ذلك المفسرون، لأن إبراهيم إنما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فدل على أن المراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والرسول هو المرسل، قال ابن الإنباري: يشبه أن يكون أصله ناقة مرسال ومرسلة إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق، ويقال جاء القوم أرسالاً أي بعضهم في إثر بعض.

﴿يتلو عليهم آياتك﴾ وهو القرآن ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أي معاني

(١) احمد بن حنبل ٤/١٢٧ - ١٢٨ ٥/٢٦٢.

(٢) قوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ في الهاء والميم من ﴿فيهم﴾ قولان. أحدهما: أنها تعود على الذرية، قاله مقاتل والفراء: على أهل مكة في قوله: ﴿وارزق أهله﴾ والمراد بالرسول: محمد ﷺ. وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ، أنه قيل: يا رسول الله! ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» رواه أبو داود الطيالي وأحمد في «المسند» عن أبي أمامة، وفي مسنده الفرج بن فضالة، وهو ضعيف، وجاء الحديث بمعناه في «مسند أحمد» عن العرباض بن سارية، وقد صححه الشيخ أحمد شاكر.

الكتاب من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية، والكتاب هو القرآن ﴿والحكمة﴾ أي ويعلمهم الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل، ووضع كل شيء موضعه، والمراد بالحكمة هنا المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم للشريعة، وقال قتادة: هي السنة وقيل هي الفصل بين الحق والباطل، وقال ابن قتيبة: هي العلم والعمل، ولا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما، وقال ابن دريد: كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، وقيل أن المراد بالآيات ظاهر الألفاظ، والكتاب معانيها، والحكمة الحكم وهو مراد الله بالخطاب وقيل غير ذلك ﴿ويزكيهم﴾ التزكية التطهير من الشرك وسائر المعاصي ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان، وقال الكسائي: العزيز الغالب والحكيم العالم.

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ الاستفهام للانكار، قال الزجاج وابن جني: سفه بمعنى جهل أي جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها أنها مخلوقة لله فيجب عليه عبادته، وقال أبو عبيدة: المعنى أهلك نفسه، وقال الأخفش: أي فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً، وقال الزمخشري: امتهنها واستخف بها، عن أبي العالية قال: رغبت اليهود والنصارى عن ملته واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم الإسلام، وبذلك بعث الله نبيه محمداً الرسول الذي هو دعوة إبراهيم فقد رغب عن ملة إبراهيم، فيه إشارة إلى لزوم اتباع ملته فيما لم يثبت نسخه.

﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ تعليل للحصر قبله، واللام جواب قسم محذوف، والغرض منه الحجة والبيان لقوله ﴿ومن يرغب﴾ والاصطفاء الاختيار أي اخترناه في الدنيا بالرسالة والخلة كما شاهدوه ونقله جيل بعد جيل ﴿وأنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أمر مغيب فاحتاج الإخبار به الى فضل تأكيد قيل مع الأنبياء في الجنة أو الذين لهم الدرجات العلى، فكيف يرغب عن ملته راغب.

إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ يحتمل أن يكون متعلقا بقوله ﴿اصطفيناه﴾ أي اخترناه وقت أمرنا له بالإسلام، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف هو اذكر، قال في الكشاف كأنه قيل اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله، وزاد أبو السعود وأنه ما نال ما نال إلا بالمبادرة للإذعان والانقياد لما أمره به واخلاص سره، قال ابن عباس: قال الله له ذلك حين خرج من السرب، وذلك عند استدلاله بـالكوكب واطـلاعه عـلى أمارات الحدوث فيها وافتقارها الى محدث مدبر، ومعنى ﴿أسلم﴾ انقد لله وأخلص دينك وعبادتك له أو استقم اوفوض أمورك الى الله أو اذعن واطلع أو اثبت على ما أنت عليه من الإسلام ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي فوضت أمري اليه، قال ابن عباس: وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقي في النار.

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ الضمير في «بها» راجع الى الملة الحنيفية أو إلى الكلمة أي أسلمت لرب العالمين، قال القرطبي: وهو أصوب لأنه أقرب مذكور أي قولوا أسلمنا انتهى، والأول أرجح لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم وأولى بهم، قيل كانوا ثمانية منهم اسمعيل وهو أول أولاده وقيل أربعة عشر ﴿ويعقوب﴾ معطوف على إبراهيم أي وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه، وكانوا اثني عشر، وقرىء بنصب يعقوب فيكون داخلاً فيما أوصاه إبراهيم، قال القشيري: وهو بعيد، لأن يعقوب لم يدرك جده ابراهيم وانما ولد بعد موته.

﴿يا بني﴾ قيل أنه من مقول إبـراهيم وقيل من مقول يعقوب

﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ المراد بالدين ملته التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه وهي الملة التي جاء بها محمد ﷺ ، وفي قوله :

﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ إيجاز بليغ ، والمراد إلزموا الإسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا ، وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تموتوا على حالة غير حالة الإسلام ، وليس فيه نهي عن الموت الذي هو قهري ، ولهذا قال السيوطي نهى عن ترك الإسلام وأمر بالثبات عليه إلى مصادفة الموت ، انتهى ، والمعنى أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه ، وإن حق هذا الموت أن لا يحصل فيهم ، عن فضيل بن عياض قال :

﴿ مسلمون ﴾ أي محسنون بربكم الظن ، ويدل عليه ما روي عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول : « لا يموتن أحد إلا وهو يحسن الظن بربه » أخرجاه في الصحيحين[1] .

---

(١) قال البغوي : في تفسيره ـ ١٨٨ : والنهي في ظاهر الكلام وقع على الموت ، وإنما نُهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام معناه : داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون ، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله : أنه قال : إلا وأنتم مسلمون ، أي : محسنون بربكم الظن ، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح ، أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، أنا علي بن الجعد أنا أبو جعفر الرازي عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام ، يقول : «لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يُحسن الظن بالله عزّ وجلّ» .

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾ أي ما كنتم حاضرين حين احتضر يعقوب وقرب من الموت، ﴿وأم﴾ هذه قيل هي المنقطعة وقيل هي المتصلة وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم وإلى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله ذلك عليهم وقال لهم: أشهدتم يعقوب وعلمتم ما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون، والشهداء جمع شاهد ولم ينصرف لأن فيه ألف التأنيث التي لتأنيث الجماعة، والمراد بحضور الموت حضور مقدماته، وسمى يعقوب لأنه هو وأخوه العيص كانا توأمين في بطن واحد فتقدم العيص وقت الولادة في الخروج مسابقة ليعقوب، فتأخر يعقوب عنه ونزل على إثره وعقبه في الخروج.

﴿إذ قال لبنيه﴾ يعني لأولاده الإثني عشر ﴿ما تعبدون﴾ أي أيُّ شيء تعبدون، وإنما جاء بما دون من لأن المعبودات من دون الله غالبها جمادات كالأوثان والنار والشمس والكواكب ﴿من بعدي﴾ أي من بعد موتي ﴿قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبـراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق﴾ وإسمٰعيل وان كان عماً ليعقوب فإن العرب تسمي العم أباً والخالة أماً، وعم الرجل صنو أبيـه، وقرىء أبيك فقيل أراد إبراهيم وحده ويكون إسمٰعيل وإسحٰق عطفاً على أبيك وإن كان هو أباه حقيقة وإبراهيم جده، ولكن لإبـراهيم مزيد خصوصية، وقيل أبيك جمع كما روي عن سيبويه أن أبين جمع سلامة ومثله أبون، وقدم إسمٰعيل على اسحق لأنه أسبق منه في الولادة بأربع عشرة سنة وأنه جد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ أي مخلصـون التوحيـد والعبودية.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ تلك إشارة إلى ابراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه، وما بعده بيان لحال تلك الأمة وحال المخاطبين بأن لكل من الفريقين كسبه لا ينفعه كسب غيره ولا يناله منه بشيء، ولا يضره ذنب غيره، وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه ويروح نفسه بالأماني الباطلة، ومنه ما ورد في الحديث [من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبة[1]] والمراد أنكم لا تنتفعون بحسناتهم ولا تؤاخذون بسيئآتهم، وفيه إبطال مذهب من يجيز تعذيب أولاد المشركين تبعاً لأبائهم، قال ابن فارس: وفيه اثبات الكسب للعبد ﴿ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ أي عن أعمالهم كما لا يسئلون عن أعمالكم، ومثله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى، وان ليس للإنسان إلا ما سعى﴾.

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ وهذا فن آخر من فنون كفرهم واضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالتهم في نفسهم، قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا، وفي نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابهما خاصموا المؤمنين في الدين فكل فريق منهم يزعم أنه أحق بدين الله ﴿قل بل ملة ابراهيم حنيفاً﴾ أي قل يا محمد في الرد عليهم هذه المقالة بل الهدى ملة ابراهيم، والحنيف المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو في أصل اللغة الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها أي تتبع ملة ابراهيم حال كونه حنيفاً، وقال قوم: الحنف الاستقامة

---

(١) ابو داود كتاب العلم الباب ١ ـ احمد بن حنبل ٢٥٢/٢ ـ ٤٠٧.

فسمي دين إبراهيم حنيفاً لاستقامته، ويسمى معوج الرجلين أحنف تفاؤلاً بالإستقامة كما قيل للديغ سليم، وللمهلكة مفازة، وقال مجاهد: حنيفاً متبعاً، وقال ابن عباس: حاجاً، وعن خصيف قال: الحنيف المخلص، وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.

وأخرج أحمد(١) عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، «بعثت بالحنيفية السمحة» وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن المنذر عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله قال «الحنيفية السمحة » ونصب ملة على الإغراء، قاله أبو عبيدة أي ألزموها ﴿وما كان﴾ أي إبراهيم ﴿من المشركين﴾ وفي نفي كونه من المشركين تعريض باليهود لقولهم عزير ابن الله وبالنصارى لقولهم المسيح ابن الله أي أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التي أنتم عليها من الشرك بالله، فكيف تدعون عليه انه كان على اليهودية أو النصرانية وتدعون أنكم على ملته.

---

(١) احمد بن حنبل ٥/٢٦٦ ٦/١١٦،، ٢٢٢.
البخاري كتاب الايمان الباب ٢٩ ـ احمد بن حنبل ١/٢٢٦.

عن أبي أمامة قال:خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية من سراياه قال فمر رجل بغار فيه شيء من ماء قال فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى من الدنيا ثم قال لو أني أتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل فاتاه فقال يا نبي الله اني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل فحدثتني نفسي بان أقيم فيه وأتخلى من الدنيا قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ أي القرآن ﴿وما أنزل إلى ابراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط﴾ أي الصحف، وهذا خطاب للمسلمين وأمر لهم بأن يقولوا لهم هذه المقالة وقيل انه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك حتى يكونوا على الحق، والأول أولى، وأعاد الموصول لئلا يتوهم من إسقاطه اتحاد المنزل مع أنه ليس كذلك، وذكر إسمٰعيل وما بعده لكونهم مزوجين لها متعبدين بتفاصيلها، داخلين تحت أحكامها، ومقررين لما أنزل على إبراهيم فكأنه منزل عليهم أيضاً وإلا فليسوا منزلاً عليهم في الحقيقة. والأسباط أولاد يعقوب وهم اثنا عشر ولداً ولكل واحد من الأولاد جماعة، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر، وقيل الأسباط حفدة يعقوب أي أولاد أولاده لا أولاده لأن الكثرة إنما كانت فيهم دون أولاد يعقوب في نفسه فهم أفراد لا أسباط.

﴿وما أوتي موسى﴾ من التوراة، وعبر بالإيتاء دون الإنزال فراراً من التكرار الصوري الموجب للثقل في العبارة ﴿وعيسى﴾ من الإنجيل، ولم يقل وما أوتي عيسى إشارة إلى اتحاد المنزل عليه مع المنزل على موسى، فإن الإنجيل مقرر للتوراة ولم يخالفها إلا في قدر يسير فيه تسهيل كما قال: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ ﴿وما أوتي النبيون﴾ المذكورون وغيرهم ﴿من ربهم﴾ يعني والكتب التي أوتي جميع الأنبياء، وذلك كله حق وهدى ونور، وان الجميع من عند الله، وإن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق ﴿لا نفرق﴾ في الإيمان ﴿بين أحد منهم﴾ بل نؤمن بكل الأنبياء قال الفراء

معناه لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى.

قال في الكشاف ﴿أحد﴾ في معنى الجماعة ولذلك صح دخول ﴿بين﴾ عليه، وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرة في سياق النفي كما سبق إلى كثير من الأذهان، وقال القرافي: ان «أحداً» الذي لا يستعمل إلا في النفي معناه إنسان بإجماع أهل اللغة، وأحداً الذي يستعمل في الإثبات معناه الفرد من العدد إذا كان مسمى أحد اللفظين غير مسمى الآخر في اللغة، وضابط الاشتقاق أن تجد بين اللفظين مناسبة في اللفظ والمعنى، ولا يكفي أحدهما تغايراً في الاشتقاق، فإن وجدت المقصود به إنسان فألفه ليست منقلبة عن واو، وإن وجدت المقصود به نصف الاثنين من العدد فهو الصالح للإثبات والنفي وألفه منقلبة عن واو، انتهى، وقد حقق المقام الخفاجي في العناية فليرجع إليه.

﴿ونحن له مسلمون﴾ أي ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية، وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما الآية التي في البقرة ﴿قولوا آمنا بالله﴾ كلها وفي الآخرة ﴿آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون﴾ وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله» الآية[1].

(١) صحيح الجامع الصغير ٧٢٢٣.

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

﴿فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾ هذا خطاب للمسلمين أيضاً أي فان آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا، وعلى هذا فمثل زائدة كقوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقيل أن المماثلة وقعت بين الايمانين أي فان آمنوا بمثل إيمانكم، وقال في الكشاف إنه من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام أي فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد فقد اهتدوا، وقيل إن الباء زائدة مؤكدة وقيل إنها للاستعانة.

﴿وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾ أصله من الشق وهو الجانب، كأن كل واحد من الفريقين في جانب غير الجانب الذي فيه الآخر، وقيل انه مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين، قال أبو العالية: في شقاق أي فراق، وقيل في خلاف ومنازعة، وقيل في عداوة ومحاربة، وقيل في ضلال.

﴿فسيكفيكهم الله﴾ أي من شر اليهود والنصارى، والكفاية وعد وضمان من الله لنبيه ﷺ أنه سيكفيه من عانده وخالفه من المتولين، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة والنضير وبني قينقاع[1]، وفيه معجزة للنبي ﷺ وهو إخبار بغيب ﴿وهو السميع﴾ لأقوالهم ﴿العليم﴾ بأحوالهم يسمع جميع ما ينطقون به ويعلم جميع ما يضمرون من الحسد والغل، وهو مجازيهم ومعاقبهم.

(١) وقد وردت قصص يهود قريظة والنضير وبني قينقاع في كتب السيرة مطولاً انظر مثلاً سيرة ابن هشام ٤ / ٢٣٩ و٤/ ١٩٢ و٤/ ٤٨.

صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿صبغة الله﴾ الخطاب للمسلمين أي قولوا للنصارى المقالة، والمعنى صبغنا الله بالايمان، قال الأخفش وغيره: أي دين الله وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله، لأن الايمان يطهر النفوس، انتهى وقال ابن عباس: دين الله، وقال مجاهد: فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «إن بني إسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ ربك فقال اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم أنا أصبغ الالوان الاحمر والابيض والاسود والالوان كلها في صبغتي» وأنزل الله على نبيه ﴿صبغة الله﴾ الآية، وعنه صبغة الله البياض.

وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية، ويجعلون ذلك تطهيراً لهم، فاذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانياً، حقاً، فرد الله عليهم بقوله ﴿صبغة الله﴾ أي الإسلام ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام ولا أطهر وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومن كان بعده من الأنبياء، وسماه صبغة استعارة، قال البغوي: إطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهي، وتقرير المشاكلة هنا مبسوط في التلخيص وشرحه للسعد، وقيل الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام بدلاً من معمودية النصارى[١]، ذكره الماوردي، وقيل الصبغة الختان لانه يصبغ المختتن بالدم، وقيل الصبغة سنة الله.

﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي ديناً وقيل تطهيراً لانه يطهر من أوساخ الكفر ﴿ونحن له عابدون﴾ أي مطيعون.

---

(١) روى ابو حاتم البستي في صحيح مسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه: ان ثمامة الحنفي اسر فمر بـه النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث به الى حائط ابي طلحة فأمره ان يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: حسن إسلام صاحبكم.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩﴾

﴿قل أتحاجوننا في الله﴾ أي قل يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا إن دينهم خير من دينكم: أتجادلوننا وتخاصموننا في دين الله الذي أمرنا أن نتدين به والقرب منه والحظوة عنده، وذلك كقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، والمحاجة المجادلة لإظهار الحجة ﴿وهو ربنا وربكم﴾ أي نشرك نحن وأنتم في ربوبيته لنا وعبوديتنا له فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحاجوننا في ذلك، وله أن يصطفي من عباده من يشاء ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ فلستم بأولى بالله منا وهو مثل قوله تعالى ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي نحن أهل الإخلاص للعبادة دونكم، وهو المعيار الذي يكون به التفاضل، والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله من غيره، فكيف تدعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق، والجمل الثلاث أحوال، وفي الآية توبيخ لهم وقطع لما جاؤا به من المجادلة والمناظرة، قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿أم تقولون﴾ أم هنا معادلة للهمزة في قوله ﴿أتحاجوننا﴾ أي أم تقولون إن هؤلاء الانبياء على دينكم، وعلى قراءة يقولون بالياء تكون أم منقطعة أي بل يقولون وفيه تقريع وتوبيخ ﴿إن إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾ يعني أتزعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم وملتكم، وإنما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم عليهم ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ أي الله أعلم بذلك، وقد أخبرنا بأنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى، وأنتم تدعون أنهم كانوا كذلك فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه، والتفضيل على سبيل الاستهزاء أو على تقدير أن يظن بهم علم في الجملة وإلا فلا مشاركة.

﴿ومن أظلم ممن كتم﴾ أي أخفى ﴿شهادة عنده من الله﴾ استفهام انكار أي لا أحد أظلم يحتمل أن يراد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى، بل كانوا على الملة الإسلامية فظلموا أنفسهم بكتمهم لهذه الشهادة، بل بادعائهم لما هو مخالف لها وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذي لا أحد أظلم منه، ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب، وقيل المراد هنا ما كتموه من صفة محمد ﷺ.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد شديد وتهديد ليس عليه مزيد، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك أمرهم سدى ولا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع، والغافل الذي لا يفطن للأمور إهمالاً منه، مأخوذ من الأرض الغفل وهي التي لا علم بها ولا أثر عمارة، وقال الكسائي أرض غفل لم تمطر.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

وكرر قوله سبحانه ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ لتضمنها معنى التهديد والتخويف الذي هو المقصود في هذا المقام، وتلك إشارة إلى إبراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط، وقيل لأنه إذا اختلف مواطن الحجاج والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده، وقيل إنما كرره تنبيهاً لليهود ولمن يتكل على فضل الآباء وشرفهم أي لا تتكلوا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله، وكل إنسان يسئل يوم القيامة عن كسبه لا عن كسب غيره، وفيه وعظ وزجر وهذا كالأول.

﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمشركين والمنافقين سيقولون هذه المقالة قيل إن سيقول بمعنى قال وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته والاستمرار عليه، وقيل إن الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة، وإن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهويناً لصدمته وتخفيفاً لروعته، وكسراً لسورته، والسفهاء جمع سفيه وهو الكذاب البهات المتعمد خلاف ما يعلم، كذا قال بعض أهل اللغة، وقال في الكشاف هم خفاف الأحلام، ومثله في القاموس، وقد تقدم في تفسير قوله ﴿إلا من سفه نفسه﴾ ما ينبغي الرجوع إليه.

قيل نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لأنهم لا يرون النسخ، وقيل نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد ﷺ أمره واشتاق مولده، وقد توجه نحو

بلدكم، فلعله يرجع إلى دينكم، وقيل نزلت في المنافقين وإنما قالوا ذلك استهزاء بالاسلام، وقيل يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود، ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم إذ لا فائدة في التخصيص، ولأن الأعداء يبالغون في الطعن والقدح فإذا وجدوا مقالاً قالوا، ومجالاً جالوا، والإتيان بالسين الدالة على الاستقبال من الإخبار بالغيب وعليه أكثر المفسرين وحكمته أنهم كما قالوا ذلك في الماضي منهم أيضاً من يقوله في المستقبل كما قال البيضاوي تبعاً للكشاف.

﴿ما ولّاهم﴾ أي ما صرفهم ﴿عن قبلتهم﴾ وهي بيت المقدس ﴿التي كانوا عليها﴾ أي ثابتين مستمرين على التوجه إليها ومراعاتها واعتقاد حقيتها، والقبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان، وإنما سميت قبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله، ولما قال السفهاء ذلك رد الله عليهم بقوله ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ فله أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام أمره أي امتثاله لا بخصوص المكان، وتخصيص هاتين الجهتين بالذكر لمزيد ظهورهما حيث كان أحدهما مطالع الأنوار والإصباح، والآخر مغربها، ولكثرة توجه الناس إليهما لتحقيق الأوقات لتحصيل المقاصد والمهمات ذكره الكرخي ﴿يهدي من يشاء﴾ من عباده اشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي ﷺ ولأهل مِلَّتِهِ ﴿إلى صراط مستقيم﴾ يعني إلى جهة الكعبة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام.

وقد أخرج البخاري ومسلم(١) وغيرهما عن البراء أن النبي ﷺ «كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأن أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على

(١) احمد بن حنبل ٢٨٢/٤ ـ البخاري كتاب الايمان الباب ٢٠.

أهل المسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل الكعبة فداروا قبل البيت كما هم، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولّى وجهه قِبَلَ البيت أنكروا ذلك وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع ايمانكم﴾ الآية» وله طرق أخر وألفاظ متقاربة.

وعن ابن عباس قال أن أول ما نسخ في القرآن القبلة وعنه أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما تحول إلى المدينة ستة عشر شهرا ثم صرفه الله الى الكعبة[1]، وفي الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدم، وكذلك وردت أحاديث في الوقت الذي نزل فيه استقبال القبلة وفي كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك، وقد كانوا في الصلاة فلا نطول بذكرها، فيه الرد على من أنكر النسخ ودلالة على جواز نسخ السنة بالقرآن لأن استقبال بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة الفعلية لا بالقرآن.

---

(١) وروي أنّ أوّل من صلّى إلى الكعبة حين صُرفت القِبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المُعَلَّى؛ وذلك أنه كان مجتازاً على المسجد فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بتحويل القبلة على المنبر وهو يقرأ هذه الآية: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ» حتى فرغ من الآية؛ فقلت لصاحبي: تعالَ نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أوّلَ مَن صلّى فتوارَيْنَا نَعَماً فصلّيناهما؛ ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بالناس الظهر يومئذ. قال أبو عمر: ليس لأبي سعيد بن المُعَلَّى غير هذا الحديث، وحديث: «كنت أصلّي» في فضل الفاتحة؛ خرّجه البخاري.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وكذلك﴾ أي كما أن الكعبة وسط الأرض كذلك ﴿جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي عدولاً خياراً، والوسط الخيار والعدل، والآية محتملة للأمرين، وقد ثبت عن النبي ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل، رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد مرفوعاً فوجب الرجوع إلى ذلك، ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً أي هذه الامة لم تغل غلو النصارى في عيسى، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم، ويقال فلان أوسط قومه وواسطتهم ووسطهم أي خيارهم، والآية دلت على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم أي اختلت قاله الكرخي، وفيه دلالة على تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم.

﴿لتكونوا﴾ اللام لام كي فتفيد العلية أو هي لام الصيرورة ﴿شهداء على الناس﴾ يعني يوم القيامة أي تشهدون للأنبياء على أممهم انهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم، وقالت طائفة معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت، وقيل المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ أي على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم، ومثله قوله تعالى ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وقيل عليكم بمعنى لكم أي يشهد لكم بالإيمان، وقيل معناه يشهد عليكم بالتبلغ لكم، قال في الكشاف: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى ﴿والله على كل

شيء شهيد﴾ ﴿وكنت أنت الرقيب عليهم﴾ ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾، انتهى.

وانما أخر لفظ (على) في شهادة الأمم على الناس وقدمها في شهادة الرسول عليهم لان الغرض كما قال صاحب الكشاف في الأول اثبات شهادتهم على الامم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم، وقيل أن شهيداً أشبه بالفواصل والمقاطع من عليكم فكان قوله ﴿شهيداً﴾ تمام الجملة ومقطعها دون عليكم، وهذا الوجه يرد على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المفعول يشعر بالاختصاص.

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم[1] عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته، فذلك قوله يعني هذه الآية فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبي ﷺ قال «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه» وأخرج البخاري ومسلم[2] وغيرهما عن أنس قال مروا بجنازة فأثنى عليها خيرا فقال النبي ﷺ «وجبت» ثلاثاً، ومروا بجنازة فأثنى عليها شراً فقال النبي ﷺ «وجبت» ثلاثاً فسأله عمر فقال من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض» ثلاثاً. زاد الحكيم الترمذي ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية. وفي الباب أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة عند أهل الصحاح

(١) احمد ٣/٣٢.

(٢) مسلم /٩٤٩. البخاري /٧٢٣.

والسنن وغيرهم.

﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ المراد بهذه القبلة هي بيت المقدس، ويؤيد هذا قوله ﴿كنت عليها﴾ إذ كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة، وقيل المراد الكعبة أي القبلة التي أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس ويكون كنت بمعنى الحال، وقيل المراد بذلك القبلة التي كان عليها قبل استقبال بيت المقدس، فإنه كان يستقبل في مكة الكعبة ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفاً لليهود ثم صرف إلى الكعبة، وفيه أعاريب خمسة أحسنها ما ذكرناه.

﴿إلا لنعلم﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل ﴿من يتبع الرسول﴾ في التوجه إلى ما أمر به من القبلة أو الدين، والالتفات إلى الغيبة مع إيراده صلى الله عليه وآله وسلم بعنوان الرسالة للاشعار بعلة الاتباع ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾ أي يرجع إلى الكفر، وقد ارتد لذلك جماعة، والمعنى ما جعلناها إلا لنبتليهم يعني من يسلم لأمره ممن يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد، قال ابن عباس: لنميز أهل اليقين من أهل الشك قيل المراد العلم هنا الرؤية، وقيل ليعلم النبي وقيل المراد لنعلم ذلك موجوداً حاصلاً، وهكذا ما ورد معللاً بعلم الله سبحانه لا بد أن يؤول بمثل هذا كقوله ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾.

﴿وإن كانت لكبيرة﴾ أي ما كانت إلا كبيرة كما قاله الفراء، والضمير في كانت راجع إلى ما يدل عليه قوله ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ من التحويلة والتولية أو الجعلة أو الردة ذكر معنى ذلك الأخفش، ولا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة أي وإن كانت القبلة المتصفة بأنك كنت عليها لكبيرة أي تحويلها على أهل الشرك والريب، قاله ابن عباس.

﴿إلا على الذين هدى الله﴾ أي هداهم للإيمان فانشرحت صدورهم لتصديقك وقبلت ما جئت به عقولهم، وهذا الاستثناء مفرغ لأن ما قبله في قوة النفي أي أنها لا تخف ولا تسهل إلا على أهل الهدى، وقيل استثناء من مستثنى منه محذوف أي وإن كانت لكبيرة على الناس إلا على الذين، وقيل يحتمل كلا الوجهين والأول أولى، وعن ابن جريج قال: بلغني أن ناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا.

﴿وما كان الله ليضيع ايمانكم﴾ وهذه اللام تسمى لام الجحود عند البصريين وخبر كان محذوف أي ما كان الله مريداً لإضاعة ايمانكم، والكوفيون لا يقدرون شيئاً وان اللام عندهم للتأكيد وهكذا القول فيما أشبه هذا التركيب مما ورد في القرآن وغيره نحو. ﴿وما كان الله ليطلعكم، وما كان الله ليذر﴾ قال القرطبي: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس ثم قال: فسمى الصلاة إيماناً لاجتماعها على نية وقول وعمل، وقيل المراد ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم، والأول يتعين القول به والمصير إليه لما أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبراني والحكم وصححه ابن عباس قال: لما وجه رسول الله ﷺ إلى القبلة قالوا يا رسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل. ﴿وما كان الله﴾ الآية وفي الباب أحاديث كثيرة وآثار عن السلف.

﴿إن الله بالناس﴾ تعليل لما قبله ﴿لرؤوف رحيم﴾ الرؤوف كثير الرأفة وهي أشد من الرحمة وأكثر منها والمعنى متقارب وقدم الأبلغ للفاصلة.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿قد نرى تقلب وجهك﴾ تصرفه ﴿في﴾ جهة ﴿السماء﴾ قال القرطبي في تفسيره: قال العلماء هذه الآية متقدمة في النزول على قوله: ﴿سيقول السفهاء﴾ ومعنى ﴿قد﴾ تكثير الرؤية كما قاله صاحب الكشاف، وقيل للتحقيق، والمعنى تحول وجهك إلى السماء قاله قطرب، وقال الزجاج: تقلب عينيك في النظر إلى السماء والمعنى متقارب، والمعنى مطلعاً إلى الوحي ومتشوقاً للأمر باستقبال الكعبة، وكان يود ذلك لأنها قبلة إبراهيم، ولأنها أدعى إلى إسلام العرب.

﴿فلنولينك﴾ هو إما من الولاية أي فلنعطينك ذلك أو من التولي أي فلنجعلنك متولياً إلى جهتها، وهذه بشارة من الله له صلى الله عليه وآله وسلم بما يحب، والفاء هنا للتسبب وقيل المعنى نحولنك ﴿قبلة ترضاها﴾ قاله ابن عمر: أي قبلة إبراهيم نحو الميزاب، وهذا أولى لقوله ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ المراد بالشطر هنا الناحية والجهة ويرد بمعنى البعض مطلقاً، ويكون بمعنى النصف في الشيء، وبمعنى الجهة والنحو، ويقال شطر أي بعد ومنه الشطر وهو الشاب البعيد من الجيران الغائب عن منزله والشطير البعيد، ومنه منزل شطير وشطر إليه أي أقبل، قال الراغب: والشاطر أيضاً من يتباعد من الحق.

ولا خلاف أن المراد بشطر المسجد هنا الكعبة، وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعاين وعلى أن غير المعاين يستقبل الناحية، ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به، وعن البراء شطر المسجد قبله، وعن ابن عباس قال: نحوه وقال أبو العالية: تلقاءه، وقال ابن عباس: البيت كله قبلة وقبلة البيت الباب، وأخرج البيهقي عنه مرفوعاً قال:

البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض مشارقها ومغاربها من أمتي.

وقد أخرج ابن ماجة عن البراء قال صلينا مع رسول الله صلى عليه وآله وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه في السماء وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة فصعد جبريل فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله يعني الآية التي قبل هذه .

واختلف في وقت تحويل القبلة فقيل كان في يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وعليه الأكثر وقيل كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهراً وقيل كان لستة عشر شهراً وقيل لثلاثة عشر شهراً، وقيل في جمادى، وقيل في نصف شعبان، وقيل نزلت ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين، ووصل الخبر إلى أهل قباء في صلاة الصبح.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي عمر[1] قال بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، وظاهر حديث البراء في البخاري أنها كانت صلاة العصر، ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر.

---

(١) البخاري /باب القبلة ـ ١٠.

﴿وحيث ما كنتم﴾ أي من بر، أو بحر، مشرق أو مغرب وهذا خطاب للأمة ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي نحو البيت وتلقاءه، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما بين المشرق والمغرب قبلة،(١) أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح قيل أراد بالمشرق مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف في أطول يوم من السنة، فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلاً للقبلة، وهذا في حق أهل المشرق لأن المشرق الشتوي جنوبي متباعد عن خط الاستواء بمقدار الميل، والمغرب الصيفي شمالي متباعد عن خط الاستواء، والذي بينهما فقوسها مكة، والفرض لمن بمكة في القبلة اصابة عين الكعبة، ولمن بعد من مكة اصابة الجهة ويعرف ذلك بدلائل القبلة، وليس هذا موضع ذكرها، وهذا أحد الأصول الدالة على تجويز الاجتهاد، وفيه إيجاب استقبال الكعبة في كل صلاة فرضاً كانت أو نفلاً في كل مكان حضراً أو سفراً، وهو مخصوص بالآية المتقدمة في نافلة السفر على الراحلة وبالآية الآتية في حال المسايفة.

﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ قال السدي: هم اليهود خاصة والكتاب التوراة وقال غيره: أحبار اليهود وعلماء النصارى لعموم اللفظ، والكتاب التوراة والإنجيل ﴿ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ الضمير في ﴿أنه﴾ راجع إلى ما يدل عليه الكلام من التحول إلى جهة الكعبة، وعلم أهل الكتاب بذلك إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم، أو وجدوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي مستقبل الكعبة أو لأنهم قد علموا من كتبهم أو أنبيائهم أن النسخ سيكون في هذه الشريعة، فيكون ذلك موجباً عليهم الدخول في الإسلام ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل راجع إلى الشطر، وقيل إلى النبي ﷺ ويكون على هذا إلتفاتاً من خطابه بقوله ﴿فلنولينك﴾ إلى الغيبة، والأول أولى ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ قال السدي: أنزل ذلك في اليهود والمعنى ما أنا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود فأنا أجازيهم عليه في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٤٦٠.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿ولئن﴾ لام قسم وان شرطية ﴿أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿بكل آية﴾ أي بكل معجزة وبكل حجة وبرهان ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ أي الكعبة عناداً، وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترويح خاطره بأن هؤلاء لا يؤثر فيهم كل آية ولا يرجعون إلى الحق وإن جاءهم بكل برهان فضلاً عن برهان واحد، وذلك لأنهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم أو لشبهة طرأت عليهم حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقلعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمرداً وعناداً مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبداً.

والإخبار في قوله ﴿وما أنت بتابع﴾ يمكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، أي لا تتبع يا محمد ﴿قبلتهم﴾ ويمكن أن يكون على ظاهره دفعاً لأطماع أهل الكتاب، وقطعاً لما يرجونه من رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم إلى القبلة التي كان عليها، وهذه الجملة أبلغ من النفي من قوله ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ من وجوه منها كونها إسمية تكرر فيها الإسم مؤكداً نفيها بالباء ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ فيه إخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول ﷺ لما عندهم، هم مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته، قال في الكشاف: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس، انتهى.

قال الشهاب: ان كون قبلة النصارى مطلع الشمس صرحوا به لكن وقع في بعض كتب القصص أن قبلة عيسى كانت بيت المقدس.

وقال الحافظ ابن القيم في بدائع الفوائد: قبلة أهل الكتاب ليست بوحي وتوقيف من الله بل بمشورة واجتهاد منهم، أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق، وهم يقرون بأن قبلة المسيح قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبداً، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الأمر، وأما اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا عليه، فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ يعني مرادهم ورضاهم لو رجعت إلى قبلتهم ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ في أمر القبلة أو بأنهم مقيمون على باطل وعناد ﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾ فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له الجلود، وترجف منه الافئدة، وإذا كان الميل الى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء والملة الشريفة من أمر رسول الله ﷺ الذي هو سيد ولد آدم[1] يوجب

(١) ذكر مسلم في صحيحه: عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع مسلم /٢٢٧٨.
كذلك يؤيده حديث الشفاعة الذي رواه مسلم /١٩٤ والبخاري /١٥٧٩: وملخصه انا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنوا الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم... فيأتون آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ويأتون محمداً ويسألونه الشفاعة فيجاب يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الناس. انظر بتنصل لحديث مسلم /٢٢٧٨.

الظلم عليه وحاشاه أن يكون من الظالمين. فما ظنك بغيره من أمته، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم، إن كان لهم في الناس دولة أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل بل اتباع أهوية المبتدعة يشبه اتباع أهوية أهل الكتاب كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة.

وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، لأن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، ولا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شنعة إلى شنعة حتى يسلخوه من الدين ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم.

هذا إن كان في عداد المقصرين ومن جملة الجاهلين، وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل، كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم، وختم على قلبه وصار نقمة على عباده ومصيبة صبها الله على المقصرين لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى الحق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله فيكون عليه إثمه وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة نسأل الله اللطف والسلامة والهداية والكرامة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني علماء اليهود والنصارى، وقيل أراد به مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يعرفونه﴾ الضمير لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يسبق له ذكر لدلالة الكلام عليه وعدم اللبس، ذكره القاضي ويقال عليه بل سبق ذكره بلفظ الرسول مرتين أي يعرفون نبوته، روي ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم، وقيل يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة بالطريق التي قدمنا ذكرها، وبه قال جماعة من المفسرين، ورجح صاحب الكشاف الأول، وعندي أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذي سيقت له هذه الآية.

﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أنهم منهم لا يشكون فيه، ولا يشتبه عليهم كما لا تشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم، يعني يعرفون أن القبلة التي صرفتك إليها هي قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك، كما يعرفون أولادهم، قال ابن سلام: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي بمحمد أشد، وخص الأبناء دون البنات او الأولاد لأن الذكور أعرف وأشهر، وهم لصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق، والالتفات عن الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له صلى الله عليه وآله وسلم من حيث ذاته ونسبه بل من حيث كونه مسطوراً في الكتاب منعوتاً بالنعوت التي من جملتها أنه صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إلى القبلتين كأنه قيل: الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه، وبهذا تظهر جزالة النظم الكريم ذكره الكرخي.

﴿وإن فريقاً منهم﴾ أي من علماء أهل الكتاب ﴿ليكتمون الحق﴾ يعني أمر القبلة أو صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فكتم الحق هو عند أهل القول الأول نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، وعند أهل القول الثاني استقبال الكعبة ﴿وهم يعلمون﴾ أن كتمان الحق معصية.

﴿الحق﴾ يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله ﴿من ربك﴾ أي الحق هو الذي من ربك لا من غيره ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والامتراء الشك، نهاه الله سبحانه عن الشك في كون الحق من ربه أو في كون كتمانهم الحق مع علمهم، وعلى الأول هو تعريض للأمة أي لا يكن أحد من أمته من الممترين لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يشك في كون ذلك هو الحق من الله سبحانه وفيه كناية وهي أبلغ من التصريح.

﴿ولكل وجهة﴾ أي لكل دين وجهة ولكل أهل ملة قبلة، والوجهة، فعلة من المواجهة وفي معناها الجهة والوجه وهي اسم للمكان المتوجه إليه كالكعبة أو مصدر، والمراد القبلة أي أنهم لا يتبعون قبلتك وأنت لا تتبع قبلتهم ولكل وجهة إما بحق وإما بباطل.

والضمير في ﴿هو موليها﴾ راجع إلى لفظ ﴿كل﴾ والهاء هي المفعول الأول والثاني محذوف أي موليها وجهه في صلاته، والمعنى أن لكل صاحب ملة قبلة صاحب القبلة موليها وجهه، فقبلة المسلمين الكعبة، وقبلة اليهود بيت المقدس، وقبلة النصارى مطلع الشمس، أو لكل منكم يا أمة محمد قبلة يصلي إليها من شرق أو غرب أو جنوب أو شمال إذا كان الخطاب للمسلمين، ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه وإن لم يجر له ذكر اذ هو معلوم أن الله فاعل ذلك، والمعنى أن لكل صاحب ملة قبلة الله موليها إياه، وقيل لكل واحد من الناس قبلة وقرىء مولاها، والضمير لواحد، والمعنى الواحد مولاها أي

محول ومصروف إليها.

﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي فبادروا إلى ما أمركم الله به من استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق وإن كان ظاهر الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خيره كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات، قال ابن زيد: يعني الأعمال الصالحة والمراد من الاستباق إلى الاستقبال الاستباق إلى الصلاة في أول وقتها فإن الصلاة فيه أفضل، لأن ظاهر الأمر للوجوب، فإذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب، والآية دليل لمذهب الشافعي في أفضلية الصلاة في أول الوقت، والسبق الوصول إلى الشيء أولاً، وأصله التقدم في السير ثم تجوز به في كل ما تقدم، والخيرات واحدها خيرة بوزن فيعلة أو زنة فعلة كجفنة، وعلى كلا التقديرين فليستا للتفضيل.

﴿أينما تكونوا﴾ أي في أي جهة من الجهات المختلفة تكونوا ﴿يأت بكم الله﴾ للجزاء يوم القيامة فهو وعد لأهل الطاعة بالثواب ووعيد لأهل المعصية بالعقاب ويجمعكم ﴿جميعاً﴾ ويجعل صلاتكم في الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ومنه الإعادة بعد الموت والإثابة لأهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة(١).

---

(١) روى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مَثَلُ المُهجِّر إلى الصلاة كَمَثَل الذي يُهْدِي البَدَنَة ثم الذي على أَثَره كالذي يُهْدِي البقرة ثم الذي على أثره كالذي يُهدِي الكبش ثم الذي على أثره كالذي يُهْدِي الدّجاجة ثم الذي على أثره كالذي يُهْدِي البيضة». وروى الدارقُطْني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ أحدكم ليصلّي الصّلاة لوقتها وقد ترك من الوقت الأوّل ما هو خير له من أهله وماله». وأخرجه مالك.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ الظاهر أن «من» هنا ابتدائية، والأقرب أن تكون بمعنى «في» أي مكان سافرت ﴿وأنه﴾ أي التولي ﴿للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾ بالياء والتاء وتقدم مثله.

﴿ومن حيث خرجت﴾ أي من أي مكان خرجت للسفر ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ كرر سبحانه هذا تأكيداً لأمر استقبال الكعبة وللاهتمام به لأن موقع التحويل كان معتنى به في نفوسهم، وقيل وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة ومواطن الشبهة، فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج في صدورهم، وقيل أنه كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل: الأولى ابتغاء مرضاته، والثانية يجري العادة الإلٓهية أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة جهة يستقبل بها، والثالثة دفع حجج المخالفين فقرن بكل علة معلولها، وقيل أراد بالأول ول وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها، ثم قال: وحيثما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها فولوا وجوهكم شطره، ثم قال ﴿ومن حيث خرجت﴾ يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمراً بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواطن من نواحي الأرض.

﴿لئلا﴾ اللام لام كي وإن هي المصدرية ولا نافية ﴿يكون للناس عليكم حجة﴾ قيل أراد بالناس أهل الكتاب، وقيل هو على العموم، وقيل هم

قريش واليهود. والمعنى لا حجة لأحد عليكم في التولي إلى غيره أي لتنتفي مجادلتهم لكم من قول اليهود يجحد ديننا ويتبع قبلتنا. وقول المشركين يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني المعاندين من أهل الكتاب القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وقيل: هم مشركو العرب وحجتهم قولهم راجعت قبلتنا؛ وقيل: معناه لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة ولستم ترونها، وقال أبو عبيدة: إلا ههنا بمعنى الواو، وأبطل الزجاج هذا القول وقال إنه استثناء منقطع أي لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجون ومعناه إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له، كأن تقول ما لك عليّ حجة الا أن تظلمني أي ما لك علي حجة ولكنك تظلمني، وسمى ظلمه حجة لأن المحتج بها سماه حجة وان كانت داحضة.

ورجح ابن جرير الطبري أن الاستثناء متصل وقال: نفى الله أن تكون لأحد حجة على النبي ﷺ وأصحابه في استقبالهم الكعبة، والمعنى لا حجة لأحد عليكم الا الحجة الداحضة حيث قالوا ما ولاهم، وقالوا إن محمداً تحير في دينه وما توجه الى قبلتنا الا أنّا أهدى منه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث الا من عابد وثن أو يهودي أو منافق، قال: والحجة بمعنى المحاجة التي هي المخاصمة والمجادلة وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم، ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع كما قال الزجاج، قال القرطبي: وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب كأنه قال لكن الذين ظلموا في قولهم رجع محمد ﷺ الى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله.

﴿فلا تخشوهم﴾ أي لا تخافوا جدالهم في التولي اليها ومطاعنهم فإنها داحضة باطلة لا تضركم ﴿واخشوني﴾ أي احذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم به وفرضته عليكم ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ أي بهدايتي اياكم إلى قبلة ابراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية، وقيل تمام النعمة الموت على الإسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة، ولعل وعسى من الله واجب.

كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ التشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة في الرسالة، وقيل معنى الكلام على التقديم والتأخير أي فاذكروني كما أرسلنا، قاله الزجاج وقيل غير ذلك، والتعبير بصيغة التكلم الدالة على العظمة بعد التعبير بالصيغة التي لا دلالة لها عليها من قبيل التفنن وجرياً على سنن الكبراء، وفيكم خطاب لأهل مكة والعرب وكذا قوله منكم، وفي إرساله رسولاً منهم نعمة عظيمة عليهم لما فيه من الشرف لهم، ولأن المعروف من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير، فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبول قوله والانقياد له، والرسول هو محمد ﷺ، والآيات القرآن وذلك من أعظم النعم لأنه معجزة باقية على الدهر، والتزكية التطهير من دنس الشرك والذنوب، وقيل محاسن الأعمال ومكارم الأفعال، والحكمة هي السنة المطهرة والفقه في الدين.

﴿ويعلمكم﴾ من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية وقصص الأنبياء والخبر عن الحوادث المستقبلة ﴿ما لم تكونوا تعلمون﴾ ذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ وتستقلون بعلمه بعقولكم.

﴿فاذكروني أذكركم﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة قاله سعيد بن جبير، والمعنى اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة حكاه عنه القرطبي، وروى نحوه مرفوعاً، وقيل الذكر يكون باللسان وهو التسبيح والتحميد ونحو ذلك من الأذكار المأثورة، ويكون بالقلب، وهو التفكر في الدلائل الدالة على وحدانيته وبدائع خلقه ويكون بالجوارح وهو الاستغراق في الأعمال التي أمروا

بها مثل الصلاة وسائر الطاعات التي للجوارح فيها فعل، وقيل غير ذلك.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وان تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب الي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري ومسلم(١).

وأخرجا عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»(٢) وأخرجا عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر كمثل الحي والميت»(٣) وفي الباب أحاديث كثيرة.

﴿واشكروا لي﴾ يعني بالطاعة ما أنعمت به عليكم، قال الفراء: شكرتك وشكرت لك واحد، قال ابن عطية: ولي أفصح وأشهر مع الشكر، والشكر معرفة الإحسان والتحدث به، وأصله في اللغة الظهور وقد تقدم الكلام فيه، وقد ورد في فضل ذكر الله على الإطلاق وفضل الشكر أحاديث كثيرة كما أشرنا اليه. ﴿ولا تكفرون﴾ أي بجحد النعم وعصيان الأمر، والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب، فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفر، وقد تقدم الكلام فيه.

---

(١) مسلم /٢٦٧٥.

(٢) ومثل ذلك ما رواه ابن ماجة عن عبد الله بن بسر أن اعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن شرائع الاسلام قد كثرت عليّ فانبئني منها بشيء أتشبث به قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل.

(٣) ومنه حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سيروا هذا جمدان (جبل في طريق مكة) سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات مسلم /٢٦٧٦.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ لما فرغ سبحانه من ارشاد عباده إلى ذكره وشكره عقب ذلك بارشادهم إلى الاستعانة بالصبر عن المعاصي وحظوظ النفس، وبالصلاة التي هي عماد الدين ومعراج المؤمنين، فإن من جمع بين ذكر الله وشكره واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به، ودفع ما يرد عليه من المحن فقد هدي إلى الصواب، ووفق للخير، ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به، ومنهم من حمله على الجهاد ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع، والصبر حبس النفس على احتمال المكاره في ذات الله، وتوطينها على تحمل المشاق في العبادات وسائر الطاعات، وتجنب الجزع والمحظورات، والمعنى استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض وبالصلوات الخمس على تمحيص الذنوب، وخصها بالذكر لتكررها وعظمها لأنها أم العبادات ومناجاة رب الكائنات.

﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي بالعون والنصر وإجابة الدعوة، وهذه المعية التي أوضحها الله فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وان كانت كالجبال، وهذه المعية خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين، وأما المعية بالعلم والقدرة فهي عامة في حق كل أحد، والجملة تعليل لما قبلها من الاستعانة بالصبر خاصة كما قال أبو السعود أو بالصبر والصلاة كما قال الكرخي.

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء﴾ قيل نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وسماهم في الخازن بأسمائهم وكان الناس يقولون فيهم مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله هذه الآية، وقيل إن الكفار قالوا ان

الناس يقتلون أنفسهم ظلماً لمراضاة محمد ﷺ من غير فائدة فنزلت هذه الآية. وأخبر الله أن من قتل في سبيله فإنه حي، وإنما خص الشهداء لأنهم فضلوا على غيرهم بمزيد النعم، وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها، وغيرهم ينعمون بما دون ذلك.

﴿ولكن لا تشعرون﴾ بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر، بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر. وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ تصل أرواحهم إلى الجنان، فهم أحياء من هذه الجهة، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الروح من أجسادهم.

وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر للعصاة وأن المطيعين لله يصل إليهم ثوابهم وهم في قبورهم في البرزخ، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وقد وردت أحاديث في أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تأكل من ثمار الجنة[1]، فمنها عن كعب بن مالك مرفوعاً عند أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن ماجة وروي «أن أرواح الشهداء على صور طيور بيض» كما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي العالية.

والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا تخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٥٥٥.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ أي لنختبرنكم واللام جواب القسم، أي والله لنبلونكم يا أمة محمد ﷺ والبلاء أصله المحنة أي نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء أم لا، وليظهر الطائع من العاصي، والتنكير للتقليل أي بشيء قليل من هذه الأمور، فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة فكذا ما يصيب به معانديهم، وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به، وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة محمودة، والمراد بالخوف ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو أو غيره، وبالجوع المجاعة التي تحصل عند الجدب والقحط، وبنقص الأموال ما يحدث فيها بسبب الجوائح وما أوجبه الله فيها من الزكاة ونحوها.

عن رجاء بن حيوة قال: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا تمرة، وبنقص الأنفس بالموت والقتل في الجهاد، وبنقص الثمرات ما يصيبها من الآفات، وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها.

وقال الشافعي: في تفسير هذه الآية الخوف خوف الله والجوع صيام شهر رمضان ونقص الأموال إخراج الزكاة والصدقات ونقص الأنفس بالأمراض ونقص الثمرات موت الأولاد لأن الولد ثمرة القلب. وفي الحديث: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته»: اقبضتم ولد عبدي؟قالوا: نعم قال: أقبضتم ثمرة فؤاده! قالوا:نعم، قال:فماذا قال؟ قالوا: حمدك واسترجع، قال:ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» أخرجه الترمذي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً. وقال حديث حسن، ولكن اللفظ القرآني أوسع مما قال وأعم منه فلا يخصص

بشيء دون غيره ﴿وبشر الصابرين﴾ أمر لرسول الله ﷺ أو لكل من يقدر على التبشير، وقد تقدم معنى البشارة، والصبر أصله الحبس، والجملة عطف على ﴿ولنبلونكم﴾ عطف المضمون على المضمون أي الإبتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر قاله سعد التفتازاني.

﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ المصيبة واحدة المصايب وهي النكبة التي يتأذى بها الإنسان وإن صغرت ﴿قالوا﴾ أي باللسان والقلب لا باللسان فقط فإن التلفظ بذلك مع الجزع قبيح وسخط للقضاء وذلك أن يتصور ما خلق لأجله وأنه يرجع إلى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقى الله عليه أضعاف ما استرده منه فيهون عليه ويستسلم ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ في الآخرة فيجازينا. وصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة لأن ذلك تسليم ورضا. وفيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين وعصمة للممتحنين، فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث والنشور، والرجوع والتفويض إلى الله والرضا بكل ما نزل به من المصايب.

وفي الحديث «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه» وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ أعطيت أمتي شيئاً لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون ألا تسمع إلى قول يعقوب عند فقد يوسف يا أسفا على يوسف »، وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة. ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ الصلاة هنا المغفرة قاله ابن عباس، أو الثناء الحسن قاله الزجاج، وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد، وقال في الكشاف: الصلاة الرحمة والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله رأفة رحمة، رؤوف رحيم، والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة انتهى، وعبر عن المغفرة بلفظ الجمع للتنبيه على كثرتها وتنوعها، قاله البيضاوي وأبو السعود، وقيل المراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة وإنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع والتسليم.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿وأولئك هم المهتدون﴾ يعني إلى الاسترجاع، وقيل إلى الجنة، وقيل إلى الحق والصواب، وقال عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة، فالعدلان الصلاة والرحمة، والعلاوة الهداية، وقد وردت أحاديث كثيرة في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين ذكرها المفسرون لا نطيل بذكرها هنا فإنها معروفة في كتب الآثار.

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس الصلب وهو هنا علم، جبل من جبال مكة معروف، وكذلك المروة علم لجبل بمكة معروف، وأصلها في اللغة واحدة والمروى، وهي الحجارة الصغار التي فيها لين، وقيل التي فيها صلابة، وقيل يعم الجميع، وقيل إنها الحجارة البيض البراقة. وقيل إنها الحجارة السود، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة أي من أعلام مناسكه، والمراد بها مواضع العبادة التي أشعرها الله اعلاماً للناس من الموقف والمسعى والمنحر، ومنه إشعار الهدي أي إعلامه بغرز حديدة في سنامه، والأجود شعائر بالهمز لزيادة حرف المد وهو عكس معايش ومصايب.

﴿فمن حج البيت﴾ هو في اللغة القصد، وفي الشرع الإتيان بمناسك الحج التي شرعها الله سبحانه ﴿أو اعتمر﴾ العمرة في اللغة الزيارة، وفي الشرع الإتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة فالحج والعمرة قصد وزيارة

﴿فلا جناح﴾ أي فلا إثم ﴿عليه أن يطوف﴾ أي يدور ﴿بهما﴾ ويسعى بينهما والجناح أصله الجنوح وهو الميل، ومنه الجوانح لاعوجاجها، ورفع الجناح يدل على عدم الوجوب، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري، وحكى الزمخشري في الكشاف عن أبي حنيفة أنه يقول: هو واجب وليس بركن، وعلى تاركه دم وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين، وعن أحمد أنه سنة، وأجمعوا على أنه مشروع فيهما، وإنما الخلاف في وجوبه.

ومما يقوي دلالة هذه الآية على عدم الوجوب قوله تعالى في آخر الآية ﴿ومن تطوع خيراً﴾ أي زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف أو تطوع بالسعي أو فعل طاعة فرضاً كان أو نفلاً ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ مثيب على الطاعة لا يخفى عليه، وذهب الجمهور إلى أن السعي واجب ونسك من جملة المناسك وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة، وبه قال الحسن، وإليه ذهب الشافعي ومالك، واستدلوا بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها أرأيت قول الله ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة، لطاغية كانوا يعبدونها، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله إن الصفا والمروة الآية، قالت عائشة ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما .

وأخرج مسلم وغيره عنها أنها قالت لعمري ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته، لأن الله قال ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ فقال إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا، وأخرج أحمد في مسنده والشافعي وابن سعد وابن

المنذر وابن قانع والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تجزأة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور بهما إزاره، وهو يقول «اسعوا فإن الله عز وجل كتب عليكم السعي» ويؤيد ذلك حديث «خذوا عني مناسككم»[1] واختار الشوكاني في جميع مؤلفاته الوجوب وهو الراجح.

﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ فيه إخبار بأن الذي يكتم ذلك ملعون، وفيه دليل على جواز لعن الكافر بعد موته خلافاً لمن قال إنه لا فائدة له، واختلفوا من المراد بذلك فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ، وقد روي عن جماعة من السلف أن الآية نزلت في أهل الكتاب لكتمهم نبوة نبينا ﷺ وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة، وقيل: كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه وهو الراجح لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية لكل من كتم الحق.

وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقادر قدره، فإن من لعنه الله ولعنه كل من يأتي منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران إلى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها.

وفي قوله ﴿من البينات والهدى﴾ دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة: حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم، أخرجه البخاري.

والضمير في ﴿بيناه﴾ راجع إلى ﴿ما أنزلنا﴾ والكتاب إسم جنس وتعريفه

(١) وقد كثرت الكتب التي تتكلم عن كيفية جمع النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ما ألفه الشيخ محمد ناصر الدين الالباني.

يفيد شموله لجميع الكتب، وقيل المراد به التوراة، واللعن: الإبعاد والطرد، والمراد بقوله ﴿اللاعنون﴾ الملائكة والمؤمنون قاله الزجاج وغيره ورجحه ابن عطية، وقيل كل من يتأتى منه اللعن، فيدخل في ذلك الجن والإنس، وقال ابن عباس: جميع الخلائق إلا الجن والإنس، وقيل هم الإنس والجن، وقيل ما تلاعن إثنان من المسلمين إلا رجعت إلى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام التوراة والإنجيل، وقيل هم الحشرات والبهائم.

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء ابن عازب قال: كنا في جنازة مع النبي ﷺ فقال: «إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته» فذلك قول الله تعالى: ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ يعني دواب الأرض، وعن مجاهد إذا أجدبت البهائم دعت على فجار بني آدم، وعنه أن دواب الأرض والعقارب والخنافس يقولون إنما منعنا القطر بذنوبهم فيلعنونهم، وعن أبي جعفر يلعنهم كل شيء حتى الخنفساء.

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن كتم العلم والوعيد لفاعله.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئاً أبداً ﴿إن الذين يكتمون﴾ الآية، وقوله ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ إلى آخرها.

وهل إظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين، فيه خلاف، والأصح أنه إذا أظهرها البعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول إليه لم يبق مكتوماً، وقيل متى سئل العالم عن شيء يعلمه من أمر الدين يجب عليه إظهاره وإلا فلا، وفي الآية دليل على وجوب قبول قول الواحد لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾
وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا﴾ فيه استثناء التائبين الراجعين من الكفر إلى الإسلام والمصلحين لما فسد من أعمالهم، والمبينين للناس ما بينه الله في كتبه وعلى ألسن رسله، قال قتادة: أصلحوا ما بينهم وبين الله وبينوا الذين جاءهم من الله ولم يكتموه ولم يجحدونه ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ يعني أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم، قاله سعيد بن جبير ﴿وأنا التواب﴾ أي المتجاوز عن عبادي الرجاع بقلوبهم المنصرفة عني إلى ﴿الرحيم﴾ بهم بعد إقبالهم علي، والجملة اعتراض تذييل محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التكلم للتفنن في النظم الكريم، مع ما فيه من التلويح والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ في فعله تعالى السابق وهو اللعن واللاحق وهو الرحمة.

﴿إن الذين كفروا﴾ بالكتمان وغيره ﴿وماتوا وهم كفار﴾ جملة حالية وإثبات الواو فيها أفصح خلافاً لمن جعل حذفها شاذاً وهو الزمخشري تبعاً للفراء، وقد استدل بذلك على أنه لا يجوز لعن كافر معين لأن حاله عند الوفاة لا يعلم ولا ينافي ذلك ما ثبت عنه ﷺ من لعنه لقوم من الكفار بأعيانهم لأنه يعلم بالوحي ما لا نعلم، وقيل يجوز لعنه عملاً بظاهر الحال كما يجوز قتاله، واستدل بقوله ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾ على جواز لعن الكفار على العموم قال القرطبي لا خلاف في ذلك قال وليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره، سواء كان الكافر عاقلاً أو مجنوناً، وقال قوم من السلف: لا فائدة في لعن من جن أو مات منهم لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر.

قال: ويدل على هذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله والملائكة والناس بلعنهم لا على الأمر به.

قال ابن العربي: إن لعن العاصي المعين لا يجوز باتفاق لما روي أن النبي ﷺ أتى بشارب خمر مراراً فقال بعض من حضر «لعنه الله ما أكثر ما يشربه» فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم»[١] والحديث في الصحيحين ﴿والناس أجمعين﴾ قيل هذا يوم القيامة، وأما في الدنيا ففي الناس المسلم والكافر، ومن يعلم بالعاصي ومعصيته ومن لا يعلم فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس، وقيل في الدنيا، والمراد يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصيته منهم، عن أبي العالية قال: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم يلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون، وقال قتادة: يعني بالناس أجمعين المؤمنين.

﴿خالدين فيها﴾ أي في النار، وقيل في اللعنة وإنما أضمرت لعظم شأنها ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ فيعتذرون قاله أبو العالية، وقال ابن عباس: لا يؤخرون، والإنظار والإمهال، وقيل معناه لا ينظر الله إليهم فهو من النظر، وقيل هو من الانتظار أي لا ينتظرون ليعتذروا.

﴿وإلهكم إله واحد﴾ أي لا شريك له في الألوهية ولا نظير له في الربوبية، والتوحيد هو نفي الشريك والقسيم والشبيه، فالله تعالى واحد في أفعاله لا شريك له يشاركه في مصنوعاته، وواحد في ذاته لا قسيم له. وواحد في صفاته لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لا إله إلا هو﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره من الألوهية وإثباتها له ﴿الرحمن الرحيم﴾ وقد تقدم تفسيرهما، وفيه الإرشاد إلى التوحيد وقطع العلائق، والإشارة إلى أن أول ما يجب بيانه ويحرم كتمانه هو أمر التوحيد.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وصححه ابن

(١) صحيح الجامع الصغير ٧٣١٩.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

ماجة عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ و﴿الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وأخرج الديلمي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أشد على مردة الجن من هؤلاء الآيات التي في سورة البقرة ﴿وإلهكم إله واحد﴾» الآيتين.

﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله ﴿وإلهكم إله واحد﴾ عقب ذلك بالدليل الدال عليه وهو هذه الأمور الثمانية التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أخذ من الآلهة التي اثبتها الكفار أن يأتي بشيء منها أو يقتدر عليه أو على بعضه، وهي خلق السموات، وتعاقب الليل والنهار، وجري الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبث الدواب فيها بسببه، وتصريف الرياح، وتسخير السحاب، فإن من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها انبهر له وضاق ذهنه عن تصور حقيقته، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه، وإنما جمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووحد الأرض لأنها كلها من جنس واحد وهو التراب، والآية في السماء سمكها وارتفاعها بغير عمد، ولا علاقة ما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض مدها وبسطها على الماء وما يرى فيها من الجبال والبحار، والمعادن والجواهر، والأنهار والأشجار والثمار والنبات.

﴿واختلاف الليل والنهار﴾ تعاقبهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر، وإضاءة أحدهما وإظلام الآخر، وقيل في الطول والقصر والزيادة والنقصان قال ابن الخطيب: وعندي فيه وجه ثالث هو أنهما كما يختلفان في الأزمنة فهما يختلفان في الأمكنة فإن من يقول إن الأرض كرة فكل ساعة عينتها فتلك الساعة في موضع من الأرض صبح، وفي موضع آخر ظهر، وفي آخر عصر، وفي آخر مغرب. وفي آخر عشاء. وهلم جرّاً. هذا اذا اعتبرنا البلاد المختلفة في الطول. أما البلاد المختلفة في العرض فكل بلد يكون عرضه للشمال أكثر كانت أيامه الصيفية أطول وأيامه الشتوية بالضد من ذلك، فهذه الأحوال المختلفة في الأيام والليالي بحسب اختلاف أطوال البلاد وعروضها أمر عجيب قاله الكرخي.

وانما قدم الليل على النهار لأن الظلمة أقدم. قال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ وهذا أصح القولين، وقيل النور سابق الظلمة، ويبنى على هذا الخلاف فائدة وهي ان الليلة هل هي تابعة لليوم قبلها أو لليوم بعدها، فعلى القول الصحيح تكون الليلة لليوم بعدها فيكون اليوم تابعاً لها، وعلى القول الثاني تكون لليوم قبلها فتكون الليلة تابعة له، فيوم عرفة على القول الأول مستثنى من الأصل فإنه تابع لليلة بعده، وعلى الثاني جاء على الأصل.

والآية فيهما أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار وطلب النوم والراحة يكون بالليل، فاختلافهما إنما هو لتحصيل مصالح العباد، والنهار ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقال النضر ابن شميل: أول النهار طلوع الشمس ولا يعد ما قبل ذلك من النهار، وكذا قال ثعلب والزجاج، وقسم ابن الانباري الزمان إلى ثلاثة أقسام: قسماً جعله ليلاً محضاً وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقسماً جعله نهاراً محضاً وهو من طلوع الشمس إلى غروبها، وقسماً جعله مشتركاً بين النهار والليل وهو

ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادىء ضوء النهار، هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة، وأما في الشرع فالكلام في ذلك معروف.

﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ وهي السفن وإفراده وجمعه بلفظ واحد وهو هذا ويذكر ويؤنث، قال تعالى ﴿في الفلك المشحون﴾ و﴿الفلك التي تجري في البحر﴾ وقال ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ وقيل واحده فلك بالتحريك مثل أسد وأسد، والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهي موقرة بالأثقال والرجال، فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر فلا ينجي منه إلا الله تعالى.

﴿بما ينفع الناس﴾ يعني ركوبها، والحمل عليها في التجارات لطلب الأرباح، والآية في ذلك أن الله لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض في منافعهم، وأيضاً فإن الله خص كل قطر من أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل، فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن وخوف البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع لأنه يربح، والمحمول إليه ينتفع بما حمل اليه.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ أي المطر الذي به حياة العالم وإخراج النبات والأرزاق ﴿فأحيا به الأرض﴾ أي أظهر نضارتها وحسنها ﴿بعد موتها﴾ أي بعد يبسها وجدبها، سماه موتاً مجازاً، والآية في هذين الله جعله سبباً لإحياء الجميع من حيوان ونبات ونزوله عند وقت الحاجة اليه بمقدار المنفعة وعند الاستسقاء والدعاء، وإنزاله بمكان دون مكان ﴿وبث فيها﴾ أي في الأرض ﴿من كل دابة﴾ قال ابن عباس: يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم مع ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة، والطبائع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان، والبث النشر، والظاهر أن قوله ﴿بث﴾ معطوف على

قوله فأحيا لأنهما أمران متسببان عن إنزال المطر، وقال في الكشاف: ان الظاهر عطفه على أنزل، وقال أبو حيان: لا يصح عطفه على أنزل ولا على أحيا، والصواب أنه على حذف الموصوف أي وما بث، وفيه زيادة فائدة وهو جعله آية مستقلة وحذف الموصول شائع في كلام العرب انتهى.

﴿وتصريف الرياح﴾ أي إرسالها عقيماً وملقحة وصراً ونصراً وهلاكاً وحارة وباردة ولينة وعاصفة، وقيل تصريفها في مهابها جنوباً وشمالاً ودبوراً وقبولاً وصباً ونكباء، وهي التي تأتي بين مهبي ريحين، وقيل تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها والصغار كذلك، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر، وعن أبيّ بن كعب: كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة وكل شيء من الريح فهي عذاب، وقد ورد في النهي عن سب الريح وأوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالآية، والآية في الريح انه جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الشجر والصخر، ويخرب البنيان العظيم، وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض.

﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي الغيم المذلل، سمي سحاباً لانسحابه في الهواء وسحبت ذيلي سحباً وتسحب فلان على فلان اجترأ، والمسخر المذلل، وسخره بعثه من مكان إلى آخر، وقيل تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده، وفيه آيات أخر

ففي هذه الأنواع الثمانية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار وأنه الواحد في ملكه فلا شريك له ولا نظير، وهو المراد بقوله وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي دلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره ويتفكر بعقله، وإنما جمع آيات لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً مدبراً مختاراً.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ إظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف، وإبانة كمال قبح ما ارتكبوه.

ولما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته، أخبر أن مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه وجليل قدرته وتفرده بالخلق، قد وجد في الناس من يتخذ معه سبحانه نداً يعبده من الأصنام كذا قيل، وقد تقدم تفسير الأنداد مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد، بل أحبوها حباً عظيماً، وأفرطوا في ذلك إفراطاً بالغاً حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكناً في صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه، ويجوز أن يكون المراد كحبهم لله أي عبدة الأوثان، قاله الزجاج وابن كيسان، ويجوز أن يكون مبنياً للمفعول ومعناه كما يحب الله ويعظم، والأول أولى لقوله:

﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوي أي أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد، لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لا يخصون أصنامهم بذلك بل يشركون الله معهم ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله، ويمكن أن يجعل هذه الجملة دليلاً على الثاني لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حباً لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله، وقيل المراد بالأنداد هنا الرؤساء والكبراء أي يطيعونهم في معاصي الله، ويقوى هذا الضمير في قوله ﴿يحبونهم﴾ فإنه لمن يعقل، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا﴾ الآية،

والحب نقيض البغض والمحبة والإرادة وقيل في معنى الآية غير ذلك وإيثار إظهارالاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم الحب والاشعار بعلته.

﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾ قرأ أهل مكة بالياء وأهل الشام بالفوقية، والمعنى على الأولى لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ قاله أبو عبيدة، قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير انتهى، وعلى هذا فالرؤية هي البصرية لا القلبية، وروي عن محمد بن يزيد قال: هذا التفسير الذي جاء به أبو عبيدة بعيد، وليست عبارته فيه بالجيدة لأنه يقدر ولو يرى الذين ظلموا العذاب، فكأنه يجعله مشكوكاً فيه وقد أوجبه الله تعالى، ولكن التقدير وهو الأحسن ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله، ويرى بمعنى يعلم أي لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه، قال: وجواب لو محذوف أي لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة كما حذف في قوله ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ﴿ولوترى إذ وقفوا على ربهم﴾.

ومن قرأ بالفوقية فالتقدير ولو ترى يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعاً، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم علم ذلك؛ ولكن خوطب بهذا الخطاب؛ والمراد به أمته، وقيل ﴿أن﴾ في موضع نصب مفعول لأجله أي لأن القوة لله، ودخلت إذ وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريباً للأمر وتصحيحاً لوقوعه، وهو مما يتكرر في القرآن كثيراً، وجميع في الأصل فعيل من الجمع وكأنه اسم جمع فلذلك يتبع تارة بالمفرد، قال تعالى: ﴿نحن جمع منتصر﴾ وتارة بالجمع قال تعالى ﴿جميع لدينا محضرون﴾ وينتصب حالاً ويؤكد بمعنى كل، ويدل على الشمول كدلالة كل، ولا دلالة له على الاجتماع في الزمان.

﴿وأن الله شديد العذاب﴾ عطف على ما قبله وفائدته تهويل الخطب وتفظيع الأمر، فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب﴾ أي تنزه وتباعد معناه أن السادة والرؤساء من مشركي الإنس تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر ورأوا يعني التابعين والمتبوعين العذاب، قيل عند المعاينة في الدنيا، وقيل عند العرض والمساءلة في الآخرة، ويمكن أن يقال فيهما جميعاً إذ لا مانع من ذلك، وقيل هم الشياطين يتبرؤون من الإنس وبه قال قتادة، والقول هو الأول، وقد احتج جمع من أهل العلم بهذه الآية على ذم التقليد وهو مذكور في موطنه ﴿وتقطعت بهم﴾ أي عنهم ﴿الأسباب﴾ بسبب كفرهم جمع سبب، وأصله في اللغة الحبل الذي يشد به الشيء ويجذب به، ثم جعل كل ما جر شيئاً سبباً فهي مجاز هنا، والمراد بها الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحمة وغيرها، وقيل هي الأعمال، وقال ابن عباس: هي المنازل، وقال أيضاً: هي الأرحام وقال المودة، وقيل العهود والحلف.

﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة﴾ أي رجعة إلى الدنيا، الكرة الرجعة والعودة إلى حال قد كانت، و«لو» هنا بمعنى التمني كأنه قيل ليت لنا كرة، ولهذا وقعت الفاء في الجواب، والمعنى أن الأتباع قالوا لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً ﴿فنتبرأ منهم﴾ أي المتبوعين ﴿كما تبرؤا منا﴾ اليوم وهو جواب التمني ﴿كذلك﴾ أي كما أراهم الله العذاب ﴿يريهم الله أعمالهم﴾ السيئة، وهذه الرؤية إن كانت البصرية فقوله ﴿حسرات عليهم﴾ منتصب على الحال،

وإن كانت القلبية فهو المفعول الثالث، والمعنى أن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها فتكون عليهم حسرات وندامات أو يريهم الله الأعمال الصالحة التي أوجبها عليهم فتركوها فيكون ذلك حسرة عليهم، والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ فيه دليل على خلود الكفار في النار، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص، وجعله الزمخشري للتقوية لغرض له يرجع إلى المذهب والبحث في هذا يطول، عن ثابت بن معبد قال: ما زال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت هذه الآية.

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ قيل إنها نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرموه على أنفسهم من الحرث والأنعام، حكاه القرطبي في تفسيره، وهذا هو المشهور بخلاف ما جرى عليه القاضي من أنها نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس فإنه مرجوح، قاله الكرخي، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسمي الحلال حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه، والطيب هنا هو المستلذ كما قاله الشافعي وغيره، وقال مالك وغيره: هو الحلال فيكون تأكيداً لقوله حلالاً.

«ومن» في مما للتبعيض للقطع بأن في الأرض ما هو حرام كالحجارة لا يؤكل أصلاً، وليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال حلالاً والأمر مستعمل في كل من الوجوب والندب والإباحة، الأول إذا كان لقيام البنية، والثاني كالأكل مع الضيف، والثالث كغير ما ذكر، وقيل معنى حلالاً، مأذوناً فيه شرعاً، والطيب الحلال وإن لم يستلذ كالأدوية، وفي هذه الآية دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص أو ظاهر من الأعيان الموجودة في الأرض فأصله الحل حتى يرد دليل يقتضي تحريمه وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾.

﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ جمع خطوة بالفتح والضم وهي بالفتح المرة وبالضمة لما بين القدمين، وقيل إنهما لغتان وقرىء خطؤات بضم الخاء والطاء والهمز على الواو، قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة من الخطأ لا من الخطو، والمعنى على قراءة الجمهور لا تقتفوا أثر الشيطان وطرقه وتزيينه وعمله، وكل ما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان، وقيل هي النذور في المعاصي، وقيل المحقرات من الذنوب. والأولى التعميم وعدم التخصيص بفرد أو نوع، قال ابن عباس: ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان، وقال عكرمة: هي نزعات الشيطان، وعن سعيد بن جبير قال: هي تزيين الشيطان، وقال قتادة: كل معصية لله فهي من خطواته، وعن ابن عباس: ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من الخطوات وكفارته كفارة يمين.

﴿إنه لكم عدو﴾ تعليل للنهي عن الاتباع ﴿مبين﴾ أي ظاهر العداوة ومثله قوله تعالى ﴿إنه عدو مضل مبين﴾ وقوله ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾ وقد أظهر الله عداوته بآية السجود لآدم(١).

---

(١) وهذا غاية في التحذير، ومثله في القرآن كثير. وقال عبد الله بن عمر: إن إبليس مُوثَق في الأرض السُّفلى، فإذا تحرّك فإن كل شرٍّ في الأرض بين آثنين فصاعداً من تحرّكه. وخرّج الترمذي من حديث أبي مالك الأشعري وفيه: «وآمركم أن تذكروا الله فإن مَثَل ذلك كَمَثَل رجل خرج العدوّ في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله» الحديث. وقال فيه: (حديث حسن صحيح غريب).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

ثم بين عداوته ما هي فقال ﴿إنما يأمركم﴾ قيل استعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيها لرأيهم، وتحقيراً لشأنهم قاله البيضاوي، وقيل لا حاجة إلى صرف الأمر عن ظاهره لأن حقيقته طلب الفعل، ولا ريب أن الشيطان يطلب السوء والفحشاء ممن يريد إغواءه ﴿بالسوء﴾ سمي السوءسوءاً لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته، وهو مصدر ساءه يسؤه سوءاً ومساءة إذا أحزنه ﴿والفحشاء﴾ أصله سوء المنظر ثم استعمل فيما يقبح من المعاني، وقيل السوء القبيح والفحشاء التجاوز للحد في القبح، وقيل السوء ما لا حد فيه، والفحشاء ما فيه الحد قاله ابن عباس، وقيل الفحشاء الزنا، وقيل هو البخل وقيل إن كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء.

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي بأن تقولوا، قال ابن جرير الطبري: يريد ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوهما مما جعلوه شرعاً. وقيل هو قولهم هذا حلال وهذا حرام بغير علم، والظاهر أنه يصدق على كل ما قيل في الشرع بغير علم فيتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التي لم يأذن فيها الله، ولم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التي يجدها الانسان في قلبه، وفاعل هذه الخواطر هو الله تعالى، وإنما الشيطان كالعرض، وقد صح عنه ﷺ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ الضمير في ﴿لهم﴾ راجع إلى الناس في قوله ﴿يا أيها الناس﴾ لأن الكفار منهم، وهم المقصودون هنا فعدل عن المخاطبة إلى الغيبة على طريق الالتفات،

مبالغة في بيان ضلالهم، كأنه يقول للعقلاء انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون، وقيل مشركو العرب خاصة، وقد سبق ذكرهم في قوله ﴿من يتخذ من دونِ الله أنداداً﴾ ولفظ أبي السعود نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد انتهى، وقيل نزلت في اليهود، وعلى هذا فالآية مستأنفة، وألفينا معناه وجدنا وفي هذه الآية من الذم للمقلدين والنداء بجهلهم الفاحش، واعتقادهم الفاسد ما لا يقادر قدره حيث عارضوا الدلالة بالتقليد.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ الآية يعني من التحريم والتحليل، وفي ذلك دليل على قبح التقليد والمنع منه، والبحث في ذلك يطول.

قال الرازي في هذه الآية تقرير هذا الجواب من وجوه.

(أحدها) أنه يقال للمقلد هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الإنسان أن يعلم كونه محقاً أم لا، فإن اعترفت بذلك لم تعلم جواز تقليده إلا بعد أن تعرف كونه محقاً فكيف عرفت أنه محق، وإن عرفت بتقليد آخر لزم التسلسل، وان عرفته بالعقل فذلك كاف فلا حاجة إلى التقليد، وإن قلت ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقاً، فإذاً قد جوزت تقليده وإن كان مبطلاً، فإذاً انت على تقليدك لا تعلم أنك محق أو مبطل.

(وثانيها) هب أن ذلك المتقدم كان عالماً بهذا الشيء إلا أنا لو قدرنا أن ذلك المتقدم ما كان عالماً بذلك الشيء قط وما اختار فيه البتة مذهباً، فأنت ماذا كنت تعمل، فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه كان لا بد من العدول إلى النظر فكذا ههنا.

(وثالثها) أنك إذا قلدت من قبلك فذلك المتقدم كيف عرفته، أعرفته بتقليد أم لا بتقليد، فإن عرفته بتقليد لزم إما الدور وإما التسلسل، وإن عرفته لا بتقليد بل بدليل، فإذا أوجبت تقليد ذلك المتقدم وجب أن تطلب العلم

بالدليل لا بالتقليد، لأنك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل، مع أن ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد كنت مخالفاً له، فثبت أن القول بالتقليد يفضي ثبوته إلى نفيه فيكون باطلاً.

وإنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل، إنتهى كلامه.

وكم من آية بينة واثر جلي تدل على ذم التقليد والمقلدين، ولكن مفاسد الجهل والتعصب كثيرة لا يأتي عليها الحصر، وقد أفرده الشوكاني بمؤلف مستقل سماه القول المفيد في حكم التقليد، واستوفى الكلام فيه في أدب الطلب ومنتهى الارب، وألف الحافظ الواحد المتكلم ابن القيم في ذلك كتاباً ضخماً سماه أعلام الموقعين عن رب العالمين.

قال ابن عباس: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ﷺ ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك هذه الآية:

﴿أو لو كان آباؤهم﴾ الهمزة للإنكار، والواو إما للحال أو للعطف، وجواب لو محذوف قاله أبو البقاء وتقديره لاتبعوهم، والذي جرى عليه أبو السعود أن لو في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب لأن القصد منها تعميم الأحوال ﴿لا يعقلون﴾ أي لا يعلمون ﴿شيئاً﴾ من أمر الدين، وهذا لفظ عام ومعناه خاص لأنهم كانوا يعقلون كثيراً من أمور الدنيا فهذا يدل على جواز ذكر العام مع أن المراد به خاص ﴿ولا يهتدون﴾ إلى الصواب وكيفية اكتسابه، قال البيضاوي: وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

ثم ضرب لهم مثلاً فقال ﴿ومثل الذين كفروا﴾ في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم وفي ذلك نهاية الزجر لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقهم في التقليد ﴿كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾ فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعهم وهو محمد ﷺ بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الإبل فلا تسمع ﴿إلا دعاء ونداء﴾ ولا تفهم ما يقول، هكذا فسره الزجاج والفراء وسيبويه، وبه قال جماعة من السلف، قال سيبويه: لم يشبهوا بالناعق إنما شبهوا بالمنعوق به، والمعنى مثلك يا محمد ﷺ ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، فحذف لدلالة المعنى عليه، وقال قطرب: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم يعني الاصنام كمثل الراعي إذا نعق بغنمه وهو لا يدري أين هي، وبه قال ابن جرير الطبري، وقال ابن زيد: المعنى مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح في جوف الليل فيجيبه الصدى فهو يصيح بما لا يسمع ويجيبه ما لا حقيقة فيه، فهذه أربعة أقوال.

وقال البيضاوي: المعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه.

وقد اختلف الناس في هذه الآية إختلافاً واضطربوا اضطراباً شديداً. والذي لخصناه أقوال مهذبة لكل قول منها تقدير، ذكره السمين، والنعيق زجر

الغنم والصياح بها. والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل ويقولون أجهل من راعي ضان، قال ابن عباس: مثل الذين كفروا مثل البقر والحمار والشاة إن قلت لبعضها كلاماً لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك، ونحوه قال مجاهد والدعاء والنداء بمعنى واحد وسوغ العطف اختلاف اللفظ.

﴿صم بكم عمي﴾ هذا نتيجة ما قبله، ورفع على الذم أي هم صم عن سماع الحق ودعاء الرسول ﴿بكم﴾ عن النطق بالحق ﴿عمي﴾ عن طريق الهدى ﴿فهم لا يعقلون﴾ أي بالعقل للإخلال بالنظر نتيجة للنتيجة، قيل المراد به العقل الكسبي، لأن العقل الطبيعي كان حاصلاً فيهم، قال عطاء: هم اليهود الذين أنزل الله فيهم ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ إلى قوله فما أصبرهم على النار.

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ هذا تأكيد للأمر الأول أعني قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ وإنما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس، قيل والمراد بالأكل الانتفاع وقيل المراد به الأكل المعتاد وهو الظاهر، وقيل أن الأمر في كلوا قد يكون للوجوب كالأكل لحفظ النفس ودفع الضر عنها، وقد يكون للندب كالأكل مع الضيف، وقد يكون للإباحة إذا خلا من هذه العوارض، وعن عمر بن عبد العزيز أن المراد بما في الآية طيب الكسب لا طيب الطعام، وقال الضحاك: أنها حلال الرزق.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبل إلا طيباً وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما

تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له» وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قوماً تنزهوا عن أكل المستلذ من الطعام فأباح الله لهم ذلك.

﴿واشكروا الله﴾ على ما رزقكم من نعمه وأحل لكم، وفيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ لو جرى على الأسلوب الأول لقال واشكرونا، والأمر فيه للوجوب فقط ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي تخصونه بالعبادة وتقرون بأن إلهكم لا غيره كما يفيده تقديم المفعول، وقيل ان كنتم عارفين بالله وبنعمته فاشكروه عليها، والأول أولى.

﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ لما أمرنا الله تعالى في الآية التي تقدمت بأكل الطيبات التي هي الحلالات، بين في هذه الآية أنواعاً من المحرمات فقال ﴿إنما﴾ وهي كلمة موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ما عداه، وقد حصرت ههنا التحريم في الأمور المذكورة بعدها أي ما حرم عليكم إلا الميتة وهي كل ما فارقه الروح من غير ذكاة.

وقد خصص هذا العموم بمثل حديث «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالجراد والحوت، وأما الدمان فالطحال والكبد» أخرجه أحمد وابن ماجة والدارقطني والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر، ومثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر.

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها

وميتها، وقال بعض أهل العلم أنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه في البر، وتوقف ابن حبيب في خنزير الماء، قال ابن القاسم: أنا أتقيه ولا أراه حراماً، والدم هو الجاري السائل وكانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله، فحرمه الله تعالى.

وقد اتفق العلماء على أن الدم حرام، وفي الآية الأخرى ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ فيحمل المطلق على المقيد لأن ما خلط باللحم غير محرم، قال القرطبي بالإجماع، وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم فتعلو الصفرة على البرمة من الدم، فيأكل ذلك النبي ﷺ ولا ينكره.

وأما لحم الخنزير فظاهر هذه الآية والآية الأخرى أعني قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ أن المحرم إنما هو اللحم فقط، وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبي في تفسيره، وقد ذكرت جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم، وحكى القرطبي الإجماع أيضاً على أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر فإنه تجوز الخرازة به، وقيل: أراد بلحمه جميع أجزائه، وإنما خص اللحم بالذكر لأنه المقصود لذاته بالأكل، واختلفوا في نجاسته فقال الجمهور أنه نجس وقال مالك أنه طاهر وكذا كل حيوان عنده، لأن علة الطهارة هي الحياة، وللشافعي قولان في ولوغ الخنزير(**الجديد**) أنه كالكلب (**والقديم**)يكفي فيه غسلة واحدة.

والآية قصر قلب للرد على من استحل هذه الأربعة وحرم الحلال غيرها كالسوائب ومع ذلك هو نسبي أي ما حرم عليكم إلا هذه الأربعة لا غيرها من البحيرة وما بعدها في الآية وإن كان حرم غيرها من الأمور المذكورة في أول المائدة.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ يعني ما ذبح للأصنام والطواغيت وصيح في

ذبحه لغير الله، وأصل الإهلال رفع الصوت يقال أهل بكذا أي صرخ ورفع صوته ومنه إهلال الصبي واستهلاله، وهو صياحه عند ولادته، ومنه الهلال لأنه يصرخ عند رؤيته، والمراد هنا ما ذكر عليه اسم غير الله تعالى كاللات والعزى إذا كان الذابح وثنياً، والنار إذا كان الذابح مجوسياً. ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله.

ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم، فإنه مما أهل به لغير الله، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن، قال مجاهد: يعني ما ذبح لغير الله، أخرجه ابن أبي حاتم، وفي تفسير النيسابوري للنظام قال العلماء لو أن مسلماً ذبح ذبيحة وقصد بذبحها التقرب إلى غير الله صار مرتداً، وذبيحته ذبيحة مرتد انتهى.

وقال صاحب الروض: إن المسلم إذا ذبح للنبي ﷺ كفر وانتهى، وهذا القائل من الشافعية.

قال الشوكاني: وإذا كان الذبح لسيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كفراً عنده فكيف بالذبح لسائر الأموات، انتهى.

وقيل أن المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التي كانوا يذبحونها لأصنامهم كما تقدم وأجازوا ذبيحة النصارى إذا سمي عليها باسم المسيح، وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب لعموم قوله تعالى ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة: لا يحل ذلك، والحجة فيه أنهم إذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به لغير الله فوجب أن يحرم، ورُوي عن علي أنه قال: إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا وإذا لم تسمعوهم فكلوا، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

﴿فمن اضطر﴾ إلى شيء من هذه المحرمات، والمضطر هو المكلف بالشيء الملجأ إليه المكره عليه والمراد هنا من خاف التلف، والمضطر إما بإكراه فيبيح ذلك إلى زوال الإكراه، أو يجوع في مخمصة، فإن كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها، وإن كانت نادرة فقال الشافعي: يأكل ما يسد به الرمق، وبه قال أبو حنيفة أو يأكل قدر الشبع، وبه قال مالك، فأكل ﴿غير باغ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر أو على الوالي وأصل البغي الفساد ﴿ولا عاد﴾ اسم فاعل أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد، والمراد بالباغي من يأكل فوق حاجته، والعادي من يأكل هذه المحرمات وهو يجد عنها مندوحة وبلغة، وقال ابن عباس: باغ في الميتة وعاد في الأكل وقيل غير باغ على المسلمين ولا معتد عليهم، فيدخل في الباغي والعادي قاطع السبيل والخارج على السلطان والمفارق للجماعة والأئمة، والمفسد في الأرض وقاطع الرحم، وقيل المراد غير باغ على مضطر آخر ولا عاد لسد الجوعة، قاله سعيد بن جبير.

﴿فلا إثم عليه﴾ في تناوله ولا حرج، ومن أكله وهو غير مضطر فقد بغى واعتدى ﴿إن الله غفور﴾ لمن أكل من الحرام ﴿رحيم﴾ به إذ أحل له الحرام في الاضطرار[1].

(١) روى أبو داود قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا حماد عن سَمَاك بن حرب عن جابر بن سَمُرة أن رجلاً نزل الحَرّة ومعه أهله وولده، فقال رجل: إن ناقة لي ضَلّت فإن وجدتها فأمسكها؛ فوجدها فلم يجد صاحبها فمرضت، فقالت امرأته: انحرها، فأبى فَنَفَقَت. فقالت: اسلخها حتى نُقدّد لحمها وشحمها ونأكله؛ فقال: حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فسأله، فقال: «هل عندك غنىً يغنيك» قال لا، قال: «فكلوها» قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر؛ فقال: أفلا كنت نحرتها! فقال: آستحييت منك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ المراد بهذه الآية علماء اليهود لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد ﷺ ونعته ووقت نبوته، هذا قول المفسرين، وقال المتكلمون بل كانوا يكتمون التأويل، والمعنى يكتمون معاني ما أنزل الله من الكتاب، والأول أولى ﴿ويشترون به﴾ أي بالكتمان أو بما أنزل الله من الكتاب، والأول أظهر، والاشتراء هنا الاستبدال، وقد تقدم تحقيقه ﴿ثمناً قليلاً﴾ سماه قليلاً لانقطاع مدته وسوء عاقبته، وهذا السبب وإن كان خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله وأخذ عليه الرشا.

﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم﴾ ذكر البطون دلالة وتأكيداً على أن هذا الأكل حقيقة، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل أكل فلان أرضي ونحوه، وقال في الكشاف معناه ملء بطونهم ظرف متعلق بما قبله لا حال مقدرة كما قال الكواشي ﴿إلا النار﴾ استثناء مفرغ أي أنه يوجب عليهم عذاب النار فسمى ما أكلوه ناراً لأنه يؤول إليها، هكذا قال أكثر المفسرين وهو من مجاز الكلام، وقيل إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة ومثله قوله سبحانه ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾.

﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أي كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ، وعدم تكليم الله إياهم كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم، يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه، وقال ابن جرير

الطبري المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه ولا بما يكرهونه كقوله تعالى ﴿إخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وإنما كان عدم تكليمهم في معرض التهديد لأن يوم القيامة هو اليوم الذي يكلم الله فيه كل الخلائق بلا واسطة فيظهر عند كلامه السرور في أوليائه وضده في أعدائه.

﴿ولا يزكيهم﴾ لا يثني عليهم خيراً، قاله الزجاج وقيل معناه لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم أو لا ينزلهم منازل الأزكياء، وقيل لا يطهرهم من دنس الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي وجيع يصل ألمه إلى قلوبهم وهو النار.

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بالصفات الستة من قوله ﴿إن الذين يكتمون﴾ إلى هنا، وهذا بيان لحالهم في الدنيا بعد أن بين حالهم في الآخرة ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾ أي اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة، لأنهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه وأخفوه، وكان في إظهاره الهدى والمغفرة. وفي كتمانه الضلالة والعذاب ﴿فما أصبرهم على النار﴾ حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، وقد تقدم تحقيق معناه

وذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد إلى أن معناه التعجب، والمراد تعجب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب صبروا على العقوبة في نار جهنم، وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النار، من قولهم ما أصبر فلاناً على الحبس أي ما أبقاه فيه، وقيل المعنى ما أقل جزعهم من النار، فجعل قلة الجزع صبراً، وقال الكسائي وقطرب أي ما أدومهم على عمل أهل النار، وقيل «ما» استفهامية ومعناه التوبيخ أي أي شيء صبرهم على عمل أهل النار، وهذا من مجاز الكلام، وبه قال ابن عباس والسدي وعطاء وأبو عبيدة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ أي ذلك الأمر وهو العذاب، قاله الزجاج، وقال الأخفش: ان خبر اسم الإشارة محذوف والتقدير ذلك معلوم والمراد بالكتاب هنا القرآن أو التوراة والحق الصدق، وقيل الحجة ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ يعني في معانيه وتأويله فحرفوه وبدلوه، وقيل آمنوا ببعض وكفروا ببعض، والمراد بالكتاب قيل التوراة فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى وأنكرهم اليهود، وقيل خالفوا ما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واختلفوا فيها، وقيل المراد القرآن والمختلفون هم كفار قريش، يقول بعضهم هو سحر وكهانة، وبعضهم يقول هو أساطير الأولين، وبعضهم يقول غير ذلك، وقيل المختلفون هم اليهود والنصارى ﴿لفي شقاق﴾ أي خلاف ومنازعة ﴿بعيد﴾ عن الحق وقد تقدم معنى الشقاق.

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ قيل أن هذه الآية نزلت للرد على اليهود والنصارى لما أكثروا الكلام في شأن القبلة عند تحويل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، وقيل أن سبب نزولها أنه سأل رسول الله ﷺ سائل عن الإيمان فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم سأله أيضاً فتلاها ثم سأله فتلاها قال وإذا عملت بحسنة أحبها قلبك، وإذا عملت بسيئة أبغضها قلبك»، أخرجه ابن أبي حاتم وصححه عن أبي ذر .

قيل أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى لأنهم يستقبلون مطلع الشمس وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود لأنهم يستقبلون بيت المقدس، وهو في جهة الغرب منهم إذ ذاك وزعم كل طائفة منهم أن البر في ذلك، فأخبر الله تعالى أن البر ليس فيما زعموا ولكنه فيما بينه في هذه الآية، وقيل المخاطب هم المسلمون وقيل هو عام لهم ولأهل الكتابين أي ليس البر مقصوراً على أمر القبلة.

والبر اسم جامع لكل طاعة وعمل الخير، ويجوز أن يكون بمعنى البار، ويطلق المصدر على إسم الفاعل كثيراً ومنه في التنزيل ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي غائراً وهذا اختيار أبي عبيدة، والمشرق جهة شروق الشمس، والمغرب جهة غروبها، وهذا مشكل بما تقدم من أن قبلة اليهود إنما هي بيت المقدس، وهو بالنسبة إلى المدينة شمال لا مغرب[1] لأن من استقبل بيت المقدس يكون فيها ظهره مقابلاً لميزاب الكعبة ووجهه مقابلاً لبيت المقدس الذي هو من جهة الشام وكذا بالنسبة لمكة فلم يظهر المراد في هذه الآية، وقد تنبه أبو السعود لهذا وأجاب عنه بما لا يجدي شيئاً فليتأمل فإني لم أر من حقق المقام والله أعلم.

﴿ولكن البر﴾ أي لكن ذا البر، وقرىء البار أو بر ﴿من آمن بالله﴾ والأخير أوفق وأحسن، والبر اسم جامع لكل طاعة وأعمال الخير مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها، والمراد بالبر هنا الإيمان والتقوى ﴿واليوم الآخر﴾ ذكر ذلك لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت ﴿والملائكة﴾ أي الإيمان بهم كلهم لأن اليهود قالوا إن جبريل عدونا ﴿والكتاب﴾ قيل أراد به القرآن وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قوله ﴿والنبيين﴾ يعني أجمع، وإنما خص الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها.

(١) إنما يأتي الإشكال على قول من فسر الآية بهذا القول، أما على قول الآخرين فلا إشكال.

﴿وآتى المال على حبه﴾ ضمير حبه راجع إلى المال، وقيل إلى الإيتاء المدلول عليه بقوله وآتى المال وقيل أنه راجع إلى الله سبحانه أي على حب الله، والمعنى على الأول أنه أعطى المال وهو يحبه ويشح به، ومنه قوله تعالى ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وعلى الثاني أنه يحب إيتاء المال وتطيب به نفسه، وعلى الثالث أنه أعطى من تضمنته الآية في حب الله عز وجل لا لغرض آخر، وهو مثل قوله ﴿ويطعمـون الطعام على حبه﴾.

عن ابن مسعود قال: يعطي وهو صحيح شحيح يأمل العيش ويخاف الفقر، وأخرج الحاكم عنه مرفوعاً مثله، وعن أبي هريرة قال جاء رجل الى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم قال «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» أخرجه الشيخان[1].

﴿ذوي القربى﴾ يعنى أهل قرابة المعطي وقدم ذوي القربى لكون دفع المال إليهم صدقة وصلة إذا كانوا فقراء، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبي[2].

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود أنها سألت رسول الله هل تجزىء عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها فقال: «لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة»، وأخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

---

(١) مسلم /١٠٣٢ ـ البخاري /٧٥٧.
(٢) احمد ٤/ ـ ٧، ١٨، ٢١٤.

﴿واليتامى﴾ أي وهكذا اليتامى المحاويج الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا بيتامى لعدم قدرتهم على الكسب، واليتيم هو الذي لا أب له مع الصغر ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين، والمسكين الساكن إلى ما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئاً ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع، وجعل ابنا للسبيل لملازمته له، وهو اسم جنس أو واحد أريد به الجمع.

﴿والسائلين﴾ يعني الطالبين للإحسان المستطعمين ولو كانوا أغنياء، عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «للسائل حق ولو جاء على فرس»[1] أخرجه أحمد وأبو داود، وعن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس»، أخرجه مالك في الموطأ، وعن أم نجيد قالت: قلت يا رسول الله المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً اعطيه إياه قال«إن لم تجدي إلا ظلفاً محرقاًفادفعيه إليه في يده»، أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح، وفي رواية مالك في الموطأ عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال«ردوا المسكين ولو بظلف محـرق».

﴿وفي الرقاب﴾ يعني المكاتبين وقيل هو فك النسمة وعتق الرقبة وفداء الأسارى أي دفعه في فكها أي لأجله وبسببه ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ المفروضة، فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صدقة التطوع لا صدقة الفريضة ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ الله أو الناس، قيل المراد بالعهد القيام بحدود الله والعمل بطاعته وقيل النذر ونحوه، وقيل الوفاء بالمواعيد والبر في الحلف وأداء الأمانات ﴿والصابرين في البأساء﴾ الشدة والفقر ﴿والضـراء﴾ المرض والزمانة، والبأساء والضراء اسمان بنيا على فعلاء ولا فعل لهما لأنهما اسمان وليسا بنعت ونصب والصابرين على المدح وقيل على الإختصاص، ولم يعطف على ما قبله لمزيد شرف الصبر وفضيلته. قال أبو علي إذا ذكرت صفات للمدح

(١) مسند أحمد ٢٠١/١.

أو الذم وخولف الأعراب في بعضها فذلك تفنن ويسمى قطعاً، لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع الذكر ومزيد اهتمام بشأنه.

قال الراغب: ولما كان الصبر من وجه مبدأ للفضائل ومن وجه جامعاً للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ، غير إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد، وهذا كلام حسن، فالآية جامعة لجميع الكمالات الإنسانية وهي صحة الإعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس

﴿وحين البأس﴾ أي وقت الحرب وشدة القتال في سبيل الله وسمى الحرب بأساً لما فيه من الشدة.

﴿أولئك الذين صدقوا﴾ وصفهم بالصدق في أمورهم والوفاء بها وإنهم كانوا جادين في الدين واتباع الحق، وتحري البر، حيث لم تغيرهم الأحوال، ولم تزلزلهم الأهوال، قال ربيع: صدقوا أي تكلموا بكلام الإيمان فكانت حقيقته العمل، قال: وكان الحسن يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل فلا شيء.

﴿وأولئك هم المتقون﴾ عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الإشارة لزيادة تنويه شأنهم، وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم، قال الواحدي: إن الواوات في هذه الأوصاف تدل على أن من شرائط البر استكمالها وجمعها، فمن قام بواحد منها لا يستحق الوصف بالبر، وقيل هذه خاصة الأنبياء لأن غيرهم لا تجتمع فيه تلك الصفات، وقيل هي عامة في جميع المؤمنين وهي الأولى اذ لا دليل على التخصيص.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ كتب معناه فرض وأثبت، وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك وقيل إن كتب هنا إشارة إلى ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، والخطاب للقاتلين وولاة الأمور، والقصاص أصله قص الأثر أي اتباعه ومنه القاص لأنه يتبع الآثار، وقص الشعر اتباع أثره، فكأن القاتل يسلك طريقاً من القتل يقص أثره فيها ومنه قوله تعالى ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ وقيل أن القصاص مأخوذ من القص وهو القطع يقال قصصت ما بينهما أي قطعته، قيل نزلت في حيين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتيل فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام، وقيل نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف.

وقيل نزلت لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وجوب القتل بلا عفو، ووجوب العفو بلا قتل، والقتل تارة وأخذ الدية تارة؛ والقصاص فرض على القاتل للولي لا على الولي؛ والقصاص المساواة والمماثلة في القتل والدية والجراح فيقتل القاتل بمثل الذي قتل به، وهو قول مالك والشافعي؛ وقيل يقتل بالسيف وهو قول أبي حنيفة ورواية عن أحمد؛ والكلام في فروع هذه المسألة يطول؛ «وفي» في القتلى للسبب كقوله ﷺ «أن امرأة دخلت النار في هرة أي بسببها» وفعلى يطرد جمعاً لفعيل بمعنى مفعول.

﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن الحر لا يقتل بالعبد وهم الجمهور، وذهب أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبي ليلى وداود إلى أنه يقتل به إذا كان غير سيده، وأما سيده فلا يقتل به إجماعاً إلا ما روي عن النخعي، فليس مذهب أبي حنيفة ومن معه على الإطلاق ذكره الشوكاني في شرح المنتقي، قال القرطبي: وروي ذلك عن علي وابن مسعود وبه قال سعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وقتادة والحكم بن عتبة، واستدلوا بقوله تعالى ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ وأجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله الحر بالحر والعبد بالعبد مفسر لقوله تعالى ﴿النفس بالنفس﴾ وقالوا أيضاً أن قوله ﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لبني إسرائيل في التوراة.

ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله ﷺ «المسلمون تتكافأ دماؤهم» ويجاب عنه بأنه مجمل، والآية مبينة ولكنه يقال أن قوله تعالى ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد﴾ إنما أفاد بمنطوقه أن الحر يقتل بالحر والعبد يقتل بالعبد، وليس فيه ما يدل على أن الحر لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا، ومن لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا، والبحث في هذا محرر في علم الأصول.

وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر، وهم الكوفيون والثوري لأن الحر يتناول الكافر كما يتناول المسلم، وكذا العبد والأنثى يتناولان الكافر كما يتناولان المسلم، واستدلوا أيضاً بقوله تعالى ﴿أن النفس بالنفس﴾ لأن النفس تصدق على النفس الكافرة كما تصدق على النفس المسلمة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل المسلم بالكافر، واستدلوا بما ورد في السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «لا يقتل مسلم بكافر»[1] وهو مبين لما يراد في

---

(١) احمد /١/٧٩ ـ ٢/١٧٨ وبرواية لا يقتل مؤمن بكافر ٢/١٨٠.

الآيتين، وهذه الآية مع الأحاديث الواردة في ذلك حجة على أصحاب الرأي، والبحث في هذا يطول.

واستدل بهذه الآية القائلون بأن الذكر لا يقتل بالأنثى، وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق إلا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحق والثوري وأبو ثور، وذهب الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة وهو الحق، وقد بسط الشوكاني البحث في نيل الأوطار فليرجع إليه.

﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ ﴿من﴾ هنا عبارة عن القاتل أو الجاني والمراد بالأخ المقتول أو الولي، والشيء عبارة عن الدم، والمعنى أن القاتل والجاني إذا عفي له من جهة المجنى عليه أو الولي دم أصابه منه على أن يأخذ منه شيئاً من الدية أو الأرش فليتبع المجنى عليه أو الولي من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعاً بالمعروف وليؤد الجاني ما لزمه من الدية أو الارش إلى المجنى عليه أو إلى الولي أداء بإحسان، وقيل أن ﴿من﴾ عبارة عن الولي، والأخ يراد به القاتل، والشيء الدية، والمعنى أن الولي إذا جنح إلى العفو عن القصاص إلى مقابل الدية فإن القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص كما روي عن مالك أنه يثبت الخيار للقاتل في ذلك، وذهب من عداه إلى أنه لا يخير بل إذا رضي الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل، بل يلزمه تسليمها.

وقيل معنى عفي بذل أي من بذل له شيء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف، وقيل أن المراد بذلك أن من فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من الديات، فيكون عفي بمعنى فضل، وعلى جميع التقادير فتنكير شيء للتقليل فيتناول العفو من الشيء اليسير من الدية، والعفو الصادر عن فرد من أفراد الورثة.

وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً وأن الفاسق مؤمن لأن الله

تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسماه مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص، وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع، فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن، وأنه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولي الدم وأراد بها أخوة الإيمان، فلولا أن الإيمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة، وأيضاً ندب إلى العفو عن القاتل والعفو لا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر.

﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ إشارة إلى العفو والدية أي أن الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض، أو بعوض، ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود، فإنه أوجب عليهم القصاص ولا عفو، وكما ضيق على النصارى فإنه أوجب عليهم العفو ولادية، وفيه تضييق على كل من الوارث والقاتل، فهذا تخفيف مما كتب على من كان قبلكم.

﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ أي بعد التخفيف نحو أن يأخذ الدية ثم يقتل القاتل أو يعفو ثم يستقص.

وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ الدية فقال جماعة منهم مالك والشافعي أنه كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه، وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة ولا يمكن الحاكم الولي من العفو، وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة، وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى.

وأخرج عبد الرازق وابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث إما أن يقتص وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها أبداً»[1] وعن قتادة

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٤٤١.

قال ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية» أخرجه[1] ابن جرير وابن المنذر.

وأخرج سمويه في فوائده عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ فذكر مثله، والعذاب الأليم قيل هو عذاب الآخرة وقيل هو أن يقتل قصاصاً ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه، والأول أظهر وأولى، ويدل له الحديث المتقدم.

﴿ولكم في القصاص حياة﴾ خطاب لمريدي القتل ظلماً، وقال أبو السعود: بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشيء وهو القصاص محلاً لضده وهو الحياة، ونكر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلغه الوصف، وذلك لأنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد فتنتشر الفتنة بينهم، ففي شرع القصاص سلامة من هذا كله[2]، والمعنى ولكم في هذا الحكم الذي شرعه الله بقاء وحياة لأن الرجل إذا علم أنه

---

(١) ابو داود كتاب الديات الباب ٥ ـ احمد بن حنبل ٢/٢٦٢.

(٢) عن مسلم بن يزيد أحد بني سعد بن بكر انه سمع أبا شريح الخزاعي ثم الكعبي وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول أذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح في قتال بني بكر حتى أصبنا منهم ثأرنا وهو بمكة ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم نوافع السيف فلقي رهط منا الغد رجلاً من هذيل في الحرم يؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم كي يسلم وكان قد وترهم في الجاهلية وكانوا يطلبونه فقتلوه وبادروا ان يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب غضباً شديداً والله ما رأيته غضب غضباً أشد منه فسعينا إلى أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم نستشفعهم وخشينا أن نكون قد هلكنا فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قام فاثنى على الله عز وجل بما هو أهله ثم قال أما بعد فإن الله عز وجل هو حرم مكة ولم يحرمها الناس وإنما أحلها لي ساعة من النهار أمس وهي اليوم حرام كما حرمها الله عز وجل أوّل مرة وان أغنى الناس على الله عز وجل ثلاثة رجل قتل فيها ورجل قتل غير قاتله ورجل طلب بذحل في الجاهلية وإني والله لأديّن هذا الرجل الذي قتلتم فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه، والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية.

وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصاص الذي هو موت، حياة باعتبار مايؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً إبقاء على أنفسهم واستدامة لحياتهم. وقيل إن الحياة سلامة من القصاص في الآخرة فإنه إذا اقتص في الدنيا لم يقتص عنه في الآخرة والأول أولى.

وقال الخازن: هذا الحكم غير مختص بالقصاص الذي هو القتل، بل يدخل فيه جميع الجروح والشجاج وغير ذلك، وقرأ أبو الجوزاء ﴿ولكم في القصص حياة﴾ أي فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو في كتاب الله أي نجاة وقيل أراد حياة القلوب، وقيل هو مصدر بمعنى القصاص. والكل ضعيف والقراءة بـه منكرة ﴿يا أولي الألباب﴾ أي ذوي العقول الكاملة، جعل هذا الخطاب موجهاً إلى أولي الألباب وناداهم للتأمل في حكمة القصـاص من استبقـاء الأرواح وحفظ النفوس لأنهم هم الـذين ينـظرون في العـواقب، ويتحامون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصاباً بالحمق والطيش والخفة فإنه لا ينظر عند سورة غضبـه وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة، ولا يفكر في أمر مستقبل، والألباب جمع لب، وهو العقل الخالي من الهوى، سمي بذلك لأحد وجهين إما لبنائه من لب بالمكان أقام به وإما من اللباب وهو الخالص.

ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله ﴿لعلكم تتقون﴾ أي تعملون عمل أهل التقوى، وتتحامون القتل بالمحافظة على القصـاص والحكم به والاذعان له، فيكون ذلك سبباً للتقوى.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ قد تقدم معنى كتب قريباً، وحضور الموت حضور أسبابه وأماراته وظهور علاماته من العلل والأمراض المخوفة، وليس المراد منه معاينة الموت، لأنه في ذلك الوقت يعجز عن الإيصاء، وإنما لم يؤنث الفعل المسند إلى الوصية وهو كتب لوجود الفاصل بينهما، وقيل لأنها بمعنى الإيصاء، وقد روي جواز إسناد ما لا تأنيث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل، وقد حكى سيبويه: أقام امرأة وهو خلاف ما أطبق عليه أئمة العربية.

﴿إن ترك خيراً﴾ شرط سبحانه ما كتبه من الوصية بأن يترك الموصي خيراً أي مالاً. قال الزهري: هو يطلق على القليل والكثير، فتجب الوصية في الكل وقيل لا يطلق إلّا على المال الكثير، وهو قول الأكثرين.

واختلف أهل العلم في مقدار الخير فقيل ما زاد على سبعمائة دينار، وقيل ألف دينار، وقيل ما زاد على خمسمائة دينار، وقيل ستون ديناراً فما فوقها. وقيل من خمسمائة إلى ألف، وقيل إنه المال الكثير الفاضل عن العيال، والخير هنا المال، ويقع في القرآن على وجوه ونبه بتسميته خيراً على أن الوصية تستحب في مال طيب.

﴿الوصية﴾ أي الايصاء، والوصية في الأصل عبارة عن الأمر بالشيء والعهد به في الحياة وبعد الموت وهي هنا عبارة عن الأمر بالشيء بعد الموت، وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين أو عنده وديعة أو نحوها، وأما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيراً أو غنياً، وقالت طائفة إنها واجبة.

﴿للوالدين والأقربين﴾ لم يبين الله سبحانه ههنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين والأقربين فقيل الخمس وقيل الربع وقيل الثلث، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فذهب جماعة إلى أنها محكمة، وقالوا هي وإن كانت عامة فمعناها الخصوص، والمراد بها من الوالدين من لا يرث كالأبوين الكافرين، ومن هو في الرق، ومن الأقربين من عدا الورثة منهم.

قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة، وقال كثير من أهل العلم أنها منسوخة بآية المواريث مع قوله ﷺ «لا وصية لوارث»[1] وهو حديث صححه بعض أهل الحديث، وروي من غير وجه، وللشيخ سعد التفتازاني فيه مناقشة، وقال بعض أهل العلم إنه نسخ الوجوب وبقي الندب، روي ذلك عن الشعبي والنخعي ومالك.

﴿بالمعروف﴾ أي بالعدل لا وكس فيه ولا شطط، وقد أذن الله للميت بالثلث دون ما زاد عليه فلا يزيد على الثلث، ولا يوصي للغني ويدع الفقير، وعن علي لأن أوصي بالخمس أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، فمن أوصي بالثلث فلم يترك، وقيل يوصي بالسدس أو بالخمس أو بالربع ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله معناه الثبوت والوجوب، وقيل ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب ﴿على المتقين﴾ أي على الذين يتقون الشرك.

---

(١) رواه احمد وابو داود والترمذي وابن ماجة وحسنه احمد والترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي به مرفوعاً وقواه ابن خزيمة وابن الجارود ـ انظر تمييز الطيب من الخبيث /١٦٣٦.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٨١﴾

﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصية، وكذلك الضمير في قولـه ﴿سمعه﴾ والتبديل التغيير، والضمير في ﴿إثمه﴾ راجع إلى التبديل المفهوم من قوله بدله، وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا حيف فيها ولا مضارة وإنه يبوء بالإثم، وليس على الموصي من ذلك شيء فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به.

قال القرطبي: ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز مثل ان يوصي بخمر أو خنزير أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله، ولا يجوز امضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث قاله أبو عمرو، انتهى.

والمبدلون إما الأوصياء بأن ينكروا الوصية أو يغيروها إما في الكتابة أو في قسمة الحقوق، أو الشهود بأن يكتموا الشهادة أو يغيروها، والمعنى فمن بدل قول الميت أو ما أوصى به، وقيل الضمير في ﴿بدله﴾ يعود على الوصية لأنها بمعنى الإيصاء وقيل على نفس الإيصاء، وقيل على الأمر والفرض الذي أمر به الله وفرضه أو في المكتب أو الحق أو المعروف، فهذه ستة أقوال أولاها ما ذكرنا.

ولكن هنا وقفة من حيث أن الكلام السابق إنما هو في الوصية المنسوخة التي هي للوالدين والأقربين، وقوله ﴿فمن بدله﴾ إلى آخر الآية إنما هو في الوصية التي استقر عليها الشرع ويعمل بها إلى الآن، وعلى هذا فكيف يعود الضمير من المحكمة على المنسوخة. قال سليمان الجمل: فليتأمل فإني لم أر من نبه على هذا انتهى.

قلت إنما يرد هذا على قول من قال بنسخ الوصية المذكورة، وقد تقدم أن جماعة من أهل العلم ذهبت إلى أنها محكمة فلا تأمل ولا تنبيه والله أعلم. ﴿إن الله سميع﴾ لما أوصى به الموصي ولقوله ﴿عليم﴾ بتبديل المبدل وفعل الوصي فيجازي عليه الأول بالخير والثاني بالشر.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿فمن خاف﴾ أي علم وهو مجاز والعلاقة بينهما ان الإنسان لا يخاف شيئاً حتى يعلم أنه مما يخاف منه، فهو من باب التعبير عن السبب بالمسبب، ومنه قوله تعالى ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ أي يعلما ﴿من موص جنفاً أو إثماً﴾ الجنف المجاوزة، من جنف يجنف إذا جاوز قاله النحاس، وقيل الجنف الميل، قاله في الصحاح والكشاف، والإثم الظلم، وقيل الجنف الخطأ في الوصية والإثم العمد ﴿فأصلح بينهم﴾ أي أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق والاضطراب بسبب الوصية بابطال ما فيه ضرر ومخالفة لما شرعه الله، وإثبات ما هو حق كالوصية في قرابة لغير وارث، والضمير في ﴿بينهم﴾ راجع الى الورثة وان لم يتقدم لهم ذكر لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق، وقيل راجع إلى الموصى لهم وهم الأبوان والقرابة ﴿فلا إثم عليه﴾ أي لا حرج عليه في الصلح وإن كان فيه تبدل لأنه خير بخلاف الأول فإنه ضير ﴿إن الله غفور رحيم﴾ لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل.

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار» الحديث[1] أخرجه أبو داود والترمذي، ومعنى المضارة في الوصية أن لا تمضي أو ينقص بعضها أو يوصي لغير أهلها أو يحيف في الوصية ونحوها.

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٦/٢٧١،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ قد تقدم معنى ﴿كتب﴾ ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الأمة، والصيام أصله في اللغة الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، ويقال للصمت صوم، لأنه امساك عن الكلام، ومنه ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي امساكاً عن الكلام، وهو في الشرع الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفي الآية توكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطييب للنفس ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم، والمعنى أن الصوم عبادة قديمة ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحدكم.

واختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو، فقيل هو قدر الصوم ووقته، فإن الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغيروا، وقيل هو الوجوب فإن الله أوجب على الأمم الصيام، وقيل هو الصفة أي ترك الأكل والشرب ونحوهما في وقت، فعلى الأول معناه أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم، وعلى الثاني أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم، وعلى الثالث أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم ﴿لعلكم تتقون﴾ المراد بالتقوى المحافظة عليها، وقيل تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة لأنها تكسر الشهوة وتضعف دواعي المعاصي كما ورد في الحديث أنه جنة وأنه وجاء[1].

---

(١) وتمام الحديث عن مسلم /١٤٠٠
يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

﴿أياماً معدودات﴾ أي معينات بعدد معلوم ومقدرات، ويحتمل أن يكون في هذا الجمع لكونه من جموع القلة إشارة إلى تقليل الأيام أي قليلات، يعني أقل من أربعين، وقيل أنه كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً وصوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان، قال ابن عباس: أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم، وقيل ان المراد أيام شهر رمضان، وعلى هذا فتكون الآية غير منسوخة.

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني عن دغفل بن حنظلة عن النبي ﷺ قال: كان على النصارى صوم شهر رمضان فمرض ملكهم فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن عشراً ثم كان آخر فأكل لحماً، فأوجع فوه فقال لئن شفاه الله ليزيدن سبعة ثم كان عليهم ملك آخر فقال ما ندع من هذه الثلاثة الأيام شيئاً نتمها ونجعل صومنا في الربيع ففعل فصارت خمسين يوماً» . وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت كان عاشوراء يصام فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر[1].

﴿فمن كان﴾ حين حضوره ووجود الشخص فيه ﴿منكم مريضاً﴾ ولو في اثناء اليوم بخلاف السفر، فلا يبيح له الفطر إذا طرأ في أثناء اليوم، وهذا سر التعبير بعلى في السفر دون المرض، قيل للمريض حالتان ان كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة وان كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة، وبهذا

(١) جاء في البخاري عن عبد الله بن عمر:
صام النبي صلى الله عليه وسلم عاشوراء، وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك.

قال الجمهور ﴿أو على سفر﴾ أي مستعلياً على السفر ومتمكناً منه بأن كان متلبساً به وقت طلوع الفجر.

واختلف أهل العلم في السفر المبيح للافطار فقيل مسافة قصر الصلاة، والخلاف في قدرها معروف، وبه قال الجمهور، وقال غيرهم بمقادير لا دليل عليها، والحق ان ما صدق عليه مسمى السفر فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض فهو الذي يباح عنده الفطر، وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة، واختلفوا في الأسفار المباحة، والحق ان الرخصة ثابتة فيه وكذا اختلفوا في سفر المعصية.

﴿فعدة من أيام أخر﴾ أي فعليه عدة ما أفطر من أيام أخر بصومها بدله، وأخر جمع أخرى تأنيث أخر بفتح الخاء أو جمع أخرى بمعنى آخره تأنيث آخر بكسر الخاء، وفيه الوصف والعدل، واختلف النحاة في كيفية العدل فيه على أقوال، والعدة فعلة من العدد، وهو بمعنى المعدود أي فعليه عدة أو فالحكم عدة أو فالواجب عدة من غير أيام مرضه وسفره، وإليه ذهب الظاهرية، وبه قال أبو هريرة، وليس في الآية ما يدل على وجوب التتابع في القضاء.

﴿وعلى الذين﴾ لا ﴿يطيقونه﴾ لكبر أو موض لا يرجى برؤه، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فقيل إنها منسوخة، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام، لأنه شق عليهم، وكان من أطعم كل يوم مسكيناً ترك الصوم وهو يطيقه ثم نسخ ذلك وهو قول الجمهور، وروي عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ، وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة، وهذا يناسب قراءة التشديد، وهو يطوقونه أي يكلفونه والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ﴿فدية طعام مسكين﴾ وقرىء مساكين، والفدية الجزاء وهو القدر الذي يبذله الإنسان يقي به نفسه من تقصير وقع منه

في عبادة ونحوها.

وقد اختلفوا في مقدار الفدية فقيل كل يوم صاع من غير البر ونصف صاع منه، وقيل مد فقط أي من غالب قوت البلد، وقال ابن عباس: يعطي كل مسكين عشاءه وسحوره أي قدر ما يأكله في يومه، وروي أن أنس ابن مالك ضعف عن الصوم عاماً قبل موته فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم، عن ابن عباس بسند صحيح أنه قال: لأم ولد له حامل أو مرضعة أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصوم. عليك الطعام لا قضاء عليك، عن ابن عمر أن إحدى بناته ارسلت تسأله عن صوم رمضان وهي حامل، قال: تفطر وتطعم كل يوم مسكيناً، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾ قال ابن شهاب: معناه من أراد الإطعام مع الصوم، وقال مجاهد: معناه من زاد في الإطعام على المد، وقيل من أطعم مع المسكين مسكيناً آخر.

﴿وأن تصوموا﴾ أي أن صيامكم ﴿خير لكم﴾ أيها المطيقون من الإفطار مع الفدية وكان هذا قبل النسخ، وقيل معناه وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق، وقيل هو خطاب مع الكافة لأن اللفظ عام فرجوعه إلى الكل أولى، وهو الأصح، وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة جداً ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أن الصوم خير لكم وقيل المعنى إذا صمتم علمتم ما في الصوم من المعاني المورثة للخير والتقوى، ولا رخصة لأحد من المكلفين في إفطار رمضان بغير عذر، والأعذار المبيحة للفطر ثلاثة (أحدها) السفر والمرض والحيض والنفاس وأهلها إذا أفطروا فعليهم القضاء دون الفدية (والثاني) الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء والفدية، وبه قال الشافعي، وذهب أهل الرأي إلى أنه لا فدية عليهما (الثالث) الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذي لا يرجى برؤه فعليهم الفدية دون القضاء.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿شهر﴾ أي ذلكم شهر أو كتب عليكم الصيام صيام شهر، وقرىء بالنصب أي صوموا شهراً، ولأهل اللغة فيه قولان أشهرهما أنه اسم لمدة الزمان الذي يكون مبدؤه الهلال ظاهراً إلى أن يستتر، سمي بذلك لشهرته افي حاجة الناس إليه من المعاملات، والثاني ما قاله الزجاج أنه اسم للهلال نفسه، و ﴿رمضان﴾ علم لهذا الشهر المخصوص وهو علم جنس مركب تركيباً إضافياً وكذا باقي أسماء الشهور وهو ممنوع من الصرف للعلمية والزيادة، وهو مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء ممدوداً شدة الحر، ومنه الحديث الثابت في الصحيح «صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال»[1] أي أحرقت الرمضاء أجوافها.

قال الجوهري: وشهر رمضان يجمع على رمضانات وأرمضاء، يقال أنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام الحر فسمي بذلك، وقيل إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة، وقال الماوردي: أن اسمه في الجاهلية ناتق وإنما سموه بذلك لأنه كان ينتقهم لشدته عليهم، وقد حققنا ذلك في كتابنا لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان فليرجع إليه.

وقد أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ وابن عدي والبيهقي في سننه عن أبي

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٧٠٩.

هريرة مرفوعاً وموقوفاً لا تقولوا رمضان فإن رمضان إسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(١) وثبت عنه أنه قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»(٢) وثبت عنه أنه قال: «شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة»(٣) **وقال «إذا دخل رمضان** فتحت أبواب الجنة»(٤) وهذا كله في الصحيح، وثبت عنه في أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول «رمضان» بدون ذكر الشهر، وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة.

﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي ابتدىء فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، قيل أنزل فيه من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم كان ينزل به جبرائيل نجماً نجماً إلى الأرض، وقيل أنزل في شأنه القرآن؛ وهذه الآية أعم من قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقوله ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ يعني ليلة القدر، والقرآن اسم لكلام الله تعالى علم لما بين الدفتين وهو بمعنى المقروء كالمشروب يسمى شراباً، والمكتوب يسمى كتاباً، وقيل هو مصدر قرأ يقرأ ومنه قوله تعالى ﴿وقرآن الفجر﴾ أي قراءة الفجر، وعن الشافعي أنه قال: القرآن اسم وليس بمهموز، وليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل، فعلى هذا إنه ليس بمشتق.

وذهب الأكثرون إلى أنه مشتق من القرء، وهو الجمع فسمي قرآناً لأنه يجمع السور والآيات بعضها إلى بعض، ويجمع الأحكام والقصص والأمثال. والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وقيل في معنى الآية الذي نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت هذه الآية في الصلاة والزكاة ونحو ذلك، روي

---

(١) احمد ٢/٢٣٢.

(٢) احمد ٢/٢٨١.

(٣) احمد ٥/٥١.

(٤) البخاري /الصوم: ٨.

هذا عن مجاهد والضحاك وهو اختيار الحسن بن الفضل.

وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزل الزبور لثماني عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر مثله لكنه قال وأنزل الزبور لاثني عشر، وزاد وأنزلت التوراة لست خلون من رمضان؛ وأنزل الإنجيل لثماني عشرة خلت من رمضان[1].

وعن ابن عباس قال أنه أنزل في ليلة القدر وفي رمضان وفي ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام، وعنه قال نزل القرآن جملة لأربع وعشرين من رمضان فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيلاً، وعنه أنه قال ليلة القدر هي الليلة المباركة وهي في رمضان أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور؛ ثم نزل به جبريل نجوماً في ثلاث وعشرين سنة.

﴿هدى للناس﴾ أي هادياً لهم من الضلال بإعجازه ﴿وبينات من الهدى﴾ من عطف الخاص على العام إظهاراً لشرف المعطوف بإفراده بالذكر لأن القرآن يشمل محكمه ومتشابهه، والبينات تختص بالمحكم منه، قيل الهدى الأول في الأحكام الاعتقادية والهدى الثاني في الفرعية فهما متغايران ﴿والفرقان﴾ هو ما فرق بين الحق والباطل أي فصل.

﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ هذا من أنواع المجاز اللغوي وهو إطلاق اسم الكل على الجزء، أطلق الشهر وهو اسم للكل وأراد جزءاً منه، وقد فسره علي وابن عمر أن من شهد أول الشهر ﴿فليصمه﴾ جميعه، والمعنى ومن حضر

(١) احمد ٤/١٠٧.

ولم يكن في سفر بل كان مقيماً فليصم فيه، قال جماعة من السلف والخلف أن من أدركه شهر رمضان مقيماً غير مسافر لزمه صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام، واستدلوا بهذه الآية.

وقال الجمهور: أنه إذا سافر أفطر لأن معنى الآية أنه حضر الشهر من أوله إلى آخره لا إذا حضر بعضه وسافر فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره، وهذا هو الحق، وعليه دلت الأدلة الصحيحة من السنة، وقد كان يخرج صلى الله عليه وسلم في رمضان فيفطر، وقيل هي رؤية الهلال ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»[1]، أخرجه الشيخان، ولا خلاف أنه يصوم رمضان من رأى الهلال ومن أخبر به؛ ثم قيل يجزيء فيه خبر الواحد قاله أبو ثور، وقيل خبر الجمع قاله مالك.

﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ قد تقدم تفسيره وإنما كرره لأن الله تعالى ذكر في الآية الأولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخه بقوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فلو اقتصر على هذا لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم فيهما باق على ما كان عليه، وقد أطال بعضهم في بيان مسائل المرض والسفر في تفسير هذه الآية والأمر ظاهر.

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فلذلك أباح الفطر للسفر والمرض، وفيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه ومراد من مراداته في جميع أمور الدين، ومثله قوله تعالى ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وقد ثبت عن رسول الله ﷺ «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» وهو في الصحيح[2]، واليسر السهل الذي لا عسر فيه، عن ابن عباس قال اليسر الإفطار في السفر، والعسر الصوم في السفر.

(١) مسند أحمد ٤/٤١٧ ـ ١/٣٦٥ ـ ٣/١٣١.
(٣) مسند احمد ٢/٤١٥ ـ ٥/٤٢.

﴿ولتكملوا العدة﴾ قال في الكشاف علة للأمر بمراعاة العدة، عن الربيع قال عدة رمضان، وقال الضحاك: عدة ما أفطر المريض في السفر، وقد صح عن رسول الله ﷺ: أنه قال «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين يوماً»(١).

﴿ولتكبروا الله﴾ علة لما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، والمراد بالتكبير هنا هو قول القائل الله أكبر، قال الجمهور ومعناه الحض على التكبير في آخر رمضان، وقد وقع الخلاف في وقته فروي عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر وقيل إذا رأوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة، وقيل إلى خروج الإمام، وقيل هو التكبير يوم الفطر، قال مالك: هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام، وبه قال الشافعي، وقال أبو حنيفة: يكبر في الأضحى ولا يكبر في الفطر.

عن ابن مسعود أنه كان يكبر: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر، ولله الحمد، وعن ابن عباس أنه كان يكبر: الله أكبر كبيراً الله أكبر كبيراً الله أكبر وأجل ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا. وعنه قال: حق على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم لأن الله تعالى يقول ولتكبروا الله.

﴿على ما هداكم﴾ أي أرشدكم إلى طاعته وإلى ما يرضى به عنكم، قيل ﴿على﴾ هنا على بابها من الإستعلاء كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم قاله الزمخشري ﴿الثاني﴾ أنها بمعنى لام العلة والأول أولى لأن المجاز في الحرف ضعيف و(ما) في ما هداكم مصدرية أي على هدايته إياكم أو موصولة بمعنى الذي وفيه بعد ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على نعمه، وقد تقدم تفسيره، وهو علة الترخيص والتيسير قاله في الكشاف، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبيانه إلا النقاد من علماء البيان.

(١) صحيح مسلم وفي رواية: «الشهر تسع وعشرون، فإذا رأيتم الهلال فصوموا. واذا رأيتموه فافطروا، فإن غم عليكم فاقدروا له.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ يحتمل أن يكون السؤال عن القرب والبعد كما يدل عليه قوله ﴿فإني قريب﴾ ويحتمل أن يكون السؤال عن إجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله ﴿أجيب دعوة الداع﴾ ويحتمل أن السؤال عما هو أعم من ذلك، وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه، فسكت النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن قال سأل أصحاب النبي ﷺ أين ربنا فأنزل الله هذه الآية.(١)

وأخرج ابن مردويه عن أنس أنه سأل أعرابي النبي ﷺ أين ربنا فنزلت. وعن ابن عباس قال: قال يهود المدينة يا محمد صلى الله عليه وسلم كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وأن غلظ كل سماء مثل ذلك، فنزلت هذه الآية، وقيل أنهم سألوه في أي ساعة ندعو ربنا فنزلت، والقرب قيل بالإجابة وقيل بالعلم وقيل بالإنعام، وقال في الكشاف أنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأله بمن قرب مكانه، فإذا دعى أسرعت تلبيته، قيل والقرب استعارة تبعية تمثيلية وإلا فهو متعال عن القرب الحسي لتعاليه عن المكان ونظيره ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ قاله الكرخي.

---

(١) وقيل: عن مقاتل أن عمر رضي الله عنه واقع امرأته بعدما صلى العشاء فندم على ذلك وبكى، وجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتماً - وكان ذلك قبل نزول الرخصة فنزلت هذه الآية - القرطبي ٢/٣٠٨.

والحق أن القرب من الصفات نؤمن به ونمره على ما جاء ولا نؤول ولا نعطل. وعن أبي موسى الأشعري قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً وهو معكم» أخرجه البخاري ومسلم، ومعنى أربعوا ارفقوا بها، وقيل أمسكوا عن الجهر فإنه قريب يسمع دعاءكم.[1].

﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ معنى الإجابة هو معنى ما في قوله تعالى ﴿أدعوني أستجب لكم﴾ وقيل معناه أقبل عبادة من عبدني بالدعاء لما ثبت عنه ﷺ من أن الدعاء هو العبادة كما أخرجه أبو داود وغيره من حديث النعمان بن بشير، والظاهر أن الإجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي، وكون الدعاء من العبادة لا يستلزم أن الإجابة هي القبول للدعاء أي جعله عبادة متقبلة فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة، والمراد أن الله سبحانه وتعالى يجيب بما شاء وكيف شاء فقد يحصل المطلوب قريباً، وقد يحل بعيداً، وقد يدفع عن الداعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه، وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعي في دعائه كما في قوله سبحانه

﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ ومن الاعتداء ان يطلب ما لا يستحقه ولا يصلح له كمن يطلب منزلة في الجنة مساوية لمنزله الأنبياء او فوقها.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «ما

(١) وفي رواية لمسلم /٢٧٠٤: انكم تدعون سمعياً قريباً وهو معكم قال الراوي (عبد الله بن قيس) فقال (النبي): يا عبد الله بن قيس الا أدلك على كنز من كنوز الجنة فقلت بلى يا رسول الله قال: قل لا حول ولا قوة إلا بالله..
وفي رواية اخرى: والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم.

من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»[1] وثبت في الصحيح أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي»[2].

﴿فليستجيبوا لي﴾ أي كما أجبتهم إذا دعوني فليستجيبوالي فيما دعوتهم إليه من الإيمان والطاعات، وقيل معناه أنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له أي القيام بما أمرهم به والترك لما نهاهم عنه، وقال: مجاهد أي فليطيعوني، والإجابة في اللغة الطاعة من العبد والإثابة والعطاء من الله

﴿وليؤمنوا بي﴾ اللام فيه للأمر كما فيما قبله أي وليدوموا على الإيمانِ

(لعلهم يرشدون﴾ اي يهتدون، قاله الربيع بن أنس، والرشَد خلاف الغي، قال الهروي: الرشد والرشد والرشاد الهدى والإستقامة ومنه هذه الآية، وقد ورد في فضل الدعاء وآدابه أحاديث كثيرة ذكرها أهل التفسير، وهي في الصحاح والسنن لا نطول بذكرها[3].

---

(١) حديث ما من مسلم يدعوه.. رواه مسلم باب الذكر والدعاء /٩٢. ورواه احمد عن ابي سعيد الخدري ورواه البزار وابو يعلى والحاكم وقال: صحيح الاسناد.

(٢) حديث يستجاب لاحدكم ما لم يعجل... رواه مسلم ٢٧٣٥/.

(٣) والدعاء تفتقر اجابته الى شروط أصلها الطاعة لله، ومنها اكل الحلال فإن أكل الحرام يمنع اجابة الدعاء ومنها حضور القلب ففي بعض الحديث: (لا يقبل الله دعاء من قلب غافل).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله كان حراماً عليهم، وهكذا كان كما يفيده السبب لنزول الآية، فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن البراء بن عازب قال كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وأن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فكان يومه ذلك يعمل في أرضه فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال هل عندكم طعام قالت لا، ولكن أنطلق فأطلب ذلك، فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائماً قالت خيبة لك أنمت، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك النبي ﷺ فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿من الفجر﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً.

والرفث كناية عن الجماع، وعن ابن عباس قال الدخول والتغشي والإفضاء والمباشرة والرفث واللمس والمس هذا الجماع، غير أن الله حيي كريم يكني بما شاء عما شاء، قال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته وكذا قال الأزهري، وقيل الرفث أصله قول الفحش، رفث وأرفث إذا تكلم بالقبيح وليس هو المراد هنا وعُدي الرفث بإلى لتضمينه معنى الإفضاء.

﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ تعليل لما قبله وجعل النساء لباساً للرجال والرجال لباساً لهن لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه، قال أبو عبيدة وغيره: يقال للمرأة لباس وفراش وإزار، وقيل إنما جعل كل واحد منهما لباساً للآخر لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس وعن ابن عباس: هن سكن لكم وأنتم سكن لهن قيل لا يسكن شيء إلى شي كسكون أحد الزوجين إلى الآخر، وقد روي في سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء.

﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أي تخونونها بالمباشرة في ليالي الصوم يقال خان واختان بمعنى وهما من الخيانة، قال القتيبي أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة فيه انتهى، وإنما سماهم خائنين لأنفسهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم.

﴿فتاب عليكم﴾ يحتمل معنيين أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، والآخر التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة كقوله ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ يعني خفف عنكم وكقوله ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله﴾ يعني تخفيفاً وهكذا قوله: ﴿وعفا عنكم﴾ يحتمل العفو من الذنب ويحتمل التوسعة والتسهيل ﴿فالآن﴾ قال أبو البقاء ﴿الآن﴾ حقيقة الوقت الذي أنت فيه وقد يقع على الماضي القريب منك وعلى المستقبل القريب تنزيلاً للقريب منزلة الحاضر وهو المراد هنا، وقد تقدم الكلام على الآن ﴿باشروهن﴾ أي جامعوهن فهو حلال لكم في ليالي الصوم، وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد بصاحبه، قيل هذا الأمر والثلاثة بعده للإباحة وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة.

﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ تأكيد لما قبله أو تأسيس، والثاني أولى أي ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل والولد، قيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتي، والتقدير وابتغوا المحل

الذي كتب الله لكم، وقيل المراد ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه قاله الزجاج وغيره، وقيل ابتغوا الرخصة والتوسعة وقيل ابتغوا ما كتب لكم من الإماء والزوجات، وقيل ابتغوا ليلة القدر، وقيل غير ذلك مما لا يفيده النظم القرآني ولا دل عليه دليل آخر، وقرأ الحسن البصري ﴿واتبعوا﴾ بالعين المهملة من الاتباع.

﴿كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هو تشبيه للمنع والمراد هنا بالخيط الأبيض هو المعترض في الأفق لا الذي هو كذنب السرحان فإنه الفجر الكذاب الذي لا يحل شيئاً ولا يحرمه، والمراد بالخيط الأسود سواد الليل، والتبيين أن يمتاز أحدهما عن الآخر، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال: كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه يعني الليل من النهار.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عدي بن حاتم أنه جعل تحت وسادته خيطين أبيض وأسود جعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود، فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره قال: إن وسادك إذن لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل، وفي رواية[1] في البخاري وغيره أنه قال له إنك لعريض العقل، وفي رواية عند ابن جرير وابن أبي حاتم أنه ضحك منه.

قيل «من» الأولى لابتداء الغاية والثانية للبيان، قاله السيوطي، وقال الزمخشري وغيره الثانية للتبعيض أي حال كون الخيط الأبيض بعضاً من الفجر، وفي تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة

(١) رواه احمد في المسند وفي رواية لمسلم /١٠٩/: ان وساديك لعريض.

صوم من أصبح جنباً.

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام عند أبي حنيفة، وقال الشافعية إنما ورد هذا في بيان أحكام صوم الفرض، ويدل على إباحة الفطر من النفل حديث عائشة في مسلم وفيه أهدى لنا حيس، قال أرنيه فلقد أصبحت صائماً فأكل، وقيل للوجوب في صوم الفرض وللندب في صوم النفل، وقيل للوجوب فيهما.

وفي الآية التصريح بأن للصوم غاية هي الليل فعند إقبال الليل من المشرق وإدبار النهار من المغرب يفطر الصائم ويحل له الأكل والشرب وغيرهما.

﴿ولا تباشروهن﴾ قيل المراد بالمباشرة هنا الجماع، وقيل يشمل التقبيل واللمس إذا كانا بشهوة لا إذا كانا بغير شهوة فهما جائزان كما قاله عطاء والشافعي وابن المنذر وغيرهم، وعلى هذا يحمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل فتكون هذه الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكون بشهوة.

﴿وأنتم عاكفون في المساجد﴾ الاعتكاف في اللغة الملازمة يقال عكف على الشيء إذا لازمه، ولما كان المعتكف يلازم المسجد قيل له عاكف في المسجد ومعتكف فيه، لأنه يحبس نفسه لهذه العبادة في المسجد، والاعتكاف في الشرع ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص، وقد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب، وعلى أنه لا يكون إلا في المسجد.

بين سبحانه في هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف في الليل والنهار حتى يخرج من اعتكافه. وللاعتكاف أحكام مستوفاة في كتب الفقه وشروح الحديث.

وأقول أن قوله تعالى ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ جملة إنشائية نهيية مسوقة لتحريم مباشرة النساء في حال الاعتكاف في المساجد، فقوله ﴿في المساجد﴾ متعلق بقوله ﴿عاكفون﴾ وليست لبيان النهي عن مباشرة

النساء في المساجد من غير فرق بين المعتكف وغيره، ولو كان كذلك لم تكن لقوله ﴿وأنتم عاكفون﴾ فائدة.

ثم هذا الاعتكاف المذكور في الآية قد بينه رسول الله ﷺ لأمته باعتكافه غير مرة وهو وزوجاته وأصحابه بمحضره فكان ﷺ إذا أراد الاعتكاف أمر بخبائه فضرب في المسجد كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ثم أقام فيه لا يخرج منه إلا لحاجة الإنسان ويعود مسرعاً لا يعود مريضاً ولا يشتغل بشيء كما ثبت في دواوين الإسلام فهذا هو الاعتكاف الشرعي الذي علمنا رسول الله ﷺ.

ومن زعم أن المراد به مطلق اللبث ولو في غير المسجد، نظر إلى أصل معناه اللغوي فقد قدم الحقيقة اللغوية على الحقيقة الشرعية وهو خلاف ما تقرر في الأصول، بل خلاف ما عليه أهل العلم سلفاً وخلفاً، ولو كان الاعتكاف المشروع هو مجرد اللبث ولو في غير المسجد لكان اللابث في داره وفي سوقه وفي المصاطب ونحوها معتكفاً إذا حصلت منه النية، وهذا خلاف ما في القرآن الكريم، وخلاف ما ثبت تواتراً في السنة المطهرة، وخلاف ما فهمه المسلمون من هذه العبادة، بل خلاف ما ورد عنه ﷺ من قوله كما في سنن سعيد بن منصور من حديث ابن مسعود قال: لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة أو قال: إلا في مسجد جماعة(١).

وأما ما فهمه بعض الناس من جواز الوطء للمعتكف في غير المسجد فيرده ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: السنة على المعتكف أن لا يعود مريضاً ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منه، ولا اعتكاف إلا بصوم ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع، وقد تقرر أن قول الصحابي «من السنة» أو السنة له حكم

(١) والصحيح انه يصح في مسجد جامع كما نصت كتب الفقه اما احاديث الاعتكاف فهي كثيرة منها: ما روته عائشة رضي الله عنها: كان الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الاواخر من رمضان.

الرفع، وهذا الحديث كما يدل على تحريم الوطء على المعتكف يدل على أنه لا اعتكاف إلا في مسجد جامع فهو يرد عليه من جهتين، وقد ذكر الشوكاني الكلام على هذا الحديث في شرحه على المنتقى فليرجع إليه.[1]

﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي هذه الاحكام حدود الله، وأصل الحد المنع ومنه سمي البواب والسجان حداداً، وسميت الأوامر والنواهي حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج عنها ما هو منها، ومن ذلك سميت الحدود حدوداً لأنها تمنع أصحابها من العود، ومعنى النهي عن قربانها النهي عن تعديها بالمخالفة لها، وقيل أن حدود الله هي محارمة فقط ومنها المباشرة من المعتكف والافطار في رمضان لغير عذر وغير ذلك مما سبق النهي عنه، ومعنى النهي عن قربانها على هذا واضح، وقيل حدود الله فرائض الله. وقيل المقادير التي قدرها ومنع من مخالفتها ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ أي كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم معالم دينه وأحكام شريعته والعلامات الهادية إلى الحق.

---

(١) وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اعتكف يدني إلي رأسه فأرجّله،، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة انسان (الغائط والبول) وقد اجمع العلماء على ان الاعتكاف ليس بواجب وانه سنة، واستحب مالك الا يخرج المعتكف إلا بعد آذان صلاة العيد حين يغدو من المعتكف الى المصلى وبه قال أحمد. وقال الشافعي والأوزاعي: يخرج اذا غابت الشمس والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ هذا يعم جميع الأمة وجميع الأموال لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، ومأكول بالحل لا بالإثم، وإن كان صاحبه كارهاً كقضاء الدين إذا امتنع منه من هو عليه، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها ونفقة من أوجب الشرع نفقته، والحاصل أن ما لم يبح الشرع أخذه من مالكه فهو مأكول بالباطل وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغي وحلوان الكاهن، وثمن الخمر والملاهي، وأجرة المغني، والقمار، والرشوة في الحكم وشهادة الزور والخيانة في الوديعة والأمانة، والأكل بطريق التعدي والنهب والغصب، والباطل في اللغة الذاهب الزائل، والمعنى بالسبب الباطل أو مبطلين أو متلبسين بالباطل، عن ابن عباس قال: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وقال مجاهد معناها لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم.

﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ مجزوم عطفاً على ﴿تأكلوا﴾ فهو من جملة المنهي عنه أي لا تلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام، يقال أدلى الرجل بحجته أو بالأمر الذي يرجو النجاح به تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر، يقال أدلى دلوه أرسلها، والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة، والمعنى لا تسرعوا بالخصومة في الأموال إلى الحكام ليعينوكم على إبطال حق أو تحقيق باطل، وأما الاسراع بها لتحقيق الحق فليس مذموماً.

وفي هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال والفروج، فمن حكم له القاضي بشيء مستنداً في حكمه

إلى شهادة زور أو يمين فاجرة فلا يحل له أكله فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وهكذا إذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فإنه من أكل أموال الناس بالباطل، ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال.

وقد روي عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك، وهو مردود بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ كما في حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار» وهو في الصحيحين وغيرهما[1].

وقيل معناه لا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه إلى الحكام، والأول أولى، وكان شريح القاضي يقول إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالماً ولكن لا يسعني إلا أن أقضي بما يحضرني من البينة وأن قضائي لا يحل لك حراماً ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾ أي قطعة أو جزءاً أو طائفة فعبر بالفريق عن ذلك، وأصل الفريق القطعة من الغنم تشذ عن معظمها، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس بالإثم، وسمي الظلم والعدوان إثماً باعتبار تعلقه بفاعله، قال ابن عباس أي باليمين الكاذبة، وقيل بشهادة الزور

﴿وأنتم تعلمون﴾ أي حال كونكم عالمين أنكم على الباطل أو أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء، وهذا أشد لعقابهم وأعظم لجرمهم.

---

(١) حديث (انكم تختصمون لدي...) رواه مسلم ١٧١٣.

وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج اليهم فقال: «إنما أنا بشر وانه يأتيني الخصم.

فلعل بعضكم أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿يسئلونك عن الأهلة﴾ أي عن فائدة اختلافها، لأن السؤال عن ذاتها غير مفيد، وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس قال: نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عتمة وهما رجلان من الأنصار قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد، فنزلت هي مواقيت للناس في حل دينهم ولصومهم ولفطرهم، وأوقات حجهم وأجائرهم وأوقات الحيض وعدد نسائهم، والشروط التي إلى أجل، ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة.

والأهلة جمع هلال وجمعها باعتبار هلال كل شهر أو كل ليلة تنزيلاً لاختلاف الاوقات منزلة اختلاف الذوات، والهلال اسم لما يبدو في أول الشهر وفي آخره، قال الأصمعي هو هلال حتى يستدير، وقيل هو هلال حتى ينير بضوئه السماء، وذلك ليلة السابع، وإنما قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته، ومنه استهل الصبي إذا صاح واستهل وجهه وتهلل إذا ظهر فيه السرور، والهلال في الحقيقة واحد وجمعه باعتبار أوقاته واختلافه في ذاته، واختلف أهل اللغة إلى متى يسمى هلالاً فقال الجمهور لليلتين، وقيل لثلاث ثم يكون قمراً، وقال أبو الهيثم لليلتين من أول الشهر ولليلتين من آخره وما بينهما قمر.

﴿قل هي مواقيت﴾ الذي قرره أبو السعود والخازن أن الجواب مطابق

للسؤال، وفي الآية بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجارات والأيمان وغير ذلك، ومثله قوله تعالى ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ وقيل هو جواب بغير ما سأل عنه تنبيهاً على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب لا عن سبب الاختلاف، فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض للمكلف في معرفتها ولا يليق أن تبين له.

والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت والفرق بين الوقت وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها، والزمان مدة منقسمة إلى الماضي والحال والمستقبل، والوقت الزمان المفروض لأمر، وكل ما جاء في القرآن من السؤال أجيب عنه بقل بلا فاء إلا في طه ﴿ويسئلونك عن الجبال فقل﴾ لأن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره ان سئلت عن الجبال فقل.

﴿للناس﴾ أي لأغراضهم الدنيوية والدينية كما أشار لذلك بتعداد الأمثلة إذ الأهلة ليست مواقيت لذوات الناس ﴿والحج﴾ عطف على الناس أي يعلم بها وقته، فلو استمرت على حالة لم يعرف ذلك، قال سيبويه: بالفتح كالرد والشد وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى وقيل بالفتح مصدر وبالكسر الاسم، وإنما أفرد سبحانه بالحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، ولا يجوز فيه النسء عن وقته ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها.

وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب أعني قوله قل هي مواقيت الخ من الأسلوب الحكيم كما تقدم وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها فأجيبوا بالحكمة التي كانت الزيادة والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصده السائل وأحق بأن يتطلع لعلمه.

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتّقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة والجواب بأنها مواقيت للناس والحج أن الأنصار كانوا إذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه، لأنهم يعتقدون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه وبين السماء حائل فكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم، وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين، وقال أبو عبيدة: إن هذا من ضرب المثل، والمعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن البر التقوى واسألوا العلماء كما تقول أتيت الأمر من بابه، وقيل هو مثل في جماع النساء وأنهم أمروا بإتيانهن في القبل لا في الدبر، وقيل غير ذلك، والبيوت جمع بيت وقرىء بضم الباء وكسرها ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ قد تقدم تفسير التقوى والفلاح.

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعاً قبل الهجرة لقوله ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ وقوله ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ وقوله ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ وقوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ونحو ذلك مما نزل بمكة فلما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ونزلت هذه الآية.

قال أبو العالية: إنها أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة، وقيل أول ما نزل قوله تعالى ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ حتى نزل قوله تعالى ﴿اقتلوا المشركين﴾ وقوله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ قيل انه نسخ بها سبعون آية والمعنى قاتلوا في طاعة الله وطلب رضوانه.

عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي

العليا فهو في سبيل الله»[١].

﴿الذين يقاتلونكم﴾ قال جماعة من السلف المراد بهذا من عدا النساء والصبيان والشيوخ والزمنى والرهبان والمجانين والمكافيف ونحوهم، وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة ﴿ولا تعتدوا﴾ المراد بالاعتداء عند أهل القول الأول هو مقاتلة من لم يقاتل من الطوائف الكفرية، والمراد به على القول الثاني مجاوزة قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره، قال ابن عباس: أي لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير، ولا من ألقى السلم وكف يده فإن فعلتم فقد اعتديتم، وقال عمر بن عبد العزيز: أن هذه الآية في النساء والذرية ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي لا يريد بهم الخير.

عن بريدة قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال «اغزوا بالله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا تعتدوا» أخرجه مسلم[٢].

---

(١) وفي رواية: «أن رجلاً اعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله» وفي رواية من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله، مسلم / ١٩٠٤.

(٢) وقد اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة ام لا فعلى قولين:

١ ـ أنها منسوخة بقوله ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾.

٢ ـ أنها محكمة. . . واما الذين لم يعدوا انفسهم للقتال كالرهبان والمجانين. . . فلا تعتدوا عليهم. وبه قال ابو جعفر وقال: وهذا القول أولى بالصواب.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ يقال ثقف يثقف ثقفاً ورجل ثقيف إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور، قال في الكشاف: والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه انتهى.

قال أبو السعود: أصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً أو عملاً وفيه معنى الغلبة، قال ابن جرير: الخطاب للمهاجرين والضمير لكفار قريش انتهى والمعنى واقتلوهم حيث وجدتموهم وأدركتموهم في الحل والحرم وإن لم يبتدؤكم، وتحقيق القول فيه أن الله تعالى أمر بالجهاد في الآية الأولى بشرط إقدام الكفار على القتال، وفي هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام.

﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أي أخرجوهم من مكة، وقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر ربه فأخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي الفتنة التي أرادوا أن يفتنوكم بها وهي رجوعكم إلى الكفر أشد من القتل، وقيل المراد بالفتنة المحنة التي تنزل بالإنسان في نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه، وقيل المراد بالفتنة الشرك الذي عليه المشركون لأنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم، فأخبرهم الله أن الشرك الذي هم عليه أشد مما يستعظمونه، وقيل المراد فتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم في الحرم أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم، والظاهر أن المراد الفتنة في الدين بأي سبب كان وعلى أي صورة اتفق فإنها أشد من القتل لأنه يؤدي إلى الخلود في النار، والقتل ليس كذلك ولذا جعل أشد منه.

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ اختلف أهل العلم في ذلك فذهبت طائفة إلى أنها محكمة وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى متعد بالقتال فيه فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له، وهذا هو الحق، وقالت طائفة أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن هنا ببناء العام على الخاص فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم، ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «انها لم تحل لأحد قبله وانها أحلت لي ساعة من نهار»، وهو في الصحيح[1].

وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله صلى الله عليه وآله وسلم لابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ويجاب عنه بأنه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فإن قاتلوكم﴾ أي في المسجد الحرام، هذا مفهوم الغاية ﴿فاقتلوهم﴾ أي فقاتلوهم ﴿كذلك﴾ أي القتل والاخراج ﴿جزاء الكافرين﴾ مطلقاً بأن يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم، فثبت بهذا تحريم القتال في الحرم إلا أن يقاتلوا فيقاتلوا ويكون دفعاً لهم ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم وعن الكفر ودخلوا في الإسلام ﴿فإن الله غفور﴾ لما سلف ﴿رحيم﴾ بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

﴿وقاتلوهم﴾ فيه الأمر بمقاتلة المشركين ولو في الحرم وان لم يبتدؤوكم بالقتال فيه، وهذا هو الذي استقر عليه الحكم الآن ﴿حتى﴾ أي إلى غاية هي أن ﴿لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ وهو الدخول في الإسلام والخروج عن سائر الأديان المخالفة له فمن دخل في الإسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله، وقيل المراد بالفتنة هنا الشرك والظاهر أنها الفتنة في الدين عما عمومها كما سلف.

---

(١) سبق ذكره.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ
انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ
اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿فان انتهوا﴾ يعني عن القتال، وقيل عن الشرك والكفر ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي لا تظلموا إلا الظالمين أي لا تعتدوا إلا على ظلم وهو من لم ينته عن الفتنة ولم يدخل في الإسلام، وإنما سمي جزاء الظالمين عدواناً مشاكلة كقوله تعالى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ وقوله ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾.

وسمي الكافر ظالماً لوضعه العبادة في غير موضعها، والنفي هنا بمعنى النهي لئلا يلزم الخلف في خبره تعالى، والعرب إذا بالغت في النهي عن الشيء أبرزته في صورة النفي المحض إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يوجد البتة فدلوا على هذا المعنى بما ذكرت لك، وعكسه في الإثبات إذا بالغوا في الأمر بالشيء أبرزوه في صورة الخبر نحو ﴿والوالدات يرضعن﴾ وسيأتي.

﴿الشهر الحرام﴾ هو ذو القعدة من السنة السابعة ﴿بالشهر الحرام﴾ هو ذو القعدة من السنة السادسة وهذا في المعنى تعليل لقوله ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أخرج أبن جرير عن ابن عباس قال لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، نزلت في ذلك هذه الآية(١)، وروي نحوه عن أبي العالية

(١) ابن كثير ١/٢٢٨.

ومجاهد وقتادة وابن جريج، والمعنى إذا قاتلوكم في الشهر الحرام وهتكوا حرمته قاتلوهم في الشهر الحرام مكافأة لهم ومجازاة على فعلهم، وهذا صريح في أنه قد وقع منهم مقاتلة في عام الحديبية، وهو كذلك فقد وقع قتال خفيف بالرمي بالسهام والحجارة.

﴿والحرمات﴾ جمع حرمة كالظلمات جمع ظلمة، وإنما جمع الحرمات لأنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام، والحرمة ما منع الشرع انتهاكه ﴿قصاص﴾ أي المساواة والمماثلة، والمعنى أن كل حرمة يجزي فيها القصاص، فمن هتك حرمة عليكم فلكم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصاً ولا تبالوا به، قيل وهذا كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقتال، وقيل أنه ثابت بين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينسخ، فيجوز لمن تعدي عليه في مال أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدي عليه، وبهذا قال الشافعي وغيره.

وقال آخرون إن أمور القصاص مقصورة على الحكام وهكذا الأموال لقوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك[1]»، أخرجه الدارقطني وغيره، وبه قال أبو حنيفة وجمهور المالكية وعطاء الخراساني، والقول الأول أرجح، وبه قال ابن المنذر، واختاره ابن العربي والقرطبي، وحكاه الداودي عن مالك، ويؤيده إذنه صلى الله عليه وآله وسلم لامرأة أبي سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها، وهو في الصحيح.

ولا أصرح وأوضح من قوله تعالى في هذه الآية ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الأولى أعني قوله والحرمات قصاص، وإنما سمي المكافآت اعتداء مشاكلة كما تقدم.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٣٨.

وعن ابن عباس في هذه الآية وفي قوله ﴿وجزاء سيئة﴾ الآية وقوله ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ الآية وقوله ﴿وإن عاقبتم﴾ الآية قال هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى، فأمر الله المسلمين من يتجارأ منهم أن يتجاراً بمثل ما أوتي إليه أو يصبر أو يعفو، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأعز الله سلطانه أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، ولا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية، فقال ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ الآية يقول ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه، ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية ولم يرض بحكم الله انتهى.

وأقول هذه الآية التي جعلها ابن عباس ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التي جعلها منسوخة ومؤكدة له، فإن الظاهر من قوله ﴿فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ أنه جعل السلطان له، أي جعل له تسلطاً يتسلط به على القاتل، ولهذا قال ﴿فلا يسرف في القتل﴾.

ثم لو سلمنا أن معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصاً للقتل من عموم الآيات المذكورة لا ناسخاً له، فإنه لم ينص في هذه الآية إلا على القتل وحده، وتلك الآيات شاملة له ولغيره، وهذا معلوم من لغة العرب التي هي المرجع في تفسير كلام الله سبحانه.

ولما أباح لهم الاقتصاص بالمثل، وشأن النفس حب المبالغة في الانتقام من العدو حذرهم من ذلك فقال ﴿واتقوا الله﴾ أي في حال كونكم منتصرين لأنفسكم ممن اعتدى عليكم فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالنصر والعون.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾ في هذه الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله وهو الجهاد بالمال، واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله، والإنفاق هو صرف المال في وجوه المصالح الدينية كالإنفاق في الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة الله تعالى، لأن كل ذلك يصدق عليه أنه في سبيل الله، ولكن إطلاق هذا اللفظ ينصرف إلى الجهاد.

عن خزيم بن فانك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف» أخرجه الترمذي والنسائي[1].

﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ الباء زائدة ومثله ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وقال المبرد: أي بأنفسكم تعبير بالبعض عن الكل كقوله ﴿بما كسبت أيديكم﴾ وقيل هذا مثل مضروب يقال فلان ألقى بيده في أمر كذا إذا استسلم لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيديه فكذلك فعل كل عاجز في أي فعل كان.

وقال قوم: التقدير ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، وعبر بالأيدي عن الأنفس، لأن بها البطش والحركة، والتهلكة مصدر من هلك يهلك هلاكاً، وهلكاً وتهلكة أي لا تأخذوا فيما يهلككم، قال اليزيدي: التهلكة من نوادر المصادر ليست مما يجري على القياس.

وللسلف في معنى الآية أقوال، قال حذيفة: نزلت في النفقة أي تركها في

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٩٨٦.

سبيل الله مخافة العيلة، وروي نحوه عن ابن عباس وعكرمة والحسن، وقال الحسن: هو البخل، وقال زيد بن أسلم: هو أن يهلك رجل من الجوع والعطش ومن المشي في البعث..

وقال أبو أيوب: كانت التهلكة الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الغزو، وقال البراء بن عازب: هو الرجل يذنب الذنب فيلقي بيديه فيقول لا يغفر الله لي أبداً، وروي عن النعمان بن بشير نحوه. وقيل أنه القنوط وقيل عذاب الله، وقيل غير ذلك.

والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما يصدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا، وبه قال ابن جرير الطبري.

ومن جملة ما يدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل في الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين.

ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين رووا السبب، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها، وهو ظن تدفعه لغة العرب.

﴿وأحسنوا﴾ أي في الإنفاق في الطاعة أو الظن بالله في إخلافه عليكم وقال رجل من الصحابة معناه أدوا الفرائض، وقيل لا تقتروا ولا تسرفوا ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ المنفقين في سبيله الظانين به حسناً.

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ اختلف العلماء في المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة فقيل أداؤهما والإتيان بهما من دون أن يشوبهما بشيء مما هو محظور، ولا يخل بشرط ولا فرض كقوله تعالى ﴿فأتمهن﴾ وقوله ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن يخرج لهما لا لغيرهما. وقيل إتمامهما أن يفرد كل واحد منهما من غير تمتع ولا قران، وبه قال ابن حبيب.

وقال مقاتل: إتمامهما أن لا يستحلوا فيهما ما لا ينبغي لهم، وقيل إتمامهما أن يحرم لهما من دويرة أهله، وقيل أن ينفق في سفرهما الحلال الطيب.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل وابن عبد البر في التمهيد عن يعلى بن أمية قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليه أثر خلوق فقال كيف تأمرني يا رسول الله ﷺ أن أصنع في عمرتي، فأنزل الله ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ فقال رسول الله ﷺ أين السائل عن العمرة فقال: ها أناذا قال «إخلع الجبة واغسل عنك أثر الخلوق، ثم ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عمرتك» وقد أخرجه الشيخان وغيرهما من حديثه، ولكن فيهما أنه أنزل عليه بعد السؤال ولم يذكرا ما الذي أنزل عليه.

وقال ابن عباس: تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وزار البيت فقد حل، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت وبالصفا وبالمروة فقد حل.

وقد ورد في فضل الحج والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها.

وقد اتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً، واستدل بهذه الآية على وجوب العمرة لأن الأمر بإتمامها أمر بها، وبذلك قال علي وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد ابن جبير ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعي وأحمد وإسحق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكية.

وقال مالك والنخعي وأصحاب الرأي كما حكاه ابن المنذر عنهم أنها سنة، وحكي عن أبي حنيفة أنه يقول بالوجوب.

ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود وجابر بن عبد الله.

ومن جملة ما استدل به الأولون ما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هـدي فليهل بحج وعمرة» وثبت عنه أيضاً في الصحيح أنه قال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

وأخرج الدارقطني والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت»[1].

واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعي في الأم وعبد الرازق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي صالح الحنفي قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج جهاد والعمرة تطوع».

وأخرج ابن ماجة عن طلحة بن عبيد الله مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه عن جابر: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي، قال: لا وأن تعتمروا خير لكم.

(١) قطعة من حديث طويل اورده مسلم /١٢١٨... دخلت العمرة في الحج - مرتين - لا بل لأبعد أبد...

وأجابوا عن الآية والأحاديث المصرحة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف.

وهذا وإن كان فيه بعد لكنه يجب المصير إليه جمعاً بين الأدلة، ولا سيما بعد تصريحه ﷺ بما تقدم في حديث جابر من عدم الوجوب.

وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها كما أخرجه الشافعي في الأم أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ لعمرو بن حزم أن العمرة هي الحج الأصغر، وكحديث ابن عمر عند البيهقي في الشعب قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أوصني فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج وتعتمر وتسمع وتطيع، وعليك بالعلانية وإياك والسر».

وهكذا ينبغي حمل ما ورد من الأحاديث التي قرن فيها بين الحج والعمرة في أنهما من أفضل الأعمال وأنهما كفارة لما بينهما وأنهما يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك.

وأركان الحج خمسة الإحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعي والحلق أو التقصير، وأركان العمرة أربعة الإحرام والطواف والسعي والحلق أو التقصير، وبهذه الأركان تمام الحج والعمرة.

﴿فإن أحصرتم﴾ أصل الحصر في اللغة الحبس والتضييق، قال أبو عبيدة والكسائي والخليل أنه يقال أحصر بالمرض وحصر بالعدو، وفي المجمل لابن فارس العكس، ورجح الأول ابن العربي قال وهو رأي أكثر أهل اللغة، وقال الزجاج: أنه كذلك عند جميع أهل اللغة، وقال الفراء: هما بمعنى واحد في المرض والعدو، ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيباني فقال حصرني الشيء وأحصرني أي حبسني.

وبسبب هذا الإختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه في معنى الآية

فقالت الحنفية: المحصر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدو أو غيره، وقالت الشافعية وأهل المدينة: المراد بالآية حصر العدو.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر، وينحر هديه إن كان ثم هدي ويحلق رأسه كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو وأصحابه في الحديبية.

﴿فما استيسر من الهـدي﴾ أي إن أحصرتم دون تمام الحج والعمرة فحللتم فالواجب أو فعليكم أو فانحروا أو فاهدوا ما تيسر، يقال يسر الأمر واستيسر كما يقال صعب واستصعب، وليس السين للطلب، والهدي والهدى لغتان وهما جمع هدية وهي ما يهدى إلى البيت من بدنة أو غيرها، ويقال في جمع الهـدي أهداء.

واختلف أهل العلم في المراد بقوله ﴿فما استيسر﴾ فذهب الجمهور إلى أنه شاة، وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير: جمل أو بقرة، وقال الحسن: أعلى الهدي بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة، وهذا الدم دم ترتيب وتعديل كما أشار له ابن المقرىء.

﴿ولا تحلقوا رؤسكـم حتى يبلغ الهـدي محله﴾ هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين محصر وغير محصر، وإليه ذهب جمع من أهل العلم، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة أي لا تحلوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدي الذي بعثتموه إلى الحرام قد بلغ محله، وهو الموضع الذي يحل فيه ذبحه.

واختلفوا في تعيينه فقال مالك والشافعي: هو موضـع الحصر اقتداء برسول الله ﷺ حيث أحصر في عام الحديبية، وقال أبو حنيفة: هو الحرم لقوله تعالى ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ وأجيب عن ذلك بأن المخاطب به هو الآمن الذي يمكنه الوصول إلى البيت، وأجاب الحنفية عن نحره ﷺ بالحديبية بأن طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة هو من الحرم، ورد بأن المكان الذي

وقع فيه النحر ليس هو من الحرم.

﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ المراد بالمرض هنا ما يصدق عليه مسمى المرض لغة، والمراد بالأذى من الرأس ما فيه من قمل أو صداع أو جراح ونحو ذلك فمن حلق فعليه فدية.

وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك فثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ رأى كعب بن عجرة وهو محرم وقمله يتساقط على وجهه فقال: يؤذيك هوام رأسك قال نعم، فأمره أن يحلق ويطعم ستة مساكين أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام(١).

وقد ذكر ابن عبد البر أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا هو شاة، وحكى عن الجمهور أن الصوم هنا ثلاثة أيام والإطعام لستة مساكين.

وروي عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا: الصوم في فدية الأذى عشرة أيام والإطعام لعشرة مساكين، والحديث الصحيح المتقدم يرد عليهم ويبطل قولهم.

وقد ذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وداود إلى أن الإطعام في ذلك مدان بمد النبي ﷺ أي لكل مسكين، وقال الثوري: نصف صاع من بر أو صاع من غيره، وروي ذلك عن أبي حنيفة، قال ابن المنذر: وهذا غلط لأن في بعض أخبار كعب أن النبي ﷺ قال له: تصدق بثلاثة آصع من تمر على ستة مساكين .

واختلفت الرواية عن أحمد فروي عنه مثل قول مالك والشافعي، وروي عنه أنه إن أطعم براً فمد لكل مسكين، وإن أطعم تمراً فنصف صاع.

واختلفوا في مكان هذه الفدية فقال عطاء ما كان من دم فبمكة وما كان

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

من طعام أو صيام فحيث شاء، وبه قال أصحاب الرأي، وقال طاوس والشافعي: الاطعام والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء وقال مالك ومجاهد: حيث شاء في الجميع، وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان، وهذا الدم دم تخيير وتقدير.

﴿فإذا أمنتم﴾ أي برئتم من المرض، وقيل من خوفكم من العدو، على الخلاف السابق ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنهم في ذهاب المرض، فيكون مقوياً لقول من قال أن قوله ﴿فإن أحصرتم﴾ المراد به الإحصار من العدو كما أن قوله فمن كان منكم مريضاً يقوي قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر، وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصرون خاصة أم جميع الأمة على حسب ما سلف.

﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ يعني أن يحرم الرجل بعمرة ثم يقيم حلالاً بمكة إلى أن يحرم بالحج فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته، وهو معنى تمتع واستمتع، ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع بل هو أفضل أنواع الحج عند أهل التحقيق.

﴿فما استيسر من الهدي﴾ وهو شاة يذبحها يوم النحر فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعي، ولا يجزئه ذبحه عند أبي حنيفة قبل يوم النحر، وهذا الدم دم ترتيب وتقدير كما ذكره ابن المقرىء.

وقد اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أنواع من أنواع الدم الواجب في النسك وبقي الرابع يذكر في المائدة في قوله ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ الآية وهو دم تخيير وتعديل، ويجب في شيئين صيد وشجر.

﴿فمن لم يجد﴾ الهدي إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ﴿فصيام ثلاثة أيام في﴾ أيام ﴿الحج﴾ وهي من عند شروعه في الإحرام إلى يوم النحر، ومع ذلك يجوز ذبحه قبل الإحرام به على القاعدة من أن كل حق مالي تعلق بسببين جاز

تقديمه على ثانيهما، وقيل يصوم قبل يوم التروية يوماً ويوم التروية ويوم عرفة، وقيل ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة، وقيل يصومهن من أول عشر ذي الحجة، وقيل ما دام بمكة، وقيل أنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم.

وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدي، ومنعه آخرون وبه قال الشافعي.

﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ أي إلى الأوطان والأهل، قال أحمد واسحق: يجزئه الصوم في الطريق ولا يتضيق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه، وبه قال الشافعي وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وغيرهم، وقال مالك إذا رجع من منى فلا بأس أن يصوم والأول أرجح.

وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ: «فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»(١).

فبين ﷺ ان الرجوع المذكور في الآية هو الرجوع إلى الأهل، وثبت أيضاً في الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ: «وسبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم»، وقيل إذا فرغتم من أعمال الحج، وبه قال أبو حنيفة، والأول أولى، وفيه التفات عن الغيبة.

وإنما قال سبحانه ﴿تلك عشرة كاملة﴾ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة: عشرة لدفع أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة الأيام في الحج والسبعة إذا رجع، قاله الزجاج، وقال المبرد: ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد ذكر السبعة، وقيل هو توكيد كما تقول كتبت بيدي، وقد كانت العرب تأتي بمثل هذه الفذلكة فيما دون هذا العدد.

وقوله ﴿كاملة﴾ توكيد آخر بعد الفذلكة لزيادة التوصية بصيامها وأن لا

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم ١٢٢٧/ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ينقص من عددها، والمعنى كاملة يعني في الثواب والأجر يعني أن ثواب صيام العشرة كثواب الذبح لا ينقص شيئاً، وقيل كاملة في قيامها مقام الهدي.

﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ الاشارة قيل هي راجعة إلى التمتع فيدل على أنه لا متعة لحاضري المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة وأصحابه، قالوا: ومن تمتع منهم كان عليه دم وهو دم جناية لا يأكل منه، وقيل أنها راجعة إلى الحكم وهو وجوب الهدي أو الصيام على من تمتع فلا يجب ذلك على من كان من حاضري المسجد الحرام كما يقوله الشافعي ومن وافقه، والمراد من لم يكن ساكناً في الحرم، أو من لم يكن ساكناً في المواقيت فما دونها، على الخلاف في ذلك بين الأئمة.

قال مالك: هم أهل مكة، وقال طاوس: هم أهل الحرم، وقال ابن جريج: هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة، وقال الشافعي: من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر، وقال أبو حنيفة: هم أهل الميقات، والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويلملم وذات عرق، وقيل من تلزمه الجمعة فيه.

قال السيوطي: والأهل كناية عن النفس أي نفس المحرم أي ذلك المحرم لم يكن هو نفسه حاضر المسجد الحرام، وهذا معنى سخيف والأولى ما قاله غيره.

وحكى الرملي عن الطبري أن المراد بالأهل الزوجة والأولاد الذين تحت حجره دون الآباء والاخوة.

﴿واتقوا الله﴾ أي فيما فرض عليكم في هذه الأحكام، وقيل هو أمر بالتقوى على العموم وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه ﴿واعلموا أن الله﴾ اظهار في موضع الاضمار لتربية المهابة في روع السامع ﴿شديد العقاب﴾ لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه، وهو من باب اضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

﴿الحج أشهر معلومات﴾ أي وقت الحج أشهر أو وقت عمل الحج، وقيل التقدير الحج في أشهر، وقيل غير ذلك.

وقد اختلف في الأشهر المعلومات فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهري: هي شوال وذو القعدة، وذو الحجة كله، وبه قال مالك.

وقال ابن عباس والسدي والشعبي والنخعي: هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم وقد روي أيضاً عن مالك.

وتظهر فائدة الخلاف فيما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر فمن قال ان ذا الحجة كله من الوقت قال لم يلزمه دم التأخير، ومن قال ليس إلا العشر منه قال يلزمه دم التأخير.

وقد استدل بهذه الآية من قال أنه لا يجوز الاحرام بالحج قبل أشهر الحج، وهو عطاء وطاوس ومجاهد والأوزاعي والشافعي وأبو ثور، قالوا: فمن أحرم بالحج قبلها أحل بالعمرة ولا يجزئه عن إحرام الحج كمن دخل في صلاة قبل وقتها فلا تجزئه، وقال أحمد وأبو حنيفة أنه مكروه فقط، وروي نحوه عن مالك والمشهور عنه جواز الاحرام بالحج في جميع السنة من غير كراهة، وروي مثله عن أبي حنيفة.

وعلى هذا القول ينبغي أن ينظر في فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة في الآية، وقد قيل أن النص عليها لزيادة فضلها، وقد روي القول بجواز الإحرام في جميع السنة عن اسحاق بن راهويه وإبراهيم النخعي والثوري والليث بن سعد، واحتج لهمْ بقوله تعالى ﴿يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج، ولم يخص الثلاثة الأشهر، ويجاب بأن هذه الآية عامة وتلك خاصة والخاص مقدم على العام.

ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة فكما يجوز الاحرام للعمرة في جميع السنة كذلك يجوز للحج، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآني فهو باطل.

والحق ما ذهب إليه الأولون إن كانت الأشهر المذكورة في قوله ﴿الحج أشهر﴾ مختصة بالثلاثة المذكورة بنص أو إجماع، فإن لم يكن كذلك فالأشهر، جمع شهر، وهو من جموع القلة يتردد ما بين الثلاثة إلى العشرة والثلاثة هي المتيقنة فيجب الوقوف عندها.

ومعنى معلومات أن الحق في السنة مرة واحدة في أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة، أو المراد معلومات ببيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها ولا التأخر عنها.

﴿فمن فرض﴾ على نفسه ﴿فيهن الحج﴾ أي أوجبه عليها وألزمه إياها، وأصل الفرض في اللغة الحز والقطع، ومنه فرضة القوس والنهر والجبل، ففرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحز للقوس، وقيل معنى فرض أبان وهو أيضاً يرجع إلى القطع لأن من قطع شيئاً فقد أبانه عن غيره.

وقال ابن مسعود: الفرض الإحرام، وقال ابن الزبير: الإهلال، وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين، والمعنى في الآية فمن ألزم نفسه وأوجب

عليها فيهن الحج بالشروع فيه بالنية قصداً باطناً، وبالإحرام فعلاً ظاهـراً وبالتلبية نطقاً مسموعاً، وقال أبو حنيفة إن إلزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه، وقال الشافعي: تكفي النية في الإحرام بالحج.

﴿فلا رفث﴾ قال ابن عباس وابن جبير والسدي وقتادة والحسن وعكرمة والزهري ومجاهد ومالك هو الجماع، وفي رواية عن ابن عباس هو غشيان النساء والتقبيل والغمـز، وقال ابن عمـر وطاوس وعـطاء وغيرهم: الرفث الإفحاش بالكلام والخنا، والقول القبيح، وعلى هذا التلفظ به في غيبة النساء يكون رفثاً، وقال أبو عبيدة الرفث اللغا من الكلام.

﴿ولا فسوق﴾ أصلـه الخروج عن حدود الشرع وعن الطاعة، وقيل هو الذبح للأصنام، وقيل التنابز بالألقاب، وقيل السباب، وقال ابن عمر: هو ما نهى عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظفار وأخذ الشعر وما أشبه ذلك.

والظاهر أنه لا يختص بمعصية متعينة، وإنما خصصه من خصصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلك الفرد إسم الفسوق كما قال سبحانه في الذبح للأصنام ﴿أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ وقال في التنابز ﴿بئس الإسم الفسوق﴾ وقال ﷺ «سباب المسلم فسـوق»[1] ولا يخفى على عـارف أن إطلاق إسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصى لا يوجب اختصاصه به.

﴿ولا جدال﴾ مشتق من الجدل وهو الفتل، والمراد به هنا المماراة وقيل السباب، وقيل الفخر بالآباء، والظاهر الاول ومعنى النفي لهذه الأمور والنهي عنها.

---

(١) رواه مسلم /٦٤ وتتمته وقتاله كفر.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ الرفث التعريض للنساء بالجماع، والفسوق المعاصي كلها والجدال جدال الرجل صاحبه ، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة.

قال ابن عباس: الجدال هو المراء، قيل هو قول الرجل: الحج اليوم، ويقول آخر الحج غداً، وقيل هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وبعضهم يحج في ذي القعدة وبعضهم في ذي الحجة، وكل يقول الصواب فيما فعلته، فأخبر الله أن أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله ﷺ فلا خلاف فيه بعده.

﴿في الحج﴾ أي في أيامه ونكتة الإظهار كمال الإعتناء بشأنه والإشعار بعلة الحكم، فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها من موجبات ترك الأمور المذكورة، وإيثار النفي للمبالغة في النهي، والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يقع، فإن ما كان منكراً مستقبحاً في نفسه ففي خلال الحج أقبح كلبس الحرير في الصلاة لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض العبادة.

ظاهر الآية في الثلاثة خبر ومعناه نهي، وإنما نهى عن ذلك وإن كان اجتنابها في كل الأحوال والأزمان واجباً لأنها في الحج أسمج وأفظع منه في غيره، وقيل معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة فأبطل النسيء.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1] أخرجه البخاري ومسلم.

﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ حث على الخير بعد ذكر الشر، وعلى

---

(١) رواه مسلم/ ١٣٥٠ وبرواية من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه.

الطاعة بعد ذكر المعصية، وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة، وفيه أن كل ما يفعلونه من ذلك فهو معلوم عند الله لا يفوت منه شيء.

﴿وتزودوا﴾ ما يبلغكم لسفركم ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ أي ما يتقى به سؤال الناس وغيره، فيه الأمر باتخاذ الزاد لأن بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا فكانوا يحجون بلا زاد، ويقولون نحن متوكلون على الله سبحانه ثم يقدمون فيسألون الناس ويكونون كَلًّا عليهم، فأنزل الله هذه الآية، أخرجه عبد بن حميد والبخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباس، وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ذلك.

قال ابن الجوزي: قد لبَّس إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد، وظنوا أن هذا هو التوكل، وهم على غاية من الخطأ.

وقيل المعنى تزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة فإن خير الزاد التقوى، والأول أرجح كما دل عليه سبب نزول الآية،وفيه إخبار بأن خير الزاد اتقاء المنهيات، فكأنه قال اتقوا الله في إتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد فإن خيره التقوى، وقيل المعنى فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من التهلكة والحاجة إلى السؤال والتكفف.

﴿واتقون﴾ أي وخافوا عقابي. وقيل اشتغلوا بتقواي، وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله ﴿يا أولي الألباب﴾ فيه التخصيص لأولي الألباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى، لأن أرباب الألباب والعقول هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها، ولب كل شيء خالصه.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ فيه الترخيص لمن حج في التجارة ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق، وهو المراد بالفضل هنا، ومنه قوله تعالى ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ أي لا إثم عليكم في أن تبتغوا في مواسم الحج رزقاً ونفعاً وهو الربح في التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج، نزل رداً لكراهتهم ذلك.

والحق أن الإذن في هذه التجارة جار مجرى الرخص وتركها أولى لقوله تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ والإخلاص هو أن لا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة.

﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ يقال فاض الإناء إذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه، ورجل فياض أي مندفعة يده بالعطاء، ومعناه أفضتم أنفسكم، فترك ذكر المفعول كما ترك في قولهم دفعوا من موضع كذا، وعرفات اسم لتلك البقعة كأذرعات أي موضع الوقوف، وعرفة اسم اليوم وسميت عرفات لأن الناس يتعارفون فيها، وقيل لأن آدم التقى هو وحواء فيها فتعارفا، وقيل غير ذلك.

قال ابن عطية: والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع إلا على القول بأن أصله جمع، واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده ولا يتم الحج إلا به، ووقت الإفاضة من عرفات بعد غروب

الشمس، فإذا غربت دفع منها وأخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة.

﴿فاذكروا الله﴾ المراد بذكر الله هنا دعاؤه ومنه التلبية والتكبير أي اذكروه لذاته من غير ملاحظة نعمه، لأنه تعالى يستحق الحمد من حيث ذاته ومن حيث انعامه على خلقه، فحصلت المغايرة بين هذا وقوله ﴿واذكروه كما هداكم﴾ وقيل المراد بالذكر صلاة المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعاً، وقد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاج بينهما فيها.

﴿عند المشعر الحرام﴾ سمى مشعراً من الشعار وهو العلامة، والدعاء عنده من شعائر الحج ووصف بالحرام لحرمته من التحريم وهو المنع، فهو ممنوع من أن يفعل فيه ما لم يؤذن فيه، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف به يذكر الله ويدعو حتى أسفر جداً، رواه مسلم أي دخل في السفر بفتحتين وهو بياض النهار، قاله الشوبري، والمشعر هو جبل قزح الذي يقف عليه الإمام، وقيل هو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة إلى وادي محسر.

﴿واذكروه﴾ ذكراً حسناً ﴿كما هداكم﴾ هداية حسنة، وكرر الأمر بالذكر تأكيداً، وقيل الأول أمر بالذكر عند المشعر الحرام، والثاني أمر بالذكر على حكم الإخلاص، وقيل المراد بالثاني تعديد النعمة عليهم والكاف للتعليل.

﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ الضمير في قبله عائد إلى الهدى، وقيل إلى القرآن، وقيل إلى الرسول، والضالين الجاهلين بالإيمان والطاعة قاله الخطيب، وقيل جاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ فيه الخطاب للحمس من قريش لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم، فأمروا بذلك.

وقد ورد في هذا المعنى روايات عن الصحابه والتابعين عند البخاري ومسلم وغيرهما، وعلى هذا يكون ثم لعطف جملة بمعنى الواو لا للترتيب، وقيل الخطاب لجميع الأمة، والمراد بالناس «إبراهيم» أي أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم فيحتمل أن يكون أمراً لهم بالإضافة من عرفة، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى وهي التي من مزدلفة، وعلى هذا يكون «ثم» على بابها للترتيب في الذكر لا في الزمان الواقع فيه الأعمال، وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبري وهو الذي يقتضيه ظاهر القرآن.

﴿واستغفروا الله﴾ أي من مخالفتكم في الموقف ولجميع ذنوبكم، وإنما أمروا بالاستغفار لأنهم في مساقط الرحمة، ومواطن القبول، ومظنات الإجابة، وقيل أن المعنى استغفروا للذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم وهو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة، وقد وردت أحاديث كثيرة في المغفرة لأهل عرفة ونزول الرحمة عليهم وإجابة دعائهم[1].

﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي ساتر لذنوب عباده برحمته، وفيه دليل على أنه يقبل التوبة من عباده التائبين ويغفر لهم.

---

(١) منها: افضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ومنها: ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عدداً من النار من يوم عرفة.

ومنها: ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾

﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ المراد بالمناسك أعمال الحج، ومنه قوله ﷺ «خذوا عني مناسككم» أي فإذا فرغتم من أعمال الحج، وقيل المراد بها الذبائح وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى.

﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ إنما قال سبحانه ذلك لأن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة، وقيل عند البيت فيذكرون مفاخر آبائهم ومناقب أسلافهم بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح، وغرضهم بذلك الشهرة والسمعة والرفعة، فلما من الله عليهم بالإسلام أمرهم بذكره مكان ذلك الذكر، ويجعلونه ذكراً مثل ذكرهم لآبائهم أو أشد من ذكرهم لآبائهم، والذكر له بالتمجيد والتحميد والتهليل والتسبيح والتكبير والثناء عليه، وقيل أو بمعنى الواو أي وأكثروا ذكر الله تعالى من ذكركم للآباء لأنه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً.

﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ لما أرشد سبحانه عباده إلى ذكره وكان الدعاء نوعاً من أنواع الذكر جعل من يدعوه منقسماً إلى قسمين: أحدهما يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت إلى حظ الآخرة، والقسم الآخر يطلب الأمرين جميعاً، والخلاق النصيب أي ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب لأن همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها، ولا يطلب سواها.

وفي هذا الخبر معنى النهي عن الاقتصار على طلب الدنيا والذم لمن جعلها غاية رغبته ومعظم مقصوده.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» أخرجه البخاري، وهذا دعاء عليه بالهلاك.

وفي الباب أحاديث كثيرة وإنما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لانهم كانوا ينكرون البعث.

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ قد اختلف في تفسير الحسنتين المذكورتين في الآية فقيل هما ما يطلبه الصالحون في الدنيا من العافية وما لا بد منه من الرزق، وما يطلبونه في الآخرة من نعيم الجنة والرضا، وقيل المراد بحسنة الدنيا الزوجة الحسناء، وبحسنة الآخرة الحور العين، وقيل حسنة الدنيا العلم والعبادة وحسنة الآخرة الجنة وقيل الأولى العمل الصالح والثانية المغفرة والثواب، وقيل من آتاه الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتي فيهما حسنة، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره.[1]

قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعيم الدنيا والآخرة قال وهذا هو الصحيح فإن اللفظ يقتضي هذا كله، فإن «حسنة» نكرة في سياق الدعاء فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع انتهى.

---

(١) وقال القرطبي: قال ابن عباس: إن عند الركن ملكاً قائماً منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين فقولوا: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) القرطبي ٢/٤٣٤.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثاني فقط ﴿لهم نصيب مما﴾ أي من جنس ما ﴿كسبوا﴾ من الأعمال أي من ثوابها ومن جملة أعمالهم الدعاء فما أعطاهم بسببه من الخير فهو مما كسبوا، وقيل معناه من أجل ما كسبوا وهو بعيد، وقيل قوله أولئك إشارة إلى الفريقين جميعاً أي للأولين نصيب من الدنيا ولا نصيب لهم في الآخرة وللآخرين نصيب مما كسبوا في الدنيا والآخرة ﴿والله سريع الحساب﴾ الحساب مصدر كالمحاسبة وأصله العدد والمراد هنا المحسوب سمي حساباً تسمية للمفعول بالمصدر.

والمعنى أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه فبادروا ذلك بأعمال الخير أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وأعمالهم ليدل ذلك على كمال قدرته، لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى آلة ولا إمارة ولا مساعدة فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾.

وقال السيوطي: يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف من نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك انتهى.

وهذا تمثيل للسرعة لا تعيين لمقدار زمن الحساب، وقيل معناه أن الله يعلم العباد ما لهم وما عليهم، وهذا أبعد، وقيل المحاسبة المجازاة ويدل عليه قوله ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ وقيل معناه أنه سريع القبول لدعاء عباده والإجابه لهم، وقيل معنى الآية أن إتيان القيامة قريب لامحالة. وفيه إشارة إلى المبادرة بالتوبة والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة.

﴿واذكروا الله﴾ يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات، فقد ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبر مع كل حصاة، والخطاب للحاج وغيره كما ذهب إليه الجمهور، وقيل هو خاص بالحاج.

﴿في أيام معدودات﴾ قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى وهي أيام التشريق الثلاثة، وهي أيام رمي الجمار، أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو مذهب الشافعي، وبه قال ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة.

وقال إبراهيم: الأيام المعدودات أيام العشر، والأيام المعلومات أيام النحر، وكذا روي عن مكي والمهدوي، قال القرطبي: ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع على ما نقله أبو عمر ابن عبد البر وغيره.

عن أبي يوسف: الأيام المعلومات أيام النحر، قال لقوله تعالى ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وقال محمد بن الحسن: هي أيام النحر الثلاثة يوم الأضحى ويومان بعده وهو قول علي، وروي عن ابن عمر، وهو مذهب أبي حنيفة.

قال الكيا الطبري: فعلى قول أبي يوسف ومحمد لا فرق بين المعلومات والمعدودات لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف، وروي عن مالك أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام يوم النحر وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان. واليوم الرابع معدود لا معلوم، وهو مروي عن ابن عمر.

قال ابن زيد: الأيام المعلومات عشر ذو الحجة وأيام التشريق.

وأجمع العلماء على أن المراد بهذا هو التكبير عند رمي الجمرات مع كل حصاة يرمي بها في جميع أيام التشريق، وهو سنة بالاتفاق، وعن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى[1]، رواه مسلم، ومن الذكر في هذه الأيام التكبير.

وروى البخاري عن ابن عمر أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الأيام جميعاً.

وقد اختلف أهل العلم في وقته فقيل من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق، فيكون التكبير على هذا في ثلاث وعشرين صلاة، وهو قول علي بن أبي طالب ومكحول، وبه قال أبو يوسف ومحمد، وقيل من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر، وبه قال أبو حنيفة وابن مسعود، وعلى هذا يكون التكبير في ثمان صلوات، وقيل من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال مالك والشافعي فيكون التكبير على هذا في خمس عشرة صلاة، وهو قول ابن عباس وابن عمر، ولفظ التكبير عند الشافعي الله أكبر ثلاثاً نسقاً وعند أهل العراق مرتين.

﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ اليومان هما يوم ثاني النحر ويوم ثالثه من أيام التشريق، قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعي من رمى في اليوم الثاني من الأيام المعدودات فلا حرج ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج.

فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيداً لأن من العرب من كان يذم التعجل، ومنهم من كان يذم التأخر، فنزلت الآية

---

(١) رواه مسلم /١١٤١.

رافعة للجناح في كل ذلك.

وقال علي وابن مسعود: معنى الآية من تعجل فقد غفر له، ومن تأخر فقد غفر له.

والآية قد دلت على أن التعجل والتأخر مباحان ولا بد من ارتكاب مجاز في قوله ﴿يومين﴾ من حيث أنه جعل الواقع في أحدهما واقعاً فيهما كقوله ﴿نسيا حوتهما﴾ ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴿وجعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ والناسي أحدهما وكذلك المخرج منه، والجاعل له أحدهما أو من حيث حذف المضاف أي في ثاني يومين والأول أولى.(١)

﴿لمن اتقى﴾ أي أن ذلك التخيير ورفع الإثم ثابت لمن اتقى، لأن صاحب التقوى يحترز عن كل ما يريبه، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم، قال الأخفش: التقدير ذلك لمنْ اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي، وقيل لمن اتقى قتل الصيد، وقيل معناه السلامة لمن اتقى، وقيل أي الذكر لمن اتقى في حجه لأنه الحاج في الحقيقة.

﴿واتقوا الله﴾ أي في المستقبل ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وفيه حث على التقوى، وهو عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات.

---

(١) وقد روى القرطبي عن النخعي والحسن أنهما قالا: من أدركه العصر وهو غني من اليوم الثاني من أيام التشريق لم ينفر حتى الغد.

وروى الدارقطني ٢/٣٠٠ عن ابي سعيد الخدري: قلنا يا رسول الله هذه الجمار التي يرمى بها كل عام فحسب انها تنقص فقال: إنه ما تقبل منها رفع ولولا ذلك لرأيتها مثل الجبال.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أي يروقك وتستحسنه ويعظم في قلبك حلاوة كلامه مما يتعلق بأمر الدنيا، والإعجاب استحسان الشيء والميل إليه والتعظيم له.

وقال الراغب: العجب حيرة تعرض للإنسان بسبب الشيء، وليس هو شيئاً له في ذاته حالة حقيقية بل هو بحسب الإضافات الى من يعرف السبب ومن لا يعرفه، وحقيقة أعجبني كذا ظهر لي ظهوراً لم أعرف سببه انتهى.

لما ذكر سبحانه طائفتي المسلمين بقوله ﴿ومن الناس من يقول﴾ عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وقيل إنها نزلت في قوم من المنافقين، وقيل إنها نزلت في كل من أضمر كفراً أو نفاقاً أو كذباً وأظهر بلسانه خلافه.

﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي أنه يحلف على ذلك فيقول إني بك مؤمن ولك محب أو يقول الله يعلم أني أقول حقاً وأني صادق في قولي لك، أو أن ما في قلبي موافق لقولي ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي شديد الخصومة يقال رجل ألد، وامرأة لداء، والخصام مصدر خاصم قاله الخليل؛ وقيل جمع خصيم قاله الزجاج.

والمعنى أنه أشد المخاصمين خصومة لكثرة جداله وقوة مراجعته، والإضافة بمعنى في، أي ألد في الخصام أو جعل الخصام ألد على المبالغة أي شديد الجدال في الباطل؛ وهو كاذب القول؛ وقيل شديد القسوة في المعصية يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة؛ وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أبغض الرجال الى الله الألد الخصم[1]؛ أخرجه البخاري ومسلم.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٩.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ أي إذا أدبر وذهب عنك يا محمد ﷺ وقيل أنه ضل وغضب، وقيل أنه بمعنى الولاية أي إذا كان والياً بفعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض، والسعي يحتمل أن يكون المراد به السعي بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض كقطع الطريق وقطع الأرحام وحرب المسلمين وسفك دمائهم، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد وان لم يكن فيه سعي بالقدمين كالتدبير على المسلمين بما يضرهم وأعمال الحيل عليهم؛ وكل عمل يعمله الإنسان بجوارحه أو حواسه يقال له سعي وهذا هو الظاهر من هذه الآية.

﴿ويهلك الحرث والنسل﴾ من عطف الخاص على العام فان الفساد أعم من ذلك فيشمل سفك الدماء ونهب الأموال وغير ذلك، والمراد بالحرث الزرع والنسل الأولاد، وقيل الحرث النساء، قال الزجاج: وذلك لأن النفاق يؤدي إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال وفيه هلاك النسل.

وقال مجاهد: الحرث نبات الأرض، والنسل نسل كل شيء من الحيوان الناس والدواب، وعنه أيضاً قال: معنى الآية يلي في الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم فيحبس الله بذلك القطر من السماء فيهلك بحبس القطر الحرث والنسل.

وقال ابن عباس: نسل كل دابة، وأصل الحرث في اللغة الشق ومنه المحراث لما يشق به الأرض، والحرث كسب المال وجمعه، وأصل النسل في اللغة الخروج والسقوط ومنه نسل الشعر، ومنه (أيضاً إلى ربهم ينسلون)، (ومن

كل حدب ينسلون)، ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها.

﴿والله لا يحب الفساد﴾ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين وما فيه فساد الدنيا، واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن المحبة عبارة عن الإرادة، وأجيب عنه بأن الإرادة معنى غير المحبة فان الإنسان قد يريد شيئاً ولا يحبه كالدواء المر يتناوله ولا يحبه، فبان الفرق بينهما، وقيل ان المحبة مدح الشيء وتعظيمه، والإرادة بخلاف ذلك.

﴿وإذا قيل له﴾ أي على سبيل النصيحة وهي مستأنفة أو معطوفة على يعجبك ﴿اتق الله﴾ أي خف الله في سرك وعلانيتك ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ العزة القوة والغلبة، من عزه يعزه إذا غلبه ومنه ﴿وعزني في الخطاب﴾ وقيل العزة هنا الحمية والأنفة وقيل المنعة وشدة النفس.

والمعنى حملته العـزة على فعل الإثم، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه، قاله الـزمخشري، وقيل أخذته العزة بما يؤثمه أي ارتكب الكفر للعزة، ومنه ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ وقيل الباء في قوله بـالإثم بمعنى اللام أي أخذته الحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي في قلبه وهو النفاق، وقيل الباء بمعنى مع أي أخذته العزة مع الإثم، وقيل للسببية أي إن إثمه كان سبباً لأخـذ العزة له.

وفي هذه الآية التتميم، وهو نوع من علم البديع وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها إلى الفهم، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمـومة، فمن مجيئهـا محمودة قـوله تعـالى ﴿ولله العزة ولـرسولـه وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها المحمودة فقيل ﴿بالإثم﴾ توضيحاً للمراد، فرفع اللبس به، قاله السمين.

قال ابن مسعود: ان من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول عليك بنفسك أنت تأمرني، وعن سفيان قال: قال رجل لمالك ابن مغول اتق الله فسقط فوضع خده على الأرض تواضعا لله.

﴿فحسبه جهنم﴾ أي كافيه معاقبة وجزاء كما تقول للرجال كفاك ما حل بك، وأنت تستعظم عليه ما حل به وحسب اسم فاعل، وقيل اسم فعل ﴿ولبئس المهاد﴾ جمع المهد وهو الموضع المهيأ للنوم ومنه مهد الصبي، وقيل اسم مفرد سمى به الفراش الموطأ للنوم وسميت جهنم مهاداً لأنها مستقر الكفار، وقيل المعنى أنها بدل لهم من المهاد كقوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وقال مجاهد: بئسما مهدوا لأنفسهم، وقال ابن عباس: بئس المنزل وهذا من باب التهكم والاستهزاء.

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ يشري بمعنى يبيع أي يبيع نفسه في مرضاة الله كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال قتادة: هم المهاجرون والأنصار، ومثله قوله تعالى ﴿وشروه بثمن بخس﴾ وأصله الاستبدال ومنه قوله ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ والمرضاة الرضا، قال ابن عباس: نزلت في سرية الرجيع وكانت بعد أحد، وفي البخاري تمام قصته عن حديث أبي هريرة فإن شئت فارجع إليه.

﴿والله رؤوف بالعباد﴾ وجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه، فكان ذلك رأفة لهم ولطفاً بهم، ومن رأفته ان جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن المصر على الكفر ولو مائة سنة إذا تاب ولو لحظة أسقط عنه عقاب تلك السنين وأعطاه الثواب الدائم.

ومن رأفته أن نفس العباد وأموالهم له ثم أنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً.

وهذه أربعة أقسام اشتملت عليها تلك الآيات الكريمات أولها راغب في الدنيا فقط ظاهراً وباطناً، والثاني راغب فيها وفي الآخرة كذلك، والثالث راغب في الآخرة وفي الدنيا باطناً، والرابع راغب في الآخرة ظاهراً وباطناً معرض عن الدنيا كذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ لما ذكر سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف مؤمنين وكافرين ومنافقين، أمرهم بعد ذلك ما يكون على ملة واحدة، وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه وإن كان غير مؤمن بقلبه، والسلم بفتح السين وكسرها، قال الكسائي: معناهما واحد، وكذا عند البصريين وهما جميعاً يقعان للإسلام والمسالمة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: أنه بالفتح للمسالمة وبالكسر للإسلام، وأنكر المبرد هذه التفرقة.

وقال الجوهري: السلم بفتح السين ويكسر ويذكر ويؤنث أصله من الاستسلام والانقياد، ورجح الطبري أنه هنا بمعنى الإسلام، وقد حكى البصريون في سلم وسلم أنها بمعنى واحد، ﴿وكافة﴾ حال من السلم أو من ضمير المؤمنين فمعناه على الأول لا يخرج منكم أحد، وعلى الثاني لا يخرج من أنواع السلم شيء بل ادخلوا فيها جميعاً أي في خصال الإسلام، وهو مشتق من قولهم كففت أي منعت أي لا يمتنع منكم أحد من الدخول في الإسلام، والكف المنع، والمراد به هنا الجميع.

﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليها الشيطان، وقيل لا تلتفتوا إلى الشبهات التي تلقيها إليكم أصحاب الضلاله والغواية والأهواء المضلة لأن من تبع سنة إنسان فقد اتبع أثره، وقد

تقدم الكلام على خطوات.

﴿إنه لكم عدو مبين﴾ يعني الشيطان وأنه يحاول إيصال الضرر والبلاء إلينا، وان الله بيَّن عداوته ما هي، فكأنه مبين وإن لم يشاهد، وهذا البيان بالنسبة لمن أنار الله قلبه، وأما غيره فهو حليف له.

﴿فإن زللتم﴾ أي تنحيتم عن طريق الاستقامة، وأصل الزلل في القدم ثم استعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك، يقال زل يزل زلاً، وزلولاً أي دحضت قدمه، والمعنى فان ملتم وضللتم وأشركتم وعرجتم عن الحق.

﴿من بعد ما جاءتكم البينات﴾ أي بالحجج الواضحة والبراهين الصحيحة على أن الدخول في الإسلام هو الحق ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب لا يعجزه شيء عن الانتقام ﴿حكيم﴾ لا ينتقم إلا لحق، وفي الآية وعيد وتهديد لمن في قلبه شك ونفاق أو عنده شبهة في الدين.[1]

---

(١) حكى النقاش أن كعب الأحبار لما اسلم كان يتعلم القرآن. فأقرأه الذي كان يعلمه ﴿فاعلموا ان الله غفور رحيم﴾.
فقال كعب: اني لأستنكر أن يكون هكذا.
ومر بهما رجل فقال كعب: كيف تقرأ هذه الآية.
فقال الرجل: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾
فقال كعب: هكذا ينبغي.
في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ
نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكاري أي ينتظرون يقال نظرته وانتظرته بمعنى، والمراد هل ينتظر الزالون التاركون للدخول في الإسلام والمتبعون خطوات الشيطان، فهو التفات إلى الغيبة للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم، وحكاية جنايتهم لما عداهم من أهل الإنصاف على طريق الإهانة.

﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ بما وعدهم من الحساب والعذاب، استثناء مفرغ من مقدر أي ليس لهم شيء ينتظرونه إلا إتيان العذاب، وهذا مبالغة في توبيخهم ﴿في ظلل﴾ جمع ظلة وهي ما يظلك، وقال الأخفش: وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء فسمى الجزاء إتياناً كما سمى التخويف والتعذيب في قصة ثمود إتياناً فقال ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ وقال في قصة النضير ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾.

وإنما احتمل الاتيان هذا لان أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشيء، فمعنى الآية هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم وقيل أن المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه، وقيل أن قوله ﴿في ظلل﴾ بمعنى بظلل، وقيل المعنى يأتيهم ببأسه في ظلل.

﴿من الغمام﴾ يعني السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك لأنه يغم أي يستر، ووجه إتيان العذاب في الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد ما في مجيء الخوف من محل الأمن من الفظاعة وعظم الموقع، لأن الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب، وهذا أبلغ في تبكيتهم وتخويفهم.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ينظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي[1]».

وعن ابن عمر قال: يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب.

وعن ابن عباس: يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات.

والتقدير في ظلل كائنة من الغمام، «ومن» على هذا للتبعيض أو من ناحية الغمام، وهي على هذا لابتداء الغاية.

﴿والملائكة﴾ أي وتأتيهم الملائكة فإنهم وسائط في إتيان أمره تعالى بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة، وقرىء بالجر عطفاً على ظلل أو على الغمام فتوصف الملائكة بكونها ظللاً على التشبيه، وقال عكرمة: والملائكة حوله، وقيل حول الغمام، وقيل حول الرب تعالى.

وهذه من آيات الصفات وللعلماء فيها وفي أحاديث الصفات مذهبان:

(١) ابو داود كتاب الصلاة باب ١٦٣.

أحدهما الإيمــان والتسليم لما جاء في آيات الصفات وأحاديثها ووجوب الاعتقاد بظاهرها والإيمان بها كما جاءت، وإحـالـة علمها إلى الله تعالى، مع تنزيهه سبحانه عن التشبيه والتمثيل والتحريف والتبديل والتعطيل، وهو قول سلف هذه الأمة وأئمتها، قال الكلبي: هذا من الذي لا يفسر، وكان ابن عُيَينة والزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والثوري والليث بن سعد وأحمد ابن حنبل واسحق بن راهويه يقولون في هذه الآية وأمثالها اقرؤها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل، هذا مذهب أعلام أهل السنة ومعتقد سلف الأمة، وأنشد بعضهم في المعنى.

عقيـدتنـا أن ليس مثـل صفـاتـه ... ولا ذاتـه شيء، عقيـدة صـائب
نسلم آيـات الصفات بـأسـرهـا ... وإجـــراءهـا للظاهـــر المتقـارب
ونؤيس عنهـا كنـه فهم عقـــولنـا ... وتـأويلنـا فعـل اللبيب المغـالب
ونـــركب للتسليم سفنـــاً فـــإنها ... لتسليم دين المـرء خـير المـراكب

(والثاني) التأويل لها بما يناسب تنزيهه سبحانه وتعالى عندهم وهو قول جمهور علماء المتكلمين وأصحاب النظر كما قالوا في هذه الآية مجيء الله هو مجيء الآيات أو مجيء أمر الله أو عذاب الله، فأنكروا إمرار الصفات على ظاهرها وإجرائها على ما أراد الله، وهذا خلاف ما عليه سلف الأمة وأئمتها، وقد أوضحنا ذلك في كتابيْنا الانتقاد الرجيح وبغية الرائد بما لا يحتاج الناظر فيهما إلى غيرهما.

﴿وقضي الأمر﴾ عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار، وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلاله على أن مضمونها واقع لا محالة أي وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم، قال عكرمة: قضي الأمر أي قامت الساعة.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي أمور العباد في الآخرة لا إلى غيره، والمراد

من هذا إعلام الخلق أنه المجزي على الأعمال بالثواب والعقاب.

﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ المأمور بالسؤال هو النبي ﷺ، ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين، وهو سؤال تقريع وتوبيخ، والمسؤول عنهم يهود المدينة، وكم إما استفهامية للتقرير أو خبرية للتكثير، والآية هي البراهين التي جاء بها أنبياؤهم في أمر محمد ﷺ، وقيل المراد بذلك الآيات التي جاء بها موسى وهي تسع، قال أبو العالية: آتاهم الله آيات بينات عصا موسى ويده وأقطعهم البحر، وأغرق عدوهم وهم ينظرون وظللاً من الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى.

﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته﴾ المراد بالنعمة هنا ما جاءهم من الآيات، وقال ابن جرير الطبري: النعمة هنا الإسلام، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على كل عبد من عباده كائناً من كان، فوقع منه التبديل لها، وعدم القيام بشكرها.

ولا ينافي ذلك كون السياق في بني إسرائيل، أو كونهم السبب في النزول، لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ فيه من الترهيب والتخويف ما لا يقادر قدره.

﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ المزين هو الشيطان بأن وسوس لهم ومناهم الأماني الكاذبة، وذلك حقيقة كما قال السعد التفتازاني وجيء به ماضياً دلالة على أن ذلك وقع وفرغ منه، أو المزين الأنفس المجبولة على حب العاجلة، وزين مبني للمجهول.

وقرىء بفتح الزاء والمزين هو الله بأن خلق الأشياء العجيبة ومكنهم منها اذ ما من شيء إلا وهو خالقه وعلى هذا المسند والإسناد مجاز لأن خذلانه إياهم

صار سبباً لاستحسانهم الحياة الدنيا وتزيينها في أعينهم.

والمراد بالذين كفروا رؤساء قريش أو كل كافر، وإنما خص الكفار بالذكر مع كون الدنيا مزينة للمسلم والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملاً، لأن الكافر افتتن بهذا التزيين وأعرض عن الآخرة، والمسلم لم يفتتن به بل أقبل على الآخرة والمعنى حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها.

﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ أي والحال أن أولئك الكفار يسخرون من المؤمنين لكونهم فقراء لاحظ لهم من الدنيا كحظ رؤساء الكفار وأساطين الضلال، وذلك لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذي يكون من ناله سعيداً رابحاً ومن حرمه شقياً خاسراً، وقد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة وأمر الآخرة وعدم التفاتهم إلى الدنيا وزينتها.

وحكى الأخفش أنه يقال سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، والاسم السخرية والسخرى، وجيء به مضارعاً دلالة على التجدد والحدوث.

ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين رد الله عليهم بقوله ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ والمراد بالفوقية هنا العلو في الدرجة لأنهم في الجنة، والكفار في النار، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان لأن الجنة في السماء والنار في أسفل سافلين. أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام وسقوط الكفر وقتل أهله وأسرهم وتشريدهم، وضرب الجزية عليهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة.

وفيه دلالة على أن فوقيتهم من أجل التقوى. وفيه تحريضهم على

الإتصاف به إذا سمعوا ذلك، أو للإيذان بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها شاغلة عن جانب القدس.

عن حارثة بن وهب أنه سمع رسول الله ﷺيقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عُتُلٍّ جواظ جعظري مستكبر[١]» أخرجه الشيخان.

وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»، أخرجه البخاري ومسلم.

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين ويوسع عليهم، ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب أي بغير تقدير، لأن ما يدخل عليه الحساب فهو قليل، ويحتمل أن المعنى أن الله يوسع على بعض عباده في الرزق كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجاً لهم، وليس في التوسعة دليل على أن من وسع عليه فقد رضي عنه، ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال تعالى ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

وقال ابن عباس في تفسيرها: ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه، وقال سعيد بن جبير: لا يحاسب الرب، وقيل يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة، وقيل يرزقه بغير استحقاق، وقيل لا يخاف نفاد ما في خزائنه حتى يحتاج إلى حساب. وقيل لا يعطي كل واحد على قدر حاجته بل يعطي الكثير لمن لا يحتاج إليه، وقيل غير ذلك.

(١) مسلم ٢٨٥٣ ـ البخاري ٢٠٦٥.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي كانوا متفقين على دين واحد، وهو الإسلام فاختلفوا، واختلف في الناس فقيل هم بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم.

عن أبيّ بن كعب قال: كانوا أمة واحدة حين عرضوا على آدم ففطرهم على الإسلام وأقروا بالعبودية وكانوا مسلمين، ثم اختلفوا من بعد آدم، وقيل آدم وحده قاله مجاهد، وسمى ناساً لأنه أصل النسل، وقيل آدم وحواء وقيل المراد القرون الأولى التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة قرون. كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، قاله ابن عباس، وقيل المراد نوح ومن في سفينته، وقيل أن العرب كانت على دين إبراهيم إلى أن غيره عمرو بن لحي.

وقيل كانوا من حين وفاة آدم إلى زمان نوح على الكفر والباطل بدليل قوله ﴿فبعث الله النبيين﴾ والحكم للغالب، والأول أولى قال أبو السعود: وهوالأنسب بالنظم الكريم، وقيل ليس في الآية ما يدل على أنهم كانوا على إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج، وقيل المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة في خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا أن الله من عليهم بإرسال الرسل، والأمة مأخوذة من قولهم أممت الشيء أي قصدته أي مقصدهم واحد غير مختلف.

﴿فبعث الله النبيين﴾ قيل الأنبياء جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر، المذكور منهم في القرآن بأسماء الأعلام

ثمانية وعشرون نبياً، والله أعلم.

﴿مبشرين﴾ بالثواب لمن آمن وأطاع ﴿ومنذرين﴾ بالعقاب لمن كفر وعصى ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أي الجنس، وقيل المراد به التوراة أو أنزل مع كل واحد الكتاب، وجملة الكتب المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب كما قيل ﴿بالحق﴾ أي الصدق والعدل، والمراد هنا الحكم والفوائد والمصالح ﴿ليحكم بين الناس﴾ مسند إلى الكتاب في قول الجمهور، وهو مجاز مثل قوله تعالى ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ وقيل أن المعنى ليحكم كل نبي بكتابه، وقيل ليحكم الله ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه، وقيل الضمير في ﴿فيه﴾ راجع الى ما في قوله ﴿فيما﴾.

والضمير في قوله ﴿وما اختلف فيه﴾ يحتمل أن يعود إلى الكتاب ويحتمل أن يعود الى المنزل عليه وهو محمد ﷺ، قاله الزجاج، ويحتمل أن يعود الى الحق ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أي أوتوا الكتاب أو أوتوا الحق، أو أوتوا النبي ﷺ أي أعطوا علمه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد ﷺ أو الحجج الظاهرة على التوحيد ﴿بغياً بينهم﴾ أي لم يختلفوا إلا للبغي أي الحسد والحرص على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، وفي هذا تنبيه على الصفة في فعلهم القبيح الذي وقعوا فيه لأنهم جعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الخلاف.

﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ أي أمة محمد ﷺ ﴿لما اختلفوا فيه من الحق﴾ أي إلى الحق، و «من» للبيان أو للتبعيض، وذلك لما بين لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم، وقيل معناه فهدى الله أمة محمد ﷺ للتصديق بجميع الكتب بخلاف من قبلهم، فإن بعضهم كذب كتاب بعض، وقيل أن الله هداهم إلى الحق من القبلة، وقيل هداهم ليوم الجمعة، وقيل هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كذبته اليهود، وجعلته النصارى رباً، وقيل المراد بالحق الإسلام.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

وقال الفراء: إن في الآية قلباً وتقديره فهدى الذين آمنوا بالحق لما اختلفوا فيه، واختاره ابن جرير وضعفه ابن عطية ﴿بإذنه﴾ قال الزجاج: معناه بعلمه، وقال النحاس: هذا غلط، والمعنى بأمره وإرادته ﴿والله يهدي من يشاء﴾ من عباده ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي طريق سوي.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ أم هنا منقطعة بمعنى بل، وحكى بعض اللغويين أنها قد تجيء بمثابة همزة الاستفهام يبتدأ بها الكلام، فعلى هذا معنى الاستفهام هنا التقرير والإنكار أي أحسبتم دخولكم الجنة واقعا، والغرض من هذا التوبيخ تشجيعهم على الصبر وحثهم عليه، وحسب هنا من أخوات ظن، وقد تستعمل في اليقين.

﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ الواو للحال، ولما بمعنى لم أي والحال أنكم لم يأتكم مثلهم بعد، ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التي هي مثل في الفظاعة والشدة وهو متوقع منتظر، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا.

ذكر الله سبحانه هذه التسلية بعد أن ذكر اختلاف الأمم على أنبيائهم تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، ومثل هذه الآية قوله ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا

الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ وقوله ﴿الم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾.

﴿مستهم﴾ استئناف بيان لقوله ﴿مثل الذين خلوا﴾ ﴿البأساء والضراء﴾ قد تقدم تفسيرهما ﴿وزلزلوا﴾ الزلزلة شدة التحريك تكون في الأشخاص وفي الأقوال، يقال زلزل الله الأرض زلزلة وزلزالاً بالكسر فتزلزلت أي تحركت واضطربت، فمعنى زلزلوا خوفوا وأزعجوا إزعاجاً شديداً، وحركوا بأنواع البلايا والرزايا، وقال الزجاج: الزلزلة نقل الشيء من مكانه، فإذا قلت زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه.

﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه﴾ أي استمر ذلك إلى غاية هي قول الرسول ومن معه أي صاحبوه في الإيمان، وحتى بمعنى إلى، وأن مضمرة أي إلى أن يقول، وهي غاية لما تقدم من المس والزلزال وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر، وأضبط للنفس عند نزول البلايا وكذلك أتباعهم من المؤمنين.

﴿متى نصر الله﴾ متى ظرف زمان لا ينصرف إلا بجره بحرف والرسول هنا قيل هو محمد ﷺ، وقيل شعياء: وقيل هو كل رسول بعث إلى أمته. وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير أي حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ألا إن نصر الله قريب.

ولا ملجىء لهذا التكلف لان قول الرسول ومن معه ﴿متى نصر الله﴾ ليس فيه إلا استعجال النصر من الله سبحانه، وليس فيه ما زعموه من الشك والإرتياب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب وهي غزوة الخندق أصاب

النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر، وقيل نزلت في غزوة أحد، وقيل غير ذلك.

وقال ابن عباس: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم، والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر، وذلك هو الغاية القصوى في الشدة، فلما بلغ الحال في الشدة إلى هذه الغاية واستبطؤوا النصر قيل لهم:

﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ إجابة لهم في طلبهم، والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله، فكونوا يامعشر المسلمين كذلك، وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق، فإن نصره سبحانه قريب إتيانه لا بعيد، وفيه إشارة إلى أن المراد بالقرب القرب الزماني، وفي إيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقق مضمونها وتقرر ما لا يخفى.

﴿يسئلونك ماذا ينفقون﴾ السائلون هنا هم المؤمنون، سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو أي ما قدره وما جنسه ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ إلى آخره فأجيبوا ببيان المصرف الذي يصرفون فيه تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد لان الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع في موضعه وصادف مصرفه، وقيل انه قد تضمن الآية بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وقيل إنما سألوا عن وجوه البر التي ينفقون فيها وهو خلاف الظاهر «وما» شرطية، وقيل موصولة والأول أولى لتوافق ما بعدها.

﴿فللوالدين﴾ قدمهما لوجوب حقهما على الولد لأنهما السبب في وجوده ﴿والأقربين﴾ قدمهم لأن الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم ولأنهم أبعاض الوالدين ﴿واليتامى﴾ لأنهم لا

يقدرون على الكسب ولاهم منفق، وقد تقدم الكلام في الأقربين واليتامى ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ أي هم أولى به، وانظر إلى هذا الترتيب الحسن العجيب في كيفية الإنفاق كيف فصله ثم أتبعه بالإجمال فقال ﴿وما تفعلوا من خير﴾ أي مع هؤلاء أو غيرهم طلباً لوجه الله ورضوانه ﴿فإن الله به عليم﴾ فيجازيكم عليه.

قال ابن مسعود: نسختها آية الزكاة، وقال الحسن: أنها محكمة، وقال ابن زيد: هذا في النفل أي التطوع، وهو ظاهر الآية، فمن أحب التقرب إلى الله بالإنفاق فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية فيقدم الأول فالأول.

ولم يذكر فيها السائلين والرقاب كما في الآية الأخرى اكتفاء بها أو بعموم قوله ﴿وما تفعلوا من خير﴾ فإنه شامل لكل خير وقع في أي مصرف.(١)

(١) وفي سبب نزول الآية هو ان عمرو بن الجموح الانصاري وكان له مال كثير فقال: يا رسول الله بماذا نتصدق، وعلى من ننفق فنزلت هذه الآية.

وقيل: ان رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن لي ديناراً.

فقال: انفقه على نفسك.

فقال: إن لي دينارين.

فقال: أنفقهما على أهلك.

فقال: إن لي ثلاثة فقال انفقها على خادمك فقال إن لي اربعة فقال انفقها على والديك فقال إن لي خمسة فقال انفقها على اقربائك فقال إن لي ستة فقال أنفقها في سبيل الله وهو أحسنها فنزلت هذه الآية.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ بين سبحانه، أن هذا أي فرض القتال عليهم من جملة ما امتحنوا به، والمراد بالقتال قتال الكفار، والكره بالضم المشقة، وبالفتح ما أكرهت عليه، ويجوز الضم في معنى الفتح فيكونان لغتين، وإنما كان الجهاد كرهاً لأن فيه إخراج المال ومفارقة الأهل والوطن والتعرض لذهاب النفس، وفي التعبير بالمصدر وهو كره مبالغة، ويحتمل أن يكون بمعنى المكروه كما في قولهم: الدراهم ضرب الأمير.

قيل الجهاد فرض على كل مسلم ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً» أخرجه أبو داود بزيادة فيه.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»[1]، وقيل الجهاد تطوع.

والمراد من الآية أصحاب رسول الله ﷺ دون غيرهم، وبه قال الثوري والأوزاعي والأول أولى، والجمهور على أنه فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، قال الزهري: كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فبها ونعمت، ومن قعد فهو عدة إن استعين به أعان وإذا استنفر نفر، وإن استغنى عنه قعد، وقيل فرض عين إن دخلوا بلادنا وفرض كفاية إن كانوا ببلادهم.

---

(١) مسلم /١٨٦٤.

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾ قيل عسى هنا بمعنى (قد) روي ذلك عن الأصم، وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا الجهاد طبعا لما فيه من المشقة، وأما شرعاً فهو محبوب وواجب ولا يلزم منه ما قاله السعد التفتازاني كراهة حكم الله ومحبة خلافه، وهو ينافي كمال التصديق، لأن معناه كراهة النفس ذلك الفعل ومشقته مع كمال الرضا بالحكم والإذعان له.

﴿وهو خير لكم﴾ فربما تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات شهيداً والواو للحال أو صفة لشيء، وعليه جرى أبو البقاء هنا والزمخشري في قوله ﴿ولها كتاب معلوم﴾ وهو رأي ابن حيزان، وسائر النحويين يخالفونه.

﴿وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ أي الدعة وترك القتال ﴿وهو شر لكم﴾ فربما يتقوى عليكم العدو فيغلبكم ويقصدكم إلى عقر دياركم فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم مع ما يفوتكم في ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة.

﴿والله يعلم﴾ ما فيه صلاحكم وفلاحكم وما هو خير لكم وما في الجهاد من الغنيمة والأجر والخير فلذلك يأمركم به ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك ولذلك تكرهونه، قيل أنها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين، وقيل منسوخة لأن فيها وجوب الجهاد على الكافة والناسخ قوله تعالى ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ وقيل إنها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه، فالناسخ منها إيجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه، والمنسوخ إيجاب الجهاد على الكافة.

وقد ورد في فضل الجهاد ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

﴿يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ أي القتال فيه أمر كبير مستنكر، والشهر الحرام المراد به الجنس، وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماء ولا تغير على عدو، والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد، وهذه الأمور أعظم ذنباً وأشد إثماً من القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره، قيل إنها محكمة وإنه لا يجوز الغزو في الشهر الحرام إلا بطريق الدفع، وقيل منسوخة بقوله ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وبقوله ﴿قاتلوا المشركين كافة﴾ وبه قال الجمهور.

﴿وصد عن سبيل الله﴾ أي صدكم المسلمين عن الحج أو صدكم عن الإسلام من يريده ﴿وكفر به﴾ الضمير يعود الى الله، وقيل إلى الحج ﴿والمسجد الحرام﴾ أي وصدكم عنه قاله الزمخشري وغيره، وتعقب بأن عطف قوله ﴿وكفر به﴾ على صد مانع منه إذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة وهو سبيل الله لوجود الفصل بأجنبي، وأجيب بأن الكفر بالله والصد عن سبيله متحدان معنى فكأنه لا فصل بأجنبي بين سبيل وما عطف عليه.

﴿وإخراج أهله منه﴾ يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين حين آذوهم حتى

هاجروا وتركوا مكة، وإنما جعلهم الله أهله لأنهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين.

ومعنى الآية الذي ذهب إليه الجمهور إنكم ياقريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ومن الكفر بالله ومن الصد عن المسجد الحرام ومن إخراج أهل الحرم منه ﴿أكبر﴾ جرماً ﴿عند الله﴾ وسبب النزول يشهد لهذا المعنى، ويفيد أنه المراد فإن السؤال منهم المذكور في هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ.

﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ المراد بالفتنة هنا الكفر والشرك قاله ابن عمر أي كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ، وقيل المراد بالفتنة الإخراج لأهل الحرام منه، وقيل المراد بالفتنة هنا فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا أي فتنة المستضعفين من المؤمنين، أو نفس الفتنة التي الكفار عليها، وهذا أرجح من الوجهين الأولين، لأن الكفر والإخراج قد سبق ذكرهما وإنهما مع الصد أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وعن سفيان الثوري هذا شيء منسوخ ولا بأس بالقتال في الشهر الحرام وعن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة.

﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ ابتداء كلام يتضمن الإخبار عن الله عز وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار والمشركين لا يزالون مستمرين على قتالكم وعداوتكم ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ أي الإسلام إلى الكفر ﴿إن استطاعوا﴾ ذلك وتهيأ لهم منكم، والتقييد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك وقدرتهم عليه.

ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار والدخول فيما يريدونه

من ردهم عن دينهم الذي هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين فقال ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ الردة الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، والتقييد بالكفر يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر، وأما إذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شيء من أحكام الردة، وفيه دليل للشافعي أن الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت على ردته.

وعند أبي حنيفة أن الردة تحبط العمل وإن أسلم، وحبط معناه بطل وفسد، ومنه الحبط وهو فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها للكلأ فتنتفخ أجوافها، وربما تموت من ذلك، وفي هذه الآية تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام.

﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون من الميراث وغيره، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاًمن ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام ويستحقه أهله.

وقد اختلف أهل العلم في الردة هل تحبط العمل بمجردها أم لا تحبط إلا بالموت على الكفر، والواجب حمل ما أطلقته الآيات في غير هذا الموضع على مافي هذه الآية من التقييد.

﴿وأولئك أصحاب النار﴾ يعني الذين ماتوا على الردة والكفر ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً وقد تقدم الكلام في معنى الخلود.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع وترك الأول لإيثار مكاني، والهجر ضد الوصل، والتهاجر التقاطع والمراد بها هنا الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام، والمجاهدة استخراج الجهد، والجهاد والتجاهد بذل الوسع.

﴿أولئك يرجون﴾ أي يطمعون، وإنما قال يرجون بعد تلك الأوصاف المادحة التي وصفهم بها لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ، والرجاء الأمل يقال رجوت فلاناً أرجوه رجاء وهو ضد اليأس.

وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما قي قوله تعالى ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي لا تخافون عظمة الله، وهل إطلاقه عليه بطريق الحقيقة أو المجاز، زعم قوم أنه حقيقة ويكون من الاشتراك اللفظي، وزعم قوم أنه من الأضداد فهو اشتراك لفظي أيضاً.

وقال ابن عطية: الرجاء أبداً معه خوف كما أن الخوف معه رجاء، وزعم قوم أنه مجاز للتلازم الذي ذكرناه، قال قتادة أثنى الله على أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الثناء في هذه الآية وهم خيار هذه الأمة ثم جعلهم أهل رجاء ومن رجا طلب ومن خاف هرب.

﴿رحمت الله﴾ أخبر أنهم على رجاء الرحمة وقد كتبت (رحمة) هنا بالتاء وهي في القرآن في سبعة مواضع ﴿والله غفور﴾ لذنوب عباده ﴿رحيم﴾ بهم بإجزال الأجر.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

﴿يسئلونك عن الخمر﴾ السائلون المؤمنون فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن عمر أنه: قال اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب بالمال والعقل، فنزلت يعني هذه الآية فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت التي في سورة النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ فهل أنتم منتهون؟ قال عمر انتهينا انتهينا.

والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة وكل شيء غطى شيئاً فقد خمره، ومنه «خمروا آنيتكم» وسمي خمر لانه يخمر العقل أي يغطيه ويستره، وقيل سميت خمراً لأنها تركت حتى أدركت أي بلغت إدراكه، وقيل لأنها تخالط العقل من المخامرة وهو المخالطة.

وهذه المعاني الثلاثة متقاربة موجودة في الخمر لأنها تركت حتى أدركت ثم خالطت العقل فخمرته أي سترته، والخمر ماء العنب الذي غلا واشتد وقذف بالزبد، وما خامر العقل من غيره فهو في حكمه كما ذهب إليه الجمهور، وقال أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال أي ما دون المسكر منه، وذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ، والخلاف في ذلك مشهور، وقد أطلت الكلام

على الخمر في شرحي لبلوغ المرام، وأطال الشوكاني الكلام عليه في شرحه للمنتقى فليرجع اليهما.

وجملة القول في تحريم الخمر ان الله أنزل فيه أربع آيات:

نزل بمكة ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام وهي لهم حلال، ثم نزل بالمدينة في جواب عمر ومعاذ هذه الآية فتركها قوم لقوله ﴿فيهما إثم كبير﴾ وشربها قوم لقوله ﴿ومنافع للناس﴾ ثم نزل ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فترك قوم شربها في أوقات الصلاة، ثم أنزل الله الآية التي في المائدة، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام.

والخمر تذكر وتؤنث وقال الأصمعي الخمر أنثى وأنكر التذكير.

﴿والميسر﴾ مصدر ميمي مأخوذ من اليسر وهو وجوب الشيء لصاحبه يقال يسر لي كذا إذا وجب، والياسر اللاعب بالقداح، وقال الأزهري: الميسر الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه، سمي ميسراً لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته، والياسر الجازر، وقال: وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور ياسرون لأنهم جازرون، إذ كانوا سبباً لذلك.

والمراد بالميسر في الآية قمار العرب بالأزلام، قال جماعة من السلف: من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كل شيء فيه قمار من نرد أو شطرنج أو غيرهما فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب إلا ما أبيح من الرهان في الخيل والقرعة في إفراز الحقوق، وقال مالك: الميسر ميسران ميسر اللهو وميسر القمار، فمن ميسر اللهو النرد والشطرنج والملاهي كلها، وميسر القمار ما

يتخاطر الناس عليه وكل ما قومر به فهو ميسر كالطاب والمنقلة والطاولة وغيرها، وسيأتي البحث مطولا في هذا في سورة المائدة عند قوله ﴿إنما الخمر والميسر﴾ إن شاء الله تعالى.

﴿قل فيهما إثم كبير﴾ يعني في الخمر والميسر، فإثم الخمر أي إثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها فيصدر عنه ما يصدر عن فاسد العقل من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور، وتعطيل الصلوات وسائر ما يجب عليه، وأما إثم الميسر أي إثم تعاطيه فما ينشأ عن ذلك من الفقر وذهاب المال في غير طائل والعداوة وإيحاش الصدور.

﴿ومنافع للناس﴾ أما منافع الخمر فربح للتجارة فيها، وقيل ما يصدر عنها من الطرب واللذة والنشاط والفرح وقوة القلب وثبات الجنان وإصلاح المعدة وقوة الباه وتصفية اللون، وحمل البخيل على الكرم، وزوال الهم وهضم الطعام، وتشجيع الجبان، وقد أشار شعراء العرب إلى شيء من ذلك في أشعارهم.

ومنافع الميسر مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب ولا كد، وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح، وسهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الخطوط وهي الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافر والمسبل والمعلى والسفح والوغد والضعف والجزور، ولا نطول بذكر علاماتها وأحوالها.

﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أخبر سبحانه بأن الخمر والميسر وإن كان فيهما نفع فالإثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع، لأنه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتي عليه الحصر، وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر

---

(١) باهَ لهُ بيهاً: فطِن.

واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم.

وقد وردت في تحريم الخمر ووعيد شاربها أحاديث كثيرة.

﴿ويسئلونك ماذا ينفقون قـل العفو﴾ والعفو ما سهل وتيسر، ولم يشق على القلب، والمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تجهدوا فيه أنفسكم، وقيل هو ما فضل عن نفقة العيال، وقال جمهور العلماء هو نفقات التطوع، وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة، وقيل هي محكمة وفي المال حق سوى الزكاة.

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول» وثبت نحوه في الصحيح مرفوعاً من حديث حكيم بن حزام، وفي الباب أحاديث كثيرة، وقيل المعنى خذ الميسور من أخلاق الرجال ولا تستقص عليهم.[1]

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي في أمر النفقة ومصارفها ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي في أمرهما فتحبسون من أموالكم ما تصلحون به معايش دنياكم وتنفقون الباقي في الوجوه المقربة إلى الآخرة، وقيل في الكلام تقديم وتأخير أي كذلك يبين الله لكم الآيـات في الدنيـا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها، وفي الآخرة وبقائهـا فترغبـون عن العاجلة إلى الآجلة.

(١) صحيح الجامع الصغير / ٣٢٧٦.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾

﴿ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ وقوله ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى﴾ وقد ضاق على الأولياء الأمر فنزلت هذه الآية، والمراد بالإصلاح هنا مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم.

وفي ذلك دليل على جواز التصرف في أموال الأيتام من الأولياء والأوصياء بالبيع والمضاربة والإجارة ونحو ذلك، وقيل أن يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع عليه من طعامه ولا يأخذ أجرة ولا عوضاً على إصلاح أمواله.

﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ اختلف في تفسير المخالطة لهم فقال أبو عبيدة: مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ولا يجد بداً من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحري فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد تقع فيه الزيادة والنقصان، فدلت هذه الآية على الرخصة وهي ناسخة لما قبلها، وقيل المراد بالمخالطة المعاشرة للأيتام، وقيل المراد بها المصاهرة لهم والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص، بل يشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية، والتقدير فهم إخوانكم في الدين.

﴿والله يعلم المفسد﴾ لأموالهم بمخالطته ﴿من المصلح﴾ بها تحذير للأولياء أي لا يخفى على الله من ذلك شيء فهو يجازي كل أحد بعمله، من أصلح فلنفسه ومن أفسد فعليها، ففيه وعد ووعيد خلا أن في تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد.

﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي جعل ذلك شاقاً عليكم ومتعباً لكم

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

وأوقعكم فيها فيه الحرج والمشقة، وقيل العنت هنا معناه الهلاك، قاله أبو عبيده وأصل العنت المشقة، وقال ابن الأنباري: أصل العنت التشديد، ثم نقل إلى معنى الهلاك ﴿إن الله عزيز﴾ أي لا يمتنع عليه شيء لأنه غالب لا يغالب ﴿حكيم﴾ يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم.

﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أي لا تتزوجوا، والمراد بالنكاح العقد لا الوطء حتى قيل أنه لم يرد في القرآن بمعنى الوطء أصلاً ﴿حتى يؤمنَّ﴾ حتى بمعنى إلى أي إلى أن يؤمنَّ.

وفي هذه الآية النهي عن نكاح المشركات فقيل المراد بها الوثنيات، وقيل أنها تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون قالت: اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية فقالت طائفة: إن الله حرم نكاح المشركات فيها والكتابيات من الجملة، ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم، وهذا محكي عن ابن عباس ومالك وسفيان بن سعيد وعبد الرحمن بن عمرو والأوزاعي.

وذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة وأنه يحرم نكاح الكتابيات والمشركات، وهذا أحد قولي الشافعي وبه قال جماعة من أهل

العلم، ويجاب عن قولهم إن هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أول ما نزل، وسورة المائدة من آخر ما نزل، والقول الأول هو الراسخ، وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان وطلحة وجابر وحذيفة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن وطاوس وعكرمة والشعبي والضحاك كما حكاه النحاس والقرطبي، وقد حكاه ابن المنذر عن المذكورين، وزاد عمر بن الخطاب وقال: لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك.

وقال بعض أهل العلم: إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين﴾ وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا عن مقاتل بن حيان قال: نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي استأذن النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها، وكانت ذات حظ من جمال، وهي مشركة وأبو مرثد يومئذ مسلم فقال يا رسول الله انها تعجبني، فأنزل الله ﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر.

وأخرج البخاري عن ابن عمر قال: حرم الله نكاح المشركات على المسلمين ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله.

﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾ أي ولرقيقة مؤمنة أنفع وأصلح وأفضل من حرة مشركة، وقيل المراد بالأمة الحرة لأن الناس كلهم عبيدٌ لله وإماؤه والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ ولأنه أبلغ فإن تفضيل الأمة المؤمنة على الحرة المشتركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشركة بالأولى.

قال ابن عرفة: يجيء التفضيل في كلامهم إيجاباً للأول ونفياً عن الثاني، فعلى هذا لا يلزم وجود خير في المشركة مطلقاً.

﴿ولو أعجبتكم﴾ المشركة من جهة كونها ذات جمال أو مال أو نسب أو شرف وهذه الجملة حالية، قال السيوطي: وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾(١).

﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ أي لا تزوجوا الكفار بالمؤمنات خطاب للأولياء ﴿حتى يؤمنوا﴾ قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه، لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام ﴿ولعبد﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله ولأمة والترجيح كالترجيح ﴿مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ أي بحسنه وجماله ونسبه وماله.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المشركين والمشركات ﴿يدعون إلى النار﴾ أي إلى الاعمال الموجبة للنار فكان في مصاهرتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له ويدخلوا فيه.

﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة﴾ أي إلى الأعمال الموجبة للجنة، وقيل المراد أن أولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة ﴿بإذنه﴾ أي بأمره قاله الزجاج، وقيل بتيسيره وتوفيقه قاله في الكشاف، فتجب إجابته بالتزويج من أوليائه وهم المسلمون ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه لعلهم يتعظون.

---

(١) وقيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث صحابياً الى مكة سراً ليخرج رجلاً من أصحابه، وكان له بمكة امرأة يحبها في الجاهلية يقال لها عناق فجاءته فقال لها: ان الاسلام حرم ما كان في الجاهلية قالت فتزوجني قال: حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستأذنه فنهاه عن التزوج بها.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

﴿ويسئلونك عن المحيض﴾ السائل أبو الدحداح في نفر من الصحابة، والمحيض هو الحيض وهو مصدر ميمي، يقال حاضت المرأة حيضاً ومحيضاً فهي حائض وحائضة كذا قال الفراء، ونساء حيض وحوائض، والحيضة بالكسر المرة الواحدة وقيل الاسم، وقيل المحيض عبارة عن الزمان والمكان وهو مجاز فيهما.

وقال ابن جرير الطبري: المحيض اسم الحيض أي الحدث، وأصل هذه الكلمة من السيلان والانفجار، يقال حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي سالت رطوبتها، ومنه الحوض لأن الماء يحوض إليه أي يسيل.

﴿قل هو أذى﴾ أي شيء يتأذى به أي برائحته، والاذى كناية عن القذر أو محله ويطلق على القول المكروه، ومنه قوله تعالى ﴿ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ ومنه قوله تعالى ﴿ودع أذاهم﴾﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي فاجتنبوهن واتركوا وطأهن في زمان الحيض أن حمل المحيض على المصدر أو في محل الحيض إن حمل على الاسم.

والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملابسة فإن ذلك جائز، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج أو بما دون الإزار على خلاف في ذلك.

وأما ما يروى عن ابن عباس وعبيدة السلماني أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت فليس ذلك بشيء.

ولا خلاف بين أهل العلم في تحريم وطء الحائض وهو معلوم من ضرورة الدين.

وقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فأنزل الله ﴿ويسئلونك عن المحيض﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح[1]».

﴿ولا تقربوهن﴾ بالجماع ﴿حتى يطهرن﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد، والطهر انقطاع الحيض والتطهير الاغتسال، وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء، وقال محمد بن كعب القرظي ويحيى بن بكير: إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وإن لم تغتسل، وقال مجاهد وعكرمة إن انقطع الدم يحلها لزوجها ولكن تتوضأ.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة، وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد.

والأولى أن يقال أن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان إحداهما انقطاع الدم والأخرى التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى فيجب المصير إليها، وقد دل على أن الغاية الأخرى هي

---

(١) مسلم ٣٠٢.

المعتبرة قوله تعالى بعد ذلك ﴿فإذا تطهرن﴾ فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم، وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة ما والعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين.

﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي فجامعوهن، وكنى عنه بالإتيان والمراد أنهم يجامعوهن في المأتى الذي أباحه الله، وهو القبل، وقيل من حيث بمعنى في حيث كما في قوله تعالى ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ أي في يوم الجمعة وقوله ﴿ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي في الأرض وقيل أن المعنى من الوجه الذي أذن الله لكم فيه أي من غير صوم وإحرام واعتكاف، وقيل أن المعنى من قبل الطهر لامن قبل الحيض، وقيل من قبل الحلال لامن قبل الزنا.

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ قيل المراد التوابون من الذنوب والمتطهرون من الجنابة والأحداث، وقيل التوابون من إتيان النساء في أدبارهن وقيل من إتيانهن في المحيض والأول أظهر.

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة إذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات فقد شبه ما يلقى في أرحامهم من النطف التي منها النسل بما يلقى في الأرض من البذور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى أعني قوله ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾.

﴿فأتوا حرثكم﴾ أي محل زرعكم واستنباتكم الولد وهو القبل، وهذا على سبيل التشبيه، فجعل فرج المرأة كالأرض والنطفة كالبذر، والولد كالزرع ﴿أنى شئتم﴾ أي من أي جهة شئتم من خلف وقدام وباركةً ومستلقية ومضطجعة وقائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة إذا كان في موضع الحرث، وإنما عبر سبحانه بكلمة أنى لكونها أعم في اللغة من أين وكيف ومتى، وأما سيبويه ففسرها بكيف.

وقد ذهب السلف والخلف من االصحابة والتابعين والأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية وأن إتيان الزوجة في دبرها حرام، وروي عن سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك ابن الماجشون أنه يجوز ذلك، حكاه عنهم القرطبي في تفسيره قال: وحكي ذلك عن مالك في كتاب له يسمى كتاب السر، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر، ووقع هذا القول في العتبية.

وذكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كثيرة من الصحابة والتابعين وإلى مالك من روايات كثيرة عن كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن.

قال الطحاوي: روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً أقتدي به في ديني شك في أنه حلال، يعني وطء المرأة في دبرها ثم قرأ ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ ثم قال: فأي شيء أبين من هذا.

وقد روى الحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي عن مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك وفي أسانيدها ضعف.

وقد روى الطحاوي عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء، والقياس أنه حلال، وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب.(١)

قال ابن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعي في ذلك فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه.

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر قال: كانت

(١) وقد ورد التحريم صريحاً بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. «لا تأتوا النساء في اعجازهن» رواه احمد والنسائي.

اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها ثم حملت جاء الولد أحول فنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ إن شاء مجبية وإن شاء غير مجبية غير أن ذلك في صمام واحد.

وقد روي هذا عن جماعة من السلف وصرحوا أنه السبب، والصمام السبيل.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه والنسائي والضياء في المختارة وغيرهم عن ابن عباس قال: «جاء عمر إلى رسول الله فقال: يا رسول الله هلكت قال: وما أهلكك قال حولت رحلي الليلة فلم يرد عليه شيئاً فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ يقول أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة.

وأخرج الشافعي في الأم وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن ماجة وابن المنذر والبيهقي في سننه من طريق خزيمة بن ثابت أن سائلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إتيان النساء في أدبارهن فقال «حلال، أو لا بأس» فلما ولى دعاه فقال: كيف قلت أمن دبرها في قبلها فنعم أم من دبرها في دبرها فلا، ان الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن».

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة من الدبر»[1].

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى[2]».

---

(١) وقد صحح الحديث ابن خزيمه في صحيحه.

(٢) رواه البزار والطبراني وصححه المنذري.

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»[1].

وقد ورد النهي عن ذلك من طرق.

وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين مرفوعاًوموقوفاً.

وقد روي القول بحل ذلك عن بعضهم كما قدمنا، وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم فإنهم لم يأتوا بدليل يدل على الجواز فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه، وقد فسرها لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطىء في فهمه كائناً من كان.

ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلاً أتى امرأته في دبرها فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك فقد أخطأ بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه.

﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي خيراً كما في قوله تعالى ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ وقيل ابتغاء الولد وقيل التزويج بالعفائف، وقيل التسمية والدعاء عند الجماع وقيل غير ذلك ﴿واتقوا الله﴾ فيه تحذير عن الوقوع في شيء من المحرمات ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ بالبعث مبالغة في التحذير ﴿وبشر المؤمنين﴾ الذين اتقوه بالجنة تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر

(٢) صحيح الجامع الصغير ١٨٤٨.

الجزء الأول

تمّ الجزء الأول بفضل الله ونعمته ويليه الجزء الثاني وأوله تفسير الآية ٢٢٤ من سورة البقرة وتبدأ بقوله تعالى:

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

فهرس الجزء الأول

تم الفهرس والحمد لله

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري
"١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الثاني

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

أوله تفسير الآية ٢٢٤ من سورة البقرة وتبدأ بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

إلى آخر سورة آل عمران

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ
النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا
كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن
فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

﴿ولا تجعلوا الله﴾ أي الحلف به ﴿عرضة لأيمانكم﴾ العرضة النصبة قاله الجوهري، وقيل العرضة الشدة والقوة، ومنه قولهم للمرأة عرضة للنكاح إذا صلحت له وقويت عليه، ولفلان عرضة أي قوة، وتطلق العرضة على الهمّة، ويقال فلان عرضة للناس لا يزالون يقعون فيه.

فعلى المعنى الذي ذكره الجوهري أن العرضة النصبة كالغرفة يكون ذلك اسماً لما تعرضه دون الشيء أي تجعله حاجزاً له ومانعاً منه، أي لا تجعلوا الله حاجزاً ومانعاً لما حلفتم عليه، وذلك لأن الرجل كان يحلف على بعض الخير من صلة الرحم أو إحسان إلى الغير أو إصلاح بين الناس بأن لا يفعل ذلك ثم يمتنع من فعله معللاً لذلك الإمتناع بأنه قد حلف أن لا يفعله، وهذا المعنى هو الذي ذكره الجمهور في تفسير الآية فنهاهم الله أن يجعلوه عرضة لأيمانهم أي حاجزاً لما حلفوا عليه ومانعاً منه، وسمّي المحلوف عليه يميناً لتلبُّسه باليمين.

وعلى هذا يكون قوله ﴿أن تبُّروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ عطف بيان لأيمانكم أي لا تجعلوا الله مانعاً للأيمان التي هي برُّكم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس، ويتعلق قوله لأيمانكم بقوله لا تجعلوا أي لا تجعلوا الله لأيمانكم مانعاً وحاجزاً.

ويجوز أن يتعلق بعرضة، أي لا تجعلوا شيئاً معترضاً بينكم وبين البِر وما بعده.

وعلى المعنى الثاني وهو أن العرضة الشدة والقوة يكون معنى الآية لا

تجعلوا اليمين بالله قوة لأنفسكم وعدّة في الامتناع من الخير.

ولا يصح تفسير الآية على المعنى الثالث وهو تفسير العرضة بالهمة.

وأما على المعنى الرابع وهو قولهم فلان عرضة للناس، فيكون معنى الآية عليه: ولا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم فتبتذلونه بكثرة الحلف به، ومنه ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ وقد ذم الله المكثرين للحلف فقال ﴿ولا تطع كل حلّاف مهين﴾ وقد كانت العرب تتمادح بقلة الأيمان فيكون قوله ﴿أن تبروا﴾ علة للنهي أي لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس لأن من يكثر الحلف بالله يجترىء على الحنث ويفجر في يمينه.

وقد قيل في تفسير الآية أقوال هي راجعة إلى هذه الوجوه التي ذكرناها ﴿والله سميع﴾ أي لأقوال العباد ﴿عليم﴾ بما يصدر منهم.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفّر عن يمينه»[1].

وثبت أيضاً في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها الا أتيت الذي هو خير وكفّرت عن يميني»[2].

وأخرج ابن ماجه وابن جرير عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية فبرّه أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه»[3] وفي الباب أحاديث.

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ اللغو مصدر لغا يلغو لغواً ولغا يلغي لغياً إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه وهو الساقط

(١) مسلم ١٦٥٠.
(٢) مسلم ١٦٤٩ ـ البخاري ١٤٧٦.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٦٠٩١.

الذي لا يعتد به، فاللغو من اليمين هو الساقط، ومنه اللغو في الدية وهو الساقط الذي لا يعتد به من أولاد الإبل، ومعنى الآية لا يعاقبكم الله بالساقط من أيمانكم ﴿ولكن يؤاخذكم﴾ أي يعاقبكم ﴿بما كسبت قلوبكم﴾ أي اقترفته بالقصد اليه وهي اليمين المقصودة، ومثله قوله تعالى ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير اللغو، فذهب ابن عباس وعائشة وجمهور العلماء إلى أنها قول الرجل لا والله وبلى والله في حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريد لها.

قال المروزي: هذا معنى لغو اليمين الذي اتفق عليه عامة العلماء، ويدل له الأحاديث، وبه قال الشافعي.

وقال أبو هريرة وجماعة من السلف: هو أن يحلف الرجل على الشيء لا يظن إلا أنه أتاه فاذا هو ليس ما هو ظنه، وإلى هذا ذهب الحنفية، وبه قال مالك في الموطا ولا كفارة فيه ولا اثم عليه عنده.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان، وبه قال طاوس ومكحول وروي عن مالك، وقيل: إن اللغو هو يمين المعصية، قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله بن الزبير وأخوه عروة كالذي يقسم ليشربنّ الخمر أو ليقطعن الرحم.

وقيل لغو اليمين هو دعاء الرجل على نفسه كأن يقول أعمى الله بصره أذهب الله ماله، هو يهودي هو مشرك قاله زيد بن أسلم، وقال مجاهد: لغو اليمين أن يتبايع الرجلان فيقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا، وقال الضحاك: لغو اليمين هي المكفرة أي إذا كفّرت سقطت وصارت لغواً والراجح القول الأول لمطابقته للمعنى اللغوي ولدلالة الأدلة عليه[1].

(١) القرطبي ٣/١٠٠.

﴿والله غفور حليم﴾ حيث لم يؤاخذكم بما تقولونه بألسنتكم من دون عمد أو قصد، وأخذكم بما تعمدته قلوبكم وتكلمت به ألسنتكم، وتلك هي اليمين المعقودة المقصودة، وقال سعيد بن جبير ﴿والله غفور﴾ يعني إذ تجاوز عن اليمين التي حلف عليها ﴿حليم﴾ إذ لم يجعل عليها الكفارة.

﴿للذين يؤلون من نسائهم تربُّص أربعة أشهر﴾ أي يحلفون والمصدر إيلاء وألية وألوة، وقرأ ابن عباس للذين آلوا يقال آلى يولي ايلاء ويأتلي بالتاء ائتلاء أي حلف، ومنه ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم﴾ والإيلاء حقه أن يستعمل بعلى، واستعماله بمن لتضمنه معنى البعد أي يحلفون متباعدين من نسائهم.

وقد اختلف أهل العلم في الإيلاء فقال الجمهور إن الإيلاء هو أن يحلف أن لا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر، فإن حلف على أربعة أشهر فما دونها لم يكن مولياً، وكانت عندهم يميناً محضاً، وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور، وقال الثوري والكوفيون: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً وهو قول عطاء.

وروي عن ابن عباس أنه لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يمسها أبداً وقالت طائفة: إذا حلف أن لا يقرب امرأته يوماً أو أقل أو أكثر ثم لم يطأها أربعة أشهر بانت منه بالإيلاء، وبه قال ابن مسعود والنخعي وابن أبي ليلى والحكم وحماد بن سليمان وقتادة واسحق.

قال ابن المنذر: وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم.

وقوله ﴿من نسائهم﴾ يشمل الحرائر والإماء إذا كن زوجات وكذلك يدخل تحت قوله ﴿ للذين يؤلون﴾ العبد إذا حلف من زوجته، وبه قال أحمد والشافعي وأبو ثور قالوا وايلاؤه كالحر، وقال مالك والزهري وعطاء وأبو حنيفة

وإسحق: إن أجله شهران، وقال الشعبي: إيلاء الأمة نصف إيلاء الحرة، والتربص التأني والتأخر.

وإنما وقت الله سبحانه بهذه المدة دفعاً للضرار عن الزوجة، وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة والسنتين وأكثر من ذلك يقصدون بذلك ضرار النساء، وقد قيل إن الأربعة الأشهر هي التي لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها(١).

﴿فان فَاءُوا﴾ أي رجعوا فيها أو بعدها عن اليمين إلى الوطء، ومنه ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي ترجع، ومنه قيل للظل بعد الزوال ﴿فيء﴾ لأنه رجع عن جانب المشرق إلى جانب المغرب، يقال فاء يفيء فيئة وفيئاً، وأنه سريع الفيئة أي الرجعة، وللسلف في الفيء أقوال مختلفة فينبغي الرجوع إلى معنى الفيء وقد بيناه.

قال ابن المنذر: وأجمع كل من يحفظ عنه العلم على أن الفيء الجماع لمن لا عذر له، فإن كان له عذر مرض أو سجن فهي امرأته، فإذا زال العذر فأبى الوطء فرّق بينهما إن كانت المدة قد انقضت، قاله مالك.

وقالت طائفة: إذا أشهد على فيئه بقلبه في حال العذر أجزأه، وبه قال الحسن وعكرمة والنخعي والأوزاعي وأحمد بن حنبل.

وقد أوجب الجمهور على المولى إذا فاء بجماع امرأته الكفارة، وقال الحسن والنخعي: لا كفارة عليه، وللصحابة والتابعين في هذا أقوال مختلفة متناقضة، والمتعيّن الرجوع إلى ما في الآية الكريمة وهو ما عرّفناك واشدد عليه يديك ﴿فإن الله غفور﴾ للزوج إذا تاب من إضراره بامرأته ﴿رحيم﴾ لكل التائبين.

---

(١) القرطبي ١٠٨/٣.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ العزم العقد على الشيء يقال عزم يعزم عزماً وعزيمة وعزماناً واعتزم، فمعنى عزموا الطلاق عقدوا عليه قلوبهم بأن لم يفيئوا فليوقعوه، والطلاق من طلقت المرأة تطلق كنصر ينصر، طلاقاً فهي طالق وطالقة ايضاً: والطلاق حل عقد النكاح، وفي ذلك دليل على أنها لا تطلق بمضي أربعة أشهر كما قال مالك ما لم يقع إنشاء تطليق بعد المدة، وأيضاً فإنه قال: ﴿فإن الله سميع﴾ لقولهم، وسميع يقتضي مسموعاً بعد المضى، وقال أبو حنيفة سميع لإيلائه ﴿عليم﴾ بعزمه الذي دل عليه مضي أربعة أشهر.

والمعنى: ليس لهم بعد تربص ما ذكر إلا الفيئة أو الطلاق.

واعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم، وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ ولا دليل آخر ومعناها ظاهر واضح، وهو أن الله جعل الأجل لمن يولي أي يحلف من امرأته أربعة أشهر، ثم قال مخبراً لعباده بحكم هذا المؤلي بعد هذه المدة ﴿فإن فَاءُوا﴾ أي رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النِّكاح ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم ويرحمهم ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ أي وقع العزم منهم عليه والقصد له ﴿فإن الله سميع﴾ لذلك منهم ﴿عليم﴾ به فهذا معنى الآية الذي لا شك فيه ولا شبهة، فمن حلف أن لا يطأ امرأته ولم يقيد بمدة أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله أربعة أشهر، فإذا مضت فهو بالخيار إما رجع إلى نكاح امرأته وكفّر عن يمينه، وكانت زوجته بعد مضي المدة كما كانت زوجته قبلها، أو

طلقها وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداء.

وأما إذا وقّت بدون أربعة أشهر فإن أراد أن يبر في يمينه اعتزل امرأته التي حلف منها حتى تنقضي المدة كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين آلى من نسائه شهراً فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر، وإن أراد أن يطأ امرأته قبل مضي تلك المدة التي هي دون أربعة أشهر حنث في يمينه ولزمته الكفارة، وكان ممتثلاً لما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»[1].

﴿والمطلقات﴾ أي المخلّيات من حبال أزواجهنّ،والمطلقة هي التي أوقع الزوج عليها الطلاق ﴿يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ تمضي من حين الطلاق تدخل تحت عمومه المطلقة قبل الدخول، ثم خصصت بقوله تعالى ﴿فمالكم عليهن من عدّة تعتدونها﴾ فوجب بناء العام على الخاص، وخرجت من هذا العموم المطلقة قبل الدخول، وكذلك خرجت الحامل بقوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ وكذلك خرجت الآية بقوله تعالى: ﴿فعدتهن ثلاثة أشهر﴾؛ والتربص الانتظار قيل هو خبر في معنى الأمر أي لتتربص قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه وزاده تأكيداً وقوعه خبراً للمبتدأ.

قال ابن العربي: وهذا باطل وإنما هو خبر عن حكم الشرع،فإن وجدت مطلقة لا تتربص فليس ذلك من الشرع، ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره.

---

(١) روى مسلم احاديث كثيرة بهذا المعنى/١٦٥٠ وما بعده. /صحيح الجامع الصغير/ ٦٠٨٤.

والقروء[1] جمع قرء،قال الأصمعي: الواحد القرء بضم القاف، وقال أبو زيد بالفتح وكلاهما قال: أقرأت المرأة حاضت وأقرأت طهرت، وقال الأخفش: أقرأت المرأة إذا صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلت قرأت بلا ألف.

وقال أبو عمرو بن العلاء: من العرب من يسمي الحيض قَرْأً، ومنهم من يسمي الطهر قرأً، ومنهم من يجمعهما جميعاً فيسمي الحيض مع الطهر قرأ.

وينبغي أن يعلم أن القَرْءَ في الأصل الوقت يقال هبت الرياح لقَرئها ولقارئها أي لوقتها فيقال للحيض قَرء وللطهر قَرء لأن كل واحد منهما له وقت معلوم، وقد أطلقته العرب تارة على الطهر وتارة على الحيض.

وقال قوم مأخوذ من قرأ الماء في الحوض وهو جمعه، ومنه ﴿القرآن﴾ لاجتماع المعاني فيه.

والحاصل أن القَرْءَ في لغة العرب مشترك بين الحيض والطهر، ولأجل ذلك الاشتراك اختلف أهل العلم في تعيين ما هو المراد بالقروء المذكورة في الآية فقال أهل الكوفة: هي الحيض، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدى وأحمد بن حنبل، وقال أهل الحجاز: هي الإطهار، وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهري وأبان بن عثمان والشافعي.

واعلم أنه قد وقع الاتفاق بينهم على أن القَرْءَ الوقت فصار معنى الآية عند الجميع والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة أوقات، فهي على هذا مفسرة في العدد مجملة في المعدود، فوجب طلب البيان للمعدود من غيرها فأهل القول الأول استدلوا على أن المراد في هذه الآية الحيض بقوله ﷺ «دعي الصلاة أيام

(١) القُروء: جمعُ قَرْء (مجمل اللغة لابن فارس، باب القاف والراء وما يثلثهما، ٢/٧٥٠؛ تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، اطبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت).

إقرائك[1]» وبقوله ﷺ: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان[2]» وبأن المقصود من العدة استبراء الرحم وهو يحصل بالحيض لا بالطهر.

واستدل أهل القول الثاني بقوله تعالى ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر، وبقوله ﷺ لعمر «مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء[3]» وذلك لأن زمن الطهر هو الذي تطلق فيه النساء.

قال أبو بكر بن عبد الرحمن: ما أدركنا أحداً من فقهائنا إلا يقول بأن الإقراء هو الإطهار فإذا طلق الرجل في طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقي منه ولو ساعة ولو لحظة ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العدة انتهى.

وعندي أن لا حجة في بعض ما احتج به أهل القولين جميعاً:

أما قول الأولين أن النبي ﷺ قال: «دعي الصلاة أيام إقرائك» فغاية ما في هذا أن النبي ﷺ أطلق الإقراء على الحيض، ولا نزاع في جواز ذلك كما هو شأن اللفظ المشترك فإنه يطلق تارة على هذا وتارة على هذا، وإنما النزاع في

---

(١) ابو داود كتاب الطهارة باب ١٠٧.

(٢) ضعيف الجامع الصغير ٣٦٥٢. والصواب وقفه على ابن عمر (وعن عائشة مرفوعاً: «طلاق العبد اثنتان فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره» رواه الدارقطني) ٢/٢٤٢. وهو ضعيف. أخرجه الدارقطني (٤٤١) وعنه البيهقي (٧/٢٣٩ - ٣٧٠، ٤٢٦).
أما «طلاق الأمة تطليقتان وقرؤها حيضتان».
أخرجه أبو داود (٢١٨٩) والترمذي (١/٢٢٢) وابن ماجه (٢٠٨٠) والدارقطني والحاكم (٢/٢٠٥) والبيهقي والخطابي في «غريب الحديث» (ق ١٥٢/٢) وقال أبو داود:
«وهو حديث مجهول».
وقال الترمذي:
«لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث مظاهر، ولا نعرف له غير هذا الحديث».

(٣) مسلم ١٤٧١.

الإقراء المذكور في هذه الآية.

وأما قوله ﷺ في الأمة: «وعدتها حيضتان» فهو حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارقطني والحاكم وصححه من حديث عائشة مرفوعاً، وأخرجه ابن ماجه والبيهقي من حديث ابن عمر مرفوعاً أيضا، ودلالته على ما قاله الأولون قوية[1].

وأما قولهم: إن المقصود من العدة استبراء الرحم وهو يحصل بالحيض لا بالطهر، فيجاب عنه بأنه إنما يتم لو لم يكن في هذه العدة شيء من الحيض على فرض تفسير الإقراء بالاطهار، وليس كذلك بل هي مشتملة على الحيض كما هي مشتملة على الاطهار.

وأما استدلال أهل القول الثاني بقوله تعالى ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ فيجاب عنه بأن التنازع في اللام في قوله: ﴿لعدتهن﴾ يصير ذلك محتملاً ولا تقوم به الحجة.

وأما استدلالهم بقوله ﷺ لعمر «مره فليراجعها[2]» الحديث فهو في الصحيح ودلالته قوية على ما ذهبوا اليه، ويمكن أن يقال إنها تنقضي العدة بثلاثة أطهار أو بثلاث حيض ولا مانع من ذلك فقد جوز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنييه، وبذلك يجمع بين الأدلة ويرتفع الخلاف ويندفع النزاع.

وقد استشكل الزمخشري تمييز الثلاثة بقوله: وقروء هي جمع كثرة دون الاقراء التي هي من جموع القلة، وأجاب بأنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه باب الطلاق ٢/٢٠٥ بلفظ: «وقرؤها حيضتان».
(٢) مسلم ١٤٧٠.

﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ قيل المراد به الحيض وقيل الحمل وقيل كلاهما، ووجه النهي عن الكتمان ما فيه في بعض الأحوال من الإضرار بالزوج وإذهاب حقه، فإذا قالت المرأة حضت وهي لم تحض ذهبت بحقه من الارتجاع، وإذا قالت هي لم تحض وهي قد حاضت ألزمته من النفقة ما لم يلزمه فأضرت به، وكذلك الحمل ربما تكتمه لتقطع حقه من الارتجاع وربما تدّعيه لتوجب عليه النفقة، ونحو ذلك من المقاصد المستلزمة للإضرار بالزوج.

وقد اختلفت الأقوال في المدة التي تصدق فيها المرأة إذا ادعت انقضاء عدتها وفيه دليل على قبول قولهن في ذلك نفياً وإثباتاً.

﴿إن كنّ يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيه وعيد شديد للكاتمات، وبيان أن من كتمت ذلك منهن لم تستحق اسم الايمان، وهذا الشرط ليس للتقييد بل للتغليظ حتى لو لم يكن مؤمنات كان عليهن العدة أيضاً.

﴿وبعولتهن﴾ البعولة جمع بعل وهو الزوج سمي بعلاً لعلوه على الزوجة لأنهم يطلقونه على الرب، ومنه قوله تعالى ﴿أتدعون بعلاً﴾ أي رباً، ويقال بعول وبعولة كما يقال في جمع الذكر ذكور وذكورة، وهذه التاء لتأنيث الجمع وهو شاذ لا يقاس عليه بل يعتبر فيه السماع، والبعولة أيضا يكون مصدراً من بعل الرجل يبعل مثل منع يمنع أي صار بعلاً، والتقدير أهل بعولتهن، واستفيد من هذا أن البعولة لفظ مشترك بين المصدر والجمع.

﴿أحق بردهن﴾ أي برجعتهن وذلك يختص بمن كان يجوز للزوج مراجعتها فيكون في حكم التخصيص لعموم قوله ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ لأنه يعم المثلثات وغيرهن، وصيغة التفضيل لإفادة أن الرجل إذا

أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب إيثار قوله على قولها، وليس معناه أن لها حقاً في الرجعة، قاله أبو السعود.

﴿في ذلك﴾ يعني في مدة التربص، فإن انقضت مدة التربص فهي أحق بنفسها ولا تحل له إلا بنكاح مستأنف بولي وشهود ومهر جديد، ولا خلاف في ذلك، والرجعة تكون باللفظ وتكون بالوطء ولا يلزم المراجع شيء من أحكام النكاح بلا خلاف.

﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي بالمراجعة أي إصلاح حاله معها وحالها معه، فإن قصد الإضرار بها فهي محرمة لقوله تعالى ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ قيل وإذا قصد بالرجعة الضرار فهي صحيحة وإن ارتكب به محرماً وظلم نفسه، وعلى هذا فيكون الشرط المذكور في الآية للحث للأزواج على قصد الصلاح والزجر لهم عن قصد الضرار، وليس المراد به جعل قصد الصلاح شرطاً لصحة الرجعة.

﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجل عليهن فيحسن عشرتها بما هو معروف من عادة الناس أنهم يفعلونه لنسائهم، وهي كذلك تحسن عشرة زوجها بما هو معروف من عادة النساء أنهن يفعلنه لأزواجهن من طاعة وتزين وتحبب ونحو ذلك.

قال ابن عباس في الآية: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي لأن الله قال ﴿ولهن﴾ الخ، قال الكرخي: أي من الوجوب لا في الجنس فلو غسلت ثيابه أو خبزت له لم يلزمه أن يفعل ذلك، وقيل في مطلق الوجوب لا في عدد الأفراد ولا في صفة الواجب.

﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي منزلة ليست لهن وهي قيامه عليها في الانفاق وكونه من أهل الجهاد والعقل والقوة، وله من الميراث أكثر مما لها، وكونه يجب عليها امتثال أمره والوقوف عند رضاه والشهادة والدية وصلاحية

الإمامة والقضاء، وله أن يتزوج عليها ويتسرّى، وليس لها ذلك، وبيده الطلاق والرجعة وليس شيء من ذلك بيدها، ولو لم يكن من فضيلة الرجال على النساء إلا كونهن خلقن من الرجال لما ثبت أن حواء خلقت من ضلع آدم لكفى.

وقد أخرج أهل السنن عن عمرو بن الاحوص أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً، أما حقكم على نسائكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا اليهن في كسوتهن وطعامهن[1]» وصححه الترمذي وأصله عند مسلم في الصحيح.

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية بن حيدة القشيري: أنه سأل النبي ﷺ ما حق المرأة على الزوج؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تهجر إلا في البيت[2]».

وعن ابن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه رسول الله ﷺ فيها ثم رجع فرأى رجالا يسجد بعضهم لبعض، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها[3]»، رواه البغوي بسنده.

﴿والله عزيز﴾ يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه ﴿حكيم﴾ يطوي شرائعه على الحكم والمصالح.

---

(١) الترمذي، كتاب الرضاعة باب ١١.
(٢) المستدرك، كتاب النكاح ٢/١٨٨.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٥١١٥.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

﴿الطلاق مرتان﴾ أي عدد الطلاق الذي تثبت فيه الرجعة للازواج هو مرتان، فالمراد بالطلاق المذكور هو الرجعي بدليل ما تقدم في الآية أي الطلقة الأولى والثانية إذ لا رجعة بعد الثالثة، وإنما قال سبحانه ﴿مرتان﴾ ولم يقل طلقتان إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة لا طلقتان دفعة واحدة، كذا قال جماعة من المفسرين.

ولما لم يكن بعد الطلقة الثانية إلا أحد أمرين إما ايقاع الثالثة التي بها تبين الزوجة، أو الإمساك لها واستدامة نكاحها، وعدم ايقاع الثالثة عليها؛ قال سبحانه ﴿فامساك﴾ أي بعد الرجعة لمن طلقها زوجها طلقتين ﴿بمعروف﴾ أي بما هو معروف عند الناس من حسن العشرة وحقوق النكاح ﴿أو تسريح باحسان﴾ أي بايقاع طلقة ثالثة من دون ضرار لها.

وقيل المراد إمساك بمعروف أي برجعة بعد الطلقة الثانية أو تسريح باحسان أي بترك الرجعة بعد الثانية حتى تنقضي عدتها، والأول أظهر.

قال أبو عمرو: أجمع العلماء على أن التسريح هي الطلقة الثالثة بعد الطلقتين وإياها عنى بقوله ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾.

وقد اختلف أهل العلم في إرسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاث أو واحدة فقط فذهب إلى الأول الجمهور، وذهب إلى الثاني من عداهم وهو الحق، وقد قرره الشوكاني في مؤلفاته تقريراً بالغاً، وأفرده برسالة مستقلة وكذا الحافظ

ابن القيم في اغاثة اللهفان واعلام الموقعين وقررته في شرحي على بلوغ المرام.

﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ الخطاب للازواج أي لا يحل لهم أن يأخذوا في مقابلة الطلاق مما دفعوه إلى نسائهم من المهر شيئاً على وجه المضارة لهن، وتنكير شيء للتحقير أي شيئاً نزراً فضلاً عن الكثير، وخص ما دفعوه إليهن بعدم حل الأخذ منه مع كونه لا يحل للازواج أن يأخذوا من أموالهن التي يملكنها من غير المهر،لكون ذلك هو الذي يتعلق به نفس الزوج ويتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو في ملكها.

على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها في مقابلة البضع عند خروجه عن ملكه لا يحل له، كان ما عداه ممنوعاً منه بالأولى.

وقيل الخطاب للأئمة والحكام ليطابق قوله ﴿فإن خفتم﴾ فإن الخطاب فيه للأئمة والحكام، وعلى هذا يكون إسناد الأخذ اليهم لكونهم الآمرين بذلك والأول أولى لقوله ﴿ما آتيتموهن﴾ فإن إسناده إلى غير الأزواج بعيد جداً لأن إيتاء الأزواج لم يكن عن أمرهم، وقيل: إن الثاني أولى لئلا يشوش النظم.

﴿إلا أن يخافا﴾ أي يعلم الزوجان من أنفسهما، فيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة ﴿أن لا يقيما حدود الله﴾ أي تخاف المرأة أن تعصى الله في أمور زوجها، ويخاف الزوج أنه إذا لم تطعه أن يعتدي عليها.

وقرأ حمزة يخافا بضم الياء أي إلا أن يعلم من حالهما، والفاعل محذوف وهو الأئمة والولاة والحكام والقضاة، واختاره أبو عبيد قال لقوله.

﴿فإن خفتم﴾ فجعل الخوف لغير الزوجين، وقد احتج لذلك من جعل الخلع إلى السلطان وهو سعيد بن جبير والحسن ابن سيرين، وقد ضعّف النحاس اختيار أبي عبيد.

﴿فإن خفتم﴾ أي خشيتم وأشفقتم وقيل معناه ظننتم ﴿أن لا يقيما حدود الله﴾ يعني ما أوجب الله على كل واحد منهما من طاعته فيما أمره به من حسن

الصحبة والمعاشرة بالمعروف، وقيل هو يرجع إلى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي لا جناح على الرجل في الأخذ، ولا على المرأة في الإعطاء بأن تفتدي نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج فيطلقها لأجله، وهذا هو الخلع، وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج وأنه يحل له الأخذ مع ذلك الخوف وهو الذي صرح به القرآن.

وحكى ابن المنذر عن بعض أهل العلم أنه لا يحل له ما أخذ، ولا يجبر على رده، وهذا في غاية السقوط.

وأخرج البخاري والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس: أن جميلة بنت عبد الله بن سلول امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكن لا أطيقه بغضاً وأكره الكفر في الإسلام، قال: «أتردين عليه حديقته» قالت: نعم، قال: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة[1]».

ولفظ ابن ماجة «فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد»، وفي الباب أحاديث كثيرة[2].

وقد ورد في ذم المختلعات أحاديث منها عن ثوبان عند أحمد وأبي داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة[3]»، وقال: «المختلعات هن المنافقات».

---

(١) البخاري كتاب الطلاق باب ١٢.
(٢) ابن ماجه كتاب الطلاق باب ٢٢.
(٣) المستدرك كتاب الطلاق ٢/ ٢٠٠. وهو حديث صحيح كما رواه اصحاب السند وقالوا:

ومنها عن ابن عباس عند ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسأل المرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة، وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً[1]».

وقد اختلف أهل العلم في عدة المختلعة والراجح أنها تعتد بحيضة لما أخرجه أبو داود والترمذي وحسّنه والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس: أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس أن تعتد بحيضة.

ولما أخرجه الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء أنها اختلعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تعتد بحيضة، قال الترمذي الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة، وفي الباب أحاديث.

ولم يرد ما يعارض هذا من المرفوع بل ورد عن جماعة من الصحابة

= صحيح. أخرجه أبو داود (٢٢٢٦) والترمذي (١/٢٢٣) والدارمي (٢/١٦٢) وابن ماجه (٢٠٥٥) وابن الجارود (٧٤٨) وابن حبان (١٣٢٠) والبيهقي (٧/٣١٦) وابن أبي شيبة (٨/١٤١/١-٢) والطبري في «التفسير» (٤٨٤٣، ٤٨٤٤) والحاكم (٢/٢٠٠) من طرق عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ فذكره. وقال الترمذي:

«حديث حسن». وقال الحاكم:

«صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي.

قلت: وإنما هو على شرط مسلم وحده، فإن أبا أسماء الرحبي واسمه عمرو بن مرثد إنما أخرج له البخاري في «الأدب المفرد».

وللحديث طريق أخرى، يرويه ليث عن أبي إدريس عن ثوبان به.

أخرجه الطبري (٤٨٤٠).

وليث هو ابن أبي سليم، وهو ضعيف.

(١) ضعيف الجامع الصغير ٦٢٣٢.

والتابعين أن عدة المختلعة كعدة الطلاق وبه قال الجمهور، قال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم، واستدلوا على ذلك بأن المختلعة من جملة المطلقات فهي داخلة تحت عموم القرآن.

والحق ما ذكرناه لأن ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخصص عموم القرآن.

وقد حكي عن بكر بن عبد الله المزني أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة النساء ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ وهو قول خارج عن الإجماع ولا تنافي بين الآيتين.

وقد اختلف أهل العلم إذا طلب الزوج من المرأة زيادة على ما دفعه إليها من المهر وما يتبعه ورضيت بذلك المرأة هل يجوز أم لا، وظاهر القرآن الجواز لعدم تقييده بمقدار معين، وبهذا قال مالك والشافعي وأبو ثور، وروي مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين، وقال طاوس وعطاء والأوزاعي وأحمد وإسحق: إنه لا يجوز لما ورد في ذلك عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم.

﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ يعني هذه أوامر الله ونواهيه وهي ما تقدم من الاحكام فلا تجاوزوها بالمخالفة والرفض.﴿ومن يتعد حدود الله﴾ أي أحكام النكاح والفراق المذكورة هي حدود الله التي أمرتم بامتثالها فلا تعتدوها بالمخالفة لها فتستحقوا ما ذكره الله من التسجيل على فاعل ذلك بأنه ظالم، ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ أي لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه، وفيه وفيما قبله الإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروع في ذهن السامع وذكر هذا الوعيد بعد النهى عن تعديها للمبالغة في التهديد.

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

﴿فإن طلقها﴾ أي الطلقة الثالثة التي ذكرها سبحانه بقوله ﴿أو تسريح بإحسان﴾ أي فإن وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث سواء كان قد راجعها أم لا وسواء انقضت عدتها في صورة عدم الرجعة أم لا ﴿فلا تحلّ له من بعد﴾ الحكمة في شرع هذا الحكم الردع عن المسارعة إلى الطلاق وعن العود إلى الطلقة الثالثة والرغبة فيها.

﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ أي حتى تتزوج بزوج آخر غير المطلق بعد انقضاء عدتها من الأول فيجامعها، والنكاح يتناول العقد والوطء جميعاً والمراد هنا الوطء، وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب ومن وافقه قالوا: كفى مجرد العقد لأنه المراد بقوله حتى تنكح زوجاً غيره، وذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أنه لا بد مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبي ﷺ من اعتبار ذلك وهو زيادة يتعين قبولها، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه.

وفي الآية دليل على أنه لا بد أن يكون ذلك نكاحا شرعيا مقصوداً لذاته لا نكاحا غير مقصود لذاته بل حيلة للتحليل وذريعة إلى ردها إلى الزوج الأول، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة في ذمه وذم فاعله، وأنه التيس المستعار الذي لعنه الشارع ولعن من اتخذه لذلك.

وأخرج الشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي عن عائشة قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني فبتّ طلاقي، فتزوجني عبد الرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هدبة الثوب فتبسم النبي ﷺ فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عُسَيلته ويذوق عسيلتك[1]».

وقد روى نحو هذا عنها من طرق.

وأخرج أحمد والنسائي عن ابن عباس أن الغميصاء أو الرميصاء أتت النبي ﷺ وفي آخره: فقال النبي ﷺ: «ليس ذلك لك حتى يذوق عُسَيلتك رجل غيره[2]» والعُسَيلة مجاز عن قليل الجماع إذ يكفي قليل الانتشار، شبهت تلك اللذة بالعسل، وصغرت بالتاء لأن الغالب على العسل التأنيث قاله الجوهري.

وقد ثبت لعن المحلل في أحاديث كثيرة منها عن ابن مسعود عند أحمد والترمذي وصححه النسائي والبيهقي في سننه قال: «لعن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم المحلِّل والمحلَّل له[3]».

وفي الباب أحاديث في ذم التحليل وفاعله، وقد أطال في بيان ذلك الحافظ ابن القيم في اغاثة اللهفان، واعلام الموقعين وهو بحث نفيس جدا فارجع إليه.

(١ و ٢) مسلم/ ١٤٣٣ بروايات كثيرة مختلفة.
(٣) واسناده صحيح/ المشكاة ٣٢٩٦ ورواه ابن ماجه عن علي.

﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا جناح على الزوج الأول والمرأة أن يرجع كل واحد منها لصاحبه يعني بنكاح جديد، قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن الحر إذا طلق زوجته ثلاثا ثم

انقضت عدتها،ونكحت زوجاً ودخل بها ثم فارقها وانقضت عدتها،ثم نكحها الزوج الأول أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات.

﴿إن ظنا﴾ علما وأيقنا، وقيل إن رجوا لأن أحداً لا يعلم ما هو كائن إلا الله تعالى ﴿أن يقيما حدود الله﴾ أي حقوق الزوجية الواجبة لكل منهما على الآخر. وقيل إن علما أن نكاحها على غير دلسة، والدلسة التحليل، والأول أولى.

وأما إذا لم يحصل ظن ذلك بأن يعلما أو أحدهما عدم الاقامة لحدود الله، أو ترددا أو أحدهما، ولم يحصل لهما الظن فلا يجوز الدخول في هذا النكاح لأنه مظنة للمعصية لله والوقوع فيما حرمه على الزوجين.

﴿وتلك حدود الله﴾ اشارة إلى الأحكام المذكورة كما سلف ﴿يبينها لقوم يعلمون﴾ خصهم مع عموم الدعوة للعالم وغيره، ووجوب التبليغ لكل فرد لأنهم المنتفعون بذلك البيان.

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ البلوغ إلى الشيء معناه الحقيقي الوصول إليه، ولا يستعمل البلوغ بمعنى المقاربة إلا مجازاً لعلاقة مع قرينة كما هنا، فانه لا يصح إرادة المعنى الحقيقي لأن المرأة إذا بلغت آخر جزء من مدة العدة وجاوزته إلى الجزء الذي هو الأجل للانقضاء فقد خرجت من العدة ولم يبق للزوج عليها سبيل.

قال القرطبي في تفسيره: إن معنى بلغن هنا قاربن بإجماع العلماء، قال: ولأن المعنى يضطر إلى ذلك لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك، يعني فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة.

والمعنى قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها، ولم يرد انقضاء العدة كما يقال بلغ فلان البلد إذا قاربه وشارفه، فهذا من باب المجاز الذي يطلق اسم الكل فيه على الأكثر،وقيل:إن الأجل اسم للزمان فيحمل على الزمان الذي هو آخر زمان يمكن إيقاع الرجعة فيه بحيث إذا فات لا يبقى بعده مكنة إلى الرجعة، وعلى هذا التأويل فلا حاجة الى المجاز.

﴿فأمسكوهن﴾ أي راجعوهن ﴿بمعروف﴾ وهو أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء،وقيل: الإمساك بمعروف هو القيام بحقوق الزوجية وهو الظاهر، قيل:أعاده اعتناء بشأنه ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه.

﴿أو سرحوهن بمعروف﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن، والمعنى إذا طلقتم النساء فقاربن آخر العدة فلا تضارّوهن بالمراجعة من غير قصد لاستمرار الزوجية واستدامتها، بل اختاروا أحد أمرين إما الإمساك بمعروف من غير قصد لضرار أو التسريح بإحسان أي تركها حتى تنقضي عدتها من غير مراجعة ضراراً.

﴿ولا تمسكوهن ضراراً﴾ كما كانت تفعل الجاهلية من طلاق المرأة حتى يقرب انقضاء عدتها ثم مراجعتها لا عن حاجة ولا لمحبة ولكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضراراً ﴿لتعتدوا﴾ أي لقصد الاعتداء منكم عليهن والظلم بهن ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي الإمساك المؤدي للضرار ﴿فقد ظلم نفسه﴾ لأنه عرضها لعقاب الله وسخطه في ضمن ظلمه لهن، قال الزجاج: يعني عرض نفسه للعذاب لأن اتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ أي بالإعراض عنها والتهاون بالعمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت هازٍ كأنه نهى عن الهزو، وأراد به

الأمر بضده، والمعنى لا تأخذوا أحكام الله على طريقة الهزو، فإنها جد كلها فمن هزل فيها فقد لزمته.

نهاهم سبحانه أن يفعلوا كما كانت الجاهلية تفعل، فإنه كان يطلق الرجل منهم أو يعتق أو يتزوج ويقول كنت لاعباً، قال القرطبي: ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلاً ان الطلاق يلزمه.

أخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد، النكاح والطلاق والرجعة»(١).

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي النعمة التي صرتم فيها بالإسلام وشرائعه بعد أن كنتم في جاهلية جهلاء، وظلمات بعضها فوق بعض ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب﴾ وهو القرآن ﴿والحكمة﴾ قال المفسرون هي السنة التي سنّها لهم رسول الله ﷺ، وبه قال الشافعي ﴿يعظكم به﴾ أي يخوفكم بما أنزل عليكم، وأفرد الكتاب والحكمة بالذكر مع دخولهما في النعمة دخولاً أولياً تنبيهاً على خطرهما، وعظم شأنهما ﴿واتقوا الله﴾ يعني خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك فيؤاخذكم بأنواع العقاب.

---

(١) المستدرك كتاب النكاح ٢/١٩٨.

حسن. أخرجه أبو داود (٢١٩٤) والترمذي (١/٢٢٣) وابن ماجه (٢٠٣٩) والطحاوي (٢/٥٨) وابن الجارود (٧١٢) والدارقطني (٣٩٧) والحاكم (٢/١٩٨) وكذا ابن خزيمة في «حديث علي بن حجر» (ج ٤ رقم ٥٤) والبغوي في «شرح السنة» (٣/٤٦/٢) كلهم من طريق عبد الرحمن بن حبيب عن عطاء بن أبي رباح عن ابن ماهك عن أبي هريرة أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: فذكره. وقال الترمذي:

«حديث حسن غريب، وعبد الرحمن هو ابن حبيب بن أدرك المدني».

وقد ذكر الزيلعي في «نصب الراية» (٣/٢٩٤) في معناه أحاديث أخرى.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ الخطاب في هذه الآية بقوله ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ وبقوله ﴿فلا تعضلوهن﴾ إما أن يكون للأزواج ويكون معنى العضل منهم أن يمنعوهن من أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن لحمية الجاهلية، كما يقع كثيراً من الخلفاء والسلاطين غيرة على من كن تحتهم من النساء أن يصرن تحت غيرهم، لأنهم لما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والكبرياء يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بني آدم إلا من عصمه الله منهم بالورع والتواضع.

وإما أن يكون الخطاب للأولياء ويكون معنى إسناد الطلاق إليهم أنهم سبب له لكونهم المزوجين للنساء المطلقات من الأزواج المطلقين لهن، وبلوغ الأجل المذكور هنا المراد به المعنى الحقيقي أي نهايته لا كما سبق في الآية الأولى، ولهذا قال الشافعي: اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين، والعضل الحبس، وحكى الخليل: دجاجةٌ معضَلة قد احتبس بيضها، وقيل العضل التضييق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس.

وقال الأزهري: أصل العضل من قولهم عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه، وكل مشكل عند العرب معضل، ويقال أعضل الأمر إذا اشتد، وداء عضال أي شديد عسير البرء أعيا الأطباء.

وقوله ﴿أزواجهن﴾ إن أريد به المطلقون لهن فهو مجاز باعتبار ما كان، وإن أريد به من يردن أن يتزوجنه فهو مجاز أيضاً باعتبار ما سيكون.

﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ يعني إذا تراضى الخطّاب والنساء، والمعروف هنا ما وافق الشرع من عقد حلال ومهر جائز، وقيل هو أن يرضى كل واحد منهما بما التزمه لصاحبه بحق العقد حتى تحصل الصحبة الحسنة والعشرة الجميلة.

﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام، وإنما أفرد مع كون المذكور قبله جمعاً، حملاً على معنى الجمع بتأويله بالفريق وغيره، والمعنى أن المؤمن هو الذي ينتفع بالوعظ دون غيره.

﴿ذلكم﴾ محمول على لفظ الجمع، خالف سبحانه ما بين الإشارتين امتناناً ﴿أزكى لكم﴾ أنمى وأنفع ﴿وأطهر لكم﴾ من الأدناس وأطيب عند الله لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ما لكم فيه الصلاح، وقال الضحاك يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلم أنت أيها الولي.

قيل: سبب نزولها أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فأراد أن يراجعها فمنعها معقل كما رواه الحاكم، واسمها جميلة واسم زوجها عاصم بن عدي، فلما نزلت هذه الآية كفَّرَ عن يمينه وأنكحها إياه وتمام القصة في البخاري[1].

روى البخاري عن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها حتى انقضت عدّتها فخطبها فأبى معقل فنزلت: ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾. وأخرجه أيضاً الدارقطني عن الحسن.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ لما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق، ذكر الرضاع لأن الزوجين قد يفترقان وبينهما ولد، ولهذا قيل: إن هذا خاص بالمطلقات وقيل هو عام، وقوله ﴿يرضعن﴾ قيل هو خبر بمعنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه، وليس أمر إيجاب، وإنما هو أمر ندب واستحباب، وقيل هو خبر على بابه ﴿حولين كاملين﴾ تأكيد للدلالة على أن هذا التقدير تحقيقي لا تقريبي، وفيه رد على أبي حنيفة في قوله إن مدة الرضاع ثلاثون شهراً وعلى زفر في قوله ﴿إنها ثلاث سنين﴾ ذلك ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ فيه دليل على أن ارضاع الحولين ليس حتماً، بل هو التمام ويجوز الاقتصار على ما دونه، وليس له حد محدود، وإنما هو على مقدار إصلاح الطفل وما يعيش به، قال النحاس: لا يعرف البصريون الرضاعة إلا بالفتح، وحكى الكوفيون جواز الكسر، والآية تدل على وجوب الرضاع على الأم لولدها، وقد حمل ذلك على ما إذا لم يقبل الرضيع غيرها.

﴿وعلى المولود له﴾ أي على الأب الذي يولد له، وآثر هذا اللفظ دون قوله وعلى الوالد للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات، ولهذا ينسبون إليهم دونهن كأنهن إنما ولدن لهم فقط، ذكر معناه في الكشاف ﴿رزقهن﴾ المراد بالرزق هنا الطعام الكافي المتعارف بين الناس، ويطلق الرزق بالكسر على المرزوق وعلى المصدر ﴿وكسوتهن﴾ المراد بالكسوة ما يتعارفونه أيضاً ﴿بالمعروف﴾ أي على قدر الميسرة.

وفي ذلك دليل على وجوب ذلك على الآباء للأمهات المرضعات، وهذا في المطلقات طلاقاً بائناً، وأما غير المطلقات فنفقتهن وكسوتهن واجبة على الأزواج من غير إرضاعهن لأولادهن.

وقال القرطبي: الأظهر أن الآية في الزوجات في حال بقاء النكاح لأنهن المستحقات للنفقة والكسوة أرضعن أو لم يرضعن، وهما في مقابلة التمكين لكن إذا اشتغلت الزوجة بالإرضاع لم يكمل التمكين ولا التمتع بها فقد يتوهم أن هذه النفقة تسقط حالة الإرضاع فدفع هذا التوهّم بقوله ﴿وعلى المولود له﴾.

ثم قال في محل آخر: وفي هذه الآية دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لعجزه وضعفه، ونسبه تعالى للأم لأن الغذاء يصل إليه بواسطتها في الرضاع، وأجمع العلماء على أنه يجب على الأب نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم انتهى.

﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ هو تقييد لقوله بالمعروف أي هذه النفقة والكسوة الواجبتان على الأب بما يتعارفه الناس لا يكلف منهما إلا ما يدخل تحت وسعه وطاقته لا ما يشقّ عليه ويعجز عنه، وقيل المراد لا تكلف المرأة الصبر على التقتير في الأجرة ولا يكلف الزوج ما هو إسراف بل يراعى القصد.

﴿لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ قرىء بالرفع على الخبر وبفتح الراء المشددة على النهي، وأصله لا تضارر أو لا تضارر على البناء للفاعل أو المفعول أي لا تضارر الأب بسبب الولد بأن تطلب منه ما لا يقدر عليه من الرزق والكسوة أو بأن تفرط في حفظ الولد والقيام بما يحتاج إليه أو لا تضارر من زوجها بأن يقصر عليها في شيء مما يجب عليه أو ينتزع ولدها منها بلا سبب، وهكذا قراءة الرفع تحتمل الوجهين.

ويجوز أن تكون الباء في قوله بولدها صلة لقوله تضار على أنه بمعنى تضر

أي لا تضر والدة بولدها فتسيء تربيته أو تقصر في غذائه، ولا والد بولده، وقدمها لفرط شفقتها، وأضيف الولد تارة إلى الأب وتارة إلى الأم للاستعطاف، لا لبيان النسب، إذ لو كانت له لم تصح إلا للوالد لأنه هو الذي ينسب إليه الولد.

وهذه الجملة تفصيل للجملة التي قبلها وتقرير لها أي لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما لا يطيقه فلا يضارّه بسبب ولده.

﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ معطوف على قوله ﴿وعلى المولود له﴾ وما بينهما تفسير للمعروف أو تعليل له معترض بين المعطوف والمعطوف عليه.

واختلف أهل العلم في معنى الآية فقيل هو وارث الصبي أي إذا مات المولود له كان على وارث هذا الصبي المولود إرضاعه كما كان يلزم أباه ذلك، قاله عمر بن الخطاب وقتادة والسدى والحسن ومجاهد وعطاء وأحمد واسحق وأبو حنيفة وابن أبي ليلى على خلاف بينهم هل يكون الوجوب على من يأخذ نصيباً من الميراث أو على الذكور فقط أو على كل ذي رحم له وان لم يكن وارثاً منه.

وقيل المراد بالوارث وارث الأب تجب عليه نفقة المرضعة وكسوتها بالمعروف، قاله الضحاك، وقال مالك في تفسير هذه الآية: بمثل ما قاله الضحاك ولكنه قال: إنها منسوخة وأنها لا تلزم الرجل نفقة أخ ولا ذي قرابة ولا ذي رحم منه، وشرطه الضحاك بأن لا يكون للصبي مال فإن كان له مال أخذت أجرة رضاعة من ماله.

وقيل المراد بالوارث المذكور في الآية هو الصبي نفسه أي عليه من ماله إرضاع نفسه إذا مات أبوه وورث من ماله، قاله قبيصة بن ذؤيب وبشير ابن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز، وروي عن الشافعي وقيل هو الباقي من والدي المولود بعد موت الآخر منهما، فإذا مات الأب كان على الأم كفاية

الطفل إذا لم يكن له مال، قاله سفيان الثوري.

وقيل وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع والخدمة والتربية.

وقيل:إن معنى الآية أنه يحرم عليه الإضرار بالأم كما يحرم على الأب، وبه قالت طائفة من أهل العلم قالوا: وهذا هو الأصل فمن ادعى أنه يرجع فيه العطف إلى جميع ما تقدم فعليه الدليل.

قال القرطبي: وهو الصحيح إذ لو أراد الجميع الذي هو الرضاع والإنفاق.وعدم الضرر لقال وعلى الوارث مثل هؤلاء، فدل على أنه معطوف على المنع من المضارة وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى القاضي عبد الوهاب.

قال ابن عطية وقال مالك وجميع أصحابه والشعبي والزهري والضحاك وجماعة من العلماء المراد بقوله ﴿مثل ذلك﴾ أن لا يضار، وأما الرزق والكسوة فلا يجب شيء منهما، وحكى ابن القاسم عن مالك مثل ما قدمنا عنه في تفسير هذه الآية ودعوى النسخ.

ولا يخفى عليك ضعف ما ذهبت إليه هذه الطائفة فإن ما خصصوا به معنى قوله ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ من ذلك المعنى أي عدم الإضرار بالمرضعة قد أفاده قوله ﴿لا تضار والدة بولدها﴾ لصدق ذلك على كل مضارة ترد عليها من المولود له أو غيره.

وأما قول القرطبي: لو أراد الجميع لقال مثل هؤلاء فلا يخفى ما فيه من الضعف البين، فإن اسم الإشارة يصلح للمتعدد كما يصلح للواحد بتأويل المذكور أو نحوه.

وأما ما ذهب إليه أهل القول الأول من أن المراد بالوارث وارث الصبي

فيقال عليه إنه لم يكن وارثا حقيقة مع وجود الصبي حياً، بل هو وارث مجازاً باعتبار ما يؤول إليه.

وأما ما ذهب إليه أهل القول الثاني فهو وإن كان فيه حمل الوارث على معناه الحقيقي لكن ايجاب النفقة عليه مع غنى الصبي فيه ما فيه، ولهذا قيده القائل به بأن يكون الصبي فقيراً، ووجه الاختلاف في تفسير الوارث ما تقدم من ذكر الوالدات والمولود له والولد، فاحتمل أن يضاف الوارث إلى كل منهم.

﴿فإن أرادا فصالا﴾ الضمير للوالدين، والفصال الفطام عن الرضاع أي التفريق بين الصبي والثدي، ومنه سمي الفصيل لأنه مفصول عن أمه.

﴿عن تراض منهما﴾ أي صادراً عن تراض من الابوين وعلى اتفاق من الوالدين إذا كان الفصال وفطام الولد قبل الحولين ﴿وتشاور﴾ أي يشاورون أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد ﴿فلا جناح عليهما﴾ في ذلك الفصال.

لما بين الله سبحانه أن مدة الرضاع حولان كاملان قيد ذلك بقوله ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وظاهره أن الأب وحده إذا أراد أن يفصل الصبي قبل الحولين كان ذلك جائزاً له، وهنا اعتبر سبحانه تراضي الابوين وتشاورهما فلا بد من الجمع بين الأمرين بأن يقال إن الارادة المذكورة في قوله ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ لا بد أن تكون منهما، أو يقال: إن تلك الارادة إذا لم يكن الأبوان للصبي حين بأن كان الموجود أحدهما أو كانت المرضعة للصبي ظئراً غير أمه.

والتشاور استخراج الرأي يقال شرت العسل استخرجته فلا بد لأحد الأبوين إذا أراد فصال الرضيع أن يراضي الآخر ويشاوره حتى يحصل الاتفاق بينهما على ذلك.

﴿وإن أردتم﴾ خطاب للآباء، وزاد بعضهم الأمهات وفيه خروج من

الغيبة إلى الخطاب ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ قال الزجاج: التقدير أن تسترضعوا لأولادكم غير الوالدة، وعن سيبويه المعنى أن تسترضعوا المراضع أولادكم ﴿فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم﴾ بالمد أي أعطيتم وهي قراءة الجماعة إلا ابن كثير فإنه قرأ بالقصر أي فعلتم.

والمعنى أنه لا بأس عليكم أن تسترضعوا أولادكم غير أمهاتكم إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما قد أرضعن لكم أي وقت إرادة الاسترضاع، قاله سفيان الثوري ومجاهد.

وقال قتادة والزهري: إن معنى الآية إذا سلمتم ما آتيتم من ارادة الاسترضاع أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي كان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير، وإرادة معروف من الأمر، وعلى هذا فيكون قوله ﴿سلّمتم﴾ عاماً للرجال والنساء تغليباً، وعلى القول الأول الخطاب للرجال فقط.

وقيل المعنى إذا سلمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها فيكون المعنى إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه أي اعطاءه إلى المرضعات، وليس هذا قيداً لصحة الاجارة فإن تعجيل الاجرة لا يشترط، وإنما هو قيدُ كمال لأنه أطيب لنفوسهن.

﴿بالمعروف﴾ أي بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لهن أو حط بعض ما هو لهن من ذلك، فإن عدم توفير أجرهن يبعثهن على التساهل بأمر الصبي والتفريط في شأنه، والمعنى أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيّبين لأنفس المراضع بما أمكن.

﴿واتقوا الله﴾ أي خافوه فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم للمراضع ولأولادكم ﴿واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها فإنه تعالى يراها ويعلمها.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾.

لما ذكر سبحانه عدة الطلاق، واتصل بذكرها ذكر الإرضاع، عقب ذلك بذكر عدة الوفاة لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق.

قال الزجاج: ومعنى الآية والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً أي ولهم زوجات فالزوجات يتربصن، وقال أبو علي الفارسي: تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم وهو كقولك السمن منوان بدرهم أي منه.

وحكى عن سيبويه أن المعنى وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون، وقيل التقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، ذكره صاحب الكشاف.

وفيه أن قوله ويذرون أزواجاً لا يلائم ذلك التقدير لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة، وقال بعض النحاة من الكوفيين: إن الخبر عن الذين متروك والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتربصن.

وأصل التوفي أخذ الشيء وافياً فمن مات فقد استوفى عمره كاملاً، يقال توفي فلان يعني قبض وأخذ، والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين والمراد بالأزواج هنا النساء لأن العرب تطلق اسم الزوج على الرجل والمرأة.

والمعنى الذين يموتون ويتركون النساء ينتظرن بانفسهن قدر هذه المدة.

ووجه الحكمة في جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك

في الغالب لثلاثة أشهر والأنثى لأربعة فزاد الله سبحانه على ذلك عشراً لأن الجنين ربما يضعف عن الحركة فتتأخر حركته قليلاً، ولا يتأخر عن هذا الأجل.

وظاهر هذه الآية العموم وإن كان من مات عنها زوجها تكون عدتها هذه العدة ولكنه قد خصص هذا العموم قوله تعالى ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ وإلى هذا ذهب الجمهور، وروي عن بعض الصحابة وجماعة من أهل العلم أن الحامل تعتد بآخر الأجلين جمعاً بين العام والخاص وإعمالاً لهما.

والحق ما قاله الجمهور، والجمع بين العام والخاص على هذه الصفة لا يناسب قوانين اللغة ولا قوانين الشرع، ولا معنى لإخراج الخاص من بين أفراد العام إلا بإن حكمه مغاير لحكم العام ومخالف له.

وقد صح عنه ﷺ أنه أذن لسبيعة الأسلمية أن تتزوج بعد الوضع.

والتربُّص التأني والتصبُّر عن النكاح، وظاهر الآية عدم الفرق بين الصغيرة والكبيرة والحرة والأمة وذات الحيض والآيِسة وأن عدتهن جميعاً للوفاة أربعة أشهر وعشر، وقيل إن عدة الأمة نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام قال ابن العربي: إجماعاً إلا ما يحكى عن الأصم فإنه سوّى بين الحرة والأمة، وقال الباجي: ولا نعلم في ذلك خلافاً إلا ما يروى عن ابن سيرين أنه قال: عدتها عدة الحرة وليس بالثابت عنه.

ووجه ما ذهب إليه الأصم وابن سيرين ما في هذه الآية من العموم.

ووجه ما ذهب اليه من عداهما قياس عدة الوفاة على الحد فإنه ينصف للأمة بقوله سبحانه ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ وقد تقدم حديث «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان»[1] وهو صالح للاحتجاج

(١) الدارقطني كتاب الطلاق والخلع ٤/٣٨.

به، وليس المراد منه إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرة وعدتها على النصف من عدتها، ولكنه لما لم يمكن أن يقال طلاقها تطليقة ونصف، وعدتها حيضة ونصف لكون ذلك لا يعقل، كانت عدتها وطلاقها ذلك القدر المذكور في الحديث جبراً للكسر.

ولكن ههنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور وهو أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً هو ما قدمناه من معرفة خلوّها من الحمل ولا يعرف إلا بتلك المدة ولا فرق بين الحرة والأمة في مثل ذلك بخلاف كون عدتها في غير الوفاة حيضتين فإن ذلك يعرف به خلو الرحم، ويؤيد عدم الفرق ما سيأتي في عدة أم الولد.

واختلف أهل العلم في عدة أم الولد بموت سيدها، فقال سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين والزهري وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي واسحق بن راهوية وأحمد بن حنبل في رواية عنه إنها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا ﷺ عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر[1]، أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه، وضعفه أحمد وأبو عبيد، وقال الدارقطني الصواب أنه موقوف.

وقال طاوس وقتادة عدتها شهران وخمس ليال، وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعي، وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه عدتها حيضة وغير الحائض شهر، وبه يقوله ابن عمر والشعبي ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور.

وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وإن كانت هذه الآية متقدمة في التلاوة[2].

---

(١) المستدرك كتاب الطلاق ٢٠٩/٢.

(٢) مسلم ١٤٨٦ ـ البخاري ٦٨٠ =

﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ المراد بالبلوغ هنا انقضاء العدة ﴿فلا جناح عليكم﴾ الخطاب للأولياء لأنهم هم الذين يتولون العقد وقيل المخاطب جميع المسلمين ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التزين والتعرض للخطاب، والنقلة من المسكن الذي كانت معتدة فيه، وقيل عنى بذلك النكاح خاصة والأول أولى ﴿بالمعروف﴾ الذي لا يخالف شرعاً ولا عادة مستحسنة.

وقد استدل بذلك على وجوب الإحداد على المعتدة عدة الوفاة، وقد ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»[1].

وكذلك ثبت عنه ﷺ في الصحيحين وغيرهما النهي عن الكحل لمن هي في عدة الوفاة، والإحداد ترك الزينة من الطيب ولبس الثياب الجيدة، والحلي وغير ذلك ولا خلاف في وجوب ذلك في عدة الوفاة ولا خلاف في عدة الرجعية واختلفوا في عدة البائنة على قولين، ومحل ذلك كتب علم الفروع.

واحتج أصحاب أبي حنيفة على جواز النكاح بغير ولي بهذه الآية لأن إضافة الفعل إلى الفاعل محمول على المباشرة، وأجيب بأنه خطاب للأولياء ولو صح العقد بغير ولي لما كان مخاطباً ﴿والله بما تعملون خبير﴾ لا يخفى عليه خافية.

= أخرجه مالك (٢(٥٩٦/١٠١) وعنه البخاري (٣/٤٨٠ - ٤٨١) وكذا مسلم (٤/٢٠٢) والسياق له وكذا أبو داود (٢٢٩٩) والنسائي (٢/١١٤) والترمذي (١/٢٢٥) والطحاوي (٢/٤٤) والبيهقي (٧/٤٣٧) كلهم عن مالك به. وروى أحمد (٦/٣٢٤) عنه الحديث الثاني، و(٦/٢٩١ - ٢٩٢و ٣٢٦) وابن الجارود (٧٦٨) عن شعبة عن حميد ابن نافع به الحديث الثالث. وأخرج الدارمي (٢/١٦٧) وابن الجارود (٧٦٥) من هذا الوجه الأول.

(١) حديث أم عطية، ترويه حفصة وهي بنت سيرين عنها وبه زيادة: «ولا تلبس ثوباً مصبوغاً، إلا ثوب عصب، ولا تكتحل، ولا تمس طيباً إلا إذا طهرت نبذة من قسط أو أظفار».

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

﴿ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء﴾ المتوفّى عنهن أزواجهن في العدة وكذا المطلقات طلاقاً بائناً، وأما الرجعيات فيحرم التعريض والتصريح بخطبتهن ففي المفهوم تفصيل.

والجناح الإثم أي لا إثم عليكم والتعريض ضد التصريح وهو من عرض الشيء أي جانبه كأنه يحوم به حول الشيء ولا يظهره، وقيل هو من قولك عرضت الرجل أي أهديت له، ومنه إن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً أي أهدوا لهما، فالمعرِّض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاماً يفهم معناه.

وقال في الكشاف: الفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع، والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا، وحسبك بالتسليم مني تقاضيا وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده انتهى.

والمعنى لوحتم وأشرتم، والخطبة بالكسر ما يفعله الطالب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل، يقال خطبها يخطبها خطبة وخطباً، والخطبة بالضم هي الكلام الذي يقوم به الرجل خاطباً.

﴿أو أكننتم﴾ معناه سترتم وأضمرتم من التزويج بعد انقضاء العدة، والإكنان التستر والإخفاء يقال أكننته وكننته وهما بمعنى واحد، ومنه بيض

مكنون، ودر مكنون، وأو هنا للإباحة أو التخيير أو التفصيل أو الابهام على المخاطب ﴿في أنفسكم﴾ يعني من قصد نكاحهن، وقيل هو أن يدخل ويسلم ويهدي إن شاء ولا يتكلم بشيء.

﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ أي لا تصبرون عن النطق لهن برغبتكم فيهن فرخص لكم في التعريض دون التصريح، وقال في الكشاف أن فيه طرفاً من التوبيخ كقوله ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾.

﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ قد اختلف العلماء في معنى السر فقيل معناه نكاحاً أي لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوجيني بل يعرض تعريضاً، وقد ذهب الى أن هذا معنى الآية جمهور العلماء، وقيل السر الزنا أي لا يكون منكم مواعدة على الزنا في العدة ثم التزويج بعدها قاله جابر بن زيد وأبو مجلز والحسن وقتادة والضحاك والنخعي واختاره ابن جرير الطبري .

وقيل السر الجماع أي لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيباً لهن في النكاح والى هذا ذهب الشافعي في معنى الآية.

والاستدراك بقوله «لكن» من مقدر دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سراً، ولا تصرحوا بالخطبة بأن تذكروا صريح النكاح.

وقال ابن عطية: أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز وقال أيضا: أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها، وللأب في ابنته البكر وللسيد في أمته، وقال ابن عباس: المواعدة سراً أن يقول لها إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا.

﴿إلا أن تقولوا﴾ قيل هو استثناء منقطع بمعنى لكن لأن القول هو التعريض والمستثنى منه المراد به التصريح وهذا هو شأن المنقطع يفسر بلكن وبه قال السيوطي، ومنع صاحب الكشاف أن يكون منقطعاً، وقال هو مستثنى من

قوله لا تواعدوهن أي مواعدة مّا قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعاً،وهي ما يكون بطريق التعريض والتلويح، فجعله على هذا استثناء متصلاً مفرغاً.

ووجه كونه منقطعاً أنه يؤدي الى جعل التعريض موعوداً وليس كذلك لأن التعريض طريق المواعدة لا أنه الموعود في نفسه، وعن ابن عباس قال: التعريض أن يقول أني أريد التزويج وإني لأحب المرأة من أمرها وإن من شأني النساء ولوددت أن الله يسر لي امرأة صالحة رواه البخاري وجماعة.

﴿قولاً معروفاً﴾ أي تعريضاً، وقال ابن عباس: هو قوله إن رأيت أن لا تسبقيني بنفسك،أو يقول إنك لجميلة وإنك إلى خير وإن النساء من حاجتي.

﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ قد تقدم الكلام في معنى العزم يقال عزم الشيء وعزم عليه والمعنى هنا لا تعزموا على عقدة النكاح في العدة لأن العزم عليه بعدها لا بأس به ثم حذف على، قال سيبويه: والحذف في هذه الآية لا يقاس عليه.

قال النحاس: يجوز أن يكون المعنى ولا تعقدوا عقدة النكاح لأن معنى تعزموا وتعقدوا واحد قيل: إن العزم على الفعل يتقدمه فيكون في هذا النهي مبالغة لأنه اذا نهى عن المتقدم على الشيء كان النهي عن ذلك الشيء بالأولى.

﴿حتى﴾ غاية للنهي ﴿يبلغ الكتاب أجله﴾ أي تنقضي العدة، والكتاب هنا هو الحد والقدر الذي رسم من المدة سماه كتاباً لكونه محدوداً ومفروضاً كقوله تعالى ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ وهذا الحكم أعني تحريم عقد النكاح في العدة مجمع عليه، والمراد بالأجل آخر مدة العدة.

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿فاحذروه﴾ أي عقابه إذا عزمتم على عقدة النكاح في العدة وألا تعزموا عليه، فإن العزم على المعصية معصية ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على الجهر بالمعصية بل يسترها.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

﴿ولا جناح عليكم﴾ المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه، فرفعه رفع لذلك أي لا تبعة عليكم بالمهر ونحوه ﴿إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ أي مدة عدم مسيسكم، وقال أبو البقاء: والمعنى إن اطلقتموهن غير ماسّين لهن، فعلى الأولى «ما» مصدرية ظرفية، وعلى الثاني شرطية، وقيل إنها موصولة أي إن طلقتم النساء اللاتي لم تمسوهن أي ما لم تجامعوهن، وقرأ ابن مسعود: من قبل أن تجامعوهن، وقرأ غيره تماسّوهن من المفاعلة.

وهكذا اختلفوا في قوله ﴿أو تفرضوا لهن فريضة﴾ فقيل أو بمعنى إلا، أي إلا أن تفرضوا، وقيل بمعنى حتى أي حتى تفرضوا وقيل بمعنى الواو أي وتفرضوا.

ولست أرى لهذا التطويل وجهاً، ومعنى الآية أوضح من أن يلتبس، فإن الله سبحانه رفع الجناح عن المطلقين ما لم يقع أحد الأمرين، أي مدة انتفاء ذلك الأحد، ولا ينتفي الأحد المبهم إلا بانتفاء الأمرين معاً، فإن وجد المسيس وجب المسمى أو مهر المثل، وان وجد الفرض وجب نصفه مع عدم المسيس، وكل واحد منها جناح أي المسمى أو مهر المثل أو نصفه.

واعلم أن المطلقات أربع:

مطلقة مدخول بها مفروض لها وهي التي تقدم ذكرها قبل هذه الآية، وفيها نهي الأزواج عن أن يأخذوا مما آتوهن شيئاً وأن عدتهن ثلاثة قروء.

ومطلقة غير مفروض لها ولا مدخول بها، وهي المذكورة هنا فلا مهر لها

بل المتعة، وبين في سورة الأحزاب أن غير المدخول بها إذا طلقت فلا عدة عليها.

ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها وهي المذكورة بقوله سبحانه ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة﴾.

ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن﴾ والمراد بالفريضة هنا تسمية المهر، وفيها وجهان أظهرهما أنها مفعول به والتقدير شيئاً مفروضاً، والثاني أن تكون منصوبة على المصدر بمعنى فرضاً، واستجوَد أبو البقاء الوجه الأول.

﴿ومتعوهن﴾ أي أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال علي وابن عمر والحسن البصري وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهري وقتادة والضحاك.

ومن أدلة الوجوب قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهم من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾.

وقال مالك وأبو عبيد والقاضي شريح وغيرهم: إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة لقوله تعالى ﴿حقاً على المحسنين﴾ ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافي الوجوب بل هو تأكيد له كما في قوله في الآية الأخرى ﴿حقاً على المتقين﴾ أي ان الوفاء بذلك والقيام به شأن أهل التقوى، وكل مسلم يجب عليه أن يتقي الله سبحانه.

وقد وقع الخلاف أيضاً هل المتعة مشروعة لغير هذه المطلقة قبل المسيس والفرض أم ليست بمشروعة إلا لها فقط، فقيل: إنها مشروعة لكل مطلقة، وإليه ذهب ابن عباس وابن عمر وعطاء وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وأبو العالية

والحسن البصري والشافعي في أحد قوليه وأحمد واسحق، ولكنهم اختلفوا هل هي واجبة في غير المطلقة قبل البناء والفرض أم مندوبة فقط.

واستدلّوا بقوله تعالى ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ وبقوله تعالى ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً﴾ والآية الأولى عامة لكل مطلقة والثانية في أزواج النبي ﷺ وقد كنّ مفروضاً لهن مدخولاً بهن.

وقال سعيد بن المسيب: إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن﴾ قال هذه الآية التي في الأحزاب نسخت التي في البقرة.

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المتعة مختصة بالمطلقة قبل البناء والتسمية لأن المدخول بها تستحق جميع المسمى أو مهر المثل، وغير المدخولة التي قد فرض لها زوجها فريضة أي سمى لها مهراً وطلقها قبل الدخول تستحق نصف المسمى، ومن القائلين بهذا ابن عمر ومجاهد.

وقد وقع الإجماع على أن المطلقة قبل الدخول أو الفرض لا تستحق إلا المتعة إذا كانت حرة، وأما إذا كانت أمة فذهب الجمهور إلى أنها لها المتعة، وقال الأوزاعي والثوري: لا متعة لها لأنها تكون لسيدها ولا تستحق مالاً في مقابل تأذي مملوكته لأن الله سبحانه إنما شرع المتعة للمطلقة قبل الدخول والفرض لكونها تتأذى بالطلاق قبل ذلك.

وقد اختلفوا في المتعة المشروعة هل هي مقدرة بقدر أم لا، فقال مالك والشافعي في الجديد: لا حد لها معروف بل ما يقع عليه اسم المتعة، وقال أبو حنيفة: أنه إذا تنازع الزوجان في قدر المتعة وجب لها نصف مهر مثلها ولا

ينقص من خمسة دراهم، لأن أقل المهر عشرة دراهم، وللسلف فيها أقوال سيأتي ذكرها ان شاء الله تعالى.

وقوله ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ يدل على أن الاعتبار في ذلك بحال الزوج، فالمتعة من الغني فوق المتعة من الفقير، والموسع هو الذي اتسعت حاله، وقرىء الموسّع بالتشديد، وقرىء قدره بسكون الدال فيهما، وبفتح الدال فيهما، قال الأخفش وغيره: هما لغتان فصيحتان، وهكذا في قوله تعالى ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ وقوله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.

والمقتر المقل، والتقدير على الموسع منكم أو على موسعكم قدره أي قدر إمكانه وطاقته، وكذا يقال في الثاني، والآية تفيد أنه لا نظر إلى قدر الزوجة، وقيل هذا ضعيف في مذهب الشافعي، بل ينظر الحاكم باجتهاد إلى حالهما جميعاً على أظهر الوجوه.

﴿متاعاً﴾ مصدر مؤكد أي متعوهن متاعاً ﴿بالمعروف﴾ ما عرف في الشرع والعادة الموافقة له.

وقوله ﴿حقاً على المحسنين﴾ وصف لقوله متاعاً أو مصدر لفعل محذوف أي حق ذلك حقاً، يقال حققت عليه القضاء وأحققت أي أوجبت، قال ابن عباس: المس النكاح والفريضة الصداق، وأمر الله أن يمتعها على قدر عسره ويسره، فان كان موسراً متعها بخادم وإن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب ونحو ذلك، وعنه قال متعة الطلاق أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ودون ذلك الكسوة، وعن ابن عمر: أدنى ما يكون من المتعة ثلاثون درهماً، وعن الحسن بن علي أنه متع بعشرين ألفاً وزقاق من عسل، وعن شريح أنه متع بخمسمائة درهم، وعن الحسن بن علي أيضاً أنه متع بعشرة آلاف وعن ابن سيرين أنه كان يمتع بالخادم والنفقة والكسوة.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ فيه دليل على أن المتعة لا تجب لهذه المطلقة لوقوعها في مقابلة المطلقة قبل البناء والفرض التي تستحق المتعة، أي فالواجب عليكم نصف ما سميتم لهنّ من المهر، وهذا مجمع عليه.

وقد وقع الاتفاق أيضاً على أن المرأة التي لم يدخل بها زوجها ومات وقد فرض لها مهراً تستحقه كاملاً بالموت ولها الميراث وعليها العدة.

واختلفوا في الخلوة هل تقوم مقام الدخول وتستحق المرأة بها كمال المهر كما تستحقه بالدخول أم لا؟ فذهب إلى الأول مالك والشافعي في القديم والكوفيون والخلفاء الراشدون وجمهور أهل العلم وتجب أيضاً عندهم العدة، وقال الشافعي في الجديد: لا يجب إلا نصف المهر، وهو ظاهر الآية لما تقدم من أن المسيس هو الجماع، ولا يجب عنده العدة وإليه ذهب جماعة من السلف.

﴿إلا أن يعفون﴾ أي المطلقات ومعناه يتركن ويصفحن وهو استثناء مفرغ من أعم العام، وقيل منقطع ومعناه يتركن النصف الذي يجب لهنّ على الأزواج، وروى عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: ﴿إلا أن يعفون﴾ يعني الرجال وهو ضعيف لفظاً ومعنى.

﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ معطوف على محل قوله ﴿إلا أن يعفون﴾ لأن الأول مبني وهذا معرب قيل هو الزوج، وبه قال جبير بن مطعم

وسعيد بن المسيب وشريح وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع وابن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد وأبو مجلز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان، وهو الجديد من قولي الشافعي، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن شبرمة والأوزاعي، ورجحه ابن جرير.

وفي هذا القول قوة وضعف.

أما قوته فلكون الذي بيده عقدة النكاح حقيقة هو الزوج لأنه الذي اليه رفعه بالطلاق، وأما ضعفه فلكون العفو منه غير معقول، وما قالوا به من أن المراد بعفوه أن يعطيها المهر كاملاً غير ظاهر، لأن العفو لا يطلق على الزيادة، وقيل المراد بقوله ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ هو الولي، وبه قال النخعي وعلقمة والحسن وطاوس وعطاء وأبو الزناد وزيد بن أسلم وربيعة والزهري والأسود بن يزيد والشعبي وقتادة ومالك والشافعي في قوله القديم.

وفيه قوة وضعف.

أما قوته فلكون معنى العفو فيه معقولاً، وأما ضعفه فلكون عقدة النكاح بيد الزوج لا بيده.

ومما يزيد هذا القول ضعفاً أنه ليس للولي أن يعفو عن الزوج مما لا يملكه.

وقد حكى القرطبي الإجماع على أن الولي لا يملك شيئاً من مالها، والمهر مالها،فالراجح ما قاله الأولون لوجهين:

الأول أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح حقيقة.

الثاني: أن عفوه بإكمال المهر هو صادر عن المالك المطلق التصرف

بخلاف الولي، وتسمية الزيادة عفواً وإن كان خلافِ الظاهر لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملاً عند العقد كان العفو معقولاً، لأنه تركه لها ولم يسترجع النصف منه.

ولا يحتاج في هذا إلى أن يقال: إنه من باب المشاكلة كما في الكشاف لأنه عفو حقيقي أي ترك لما يستحق المطالبة به إلا أن يقال إنه مشاكلة أو تغليب في توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج.

﴿وأن تَعْفُوٓاْ أقرب للتقوى﴾ قيل هو خطاب للرجال والنساء تغليباً أي وعفو بعضكم أيها الرجال والنساء أقرب للتقوى أي من عدم العفو الذي فيه التنصيف، والمراد بالتقوى الألفة وطيب النفس من الجانبين، وعليه قراءة الجمهور بالتاء الفوقية، وقرأ الشعبي وأبو نهيك بالياء التحتية فيكون الخطاب مع الرجال فقط، وفي هذا دليل على ما رجحناه من أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، لأن عفو الولي عن شيء لا يملكه ليس هو أقرب للتقوى، بل أقرب إلى الظلم والجور، والمعنى وليعف الزوج فيترك حقه الذي ساق من المهر إليها قبل الطلاق فهو أقرب للتقوى.

﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ المعنى أن الزوجين لا ينسيان التفضل من كل واحد منهما على الآخر، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف ويتفضل الرجل عليها بإكمال المهر، وهو إرشاد للرجال والنساء من الأزواج إلى ترك التقصي على بعضهم بعضاً والمسامحة فيما يستغرقه أحدهما على الآخر للوصلة التي قد وقعت بينهما من إفضاء البعض إلى البعض، وهي صلة لا تشبهها وصلة، فمن رعاية حقها ومعرفتها حق معرفتها الحرص منهما على التسامح.

﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فيه من ترغيب المحسن وترهيب غيره ما لا يخفى.

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

﴿حافظوا على الصلوات﴾ المحافظة على الشيء المداومة والمواظبة عليه أي داوموا وواظبوا على الخمس المكتوبات بجميع شرائطها وحدودها وإتمام أركانها وفعلها في أوقاتها المختصة بها، ولعل الأمر بالصلوات وقع في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها ﴿والصلاة الوسطى﴾ الوسطى تأنيث الأوسط وأوسط الشيء ووسطه خياره، ومنه قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ ووسط فلان القوم يسطهم أي صار في وسطهم، وليست من الوسط الذي معناه متوسط بين شيئين لأن فعلى معناها التفضيل ولا يبنى للتفضيل إلا ما يقبل الزيادة والنفص، والوسط بمعنى العدل والخيار يقبلهما بخلاف التوسط بين الشيئين فإنه لا يقبلهما فلا يبنى منه أفعل للتفضيل.

وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها في عموم الصلوات تشريفاً لها وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية عشر قولاً أوردها الشوكاني في شرحه للمنتقى وذكر ما تمسك به كل طائفة، وأرجح الاقوال وأصحها ما ذهب إليه الجمهور من أنها العصر لما ثبت عند البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم من حديث علي قال: كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وأجوافهم ناراً[1].

وأخرج مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعاً مثله.

---

(١) مسلم/٦٢٧ بروايات مختلفة.

وأخرجه ابن جرير وابن المنذر والطبراني من حديث ابن عباس مرفوعاً وأخرجه البزار بإسناد صحيح من حديث جابر مرفوعاً وأخرجه أيضا البزار بسند صحيح من حديث حذيفة مرفوعاً.

وأخرجه الطبراني بإسناد ضعيف من حديث أم سلمة مرفوعاً.

وورد في تعيين أنها العصر من غير ذكر يوم الأحزاب أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ وهذه أحاديث مصرحة بأنها العصر.

وقد روى عن الصحابة في تعيين أنها العصر آثار كثيرة وفي الثابت عن النبي ﷺ ما لا يحتاج معه إلى غيره.

وأما ما روي عن علي وابن عباس أنهما قالا إنها صلاة الصبح كما أخرجه مالك في الموطأ عنهما، وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس وكذلك غيره عن ابن عمر وأبي أمامة فكل ذلك من أقوالهم، وليس فيها شيء من المرفوع إلى النبي ﷺ، ولا تقوم بمثل ذلك حجة لا سيما إذا عارض ما ثبت عن النبي ﷺ ثبوتاً يمكن أن يدعى فيه التواتر، وإذا لم تقم الحجة بأقوال الصحابة لم تقم بأقوال من بعد من التابعين وتابعيهم بالأولى.

وهكذا لا تقوم الحجة بما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس أنه قال صلاة الوسطى المغرب.

وهكذا لا اعتبار بما ورد من قول جماعة من الصحابة أنها الظهر وغيرها من الصلوات.

ولكن المحتاج إلى إمعـان نظر وفكر ما ورد مرفوعاً الى النبي ﷺ مما فيه دلالة على أنها الظهـر كما أخرجه ابن جرير عن زيد بن ثابت مرفوعاً أن

الصلاة الوسطى صلاة الظهر، ولا يصح رفعه بل المروي عن زيد ذلك من قوله، واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ كان يصلي بالهاجرة وكانت أثقل الصلاة على أصحابه، وأين يقع هذا الإستدلال من تلك الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا لا اعتبار بما روي عن ابن عمر من قوله: إنها الظهر، وكذلك ما روي عن عائشة وأبي سعيد الخدري وغيرهم فلا حجة في قول أحد مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما ما رواه عبد الرزاق وابن جرير وغيرهما أن حفصة قالت لأبي رافع مولاها وقد أمرته أن يكتب لها مصحفاً: إذا أتيت على هذه الآية حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى فتعال حتى أمليها عليك، فلما بلغ ذلك أمرته أن يكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر.

وأخرجه أيضا عنها مالك وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في سننه وزادوا وقالت: أشهد أني سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخرج مالك ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي يونس مولى عائشة وفيه قالت: سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكذا روي عن أم سلمة أنها قالت كما قالت حفصة وعائشة[1].

فغاية ما في هذه الروايات عن أمهات المؤمنين الثلاث أنهن يروين هذا الحرف هكذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليس فيه ما يدل على تعيين الصلاة الوسطى أنها الظهر أو غيرها، بل غاية ما يدل عليه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى أنها غيرها لأن المعطوف غير المعطوف عليه.

---

(١) مسلم ٦٢٩.

وهذا الاستدلال لا يعارض ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتاً لا يدفع أنها العصر كما قدمنا بيانه.

فالحاصل أن هذه القراءة التي نقلها أمهات المؤمنين الثلاث بإثبات قوله «وصلاة العصر» معارضة بما أخرجه ابن جرير عن عروة قال: كان في مصحف عائشة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر.

وأخرج وكيع عن حميدة قالت قرأت في مصحف عائشة والصلاة الوسطى صلاة العصر، وفي الباب روايات.

فهذه الروايات تعارض تلك الروايات باعتبار التلاوة ونقل القراءة، ويبقى ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التعيين صافياً عن شوب كدر المعارضة.

على أنه قد ورد ما يدل على نسخ تلك القراءة التي نقلتها حفصة وعائشة وأم سلمة فأخرج عبد بن حميد ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن جرير والبيهقي عن البراء بن عازب قال: نزلت حافظوا على الصلوات وصلاة العصر فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ ما شاء الله ثم نسخها الله فأنزل ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ فقيل له هي إذاً صلاة العصر قال: قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله والله أعلم[١].

إذا تقرر لك هذا وعرفت ما سقناه تبين لك أنه لم يرد ما يعارض أن الصلاة الوسطى صلاة العصر.

وأما حجج بقية الأقوال فليس فيها شيء مما ينبغي الاشتغال به، لأنه لم

---

(١) مسلم ٦٣٠.

يثبت عن النبي ﷺ في ذلك شيء، وبعض القائلين عوَّل على أمر لا يعوَّل عليه فقال: إنها صلاة كذا لأنها وسطى بالنسبة إلى أن قبلها كذا من الصلوات وبعدها كذا من الصلوات.

وهذا الرأي المحض والتخمين لا ينبغي أن تسند إليه الأحكام الشرعية على فرض عدم وجود ما يعارضه عن رسول الله ﷺ، فكيف مع وجود ما هو في أعلى درجات الصحة والقوة والثبوت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويالله العجب من قوم لم يكتفوا بتقصيرهم في علم السنة وإعراضهم عن خير العلوم وأنفعها حتى كلفوا أنفسهم التكلم على أحكام الله والتجرؤ على تفسير كتاب الله بغير علم ولا هدى. فجاؤا بما يُضحَكُ منه تارة وَيُبَكى منه أخرى، قال الخازن: وأصح الأقوال كلها أنها العصر للأحاديث الصحيحة الواردة فيها والله أعلم انتهى، وقيل صلاة الجنازة وقيل صلاة الجمعة وكلها أقوال ضعيفة ليس عليها أثارة من علم.

﴿وقوموا لله قانتين﴾ القنوت قيل هو الطاعة أي قوموا في صلاتكم طائعين قاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جبير والضحاك والشافعي، وقيل هو الخشوع قاله ابن عمر ومجاهد وقيل هو الدعاء، وبه قال ابن عباس.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قنت شهراً يدعو على رعل وذكوان وقال قوم إن القنوت طول القيام، وقيل معناه ساكتين قاله السدى، ويدل عليه حديث زيد بن أرقم في الصحيحين وغيرهما، قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت.

وقيل أصل القنوت في اللغة الدوام على الشيء فكل معنى يناسب الدوام

يصح إطلاق القنوت عليه.

وقد ذكر أهل العلم أن للقنوت ثلاثة عشر معنى، وقد ذكرها الشوكاني في شرح المنتقى، وذكرناها في شرح بلوغ المرام، والمتعين ههنا حمل القنوت على السكوت للحديث المذكور.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إنَّ في الصلاة لشغلاً(١).

وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن(١).

وقد اختلفت الأحاديث في القنوت المصطلح عليه هو قبل الركوع أو بعده وهل هو في جميع الصلوات أو بعضها، وهل هو مختص بالنوازل أم لا؟ والراجح اختصاصه بالنوازل وقد أوضح الشوكاني ذلك في شرحه للمنتقى فليرجع إليه.

(١) روى مسلم في صحيحه/ ٥٣٧ عن معاوية بن الحكم السلمي قال بينها انا اصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: «واثكل أمّاه ما شأنكم تنظرون إليّ فجعلوا يضربون بأيديهم على افخاذهم فلما رأيتهم يُصمتونني لكني سكت. فلما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما نكرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ الخوف هو الفزع، والرجال جمع رجل أو راجل من قولهم رجل الإنسان يرجل رجلاً إذا عدم المركوب ومشى على قدميه فهو رَجِل وراجل، يقول أهل الحجاز مشى فلان إلى بيت الله حافياً رَجِلاً حكاه ابن جرير الطبري وغيره، ويجمع على رَجْل ورجَّالة(١)، فالراجل بمعنى الماشي له ثلاثة جموع، والركبان جمع راكب قيل لا يطلق إلا على راكب الإبل، ويقال لمن ركب الحمار والبغل حمّار وبغّال والأجود صاحب حمار وبغل، وهذا بحسب اللغة، والمراد بها هنا ما يعمّ الكل.

لما ذكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصلوات، ذكر حالة الخوف أنهم يصنعون فيها ما يمكنهم ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصلاة بفعلها حال الترجل وحال الركوب، وأبان لهم أن هذه العبادة لازمة في كل الأحوال بحسب الإمكان.

وقد اختلف أهل العلم في حد الخوف المبيح لذلك، والبحث مستوفى في كتب الفروع، قال ابن عباس: يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه، وعن جابر بن عبد الله قال: إذا كانت المسايفة فليومىء برأسه حيث كان وجهه فذلك قوله ﴿فرجالاً أو ركباناً﴾.

والمعنى إن لم يمكنكم أن تُصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من إتمام الركوع والسجود والخضوع والخشوع لخوف عدو أو غيره فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركباناً على دوابكم، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وهذا في حال

---

(١) الراجِلُ: خلاف الفارس، والجمع رَجْلٌ مثل صاحب وصحب، ورجَّالة (راجع معجم الصحاح للجوهري، باب اللام فصل الرَّاء ٤/١٧٠٥، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار).

المقاتلة والمسايفة في وقت الحرب.

وصلاة الخوف قسمان (أحدهما) أن يكون في حال القتال وهو المراد بهذه الآية، وقسم في غير حال القتال وهو المذكور في سورة النساء في قوله ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ وسيأتي الكلام عليه في موضعه[١].

وفي إيراد هذه الشرطية بكلمة «إن» المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف وقلته، وفي ايراد الشرطية الثانية بكلمة«إذا» المنبئة عن تحقق وقوع الامن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى، والإطناب في«جواب» الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولى الأبصار.

﴿فإذا أمنتم﴾ أي إذا زال خوفكم بعد وجوده أو لم يكن أصلاً فارجعوا إلى ما أمرتم به اتمام الصلاة مستقبلين القبلة، قائمين بجميع شروطها وأركانها وهو قوله﴿فاذكروا الله﴾ وقيل معنى الآية خرجتم من دار السفر الى دار الإقامة وهو خلاف معنى الآية ﴿كما علمكم﴾ أي ذكراً مثل ما علمكم من الشرائع أن يصلي الراكب على دابته، والراجل على رجليه، والكاف صفة لمصدر محذوف

(١) روى الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهم ان المشركين لمّا رأوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قامُوا إلى الظهر يُصلون جميعاً ندموا إلا كانوا اكبُوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم بعدها صلاة هي أحب اليهم من آبائهم وابنائهم يعني صلاة العصر، فإذا قاموا فيها فشدُّوا عليهم فاقتلوهم، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنها صلاة الخوف وإن الله عزّ وجل يقول: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ فعلّمه صلاة الخوف.

وعن جابر قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فصفنا صفين خلفه. والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم فكبرنا جميعاً ثم ركعنا وركعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه وقام الصف الآخر في نحر العدو.

فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي صلى الله عليه وسلم وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى وقام الصف المؤخر في نحر العدو فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود بالصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم وسلمنا جميعاً».

رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة والبيهقي.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾

أي ذكراً كائناً كتعليمه إياكم أو مثل تعليمه اياكم ﴿ما لم تكونوا تعلمون﴾ فيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم، ولولا تعليمه إيانا لم نعلم شيئاً ولم نصل إلى معرفة شيء فله الحمد على ذلك.

﴿والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجاً﴾ أي يقربون من الوفاة إذ المتوفى بالفعل لا يتصوّر منه وصية، وهذا عود إلى بقية الأحكام المفصلة فيما سلف.

وقد اختلف السلف ومن تبعهم من المفسرين في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة، فذهب الجمهور إلى أنها منسوخة بالأربعة الأشهر والعشر كما تقدم، وأن الوصية المذكورة فيها منسوخة بما فرض الله لهنّ من الميراث.
وحكى ابن جرير عن مجاهد أن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، وأن العدة أربعة أشهر وعشر، ثم جعل الله لهن وصية منها سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت، وقد حكى ابن عطية والقاضي عياض أن الإجماع منعقد على أن الحول منسوخ وأن عدتها أربعة أشهر وعشر.

﴿وصيّة لأزواجهم﴾ قرىء بالنصب على تقدير فعل محذوف أي فليوصوا وصية أو أوصى الله وصية أو كتب الله عليهم وصية، وقرىء بالرفع ومعناه وصية الذين يتوفون وصية أو حكم الذين يتوفون وصية، والمعنى فيجب عليهم أن يوصوا لأزواجهم بثلاثة أشياء النفقة والكسوة والسكنى، وهذه الثلاثة تستمر سنة وحينئذ يجب على الزوجة ملازمة المسكن وترك التزين والإحداد هذه السنة.

﴿متاعاً إلى﴾ تمام ﴿الحول﴾ أي متعوهن متاعاً أو جعل الله لهن ذلك متاعاً والمتاع هنا نفقة السنة، والمعنى أنه يجب على الذين يتوفّون أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم أن يمتعن بعدهم حولاً كاملاً بالنفقة والسكنى من تركتهم ﴿غير إخراج﴾ أي لا يخرجن من مساكنهن[1].

﴿فإن خرجن﴾ باختيارهن قبل الحول ﴿فلا جناح﴾ ولا حرج ﴿عليكم﴾ أي على الولي والحاكم ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من التعرض للخطاب والتزين لهم وترك الإحداد ﴿من معروف﴾ أي بما هو معروف في الشرع غير منكر، وفيه دليل على أن النساء كن مخيرات في سكنى الحول وليس ذلك بحتم عليهن، وقيل المعنى لا جناح عليكم في قطع النفقة عنهن وهو ضعيف لأن متعلق الجناح هو مذكور في الآية بقوله فيما فعلن.

﴿والله عزيز﴾ أي غالب قوي في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده ﴿حكيم﴾ فيما شرعه من الشرائع وبين من الأحكام.

﴿وللمطلقات متاع بالمعروف﴾ قد اختلف المفسرون في هذه الآية فقيل هي المتعة وأنها واجبة لكل مطلقة، وقيل إن هذه الآية خاصة بالثّيبات اللواتي قد جومعن، لأنه قد تقدم قبل هذه الآية المتعة واللواتي لم يدخل بهن الأزواج، وقد قدمنا الكلام على هذه المتعة والخلاف في كونها خاصة بمن طلقت قبل البناء والفرض، أو عامة المطلقات، وقيل إن هذه الآية شاملة للمتعة الواجبة وهي متعة المطلقة قبل البناء والفرض، وغير الواجبة وهي متعة سائر المطلقات فإنها مستحبة فقط، وقيل المراد بالمتعة هنا النفقة ﴿حقاً على المتقين﴾ يعني الذين يتقون الشرك.

---

(١) ذكر علماء التفسير ان اهل الجاهلية كانوا اذا مات احدهم، مكثت زوجته في بيته حولاً، ينفق عليها من ميراثه فإذا تم الحول خرجت الى باب بيتها ومعها بعره فرمت به كلباً وخرجت بذلك من عدتها (زاد المسير ١/٢٨٦).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي ما يلزمكم ويلزم أزواجكم والذي يجب لبعضكم على بعض ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والأحكام وما فيه صلاح دينكم ودنياكم.

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ الاستفهام هنا للتقرير، والرؤية المذكورة هي رؤية القلب لا رؤية البصر، والمعنى عند سيبويه تنبّه إلى أمر الذين خرجوا، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين كذا قيل.

وحاصله أن الرؤية هنا التي بمعنى الإدراك مضمّنة معنى التنبيه. ويجوز أن تكون مضمنة معنى الانتهاء أي ألم ينته علمك إليهم، أو معنى الوصول أي ألم يصل علمك إليهم، ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية أي ألم تنظر إلى الذين خرجوا، وهم قوم من بني إسرائيل.

جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوع والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد أو المبصَرة لكل مبصر، لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ودوّنوها وأشهروا أمرها، والخطاب هنا لكل من يصلح له، والكلام جار مجرى المثل في مقام التعجب ادعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوي في إدراكه الشاهد والغائب، قاله السعد التفتازاني وقيل الخطاب للنبي ﷺ خاصة والعموم أولى.

﴿وهم ألوف﴾ قيل ثلاثة آلاف أو أربعة وقيل عشرة آلاف، وقيل بضع وثلاثون ألفاً، وقيل أربعون ألفاً، وقيل سبعون ألفاً، وأصح الأقوال قول من

قال إنهم كانوا زيادة على عشرة آلاف، لأن الألوف من جموع الكثرة وحقيقته ما فوق العشرة، قاله القرطبي فدل على أنها ألوف كثيرة وجمع القليل آلاف، وقيل جمع ألف أو آلف كقاعد وقعود، والمعنى مؤتلفون والأول أولى والواو للحال.

﴿حذر الموت﴾ أي مخافة الطاعون، وكان قد نزل بهم، وقيل إنهم أمروا بالجهاد ففروا منه حذر الموت ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ أمر تكوين وتحويل وهو عبارة عن تعلق إرادته بموتهم دفعة،أو تمثيل لإماتته سبحانه إياهم ميتة نفس واحدة كأنهم أمروا فأطاعوا فماتوا ﴿ثم أحياهم﴾ يعني بعد موتهم بدعاء نبيهم حزقيل بعد ثمانية أيام أو أكثر فعاشوا دهراً عليهم أثر الموت لا يلبسون ثوباً إلا عاد كالكفن واستمرّ في أسباطهم.

﴿إن الله لذو فضل﴾ التنكير للتعظيم أي لذو فضل عظيم ﴿على الناس﴾ جميعاً فيجب عليهم شكره، أما هؤلاء الذين خرجوا فلكونه أحياهم ليعتبروا وأما المخاطبون فلكونه قد أرشدهم إلى الاعتبار والاستبصار بقصة هؤلاء.

قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون وقالوا نأتي أرضاً ليس بها موت،حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله موتوا فماتوا فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم، وإن القرية التي خرجوا منها داوردان،قيل هو حزقيل، ويقال له ابن العجوز، ويقال له ذو الكفل وهو ثالث خليفة في بني اسرائيل، لأن موسى بعده يوشع ثم كالب ثم حزقيل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم هذه القصة مطوّلة عن أبي مالك وفيها أنهم بضعة وثلاثون ألفاً، وقال سعيد بن عبدالعزيز: إن ديارهم

هي أذرعات، وعن أبي صالح قال كانوا تسعة آلاف، وأخرج جماعة من محدثي المفسرين هذه القصة على انحاء ولا يأتي الاستكثار من طرقها بفائدة.

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهي عن الفرار من الطاعون وعن دخول الأرض التي هو بها من حديث عبد الرحمن بن عوف(١).

﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ يعنى أن أكثر من أنعم الله عليه لا يشكر.

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٢٨٨
روى حصين بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن عن هلال بن يساف قال: كانت أمّة من بني إسرائيل إذا وقع فيهم الوجع، خرج أغنياؤهم، وأقام فقراؤهم، فمات الذين أقاموا، ونجا الذين خرجوا، فقال الأشراف: لو أقمنا كما أقام هؤلاء هلكنا، وقال الفقراء: لو ظعنا كما ظعن هؤلاء سلمنا، فأجمع رأيهم في بعض السنين على ان يظعنوا جميعاً، فظعنوا فماتوا، وصاروا عظاماً تبرق، فكنسهم أهل البيوت والطرق عن بيوتهم وطرقهم، فمر بهم نبي من الأنبياء، فقال: يا رب لو شئت أحييتهم، فعبدوك، وولدوا أولاداً يعبدونك، ويعمرون بلادك. [قال: أو أب إليك أن أفعل؟ قال: نعم]. فقيل له: تكلم بكذا وكذا، فتكلم به، فنظر الى العظام تخرج من عند العظام التي ليست منها إلى التي هي منها، ثم قيل له: تكلم بكذا وكذا، فتكلم به، فنظر إلى العظام تكسى لحماً وعصباً، ثم قيل له: تكلم بكذا وكذا، فنظر فإذا هم قعود يسبحون الله ويقدسونه. وأنزل الله فيهم هذه الآية. وهذا الحديث يدل على بعد المدة التي مكثوا فيها أمواتاً. وفي بعض الأحاديث: أنهم بقوا أمواتاً سبعة أيام، وقيل: ثمانية أيام.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

﴿وقاتِلوا في سبيل الله﴾ هو معطوف على مقدر كأنه قيل اشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم، وقاتلوا، هذا إذا كان الخطاب بقوله ﴿وقاتلوا﴾ راجعاً إلى المخاطبين بقوله ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا﴾ كما قاله جمهور المفسرين، وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد، وقيل إن الخطاب للذين أُحيوا من بني إسرائيل فيكون عطفاً على قوله: ﴿موتوا﴾ وفي الكلام محذوف تقديره وقال لهم قاتلوا، وقال ابن جرير: لا وجه لقول من قال إن الأمر بالقتال للذين أُحيوا، وقيل العطف على حافظوا على الصلوات وفيه بُعد والأول أولى.

﴿واعلموا أن الله سميع﴾ لما يقوله المتعلل عن القتال ﴿عليم﴾ بما يضمره وفيه وعد لمن بادر بالجهاد ووعيد لمن تخلف عنه.

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ لما أمر سبحانه بالقتال والجهاد أمر بالإنفاق في ذلك،وإقراض الله مَثَلَ لتقديم العمل الصالح الذي يستحق به فاعله الثواب، وأصل القرض انه اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، يقال أقرض فلان فلاناً أي أعطاه ما يتجازاه، وقال الزجاج: القرض في اللغة البلاء الحسن والبلاء السيء.

وقال الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيء، وأصل الكلمة القطع ومنه المقراض.

واستدعاء القرض في الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه،

والله هو الغني الحميد، شبّه عطاء المؤمن ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه اعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء.

وقيل كنّى عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما كنّى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام، ففي الحديث الصحيح إخباراً عن الله عز وجل «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي» وكذا فيما قبله أخرجه مسلم والبخاري وهذا كله خرج مخرج التشريف لمن كنّى عنه ترغيباً لمن خوطب به.

وقوله ﴿حسناً﴾ أي طيبة به نفسه من دون مَنٍّ ولا أذى، وقيل محتسباً، وقيل هو الانفاق من المال الحلال في وجوه البر، وقيل هو الخالص لله تعالى ولا يكون فيه رياء ولا سمعة.

وقد اختلف في تقدير هذا التضعيف على أقوال، وقيل لا يعلمه إلا الله وحده، قاله السدي وهذا هو الأولى، وإنما أبهم الله ذلك لأن ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود، وقيل إلى سبعمائة ضعف، وقيل غير ذلك.

وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله إن الله ليريد منا القرض؟ قال نعم، قال: أرني يدك يا رسول الله فناوله يده قال: فاني قد أقرضت ربي حائطي وله فيه ستمائة نخلة[1].

---

(١) رواه ابن ابي حاتم باسناد ضعيف، مجمع الزوائد ٦/٣٢١.

وقد أخرج هذه القصة جماعة من المحدثين.

وأخرج أحمد وابن المنذر من حديث أبي هريرة وفيه قال: والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة»[1].

وأخرج ابن حبان في صحيحه والبيهقي وغيرهما عن ابن عمر قال لما نزلت ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ إلى آخرها قال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي» فنزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ قال رب زد أمتي، فنزلت ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن سفيان قال لما نزلت ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ قال رسول الله ﷺ: رب زد أمتي، فنزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ قال رب زد أمتي، فنزلت ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم﴾ قال رب زد أمتي فنزلت ﴿إنما يوفي الصابرون﴾ وفي الباب أحاديث هذه أحسنها.

﴿والله يقبض ويبسط﴾ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسّع عليكم كيلا تبدل أحوالكم، ولعل تأخير البسط عن القبض في الذكر للإيماء إلى أنه يعقبه في الوجود تسلية للفقراء، هذا عام في كل شيء فهو القابض الباسط، والقبض التقتير، والبسط التوسيع، وفيه وعيد بأن بخل من البسط يوشك أن يبدل بالقبض، ولهذا قال ﴿وإليه ترجعون﴾ أي هو يجازيكم بما قدمتم عند الرجوع إليه، فإن أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن إليكم، وإن بخلتم عاقبكم.

---

(١) رواه احمد في المسند من طريق مبارك بن فضاله عن علي بن زيد بن جدعان عن ابي عثمان النّهْدِيّ. والحديث حسن.

وعن قتادة يقبض الصدقة ويبسط قال يخلف ﴿وإليه ترجعون﴾ قال: من التراب وإلى التراب تعودون.

وعن ابن زيد قال: علم الله فيمن يقاتل في سبيل الله من لا يجد قوة وفيمن لا يقاتل في سبيل لله فندب هؤلاء إلى القرض فقال ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ قال: يبسط عليك وأنت ثقيل عن الخروج لا تريده، ويقبض عن هذا وهو يطيب نفساً بالخروج ويخلف له فقوّه مما بيدك يكن لك الحظ.

وقيل المعنى أن الله يقبض بعض القلوب حتى لا تقدر على الانفاق في الطاعة وعمل الخير ويبسط بعض القلوب حتى تقدر على فعل الطاعات والإنفاق في البر.

وعن ابن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرّف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك» أخرجه مسلم[1].

وهذا الحديث من أحاديث الصفات التي يجب الإيمان بها وإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل ولا تأويل، وبهذا قال سلف هذه الأمة وأئمتها.

(١) رواه مسلم/ ٢٦٥٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ وقد قدمناه، والملأ الأشراف من الناس كأنهم ملؤا شرفاً، وقال الزجاج: سُمُّوا بذلك لأنهم مليؤن بما يحتاج إليه منهم، وهو اسم جمع كالقوم والرهط لا واحد له من لفظه، قال الفراء الملأ الرجال في كل القرآن ويجمع على املاء مثل سبب وأسباب.

ذكر الله سبحانه في التحريض على القتال قصة أخرى جرت في بني إسرائيل بعد القصة المتقدمة، والمعنى كائنين ﴿من بعد﴾ وفاة ﴿موسى إذ قالوا لنبي لهم﴾ قل هو شمويل بن يال ابن علقمة ويعرف بابن العجوز، ويقال فيه شمعون وهو من ولد يعقوب، وقيل من نسل هرون، وقيل هو يوشع بن نون وهذا ضعيف جداً لأن يوشع هو فتى موسى ولم يوجد داود إلا بعد ذلك بدهر طويل، وقيل هو بالعربية اسمعيل قاله أبو السعود.

﴿ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ المراد بالملك الأمير أي نرجع إليه ونعمل على رأيه ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا﴾ عسى من أفعال المقاربة أي فهل قاربتم أن لا تقاتلوا وإدخال الاستفهام على فعل المقاربة لتقرير ما هو متوقع عنده والإشعار بأنه كائن، وفصل بين عسى وخبرها بالشرط للدلالة على الاعتناء به.

﴿قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله﴾ قيل المعنى وأي شيء لنا أن لا نقاتل، وقيل غير ذلك قال النحاس: هذا هذا أجودها ﴿وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ إفراد الأولاد بالذكر لأنهم الذين وقع عليهم السبي أو لأنهم بمكان فوق مكان سائر القرابة، وهذا كلام عام والمراد منه خاص لأن القائلين لنبيهم ما ذكر كانوا في ديارهم، وإنما أخرج بعض آخر غيرهم.

ثم أخبر سبحانه أنهم تولّوا لما فرض عليهم القتال لاضطراب نياتهم وفتور عزائمهم فقال.

﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته[1].

﴿إلا قليلاً منهم﴾ واختلف في عدد قليل الذين استثناهم الله سبحانه وهم الذين اكتفوا بالغرفة.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بمن ظلم نفسه حين خالف أمر ربه ولم يف بما قال وهم بقية السبعين ألفاً وهم من عدا القليل المذكور.

(١) لذلك كان توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهي عن تمني لقاء العدو. فقد روي. «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه فاثبتوا». وفي رواية «لا تتمنوا لقاء العدو واذا لقيتموهم فاصبروا» رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

﴿وقال لهم نبيهم﴾ شروع في تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الأقوال والأفعال ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ وهو اسم أعجمي وكان سقّاءً، وقيل راعياً، وقيل دباغاً، وقيل مكارياً واسمه بالعبرانية شاول ابن قيس وجعله فعلوتاً من الطول تعسف يدفعه منع صرفه.

﴿قالوا أنى يكون له الملك علينا﴾ أي كيف يكون ذلك وكيف يستحقه ولم يكن من بيت الملك ﴿ونحن أحق بالملك منه﴾ وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فسبط النبوة سبط لاوى ابن يعقوب، ومنه كان موسى وهرون عليهما السلام، وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما السلام، ولم يكن طالوت من أحدهما، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب عليه السلام، فلهذا أنكروا كونه ملكاً لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه.

ثم أكدوا ذلك بقولهم ﴿ولم يؤت سعة من المال﴾ أي ولا هو ممن أوتي سعة من المال حتى نتبعه لشرفه أو لماله بل هو فقير، والملك يحتاج إلى المال ﴿قال﴾ يعني شمويل النبي ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ أي اختاره وخصه بالملك واختيار الله هو الحجة القاطعة.

ثم بين لهم مع ذلك وجه الاصطفاء وقال ﴿وزاده بسطة﴾ أي فضيلة وسعة ﴿في العلم﴾ الذي هو ملاك الإنسان ورأس الفضائل وأعظم وجوه

الترجيح، وكان من أعلم بني إسرائيل وقيل هو العلم بالحرب وبالملك، وقيل به وبالديانات ﴿والجسم﴾ الذي يظهر به الأثر في الحروب ونحوها فكان قوياً في دينه وبدنه، وذلك هو المعتبر لأشرف النسب، فإن فضائل النفس مقدمة عليه(١).

وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من زعم من الشيعة أن الأمامة موروثة، وكان طالوت أطول من الناس برأسه ومنكبيه، وقيل بالجمال وكان من أجملهم، وقيل المراد به القوة لأن العلم بالحروب والقوة على الأعداء مما فيه حفظ المملكة.

﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ فالملك ملكه والعبيد عبيده، فما لكم والأعتراض على شيء ليس هو لكم ولا أمره إليكم.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله هذا من قول نبينا محمد ﷺ وقيل هو من قول نبيهم وهو الظاهر، وقيل من كلام الله لمحمد ﷺ ﴿والله واسع﴾ أي واسع الفضل يوسع على من يشاء من عباده ﴿عليم﴾ بمن يستحق الملك ويصلح له.

---

(١) قال ابن عباس: كان طالوت أعلم بني إسرائيل بالحرب، وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه. وهل كانت هذه الزيادة قبل الملك، ام أحدثت له بعد الملك؟ فيه قولان. أحدهما: قبل الملك، قاله وهب، والسدي. والثاني: بعد الملك، قاله ابن زيد. والمراد بتعظيم الجسم، فضل القوة، إذ العادة أن من كان أعظم جسماً، كان أكثر قوة والواسع: الغني.

ذكر أهل التفسير أن نبي بني إسرائيل سأل الله أن يبعث لهم ملكاً، فأتى بعصا وقرن فيه دهن، وقيل له: إن صاحبكم الذي يكون ملكاً يكون طوله طول هذه العصا، ومتى دخل عليك رجل، فنشق الدهن، فهو الملك، فادهن به رأسه، وملكه على بني إسرائيل، فقاس القوم أنفسهم بالعصا، فلم يكونوا على مقدارها. قال عكرمة، والسدي: كان طالوت سقاءً يسقي على حمار له، فضلّ حماره، فخرج يطلبه. وقال وهب: بل كان دباغاً يعمل الأدم، فضلت حمرٌ لأبيه، فأرسل مع غلام له في طلبها، فمر ببيت شمويل النبي ﷺ، فدخلا ليسألاه عن ضالتها، فنشق الدهن، فقام شمويل، فقاس طالوت بالعصا، وكان على مقدارها، فدهنه، ثم قال له: أنت ملك بني إسرائيل، فقال طالوت: أما علمت أن وسطي أدنى أسباط بني إسرائيل، وبيتي أدنى بيوتهم؟ قال: بلى. قال: فبأية آية؟ قال: بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره، فكان كما قال.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ التابوت فعلوت من التوب وهو الرجوع لأنهم يرجعون إليه أي علامة ملكه إتيان التابوت الذي أخذ منكم أي رجوعه إليكم، وهو صندوق التوراة قيل وكان من خشب الشمشاد وهو الذي تتخذ منه الأمشاط طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين.

﴿فيه سكينة من ربكم﴾ السكينة فعيلة مأخوذة من السكون والوقار والطمأنينة أي فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت، وقيل الضمير للإتيان أي في اتيانه سكون لكم أو للتابوت أي مودع فيه ما تسكنون اليه وهو التوراة، قال ابن عطية: الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتتقوى، وقد اختلف في السكينة على أقوال سيأتي بيان بعضها.

﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون﴾ اختلف في البقية فقيل هي عصا موسى ورضاض الألواح، قال ابن عباس وقيل عصا موسى وعصا هرون وشيء من ألواح التوراة، وقيل كانت التوراة والعلم وقيل كان فيه عصا موسى ونعلاه وعصا هرون وعمامته وقفيز من المن، وكان عند بني اسرائيل يتوارثونه قرناً بعد قرن، فلما عصوا وأفسدوا سلّط عليهم العمالقة فغلبوهم عليه وأخذوه منهم، وقيل غير ذلك.

وقيل المراد بآل موسى وهرون هما أنفسهما أي مما ترك موسى وهرون، ولفظ آل مقحمة لتفخيم شأنهما، وقيل المراد الأنبياء من بني يعقوب لأنهما من

ذرية يعقوب فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما.

﴿تحمله الملائكة﴾ أي تسوقه، قال ابن عباس: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت فلما رأوا ذلك قالوا نعم، فسلموا له الرياسة وملكوه، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتالاً قدموا التابوت بين أيديهم ويقولون إن آدم نزل بذلك التابوت وبالركن وبعصا موسى من الجنة، وبلغني أن التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية وأنهما يخرجان قبل يوم القيامة.

وقال قتادة: كان التابوت في التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقي هناك فأقبلت الملائكة تحمله حتى وضعته في دار طالوت فأصبح في داره فأقروا بملكه، وقد ورد هذا المعنى مختصراً ومطولاً عن جماعة من السلف فلا يأتي التطويل بذكر ذلك بفائدة يعتد بها.

وعن ابن عباس أيضاً كان طالوت عظيماً جسيماً يفضل بني اسرائيل بعنقه ولم يأته وحي وكانت سعة تابوت موسى نحواً من ثلاثة أذرع من ذراعين.

والسكينة الرحمة والطمأنينة أو الدابة قدر الهرة لها عينان لهما شعاع وكان إذا التقى الجمعان أخرجت يديها ونظرت إليهم فيهزم الجيش من الرعب، وعن علي السكينة ريح خجوج هفافة ولها رأسان ووجه كوجه الإنسان، وقال مجاهد: السكينة شيء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة ووجه كوجه الهرة وجناحان وذنب مثل ذنب الهرة، وعن ابن عباس: السكينة طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء ألقى الألواح فيه.

وعن وهب بن منبه أنه قال: هي روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء تكلم فتخبرهم ببيان ما يريدون، وعن الحسن قال: هي شيء تسكن إليه قلوبهم، وعن عطاء بن أبي رباح: هي ما يعرفون من الآيات التي يسكنون إليها.

وأقول هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقمأهم الله فجاؤ ا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً وتارة جماداً وتارة شيئاً لا يعقل وهكذا كل منقول عن بني اسرائيل يتناقض ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مروياً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا رأياً رآه قائله، فهم أجلّ قدراً عن التفسير بالرأي وبما لا مجال للاجتهاد فيه[1].

إذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى السكينة لغة وهو معروف ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة فقد جعل الله عنها سعة، ولو ثبت لنا في السكينة تفسير عن النبي ﷺ لوجب علينا المصير إليه والقول به، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح بل ثبت أنها تنزلت على بعض الصحابة عند تلاوته للقرآن كما في صحيح مسلم عن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط فتغشتة سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة نزلت للقرآن[2].

وليس في هذا إلا أن هذه التي سماها رسول الله ﷺ سكينة سحابة دارت على ذلك القارىء فالله أعلم.

وعن أبي صالح قال: كان في التابوت عصا موسى وعصا هرون وثياب موسى وثياب هـرون ولوحان من التوراة والمن، وكلمة الفرج «لا إله إلا الله

---

(١) وقد ذكر الشوكاني رحمه الله في تفسيره ـ عبارة «واقول هذه التفاسير. . . .» فلا ادري هل نسي المؤلف رحمه الله نسبتها للشوكاني ام قد سقطت في الطبع».

(٢) قال ابن جرير الطبري: فاولى هذه الاقوال بالحق في معنى السكينة ما قاله عطاء بن ابي رباح انها الشيء تسكن اليه النفوس من الآيات التي يعرفونها.

الحليم الكريم سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين»، وقال قتادة والكلبي: السكينة الطمأنينة ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا إليه[1].

وهذا القول أولى بالصحة، فعلى هذا كل شيء كانوا يسكنون إليه فهو سكينة فيحمل على جميع ما قيل فيه لأن كل شيء يسكن إليه القلب فهو سكينة، ولم يرد فيه نص صريح فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر، والمرجع فيه إلى اللغة كما تقدم والله أعلم.

﴿إن في ذلك﴾ أي في مجيء التابوت ﴿لآية لكم﴾ أي علامة ودلالة على صدقي ما أخبرتكم به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين، قال المفسرون: فلما جاءهم التابوت وأقروا بالملك لطالوت تأهبوا للخروج إلى الجهاد فأسرعوا لطاعته وخرجوا معه وذلك وقوله:

---

(١) قال القرطبي ٣/٢٤٩:
قلت: وفي صحيح مسلم عن البَراء قال: كان رجل يقرأ سورة «الكهف» وعنده فرس مربوط بشَطَنَيْنِ فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها، فلما اصبح اتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت للقرآن». وفي حديث ابي سعيد الخدري: ان أُسيد بن الحضَير بينما هو ليلة يقرأ في مربده الحديث. وفيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لاصبحت يراها الناس ما تستتر منهم» أخرجه البخاري ومسلم. فأخبر صلى الله عليه وسلم عن نزول السكينة مرة، ومرة عن نزول الملائكة؛ فدل على ان السكينة كانت في تلك الظُلَّة، وانها تنزل ابداً مع الملائكة. وفي هذا حجة لمن قال ان السكينة روح؛ لأنه لا يصح استماع القرآن الا لمن يعقل، والله أعلم.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ فصل معناه خرج بهم يقال فصلت الشيء فانفصل أي قطعته فانقطع، وأصله متعد يقال فصل نفسه ثم استعمل استعمال اللازم كانفصل، وقيل يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال فصل عن البلد فصولاً وفصل نفسه فصلاً، والمعنى قطع مستقره شاخصاً إلى غيره، فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم سبعون ألف مقاتل، وقيل ثمانون ألفاً وقيل مائة وعشرون ألفاً ولم يتخلف عنه إلا كبير لكبره أو مريض لمرضه أو معذور لعذره، وكان مسيرهم في حر شديد فشكوا إلى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم، وقالوا إن المياه لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهراً.

﴿قال﴾ طالوت ﴿إن الله مبتليكم بِنَهَرٍ﴾ أي مختبركم والابتلاء الاختبار، والنهر قيل هو بين الأردن وفلسطين، وأردن موضع ذو رمل قريب من بيت المقدس، والمراد بهذا الابتلاء اختبار طاعتهم فمن أطاع في ذلك الماء أطاع فيما عداه ومن عصى في هذا وغلبته نفسه فهو في العصيان في سائر الشدائد أحرى.

﴿فمن شرب منه﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿فليس مني﴾ أي ليس من أهل ديني وطاعتي ﴿ومن لم يطعمه﴾ أي لم يذقه يعني الماء أصلاً لا قليلاً ولا كثيراً ﴿فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ رخص لهم في الغرفة ليرتفع عنهم أذى

العطش بعض الارتفاع وليكسروا نزاع النفس في هذه الحال.

وفيه أن الغرفة تكف سَوْرة العطش عند الصابرين على شظف العيش الدافعين أنفسهم عن الرفاهية.

فالمراد بقوله ﴿فمن شرب منه﴾ أي كرع ولم يقتصر على الغرفة، ومعنى ليس مني ليس من أصحابي، من قولهم فلان من فلان كأنه بعضه لاختلاطهما وطول صحبتهما، وهذا في كلام العرب معروف، يقال طعمت الشيء أي ذقته، وأطعمته الماء أي أذقته.

وفيه دليل على أن الماء يقال له طعام، والإغتراف الأخذ من الشيء باليد أو بآلة، والغرف مثل الإغتراف، والغرفة المرة الواحدة، وقد قرىء بفتح الغين وضمها فالفتح للمرة والضم اسم للشيء المغترف، وقيل بالفتح الغرفة الواحدة بالكف وبالضم الغرفة بالكفين، وقيل هما لغتان بمعنى واحد.

﴿فشربوا منه﴾ أي من النهر ﴿إلا قليلاً منهم﴾ وهم المذكورون في قوله ﴿ومن لم يطعمه﴾ قال القرطبي: إن القليل لم يشرب أصلاً، قال سعيد بن جبير: القليل ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً عدة أهل بدر.

وعن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلثمائة وعن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه يوم بدر: أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي جالوت[1].

---

(١) رواه ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر، فذكره. واخرج احمد والبخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: كنا اصحاب محمد نتحدث ان اصحاب بدر على عدة اصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ـ ولم يجاوز معه الا مؤمن ـ بضعة عشر وثلاثمائة.

وعن ابن عباس قال: كانوا ثلثمائة ألف وثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة عشر فشربوا منه كلهم إلا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدة أصحاب النبي ﷺ يوم بدر فردهم طالوت ومضى ثلثمائة وثلاثة عشر، وقرىء إلا قليل، ولا وجه له إلا ما قيل من أنه من هجر اللفظ إلى جانب المعنى أي لم يطعمه إلا قليل وهو تعسف.

﴿فلما جاوزه هو﴾ أي جاوز النهر طالوت ﴿والذين آمنوا معه﴾ وهم القليل الذين أطاعوه واقتصروا على الغرفة وقال القرطبي: هم الذين لم يذوقوا الماء أصلاً ﴿قالوا﴾ أي الذين شربوا ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ أي بمحاربتهم ومقاومتهم فضلاً عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة، قال القرطبي: قيل وكانوا مائة ألف رجل شاكي السلاح وأكثر المفسرين على أنهم قالوا هذا القول بعدما عبروا النهر مع طالوت، ورأوا جالوت وجنوده فرجعوا منهزمين قائلين هذه المقالة.

وبعض المفسرين على أن العصاة لم يعبروا النهر بل وقفوا بساحله وقالوا معتذرين عن التخلف منادين ومسمعين لطالوت والمؤمنين الذين معه لا طاقة لنا اليوم الخ،والجند الأنصار والأعوان والجمع أجناد وجنود الواحد جندي.

فالياء للوحدة مثل روم ورومي.

و﴿قال الذين يظنون﴾ أي يتيقنون رداً على المتخلفين ﴿أنهم ملاقوا الله﴾ أي أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله، صرح به القاضي كالكشاف ﴿كم من فئة قليلة﴾ الفئة الجماعة لا واحد له من لفظه والقطعة منهم من فأوت رأسه بالسيف أي قطعته ﴿غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ أي بقضاء الله وإرادته ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والعون، وهذه من جملة مقولهم، ويحتمل أنها من كلام الله تعالى أخبر بها عن حال الصابرين فلا محل لها من الاعراب.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده﴾ أي صاروا في البراز وهو المتسع من الأرض وما انكشف منها واستوى، ومنه سميت المبارزة في الحرب لظهور كل قرن إلى صاحبه.

والمعنى ظهروا لقتالهم وتصافحوا، والبراز بالفتح والكسر لغة قليلة: الفضاء الواسع الخالي من الشجر، وجالوت أمير العمالقة وكان جباراً من أولاد عمليق بن عاد ﴿قالوا﴾ أي جميع من معه من المؤمنين ﴿ربنا أفرغ﴾ أي أصبب ﴿علينا صبراً﴾ الإفراغ يفيد معنى الكثرة ﴿وثبت أقدامنا﴾ عبارة عن كمال القوة والرسخ وعدم الفشل والتزلزل عند المقاومة، يقال ثبت قدم فلان على كذا إذا استقر له ولم يزل عنه وثبت قدمه في الحرب إذا كان الغلب له والنصر معه، وليس المراد تقررها في مكان واحد ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ هم جالوت وجنوده، ووضع الظاهر موضع المضمر إظهاراً لما هو العلة الموجبة للنصرة عليهم وهي كفرهم، وذكر النصر بعد سؤال تثبيت الأقدام لكون الثاني هو غاية الأول.

﴿فهزموهم بإذن الله﴾ الهزم الكسر ومنه سقاء منهزم أي انثنى بعضه على بعض مع الجفاف، ومنه ما قيل في زمزم إنها هزمة جبريل أي هزمها برجله فخرج الماء، والهزم ما يكسر من يابس الحطب، وتقدير الكلام فأنزل الله عليهم النصر فهزموهم بأمر الله وإرادته.

﴿وقتل داود جالوت﴾ هو داود بن ايشاو ويقال ابن داود بن زكريا ابن بشوى من سبط يهوذا ابن يعقول جمع الله له بين النبوة والملك بعد أن كان راعياً، وكان أصغر أخوته، اختاره طالوت لمقابلة جالوت فقتله، وكان يومئذ صغيراً لم يبلغ الحلم سقيماً أصفر اللون يرعى الغنم، فهذه الواقعة قبل نبوته وأن أباه كان من جملة جيش طالوت.

وعن مجاهد وغيره قال: كان طالوت أميراً على الجيش فبعث أبو داود مع داود بشيء إلى أخوته فقال داود لطالوت: ماذا لي وأقتل جالوت فقال: لك ثلث ملكي وأنكحك ابنتي فأخذ مخلاة فجعل فيها ثلاث مروات ثم سمى ابراهيم واسحق ويعقوب ثم أدخل يده فقال بسم الله إلهي وإله آبائي إبراهيم واسحق ويعقوب فخرج على إبراهيم فجعله في مرجمته فرمى بها جالوت فخرق ثلاثة وثلاثين بيضة عن رأسه، وقتلت ما وراءه ثلاثين رجلاً فأخذ داود جالوت حتى ألقاه بين يدي طالوت ففرح بنو إسرائيل فزوجه ابنته، وأعطاه نصف الملك فمكث معه كذلك أربعين سنة فمات طالوت واستقل داود بالملك سبع سنين، ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى فسبحان من لا ينقضي ملكه، وقد ذكر المفسرون أقاصيص كثيرة من هذا الجنس فالله أعلم.

﴿وآتاه الله﴾ أي داود ﴿الملك﴾ الكامل سبع سنين بعد موت طالوت ﴿والحكمة﴾ والمراد بالحكمة هنا النبوة، وقيل هي تعليمه صنعة الدروع من الحديد وكان يلين في يده وينسجه كنسج الغزل، ومنطق الطير والألحان أي فهم أصواته، وكذا البهائم، وقيل هي اعطاؤه السلسلة التي كانوا يتحاكمون اليها.

﴿وعلّمه مما يشاء﴾ قيل إن المضارع هنا موضوع موضع الماضي وفاعل ذلك هو الله تعالى، وقيل داود، وظاهر هذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته وتعلقت به إرادته، وقد قيل إن من ذلك ما قدمناه من تعليمه

صنعة الدروع وما بعده، قيل كان ملك طالوت إلى أن قتل مدة أربعين سنة فأتى بنو إسرائيل إلى داود فملكوه عليهم وأعطوه خزائن طالوت.

قال الكلبي والضحاك: ملك داود بعد قتل طالوت نحو سبع سنين ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلا على داود، فجمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك من قبل، ولم يجتمعا لأحد قبله، بل كانت النبوة في سبط، والملك في سبط ثم جمع الله له ذلك ولابنه سليمان بين الملك والنبوة.

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ قرىء الدفع والدفاع وهما مصدران لدفع كذا وعلى القراءتين فالمصدر مضاف إلى الفاعل أي ولولا دفع الله الناس، وبعضهم بدل من الناس وهم الذين يباشرون أسباب الشر والفساد ببعض آخر منهم، وهم أهل الإيمان الذين يكفّونهم عن ذلك ويردونهم عنه.

﴿لفسدت الأرض﴾ لتغلب أهل الفساد عليها وإحداثهم الشرور التي تهلك الحرث والنسل، قال ابن عباس: يدفع الله بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يزكي عمن لا يزكي.

وأخرج ابن عدي وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر ﴿ولولا دفع الله الناس﴾ الآية في إسناده يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف جداً ورواه أحمد أيضاً[1].

﴿ولكن الله ذو فضل﴾ التنكير للتعظيم ﴿على العالمين﴾ أي عمّ فضله الناس كلهم.

---

(١) ضعيف جداً رواه ابن جرير في التفسير ٥/٥٧٤/٥٧٥٣ والعقيلي في الضعفاء/٤٦٣ والواحدي في تفسيره الوسيط ١/٩١/٢ وابن عدي ٢/١٠٠.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾
۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ
وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ
ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

﴿تلك آيات الله﴾ هي ما اشتملت عليه هذه القصة من الأمور المذكورة ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ والمراد بالحق هنا الخبر الصحيح الذي لا ريب فيه عند أهل الكتاب والمطلعين على أخبار العالم ﴿وانك لمن المرسلين﴾ إخبار من الله سبحانه بأنه من جملة رسل الله سبحانه تقوية لقلبه وتثبيتاً لجنانه وتشييداً لأمره، وأن الذي يخبر به من الأخبار العجيبة والقصص القديمة وحي من الله من غير أن يعرفها بقراءة كتب ولا استماع أخبار فدل ذلك على رسالتك.

﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض﴾ قيل هو إشارة إلى جميع الرسل فيكون الألف واللام للاستغراق، وقيل هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين في هذه السورة، وقيل إلى الأنبياء الذي بلغ علمهم إلى النبي ﷺ.

والمراد بتفضيل بعضهم على بعض أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر فكان الأكثر مزايا فاضلاً، والآخر مفضولاً، وكما دلت هذه الآية على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، كذلك دلت الآية الأخرى عليه وهي قوله تعالى ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾.

وعن قتادة قال: اتخذ الله إبراهيم خليلاً وكلم الله موسى تكليماً وجعل

عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون وهو عبد الله وكلمته وروحه وآتى داود زبوراً وآتى سليمان ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده وغفر لمحمد ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال الخازن: أجمعت الأمة على أن نبينا محمداً ﷺ أفضل الأنبياء لعموم رسالته وهو قوله ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾.

وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «لا تفضلوني على الأنبياء» وفي لفظ آخر: «لا تفضلوا بين الأنبياء»[1]، وفي لفظ: «لا تخيروا بين الأنبياء» فقال قوم إن هذا القول منه ﷺ كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، وقيل إنه قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع كما قال: لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى[2]، تواضعاً مع علمه أنه أفضل الأنبياء كما يدل عليه قوله: «أنا سيد ولد آدم» .

وقيل إنما نهى عن ذلك قطعاً للجدال والخصام في الأنبياء فيكون مخصوصاً بمثل ذلك لا إذا كان صدور ذلك مأموناً.

وقيل إن النهي هو من جهة النبوة فقط لأنها خصلة واحدة لا تفاضل فيها ولا نهي عن التفاضل بزيادة الخصوصيات والكرامات.

وقيل إن المراد النهي عن التفضيل بمجرد الأهواء والعصبية، وفي جميع هذه الأقوال ضعف.

---

(١) روى مسلم في صحيحه ٢٣٧٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٢٣٧٦ برواية انه قال ـ يعني الله عز وجل ـ لا ينبغي لعبدي ان يقول انا خير من يونس بن متى عليه السلام.

وعندي أنه لا تعارض بين القرآن والسنة فإن القرآن دل على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض، وذلك لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض، فإن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله تعالى لا يخفى على الله منها خافية، وليست بمعلومة عند البشر، فقد يجهل أتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصياته فضلاً عن مزايا غيره، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً وهذا مفضولاً لاقبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها، فإن ذلك تفضيل بالجهل وإقدام على أمر لا يعمله الفاعل له وهو ممنوع منه.

فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن بالإخبار لنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض، لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك.

وإذا عرفت هذا علمت أنه لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه فالقرآن فيه الإخبار من الله بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه، فمن تعرض للجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان فقد غلط غلطاً بيناً.

﴿منهم﴾ تفصيل للتفضيل المذكور اجمالاً ﴿من كلّم الله﴾ أي بغير واسطة وهو موسى كلمه في الطور، ونبينا سلام الله عليهما كلمه ليلة الاسراء، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال في آدم نبي مكلم، وقد ثبت ما يفيد ذلك في صحيح ابن حبان من حديث أبي ذر، والالتفات حيث لم يقل كلمنا لتربية المهابة بهذا الإسم الشريف والرمز إلى ما بين التكليمين ورفع الدرجات من التفاوت.

﴿ورفع بعضهم درجات﴾ هذا البعض يحتمل أن يراد به من عظمت

منزلته عند الله سبحانه من الأنبياء، ويحتمل أن يراد به نبينا ﷺ لكثرة مزاياه المقتضية لتفضيله، ويحتمل أن يراد به إدريس لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه رفعه مكاناً علياً، وقيل إنهم أولو العزم، وقيل إبراهيم.

ولا يخفاك أن الله سبحانه أبهم هذا البعض المرفوع فلا يجوز لنا التعرض للبيان له إلا ببرهان من الله سبحانه أو من نبيه ﷺ، ولم يرد ما يرشد إلى ذلك، فالتعرض لبيانه هو من تفسير القرآن الكريم بمحض الرأي، وقد عرفت ما فيه من الوعيد الشديد مع كون ذلك ذريعة إلى التفضيل بين الأنبياء وقد نهينا عنه.

وقد جزم كثير من أئمة التفسير أنه نبينا ﷺ، وأطالوا في ذلك واستدلوا بما خصه الله به من المعجزات ومزايا الكمال وخصال الفضل. وهم بهذا الجزم بدليل لا يدل على المطلوب قد وقعوا في خطرين، وارتكبوا نهيين، وهما تفسير القرآن بالرأي، والدخول في ذرائع التفضيل بين الأنبياء وإن لم يكن ذلك تفضيلاً صريحاً فهو ذريعة إليه بلا شك ولا شبهة، لأن من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي الفلاني، انتقل من ذلك إلى التفضيل المنهيّ عنه (١).

وقد أغنى الله نبينا المصطفى ﷺ عن ذلك بما لا يحتاج معه إلى غيره من الفضائل والفواضل، فإياك أن تتقرب إليه ﷺ بالدخول في أبواب نهاك عن دخولها فتعصيه وتسيء وأنت تظن أنك مطيع محسن.

﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ أي الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة

---

(١) وقد استدل هؤلاء بحديث: بعثت الى الاحمر والاسود وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأُحلت لي الغنائم واعطيت الشفاعة ومن ذلك القرآن وانشقاق القمر وتكليمه الشجر وغيرها من المعجزات.

من إحياء الأموات وإبراء المرضى من الاكمه والأبرص وغير ذلك ﴿وأيدناه﴾ أي قويناه ﴿بروح القدس﴾ هو جبريل وكان يسير معه حيث سار إلى أن رفعه الله إلى عنان السماء السابعة وقد تقدم الكلام على هذا.

﴿ولو شاء الله ما اقتتل﴾ أي ما اختلف فأطلق الاقتتال وأراد سببه وهو الاختلاف ﴿الذين من بعدهم﴾ أي من بعد الرسل وقيل من بعد موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام لأن الثاني مذكور صريحاً، والأول والثالث وقعت الإشارة إليهما بقوله ﴿منهم من كلم الله﴾ أي لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا فمفعول المشيئة محذوف على القاعدة، وقيل أن لا يؤمروا بالقتال وقيل أن يصيرهم إلى الإيمان وكلها متقاربة.

﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات من الله بما فيه مزدجر لمن هداه الله تعالى ووفقه ﴿ولكن اختلفوا﴾ استثناء من الجملة الشرطية أي ولكن الاقتتال ناشيء عن اختلافهم اختلافاً كثيراً حتى صاروا مللاً مختلفة، والمعنى لو شاء الله الاتفاق لاتفقوا، ولكن شاء الاختلاف فاختلفوا وفيه إشارة إلى قياس استثنائي.

﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ أي ثبت على ايمانه أو تعمد الكفر بعد قيام الحجة كالنصارى بعد المسيح ﴿ولو شاء الله﴾ عدم اقتتالهم بعد هذا الإختلاف ﴿ما اقتتلوا﴾ تأكيد ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ من توفيق من شاء، وخذلان من شاء، لا رادّ لحكمه ولا مبدل لقضائه فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض عليه في ملكه وفعله.

وسأل رجل علياً عن القدر فقال: طريق مظلم فلا تسلكه، فأعاد السؤال فقال: بحر عميق فلا تلجه، فأعاد السؤال فقال: سر الله قد خفي عليك فلا تفتشه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤)

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ ظاهر الآية الوجوب وقد حمله جماعة على صدقة الفطر لذلك ولما في آخر الآية من الوعيد الشديد، وقيل إن هذه الآية تجمع زكاة الفرض والتطوع، قال ابن عطية: وهذا صحيح ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع المؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله.

قال القرطبي: وعلى هذا التأويل يكون إنفاق المال مرة واجباً ومرة ندباً بحسب تعيّن الجهاد وعدم تعينه.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ أي أنفقوا ما دمتم قادرين وقدموا لأنفسكم اليوم من الأموال من قبل أن يأتي ما لا يمكنكم الإنفاق فيه وهو يوم لا يتبايع الناس فيه ولا تجارة فيكتسب الإنسان من يفتدي به نفسه من العذاب.

﴿ولا خلّة﴾ خالص المودة من تخلل الأسرار بين الصديقين أخبر سبحانه أنه لا خلة في يوم القيامة نافعة ولا مودة ولا صداقة.

﴿ولا شفاعة﴾ مؤثرة إلا لمن أذن الله له، قيل وقد دلت النصوص على ثبوت المودة والشفاعة بالإذن بين المؤمنين هذا عام مخصوصاً ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ فيه دليل على أن كل كافر ظالم لنفسه. ومن جملة من يدخل تحت هذا العموم مانع الزكاة منعاً يوجب كفره لوقوع ذلك في سياق الأمر بالانفاق، وعن عطاء قال: الحمد لله الذي قال ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل والظالمون هم الكافرون.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، وهذه الجملة خبر المبتدأ، والحي الباقي، وقيل الذي لا يزول ولا يحول، وقيل المصرف للأمور والمقدّر للأشياء.

قال الطبري: عن قوم أنه يقال حي كما وصف نفسه ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه، وهو خبر ثان أو مبتدأ خبره محذوف. والقيوم القائم على كل نفس بما كسبت، وقيل القائم بذاته المقيم لغيره، وقيل القائم بتدبير الخلق وحفظه، وقيل هو الذي لا ينام، وقيل الذي لا بديل له.

وقرأ جماعة القيام بالألف. وروي ذلك عن عمر. ولا خلاف بين أهل اللغة أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء وأثبت علة.

وهذه الآية أفضل آية في القرآن. ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات، هذا هو التحقيق في تفضيل القرآن بعضه على بعض، وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى.

﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ هذا كالتعليل لقوله القيوم، السِنة النعاس في قول الجمهور، والنعاس ما يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين فإذا صار في القلب صار نوماً، وفرق المفضل بين السِّنة والنعاس والنوم فقال السنة من الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب انتهى.

والذي ينبغي التعويل عليه في الفرق بين السِنة والنوم أن السِنة لا يفقد معها العقل بخلاف النوم، فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل. بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر.

والمراد أنه لا يعتريه شيء منهما، وقدّم السِنة على النوم لكونها تتقدمه في الوجود فهو على حد لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

قال الرازي في تفسيره: إن السِنة ما يتقدم النوم، فإذا كانت عبارة عن مقدمة النوم، فإذا قيل لا تأخذه سِنة دل على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى، فكان ذكر النوم تكراراً، قلنا تقدير الآية لا تأخذه سِنة فضلاً عن أن يأخذه نوم والله أعلم بمراده انتهى.

وأقول إن هذه الأولوية التي ذكرها غير مسلمة فإن النوم قد يرد ابتداء من دون ما ذكر من النعاس، وإذا ورد على القلب والعين دفعة واحدة فإنه يقال له نوم، ولا يقال له سِنة، فلا يستلزم نفي السِّنة نفي النوم. وقد ورد عن العرب نفيهما جميعاً.

وأيضاً فإن الإنسان يقدر على أن يدفع عن نفسه السِنة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه النوم فقد يأخذه النوم ولا تأخذه السِنة، فلو وقع الاقتصار في النظم القرآني على نفي السِنة لم يفد ذلك نفي النوم، وهكذا لو وقع الاقتصار على نفي النوم لم يفد نفي السِنة فكم من ذي سِنة غير نائم.

وكرر حرف النفي للتنصيص على شمول النفي لكل واحد منهما فالسِنة النوم الخفيف، والنوم هو الثقيل المزيل للعقل والقوة، والوسنان بين النائم واليقظان.

والجملة نفي للتشبيه بينه تعالى وبين خلقه والله منزّه عن النقص

والآفات،وإن ذلك تغير وهو مقدس عن التغير.

وعن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً بخمس كلمات فقال: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام»[1] الحديث رواه مسلم.

﴿ له ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني أنه تعالى مالك جميع ذلك بغير شريك ولا منازع وهو خالقهم، وهم عبيده وخلقه، وهم في ملكه، وأجرى الغالب مجرى الكل فعبر عنه بلفظ «ما» دون «من» وفيه رد على المشركين العابدين لبعض الكواكب التي في السماء، والأصنام التي في الأرض يعني فلا تصلح أن تعبد لأنها مملوكة مخلوقة له، واللام إما للقهر وإما للملك وإما للإيجاد.

﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعة أو غيرها والتقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه. وفيه من الدفع في صدور عباد القبور والصك في وجوههم والفت في أعضادهم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه.

والذي يستفاد منه فوق ما يستفاد من قوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وقوله تعالى ﴿وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ وقوله تعالى ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾ بدرجات كثيرة.

وقد بينت الأحاديث الصحيحة الثابتة في دواوين الإسلام صفة الشفاعة

---

(١) رواه مسلم/ ١٧٩.

ولمن هي ومن يقوم بها بالإذن[١].

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ الضميران لما في السموات والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، وما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن المتقدم عليهم والمتأخر عنهم، أو عن الدنيا والآخرة وما فيهما، وقال مجاهد: ما مضى من الدنيا وما خلفهم من الآخرة. وعن ابن عباس: ما قدّموا من أعمالهم وما أضاعوا من أعمالهم.

والمقصود أنه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه. حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، تحت الأرض الغبراء، وحركة الذرة في جو السماء، والطير في الهواء، والسمك في الماء.

وفيه رد على من ينفي عنه سبحانه علم الجزئيات كالفلاسفة وهي أي صفة العلم له سبحانه إمام أئمة الصفات فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ قد تقدم معنى الإحاطة، والعلم هنا بمعنى المعلوم أي لا يحيطون بشيء من معلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ أن يطلعهم عليه بأخبار الأنبياء والرسل ليكون دليلاً على نبوتهم؛ وليس ذلك إليهم بل إليه.

﴿وسع كرسيه﴾ ويقال فلان يسع الشيء سعة إذا احتمله وأمكنه القيام به، وأصل الكرسي في اللغة مأخوذ من تركب الشيء بعضه على بعض، ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض، وفي العرف ما يجلس عليه، والكرسي هنا الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتي بيان ذلك.

---

(١) انظر/ شرح العقيدة الطحاوية.

وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة. وأخطأوا في ذلك خطأً بيناً وغلطوا غلطاً فاحشاً.

وقال بعض السلفَ: إن الكرسي هنا عبارة عن العلم قالوا: ومنه قيل للعلماء كراسي، ومنه الكراسة التي يجمع فيها العلم، ورجح هذا القول ابن جرير الطبري، وفي القاموس الكرسي بالضم والكسر السرير والعلم. والجمع كراسي، وقيل كرسيُّه قدرته التي يمسك بها السموات والأرض كما يقال اجعل لهذا الحائط كرسياً أي ما يعمده، وقيل إن الكرسي هو العرش وقيل هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له.

وقال التفتازاني: إنه من باب إطلاق المركب الحسي المتوهم على المعنى العقلي المحقق، وقال البيضاوي: لا كرسي في الحقيقة ولا قاعد وهو تمثيل مجرد، وقيل هو عبارة عن الملك والسلطان مأخوذ من كرسي العالم والملك.

والحق القول الأول ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلا مجرد خيالات تسببت عن جهالات وضلالات جاءت عن الفلاسفة أقمأهم الله تعالى.

والمراد بكونه وسع ﴿السموات والأرض﴾ أنها صارت فيه وانه وسعها ولم يضق عنها لكونه بسيطاً واسعاً، وأخرج الدارقطني في الصفات والخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله وسع كرسيه قال: «كرسيه موضع قدمه والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» وأخرجه الحاكم وصححه[1].

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي عن أبي

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٢٨٢.

ذر الغفاري أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكرسي فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما السموات السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة وان فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[١].

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً أنه موضع القدمين وفي سنده الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي وهو متروك.

وقد ورد عن جماعة من السلف من الصحابة وغيرهم في وصف الكرسي آثار لا حاجة في بسطها.

﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ معناه لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه حفظ السموات والأرض، يقال آدَنِي بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة، وقال الزجاج: يحتمل أن يكون الضمير في قولهيؤوده لله سبحانه، ويجوز أن يكون للكرسي لأنه من أمر الله.

﴿وهو العلي العظيم﴾ العلي يراد به علو القدر والمنزلة أي الرفيع فوق خلقه ليس فوقه شيء وقيل العلي بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد، وقيل علا من أن يحيط به وصف الواصفين ذو العظمة والجلال الذي كمل في عظمته.

وحكى الطبري عن بعضهم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه، قال ابن عطية: وهذا قول جهلة مجسمين وكان الواجب أن لا يحكى انتهى.

والخلاف في إثبات الجهة معروف في السلف والخلف، والنزاع فيه كائن

---

(١) اخرجه الآجري وابو حاتم البُسْتي في صحيح مسندة والبيهقي وذكر انه صحيح.

بينهم والادلة من الكتاب والسنة طافحة بها، ولكن الناشيء على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع، ولا ينظر في أدلته ولا يلتفت اليها الكتاب والسنة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، ويتبين به الصحيح من الفاسد، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض.

ولا شك أن هذا اللفظ يطلق على القاهر الغالب أيضاً كما في قوله ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ والعظيم بمعنى عظم شأنه وخطره.

قال في الكشاف: إن الجملة الأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمناً عليه غير ساهٍ عنه والثانية بيان لكونه مالكاً لما يدبره، والجملة الثالثة بيان لكبرياء شأنه والجملة الرابعة بيان لإحاطته بأحوال الخلق وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة وغير المرتضى، والجملة الخامسة بيان لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظم قدره انتهى.

وبالجملة فهذه الآية قد اشتملت على أمهات المسائل الإلهية فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الالوهية متصف بالحياة الأزلية الأبدية، واجب الوجود لذاته موجد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره منزّه عن التحيز والحلول، مبرّأ عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح ولا يعتريه ما يعتري النفوس والأرواح، مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع، وذو البطش الشديد الذي لا يشفع أحد عنده كائناً من كان إلا من أذن له الرحمن، عالم بالاشياء كلها جليها وخفيها كُلّيها وجزئيها، واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك ويقدر عليه، لا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن، متعال عن الخلق، مباين عن العالم مستو على العرش، عليّ الذات سمي الصفات كبير الشأن جليل القدر رفيع الذكر مطاع الأمر جلي البرهان عليّ عما يدركه القياس والظن والوهم عظيم لا يحيط به عالم الخلائق والفهم.

ولذلك قد ورد في فضل هذه الآية أحاديث فاخرج أحمد ومسلم واللفظ

له عن أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سأله: أي آية من كتاب الله أعظم قال: آية الكرسي قال: «ليهنك العلم أبا المنذر».

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني وأبو نعيم في المعرفة بسند رجاله ثقات عن ابن الأسقع البكري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم في صُفّة المهاجرين فسأله إنسان أي آية في القرآن أعظم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿الله لا اله إلا هو الحي القيوم﴾ الآية.

وأخرج سعيد بن منصور والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا وخرج منه، آية الكرسي» قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في هاتين الآيتين ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم، والم، الله لا إله إلا هو﴾ «إن فيهما اسم الله الأعظم».

وقد وردت أحاديث في فضلها غير هذه وورد أيضاً في فضل قراءتها دُبر الصلوات وفي غير ذلك، وورد أيضاً مع مشاركة غيرها لها أحاديث في فضلها، وورد عن السلف في ذلك شيء كثير(١).

---

(١) في البخاري عن ابي هريرة قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة وفيها: فقلت يا رسول الله، زعم انه يعلّمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: «ماهي»؟ قلت قال لي: إذا آويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أوّلها حتى تختم «الله لا إله إلا هو الحي القيوم». وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا احرص شيء على الخير. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اما انه قد صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة»؟ قال: لا؛ قال: «ذاك شيطان».

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

وقد اختلف أهل العلم في قوله ﴿لا إكراه في الدين﴾ على أقوال:

الأول: أنها منسوخة لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا الإسلام، والناسخ لها قوله تعالى ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾ وقال تعالى ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ وقد ذهب إلى هذا كثير من المفسرين.

القول الثاني: أنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وإنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، بل الذين يكرهون هم أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الاسلام أو السيف، وإلى هذا ذهب الشعبي والحسن وقتادة والضحاك.

القول الثالث: أن هذه الآية في الأنصار خاصة.

القول الرابع: أن معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف إنه مكره فلا إكراه في الدين.

القول الخامس: أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا على الإسلام.

وقال ابن كثير في تفسيره أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على

الدخول فيه، بل من هداه الله إلى الإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً[1]، وهذا يصلح أن يكون قولاً سادساً.

وقال في الكشاف في تفسير هذه الآية أي لم يُجر الله أمر الايمان على الإجبار والقسر ولكن على التمكن والإختيار، ونحوه قوله ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكن لم يفعل وبنى الأمر على الأختيار، وهذا يصلح أن يكون قولاً سابعاً.

والذي ينبغي اعتماده ويتعين الوقوف عنده أنها في السبب الذي نزلت لاجله محكمه غير منسوخة، وهو أن المرأة من الأنصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت يهود بني النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا فنزلت، أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما عن ابن عباس.

وقد وردت هذه القصة من وجوه حاصلها ما ذكره ابن عباس مع زيادات تتضمن أن الأنصار قالوا إنما جعلناهم على دينهم أي دين اليهود ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وأن الله جاء بالإسلام فلنكرهنّهم، فلما نزلت خيّر الأبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكرههم على الإسلام.

وهذا يقتضي أن أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا اختاروا البقاء على دينهم وأدوا الجزية، وأما أهل الحرب فالآية وإن كانت تعمهم لأن النكرة في سياق النفي وتعريف الدين يفيدان ذلك، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن قد خصص هذا العموم بما ورد في الآيات من إكراه

(١) ابن كثير ١/٣١٠.

أهل الحرب من الكفار على الاسلام.

وقد قيل هذه الآية إلى ﴿خالدون﴾ من بقية آية الكرسي، والتحقيق أن هذه الآية مستأنفة جيء بها إثر بيان صفات الباري المذكورة إيذاناً بأن من حق العاقل أن لا يحتاج إلى التكليف والاكراه في الدين بل يختار الدين الحق من غير تردد.

﴿قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾ الرشد هنا الايمان، والغي الكفر أي قد تميز أحدهما من الآخر، وأصل الغي بمعنى الجهل إلا أن الجهل في الاعتقاد والغي في الأعمال، وهذا استئناف يتضمن التعليل لما قبله.

﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ الطاغوت فعلوت من طغى يطغى ويطغو، إذا جاوز الحد، قال سيبويه: هو اسم مذكر مفرد أي اسم جنس يشمل القليل والكثير قاله سيبويه، وقال أبو علي الفارسي إنه مصدر كرهبوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع.

وقيل أصل الطاغوت في اللغة مأخوذ من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق، وقال المبرد هو جمع، قال ابن عطية وذلك مردود.

قال الجوهري: والطاغوت الكاهن والساحر والشيطان وكل رأس في الضلال وكل ما عبد من دون الله وقد يكون واحداً، قال تعالى ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾ وقد يكون جمعاً، قال تعالى ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾ والجمع الطواغيت أي فمن يكفر بالشيطان أو الأصنام أو أهل الكهانة ورؤس الضلالة أو بالجميع.

﴿ويؤمن بالله﴾ عز وجل بعدما تميز له الرشد من الغي، والحق عن الباطل والهدى عن الضلالة، وإنما قدّم الكفر بالطاغوت على الايمان بالله لأن

الشخص ما لم يخالف الشيطان ويترك عبادة غيره تعالى لم يؤمن بالله كما قالوا إن التخلية مقدمة على التحلية.

﴿فقد استمسك بالعروة﴾ هو في الأصل شد اليد وأصل المادة يدل على التعلق، ومنه عروته إذا ألمت به متعلقاً به واعتراه الهم تعلق به ﴿الوثقى﴾ أي فقد فاز وتمسّك بالحبل الوثيق المحكم، والوثقى فعلى من الوثاقة تأنيث الأوثق وجمعها وثق مثل الفضلى والفضل.

وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة فقيل المراد بالعروة الإيمان، وقيل الإسلام ، وقيل لا إله إلا الله، وقيل من باب الاستعارة المفردة حيث استعير العروة الوثقى للاعتقاد الحق ولا مانع من الحمل على الجميع.

﴿لا انفصام لها﴾ الانفصام الانكسار من غير بينونة، قال الجوهري: فصم الشيء كسره من غير أن يبين، وأما القصم بالقاف فهو الكسر مع البينونة، وفسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع.

والمعنى أن المتمسك بالدين كالمتمسك بالشيء الذي لا يمكن كسره ولا انقطاعه، والجملة مستأنفة أو حالية ﴿والله سميع عليم﴾ يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين، والجملة اعتراض تذييلي حامل على الإيمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ الولي فعيل بمعنى فاعل وهو الناصر ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ تفسير للولاية أو حال من الضمير في ولي، وهذا يدل على أن المراد بقوله ﴿الذين آمنوا﴾ الذين أرادوا الإيمان لأن من قد وقع منه الإيمان قد خرج من الظلمات إلى النور إلا أن يراد بالإخراج إخراجهم من الشبهة التي تعرض المؤمنين فلا يحتاج إلى تقدير الإرادة، قيل كل ما في القرآن من الظلمات والنور فالمراد به الكفر والإيمان غير الذي في سورة الأنعام فالمراد به الليل والنهار، وإفراد النور لوحدة الحق، وجمع الظلمات لتعدد فنون الضلال.

﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ المراد بالنور ما جاء به أنبياء الله من الدعوة إلى الدين فإن ذلك نور للكفار أخرجهم أولياؤهم منه إلى ظلمة الكفر أي قرّرهم أولياؤهم على ما هم عليه من الكفر بسبب صرفهم عن إجابة الداعي إلى الحق من الأنبياء، وقيل المراد بالذين كفروا هنا الذين ثبت في علمه تعالى كفرهم يخرجهم أولياؤهم من الشياطين ورؤس الضلال من النور الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى ظلمات الكفر التي وقعوا فيها بسبب ذلك الإخراج، وقيل ذكر هذا الإخراج مشاكلة للأول أو فيمن آمن بالنبي قبل بعثته من اليهود ثم كفر به، فتلخص أن الجواب الأول بالتسليم والثاني بالمنع.

﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يعني الكفار والطاغوت أي هم ملابسوها وملازموها بسبب ما هم من الجرائم ماكثون فيها أبداً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه﴾ في هذه الآية استشهاد على ما تقدم ذكره من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت، وهمزة الاستفهام لإنكار النفي وتقرير المنفي أي ألم ينته علمك أو نظرك إلى هذا الذي صدرت منه هذه المحاجة، وألم تر: كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها استفهام، قال الفراء: ألم تر بمعنى هل رأيت أي هل رأيت الذي حاج إبراهيم وهو النمرود بن كوش ابن كنعان بن سام بن نوح، وقيل إنه النمرود بن فالخ بن شانخ بن أرفخشد ابن سام، وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر في الأرض وادعى الربوبية وكان ابن زنا.

﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتاه الله أو من أجل أن آتاه الله على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو، فحاج لذلك أو على أنه وضع المحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، كما يقال عاديتني لأني أحسنت إليك.

قال مجاهد: ملك الأرض أربعة: مؤمنان سليمان وذو القرنين، وكافران نمرود وبخت نصر، واختلفوا في وقت المحاجة فقيل لما كسر إبراهيم الأصنام وقيل بعد إلقائه في النار، وكان مدة ملكه أربعمائة سنة.

﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت﴾ أراد

إبراهيم عليه السلام أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر على أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جواباً أحمق لا يصح نصبه في مقابلة حجة إبراهيم لأنه أراد غير ما أراده الكافر، فلو قال له ربي الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر على ذلك لبهت الذي كفر بادىء بدء وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى أوضح منها تنفيساً لخناقه وإرسالاً لعنان المناظرة.[1]

﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة وتمويهاً وتلبيساً على العوام.

﴿فبهت الذي كفر﴾ بهت الرجل وبهت وبهت إذا انقطع وسكت متحيراً، وقال ابن عطية: وقد تأوّل قوم في قراءة بهت بالفتح أنه بمعنى سب وقذف وأن النمرود هو الذي سب حين انقطع ولم تكن له حيلة انتهى.

وقال سبحانه ﴿فبهت الذي كفر﴾ ولم يقل فبهت الذي حاج إشعاراً بأن تلك المحاجة كفر، وقيل هذا الفعل من جملة الأفعال التي جاءت على صورة المبني للمفعول، والمعنى فيها على البناء للفاعل، والبهت الانقطاع والحيرة وهو مبهوت لا باهت ولا بهيت.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ تذييل مقرر لمضمون الجملة التي قبله.

---

(١) وقال ابن الجوزي تعليقاً على هذا الموضوع: ان ابراهيم رأى من فساد معارضته امراً يدل على ضعف فهمه فإنه عارض اللفظ بمثله ونسي اختلاف الفعلين فانتقل الى حجة أخرى قصداً لقطع المحاج لا عجزاً عن نصرة الأولى.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

﴿أو كالذي مرّ على قرية﴾ أي ألم تر إليه كيف هداه الله وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود.

واختلف في ذلك المار فروى عن مجاهد أنه كان كافراً شكّ في البعث، وهذا ضعيف جداً لقوله ﴿كم لبثت﴾ والله لا يخاطب الكافر، ولقوله ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ وهذا لا يستعمل في حق الكافر.

وقال ابن عباس، وعبد الله بن سلام وسليمان وبريدة والضحاك وقتادة وعكرمة والسدي: هو عزيز بن شرخيا، وقال ابن عبيد ووهب بن منبه: هو ارمياء بن حلقياء من سبط هرون وهو الخضر بعينه، وعن رجل من أهل الشام أنه حزقيل.

ومقصود القصة تعريف منكري البعث قدرة الله على إحياء خلقه بعد إماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار.

قال وهب وعكرمة والربيع: إن القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بخت نصر لها، وقيل المراد بالقرية أهلها، وقيل هي القرية التي خرج أهلها من ديارهم وهم ألوف، وقال الكلبي: هي دير سابر آباد موضع بفارس، وقال السدي: سلما باد محلة أو قرية من نواحي جرجان أو همدان، وقيل دير هرقل

بين بصرة وعسكر مكرم على شط دجلة، والأول هو الأظهر والأشهر.

﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي ساقطة يعني سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه، قاله السدي واختاره ابن جرير، وقيل معناه خالية من الناس، والبيوت قائمة، وأصل الخوى: الخلو يقال خوت الدار وخويت تخوى خواء ممدود وخوياً أقوت، والخوى أيضاً الجوع لخلو البطن عن الغذاء.

والظاهر القول الأول بدلالة قوله ﴿على عروشها﴾ من خوى البيت إذا سقط وخوت الأرض إذا انهدمت، قال ابن عباس: خاوية أي خراب، وقال قتادة: خاوية أي ليس فيها أحد، وقال الضحاك: العروش السقوف.

﴿قال﴾ أي ذلك المار ﴿أنّى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ أي متى يحيي أو كيف يحيي، وهو استبعاد لإحيائها وهي على تلك الحالة المشابهة لحالة الأموات المباينة لحالة الأحياء، وتقديم المفعول لكون الإستبعاد ناشئاً من جهته لا من جهة الفاعل، وقيل: قال ذلك استعظاماً لقدرته تعالى، قاله السيوطي.

وعبارة أبي السعود قال: ذلك تلهفاً عليها، وتشوقاً الى عمارتها مع استشعار اليأس منها، وعبارة البيضاوي قال: ذلك اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء..

وسبب توجعه على تلك القرية انه كان اهلها من جملة من سباهم بخت نصر، فلما خلص من السبي وجاء ورآها على تلك الحالة توجع وتلهف.

ولما قال المار هذه المقالة مستبعداً لإحياء القرية المذكورة بالعمارة لها والسكون فيها ضرب الله له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه فقال ﴿فأماته الله مائة عام﴾ وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال كان هذا القول شكاً في قدرة الله على الإحياء فلذلك ضرب له المثل في نفسه.

قال ابن عطية: ليس يدخل شك في قدرة الله سبحانه على إحياء قرية بجلب العمارة إليها وإنما يتصور الشك إذا كان سؤاله عن احياء موتاها، والعام السنة أصله مصدر كالعوم سمي به هذا القدر من الزمان والعوم هو السباحة سميت السنة عاماً لأن الشمس تعوم في جميع بروجها.

﴿ثم بعثه﴾ أي أحياه ليريه كيفية ذلك، وإيثار البعث على الإحياء للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على الباري تعالى كأنه بعثه من النوم، وللإيذان بأنه عاد كهيئته يوم موته عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال.

قال علي: فأول ما خلق الله عيناه فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض ثم كسيت لحماً ثم نفخ فيه الروح، قال علي: فأتى مدينته وقد ترك جاراً له إسكافاً شاباً فجاء وهو شيخ كبير.

﴿قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ اختلف في فاعل قال فقيل هو الله عز وجل وقيل ناداه بذلك ملك من السماء قيل هو جبريل وقيل غيره، وقيل إنه نبي من الأنبياء وقيل رجل من المؤمنين من قومه شاهده عند إن أماته الله وعمر إلى حين بعثه، والأول أولى لقوله فيما بعد ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾.

وإنما قال ﴿يوماً أو بعض يوم﴾ بناء على ما عنده وفي ظنه فلا يكون كاذباً، ومثله قول أصحاب الكهف (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) ومثله قوله ﷺ في قصة ذي اليدين «لم تقصر ولم أنس»[1] وهذا مما يؤيد قول من قال: إن الصدق ما طابق الاعتقاد والكذب ما خالفه.

وقيل إن الله أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار قبل أن تغيب الشمس، فقال ﴿لبثت يوماً﴾ وهو يرى أن الشمس قد غابت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال ﴿أو بعض يوم﴾ وقيل إن أو بمعنى بل التي للإضراب وهو قول ثابت وقيل هي للشك والأول أولى.

(١) الدارمي كتاب الصلاة باب ١٧٥.

﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ هو استئناف أيضاً كما سلف أي ما لبثت يوماً أو بعض يوم بل لبثت مائة عام ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه﴾ الطعام هو التين الذي كان معه والشراب هو العصير، والمعنى لم يتغير ولم ينتن فكان التين كأنه قد قطف من ساعته، والعصير كأنه عصر من ساعته.

أمره الله أن ينظر إلى هذا الأثر العظيم من آثار القدرة، وهو عدم تغير طعامه وشرابه مع طول تلك المدة.

والتسنّـه مأخوذ من السنة أي لم تمر عليه السنون أي المائة سنة لبقائه على حاله وعدم تغيره مع طول الزمان، مع ان شأنه التغير سريعاً، وأصله سنهة أو سنعة من سنهت النخلة وتسنهت إذا أتت عليها السنون، ونخلة سنّاء أي تحمل سنة ولا تحمل أخرى.

وقيل هو من أسن الماء إذا تغير، وكان يجب على هذا أن يقال يتأسن من قوله ﴿حمأ مسنون﴾ قاله أبو عمرو الشيباني، وقال الزجاج: ليس كذلك لأن قوله ﴿مسنون﴾ ليس معناه متغير وإنما معناه مصبوب على سنه الأرض.

﴿وانظر إلى حمارك﴾ اختلف المفسرون في معناه فذهب الأكثر إلى أن معناه أنظر إليه كيف تفرقت أجزاؤه ونخرت عظامه وتقطعت أوصاله، ثم أحياه الله وعاد كما كان لتشاهد كيفية الإحياء، فالنظران مختلفان، وقال الضحاك ووهب بن منبه: أنظر إلى حمارك قائماً في مربطه لم يصبه شيء بعد أن مضت عُليه مائة عام.

ويؤيد القول الأول قوله تعالى ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ ويؤيد القول الثاني مناسبته لقوله ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾.

وإنما ذكر سبحانه عدم تغير طعامه وشرابه بعد إخباره أنه لبث مائة عام، مع أن عدم تغير ذلك الطعام والشراب لا يصلح أن يكون دليلاً على تلك المدة الطويلة، بل على ما قاله من لبثه يوماً أو بعض يوم، لزيادة استعظام ذلك الذي أمات تلك المدة، فانه إذا رأى طعامه وشرابه لم يتغير مع كونه قد ظن

أنه لم يلبث إلا يوماً أو بعض يوم، زادت الحيرة وقويت عليه الشبهة، فاذا نظر إلى حماره عظاماً نخرة تقرر لديه ان ذلك صنع من تأتي قدرته بما لا تحيط به العقول، فإن الطعام والشراب سريع التغير، وقد بقي هذه المدة الطويلة غير متغير، والحمار يعيش المدة الطويلة وقد صار كذلك فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿ولنجعلك آية للناس﴾ وعبرة ودلالة على البعث بعد الموت قاله الفراء، وقال الأعمش: كونه آية هو أنه جاء شاباً على حاله يوم مات فوجد الأبناء والحفدة شيوخاً.

﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ قرأ الكوفيون بالزاي والباقون بالراء، وقد أخرج الحاكم وصححه عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قرأ كيف ننشزها فمعنى القراءة بالزاي نرفعها ومنه النشز، وهو المرتفع من الأرض أي نرفع بعضها إلى بعض، وأما معنى القراءة بالراء فواضحة من أنشر الله الموتى أي أحياهم.

﴿ثم نكسوها لحماً﴾ أي نسترها به كما يستر الجسد باللباس، واستعار اللباس لذلك ولعل عدم التعرض لنفخ الروح لما أن الحكمة لا تقتضي بيانه.

﴿فلما تبين له﴾ ما تقدم ذكره من الآيات التي أراه الله سبحانه وأمره بالنظر إليها والتفكر فيها التي استغربها، قال ابن جرير: لما اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه من إحياء القرية.

وقال الزمخشري: ما أشكل عليه يعني من أمر الإحياء، والأول أولى لأن قوة الكلام تدل عليه بخلاف الثاني.

﴿قال أعلم﴾ أي علم مشاهدة بعد العلم اليقيني الحاصل بالفطرة والأدلة العقلية، قال أبو علي الفارسي: معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته ﴿أن الله على كل شيء قدير﴾ لا يستعصي عليه شيء من الأشياء، ويدخل تحته الإماتة والإحياء دخولاً أولياً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ إذ ظرف منصوب بفعل محذوف أي اذكر وقت قول إبراهيم، وإنما كان الأمر بالذكر موجهاً إلى الوقت دون ما وقع فيه مع كونه المقصود لقصد المبالغة لأن طلب وقت الشيء يستلزم طلبه بالأولى، وهكذا يقال في سائر المواضع الواردة في الكتاب العزيز بمثل هذا الظرف.

وقوله «ربّ» آثره على غيره لما فيه من الاستعطاف الموجب لقبول ما يرد بعده من الدعاء، قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب، وإنما أراد رؤية العين، وكذا قال غيره ولا يصح أن يراد به الرؤية القلبية هنا لأن مقصود إبراهيم أن يشاهد الإحياء لتحصل له الطمأنينة.

﴿قال أو لم تؤمن﴾ أي ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء حتى تسألني إراءته ﴿قال بلى﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على ذلك ﴿ولكن﴾ سألت ﴿ليطمئن قلبي﴾ باجتماع دليل العيان إلى دلائل الايمان.

وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكاً في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أُخبرت عنه، ولهذا قال النبي ﷺ: ليس الخبر كالمعاينة(١).

---

(١) قال ابن عباس: والمعنى: ارني لأعلم انك تجيبني اذا دعوتك. والله أعلم.

وحكى ابن جرير عن طائفة من أهل العلم أنه سأل ذلك لأنه شك في قدرة الله، واستدلوا بما صح عنه ﷺ في الصحيحين وغيرهما من قوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ، وبما روى عن ابن عباس أنه قال: ما في القرآن عندي آية أرجى منها. أخرجه عنه الحاكم وصححه، ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له.

قال ابن عطية وهو عندي مردود يعني قول هذه الطائفة ثم قال: وأما قول النبي ﷺ : «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه أنه لو كان شاكاً لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فابراهيم أحرى أن لا يشك».

فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم.

وأما قول ابن عباس: هي أرجى آية فمن حيث أن فيها الادلال على الله وسؤال الاحياء في الدنيا وليست مظنة ذلك.

ويجوز أن نقول هي أرجى آية لقوله ﴿أو لم تؤمن﴾ أي أن الايمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث، قال: فالشك يبعد على من ثبت قدمه بالايمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلّة والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً.

وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الألفاظ للآية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول نحو قولك: كيف علم زيد، وكيف نسج الثوب، ونحو هذا، ومتى قلت كيف ثوبك وكيف زيد فإنما السؤال عن حال من أحواله.

وقد يكون كيف خبراً عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي، وهي في هذه الآية استفهام عن هيئة الإحياء، والاحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض

المنكرين لوجود شيء قد يعبّرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح.

مثال ذلك أن يقول مدّع أنا أرفع هذا الجبل فيقول المكذب له أرني كيف ترفعه، فهذه طريقة مجاز في العبارة ومعناها تسليم جدل، كأنه يقول افرض أنك ترفعه.

فلما كان في عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازي خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له ﴿أو لم تؤمن قال بلى﴾ فكمل الأمر وتخلص من كل شيء ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

قال القرطبي: هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث.

وقد أخبر الله سبحانه أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ وقال اللعين ﴿الا عبادك منهم المخلصين﴾ واذا لم تكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم وانما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها. فأراد أن يرقى من علم اليقين إلى عين اليقين.

فقوله ﴿ربِّ أرني كيف﴾ طلب مشاهدة الكيفية، قال الماوردي: وليست الألف في قوله ﴿أو لم تؤمن﴾ ألف استفهام وإنما هي ألف إيجاب وتقرير، والواو واو الحال، وتؤمن معناه إيماناً مطلقاً دخل فيه فصل احياء الموتى، والطمأنينة اعتدال وسكون، وقال ابن جرير: ليوقن قلبي.

﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾ أي إن أردت ذلك فخذ، والطير اسم جمع

لطائر كركب لراكب وهو مذهب أبي الحسن أو جمع نحو تاجر وتجر أو مصدر قاله أبو البقاء: وخص الطير بذلك قيل لأنه أقرب أنواع الحيوان إلى الانسان شبهاً في تدوير الرأس والمشي على الرجلين، وقيل إن الطير همته الطيران في السماء، والخليل كانت همته العلو.

وقيل غير ذلك من الأسباب الموجبة لتخصيص الطير، وكل هذه لا تسمن ولا تغني من جوع وليست الا خواطر افهام، وبوادر أذهان لا ينبغي أن تجعل وجوهاً لكلام الله وعللاً لما يرد في كلامه.

وهكذا قيل ما وجه تخصيص هذا العدد فإن الطمأنينة تحصل بإحياء واحد، فقيل إن الخليل إنما سأل واحداً على عدد العبودية فأعطي أربعاً على قدر الربوبية، وقيل الطيور الأربعة إشارة الى الأركان الأربعة التي يتركب منها أركان الحيوان، ونحو ذلك من الهذيان.

قال ابن عباس: والطير الذي أخذ وز ودال وديك وطاوس، وروي نحوه عن قتادة والحسن وعنه قال الغرنوق والطاوس والديك، والحمامة، وقال مجاهد الغراب بدل الغرنوق.

﴿فصرهن اليك﴾ أي اضممهن اليك وأملهن واجمعهن يقال رجل أصور اذا كان مائل العنق ويقال صار الشيء يصوره يصيره أماله أو قطعه، فاللغتان لفظ مشترك بين هذين المعنيين والقراءتان تحتملهما معاً، وقرىء فصرهن بضم الصاد وكسرها وقيل معناه قطعهن، وبه قال ابن عباس، وبالنبطية مزقهن وشققهن، وعنه قال أوثقهن.

﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ فيه الأمر بالتجزئة لأن جعل كل جزء على جبل يستلزم تقدم التجزئة، قال الزجاج: المعنى ثم اجعل على كل

جبل من كل واحد منهن جزءاً، والجزء النصيب، واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال وليس في ذكر ذلك كثير فائدة.

﴿ثم ادعهن﴾ أي قل لهن تعالين بإذن الله تعالى ﴿يأتينك﴾ إتياناً سريعاً ﴿سعياً﴾ أي مشياً سريعاً. والمراد بالسعي الإسراع في الطيران أو المشي وقيل السعي هو الحركة الشديدة، وقيل العدو، وقيل الطيران، وفيه أنه لا يقال للطائر إذا طار سعى، فالحكمة في السعي دون الطيران أن ذلك أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور، أو أن أرجلها غير سليمة فنفى الله تعالى هذه الشبهة ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ في صنعه.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: وضعهن على سبعة أجبل وأخذ الرؤوس بيده فجعل ينظر إلى القطرة تلقى القطرة والريشة تلقى الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس فجئن إلى رؤوسهن فدخلن فيها، وناهيك بالقصة دليلاً على فضل الخليل وحسن الأدب في السؤال، حيث أراه ما سأل في الحال، وأرى العُزَيْر ما أراه بعد إماتته مائة عام[1].

---

(١) قال ابن عباس: فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاها ثم قطعها قطعاً صغاراً، وخلط لحوم البعض الى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون اعجب، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الاجزاء وامسك رؤوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله، فتطايرت تلك الاجزاء وطار الدم الى الدم والريش الى الريش حتى التأمت مثل ما كانت اولا وبقيت بلا رؤوس، ثم كرر النداء فجاءته سعياً، اي عدواً على ارجلهن. وقد ذكر القرطبي القصص عن المفسرين في ماهية الطيور وكيفية جمعها.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١)

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ قيل المراد به الإنفاق في الجهاد وقيل في جميع وجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ المراد بالسبع السنابل هي التي تخرج في ساق واحد يتشعب منه سبع شعب في كل شعبة سنبلة، والحبة إسم لكل ما يزدرعه ابن آدم، وقيل المراد بالسنابل هنا سنابل الذرة والدخن فهو الذي يكون منها في السنبلة هذا العدد.

وقال القرطبي: إن سنبل الدخن يجيء في السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدنا، قال ابن عطية: وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة، وأما في سائر الحبوب فأكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر.

وقال الطبري: إن قوله في كل سنبلة مائة حبة معناه إن وجد ذلك وإلا فعلى أن يفرضه والذي ينبغي الإعتماد عليه في هذه الآية وأمثالها أن المقصود بها مجرد تمثيل زيادة الأجر وكثرة الثواب دون وجود ذلك.

﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ يحتمل أن يكون المراد يضاعف هذه المضاعفة

---

(١) رواه أحمد في «المسند» من طريق مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي عثمان النهدي. وعلي بن زيد، ضعفه غير واحد. والحديث حسن. وقد قال الشيخ أحمد شاكر: رواه ابن أبي حاتم عن أبي خلاد سليمان بن خلاد المؤدب عن محمد الرفاعي عن زياد ين الحصاص عن أبي عثمان النهدي، وزياد بن الجصاص، ذكره البخاري في «التاريخ الكبير» فلم يذكر فيه جرحاً، وهذا أمارة توثيقه عنده، ثم لم يذكره في الضعفاء، وذكره ابن حبان في الثقات. وقال: ربما وهم. وهذا الحديث لم ينفرد به كما ترى، فقد رواه كما رواه علي ابن زيد بن جدعان بنحوه، فارتفعت شبهة الخطأ والوهم، وصح الحديث من الوجهين، والحمد لله.

لمن يشاء أو يضاعف هذا العدد فيزيد عليه أضعافه لمن يشاء لا لكل الناس، وهذا هو الراجح لما سيأتي.

وقد ورد القرآن بأن الحسنة بعشر أمثالها[١]، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف، فيبنى العام على الخاص، وهذا بناء على أن

سبيل الله هو الجهاد فقط، وأما إذا كان المراد به وجوه الخير فيخص هذا التضعيف إلى سبعمائة بثواب النفقات ويكون العشرة الأمثال فيما عدا ذلك ﴿والله واسع عليم﴾.

أخرج مسلم وأحمد والنسائي والحاكم والبيهقي: عن ابن مسعود: «أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[١].

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف»[٢] وأخرجه البخاري في تاريخه من حديث أنس.

وأخرجه أحمد من حديث أبي عبيدة وزاد «من أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً فالحسنة بعشر أمثالها».

وأخرج ابن ماجة وابن أبي حاتم من حديث عمران بن حصين وعلي وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبي امامة وابن عمر وجابر كلهم يحدّث عن رسول

---

(١) اخرجه مسلم عن ابن مسعود.
(٢) مسلم عن ابي هريرة مثله.

الله ﷺ «من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم»(١) ثم تلا هذه الآية ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾.

وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»(٢) وأخرجه أيضاً مسلم.

وأخرج الطبراني من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: طوبى لمن أكثر في الجهاد في سبيل الله من ذكر الله فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة منها عشرة أضعاف».

وقد وردت الأحاديث الصحيحة في أجر من جهّز غازياً(٣).

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن سهل بن معاذ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصوم والذكر يضاعف عن النفقة في سبيل الله سبعمائة ضعف»(٤).

وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف»(٥).

---

(١) احمد ٥/٣٢٩.
(٢) احمد في مسنده ٢/٤٤٣ ـ ٢/٤٧٧.
(٣) احمد في مسنده ٥/٣٥٥.
(٤) روى مسلم في صحيحه ١٨٩٥.
من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا وفي رواية: ومن خلّف غازياً في اهله فقد غزا.
(٥) ضعيف الجامع الصغير/ ١٤٩٣.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان كيفية الإنفاق الذي تقدم أي هو إنفاق الذين ينفقون، قيل نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، أما عثمان فجهز المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وأما عبد الرحمن فجاء بأربعة آلاف درهم صدقة إلى رسول الله ﷺ.

﴿ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى﴾ المن هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها، وقيل المن التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه، والمن من الكبائر كما ثبت في صحيح مسلم[1] وغيره أنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم.

والأذى السب والتطاول والتشكي، قال في الكشاف: ومعنى ﴿ثم﴾ اظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى وإنّ تركهما خير من نفس الانفاق كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله ﴿ثم استقاموا﴾ انتهى.

فثم على هذا للتراخي في الرتبة، وقيل هو على بابه للتراخي في الزمان نظراً للغالب من أن وقوع المن والأذى يكون بعد الانفاق بمدة، وقدَّم المنَّ على الأذى لكثرة وقوعه، ووسط كلمة «لا» للدلالة على شمول النفي لاتباع كل واحد منهما.

﴿لهم أجرهم﴾ يعني ثوابهم في الآخرة ﴿عند ربهم﴾ فيه تأكيد وتشريف

---

(١) مسلم ١٠٦.

﴿ولا خوف عليهم﴾ يعني يوم القيامة ﴿ولا هم يحزنون﴾ يعني على ما خلّفوا من الدنيا، وظاهر الآية نفي الخوف عنهم في الدارين كما تفيده النكرة الواقعة في سياق النفي من الشمول، وكذلك نفي الحزن يفيد دوام انتفائه عنهم.

وقد وردت الأحاديث الصحيحة في النهي عن المن والأذى وفي فضل الانفاق في سبيل الله وعلى الأقارب وفي وجوه الخير، ولا حاجة إلى التطويل بذكرها فهي معروفة في مواطنها.

قال عبد الرحمن بن يزيد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت ان سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه، والعرب تمدح بترك المن وكتم النعمة وتذم على إظهارها والمن بها، والأذى ما يصل إلى الإنسان من ضرر بقول أو فعل، والمراد هنا أن يشكو منهم بسبب ما أعطاهم.

﴿قول معروف﴾ قيل الخبر محذوف أي أولى وأمثل، ذكره النحاس، قال: ويجوز أن يكون خبراً عن مبتدأ محذوف أي الذي أمرتم به قول معروف أي كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل، وقيل عِدَة حسنة توعده بها وقيل دعاء صالح تدعو له بظاهر الغيب.

﴿ومغفرة﴾ له في الحاجة مبتدأ أيضاً وخبره ﴿خير من صدقة﴾ وجاز الابتداء بالنكرتين لأن الأولى تخصصت بالوصف والثانية بالعطف والمعنى أن القول المعروف من المسؤول للسائل، وهو التأنيس والترجية بما عند الله والرد الجميل خير من الصدقة التي ﴿يتبعها أذى﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ «الكلمة الطيبة صدقة»[١] وأن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق.

---

(١) مسلم ٢٢٢٤.

والمراد بالمغفرة الستر للخلة وسوء حالة المحتاج والعفو عن السائل إذا صدر منه من الإلحاح ما يكدّر صدر المسؤول، وقيل إن المراد أن العفو من جهة السائل لأنه إذا رده رداً جميلاً عذره، وقيل المراد فعل يؤدي إلى المغفرة خير من صدقة أي غفران الله خير من صدقتكم.

وهذه الجملة مستأنفة مقررة لترك اتباع المن والأذى للصدقة[1]، قال الضحاك: قول معروف رد جميل تقول يرحمك الله ويرزقك الله ولا تنهره ولا تغلظ له القول، وعن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول الحق» ألم تسمع قول الله ﴿قول معروف﴾ الآية أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿والله غني﴾ عن صدقة العباد لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن والأذى ويرزقهم من جهة أخرى ﴿حليم﴾ بتأخير العقوبة عن المانّ والموذي لا يعاجلهم بها لا أنهم لا يستحقونها بسببها، والجملة تذييل لما قبله مشتملة على الوعد والوعيد مقررة لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعاً.

---

(١) زاد المسير ١٥١.

وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». المسبل هو الذي يسبل ازاره او ثيابه او قميصه او سراويله حتى تكون الى القدمين، لانه صلى الله عليه وسلم قال. «ما اسفل من الكعبين من الازار فهو في النار» وفي الحديث ايضا: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان» رواه النسائي وفيه ايضا: «لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا منان» والخب هو المكر والخديعة، والمنان هو الذي يعطي شيئاً او يتصدق به ثم يمن به. وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: إياكم والمن بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله عز وجل: (يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم﴾ يعني أجورها والإبطال للصدقات إذهاب أثرها وإفساد منفعتها، أي لا تبطلوها ﴿بالمنّ والأذى﴾ أو بأحدهما يعني على السائل الفقير، وقال ابن عباس: بالمن على الله والأذى لصاحبها. قال بعضهم: ذهب أجره فلا أجر له ولا وزر عليه، وقال بعضهم: له أجر الصدقة ولكن ذهبت مضاعفته وعليه الوزر بالمن، قال الكرخي: وهذا أوجه وقال بعضهم: لا أجر له في نفقته وعليه وزر فيها مَنَّ على الفقير.

﴿كالذي﴾ أي كإبطال الذي ﴿ينفق ماله رئاء الناس﴾ أي لأجل الرياء أو مرائياً لا يقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة بل يفعل ذلك رياء للناس وسمعة واستجلاباً لثنائهم عليه ومدحهم له، قيل والمراد به المنافق بدليل قوله ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ قال ابن عباس: لا يدخل الجنة منان، وذلك في كتاب الله يعني هذه الآية.

﴿فمثله﴾ أي مثل الذي ينفق رئاء الناس أو المان المعطي وقد عدل من خطاب إلى غيبة ومن جمع إلى إفراد ﴿كمثل صفوان﴾ الصفوان الحجر الكبير الأملس الصلب، وفيه لغتان أشهرهما سكون الفاء والثانية فتحها، وبها قرأ ابن المسيب والزهري وهي شاذة، وقال الأخفش: صفوان جمع صفوانة، وقال الكسائي: صفوان واحد وجمعه صفي واصفي وأنكره المبرد، وقال النحاس: يجوز أن يكون جمعاً وأن يكون واحداً وهو أولى لقوله ﴿عليه تراب﴾ أي استقر على الصفوان ﴿فأصابه﴾ أي الصفوان أو التراب ﴿وابل﴾ أي مطر، والوابل

المطر الشديد العظيم القطر، والمطر أوله رشّ ثم طشّ ثم طلّ ثم نضح ثم هطل ثم وبل، يقال وبلت السماء وبلاً، ووبولاً اشتد مطرها، وكان الأصل وبل مطر السماء فحذف للعلم به ولهذا يقال للمطر وابل.

مثل الله سبحانه هذا المنافق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبتة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب ﴿فتركه﴾ أي الصفوان يعني بقي ﴿صلداً﴾ أي أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، وأملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً، وكذلك حال هذا المرائي يوم القيامة فإن نفقته لا تنفع، قال ابن عباس صلداً أي يابساً جاسياً لا ينبت شيئاً.

﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ أي على ثواب شيء مما عملوا في الدنيا، مستأنفة كأنه قيل ماذا يكون حالهم فقيل لا يقدرون الخ ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ يعني الذي سبق في علمه أنهم يموتون على الكفر، وفيه تعريض بأن المن والأذى والرياء من خصال الكفار.

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنماخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر، قال: الرياء يقال لهم يوم تجازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم خيراً» رواه البغوي بسنده[1].

وعن ابي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن أشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري وتركته وشركه».

---

(١) وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظر الى رجل وهويطأطيء رقبته، فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب انما الخشوع في القلوب. وقيل: ان ابا امامة الباهلي رضي الله عنه اتى على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي في سجوده ويدعو، فقال له ابو امامة: انت، انت، لو كان هذا في بيتك!

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله﴾ ابتغى معناه طلب ومرضاة مصدر رضي يرضى ﴿وتثبيتاً﴾ معناه يثبتون ﴿من أنفسهم﴾ ببذل أموالهم على الإيمان وسائر العبادات رياضة لها وتدريباً وتمريناً أو يكون التثبيت بمعنى التصديق أي تصديقاً للاسلام ناشئاً من جهة أنفسهم.

وقد اختلف السلف في معنى هذا الحرف فقال الحسن ومجاهد معناه أنهم يثبتون أن يضعوا صدقاتهم، وقال بعضهم: معناه تصديقاً ويقيناً، روي ذلك عن ابن عباس، وقيل معناه احتساباً من أنفسهم؛ قاله قتادة، وقيل معناه أن أنفسهم لها بصائر فهي تثبتهم على الانفاق في طاعة الله تثبيتاً قاله الشعبي والسدي وابن زيد وأبو صالح، وهذا أرجح مما قبله، يقال ثبت فلاناً في هذا الأمر أثبته تثبيتاً أي صححت عزمه.

﴿كمثل جنة بربوة﴾ الجنة البستان وهي أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها، مأخوذ من لفظ الجن والجنين لاستتارها، وقال أبو السعود الجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة وعلى الأرض المشتملة عليها، والأول أولى، لأجل قوله بربوة، والربوة بالحركات الثلاث المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً، وإنما خص الربوة لأن نباتها يكون أحسن من غيره مع كونه لا يصطلمه البرد في الغالب لجودته وكرمه ولطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له.

قال الطبري: وهي أرض الحزن التي تستكثر العرب من ذكرها، واعترضه ابن عطية فقال: إن رياض الحزن منسوبة إلى نجد لأنها خير من رياض تهامة ونبات نجد أعطر ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال لها حزن وليست هذه المذكورة هنا من ذلك.

ولفظ الربوة مأخوذ من ربا يربو إذا زاد، وقال الخليل: الربوة أرض مرتفعة طيبة وقيل هي الأرض المستوية الجيدة الطيبة إذا أصابها المطر انتفخت وربت وكثر ريعها وحملت أشجارها.

﴿أصابها وابل﴾ قال الخليل: الوابل المطر الشديد يقال وبلت السماء تبل والأرض موبولة، قال الأخفش: ومنه قوله تعالى ﴿أخذاً وبيلاً﴾ أي شديداً، وضرب وبيل وعذاب وبيل، قال بعضهم.

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها وابل هطل

أراد بالحزن ما غلظ وارتفع من الأرض ﴿فآتت أكلها﴾ بضم الهمزة الثمرة التي تؤكل كقوله تعالى: ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص كسرج الفرس وباب الدار ﴿ضعفين﴾ أي مثل ما كانت تثمر بسبب الوابل، فالمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال.

﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ أي فإن الطل يكفيها وهو الطش أي المطر الضعيف. الخفيف المستدق القطر، قال المبرد وغيره تقديره فطلٌ يكفيها، وقال الزجاج: تقديره فالذي يصيبها طل والمراد أن الطل ينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين، وقال قوم: الطل الندى، وفي الصحاح الطل أضعف المطر والجمع أطلال، قال الماوردي: وزرع الطل أضعف من زرع المطر.

والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت متفاوتة ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضاعف أكلها فكذلك نفقتهم جلّت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم.

﴿والله بما تعملون﴾ أي عملاً ظاهراً قلبياً ﴿بصير﴾ لا يخفى عليه من شيء، وفي هذا ترغيب لهم بالإخلاص مع ترهيب من الرياء ونحوه فهو وعد ووعيد.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ الود الحب للشيء مع تمنيه والهمزة الداخلة على الفعل لإنكار الوقوع، والجنة تطلق على الشجر الملتف وعلى الأرض التي فيها الشجر، والأول أولى هنا لقوله ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ بإرجاع الضمير إلى الشجر من دون حاجة إلى مضاف محذوف وأما على الوجه الثاني فلا بد من تقديره أي من تحت أشجارها، وهكذا قوله الآتي فاحترقت لا يحتاج إلى تقدير مضاف على الوجه الأول. وأما على الثاني فيحتاج إلى تقديره أي فاحترقت أشجارها.

وخص النخيل والأعناب بالذكر مع قوله: ﴿له فيها من كل الثمرات﴾ لكونهما أكرم الشجر وأشرف الفواكه جامعين لفنون المنافع لما فيهما من الغذاء والتفكه، وهذه الجمل صفات للجنة والنخيل اسم جمع واحده نخلة أو جمع نخل الذي هو اسم جنس، والأعناب جمع عنب الذي هو جنس واحده عنبه.

﴿وأصابه الكبر﴾ الواو للحال حملاً على المعنى بتقدير قد وقيل غير ذلك وهذا أرجح، وكبر السن هو مظنة شدة الحاجة لما يلحق صاحبه من العجز عن تعاطي الأسباب، والمعنى كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها.

﴿وله ذرية ضعفاء﴾ حال من الضمير في «أصابه» أي والحال أن له أولاداً صغاراً عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر. فإن من جمع بين كبر السن وضعف الذرية كان تحسّره على تلك الجنة في غاية الشدة ﴿فأصابها إعصار﴾ الإعصار الريح الشديدة المرتفعة التي تهبّ من الأرض إلى السماء

كالعمود، وهي التي يقال لها الزوبعة قاله الزجاج،وقال الجوهري: الزوبعة رئيس من رؤساء الجن، ومنه سمّي الإعصار زوبعة وأم زوبعة وأبا زوبعة يقال فيه شيطان مارد، وهي ريح تثير الغبار وترتفع إلى السماء كأنه عمود، وقيل هي ريح تثير سحاباً ذات رعد وبرق.

وقال ابن عباس: ريح فيها سموم شديدة سميت بذلك لأنها تلتف كما يلتف الثوب المعصور، وقيل لأنها تعصر السحاب، وتجمع على أعاصير، والريح مؤنثة على الأكثر وقد تذكر على معنى الهواء، وقال ابن الأنباري: وكذا سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر.

﴿فيه نار فاحترقت﴾ عطف على قوله ﴿فأصابها﴾ وهذه الآية تمثيل لمن يعمل خيراً ويضم ما يحبطه فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لا يسمن ولا يغني من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة وقال ابن عباس: ضرب الله مثلاً لعمل رجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله كلها[1].

﴿كذلك﴾ أي كما بين ما ذكر من أمر النفقة المقبولة وغيرها ﴿يبين الله لكم الآيات﴾ قال ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وإقبال الآخرة ﴿لعلكم تتفكرون﴾ أي تعتبرون.

---

(١)وهذه الآية مثل ضربه الله سبحانه وتعالى في الحسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة وفيمن قصد به ثلاثة أقوام.

١ ـ قوم ختم الله لهم بالفساد آخر عمرهم.

٢ ـ مفرّطون في طاعة الله تعالى حتى الممات.

٣ ـ قوم مراؤن في النفقة، ينقطع عنهم نفقها وهم أحوج الناس إليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي من جيّد ما كسبتم وخياره كذا قال الجمهور، وقال جماعة إن معنى الطيبات هنا الحلال، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعاً لأن جيد الكسب ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، وإن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالاً كان أو حراماً، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية.

قال علي ابن أبي طالب: ما كسبتم من الذهب والفضة، وقال مجاهد: من التجارة، وقيل المواشي قيل وفيه دليل على إباحة الكسب، وفي الحديث عن المقدام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده» أخرجه البخاري.

واختلف في المراد بالانفاق فقيل الزكاة المفروضة لأن الأمر للوجوب، وقيل صدقة التطوع وقيل الفرض والنفل جميعاً.

﴿ومما﴾ أي من طيبات ما ﴿أخرجنا لكم من الارض﴾ وحذف لدلالة ما قبله عليه وهي النباتات والمعادن والركاز، وقال علي: يعني من الحب والثمر وكل شيء عليه زكاة، وقال مجاهد من الثمار.

وظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الأرض، لكن الجمهور خصصوا هذا العموم، وخصه الشافعي بما يزرعه الآدميون ويقتات اختياراً وقد بلغ نصاباً وبثمر النخل وثمر العنب، وأبقاه أبو حنيفة على عمومه

فأوجبها في كل ما يقصد من نبات الأرض كالفواكه والبقول والخضروات كالبطيخ والقثاء والخيار، وأوجب في ذلك العشر قليلاً كان أو كثيراً، والأول أولى وتفصيل ذلك في كتب الفروع.

﴿ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي لا تقصدوا المال الرديء، وفي الآية الأمر بانفاق الطيب والنهي عن انفاق الخبيث.

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن الآية في الصدقة المفروضة، وذهب آخرون إلى أنها تعم صدقة الفرض والتطوع وهو الظاهر، وسيأتي من الأدلة ما يؤيد هذا[1].

وتقديم الظرف يفيد التخصيص أي لا تخصوا الخبيث بالانفاق أي لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الانفاق به قاصرين له عليه.

أخرج الترمذي وصححه وابن ماجه وغيرهما عن البراء بن عازب قال: نزلت فينا معشر الانصار، كنا أصحاب نخل وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفّة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر، والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي بالقنو فيه الشيص والحشف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه فانزل الله هذه الآية، وفي الباب أحاديث.

---

(١) وروى النسائي عن ابي امامة بن سهل بن حنيف في الآية التي قال الله تعالى فيها: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ قال: هو الجعرور ولون حبيق؛ فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يؤخذا في الصدقة؛ وروى الدارقطني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة فجاء رجل من هذا السحل بكبائس - قال سفيان: يعني الشيص - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جاء بهذا»؟! وكان لا يجيء احد بشيء إلا نسب الى الذي جاء به. فنزلت: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾.

وعن علي قال: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، وعن ابن عباس قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشترون الطعام الرخيص ويتصدقون فأنزل الله هذه الآية.[١]

﴿ولستم بآخذيه﴾ أي والحال أنكم لا تأخذونه في معاملاتكم في وقت من الاوقات، هكذا بيّن معناه الجمهور، وقيل معناه ولستم بآخذيه لو وجدتموه في السوق يباع ﴿إلا أن﴾ أي بأن ﴿تغمضوا فيه﴾ هو من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل ورضي ببعض حقه وتجاوز وغض بصره عنه.

وقرىء بفتح التاء وكسر الميم مخففاً، وقرىء بضم التاء وكسر الميم مشددة، والمعنى على الثانية إلا أن تهضموا سومها من البائع منكم، وعلى الثالثة إلا أن تأخذوا بنقصان، قال ابن عطية: وقراءة الجمهور وهي الأولى تخرج على التجاوز أو على تغميض العين لأن أغمض بمنزلة غمض، أو على أن «إلا» بمعنى حتى أي حتى تأتوا غامضاً من التأويل والنظر في أخذ ذلك، والاغماض يطلق على كل من التساهل في الشيء واطباق جفن العين.

وإذا عرفت هذا عرفت أن لا حاجة لدعوى المجاز والكناية التي قالها بعضهم. والمعنى لستم بآخذيه في حال من الأحوال إلا في حال الاغماض.

﴿واعلموا أن الله غني﴾ عن صدقاتكم لم يأمركم بالتصدق لعوز واحتياج إليها بل لنفعكم بها واحتياجكم لثوابها فينبغي لكم أن تتحروا فيها الطيب ﴿حميد﴾ محمود في أفعاله على كل حال من التعذيب والاثابة.

---

(١) وكان يقول: لو ان أحدكم اهدى اليه مثل ما اعطى لم يأخذه إلّا على اغماض أو حياء «فكان الصحابة بعد ذلك يأتون بصالح ما عندهم» رواه ابن ابي حاتم والترمذي.

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ قد تقدم معنى الشيطان واشتقاقه، ويعدكم معناه يخوفكم بالفقر لئلا تنفقوا، فهذه الآية متصلة بما قبلها وقرىء الفقر بضم الفاء وهي غلة، قال الجوهري: والفقر لغة في الفقر مثل الضعف والضعف ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ أي الخصلة الفحشاء وهي المعاصي والانفاق فيها، والبخل عن الانفاق في الطاعات، قال في الكشاف: والفاحش عند العرب البخيل انتهى.

ولكن العرب وإن أطلقته على البخيل فذلك لا ينافي إطلاقهم على غيره من المعاصي، وقد وقع كثيراً في كلامهم، والمعنى يحسن لكم البخل ومنع الزكاة والصدقة، قال الكلبي: كل فحشاء في القرآن فالمراد به الزنا إلا هذا الموضع.

﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ بسبب الانفاق كقوله ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ وقوله ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ والوعد في كلام العرب إذا أطلق فهو في الخير، وإذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر، ومنه قوله تعالى ﴿النار وعدها الله الذين كفروا﴾ ومنه أيضاً ما في هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة والفضل.

والمغفرة الستر على عباده في الدنيا والآخرة لذنوبهم وكفارتها، والفضل أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا فيوسع لهم في أرزاقهم وينعم عليهم في الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل.

﴿والله واسع﴾ أي غني قادر على إغنائكم وإخلاف ما تنفقونه ﴿عليم﴾ بإنفاقكم لا تخفى عليه خافية.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان لأن يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر أعط ممسكاً تلفاً» أخرجه الشيخان وفي الباب أحاديث.

﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ الحكمة هي العلم وقيل الفهم، وقيل الإصابة في القول، ولا مانع من الحمل على الجميع شمولاً أو بدلاً، وقيل إنها النبوة وقيل الخشية وقيل العقل، وقيل الورع، وقيل المعرفة بالقرآن وقيل الفقه في الدين وقيل التفكر في أمر الله وقيل طاعة الله والعمل بها.

وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض لأن الحكمة مصدر من الاحكام وهو الاتفاق في عمل أو قول، وكل ما ذكر هو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله تعالى حكمة، وسنة نبيه ﷺ حكمة، وأصل الحكمة ما يمنع من السفه وهو كل قبيح.

وعن ابن عباس قال: الحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومُحكَمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله.

وعنه قال إنها القرآن، يعني تفسيره، وعنه إنها الفقه في القرآن، وعن أبي الدرداء إنها قراءة القرآن والتفكر فيه، وعن أبي العالية هي الكتاب والفهم به، وبه قال النخعي، وعن مجاهد هي الكتاب يؤتي إصابته من يشاء، وعنه قال: هي الإصابة في القول، وعن أبي العالية ومطر الوراق قال هي الخشية.

﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ قرىء ومن يؤت الحكمة على البناء للفاعل، وقراءة الجمهور على البناء للمفعول أي من أعطاه الله الحكمة أي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح فقد أعطاه خيراً عظيماً قدره، جليلاً خطره، لمصيره إلى السعادة الأبدية، والتنكير للتعظيم.

﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ أي الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه،

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

والألباب العقول واحدها لبّ، وقد تقدم الكلام فيه، وفيه من الترغيب في المحافظة على الأحكام الواردة في شأن الانفاق مالا يخفى، والجملة إما حال وإما اعتراض تذييلي.

﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه﴾ ما شرطية ويجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف أي الذي أنفقتموه، وهذا بيان لحكم كلي عام يشمل كل صدقة مقبولة وغير مقبولة، وكل نذر مقبول وغير مقبول، وفيه معنى الوعد لمن أنفق ونذر على الوجه المقبول، والوعيد لمن جاء بعكس ذلك.

ووحّد الضمير مع كونه مرجعه شيئين هما النفقة والنذر لأن التقدير: وما أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمها أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه، ثم حذف أحدهما استغناء بالآخر، قاله النحاس.

وقيل إنما كان العطف فيه بكلمة «أو» كما في قولك زيد أو عمرو، فإنه يقال أكرمته ولا يقال أكرمتهما.

والأولى أن يقال إن العطف بأو يجوز فيه الأمران: توحيد الضمير كما في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً أنفضوا إليها﴾ وقوله ﴿ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرم به بريئاً﴾ وتثنيته كما في قوله تعالى ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾.

ومن الأول في العطف بالواو قوله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها.﴾

وقيل إذا وحّد الضمير بعد ذكر شيئين أو أشياء فهو بتأويل المذكور أي فإن الله يعلم المذكور، وبه جزم ابن عطية ورجحه القرطبي، وذكر معناه كثير من النحاة في مؤلفاتهم.

﴿وما للظالمين﴾ أنفسهم بما وقعوا فيه من الإثم بمخالفة ما أمر الله به من الانفاق في وجوه الخير ﴿من أنصار﴾ ينصرونهم ويمنعونهم من عقاب الله بما ظلموا به أنفسهم، والأولى الحمل على العموم من غير تخصيص بما يفيده السياق أي ما للظالمين بأي مظلمة كانت من أنصار.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في نذر الطاعة والمعصية في الصحيح وغيره ما هو معروف كقوله ﷺ: «لا نذر في معصية الله»[١] وقوله: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»[٢] وقوله: «النذر ما ابتغى به وجه الله»[٣] وثبت عنه في كفارة النذر ما هو معروف.

﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ في هذا نوع تفصيل لما أجمل في الشرطية المتقدمة، ولذا ترك العطف بينهما أي إن تظهروا الصدقات فنعم شيئاً إظهارها، وإن تخفوها وتصيبوا بها مصارفها من الفقراء فالاخفاء خير لكم.

وقد ذهب جمهور من المفسرين الى أن هذه الآية في صدقة التطوع لا في صدقة الفرض فلا فضيلة للاخفاء فيها، بل قد قيل إن الاظهار فيها أفضل

(١) صحيح الجامع ٧٤٢٢/ مسلم ٧٨/٧٩.
(٢) صحيح الجامع ٦٤٤١.
(٣) روى بمعناه النسائي عن عمْران بن حصين.

وقالت طائفة: إن الاخفاء في الفرض والتطوع[1].

عن ابن عباس قال: جعل السر في التطوع يفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذا جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها[2].

وعنه في الآية قال: كان هذا يعمل قبل أن تنزل براءة فلما نزلت براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها انتهت الصدقات إليها، وعنه قال: هذا منسوخ، وقوله ﴿في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ قال: منسوخ نسخ كل صدقة في القرآن الآية التي في سورة التوبة ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ وقد ورد في فضل صدقة السر احاديث صحيحة مرفوعة.

﴿ونكفر عنكم من سيآتكم﴾ مِن للتبعيض أي شيئاً من سيآتكم لأن الصدقات لا تكفر جميع السيئآت كذا قدره أبو البقاء، وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة، وذلك على رأي الأخفش، قال ابن عطية: وذلك منهم خطأ وقيل إنها للسببية أي من أجل ذنوبكم وهذا ضعيف، والسيئآت جمع سيئة ووزنها فَيعَلة وعينها واو، قال ابن عباس: جميع سيئاتكم ﴿والله بما تعلمون خبير﴾ يعني من إظهار الصدقات وإخفائها، وفيه ترغيب في الإسرار.

---

(١) وروى النسائي عن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ان الذي يجهر بالقرآن كالذي يجهر بالصدقة والذي يسر بالقرآن كالذي يسر بالصدقة». وفي الحديث: «صدقة السر السر تطفىء غضب الرب».

(٢) روى الامام احمد، والترمذي، والنسائي، من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» واسناده صحيح. وفي «الصحيحين» عن ابي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله: امام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يرجع اليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني اخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

﴿ليس عليك هداهم﴾ أي ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهتدين قابلين لما أمروا به ونهوا عنه، فالهدى مصدر مضاف للمفعول أو ليس عليك أن يهتدوا فيكون مضافاً لفاعله ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ هداية توصله إلى المطلوب، وهذه الجملة معترضة وفيها الالتفات.

وعن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فنزلت هذه الآية إلى آخرها فرخص لهم، وفي الباب آثار عن الصحابة والتابعين.

﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أي كل ما يصدق عليه اسم الخير كائناً ما كان ولو على كافر ولكن هذا في غير صدقة الفرض ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ استثناء من أعم العلل أي لاتنفقوا لغرض إلا لهذا الغرض، ثم بين أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان لابتغاء وجه الله سبحانه، قال الزجاج: هذا خاص للمؤمنين، وقال بعضهم: لو أنفقت على شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك، ويرده حديث لايأكل طعامك إلا تقي.

وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلا إلى المسلمين، وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة وخالفه سائر العلماء في ذلك.

﴿وما تنفقوا من خير يوفّ﴾ أي يرد ﴿إليكم﴾ أجره وثوابه على الوجه الذي تقدم ذكره من التضعيف، قال عطاء الخراساني: إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي لا تنقصون شيئاً من ثواب أعمالكم.

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

﴿للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله﴾ بالغزو والجهاد، وفيه بيان مصرف الصدقات واختاره ابن الانباري، قال ابن عباس: هم أصحاب الصُفَّة يعني فقراء المهاجرين، كانوا نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر، وكانوا يأوون إلى صفة في المسجد يتعلمون القرآن بالليل، وهم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد خاصة، وعلى طاعة الله عامة قيل منعوا عن التكسب لما هن فيه من الضعف.

﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ للتكسب بالتجارة والزراعة ونحو ذلك بسبب ضعفهم، قال مجاهد: هم مهاجرو قريش بالمدينة مع النبي ﷺ أمروا بالصدقة عليهم، وقال سعيد بن جبير: هم قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله فصاروا زمنَى، فجعل لهم في أموال المسلمين حقاً وقيل كل من يتصف بالفقر وما ذكر معه.

﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ ذكر سبحانه من صفة أولئك الفقراء ما يوجب الحنوّ عليهم والشفقة بهم، وهو كونهم متعففين عن المسئلة وإظهار المسكنة بحيث يظنهم الجاهل بهم ومن لم يختبر حالهم أنهم أغنياء، والتعفف تفعُّل من العفّة وهو بناء مبالغة من عف عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه.

وفي «يحسبهم» لغتان فتح السين وكسرها قال أبو علي الفارسي والفتح أقيس، لأن العين من الماضي مكسور فبابها أن تأتي في المضارع مفتوحة فالقراءة

بالكسر على هذا حسنة وإن كانت شاذة «ومن» لابتداء الغاية وقيل لبيان الجنس.

﴿تعرفهم﴾ أي تعرف فقرهم ﴿بسيماهم﴾ أي برثاثة ثيابهم من الضرّ وصفرة ألوانهم من الجوع وضعف أبدانهم من الفقر وكل ما يشعر بالفقر والحاجة، وقيل التواضع والخضوع، والأول أولى، والخطاب إما لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح للمخاطبة، والسيما مقصورة العلامة وقد تمد وهي مقلوبة لأنها مشتقة من الوسم فهى من السمة أي العلامة.

﴿لايسألون الناس إلحافا﴾ الإلحاف الإلحاح في المسئلة وهو مشتق من اللحاف سمى بذلك لاشتماله على وجوه الطلب في المسئلة كاشتمال اللحاف على التغطية، والمعنى أنهم لا يسألونهم البتة لا سؤال إلحاح ولا سؤال غير إلحاح، وبه قال الطبري والزجاج وإليه ذهب جمهور المفسرين.

ووجهه أن التعفف صفة ثابتة لهم لاتفارقهم ومجرد السؤال ينافيها، وقيل المراد أنهم إذا سألوا سألوا بتلطف ولا يلحفون في سؤالهم، وهذا وإن كان هو الظاهر من توجه النفي إلى القيد دون المقيد لكن صفة التعفف تنافيه، وأيضاً كون الجاهل بهم يحسبهم أغنياء لا يكون إلا مع عدم السؤال البتة.

وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤا إن شئتم لا يسألون الناس إلحافاً»(١).

وقد ورد في تحريم المسئلة أحاديث كثيرة إلا من ذي سلطان أو في أمر لايجد منه بداً.

﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي يعلم مقادير الإنفاق يجازي عليه وفيه حث على الصدقة والإنفاق في الطاعة لاسيما على هؤلاء.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٢٥٩ و٥٢٦٠.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ يفيد زيادة رغبتهم في الإنفاق وشدة حرصهم عليه حتى أنهم لا يتركون ذلك ليلاً ولا نهاراً ويفعلونه سراً وجهراً عند أن تنزل بهم حاجة المحتاجين وتظهر لديهم فاقة المفتاقين في جميع الأزمنة على جميع الأحوال.

وعن ابن عباس بسند ضعيف قال: نزلت في علي بن أبي طالب كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهاراً ودرهما سراً ودرهما علانية.

وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية لأنه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار، وقدم السر على العلانية.

وقيل نزلت في الذين يربطون الخيل للجهاد في سبيل الله لأنهم يعلفونها في هذه الأربعة الأحوال، والاول أولى.

عن غريب المليكي مرفوعاً قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الخيل، وقال أبو امامه الباهلي فيمن لا يربطها خيلاء ولا رياء ولا سمعة، وعن ابن عباس قال: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله، وقال قتادة: هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله الذي افترض عليهم في غير سرف ولا إملاق ولا تبذير ولا فساد.

وقال سعيد بن المسيب: نزلت في عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان في نفقتهم في جيش العسرة، وكون ما ذكر سبباً لنـزولها لا يقتضي خصوص الحكم به، بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ الفاء للدلالة على سببية ماقبلها لما بعدها وقيل هي للعطف ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي يوم القيامة أو في الدارين.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

﴿الذين يأكلون الربا﴾ الربا في اللغة الزيادة مطلقاً يقال ربا الشيء يربو إذا زاد، وفي الشرع يطلق على شيئين: على ربا الفضل وربا النسيئة حسب ما هو مفصّل في كتب الفروع، وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حل أجل الدين قال من هو له لمن هو عليه أتقضي أم تربي، فإذا لم يقض زاد مقداراً في المال الذي عليه وأخر له الأجل إلى حين، وهذا حرام بالاتفاق.

وقياس كتابة الربا بالياء للكسرة في أوله، وقد كتبوه في المصحف بالواو.

وليس المراد بالذين يأكلون الربا اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله بل هو عام لكل من يعامل بالربا فيأخذه ويعطيه وإنما خص الأكل لزيادة التشنيع على فاعله، ولكونه هو الغرض الأهم، فإن آخذ الربا إنما أخذه للأكل.

عن جابر قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه رواه مسلم[1].

﴿لايقومون﴾ أي يوم القيامة من قبورهم، وبهذا فسره جمهور المفسرين، قالوا أنه يبعث كالمجنون عقوبة له تمقيتاً عند أهل المحشر، وقيل إن المراد تشبيه من يحرص في تجارته فيجمع ماله من الربا بقيام المجنون لأن الحرص والطمع والرغبة في الجمع قد استفزته حتى صار شبيهاً في حركته بالمجنون، كما يقال لمن يسرع في مشيه ويضطرب في حركاته إنه قد جن.

---

(١) رواه ابو داود والترمذي. ومسلم وهما سواءً.

﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي يصرعه، وأصل الخبط الضرب بغير استواء كخبط العشواء، وهو المصروع، والمس المجنون والممسوس المجنون، وكذلك الأولق، قال سعيد بن جبير: تلك علامة آكل الربا إذا استحله يوم القيامة.

وفي الآية دليل على فساد قول من قال إن الصرع لا يكون من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع، وقال: إن الآية خارجة على ما كانت العرب تزعمه من أن الشيطان يصرع الإنسان وليس بصحيح وان الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس، وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يتخبطه الشيطان كما أخرجه النسائي وغيره.

وقد وردت أحاديث كثيرة في تعظيم ذنب الربا منها حديث عبد الله بن مسعود عند الحاكم وصححه والبيهقي عن النبي ﷺ، قال: «الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وان أربى الربا عرض الرجل المسلم»(١).

وورد هذا المعنى مع اختلاف العدد عن جماعة من الصحابة، وورد عن جماعة منهم أن آخر آية أنزلها على رسوله آية الربا.

﴿ذلك بأنهم قالوا﴾ ذلك إشارة إلى ما ذكر من حالهم وعقوبتهم بسبب قولهم ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ أي أنهم جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً أي اعتقدوا مدلول هذا القول وفعلوا مقتضاه أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله، وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا اصلاً والبيع فرعاً، أي إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله فإن العرب كانت لا تعرف رباً إلا ذلك، وهذا من عكس التشبيه مبالغة وهو

(١) نزلت في عثمان بن عفان، والعباس، كانا قد اسلفا في التمر، فلما حضر الجذاذ، قال صاحب التمر: إن اخذتما مالكما، لم يبق لي ولعيالي ما يكفي، فهل لكما ان تأخذا النصف واضعّف لكما؟ ففعلا، فلما حل الأجل، طلبا الزيادة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فنهاهما.

أعلى مراتبه نحو قولهم: القمر كوجه زيد والبحر ككفه إذ صار المشبَّه مشبها به.

فرد الله عليهم بقوله ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ أي أن الله تعالى أحل البيع وحرم نوعاً من أنواعه وهو البيع المشتمل على الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل، والبيع مصدر باع يبيع أي دفع عوضاً وأخذ معوضاً، وقد ذكر المفسرون في هذا المقام سبب تحريم الربا واختلاف أهل العلم في عللها وأحكامها ومسائل القرض وإنما محلها كتب الفروع.

﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ أي من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الأوامر والنواهي، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا، والموعظة والعظة والوعظ معناها واحد وهو الزجر والتخويف وتذكير العواقب، والاتعاظ القبول والامتثال.

﴿فانتهى﴾ عن أكله أي فامتثل النهي الذي جاء وانزجر عن المنهى عنه واتعظ وقبل ﴿فله ما سلف﴾ أي ما تقدم منه من الربا لا يؤاخذ به لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا أو قبل أن تنزل آية تحريم الربا ﴿وأمره﴾ أي أمر الربا ﴿إلى الله﴾ في تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم، وقيل الضمير عائد إلى ما سلف أي أمره إلى الله في العفو عنه وإسقاط التبعة فيه وقيل الضمير يرجع إلى المُرْبي أي أمر من عامل بالربا إلى الله في تثبيته على الانتهاء أو الرجوع إلى المعصية، وقيل إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

﴿ومن عاد﴾ إلى أكل الربا والمعاملة به ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ الإشارة إلى من عاد وجمع أصحاب باعتبار معنى من، وقيل إن معنى من عاد هو أن يعود إلى القول بأنما البيع مثل الربا وأنه يكفر بذلك فيستحق الخلود، وعلى التقدير الأول يكون الخلود مستعاراً على معنى المبالغة كما تقول العرب: مُلك خالد أي طويل البقاء، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحّدين من النار، قال سعيد بن جبير: خالدون يعني لا يموتون.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾

﴿يمحق الله الربا﴾ أي يذهب بركته في الدنيا وإن كان كثيراً فلا يبقى بيد صاحبه وقيل يمحق بركته في الآخرة، قال ابن عباس: لا يقبل الله منه صدقة ولا حجاً ولا جهاداً ولا صلة ﴿ويربي الصدقات﴾ أي يزيدها ويثمرها يعني يزيد في المال الذي أخرجت صدقته، وقيل يبارك في ثواب الصدقة ويضاعفه، ويزيد في أجر المتصدق، ولا مانع من حمل ذلك على الأمرين جميعاً.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعا: «من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»[1]، وزاد في حديث عائشة وابن عمران أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية.

وأخرج الطبراني عن أبي برزة الأسلمي قال قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتصدق بالكِسرة تربو عند الله حتى تكون مثل أحد».

وهذه الأخبار تبين معنى الآية يقال أرباه إذا زاده كما يؤخذ من القاموس ويستعمل لازماً أيضاً فيقال أربى الرجل إذا دخل في الربا.

(١) ﴿يمحق الله الربا﴾ فيه قولان. احدهما: ان معنى محقه: تنقيصه واضمحلاله، ومنه: محاق الشهر لنقصان الهلال فيه. روى هذا المعنى ابو صالح عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير. والثاني: انه إبطال ما يكون منه من صدقة ونحوها، رواه الضحاك عن ابن عباس.

﴿والله لا يحب﴾ أي لا يرضى لأن الحب مختص بالتوابين ﴿كل كفار أثيم﴾ فيه تشديد وتغليظ عظيم على من أربى حيث حكم عليه بـالكفر، ووصفه بأثيم للمبالغة وقيل لإزالة الاشتراك إذ قد يقع على الزراع، ويحتمل أن المراد بقوله ﴿كل كفار﴾ من صدرت منه خصلة توجب الكفر، ووجه التصاقه بالمقام أن الذين قالوا إنما البيع مثل الربا كفار.

وقد تقدم تفسير قوله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم﴾ قيل المراد به الذين آمنوا بتحريم الربا والعموم أولى، والإيمان التصديق بالله ورسوله والعمل الصالح الذي أمرهم الله به ومن جملته ترك الربا، والصلاة والزكاة هما المفروضتان ﴿ولا خوف عليهم﴾ من مكروه يأتي في المستقبل ﴿ولا هم يحزنون﴾ على أمر محبوب فـاتهم في الماضي.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا﴾ أي قوا أنفسكم من عقابه واتركوا البقايا التي بقيت لكم من الربا، وظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضاً، قال السدي: نزلت في العباس بن عبد المطلب ورجـل من بني المغيرة كانا شريكين في الجاهلية يسلفان الربا الى نـاس من ثقيف في الإسلام، ولهما أموال عظيمة في الربا فأنزل الله هذه الآية.(١)

﴿إن كنتم مؤمنين﴾ قيل هو شرط مجازي على جهة المقابلة، وقيل إنْ بمعنى إذ، قال ابن عطية: وهو مردود لا يعرف في اللغة، والظاهر أن المعنى إن كنتم مؤمنين على الحقيقة فإن ذلك يستلزم امتثال أوامر الله ونواهيه.

---

(١) رواه الواحدي عن السدي بدون سند. واخرج مسلم من حديث جابر في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: فخطب الناس وقال: «ان دماءكم واموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. الا كل شيء من امر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وان اول دم اضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، واول ربا اضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فانه موضوع كله».

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

﴿فان لم تفعلوا﴾ يعني ما أمرتم به من الاتقاء وترك ما بقي من الربا ﴿فأذنوا﴾ قريء بكسر الذال والمد على وزن آمنوا ومعناه فأعلموا بها غيركم من آذن بالشيء إذا أعلم به، وقيل هو من الأذن وهو الاستماع لأنه من طرق العلم، وقرىء بفتح الذال مع القصر ومعناه فاعلموا أنتم وأيقنوا.

﴿بحرب من الله ورسوله﴾ قال ابن عباس: يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب.

قال أهل المعاني: الحرب هنا السيف، وقيل المراد بهذه المحاربة المبالغة في الوعيد والتهديد دون نفس الحرب، وقيل بل نفس الحرب، وذلك إن كان آكل الربا ذا شوكة لا ينزع عنه فحق على الإمام أن يحاربه، والأول أولى.

وقد دلت هذه الآية على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك وتنكير الحرب للتعظيم وزادها تعظيماً نسبتها الى اسم الله الأعظم وإلى رسوله الذي هو أشرف خليقته.

﴿وإن تبتم﴾ من الربا ﴿فلكم رؤوس أموالكم﴾ تأخذونها دون الزيادة ﴿لا تظلمون﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة مستأنفة أو حال من الكاف في لكم ﴿ولا تظلمون﴾ أنتم من قبلهم بالمطل والنقص، والجملة حالية أو استئنافية، وفي هذا دليل على أن أموالهم مع عدم التوبة حلال لمن أخذها من الأئمة ونحوهم ممن ينوب عنهم.

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة﴾ لما حكم سبحانه لأهل الربا برؤوس أموالهم عند الواجدين للمال حكم في ذوي العسرة بالنظِرة إلى يسار، والعسرة ضيق الحال من جهة عدم المال ومنه جيش العسرة، والنظِرة التأخير، والميسرة مصدر بمعنى اليسر، وارتفع ذو بكان التامة التي بمعنى وجد، وهذا قول سيبويه وأبي علي الفارسي وغيرهما وفي مصحف أُبيّ وان كان ذا عسرة على معنى وإن كان المطلوب ذا عسرة.

وقرأ الأعمش ﴿وان كان معسراً﴾ قال النحاس ومكي والنقاش: وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، وعلى من قرأ ذو فهي عامة في جميع من عليه دين وإليه ذهب الجمهور.

وقد وردت أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما في الترغيب لمن له دين على معسر أن يُنْظِرَه، وفي ثواب إنظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والأمر بقضائه، وهي معروفة يطول ذكرها، والميسرة في اللغة اليسار والسعة.

﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ أي على معسري غرمائكم بالإبراء من كل الدين أو بعضه، وفيه الترغيب لهم بأن يتصدقوا برؤس أموالهم على من أعسر وجعل ذلك خيرا من إنظاره، قاله السدى وابن زيد والضحاك.

قال الطبري وقال آخرون: معنى الآية وأن تصدقوا على الغني والفقير

خير لكم، والصحيح الأول، وليس في الآية مدخل للغني ﴿إن كنتم تعلمون﴾ جوابه محذوف أي إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به، وفي الحديث: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»[1] رواه مسلم.

﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ هو يوم القيامة وتنكيره للتهويل، وذهب قوم إلى أن هذا اليوم المذكور هو يوم الموت، وذهب الجمهور إلى أنه يوم القيامة كما تقدم، قرىء ترجعون بفتح التاء أي تصيرون فيه إلى الله، وقرىء بضمها وفتح الجيم أي تردون فيه إليه.

﴿ثم توفّى كل نفس﴾ من النفوس المكلفة ﴿ما كسبت﴾ أي جزاء ما كسبت يعني عملت من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي في ذلك اليوم، والجملة حالية وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الإفراد أنسب بحال الكسب.

وهذه الآية فيها الموعظة الحسنة لجميع الناس، وفيها وعيد شديد وزجر عظيم.

عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ هذه الآية، وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ أحد وثمانون يوما.

وعن سعيد بن جبير أنه عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم مات، وقيل سبعاً وقيل ثلاث ساعات ومات ﷺ لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الإثنين، حين زاغت الشمس سنة إحدى عشرة من الهجرة، قال الخفاجي: وكون هذه الآية آخر آية مذكور في كتب الحديث مصحح.

---

(١) مسلم ٣٠٠٦.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب
بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ
وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى
عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ
وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا
يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ
ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً
حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ
إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين﴾ هذا شروع في بيان حال المداينة الواقعة بين الناس بعد بيان حال الربا، أي إذا داين بعضكم بعضا وعامله بذلك سواء كان معطياً أو آخذاً، وذكر الدين بعد ما يغني عنه من المداينة لقصد التأكيد مثل قوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ وقيل إنه ذكر ليرجع إليه الضمير من قوله فاكتبوه، ولو قال فاكتبوا الدين لم يكن فيه من الحسن ما في قوله ﴿إذا تداينتم بدين﴾ والدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً والآخر في الذمة نسيئة فإن العين عند العرب ما كان حاضراً والدين ما كان غائباً.

وقد بين الله سبحانه هذا المعنى بقوله ﴿إلى أجل مسمّى﴾ يعني إلى مدة

معلومة الأول والآخر، مثل السنة والشهر، والأجل يلزم في الثمن في البيع وفي السَّلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محل الأجل، وقد استدل به على أن الأجل المجهول لا يجوز وخصوصاً أجل السَّلم.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم إلى أجل معلوم»(١) وقد قال بذلك الجمهور، واشترطوا توقيته بالأيام أو الأشهر أو السنين قالوا ولا يجوز إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع القافلة أو نحو ذلك وجوزه مالك، قال ابن عباس: لما حرم الربا أباح السَّلم.

﴿فاكتبوه﴾ أي الدين بأجله بيعاً كان ذلك أو سَلماً أو قرضاً لأنه أدفع للنزاع وأقطع للخلاف، قال ابن عباس: نزلت يعني هذه الآية في السلم في كيل معلوم إلى أجل معلوم، وأخرج البخاري وغيره عنه: قال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله قد أحله وقرأ هذه الآية.

﴿وليكتب بينكم كاتب﴾ هو بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال عطاء والشعبي وابن جريج والنخعي واختاره محمد بن جرير الطبري، وأوجبوا على الكاتب أن يكتب إذا طلب منه ذلك ولم يوجد كاتب سواه وقيل الأمر للندب والاستحباب، وبه قال الجمهور.

﴿بالعدل﴾ صفة لكاتب أي كاتب كائن بالعدل أي يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ولا يميل إلى أحد الجانبين،وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب متصف بهذه الصفة لا يكون في قلبه وقلمه هوادة لأحدهما على الآخر، بل يتحرى الحق بينهم والعدالة فيهم.

﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله﴾ النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم أي لا يمتنع أحد من الكتاب من أن يكتب كتاب التداين على الطريقة التي علّمه الله من الكتابة أو كما علّمه الله بقوله بالعدل ﴿فليكتب﴾ بالحق من

(١) مسلم ١٦٠٤ ـ البخاري ١١٢٣.

غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيره بل يكتب ما يصلح أن يكون حجة عند الحاجة ويكون كل واحد منهما آمناً من إبطال حقه وأن يحترز من الالفاظ التي يقع النزاع فيها.

﴿وليملل﴾ الإملال والإملاء لغتان، الأولى لغة أهل الحجاز وبني أسد، والثانية لغة بني تميم فهذه الآية جاءت على اللغة الأولى وجاء على اللغة الثانية قوله تعالى ﴿فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ والإدغام في مثل ذلك جائز لا واجب.

﴿الذي عليه الحق﴾ هو من عليه الدين أمره الله تعالى بالإملاء لأن الشهادة إنما تكون على اقراره بثبوت الدين في ذمته ﴿وليتق الله﴾ الذي عليه الحق ﴿ربه﴾ أمره بالتقوى فيما يمليه على الكاتب فلا يجحد جميع الحق والبعض كما سيأتي، وبالغ في ذلك بالجمع بين الإسم والوصف ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ نهاه عن البخس وهو النقص، وقيل إنه نهي للكاتب، والأول أولى لأن من عليه الحق هو الذي يتوقع منه النقص ولو كان نهياً للكاتب لم يقتصر في نهيه على النقص لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص.

﴿فإن كان الذي عليه الحق﴾ إظهار في مقام الإضمار لزيادة الكشف والبيان لا لأن الأمر والنهي لغيره ﴿سفيهاً﴾ السفيه هو الذي لا رأي له في حسن التصرف فلا يحسن الأخذ ولا الإعطاء،شبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج، والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة وعلى ضعف البدن أخرى، وبالجملة فالسفيه هو المبذّر إما لجهله بالتصرف أو لتلاعبه بالمال عبثاً مع كونه لا يجهل الصواب، وقيل الطفل أي جاهلاً بالإملاء.

﴿أو ضعيفاً﴾ وهو الشيخ الكبير أو الصبي، قال أهل اللغة: الضعف بضم الضاد في البدن وفتحها في الرأي لعته أو جنون ﴿أو لا يستطيع أن يملّ هو﴾ يعني لخرس أو عِيّ أو عُجمة في كلامه أو حبس أو غيبة لا يمكنه الحضور عند الكاتب أو يجهل بماله وعليه أو لا يقدر على التعبير كما ينبغي، فهؤلاء

كلهم لا يصح إقرارهم فلا بد أن يقوم غيرهم مقامهم، وقيل إن الضعيف هو المدخول العقل الناقص الفطنة العاجز عن الإملاء، والذي لا يستطيع هو الصغير.

﴿فليملل وليه﴾ الضمير عائد إلى الذي عليه الحق فيمل عن السفيه وليّه المنصوب عنه بعد حجره عن التصرف في ماله، ويمل عن الصبي وصيه أو وليه وكذلك يمل عن العاجز الذي لا يستطيع الإملال لضعفه وليه لأنه في حكم الصبي أو المنصوب عنه من الإمام أو القاضي، ويمل عن الذي لا يستطيع وكيله إذا كان صحيح العقل وعرضت له آفة في لسانه أو لم تعرض ولكنه جاهل لا يقدر على التعبير كما ينبغي.

وقال الطبري: إن الضمير في قوله وليه يعود إلى الحق، وهو ضعيف جداً.

قال القرطبي في تفسيره: وتصرّف السفيه المحجور عليه دون وليه فاسد إجماعاً مفسوخ أبداً لا يوجب حكماً ولا يؤثر شيئاً فإن تصرف سفيه ولا حجر عليه ففيه خلاف انتهى.

﴿بالعدل﴾ أي الصدق من غير زيادة ولا نقص.

﴿واستشهدوا شهيدين﴾ الاستشهاد طلب الشهادة وسمّاهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أي باعتبار ما يؤول إليه أمرهما من الشهادة ﴿من رجالكم﴾ أي كائنين من المسلمين فيخرج الكفار، ولا وجه لخروج العبيد عن هذه الآية فهم إذا كانوا مسلمين من رجال المسلمين، وبه قال شريح وعثمان البتي وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وأبو ثور.

وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد لما يلحقه من نقص الرق، وقال الشعبي والنخعي: تصح في الشيء اليسير دون الكثير، واستدل الجمهور على عدم جواز شهادة العبد بأن الخطاب في هذه الآية مع الذين يتعاملون بالمداينة، والعبيد لا يملكون شيئاً تجري فيه المعاملة،

ويجاب عن هذا بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وأيضاً العبد تصح منه المداينة وسائر المعاملات إذا أذن له مالكه بذلك.

وقد اختلف الناس هل الإشهاد واجب أو مندوب؟ قال أبو موسى الأشعري وابن عمر والضحاك وعطاء وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علي الظاهري وابنه أنه واجب، ورجحه ابن جرير الطبري، وذهب الشعبي والحسن ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه أنه مندوب.

وهذا الخلاف بين هؤلاء هو في وجوب الإشهاد على البيع واستدل الموجبون بقوله تعالى ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ ولا فرق بين هذا الأمر وبين قوله ﴿واستشهدوا﴾ فيلزم القائلين بوجوب الإشهاد في البيع أن يقولوا بوجوبه في المداينة.

﴿فان لم يكونا رجلين﴾ أي الشاهدان أي بحسب القصد والارادة أي فإن لم يقصد إشهادهما ولو كانا موجودين ﴿فرجل وامرأتان﴾ أي فليشهد رجل وامرأتان أو فرجل وامرأتان يكفون، كائنون ﴿ممن ترضون﴾ دينهم وعدالتهم حال كونهم ﴿من الشهداء﴾.

وفيه أن المرأتين في الشهادة برجل، وأنها لا تجوز شهادة النساء إلا مع الرجل لا وحدهن إلا فيما لا يطلع عليه غيرهن للضرورة.

واختلفوا هل يجوز الحكم بشهادة امرأتين مع يمين المدعي كما جاز الحكم برجل مع يمين المدعي؟ فذهب مالك والشافعي إلى أنه يجوز ذلك لأن الله سبحانه قد جعل المرأتين كالرجل في هذه الآية.

وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه لا يجوز ذلك.

وهذا يرجع إلى الخلاف في الحكم بشاهد مع يمين المدعي، والحق أنه جائز لورود الدليل عليه وهو زيادة لم يخالف ما في الكتاب العزيز فيتعين قبولها، وقد أوضحنا ذلك في شرح بلوغ المرام، وأوضحه الشوكاني في شرحه

للمنتقى وغيره من مؤلفاته.

ومعلوم عند كل من يفهم أنه ليس في هذه الآية ما يرد به قضاء رسول الله ﷺ بالشاهد واليمين، ولم يدفعوا هذا إلا بقاعدة مبنية على جرف هار هي قولهم إن الزيادة على النص نسخ، وهذه دعوى باطلة بل الزيادة على النص شريعة ثابتة جاءنا بها من جاءنا بالنص المتقدم عليها، وقد أوضحت ذلك في كتابي حصول المأمول من علم الأصول فليرجع إليه.

وأيضا كان يلزمهم أن لا يحكموا بنكول المطلوب، ولا بيمين الرد على الطالب، وقد حكموا بهما، والجواب الجواب.

﴿أن تضل إحداهما﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل تنسى أي لنقص عقلهن وضبطهن، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ﴿فتذكر إحداهما﴾ أي الذاكرة ﴿الأخرى﴾ أي الناسية، قرىء فتذكر بالتخفيف ومعناها تزيدها ذكراً وقراءة الجماعة بالتشديد أي تنبهها إذا غفلت ونسيت.

وهذه الآية تعليل لاعتبار العدد في النساء أي فليشهد رجل ولتشهد امرأتان عوضاً عن الرجل الآخر لأجل تذكير إحداهما الأخرى إذا ضلت، وعلى هذا فيكون في الكلام حذف وهو سؤال سائل عن وجه اعتبار امرأتين عوضاً عن الرجل الواحد، فقيل وجهه أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى.

والعلة في الحقيقة هي التذكير، ولكن الضلال لما كان سبباً له نزل منزلته وأبهم الفاعل في تضل وتذكر لأن كلا منهما يجوز عليه الوصفان، فالمعنى إن ضلت هذه ذكرتها هذه وإن ضلت هذه ذكرتها هذه لا على التعيين أي إن ضلت إحدى المرأتين ذكرتها الأخرى.

وإنما اعتبر فيهما هذا التذكير لما يلحقهما من ضعف النساء بخلاف الرجال.

وقد يكون الوجه في الإبهام أن ذلك يعني الضلال والتذكير يقع بينهما

متناوبا حتى ربما ضلت هذه عن وجه، وضلت تلك عن وجه آخر، فذكرت كل واحدة منها صاحبتها.

قال سفيان بن عُيَينة: معنى قوله ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ تصيرها ذكراً يعني أن مجموع شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل الواحد، وروى نحوه عن أبي عمرو بن العلاء، ولا شك أن هذا باطل لا يدل عليه شرع ولا لغة ولا عقل.

﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أي لأداء الشهادة التي قد تحملوها من قبل، وقيل إذا ما دعوا لتحمل الشهادة، وتسميتهم شهداء مجاز كما تقدم، وحملها الحسن على المعنيين وظاهر هذا النهي أن الامتناع من أداء الشهادة حرام.

﴿ولا تسأموا﴾ أي لا تملوا ولا تضجروا، والخطاب للمؤمنين أو للمتعاملين أو للشهود ﴿أن تكتبوه﴾ أي الدين الذي تداينتم به وقيل الحق وقيل الشاهد وقيل الكتاب، نهاهم الله سبحانه عن ذلك لأنهم ربما ملوا من كثرة المداينة أن يكتبوا.

ثم بالغ في ذلك فقال ﴿صغيراً أو كبيراً﴾ أي لا تملوا في حال من الأحوال سواء كان الدين كثيراً أو قليلاً وعلى أي حال كان الكتاب مختصراً أو مشبعاً، وقدم الصغير هنا على الكبير للاهتمام به لدفع ما عساه أن يقال أن هذا مال صغير أي قليل لا احتياج إلى كتبه ﴿إلى أجله﴾ أي إلى محل الدين أو الحق.

﴿ذلكم﴾ أي المكتوب المذكور في ضمير قوله أن تكتبوه ﴿أقسط عند الله﴾ أي أعدل وأحفظ وأصح، من القسط بالكسر، والقسوط الجور والعدول عن الحق ﴿وأقوم للشهادة﴾ أي أعون على إقامة الشهادة وأثبت لها، وهو مبني من أقام وكذلك أقسط مبني من فعله أي أقسط وقد صرح سيبويه بأنه قياسي أي بناء أفعل التفضيل.

﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ أي أقرب لنفي الريب في معاملاتكم أي الشك، وذلك أن الكتاب الذي يكتبونه يدفع ما يعرض لهم من الريب كائناً ما كان.

﴿إلا أن تكون تجارة﴾ أي تقع أو توجد تجارة على أن كان تامة، والتجارة تقليب الأموال وتصريفها لطلب النماء والزيادة بالأرباح، والاستثناء منقطع أي لكن وقت تبايعكم وتجارتكم فإنه يجوز عدم الاستشهاد والكتب فيها، وقال أبو البقاء إنه متصل والأول أولى، وقرىء بالنصب على الناقصة أي تكون التجارة تجارة ﴿حاضرة﴾ بحضور البدلين وهي تعم المبايعة بعين أو دين ﴿تديرونها بينكم﴾ أي تتعاطونها يداً بيد، فالإدارة التعاطي والتقابض فالمراد التبايع الناجز يداً بيد.

﴿فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾ أي فلا حرج عليكم إن تركتم كتابته، وإنما رخص الله في ترك الكتابة في هذا النوع من التجارة لكثرة جريانه بين الناس، فلو كلفوا الكتابة فيه لشق عليهم، ولأنه إذا أخذ كل واحد حقه في المجلس لم يكن هناك خوف الجحود فلا حاجة إلى الكتابة.

﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ قيل معناه هذا التبايع المذكور هنا وهو التجارة الحاضرة على أن الإشهاد فيها يكفي، وقيل معناه أي تبايع كان حاضراً أو كالِئاً لأن ذلك أدفع لمادة الخلاف، وأقطع لمنشأ الشجار، وهذا وما قبله أمر ندب وقد تقدم قريباً ذكر الخلاف في كون هذا الإشهاد واجباً أو مندوباً.

﴿ولا يضارّ كاتب ولا شهيد﴾ يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل أو للمفعول، فعلى الأول معناه لا يضار كاتب ولا شهيد من طلب ذلك منهما إما بعدم الإجابة أو بالتحريف والتبديل والزيادة والنقصان في كتابته، ويدل على هذا قراءة عمر وابن عباس وغيرهما «لا يضارِر» بكسر الراء الأولى وعلى الثاني لا يضارَر كاتب ولا شهيد بأن يدعيا إلى ذلك وهما مشغولان بمهم لهما ويضيق عليهما في الإجابة ويؤذَيا إن حصل منهما التراخي أو يطلب منهما الحضور من مكان بعيد، ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود «لا يضارر» بفتح الراء الأولى،

وصيغة المفاعلة تدل على اعتبار الأمرين جميعاً وقد تقدم في تفسير قوله تعالى ﴿لا تضار والدة بولدها﴾ ما إذا راجعته زادك بصيرة إن شاء الله تعالى.

﴿وإن تفعلوا﴾ أي ما نهيتم عنه من المضارة ﴿فإنه﴾ أي فعلكم هذا ﴿فسوق بكم﴾ خروج عن الطاعة إلى المعصية ملتبس بكم ﴿واتقوا الله﴾ في فعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿ويعلمكم الله﴾ ما تحتاجون إليه من العلم، حال مقدرة أو مستأنفة وفيه الوعد لمن اتقاه أن يعلمه، ومنه قوله تعالى ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ ﴿والله بكل شيء عليم﴾ هذا آخر آية الدَّين.

وقد حث الله سبحانه فيها على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سبباً لمصالح المعاش والمعاد. قال القفال: ويدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار، وفي هذه الآية بسط شديد، ألا ترى أنه قال: ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ ثم قال ثانياً ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ ثم قال ثالثاً ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ فكان هذا كالتكرار لقوله ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ لأن العدل هو ما علمه الله ثم قال رابعاً ﴿فليكتب﴾ وهذا إعادة للأمر الأول ثم قال خامساً ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ لأن الكاتب العدل إنما يكتب ما يملى عليه، ثم قال سادساً ﴿وليتق الله ربه﴾ وهذا تأكيد، ثم قال سابعاً ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ وهذا كالمستفاد من قوله ﴿وليتق الله ربه﴾ ثم قال ثامناً ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ وهو أيضاً تأكيد لما مضى ثم قال تاسعاً ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا﴾ فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السالفة.

وكل ذلك يدل على المبالغة في التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك، ليتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخطه من الرياء وغيره، والمواظبة على ذكر الله وتقواه، ذكره الخطيب.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾ لما ذكر سبحانه مشروعية الكتابة والإشهاد لحفظ الأموال ودفع الريب، عقب ذلك بذكر حالة العذر عن وجود الكاتب، ونص على حالة السفر فإنها من جملة أحوال العذر، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر، وجعل الرهان المقبوضة قائمة مقام الكتابة أي فإن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً في سفركم فرهان مقبوضة، و«على» هنا بمعنى في، وفيه إشارة أن «على» استعارة تبعية شبّه تمكنهم من السفر بتمكن الراكب مركوبَه.

قال أهل العلم: الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم رهن درعاً له من يهودي.

وأفاد قوله ﴿مقبوضة﴾ اشتراط القبض في الرهن والاكتفاء به من المرتهن ووكيله، وقرأ الجمهور ﴿كاتباً﴾ أي رجلاً يكتب لكم، وقرىء «كتاباً» قال ابن الانباري: فسره ابن مجاهد فقال: معناه فإن لم تجدوا مداداً في الأسفار.

وقرىء «فرهن» بضم الراء والهاء جمع رهان، وقرىء فرهن، وقراءة الجمهور ﴿فرهان﴾ قال الزجاج: يقال في الرهن رهنت وأرهنت، وكذا قال ابن الأعرابي والأخفش.

وقال أبو علي الفارسي: يقال أرهنت في المعاملات، وأما في القرض والبيع فرهنت، وقال ابن السكيت: أرهنت فيهما بمعنى أسلفت، والمرتهن الذي يأخذ الرهن والشيء مرهون ورهين، وراهنت فلاناً على كذا مراهنة خاطرته، وقد ذهب الجمهور إلى أنه يصح الارتهان بالإيجاب والقبول من دون قبض.

﴿فإن أمن بعضكم بعضاً﴾ أي الدائن المديون على حقه فلم يرتهنه يعني إن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق لحسن ظنه به وأمانته واستغنى بأمانته عن الارتهان ﴿فليؤد الذي اؤتمن﴾ وهو المديون ﴿أمانته﴾ أي الدين الذي عليه، والأمانة مصدر سُمي به الذي في الذمة وأضافها إلى الذي عليه الدين من حيث أن لها إليه نسبة.

﴿وليتق الله ربه﴾ في أن لا يكتم من الحق شيئاً وفي أداء الحق عند حلول الأجل من غير مماطلة ولا جحود، بل يعامله المعاملة الحسنة كما أحسن ظنه فيه، وفيه مبالغات من حيث الإتيان بصيغة الأمر الظاهرة في الوجوب، والجمع بين ذكر الله والرب وذكره عقب الأمر بأداء الدين، وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى.

﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ نهي للشهود أن يكتموا ما تحملوه من الشهادة إذا دعوا لإقامتها وهو في حكم التفسير لقوله ﴿ولا يضار كاتب﴾ أي لا يضارِر بكسر الراء الأولى على أحد التفسيرين المتقدمين ﴿ومن يكتمها﴾ يعني الشهادة ﴿فإنه آثم﴾ أي فاجر ﴿قلبه﴾ خص القلب بالذكر لأن الكتم من أفعاله ولكونه رئيس الأعضاء وهو المضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد كله.

وإسناد الفعل إلى الجارحة التي تعمله أبلغ، وهو صريح في مؤاخذة الشخص بأعمال القلب، وارتفاع القلب على أنه فاعل أو مبتدأ وآثم خبره على ما تقرر في علم النحو، ويجوز أن يكون قلبه بدلا من آثم، بدل البعض من

الكل، ويجوز أيضاً أن يكون بدلاً من الضمير الذي في آثم الراجع إلى من. وقرىء قلبه بالنصب كما في قوله إلا من سفه نفسه ﴿والله بما تعملون عليم﴾ فيه وعيد وتحذير لمن كتم الشهادة ولم يظهرها، ويقال لهذه الآية آية الدين.

وأخرج البخاري في تاريخه وأبو داود وغيرهما عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية، وقال هذه نسخت ما قبلها.

﴿وأقول﴾ رضي الله عن هذا الصحابي الجليل، ليس هذا من باب النسخ فهذا مقيد بالائتمان وما قبله ثابت محكم لم ينسخ، وهو مع عدم الائتمان. وعن سعيد ابن المسيب أنه بلغه أن أحدثَ القرآن بالعرش آية الدين، وعن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين.

﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكاً وأهلهما له عبيد وهو مالكهم، واستدل بسعة ملكه على سعة علمه ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ ظاهره أن الله يحاسب العباد على ما أضمرته أنفسهم وأظهرته من الأمور التي يحاسب عليها ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ منهم ما يغفره منها ﴿ويعذب من يشاء﴾ منهم بما اسر وأظهر منها.

هذا معنى الآية على مقتضى اللغة العربية، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية على أقوال:

الأول: أنها وإن كانت عامة فهي مخصوصة بكتمان الشهادة، وأن الكاتم للشهادة يحاسب على كتمه سواء أظهر للناس أنه كاتم للشهادة أو لم يظهر، وقد روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد، وهو مردود بما في الآية من عموم اللفظ، ولا يصلح ما تقدم قبل هذه الآية من النهي عن كتم الشهادة أن تكون مختصة به.

والقول الثاني: أن ما في الآية مختص بما يطرأ على النفوس من الأمور التي هي بين الشك واليقين، قاله مجاهد وهو أيضاً تخصيص بلا مخصص.

والقول الثالث: أنها محكمة عامة ولكن العذاب على ما في النفس يختص بالكفار والمنافقين، حكاه الطبري عن قوم، وهو أيضاً تخصيص بلا مخصص فإن قوله ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ لا يختص ببعض معين إلا بدليل.

والقول الرابع: أن هذه الآية منسوخة، قاله ابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبي وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة، وهو مروي عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين، وهذا هو الحق لما سيأتي من التصريح بنسخها، ولما ثبت عن النبي ﷺ: أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها(١).

وأخرج البخاري والبيهقي عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحسبه ابن عمر ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم﴾ الآية قال نسختها الآية التي بعدها.

وأخرج عبد بن حميد والترمذي عن علي نحوه.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا

---

(١) مسلم ١٢٧.

يارسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله ﷺ أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم، سمعنا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم وزلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ الآية، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ إلى آخرها[1].

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن‌جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عباس مرفوعاً نحوه، وزاد فأنزل الله ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال قد فعلت ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال قد فعلت ﴿ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به﴾ قال قد فعلت ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ الآية قال قد فعلت[2]، وقد رويت هذه القصة عن ابن عباس من طرق.

وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما روي عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال نزلت في كتمان الشهادة، فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة.

وعلى كل حال فبعد الأحاديث المصرحة بالنسخ والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها.

ومما يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين والسنن الأربع من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها

---

(١) مسلم ١٢٥.

(٢) مسلم ١٢٦.

ما لم تتكلم أو تعمل به[(١)]».

وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت: كل عبد همّ بسوء ومعصية وحدّث نفسه به حاسبه الله في الدنيا يخاف ويحزن ويشتد همه لا يناله من ذلك شيء كما هم بالسوء ولم يعمل بشيء.

والاحاديث المتقدمة المصرحة بالنسخ تدفعه.

عن ابن عباس قال: إن الله يقول يوم القيامة إن كتابي لم يكتبوا من أعمالكم إلا ما ظهر منها فأما ما أسررتم في أنفسكم فأنا أحاسبكم به اليوم فأغفر لمن شئت وأعذب من شئت، وهو مدفوع بما تقدم.

وقيل محكمة لأنه إذا حمل ما في الأنفس على خصوص العزم لم يكن نسخ لأنه مؤاخذ به وقد نظم بعضهم مراتب القصد بقوله؛

مراتب القصد خمس. هاجس ذكروا وخاطر فحديث النفس فاستمعا
يليه هم فعزم كلها رفعت سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيغفر للمؤمنين فضلاً ويعذب الكافرين عدلاً قال ابن عباس يغفر الذنب العظيم ويعذب على الذنب الصغير.

---

(١) روى الامام احمد، والبخاري، ومسلم عن صفوان بن محرز قال: «بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، اذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب اعرف مرتين، حتى اذا بلغ به ما شاء الله ان يبلغ، قال: فاني قد سترتها عليك في الدنيا، واني اغفرها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسناته او كتابه بيمينه، واما الكفار والمنافقون، فينادى بهم على رؤوس الأشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين).

ثم قال ابن جرير: فتأويل الآية إذاً: وان تبدوا ما في انفسكم ايها الناس فتظهروه، او تخفوه فتنطوي عليه نفوسكم يحاسبكم به الله، فيعرف مؤمنكم تفضله بعفوه عنه، ومغفرته له، فيغفره له، ويعذب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه، ونبوة انبيائه.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي بجميع ما أنزل إليه، قال الزجاج: لما ذكر الله سبحانه في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام وبيّن أحكام الحج والجهاد وحكم الحيض والطلاق والإيلاء وأقاصيص الأنبياء، وبيّن حكم الربا، ذكر تعظيمه ثم ذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ذكر تصديق جميع المؤمنين ذلك فقال ﴿آمن الرسول﴾ أي صدق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون.

﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أفرد الضمير في آمن لأن المراد إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الإجتماع كما اعتبر ذلك في قوله ﴿وكل أتوه داخرين﴾ وهذه أربع مراتب من أصول الدين وضرورياته.

وسبب نزولها الآية التي قبلها، وقد تقدم بيان ذلك.

وقوله ﴿وملائكته﴾ أي من حيث كونهم عباده المكرمين المتوسطين بينه وبين أنبيائه في إنزال كتبه، وقوله ﴿وكتبه﴾ لأنها المشتملة على الشرائع التي تعبد بها عباده، وقوله ﴿ورسله﴾ لأنهم المبلغون لعباده ما نزل إليهم.

وقرأ ابن عباس (وكتابه) قال الكتاب أكثر من الكتب وبينه صاحب الكشاف فقال: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء، وأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع انتهى، ومن أراد تحقيق المقام فليرجع إلى شرح التلخيص المطول عند

قول الماتن واستغراق المفرد أشمل (١)

﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، لم يقل بين آحاد لأن الأحد يتناول الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث كما في قوله تعالى ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ فوصفه بقوله ﴿حاجزين﴾ لكونه في معنى الجمع.

﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي أدركناه بأسماعنا وفهمناه وأطعنا ما فيه وقيل معنى سمعنا أجبنا دعوتك ﴿غفرانك ربنا﴾ أي اغفر غفرانك، قاله الزجاج وغيره، وقيل نسألك غفرانك، وقدم السمع والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدم على المتوسل إليه ﴿وإليك المصير﴾ أي المرجع والمآب بالبعث.(٢)

---

(١) وروى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله قال: لما اسري برسول الله صلى الله عليه وسلم، انتهى به الى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، اليها ينتهي ما يعرج به من الارض، فيقبض منها، واليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض، قال: (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: فراش من ذهب، قال: واعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً: اعطي الصلوات الخمس، واعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من امته شيئاً المقحمات. والمقحمات، بكسر الحاء: الذنوب العظام التي تقحم اصحابها في النار، اي تلقيهم فيها.

(٢) روى العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم الله﴾ اشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ [فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب] فقالوا: قد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير». فلما قالوها وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها (آمن الرسول).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ أي ما تسعه قدرتها فضلا منه ورحمة أو ما دون مدى طاقتها أي غاية طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها.

التكليف هو الأمر بما فيه مشقة وكلفة، والوسع الطاقة والوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم﴾ الآية لكشف كربة المسلمين ودفع المشقة عليهم في التكليف بما في الأنفس، وهي كقوله سبحانه ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ قال ابن عباس: وأكثر المفسرين: إن هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة.

﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ فيه ترغيب وترهيب أي لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها وزر ما اكتسبت من الشر، وتقديم لها وعليها على الفعلين يفيد أن ذلك لها لا لغيرها وعليها لا على غيرها، وهذا مبني على أن «كسب» للخير فقط، واكتسب للشر فقط كما قاله صاحب الكشاف وغيره، وقيل كل واحد من الفعلين يصدق على الأمرين، وإنما كرر فعل وخالف بين التصريفين تحسيناً للنظم كما وقع في قوله تعالى ﴿فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً﴾.

وقيل اللام للخير وعلى للمضرة ولكن ينقض هذا بقوله تعالى ﴿ولهم اللعنة﴾ و ﴿عليهم صلوات﴾ اللهم إلا أن يقال هما يقتضيان ذلك عند

الاطلاق بلا ذكر الحسنة والسيئة أو أنهما يستعملان لذلك عند تقاربهما كما في هذه الآية.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي لا تؤاخذنا بإثم ما يصدر منا من هذين الأمرين، وقد استشكل هذا الدعاء جماعة من المفسرين وغيرهم قائلين إن الخطأ والنسيان مغفوران غير مؤاخذ بهما فما معنى الدعاء بذلك فإنه من تحصيل الحاصل.

وأجيب عن ذلك بأن المراد طلب عدم المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان والخطأ من التفريط وعدم المبالاة لا من نفس النسيان والخطأ فانه لا مؤاخذة بهما كما يفيد ذلك قوله ﷺ رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وسيأتي تخريجه.

وقيل إنه يجوز للإنسان أن يدعو بحصول ماهو حاصل له قبل الدعاء لقصد استدامته.

وقيل إنه وإن ثبت شرعاً أنه لا مؤاخذة بهما فلا امتناع في المؤاخذة بهما عقلاً.

وقيل لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمداً وإنما يصدر عنهم خطأً أو نسياناً فكأنه وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً بنزاهة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنه قيل إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذون به فما منهم سبب المؤاخذة إلا الخطأ والنسيان.

قال القرطبي: وهذا لم يختلف فيه ان الإثم مرفوع وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الاحكام هل ذلك مرفوع ولا يلزم منه شيء أو يلزم أحكام ذلك كله اختلف فيه، والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع فقسم

لا يسقط باتفاق كالغرامات، والديانات والصلوات المفروضات، وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه كمن أكل ناسياً في رمضان أو حنث ساهياً، وما كان مثله مما يقع خطأ أو نسياناً، ويعرف ذلك في الفروع انتهى.

والآية تعليم من الله لعباده كيفية الدعاء وهذا من غاية الكرم حيث يعلمهم الطلب ليعطيهم المطلوب.

﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ تكرير النداء للإيذان بمزيد التضرّع واللجوء إلى الله سبحانه، والإصر العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، والمراد به هنا التكليف الشاق والأمر الغليظ الصعب، وقيل الإصر شدة العمل وما غلظ على بني اسرائيل من قتل الأنفس وقطع موضع النجاسة، وقيل الإصر المسخ قردة وخنازير وقيل العهد، ومنه قوله تعالى: ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾.

وهذا الخلاف يرجع إلى بيان ما هو الإصر الذي كان على من قبلنا لا إلى معنى الإصر في لغة العرب فانه تقدم ذكره بلا نزاع، والإصار الحبل الذي يربط به الأحمال ونحوها يقال أصر يأصر أصراً حبس، والإصر بكسر الهمزة من ذلك، قال الجوهري: والموضوع مأصر والجمع مآصر، ومعنى الآية أنهم طلبوا من الله سبحانه أن لا يحملهم من ثقيل التكاليف ما حمل الأمم قبلهم.

﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ يعني اليهود، وذلك أن الله فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم زكاة، ومن أصاب منهم ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنباً أصبح وذنبه مكتوب على بابه، نحو هذا من الأثقال والآصار.

﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ تكرير النداء للنكتة المذكورة قبل

هذا، والمعنى لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق وقيل: هو عبارة عن إنزال العقوبات كأنه قال لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكاليف الشاقة التي كلفت بها من قبلنا، وقيل المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكاليف، والطاقة القدرة على الشيء.

﴿واعف عنا﴾ أي عن ذنوبنا يقال عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه عليه ﴿واغفر لنا﴾ أي استر على ذنوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة، والغفر الستر ﴿وارحمنا﴾ أي تفضل برحمة منك علينا وتعطف بنا ﴿أنت مولانا﴾ أي وليُّنا وناصرنا، وخرج هذا مخرج التعليم كيف يدعون، وقيل معناه أنت سيدنا ونحن عبيدك ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ فان من حق المولى أن ينصر عبيده والمراد عامة الكفرة وفيه اشارة إلى اعلاء كلمة الله بالجهاد في سبيله.

وقد قدمنا في شرح الآية التي قبل هذا أنه ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات «قد فعلت» فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يؤاخذهم بشيء من الخطأ والنسيان، ولا حمل عليهم شيئاً من الإصر الذي حمله على من قبلهم، ولا حمَّلهم ما لا طاقة لهم به، وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم ونصرهم على القوم الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

وقد اخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن حبان في صحيحه والطبراني والدارقطني والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه[1]» وروي من طرق كثيرة وفي أسانيدها مقال ولكنها يقوّي بعضها بعضاً فلا يقصر عن رتبه الحسن لغيره، وقد تقدم حديث «قد فعلت» وهو يشهد لهذا الحديث.

وقد ورد عن جماعة من الصحابة وغيرهم أن جبريل لقّن النبي ﷺ

(١) صحيح الجامع الصغير ١٧٢٧. والمشكاة ٦٢٨٤.

خاتمة البقرة «آمين».

وقد ثبت عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم عن أبي مسعود عن النبي ﷺ قال «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه[(١)]» وأخرج أحمد والنسائي والطبراني والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن حذيفة أن النبي ﷺ كان يقول «أعطيت هذه الآية من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي[(٢)]».

وأخرج الطبراني بسند جيد عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام فانزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة لا تقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان[(٣)]».

وأخرج مسلم والنسائي واللفظ له عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: «أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته».

فهذه أحاديث مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فضل هاتين الآيتين، وقد روى في فضلهما من غير المرفوع عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي مسعود وكعب الاحبار والحسن وأبي قلابة.

وفي قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يغني عن غيره ولله الحمد.

---

(١) مسلم ٨٠٧ ـ البخاري ١٨٦٢.
(٢) صحيح الجامع الصغير ١٠٧١.
(٣) صحيح الجامع الصغير ١٧٩٥. والمشكاة/ ٢١٤٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

مدنية وهي مائتا آية هي مدنية قال القرطبي باجماع، ومما يدل على ذلك ان صدرها الى ثلاث وثمانين آية نزل في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة واسمها في التوراة طيبة حكاه النقاش.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

﴿الم﴾ الله اعلم بمراده بذلك، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ما يغني عن الإعادة ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ الجملة مستأنفة أي هو المستحق للعبودية لا يستحقها أحد سواه، والحي هو الدائم الباقي الذي لا يصح عليه الموت، والقيوم هو القائم بذاته وبتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، وهو فيعول من قام، وقد تقدم تفسير الحي القيوم.

﴿نزّل﴾ فيه أن وقت نزول هذه الآية لم يكن القرآن تكامل نزوله لأن صيغة التفعيل للدلالة على التنجيم ﴿عليك الكتاب﴾ الكتاب القرآن، وقدم الظرف على المفعول للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والمراد في الماضي والمستقبل ﴿بالحق﴾ أي متلبساً به في اخباره، والحق الصدق وقيل الحجة.

﴿مصدقاً﴾ حال آخر من الكتاب مؤكدة، وبهذا قال الجمهور، وجوز بعضهم أن تكون الحال منتقلة على معنى أنه مصدق لنفسه ولغيره ﴿لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة وهو من مجاز الكلام لأن ما بين يديه هو ما أمامه فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره، واللام في «لما» دعامة لتقوية العامل.

﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ إنما قال هنا أنزل وفيما تقدم نزل لأن القرآن نزل منجماً مفصلاً في أوقات كثيرة، والكتابان نزلا دفعة واحدة ولم يذكر في الكتابين من أنزلا عليه، وذكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ لأن القصد هنا ليس إلا ذكر الكتابين لا ذكر من نزلا عليه وهما اسمان عبرانيان، وقيل سريانيان كالزبور، وقيل التوراة مشتقة من قولهم ورى الزند إذا قدح فظهر منه نار، وقيل من وريت في كلامي من التورية وهي التعريض، والإنجيل مشتق من النجل وهو التوسعة، والأول أولى.

﴿من قبل﴾ أي قبل تنزيل الكتاب يعني القرآن ﴿هدى﴾ حال أو مفعول له ﴿للناس﴾ والمراد بالناس أهل الكتابين أو ما هو أعم لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع، قال ابن فورك للناس المتقين ﴿وأنزل الفرقان﴾ الفارق بين الحق والباطل وهو القرآن، وكرر ذكره تشريفاً له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل.

قال قتادة فأحل فيه حلاله وحرم فيه حرامه، وشرع فيه شرائعه وحد فيه حدوده وفرض فيه فرائضه، وبين فيه بيانه، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير أي الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره، وذكر التنزيل أولاً والانزال ثانياً لكونه جامعاً بين الوصفين فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة ثم نزل منها إلى النبي ﷺ مفرقاً منجماً على حسب الحوادث كما سبق، وقيل انهما لمجرد التعدية والجمع بينهما للتفنن وهو الأولى، وقيل أراد بالفرقان جميع الكتب المنزله من الله تعالى على رسله وقيل الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة والأول أولى.

﴿ان الذين كفروا﴾ قيل أراد بهم نصارى وفد نجران كفروا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل إن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فهو يتناول كل من كفر بشيء من آيات الله ﴿بآيات الله﴾ أي بما يصدق

عليه انه آية من الكتب المنزلة وغيرها أو بما في الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد إليها، وفيه بيان الأمر الذي استحقوا به الكفر.

﴿لهم﴾ بسبب هذا الكفر ﴿عذاب شديد﴾ أي عظيم في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالخلود في النار ﴿والله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب ﴿ذو انتقام﴾ عظيم النقمة والسطوة، يقال انتقم منه إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدم منه، وقال محمد بن جعفر بن الزبير أي إن الله ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها ومعرفته بما جاء منه فيها.[١]

﴿ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه واحاطته بالمعلومات لعلمه بما يقع في العالم من كلي وجزئي، وفيه رد على الحكماء في قولهم انه لا يعلم الجزئيات إلا بوجه كلي لأنه في الحقيقة نفي للعلم بالجزئي، وعبر عن معلوماته بما في الأرض والسماء مع كونها أوسع من ذلك لقصور عباده عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته.

ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه وكفر من كفر.

وقال محمد بن جعفر أي قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم في عيسى إذ جعلوه رباً وإلهاً وعندهم من علمه غير ذلك عزة بالله وكفراً به لأن الإله هو الذي لا يخفى عليه شيء، وعيسى يخفى عليه بعض الأشياء باعترافهم فلا يصلح أن يكون إلهاً ففيه رد على النصارى في دعواهم ألوهية عيسى[١].

---

(١) وحين قدم وفد نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستين راكباً فيهم العاقب والسيد وخاصموه في عيسى عليه السلام.
فقالوا: إن لم يكن ولد الله فمن أبوه؟.
فنزلت فيهم هذه الآيات.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾

﴿هو الذي يصوركم في الأرحام﴾ أصل اشتقاق الصورة من صاره على كذا أي أماله إليه فالصورة مائلة إلى شبه وهيئة،والتصوير جعل الشيء على صورة، والصورة هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف، والأرحام جمع رحم، وأصل الرحم من الرحمة لأنه مما يتراحم به، وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان إحاطة علمه وان من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود وهو تصوير عباده في أرحام أمهاتهم من نطف آبائهم.

﴿كيف يشاء﴾ من حسن وقبيح وأسود وأبيض وطويل وقصير وذكر وأنثى وكامل وناقص، قيل وقد كان عيسى ممن صور في الأرحام لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهاً وقد كان بذلك المنزل، والمعنى أنه الذي يصوركم في ظلمات الأرحام صوراً مختلفة في الشكل والطبع واللون، متفاوتة في الخلقة وذلك من نطفة.

وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا إذا وقعت النطفة في الأرحام صارت في الجسد أربعين يوما ثم تكون علقة أربعين يوماً ثم تكون مضغة أربعين، يوماً، فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكاً يصورها فيأتي الملك بتراب بين إصبعيه فيخلط منه المضغة ثم يعجنه بها ثم يصورها كما يؤمر فيقول أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد وما رزقه وما عمره وما أثره وما مصائبه، فيقول الله ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب، قيل هذا

أيضاً في الرد على النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله وكيف يكون ولداً له وقد صوره الله في الرحم بل هو عبد مخلوق كغيره وانه يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم، هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ أي القرآن واللام للعهد وقدم الظرف وهو عليك لما يفيده من الاختصاص ﴿منه آيات محكمات﴾ أي بينات مفصلات أحكمت عبارتها من احتمال التأويل والاشتباه، كأنه تعالى أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها.

﴿هن أم الكتاب﴾ أي أصله الذي يعول عليه في الأحكام ويعمل به في الحلال والحرام ويرد ما خالفه إليه، وهذه الجملة صفة لما قبلها، ولم يقل أمهات لأن الآيات كلها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة أو لأنه واقع موقع الجمع أو لأنه بمعنى أصل الكتب والأصل يوحد.

﴿وأخر متشابهات﴾ لا تفهم معانيها يعني أن لفظه يشبه لفظ غيره، ومعناه يخالف معناه، كأوائل السور، وأُخَر جمع أخرى وإنما لم تنصرف لأنه عدل بها عن الآخر لأن أصلها أن يكون كذلك، وقال أبو عبيد لم تنصرف لأن واحدها لا ينصرف في معرفة ولا نكرة وأنكر ذلك المبرد.

وقد اختلف العلماء في تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال، فقيل أن المحكم ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل، ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله والشعبي وسفيان الثوري، قالوا وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقيل المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً، فإذا ردت إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً.

وقيل إن المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه وما يؤمن به ويعمل عليه، والمتشابه منسوخه وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل عليه روي هذا عن ابن عباس.

وقيل المحكم الناسخ والمتشابه المنسوخ، روي هذا عن ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك.

وقيل المحكم الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له، والمتشابه ما فيه تصريف وتحريف وتأويل، قاله مجاهد وابن إسحق، قال ابن عطية وهذا أحسن الأقوال.

وقيل المحكم ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره، والمتشابه ما يرجع فيه إلى غيره، قال النحاس وهذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات.

قال القرطبي ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية وهو الجاري على وضع اللسان وذلك أن المحكم إسم مفعول من أحكم والإحكام الإتقان، ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته، واتقان تركيبها، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال.

وقال ابن خوازمنداد: للمتشابه وجوه ما اختلف فيه العلماء أي الآيتين نسخت الأخرى كما في الحامل المتوفى عنها زوجها فإن من الصحابة من قال: إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر والعشر. ومنهم من قال بالعكس، وكاختلافهم في الوصية للوارث وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن تقدم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه، وكتعارض الأخبار وتعارض الأقيسة، هذا معنى كلامه.

والأولى أن يقال إن المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره، والمتشابه ما لا يتضح معناه أو لا يظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره.

وإذا عرفت أن الاختلاف الذي قدمناه ليس كما ينبغي، وذلك لأن أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته، وعرفوا المتشابه بما يقابلها.

وبيان ذلك أن أهل القول الأول جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل. والمتشابه ما لا سبيل إلى علمه، ولا شك أن مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكروه، فإن مجرد الخفاء أو عدم الظهور أو الاحتمال أو التردد يوجب التشابه.

وأهل القول الثاني خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال، والمتشابه بما فيه احتمال، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها.

وهكذا أهل القول الثالث فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها.

وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التي ذكرها أهل القول الثالث، والأمر أوسع مما قالوه جميعاً.

وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التصريف والتحريف، وجعلوا المتشابه مقابله، وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى علمه من دون تصريف وتحريف كفواتح السور المقطعة.

وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه، والمتشابه بما لا يقوم بها، وأن هذا هو بعض أوصافهما.

وصاحب القول السابع وهو ابن خوازمنداد عمد إلى صورة الوفاق فجعلها محكماً، وإلى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابهاً فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أو غير مفهوم.

وعن ابن عباس قال المحكمات ثلاث آيات من آخر سورة الأنعام ﴿قل تعالوا﴾ والآيتان بعدها، وفي رواية عنه قال: من هنا ﴿قل تعالوا﴾ إلى ثلاث آيات، ومن هنا ﴿وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى ثلاث آيات بعدها.

وأقول: رحم الله ابن عباس ما أقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه، فإن تعيين ثلاث آيات أو عشر أو مائة من جميع آيات القرآن ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شيء فالمحكمات هي أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى

على قوله المنقول عنه قريباً من أن المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به، والمتشابه ما يقابله، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام.

وقيل المحكمات ما أطلع الله عباده على معناه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، فلا سبيل لأحد إلى معرفته نحو الخبر عن أشراط الساعة.

وقيل المحكم سائر القرآن، والمتشابه هي الحروف المقطعة في أوائل السور، وقيل إن المحكم ما لم يتكرر ألفاظه، والمتشابه ما تكررت ألفاظه، وقيل غير ذلك وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ما قدمنا في أول هذا البحث.

﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي ميل عن الحق كوفد نجران وغيرهم، والزيغ الميل ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار. ويقال زاغ يزيغ زيغاً إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وزاغ وزال ومال متقاربة لكن زاغ لا يقال إلا فيما كان من حق إلى باطل، وقال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين.

﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي يحيلون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم، وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق، وسبب النزول نصارى نجران فيتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ويجعلونه دليلاً على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحق كما تجده في كل طائفة من طوائف البدعة، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعباً شديداً ويوردون منه لتنفيق جهلهم ما ليس من الدلالة في شيء.

﴿ابتغاء الفتنة﴾ أي طلباً منهم لفتنة الناس في دينهم والتلبس عليهم وإفساد ذوات بينهم لا تحرياً للحق ﴿وابتغاء تأويله﴾ أي تفسيره على الوجه الذي يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة.

قال الزجاج المعنى إنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم فأعلم الله عز وجل أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله، الدليل على ذلك قوله ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ أي يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب ﴿يقول الذين نسوه﴾ أي تركوه ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب إلى قوله أولوا الألباب﴾ قالت قال «إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم» وفي لفظ «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك سماهم الله فاحذروهم» هذا لفظ البخاري(١).

ولفظ ابن جرير وغيره فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه والذين يجادلون فيه، فهم الذين عنى الله فلا تجالسوهم وأخرج الطبراني وأحمد والبيهقي وغيرهم عن ابي أمامة عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: هم الخوارج(٢).

وقال ابن القيم في الإعلام اذا سئل أحد عن تفسير آية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليس له أن يخرجها عن ظاهرها بوجوه التأويلات الفاسدة لموافقة نحلته وهواه، ومن فعل ذلك استحق المنع من الإفتاء والحجر عليه وهذا الذي ذكرناه هو الذي صرح به أئمة الكلام قديماً وحديثاً.

وقال أبو المعالي الجويني في الرسالة النظامية ذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأياً وندين لله به إتباع سلف الأمة. وقد درج صحابة

---

(١) مسلم ٢٦٦٥ البخاري ٩٨٥.
(٢) ابن كثير ١/ ٣٤٦.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام والمثقلون بأعباء الشريعة وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محبوباً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الاضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب تعالى.

وقال الغزالي: الايمان المستفاد من الكلام ضعيف والإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها، وقد اتفقت كلمة الأئمة الأربعة على ذم الكلام وأهله.

وقال بعض أهل العلم كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله ﷺ من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة والمجازات المستكرهة التي هي بالالغاز والاحاجي أولى منها بالبيان والهداية، وهل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال الله فيهم ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ انتهى.

ولو علم المتأولون كلام الله ورسوله ﷺ بالتأويلات التي لم يردها ولم يدل عليها كلامه، أي باب شر فتحوا على الأمة بالتأويلات الفاسدة وأي بناء للاسلام هدموا بها وأي معاقل وحصون استباحوها، كان أحدهم لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه أن يتعاطى شيئاً من ذلك، فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذراً له فيما تأوله هو وقال ما الذي حرم على التأويل وأباحه لكم؟

فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد، وكان تأويلهم من جنس تأويل منكري الصفات بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها من وازن بين التأويلين، وكذلك فعلت الرافضة في أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة، وكذلك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية والشفاعة، وكذلك

القدرية في نصوص القدر، وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج في النصوص التي تخالف مذاهبهم وكذلك القرامطة والباطنية والمتصوفة طردت الباب وحملت الوادي على القرى وتأولت الدين كله.

فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذي لم يرده الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده، وهل اختلف الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل، وهل وقعت في الأمة فتنة صغيرة أو كبيرة الا بالتأويل، فمن بابه دخل إليها، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل، وليس هذا مختصاً بدين الإسلام فقط بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة والسداد حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد مالا يعلمه إلا رب العباد.

وقد تواترت البشارات بصحة نبوة محمد ﷺ في الكتب المتقدمة ولكن سلطوا عليها التأويلات فافسدوها كما أخبر سبحانه عنهم من التحريف والتبديل والكتمان، والتحريف: تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم، والتبديل تبديل لفظه بلفظ آخر والكتمان جحده، وهذه الأودات الثلاثة منها غيرت الأديان والملل.

وإذا تأملت دين المسيح وجدت النصارى إنما تطرقوا إلى فساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد مثله في شيء من الأديان. ودخلوا إلى ذلك من باب التأويل، وكذلك زنادقة الأمم جميعهم إنما تطرقوا إلى فساد ديانات الرسل بالتأويل، ومن بابه دخلوا وعلى أساسه بنوا وعلى نقطه حطوا.

والمتأولون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل وبحسب قصور أفهامهم ورقودها وأعظمهم توغلاً في التأويل الباطل من قصد قصده وفهمه كما شاء قصده وقصر فهمه كان تأويله أشد انحرافاً.

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يرم الجمل وصفين والحرة وفتنة ابن

الزبير وهلم جرا بالتأويل، وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والإسماعيلية والنصرية من باب التأويل.

فما امتحن الإسلام بمحنة إلا وسببها التأويل، فإن محنته إما من المتأولين وإما أن تسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل أو خالفوا في ظاهر التنزيل، وتعللوا بالاباطيل.

وما الذي أراق دماء بني جذيمة وقد أسلموا غير التأويل حتى رفع رسول الله ﷺ يديه فتبرأ إلى الله من فعل المتأول لقتلهم وأخذ أموالهم.

وما الذي اوجب تأخر الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية عن موافقة رسول الله ﷺ غير التأويل حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل؟.

وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلماً وعدواناً، وأوقع الأمة فيها أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟.

وما الذي سفك دم عمار بن ياسر وأصحابه غير التأويل.

وما الذي أراق دم ابن الزبير وحجر بن عدي وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟.

وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل.

وما الذي جرد الامام أحمد بين العقابين وضرب السياط حتى عجت الخليقة إلى ربها غير التأويل؟.

وما الذي قتل الامام أحمد بن نصر الخزاعي وخلد خلقاً من العلماء في السجون حتى ماتوا غير التأويل؟.

وما الذي سلط سوق التتار على دار الاسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل؟.

وهل دخلت طائفة الالحاد من أهل الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل؟.

وهل فتح باب التأويل إلا مضادة ومناقضة لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتن في كتابه على الانسان بتعليمه إياه، فالتأويل بالالغاز والاحاجي والاغلوطات أولى منه بالبيان، وهو فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له، وبين رده وعدم قبوله، ولكن هذا رد جحود ومعاندة وذاك رد خداع ومصانعة.

قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بالكشف عن مناهج الادلة وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة إلى أن قال:

﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ وهؤلاء أهل الجدل والكلام وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره وقالوا إن هذا التأويل هو المقصود به، وإنما أمر الله به في صورة المتشابه إبتلاء لعباده واختباراً لهم، ونعوذ بالله من هذا الظن بالله، بل نقول إن كتاب العزيز إنما جاء معجزاً من جهة الوضوح والبيان فما أبعد من مقصد الشارع من قال فيما ليس بمتشابه أنه متشابه، ثم أول ذلك المتشابه بزعمه، وقال لجميع الناس إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل مثل ما قالوه في آية الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا إن ظاهره متشابه.

قال فهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة وذلك أن كل فرقة منهم تأولت غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت أنه هو الذي قصده الشرع حتى تمزق الشرع كل ممزق، وبعد جداً عن موضوعه الأول.

ولما علم صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن مثل هذا يعرض ولا بد في شريعته قال ﷺ «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة[1]» يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله.

وأنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشريعة في هذا الوقت من الفساد

(١) ابو داوود السنن ١، ابن ماجه كتاب الفتن باب ١٧.

والعارض فيها من قبل التأويل تبينت أن هذا المثال صحيح، وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج ثم المعتزلة ثم **الأشعرية** ثم الصوفية ثم جاء أبو حامد فطم الوادي على القرى، هذا كلامه بلفظه.

ولو ذهبنا نستوعب ما جناه التأويل على الدنيا والدين وما نال الأمم قديماً وحديثاً بسببه من الفساد لاستدعى ذلك عدة أسفْار والله المستعان.

﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ التأويل يكون بمعنى التفسير كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا أي تفسيرها ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه، واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه أي صار وأولته تأويلا أي صيرته، وهذه الجملة حالية أي يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله، والحال أنه ما يعلم تأويله إلا الله.

وقد اختلف أهل العلم في قوله ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ هل هو كلام مقطوع عما قبله أو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع، فالذي عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله وان الكلام تم عند قوله: ﴿إلا الله﴾ وهذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم، وهو مذهب الكسائي والفراء والأخفش وأبي عبيد وحكاه ابن جرير الطبري عن مالك، واختاره، وحكاه الخطابي عن ابن مسعود وأبي بن كعب.

قال: وإنما روي عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه، قال واحتج له بعض أهل اللغة فقال معناه والراسخون في العلم يعلمونه قائلين آمنا به، وزعم أن موضع يقولون نصب على الحال، وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معاً، ولا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالاً، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال عبد الله راكباً يعني أقبل عبد الله راكباً، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله عبد الله يتكلم يصلح بين الناس فكان يصلح حالاً، فقول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده.

وأيضاً فانه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئاً عن الخلق وينسبه لنفسه فيكون له في ذلك شريك ألا ترى قوله عز وجل ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ وقوله: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره وكذلك قوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ ولو كانت الواو في قوله ﴿والراسخون﴾ للنسق لم يكن لقوله ﴿كل من عند ربنا﴾ فائدة انتهى.

قال القرطبي ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روي عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل وانهم داخلون في علم المتشابه، وانهم مع علمهم به يقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم ويقولون على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين.

ولا يخفاك أن ما قاله الخطابي في وجه امتناع كون قوله ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً من أن العرب لا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل إلى آخر كلامه لا يتم إلا على فرض أنه لا فعل هنا، وليس الأمر كذلك فالفعل مذكور وهو قوله ﴿وما يعلم تأويله﴾ ولكنه جاء الحال من المعطوف وهو قوله ﴿الراسخون﴾ دون المعطوف عليه وهو قوله ﴿إلا الله﴾ وذلك جائز في اللغة العربية وقد جاء مثله في الكتاب العزيز، ومنه قوله تعالى ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم﴾ إلى قوله ﴿والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا﴾ الآية وكقوله ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ أي وجاءت الملائكة صفاً صفاً.

ولكن ههنا مانع آخر من جعل ذلك حالاً وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح فإن الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه في كل حال من الأحوال إلا في هذه الحالة الخاصة، فاقتضى هذا أن جعل قوله ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً غير

صحيح، فتعين المصير إلى الاستئناف والجزم بأن قوله ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ خبره يقولون.

قال البغوي وهذا أقيس بالعربية وأشبه بظاهر الآية.

ومن جملة ما استدل به القائلون بالعطف ان الله سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون ذلك، ويجاب عن هذا بأن تركهم لطلب علم ما لم يأذن الله به ولا جعل لخلقه إلى علمه سبيلاً هو من رسوخهم، لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه، وان الذين يتبعونه هم الذين في قلوبهم زيغ، وناهيك بهذا من رسوخ.

وأصل الرسوخ في لغة العرب الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل أو الشجر في الارض، فهؤلاء ثبتوا في امتثال ما جاءهم من الله من ترك اتباع المتشابه وارجاع علمه إلى الله سبحانه.

ومن أهل العلم من توسط بين المقالين فقال التأويل يطلق ويراد به في القرآن شيئان (**أحدهما**) التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤل أمره إليه ومنه قوله ﴿هذا تأويل رؤياي﴾ومنه قوله ﴿هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فان أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها إلا الله عز وجل، ويكون قوله **﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ، ويقولون آمنا به خبره.**

وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي تفسيره فالوقف على ﴿والراسخون في العلم﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً منهم.

ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون تأويله، وأطنب في ذلك، وهكذا جماعة من محققي المفسرين رجحوا ذلك.

قال القرطبي: قال شيخنا أحمد بن عمرو هو الصحيح فان تسميتهم راسخين يقضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوى في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع، لكن المتشابه يتنوع فمنه مالا يعلم البتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه وهذا لا يتعاطى علمه أحد، فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه، فانما أراد هذا النوع، وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم انتهى.

وقال الرازي: لو كان الراسخون في العلم عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالإيمان به وجه فانهم لما عرفوه بالدلائل صار الإيمان به كالإيمان بالمحكم، فلا يكون في الايمان به بخصوصه مزيد مدح.

وأقول هذا الاضطراب الواقع في مقالات أهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم في تحقيق معنى المحكم والمتشابه، وقد قدمنا ما هو الصواب في تحقيقهما ونزيدك ههنا إيضاحاً وبياناً فنقول:

إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذي قدمناه فواتح السور فانها، غير متضحة المعنى ولا ظاهرة الدلالة، لا بالنسبة إلى أنفسها لأنه لا يدري من يعلم بلغة العرب ويعرف عرف الشرع ما معنى (الم، المر، حم، طس طسم) ونحوها لأنه لا يجد بيانها في شيء من كلام العرب ولا من كلام الشرع فهي غير متضحة المعنى لا باعتبارها في نفسها ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم والألفاظ العربية التي لا يوجد في لغة العرب ولا في عرف الشرع ما يوضحها، وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما في قوله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى آخر الآية ونحو ذلك.

وهكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره كورود

الشيء محتملا لأمرين احتمالاً لا يترجح أحدهما على الآخر باعتبار ذلك الشيء في نفسه، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور الخارجة، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضاً كلياً بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر باعتبار نفسه ولا باعتبار أمر آخر يرجحه.

وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفاً في لغة العرب أو في عرف الشرع أو باعتبار غيره وذلك كالأمور المجملة التي ورد بيانها في موضع آخر في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة، والأمور التي تعارضت دلالتها ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها في موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الانصاف، فلا شك ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه، ومن زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب.

فاشدد يديك على هذا فانك تنجو به من مضايق ومزالق وقعت للناس في هذا المقام، حتى صارت كل طائفة تسمى ما دلّ على ما تذهب إليه محكماً، وما دلّ على ما يذهب إليه ما يخالفها متشابها، سيما أهل علم الكلام، ومن أنكر هذا فعليه بمؤلفاتهم.

واعلم أنه قد ورد في الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم، لكن لا بهذا المعنى الوارد في الآية هذه بل بمعنى آخر، ومن ذلك قوله تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ وقوله ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ والمراد بالمحكم بهذا المعنى أنه صحيح الألفاظ قويم المعنى، فائق في البلاغة والفصاحة على كل كلام.

وورد أيضاً ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، بل بمعنى آخر، ومنه قوله ﴿كتاباً متشابهاً﴾ والمراد بالمتشابه بهذا المعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الصحة والفصاحة والحسن والبلاغة.

وقد ذكر أهل العلم لورود المتشابه في القرآن فوائد منها أنه يكون في الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة ومشقة، وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق وهم الأئمة المجتهدون.

وقد ذكر الزمخشري والرازي وغيرهما وجوهاً هذا أحسنها، وبقيتها لا تستحق الذكر ههنا.

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن على سبعة أحرف زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا[1].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمراء في القرآن كفر، ما عرفتم فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[2]، واسناده صحيح.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس: تفسير القرآن على أربعة وجوه، تفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام، وتفسير تعرفه العرب بلغتها، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله، من ادعى علمه فهو كاذب.

وأخرج الدارمي في مسنده ونصر المقدسي في الحجة عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له ضبيع قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال من أنت فقال أنا ضبيع فقال وأنا عبد الله عمر، فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى دمي رأسه فقال

---

(١) رواه الحاكم ٢/٢٨٩.

(٢) أحمد بن حنبل ٢/٣٣٠.

يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي، وأخرجه الدارمي أيضاً من وجه آخر وفيه أنه ضربه ثلاث مرات يتركه في كل مرة حتى يبرأ ثم يضربه وأصل القصة أخرجه ابن عساكر في تاريخه عن أنس.

وأخرج الدارمي وابن عساكر أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا تجالسوا ضبيعاً. وقد أخرج هذه القصة جماعة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة وواثلة ابن الأسقع وأبي الدرداء أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم فقال: «من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم»(١).

وأخرج أبو داود والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الجدال في القرآن كفر»(٢).

وأخرج نصر المقدسي في الحجة عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ ومن وراء حجرته قوم يتجادلون في القرآن فخرج محمرة وجنتاه كأنما تقطران دماً فقال: «يا قوم لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضل من كان قبلكم بجدالهم. إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ولكن نزل يصدق بعضه بعضاً فما كان من محكمه فاعملوا به، وما كان متشابهه فآمنوا به»(٣).

﴿كل من عند ربنا﴾ فيه ضمير مقدر عائد على قسمي المحكم والمتشابه أي كله أو المحذوف غير ضمير أي كل واحد منهما، وهذا من تمام المقول المذكور قبله ﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ أي العقول الخالصة وهم الراسخون في العلم الواقفون عند متشابهه العاملون بمحكمه بما أرشدهم الله إليه في هذه الآية.

---

(١) ابن كثير ١/٣٤٧.
(٢) أحمد بن حنبل ٢، ٢٥٨، ٤٧٨، ٤٩٨.
(٣) ابن كثير ١/٣٤٦ ـ ٣٤٧.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ قال ابن كيسان سألوا أن لا يزيغوا فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ كأنهم لما سمعوا قوله تعالى ﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قالوا ربنا لا تزغ قلوبنا باتباع المتشابه ﴿بعد إذ هديتنا﴾ إلى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات.

﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي كائنة من عندك، ومن لابتداء الغاية ولدن بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وفيه لغات أخر هذه أفصحها، وهو ظرف مكان وقد يضاف إلى الزمان، وتنكير رحمة للتعظيم أي رحمة عظيمة واسعة تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب ﴿إنك أنت الوهاب﴾ لكل مسؤول تعليل للسؤال أو لإعطاء المسؤول.

وهذا العموم مفهوم من عدم ذكر الموهوب، فالتخصيص بموهوب مسؤول دون آخر تخصيص بلا مخصص، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم به على عباده لا يجب عليه شيء لأنه وهاب.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ثم قرأ ﴿ربنا لا تزغ قلوبنابعد إذ هديتنا﴾[1] الآية» وقد ورد نحوه من طرق أخر.

---

(١) أحمد ٤/١٨٢، ابن ماجه مقدمة ١٣.

﴿ربنا إنك جامع الناس﴾ أي باعثهم ومحييهم بعد تفريقهم وهو من إضافة الفاعل إلى المفعول ﴿ليوم﴾ هو يوم القيامة أي لحساب يوم أو لجزاء يوم على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ﴿لا ريب فيه﴾ أي في وقوعه ووقوع ما فيه من الحساب والجزاء، وقد تقدم تفسير الريب ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ تعليل لمضمون ما قبلها أي أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه، وخُلفُه يخالف الألوهية كما أنها تنافيه، وإظهار الإسم الجليل لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشيء من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف ما في آخر هذه السورة فإنه مقام طلب الإنعام.

والميعاد مِفعال من الوعد بمعنى المصدر لا الزمان والمكان. قاله أبو البقاء، وإليه أشار في التقرير، وفيه التفات من الخطاب ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى، والغرض من الدعاء بذلك بيان أن همهم أمر الآخرة ولذلك سألوا الثبات على الهداية لينالوا ثوابها.

[أخرج ابن النجار في تاريخه عن جعفر بن محمد الخلدي قال روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن من قرأ هذه الآية على شيء ضاع منه رده الله عليه ويقول بعد قراءتها يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين مالي إنك على كل شيء قدير].

﴿إن الذين كفروا﴾ المراد بالذين كفروا جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف، وقيل وفد نجران، وقيل قريظة، وقيل النضير، وقيل مشركو العرب ﴿لن تغني﴾ أي لن تنفع ولن تدفع ﴿عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله﴾ أي من عذابه ﴿شيئاً﴾ أي شيئاً من الاغناء، ومن لابتداء الغاية مجازاً، وقيل ان كلمة من بمعنى عند أي لها تغني عند الله شيئاً قاله ابو عبيد وقيل هي بمعنى بدل، والمعنى من رحمة الله، قاله القاضي وهو بعيد، قال أبو حيان أنكره أكثر النحاة بل هي لابتداء الغاية كما قاله المبرد.

﴿وأولئك هم وقود النار﴾ الوقود إسم للحطب. وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة أي هم حطب جهنم الذي تُسَعَّر به، والجملة مستأنفة مقررة لقوله: ﴿لن تغنى عنهم أموالهم﴾ الآية، وقرىء وقود بضم الواو وهو مصدر أي هم أهل وقود.

﴿كدأب آل فرعون﴾ الدأب الاجتهاد، يقال دأب الرجل في عمله يدأب دأباً ودؤباً إذا جد واجتهد، والدائبان الليل والنهار، والدأب الحال والعادة والشان. والمراد هنا كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم، وقال ابن عباس كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر. وقيل كسنة آل فرعون.

واختلفوا في الكاف فقيل دأبهم كدأب آل فرعون مع موسى. وقال الفراء كفرت العرب ككفر آل فرعون، وأنكره النحاس. وقيل أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون. وقيل لم تغن عنهم غناء كما لم تغن عن آل فرعون.

وقيل العامل فعل مقدر من لفظ الوقود ويكون التشبيه في نفس الإحراق قالوا ويؤيده قوله تعالى (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) والقول الأول هو الذي قاله جمهور المحققين ومنهم الأزهري.

﴿والذين من قبلهم﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم أي وكدأب الذين من قبلهم ﴿كذبوا بأياتنا﴾ لما جاءتهم بها الرسل يحتمل أن يراد بالآيات المتلوة. ويحتمل أن يراد بها الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ويصح إرادة الجميع. وقال في الأنفال (كذبوا) وفي موضع آخر منها (كفروا) تفننا جريا على عادة العرب في تفننهم في الكلام.

﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي فعاقبهم بسبب تكذيبهم. أو المراد سائر ذنوبهم التي من جملتها تكذيبهم ﴿والله شديد العقاب﴾ أي شديد عقابه. فالإضافة غير محضة، وقيل المعنى إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الأمم الماضية فأخذناهم فلم تغن عنهم أموالهم و لا أولادهم.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم﴾ قيل هم اليهود. وقيل هم مشركو مكة وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر، وضرب الجزية على سائر اليهود ولله الحمد.

وقرىء الفعلان بالتاء والياء فعلى الأولى معناه قل لهم ستغلبون وتحشرون. وعلى الثانية معناه بلغهم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنهم سيغلبون ويحشرون ﴿وبئس المهاد﴾ يحتمل أن يكون من تمام القول الذي أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله لهم، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلاً وتفظيعاً أي بئس ما مهد لهم في النار، والمهاد الفراش.

﴿قد كان لكم آية﴾ أي علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم. وهذه الجملة من تمام القول المأمول به لتقرير مضمون ما قبله. والخطاب لليهود وقيل لجميع الكفار. وقيل للمؤمنين وعلى الأخيرين تكون الآية مستأنفة غير مرتبطة بما قبلها.

ولم يقل (كانت) لأن التأنيث غير حقيقي، وقيل إنه رد المعنى إلى البيان فمعناه قد كان لكم بيان فذهب الى المعنى وترك اللفظ، وقال الفراء إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والإسم المؤنث فذكر الفعل، وكل ما جاء من هذا فهذا وجهه، ومعنى الآية قد كان لكم عبرة ودلالة على صدق ما أقول إنكم ستغلبون.

﴿في فئتين﴾ أي فرقتين، وأصلها فيء الحرب لأن بعضهم يفيء إلى

بعض، أي يرجع، والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظتها وجمعها فئات، وقد تجمع بالواو والنون جبراً لما نقص، وسميت الجماعة من الناس فئة لأنه يفاء إليها أي يرجع في وقت الشدة قاله القرطبي، وقال الزجاج الفئة الفرقة مأخوذ من فأوت رأسه بالسيف إذا قطعته.

﴿التقتا﴾ لا خلاف في أن المراد بالفئتين هما المقتتلتان يوم بدر، وإنما وقع الخلاف في المخاطب بهذا الخطاب، فقيل المخاطب به المؤمنون وبه قال ابن مسعود والحسن، وقيل اليهود، وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت نفوسهم وتشجيعها، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين، وقيل هو خطاب لكفار مكة.

﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله وهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين، ومائتان وستة وثلاثون رجلاً من الأنصار، وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيراً وفرسان، وكان من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة.

﴿وأخرى كافرة﴾ وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً من المقاتلة، وكان رأسهم عتبة بن ربيعة، وكان فيها مائة فرس، وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ بعد الهجرة.

وفي الكلام شبه احتباك تقديره فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأول ما يفهم من الثاني، ومن الثاني ما يفهم من الأول.

﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ قال أبو علي الفارسي: الرؤية في هذه الآية رؤية العين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد، ويدل عليه قوله (رأي العين) والمراد أنه يرى المشركون المؤمنون مثلى عدد المشركين أو مثلي عدد المسلمين.

وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل يرون هم المؤمنون، والمفعول هم الكفار، والضمير في مثليهم يحتمل أن يكون للمشركين أي يرى المسلمون المشركين مثلَي ما هم عليه من العدد، وفيه بُعد، إذ يلزم أن يكثر الله المشركين في أعين المسلمين، وقد أخبرنا أنه قللهم في أعين المؤمنين، وأن يكون للمسلمين فيكون المعنى يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين ليطمعوا فيهم، وقد كانوا علموا من قوله تعالى ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ أن الواحد يغلب الأثنين، وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية.

وأما على قراءة نافع بالفوقية ففيها وجهان (الأول) أن يكون الخطاب في ترونهم للمسلمين والضمير المنصوب فيه للكافرين، والضمير المجرور في مثليهم أيضاً للمسلمين بطريق الالتفات فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم في العدد، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلل الله المشركين في أعين المسلمين فأراهم إياهم مثلي عِدتهم لتقوى أنفسهم.

(والثاني) أن يكون الضمير المنصوب أيضاً للمسلمين أي ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلي ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم.

وقد قال من ذهب إلى التفسير الأول أعني أن فاعل الرؤية المشركون، وأنهم رأوا المسلمين مثلي عددهم، أنه لا يناقض هذا ما في سورة الانفال من قوله تعالى ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ بل قللوا أولا في أعينهم ليلاقوهم ويجترؤا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا ورأي العين مصدر مؤكد لقوله (يرونهم) أي رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها.

﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوي من يشاء أن يقويه ولو بدون الأسباب العادية، ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية.

﴿إن في ذلك﴾ أي في رؤية القليل كثيراً ﴿لعبرة﴾ فعلة من العبور كالجلسة من الجلوس، والمرا الاتعاظ، والتنكير للتعظيم أي عبرة عظيمة وموعظة جسيمة ﴿لأولي الأبصار﴾.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥)

عن الربيع يقول قد كان لكم في هؤلاء عبرة وتفكُّر، أيدهم الله ونصرهم على عدوهم يوم بدر كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً وكان أصحاب محمد ﷺ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

وعن ابن مسعود قال هذا يوم بدر نظرنا الى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وعن ابن عباس قال أنزلت في التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وكان المشركون مِثلَيهم ستمائة وستة وعشرين فأيد الله المؤمنين.

﴿زين للناس حب الشهوات﴾ كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس في هذه الدار، وتزهيد الناس فيها وتوجيه رغباتهم إلى ما عند الله، والمزين قيل هو الله سبحانه وبه قال عمر كما حكاه عنه البخاري وغيره، ويؤيده قوله تعالى ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم﴾ ويؤيده قراءة مجاهد (زين) على البناء للفاعل، وقيل المزين هو الشيطان وبه قال الحسن وقد جاء صريحاً في قوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) والآية في معرض الذم وهو قول طائفة من المعتزلة والأول أولى.

والمراد بالناس الجنس، والشهوات جمع شهوة وهي نزوع النفس إلى ما تريده وتوقان النفس إلى الشيء المشتهى، والمراد هنا المشتهيات عبر عنها

بالشهوات مبالغة في كونها مرغوباً فيها أو تحقيراً لها لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية، والشهوة إما كاذبة كقوله تعالى ﴿أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ أو صادقة كقوله ﴿فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾.

قاله الكرخي، ووجه تزيين الله سبحانه لها ابتلاء عباده كما صرح به في الآية الاخرى.

﴿من النساء﴾ بدأ بالنساء لكثرة تشوق النفوس اليهن والاستئناس والالتذاذ بهن لانهن حبائل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان ﴿والبنين﴾ خصهم دون البنات لعدم الاطراد في محبتهن ولان حب الولد الذكر أكثر من حب الانثى.

﴿والقناطير المقنطرة﴾ جمع قنطار، وهو اسم للكثير من المال، قال الزجاج القنطار مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه تقول العرب قنطرت الشيء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها وقد اختلف في تقديره على أقوال للسلف.

أخرج أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «القنطار اثنا عشر ألف أوقية»(١).

وأخرج الحاكم وصححه عن أنس قال سئل رسول الله ﷺ عن القناطير المقنطرة فقال: «القنطار ألف أوقية»(٢)، ورواه ابن أبي حاتم عنه مرفوعاً بلفظ ألف دينار.

وأخرج ابن جرير عن أبي كعب قال: قال رسول الله ﷺ «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية» وبه قال معاذ بن جبل وابن عمر وأبو هريرة وجماعة من

(١) ابن ماجة كتاب الآداب الباب الأول، الإمام أحمد ٢/٣٦٣.
(٢) كتاب النكاح ٢/١٧٨.

العلماء،قال ابن عطية وهو أصح الأقوال ولكن يختلف باختلاف البلاد في قدر الاوقية.

وعن أبي سعيد الخدري قال القنطار ملء مسك الثورذهباً، وعن ابن عمر سبعون ألفاً، وعن سعيد بن المسيب ثمانون ألفاً، وعن أبي صالح مائة رطل، وعن أبي جعفر خمسة عشر ألف مثقالاً والمثقال أربعة وعشرون قيراطاً وعن الضحاك قال هو المال الكثير من الذهب والفضة وعن السدى أن المقنطرة المضروبة، وقال ابن جرير الطبري معناها المضعفة، وقال القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة.

وقال الفراء القناطير جمع القناطر، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسعة قناطير، وقيل المقنطرة المكملة كما يقال بدرة مبدرة وألوف مؤلفة، وبه قال مكي وحكاه الهروي، وقال ابن كيسان لا يكون المقنطرة أقل من سبع قناطير، وفي نونه قولان (أحدهما) وهو قول جماعة أنها أصلية وان وزنه فِعلال كقرطاس (والثاني) انها زائدة ووزنه فنعال.

﴿من الذهب والفضة﴾ من بيانيَّة وإنما بدأ بالذهب والفضة من بين سائر أصناف الاموال لانهما قيَم الاشياء قيل سمي الذهب ذهباً لانه يذهب ولا يبقى، والفضة لانها تنفض أي تتفرق.

﴿والخيل المسومة﴾ عطف على النساء لا على الذهب لانها لا تسمى قناطير قاله أبو البقاء وتوهم مثل هذا بعيد جداً فلا حاجة الى التنبيه عليه، قيل هي جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط بل مفرده فرس، وسميت الافراس خيلاً لاختيالها في مشيتها وقيل لان الخيل لا يركبها أحد الا وجد في نفسه مخيلة أي عجباً.

وقيل واحده خائل كراكب وركب وتاجر وتجر وطائر وطير، وفي هذا خلاف بين سيبويه والاخفش، فسيبويه يجعله اسم جمع والاخفش يجعله جمع تكسير.

واختلفوا في معنى المسومة فقيل هي المرعية في المروج والمسارح يقال سامت الدابة والشاة إذا سرحت، وقيل هي المعدة للجهاد، وقيل المعلمة من السومة وهي العلامة أي التي يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها ،قال ابن فارس في المجمل المسومة المرسلة وعليها ركبانها، قال ابن عباس هي الراعية والمطهمة الحسان وبه قال مجاهد، وقال عكرمة تسويمها حسنها أي الغرة والتحجيل، وقال ابن كيسان البلق.

﴿والانعام﴾ هي الابل والبقر والغنم، فاذا قلت نعم فهي الابل خاصة قاله الفراء وابن كيسان ﴿والحرث﴾ اسم لكل ما يحرث وهو مصدر سمي به المحروث تقول حرث الرجل حرثاً إذا أثار الارض فيقع على الارض والحرث والزرع، قال ابن الاعرابي الحرث التفتيش.

﴿ذلك﴾ المذكور ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي ما يتمتع به ثم يذهب ولا يبقى، وفيه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي المرجع وهو الجنة، يقال آب يؤب إياباً إذا رجع وفيه اشارة إلى أن من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه في الآخرة لأنها السعادة القصوى.

﴿قل أؤنبئكم﴾ أي أخبركم استفهام تقرير وليس في القرآن همزة مضمومة بعد مفتوحة إلا ماهنا وما في (ص ءأنزل عليه الذكر) وما في اقتربت ﴿أأُلقي الذكر عليه﴾ ﴿بخير من ذلكم﴾ أي بما هو خير لكم من تلك المستلذات ومتاع الدنيا وابهام الخير للتفخيم.

ثم بينه بقوله ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ خص المتقين لأنهم المنتفعون بذلك، ويدخل في هذا الخطاب كل من اتقى الشرك، وقال ابن عباس يريد المهاجرين والأنصار، والأول أولى.

﴿خالدين﴾ أي مقدرين الخلود ﴿فيها﴾ إذا دخلوها ﴿وأزواج مطهرة﴾ من الحيض والنفاس والمنى والبزاق وغيرها مما يستقذر ﴿ورضوان﴾ بكسر أوله وضمه لغتان، وقد قرىء بهما في السبع في جميع القرآن إلا في المائدة فانه بالكسر باتفاق السبعة، وهو قوله (من اتبع رضوانه) وهما بمعنى واحد وان كان الثاني سماعياً والأول قياسياً والتنوين للتكثير أي رضاً كثيراً ﴿من الله﴾.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً. أخرجه البخاري ومسلم[1]، والعبد إذا علم أن الله قد رضي عنه كان أتم لسروره وأعظم لفرحه.

﴿والله بصير بالعباد﴾ أي عالم بمن يؤثر ما عنده ممن يؤثر شهوات الدنيا فيجازى كُلّاً على عمله فيثيب ويعاقب على قدر الأعمال، وقيل بصير بالذين اتقوا فلذلك أعد لهم الجنات.

---

(١) وفي حديث آخر رواه مسلم (٢٨٣٧) في نعيم الجنة: عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ينادي منادٍ: آن لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبداً، وآن لكم ان تحيوا فلا تموتوا ابداً، وآن لكم ان تشبوا فلا تهرموا أبداً وآن لكم ان تنعموا فلا تيأسوا ابداً».

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾
ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ
بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا
بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ في ترتيب هذا السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة وفيه رد على أهل الاعتزال لأنهم يقولون ان استحقاق المغفرة لا يكون بمجرد الإيمان، قاله الكرخي.

﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين﴾ قد تقدم تفسير الصبر والصدق والقنوت والانفاق، عن قتادة قال هم قوم صبروا على طاعته وصبروا عن محارمه وصدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وألسنتهم وصدقوا في السر والعلانية والقانتون هم المطيعون ﴿والمستغفرين﴾ هم السائلون للمغفرة وقيل أهل الصلاة وقيل هم الذين يشهدون صلاة الصبح.

وعن ابن عباس قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نستغفر بالاسحار سبعين مرة، وعن سعيد الجريري قال بلغنا أن داود عليه السلام سأل جبريل أي الليل أفضل قال يا داود ما أدرى إلا أن العرش يهتز في السحر.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول هل من سائل فأعطيه، هل من داع فأستجيب له، هل من

مستغفر فاغفر له[١]» وفي الباب أحاديث وفيه وفي أمثاله مذهب السلف الإيمان به واجراؤه على ظاهره ونفى الكيفية عنه وهو الحق.

﴿بالأسحار﴾ جمع سحر بفتح الحاء وسكونها قال الزجاج هو من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر، وقال الراغب السحر اختلاط ظلام آخر الليل بضياء النهار، ثم جعل ذلك اسماً لذلك الوقت، وقيل السحر من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر، وقيل السحر عند العرب من آخر الليل ثم يستمر حكمه إلى الاسفار كله يقال له سحر، والسحر بفتح فسكون منتهى قصبة الحلقوم، وخص الاسحار لأنها من أوقات الاجابة أو لأنها وقت الغفلة ولذة النوم.

﴿شهد الله﴾ أي بين الله وأعلم، قال الزجاج الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبينه فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين، وقال أبو عبيدة شهد الله بمعنى قضى أي أعلم قال ابن عطية وهذا مردود من جهات، وقيل إنها شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله ووحيه بشهادة الشاهد في كونها مبينة.

﴿أنه لا إله إلا هو﴾ سئل بعض الاعراب ما الدليل على وجود الصانع فقال ان البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، أما يدلان على وجود الصانع الخبير، وفي القرآن من دلائل التوحيد كثير طيب، وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

﴿والملائكة﴾ عطف على الاسم الشريف وشهادتهم إقرارهم بأنه لا إله إلا هو ﴿وأولوا العلم﴾ معطوف ايضا على ما قبله وشهادتهم بمعنى الإيمان منهم

---

(١) مسلم ١٦٨ البخاري ١٥٩٩. صحيح أبي داود/ ١١١٧ والدارمي والاجري وابن خزيمة باختلافات في الرواية. وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع هل جاء السحر فإذا قال نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح.. رواه الطبري.

وما يقع من البيان للناس على ألسنتهم، وعلى هذا لا بد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم[1].

وقد اختُلف في أولي العلم هؤلاء من هم فقيل هم الأنبياء وقيل المهاجرون والأنصار، قاله ابن كيسان وقيل مؤمنو أهل الكتاب، قاله مقاتل، وقيل المؤمنون كلهم قاله السدى والكلبي وهو الحق إذ لا وجه للتخصيص، وفي ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة ومنقبة نبيلة لقرنهم باسمه واسم ملائكته.

والمراد بأولي العلم هنا علماء الكتاب والسنة وما يتوصل به إلى معرفتها إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له في العلم الذي اشتمل عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

﴿قائماً بالقسط﴾ بالعدل في جميع أموره أو مقيماً له، وانتصاب قائماً على الحال من الاسم الشريف، قال جعفر الصادق: الأولى وصف وتوحيد والآتية رسم وتعليم أي قولوا ﴿لا إله إلا هو﴾ وقيل كرره للتأكيد، وفائدة تكريرها الاعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه، ففيه حث للعباد على تكريرها والاشتغال بها فانه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات، وقوله ﴿العزيز الحكيم﴾ لتقرير معنى الوحدانية[1].

---

(١) وروى ابن السائب أن حبرين من أحبار الشام قدما النبي صلى الله عليه وسلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة.

فقالا: انت محمد.

قال نعم.

قالا: واحمد.

قال: نعم.

قالا: نسألك عن الشهادة فأن اخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك.

فقال: سلاني.

فقالا: اخبرنا عن اعظم شهادة في كتب الله. . . . فنزلت هذه الآية. فأسلما.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إن الدين عند الله﴾ جملة مستأنفة وآية مستقلة على قراءة كسر «إن» وأما على قراءة فتحها فهو من بقية الآية السابقة ﴿الاسلام﴾ يعني الدين المرضي هو الاسلام المبني على التوحيد كما قال تعالى (ورضيت لكم الاسلام دينا) قال الزجاج الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالاقامة عليه، والاسلام هو الدخول في السلم، وهو الانقياد في الطاعة.

وقد ذهب الجمهور إلى أن الاسلام هنا بمعنى الايمان وإن كانا في الاصل متغايرين كما في حديث جبريل الذي بين فيه النبي ﷺ معنى الاسلام والايمان وصدقه جبريل وهو في الصحيحين وغيرهما، ولكن قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة.

قال قتادة الاسلام شهادة أن لا اله إلا الله والاقرار بما جاء به الرسول من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره، وعن الضحاك قال لم يبعث الله رسولاً إلا بالاسلام، وعن الاعمش قال أنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهي لي وديعة عند الله، وقرأ (إن الدين عند الله الاسلام، قالها مراراً).

قلت وأنا أيضا أشهد كما شهد الاعمش وبالله التوفيق.

﴿وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياًبينهم﴾ فيه الاخبار بان اختلاف اليهود والنصارى كان لمجرد البغي بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول في دين الاسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة اليهم، قال الاخفش وفي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى ما اختلف الذين أوتوا الكتاب أي بنو اسرائيل بغياًبينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم.

وفي التعبير عنهم بهذا العنوان زيادة تقبيح لهم فان الاختلاف بعد اتيان الكتاب أقبح وقوله (الا من بعد) زيادة أخرى فإن الاختلاف بعد العلم أزيد في القباحة، وقوله بغياًبينهم زيادة ثالثة لانه في حيز الحصر فيكون أزيد في القبح.

والكتاب هو التوراة والانجيل، والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم هو خلافهم في كون نبينا ﷺ نبياً أم لا، وقيل في دين الاسلام فقال قوم انه حق وقال قوم انه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون مطلقاً، وقيل في التوحيد،فثلثت النصارى، وقالت اليهود عزير ابن الله. وقيل اختلافهم في نبوة عيسى، وقيل اختلافهم في ذات بينهم حتى قالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء.

قال أبو العالية بغياً على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها فقتل بعضهم بعضاً على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس وسلط الله عليهم الجبابرة.

﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ الدالة على أن الدين عند الله الإسلام أو بأي آية كانت،على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولاً أولياً ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ يجازيه ويعاقبه على كفره بآياته، والإظهار في قوله (فإن الله) مع كونه مقام الإضمار للتهويل عليهم والتهديد لهم.

﴿فإن حاجوك﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي خاصموك وجادلوك اليهود والنصارى بالشبه الباطلة: والأقوال المحرفة بعد قيام الحجة عليهم في أن الدين عند الله هو الإسلام ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ أي أخلصت ذاتي لله وانقدت له بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان وأجمعها للحواس، وقيل الوجه هنا بمعنى القصد ﴿ومن اتبعن﴾ عطف على فاعل أسلمت وجاز للفصل، وقال الزمخشري الواو بمعنى مع.

﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿والأميين﴾ أي الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب، وقال ابن عباس هم الذين لا يكتبون ﴿أأسلمتم﴾ استفهام تقريري يتضمن الأمر أي أسلموا، كذا قال ابن جرير وغيره، وقال الزجاج أسلمتم تهديد، والمعنى أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام فهل عملتم بموجب ذلك أم لا، تبكيتاً لهم وتصغيراً لشأنهم في قلة الإنصاف وقبول الحق لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف في إذعانه للحق[١].

﴿فإن أسلموا فقد﴾ دخلت قد على الماضي مبالغة في تحقق وقوع الفعل وكأنه قرب من الوقوع ﴿اهتدوا﴾ أي ظفروا بالهداية التي هي الحظ الأكبر وفازوا بخيري الدنيا والآخرة ﴿وإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن قبول الحجة ولم يعملوا بموجبها ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي إنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك ولست عليهم بمسيطر فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والبلاغ مصدر بمعنى التبليغ قيل الآية محكمة والمراد بها تسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل منسوخة بآية السيف ﴿ والله بصير بالعباد﴾ فيه وعد ووعيد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم.

---

(١) ذكر ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلّى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن
نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا
ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ ظاهره عدم الفرق بين آية وآية وهم اليهود والنصارى ﴿ويقتلون النبيين﴾ يعني اليهود قتلوا الأنبياء ﴿بغير حق﴾ إنما قيد بذلك للإشارة إلى أنه كان بغير حق في اعتقادهم أيضاً فهو أبلغ في التشنيع عليهم ﴿ويقتلون الذين يأمرون﴾ بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿بالقسط﴾ أي العدل ﴿من الناس﴾ قال المبرد كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون فدعوهم إلى الله فقتلوهم فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم ففيهم أنزلت الآية ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ خبر لقوله (إن الذين يكفرون) وذهب بعض النحاة إلى أن الخبر قوله (أولئك الذين حبطت أعمالهم) ومنهم سيبويه والأخفش، وذكر البشارة تهكم بهم.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيده بن الجراح قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة قال: رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية إلى قوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم

بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله في كتابه وأنزل الآية فيهم[1].

وعن ابن عباس بسند صحيح قال: بعث عيسى يحيى بن زكريا في اثني عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس، فكان ينهى عن نكاح بنت الأخ وكان ملك له بنت أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضي لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها: إذا سألك عن حاجة فقولي: حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا فقال: سلي غير هذا فقالت: لا أسألك غير هذا، فلما أبت أمر به فذبح في طست فبدرت قطرة من دمه فلم يزل يغلي حتى بعث الله بختنصر، فدلت عجوز عليه فألقى في نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم فقتل في يوم واحد من ضرب واحد وسن واحد سبعين ألفاً فسكن.

﴿أولئك الذين حبطت﴾ أي بطلت ﴿أعمالهم﴾ كصدقة وصلة رحم ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي أنه لم يبق لحسناتهم أثر في الدنيا حتى يعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات لعدم الإسلام بل عوملوا معاملة أهل السيئات فلعنوا وحل بهم الخزي والصغار، ولهم في الآخرة عذاب النار ﴿ومالهم من ناصرين﴾ يمنعونهم من العذاب.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ فيه تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من تصح منه الرؤية من حال هؤلاء وهم أحبار اليهود، والكتاب التوراة. وتنكير النصيب للتعظيم أي نصيباً عظيماً كما يفيده مقام المبالغة، والمراد بذلك النصيب ما بين لهم في التوراة من العلوم والأحكام التي من جملتها ما علموه من نعوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب للإشعار بكمال اختصاصه بهم، ومن قال إن التنكير

---

(١) ابن كثير ١ / ٣٥٥.

للتحقير فلم يصب، وفيه أن اختلافهم إنما كان بعد ما جاءهم العلم فلم ينتفعوا بذلك، وذلك بأنهم.

﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ الذي أُوتوا نصيباً منه وهو التوراة ﴿ليحكم بينهم﴾ إضافة الحكم إلى الكتاب هو على سبيل المجاز ﴿ثم يتولى﴾ عن مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وثم للاستبعاد لا للتراخي في الزمان ﴿فريق منهم﴾ يعني الرؤساء والعلماء ﴿وهم معرضون﴾ أي والحال أنهم معرضون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه مع علمهم به واعترافهم بوجوب الإجابة إليه.

قال السيوطي نزلت في اليهود، زنى منهم اثنان فتحاكموا إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فحكم عليهما بالرجم، فأبوا فجيء بالتوراة فوجد فيها، فرجما فغضبوا[1].

﴿ذلك﴾ أي ما مرّ من التولي والإعراض ﴿بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ أي أربعين يوماً وهي مقدار عبادتهم العجل، وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة، وقال مجاهد يعنون الأيام التي خلق الله فيها آدم ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ من الأكاذيب التي من جملتها هذالقول. أو قالوا إن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب أن لا يعذّب أولادُه إلا تحلة القسم.

وقال قتادة: حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وقيل: قولهم نحن على الحق وأنتم على الباطل، معنى يفترون يكذبون ويحلفون.

---

(١) زاد المسير/ ٣٦٦.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾

﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ هو رد عليهم وإبطال لما غرهم من الأكاذيب باستعظام ما سيقع لهم وتهويل لما يحيق بهم من الأهوال، أي فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم الجزاء الذي لا يرتاب مرتاب في وقوعه فإنهم يقعون لا محالة فيه، ويعجزون عن دفعه بالحيل والأكاذيب.

قال الكسائي اللام في قوله ليوم بمعنى «في» وقال البصريون والمعنى لحساب يوم، وقال ابن جرير الطبري المعنى لما يحدث في يوم.

«﴿ووفيت كل نفس﴾» من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ما كسبت﴾ أي جزاء ما كسبت من خير وشر على حذف المضاف﴿وهم لا يظلمون﴾بزيادة سيئة ولا ولا نقص حسنة من أعمالهم، والمراد كل الناس المدلول عليهم بكل نفس.

«(قل اللهم)» قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين أن أصل «اللهم» يا الله وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل فيه يا الله آمنا، قال النحاس هذا عند البصريين من الخطأ العظيم والقول في هذا ما قاله الأولون قال النضر ابن شميل من قال «اللهم» فقد دعا الله بجميع أسمائه.

﴿مالك﴾ جنس ﴿الملك﴾ على الإطلاق، ومالك العباد وما ملكوا، وقيل المعنى مالك الدنيا والآخرة، وقيل الملك هنا النبوة، وقيل الغلبة، وقيل المال والعبيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص.

﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ المراد بما يؤتيه من الملك

وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام، قيل نزل لما وعد ﷺ أمته ملك فارس والروم.

عن ابن عباس قال اسم الله الأعظم (قل اللهم مالك الملك - إلى قوله - بغير حساب).

وأخرج ابن أبي الدنيا والطبراني عن معاذ: «أنه شكا إلى النبي ﷺ دَيناً عليه فعلمه أن يتلو هذه الآية ثم يقول رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي من تشاء منهما وتمنع من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك اللهم أغنني من الفقر واقض عني الدين» وأخرجه الطبراني في الصغير عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ: «ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداء الله عنك»، فذكره واسناده جيد[1].

﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما، يقال عز إذا غلب ومنه (وعزني في الخطاب) ويقال ذل يذل ذلاً إذا غلب وقهر.

﴿بيدك الخير﴾ أي النصر والغنيمة، وقيل الألف واللام تفيد العموم، والمعنى بيدك كل الخيرات، وتقديم الخبر للتخصيص أي بيدك الخير لا بيد غيرك، وذكر الخير دون الشر لأن الخير تفضل محض بخلاف الشر فانه قد يكون جزاء لعمل من وصل إليه، وقيل لأن كل شر من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير، فأفعاله كلها خير، قاله القاضي كالكشاف، وقيل انه حذف كما حذف في قوله: (سرابيل تقيكم الحر) قاله البغوي وأصله بيدك الخير والشر، وقيل خص الخير لأن المقام مقام دعاء ﴿انك على كل شيء قدير﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له.

---

(١) الترمذي كتاب الدعوات باب ١١٠.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ (٢٨)﴾

﴿تولج الليل في النهار﴾ وهو أن تجعل الليل قصيراً وما نقص منه زائداً في النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، وذلك غاية طول النهار، ويكون الليل تسع ساعات وذلك غاية قصر الليل، وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هذه الأمور العظام المحيرة للعقول والافهام، فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم أهون عليه من كل هين، يقال ولج يلج من باب وعد ولوجاً ولجة كعدة والولوج الدخول والايلاج الادخال.

﴿وتولج النهار في الليل﴾ أي تدخل ما نقص من أحدهما في الآخر حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة وذلك غاية طوله، ويكون النهار تسع ساعات وذلك غاية قصره، وقيل المعنى تعاقب بينهما ويكون زوال أحدهما ولوجاً في الآخر والأول أولى، قال ابن مسعود تأخذ الصيف من الشتاء وتأخذ الشتاء من الصيف.

﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ قيل المراد اخراج الحيوان وهو حي من النطفة وهي ميتة، واخراج النطفة وهي ميتة من الحيوان وهو حي، وقيل المراد اخراج الطائر وهو حي من البيضة وهي ميتة واخراج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية، وقال عكرمة النخلة من النواة والنواة من النخلة، والحبة من السنبلة والسنبلة من الحبة.

وعن الحسن قال المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والمؤمن عبد حي الفؤاد، والكافر عبد ميت الفؤاد.

قلت ويدل له قوله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن حاتم وابن مردويه عن عبيد الله بن عبد الله: أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فقال: من هذه قيل: خالدة بنت الأسود، قال: سبحان الذي يخرج الحي من الميت، وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافراً، وأخرج ابن سعد عن عائشة مثله.

﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي بغير تضييق ولا تقتير بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه كما تقول فلان يعطى بغير حساب إذ المحسوب يقال للقليل.

قال أبو العباس المقري: ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه، بمعنى التعب قال تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب) وبمعنى العدد قال تعالى (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) وبمعنى المطالبة قال تعالى (فامنن أو امسك بغير حساب).

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ فيه النهي للمؤمنين عن موالاة الكفار بسبب من أسباب المصادقة والمعاشرة كقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما، وعن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية ومثله قوله تعالى (لا تتخذوا بطانة من دونكم) الآية وقوله (ومن يتولهم منكم فانه منهم) وقوله (لا تجد قوماً يؤمنون بالله) الآية وقوله (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء).

﴿من دون المؤمنين﴾ أي متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالاً أو اشتراكاً ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الاتخاذ المدلول عليه بقوله لا يتخذ ﴿فليس من الله﴾ أي من ولايته وقيل من دينه وقيل التقدير ليس كائناً من الله ﴿في شيء﴾ من الأشياء هو منسلخ عنه بكل حال، وبريء الله منه، وهذا أمر معقول إذ موالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان.

﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات أي إلا أن تخافوا منهم أمراً يجب اتقاؤه وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال وتقاة مصدر واقع موقع المفعول به، وهو ظاهر قول الزمخشري وزنه فُعلة ويجمع على تُقى كرطبة ورطب، وأصله وقيه لأنه من الوقاية، والتقوى والتقى واحد، والتقاة التقية يقال أتقي تقيه وتقاة.

وفي القاموس تقيت الشيء اتقيه من باب ضرب، وفي ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً، وخالف في ذلك قوم من السلف فقالوا لا تقية بعد أن أعز الله الاسلام.

عن ابن عباس قال التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية الله فيتكلم به مخافة الناس، وقلبه مطمئن بالايمان فان ذلك لا يضره، انما التقية باللسان، وعنه قال التقاة التكلم باللسان، والقلب مطمئن بالايمان ولا يبسط يده فيقتل ولا إلى إثم فإنه لا عذر له.

وعن أبي العالية قال: التقية باللن وليس بالعمل، وقال قتادة إلا أن تكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك.

وأخرج عبد بن حميد والبخاري عن الحسن قال التقية جائزة إلى يوم القيامة. وحكى البخاري عن أبي الدرداء أنه قال إنا لنكشر [1] في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم.

ويدل على جواز التقية قوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء والضحاك والربيع ابن أنس.

وعن ابن عباس قال نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا إن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم

---

(١) أي نبتسم.

اللطف ويخالفونهم في الدين، وذلك قوله تعالى ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾.

ومعنى الآية ان الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكونوا غالبين أو يكون المؤمن في قوم كفار فيداهنهم بلسانه، وقلبه مطمئن بالايمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً أو مالاً حراماً أو غير ذلك من المحرمات أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع سلامة النية.

ثم هذه التقية رخصة فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم.

وقال سعيد بن جبير ليس في الأمان التقية إنما التقية في الحرب، وقيل إنما تجوز التقية لصون النفس عن الرر لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي ذاته المقدسة أن تعصوه بأن ترتكبوا المنهي عنه أو تخالفوا المأمور به، أو توالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك كله، وإطلاق النفس عليه سبحانه جائز في المشاكلة كقوله (تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك) وفي غيرها.

وذهب بعض المتأخرين إلى منع ذلك إلا مشاكلة، وقال الزجاج معناه يحذركم الله إياه، ثم استغنوا عن ذلك بهذا وصار المستعمل، قال: وأما قوله (تعلم ما في نفسي، إلخ فمعناه تعلم ما عندي وما في حقيقتي ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك).

وقال بعض أهل العلم معناه ويحذركم الله عقابه، مثل﴿واسأل القرية﴾ فجعلت النفس في موضع الإضمار، والنفس عبارة عن وجود الشيء وذاته، وذكر النفس للإيذان بأن له عقاباً هائلاً لا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة ﴿وإلى الله المصير﴾ في هذه الآية تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ فيه إن كل ما يضمره العبد ويخفيه أو يظهره ويبديه فهو معلوم لله سبحانه لا يخفى عليه منه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ مما هو أعم من الأمور التي يخفونها أو يبدونها فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فيكون قادراً على عقوبتكم.

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ يوم القيامة ولم يبخس منه شيء قال قتادة محضراً موفراً ﴿وما عملت من سوء﴾ محضراً ﴿تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ الأمد الغاية وجمعه آماد، قال السدى أي مكاناً بعيداً، وعن ابن جريج أمداً أي أجلاً وعن الحسن قال يسر أحدكم أن لا يلقى عمله ذلك أبداً يكون ذلك مناه، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئة يستلذها.

وفي السمين الأمد غاية الشيء ومنتهاه، والفرق بين الأمد والأبد أن الأبد مدة من الزمان غير محدودة، والأمد مدة لها حد مجهول، والفرق بين الأمد والزمان أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام في المبدأ والغاية انتهى، قال السيوطي أي غاية في نهاية البعد فلا يصل إليها: اهـ، وهو أعم من المكان والزمان وعبارة الخازن أي مكاناً بعيداً، كما بين المشرق والمغرب.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾ كرر للتأكيد وللاستحضار ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم لا يغفلون عنه، قيل والأحسن ما قاله التفتازاني أن ذكره أولاً للمنع من موالاة الكافرين وثانياً للحث على عمل الخير والمنع من عمل الشر ﴿ والله رؤوف بالعباد﴾ ومن رأفته بهم أنه حذرهم نفسه، قاله الحسن وفيه دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه لعباده لطفاً بهم، وما أحسن ما يحكى عن بعض العرب أنه قيل له إنك تموت وتبعث وترجع إلى الله فقال أتهددونني بمن لم أر الخير قط إلا منه.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ الحب والمحبة ميل النفس الى الشيء لكمال أدركته فيه، يقال أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب، قال ابن الدهان في حب لغتان حب وأحب، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بارادة طاعته، قال الأزهري محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران.

قيل: العبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، وإن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بارادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عبادته والحث على مطاوعته قاله القاضي.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن من طرق قال: قال أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا محمد إنا لنحب ربنا فأنزل الله هذه الآية، وعن أبي الدرداء قال على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والحاكم عن عائشة قالت: «قال رسول الله ﷺ» الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شيء من الجور وتبغض على شيء من العدل، وهل الدين

إلا الحب والبغض في الله[1]، قال الله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله) الآية.

قيل نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى قالوا نحن ابناء الله وأحباؤه، وقيل نزلت في قريش قالوا نعبدها أي الأصنام حباً لله لتقربنا إلى الله زلفى.

والمعنى قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأوامره وأوامر رسوله مطيعين لهما فإن اتباع الرسول من محبة الله وطاعته، وفيه حث على اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم وإشارة إلى ترك التقليد عند وضوح النص من الكتاب والسنة.

﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ يعني أن من غفر له أزال عنه العذاب ﴿والله غفور رحيم﴾ يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضله وكرمه، وهذا تذييل مقرر لما قبله.

﴿قل﴾ لقريش ﴿أطيعوا الله والرسول﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم أي في جميع الأوامر والنواهي، والمقلد غير مطيع لله وللرسول بل مشاقق لهما حيث ترك إطاعة الله ورسوله وأطاع غيرهما من غير حجة نيرة وبرهان جلي.

﴿فإن تولوا﴾ يحتمل أن يكون من تمام مقول القول فيكون مضارعاً أي تتولوا، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى فيكون ماضياً من باب الالتفات ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي لا يرضى بفعلهم ولا يغفر لهم، ونفي المحبة كناية عن البغض والسخط، ووجه الأظهار في قوله (فإن الله الخ) مع كون المقام. مقام إضمار لقصد التعظيم أو التعميم.

ولما فرغ سبحانه من أن الدين المرضي هو الإسلام وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو الرسول الذي لا يصح لأحد أن يحب الله إلا باتباعه، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغي عليه والحسد له، شرع في تقرير رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين أنه من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة فقال:

---

(١) المستدرك للحاكم. كتاب التفسير ٢/٢٩١.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾
ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ
رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ الإصطفاء الإختيار من الصفوة وهي الخالص من كل شيء، قال الزجاج اختارهم بالنبوة على عالمي زمانهم، وقيل إن الكلام على حذف مضاف أي اصطفى دين آدم، وتخصيص آدم بالذكر لأنه أبو البشر، وكذلك نوح فإنه آدم الثاني.

وحكى ابن الجوزي عن أبي سليمان الدمشقي أن اسم نوح السكن وإنما سمى نوحاً لكثرة نوحه، وعمر آدم تسعمائة وستون سنة، ونوح من نسل إدريس بينه وبينه إثنان لأنه ابن لملك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، وعمر نوح ألف سنة وخمسون، ونوح اسم عجمي لا اشتقاق له عند محققي النحاة.

﴿وآل إبراهيم﴾ قيل يعني نفسه، وقيل اسمعيل واسحق ويعقوب، وقيل من كان على دينه، والثاني أولى، وذلك أن الله جعل إبراهيم أصلاً لشعبتين، فجعل اسمعيل أصلاً للعرب، ومحمد ﷺ منهم فهو داخل في الاصطفاء، وجعل إسحق أصلا لبني إسرائيل وجعل فيهم النبوة والملك إلى زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم جعل له ولأمته النبوة والملك إلى يوم القيامة، وعمر إبراهيم مائة وسبعون سنة.

﴿وآل عمران﴾ قيل هو والد موسى وهارون، وقيل هو من ولد سليمان وهو والد مريم، والظاهر الثاني بدليل القصة الآتية في عيسى ومريم، وبين العمرانين من الزمن ألف وثمانمائة سنة، وبين الأول وبين يعقوب ثلاثة أجداد، وبين الثاني وبين يعقوب ثلاثون جداً، وعمران اسم أعجمي، وقيل عربي مشتق من العمر، وعل كلا القولين ممنوع من الصرف إما للعلمية والعجمه أو لزيادة الألف والنون، قاله السمين.

فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه، يعني خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم ﴿على العالمين﴾ قد تقدم الكلام على تفسيره أي اختارهم واصطفاهم على العالمين بما خصهم به من النبوة والرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية.

﴿ذرية﴾ قد تقدم تفسير الذرية قيل مشتق من الذرء وهو الخلق فعلى هذا يطلق على الأصول حتى على آدم كما يطلق على الفروع، وقيل منسوب إلى الذر لأن الله أخرجهم من ظهر آدم كالذر أي صغار النمل، ويكون هذا من النسب السماعي إذ كان القياس فتح الذال والنصب على البدل من آدم أو من نوح وإليه نحا أبو البقاء أو من الآلين وإليه نحا الزمخشري أو النصب على الحال.

﴿بعضها من بعض﴾ معناه متناسلة متشعبة أو متناصرة متعاضدة في الدين، قال قتادة في النية والعمل والاخلاص والتوحيد، أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ﷺ ﴿والله سميع عليم﴾ إنما يصطفى لنبوته ورسالته من يعلم استقامته قولاً وفعلاً.

﴿إذ قالت﴾ قال أبو عمرو اذ زائدة وقال محمد بن زيد تقديره اذكر إذ قالت، وقال الزجاج متعلق بقوله (اصطفى) وقيل بقوله سميع عليم.

﴿امرأة عمران﴾ اسمها حنة بالحاء المهملة والنون المشددة بنت فاقوذ أم مريم فهي جدة عيسى، وعمران هو ابن ماثان جد عيسى وليس نبياً.

﴿رب إني نذرت لك﴾ هذا النذر كان جائزاً في شريعتهم، وتقديم الجار والمجرور لكمال العناية ومعنى ذلك أي لعبادتك ﴿مافي بطني محرراً﴾ أي عتيقاً خالصاً لله خادماً للكنيسة، والمراد هنا الحرية التي هي ضد العبودية، وقيل المراد بالمحرر هنا الخالص لله سبحانه الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ورجح هذا بأنه لا خلاف أن عمران وامرأته حران وهلك عمران وهي حامل.

﴿فتقبل مني﴾ التقبل أخذ الشيء على وجه الرضا أي تقبل مني نذري بما في بطني، عن ابن عباس قال كانت نذرت أن تجعله في الكنيسة يتعبد بها، وقال مجاهد خادماً للبيعة ﴿إنك أنت السميع﴾ لتضرعي ودعائي ﴿العليم﴾ بنيتي وما في ضميري.

﴿فلما وضعتها﴾ التأنيث باعتبار ما علم من المقام أن الذي في بطنها أنثى أو لكونه أنثى في علم الله أو بتأويل ما في بطنها بالنفس أو النسمة أو نحو ذلك ﴿قالت﴾ يعني حنة ﴿رب إني وضعتها أنثى﴾ إنما قالت هذه المقالة لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكر دون الأنثى فكأنها تحسرت وتحزنت لما فاتها من ذلك الذي كانت ترجوه وتقدره.

﴿والله أعلم بما وضعت﴾ بضم التاء فيكون من جملة كلامها ويكون متصلاً بما قبله وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له أن يخفي عليه شيء، وقرأ الجمهور وضعت بسكون التاء فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتجهيل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن، مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين وعبرة للمعتبرين ويختصها بما لم يختص به أحداً.

وقرأ ابن عباس وضعت بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها أي أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام، وتصاغر عندها العقول، وإن له شأناً عظيماً.

﴿وليس الذكر كالانثى﴾ أي ليس الذكر الذي طلبت كـالانثى التي وضعت، فإن غاية ما أرادت من كونه ذكراً أن يكون نذراً خادماً للكنيسة، وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم، فهي خير منه وإن لم تصلح للسدانه فإن فيها مزايا أخر لا توجد في الذكر، وعلى هذا: الكلام على ظاهره ولا قلب فيه، وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما في الجملة الأولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته، واللام في الذكر والأنثى للعهد.

هذا على قراءة الجمهور، وأما على قراءة أبي بكر وابن عامر فيكون قوله (وليس الذكر كالأنثى) من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها أي ليس الذكر الذي أردت أن يكون خادماً ويصلح للنـذر كالأنثى التي لا تصلح لذلك، بل هو خير منها لأنه يصلح لمقصودي دونها، وكأنها اعتذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدت، وعلى هذا في الكلام قلب، وكانت مريم من أجمل النساء وأفضلهن في وقتها.

﴿وإني سميتها مريم﴾ تعني العابدة مقصودها من هذا الاخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقاً لمعنى اسمها فإن معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي وان لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة، فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات[1].

﴿واني أعيـذها﴾ أي أمنعهـا وأجيرهـا ﴿بـك وذريتهـا من الشيـطان الرجيم﴾.

(١) وقال ابن اسحاق: كان السبب في نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت، فرأت طائراً يطعم فرخاً =

عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «ما من بني آدم من مولود إلا نخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من نخسه اياه إلا مريم وابنها متفق عليه»[1] وللبخاري عنه «كل ابن آدم يطعن الشيطان في جنبيه بأصبعيه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب ليطعن فطعن في الحجاب» وللحديث ألفاظ عنه وعن غيره.

والرجيم المردود، وذكر في القاموس الطرد من معاني الرجم، وأصله المرمي بالحجارة،طلبت الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه.

وفي المقام إشكال قوي لم أر من نبه عليه من المفسرين، وحاصله أن قولها وإني أعيذها بك معطوف على ما قبله الواقع في حيز لما وضعتها، فيقتضي أن طلب هذه الإعاذة إنما وقع بعد الوضع، فلا يترتب عليه حفظ مريم من طعن الشيطان وقت نزولها وخروجها من بطن أمها فلا يتلاقى الحديث مع الآية، بل مقتضى ظاهر الآية أن إعاذتها من الشيطان إنما كان بعد وضعها وهذا لا ينافي تسلط الشيطان عليها بطعنها ونخسها وقت ولادتها الذي هو عادته فإن عادته طعن المولود وقت خروجه من بطن أمه، تأمل، قاله سليمان الجمل.

= له، فدعت الله أن يهب لها ولداً، وقالت: اللهم لك علي إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فحملت بمريم، وهلك عمران، وهي حامل.

(١) مسلم ٢٣٦٦، البخاري ١٥٥٠. صحيح الجامع/ ٥٦٦١.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي
فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي رضي بها في النذر وسلك بها مسلك السعداء، وقال قوم معنى التقبل التكفل والتربية والقيام بشأنها، وليست صيغة التفعل للتكلف كما هو أصلها بل بمعنى الفعل كتعجب بمعنى عجب وتبرأ بمعنى بريء، والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق، والباء زائدة أو هي على حالها.

﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ المعنى أنه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، قيل إنها كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام وفيه بعد، وقيل هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها.

﴿وكفلها﴾ أي ضمها إليه بالقرعة لا بالوحي، وقال أبو عبيدة ضمن القيام بها، وقال الكوفيون أي جعله الله كافلاً لها وملتزماً بمصالحها، وفي معناه في مصحف أبي (وأكفلها) وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناه ما تقدم من كونه ضمها إليه، وقرأ مجاهد فتقبلها وأنبتها بإسكان اللام والتاء وكفلها على المسألة والطلب.

﴿زكريا﴾ وكان من ذرية سليمان بن داود، وروى عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وناس من الصحابة أن مريم كانت ابنة سيدهم وإمامهم فتشاح عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها، وكان زكريا زوج أختها فكفلها أي جعلها معه في محرابه، وكانت عنده وحضنها.

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ يعني الغرفة، والمحراب في اللغة أكرم موضع في المجلس، قاله القرطبي وسميت محراباً لأنها محل محاربة الشيطان لأن المتعبد فيها يحاربه، وكذلك هو في المسجد وكذلك يقال لكل من محال العبادة محراب، وقيل إن زكريا جعل لها محراباً لا ترتقي إليه إلا بسلم وكان يغلق عليها حتى كبرت.

﴿وجد عندها﴾ أي أصاب وصادف ولقي فيتعدى لواحد ﴿رزقاً﴾ أي نوعاً من أنواع الرزق، أي كان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، قال ابن عباس عنباً في مكتل في غير حينه.

﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ أي من أين يجيء لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا ﴿قالت هو من عند الله﴾ فليس ذلك بعجيب ولا مستنكر ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ جملة تعليلية لما قبلها وهو من تمام كلامها، ومن قال انه من كلام زكريا فتكون الجملة مستأنفة وهذا دليل على جواز الكرامة لأولياء الله تعالى.

﴿هنالك﴾ ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله للمكان، وقيل انه للزمان خاصة (وهناك) للمكان، وقيل يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر، واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب.

﴿دعا زكريا ربه﴾ يعني أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم، أو في ذلك الزمان أن يهب الله له ذرية طيبة.

والذي بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنة لمريم وقد كانت عاقراً، فحصل له رجاء الولد وإن كان كبيراً، وامرأته عاقراً أو بعثه على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء عند مريم، لأن من

أوجد ذلك في غير وقته يقدر على إيجاد الولد من العاقر، وكان أهل بيته انقرضوا.

وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة سيقت في غضون قصة مريم لما بينهما من قوة الارتباط.

﴿قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ الذرية النسل يكون للواحد ويكون للجمع ويدل على أنها هنا للواحد قوله (فهب لي من لدنك ولياً) ولم يقل (أولياء) وتأنيث طيبة لكون لفظ الذرية مؤنثاً، والمعنى أعطني يا رب من عندك ولداً مباركاً تقياً صالحاً رضياً كهبتك لحنة العجوز العاقرمريم ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي سامعه ومجيبه.

﴿فنادته الملائكة﴾ قيل المراد هنا جبريل، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز في العربية، ومنه (الذين قال لهم الناس) وقيل ناداه جميع الملائكة وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع والمعنى الحقيقي مقدم فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينة ﴿وهو قائم يصلي في المحراب﴾ أي في المسجد قال السدى المحراب المصلى.

وقد أخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال اتقوا هذه المذابح يعني المحاريب[1].

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن موسى الجهني قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزال أمتي بخير مالم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى[2]» وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٩.

(٢) الإمام أحمد ٢/٢٢٩.

﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾ هو ممتنع من الصرف لكونه أعجمياً أو لكون وزن الفعل فيه مع العلمية كيعمر ويعيش ويزيد ويشكر وتغلب، وقيل أعجمي لا اشتقاق له، وهذا هو الظاهر فامتناعه للعلمية والعجمة الشخصية.

قال القرطبي حاكياً عن النقاش كان اسمه في الكتاب الأول حنا انتهى، والذي رأيناه في مواضع من الإنجيل أنه يوحنا قيل سمى بذلك لأن الله أحياه بالإيمان والنبوة، وقيل إن الله أحيا به الناس بالهدى، والمراد هنا التبشير بولادته أي يبشرك بولادة يحيى.

﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي بعيسى عليه السلام، وسمى كلمة الله لأنه كان بقوله سبحانه (كن) وقيل لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله، وقيل لأن الله بشر به مريم على لسان جبريل، وقيل لأن الله أخبر في كتبه المنزلة على الأنبياء أنه يخلق نبياً من غير واسطة أب فلما جاء قيل هذا هو تلك الكلمة يعني الوعد الذي وعد.

وقال أبو عبيد «بكلمة» أي بكتاب من الله، قال والعرب تقول أنشدني كلمة أي قصيدة.

ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين، وقيل بستة أشهر، قال ابن عباس كان يحيى وعيسى ابني الخالة وكانت أم يحيى تقول لمريم إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه بعيسى في بطن أمه، وهو أول من صدق بعيسى، وقتل يحيى قبل أن يرفع عيسى.

﴿وسيداً وحصوراً﴾ السيد الذي يسود قومه، قال الزجاج السيد الذي يفوق أقرانه في كل شيء من الخير، ويالها من سيادة ما أسناها، والحصور أصله من الحصر وهو الحبس تقول حصرني الشيء وأحصرني إذا حبسك، والحصور

الذي لا يأتي النساء كأنه تحجم عنهن كما يقال رجل حصور وحصير إذا حبس رفده ولم يخرجه.

فيحيى عليه السلام كان حصوراً عن إتيان النساء أي محصوراً لا يأتيهن كغيره من الرجال إما لعدم القدرة على ذلك أو لكونه يكف عنهن منعاً لنفسه عن الشهوة مع القدرة، وقال السمين الحصور فعول محول عن فاعل للمبالغة والضروب محول من ضارب، وهو الذي لا يأتي النساء إما لطبعه على ذلك وإما لمخالفة نفسه.

وفي القاموس الحصور من لا يأتي النساء وهو قادر على ذلك، والممنوع منهن أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن انتهى.

وقد رجح الثاني بأن المقام مقام مدح وهو لا يكون إلا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه لا على ما كان من أصل الخلقة وفي نفس الجبلة.

قال ابن عباس سيداً حليماً تقياً، وقال مجاهد السيد الكريم على الله، وقال ابن المسيب: السيد الفقيه العالم، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال كان ذكره مثل هدبة الثوب، وأخرجه أحمد في الزهد من وجه آخر عنه موقوفاً وهو أقوى وكان اسم أم يحيى اسيع.

﴿ونبياً من الصالحين﴾ أي ناشئاً من الصالحين لكونه من نسل الأنبياء وأصلابهم أو كائناً من جملة الصالحين كما في قوله ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ قال الزجاج الصالح الذي يؤدي لله ما افترض عليه وإلى الناس حقوقهم، وقيل المراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذي لابد منه في منصب النبوة قطعاً من أقاصي مراتبه وعليه مبني دعاء سليمان (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وفيه بعد، لأنه لا صلاح فوق صلاح النبوة.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ ظاهر هذا أن الخطاب منه لله سبحانه، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة، وذلك لمزيد التضرع والجهد في طلب الجواب عن سؤاله، وقيل إنه أراد بالرب جبريل أي يا سيدي.

وقيل في معنى هذا الاستفهام وجهان (أحدهما) أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها، وقيل معناه بأي سبب أستوجب هذا وأنا وامرأتي على هذه الحال.

والحاصل أنه استبعد حدوث الولد منها مع كون العادة قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما لأنه كان يوم التبشير كبيراً قيل في تسعين سنة، وقيل في عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته في ثمان وتسعين سنة، ولذلك جعل الكبر كالطلب له لكونه طليعة من طلائع الموت، فأسند الفعل إليه، والعاقر التي لا تلد أي ذات عقر على النسب، ولو كان على الفعل لقال عقيرة أي بها عقر يمنعها من الولد.

وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيبة ومشاهدته لتلك الآية الكبرى في مريم، استعظاماً لقدرة الله سبحانه، لا لمحض الاستبعاد وقيل أنه قد مر بعد دعائه إلى وقت بشارتها أربعون سنة، وقيل عشرون سنة فكان الاستبعاد من هذه الحيثية.

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، وهو إيجاد الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامة أعرف بها صحة الحبل فأتلقى هذه النعمة بالشكر، والجعل هنا بمعنى التصيير أو بمعنى الخلق والإيجاد، وإنما سأل الآية لأن العلوق أمر خفي، فأراد أن يطلع عليه ليتلقى تلك النعمة بالشكر من حين حصولها ولا يؤخره إلى ظهورها المعتاد.

ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد إذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سن يحيى وعيسى ستة أشهر لأن ظهور العلامة كان عقب طلبها لقوله في سورة مريم (فخرج على قومه من المحراب) الآية قاله أبو السعود.

﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس﴾ أي علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الأذكار، وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله سبحانه شكراً على ما أنعم به عليه، وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال، وقيل كان ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه، حكاه القرطبي عن أكثر المفسرين.

وقيل أن لا تقدر على تكليمهم وتمنع من كلامهم قهراً بحيث لو حاولت الكلام لم تقدر عليه ﴿ثلاثة أيام﴾ بلياليها لقوله تعالى في سورة مريم (ثلاث ليال سوياً) ﴿إلا رمزاً﴾ أي اشارة، والرمز في اللغة الايماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين وأصله الحركة وهو استثناء منقطع لكون الرمز من غير جنس الكلام ورجحه القاضي.

وقيل هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإفهام من لفظ أو إشارة أو كتابة وهو بعيد، والصواب الأول وبه قال الأخفش والكسائي وقيل

أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا، والأول أولى لموافقة أهل اللغة عليه.

﴿واذكر ربك﴾ أي في مدة الحبسة وعقد اللسان عن كلامهم شكراً لهذه النعمة ﴿كثيراً وسبح بالعشي﴾ هو جمع عشية وهي آخر النهار قاله الواحدي، وقيل هو واحد وهو المشهور وهو من حين زوال الشمس إلى أن تغيب، ومنه سميت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشاء، وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل وهو ضعيف ﴿والابكار﴾ بالكسر مصدر استعمل اسماً للوقت الذي هو البكرة وهو من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، وقيل المراد بالتسبيح الصلاة.

﴿وإذ قالت الملائكة﴾ عطف على اذ قالت امرأة عمران عطفاً لقصة البنت على قصة أمها لما بينهما من كمال المناسبة، وقصة زكريا وقعت فاصلة بينهما لمناسبة، والمعنى إذ قالت الملائكة مشافهة لها بالكلام. وهذا من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها.

﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ اختارك أولاً حيث قبلك من أمك وقبل تحريرك ولم يسبق ذلك لغيرك من الإناث ورباك في حجر زكريا ورزقك من الجنة ﴿وطهرك﴾ من مسيس الرجال أو الكفر أو من الذنوب أو من الادناس على عمومها، وكانت مريم لا تحيض أي خلقك مطهرة مما للنساء وبه جزم القاضي كالكشاف، وسيأتي في سورة مريم حاضت قبل حملها بعيسى مرتين.

﴿واصطفاك﴾ قيل هذا الاصطفاء الأخير غير الاصطفاء الاول، فالأول هو حيث تقبلها بقبول حسن، والأخير لولادة عيسى من غير أب، واصطفاها أيضاً بأن أسمعها كلام الملائكة مشافهة ولم يقع لغيرها ذلك، وقيل الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول والمراد بهما جميعاً واحد ﴿على نساء العالمين﴾ المراد بهن هنا قيل نساء عالم زمانهم وهو الحق، وقيل نساء جميع العالم إلى يوم القيامة واختاره الزجاج.

يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ أي أطيلي القيام في الصلاة أو ادعيه ودومي على طاعته بأنواع الطاعات، وقد تقدم الكلام في معاني القنوت ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي صلي مع المصلين، أطلق الجزء وأراد الكل وقدم السجود على الركوع لكونه أفضل أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب، والظاهر أن ركوعها مع ركوعهم فيدل على مشروعية صلاة الجماعة، وقيل المعنى أنها تفعل كفعلهم وإن لم تصل معهم، قال الاوزاعي لما قالت الملائكة لها ذلك شفاها قامت حتى تورمت قدماها وسالت دماً وقيحاً، وحكي عن مجاهد نحوه.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث علي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد[(١)]» وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون[(٢)]».

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت

(١) مسلم ٢٤٣٠، البخاري ١٦٠٢.
(٢) كتاب التاريخ ٥٩٤/٢.

عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام[1].

وفي المعنى أحاديث كثيرة تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها لا نساء العالم، ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أربع نسوة سادات نساء عالمهن مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ، وأفضلهن عالما فاطمة.

﴿ذلك من أنباء الغيب﴾ أي أخبار ما غاب عنك، فالاشارة إلى ما سبق من الأمور التي أخبره الله بها ﴿نوحيه إليك﴾ أي الأمر والشأن أنا نوحي إليك الغيب ونعلمك به، ونظهرك على قصص من تقدم مع عدم مدارستك لأهل العلم والأخبار، ولذلك أتى بالمضارع في (نوحيه) وهذا أحسن من عوده على (ذلك) وقال أبو السعود صيغة الاستقبال للايذان بأن الوحي لم ينقطع بعد، انتهى، والوحي في اللغة الأعلام في خفاء، يقال وحى وأوحى بمعنى، قال ابن فارس الوحي الاشارة والكتابة والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى يعلمه.

﴿وما كنت لديهم﴾ أي بحضرتهم يعني المتنازعين في تربية مريم، وإنما نفى حضوره عندهم مع كونه معلوماً لأنهم أنكروا الوحي، فلو كان ذلك الانكار صحيحاً لم يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة والحضور وهم لا يدعون ذلك، فثبت كونه وحياً مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة ولا من يلابس أهلها.

﴿إذ يلقون أقلامهم﴾ في الماء يقترعون، والأقلام جمع قلم من قلمه إذا قطعه وهو فعل بمعنى مفعول أي مقلوم، والقلم القطع ومنه قلمت ظفري أي

---

(١) مسلم ٢٤٣١، البخاري ١٦٠٦.

قطعته وسويته، ومثله القبض والنقض بمعنى المقبوض والمنقوض، أي أقلامهم التي يكتبون بها، وقيل قداحهم ليعلموا ﴿أيهم يكفل مريم﴾ أي يربي، وذلك عند اختصامهم في كفالتها كما قال تعالى ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ في كفالتها، فقال زكريا هو أحق بها لكون خالتها عنده، فاقترعوا وجعلوا أقلامهم في الماء الجاري على أن من وقف قلمه ولم يجر مع الماء فهو صاحبها، فجرت اقلامهم، ووقف قلم زكريا.

وقد استدل بهذا من أثبت القرعة، والخلاف في ذلك معروف وقد ثبتت أحاديث صحيحة في اعتبارها، وذكر الشوكاني في نيل الاوطار أن القرعة وردت في خمسة مواضع ثم عددها.

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي كائنة من عنده وناشئة منه من غير واسطة الأسباب العادية وهي ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل، وسمى كلمة لأنه وجد بكلمة (كن) فهو من باب إطلاق السبب على المسبب.

وفي أبي السعود في سورة النساء: يحكى أن طبيباً حاذقاً نصرانياً جاء للرشيد فناظر علي بن الحسين الواقدي ذات يوم فقال له إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية أي قوله (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وقال إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه سبحانه، فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيد فرحاً شديداً، وأعطى للواقدي صلة فاخرة.

وذلك الولد ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ المسيح اختلف فيه من ماذا أخذ فقيل من المسح لأنه مسح الأرض أي ذهب فيها فلم يستكن بكن، وقيل إنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء فسمي مسيحاً، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل، وقيل لأنه كان يمسح بالدهن الذي كانت الأنبياء تمسح به، وقيل إنه كان ممسوح الأخمصين، وقيل لأن الجمال مسحه وقيل لأنه مسح بالتطهير من

الذنوب، وهو على هذه الأربعة الأقوال فعيل بمعنى مفعول.

وقال أبو الهيثم المسح ضد المسخ بالخاء المعجمة، وقال ابن الأعرابي المسيح الصديق، وقال أبو عبيد أصله بالعبرانية مشيخاً بالمعجمتين فعرب كما عرب موشى بموسى، وقال في الكشاف هو لقب من الالقاب المشرفة ومعناه باللغة العبرية المبارك.

وأما الدجال فسمى مسيحاً لأنه ممسوح إحدى العينين، وقيل لأنه يمسح الأرض أي يطوف بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس.

وعيسى هو اسم أعجمي مأخوذ من العيس وهو بياض تعلوه حمرة، وقيل هو عربي مشتق من عاسه يعوسه إذا ساسه، وقال في الكشاف هو معرب من ايشوع انتهى.

والذي رأيناه في الانجيل في مواضع أن اسمه يشوع بدون همزة، وإنما قيل إن مريم مع أن الخطاب معها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب فنسب إلى أمه.

فإن قلت هذه ثلاثة أشياء الاسم والكنية واللقب، قلت المراد اسمه الذي يتميز به عن غيره وهو لا يتميز إلا بمجموع الثلاثة، وبهذا تعلم أن الخبر عن اسمه إنما هو مجموع الثلاثة من حيث المعنى لا كل واحد منها على حياله، فهذا على حد: الرمان حلو حامض.

وقال «ابن مريم» ولم يقل ابنك كما هو الظاهر إشارة إلى أنه يكنى بهذه الكنية المشتملة على الاضافة للظاهر وخاطبها بنسبته إليها تنبيهاً على أنها تلده بلا أب إذ عادة الناس نسبتهم إلى آبائهم، فأعلمت من نسبته إليها أنه لا ينسب إلا إلى أمه.

﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ الوجيه ذو الوجاهة وهي القوة والمنعة ووجاهته في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة ﴿ومن المقربين﴾ عند الله يوم القيامة، وفيه تنبيه على علو منزلته وأنه رفعه إلى السماء.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ المهد مضجع الصبي في رضاعه، قاله ابن عباس ومهدت الامر هيأته ووطأته، والكهل هو من كان بين سن الشباب والشيخوخة أي يكلم الناس حال كونه رضيعاً في المهد قبل وقت الكلام، وحال كونه كهلاً بالوحي والرسالة، قاله الزجاج.

وقد ثبت في الصحيح أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة منهم عيسى، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتكلم في المهد إلا عيسى وشاهد يوسف وصاحب جريج وابن ماشطة فرعون[1].

وقال الخفاجي: الذين تكلموا في المهد أحد عشر نظمهم الجلال السيوطي في قوله:

تكلم في المهد النبي محمد[2]	ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبري جريج ثم شاهد يوسف	وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالأمة التي	يقال لها تزنى ولا تتكلم
وماشطة في عهد فرعون طفلها	وفي زمن الهادي المبارك يختم

انتهى، وقال قتادة في المهد وكهلاً يعني يكلمهم صغيراً وكبيراً، قال ابن عباس الكهل هو من في سن الكهولة، وعن مجاهد قال الكهل الحليم.

(١) مسلم ٢٥٥٠، البخاري ٦٥٣.
(٢) هذا واكثر ما يذكر في هذه الأبيات لا يصح.

وعن ابن عباس قال تكلم عيسى ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق والذي تكلم به هو قوله ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب﴾ الآية وتكلم ببراءة أمه عما رماها به أهل القرية من القذف.

قال ابن قتيبة لما كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله، وقال وهب مكث ثلاث سنين.

قيل وفي الآية بشارة لمريم بأنه يبقى حتى يكتهل، وفيه أنه يتغير من حال إلى حال، ولو كان إلهاً لم يدخل عليه التغير، ففيه رد على النصارى، وقال الحسن ابن الفضل يكلم الناس كهلاً بعد نزوله من السماء، وفيه نص على أنه سينزل من السماء إلى الأرض.

﴿ومن﴾ العباد ﴿الصالحين﴾ مثل إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب وموسى وغيرهم من الانبياء، وانما ختم أوصافه بالصلاح لانه لا يسمى المرء صالحاً حتى يكون مواظباً على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أحواله، وذلك يتناول جميع المقامات في الدين والدنيا في أفعال القلوب وفي أفعال الجوارح، ولهذا قال سليمان بعد النبوة وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

﴿قالت﴾ على طريقة الاستبعاد العادي ﴿رب أنّى﴾ كيف ﴿يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ أي والحال أنه على حالة منافيه للحالة المعتادة من كون له أب ولم يصبني رجل بتزوج ولا غيره.

﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ يعني هكذا يخلق الله منك ولداً من غير أن يمسك بشر، وعبر هنا بالخلق وفي قصة يحيى بالفعل لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ، فكان الخلق المنبيء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل.

﴿إذا قضى أمراً﴾ هو من كلام الله سبحانه وأصل القضاء الأحكام وقد تقدم وهو هنا الارادة أي إذا أراد أمراً من الأمور ﴿فانما يقول له كن فيكون﴾ من غير عمل ولا مزاولة وهو تمثيل لكمال قدرته.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿ويعلمه﴾ بالنون والياء وعلى كلتا القراءتين هو كلام مستأنف لأن النحاة وأهل البيان نصوا على أن الواو تكون للاستئناف أو عطف على يبشرك أو وجيهاً، وقال التفتازاني إنما يحسنان بعض الحسن على قراءة الياء، وأما على قراءة النون فلا يحسن إلا بتقدير القول أي إن الله يبشرك بعيسى ويقول نعلمه أو وجيهاً، ومقولاً فيه نعلمه.

﴿الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل﴾ الكتاب الكتابة أو جنس الكتب الالهية قال ابن عباس: الكتاب الخط بالقلم، وكان أحسن الناس خطاً، والحكمة العمل، وقيل تهذيب الأخلاق.

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ أي ويجعله رسولاً أو يكلمهم رسولاً أو أرسلت رسولاً إليهم في الصبا أو بعد البلوغ، وفي حديث أبي ذر الطويل «وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى».

﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ يعني بعلامة على صدق قولي، ولما قال ذلك لهم قالوا وما هذه الآية قال ﴿أني أخلق﴾ أي أصور وأقدر ﴿لكم﴾ خلقاً أو شيئاً ﴿من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه﴾ أي في ذلك الخلق أو ذلك الشيء أو في الطين، قيل: إنه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة فان له ناباً وأسناناً وأذناً، والأنثى منه له ثدي، وتحيض وتطهر وتطير.

قيل: إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة، ولكونه

يطير بغير ريش ويلد كما يلد سائر الحيوان مع كونه من الطير ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو يضحك كما يضحك الإنسان.

وقيل: إن سؤالهم له كان على وجه التعنت، قيل كان يطير ما دام الناس ينظرونه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز فعل الله من فعل غيره، قال ابن عباس «إنما خلق عيسى طائراً واحداً وهو الخفاش».

وقال هنا ﴿فأنفخ فيه﴾ وفي المائدة (فتنفخ فيها) باعادة الضمير هنا إلى الطير أو الطين وفي المائدة إلى هيئة الطير جرياً على عادة العرب في تفنتهم في الكلام.

وخص ما هنا بتوحيد الضمير مذكراً وما في المائدة بجمعه مؤنثاً لأن ما هنا إخبار من عيسى قبل الفعل فوحده، وما في المائدة خطاب من الله له في القيامة، وقد سبق من عيسى الفعل مرات فجمعه، قاله الكرخي.

﴿فيكون طيراً﴾ اسم جنس يقع على الواحد والاثنين والجمع، وقرىء طائراً على التوحيد ﴿بإذن الله﴾ فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وإن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام، قيل كانت تسوية الطين والنفخ من عيسى، والخلق من الله عز وجل.

﴿وأبرىء الأكمه والأبرص﴾ الأكمه هو يولد أعمى كذا قال أبو عبيدة، وقال ابن فارس: الكمه العمى يولد به الإنسان، وقد يعرض، يقال كمه يكمه كمهاً إذا عمي وكمهت عينه إذا أعميتها وقيل الأكمه الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل وقيل الأعمش وقيل هو الممسوح العين.

والبرص معروف وهو بياض يظهر في الجلد، ولم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه ، يقال برص يبرص برصاً أصابه ذلك ويقال له الوضح، وفي الحديث «وكان بها وضح» والوضاح من ملوك العرب هابوا أن يقولوا له

الأبرص، ويقال للقمر أبرص لشدة بياضه وللوزغ سام أبرص لبياضه، والبريص الذي يلمع لمعان البرص ويقارب البصيص.

وقد كان عيسى عليه السلام يبريء من أمراض عدة كما اشتمل عليه الانجيل، وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر لأنهما لا يبرآن في الغالب بالمداواة، وقال السيوطي: لأنهما داءان أعْيَا الأطباء وكان بعثه في زمن الطب، فأبرأ في يوم خمسين ألفاً بالدعاء بشرط الإيمان.

ولم يقل في هذين باذن الله، لأنهما ليس فيهما كبير غرابة بالنسبة إلى الآخرين، فتوهم الألوهية فيهما بعيد، فلا يحتاج إلى التنبيه على نفيه خصوصاً وكان فيهم أطباء كثيرون.

﴿وأحيي الموتى﴾ أي وكذلك إحياء الموتى، قد اشتمل الانجيل على قصص من ذلك، قال ابن عباس: قد أحيى أربعة أنفس: عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام ابن نوح، وكلهم بقي وولد له إلا سام، قيل وكان دعاؤه باحيائهم يا حي يا قيوم ﴿بإذن الله﴾ كرره لنفي توهم الألوهية فيه لأن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية فهو رد على النصارى.

﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ أي بما أكلتم البارحة من طعام وما خبأتم منه، عن عمار بن ياسر قال: بما تأكلون من المائدة وما تدخرون منها، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا فأكلوا وادخروا وخانوا، فجعلوا قردة وخنازير، وفي هذا دليل قاطع على صحة نبوة عيسى معجزة عظيمة له.

وهذا إخبار من المغيَّبات مع ما تقدم له من الآيات الباهرات وإخباره عن الغيوب باعلام الله اياه بذلك، وهذا مما لا سبيل لأحد من البشر إليه إلا الأنبياء عليهم السلام، وأما أخبار المنجم والكاهن فلا بد لكل واحد منهما من مقدمات يرجع إليها ويعتمد في اخباره عليها، وقد يخطىء في كثير مما يخبر به.

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من خلق الطير وغيره ﴿لآية لكم﴾ أي عبرة ودلالة على صدقي ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين بذلك انتفعتم بهذه الآية.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ومصدقاً﴾ أي وجئتكم مصدقاً ﴿لما بين يديّ من التوراة﴾ وذلك لأن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وسبعون سنة ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ أي لأجل أحل لكم بعض الذي حرم عليكم من الأطعمة في التوراة كالشحوم وكل ذي ظفر كما في قوله تعالى ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ الآية، وقوله ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ وقيل إنما أحل لهم ما حرمته عليهم الأحبار ولم تحرمه التوراة.

وقال أبو عبيدة يجوز أن يكون بعض بمعنى كل، قال القرطبي: وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل، ولأن عيسى لم يحلل لهم جميع ما حرمته عليهم التوراة فإنه لم يحلل القتل ولا السرقة ولا الفاحشة وغير ذلك من المحرمات الثابتة في الانجيل مع كونها ثابتة في التوراة وهي كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين.

ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة، وعن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس. وقال لبني إسرائيل إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وأضع عنكم الآصار.

وعن الربيع قال كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرم عليهم الشحوم فأحلت لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير وفي أشياء أخر حرمها عليهم وشدد عليهم فيها فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل.

﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ هي قوله ﴿إن الله ربي وربكم﴾ وإنما كان ذلك آية لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته، ويحتمل أن تكون هذه الآية هي الآية المتقدمة فيكون تكريراً لقوله ﴿إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾ الآية، وقيل هذه الجملة تأكيد للأولى، وقيل تأسيس لا توكيد.

﴿فاتقوا الله﴾ يامعشر بني إسرائيل فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وأطيعون﴾ فيما أدعوكم إليه لأن طاعة الرسول من توابع تقوى الله ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ وجميع الرسل كانوا على دين واحد وهو التوحيد، ولم يختلفوا في الله، وفيه حجة بالغة على نصارى وفد نجران ومن قال بقولهم ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يعني التوحيد، فكذبوه ولم يؤمنوا به.

(فلما أحس عيسى منهم الكفر) أحس علم ووجد، قاله الزجاج، وقال أبو عبيدة: معنى أحس عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة، والإحساس العلم بالشيء، قال تعالى ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ والمراد بالإحساس هنا الإدراك القوي الجاري مجرى المشاهدة وبالكفر إصرارهم عليه، وقيل سمع منهم كلمة الكفر، وقال الفراء أرادوا قتله.

وعلى هذا فمعنى الآية فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التي هي كفر، والذين أرادوا قتله هم اليهود وذلك أنهم كانوا عارفين من التوراة بأنه المسيح المبشر به في التوراة وأنه ينسخ دينهم، فلما أظهر عيسى الدعوة اشتد ذلك عليهم

وأخذوا في أذاه وطلبوا قتله وكفروا به فاستنصر عليهم كما أخبر الله عنه بقوله.

﴿قال من أنصاري﴾ الأنصار جمع نصير ﴿إلى الله﴾ أي متوجهاً إلى الله وملتجئاً إليه أو ذاهباً إليه، وقيل إلى بمعنى مع كقوله تعالى ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ وقيل المعنى من أنصاري في السبيل إلى الله، وقيل المعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله.

وقيل لما بعث الله عيسى وأمره باظهار رسالته والدعاء إليه نفوه وأخرجوه من بينهم، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض يقول من أنصاري إلى الله.

﴿قال الحواريون﴾ جمع حواري، وحواري الرجل صفوته وخلاصته وهو مأخوذ من الحور وهو البياض عند أهل اللغة حورت الثياب بيضتها، والحواري من طعام ما حوري أي بيض، والحواري الناصر، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لكل نبي حواري، وحواري الزبير، وهو في البخاري وغيره، قال ابن عباس كانوا صيادين، وقال الضحاك هم قصارون مر بهم عيسى فآمنوا به.

وعن قتادة قال: الحواريون هم الذين تصلح لهم الخلافة، وقيل هم أصفياء الأنبياء، وقيل الحواري الوزير.

وقد اختلف في سبب تسميتهم بذلك فقيل لبياض ثيابهم، وقيل لخلوص نياتهم، وقيل لأنهم خاصة الأنبياء وكانوا اثني عشر رجلاً وهم أول من آمن به.

﴿نحن أنصار الله﴾ أي أنصار دينه ورسله ﴿آمنا بالله﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله فإن الإيمان يبعث على النصرة ﴿واشهد﴾ أنت يا عيسى لنا يوم القيامة ﴿بأنا مسلمون﴾ أي مخلصون لإيماننا منقادون لما تريد منا إيذاناً بأن غرضهم السعادة الأخروية.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ في كتبك، تضرع إلى الله سبحانه وعرض لحالهم عليه بعد عرضها على الرسول مبالغة في إظهار أمرهم ﴿واتبعنا الرسول﴾ أي عيسى وحذف المتعلق مشعر بالتعميم أي اتبعناه في كل ما يأتي به ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ لك بالوحدانية ولرسولك بالرسالة فأثبت أسماءنا بأسمائهم، واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به، أو اكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم وقيل مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته أنهم شهدوا له أنه قد بلغ وشهدوا للرسل أنهم قد بلغوا.

﴿ومكروا﴾ أي الذين أحس عيسى منهم الكفر وهم كفار بني إسرائيل إذ وكلوا به من يقتله غيلة أي خفية ﴿ومكر الله﴾ هو استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون، قاله الفراء وغيره، وقال الزجاج مكر الله مجازاتهم على مكرهم. فسمى الجزاء باسم الإبتداء كقوله تعالى ﴿الله يستهزيء بهم﴾ وهو خادعهم. وأصل المكر في اللغة الاغتيال والخدع. حكاه ابن فارس. وعلى هذا فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة، وقيل مكر الله هنا إلقاء شبه عيسى على غيره ورفع عيسى إليه.

أخرج ابن جرير عن السدى قال إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة فأخذها رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله ﴿ومكروا ومكر الله﴾ ﴿والله خير الماكرين﴾ أي أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً وأقدرهم على إيصال الضرر بمن يريد ايصاله من حيث لا يحتسب.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾

﴿اذا قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك اليّ﴾ قال الفراء إن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره إني رافعك ومطهرك بعد إنزالك من السماء، قال أبو زيد: متوفيك قابضك، وقيل الكلام على حاله من غير ادعاء تقديم وتأخير فيه، والمعنى كما قال في الكشاف: مستوفى أجلك، ومعناه أني عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخر أجلك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم، عن مطر الوراق قال متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت.

وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما ذكر لأن الصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة كما رجحه كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير الطبرى.

ووجه ذلك أنه قد صح في الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزوله وقتله الدجال، وقيل إن الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء وفيه ضعف، وقيل المراد بالوفاة هنا النوم ومثله ﴿هو الذي يتوفاكم بالليل﴾ أي ينيمكم وبه قال كثيرون.

وقيل الواو في قوله (ورافعك) لا تفيد الترتيب لأنها لمطلق الجمع فلا فرق بين التقديم والتأخير قاله أبو البقاء، وقال أبو بكر الواسطي: المعنى إني متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك، وهذا بالتحريف أشبه منه بالتفسير.

وعن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة رفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وحملت به أمه ولها ثلاث عشرة سنة، وولدته بمضي خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل وعاشت بعد رفعه ست سنين.

وأورد على هذا عبارة المواهب مع شرحها للزرقاني وإنما يكون الوصف بالنبوة بعد بلوغ الموصوف بها أربعين سنة إذ هو سن الكمال ولها تبعث الرسل، ومفاد هذا الحصر الشامل لجميع الأنبياء حتى يحيى وعيسى هو الصحيح، ففي زاد المعاد للحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى ما يذكر: أن عيسى رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة لا يعرف به أثر متصل يجب المصير إليه، قال الشامي وهو كما قال، فإن ذلك إنما يروى عن النصارى، والمصرح به في الأحاديث النبوية أنه إنما رفع وهو ابن مائة وعشرين سنة.

ثم قال الزرقاني: وقع للحافظ الجلال السيوطي في تكملة تفسير المحلى وشرح النقاية وغيرهما من كتبه الجزم بأن عيسى رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ويمكث بعد نزوله سبع سنين، وما زلت أتعجب منه مع مزيد حفظه وإتقانه وجمعه للمعقول والمنقول حتى رأيته في (مرقاة الصعود) رجع عن ذلك انتهى.

قلت: وفي حديث أبي داود الطيالسي بدل سبع سنين أربعين سنة ويتوفى ويصلى عليه، قال السيوطي: فيحتمل أن المراد مجموع لبثه في الأرض قبل الرفع وبعده انتهى، وفيه ما تقدم.

وأورد على قوله «ليلة القدر» أنهامن خصائص هذه الأمة وربما يقال في الجواب لعل الخصوصية على الوجه الذي هي عليه الآن من كون العمل فيها خيراً من العمل في ألف شهر، ومن كون الدعاء فيها مجاباً حالاً بعين المطلوب

وغير ذلك فلا ينافي أنهاكانت موجودة في الأمم السابقة لكن على مزية وفضل أقل مما هي عليه الآن.

﴿ومطهرك﴾ أي مبعدك ومخرجك ﴿من الذين كفروا﴾ أي من خبث جوارهم وسوء صحبتهم ودنس معاشرتهم برفعك إلى السماء وبعدك عنهم. قال الحسن: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه، لأن كونه في جملتهم بمنزلة التنجيس له بهم، قاله الكرخي.

﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا﴾ أي الذين اتبعوا ما جئت به وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا في الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلها، ومنهم المسلمون فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام ووصفوه بما يستحقه من دون غلو فلم يفرطوا في وصفه كما فرطت اليهود، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى، وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم.

وقيل المراد بالآية أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين علي اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم فيكون المراد بالذين كفروا هم اليهود خاصة، وقيل هم الروم لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين، وقيل هم الحواريون لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح. وقيل هم المسلمون والنصارى.

وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار أو لكل طوائف الكفار لا ينافي كونهم مقهورين مغلوبين لطوائف المسلمين كما يفيده الآيات الكثيرة بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل الملل قاهرة لها مستعلية عليها.
وقد أفرد الشوكاني هذه الآية بمؤلف سماه **(وبل الغمامة في تفسير)** ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ فمن أراد استيفاء ما في المقام فليرجع إلى ذلك.

وحاصل ما ذكره أن صيغة الذين اتبعوك من صيغ العموم، وكذلك صيغة الذين كفروا من صيغ العموم، والواجب العمل بما دل عليه النظم القرآني، وإذا ورد ما يقتضي تخصيصه أو تقييده أو صرفه عن ظاهره وجب العمل به، وإن لم يرد ما يقتضي ذلك وجب البقاء على معنى العموم، وظاهره شمول كل متبع، وأنه مجعول فوق كل كافر، وسواء كان الاتباع بالحجة أو بالسيف أو بهما. وفي كل الدين أو بعضه، وفي جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال أو في بعضها.

والمراد بالكافر الذي جعل المتبع فوقه كل كافر سواء كان كفره بالستر لما يعرفه من نبوة عيسى أو بالمكر به، أو بالمخالفة لدينه، إما بعدم التمسك بدين من الأديان قط كعبدة الأوثان والنار والشمس والقمر والجاحدين لله والمنكرين للشرائع، وإما مع التمسك بدين يخالف دين عيسى قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كاليهود وسائر الملل الكفرية.

فالمتبعون لعيسى بأي وجه من تلك الوجوه هم المجعولون فوق من كان كافراً بأي تلك الأنواع.

ثم بعد البعثة المحمدية لا شك أن المسلمين هم المتبعون لعيسى لإقراره بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتبشيره بها كما في القرآن الكريم والإنجيل، بل في الإنجيل الأمر لأتباع عيسى باتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فالمتبعون لعيسى بعد البعثة المحمدية هم المسلمون في أمر الدين، ومن بقي على النصرانية بعد البعثة المحمدية فهو وإن لم يكن متبعاً لعيسى في أمر الدين ومعظمه، لكنه متبع له في الصورة وفي الإسم وفي جزئيات من أجزاء الشريعة العيسوية، فقد صدق عليهم أنهم متبعون له في الصورة وفي الإسم، وفي شيء

مما جاء به، وإن كانوا على ضلال ووبال وكفر، فذلك لا يوجب خروجهم عن العموم المذكور في القرآن الكريم.

ولا يستلزم اندراجهم تحت هذا العموم أنهم على شيء، بل هم هالكون في الآخرة وإن كانوا مجعولين فوق الذين كفروا، فذلك إنما هو في هذه الدار، ولهذا يقول الله جل وعلا بعد قوله ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ الآية ﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ إلى قوله ﴿لا يحب الظالمين﴾.

فالحاصل أن المجعولين فوق الذين كفروا هم أتباع عيسى قبل النبوة المحمدية، وهم النصارى والحواريون، وبعد النبوة المحمدية هم المسلمون والنصارى والحواريون، والأولون هم الأتباع حقيقة، وغيرهم هم الأتباع في الصورة، وقد جعل الله الجميع فوق الذين كفروا من اليهود وسائر الطوائف الكفرية.

وقد كان الواقع هكذا فإن الملة النصرانية قبل البعثه المحمدية كانت قاهرة لجميع الملل الكفرية ظاهرة عليها، غالبة لها، وبعد البعثة المحمدية صارت جميع الأمم الكفرية نهبى بين الملة الإسلامية والملة النصرانية ما بين قتيل وأسير ومسلم للجزية وهذا يعرفه كل من له إلمام بأخبار العالم.

ولكن الله تعالى جعل الملة الإسلامية قاهرة للملة النصرانية مستظهرة عليها. وفاء بوعده في كتابه العزيز كما في الآيات المشتملة على الأخبار بأن جنده هم الغالبون، وحزبه هم المنصورون، ومن ذلك قوله تعالى ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

وقد أخبر الصادق المصدوق بظهور أمته على جميع الأمم وقهر ملته لجميع الأمم. وبالجملة إنا إذا جردنا النظر الى الملة الإسلامية والملة النصرانية فقد ثبت

في الكتاب والسنة ما يدل على استظهار الملة الإسلامية على الملة النصرانية، وإن نظرنا إلى جميع الملل فالملة الإسلامية والملة النصرانية هما فوق سائر الملل الكفرية لهذه الآية.

ولا ملجىء إلى جعل الضمير المذكور في الآية وهو الكاف لنبينا محمد ﷺ كما تكلفه جماعة من المفسرين، لأن جعله لعيسى كما يدل عليه السياق، بل هو الظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه، لا يستلزم إخراج الملة المحمدية بعد البعثة، إذ هم متبعون لعيسى كما عرفت سابقاً.

ولا خلاف بين أهل الإسلام أن الملة النصرانية كانت قبل البعثة المحمدية هي القاهرة لجميع الملل الكفرية، فلم يبق في تحويل الضمير عن مرجعه الذي لا يحتمل السياق غيره فائدة إلا تفكيك النظم القرآني والاخراج له عن الأساليب البالغة في البلاغة إلى حد الإعجاز.

ومن تدبر هذا الوجه الذي حررناه علم أنه قد أعطى التركيب القرآني ما يليق ببلاغته من بقاء عموم الموصول الأول والموصول الثاني وعدم التعرض لتخصيصه بما ليس بمخصص، وتقييده بما ليس بمقيد، وعدم الخروج عن مقتضى الظاهر في مرجع الضمائر وعدم ظن التعارض بين ما هو متحد الدلالة: انتهى.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويحكم بين العباد بالشريعة المحمدية، ويكون المسلمون أنصاره وأتباعه إذ ذاك، فلا يبعد أن يكون في هذه الآية إشارة إلى هذه الحالة.[1]

﴿إلى يوم القيامة﴾ غاية للجعل أو للاستقرار المقدر في الظرف لا على معنى أن ذلهم ينتهي يوم القيامة، بل على معنى أن المسلمين يعلونهم إلى تلك

(١) مسلم/ ٢٩٤٠.

الغاية، فأما بعدها فيفعل الله بهم ما يريد كما ذكره بقوله ﴿فأما الذين كفروا﴾ الخ.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «لاتزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يبالون بمن خالفهم حتى يأتي أمر الله[1]» قال النعمان من قال إني أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل فإن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾.

وأخرج ابن عساكر عن معاوية مرفوعاً نحوه، ثم قرأ معاوية الآية.

عن ابن زيد قال النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة ليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود في شرق ولا غرب، وهم في البلدان كلها مستذلون.

﴿ثم إليّ مرجعكم﴾ أي مرجع الفريقين: الذين اتبعوا عيسى والذين كفروا به، والمرجع الرجوع، وتقديم الظرف للقصر ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي من أمور الدين.

﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ تفسير للحكم الواقع بين الفريقين إلى آخر الآية[2]، وتعذيبهم في الدنيا بالقتل والسبي والجزية والصغار، وأما في الآخرة فبعذاب النار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ يمنعونهم من عذابنا من مقابلة الجمع بالجمع.

---

(١) مسلم ١٩٢٠، ابن ماجه المقدمة.
(٢) قيل المراد بهم هم اليهود والنصارى.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم﴾ بالياء والنون ﴿أجورهم﴾ أي يعطيهم إياها كاملة موفرة ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ نفي الحب كناية عن بغضهم، واستعمال عدم محبة الله في هذا المعنى شائع في جميع اللغات جار مجرى الحقيقة، وهي جملة تذييلية مقررة لما قبلها.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى وغيره ﴿نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ المشتمل على الحكم أو المحكم الذي لا خلل فيه.

﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ أي شأنه الغريب، والجملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها تعلقاً صناعياً بل تعلقاً معنوياً، وزعم بعضهم أنها جواب قسم، وذلك القسم هو قوله ﴿والذكر الحكيم﴾ فالواو حرف جر لا حرف عطف وهذا بعيد أو ممتنع إذ فيه تفكيك لنظم القرآن وإذهاب لرونقه وفصاحته.

﴿كمثل آدم﴾ في الخلق والإنشاء تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقاً بغير أب كآدم ولا يقدح في التشبيه اشتمال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له كما انه لا أب له، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه وأعظم عجباً وأغرب أسلوباً، وعبارة الكرخي هو تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس، وبه قال السيوطي.

﴿خلقه من تراب﴾ جملة مفسرة لما أبهم في المثل وخبر مستأنف على جهة التفسير لحال خلق آدم أي ان آدم لم يكن له أب ولا أم بل خلقه الله من تراب، وقدره جسداً من طين، وفي ذلك دفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من

غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب وأم.

﴿ثم قال له كن﴾ بشراً أي أنشأه خلقاً بالكلمة، وكذلك عيسى أنشأه خلقاً بالكلمة وقيل الضمير يرجع إلى عيسى ﴿فيكون﴾ أي فكان بشراً، أريد بالمستقبل الماضي أي حكاية حال ماضية.

عن ابن عباس أن رهطاً من أهل نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا ما شأنك تذكر صاحبنا. قال من هو قالوا عيسى تزعم أنه عبد الله، قالوا فهل رأيت مثل عيسى وأنبئت به، فخرجوا من عنده، فجاء جبريل فقال قل لهم إذا أتوك (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الآية[1].

وقد رويت هذه القصة على وجوه عن جماعة من الصحابة والتابعين، وأصلها عند البخاري ومسلم، وحكى أن بعض العلماء أسر في بعض بلاد الروم فقال لهم لم تعبدون عيسى؟ قالوا لأنه لا أب له، قال فآدم أولى لأنه لا أب له ولا أم، قالوا وكان يحيي الموتى فقال حزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وأحيا حزقيل أربعة آلاف، قالوا وكان يبرىء الاكمه والأبرص، قال فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سليماً.

﴿الحق من ربك﴾ أي جاءك الحق من ربك يعني الذي أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق، والجملة على هذا خبر مبتدأ محذوف، وقيل مستأنفة برأسها، والمعنى أن الحق الثابت الذي لا يضمحل هو من ربك، ومن جملة ما جاء من ربك قصة عيسى وأمه فهو حق ثابت.

﴿فلا تكن من الممترين﴾ الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس أي لا يكن أحد منهم ممترياً أو للرسول ﷺ، ويكون النهي له لزيادة التثبيت لأنه لا يكون منه شك في ذلك.

---

(١) ابن كثير ١/٣٦٨.

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

﴿فمن﴾ شرطية وهو الظاهر أو موصولة ﴿حاجّك فيه﴾ أي في عيسى وهو الأظهر، وقيل في الحق وهو الأقرب، والمحاجة مفاعلة وهي من الاثنين وكان الأمر كذلك.

﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأن عيسى عبد الله ورسوله ومن للتبعيض أو لبيان الجنس ﴿فقل تعالوا﴾ العامة على فتح اللام لأنه أمر من تعالى يتعالى كترامى بترامى، وأصل ألفه ياء وأصل هذه الياء واو لأنه مشتق من العلو وهو الإرتفاع، تقول في الواحد تعال يا زيد، وفي الجمع المذكور تعالوا، وتقول يا زيدان تعاليا، وياهندان تعاليا ويا نسوة تعالين، قال تعالى (فتعالين أمتّعكن).

وقرأ الحسن ﴿تعالوا﴾ بضم اللام، وتعال فعل أمر صريح وليس باسم فعل لاتصال الضمائر المرفوعة البارزة به، قيل وأصله طلب الاقبال من مكان مرتفع تفاؤلاً بذلك وإذناً للمدعو لأنه من العلو والرفعة، ثم توسع فيه فاستعمل في مجرد طلب المجيء حتى تقول ذلك لمن تريد إهانته كقولك للعدو «تعال» ولمن لا يعقل كالبهائم ونحوها، وقيل هو الدعاء لمكان مرتفع ثم توسع فيه حتى استعمل في طلب الاقبال إلى كل مكان حتى المنخفض.

﴿ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ هذا وإن كان عاماً فالمراد الخاص وهم النصارى الذين وفدوا إليه ﷺ من نجران كما أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال قدم على النبي ﷺ العاقب والسيد فدعاهما إلى الإسلام فقالا أسلمنا يا محمد ﷺ

فقال كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام، قالا فهات، قال حب الصليب وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير[١].

قال جابر فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على ذلك الغد فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه وأقرا له فقال «والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما ناراً» قال جابر فيهم نزلت ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا﴾ الآية.

قال جابر «أنفسنا وأنفسكم» رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي، وأبناءنا الحسن والحسين، ونساءنا فاطمة، ورواه الحاكم من وجه آخر عن جابر وصححه وفيه أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم هل لك أن نلاعنك.

وأخرج مسلم والترمذي وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية (قل تعالوا) دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهلي[٢].

وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه ﴿تعالوا ندع أبناءنا﴾ الآية قال فجاء بأبي بكر وولده وبعمر وولده وبعثمان وولده وبعلي وولده.

ويمكن أن يقال هو على عمومه لجماعة أهل الدين وإن كان السبب خاصاً، فيدل على جواز المباهلة منه صلى الله عليه وآله وسلم لكل من حاجه في عيسى عليه السلام، وأمته أسوته.

وضمير «فيه» لعيسى كما تقدم، والمراد بمجيء العلم هنا مجيء سببه وهو الآيات البينات، والمحاجة المخاصمة والمجادلة وتعالوا أي هلموا وأقبلوا، وأصله الطلب لإقبال الذوات، ويستعمل في الرأى إذا كان المخاطب حاضراً، كما تقول لمن هو حاضر عندك تعال ننظر في هذا الأمر.

---

(١) ابن كثير ١/٣٦٨.

(٢) ابن كثير ١/٣٧١.

واكتفى بذكر البنين عن البنات إما لدخولهن في النساء او لكونهم الذين يحضرون مواقف الخصام دونهن.

ومعنى الآية ليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة، وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه صلى الله عليه وآله وسلم أراد بالأبناء الحسنين كما تقدم.

وإنما خص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل، وإنما قدمهم في الذكر على نفسه لينبه بذلك على لطف مكانهم وقرب منزلتهم.

إن قلت القصد من المباهلة تبين الصادق من الكاذب وهذا يختص به وبمن يباهله فلم ضم إليه الأبناء والنساء في المباهلة.

قلت ذلك أتم في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث تجرأ على تعريض أعزته، وفي الدلالة على ثقته بكذب خصمه ولأجل أن يهلك خصمه مع أعزته جميعاً لو تمت المباهلة.

﴿ثم نبتهل﴾ نتضرع إلى الله، وأصل الإبتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره يقال بهله الله أي لعنه والبهل اللعن.

قال أبو عبيد والكسائي نبتهل نلتعن، ويطلق على الاجتهاد في الهلاك قال في الكشاف: ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً.

أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «هذه الإخلاص، يشير بأصبعه التي تلي الأبهام، وهذا الدعاء فرفع يديه حذو منكبيه، وهذا الابتهال فرفع يديه مداً».

قال في الجمل: وقع البحث عند شيخنا العلامة الدواني قدس الله سره في جواز المباهلة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكتب رسالة في شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار وكلام الأئمة، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا في أمر مهمّ شرعاً وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة

فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعي في إزالة الشبهة، وتقديم النصح والانذار، وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها انتهى من تفسير الكازروني انتهى.

﴿قلت﴾ وقد دعا الحافظ ابن القيم رحمه الله من خالفه في مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل إلى المباهلة بين الركن والمقام، فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة، وتمام هذه القصة مذكور في أول كتابه المعروف بالنونية[1].

وأتى سبحانه وتعالى هنا بثم تنبيهاً لهم على خطيئتهم في مباهلته كأنه يقول لهم لا تعجلوا وتأنوا لعله أن يظهر لكم الحق، فلذلك أتى بحرف التراخي ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ يعني منا ومنكم بأن نقول اللهم العن الكاذب في شأن عيسى أي الذي يقول إنه ابن الله ويقول إنه إله، هذه جملة مبينة لمعناه.

وفي الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه لم يرو أحد من موافق ومخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة، لأنهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها في كتبهم.

﴿إن هذا﴾ أي الذي قصه الله على رسوله من نبأ عيسى ﴿لهو القصص الحق﴾ القصص التتابع يقال فلان يقص أثر فلان أي يتبعه، فأطلق على الكلام الذي يتبع بعضه بعضاً، وضمير الفصل للحصر ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده، وزيادة من في قوله ﴿وما من إله﴾ لتأكيد العموم والاستغراق ﴿إلا الله﴾ وهو رد على من «قال» بالتثليت من النصارى ﴿وإن الله لهو العزيز﴾ أي الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف أمره، وادعى معه إلهاً آخر ﴿الحكيم﴾ أي في تدبيره، وفيه رد على النصارى لأن عيسى لم يكن كذلك.

---

(١) القصيدة النونية للإمام ابن القيم تبلغ أكثر من ستة آلاف بيت ذكر فيها جميع الفرق الإسلامية. السلفية والخلفية، وانتصر فيها للسلف وبين زيغ الخلف، وقد شرحها العلامة خليل الهراس من علماء الأزهر في جزأين وطبعها بمطبعة الإمام ١٣ شارع قرقول المنشية بالقلعة بمصر

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوه ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غيره وفيه وعيد وتهديد لهم شديد.

﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ قيل الخطاب لأهل نجران بدليل ما تقدم قبل هذه الآية، وقيل ليهود المدينة، وقيل لليهود والنصارى جميعاً، وهو ظاهر النظم القرآني، ولا وجه لتخصيصه بالبعض، لأن هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله ﷺ، بالسواء العدل.

قال الفراء يقال في معنى العدل سوى وسواء. فإذا فتحت السين مددت وإذا ضممت أو كسرت قصرت، وفي قراءة ابن مسعود (إلى كلمة عدل) فالمعنى أقبلوا إلى ما دعيتم إليه وهي الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق، والعرب تسمى كل قصة أو قصيدة لها أول وآخر وشرح «كلمة» وقد فسرها بقوله ﴿أن لا نعبد إلا الله﴾ أي هي أن لا نعبد ﴿ولا نشرك به شيئاً﴾ وذلك أن النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح وأشركوا به وهو قولهم أب وابن وروح القدس، فجعلوا الواحد ثلاثة.

وقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس قال حدثني أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرىء فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم

يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[١] ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، إلى قوله بأنا مسلمون[٢]».

وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكفار ﴿تعالوا إلى كلمة﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا يهود المدينة إلى ما في هذه الآية فأبوا عليه فجاهدهم حتى أقروا بالجزية، وعن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء.

﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير، وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس البشر، وبعض منهم، وإزراء على من قلد الرجال في دين الله فحلل ما حللوه وحرم ما حرموه عليه، فإن من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده رباً، ومنه (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله).

قال ابن جريج لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، ويقال إن تلك الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم في غير عبادة وإن لم يصلوا لهم، وعن عكرمة قال سجود بعضهم بعضاً.

﴿فإن تولوا﴾ أعرضوا عن التوحيد، قال أبو البقاء هو ماض ولا يجوز أن يكون التقدير فإن تتولوا لفساد المعنى. وهذا الذي قاله ظاهر جداً قاله السمين ﴿فقولوا﴾ أي أنت والمؤمنون ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ موحدون لما لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم.

---

(١) الأريسين: هم العامة.

(٢) صحيح مسلم ١٧٧٣. البخاري ٧.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ياأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ لما ادعت كل طائفة من طائفتي اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم، رد الله سبحانه ذلك عليهم وأبان بأن الملة اليهودية والملة النصرانية إنما كانتا من بعده.

قال الزجاج هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى أن التوراة والإنجيل نزلا من بعده وليس فيهما إسم لواحد من الأديان، وإسم الإسلام في كل كتاب، وفيه نظر فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة وذكر شريعة موسى والاحتجاج بها على اليهود، وكذلك الزبور فيه مواضع ذكر شريعة موسى، وفي أوائله التبشير بعيسى، ثم في التوراة ذكر كثير من الشرائع المتقدمة، يعرف كل هذا من يعرف هذه الكتب المنزلة.

وقد اختلف في قدر المدة التي بين إبراهيم وموسى. والمدة التي بين موسى وعيسى، قال القرطبي يقال كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة، وكذا في الكشاف وقيل كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وسبعون سنة، وبين موسى وعيسى ألف وستمائة وإثنان وثلاثون سنة.

وقيل كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وستون سنة، وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة وعشرون سنة.

عن ابن عباس قال اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار ماكان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى ماكان إبراهيم إلا نصرانياً فنزل فيهم ﴿ياأهل الكتاب لم تحاجون﴾ الآية[1]، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف ﴿أفلا تعقلون﴾ أي تتفكرون في دحوض حجتكم وبطلان قولكم حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

﴿ها أنتم﴾ يا ﴿هؤلاء﴾ الرجال الحمقى ﴿حاججتم﴾ ها للتنبيه وهو موضع النداء والمراد بهم أهل الكتابين، والمعنى جادلتم وخاصمتم، وفي ﴿هؤلاء﴾ لغتان المد والقصر ﴿فيما لكم به علم﴾ المراد هو ما كان في التوراة وإن خالفوا مقتضاه وجادلوا فيه بالباطل ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ وهو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم بجهلهم بالزمن الذي كان فيه.

وفي الآية دليل على منع الجدال بالباطل، بل ورد الترغيب في ترك الجدال من المحق كما في حديث «من ترك المراء ولو محقاً فأنا ضمينه على الله ببيت في ربض الجنة» وقد ورد تسويغ الجدال بالتي هي أحسن كقوله تعالى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ ونحو ذلك فينبغي أن يقصر جوازه على المواطن التي تكون المصلحة في فعله أكثر من المفسدة أو على المواطن التي المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة.

﴿والله يعلم﴾ أي كل شيء فيدخل في ذلك ما حاججتم به دخولاً أولياً ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ أي محل النزاع أو شيئاً من الأشياء التي من جملتها ذلك.

(١) ابن كثير ١/٣٧٢. وقد توسع ابن الجوزي في هذه المسألة في كتابه القيم زاد المسير ١/٤٠٢.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ يعني مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين المستقيم وهو الإسلام، وقيل الحنيف الذي يوحد ويختتن ويضحي ويستقبل الكعبة في صلاته وهو أحسن الأديان وأسهلها وأحبها إلى الله عز وجل.

قال الشعبي: أكذبهم الله وأدحض حجتهم في هذه الآية ﴿وما كان من المشركين﴾ فيه تعريض بكون النصارى مشركين لقولهم بأن المسيح ابن الله، وكذلك اليهود حيث قالوا عزيز ابن الله.

﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ أي أحقهم به وأخصهم الذين اتبعوا ملته واقتدوا بدينه ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ، أفرده بالذكر تعظيماً له وتشريفاً وأولويته ﷺ بإبراهيم من جهة كونه من ذريته ومن جهة موافقته لدينه في كثير من الشريعة المحمدية.

﴿والذين آمنوا﴾ معه من أمة محمد ﷺ ﴿والله ولي المؤمنين﴾ بالنصر والمعونة.

أخرج الترمذي والحاكم وصححه وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي خليل ربي» ثم قرأ هذه الآية[1].

(١) كتاب التفسير ٢/٢٩٢.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن ميناء أن رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا أنتم سبيل ذلك فانظروا أن لا يلقاني الناس يحملون الأعمال وتلقوني بالدنيا تحملونها فأصد عنكم بوجهي ثم قرأ إن أولى الناس بإبراهيم الآية، وقال الحسن كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى وممن بقى.

﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ الطائفة هم يهود بني النضير وقريظة وبني قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم، وقيل هم جميع أهل الكتاب فتكون (من) لبيان الجنس ولو مصدرية أي تمنت وأحبت إضلالكم أو حرف امتناع لامتناع والجواب محذوف أي لسروا بذلك وفرحوا؛ قاله السمين ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المسلمين في الايمان فلا يعود وبال من أراد فتنتهم إلا عليه ﴿وما يشعرون﴾ أن وبال الإضلال يعود عليهم.

عن سفيان كل شيء في آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو في النصارى، ويدفع هذا ان كثيراً من خطابات أهل الكتاب المذكورة في هذه السورة لا يصح حملها على النصارى البتة، ومن ذلك هذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها، فان الطائفة التي ودت إضلال المسلمين وكذلك الطائفة التي قالت آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار كما سيأتي من اليهود خاصة.

﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ المراد بآيات الله ما في كتبهم من دلائل نبوة محمد ﷺ ﴿وأنتم تشهدون﴾ ما في كتبكم من ذلك ثم تكفرون به وتنكرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل النبي الأمي، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرون بنبوتهم، أو المراد كتم كل الآيات عناداً وأنتم تعلمون أنها حق، وعن ابن جريج قال وأنتم تشهدون على أن الدين عند الله الإسلام، ليس لله دين غيره.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾ لبس الحق بالباطل خلطه بما يتعمدونه من التحريف، قال الربيع لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالإسلام وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره الإسلام ﴿وتكتمون الحق﴾ شأن محمد ﷺ ﴿وأنتم تعلمون﴾ أي تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، وعن قتادة مثله.

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ هم رؤساؤهم وأشرافهم قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة، ووجه النهار أوله، وسمي وجهاً لأنه أحسنه، أمروهم بذلك لإدخال الشك على المؤمنين لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم واعتراه الشك، وهم لا يعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين ومكن أقدامهم فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله ولا تحركهم ريح المعاندين.

عن ابن عباس قال: قال عبد الله ابن الصيف وعدي بن زيد والحرث بن عوف بعضهم لبعض تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله عليهم هذه الآية إلى قوله ﴿واسع عليم﴾ وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف.

وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿ولا تؤمنوا﴾ هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض أي قال الرؤساء للسفلة لا تصدقوا تصديقا صحيحا ﴿إلا لمن تبع دينكم﴾ من أهل الملة التي أنتم عليها، وأما غيرهم ممن أسلم فأظهروا لهم ذلك خداعاً وجه النهار، واكفروا آخره ليفتتنوا.

والمعنى ان ما بكم من الحسد والبغي، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، أو لا تؤمنوا إيماناً صحيحاً وتقروا بما في صدوركم إقرارًا صادقاً لغير من تبع دينكم، فعلتم ذلك ودبرتموه وإن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق.

وقال الأخفش المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدقوا أن يحاجوكم، وقيل المراد لا تؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره إلا لمن تبع دينكم أي لمن دخل في الإسلام وكان من أهل دينكم قبل إسلامه، لأن إسلام من كان منهم هو الذي قتلهم غيظاً وأماتهم حسرة وأسفاً.

وقيل لا تؤمنوا أي لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أي أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه إلا لأتباع دينكم.

وقيل المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم بالمد على الاستفهام تأكيداً للانكار الذي قالوه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه.

وقال ابن جريج المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهة أن يؤتى،

وقيل المعنى لا تخبروا بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون ذلك سبباً لإيمان غيركم بمحمد ﷺ.

واختلف الناس المفسرون والمعربون في هذه الآية على أوجه، وذكروا منها تسعة أوضحها وأقربها ما ذكرناه، وقال الفراء: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله إلا لمن تبع دينكم، ثم قال الله سبحانه لمحمد ﷺ ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي إن البيان الحق بيان الله بين ﴿أن﴾ لا ﴿يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ على تقدير لا كقوله تعالى ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي لئلا تضلوا.

﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ «أو» بمعنى حتى، كذلك قال الكسائي: وهي عند الأخفش عاطفة، وقد قيل إن هذه الآية أعظم آي هذه السورة إشكالا وذلك صحيح.

قال الواحدي: وهذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً وإعراباً، ولقد تدبرت أقوال أهل التفسير والمعاني في هذه الآية فلم أجد قولاً يطرد في الآية من أولها إلى آخرها مع بيان المعنى وصحة النظم انتهى، وقد لخصه من كلام الناس الشيخ سليمان الجمل مع اختلافه فمن شاء فليرجع إليه.

﴿قل إن الفضل﴾ يعني التوفيق للإيمان والهداية للإسلام ﴿بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي من أرادة من خلقه وفيه تكذيب اليهود في قولهم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿والله واسع﴾ أي ذو سعة يتفضل على من يشاء ﴿عليم﴾ بمن هو أهله.

﴿يختص برحمته من يشاء﴾ قيل هي الإسلام وقيل هي القرآن وقيل هي النبوة، وقيل أعم منها، وهو رد عليهم ودفع لما قالوه ودبروه، وفيه دليل على أن النبوة لا تحصل إلا بالاختصاص والتفضل لا بالاستحقاق ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أصل الفضل في اللغة الزيادة، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان، والفاضل الزائد على غيره في خصال الخير.

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ هذا شروع في بيان خيانة اليهود في المال بعد بيان خيانتهم في الدين، وقد تقدم تفسير القنطار، والدينار معروف، قالوا ولم يختلف وزنه أصلاً وهو أربعة وعشرون قيراطاً، كل قيراط ثلاث شعيرات معتدلات فالمجموع اثنتان وسبعون شعيرة.

ومعنى الآية أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذي يؤدي أمانته، وإن كانت كثيرة[1]، وفيهم الخائن الذي لا يؤدي أمانته وإن كانت حقيرة، ومن كان أمينا في الكثير فهو في القليل أمين بالأولى، ومن كان خائناً في القليل فهو في الكثير خائن بالأولى، وقال عكرمة: المؤدي النصارى، والذي لا يؤدي اليهود ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ استثناء مفرغ أي لا يؤده إليك في حال من الأحوال إلا مادمت مطالباً له مضيقاً عليه متقاضياً لرده.

﴿ذلك﴾ أي ترك الأداء المدلول عليه بقوله لا يؤده ﴿بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ الأميون هم العرب الذين ليسوا بأهل كتاب أي ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل، قاله قتادة وعن السدى نحوه، أو ليس علينا في ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا في ديننا، وادعوا، لعنهم الله، أن ذلك في

---

(١) هذا من إنصاف القرآن حيث يشهد بالخير لبعض الطوائف الأخرى.

كتابهم، فرد الله سبحانه عليهم بقوله ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾.

عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ قال: كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فانها مؤداة إلى البر والفاجر[1]، أخرجه الطبراني وغيره مرسلاً.

﴿بلى﴾ عليهم سبيل بكذبهم واستحلالهم أموال العرب، فقوله «بلى» إثبات لما نفوه من السبيل، قال الزجاج تم الكلام بقوله بلى ثم قال ﴿من أوفى بعهده﴾ الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن وبأداء الأمانة إلى من ائتمنه، وقيل الضمير راجع إلى الموفي، وقيل إلى من، أو إلى الله تعالى ﴿واتقى﴾ الشرك أي فليس هو من الكاذبين ﴿فان الله يحب المتقين﴾ الذين يتقون الشرك، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى «من» أي فان الله يحبه، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للاعتناء بشأنهم وإشارة إلى عمومه لكل متق.

---

(١) ابو داود الباب ٥٦ من كتاب المناسك، ابن ماجه باب ٧٦ كتاب المناسك.
قال القرطبي ٤/١١٧: الأمانة عظيمة القدر في الدين، ومن عظم قدرها انها تقوم هي والرحم على جنبتي الصراط؛ كما في صحيح مسلم. فلا يمكن من الجواز إلا من حفظهما. وروى مسلم عن حذيفة قال حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه» الحديث. وقد تقدم بكماله أول البقرة. وروى آبن ماجه حدثنا محمد آبن المصفى حدثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سنان عن أبي الزاهرية عن أبي شجرة كثير آبن مرة عن آبن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾

﴿إن الذين يشترون﴾ أي يستبدلون كما تقدم تحقيقه غير مرة ﴿بعهد الله﴾ هو ما عاهدوه عليه من الإيمان بالنبي ﷺ ﴿وأيمانهم﴾ هي التي كانوا يحلفون إنهم يؤمنون به وينصرونه ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي شيئاً يسيراً من حطام الدنيا وذلك أن المشتري يأخذ شيئاً ويعطي شيئاً فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر فهذا معنى الشراء.

قال عكرمة: نزلت في أحبار اليهود ورؤسائهم، وقيل الأقرب حمل الآية على الكل ويدخل فيه جميع ما أمر الله به وجميع العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل وما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق، فكل ذلك يجب الوفاء به وهو الأولى.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بهذه الصفة ﴿لا خلاق﴾ نصيب ﴿لهم في﴾ نعيم ﴿الآخرة ولا يكلمهم الله﴾ بشيء أصلاً كما يفيده حذف المتعلق من التعميم أو لا يكلمهم الله بما يسرهم وقيل هو بمعنى الغضب ﴿ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ نظر رحمة ﴿ولا يزكيهم﴾ يطهرهم من دنس الذنوب بالعذاب المنقطع ولا يثني عليهم بجميل، بل يسخط عليهم ويعذبهم بذنوبهم كما يفيده قوله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ مؤلم.

أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» فقال الاشعث بن قيس في نزلت، وقد روى أن سبب نزول الآية أن رجلاً كان يحلف بالسوق لقد أعطى ما لم يعط بها أخرجه البخاري وغيره[1]، وقيل غير ذلك، وقد ورد في وعيد الأيمان الكاذبة أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن لا نطول بذكرها.

(١) مسلم ١٣٨ - البخاري ١١٧٦، ١١٧٧.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿وإن منهم لفريقاً﴾ أي طائفة من اليهود ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أصل اللي الميل والفتل، تقول لوى برأسه إذا أماله، ولويت عنقه أي فتلته، والمصدر اللي والليان ثم يطلق اللي على المراوغة في الحجج والخصومة تشبيهاً للمعاني بالاجرام، قاله السمين أي يميلون ويحرفون ويعدلون به عن القصد، ويعطفون، وتحريف الكلام تقليبه عن وجهه لأن المحرف يلوي لسانه عن سنن الصواب بما يأتي به من عند نفسه.

والألسنة جمع لسان، وهذا على لغة من يذكره، وأما على لغة من يؤنثه فيقول هذه لسان فإنه يجمع على ألسن، وقال الفراء لم نسمعه من العرب إلا مذكراً، ويعبر باللسان عن الكلام لأنه ينشأ منه وفيه ويجري فيه أيضاً التذكير والتأنيث.

﴿لتحسبوه﴾ أي لتظنوا أن المحرف الذي جاؤوا بـه ﴿من الكتاب﴾ الذي أنزله الله على أنبيائه ﴿وما هو﴾ أي الذي حرفوه وبدلوه ﴿من الكتاب﴾ في الواقع وفي اعتقادهم أيضاً، والجملة حالية ﴿ويقولون﴾ على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض مع ما ذكر من اللي والتحريف ﴿هو﴾ أي المحرف ﴿من عند الله﴾ الحال أنه ﴿ما هو من عند الله﴾ إنما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى لأجل التأكيد ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ أي الأعم مما ذكر من التحريف واللي ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون مفترون.

قال ابن عباس نزلت في اليهود والنصارى جميعاً، وذلك أنهم حرفوا التوراة والانجيل وألحقوا في كتاب الله ما ليس منه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿ما كان﴾ أي ما ينبغي ولا يستقيم ﴿لبشر﴾ أي جميع بني آدم ولا واحد للفظ بشر كالقوم والرهط، بيان لافترائهم على الأنبياء إثر بيان افترائهم على الله، وإنما قيل «لبشر» إشعاراً بعلة الحكم فإن البشرية منافية للامر الذي تقوّلوه عليه ﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾ الناطق بالحق ﴿والحكم﴾ يعني الفهم والعلم وقيل هو إمضاء الحكم من الله، والأول أولى ﴿والنبوة﴾ يعني المنزلة الرفيعة ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ أي هذه المقالة وهو متصف بتلك الصفة وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى ما لا يصح عنه، ولا ينبغي أن يقوله.

﴿ولكن﴾ يقول ﴿كونوا ربانيين﴾ قال سيبويه: الرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة كما يقال لعظيم اللحية لحياني ولعظيم الجمة جماني ولغليظ الرقبة رقباني.

وقيل الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، فكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور، وقال المبرد الربانيون أرباب العلم واحدهم رباني، من قوله ربه يربه فهو ربان إذا دبره وأصلحه، والياء للنسب، فمعنى الرباني العالم بدين الرب القوي التمسك بطاعة الله، وقيل العالم الحكيم أي كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين فإن حصول العلم للانسان والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التي هي التعليم للعلم وقوة التمسك بطاعة الله، قال ابن عباس معناه: حكماء علماء.

وقيل الرباني العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي، وقيل الجامع بين علم البصيرة والسياسة.

ولما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية اليوم مات رباني هذه الأمة، وقيل هو ولاة الأمر والعلماء، وقال أبو عبيدة أحسب أن هذه الكلمة عبرانية أو سريانية.

﴿بما كنتم تعلمون الكتاب﴾ بالتخفيف والتشديد، قال مكي التشديد أبلغ لأن العالم قد يكون عالماً غير معلّم فالتشديد يدل على العلم والتعليم، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط، ويؤيد الأولى ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ بالتخفيف.

والحاصل إن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الرباني على أمر زائد على العلم والتعليم، هو أن يكون مع ذلك مخلصاً أو حكيماً أو حليماً حتى تظهر السببية، ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الرباني على العالم الذي يعلّم الناس، فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب كونكم علماء، وبسبب كونكم تدرسون العلم.

وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والاخلاص لله سبحانه، والدراسة مذاكرة العلم والفقه، فدلت الآية على أنّ العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً فمن اشتغل بها لا لهذا المقصود فقد ضاع علمه وخاب سعيه[1].

---

(١) روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حرّ ولا مملوك إلا ولله عز وجل عليه حقّ أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه ـ ثم تلا هذه الآية ـ ولكن كونوا ربانيين » الآية. رواه ابن عباس.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾

﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ أي ليس له أن يأمر بعبادة نفسه ولا أن يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً بل ينهى عنه، والمعنى يقول ويأمر، وقيل ولا أن يأمركم وقرىء على الاستئناف برفع الراء أي لا يأمركم الله أو محمد أو عيسى أو الأنبياء.

﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ قاله على طريق التعجب والانكار يعني لا يقول هذا ولا يفعله، وقد استدل من قال إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبي ﷺ من المسلمين في أن يسجدوا له.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما﴾ بفتح اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق وبكسرها متعلقة بأخذ، وما موصولة على الوجهين أي للذي ﴿آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾ وجواب القسم لتؤمنن به ولتنصرنه.

قد اختلف في تفسير هذه الآية فقال سعيد بن جبير وقتادة وطاوس والحسن والسدى أنه أخذ الله ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك، فهذا معنى النصرة له والإيمان به وهو ظاهر الآية.

فحاصله ان الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر

وينصره إن أدركه، وإن لم يدركه يأمر قومه بنصرته إن أدركوه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ.

وقال الكسائي يجوز أن يكون معناها وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين، ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ وقيل في الكلام حذف والمعنى: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ليعلّمنّ الناس ما جاءهم من كتاب وحكمة وليأخذنّ على الناس أن يؤمنوا، ودل على هذا الحذف قوله ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ قيل إنما أخذ الميثاق في أمر محمد ﷺ خاصة وبه قال علي وابن عباس وقتادة والسدى.

وقيل أخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم جميعاً في أمره ﷺ، فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد مع المتبوع عهد مع الأتباع، وبه قال علي بن أبي طالب والأول أولى وبه قال كثير من المفسرين، والرسول محمد ﷺ الذي ذكر في التوراة والانجيل وصفه وشرح فيهما أحواله.

قال البغوي: أخذ الله هذا الميثاق منهم حين استخرج الذرية من صلب آدم، وقال الرازي: هذا الميثاق ماقرر في عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد لله واجب والأول أولى وهو الظاهر من الآية.

﴿قال﴾ الله تعالى للنبيين ﴿أأقررتم﴾ بالإيمان به والنصر له أو قال كل نبي لأمته أأقررتم، والأول أولى ﴿وأخذتم على ذلك إصري﴾ أي عهدي، والإصر في اللغة الثقل، سمي العهد إصراً لما فيه من التشديد ﴿قالوا أقررنا﴾ بما ألزمتنا من الإيمان برسلك.

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿فاشهدوا﴾ أي أنتم على أنفسكم أو ليشهد بعضكم على بعض، وقيل الخطاب للملائكة، والأول أولى ﴿وأنا معكم﴾ أي على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض ﴿من الشاهدين﴾ هذا هو الخبر لأنه محط الفائدة.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فمن تولى﴾ أي أعرض عما ذكر ﴿بعد ذلك﴾ الميثاق ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن الطاعة والغائصون في الكفر، وأعاد الضمير في (تولى) مفرداً على لفظ (من) وجمع أولئك حملاً على المعنى.

﴿أفغير دين الله يبغون﴾ عطف على مقدر أي تتولون فتبغون غير دين الله، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار، وقرأ أبو عمرو وحده يبغون بالتحتية، وترجعون بالفوقية قال لأن الأول خاص، والثاني عام، ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى، وكيف يبغون غير دينه ﴿و﴾ الحال أنّ ﴿له أسلم﴾ أي خضع وانقاد ﴿من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي طائعين ومكرهين والطوع الانقياد والاتباع بسهولة، والكره ما فيه مشقة وهو من أسلم مخافة القتل، وإسلامه استسلام منه.

أخرج الطبراني بسند ضعيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ﴿وله أسلم﴾ قال أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الارض فمن ولد على الإسلام، وأما كرهاً فمن أتى به من سبايا الأمم في السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنة وهم كارهون(١).

وأخرج الديلمي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية الملائكة أطاعوه في السماء، والأنصار وعبد القيس أطاعوه في الأرض.

---

(١) ابن كثير ١/٣٧٨.

قال ابن عباس: أسلم من في السموات والأرض حين أخذ عليهم الميثاق، وعن قتادة قال أما المؤمن فأسلم طائعاً فنفعه ذلك وقبل منه، وأما الكافر فأسلم حين رأى بأس الله فلم ينفعه ولم يقبل منه فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من ساء خلقه من الرقيق والدواب والصبيان فاقرؤا في أذنه أفغير دين الله يبغون[1].

وأخرج ابن السني في (عمل يوم وليلة) عن يونس بن عبيد قال ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ في أذنها أفغير دين الله يبغون الآية إلا ذلت[2] بإذن الله عز وجل ﴿وإليه يرجعون﴾ أي مرجع الخلق كلهم إلى الله يوم القيامة، ففيه وعيد عظيم لمن خالفه في الدنيا.

﴿قل آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم﴾ اخبار منه صلى الله عليه وآله وسلم عن نفسه وعن أمته، وإنما خص هؤلاء بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا في نبوتهم، وعدّى الإنزال هنا بعلى، وفي البقرة بإلى، لأنه يصح تعديته بكل، فله جهة علو باعتبار ابتدائه وانتهائه باعتبار آخره، وهو باعتبار ابتدائه متعلق بالنبي، وباعتبار انتهائه متعلق بالمكلفين، ولما خص الخطاب هنا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ناسب الاستعلاء، ولما عم هناك جميع المؤمنين ناسبه الانتهاء، والأسباط كانوا اثني عشر وهم أولاد يعقوب وهم بالنسبة لإبراهيم أحفاده لأنهم أولاد ولده، فالمراد بالأسباط هنا الأحفاد لا المعنى اللغوي وهم أولاد البنات.

﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ كما فرقت اليهود والنصارى فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقد تقدم تفسير هذه الآية ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي منقادون مخلصون موحدون.

---

(١) و(٢) هذا والذي قبله في النفس منه شيء.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿ومن يبتغ غير الإسلام﴾ العامة على إظهار هذين المثلين لأن بينهما فاصلاً، وهو الياء فلم يلتقيا في الحقيقة، وروي الادغام مراعاة للفظ، وليس هذا مخصوصاً بهذه الآية بل كلما التقى فيه مثلان يجري فيه الوجهان نحو ﴿يخل لكم، وان يك كاذباً﴾، وقد استشكل على هذا نحو ﴿ياقوم مالي، وياقوم من ينصرني﴾ فانه لم يرو عن أبي عمرو خلاف في إدغامها، وكان القياس يقتضي جواز الوجهين، لأن ياء المتكلم فاصلة تقديراً، قاله السمين.

﴿ديناً فلن يقبل منه﴾ يعني أن الدين المقبول عند الله هو دين الاسلام، وأن كل دين سواه غير مقبول لأن الدين الصحيح ما يرضي الله عن فاعله ويثيبه عليه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي الواقعين في الخسران يوم القيامة وهو حرمان الثواب وحصول العقاب.

أخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول يارب أنا الصلاة فيقول إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول يا رب أنا الصدقة فيقول إنك على خير، ويجيء الصيام فيقول أنا الصيام، فيقول إنك على خير، ثم تجيء الأعمال، كل ذلك يقول الله إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي، قال الله تعالى في كتابه، يعني هذه الآية[1].

---

(١) ابن كثير ١/ ٣٧٩.

﴿كيف يهدي الله﴾ هذا الاستفهام معناه الجحد أي لا يهدي الله، ونظيره قوله تعالى ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله﴾ أي لا عهد لهم، ويجوز أن يكون الاستفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم بعد الإيمان أو للاستبعاد والتوبيخ فان الجاحد عن الحق بعد ما وضح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد، فليس للإنكار حتى يستدل به على عدم توبه المرتد، وإن كان إنكاراً فالاستثناء يمنعه، قاله الكرخي.

﴿قوماً﴾ إلى الحق ﴿كفروا بعد إيمانهم و﴾ بعدما﴿شهدوا أن الرسول حق و﴾ بعدما ﴿جاءهم البينات﴾ من كتاب الله سبحانه ومعجزات رسول الله ﷺ ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي كيف يهدي المرتدين والحال أنه لا يهدي من حصل منهم مجرد الظلم لأنفسهم ومنهم الباقون على الكفر، ولا ريب أن ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر لأن المرتد قد عرف الحق ثم أعرض عنه عناداً وتمرداً.

عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل لي من توبه فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿غفور رحيم﴾ فأرسل إليه قومه وأسلم[1]، وروى هذا من طرق، وعنه أيضا هم أهل الكتاب من اليهود عرفوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ثم كفروا به، وروى نحوه عن الحسن.

(١) رواه النسائي وابن حبان وابن ابي حاتم والطبري والبيهقي والحاكم وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي ورواه ايضاً واسناده صحيح.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بتلك الصفات السابقة ﴿جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة أجمعين خالدين فيها﴾ أي اللعنة أو النار المدلول بها عليها، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون﴾ يؤخرون ويمهلون.

ثم استثنى التائبين فقال ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ الارتداد ﴿وأصلحوا﴾ بالإسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردة، وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصاً، ولا خلاف في ذلك فيما أحفظ وقيل ضمّوا إلى التوبة الأعمال الصالحة لأن التوبة وحدها لا تكفي حتى يضاف إليها العمل الصالح، وقيل أصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات، وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات، والأول ألصق بظاهر الآية ﴿فإن الله غفور﴾ لقبائحهم في الدنيا بالستر وقيل بإزالة العذاب ﴿رحيم﴾ في الآخرة بالعفو، وقيل بإعطاء الثواب.

﴿إن الذين كفروا﴾ بعيسى ﴿بعد إيمانهم﴾ بموسى ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال قتادة وعطاء الخرساني والحسن: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته، ثم ازدادوا بإقامتهم على كفرهم كفراً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل ازدادوا كفراً بالذنوب التي اكتسبوها ورجحه ابن جرير الطبري وجعلها في اليهود خاصة.

وقيل نزلت في جميع الكفار، وذلك انهم أشركوا بالله بعد إقرارهم بأن الله خلقهم، ثم ازدادوا كفراً يعني بإقامتهم على الكفر حتى هلكوا، وقيل زيادة كفرهم هو قولهم نتربص بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ريب المنون، وقيل نزلت في أحد عشر رجلاً من أصحاب الحارث بن سويد الذين ارتدوا عن الإسلام، فلما رجع الحارث أقاموا على كفرهم بمكة.

وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى ﴿لن تقبل توبتهم﴾ مع كون التوبة مقبولة كما في الآية الأولى وكما في قوله تعالى ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ وغير ذلك فقيل المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت، قال النحاس وهذا قول حسن كما قال تعالى ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ وبه قال الحسن وقتادة وعطاء والسدي، ومنه حديث: «إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر[1]».

وقيل المعنى لن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل أن يكفروا لأن الكفر أحبطها، وقيل لن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفر إلى كفر آخر، وقال ابن عباس إنهم الذين ارتدوا وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم، والكفر في ضمائرهم.

وقال أبو العالية: هم قوم تابوا من ذنوب عملوها في حال الشرك، ولم يتوبوا من الشرك، وقال مجاهد: لن تقبل توبتهم إذا ماتوا على الكفر، وقال ابن جرير: هو الازدياد على الكفر بعد الكفر لا يقبل الله منه توبة ما أقام على كفره.

﴿وأولئك هم الضالون﴾ أي هم الذين ضلوا عن سبيل الحق وأخطئوا منهاجه والمراد هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً، والأولى أن يحمل عدم قبول التوبة في هذه الآية على من مات كافراً غير تائب، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٨٩٩.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

ويكون قوله ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ في حكم البيان لها، قال ابن عباس: نزلت فيمن مات من أصحاب الحارث على الكفر، وقيل نزلت فيمن مات كافراً من جميع أصناف الكفار من أهل الكتاب وعبدة الأصنام، فالآية عامة فيهم ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً﴾ الملء بالكسر مقدار ما يملأ الشيء، والملء بالفتح مصدر ملأت الشيء والمعنى مقدار ما يملأ الأرض مشرقها ومغربها ذهباً، مع أنه أعز الأشياء وقيمة كل شيء.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت مفتدياً فيقول نعم فيقال له لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك فذلك قوله تعالى ﴿إن الذين كفروا﴾ الآية[1].

﴿ولو افتدى به﴾ قيل الواو زائدة مقحمة. وقيل الواو للعطف، والمعنى وكذلك لو افتدى من العذاب في الآخرة بملء الأرض ذهباً لن يقبل منه، وهذا آكد في التغليظ لأنه تصريح بنفي القبول في جميع الوجوه، أو المراد بالواو التعميم في الأحوال كأنه قيل لن يقبل منهم في جميع الأحوال ولو في حال افتدائه نفسه في الآخرة.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿لهم﴾ أي استقر لهم ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم ﴿وما لهم﴾ أي ما استقر لهم ﴿من ناصرين﴾ يمنعونهم من العذاب، وأتى بناصرين جمعاً لتوافق الفواصل.

(١) مسلم ٢٨٠٥ ـ البخاري ١٥٧٤.

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم عليه السلام أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا الشرك، هذا لفظ مسلم(١).

﴿لن تنالوا البر﴾ هذا كلام مستأنف خطاب للمؤمنين عقب ذكر ما لا ينفع الكفار، والنيل إدراك الشيء ولحوقه يقال نالني من فلان معروف ينالني أي وصل الي والنوال العطاء من قولك نولته تنويلاً أي أعطيته.

وقيل هو تناول الشيء باليد يقال نلته أناله نيلاً، قال تعالى ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ وأما النول بالواو فمعناه التناول يقال نلته أنوله أي تناولته وأنلته زيداً أنيله إياه أي ناولته إياه.

والبر فعل الخيرات والعمل الصالح، ففي الآية حذف المضاف أي ثوابه وهو الجنة؛ وقال ابن مسعود ابن عباس وعطاء وعمرو بن ميمون والسدى: هو الجنة.

فمعنى الآية لن تنالوا العمل الصالح أو الجنة، وقيل التقوى وقيل الطاعة، وقيل الثواب، وأصل البر التوسع في فعل الخير، وقد يستعمل في الصدق وحسن الخلق.

وعن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» أخرجه مسلم(٢).

والمعنى لن تصلوا ثواب البر المؤدي إلى الجنة ﴿حتى تنفقوا﴾ أي تصدقوا

(١) مسلم ٢٨٠٥.
(٢) مسلم ٢٥٥٣.

وحتى بمعنى إلى ﴿مما تحبون﴾ أي حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها، ومن تبعيضية؛ وقيل بيانية، وما موصولة أو موصوفة والمراد النفقة في سبل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وقيل المراد الزكاة المفروضة.

قال البيضاوي: أي من المال أو مما يعمه وغيره كبذل الجاه في معاونة الناس، والبدن في طاعة الله، والمهجة في سبيله انتهى وكتعليم العلم.

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن أحب أموالي إليّ بير حاء وأنها صدقة، الحديث وقد روي بألفاظ(١).

وعن ابن عمر لم أجد شيئا أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية فقلت هي حرة لوجه الله، الحديث أخرجه البزار وعبد بن حميد، وكذلك أعتق عمر جارية من سبي جلولاء، وجاء زيد بن حارثة بفرس له يقال له سبل لم يكن له مال أحب إليه منها فقال هي صدقة(٢).

﴿وما تنفقوا من شيء﴾ بيان لقوله ما تنفقوا أي ما تنفقوا من أي شيء سواء كان طيباً أو خبيثاً جيداً أو رديئاً فيجازيكم بحسبه، وما شرطية جازمة ﴿فإن الله به عليم﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه. وفيه من الترغيب في إنفاق الجيد، والتحذير عن إنفاق الرديء ما لا يخفى.

---

(١) ابن كثير ١/٣٨١. زاد المسير ٤٢١.

(٢) روى البخاري، ومسلم في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها حيث أراك الله، فقال ﷺ: «بخ بخ، ذاك مال رابح أو رائح [شك الراوي] وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقسمها أبو طلحة في أقاربه، وبني عمه.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾

﴿كل الطعام﴾ أي المطعوم ﴿كان حلاًّ﴾ الحل مصدر يستوي فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث، وهو الحلال كما أن الحرم لغة في الحرام ﴿لبني إسرائيل﴾ هو يعقوب كما تقدم تحقيقه، يعني أن كل المطعومات كانت حلالاً لبني يعقوب لم يحرم عليهم شيء منها ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ مستثنى من إسم كان.

وجوز أبو البقاء أن يكون مستثنى من ضمير مستتر في «حلاًّ» وفيه قولان (أحدهما) أنه متصل والتقدير إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه فحرّم عليهم في التوراة فليس منها ما زادوه من محرمات وادّعوا صحة ذلك (والثاني) أنه منقطع والتقدير لكن حرم إسرائيل على نفسه خاصة ولم يحرمه عليهم، والأول هو الصحيح قاله السمين.

أخرج الترمذي وحسّنه عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه قال: كان يسكن البدو فاشتكى عرق النّسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا تحريم الإبل وألبانها فلذلك حرمها قالوا صدقت وذكر الحديث، وأخرجه أيضاً أحمد والنسائي(١).

وفي رواية عنه الذي حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد والكليتان والشحم إلا ما كان على الظهر.

وعرق النسا بفتح النون والقصر عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ، قاله الكرخي ودواؤه ما ذكره القرطبي ونصه أخرج الثعلبي في تفسيره من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ في عرق النسا تؤخذ إلية كبش

(١) ابن كثير ١/٣٨٢.

عربي لا صغير ولا كبير فتقطع قطعاً صغاراً وتسلأ على النار ويؤخذ دهنها فيجعل ثلاثة أقسام يشرب المريض بذلك الداء على الريق كل يوم ثلثاً.

قال أنس فوصفته لأكثر من مائة كلهم يبرأ بإذن الله تعالى.

وفيه رد على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ما حرّمه عليهم هو ظلمهم وبغيهم كما في قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم﴾ الآية وقوله ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما، إلى قوله، ذلك جزيناهم ببغيهم﴾ وقالوا إنها محرمة على من قبلهم من الأنبياء نوح وإبراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر إلينا كما حرمت على من قبلنا، يريدون بذلك تكذيب ما قصه الله سبحانه على نبينا ﷺ في كتابه العزيز.

﴿من قبل أن تنزّل التوراة﴾ فإنها ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب إسرائيل وذلك بعد إبراهيم بألف سنة ولم يكن على عهده حراماً كما زعموا، وإنما قال «من قبل» لأن بعد نزولها حرم الله عليهم أشياء من أنواع الطعام.

ثم أمر الله سبحانه بأن يحاجّهم بكتابهم ويجعل بينه وبينهم حكماً ما أنزله الله عليهم لا ما أنزل عليه فقال: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ حتى تعلموا صدق ما قصّه الله في القرآن من أنه لم يحرم على بني إسرائيل شيء من قبل نزول التوراة إلا ما حرمه يعقوب على نفسه ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم أنه تحريم قديم.

روى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة فلم يأتوا بها وخافوا الفضيحة وبهتوا، وفي هذا من الانصاف للخصوم ما لا يقادر قدره ولا تبلغ مداه، وفيه من الحجة النيرة على صدق النبي وجواز النسخ الذي يجحدونه ما لا يخفى.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

﴿فمن افترى﴾ الافتراء اختلاق الكذب والقذف والإفساد أصله من فرى الأديم إذا قطعه لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود، وقال البيضاوي: افترى أي ابتدع، والجملة استئنافية أو منصوبة المحل، ومن شرطية أو موصولة ﴿على الله الكذب من بعد ذلك﴾ أي إحضار التوراة وتلاوتها متعلق بافترى، وهذا هو الظاهر أو بالكذب وجوزه أبو البقاء ﴿فأولئك﴾ فيه مراعاة معنى «من» كما في افترى مراعاة لفظها ﴿هم الظالمون﴾ أي المفرطون في الظلم المتبالغون فيه، فإنه لا أظلم ممن حوكم إلى كتابه وما يعتقده شرعاً صحيحاً ثم جادل من بعد ذلك مفترياً على الله الكذب.

ثم لما كان ما يفترونه من الكذب بعد قيام الحجة عليهم بكتابهم باطلاً مدفوعاً، وكان ما قصه الله سبحانه في القرآن وصدّقته التوراة صحيحاً صادقاً، وكان ثبوت هذا الصدق بالبرهان الذي لا يستطيع الخصم دفعه، أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينادي لصدق الله بعد أن سجّل عليهم بالكذب فقال.

﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم﴾ أي ملة الإسلام التي أنا عليها ﴿حنيفاً﴾ قد تقدم معنى الحنيف كأنه قال لهم إذا تبين لكم صدقي وصدق ما جئت به فادخلوا في ديني فإن من جملة ما أنزله الله علي ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾.

﴿وما كان﴾ في أمر من أمور دينه أصلاً وفرعاً ﴿من المشركين﴾ الذين يدعون من الله إله آخر، ويعبدون سواه.

وفيه تعريض بإشراك اليهود، تصريح بأنه ﷺ ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعاً، والغرض بيان أن النبي ﷺ على دين إبراهيم في الأصول لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد، والبراءة عن كل معبود سبحانه وتعالى قاله الكرخي.

﴿إنِ أول بيت﴾ هذا شروع في بيان شيء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل، وذلك أنهم قالوا إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء وأرض المحشر، وفي الأرض المقدسة وقبلتهم فرد الله ذلك عليهم، ونبّه تعالى بكونه أول متعبّد على أنه أفضل من غيره - والأول هو الفرد السابق المتقدم على ما سواه، وقيل هو إسم للشيء الذي يوجد ابتداء سواء حصل عقيبه شيء آخر أو لم يحصل.

قال علي كانَت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله قبل خلق آدم بألفي عام، ووضع بعده الأقصى وبينهما أربعون سنة كما في حديث الصحيحين، وهذا يقتضي أن الأقصى، بنته الملائكة أيضاً. وقد اختلف في الباني له في الابتداء فقيل الملائكة، وقيل آدم، وقيل إبراهيم، ويجمع بين ذلك بأن أول من بناه الملائكة ثم جدده آدم ثم إبراهيم.

﴿وضع للناس﴾ أي جميعهم كما قال (سواء العاكف فيه والباد) وضعه الله موضعاً للطاعات والعبادات، وقبلة للصلاة ومقصداً للحج والعمرة، ومكاناً للطواف تزداد فيه الخيرات وثواب الحسنات وأجر الطاعات.

﴿للّذي ببكّة﴾ بكة علم للبلد الحرام وكذا مكة وهما لغتان، فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كلازب ولازم، ونبيت ونميت، إسم موضع، وراتب وراتم، وقيل أن بكة إسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام، وقيل بكة للمسجد ومكة للحرم كله، قيل سميت بذلك لأنها كانت تبك أي تدق أعناق الجبابرة.

وأما تسميتها بمكة فقيل سميت بذلك لقلة مائها. وقيل لأنها تمكّ المخ من العظم بما ينال سكانها من المشقة، ومنه مككت العظم إذا أخرجت ما فيه، ومكّ الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا امتصّـه، وقيل سميت بذلك لأنها تمك من ظلم فيها أي تهلكه، وقيل لأنها تمك الذنوب أي تزيلها وتمحوها.

﴿مباركاً﴾ يعني ذا بركة، وأصل البركة النمو والزيادة، والبركة هنا كثرة الخير الحاصل لمن استقر فيه أو يقصده أي الثواب المتضاعف. وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» أخرجه البخاري ومسلم[١].

﴿وهدى للعالمين﴾ أي لأنه قبلة للمؤمنين يهتدون به إلى جهة صلاتهم، وقيل لأن فيه دلالة على وجود الصانع المختار لما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره، وقيل هدى لهم إلى الجنة.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول، قال: المسجد الحرام، قلت ثم أي قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما قال أربعون سنة[٢].

وعن ابن عمر قال خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، «وكان إذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء وكانت الأرض تحته كأنها حشفة فدحيت الأرض من تحته» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب وابن جرير وابن المنذر.

---

(١) مسلم ١٣٩٤ البخاري ٦٤٦.

(٢) مسلم ٥٢٠ البخاري ١٥٨٩.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾

﴿فيه آيات بينات﴾ أي دلالات واضحات على حرمته ومزيد فضله واحترامه، منها الصفا والمروة ومنها أثر القدم في الصخرة الصماء، ومنها أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليماني كان الخصب في اليمن؟ وإذا كان بناحية الشامي كان الخصب في الشام، وإذا عم البيت في جميع البلدان، ومنها انحراف الطيور عن أن تمر على هوائه في جميع الأزمان، ومنها إهلاك من يقصده من الجبابرة؛ ومنها الحجر الأسود والملتزم وزمزم ومشاعر الحج.

ومنها أن الآمر ببناء هذا البيت هو الله الجليل، والمهندس له جبريل، والباني هو إبراهيم الخليل، والمساعد في بنيانه هو اسمعيل، وهذه فضيلة عظيمة له، وغير ذلك من الآيات، وقد أوضحتها في كتابي (رحلة الصديق إلى البيت العتيق) فليرجع إليه، وهذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿مقام إبراهيم﴾ يعني الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت وكان فيه أثر قدمي إبراهيم فاندرس من كثرة المسح بالأيدي.

وقد استشكل صاحب الكشاف بيان الآيات وهي جمع، بالمقام وهو فرد، وأجاب بأن المقام جعل وحده بمنزله آيات لقوة شأنه أو بأنه مشتمل على آيات، قال ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وأمن من دخله، لأن الإثنين نوع من الجمع، وقال ابن عطية والراجح عندي أن المقام وأمن الداخلين جعلا مثالاً لما في حرم الله تعالى من الآيات، وخصا بالذكر لعظمهما وأنهما تقو م بهما الحجة على الكفار، إذ هم مدركون هاتين الآيتين بحواسهم.

﴿ومن دخله كان آمناً﴾ جمله مستأنفة من حيث اللفظ لبيان حكم من أحكام الحرم وهو أن من دخله كان آمناً، ومن حيث المعنى معطوفة على مقام إبراهيم الذي هو مبتدأ محذوف الخبر أي ومنها أمن داخله، ومن شرطية أو موصولة، وبه استدل من قال أن من لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه حد من الحدود فإنه لا يقام عليه حتى لا يخرج منه، وهو قول أبي حنيفة ومن تابعه، وخالفه الجمهور، وقالوا تقام عليه الحدود من الحرم، وبه قال الشافعي.

وقد قال جماعة إن الآية خبر في معنى الأمر أي ومن دخله فأمنوه كقوله: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال﴾ أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا.

أخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال كان هذا في الجاهلية كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يطلب، فأما في الإسلام فإنه لا يمنع من حدود الله، من سرق فيه قطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد، ومن قتل فيه قتل.

وعن عمر بن الخطاب قال لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه، وعن ابن عباس من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه، وروى عنه هذا المعنى من طرق، أخرجه ابن جرير وغيره.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي شريح العدوى قال قام النبي ﷺ الغد من يوم الفتح فقال: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لإمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي في ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس[1].

(١) مسلم ١٣٥٤ البخاري ٨٩.

وقيل المعنى من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان آمناً. وقيل من دخله معظماً له متقرباً بذلك إلى الله كان آمناً من العذاب يوم القيامة.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً[1]. وعنه: الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة ذكرهما أبو السعود ولم يخرجهما، وقيل آمنا من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك، والأول أولى.

﴿ولله على الناس حج البيت﴾ اللام في قوله ﴿لله﴾ هي التي يقال لها لام الإيجاب والإلزام، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف «على» فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب، كما إذا قال القائل لفلان علي كذا، فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه وتعظيماً لحرمته.

وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الدليل كالصبي والعبد، والمعنى ولله على الناس فرض حج البيت، والناس عام مخصوص بالمستطيع قد خصص ببدل البعض وهو قوله ﴿من استطاع﴾ لأنه من المخصصات عند الأصوليين.

والحج بكسر الحاء وفتحها لغتان سبعيتان في مصدر حج بمعنى قصد، والحج أحد أركان الإسلام، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة. وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان» أخرجه البخاري ومسلم[2]، فعد النبي صلى الله عليه وسلم الحج من أركان الإسلام الخمسة.

---

(١) الترمذي الباب ١٠٢ من كتاب الحج والنسائي الباب ٤١ من كتاب الجنائز.
(٢) مسلم ١٦ ـ البخاري ٨.

وقد ورد في فضله وفضل البيت والعمرة أحاديث منها عن أبي سعيد الخدري قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى». أخرجه الشيخان[1].

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» أخرجه البخاري ومسلم[2]، وفي الباب أحاديث لا نطيل بذكرها، وقد ذكرنا طرفاً منها في كتابنا رحلة الصديق.

﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ يعني من وجد السبيل إلى حج البيت الحرام من أهل التكليف لأنه المحدث عنه، وإن كان يحتمل رجوع الضمير للبيت. لكن الأول أولى.

وقد اختلف أهل العلم في الاستطاعة ماذا هي، فقيل الزاد والراحلة، وبه فسره ﷺ، رواه الحاكم وغيره، وإليه ذهب جماعة من الصحابة، وحكاه الترمذي عن أكثر أهل العلم[3]، وهو الحق، وقال مالك إن الرجل إذا وثق بقوته لزمه الحج وإن لم يكن له زاد ولا راحلة إذا كان يقدر على الكسب. وبه قال ابن الزبير والشعبي وعكرمة، وقال الضحاك إن كان شاباً قوياً صحيحاً وليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه.

ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة دخولاً أولياً أن تكون الطريق إلى الحج آمنة بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله الذي لا يجد زاداً غيره، أما لو كانت غير آمنة فلا استطاعة لأن الله سبحانه يقول: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ وهذا الخائف على نفسه وماله لم يستطع إليه سبيلاً بلا شك وشبهة.

---

(١) مسلم ١٣٩٧ ـ البخاري ٦٤٥.
(٢) مسلم ١٣٤٩ ـ البخاري ٩٠٥.
(٣) ابن كثير ٣٨٦/١.

وقد اختلف أهل العلم إذا كان في الطريق من الظلمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يجحف بزاد الحاج فقال الشافعي لا يعطي حبة ويسقط عنه فرض الحج، ووافقه جماعة، وخالفه آخرون، والظاهر أن من تمكن من الزاد والراحلة وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها ولو بمصانعة بعض الظلمة بدفع شيء من المال يتمكن منه الحاج ولا ينقص من زاده ولا يجحف به فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه، لأنه قد استطاع السبيل بدفع شيء من المال.

ولكنه يكون هذا المال المدفوع في الطريق من جملة ما يتوقف عليه الاستطاعة، فلو وجد الرجل زاداً وراحلة، ولم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس في الطريق، لم يجب عليه الحج لأنه لم يستطع إليه سبيلاً، وهذا لا بد منه، ولا ينافي تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة فإنه قد تعذر المرور في طريق الحج لمن وجد الزاد والراحلة إلا بذلك القدر الذي يأخذه المكاسون.

ولعل وجه قول الشافعي أنه يسقط الحج أن أخذ هذا المكس منكر فلا يجب على الحاج أن يدخل في منكر، وأنه بذلك غير مستطيع.

ومن جملة ما يدخل في الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب، فلو كان زمناً بحيث لا يقدر على المشي ولا على الركوب فهذا وإن وجد الزاد والراحلة فهو لم يستطع السبيل.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير الاستطاعة أنها الزاد والراحلة بطرق كثيرة عن جماعة من الصحابة عند أهل السنن وغيرهم. وأقل أحوال هذا الحديث أن يكون حسناً لغيره فلا يضره ما وقع الكلام على بعض طرقه كما هو معروف.

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم النهي للمرأة أن تسافر بغير ذي

رحم محرم، واختلفت الأحاديث في قدر المدة، ففي لفظ ثلاثة أيام وفي لفظ يوم وليلة وفي لفظ بريد، وقد ذكر بعض المفسرين ههنا أحكاماً تتعلق بالحج وأطال في ذكرها، ومحلها كتب الفروع فلا نذكرها.

﴿ومن كفر﴾ «من» شرطية وهو الظاهر أو موصولة قيل إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه، وقيل المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجباً، وقيل أن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر، وعن ابن عمر: من كفر بالله واليوم الآخر، وعن ابن زيد من كفر بهذه الآيات.

وعن ابن مسعود ومن كفر فلم يؤمن فهو الكافر، وقيل هو الذي إن حج لم يره براً، وإن قعد لم يره إثماً، وقيل نزلت في اليهود وغيرهم من أصحاب الملل. قالوا الحج غير واجب وكفروا به، وعلى هذا تكون الآية متعلقة بما قبلها، وقيل إنه كلام مستأنف كما تقدم عن ابن عمر.

﴿فإن الله غني عن العالمين﴾ الإنس والجن والملائكة وعن عبادتهم، وبالجملة في قوله هذا من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة وخذلانه وبعده من الله سبحانه ما يتعاظمه سامعه ويرجف له قلبه، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم ومصلحتهم، وهو تعالى شأنه وتقدس سلطانه غني لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع.

وقد وردت أحاديث في تشديد الوعيد على من ملك زاداً وراحلة ولم يحج فأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج بيت الله فلا عليه بأن يموت يهودياً أو نصرانياً»[1]؛ وذلك بأن الله يقول ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٨٧٢. تخريج مشكاة المصابيح/ ٢٥٢١.

سبيلاً، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.

وفي إسناده هلال الخراساني أبو هاشم، قال البخاري منكر الحديث، وقيل هو مجهول، وقال ابن عدي هذا الحديث ليس بمحفوظ، وفي إسناده أيضاً الحارث الأعور وفيه ضعف.

وقد ذكره الشوكاني في الموضوعات ثم قال: وقد حكم ابن الجوزي بضعفه ودفعه الحافظ ابن حجر بما هو معروف.

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد في كتاب الإيمان وأبو يعلى والبيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً»[1].

وأخرج سعيد ابن منصور قال السيوطي بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال: لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم، ما هم بمسلمين.

وأخرج الإسماعيلي عنه يقول من أطاق ولم يحج فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً، قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده: وهذا إسناد صحيح[2].

وعن ابن عمر من مات وهو موسر ولم يحج جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر، وعنه من وجد إلى الحج سبيلاً سنة ثم سنة ثم سنة ثم مات ولم يحج لم يصل عليه ولا يدري مات يهودياً أو نصرانياً.

وعن عمر بن الخطاب قال لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة، ومن شاء استيفاء مسائله فليرجع إلى كتابي (رحلة الصديق إلى البيت العتيق).

---

(١) الدارمي كتاب المناسك الباب الثاني.

(٢) ابن كثير ١/٣٨٦.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ خطاب لليهود والنصارى، وقيل لعلمائهم الذين علموا صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتخصيصهم بالخطاب دليل على أن كفرهم أوضح وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما.

﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره، وقيل المراد بها القرآن، وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأن يكون لكفرهم بها سبب من الأسباب ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ هذه الجملة الحالية مؤكدة للتوبيخ والإنكار؛ وهكذا المجيء بصيغة المبالغة في «شهيد» يفيد مزيد التشديد والتهويل.

﴿قل يا أهل الكتاب﴾ أمر بتوبيخهم بإضلال غيرهم بعد توبيخهم بضلالهم ﴿لم تصدون عن سبيل الله﴾ الاستفهام يفيد ما أفاده الاستفهام الأول وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون في صدهم عن الإسلام، ويقولون إن صفة محمد ليست في كتابنا ولا تقدمت به بشارة، وصد وأصد لغتان بمعنى تغير وأنتن، وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده وهو دين الإسلام.

﴿من آمن﴾ منهم بالفعل أو من أراد الإيمان من الكفار ﴿تبغونها عوجاً﴾ بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلاً إلى الحق بنفي النسخ وتغيير صفة الرسول عن وجهها وغير ذلك، أي تبغون لأجلها عوجاً، والعوج الميل

والزيغ، يقال عوج بالكسر إذا كان في الدين والقول والعمل، وبالفتح في الأجسام كالجدار ونحوه، روى ذلك عن أبي عبيدة وغيره.

والمعنى تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد والإستقامة بإيهامكم على الناس بأنها كذلك تنفيقاً لتحريفكم، وتقويماً لدعاويكم الباطلة، والهاء في تبغونها عائدة على السبيل، والسبيل يذكر ويؤنث، ومن التأنيث هذه الآية وقوله تعالى ﴿هذه سبيلي﴾.

﴿وأنتم شهداء﴾ جملة حالية أي والحال أنكم عالمون بأن الدين المرضي القيم هو دين الإسلام كما في كتابكم، يعني كيف تطلبون ذلك بملة الإسلام والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذي لا يقبل غيره، وأن فيها نعت محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل المراد وأنتم العقلاء، وقيل المعنى وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم، فكيف تأتون بالباطل الذي يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم، وقيل وأنتم تشهدون المعجزات التي تظهر على يد محمد ﷺ الدالة على نبوته.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد شديد وتهديد لهم، وذلك أنهم لما كانوا يجتهدون ويحتالون بإلقاء الشبهة في قلوب الناس ليصدوهم عن سبيل الله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بطريق الخفية، ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم من إحاطة علمه تعالى بأعمالهم، كما أن كفرهم بآيات الله لما كان بطريق العلانية ختمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

ثم توعدهم سبحانه بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ خاطب سبحانه المؤمنين محذراً لهم عن طاعة اليهود والنصارى مبيناً لهم أن تلك الطاعة تفضي إلى أن يردوهم ويصيروهم بعد إيمانهم كافرين، والكفر يوجب الهلاك في الدنيا بوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدماء، وفي الآخرة النار.

﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ الاستفهام للإنكار والاستبعاد أي من أين يأتيكم ذلك ولديكم ما يمنع منه، ويقطع أثره، وهو تلاوة آيات الله عليكم أي القرآن الذي فيه بيان الحق والباطل، وكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يبين الحق ويدفع الشبهة بين أظهركم.

وقيل ﴿كيف﴾ كلمة تعجب وتوبيخ والمراد منه المنع والتغليظ، قال قتادة في هذه الآية علمان بينان كتاب الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فأما النبي ﷺ فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة.

وقال الزجاج يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة لأن رسول الله ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع

الأمة لأن آثاره وعلامته والقرآن الذي أوتيه فينا فكأن رسول الله ﷺ فينا وإن لم نشاهده أ ـ هـ.

ثم أرشدهم إلى الإعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو الإسلام فقال.

﴿ومن يعتصم بالله﴾ أي ممتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته، وقيل بالقرآن، وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة يقال اعتصم به واستعصم وتمسك واستمسك إذا امتنع به من غيره، وعصمه الطعام منع الجوع منه، وفيه حث لهم في الإلتجاء إلى الله في دفع شر الكفار عنهم ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أي طريق واضح وهو طريق الحق المؤدي إلى الجنة، وفي وصف الصراط بالاستقامة رد على ما ادعوه من العوج.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ أي التقوى التي تحق له وهي أن لا يترك العبد شيئاً مما يلزمه فعله، ولا يفعل شيئاً مما يلزمه تركه، ويبذل في ذلك جهده ومستطاعه.

قال القرطبي ذكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله ﷺ من يقوى على هذا، وشق عليهم ذلك فأنزل الله تعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فنسخت هذه الآية روي ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد، قال مقاتل وليس في آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذا.

وقيل إن قوله اتقوا الله مبين لقوله ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ والمعنى اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، قال وهذا أصوب لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع، والجمع ممكن فهو أولى.

قال ابن عباس في الآية هو أن يطاع فلا يعصى؛ ويشكر فلا يكفر ويذكر

فلا ينسى؟ وقال مجاهد هو أن تجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم. وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم.

قال أنس لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه؛ وقيل ﴿حق تقاته﴾ واجب تقواه وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم؛ وقيل غير ذلك؛ وتقاة مصدر وهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها إذ الأصل اتقوا الله التقاة الحق أي الثابتة.

﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تكونوا على حال سوى حال الإسلام؛ وجاءت الحال جملة اسمية لأنها ابلغ وآكد؛ ولو قيل الا مسلمين لم يفد هذا التأكيد.

قال السيوطي في التحبير: من عجيب ما اشتهر في تفسير ﴿مسلمون﴾ قول العوام أي متزوجون وهو قول لا يعرف له أصل ولا يجوز الإقدام على تفسير كلام الله بمجرد ما يحدث في النفس أو يسمع ممن لا عمدة عليه انتهى.

وقد تقدم في البقرة مثل هذه الآية وهو نهي في الصورة عن موتهم إلا على هذه الحالة، والمراد دوامهم على الإسلام وذلك أن الموت لا بد منه فكأنه قيل دوموا على الإسلام إلى الموت، وقريب منه ما حكى عن سيبويه «لا أرينك ههنا أي لا تكن بالحضرة فيقع عليك رؤيتي».

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية فقال لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح[1].

---

(١) ابن كثير ١/٣٨٨. صحيح الجامع/ ٥١٢٦.

وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ الحبل لفظ مشترك وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إما تمثيل أو استعارة مصرحة أصلية تحقيقية، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام أو بالقرآن.

وقد وردت أحاديث بأن كتاب الله هو حبل الله، وأن القرآن هو حبل الله المتين[1]، قال أبو العالية: بالإخلاص لله وحده. وعن الحسن بطاعته، وعن قتادة بعهده وأمره، وعن ابن زيد بالإسلام.

﴿ولا تفرقوا﴾ بعد الإسلام كما تفرقت اليهود والنصارى أو كما كنتم في الجاهلية متدابرين. وقيل لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الإجتماع، والمعنى نهاهم عن التفرق الناشيء عن الاختلاف في الدين، وعن الفرقة، لأن كل ذلك عادة أهل الجاهلية.

﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً﴾ أمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم؛ لأن الشكر على الفعل أبلغ من الشكر على أثره، وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً، فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخواناً في الدين، والولاية، ومعنى أصبحتم صرتم وليس المراد به معناه الأصلي وهو الدخول في وقت الصباح.

---

(١) رواه الطبري واسناده صحيح ولفظه: «ان الصراط تحضره الشياطين ينادون يا عبد الله هلم هذا الطريق ليصدوا في سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله هو كتاب الله.

وعن ابن جريج في الآية قال: ما كان بين الأوس والخزرج في شأن عائشة، قال ابن عباس كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة حتى قام الإسلام وأطفأ الله ذلك وألف بينهم.

﴿وكنتم﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿على شفا﴾ طرف ﴿حفرة من النار﴾ يعني ليس بينكم وبين الوقوع في النار إلا أن تموتوا على كفركم، ففي الكلام تشبيه، وشفا كل شيء حرفه وهو مقصور من ذوات الواو وجمعه أشفاء ويثنى بالواو نحو شفوان، ويستعمل مضافاً إلى أعلا الشيء وأسفله، فمن الأول شفا جرف، ومن الثاني هذه الآية، وأشفى على كذا أي قاربه، ومنه أشفى المريض على الموت.

قال يعقوب: يقال للرجل عند موته، وللقمر عند امحاقه، وللشمس عند غروبها ما بقي منه أو منها إلا شفا أي إلا قليل.

﴿فأنقذكم منها﴾ أي من هذه الحفرة بالإسلام، وهو تمثيل للحالة التي كانوا عليها في الجاهلية، قال السدي: يقول كنتم على طرف النار من مات منكم وقع في النار، فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم واستنقذكم به من تلك الحفرة، وقيل منها أي من الشفا لأنه المحدث عنه، وتأنيث الضمير لاكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه.

﴿كذلك﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده أي مثل ذلك البيان البليغ ﴿يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ إرشاد لهم إلى الثبات على الهدى والازدياد منه.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ كلمة «من» للتبعيض وقيل لبيان الجنس، وقيل للتبيين، وقيل زائدة ورجح القرطبي الأول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به معروفاً، وما ينهون عنه منكراً، وقد عينهم الله سبحانه بقوله: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة﴾ الآية.

وروى ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر عنه صلى الله عليه وآله وسلم الخير اتباع القرآن وسنتي.

وعن أبي العالية قال: كل آية ذكرها الله في القرآن في الأمر بالمعروف فهو الإسلام، والنهي عن المنكر، فهو عبادة الأوثان والشيطان انتهى، وهو تخصيص بغير مخصص، فليس في لغة العرب ولا في عرف الشرع ما يدل على ذلك.

وقال مقاتل بن حيان يدعون إلى الإسلام، ويأمرون بطاعة ربهم، وينهون عن معصية ربهم، وعن الضحاك في الآية قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وهم الرواة انتهى.

ولا أدري ما وجه هذا التخصيص، فالخطاب في هذه الآية كالخطاب بسائر الأمور التي شرعها الله لعباده وكلفهم بها.

وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم

من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها.

﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام إظهاراً لشرفهما وإنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله به عباده بالدعاء إليه، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة أي يدعون ويأمرون وينهون لقصد التعميم أي كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك، والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه، والمنكر ضد ذلك، وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه.

﴿وأولئك﴾ إشارة إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها ﴿هم المفلحون﴾ أي المختصون بالفلاح الكاملون فيه الفائزون، وتعريف المفلحين للعهد أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد.

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ هم اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين فقد تفرق كل منهما فرقاً، واختلف كل منهما باستخراج التأويلات الزائغة وكتم الآيات النافعة وتحريفها لما أخلدوا إليه من حطام الدنيا، وقيل هم المبتدعة من هذه الأمة، وقيل الحرورية، والظاهر الأول.

وقيل وهذا النهي عن التفرق والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية، وأما المسائل الفروعية الاجتهادية فالاختلاف فيها جائز، وما زال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين في أحكام الحوادث. وفيه نظر، فإنه ما زال في تلك العصور المنكر للاختلاف موجوداً، وتخصيص بعض المسائل بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب، فالمسائل الشرعية متساوية الأقدام في انتسابها إلى الشرع.

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت

النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية مرفوعاً نحوه، وزاد: كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وأخرج الحاكم عن ابن عمر مرفوعاً نحوه أيضاً وزاد: كلهم في النار إلا ملة واحدة فقيل له ما الواحدة قال ما أنا عليه اليوم وأصحابي[1].

وأخرج ابن ماجة عن عوف بن مالك مرفوعاً نحوه وفيه فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار قيل يا رسول الله فمن هم قال الجماعة، وأخرجه أحمد من حديث أنس، وفيه قيل يا رسول الله من تلك الفرقة قال الجماعة.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الأمر بالكون في الجماعة والنهي عن الفرقة.

﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ يعني الحجج الواضحات المبينات للحق الموجبات لعدم الاختلاف والفرقة فعلموها ثم خالفوها، ولم يقل ﴿جاءتهم﴾ لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل في التقديم تشبيهاً بعلامة التثنية والجمع ﴿وأولئك لهم﴾ أي لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا ﴿عذاب عظيم﴾ في الآخرة، فيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والاختلاف.

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من «عنقه» أخرجه أبو داود[2]، وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة، فإن الشيطان مع الفذ وهو من الإثنين أبعد»، رواه البغوي بسنده.

---

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/٦.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٦٢٨٦. المشكاة/ ١٨٥.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ أي اذكر يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة، ووجوه الكافرين مسودة، يقال إن ذلك عند قراءة الكتاب إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر وابيض وجهه. وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيآته فحزن واسود وجهه، والتنكير في وجوه للتكثير أي وجوه كثيرة.

عن ابن عباس قال تبيض وجوه أهل السنة والجماعة. وتسود وجوه أهل البدعة والضلالة، وروي نحوه عن ابن عمر وأبي سعيد، قيل إن البياض كناية عن الفرح والسرور، والسواد كناية عن الغم والحزن، وقيل هما حقيقة تحصلان في الوجه.

﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً وتقديم بيان حال الكفار لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل، والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدأ بذلك عند الإجمال، ففي الآية حسن ابتداء وحسن اختتام، قيل هم أهل الكتاب، وقيل المرتدون، وقيل المبتدعون، وقيل الكافرون فيلقون في النار ويقال لهم:

﴿أكفرتم﴾ الهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم ﴿بعد إيمانكم﴾ قال أبو السعود والظاهر أن المخاطبين بهذا القول أهل الكتابين، وكفرهم بعد إيمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إيمان أسلافهم، أو إيمان أنفسهم

به قبل مبعثه، أو جميع الكفرة حيث كفروا بعدما أقروا بالتوحيد يوم أخذ الميثاق في عالم الذر، أو بعدما تمكنوا من الإيمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة انتهى.

وقال الحسن هم المنافقون، وقال عكرمة هم أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه ثم كفروا به. وقيل الذين ارتدوا زمن أبي بكر ﴿فذوقوا العذاب﴾ أمر إهانة وهو من باب الاستعارة ففي ﴿فذوقوا﴾ استعارة تبعية تخييلية وفي العذاب استعارة مكنية حيث شبه العذاب بشيء يدرك بحاسة الأكل والذوق تصوراً بصورة ما يذاق، وأثبت له الذوق تخييلاً، قاله الكرخي.

﴿بما كنتم تكفرون﴾ صريح في أن نفس الذوق معلل بذلك، فهو مسبب عنه، بخلاف دخول الجة الآتي فلم يذكر له سبب إشارة أنه بمحض فضل الله.

﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل ﴿ففي رحمة الله﴾ أي فهم مستقرون في جنته ودار كرامته، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة، بل لا بد من الرحمة، ومنه حديث لن يدخل أحد الجنة بعمله وهو في الصحيح ﴿هم فيها خالدون﴾ جملة استئنافية بيانية كأنه قيل فما حالهم فيها.

عن أبي بن كعب قال صاروا فرقتين يوم القيامة يقال لمن اسود وجهه أكفرتم بعد إيمانكم فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة. وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم وأدخلهم في رضوانه وجنته. وقد روي غير ذلك.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿تلك آيات الله﴾ أي القرآن المشتمل على نعيم الأبرار وتعذيب الكفار أو التي تقدمت ﴿نتلوها عليك﴾ يا محمد متلبسة ﴿بالحق﴾ وهو العدل جملة حالية ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها.

وفي توجه النفي إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فرداً من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم فضلاً أن يفعله، وفاعله محذوف أي ظلمه للعالمين، وأما ظلم بعضهم بعضاً فواقع كثيراً وكل واقع فهو بإرادته، واللام في «للعالمين» زائدة لا تعلق لها بشيء.

﴿ولله﴾ وحده ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ أي مخلوقاته سبحانه يتصرف فيها كيف يشاء وعلى ما يريد، وعبر «بما» تغليباً لغير العقلاء على العقلاء لكثرتها أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم إظهاراً لحقارتهم في بيان مقام عظمته تعالى.

قال المهدوي: وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلماً للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما في السموات والأرض في قبضته، وقيل هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما في السموات والأرض له ملكاً وخلقاً وعبيداً حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره.

﴿وإلى الله﴾ أي إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره لا شركة ولا استقلالاً ﴿ترجع﴾ أي تصير ﴿الأمور﴾ أي أموركم.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿كنتم خير أمة﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم، سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير و﴿كان﴾ قيل هي التامة أي وجدتم وخلقتم خير أمة. ومنه قوله تعالى ﴿كيف تكلم من كان في المهد صبياً﴾ وقوله ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ وقيل ناقصة.

قال الأخفش: أهل ملة أي خير أهل دين، وقيل معناه كنتم في اللوح المحفوظ. وقيل كنتم منذ آمنتم. وقيل كنتم في علم الله خير أمة، وقيل كنتم مذكورين في الأمم الماضية بأنكم خير أمة، وقيل كنتم بمعنى أنتم، وقيل يقال لهم عند دخول الجنة كنتم خير أمة، وقيل المعنى صرتم خير أمة.

وفيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت متفاضلة في ذات بينها كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم.

﴿أخرجت﴾ أي أظهرت ﴿للناس﴾ أي لنفعهم ومصالحهم في جميع الأعصار حتى تميزت وعرفت ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال عنهم ذلك. ولهذا قال مجاهد إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية.

وهذا يقتضي أن يكون ﴿تأمرون﴾ وما بعده في محل النصب على الحال أي كنتم خير أمة حال كونكم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر مؤمنين بالله وبما يجب عليكم الإيمان به من كتابه ورسوله وما شرعه لعباده. فإنه لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور.

قال ابن عباس في الآية: هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال عمر بن الخطاب لو شاء الله لقال أنتم فكنا كلنا، ولكن قال كنتم في خاصة أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن صنع مثل صنعهم كانوا خير أمة، وفي لفظ عنه يكون لأولنا ولا يكون لآخرنا وأيضاً قال يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها.

وقال عكرمة: نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل، وقال أبو هريرة خير الناس: الناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الاسلام، أخرجه البخاري وغيره(١).

وعن معاوية بن حيدة أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الآية أنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها، رواه الترمذي وحسنه أحمد وابن ماجه والحاكم وصححه والطبراني وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وروي من حديث معاذ وأبي سعيد ونحوه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب، وهذا من فوائد كونها خير الأمم(٢).

---

(١) اخرجه البخاري ١٦٩/٨ موقوفاً وهو في حكم المرفوع: عجب الله عز وجل من قوم يدخلون الجنة في سلاسل.

(٢) من هذه الأحاديث ما روي عن ابي هريرة: =

﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ أي اليهود والنصارى إيماناً كإيمان المسلمين بالله ورسله وكتبه ﴿لكان خيراً لهم﴾ من الرياسة التي هم عليها؛ وقيل من الكفر الذي هم عليه، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل قالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض؛ وإنما حملهم على ذلك حب الرياسة واستتباع العوام، فالخيرية إنما هي باعتبار زعمهم، وفيه ضرب تهكم بهم، ولم يتعرض للمؤمن به إشعاراً بشهرته قاله أبو السعود.

وقال الكرخي: لكان هذا الإيمان خيراً لهم من الإيمان بموسى وعيسى فقط وحينئذ فأفعل التفضيل على بابه، أو هو لبيان أن الإيمان فاضل كما في قوله تعالى: ﴿أفمن يلقى في النار خير﴾.

ثم بين حال أهل الكتاب بقوله ﴿منهم المؤمنون﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل قبله كابن سلام وأصحابه من اليهود، والنجاشي وأصحابه من النصارى ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طريق الحق المتمردون في باطلهم، المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما جاء به، فيكون هذا التفصيل على هذا كلاماً مستأنفاً جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل هل منهم من آمن واستحق ما وعده الله، وعبر عن كفرهم بالفسق إشارة إلى أنهم فسقوا في دينهم أيضاً فليسوا عدولاً فيه فخرجوا عن الإسلام وعن دينهم.

= يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً تضيء وجوههم اضاءة القمر ليلة البدر وفي رواية: يدخل الجنة من أمتي سبعون الفاً بغير حساب هم الذي لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿لن يضروكم﴾ أي اليهود يا معشر المسلمين بنوع من أنواع الضرر ﴿إلا﴾ بنوع ﴿أذى﴾ وهو الكذب والتحريف والبهت، ولا يقدرون على الضرر الذي هو الضرر في الحقيقة بالحرب والنهب ونحوهما، فالاستثناء مفرغ، قال الحسن: تسمعون منهم كذباً على الله يدعونكم إلى الضلالة.

وهذا وعد من الله لرسوله وللمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم، وقيل الاستثناء منقطع، والمعنى لن يضروكم البتة لكن يؤذونكم يعني باللسان من طعنهم في دينكم أو تهديد أو إلقاء شبهة وتشكيك في القلوب، وكل ذلك يوجب الأذى والغم.

ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ أي ينهزمون ولا يقدرون على مقاومتكم فضلاً عن أن يضروكم ﴿ثم لا ينصرون﴾ أي لا يوجد لهم نصر ولا يثبت لهم غلب في حال من الأحوال، بل شأنهم الخذلان ما داموا، ولكن النصر عليهم.

وقد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقاً، فإن اليهود لم يخفق لهم راية نصر ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية فهي من معجزات النبوة.

﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا﴾ قد تقدم في البقرة معنى هذا التركيب والمعنى صارت الذلة محيطة بهم في كل حال وعلى كل تقدير، في أي مكان وجدوا، كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به، والمراد بالذلة قتلهم وسبيهم وغنيمة أموالهم، وقيل الذلة ضرب الجزية عليهم لأنها ذلة وصغار،

وقيل ذل التمسك بالباطل، وقيل ذلتهم انك لا ترى في اليهود ملكاً قاهراً ولا رئيساً معتبراً بل هم مستضعفون بين المسلمين والنصارى في جميع البلاد.

﴿إلا﴾ أن يعتصموا ﴿بحبل من الله﴾ قاله الفراء أي بذمة الله أو بكتابه، قال الزجاج: هو استثناء منقطع، وقيل هو استثناء مفرغ من الأحوال العامة، قال الزمخشري: هو استثناء من أعم الأحوال والمعنى ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل من الله انتهى، أي بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة.

﴿وحبل﴾ أي بذمة ﴿من الناس﴾ وهم المسلمون ببذل الجزية، وقيل المراد بالناس النبي ﷺ خاصة ﴿وباؤا﴾ رجعوا وقيل احتملوا، وأصل معناه في اللغة اللزوم والاستحقاق ﴿بغضب﴾ أي لزمهم غضب ﴿من الله﴾ وهم مستحقون له ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ أحاطت بهم من جميع الجوانب، قال الحسن: المسكنة هي الجزية، وعن قتادة والحسن قالا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وعن الضحاك نحوه.

وقيل المعنى أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان موسراً، وهكذا حال اليهود فانهم تحت الفقر المدقع والمسكنة الشديدة إلا النادر الشاذ منهم.

﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب وقع عليهم ﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء﴾ إسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه فعل أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم ﴿بغير حق﴾ أي في اعتقادهم أيضاً.

﴿ذلك﴾ أي الكفر وقتل الأنبياء ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده، ومعنى الآية أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة والبواء بالغضب منه لكونهم كفروا بآياته، وقتلوا أنبياءه، بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله على الاستمرار، فإن الاصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر، وهي تفضي إلى الكفر، عن ابن جريج قال: إشراكهم في عزير وعيسى والصليب.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾

﴿ليسوا سواء﴾ أي هم غير مستوين بل مختلفون، والجملة مستأنفة سيقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب، وقوله ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ هو استئناف أيضاً يتضمن بيان الجهة التي تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله ﴿من الصالحين﴾.

قال الأخفش: التقدير من أهل الكتاب ذو أمة أي ذو طريقة حسنة، وبه قال الزجاج، وقيل في الكلام حذف والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة فترك الأخرى اكتفاء بالأولى، وقال الفراء التقدير ليس تستوي أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمة كافرة، وقال النحاس: هذا القول خطأ انتهى.

وعندي أن ما قاله الفراء قوي قويم، وحاصله أن معنى الآية لا تستوي أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة أخرى شأنها كذا، والقائمة المستقيمة العادلة من قولهم أقمت العود فقام أي استقام، عن ابن عباس يقول: مهتدية قائمة من أمر الله لم تنزع عنه ولم تتركه كما تركه الآخرون وضيعوه، وقيل قائمة على كتاب الله وحدوده، وقيل قائمة في الصلاة.

﴿يتلون آيات الله﴾ أي يقرؤن كتابه ﴿آناء الليل﴾ أي ساعاته، وقال ابن عباس جوف الليل، واحدها أنى بفتح الهمزة والنون بزنة عصا أو إني بكسر الهمزة وفتح النون بوزن معي أو أنى بالفتح والسكون بوزن ظبي، أو اني بوزن حمل أو أنو بزنة جرو، وكل واحد من هذه المفردات الخمس يطلق على الساعة من الزمان كما يؤخذ من القاموس.

﴿وهم يسجدون﴾ ظاهره أن التلاوة كائنة منهم في حال السجود، ولا يصح ذلك إذا كان المراد بهذه الأمة الموصوفة في الآية هم من قد أسلم من أهل الكتاب، لأنه قد صح عن النبي ﷺ النهي عن قراءة القرآن في السجود، فلا بد من تأويل هذا الظاهر بأن المراد بقوله وهم يسجدون وهم يصلون كما قاله الفراء والزجاج، وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة لما فيه من الخضوع والتذلل[١].

وظاهر هذا أنهم يتلون آيات الله في صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة، وقيل المراد بها الصلاة بين العشاءين، وقيل صلاة الليل مطلقاً.

﴿يؤمنون بالله﴾ وكتبه ورسله، ورأس ذلك الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم «﴿واليوم الآخر﴾» والإيمان به يستلزم الحذر من فعل المعاصي، وهم لا يحترزون منها فلم يحصل الإيمان الخالص بالله وباليوم الآخر «﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾» صفتان أيضاً لأمة أي أن هذا من شأنهم وصفتهم، وظاهره يفيد أنهم يأمرون وينهون على العموم، وقيل المراد أمرهم باتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونهيهم عن مخالفته.

﴿ويسارعون في الخيرات﴾ أي يبادرون بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها، والسرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه، وإن العجلة ليست مذمومة على الاطلاق، قال الله تعالى ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ ﴿وأولئك﴾ أي الأمة الموصوفة بتلك الصفات ﴿من الصالحين﴾ أي من جملتهم، وقيل من بمعنى ﴿مع﴾ وهم الصحابة والظاهر أن المراد كل صالح.

---

(١) زاد المسير ١/٤٤٢.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وما يفعلوا من خير﴾ أيّ خير كان ﴿فلن يكفروه﴾ أي لن تعدموا ثوابه كأنه قيل فلن تحرموه كما قاله الزمخشري، بل يشكره لكم ويجازيكم به، وفيه تعريض بكفرانهم نعمته وأنه تعالى لا يفعل مثل فعلهم، وجيء به على لفظ المبني للمفعول لتنزيهه عن إسناد الكفر إليه، وقرىء بالياء التحتيه في الفعلين.

﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي كل من ثبتت له صفة التقوى؛ وقيل المراد من تقدم ذكره وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفات، ووضع الظاهر موضع المضمر مدحاً لهم، ورفعاً من شأنهم، وفيه بشارة لهم بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل الإيمان والتقوى.

﴿إن الذين كفروا﴾ قيل هم بنو قريظة والنضير، قال مقاتل: لما ذكر تعالى مؤمني أهل الكتاب ذكر كفارهم في هذه الآية، وقيل نزلت في مشركي قريش فإن أبا جهل كثير الافتخار بالأموال، وأنفق أبو سفيان مالاً كثيراً في يومي بدر وأحد على المشركين، والظاهر أن المراد بذلك كل من كفر بما يجب الإيمان به لأن اللفظ عام، ولا دليل يوجب التخصيص فوجب إجراء اللفظ على عمومه.

﴿لن تغني﴾ أي لن تدفع ﴿عنهم أموالهم﴾ بالفدية ولو افتدوا بها من عذاب الله ﴿ولا أولادهم﴾ بالنصر، وإنما خص الأولاد لأنهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ما ينوبهم ﴿من الله شيئاً﴾ أي لا ينفعهم شيء من ذلك في الآخرة ولا مخلص لهم من عذاب الله، وخصهما بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها ولا يفارقونها.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾ بيان لكيفية عدم إغناء أموالهم التي كانوا يعولون عليها في جلب المنافع ودفع المضار، قيل أراد نفقة أبي سفيان وأصحابه ببدر وأحد في معاداة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل أراد نفقة اليهود على علمائهم ورؤسائهم، وقيل أراد نفقات جميع الكفار وصدقاتهم في الدنيا، وقيل أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بها وجه الله.

﴿كمثل ريح فيها صرّ﴾ الصرّ البرد الشديد، وهو قول أكثر المفسرين، وبه قال ابن عباس وقتادة والسدى وابن زيد، وأصله من الصرير الذي هو الصوت فهو صوت الريح الشديد البارد، وقال الزجاج: الصر صوت لهب النار التي في تلك الريح وبه قال ابن الانباري من أهل اللغة، وقيل هو الحر الشديد المحرق، فظرفية الريح له واضحة والتشبيه على الوجهين صحيح، والمقصود منه حاصل لأنها سواء كان فيها برد فهي مهلكة، أو حر فهي محرقة.

﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فأهلكته﴾ أي الريح الزرع، ومعنى الآية مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وقت الحاجة إليها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار حارة فأحرقته أو أهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته، وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به فيقال كمثل زرع أصابته ريح أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح.

﴿وما ظلمهم الله﴾ بأن لم يقبل نفقاتهم ﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾ أي بالكفر المانع من قبول النفقة التي أنفقوها، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص، لأن الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول، وهذا في جانب المشبّه وهم الكفار، وقوله سابقاً ﴿ظلموا أنفسهم﴾ في جانب المشبه به وهم أصحاب الزرع فلا تكرار.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة﴾ البطانة مصدر يسمى به الواحد والجمع وبطانة الرجل خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله البطن الذي هو خلاف الظهر، وبطن فلان يبطن بطوناً وبطانة إذا كان خاصاً به.

﴿من دونكم﴾ أي سواكم قاله الفراء أي من دون المسلمين وهم الكفار أي بطانة كائنة من دونكم أي من غيركم، وقدّره الزمخشري من غير أبناء جنسكم وهم المسلمون وقيل من زائدة أي دونكم في العمل والإيمان.

قال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم لخوف الفتنة عليهم منهم هذه الآيـة، وعنه قال هم المنافقون.

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال هم الخوارج، قال السيوطي وسنده جيد وقيل المراد بهذه جميع أصناف الكفار وهو الأولى ويدخل فيه من هو سبب النزول دخولاً أولياً.

﴿لا يألونكم خبالاً﴾ مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الاجتناب عنهم. أو صفة لبطانة أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد،

يقال لا آلوك جهداً أي لا أقصر والمراد لا يمنعونكم خبالاً، والخبال والخبل الفساد في الأفعال والأبدان والعقول.

﴿ودّوا ما عنتّم﴾ أي ما يشق عليكم من الضرر والشرر والهلاك، والعنت المشقة وشدة الضرر، قال الراغب هنا المعاندة والمعانتة متقاربان لكن المعاندة هي الممانعة، والمعانتة هي أن يتحرى مع الممانعة المشقة، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهي.

﴿قد بدت البغضاء﴾ هي شدة البغض كالضرّاء لشدة الضر ﴿من أفواههم﴾ الأفواه جمع فم والمعنى أنها قد ظهرت البغضاء في كلامهم، لأنهم لما خامرهم من شدة البغض والحسد أظهرت ألسنتهم ما في صدورهم، فتركوا التقية وصرحوا بالتكذيب، أما اليهود فالأمر في ذلك واضح، وأما المنافقون فكان يظهر من فلتات ألسنتهم ما يكشف عن خبث طويّتهم، وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم.

﴿وما تخفي صدورهم﴾ من العداوة والغيظ ﴿أكبر﴾ مما يظهرونه لأن فلتات اللسان أقل مما تجنّه الصدور، بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلة جداً.

ثم إنه سبحانه امتنّ عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص إن كانوا من أهل العقول المدركة لذلك البيان فقال ﴿قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ أي تتّعظون به.

﴿ها أنتم أولاء﴾ الخاطئون في موالاتهم ثم بيّن خطأهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التذييلية فقال ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ قيل تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمان أو لما بينكم وبينهم من القرابة ولا يحبونكم لما قد استحكم في صدورهم من الغيظ والحسد.

﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي جنس الكتاب جميعاً أي لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتب الله سبحانه التي من جملتها كتابهم، فما بالكم تحبونهم ولا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ لهم شديد، لأن من بيده الحق أحق بالصلابة والشدة ممن هو على الباطل.

﴿وإذا لقوكم قالوا﴾ نفاقاً وتقية ﴿آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم﴾ أي لأجلكم، والعض الإمساك بالأسنان أي تحامل الأسنان بعضها على بعض والعض كله بالضاد إلا في قولهم عظ الزمان أي اشتد وعظت الحرب أي اشتدت فإنهما بالظاء أخت الطاء ﴿الأنامل﴾ جمع أنملة وهي طرف الأصبع ﴿من الغيظ﴾ أي تأسفاً وتحسراً حيث عجزوا عن الانتقام منكم، والعرب تصف النادم والمغتاظ مجازاً بعضّ الأنامل والبنان. ومن لابتداء الغاية أو بمعنى اللام أي من أجل الغيظ والغيظ مصدر غاظه يغيظه أي أغضبه والتغيظ إظهار الغيظ، وقد يكون مع ذلك صوت، قال تعالى: ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ قاله السمين.

ثم أمره الله سبحانه بأن يدعو عليهم فقال ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ وهو دعاء يتضمن استمرار غيظهم ما داموا في الحياة بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يأتيهم الموت وهم عليه، والباء للملابسة أي متلبسين بغيظكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي الخواطر القائمة بها والدواعي والصوارف الموجودة فيها. وهو كلام داخل تحت قوله ﴿قل﴾ فهو من جملة المقول أو مستأنفة أخبر الله بذلك لأنهم كانوا يخفون غيظهم ما أمكنوا فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد، وذات هنا تأنيث ذي بمعنى صاحبة الصدور، وجعلت صاحبة لها لملازمتها لها وعدم انفكاكها نحو أصحاب الجنة وأصحاب النار، والمراد بها المضمرات.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان تناهي عداوتهم إلى كل حسنة، وأصل المس الجس باليد ثم يطلق على كل ما يصل إلى الشيء على سبيل التشبيه كما يقال مسه نصب وتعب، قاله الخازن وحسنة وسيئة تعمّان كل ما يحسن وما يسوء، وعبر بالمس في الحسنة وبالإصابة في السيئة للدلالة على أن مجرد مس الحسنة تحصل به المساءة ولا يفرحون إلا بإصالة السيئة، وقيل أن المس مستعار لمعنى الإصابة.

قال مقاتل: الحسنة النصر على العدو والرزق والخير ومنافع الدنيا، والسيئة القتل والهزيمة والجهد والجدب، ومعنى الآية أن من كانت هذه حالته لم يكن أهلاً لأن يتخذ بطانة.

﴿وان تصبروا﴾ على عداوتهم وأذاهم أو على التكاليف الشاقة ﴿وتتقوا﴾ الله في موالاتهم أو ما حرّمه الله عليكم ﴿لا يضركم﴾ وقرىء بكسر الضاد وسكون الراء يقال ضارّه يضيره ويضوره ضيراً بمعنى ضره يضره ﴿كيدهم شيئاً﴾ والكيد احتيالك لتوقع غيرك في مكروه، والمعنى لا يضركم شيئاً من الضرر بفضل الله وحفظه.

﴿إن الله بما يعملون﴾ من الكيد، على قراءة الياء وعليها اتفق العشرة أو من الصبر والتقوى على قراءة التاء وهي شاذة للحسن البصري ﴿محيط﴾ أي حافظ له لا يعزب عنه شيء منه.

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ غدوت من أهلك﴾ أي من المنزل الذي فيه أهلك يعني عائشة، وفيه منقبة عظيمة لها رضي الله عنها لقوله ﴿من أهلك﴾ فنصّ الله تعالى على أنها من أهله، قد ذهب الجمهور إلى أنّ هذه الآية نزلت في غزوة أحد، وقال الحسن: في يوم بدر وفي رواية عنه يوم الأحزاب، قال ابن جرير الطبري الأول الأصح للآية الآتية.

وقد اتفق العلماء على أن ذلك كان يوم أحد وبه قال عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عباس والزهري وقتادة والسدي والربيع وابن اسحق، وقال مجاهد ومقاتل والكلبي في غزوة الخندق.

﴿تبوّىء المؤمنين﴾ أي تنزلهم أو تهيىء وتسوي لهم ﴿مقاعد للقتال﴾ وأصل التبوّء اتخاذ المنزل يقال بوأته منزلاً إذا أسكنته أياه، ومعنى الآية واذكر إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مراكز وأماكن يقعدون ويقفون فيها للقتال.

وعبّر عن الخروج بالعدو الذي هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة لأنه قد يعبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما، كما يقال أضحى وان لم يكن في وقت الضحى.

وقد ورد في كتب التاريخ والسير كيفية الاختلاف في المشورة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم أحد، فمن قائل نخرج إليهم، ومن قائل نبقى في المدينة فخرج، وكان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومه ذلك، ومعاتبة من عاتب منهم يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وإذ غدوت من أهلك﴾ أي يوم أحد ﴿والله سميع﴾ لأقوالكم ﴿عليم﴾ بنيّاتكم وما في ضمائركم.

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ أي تجبنا وتضعفا عن القتال، والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس، وكانا جناحي العسكر يوم أحد، والفشل الجبن، وقيل هو في الرأي العجز وفي البدن الاعياء وعدم النهوض، وفي الحرب الجبن والخور، والفعل منه بكسر العين من باب تعب، وتفاشل الماء إذا سال.

والهمّ من الطائفتين كان بعد الخروج، والمراد بالهم هنا حديث النفس، والله تعالى لا يؤاخذ به ويعضده قول ابن عباس: أنهم أضمروا أن يرجعوا لما رجع عبد الله بن أبي بمن معه من المنافقين، فحفظ الله قلوب المؤمنين فلم يرجعوا، وذلك قوله ﴿والله وليهما﴾ أي ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهما بالتوفيق والعصمة.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ التوكل التفعّل من وكل أمره إلى غيره إذا اعتمد عليه في كفايته والقيام به، وقيل التوكل هو العجز والاعتماد على الغير، وقيل هو تفويض الأمر إلى الله بحسن تدبيره، فأمرهم الله أن لا يفوضوا أمرهم إلا إليه، وتقديم الظرف للاختصاص ولتناسب رؤوس الآي.

﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ جملة مستأنفة سيقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر وهو العون، وبدر اسم لماء كان في موضع الوقعة، وقيل هو اسم الموضع نفسه ، وقيل موضع بين مكة والمدينة وكانت وقعتها في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية، وسيأتي سياق قصة بدر في الأنفال إن شاء الله تعالى.

﴿وأنتم أذلة﴾ جمع قلة ومعناه أنهم كانوا بسبب قلتهم أذلة وهو جمع ذليل، استعير للقلة إذ لم يكونوا في أنفسهم أذلة بل كانوا أعزة، قال الحسن: وأنتم قليل وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة، وكان عدوهم من كفار قريش زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس، وكان معهم السلاح والشوكة، وكان المؤمنون في ضعف الحال وقلة السلاح والمركوب وقلة المال، خرجوا على نواضح وكان أكثرهم رجّالة، ولم يكن معهم إلا فرس، وكان النفر منهم يتعقب على البعير الواحد.

وقد شرح أهل التاريخ والسير غزوة بدر وأحد بأتم شرح فلا حاجة لنا في سياق ذلك ههنا.

﴿فاتقوا الله﴾ في الثبات مع رسول الله ﷺ ﴿لعلكم تشكرون﴾ ما أنعم عليكم من نصرته.

﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ هذا للانكار منه صلى الله عليه وآله وسلم عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة، وَجيء بلن دون «لا» لأنها أبلغ في النفي، ومعنى الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر، والإمداد في الأصل اعطاء الشيء حالاً بعد حال.

قال قتادة هذا كان يوم بدر أمدّهم الله بألف ملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف، وقيل كان هذا يوم أحد، وهو قول عكرمة والضحاك ومقاتل، والأول أولى وهو الراجح[1].

---

(١) وسيأتي تفصيل ذلك في تفسيره سورة براءة ان شاء الله.

بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا﴾ أصل الفور القصد إلى الشيء والأخذ فيه بجد وهو من قولهم فارت القدر تفور فوراً إذا غلت، والفور الغليان، وفاز غضبه إذا جاش وفعله من فوره أي قبل أن يسكن، والفوارة ما يفور من القدر استعير للسرعة أي إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك ﴿مسوّمين﴾ أي معلمين بعلامات أو معلمين أنفسهم بعلامة على المبني المفعول أو الفاعل ورجح ابن جرير الأخير.

والتسويم إظهار سيما الشيء قال كثير من المفسرين مسوّمين أي مرسلين خيلهم في الغارة، وقيل إن الملائكة اعتمت بعمائم بيض، وقيل حمر، وقيل خضر، وقيل صفر، فهذه هي العلامة التي علموا بها أنفسهم حكي ذلك عن الزجاج.

وقيل كانوا على خيل بلق، وقيل غير ذلك، وفي بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة.

قال ابن عباس لم تقاتل الملائكة في معركة إلا يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون إنما يكونون عدداً ومدداً. قال الحسن هؤلاء الخمسة آلاف ردء للمؤمنين إلى يوم القيامة.

وقد سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه.

وأجاب: بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبي وأصحابه وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله تعالى في عباده، والله فاعل الجميع انتهى.

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿وما جعله الله﴾ أي الإمداد أو التسويم أو الانزال، ورجح الأول صاحب الكشاف ﴿إلا بشرى لكم﴾ استثناء مفرغ من أعم العام والبشرى اسم من البشارة وهي الاخبار بما يسر ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ أي لتسكن، واللام لام كي، جعل الله ذلك الإمداد بشرى بالنصر، وطمأنينة للقلوب وفي قصر الإمداد عليهما اشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ.

﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند غيره فلا ينفع كثرة المقاتلة وجودة العدة، والغرض أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة الذين أمدوا بهم، وفيه تنبيه على الأعراض عن الأسباب والإقبال على مسببها ﴿العزيز الحكيم﴾ فاستعينوا به وتوكلوا عليه.

﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ الطرف الطائفة والمعنى نصركم الله ببدر ليقطع ويهلك طائفة من الكفار ويهدم ركناً من أركان الشرك بالقتل والأسر. فقتل يوم بدر من قادتهم وسادتهم سبعون، وأسر سبعون.

ومن حمل الآية على غزوة أحد قال قد قتل منهم ستة عشر، وكان النصر فيه للمسلمين حتى خالفوا أمر رسول الله ﷺ.

﴿أو يكبتهم﴾ يحزنهم والمكبوت المحزون، وقال الكرخي: يذلهم، أشار به إلى أن الكبت من الذلة يقال كبت الله العدو كبتاً أي أذله وصرفه.

وقال بعض أهل اللغة: معناه يكبدهم أي يصيبهم بالحزن والغيظ في أكبادهم وهو غير صحيح فإن معنى كبت أحزن وأغاظ وأذل، ومعنى كبد أصاب الكبد وأصل الكبت في اللغة صرع الشيء على وجهه، والمراد منه القتل والهزيمة والإهلاك أو اللعن أو الخزي ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي غير ظافرين بمطلبهم.

عن قتادة قال قطع الله يوم بدر طرفاً من الكفار وقتل صناديدهم ورؤوسهم وقادتهم بالبشر، وعنه قال هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة، وعن السدي ذكر الله قتلى المشركين بأحد وكانوا ثمانية عشر رجلاً فقال «ليقطع طرفاً» ثم ذكر الشهداء فقال «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً».

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس أن النبي ﷺ كسرت رباعيّته يوم أحد وشجّ في وجهه حتى سال الدم، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم[1]، فأنزل الله ﴿ليس لك في الأمر شيء﴾ أي لست تملك إصلاحهم ولا تعذيبهم بل ذلك ملك الله فاصبر ﴿أو يتوب عليهم﴾ بالإسلام ﴿أو يعذبهم﴾ بالقتل والأسر والنهب ﴿فإنهم ظالمون﴾ بالكفر وقد روى هذا المعنى في روايات كثيرة.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل ابن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية فنزلت هذه الآية، وللحديث ألفاظ وطرق[2].

ومعنى الآية أن الله مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك أو الهزيمة أو التوبة إن أسلموا، أو العذاب إن أصروا على الكفر، وقال الفراء (أو) بمعنى إلا. والمعنى إلا أن يتوب عليهم فتفرح بذلك أو يعذبهم فتشتفي بهم.

وقال السيوطي أو بمعنى (إلى أن) يعني غاية في الصبر، أي الى أن يتوب عليهم، قيل نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من الغزاة بعثهم رسول الله ﷺ ليعلموا الناس القرآن فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد[3] من ذلك وجداً شديداً وقنت شهراً الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن، وفي الباب أحاديث في الصحيحين لا نطول بذكرها.

---

(١) مسلم ١٧٩١.

(٢) مسلم ١٧٩٤ ـ البخاري ١٧٩.

(٣) أي حزن رسول الله (ﷺ).

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ هذا كالدليل على قوله ليس لك من الأمر شيء الخ ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ كلام مستأنف لبيان سعة ملكه أي يفعل في ملكه ما يشاء من المغفرة والعذاب، ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وفي قوله ﴿والله غفور رحيم﴾ إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة، وما أوقع هذا التذييل الجليل وأحبّه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا﴾ قيل هو كلام مبتدأ للترهيب والترغيب فيما ذكر، وقيل هو اعتراض بين أثناء قصة أحد.

وقوله ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريمه على كل حال ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقداراً يتراضون عليه ثم يزيدون في أجل الدين فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة حتى يأخذ المربي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ، وفي السمين (أضعافاً) جمع ضعف ولما كان جمع قلة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدل على ذلك وهو الوصف بمضاعفة.

﴿واتقوا الله﴾ في أكل الربا ومضاعفته فلا تأكلوه ولا تضعفوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تسعدوا، وفيه دليل على أن أكل الربا من الكبائر ولهذا عقبه بقوله: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار في معاملاتهم[1].

قال كثير من المفسرين وفيه أنه يكفر من استحل الربا، وقيل معناه اتقوا الربا الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار، وإنما خص الربا في هذه الآية لأنه الذي توعد إليه بالحرب منه لفاعله.

قال ابن عباس هذا تهديد للمؤمنين أن يستحلوا ما حرم الله عليهم من الربا وغيره مما أوجب الله فيه النار، قال بعضهم إن هذه الآية أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه ويجتنبوا محارمه.

وقال الواحدي في هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله لأنه قال «أعدت للكافرين»فجعلها معدّة لهم دون المؤمنين.

﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم أي في كل أمر ونهي، قال محمد بن إسحق في هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله ﷺ يوم أحد ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي راجين الرحمة من الله عز وجل.

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في «عمدة التفسير» ج ٣٨/٣/ تعليقاً على هذه الآية: والمتلاعبون بالدين من أهل عصرنا، وأولياؤهم من عابدي التشريع الوثني الأجنبي، بل التشريع اليهودي في الربا يلعبون بالقرآن ويزعمون أن هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو الأضعاف المضاعفة، ليجيزوا ما بقي من أنواع الربا، على ما ترضى أهواؤهم وأهواء سادتهم، ويتركوا الآية الصريحة: ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ﴾ فكانوا في تلاعبهم بتأول هذه الآية الصريحة أسوأ حالاً ممن: ﴿يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾، ﴿فأولئك الذي سمى الله فاحذروهم﴾.

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

﴿وسارعوا الى مغفرة من ربكم﴾ أي بادروا وسابقوا إلى ما يوجب المغفرة من ربكم وهي الطاعات، قرىء سارعـوا بغير واو وبالواو، قال أبو علي كلا الأمرين سائغ مستقيم والمسارعة المبادرة، قال ابن عباس: إلى الإسلام وعنه إلى التوبة، وقال علي بن أبي طالب إلى أداء الفرائض، وعن أنس بن مالك وسعيد بن جبير أنها التكبيرة الأولى، وقيل إلى الإخلاص في الأعمال. وقيـل إلى الهجرة، وقيـل إلى الجهاد واللفظ مـطلق فيعمّ الكـل ولا وجـه لتخصيص نوع دون نوع، وهذا وجه من قال إلى جميع الطاعات والأعمال الصالحات.

﴿وجنة﴾ أي وسارعوا إلى جنة، وإنما فصل بين المغفرة والجنـة لأن المغفرة هي إزالة العقاب والجنة هي حصول الثواب فجمع بينهما للإشعار بأنه لا بد للمكلف من تحصيل الأمرين، وتقديم المغفرة على الجنة كما أن التخلية متقدمة على التحلية.

﴿عرضها﴾ أي عرض الجنة ﴿السموات والأرض﴾ يعني كعرضهما لأن نفس السموات والأرض ليس عرضاً للجنة والمراد سعتها، وإنما خص العرض للمبالغة لأن الطول في العادة يكون أكثر من العرض يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها، ومثله الآية الأخرى ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾.

وقد اختلف في معنى ذلك فذهب الجمهور إلى أنها تقـرن السموات بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة، وقيل إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة وذلك أنها لما كانت الجنة من الإتساع والإنفساح في غاية قصوى، حسن التعبير

عنها بعرض السموات والأرض مبالغة لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده، ولم يقصد بذلك التحديد كما تقول العرب: بلاد عريضة أي واسعة طويلة عظيمة، فجعل العرض كناية عن السّعة.

قال الزهري: إنما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه إلا الله، هذا على سبيل التمثيل لا أنها كالسموات والأرض لا غير بل معناه كعرضهما عند ظنكم كقوله تعالى ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ أي عند ظنكم وإلا فهما زائلتان.

وسأل ناس من اليهود عمر بن الخطاب إذا كانت الجنة عرضها ذلك فأين تكون النار فقال لهم أرأيتم إذا جاء الليل فأين يكون النهار، وإذا جاء النهار فأين يكون الليل، فقالوا إن مثلها في التوراة ومعناه أنه حيث شاء الله.

وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفي السماء أم في الأرض فقال وأي أرض وسماء تسع الجنة، قيل فأين هي قال فوق السموات السبع تحت العرش. وقال قتادة: كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع، وجهنم تحت الأرضين السبع.

﴿أعدت للمتقين﴾ أي هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وهو الحق خلافاً للمعتزلة. أخرج عبد بن حميد وغيره عن عطاء ابن أبي رباح قال: قال المسلمون يا رسول الله أبنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا؟ كانوا إذا أذنب أحدهم ذنباً أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه، اجدع أنفك، اجدع أذنك افعل كذا وكذا فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت (وسارعوا) الآية.

﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ السراء اليسر والضراء العسر، وقد تقدم تفسيرهما، وقيل السراء الرخاء والضراء الشدة وهو مثل الأول، وقيل السراء في الحياة والضراء بعد الموت، والمعنى لا يتركون الإنفاق في كلتي الحالتين في الغنى والفقر والرخاء والشدة ولا في حال فرح وسرور، ولا في حال محنة

وبلاء، سواء كان الواحد منهم في عرس أو حبس، فأول ما ذكر الله من أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء لأنه أشق على النفوس، وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح المنفق وذم البخيل والممسك في الصحيحين وغيرهما.

﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي الجارعين إياه عند امتلاء نفوسهم عنه والكافّين عن إمضائه مع القدرة، والكظم حبس الشيء عند امتلائه يقال كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره ومنه كظمت السّقاء أي ملأته والكظامة ما يسد به مجرى الماء وكظم البعير جرّته إذا ردها في جوفه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في ثواب كظم الغيظ منها عن أنس الجهني عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء أخرجه الترمذي وأبو داود[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب رواه الشيخان[2]، وعن عائشة أن خادماً لها غاظها فقالت لله درّ التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء.

﴿والعافين عن الناس﴾ أي التاركين عقوبة من أذنب إليهم واستحق المؤاخذة، وذلك من أجل ضروب الخير، وظاهره العموم سواء كان من المماليك أم لا، وقال الزجاج وغيره المراد بهم المماليك ﴿والله يحب المحسنين﴾ اللام يجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء وغيرهم. ويجوز أن تكون للعهد فيختص بهؤلاء، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السياق فيدخل فيه كل من صدر منه مسمى الإحسان أي إحسان كان.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٦٣٩٨. المشكاة/ ٥٠٨٨.

(٢) مسلم ٢٦٠٩ ـ البخاري ٢٣٤٦.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي فعلة فاحشة وهي تطلق على كل معصية وقد كثر إختصاصها بالزنا وأصل الفحش القبح والخروج عن الحدّ ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ باقتراف ذنب من الذنوب قيل هو ما دون الزنا مثل القبلة والمعانقة واللمس والنظر، وقيل أو بمعنى الواو والمراد ما ذكر، وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، وقيل غير ذلك، قال النخعي الظلم من الفاحشة والفاحشة من الظلم.

﴿ذكروا الله﴾ أي بألسنتهم عند الذنوب أو أخطروه في قلوبهم أو ذكروا وعده ووعيده أو جلاله الموجب للحياء منه ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه، وتفسيره بالتوبة خلاف لمعناه لغة.

وفي الاستفهام بقوله: ﴿ومن يغفر الذنوب﴾ من الإنكار مع ما تضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه دون غيره ما لا يخفى،أي لا يغفر جنس الذنوب أحد ﴿إلا الله﴾ وفيه ترغيب لطلب المغفرة من الله سبحانه وتنشيط للمذنبين أن يقفوا في مواقف الخضوع والتذلل.

﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم ولكن استغفروا وقد تقدم تفسير الإصرار والمراد به هنا العزم على معاودة الذنب وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه، قال السدّي في الآية: فيسكتون ولا يستغفرون.

﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية أي عالمين بقبحه وأنها معصية وأن لهم رباً يغفرها، وقيل يعلمون أن الإصرار ضار، وقيل يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنب، وقيل يعلمون أن الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب وإن كثرت، وقيل يعلمون أنهم إن استغفروه غفر لهم، وقيل يعلمون أن الله يتوب على من تاب قاله مجاهد، وقيل يعلمون أن تركه أولى قاله الحسن، وقيل يعلمون المؤاخذة بها أو عفو الله عنها، والمعاني متقاربة.

عن ابن مسعود قال إن في كتاب الله لآيتين ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما فاستغفر الله إلا غفر له ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ الآية، وقوله ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ الآية.

عن ثابت البناني قال بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى، وعن عطاف بن خالد قال بلغني أنه لما نزلت هذه الآية صاح إبليس بجنده وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر فقالوا مالك يا سيدنا قال آية نزلت في كتاب الله لا يضر بعدها أحداً من بني آدم ذنب، قالوا وما هي؟ فأخبرهم قالوا نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على الحق فرضي منهم بذلك.

وعن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم عند ذكر ذنبه فيتطهر ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله من ذنبه ذلك إلا غفر الله له ثم قرأ «والذين إذا فعلوا فاحشة» الآية رواه أحمد وأهل السنن الأربع وحسّنه النسائي[1].

وأخرج الترمذي وأبو داود والبيهقي في الشعب عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة[2]، وقد

(١) الترمذي الباب ١٨١ من كتاب الصلاة، الإمام أحمد ١/٢.

(٢) الترمذي الباب ١٠٦ من كتاب الدعوات ـ ابو داوود الباب ٢٦ من كتاب الوتر.

وردت أحاديث كثيرة في فضل الاستغفار.

﴿أولئك﴾ المذكورون بقوله ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ على ما هو الأظهر الأنسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب في سلك الجزاء ﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ذلك ذخر لهم لا يبخس وأجر لا يوكس، وقد تقدم تفسير الجنات وكيفية جري الأنهار من تحتها ﴿خالدين فيها﴾ أي مقدرين الخلود فيها إذا دخلوها ﴿ونعم أجر العاملين﴾ بطاعة الله، والمخصوص بالمدح محذوف أي الجنة على ما قاله مقاتل أو أجرهم أو ذلك المذكور(١).

(١) قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال.
أحدها: أن امرأة أتت إلى نبهان التمار تشتري منه تمراً فضمها، وقبلها، ثم ندم، فأتى النبي فذكر ذلك، فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. أخرجه الإمام أحمد في «المسند» وابن ماجه عن ابن عمر، ونقل السِّدِّي عن «زوائد البوصيري» قال: اسناده صحيح، ورجاله ثقات. وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» وقال: رواه ابن ماجه، ورواته محتج بهم في الصحيح.
والثاني: أن أنصارياً وثقفياً آخى النبي ﷺ بينهما، فخرج الثقفي مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فكان الأنصاري يتعهد أهل الثقفي، فجاء ذات يوم فأبصر المرأة قد اغتسلت وهي شعرها، فدخل ولم يستأذن؛ فذهب ليلثمها فوضعت كفها على وجهها، فقبله ثم ندم، فأبر راجعاً، فقالت: سبحان الله خنت أمانتك، وعصيت ربك، ولم تصب حاجتك، قال: فخرج يسيح في الجبال، ويتوب إلى الله من ذنبه. فلما قدم الثقفي أخبرته المرأة بفعله، فخرج يطلبه حتى دل عليه، فندم على صنيعه فوافقه ساجداً يقول: ذنبي ذنبي، قد خنت أخي. فقال له: يا فلان انطلق إلى رسول الله ﷺ فاسأله عن ذنبك، لعل الله أن يجعل لك منه مخرجاً، فرجع إلى المدينة، فنزلت هذه الآية بتوبته، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. وذكره مقاتل.
والثالث: أن المسلمين قالوا للنبي ﷺ: بنو إسرائيل أكرم على الله منا! كان أحدهم إذا أذنب، أصبحت كفارة ذنوبه مكتوبة في عتبة بابه، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخير من ذلك» فقرأ هذه الآية، والتي قبلها، هذا قول عطاء».

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ هذا رجوع إلى وصف باقي قصة أحد بعد تمهيد مبادىء الرشد والصلاح تسلية للمؤمنين على ما أصابهم من الحزن والكآبة، وأصل الخلو في اللغة الانفراد والمكان الخالي هو المنفرد عمن فيه ويستعمل أيضاً في الزمان بمعنى المضي، لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه. وكذا الأمم الخالية.

والمراد بالسنن ما سنّه الله في الأمم الماضية من وقائعه أي قد خلت من قبل في زمانكم وقائع سنها الله في الأمم المكذبة بالهلاك والاستئصال لأجل مخالفتهم الأنبياء. وأصل السنن جمع السنة وهي الطريقة المستقيمة والعادة، والسنة الإمام المتبع المؤتم به، والسنة الأمة والسنن الأمم قاله المفضل الضبي، وقال الزجاج: أهل سنن فحذف المضاف، قال مجاهد: قد خلت سنن تداول من الكفار والمؤمنين في الخير والشر.

﴿فسيروا﴾ أيها المؤمنون ﴿في الأرض﴾ والمطلوب من هذا السير المأمور به هو حصول المعرفة بذلك فإن حصلت بدونه فقد حصل المقصود، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غير حاصلة لمن لم يشاهدها، والأمر للندب لا على سبيل الوجوب ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فانهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم التي آثروها أثر.

هذا قول أكثر المفسرين، والعاقبة آخر الأمور، رغبهم في تأمل أحوال الأمم الماضية ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإعراض عن الدنيا ولذاتها لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثر في النفس، وفي هذه الآية تسلية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جرى لهم في غزوة أحد.

﴿هذا بيان للناس﴾ الإشارة إلى قوله ﴿قد خلت﴾ الخ وقال الحسن إلى القرآن ولا يخفى بعده. والبيان التبيين، وقيل هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة. وتعريف الناس للعهد، وهم المكذبون أو للجنس أي للمكذبين وغيرهم وفيه حث على النظر في سوء عاقبة المكذبين وما انتهى إليه أمرهم.

﴿و﴾ هذا النظر مع كونه بياناً فيه ﴿هدى وموعظة﴾ فعطف الهدى والموعظة على البيان يدل على التغاير ولو باعتبار المتعلق وبيانه أن اللام في الناس إن كانت للعهد فالبيان للمكذبين والهدى والموعظة للمؤمنين، وإن كانت للجنس فالبيان لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، والهدى والوعظ ﴿للمتقين﴾ من المؤمنين وحدهم، والهدى بيان طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغي،والموعظة هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين.

فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان (أحدهما) الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى (والثاني) الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة وإنما خص المتقين بالهدى والموعظة لأنهم المنتفعون بهما دون غيرهم قال سعيد بن جبير: أول ما نزل من آل عمران هذا بيان للناس ثم أنزل بقيتها من يوم أحد.

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ عزاهم وسلاهم لما نالهم يوم أحد من القتل والجراح، وحثهم على قتال عدوهم. ونهاهم عن العجز والفشل، والمعنى لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على من قتل منكم لأنهم في الجنة.

ثم بين لهم أنهم الأعلون على عدوهم بالنصر والظفر فقال: ﴿وأنتم الأعلون﴾ جمع أعلى والأصل أعليون هي جملة حالية أي والحال أنكم الأعلون عليهم وعلى غيرهم بعد هذه الوقعة، وقد صدق الله وعده فإن النبي ﷺ بعد وقعة أحد ظفر بعدوه في جميع وقعاته، وقيل المعنى وأنتم الأعلون عليهم بما أصبتم منهم في يوم بدر فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم.

أخرج ابن جرير وغيره عن ابن جريج قال انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشعب يوم أحد فسألوا ما فعل النبي ﷺ وما فعل فلان فنعى بعضهم لبعض وتحدثوا أن النبي ﷺ قد قتل، فكانوا في همّ وحزن، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل وكانوا على إحدى جنبتي المشركين وهم أسفل من الشعب، فلما رأوا النبي ﷺ فرحوا فقال النبي ﷺ اللهم لا قوة لنا إلا بك وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء فلا تهلكهم، وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله. وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله ﴿وأنتم الأعلون﴾ وقال الضحاك أنتم الغالبون ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مصدقين بأن ناصركم هو الله تعالى فصدقوا بذلك فإنه حق وصدق.

﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ القرح بالضم والفتح الجرح وهما لغتان فيه قاله الكسائي والأخفش ومعناهما واحد، وقال الفراء: هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه، وقرىء قرح على المصدر. والآية خطاب للمسلمين حين انصرفوا من أحد مع الحزن والكآبة إن يمسسكم أيها المسلمون قرح ونالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر، فلا تهنوا لما أصابكم في هذا اليوم فإنهم لم يهنوا لما أصابهم في ذلك اليوم، وأنتم أولى بالصبر منهم.

وقيل المراد ما أصاب المسلمين والكافرين في هذا اليوم، فإن المسلمين انتصروا عليهم في الابتداء فأصابوا منهم جماعة ثم انتصر الله عليهم فأصابوا

منهم والأول أولى لأن ما أصابه المسلمون من الكفار في هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه، وكذا ما أصابه المشركون في يوم أحد لم يكن مثل ما أصابه المسلمون منهم يوم بدر بل ضعفه كما قال تعالى: ﴿قد أصبتم مثليها﴾ فيمكن أن يكون المماثلة في القتلى من دون نظر إلى الأسرى، ويكون القول الأول أرجح كما سلف.

﴿وتلك الأيام﴾ الكائنة بين الأمم في حروبها والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة في زمن النبوة تارة تغلب هذه الطائفة وتارة تغلب الأخرى كما وقع لكم أيها المسلمون في يوم بدر وأحد وهو معنى قوله ﴿نداولها بين الناس﴾ فقوله تلك مبتدأ والأيام صفته والخبر نداولها أي نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقول من قال:

فيوماً علينا ويوماً لنا ويوماً نُساءُ ويوماً نسر

وكقول حسان الهند السيد ازاد البلجرامي رحمه الله تعالى:

ورأيت معالم دارسة رسمته مزاولة السبل
وسألت رسوم الأربع ما فعلت بك سابقة الأزل
فأجابت قال الله لنا وسؤالك من جهة الغفل
تلك الأيام نداولها لأمكث لهن على رجل

وأصل المداولة المعاورة وأدلته بينهم عاورته، والدولة الكرة يقال تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر، ويقال الدنيا دول أي تنقل من قوم إلى آخرين، ثم منهم إلى غيرهم، وقيل المداولة المناوبة على الشيء والمعاودة وتعهده مرة بعد أخرى، قاله السمين.

والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس فيوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء، فكانت الدولة للمسلمين على المشركين في يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين رجلاً

وأسروا سبعين وأديل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمساً وسبعين، والقصة في البخاري بطولها عن البراء بن عازب وفي الباب أحاديث.

والمعنى نداولها ليظهر أمركم. قال ابن عباس أدال المشركون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد، وبلغني أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين رجلاً عدد الأسارى الذين أسروا يوم بدر من المشركين وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلاً أخرجه ابن جرير وغيره.

﴿وليعلم الله﴾ علم ظهور ﴿الذين آمنوا﴾ أي إنما جعل الدولة للكفار على المسلمين ليميز المؤمن المخلص ممن يرتد عن الدين إذا أصابته نكبة وشدة، وهو من باب التمثيل أي فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالماً، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم علماً يقع عليه الجزاء كما علمه علماً أزلياً، وقيل ليعرفهم بأعيانهم، وقيل ليعلم أولياء الله فأضاف علمهم إلى نفسه تفخيماً وقيل غير ذلك.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يعني ويكرمكم بالشهادة، والشهداء جمع شهيد وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار في المعركة سمي بذلك لكونه مشهوداً له بالجنة أو جمع شاهد لكونه كالمشاهد للجنة، ومن للتبعيض وهم شهداء أحد.

وقال ابن عباس إن المسلمين كانوا يسألون ربهم: اللهم ربّنا أرنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيراً ونلتمس فيه الشهادة فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء.

﴿والله لا يحب الظالمين﴾ يعني المشركين، جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير مضمون ما قبله، وقيل هم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي، قيل هم المنافقون، والأول أولى، ونفي المحبة كناية عن البغض، وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟
ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ
تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿وليمحّص الله الذين آمنوا﴾ التمحيص الإبتلاء والاختبار، وقيل التطهير والتنقية على حذف مضاف أي ليمحص ذنوب الذين آمنوا، قاله الفراء، وقيل يمحّص يخلّص، قاله الخليل والزجاج أي ليخلّص المؤمنين من ذنوبهم ويزيلها عنهم.

وفي القاموس ومحصّ الذهب بالنار من باب منع أخلصه مما يشوبه والتمحيص التصفية ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي يستأصلهم بالهلاك ويفنيهم، وأصل التمحيق محو الآثار والمحق نقصها قليلاً قليلاً، وقال ابن عباس: يمحّص يبتليهم، ويمحق ينقصهم.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز، وأم هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة للإنكار، والمعنى لا تحسبوا أيها المؤمنون أن تنالوا كرامتي وثوابي ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ قال الرازي: أي ولما يصدر الجهاد عنكم، وهذا ظاهر الآية والمراد أن العلم متعلق بالمعلوم.

وقال الواحدي: المعنى على الجهاد دون العلم أي لما يكن المعلوم من الجهاد الذي أوجب عليكم وقال الطبري: ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم على ما أمرته به، وقال أبو السعود: نفي العلم كناية عن نفي المعلوم لما بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الأول لتحقق الثاني ضرورة استحالة شيء بدون علمه تعالى به.

وإنما وجه النفي إلى الموصوفين مع أن المنفي هو الوصف فقط وكان

يكفي أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة في بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلاً انتهى، ولما بمعنى لم عند الجمهور، وفرق سيبويه بينهما فجعل لم لنفي الماضي، ولما لنفي الماضي والمتوقع، ففيه إيذان بأن الجهاد متوقّع منهم فيما يستقبل إلا أنه غير معتبر في تأكيد الإنكار.

﴿ويعلم الصابرين﴾ الواو للجمع قاله الخليل وغيره، وقال الزجاج بمعنى حتى، وقال الزمخشري للحال، والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أي الجمع بينهما وفي الآية معاتبة لمن انهزم يوم أحد.

والخطاب في قوله ﴿ولقد كنتم تمنّون الموت﴾ لمن كان يتمنى القتال والشهادة في سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر فإنهم كانوا يتمنّون يوماً يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحّوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج ولم يصبر منهم إلا نفر يسير مثل أنس ابن النضر عم أنس بن مالك.

وقد ورد النهي عن تمني الموت فلا بد من حمله هنا على الشهادة يعني حالة الشهداء من رفع المنزلة في الجنة وغير ذلك، ويكون المراد بالموت هنا ما يؤول إليه لا نفس الشهادة لأنها مستلزمة لتمني الموت وغلبة الكفار.

وعلى هذا التأويل يزول الإشكال لأن من طلب الجنة لا يقال أنه تمنى الموت، قال القرطبي: وتمنّي الموت من المسلمين يرجع إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل.

﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي القتال أو الشهادة التي هي سبب الموت أو العود على العدو، والجمهور على كسر لام من قبل لأنها معربة لإضافتها إلى أن

أي من قبل لقائه وقرىء تلاقوه ومعناه معنى تلقوه لأن لقي يستدعي أن يكون بين اثنين بمادته وإن لم يكن على المفاعلة.

﴿فقد رأيتموه﴾ أي القتال أو ما هو سبب للموت يوم أحد، والظاهر أن الرؤية بصرية، وقيل علمية أي فقد علموا الموت حاضراً ﴿وأنتم تنظرون﴾ قيّد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة أي قد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل منكم.

قال الأخفش: إن التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ وقيل معناه بصراء ليس في أعينكم علل تتأملون الحال كيف هي فلم انهزمتم، وقيل معناه وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر، ونستشهد، أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلي فيه خيراً ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق فأشهدهم الله أحداً فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم، فقال الله ﴿ولقد كنتم تمنّون الموت﴾ الآية وفيه توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب. وتسببوا فيها ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو توبيخ لهم على الشهادة فإن في تمنيها تمنّي غلبة الكافرين[1].

---

(١) وقد ورد في سيرة ابن هشام انهم بعد ان دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم للبس لأمته لاموا انفسهم اذ اختاروا عكس رأي النبي فطلبوا عنه عدم الخروج فرفض ذلك عليه الصلاة والسلام.
وخرج بهم الى أحد وكان ما كان من حوادث وفرار وتخلف ومعصية اوامر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿وما محمد إلا رسول﴾ سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما أصيب يوم أحد صاح الشيطان قائلاً قد قتل محمد ﷺ ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل قد أصيب محمد فأعطوا بأيديكم فإنما هم إخوانكم(١)، وقال آخر لو كان رسولاً ما قتل فرد الله عليهم ذلك وأخبرهم بأنه رسول ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ وسيخلو كما خلوا فهذه الجملة صفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والقصر قصر أفراد كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين الرسالة وكونه لا يهلك فرد الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك، وقيل هو قصر قلب.

ثم أنكر الله عليهم بقوله ﴿أفإن مات﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي كيف ترتدون وتكفرون دينه إذا مات ﴿أو قتل﴾ مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم وان فقدوا بموت أو قتل، وقيل الإنكار لجعلهم خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم بموته أو قتله، وإنما ذكر القتل سبحانه مع علمه أنه لا يقتل لكونه مجوزاً عند المخاطبين.

﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ أي ترجعون إلى دينكم الأول يقال لكل من رجع إلى ما كان عليه نكص على عقبيه ورجع وراءه. والحاصل أن موته ﷺ

---

(١) ابن جرير ٧/٢٥٧.

أو قتله لا يوجب ضعفاً في دينه ولا الرجوع عنه بدليل موت سائر الأنبياء قبله، وان اتباعهم ثبتوا على دين أنبيائهم بعد موتهم، فلا ينبغي منكم الانقلاب والارتداد حينئذ، لأن محمداً عبد مبلّغ لا معبود، وقد بلغكم والمعبود باق فلا وجه لرجوعكم عن الدين الحق ولو مات من بلغكم إياه.

﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ بإدباره عن القتال أو بارتداده عن الإسلام ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ وإنما يضر نفسه ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ أي الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام ومن امتثل ما أمر به فقد شكر النعمة التي انعم الله بها عليه.

وقال علي: الشاكرين الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه فكان علي رضي الله عنه يقول:كان أبو بكر رضي الله عنه أمير الشاكرين وكان أشكرهم وأحبّهم إلى الله تعالى، وعنه أنه كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلنّ على ما قاتل عليه حتى أموت[1].

﴿وما كان لنفس أن تموت﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الحث على الجهاد والإعلام بأن الموت لا بد منه ﴿إلا بإذن الله﴾ أي ما كان لها أن تموت إلا مأذوناً لها فالاستثناء مفرغ والباء للمصاحبة يعني بقضاء الله وقدره وأمره، وقيل هذه الجملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الارجاف بقتله صلى الله عليه وآله وسلم فبين لهم ان الموت بالقتل أو بغيره منوط بإذن الله، واسناده إلى النفس مع كونها غير مختارة له للايذان بأنه لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا باذنه.

(١) القرطبي ٤/٢٢٢.

وفيه تحريض المؤمنين على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم بأن الجبن لا ينفع وان الحذر لا يدفع، والثبات لا يقطع الحياة وان أحداً لا يموت إلا بأجله وان خاض المهالك، واقتحم المعارك، وإذا جاء الأجل لم يدفع الموت بحيلة فلا فائدة في الجبن والخوف.

وفيه أيضاً ذكر حفظ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عند غلبة العدو وتخليصه منهم عند التفافهم عليه واسلام أصحابه له فانجاه الله من عدوه سالماً مسلماً لم يضره شيء.

﴿كتاباً مؤجلاً﴾ معناه كتب الله الموت كتاباً، والمؤجل المؤقت الذي لا يتقدم على أجله ولا يتأخر، يعني مؤقتاً له أجل معلوم وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ لأن فيه آجال جميع الخلائق، والأول أولى، والغرض من هذا السياق توبيخ المنهزمين يوم أحد.

﴿ومن يرد﴾ بعمله ﴿ثواب الدنيا﴾ كالغنيمة ونحوها، نزلت في الذين تركوا المركز وطلبوا الغنيمة، واللفظ يعم كل ما يسمى ثواب الدنيا وإن كان السبب خاصاً ﴿نؤته منها﴾ أي من ثوابها ما نشاء على ما قدرنا له، فهو على حذف المضاف.

﴿ومن يرد﴾ بعمله ﴿ثواب الآخرة﴾ وهو الجنة، نزلت في الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكنها عامة في جميع الأعمال ﴿نؤته منها﴾ أي من ثوابها ونضاعف له الحسنات أضعافاً كثيرة ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ أي نجزيهم بامتثال ما أمرناهم به كالقتال ونهيناهم عنه كالفرار وقبول الارجاف، والمراد بهم إما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم، وإما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولاً أولياً، وإلى الأول أشار في التقرير، والثاني أولى.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

﴿وكأيّن﴾ قال الخليل وسيبويه: هي أي الاستفهامية وكاف التشبيه بمعنى كم التكثيرية وهي كناية عن عدد مبهم. و﴿من نبي﴾ تمييز لها، وفي كأيّن خمس لغات ذكرها في الجمل واختار الشيخ أن كأيّن كلمة بسيطة غير مركبة وأن آخرها نون هي من نفس الكلمة لا تنوين لان هذه الدعاوي لا يقوم عليها دليل. والشيخ سلك في ذلك الطريق الأسهل، والنحويون ذكروا هذه الأشياء محافظة على أصولهم مع ما ينضم إلى ذلك من الفوائد وتشحيذ الذهن وتمرينه، وأطال في الجمل الكلام على كأيّن من حيث الأفراد والتركيب ليس في ذكره هنا كثير فائدة.

وقرىء ﴿قتل﴾ على البناء للمجهول واختارها ابو حاتم ولها وجهان ﴿أحدهما﴾ أن يكون في قتل الضمير يعود إلى النبي ﷺ وحينئذ يكون قوله ﴿معه ربّيون﴾ جملة حالية، والثاني أن يكون القتل واقعاً على (ربيّون) فلا يكون في قتل ضمير، والمعنى قتل بعض أصحابه وهم الربّيون، ورجح الزمخشري هذا بقراءة قتادة قتل بالتشديد.

وقرىء ﴿قاتل﴾ واختارها أبو عبيد وقال إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلاً فيه، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يقتل، فقاتل أعم وأمدح، ويرجح هذه القراءة الأخرى.

والوجه الثاني من القراءة الأولى قول الحسن ما قتل نبي في حرب قطّ، وقيل قتل فارغ من الضمير مسند إلى ربيون، والربّيون بكسر الراء قراءة الجمهور، وقرأ علي بضمها وابن عباس بفتحها، قال ابن جني والفتح لغة تميم وواحدة ربّي منسوب إلى الرب، والربي بضم الراء وكسرها منسوب إلى الربة بكسر الراء وضمها وهي الجماعة ولهذا فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة، وقيل هم الأتباع.

قال الخليل الربيّ الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون نسبوا إلى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية، وقال الزجاج الربيون بالضم الجماعات، وقال النقاش هم المكثرون العلم من قولهم ربا يربو إذا كثر، وقال ابن مسعود ربيون ألوف، عن الضحاك الربة الواحدة ألف، وعن ابن عباس قال جموع وعلماء.

﴿كثير﴾ والمعنى أن كثيراً من الأنبياء قتلوا ﴿فما وهنوا﴾ قرىء بفتح الهاء وبكسرها وهما لغتان والوهن انكسار الجسد بالخوف وهن الشيء يهن وهناً كوعد يعد، ووهن يوهن كوجل يوجل ضعف أي ما جبنوا عن الجهاد ﴿لما أصابهم﴾ أي نالهم ﴿في سبيل الله﴾ من ألم الجروح وقتل الأنبياء والأصحاب والقروح ﴿وما ضعفوا﴾ أي عن عدوهم بل استمروا على جهادهم، لأن الذي أصابهم هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة نبيه، فكان ينبغي لكم يا أمة محمد ﷺ أن تفعلوا مثل ذلك، قرىء ضعفوا بضم العين وفتحها وحكاها الكسائي لغة.

﴿وما استكانوا﴾ لما أصابهم في الجهاد والاستكانة الذلة والخضوع، وقال ابن عباس الخشوع، وعبارة السمين فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه استفعل من الكون والكون والذل وأصله ستكون، وقال الزهري وأبو علي: الأصل استكين وقال الفراء: وزنه افتعل من السكون انتهى، وفي هذا توبيخ لمن انهزم يوم

أحد وذل واستكان وضعف بسبب ذلك الارجاف الواقع من الشيطان ولم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل ﴿والله يحب الصابرين﴾ في الجهاد على تحمل الشدائد.

﴿وما كان قولهم﴾ أي قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء، والاستثناء مفرغ أي ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون أو قتل نبيهم مع ثباتهم وصبرهم عند لقاء العدو، واقتحام مضايق الحرب، وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال شيء من الأشياء ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ قيل هي الصغائر.

﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ قيل هي الكبائر والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنباً من صغيرة أو كبيرة، والاسراف ما فيه مجاوزة للحد فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين هضماً لأنفسهم واستقصاراً لها وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم، وبراءة من التفريط في جنب الله، وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم:

﴿وثبت أقدامنا﴾ أي في مواضع القتال ومواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ تقريباً له إلى حين القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة، والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والتزلزل في مواقف الحرب، ومراصد الدين، وفيه من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿فآتاهم الله﴾ بسبب ذلك الدعاء ﴿ثواب الدنيا﴾ من النصر والغنيمة والعزة وقهر الأعداء والثناء الجميل وغفران الذنوب والخطايا ونحوها ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ من اضافة الصفة إلى الموصوف أي ثواب الآخرة الحسن وهو نعيم الجنة، جعلنا الله تعالى من أهلها، والفضل فوق الاستحقاق ﴿والله يحب المحسنين﴾ الذين يفعلون ما فعل هؤلاء، وهذا تعليم من الله سبحانه لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو، وفيه دقيقة لطيفة وهي أنهم لما اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين.

ثم لما أمر سبحانه بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ وهم مشركو العرب، وقيل اليهود والنصارى، وقيل المنافقون في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى دين آبائكم، وقيل عامة في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فانه يستجرّ إلى موافقتهم ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يخرجونكم من دين الإسلام إلى الكفر ﴿فتنقلبوا﴾ ترجعوا ﴿خاسرين﴾ مغبونين فيهما أما خسران الدنيا فلأن أشق الأشياء على العقلاء الانقياد إلى العدو وإظهار الحاجة إليه، وأما خسران الآخرة فالحرمان من الثواب المؤبد والوقوع في العقاب المخلد.

﴿بل الله مولاكم﴾ إضراب عن مفهوم الجملة الأولى أي إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم دون غيره ﴿وهو خير الناصرين﴾ فاستعينوا به وأطيعوه دونهم.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿سنلقي﴾ بنون العظمة وهو التفات عن الغيبة في قوله ﴿وهو خير الناصرين﴾ وذلك للتنبيه على عظم ما يلقيه تعالى، وقرىء بالياء جرياً على الأصل ﴿في قلوب الذين كفروا﴾ قدم المجرور على المفعول به اهتماماً بذكر المحل قبل ذكر الحال ﴿الرعب﴾ بضم الراء والعين وسكونها وهما لغتان، ويجوز أن يكون مصدراً والرعب بالضم وبضم العين للاتباع، وأصله الملء يقال سيل راعب أي يملأ الوادي ورعبت الحوض ملأته فالمعنى سنملأ قلوب الكافرين رعباً أي خوفاً وفزعاً والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام ومجازاً في غيرها كهذه الآية. وذلك ان المشركين بعد وقعة أحد ندموا أن لا يكونوا استأصلوا وقالوا بئسما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم. ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما همّوا به.

﴿بما أشركوا بالله﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى ﴿ما لم ينزل به﴾ أي بجعله شريكاً له ﴿سلطاناً﴾ حجة وبياناً وبرهاناً سميت الحجة سلطاناً لقوتها على دفع الباطل او لوضوحها وإنارتها أو لحدّتها ونفوذها، والنفي يتوجه إلى القيد والمقيد أي لا حجة ولا إنزال، والمعنى أن الاشراك بالله لم يثبت في شيء من الملل ﴿ومأواهم﴾ مسكنهم ﴿النار﴾ بيان لأحوالهم في الآخرة بعد بيان أحوالهم في الدنيا ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أي المسكن الذي يستقرون فيه.

وكلمة بئس تستعمل في جميع المذامّ وفي جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم رمز إلى خلودهم فيها فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث، والمأوى المكان الذي يأوي إليه الإنسان، وقدم المأوى على المثوى لأنه على الترتيب الوجودي يأوي ثم يثوي، قاله الكرخي.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ نزلت لما قاله بعض المسلمين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر، وذلك أنه كان الظفر لهم في الابتداء حتى قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده، فلما اشتغلوا بالغنيمة وترك الرماة مركزهم طلباً للغنيمة كان ذلك سبب الهزيمة.

﴿إذ تحسونهم﴾ والحس الاستئصال بالقتل أي تستأصلوهم قتلاً، يقال جراد محسوس إذا قتله البرد. وسنة حسوس أي جدبة تأكل كل شيء، قيل وأصله من الحس الذي هو الإدراك بالحاسة فمعنى حسّه أذهب حسه بالقتل.

قال الكرخي: المراد به هنا البصر ثم وضع موضع العلم والوجود ومنه قوله تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أي علم، ومنه قوله ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ أي ترى وبمعنى الطلب، ومنه قوله ﴿فتحسّسوا من يوسف﴾ أي اطلبوا خبره انتهى.

﴿بإذنه﴾ أي بعلمه أو بقضائه ﴿حتى إذا فشلتم﴾ أي جبنتم وضعفتم، قيل جوابه مقدر امتحنتم، وقال الفراء جوابه ﴿وتنازعتم﴾ والواو مقحمة زائدة كقوله: ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ وقال أبو علي: جوابه صرفكم عنهم الآتي. وقيل فيه تقديم وتأخير أي حتى إذا تنازعتم ﴿في الأمر وعصيتم﴾ فشلتم.

وقيل إن الجواب وعصيتم والواو مقحمة، وقد جوز الأخفش مثله في قوله تعالى ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم﴾، وقيل حتى بمعنى إلى وحينئذ لا جواب لها، وإذا هذه على بابها، والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم نلحق الغنائم، وقال بعضهم نثبت في مكاننا كما أمرنا رسول الله ﷺ.

ومعنى ﴿من بعد ما أراكم﴾ ما وقع لهم من النصر في الابتداء في يوم أحد كما تقدم، قال ابن عباس: من بعد ما أراكم يعني الغنائم وهزيمة القوم، قال عروة: كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركوا مصافّهم وتركت الرماة عهد الرسول إليهم أن لا يبرحوا منازلهم، وأرادوا الدنيا، رفع عنهم مدد الملائكة، وقصة أحد مستوفاة في كتب السير والتواريخ فلا حاجة لاطالة الشرح هنا.

﴿ما تحبون﴾ من النصر والظفر يا معشر المسلمين ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ يعني الغنيمة فترك المركز لها ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ أي الأجر بالبقاء في مركزه امتثالاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فثبت به حتى قتل كعبد الله بن جبير وأصحابه.

﴿ثم صرفكم عنهم﴾ أي ردكم عن المشركين بالهزيمة بعد أن استوليتم عليهم ﴿ليبتليكم﴾ أي ليمتحنكم فيظهر المخلص من غيره، وقيل لينزل عليكم البلاء لتتوبوا إليه وتستغفروه، والأول أولى.

﴿ولقد عفا عنكم﴾ ما ارتكبتموه تفضلاً لما علم من ندمكم فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة، والخطاب لجميع المنهزمين وقيل للرماة فقط ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ بالعفو، وفي الآية دليل على أن صاحب الكبيرة مؤمن.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿إذ تصعدون﴾ متعلق بقول. صرفكم أو بقوله ولقد عفا عنكم أو بقوله ليبتليكم، قاله الزمخشري، وقال أبو البقاء: بقوله لعصيتم أو تنازعتم أو فشلتم، وكل هذه الوجوه سائغة، وكونه ظرفاً لصرفكم جيد من جهة المعنى، ولعفا جيد من جهة القرب، وعلى بعض هذه الأقوال تكون المسألة من باب التنازع، وتكون على إعمال الأخير منها لعدم الإضمار في الأول، ويكون التنازع في أكثر من عاملين.

قال أبو حاتم: يقال أصعدت إذا مضيت حيال وجهك، وصعدت إذا ارتقيت في جبل، فالإصعاد السير في مستوى الأرض وبطون الأودية، والصعود الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والدرج، فيحتمل أن يكون صعودهم في الجبل بعد إصعادهم في الوادي.

وقال القتيبي: أصعد إذا أبعد في الذهاب وأمعن فيه، وقال الفراء الإصعاد الإبتداء في السفر، والانحدار الرجوع منه يقال أصعدنا من بغداد إلى مكة وإلى خراسان وأشباه ذلك إذا خرجنا إليها وأخذنا في السفر، وانحدرنا إذا رجعنا.

وقال المفضل: صعد وأصعد بمعنى واحد، وقرىء تصعدون بالتشديد وأصلها تتصعدون بتاء الخطاب، وقرىء بياء الغيبة على الالتفات وهو حسن والضمير يعود على المؤمنين.

﴿ولا تلوون﴾ وقرىء بضم التاء من ألوي وهي لغة ففعل وأفعل بمعنى، وقرىء بواو واحدة أي لا تعرجون من التعريج وهو الإقامة على الشيء فإن المعرّج إلى الشيء يلوي إليه عنقه أو عنق دابته، وكذا شأن المنتظر، والمعنى لا تقيمون ﴿على أحد﴾ ممن معكم، وقيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

ولا يلتفت بعضكم إلى بعض ولا يقف واحد منكم لواحد ولا ينتظره هرباً.

﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ في الطائفة المتأخرة منكم، يقال جاء فلان في آخر الناس وآخرة الناس وأخرى الناس وأخريات الناس، وقيل من ورائكم وقال أبو السعود في ساقتكم وجماعتكم الأخرى، فكان دعاء النبي ﷺ إليّ عباد الله أي ارجعوا.

﴿فأثابكم﴾ أي فجازاكم الله ﴿غماً﴾ حين صرفكم عنهم بسبب غمّ أذقتموه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بعصيانكم أو غماً موصولاً ﴿بغم﴾ بسبب ذلك الإرجاف والجرح والقتل وظفر المشركين، والباء على هذا بمعنى على أي مضاعفاً على غمّ فوت الغنيمة.

والغم في الأصل التغطية، غمّيت الشيء غطيته ويوم غم وليلة غمة إذا كانا مظلمين، ومنه غم الهلال، وقيل الغم الأول الهزيمة، والثاني إشراف أبي سفيان وخالد بن الوليد عليهم في الجبل، وقيل الغم الأول هو ما فاتهم من الظفر، والثاني ما نالهم من الهزيمة، وقيل الأول ما أصابهم من القتل والجراح، والثاني ما سمعوا بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل، وقيل الأول بسبب إشراف خالد بن الوليد مع خيل المشركين، والثاني حين أشرف أبو سفيان.

وسميت العقوبة التي نزلت بهم ثواباً على سبيل المجاز لأن لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، وقد يجوز استعماله في الشر لأنه مأخوذ من ثاب إذا رجع، فأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيراً أو شراً، فمتى حملنا لفظ الثواب على أصل اللغة كان حقيقة، ومتى حملناه على الأغلب كان مجازاً.

﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ من الغنيمة ﴿ولا ما أصابكم﴾ من الهزيمة تمريناً لكم على المصائب وتدريباً لاحتمال الشدائد، وقال المفضل: لكي تحزنوا ولا زائدة كقوله أن لا تسجد وقوله ﴿لئلا يعلم﴾ أي أن تسجد وليعلم ﴿والله خبير بما تعملون﴾ من الأعمال خيرها وشرها فيجازيكم عليها.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

﴿ثم أنزل عليكم﴾ يا معشر المسلمين ﴿من بعد الغم﴾ التصريح بالبعدية مع دلالة ثم عليها وعلى التراخي لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة ﴿أمنة﴾ الأمنة والأمن سواء، وقيل الأمنة إنما تكون مع بقاء أسباب الخوف والأمن مع عدمه وكان سبب الخوفَ بعد باقياً ﴿نعاساً﴾ وهو أخفّ من النوم بدل كل أو اشتمال، واختاره السمين.

﴿يغشى طائفة منكم﴾ قال ابن عباس إنما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام، والطائفة تطلق على الواحد والجماعة، وهذه الطائفة هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلباً للأجر، والطائفة الآتية هم معتب بن قشير وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة وجعلوا يتأسفون على الحضور، ويقولون الأقاويل.

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أن أبا طلحة قال غشينا ونحن في مصافّنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه فذلك قوله يعني هذه الآية[١].

---

(١) ابن كثير ١/٤١٨.

﴿وعن الزبير بن العوام قال رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم من أحد إلا وهو يميل تحت حجفته من النعاس وتلا هذه الآية[1].

﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ حملتهم على الهم، أهمني الأمر أقلقني وجاز الإبتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال أو مستأنفة، وقيل إن المعنى صارت أنفسهم همهم لا هم لهم غيرها فلا رغبة لهم إلا نجاتها دون النبي وأصحابه فلم يناموا وهم المنافقون، وفي إلقاء النعاس على المؤمنين دون المنافقين آية عظيمة ومعجزة باهرة لأن النعاس كان سبب أمن المؤمنين وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم.

﴿يظنون بالله﴾ أي في الله أي في حكمه والجملة استئناف على وجه البيان لما قبله ظناً ﴿غير الحق﴾ الذي يجب أن يظن به وهو ظنهم أن امر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باطل، وأنه لا ينصر ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق ﴿ظن الجاهلية﴾ بدل من غير الحق وهو الظن المختص بملة الجاهلية، قاله القاضي فهو من إضافة الموصوف إلى مصدر الصفة أو من إضافة المصدر إلى الفاعل على حذف المضاف أي ظن أهل الجاهلية وأهل الشرك قاله التفتازاني.

﴿يقولون﴾ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾ أي من أمر الله نصيب، وهذا الاستفهام معناه الجحد أي ما لنا شيء من الأمر وهو النصر والاستظهار على العدو. وقيل هو الخروج أي إنما خرجنا

مكرهين فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله.

﴿قل إن الأمر كله لله﴾ وليس لكم ولا لغيركم منه شيء فالنصر بيده والظفر منه ﴿يخفون﴾ أي يضمرون ﴿في أنفسهم﴾ ويقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿ما لا يبدون لك﴾ من الكفر والشرك والشك في وعد الله، وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين، وقيل النفاق، بل يسألونك سؤال المسترشدين. والجملة حال.

﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء﴾ استئناف على وجه البيان له، أو بدل من يخفون والأول أجود كما في الكشاف ﴿ما قتلنا ههنا﴾ أي ما قتل من قتل منا في هذه المعركة، فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله ﴿قل لو كنتم﴾ قاعدين ﴿في بيوتكم﴾ بالمدينة كما تقولون ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي لم يكن بد من خروج من كتب عليه القتل في اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية إلى البروز إلى هذه المصارع التي صرعوا فيها فإن قضاء الله لا يردّ وحكمه لا يعقّب.

وفيه مبالغة في رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل بل عين مكانه أيضاً، ولا ريب في تعين زمانه أيضاً لقوله ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة﴾.

﴿وليبتلي الله﴾ علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للإيذان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلي أي ليمتحن ﴿ما في صدوركم﴾ أي قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿وليمحص﴾ أي يميز ﴿ما في قلوبكم﴾ من وساوس الشيطان ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ يعني بالأشياء الموجودة في الصدور وهي الأسرار والضمائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور، بل تلازمها وتصاحبها لأنه عالم بجميع المعلومات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿إن الذين تولوا منكم﴾ عن القتال ﴿يوم التقى الجمعان﴾ جمع المسلمين وجمع الكفار أي انهزموا يوم أحد، وقيل المعنى إن الذين تولوا المشركين يوم أحد ﴿إنما استزلّهم الشيطان﴾ استدعى زللهم بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ﴿ببعض﴾ أي بشؤم بعض ﴿ما كسبوا﴾ من الذنوب التي منها مخالفة رسول الله ﷺ.

قيل لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا ثلاثة عشر رجلاً؛ وقيل أربعة عشر. من المهاجرين سبعة ومن الأنصار سبعة، فمن المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهم. وقيل استزلّهم بتذكير خطايا سبقت لهم فكرهوا أن يقتلوا قبل إخلاص التوبة منها، وهذا اختيار الزجاج.

﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ لتوبتهم واعتذارهم. عن عبد الرحمن بن عوف قال: هم ثلاثة واحد من المهاجرين وإثنان من الأنصار، وعن ابن عباس قال: نزلت في عثمان ورافع بن المعلى وخارجة بن زيد، وقد روي في تعيين من في الآية روايات كثيرة ﴿إن الله غفور﴾ لمن تاب وأناب ﴿حليم﴾ لا يعجل بالعقوبة ولا يستأصلهم بالقتل.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ هم المنافقون الذين

قالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ في النفاق أو في النسب أي قالوا لأجلهم ﴿إذا ضربوا﴾ أي ساروا وسافروا وبعدوا ﴿في الأرض﴾ للتجارة ونحوها، قال مجاهد: هذا قول عبد الله بن أبي بن سلول والمنافقين وعن السدّى نحوه ﴿أو كانوا غزّاً﴾ جمع غاز كراكع وركّع وغائب وغيّب وقياسه غزاة كرام ورماة ﴿لو كانوا﴾ مقيمين ﴿عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ أي لا تقولوا كقولهم.

﴿ليجعل الله ذلك﴾ يعني قولهم وظنهم في عاقبة أمرهم، والجعل هنا بمعنى التصيير واللام لام العاقبة ﴿حسرة في قلوبهم﴾ يعني غماً وتأسفاً أي قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة في قلوبهم، والمراد أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ولم يحضروا ما قتلوا حسرة، وقيل معناه لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك ليجعله الله حسرة في قلوبهم فقط دون قلوبكم.

قال الزمخشري: هو النطق بالقول والاعتقاد، وقيل المعنى لا تلتفتوا إليهم ليجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة في قلوبهم، وأجاز ابن عطية أن يكون النهي والانتهاء معاً وقيل المراد حسرة يوم القيامة لما فيه من الخزي والندامة.

﴿والله يحيى ويميت﴾ فيه رد على قولهم أي ذلك بيد الله سبحانه يصنع ما يشاء ويحكم ما يريد فيحيي من يريد. ويميت من يريد، من غير أن يكون للسفر أو الغزو أثر في ذلك.. فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الموت. ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة. والمعنى أن السفر والغزو ليسا مما يجلب الموت، والقعود لا يمنع منه.

﴿والله بما تعملون﴾ بالتاء والياء من خير وشر ﴿بصير﴾ فيجازيكم به فاتقوه تهديد للمؤمنين أي لا تكونوا مثل المنافقين المذكورين في تنفير المؤمنين عن الجهاد. أو وعيد للذين كفروا، واللفظ عام شامل لقولهم المذكور ولمنشئه الذي هو اعتقادهم.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾

﴿ولئن﴾ وقع ذلك من أمر الله سبحانه و﴿قتلتم في سبيل الله أو متم﴾ شروع في تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت في سبيل الله ليس مما ينبغي أن يحذر وبل مما يجب ان يتنافس فيه المتنافسون أثر إبطال ترتبه عليهما.

قرىء متّم بضم الميم وكسرها من يموت ويمات وهما قراءتان سبعيّتان ﴿لمغفرة من الله﴾ لذنوبكم ﴿ورحمة﴾ منه لكم من العاقبة ﴿خير مما يجمعون﴾ أي الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم.

وقرىء بالتاء والمعنى مما تجمعون أيها المسلمون من غنائم الدنيا ومنافعها، والمقصود في الآية بيان مزية القتل أو الموت في سبيل الله وزيادة تأثيرهما في استجلاب المغفرة والرحمة.

﴿ولئن متّم أو قتلتم﴾ على أي وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الإرادة الإلهية، وقرىء متّم بكسر الميم من مات يمات ﴿لإلى الله﴾ أي إلى الرب الواسع الرحمة والمغفرة لا إلى غيره كما يفيده تقديم الظرف على الفعل مع ما في تخصيص اسم الله سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف والقهر ﴿تحشرون﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم. قيل من عبد الله خوفاً من ناره آمنه الله مما يخاف، وإليه الإشارة بقوله لمغفرة من الله، ومن عبده شوقاً إلى جنته أناله ما يرجو، وإليه الإشارة بقوله ﴿ورحمة﴾ لأن الرحمة هي الجنة، ومن عبده شوقاً إلى وجهه الكريم لا يريد غيره فهذا هو العبد المخلص الذي يتجلى

له الحق سبحانه في دار كرامته، واليه الإشارة بقوله ﴿لإلى الله تحشرون﴾.

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ «ما» فاصلة غير كافية مزيدة للتأكيد قاله سيبويه وغيره، وقال ابن كيسان والأخفش: إنها نكرة في موضع الجر بالباء، ورحمة بدل منها، والأول أولى بقواعد العربية، ومثله قوله تعالى ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ والجار والمجرور متعلق بقوله ﴿لنت﴾ وقدم عليه لإفادة القصر، وتنوين رحمة للتعظيم.

والمعنى أن لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه، وقيل إن ما استفهامية والمعنى فبأي رحمة من الله لنت لهم، وفيه معنى التعجب وهو بعيد، ولو كان كذلك لقيل فيم رحمة بحذف الألف، والمعنى سهلت لهم أخلاقك وكثرت احتمالك، ولم تسرع إليهم بتعنيف: على ما كان يوم أحد منهم.

وفيه تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبىء عنه السياق من استحقاقهم للملامة والتعنيف بموجب الجبلة البشرية أو من سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته.

﴿ولو﴾ لم تكن كذلك بل ﴿كنت فظاً غليظ القلب﴾ أي جافياً قاسي الفؤاد سيء الخلق قليل الاحتمال، والفظ الغليظ الجافي، وقال الراغب: الفظ هو الكريه الخلق، وذلك مستعار من الفظ وهو ماء الكرش وذلك مكروه شربه إلا في ضرورة، وغلظ القلب قساوته، وقلة إشفاقه وعدم انفعاله للخير، وجمع بينهما تأكيداً.

﴿لانفضوا من حولك﴾ أي لنفروا عنك وتفرقوا حتى لا يبقى منهم أحد عندك، والانفضاض التفرق في الأجزاء وانتشارها، ومنه فضّ ختم الكتاب، ثم استعير هنا لانفضاض الناس وغيرهم أي لتفرقوا عن حولك هيبة

لك واحتشاماً منك بسبب ما كان من توليهم، وإذا كان الأمر كما ذكر ﴿فاعف عنهم﴾ فيما يتعلق بك من الحقوق ﴿واستغفر لهم﴾ الله سبحانه فيما هو إلى الله سبحانه.

﴿وشاورهم في الأمر﴾ الذي يرد عليك أي أمر كان مما يشاور في مثله أو في أمر الحرب خاصة كما يفيده السياق لما في ذلك من تطييب خواطرهم، واستجلاب مودتهم، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منهم أحد بعدك.

قال السمين: جاء على أحسن النسق وذلك أنه أمر أولاً بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه، فإذا انتهوا إلى هذا المقام أمر أن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله لتنزاح عنهم التبعات، فلما صاروا إلى هنا أمر بأن يشاورهم في الأمر إذ صاروا خالصين من التبعتين متصفّين منهما انتهى.

والمراد هنا المشاورة في غير الأمور التي يرد الشرع بها، قال أهل اللغة الاستشارة مأخوذة من قول العرب شرت الدابة وشورتها إذا علمت خيرها، وقيل من قولهم شرت العسل إذا أخذته من موضعه.

قال ابن خواز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها.

وحكى القرطبي عن ابن عطية أنه لا خلاف في وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين.

وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ أما إن الله

ورسوله لغنيّان عنها ولكن الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار من أمتي لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيّاً.

وعنه في الآية قال هم أبو بكر وعمر، وقال الحسن قد علم الله أن ما به إلى مشاورتهم حاجة، ولكن أراد أن يستنّ به من بعده من أمته.

وقيل أمره بها ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم لا ليستفيد منهم رأياً، وروى البغوي بسنده عن عائشة أنها قالت ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ.

وللاستشارة فوائد كثيرة ذكرها بعض المفسرين لا نطول بذكرها، ويغني عنها أمر الله لرسوله ﷺ بها، ولنعم ما قيل في ذلك.

وشاور إذا شاورت كل مهذب — لبيب أخي حزم لترشد في الأمر
ولا تك ممن يستبد برأيه — فتعجز أو لا تستريح من الفكر
ألم تر أن الله قال لعبده — وشاورهمو في الأمر حتماً بلا نكر

﴿فإذا عزمت﴾ على امضاء ما تريد عقب المشاورة على شيء واطمأنت به نفسك ﴿فتوكل على الله﴾ في فعل ذلك أي اعتمد عليه وفوض إليه، وقيل إن المعنى فإذا عزمت على أمر أن تمضي فيه فتوكل على الله وثق به لا على المشاورة، والعزم في الأصل قصد الإمضاء أي فإذا قصدت إمضاء أمر فتوكل على الله.

وفيه إشارة إلى أن التوكل ليس هو إهمال التدبير بالكلية وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافياً للأمر بالتوكل بل هو مراعاة الأسباب الظاهرة، مع تفويض الأمر إلى الله، والاعتماد عليه بالقلب.

عن علي قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العزم قال مشاورة أهل الرأي ثم اتّباعهم، أخرجه ابن مردويه ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه في جميع أمورهم.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿إن ينصركم الله﴾ كما فعل يوم بدر، والنصر العون جملة مستأنفة لتأكيد التوكل والحث عليه ﴿فلا غالب لكم﴾ عمم الخطاب هنا تشريفاً للمؤمنين لإيجاب توكلهم عليه ﴿وإن يخذلكم﴾ كما فعل يوم أحد، والخذلان ترك العون أي وان يترك الله عونكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم﴾ استفهام انكاري ﴿من بعده﴾ الضمير راجع إلى الخذلان المدلول عليه بقوله ﴿وإن يخذلكم﴾ أو إلى الله، وفيه لطف بالمؤمنين حيث صرح لهم بعدم الغلبة في الأول، ولم يصرح لهم بأنه لا ناصر لهم في الثاني، بل أتى به في صورة الاستفهام وإن كان معناه نفياً ليكون أبلغ، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه وأن من نصره الله لا غالب له، ومن خذله لا ناصر له فوض أموره إليه وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره.

﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ لا على غيره، وتقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر عليه، وقد وردت في صفة التوكل أحاديث كثيرة صحيحة، وقد عد النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتوكل من سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب كما في مسلم.

﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ ما صح له ذلك لتنافي الغلول والنبوة، وقال ابن عباس: ما كان له أن يتهمه أصحابه، قال أبو عبيد الغلول من المغنم خاصة ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد، ومما يبين ذلك أنه يقال من الخيانة أغل يغل ومن الحقد غل يغل بالكسر، ومن الغلول غل يغل بالضم.

يقال غل في المغنم غلولاً أي خان بأن يأخذ لنفسه شيئاً يستره على

أصحابه، فمعنى القراءة بالبناء للفاعل. ما صح لنبي أن يخون شيئاً من المغنم فيأخذه لنفسه من غير اطلاع أصحابه، وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول.

ومعناه على القراءة بالبناء للمفعول ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه أي يخونه في الغنيمة، وهو على هذه القراءة الأخرى نهي للناس عن الغلول في المغانم، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حراماً لأن خيانة الأنبياء أشد ذنباً وأعظم وزراً.

﴿ومن يغلل يأت بما غل﴾ أي يأت به حاملاً له على ظهره ﴿يوم القيامة﴾ كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر، وهي مجيئه يوم القيامة بما غل حاملاً له قبل أن يحاسب عليه ويعاقب به.

﴿ثم توفى كل نفس﴾ جزاء ﴿ما كسبت﴾ وافياً من خير أو شر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيراً أو شراً، ويدخل تحتها الغالّ دخولاً أولياً لكون السياق فيه، فكأنه ذكر مرتين.

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن جرير وابن ابي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فنزلت ﴿وهم لا يظلمون﴾ بل يعدل بينهم في الجزاء فيجازى كل على عمله، وقد وردت أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما في ذم الغلول ووعيد الغال[1].

(١) زاد المسير ٤٩٠

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾
هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ
بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ
أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

﴿أفمن اتبع﴾ الاستفهام للإنكار أو ليس من اتبع ﴿رضوان الله﴾ في أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهيه ﴿كمن باء﴾ أو رجع ﴿بسخط﴾ عظيم كائن ﴿من الله﴾ بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه. ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه، ومن باء بسخط منه بسبب إقدامه على الغلول ﴿ومأواه﴾ يعني الغال أو المتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿جهنم وبئس المصير﴾ أي المرجع هي، ونزول الآية في واقعة معينة لا يخصص العموم.

ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال ﴿هم درجات عند الله﴾ أي متفاوتون في الدرجات والمعنى هم أولو درجات أو لهم درجات إطلاقاً للملزوم على اللازم على سبيل الاستعارة أو جعلهم نفس الدرجات مبالغة في التفاوت بينهم، فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة، وهذا ما رجحه القاضي كالكشاف.

فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدركات من باء بسخط من الله، فإن الأولين في أرفع الدرجات، والآخرين في أسفل الدركات ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيه تحريض على العمل بطاعته وتحذير عن العمل بمعاصيه.

﴿لقد منّ الله على المؤمنين﴾ أي أحسن إليهم وتفضل عليهم، والمنة النعمة العظيمة، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثة الرسول ﴿إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ يعني من جنسهم عربياً مثلهم، ولد ببلدهم، ونشأ بينهم يعرفون نسبه، وقيل بشراً مثلهم، ووجه المنة على الأول أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان، ومعناها على الثاني أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكاً لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية.

وقرىء من أنفسهم بفتح الفاء أي أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل من قريش وقريش أفضل من العرب، والعرب أفضل من غيرهم.

ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص، لأن بني هاشم هم أنفس العرب والعجم في شرف الأصل وكرم النجار(١) ورفاعة المحتد.

ويدل على الوجه الأول قوله تعالى ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ وقوله ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾.

وكان فيما خطب به أبو طالب حين زوّج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معدّ، وعنصر مضر، وجعلنا سدنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. وإن ابني هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى إلا رجح، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل.

---

(١) النجار بالضم والكسر الأصل والحسب اهـ منه.

﴿يتلو عليهم آياته﴾ هذه منة ثانية أي يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئاً من الشرائع، ولم يطرق أسماعهم الوحي ﴿ويزكيهم﴾ أي يطهرهم من نجاسة الكفر والذنوب، ودنس المحرمات والخبائث ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أي القرآن ﴿والحكمة﴾ السنّة.

وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك وكل واحد من هذه الأمور نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي قبل محمد ﷺ أو من قبل بعثته ﴿لفي ضلال مبين﴾ واضح لا ريب فيه.

﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ الألف للاستفهام لقصد التقريع؛ والمصيبة الغلبة والقتل الذي أصيبوا به يوم أحد ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يوم بدر، وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين، وكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلى القتلى من المسلمين يوم أحد.

والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم و﴿قلتم أنّى هذا﴾ أي من أين أصابنا هذا الإنهزام والقتل ونحن نقاتل في سبيل الله، ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد وعدنا الله بالنصر عليهم.

﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب أي هذا الذي سألتم عنه هو من عند أنفسكم بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم النبي ﷺ من لزوم المكان الذي عينه لهم، وعدم مفارقتهم للمركز على كل حال.

وقيل إن المراد خروجهم من المدينة، ويرده أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك وقيل هو اختيارهم الفداء يوم بدر على القتل.

وعن علي قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين

أمرين إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس فذكر ذلك لهم فقالوا يا رسول الله عشائرنا واخواننا، لا بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً عدة أسارى أهل بدر.

وهذا الحديث في سنن الترمذي والنسائي، قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة.

وعن عمر بن الخطاب قال لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفرّ أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله سبحانه وتعالى يعني هذه الآية وأخرجه أحمد بأطول منه.

ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ وما روي من بكائه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأبو بكر ندما على أخذ الفداء ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه، ولا حصل ما حصل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من الندم والحزن، ولا صوّب النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى عمر حيث أشار بقتل الأسرى وقال ما معناه لو نزلت عقوبة لهم لم ينج منها إلا عمر، والجميع في كتب الحديث والسير.

أقول ويمكن الجمع بأن يقال إن العتاب نزل أولاً ثم نزل التخيير لأن العتاب على الشروع والعزم على الفداء، والتخيير على تمامه، ويؤيده قوله في الحديث «إن الله قد كره ما صنع قومك» ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ومنه نصركم على الطاعة وترك نصركم مع المخالفة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان﴾ أي ما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة ﴿فبإذن الله﴾ أي فبعلم الله وقيل بقضائه وقدره، وقيل بتخليته بينكم وبينهم ﴿وليعلم﴾ الله ﴿المؤمنين﴾ حقاً ﴿وليعلم﴾ الله ﴿الذين نافقوا﴾ قيل أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم وإلى المنافقين واحداً، والمراد بالعلم هنا التمييز والإظهار، لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك، والمراد بالمنافقين هنا عبد الله بن أبي وأصحابه، والنفاق إسم إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الإسلام.

﴿وقيل لهم﴾ معطوف على قوله ﴿نافقوا﴾ وقيل هو كلام مبتدأ أي قيل لعبد الله المذكور وأصحابه ﴿تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾ أعداءه إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أو ادفعوا﴾ عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر فأبوا جميع ذلك.

وقيل معنى الدفع هنا تكثير سواد المسلمين وقيل معناه رابطوا والمرابطة الإقامة في الثغور، والقائل للمنافقين هذه المقالة التي حكاها الله سبحانه هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري والد جابر بن عبد الله.

و ﴿قالوا لو نعلم قتالاً﴾ أي أنه سيكون قتال ﴿لاتّبعناكم﴾ وقاتلنا معكم ولكنه لا قتال هنالك، وقيل المعنى لو كنا نقدر على القتال ونحسنه

لاتبعناكم ولكنا لا نقدر على ذلك ولا نحسنه، وعبّر عن نفي القدرة على القتال بنفي العلم به لكونها مستلزمة له، وفيه بعد لا ملجأ إليه.

وقيل معناه لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتّبعناكم ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة لعدم القدرة منا ومنكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم والخروج من المدينة، وهذا أيضاً فيه بعد دون بعد ما قبله.

﴿هم للكفر يومئذ﴾ أي هم في هذا اليوم الذي انخذلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر ﴿أقرب منهم للإيمان﴾ عند من كان يظن أنهم مسلمون لأنهم قد بيّنوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك، وقيل المعنى أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان.

﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها أي أنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وذكر الأفواه للتأكيد مثل قوله ﴿يطير بجناحيه﴾ وقال الزمخشري: ذكر القلوب مع الأفواه تصوير لنفاقهم، وإنما إيمانهم موجود في أفواههم فقط، وهذا الذي قاله الزمخشري ينفي كونه للتأكيد لتحصيله هذه الفائدة ﴿والله أعلم بما تكتمون﴾ من النفاق[1].

---

(١) قال ابن عباس: والمراد بالذين نافقوا عبد الله بن أُبيّ، وأصحابه. قال موسى بن عقبة: خرج النبي ﷺ يوم أحد، ومعه المسلمون، وهم ألف رجل، والمشركون ثلاثة آلاف، فرجع عنه ابن أبي في ثلاثمئة. فأما القتال، فمباشرة الحرب. وفي المراد بالدفع ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه التكثير بالعدد. رواه مجاهد عن ابن عباس وهو قول الحسن، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وابن جريج في آخرين.

والثاني: ان ادفعوا عنها انفسكم وحريمكم، رواه ابو صالح عن ابن عباس، وهو قول مقاتل.

والثالث: انه بمعنى القتال ايضاً. قاله ابن زيد.

ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿والذين قالوا لإخوانهم وقعدوا﴾ أي قالوا لهم ذلك، والحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال ﴿لو أطاعونا﴾ بترك الخروج من المدينة ﴿ما قتلوا﴾ فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿قل فادرؤا عن أنفسكم الموت﴾ الدرء الدفع أي لا ينفع الحذر عن القدر، فإن المقتول يقتل بأجله ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال. فخذوا إلى دفع الموت طريقاً، قيل إنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً من غير قتال ومن غير خروج لإظهار كذبهم والله تعالى أعلم.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ لما بين الله سبحانه أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحاناً ليتميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، بين ههنا أن من لم ينهزم وقتل فله هذه الكرامة والنعمة، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون، لا مما يخاف ويحذر كما قال من حكى الله عنهم ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ وقالوا لو أطاعونا ما قتلوا. فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل أحد.

وقرىء بالياء التحتية أي لا يحسبن حاسب.

وقد اختلف أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية من هم فقيل شهداء أحد وقيل شهداء بدر، وقيل شهداء بئر معونة، وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومعنى الآية عند الجمهور أنهم أحياء حياة محققة، ثم اختلفوا فمنهم من يقول إنها ترد إليهم أرواحهم في قبورهم فيتنعمون. وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة أي يجدون ريحها وليسوا فيها.

وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للنعم في الجنة، والصحيح الأول ولا موجب للمصير إلى المجاز.

وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم في الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون، فالطيور للأرواح كالهوادج للجالسين فيها، وبهذا قد استدل من قال أن الحياة للروح فقط، وقيل إن الحياة للروح والجسد معاً، واستدل له بقوله ﴿عند ربهم يرزقون﴾ الخ.

وعلى الأول وجه امتيازهم من غيرهم أن أرواحهم تدخل الجنة من وقت خروجها من أجسادهم، وأرواح بقية المؤمنين لا تدخل إلا مع أجسادها يوم القيامة، والامتياز على الثاني ظاهر.

وقال ابن عباس نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه، وعن أبي الضحى أنها نزلت في قتلى أحد وحمزة منهم.

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، وفي لفظ قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله أنا أبلغهم عنكم فأنزل هذه الآيات ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا﴾ الآية وما بعدها[1].

---

(١) المستدرك ـ كتاب التفسير ٢/٢٩٧.

وقد روي من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد، وعن أنس أن سبب نزول هذه الآية قتلى بئر معونة، وعلى كل حال فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد في سبيل الله.

وقد ثبت في أحاديث كثيرة في الصحيح وغيره أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، وثبت في فضل الشهداء ما يطول تعداده ويكثر إيراده مما هو معروف في كتب الحديث[1].

وقوله ﴿الذين قتلوا﴾ هو المفعول الأول، والحاسب هو النبي ﷺ أوكل احد كما سبق. وقيل معناها لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتاً، وهذا تكلف لا حاجة إليه، ومعنى النظم القرآني في غاية الوضوح والجلاء.

قيل وفي الكلام حذف والتقدير عند كرامة ربهم، قال سيبويه هذه عنديّة الكرامة لا عندية القرب، والمراد بالرزق هو الرزق المعروف في العادات على ما ذهب إليه الجمهور كما سلف وعند من عدا الجهور المراد به الثناء الجميل.

ولا وجه يقتضي تحريف الكلمات العربية في كتاب الله تعالى وحملها على مجازات بعيدة لا بسبب يقتضي ذلك.

وقد تعلق بهذا من يقول بالتناسخ من المبتدعة، ويقول بانتقال الأرواح وتنعيمها في الصور الحسان المرفهة وتعذيبها في الصور القبيحة، ويزعمون أن هذا هو الثواب والعقاب؟ وهذا ضلال مبين، وقول ليس عليه أثارة من علم لما فيه من إبطال ما جاءت به الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار والأحاديث الصحيحة تدفعه وترده.

---

(١) اخرجه الامام احمد ٢٣٨٨ وابو داود ٢٣٨٩ والطبري ٣٨٥/٧ والحاكم ٢٩٧/٢ وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿فرحين بما آتاهم الله﴾ أي ما ساقه إليهم من الكرامة بالشهادة وما صاروا فيه من الحياة وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه، والزلفى من الله والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد، والمراد اللحوق بهم في القتل والشهادة أي بل سيلحقون بهم من بعد، وقيل المراد لم يلحقوا بهم في الفضل وإن كانوا أهل فضل في الجملة.

وقيل المراد بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء وغيرهم، لأنهم لما عاينوا ثواب الله وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا، وهذا قوي لأن معناه أوسع، وفائدته أكثر، واللفظ يحتمله بل هو الظاهر، وبه قال الزجاج وابن فورك.

﴿أن لا خوف عليهم﴾ في الآخرة والخوف غم يلحق الإنسان بما يتوقعه من السوء ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من نعيم الدنيا والحزن غم يلحقه من فوات نافع أو حصول ضار، فمن كانت أعماله مشكورة فلا يخاف العاقبة ومن كان متقلباً في نعمة الله وفضله فلا يحزن أبداً.

﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ كرر قوله يستبشرون لتأكيد الأول، قاله الزمخشري ولبيان أن الاستبشار ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به

وبنعمة الله وفضله، والنعمة ما ينعم الله به على عباده، والفضل ما يتفضل به عليهم وقيل النعمة الثواب والفضل الزائد، وقيل النعمة والفضل داخل في النعمة، ذكر بعدها لتأكيدها.

وقيل إن الاستبشار الأول متعلق بحال إخوانهم والاستبشار الثاني بحال أنفسهم ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ كما لا يضيع أجر الشهداء والمجاهدين، وقد ورد في فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله ما يطول تعداده من الأحاديث الصحيحة والآيات الكريمة.

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ صفة للمؤمنين أو بدل منهم أو من الذين لم يلحقوا بهم أو هو مبتدأ خبره للذين أحسنوا منهم بجملته أو منصوب على المدح، وقد تقدم تفسير القرح، قال سعيد ابن جبير القرح الجراحات(١).

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة في هذه الآية أنها قالت لعروة بن الزبير يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال من يرجع في أثرهم فانتدب منهم سبعون فيهم أبو بكر والزبير، والروايات في هذا الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث والتفسير.

---

(١) جاء في «الدر المنثور» ج ١٠١/٢. وأخرج النسائي، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس، قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين. فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، أو بئر أبي عنبة ـ شك سفيان ـ فقال المشركون: نرجع قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ الآية. وقد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدكم موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة، فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ الآية.

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

﴿الذين قال لهم الناس﴾ المراد بالناس هنا نعيم بن مسعود وجاز لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم فهو من قبيل العام الذي أريد به الخاص أو من اطلاق الكل وإرادة البعض كقوله أم يحسدون الناس يعني محمداً وحده.

ونقل على القارىء أنه أسلم يوم الخندق وهو مصرح به في المواهب، وقيل المراد بالناس ركب عبد القيس الذين مروا بأبي سفيان، وقيل هم المنافقون.

والمراد بقوله ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ أبو سفيان وغيره من أصحابه، والعرب تسمى الجيش جمعاً ﴿فاخشوهم﴾ أي فخافوهم فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فزادهم إيماناً﴾ أي تصديقاً بالله ويقيناً، والمراد أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك ولا التفتوا إليه بل أخلصوا لله وازدادوا طمأنينة وقوة في دينهم وثبوتاً على نصر نبيهم، وفيه دليل أن الإيمان يزيد وينقص.

﴿وقالوا حسبنا الله﴾ حسب مصدر حسبه أي كفاه وهو بمعنى الفاعل أي محسب بمعنى كاف، قال في الكشاف الدليل على أنه المحسب أنك تقول هذا رجل حسبك فتصف به النكرة لأن إضافته لكونه بمعنى إسم الفاعل غير حقيقية ﴿ونعم الوكيل﴾ هو من يوكل إليه الأمور أي نعم الموكول إليه أمرنا أو الكافي أو الكافل والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم الوكيل الله سبحانه.

وقد ورد في فضل هذه الكلمة أعني حسبنا الله ونعم الوكيل أحاديث منها ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال: قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقاله محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم.

وأخرج ابن مردويه عن ابيّ هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، قال ابن كثير بعد إخراجه: هذا

حديث غريب من هذا الوجه(١).

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال: قال النبي ﷺ حسبنا الله ونعم الوكيل أمان كل خائف.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا اشتد غمّه مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفس الصعداء وقال حسبي الله ونعم الوكيل.

﴿فانقلبوا بنعمة من الله﴾ أي فخرجوا إليهم فانقلبوا، والتنوين للتعظيم أي رجعوا متلبّسين بنعمة عظيمة وهي السلامة من عدوهم وعافية ﴿وفضل﴾ أي أجر تفضل الله به عليهم، وقيل ربح في التجارة، وقيل النعمة خاصة بمنافع الدنيا والفضل بمنافع الآخرة.

وقد تقدم تفسيرهما قريباً بما يناسب ذلك المقام لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين صاروا في الدار الآخرة، والكلام هنا مع الأحياء.

وقوله ﴿لم يمسسهم سوء﴾ أي سالمين عنه لم يصبهم قتل ولا جرح ولا ما يخافونه، وقال ابن عباس: لم يؤذهم أحد ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ فيما يأتون ويذرون وأطاعوا الله ورسوله، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة.

وعن ابن عباس: النعمة أنهم سلموا، والفضل ان عيراً مرت وكان في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالاً فقسمه بين أصحابه، وعن مجاهد قال الفضل: ما أصابوا من التجارة والأجر، وقال السدي أما النعمة فهي العافية وأما الفضل فالتجارة والسوء القتل.

﴿والله ذو فضل عظيم﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه، ومن تفضله عليهم تثبيتهم وخروجهم للقاء عدوهم وإرشادهم إلى أن يقولوا هذه المقالة التي هي جالبة لكل خير، ودافعة لكل شر، وقيل تفضل عليهم بإلقاء الرعب في قلوب المشركين حتى رجعوا.

---

(١) ابن كثير ١/ ٤٣٠.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿إنما ذلكم﴾ المثبّط لكم والمخوّف أيها المؤمنون ﴿الشيطان﴾ والظاهر أن المراد هنا الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتثبيط، وقيل المراد به نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة، وقيل أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم، والمعنى أن الشيطان ﴿يخوّف﴾ المؤمنين ﴿أولياءه﴾ وهم الكافرون وقال ابن عباس: الشيطان يخوف بأوليائه، وقال أبو مالك: يعظّم أولياءه في أعينكم. وقال الحسن: إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا وليّ الشيطان.

﴿فلا تخافوهم﴾ أي أولياءه الذين يخوفكم بهم الشيطان أو فلا تخافوا الناس المذكورين في قوله ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ نهاهم الله سبحانه أن يخافوهم فيجبنوا عن اللقاء ويفشلوا عن الخروج، وأمرهم بأن يخافوا الله سبحانه فقال ﴿وخافون﴾ هذه الياء التي بعد النون اختلف السبعة في اثباتها لفظاً واتفقوا على حذفها في الرسم لأنها من آيات الزوائد كلها لا ترسم، وجملتها اثنتان وستون، والمعنى فافعلوا ما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه، لأنـي الحقيق بالخوف مني، والمراقبة لأمري ونهي لكون الخير والشر بيدي وقيده بقوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ لأن الإيمان يقتضي ذلك ويستدعـي الأمن من شر الشيطان وأوليائه.

﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ يقال حزنني الأمر وهي لغة قريش وأحزنني وهي لغة تميم، والأولى أفصح، والغرض من هذا تسليته ﷺ

وتصبيره على تعنّتهم في الكفر، وتعرّضهم له بالأذى، وضمن يسارعون يقعون فعدّى بفي أي لا يحزنك مسارعتهم لمقوّيات الكفر من قول وفعل، فهذا هو الذي يسارع إليه أي الأمور المقوية له كالتهيؤ لقتال النبي، وأما الكفر فهو دائم فيهم فلا تتأتى مسارعتهم للوقوع فيه لأن هذا التعبير يشعر بطروء هذا الأمر.

وأما إيثار كلمة ﴿إلى﴾ في قوله تعالى ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ فلأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها، وقيل هم قوم ارتدوا فاغتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك فسلّاه الله سبحانه ونهاه عن الحزن وعلل ذلك بقوله.

﴿انهم لن يضروا الله شيئاً﴾ أي شيئاً من الضرر، والتنكير لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة، وقيل على نزع الجار أي بشيء ما أصلاً، وقيل هم كفار قريش، وقيل هم المنافقون ورؤساء اليهود، وقيل هو عام في جميع الكفار.

قال القشيري: والحزن على كفر الكافر طاعة ولكن النبي ﷺ كان يفرط في الحزن فنهى عن ذلك كما قال تعالى ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ وقال ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ والمعنى ان كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيئاً، وقيل المراد لن يضروا أولياءه، ويحتمل أن يراد لن يضروا دينه الذي شرعه لعباده، وفيه مزيد مبالغة في التسلية.

﴿يريد الله ألاّ يجعل لهم حظاً﴾ نصيباً ﴿في الآخرة﴾ أو نصيباً من الثواب، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، وفي الآية دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى، وفيه رد على القدرية والمعتزلة ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ في النار بسبب مسارعتهم في الكفر، فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالباً لهم عدم الحظ في الآخرة ومصيرهم إلى العذاب العظيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

﴿إن الذين اشتروا﴾ استبدلوا ﴿الكفر بالإيمان﴾ وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة والمراد المنافقون آمنوا ثم كفروا ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ نفي الضرر معناه كالأول وهو للتأكيد لما تقدمه، وقيل إن الأول خاص بالمنافقين والثاني يعم جميع الكفار، والأول أولى ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة، ولما جرت العادة بسرور المشتري بما اشتراه عند كون الصفقة رابحة، وبتألمه عند كونها خاسرة، ناسب وصف العذاب بالأليم.

﴿ولا تحسبن الذين كفروا﴾ وقرىء بالتحتية فالمعنى لا يحسبن الكافرون ﴿أنما نملي لهم﴾ بتطويل الأعمال وتأخيرهم ورغد العيش، أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد ﴿خير لأنفسهم﴾ فليس الأمر كذلك بل هو شر واقع عليهم ونازل بهم، وعلى الأولى لا تحسبن يا محمد ﷺ أن الإملاء للذين كفروا بما ذكر خير لهم.

﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ بكثرة المعاصي، واللام لام الإرادة أي إرادة زيادة الإثم، وهي جائزة عند الأشاعرة ولا تخلو عن حكمة، وعند المعتزلة القائلين بأنه تعالى لا يريد القبيح هي لام العافية وهي جملة مستأنفة مبينة لوجه الإملاء للكافرين. أو تكرير للأولى. والإملاء الإمهال والتأخير، وأصله من الملوأة وهي المدة من الزمان يقال أمليت له في الأمر أخرت وأمليت للبعير في القيد أرخيت له ووسعت ﴿ولهم عذاب مهين﴾ في الآخرة.

قال أبو السعود لما تضمن الاملاء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك

مما يقتضي التعزز والتكرم وصف عذابهم بالإهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقاً انتهى.

واحتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ما يقوله المعتزلة لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكافرين ويجعل عيشهم رغداً ليزدادوا إثماً، قال أبو حاتم وسمعت الأخفش يذكر كسر ﴿انما نملي﴾ الأولى وفتح الثانية ويحتج بذلك لأهل القدر لأنه منهم ويجعله على هذا التقدير ﴿ولا يحسبن الذين كفرو ا أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً نملي لهم خير لأنفسهم﴾.

وقال في الكشاف إن ازدياد الإثم علة، وما كل علة بغرض، ألا تراك تقول قعدت عن الغزو للعجز والفاقة وخرجت من البلد لمخافة الشر، وليس شيء من ذلك بغرض لك، وإنما هي أسباب وعلل.

وعن ابن مسعود قال: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة إن كان براً فقد قال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وان كان فاجراً فقد قال تعالى ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ الآية، وعن أبي الدرداء ومحمد ابن كعب وأبي هريرة نحوه[1].

---

(١) أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه عن ابن مسعود قال: ما من نفس برة، ولا فاجرة، إلا والموت خير لها من الحياة. إن كان براً، فقد قال الله تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وإن كان فاجراً، فقد قال الله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ واسناده صحيح.

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

﴿ما كان الله﴾ كلام مستأنف ﴿ليذر المؤمنين﴾ هذه اللام تسمى لام الجحود وينصب بعدها المضارع بإضمار إن ولا يجوز إظهارها ولهذا القول دلائل واعتراضات مذكورة في كتب النحو.

والخطاب في قوله ﴿على ما أنتم عليه﴾ عند جمهور المحدّثين للكفار والمنافقين، وقيل الخطاب للمؤمنين والمنافقين أي ما كان الله ليترككم على الحال الذي عليه أنتم من الاختلاط، وقيل الخطاب للمشركين، والمراد بالمؤمنين من في الأصلاب والارحام أي ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم وبينهم.

وقيل الخطاب للمؤمنين أي ما كان الله ليذركم يا معشر المسلمين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم، وعلى هذا الوجه والوجه الثاني يكون في الكلام التفات.

﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ أي بعضكم من بعض، قال ابن عباس: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وقال قتادة يميز بينهم في الجهاد والهجرة، وقرىء يميز بالتشديد بالمخفّف من ماز الشيء يميزه ميزاً إذا فرق بين شيئين، فإن كانت أشياء قيل ميزها تمييزاً.

﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الخطاب لكفار قريش أي ما كان ليبيّن لكم المؤمن من الكافر فيقول فلان كافر، وفلان مؤمن وفلان منافق لتعرفوا قبل التمييز لأن المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فيميز بينكم، كما وقع من نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من تعيين كثير من المنافقين، فإن ذلك كان بتعليم الله له لا بكونه يعلم الغيب أو أن يشاهد أمراً يدل على أمر يكون من بعد كما نصب له علامات دالة على مصارع الكفار يوم بدر، وقيل المعنى ما كان الله ليطلعكم على الغيب فيمن يستحق النبوة حتى يكون الوحي باختياركم.

﴿ولكن الله يجتبي﴾ أي يختار أو يختص، قاله مجاهد وعن مالك يستخلص ﴿من رسله من يشاء﴾ فيطلعه على ما يشاء من غيبه، عن السدي قال: قالوا إن كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم صادقاً فليخبرنابمن يؤمن منا ومن يكفر، فأنزل الله هذه الآية، وعن الحسن قال لا يطلع على الغيب إلا رسول ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ بصفة الإخلاص ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ النفاق ﴿فلكم أجر عظيم﴾ في الآخرة.

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾ أي لا يحسبن الباخلون البخل خيراً لهم، قاله الخليل وسيبويه والفراء وقرىء بالتاء أي لا تحسبن يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخل الذين يبخلون خيراً لهم، قال الزجاج هو مثل ﴿واسئل القرية﴾ الآية دالة على ذم البخل، وقد ورد فيه أحاديث.

قال المبرد: والسين في قوله ﴿سيطوقون ما بخلوا به﴾ سين الوعيد، وهذه الجملة مبينة لمعنى ما قبلها قيل ومعنى التطويق هنا أنه يكون ما بخلوا به من المال طوقاً من نار في أعناقهم، وقيل معناه أنهم سيحملون عقاب ما بخلوا به،

فهو من الطاقة وليس من التطويق.

وقيل المعنى أنهم يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق، يقال طوّق فلان عمله طوق الحمامة أي ألزم جزاء عمله.

قال القرطبي: البخل في أصل اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب، فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخيل، قال في القاموس البخل ضد الكرم.

وقد ذكر الشوكاني في شرحه للمنتقى عند قوله ﷺ اللهم إني أعوذ بك من البخل أنه قيده بعضهم بما يجب إخراجه، ثم قال: ولا وجه له لأن البخل بما ليس بواجب من غرائز النقص المضادة للكمال، والتعوذ منه حسن بلا شك، فالأولى تبقية الحديث على عمومه انتهى، فمعنى البخل عام لا كما ذكره القرطبي.

وأما في الآية فهو للواجب ولكن عبارته تفيد التعميم والله أعلم، قال ابن عباس: هم أهل الكتاب بخلوا به أ ن يبثوه للناس، وعن مجاهد قال: هم اليهود، وعن السدي: قال بخلوا أن ينفقوها في سبيل الله ولم يؤدوا زكاتها.

﴿يوم القيامة﴾ بأن يجعل حية في عنقه تنهشه كما أخرج البخاري عن أبي هريرة **قال**: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثّل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان **يطوقه** يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه فيقول أنا مالك أنا كنزك» ثم تلا هذه الآية، وقد ورد هذا المعنى في أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة يرفعونها[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» رقم ٣٥٧٧، والترمذي، وابن خزيمة، وابن ماجة ج ١/٥٦٧، ولفظه: =

﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ أي له وحده لا لغيره كما يفيده التقديم والمعنى أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلهما ومنه المال، فما بالهم يبخلون بذلك ولا ينفقونه وهو لله سبحانه لا لهم. وإنما كان عندهم عارية مستردة.

ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها﴾ وقوله ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ والميراث في الأصل هو ما يخرج من مالك إلى آخر، ولم يكن مملوكاً لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته ﴿والله بما تعملون خبير﴾ قرىء بالتاء على طريقة الالتفات وهي أبلغ في الوعيد، وقرىء بالياء على الظاهر.

= «ما من أحد يؤدي زكاة ماله، إلا مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق عنقه»، ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ الآية. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى البخاري ج ٢٧٣/٨/، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيتان، يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ الى آخر الآية.

الشجاع: الحية الذكر، وهو ضرب من الحيات، خبيث مارد. وأقرع: صفة من صفات الحيات الخبيثة، يزعمون أنه اذا طال عمر الحية، وكثر سمه، جمعه في رأسه حتى تتمعط منه فروة رأسه.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ قال أهل التفسير لما أنزل الله من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً، قال قوم من اليهود هذه المقالة تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون ذلك لأنهم أهل كتاب، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ما طلبه منا من القرض على لسان محمد ﷺ فهو فقير، ليشككوا على إخوانهم في دين الإسلام.

﴿سنكتب ما قالوا﴾ في صحف الملائكة أو سنحفظه أو سنجازيهم عليه والمراد الوعيد لهم وإن ذلك لا يفوت على الله بل هو معد لهم ليوم الجزاء.

وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل ماذا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع، فقال:قال لهم سنكتب ما قالوا ﴿و﴾ نكتب ﴿قتلهم الأنبياء﴾ أي قتل أسلافهم للأنبياء، وإنما نسب ذلك إليهم لكونهم رضوا به، جعل ذلك القول قريناً لقتل الأنبياء تنبيهاً على أنه من العظيم والشناعة بمكان يعدل قتل الأنبياء ﴿بغير حق﴾ حتى في اعتقادهم، فكانوا يعتقدون أن قتلهم لا يجوز ولا يحل وحينئذ فيناسب شن الغارة عليهم.

﴿ونقول﴾ أي ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذي نقوله لهم في النار أو عند الموت أو عند الحساب، وقرىء بالياء أي يقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ الحريق إسم للنار الملتهبة، وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة(١).

---

(١) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت مِدْراس اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على رجل منهم، اسمه فنحاص، فقال له أبو بكر: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله. فقال: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والله لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك. فذهب فنحاص يشكو إلى النبي ﷺ، وأخبره أبو بكر بما قال، فجحد فنحاص، فنزلت هذه الآية،

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ
جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

والإشارة بقوله ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ إلى العذاب المذكور قبله، وأشار إلى القريب بالصيغة التي يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته في الفظاعة، وذكر الأيدي لكونها المباشرة لغالب المعاصي ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ معطوف على ما قدمت أيديكم.

ووجهه أنه سبحانه عذبهم بما أصابوا من الذنب وجازاهم على فعلهم فلم يكن ذلك ظلماً، أو بمعنى أنه مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء وليس بظالم لمن عذبه بذنبه، وقيل إن وجهه أن نفي الظلم مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسيء، ورد بأن ترك التعذيب مع وجود سببه ليس بظلم عقلاً ولا شرعاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب.

وقيل إن جملة قوله وأن الله ليس بظلّام للعبيد في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أن الله ليس بظلام للعبيد، والتعبير بذلك عن نفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلاً عن كونه ظلماً بالغاً لبيان تنزهه عن ذلك، ونفي ظلّام المشعر بالكثرة يفيد ثبوت أصل الظلم، وأجيب عن ذلك بأن الذي توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلماً لكان عظيماً فنفاه على حد عظمه لو كان ثابتاً، عن ابن عباس قال: ما أنا بمعذب من لم يجترم.

﴿الذين قالوا﴾ أي جماعة من اليهود ﴿إن الله عهد الينا﴾ في التوراة ﴿ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ وهذا منهم كذب على التوراة إذ الذي فيها مقيد بغير عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. والقربان ما يتقرب به إلى الله من نسيكة وصدقة وعمل صالح، وهو فعلان من القربة، وقد كان دأب بني إسرائيل أنهم كانوا يقرّبون القربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتحرقه، ولم يتعبّد الله بذلك كل أنبيائه ولا جعله دليلاً على صدق دعوى النبوة.

ولهذا رد الله عليهم فقال ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي﴾ كيحيى بن زكريا وشعياء وسائر من قتلوا من الأنبياء ﴿بالبيّنات﴾ أي الدلالات الواضحات على صدقهم ﴿وبالذي قلتم﴾ أي بالقربان ﴿فلم قتلتموهم﴾ أراد بذلك فعل أسلافهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم.

﴿فإن كذّبوك﴾ يا محمد هؤلاء اليهود ﴿فقد كذّب﴾ ﴿رسل من قبلك﴾ مثل نوح وهود وصالح وإبراهيم وغيرهم من الرسل ﴿جاؤوا بالبينات﴾ أي الحلال والحرام أو المعجزات الباهرات ﴿والزبر﴾ جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته إذا حسنته، وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته ﴿والكتاب المنير﴾ الواضح الجلي المضيء، يقال نار الشيء واستنار وأناره ونوّره بمعنى.

وقال قتادة: الزبر كتب الأنبياء والكتاب المنير هو القرآن الكريم، وقيل الزبر المصحف، والكتاب المنير التوراة والإنجيل، وزاد أبو السعود والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام، ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة المواقع.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ من الذوق وهذه الآية تتضمن الوعد والوعيد للمصدق والمكذب بعد إخباره عن الباخلين القائلين أن الله فقير ونحن أغنياء، وقرىء ذائقة الموت بالتنوين ونصب الموت، وقرأ الجمهور بالإضافة.

والمعنى ذائقة موت أجسادها إذ النفس لا تموت، ولو ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها. لأن الحياة شرط في الذوق وسائر الإدراكات، وقوله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ معناه حين موت أجسادها، قاله الكرخي.

وهذا يقتضي أن المراد بالنفس هنا الروح، والحامل له على تفسيرها بذلك التأنيث في قوله ذائقة لأنها بمعنى الروح مؤنثة وتطلق أيضاً على مجموع الجسد والروح الذي هو الحيوان، وهي بهذا المعنى مذكر، وهذا المعنى الثاني تصح إرادته هنا أيضاً بل هو الأقرب المتبادر إلى الفهم.

﴿وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة﴾ أجر المؤمن الثواب وأجر الكافر العقاب أي أن توفية الأجور وتكميلها على التمام إنما يكون في ذلك اليوم، وما يقع من الأجور في الدنيا أو في البرزخ فإنما هو بعض الأجور كما ينبىء عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران(١).

﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ الزحزحة التنحية والإبعاد تكرير الزحّ وهو الجذب بعجلة، قاله في الكشاف، وقد سبق الكلام عليه أي فمن بعد عن النار يومئذ ونحّي فقد ظفر بما يريد ونجا مما يخاف، ونال غاية مطلوبه.

---

(١) الترمذي كتاب القيامة الباب ٢٦.

وهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوز يقاربه. فإن كل فوز وإن كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشيء بالنسبة إليها إلا رؤية الله سبحانه وتعالى فهو أفضل نعيم الآخرة في الجنة، اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة ولا عيش إلا عيشها ولا نعيم إلا نعيمها فاغفر ذنوبنا واستر عيوبنا وارض عنا رضاً لا سخط بعده، واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، إقرؤوا إن شئتم ﴿فمن زحزح عن النار إلى قوله الغرور﴾ أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه وغيرهما[1].

﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ المتاع كل ما يتمتع به الإنسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى كذا قال أكثر المفسرين، وقيل المتاع كالفاس والقدر والقصعة ونحوها، والأول أولى، والغرور إما مصدر أو جمع غار، وقيل ما يغر الإنسان مما لا يدوم وقيل الباطل، والغرور الشيطان يغر الناس بالأماني الباطلة والمواعيد الكاذبة.

شبّه سبحانه الدنيا بالمتاع الذي يدلّس به على من يريده وله ظاهر محبوب، وباطن مكروه، قيل متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم، قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة فأما من اشتغل بطلبها فهي له متاع وبلاغ إلى ما هو خير منها.

---

(١) روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة، فقد فاز﴾ ورواه أحمد في «المسند»، والترمذي، والحاكم في «المستدرك» وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
وروى الامام أحمد في «المسند» رقم ٦٨٠٧، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». ورواه الامام مسلم بأطول منه.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾ اللام لام القسم أي والله لتبونّ، هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته تسلية لهم بما سيلقونه من الكفرة والفسقة ليوطّنوا أنفسهم على الثبات والصبر على المكاره، والابتلاء الامتحان والاختبار، والمعنى لتمتحننّ ولتختبرنّ في أموالكم بالمصايب والإنفاقات الواجبة وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب والقتل في سبيل الله.

﴿ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ قال الزهري: الذين أوتوا الكتاب هو كعب بن الأشرف وكان يحرض المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في شعره، وعن ابن جريج قال: يعني اليهود والنصارى. فكان المسلمون يسمعون من اليهود عزيز ابن الله ومن النصارى المسيح ابن الله.

﴿ومن الذين أشركوا﴾ سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب ﴿أذى كثيراً﴾ من الطعن في دينكم وأعراضكم. وزاد السيوطي والتشبيب بنسائكم، قاله في الجمل، هو ذكر أوصاف الجمال وكان يفعل ذلك كعب بن الأشرف بنساء المؤمنين.

﴿وإن تصبروا وتتّقوا﴾ الصبر عبارة عن احتمال الأذى والمكروه والتقوى عن الاحتراز عما لا ينبغي ﴿فإن ذلك﴾ الصبر والتقوى المدلول عليهما بالفعليـن وأشار بما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوّ درجتهما وبعد منزلتهما وتوحيد حرف الخطاب إمّا باعتبار كل واحد من المخاطبين، وإما لأن المراد بالخطاب مجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين.

﴿من عزم الأمور﴾ معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون، أي مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لما فيه من كمال المزيّة والشرف، أو لكونه عزمة من عزمات الله التي أوجب عليكم القيام بها، يقال عزم الأمر أي شده وأصلحه، وأصله ثبات الرأي على الشيء إلى إمضائه.

وقال المرزوقي: إنه توطين النفس عند الفكر، والمراد أن يوطدوا أنفسهم على الصبر، فإن العالم بنزول البلاء عليه لا يعظم وقعه في قلبه بخلاف غير العالم فإنه يعظم عنده ويشق عليه.

وقال ابن جريج: أي من القوة مما عزم الله عليه وأمركم به، والحاصل أن المصدر بمعنى إسم المفعول قال التفتازاني: إما معزوم العبد بمعنى أنه يجب عليه العزم والتصميم عليه أو معزوم الله لمعنى عزم الله أي أراد الله وفرض أن يكون ذلك ويحصل.

﴿وإذ أخذ الله﴾ كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذيّـاتهم وهو كتمانهم شواهد النبوة ﴿ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى أو اليهود فقط على الخلاف في ذلك، والظاهر أن المراد بأهل الكتاب كل من أتاه الله علم شيء من الكتاب أي كتاب كان كما يفيده التعريف الجنسي في الكتاب.

قال الحسن وقتادة: إن الآية عامة لكل عالم، وكذا قال محمد بن كعب، ويدل على ذلك قول أبي هريرة لولا ما أخذه الله على أهل الكتاب ما حدّثتكم بشيء، ثم تلا هذه الآيـة.

والضمير في قوله ﴿لتبيّننّه﴾ راجع إلى الكتاب وقيل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يتقدم له ذكر لأنّ الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوته، وهذا جواب لما تضمنه الميثاق من القسم كأنه قيـل لهم بالله لتبيننه، وقرىء بالياء جرياً على الإسم الظاهر، وهو كالغائب وبالتاء خطاباً على الحكاية تقديره وقلنا لهم.

﴿للناس ولا تكتمونـه﴾ أي الكتاب بـالياء والتـاء والواو للحـال أو للعطف، والنهي عن الكتمان بعد الأمر بالبيان إما للمبالغة في إيجاب المأمور به، وإما لأن المراد بالبيان ذكر الآيـات الناطقـة بنبوتـه، وبالكتمـان القاء التأويلات الزائغة والشّبه الباطلة.

﴿فنبذوه﴾ أي الكتاب أو الميثاق، وقرأ ابن عباس: (وإذ أخذ الله ميثاق النّبيين لتبينه)، ويشكل على هذه القراءة قوله ﴿فنبذوه﴾ فلا بد أن يكون فاعله الناس والنّبذ الطرح وقد تقدم في البقرة.

وقوله ﴿وراء ظهورهم﴾ مبالغة في النبذ والطرح وترك العمل وضياعه، ومثّـل في الاستهانة به والأعراض عنه بالكلية ﴿واشتروا به﴾ أي بالكتاب الذي أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي حقيراً يسيراً من حطام الدنيا وأعراضها والمآكل، والرّشـا التي كانوا يأخذونها من عوامهم وسفلتهم برياستهم في العلم فكتموه خوف فوته عليهم ﴿فبئس ما يشترون﴾ أي بئس شيئاً ما يشترونه بذلك الثمن.

وعن ابن عباس قال: كان الله أمرهم أن يتبعوا النبي الأمي، وعنه قال: في التوراة والإنجيل أن الإسلام دين الله الذي افترضه على عباده، وأن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فنبذوه.

وعن قتادة في الآية قال: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم فمن علم علماً فليعلمه الناس، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة، وعن الحسن قال: لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه.

وظاهر هذه الآية وإن كان مخصوصاً بعلماء أهل الكتاب فلا يبعد أن يدخل فيه علماء هذه الأمة الإسلامية لأنهم أهل كتاب هو القرآن، قال قتادة: طوبى لعالم ناطق ومستمع واع، هذا علم علماً فبذله، وهذا سمع خيراً فقبله ووعاه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من سئل علماً يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار، أخرجه الترمذي ولأبي داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة[1]، وفي الباب أخبار وآثار كثيرة.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: هذا توبيخ من الله تعالى وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره، فاذا أرسله الله تعالى تابعوه، فكتموا ذلك، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم. وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم، فيصيبهم ما أصابهم، ويسلم بهم مسلكهم. فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». وهذا الحديث الذي استشهد به ابن كثير أخرجه أحمد وأبو داود، وابن ماجه، وأبو يعلى، والترمذي، وحسنه، والحاكم وصححه، والبيهقي من حديث أبي هريرة به مرفوعاً، وهو عند الحاكم أيضاً وغيره عن ابن عمرو، وعند ابن ماجه وأبي سعيد، وعند الطبراني من حديث ابن عباس وابن عمر وابن مسعود، وهو حديث صحيح.

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له قرىء بالتاء والياء وهما سبعيتان ﴿بما أتوا﴾ أي بما فعلوا من إضلال الناس، وقد اختلف في سبب نزولها كما سيأتي ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ من التمسك بالحق وهم على ضلال، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته هذه الآية عملاً بعموم اللفظ وهو المعتبر لا بخصوص السبب، فمن فرح بما فعل، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل.

﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ وقرىء بالتحتية أي لا يحسبن الفارحون فرحهم منجياً لهم من العذاب، والمفازة المنجاة مفعلة من فاز يفوز إذا نجا أي ليسوا بفائزين، سمّي موضع الخوف مفازة على جهة التفاؤل، قاله الأصمعي، وقيل لأنها موضع تفويز ومظنة هلاك، تقول العرب فوز الرجل إذا هلك.

وقال ثعلب. حكيت لابن الاعرابي قول الاصمعي فقال أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز وقال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه، وقيل المعنى لا تحسبنهم بمكان بعيد عن العذاب، لأن الفوز التباعد عن المكروه بل هم في مكان يعذبون فيه وهو جهنم.

﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعني مؤلم في الآخرة.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال ابن عباس سألهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد

أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوه بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه.

وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وقد روى أنها نزلت في فنحاص وأسيع وأشباههما، وروي أنها نزلت في اليهود.

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ قال الخطيب فهو يملك أمرهما وما فيهما من خزائن المطر والرزق والنبات وغيرها انتهى، والملك بالضم تمام القدرة واستحكامها، والمعنى ولله ملك خزائن السموات والأرض يتصرف فيه كيف يشاء، وفيه تكذيب لمن قال إن الله فقير ونحن أغنياء، فمن كان له جميع ما فيهما كيف يكون فقيراً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، ومنه تعذيب الكافرين وإنجاد المؤمنين.

﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها والمراد ذات السموات والأرض وصفاتهما وما فيهما من العجائب ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ تعاقبهما بالمجيء والذهاب وكون كل واحد منهما يخلف الآخر، وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر وتفاوتهما طولاً وقصراً وحراً وبرداً وغير ذلك.

﴿لآيات﴾ أي دلالات واضحة وبراهين بينة تدل على الخالق سبحانه، وقد تقدم تفسير بعض ما هنا في سورة البقرة ﴿لأولى الألباب﴾ أي لأهل العقول الصحيحة الخالصة عن شوائب النقص، فإن مجرد التفكر فيما قصه الله تعالى في هذه الآية يكفي العاقل ويوصله إلى الإيمان الذي لا تزلزله الشبهة ولا يدفعه التشكيك.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ المراد بالذكر هنا ذكره سبحانه في هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة وبه قال علي وابن مسعود وابن عباس وقتادة أي لا يضيعونها في حال من الأحوال فيصلونها قياماً مع عدم العذر، وقعوداً وعلى جنوبهم مع العذر، وعن ابن مسعود قال: إنما هذه في الصلاة إذا لم يستطع قائماً فقاعداً، وإن لم يستطع قاعداً فعلى جنبه.

وقد ثبت في البخاري من حديث عمران بن حصين قال كانت لي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب(١).

وثبت فيه عنه قال سألت رسول الله ﷺ عن صلاة الرجل وهو قاعد فقال: من صلّى قائماً فهو أفضل ومن صلى قاعداً فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائماً فله نصف أجر القاعد(٢).

وعن قتادة قال: هذه حالاتك كلها يا ابن آدم، اذكر الله وأنت قائم فإن لم تستطع فاذكره جالساً فإن لم تستطع جالساً فاذكره وأنت على جنبك، يسر من الله وتخفيف.

وأقول هذا التقييد الذي ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكر لا وجه له لا من الآية ولا من غيرها فإنه لم يرد في شيء من الكتاب ولا من السنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام، ولا

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٦٧٢.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٦٢٣٩.

يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود، وإنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا الصلاة كما سبق عن ابن مسعود وغيره.

﴿ويتفكّرون في خلق السموات والأرض﴾ أي في بديع صنعهما وإتقانهما مع عظم أجرامهما فإن هذا الفكر إذا كان صادقاً أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه، وعن عائشة مرفوعاً: ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها، وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف في استحباب التفكر مطلقاً.

ويقولون﴿ربّنا ما خلقت هذا﴾ الخلق الذي نراه ﴿باطلاً﴾ أي عبثاً ولهواً بل خلقته دليلاً على حكمتك ووحدانيتك وقدرتك. والباطل الزائل الذاهب، وخلق بمعنى جعل والإشارة بقوله «هذا» الى السموات والأرض أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق.

﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلاً وهزلاً وعبثاً، والفاء في ﴿فقنا﴾ لترتيب هذا الدعاء على ما قبله ﴿عذاب النار﴾ علم عباده كيفية الدعاء، فمن أراد أن يدعو فليقدم الثناء على الله أولاً ثم يأتي بالدعاء.

﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه، وبيان للسبب الذي لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار، وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه أي أذله وأهانه. وقال المفضل: معنى أخزيته أهلكته، ويقال معناه فضحته وأبعدته.

يقال أخزاه الله أبعده ومقته، والاسم الخزي، قال ابن السكيت، خزى يخزي خزياً إذا وقع في بلية، وعن أنس قال: «من تدخل النار» من تخلد، وعن سعيد بن المسيب قال هذه خاصة لمن لا يخرج منها.

﴿وما للظالمين﴾ المشركين، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بتخصيص الخزي بهم ﴿من﴾ زائدة ﴿أنصار﴾ ينصرونهم يوم القيامة ويمنعونهم من العذاب.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً﴾ هو عند أكثر المفسرين النبي ﷺ، وقيل هو القرآن، وأوقع السماع على المنادي مع كون المسموع هو النداء لأنه قد وصف المنادي بما يسمع وهو قوله ﴿ينادي﴾ قال أبو علي الفارسي. ذكره مع أنه قد فهم من قوله منادياً لقصد التأكيد والتفخيم لشأن هذا المنادى به ﴿للإيمان﴾ اللام بمعنى إلى وقيل للعلة أي لأجله ﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ أي امتثلنا ما يأمر به هذا المنادي من الإيمان.

وتكرير النداء في قوله ﴿ربنا﴾ لإظهار التضرع والخضوع ﴿فاغفر لنا﴾ الفاء لترتيب المغفرة والدعاء بها على الإيمان به تعالى والإقرار بربوبيّته، فإن ذلك من دواعي المغفرة والدعاء بها ﴿ذنوبنا وكفر﴾ حط ﴿عنا سيآتنا﴾ قيل المراد بالذنوب هنا الكبائر وبالسيآت الصغائر، والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين والآخر بالآخر بل يكون المعنى في الذنوب والسيآت واحداً، والتكرير للمبالغة والتأكيد كما أن معنى الغفر والكفر الستر.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ جمع بار أو بر، وأصله من الاتساع وكأن البار متسع في طاعة الله ومتسعة له رحمته، قيل هم الأنبياء ومعنى اللفظ أوسع من ذلك أي معدودين ومحسوبين في جملتهم، أو المراد في سلكهم على سبيل الكناية أو أن مع بمعنى ﴿على﴾ أي على أعمال الأبرار أو محشورين معهم.

﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ هذا دعاء آخر، والنكتة في تكرير النداء ما تقدم والموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذي وعد الله به أهل

طاعته، ففي الكلام حذف وهو لفظ الألسن كقوله: ﴿واسأل القرية﴾ وقيل المحذوف التصديق أي ما وعدتنا على تصديق رسلك، وقيل ما وعدتنا منزّلاً على رسلك ومحمولاً على رسلك.

ولا يخفى أن تقدير الأفعال الخاصة في مثل هذه المواقع تعسف، فالأول أولى. وصدور هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على ألسن رسله كائن لا محالة إما لقصد التعجيل أو للخضوع بالدعاء لكونه مخ العبادة.

﴿ولا تخزنا﴾ لا تفضحنا ولا تهنا ﴿يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾ فيه دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على الدعاء هو ما ذكرنا[1].

---

(١) إن قيل: ما وجه قولهم: «ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك» وقد علموا أنه لا يخلف الميعاد؛ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الله سبحانه وعد من آمن بالجنة، فسألوا أن يكونوا ممن وُعد بذلك دون الخزي والعقاب.

الثاني: أنهم دعوا بهذا الدعاء على جهة العبادة والخضوع، والدعاء مخ العبادة. وهذا كقوله: «قل رب احكم بالحق» وإن كان هو لا يقضي إلا بالحق.

الثالث: سألوا أن يعطوا ما وعدوا به من النصر على عدوهم معجلاً؛ لأنها حكاية عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه ذلك إعزازاً للدين. والله أعلم. وروى أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما وعده الله عز وجل على عمل ثواباً فهو منجز له رحمة ومن وعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار». والعرب تذم بالمخالفة في الوعد وتمدح بذلك في الوعيد؛ حتى قال قائلهم:

ولا يرهب ابن العتم ما عشت صولتي ... ولا اختفي من خشية المتهدد
وإني متى أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ الإستجابة بمعنى الإجابة وقيل الإجابة عامة والاستجابة خاصة بإعطاء المسئول، وهذا الفعل يتعدى بنفسه وباللام، يقال استجابه واستجاب له، وإنما ذكر سبحانه الإستجابة وما بعدها في جملة ما لهم من الأوصاف الحسنة لأنها منه، إذ من أجيبت دعوته فقد رفعت درجته.

﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾ أي أعطاهم ما سألوه وقال لهم إني لا أحبط عملكم أيها المؤمنون بل أثيبكم عليه، والمراد بالإضاعة ترك الإثابة ﴿من ذكر أو أنثى﴾ «من» بيانية مؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة في سياق النفي من العموم.

﴿بعضكم من بعض﴾ أي رجالكم مثل نسائكم في ثواب الطاعة والعقاب ونساؤكم مثل رجالكم فيهما، وقيل في الدين والنصرة والموالاة، والأول أولى، والجملة معترضة أو مستأنفة لبيان كون كل منهما من الآخر ما أجمل في قوله ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم﴾.

﴿فالذين هاجروا﴾ من أوطانهم إلى رسول الله ﷺ قال الزمخشري: هذا تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم، قال الكرخي: والظاهر أن هذه الجمل التي بعد الموصول كلها صفات له، فلا يكون الجزاء إلا لمن جمع هذه الصفات، ويجوز أن يكون ذلك على التنويع؛ وقد يكون حذف الموصولات

لفهم المعنى فيكون الخبر بقوله لأكفرن عن كل من اتصف بواحدة من هذه الصفات[١].

﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ في طاعة الله عز وجل ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ آذاهم المشركون بسبب إسلامهم وهم المهاجرون ﴿وقاتلوا﴾ أعداء الله ﴿وقتلوا﴾ في سبيل الله، وقرىء قتلوا على التكثير وقرىء وقتلوا وقاتلوا؛ وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب كما قال به الجمهور؛ والمراد هنا أنهم قاتلوا وقتل بعضهم، والسبيل الدين الحق والمراد هنا ما نالهم من الأذية من المشركين بسبب إيمانهم بالله وعملهم بما شرعه الله لعباده.

﴿لأكفرنّ عنهم سيّآتهم﴾ أي والله لأغفرنها لهم ﴿ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ يعني تكفير سيآتهم وادخالهم الجنة ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله، من ثاب يثوب إذا رجع[٢]، وقدورد في فضل الهجرة أحاديث كثيرة.

(١) روي عن ام سلمة انها قالت: يا رسول الله لا اسمع ذكر النساء في الهجرة بشيء فنزلت هذه الآية.
رواه ابن جرير الطبري ٧/١٩٥.
رواه الحاكم في المستدرك ٢/٣٠٠ وقال صحيح على شرط النجاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) زادالمسير/ ٥٣١.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ خطاب للنبي ﷺ، والمراد تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ أو خطاب لكل أحد؛ وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار؛ بعد ذكر حسن حال المؤمنين، والمعنى لا يغرنك؛ ما هم فيه من تقلبهم في البلاد بالأسفار للتجارة التي يتوسعون بها في معاشهم، والتقلب في البلاد الاضطراب في الأسفار إلى الأمكنة، قال السدي: يعني ضربهم فيها وقال عكرمة تقلب ليلهم ونهارهم، وما يجري عليهم من النعم.

﴿متاع قليل﴾ يتمتعون به يسيراً في هذه الدار ويفنى وهو متاع نزر لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله سبحانه، والمتاع ما يعجل الانتفاع به، وسماه قليلاً لأنه فان؛ وكل فان وإن كان كثيراً فهو قليل.

﴿ثم مأواهم﴾ أي ما يأوون إليه ﴿جهنم وبئس المهاد﴾ ما مهدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم أو ما مهد الله لهم من النار؛ فالمخصوص محذوف وهو هذا المقدر؛ قال ابن عباس: بئس المنزل.

﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ وقعت «لكن» هنا أحسن موقع فإنها وقعت بين ضدين وذلك أن معنى الجملتين التي قبلها والتي بعدها آيل إلى تعذيب الكفار وتنعيم المتقين، وهو استدراك مما تقدمه لأن معناه معنى النفي كأنه قال ليس لهم في تقلبهم في البلاد كثير انتفاع، لكن الذين اتقوا وإن أخذوا في التجارة لا يضرهم ذلك وإن لهم ما وعدهم به.

وفي الشهاب وجه الإستدراك أنه رد على الكفار فيما يتوهمون من أنهم ينعمون، وأن المؤمنين في عناء ومشقة، فقال ليس الأمر كما توهمتم فإن المؤمنين لا عناء لهم إذا نظر إلى ما أعد لهم عند الله، أو أنه لما ذكر تنعمهم بتقلبهم في البلاد، أوهم أن الله لا ينعم المؤمنين، فاستدرك عليه بأن ما هم فيه عين النعيم لأنه سبب لما بعده من النعم الجسام[1].

﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي مقدرين الخلود ﴿نزلاً﴾ النزل ما يهيّأ للنزيل ويعد للضيف، والجمع أنزال ثم اتسع فيه فأطلق على الرزق والغذاء وإن لم يكن ضيف، ومنه ﴿فنزل من حميم﴾ وهو مصدر مؤكد عند البصريين أو جمع نازل، وقال الهروي ثواباً ﴿من عند الله﴾ وقيل إكراماً من الله لهم أعدها لهم كما يعد القرى للضيف إكراماً.

﴿وما عند الله﴾ مما عده لمن أطاعه ﴿خير﴾ للتفضيل وهو ظاهر ﴿للأبرار﴾ مما يحصل للكفار من الربح في الأسفار، فإنه متاع قليل عن قريب يزول.

عن ابن عمر قال إنما سماهم أبراراً لأنهم برّوا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق وروى هذا مرفوعاً والأول أصح قاله السيوطي، وقال ابن زيد خير لمن يطيع الله.

---

(١) روى ابن الجوزي في تفسيره سبباً لنزول هذه الآية:
ان النبي صلى الله عليه وسلم اراد ان يستلف من بعضهم (اليهود) شعيراً فأبى إلا على رهن فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو اعطاني لأوفيته إني لأمين في السماء أمين في الأرض».

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ هذه الجملة سيقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين وليسوا كسائرهم في فضائحهم التي حكاها الله عنهم فيما سبق وفيما سيأتي، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله وبما أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم ﴿خاشعين لله لا يشترون﴾ تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال ﴿بآيات الله﴾ التي عندهم في التوراة والانجيل ﴿ثمناً قليلاً﴾ من الدنيا بالتحريف والتبديل كما يفعله سائرهم بل يحكون كتاب الله كما هو.

﴿أولئك﴾ أي هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة ﴿لهم أجرهم﴾ الذي وعدهم الله سبحانه بقوله ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ وتقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم ﴿عند ربهم﴾ يوفيه إليهم يوم القيامة.

أخرج النسائي والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس قال: لما مات النجاشي قال ﷺ «صلوا عليه» قالوا يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله، يعني هذه الآية[1]، وفي الباب أحاديث.

---

(١) ابن كثير ١/٤٤١. رواه ابن جرير ٧/٤٩٧ واسناده ضعيف وقد ثبت في الصحيحين ان النبي صلى على النجاشي صلاة الجنازة الغائبة وهي ثابتة صحيحة.

وقال مجاهد: هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وعن الحسن قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذين اتبعوا محمداً ﷺ.

﴿إن الله سريع الحساب﴾ يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا فيجازي كل أحد على قدر عمله لنفوذ علمه في كل شيء، والمراد سرعة وصول الأجر الموعود به إليهم.

﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه ﴿إن في خلق السموات﴾ ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التي جمعت خير الدنيا والآخرة؛ فحض على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، والصبر حبس النفس؛ وقد تقدم تحقيق معناه وهو لفظ عام تحته أنواع من المعاني، وقد خصه بعضهم بالصبر على طاعة الله، وقيل على أداء الفرائض وقيل على تلاوة القرآن؛ وقيل على أمر الله ونهيه؛ وقيل على الجهاد؛ وقيل على البلاء وقيل على أحكام الكتاب والسنة، واللفظ أوسع من ذلك.

﴿وصابروا﴾ المصابرة مصابرة الأعداء قاله الجمهور أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، ولا تكونوا أضعف فيكونوا أشد منكم صبراً وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشد منه وأشق وأكمل وأفضل من الصبر على ما سواه، فهو كعطف الصلاة الوسطى على الصلوات، وقيل المعنى صابروا على الصلوات وقيل صابروا الأنفس عن شهواتها، وقيل صابروا الوعد الذي وعدتم ولا تيأسوا والقول الأول هو المعنى العربي.

وقد روى عن السلف غير هذا في قصر الصبر على نوع من أنواع الطاعات والمصابرة على نوع آخر، ولا تقوم بذلك حجة، فالواجب الرجوع إلى المدلول اللغوي وقد قدمناه.

﴿ورابطوا﴾ أي أقيموا في الثغور مرابطين خيلكم فيها كما يربطها أعداؤكم، وهذا قول جمهور المفسرين، وعن محمد بن كعب القرظي قال: اصبروا على دينكم وصابروا الوعد الذي وعدتكم، ورابطوا عدوي وعدوكم.

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه، والرباط اللغوي هو الأول، ولا ينافيه تسميته ﷺ لغيره رباطاً، ويمكن إطلاق الرباط على المعنى الأول وعلى انتظار الصلاة، قال الخليل: الرباط ملازمة الثغور ومواظبة الصلاة، وهكذا قال وهو من أئمة اللغة.

وحكى ابن فارس عن الشيباني أنه قال: يقال ماء مترابط دائم لا يبرح، وهو يقتضي تعدية الرباط إلى غير ارتباط الخيل في الثغور، قال الخازن كل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه وإن لم يكن له مركوب مربوط.

وعن أبي هريرة: قال أما إنه لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد يصلون الصلوات في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها.

وقد ثبت في الصحيح وغيره من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط»[1].

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الرباط، وفيها التصريح بأنه الرباط في سبيل الله، وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن فإن رسول الله ﷺ قد ندب إلى الرباط في سبيل الله وهو الجهاد، فيحمل ما في الآية عليه.

---

(١) مسلم ٢٥١.

وقد ورد عنه ﷺ أنه سمى حراسة الجيش رباطاً فأخرج الطبراني في الأوسط بسند جيد عن أنس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أجر المرابط فقال: من رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى(١).

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم، ولا تخالفوا ما شرعه لكم ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب، الناجين من كل الكروب.

وقد ورد في فضل هذه العشر الآيات التي في آخر هذه السورة مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما أخرجه ابن السني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة، وفي اسناده مظاهر بن أسلم وهو ضعيف(٢).

ومن حديث ابن عباس في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «من قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ، وأخرج الدارمي عن عثمان بن عفان قال: من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام الليلة.

تمت بعون الله سورة آل عمران

(١) صحيح الجامع الصغير ٦١٣٥. زاد المسير ٥٣٤.
(٢) ابن كثير ٤٤١/١.

خاتمة الجزء الثاني

تم بعون الله سبحانه وتعالى الجزء الثاني من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء الثالث وأوله تفسير سورة النساء:

يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها.

فهرس الجزء الثاني

تصويب الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	١١	والبيهقي	البيهقي
٢٤	١٧	والبيهقي	البيهقي
٢٤	٢٢	النبى	النبي
٣٢	١٢	﴿إنها ثلاث سنين	إنها ثلاث ستين
٣٩	١١	بإن	بأن
٤٠	١٢	راهوية	راهويه
٤٠	١٢	إنها	أنها
٤٢	١٠	إن	أن
٤٢	١٩	بخطبها	يخطبها
٤٥	٣	ولا جناح	لا جناح
٤٦	٢١	فقط،	فقط؟
٤٧	٢	فقط.	فقط؟
٤٨	١٧	فان	فإن
٦٧	١٣	يوفي	يوفى
٦٧	١٨	بأن بخل	بأن مَنْ بخل
٦٩	١٠	املاء	أملاء
٦٩	١٣	قل	قيل
٧٠	١٣	روي.	روي:
٧٢	٥	الأمامة	الإمامة
٧٢	١٠	والأعتراض	والاعتراض
٧٢	٢٣	خمرٌ	حمرٌ
٨١	٧	أخوته	إخوته
٨١	٧	جالوت فقال:	جالوت؟ فقال:
٨٦	١٩	عيسى بن	عيسى أبن
٩٨	٧	الأختيار،	الاختيار،
٩٨	١٠	لاجله محكمه	لأجله محكمة
١٠٤	١٣	عزيز بن	عزير بن
١٠٥	٩	أنّى يحى	أنّى يُحْيي
١٠٦	١٤	إن	أن
١٠٦	٢٣	للإضراب	لِلأضراب
١١٢	١٥	وأملهن	وأمِلْهُنّ
١١٤	١٩	ين الحصاص	بن الحصاص
١١٥	١٨	امامة	أمامة
١١٩	٥	اتباع	إتباع
١١٩	١١	والموذي	والمؤذي
١٢١	٤	مثل	مثّل
١٢١	١٨	أشرك	الشّرك
١٢١	١٩	وتركته	تركته
١٢٣	٦	بعضهم.	بعضهم:
١٢٨	١٣	والاغماض	والإغماض
١٢٨	١٨	والاثابة.	والإثابة.
١٢٩	٦	غلة،	لغة،
١٣٠	٩	الاحكام وهو الانفاق	الإحكام وهو الإتقانُ
١٣٣	١٤	تعلمون	تعملون
١٣٣	١٧ - ١٨	السر السر تطفىء	السر تطفىء
١٣٥	٩	هن	هم
١٣٦	١٨	إلحافاً(١).	إلحافاً(١).
١٣٧	٤	ألهم	إنهم
١٣٨	٨	تربي،	تربي؟
١٣٨	١٧	أنه	إنه
١٣٩	٢	المجنون	الجنون
١٤٠	٢٠	بأنما	بإنما
١٧٣	٧	فيها.(١)	فيها.
١٩٥	١٠	تقائل	تقاتل
٢٠٠	١٧	(ص ءأنزل عليه الذكر)	«ص»﴿ءأنزل عليه الذكر﴾
٢١١	١١ - ١٢	ولا ولا نقص	ولا نقص
٢١٢	١٠	لأداء	لأداةٌ
٢١٤	٢٣	ويري،	ويرى،
٢١٥	٥	تقيه	تقيّة
٢١٥	١٣	باللن	باللسان
٢١٦	١٠	الرر	الضّرر
٢١٦	١٨	نفسي،	نفسي)
٢١٩	١٧	الأظهار	الإظهار
٢٢٤	٣	وابنها	وابنها،
٢٢٥	١٦	أبي	أبَيّ
٢٣٦	١٢	إن مريم	ابن مريم
٢٣٧	١٤	الأخذوذ	الأخدود
٢٣٨	٣	القرية	الفرية
٢٧٣	١٠	إن من	أن من
٢٧٩	٥	توبه	توبة
٢٨١	٢٠	وأخطئوا	وأخطأوا
٢٨٧	٢٢	من الله إله	مع الله إلهاً
٢٩١	١	جمله	جملة
٢٩١	٣	حتى لا يخرج	حتى يخرج
٢٩٣	٢٤	كتبر	كثير
٣٠٦	١٧	«عنقه»	عنقه»
٣١٠	٧	كيف تكلم	كيف نكلم
٣٢٧	١١	الأعراض	الإعراض
٣٢٨	٧	في الأمر	من الأمر
٣٤٨	٦	و ﴿من نبي﴾	و ﴿من نبي﴾
٣٤٨	١٤	﴿أحدهما﴾	أحدهما
٣٥٨	١	﴿وعن	وعن
٣٦٣	٩	فيم	فبم
٣٦٧	٦	ووراً.	وِزْراً.
٣٧٣	١٥	تكتمون	يكتمون
٣٧٧	٥	الله﴾	الله من فضله﴾
٣٩٤	٦	لتبونّ،	لَتُبْلَوُنّ
٣٩٦	١٤	لتبينه)،	لتبيننّه)،
٤١٥	٢٠	٤ أشهر	أربعة أشهر
٤١٧	١٤	كرجل حديقة	كرجل له حديقة
٤١٨	١٢	يحاسبكم الله به	يحاسبكم به الله
٤١٨	١٩	عليه في الأرض	علية شيء في الأرض
٤٢٢	٢٥	فيا	فيها

فتح البيان
في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الثالث

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١٩٨

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء من أول آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ
بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

الى الآية ٥٩ من سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

مدنية كلها وهي مائة وخمس وسبعون آية قال القرطبي: إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحجبي وهي قوله: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ قال النقاش: وقيل نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. وقال علقمة وغيره: صدرها مكية، وقال النحاس هذه الآية مكية.

قال القرطبي: والصحيح الأول، فإن في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ، يعني قد بنى بها، ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ إنما بنى بعائشة بالمدينة، ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها، وقد ورد في فضل هذه السورة أخبار وآثار كثيرة ذكرت في محلها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

﴿يا أيها الناس﴾ المراد بهم الموجودون عند الخطاب من بني آدم وهم أهل مكة، ويدخل فيه من سيوجد بدليل خارجي وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون.

وعند الحنابلة خطاب المشافهة يتناول القاصرين عن درجة التكليف فينتظم في سلكهم من الحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة أو هو بطريق تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الأناث في قوله ﴿اتقوا ربكم﴾ لاختصاص ذلك وبجمع المذكر وعدم تناوله حقيقة للاناث عند غير الحنابلة، وقد تقدم في البقرة معنى التقوى والرب.

﴿الذي خلقكم﴾ فإن خلقه تعالى لهم على هذا النمط البديع من أقوى الدواعي إلى الاتقاء من موجبات نقمته، ومن أتم الزواجر عن كفران نعمته، وذلك لأنه ينبيء عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التي من جملتها عقابهم، وعن نعمة كاملة لا يقادر قدرها.

﴿من نفس واحدة﴾ آدم عليه السلام ﴿وخلق منها زوجها﴾ حواء هذا أيضاً من موجبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة، و(مِن) لابتداء الغاية في الموضعين وخلقها منه لم يكن بتوليد كخلق الأولاد من الآباء فلا يلزم منه ثبوت حكم البنتية والأختية فيها. قال كعب ووهب

وابن اسحق: خلقت قبل دخول الجنة، وقال ابن مسعود وابن عباس: إنما خلقت في الجنة بعد دخوله اياها.

﴿وبثّ﴾ فرق ونشر ﴿منهما﴾ الضمير راجع إلى آدم وحواء المعبّر عنهما بالنفس والزوج ﴿رجالاً كثيراً﴾ وصف مؤكد لما تفيده صيغة الجمع لكونها من جموع الكثرة وقيل هو نعت لمصدر محذوف أي بثاً كثيراً ﴿ونساء﴾ كثيرة، وترك التصريح به استغناء واكتفاء بالوصف الأول.

﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾ أي تعاطون به، قاله ابن عباس، وقال الربيع تعاقدون وتعاهدون، وقيل تتحالفون به، وقيل تعظمونه، والمعاني متقاربة، وقال البيضاوي: أي يسأل بعضكم بعضاً بالله.

﴿والأرحام﴾ بالنصب عطفاً على محل الجار والمجرور، كقولك مررت بزيد وعمرا، وينصره قراءة ﴿وبالأرحام﴾ فإنهم كانوا يقرنون بينهما في السؤال والمناشدة فيقولون أسألك بالله وبالرحم،وأنشدك الله والرحم أو عطفاً على الاسم الجليل أي اتقوا الله والأرحام فلا تقطعوها فإنها مما أمر الله به أن يوصل، وهي الأولى.

وقرىء والارحام بالجر وأنكره البصريون والكوفيون وسيبويه والزجاج، وحكى أبو علي الفارسي أن المبرد قال: لو صليت خلف إمام يقرأ ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ بالجر لأخذت نعلي ومضيت.

وقد رد الامام أبو نصر القشيري ما قاله القادحون في قراءة الجر فقال: ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين لأن القرآت التي قرأ بها أئمة القرآن ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تواتراً، ولا يخفى أن دعوى التواتر باطلة، يعرف ذلك من يعرف الاسانيد التي رووها بها، ولكن ينبغي أن يحتج للجواز بورود ذلك في أشعار العرب، ومنه قوله تعالى ﴿وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين﴾.

وقيل التقدير: واتقوا قطع مودّة الأرحام فإنّ قطع الرحم من أكبر الكبائر، وصلة الأرحام باب لكل خير فتزيد في العمر وتبارك في الرزق، وقطعها سبب لكل شر، ولذلك وصل تقوى الرحم بتقوى الله.

وصلة الرحم تختلف باختلاف الناس فتارة يكون عادته مع رحمه الصلة بالإحسان، وتارة بالخدمة وقضاء الحاجة، وتارة بالمكاتبة، وتارة بحسن العبارة وغير ذلك.

وقرىء بالرفع على الإبتداء والخبر مقدر أي والأرحام صلوها أو والأرحام أهل أن توصل، أو والأرحام كذلك أي مما يتقى أو يتساءل به، وقيل إن الرفع على الإغراء عند من يرفع به، وجّوز الواحدي نصبه على الإغراء.

والأرحام اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع واللغة، وقد خصص الإمام أبو حنيفة الرحم بالمحرم في منع الرجوع في الهبة مع موافقته على أن معناها أعم، ولا وجه لهذا التخصيص.

قال القرطبي: اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرّمة انتهى، وقد وردت بذلك الأحاديث الكثيرة الصحيحة، روى الشيخان عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[1] وإنما استعير إسم الرحم للقرابة لأن الأقارب يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض.

﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ حافظاً يعلم السر وأخفى، والرقيب المراقب، وهي صيغة مبالغة من رقب يرقب رقباً ورقوباً ورقباناً إذا أحدّ النظر لأمر يريد تحقيقه.

---

(١) صحيح مسلم ٢٥٥٥ ـ البخاري ٢٠٤٥.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ
وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾

﴿وآتوا﴾ أعطوا ﴿اليتامى أموالهم﴾ شروع في موارد الاتقاء ومظانّه، وتقديم ما يتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم وملابستهم للأرحام، والخطاب للأولياء والأوصياء، واليتيم من لا أب له، وقد خصه الشرع بمن لم يبلغ الحلم، وقد تقدم تفسير معناه في البقرة مستوفى.

وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ مجازاً باعتبار ما كانوا عليه، ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقي. وبالايتاء ما يدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة والكسوة لا دفعها جميعها، هذه الآية مقيدة بالأخرى وهي قوله تعالى: ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ فلا يكون مجرد ارتفاع اليتيم بالبلوغ مسوغاً لدفع أموالهم إليهم حتى يؤنس عنهم الرشد.

﴿ولا تتبدّلوا الخبيث﴾ هو مال اليتيم وإن كان جيداً لكونه حراماً ﴿بالطيّب﴾ وهو مال الولي لكونه حلالاً وإن كان رديئاً فالباء داخلة على المتروك نهيٌ لهم عن أن يصنعوا صنع الجاهلية في أموال اليتامى، فإنهم كانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويعوّضونه بالرديء من أموالهم، ولا يرون بذلك بأساً.

وقيل المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب من أموالكم، وقيل المراد لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، والأول أولى فإن تبدل الشيء بالشيء في اللغة أخذ

مكانه، وكذلك استبداله ومنه قوله تعالى ﴿ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل﴾ وقوله ﴿اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ وأما التبديل فقد يستعمل كذلك كما في قوله ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين﴾ وأخرى بالعكس كما في قولك بدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها وجعلتها خاتماً، نص عليه الأزهري.

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهي عنه في هذه الآية يعني ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ هو الخلط فيكون الفعل مضمناً معنى الضم أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى اموالكم، وهذا نهي عن منكر آخر كانوا يفعلونه بأموال اليتامى، وخص النهي بالمضموم وإن كان أكل مال اليتيم حراماً وإن لم يضم إلى مال الوصي، لأن اكل ماله مع الاستغناء عنه أقبح، فلذلك خص النهي به أو لأنهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه، فجاء النهي على ما وقع منهم فالقيد للتشنيع.

وإذا كان التقييد لهذا الغرض لم يلزم القائل بمفهوم المخالفة جواز أكل أموالهم وحدها، قاله الكرخي، ثم نسخ هذا بقوله تعالى ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ وقيل إن إلى بمعنى مع كقوله تعالى ﴿من أنصاري إلى الله﴾ والأول أولى.

﴿إنه﴾ أي أكل مال اليتيم من غير حق أو التبديل المفهوم من ﴿لا تتبدلوا﴾ أو المراد كلاهما ذهاباً بها مذهب اسم الاشارة نحو ﴿عوان بين ذلك﴾ والأول أولى لأنه أقرب مذكور ﴿كان حوبا﴾ قرىء بضم الحاء وبفتحها، وحابا بالألف لغات في المصدر، والفتح لغة تميم، وهو الإثم، يقال حاب الرجل يحوب حوباً إذا أثم واكتسب الإثم، وأصله الزجر للابل فسمي الاثم حوبا لأنه يزجر عنه، والحوبة الحاجة والحوب أيضاً الوحشة والتحوب التحزن.

عن سعيد بن جبير قال إن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ لـه، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عمه فخاصمه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية يقول: لا تستبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم. وعن مجاهد قال: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قدر لك، ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم تخلطونها فتأكلونها جميعاً إنه كان إثماً ﴿كبيراً﴾ وعن ابن زيد قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار، يأخذه الكبير، فنصيبه من الميراث طيب، وهذا الذي يأخذ خبيث.

﴿وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فـانكحوا﴾ وجـه ارتباط الجـزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها فلا يقسط لها في مهرها أي لا يعدل فيه ولا يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

فهذا سبب نزول الآية فهو نهي يخص هذه الصورة، قال جماعة من السلف إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما يشاء فقصرهم بهذه الآية على أربع، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا أن لا يقسطوا في اليتامى فكذلك يخافون أن لا يقسطوا في النساء، لأنهم كـانوا يتحـرجون في اليتـامى ولا يتحرجون في النساء، والخوف من الأضداد فإن المخوف قد يكون معلوماً، وقد يكون مظنوناً.

ولهذا اختلف الأئمة في معناه في الآية فقال أبو عبيـد: خفتم بمعنى أيقنتم، وقال الآخرون بمعنى ظننتم، قال ابن عطيه وهو الذي اختاره الحداق: وإنه على بابه من الظن لا من اليقين.

والمعنى من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة فليتركها وينكح غيرها.

والمعروف عند أهل اللغة أن أقسط بمعنى عدل وقسط بمعنى جار لأن الهمزة تأتي للسلب فيقال أقسط إذا أزال القسط أي الجور والظلم، ولذلك جاء ﴿وأما القاسطون﴾ الآية، ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ وجاء قسط قسطاً من باب ضرب، وقسوطاً جار وعدل فهو من الأضداد، قاله ابن القطاع، والإسم القسط.

و «ما» في قوله ﴿ما طاب لكم﴾ موصولة وجاء بما مكان «من» لأنهما قد يتعاقبان فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما في قوله ﴿والسماء وما بناها﴾ ﴿ومنهم من يمشي على بطنه. ومنهم من يمشي على أربع﴾.

قال بعضهم: وحسن وقوعها هنا أنها واقعة على النساء وهن ناقصات العقول، وقال البصريون: إن (ما) يقع للنعوت كما يقع لما لا يعقل، يقال ما عندك فيقال ظريف وكريم، وقيل هي لنوع من يعقل، فالمعنى فانكحوا النوع الطيب من النساء أي الحلال وما حرمه الله فليس بطيب، وقيل إن (ما) هنا مديَّة أي ما دمتم مستحسنين للنكاح، وضعفه ابن عطية.

قال الفراء: إن (ما) ههنا مصدرية، قال النحاس: وهذا بعيد جداً، وقيل إنها نكرة موصوفة أي انكحوا جنساً طيباً وعدداً طيباً، والأول أولى، وقرىء فانكحوا من طاب لكم.

وقد اتفق أهل العلم على أن هذا الشرط المذكور في الآية لا مفهوم له، وأنه يجوز لمن لم يخف أن يقسط في اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة.

و «من» في قوله ﴿من النساء﴾ إما بيانية أو تبعيضية لأن المراد غير اليتائم

بشهادة قرينة المقام أي فانكحوا من استطابتهانفوسكم من الأجنبيات، وفي ايثار الأمر بنكاحهن على النهي عن نكاح اليتامى مع أنه المقصود بالذات مزيد لطف في استنزالهم، فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه.

على أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذي أشير إليه، فيه مبالغة في الاستمالة إليهن، والترغيب فيهن، وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى وهو السر في توجيه النهي الضمني إلى النكاح المترقب.

﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وهذه الألفاظ المعدولة فيها خلاف، وهل يجوز فيها القياس أو يقتصر فيها على السماع، فالأول قول الكوفيين وأبي إسحق وغيره، والثاني قول البصريين.

والمسموع من ذلك أحد عشر لفظاً أحاد وموحد، وثناء ومثنى، وثلاث ومثلث، ورباع ومربع، ومخمس، وعشار ومعشر، ولم يسمع خماس ولا غيره من بقية العقد. وجمهور النحاة على منع صرفها وأجاز الفراء صرفها وإن كان المنع عنده أولى.

وقد استدل بالآية على تحريم ما زاد على الأربع. وبينوا ذلك بأنه خطاب لجميع الأمة، وأن كل ناكح له أن يختار ما أراد من هذا العدد كما يقال للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم أو هذا المال الذي في البدرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة.

وهذا مسلّم إذا كان المقسوم قد ذكرت جملته أو عيّن مكانه، أما لو كان مطلقاً كما يقال اقتسموا الدراهم، ويراد به ما كسبوه فليس المعنى هكذا، والآية من الباب الآخر لا من الباب الأول، على أن من قال لقوم يقتسمون مالاً معيناً كبيراً اقتسموه مثنى وثلاث ورباع فقسموا بعضه بينهم درهمين درهمين وبعضه ثلاثة ثلاثة وبعضه أربعة أربعة كان هذا هو المعنى العربي.

ومعلوم أنه إذا قال القائل: جاءني القوم مثنى، وهم مائة ألف كان المعنى أنهم جاءوه اثنين اثنين، وهكذا جاءني القوم ثلاث ورباع.

والخطاب للجميع بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد كما في قوله تعالى ﴿اقتلوا المشركين، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة﴾ ونحوها.

فمعنى قوله ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ لينكح كل فرد منكم ما طاب له من النساء اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، هذا ما يقتضيه لغة العرب. فالآية تدل على خلاف ما استدلوا به عليه.

ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ فإنه وإن كان خطاب للجميع فهو بمنزلة الخطاب لكل فرد فرد، فالأولى أن يستدل على تحريم الزيادة على الأربع بالسنّة لا بالقرآن.

وأما استدلال من استدل بالآية على جواز نكاح التسع باعتبار الواو الجامعة، وكأنه قال انكحوا مجموع هذا العدد المذكور، فهذا جهل بالمعنى العربي، ولو قال انكحوا اثنتين وثلاثاً وأربعاً، كان هذا القول له وجه، وأما مع المجيء بصيغة العدل فلا.

وإنما جاء سبحانه بالواو الجامعة دون (أو) لأن التخيير يشعر بأنه لا يجوز إلا أحد الأعداد المذكورة دون غيره، وذلك ليس بمراد من النظم القرآني.

وأخرج الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: اختر منهن وفي لفظ امسك منهن أربعاً وفارق سائرهن[1]، وروي هـذا الحديث بألفاظ من طرق.

---

(١) الدارقطني ٢/١٤٩٢.

وعن نوفل بن معاوية الديلي قال أسلمت وعندي خمس نسوة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمسك أربعاً وفارق الأخرى، أخرجه الشافعي في مسنده.

وأخرج ابن ماجه والنحاس في ناسخه عن قيس بن الحارث الأسدي قال أسلمت وكان تحتي ثمان نسوة فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال اختر منهن أربعاً وخلّ سائرهن ففعلت، وهذه شواهد للحديث الأول كما قال البيهقي.

وعن الحكم قال أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن المملوك لا يجمع من النساء فوق اثنتين، وفي بعض التفاسير هنا خلط وخبط تركناه لأنه تطويل بلا طائل، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

﴿فإن خفتم ألاّ تعدلوا﴾ بين الزوجات في القسم والنفقة ونحوهما ﴿فواحدة﴾ أي فانكحوا واحدة وفيه المنع من الزيادة على الواحدة لمن خاف ذلك.

﴿أو﴾ انكحوا واقتصروا على ﴿ما ملكت أيمانكم﴾ من السراري وإن كثر عددهن كما يفيده الموصول، إذ ليس لهن من الحقوق ما للزوجات، والمراد نكاحهن بطريق الملك لا بطريق النكاح، وفيه دليل على أنه لا حق للمملوكات في القسم كما يدل على ذلك جعله قسيماً للواحدة في الأمن من عدم العدل، وإسناد الملك إلى اليمين لكونها المباشرة لقبض الأموال وإقباضها ولسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب.

﴿ذلك﴾ أي نكاح الأربعة فقط أو الواحدة أو التسري ﴿أدنى﴾ أقرب إلى ﴿ألا تعولوا﴾ تجوروا من عال الرجل يعول إذا مال وجار ومنه قولهم عال السهم عن الهدف أي مال عنه، وعال الميزان إذا مال.

والمعنى إن خفتم عدم العدل بين الزوجات فهذه التي أمرتم بها أقرب إلى عدم الجور، وهو قول أكثر المفسرين.

وقال الكسائي يقال عال الرجل يعيل إذا افتقر فصار عالة، ومنه قوله تعالى ﴿وإن خفتم عيلة﴾ وقيل المعنى أن لا تضلوا، وقال الشافعي أن لا تكثر عيالكم، قال الثعلبي وما قال هذا غيره، وإنما يقال أعال يعيل إذا كثر عياله.

وذكر ابن العربي أن عال يأتي لسبعة معان (**الأول**) مال (**الثاني**) زاد (**الثالث**) جار (**الرابع**) افتقر (**الخامس**) أثقل (**السادس**) قام بمعونة العيال ومنه قوله ﷺ وابدأ بمن تعول[1] (**السابع**) غلب ومنه عيل صبري، قال ويقال أعال الرجل كثر عياله، وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح.

ويجاب عن إنكار الثعلبي لما قاله الشافعي، وكذلك إنكار ابن العربي بأنه قد سبق الشافعي إلى القول به زيد بن أسلم وجابر بن زيد، وهما إمامان من أئمة المسلمين لا يفسران القرآن هما والإمام الشافعي بما لا وجه له في العربية، وقد أخرج ذلك عنهما الدارقطني في سننه.

وقد حكاه القرطبي عن الكسائي وأبي عمرو الدوري وابن الأعرابي، وقال أبو حاتم كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا ولعله لغة، وقال الدوري هي لغة حِمْير.

قال ابن عطية: قول الشافعي نفسه حجة لأنه عربي فصيح، وقال الأزهري: والذي اعترض عليه وخطّأه عَجِل ولم يتثبت فيما قال، ولا ينبغي للحضرمي أن يعجل إلى إنكاره ما لا يحفظه من لغات العرب أ هـ.

وبسط الرازي في هذا المقام من تفسيره. ورد على أبي بكر الرازي ثم قال: الطعن لا يصدر إلا عن كثرة الغباوة وقلة المعرفة.

وقرأ طلحة بن مصرف: أن لا تعيلوا بضم التاء، وهو حجة الشافعي.

---

(١) البخاري كتاب الزكاة الباب ١٨.

وقدح الزجاج في تأويل عال من العيال بأن الله سبحانه قد أباح كثرة السراري، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى أن لا تكثر، وهذا القدح غير صحيح لأن السراري إنما هي مال يتصرف فيه بالبيع، وإنما العيال الحرائر ذوات الحقوق الواجبة.

وقد حكى ابن الأعرابي أن العرب تقول عال الرجل إذا كثر عياله، وكفى بهذا، وقد ورد عال لمعان غير السبعة التي ذكرها ابن العربي منها عال اشتد وتفاقم، حكاه الجوهري، وعال الرجل في الأرض إذا ضرب فيها حكاه الهروي، وعال إذا أعجز حكاه الأحمر، فهذه ثلاثة معان غير السبعة، والرابع عال كثر عياله، فجملة معاني عال أحد عشر معنى.

وعن قتادة في الآية قال: يقول إن خفت أن لا تعدل في أربع فثلاثاً والا فاثنتين وإلا فواحدة فإن خفت أن لا تعدل في واحدة فما ملكت يمينك، وعن الربيع مثله، وعن الضحاك قال ألا تعدلوا في المجامعة والحب وفيه نظر، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»[1] يعني في حبه لعائشة، والله تعالى يقول ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ وعن السدي «أو ملكت أيمانكم» قال: السراري.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عائشة عن النبي ﷺ [ذلك أدنى أن لا تعدلوا] قال أن لا تجوروا قال ابن أبي حاتم هذا حديث خطأ، والصحيح عن عائشة موقوف، وعن ابن عباس موقوف[2].

وعن ابن عباس قال أن لا تميلوا، وعن مجاهد وأبي رزين وأبي مالك والضحاك مثله، وعن زيد بن أسلم أن لا يكثر من تعولوا، وعن سفيان بن عيينة أن لا تفتقروا..

---

(١) ابو داود كتاب النكاح الباب ٣٨ ـ الترمذي كتاب النكاح الباب ٤١.
(٢) ابن كثير ٢/٤٥١.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

﴿وآتوا﴾ الخطاب للأزواج وقيل للأولياء ﴿النساء صدقاتهنّ﴾ بضم الدال جمع صدقة كسمرة قال الأخفش وبنو تميم يقولون صدقة والجمع صدقات وإن شئت فتحت وإن شئت أسكنت.

﴿نحلة﴾ بكسر النون وضمها لغتان، وأصلها العطاء نحلت فلاناً أعطيته، وعلى هذا فهي منصوبة على المصدرية لأن الإيتاء بمعنى الإعطاء وقيل النحلة التدين فمعنى نحلة تديناً قاله الزجاج وعلى هذا فهي منصوبة على المفعول له، وقال قتادة الفريضة، وعلى هذا فهي منصوبة على الحال وقيل طيبة النفس، قال أبو عبيد: ولا تكون النحلة إلا عن طيبة نفس، وقال ابن عباس: المهر، قالت عائشة: واجبة، وقال ابن جريج: فريضة مسماة وعن قتادة مثله.

ومعنى الآية على كون الخطاب للأزواج أعطوا النساء اللاتي نكحتموهن مهورهن التي لهن عليكم عطية أو ديانة منكم أو فريضة عليكم أو طيّبة من أنفسكم.

ومعناها على كون الخطاب للأولياء أعطوا النساء من قراباتكم التي قبضتم مهورهن من أزواجهن تلك المهور، وقد كان الولي يأخذ مهر قريبته في الجاهلية ولا يعطيها شيئاً. حكى ذلك عن أبي صالح والكلبي. والأول أولى وهو الأشبه بظاهر الآية وعليه الأكثر لأن الله تعالى خاطب الناكحين فيما قبله كما تقدم، فهذا أيضاً خطاب لهم.

وفي الآية دليل على أن الصّداق واجب على الأزواج للنساء، وهو مجمع عليه كما قال القرطبي، قال: وأجمع العلماء على أنه لا حد لكثيره واختلفوا في قليله.

﴿فإن طبن لكم﴾ يعني النساء المتزوجات للأزواج ﴿عن شيء منه﴾ قال

ابن عباس: إذا كان من غير ضرار ولا خديعة فهو هنيء مريء كما قال الله تعالى والضمير في ﴿منه﴾ راجع إلى الصداق الذي هو واحد الصدقات، أو إلى المذكور وهو الصدقات، أوهو بمنزلة اسم الإشارة كأنه قال من ذلك.

والمعنى فإن طبن النساء لكم أيها الأزواج أو الأولياء عن شيء كائن من المهر، و﴿من﴾ فيها وجهان أحدهما أنها للتبعيض ولذلك لا يجوز لها أن تهبه كل الصداق، وإليه ذهب الليث (والثاني) أنها للبيان، ولذلك يجوز أن تهبه المهر كله، وفي الكرخي وتذكير الضمير يعود على الصداق المراد به الجنس، قل أو كثر فيكون حملاً على المعنى.

﴿نفساً﴾ نصب على التمييز لأن نفساً في معنى الجنس، وجيء بالتمييز مفرداً وإن كان قبله جمعاً لعدم اللبس، إذ من المعلوم أن الكل لسن مشتركات في نفس واحدة أي فإن طابت نفوسهن عن شيء من الصداق.

وفي طبن دليل على أن المعتبر في تحليل ذلك منهن لهم إنما هو طيبة النفس لا مجرد ما يصدر منها من الألفاظ التي لا يتحقق معها طيبة النفس، فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة النفس نفسها لم يحل للزوج ولا للولي وإن كانت قد تلفظت بالهبة أو النذر أو نحوهما.

وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الالفاظ المفيدة للتمليك بمجردها لنقصان عقولهن وضعف إدراكهن وسرعة انخداعهن وانجذابهن إلى ما يراد منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب.

﴿فكلوه﴾ أي فخذوا ذلك الشيء الذي طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه بأنواع التصرفات وخص الاكل لانه معظم ما يراد بالمال وإن كان سائر الإنتفاعات به جائز كالاكل ﴿هنيئاً مريئاً﴾ يقال هناه الطعام والشراب يهنيه ومراه وأمراه من الهنا والمرا، والفعل هنا ومرأ أي أتى من غير مشقة ولا غيظ، وقيل هو الطيب الذي لا تنغيص فيه وقيل المحمود العاقبة الطيب الهضم؛ وقيل ما لا إثم فيه؛ والمقصود هنا أنه حلال لهم خالص عن الشوائب.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

﴿ولا تؤتوا﴾ أيها الأولياء ﴿السفهاء﴾ المبذرين من الرجال والنساء والصبيان ﴿أموالكم﴾ هذا رجوع إلى بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى وقد تقدم الامر بدفع أموالهم اليهم في قوله ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ فبيّن سبحانه ههنا أن السفيه وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه؛ وقد تقدم في البقرة معنى السفيه لغة.

واختلف أهل العلم في هؤلاء السفهاء من هم فقال سعيد بن جبير: هم اليتامى لاتؤتوهم أموالهم، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية، وقال مالك: هم الأولاد الصغار لا تعطوهم أموالكم فيفسدوها ويبقوا بلا شيء. وقال مجاهد: هم النساء قال النحاس وغيره هذا القول لا يصح إنما تقول العرب سفايه أو سفيهات.

واختلفوا في وجه إضافة الأموال إلى المخاطبين وهي للسفهاء فقيل أضافها إليهم لأدنى ملابسة فإنها بأيديهم وهم الناظرون فيها كقوله ﴿فسلّموا على أنفسكم﴾ وقوله ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي ليسلّم بعضكم على بعض وليقتل بعضكم بعضاً، وقيل أضافها إليهم لأنها من جنس أموالهم؛ فإن الأموال جعلت مشتركة بين الخلق في الأصل.

وقيل المراد أموال المخاطبين حقيقة؛ وبه قال أبو موسى الأشعري وابن عباس والحسن وقتادة؛ والمراد النهي عن دفعها إلى من لا يحسن تدبيرها كالنساء والصبيان ومن هو ضعيف الإدراك لا يهتدي إلى وجوه النفع التي تحصل المال ولا يتجنب وجوه الضرر التي تهلكه وتذهب به.

﴿التي جعل الله﴾ أي صيّرها أو خلقها وأوجدها ﴿لكم﴾ حال كونها ﴿قياماً﴾ يعني قوام معايشكم، قاله ابن عباس، والقيام والقوام ما يقيمك، يقال فلان قيام أهله وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه أي يصلحه، وهو منصوب على المصدر أي فيقومون بها قياماً.

وقال الأخفش: المعنى قائمة بأموركم، فذهب إلى أنها نفع، وقال البصريون: قيماً جمع قيمة كديمة وديم أي جعلها الله قيمة للأشياء، وخطأ أبو علي الفارسي هذا القول وقال هي مصدر كقيام وقوام.

والمعنى أنها صلاح للحال وثبات له.

فأما على قول من قال إن المراد أموالهم على ما يقتضيه ظاهر الإضافة فالمعنى واضح، وأما على قول من قال إنها أموال اليتامى فالمعنى أنها من جنس ما تقوم به معايشكم ويصلح به حالكم من الأموال، قال الفراء الأكثر في كلام العرب النساء اللواتي والأموال التي وكذا غير الأموال ذكره النحاس.

﴿وارزقوهم فيها﴾ أي أطعموهم منها، قال ابن عباس: أنفقوا عليهم أي اجعلوا لهم فيها رزقاً أو افرضوا لهم، وآثر التعبير بفي على من مع ان المعنى عليها اشارة إلى أنه ينبغي للولي أن يتجر لموليه في ماله ويربحه له حتى تكون نفقته عليه من الربح لا من أصل المال، فالمعنى واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتربحوها لها.

﴿واكسوهم﴾ هذا فيمن تلزم نفقته وكسوته من الزوجات والأولاد ونحوهم، وأما على قول من قال إن الأموال هي أموال اليتامى فالمعنى اتجروا فيها حتى تربحوا وتنفقوهم من الأرباح، أو جعلوا لهم من أموالهم رزقاً ينفقونه على أنفسهم ويكتسون به.

وقد استدل بهذه الآية على جواز الحجر على السفهاء وبه قال الجمهور،

وقال أبو حنيفة: لا يحجر على من بلغ عاقلاً، واستدل بها أيضاً على وجوب نفقة القرابة، والخلاف في ذلك معروف في مواطنه.

﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ أي كلاماً ليّناً تطيب به نفوسهم، وقال مجاهد: أمروا أن يقولوا لهم قولاً جميلاً في البر والصلة قيل معناه ادعوا لهم بارك الله فيكم وحاطكم وصنع لكم، وقيل معناه: عدوهم وعداً حسناً قاله ابن جريج أي باعطائهم أموالهم كأن يقول الولي لليتيم مالك عندي وأنا أمين عليه، فإذا بلغت ورشدت أعطيتك مالك، ويقول الأب لابنه مالي سيصير إليك، وأنت إن شاء الله تعالى صاحبه ونحو ذلك، وذلك لأجل تطييب خواطرهم، ولأجل أن يجدّوا في أسباب الرشد.

والظاهر من الآية ما يصدق عليه مسمى القول الجميل ففيه إرشاد إلى حسن الخلق مع الأهل والأولاد أو مع الأيتام المكفولين، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما صح عنه «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[1] وعن ابن عباس في الآية لا تعمد إلى مالك وما خوّلك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تضطر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم، وعنه لا تسلّط السفيه من ولدك على مالك، وأمره أن يرزقه منه ويكسوه، وعنه قال: هم بنوك والنساء.

وعن أبي أمامة مرفوعاً عند ابن أبي حاتم أن السفهاء النساء التي أطاعت قيمها. وعن أبي هريرة قال: هم الخدم وهم شياطين الإنس، وقال ابن مسعود: هم النساء والصبيان؛ وعن حضرمي أن رجلاً عمد فدفع ماله إلى امرأته فوضعته في غير الحق فقال الله ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ الآية.

وعن ابن جبير قال: هم اليتامى والنساء وعن عكرمة قال هو مال اليتيم يكون عندك يقول لا تؤته إياه وأنفق عليه حتى يبلغ.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٣٠٩.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

﴿وابتلوا اليتامى﴾ شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيان شرطه بعد الأمر بإيتائها على الإطلاق، والنهي عنه عند كون أصحابها سفهاء، والابتلاء الاختبار، وقد تقدم تحقيقه، وقد اختلفوا في معنى الاختبار فقيل هو أن يتأمّل الوصي أخلاق يتيمه ليعلم بنجابته وحسن تصرفه فيدفع إليه ماله إذا بلغ النكاح وآنس منه الرشد، وقيل معنى الإختبار أن يدفع إليه شيئاً من ماله ويأمره بالتصرف فيه حتى يعلم حقيقة حاله.

وقيل معنى الإختبار أن يرد النظر إليه في نفقة الدار ليعرف كيف تدبيره، وإن كانت جارية رد إليها ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها، وهذا الخطاب للأولياء، والإختبار واجب على الولي، وقيل نزلت هذه الآية في ثابت بن رفاعة وعمه.

﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ المراد ببلوغ النكاح بلوغ الحلم لقوله تعالى ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ ومن علامات البلوغ الإنبات، وبلوغ خمس عشرة سنة. وقال مالك وأبو حنيفة وغيرهما لا يحكم لمن لم يحتلم بالبلوغ إلا بعد مضي سبع عشرة سنة، وهذه العلامات تعم الذكر والأنثى، وتختص الأنثى بالحبل والحيض.

﴿فإن آنستم﴾ أبصرتم ورأيتم، ومنه قوله ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ قال الأزهري: تقول العرب اذهب فاستأنس هل ترى أحداً معناه تبصر، وقيل: هو هنا بمعنى وجد وعلم أي فإن وجدتم وعلمتم.

﴿منهم رشداً﴾ بضم الراء وفتحها قيل هما لغتان، واختلف أهل العلم في معنى الرشد ههنا فقيل الصلاح في العقل والدين، وقيل في العقل خاصة، قال سعيد بن جبير والشعبي: انه لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا لم يؤنس رشده وإن كان شيخاً، قال الضحاك: وإن كان بلغ مائة سنة.

وجمهور العلماء على أن الرشد لا يكون إلا بعد البلوغ، وعلى أنه إن لم يرشد بعد بلوغ الحلم لا يزول عنه الحجر، وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لا يحجر على الحر البالغ وإن كان أفسق الناس وأشدهم تبذيراً، وبه قال النخعي وزفر.

وظاهر النظم القرآني أنها لا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد بلوغ غاية هي بلوغ النكاح مقيدة هذه الغاية بإيناس الرشد، فلا بد من مجموع الأمرين، فلا تدفع إلى اليتامى أموالهم قبل البلوغ وإن كانوا معروفين بالرشد، ولا بعد البلوغ إلا بعد إيناس الرشد منهم، والمراد بالرشد نوعه وهو المتعلق بحسن التصرف في أمواله وعدم التبذير بها ووضعها في مواضعها.

﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ من غير تأخير إلى حد البلوغ ﴿ولا تأكلوها﴾ أيها الأولياء ﴿إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾ الإسراف في اللغة الإفراط ومجاوزة الحد بغير حق، وقال النضر بن شميل: السرف التبذير، والبدار المبادرة أي لا تأكلوا أموال اليتامى أكل إسراف وأكل مبادرة لكبرهم أو لا تأكلوا لأجل السرف ولأجل المبادرة أو لا تأكلوها مسرفين ومبادرين لكبرهم، وتقولوا ننفق أموال اليتامى فيما نشتهي قبل أن يبلغوا فينزعونها من أيدينا.

﴿ومن كان﴾ من الأولياء ﴿غنياً فليستعفف﴾ أي يعف عن مال اليتيم ويمتنع من أكله ﴿ومن كان فقيراً فليأكل﴾ منه ﴿بالمعروف﴾ بيّن سبحانه ما يحل

لهم من أموال اليتامى، فأمر الغني بالاستعفاف وتوفير مال الصبي عليه وعدم تناوله منه، وسوغ للفقير أن يأكل بالمعروف.

واختلف أهل العلم فيه ما هو فقال قوم هو القرض إذا احتاج إليه، ويقضي متى أيسر الله عليه، وبه قال عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة السلماني وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية ومقاتل والأوزاعي وأبو وائل، وقال النخعي وعطاء والحسن وقتادة: لا قضاء على الفقير فيها يأكل بالمعروف، وبه قال جمهور الفقهاء وهذا بالنظم القرآني ألصق فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير فرض.

والمراد بالمعروف المتعارف به بين الناس فلا يترفه بأموال اليتامى ويبالغ في التنعم بالمأكول والمشروب والملبوس، ولا يدع نفسه عن سد الفاقة وستر العورة، قال عطاء وعكرمة: يأكل بأطراف أصابعه ولا يسرف ولا يكتسي ولا يلبس الكتان ولا الحلل، ولكن يأكل ما يسد به الجوع ويلبس ما يستر العورة.

وقال الحسن: يأكل من تمر نخله ولبن مواشيه بالمعروف ولا قضاء عليه، فأما الذهب والفضة فلا يأخذ منه شيئاً فإن أخذ وجب عليه رده، وقال الكلبي: المعروف هو ركوب الدابة وخدمة الخادم، وليس له أن يأكل من ماله شيئاً، وقال قوم: هو أن يأخذ من ماله بقدر قيامه وأجرة عمله، ولا قضاء عليه، وهو قول عائشة وجماعة من أهل العلم، والأول أولى.

وقال ابن عباس في الآية نسختها ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى﴾ الآية والخطاب في هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين مما يصلحهم كالأب والجد ووصيهما.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالآية اليتيم إن كان غنياً وسّع عليه وعف

عن ماله، وإن كان فقيراً كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له، وهذا القول في غاية السقوط.

وعن ابن عباس قال: إن كان فقيراً أخذ من فضل اللبن وأخذ من فضل القوت ولا يجاوزه وما يستر عورته من الثياب، فإن أيسر قضاه وإن أعسر فهو في حل.

أخرج البيهقي وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم إن استغنيت استعففت وإن احتجت أخذت منه بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت.

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم عن ابن عمر أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ليس لي مال ولي يتيم فقال: كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثّل مالاً ومن غير أن تقي مالك بماله[1].

﴿فإذا﴾ حصل مقتضى الدفع و ﴿دفعتم إليهم أموالهم﴾ بعد رعاية الشرائط المذكورة: ﴿فأشهدوا عليهم﴾ أنهم قد قبضوها منكم لتندفع عنكم التهم، وتأمنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم، وقيل إن الإشهاد المشروع هو على ما أنفقه عليهم الأولياء قبل رشدهم، وقيل هو على رد ما استقرضه إلى أموالهم.

وظاهر النظم القرآني مشروعية الإشهاد على ما دفع إليهم من أموالهم، وهو يعمّ الإنفاق قبل الرشد والدفع للجميع إليهم بعد الرشد، وهذا أمر إرشاد وليس للوجوب ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ لأعمالكم شاهداً عليكم في كل شيء تعملونه، ومن جملة ذلك معاملتكم اليتامى في أموالهم، وفيه وعيد عظيم، والباء زائدة أي كفى الله، قال أبو البقاء: زيدت لتدل على معنى الأمر إذ التقدير اكتف بالله، وهذا القول سبقه إليه مكي والزجاج.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٣٧٣.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

﴿للرجال﴾ يعني الذكور من أولاد الميت وعصبته ﴿نصيب﴾ حظ ﴿مما ترك﴾ من الميراث ﴿الوالدان والأقربون﴾ المتوفّون، لما ذكر سبحانه حكم أموال اليتامى وصلتها بأحكام المواريث وكيفية قسمتها بين الورثة وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال على الاستقلال لأجل الاعتناء بأمرهن، وللإيذان بأصالتهنّ في استحقاق الإرث، وللمبالغة في إبطال ما عليه الجاهلية فقال ﴿للنساء﴾ أي الإناث من أولاد الميت ﴿نصيب﴾ حظ ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي من المال المخلّف عن الميت، وفي ذكر القرابة بيان لعلة الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمّى القربة من دون تخصيص.

﴿مما قلّ منه أو كثر﴾ بدل من قوله ﴿مما ترك﴾ بإعادة الجار، والضمير في ﴿منه﴾ راجع إلى المبدل منه، وهذا الأمر مراد في الجملة الأولى أيضاً محذوف للتعويل على المذكور، وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلة الحرب للرجال، وتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما دقّ وجلّ.

وقد أجمل سبحانه في هذه المواضع قدر النصيب المفروض، ثم أنزل قوله ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ فبيّن ميراث كل فرد جعله الله ﴿نصيباً مفروضاً﴾ وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، والحنفية أيضاً قائلون بجواز تأخيره، والفرض ما فرضه الله تعالى وهو آكد من الواجب أو مقطوعاً بتسليمه إليهم، فلا يسقط بإسقاطهم، ففي الآية دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالإعراض، قاله البيضاوي.

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ
لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا
خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

﴿وإذا حضر القسمة﴾ يعني قسمة الميراث ﴿أولو القربى﴾ المراد بالقرابة هنا غير الوارثين لكونه عاصباً محجوباً او لكونه من ذوي الأرحام ﴿و﴾ كذا ﴿اليتامى والمساكين﴾ من الأجانب، وإنما قدم اليتامى لشدة ضعفهم وحاجتهم ﴿فارزقوهم منه﴾ شرع الله سبحانه أنهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم منه رزق فيرضخ لهم المتقاسمون شيئاً منها قبل القسمة.

وقد ذهب قوم إلى أن الآية محكمة وأن الأمر للندب، وذهب آخرون إلى أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ يوصيكم الله في أولادكم﴾ والأول أرجح لأن المذكور في الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث حتى يقال إنها منسوخة بآية المواريث، إلا أنه إن قيل: إن أولي القربى المذكورين هنا هم الوارثون كان للنسخ وجه.

وقالت طائفة إن هذا الرضخ لغير الوارث من القرابة واجب بمقدار ما تطيب به أنفس الورثة. وهو معنى الأمر الحقيقي فلا يصار إلى الندب إلا لقرينة، والضمير في قوله ﴿منه﴾ راجع إلى المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة، وقيل راجع إلى ما ترك؛ وهذا خطاب للورثة الكاملين.

﴿و﴾ قوله ﴿قولوا﴾ خطاب لأولياء اليتامى إذا كان الورثة صغاراً ﴿لهم﴾ أي للأصناف الثلاثة ﴿قولاً معروفاً﴾ وهو القول الجميل الذي ليس

فيه منّ بما صار إليهم من الرضخ ولا أذى. أو أن يعتذروا إليهم عن عدم الإعطاء أصلاً، وعن ابن عباس قال: هي محكمة وليست بمنسوخة وقد قضى بها أبو موسى.

وقال مجاهد: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، وكذا قال الحسن والزهري، وقال ابن عباس: يرضخ لهم، فإن كان في ماله تقصير اعتذر إليهم فهو قوله ﴿قولاً معروفاً﴾ وعن عائشة أنها لم تنسخ ولكن تهاون الناس في العمل بها، وعن سعيد بن المسيب قال: هي منسوخة أي بآية الميراث، وعن سعيد بن جبير قال: إن كانوا كباراً يرضخوا، وإن كانوا صغاراً اعتذروا إليهم.

﴿وليخش﴾ أي ليخف على اليتامى ﴿الذين لو تركوا﴾ أي قاربوا أن يتركوا ﴿من خلفهم﴾ أي بعد موتهم ﴿ذرية ضعافاً﴾ أولاداً صغاراً ﴿خافوا عليهم﴾ الفقر والضياع، وهذا الخطاب للأوصياء كما ذهب إليه طائفة من المفسرين، وفيه وعظ لهم بأن يفعلوا باليتامى الذين في حجورهم ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم.

وبعضهم جعل الخطاب لمن حضر المريض من العواد عند الإيصاء وإليه ذهب البيضاوي؛ أو أمر للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو أمر للمؤمنين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية، والأول أولى.

﴿فليتّقوا الله﴾ يعني في الأمر الذي تقدم ذكره. قالت طائفة: المراد جميع الناس أمروا باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس وإن لم يكونوا في حجورهم، وقال آخرون: إن المراد بهم من يحضر الميت عند موته أمروا بتقوى الله،

والتقوى مسبّبة عن الخوف الذي هو الخشية فلذلك ذكرت فاء السببية، ففي الآية الجمع بين المبدأ والمنتهى ﴿وليقولوا﴾ للمحتضر ﴿قولاً سديداً﴾ صواباً من إرشاده إلى التخلص عن حقوق الله وحقوق بني آدم، وإلى الوصية بالقرب المقربة إلى الله سبحانه، وإلى ترك التبذير بماله وإحرام ورثته كما يخشون على ورثتهم من بعدهم لو تركوهم فقراء عالة يتكففون الناس.

وقال ابن عطية: الناس صنفان يصلح لأحدهما أن يقال له عند موته ما لا يصلح للآخر، وذلك أن الرجل إذا ترك ورثته بأنفسهم أغنياء حسن أن يندب إلى الوصية ويحمل على أن يقدم لنفسه، وإذا ترك ورثته ضعفاء مفلسين حسن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط فإنّ أجره في قصده ذلك كأجره في المساكين.

قال القرطبي: وهذا التفصيل صحيح والمعنى وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع من بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم، ثمّ أمرهم بتقوى الله والقول السديد للمحتضرين أولاً، ولأولادهم من بعدهم على ما سبق.

﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى﴾ استئناف جيء به لتقرير ما فصل من الأوامر والنواهي يتضمن النهي عن ظلم الايتام من الأولياء والاوصياء ﴿ظلماً﴾ حراماً بغير حق ﴿إنّما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ المراد بأكل النار ما يكون سبباً للنار تعبيراً بالمسبب عن السبب، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية، والمعنى سيأكلون يوم القيامة، وهذا على المجاز، وقيل بطونهم أوعية للنار بأن يخلق الله لهم ناراً يأكلونها في بطونهم، وهذا على الحقيقة، وقيل غير ذلك.

قال السدي: يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم، وإنما خص

الأكل بالذكر وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التصرفات المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بكل ذلك لليتيم، فعبّر عن الجميع بالأكل لأنه معظم المقصود، وذكر البطون للتأكيد كقولك رأيت بعيني وسمعت بأذني.

﴿وسيصلون سعيراً﴾ بأكلهم أموال اليتامى، وقرىء سيصلون من التصلية لكثرة الفعل مرة بعد أخرى، وقرأ الباقون بفتح الياء من صلى النار يصلاها، والصلا هو التسخن بقرب النار أو بمباشرتها، والسعير الجمر المشتعل، وقيل النار الموقدة.

أخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً فقيل يا رسول الله من هم؟ قال ألم تر أن الله يقول ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ الآية[1].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال حدثنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ليلة أسري به قال «نظرت فإذا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكّل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار فيقذف في أحدهم حتى يخرج من أسافلهم ولهم خوار وصراخ، فقلت يا جبرائيل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً الآية[2].

وقال زيد بن أسلم: هذه الآية لأهل الشرك حين كانوا لا يورثونهم ويأكلون أموالهم.

(١) ابن كثير ١/٤٥٦.
(٢) قال السدي: يبعث آكل مال اليتيم ظلماً ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه، واذنيه، وانفه، وعينيه، يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم اخرجه ابن جرير ٨/٢٦ من طريق اسباط.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ هذا تفصيل لما أجمل في قوله تعالى ﴿للرجال نصيب ممّا ترك الوالدان والأقربون﴾ من أحكام المواريث، وقد استدل بذلك على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وهذه الآية بطولها ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الأحكام، وأم من أمهات الآيات لاشتمالها على ما يهم من علم الفرائض، وقد كان هذا العلم من أجل علوم الصحابة رضي الله عنهم وأكثر مناظراتهم فيه، وسيأتي بعد كمال تفسير ما اشتمل عليه كلام الله من الفرائض، ذكر بعد فضائل هذا العلم إن شاء الله تعالى.

وبدأ بالأولاد لأنهم أقرب الورثة إلى الميت وأكثر بقاء بعد المورث، والمراد بالوصية في الأولاد الوصية في شأن ميراثهم، وقد اختلفوا هل يدخل أولاد الأولاد أم لا؟ فقالت الشافعية إنهم يدخلون مجازاً لا حقيقة، وقالت الحنفية: إنه يتناولهم لفظ الأولاد حقيقة إذا لم يوجد أولاد الصلب.

ولا خلاف أن بني البنين كالبنين في الميراث مع عدمهم، وإنما هذا الخلاف في دلالة لفظ الأولاد على أولادهم مع عدمهم، ويدخل في لفظ الأولاد من كان منهم كافراً ويخرج بالسنة، وكذلك يدخل القاتل عمداً ويخرج أيضاً بالسنة والإجماع، ويدخل فيه الخنثى.

قال القرطبي: وأجمع العلماء أنه يورث من حيث يبول، فإن بال منهما فمن حيث سبق، فإن خرج البول منهما من غير سبق أحدهما فله نصف نصيب الذكر، ونصف نصيب الانثى، وقيل يعطى أقل النصيبين وهو نصيب الانثى، قاله يحيى بن آدم، وهو قول للشافعي.

وهذه الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من الموارثة بالحلف والهجرة والمعاقدة، وقد أجمع العلماء على أنه إذا كان مع الأولاد من له فرض مسمى أعطيه وكان ما بقي من المال للذكر مثل حظ الأنثيين للحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما بلفظ «ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر» إلا إذا كان ساقطاً معهم كالإخوة لأم[1].

﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ جملة مستأنفة لبيان الوصية في الأولاد، فلا بدّ من تقدير ضمير يرجع إليهم أي يوصيكم الله في أولادكم للذكر منهم مثل حظ الانثيين، والمراد حال اجتماع الذكور والإناث، وأما حال الانفراد فللذكر جميع الميراث وللأنثى النصف وللأنثيين فصاعداً الثلثان[2].

وتخصيص الذكر بالتنصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله والتنبيه على أن التضعيف كاف في التفضيل فلا يحرمن بالكلية وقد اشتركا في الجهة، وإن فائدة التعصيب أن العاصب إذا انفرد حاز المال كله.

﴿فإن كنّ﴾ الأولاد المتروكات والتأنيث باعتبار الخبر أو البنات أو المولودات ﴿نساء﴾ ليس معهن ذكر ﴿فوق اثنتين﴾ أي زائدات على إثنتين على أن فوق صفة لنساء أو يكون خبراً ثانياً لكان ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ الميت المدلول عليه بقرينة المقام.

---

(١) انما زاد نصيب الرجل في الميراث لما يجب عليه من الأعباء كالمهر والنفقة.

(٢) مسلم ١٦١٥ البخاري ٢٤٩٦.

وظاهر النظم القرآني أن الثلثين فريضة الثلاث من البنات فصاعداً، ولم يسم للاثنين فريضة، ولهذا اختلف أهل العلم في فريضتهما، فذهب الجمهور إلى أن لهما إذا انفردتا عن البنين الثلثين، وذهب ابن عباس إلى أن فريضتهما النصف.

احتج الجمهور بالقياس على الأختين فإن الله سبحانه قال في شأنهما فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان فألحقوا البنتين بالأختين في استحقاقهما الثلثين كما ألحقوا الأخوات إذا زدن على اثنتين بالبنات في الاشتراك في الثلثين.

وقيل في الآية ما يدل على أن للبنتين الثلثين وذلك أنه لما كان للواحدة مع أخيها الثلث كان للإبنتين إذا انفردتا الثلثان، هكذا احتجّ بهذه الحجة اسماعيل بن عياش والمبرد، قال النحاس: وهذا الاحتجاج عند أهل النظر غلط لأن الاختلاف في البنتين إذا انفردتا عن البنين.

وأيضاً للمخالف أن يقول إذا ترك بنتين وابناً فللبنتين النصف، فهذا دليل على أن هذا فرضهما ويمكن تأييد ما احتج به الجمهور بأن الله سبحانه لما فرض للبنت الواحدة النصف إذا انفردت بقوله ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ كان فرض البنتين إذا انفردتا فوق فرض الواحدة، وأوجب القياس على الأختين الإقتصار للبنتين على الثلثين.

وقيل: إن فوق زائدة والمعنى إن كن نساء اثنتين كقوله تعالى ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي الأعناق، ورد هذا النحاس وابن عطية فقالا: هو خطأ لان الظروف وجميع الاسماء لا يجوز في كلام العرب ان تزاد لغير معنى وقال ابن عطية: ولان قوله ﴿فوق الأعناق﴾ هو الفصيح، وليس فوق زائدة بل هي محكمة المعنى، لأن ضربة العنق إنما يجب ان يكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ كما قال دريد بن الصمة: اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم، فهكذا كنت أضرب اعناق الأبطال انتهى.

وايضاً لو كان لفظ فوق زائداً كما قالوا لقال فلهما ثلثا ما ترك ولم يقل فلهن ثلثا ما ترك.

وأوضح ما يحتج به للجمهور ما أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم والبيهقي في سننه عن جابر قال جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان الا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمهما فقال: اعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك، أخرجوه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال الترمذي ولا يعرف إلا من حديثه[1].

﴿وإن كانت واحدة﴾ قرىء بالرفع على أن كان تامة بمعنى فإن وجدت بنت واحدة أو حدثت واحدة؛ وقرىء بالنصب، قال النحاس: وهذه قراءة حسنة أي وإن كانت أي المتروكة أو المولودة واحدة ﴿فلها النصف﴾ يعني فرضاً لها.

﴿ولأبويه﴾ أي الميت وهو كناية عن غير مذكور، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه والمراد بالأبوين الأب والأم والتثنية على لفظ الأب للتغليب، وهذا شروع في ارث الأصول ﴿لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾ بدل من لأبويه بتكرير العامل، قاله الزمخشري، وفائدة هذا البدل أنه لو قيل ولأبويه السدس لكان ظاهرها اشتراكهما فيه، ولو قيل لأبويه السدسان لأوهم قسمة السدسين عليهما بالسوية وعلى خلافها.

(١) المستدرك كتاب الفرائض ٤/٣٣٤.

وقد اختلف العلماء في الجدّ هل هو بمنزلة الأب فيسقط به الأخوةأم‌لا؟ فذهب أبو بكر الصديق إلى أنه بمنزلة الأب، ولم يخالفه أحد من الصحابة أيام خلافته، واختلفوا في ذلك بعد وفاته فقال بقول أبي بكر: ابن عباس وعبد الله ابن‌الزبير وعائشة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وأبو الدرداء وأبو هريرة وعطاء وطاوس والحسن وقتادة وأبو حنيفة وأبو ثور واسحق، واحتجوا بمثل قوله تعالى ﴿ملّة أبيكم ابراهيم﴾ وقوله ﴿يا بني آدم﴾ وقوله ﷺ إرموا يا بني اسماعيل.

وذهب علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وابن مسعود إلى توريث الجدّ مع الأخوة لأبوين أو لأب ولا ينقص معهم من الثلث ولا ينقص مع ذوي الفروض من السدس في قول زيد ومالك والأوزاعي وأبي يوسف ومحمد والشافعي، وقيل يشرك بين الجد والأخوة إلى السدس ولا ينقصه من السدس شيئاً مع ذوي الفروض وغيرهم، وهو قول ابن أبي ليلى وطائفة.

وذهب الجمهور إلى ان الجد يسقط بني الأخوة، وروى الشعبي عن علي أنه أجرى بني الأخوة في المقاسمة مجرى الأخوة.

وأجمع العلماء أن للجدة السدس إذا لم تكن للميت أم، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم، وأجمعوا على أن الأب لا يسقط الجدة أم الأم.

واختلفوا في توريث الجدة وابنها حي، فروى عن زيد بن ثابت وعثمان وعلي أنها لا ترث وابنها حي، وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وأبو ثور وأصحاب الرأي، وروى عن عمر وابن مسعود وأبي موسى أنها ترث معه، وروى أيضاً عن علي وعثمان وبه قال شريح وجابر بن زيد وعبيد الله بن الحسن وشريك وأحمد وإسحق وابن المنذر.

﴿إن كان له ولد﴾ الولد يقع على الذكر والأنثى لكنه إذا كان الموجود الذكر مع الأولاد وحده أو مع الانثى منهم فليس للجد إلا الثلث، وإن كان الموجود أنثى كان للجد السدس بالفرض وهو عصبة فيما عدا السدس وأولاد ابن الميت كأولاد الميت.

﴿فإن لم يكن له ولد﴾ ولا ولد ابن لما تقدم من الإجماع ﴿وورثه أبواه﴾ منفردين عن سائر الورثة أو مع زوج ﴿فلأمّه الثلث﴾ أي ثلث المال كما ذهب إليه الجمهور من أن الأم لا تأخذ ثلث التركة إلا إذا لم يكن للميت وارث غير الأبوين، أما لو كان معهما أحد الزوجين فليس للأم إلا ثلث الباقي بعد الموجودين من الزوجين.

وروى عن ابن عباس أن للأم ثلث الأصل مع أحد الزوجين وهو يستلزم تفضيل الأم على الأب في مسئلة زوج وأبوين مع الاتفاق على أنه أفضل منها عند انفرادهما عن أحد الزوجين.

﴿فإن كان له اخوة﴾ يعني ذكوراً أو إناثاً اثنين فصاعداً ﴿فلأمه السدس﴾ يعني لأم الميت سدس التركة إذا كان معها أب، واطلاق الإخوة يدل على أنه لا فرق بين الإخوة لأبوين أو لأحدهما، وقد أجمع أهل العلم على أن الإثنين من الاخوة يقومان مقام الثلاثة فصاعداً في حجب الأم إلى السدس إلا ما يروى عن ابن عباس أنه جعل الاثنين كالواحد في عدم الحجب، وأجمعوا أيضاً أن الأختين فصاعداً كالأخوين في حجب الأم.

﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ يعني أن هذه الأنصبة والسهام إنما تقسم بعد قضاء الدين وإنفاذ وصية الميت في ثلثه، قرىء يوصى بفتح الصاد وبكسرها واختار الكسر أبو عبيد وأبو حاتم، لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا.

واختلف في وجه تقديم الوصية على الدين مع كونه مقدماً عليها بالإجماع فقيل المقصود تقديم الأمرين على الميراث من غير قصد إلى الترتيب بينهما، وقيل لما كانت الوصية أقل لزوماً من الدين قدمت اهتماماً بها، وقيل قدمت لكثرة وقوعها فصارت كالأمر اللازم لكل ميت وقيل قدمت لكونها حظ المساكين والفقراء، وأخر الدين لكونه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان.

وقيل لما كانت الوصية ناشئة من جهة الميت قدمت بخلاف الدين فإنه

ثابت مؤدى ذكر أو لم يذكر، وقيل قدمت لكونها تشبه الميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، فربما يشق على الورثة إخراجها بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة بأدائه؛ وهذه الوصية مقيدة بقوله ﴿غير مضار﴾ كما سيأتي.

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وغيرهم عن علي قال: إنكم تقرؤون هذه الآية من بعد وصية يوصي بها أو دين وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالدين قبل الوصية؛ وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلّات.

﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾ قيل خبره مقدر أي هم المقسوم عليهم أو خبره ﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ أي نفعه في الدعاء لكم والصدقة عنكم كما في الحديث الصحيح «أو ولد صالح يدعو له»[1] وقال ابن عباس والحسن قد يكون الابن أفضل فيشفع في أبيه.

وقال بعض المفسرين إن الابن إذا كان أرفع درجة من أبيه في الآخرة سأل الله أن يرفع إليه أباه؛ وإذا كان الأب أرفع درجة من ابنه سأل الله أن يرفع ابنه إليه؛ وقيل المراد النفع في الدنيا والآخرة قاله ابن زيد.

وقيل المعنى انكم لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم أمن وصى منهم فعرضكم لثواب الآخرة بامضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعاً أو من ترك الوصية ووفر عليكم عرض الدنيا، وقوى هذا صاحب الكشاف قال لان الجملة اعتراضية ومن حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه.

﴿فريضة من الله﴾ نصب على المصدر المؤكد، وقيل على الحال، والأول أولى، والمعنى ما قدر من المواريث لأهلها فريضة واجبة ﴿إن الله كان عليماً﴾ بقسمة المواريث ﴿حكيماً﴾ حكم بقسمتها وبيّنها لأهلها، وقال الزجاج: عليماً بالأشياء قبل خلقها، حكيماً فيما يقدره ويمضيه منها.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٨٠٥.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنّ ولد﴾ منكم أو من غيركم، الخطاب هنا للرجال والمراد بالولد ولد الصلب أو ولد الولد؛ ذكراً كان أو أنثى لما قدّمنا من الإجماع ﴿فإن كان لهن ولد فلكم الرّبع مما تركن﴾ وهذا مجمع عليه لم يختلف أهل العلم في أن للزوج مع عدم الولد النصف ومع وجوده وإن سفل الربع ﴿من بعد وصيّة يوصين بها أو دين﴾ الكلام فيه كما تقدم أي حالة كونهن غير مضارّات في الوصية، وألحق بالولد في ذلك ولد الإبن بالإجماع وهذا ميراث الأزواج من الزوجات.

وقال تعالى في ميراث الزوجات من الأزواج ﴿ولهن﴾ أي الزوجات تعددن أوْلا ﴿الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد﴾ منهن أو من غيرهن ﴿فإن كان لكم ولد فلهنّ الثمن مما تركتم﴾ هذا النصيب مع الولد والنصيب مع عدمه تنفرد به الواحدة من الزوجات ويشترك فيه الأكثر عن الواحدة، لا خلاف في ذلك.

يعني أن الواحدة من النساء لها الربع أو الثمن، وكذلك لو كن أربع زوجات فإنهن يشتركن مع الربع أو الثمن، وإسم الولد يطلق على الذكر والأنثى ولا فرق بين الولد وولد الإبن، وولد البنت في ذلك، وسواء كان الولد للرجل من الزوجة أو من غيرها ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ أي من بعد أحد هذين منفرداً أو مضموماً إلى الآخر حال كونكم غير مضارّين في الوصية، والكلام في الوصية والدين كما تقدم.

﴿وإن كان رجل﴾ ميت ﴿يورث﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث ﴿كلالة﴾ مصدر من تكلله النسب أي أحاط به وبه سمي الإكليل لإحاطته بالرأس وهو الميت الذي لا ولد له ولا والد، هذا قول أبي بكر الصديق وعمر وعلي وجمهور أهل العلم، وبه قال صاحب كتاب العين وأبو منصور اللغوي وابن عرفة والقتيبي وأبو عبيد وابن الأنباري، وقد قيل إنها إجماع، وقال ابن كثير: وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الاربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم، وقد حكى الإجماع غير واحد وورد فيه حديث مرفوع انتهى.[1]

وقال في الجمل هذا أحسن ما قيل في تفسير الكلالة، ويدل على صحته أن اشتقاق الكلالة من كلت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهما فسميت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه.

وروى أبو حاتم والأثرم عن أبي عبيدة قال: الكلالة كل من لم يرثه أب أو ابن أو أخ فهو عند العرب كلالة، قال أبو عمرو بن عبد البر ذكر أبي عبيدة الاخ هنا مع الأب والإبن في شرط الكلالة غلط لا وجه له ولم يذكره في شرط الكلالة غيره، وما يروى عن أبي بكر وعمر من أن الكلالة من لا ولد له خاصة فقد رجعا عنه.

---

(١) ابن كثير ١/٤٦٠.

وقال زيد الكلالة: الحي والميت جميعاً وإنما سموا القرابة كلالة لأنهم أطافوا بالميت من جوانبه وليسوا منه ولا هو منهم بخلاف الابن والأب.فإنهما طرفان له، فإذا ذهبا تكلّله النسب.

وقيل إن الكلالة مأخوذة من الكلال وهو الإعياء فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بعد وإعياء، قال ابن الأعرابي: إن الكلالة بنو العم الأباعد.

وبالجملة من قرأ يورث كلالة بكسر الراء مشددة وهو بعض الكوفيين أو مخففة وهو الحسن وأيوب جعل الكلالة القرابة. ومن قرأ يورث بفتح الراء وهم الجمهور احتمل أن يكون الكلالة الميت واحتمل أن تكون القرابة.

وقد روى عن علي وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس والشعبي أن الكلالة ما كان سوى الولد والوالد من الورثة.

قال الطبري: الصواب أن الكلالة هم الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده لصحة خبر جابر قلت يا رسول الله إنما يرثني كلالة أفأوصي بمالي كلّه قال لا. انتهى.

وروى عن عطاء أنه قال الكلالة المال، وقال ابن الاعرابي وهذا قول ضعيف لا وجه له.

وقال صاحب الكشاف إن الكلالة تطلق على ثلاثة: على من لا يخلف ولداً ولا والداً، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلّفين، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد انتهى.

وفي السمين: هذه الآية مما ينبغي أن يطول فيها القول لإشكالها واضطراب أقوال الناس فيها ثم قال بعد ذكر الاختلاف فيها فقد تخلص مما

تقدم أنها إما لميت الموروث أو الورثة أو المال الموروث أو الإرث أو القرابة، ثم تكلم في اشتقاقها وإعرابها والذي ذكرناه هو أحسن ما قيل فيها.

﴿أو امرأة﴾ معطوف على رجل مقيد بما قيد به أي كانت المرأة الموروثة خالية من الوالد والولد ﴿وله أخ أو أخت﴾ قرأ سعد بن أبي وقاص وابن مسعود ﴿من أم﴾ والقراءة الشاذة كخبر الآحاد لأنها ليست من قبل الرأي، وأطلق الشافعي الاحتجاج بها فيما حكاه البويطي عنه في باب الرضاع وباب تحريم الجمع وعليه جمهور أصحابه لأنها منقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يلزم من انتفاء خصوص قرآنيّتها انتفاء خصوص خبريّتها، قاله الكرخي.

قال القرطبي: أجمع العلماء على أن الأخوة ههنا هم الأخوة لأم، قال: ولا خلاف بين أهل العلم أن الأخوة المذكورين في قوله تعالى ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ هم الإخوة لأبوين أو لأب.

وأفرد الضمير في قوله ﴿وله أخ أو أخت﴾ لأن المراد كل واحد منهما كما جرت بذلك عادة العرب إذا ذكروا اسمين مستويين في الحكم فإنهم قد يذكرون الضمير الراجع إليهما مفرداً كما في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة﴾ وقوله ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ وقد يذكرونه مثنى كما في قوله ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ وقد قدمنا في هذا كلاماً أطول من المذكور هنا.

﴿فلكلّ واحد منهما السدس﴾ مما ترك المورث ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك﴾ الأخ المفرد والأخت المنفردة بواحد وذلك بأن يكون الموجود اثنين فصاعداً ذكرين أو انثيين أو ذكراً وأنثى، وقد استدل بذلك على أن الذكر كالأنثى من الأخوة لأم لأن الله شرك بينهم في الثلث ولم يذكر فضل الذكر على الانثى كما ذكره في البنين والاخوة لابوين أو لأب، قال القرطبي: وهذا أجمل.

ودلت الآية على أن الاخوة لأم إذا استكملت بهم المسئلة كانوا أقدم من الإخـوة لأبـوين أو لأب، ذلك في المسئلة المسماة بالحمارية، وهي إذا تركت الميتة زوجاً وأماً وأخوين لأم وإخوة لأبوين، فإن للزوج النصف وللأم السدس وللأخوين لأم الثلث ولا شيء للأخوة لأبوين.

ووجه ذلك أنه قد وجد الشرط الذي يرث عنده الإخـوة من الأم وهو كون الميت كلالة ويؤيد هذا حديث ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأول رجل ذكر وهو في الصحيحين وغيرهما، وقد قرر الشوكاني دلالة الآية والحديث على ذلك في الرسالة التي سماها المباحث الدرية في المسائل الحمارية، وفي هذه المسئلة خلاف بين الصحابة فمن بعدهم معروف.

﴿فهم شركاء في الثلث﴾ يستوي فيه ذكرهم وأنثاهم لإدلائهم بمحض الأنوثـة ﴿من بعد وصيّة يوصىٰ بها أو دين﴾ الكلام فيه كما تقدم، وظاهر الآية يدل على جواز الوصية بكل المال وببعضه، ولكن ورد في السنة ما يدل على تقييد هذا المطلق وتخصيصه وهو قوله ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص قال «الثلث والثلث كثير» أخرجه البخاري ومسلم[1]، ففي هذا دليل عـلى أن الوصية لا تجوز بأكثر من الثلث وأن النقصان عن الثلث جائز.

﴿غير مضـارّ﴾ أي حال كونه غير مضار لورثته بوجه من وجوه الإضرار كأن يقر بشيء ليس عليه أو يوصي بوصية لا مقصد له فيها إلا الاضرار بالورثة أو يوصي لوارث مطلقاً أو لغيره بزيادة على الثلث ولم يجزه الورثة، وهذا القيد راجع إلى الوصية والدين المذكورين فهو قيد لهما فما صدر من الإقـرارات بالديون أو الوصايا المنهي عنها أو التي لا مقصد لصاحبها إلا المضارة لورثته فهو باطل مردود لا ينفذ منه شيء لا الثلث ولا دونه.

---

(١) مسلم ١٦٢٩ ـ البخاري ١٣١٨.

قال القرطبي: وأجمع على أن الوصية للوارث لا تجوز انتهى.

قال أبو السعود في تفسيره وتخصيص القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقهم.

أخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه واللفظ له والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم ﴿تلك حدود الله إلى قوله عذاب مهين﴾ وفي إسناده شهر بن حوشب وفيه مقال معروف[1].

وأخرج ابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة».

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ أتاه يعوده في مرضه فقال: إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بالثلثين، قال لا قال فالشطر، قال لا، قال فالثلث، قال: الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس.[2]

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٦١٩. وفي رواية «ان الرجل أو المرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار» وقرأ ابو هريرة ها هنا: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار... حتى بلغ الفوز العظيم﴾.

(٢) مسلم ١٦٢٩ ـ البخاري ١٣١٨.

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن جبل قال إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة في حسناتكم، يعني الوصية.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال وددت أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثلث كثير، وقال عمر بن الخطاب الثلث وسط لا بخس ولا شطط.

وعن علي قال: لأن أوصي بالخمس أحب إلى من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث ومن أوصى بالثلث لم يترك.

﴿وصية من الله﴾ نصب على المصدر المؤكد أي يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله، قال ابن عطية: ويصح أن يعمل فيها مضار، والمعنى أن يقع الضرر بها أو بسببها فأوقع عليها تجوزاً فيكون وصية على هذا مفعولاً به لأن اسم الفاعل قد اعتمد على ذي الحال أو لكونه منفياً معنى.

وفي كون هذه الوصية من الله سبحانه دليل على أنه قد وصى عباده بهذه التفاصيل المذكورة في الفرائض، وإن كل وصية من عباده يخالفها فهي مسبوقة بوصية الله وذلك كالوصايا المتضمنة لتفضيل بعض الورثة على بعض أو المشتملة على الضرار بوجه من الوجوه ﴿والله عليم حليم﴾ قال الخطابي: الحليم ذو الصفح والاناة الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهل جاهل[1].

---

(١) جاء في كتاب الكبائر للامام الذهبي/ ٢٣٤.

قال ابن عباس: يريد ما أحل الله من الميراث (ومن يطع الله ورسوله) في شأن المواريث (يدخل جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله) قال مجاهد فيما فرض الله من المواريث.

وقال عكرمة عن ابن عباس من لم يرض يقسم الله ويتعد ما قال الله (يدخله ناراً).

وقال الكلبي يعني يكفر بقسمة الله المواريث ويتعدى حدوده استحلالاً ﴿يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾.

وجاء عنه ﷺ انه قال: «من فر بميراث وارث قطع الله ميراثه من الجنة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» صححه الترمذي.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

والإشارة بقوله ﴿تلك حدود الله﴾ إلى الأحكام المتقدمة من مال اليتامى والوصايا والأنكحة والمواريث، وسماها حدوداً لكونها لا تجوز مجاوزتها ولا يحل تعديها.

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في قسمة المواريث وغيرها من الأحكام الشرعية كما يفيده عموم اللفظ ﴿يدخله﴾ بالياء والنون ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز وراءه وهكذا قوله ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله﴾ بالوجهين ﴿ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ أي وله بعد إدخاله النار عذاب ذو إهانة لا يعرف كنهه.

روعي في الضمائر في الآيتين وفي خالداً لفظ (من) وفي خالدين معناها، قال الضحاك: والمعصية هنا الشرك.

وقال ابن عباس في معنى الآية: ومن لم يرض بقسمة الله ويتعد ما حده، وقال الكلبي: يكفر بقسمة المواريث فإذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل موته وإذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلداً في النار، فلا دليل في الآية للمعتزلة على أن العصاة والفساق من أهل الإيمان يخلدون في النار.

وقد ورد في الترغيب في تعلم الفرائض وتعليمها ما أخرجه الحاكم

والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: تعلموا الفرائض وعلموها الناس وإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يقضي بها[1].

وأخرجا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ تعلموا الفرائض وعلموها فإنه نصف العلم وأنه ينسى وهو أول ما ينزع من أمتي، وأخرجه ابن ماجه والدارقطني ولفظهما هو أول علم ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتي[2].

قد روي عن عمرو ابن مسعود وأنس آثار في الترغيب في الفرائض، وكذلك روي عن جماعة من التابعين ومن بعدهم.

وهذا العلم من أعظم العلوم قدراً وأشرفها ذخراً وأفضلها ذكراً، وهو ركن من أركان الشريعة، وفرع من فروعها في الحقيقة، اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا في فروعها وأصولها، ويكفي في فضلها أن الله تولى قسمتها بنفسه وأنزلها في كتابه مبينة في محل قدسه، وقد حث رسول الله ﷺ على تعليمها كما ذكرنا.

وقد ذكر بعض المفسرين أحكام الفرائض وأسباب الإرث في هذا المقام من تفسيره وإنما محلها كتب الفروع، وذكروا من تخاريج هذا العلم ما لم يكن له مستند إلا محض الرأي. وليس مجرد الرأي مستحقاً للتدوين. فلكل عالم رأيه واجتهاده مع عدم الدليل ولا حجة في اجتهاد بعض أهل العلم على البعض الآخر، ويكفيك منها ما ثبت في الكتاب والسنة وما عرض لك وما لم يكن فيهما فاجتهد فيه برأيك عملاً بحديث معاذ المشهور[3]

(١) المستدرك كتاب الفرائض ٤/ ٣٣٣.

(٢) المستدرك كتاب الفرائض ٤/ ٣٣٢ ـ الدارقطني كتاب الفرائض ٤/ ٦٧.

(٣) المسند ٥/ ٢٣٠.

والسهام المحدودة في كتاب الله العزيز ستة: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس كما تقدم تفسيره آنفاً، والذي وردت به السنة المطهرة أنه يجب الابتداء بذوي الفروض المقدرة وما بقي فللعصبة والأخوات مع البنات عصبة، ولبنت الابن مع البنت السدس تكملة للثلثين، وكذا الاخت لأب مع الأخت لابوين وللجدة أو الجدات السدس مع عدم الأم، وهو للجد مع من لا يسقطه ولا ميراث للاخوة والأخوات مطلقاً مع الابن أو ابن الابن أو الأب، وفي ميراثهم مع الجد خلاف، ويرثون مع البنات إلا الاخوة للام ويسقط الأخ لأب مع الأخ لأبوين.

وأولو الأرحام يتوارثون وهم اقدم من بيت المال، فإن تزاحمت الفرائض فالعول، ولا يرث ولد الملاعنة والزانية إلا من أمه وقرابتها والعكس، ولا يرث المولود إلا إذا استهل، وميراث العتيق لمعتقه ويسقط بالعصبات وله الباقي بعد ذوي السهام، ويحرم بيع الولاء. وهبته، ولا توارث بين أهل ملّتين ولا يرث القاتل من المقتول.

هذا جميع ما ثبت بالسنة المطهرة فاشدد عليه يديك.

= حدثنا عبد الله: حدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي عون عن الحرث بن عمرو بن أخي المغيرة بن شعبة عن ناس من أصحاب معاذ من أهل حمص عن معاذ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الى اليمن فقال كيف تصنع ان عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال اجتهد رأيي لا آلو قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا (١٥) وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا (١٦)﴾

﴿واللاتي يأتين الفاحشة﴾ لما ذكر سبحانه في هذه السورة الاحسان إلى النساء وإيصال صدقاتهن اليهن وميراثهن مع الرجال، ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف.

واللاتي جمع التي بحسب المعنى دون اللفظ وفيه لغات ويقال في جمع الجمع اللواتي واللوائي واللوات واللواء، والفاحشة الفعلة القبيحة وهي مصدر كالعافية والعاقبة، والمراد بها هنا الزنا خاصة، وإتيانها فعلها ومباشرتها.

﴿من نسائكم﴾ هن المسلمات ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة﴾ خطاب للأزواج أو للحكام، قال عمر بن الخطاب إنما جعل الله الشهود أربعة ستراً يستركم به دون فواحشكم ﴿منكم﴾ المراد به الرجال المسلمون.

﴿فإن شهدوا﴾ عليهن بها ﴿فأمسكوهنّ﴾ احبسوهن ﴿في البيوت﴾ وامنعوهن من مخالطة الناس، لأن المرأة إنما تقع في الزنا عندالخروج والبروز الى الرجال، فإذا حبست في البيت لم تقدر على الزنا، عن ابن عباس قال: كانت المرأة إذا فجرت حبست في البيت فإن ماتت ماتت، وإن عاشت عاشت حتى نزلت الآية في سورة النور ﴿الزانية والزاني فاجلدوا﴾ فجعل الله لهن سبيلاً فمن عمل شيئاً جلد وأرسل، وقد روي عنه من وجوه (١).

(١) اخرجه ابن جرير ٨/٨٤ وابو داود ٤/٢٠٢؛ وقد كان الرجم من الأمم التي سبقتنا.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبس المذكور وكذلك الأذى باقيان مع الجلد لأنه لا تعارض بينهما بل الجمع ممكن، قال الخطابي: ليست منسوخة لأن قوله ﴿فأمسكوهن﴾ يدل على أن إمساكهن في البيوت ممتدّ إلى غاية هي قوله ﴿حتى﴾ اي إلى أن ﴿يتوفاهن الموت﴾ أي ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ وذلك السبيل كان مجملاً، فلما قال النبي ﷺ خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم[1] رواه مسلم من حديث عبادة، صار هذا الحديث بياناً لتلك الآية لا نسخاً له.

﴿واللّذان يأتيانها منكم﴾ أي الفاحشة وهي الزنا واللواط، وهذان قولان للمفسرين وسيرجح الثاني بأمور، واللذان تثنية الذي، وكان القياس أن يقال اللذيان، قال سيبويه: حذفت الياء ليفرق بين الأسماء الممكنة وبين الأسماء المبهمة.

والمراد ﴿باللذان﴾ هنا الزاني والزانية تغليباً، وقيل الآية الأولى في النساء خاصة محصنات وغير محصنات، والثانية في الرجال خاصة وجاء بلفظ التثنية لبيان صنفي الرجال من أحصن ومن لم يحصن، فعقوبة النساء وعقوبة الرجال الأذى، واختار هذا النحاس ورواه عن ابن عباس ورواه القرطبي عن مجاهد وغيره واستحسنه.

وقال السدي وقتادة وغيرهما: الآية الأولى في النساء المحصنات ويدخل معهن الرجال المحصنون، والآية الثانية في الرجل والمرأة البكرين، ورجحه الطبري وضعفه النحاس، وقال تغليب المؤنث على المذكر بعيد.

---

(١) مسلم ١٦٩٠. ورواه احمد ٣١٨/٥ والشافعي في الرسالة ٢٤٧/١٢٩ ومسلم ١٣١٦/٣ وابو داود ٢٠٢/٤ باختلاف في الروايات.

وقال ابن عطيه: إن معنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يضيق عنه وقيل كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل، فخصّت المرأة بالذكر في الإمساك ثم جمعاً في الإيذاء، قال قتادة كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعاً.

﴿فآذوهما﴾ واختلف المفسرون في تفسير الأذى فقيل التوبيخ والتعيير وقيل السب والجفاء من دون تعيير وتقريع، وقيل النيل باللسان والضرب بالنعال وقد ذهب قوم إلى أن الأذى منسوخ بالحد كالحبس إن أريد به الزنا وكذا إن أريد اللواط عند الشافعي، لكن المفعول به لا يرجم عنده وإن كان محصناً بل يجلد ويغرب، وأما الفاعل فيرجم إن كان محصناً، وارادة اللواط أظهر بدليل تثنية الضمير، وقيل ليس بمنسوخ كما تقدم في الحبس، وقد قال بالنسخ جماعة من التابعين كمجاهد وقتادة والحسن وسعيد بن جبير والسدي.

﴿فإن تابا﴾ من الفاحشة ﴿وأصلحا﴾ العمل فيما بعد ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي اتركوهما وكفوا عنهما الأذى ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾ وهذا كان قبل نزول الحدود في ابتداء الإسلام على ما تقدم من الخلاف، فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجم ماعزاً وكان قد أحصن.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿إنما التوبة على الله﴾ إستئناف لبيان أن التوبة ليست بمقبولة على الإطلاق كما ينبىء عنه قوله ﴿تواباً رحيماً﴾ بل إنما يقبل من البعض دون البعض كما بينه النظم القرآني ههنا، وقيل المعنى إنما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده.

وقيل المعنى إنما التوبة واجبة على الله، وهذا على مذهب المعتزلة لأنهم يوجبون على الله عز وجل واجبات من جملتها قبول توبة التائبين.

وقال أهل المعاني: المعنى أوجب على نفسه من غير إيجاب أحد عليه لأنه يفعل ما يريد، وقيل على هنا بمعنى عند، وقيل بمعنى من.

وقد اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ وذهب الجمهور إلى أنها تصح من ذنب دون ذنب خلافاً للمعتزلة.

وقيل إن قوله ﴿على الله﴾ هو الخبر، وقوله الآتي ﴿للذين﴾ متعلق بما تعلق به الخبر، إلا أن الذي يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو كون للذين خبراً، وقال أبو حيان التقدير إنما قبول التوبة مترتب على فضل الله، فتكون (على) هنا باقية على أصلها.

﴿للَّذين يعملون السوء﴾ أي العمل السيء والمعصية متصفين ﴿بجهالة﴾ أو جاهلين إذا عصوا، قال أبو العالية هذه للمؤمنين، وقد حكى القرطبي عن قتادة أنه قال: أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن كل

معصية فهي بجهالة عمداً كانت أو جهلاً، وحكى عن الضحاك ومجاهد أن الجهالة هنا العمد.

وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة، ومنه قوله تعالى ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ وقال الزجاج: معنى بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية، وقيل معناه أنهم لا يعلمون كنه العقوبة، ذكره ابن فورك وضعفه ابن عطية.

وعن أبي العالية أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، وعن ابن عباس قال: من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء.

﴿ثم يتوبون من قريب﴾ معناه قبل أن يحضرهم الموت كما يدل عليه قوله ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ وبه قال أبو مجلز والضحاك وعكرمة وغيرهم، وقيل المراد قبل المعاينة للملائكة وغلبة المرء على نفسه.

ومن للتبعيض أي يتوبون بعض زمان قريب، وهو ما عدا وقت حضور الموت، وإنما كان الزمن الذي بين فعل المعصية وبين وقت الغرغرة قريباً ولو كان سنين لأن كل ما هو آت قريب وإن طال قليل.

وفيه تنبيه على أن الإنسان ينبغي له أن يتوقع في كل ساعة نزول الموت به، وقيل معناه قبل المرض وهو ضعيف بل باطل لما قدمنا ولما اخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٨٩٩. زاد المسير ٥/ ٣٧.

وقيل معناه يتوبون على قرب عهد من الذنب من غير إصرار، قال ابن عباس: في الحياة والصحة، وقال الضحاك: كل شيء قبل الموت فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت. فإذا تاب حين ينظر ملك الموت فليس له ذلك، وقال الحسن القريب ما لم يغرغر.

وقد وردت أحاديث كثيرة في قبول توبة العبد ما لم يغرغر ذكرها ابن كثير في تفسيره، ومنها الحديث الذي قدمنا ذكره، والغرغرة أن يجعل المشروب في فم المريض فيردّه في الحلق ولا يصل إلى جوفه، ولا يقدر على بلعه. وذلك عند بلوغ الروح إلى الحلقوم. وقيل الغرغرة تردد الروح في الحلق.

﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ هو وعد منه سبحانه بأنه يتوب عليهم ويقبل توبتهم بعد بيانه ان التوبة لهم مقصورة عليهم ﴿وكان الله عليماً﴾ بما في قلوبهم من التصديق فحكم بالتوبة قبل الموت ولو بقدر فواق ناقة، وقيل علم أنه أتى بتلك المعصية باستيلاء الشهوة والجهالة عليه فحكم بالتوبة لمن تاب عنها وأناب عن قريب ﴿حكيماً﴾ في صنعه.[1]

---

(١) وقد وردت الأحاديث في التوبة كثيرة منها:
ـ عن انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون «رواه الترمذي وابن ماجة والدارمي واسناده حسن».
ـ عن ابي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
ان المؤمن اذا اذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وان زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكره الله تعالى، رواه احمد والترمذي وابن ماجة وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨)

﴿وليست التوبة للّذين يعملون السيئات﴾ الذنوب، فيه تصريح بما فهم من حصر التوبة فيما سبق على من عمل السوء بجهالة ثم تاب عن قريب، قال أبو العالية: هذه لأهل النفاق وبه قال سعيد بن جبير، قال ابن عباس: يريد أهل الشرك أي الكفار، وقال الثوري: هم المسلمون. ألا ترى أنه قال ولا الذين يموتون وهم كفار.

﴿حتى﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إذا حضر أحدهم الموت﴾ غاية لما قبلها، وهذا وجه حسن وحضور الموت حضور علاماته وبلوغ المريض إلى حالة السياق ومصيره مغلوباً على نفسه مشغولاً بخروجها من بدنه، وهو وقت الغرغرة المذكورة في الحديث السابق وهي بلوغ روحه حلقومه، قاله الهروي.

﴿قال﴾ عند مشاهدة ما هو فيه ﴿إني تبت الآن﴾ أي وقت حضور الموت حين لا يقبل من كافر إيمان ولا من عاص توبة، قال تعالى ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ قيل قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة بل المانع من قبولها مشاهدة الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال، ولذلك لم تقبل توبة فرعون ولا إيمانه حين أدركه الغرق.

﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ إذا تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب، قال أبو العالية هذه لأهل الشرك وروى عن الربيع مثله مع أنه لا توبة لهم رأساً، وإنما ذكروا مبالغة في بيان عدم قبول توبة من حضرهم الموت، وإن وجودها كعدمها أي ليست التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء ﴿أولئك أعتدنا لهم﴾ أي أحضرنا وهيأنا لهم وأعددنا ﴿عذاباً أليماً﴾ مؤلماً.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم﴾ أيها الأولياء ﴿أن ترثوا النساء﴾ أي ذاتهن ﴿كرهاً﴾ بالفتح والضم لغتان أي مكرهين على ذلك، هذا متصل بما تقدم من ذكر الزوجات، والمقصود نفي الظلم عنهن، ومعنى الآية يتضح بمعرفة سبب نزولها وهو ما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤا زوجوها وإن شاؤا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها فنزلت[1].

وفي لفظ لأبي داود عنه في هذه الآية كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، وفي لفظ لابن جرير وابن أبي حاتم عنه فان كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها.

وقد روى هذا السبب بألفاظ فمعناها لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم وتحبسوهن لأنفسكم.

﴿ولا﴾ يحل لكم أن ﴿تعضلوهن﴾ عن أن يتزوجهن غيركم ضراراً ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أي لتأخذوا ميراثهن إذا متن أو ليدفعن إليكم

---

(١) الأثر رواه البخاري في «صحيحه» ١٨٦/٨ ولفظه: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك» ورواه ابن جرير ١٠٤/٨، وأبو داود في «سننه» ٣١٠/٢. أخرجه ابن جرير ١٠٥/٨ وابن مردويْه، ورجال اسناده ثقات.

صداقهن إذا أذنتم لهن بالنكاح، وقيل الخطاب لأزواج النساء إذا حبسوهن مع سوء العشرة طمعاً في إرثهن أو يفتدين ببعض مهورهن، واختاره ابن عطية، وأصل العضل المنع أي لا تمنعوهن من الأزواج ودليل ذلك قوله:

﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ فإنها إذا أتت بفاحشة فليس للولي حبسها حتى يذهب بما لها إجماعاً من الأمة، وإنما ذلك للزوج، قال الحسن: إذا زنت البكر فإنها تجلد مائة وتنفى ويرد إلى زوجها ما أخذت منه، وقال أبو قلابة إذا زنت امرأة الرجل فلا بأس أن يضارها ويشق عليها حتى تفتدي منه، وقال السدي: إذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن.

وقال قوم الفاحشة البذاء باللسان وسوء العشرة قولاً وفعلاً، وقال مالك وجماعة من أهل العلم للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك.

هذا كله على أن الخطاب في قوله ﴿ولا تعضلوهن﴾ للأزواج، وقد عرفت ما قدمنا في سبب النزول أن الخطاب في قوله ﴿ولا تعضلوهن﴾ لمن خوطب بقوله ﴿لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ فيكون المعنى ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن أي ما آتاهن من ترثونه إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فحينئذ يجوز لكم حبسهن عن الأزواج.

ولا يخفى ما في هذا من التعسف مع عدم جواز حبس من أتت بفاحشة عن أن تتزوج وتستعف من الزنا.

وكما أن جعل قوله: ﴿ولا تعضلوهن﴾ خطاباً للأولياء فيه التعسّف، كذلك جعل قوله ﴿ولا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ خطاباً للأزواج فيه تعسف ظاهر مع مخالفته بسبب نزول الآية الذي ذكرناه.

والأولى أن يقال ان الخطاب في قوله ﴿ولا يحل لكم﴾ للمسلمين أي لا

يحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرهاً كما كانت تفعله الجاهلية، ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم أي تحبسوهن عندكم مع عدم رغبتكم فيهنّ، بل لقصد أن تذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهور يفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم وفي عقدتكم مع كراهتكم لهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فحينئذ يجوز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتموهن(١).

والإستثناء من أعم الأحوال والأوقات أو من أعم العلل أي لا يحل لكم عضلهن في حال أو وقت أو لعلة إلا في حال أو وقت أو لأجل إتيانهنّ بها فإن السبب حينئذ يكون من جهتهن وأنتم معذورون في طلب الخلع.

وقال الكرخي: الاستثناء متصل وعليه جرى القاضي كالكشاف وهو استثناء من زمان عام أو من علة عامة، وهذا أولى لأن الأول يحتاج إلى حذف زمان مضاف، وقيل منقطع واختاره الكواشي كأبي البقاء

والمبيّنة قرىء بفتح الياء وكسرها أي بينت بيّنها من يدعيها وأوضحها وأظهرها أو هي بينة أي الزنا والنشوز، وقرأ ابن عباس: بكسر الموحدة من أبان الشيء فهو مبين.

﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي بما هو معروف في هذه الشريعة وبين أهلها من حسن المعاشرة والإجمال في القول والنفقة والمبيت، وهو خطاب

(١) اختار الامام أبو جعفر الطبري في «تفسيره» ١١٣/٨ قول من قال: نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها، والاضرار بها، وهو لصحبتها كاره ولفراقها محب، لتفتدي منه ببعض ما آتاها من الصداق. وإنما قلنا: ذلك أولى بالصحة، لأنه لا سبيل لأحد إلى عضل امرأة إلا لأحد رجلين: إما لزوجها بالتضييق عليها، وحبسها على نفسه وهو لها كاره، مضارة منه لها بذلك، ليأخذ منها ما آتاها بافتدائها منه نفسها بذلك، أو لوليها الذي اليه إنكاحها، واذا كان لا سبيل إلى عضلها لأحد غيرهما، وكان الولي معلوماً أنه ليس مما آتاها شيئاً، فيقال: إن عضلها عن النكاح: «عضلها ليذهب ببعض ما آتاها» كان معلوماً أن الذي عنى الله تبارك وتعالى بنهيه عن عضلها، هو زوجها الذي له السبيل الى عضلها ضراراً لتفتدي منه.

للأزواج أو لما هو أعم، وذلك مختلف باختلاف الأزواج في الغنى والفقر والرفاعة والوضاعة، قال السدي: عاشروهن أي خالطوهن، وقال ابن جرير صحفه بعض الرواة وإنما هو خالقوهن، وعن عكرمة حقها عليك الصحبة الحسنة والكسوة والرزق المعروف.

﴿فإن كرهتموهن﴾ بسبب من الأسباب من غير ارتكاب فاحشة ولا نشوز فعسى أن يؤول الأمر إلى ما تحبونه من ذهاب الكراهة وتبدلها بالمحبة فيكون في ذلك خير كثير من استدامة الصحبة، وحصول الأولاد، فيكون الجزاء على هذا محذوفاً مدلولاً عليه بعلته أي فإن كرهتموهن فاصبروا ولا تفارقوهن بمجرد هذه النفرة.

﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ عن ابن عباس قال: الخير الكثير ان يعطف عليها فيرزق ولدها، ويجعل الله في ولدها خيراً كثيراً، وعن السدي نحوه، وقال مقاتل: يطلقها فتتزوج من بعده رجلاً فيجعل الله له منها ولداً، ويجعل الله في تزويجها خيراً كثيراً، وعن الحسن نحوه.

وقيل في الآية ندب إلى امساك المرأة مع الكراهة لها لأنه إذا كره صحبتها وتحمل ذلك المكروه طلباً للثواب، وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة.(1)

(١) في صحيح مسلم ١٠٩/٢ عن ابي هريرة مرفوعاً «لا يفرك مؤمن مؤمنه ان كره منها خلقاً رضي منها آخر، وقال: غيره.. والفرك: البغض.

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ الخطاب للرجال وأراد بالزوج الزوجة،قيل لما ذكر الله في الآية الأولى مضارّة الزوجات إذا أتين بفاحشة وهي إما النشوز او الزنا، بين في هذه الآية تحريم المضارة إن لم يكن من قبلها نشوز ولا زنا، ونهى عن بخس الرجل حق المرأة إذا أراد طلاقها واستبدال غيرها.

﴿و﴾ قد ﴿آتيتم إحداهن﴾ وهي المرغوب عنها والمراد بالإيتاء والالتزام والضمان كما في قوله ﴿إذا سلّمتم ما آتيتم﴾ أي ما التزمتم وما ضمنتم فلا يردأن حرمة الاخذ ثابتة وإن لم يكن قد آتاها المسمى، بل كان في ذمته أو يده، والواو للحال، وقيل للعطف وليس بظاهر.

﴿قنطاراً﴾ قد تقدم بيانه في آل عمران والمراد به هنا المال الكثير، وفي الآية دليل على جواز المغالاة في المهور ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ قيل هي محكمة وقيل هي منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ والأولى أن الكل محكم والمراد هنا غير المختلعة فلا يحل لزوجها أن يأخذ مما آتاها شيئاً.

وقال ابن عباس: إن كرهت امرأتك وأعجبك غيرها فطلقت هذه وتزوجت تلك فأعط هذه مهرها وإن كان قنطاراً، أخرج سعيد بن منصور وأبو يعلى قال السيوطي بسند جيد: إن عمر نهى الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فاعترضت له امرأة من قريش فقالت أما سمعت ما أنزل الله يقول ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ فقال اللهم غفراً كل الناس أفقه من عمر، فركب المنبر فقال أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا

النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب، قال أبو يعلى: وأظنه قال فمن طابت نفسه فليفعل، قال ابن كثير اسناده جيد قوي، وقد رويت هذه القصة بألفاظ مختلفة هذا أحدها[١].

وقيل المعنى لو جعلتم ذلك القدر لهن صداقاً فلا تأخذوا منه شيئاً وذلك أن سوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج أو من قبل الزوجة، فإن كان من قبل الزوج وأراد طلاق المرأة فلا يحل له أن يأخذ شيئاً من صداقها، وإن كان النشوز من قبل المرأة جاز له ذلك.

﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ الاستفهام للانكار والتقريع، والجملة مقرّرة للجملة الأولى المشتملة على النهي[٢].

---

(١) ابن كثير ١/٤٦٧.
وخطب عمر رضي الله عنه فقال: ألا لا تغالوا في صَدُقات النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ما أصدق قط أمرأة من نسائه ولا بناته فوق آثنتي عشرة أوقية. فقامت إليه آمرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا! أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾؟ فقال عمر: أصابت آمرأة وأخطأ عمر. وفي رواية فأطرق عمر ثم قال: كل الناس أفقه منك يا عمر!. وفي أخرى: آمرأة أصابت ورجل أخطأ. وترك الإنكار. أخرجه أبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي العجفاء السلمي قال: خطب عمر الناس، فذكره إلى قوله: آثنتي عشرة أوقية، ولم يذكر: «فقامت اليه امرأة إلى آخره». واخرجه ابن ماجة في سننه عن ابي العجفاء.
(٢) وروى ابن العاص ٥/١٠١ القرطبي.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

﴿وكيف﴾ كلمة تعجب ﴿تأخذونه﴾ إنكار بعد إنكار مشتمل على العلة التي تقتضي منع الأخذ وهي الإفضاء، والمعنى لأي وجه تفعلون مثل هذا الفعل، وكيف يليق بالعاقل أن يسترد شيئاً بذله لزوجته عن طيب نفس، وقيل هو استفهام معناه التوبيخ والتعظيم لأخذ المهر بغير حله.

ثم ذكر السبب فقال ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ قال الهروي والكلبي: وهو إذا كان في لحاف واحد جامع أو لم يجامع، وقال الفراء: الإفضاء أن يخلو الرجل والمرأة وإن لم يجامعها وبه قال أبو حنيفة، وقال ابن عباس ومجاهد والسدي واختاره الزجاج: أن الافضاء في هذه الآية الجماع ولكن الله يكنى وبه قال الشافعي.

وأصل الإفضاء في اللغة المخالطة يقال للشيء المختلط فضاء ويقال القوم فوضاً وفضاء أي مختلطون لا أمير عليهم، وقيل الوصول: يقال أفضى إليه أي وصل.

﴿وأخذن منكم﴾ وهذا الإسناد مجاز عقلي لأن الآخذ للعهد حقيقة هو الله لكن بولغ فيه حتى جعل كأنهن الآخذات له ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ وهو عقد النكاح ومنه قوله ﷺ «فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»(١) وقيل هو قوله تعالى ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ قاله ابن عباس، وقيل هو الأولاد.

كان ابن عمر إذا نكح قال: نكحتك على ما أمر الله به إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، قال قتادة: وقد كان ذلك يؤخذ عند عقد النكاح الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرّحن بإحسان، وعن أنس بن مالك نحوه، وعلى هذا هو قول العاقد عند العقد وعلى الأول هو كلمة النكاح المعقودة على الصداق.

---

(١) أبو داود كتاب المناسك باب ٥٦ - الإمام احمد ٥/٧٢.

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ نهى عما كانت عليه الجاهلية من نكاح نساء آبائهم إذا ماتوا، وهو شروع في بيان من يحرم نكاحه من النساء ومن لا يحرم، وإنما خص هذا النكاح بالنهي ولم ينتظم في سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغة في الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه.

ومن المعلوم أن المحرمات بالمصاهرة أربع: زوجة الأب وزوجة الأبن وأم الزوجة وبنت الزوجة، وكلها يحصل فيه التحريم بمجرد العقد وإن لم يحصل دخول إلا الربيبة فلا تحريم إلا بشرط الدخول بأمها وهذا يستفاد من الآيات فإنها لم تقيد بالدخول إلا في الربيبة على ما سيأتي. والمراد آباؤكم من نسب أو رضاع.

﴿إلا ما قد سلف﴾ استثناء منقطع لأن الماضي لا يستثنى من المستقبل أي لكن ما قد سلف في الجاهلية فاجتنبوه ودعوه فإنه مغفور عنه، وقيل إلا بمعنى بعد أي بعد ما سلف وقيل المعنى ولا ما سلف، وقيل هو استثناء متصل من قوله ما نكح آباؤكم يفيد المبالغة في التحريم بإخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال،يعني إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوا فلا يحل لكم غيره. وقيل معناه إلا ما سلف من الأب في الجاهلية من الزنا بإمرأة فإنه يجوز للإبن تزوجها قاله ابن زيد. والأول أولى.

ثم بين سبحانه وجه النهي عنه فقال ﴿إنه كان فاحشة ومقتاً﴾ هذه الجملة تدل على أنه من أشد المحرمات وأقبحها، وقد كانت الجاهلية تسميه بنكاح المقت، قال ثعلب سألت ابن الاعرابي عن نكاح المقت فقال: هو أن

يتزوج الرجل أمرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها ويقال لهذا الضيزن، وأصل المقت البغض من مقته يمقته مقتاً فهو ممقوت ومقيت، والعرب تسمى ولد الرجل من أمرأة أبيه مقيتاً، وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو ابن أمية[1].

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن البراء قال: لقيت خالي ومعه الراية قلت أين تريد قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده فأمرني أن أضرب عنقه وآخذ ماله.

﴿وساء سبيلاً﴾ أي ساء سبيل ذلك النكاح لأنه يؤدي إلى مقت الله، وقيل التقدير ساء سبيله وقيل مقولاً في حقه ساء سبيلاً فإن ألسنة الأمم كافة لم تنزل ناطقة بذلك في الأمصار والأعصار، وقيل مراتب القبح ثلاث: وقد وصف الله هذا النكاح بكل ذلك، فقوله ﴿فاحشة﴾ مرتبة قبحه العقلي، وقوله ﴿مقتاً﴾ مرتبة قبحه الشرعي، وقوله ﴿ساء سبيلاً﴾ مرتبة قبحه العادي، وما اجتمعت فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح.

---

(١) وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي. ألا ترى أن عمرو ابن أمية خلف على آمرأة أبيه بعد موته فولدت له مسافراً وأبا معيط، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره؛ فكان بنو أمية إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما. ومن ذلك صفوان بن أمية بن خلف تزوج بعد أبيه آمرأته فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد، وكان أمية قتل عنها. ومن ذلك منظور بن زبان خلف على مليكة بنت خارجة، وكانت تحت أبيه زبان بن سيار. ومن ذلك حصن ابن أبي قيس تزوج آمرأة أبيه كبيشة بنت معن. والأسود بن خلف تزوج آمرأة أبيه. وقال الأشعث ابن سوّار: توفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب آبنه آمرأة أبيه فقالت: إني أعدّك ولداً، ولكني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره؛ فأتته فأخبرته فأنزل الله هذه الآية.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ
وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى
فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

﴿حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين﴾.

قد بين الله سبحانه في هذه الآية ما يحل وما يحرم من النساء، فحرّم سبعاً من النسب وستاً من الرضاع والصهر، وألحقت السنة المتواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، ووقع عليه الاجماع.

والسبع المحرمات من النسب الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

والمحرمات بالصهر والرضاع: الأمهات من الرضاعة والأخوات من الرضاعة وأمهات النساء والربائب وحلائل الأبناء والجمع بين الأختين، فهؤلاء ست، والسابعة منكوحات الآباء والثامنة الجمع بين المرأة وعمتها.

قال الطحاوي: وكل هذا من المحكم المتفق عليه، وغير جائز نكاح واحدة منهن بالإجماع إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم، وقال بعض السلف الأم والربيبة سواء لا تحرم واحدة منهما إلا بالدخول بالأخرى.

قالوا ومعنى قوله وأمهات نسائكم أي اللاتي دخلتم بهن وزعموا أن قيد الدخول راجع إلى الأمهات والربائب جميعاً، رواه خلاس عن علي بن أبي طالب، وروي عن ابن عباس وجابر وزيد بن ثابت وابن الزبير ومجاهد.

قال القرطبي: ورواية خلاس عن علي لا تقوم به الحجة ولا تصح روايته عند أهل الحديث، والصحيح عنه مثل قول الجماعة وقد أجيب عن قولهم إن قيد الدخول راجع إلى الأمهات والربائب بأن ذلك لا يجوز من جهة الإعراب أن يكون اللاتي دخلتم بهن نعتاً لهما جميعاً لأن الخبرين مختلفان.

قال ابن المنذر: والصحيح قول الجمهور لدخول جميع أمهات النساء في قوله وأمهات نسائكم.

ومما يدل على ما ذهب إليه الجمهور ما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالأبنة أم لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج الابنة(١).

قال ابن كثير في تفسيره مستدلاً للجمهور: وقد روي في ذلك خبر، غير

(١) الترمذي كتاب النكاح باب ٢٥.

أن في اسناده نظراً فذكر هذا الحديث،ثم قال وهذا الخبر وان كان في إسناده ما فيه فإن الاجماع حجة على صحة القول به يغني عن الاستشهاد على صحته بغيره[1].

وقال في الكشاف: وقد اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الربائب على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى انتهى، ودعوى الإجماع مدفوعة بخلاف من تقدم.

واعلم أنه يدخل في لفظ الامهات أمهاتهن وجدّاتهن وأم الأب وجداته وان علون لان كلهن أمهات لمن ولده من ولدنه وان سفل، ويدخل في لفظ البنات بنات الأولاد وان سفلن، والأخوات تصدق على الأخت لأبوين أو لأحدهما والعمة اسم لكل أنثى شاركت أباك أو جدك في أصليه أو أحدهما، وقد تكون العمة من جهة الأم وهي أخت أب الام.

والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصليها أو إحداهما وقد تكون الخالة من جهة الاب وهي أخت أم أبيك، وبنت الاخ اسم لكل أنثى لاخيك عليها ولادة بواسطة ومباشرة وإن بعدت، وكذلك بنت الاخت وأمهات الرضاعة مطلق مقيد بما ورد في السنة، من كون الرضاع في الحولين إلا في مثل قصة إرضاع سالم مولى أبي حذيفة.

ظاهر النظم القرآني أنه يثبت حكم الرضاع بما يصدق عليه مسمى الرضاع لغة وشرعاً،ولكنه قد ورد تقييده بخمس رضعات في أحاديث صحيحة عن جماعة من الصحابة وتقرير ذلك وتحقيقه يطول، وقد استوفاه الشوكاني في مصنفاته وقرر ما هو الحق في كثير من مباحث الرضاع.

(١) ابن كثير ١/٤٧١.

والأخت من الرضاع هي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الإخوة والأخوات، ويلحق بذلك بالسنة البنات منها وهن من أرضعتهن موطوآته والعمات والخالات وبنات الاخت منها لحديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» رواه البخاري ومسلم[1].

والأخت من الأم هي التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر وأمهات النساء من نسب أو رضاع قد تقدم الكلام عليها على اعتبار الدخول وعدمه.

والربيبة بنت امرأة الرجل من غيره سميت بذلك لانه يربيها في حجره فهي مربوبة فعيلة بمعنى مفعولة.

قال القرطبي: واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها دخل بالأم وان لم تكن الربيبة في حجره، وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر فقالوا: لا تحرم الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج، فلو كانت في بلد آخر وفارق الأم فله أن يتزوج بها، وقد روى ذلك عن علي.

قال ابن المنذر والطحاوي لم يثبت ذلك عن علي لأن رواية إبراهيم بن عبيد عن مالك بن أوس عن علي، وإبراهيم هذا لا يعرف، وقال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا عن علي: وهذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم.

والحجور جمع حجر بفتح الحاء وكسرها مقدم الثوب، والمراد لازم الكون في الحجور وهو الكون في تربيتهم، والمراد أنهن في حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن كما هو الغالب، وقيل المراد بالحجور البيوت أي في بيوتكم، حكاه الأثرم عن أبي عبيدة وقيل هي صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها.

---

(١) مسلم ١٤٤٤، البخاري ١٢٨٥.

والباء في دخلتم بهن للتعدية أي دخلتم الخلوة بهن، والمراد لازمه العادي وهو الوطء أي جامعتموهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم في نكاح الربائب إذا فارقتموهن أو متن، وهو تصريح بما دل عليه مفهوم ما قبله.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب، فروى عن ابن عباس أنه قال: الدخول الجماع وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهما، وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث: إن الزوج إذا لمس الأم بشهوة حرمت عليه ابنتها، وهو أحد قولي الشافعي، وقال أبو السعود معنى الدخول بهن إدخالهن الستر والباء للتعدية وهي كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب، وفي حكمه اللمس ونظائره انتهى ورجحه الخفاجي.

ورد على البيضاوي في قوله رداً على أبي حنيفة تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس بأن صريح الآية غير مراد قطعاً بل ما اشتهر من معناها الكنائي.

وقال ابن جرير الطبري: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأته لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع انتهى.

وهكذا حكى الإجماع القرطبي فقال: وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها، واختلفوا في النظر فقال الكوفيون إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة وكذا قال الثوري ولم يذكر الشهوة، وقال ابن أبي ليلى: لا تحرم بالنظر حتى يلمس وهو قول الشافعي.

والذي ينبغي التعويل عليه في مثل هذا الخلاف هو النظر في معنى

الدخول شرعاً أو لغة فإن كان خاصاً بالجماع فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما، وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك.

وأما الربيبة في ملك اليمين فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه كره ذلك وقال ابن عباس: أحلتهما آية وحرمتهما آية ولم أكن لأفعله، وقال ابن عبد البر لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين لأن الله حرم ذلك في النكاح قال ﴿وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روى عن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم انتهى.

والحلائل جمع حليلة وهي الزوجة سميت بذلك لأنها تحل مع الزوج حيث حل فهي فعيلة بمعنى فاعلة، وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال فهي حليلة بمعنى محلّلة وقيل لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه.

وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء وما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء أم لم يكن لقوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ وقوله ﴿وحلائل أبنائكم﴾ واختلف الفقهاء في العقد إذا كان فاسداً هل يقتضي التحريم أم لا كما هو مبين في كتب الفروع.

قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه العلم من علماء الأمصار أن الرجل إذا وطىء امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وابنه وعلى أجداده، وأجمع العلماء على أن عقد الشراء على الجارية لا يحرمها على أبيه وابنه، فإذا اشترى جارية فلمس أو قبل حرمت على أبيه وابنه، لا أعلمهم يختلفون فيه فوجب تحريم ذلك تسليماً لهم، ولما اختلفوا في تحريمها بالنظر دون اللمس لم يجز ذلك لاختلافهم، قال: ولا يصح عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ خلاف ما قلناه.

وقوله ﴿الذين من أصلابكم﴾ وصف للأبناء أي دون من تبنّيتم من أولاد غيركم كما كانوا يفعلونه في الجاهلية، ومنه قوله تعالى ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ ومنه قوله تعالى ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ ومنه ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ فلكم نكاح حلائلهم.

وأما زوجة الابن من الرضاع فقد ذهب الجمهور إلى أنها تحرم على أبيه، وقد قيل انها إجماع مع أن الإبن من الرضاع ليس من أولاد الصلب، ووجهه ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب[1]» وإن كان مقتضى مفهوم الآية تحليلهن، ولا خلاف في أن أولاد الأولاد وإن سفلوا بمنزلة أولاد الصلب في تحريم نكاح نسائهم على آبائهم.

وقد اختلف أهل العلم في وطء الزنا هل يقتضي التحريم أم لا، فقال أكثر أهل العلم إذا أصاب رجل امرأة بزنا لم يحرم عليه نكاحها بذلك، وكذلك لا تحرم عليه امرأته إذا زنى بأمها أو ابنتها، وحسبه أن يقام عليه الحد، وكذلك يجوز له عندهم أن يتزوج بأم من زنى بها وبابنتها.

وقالت طائفة من أهل العلم: إن الزنى يقتضي التحريم، وحكى ذلك عن عمران بن حصين والشعبي وعطاء والحسن والثوري وأحمد واسحق وأصحاب الرأي، وحكى ذلك عن مالك والصحيح عنه كقول الجمهور، احتج الجمهور بقوله تعالى ﴿وأمهات نسائكم﴾ وبقوله ﴿وحلائل أبنائكم﴾ والموطوأة بالزنا لا يصدق عليها أنها من نسائهم ولا من حلائل أبنائهم.

وقد أخرج الدارقطني عن عائشة قالت: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوجها أو ابنتها فقال: لا يحرم الحرام الحلال .

---

(١) مسلم ١٤٤٤ ـ البخاري ١٢٨٥. الدارقطني كتاب النكاح ٢٦٨/٣.

واحتج المحرّمون بما روى في قصة جريج الثابتة في الصحيح أنه قال: يا غلام من أبوك؟ فقال فلان الراعي فنسب الإبن نفسه إلى أبيه من الزنا. وهذا احتجاج ساقط، واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة وابنتها». ولم يفصل بين الحلال والحرام ويجاب عنه بأن هذا مطلق مقيّد بما ورد من الأدلة الدالّة على أن الحرام لا يحرم الحلال.

ثم اختلفوا في اللواط هل يقتضي التحريم أم لا؟ فقال الثوري إذا لاط بالصبي حرمت عليه أمه وهو قول أحمد بن حنبل قال إذا تلوّط بابن امرأته أو أبنها أو أخيها حرمت عليه امرأته، وقال الأوزاعي إذا لاط بغلام وولد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها لأنها بنت من قد دخل به.

ولا يخفى ما في قول هؤلاء من الضعف والسقوط النازل عن قول القائلين بأن وطء الحرام يقتضي التحريم بدرجات لعدم صلاحية ما تمسك به أولئك من الشُبه على ما زعمه هؤلاء من اقتضاء اللواط للتحريم.

والجمع بين الأختين من نسب أو رضاع يشمل الجمع بينهما بالنكاح والوطء بملك اليمين، وقيل ان الآية خاصة بالجمع في النكاح لا في ملك اليمين، وأما في الوطء بالملك فلا حق بالنكاح، وقد أجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد نكاح، واختلفوا في الأختين بملك اليمين فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما في الوطء بالملك، وأجمعوا على أنه يجوز الجمع بينهما في الملك فقط. وقد توقف بعض السلف في الجمع بين الأختين في الوطء بالملك وسيأتي بيان ذلك.

واختلفوا في جواز عقد النكاح على أخت الجارية التي توطأ بالملك فقال الأوزاعي: إذا وطىء جارية له بملك اليمين لم يجز له أن يتزوج أختها. وقال الشافعي: ملك اليمين لا يمنع نكاح الأخت.

وقد ذهبت الظاهرية إلى جواز الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما يجوز الجمع بينهما في الملك، قال ابن عبد البر بعد أن ذكر ما روى عن عثمان بن عفان من جواز الجمع بين الأختين في الوطء بالملك، وقد روى مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، ولكنهم اختلف عليهم ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز ولا بالعراق ولا ما وراءها من المشرق ولا بالشام ولا المغرب إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفى القياس، وقد ترك من تعمد ذلك، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما لا يحل ذلك في النكاح.

وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله ﴿حرّمت عليكم أمهاتكم﴾ الآية أن النكاح بملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون قياساً ونظراً الجمع بين الاختين وأمهات النساء والربائب، وكذلك هو عند جمهورهم وهي الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها والله المحمود انتهى.

وأقول ههنا اشكال وهو أنه قد تقرر أن النكاح يقال على العقد فقط وعلى الوطء فقط، والخلاف في كون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً وكونهما حقيقتين معروف. فإن حملنا هذا التحريم المذكور في قوله ﴿حرّمت عليكم أمهاتكم﴾ الخ على أن المراد تحريم العقد عليهن لم يكن في قوله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ دلالة على تحريم الجمع بين المملوكتين في الوطء بالملك وما وقع من إجماع المسلمين على أن قوله ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ إلى آخره تستوي فيه الحرائر والإماء. والعقد والملك لا يستلزم أن يكون محل الخلاف وهو الجمع بين الأختين في الوطء بملك اليمين مثل محل الإجماع، ومجرد القياس في مثل هذا الموطن لا تقوم به الحجة لما يرد عليه من النقوض.

وإن حملنا التحريم المذكور في الآية على الوطء فقط لم يصح ذلك الإجماع على تحريم عقد النكاح على جميع المذكورات من أول الآية إلى آخرها،

فلم يبق إلا حمل التحريم في الآية على تحريم عقد النكاح، فيحتاج القائل بتحريم الجمع بين الأختين في الوطء بالملك إلى دليل، ولا ينفعه أن ذلك قول الجمهور، فالحق لا يعرف بالرجال فإن جاء به خالصاً عن شوب الكدر فيها ونعمت وإلا كان الأصل الحل.

ولا يصح حمل النكاح في الآية على معنييه جميعاً أعني العقد والوطء، لأنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع، أو من باب الجمع بين معنيي المشترك وفيه الخلاف المعروف في الأصول، فتدبر هذا.

وقال السيوطي: ويلحق بهما أي بالأختين بالسنّة الجمع بينها وبين عمتها أو خالتها، ويجوز نكاح كل واحدة على الإنفراد وملكهما معاً ويطأ واحدة انتهى.

قلت:قد اختلف أهل العلم إذا كان الرجل يطأ مملوكته بالملك ثم أراد أن يطأ أختها بالملك أيضاً فقال علي وابن عمر والحسن البصري، والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها من ملكه ببيع أو عتق أو بأن يزوجها.

قال ابن المنذر: وفيه قول ثان لقتادة وهو أنه ينوي تحريم الأولى على نفسه وأن لا يقربها ثم يمسك عنها حتى تستبريء المحرمة ثم يغشى الثانية، وفيه قول ثالث وهو أنه لا يقرب واحدة منهما هكذا قاله الحكم وحماد، وروي معنى ذلك عن النخعي.

وقال مالك إذا كان عنده أختان بملك فله أن يطأ أيتهما شاء، والكف عن الأخرى موكول إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعله من إخراج عن الملك أو تزويج أو بيع أو عتق أو

كتابة أو إخدام طويل، فإن كان يطأ إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما ولم يجز له قرب إحداهما حتى يحرّم الأخرى، ولم يوكل ذلك إلى أمانته لأنه متهم[1].

قال القرطبي: وقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها انه ليس له أن ينكح أختها حتى تنقضي عدّة المطلقة، واختلفوا إذا طلقها لا يملك رجعتها فقالت طائفة ليس له أن ينكح أختها ولا رابعة حتى تنقضي عدة التي طلقها روي ذلك عن علي وزيد بن ثابت ومجاهد وعطاء والنخعي والثوري وأحمد بن حنبل وأصحاب الرأي.

وقالت طائفة: له أن ينكح أختها، وينكح الرابعة لمن كان تحته أربع وطلق واحدة منهن طلاقاً بائناً، وروي ذلك عن سعيد بن المسيب والحسن والقاسم وعروة بن الزبير وابن أبي ليلى والشافعي وأبي ثور وأبي عبيد، قال ابن المنذر: ولا أحسبه إلا قول مالك، وهو أيضاً إحدى الروايتين عن زيد بن ثابت وعطاء.

وقوله ﴿إلا ما قد سلف﴾ يحتمل أن يكون معناه ما تقدم من قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ويحتمل معنى آخر وهو جواز ما سلف، وأنه إذا جرى الجمع في الجاهلية كان النكاح صحيحاً وإذا جرى في الإسلام خيّر بين الأختين، والصواب الإحتمال الأول ﴿إن الله كان غفوراً﴾ لما سلف منكم قبل النهي ﴿رحيماً﴾ بكم في ذلك.

---

(١) وقد روى فيروز الديلمي قال: أسلمت وعندي اختان فأتيت النبي ﷺ فقال: «طلق احداهما» رواه ٤/٢٣٢ وابو داود ٣/١٥٨ والترمذي ٣/٤٣٦ وابن ماجة ١/٦٢٧. وفي رواية «اختر ايتهما شئت».

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

﴿والمحصنات من النساء﴾ عطف على المحرمات المذكورات أي وحرمت عليكم ذواتَ الأزواج، وأصل التحصن التمنع ومنه قوله تعالى ﴿ليحصنكم من بأسكم﴾ أي ليمنعكم، ومنه الحصان بكسر الحاء للفرس لأنه يمنع صاحبه من الهلاك، والحصان بفتح الحاء المرأة العفيفة لمنعها نفسها والمصدر الحصانة بفتح الحاء.

والمراد بالمحصنات هنا الأزواج. وقد ورد الإحصان في القرآن لمعان أحدها التزوج كما في هذه الآية وكما في قوله ﴿محصنين غير مسافحين﴾ والثاني يراد به الحرية، ومنه قوله تعالى ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات﴾ وقوله ﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ والثالث يراد به العفة، ومنه قوله تعالى ﴿محصنات غير مسافحات﴾ والرابع الإسلام ومنه قوله تعالى ﴿فإذا أحصنّ﴾ أي أسلمن.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية فقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري وأبو قلابة ومكحول والزهري: المراد بالمحصنات هنا المسبيّات ذوات الأزواج خاصة أي هن محرمات عليكم أن تنكحوهن قبل مفارقة أزواجهن، وقد قرىء المحصنات بفتح الصاد وكسرها فالفتح على أن الأزواج أحصنوهن، والكسر على أنهن أحصن فروجهن من غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن.

﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ بالسبي من أرض الحرب فإن تلك حلال لكم وطؤهن وإن كان لها زوج في دار الحرب بعد الإستبراء وهو قول الشافعي، أي أن السباء يقطع العصمة، وبه قال ابن وهب وابن عبد الحكم وروياه عن مالك، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وأحمد واسحق وابو ثور.

والإستثناء متصل لأن المستثنى المزوجات، لكن فيه شائبة انقطاع من حيث أن المستثنى منه نكاح المتزوجات، والمستثنى وطء الزوجات، وقد صرح السمين بأنه منقطع، واختلفوا في استبرائها بماذا يكون كما هو مدون في كتب الفروع.

وقالت طائفة: المحصنات في هذه الآية العفائف، وبه قال أبو العالية وعبيدة السلماني وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء، ورواه عبيدة عن عمر، ومعنى الآية عندهم كل النساء حرام إلا ما ملكت إيمانكم أي تملكون عصمتهن بالنكاح وتملكون الرقبة بالشراء، وحكى ابن جرير الطبري: أن رجلاً قال لسعيد بن جبير ما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية فلم يقل فيها شيئاً فقال كان ابن عباس لا يعلمها.

وروى ابن جرير ايضاً عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه اكباد الابل انتهى، ومعنى الآية والله اعلم اوضح لا سترة به أي وحرمت عليكم المحصنات من النساء أي المزوجات أعمّ من أن يكن مسلمات أو كافرات إلا ما ملكت إيمانكم منهن إما بسبي فإنها تحل وإن كانت ذات زوج، أو بشراء فإنها تحل ولو كانت مزوجة وينفسخ النكاح الذي كان عليها بخروجها عن ملك سيدها الذي زوجها، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿كتاب الله عليكم﴾ أي كتب ذلك كتاباً وفرضه فرضاً، وقيل الزموا كتاب الله أو عليكم كتاب الله، وروي عن عبيدة السلماني أن قوله هذا إشارة

إلى قوله تعالى: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ وهو بعيد جداً. بل هو إشارة إلى التحريم المذكور في قوله: ﴿حرّمت عليكم﴾ إلى آخر الآية.

وفي قوله ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ دلالة على أنه يحل لهم نكاح ما سوى المذكورات، وهذا عام مخصوص بما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، ومن ذلك نكاح المعتدة، ومن ذلك أن من كان في نكاحه حرة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك القادر على الحرة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة، ومن ذلك الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن أبداً.

وقيل لا حاجة للتنبيه على هذا لأن الكلام في التحريم على التأبيد، وما ذكره من الأقسام لا يحرم مؤبداً بل لعارض يزول. نعم يظهر ما قالوه في الملاعنة لأن تحريمها مؤبّد، وقد أبعد من قال إن تحريم الجمع بين المذكورات مأخوذ من الآية هذه لأنه حرم الجمع بين الأختين فيكون ما في معناه في حكمه، وهو الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، وكذلك يحرم نكاح الأمة لمن يستطيع نكاح حرّة فإنه يخصص هذا العموم.

لأجل ﴿أن تبتغو بأموالكم﴾ النساء اللاتي أحلهن الله لكم ولا تبتغوا بها الحرام فتذهب، وقيل هو بدل من ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما وراء ذلكم﴾ والأول أولى. وأراد سبحانه بالأموال المذكورة ما يدفعونه في مهور الحرائر و أثمان الإماء ﴿محصنين﴾ الإحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب أي حال كونكم متزوجين ومتسرّين متعفّفين عن الزنا ﴿غير مسافحين﴾ أي غير زانين؛ والسفاح الزنا وهو مأخوذ من سفح الماء أي صبه وسيلانه، فكأنه سبحانه أمرهم بأن يطلبوا بأموالهم النساء على وجه النكاح لا على وجه السفاح.

﴿فما استمتعتم به منهن﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى الآية فقال

الحسن ومجاهد وغيرهما: فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي، وعلى هذا فالآية واردة في النكاح الصحيح وأن الزوج متى وطئها ولو مرة وجب عليه مهرها المسمى أو مهر المثل، ولكن يرد على هذا أنها تتكرر مع قوله سابقاً ﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾ وقال الجمهور: إن المراد بهذه الآية نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام حيث كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غيره ويقضي منها وطره ثم يسرحها، ويؤيد ذلك قراءة أُبَيّ بن كعب وابن عباس وسعيد بن جبير ﴿فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى﴾ ثم نهى عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما صح ذلك من حديث علي قال: نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر[1]، وهو في الصحيحين وغيرهما.

وفي صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني عن النبي ﷺ أنه قال: يوم فتح مكة: يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، والله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً[2]، وفي لفظ لمسلم أن ذلك كان في حجة الوداع، فهذا هو الناسخ، وقال سعيد بن جبير نسختها آية الميراث إذ المتعة لا ميراث فيها.

وقالت عائشة والقاسم بن محمد تحريمها ونسخها في القرآن، وذلك قوله تعالى ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ وليست المنكوحة بالمتعة من أزواجهم ولا ما ملكت أيمانهم، فإن من شأن الزوجة أن ترث وتورث، وليست المستمتع بها كذلك والأحاديث في تحليل المتعة ثم تحريمها وهل كان نسخها مرة أو مرتين مذكورة في كتب الحديث، وقد روى عن ابن عباس أنه قال بجواز المتعة وأنها باقية لم تنسخ، وروى عنه أنه رجع عن ذلك عند أن بلغه الناسخ، وقد قال بجوازها جماعة

(١) مسلم ١٤٠٧ ـ البخاري ١٩٠٨.
(٢) مسلم ١٤٠٦.

من الروافض، ولا اعتبار بأقوالهم، وقد أتعب نفسه بعض المتأخرين بتكثير الكلام على هذه المسئلة وتقوية ما قاله المجوزون لها، وليس هذا المقام مقام بيان بطلان كلامه، وقد طوّل الشوكاني البحث ودفع الشبهة الباطلة التي تمسك بها المجوزون لها في شرحه للمنتقى فليرجع إليه.

وقال ابن العربي: وأما متعة النساء فهي من غرائب الشريعة لأنها أبيحت في صدر الإسلام ثم حرمت يوم خيبر ثم أبيحت في غزوة أوطاس ثم حرمت بعد ذلك، واستقر الأمر على التحريم، وليس لها أخت في الشريعة إلا مسئلة القبلة، فإن النسخ طرأ عليها مرتين ثم استقرت حكاه القرطبي عنه.

﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي مهورهن التي فرضتم لهن، وإنما سمي المهر أجراً لأنه بدل عن المنفعة لا عن العين ﴿فريضة﴾ أي مفروضة مسماة، وقد كمل بهذا الوصف ما قبله ودخل به على ما بعده فهي مصدر مؤكد أو حال من أجورهن.

﴿ولا جناح عليكم﴾ ولا عليهن ﴿فيما تراضيتم به﴾ أنتم وهن ﴿من بعد الفريضة﴾ أي من زيادة ونقصان في المهر، فإن ذلك سائغ عند التراضي.

هذا عند من قال إن الآية في النكاح الشرعي، وأما عند الجمهور القائلين بأنها في المتعة فالمعنى التراضي في زيادة مدة المتعة أو نقصانها أو في زيادة ما دفعه إليها إلى مقابل الاستمتاع بها أو نقصانه، وقيل ما تراضيتم به من الإبراء من المهر والافتداء والاعتياض، وقال الزجاج: معناه لا جناح عليكم أن تهب المرأة للزوج مهرها وأن يهب الرجل للمرأة التي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه.

﴿إن الله كان عليماً﴾ بما يصلحكم في مناكحكم وغيرها من سائر أموالكم أو عليماً بالأشياء قبل خلقها ﴿حكيماً﴾ فيما دبر لكم من التدبير وفيما يأمركم وينهاكم عنه ولا يدخل حكمه خلل ولا زلل أو فيما فرض لكم من عقد النكاح الذي به حفظت الأنساب.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿ومن﴾ شرطية أو موصولة ﴿لم يستطع منكم طَولاً﴾ الطَّول الغنى والسعة قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي وأبو زيد ومالك والشافعي وأحمد واسحق وأبو ثور وجمهور أهل العلم، وإنما سمي الغنى طولاً لأنه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر، والطول كناية عما يصرف إلى المهر والنفقة يقال طال يطول طولاً في الأفضال والقدرة، وفلان ذو طول أي ذو قدرة في ماله، والطول بالضم ضد القصر، وقال قتادة والنخعي وعطاء والثوري: إن الطول الصبر.

ومعنى الآية عندهم أن من كان يهوى أمة حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها فإن له أن يتزوجها إذا لم يملك نفسه، وخاف أن يبغي بها، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة، وقال أبو حنيفة وهو يروي عن مالك: إن الطول المرأة الحرة فمن كان تحته حرة لم يحل له أن ينكح الأمة ومن لم يكن تحته حرة جاز له أن يتزوج أمة ولو كان غنياً، وبه قال أبو يوسف واختاره ابن جرير واحتج له.

والقول الأول هو المطابق لمعنى الآية ولا يخلو ما عداه عن تكلف، فلا

يجوز للرجل أن يتزوج بالأمة إلا إذا كان لا يقدر على أن يتزوج بالحرة لعدم وجود ما يحتاج إليه في نكاحها من مهر وغيره.

﴿أن ينكح المحصنات﴾ الحرائر ﴿المؤمنات﴾ هو جري على الغالب فلا مفهوم له، ومعنى الآية فمن لم يستطع منكم غنى وسعة في ماله يقدر بها على نكاح المحصنات المؤمنات ﴿فممّا﴾ أي فلينكح مما ﴿ملكت أيمانكم﴾ يعني جارية أخيك المؤمن، ودخلت الفاء في قوله ﴿فمما ملكت﴾ لتضمن المبتدأ معنى الشرط وقد عرفت أنه لا يجوز للرجل الحر أن يتزوج بالمملوكة إلا بشرط عدم القدرة على الحرة كما ذهب إليه الشافعي، والشرط الثاني ما سيذكره الله سبحانه آخر الآية من قوله ﴿ذلك لمن خشيَ العنت منكم﴾ فلا يحل للفقير أن يتزوج بالمملوكة إلا إذا كان يخشى على نفسه العنت.

والمراد هنا الأمة المملوكة للغير، وأما أمة الإنسان نفسه فقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز له أن يتزوجها وهي تحت ملكه لتعارض الحقوق واختلافها.

﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ وقد استدل بهذا على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، وبه قال أهل الحجاز وجوّزه أهل العراق، والفتيات جمع فتاة وهي الشابة من النساء والعرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة، وفي الحديث الصحيح: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل فتاي وفتاتي[1].

﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ فيه تسلية لمن ينكح الأمة إذا اجتمع فيه الشرطان المذكوران أي كلكم بنو آدم وأكرمكم عند الله أتقاكم فلا تستنكفوا من الزواج بالإماء عند الضرورة فربما كان إيمان بعض الإماء أفضل من إيمان بعض الحرائر، والجملة اعتراضية تفيد أن الإيمان كاف في نكاح الأمة المؤمنة ولو ظاهراً، ولا يشترط في ذلك أن يعلم إيمانها علماً يقيناً فإن ذلك لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

---

(١) مسلم ٢٢٤٩ ـ البخاري ١٢٥١.

﴿بعضكم من﴾ جنس ﴿بعض﴾ أي أنهم متصلون في الأنساب، لأنهم جميعاً بنو آدم ومتصلون في الدين لأنهم جميعاً أهل ملة واحدة وكتابهم واحد ونبيهم واحد، والمراد بهذا توطية نفوس العرب لأنهم كانوا يستهجنون أولاد الإماء ويستصغرونهم ويغضون منهم ويسمون ابن الأمة الهجين، فاعلم الله أن ذلك أمر لا يلتفت إليه فلا يتداخلنكم شموخ وأنفة من التزويج بالإماء فإنكم متساوون في النسب إلى آدم.

وقال ابن عباس: يريد أن المؤمنين بعضهم أكفاء بعض، أي فلا يترفع الحر عن نكاح الأمة عند الحاجة إليه.

﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ أي بإذن المالكين لهن ومواليهن لأن منافعهن لهم لا يجوز لغيرهم أن ينتفع بشيء منها إلا بإذن من هي له، واتفق أهل العلم على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة.

﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بما هو المعروف في الشرع من غير مطل ولا نقص ولا ضرار، وقيل مهور أمثالهن، وقد استدلّ بهذا من قال إن الأمة أحق بمهرها من سيدها، وإليه ذهب مالك وذهب الجمهور إلى أن المهر للسيد وإنما أضافها إليهن لأن التأدية إليهن تأدية إلى سيدهن لكونهن ماله.

﴿محصنات﴾ عفائف حال ﴿غير مسافحات﴾ زانيات جهراً أي غير معلنات بالزنا، وهذا الشرط على سبيل الندب بناء على المشهور من جواز نكاح الزواني ولو كنّ إماء، قاله الخطيب.

﴿ولا متخذات أخدان﴾ أخلّاء يزنون بهن سراً، والأخدان الأخلاء،

والخدن والخدين المخادن أي المصاحب، وقيل ذات الخدن هي التي تزني سراً فهو مقابل للمسافحة، وهي التي تجاهر بالزنا وقيل المسافحة المبذولة وذات الخدن التي تزني بواحد. وكانت العرب تعيب الإعلان بالزنا ولا تعيب اتخاذ الأخدان، ثم رفع الإسلام جميع ذلك فقال الله ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ وقال أبو زيد الأخدان الأصدقاء على الفاحشة.

﴿فإذا أحصنّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ المراد بالإحصان هنا الإسلام، روى ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وأنس والأسود بن يزيد. وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وعطاء والنخعي والشعبي والسدي، وروى عن عمر بن الخطاب بإسناد منقطع وهو الذي نصّ عليه الشافعي، وبه قال الجمهور، وقال ابن عباس وأبو الدرداء ومجاهد وعكرمة وطاوس والحسن وقتادة وغيرهم أنه التزويج، وروى عن الشافعي.

فعلى القول الأول لاحدَّ على الأمة الكافرة، وعلى الثاني لاحدَّ على الأمة التي لم تتزوج، وقال القاسم: وسالم إحصانها إسلامها وعفافها،وقال ابن جرير: إن معنى القراءتين مختلف، فمن قرأ أحصن بضم الهمزة فمعناه التزويج، ومن قرأ بفتح الهمزة فمعناه الإسلام.

قال قوم إن الاحصان المذكور في الآية هو التزوج ولكن الحد واجب على الأمة المسلمة إذا زنت قبل أن تتزوج بالسنة، وبه قال الزهري.

قال ابن عبد البر: ظاهر قول الله عز وجل يقتضي أنه لا حد على الأمة وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها وإن لم تحصن وكان ذلك زيادة بيان.

قال القرطبي: ظهر المسلم حمى لا يستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف لولا ما جاء في صحيح السنة من الجلد.

قال ابن كثير في تفسيره: والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان هنا التزويج لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً إلى قوله فإذا أحصن﴾ الآية فالسياق كله في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله ﴿فإذ أحصن﴾ أي تزوجن كما فسره به ابن عباس ومن تبعه(١).

قال: وعلى كلا القولين إشكال على مذهب الجمهور لأنهم يقولون إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة مزوّجة أو بكراً مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة من الإماء، قد اختلفت أجوبتهم عن ذلك.

ثم ذكر أن منهم من أجاب وهم الجمهور بتقديم منطوق الأحاديث على هذا المفهوم، ومنهم من عمل على مفهوم الآية وقال إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها، وإنما تضرب تأديباً قال وهو المحكي عن ابن عباس وإليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وأبو عبيد وداود الظاهري في رواية عنه.

فهؤلاء قدموا مفهوم الآية على العموم، وأجابوا عن مثل حديث أبي هريرة وزيد بن خالد في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، قال: إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير(٢)، بإن المراد بالجلد هنا التأديب. وهو تعسف.

وأيضاً قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت فليجلدها الحد، الحديث(٣).

---

(١) ابن كثير ١/ ٤٧٦.
(٢) مسلم ١٧٠٣ ـ البخاري ١٠٨٨.
(٣) مسلم ١٧٠٣ ـ البخاري ١٠٨٨.

ولمسلم من حديث علي: يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت فأمرني أن أجلدها، الحديث.

وأما ما أخرجه سعيد بن منصور وابن خزيمة والبيهقي عن ابن عباس قال:قال رسول الله ﷺ، «وليس على الأمة حد حتى تحصن بزوج فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات من العذاب» فقد قال ابن خزيمة والبيهقي إن رفعه خطأ والصواب وقفه.

والفاحشة هنا الزنا فعليهن نصف ما على المحصنات أي الحرائر الأبكار إذا زنين، لأن الثيب عليها الرجم، وهو لا يبعّض، وقيل المراد بالمحصنات هنا المزوجات لأن عليها الجلد والرجم، والرجم لا يتبعّض فصار عليهن نصف ما عليهن من الجلد، فيجلدن خمسين ويغرّبن نصف سنة.

والمراد بالعذاب هنا الجلد، وإنما نقص حد الإماء عن حد الحرائر لأنهن أضعف، وقيل لانهن لا يصلن إلى مرادهن كما تصل الحرائر، وقيل لان العقوبة تجب على قدر النعمة كما في قوله تعالى ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ ولم يذكر الله سبحانه في هذه الآية العبيد وهم لاحقون بالإماء بطريق القياس وكما يكون على الإماء والعبيد نصف الحد في الزنا كذلك يكون عليهم نصف الحد في القذف والشرب.

﴿ذلك﴾ أي نكاح المملوكات عند عدم الطول ﴿لمن خشي العنت﴾ العنت الوقوع في الإثم وقيل الزنا وأصله في اللغة انكسار العظم بعد الجبر ثم استعير لكل مشقة، وأريد به هنا ما يجر إليه الزنا من العقاب الدنيوي والأخروي، والمعنى ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الشبق والغلمة وشدة الشهوة على الزنا.

وإنما سمي الزنا بالعنت لما يعقبه من المشقة وهي شدة العزوبة فأباح الله تعالى نكاح الأمة بثلاثة شروط: عدم القدرة على نكاح الحرة وخوف العنت وكون الأمة مؤمنة، وفي القاموس العنت الفساد والإثم والهلاك ودخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة والزنا والوهي والانكسار واكتساب المآثم، وأعنته غيره وعنته تعنيتاً شدد عليه وألزمه ما يصعب عليه(١).

﴿منكم﴾ بخلاف من لا يخافه من الأحرار فلا يحل له نكاحها، وكذا من استطاع طول حرة، وعليه الشافعي وكذا مالك وأحمد.

﴿أن تصبروا﴾ أي صبركم عن نكاح الإماء ﴿خير لكم﴾ من نكاحهن لان نكاحهن يفضي إلى إرقاق الولد والغض من النفس ﴿والله غفور رحيم﴾ هذا كالتأكيد لما تقدم(٢).

---

(١)وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أيما حر تزوج بأمةٍ فقد أرق نصفه. يعني يصير ولده رقيقاً؛ فالصبر عن ذلك أفضل لكيلا يرق الولد. وقال سعيد بن جبير: ما نكاح الأمة من الزنى إلا قريب، قال الله تعالى: ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾، أي عن نكاح الإماء. وفي سنن ابن ماجة عن الضحاك بن مزاحم قال: سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر»، ورواه أبو إسحاق الثعلبي من حديث يونس بن مرداس، وكان خادماً لأنس، وزاد: فقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاك البيت ـ أو قال: فساد البيت».

(٢) قال الطبري: والصواب من القول في قوله ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ ذلكن لمن خاف منكم ضرراً في دينه وبدنه.

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

﴿يريد الله ليبيّن لكم﴾ استئناف مسوق لتقرير ما سبق من الاحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الانبياء والصالحين، واللام هنا لام كي التي تعاقب أن، ومنه ﴿يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم﴾ ﴿وأمرت لأعدل بينكم وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ وهذا مذهب الكوفيين، وخطأ الزجاج هذا القول.

وقيل اللام زائدة لتأكيد معنى الاستقبال أو لتأكيد إرادة التبيين، وبه قال الزمخشري والسمين. . ومعنى الآية يريد الله أن يبين لكم مصالح دينكم وما يحل لكم وما يحرم عليكم، وقيل يبين لكم ما يقربكم منه، وقيل يبين أن الصبر عن نكاح الأمة خير لكم.

﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي طرقهم في تحريم الأمهات والبنات والاخوات فإنها كانت محرمة على من قبلكم وهم الانبياء وأتباعهم لتقتدوا بهم ﴿و﴾ يريد أن ﴿يتوب عليكم﴾ يرجع بكم عن معصيته التي كنتم عليها إلى طاعته فتوبوا إليه وتلافوا ما فرط منكم بالتوبة يغفر لكم ذنوبكم ﴿والله عليم﴾ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿حكيم﴾ فيما دبر أمورهم.

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ هذا تأكيد لما قد فهم من قوله ويتوب عليكم المتقدم، وقيل الأول معناه الإرشاد إلى الطاعات، والثاني فعل أشباهها.

وقيل إن الثاني لبيان كمال منفعة إرادته سبحانه، وكمال ضرر ما يريده الذين يتبعون الشهوات، وليس المراد به مجرد إرادة التوبة حتى يكون من باب التكرير للتأكيد.

قيل هذه الإرادة منه سبحانه في جميع أحكام الشرع، وقيل في نكاح الأمة فقط، وقال ابن عباس: معناه يريد أن يخرجكم من كل ما يكره إلى ما يحب ويرضى، وقيل معناه يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم، وقيل معناه إن وقع منكم تقصير في دينه فيتوب عليكم ويغفر لكم.

﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ المراد بالشهوات هنا ما حرمه الشرع دون ما أحله، اختلف في تعيين متبعي الشهوات فقيل هم الزناة وقيل اليهود والنصارى وقيل اليهود خاصة، وقيل هم المجوس لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب وبنت الأخ، والأول أولى.

﴿أن تميلوا﴾ تعدلوا عن الحق وقصد السبيل بالمعصية فتكونوا مثلهم ﴿ميلاً عظيماً﴾ يعني بإتيانكم ما حرم الله عليكم، والميل العدول عن طريق الاستواء، ووصف الميل بالعظيم بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة نادراً.

﴿يريد الله أن يخفف﴾ يسهل ﴿عنكم﴾ أحكام الشرع بما مر من الترخيص أو بكل ما فيه تخفيف عليكم ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ عاجزاً غير قادر على ملك نفسه ودفعها عن شهوتها قليل الصبر عن النساء، فلا صبر له عنهن وفاء بحق التكليف. فهو محتاج من هذه الحيثية إلى التخفيف، فلهذا أراد الله سبحانه التخفيف، وقيل هو ضعيف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين، وقيل إنه لضعفه يستميله الهوى فهو ضعيف العزم عن الهوى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع في بيان بعض المحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس إثر بيان المحرمات المتعلقة **بالإبضاع** ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ يعني بالحرام الذي لا يحل في الشرع، والباطل ما ليس بحق، ووجوه ذلك كثيرة كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور، وأخذ الأموال باليمين الكاذبة ونحو ذلك، ومن الباطل البيوعات التي نهى عنها الشرع.

وإنما خص الأكل بالذكر ونهى عنه تنبيهاً على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل، لأن معظم المقصود من المال الأكل، وقيل يدخل فيه أكل مال نفسه بالباطل ومال غيره، أما أكل ماله بالباطل فهو إنفاقه في المعاصي، وأما أكل مال غيره فقد تقدم معناه، وقيل يدخل في أكل المال بالباطل جميع العقود الفاسدة.

﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ التجارة في اللغة عبارة عن المعاوضة،وهذا الاستثناء منقطع أي لكن أموال تجارة صادرة عن تراض منكم وطيب نفس جائزة بينكم ولكم أن تأكلوها،أو لكن كون تجارة عن تراض منكم حلالاً لكم لأن التجارة ليست من جنس أكل المال بالباطل، ولأن الاستثناء وقع على الكون، والكون معنى من المعاني ليس مالاً من الأموال، فكان إلا هنا بمعنى لكن.

وقوله عن تراض صفة لتجارة أي كائنة عن تراض، وإنما نص الله

سبحانه على التجارة دون سائر أنواع المعاوضات كالهبة والصدقة لكونها أكثرها وأغلبها، ولأن أسباب الرزق متعلقة بها غالباً، ولأنها أرفق بذوي المروآت بخلاف الايهاب وطلب الصدقات.

وتطلق التجارة على جزاء الأعمال من الله على وجه المجاز، ومنه قوله تعالى ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ وقوله تعالى ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾.

واختلف العلماء في التراضي فقالت طائفة تمام وجوده بافتراق الأبدان بعد عقد البيع أو بأن يقول أحدهما لصاحبه اختر، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين، وبه قال الشافعي والثوري والليث وابن عيينة وإسحق وغيرهم، وقال مالك وأبو حنيفة: تمام البيع هو أن يعقد البيع بالألسنة فيرتفع بذلك الخيار.

وأجابوا عن الحديث بما لا طائل تحته.

وقرىء تجارة بالرفع على أن كان تامة وبالنصب على أنها ناقصة.

وروى الطبراني وابن أبي حاتم قال السيوطي بسند صحيح عن ابن مسعود قال: إنها يعني هذه الآية محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة. وعن عكرمة والحسن قالا: كان الرجل يتحرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية فنسخ ذلك الآية التي في النور ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ الآية.

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما البيع عن تراض»[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٣١٩.

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم أيها المسلمون بعضاً إلا بسبب أثبته الشرع، وإنما قال أنفسكم لأنهم أهل دين واحد فهم كنفس واحدة، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في حجة الوداع: ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض[١].

وقيل إن هذا نهي للانسان عن قتل نفسه بارتكاب ما يؤدي إلى هلاكها، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجَّأ بها في بطنه أي يضرب بها نفسه في نار جهنم مخلداً فيها أبداً[٢]، وفي الباب أحاديث.

أو لا تقتلوا أنفسكم باقتراف المعاصي يعني لا يفعل شيئاً يستحق به القتل مثل أن يقتل فيقتل به فيكون هو الذي تسبب في قتل نفسه بكسب الجريمة، وقيل لا تقتلوا بأكل المال بالباطل وقيل لا تهلكوا أنفسكم بأن تعملوا عملاً ربما أدى إلى قتلها، أو المراد النهي عن أن يقتل الإنسان نفسه حقيقة.

ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني، ومما يدل على ذلك احتجاج عمرو بن العاص بها حين لم يغتسل بالماء البارد حين أجنب في غزوة ذات السلاسل فقرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم احتجاجه، وهو في مسند أحمد وسنن أبي داود وغيرهما.

﴿إنّ الله كان بكم رحيماً﴾ ومن رحمته بكم أن نهاكم عن كل شيء تستوجبون به مشقة أو محنة، وقيل إن الله تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم ليكون ذلك توبة لهم، وكان بكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة.

---

(١) مسلم ٦٦ ـ البخاري ٨٩٤.

(٢) مسلم ١٠٩ ـ البخاري ٧٢١.

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي القتل خاصّة أو أكل أموال الناس باطلاً، وقيل هو إشارة إلى كل ما نهى عنه في هذه السورة، وقال ابن جرير: إنه عائد على ما نهى عنه من آخر وعيد وهو قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ لأن كل ما نهى عنه من أول السورة، قرن به وعيد إلا من قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم﴾ فإنه لا وعيد بعده إلا قوله ذلك.

﴿عدواناً﴾ على الغير ﴿وظلماً﴾ على النفس لا جهلاً ونسياناً وسفهاً، وعلى هذا لا يرد أنه كيف قدم الأخص على الأعم إذ التجاوز عن العدل جور ثم طغيان ثم تعدّ، والكل ظلم، والعدوان تجاوز الحد. والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وقيل إن معنى العدوان والظلم واحد، وتكريره لقصد التأكيد إلا أن يقال إن العطف باعتبار التغاير في المفهوم كما تقدم، وخرج بقيد العدوان والظلم ما كان من القتل بحق، كالقصاص وقتل المرتد وسائر الحدود الشرعية وكذلك القتل الخطأ.

﴿فسوف نصليه﴾ أي ندخله في الآخرة ﴿ناراً﴾ عظيمة يحترق فيها، وقرىء نصليه بفتح النون وهو على هذا منقول من صلى ومنه شاة مصلية ﴿وكان ذلك﴾ أي إصلاؤه النار ﴿على الله يسيراً﴾ هيناً لأنه لا يعجزه شيء.

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ أي الذنوب التي نهاكم الله عنها، وفي الكلام حذف أي وتفعلوا الطاعات ﴿نكفِّر عنكم﴾ أصل التكفير الستر والتغطية، وفي الشرع إماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة أي نغفر

لكم ﴿سيآتكم﴾ أي ذنوبكم التي هي صغائر، فالتكفير ليس مرتباً على الاجتناب وحده.

وحملُ السيئآت على الصغائر هنا متعيّن لذكر الكبائر قبلها. وجعل اجتنابها شرط لتكفير السيئآت: واجتناب الشيء المباعدة عنه وتركه جانباً، والكبيرة ما كبر وعظم من الذنوب وعظمت عقوبته.

وقد اختلف أهل الأصول في تحقيق معنى الكبائر ثم في عددها فأما في تحقيقها فقيل: إن الذنوب كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة الى ما هو أكبر منها كما يقال الزنا صغيرة بالإضافة إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقد روى نحو هذا عن الاسفرايني والجويني والقشيري وغيرهم.

قالوا المراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سبباً لتكفير السيآت هي الشرك، واستدلوا على ذلك بقراءة من قرأ إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه، وعلى قراءة الجمع فالمراد أجناس الكفر واستدلوا على ما قالوه بقوله تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ قالوا فهذه الآية مقيدة لقوله إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه.

وقال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب،وقال ابن مسعود: الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية، قال سعيد بن جبير: كل ذنب نسبه الله إلى النار فهو كبيرة.

وقال جماعة من أهل الأصول الكبائر كل ذنب رتّب الله عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره، وقد ذكر الشوكاني جُلّ ذلك في نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، وقد ذكر رضي الله عنه في إرشاد الفحول من النصوص عليها فوق الثلاثين.

وأما الاختلاف في عددها فقيل إنها سبع وقيل سبعون وقيل سبعمائة وقيل غير منحصرة ولكن بعضها أكبر من بعض، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[1].

وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكرة قال: قال النبي ﷺ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله قال: الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس وقال ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[2].

وفي لفظ عند البخاري عن ابن عمرو عنه صلى الله عليه وآله وسلم واليمين الغموس.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قالوا وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه[3].

وعن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً، وهو خلقك، قلت إن ذلك لعظيم[4] ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك، أخرجه البخاري والأحاديث في تعداد الكبائر وتعيينها

---

(١) مسلم ٨٩ ـ البخاري ١٣٢٥.
(٢) مسلم ٨٧ ـ البخاري ١٢٩١.
(٣) مسلم ٩٠ ـ البخاري ٢٣١٠.
(٤) البخاري كتاب التفسير سورة ٢.

كثيرة جداً فمن رام الوقوف على ما ورد في ذلك فعليه بكتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر فإنه قد جمع فأوعى.

وقد ثبت من الأدلة المتقدمة أن من الذنوب كبائر وصغائر، وإليه ذهب الجمهور.

واعلم أنه لا بد من تقييد ما في هذه الآية من تكفير السيآت بمجرد اجتناب الكبائر بما أخرجه النسائي وابن ماجه وابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة وأبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلس على المنبر ثم قال «والذي نفسي بيده ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة حتى إنها لتصفّق، ثم تلا هذه الآية[1].

وعن ابن مسعود قال ان في سورة النساء خمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها، لقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها، قوله تعالى ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الآية وقوله تعالى ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية وقوله تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء،﴾ وقوله تعالى ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾ الآية وقوله تعالى ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ الآية.

﴿وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ يعني حسناً شريفاً مرضياً أي مدخلاً تكرمون فيه، والمراد بالمدخل بضم الميم وفتحها كما قرىء بهما في الآية مكان الدخول وهو الجنة ويجوز أن يكون مصدراً.

(١) المستدرك كتاب الصلاة ١/٢٠٠.

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

﴿ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض﴾ التمني نوع من الارادة يتعلق بالمستقبل كالتلهف نوع منها يتعلق بالماضي، فنهى الله سبحانه المؤمنين عن التمني لان فيه تعلق البال ونسيان الآجال، قاله القرطبي، وفيه النهي عن أن يتمنى الإنسان ما فضل الله به غيره من الناس عليه، فإن ذلك نوع من عدم الرضا بالقسمة التي قسمها الله بين عباده على مقتضى إرادته وحكمته البالغة، وفيه أيضاً نوع من الحسد المنهي عنه إذا صحبه إرادة زوال تلك النعمة عن الغير.

وعبارة القرطبي فيدخل فيه أن يتمنى الرجل حال الآخر من دين أو دنيا على أن يذهب ما عند الآخر، وهذا هو الحسد بعينه، وهو الذي ذمه الله تعالى أيضاً، ويدخل فيه خطبة الرجل على خطبة أخيه وبيعه على بيعه لأنه داعية إلى الحسد والمقت انتهى.

قد اختلف العلماء في الغبطة هل تجوز أم لا؟ وهي أن يكون له حال مثل حال صاحبه من دون أن يتمنى زوال ذلك الحال عن صاحبه فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، واستدلوا بالحديث الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار، وقد بوّب عليه البخاري باب الاغتباط في العلم والحكم[1].

---

(١) مسلم ٧١٦ ـ البخاري ٩/ ٦٥.

وعموم لفظ الآية يقتضي تحريم تمني ما وقع به التفضيل سواء كان مصحوباً بما يصير به من جنس الحسد أم لا، وما ورد في السنة من جواز ذلك في أمور معينة يكون مخصصاً لهذا العموم، ومن الناس من منع من الغبطة أيضاً كالإمام مالك قال لأن تلك النعمة ربما كانت مفسدة في حقه في الدين أو الدنيا.

ونحوه قال الحسن: وسبب نزول الآية ما قال قتادة أن النساء قلن لو جعل أنصباؤنا في الميراث كأنصباء الرجال، وقال الرجال إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿للرّجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبن﴾ فيه تخصيص بعد التعميم، ورجوع إلى ما يتضمنه سبب نزول الآية من أن أم سلمة قالت: يا رسول الله تغزو الرجال ولا نغزو ولا نقاتل فنستشهد، وإنما لنا نصف الميراث فنزلت، أخرجه عبد الرزاق وابن منصور وابن حميد والترمذي والحاكم والبيهقي وابن جرير وابن المنذر وغيرهم. وقد روي نحو هذا السبب من طرق بألفاظ مختلفة[١].

والمعنى في الآية أن الله جعل لكل من الفريقين نصيباً على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته، وعبّر عن ذلك المجهول لكل فريق من فريقي النساء والرجال بالنصيب مما اكتسبوا على طريق الإستعارة التبعية، شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه.

قال قتادة: للرجال نصيب مما اكتسبوا من الثواب والعقاب، وللنساء كذلك، وللمرأة الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها كما للرجال، وقال ابن عباس: المراد بذلك الميراث والاكتساب على هذا القول بمعنى الإصابة للذكر مثل حظّ

---

(١) زاد المسير ٦٨.

الأنثيين، فنهى الله عن التمني على هذا الوجه لما فيه من دواعي الحسد لأن الله أعلم بمصالحهم منهم فوضع القسمة بينهم على التفاوت على ما علم من مصالحهم[1].

﴿واسألوا الله من فضله﴾ هذا الأمر يدل على وجوب سؤال الله سبحانه كما قاله جماعة من أهل العلم، وعن مجاهد قال: ليس بعرض الدنيا، وعن سعيد بن جبير قال: العبادة ليس من أمر الدنيا، وأخرج الترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل»[2] قال ابن عباس: الفضل الرزق. وقيل الفضل خزائن نعمه التي لا نفاذ لها ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي بما يكون صلاحاً للسائلين فليقتصر السائل على المجمل في الطلب.

---

(١) رواه الترمذي وفي رواية «فإنه يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».
وروى ابن ماجه عن ابي هريرة من لم يسأل الله غضب عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» ٦/٣٢٢ والترمذي ٢/١٢٧ والحاكم ٢/٣٠٥، عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة. قال الحاكم: هذا حديث على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد من أم سلمة، ووافقه الذهبي على تصحيحه. قال الشيخ أحمد شاكر: وأما حكم الترمذي في روايته من طريق ابن عيينة بأنه حديث مرسل، فانه جزم بلا دليل، ومجاهد أدرك أم سلمة يقيناً وعاصرها.
فانه ولد سنة ٢١، وأم سلمة ماتت بعد سنة ٦٠ على اليقين، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال إلا أن يكون الراوي مدلساً، ولم يزعم أحد أن مجاهداً مدلس إلا كلمة قالها القطب الحلبي في «شرح البخاري» حكاها عنه الحافظ في «التهذيب» ١٠/٤٤، ثم عقب عليها بقوله: ولم أر من نسبه إلى التدليس. وقال الحافظ أيضاً في «الفتح»: ٦/١٩٤ رداً على من زعم أن مجاهداً لم يسمع من عبد الله ابن عمرو: لكن سماع مجاهد من عبد الله بن عمرو ثابت وليس بمدلس.
قال ابن كثير: وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليْت أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في صحيح البخاري ٩/٦٥ «لا حسد إلا من اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل مال فلان لعملت مثله» فان هذا شيء غير ما نهت عنه الآية، وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمني وعين نعمة هذا.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

﴿ولكلّ﴾ من الرجال والنساء مفعول ثان قدم لتأكيد الشمول ﴿جعلنا موالي﴾ يلون ميراثهم وهو جمع مولى يطلق على المعتق والمعتق والناصر وابن العم والجار، والمراد هنا العصبة أي ولكل أحد جعلنا عصبة يرثون ما أبقت الفرائض، فلا حق للحليف فيها وهم يرثون ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ من ميراثهم وهم الموروثون وقيل هم الوارثون، والأول أولى لأنه مروي عن ابن عباس وغيره.

وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي ليتبع كل واحد ما قسم الله له من الميراث ولا يتمنّى ما فضّل الله به غيره عليه، وقد قيل إن هذه الآية منسوخة لقوله تعالى بعدها ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ وقيل العكس كما روى ذلك ابن جرير، وذهب الجمهور إلى أن الناسخ لقوله تعالى ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ قوله تعالى ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾.

﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ أي الحلفاء الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصر والإرث فالمراد به موالي الموالاة فقد كان الرجل من أهل الجاهلية يعاقد الرجل أي يحالفه فيستحق من ميراثه نصيباً، ثم ثبت في صدر الإسلام بهذه الآية ثم نسخ بقوله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وهذا أحد قولين في معنى الآية.

والآخر ما أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عباس ولكل جعلنا موالي ورثة والذين عقدت أيمانكم، قال المهاجرون: لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما

نزلت ﴿ولكلّ جعلنا موالي﴾ نسخت ثم قال ﴿والذين عقدت أيمانكم[1]﴾

﴿فآتوهم نصيبهم﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له، وفي الباب أحاديث بطرق وألفاظ، وفي الجلالين نصيبهم حظوظهم من الميراث وهو السدس وهو منسوخ كما تقدم، وقرىء عقّدت بتشديد القاف على التكثير أي والذين عقّدت لهم أيمانكم الحلف أو عقّدت عهودهم أيمانكم والتقدير على قراءة الجمهور والذين عاقدتهم أيمانكم، والأيمان جمع يمين يحتمل أن يراد به القسم أو اليد أو هما جميعاً، ونسبة المعاقدة أو العقد إلى الأيمان مجاز، وقيل التقدير عقدت ذوو أيمانكم والمعاقدة المحالفة والمعاهدة[2].

﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ قال عطاء: يريد أنه لم يغب عنه علم ما خلق وبرأ، فعلى هذا الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الأشياء، وقيل الشهيد هو الشاهد على الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه، فعلى هذا الشاهد بمعنى المخبر وفيه وعد للطائعين ووعيد للعصاة المخالفين.

---

(١) أخرجه البخاري ٨/١٨٦، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس، وتمام الحديث: «فلما نزلت: ولكل جعلنا موالي» نسخت، ثم قال: «والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم» من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له.

(٢) وروى مسلم في «صحيحه» ٤/١٩٦١، والامام أحمد في «المسند» ٤/٨٣، وأبو داود وابن جرير، والنسائي، عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ «لا حلف في الاسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة» قال القرطبي في «المفهم» معنى: لا حلف، لا يتحالف أهل الاسلام كما كان أهل الجاهلية، كانوا يتحالفون، وذلك أن المتحالفين كانا يتناصران في كل شيء فيمنع الرجل حليفه وإن كان ظالماً، ويقوم دونه، ويدفع عنه بكل ممكن حتى يمنع الحقوق، وينتصر به على الظلم والفساد، ولما جاء الشرع بالانتصاف من الظالم، وأنه يؤخذ ما عليه من الحق لا يمنعه أحد من ذلك، وحد الحدود، وبين الأحكام؛ أبطل ما كانت الجاهلية عليه من ذلك.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾

﴿الرجال قوّامون﴾ مسلطون ﴿على النساء﴾ كلام مستأنف سيق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث تفصيلاً إثر بيان تفاوت استحقاقهم إجمالاً، وعلل ذلك بأمرين (أولهما) وهبي والثاني كسبي، والمعنى أنهم يقومون بالذب عنهن كما يقوم الحكام والأمراء بالذب عن الرعية، وهم أيضاً يقومون بما يحتجن إليه من النفقة والكسوة والمسكن.

وجاء بصيغة المبالغة لتدلّ على أصالتهم في هذا الأمر، وهو جمع قوّام وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب، يشير به إلى أن المراد قيام الولاة على الرعايا قال ابن عباس: أمّروا عليهن فعلى المرأة أن تطيع زوجها في طاعة الله.

﴿بما﴾ الباء سببية وما مصدرية ﴿فضّل الله﴾ والضمير في قوله ﴿بعضهم على بعض﴾ للرجال والنساء أي إنما استحقوا هذه المزيّة لتفضيل الله إياهم عليهن بما فضلهم به من كون فيهم الأنبياء والخلفاء والسلاطين والحكام والأئمة والغزاة، وزيادة العقل والدين والشهادة والجمعة والجماعات، وأن الرجل يتزوج بأربع نسوة ولا يجوز للمرأة غير زوج واحد، وزيادة النصيب والتعصيب في الميراث، وبيده الطلاق والنكاح والرجعة وإليه الانتساب، وغير ذلك من الأمور. فكل هذا يدل على فضل الرجال على النساء.

﴿وبما أنفقوا﴾ أي وبسبب الإنفاق وبما دفعوه في مهورهن ﴿من أموالهم﴾ وكذلك ما ينفقونه في الجهاد وما يلزمهم في العقل والدية، وقد آسْتدلَّ جماعة من العلماء بهذه الآية على جواز فسخ النكاح إذا عجز الزوج عن نفقة زوجته وكسوتها، وبه قال مالك والشافعي وغيرهما.

﴿فالصالحات﴾ أي المحسنات العاملات بالخير من النساء ﴿قانتات﴾ أي مطيعات لله قائمات بما يجب عليهن من حقوق الله وحقوق أزواجهن ﴿حافظات للغيب﴾ لما يجب حفظه عند غيبة أزواجهن عنهن من حفظ نفوسهن وفروجهن وحفظ أموالهن.

و «ما» في قوله ﴿بما حفظ الله﴾ مصدرية أي بحفظ الله إياهن ومعونته وتسديده أو حافظات له بما استحفظهن من أداء الأمانة إلى أزواجهن على الوجه الذي أمر الله به، أو حافظات له بحفظ الله لهن بما أوصى به الأزواج في شأنهن من حسن العشرة.

وقريء بما حفظ الله بنصب الاسم الشريف والمعنى بما حفظن أمر الله أو دينه فحذف الضمير الراجع إليهن للعلم به، وما على هذه القراءة مصدرية أو موصولة كالقراءة الأولى، أي بحفظهن الله أو بالذي حفظن الله به وقال السدي: تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع كما أمرها الله.

﴿واللاتي تخافون نشوزهنّ﴾ هذا خطاب للأزواج، قيل الخوف هنا على بابه وهو حالة تحدث في القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند ظن حدوثه، وقيل المراد بالخوف هنا العلم، والنشوز العصيان وقد تقدم بيان أصل معناه في اللغة.

قال ابن فارس: يقال نشزت المرأة استصعبت على بعلها، ونشز بعلها

عليها إذا ضربها وجفاها، ودلالات النشوز تكون بالقول وبالفعل بأن رفعت صوتها عليه ولم تجبه إذا دعاها، ولم تبادر إلى أمره إذا أمرها، أو لا تخضع له إذا خاطبها أو لا تقوم له إذا دخل عليها.

﴿فعظوهنّ﴾ أي ذكروهن بما أوجبه الله عليهن من الطاعة وحسن المعاشرة ورغّبوهن ورهّبوهن إذا ظهر منهن أمارات النشوز وهو أن يقول لها اتقي الله وخافيه فإن لي عليك حقاً، وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك، فإن أصرت على ذلك هجرها في المضجع كما قال تعالى:

﴿واهجروهن في المضاجع﴾ يقال هجره أي تباعد منه، والمضاجع جمع مضجع وهو محلّ الاضطجاع أي تباعدوا عن مضاجعتهن ولا تدخلوهن تحت ما تجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب، وقيل هو أن يوليها ظهره عند الاضطجاع في الفراش، وقيل هو كناية عن ترك جماعها، وقيل لا تبيت معه في البيت الذي يضطجع فيه.

﴿واضربوهن﴾ إن لم ينزعن بالهجران ضرباً غير مبرح ولا شائن، وظاهر النظم القرآني أنه يجوز للزوج أن يفعل جميع هذه الأمور عند مخافة النشوز، وقيل حكم الآية مشروع على الترتيب وإن دلّ ظاهر العطف بالواو على الجمع لأن الترتيب مستفاد من قرينة المقام، وسوق الكلام للرفق في إصلاحهن وإدخالهن تحت الطاعة.

فالأمور الثلاثة مرتبة أي لأنها لدفع الضرر كدفع الصائل فاعتبر فيها الأخف فالأخف وقيل إنه لا يهجرها إلا بعد عدم تأثير الوعظ فإن أثّر الوعظ لم ينتقل إلى الهجر، وإن كفاه الهجر لم ينتقل إلى الضرب، وقال الشافعي: الضرب مباح وتركه أفضل، وفي الجمل: إن كلاً من الهجر والضرب مقيد بعلم

النشوز، ولا يجوز بمجرد الظن.

﴿فإن أطعنكم﴾ كما يجب وقمن لواجب حقكم وتركن النشوز ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي لا تتعرضوا لهن بشيء مما يكرهن لا بقول ولا بفعل، وقيل المعنى لا تكلفوهن الحب لكم فإنه لا يدخل تحت اختيارهن ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ولين الجانب أي وإن كنتم تقدرون عليهن فاذكروا قدرة الله عليكم فإنها فوق كل قدرة وهو بالمرصاد لكم.

عن ابن عباس قال: تلك المرأة تنشز وتستخفّ بحق زوجها ولا تطيع أمره، فأمره الله أن يعظها ويذكرها بالله ويعظم حقه عليها فإن قبلت وإلا هجرها في المضجع ولا يكلمها من غير أن يذر نكاحها، وذلك عليها شديد فإن رجعت وإلا ضربها ضرباً غير مبرح ولا يكسر لها عظماً ولا يجرح لها جرحاً فإن أطاعتك فلا تجني عليها العلل، وعنه قال يهجرها بلسانه ويغلظ لها بالقول ولا يدع الجماع، وسئل عن ضرب غير مبرح فقال: بالسواك ونحوه.

وقد أخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص أنه شهد خطبة الوداع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيها أنه قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً[1].

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال: قال رسول

---

(١) الترمذي كتاب الرضاع.

الله ﷺ: أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ثم يجامعها في آخر اليوم[١]. وفي هذه دليل على أن الأولى ترك الضرب للنساء فإن احتاج فلا يوالي بالضرب على موضع واحد من بدنها وليتّق الوجه لأنه مجمع المحاسن، ولا يبلغ بالضرب عشرة أسواط، وقيل ينبغي أن يكون الضرب بالمنديل واليد، ولا يضرب بالسوط والعصا[٢].

وبالجملة فالتخفيف بأبلغ شيء أولى في هذا الباب، قيل حكم الآية مشروع على الترتيب وقيل هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز، وأما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل والأول أولى، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته أخرجه أبو داود[٣].

(١) ولطم رجل زوجته فاستعدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، الخبر في الأصول كلها معزو لابن عباس، وقد بحثت في كتب «التفسير» فلم أجد أحداً عزاه إليه، ولا نقله عنه، وقد ذكره ابن جرير ٢٩١/٧ عن الحسن، وابن جريج، والسدي، وفي «الدر المنثور» ١٥١/٢، واخرج ابن ابي حاتم من طريق اشعث بن عبد الملك، عن الحسن، واخرج عبد بن حميد، وابن جرير منها طريق قتادة عن الحسن. واخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن ابي حاتم، وابن مردويه من طريق جرير بن حازم، عن الحسن. واخرج ابن مردويه عن علي قال: اتى النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) البخاري كتاب النكاح باب ٩٣.

(٣) وذكر ابن جرير ٢٩١/٨ عن الحسن وابن جريج والسدي، وفي الدر المنثور ١٥١/٢ وابن ابي حاتم وعبد بن حميد وابن المنذر وغيرهم.. عن علي ان رجلاً لطم زوجته لطمة فاستعدت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت هذه الآية ﴿الرجال قوامون﴾.
وروى الترمذي القرطبي ١٧٣/٥.
ورواه ابو داود /التفاح/ ٤٢.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ قد تقدم معنى الشقاق في البقرة وأصله أن كل واحد منهما يأخذ شقاً غير شق صاحبه أي ناحية غير ناحيته، وأضيف الشقاق إلى الظرف لإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ وقولهم يا سارق الليلة أهل الدار، والضمير في بينهما للزوجين لأنه قد تقدم ذكر ما يدل عليهما وهو ذكر الرجال والنساء.

﴿فابعثوا﴾ إلى الزوجين برضاهما، قيل المخاطب بذلك الإمام أو نائبه لأن تنفيذ الأحكام الشرعية إليه. وقيل كل أحد من صالحي الأمة وقيل هو خطاب للزوجين ﴿حكماً﴾ رجلاً عدلاً ﴿من أهله﴾ أقاربه ﴿وحكماً من أهلها﴾ أي من يصلح للحكم بينهما، من يصلح لذلك عقلاً وديناً وانصافاً، وإنما نص الله سبحانه على أن الحكمين يكونان من أهل الزوجين لأنهما أقدر بمعرفة أحوالهما، فإذا لم يوجد الحكمان منهم كانا من غيرهم.

وهذا إذا أشكل أمرهما، ولم يتبين من هو المسيء منهما فأما إذا عرف المسيء فإنه يؤخذ لصاحبه الحق منه، والبعث واجب وكون الحكمين من اهلهما مندوب.

﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ أي الحكمان وقيل الزوجان والأول أولى، أي على الحكمين أن يسعيا في إصلاح ذات البين جهدهما، فإن قدرا على ذلك عملا عليه، وإن أعياهما إصلاح حالهما ورأيا التفريق بينهما جاز لهما ذلك من دون أمر من الحاكم في البلد ولا توكيل بالفرقة من الزوجين، وبه قال مالك والأوزاعي واسحق، وهو مروى عن عثمان وعلي وابن عباس والشعبي والنخعي

والشافعي، وحكاه ابن كثير عن الجمهور قالوا لأن الله تعالى قال ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ وهذا نص من الله سبحانه أنهما قاضيان لا وكيلان ولا شاهدان[1].

وقال الكوفيون وعطاء وابن زيد والحكم وهو أحد قولي الشافعي: إن التفريق هو إلى الإمام أو الحاكم في البلد لا إليهما ما لم يوكلهما الزوجان، أو يأمرهما الإمام أو الحاكم، لأنهما رسولان شاهدان، فليس إليهما التفريق، ويرشد إلى هذا قوله إن يريدا أي الحكمان إصلاحاً يوفق الله بينهما لاقتصاره على ذكر الإصلاح دون التفريق.

ومعنى إن يريدا إصلاحاً ﴿يوفق الله بينهما﴾ أي يوقع الألفة والموافقة بين الزوجين حتى يعودا إلى الألفة وحسن المعاشرة، ومعنى الإرادة خلوص نيتهما لصلاح الحال بين الزوجين.

وقيل إن الضمير في قوله بينهما للحكمين كما في قوله ﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ أي يوفق بين الحكمين في اتحاد كلمتهما وحصول مقصودهما، وقيل كلا الضميرين للزوجين أي إن يريدا إصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله به بينهما الألفة والوفاق.

وإذا اختلف الحكمان لم ينفذ حكمهما ولا يلزم قبول قولهما بلا خلاف، وعن ابن عباس قال: بعثت أنا ومعاوية حكمين فقيل لنا إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما، والذي بعثهما عثمان.

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المتفرقين، وفيه وعيد شديد للزوجين والحكمين ان سلكوا غير طريق الحق.

---

(١) ابن كثير ١/٤٩٣.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿واعبدوا الله﴾ يعني وحِّدوه وأطيعوه، وعبادة الله عبارة عن كل فعل يأتي به العبد لمجرد الله ويدخل فيه جميع أعمال القلوب وأفعال الجوارح ﴿ولا تشركوا به﴾ العطف للتأسيس و﴿شيئاً﴾ إما مفعول به أي شيئاً من الأشياء من غير فرق بين حي وميت وجماد وحيوان، وإما مصدر أي شيئاً من الإشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر والأصغر، والواضح والخفي.

﴿و﴾ أحسنوا ﴿بالوالدين إحساناً﴾ بِرّاً ولين جانب، وقد دل ذكر الإحسان إليهما بعد الأمر بعبادة الله والنهي عن الإشراك به على عظم حقهما، ومثله ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ فأمر سبحانه بأن يشكرا معه وهو أن يقوم بخدمتهما ولا يرفع صوته عليهما ويسعى في تحصيل مرادهما والإنفاق عليهما بقدر القدرة، وقد وردت أحاديث كثيرة في حقوقهما وهي معروفة.

﴿وبذي القربى﴾ أي صاحب القرابة وهو من يصح إطلاق اسم القربى عليه وإن كان بعيداً، وقيل ذو رحمة من قبل أمه وأبيه، وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سرّه أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» أخرجه البخاري ومسلم(١)، وقد تقدم نظيره في البقرة إلا أنه هنا قال بإعادة الباء وذلك لأنها في حق هذه الأمة فالاعتناء بها أكثر، وإعادة

(١) مسلم ٢٥٥٧ ـ البخاري ١٠٤٤.

الباء تدل على زيادة التأكيد فناسب ذلك هنا بخلاف آية البقرة فانها في حق بني إسرائيل.

﴿واليتامى والمساكين﴾ وقد تقدم تفسيرهم، والمعنى وأحسنوا إليهم إلى آخر ما هو مذكور في هذه الآية، إنما أمر بالإحسان إليهم لأن اليتيم مخصوص بنوعين من العجز: الصغر وعدم المشفق، والمسكين هو الذي ركبه ذل الفاقة والفقر فتمسكن لذلك.

وعن سهل بن سعد قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبّابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً» أخرجه البخاري(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال: وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم لا يفطر» أخرجه الشيخان(٢).

﴿والجار ذي القربى﴾ أي القريب منك جواره وقيل هو من له مع الجوار في الدار قُرْب في النسب أو الدين ﴿والجار الجنب﴾ يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع مذكراً كان أو مؤنثاً، قاله السمين أي المجانب وهو مقابل للجار ذي القربى والمراد من يصدق عليه مسمى الجوار مع كون داره بعيدة.

وفي ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان إليهم سواء كانت الديار متقاربة أو متباعدة، وعلى أن الجوار حرمة مرعية مأمور بها.

وفيه ردٌّ على من يظن أن الجار مختص بالملاصق دون من بينه وبينه حائل، أو مختص بالقريب دون البعيد.

---

(١) البخاري، كتاب الطلاق باب ٢٥. (٢) مسلم ٢٩٨٢ البخاري ٢١٧٠.

وقيل المراد بالجار الجنب هنا هو الغريب، وقيل هو الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبين المجاور له، وقرىء الجنب بفتح الجيم وسكون النون أي ذي الجنب وهو الناحية، وقيل المراد بالجار ذي القربى المسلم، وبالجار الجنب اليهودي والنصراني.

وقد اختلف أهل العلم في المقدار الذي عليه يصدق مسمى الجوار ويثبت لصاحبه الحق فروي عن الأوزاعي والحسن أنه الى حدّ أربعين داراً من كل ناحية وروي عن الزهري نحوه، وقيل من سمع إقامة الصلاة، وقيل إذا جمعتهما محلة وقيل من سمع النداء.

والأولى أن يرجع في معنى الجار إلى الشرع فإن وجد فيه ما يقتضي بيانه وأنه يكون جار إلى حد كذا من الدور أو من مسافة الأرض، كان العمل عليه متعيناً، وإن لم يوجد رجع إلى معناه لغة أو عرفاً، ولم يأت في الشرع ما يفيد أن الجار هو الذي بينه وبين جاره مقدار كذا، ولا ورد في لغة العرب أيضاً ما يفيد ذلك، بل المراد بالجار في اللغة المجاور ويطلق على معان.

قال في القاموس: الجار المجاور، والذي أجرته من أن يظلم، والمجير والمستجير والشريك في التجارة وزوج المرأة وهي جارته، وفرج المرأة وما قرب من المنازل والاست كالجارة والمقاسم والحليف والناصر انتهى.

قال القرطبي في تفسيره: وروى أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني نزلت محلة قوم وإن أقربهم إلي جواراً أشدهم لي أذى فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر وعمر وعلياً يصيحون على أبواب المساجد ألا إن أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه أ هـ.

قال الشوكاني:ولو ثبت هذا لكان مغنياً عن غيره، ولكنه رواه كما ترى من غير عزو له إلى أحد كتب الحديث المعروفة، وهو وإن كان إماماً في علم الرواية فلا تقوم الحجة بما يرويه بغير سند مذكور، ولا نقل عن كتاب مشهور، ولا سيما وهو يذكر الواهيات كثيراً كما يفعل في تذكرته انتهى.

أقول هذا الحديث بلفظه أخرجه الطبراني كما ذكر في الترغيب والترهيب وروى السيوطي في الجامع الصغير «الجوار أربعون داراً» أخرجه البيهقي عن عائشة. قال المناوي في شرحه: وروي عن عائشة أوصاني جبريل بالجار إلى أربعين داراً، وكلاهما ضعيف[1]، والمعروف المرسل الذي أخرجه أبو داود، وهكذا نقل عن السيوطي ثم قال:

ولفظ مرسل أبي داود حق الجوار أربعون داراً هكذا وهكذا، وأشار قداماً ويميناً وخلفاً. قال الزركشي: سنده صحيح. قال ابن حجر: رجاله ثقات، ورواه أبو يعلى عن أبي هريرة مرفوعاً باللفظ المذكور ولكن سنده كما قال الزركشي ضعيف، قال ابن حجر: فيه عبد السلام بن أبي الحبوب منكر الحديث انتهى.

فهذا يؤيد أصل ما نقله القرطبي والله أعلم.

وقد ورد في القرآن ما يدل على أن المساكنة في مدينة مجاورة، قال الله تعالى ﴿لئن لم ينته المنافقون إلى قوله ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ فجعل اجتماعهم في المدينة جواراً، وأما الأعراف في مسمى الجوار فهي تختلف باختلاف أهلها، ولا يصح حمل القرآن على أعراف متعارفة واصطلاحات متواضعة.

(١) ولعل الحديث المروي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر اذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» رواه مسلم ٤/٢٠٥٢.

﴿والصاحب بالجنب﴾ الباء بمعنى (في) أو على بابها وهو الأولى ومعناه الملابسة أي حال كونه ملتبساً بالجنب أي بالقرب بجنبه، قيل هو الرفيق في السفر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك، وقال علي ابن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي ليلى هو الزوجة والمرأة، وقال ابن جريج: هو الذي يصحبك ويلزمك رجاء نفعك.

وقال زيد ابن أسلم: هو جليسك في الحضر، ورفيقك في السفر وامرأتك التي تضاجعك، ولا يبعد أن تتناول الآية جميع ما في هذه الأقوال مع زيادة عليها وهو كل من صدق عليه أنه صاحب بالجنب أي بجنبك كمن يقف بجنبك في تحصيل علم أو تعلّم صناعة أو مباشرة تجارة أو نحو ذلك، فإنه صحبك وحصل بجنبك، ومنهم من قعد في مسجد أو مجلس أو غير ذلك مع أدنى صحبة بينك وبينه.

﴿وابن السبيل﴾ قال مجاهد: هو الذي يجتاز بك ماراً، والسبيل الطريق فنسب المسافر إليه لمروره عليه ولزومه إياه، فالأولى تفسيره بمن هو على سفر، فإن على المقيم أن يحسن إليه، وقيل هو المنقطع به في سفره للحج أو للغزو أو مطلقاً، والأظهر أن يقول المسافر من غير قيد الانقطاع، وقيل هو الضيف قاله القارىء، وقد وردت أحاديث صحيحة في إكرام الضيف وجائزته ثلاثة أيام في الصحيحين وغيرهما.

﴿و﴾ أحسنوا إلى ﴿ما ملكت أيمانكم﴾ من الأرقاء إحساناً، وهم العبيد والإماء، وقيل أعم فيشمل الحيوانات وهي غير الأرقاء أكثر في يد الإنسان منهم فغلب جانب الكثرة، وأمر الله بالإحسان إلى كل مملوك آدمي وغيره قاله القارىء، والأول أولى.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يطعمون مما يطعم

مالكهم، ويلبسون مما يلبس قال مجاهد: فما خوّلك الله فأحسن صحبته، كل هذا اوصى الله به، وعن مقاتل نحوه.

والإحسان إليهم أن لا يكلفهم ما لا يطيقونه ولا يؤذيهم بالكلام الخشن، وأن يعطيهم من الطعام الكسوة ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية، وعن علي بن أبي طالب قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ «الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»(١) وقد ورد مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بر الوالدين وفي صلة القرابة وفي الإحسان إلى اليتامى والجار، وفي القيام بما يحتاج إليه المماليك أحاديث كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة لا حاجة بنا إلى بسطها هنا.

وقوله ﴿إن الله﴾ علة لمحذوف تقديره ولا تفتخروا عليهم لأن الله ﴿لا يحب من كان مختالاً﴾ ذا الخيلاء وهو الكبر والتيه اسم فاعل من اختال يختال أي تكبر وأعجب بنفسه أي لا يحب من كان متكبراً تائهاً على الناس ﴿فخوراً﴾ مفتخراً عليهم، والفخر المدح للنفس والتطاول وتعديد المناقب والمحاسن.

وخص هاتين الصفتين لأنهما يحملان صاحبهما على الأنفة مما ندب الله إليه في هذه الآية يعني يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء وغيرهم، ولا يلتفت إليهم، ومن كان متكبراً لا يقوم بحقوق الناس، وقد ورد في ذم الاختيال والكبر والفخر ما هو معروف.

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للعبد المملوك المصلح أجران» والذي نفسُ أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك. وروي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين».

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾

﴿الذين يبخلون﴾ البخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله، وهؤلاء المذكورون في هذه الآية ضموا إلى ما وقعوا فيه من البخل الذي هو أشر خصال الشر، ما هو أقبح منه وأدل على سقوط نفس فاعله وبلوغه في الرذالة إلى غايتها ﴿و﴾ هو أنهم مع بخلهم بأموالهم وبما منحوا به وكتمهم لما أنعم الله به عليهم من فضله ﴿يأمرون الناس بالبخل﴾ كأنهم يجدون في صدورهم من جود غيرهم بماله حرجاً ومضاضة، فلا كثر الله في عباده من أمثالكم.

هذه أموالكم قد بخلتم بها لكونكم تظنون انتقاصها بإخراج بعضها في مواضعه فما بالكم بخلتم بأموال غيركم مع أنه لا يلحقكم في ذلك ضرر، وهل هذا إلا غاية اللؤم ونهاية الحمق والرقاعة وقبح الطباع وسوء الاختيار، وقد قيل ان المراد بهذه الآية اليهود فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال، وكتمان ما أنزل الله في التوراة، وفي البخل أربع لغات فتح الباء والخاء وضمهما وفتح الباء مع سكون الخاء وضم الباء مع سكون الخاء وقرىء بها جميعاً، وقرأ الجمهور بالأخيرة.

﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ من صفة محمد أو من العلم أو الغنى، قيل المراد بها المنافقون ولا يخفى أن اللفظ أوسع من ذلك وأكثر شمولاً وأعم فائدة ﴿وأعتدنا للكافرين﴾ يعني الجاحدين لنعمة الله عليهم ﴿عذاباً مهيناً﴾ في الآخرة، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق» أخرجه الترمذي واستغربه.

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ عطف على قوله ﴿الذين يبخلون﴾ ووجه ذلك أن الأولين قد فرطوا بالبخل وبأمر الناس به وبكتم ما آتاهم الله من فضله، وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير مواضعها لمجرد الرياء والسمعة، وليقال ما أسخاهم وما أجودهم كما يفعله من يريد أن يتسامع الناس بأنه كريم، ويتطاول على غيره بذلك ويشمخ بأنفه عليه، مع ما ضم إلى هذا الانفاق الذي يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر أي لا يصدقون بتوحيد الله ولا بالمعاد الذي فيه جزاء الأعمال أنه كائن.

وكررت لا وكذلك الباء إشعاراً بأن الإيمان بكل منهما منتف على حد، قيل نزلت في اليهود، وقيل في المنافقين، وقيل في مشركي مكة.

﴿ومن يكن الشيطان له قريناً﴾ في الكلام اضمار والتقدير ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقرينهم الشيطان، ومن يكن الخ، والقرين المقارن وهو الصاحب والخليل فعيل بمعنى مفاعل كالخليط والجليس. والقرين الحبل لأنه يقرن به بين البعيرين، والمعنى من قبل من الشيطان في الدنيا فقد قارنه فيها أو فهو قرينه في النار ﴿فساء﴾ الشيطان ﴿قريناً﴾ وبئس الصاحب وبئس الخليل هو.

وفيه تقريع لهم على طاعة الشيطان، وقيل هذا في الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم في النار يقرن مع كل كافر شيطان في سلسلة من النار، والأول أولى وألصق بظاهر الآية.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

﴿وماذا عليهم﴾ أي على هذه الطوائف ﴿لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ ابتغاء لوجهه وامتثالاً لأمره، أي وماذا يكون عليهم من ضرر ووبال لو فعلوا ذلك ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ فيه وعيد لهم وتهديد وتوبيخ على الجهل بمكان المنفعة.

﴿إنّ الله لا يظلم مثقال﴾ مفعال من الثقل كالمقدار من القدر أي لا يظلم شيئاً مقدار ﴿ذرة﴾ واحدة الذرّ وهي النمل الصغار، وقيل رأس النملة، وقيل الخردلة، وقيل كل جزء من أجزاء الهباء الذي يظهر فيما يدخل من الشمس من كوّة أو غيرها ذرة، والأول هو المعنى اللغوي الذي يجب حمل القرآن عليه.

والمراد من هذا الكلام أن الله لا يظلم كثيراً ولا قليلاً أي لا يبخسهم من ثواب أعمالهم ولا يزيد في عقاب ذنوبهم وزن ذرة فضلاً عما فوقها، ومناسبة هذه الآية لما قبلها واضحة.

﴿وإن تك حسنة﴾ قرأ أهل الحجاز بالرفع أي أن توجد حسنة على أن كان هي التامة لا الناقصة، وقرأ من عداهم بالنصب أي إن تك فعلته حسنة وحذفت منه النون من غير قياس تشبيهاً بحرف العلة وتخفيفاً لكثرة الاستعمال.

وقال الزجاج: الأصل في ﴿تك﴾ تكون فسقطت الضمة للجزم والواو لسكونها وسكون النون، وسقوط النون لكثرة الاستعمال تشبيهاً بحروف اللين لأنها ساكنة فحذفت استخفافاً، وقيل ان التقدير إن يك مثقال الذرة حسنة ﴿يضاعفها﴾ أنث ضمير المثقال لكونه مضافاً إلى المؤنث، والأول أولى.

وقرأ الحسن ﴿نضاعفها﴾ بالنون والباقون بالياء وهي الأرجح، وقد تقدم الكلام في المضاعفة والمراد مضاعفة ثواب الحسنة لأن مضاعفة نفس الحسنة بأن تجعل الصلاة الواحدة صلاتين مما لا يعقل.

عن سعيد بن جبير: وان يك حسنة وزن ذرة زادت على سيآته يضاعفها، فأما المشرك فيخفف بها عنه العذاب ولا يخرج من النار أبداً، قال قتادة: لأن تفضل حسناتي على سيآتي بمثقال ذرة أحب إلي من الدنيا وما فيها، وفي الباب أحاديث يطول ذكرها وهذا عند الحساب.

﴿ويؤت﴾ أي يعط صاحبها ﴿من لدنه﴾ أي من عنده على نهج التفضل زائداً على ما وعده في مقابلة العمل ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة، قال أبو هريرة: إذا قال الله أجراً عظيماً فمن يقدر قدره.

﴿فكيف﴾ يكون حال هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين أو حال كفار قريش خاصة يوم القيامة؟ هذا الاستفهام معناه التوبيخ والتقريع ﴿إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ قال ابن عباس: إنه يؤتى بنبي كل أمة يشهد عليها ولها ﴿وجئنا بك على هؤلاء﴾ أي الأنبياء أو جميع الأمم أو المنافقين أو المشركين، وقيل على المؤمنين ﴿شهيداً﴾.

عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اقرأ عليّ القرآن قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم إني أحب

أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال حسبك الآن، فإذا عيناه تذرفان، أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري وأخرجه الحاكم وصحّحه من حديث عمرو بن حريث[1].

﴿يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ فيما أمرهم به من التوحيد ﴿لو تسوّى بهم الأرض﴾ وقرىء تسوى بفتح التاء وتشديد السين وبفتحها وتخفيف السين أي أن الأرض هي التي تسوى بهم أي أنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها، وقيل بهم بمعنى عليهم، وعلى القراءة الأولى أي بالبناء للمفعول معناه لو سوى الله بهم الأرض فيجعلهم والأرض سواء حتى لا يبعثوا.

﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ أي أنهم لا يقدرون على الكتم في مواطن دون مواطن، قال ابن عباس لا يكتمون أي بجوارحهم ولا يقدرون على ذلك يعني تشهد عليهم الجوارح والأعضاء والزمان والمكان فلم يستطيعوا الكتمان، قال الزجاج: هذا كلام مستأنف لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانه، وقال بعضهم: المعنى يودون أن الأرض سـوّيت بهم وأنهم لم يكتموا حديثاً لأنه ظهر كذبهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣٥٥٠ والبخاري ٨١/٩ عن عبدالله بن مسعود. وفي رواية رفعت رأسي أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل وهذا لفظ مسلم ٥٥١/١ والمستدرك ٣١٩/٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ جعل الخطاب خاصاً بالمؤمنين لأنهم الذين كانوا يقربون الصلاة حال السكر، وأما الكفار فهم لا يقربونها سكارى ولا غير سكارى، قال أهل اللغة: إذا قيل لا تقرب بفتح الراء كان معناه لا تتلبس بالفعل، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن منه.

والمراد هنا النهي عن التلبس بالصلاة وغشيانها، وبه قال جماعة من المفسرين، وإليه ذهب أبو حنيفة، وقال آخرون المراد مواضع الصلاة وبه قال الشافعي، وعلى هذا فلا بد من تقدير مضاف، ويقوّي هذا قوله ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾.

وقالت طائفة: المراد الصلاة ومواضعها معاً لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة ولا يصلون إلا مجتمعين، فكانا متلازمين، وسكارى جمع سكران مثل كسالى جمع كسلان، وقرىء سكرى بالفتح وهو تكسير سكران، وقرأ الأعمش: سكرى كحبلى.

والسكر لغة السدّ، ومنه قيل لما يعرض للمرء من شرب المسكر لأنه يسد ما بين المرء وعقله وأكثر ما يقال السكر لإزالة العقل بالمسكر، وقد يقال ذلك لإزالته بغضب ونحوه من عشق وغيره، والسكر بالفتح وسكون الكاف حبس الماء وبالكسر نفس الموضع المسدود، وأما السكر بفتحهما فما يسكر به من

المشروب، ومنه ﴿سكراً ورزقاً حسناً﴾ وقد ذهب العلماء كافة إلى أن المراد بالسكر هنا سكر الخمر إلا الضحاك فإنه قال سكر النوم، وقال ابن عباس: النعاس، وسيأتي بيان سبب نزول الآية وبه يندفع ما يخالف الصواب من هذه الأقوال.

﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ هذا غاية النهي عن قربان الصلاة في حال السكر أي حتى يزول عنكم أثر السكر وتعلموا ما تقولونه وتصحوا وتفيقوا من السكر. فإن السكران لا يعلم ما يقوله.

وقد تمسك بهذا من قال إن طلاق السكران لا يقع، لأنه إذا لم يعلم ما يقوله انتفى القصد، وبه قال عثمان بن عفان وابن عباس وطاوس وعطاء والقاسم وربيعة وهو قول الليث بن سعد وإسحق وأبي ثور والمزني واختاره الطحاوي وقال: أجمع العلماء على أن طلاق المعتوه لا يجوز والسكران معتوه كالموسوس.

وأجازت طائفة وقوع طلاقه وهو محكي عن عمر بن الخطاب ومعاوية وجماعة من التابعين، وهو قول أبي حنيفة والثوري والأوزاعي. واختلف قول الشافعي في ذلك. وقال مالك: يلزمه الطلاق والقود في الجراح والقتل ولا يلزمه النكاح والبيع.

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسّنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والضياء في المختارة عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن الذي صلّى بهم عبد الرحمن. وروى بألفاظ من طرق[1].

---

(١) اخرجه ابو داود ٣/٤٤٥ والترمذي ٢/١٢٨ وابن جرير ٨/٣٧٦ والإمام أحمد ١/٣٧٩.

﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ الجنب لا يؤنّث ولا يثنّى ولا يجمع لأنه ملحق بالمصدر كالبعد والقرب، قال الفراء: جنب الرجل وأجنب من الجنابة وهو المشهور في اللغة والفصيح وبه جاء القرآن، وقيل يجمع الجنب في لغة على أجناب مثل عنق وأعناق وطنب وأطناب.

والمعنى جنباً بإيلاج وإنزال ونصبه على الحال، والاستثناء مفرغ أي لا تقربوها في حال من الأحوال إلا في حال عبور السبيل، والمراد به هنا السفر، فإنه يجوز لكم أن تصلوا بالتيمم. وهذا قول علي وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحكم وغيرهم قالوا: لا يصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد الاغتسال إلا المسافر فإنه يتيمّم، لأن الماء قد يعدم في السفر لا في الحضر، فإن الغالب أنه لا يعدم.

وقال ابن مسعود وعكرمة، والنخعي وعمرو بن دينار ومالك والشافعي: «عابر السبيل» هو المجتاز في المسجد وهو مروي عن ابن عباس، فيكون معنى الآية على هذا لا تقربوا مواضع الصلاة وهي المساجد في حال الجنابة إلا أن تكونوا مجتازين فيها من جانب إلى جانب.

وفي القول الأول قوة من جهة كون الصلاة فيه باقية على معناها الحقيقي، وضعف من جهة ما في حمل عابر السبيل على المسافر، وأن معناه أنه يقرب الصلاة عند عدم المآء بالتيمم، فإن هذا الحكم يكون في الحاضر إذا عدم الماء كما يكون في المسافر.

وفي القول الثاني قوة من جهة عدم التكلف في معنى قوله ﴿إلا عابري سبيل﴾ وضعف من جهة حمل الصلاة على مواضعها.

وبالجملة فالحال الأولى أعني قوله ﴿وأنتم سكارى﴾ تقوي بقاء الصلاة

على معناها الحقيقي من دون تقدير مضاف؛ وسبب نزول الآية كما سبق يقوّي ذلك، وقوله ﴿إلا عابري سبيل﴾ يقوي تقدير المضاف أي لا تقربوا مواضع الصلاة.

ويمكن أن يقال إن بعض قيود النهي أعني لا تقربوا وهو قوله ﴿وأنتم سكارى﴾ يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقي، وبعض قيود النهي وهو قوله ﴿إلا عابري سبيل﴾ يدل على أن المراد مواضع الصلاة، ولا مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه ويكون ذلك بمنزلة نهيين مقيّد كل واحد منهما بقيد وهما لا تقربوا الصلاة التي هي ذات الأذكار والأركان وأنتم سكارى ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنباً إلا حال عبوركم المسجد من جانب إلى جانب.

وغاية ما يقال في هذا أنه من الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو جائز بتأويل مشهور، وقال ابن جرير بعد حكايته للقولين: والأولى قول من قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ إلا مجتازي طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ الآية فكان معلوماً بذلك أي أن قوله ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ لو كان معنيّاً به المسافر لم يكن لإعادة ذكره في قوله ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ معنى مفهوم، وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك.

فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل، قال: وعابر السبيل المجتاز مرّاً وقطعاً، يقال منه عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبراً وعبوراً ومنه قيل عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ومنه قيل للناقة القوية هي عبر اسفار لقوتها على قطع الاسفار.

قال ابن كثير: وهذا الذي نصره يعني ابن جرير هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية انتهى[١].

﴿حتى تغتسلوا﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة أو مواضعها حال الجنابة، والمعنى لا تقربوها حال الجنابة حتى تغتسلوا الا حال عبوركم السبيل، وعن علي قال نزلت في المسافر تصيبه الجنابة فيتيمم ويصلي، وقال ابن عباس إن لم تجدوا الماء فقد أحللت أن تمسحوا بالأرض، وعن مجاهد قال لا يمر الجنب ولا الحائض في المسجد، وإنما أنزلت ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ للمسافر يتيمم ثم يصلي.

﴿وإن كنتم مرضى﴾ المرض عبارة عن خروج البدن عن حد الاعتدال والاعتياد إلى الاعوجاج والشذوذ، وهو على ضربين: كبير ويسير، والمراد هنا أن يخاف على نفسه التلف أو الضرر باستعمال الماء أو كان ضعيفاً في بدنه لا يقدر على الوصول إلى موضع الماء، وروى عن الحسن أنه يتطهر وإن مات، وهذا باطل يدفعه قوله تعالى ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وقوله ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ وقوله ﴿يريد الله بكم اليسر﴾.

﴿أو على سفر﴾ فيه جواز التيمم لمن صدق عليه اسم المسافر، والخلاف مبسوط في كتب الفقه وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يشترط أن يكون سفر قصر، وقال قوم لا بد من ذلك، وقد أجمع العلماء على جواز التيمم للمسافر، واختلفوا في الحاضر فذهب مالك وأصحابه وأبو حنيفة ومحمد إلى أنه يجوز في الحضر والسفر، وقال الشافعي: لا يجوز للحاضر الصحيح أن يتيمم إلا أن يخاف التلف.

﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ هو المكان المنخفض المطمئن من

---

(١) ابن كثير ١/٥٠٢.

الأرض، والمجيء منه كناية عن الحدث والجمع الغيطان والأغواط، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تستراً عن أعين الناس، ثم يسمى الحدث الخارج من الإنسان غائطاً توسعاً من باب تسمية الشيء باسم مكانه، ويدخل في الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء.

﴿أو لامستم النساء﴾ وقرىء لمستم قيل المراد بما في القراءتين الجماع، وقيل المراد به مطلق المباشرة، وقيل إنه يجمع الأمرين جميعاً وقال المبرد الأولى في اللغة أن يكون ﴿لامستم﴾ بمعنى قبّلتم ونحوه ﴿ولمستم﴾ بمعنى غشيتم.

واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال: فقالت فرقة الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع قالوا: والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء، وقد روى هذا عن عمر وابن مسعود، قال ابن عبد البر لم يقل بقولها في هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي وحملة الآثار انتهى.

وأيضاً الأحاديث الصحيحة تدفعه وتبطله كحديث عمار وعمران بن حصين وأبي ذر في تيمم الجنب، وقالت طائفة هو الجماع كما في قوله ﴿ثمّ طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ وقوله ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ وهو يروى عن علي وأبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وطاوس والحسن وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة ومقاتل بن حيان وأبي حنيفة.

وقال مالك الملامس بالجماع يتيمم، والملامس باليد يتيمم إذا الْتذّ، فإن لمسها بغير شهوة فلا وضوء، وبه قال أحمد واسحق، وقال الشافعي: إذا أفضى الرجل بشيء من بدنه إلى بدن المرأة سواء كان باليد أو بغيرها من أعضاء الجسد انتقضت به الطهارة وإلا فلا، وحكاه القرطبي عن ابن مسعود وابن عمر والزهري وربيعة.

قال الأوزاعي: إذا كان اللمس باليد نقض الطهر، وإن كان بغير اليد لم ينقضه لقوله تعالى ﴿فلمسوه بأيديهم﴾.

وقد احتجوا بحجج تزعم كل طائفة أن حجتها تدل على أن الملامسة المذكورة في الآية هي ما ذهبت إليه، وليس الأمر كـذلك، فقـد اختلفت الصحابة ومن بعدهم في معنى الملامسة المذكورة في الآية، وعلى فرض أنها ظاهرة في الجماع فقد ثبتت القراءة المروية عن حمزة والكسائي بلفظ أو لمستم وهي محتملة بلا شك ولا شبهة، ومع الاحتمال فلا تقوم الحجة بالمحتمل.

وهذا الحكم تعم به البلوى وثبت به التكليف العام فلا يحل إثباته بمحتمل قد وقع النزاع في مفهومه.

وإذا عرفت هذا فقد ثبتت السنة الصحيحة بوجوب التيمم على من أجنب ولم يجد الماء فكان الجنب داخلاً في هذا الحكم بهذا الدليل، وعلى فرض عدم دخوله فالسنة تكفي في ذلك، وأما وجوب الوضوء أو التيمم على من لمس المرأة بيده أو بشيء من بدنه فلا يصح القول به استدلالاً بهذه الآية لما عرفت من الاحتمال.

وأما ما استدلوا به من أنـه ﷺ أتاه رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها وليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا قد أتاه منها غير أنه لم يجامعها؟ فأنزل الله ﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئآت ذلك ذكرى للذاكرين﴾ أخـرجه احمـد والترمـذي والنسائي من حديث معاذ، قالوا فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها، فلا يخفاك أنه لا دلالة لهذا الحديث على محل النزاع فإن النبي ﷺ إنما أمـره بالوضوء ليأتي بالصلاة التي ذكرها الله سبحانه في هذه الآية إذ لا صلاة إلا بوضوء.

وأيضاً فالحديث منقطع لأنه من رواية ابن أبي ليلى عن معاذ ولم يلقه.

وإذا عرفت هذا فالأصل البراءة عن هذا الحكم فلا يثبت إلا بدليل خالص عن الشوائب الموجبة لقصوره عن الحجة، وأيضاً قد ثبت عن عائشة من طرق أنها قالت كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ ثم يقبّل ثم يصلي ولا يتوضأ، وقد روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبي داود والنسائي وابن ماجة.

﴿فلم تجدوا ماء﴾ تتطهرون به للصلاة بعد الطلب والتفتيش، وهذا القيد إن كان راجعاً إلى جميع ما تقدم مما هو مذكور بعد الشرط وهو المرض والسفر والمجيء من الغائط وملامسة النساء كان فيه دليل على أن المرض والسفر بمجردهما لا يسوغان التيمم، بل لا بد مع وجود أحد السببين من عدم الماء فلا يجوز للمريض والمسافر أن يتيمما إلا إذا لم يجدا ماء.

ولكنه يشكل على هذا أن الصحيح والمقيم كالمريض والمسافر إذا لم يجدا الماء تيمما، فلا بد من فائدة في التنصيص على المرض والسفر، فقيل وجه التنصيص عليهما أن المرض مظنّة للعجز عن الوصول إلى الماء وكذلك المسافر عدم الماء في حقّه غالب.

وإن كان راجعاً إلى الصورتين الأخيرتين أعني قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء﴾ كما قال بعض المفسرين كان فيه إشكال وهو أن من صدق عليه إسم المريض أو المسافر جاز له التيمم وإن كان واجداً للماء قادراً على استعماله، وقد قيل: إنه رجع هذا القيد إلى الأخيرين مع كونه معتبراً في الأولين لندرة وقوعه فيهما، وأنت خبير بأن هذا كلام ساقط وتوجيه بارد.

وقال مالك: ومن تابعه ذكر الله المرض والسفر في شرط التيمم إعتباراً

بالأغلب فيمن لم يجد الماء بخلاف الحاضر فإن الغالب وجوده فلذلك لم ينص الله سبحانه عليه اهـ.

والظاهر أن المرض بمجرده مسوغ للتيمم وإن كان الماء موجوداً إذا كان يتضرر باستعماله في الحال أو في المآل ولا تعتبر خشية التلف، فالله سبحانه يقول ﴿والله يريد بكم اليسر﴾ ويقول ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ والنبي ﷺ يقول «الدين يسر[1]» ويقول: «يسروا ولا تعسروا[2]» وقال «قتلوه قتلهم الله[3]» ويقول «أمرت بالشريعة السمحة[4]».

فإذا قلنا:إن قيد عدم وجود الماء راجع الى الجميع كان وجه التنصيص على المريض هو أنه يجوز له التيمم والماء حاضر موجود إذا كان استعماله يضره فيكون إعتبار ذلك القيد في حقه إذا كان استعماله لا يضره، فإن في مجرد المرض مع عدم الضرر باستعمال الماء ما يكون مظنة لعجزه عن الطلب لأنه يلحقه بالمرض نوع ضعف، وأما وجه التنصيص على المسافر فلا شك أن الضرب في الأرض مظنة لإعواز الماء في بعض البقاع دون بعض.

﴿فتيمّموا﴾ التيمم لغة القصد يقال تيممت الشيء قصدته، وتيممت الصيد تعمدته، وتيممته بسهمي ورمحي قصدته دون من سواه، قال ابن السكيت: قوله تيمموا أي اقصدوا ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب.

وقال ابن الأعرابي في قولهم: قد تيمم الرجل معناه قد مسح التراب على وجهه، وهذا خلط منها للمعنى اللغوي بالمعنى الشرعي، فإن العرب لا تعرف

(١) الحديث: إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه.
(٢) مسلم ١٧٣٤ ـ البخاري ٦١.
(٣) رواه ابو داود وابن ماجه والدارقطني وصححه ابن السكن.
(٤) الإمام أحمد ١١٦/٦.

التيمم بمعنى مسح الوجه واليدين وإنما هو معنى شرعي فقط.

وظاهر الأمر الوجوب وهو مجمع على ذلك، والأحاديث في هذا الباب كثيرة وتفاصيل التيمم وصفاته مبينة في السنة المطهرة ومقالات أهل العلم مدونة في كتب الفقه.

والتيمم من خصائص هذه الأمة، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء أخرجه مسلم[1]. وكان سبب التيمم انقطاع عقد لعائشة في بعض الأسفار وقصته في الصحيحين.

﴿صعيداً طيّباً﴾ الصعيد وجه الأرض سواء كان عليه تراب أم لم يكن قاله الخليل وابن الأعرابي والزجاج، قال الزجاج: لا أعلم فيه خلافاً بين أهل اللغة، قال الله تعالى ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي أرضاً غليظة لا تنبت شيئاً وقال تعالى ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ وإنما سمي صعيداً لأنه نهاية ما يصعد إليه من الأرض.

قال قتادة الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات، وقال ابن زيد المستوى من الأرض، وبه قال الليث، وقال الفراء هو التراب، وبه قال أبو عبيدة، وجمع الصعيد صعدات.

وقد اختلف أهل العلم فيما يجزىء التيمم به فقال مالك وأبو حنيفة والثوري والطبراني أنه يجزىء بوجه الأرض كله تراباً كان أو رملاً أو حجارة، وحملوا قوله ﴿طيباً﴾ على الطاهر الذي ليس بنجس، وقال الشافعي وأحمد

(١) مسلم ٥٢٢.

وأصحابهما أنه لا يجزىء التيمم إلا بالتراب فقط، واستدلوا بقوله تعالى ﴿صعيداً زلقاً﴾ أي تراباً أملس طيباً، وكذلك استدلوا بقوله ﴿طيباً﴾ قالوا: والطيب التراب الذي ينبت.

وقد تنوزع في معنى الطيب فقيل الطاهر كما تقدم وقيل المنبت كما هنا، وقيل الحلال، والمحتمل لا تقوم به حجة.

ولو لم يوجد في الشيء الذي يتيمم به إلا ما في الكتاب العزيز لكان الحق ما قاله الأولون لكن ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا الطهور إذا لم نجد الماء وفي لفظ وجعل ترابها لنا طهوراً[1]» فهذا مبين لمعنى الصعيد المذكور في الآية أو مخصص لعمومه أو مقيد لاطلاقه.

ويؤيد هذا ما حكاه ابن فارس عن كتاب الخليل: تيمم بالصعيد أي خذ من غباره انتهى، والحجر الصلد لا غبار له.

﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ هذا المسح مطلق يتناول المسح بضربة أو ضربتين، ويتناول المسح إلى المرفقين أو إلى الرسغين، وقد بينته السنة بياناً شافياً، وقد جمع الشوكاني بين ما ورد في المسح بضربة وبضربتين وما ورد في المسح إلى الرسغ وإلى المرفقين في شرحه للمنتقى وغيره من مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره.

والحاصل أن أحاديث الضربتين لا يخلو جميع طرقها من مقال، ولو

---

(١) مسلم ٥٢٢.

صحت لكان الأخذ بها متعيّناً لما فيها من الزيادة، فالحق الوقوف على ما ثبت في الصحيحين من حديث عمار من الاقتصار على ضربة واحدة حتى تصبح الزيادة على ذلك المقدار.

قال الخطابي: لم يختلف أحد من العلماء في أنه لا يلزم مسح ما وراء المرفقين، واحتجوا بالقياس على الوضوء وهو فاسد الاعتبار.

قال الحافظ: إن الأحاديث الواردة في صفة التيمم لم يصح منها سوى حديث أبي جهم وعمار، وما عداهما فضعيف أو مختلف في رفعه ووقفه والراجح عدم رفعه انتهى، فالحق مع أهل المذهب الأول حتى يقوم دليل يجب المصير إليه، ولا شك أن الأحاديث المشتملة على الزيادة أولى بالقبول، ولكن إذا كانت صالحة للاحتجاج بها، وليس في الباب شيء من ذلك[1].

﴿إن الله كان عفوّاً غفوراً﴾ أي عفا عنكم وغفر لكم تقصيركم ورحمكم بالترخيص لكم والتوسعة عليكم.

---

(١) البخاري ٨/١٨٩، ومسلم ٢٧٩، ولفظه عن عائشة أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء (أو بذات الجيش) انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء فأتى الناس الى أبي بكر فقالوا: ألا ترى الى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء. فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس ليسوا على ماء، وليس معهم ماء قالت: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي. فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم «فتيمموا».
وروى عمار عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: التيمم ضربة للوجه والكفين رواه البخاري ١/٣٧٧ ومسلم ١/٢٨٠ وغيرهما.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿ألم تر﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حال اليهود والتحذير من موالاتهم والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية من المسلمين، وتوجيهه إليه ﷺ هنا مع توجيهه فيما بعد إلى الكل معاً للإيذان بكمال شهرة شناعة حالهم، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها، والرؤية هنا بصرية.

﴿إلى الذين أوتوا نصيباً﴾ حظاً ﴿من الكتاب﴾ التوراة والمراد أحبار اليهود ﴿يشترون الضلالة﴾ المراد بالاشتراء الاستبدال، وقد تقدم تحقيق معناه، والمعنى أن اليهود استبدلوا الضلالة وهي البقاء على اليهودية بالهدى أي بعد وضوح الحجة على صحة نبوة نبينا ﷺ، وقيل يأخذون الرشا ويحرفون التوراة.

﴿ويريدون أن تضلّوا السبيل﴾ عطف على قوله يشترون مشارك له في بيان سوء صنيعهم وضعف اختيارهم، أي لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من استبدال الضلالة بالهدى، بل أرادوا مع ضلالهم أن يتوصلوا بكتمهم وجحدهم إلى أن تضلوا أنتم أيها المؤمنون السبيل المستقيم الذي هو سبيل الحق، قال تعالى ﴿ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾.

﴿والله أعلم﴾ منكم ﴿بأعدائكم﴾ أيها المؤمنون، وما يريدونه بكم من الإضلال فيخبركم بهم لتجتنبوهم، والجملة اعتراضية ﴿وكفى بالله ولياً﴾ متولياً أمركم وقائماً به وحافظاً لكم منهم، ومن كان الله وليه لم يضره أحد ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ينصركم في مواطن الحرب ويمنعكم من كيدهم، فاكتفوا بولايته ونصره ولا تتولوا غيره ولا تستنصروه.

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

﴿من الذين هادوا﴾ قوم ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ وقال الفراء التقدير من الذين هادوا من يحرفون كقوله ﴿وما منّا إلا له مقام معلوم﴾ أي من له مقام، وأنكره المبرد والزجاج وقيل بيان لقوله ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ والتحريف الإمالة والإزالة أي يميلونه ويزيلونه عن مواضعه ويجعلون مكانه غيره، أو المراد أنهم يتأولونه على غير تأويله، وإليه ذهبت طائفة من الفقهاء والمحدثين.

وقال ابن عباس: يحرفون حدود الله في التوراة، وقال مجاهد: تبديل اليهود التوراة، وذمهم الله عز وجل بذلك لأنهم يفعلونه عناداً وبغياً وايثاراً لعرض الدنيا.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله في اغاثة اللهفان: وقد اختلف في التوراة التي بأيديهم هل هي مبدلة أم التبديل وقع في التأويل دون التنزيل؟ على ثلاثة أقوال قالت طائفة: كلها أو أكثرها مبدّل، وغلا بعضهم حتى قال يجوز الاستجمار بها، وقالت طائفة من أئمة الحديث والفقه والكلام إنما وقع التبديل في التأويل.

قال البخاري في صحيحه يحرفون يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله ولكنهم يتأولونه على غير تأويله، وهو اختيار الرازي أيضاً،

وسمعت شيخنا يقول: وقع النزاع بين الفضلاء فأجاز هذا المذهب ووهى غيره، فأنكر عليه فأظهر خمسة عشر نقلا به.

ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها وانتشرت جنوباً وشمالاً، ولا يعلم عدد نسخها إلا الله فيمتنع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ حتى لا تبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة، وهذا مما يحيله العقل، قالوا: وقد قال الله لنبيه ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين﴾ قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم ولم يمكنهم تغييرها من التوراة ولذا لما قرؤها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضع القارىء يده على آية الرجم، فقال له عبدالله بن سلام ارفع يدك فرفعها فاذا هي تلوح تحتها.

وتوسطت طائفة فقالوا: قد زيد فيها وغير أشياء يسيرة جداً، واختاره شيخنا في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، قال وهذا كما في التوراة عندهم أن الله سبحانه قال لإبراهيم: اذبح ابنك بكرك أو وحيدك اسحق.

قلت والزيادة باطلة من وجوه عشرة **الأول**: أن بكره ووحيده اسمعيل باتفاق الملل الثلاث.

الثاني: انه سبحانه أمر ابراهيم أن ينقل هاجر وابنها اسمعيل عن سارة ويسكنها في برية مكة لئلا تغار سارة فأمره بابعاد السرية وولدها عنها فكيف يؤمر بعد هذا بذبح ابن سارة وابقاء ابن السرية، وهذا مما لا تقتضيه الحكمة.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعاً ولذا جعل الله سبحانه ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيراً للأئمة بما كان من ابراهيم وولده هنالك.

الرابع: أن الله بشر سارة أم اسحق باسحق ومن ورائه يعقوب فبشرها بهما جميعاً فكيف يأمر بعد ذلك بذبح اسحق وقد بشر أبويه بولد ولده.

الخامس: أن الله لما ذكر قصة الذبح وتسليمه نفسه لله وإقدام إبراهيم على ذبحه وفرغ من قصته قال بعدها وبشرناها بإسحق نبياً من الصالحين، فشكر الله له استسلامه وبذل ولده له، وجعل من آياته على ذلك أن آتاه إسحق فنجى إسمعيل من الذبح وزاد عليه اسحق.

السادس: أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه الولد فأجاب دعاءه وبشره به فلما بلغ معه السعي أمره بذبحه قال تعالى ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم﴾ فهذا دليل أن هذا الولد إنما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولداً وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعاً بنص القرآن، وأما اسحق فإنه بشر به من غير دعوة منه بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له، وإنما كانت البشارة به لامرأته سارة، ولذا تعجبت من حصول الولد منها.

السابع: أن إبراهيم لم يقدم بإسحق إلى مكة ألبتّة، ولم يفرق بينه وبين أمه، وكيف يأمره الله أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضرّتها وفي بلدها ويدع ابن ضرتها.

الثامن: أن الله لما اتخذ إبراهيم خليلاً، والخلّة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقاً بربه ليس فيه سعة لغيره، فلما سأل الولد وهب له اسمعيل فتعلّق به شعبة من قلبه، فأراد خليله أن تخلص تلك الشعبة له فامتحنه بذبح ولده، فلما امتثل خلصت تلك الخلة فنسخ الأمر بذبحه لحصول الغرض وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال، ومن المعلوم أن هذا إنما يكون في أول الأولاد لا في آخرها، فلما حصل هذا المقصود مع الولد الأول لم يحتج إلى مثله مع الولد الآخر، فإنه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لأمر بذبحه، فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقره في الأول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة، ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك وهو خلاف مقتضى الحكمة فليتأمل.

التاسع: أن إبراهيم إنما رزق إسحق على الكبر، وإسمعيل رزقه في عنفوان شبابه، والعادة أن القلب أعلق بالأول.

العاشر: أن النبي ﷺ كان يفتخر بأنه ابن الذبيحين يعني أباه عبدالله وجده اسمعيل، والمقصود أن هذه اللفظة مما زاده في التوراة انتهى ملخصاً.

قال الخفاجي: في العناية في تفسير الفاتحة وأما الإنجيل ففيه تبديل وتحريف في بعض ألفاظه ومعانيه وهو مختلف النسخ، والأناجيل أربعة كما فصله بعضهم في كتاب عقده لذلك سماه المفيد في التوحيد انتهى.

﴿ويقولون سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك ﴿واسمع﴾ حال كونك ﴿غير مسمع﴾ كلاماً أصلاً بصمم أو موت وهو يحتمل أن يكون دعاء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمعنى اسمع لا سمعت أو غير مسمع كلاماً ترضاه.

ويحتمل أن يكون المعنى اسمع منا غير مسمع جواباً كانوا يخاطبون به النبي ﷺ استهزاء به مظهرين له إرادة المعنى الأخير، وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأول، وقال ابن عباس: غير مقبول.

وقد تقدم الكلام في ﴿وراعنا﴾ أي يريدون بذلك نسبته إلى الرعونة وقيل معناه ارعنا سمعك، ومثل ذلك لا يخاطب به الأنبياء، وهي كلمة سب بلغتهم.

ومعنى ﴿ليّاً بألسنتهم﴾ أنهم يلوونها عن الحق أي يميلونها إلى ما في قلوبهم، وأصل اللّيّ الفتل أي فتلاً بها وصرفاً للكلام عن نهجه إلى نسبة السب حيث وضعوا ﴿غير مسمع﴾ موضع لا سمعت مكروهاً، وأجروا راعنا المشابهة

لراعنـا مجرى انظرنا أو فتلاً بها وضماً لما يظهرونه من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرونه من السب والتحقير(١).

﴿وطعناً﴾ أي قدحاً ﴿في الدّين﴾ بقولهم لو كان نبياً لعلم أنا نسبه، فاطلع الله سبحانـه نبيه ﷺ عـلى ذلك ﴿ولـو أنهم قالـوا سمعنا﴾ قـولك ﴿وأطعنا﴾ أمرك ﴿واسمع﴾ ما نقول ﴿وانظرنا﴾ أي أفهمنا لا تعجل علينا أي لو قالوا هذا مكان قولهم سمعنا وعصينا وراعنا بلسان المقال أو الحال ﴿لكان خيراً لهم﴾ مما قالوه ﴿وأقوم﴾ أي أعدل وأولى من قولهم الأول وهو قولهم سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لما في هذا من المخالفة وسوء الأدب واحتمال الذم في راعنا.

﴿ولكن﴾ لم يسلكوا ذلك المسلك الحسن، ولم يأتوا بما هو خير لهم وأقوم، بل استمروا على كفرهم ولهذا ﴿لعنهم الله بكفـرهم﴾ أي خذلهم وأبعدهم بسبب كفرهم ﴿فلا يؤمنون﴾ بعد ذلك ﴿إلا﴾ إيماناً ﴿قليلاً﴾ وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وببعض الرسل دون بعض، وقيل هـو اعتـرافهم بأن الله خلقهم ورزقهم وقيل إلا نفر قليل كعبدالله بن سلام، وعبّر الزمخشري وابن عطية عن هذا القليل بالعدم يعني أنهم لا يؤمنون ألبتة.

---

(١) في «مشكل القرآن» ٢٩١: هؤلاء قوم من اليهود كانوا يقولون للنبي ﷺ إذا حدثهم وأمرهم: سمعنا، ويقولون في أنفسهم: عصينا، وإن أرادوا أن يكلموه بشيء قالوا له: اسمع يا أبا القـاسم، ويقولـون في أنفسهم: لا سمعت، ويقولون له: راعنا، ويوهمونه في ظاهر اللفظ أنهم يريدون: انتظرنا، حتى نكلمك بما نريد، كما تقول العرب: أعرني سمعك وراعني، أي: انتظرني وترفق بي وتلوم علي، هذا ونحوه، وإنما يريد سبه بالرعونة في لغتهم، فقال الله سبحانه: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ ويقولون كذا وكذا، ويقولون: ﴿راعنا لياً بألسنتهم﴾ أي: قلباً للكلام بها، ﴿وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا﴾ مكان قولهم: سمعنا وعصينا، وقالوا: واسمع، مكان قولهم: لا سمعت، وانظرنا، مكان قولهم: راعنا لكان خيراً لهم وأقوم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ الخطاب لليهود، ولم يقل هنا أوتوا نصيباً من الكتاب لأن المقصود فيما سبق بيان خطئهم في التحريف، وهو إنما وقع في بعض التوراة والمقصود هنا بيان خطئهم في عدم إيمانهم بالقرآن وهو مصدّق لجميع التوراة فناسب التعبير هنا بايتائهم الكتاب ﴿آمنوا بما نزلنا﴾ يعني القرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ يعني التوراة ومعنى تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقاً لها في القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش.

وأما ما يتراءى من مخالفته لها في جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأمم والأعصار فليس بمخالفة في الحقيقة، بل هو عين الموافقة من حيث أن كلا منهما حق بالإضافة إلى عصره، متضمن للحكمة التي عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر، ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي».

ثم قرن بهذا الأمر الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وأكده فقال ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ أصل الطمس استئصال أثر الشيء بالمحو وإزالة الأعلام، ومنه **﴿ فإذا النجوم طمست﴾ يقال طمس** الأثر أي محاه كله ومنه ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي أهلكها، ويقال مطموس البصر ومنه ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ أي أعميناهم.

واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية هل هو حقيقة فيجعل الوجه كالقفا فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين وهو محو تخطيط صور الوجوه، قال ابن عباس يجعلها كخف البعير، وقيل نعميها فيكون المراد بالوجه العين، أو ذلك عبارة عن الضلالة في قلوبهم وسلبهم التوفيق، فذهب إلى الأول طائفة، وإلى الآخر آخرون، وفي تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب، وفي إبهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان.

وعلى الأول فالمراد بقوله ﴿فنردّها على أدبارها﴾ نجعلها أقفاء أي نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا. وقيل انه بعد الطمس يردها إلى مواضع القفا والقفا إلى مواضعها، وهذا هو ألصق بالمعنى الذي يفيده قوله **﴿فنردها على أدبارها﴾**.

فإن قيل كيف جاز أن يهددهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يفعل ذلك بهم، فقيل: إنه لما آمن هؤلاء ومن اتبعهم رفع الوعيد عن الباقين، وقال المبرد الوعيد باق منتظر، وقال لا بد من طمس في اليهود ومسخ قبل يوم القيامة، وقيل هو مختص بيوم القيامة، وقيل المراد طمس القلب والبصيرة وقيل المراد محو آثارهم من المدينة وردهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام من حيث جاؤوا، والأول أولى.

والضمير في ﴿أو نلعنهم﴾ عائد إلى أصحاب الوجوه ﴿كما لعنّا أصحاب السبت﴾ وكان لعن أصحاب السبت مسخهم قردة وخنازير، وقيل المراد نفس اللعنة، وهم ملعونون بكل لسان، والمراد وقوع أحد الأمرين إما الطمس أو اللعن، وقد وقع اللعن، ولكنه يقوي الأول تشبيه هذا اللعن بلعن أهل السبت ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي كائناً موجوداً لا محالة إن لم يؤمنوا أو يراد بالأمر المأمور، والمعنى أنه متى أراده كان كقوله ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، ولا يختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قالوا عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقالوا ثالث ثلاثة.

ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

قال ابن جرير قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عز وجل إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عز وجل، وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلاً منه ورحمة وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة، وقيد ذلك المعتزلة بالتوبة.

وقد تقدم قوله تعالى ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم﴾ وهي تدل على أن الله سبحانه يغفر سيئآت من اجتنب الكبائر فيكون مجتنب الكبائر ممن قد شاء الله غفران سيئآته.

عن ابن عمر بسند صحيح قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ ﴿إن الله لا يغفر﴾ الآية وقال: إني ادّخرت دعوتي

وشفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا.

وعن ابن عباس قال في هذه الآية: إن الله حرم المغفرة على من مات وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم عن المغفرة وأخرج الترمذي وحسنه عن علي قال: ما في القرآن أحب إلي من هذه الآية ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآية.

وعن جابر قال: جاء اعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ما الموجبتان قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك به دخل النار، أخرجه مسلم[1].

﴿ومن يشرك بالله﴾ يعني يجعل معه شريكاً غيره، إظهار في موضع الإضمار لإدخال الرّوع ﴿فقد افترى﴾ أي اختلق وفعل، لأن الافتراء كما يطلق على القول حقيقة يطلق على الفعل مجازاً كما صححه التفتازاني ﴿إثماً عظيماً﴾ يعني ذنباً كبيراً غير مغفور إن مات عليه.

﴿ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم﴾ أي يمدحونها، تعجيب من حالهم، وقد اتفق المفسرون على أن المراد اليهود، واختلفوا في معنى الذي زكّوا به أنفسهم فقال الحسن وقتادة: هو قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحبّاؤه﴾ وقولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾.

وقال الضحاك: هو قولهم لا ذنوب لنا ونحن كالأطفال، وقيل قولهم إن آباءهم يشفعون لهم، وقيل: ثناء بعضهم على بعض، ومعنى التزكية التطهير والتنزيه فلا يبعد صدقها على جميع هذه التفاسير وعلى غيرها، واللفظ يتناول كلّ من زكّى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم، وكل من ذكر نفسه

(١) روي عن أبي ذر قوله صلى الله عليه وسلم: ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة . . .

بصلاح أو وصفها بزكاء العمل أو بزيادة الطاعة والتقوى أو بزيادة الزلفى عندالله.

ويدخل في هذا التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية كمحي الدين وعز الدين وسلطان العارفين ونحوها، فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله تعالى فلهذا قال ﴿بل الله يزكّي من يشاء﴾ أي بل ذلك إليه سبحانه، فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده ومن لا يستحقها، فليدع العباد تزكية أنفسهم ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه، فإنّ تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس وطلب العلو والترفع والتفاخر، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾.

﴿ولا يظلمون﴾ هؤلاء المزكون أنفسهم من أعمالهم ﴿فتيلاً﴾ هو الخيط الذي في نواة الثمر، وقيل القشرة التي حول النواة وقيل هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفيك من الوسخ إذا فتلتهما فهو فتيل بمعنى مفتول، والمراد هنا الكناية عن الشيء الحقير، ومثله ولا يظلمون نقيراً، وهو النكتة التي في ظهر النواة.

والمعنى أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تزكيتهم لأنفسهم بقدر هذا الذنب، ولا يظلمون بالزيادة على ما يستحقون، ويجوز أن يعود الضمير إلى (من يشاء) أي لا يظلم هؤلاء الذين يزكيهم الله فتيلاً مما يستحقونه من الثواب.

وقد ضربت العرب المثل في القِلّة بأربعة أشياء اجتمعت في النواة وهي الفتيل والنقير وهو النقرة التي في ظهر النواة، والقطمير وهو القشر الرقيق فوقها، وهذه الثلاثة واردة في الكتاب العزيز، والثفروق وهو ما بين النواة والقمع الذي يكون في رأس الثمرة كالعلاقة بينهما.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

ثم عجّب النبي ﷺ من تزكيتهم لأنفسهم فقال ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ في قولهم ذلك، والافتراء الاختلاق ومنه افترى فلان على فلان أي رماه بما ليس فيه، وفريت الشيء قطعته، والافتراء والكذب متقاربان معنى أو معناهما واحد.

وفي قوله ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ من تعظيم الذنب وتهويله ما لا يخفى أي كفى بالافتراء وحده وبالأولى إذا انضم إلى التزكية، والتنكير في إثماً للتشديد.

﴿ألم تر﴾ تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول ﴿إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ هم اليهود ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ اختلف المفسرون في معنى الجبت والطاغوت فقال ابن عباس وابن جبير وأبو العالية الجبت الساحر بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن، وروي عن عمر بن الخطاب أن الجبت السحر والطاغوت الشيطان.

وروي عن ابن مسعود أن الجبت والطاغوت هنا كعب بن الأشرف، وقال قتادة الجبت الشيطان والطاغوت الكاهن، وروي عن مالك أن الطاغوت ما عبد من دون الله، والجبت الشيطان، وقيل هما كل معبود من دون الله أو مطاع في معصية الله، وقيل هما صنمان كانا لقريش وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش.

وأصل الجبت الجبس وهو الذي لا خير فيه فأبدلت التاء من السين قاله قطرب، وقيل إبليس والطاغوت أولياؤه، وعن قطن ابن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: العيافة والطيرة والطرق من الجبت أخرجه أبو داود[1]، وقال الطرق الزجر والعيافة الخط.

وقيل العيافه هي زجر الطير، والطرق هو ضرب الحجارة والحصى على طريق الكهانة، والطيرة هو أن يتطير بالشيء فيرى الشؤم فيه والشر منه، وقيل هو من التطيّر وهو زجر الطير، والخط هو ضرب الرمل لاستخراج الضمير.

﴿ويقولون﴾ أي اليهود ﴿للذين كفروا﴾ كأبي سفيان وأصحابه، واللام للتبليغ أو للعلة كنظائرها ﴿هؤلاء﴾ أي أنتم ﴿أهدى من الذين آمنوا﴾ بمحمد ﴿سبيلاً﴾ أي أقوم ديناً وأرشد طريقاً.

﴿أولئك﴾ القائلون ﴿الذين لعنهم الله﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾ يدفع عنه ما نزل به من عذاب الله وسخطه، وفي الآية وعد للمؤمنين بأنهم المنصورون عليهم فإن المؤمنين بضد هؤلاء فهم الذين قرّبهم الله ومن يقربه الله فلن تجد له خاذلاً.

---

(١) وروى ابن جرير ٨/٤٦٦ عن ابن عباس، قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السِّدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ٣] وأنزلت ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ إلى قوله: ﴿فلن تجد له نصيراً﴾ واسناده صحيح. وزاد السيوطي نسبته في «الدر» ٢/١٧١ لأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وقولهم: «ألا ترى إلى هذا الصنبور الأبتر» في «النهاية» الصنبور: سعفات تنبت في جذع النخلة، لا في الأرض، ثم قالوا: للرجل الفرد الضعيف الذليل الذي لا أهل له ولا عقب ولا ناصر «صنبور».

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

﴿أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أم منقطعة والاستفهام للإنكار يعني ليس لهم نصيب من الملك، والفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أي إن جعل لهم نصيب فإذن لا يعطون نقيراً منه لشدة بخلهم وقوة حسدهم.

وهذا ذم لهم بالبخل بعد أن ذمهم بالجهل، لعدم جريهم على مقتضى العلم، وسيأتي ذمهم بالحسد، والأول قوة عملية والثاني علمية، والأول مقدم كما بينه الفخر، وقيل المعنى بل لهم نصيب من الملك على أن معنى أم الاضراب عن الأول والاستئناف للثاني، وقيل التقدير أهم أولى بالنبوة ممن أرسلته أم لهم نصيب، الآية.

والنقير النقطة والنقرة في ظهر النواة، وقيل ما نقر الرجل بأصبعه كما ينقر الأرض، والنقير أيضاً خشبة تنقر وينبذ فيها.

وقد نهى النبي ﷺ عن النقير كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، والنقير الأصل يقال فلان كريم النقير أي كريم الأصل، والمراد هنا المعنى الأول والمقصود به المبالغة في الحقارة كالقطمير والفتيل، والنقير يضرب به المثل في الشيء الحقير التافه الذي لا قيمة له، وفي القلة والحقارة.

واذن هنا ملغاة غير عاملة لدخول فاء العطف عليها، ولو نصب لجاز قال سيبويه: إذن في عوامل الأفعال بمنزلة أظن في عوامل الأسماء التي تلغى إذا

لم يكن الكلام معتمداً عليها، فإن كانت في أول الكلام وكان الذي بعدها مستقبلاً نصبت.

﴿أم﴾ منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر أي بل ﴿يحسدون الناس﴾ يعني اليهود يحسدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقط فهو عام أريد به الخاص وأطلق عليه لفظ الناس لأنه جمع كل الخصال الحميدة التي تفرقت في الناس على حد قول القائل: أنت الناس كل الناس أيها الرجل.

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

أو يحسدونه هو وأصحابه وأصل الحسد تمنى زوال النعمة عمن هو مستحق لها، وربما يكون ذلك مع سعي في زوالها وهو أقبح مما قبلها لأن البخل منع لما في أيديهم، والحسد منع لما عند الله واعتراض عليه، والاستفهام للإنكار أي لا ينبغي ذلك.

﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ من النبوة والنصر وقهر الأعداء، وقيل حسدوه على ما أحل الله له من النساء، وكانت له يومئذ تسع نسوة والأول أولى.

﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾ هذا إلزام لليهود بما يعترفون به ولا ينكرونه وهو مسلّم عندهم أي ليس ما آتينا محمداً وأصحابه من فضلنا بأبدع حتى تحسدهم اليهود على ذلك فهم يعلمون بما آتينا آل إبراهيم وهم أسلاف محمد ﷺ وأبناء أعمامه.

وفيه حسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيّين على توهم عدم استحقاق المحسود ما أوتيه من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابراً عن كابر،

وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لاظهار كمال العناية بالأمر، وقد تقدّم تفسير الكتاب والحكمة يعني التوراة والنبوة وقد حصل في آل إبراهيم جماعة كثيرة جمعوا بين الملك والنبوة مثل داود وسليمان.

﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ فلم يشغلهم ذلك عن أمر النبوة، ومن فسر الفضل بكثرة النساء قال: الملك العظيم في حق داود وسليمان بكثرة النساء، فإنه كان لداود مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية، ولم يكن لرسول الله ﷺ يومئذ إلا تسع نسوة، وقيل هو ملك سليمان واختاره ابن جرير وهو الأولى(١).

﴿فمنهم﴾ أي من اليهود ﴿من آمن به﴾ أي النبي ﷺ كعبدالله بن سلام وأصحابه، وقيل الضمير في به راجع إلى ما ذكر من حديث آل إبراهيم، وقيل الضمير راجع إلى إبراهيم، والمعنى فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ﴿ومنهم من صدّ﴾ أعرض ﴿عنه﴾ ولم يؤمن. وقيل الضمير يرجع إلى الكتاب، والأول أولى ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ أي ناراً مسعّرة لمن لا يؤمن. وهو إشارة لقياس طويت فيه الكبرى أي هؤلاء صدوا عنه ومن صد عنه كفى بجهنم سعيراً لهم، ينتج هؤلاء كفى بجهنم سعيراً لهم.

---

(١) قال ابن جرير ٨/ ٤٧٩: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قول قتادة وابن جريج الذي ذكرناه قبل، أن معنى «الفضل» في هذا الموضع: النبوة التي فضل الله بها محمداً، وشرف بها العرب، اذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم، لما ذكرنا من أن دلالة ظاهر هذه الآية تدل على أنها تقريظ للنبي ﷺ وأصحابه، رحمة الله عليهم، على ما قد بينا قبل، وليس النكاح وتزويج النساء ـ وان كان من فضل الله جل ثناؤه الذي آتاه عباده ـ بتقريظ لهم ومدح.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

وقوله ﴿إن الذين كفروا﴾ تقرير لهذا وبيان لكيفية عذابهم وعذاب جميع من كفر ﴿بآياتنا﴾ الظاهر عدم تخصيصه ببعض الآيات دون بعض ﴿سوف﴾ كلمة تذكر للتهديد، قاله سيبويه وتنوب عنها السين ﴿نصليهم﴾ أي ندخلهم ﴿ناراً﴾ يحترقون فيها.

﴿كلما نضجت﴾ أي احترقت ﴿جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق جلداً آخر عير محترق، فإن ذلك أبلغ في العذاب للشخص لأن إحساسه لعمل النار في الجلد الذي لم يحترق أبلغ من إحساسه لعملها في الجلد المحترق.

وقيل المراد بالجلود السرابيل التي ذكرها الله **في قوله ﴿سرابيلهم من قطران﴾** ولا موجب لترك المعنى الحقيقي ههنا، وإن جاز إطلاق الجلود على السرابيل مجازاً، وقيل المعنى أعدنا الجلد الأول جديداً، ويأبى ذلك معنى التبديل، قال ابن عمر: يبدلون جلوداً بيضاء أمثال القراطيس.

وقال معاذ: تبدل في ساعة مائة مرة فقال عمر هكذا سمعت رسول الله ﷺ أخرجه الطبراني بسند ضعيف، والبغوي بغير سند. وقال كعب عشرين ومائة مرة وعن ابن مسعود أن غلظ جلد الكافر إثنان وأربعون ذراعاً وقال الحسن، تأكلهم النار في كل يوم سبعين ألف مرة.

﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي ليحصل لهم الذوق الكامل لذلك التبديل ويقاسوا شدته، وقيل معناه ليدوم لهم العذاب ولا ينقطع ﴿إن الله كان عزيزاً﴾ في انتقامه ممن ينتقم من خلقه لا يغلبه شيء ولا يمنع عليه أحد ﴿حكيماً﴾ في تدبيره وقضائه وأنه لا يفعل إلا ما هو الصواب.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)﴾

ثم أتبع وصف حال الكفار بوصف حال المؤمنين فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وهو لف ونشر مشوّش على حد قوله ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ وعلى عادته تعالى من ذكر الوعيد مع الوعد وعكسه ﴿سندخلهم﴾ أي يوم القيامة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ قد تقدم تفسير الجنات وجري الأنهار من تحتها، وذلك الخلود بغير نهاية ولا انقطاع وليس المراد طول المكث.

﴿لهم فيها أزواج مطهّرة﴾ من الأدناس التي تكون في نساء الدنيا ومن كل قذر وسوء الخلق ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ الظل الظليل الذي لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك، وقيل هو مجموع ظل الأشجار والقصور. وقيل الظل الظليل هو الدائم الذي لا يزول، واشتقاق الصفة من لفظ الموصوف للمبالغة كما يقال ليل أليل، قال الربيع بن أنس: هو ظل العرش الذي لا يزول، وقيل هو ظل الجنة والأول أولى.

﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾ هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس قاطبة في جميع الأمانات، وقد روى عن علي وزيد بن أسلم وشهر ابن حوشب أنها خطاب لولاة المسلمين والأول أظهر، ووُرودها على سبب كما سيأتي لا ينافي ما فيها من العموم فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول.

قال الواحدي: أجمع المفسرون عليه، انتهى، ويدخل الولاة في هذا الخطاب دخولاً أولياً فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات ورد الظلامات، وتحري العدل في أحكامهم، ويدخل غيرهم من الناس في الخطاب فيجب عليهم رد ما لديهم من الأمانات والتحري في الشهادات والأخبار.

وممن قال بعموم هـذا الخطاب البـراء بن عازب وابن مسعـود وابن عباس وأُبيٌّ ابن كعب، واختاره جمهور المفسرين ومنهم ابن جرير، وأجمعوا على ان الأمانات مردودة إلى أربابها الأبرار منهم والفجار كما قال ابن المنذر.

والأمانات جمع أمانة وهي مصدر بمعنى المفعول.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما فتح مكة وقبض مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فنزل جبريل عليه السلام بردّ المفتاح فدعا النبي ﷺ عثمان بن طلحة فرده إليه وقرأ هذه الآية[1].

وعن ابن جريج أن هذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة لما قبض منه صلى الله عليه وآله وسلم مفتاح الكعبة فدعاه ودفعه إليه. وقال هاك خالدة تالدة أي مستمرة إلى آخر الزمان قديمة متأصلة ، وقد روى هذا المعنى بطرق كثيرة.

وأخرج أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أدّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك[2]»، وقد ثبت في الصحيح أن من خان إذا اؤتمن ففيه خصلة من خصال النفاق[3].

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» ٢/١٧٤: أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس مطولاً. قلت: والكلبي وأبو صالح ضعيفان لا يحتج بهما.

(٢) قال ابن كثير في تفسير الآية: يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» رواه الامام أحمد وأهل السنن.

(٣) صحيح الجامع الصغير ١٦.

﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله ورسوله، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص.

وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله ولا بما هو أقرب إليهما فهو لا يدري ما هو العدل لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله.

عن علي قال: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل وأن يؤدي الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا وأصل العدل هو المساواة في الأشياء، فكل ما خرج عن الظلم والاعتداء سمّي عدلاً.

قيل: ينبغي العدل بين الخصمين في خمسة أشياء في الدخول عليه والجلوس بين يديه والإقبال عليهما والاستماع منهما والحكم بالحق فيما لهما وعليهما فيجب على الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه لمن وجب له، ويكون مقصوده بحكمه إيصال الحق إلى مستحقّه، وأن لا يمتزج ذلك بغرض آخر، وقد ورد في فضل العادلين من الولاة أحاديث.

﴿إنّ الله نعمّا يعظكم به﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو أداء، الأمانات والحكم بالعدل على وفق السنة والكتاب دون الرأي البحت والعقل الصرف تقليداً للأحبار والرهبان من غير حجة نيّرة وبرهان واضح ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ فإذا حكمتم فهو يسمع حكمكم، وإذا أديتم الأمانة فهو يبصر فعلكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ لما أمر الله سبحانه القضاة والولاة إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالحق أمر الناس بطاعتهم هنا، وطاعة الله عز وجل هي امتثال أوامره ونواهيه وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هي فيما أمر به ونهى عنه، وأولو الأمر: هم الأئمة والسلاطين والقضاة وأمراء الحق ولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدي بهم من المهتدين، وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية.

والمراد طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم تكن معصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الله كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال جابر بن عبدالله ومجاهد: إن أولي الأمر هم أهل القرآن والعلم، وبه قال مالك والضحاك، وروي عن مجاهد أنهم أصحاب محمد ﷺ، وقال ابن كيسان: هم أهل العقل والرأي، وعن ابن عباس قال: هم الفقهاء والعلماء الذين يعلّمون الناس معالم دينهم وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد، والراجح القول الأول لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله وللمسليمن مصلحة فإذا زال عن الكتاب والسنة فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق.

عن ابن عباس قال نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سريّة وقصته معروفة[1].

---

(١) أنظر البخاري ١٩٠/٨ ومسلم ١٤٦٥/٣ وأحمد ٦٢٢/٢.

قال عطاء طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة، وأولي الأمر، قال أولي الفقه والعلم، وعن أبي هريرة قال: أولـو الأمر هم الأمراء وفي لفظ هم أمراء السرايا وقال جابر بن عبدالله : هم أهل العلم وعن مجاهد وأبي العالية نحوه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في طاعة الأمراء ثابتة في الصحيحين وغيرهما مقيّـدة بأن يكون ذلك في المعروف وأنـه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

ومن جملة ما استدل به المقلدة هذه الآية قالوا: وأولـو الأمر هم العلماء، والجواب أن للمفسرين في تفسيرها قولين أحدهما أنهم الأمراء، والثاني أنهم العلماء كما تقدم ولا يمتنع إرادة الطائفتين من الآية الكريمة، ولكن أين هذا من الدلالة على مراد المقلدين ،فإنه لا طاعة لأحدهما إلا إذا أمروا بطاعة الله على وفق سنة رسوله وشريعته.

وأيضاً العلماء إنما أرشدوا غيرهم إلى ترك تقليدهم ونهوهم عن ذلك كما روي عن الأئمة الأربعة وغيرهم فطاعتهم ترك تقليدهم[1] ولو فرضنا أن في العلماء من يرشد الناس إلى التقليد ويرغبهم فيه لكان يرشد إلى معصية الله، ولا طاعة له بنص حديث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) البخاري: ٨/١٩٠، ومسلم: ٣/١٤٦٥. قال الحافظ في «الفتح»: كذا ذكره - أي: البخاري - مختصراً، والمعنى: نزلت في قصة عبد الله بن حذافة، أي، المقصود منها في قصته قوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله﴾ - الآية. قلت: وقصة حذافة بطولها رواها الإمام أحمد ٢/٦٢٢، والبخاري ١٣/١٠٩، ومسلم ٣/١٤٦٩ عن علي رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا الى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا، ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف».

وإنما قلنا انه يرشد إلى معصية الله لأن من أرشد هؤلاء العامة الذين لا يعقلون الحجج ولا يعرفون الصواب من الخطأ إلى التمسّك بالتقليد، كان هذا الإرشاد منه مستلزماً لإرشادهم إلى ترك العمل بالكتاب والسنة إلا بواسطة آراء العلماء الذين يقلدونهم، فما عملوا به عملوا به وما لم يعملوا به، لم يعملوا به ولا يلتفتون إلى كتاب وسنة بل من شرط التقليد الذي أصيبوا به أن يقبل من إمامه رأيه ولا يعوّل على روايته ولا يسأله عن كتاب ولا سنة، فإن سأله عنهما خرج عن التقليد لأنه قد صار مطالباً بالحجة.

ومن جملة ما يجب فيه طاعة أولى الأمر تدبير الحروب التي تدهم الناس والانتفاع بآرائهم فيها وفي غيرها من تدبير أمر المعاش وجلب المصالح ودفع المفاسد الدنيوية، ولا يبعد أن تكون هذه الطاعة في هذه الأمور التي ليست من الشريعة هي المرادة بالأمر بطاعتهم لأنه لو كان المراد طاعتهم في الأمور التي شرعها الله ورسوله لكان ذلك داخلاً تحت طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يبعد أيضاً أن تكون الطاعة لهم في الأمور الشرعية في مثل الواجبات المخيّرة وواجبات الكفاية، فاذا أمروا بواجب من الواجبات المخيرة أو ألزموا بعض الأشخاص الدخول في واجبات الكفاية لزم ذلك، فهذا أمر شرعي وجب فيه الطاعة.

وبالجملة فهذه الطاعة لأولي الأمر المذكورة في الآية هي الطاعة التي ثبتت في الأحاديث المتواترة في طاعة الأمراء ما لم يأمروا بمعصية الله أو يرى المأمور كفراً بواحاً، فهذه الأحاديث مفسرة لما في الكتاب العزيز، وليس ذلك من التقليد في شيء بل هو في طاعة الأمراء الذين غالبهم الجهل والبعد عن العلم في تدبير المحاربات وسياسة الاجناد وجلب مصالح العباد، وأما الأمور

الشرعية المحضة فقد أغنى عنها كتاب الله العزيز وسنة رسوله المطهرة صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا الذي سقناه هو عمدة أدلة المجوزين للتقليد وقد أبطلناه كما عرفت، ولهم شبه غير ما حررناه.

﴿فإن تنازعتم﴾ المنازعة المجاذبة والنزع الجذب كأن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويجذبها والمراد بالاختلاف المجادلة، والظاهر أنه خطاب مستقل مستأنف موجّه للمجتهدين، ولا يصح أن يكون لأولي الأمر إلا على طريق الالتفات، وليس المراد فإن تنازعتم أيها الرعايا مع أولي الأمر المجتهدين لأن المقلد ليس له أن ينازع المجتهد في حكمه، قاله أبو السعود على ما في الجمل، والأولى ما قدمناه.

وظاهر قوله ﴿في شيء﴾ يتناول أمور الدين والدنيا ولكنه لما قال ﴿فردّوه إلى الله والرسول﴾ تبين به أن الشيء المتنازع فيه يختص بأمور الدين دون أمور الدنيا، والمعنى في شيء غير منصوص نصاً صريحاً من الأمور المختلف فيها كندب الوتر وضمان العارية ونحوهما، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه العزيز، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته المطهرة بعد موته، وأما في حياته فالرد إليه سؤاله.

هذا معنى الرد إليهما، وقيل معنى الرد أن يقول لما لا يعلم «الله ورسوله أعلم» وهو قول ساقط وتفسير بارد، وليس الرد في هذه الآية إلا الرد المذكور في قوله تعالى ﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾.

والرد إلى كتاب الله وسنة رسوله واجب، فإن وجد ذلك الحكم في كتاب الله أخذ به، فإن لم يوجد فيه ففي سنة رسوله، فإن لم يوجد فيها فسبيله

الاجتهاد، ولا يلتفت عند وجود الحكم فيهما أو في أحدهما إلى غيرهما من آراء الرجال وغيرهم فإنه مشاقّة لله ولرسوله من بعد ما تبين له الهدى.

وفي قوله ﴿إن كنتم تؤمنـون﴾ دليل عـلى أن هذا الـرد متحتم على المتنازعين وأنه شأن من يؤمن ﴿بالله واليوم الآخر﴾ وفي الآية دليل على أن من لا يعتقد وجوب متابعة الكتاب والسنة والحكم بالنصوص القرآنية والأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.

﴿ذلك﴾ أي الرد المأمور به ﴿خير وأحسن تأويلاً﴾ أي مرجعاً وأحمد عاقبة من الاول يقال آل يؤول إلى كذا أي صار إليه، والمعنى أن ذلك الرد خير لكم في حد ذاته من غير اعتبار فضله على شيء يشاركه في أصل الخيرية من التنازع والقول بالرأي وأحسن مآلاً مرجعاً ترجعون إليه، ويجوز أن يكون المعنى أن الرد أحسن تأويلاً من تأويلكم الذي صرتم إليه عند التنازع، وقال قتادة: ذلك أحسن ثواباً وخير عاقبة، وقال مجاهد: أحسن جزاء.

واعلم أن هذه الآية الشريفة مشتملة على أكثر علم أصول الفقه لأن الفقهاء زعموا أن أصول الشريعة أربع الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهذه الآية مشتملة على تقرير هذه الأصول الأربعة بهذا الترتيب.

أما الكتاب والسنة فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فدلت على وجوب متابعة الكتاب والسنة، وقـوله تعـالى ﴿وأولي الأمر منكم﴾ يدل على أن إجماع الأمة حجة لأن الله تعالى أمر بطاعتهم على سبيل الجزم، وهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والمراد بهم أهل الحل والعقد، وذلك يوجب القطع بأن إجماع الأمة حجة.

وقوله ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول﴾ يدل على أن القياس حجة.

وهذه الآية دالة على أن الكتاب والسنة مقدمان على القياس مطلقا فلا يجوز ترك العمل بهما بسبب القياس، ولا يجوز تخصيصهما بسبب القياس ألبتة سواء كان القياس جلياً أو خفياً، وسواء كان النص مخصوصاً قبل ذلك أم لا.

ومما يدل عليه أن قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول أمر بطاعة الكتاب والسنة وهذا الأمر مطلق فثبت أن متابعتهما سواء حصل قياس يعارضهما أو يخصصهما أو لم يوجد واجب.

ومما يؤكد ذلك وجوه أخرى (أحدها) أن كلمة ﴿إن﴾ على قول الأكثرين للإشتراط وعلى هذا كان قوله ﴿فإن تنازعتم﴾ صريحاً في أنه لا يجوز العدول إلى القياس إلا عند فقدان الأصول (الثاني) أنه تعالى أخر ذكر القياس عن ذكر الأصول الثلاثة وهذا مشعر بان العمل به مؤخر عن الأصول الثلاثة.

(الثالث) أنه صلى الله عليه وآله وسلم اعتبر هذا الترتيب في قصة معاذ حيث أخر الاجتهاد عن الكتاب، وعلق جوازه على عدم وجدان الكتاب والسنة بقوله «فإن لم تجد».

(الرابع) أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ثم إن إبليس لم يدفع هذا النص بالكلية بل خصص نفسه عن ذلك العموم بقياس، ثم أجمع العقلاء على أنه جعل القياس مقدماً على النص وصار بذلك السبب ملعوناً، وهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس تقديم للقياس على النص وأنه غير جائز.

(الخامس) أن القرآن مقطوع في متنه لأنه ثبت بالتواتر، والقياس ليس كذلك بل هو مظنون من جميع الجهات، والمقطوع راجح على المظنون.

(السادس) قوله تعالى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ وإذا وجدنا عموم الكتاب حاصلاً في الواقعة ثم إنا لا نحكم به بل حكمنا بالقياس لزم الدخول تحت هذا العموم.

(السابع) قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ فإذا كان عموم القرآن حاضراً ثم قدمنا القياس المخصص عليه لزم التقديم بين يدي الله ورسوله.

(الثامن) قوله تعالى ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله﴾ إلى قوله ﴿إن تتبعون إلا الظنّ﴾ جعل اتباع الظن من صفات الكفار، ومن الموجبات القوية في مذمتهم، فهذا يقتضي أن لا يجوز العمل بالقياس ألبتّة ترك هذا النص لما بينا أنه يدل على جواز العمل بالقياس، لكنه إنما دل على ذلك عند فقدان النصوص فوجب عند وجدانها أن يبقى على الأصل.

(التاسع) أن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،والقياس يفرق عقل الإنسان الضعيف وكل من له عقل صحيح علم أن الأول أقوى بالمتابعة وأحرى.

وأيضاً هذه الآية دالة على أن ما سوى هذه الأصول الأربعة مردود باطل وليس للمكلف أن يتمسك بشيء سوى هذه الأصول، فالقول بالاستحسان الذي يقول به أبو حنيفة، والقول بالإستصلاح الذي يقول به مالك إن كان المراد به أحد هذه الأمور الأربعة فهو تغيير عبارة ولا فائدة فيه، وإن كان مغايراً لهذه الأربعة كان القول به باطلاً قطعاً لدلالة هذه الآية على بطلانه.

والأمر في قوله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ للوجوب وبه زعم كثير من الفقهاء واعترض عليه المتكلمون بما لا يغني عن جوع، وهذه الآية دالة على أن ظاهر الأمر للوجوب ولا شك أنه أصل معتبر في الشرع.

وفي الآية دلالة على أن شرط الإستدلال بالقياس في المسألة أن لا يكون فيها نص من الكتاب والسنة لأن قوله ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه﴾ مشعر بهذا الإشتراط، ومعنى تنازعتم اختلفتم، قال الزجاج: أي قال كل فريق القول قولي والمنازعة عبارة عن مجاذبة كل واحد من الخصمين لحجة مصححة لقوله أو محاولة جذب قوله ونزعه إياه عما يفسده، وآخر الآية يقتضي أن من لم يطع الله والرسول لا يكون مؤمناً(١).

والكلام في الآية إستنباطاً وتفقهاً ورداً وتعقباً يطول، وقد بسط القول فيه الرازي في تفسيره والذي ذكرناه حاصل ما يتعلق بالتفسير منه.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» النكتة في إعادة العامل في «الرسول» دون «أولي الأمر» مع أن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى، كون الذي يعرف به ما يقع به التكليف، هما القرآن والسنة، فكأن التقدير: وأطيعوا الله فيما قضى عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين لكم من القرآن، وما ينصه عليكم من السنة، والمعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن. قلت: وقد روى أبو داود ٤/٢٧٩ بسند صحيح عن المقدام بن معدي كرب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرمه رسول الله ﷺ كما حرم الله».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾ فيه تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من حال هؤلاء الذين ادّعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن، وما أنزل على من قبله من الأنبياء، فجاؤا بما ينقض عليهم هذه الدعوى ويبطلها من أصلها، ويوضح أنهم ليسوا على شيء من ذلك أصلاً وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به.

وقد تقدم تفسير الطاغوت والإختلاف في معناه، وبسند قال السيوطي: صحيح عن ابن عباس قال كان برزة الاسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر ناس إليه من المسلمين فأنزل هذه الآية.

وعنه كان الجلاس بن الصامت قبل توبته ومعتّب بن قشير ورافع بن زيد كانوا يدعون الإسلام فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية فنزلت الآية، وبذلك يتضح معناها.

﴿ويريد الشيطان أن يضلّهم﴾ عن طريق الهدى والحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾ مستمراً إلى الموت.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ تكملة لمادة التعجب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله ورسوله إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت ﴿رأيت المنافقين﴾ أي أبصرتهم كما هو الظاهر ﴿يصدّون عنك صدوداً﴾ اسم للمصدر وهو الصد عند الخليل وعند الكوفيين أنهما مصدران أي يعرضون عنك وعن حكمك إعراضاً وأي اعراض، وإنما أعرضوا لأنهم علموا أنه يحكم بالحق الصريح ولا يقبل الرّشا.

﴿فكيف﴾ بيان لعاقبة أمرهم وما صار إليه حالهم أي كيف يكون حالهم ﴿إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي وقت إصابتهم فإنهم يعجزون عند ذلك ولا يقدرون على الدفع والمراد ﴿بما قدمت أيديهم﴾ ما فعلوه من المعاصي التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت ﴿ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي يعتذرون عن فعلهم، وهو عطف على «أصابتهم» ويحلفون ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا الإحسان لا الإساءة والتوفيق بين الخصمين لا المخالفة لك(١).

---

(١) قال أبو جعفر في تفسير الآية: يعني بذلك جل ثناؤه، فكيف بهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك، وما أنزل من قبلك ﴿إذا أصابتهم مصيبة﴾ يعني اذا نزلت بهم نقْمة من الله ﴿بما قدمت أيديهم﴾ يعني بذنوبهم التي سلفت منهم، ﴿ثم جاؤوك يحلفون بالله﴾ يقول: ثم جاؤوك يحلفون بالله كذباً وزوراً ﴿ان أردنا الا احساناً وتوفيقاً﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاق العبر والنقم، وأنهم ان تأتهم عقوبة من الله على تحاكمهم الى الطاغوت لم ينيبوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذباً وجرأة على الله: ما أردنا باحتكامنا اليه الا الاحسان من بعضنا الى بعض، والصواب فيما احتكمنا فيه اليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

وقال ابن كيسان: معناه ما أردنا إلا عدلاً وحقاً مثل قوله ﴿وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى﴾ فكذبهم الله بقوله ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من النفاق والعداوة للحق، وكذبهم في عذرهم، قال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون ﴿فأعرض عنهم﴾ أي عن عقابهم بالصفح، وقيل عن قبول اعتذارهم، وقيل أعرض عنهم في الملا، وقل لهم في الخلا، لأنه في السر أنجع، وقيل هذا الاعراض منسوخ بآية القتال.

﴿وعظهم﴾ أي خوّفهم من النفاق والكفر والكذب والكيد وعذاب الآخرة باللسان ﴿وقل لهم في أنفسهم﴾ أي في حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على الشرور التي يعلمها الله، وقيل معناه قل لهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم ﴿قولاً بليغاً﴾ أي بالغاً في وعظهم ومؤثراً فيهم، واصلاً إلى كنه المراد مطابقاً لما سيق له من المقصود، وذلك بأن يوعدهم بسفك دمائهم وسبي نسائهم وسلب أموالهم، والإيذان بأن ما في قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى، وأن ذلك مستوجب لأشد العقوبات.

والبلاغة إيصال المعنى إلى الفهم في أحسن صورة من اللفظ، وقيل حسن العبارة مع صحة المعنى، وقيل سرعة الإيجاز مع الإفهام وحسن التصرف من غير إضجار، وقيل ما قل لفظه وكثر معناه، وقيل ما طابق لفظه معناه ولم يكن لفظه إلى السمع أسبق من معناه إلى القلب.

وقيل المراد بالقول البليغ ما كان مشتملاً على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار والوعد والوعيد، وإذا كان كذلك عظم وقعه في القلوب وأثر في النفوس.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وما أرسلنا من رسول﴾ من زائدة للتوكيد قاله الزجاج، والمعنى وما أرسلنا رسولاً ﴿إلا ليطاع﴾ فيما أمر به ونهى عنه، وهذه لام كي، والاستثناء مفرغ أي ما أرسلنا لشيء من الأشياء إلا للطاعة ﴿بإذن الله﴾ بعلمه وقيل بأمره وقيل بتوفيقه، وفيه توبيخ وتقريع للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله ﷺ ورضوا بحكم الطاغوت.

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك من الطاغوت وغيره ﴿جاؤوك﴾ متوسّلين إليك تائبين من النفاق متنصلين عن جناياتهم ومخالفاتهم ﴿فاستغفروا الله﴾ لذنوبهم بالتوبة والإخلاص وتضرعوا إليك حتى قمت شفيعاً لهم فاستغفرت لهم، وإنما قال ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول ﷺ وتعظيماً لاستغفاره وإجلالاً للمجيء إليه ﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ أي كثير التوبة عليهم والرحمة لهم.

وهذا المجيء يختص بزمان حياته صلى الله عليه وآله وسلم، وليس المجيء اليه يعني إلى مرقده المنوّر بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم مما تدل عليه هذه الآية كما قرره في (الصارم المنكى[1]) ولهذا لم يذهب إلى هذا الاحتمال البعيد أحد من سلف الأمة وأئمتها لا من الصحابة ولا من التابعين ولا ممن تبعهم بالإحسان.

---

(١) البخاري ٥/٢٦، ومسلم ٤/١٨٣٠، ولفظه عن عروة، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

قال ابن جرير: قوله ﴿فلا﴾ رد على ما تقدم ذكره تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ثم استأنف القسم بقوله ﴿وربّك لا يؤمنون﴾ وقيل إنه قدم (لا) على القسم اهتماماً بالنفي واظهاراً لقوته ثم كرره بعد القسم تأكيداً، وقيل (لا) مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد معنى النفي، قاله الزمخشري، والتقدير: فوربّك لا يؤمنون كما في قوله ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾.

﴿حتى﴾ غاية أي ينتفى عنهم الإيمان إلى أن ﴿يحكّموك﴾ أي يجعلوك حكماً بينهم في جميع أمورهم، لا يحكمون أحداً غيرك وقيل معناه يتحاكمون إليك، ولا ملجىء لذلك ﴿فيما شجر﴾ أي اختلف ﴿بينهم﴾ واختلط ومنه الشجر لاختلاف أغصانه، ومنه تشاجر الرياح أي اختلافها.

﴿ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ قيل هو معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام أي فتقضي بينهم ثم لا يجدوا، والحرج الضيق وقيل الشك، ومنه قيل للشجر الملتف حرج وحرجة وجمعها حراج وقيل الحرج الإثم أي لا يجدون في أنفسهم إثماً بانكارهم ما قضيت به ﴿ويسلّموا تسليماً﴾ أي ينقادوا لأمرك وقضائك انقياداً لا يخالفونه في شيء بظاهرهم وباطنهم، قال الزجاج: تسليماً مصدر مؤكد أي ويسلّمون لحكمك تسليماً لا يدخلون على أنفسهم شكاً ولا شبهة فيه.

والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم كما يؤيد ذلك قوله ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ فلا يختص بالمقصودين بقوله ﴿يريدون

أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ وهذا في حياته ﷺ، وأما بعد موته فتحكيم الكتاب والسنة تحكم الحاكم بما فيهما من الأئمة والقضاة إذا كان لا يحكم بالرأي المجرد مع وجود الدليل في الكتاب والسنة أو في أحدهما، وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب والسنة بأن يكون عالماً باللغة العربية وما يتعلق بها من نحو وتصريف ومعاني وبيان، عارفاً بما يحتاج إليه من علم الأصول بصيراً بالسنة المطهرة مميزاً بين الصحيح وما يلحق به، والضعيف وما يلحق به، منصفاً غير متعصب لمذهب من المذاهب ولا لنحلة من النحل، ورعاً لا يحيف ولا يميل في حكمه.

فمن كان هكذا فهو قائم في مقام النبوة، مترجم عنها، حاكم بأحكامها، وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود، وترجف له الافئدة فإنه أولاً أقسم سبحانه بنفسه مؤكداً لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون فنفى عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحي عبادالله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله ﷺ.

ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ فضم إلى التحكيم أمراً آخر هو عدم وجود حرج أي حرج في صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم والاذعان كافياً حتى يكون من صميم القلب عن رضا واطمئنان، وانثلاج قلب وطيب نفس.

ثم لم يكتف بهذا كله بل ضم إليه قوله ﴿ويسلّموا﴾ أي يذعنوا وينقادوا ظاهراً وباطناً.

ثم لم يكتف بذلك بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال ﴿تسليماً﴾ فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ثم لا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه ويسلم لحكمه وشرعه تسليماً لا يخالطه رد، ولا تشوبه مخالفة.

قال الرازي: ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الاطلاق، وأنه لا يجوز العدول منه إلى غيره.

ومثل هذه المبالغة المذكورة في هذه الآية قلما يوجد في شيء من التكاليف، وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس.

وقوله ﴿ثمّ لا يجدوا﴾ إلى آخره مشعر بذلك لأنه متى خطر بباله قياس يفضي إلى نقيض مدلول النص فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ويسلم للنصّ تسليماً كلياً، وهذا الكلام قوي حسن لمن أنصف انتهى.

أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن عبدالله بن الزبير أن الزبير خاصم رجلاً من الانصار قد شهد بدراً مع النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة وكانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري وقال يا رسول الله إن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر ثم ارسل الماء إلى جارك[1].

واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللانصاري، فلما أحفظ[2] رسول الله ﷺ الأنصاري استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك.

(١) سبق ذكره.
(٢) أي أغضب.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة عن الأسود أن سبب نزول الآية أنه اختصم إلى رسول الله ﷺ رجلان فقضى بينهما فقال المقضي عليه ردّنا إلى عمر، فردهما فقتل عمر الذي قال: ردّنا، ونزلت الآية فاهدر النبي ﷺ دم المقتول، وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الاصول عن مكحول فذكر نحوه، وبين أن الذي قتله عمر كان منافقاً، وهما مرسلان والقصة غريبة، وابن لهيعة فيه ضعف[1].

---

(١) وفي سبب نزول الآية أربعة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، فأبى اليهودي، فأتيا النبي ﷺ، فقضى لليهودي، فلمّا خرجا، قال المنافق: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إليه، فقصّا عليه القصّة، فقال: رويداً حتى أخرج إليكما، فدخل البيت، فاشتمل على السيف، ثم خرج، فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس.

والثاني: أن أبا بردة الأسلمي كان كاهناً يقضي بين اليهود، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة، عن ابن عباس.

والثالث: أن يهودياً ومنافقاً كانت بينهما خصومة، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي، لأنه لا يأخذ الرشوة، ودعا المنافق إلى حكامهم، لأنهم يأخذون الرشوة، فلما اختلفا، اجتمعا أن يحكما كاهناً، فنزلت هذه الآية، هذا قول الشعبي.

والرابع: أن رجلاً من بني النضير قتل رجلاً من بني قريظة، فاختصموا، فقال المنافقون منهم: إنطلقوا إلى أبي بردة الكاهن، فقال المسلمون من الفريقين: بل الى النبي فأبى المنافقون فأتوا الكاهن.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨)﴾

﴿ولو أنا كتبنا عليهم﴾ أي على هؤلاء الموجودين من اليهود والمنافقين كما كتبنا على بني اسرائيل[1] ﴿أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ والمعنى لو كتب ذلك على المسلمين ما فعله إلا القليل منهم، والضمير في فعلوه راجع إلى المكتوب الذي دل عليه كتبنا أو إلى القتل والخروج المدلول عليهما بالفعلين، وتوحيد الضمير في مثل هذا قد قدمنا وجهه، وقرىء قليل بالرفع على البدل وبالنصب على الاستثناء والرفع عند النحاة أجود.

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ من اتّباع الشرع والانقياد لرسول الله ﷺ ﴿لكان﴾ ذلك ﴿خيراً لهم﴾ وأنفع في الدنيا والآخرة من غيره على تقدير أن الغير فيه خير، وهذا إذا كان على بابه، ويحتمل أنه بمعنى أصل الفعل أي لحصل لهم خيرهما ﴿وأشدّ تثبيتاً﴾ لإقدامهم على الحق فلا يضطربون في أمر دينهم.

﴿وإذاً﴾ أي وقت فعلهم لما يوعظون به ﴿لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً وافراً جزيلاً وهو الجنة ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ لا عوج فيه ليصلوا إلى الخير الذي يناله من امتثل ما أمر به وانقاد لمن يدعوه إلى الحق، قال ابن عباس: يعني دين الإسلام وقيل الأعمال الصالحة المؤدية إلى الصراط الذي يمر عليه الناس إلى الجنة.

---

(١) ابن جرير ٨/٥٢٦ ونقله ابن كثير عن ابن ابي حاتم أيضاً.

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾

﴿ومن يطع الله والرسول﴾ كلام مستأنف لبيان فضل طاعة الله والرسول فيما أمرا به إيجاب أمر أو ندب، أو فيما نهيا عنه نهي تحريم أو كراهة، فالمراد بالطاعة الإنقياد التام لجميع الأوامر والنواهي.

والإشارة بقوله ﴿فأولئك﴾ أي المطيعين كما يفيده من ﴿مع الذين أنعم الله عليهم﴾ بدخول الجنة والوصول إلى ما أعد الله لهم ﴿من النبيين﴾ بيان للذين، وفي الآية سلوك طريق التدلّي فإن منزلة كل واحد من الأصناف الأربعة أعلى من منزلة ما بعده.

﴿والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾ الصدّيق المبالغ في الصدق كما تفيده الصيغة، وقيل هم فضلاً، أتباع الأنبياء، والشهداء من ثبت لهم الشهادة في سبيل الله أو الذين استشهدوا يوم أحد والأول أولى، والصالحون أهل الأعمال الصالحة، وقيل المراد بالنبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبالصديقين أبو بكر، وبالشهداء عمر وعثمان وعلي وبالصالحين سائر الصحابة، والعموم أولى ولا وجه للتخصيص.

﴿وحسن أولئك﴾ الأصناف الأربعة وفيه معنى التعجب كأنه قال: وما أحسن أولئك ﴿رفيقاً﴾ في الجنة، والرفيق مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب والمراد به المصاحب لارتفاقك بصحبته، ومنه الرفقة لارتفاق بعضهم ببعض، وإنما وحّد الرفيق وهو صفة الجمع لأن العرب تعبّر به عن الواحد والجمع.

وقيل معناه: وحسن كل واحد من أولئك رفيقاً في الجنة بأن يستمتع فيها

برؤيتهم وزيارتهم والحضور معهم وإن كان مقرهم في الدرجات العالية بالنسبة إلى غيرهم.

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة وحسنه عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنك لأحب إليّ من نفسي وإنك لأحب إليّ من ولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية[1].

وقيل نزلت في ثوبان مولى[2] رسول الله ﷺ، كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه.

وعن أنس أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: وما أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحبّ الله ورسوله فقال: أنت مع من أحببت، قال أنس: فما فرحنا بشيء أشد فرحاً بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنت مع من أحببت، قال أنس فأنا أحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بأعمالهم، أخرجه الشيخان .

أقول: وأنا أيضاً أحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأتباعهم وأهل بيته وسلف الأمة وأئمتها سيما المحدثين منهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين حباً شديداً وأرجو أن يجمعني الله معهم في دار رحمته وكرامته بمنّه ولطفه، فإنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

---

(١) ابن جرير ٥٣٤/٨ وابو نعيم في الحلية ١٢٥/٨.
(٢) ذكره الواحدي في اسباب النزول.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من وصف الثواب أو كونهم مع من ذكر ﴿الفضل﴾ كائن ﴿من الله﴾ يعني الذي أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم فضل تفضل به عليهم لا أنهم نالوه بطاعتهم ﴿وكفى بالله عليماً﴾ بجزاء من أطاعه، أو بعباده فهو يوفقهم لطاعته، فثقوا بما أخبركم به ولا ينبئك مثل خبير.

وفيه دليل على أنهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، بل إنما نالوها بفضل الله ورحمته، ويدل عليه ما روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحد منكم عمله الجنة قيل: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلاّ أن يتغمّدني الله منه بفضل ورحمة أخرجه البخاري، ولمسلم نحوه[١].

﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ هذا خطاب لخُلّص المؤمنين وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله، والحذَر والحِذر لغتان كالمثل والمثل قال الفرا: أكثر الكلام الحذر، والحذر مسموع أيضاً يقال خذ حذرك أي إحذر وتيقظ له، قيل معنى الآية الأمر لهم بأخذ السلاح حذراً لأن به الحذر.

﴿فانفروا﴾ نفر ينفر بكسر الفاء نفيراً ونفرت الدابة تنفر بضم الفاء نفوراً، والمعنى إنهضوا لقتال العدو، أو النفير إسم للقوم الذين ينفرون. وأصله من النفار والنفور والنفر وهو الفزع، ومنه قوله تعالى ﴿ولوا على أدبارهم

(١) مسلم ٢٨١٦ ـ البخاري ٣٥.

نفوراً﴾ أي نافرين، يقال نفر إليه أي فزع، والنفر الجماعة كالقوم والرهط والإسم النفر بفتحتين.

وقوله ﴿ثُبات﴾ جمع ثبة أي جماعة من الرجال فوق العشرة وقيل فوق الإثنين، والمعنى انفروا جماعات متفرقات سرية بعد سرية ﴿أو انفروا جميعاً﴾ أي مجتمعين جيشاً واحداً، ومعنى الآية الأمر لهم بأن ينفروا على أحد الوصفين ليكون ذلك أشد على عدوهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده أو نحو ذلك.

وقيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وبقوله ﴿إلا تنفروا يعذّبكم﴾ والصحيح أن الآيتين جميعاً محكمتان (إحداهما) في الوقت الذي يحتاج فيه إلى نفور الجميع، (والأخرى) عند الاكتفاء بنفور البعض دون البعض[١].

﴿وإن منكم لمن ليبطّئن﴾ التبطئة والإبطاء التأخر، والمراد المنافقون كانوا يقعدون عن الخروج ويقعدون غيرهم، والمعنى أن من دخلائكم وجنسكم ومن أظهر إيمانه لكم نفاقا من يبطّيء المؤمنين ويثبّطهم، واللام في قوله (لمن) لام توكيد للإبتداء، وفي قوله ﴿ليبطّئن﴾ لام جواب القسم[٢].

﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ من قتل أو هزيمة أو ذهاب مال ﴿قال﴾ هذا المنافق ﴿قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي حاضر الوقعة حتى يصيبني ما أصابهم.

---

(١) قال ابو سليمان الدمشقي والامر في ذلك بحسب ما يراه الامام وليس في هذا المنسوخ بذلك.
(٢) قال ابن الجوزي انها نزلت في المنافقين كانوا يتأملون عن الجهاد.

وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

﴿ولئن﴾ لام قسم ﴿اصابكم فضل من الله﴾ أي غنيمة أو فتح ونسبة إضافة الفضل إلى جانب الله تعالى دون اصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيليّة،كما في قوله ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ وتقديم الشرطية الأولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق، وأثر نفاقهم فيها أظهر.

﴿ليقولنّ﴾ هذا المنافق قول نادم حاسد ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة﴾ أي معرفة وصداقة حقيقية، وإلا فالمودة الظاهرة حاصلة بالفعل جملة معترضة، وقيل إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وقيل المعنى كأن لم نعاقدكم على الجهاد ﴿يا﴾ للتنبيه لا للنداء لدخولها على الحرف ﴿ليتني كنت معهم﴾ أي في تلك الغزوة التي فيها المؤمنون ﴿فأفوز﴾ معهم ﴿فوزاً عظيماً﴾ أفوز بالنصب على جواب التمني، وقرأ الحسن بالرفع أي فآخذ نصيباً وافراً من الغنيمة(١).

﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي يبيعونها بها وهم المؤمنون، فالفاء جواب شرط مقدر أي إن أبطأ وتأخر هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة أو الذين يشرونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون، والمعنى حثهم على ترك ما حكى عنهم.

﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ لإعلاء دينه ﴿فيُقتل﴾ أي فيستشهد ﴿أو

(١) مسلم ١٨٧٦ ـ البخاري ٣٤. زاد المسير ٢/١٣١.

يغلب﴾ يعني يظفر بعدوه من الكفار، وذكر هذين الأمرين للاشارة إلى أن حق المجاهد أن يوطن نفسه على أحدهما ولا يخطر بباله القسم الثالث وهو مجرد أخذ المال ﴿فسوف نؤتيه﴾ في كلتا الحالتين الشهادة أو الظفر ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني ثواباً وافراً.

وعد الله المقاتلين في سبيله بأنه سيؤتيهم أجراً عظيماً لا يقادر قدره، وذلك أنه إذا قتل فاز بالشهادة التي هي أعلى درجات الأجور، وان غلب وظفر كان له أجر من قاتل في سبيل الله مع ما قد ناله من العلو في الدنيا والغنيمة، وظاهر هذا يقتضي التسوية بين من قتل شهيداً أو انقلب غانماً.

وربما يقال إن التسوية بينهما إنما هي في إيتاء الأجر العظيم، ولا يلزم أن يكون أجرهما مستوياً فإن كون الشيء عظيماً هو من الأمور النسبية التي يكون بعضها عظيماً بالنسبة إلى ما هو دونه، وحقيراً بالنسبة إلى ما فوقه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم[1].

---

(١) قال ابن عطية: المنافق يعاطي المؤمنين المودة، ويعاهد على التزام كلف الاسلام، ثم يتخلف نفاقاً وشكاً وكفراً بالله ورسوله، ثم يتمنى عندما يكشف الغيب الظفر للمؤمنين فعلى هذا يجيء قوله تعالى: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ التفاتة بليغة، واعتراضاً بين القائل والمقول بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم «البحر المحيط» ٢٩٣/٣.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ خطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريق الالتفات ﴿و﴾ سبيل ﴿المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ حتى تخلصوهم من الأسر وتريحوهم مما هم فيه من الجهد، ويجوز أن يكون منصوباً على الاختصاص أي وأخص المستضعفين فإنهم من أعظم ما يصدق عليه سبيل الله، واختار الأول الزجاج والأزهري.

وقال محمد بن يزيد اختار أن يكون المعنى وفي المستضعفين فيكون عطفاً على السبيل لا على الجلالة وان كانت أقرب على ما في تفسير الكواشي، لأن خلاص المستضعفين من أيدي المشركين سبيل الله لا سبيلهم.

والمراد بالمستضعفين هنا من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال الكفار، وهم الذين كان يدعو لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين كما في الصحيح.

وفيه دليل على أن الجهاد واجب، والمعنى لا عذر لكم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى.

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس قال: أنا وأمي من المستضعفين وفي رواية قال: كنت أنا وأمي ممن عذر الله وأنا من الولدان وأمي من النساء، ولا

يبعد أن يقال إن لفظ الآية أوسع من هذا، والاعتبار بعموم اللفظ لولا تقييده بقوله ﴿الذين يقولون﴾ داعين ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ فإنه يشعر باختصاص ذلك بالمستضعفين الكائنين في مكة لأنه قد أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها مكة ﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾ يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وشرعنا ﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ ينصرنا على أعدائنا.

وقد استجاب الله دعاءهم وجعل لهم من لدنه خير ولي وخير ناصر، وهو محمد ﷺ فتولّى أمرهم ونصرهم واستنقذهم من أيدي المشركين يوم فتح مكة، وقال السيوطي: يسرّ لبعضهم الخروج وبقي بعضهم إلى أن فتحت مكة، وولّى ﷺ عتاب بن أسيد فأنصف مظلومهم من ظالمهم انتهى، وكان ابن ثماني عشرة سنة قال الخازن: فكان يأخذ للضعيف من القوي وينصر المظلومين على الظالمين.

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ يعني في طاعة الله وإعلاء كلمته، وابتغاء مرضاته، وهذا ترغيب للمؤمنين وتنشيط لهم بأن قتالهم لهذا المقصد لا لغيره ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ أي الشيطان أو الكهان أو الأصنام وتفسير الطاغوت هنا بالشيطان أولى لقوله ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ وهم الكفار ﴿ان كيد الشيطان﴾ أي مكره ومكر من اتّبعه من الكفار ﴿كان ضعيفاً﴾ فلا يقاوم نصر الله وتأييده.

وعن ابن عباس قال: إذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واحملوا عليه إن كيده كان ضعيفاً واهياً، وقال مجاهد كان الشيطان يتراءى لي في الصلاة فكنت أذكر قول ابن عباس فأحمل عليه فيذهب عني، والكيد السعي في الفساد على جهة الاحتيال.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ قيل هم جماعة من الصحابة أمروا بترك القتال في مكة بعد أن تسرعوا إليه فلما كتب عليهم بالمدينة ثبطوا عن القتال من غير شك في الدين بل خوفاً من الموت وفزعاً من هول القتل، وقال مجاهد: إنها نزلت في اليهود، وقيل في المنافقين أسلموا قبل فرض القتال، فلما فرض كرهوه، وهذا أشبه بالسياق لقوله ﴿وقالوا ربنا ـ إلى قوله ـ قريب﴾ وقوله إن تصبهم حسنة الآية، ويبعد صدور مثل هذا من الصحابة، وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد.

﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ أي فرض عليهم جهاد المشركين وأمروا بالخروج إلى بدر ﴿إذا فريق منهم﴾ أي جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد ﴿يخشون الناس﴾ أي يخافون مشركي مكة ﴿كخشية الله أو أشد خشية﴾ أو للتنويع على أن معنى خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها ﴿وقالوا﴾ جزعاً من الموت ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ أي لم فرضت علينا الجهاد ﴿لولا﴾ هلا ﴿أخّرتنا﴾ يريدون المهلة ﴿إلى أجل﴾ أي وقت آخر ﴿قريب﴾ من الوقت الذي فرض عليهم فيه القتال.

والقائلون لهذا القول هم المنافقون، وقيل قاله بعض المؤمنين خوفاً وجبناً لا اعتقاداً ثم تابوا منه، وقال السدي: إلى أجل يعني إلى موت، فأمره الله

سبحانه بأن يجيب عليهم فقال ﴿قل متاع الدنيا﴾ أي منفعتها والاستمتاع بها ﴿قليل﴾ سريع الفناء زائل لا يدوم لصاحبه آيل إلى الفناء ﴿والآخرة﴾ أي ثوابها ﴿خير﴾ من المتاع القليل ﴿لمن اتّقى﴾ الشرك والمعصية منكم ورغب في الثواب الدائم ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ أي قدر قشرة يعني شيئاً حقيراً يسيراً وقد تقدم تفسير الفتيل قريباً.

وإذا كنتم توفّون أجوركم ولا تنقصون شيئاً منها فكيف ترغبون عن ذلك، وتشتغلون بمتاع الدنيا مع قلته وانقطاعه؟.

أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله كنّا في عزّة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوّله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله هذه الآية[1] وعن قتادة نحوه.

(١) ذكره الواحدي عن الكلبي، وروى ابن جرير ٥٤٩/٨ عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة! فقال: إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا، فلما حوله الله إلى المدينة، أمر بالقتال فكفوا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية، وإسناده جيد، ورواه الحاكم في «المستدرك» مع اختلاف في لفظه، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرف عن رسول الله ﷺ إلى المخاطبين اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة، وفيه حث لمن قعد عن القتال خشية الموت، وبيان لفساد ما خالطه من الجبن وخامره من الخشية، فإن الموت إذا كان كائناً لا محالة، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره ﴿ولو كنتم في بروج﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع ﴿مشيّدة﴾ من شاد القصر إذا رفعه وطلاه بالشيد وهو الجص.

وقد اختلف في هذه البروج ما هي فقيل الحصون والقلاع التي في الارض وقيل هي القصور المحصنة الرفيعة، قال الزجاج والقتبي: معنى مشيدة مطولة وقيل المراد بالبروج بروج في سماء الدنيا مبنية حكاه مكي عن مالك، وقال: ألا ترى إلى قوله ﴿والسماء ذات البروج﴾ ﴿وجعل فيها بروجاً﴾ ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ وقيل إن المراد بالبروج المشيدة هنا قصور من حديد.

﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عندالله﴾ هذا وما بعده مختص بالمنافقين أي إن تصبهم نعمة نسبوها إلى الله تعالى ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي بلية ونقمة ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ أي نسبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿قل كلّ﴾ من النعمة والبلية ﴿من عند الله﴾ خلقاً وإيجاداً من غير أن يكون له مدخل في وقوع شيء منهما بوجه من

الوجوه وليس كما تزعمون، فأما الحسنة فإنعام من الله وأما السيئة فابتلاء منه.

ثم نسبهم إلى الجهل وعدم الفهم فقال ﴿فما لهؤلاء القوم﴾ أي فما بال هؤلاء المنافقين أو ما شأن اليهود الذين قالوا ما قالوا ﴿لا يكادون﴾ لا يقاربون ﴿يفقهون حديثاً﴾ من الأحاديث أصلاً أو معاني القرآن، وأن الأشياء كلها من الله.

﴿ما أصابك من حسنة﴾ هذا الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس أو لرسول الله ﷺ تعريضاً لأمّته أي ما أصابك من خصب ورخاء وخير ونعمة وصحة وسلامة ﴿فمن الله﴾ بفضله ورحمته إحساناً منه إليك، وتفضّلاً منه عليك ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أي جهد وبلاء وشدة ومكروه ومشقة وأذى ﴿فمن نفسك﴾ أي بذنب أتيته وخطيئة اكتسبتها نفسك فعوقبت عليه،وقيل هذا من كلام الذين لا يفقهون حديثاً، وقيل إن ألف الاستفهام مضمرة أي أفمن نفسك ومثله قوله تعالى ﴿وتلك نعمة تمنّها علي﴾ والمعنى أو تلك نعمة ومثله قوله تعالى ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ أي أهذا ربي.

وقد ورد في الكتاب العزيز ما يفيد مفاد هذه الآية كقوله تعالى ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وقوله ﴿أو لمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾.

وقد يظن أن قوله ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ مناف لقوله ﴿كل من عند الله﴾ ولقوله ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ وقوله ﴿نبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ وقوله ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾.

وليس الأمر كذلك فالجمع ممكن فإضافة الأشياء كلها إلى الله حقيقة،

وإلى فعل العبد مجازية، قال قتادة: حسنة أي نعمة وسيئة أي مصيبة ﴿كل من عند الله﴾ أي النعم والمصائب، وعن أبي العالية قال: إن تصبهم حسنة هذه في السراء والضراء ﴿وما أصابك من حسنة﴾ قال: هذه في الحسنات والسيآت.

وعن ابن عباس قال: الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك وأما السيئة فابتلاك بها، وما أصابك من سيئة قال: ما أصابه يوم أحد أن شجّ وجهه وكسرت رباعيّته.

وقد تعلّق بظاهر هذه الآية القدرية وقالوا نفى الله السيئة عن نفسه ونسبها إلى الإنسان ولا متعلّق لهم بها لأنه ليس المراد منها الكسب، بل ما يصيب الناس من النعم والمحن، ولو كانت على ما يقول أهل القدر لقال ما أصبت من حسنة وما أصبت من سيئة ولم يقل ما أصابك، وقال ابن الأنباري: الفعلان راجعان إلى الله يعني ما أصابك الله به من حسنة ومن سيئة.

﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ فيه البيان لعموم رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الجميع كما يفيده التأكيد بالمصدر والعموم في الناس ومثله قوله ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾، وقوله ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ وفيه جلالة منصبه ومكانته عند الله وبيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه بناء على جهلهم بشأنه الجليل.

﴿وكفى بالله شهيداً﴾ على ذلك أو على أن الحسنة والسيئة منه، والأول أولى، والمعنى شهيداً على إرسالك للناس أو على تبليغك ما أرسلت به إلى الناس.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾
وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ
وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ فيه أن طاعة الرسول طاعة لله، وفي هذه من النداء بشرف رسول الله وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه.

ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا ينهي إلا ما نهى عنه، ولولا بيانه صلى الله عليه وآله وسلم ما كنا نعرف كل فريضة في كتاب الله كالحج والصلاة والزكاة والصوم كيف نأتيها، وقال الحسن: جعل الله طاعة رسوله طاعته وقامت به الحجة على المسلمين.

﴿ومن تولّى﴾ أي أعرض عن طاعته ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي حافظاً لأعمالهم، إنما عليك البلاغ، قيل وقد نسخ هذا بآية السيف.

﴿ويقولون﴾ أمرنا أو شأننا ﴿طاعة﴾ أو نطيع طاعة، وهذه في المنافقين في قول أكثر المفسرين أي يقولون إذا كانوا عندك طاعة أي آمنا بك وصدقناك ﴿فإذا برزوا﴾ أي خرجوا ﴿من عندك بيّت﴾ أي زوّر ﴿طائفة منهم﴾ أي من هؤلاء القائلين وهم رؤساؤهم، ومن للتبعيض والتبييت التبديل يقال بيّت الرجل الأمر إذا دبره ليلاً ومنه قوله تعالى ﴿إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول﴾.

﴿غير الذي تقول﴾ لهم أنت وتأمرهم به أو غير الذي تقول لك هي من

الطاعة لك وقيل معناه غيروا وبدلوا وحرفوا قولك فيما عهدت إليهم ﴿والله يكتب﴾ أي يثبت في صحائف أعمالهم ﴿ما يبيّتون﴾ أي ما يزوّرون ويغيّرون ويقدّرون، وقال ابن عباس: ما يسرون من النفاق ليجازيهم عليه ويحفظه عليهم، وقال الزجاج: المعنى ينزّله عليك في الكتاب.

﴿فأعرض عنهم﴾ أي دعهم وشأنهم حتى يمكن الانتقام منهم وقيل معناه لا تخبر بأسمائهم وقيل لا تعاقبهم، وقيل لا تغتر بإسلامهم ﴿وتوكل على الله﴾ أي ثق به وفوض أمرك إليه في شأنهم ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ ناصراً لك عليهم، أمره بالتوكل عليه والثقة به في النصر على عدوه، قيل وهذا منسوخ بآية السيف.

﴿أفلا يتدبّرون القرآن﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر أي يعرضون عن القرآن فلا يتدبرونه يقال تدبرت الشيء تفكرت في عاقبته وتأملته ثم استعمل في كل تأمل، والتدبر أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ما يصير إليه عاقبته.

ودلت هذه الآية وقوله تعالى ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ على وجوب التدبر للقرآن ليعرف معناه، والمعنى أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني قوي المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها، قال ابن عباس: أفلا يتفكرون فيرون تصديق بعضه لبعض وما فيه من المواعظ والذكر والأمر والنهي، وأن أحداً من الخلق لا يقدر عليه.

﴿ولو كان من عند غير الله﴾ كما يزعمون ﴿لوجدوا فيه اختلافاً﴾ أي تفاوتاً وتناقضاً ﴿كثيراً﴾ قاله ابن عباس، ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات والسور لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال وتعرض قائله للإخبار بالغيب فإنه لا يوجد منه صحيحاً مطابقاً للواقع إلا القليل النادر. عن قتادة يقول: ان قول الله لا يختلف وهو حق ليس فيه باطل وإن قول الناس يختلف.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ يقال أذاع الشيء وأذاع به إذا أفشاه وأظهره، وهؤلاء جماعة من ضعفة المسلمين كانوا إذا سمعوا شيئاً من أمر المسلمين فيه أمن نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم أفشوه وهم يظنون أنه لا شيء عليهم في ذلك، وقيل هم المنافقون كانوا يستخبرون عن حالهم ثم يشيعونه قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ.

﴿ولو ردّوه إلى الرسول﴾ حتى يكون هو الذي يتحدث به ويظهره ﴿وإلى أولي الأمر منهم﴾ وهم أهل العلم والبصيرة والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم أو هم الولاة عليهم ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي يستخرجونه بتدبّرهم وصحة عقولهم.

والمعنى أنهم لو تركوا إذاعة الأخبار حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يذيعها، أو يكون أولو الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك لأنهم يعلمون بما ينبغي أن يفشى ويكتم، والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته والنبط الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر عند حفرها، وقيل ان هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون ارجافات المنافقين على المسلمين فيذيعونها فتحصل بذلك المفسدة.

وفي الآية اشارة إلى جواز القياس، وأن من العلم ما يدرك بالنص وهو الكتاب والسنة ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس عليهما.

﴿ولولا فضل الله﴾ أي ما تفضل الله به ﴿عليكم ورحمته﴾ من ارسال رسوله وانزال كتابه ﴿لاتّبعتم الشيطان﴾ فيما يأمركم به فبقيتم على كفركم ﴿إلا قليلاً﴾ منكم أو إلا اتباعاً قليلاً، وقيل أذاعوا به إلا قليلاً منهم فإنه لم يذع ولم يفش، قاله الكسائي والأخفش والفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم وابن جرير، وقيل المعنى لعلمه الذين يستنبطونه إلا قليلاً منهم، قاله الزجاج وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن قتيبة والأول أولى[1].

---

(١) قوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف﴾ في سبب نزولها قولان.

أحدهما: أن النبي ﷺ لما اعتزل نساءه، دخل عمر المسجد، فسمع الناس يقولون: طلق رسُولُ الله ﷺ نساءه، فدخل على النبي عليه السلام فسأله أطلقت نساءك؟ قال: «لا» فخرج فنادى: ألا إن رسول الله لم يطلق نساءه. فنزلت هذه الآية. فكان هو الذي استنبط الأمر. انفرد باخراجه مسلم، من حديث ابن عباس، عن عمر.

مسلم ١/١١٠٥ وهو حديث طويل فيه فوائد عظيمة، وتوجيهات قيمة، فارجع اليه.

والثاني: أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية من السرايا فغلبت أو غلبت، تحدثوا بذلك، وأفشوه، ولم يصبروا حتى يكون النبي هو المتحدث به. فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح، عن ابن عباس.

وقد نص كلامه في «جامع البيان» ٥٦٨/٨، ٥٧١: وإذا جاءهم خبر عن سرية للمسلمين غازية بأنهم قد أمنوا من عدوهم بغلبتهم إياهم (أو الخوف) يقول: أو تخوفهم من عدوهم باصابة عدوهم منهم، ﴿أذاعوابه﴾ يقول: أفشوه وبثوه في الناس قبل رسول الله ﷺ، وقيل ما أتى سرايا رسول الله ﷺ... ولو ردوا الأمر الذي نالهم من عدوهم والمسلمين إلى رسول الله ﷺ، وإلى أولي أمرهم، يعني: وإلى أمرائهم وسكتوا فلم يذيعوا ما جاءهم من الخبر حتى يكون رسول الله ﷺ، أو ذوو أمرهم هم الذين يتولون الخبر عن ذلك، بعد أن تثبت عندهم صحته، أو بطوله، فيصححوه إن كان صحيحاً، أو يبطلوه إن كان باطلاً، لعلم حقيقة ذلك الخبر الذي جاءهم به، الذين يبحثون عنه.

فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلا نفسك﴾ الفاء في قوله فقاتل قيل هي متعلقة بقوله ﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخره أي من أجل هذا فقاتل، وقيل متعلقة بقوله ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله فقاتل﴾ وقيل تقديره إذا كان الأمر ما ذكر من عدم طاعة المنافقين فقاتل، أو إذا أفردوك أو تركوك فقاتل.

قال الزجاج: أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالجهاد وإن قاتل وحده لأنه قد ضمن له النصر، قال ابن عطية: هذا ظاهر اللفظ إلا أنه لم يجيء في خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة، والمعنى والله أعلم أنه خطاب له في اللفظ، وفي المعنى له ولأمّته أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك يقال له فقاتل في سبيل الله لا تكلف غير نفسك ولا تلزم فعل غيرك وهو استئناف مقرر لما قبله، لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده.

وقرىء لا تكلف بالجزم على النهي وقرىء بالنون.

وفي الآية دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أشجع الناس وأعلمهم بأمور القتال، إذ لو لم يكن كذلك لما أمره بذلك، ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتال أهل الردة على الخروج ولو وحده.

﴿وحرّض المؤمنين﴾ أي وحضهم على القتال والجهاد يقال حرضت فلاناً على كذا إذا أمرته به وحارض فلان على الأمر وأكب عليه وواظب عليه بمعنى واحد، والمعنى ليس عليك في شأنهم إلا التحريض والترغيب في الثواب فحسب لا التعنيف بهم.

﴿عسى الله أن يكفّ﴾ فيه إطماع للمؤمنين بكفّ ﴿بأس الذين كفروا﴾ عنهم، والإطماع من الله عز وجل واجب فهو وعد منه سبحانه ووعده كائن لا محالة ﴿والله أشدّ﴾ أي أعظم ﴿بأساً﴾ أي صولة وسلطاناً وشدة وقوة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ عقوبة وعذاباً يقال نكلت بالرجل تنكيلاً من النكال وهو العذاب والمنكّل الشيء الذي ينكل بالإنسان.

﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾ أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من الشفع وهو الزوج ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعاً، ومنه ناقة شفوع إذا جمعت بين محلبين في حلبة واحدة، وناقة شفيع إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها، والشفع ضمّ واحد إلى واحد، والشفعة ضم ملك الشريك إلى ملكك فالشفاعة ضمّ غيرك إلى جاهك ووسيلتك، فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعة إلى المشفوع له، والشفاعة الحسنة هي في البرّ والطاعة فمن شفع في الخير لينفع[١].

﴿يكن له نصيب﴾ حظ ﴿منها﴾ أي من أجرها، وقد بيّن النصيب في حديث من دعا لأخيه بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك آمين ولك بمثل «هذا»[١] فهذا بيان لمقدار النصيب الموعود به قاله أبو السعود، وعن أبي موسى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً فجاء رجل يسأل

---

(١) القرطبي ٥/٢٩٦.

فأقبل علينا بوجهه وقال: اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء أخرجه الشيخان .

﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ الظاهر أن إطلاق الشفاعة هنا من قبيل المشاكلة لأن حقيقتها اللغوية تقتضي أنها لا تكون إلا في الخير، قال الخازن: هي النميمة والغيبة ونقل الحديث لإيقاع العداوة بين الناس، وقيل المراد دعاء اليهود على المسلمين وقيل معناه من يشفع كفره بقتال المؤمنين.

﴿يكن له كفل منها﴾ أي من وزرها والكفل الوزر، واشتقاقه من الكساء الذي يجعله الراكب على سنام البعير لئلا يسقط، يقال اكتفلت البعير إذا أدرت على سنامه كساء وركبت عليه لأنه لم يستعمل الظهر كله بل استعمل نصيباً منه، ويستعمل في النصيب من الخير والشر، ومن استعماله في الخير قوله تعالى ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾.

﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ أي مقتدراً قاله الكسائي، وقال الفراء: المقيت الذي يعطي كل إنسان قوته، يقال قته أقوته قوتاً وأقته أقيته إقاتة فأنا قائت ومقيت، وحكى الكسائي: أقات يقيت وقال أبو عبيدة: المقيت الحافظ، قال النحاس: وقول أبي عبيدة أولى لأنه مشتق من القوت والقوت معناه مقدار ما يحفظ الإنسان، وقال ابن فارس في المجمل: المقيت المقتدر والحافظ والشاهد، وقال مجاهد: مقيتاً أي شهيداً حسيباً حفيظاً، وقال سعيد ابن جبير وابن زيد قادراً قديراً وعن الضحاك المقيت الرزاق[1].

---

(١) والشافع يؤجر فيما يجوز وإن لم يُشفع؛ لأنه تعالى قال: ﴿من يَشْفَع﴾ ولم يقل يُشَفَّع. وفي صحيح مسلم «اشفعوا تؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما أحب».

وجاء في الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» و«يقيت» ذكره الثعلبي: وحكى ابن فارس في المجمل: المقيت المقتدر، والمقيت الحافظ والشاهد، وما عنده قيت ليلة وقوت ليلة. والله أعلم.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿وإذا حيّيتم بتحية﴾ ترغيب في فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة بعد الترغيب فيها على الاطلاق، فإن تحية السلام شفاعة من الله للمسلم عليه، وأصل التحية تفعلة من حييت، والأصل تحيية مثل ترضية وأصلها الدعاء بالحياة والتحية السلام.

وهذا المعنى هو المراد هنا ومثله قوله تعالى ﴿وإذا جاؤوك حيّوك بما لم يحيّك به الله﴾ وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين، وروى عن مالك أن المراد بالتحية هنا تشميت العاطس، وقال أصحاب أبي حنيفة التحية هنا الهدية لقوله ﴿أو ردوها﴾ ولا يمكن رد السلام بعينه وهذا فاسد لا ينبغي الإلتفات إليه.

والمراد بقوله ﴿فحيّوا بأحسن منها﴾ أي بأن يزيد في الجواب على ما قاله المبتدىء بالتحية، فاذا قال المبتدىء السلام عليكم قال المجيب وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا زاد المبتدىء لفظاً زاد المجيب على جملة ما جاء به المبتدىء لفظاً أو ألفاظاً نحو: وبركاته وتحياته ومرضاته.

قال القرطبي: أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغّب فيها ورده فريضة لقوله ﴿فحيّوا بأحسن منها﴾ وإنما اختار الشرع لفظ السلام على لفظ حيّاك الله لأنه أتم وأحسن وأكمل ولأن السلام من أسمائه تعالى.

﴿أو ردّوها﴾ أي ردوا عليه كما سلم عليكم واقتصروا على مثل اللفظ الذي جاء به المبتديء فظاهر الآية أنه لو رد عليه بأقل مما سلم عليه به أنه لا

يكفي، وظاهر كلام الفقهاء أنه يكفي، وحملوا الآية على أنه الأكمل.

واختلفوا إذا رد واحد من جماعة هل يجزىء أوْلا؟ فذهب مالك والشافعي إلى الإجزاء وذهب الكوفيون إلى أنه لا يجزىء عن غيره، ويرد عليهم حديث علي عن النبي ﷺ قال: يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم[1] أخرجه أبو داود وفي اسناده سعيد بن خالد الخزاعي المدني وليس به بأس، وقد ضعفه بعضهم، وقد حسّن الحديث ابن عبد البر.

وقد ورد في السنة المطهرة في تعيين من يبتديء بالسلام ومن يستحقّ التحية ومن لا يستحقها وفي فضل السلام والحث عليه وكيفية السلام وما له من الأحكام ما يغني عن البسط ههنا.

﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ يحاسبكم على كل شيء وقيل معناه مجازياً وقيل كافياً من قولهم أحسبني كذا أي كفاني ومثله حسبك.

﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنّكم﴾ بالحشر ﴿إلى﴾ حساب ﴿يوم القيامة﴾ أي يوم القيام من القبور، وقيل إلى بمعنى في واختاره القاضي كالكشاف وقيل إنها زائدة ﴿لا ريب فيه﴾ أي في يوم القيامة أو في الجمع أي جمعاً لا ريب فيه، وهذه الآية نزلت في منكري البعث ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ إنكار لأن يكون أحد أصدق منه سبحانه، والصاد الأصل وقد تبدل زاياً لقرب مخرجها منها، ولهذا قرأ حمزة والكسائي ومن أزدق بالزاي.

---

(١) وفي صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحيّة ذريتك ـ قال: فذهب فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله ـ قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن».

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)﴾

﴿فما لكم﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى أي شيء كائن لكم ﴿في المنافقين﴾ أي في أمرهم وشأنهم، قال القرطبي: والمراد بهم هنا عبدالله بن أبيّ وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا كما تقدم في آل عمران، حال كونكم ﴿فئتين﴾ في ذلك وحاصله الإنكار على المخاطبين أن يكون لهم شيء يوجب اختلافهم في شأن المنافقين.

وسبب نزول الآية به يتضح المعنى فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: إنها طيبة وأنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة(١)، هذا أصح ما روى في سبب نزول الآية وقد رويت أسباب غير ذلك.

﴿والله أركسهم﴾ حكى الفراء والنضر بن شميل والكسائي اركسهم وركسهم أي ردهم إلى الكفر ونكسهم، فالركس والنكس قلب الشيء على رأسه أو رد أوله إلى آخره والمنكوس المركوس ﴿بما كسبوا﴾ الباء للسببية أي أركسهم بسبب كسبهم وهو لحوقهم بدار الكفر.

---

(١) زاد المسير ٢/١٥٣.

والاستفهام في قوله ﴿أتريدون﴾ للتقريع والتوبيخ ﴿أن تهدوا من أضل الله﴾ وهذا خطاب للفئة التي دافعت عن المنافقين، وفيه دليل على أن من أضله الله لا ينجع فيه هداية البشر ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ﴿ومن يضلل الله﴾ عن الهدى ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ أي طريقاً إلى الهداية.

﴿ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين، وإيضاح أنهم يودون أن يكفر المؤمنون كما كفروا، ويتمنون ذلك عناداً وغلواً في الكفر وتمادياً في الضلال، وقيل ودوا كفركم ككفرهم وودوا مساواتكم لهم ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ أي إذا كان حالهم ما ذكر من وَدادة كفركم فلا تتخذوهم أولياء وجمع الأولياء لمراعاة جمعية المخاطبين، فالمراد النهي عن أن يُتخذ منهم وليّ ولو واحداً.

﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ هجرة صحيحة تحقق إيمانهم، والمراد بالهجرة هنا الخروج مع رسول الله ﷺ للقتال في سبيله مخلصين صابرين محتسبين، قال عكرمة: هي هجرة أخرى[1].

﴿فان تولّوا﴾ عن الهجرة للقتال في سبيل الله ﴿فخذوهم﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ في الحِل والحرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين قتلاً وأسراً ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً﴾ توالونه ﴿ولا نصيراً﴾ تستنصرون به.

---

(١) «المسند» ١٨٤/٥، والبخاري: ١٩٣/٨ ومسلم ٢١٤٢/٤. قال الحافظ في «الفتح» وهذا هو الصحيح في سبب نزولها. وفي «الفتح»: وقوله: «رجع ناس ممن خرج معه» يعني عبد الله بن أبيّ وأصحابه، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في «المغازي»، وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيه رأي النبي ﷺ على الاقامة بالمدينة، فلما أشار غيره بالخروج، وأجابهم النبي ﷺ فخرج، قال عبد الله بن أبي: أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟ فرجع بثلث الناس.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

﴿إلا الذين﴾ هذا مستثنى من الأخذ والقتل فقط، وأما الموالاة فحرام مطلقاً لا تجوز بحال ﴿يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ بالجوار والحلف فلا تقتلوهم لما بينكم وبينهم عهد وميثاق، فإن العهد يشملهم، هذا أصح ما قيل في معنى الآية، وقيل الاتصال هنا هو اتصال النسب: والمعنى إلا الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، قاله أبو عبيدة.(1)

وقد أنكر ذلك عليه أهل العلم لأن النسب لا يمنع من القتال بالإجماع، فقد كان بين المسلمين وبين المشركين أنساب ولم يمنع ذلك من القتال.

وقد اختلف في هؤلاء القوم الذين كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق، فقيل هم قريش كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق،والذين يصلون إلى قريش هم بنو مدلج وقيل نزلت في هلال ابن عويم وسراقة بن جعشم وخزيمة بن عامر بن عبد مناف كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم عهد، وقيل خزاعة، وقيل بنو بكر بن زيد.

﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾ والحصر الضيق والانقباض، وقال محمد بن يزيد المبرد: هو دعاء عليهم كما تقول لعن الله الكافر، وضعفه بعض المفسرين، وقيل أو بمعنى الواو ﴿أن يقاتلوكم﴾ مع قومهم ﴿أو يقاتلوا قومهم﴾ معكم فضاقت صدورهم عن قتال الطائفتين وكرهوا ذلك.

---

(١) زاد المسير ٢/١٥٧ و١٥٨.

﴿ولو شاء الله لسلّطهم عليكم﴾ ابتلاء منه لكم واختباراً كما قال سبحانه: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ أو تمحيصاً لكم أو عقوبة بذنوبكم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فألقى في قلوبهم الرعب ﴿فلقاتلوكم﴾ يذكر الله منّته على المسلمين بكف بأس المعاهدين(١).

﴿فإن اعتزلوكم﴾ عن قتالكم ﴿فلم يقاتلوكم﴾ أي لم يعترضوا لقتالكم ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ أي استسلموا لكم وانقادوا ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي طريقاً فلا يحل لكم قتلهم ولا أسرهم ولا نهب أموالهم، فهذا الاستسلام يمنع من ذلك ويحرمه، قيل هذا منسوخ بآية القتال، وقيل محكمة محمولة على المعاهدين وهذا هو الظاهر(٢).

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله: ثم استثنى الله سبحانه من هؤلاء فقال: (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أي: إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم، وهذا قول السدي، وابن زيد، وابن جرير وانظر تفصيل القول في «المغني» ٥١٣/١٠، و«نيل الأوطار» ١٧٦/٨.

(٢) وقال ابن كثير ٥٣٣/١: وروي ابن أبي حاتم، حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة، عن علي ابن زيد بن جدعان، عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم، قال: لما ظهر يعني النبي ﷺ على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صَهْ، فقال النبي ﷺ دعوه ما تريد؟ قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الاسلام، وإن لم يسلموا، لم تخشن قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد ابن الوليد، فقال: اذهب معه فافعل ما يريد، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا، فأنزل الله ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونوا سواء فلا تتخذوا منهم أولياء﴾.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

﴿ستجدون آخرين﴾ والسين للاستمرار لا للاستقبال كقوله تعالى سيقول السفهاء قال السفاقسي: والحق أنها للاستقبال في الاستمرار للفعل لا في ابتدائه ﴿يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ فيظهرون لكم الإسلام ويظهرون لقومهم الكفر ليأمنوا من كلا الطائفتين، وهم قوم من أهل تهامة طلبوا الأمان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليأمنوا عنده وعند قومهم، وقيل هم قوم من أهل مكة.

وقيل نزلت في نعيم بن مسعود فانه كان يأمن المسلمين والمشركين، وقيل في قوم من المنافقين، وقيل في أسد وغطفان.

﴿كلما ردّوا الى الفتنة﴾ أي دعاهم قومهم اليها وطلبوا منهم قتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ أي قلبوا فرجعوا الى قومهم وقاتلوا المسلمين ومعنى الارتكاس الانتكاس.

﴿فان لم يعتزلوكم﴾ يعني هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، لم يكفوا عن قتالكم حتى يسيروا الى مكة ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي يستسلمون لكم ويدخلون في عهدكم وصلحكم وينسلخون عن قومهم ﴿ويكفّوا أيديهم﴾ عن قتالكم ﴿فخذوهم﴾ يعني أسرى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم.

﴿وأولئكم﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة واضحة تتسلطون بها عليهم وتقهرونهم بها بسبب ما في قلوبهم من المرض وما في صدورهم من الدغل وارتكاسهم في الفتنة بأيسر عمل وأقل سعي.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً﴾ هذا النفي هو بمعنى النهي المقتضي للتحريم كقوله تعالى ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ ولو كان هذا النفي على معناه لكان خبراً وهو يستلزم صدقه فلا يوجد مؤمن قتل مؤمناً قط، وقيل المعنى ما كان له ذلك في عهد الله، وقيل ما كان له ذلك فيما سلف كما ليس له الآن ذلك بوجه.

ثم استثنى منه استثناء منقطعا فقال ﴿إلا خطأً﴾ أي ما كان له أن يقتله ألبتّة لكن إن قتله **خطأً** فعليه كذا، هذا قول سيبويه والزجاج، وقيل هو استثناء متصل، والمعنى وما ثبت ولا وجد ولا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا **خطأً** إذ هو مغلوب حينئذ، وقيل المعنى ولا **خطأً**.

قال النحاس: ولا يعرف ذلك في كلام العرب ولا يصح في المعنى لأن الخطأ لا يحظر، وقيل المعنى لا ينبغي أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده فيكون قوله ﴿خطأً﴾ منتصباً بأنه مفعول له.

ووجوه الخطأ كثيرة ويضبطها عدم القصد، والخطأ اسم من أخطأ خطأ إذا لم يتعمد، أخرج ابن جرير عن عكرمة قال كان الحرث بن يزيد من بني

عامر بن لؤي يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل ثم خرج مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعني الحرث فلقيه عياش بالحرة فعلاه بالسيف وهو يحسب انه كافر، ثم جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فنزلت ﴿وما كان لمؤمن﴾ الآية فقرأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال له: قم فحرر، أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن السدي بأطول من هذا، وقد روي من طرق غير هذه، وقال ابن زيد نزلت في رجل قتله أبو الدرداء كان في سريّة فحمل عليه بالسيف فقال لا إله إلا الله فضربه.

﴿ومن قتل مؤمناً خطئاً﴾ بأن قصد رمي غيره كصيد أو شجرة فأصابه أو ضربه بما لا يقتل غالباً ﴿فتحرير﴾ أي فعليه تحرير ﴿رقبة﴾ أي نسمة ﴿مؤمنة﴾ يعتقها كفارة عن قتل الخطأ، وعبّر بالرقبة عن جميع الذات.

واختلف العلماء في تفسير الرقبة المؤمنة فقيل هي التي صلت وعقلت الايمان فلا تجزىء الصغيرة، وبه قال ابن عباس والحسن والشعبي والنخعي وقتادة وغيرهم، وقال عطاء بن أبي رباح إنها تجزىء الصغيرة المولودة بين المسلمين.

وقال جماعة منهم مالك والشافعي يجزيء كل من حكم له بوجوب الصلاة عليه إن مات، ولا يجزيء في قول جمهور العلماء أعمى ولا مقعد ولا أشل، ويجزىء عند الاكثر الاعرج والأعور، قال مالك: إلا أن يكون عرجاً شديداً، ولا يجزىء عند أكثرهم المجنون، وفي المقام تفاصيل طويلة مذكورة في علم الفروع.

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والبيهقي عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم بجارية سوداء فقال: يا رسول الله إن عليّ عتق رقبة مؤمنة فقال لها: أين الله، فأشارت إلى السماء بأصبعها فقال: فمن أنا

فأشارت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى السماء أي أنت رسول الله فقال أعتقها فإنها مؤمنة[1]، وقد روى من طرق وهو في صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

﴿ودية﴾ هي ما يعطى عوضاً عن دم المقتول إلى ورثته ﴿مسلّمة﴾ أي مدفوعة مؤداة ﴿إلى أهله﴾ المراد بهم الورثة، وأجناس الدية وتفاصيلها قد بينتها السنة المطهرة، وقد وردت أحاديث في تقدير الدية، وفي الفرق بين دية الخطأ ودية شبه العمد، ودية المسلم ودية الكافر، وهي معروفة فلا حاجة لنا في ذكرها في هذا الموضوع.

﴿إلا أن يصدّقوا﴾ أي إلا أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية بأن يعفوا عنها، فسمى العفو عنها صدقة ترغيباً فيه، وهذه الجملة المستثناة متعلقة بقوله ﴿ودية مسلّمة﴾ أي فعليه دية مسلمة إلا أن يقع العفو من الورثة عنها.

﴿فإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم عدو لكم﴾ وهم الكفار الحربيون ﴿وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ هذه مسئلة المؤمن الذي يقتله المسلمون في بلاد الكفار الذين كان منهم ثم أسلم ولم يهاجر، وهم يظنون أنه لم يسلم، وأنه باق على دين قومه فلا دية على قاتله، بل عليه تحرير رقبة مؤمنة.

واختلفوا في وجه سقوط الدية فقيل وجهه أن أولياء القتيل كفار لا حق لهم في الدية، وقيل وجهه أن هذا الذي آمن ولم يهاجر حرمته قليلة لقول الله تعالى ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء﴾ وقال بعض أهل العلم: إن ديته واجبة لبيت المال.

﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي عهد مؤقت أو مؤبد كأهل

---

(١) مسلم ٥٣٧.

الذمّة، وقرأ الحسن وهو مؤمن ﴿فدية﴾ أي فعلى قاتله دية ﴿مسلّمة﴾ مؤداة ﴿إلى أهله﴾ من أهل الإسلام وهم ورثته وهي ثلث دية المؤمن إن كان يهودياً أو نصرانياً، وثلثا عشرها إن كان مجوسياً ﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾ على قاتله كما تقدم[1].

﴿فمن لم يجد﴾ أي الرقبة ولا اتسع ماله لشرائها ﴿فصيام﴾ أي فعليه صيام ﴿شهرين متتابعين﴾ لم يفصل بين يومين من أيام صومها إفطار في نهار، فلو أفطر استأنف، هذا قول الجمهور، وأما الافطار لعذر شرعي كالحيض ونحوه فلا يوجب الاستئناف، واختلف في الافطار لعروض المرض، ولم يذكر الله سبحانه الانتقال إلى الطعام كالظهار، وبه أخذ الشافعي.

﴿توبة﴾ أي شرع ذلك لكم قبولاً لتوبتكم أو تاب عليكم توبة أو حال كونه ذا توبة كائنة من الله، قال سعيد بن جبير: يعني تجاوزاً من الله لهذه الأمة حيث جعل في قتل الخطأ الكفارة ﴿وكان الله عليماً﴾ بمن قتل خطأً ﴿حكيماً﴾ فيما حكم به عليه من الدية والكفارة، وأحكام الديات محلها كتب الفروع فلا نطول بذكرها.

---

(١) في «الكافي» ٣/٧٨: ودية الكتابي نصف دية المسلم، لما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «ودية المعاهد نصف دية المسلم» رواه أبو داود. وروي عنه: أن ديته ثلث الدية، لما روي أن عمر: جعل دية اليهودي والنصراني أربعة آلاف، إلا أنه رجع عن هذه الرواية، وقال: كنت أذهب إلى أن دية اليهودي والنصراني أربعة آلاف، فانا اليوم أذهب إلى نصف دية المسلم. قلت: أما حديث عمرو بن شعيب فرواه أيضاً أحمد والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن ماجة، وهو حديث حسن. وأما أثر عمر فقد رواه عنه سعيد بن المسيب، وهو منقطع، لأن سعيداً لم يسمع من عمر.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ أي قاصداً لقتله، لما بين سبحانه حكم القاتل خطأً بين حكم القاتل عمداً، وقد اختلف العلماء في معنى العمد فقال عطاء والنخعي وغيرهما: هو القتل بحديدة كالسيف والخنجر وسنان الرمح ونحو ذلك من المحدود، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقال الحجارة ونحوها[1].

وقال الجمهور: إنه كل قتل من قاتل قاصد للفعل بحديدة أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك، وقيده بعض أهل العلم بأن يكون بما يقتل مثله في العادة.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن القتل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عمد وشبه عمد وخطأ، واستدلوا على ذلك بأدلة ليس هذا مقام بسطها.

وذهب آخرون إلى أنه ينقسم إلى قسمين عمد وخطأ، ولا ثالث لهما، واستدلوا بأنه ليس في القرآن إلا القسمان، ويجاب عن ذلك بأن اقتصار القرآن على القسمين لا ينفي ثبوت قسم ثالث بالسنة وقد ثبت ذلك بالسنة.

﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ أي فجُعل جزاؤه ذلك بكفره وارتداده أو حكم عليه بها، وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة عمّن أمّنه من أهلها فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة ﴿وغضب الله عليه﴾ لأجل كفره وقتله المؤمن متعمداً ﴿ولعنه﴾ طرده عن رحمته ﴿وأعد له عذاباً عظيماً﴾ في النار.

وقد جاءت هذه الآية بتغليظ عقوبة القاتل عمداً فجمع الله له فيها بين كون جهنم جزاء له أي يستحقها بسبب هذا الذنب، وبين كونه خالداً فيها،

---

(١) زاد المسير ١٦٦/٢.

وبين غضب الله ولعنته له وإعداده له عذاباً عظيماً، وليس وراء هذا التشديد تشديد، ولا مثل هذا الوعيد وعيد.

وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء أهل الكوفة فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء، وقد روى النسائي عنه وعن زيد بن ثابت نحوه.

وممّن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة وعبدالله بن عمرو وأبو سلمة وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم عنه.

وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة واستدلوا بمثل قوله تعالى ﴿إن الحسنات يذهبن السيئآت﴾ وقوله ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ وقوله ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقوله ﴿وإني لغفار لمن تاب﴾.

قالوا أيضا: والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان فيكون معناهما:فجزاؤه جهنم إلا من تاب لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل والموجب وهو التوعّد بالعقاب.

واستدلوا أيضا بالحديث المذكور في الصحيحين عن عبادة بن الصامت أنه ﷺ قال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق» ثم قال: فمن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه[1]، وبحديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه وغيره في الذي قتل مائة نفس.

---

(١) مسلم ١٧٠٩ ـ البخاري ١٨.

وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه والشافعي إلى أن القاتل عمداً داخل تحت المشيئة تاب أو لم يتب، وقد أوضح الشوكاني في شرحه على المنتقى متمسك كل فريق، والحق أن باب التوبة لم يغلق دون كل عاص بل هو مفتوح لكل من قصده ورام للدخول منه، وإذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدها تمحوه التوبة إلى الله ويقبل من صاحبه الخروج منه والدخول في باب التوبة فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمداً.

لكن لا بد في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجباً أو تسليم الدية ان لم يكن القصاص واجباً وكان القاتل غنياً متمكناً من تسليمها أو بعضها، وأما مجرد التوبة من القاتل عمداً وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف ولا تسليم نفس فنحن لا نقطع بقبولها، والله أرحم الراحمين هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

وقد تعلقت المعتزلة وغيرهم بهذه الآية على أن الفاسق يخلد في النار، والجواب أن الآية نزلت في كافر قتل مسلماً، وهو مقيس بن ضبابة، وهي على هذا مخصوصة، وقيل المعنى من قتل مسلماً مستحِلًّا لقتله وهو كفر، وعن أبي مجلز قال: هي جزاؤه فإن شاء الله أن يتجاوز عن جزائه فعل، أخرجه أبو داود.

وقيل الخلود لا يقتضي التأبيد بل معناه طول المكث. قاله البيضاوي.

وقد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحيحة إخراج جميع الموحدين من النار، قال الكرخي: الظاهر أنه أراد التشديد والتخويف والزجر العظيم عن قتل المؤمن لا أنه أراد بعدم قبول توبته عدمه حقيقة، وظاهره أن الآية من المحكم لأنه لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي ولو بلفظ الخبر، أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله نسخ ومنه الوعد والوعيد قاله الجلال في الإتقان.

قال أبو السعود: في الآية الكريمة من التهديد الشديد والوعيد الأكيد وفنون الإبراق والإرعاد ما تراه، وقد تأيّدت بما روى من الأخبار الشداد، كقوله ﷺ «والذي نفسي بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن»[1] وقوله: «لو أن رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه» وقوله: «من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله»[2] ونحو ذلك من القوارع.

ولا متمسك للمعتزلة فيها لأن المراد بالخلود هو المكث الطويل لا الدوام، وقد روي مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «هو جزاؤه إن جازاه».

قال الواحدي: والأصل في ذلك ان الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد، وإن امتنع أن يخلف الوعد، وبهذا وردت السنة عن رسول الله ﷺ في حديث أنس أنه ﷺ قال «من وعده الله على عمله ثواباً فهو منجزه له، ومن أوعده على عمله عقاباً فهو بالخيار».

والتحقيق أنه لا ضرورة إلى تفريع ما نحن فيه على الأصل المذكور، لأنه إخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه بذلك، كيف لا وقد قال الله تعالى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ولو كان هذا إخباراً بأنه تعالى يجزي كل سيئة بمثلها لعارضة قوله تعالى ﴿ويعفو عن كثير﴾ انتهى كلام أبي السعود ملخصاً.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٩٥٤.
(٢) ضعيف الجامع الصغير ٥٤٥٥.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا﴾ هذا متصل بذكر الجهاد والقتال، والضرب السير في الأرض، تقول العرب ضربت في الأرض إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيرهما، وتقول ضربت الأرض بدون في، إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان ومنه قوله ﷺ «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط».

والتبيّن هو التأمل وهي قراءة الجماعة، إلا حمزة فانه قرأ ﴿فتثبتوا﴾ من التثبت، واختار القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم قالا: لأن من أمر بالتبين فقد أمر بالتثبت، وإنما خص السفر بالأمر بالتبين مع أن التبيّن والتثبت في أمر القتل واجبان حضراً وسفراً بلا خلاف لأن الحادثة التي هي سبب نزول الآية كانت في السفر[1].

﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام﴾ وقريء السلم ومعناهما واحد، واختار أبو عبيد ﴿السلام﴾ وخالفه أهل النظر فقالوا السلم هنا أشبه لأنه بمعنى الانقياد والتسليم، والمراد هنا لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم واستسلم ﴿لست مؤمناً﴾ فالسلم والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام وقيل هما بمعنى الإسلام أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم الإسلام أي كلمته وهي الشهادة لست مؤمناً.

(١) ضعيف الجامع الصغير ٦٣٥١.

وقيل هما بمعنى التسليم وهو تحية أهل الإسلام أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم فقال السلام عليكم لست مؤمناً، وإنما قلت هذا تقيّة لنفسك ومالك، والمراد نهي المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه ويقولوا إنه إنما جاء بذلك تعوّذاً وتقيّة.

ومؤمناً من أمّنته إذا أجرته فهو مؤمّن، وقيل المعنى لست من أهل الإيمان.

وقد استدل بهذه الآية على أن من قتل كافراً بعد أن قال لا إله إلا الله قتل به لأنه قد عصم بهذه الكلمة دمه وماله وأهله، وإنما أسقط القتل عمن وقع منه ذلك في زمن **النبي** ﷺ لأنهم تأولوا فظنوا أن من قالها خوفاً من السلاح لا يكون مسلماً ولا يصير بها دمه معصوماً، وأنه لا بد أن يقول هذه الكلمة وهو مطمئن غير خائف.

وفي حكم التكلم بكلمة الإسلام إظهار الإنقياد بأن يقول أنا مسلم أو أنا على دينكم، لما عرفت من أن معنى الآية الاستسلام والانقياد، وهو يحصل بكل ما يشعر بالإسلام من قول أو عمل، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة وكلمة التسليم، فالقولان الآخران في معنى الآية داخلان تحت القول الأول.

وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس **قال:** لحق ناس من المسلمين رجلاً معه غنيمة له فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته، فنزلت هذه الآية، وفي سبب النزول روايات كثيرة وهذا الذي ذكرناه أحسنها.

﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ أي لا تقولوا تلك المقالة طالبين الغنيمة، على أن يكون النهي راجعاً إلى القيد والمقيد لا إلى القيد فقط، وسمي متاع الدنيا عرضاً لأنه عارض زائل غير ثابت.

قال أبو عبيدة: يقال جميع متاع الدنيا عرض بفتح الراء، وأما العرض بسكون الراء فهو ما سوى الدنانير والدراهم، فكل عرض بالسكون عرض بالفتح، وليس كل عرض بالفتح عرضاً بالسكون، وفي كتاب العين: العرض ما نيل من الدنيا ومنه قوله تعالى ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ وجمعه عروض.

وفي المجمل لإبن فارس: والعرض ما يعترض للإنسان من مرض ونحوه وعرض الدنيا ما كان فيها من مال قل أو كثر، والعرض من الأثاث ما كان غير نقد.

﴿فعند الله﴾ هو تعليل للنهي أي عند الله مما هو حلال لكم من دون ارتكاب محظور ﴿مغانم كثيرة﴾ تغنمونها وتستغنون بها عن قتل من قد استسلم وانقاد وإغنام ماله، وقيل فعنده ثواب كثير لمن اتقى قتل المؤمن، والمغانم جمع مغنم وهو يصلح للمصدر والزمان والمكان، ثم يطلق على ما يؤخذ من مال العدو، إطلاقاً للمصدر على اسم المفعول نحو ضرب الأمير.

﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أي كنتم مثل الرجل المذكور في مبادى الإسلام كفاراً فحقنت دماؤكم لما تكلمتم بكلمة الشهادة أو كذلك كنتم من قبل تخفون إيمانكم عن قومكم خوفاً على أنفسكم حتى منّ الله عليكم باعزاز دينه فأظهرتم الإيمان وأعلنتم به.

﴿فمنّ الله عليكم﴾ يعني بالإسلام والهداية فلا تقتلوا من قال لا إله إلا الله أو منّ عليكم بإعلان الإسلام بعد الاختفاء، وقيل بالتوبة ﴿فتبيّنوا﴾ ولا تعجلوا بقتل مؤمن، وكرر الأمر بالتبين للتأكيد عليهم لكونه واجباً لا فسحة فيه ولا رخصة ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فلا تتهافتوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)﴾

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين، غير أولي الضرر، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾.

التفاوت بين درجات من قعد عن الجهاد من غير عذر، ودرجات من جاهد في سبيل الله بماله ونفسه وإن كان معلوماً لكن أراد سبحانه بهذا الاخبار تنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكيت القاعدين ليأنفوا، ونحوه قوله تعالى ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ فهو تحريك لطالب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل.

وغير أولي الضرر بالرفع على أنه صفة للقاعدين كما قال الأخفش لأنهم لا يقصد بهم قوم بأعيانهم فصاروا كالنكرة فجاز وصفهم بغير وبكسر الراء على أنه وصف للمؤمنين وبفتحها على الاستثناء من القاعدين أو من المؤمنين أي إلا أولي الضرر فانهم يستوون مع المجاهدين.

ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من القاعدين أي لا يستوي القاعدون الأصحاء في حال صحتهم، وجازت الحال منهم لأن لفظهم لفظ المعرفة.

قال العلماء: أهل الضرر هم أهل الأعذار من مرض أو عاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها لأنها أضرت بهم حتى منعتهم عن الجهاد، وظاهر النظم القرآني أن صاحب العذر يعطى مثل أجر المجاهد، وقيل يعطى أجره من غير تضعيف فيفضله المجاهد بالتضعيف لأجل المباشرة.

قال القرطبي: والأول أصح إن شاء الله للحديث الصحيح في ذلك «ان بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سرتم مسيراً إلا كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر[1]» قال وفي هذا المعنى ما ورد في الخبر إذا مرض العبد قال الله تعالى اكتبوا لعبدي ما كان يعمله في الصحة إلى أن يبرأ أو أقبضه إلي.

وقد أخرج البخاري وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أملى عليه ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علي فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وفخذه على فخذي ﴿غير أولي الضرر ﴾ وأخرجه أيضا سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه من حديث خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه.

وعن ابن عباس قال ﴿غير أولي الضرر﴾ المتخلفون عن بدر، والخارجون إلى بدر، وعنه قال: نزلت في قوم كانت تشغلهم أمراض وأوجاع فأنزل الله عذرهم من السماء، وعن أنس بن مالك قال: نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم، ولقد رأيته في بعض مشاهد المسلمين معه اللواء.

﴿وفضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم الاستواء إجمالاً، والمراد هنا غير أولي الضرر حملاً للمطلق على المقيد.

وقال هنا ﴿درجة﴾ وقال فيما بعد ﴿درجات﴾ فقال قوم التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وبيان وتأكيد، وقال آخرون: فضّل الله

---

(١) صحيح الجامع ٢٠٣٢ عن جابر.

المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر بدرجة واحدة، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر بدرجات، قاله ابن جريج والسدي وغيرهما، وقيل إن معنى درجة علواً أي أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح[1].

﴿وكلاًّ﴾مفعول أول لقوله ﴿وعد الله﴾ قدم عليه لإفادة القصر أي كل واحد من المجاهدين والقاعدين وعده الله ﴿الحسنى﴾ أي المثوبة وهي الجنة، قاله قتادة ﴿وفضّل الله المجاهدين على القاعدين﴾ الذين لا عذر لهم ولا ضرر ﴿أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً.

(١) قال زيد بن ثابت: إني لقاعد إلى جنب رسول الله ﷺ، إذ غشيته السكينة، ثم سري عنه، فقال: «اكتب» ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون﴾ الآية، فقام ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ فوالله ما قضى كلامه حتى غشيت رسول الله السكينة، ثم سري عنه، فقال: اقرأ فقرأت لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، فقال النبي ﷺ: ﴿غير أولي الضرر﴾ فألحقتها.

«المسند» ٥/١٨٤، والبخاري ٨/١٩٥، وأبو داود ٣/١٧، والترمذي ٤/٩٢ والنسائي ٦/٩، ولفظه عند البخاري عن ابن شهاب قال: حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلت حتى جلست الى جنبه، فأخبرنا ان زيد بن ثابت ـ اخبره أن النبي ﷺ أملى عليه ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاء ابن أم مكتوم وهو يملها علي قال: يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله ﴿غير أولي الضرر﴾.

ويملها: بضم أوله وكسر الراء، قال: لما نزلت ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم، فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿غير أولي الضرر﴾.

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

ثم فسر ذلك بقوله ﴿درجات منه﴾ أي من الأجر أو من الله يعني منازل بعضها فوق بعض من الكرامة، قال ابن زيد الدرجات هن سبع ذكرها الله في سورة براءة يعني قوله ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة إلى قوله إلا كتب لهم﴾.

وعن ابن جريج قال: كان يقال الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة والقتل في الهجرة درجة.

وعن ابن محيريز قال: الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين سنة.

وأخرج البخاري والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة[1].

﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم يسترها ويصفح عنها ﴿ورحمة﴾ رأفة بهم، والمعنى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لذنوبهم بتكفير العذر ﴿رحيماً﴾ بهم بتوفير الأجر، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) اخرجه الترمذي ٣/٣٢٦ والحاكم ١/٨٠ وأحمد ٥/٣١٦ و٣٢١ وابن ماجة ٢/٥٩٠.

فيما يحكى عن ربه عز وجل قال: أيما عبد من عبادي خرج مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له إن أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وإن قبضته غفرت له ورحمته[1]، أخرجه النسائي.

﴿إنّ الذين توفّاهم الملائكة﴾ يحتمل أن يكون ماضياً وحذفت منه علامة التأنيث لأن تأنيث الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أن يكون مستقبلاً، والأصل تتوفاهم، عن الحسن أن المعنى تحشرهم إلى النار وقيل تقبض أرواحهم، وهو الأظهر.

والمراد بالملائكة ملك الموت وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم لقوله تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ وقيل ملك الموت وأعوانه، وعلى الأول يكون المراد بالملائكة الزبانية الذين يلون تعذيب الكفار.

﴿ظالمي أنفسهم﴾ بالمقام مع الكفار وترك الهجرة، نزل فيمن أسلم ولم يهاجر حين كانت الهجرة فريضة وخرج مع المشركين إلى بدر مرتداً فقتل كافراً ﴿قالوا فيم كنتم﴾ سؤال توبيخ أي في أي شيء كنتم من أمر دينكم قيل المعنى أكنتم في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو كنتم مشركين، قاله القرطبي.

وقيل: إن معنى السؤال التقريع لهم بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين، قال أبو حيان: أي في أي حالة كنتم بدليل الجواب أي في حالة قوة أو ضعف.

﴿قالوا﴾ على وجه الكذب معتذرين ﴿كنّا مستضعفين﴾ عاجزين عن

(١) النسائي/ ٣١٢٦. زاد السير ١٧٥.

الهجرة ﴿في الأرض﴾ مكة لأن سبب النزول من أسلم بها ولم يهاجر، وهذا اعتذار غير صحيح إذ كانوا يستطيعون الحيلة ويهتدون السبيل.

ثم أوقفتهم الملائكة على ذنبهم وألزمتهم الحجة وقطعت معذرتهم حيث ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة﴾ قيل المراد بهذه الأرض المدينة والأولى العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق، فيراد بالأرض كل بقعة من بقاع الأرض تصلح للهجرة إليها، ويراد بالأرض الأولى كل أرض ينبغي الهجرة منها.

﴿فتهاجروا فيها﴾ وتخرجوا من بين أظهر المشركين، قال الواحدي: فيه أن الله لم يرض بإسلام أهل مكة حتى يهاجروا ﴿فأولئك مأواهم﴾ أي منزلهم ﴿جهنم وساءت﴾ أي جهنم ﴿مصيراً﴾ أي مكاناً يصيرون إليه.

والآية تدل على أن من لم يتمكن من إقامة دينه في بلد كما يجب بأي سبب كان وعلم أنه يتمكن من إقامته في غيره، حقَّت عليه المهاجرة، وفي الباب أحاديث ذكرناها في جواب سؤال عن الهجرة من أرض الهند اليوم بالفارسية فليرجع إليه.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿إلا المستضعفين﴾ الذين صدقوا في استضعافهم ﴿من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾ استثناء من الضمير في مأواهم، وقيل هو استثناء منقطع لعدم دخول المستضعفين في الموصول وضميره، والمراد بهم من الرجال الزمناء ونحوهم، والولدان كعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام.

وإنما ذكر الولدان مع عدم التكليف لهم لقصد المبالغة في أمر الهجرة، وإيهام أنها تجب لو استطاعها غير المكلف فكيف من كان مكلفاً، وقيل أراد بالولدان المراهقين والمماليك.

والحيلة لفظ عام لأنواع أسباب التخلص، أي لا يجدون حيلة في الخروج منها لفقرهم وعجزهم، ولا طريقاً إلى ذلك، وقيل السبيل سبيل المدينة، عن ابن جريج في قوله ﴿حيلة﴾ قال قوة، وعن عكرمة قال نهوضاً إلى المدينة وسبيلاً أي طريقاً إليها.

﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر، وجيء بكلمة الإطماع لتأكيد أمر الهجرة حتى يظن أن تركها ممن لا تجب عليه يكون ذنباً يجب طلب العفو عنه، وقال الكرخي: يعفو عن خطر الهجرة بحيث يحتاج المعذور إلى العفو، قال ابن عباس كنت أنا وأمي من المستضعفين أنا من الولدان وأمي من النساء.

﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾ مبالغاً في المغفرة لهم ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج.

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً﴾ هذه الجملة متضمّنة للترغيب في الهجرة والتنشيط إليها، وفيه دليل على أنّ الهجرة لا بد أن تكون بقصد صحيح، ونية خالصة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا، ومنه الحديث الصحيح «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه[1]».

وقد اختلف في معنى الآية فقال ابن عباس وجماعة من التابعين ومن بعدهم المراغم المتحوّل والمذهب من أرض إلى أرض، وقال مجاهد: المراغم المتزحزح عما يكره، وقال ابن زيد: المراغم المهاجر، وبه قال أبو عبيدة: قال النحاس: هذه الأقوال متفقة المعاني، فالمراغَم المذهب والمتحوّل وهو الموضع الذي يراغم فيه وهو مشتق من الرغام وهو التراب، ورغم أنف فلان أي لصق بالتراب، وراغمت فلاناً أي هجرته وعاديته، ولم أبال أن رغم أنفه.

وهذا من الامثال التي جرت في كلامهم بأسماء الأعضاء ولا يراد أعيانها بل وضعوها لمعان غير معاني الأسماء الظاهرة، ولاحظ لظاهر الأسماء من طريق الحقيقة، ومنه قولهم: كلامه تحت قدمي، وحاجته خلف ظهري، يريدون الإهمال وعدم الإحتفال.

وقيل إنما سمي المهاجر مراغماً لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه

(١) جزء من حديث طويل سبق ذكره.

وهجرهم فسمي خروجه مراغماً، وسمي مسيره إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم هجرة، والحاصل في معنى الآية أن المهاجر يجد في الأرض مكاناً يسكن فيه على رغم أنف قومه الذين هاجرهم أي على ذلّهم وهوانهم.

﴿وسعة﴾ أي في البلاد وقيل بالرزق وقال عطاء سعة أي رخاء، وقيل في إظهار الدين أو في تبدل الخوف بالأمن أو من الضلال إلى الهدى، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك.

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾ أي إلى حيث أمر الله ورسوله، قالوا كل هجرة في غرض ديني من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهي هجرة إلى الله ورسوله ﴿ثمّ يدركه الموت﴾ قبل أن يصل إلى مطلوبه وهو المكان الذي قصد الهجرة إليه أو الأمر الذي قصد الهجرة له.

﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي ثبت ذلك عنده ثبوتاً لا يتخلف، يعني وجب أجر هجرته عليه بإيجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم، لا وجوب استحقاق، قيل ويدخل فيه من قصد فعل طاعة ثم عجز عن إتمامها كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي كثير المغفرة كثير الرحمة.

وقد استدل بهذه الآية على أن الهجرة واجبة على كل من كان بدار الشرك أو بدار يعمل فيها بمعاصي الله جهاراً إذا كان قادراً على الهجرة، ولم يكن من المستضعفين لما في هذه الآية الكريمة من العموم وإن كان السبب خاصاً كما تقدم، وظاهرها عدم الفرق بين مكان ومكان وزمان وزمان.

وقد ورد في الهجرة أحاديث، وورد ما يدل على أن لا هجرة بعد الفتح، وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في شرحه على المنتقى.

عن ابن عباس بسند رجاله ثقات قال: خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً فقال لقومه: احملوني فأخرجوني من أرض الشرك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزل الوحي أي هذه الآية[١].

وأخرج ابن سعد وأحمد والحاكم وصححه عن عبدالله بن عتيك قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول «من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله وأين المجاهدون في سبيل الله، فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، يعني بحتف أنفه على فراشه، والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن قتل قعصا فقد استوجب الجنة[٢].

وأخرج أبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من خرج حاجّاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة، قال ابن كثير وهذا حديث غريب من هذا الوجه[٣].

---

(١) زاد السير/ ١٨٠

(٢) المستدرك ٢/٨٨.

(٣) مشكاة المصابيح ٢٥٣٩.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)﴾

﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ هذا شروع في بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر، وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على الهجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أي إذا سافرتم أيَّ مسافرة كانت، ولذلك لم تقيد بما قيد به المهاجرة وقد تقدم تفسير الضرب في الأرض قريباً.

﴿فليس عليكم جناح﴾ أي وزر وحرج في ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ يعني من أربع ركعات إلى ركعتين وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، وأصل القصر في اللغة التضييق وقيل هو ضم الشيء إلى أصله، وفسّر ابن الجوزي القصر بالنقص، ولم أره لأحد من أهل التفسير واللغة، ومن للتبعيض.

وفي الآية دليل على أن القصر ليس بواجب إليه ذهب الجمهور، وذهب الاقلون إلى أنه واجب ومنهم عمر بن عبد العزيز والكوفيون والقاضي اسمعيل وحماد بن أبي سليمان، وهو مروي عن مالك، واستدلوا بحديث عائشة الثابت في الصحيح «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيدت في الحضر وأُقرّت في السفر» ولا يقدح في ذلك مخالفتها لما روت، فالعمل على الرواية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومثله حديث يعلى بن أمية قال سألت عمر بن الخطاب **قلت:** ﴿ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين **كفروا**﴾ وقد

أمن الناس فقال لي عمر عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» أخرجه أحمد ومسلم وأهل السنن(١).

وظاهر قوله ﴿فاقبلوا صدقته﴾ أن القصر واجب، وظاهر هذا الشرط أعني ﴿إن خفتم أن يفتنكم﴾ أي يغتالكم ويقتلكم في الصلاة ﴿الذين كفروا﴾ أن القصر لا يجوز في السفر إلا مع خوف الفتنة من الكافرين لا مع الأمن، ولكنه قد تقرر بالسنة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قصر مع الأمن كما عرفت.

فالقصر مع الخوف ثابت بالكتاب، والقصر مع الأمن ثابت بالسنة، ومفهوم الشرط لا يقوى على معارضة ما تواتر عنه صلى الله عليه وآله وسلم من القصر مع الأمن.

وقد قيل إن الشرط خرج مخرج الغالب، لأن الغالب على المسلمين إذ ذاك القصر للخوف في الاسفار، ولهذا قال يعلى بن أمية لعمر كما تقدم.

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة للقصر في السفر للخائف من العدو، فمن كان آمناً فلا قصر له، وإليه ذهب داود الظاهري.

وذهب آخرون إلى أن قوله ﴿إن خفتم﴾ ليس متصلاً بما قبله، وأن الكلام تم عند قوله ﴿من الصلاة﴾ ثم افتتح فقال ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فأقم لهم يا محمد صلاة الخوف.

---

(١) صحيح الجامع ٣٦٥٦ وصحيح ابوداود/ ١٠٨٣.

قال الفراء أهل الحجاز يقولون فتنت الرجل، وربيعة وقيس وأسد وجميع أهل نجد يقولون أفتنت الرجل، وفرق الخليل وسيبويه بينهما فقالا: فتنته جعلت فيه فتنة مثل كحلته، وأفتنته جعلته مفتناً، وزعم الاصمعي أنه لا يعرف أفتنته، والمراد بالفتنة القتال والتعرض بما يكره ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ معترض ذكر معنى هذا الجرجاني والمهدوي وغيرهما، ورده القشيري والقاضي أبو بكر بن العربي.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

وقد حكى القرطبي عن ابن عباس معنى ما ذكره الجرجاني ومن معه، ومما يرد هذا ويدفعه الواو في قوله الآتي ﴿وإذا كنت فيهم﴾ وقد تكلف بعض المفسرين فقال: إن الواو زائدة وأن الجواب للشرط المذكور أعني قوله ﴿إن خفتم﴾ هو قوله ﴿فلتقم طائفة﴾.

وذهب قوم إلى أن ذكر الخوف منسوخ بالسنة وهي حديث عمر الذي قدمنا ذكره وما ورد في معناه، وعن أمية أنه سأل ابن عمر أرأيت قصر الصلاة في السفر، إنا لا نجدها في كتاب الله إنما نجد ذكر صلاة الخوف، فقال: يا ابن أخي إن الله أرسل محمداً ولا نعلم شيئاً، فإنما نفعل كما رأينا رسول الله ﷺ يفعل، وقصر الصلاة في السفر سنة سنها رسول الله ﷺ أخرجه النسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

وعن حارثة أن وهب الخزاعي قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين، أخرجه الشيخان وغيرهما، وعن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف شيئاً ركعتين، أخرجه الترمذي وصححه والنسائي.

﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ ولمن بعده من أهل الأمر حكمه كما هو معروف في الأصول، ومثله قوله تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ ونحوه، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء.

وشذ أبو يوسف واسمعيل بن علية فقالا: لا تصلَّى صلاة الخوف بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن هذا الخطاب خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالا: ولا يلحق غيره به لما له صلى الله عليه وآله وسلم من المزية العظمى.

وهذا مدفوع فقد أمرنا الله باتباع رسوله والتأسّي به وقد قال ﷺ: صلّوا كما رأيتموني أصلي[1]، والصحابة أعرف بمعاني القرآن وقد صلّوها بعد موته في غير مرة كما ذلك معروف.

والمعنى إذا كنت يا محمد في أصحابك وشهدت معهم القتال وأردت إقامة الصلاة بهم كقوله ﴿وإذا قمتم إلى الصلاة﴾ وقوله ﴿إذا قرأت القرآن﴾ وقال السمين: الضمير المجرور يعود على الضاربين في الأرض، وقيل على الخائفين وهما محتملان.

﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ يعني بعد أن تجعلهم طائفتين: طائفة تقف بإزاء العدو، وطائفة تقوم منهم معك في الصلاة، وإنما لم يصرح به لظهوره ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ أي الطائفة التي تصلي معك، وقيل الضمير راجع إلى الطائفة التي بإزاء العدو والأول أظهر، لأن الطائفة القائمة بإزاء العدو لا بد أن تكون قائمة بأسلحتها، وإنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان في الصلاة لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه حال الصلاة، فأمره الله بأن يكون آخذاً لسلاحه أي غير واضع له.

---

(١) المشكاة/ ١١٦٠.

وليس المراد الأخذ باليد، بل المراد أن يكونوا حاملين لسلاحهم ليتناولوه من قرب إذا احتاجوا إليه، وليكون ذلك أقطع لرجاء عدوهم من إمكان فرصة فيهم.

وقد قال بإرجاع الضمير إلى الطائفة القائمة بإزاء العدو ابن عباس، قال: لأن المصلّية لا تحارب، وقد قال غيره: إن الضمير راجع إلى المصلية، وجوز الزجاج والنحاس أن يكون ذلك أمراً للطائفتين جميعا لأنه أرهب للعدو.

وقد أوجب أخذ السلاح في هذه الصلاة أهل الظاهر حملاً للأمر على الوجوب، وذهب أبو حنيفة إلى أن المصلين لا يحملون السلاح وأن ذلك يبطل الصلاة وهو مدفوع بما في هذه الآية وبما في الأحاديث الصحيحة، والسلاح ما يقاتل به وجمعه أسلحة، وهو مذكر وقيل مؤنث باعتبار الشوكة يقال سلاح كحمار وسلح كضلع، وسلح كصرد، وسلحان كسلطان، قاله أبو بكر بن زيد.

﴿فإذا سجدوا﴾ أي القائمون في الصلاة ﴿فليكونوا﴾ أي الطائفة القائمة بإزاء العدو ﴿من ورائكم﴾ أي من وراء المصلين، ويحتمل أن يكون المعنى فإذا سجد المصلون معه أي أتموا الركعة تعبيراً بالسجود عن جميع الركعة أو عن جميع الصلاة فليكونوا من ورائكم أي فلينصرفوا بعد الفراغ إلى مقابلة العدو للحراسة.

﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾ وهي القائمة في مقابلة العدو التي لم تصل ﴿فليصلوا معك﴾ على الصفة التي كانت عليها الطائفة الأولى ﴿وليأخذوا﴾ أي هذه الطائفة الأخرى ﴿حذرهم﴾ أي ما يتحرزون به من العدو كالدرع ونحوها ﴿وأسلحتهم﴾ زيادة التوصية للطائفة الأخرى بأخذ الحذر مع أخذ السلاح، قيل وجهه أن هذه المرة مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شغل شاغل، وأما في

المرة الأولى فربما يظنونهم قائمين للحرب، وقيل لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت لأنه أخر الصلاة.

ولم يبين في الآية الكريمة كم تصلي كل طائفة من الطائفتين، وقد وردت صلاة الخوف في السنة المطهرة على أنحاء مختلفة، وصفات متعددة وكلها صحيحة مجزية، من فعل واحدة منها فقد فعل ما أمر به، ومن ذهب من العلماء إلى اختيار صفة دون غيرها فقد أبعد عن الصواب، وقد أوضحنا هذا في شرحنا لبلوغ المرام وفي شرحنا للدرر البهية.

﴿ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ هذه الجملة متضمنة للعلة التي لأجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح أي ودوا غفلتكم عن أخذ السلاح وعن الحذر إذا قمتم إلى الصلاة ليصلوا إلى مقصودهم وينالوا فرصتهم فيشدون عليكم شدة واحدة ويحملون عليكم حملة واحدة، والأمتعة ما يتمتع به في الحرب، ومنه الزاد والراحلة، والخطاب للفريقين بطريق الالتفات.

﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾ رخص لهم سبحانه في وضع السلاح إذا نالهم أذى من مطر، وفي حال المرض لأنه يصعب مع هذين الأمرين حمل السلاح، وعن ابن عباس قال: نزلت في عبد الرحمن بن عوف كان جريحاً، أخرجه البخاري وغيره.

ثم أمرهم بأخذ الحذر فقال ﴿وخذوا حذركم﴾ لئلا يأتيهم العدو على غرة وهم غافلون، والمعنى راقبوا عدوكم ولا تغفلوا عنه، أمرهم بالتحفظ والتحرز والاحتياط، وهذا يفيد إيجاب حملها عند عدم العذر وهو أحد قولين للشافعي، والثاني أنه سنة ورجحه الشيخان ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ يهانون به أخبر أنه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم،وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم وإنما هو تعبد من الله.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أي فرغتم من صلاة الخوف وهو أحد معاني القضاء، ومثله ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ و ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ ﴿فاذكروا الله﴾ الأمر للندب لأنه في الفضائل ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ في جميع الأحوال حتى في حال القتال، قال ابن عباس بالليل والنهار وفي البر والبحر وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة والسرّ والعلانية وعلى كل حال.

وعن ابن مسعود أنه بلغه أن قوماً يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فقال إنما هذه إذا لم يستطع الرجل أن يصلي قائماً صلى قاعداً، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو إثر صلاة الخوف أي فاذا فرغتم من الصلاة فاذكروا الله في هذه الأحوال، وقيل معناها إذا صليتم فصلوا قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم حسبما تقتضيه الحال عند ملاحمة القتال، فهي مثل قوله ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾.

والمعنى أن ما أنتم عليه من الخوف جدير بالمواظبة على ذكر الله والتضرع إليه، وعن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله في كل أحيانه أخرجه الشيخان.

﴿فاذا اطمأننتم﴾ أي أمنتم بعد ما وضعت الحرب أوزارها وسكنت قلوبكم، والطمأنينة سكون النفس من الخوف ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي فأتوا بالصلاة التي دخل وقتها على الصفة المشروعة من الأذكار والأركان، ولا تفعلوا

ما أمكن فان ذلك إنما هو في حال الخوف، وقيل المعنى في الآية أنهم يقضون ما صلوه في حال المسايفة لأنها حالة قلق وانزعاج وتقصير في الأذكار والأركان، وهو مروي عن الشافعي، والأول أرجح وقال مجاهد: فإذا اطمأننتم أي إذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة فأقيموا الصلاة، قال أتمّوها أربعاً من غير قصر، وعن قتادة وابن المنذر نحوه[1].

﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي فرضاً محدوداً معيناً، والكتاب هنا بمعنى المكتوب يعني مؤقتة في أوقات محدودة فلا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أي حال كان من خوف أو أمن، وقيل المعنى فرضاً واجباً مقدراً في الحضر أربع ركعات وفي السفر ركعتين، يقال وقّته فهو موقوت ووقّته فهو مؤقت.

والمقصود ان الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت إلا لعذر شرعي من نوم أو سهو أو نحوهما، قال ابن عباس: موقوتاً مفروضاً، والموقوت الواجب، فلا بد أن تؤدى في كل وقت حسبما قدّر فيه.

---

(١) القرطبي ٣٧٤.

وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ من وهن بالكسر في الماضي أو من وهن بالفتح أي لا تضعفوا في طلبهم وقتالهم وأظهروا القوة والجلد، وقريء تهانوا من الإهانة مبنياً للمفعول أي لا تتعاطوا من الجبن والخور ما يكون سبباً في إهانتكم.

﴿إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون﴾ تعليل للنهي المذكور قبله أي ليس ما تجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصاً بكم، بل هو أمر مشترك بينكم وبينهم، فليسوا بأولى منكم بالصبر على حر القتال ومرارة الحرب.

ومع ذلك فلكم عليهم مزيّة لا توجد فيهم ﴿و﴾ هي أنكم ﴿ترجون من الله﴾ من الأجر وعظيم الجزاء ﴿ما لا يرجون﴾ لكفرهم وجحودهم فأنتم أحق بالصبر منهم وأولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية لأنها ترى الموت مغنماً وهم يرونه مغرماً، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾.

وقيل: إن الرجاء هنا بمعنى الخوف لأن من رجا شيئاً فهو غير قاطع بحصوله فلا يخلو من خوف ما يرجو، وقال الفراء والزجاج: لا يطلق الرجاء بمعنى الخوف إلا مع النفي كقوله تعالى: **﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً﴾** أي لا تخافون له عظمة.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ لا يأمركم بشيء إلا وهو يعلم أنه مصلحة لكم.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦)﴾

﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي القرآن ﴿بالحق﴾ أي متلبساً به، والحق الصدق أو الأمر والنهي والفصل بين الناس ﴿لتحكم بين الناس بما أراك﴾ أي أعلمك ﴿الله﴾ إما بوحي أو بما هو جار على سنن ما قد أوحى إليك به، وليس المراد هنا رؤية العين لأن الحكم لا يرى بل المراد ما عرّفه الله به وأرشده إليه، وإنما سمي العلم اليقيني رؤية لأنه جرى مجرى الرؤية في قوة الظهور.

روي عن عمر أنه قال: لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله، فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن ليجهد رأيه لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مصيباً لأن الله كان يريه إياه، وإن رأى أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً، وقد دلت هذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يحكم إلا بالوحي الإلهي.

﴿ولا تكن للخائنين﴾ أي لأجلهم ﴿خصيماً﴾ مخاصماً عنهم مجادلاً للمحقين بسببهم، وفيه دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق، ونزلت هذه الآية في بني الأبيرق، وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطولة عن جماعة من التابعين عند أهل السنن وغيرهم لا نطوّل بذكرها[1].

---

(١) روى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم فأظن بها رجل من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال أن طعمة بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء وقال لنفر من عشيرته إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا يا نبي الله إن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان وقد =

﴿واستغفر الله﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار، قال ابن جرير: إن المعنى استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين، وقيل المعنى واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمخاصمين بالباطل والأول أرجح ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء وقالوا لو لم يقع منه ﷺ ذنب لما أمر بالاستغفار، والجواب عنه بوجوه ذكرها الخازن في تفسيره[1].

= أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله ﴿إنا أنزلنا الكتاب بالحق ليحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ورواه الترمذي والحاكم وابن جرير وغيرهم بأطول من هذا قلت إسناده ضعيف جداً.

(١) لا شك أن الرسول ﷺ عندما يتحدث أو يعمل كرسول، أي مبلغاً أو داعياً فهو معصوم، أما إذا كان يتحدث أو يعمل من عند نفسه في الأمور العامة التي ليست جزءاً من الرسالة فهو بشر، يمكن أن يخطىء، ويغلب أن يصيب، وقد وضح الرسول ذلك بقوله في الحديث الذي رواه رافع بن خديج «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فأنا بشر» وكان الصحابة يفرقون بين محمد النبي ومحمد الإنسان، يتضح ذلك في المثال الذي حدث في غزوة بدر، فإن الرسول اختار مكاناً ليهيء فيه جنده للقتال، فسأله أحدهم: هل هذا الاختيار وحي من الله أو اجتهاد من عندك؟ فأجابه ﷺ: بل هو اجتهاد من عندي، فقال الرجل هناك مكان أصلح من هذا، فانتقل الرسول ﷺ إليه.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

﴿ولا تجادل﴾ اى لا تحاجج ﴿عن الذين يختانون﴾ اى يخونون ﴿أنفسهم﴾ بالمعاصي، والمجادلة مأخوذ من الجدل وهو الفتل، وقيل مأخوذ من الجدالة وهي وجه الأرض لأن كل واحد من الخصمين يريد ان يلقى صاحبه عليها، وسمى ذلك خيانة لأنفسهم لأن ضرر معصيتهم راجع اليهم ﴿إن الله لا يحب﴾ عدم المحبة كناية عن البغض، وإنما قال ﴿من كان خواناً اثيماً﴾ على المبالغة لأنه تعالى علم منه الإفراط في الخيانة وركوب المآثم.

﴿يستخفون من الناس﴾ أي يستترون منه كقوله ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أى مستتر قيل معناه يستحيون من الناس ﴿ولا يستخفون من الله﴾ أى لا يستترون ولا يستحيون منه ﴿وهو﴾ أي والحال أنه ﴿معهم﴾ بالعلم والقدرة في جميع أحوالهم، عالم بما فيه فكيف يستخفون منه، وكفى بذلك زجراً للإنسان عن ارتكاب الذنوب.

وكفى بهده الآية ناعية على ما هم من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم أنهم في حضرته لا سترة ولا غيبة ﴿إذ يبيّتون﴾ أى يدبرون الرأي بينهم، وسماه تبييتاً لأن الغالب أن تكون إدارة الرأي بالليل ﴿ما لا يرضى من القول﴾ أي من الرأي الذي أداروه بينهم وسماه قولاً لأنه لا يحصل إلا بعد المقاولة بينهم ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ عالماً علم احاطة لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده وهو مطلع عليهم، لا تخفى عليه خافية.

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يعني القوم الذين جادلوا عن صاحبهم السارق، قال الزجاج: أولاء بمعنى الذين، والخطاب هنا على طريق الالتفات للإيذان بأنّ تعديد جناياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع ﴿جادلتم﴾ أي خاصمتم ﴿عنهم﴾ وحاججتم، وأصل الجدال شدة الفتل لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يفتل صاحبه عما هو عليه.

﴿في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي فمن يخاصم ويجادل الله عنهم عند تعذيبهم بذنوبهم ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي مجادلاً ومخاصماً، الوكيل في الأصل القائم بتدبير الأمور، والمعنى من ذاك يقوم بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه، ومن يكون محامياً عنهم من بأس الله إذا نزل بهم.

﴿ومن يعمل سوءاً﴾ هذا من تمام القصة السابقة والمراد بالسوء القبيح الذي يسوء به غيره ﴿أو يظلم نفسه﴾ بفعل معصية من المعاصي أو ذنب من الذنوب التي لا تتعدى إلى غيره ﴿ثم يستغفر الله﴾ يطلب منه أن يغفر له ما قارفه من الذنب ﴿يجد الله غفوراً﴾ لذنبه ﴿رحيماً﴾ به وفيه ترغيب لمن وقع منه السرق من بني أبيرق أن يتوب إلى الله ويستغفره وأنه غفور لمن يستغفره رحيم به.

وقال الضحاك: إن هذه الآية نزلت في شأن وحشي قاتل حمزة أشرك بالله وقتل حمزة ثم جاء إلى النبي ﷺ وقال هل لي من توبة فنزلت، وعلى كل

حال فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهي لكل عبد من عباد الله أذنب ذنباً ثم استغفر الله سبحانه.

وعن ابن عباس قال: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ثم استغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال، وعن ابن مسعود من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء ثم استغفر الله غفر له ﴿ومن يعمل سوءاً﴾ الآية ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ الآية.

وقد ورد في قبول الاستغفار وأنه يمحو الذنب أحاديث كثيرة مدونة في كتب السنة، وفي هذه الآية دليل على حكمين.

(أحدهما) أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر.

(والثاني) أن مجرد الاستغفار كاف كما هو ظاهر الآية وقيل: إنه مقيد بالتوبة(١).

(١) روى الامام أحمد في «المسند» ١/ ١٧٤ عن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله تعالى لذلك الذنب إلا غفر له» وقرأ هاتين الآيتين: **﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ﴿والذين إذا فعلوا** فاحشة، أو ظلموا أنفسهم...﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥] ورواه الترمذي: ٢/ ٢٥٧، وابن حبان في «صحيحه» وهو حديث حسن. وقد ذكر في «التهذيب» ١/ ٢٦٨ تحسينه عن ابن عدي.

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

﴿ومن يكسب إثماً﴾ من الآثام بذنب يذنبه وهو إجمال بعد تفصيل ﴿فإنّما يكسبه على نفسه﴾ أي فعاقبته عائده عليه ولا يضر غيره، والكسب ما يجر به الإنسان إلى نفسه نفعاً أو يدفع ضرراً، ولهذا لا يسمى فعل الرب كسباً، قاله القرطبي ﴿وكان الله عليماً﴾ بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبه ﴿حكيماً﴾ لا يعاقب بالذنب غير فاعله ويتجاوز عن التائب ويغفر له ويقبل توبته.

﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ قيل هما بمعنى واحد كرر للتأكيد، وقال الطبري إن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد، وقيل الخطيئة الصغيرة، والإثم الكبيرة، وقيل الأول ذنب بينه وبين ربه والثاني ذنب في مظالم العباد، وقيل الخطيئة هي المختصة بفاعله والإثم المتعدي إلى الغير.

﴿ثمّ يرم به بريئاً﴾ منه، توحيد الضمير لكون العطف بأو، أو لتغليب الإثم على الخطيئة وقيل إنه يرجع إلى الكسب ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ لما كانت الذنوب لازمة لفاعلها كانت كالثقل الذي يحمل، ومثله ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ والبهتان مأخوذ من البهت وهو الكذب على البرىء بما يتبهّت له ويتحير منه.

يقال بهته بهتاً وبهتاناً إذا قال عليه ما لم يقل، ويقال بهت الرجل بالكسر إذا دهش وتحير، وبهت بالضم ومنه ﴿فبهت الذي كفر﴾ والمبين الواضح.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بهذا الفضل والرحمة لرسول الله ﷺ أنه نبهه على الحق في قصة بني أبيرق وقيل المراد بهما العصمة والنبوة ﴿لهمّت طائفة منهم﴾ أي من الجماعة الذين عضدوا بني أبيرق يعني من بني ظفر، وهم قوم طعمة ﴿أن يضلّوك﴾ عن القضاء الحق وتوخّي طريق العدل أو يخطئوك في الحكم ويلبسوا عليك الامر.

﴿وما يضلّون إلا أنفسهم﴾ لأن وبال ذلك عائد عليهم بسبب تعاونهم على الإثم ﴿وما يضرّونك من شيء﴾ لأن الله سبحانه هو عاصمك من الناس، ولأنك عملت بالظاهر فلا ضرر عليك في الحكم به قبل نزول الوحي، ومن زائدة.

﴿وأنزل الله عليك الكتاب﴾ قيل هذا ابتداء كلام وقيل الواو للحال أي وما يضرونك من شيء حال إنزال الله عليك القرآن أو مع إنزال الله ذلك عليك،فالجملة في معنى العلة لما قبله ﴿والحكمة﴾ أي القضاء بها ﴿وعلّمك﴾ أي بالوحي من أحكام الشرع وأمور الدين أو علم الغيب وخفيات الأمور أو من أحوال المنافقين وكيدهم أو من ضمائر القلوب ﴿ما لم تكن تعلم﴾ من الوحي، وقال قتادة: علمه الله بيان الدنيا والآخرة وبين حلاله وحرامه ليحتج بذلك على خلقه وقال الضحاك: علمه الخير والشر.

﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ فيما علمك وأنعم عليك لأنه لا فضل أعظم من النبوة التامة، والرسالة العامة، وفيه تنبيه منه سبحانه لرسوله على ما حباه من ألطافه، وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه،

۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ النجوى السر بين الاثنين أو الجماعة، تقول ناجيت فلاناً مناجاة ونجاء وهم يَتَنجّون ويتناجون ونجوت فلاناً أنجوه نجوى أي ناجيته، فنجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه أي خلصته وأفردته والنجوة من الإرض المرتفع لانفراده بارتفاعه عما حوله، فالنجوى المسارة مصدر، وقد يسمى به الجماعة كما يقال قوم عدل قال الله تعالى ﴿وإذ هم نجوى﴾ وقيل النجوى جمع نجيّ، نقله الكرماني.

وقد قال جماعة من المفسرين:إن النجوى كلام الجماعة المنفردة أو الإثنين سواء كان ذلك سراً أو جهراً، وبه قال الزجاج، والآية عامة في حق جميع الناس كما اختاره البغوي والكواشي كالواحدي وقيل عائد إلى قوم طعمة، والأول أولى.

﴿إلا من أمر بصدقة﴾ أي حث عليها، والظاهر أنها صدقة التطوع وقيل إنها صدقة الفرض والأول أولى، والاستثناء متصل كما اختاره القاضي كالكشاف وقيل منقطع لأن ﴿من﴾ للأشخاص وليست من جنس التناجي فيكون بمعنى لكن في لغة الحجاز.

﴿أو معروف﴾ لفظ عام يشمل جميع أنواع الجميل وفنون أعمال البر، وقال مقاتل: المعروف هنا الفرض، والأول أولى، ومنه الحديث كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وقيل المعروف اغاثة الملهوف والقرض وإعانة المحتاج وأعمال البر كلها معروف لأن العقول تعرفها.

﴿أو إصلاح بين الناس﴾ عطف خاص على عام قاله أبو حيان، وفيه أنه لا يكون بأو، وهو عام في الدماء والأعراض والأموال وفي كل شيء يقع التداعي فيه.

وقد أخرج عبدالله بن حميد والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلام ابن آدم كلّه عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكر الله عز وجل[1]».

قال سفيان الثوري هذا في كتاب الله يعني هذه الآية وقوله تعالى ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ وقوله ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

وقد وردت أحاديث صحيحة في الصمت والتحذير عن آفات اللسان والترغيب في حفظه وفي الحث على الإصلاح بين الناس، ولعل وجه تخصيص هذه الثلاثة بالذكر، أن عمل الخير المتعدي للناس إما إيصال منفعة أو دفع مضرة، والمنفعة إما جسمانية وإليه الإشارة بقوله إلا من أمر بصدقة وإما روحانية وإليه الإشارة بالأمر بالمعروف، ودفع الضرر أشير إليه بقوله أو إصلاح بين الناس قاله أبو السعود.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة، جعل مجرد الأمر بها خيراً ثم رغب في فعلها بقوله هذا لأن فعلها أقرب إلى الله من مجرد الأمر بها إذ خيرية الأمر بها إنما هي لكونه وسيلة إلى فعلها أو أراد ومن يأمر بذلك، فعبر عن الأمر بالفعل لأن الأمر بالفعل أيضاً فعل من الأفعال.

(١) ابن ماجة كتاب الفتن باب ١٢.

﴿إبتغاء مرضات الله﴾ علة للفعل لأن من فعلها لغير ذلك فهو غير مستحق لهذا المدح والجزاء بل قد يكون غير ناج من الوزر، وإنما الأعمال بالنيات ﴿فسوف نؤتيه﴾ في الآخرة إذا فعل ذلك ابتغاء لمرضات الله ﴿أجراً عظيماً﴾ لا حدَّ له ولا يعلم قدره إلا الله.

وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أنس قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله أنزل على القرآن يا أعرابي ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ إلى قوله ﴿عظيماً﴾ يا أعرابي الأجر العظيم الجنة»، قال الأعرابي: الحمد لله الذي هدانا للإسلام.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

﴿ومن يشاقق الرسول﴾ المشاقة المعاداة والمخالفة ﴿من بعد ما تبيّن﴾ أي وضح وظهر ﴿له الهدى﴾ بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المشاقة ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي غير طريقهم وهو ما هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه في الاعتقاد والعمل والقول ﴿نوّله ما تولّى﴾ أي نجعله والياً لما تولاه واختاره من الضلال بأن نخلي بينه وبينه في الدنيا ونتركه وما اختاره لنفسه.

﴿ونصله﴾ أي نلزمه وندخله في الآخرة، وأصله من الصلّى وهو لزوم النار وقت الاستدفاء ﴿جهنم وساءت مصيراً﴾ مرجعاً هي، وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على حجية الإجماع لقوله ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾.

ولا حجة في ذلك عندي لأن المراد بغير سبيل المؤمنين هنا هو الخروج من دين الإسلام إلى غيره كما يفيده اللفظ ويشهد به السبب، فلا يصدق على عالم من علماء هذه الملة الإسلامية اجتهد في بعض مسائل الدين فأداه اجتهاده إلى مخالفة من بعصره من المجتهدين، فإنه إنما رام السلوك في سبيل المؤمنين وهو الدين القويم والملة الحنيفية، ولم يتبع غير سبيلهم.

وقد أخرج الترمذي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله على الجماعة فمن شذَّ شذ في النار»[1] وأخرجه الترمذي والبيهقي أيضاً عن ابن عباس مرفوعاً.

---

(١) الترمذي كتاب الفتن / ٧.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ هذا نص صريح بأن الشرك غير مغفور إذا مات صاحبه عليه لقوله ﴿قل للذين كفروا﴾ الآية ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ أي ما دون الشرك ﴿لمن يشاء﴾ من أهل التوحيد وهذه المشيئة فيمن لم يتب من ذنوبه من الموحدين فإن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي ذهب عن طريق الهدى وحرم الخير كله إذا مات على شركه، لأن الشرك أعظم أنواع الضلال وأبعدها من الصواب والاستقامة، كما أنه افتراء وإثم عظيم ولذلك جعل الجزاء في هذه الشرطية ﴿فقد ضل﴾ وفيما سبق ﴿فقد افترى إثماً عظيماً﴾ حسبما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه.

وفي السمين ختمت الآية المتقدمة بقوله فقد افترى وهذه بقوله فقد ضل لأن الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علم بصحة نبوته وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع، ومع ذلك فقد كابروا في ذلك وافتروا على الله، وهذه في شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم، فناسب وصفهم بالضلال.

وأيضا قد تقدم هنا ذكر الهدى وهو ضد الضلال اهـ.

وقد تقدم تفسير هذه الآية وتكريرها بلفظها في موضعين من هذه السورة للتأكيد وقيل كررت هنا لأجل قصة بني أبيرق، وقيل: إنها نزلت هنا بسبب غير قصة بني أبيرق وهو ما رواه الثعلبي والقرطبي في تفسيريهما عن الضحاك أن

شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا إلا أني لم أشرك بالله شيئاً مذ عرفته وآمنت به، ولم اتخذ من دونه ولياً ولم أوقع المعاصي جرأة على الله ولا مكابرة له وإني لنادم وتائب ومستغفر فما حالي عند الله فأنزل الله تعالى هذه الآية أخرجه الترمذي، عن علي أنه قال ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية قال الترمذي حسن غريب.

﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ تعليل لما قبلها أي ما يدعون من دون الله إلا أصناما لها أسماء مؤنثة كاللات والعزى ومناة قاله أبي بن كعب، وقيل المراد بالإناث الأموات التي لا روح لها كالخشبة والحجر، قاله ابن عباس، قال الزجاج: الموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث تقول هذه الحجر تعجبني، وهذه الدرهم تنفعني وقد يطلق الأنثى على الجمادات.

وقيل المراد بالإناث الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله قال الضحاك: اتخذوهن أرباباً وصوروهن صور الجواري فحلوا وقلدوا وقالوا هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده يعنون الملائكة، وقرىء إلا وثناً بضم الواو والثاء جمع وثن، رويت هذه عن عائشة، وقرأ ابن عباس: إلا أثناً جمع وثن أيضا وقرأ الحسن إلا أنثاً جمع أنيث كغدير وغدر، وحكى الطبري أنه جمع أناث كثمار وثمر.

وعلى جميع هذه القرآت فهذا الكلام خارج مخرج التوبيخ للمشركين والإزراء عليهم، والتضعيف لعقولهم لكونهم عبدوا من دون الله نوعاً ضعيفاً، وقال الحسن: كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونها يسمونها أنثى بني فلان فأنزل الله هذه الآية.

﴿وإن﴾ ما ﴿يدعون﴾ من دون الله ﴿إلا شيطاناً مريداً﴾ وهو إبليس لعنه الله، لأنهم إذا أطاعوه فيما ســوّل لهم فقد عبدوه، وتقدم اشتقاق لفظ الشيطان والمريد المتمرد العاتي من مـرد إذا عتا، قال الأزهري: المريد الخارج عن الطاعة وقد مرد الرجل مروداً إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ومتمرد.

وقال ابن عرفة: هو الذي ظهر شره يقال شجرة مرداء إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها، ومنه قيل للرجل أمرد أي ظاهر مكان الشعر من عارضيه، وقال ابن عباس: لكل صنم شيطان يدخل في جوفه ويتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم والأول أولى.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

﴿لعنه الله﴾ قيل مستأنفة وقيل دعاء عليه، أصل اللعن الطرد والابعاد، وقد تقدم تفسيره وهو في العرف إبعاد مقترن بسخط ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ معطوف على قوله لعنه الله والجملتان صفة لشيطان أي شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله له وبين هذا القول الشنيع، أو حال على إضمار قد أي وقد قال، أو استئناف، ولأتخذن جواب قسم محذوف، والنصيب المفروض هو المقطوع المقدر أي لأجعلن قطعة مقدرة من عباد الله تحت غوايتي وفي جانب إضلالي حتى أخرجهم من عبادة الله إلى الكفر به.

عن مقاتل بن حيان قال هذا إبليس يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، وعن الربيع بن أنس مثله.

قلت: وهذا صحيح معنى ويعضد، قوله تعالى لآدم يوم القيامة أخرج من ذريتك بعث النار فيقول يا رب وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى أخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعند ذلك تشيب الأطفال من شدة الهول، أخرجه مسلم.

فنصيب الشيطان هو بعث النار، والمعنى لأتخذن منهم حظاً مقدراً معلوماً فكل ما أطيع فيه إبليس فهو نصيبه ومفروضه، وأصل الفرض القطع، وهذا النصيب هم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه.

﴿ولأضلّنهم﴾ اللام جواب قسم محذوف، والإضلال الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية والمراد به التزيين والوسوسة وإلا فليس إليـه من الإضلال شيء، قال بعضهم لو كان الإضلال إلى إبليس لأضـلّ جميع الخلق وهكذا اللام في قوله ﴿ولأمنّينهم﴾ والمراد بالأماني التي يمنيهم بها الشيطان هي الأمانيّ الباطلة الناشئة عن تسويله ووسوسته قال ابن عباس يريد تسويف التوبة وتأخيره.

قال الكلبي: أمنيهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث، وقيل إدراك الجنة مع المعاصي وقيل أُزيّن لهم ركوب الأهواء والأهوال الداعية إلى العصيان وقيل طول البقاء في الدنيا ونعيمها ليؤثروها على الآخرة، ولا مانع من حمل اللفظ على الجميع.

﴿ولآمرنّهم فليبتكنّ آذان الأنعام﴾ أي ولآمـرنهم بتبتيـك آذانها أي تقطيعها فليبتكنها بموجب أمري والبتك القطع ومنه سيف باتك يقال بتكة وبتكة مخففاً ومشدداً، وقد فعل الكفار ذلك امتثالاً لأمر الشيطان واتباعاً لرسمه فشقوا آذان البحائر والسوائب[1] كما ذلك معروف، قال قتادة: التبتيك في البحيرة والسائبة يبتكون آذانها لـطواغيتهم ﴿ولآمـرنّهم فليغيرنّ خلق الله﴾ بموجب أمري لهم.

واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو فقالت طائفة: هو الخصي وفقء العين وقطع الأذن، وقال آخرون: إن المراد هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة وبه قال الزجاج، وقيل المراد تغيير الفطرة التي فطر الله

(١) البحيرة هي الناقة تشق أذنها وتخلى للطواغيت إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر والسائبة هي الناقة تسيب للأصنام لنحو برء من مرض أو نجاة في حرب.

الناس عليها وقيل نفي الانساب واستلحاقها أو بتغير الشيب بالسواد أو بالتحريم والتحليل أو بالتخنث أو بتغيير دين الإسلام، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملاً شمولياً أو بدلياً.

وقد رخص طائفة من العلماء في خصي البهائم إذا قصد بذلك زيادة الانتفاع به لسمن أو غيره، وكره ذلك آخرون وأما خصي بني آدم فحرام، وقد كره قوم شراء الخصي، قال القرطبي: لم يختلفوا أن خصي بني آدم لا يحل ولا يجوز وأنه مثلة، وتغيير لخلق الله، وكذلك قطع سائر أعضائهم في غير حد ولا قود قاله أبو عمرو بن عبد البر.

أخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن عمر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن خصي البهائم والخيل، وأخرج ابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس قال نهى ﷺ عن صبر الروح وإخصاء البهائم.

وعن ابن عباس فليغيرنّ خلق الله قال دين الله، وعن الضحاك وسعيد ابن جبير مثله، وعن الحسن قال الوشم ووصل الشعر، وهذه الجمل الخمسة المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالاً أو حالاً، وما فيها من اللامات الخمس للقسم كما تقدم.

﴿ومن يتخذ الشيطان وليّاً من دون الله﴾ باتباعه وامتثال ما يأمر به وإيثار ما يدعو اليه من دون اتباع لما أمر الله به ولا امتثال له، وقيل الولي من الموالاة وهو الناصر ﴿فقد خسر﴾ بتضييع رأس ماله الفطري ﴿خسراناً مبيناً﴾ أي واضحاً ظاهراً لان طاعة الشيطان توصله إلى نار جهنم المؤبدة عليه وهي غاية الخسران.

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

﴿يعدهم﴾ المواعيد الباطلة كطول العمر ﴿ويمنّيهم﴾ الاماني العاطلة في الدنيا، عطف خاص للاهتمام، ﴿وما يعدهم الشيطان﴾ أي بما يوقعه في خواطرهم من الوساوس الفارغة ﴿إلا غروراً﴾ يغرهم به ويظهر لهم فيه النفع وهو ضرر محض، قال ابن عرفه: الغرور ما رأيت له ظاهراً تحبه وله باطن مكروه وهذه الجملة اعتراضية.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى أولياء الشيطان بمراعاة معنى (من) وهذا مبتدأ وقوله ﴿مأواهم﴾ مبتدأ ثان وقوله ﴿جهنم﴾ خبر للثاني والجملة خبر للأول ﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾ أي معدلاً من حاص يحيص، وقيل منجًى ومخلصاً ومحيداً ومهرباً وقيل الحيص هو الروغان بنفور والمحيص اسم مكان أو مصدر.

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بيان لوعد الله المؤمنين عقب بيان وعد الشيطان للكافرين ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت المساكن والغرف ﴿خالدين فيها أبداً﴾ بلا انتهاء ولا غاية، والأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا انقطاع له.

﴿وعد الله حقاً﴾ قال في الكشاف مصدران الأول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره، ووجهه أن الأول مؤكد لمضمون الجملة الاسمية ومضمونها وعد، والثاني مؤكد لغيره أي حق ذلك حقاً ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ هذه الجملة مؤكده لما قبلها، والقيل مصدر قال كالقول والقال والاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أصدق قولاً من الله عز وجل، وقيل إن قيلاً اسم لا مصدر، وانه منتصب على التمييز قاله ابن السكيت.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾

﴿ليس﴾ دخول الجنة أو الفضل أو القرب من الله أو الأمر منوطاً ﴿بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾ بل بالعمل الصالح والإيمان كما يدل على ذلك سبب نزول الآية، وقيل الضمير يعود إلى ما وعد الله وهو بعيد، ومن أماني أهل الكتاب قولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وقولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾.

وعن مسروق قال: تفاخر النصارى وأهل الإسلام فقال هؤلاء نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء نحن أفضل منكم، فنزلت، وقد ورد معنى هذه الرواية من طرق كثيرة مختصرة ومطولة، والأماني جمع أمنية أفعولة من التمنية، والتمني تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها والأمنية هي الصورة الحاصلة في النفس، وقيل الخطاب للمسلمين ولليهود والنصارى وقيل لمشركي مكة في قولهم لا نبعث ولا نحاسب.

﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ قال الحسن: هذا في حق الكفار، ولا وجه له، وقال ابن عباس: هي عامة في كل من عمل سوءاً.

وفي هذه الجملة ما ترجف له القلوب من الوعيد الشديد وقد كان لها في صدور المسلمين عند نزولها موقع عظيم كما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال لما نزلت ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم

كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها[1].

أخرج عبد بن حميد والترمذي وابن المنذر عن أبي بكر الصديق أن النبي ﷺ قال له لما نزلت هذه الآية: أما أنت وأصحابك يا أبا بكر فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة[2].

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهمّ يهمّه إلا كفّر الله به من سيآته[3] وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة ﴿ولا يجد له من دون الله﴾ أي غيره ﴿ولياً﴾ يحفظه ﴿ولا نصيراً﴾ يمنعه منه.

﴿ومن يعمل مِنَ﴾ من للتبعيض أي بعض ﴿الصالحات﴾ وهي الفرائض قاله ابن عباس، وقال الطبري من زائدة عند قوم وهو ضعيف لأن المكلف لا يطيق عمل كل الصالحات، حالَ كونه ﴿من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي حال كونه مؤمناً، والحال الأولى لبيان من يعمل، والحال الأخرى لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح، وفيه إشارة إلى أن الأعمال ليست من الإيمان.

﴿فأولئك﴾ إشارة إلى العامل المتصف بالإيمان، قرىء ﴿يدخلون الجنة﴾ على البناء للمجهول وللمعلوم والجمع باعتبار معنى (من) كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿ولا يظلمون نقيراً﴾ أي قدر النقير وهو النقرة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة، وهذا على سبيل المبالغة في نفي الظلم ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان، كيف والمجازي أرحم الراحمين.

(١) مسلم ٢٥٧٤.

(٢) ضعيف الجامع ١٣٣٥.

(٣) مسلم ٢٥٧٣ والبخاري ٢٢٣٥.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

﴿ومن﴾ أي لا أحد فهو استفهام انكاري ﴿أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ أي أخلص نفسه له حال كونه محسناً أي عاملاً للحسنات، وقيل معنى أسلم فوض أمره إلى الله، وقال ابن عباس: هو محسن يريد هو موحد لله عز وجل لا يشرك به شيئاً، وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء فإذا انقاد لله فقد انقاد له جميع الأعضاء لأنها تابعة له.

﴿واتبع ملة ابراهيم حنيفاً﴾ أي اتبع دين ابراهيم حال كون المتبع مائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الحق وهو الإسلام، وخص إبراهيم للاتفاق على مدحه حتى من اليهود والنصارى ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي جعله صفوة له وخصه بكراماته، وفيه اظهار في مقام الإضمار لتفخيم شأنه، والتنصيص على أنه متفق على مدحه.

وفائدة هذه الجملة تأكيد وجوب اتباع ملته لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً كان جديراً بأن يتبع ملته، قال ثعلب إنما سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته، وخليل فعيل بمعنى فاعل كالعليم بمعنى العالم، وقيل هو بمعنى المفعول كالحبيب بمعنى المحبوب، وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوباً لله ومحباً له، وقيل الخليل من الاختصاص، فالله سبحانه اختص إبراهيم برسالته في ذلك الوقت واختاره لها، واختار هذا النحاس.

قال الزجاج: معنى الخليل الذي ليس في محبته خلل، أخرج الحاكم

وصححه عن جندب أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول قبل أن يتوفى: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً[١]» وأخرج الحاكم أيضا وصححه عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم[٢]، وفي تعريف الخلة والسبب الذي من أجله اتخذ الله إبراهيم خليلاً أقوال ذكرها أهل التفسير[٣].

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، فيه إشارة إلى أنه سبحانه اتخذ إبراهيم خليلاً لطاعته لا لحاجته ولا للتكثر به والاعتضاد بمخاللته، وإنما قال ﴿ما﴾ ولم يقل (من) لأنه ذهب به مذهب الجنس والذي يعقل إذا ذكر وأريد به الجنس ذكر بلفظ ﴿ما﴾ قيل مستأنفة لتقرير وجوب طاعة الله وقيل لبيان أن الخلة لا تخرج إبراهيم عن رتبة العبودية.

﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ هذه الجملة مقررة لمعنى الجملة التي قبلها أي أحاط بكل شيء علماً وقدرة لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

---

(١) المستدرك ٢/ ٥٥٠.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٦٩.

(٣) روى عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «يا جبريل لم أتخذ الله ابراهيم خليلاً؟ قال: «لاطعامه الطعام» ـ رواه السيوطي في الدر ٢/ ٢٣٠ ونسبه للبيهقي في شعب الايمان.
وفي رواية ان الناس اصابتهم سنة فأقبلوا الى باب ابراهيم عليه السلام يطلبون الطعام، وكانت له ميرة من صديق له بمصر في كل سنة.
فبعث غلمانه بالابل الى صديقه فلم يعطهم شيئاً، فقالوا: لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس انا قد جئنا بميرة فملؤوا الغرائر رملاً، ثم اتوا ابراهيم عليه السلام فاعلموه، فاهتم ابراهيم لأجل الخلق، فنام وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان ففتحت الغرائر فاذا دقيق حواري فامرت الخبازين فخبزوا، واطعموا الناس، فاستيقظ ابراهيم فقال من اين هذا الطعام فقالت: من عند خليلك المصري فقال: لا بل من عند خليلي الله عز وجل فيومئذ أتخذ الله خليلاً انتهى. قال ابن كثير وفي صحيحه هذا ووقوعه نظر وغايته ان يكون خبراً اسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي
ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن
تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ
وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

﴿ويستفتونك﴾ يطلبون منك الفتوى وهي بالواو فتفتح الفاء، وبالياء فتضم وهي اسم من أفتى العالم إذا بين الحكم واستفتيته سألته أن يفتي، والجمع الفتاوى بكسر الواو على الأصل، وقيل يجوز الفتح للتخفيف.

﴿في﴾ شأن ﴿النساء﴾ وميراثهن ﴿قل﴾ لهم ﴿الله يفتيكم فيهن﴾ سبب نزول هذه الآية سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث وغيره فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم إن الله يبين لكم حكم ما سألتم عنه.

وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء وكان قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل لهم ﴿الله يفتيكم﴾ قال مجاهد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئاً، كانوا يقولون لا يغزون ولا يغنمون خيراً ففرض الله لهن الميراث حقاً واجباً.

وعن ابراهيم قال: كانوا إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحبسوها من التزويج حتى تموت فيرثونها فأنزل الله هذا.

﴿وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ أي القرآن الذي يتلى عليكم يفتيكم فيهن، والمتلو في الكتاب في معنى اليتامى قوله تعالى ﴿وان خفتم ألا تقسطوا

في اليتامى﴾ وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، والغرض منه تعظيم حال هذه الآية التي تتلى عليكم، وأنها في اللوح المحفوظ وأن العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من أعظم الأمور عند الله التي تجب مراعاتها وأن المخل بها ظالم.

﴿في يتامى النساء﴾ فيه خمسة أوجه (أحدها) أنه بدل من ﴿في الكتاب﴾ وهو بدل اشتمال ولا بد من حذف مضاف أي في حكم يتامى (الثاني) أن يتعلق بيتلى قاله أبو البقاء (الثالث) أنه بدل من فيهن بإعادة العامل (الرابع) أن يتعلق بنفس الكتاب أي فيما كتب في حكم اليتامى (الخامس) أنه حال أي كائناً في حكم يتامى والإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف إذ الأصل في النساء اليتامى.

﴿اللاتي لا تؤتونهنّ ما كتب﴾ أي فرض ﴿لهن﴾ من الميراث وقيل من الصداق وغيره وذلك لأنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء، والكبار دون الصغار ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ بجمالهن ومالهن بتقدير (في) أولعدم جمالهن ودمامتهن بتقدير عن، والآية محتملة للوجهين ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ عطف على قوله ﴿يتامى النساء﴾ وما يتلى في حقهن هو قوله ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية.

وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا من كان مستضعفاً من الولدان كما سلف، وإنما يورثون الرجال القائمين بالقتال وسائر الأمور.

﴿و﴾ يأمركم ﴿أن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي العدل في مهورهن ومواريثهن ﴿وما تفعلوا من خير﴾ في حقوق المذكورين أو من شر ففيه اكتفاء ﴿فإن الله كان به عليماً﴾ يجازيكم بحسب فعلكم من خير وشر.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وإن امرأة﴾ مرفوع بفعل يفسره ﴿خافت﴾ أي توقعت ما يخاف من زوجها وقيل معناه تيقنت، وهو خطأ ﴿من بعلها﴾ أي زوجها، والبعل هو السيد ﴿نشوزاً﴾ دوام النشوز قاله الزجاج يعني ترفعاً عليها بترك مضاجعتها والتقصير في نفقتها لبغضها وطموح عينه إلى أجمل منها ﴿أو إعراضاً﴾ عنها بوجهه، قال النحاس: الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز التباعد، والإعراض أن لا يكلمها ولا يأنس بها.

﴿فلا جناح عليهما﴾ أي لا حرج ولا إثم على الزوج والمرأة قال أبو السعود: الجناح عن الزوج ظاهر لأنه يأخذ شيئاً من قبلها، والأخذ مظنة الجناح، ومظنة أن يكون من قبيل الرشوة المحرمة،وأما نفي الجناح عنها مع أن الذي هو من قبلها هو الدفع لا الأخذ فلبيان أن الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والآخذ اهـ.

﴿أن يصلحا﴾ من المصالحة على قراءة الجمهور وظاهر الآية أنها تجوز المصالحة عند مخافة أي نشوز أو أي إعراض، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وظاهرها أنه يجوز التصالح بأي نوع من أنواعه إما بإسقاط التوبة أو بعضها أو بعض النفقة أو بعض المهر.

وقرأ الكوفيون ﴿أن يصلحا﴾ من الإصلاح والأول أولى لأن قاعدة العرب أن الفعل إذا كان بين اثنين فصاعداً قيل تصالح الرجلان أو القوم لا أصلح.

﴿بينهما صلحا﴾ أي في القسمة والنفقة، قال ابن عباس: فإن صالحته على بعض حقها جاز وإن أنكرت ذلك بعد الصلح كان ذلك لها، ولها حقها ﴿والصلح﴾ لفظ عـام يقتضي أن الصلح الـذي تسكن اليـه النفـوس ويـزول بـه الخلاف ﴿خير﴾ على الإطلاق أو خير من الفرقة أو من الخصومة أو من النشوز والإعراض، وهذه الجملة اعتراضية قاله الزمخشري، واللام في الصلح للجنس أو للعهد.

قد أخرج الترمذي وحسّنه وابن المنذر والطبراني والبيهقي عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية[1]، قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وأخرج أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة أن سبب نزول الآية هو قصة سودة المذكورة، وأخرج البخاري وغيره عنها في الآية قالت: الرجل يكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول أجعلك من شأني في حِلّ فنزلت هذه الآية، وقد ورد عن جماعة من الصحابة نحو هذا.

وثبت في الصحيحين من حديث عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم لها بيوم سودة.

﴿وأحضرت الأنفس الشحّ﴾ أي شدة البخل، وهذا إخبار منه سبحانه بأن الشح في كل واحد منهما بل في كل الأنفس الإنسانية كائن، وأنه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال، وأن ذلك بحكم الجِبلّة والطبيعة فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحو

---

(١) زاد المسير ٢١٧/٢٩٣/٤.

ذلك، والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج فلا تترك له شيئاً منها، وشح الأنفس بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله لوجه من الوجوه، ومنه ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ عن ابن عباس: هواه في الشيء يحرص عليه والشح أقبح البخل وحقيقته الحرص على منع الخير.

﴿وإن تحسنوا﴾ أيها الأزواج الصحبة والعشرة ﴿وتتقوا﴾ ما لا يجوز من النشوز والإعراض في حق المرأة فإنها أمانة عندكم، وقيل المعنى إن تحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتقوا ظلمها والجور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازيكم الله يا معشر الأزواج بما تستحقونه.

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء[1]﴾ أخبر سبحانه بنفي استطاعتهم للعدل بين النساء على الوجه الذي لا ميل فيه ألبتّة لما جبلت عليه الطباع البشرية من ميل النفس إلى هذه دون هذه، وزيادة هذه في المحبة ونقصان هذه، وذلك بحكم الخلقة بحيث لا يملكون قلوبهم ولا يستطيعون توقيف أنفسهم على التسوية، ولهذا كان يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم اللهم: هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك[2]، رواه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن المنذر عن عائشة وإسناده صحيح.

قال ابن مسعود: العدل بين النساء الجماع، وقال الحسن: الحب وكذا المحادثة والمجالسة والنظر إليهن والتمتّع ﴿ولو حرصتم﴾ يعني على العدل والتسوية بينهن في الحب وميل القلب.

---

(١) يظن بعض الناس أن هذه الآية تمنع تعدد الزوجات وفاته أن آخرها صريح في الإباحة حيث تقول (فلا تميلوا كل الميل) فهذا لا يقال لصاحب الزوجة الواحدة وتضم إلى هذا أن من الثابت أن بعض الصحابة كانوا يتزوجون أكثر من واحدة وقصة حفصة بنت عمر معروفة وهي أنها لما مات زوجها عرضها عمر على عثمان وعمر كان يعلم أن عثمان متزوج.

(٢) وكذلك يأخذ بعضهم على الإسلام أنه يبيح الزوجات ويظن أنه بذلك يدافع عن المرأة وأن التعدد ضار بها وقد قرأنا كلمة للأستاذ العقاد جاء فيها (والأمر الذي يغفل عنه الكثيرون أن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام إنما هو في حقيقته رخصة للمرأة التي تريده باختيارها، وليس رخصة للرجل إذا أراد فمهما يكن من إرادة الرجل فهو لا يستطيع البناء بامرأة واحدة لا تختاره فضلاً عن الجمع بين امرأتين أو أربع على هواه وإذا كان قبول المرأة شرطاً واجباً لصحة كل زواج فالرخصة إذاً في مصلحة المرأة التي تختاره وترى من أحوالها في الأسرة أنها هي الرابحة في هذا الاختيار.

﴿فلا تميلوا كلّ الميل﴾ إلى التي تحبونها في القسم والنفقة، ولما كانوا لا يستطيعون ذلك ولو حرصوا عليه وبالغوا فيه نهاهم عز وجل عن أن يميلوا كل الميل، لأن ترك ذلك وتجنّب الجور كل الجور في وسعهم وداخل تحت طاقتهم، فلا يجوز لهم أن يميلوا عن إحداهن إلى الأخرى كل الميل.

﴿فتذروها﴾ أي الأخرى الممال عنها ﴿كالمعلّقة﴾ التي ليست ذات زوج ولا مطلقة تشبيهاً بالشيء الذي هو معلق غير مستقر على شيء لا في السماء ولا في الأرض، أي لا أيِّماً ولا ذات زوج، وقرأ أبي بن كعب فتذروها كالمسجونة لا هي مخلّصة فتتزوج، ولا هي ذات بعل فيحسن إليها.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأهل السنن عن أُبَيّ هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط(١).

﴿وإن تصلحوا﴾ ما أفسدتم من الأمور التي تركتم ما يجب عليكم فيها من عشرة النساء والعدل بينهن في القسم والحب ﴿وتتقوا﴾ الجور في القسم وكل الميل الذي نهيتم عنه ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ بكم لا يؤاخذكم بما فرط منكم من الميل إلى بعضهن دون بعض.

= ولقد عرفنا نحن كما عرف غيرنا أحوالاً غير نادرة كانت المرأة توازن فيها بين جميع الاعتبارات فتخرج من هذه الموازنة بتفضيل تعدد الزوجات على ما عداه).

(١) صحيح الجامع ٦٣٩١ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٧٧ . أبو داود كتاب النكاح ٣٨ ـ النسائي كتاب النساء باب ٢ .

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

﴿وإن يتفرّقا﴾ أي لم يتصالحا بل فارق كل واحد منهما صاحبه بالطلاق ﴿يغن الله كلاًّ﴾ منهما أي يجعله مستغنياً عن الآخر بأن يهيء للرجل امرأة توافقه وتقر بها عينه، والمرأة رجلاً تغتبط بصحبته ويرزقهما ﴿من سعته﴾ رزقاً يغنيهما به عن الحاجة، وفي هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ واسع الفضل والرحمة، وقيل القدرة والعلم والرزق صادرة أفعاله على جهة الإحكام والإتقان.

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ هذه جملة مستأنفة لتقرير كمال سعته سبحانه وشمول قدرته لأن من ملكهما لا تفنى خزائنه ﴿ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب﴾ أي أمرناهم فيما أنزلناه عليهم من الكتب، واللام في الكتاب للجنس ﴿من قبلكم﴾ من اليهود والنصارى وأصحاب الكتب القديمة ﴿وإيّاكم﴾ يا أهل القرآن في كتابكم ﴿أن اتقوا الله﴾ أي أمرناهم وأمرناكم بالتقوى، وقال الأخفش بأن اتقوا الله.

ويجوز أن تكون أن مفسرة لأن التوصية في معنى القول وهو أن توحدوه وتطيعوه وتحذروه وتخافوه ولا تخالفوا أمره، والمعنى أن الأمر بتقوى الله شريعة قديمة أوصى الله بها جميع الأمم السالفة في كتبهم على ألسن رسلهم.

﴿وإن تكفروا﴾ أي وقلنا لهم ولكم إن تكفروا وتجاحدوا ما أوصاكم به ﴿فإنّ لله ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً فلا يضره كفركم، وفائدة هذا التكرير التأكيد ليتنبه العباد على سعة ملكه وينظروا في ذلك ويعلموا أنه غني عن خلقه ﴿وكان الله غنياً﴾ عن جميع خلقه ﴿حميداً﴾ مستحمداً إليهم قاله ابن عباس، وعن علي مثله.

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي عبيداً وملكاً قيل تكريرها تعديد لما هو موجب تقواه لأن التقوى والخشية أصل كل خير، وقيل كلام مبتدأ سيق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت القول المحكي ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي حفيظاً قاله قتادة، وقال ابن عباس شهيداً على أن له فيهن عبيداً وقيل دافعاً ومجيراً.

﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي يفنكم ﴿أيها الناس﴾ ويستأصلكم بالمرة، قال ابن عباس: يريد المشركين والمنافقين ﴿ويأت﴾ أي يوجد دفعة مكانكم ﴿بآخرين﴾ أي بقوم آخرين من البشر، أو خلقاً مكان الإنس غيركم هم خير منكم، وهو كقوله تعالى ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ ﴿وكان الله على ذلك﴾ أي على أن يهلك من خلقه ما شاء ويأتي بآخرين من بعدهم ﴿قديراً﴾ لا يمتنع عليه شيء أراده ولم يزل ولا يزال موصوفاً بالقدرة على جميع الاشياء[1].

(١) قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم اذا عصيتموه، كما قال: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨] وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ هو من يطلب بعمله شيئاً من الدنيا كالمجاهد يطلب الغنيمة دون الأجر ﴿فعند الله﴾ أي فما باله يقتصر على أدنى الثوابين وأحقر الأجرين وهلاّ طلب بعمله ما عند الله سبحانه وهو ﴿ثواب الدنيا والآخرة﴾ فيحرزهما جميعاً ويفوز بهما، ظاهر الآية العموم، وقال ابن جرير الطبري: إنها خاصة بالمشركين والمنافقين ﴿وكان الله سميعاً﴾ أي يسمع ما يقولونه ﴿بصيراً﴾ أي يبصر ما يفعلونه، وهذا تذييل بمعنى التوبيخ.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين﴾ صيغة مبالغة أي ليتكرر ويدم منكم القيام ﴿بالقسط﴾ وهو العدل في شهادتكم وفي جميع أموركم، ومن عدل مرة أو مرتين لا يكون في الحقيقة قوّاماً ﴿شهداء﴾ بالحق، وقيل بالوحدانية جمع شهيد قياساً أو شاهد على غير قياس وهو خبر بعد خبر لكان أو حال، قال ابن عطية: والحال فيه ضعيفة في المعنى لأنها تخصيص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط والأول أولى، و ﴿لله﴾ أي لمرضاته وثوابه.

﴿ولو على أنفسكم﴾ متعلّق بشهداء، هذا المعنى هو الظاهر من الآية وهو الإقرار بما عليكم من الحقوق ﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أي من ذوي رحمه وأقاربه، فأما شهادته على والديه فبأن يشهد عليهما بحق للغير، وكذلك الشهادة على الأقربين، وذكر الأبوين لوجوب بِرّهما وكونهما أحب الخلق إليه،

ثم ذكر الأقربين لأنهم مظنة المودة والتعصب، فإذا شهدوا على هؤلاء بما عليهم فالأجنبي من الناس أحرى أن يشهدوا عليه، وقد قيل: إن معنى الشهادة على النفس أن يشهد بحق على من يخشى لحوق ضرر منه على نفسه، وهو بعيد.

﴿إن يكن﴾ المشهود عليه من الأقارب أو الأجانب﴿غنيّـا﴾ فلا يراعى لأجل غنائه استجلاباً لنفعه أو استدفاعاً لضره فتترك الشهادة عليه ﴿أو فقيراً﴾ فلا يراعى لفقره رحمة له واشفاقاً عليه فتترك الشهادة عليه،وقرأ ابن مسعود: إن يكن غني أو فقير على إن كان تامة، وإنما قال ﴿فالله أولى بهما﴾ ولم يقل به مع أن التخيير إنما يدل على الحصول لواحد لأن المعنى فالله أولى بكل واحد منهما.

وقيل رد الضمير إلى المعنى دون اللفظ، وقال الأخفش: تكون أو بمعنى الواو،وقيـل: إنـه يجوز ذلك مع تقدم ذكرهما كما في قوله تعالى ﴿وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾ وقد تقدم في مثل هذا ما هو أبسط مما هنا، وقرأ أُبَيّ فالله أولى بهم.

﴿فلا تتّبعـوا الهوى﴾ في الشهادة ﴿أن تعدلوا﴾ إما من العدل كأنه قال: فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس، واختاره الـزمخشري او من العدول واختاره القاضي كأنه قال: فلا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا عنه.

﴿وإن تلووا﴾ من الـلَّي يقال لويت فلاناً حقه إذا دفعت عنه والمراد لي الشهادة ميلًا إلى المشهود عليه، وقرأ الكوفيون وان تلوا من الولاية أي وإن تلوا الشهادة وتتركوا ما يجب عليكم من تأديتها على وجه الحق، وقد قيل ان هذه القراءة تفيد معنيين الولاية والإعراض، والقراءة الأولى تفيد معنى واحداً، وهو الإعـراض.

وزعم بعض النحويين أن القراءة الثانية غلط ولحن لأنه لا معنى للولاية هنا، قال النحاس: وغيره وليس يلزم هذا ولكن يكون تلوا بمعنى تلووا، والمعنى ما قال ابن عباس: يلوي لسانه بغير الحق ولا يقيم الشهادة على وجهها.

﴿أو تعرضوا﴾ عن تأدية الشهادة من الأصل، وقيل معناه التحريف والتبديل في الشهادة، وقيل هو خطاب مع الحكام أن يميلوا مع أحد الخصمين أو يعرضوا عنه بالكلية ﴿فإنّ الله كان بما تعملون﴾ من اللَّيّ والاعراض أو من كل عمل ﴿خبيراً﴾ وفي هذا وعيد شديد لمن لم يأت بالشهادة كما يجب عليه.

وقد روي أن هذه الآية تعم القاضي والشهود أما الشهود فظاهر، وأما القاضي فذلك بأن يعرض عن أحد الخصمين أو يلوي عن الكلام معه، وقيل هي خاصة باليهود، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يقولوا بالحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم لا يهابون غنياً لغنائه ولا يرحمون مسكيناً لمسكنته، وقال الرجلان يجلسان عند القاضي فيكون لَيُّ القاضي واعراضه لأحد الرجلين على الآخر[1].

---

(١) وروى ابن جرير ٩/٤٠٣ عن السدي «ان فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان (ميله) مع الفقير، يرى ان الفقير لا يظلم الغني فنزلت هذه الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾﴾

﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾ خطاب لكافة المسلمين، وذكر ذلك عقب الأمر بالعدل لأنه لا يكون العدل إلا بعد الاتصاف بالإيمان، فهو من ذكر السبب بعد المسبب ﴿آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ أي اثبتوا على إيمانكم وداوموا عليه، على حد، فاعلم أنه لا إله إلا الله، ويا أيها النبي اتق الله، والكتاب هو القرآن واللام للعهد، والكتاب الثاني هو كل كتاب واللام للجنس.

وقيل: إن الآية نزلت في المنافقين، والمعنى يا أيها الذين آمنوا في الظاهر أخلصوا لله، وقيل نزلت في المشركين، والمعنى يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله، وهما ضعيفان.

﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر﴾ أي بشيء من ذلك كما جرى عليه القاضي كالكشاف، وذكر الرسول فيما سبق لذكر الكتاب الذي أنزل عليه، وذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة فناسبه ذكر الرسل جملة، وجمع أيضا لما أن الكفر بكتاب أو رسول كفر بالكل، قاله الكرخي.

وتقديم الملائكة على الرسل لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله، قال الضحاك: يعني بذلك أهل الكتاب كان الله قد أخذ ميثاقهم في التوراة والانجيل وأقروا على أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، فلما بعث الله رسوله

دعاهم إلى أن يؤمنوا بمحمد والقرآن، وذكرهم الذي أخذ عليهم من الميثاق فمنهم من صدق النبي ﷺ واتبعه ومنهم من كفر.

﴿فقد ضلّ﴾ عن القصد لأن الكفر ببعضه كفر بكله ﴿ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق بحيث يعسر العود منه إلى سواء الطريق، وقول القاضي: بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه، لا يصح إلا إذا كانت الآية في جمع مخصوص علم الله منهم أنهم يموتون على الكفر ولا يتوبون عنه.

والظاهر أنه لا يحتاج إلى هذه المبالغة بل المراد ما أشرنا إليه لأن الذين يكفرون بما ذكر قد يسلم بعضهم، وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً، وجمع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو رسول كفر بالكل.

﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً﴾ أخبر الله سبحانه عن هذه الطائفة التي آمنت ثم كفرت ثم آمنت ثم كفرت ثم ازدادت كفراً بعد ذلك كله أنه ﴿لم يكن الله﴾ سبحانه ﴿ليغفر لهم﴾ ذنوبهم ما أقاموا عليه ﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾ طريقاً يتوصلون به إلى الحق ويسلكونه إلى الخير لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله ويؤمنوا إيماناً صحيحاً لأن قلوبهم قد تعودت الكفر وتمرنت على الردة، وكان الإيمان عندهم أهون شيء وأدونه، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم.

وفي هذا إشارة إلى أن الكفر بعد التوبة مغفور ولو بعد ألف مرة كما قاله الأصفهاني وغيره، وهذا الاضطراب منهم تارة يدَّعون أنهم مؤمنون، وتارة يمرقون من الإيمان ويرجعون إلى ما هو دأبهم وشأنهم من الكفر المستمر والجحود الدائم، يدل أبلغ دلالة على أنهم متلاعبون بالدين ليست لهم نية صحيحة ولا قصد خالص.

قيل المراد بهؤلاء اليهود، فإنهم آمنوا بموسى والتوراة ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم آمنوا به عند عوده إليهم، ثم كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن، والمراد بازدياد الكفر أنهم استمروا على ذلك كما هو الظاهر من حالهم، وإلا فالكافر إذا آمن وأخلص إيمانه وأقلع عن الكفر فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة، والإسلام يجب ما قبله، ولكن لما كان هذا مستبعداً منهم جداً كان غفران ذنوبهم وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعداً[1].

وعن قتادة قال: هم اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعن ابن زيد قال: هؤلاء المنافقون آمنوا مرتين ثم كفروا مرتين ثم ازدادوا كفراً بعد ذلك بموتهم على الكفر، وذلك لأن من تكرر منه الإيمان والكفر بعد الإيمان مرات كثيرة دل على أنه لا وقع للإيمان في قلبه، ومن كان كذلك لا يكون مؤمناً بالله إيماناً كاملاً صحيحاً وازديادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالإيمان.

قال علي: لا تقبل توبته أي توبة مثل هذا المتلاعب، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن توبته مقبولة، وظاهر القرآن مع علي.

---

(١) قال ابن الجوزي: أنها في اليهود آمنوا بموسى، ثم كفروا بعد موسى، ثم آمنوا **بعُزيْر**، ثم كفروا بعده بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، هذا قول ابن عباس. وروى عن قتادة قال: آمنوا بموسى، ثم كفروا بعبادة العجل، ثم آمنوا به بعد عوده، ثم كفروا بعده بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بمحمد.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

﴿بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ مؤلماً هو عذاب النار، إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم، تهكّم بهم، وقد مر تحقيقه، وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه ساراً كان ذلك الخبر أو غير سار، والأول أولى وقيل المعنى: إجعل موضع بشارتك لهم العذاب لأن العرب تقول تحيتك الضرب أي هذا يدل من تحيتك.

﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء﴾ وصف للمنافقين أو منصوب على الذم أي يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم ويمالؤونهم على ضلالهم ﴿من دون المنافقين﴾ حال من فاعل يتخذون أي يتخذون الكفرة متجاوزين ولاية المؤمنين لما يتوهمون فيهم من القوة، ولقولهم إن ملك محمد سيزول.

﴿أيبتغون عندهم العزّة﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والجملة معترضة أي لا يجدونها عندهم ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين، وجميع أنواع العزة وأفرادها مختص بالله سبحانه في الدنيا والآخرة، ولا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب لهم العزة، وما كان منها مع غيره فهو من فضله وتفضله كما في قوله ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

وهذا يقتضي بطلان التعزّز بغيره سبحانه واستحالة الانتفاع به، وعزة الكفار ليس معتدّاً بها بالنسبة إلى عزة المؤمنين لأنه لا يعز إلا من أعزه الله، والعزة الغلبة يقال عنه بعزه عزا إذا غلبه.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾

﴿وقد نـزّل عليكم في الكتاب﴾ الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق لأن من أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل ما أنزل الله، وقيل:إنه خطاب للمنافقين فقط كما يفيده التشديد والتوبيخ، والكتاب هو القرآن والذي أنزله الله عليهم في الكتاب هو قوله تعالى ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ وهذا نزل بمكة لأنه قد كان جماعة من الداخلين في الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك.

ثمّ إن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، وكان المنافقون يجلسون إليهم ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله ﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ أي إذا سمعتم الكفر والاستهزاء بآيات الله، فأوقع السماع على الآيات، والمراد سماع الكفر والاستهزاء.

﴿فلا تقعدوا معهم﴾ ما داموا كذلك ﴿حتى﴾ غاية للنهي ﴿يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حديث الكفر والاستهزاء.

وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها الذي هو المعتبر دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية، كما يقع كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء

الرجال بالكتاب والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسئلة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه ولم يرفعوا إلى ما قاله رأساً، ولا بالوا به بالة وظنوا أنه قد جاء بأمر فظيع وخطب شنيع، وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع.

بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه القائل، واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل، مقدماً على الله وعلى كتابه وعلى رسوله فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم فانهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم كما أوضح الشوكاني ذلك في القول المفيد وأدب الطلب، اللهم انفعنا بما علمتنا واجعلنا من المتقيدين بالكتاب والسنة، وباعد بيننا وبين آراء الرجال المبنية على شفا جرف هار، يا مجيب السائلين.

قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة.

﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ مستأنفة سيقت لتعليل النهي أي أنكم إن فعلتم ذلك وقعدتم معهم ولم تنتهوا فأنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب[1]، قيل

---

(١) روى الإمام أحمد ٢/١٤٨ بترتيب الساعاتي، والترمذي ٤/٢٠ وحسنه، والنسائي ١/١٩٨ من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» وهو حديث صحيح. قال ابن حجر: أخرجه النسائي من حديث جابر مرفوعاً وإسناده جيد، قلت: وليس في النسائي الشطر الثاني من الحديث، وأخرجه الترمذي من وجه آخر بسند فيه ضعف، وأبو داود في «سننه» ٣/٤٧٧ عن ابن عمر بسند فيه انقطاع، وأحمد ١/٢١٠ عن عمر ـ بسند فيه مجهول. وفي «القرطبي» ٥/٤١٧/٥٢٢! فكل من جلس مجلس معصية، ولم ينكر عليهم أن يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي ان ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكر عليهم، فينبغي ان يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر كما في قول القائل:

* وكل قرين بالمقارن يقتدي *

وهذه الآية محكمة عند جميع أهل العلم إلا ما يروى عن الكلبي فانه قال: هي منسوخة بقوله تعالى ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ وهو مردود فإن من التقوى اجتناب مجالس هؤلاء الذين يكفرون بآيات الله ويستهزؤن بها.

قال أهل العلم: هذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر أو خالط أهله كان في الاثم بمنزلتهم إذا رضي به وإن لم يباشره، فإن جلس إليهم ولم يرض بفعلهم، بل كان ساخطاً له وإنما جلس على التقيّة والخوف فالأمر فيه أهون من المجالسة مع الرضا، وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض في بدعه أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة، وقيل لا يجوز بحال والأول أولى.

﴿إنّ الله جامع المنافقين والكافرين﴾ هذا تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، قيل وهم القاعدون والمقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجهاً إلى المنافقين، وعن سعيد بن جبير قال: ان الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤا بالقرآن ﴿في جهنم جميعاً﴾ كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر والاستهزاء.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

﴿الذين يتربّصون بكم﴾ أي ينتظرون بكم ما يتجدد ويحدث لكم من خير أو شر، يقال تربصت الأمر تربصاً انتظرته، والربصة وزان غرفة اسم منة، وتربصت الأمر بفلان انتظرت وقوعه به، والخطاب في (بكم) للمؤمنين والموصول صفة للمنافقين أو بدل متهم فقط دون الكافرين لأن التربص المذكور هو من المنافقين دون الكافرين، وعليه جرى القاضي كالكشاف ويجوز أن يكون على الذم.

﴿فإن كان لكم فتح﴾ هذه الجملة والتي بعدها حكاية لتربصهم أي إن حصل لكم فتح ﴿من الله﴾ بالنصر على من يخالفكم من الكفار وبالظفر على عدوكم وغنيمة تنالون منهم ﴿قالوا﴾ لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ في الاتصاف بظاهر الإسلام والتزام أحكامه والمظاهرة والتسويد وتكثير العدد.

﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ من الغلب لكم والظفر بكم ﴿قالوا﴾ للكافرين ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي ألم نقهركم ونغلبكم ونتمكن منكم ولكن أبقينا عليكم، وقيل المعنى إنهم قالوا للكفار الذين ظفروا بالمسلمين ألم نستحوذ عليكم حتى هابكم المسلمون وخذلناهم عنكم.

والأول أولى فإن معنى الاستحواذ الغلب يقال استحوذ على كذا أي غلب عليه، ومنه قوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ ولا يصح أن يقال ألم نغلبكم حتى هابكم المسلمون، ولكن المعنى ألم نغلبكم يا معشر الكافرين ونتمكن منكم فتركناكم وأبقينا عليكم حتى حصل لكم هذا الظفر بالمسلمين.

وسمي ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيباً تعظيماً لشأن المسلمين وتحقيراً لحظ الكافرين لتضمّن الأول نصرة دين الله وإعلاء كلمته، ولهذا أضاف الفتح إليه تعالى، وحظ الكافرين في ظفرهم دنيوي سريع الزوال، قاله الكرخي.

﴿ويمنعكم من المؤمنين﴾ بتخذيلهم وتثبيطهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم عن الدفع لكم وعجزوا عن الانتصاف منكم، والمراد أنهم يميلون إلى من له الغلب والظفر من الطائفتين، ويظهرون لهم أنهم كانوا معهم على الطائفة المغلوبة[1].

وهذا شأن المنافقين أبعدهم الله وشأن من حذا حذوهم من أهل الإسلام من التظهّر لكل طائفة بأنه معها على الأخرى، والميل إلى من معه الحظ من الدنيا في مال أو جاه فيلقاه بالتملق والتودد والخضوع والذلة، ويلقى من لا حظ له من الدنيا بالغلظة وسوء الخلق ويزدري به ويكافحه بكل مكروه، فقبّح الله أخلاق أهل النفاق وأبعدها.

﴿فالله يحكم بينكم﴾ وبينهم ﴿يوم القيامة﴾ بما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق والبغض للحق وأهله، ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضمائر، وإن حقنوا في الدنيا دماءهم وحفظوا أموالهم بالتكلم بكلمة الإسلام نفاقاً، وقيل يحكم بأن يدخلكم الجنة ويدخلهم النار[2].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق: ٥١، وابن جرير ٣٢٧/٩ باسناد صحيح، والحاكم ٣٠٩/٢. وصححه ووافقه الذهبي، والسيوطي في «الدر» ٢٣٥/٢.

(٢) ذكر القرطبي في «تفسيره» ٤١٩/٥ للآية التأويل الثالث: وهو أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً منه إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر، ويتقاعدوا عن التوبة، فيكون تسليط العدو من قبلهم.

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ هذا في يوم القيامة إذا كان المراد بالسبيل النصر والغلب، أو في الدنيا إن كان المراد به الحجة يعني أن حجة المؤمنين غالبة في الدنيا على الكافرين وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة، قال ابن عطية: قال جميع أهل التأويل: إن المراد بذلك يوم القيامة، وبه قال علي وابن عباس.

قال ابن العربي وهذا ضعيف لعدم فائدة الخبر فيه وسببه توهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله يعني قوله ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ وذلك يسقط فائدته إذ يكون تكراراً، هذا معنى كلامه.

وقيل المعنى أن الله لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين يمحو به دولتهم بالكلية ويذهب آثارها، ويستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً.

وقيل: إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهي عن المنكر، كما قال تعالى ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً وقيل إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً شرعا فإن وجد فبخلاف الشرع فإن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة.

هذا خلاصة ما قاله أهل العلم في هذه الآية وهي صالحة للاحتجاج بها على كثير من المسائل منها أن الكافر لا يرث المسلم، ومنها أن الكافر إذا استولى على مال المسلم لم يملكه، ومنها أن الكافر ليس له أن يشتري عبداً مسلماً، ومنها أن المسلم لا يُقتل بالذمي إلى غير ذلك من الأحكام.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

﴿إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض قبائح المنافقين وفضائحهم، وقد تقدم معنى الخدع في البقرة ومخادعتهم لله هي أنهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية.

ومعنى كون الله خادعهم أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه وذلك بأنه تركهم على ما هم عليه من التظهّر بالإسلام في الدنيا فعصم به أموالهم ودماءهم، وأخّر عقوبتهم إلى الدار الآخرة فجازاهم على خداعهم بالدّرك الأسفل من النار.

قال في الكشاف: والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه وقال الحسن: في قوله ﴿يخادعون الله﴾ يلقى على كل مؤمن ومنافق نور يمشون به يوم القيامة حتى إذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين ومضى المؤمنون بنورهم، فتلك خديعة الله إياهم، وعن السدي ومجاهد وسعيد بن جبير نحوا نحوه ولا أدري من أين جاء لهم هذا التفسير فإن مثله لا ينقل إلا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ مع المؤمنين ﴿قاموا كسالى﴾ جمع كسلان والمراد أنهم يصلّون وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، وقرىء كسلى والكسل الفتور والتواني وأكسل إذا جامع ولم ينزل وفتر.

﴿يراؤون الناس﴾ أي لا يقومون إلى الصلاة إلا لأجل الرياء والسمعة لا

لأجل الدين، قال قتادة: والله لولا الناس ما صلّى منافق، والرياء إظهار الجميل ليراه الناس لا لاتباع أمر الله وقد تقدم بيانه، والمراآة المفاعلة قاله الزمخشري والجملة حال وقيل استئناف وقيل بدل وفيه نظر.

﴿ولا يذكرون الله إلا﴾ ذكراً ﴿قليلاً﴾ أو لا يصلّون إلا صلاة قليلة، ووصف الذكر بالقلة لعدم الاخلاص أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلاً في نفسه، لأن الذي يفعل الطاعة لقصد الرياء إنما يفعلها في المجامع ولا يفعلها خالياً كالمخلص، قال ابن عباس: إنما قلّ ذلك لأنهم يفعلونه رياء سمعة ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله لكان كثيراً.

عن ابن جريج في الآية قال نزلت في عبدالله بن أُبَيّ وأبي عامر بن النعمان، وقد ورد في الاحاديث الصحيحة وصف صلاة المنافق وأنه يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً[1].

(١) أخرج الامام مسلم ١/٤٥١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وفي «المسند» عن أبي هريرة رضي الله عنه «ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لأقمت صلاة العشاء، وأمرت فتياني يحرقون ما في البيوت بالنار» وروى الامام مالك في «الموطأ» ١/٢٢٠ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» ورواه مسلم ١/٤٣٤، والترمذي ١/٣٠١، والنسائي ١/٢٥٤.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

﴿مذبذبين بين ذلك﴾ أي بين الإيمان والكفر المعلومين من المقام، والمذبذب المتردد بين أمرين والذبذبة الاضطراب، يقال ذبذبه فتذبذب، قال ابن جني: المذبذب القلق الذي لا يثبت على حال، فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين والمشركين، لا مخلصين الإيمان، ولا مصرحين بالكفر.

قال في الكشاف: وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى أي يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب كأن المعنى كلما مال إلى جانب ذب عنه انتهى، وانتصاب مذبذبين إما على الحال أو على الذم.

﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، قال مجاهد: هم المنافقون لا إلى هؤلاء أي أصحاب محمد ﷺ، ولا إلى هؤلاء أي اليهود.

وثبت في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة فلا تدري أيهما تتبع[1]» العائرة بالعين المهملة المتحيرة المترددة، ومعنى تعير تتردد وتذهب يميناً وشمالاً، مرة إلى هذه ومرة إلى هذه لا تدري إلى أين تذهب.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٧٢٩. زاد السير/ ٢٣٢.

﴿ومن يضلل الله﴾ أي يخذله ويسلبه التوفيق ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ أي طريقاً توصله إلى الحق.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمؤمنين الخلص ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي لا تجعلوهم خاصة لكم وبطانة توالونهم من دون اخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين.

﴿أتريدون﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، وتوجيه الانكار إلى الارادة دون متعلقها بأن يقال أتجعلون للمبالغة في انكاره وتهويل أمره ببيان أنه لا ينبغي أن يصدر عن العاقل إرادته فضلاً عن صدور نفسه ﴿أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة بينة يعذبكم بها بسبب ارتكابكم لما نهاكم عنه من موالاة الكافرين[1].

قال قتادة: إن لله السلطان على خلقه ولكنه يقول عذراً مبيناً، وعن ابن عباس قال: كل سلطان في القرآن فهو حجة والله سبحانه أعلم، والسلطان يذكر ويؤنث فتذكيره باعتبار البرهان، وتأنيثه باعتبار الحجة إلا أن التأنيث أكثر عند الفصحاء، وقال الفراء: التذكير أشهر وهي لغة القرآن.

---

(١) رواه الامام أحمد ١٢٩/٧، ومسلم ٢١٤٦/٤ وابن جرير ٣٣٣/٩. والشاة العائرة: هي المترددة بين قطيعين لا تدري أيها تتبع، من قولهم: عار الفرس والكلب وغيرهما يعير عياراً: إذا ذهب كأنه منفلت من صاحبه، فهو يتردد هنا وهنا. وقوله: تعير إلى هذه مرة. أي: تذهب في ترددها إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾

﴿إن المنافقين في الدّرك الأسفل من النار﴾ أي في الطبق الذي في قعر جهنم، قرىء الدرك بسكون الراء وتحريكها، قال أبو علي: هما لغتان والجمع أدراك وقيل جمع المحرك أدراك مثل جمل وأجمال، وجمع الساكن أدرك مثل فلس وأفلس، قال النحاس: والتحريك أفصح.

والدرك الطبقة والنار دركات سبع بعضها فوق بعض، وسميت طبقاتها دركات لأنها متداركة متتابعة، فالمنافق في الدرك الأسفل منها وهي الهاوية لغلظ كفره وكثرة غوائله، وأعلى الدركات جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية، وقد يسمى جميعها باسم الطبقة العليا أعاذنا الله من عذابها.

وقيل الدرك بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم، وإنما كان المنافق أشد عذاباً من الكافر لأنه أمن السيف في الدنيا فاستحق الدرك الأسفل في الآخرة تعديلاً، ولأنه مثله في الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهله.

قال ابن مسعود: الدرك الأسفل توابيت من حديد مقفلة عليهم، وفي لفظ مبهمة عليهم، أي مغلقة لا يهتدى لمكان فتحها، وعن أبي هريرة نحوه[1].

﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ يخلصهم من ذلك الدرك، والخطاب لكل من يصلح له أو للنبي ﷺ ﴿إلا الذين تابوا﴾ من النفاق ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوا

(١) زاد المسير ٢٣٤.

من أحـوالهم وأعمالهم ﴿واعتصمـوا بالله﴾ أي تمسكـوا بعهده ووثقـوا به، والاعتصام به التمسك به والوثوق بوعده ﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ أي جعلوه خالصاً له غير مشوب بطاعة غيره، فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت فقد كمل الإيمان وذلك قوله(١).

﴿فأولئك﴾ الذين اتصفوا بالصفات السابقة الأربعة والإشارة بما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة ﴿مع المؤمنين﴾ فيما يؤتونه، قال الفراء: أي من المؤمنين يعني الذين لم يصدر منهم نفاق اصلاً.

قال القتيبي: حاد عن كلامهم غضباً عليهم فقال أولئك مع المؤمنين ولم يقل هم المؤمنون انتهى، والظاهر أن معنى ﴿مع﴾ معتبر هنا أي فأولئـك مصاحبون للمؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة ثم بين ما أعد الله للمؤمنين الذين هؤلاء معهم فقال:

﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ في الآخرة وحذفت الياء من ﴿يؤتى﴾ في الخط كما حذفت في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها، ومثله ﴿يوم يدع الداع، وسندع الزبانية، ويوم يناد المناد﴾ ونحوها فإن الحذف في الجميع لالتقاء الساكنين، فجاء الرسم تابعاً للفظ، والقراء يقفون عليه دون ياء اتباعاً للخط الكريم إلا يعقوب والكسائي وحمزة فإنهم يقفون بالياء نظراً إلى الأصل.

---

(١) قال السيوطي في «الدر» ٢/٢٣٦ رواه ابن أبي شيبة، وهناد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في صفة الناس عن ابن مسعـود. قلت: وفي سنده انقـطاع، لأن خيثمة بن عبد الرحمن الراوي عن ابن مسعود لم يسمع منه، ذكره الامام أحمد، ورواه ابن أبي حاتم من طريق حماد ابن سلمة: أخبرنا علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود... وعلي بن يزيد ضعيف، والقاسم بن عبد الرحمن صدوق يرسل كثيراً وفي «الطبري» ٩/٣٣٩ عن أبي هريرة (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) قال: «في توابيت ترتج عليهم» وفي تفسير ابن كثير ١/٥٧٠: ووراه ابن أبي حاتم بسند حسن، ولفظه: «الدرك الأسفل: بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم».

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا
عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا
عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه في التعذيب إلا مجرد المجازاة للعصاة، والاستفهام للتقرير والمعنى أي منفعة له في عذابكم ﴿إن شكرتم وآمنتم﴾ فإن ذلك لا يزيد في ملكه كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾ أي يشكر عباده على طاعته فيثيبهم عليها، ويتقبلها منهم، والشكر في اللغة الظهور، يقال دابة شكور إذا ظهر من سمنها فوق ما تعطى من العلف.

﴿لا يحبّ الله﴾ نفي الحب كناية عن البغض أي يبغض ﴿الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ قرىء على البناء للمجهول وعلى البناء للمعلوم، واختلف أهل العلم في كيفية الجهر بالسوء الذي يجوز لمن ظُلم فقيل هو أن يدعو على من ظلمه، وقيل لا بأس بأن يجهر بالسوء من القول على من ظلمه بأن يقول فلان ظلمني أو هو ظالم أو نحو ذلك، وقيل معناه إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول من كفر أو نحوه فهو مباح له، والآية على هذا في الاكراه وكذا قال قطرب.

والظاهر من الآية أنه يجوز لمن ظُلم أن يتكلم بالكلام الذي هو من السوء في جانب من ظلمه، ويؤيده الحديث الثابت في الصحيح بلفظ «ليُّ الواجد ظلم يُحلّ عرضه وعقوبته».

وأما على القراءة الثانية فالاستثناء منقطع أي إلا من ظلم في فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ له.

وقال قوم معنى الكلام لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول، لكن من ظلم فإنه يجهر بالسوء ظلماً وعدواناً وهو ظالم في ذلك، وهذا شأن كثير من الظلمة فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه وينالون من عرضه.

وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى إلا من ظلم فقال سوءاً فإنه ينبغي أن يأخذوا على يديه، وعن ابن عباس قال: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه رخص له أن يدعو على من ظلمه، وإن يصبر فهو خير له.

وقد أخرج ابن أبي شيبة والترمذي عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من دعا على من ظلمه فقد انتصر[1]، وقد أخرج أبو داود من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: المتسابان ما قالاه فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم[2].

قال الحسن: هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه ولكن ليقل اللهم أعِني عليه اللهم استخرج لي حقي، اللهم حل بيني وبين ما يريد ونحوه من الدعاء.

وقيل نزلت في الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه فله أن يشكو ما صنع به، وبه قال مجاهد والأول أولى[3].

---

(١) ضعيف الجامع / ٥٥٨٨.

(٢) مسلم ٢٥٨٧.

(٣) ابن جرير ٩/٣٤٧ ونسبه السيوطي في «الدر» للفريابي وعبد بن حميد وجاء في «تفسير ابن كثير» ١/٥٧٠: قال ابن عباس في تفسير الآية: يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فانه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله ﴿إلا من ظلم﴾ وإن صبر فهو خير له. =

وقال مقاتل: نزلت في أبي بكر الصديق وذلك أن رجلاً نال منه والنبي حاضر فسكت عنه أبو بكر مراراً ثم رد عليه، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبو بكر: يا رسول الله شتمني فلم تقل له شيئاً حتى إذا رددت عليه قمت، قال: إن ملكاً كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان فقمت(١) ونزلت هذه الآية.

﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ هذا تحذير للظالم بأن الله يسمع ما يصدر منه ويعلم به.

ثم بعد أن أباح للمظلوم أن يجهر بالسوء ندب إلى ما هو الأولى والأفضل فقال:

﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه﴾ يدخل في هاتين الكلمتين جميع أعمال البِر وجميع دفع الضرر ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ تصابون به ﴿فإن الله كان عَفُوّاً﴾ عن عباده ﴿قديراً﴾ على الإنتقام منهم بما كسبت أيديهم فاقتدوا به سبحانه فإنّه يعفو مع القدرة.

= وروى أبو داود [٢/١٠٧] عن عائشة قالت: سرق لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ: «لا تسبخي عنه» (قال الخطابي: لا تسبخي عنه، أي: لا تخففي عنه بدعائك) وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه. وقال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه لكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه، لقوله: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ وروى أبو داود [٤/٣٧٧] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم» [قلت: ورواه أحمد في المسند ١٤/١٩٤ والبخاري في «الأدب المفرد» ١/٥١٢، ومسلم ٤/٢٠٠٠، والترمذي ٣/١٣٩.

(١) مسند احمد/ ٢ ـ ٤٢٦.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ لما فرغ سبحانه عن ذكر المشركين والمنافقين، ذكر الكفار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى لأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة والكفر بذلك كفر بالله.

وينبغي حمل هذه الآية على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً، فإن أهل الكتاب لم يكفروا بالله، ولا بجميع رسله لكنهم لما كفروا بالبعض كان ذلك كفراً بالله وبجميع الرسل.

﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ يعني أنهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله فكان ذلك تفريقاً بين الله وبين رسله ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ وهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك﴾ أي الإيمان والكفر ﴿سبيلاً﴾ أي ديناً متوسطاً بينهما.

قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى آمنت اليهود بالتوراة وبموسى، وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بالقرآن ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، اتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من الله، وتركوا الإسلام وهو دين الله الذي بعث به رسله، وعن السدي وابن جريج نحوه.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

﴿أولئك هم الكافرون﴾ أي الكاملون في الكفر ﴿حقّاً﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي حق ذلك حقاً أو بمعنى كفراً حقاً، وقال أبو البقاء: كافرون من غير شك، وقد طعن الواحدي في هذا التوجيه فقال الكفر لا يكون حقاً بوجه من الوجوه، والجواب أن الحق هنا ليس يراد به ما يقابل الباطل بل المراد أنه كائن لا محالة وأن كفرهم مقطوع به.

﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ يهانون فيه في الآخرة وهو عذاب النار، وإنما أظهر في مقام الإضمار ذماً لهم وتذكيراً لوصفهم أو المراد جميع الكافرين.

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ كلهم ﴿ولم يفرّقوا بين أحدهم﴾ أي من الرسل بل آمنوا بجميعهم ولم يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ودخول ﴿بين﴾ على أحد لكونه عاماً في المفرد مذكراً ومؤنثاً ومثنّاهما وجمعهما، وقد تقدم تحقيقه.

﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ يعني جزاء إيمانهم بالله وبجميع كتبه ورسله وثواب أعمالهم ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يستر السيئآت ويقبل الحسنات، والآية تدل على بطلان قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسله.

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ
مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى
ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء﴾ هم اليهود سألوه ﷺ أن يرقى إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه يدل على صدقه دفعة واحدة كما أتى موسى بالتوراة، تعنتاً منهم أبعدهم الله ﴿فقد سألوا موسى﴾ سؤالاً ﴿أكبر من ذلك﴾ السؤال ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ أي عياناً، وقد تقدم معناه في البقرة، وجهرة نعت لمصدر محذوف أي رؤية جهرة.

﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ هي النار التي نزلت عليهم من السماء فأهلكتهم ﴿بظلمهم﴾ في سؤالهم الباطل لامتناع الرؤية عياناً في هذه الحالة، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة، فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة، ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطاً بيناً.

ثم لم يكتفوا بهذا السؤال الباطل الذي نشأ منهم بسبب ظلمهم بعد ما رأوا المعجزات بل ضموا إليه ما هو أقبح منه وهو عبادة العجل ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ إلهاً، وفي الكلام تقدير أي فأحييناهم فاتخذوا العجل ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ البراهين والدلائل والمعجزات الواضحات من اليد والعصا وفلق البحر وغيرها لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم بعد.

﴿فعفونا عن ذلك﴾ أي عما كان منهم من التعنت وعبادة العجل، وفيه

استدعاء لهم إلى التوبة كأنه قيل إن أولئك الذين أجرموا قد تابوا فعفونا عنهم، فتوبوا أنتم حتى نعفو عنكم ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ أي حجّة بينة وهي الآيات التي جاء بها، وسميت سلطاناً لأن من جاء بها قهر خصمه، ومن ذلك أمر الله سبحانه له بأن يأمرهم بقتل أنفسهم توبة عن معصيتهم فإنه من جملة السلطان الذي قهرهم به، والسلاطة القهر.

﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ أي الجبل المسمى بالطور ﴿بميثاقهم﴾ الباء للسببية أي بسبب ميثاقهم ليعطوه لأنه روي أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى فرفع الله عليهم الطور فقبلوها، وقيل إن المعنى بسبب نقضهم ميثاقهم الذي أخذ عليهم وهو العمل بما في التوراة، وقد تقدم رفع الجبل في البقرة، وكذلك تفسير قوله:

﴿وقلنا لهم﴾ على لسان موسى والطور مظل عليهم، قاله الجلال وأبو السعود والنسفي والخازن والبيضاوي، وهذا التقييد سبق قلم لأن قصة فتح القرية كانت بعد خروجهم من التّيه وقصة رفع الجبل فوق رؤسهم كانت عقب نزول التوراة قبل دخولهم التيه.

﴿ادخلوا الباب﴾ أي باب القرية، قال قتادة: كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس، وقيل هو إيلياء وقيل هو أريحاء وقيل هو اسم قرية، وقيل باب القبة التي كانوا يصلون إليها،فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام.

﴿سجّداً﴾ فخالفوا ودخلوا وهم يزحفون على أستاههم ﴿وقلنا لهم لا تعدوا﴾ أي لا تعتدوا فهو من الاعتداء بدليل إجماع السبعة على اعتدوا منكم ﴿في السبت﴾ فتأخذوا ما أمرتم بتركه فيه من الحيتان، وقد تقدم تفسير ذلك ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ هو العهد الذي أخذه عليهم في التوراة، وقيل إنه عهد مؤكد باليمين فسمي غليظاً لذلك.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ التقدير فبنقضهم ميثاقهم لعنّاهم وسخطنا عليهم وفعلنا بهم ما فعلنا، وما مزيدة للتوكيد والباء للسببية، وقال الكسائي: وهو متعلق بما قبله، والمعنى فأخذتهم الصاعقة بسبب نقضهم ميثاقهم وما بعده، وأنكر ذلك ابن جرير الطبري وغيره لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برميهم بالبهتان.

قال المهدوي وغيره: وهذا لا يلزم لأنه يجوز أن يخبر عنهم والمراد آباؤهم، وقال الزجاج: المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، لأن هذه القصة ممتدة إلى قوله ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا﴾ ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل المعنى فبنقضهم ميثاقهم وفعلهم كذا طبع الله على قلوبهم، وقيل المعنى فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلاً.

﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أي كتبه التي حرفوها وجحودهم بآياته الدالة على صدق أنبيائه ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ يعني بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم، والمراد بالأنبياء يحيى وزكريا ﴿بغير حق﴾ أي بغير استحقاق لذلك القتل ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف أي قلوبنا في أغطية فلا نفقه ما تقول.

وقيل إن غلف جمع غلاف والمعنى أن قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة

لهم إلى علم غير ما قد حوته قلوبهم، وهو كقولهم ﴿قلوبنا في أكنّة﴾ وغرضهم بهذا رد حجة الرسل.

﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ هذا إضراب عن الكلام الأول أي ليس عدم قبولهم للحق بسبب كونها غلفاً بحسب مقصدهم الذي يريدونه بل بحسب الطبع من الله عليها، والطبع الختم، وقد تقدم إيضاح معناه في البقرة وهي مطبوع من الله عليها بسبب كفرهم فلا تعي وعظاً، أي أحدث عليها صورة مانعة عن وصول الحق إليها، وقيل الباء للآلة.

﴿فلا يؤمنون إلا﴾ إيماناً أو زماناً ﴿قليلاً﴾ أو إلا قليلاً منهم كعبدالله بن سلام ومن أسلم منهم معه وجرى عليه البيضاوي وغيره.

﴿وبكفرهم﴾ هذا التكرير لإفادة أنهم كفروا كفراً بعد كفر، وقيل: إن المراد بهذا الكفر كفرهم بالمسيح فحذف لدلالة ما بعده عليه، وذلك أنهم أنكروا قدرة الله على خلق الولد من غير أب والمنكر لها كافر، وهو معطوف على ﴿فبما نقضهم﴾ أو على بكفرهم الذي بعد طبع، وقد أوضح الزمخشري ذلك غاية الإيضاح، واعترض وأجاب أحسن جواب.

﴿وقولهم على مريم بهتاناً﴾ هو الكذب المفرط الذي يتعجب منه، وهو هنا رميها بيوسف النجار، وكان من الصالحين، وقال ابن عباس: رموها بالزنا وإنما سماه ﴿عظيماً﴾ لأنه قد ظهر عند ولادة مريم من المعجزات ما يدل على براءتها من ذلك.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾

﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم﴾ هو من جملة جناياتهم، وذنوبهم لأنهم كذبوا بأنهم قتلوه وافتخروا بقتله، قال أبو حيان: لم نعلم كيفية القتل ولا من ألقي عليه الشَّبه ولم يصح بذلك حديث.

﴿رسول الله﴾ ذكروه بالرسالة استهزاء لأنهم ينكرونها ولا يعترفون بأنه نبي،أو هذا من كلامه تعالى لمدحه وتنزيهه عن مغالاتهم فيه، وما ادعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته وإيضاح حقيقته الإنجيل وما فيه هو من تحريف النصارى أبعدهم الله فقد كذبوا وصدق الله القائل في كتابه العزيز:

﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ جملة حالية ﴿ولكن شبّه لهم﴾ أي ألقي شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب وقيل لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه.

أخرج سعيد بن منصور والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين فخرج عليهم من عين في النبت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بي إثنتي عشرة مرة بعدأن آمن بي، ثم قال: أيّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي فقام شاب من أحدثهم سِنّاً فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا فقال: أنت ذاك فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من يهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به.

وافترقوا ثلاث فرق فقالت طائفة كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء فهؤلاء اليعقوبية،وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبدالله ورسوله وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله عليه ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل﴾ يعني الطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿وكفرت طائفة﴾ يعني التي كفرت في زمن عيسى ﴿فأيّدنا الذين آمنوا﴾ في زمن عيسى بإظهار محمد دينهم على دين الكافرين.

قال ابن كثير بعد أن ساقه بهذا اللفظ عند ابن أبي حاتم قال حدثنا أحمد ابن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس[1].

وصدق ابن كثير فهؤلاء كلهم من رجال الصحيح، وأخرجه النسائي من حديث أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه، وقد رويت قصته عليه السلام من طرق بألفاظ مختلفة، وساقها عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر على صفة قريبة مما في الإنجيل.

﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي في شأن عيسى وهم النصارى فقال بعضهم قتلناه، وقال من عاين رفعه إلى السماء ما قتلناه.

وقيل إن الاختلاف بينهم هو أن النسطورية من النصارى قالوا: صلب

(١) تفسير ابن كثير/ ٥٧٤.

عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وقالت الملكانية وقع القتل والصلب على المسيح بكمال ناسوته ولاهوته، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلام طويل لا أصل له ولهذا قال الله ﴿وان الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه﴾ أي في تردد من قتله لا يخرج إلى حيِّز الصحة ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم، بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون وفي جهلهم يتحيرون.

﴿ما لهم به من علم﴾ من زائدة لتوكيد نفي العلم ﴿إلا اتباع الظن﴾ الاستثناء منقطع وهو الصحيح الذي لم يذكر الجمهور غيره، وهي لغة الحجاز أي لكنهم يتبعون الظن في قتله ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أو غيره،لأن الظن واتباعه ليس من جنس العلم الذي هو اليقين، إذ الظن الطرف الراجح، وقيل استثناء مما قبله والأول أولى.

قال أبو البقاء إنه متصل لأن العلم والظن يجمعهما مطلق الإدراك انتهى، لا يقال إن اتباع الظن ينافي الشك الذي أخبر الله عنهم بأنهم فيه لأن المراد هنا بالشك التردد كما قدمنا، والظن نوع منه، وليس المراد به هنا ترجح أحد الجانبين.

﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي قتلاً يقيناً، وهذا على أن الضمير في قتلوه لعيسى، وقيل: إنه يعود إلى الظن، قاله ابن عباس، والمعنى ما قتلوا ظنهم يقيناً، قال أبو عبيدة: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً لقال وما قتلوه فقط، وقيل إن المعنى وما قتلوا الذي شبه لهم، وقيل المعنى بل رفعه الله إليه يقيناً، وهو خطأ لأنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها.

وذكر السمين فيه خمسة أوجه ولا وجه لهذه الأقوال، والضمائر قبل قتلوه وبعده لعيسى، وذكر اليقين هنا لقصد التهكم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة.

﴿بَلْ رَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

﴿بل رفعه الله اليه﴾ أي إلى موضع لا يجري فيه حكم غير الله كما في الفخر، وهذا الموضع هو السماء الثالثة كما في حديث الجامع الصغير، وفي بعض المعاريج أنه في السماء الثانية، رد عليهم وإثبات لما هو الصحيح، وقد تقدم ذكر رفعه عليه السلام في آل عمران بما فيه كفاية ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ في إنجاء عيسى وتخليصه من اليهود وانتقامه منهم ورفعه إليه.

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أي اليهود والنصارى، والمعنى وما منهم أحد ﴿إلا﴾ والله ﴿ليؤمننّ﴾ والضمير في ﴿به﴾ راجع إلى عيسى، وبه قال ابن عباس وأكثر المفسرين، وفي ﴿قبل موته﴾ راجع إلى ما دل عليه الكلام وهو لفظ أحد المقدر أو الكتابي المدلول عليه بأهل الكتاب، وقال ابن عباس: قبل موت عيسى، وعنه أيضاً قال: قبل موت اليهودي، وفيه دليل على أنه لا يموت يهودي ولا نصراني إلا وقد آمن بالمسيح.

وقيل كلا الضميرين لعيسى، والمعنى أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابي في عصره، وقيل الضمير الأول لله وقيل إلى محمد ﷺ، وبه قال عكرمة وهذا القول لا وجه له لأنه لم يجر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر قبل هذه الآية حتى يرجع الضمير إليه.

وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير، وبه قال جماعة من السلف وهو الظاهر لأنه تقدم ذكر عيسى فكان عود الضمير إليه أولى، والمراد بالإيمان به حين يعاين ملك الموت فلا ينفعه إيمان.

قال شهر بن حوشب: اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودُبُرة،ويقال يا عدو الله أتاك عيسى نبياً فكذبت به فيقول آمنت بأنه عبدالله ورسوله، ويقال للنصراني أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله وابن الله فيقول آمنت أنه عبدالله، فأهل الكتاب يؤمنون به حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان.

أو عند نزوله في آخر الزمان كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة قال ابن عباس: سيدرك أناس من أهل الكتاب عيسى حين يبعث فيؤمنون به، وعنه قال: ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى، قيل لابن عباس أرأيت ان خرّ من فوق بيت قال: تكلم بـه في الهواء، فقيل إن ضرب عنق أحـدهم، قال: يتلجلج بها لسانه، وقد روى نحو هذا عنه من طرق، وقال به جماعة من التابعين.

وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أن المراد قبل موت عيسى كما روي عن ابن عباس قبل هذا، وقيّده كثير منهم بأنه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض حتى تصير الملة كلها إسلامية.

وقال الزجاج: هذا القول بعيد لعمـوم قولـه تعالى ﴿وإن من أهـل الكتاب﴾ والذين يبقون يومئذ يعني عند نزوله شرذمة قليلة منهم.

وأجيب بأن المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به، وصحح الطبري هذا القول، وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضح ذلك الشوكاني في مؤلف مستقل يتضمن ذكر ما ورد في المنتظر والدجال والمسيح، وغيره في غيره.

﴿ويوم القيامة يكون﴾ عيسى ﴿عليهم﴾ أي على أهل الكتاب ﴿شهيداً﴾ يشهد على اليهود بالتكذيب له والطعن فيه، وعلى النصارى بالغلو فيه حتى قالوا: هو ابن الله، وقال قتادة: يكون شهيداً على أن قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية.

﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠﴾

﴿فبظلم﴾ الباء للسببية، والتنكير، والتنوين للتعظيم، أي بسبب ظلم عظيم لا بسبب شيء آخر كما زعموا أنها كانت محرمة على من قبلهم ﴿من الذين هادوا﴾ لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيذان بكمال ظلمهم بتذكير وقوعه بعدما هادوا أي تابوا ورجعوا عن عبادة العجل ﴿حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم﴾ الطيبات المذكورة هي ما نصه الله سبحانه في سورة الأنعام ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ الآية.

قال الواحدي: واما وجه تحريم الطيبات عليهم كيف كان ومتى كان وعلى لسان من حرم فلم أجد فيه شيئاً أنتهي إليه فتركته، قال الخازن: ولقد أنصف الواحدي فيما قال فإن هذه الآية في غاية الإشكال انتهى.

قلت: ولهذا لم يذكر الرازي والشوكاني في تفسيرهما ما ذكره المفسرون في معنى الظلم المذكور في الآية وذكرا لها تفسيراً إجمالياً، فكانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصي التي اقترفوها يحرم الله عليهم نوعاً من الطيبات التي كانت حلالاً لهم ولمن تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم، وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه، وإنما كانت محرمة على ابراهيم ونوح ومن بعدهما حتى انتهى الأمر الينا فكذبهم الله تعالى في مواضع كثيرة وبكتهم بقوله ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة﴾ الآية قاله أبو السعود.

﴿وبصدّهم﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ وهو اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وبتحريفهم وقتلهم الأنبياء وما صدر منهم من الذنوب المعروفة ﴿كثيراً﴾ أي بصدهم ناساً كثيراً أو صداً كثيراً أو زماناً كثيراً، والأول أولى.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

﴿وأخذهم الربا﴾ أي معاملتهم فيما بينهم بالربا وأكلهم له وهو محرّم عليهم ﴿وقد نهوا عنه﴾ في التوراة ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ كالرشوة والسحت الذي كانوا يأخذونه، وهذه الذنوب الأربعة هي التي شدّد عليهم بسببها في الدنيا والآخرة، أما التشديد في الدنيا فهو ما تقدم من تحريم الطيبات وأما التشديد في الآخرة فهو المراد بقوله ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ وإنما قال منهم لأن الله علم أن قوماً منهم سيؤمنون فيأمنون من العذاب.

﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ استدراك من قوله تعالى ﴿واعتدنا﴾ الآية أو من الذين هادوا، وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلاً وآجلا وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا: إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل وأنت تحلها فنزل ﴿لكن الراسخون﴾ والراسخ هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيه، والرسوخ الثبوت وقد تقدم الكلام عليه في آل عمران والمراد بهم عبدالله ابن سلام وكعب الاحبار ونحوهما.

﴿والمؤمنون﴾ بالله ورسوله، والمراد أما من آمن من أهل الكتاب أو من المهاجرين والأنصار أو من الجميع ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾ أي القرآن ﴿وما أنزل من قبلك﴾ أي سائر الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قرأ جماعة المقيمون على العطف على ما قبله، وكذا في مصحف ابن مسعود تنزيلاً

للتغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي، ونصب مقيمين على قراءة الجمهور هو على المدح والتعظيم عند سيبويه وهو أولى الأعاريب.

وقال الخليل والكسائي: هو معطوف على قوله ﴿بما أنزل إليك﴾ واستبعده الأخفش، ووجهه محمد بن يزيد المبرد.

وعن عائشة أنها سئلت عن المقيمين وعن قوله إن هذان لساحران والصابئون في المائدة فقالت: يا ابن أخي الكتّاب أخطأوا، وروي عن عثمان بن عفان أنه لما فرغ من المصحف أتى به قال: أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها، فقيل له ألا تغيره فقال دعوه فإنه لا يحلّ حراماً ولا يحرّم حلالاً[1].

---

(١) قال السخاوي: هذا الأثر ضعيف، والاسناد فيه اضطراب وانقطاع، لأن عثمان رضي الله عنه جعل للناس إماماً يقتدون به، فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها؟ وقد كتب مصاحف سبعة، وليس فيها اختلاف قط إلا فيما هو من وجوه القراءات، وإذا لم يقمه هو ومن باشر الجمع، كيف يقيمه غيرهم؟ وقد نقل ابن هشام في شرح «شذور الذهب»: ٥٠ عن الإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله أنه قال: وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إن هذان) لحن، وأن عثمان رضي الله عنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بألسنتها. وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه:

أحدها: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى النكرات، فكيف يقرؤون اللحن في القرآن مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته.

والثاني: أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح في الكلام، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف.

والثالث: أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم، لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي.

والرابع: أنه قد ثبت في «الصحيح» أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب «التابوه» بالهاء على لغة الأنصار، فمنعوه من ذلك، ورفعوه الى عثمان رضي الله عنه، فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش.

قال ابن عباس: قال عدي بن زيد، وسكين: يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشرٍ من شيءٍ بعد موسى، فنزلت هذه الآية. سيرة ابن هشام ٥٦٢/١، وابن جرير ٤٠٠/٩ عن ابن عباس، وفي سنده محمد ابن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال الذهبي: لا يعرف. وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد من بني قينقاع، ذكرهم ابن هشام في «السيرة» في الأعداء من يهود.

قال ابن الانباري: وما روي عن عثمان لا يصح لأنه متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً ليصلحه غيره، ولأن القرآن منقول بالتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه.

وقال الزمخشري في الكشاف: ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوع لحن في خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب، يعني كتاب سيبويه ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص والمدح من الافتنان وهو باب واسع قد ذكره سيبويه على أمثلةٍ وشواهد، وربما خفي عليه أن السابقين الأولين كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذبّ الطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله عز وجل ثلمةيســدَهـامن بعدهم، وخرقاً يرفوه من يلحق بهم، انتهى.

وقد رجح سيبويه كثير من أئمة النحو والتفسير واختاره الزجاج، ورجح قول الخليل والكسائي ابن جرير الطبري والقفال.

﴿والمؤتون الزكاة﴾ عطف على والمؤمنون، لأنه من صفتهم ﴿والمؤمنون﴾ يؤمنون ﴿بالله واليوم الآخر﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب وصفوا أولا بالرسوخ في العلم ثم بالإيمان بكتب الله وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر، وقيل المراد بهم المؤمنون من المهاجرين والأنصار من هذه الأمة كما سلف وأنهم جامعون بين هذه الأوصاف.

﴿أولئك﴾ أي الراسخون، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم في الفضل ﴿سنؤتيهم﴾ أي سنعطيهم على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره، والسين لتأكيد الوعد ﴿أجراً﴾ ثواباً ﴿عظيمـاً﴾ وهو الجنـة، والتنكير للتفخيم، وهذا الإعراب أنسب بتجاوب طرفي الاستدراك حيث وعد الأولون بالعذاب الأليم، ووعد الآخرون بالاجر العظيم.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾ هذا متصل بقوله يسألك أهل الكتاب،والمعنى أن أمر محمد ﷺ كأمر من تقدّمه من الأنبياء، فما بالكم تطلبون منه ما لم يطلبه أحد من المعاصرين للرسل، والوحي إعلام في خفاء، يقال وحى إليه بالكلام وحياً وأوحى يوحي إيحاء.

وخص نوحاً لكونه أول نبي شرعت على لسانه الشرائع وأول نذير على الشرك وأول من عُذّبت أمته لردهم دعوته، وأهلك أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم وأطول الأنبياء عمراً، وصبر على أذى قومه طول عمره، وقيل غير ذلك أي إيحاء مثل إيحائنا إلى نوح أو حال كونه مشبهاً بايحائنا إلى نوح.

﴿والنبيّين من بعده﴾ كهود وصالح وشعيب وغيرهم ﴿وأوحينا إلى إبراهيم﴾ وهو ابن تارخ واسم تارخ آزر ﴿و﴾ بعث بعده ﴿إسمعيل﴾ فمات بمكة ﴿وإسحق﴾ أي ثم بعث أخاه اسحق فمات بالشام ﴿ويعقوب﴾ وهو إسرائيل ابن اسحق ثم يوسف بن يعقوب ثم شعيب بن نويب ثم هود بن عبد الله ثم صالح بن أسف ثم موسى وهرون ابني عمران ثم أيوب ثم الخضر ثم داود بن ايشا ثم سليمان بن داود ثم يونس بن متى ثم الياس، ثم ذا الكفل واسمه عويدياً وهو من سبط يهوذا بن يعقوب وبين موسى بن عمران ومريم بنت عمران ألف سنة وسبعمائة سنة.

قال الزبير بن بكار: كل نبي ذُكر في القرآن فهو من ولد إبراهيم غير إدريس ونوح وهود ولوط وصالح، ولم يكن من العرب الانبياء إلا خمسة هود

وصالح واسمعيل وشعيب ومحمد ﷺ، وإنما سُمّوا عرباً لأنه لم يتكلم بالعربية غيرهم، ذكره القرطبي.

﴿والأسباط﴾ هم أولاد يعقوب وكانوا إثني عشر، ومنهم يوسف نبي رسول باتفاق، وفي البقية خلاف ﴿وعيسى وأيوب ويونس﴾ فيه ست لغات أفصحها واو خالصة ونون مضمومة وهي لغة الحجاز ﴿وهرون وسليمان﴾ وخص هؤلاء بالذكر بعد دخولهم في لفظ النبيين تشريفاً لهم كقوله ﴿وملائكته ورسله وجبريل﴾.

وقدم عيسى على أيوب ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه رداً على اليهود الذين كفروا به، وأيضاً فالواو ليست إلا لمطلق الجمع، والمعنى أن الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء المذكورين في هذه الآية وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك، وما أنزل الله على أحد من هؤلاء كتاباً جملة واحدة، فلما لم يكن ذلك قادحاً في نبوتهم فكذلك لم يكن إنزال القرآن مفرقاً على محمد قادحاً في نبوّته بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم.

﴿وآتينا داود زبوراً﴾ أي كتاباً مزبوراً يعني مكتوباً، والزبور بالفتح كتاب داود، قال القرطبي: وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام وإنما هي حكم ومواعظ انتهى.

قلت: هو مائة وخمسون مزموراً، والمزمور فصل يشتمل على كلام لداود يستغيث بالله من خصومه ويدعو الله عليهم ويستنصره، وتارة يأتي بمواعظ وكان يقول ذلك في الغالب في الكنيسة، ويستعمل مع تكلمه بذلك شيئاً من الآلات التي لها نغمات حسنة كما هو مصرح بذلك في كثير من تلك المزمورات، والزبر والكتابة، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرسول والحلوب والركوب.

وقرأ حمزة زبوراً بضم الزاي جمع زبر كفلس وفلوس، والـزبر بمعنى المزبور، والأصل في الكلمة التوثيق يقال بئر مزبورة أي مطويـة بالحجـارة والكتاب سمي زبوراً لقوة الوثيقة به.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود، أخرجه الشيخان[1]، قال الحميدي: زاد البرقاني قلت: والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لقـراءتي لحبَّرتهـا لك تحبيـراً، والتحبير تحسـين الصوت بالقراءة، وإنما لم يذكر موسى في هذه الآية لأن الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة[2].

﴿و﴾ أرسلنا ﴿رسـلاً﴾ وقرأ أُبَيّ: رسل بالرفع على تقدير ومنهم ﴿قد قصصناهم عليك﴾ أي سميناهم لك في القرآن وعرفناك أخبارهم، وإلى من بعثوا من الأمم وما حصل لهم من قومهم، ومعنى ﴿من قبل﴾ أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة أو من قبل هذا اليوم ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي لم نُسمّهم لك ولم نعرفك أخبارهم.

وقيل إنه لما قص الله في كتابه بعض أسماء أنبيائه ولم يذكر أسماء بعض قالت اليهود: ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى فنزل ﴿وكلّم الله موسى﴾ بلا واسطة أي أزال عنه الحجاب حتى سمع كلام الله سبحانه، والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي خصّ به موسى من بينهم، ولم يكن ذلك قادحاً

(١) مسلم ٧٩٣ والبخاري/ ٢٠٩٧.

(٢) قال ابن عباس: قال عدي بن زيد، وسكين: يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشرٍ من شيءٍ بعد موسى، فنزلت هذه الآية سيرة ابن هشام ١/٥٦٢، وابن جرير ٩/٤٠٠ عن ابن عباس، وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال الذهبي: لا يعرف. وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد من بني قينُقاع، ذكرهم ابن هشام في «السيرة» في الأعداء من يهود.

في نبوة سائر الأنبياء، فكيف يتوهم أن نزول التوراة جملة قادح في نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلاً.

قرأ الجمهور برفع الإسم الشريف على أن الله هو الذي كلم موسى، وقرأ النخعي ويحيى بن وثاب بنصب الاسم الشريف على ان موسى هو الذي كلم الله سبحانه، و ﴿تكليماً﴾ مصدر مؤكد، وفائدة التأكيد دفع توهم كون التكليم مجازاً كما قال الفراء أن العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أُكد لم يكن إلا حقيقة الكلام.

قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً، وفيه ردّ على من يقول إن الله خلق كلاماً في محل فسمع موسى ذلك الكلام.

أخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن حبّان في صحيحه والحاكم وابن عساكر عن أبي ذَرّ قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قلت كم الرسل منهم قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جَمّ غفير، وأخرج نحوه ابن حاتم عن أبي أمامة مرفوعاً إلا أنه قال: والرسل ثلثمائة وخمسة عشر(١).

وأخرج أبو يعلى والحاكم بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: كان فيمن خلا من إخواني الأنبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى ثم كنت أنا بعده(٢).

(١) مسند أحمد ٥/١٧٨.
(٢) المستدرك ٢/٥٩٨.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

﴿رسلاً مبشّرين﴾ لأهل الطاعات بالجنة ﴿ومنذرين﴾ لأهل المعاصي بالعذاب ﴿لئلا﴾ اللام لام كي وتتعلق بمنذرين على المختار للبصريين، وبمبشرين عند الكوفيين، فإن المسألة من باب التنازع، والأول أولى، وله في القرآن نظائر، وقيل تتعلق بمحذوف أي أرسلناهم كيلاً:

﴿يكون للنّاس على الله حجّة﴾ أي معذرة يعتذرون بها كما في قوله تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتّبع آياتك﴾ وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة تنبيهاً على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلاً منه ورحمة.

﴿بعد﴾ إرسال ﴿الرسل﴾ وإنزال الكتب وفيه دليل على أنه لو لم يبعث الرسل لكان للناس عليه حجة في ترك التوحيد والطاعة، وعلى أن الله لا يعذب الخلق قبل بعثه الرسل كما قال تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وفيه حجة لأهل السنة على أن معرفة الله لا تثبت إلا بالسمع ﴿وكان الله عزيزاً﴾ لا يغالبه مغالب ﴿حكيماً﴾ في أفعاله التي من جملتها إرسال الرسل.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين، وفي لفظ مسلم ولا شخص أحب إليه العذر من الله، الحديث[1].

---

(١) مسلم ٢٧٥٠ والبخاري ٢٠٠٣.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾

﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ هذا الاستدراك من محذوف مقدر كأنهم قالوا ما نشهد لك يا محمد بهذا أي الوحي والنبوة فنزل ﴿لكن الله يشهد﴾ وشهادة الله إنما عرفت بسبب أنه أنزل هذا القرآن البالغ في الفصاحة والبلاغة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن المعارضة والإتيان بمثله فكان ذلك معجزاً، وإظهار المعجزة شهادة بكون المدعي صادقاً لا جرم قال الله تعالى ذلك.

﴿أنزله بعلمه﴾ جملة حالية أي متلبساً بعلمه الذي لا يعلمه غيره من كونك أهل لما أصطفاك الله له من النبوة وأنزله عليك من القرآن واستعدادك لاقتباس الأنوار القدسية، وفيه نفي قول المعتزلة في إنكار الصفات فإنه أثبت لنفسه العلم، وقيل العلم هنا بمعنى المعلوم أي بمعلومه مما يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم.

﴿والملائكة يشهدون﴾ بأن الله أنزله عليك ويشهدون بتصديقك، وإنما عرفت شهادة الملائكة لأن الله تعالى إذا شهد بشيء شهدت الملائكة به ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججاً ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها وإن لم يشهد معه أحد.

وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شهادة أهل الكتاب له، وشهادة الله سبحانه هي ما نصبه من المعجزات الدالة على صحة النبوة فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بصدق ما أخبر به

من هذا أو غيره، عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم: إنّي والله أعلم أنكم تعلمون أني رسول الله، قالوا: ما نعلم ذلك فأنزل الله هذه الآية[1].

﴿إن الذين كفروا﴾ بالله وبكل ما يجب الإيمان به أو بهذا الأمر الخاص، وهو ما في هذا المقام ﴿وصدّوا﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ وهو دين الإسلام بإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبقولهم ما نجد صفته في كتابنا وإنما النبوة في ولد هارون وداود، وبقولهم إن شرع موسى لا ينسخ.

﴿قد ضلّوا ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق والصواب بما فعلوا لأنهم مع كفرهم منعوا غيرهم عن الحق، فجمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقطاع منه.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢١١ وابن جرير ٩/٤٩ عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: «اني لأعلم والله أنكم لتعلمون أني رسول الله» فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ وزاد السيوطي نسبته في «الدر» ٢/٢٤٨ إلى ابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل». قلت: وفي سنده محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول كما تقدم.
تفسير ابن كثير ١/٥٨٩.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

﴿إن الذين كفروا﴾ بجحدهم ﴿وظلموا﴾ غيرهم بصدهم عن السبيل أو ظلموا محمداً: كتمانهم نبوته أو ظلموا أنفسهم بكفرهم، ويجوز الحمل على جميع هذه المعاني ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ إذا استمروا على كفرهم وماتوا كافرين ﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ من الطرق ﴿إلا طريق جهنم﴾ لكونهم اقترفوا ما يوجب لهم ذلك بسوء اختيارهم وفرط شقائهم وجحدوا الواضح وعاندوا البيّن أي يدخلهم جهنم، والاستثناء متصل لأنه من جنس الأول والأول عام لأنه نكرة في سياق النفي وإن أريد به طريق خاص أي عمل صالح، فالاستثناء منقطع قاله الكرخي.

﴿خالدين فيها﴾ وهي حال مقدرة ﴿أبداً﴾ منصوب على الظرفية توكيد خالدين وهو لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل ﴿وكان ذلك﴾ أي تخليدهم في جهنم أو ترك المغفرة لهم والهداية مع الخلود في جهنم ﴿على الله يسيراً﴾ لأنه سبحانه لا يصعب عليه شيء من مراداته إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

﴿يا أيها الناس﴾ خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبدة الأصنام وغيرهم، وقيل هو خطاب لمشركي مكة والعبرة بمفهوم اللفظ وهو عام ﴿قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ أي محمد ﷺ بدين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، أو بالقرآن الذي هو الحق من عند

ربكم وهو تكرير للشهادة وتقرير لحقيّة المشهود به، وتمهيد لما بعده من الأمر بالإيمان.

﴿فآمنوا﴾ قال سيبويه والخليل أي اقصدوا او آتوا ﴿خيراً لكم﴾ وقال الفراء: فآمنوا إيماناً خيراً لكم، وقال أبو عبيدة والكسائي: فآمنوا يكن الإيمان خيراً لكم، وأقوى هذه الأقوال الثالث ثم الأول ثم الثاني على ضعف فيه.

﴿وإن تكفروا﴾ أي وإن تستمروا على كفركم وتجحدوا رسالة محمد ﷺ وتُكذّبوا بما جاءكم به من الحق ﴿ فإن لله ما في السموات والأرض﴾ من مخلوقاته وأنتم من جملتهم، ومن كان خالقاً لكم ولها فهو قادر على مجازاتكم بقبيح أفعالكم.

ففي هذه الجملة وعيد لهم مع إيضاح وجه البرهان وإماطة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول والإذعان، لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله﴾ وهو يعم ما اشتملتا عليه وما تركبتا منه ﴿وكان الله عليماً﴾ بمن يؤمن ومن يكفر ﴿حكيماً﴾ لا يسوي بينهما في الجزاء.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

﴿يا أهل الكتاب﴾ قيل نزلت في النصارى وقيل فيهم وفي اليهود ﴿لا تغلوا في دينكم﴾ الغلوّ هو التجاوز في الحد، ومنه غلا السعر يغلو غلاء وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فتجاوزت لداتها، والمراد بالآية النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى.

فمن الإفراط غلوّ النصارى في عيسى حتى جعلوه رباً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة، وما أحسن قول الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزيز ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله، وهذا الاسثناء مفرغ ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم﴾ الجملة تعليل للنهي، وقد تقدم الكلام على المسيح في آل عمران والمعنى ليس له نسب غير هذا، وأنه ﴿رسول الله﴾ فمن زعم غير هذا فقد أشرك وكفر.

﴿وكلمته﴾ أي كونه بقوله كن فكان بشراً من غير أب، وقيل كلمته بشارة الله مريم ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ وقيل الكلمة ههنا بمعنى الآية ومنه ﴿وصدّقت

بكلمات ربها﴾ وقوله ما نفدت كلمات الله ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي أوصلها إليها ﴿وروح﴾ أي ذو روح ﴿منه﴾ وسمي روحاً لأنه حصل من الريح الحاصل من نفخ جبريل، أي أرسل جبريل فنفخ في جيب درع مريم فحملت بإذن الله، وهذه الإضافة للتفضيل والتشريف وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى.

وقيل قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً ويضاف إلى الله فيقال هذا روح من الله أي من خلقه كما يقال في النعمة أنها من الله.

وقيل روح منه أي من خلقه كما قال تعالى ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي من خلقه، وقيل رحمة منه، وقيل برهان منه، وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه.

والمعنى روح كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه وإن كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الآمر لجبريل بالنفخ، والمعنى ليس هو كما زعمتم ابن الله وإلهاً معه أو ثالث ثلاثة لأن ذا الروح مركّب، والإله منزه عن التركيب وعن نسبة المركّب إليه.

وعن أبي موسى أن النجاشي قال لجعفر: ما يقول صاحبك في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قول الله، هو روح الله وكلمته أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر، فتناول عوداً من الأرض فرفعه فقال يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه.

وعن ابن مسعود بأطول من هذا. وأخرج البخاري عن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله[1].

---

(١) صحيح الجامع ٧٢٤٠.

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان له من العمل أخرجه الشيخان[1].

﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ أي بأنه سبحانه إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ وبأن رسله صادقون مبلّغون عن الله ما أمرهم بتبليغه، ولا تكذبوهم ولا تغلوا فيهم فتجعلوا بعضهم آلهة ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ قال الزجاج أي لا تقولوا آلهتنا ثلاثة.

وقال الفراء وأبو عبيد أي لا تقولوا هم ثلاثة كقوله سيقولون ثلاثة، وقال أبو علي الفارسي: لا تقولوا هو ثالث ثلاثة فحذف المبتدأ والمضاف، والنصارى مع تفرّق مذاهبهم متفقون على التثليث، ويعنون بالثلاثة الثلاثة الأقانيم فيجعلونه سبحانه جوهراً واحداً وله ثلاثة أقانيم ويعنون بالأقانيم أقنوم الوجود وأقنوم الحياة وأقنوم العلم، وإنما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود وبالروح الحياة وبالابن المسيح، وقيل المراد بالآلهة الثلاثة الله سبحانه وتعالى ومريم والمسيح.

وقد اختبط النصارى في هذا اختباطاً طويلاً، ووقفنا في الأناجيل الأربعة التي يطلق عليها اسم الإنجيل عندهم على اختلاف كثير في عيسى، فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان وتارة يوصف بأنه ابن الله وتارة يوصف بأنه ابن الرب، وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين.

والحق ما أخبرنا الله به في القرآن، وما خالفه في التوراة والإنجيل أو الزبور فهو من تحريف المحرفين وتلاعب المتلاعبين.

---

(١) صحيح الجامع ٦١٩٦.

ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام، وحاصل ما فيها جميعاً أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه الله، وذكر ما جرى له من المعجزات والمراجعات لليهود ونحوهم، فاختلفت ألفاظهم، واتفقت معانيها، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ والضبط، وذكر ما قاله عيسى وقيل له، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء ولا أنزل على عيسى من عنده كتاباً، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوراة ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها.

وهكذا الزبور فانه من أوله إلى آخره من كلام داودعليه السلام.

وكلام الله أصدق وكتابه أحقّ،وقد أخبرنا أن الانجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم وأن الزبور كتابه آتاه داود وأنزله عليه.

﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي انتهوا عن التثليث ولا تقولوا الآلهة ثلاثة وانتصاب خيراً هنا فيه الوجوه الثلاثة التي تقدمت في قوله فآمنوا خيراً لكم.

﴿إنّما الله إله واحد﴾ لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد ﴿سبحانه﴾ أي أسبحه تسبيحاً عن ﴿أن يكون له ولد﴾ لأن الولد جزء من الأب، وهو متعال عن التجزئة وصفات الحدوث ولكن جعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور.

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، وما جعلتموه له شريكاً أو ولداً هو من جملة ذلك والمملوك المخلوق لا يكون شريكاً ولا ولداً ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ مستقلاً بتدبير خلقه يكل الخلق أمورهم اليه، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فلا حاجة إلى ولد يعينه، وقيل شهيداً على ذلك.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

﴿لن يستنكف﴾ أي لا يتكبر ولا يأنف ﴿المسيح﴾ الذي زعمتم انه إله عن ﴿أن يكون عبداً لله﴾ أصل يستنكف نكف، وباقي الحروف زائدة، يقال نكفت من الشيء واستنكفت منه وأنكفته أن نـزّهته عما يستنكف منه.

قال الزجاج: استنكف أي أنف مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته باصبعك عن خـديك،وقيل هو من النّكف وهو العيب يقال ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف أي عيب، ومعنى الأول لن يأنف عن العبودية ولن يتنزه عنها، ومعنى الثاني لن يعيب العبودية ولن ينقطع عنها.

﴿ولا الملائكة المقربون﴾ أي ولن يستنكف حملة العرش وأفاضل الملائكة مثل جبـريل وغيره عن أن يكونوا عباداً لله، وهذا من أحسن الاستطراد، ذكر للردّ على من زعم أنها آلهة أو بنات الله كما رد بما قبله على النصارى الزاعمين ذلك المقصود خطابهم.

وقد استدل بهذا القائلون بتفضيل الملائكة على الأنبياء، وقرر صاحب الكشاف وجه الدلالة بما لا يسمن ولا يغني من جوع، وادعى أن الذوق قاض بذلك، ونعم الذوق العربي إذا خالطه محبة المذهب، وشابه شوائب الجمود كان هكذا.

وكلّ من يفهم لغة العرب يعلم أنّ من قال: لا يأنف من هذه المقالة إمام ولا مأموم أو لا كبير ولا صغير أو لا جليل ولا حقير لم يدل هذا على أن المعطوف أعظم شأناً من المعطوف عليه، وعلى كل حال فما أبرد الاشتغال بهذه المسئلة وما أقل فائدتها وما أبعدها عن أن تكون مركزاً من المراكز الدينية وجسراً من الجسور الشرعية.

﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر﴾ أي يأنف تكبراً ويعد نفسه كبيراً على العبادة ﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ المستنكف وغيره فيجازي كلًّا بعمله، لا يملكون لأنفسهم شيئاً، وترك ذكر غير المستنكف هنا لدلالة أول الكلام عليه ولكون الحشر لكلا الطائفتين.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيوفّيهم أجورهم﴾ أي ثواب أعمالهم من غير أن يفوتهم منها شيء ﴿ويزيدهم من فضله﴾ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أي على وجه التفصيل وإحاطة العلم بها، وإلا فسائر نعيم الجنان يخطر على قلوبنا ونسمعه من السنة لكن على وجه الإجمال.

وأخرج ابن المنذر وغيره بسند ضعيف عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع اليهم المعروف في الدنيا، وقد ساقه ابن كثير في تفسيره ثم قال هذا إسناد لا يثبت وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد[1].

﴿وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا﴾ عن عبادته ﴿فيعذّبهم﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عذاباً أليماً﴾ هو عذاب النار ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً﴾ يواليهم ﴿ولا نصيراً﴾ ينصرهم.

(١) ابن كثير ١/٥٩٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

﴿يا أيّها الناس﴾ خطاب للكافة ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾ بما أنزله عليكم من كتبه وبمن أرسله إليكم من رسله، وما نصبه لهم من المعجزات. والبرهان ما يبرهن به على المطلوب، قال قتادة: البرهان البينة؛ وقال مجاهد: الحجة وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتقدير كائن من ربكم أو من براهين ربكم، وقيل من لإبتداء الغاية.

﴿وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً﴾ وهو القرآن وسماه نوراً لأنه يهتدى به من ظلمة الضلال.

﴿فأما﴾ أي فمنكم من آمن ومنكم من كفر فأما ﴿الذين آمنوا بالله﴾ أي صدّقوا بوحدانيته وبما أرسل من رسول وأنزل من كتاب، وترك الشق الآخر إشارة إلى اهمالهم لأنهم في حيّز الطرح ﴿واعتصموا به﴾ أي بالله أو بالقرآن وقيل بالنور المذكور ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ يرحمهم بها، قال ابن عباس: الرحمة الجنة سمّيت باسم محلّها.

﴿وفضل﴾ يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة كالنظر إلى وجهه الكريم وغيره من مواهب الجنة ﴿ويهديهم إليه﴾ أي إلى امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه الله سبحانه وتعالى باعتبار مصيرهم إلى جزائه وتفضله، قال أبو علي الفارسي: الهاء في إليه راجعة إلى ما تقدم من إسم الله، وقيل إلى القرآن وقيل إلى الفضل وقيل إلى الرحمة والفضل لأنهما بمعنى الثواب، وأخر هذا مع أنه سابق في الوجود الخارجي على ما قبله تعجيلاً للمسرة والفرح على حد: سعد في دارك.

﴿صراطاً﴾ أي طريقاً يسلكونه إليه ﴿مستقيماً﴾ لا عوج فيه وهو التمسك بدين الإسلام وترك غيره من الأديان.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

﴿يستفتونك﴾ ختم السورة بذكر الأموال كما أنه افتتحها بذلك لتحصل المشاكلة بين المبدأ والختام، وجملة ما في هذه السورة من آيات المواريث ثلاثة

الأولى: في بيان إرث الأصول والفروع.

والثانية: في بيان إرث الزوجين والأخوة والأخوات من الأم.

والثالثة: وهي هذه في إرث الأخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، وأما أولو الأرحام فمذكورون في آخر الانفال، والمستفتي عن الكلالة هو جابر كما سيأتي، وعن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله هذه الآية.

﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ قد تقدم الكلام في الكلالة في أول هذه السورة واسم الكلالة يقع على الوارث وعلى الموروث، فإن وقع على الأول فهم من سوى الوالد والولد، وإن وقع على الثاني فهو من مات ولا يرثه أحد الأبوين ولا أحد الأولاد.

قد أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صَبّ علي فعقلت فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث فنزلت آية الفرائض، وعنه عند ابن سعد وابن أبي حاتم بلفظ أنزلت في قل الله يفتيكم في الكلالة.

وعن عمر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تورث الكلالة فأنزل الله هذه الآية، وأخرج مالك ومسلم وابن جرير والبيهقي عن عمر قال: ما سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء أكثر مما سألته في الكلالة حتى طعن باصبعه في صدري وقال: ما يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر قال: ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا، وقد أوضحنا الكلام لغة وخلافاً واستدلالاً وترجيحاً في شأن الكلالة في أوائل هذه السورة فلا نعيده.

﴿إن امرؤ هلك﴾ أي إن هلك امرؤ، هلك كما تقدم في قوله: ﴿وإن امرأة خافت﴾ والمعنى مات وسمي الموت هلاكاً لأنه إعدام في الحقيقة ﴿ليس له ولد﴾ إما صفة لامرؤ أو حال كما قاله صاحب الكشاف، ولا وجه للمنع من كونه حالاً والأول رجحه الكرخي.

والولد يطلق على الذكر والأنثى، واقتصر على عدم الولد هنا مع أن عدم الوالد معتبر في الكلالة اتكالاً على ظهور ذلك، قيل والمراد هنا الابن وهو أحد معنيي المشترك لأن البنت لا تسقط الأخت.

﴿وله أخت﴾ المراد بالاخت هنا هي الاخت لأبوين أو لأب لا لأم فإن فرضها السدس كما ذكر سابقاً ﴿فلها﴾ أي لأخت الميت ﴿نصف ما ترك﴾.

وقد ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن الأخوات لأبوين أو لاب عصبة للبنات وإن لم يكن معهن أخ، وذهب ابن عباس إلى أن الاخوات لا يعصبن البنات، وإليه ذهب داود الظاهري وطائفة،

وقالوا إنه لا ميراث للاخت لابوين أو لاب مع البنت، واحتجوا بظاهر هذه الآية فإنه جعل عدم الولد المتناول للذكر والانثى قيداً في ميراث الاخت.

وهذا استدلال صحيح لو لم يرد في السنة ما يدل على ثبوت ميراث الاخت مع البنت، وهو ما ثبت في الصحيح أن معاذاً قضى على عهد رسول الله ﷺ في بنت وأخت فجعل للبنت النصف، وللأخت النصف، وكذا صح أن النبي ﷺ قضى في بنت وبنت ابن وأخت فجعل للبنت النصف ولبنت الابن السدس وللأخت الباقي، فكانت هذه السنة مقتضية لتفسير الولد بالابن دون البنت.

﴿وهو﴾ أي الاخ ﴿يرثها﴾ أي كذلك يرث الاخت جميع ما تركت﴿إن لم يكن لها ولد﴾ ذكر، إن كان المراد بإرثه لها حيازته لجميع ما تركته، وإن كان المراد ثبوت ميراثه لها فالجملة أعمّ من يكون كلاً أو بعضاً صح تفسير الولد بما يتناول الذكر والانثى، فإن كان لها ولد ذكر فلا شيء له أو أنثى فله ما فضل عن نصيبها، ولو كانت الاخت أو الاخ من أم ففرضه السدس كما تقدم في أول السورة.

واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الاب يسقط الاخ كما يسقطه الولد الذكر لان المراد بيان سقوط الاخ مع الولد فقط هنا، وأما سقوطه مع الاب فقد تبين بالسنة كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، والاب أولى من الأخ[1].

﴿فإن كانتا﴾ أي فإن كان من يرث بالاخوة ﴿اثنتين﴾ أي أختين فصاعداً لأنها نزلت في جابر وقد مات عن أخوات سبع أو تسع والعطف على

---

(١) مسلم/ ١٦١٥ والبخاري/ ٢٤٩٦.

الشرطية السابقة والتأنيث والتثنية وكذلك الجمع في قوله وإن كانوا أخوة باعتبار الخبر ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ الاخ إن لم يكن له ولد كما سلف، وما فوق الإثنتين من الأخوات يكون لهن الثلثان بالأولى.

﴿وإن كانوا﴾ أي من يرث بالإخوة ﴿إخوة﴾ أي وأخوات فغلب الذكور على الإناث أو فيه اكتفاء بدليل ﴿رجالاً ونساء﴾ أي مختلطين ذكوراً وإناثاً ﴿فللذّكر﴾ منهم ﴿مثل حظ الأنثيين﴾ تعصيباً ﴿يبين الله لكم﴾ حكم الكلالة وسائر الأحكام كراهة ﴿أن تضلّوا﴾ هكذا حكاه القرطبي عن البصريين وبه قال في الكشاف وتبعه القاضي ورجحه.

وقال الكسائي: المعنى لئلا تضلوا، ووافقه الفراء وغيره من الكوفيين قال أبو عبيد: رويت للكسائي حديث ابن عمر لا يدعو أحدكم على ولده أن يوافق من الله ساعة إجابة فاستحسنه أي لئلا يوافق ﴿والله بكل شيء﴾ من الأشياء التي هذه الأحكام المذكورة منها ﴿عليم﴾ أي كثير العلم يعلم مصالح العباد، في المبدأ والمعاد، وفيما كلفهم من الأحكام.

وهذه السورة اشتمل أولها على كمال تنزه الله وسعة قدرته، وآخرها اشتمل على بيان كمال العلم وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والالوهية والجلال والعزة، وبهما يجب أن يكون العبدمنقاداً للتكاليف، قاله أبو حيان.

روى الشيخان عن البراء أنها آخر آية نزلت من الفرائض، وروي عن ابن عباس: آخر آية نزلت آية الربا، وآخر سورة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح وروي أنه ﷺ بعد ما نزلت سورة النصر عاش عاماً ونزلت بعدها براءة وهي آخر سورة نزلت كاملة، فعاش ﷺ بعدها ستة أشهر، ثم نزلت في طريق حجة الوداع ﴿يستفتونك﴾ الآية فسُمّيت آية الصيف لأنها نزلت في الصيف، ثم نزلت وهو واقف بعرفة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فعاش بعدهاواحداً وثمانين يوماً ثم نزلت آية الربا ثم نزلت ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة

هي مائة وثلاث وعشرون آية، قال القرطبي: هي مدنية بالاجماع، وبه قال قتادة، وعن محمد ابن كعب قال إنها نزلت في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة، وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المائدة في آخر القرآن تنزيلاً. فأحلّوا حلالها وحرّموا حرامها. ورد هذا الحديث من قول عائشة وليس هو بحديث عن رسول الله وقد ساقه ابن كثير ج ٢ ص ٢.

وعن عمر بن شرحبيل قال: لم ينسخ من المائدة شيء، وقال: الشعبي الا هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد﴾ وزاد ابن عباس ﴿فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ قال ميسرة: إن الله أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها من سور القرآن وهي قوله: ﴿والمنخنقة﴾ الى قوله: ﴿اذا حضر أحدكم الموت﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذه الآية التي افتتح الله تعالى بها هذه السورة إلى قوله ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ فيها من البلاغة ما يتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدة منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما سيتلى مما لا يحل، ومنها تحريم الصيد على المحرم، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم.

وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً ثم استثنى بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا.

﴿أوفوا﴾ يقال أوفى ووفى لغتان، والوفاء القيام بموجب العقد، وكذا الإيفاء ﴿بالعقود﴾ العهود وأصلها الرُّبوط واحدها عقد، يقال عقدت الحبل والعهد فهو يستعمل في الأجسام والمعاني، وإذا استعمل في المعاني كما هنا أفاد أنه شديد الإحكام قوي التوثيق.

قيل المراد بالعقود هي التي عقدها الله على عباده وألزمهم بها من الأحكام، وقيل هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات والأمانات

ونحوها، والأولى شمول الآية للأمرين جميعاً، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض، قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض انتهى.

والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل، قال ابن عباس: أوفوا بالعقود أي ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله، لا تغدروا ولا تنكثوا.

وعن قتادة قال: هي عقود الجاهلية الحلف، وعنه قال ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: أوفوا بعقد الجاهلية، ولا تحدثوا عقداً في الإسلام[1]، وقال ابن جريج الخطاب لأهل الكتاب: أي العقود التي عهدتها إليكم في شأن محمد ﷺ والإيمان به، وما أبعده.

وقيل هو خطاب للمؤمنين وهذا هو الظاهر، والعقود خمس: عقد اليمين وعقد النكاح وعقد العهد وعقد البيع وعقد الشركة، وزاد بعضهم وعقد الحلف، قال الطبري: وأولى الأقوال ما قاله ابن عباس، وقد تقدم لأن الله تعالى أتبعه بالبيان عما أحل لعباده وحرم عليهم فقال:

﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ الخطاب للذين آمنوا خاصة، والبهيمة اسم لكل ذي أربع من الحيوان لكن خص في التعارف بما عدا السباع والضواري من الوحوش، وإنما سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها، ومنه باب مبهم أي مغلق، وليل بهيم، وبهيمة للشجاع الذي لا

(١) صحيح الجامع/ ٢٥٥٠.

يدري من أين يؤتى وحلقة مبهمة لا يدري أين طرفاها، قال الزجاج: كل حي لا يميز فهو بهيمة.

والأنعـام اسم للإبل والبقر والغنم سميت بذلك لما في مشيها من اللين، وقيل بهيمة الأنعـام وحشيّهـا كالظباء وبقر الوحش والحمر الوحشية وغير ذلك قاله الكلبي، وحكاه ابن جرير والطبري عن قوم، وحكاه غيره عن السدي والربيع وقتادة والضحاك.

قال ابن عطية وهذا قول حسن: وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج وما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له أنعام مجموعةمعهـا،وكأن المفترس كالأسـدكل ذي ناب خارج عن حد الأنعام، ولا يدخل فيها ذوات الحوافر في قول جميع أهل اللغة، فبهيمة الأنعام هي الراعي من ذوات الأربع.

وقيل بهيمة الانعام ما لم يكن صيداً لأن الصيد يسمى وحشياً لا بهيمة، وقيل بهيمة الأنعام الأجِنّة التي تخرج عند الذبح من بطون الأنعام فهي تؤكل من دون ذكاة قاله ابن عباس[1].

وعلى القول الأول أعني تخصيص الأنعام بالإبل والبقر والغنم تكون الإضافة بيانية من إضافة الجنس إلى أخص منه، أو هي بمعنى (من) لأن البهيمة أعم فاضيف إلى أخص كثوب خز، قاله الكرخي، والأول أولى.

(١) في الحديث عن النبي ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه» رواه أبو داود: ١٣٦/٣، والترمذي ١٧٨/١، وابن ماجه: ١٠٦٧/٢ من حديث جابر وهو حديث صحيح. وفي «المغني» ٥١/١١: إذا خرج الجنين ميتاً من بطن أمه بعد ذبحها أو وجد ميتاً في بطنها، أو كانت حركته بعد خروجه كحركة المذبوح فهو حلال. روي هذا عن عمر وعلي وبه قال سعيد ابن المسيب، والنخعي، والشافعي، واسحاق وابن المنذر.

ويلحق بها ما يحل مما هو خارج عنها بالقياس بل وبالنصوص التي في الكتاب والسنة كقوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة﴾ الآية، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: يحرم كل ذي ناب من السبع ومخلب من الطير، فإنه يدلّ بمفهومه على أن ما عداه حلال، وكذلك سائر النصوص الخاصة بنوع كما في كتب السنة المطهرة.

﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ في القرآن تحريمه استثناء من قوله ﴿أحلت لكم بهيمة الانعام﴾ أي إلا مدلول ما يتلى عليكم فإنه ليس بحلال، والمتلوّ هو ما نص الله على تحريمه نحو قوله تعالى ﴿حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ وذلك عشرة أشياء أولها الميتة وآخرها ما ذبح على النصب[1].

قال ابن عباس: هذا ما حرم الله من بهيمة الانعام، ويلحق به ما صرحت السنة بتحريمه وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به إلا ما يتلى عليكم الآن، ويحتمل أن يكون المراد به في مستقبل الزمان فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ويحتمل الأمرين جميعاً.

﴿غير محلّي الصيد﴾ ذهب البصريون إلى أن قوله الأول استثناء من بهيمة الانعام وقوله: ﴿غير محلّي الصيد﴾ استثناء آخر منه أيضاً، فالإستثناآن جميعاً من بهيمة الأنعام، والتقدير أحلت لكم بهيمة الانعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون.

وقيل الاستثناء الأول من بهيمة الانعام، والثاني هو من الاستثناء الاول، ورد بأن هذا يستلزم إباحة الصيد في حال الإحرام لأنه مستثنى من المحظور

(١) وفي «القرطبي» ٣/٣٥: قوله تعالى: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ أي: يقرأ عليكم في القرآن والسنة من قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «وكل ذي ناب من السباع حرام».

فيكون مباحاً، وقيل التقدير أحلت لكم بهيمة الانعام غير مُحلّي الصيد أي الاصطياد في البر، وأكل صيده.

ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمته عملاً واعتقاداً وهو شائع في الكتاب والسنة، ونصب غير على الحال من ضمير لكم، وعليه كلام الجمهور، وذهب إليه الزمخشري وتعقب وأجيب.

ومعنى هذا التقييد أي ﴿وأنتم حرم﴾ ظاهر عند من يخص بهيمة الانعام بالحيوانات الوحشية البرية التي يحل أكلها، كأنه قال: أحل لكم صيد البر إلا في حال الإحرام، وأما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى أحلت لكم بهيمة هي الانعام حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم في الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك، فيكون المراد بهذا التقييد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرم عليهم في تلك الحال.

والمراد بالحرم من هو محرم بالحج أو العمرة أو بهما، وسمي محرماً لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء، وهكذا وجه تسمية الحرم حرماً، والإحرام إحراماً ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من الأحكام المخالفة لما كانت العرب تعتاده، فهو مالك الكل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض عليه، لا ما يقوله المعتزلة من مراعاته المصالح، قاله أبو حيان[1].

---

(١) البيت للمضرب بن كعب بن زهير بن أبي سُلمى، وهو في «مجاز القرآن» ١/١٤٥ و«السمط»: ٢/٧٩١، و«الاقتضاب»: ٤٧٥، و«شرح أدب الكاتب» للجواليقي: ٤١١ و«القرطبي»: ٦/٣٦. قال البطليوسي: سمي المضرب، لأنه شبب بامرأة، فغار أخوها لذلك، فضربه بالسيف ضربات عديدة، ويروى لشبل بن الصامت المري وبعده.

قصدت بعيني شادنٍ وتبسمت ... بعجفاء عن غرٍ لهن غروب

وأراد بالغر: أسنانها، والغروب: جمع غرب، وهو حد الأسنان. وصف أن محبوبته لقيها وهو محرم ملب، فتورع عن الكلام معها ومعنى «ميئي»: ارجعي. و«الحرام»: المحرم. و«لبيب» ها هنا بمعنى: ملب وهو نادر، لأن فعيلاً لا يستعمل بمعنى «مفعل» و«بعد» بمعنى: «مع» وقوله: «ميئي إليك» أمر بعد أمر على معنى التأكيد في إبعادها عن نفسه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٢)

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله﴾ الشعائر جمع شعيرة على وزن فعيلة، قال ابن فارس: ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن، ومنه الإشعار للهدي، والمشاعر المعالم واحدها مشعر وهي المواضع التي قد أشعرت بالعلامات، قيل المراد بها هنا جميع مناسك الحج وقيل الصفا والمروة والهدي والبدن.

والمعنى على هذين القولين: لا تُحلّوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشيء منها أو بأن تحولوا بينها وبين من أراد فعلها.

ذكر سبحانه النهي عن أن يُحلوا شعائر الله عقب ذكره تحريم صيد المحرم.

وإشعار الهدي أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه فيكون ذلك علامة هدي، وهو سنة في الابل والبقر دون الغنم، ويدل عليه أحاديث صحيحة في كتب السنة المطهرة، وقيل المراد بالشعائر هنا فرائض الله ومنه ﴿ومن يعظّم شعائر الله﴾ وقيل هي حرمات الله، وقال ابن عباس: هي أن تصيد وأنت محرم، وقيل شرائع الله ومعالم دينه، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولا بما يدل عليه السياق.

﴿ولا الشهر الحرام﴾ المراد به الجنس فيدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب. لا تحلوها بالقتال فيها. وقيل المراد به هنا شهر الحج فقط وقيل ذو القعدة وقيل رجب، ذكرهما ابن جرير، والأول أولى.

﴿ولا الهدي﴾ هو ما يهدى إلى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة، الواحدة هدية، نهاهم سبحانه عن أن يحلّوا حرمة الهدي بأن يأخذوه على صاحبه أو يحولوا بينه وبين المكان الذي يهدى إليه، وعطف الهدي على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته والتشديد في شأنه.

﴿ولا القلائد﴾ جمع قلادة وهي ما تُقلَّد به الهدي من نعل أو نحوه، وما تشد في عنق البعير وغيره، وإحلالها بأن تؤخذ غصباً، وفي النهي عن إحلال القلائد تأكيد النهي عن إحلال الهدي، وقيل المراد بالقلائد المقلّدات بها ويكون عطفه على الهدي لزيادة التوصية بالهدي، والأول أولى.

وقيل المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمنة لهم، فهو على حذف مضاف أي ولا أصحاب القلائد، وقيل أراد بالقلائد نفس القلائد فهو نهي عن أخذ لحاء شجر الحرم حتى يتقلد به طلباً للأمر، قاله مجاهد وعطاء وغيرهما.

﴿ولا آمّين البيت الحرام﴾ أي قاصديه، من قولهم أممت كذا أي قصدته، والمعنى لا تمنعوا من قصد البيت الحرام لحج أو عمرة أو ليسكن فيه، وقيل لا تحلوا قتال قوم أو أذى قوم آمّين.

وقال ابن عباس: سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتمرون ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر، وينحرون في حجهم،

فاراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنزلت هذه الآية إلى آخرها، فيكون ذلك منسوخاً بقوله ﴿أقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقوله ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقوله ﷺ: لا يحجَّن بعد العام مشرك[1] وبه قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر المفسرين.

وقال قوم الآية محكمة وهي في المسلمين، قال الواحدي: وذهب جماعة إلى أنه لا منسوخ في هذه السورة، وأن هذه محكمة وقال آخرون: لم ينسخ من ذلك شيء سوى القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلدونها من لحاء شجر الحرم.

والظاهر ما عليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية لإجماع العلماء على أن الله تعالى قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها، وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين والله أعلم.

﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ قال جمهور المفسرين: معناه يبغون الفضل والرزق والأرباح في التجارة، ويبتغون مع ذلك رضوان الله تعالى، وقيل كان منهم من يطلب التجارة ومنهم من يبتغي بالحج رضوان الله، ويكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم وفي ظنهم عند من جعل الآية في المشركين، وقيل المراد بالفضل هنا الثواب لا الأرباح في التجارة.

﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ هذا تصريح بما أفاده مفهوم ﴿وأنتم حرم﴾ أباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذي حرم لأجله وهو الإحرام، ومثله قوله تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ والأمر للاباحة لأن الله حرم الصيد على المحرم حالة الإحرام بقوله ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ وأباحه له إذا حل من إحرامه بقوله ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾

---

(١) صحيح الجامع/ ٧٥٠٨.

وإنما قلنا أمر إباحة لأنه ليس بواجب على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد،وقرىء أحللتم وهي لغة في حل، يقال أحل من إحرامه كما يقال حل.

﴿ولا يجرمنّكم﴾ تأمّل هذا النهي، فإن الذين صدوا المسلمين عن دخول مكة كانوا كفاراً حربيين، فكيف ينهى عن التعرض لهم وعن مقاتلتهم، فلا يظهر إلا أن هذا النهي منسوخ، ولم أر من نبّه عليه، أو يقال إن النهي عن التعرض لهم من حيث عقد الصلح الذي وقع في الحديبية فبسببه صاروا مؤمنين، وحينئذ فلا يجوز التعرض لهم، ولم أر من نبّه على هذا أيضاً.

قال ابن فارس: جرم وأجرم ولا جرم بمعنى قولك لا بد ولا محالة وأصلها من جرم أي كسب، وقيل المعنى لا يحملنكم قاله الكسائي وثعلب وهو يتعدى إلى مفعولين، يقال جرمني كذا على بغضك أي حملني عليه، وقال أبو عبيدة والفراء: المعنى لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا الحق إلى الباطل، والعدل إلى الجور، والجريمة والجارم بمعنى الكاسب.

والمعنى في الآية لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم أو لا يكسبنكم بغضهم اعتداءكم الحق إلى الباطل، ويقال جرم يجرم جرماً إذا قطع، قال علي بن عيسى الرماني: وهو الأصل فجرم بمعنى حمل على الشيء لقطعه من غيره، وجرم بمعنى كسب لإنقطاعه إلى الكسب، وجرم بمعنى حق لأن الحق يقطع عليه، قال الخليل: معنى لا جرم أن لهم النار لقد حق أن لهم النار.

وقال الكسائي: جرم وأجرم لغتان بمعنى واحد أي اكتسب، وقرأ ابن مسعود لا يجرمنكم بضم الياء، والمعنى لا يكسبنكم، ولا يعرف البصريون أجرم، وإنما يقولون جرم لا غير.

﴿شنآن قوم﴾ مصدر مضاف لمفعوله لا إلى فاعله كما قيل، والشنآن

البغض يقال شنئت الرجل اشنؤه شنأً وشنـآناً، كل ذلك إذا أبغضته، وقد أنكر أبو حاتم وأبو عبيدة شنآناً بسكون النون لأن المصادر إنما تأتي في مثل هذا متحركة، وخالفهما غيرهما فقال ليس هذا مصدراً، ولكنه اسم فاعل على وزن كسلان وغضبان، وقيل سماعي مخالف للقياس من وجهين، تعدى فعله وكسر عينه لأنه لا يقاس إلا في مفتوحها اللازم.

﴿أن صدوكم﴾ بفتح الهمزة مفعول لأجله أي لأن صدوكم وهي قراءة واضحة، والمعنى على قراءة الشرطية بكسر الهمزة لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصد لكم.

﴿عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي على الإعتداء عليهم بالقتل وأخذ المال، وقال النحاس: وأما إن صدوكم بكسر (إن) فالعلماء الجلّة بالنحو والحديث والنظر يمنعون القراءة بها لأشياء، منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، وكان المشركون صدوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست، فالصد كان قبل الآية.

ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البر والتقوى فقال ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي ليعن بعضكم بعضاً على ذلك، وهو يشمل كل أمر يصدق عليه أنه من البر والتقوى كائناً ما كان، قيل إن البر والتقوى لفظان لمعنى واحد وكرر للتأكيد، وقال ابن عطية: إن البر يتناول الواجب والمندوب، والتقوى يختص بالواجب، وقال الماوردي: إن في البر رضا الناس، وفي التقوى رضا الله، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته، قال ابن عباس: البر ما أمرت به والتقوى ما نهيت عنه.

﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ أي لا يعن بعضكم بعضاً على ذلك والإثم كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله، والعدوان التعدي على

الناس بما فيه ظلم، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم، ولا نوع من أنواع الظلم للناس إلا وهو داخل تحت هذا النهي لصدق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناهما، وقيل الإثم هو الكفر والعدوان هو الظلم، وقيل الإثم المعاصي والعدوان البدعة، والأول أولى.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه عن وابصة أن النبي ﷺ، قال له: البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك(١).

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي والحاكم والبيهقي عن النواس بن سمعان قال سألت النبي ﷺ عن البر والإثم، فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس(٢).

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أُمامة أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الإثم فقال: ما حاك في نفسك فدعه، قال فما الإيمان، قال من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن(٣).

﴿واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب﴾ أمر سبحانه عباده بالتقوى وتوعد من خالف ما أمر به فتركه أو خالف ما نهى عنه ففعله، ففيه تهديد عظيم ووعيد شديد.

---

(١) صحيح الجامع ٢٩٧٨.
(٢) مسلم ٢٥٥٣.
(٣) مسند أحمد ٣٨٢/٥.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾

﴿حرّمت عليكم﴾ هذا شروع في تفصيل المحرمات التي أشار إليها سبحانه بقوله ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ بالإجمال، وحاصل ما ذكر في هذا البيان أحد عشر شيئاً كلها من قبيل المطعوم إلا الأخير، وهو الاستقسام بالازلام.

﴿الميتة﴾ المراد البهيمة التي تموت حتف أنفها أي أكلها ﴿والدم﴾ وما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحاً كما تقدم، حملاً للمطلق على المقيد، وقد ورد في السنة تخصيص الميتة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدّمان فالكبد والطحال[1] أخرجه الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وفي إسناده مقال، ويقويه حديث وهو الطهور ماؤه والحل ميتته»[2] وهو عند أحمد وأهل السنن وغيرهم وصححه جماعة منهم ابن خزيمة وابن حبان، وقد أطال الشوكاني الكلام عليه في شرحه للمنتقى.

﴿ولحم الخنزير﴾ قيل كله نجس، وإنما خص اللحم لأنه معظم المقصود

(١) الدارقطني ٤/٢٧٢.
(٢) صحيح الجامع ٦٩٢٥.

بالأكل ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ما ذكر على ذبحه أو عند ذبحه غير اسم الله تعالى، والإهلال رفع الصوت لغير الله كان يقول باسم اللات والعزى ونحو ذلك، فحرمه الله بهذه الآية وبقوله ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾.

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم في الكلام على هذه الآية: إن ظاهرها أنه ما ذبح لغير الله سواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه وقال فيه باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فإن عبادة الله بالصلاة والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، والعبادة لغير الله أعظم من الاستعانة بغير الله، فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه لحرم وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن تجتمع في الذبيحة مانعات، ومن هذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح ١ هـ.

وكلامه في هذا الباب واسع جداً.. وكذلك كلام غيره من أهل العلم، ولا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه في سورة البقرة من أحكام هذه الأربعة ففيه ما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره.

﴿والمنخنقة﴾ هي التي تموت بالخنق، وهو حبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل رأسها في حبل أو بين عودين أو بفعل آدمي أو غيره، وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها، والفرق بينهما أن الميتة تموت بلا سبب أحد والمنخنقة تموت بسبب الخنق.

﴿والموقوذة﴾ هي التي تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية

يقال وقذه يقذه وقذا فهو وقيذ، والوقذ شدة الضرب حتى يسترخي ويشرف على الموت وبابه وعد، وشاة موقوذة قتلت بالخشب، وفلان وقيذ أي مثخن ضرباً، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى تموت ثم يأكلونها.

وقال ابن عبد البر: واختلف العلماء قديماً وحديثاً في الصيد بالبندق والحجر والمعراض، ويعني بالبندق قوس البندقية، وبالمعراض السهم الذي لا ريش له أو العصا التي رأسها محدود، قال: فمن ذهب إلى أنه وقيذ لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته على ما روى عن ابن عمر وهو قول مالك وأبي حنيفة أصحابه والثوري والشافعي، وخالفهم الشاميون في ذلك.

قال الأوزاعي: في المعراض كُلْه خزق أو لم يخزق فقد كان أبو الدرداء وفضالة بن عبيد وعبد الله بن عمر ومكحول لا يرون به بأساً، قال ابن عبد البر: هكذا ذكر الأوزاعي عن عبد الله بن عمر، والمعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع، قال: والأصل في هذا الباب والذي عليه العمل وفيه الحجة حديث عديّ بن حاتم وفيه ما أصاب بغرضه فلا تأكل فإنه وقيذ انتهى.

﴿قلت﴾ والحديث في الصحيحين وغيرهما عن عدي قال: قلت يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب فقال: إذا رميت بالمعراض فخزق فكله وإن أصاب بعرضة فإنما هو وقيذ فلا تأكله[1]، فقد اعتبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخزق وعدمه، فالحق أنه لا يحل إلا ما خزق لا ما صدم، فلا بد من التذكية قبل الموت وإلا كان وقيذاً.

---

(١) مسلم ١٩٢٩؛والبخاري ١٤١.

قال الشوكاني: وأما البنادق المعروفة الآن وهي بنادق الحديد التي يجعل فيها البارود والرصاص ويرمى بها فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المائة العاشرة من الهجرة، وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حياً، والذي يظهر لي أنه حلال لأنها تخزق وتدخل في الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح السابق: إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، فاعتبر الخزق في تحليل الصيد انتهى.

والحاصل أن جملة ما يحل الصيد به من الآلات هذه البنادق الجديدة التي يرمى بها بالبارود والرصاص، فإن الرصاصة يحصل بها خزق زائد على خزق السهم والرمح والسيف، ولها في ذلك عمل يفوق كل آلة، ويظهر لك ذلك بأنك لو وضعت ريشا أو نحوه فوق رماد دقيق أو تراب دقيق وغرزت فيه شيئاً يسيراً من أصلها ثم ضربتها بالسيف المحدد أو نحو ذلك من الآلات لم يقطعها وهي على هذه الحالة، ولو رميتها بهذه البنادق لقطعتها.

فلا وجه لجعلها قاتلة بالصدم لا من عقل ولا من نقل من النهي عن أكل ما رمي بالبندقية، كما في رواية من حديث عدي بن حاتم عند أحمد بلفظ ولا تأكل من البندقة إلا ما ذكيت، فالمراد بالبندقة هنا هي التي تتخذ من طين فيرمى بها بعد أن تيبس.

وفي صحيح البخاري قال ابن عمر في المقتولة بالبندقة تلك الموقوذة، وكرهه سالم والقاسم ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن، وهكذا ما صيد بحصى الخذف فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله بن المغفل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الخذف وقال: إنها لا تصيد

صيداً ولا تنكيء عدواً لكنها تكسر السن وتفقأ العين[1]، ومثل هذا ما قتل بالرمي بالحجارة غير المحدودة إذا لم تخزق فإنه وقيذ لايحل، وأما إذا خزقت حل.

﴿والمتردّية﴾ هي التي تتردى من علو كالسطح والجبل ونحوهما إلى سفل فتموت من غير فرق بين أن تردى من جبل أو بئر أو مدفن أو غيرها، والتردي مأخوذ من الردى وهو الهلاك، وسواء تردت بنفسها أو ردّاها غيرها.

﴿والنطيحة﴾ هي فعيلة بمعنى مفعولة وهي التي تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية، وقال قوم: إن فعيلة بمعنى فاعلة لأن الدابتين تتناطحان فتموتان وقال نطيحة ولم يقل نطيح مع أنه قياس فعيل لأن لزوم الحذف مختص بما كان من هذا الباب صفة لموصوف مذكور، فإن لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية، وفي القاموس نطحه كمنعه وضربه أصابه بقرنه.

﴿وما أكل السبع﴾ أي ما افترسه منه ذو ناب كالأسد والنمر والذئب والفهد والضبع ونحوها، والمراد هنا ما أكل بعضه السبع لأن ما أكله السبع كله قد فني فلا حكم له، وإنما الحكم لما بقي منه، والسبع اسم يقع على كل حيوان له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترس بنابه، ومن العرب من يخص اسم السبع بالأسد، وكانت العرب إذا أكل السبع شاة ثم خلصوها منه أكلوها وإن ماتت ولم يذكوها.

﴿إلا ما ذكّيتم﴾ استثناء متصل عند الجمهور وهو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقاً وفيه حياة، وقال المدنيون وهو المشهور من مذهب مالك وهو أحد قولي الشافعي أنه إذا بلغ السبع منها إلى ما لا حياة معه فإنها لا تؤكل.

---

(١) مسلم ١٩٥٤، والبخاري ٢٠٤٦.

وحكاه في الموطأ عن زيد بن ثابت وإليه ذهب إسماعيل القاضي فيكون الاستثناء على هذا منقطعاً أي حرمت عليكم هذه الأشياء لكن ما ذكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم، والأول أولى، والذكاة في كلام العرب الذبح، قاله قطرب وغيره.

وأصل الذكاة في اللغة التمام أي تمام استكمال القوة، والذكاء حدة القلب وسرعة الفطنة، والذكاة ما تذكى منه النار، ومنه أذكيت الحرب والنار أوقدتها، وذكاء اسم الشمس، والمراد هنا إلا ما ادركتم ذكاته على التمام، والتذكية في الشرع عبارة عن انهار الدم وفري الاوداج في المذبوح، والنحر في المنحور، والعقر في غير المقدور، مقروناً بالقصد لله وذكر اسمه عليه.

وأما الآلة التي يقع بها الذكاة فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم وفرى الاوداج فهو آلة للذكاة ما خلا السن والعظم، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة.

﴿و﴾ حرم ﴿ما ذبح على النصب﴾ أي ماقصد بذبحه النصب، ولم يذكر اسمها عند ذبحه بل قصد تعظيمها بذبحه فـ ﴿على﴾ بمعنى اللام فليس هذا مكرراً مع ما سبق، إذ ذاك فيما ذكر عند ذبحه اسم الصنم، وهذا قصد بذبحه تعظيم الصنم من غير ذكره، وقال ابن فارس: النصب حجر كان ينصب فيعبد وتصب عليه دماء الذبائح، والنصاب حجارة تنصب حوالي شفير البئر فتجعل عضائد، وقيل النصب جمع واحده نصاب كحمار وحمر، وقرأ الجحدري كالحبل والجمل والجمع أنصاب كالأحبال والأجمال.

قال مجاهد: هي حجارة كانت حوالي مكة يذبحون عليها، وقيل كان حول الكعبة ثلثمائة وستون حجراً منصوبة قال ابن عباس: هن الأصنام المنصوبة، قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من

البيت ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال فأنزل الله ﴿وما ذبح على النصب﴾.

والمعنى والنية بذلك تعظيم النصب لا أن الذبح عليها غير جائز ،ولهذا قيل :إن على بمعنى اللام أي لأجلها، قاله قطرب، وهو على هذا داخل فيما أُهلَّ به لغير الله وخص بالذكر لتأكيد تحريمه، ولدفع ما كانوا يظنونه من أن ذلك لتشريف البيت وتعظيمه.

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ وهي قداح الميسر، واحدها زلم. والأزلام للعرب ثلاثة أنواع أحدها مكتوب فيه افعل والآخر مكتوب فيه لا تفعل والثالث مهمل لا شيء عليه فيجعلها في خريطة معه، فإذا فعل شيء أدخل يده وهي متشابهة فأخرج واحداً منها فإن خرج الأوّل فعل ماعزم عليه، وإن خرج الثاني تركه وإن خرج الثالث أعاد الضرب حتى يخرج واحد من الأولين.

وإنما قيل لهذا الفعل استقسام لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق وما يريدون فعله كما يقال استسقى أي استدعى السقيا،فالاستقسام طلب القسم والنصيب والحكم من القداح، وجملة قداح الميسر عشرة وكانوا يضربون بها في المقامرة.

وقيل إن الأزلام كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها، وقيل هي النرد وقيل الشطرنج، وانما حرم الله الاستقسام بالازلام لأنه تعرض لدعوى علم الغيب وضرب من الكهانة، قال الزجاج: لا فرق بين هذا وبين قول المنجمين لا تخرج من أجل نجم كذا واخرج لطلوع نجم كذا، وأنكر ذلك في شرح التأويلات بما لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿ذلكم﴾ اشارة إلى الاستقسام بـالأزلام خاصة أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا ﴿فسق﴾ لأنه وإن أشبه القرعة فهو دخول في علم الغيب وذلك حرام لقوله تعالى ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ وقال ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ والفسق الخروج من الحد، وقد تقدم بيان معناه، وفي هذا وعيد شديد لأن الفسق هو أشد الكفر لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الايمان والكفر.

﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ المراد باليوم الـذي نزلت فيـه الآيـة هو يوم فتح مكة لثمان بقين من رمضان سنة تسع، وقيل سنة ثمان، وقيل إن ذلك هو يوم عرفة فنزلت هذه الآية والنبي صلى الله عليه وآله وسلم واقف بعرفة، وقيل المراد باليوم الحاضر وما يتصل به ولم يرد يوماً معيناً أي حصل لهم اليأس من ابطال أمر دينكم وأن يردوكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون، واليأس انقطاع الرجاء وهو ضد الطمع.

﴿فلا تخشوهم﴾ أي لا تخافوا الكفار أن يغلبوكم أو يبطلوا دينكم فقد زال الخوف عنكم بإظهار دينكم ﴿واخشون﴾ فأنا القادر على كل شيء إن نصرتكم فلا غالب لكم، وإن خذلتكم لم يستطع غيري أن ينصركم.

﴿اليوم﴾ المراد يوم الجمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع، هكذا ثبت في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب، وقيل نزلت في يوم الحج الأكبر، وقال ابن عباس: نزلت في يوم عيدين، في يوم جمعة وعرفة أخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

﴿أكملت لكم دينكم﴾ أي جعلته كاملاً غير محتاج إلى إكمال لظهوره على الأديان كلها وغلبته لها، ولكمال أحكامه التي يحتاج المسلمون إليها من الحلال والحرام والمشتبه، والفرائض والسنن والحـدود والأحكام ومـا تضمنه

الكتاب والسنة من ذلك، ولا يخفى ما يستفاد من تقديم قوله ﴿لكم﴾.

قال الجمهور: المراد بالإكمال هنا نزول معظم الفرائض والتحليل والتحريم قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا وآية الكلالة ونحوهما، وقيل لم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض، هذا معنى قول ابن عباس.

قال سعيد بن جبير وقتادة: معناه أي حيث لم يحج معكم مشرك وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين،وقيل إكماله أنه لا يزول ولا ينسخ ويبقى إلى آخر الدهر، وقيل المعنى أنهم آمنوا بكل نبي وكل كتاب ولم يكن هذا لغير هذه الأمة، وقال ابن الانباري: اليوم أكملت شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت.

وهذه أقوال ضعيفة ولا معنى للإكمال إلا وفاء النصوص بما يحتاج إليه الشرع إما بالنص على كل فرد فرد أو باندراج ما يحتاج إليه تحت العمومات الشاملة.

ومما يؤدي ذلك قوله تعالى ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾ وقوله ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها(١) وجاءت نصوص الكتاب العزيز بإكمال الدين وبما يفيد هذا المعنى ويصحح دلالته ويؤيد برهانه.

ويكفي في دفع الرأي وأنه ليس من الدين قول الله تعالى هذا فإنه إذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض إليه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه لأنه إن كان من الدين في

(١) الموطأ الحدود باب ١٠.

اعتقادهم فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه ردّ للقرآن، وإن لم يكن من الدين فأي فائدة في الإشتغال بما ليس منه وما ليس منه فهو رد بنص السنة المطهرة كما ثبت في الصحيح.

وهذه حجة قاهرة ودليل باهر لا يمكن أهل الرأي أن يدفعوه بدافع أبداً، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي وترغم به آنافهم وتدحض به حجتهم فقد أخبرنا الله في محكم كتابه أنه أكمل دينه ولم يمت رسول الله ﷺ إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل، فمن جاء بشيء من عند نفسه وزعم أنه من ديننا قلنا له إن الله أصدق منك، ومن أصدق من الله قيلاً، إذهب لا حاجة لنا في رأيك.

وليت المقلِدة فهموا هذه الآية حق الفهم حتى يستريحوا ويريحوا، وقد أخبرنا في محكم كتابه أن القرآن أحاط بكل شيء فقال ما فرطنا في الكتاب من شيء وقال ﴿تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة﴾ ثم أمر عباده بالحكم بكتابه فقال ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ وقال لتحكم بين الناس بما أراك وقال ﴿إن الحكم إلا لله يقصّ الحق وهو خير الفاصلين﴾ وقال ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الكافرون﴾ وفي آية هم الظالمون وفي أخرى هم الفاسقون.

وأمر عباده أيضاً في محكم كتابه باتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وهذه أعم آية في القرآن وأبينها في الأخذ بالسنة المطهرة، وقال ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز وقال ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ وقال ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

والاستكثار من الاستدلال على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله لا يأتي بعائدة ولا فائدة زائدة فليس أحد من المسلمين يخالف في ذلك، ومن أنكره فهو خارج عن حزب المسلمين.

إنّما أوردنا هذه الآيات الكريمة والبينات العظيمة تليناً لقلب المقلّد الذي قد جمد وصار كالجلمد فإنه إذا سمع مثل هذه الأوامر القرآنية ربما امتثلها وأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ طاعة لأوامره، فإن هذه الطاعة وإن كانت معلومه لكل مسلم لكن الإنسان قد يذهل عن القوارع الفرقانية والزواجر المحمدية، فإذا ذُكّر بها ذكر، ولا سيما من نشأ على التقليد وأدرك سلفه ثابتين عليه غير متزحزحين عنه فإنه يقع في قلبه أن دين الإسلام هو هذا الذي هو عليه، وما كان مخالفاً له فليس من الإسلام في شيء، فإذا راجع نفسه رجع.

ولهذا تجد الرجل إذا نشأ على مذهب من هذه المذاهب ثم سمع قبل ان يتمرن بالعلم ويعرف ما قاله الناس خلاف ذلك المألوف استنكره وأباه قلبه، ونفر عنه طبعه، وقد رأينا وسمعنا من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر. ولكن إذا وازن العاقل بعقله بين من اتبع أحد أئمة المذاهب في مسئلة من مسائله التي رواها عنه المقلد، ولا مستند لذلك العالم فيها بل قالها بمحض الرأي لعدم وقوفه على الدليل، وبين من تمسك في تلك المسئلة بخصوصها بالدليل الثابت في القرآن أو السنة أفاده العقل بأن بينهما مسافات تنقطع فيها أعناق الابل لا جامع بينهما لأن من تمسك بالدليل أخذ بما أوجب الله عليه الأخذ به، واتبع ما شرعه الشارع لجميع الأمة أولها وآخرها وحيّها وميتها.

والعالم يمكنه الوقوف على الدليل من دون أن يرجع إلى غيره، والجاهل يمكنه الوقوف على الدليل بسؤال علماء الشريعة واسترواء النص، وكيف حكم الله في محكم كتابه أو على لسان رسوله في تلك المسئلة، فيفيدونه النص إن

كان ممن يعقل الحجة إذا دل عليها أو يفيدونه مضمون النص بالتعبير عنه بعبارة يفهمها، فهم رواة وهو مستور، وهذا عامل بالرواية لا بالرأي، والمقلد عامل بالرأي لا بالرواية لأنه يقبل قول الغير من دون أن يطالبه بحجة، وذلك في سؤاله يطالب بالحجة لا بالرأي فهو قابل لرواية الغير لا لرأيه، وهما من هذه الحيثية متقابلان، فانظر كم الفرق بين المنزلتين.

والكلام في ذلك يطول ويستدعي استغراق الأوراق الكثيرة وهو مبسوط في مواطنه، وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ وبالله التوفيق.

وفي الآية دلالة على بطلان القياس، وعلى أنه تعالى قد نص على الحكم في جميع الوقائع إذ لو بقي بعضها غير مبيّن الحكم لم يكن الدين كاملا، وإذا حصل النص في جميع الوقائع فالقياس إن كان على وفق النص كان عبثاً، وإن كان على خلافه كان باطلاً، وقد أجاب مثبتو القياس عن هذا بما لا يكفي في الجواب والله أعلم بالصواب.

﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ بإكمال الدين المشتمل على الأحكام وبفتح مكة وقهر الكفار وإياسهم عن الظهور عليكم كما وعدتكم بقولي ولأتم نعمتي عليكم، وقال ابن عباس: حكم لهم بدخول الجنة.

﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي أخبرتكم برضائي به لكم، فالجملة مستأنفة لا معطوفة على ﴿أكملت﴾ وإلا كان مفهوم ذلك أنه لم يرض لهم الإسلام ديناً قبل ذلك، وليس كذلك فإنه سبحانه لم يزل راضياً لأمة نبيه ﷺ بالإسلام، فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره.

ويحتمل أن يريد رضيت لكم الإسلام الذي أنتم عليه اليوم ديناً باقياً إلى

انقضاء أيام الدنيا، وديناً منتصب على التمييز، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، قال ابن عباس: أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه فلا ينقص أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر إنكم تقرؤن آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال وأي آية قالوا ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ قال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة، أشار عمر إلى أن ذلك اليوم يوم عيد لنا.

قال ابن عباس: فمكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أحداً وثمانين يوماً ثم قبضه الله إليه، أخرجه البيهقي ومات ﷺ يوم الأثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل لأثنتي عشرة ليلة وهو الأصح سنة احدى عشرة من الهجرة.

قال ابن عباس: كان في ذلك اليوم خمسة أعياد يوم الجمعة ويوم عرفة وعيد لليهود وعيد للنصارى وعيد للمجوس، ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم واحد قبله ولا بعده.

﴿فمن اضطر في مخمصة﴾ هذا متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض أي من دعته الضرورة في مخمصة أي مجاعة إلى أكل الميتة وما بعدها من المحرمات، والخمص ضمور البطن، ورجل خميص وخمصان، وامرأة خميصة ومنه أخمص القدم لدقتها وهي صفحة محمودة في النساء، ويستعمل كثيراً في الجوع، ووقعت هذه الآية هنا وفي البقرة والأنعام والنحل ولم يذكر جواب الشرط إلا في البقرة فيقدر في غيرها وهو ﴿فلا إثم عليه﴾.

﴿غير متجانف لإثم﴾ الجنف الميل والإثم الحرام، أي حال كون المضطر في مخمصة غير مائل لإثم وهو بمعنى غير باغ ولا عاد وكل مائل فهو متجانف وجنف، وقرىء متجنّف وهو أن يأكل فوق الشبع وهو قول فقهاء العراق، قال ابن عطية: وهو أبلغ من متجانف، وقيل المعنى غير متعرض لمعصية في مخمصة وهو قول فقهاء الحجاز، وقال ابن عباس: غير متعمّد لإثم(١).

﴿فإن الله غفور﴾ له ﴿رحيم﴾ به لا يؤاخذه بما ألجأته إليه الضرورة في الجوع مع عدم ميله بأكل ما حرم عليه إلى الإثم بأن يكون باغياً على غيره أو متعدياً لما دعت اليه الضرورة حسبما تقدم.

وهذه الآية من تمام ما تقدم ذكره في المطاعم التي حرمها الله تعالى ومتصلة بها، ومن قوله ﴿ذلكم فسق﴾ إلى هنا اعتراض وقع بين الكلامين، والغرض منه تأكيد ما تقدم ذكره في معنى التحريم لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل.

---

(١) وفي «المسند» ٨/١٧٠ و «صحيح ابن حبان» عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته» لفظ ابن حبان. [قلت: وفي «المجمع» ٣/١٦٢ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار والطبراني في «الأوسط» واسناده حسن] وفي لفظ لأحمد ٧/٢٣٨ «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الاثم مثل جبال عرفة». ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً، بحسب الأحوال.

وقد روى الامام أحمد ٥/٢١٨ عن أبي واقد الليثي، أنهم قالوا: يا رسول الله إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطحبوا، ولم تغتبقوا، ولم تحتفئوا بقلاً، فشأنكم بها». تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾ هذا شروع في بيان ما أحل الله لهم من الطعام بعد بيان ما حرمه الله عليهم، والمعنى أي شيء أحل لهم او ما الذي احل لهم من المطاعم إجمالاً ومن الصيد ومن طعام أهل الكتاب ومن نسائهم.

﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ وهي مايستلذ أكله ويستطيبه أصحاب الطباع السليمة مما أحله الله لعباده أو مما لم يرد نص بتحريمه من كتاب أو سنة أو إجماع عند من يقول بحجيته ولا قياس كذلك، وقيل هي الحلال وقد سبق الكلام في هذا، وقيل الطيبات الذبائح أي ما ذبح على اسم الله عز وجل لأنها طابت بالتذكية وهو تخصيص للعام بغير مخصص، والسبب والسياق لا يصلحان لذلك.

والعبرة في الاستطابة والاستلذاذ بأهل المروءة والاخلاق الجميلة من العرب فإن أهل البادية منهم يستطيبون أكل جميع الحيوانات فلا عبرة بهم لقوله تعالى ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ فإن الخبيث غير مستطاب فصارت هذه الآية الكريمة نصاً فيما يحل ويحرم من الاطعمة.

﴿وما علّمتم من الجوارح﴾ أي أحل لكم صيد ما علمتم، وقرأ ابن عباس ومحمد بن الحنفية علمتم بضم العين وكسر اللام أي علمتم من أمر الجوارح والصيد بها.

قال القرطبي: وقد ذكر بعض من صنف في أحكام القرآن أن الآية تدل

على أن الاباحة تناولت ما علمنا من الجوارح وهو ينظم الكلب وسائر جوارح الطير، وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع فدل على جواز بيع الكلب والجوارح والانتفاع بها بسائر وجوه المنافع إلا ما خصه الدليل، وهو الأكل، والجوارح الكواسب من الكلاب، وسباع الطير.

قال: أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود وعلمه مسلم ولم يأكل من صيده الذي صاده وأثّر فيه بجرح أو تنييب وصاد به مسلم، وذكر اسم الله عند إرساله، أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف، فإن انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف.

فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبه ذلك وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير فجمهور الأمة على أن كل ماصاد بعد التعليم فهو جارح كاسب، يقال جرح فلان واجترح إذا اكتسب، ومنه الجارحة لأنها يكتسب بها، ومنه اجتراح السيئآت، ومنه قوله تعالى ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ وقوله ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئآت﴾.

﴿مكلّبين﴾ المكلب معلم الكلاب لكيفية الاصطياد ومؤدبها ومضريها بالصيد، وخص معلم الكلاب وإن كان معلم سائر الجوارح مثله لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب. ولم يكتف بقوله ﴿وما علّمتم من الجوارح﴾ مع أن التكليب هو في اللغة التعليم، لقصد التأكيد لما لابد منه من التعليم، وفسره في الجلالين بالإرسال فليتأمل مستنده في هذا التفسير، والتفاسير فسرته بالتعليم.

وفائدة التقييد المبالغة في التعليم لما أن اسم المكلّب لا يقع إلا على التحرير في علمهم، وقيل إن السبع يسمى كلباً فيدخل فيه كل سبع يصاد به لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، قال في

الكشاف فأكله الأسد، قال الطيبي: هذا حديث موضوع قال الخفاجي وليس كما قال بل هو حديث صحيح أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث أبي نوفل قال الحاكم وهو صحيح الإسناد.(١).

﴿قلت﴾ وليس لحكم الحاكم بالصحة حكم عند الحفاظ ما لم يحكم ناقد منهم بصحته فلينظر في سنده وقيل إن هذه الآية خاصة بالكلاب، وقد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال ما يصاد بالبزاة وغيرها من الطير فما أدركت ذكاته فهو لك حلال وإلا فلا تطعمه.

قال ابن المنذر: وسئل أبو جعفر عن البازي هل يحل صيده قال: لا إلا أن تدرك ذكاته، وقال الضحاك والسدي وما علمتم من الجوارح مكلبين هي الكلاب خاصة، فإن كان الكلب الأسود بهيماً فكرّه صيده الحسن وقتادة والنخعي، وقال أحمد: ما أعرف أحداً يرخص فيه إذا كان بهيماً، وبه قال ابن راهويه، فأما عامة أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلم.

واحتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: الكلب الأسود شيطان(٢)، أخرجه مسلم وغيره، والحق أنه يحل صيد كل ما يدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب وغيره، وبين الأسود وغيره، وبين الطير وغيره، ويؤيد هذا أن سبب نزول الآية سؤال عدي ابن أبي حاتم عن صيد البازي.

﴿تعلّمونهن﴾ أي تعلمون الجوارح الاصطياد وتؤدبوهن، والجملة مستأنفة أو حالية ومنعه أبو البقاء أو اعتراضيه ﴿مما﴾ أي من آداب الصيد

(١) المستدرك ٢/ ٥٣٩.
(٢) مسلم/ ٥١٠.

﴿علّمكم الله﴾ أي مما أدركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذي تهتدون به إلى تعليمها وتدريبها حتى تصير قابلة لإمساك الصيد عند إرسالكم لها.

﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ الفاء للتفريع والجملة متفرعة على ما تقدم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح، ومن في (مما) للتبعيض لأن بعض الصيد لا يؤكل كالجلد والعظم والدم والفرث وما أكله الكلب ونحوه، وفيه دليل على أنه لابد أن يمسكه على صاحبه فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه، في الحديث كما الثابت في الصحيح.

وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحل أكل الصيد الذي يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال.

وقال عطاء بن أبي رباح والأوزاعي وهو مروي عن سلمان الفارسي وسعد ابن أبي وقاص وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وروي عن علي وابن عباس والحسن البصري والزهري وربيعة بن مالك والشافعي في القديم أنه يؤكل صيده.

ويرد عليهم قوله تعالى ﴿مما أمسكن عليكم﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعدي بن حاتم: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك(١)، وهو في الصحيحين وغيرهما، وفي لفظ لهما فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه.

وأما ما أخرجه أبو داود بإسناد جيد من حديث أبي ثعلبة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه(٢)، وقد أخرجه أيضاً بإسناد جيد من حديث عمرو بن

(١) مسلم ١٩٢٩.
(٢) صحيح الجامع ٣١١.

شعيب عن أبيه عن جده، وأخرجه أيضاً النسائي[1]، فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن أبي حاتم، وإن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار وجاع فأكل من الصيد لجوعه لا لكونه أمسكه على نفسه فإنه لا يؤثّر ذلك ولا يحرم به الصيد، وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني وحديث عمرو بن شعيب، وهذا جمع حسن.

وقال آخرون أنه إذا أكل الكلب منه حرم لحديث عدي بن حاتم، وإن أكل غيره لم يحرم للحديثين الآخرين وقيل يحمل حديث أبي ثعلبة على ما إذا أمسكه وخلاه، ثم عاد فأكل منه، وقد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح ولم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد، قالوا وحديث عدي بن حاتم أرجح لكونه في الصحيحين، وقد قرر الشوكاني هذا المسلك في شرحه للمنتقى بما يزيد الناظر فيه بصيرة.

﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ الضمير في عليه يعود إلى ﴿ما علّمتم﴾ أي سموا عليه عند إرساله أو لما أمسكن عليكم أي سموا عليه إذا أردتم ذكاته، وقيل يعود على المصدر المفهوم من الفعل وهو الأكل كأنه قيل اذكروا اسم الله على الأكل وفيه بعد.

وقد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجارح واستدلوا بهذه الآية، ويؤيده حديث عدي بن حاتم الثابت في الصحيحين وغيرهما بلفظ: إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله[2].

وقال بعض أهل العلم ان المراد التسمية عند الأكل، قال القرطبي: وهو

---

(١) البخاري/ ١٤١.
(٢) زاد المسير/ ٢٩٤.

الأظهر، واستدلوا بالأحاديث التي فيها الإرشاد إلى التسمية وهذا خطأ فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد وقّت التسمية بإرسال الكلب وإرسال السهم. ومشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر ومسئلة غير هذه المسئلة، فلا وجه لحمل ما ورد في الكتاب والسنة هنا على ما ورد في التسمية عند الأكل، ولا ملجيء إلى ذلك.

وفي لفظ في الصحيحين من حديث عدي: إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ فكل[1]، وقد ذهب جماعة إلى أن التسمية شرط، وذهب آخرون إلى أنها سنة فقط، وذهب جماعة إلى أنها شرط على الذاكر لا الناسي، وهذا أقوى الأقوال وأرجحها ﴿واتقوا الله﴾ فيما أحل لكم وحرم عليكم واحذروا مخالفة أمره في هذا كله ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي حسابه سبحانه سريع إتيانه وكل آت قريب، وفيه تخويف لمن خالف أمره وفعل ما نهى عنه.

(١) عن جابر قال: امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب -حتى إن المرأة تقدم من البادية بكلبها فتقتله، ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتلها وقال: «عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فانه شيطان» وروى أبو داود ١٤٤/٣، والدارمي ٩٠/٢ عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم».
هذا تحقيق المذهب وروى البخاري ٩٢/٢١ «بشرح العيني» ومسلم ١٥٣١/٣ عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إني أرسل كلبي وأسمي. قال: «إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ، فقتل، فكل، وإن أكل منه فلا تأكل فانما أمسك على نفسه». قلت: إني أرسل كلبي فأجد معه كلباً آخر، لا أدري أيهما أخذ؟ قال: «فلا تأكل فانما سميت على كلبك، ولم تسم على غيره».

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿اليوم أحلّ لكم الطيّبات﴾ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى وهي قوله: ﴿أحل لكم الطيبات﴾ وقد تقدم بيان الطيبات، ويحتمل أن يراد باليوم اليوم الذي أنزلت فيه أو اليوم الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿اليوم يئس، واليوم أكملت﴾ وقيل ليس المراد باليوم يوماً معيناً.

وقال أبو السعود: المراد بالأيام الثلاثة وقت واحد، وإنما كرر للتأكيد ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حسن تكريره، وقال القرطبي: أعاد ذكر اليوم تأكيداً، وقيل أشار بذكر اليوم إلى وقت محمد، كما تقول هذه أيام فلان أي هذا أوان ظهوركم انتهى، وفيه بعد.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم﴾ بخلاف الذين تمسكوا بغير التوراة والإنجيل كصحف إبراهيم فلا تحل ذبائحهم، والحاصل أن حل الذبيحة تابع لحل المناكحة على التفصيل المقرر في الفروع، والطعام اسم لما يؤكل ومنه الذبائح وذهب اكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبائح، ورجحه الخازن.

وفي هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وإن كانوا لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾

وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال وإن ذكر اليهودي على ذبيحته اسم عزير، وذكر النصراني على ذبيحته اسم المسيح، وإليه ذهب أبو الدرداء وعبادة ابن الصامت وابن عباس والزهري وربيعة والشعبي ومكحول.

وقال علي وعائشة وابن عمر: إذا سمعت الكتابي يسمي غير الله فلا تأكل، وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿وما أهلّ به لغير الله﴾.

وقال مالك: إنه يكره ولا يحرم، وسئل الشعبي وعطاء عنه فقالا يحل فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله، وأما مع عدم العلم فقد حكى الطبري وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله صلى الله عليه وآله وسلم من الشاة المصلية التي أهدتها إليه اليهودية وهو في الصحيح، وكذلك جراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر وعلم بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الصحيح أيضاً وغير ذلك.

والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى، وقيل ومن دخل في دينهم من سائر الأمم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأما من دخل بعده وهم متنصّرو العرب من بني تغلب فلا تحل ذبيحتهم، وبه قال علي وابن مسعود ومذهب الشافعي أن من دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن فإنه لا تحل ذبيحته.

وسئل ابن عباس عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس بها ثم قرأ ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وبه قال الحسن وعطاء بن أبي رباح والشعبي

وعكرمة وهو مذهب أبي حنيفة.

وأما المجوس فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، وكذا سائر أهل الشرك من مشركي العرب وعبدة الأصنام ومن لا كتاب له، وخالف ذلك أبو ثور وأنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد: أبو ثور كآسمه في هذه المسئلة.

وكأنه تمسك بما يروى عن النبي ﷺ مرسلاً أنه قال في المجوس «سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب» ولم يثبت بهذا اللفظ، وعلى فرض أن له أصلاً ففيه زيادة تدفع ما قاله وهي قوله «غير آكلي ذبائحهم ولا ناكحي نسائهم» وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة له بفن الحديث من المفسرين والفقهاء، ولم يثبت الأصل ولا الزيادة بل الذي ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر.

وأما بنو تغلب فكان علي بن أبي طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب، وكان يقول إنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر، وهكذا سائر العرب المتنصرة كتنوخ وجذام ولخم وعاملة ومن أشبههم، قال ابن كثير[1] وهو قول غير واحد من السلف والخلف.

وروي عن سعيد بن المسيب والحسن البصري أنهما كانا لا يريان بأساً بذبيحة نصارى بني تغلب، وقال القرطبي وقال جمهور الأمة: إن ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو من غيرهم وكذلك اليهود قال ولا خلاف بين العلماء أن ما لا يحتاج الى ذكاة كالطعام يجوز أكله، وزعم قوم أن هذه الآية اقتضت إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً وإن ذكروا غير اسم الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠.

فيكون هذا ناسخاً لقوله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ وليس الأمر كذلك ولا وجه للنسخ.

﴿وطعامكم حل لهم﴾ أي وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب، وفيه دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمجازاة، وإخبار المسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعواض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية، وهذا يدل على أنهم مخاطبون بشريعتنا.

قال الزجاج: معناه ويحل لكم أن تطعموهم من طعامكم، فجعل الخطاب للمؤمنين على معنى أن التحليل يعود على إطعامنا إياهم لا إليهم لأنه لا يمتنع أن يحرم الله تعالى أن نطعمهم من ذبائحنا، وقيل: إن الفائدة في ذكر ذلك أن إباحة المناكحة غير حاصلة من الجانبين، وإباحة الذبائح حاصلة فيهما، فذكر الله ذلك تنبيهاً على التمييز بين النوعين.

ثم قال: ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ اختلف في تفسير المحصنات هنا فقيل العفائف قاله ابن عباس، وقيل الحرائر، قاله مجاهد، وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في البقرة والنساء، والمحصنات مبتدأ ومن المؤمنات وصف له والخبر محذوف أي حل لكم[1].

وذكرهن توطئة وتمهيداً لقوله ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من

(١) في «الأم» للشافعي ٦/٥ «ولا يحل نكاح حرائر من دان من العرب دين اليهودية والنصرانية، لأن أصل دينهم كان الحنيفية، ثم ضلوا بعبادة الأوثان، وإنما انتقلوا الى دين أهل الكتاب بعده، لا بأنهم كانوا الذين دانوا بالتوراة والانجيل فضلوا عنها وأحدثوا فيها، إنما ضلوا عن الحنيفية ولم يكونوا كذلك، لا تحل ذبائحهم، وكذلك كل أعجمي كان أصل دين من مضى من آبائه عبادة الأوثان ولم يكن من أهل الكتابين المشهورين، التوراة والانجيل، فدان دينهم، لم يحل نكاح نسائهم».

قبلكم﴾ والمراد به الحرائر، قاله ابن عباس دون الإمــاء فلا تدخل الأمة المؤمنة في هذا التحليل، ومن أجاز نكاحهن أجازه بشرطين: خوف العنت وعدم طَوْل الحرة، هكذا قال الجمهور، وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعم كل كتابية حرة أو أمة.

وقال الحسن والشعبي والنخعي والضحاك يريد العفائف، قيل المراد بـأهل الكتـاب هنا الإسـرائيليات وبـه قال الشـافعي وهـو تخصيص بغـير المخصص، وقال عبد الله بن عمر لا تحل النصرانية قال: ولا أعلم شركاً أكبر من أن تقول ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ﴾ الآية.

ويجاب عنه بأن هذه الآية للكتابيات من عموم المشركات فيبنى العام على الخاص.

وقد استدل من حـرّم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر، وبقوله تعالى: ﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم، وخالفهم من قال إن الآية تعم أو تخص العفائف كما تقدم.

والحاصل أنه يدخل تحت هذه الآية الحرة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال إلا على قول ابن عمر في النصرانية، ويدخل تحتها الحرة التي ليست بعفيفة، والأمة العفيفة على قول من يقول إنه يجوز استعمال المشترك في كلا معنييه.

وأما من لم يجوز ذلك فإن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة إلا بدليل آخر، ويقول بجواز نكاح

الحرة عفيفة كانت أو غير عفيفة، وإن حمل المحصنات هنا على العفائف قال: بجواز نكاح الحرة العفيفة والأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما، ومذهب أبي حنيفة أنه يجوز التزويج بالأمة الكتابية لعموم هذه الآية.

﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي مهورهن وهو العوض الذي يبذله الزوج للمرأة، وجواب إذا محذوف أي فهن حلال أو هي ظرف لخبر المحصنات المقدر أي حل لكم، وهذا الشرط بيان للأكمل والأولى لا لصحة العقد إذ لا تتوقف على دفع المهر ولا على التزامه كما لا يخفى.

﴿محصنين﴾ أي حال كونكم اعفّاء بالنكاح وكذا قوله ﴿غير مسافحين﴾ أي غير مجاهرين بالزنا ﴿ولا متخذي أخدان﴾ الخدان يقع على الذكر والانثى وهو الصديق في السر، والجمع أخدان أي لم يتخذوا معشوقات، فقد شرط الله في الرجال العفة وعدم المجاهرة بالزنا وعدم اتخاذ أخدان كما شرط في النساء أن يكن محصنات.

﴿ومن يكفر بالإيمان﴾ أي بشرائع الإسلام والباء بمعنى عن أي يرتد، والمراد بالكفر هنا الارتداد ﴿فقد حبط عمله﴾ أي بطل فلا يعتد به ولو عاد إلى الإسلام ولا يثاب عليه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ إذا مات عليه، يعني أن تزوُّج المسلمين إياهن ليس بالذي يخرجهن من الكفر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي إذا أردتم القيام تعبيراً بالمسبّب عن السبب كما في قوله ﴿وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ لأن القيام متسبب عن الإرادة والإرادة سببه، والمراد بالقيام الاشتغال بها والتلبس بها من قيام أو غيره.

وقد اختلف أهل العلم في هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة فقالت طائفة هو عام في كل قيام إليها سواء كان القائم متطهراً أو محدثاً فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ وهو مروي عن علي وعكرمة، وهذا القول يقتضي وجوب الوضوء عند كل صلاة وهو ظاهر الآية، واليه ذهب داود الظاهري، قال ابن سيرين: كان الخلفاء يتوضؤن لكل صلاة.

وقال طائفة أخرى: إن هذا الأمر خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ضعيف، فإن الخطاب للمؤمنين والأمر لهم، وقالت طائفة: الأمر للندب طلباً للفضل، وقال آخرون إن الوضوء لكل صلاة كان فرضاً عليهم بهذه الآية ثم نسخ في فتح مكة.

وقال جماعة: هذا الأمر خاص بمن كان محدثاً، وقال آخرون: المراد إذا قمتم من النوم إلى الصلاة فيعم الخطاب كل قائم من نوم، وقد أخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن بريدة قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله فقال: عمداً فعلته يا عمر، وهو مروي من طرق كثيرة بألفاظ متفقة في المعنى[1].

وأخرج البخاري وأحمد وأهل السنن عن عمرو بن عامر الأنصاري سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ عند كل صلاة قال: قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث.

فتقرر بما ذكر أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث، وبه قال جمهور أهل العلم وهو الحق، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق أربع صلوات بوضوء واحد، وفي الباب أحاديث، والتقدير إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم على غير طهر، وهذا أحد اختصارات القرآن وهو كثير جداً.

وفروض الوضوء في هذه الآية أربعة: الأول قوله: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ الوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة وهو عضو مشتمل على أعضاء وله طول وعرض،فحدُّه في الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى اللَّحيَين، وفي العرض من الأذن إلى الأذن، وقد ورد الدليل بتخليل اللحية، واختلف العلماء في غسل ما استرسل، والكلام في ذلك مبسوط في مواطنه.

---

(١) مسلم/ ٢٧٧.

وقد اختلف أهل العلم أيضاً هل يعتبر في الغسل الدلك باليد أم يكفي إمرار الماء والخلاف في ذلك معروف، والمرجع اللغة العربية فإن ثبت فيها أن الدلك داخل في مسمى الغسل كان معتبراً وإلا فلا.

قال في شمس العلوم: غسل الشيء غسلاً إذا أجرى عليه الماء ودلكه انتهى.

وأما المضمضة والإستنشاق فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف فقد ثبت غسلهما بالسنة الصحيحة، والخلاف في الوجوب وعدمه معروف، وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في مؤلفاته.

وقد استدل الشافعي على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية وبقوله: إنما الأعمال بالنيات[1] لأن الوضوء مأمور به وكل مأمور به يجب أن يكون منويّاً، ويدل له قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ والإخلاص عبارة عن النية الصالحة.

واستدل أبو حنيفة بها لعدم وجوب النية فيه لأن الله أوجب غسل الأربعة في هذه الآية ولم يجب النية فيها فإيجابها زيادة على النص وهي نسخ، ولا يجوز نسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس.

والجواب أن إيجابها بدلالة القرآن كما تقدم، والجواب عن الزيادة والنسخ قد ذكرناه في حصول المأمول فليرجع إليه.

والفرض الثاني قوله: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ إلى للغاية وأما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فمحل خلاف، وقد ذهب سيبويه وجماعة إلى أن ما

(١) البخاري ١ ١ مسلم/ ١٩٠٧.

بعدها إن كان من نوع ما قبلها دخل وإلا فلا، ويعزى لأبي العباس، وقيل إنها بمعنى (مع) وذهب قوم إلى أنها تفيد الغاية مطلقاً، وأما الدخول وعدمه فأمر يدور مع الدليل.

وقيل إن ما بعدها لا يدخل فيما قبلها، قال سليمان الجمل وهو الأصح عند النحاة انتهى، وهذه الأقوال دلائلها في كتاب شرح التسهيل.

وقد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل واستدلوا بما أخرجه الدارقطني والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه[1]، وفيه القاسم وهو متروك وجده عبد الله بن محمد وهو ضعيف، والمرفق بالكسر هو من الانسان أعلى الذراع وأسفل العضد.

والفرض الثالث ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ قيل الباء زائدة والمعنى امسحوا رؤوسكم وذلك يقتضي تعميم المسح لجميع الرأس، وقيل هي للتبعيض وذلك يقتضي أنه يجزىء مسح بعضه، واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى في التيمم: ﴿فامسحوا بوجوهكم﴾ ولا يجزىء فيه مسح بعض الوجه اتفاقاً، وقيل إنها للإلصاق أي الصقوا أيديكم برؤوسكم وهو مذهب سيبويه وبه قال الزمخشري لكن في شرح المهذب عن جماعة من أهل العربية أن الباء إذا دخلت على متعدد كما في الآية تكون للتبعيض، أو على غير متعدد كما في ﴿وليطّوفوا بالبيت﴾ تكون للإلصاق.

وعلى كل حال فقد ورد في السنة المطهرة ما يفيد أنه يكفي مسح بعض الرأس كما أوضحناه في مؤلفاتنا، فكان هذا دليل على المطلوب، غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة.

---

(١) الدارقطني ١/ ٨٣.

ولا شك أن من أمر غيره بأن يمسح رأسه كان ممتثلاً بفعل ما يصدق عليه مسمى المسح، وليس في لغة العرب ما يقتضي أنه لا بد في مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس، وهكذا سائر الأفعال المتعدية نحو اضرب زيد أو اطعنه أو ارجمه فإنه يوجد المعنى العربي بوقوع الضرب والطعن والرجم على عضو من أعضائه.

ولا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها: إنه لا يكون ضارباً إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد، وكذلك الطعن والرجم وسائر الأفعال فاعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال في مسح الرأس.

فإن قلت يلزم مثل هذا في غسل الوجه واليدين والرجلين قلت ملتزم لولا البيان من السنة في الوجه والتحديد بالغاية في اليدين والرجلين بخلاف الرأس فإنه ورد في السنة مسح الكل ومسح البعض.

والفرض الرابع قوله ﴿وأرجلكم﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص بنصب الأرجل وهي قراءة الحسن البصري والأعمش، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة بالجر، وقراءة النصب تدل على أنه يجب غسل الرجلين لأنها معطوفة على الوجه، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم والأئمة الأربعة وأصحابهم، وقراءة الجر تدل على أنه يجوز الاقتصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس، وإليه ذهب ابن جرير الطبري وبه تعلق وهو مروي عن ابن عباس.

قال ابن العربي: واتفقت الأمة على وجوب غسلهما وما علمت من رد ذلك إلا الطبري من فقهاء المسلمين، والرافضة من غيرهم، وقيل إنه منصوب في المعنى عطفاً على الأيدي المغسولة، وإنما خفض على الجوار، وهذا وإن كان

وارداً إلا أن التخريج عليه ضعيف لضعف الجوار من حيث الجملة.

وأيضاً فإن الخفض على الجوار إنما ورد في النعت لا في العطف، وقد ورد في التوكيد قليلاً في ضرورة الشعر، وقيل إنها إنما جرت للتنبيه على عدم الإسراف في استعمال الماء فيها لأنها مظنة لصب الماء كبيراً فعطفت على الممسوح والمراد غسلها، وإليه ذهب الزمخشري.

وقيل إنها مجرورة بحرف جر، دل عليه المعنى ويتعلق هذا الحرف بفعل محذوف تقديره وافعلوا بأرجلكم غسلاً، قال أبو البقاء وحذف حرف الجر وإبقاء الجر جائز، وقيل إنه معطوف على رؤوسكم لفظاً ومعنى ثم نسخ ذلك وجوب الغسل وهو حكم باق، وبه قال جماعة أو يحمل مسح الأرجل على بعض الأحوال وهو لبس الخف، ويعزى للشافعي.

قال القرطبي: قد روي عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان، قال: وكان عكرمة يمسح رجليه وقال: ليس في الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح، وقال عامر الشعبي: نزل جبريل بالمسح، قال: وقال قتادة: افترض الله غسلتين ومسحتين، قال: وذهب ابن جرير الطبري والحسن البصري إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح وجعل القراءتين كالروايتين، وقواه النحاس، وقال داود الظاهري يجب الجمع بينهما.

أقول الحق أن الدليل القرآني قد دل على جواز الغسل والمسح لثبوت قراءة النصب والجر ثبوتاً لا ينكر، وقد تعسف القائلون بالغسل فحملوا الجر على الجوار وأنه ليس للعطف على مدخول الباء في مسح الرأس بل هو معطوف على الوجوه، فلما جاور المجرور إنجر، وتعسف القائلون بالمسح فحملوا قراءة النصب على العطف على محل الجار والمجرور في قوله: ﴿برؤوسكم﴾ كما أن قراءة الجر عطف على لفظ المجرور.

وكل ذلك ناشيء عن عدم الإنصاف عند عروض الاختلاف، ولو وجد أحد القائلين بأحد التأويلين اسماً مجروراً في رواية ومنصوباً في أخرى مما يتعلق به الاختلاف ووجد قبله منصوباً لفظاً ومجروراً لما شك أن النصب عطف على المنصوب، والجر عطف على المجرور.

وإذا تقرر لك هذا كان الدليل القرآني قاضياً بمشروعية كل واحد منهما على انفراده لا على مشروعية الجمع بينهما. وإن قال به قائل فهو من الضعف بمكان لأن الجمع بين الأمرين لم يثبت في شيء من الشريعة.

أنظر الأعضاء المتقدمة على هذا العضو من أعضاء الوضوء فإن الله سبحانه شرع في الوجه الغسل فقط، وكذلك في اليدين، وشرع في الرأس المسح فقط، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد بين للأمة أن المفروض عليهم هو غسل الرجلين لا مسحهما فتواترت الأحاديث عن الصحابة في حكاية وضوئه ﷺ وكلها مصرحة بالغسل ولم يأت في شيء منها المسح إلا في مسح الخفين.

فإن كانت الآية مجملة في الرجلين باعتبار احتمالها للغسل والمسح فالواجب الغسل بما وقع منه ﷺ من البيان المستمر جميع عمره.

وإن كان ذلك لا يوجب الإجماع فقد ورد في السنة الأمر بالغسل وروداً ظاهراً وثبت بالأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ وقوله غسل الرجلين فقط وثبت عنه أنه قال: «ويل للأعقاب من النار وويل للعراقيب من النار»(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وأحمد وابن ماجة من حديث عائشة، وابن ماجة أيضاً من حديث جابر، والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة من حديث ابن عمر، وأحمد والبخاري ومسلم أيضاً من حديث أبي هريرة.

---

(١) مسلم ٢٤٢ والبخاري ١٣٢.

فأفاد وجوب غسل الرجلين وأنه لا يجزىء مسحهما لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطىء ما أخطأ ولا سيما المواضع الخفية كالأعقاب والعراقيب، فلو كان مجزئاً لما قال ويل للأعقاب من النار، ولما وقع منه ﷺ ذلك.

وقد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ وغسل رجليه: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»[1] أخرجه الطبراني من حديث معاوية بن قرة عن أبيه عن جده، والدارقطني من حديث ابن عمر وأبي هريرة وزيد بن ثابت وابن ماجة من حديث ابن عمرو وأُبَيّ بن كعب، وابن السكن من حديث أنس، وابن أبي حاتم من حديث عائشة، وفي جميع الطرق المذكورة مقال، لكنها يقوي بعضها بعضاً.

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره أن رجلاً توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر فأبصره النبي ﷺ فقال له: ارجع فأحسن وضوءك فخرج وتوضأ ثم صلى[2].

ومن ذلك أيضاً أحاديث الأعرابي الذي أمره النبي ﷺ بإعادة الوضوء لما رأى عقبه جافاً يلوح، ومنها الأمر بتخليل الأصابع فإنه يستلزم الأمر بالغسل لأن المسح لا تخليل فيه.

وبهذا يتقرر أن الحق ما ذهب إليه الجمهور من وجوب الغسل وعدم إجزاء المسح، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على غسل القدمين وأما المسح على الخفين فهو ثابت بالأحاديث المتواترة وهو بدل عن الغسل لا عن المسح.

---

(١) الدارقطني ١ / ٨٠.
(٢) مسلم ٣٤٣.

﴿إلى الكعبين﴾ أي معهما كما بينت السنة، والكلام فيه كالكلام في قوله: ﴿إلى المرافق﴾ وقد قيل في وجه جمع المرافق وتثنية الكعاب أنه لما كان في كل رجل كعبان ولم يكن في كل يد إلا مرفق واحد ثنيت الكعاب تنبيهاً على أن لكل رجل كعبين بخلاف المرافق فإنها جمعت لأنه لما كان في كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره، ذكر معنى هذا ابن عطية.

وقال الكواشي: ثنّى الكعبين، وجمع المرافق لنفي توهم أن كل واحدة من الرجلين كعبين، وإنما في كل واحدة كعب واحد له طرفان من جانبي الرجل، بخلاف المرفق فهي أبعد عن الوهم انتهى.

وفي هذه الآية دليل قاطع على وجوب غسل الكعبين، والمعنى أغسلوا أرجلكم مع الكعبين والكعبان هما العظمان الناتئان في كل رجل عند مفصل الساق والقدم، وإليه ذهب جمهور العلماء من أهل اللغة والفقه، وهذان العظمان من الساق.

وبقي من فرائض الوضوء النية والتسمية ولم يذكرا في هذه الآية بل وردت بهما السنة، وقيل إن في هذه الآية ما يدل على النية لأنه لما قال إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم كان تقدير الكلام فاغسلوا وجوهكم لها، وذلك هو النية المعتبرة، وقد أشرنا إليه فيما تقدم.

والفصل بين الأيدي والأرجل المغسولة بالرأس الممسوح يفيد، وجوب الترتيب في طهارة هذه الأعضاء وعليه الشافعي، ويؤخذ من السنة وجوب النية فيه كغيره من العبادات، وقد ورد في صفة الوضوء وفضله من الأحاديث الصحيحة الكثير الطيب لا نطول بذكرها هنا.

﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ أي فاغسلوا بالماء، وقد ذهب عمر بن

الخطاب وابن مسعود إلى ان الجنب لا يتيمم ألبتة بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالاً بهذه الآية، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنابة مع عدم الماء، وهذه الآية هي للواجد على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه وهو التراب.

وقد صح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور للأحاديث الصحيحة الواردة في تيمم الجنب مع عدم الماء. وقد تقدم تفسير الجنب في النساء، والمراد بالجنابة هي الحاصلة بدخول حشفة أو نزول مني، وهذا هو حقيقتها الشرعية، وانظر لِمَ لَمْ يجعلوها شاملة للحيض والنفاس مع أنه أفيد.

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ثم يفرغ بيمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ثم يدخل أصابعه في الماء يخلل بها أصول شعره ثم يصب على رأسه ثلاثة غرفات بيديه ثم يفيض على سائر جسده، أخرجه الشيخان[1].

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامْسَحُوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾.

---

(١) روى مسلم ١/٢٠٩، وأبو داود ١/٨٠، والنسائي ١/٩٢، والترمذي ١/٧٨، وابن ماجه ١/١٥٩ عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الابل، فجاءت نوبتي فروحتها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة» فقلت: ما أجود هذه! فاذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فاذا عمر، قال: إن قد رأيتك جئت آنفاً، قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله وروسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» وزاد الترمذي بعد قوله «ورسوله» «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» وسندها حسن. وروى مالك ١/٣٢، ومسلم ١/٢١٥، والترمذي ١/٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر اليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء.

قد تقدم تفسير هذا وأحكامه في سورة النساء مستوفى، ومن في قوله منه لابتداء الغاية وقيل للتبعيض،قيل ووجه تكرير هذا هو استيفاء الكلام في أنواع الطهارة، وفيه دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب.

﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي ما يريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم في الدين ومنه قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ والجعل هنا بمعنى الإيجاد والخلق، ومن مزيدة فيه أو بمعنى التصيير.

ثم قال: ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ من الذنوب والخطايا لأن الوضوء تكفير لها وقيل من الحدث الأصغر والأكبر ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ أي بالترخيص لكم والتيمم عند عدم الماء أو بما شرعه لكم من الشرائع التي عرضكم بها للثواب وما تحتاجون إليه من أمر دينكم، قال سعيد بن جبير: تمام النعمة دخول الجنة، لم يتم نعمته على عبد لم يدخل الجنة ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته عليكم فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين.

وقد اشتملت هذه الآية على سبعة أمور كلها مثنى، طهارتان أصل وبدل والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح، وباعتبار المحل محدود وغير محدود، وإن آلتيهما مائع جامد، وموجبهما حدث أصغر أو أكبر، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعود عليها تطهير الذنوب وإتمام النعمة قاله البيضاوي وذكره أبو السعود.

قال الخفاجي: الأصل الماء والبدل التراب والمستوعب الغسل وغيره الوضوء والمحدود بقوله: ﴿إلى المرافق وإلى الكعبين﴾ وغيره ما سواه وهذا ظاهر.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ يعني ما أنعم به عليكم من النعم كلها وقيل هي الإسلام ﴿وميثاقه الذي واثقكم به﴾ الميثاق العهد قيل المراد به هنا ما أخذه على بني آدم كما قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ الآية قال مجاهد وغيره ونحن وإن لم نذكره فقد أخبرنا الله به، وقيل هو خطاب لليهود والعهد ما أخذه عليهم في التوراة.

وذهب جمهور المفسرين من السلف فمن بعدهم إلى أنه العهد الذي أخذه النبي ﷺ ليلة العقبة عليهم وهو السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأضافه تعالى إلى نفسه لأنه عن أمره وإذنه كمال قال: إنما يبايعون الله.

﴿إذ قلتم﴾ للنبي ﷺ حين بايعتموه ﴿سمعنا وأطعنا﴾ أي وقت قولكم هذا القول ﴿واتقوا الله﴾ فيما أخذه عليكم من الميثاق فلا تنقضوه ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ وهي ما تخفيه الصدور لكونها مختصة بها لا يعلمها أحد ولهذا أطلق عليها ذات التي بمعنى الصاحب، وإذا كان سبحانه عالماً بها فكيف بما كان ظاهراً جلياً.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين﴾ قد تقدم تفسيرها في النساء وصيغة المبالغة في قوامين تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا بها أتم قيام ﴿لله﴾ أي

لأجله تعظيماً لأمره وطمعاً في ثوابه ﴿شهداء بالقسط﴾ أي العدل.

﴿ولا يجرِمّنكم شنـآن قوم﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم أو يكسبنكم وهما متقاربان، وقيل الخطاب مختص بقريش لأنها نزلت فيهم وعليها يجري القاضي كالكشاف وغيرهما على أن الخطاب عام وهو الحق لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، قال عبد الله بن كثير نزلت في يهود خيبر ذهب إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستعينهم في دية فهمّوا أن يقتلوه فذلك قوله: ﴿ولا يجرمنكم شنـآن قوم﴾ الآية[1].

﴿على أن لا تعدلوا﴾ أي على ترك العدل فيهم لعداوتهم وكتم الشهادة، وقد تقدم الكلام على ذلك مستوفى ﴿اعدلوا﴾ أمر بالعدل في كل أحد القريب والبعيد والصديق والعدو، وتصريح بوجوبه بعدما علم من النهي عن تركه التزامـاً ﴿هو﴾ أي العدل المدلول عليه بقوله اعدلوا ﴿أقرب للتقوى﴾ التي أمرتم بها غير مرة أي أقرب لأن تتقوا الله أو لأن تتقوا النار ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾.

---

(١) اخرجه ابن جرير ٩٦/١٠ عن عبدالله بن كثير.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وفوا بالعهود، والعموم أولى ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ هذه الجملة في محل النصب على أنها المفعول الثاني لقوله: ﴿وعد﴾ على معنى وعدهم أن لهم مغفرة أو وعدهم مغفرة، فوقعت الجملة موقع المفرد فأغنت عنه، وذكر الجمل والزمخشري في الآية احتمالات أخر لا نطوّل بذكرها، وإذا وعدهم أنجز لهم الوعد فإنه تعالى لا يخلف والميعاد الأجر العظيم هو الجنة.

﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي ملابسوها، والجملة مستأنفة أتى بها اسمية دالة على الثبوت والاستقرار، ولم يؤت بها في سياق الوعيد كما أتى بالجملة قبلها في سياق الوعد حسماً لرجائهم، وهذه الآية نص قاطع في أن الخلود في النار ليس إلا للكفار، لأن المصاحبة تقتضي الملازمة.

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ يعني بالقتل والبطش بكم، يقال بسط إليه يده إذا بطش به، وبسط إليه لسانه إذا شتمه، وذكر الهم للإيذان بوقوعها عند مزيد الحاجة إليها.

﴿فكفَّ أيديهم عنكم﴾ أي صرفهم عنكم وحال بينكم وبين ما أرادوه

بكم، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ نزل منزلاً فتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه وسلّه ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني، والنبي ﷺ يقول: الله، فشام الأعرابي السيف فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم بصنيع الاعرابي وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه، قال معمر: وكان قتادة يذكر نحوه ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبي ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي[1].

وأخرج الحاكم وصححه عنه بنحوه، وذكر أن اسم الرجل غورث بن الحرث، وأنه لما قال النبي ﷺ «الله» سقط السيف من يده فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك مني، قال: كن خير آخذ، قال: فشهد أن لا إلّه إلا الله.

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أن بني النضير همّوا أن يطرحوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه، فجاء جبريل فأخبره بما هموا فقام ومن معه فنزلت إذ همّ قوم، وقصة الاعرابي وهو غورث ثابتة في الصحيح.

﴿واتقوا الله﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وعلى الله﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فإنه هو الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها.

---

(١) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة»: ١٥٢ عن طريق ابن إسحاق قال: حدثني عمرو بن عبيد عن جابر أن رجلاً... وقد سقط من إسناده الحسن، فقد رواه ابن هشام في «السيرة» ٢/٢٠٥ عن ابن اسحاق وحدثني عمرو بن عبيد عن الحسن عن جابر بن عبد الله، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» ص: ٦ من طريق معمر عن الزهري ذكره عن أبي سلمة عن جابر. وقصة هذا الأعرابي ـ هو غورث بن الحارث ـ ثابتة في «الصحيحين» بدون ذكر السبب، البخاري ٧/٣٣٠، ومسلم ١/٥٧٦.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل﴾ كلام مستأنف يتضمن ذكر بعض ما صدر من بني اسرائيل من الخيانة، وقد تقدم بيان الميثاق الذي أخذه الله عليهم وأن الميثاق هو العهد باليمين، وإسناد الأخذ إلى الله من حيث أنه أمر به موسى، وإلا فالآخذ هو موسى بأمر الله له بذلك.

﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ اختلف المفسرون في كيفية بعث هؤلاء النقباء بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم القائم بأمورهم الذي ينقّب عنها وعن مصالحهم فيها، والنقّاب الرجل العظيم الذي هو في الناس على هذه الطريقة، ويقال نقيب القوم لشاهدهم وضمينهم، والنقيب الطريق في الجبل، هذا أصله وسمي به نقيب القوم لأنه طريق إلى معرفة أمورهم والنقيب أعلى مكاناً من العريف، وقيل مشتق من التنقيب وهو التفتيش، ومنه ﴿فنقّبوا في البلاد﴾.

فقيل المراد ببعث هؤلاء النقباء أنهم بعثوا على الإطلاع على الجبارين والنظر في قوتهم ومنعتهم، فساروا ليختبروا حال من بها ويخبروا بذلك، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة وظنوا أنهم لا قبل لهم بها فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني اسرائيل وأن يعلموا به موسى عليه السلام، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قراباتهم ففشا الخبر حتى بطل أمر الغزو، وقالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا.

وقيل إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله، وهذا معنى بعثهم.

وقيل لما توجه النقباء لتجسس أحوال الجبارين لقيهم عوج بن عنق وكان كذا وكذا، وهذه القصة ذكرها كثير من المفسرين، والمحققون من أهل الحديث على أنها لا أصل لها ولا عوج ولا عنق، وقال ابن عباس: النقيب الضمين، وقال قتادة: هو الشهيد على قومه، وقيل هو الأمين الكفيل، وقيل هوالباحث عن القوم وعن أحوالهم والمعاني متقاربة.

﴿وقال الله إني معكم﴾ أي قال ذلك لبني إسرائيل وقيل للنقباء وهو الأولى والمعنى إني معكم بالنصر والعون ﴿لئن﴾ اللام هي الموطئة للقسم أي والله لئن ﴿أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي﴾ تأخير الإيمان عن اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع كونهما من الفروع المترتّبة عليه لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل عليهم الصلاة والسلام.

﴿وعزّرتموهم﴾ التعزير التعظيم والتوقير، ويطلق التعزير على الضرب دون الحد والرد، يقال عزرت فلانا إذا أدبته ورددته عن القبيح، والمعنى عظمتموهم على الأول، أو: رددتم عنهم أعداءهم ومنعتموهم على الثاني، وقال ابن عباس: أي أعنتموهم، وقال مجاهد: نصرتموهم.

﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ أي أنفقتم في وجوه الخير، والحسن قيل هو ما طابت به النفس، وقيل ما ابتغي به وجه الله، وقيل الحلال وقيل المراد بالزكاة الواجبة، وبالقرض الصدقة المندوبة وخصّها بالذكر تنبيهاً على شرفها ﴿لأكفرنّ عنكم سيآتكم﴾ اشارة إلى إزالة العذاب ﴿ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ إشارة إلى إيصال الثواب ﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ الميثاق ﴿منكم﴾ أو بعد الشرط المذكور ﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾ فقد أخطأ وسط الطريق المستقيم.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ الباء للسببية وما زائدة أي بسبب نقضهم، قال ابن عباس: هو ميثاق أخذه الله على أهل التوبة فنقضوه ﴿لعنّاهم﴾ أي طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أو مسخناهم أو ضربنا عليهم الجزية، وحقيقة اللعن في اللغة الطرد والإبعاد فاستعماله بالمعنيين الآخرين كما فعل البيضاوي وأبو السعود مجاز باستعماله في لازم معناه وهو الحقارة بما ذكر، لكنه لا قرينة في الكلام عليه.

﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي صلبة لا تعي خيراً ولا تعقله وغليظة يابسة لا تلين ولا رحمة فيها لأن القسوة خلاف الرقة، وقيل: المعنى أن قلوبهم ليست خالصة الإيمان بل مشوبة بالكفر والنفاق.

﴿يحرّفون الكلم﴾ الذي في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ﴿عن مواضعه﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم أو حالية أي يبدلونه بغيره أو يتأولونه على غير تأويله، وقيل يزيلونه ويميلونه، قال ابن عباس: يعني حدود الله.

قال عبد الرحمن بن خلدون في كتاب العبر: وأما ما يقال من أن علماءهم بدلوا مواضع من التوراة بحسب أغراضهم في ديانتهم، فقد قال ابن عباس على ما نقل عنه البخاري في صحيحه أن ذلك بعيد، وقال: معاذ الله أن تعمد أمة من الأمم إلى كتابها المنـزّل على نبيها فتبدله، أو ما في معناه.

قال: وإنما بدلوه وحرفوه بالتأويل، ويشهد لذلك قوله تعالى ﴿وعندهم

التوراة فيها حكم الله﴾ ولو بدلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التي فيها حكم الله، وما وقع في القرآن من نسبة التحريف والتبديل فيها إليهم فإنما المعنى به التأويل، اللهم إلا أن يطرقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط، وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها فذلك يمكن في العادة لا سيما وملكهم قد ذهب، وجماعتهم انتشرت في الآفاق، واستوى الضابط منهم وغير الضابط، والعالم والجاهل، ولم يكن وازع يحفظ لهم ذلك لذهاب القدرة بذهاب الملك فتطرق من أجل ذلك إلى صحف التوراة في الغالب تبديل وتحريف غير متعمد من علمائهم وأحبارهم، ويمكن مع ذلك الوقوف على الصحيح منها إذا تحرى القاصد لذلك بالبحث عنه انتهى.

والحاصل أنهم يقولون إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه وان خالفكم فاحذروه.

﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ أي الكتاب وما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ وبيان نعته وصفته.

﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ الخطاب للنبي ﷺ والخائنة الخيانة، وقيل التقدير فرقة خائنة، وقد يقع للمبالغة نحو علامة ونسابة إذا أردت المبالغة في وصفه بالخيانة، وقيل خائنة معصية، قاله ابن عباس، قال مجاهد: هم يهود مثل الذي هموا به من النبي ﷺ يوم دخل عليهم حائطهم، وقال قتادة: خائنة كذب وفجور.

﴿إلا قليلاً منهم﴾ يعني أنهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد وهم عبدالله بن سلام وأصحابه ولم يؤمر يومئذ بقتالهم، فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح فقال: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ ثم نسخ ذلك في براءة فقال: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية، وقيل هو خاص بالمعاهدين وأنها غير منسوخة ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ أي إذا عفوت عنهم فإنك تحسن وهو يحب أهل الإحسان.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ أي في التوحيد والإيمان والإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به، قال الكوفيون: الضمير في ميثاقهم راجع إلى بني اسرائيل أي أخذنا من النصارى مثل ميثاق المذكورين قبلهم من بني إسرائيل، وقال: ﴿من الذين قالوا إنا نصارى﴾ ولم يقل من النصارى للإيذان بأنهم كاذبون في دعوى النصرانية وأنهم أنصار الله، ولأنهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسمّوا به أنفسهم لا أن الله سماهم به.

﴿فنسوا﴾ من الميثاق المأخوذ عليهم ﴿حظّاً﴾ أي نصيباً وافراً عقب أخذه عليهم ﴿مما ذكّروا به﴾ من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فأغرينا﴾ أي ألصقنا ذلك بهم، مأخوذ من الغري وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه، يقال غرى بالشيء يغري غرياً وغراء أي أولع به حتى كأنه صار ملتصقاً به ومثل الإغراء التحريش، وأغريت الكلب أي أولعته بالصيد.

والمراد بقوله: ﴿بينهم﴾ اليهود والنصارى لتقدم ذكرهم جميعاً، وقيل بين النصارى خاصة لأنهم أقرب مذكور، وذلك لأنهم افترقوا إلى اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكقول بعضهم بعضاً، وتظاهروا بالعداوة في ذات بينهم، قال النخعي: أغرى بعضهم بعض الخصومات والجدال في الدين.

قال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معنى أغرينا بينهم ﴿العداوة والبغضاء﴾: أن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبتها وإبغاضها ﴿إلى يوم القيامة﴾ بالأهواء المختلفة ﴿وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ أي سيلقون جزاء نقض الميثاق. وفيه تهديد لهم ووعيد.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾ الألف واللام في الكتاب للجنس، والخطاب لليهود والنصارى ﴿يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون﴾ كآية الرجم[1] وقصة أصحاب السبت الممسوخين قردة ﴿من الكتاب﴾ أي التوراة والإنجيل.

﴿ويعفو عن كثير﴾ مما تخفونه فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإن ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرد اقتضاء حكم، وقيل المعنى يعفو عن كثير فيتجاوزه ولا يخبركم به، وقيل يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذكم بما يصدر منكم، قال قتادة يعفو عن كثير من الذنوب.

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان، قال الزجاج النور محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل الإسلام، والكتاب المبين القرآن فإنه المبين.

(١) ابن جرير ١٤١/١٠ والحاكم في المستدرك ٣٥٩/٤ وقال حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

والضمير في ﴿يهدى به الله﴾ راجع إلى الكتاب أو إليه وإلى النور لكونهما كالشيء الواحد ﴿من اتبع رضوانه﴾ أي ما رضيه وهو دين الإسلام ﴿سبل السلام﴾ طرق السلامة من العذاب الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة، وقيل المراد بالسلام الإسلام، وعن السدي قال سبيل السلام هي سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه وبعث به رسله وهو الإسلام.

﴿ويخرجهم من الظلمات﴾ أي الكفر ﴿إلى النور﴾ إي إلى الإسلام ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق لا عوج فيها ولا مخافة، وهذه الهداية غير الهداية إلى سبل السلام وإنما عطفت عليها تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو﴾ ضمير الفصل يفيد الحصر ﴿المسيح ابن مريم﴾ قيل وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى، وقال ابن عباس: هؤلاء نصارى نجران وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى، وقيل لم يقل به أحد منهم ولكن استلزم قولهم .إن الله هو المسيح لا غيره وقد تقدم في آخر سورة النساء ما يكفي ويغني عن التكرار.

﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والملك الضبط والحفظ والقدرة من قولهم ملكت على فلان أمره أي قدرت عليه أي فمن يقدر أن يمنع.

﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه﴾ وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إله إلا الله ولا ربّ غيره ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلهاً كما يزعم النصارى لكان له من الأمر شيء ولقدر أن يدفع عن نفسه أقل حال، ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها.

وتخصيصها بالذكر مع دخولها في عموم ﴿ومن في الأرض جميعاً﴾ لكون الدفع منه عنها أولى وأحق من غيرها فهو إذا لم يقدر على الدفع عنها أعجز عن أن يدفع عن غيرها، وذكر من في الأرض للدلالة على شمول قدرته وأنه إذا أراد شيئاً كان لا معارض له في أمره، ولا مشارك له في قضائه.

﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي ما بين النوعين من المخلوقات فإنها ملكه وأهلها عبيده، وعيسى وأمه من جملة عبيده.

﴿يخلق ما يشاء﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته من غير اعتراض عليه فيما خلق، لأنه خلق آدم من غير أب وأم وخلق عيسى من أم بلا أب، وخلق سائر الخلق من أب وأم ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يستصعب عليه شيء.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير حيث قالوا عزير ابن الله، وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا المسيح ابن الله، وقيل هو على حذف مضاف أي نحن أتباع أبناء الله، وقيل أبناءأنبيـاء الله، ونظيره ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ قاله الكرخي.

وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعاوى الباطلة والأماني العاطلة، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فقال: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أي إن كنتم كما تزعمون فما باله يعذبكم بما تقترفونه من الذنوب بالقتل والمسخ، وبالنار في يوم القيامة كما تعترفون بذلك بقولكم: ﴿لن تمسّنا النار إلا أياماً معدودة﴾ فإن الابن من جنس أبيه لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب، وأنتم تذنبون والحبيب لا يعـذب حبيبه وأنتم تعذبون، فهذا يدل على أنكم كاذبون في هذه الدعوى، وهذا البرهان هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف.

وأخرج أحمد في مسنده عن أنس قال: مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، فسعت فأخذته فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا، والله لا يلقي حبيبه في النار، واسناده في المسند هكذا: حدثنا ابن

عدي عن حميد عن أنس فذكره[1].

ومعنى الآية يشير إلى معنى هذا الحديث، ولهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه، فلم يرد عليه فتلا الصوفي هذه الآية.

وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن أن النبي ﷺ قال: لا والله لا يعذب الله حبيبه ولكن الله قد يبتليه في الدنيا.

﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ عطف على مقدر يدل عليه الكلام أي فلستم حينئذ كذلك بل أنتم بشر من جنس من خلقه الله تعالى يحاسبهم على الخير والشر، ويجازي كل عامل بعمله.

﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ قال السدي: أي يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيغفر له ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه لا اعتراض عليه لأنه القادر الفعال بالإختيار.

﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ من الموجودات لا شريك له في ذلك فيعارضه، وفيه دليل على أنه تعالى لا ولد له، لأن من يملك السموات والأرض يستحيل أن يكون له شبيه من خلقه أو شريك في ملكه ﴿وإليه المصير﴾ أي تصيرون إليه وحده عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

---

(١) روى ابن ماجة نظيره في الزهد/ ٣٥. ورد ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٠٤.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل﴾ المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، والرسول محمد ﷺ، والمبيَّن هو ما شرعه الله لعباده، وحذف للعلم به لأن بعثة الرسل إنما هي بذلك، والفترة أصلها السكون، يقال فتر الشيء سكن، وقيل هي الانقطاع قاله أبو عليّ الفارسي وغيره، ومنه فتر الماء إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة، وفتر الرجل عن عمله إذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه، وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن حدة النظر، والمعنى أنه انقطع الرسل قبل بعثته ﷺ مدة من الزمان[1].

واختلف في قدر مدة تلك الفترة، قال سلمان: فترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة، أخرجه البخاري، قال قتادة: كانت الفترة بين عيسى ومحمد ستمائة سنة وما شاء الله من ذلك، وعنه قال: خمسمائة سنة وستون سنة، وعن الكلبي خمسمائة سنة وأربعون سنة، وقال ابن جريج كانت خمسمائة سنة، وقال الضحاك: وكانت أربعمائة سنة ونصفا وثلاثين سنة.

وعن ابن عباس قال: كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة،

---

(١) أن معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب، قالوا: يا معشر اليهود اتقوا الله، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه بصفته. فقال وهب بن يهوذا، ورافع: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله بعد موسى من كتاب، ولا أرسل رسولاً بشيراً ولا نذيراً [بعده]، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

في «الطبري»، و«السيرة»، و«الدر المنثور»: «يهودا» بالدال.

ابن هشام ١/٥٦٣د وابن جرير ١٠/١٥٥ وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول وزاد السيوطي نسبته في «الدر» ٢/٢٢٩ لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل».

ولم تكن بينهما فترة فإنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم، وكان بين ميلاد عيسى ومحمد ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة، بعث في أولها ثلاثة أنبياء كما قال تعالى: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالث﴾ والذي عزز به شمعون وكان من الحواريين وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة وأربعة وثلاثين سنة، وقد قيل غير ما ذكرناه.

قال الرازي: والفائدة في بعثة محمد ﷺ عند فترة الرسل هي أن التحريف والتغيير قد كان تطرق إلى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول أزمانها، وسبب ذلك اختلاط الحق بالباطل والكذب بالصدق، فصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات لأن لهم أن يقولوا يا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكننا ما عرفنا كيف نعبدك فبعث الله في هذا الوقت محمداً ﷺ لإزالة هذا العذر، فذلك قوله تعالى:

﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حين فترة أي كراهة أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم، ومن زائدة للمبالغة في نفي المجيء، والفاء في قوله: ﴿فقد جاءكم﴾ هي الفصيحة ﴿بشير ونذير﴾ وهو محمد ﷺ لإزالة هذا العذر ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ومن جملة مقدوراته إرسال رسوله على فترة من الرسل.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما فعلت بنو إسرائيل بعد أخذ الميثاق، وإذ نصب على أنه مفعول لفعل مقدر خوطب به النبي ﷺ بطريق تلوين الخطاب، وصرفه عن أهل الكتاب ليعدد عليهم ما صدر عن بعضهم من الجنايات، أي واذكر لهم وقت قول موسى لقومه ناصحاً لهم ومستميلاً لهم بإضافتهم إليه.

﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ وقرأ ابن كثير يا قوم بضم الميم، وكذا قرأ فيما أشبهه، تقديره يا أيها القوم اذكروا نعمة الله عليكم وقت هذا الجعل، وإيقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة لأن الأمر بذكر الوقت أمر بذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلاً فإذا استحضر كان ما وقع فيه حاضراً بتفاصيله كأنه مشاهد عياناً.

﴿إذجعل فيكم أنبياء﴾ أي اذكروا إنعامه تعالى عليكم في وقت جعله أو اذكروا نعمته كائنة عليكم في وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ذوي عدد كثير، وأولي شأن خطير، حيث لم يبعث من أمة من الأمم ما بعث من بني إسرائيل من الأنبياء.

﴿وجعلكم ملوكاً﴾ أي فيكم ومنكم، وإنما حذف الظرف لظهور أن معنى الكلام على تقديره، ويمكن أن يقال: إن منصب النبوة لما كان لعظم قدره وجلالة رتبته بحيث لا ينسب إلى غيره من هُوَلَهُ قال فيه: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ ولما كان منصب الملك مما يجوز نسبته إلى غير من قام به كما يقول قرابة

الملك نحن الملوك قال فيه: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ وقيل المراد بالملك أنهم ملكوا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون، فهم جميعا ملوك بهذا المعنى.

وقيل معناه أنه جعلهم ذوي منازل لا يدخل عليهم غيرهم إلا بإذن وقيل غير ذلك، قال قتادة: ملكهم الخدم، وكانوا أول من ملك الخدم، ولم يكن لمن قبلهم خدم، وقال ابن عباس: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كانت له الزوجة والخادم والدار يسمى ملكاً، وعنه قال: الزوجة والخادم والبيت، وعنه قال: المرأة والخـــادم[1].

وقال الضحاك: كانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية ومن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جار فهو ملك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً، وأخرج ابن جرير والزبير بن بكار عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ من كان بيت له وخادم فهو مـــلك[2].

وأخرج أبو داود في مراسيله عن زيد بن أسلم في الآية قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم زوجة ومسكن وخادم، وعن ابن عمرو بن العاص أنه سأله رجل: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ قال: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال:

---

(١) ابن كثير ٢/ ٣٦.

(٢) روى مسلم في «صحيحه» ١٨/ ١١٠ بشرح النووي، وابن جرير ١٠/ ١٦١ عن أبي عبد الرحمن الحُبُليّ قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين، فقال له عبدالله: ألك امرأة تأوي اليها؟ فقال: نعم. قال ألك مسكن تسكنه؟ قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك.

إن لي خادماً قال فأنت من الملوك، وقال مجاهد جعل لهم أزواجاً وخدماً وبيوتاً[١].

وقد ثبت في الحديث الصحيح «من أصبح منكم معافى في جسده آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[٢] والظاهر أن المراد بالآية الملك الحقيقي، ولو كان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى.

فإن قلت: قد جعل غيرهم ملوكاً كما جعلهم، قلت قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه الامتنان.

﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ أي من المن والسلوى والحجر والغمام وكثرة الأنبياء وكثرة الملوك وفلق البحر واهلاك عدوكم وغير ذلك، والمراد عالمي زمانهم أو الامم الخالية إلى زمانهم.

وقيل: إن الخطاب ههنا لأمة محمد ﷺ وهو عدول عن الظاهر لغير موجب والصواب ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أنه من كلام موسى لقومه، وخاطبهم بهذا الخطاب توطئة وتمهيداً لما بعده من أمره لهم بدخول الأرض المقدسة.

---

(١) ابن كثير ٢/ ٣٦.

(٢) صحيح الجامع ٥٩١٨.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ أي المطهرة وقيل المباركة، قال الكلبي: صعد ابراهيم جبل لبنان فقيل له انظر فما أدرك بصرك فهو مقدس وهو ميراث لذريتك.

وقد اختلف في تعيينها فقال قتادة؛ هي الشام كلها، وقال مجاهد: الطور وما حوله، وقال معاذ بن جبل: هي ما بين العريش إلى الفرات، وقال السدي وابن عباس وغيرهما: هي أريحاء، وقال الزجاج: دمشق وفلسطين وبعض الاردن، وقول قتادة: يجمع هذه الأقوال المذكورة بعده.

﴿التي كتب الله﴾ أي قسمها وقدرها ﴿لكم﴾ في سابق علمه وجعلها مسكناً لكم، وقال السدي: التي أمركم الله بها، وقال قتادة: أمر القوم بها كما أمروا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة، وقال الكرخي: أمركم بدخولها أو كتب في اللوح المحفوظ أنها لكم إن آمنتم وأطعتم، فلا ينافيه قوله: ﴿فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة﴾ لأن الوعد مشروط بقيد الطاعة، فلما لم يوجد الشرط لم يوجد المشروط.

﴿ولا ترتدّوا على أدباركم﴾ أي لا ترجعوا عن أمري وتتركوا طاعتي وما أوجبته عليكم من قتال الجبارين جبناً وفشلاً ﴿فتنقلبوا﴾ بسبب ذلك ﴿خاسرين﴾ لخيري الدنيا والآخرة.

﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين﴾ قال الزجاج: الجبار من الآدميين العاتي وهو الذي يجبر الناس على ما يريد، وأصله على هذا من الإجبار وهو

الإكـراه فإنه يجبر غيره على ما يريده، يقال أجبره إذا أكرهه، وقيل هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه ثم استعمل في كل من جر إلى نفسه نفعـاً بحق أو باطل، وقيل إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه.

قال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعـل إلا في حرفين جبار من أجبر، ودرّاك من أدرك، والمراد هنا أنهم قوم عظام طوال متعاظمون قيل هم قوم من بقية قوم عاد، وقيل هم من ولد عيص بن اسحق، وقيل هم من الروم، ويقال إن منهم عوج بن عنق المشهور بالطول المفرط، وعنق بنت آدم، قيل كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع.

قال ابن كثير: وهذا شيء يستحي من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعـاً ثم لم يزل الخلق ينقص[1].

ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية وأنه امتنع من ركوب السفينة وأن الطوفان لم يصل إلى ركبتيه، وهذا كذب وافتراء فإن الله ذكر أن نوحاً دعا أهل الأرض من الكافرين فقال﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ وقال تعالى ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ وقال تعالى ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾.

وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر ولد زنية، هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم اهـ كلامه.

قلت: لم يأت في أمر هذا الرجل ما يقتضى تطويل الكلام في شأنه وما هذه بأول كذبة اشتهرت في الناس، ولسنا بملزومين بـدفع الأكـاذيب التي

(١) ابن كثير ٢/٣٨.

وضعها القُصاص ونفقت(١) عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم، فكم في بطون دفاتر التفاسير من أكاذيب وبلايا وأقاصيص كلها حديث خرافة، وما أحق من لا تمييز عنده لفن الرواية ولا معرفة أن يدع التعرض لتفسير كتاب الله ويضع هذه الحماقات والأضحوكات في المواضع المناسبة لها من كتب القصاص، وهي في الخازن أيضاً عفا الله عنا وعنه.

﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ من غير صنع من قبلنا فإنه لا طاقة لنا باخراجهم منها ﴿فإن يخرجوا منها﴾ بسبب من الأسباب التي لا تعلق لنا بها ﴿فإنا داخلون﴾ حينئذ، هذا تصريح بما هو مفهوم من الجملة التي قبل هذه الجملة لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السبب.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين فسار بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة وهي أريحاء فبعث إليهم اثني عشر عيناً(٢) من كل سبط منهم عين ليأتوه بخبر القوم فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليجني الثمار من حائطه فجعل يجني الثمار فنظر إلى آثارهم فتتبعهم، فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كمّه مع الفاكهة حتى التقط الاثني عشر كلهم فجعلهم في كمه مع الفاكهة وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك قد رأيتم شأننا وأمرنا اذهبوا فأخبروا صاحبكم، قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوه من أمرهم، فقال اكتموا عنا فجعل الرجل يخبر أباه وصديقه ويقول اكتم عني، فأشيع ذلك في عسكرهم ولم يكتم منهم إلا رجلان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وهما اللذان أنزل الله فيهما ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾، وقد روى نحو هذا مما يتضمن المبالغة في وصف هؤلاء وعظم أجسامهم ولا فائدة في بسط ذلك فغالبه من اكاذيب القصاص كما قدمنا.

---

(١) راجت

(٢) العين في الجيش وهو بمثابة رجل مخابرات.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

﴿قال رجلان﴾ هما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا أو ابن فانيا وكان من الاثني عشر نقيباً كما مر بيان ذلك ﴿من الذين يخافون﴾ من الله عز وجل ويراقبونه، وقيل من الجبارين أي هذان الرجلان من جملة القوم الذين يخافون من الجبارين، وقيل من الذين يخافون ضعف بني إسرائيل وجبنهم، وقيل إن الواو في يخافون لبني إسرائيل أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل وقرىء يخافون بضم الياء أي يخافهم غيرهم.

﴿أنعم الله عليهما﴾ صفة ثانية لرجلان أي أنعم عليهما بالايمان واليقين بحصول ما وعدوا به من النصر والظفر، وقيل أنعم عليهما بالعصمة فكتما ما اطلعا عليه من حالهم إلا عن موسى بخلاف بقية النقباء فأفشوه فجبنوا، وقيل إنها جملة معترضة وهو أيضاً ظاهر، وقيل حال من الضمير في يخافون أو من رجلان.

﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ أي باب بلد الجبارين وامنعوهم من الخروج إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالاً بخلاف ما إذا دخلتم عليهم القرية بغتة فإنهم لا يقدرون فيها على الكر والفر ﴿فإذا ادخلتموه فانكم غالبون﴾ قالا: هذه المقالة لبني إسرائيل، والظاهر أنهما قد علما بذلك من خبر موسى أو قالاه ثقة بوعد الله أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفاً ورعباً.

﴿وعلى الله فتوكلوا﴾ أي ثقوا بالله بعد ترتيب الاسباب، ولا تعتمدوا عليها فإنها غير مؤثرة والله معكم وناصركم ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إذ الإيمان به يقتضي التوكل عليه وهو قطع العلائق، وترك التملق للخلائق.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

فلما قالا ذلك أراد بنو إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة وعصوا أمرهما، و﴿قالوا﴾ ما أخبر الله عنهم ﴿ياموسى إنا لن ندخلها﴾ وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً أو عناداً وجراءة على الله ورسوله ﴿أبداً﴾ يعني مدة حياتنا تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول ﴿ما داموا فيها﴾ بيان للأبد أي مقيمين فيها.

﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا﴾ قالوا: هذا جهلاً بالله عز وجل وبصفاته وكفراً بما يجب له أو استهانة بالله ورسوله، وقيل أرادوا بالذهاب الارادة والقصد، وقيل أرادوا بالرب هرون وكان أكبر من موسى وكان موسى يطيعه، والأول أولى ﴿إنا ههنا قاعدون﴾ أي لا نبرح ههنا لا نتقدم معك ولا نتأخر عن هذا الموضع، وقيل أرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر.

﴿قال﴾ موسى ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي﴾ يحتمل أن يعطف ﴿وأخي﴾ على نفسي وأن يعطف على الضمير في ﴿اني﴾ أي إني لا أملك إلا نفسي، وان أخي لا يملك إلا نفسه، وفيه ستة أوجه ذكرها السمين، قال: هذا تحسراً وتحزناً واستجلاباً للنصر من الله عز وجل، وإنما قال ﴿وأخي﴾ وإن كان معه في طاعته يوشع بن نون وكالب بن يوفنا لاختصاص هارون به ولمزيد الاعتناء بأخيه أو المعنى وأخي في الدين والأول أولى.

﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي افصل بيننا يعني نفسه وأخاه وبينهم، وميزنا عن جملتهم ولا تلحقنا بهم في العقوبة، وقيل المعنى فاقض بيننا وبينهم، وقيل إنما أراد في الآخرة.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قال فإنها﴾ أي الأرض المقدسة ﴿محرمة عليهم﴾ أي على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين ﴿أربعين سنة﴾ ظرف للتحريم أي أنه محرم عليهم دخولها هذه المدة لا زيادة عليها فلا يخالف هذا التحريم، ما تقدم من قوله ﴿التي كتب الله لكم﴾ فإنها مكتوبه لمن بقي منهم بعد هذه المدة، وقيل إنه لم يدخلها أحد ممن قال إنا لن ندخلها فيكون توقيت التحريم بهذه المدة باعتبار ذراريهم.

وقيل إن أربعين سنة ظرف لقوله ﴿يتيهون في الأرض﴾ أي يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقاً والمؤقت هو التيه، وهو في اللغة الحيرة يقال منه تاه يتيه تيهاً أو توهاً إذا تحيّر فالمعنى يتحيرون في الأرض، قيل إن هذه الأرض التي تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ كانوا يمسون حيث أصبحوا ويصبحون حيث أمسوا، وكانوا سيارة مستمرين على ذلك لا قرار لهم.

وقيل ستة فراسخ في اثني عشر فرسخاً، وقيل تسع فراسخ في ثلاثين فرسخاً، وكان القوم ستمائة ألف مقاتل.

واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهرون أم لا؟ فقيل لم يكونا معهم، لأن التيه عقوبة، وقيل كانا معهم لكن سهل الله عليهما ذلك كما جعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم.

وقد قيل كيف تقع هذه الجماعة من العقلاء في مثل هذه الأرض اليسيرة في هذه المدة الطويلة؟ قال أبو علي يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا إلى المكان الذي ابتدأوا منه، وقد يكون بغير ذلك من الأسباب

المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة للعادة ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ أي لا تحزن عليهم لأنهم أهل مخالفة وخروج عن الطاعة.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ أي لا تحزن على قوم لم يزل شأنهم المعاصي ومخالفة الرسل.

وأخرج ابن جرير وابن حاتم عن ابن عباس قال: تاهوا أربعين سنة فهلك موسى وهرون في التيه وكل من جاوز الأربعين سنة فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها وهو الذي قيل له اليوم يوم جمعة فهمّوا بافتتاحها، فدنت الشمس للغروب فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا فنادى الشمس أني مأمور وأنت مأمورة فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال مالم ير مثله قط فقربوه إلى النار فلم تأت فقال فيكم الغلول، فدعا رؤوس الاسباط وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم فالتصقت يد رجل منهم بيده فقال: الغلول عندك، فأخرجه فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القربان فأتت النار فاكلتها.

وعنه قال خلق لهم في التيه ثياب لا تخلق ولا تدرن، وكان عمر موسى مائة سنة وعشرين سنة ومات بعد هارون بسنة عليهما الصلاة والسلام.

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً قصة ردّ الشمس لنبيٍ من الأنبياء ولم يسم يوشع، واختلف الناس في حبس الشمس فقيل ردت إلى ورائها، وقيل وقفت ولم ترد، وقيل بطء حركتها، ومات يوشع ودفن في جبل أفرايتم وله مائة سنة وست وعشرون سنة، وقيل الذي فتح أريحاء هو موسى وكان يوشع على مقدمته، وهذا أصح واختاره الطبري والقرطبي.

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم﴾ وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ونقضهم المواثيق والعهود هو كظلم ابن آدم لأخيه، فالداء قديم، والشر أصيل، وقد اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين هل هما لصلبه أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأول، وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني، وقالا: «إنهما كانا من بني إسرائيل، فضرب بهما المثل في إبانة حسد اليهود، وكانت بينهما خصومة فتقرّبا بقربانين ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل».

قال ابن عطية: «هذا وهم، كيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب»، قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم اسمهما قابيل وهابيل.

﴿بالحق﴾ أي تلاوة متلبسة بالحق، واختاره الزمخشري أو نبأ متلبساً بالحق، ﴿إذ قربا قرباناً﴾ القربان اسم لما يتقرب به إلى الله عز وجل من صدقة أو ذبيحة أو نسك أو غير ذلك مما يتقرب به، قاله الزمخشري، وقيل مصدر أطلق على الشيء المتقرب به، قاله أبو علي الفارسي وكان قربان قابيل حزمة من سنبل لأنه كان صاحب زرع، واختارها من أردأ زرعه حتى إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها، وكان قربان هابيل كبشاً لأنه كان صاحب غنم أخذه من أجود غنمه.

﴿فتقبل﴾ القربان ﴿من أحدهما﴾ وهو هابيل فرفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام، وكذا قال جماعة من السلف،

وقيل نزلت نار من السماء فأكلت قربانه ﴿ولم يتقبل من الآخر﴾ أي قابيل فحسده وأضمر الحسد في نفسه إلى أن حج آدم.

﴿قال لأقتلنك﴾ قيل سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى إلا شيثاً عليه السلام فإنها ولدته منفرداً، وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من الآخر، ولا تحل له أخته التي ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت جميلة وإسمها إقليما، ومع هابيل أخت ليست كذلك وإسمها ليوذا، فلما أراد آدم تزويجها قال قابيل أنا أحق بأختي فأمره آدم فلم يأتمر وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على القربان وأنه يتزوجها من تقبل قربانه، قاله ابن عباس، قال ابن كثير في تفسيره اسناده جيد، وكذا قال السيوطي في الدر المنثور.

﴿قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ استئناف كالأول كأنه قيل فماذا قال الذي تقبل قربانه فقال: قال الخ، وإنما للحصر أي إنما يتقبل القربان من المتقين لا من غيرهم، وكأنه يقول لأخيه إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي، فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك وأن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال، وعن ابن عباس قال: كان من شأن بني آدم أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا قرباناً ثم ذكر ما قررناه.

﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني﴾ أي لئن قصدت قتلي واللام هي الموطِّئة للقسم ﴿ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ هذا استسلام للقتل من هابيل كما ورد في الحديث «إذا كانت الفتنة فكن كخير ابني آدم» وتلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ أن لا يسل أحد سيفاً، وأن لا يمنع ممن يريد قتله، وعن ابن جريج نحوه.

قال القرطبي: قال علماؤنا وذلك مما يجوز ورود التعبد به إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعاً، وفي وجوب ذلك عليه خلاف والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر، وفي الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي ذر، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة وكف اليد عند الشبهة على ما بيناه في كتاب التذكرة إ هـ كلامه.

وحديث أبي ذر المشار إليه هو عند مسلم وأهل السنن إلا النسائي وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك قال: فإن لم أترك؟ قال: فأت من أنت منهم فكن فيهم، قال: فآخذ سلاحي؟ قال إذن تشاركهم فيما فيه ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك»[1]، وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة، وقيل معناه ما كنت بمبتديك بالقتل[2].

﴿إني أخاف الله﴾ في بسط يدي إليك إن بسطتها لقتلك أن يعاقبني على ذلك ﴿رب العالمين﴾ قيل: كان المقتول أقوى من القاتل وأبطش منه ولكنه تحرج عن قتل أخيه فاستسلم له خوفاً من الله، لأن الدفع لم يكن مباحاً في ذلك الوقت.

---

(١) احمد بن حنبل ٥/١٤٩.

(٢) جاء في «المسند» ٥/٢٢٦، والبخاري ٦/٢٦٢، ١٢/١٦٩، ١٣/٢٥٦، ومسلم ١٣٠٣، والترمذي ٢/٩٢، والنسائي ٧/٨٢، وابن ماجه ٢/٨٧٣ من حديث ابن مسعود مرفوعاً، ولفظه «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل» وقوله: «كفل منها» الكفل، بكسر أوله وسكون الفاء: النصيب، وأكثر ما يطلق على الأجر، والضعف على الاثم. ومنه قوله تعالى: ﴿كفلين من رحمته﴾ [الحديث: ٢٨] ووقع على الاثم في قوله تعالى: ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ [النساء: ٨٥].

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾
فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ
غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ
أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿إني أريد أن تبوء باثمي وإثمك﴾ هذا تعليل ثان لامتناعه من المقاتلة بعد التعليل الأول، واختلف المفسرون في المعنى فقيل أراد هابيل أني أريد أن تبوء بالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك، وبإثمك الذي تحملته بسبب قتلي، وقيل المراد بإثمي الذي يختص بي بسبب سيئآتي فيطرح عليك بسبب ظلمك لي، وتبوء بإثمك في قتلي.

وهذا يوافق معناه معنى ما ثبت في صحيح مسلم في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئآت المظلوم فتطرح عليه»[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ وقيل المعنى أني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك كما في قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي أن لا تميد بكم، وقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي أن لا تضلوا.

وقال أكثر العلماء: إن المعنى أني أريد أن تبوء بإثمي أي بإثم قتلك لي وإثمك الذي قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلي، قال الثعلبي هذا قول عامة المفسرين. وقيل المعنى أن تبوء بعقاب إثمي واثمك فحذف المضاف،

(١) الباب العاشر من كتاب المظالم في صحيح البخاري ـ الباب الثاني من كتاب القيامة في صحيح الترمذي.

وقيل هو على وجه الإنكار كقوله تعالى: ﴿وتلك نعمة﴾ أي أو تلك نعمة، قاله القشيري ووجهه بأن إرادة القتل معصية.

وسئل أبو الحسن بن كيسان كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار فقال: وقعت الإرادة بعدما بسط يده إليه بالقتل، وهذا بعيد جداً وكذلك الذي قبله، وقال الزمخشري: ليس ذلك بحقيقة الإرادة لكنه لما علم أنه يقتله لا محالة ووطّن نفسه على الاستسلام للقتل طلباً للثواب فكأنه صار مريداً لقتله مجازاً، وإن لم يكن مريداً حقيقة إ هـ وأصل باء رجع إلى المباءة وهي المنزل ﴿وباؤا بغضب من الله﴾ أي رجعوا[1].

﴿فتكون من أصحاب النار﴾ أي الملازمين لها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي جهنم جزاء من قتل أخاه ظلماً.

﴿فطوّعت له نفسه﴾ أي سهلت نفسه عليه الأمر وشجعته وزينت له وصورت له أن ﴿قتل أخيه﴾ طوع يده سهل عليه، يقال تطوع الشيء أي سهل وانقاد، وطوّعه فلان له أي سهله، قال الهروي، طوعت وطاوعت واحد، يقال طاع له كذا إذا أتاه طوعاً، وفي ذكر تطويع نفسه له بعدما تقدم من قول قابيل لأقتلنك، وقول هابيل لتقتلني، دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المقاولة.

---

(١) قال القرطبي ١٣٦/٦: قال علماؤنا: وذلك مما يجوز التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعاً، وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك، لما فيه من النهي عن المنكر. وفي الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي ذر، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة على ما بيناه في كتاب «التذكرة» قلت: حديث أبي ذر في «المسند» ١٤٩/٥، وأبي داود ١٢٤/٤، وابن ماجه ١٣٠٨/٢ وفيه «أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك. قال: فإن لم أترك؟ قال: فأت من أنت منهم، قال: فآخذ سلاحي؟ قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف، فألق طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك» وفي معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة، انظر «سنن أبي داود» كتاب الفتن.

﴿فقتله﴾ قال ابن جريج ومجاهد وغيرهما: روي أنه جهل كيف يقتل أخاه فجاءه ابليس بطائر أو حيوان غيره فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدي به قابيل ففعل وقيل غير ذلك مما يحتاج إلى تصحيح الرواية.

أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في الآية قالوا: فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال فأتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفنه.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»[1].

واختلف في موضع قتله فقال ابن عباس: على جبل نود، وقيل على عقبة حراء وقيل بالبصرة عند مسجدها الأعظم، وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة.

﴿فأصبح من الخاسرين﴾ قال ابن عباس: خسر دنياه وآخرته، أما دنياه فأسخط والديه وبقي بلا أخ وأما آخرته فأسخط ربه وصار إلى النار.

﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ أي يحفرها وينثر ترابها وينبش بمنقاره برجليه ويثيره على غراب ميت معه حتى واراه ﴿ليريه﴾ الله أو الغراب ﴿كيف يواري سوأة أخيه﴾ أي عورته وجيفته وما لا يجوز أن ينكشف من جسده، قيل: إنه لما قتل أخاه لم يدر كيف يواريه لكونه أول ميت مات من بني

---

(١) مسلم ١٦٧٧ ـ البخاري ١٥٧٥.

آدم، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه.

فلما رآه قابيل ﴿قال يا ويلتا﴾ كلمة تحسر وتحزن وتلهف وجزع، والألف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته أن تحضر في ذلك الوقت وتلزمه، وقال الكرخي: أي يا هلاكي تعال، والويلة الهلكة وتستعمل عند وقوع الداهية العظيمة، وفيه اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب، وأصل النداء أن يكون لمن يعقل وقد ينادى ما لا يعقل مجازاً.

﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾ الذي وارى الغراب الآخر، والكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم اهتدائه لمواراة أخيه كما اهتدى الغراب إلى ذلك ﴿فأواري سوأة أخي﴾ يعني فأستر جيفته وعورته عن الأعين ﴿فأصبح من النادمين﴾ قيل لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده لا على قتله وقيل غير ذلك.

روي أنه لما قتله اسودّ جسده وكان أبيض، فالسودان من ولده وكان آدم يومئذ بمكة فاشتاك الشجر وتغيرت الأطعمة وحمضت الفواكه فقال آدم قد حدث في الأرض حدث، فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل، قال الزمخشري ويروى أنه رثاه بشعر، وهو كذب بحت، وما الشعر إلا محول ملحون، وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

قال الرازي: ولقد صدق صاحب الكشاف فيما قال فإن ذلك الشعر في غاية الركاكة لا يليق إلا بالحمقاء من المتعلمين فكيف ينسب إلى من جعل الله علمه حجة على الملائكة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿من أجل ذلك﴾ القاتل وجريرته وبسبب معصيته، وقال الزجاج: أي من جنايته قال يقال أجل الرجل على أهله شراً يأجل أجلاً إذا جنى، مثل أخذ يأخذ أخذاً ﴿كتبنا على بني اسرائيل﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم يعني أن نبأ ابني آدم هو الذي تسبب عنه الكتب المذكورة على بني اسرائيل، وعلى هذا جمهور المفسرين، وخص بني إسرائيل بالذكر لأن السياق في تعداد جناياتهم، ولأنهم أوّل أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس ووقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء وقتلهم للأنبياء.

وهذا مشكل لأنه لا مناسبة بين واقعة قابيل وهابيل، وبين وجوب القصاص على بني اسرائيل، قال بعضهم هو من تمام الكلام الذي قبله، والمعنى فأصبح من النادمين من أجل ذلك، يعني من أجل أنه قتل هابيل ولم يواره، ويروى عن نافع أنه كان يقف على قوله من أجل ذلك ويجعله من تمام الكلام الأول.

فعلى هذا يزول الإشكال ولكن جمهور المفسرين وأصحاب المعاني على أنه ابتداء كلام متعلق بكتبنا فلا يوقف عليه، وفي السيد على الكشاف وخص بني اسرائيل مع أن الحكم عام لكثرة القتل فيهم حتى إنهم تجرَّؤوا على قتل الأنبياء إ هـ وقيل غير ذلك.

﴿أنه من قتل نفساً﴾ واحدة من هذه النفوس ظلماً ﴿بغير نفس﴾ توجب القصاص فيخرج عن هذا من قتل نفساً بنفس قصاصاً، وقد تقرر أن كل

حكم مشروط بتحقق أحد شيئين فنقيضه مشروط بانتفائهما معاً، وكل حكم مشروط بتحققهما معاً فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه.

﴿أو فساد في الأرض﴾ فيستحق به القتل، وقد اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو فقيل هو الشرك والكفر بعد الإيمان، وقيل قطع الطريق.

وظاهر النظم القرآني أنه ما يصدق عليه أنه فساد في الأرض، فالشرك فساد في الأرض وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الدماء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض، وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد في الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد في الأرض، وهكذا الفساد الذي يأتي في قوله: ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ يصدق على هذه الأنواع، وسيأتي تمام الكلام على معنى الفساد قريباً.

﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ أي في الذنب قاله الحسن، واختلف المفسرون في تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم، فروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى من قتل نبياً أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعاً.

﴿ومن أحياها﴾ بأن شدّ عضده ونصره ﴿فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ أي في الأجر قاله الحسن، وروي عن مجاهد أنه قال: أن الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً، فلو قتل الناس جميعاً لم يزد على هذا، قال ومن سلم من قتلها فلم يقتل أحداً فكأنما أحيا الناس جميعاً.

وقال ابن زيد المعنى: أن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزمه من قتل الناس جميعاً ومن أحياها أي من عفا عمن وجب قتله فله من

الثواب مثل ثواب من أحيا الناس جميعاً، وحكي عن الحسن أنه العفو بعد القدرة يعني أحياناً، وروي عن مجاهد أن إحياءها إنجاؤها من غرق او حرق أو هدم أو هلكة.

وقيل: المعنى أن من قتل نفساً فالمؤمنون كلهم خصماؤه لأنه قد وتر الجميع، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً أي وجب على الكل شكره، وقيل المعنى أن من استحل واحداً فقد استحل الجميع، لأنه أنكر الشرع، ومن تورع عن قتل مسلم فكأنما تورع عن قتل جميعهم فقد سلموا منه.

وعلى كل حال فالإحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكة، فهو مجاز إذ المعنى الحقيقي مختص بالله عز وجل، والمراد بهذا التشبيه في جانب القتل تهويل أمر القتل وتعظيم أمره في النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجرأة والجسارة، وفي جانب الاحياء الترغيب في العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين في الهلكات، ولذلك صدر النظم الكريم بضمير الشأن المنبي عن كمال شهرته ونباهته وتبادره إلى الأذهان.

سئل الحسن عن هذه الآية أهي لنا كما كانت لبني اسرائيل، فقال: أي والذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا.

﴿ولقد جاءتهم﴾ أي بني إسرائيل ﴿رسلنا بالبينات﴾ الدلالات الواضحات، جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للاخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاؤا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التي من جملتها أمر القتل.

وثم في قوله: ﴿ثم إن كثيراً منهم﴾ للتراخي الرتبي والاستبعاد العقلي ﴿بعد ذلك﴾ أي ما ذكر مما كتبه الله على بني إسرائيل من تحريم القتل ﴿في الأرض لمسرفون﴾ في القتل لا ينتهون عنه، أو لمجاوزون الحق لا يبالون بعظمته.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قد اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية فذهب الجمهور إلى أنها نزلت في العرنيين[1] وقال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي: إنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق ويسعى في الأرض بالفساد قال ابن المنذر: قول مالك صحيح.

قال أبو ثور محتجاً لهذا القول إن قوله في هذه الآية: ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ يدل على أنها نزلت في غير أهل الشرك لأنهم قد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم، فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام أ هـ.

وهكذا يدل على هذا قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الاسلام يهدم ما قبله»[2]، أخرجه مسلم وغيره.

وحكى ابن جرير في تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية أعني آية المحاربة نسخت فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العرنيين، ووقف الأمر على هذه الحدود.

وروي عن محمد بن سيرين أنه قال: كان هذا قبل أن ينزل الحدود يعني

---

(١) هم أناس جاءوا إلى النبي ﷺ وأظهروا الإسلام ثم مرضوا من جو المدينة، فبعثهم النبي ﷺ في إبل خارج المدينة ليتداووا بألبانها وأبوالها، فقتلوا الراعي وساقوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبعث وراءهم فأحضرهم وعاقبهم بما هو معلوم.

(٢) مسلم ١٢١.

فعله صلى الله عليه وآله وسلم بالعرنيين، وبهذا قال جماعة من أهل العلم، وذهب جماعة آخرون إلى أن فعله ﷺ بالعرنيين منسوخ بنهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المثلة، والقائل بهذا مطالب ببيان تأخر الناسخ.

والحق أن هذه الآية تعم المشرك وغيره ممن ارتكب ما تضمنته ولا اعتبار بخصوص السبب بل الاعتبار بعموم اللفظ.

قال القرطبي في تفسيره: ولا خلاف بين أهل العلم في أن حكم هذه الآية مرتب على المحاربين من أهل الإسلام وإن كانت نزلت في المرتدين أو اليهود انتهى.

ومعنى قوله مرتب أي ثابت، قيل المراد بمحاربة الله المذكورة في الآية هي محاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومحاربة المسلمين في عصره ومن بعد عصره بطريق العبارة دون الدلالة ودون القياس، لأن ورود النص ليس بطريق المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج في تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر.

وقيل إنما جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ولرسوله إكباراً لحربهم وتعظيماً لأذيّتهم، لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب، والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه بمعاصيه ومخالفة شرائعه، ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقي وحكم أمته حكمه وهم أُسوته.

﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ بحمل السلاح والخروج على الناس وقتل النفس وأخذ الأموال وقطع الطريق، والسعي فيها فساداً يطلق على أنواع من الشرك كما قدمنا قريباً، وانتصاب فساداً على المصدرية أو على أنه مفعول له أي للفساد أو على الحال بالتأويل أي مفسدين.

وقال ابن كثير في تفسيره: قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب أن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال تعالى: ﴿وإذا

تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ انتهى.

وإذا تقرر لك ما قررناه من عموم الآية ومن معنى المحاربة والسعي في الأرض فساداً فاعلم أن ذلك يصدق على كل من وقع منه ذلك، سواء كان مسلماً أو كافراً، في مصر أو غير مصر، في قليل وكثير وجليل وحقير، وأن حكم الله في ذلك هو ما ورد في هذه الآية من القتل أو الصلب أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض.

ولكن لا يكون هذا حكم من فعل أي ذنب من الذنوب بل من كان ذنبه هو التعدي على دماء العباد وأقوالهم فيما عدا ما قد ورد له حكم غير هذا الحكم في كتاب الله أو سنة رسوله كالسرقة وما يجب فيه القصاص، لأنا نعلم أنه قد كان في زمنه صلى الله عليه وسلم من تقع منه ذنوب ومعاص غير ذلك ولا يجري عليه ﷺ هذا الحكم المذكور في هذه الآية.

وبهذا يعرف ضعف ما روي عن مجاهد في تفسير المحاربة المذكورة في هذه الآية أنها الزنا والسرقة، ووجه ذلك أن هذين الذنبين قد ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لهما حكم غير هذا الحكم.

وإذا عرفت ما هو الظاهر من معنى هذه الآية على مقتضى لغة العرب التي أمرنا أن نفسر كتاب الله وسنة رسوله بها، فإياك أن تغتر بشيء من التفاصيل المروية، والمذاهب المحكية إلا أن يأتيك الدليل الموجب لتخصيص هذا العموم، أو تقييد هذا المعنى المفهوم، من لغة العرب فأنت وذاك، إعمل به وضعه في موضعه، وأما ما عداه:

فدع عنك نهباً صيح في حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل.

على أنا سنذكر من هذه المذاهب ما تسمعه.

اعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة، فقال ابن

عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وأبو ثور: إن من شهر السلاح في قبة الإسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه وإن شاء قطع يده ورجله. وبهذا قال مالك وصرح بأن المحارب عنده من حمل على الناس في مصر أو في برية أو كابرهم على أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا دخل ولا عداوة.

قال ابن المنذر: اختلف على مالك في هذه المسألة فأثبت المحاربة في مصر مرة ونفى ذلك أخرى،وروى عن ابن عباس غير ما تقدم فقال فيقطّاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض.

وروي عن أبي مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء على اختلاف في الرواية عن بعضهم وحكاه ابن كثير عن الجمهور، وقال أيضاً وهكذا عن غير واحد من السلف والأئمة.

وقال أبو حنيفة: وإذا أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإذا أخذ المال وقتل فالسلطان مخير فيه إن شاء قطع يده ورجله وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه، وقال أبو يوسف: القتل يأتي على كل شيء، ونحوه قول الأوزاعي.

وقال الشافعي: إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى وحسمت، ثم قطعت رجله اليسرى وحسمت وخلي، لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة، وإذا قتل قتل وإذا أخذ المال وقتل قتل وصلب، وروي عنه أنه قال: يصلب ثلاثة أيام.

وقال أحمد: إن قتل قتل وإن أخذ المال قطعت يده ورجله كقول الشافعي.

ولا أعلم لهذه التفاصيل دليلاً، لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله إلا ما رواه ابن جرير في تفسيره وتفرد بروايته فقال: حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس ابن مالك يسأله عن هذه الآية فكتب إليه يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة.

قال أنس: فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده لسرقته ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه.

وهذا مع ما فيه من النكارة الشديدة لا يدرى كيف صحته، قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لشيء من هذه التفاصيل التي ذكرناها ما لفظه: ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده ثم ذكره.

﴿أن يقتّلوا﴾ التفعيل للتكثير وهو هنا باعتبار المتعلق أي ويقتلوا واحداً بعد واحد.

﴿أو يصلّبوا﴾ ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا لأنه أحد الأنواع التي خيّر الله بينها، وقال قوم الصلب إنما يكون بعد القتل ولا يجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه وبين الصلاة والأكل والشرب ويجاب بأن هذه عقوبة شرعها الله سبحانه في كتابه لعباده.

﴿أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ ظاهره قطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين من خلاف سواء كانت المقطوعة من اليدين هي اليمنى أو اليسرى، وكذلك الرجلان، ولا يعتبر إلا أن يكون القطع من خلاف إما يمنى

اليدين وإما يسرى الرجلين أو يسرى اليدين مع يمنى الرجلين، وقيل المراد بهذا القطع اليد اليمنى والرجل اليسرى فقط.

﴿أو ينفوا من الأرض﴾ اختلف المفسرون في معناه فقال السدي هو أن يطلب بالخيل والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحد، أو يخرج من دار الإسلام هرباً، وهو محكي عن ابن عباس وأنس ومالك والحسن البصري والسدي والضحاك وقتادة وسعيد بن جبير والربيع بن أنس والزهري. حكاه الرماني في كتابه عنهم.

وحكي عن الشافعي أنهم يخرجون من بلد إلى بلد ويطلبون لتقام عليهم الحدود، وبه قال الليث بن سعد، وروي عن مالك أنه ينفى من البلد الذي أحدث فيه إلى غيره ويحبس فيه كالزاني ورجحه ابن جرير والقرطبي، وقال الكوفيون نفيهم سجنهم، فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها.

والظاهر من الآية أنه يطرد من الأرض التي وقع منه فيها ما وقع من غير سجن ولا غيره، والنفي قد يقع بمعنى الإهلاك وليس هو مراداً هنا قال مكحول أن عمر بن الخطاب أول من حبس في السجون يعني من هذه الأمة وقال: احبسه حتى أعلم منه التوبة ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيهم، وقال الكرخي ينفوا من الأرض إلى مسافة قصر فما فوقها لأن المقصود من النفي الوحشة والبعد عن الأهل والوطن، فإذا عين الإمام جهة فليس للمنفي طلب غيرها ولا يتعين الحبس.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام ﴿لهم﴾ أي للمحاربين ﴿خزي في الدنيا﴾ الخزي الذل والفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هذا الوعيد في حق الكفار الذين نزلت الآية فيهم، وأما المسلم فإنه إذا أقيم عليه الحد في الدنيا سقطت عنه عقوبة الآخرة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ استثنى الله سبحانه التائبين من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقاب المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه عمل الصحابة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة والحق الأول، وأما التوبة بعد القدرة فلا يسقط بها العقوبة المذكورة في الآية كما يدل عليه ذكر قيد ﴿قبل أن تقدروا عليهم﴾.

قال القرطبي: وأجمع أهل العلم على أن السلطان وليٌّ من حارب، فإن قتل محارب أخا امرىء أو أباه في حال المحاربة فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء ولا يجوز عفو ولي الدم ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ بهم،عبر بذلك دون: فلا تحدوهم ليفيد أنه لا يسقط عنه بتوبته إلا حدود الله دون حقوق الآدميين، قال السيوطي: كذا ظهر لي ولم أر من تعرض له والله أعلم انتهى أي من حيث فهمه من الآية وإن كان في نفسه ظاهراً.

أخرج أبو داود والنسائي عن ابن عباس قال: نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه السبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد أو حارب الله ورسوله.

وعنه عند ابن جرير والطبراني في الكبير فإن جاء تائباً فدخل في الإسلام قبل منه ولم يؤخذ بما سلف.

وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن هذه الآية نزلت في الحرورية[1].

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس أن نفراً من عكل قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها فقتلوا راعيها واستاقوها فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طلبهم كافة فأتى بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ولم يحسمهم وتركهم حتى ماتوا فأنزل الله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله﴾ الآية.

وفي مسلم عن أنس إنما سمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة.

وعن الشعبي قال: «كان حارثة بن بدر التيمي من أهل البصرة قد أفسد في الارض وحارب فكلم رجالاً من قريش أن يستأمنوا له علياً فأبوا، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فأتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟ قال: أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، ثم قال: إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم، فقال سعيد: وإن كان حارثة بن بدر، قال: وإن كان حارثة بن بدر، قال: هذا حارثة بن بدر قد جاء تائباً فهو آمن، قال: نعم، قال: فجاء به إليه وقبل ذلك منه وكتب له أماناً».

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي خافوا الله بترك المنهيات ﴿وابتغوا إليه﴾ أي اطلبوا إليه لا إلى غيره ﴿الوسيلة﴾ فعيلة من توسلت إليه إذا تقربت إليه، فالوسيلة القربة التي ينبغي أن تطلب، وبه قال أبو وائل والحسن ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وروي عن ابن عباس وعطاء وعبد الله بن كثير.

---

(١) طائفة من الخوارج.

قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه، والوسيلة أيضاً درجة في الجنة مختصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة»(١).

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة»(٢)، وفي الباب أحاديث.

والعطف على ﴿يا أيها الذين﴾ يفيد أن الوسيلة غير التقوى، وقيل هي التقوى لأنها ملاك الأمر وكل الخير فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى، والظاهر أن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب بها العباد إلى ربهم، وقيل معنى الوسيلة المحبة أي تحببوا إلى الله والأول اولى.

﴿وجاهدوا في سبيله﴾ من لم يقبل دينه وقبل أعداءه البارزة والكامنة ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تسعدوا بالخلود في جنته لأن الفلاح اسم جامع للخلاص من كل مكروه والفوز بكل محبوب.

---

(١) الترمذي الباب ٤٢ من كتاب الصلاة ـ النسائي الباب ٢٨ من كتاب الأذان.
(٢) مسلم ٣٨٤.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض﴾ كلام مبتدأ مسوق لزجر الكفار وترغيب المسلمين في امتثال أوامر الله سبحانه أي لو أن لهم ما في الأرض من أصناف أموالها وذخائرها ومنافعها قاطبة، وقيل المراد لكل واحد منهم ليكون أشد تهويلاً وإن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك ﴿جميعاً﴾ تأكيد ﴿ومثله معه﴾ أي أن الكافر لو ملك الدنيا ودنيا أخرى مثلها معها.

﴿ليفتدوا به﴾ أي ليجعلوا كلاً منها فدية لأنفسهم من العذاب، وأفرد الضمير إما لكونه راجعاً إلى المذكور أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة أي ليفتدوا بذلك ﴿من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم﴾ ذلك الفداء ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي لا من سبيل ولا لهم الخلاص منه بوجه من الوجوه.

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتدياً بها: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أيسر من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك»، هذا لفظ مسلم[١].

وفي رواية البخاري: يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: لقد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك أن لا تشرك بي[٢].

---

(١) مسلم ٢٨٠٥.
(٢) البخاري ١٥٧٤.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٣٧)

﴿يريدون أن يخرجوا من النار﴾ هذا استئناف بياني كأنه قيل كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم فقيل يقصدون الخروج من النار ويطلبونه أو يتمنون ﴿وما هم بخارجين منها﴾ أي لا يستطيعون ذلك ومحلها النصب على الحال وقيل إنها جملة اعتراضية ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبداً.

أخرج مسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى عليه وآله وسلم قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة»[1]، قال يزيد الفقير قلت لجابر: يقول الله يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها قال اتل أول الآية إن الذين كفرواالآية، ألا إنهم الذين كفروا.

وعن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالى وما هم بخارجين منها فقال ابن عباس: ويحك اقرأ ما فوقها هذه للكفار، قال الزمخشري في الكشاف بعد ذكره: لهذا إنه مما لفّقته المجبّرة انتهى.

ويا لله العجب من رجل لا يفرق بين أصح الصحيح وبين أكذب الكذب على رسول الله ﷺ، يتعرض للكلام على ما لا يعرفه ولا يدري ما هو، وقد تواترت الأحاديث تواتراً لا يخفى على من له أدنى إلمام بعلم الرواية أن عصاة الموحدين يخرجون من النار، فمن أنكر هذا فليس بأهل المناظرة لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة.

---

(١) البخاري الباب ٥١ من كتاب الرقاق ـ الترمذي الباب التاسع والعاشر من كتاب جهنم.

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا﴾ لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهاراً وهو المحارب، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية وهو السارق، وذكر السارقة مع السارق لزيادة البيان، لأن غالب القرآن الاقتصار على الرجال في تشريع الأحكام.

وقد اختلف أئمة النحو في خبر السارق والسارقة هل هو مقدر أم فاقطعوا، فذهب إلى الأول سيبويه وقال تقديره فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمهما، وذهب المبرد والزجاج إلى الثاني، ودخول الفاء لتضمن المبتدأمعنى الشرط.

والسرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق، والمصدر هو السرق من سرق يسرق سرقاً، قاله الجوهري: وهو أخذ الشيء في خفية من الأعين، ومنه استرق السمع وسارقه النظر، والقطع معناه الإبانة والازالة، وقدم السارق هنا والزانية في آية الزنا لأن الرجال إلى السرقة أميل، والنساء إلى الزنا أميل.

﴿أيديهما﴾ أي يمين كل منهما من الكوع، وجمع الأيدي لكراهة الجمع بين التثنيتين، وقيل لأنه أراد يميناً من هذا ويميناً من هذه، فجمع فإنه ليس للإنسان إلا يمين واحدة وكل شيء موحّد من أعضاء الإنسان إذا ذكر مضافاً إلى اثنين فصاعداً جمع، والمراد باليد هنا اليمين قاله الحسن والشعبي والسدي، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود فاقطعوا أيمانهما، وقيل الجارحة وحدّها عند

جمهور أهل اللغة من رؤوس الأصابع إلى الكوع فيجب قطعها من الكوع.

وقد بينت السنة المطهرة أن موضع القطع الرسغ، قال قوم يقطع من المرافق، وقال الخوارج من المنكب، والسرقة لا بد أن تكون ربع دينار فصاعداً ولا بد أن تكون من حرز كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وقد ذهب إلى اعتبار الحرز وربع الدينار الجمهور، وذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم، وقال الحسن البصري: إذا جمع الثياب في البيت قطع.

وقد أطال الكلام في بحث السرقة أئمة الفقه وشراح الحديث بما لا يأتي التطويل به هنا بكثير فائدة، وأوضحت البحث في ذلك في شرحي لكتاب بلوغ المرام.

﴿جزاء بما كسبا﴾ أي ذلك القطع جزاء على فعلهم ﴿نكالاً من الله﴾ أي عقوبة منه، تقول نكلت به إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل، وعن قتادة قال: لا ترثوا لهم فيه فانه أمر الله الذي أمر به، قال وذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اشتدوا على الفساق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً.

﴿والله عزيز﴾ غالب في انتقامه ممن عصاه لا يعارض في حكمه ﴿حكيم﴾ فيما أوجبه من قطع يد السارق.

﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة أي فمن تاب من بعد سرقته ﴿وأصلح﴾ أمره ولكن اللفظ عام فيشمل السارق وغيره من المذنبين، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ أي يغفر له ويتجاوز عنه ويقبل توبته ﴿إن الله غفور﴾ لمن تاب ﴿رحيم﴾ يرحمه.

وقد استدل بهذا عطاء وجماعة على أن القطع يسقط بالتوبة، وليس هذا

الاستدلال بصحيح لأن هذه الجملة الشرطية لا تفيد إلا مجرد قبول التوبة وليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب، وقد كان في زمن النبوة يأتي إلى النبي ﷺ من وجب عليه حد تائباً عن الذنب الذي ارتكبه طالباً لتطهيره بالحد فيحده النبي ﷺ.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال للسارق بعد قطعه «تب إلى الله» ثم قال: تاب الله عليك[1] أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة.

وأخرج أحمد وغيره أن هذه الآية نزلت في المرأة التي كانت تسرق المتاع لما قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد قطعها: هل لي توبة؟ وقد ورد في السنة المطهرة ما يدل على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت وامتنع إسقاطها وإن عفا عنه قبل الرفع إلى الإمام سقط القطع، وعليه الشافعي.

﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ هذا الاستفهام للانكار مع تقرير العلم وهو كالعنوان لقوله ﴿يعذب من يشاء﴾ أي من كان له ملك السموات والأرض فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة والمغفرة الموكولة إليها، والخطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع الناس، وقيل الخطاب لكل فرد من الناس ﴿ويغفر لمن يشاء﴾ وإنما قدم التعذيب على المغفرة لأنه في مقابلة السرقة المقدمة على التوبة.

وهذه الآية فاضحة للقدرية والمعتزلة في قولهم بوجوب الرحمة للمطيع والعذاب للعاصي، لأن الآية دالة على أن التعذيب والرحمة مفوضان إلى المشيئة والوجوب ينافي ذلك ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لأن الخلق كلهم عبيده وفي ملكه.

---

(١) الدارقطني عن ابي هريرة.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٤١)

﴿يا أيها الرسول﴾ هذا خطاب تشريف وتكريم وتعظيم، وقد خاطبه الله عز وجل بيا أيها النبي في مواضع من كتابه، وبيا أيها الرسول في موضعين هذا أحدهما والآخر قوله تعالى ﴿ياأيهاالرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾.

﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي لا تهتم ولا تبال بهم فاني ناصرك عليهم وكافيك شرهم، والحزن خلاف السرور، وحزن الرجل بالكسر فهو حزن وحزين وأحزنه غيره، قال اليزيدي حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم وقد قرىء بهما.

وفي الآية النهي له صلى الله عليه وآله وسلم عن التأثر لمسارعة الكفرة في كفرهم تأثراً بليغاً على أبلغ وجه وآكده، فان النهي عن أسباب الشيء ومباديه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني وقطع له من أصله، لأن الله سبحانه قد وعده في غير موطن بالنصر عليهم، والمسارعة إلى الشيء الوقوع فيه بسرعة، والمراد هنا وقوعهم في الكفر بسرعة عند وجود فرصة، وآثر لفظ ﴿في﴾ على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه، والمسارعون هم اليهود، قاله ابن عباس.

﴿من الذين قالوا﴾ من بيانية والجملة مبيّنة للمسارعين في الكفر، وهؤلاء الذين قالوا ﴿آمنا بأفواههم﴾ بألسنتهم ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ هم

المنافقون، قاله ابن عباس، والمعنى أن المسارعين في الكفر طائفة من المنافقين ﴿ومن الذين هادوا﴾ أي وطائفة من اليهود قال الزجاج الكلام تم عند قوله هذا ثم ابتدأ الكلام بقوله:

﴿سمّاعون للكذب﴾ وهذا راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين، واللام في قوله للكذب للتقوية أو لتضمين السماع معنى القول، وقيل معناه من الذين هادوا قوم قائلون الكذب من رؤسائهم المحرفين للتوراة ﴿سماعون﴾ أي لكلام رسول الله ﷺ لأجل الكذب عليه ﴿لقوم آخرين﴾ وجهوهم عيوناً وجواسيس لهم لأجل أن يبلّغوهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ.

قال الفراء: ويجوز سماعين كما قال ملعونين أينما ثقفوا، والحاصل أن هؤلاء القوم من اليهود لهم صفتان سماع الكذب من أحبارهم ونقله إلى عوامهم، وسماع الحق منك ونقله إلى أحبارهم ليحرفوه.

﴿لم يأتوك﴾ صفة لقوم أي لم يحضروا مجلسك وهم طائفة من اليهود كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ تكبراً وتمرداً وقيل هم جماعة من المنافقين كانوا يتجنبون مجالس رسول الله ﷺ.

﴿ويحرّفون الكلم﴾ الذي في التوراة كآية الرجم أي يزيلونه ويميلونه أو يتأولونه على غير تأويله والمحرفون هم اليهود، قال القسطلاني في إرشاد الساري: وقد صرح كثير بأن اليهود والنصارى بدلوا ألفاظاً كثيرة من التوراة والإنجيل وأتوا بغيرها من قبل أنفسهم، وحرفوا أيضاً كثيراً من المعاني بتأويلها على غير الوجه.

ومنهم من قال انهم بدلوهما كليهما، ومن ثَمَّ[1] قيل بامتهانهما، وفيه نظر

(١) ثم بفتح الثاء أي هنا.

إذ الآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منهما أشياء كثيرة لم تبدل، منها آية الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، وقصة رجم اليهوديين، ، وقيل التبديل وقع في اليسير منهما، وقيل وقع في المعاني لا في الألفاظ، وفيه نظر فقد وجد في الكتابين ما لا يجوز أن يكون بهذه الألفاظ من عند الله أصلاً، وقد نقل بعضهم الإجماع على أنه لا يجوز الاشتغال بالتوراة والإنجيل ولا كتابتهما ولا نظرهما.

وعند أحمد والبزار واللفظ له من حديث جابر قال: نسخ عمر كتاباً من التوراة بالعربية فجاء به إلى النبي ﷺ فجعل يقرأ ووجه النبي ﷺ يتغير فقال له رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وانكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي»[1]، وروي في ذلك أحاديث أخر كلها ضعيف لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلاً.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح، ومنه لخصت ما ذكرته: والذي يظهر أن كراهة ذلك للتنزيه لا للتحريم.

والأولى في هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين في الإيمان فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك بخلاف الراسخ فيه ولا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف، ويدل له نقل الأئمة قديماً وحديثاً من التوراة وإلزامهم التصديق بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بما يستخرجونه من كتابهم.

---

(١) احمد بن حنبل ٢/٢٢٨.

وأما الاستدلال للتحريم بما ورد من غضبه ﷺ فمردود بأنه قد يغضب من فعل المكروه ومن فعل ما هو خلاف الأولى إذا صدر ممن لا يليق به ذلك كغضبه من تطويل معاذ الصلاة بالقراءة انتهى.

أقول وقد تقدم الكلام على هذه المسئلة في سورة النساء بأطول من ذلك، وقد قال جماعة من أهل المعرفة بالتحقيق بأن التحريف الواقع في التوراة معنوي لا لفظي وإليه ذهب حَبْر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس، والشيخ ولي الله المحدث الدهلوي في الفوز الكبير وغيرهما والله سبحانه أعلم.

﴿من بعد﴾ كونه موضوعاً في ﴿مواضعه﴾ أو من بعد وضعه في مواضعه التي وضعه الله فيها من حيث لفظه أو من حيث معناه.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة قالوا نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع فإذا آية الرجم، قالوا: صدق، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما[1].

وقال الحسن في الآية: إنهم يغيرون ما يسمعون من النبي ﷺ بالكذب عليه، والأول أولى، وقال ابن جرير الطبري يحرفون حكم الكلم فحذف ذكر الحكم لمعرفة السامعين به وفيه بعد.

﴿يقولون إن أوتيتم هذا﴾ الإشارة إلى الكلام المحرف أي قال يهود فدك ليهود المدينة إن أوتيتم من جهة محمد بهذا الكلام الذي حرفناه أي الجلد ﴿فخذوه﴾ وأعملوا به ﴿وإن لم تؤتوه﴾ بل جاءكم بغيره وأفتاكم بخلافه ﴿فاحذروا﴾ من قبوله والعمل به.

(١) البخاري الباب ٢٦ من كتاب المناقب والباب ٣٧ من كتاب الحدود.

﴿ومن يرد الله فتنته﴾ أي ضلالته ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي فلا تستطيع دفع ذلك عنه ولا تقدر على نفعه وهدايته، وهذه الجملة مستأنفة مقّررة لما قبلها وظاهرها العموم، ويدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولاً أولياً.

﴿أولئك﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكرهم من الذين قالوا آمنا بأفواههم ومن الذين هادوا وما في إسم الإشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الفساد.

﴿الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم﴾ أي لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق وخبث الضلالة كما طهر قلوب المؤمنين، والجملة استئناف مبين لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء.

وفي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى لم يرد إسلام الكافر وأنه لم يطهر قلبه من الشكل والشرك ولو فعل ذلك لآمن، وهذه الآية من أشد الآيات على القدرية.

﴿لهم في الدنيا خزي﴾ بظهور نفاق المنافقين وبضرب الجزية على الكافرين وظهور تحريفهم وكتمهم لما أنزل الله في التوراة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ يعني الخلود في النار.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

﴿سمّاعون للكذب﴾ كرره تأكيداً لقبحه وليكون كالمقدمة لما بعده وهو ﴿أكّالون للسحت﴾ وهو بضم السين وسكون الحاء المال الحرام وأصله الهلاك والشدة، من سحته إذا أهلكه، ومنه:

﴿فيسحتكم بعذاب﴾ ويقال للحالق اسحت أي أستأصل وسمي الحرام سحتاً لأنه يسحت الطاعات أي يذهبها ويسأصلها، وقال الفراء أصله كلب الجوع، وقيل هو الرشوة والأول أولى، والرشوة تدخل في الحرام دخولاً أولياً.

وقد فسره جماعة بنوع من أنواع الحرام خاص كالهدية لمن يقضى له حاجة أو حلوان الكاهن والتعميم أولى بالصواب. قال ابن عباس أخذوا الرشوة في الحكم وقضوا بالكذب، وعن ابن مسعود قال السحت الرشوة في الدين، وقال سفيان في الحكم وعن ابن عباس قال: رشوة الحكام حرام، وهي السحت الذي ذكر الله تعالى في كتابه.

وعن علي أنه سُئِلَ عن السحت فقال: الرشى، فقيل له في الحكم قال: ذلك الكفر، وعن عمر قال: بابان من السحت يأكلهما الناس الرشى في الحكم ومهر الزانية، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في تحريم الرشوة ما هو معروف، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم»[1]، أخرجه الترمذي وأخرجه أبو داود عن ابن عمرو بن العاص.

﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ فيه تخيير لرسول الله ﷺ بين الحكم بينهم والاعراض عنهم، وقد استدل به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين، وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٩٦٩.

يحكموا بين المسلم والذمي إذا ترافعا إليهم.

واختلفوا في أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم فذهب قوم إلى التخيير، وبه قال الحسن والشعبي والنخعي والزهري، وبه قال أحمد، وذهب آخرون إلى الوجوب، وقالوا إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وأنِ أحكم بينهم بما أنزل الله﴾ وبه قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والزهري وعمر بن عبد العزيز والسدي وهو الصحيح من قولي الشافعي، وحكاه القرطبي عن أكثر العلماء وليس في هذه السورة منسوخ إلا هذا وقوله: ﴿ولا آمّين البيت﴾ على ما سبق.

﴿و﴾ معنى ﴿إن تعرض عنهم﴾ إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم ﴿فلن يضروك شيئاً﴾ أي إذا عادوك لإعراضك عنهم فإن الله يعصمك من الناس، ولا سبيل لهم عليك لأنه سبحانه حافظك وناصرك عليهم ﴿وإن حكمت﴾ أي اخترت الحكم بينهم ﴿فاحكم بينهم بالقسط﴾ أي بالعدل الذي أمرك الله به وأنزله عليك ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ العادلين فيما ولوا وحكموا فيه.

وعند عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» أخرجه[1] مسلم.

﴿وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ فيه تعجيب للنبي ﷺ من تحكيمهم إياه مع كونهم لا يؤمنون به ولا بما جاء به مع أن ما يحكّمونه فيه موجود عندهم في التوراة كالرجم ونحوه، وإنما يأتون إليه صلى الله عليه وآله وسلم ويحكمونه طمعاً منهم في أن يوافق تحريفهم وما صنعوه بالتوراة من التغيير.

﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ أي من بعد تحكيمهم لك وحكمك الموافق لما في كتابهم ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ بك أو بكتابهم كما يدعون ويزعمون لإعراضهم عنه أولاً، وعما يوافقه ثانياً، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها.

(١) مسلم ١٨٢٧.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾

﴿انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ استئناف يتضمن تعظيم التوراة وتفخيم شأنها وأن فيها بيان الشرائع والتبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم وإيجاب اتباعه.

﴿ويحكم بها النبيون﴾ هم أنبياء بني اسرائيل، وبه تمسك من ذهب إلى أن شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ والمراد بالنبيين الذين بعثوا بعد موسى، وذلك أن الله بعث فيهم ألوفاً من الأنبياء ليس معهم كتاب إنما بعثوا بإقامة التوراة وأحكامها وحمل الناس عليها والجملة إما مستأنفة أو حالية.

﴿الذين أسلموا﴾ صفة مادحة للنبيين، وفيه إرغام لليهود المعاصرين له صلى الله عليه وآله وسلم بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام الذي دان به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل المراد بالنبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ الجمع تعظيماً.

قال ابن الانباري هذا رد على اليهود والنصارى لأن الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لأمره ونهيه والعمل بكتابه.

﴿للذين هادوا﴾ متعلق بيحكم والمعنى أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا، قال الزجاج جائز أن يكون المعنى على التقديم والتأخير على معنى فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا، واللام إما لبيان

اختصاص الحكم بهم أعم من أن يكون لهم أو عليهم كأنه قيل لأجل الذين هادوا، وإما للايذان بنفعه للمحكوم عليه أيضاً بإسقاط التبعة عنه وإما للاشعار بكمال رضاهم به وانقيادهم له كأنه أمر نافع للفريقين، ففيه تعريض بالمحرفين وقيل للذين هادوا عليهم.

﴿والربانيون﴾ العلماء الحكماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود، وقال الحسن الفقهاء، وقال مجاهد هم فوق الاحبار، وقال الحسن الربانيون العباد والزهاد، وعن ابن عباس قال الربانيون هم المؤمنون، والأحبار هم القراء، وقد سبق تفسيره في آل عمران.

﴿والأحبار﴾ العلماء مأخوذ من التحبير وهو التحسين فهم يحبّرون العلم أي يحسنونه، قال الجوهري: الحبر واحد أحبار اليهود بالفتح والكسر، والكسر أفصح، وقال الفراء إنما هو بالكسر وقال أبو عبيدة هو بالفتح.

﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ الباء للسببية ومن للبيان والمعنى أمروا بالحفظ أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل وإليه نحا الزمخشري أي يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ فهم خلفاء ونواب في ذلك.

﴿وكانوا عليه﴾ أي على كتاب الله وأنه حق ﴿شهداء﴾ أي رقباء يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة.

﴿فلا تخشوا الناس﴾ يا رؤساء اليهود فتكتموا ما أنزلت من نعت محمد صلى الله عليه وآله وسلم والرجم وغيرهما ﴿واخشون﴾ في كتمان ذلك.

﴿ولا تشتروا﴾ أي لا تستبدلوا ﴿بآياتي ثمناً قليلاً﴾ من الدنيا على أن تكتموا ما أنزلت، وقال ابن زيد لا تأكلوا السحت على كتابي يعني الرشوة وقد تقدم تحقيقه.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ لفظ «من» من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل لكل من ولي الحكم وهو الأولى وبه قال السدي،

وقيل إنها مختصة بأهل الكتاب وقيل بالكفار مطلقاً لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبيرة وبه قال ابن عباس وقتادة والضحاك وقيل في خصوص بني قريظة والنضير، وعن البراء بن عازب قال: أنزل الله هذه الآيات الثلاث في الكفار اخرجه مسلم.

وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة، فكل من ارتشى وحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق، وهو الأولى لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله وقع استخفافاً او استحلالاً أو جحداً قاله أبو السعود.

والإشارة بقوله ﴿فأولئك﴾ إلى ﴿من﴾ والجمع باعتبار معناها وكذلك ضمير الجماعة في قوله: ﴿هم الكافرون﴾ ذكر الكفر هنا مناسب لأنه جاء عقب قوله: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا﴾ وهذا كفر فناسب ذكر الكفر هنا قاله أبو حيان، قال ابن عباس: يقول مَنْ جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق.

وعنه قال: إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، وانه ليس كفر ينقل من الملة بل كفر دون كفر، وقال عطاء: هم الظالمون هم الفاسقون هم الكافرون، قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم وفسق دون فسق، وعن ابن عباس قال: نزلت في اليهود خاصة، وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف.

وعن حذيفة بسند صحيح أن هذه الآيات ذكرت عنده ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والظالمون، والفاسقون﴾ فقال رجل: إن هذا في بني اسرائيل، فقال حذيفة: نِعْمَ الأخوة لكم بنو اسرائيل إن كان لكم كل حلوة، ولهم كل مرة، كلا والله لتسلكن طريقهم قد الشراك، وعن ابن عباس نحوه.

وأقول هذه الآية وإن نزلت في اليهود لكنها ليست مختصة بهم لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكلمة ﴿من﴾ وقعت في معرض الشرط فتكون للعموم، فهذه الآية الكريمة متناولة لكل من لم يحكم بما أنزل الله وهو الكتاب والسنة، والمقلد لا يدعي أنه حكم بقول العالم الفلاني وهو لا يدري هل ذلك الحكم الذي حكم به هو من محض رأيه أم من المسائل التي استدل عليها بالدليل، ثم لا يدري أهو أصاب في الاستدلال أم أخطأ، وهل أخذ بالدليل القوي أم الضعيف؟.

فانظر يا مسكين ماذا صنعت بنفسك فانك لم يكن جهلك مقصوراً عليك بل جهلت على عباد الله، فأرقت الدماء وأقمت الحدود وهتكت الحرم بما لا تدري، فقبح الله الجهل بما أنزله ولا سيما إذا جعله صاحبه شرعاً وديناً له وللمسلمين فإنه طاغوت عند التحقيق، وان ستر من التلبيس بستر رقيق.

فيا أيها المقلد أخبرنا أي القضاة أنت من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»(١) أخرجه أبو داود وابن ماجة عن بريدة.

فبالله عليك هل قضيت بالحق وأنت تعلم أنه الحق؟ ان قلت نعم، فأنت وسائر أهل العلم يشهدون بأنك كاذب لأنك معترف بأنك لا تعلم ما الحق، وكذلك سائر الناس يحكمون عليك بهذا من غير فرق بين مجتهد ومقلد، وان قلت بل قضيت بما قاله إمامي، ولا تدري أحق هو أم باطل كما هو شأن كل مقلد على وجه الأرض، فأنت بإقرارك هذا أحد رجلين إما قضيت بالحق ولا تعلم أنه الحق أو قضيت بغير الحق لأن ذلك الحكم الذي

(١) ابو داود الباب الثاني من كتاب الاقضية.

حكمت به هو لا يخلو من أحد الأمرين إما أن يكون حقاً وإما أن يكون غير حق، وعلى كلا التقديرين فأنت من قضاة النار بنص الصادق المختار.

وهذا ما أظن يتردد فيه أحد من أهل الفهم لأمرين (أحدهما) أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل القضاة ثلاثة وبين صفة كل واحد منهم ببيان يفهمه المقصر والكامل، والعالم والجاهل (الثاني) أن المقلد لا يدعي أنه يعلم ما هو حق من كلام إمامه وما هو باطل، بل يقر على نفسه أنه يقبل قول الغير ولا يطالبه بحجة، وأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فأفاد هذا أنه حكم بشيء لا يدري ما هو، فإن وافق الحق فهو قضى بالحق ولا يدري أنه الحق، وإن لم يوافق الحق فهو قضى بغير الحق، وهذان هما القاضيان اللذان في النار، فالقاضي المقلد على كل حال يتقلب في نار جهنم كما قال قائل.

خذا بطن هرشي أوقفاها فإنما كلا جانبي هرشي لهن طريق[1]

وكما تقول العرب ليس في الشر خيار، ولقد خب وخسر من لا ينجو على كل حال من النار.

فيا أيها القاضي المقلد، ما الذي أوقعك في هذه الورطة وألجأك إلى هذه العهدة التي صرت فيها على كل حال من أهل النار إذا دمت على قضائك ولم تتب فإن أهل المعاصي والبطالة على اختلاف أنواعهم، هم أرجى لله منك وأخوف له لأنهم على عزم التوبة والإقلاع، ويلومون أنفسهم على ما فرط منها بخلاف هذا القاضي المسكين فإنه ربما دعا الله في خلواته وبعد صلواته أن يديم عليه تلك العهدة ويحرسها عن الزوال حتى لا يتمكنوا من فصله ولا يقدروا على عزله، وقد يبذل في استمراره على ذلك نفائس الأموال ويدفع الرشا والبراطيل لمن كان له في أمره مدخل، فيجمع بهذا الافتعال بين خسران

---

(١) هرشي ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر ولها طريقان فكل من سلكها كان مصيباً إ هـ تاج اللغات.

الدنيا والآخرة وتسمح نفسه بهما جميعاً في حصول ذلك القضاء فيشتري بهما النار ولا يخرج عن هذه الأوصاف إلا القليل النادر.

والآيات الكريمة في هذا المبنى والأحاديث الصحيحة في هذا المعنى كثيرة جداً،ولو لم تكن من الزواجر عن هذا إلا هذه الآية وهذا الحديث المتقدم لكفت، فالمقلد لا يصلح للقضاء وإنما يصح قضاء من كان مجتهداً متورعاً عن أموال الناس، عادلاً في القضية حاكماً بالسوية، ويحرم عليه الحرص على القضاء وطلبه ولا يحل للإمام تولية من كان كذلك، ومن كان متأهلاً للقضاء فهو على خطر عظيم وله مع الإصابة أجران ومع الخطأ أجر إن لم يأل جهداً في البحث.

ويحرم عليه الرشوة والهدية التي أهديت إليه لأجل كونه قاضياً، ولا يجوز له الحكم حال الغضب، وعليه التسوية بين الخصمين إلا إذا كان أحدهما كافراً، والسماع منهما قبل القضاء وتسهيل الحجاب بحسب الإمكان، ويجوز له اتخاذ الأعوان مع الحاجة والشفاعة والاستيضاع والإرشاد إلى الصلح، وحكمه ينفذ ظاهراً فقط، فمن قضي له بشيء فلا يحل له إلا إذا كان الحكم مطابقاً للواقع، هذا ما ذكره الشوكاني في (القول المفيد) والمختصر المسمى (الدرر البهية).

فإن قلت إذا كان المقلد لا يصلح للقضاء ولا يحل له أن يتولى ذلك ولا لغيره أن يوليه، فما تقول في المفتي المقلد؟.

قال: إن كنت تسأل عن القيل والقال ومذاهب الرجال فالكلام في شروط المفتي وما يعتبر فيه مبسوط في كتب الأصول والفقه، وقد أوضحها الشوكاني في إرشاد الفحول ونيل الأوطار، والحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في أعلام الموقعين عن رب العالمين بما يشفي العليل، ويروي الغليل، فإن شئت الاطلاع والاستيفاء فارجع إلى هذه الكتب يتضح لك الحق من الباطل، والخطأ من الصواب ولا تكن من الممترين.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس﴾ تقتل ﴿بالنفس﴾ إذا قتلتها ﴿والعين﴾ تفقأ ﴿بالعين﴾ ﴿والأنف﴾ يجدع ﴿بالأنف﴾ ﴿والأذن﴾ تقطع ﴿بالأذن﴾ ﴿والسن﴾ تقلع ﴿بالسن﴾ معطوف على أنزلنا التوراة.

بيّن الله سبحانه في هذه الآية ما فرضه على بني إسرائيل من القصاص في النفس والعين والأنف والأذن والسن والجروح، وقد استدل أبو حنيفة وجماعة من أهل العلم بهذه الآية فقالوا: إنه يقتل المسلم بالذمي لأنه نفس، وقال الشافعي وجماعة من أهل العلم: إن هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا وليس بشرع لنا، وقد قدمنا في البقرة في شرح قوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتل﴾ ما فيه كفاية.

وقد اختلف أهل العلم في شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا فذهب الجمهور إلى أنه يلزمنا إذا لم ينسخ وهو الحق، وقد ذكر ابن الصباغ في الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه.

قال ابن كثير في تفسيره: وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية الكريمة انتهى، وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في هذا في شرحه على المنتقى.

وفي هذه الآية توبيخ لليهود وتقريع لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم في التوراة كما حكاه هنا ويفاضلون بين الأنفس كما سبق بيانه، وقد كانوا

يقيدون[1] بني النضير من بني قريظة ولا يقيدون بني قريظة من بني النضير.

والظاهر من النظم القرآني أن العين إذا فقئت حتى لم يبق فيها مجال للإدراك أنها تفقأ عين الجاني بها، والأنف إذا جدعت جميعها فإنها تجدع أنف الجاني بها، والأذن اذا قطعت جميعها فإنها تقطع أذن الجاني بها، وكذلك السن.

فأما لو كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين أو ببعض الأنف أو ببعض الأذن أو ببعض السن فليس في هذه الآية ما يدل على ثبوت القصاص.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته وكلامهم مدون في كتب الفروع.

والظاهر من قوله: ﴿والسن بالسن﴾ أنه لا فرق بين الثنايا والأنياب، والأضراس والرباعيات وأنه يؤخذ بعضها ببعض، ولا فضل لبعضها على بعض وإليه ذهب أكثر أهل العلم كما قال ابن المنذر، وخالف في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن تبعه كلامهم مدون في مواطنه، ولكنه ينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للسن المأخوذة من المجني عليه، فإذا كانت ذاهبة فما يليها.

﴿والجروح﴾ يشمل الأطراف ﴿قصاص﴾ أي ذوات قصاص فيما يمكن أن يقتص منه وإلا فحكومة عدل، وهذا تعميم بعد التخصيص، وقد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص في الجروح التي يخاف منها التلف، ولا فيما كان لا يعرف مقداره عمقاً أو طولاً أو عرضاً.

---

(١) أي إذا وقع اعتداء على بني النضير من بني قريظة - وكلاهما يهود - أخذوا القود - الدية - من بني قريظة، أما أذا وقع الاعتداء من بني النضير على بني قريظة فلا قود ولا دية.

وقد قدر أئمة الفقه أرش جراحة بمقادير معلومة، وليس هذا موضع بيان كلامهم، ولا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقدر، وفيه دليل على أن هذا الحكم كان شرعاً في التوراة فمن قال شرع من قبلنا يلزمنا إلا ما نسخ منه بالتفصيل قال هي حجة في شرعنا، ومن أنكره قال إنها ليست بحجة.

واختار الأول ابن الحاجب وهو الحق، وذهب الأشاعرة والمعتزلة إلى المنع من ذلك وهو اختيار الآمدي وقد أوضحنا هذا في كتابنا حصول المأمول.

﴿فمن تصدق﴾ من المستحقين للقصاص ﴿به﴾ أي بالقصاص بأن عفا عن الجاني ولم يقتص منه ﴿فهو كفارة له﴾ أي للمتصدق يكفر الله عنه بها ذنوبه، وهذا قول ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن.

ويدل له ما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة»[1] وعن أنس: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو وأخرجه أبو داود والنسائي.

وقيل: إن المعنى فهو كفارة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته في الآخرة، وبه قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه، والأول أرجح لأن الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير مذكور.

قال الحافظ ابن القيم: والتحقيق أن القاتل يتعلق به ثلاثة حقوق، حق لله تعالى، وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا أسلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً

---

(١) الترمذي الباب الخامس من كتاب الديات.

إلى الولي ندماً على ما فعل خوفاً من الله وتوبة نصوحاً سقط حق الله **بالتوبة**، وحق الأولياء **بالاستيفاء أو الصلح أو العفو**، وبقي حق للمقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب ويصلح بينه وبينه انتهى.

وأما لو سلّم القاتل نفسه اختياراً من غير ندم ولا توبة أو قتل كرهاً فيسقط حق الوارث فقط ويبقى حق الله تعالى لأنه لا يسقطه إلا التوبة كما علمت، ويبقى حق المقتول أيضاً لأنه لم يصل له شيء من القاتل ويطالبه به في الآخرة، ولا يقال يعوضه الله عنه مثل ما تقدم لأنه لم يسلم نفسه تائباً، تأمل قاله سليمان الجمل، وعبارة الرملي على المنهاج: وبالقود أو العفو أو أخذ الدية لا تبقى مطالبة أخروية.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ قيل نزلت هذه الآية حين اصطلحوا على أن لا يقتل الشريف بالوضيع ولا الرجل بالمرأة ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ ضمير الفصل مع اسم الإشارة وتعريف الخبر يستفاد منها أن الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية، وذكر الظلم هنا مناسب لأنه جاء عقب أشياء مخصوصة من أمر القتل والجرح فناسب ذكر الظلم المنافي للقصاص وعدم التسوية فيه.

وهذه الآية من الأدلة على اشتراط الاجتهاد فإنه لا يحكم بما أنزل الله إلا من عرف التنزيل والتأويل.

ومما يدل على ذلك حديث معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما بعثه إلى اليمن يعني قاضياً قال «أي امتحاناً له»: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ، قال: أجتهد رأيي ولا آلو ـ أي لا اقصر في الاجتهاد والتحري للصواب ـ قال أي الراوي. فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله

ﷺ لما يرضى به رسول الله ﷺ»[1]، رواه الترمذي وأبو داود والدارمي، وهو حديث مشهور قد بين الشوكاني رحمه الله طرقه ومن خرجه في بحث مستقل.

ومعلوم أن المقلد لا يعرف كتاباً «ولا سنة» ولا رأي له بل لا يدري بأن الحكم موجود في الكتاب والسنة فيقضي، أو ليس بموجود فيجتهد رأيه، فإذا ادعى المقلد أنه يحكم برأيه فهو يعلم أنه يكذب على نفسه لاعترافه بأنه لا يعرف كتاباً ولا سنة، فإذا زعم أنه حكم برأيه فقد أقر على نفسه بأنه حكم بالطاغوت.

وقد سئل القاضي الشوكاني هل الراجح جواز قضاء المقلد أم لا فأجاب بما لفظه:

«الأوامر القرآنية ليس فيها إلا أمر الحاكم بأن يحكم بالعدل والحق وما أنزل الله وما أراه الله، ومن المعلوم لكل عارف أنه لا يعرف هذه الأمور إلا من كان مجتهداً إذ المقلد إنما هو قابل قول الغير دون حجة، وليس الطريق إلى العلم بكون الشيء حقاً أو عدلاً إلا الحجة، والمقلد لا يعقل الحجة إذا جاءته فكيف يهتدي للاحتجاج بها، وهكذا لا علم عنده بما أنزل الله إنما عنده علم بقول من قلده، فلو فرض أنه يعلم بما أنزل الله وما جاء عن رسول الله ﷺ علماً صحيحاً لم يكن مقلداً بل هو مجتهد».

وهكذا لا نظر للمقلد فإن حكم بشيء فهو لم يحكم بما أراه الله بل بما أراه إمامه ولا يدري أذلك القول الذي قاله إمامه موافق للحق أم مخالف له.

وبالجملة فالقاضي هو من يقضي بين المسلمين بما جاء عن الشارع كما جاء في حديث معاذ المتقدم، وهذا الحديث وإن كان فيه مقال فقد جمع طرقه

---

(١) ابو داود الباب ١١ من كتاب الاقضية ـ احمد بن حنبل ٥/٢٢٠ ـ ٢٢٦.

وشواهده الحافظ ابن كثير في جزء وقال: هو حديث حسن مشهور اعتمد عليه أئمة الإسلام، وقد أخرجه أيضاً أحمد وابن عدي والطبراني والبيهقي، ولأئمة الحديث فيه كلام طويل، والحق أنه من الحسن لغيره وهو معمول به.

وقد دل هذا الحديث على أنه يجب على القاضي أن يقدم القضاء بكتاب الله تعالى، ثم إذا لم يجد فيه قضى بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إذا لم يجد فيها اجتهد رأيه.

والمقلد لا يتمكن من القضاء بما في كتاب الله سبحانه لأنه لا يعرف الاستدلال ولا كيفيته، ولا يمكنه القضاء بما في سنة رسول الله ﷺ لذلك، ولأنه لا يميز بين الصحيح والموضوع والضعيف المعلل بأي علّة، ولا يعرف الأسباب ولا يدري بالمتقدم والمتأخر، والعام والخاص والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين والناسخ والمنسوخ، بل لا يعرف مفاهيم هذه الألفاظ ولا يتعقل معانيها فضلاً عن أن يتمكن من أن يعرف اتصاف الدليل بشيء منها.

وبالجملة فالمقلد إذا قال: صح عندي فلا عند له، وإن قال: صح شرعاً فهو لا يدري ما هو الشرع، وغاية ما يمكنه أن يقول صح هذا من قول فلان وهو لا يدري هل هو صحيح في نفس الأمر أم لا، فهو لا ريب أحد قضاة النار لأنه إما أن يصادف حكمه الحق فهو حكم بالحق ولا يعلم أنه الحق، أو يحكم بالباطل وهو لا يعلم أنه باطل وكلا الرجلين في النار كما ورد بذلك النص من المختار.

وأما قاضي الجنة فهو الذي يحكم بالحق ويعلم أنه الحق ولا شك أن من يعلم بالحق فهو مجتهد لا مقلد، هذا يعرفه كل عارف.

فإن قال المقلد: إنه يعلم أن ما حكم به من قول إمامه حق لأن كل

مجتهد مصيب، نقول له هل أنت مقلد في هذه المسئلة أم مجتهد؟ فإن كنت مقلداً في هذه المسئلة فقد جعلت ما هو محل النزاع دليلاً لك وهو مصادرة باطلة، فإنك لا تعلم بأنها حق في نفسها فضلاً أن تعلم بزيادة على ذلك، وإن كنت مجتهداً فيها فكيف خفي عليك أن المراد بكون كل مجتهد مصيباً هو من الصواب، لا من الإصابة كما أقر بذلك القائلون بتصويب المجتهدين وجردوه في مؤلفاتهم المعروفة الموجودة بأيدي الناس.

وإذا كان ذلك من الصواب لا من الإصابة فلا يستفاد من المسألة ما تزعمه من كونه مذهب إمامك حقاً فإنه لا ينافي الخطأ، ولهذا صح عنه ﷺ أنه قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد وأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد وأخطأ فله أجر واحد»[1]، أخرجه الشيخان عن أبي هريرة وابن عمرو.

وهذا لا يخفى إلا على أعمى، وإذا لم تتعقل الفرق بين الصواب والإصابة فاستر نفسك بالسكوت ودع عنك الكلام في المباحث العلمية، وتعلم ممن يعلم حتى تذوق حلاوة العلم، فهذا حاصل ما لدي في هذه المسألة وإن كانت طويلة الذيل والخلاف فيها مدون في الأصول والفروع، ولكن السائل لم يسأل عن أقوال الرجال إنما سأل عن تحقيق الحق انتهى بكلامه في إرشاد السائل إلى دليل المسائل».

وقد حققنا ذلك المقام في كتابنا (الجنة في الأسوة الحسنة بالسنة) وكشفنا القناع عن وجه التقليد والإتباع فارجع إليه، وعوّل في معرفة الحق عليه، وبالله التوفيق وهو المستعان.

---

(١) مسلم ١٧١٦.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم﴾ هذا شروع في بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة، أي جعلنا عيسى ابن مريم يقفو آثارهم أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل أو آثار من كتب عليهم تلك الأحكام، والأول أظهر لقوله في موضع آخر.

﴿برسلنا﴾ يقال قفيته مثل عقبته إذا اتبعته، ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به فيتعدى إلى الثاني بالباء؛ والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف وهو على آثارهم؛ لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه.

﴿مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ وهي حال مؤكد قاله ابن عطية ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي أن الإنجيل أوتيه عيسى حال كونه مشتملاً على الهدى من الجهالة والنور من عمى البصيرة.

﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة﴾ أي مصدقاً وهادياً وواعظاً ﴿للمتقين﴾ وهذا ليس بتكرار للأول لأن في الأول إخباراً بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة، وفي الثاني إخبار بأن الانجيل مصدق للتوراة فظهر الفرق بينهما، وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم الذين ينتفعون بالمواعظ.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ هذا أمر لأهل الإنجيل وهم النصارى بأن يحكموا بما في كتابهم وهو الإنجيل فإنه قبل البعثة المحمدية حق، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ

في القرآن الناسخ لجميع الكتب المنزلة.

قرىءبنصب الفعل من ﴿ليحكم﴾ على أن اللام لام كي، ويجزمه على أن اللام للأمر، فعلى الأول تكون اللام متعلقة بقوله وآتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه، وعلى الثانية هو كلام مستأنف، قال مكي: والاختيار الجزم لأن الجماعة عليه، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله تعالى لأهل الانجيل، وقال النحاس: والصواب عندي أنهما قراءتان حسنتان لأن الله تعالى لم ينزل كتاباً إلا لِيُعمل بما فيه.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ أي بما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ولقوله ﷺ «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[1]، رواه أبو داود والدارمي وابن ماجه عن المقدام بن معد يكرب ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الخارجون عن الطاعة، وذكر الفسق هنا مناسب لأنه خروج عن أمر الله إذ تقدمه قوله: ﴿وليحكم أهل الانجيل﴾ وهو أمر، قاله أبو حيان.

وفي هذه الآية والآيتين المتقدمتين من الوعيد والتهديد ما لا يقادر قدره، وقد تقدم أن هذه الآيات وإن نزلت في أهل الكتاب فليست مختصة بهم بل هي عامة لكل من لم يحكم بما أنزل الله اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ويدخل فيه السبب دخولاً أولياً، وفيها دلالة على اشتراط الاجتهاد في القضية وإشارة إلى ترك الحكم بالتقليد.

فإن قلت إذا كان التخاصم ببلدة لا يوجد فيها مجتهد هل يجوز للخصمين الترافع إلى من بها من القضاة المقلدين؟.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٦٤٠.

قلت: إذا كان يمكن وصولهما إلى قاض مجتهد لم يجز للمقلد أن يقضي بينهما بل يرشدهما إلى القاضي المجتهد أو يرفع القضية إليه ليحكم فيها بما أنزل الله أو بما أراه الله، فإن كان الوصول إلى القاضي المجتهد متعذراً أو متعسراً فلا بأس بأن يتولى ذلك القاضي المقلد فصل خصوماتهما لكن يجب عليه أن لا يدعي علم ما ليس من شأنه، فلا يقول صح أو لم يصح شرعاً بل يقول قال إمامه كذا ويعرف الخصمين أنه لم يحكم بينهما إلا بما قاله الإمام الفلاني.

في الحقيقة هو محكّم لا حاكم، وقد ثبت التحكيم في هذه الشريعة المطهرة كما جاء ذلك في القرآن الكريم في شأن الزوجين، وأنه يوكل الامر إلى حكم من أهل الزوج وحكم من أهل المرأة وكما في قوله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ وكما وقع في زمن النبوة والصحابة في غير قضية ومن لم يجد ماء تيمم بالتراب، والعور خير من العمى.

ولا يغتر العاقل بما يزخرفه المقلدون ويموهون به على العامة من تعظيم شأن من يقلدونه ونشر فضائله ومناقبه، والموازنة بينه وبين من يبلغ رتبة الاجتهاد في عصر هؤلاء المقلدين، فإن هذا خروج عن محل النزاع ومغالطة قبيحة، وما أسرع نفاقها[1] عند العامة لأن أفهامهم قاصرة عن إدراك الحقائق والحق عندهم يعرف بالرجال، وللأموات في صدورهم جلالة وفخامة، وطباع المقلدين قريبة من طبائعهم، فهم إلى قبول أقوالهم أقرب منهم إلى قبول أقوال العلماء المجتهدين، لأن المجتهدين قد باينوا العامة وارتفعوا إلى رتبة تضيق أذهان العامة عن تصورها.

فإذا قال المقلد مثلاً: أنا احكم بمذهب الشافعي وهو أعلم من هذا المجتهد المعاصر لي وأعرف بالحق منه، كان العامة إلى تصديق هذه المقالة

---

(١) رواجها.

والإذعان لها أسرع من السيل المنحدر وتنفعل أذهانهم لذلك أكمل انفعال.

فإذا قال المجتهد مجيباً على ذلك المقلد: إن محل النزاع هو الموازنة بيني وبينك لا بيني وبين الشافعي، فاني أعرف العدل والحق وما أنزل الله وأجتهد رأيي إذا لم أجد في كتاب الله وسنة رسوله نصاً، وأنت لا تعرف شيئاً من ذلك ولا تقدر على أن تجتهد رأيك إذ لا رأي لك ولا اجتهاد لأن اجتهاد الرأي هو إرجاع الحكم إلى الكتاب والسنة بالمقايسة أو بعلاقة يسوغها الاجتهاد، وأنت لا تعرف كتاباً ولا سنة فضلاً أن تعرف كيفية الارجاع إليهما بوجوه مقبولة، كان هذا الجواب الذي أجابه المجتهد مع كونه حقاً بحتاً، بعيداً عن أن يفهمه العامة أو تذعن لصاحبه.

ولهذا ترى في هذه الأزمان الغريبة الشأن ما ينقله المقلد عن إمامه أوقع في النفوس مما ينقله المجتهد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإن جاء من ذلك بالكثير الطيب.

وقد رأينا وسمعنا ما لا يشك فيه أن من علامات القيامة على أن كثيراً من المقلدين قد ينقل في حكمه أو فتواه عن مقلد مثله قد صار تحت أطباق الثرى وإمامه منه براء فيجول ويصول وينسب ذلك إلى مذهب الامام، وينسب من يأتي بما يخالفه من كتاب أو سنة إلى الابتداع ومخالفة المذهب ومباينة أهل العلم، وهو لو ارتفعت رتبته عن هذا الحضيض قليلاً لعلم أنه المخالف لإمامه لا الموافق له.

ومن كان بهذه المنزلة فهو صاحب الجهل المركب الذي لا يستحق أنه يخاطب، بل على كل صاحب علم أن يرفع نفسه عن مجادلته ويصون شأنه عن مقاولته إلا أن يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله، وبالله التوفيق.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ خطاب لمحمد ﷺ، والكتاب القرآن والتعريف للعهد والتعريف في الكتاب الثاني للجنس أي أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبساً بالحق، وحال كونه مصدقا لما بين يديه من كتب الله المنزّلة لكونه مشتملاً على الدعوة إلى الله والأمر بالخير والنهي عن الشر، كما اشتملت عليه.

وأما ما يتراءى من مخالفته في بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسبب تغير الأعصار، فليس بمخالفة في الحقيقة، بل هي موافقة لها من حيث أن كلاً من تلك الأحكام حق بالإضافة إلى عصره، متضمن للحكمة التي يدور عليها أمر الشريعة، وليس في المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر، وإنما يدل على مشروعيتها مطلقاً من غير تعرض لبقائها وزوالها بل نقول هو ناطق بزوالها لما أن النطق بصحة ما ينسخها نطق بنسخها وزوالها.

﴿ومهيمناً عليه﴾ الضمير عائد إلى الكتاب الذي صدقه القرآن وهيمن عليه، والمهيمن الرقيب، وقيل الغالب المرتفع، وقيل الشاهد، وقيل الحافظ، وقيل المؤتمن.

قال المبرد: أصله مؤيمن أبدل من الهمزة هاء كما قيل في أرقت الماء هرقت وبه قال الزجاج وأبو علي الفارسي،، قال الجوهري: هو من آمن غيره

من الخوف. وأصله أأمن فهو مأأمن، يقال هيمن على الشيء يهيمن إذا كان له حافظاً فهو له مهيمن، كذا عن أبي عبيد.

وقرأ مجاهد وابن محيصن مهيمناً بفتح الميم أي هيمن عليه الله سبحانه، والمعنى على قراءة الجمهور أن القرآن صار شاهداً بصحة الكتب المنزلة ومقرراً لما فيها مما لم ينسخ، وناسخاً لما خالفه منها، ورقيباً عليها وحافظاً لما فيها من أصول الشرائع، وغالباً لها لكونه المرجع في المحكم منها والمنسوخ، ومؤتمناً عليها لكونه مشتملاً على ما هو معمول به منها وما هو متروك.

﴿فاحكم بينهم﴾ أي بين أهل الكتاب عند تحاكمهم إليك، وتقديم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم ﴿بما أنزل الله﴾ أي بما أنزله إليك في القرآن لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه، والالتفات باظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي أهواء أهل الملل السابقة، وقال ابن عباس: لا تأخذ بأهوائهم في جلد المحصن ﴿عما جاءك من الحق﴾ أي لا تعدل أو لا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً لأهوائهم أو لا تتبع أهواءهم عادلاً أو منحرفاً عن الحق.

وفيه النهي له صلى الله عليه وآله وسلم عن أن يتبع أهوية أهل الكتاب ويعدل عن الحق الذي أنزله الله عليه، فإن كل ملة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ما هم عليه وما أدركوا عليه سلفهم وإن كان باطلاً منسوخاً أو محرفاً عن الحكم الذي أنزله الله على الأنبياء كما وقع في الرجم وغيره مما حرفوه من كتب الله، والخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يتبع أهواءهم.

﴿لكل جعلنا منكم﴾ الخطاب للأمم الثلاثة أمة موسى وأمة عيسى وأمة محمد صلى الله عليهم أجمعين، أو للناس كافة لكن للموجودين خاصة بل للماضين أيضاً بطريق التغليب على وجه التلوين والالتفات.

﴿شرعة ومنهاجاً﴾ الشرعة والشريعة في الأصل الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى الماء ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين، والمنهاج الطريقة الواضحة البينة، وقال محمد بن يزيد المبرد الشريعة ابتداء الطريق والمنهاج الطريق المستمر.

ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها، والانجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به ﷺ. قال ابن عباس في الآية: سنة وسبيلاً، وقال قتادة سبيلاً وسنة، وقد وردت آيات دالة على عدم التباين في طريقة الأنبياء وعلى حصول التباين بينهم، والجمع بينها أن الأولى في أصول الدين، والثانية في فروعه وما يتعلق بظاهر العبادات والله اعلم.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ بشريعة واحدة وكتاب واحد ورسول واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل ﴿ولكن ليبلوكم﴾ أي ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع فيكون ليبلوكم متعلقاً بمحذوف دل عليه سياق الكلام.

﴿فيما آتاكم﴾ أي فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسل هل تعملون بذلك وتذعنون له أو تتركوه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته، وتميلون إلى الهوى، وتشترون الضلالة بالهدى وفيه دليل على اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعني الابتلاء والامتحان لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص.

﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمركم بفعله وترك ما أمركم بتركه أي فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم، والاستباق المسارعة.

﴿إلى الله﴾ لا إلى غيره ﴿مرجعكم جميعاً﴾ وهذه الجملة كالعلّة لما قبلها.

﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمر الدين والدنيا فيفصل بين المحق والمبطل والطائع والعاصي بالثواب والعقاب.

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ عطف على الكتاب أي أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه، وقد استدل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله: أو أعرض عنهم وقد تقدم تفسيره.

﴿ولا تتّبع أهواءهم﴾ أي فيما أمروك به، وليس في هذه الآية تكرار لما تقدم وإنما أنزلت في حكمين مختلفين، أما الآية الأولى فنزلت في شأن رجم المحصن، وأن اليهود طلبوا منه أن يجلده، وهذه الآية نزلت في شأن الدماء والديات حين تحاكموا إليه في أمر قتيل كان بينهم.

﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾ أي يضلوك ويصرفوك بسبب أهـوائهم التي يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها ﴿عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق ﴿فإن تولوا﴾ أي إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك وأرادوا غيره.

﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم﴾ بالعقوبة في الدنيا ﴿ببعض ذنوبهم﴾ وهو ذنب التولي عنك والاعراض عما جئت به، وإنما عبر بذلك إيذاناً بأن لهم ذنوباً كثيرة، هذا مع كمال عظمة واحد من جملتها، وفي هذا الإبهام تعظيم للتولي ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ متمردون عن قبول الحق خارجون عن الانصاف.

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه، ويبتغون حكم الجاهلية التي هي متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة في الأحكام، وأما أهل الجاهلية وحكمهم فهو ما كانوا عليه من المفاضلة بين القتلى من بني النضير وقريظة، قال ابن عباس: هو ما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكام وتحريفهم اياها عما أمر الله به.

والاستفهام في ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ للإنكار أيضاً أي لا يكون أحد حكمه أحسن من حكم الله أو مساوٍ له عند أهل اليقين لا عند أهل الجهل والاهواء، وان كان ظاهر السبك غير متعرض لنفي المساواة وانكارها.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ الظاهر أنه خطاب عام يعم حكمه كافة المؤمنين حقيقة، وقيل المراد بهم المنافقون، ووصفهم بالإيمان باعتبار ما كانوا يظهرونه، وقد كانوا يوالون اليهود والنصارى فنهوا عن ذلك، والأولى أن يكون خطاباً لكل من يتصف بالإيمان أعم من أن يكون ظاهراً وباطناً أو ظاهراً فقط، فيدخل المسلم والمنافق.

ويؤيد هذا قوله: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ والاعتبار بعموم اللفظ قال ابن عباس أسلم عبدالله بن أُبيّ بن سلول ثم قال: إن بيني وبين قريظة حلفاً وإني أخاف الدوائر فارتد كافراً، وقال عبادة بن الصامت: أبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله فنزلت، وبهذا يتضح المراد، والمراد من النهي عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة.

﴿بعضهم أولياء بعض﴾ المعنى أن بعض اليهود أولياء للبعض الآخر منهم وبعض النصارى أولياء للبعض الآخر منهم، وليس المراد بالبعض إحدى طائفتي اليهود والنصارى، والبعض الآخر الطائفة الأخرى، للقطع بأنهم في غاية من العداوة والشقاق، وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت

النصارى ليست اليهود على شيء.

وقيل المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالي الأخرى وتعاضدها وتناصرها على عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعداوة ما جاء به وإن كانوا في ذات بينهم متعادين متضادين.

ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها تقتضي أن هذه الموالاة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم، ولهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال:

﴿ومن يتولهم منكم﴾ أي ومن يتولى اليهود والنصارى دون المؤمنين ﴿فإنه منهم﴾ أي فإنه من جملتهم وفي عدادهم لأنه لا يوالي أحد أحداً إلا وهو عنه راض، فإذا رضي عنه رضي دينه فصار من أهل ملته، وهو وعيد شديد، فإن المعصية الموجبة للكفر هي التي قد بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية.

قال أبو السعود: وفيه زجر شديد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة انتهى، وهذا تعليم من الله تعالى وتشديد عظيم في مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الإسلام وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ تعليل للجملة التي قبلها أي أن وقوعهم في الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالي الكافرين، قال حذيفة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر وتلا هذه الآية.

وعن أبي موسى قال: قلت لعمر بن الخطاب: إن لي كاتباً نصرانياً فقال: مالك وله قاتلك الله، ألا اتخذت حنيفاً يعني مسلماً، أما سمعت قول الله وتلا هذه الآية، قلت: له دينه ولي كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله، قلت: إنه لا يتم أمر البصرة إلا به فقال: مات النصراني والسلام، يعني هب أنه مات فما تصنع بعده فما تعمله بعد موته فاعمله الآن، واستغن عنه بغيره من المسلمين.

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ الفاء للسببية والخطاب إما للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له، أي ما ارتكبوه من الموالاة ووقعوا فيه من الكفر هو بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق والشك في الدين والرؤية إما قلبية أو بصرية.

وقرىء فيرى بالتحتية، واختلف في فاعله ما هو فقيل هو الله عز وجل وقيل هو كل من يصلح منه الرؤية وقيل هو الموصول أي فيرى القوم الذين ﴿يسارعون فيهم﴾ أي في مودة اليهود والنصارى وموالاتهم ومناصحتهم، لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار يخالطونهم ويغشونهم لأجل ذلك نزلت في ابن أُبَيّ المنافق وأصحابه، وجعل المسارعة في موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة في بيان رغبتهم في ذلك حتى كأنهم مستقرون فيهم داخلون في عدادهم.

﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ جملة مشتملة على تعليل المسارعة في الموالاة أي أن هذه الخشية هي الحاملة لهم على المسارعة، والدائرة ما يدور من مكابرة الدهر ودوائره كالدولة التي تزول، أي يقول المنافقون إنما نخالط اليهود لأنا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكروه وهو الهزيمة في الحرب والقحط والجدب والحوادث المخوفة.

قال ابن عباس: نخشى أن لا يتم أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد، يعني نخشى أن يظفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فتكون الدولة لهم وتبطل دولته فيصيبنا منهم مكروه، وفرّق الراغب بين الدائرة والدولة بأن الدائرة هي الخط المحيط ثم عبر بها عن

الحادثة، وإنما يقال الداءة في المكروه، والدولة في المحبوب.

﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ رد عليهم ودفع لما وقع لهم من الخشية، وعسى في كلام الله سبحانه وعد صادق لا يتخلف، والفتح ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الكافرين، ومنه ما وقع من قتل مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم وإجلاء بني النضير، وقيل هو فتح بلاد المشركين على المسلمين وقيل فتح مكة.

﴿أو أمر من عنده﴾ هو كل ما تندفع به صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم وقيل هو إظهار أمر المنافقين واخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما أسروا في أنفسهم، وأمره بقتلهم، وقيل هو الجزية التي جعلها الله عليهم وقيل الخصب والسعة للمسلمين.

﴿فيصبحوا﴾ أي المنافقون ﴿على ما أسرّوا في أنفسهم﴾ من النفاق الحامل لهم على الموالاة ﴿نادمين﴾ على ذلك لبطلان الأسباب التي تخيلوها وانكشاف خلافها.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان ما وقع من هذه الطائفة، أي يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود ومشيرين إلى المنافقين وقت إظهار الله تعالى نفاقهم ﴿أهؤلاء﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي ﴿الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ بالمناصرة والمعاضدة في القتال أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين، وهذه الجملة مفسرة للقول، وجهد الايمان أغلظها.

﴿حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت، وهو من تمام قول المؤمنين، واستظهره أبو حيان وبه قال الزمخشري أو جملة مستأنفة والقائل هو الله سبحانه والأعمال هي التي عملوها في الموالاة أو كل عمل يعملونه، وعليه جمهور المفسرين ﴿فاصبحوا خاسرين﴾ في الدنيا بافتضاحهم، وفي الآخرة بإحباط ثواب أعمالهم وحصلوا بالعذاب الدائم المقيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ هذا شروع في بيان أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر، وذلك نوع من أنواع الردة، ذكر صاحب الكشاف أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت ثلاث في زمن رسوله الله ﷺ وهم بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار، وبنو حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذاب، وبنو أسد وهم قوم طلحة بن خويلد.

وارتد سبع فرق في خلافة أبي بكر الصديق وهم فزارة قوم عيينه بن حصن الفزاري، وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم الفجاة ابن عبد ياليل، وبنو يربوع قوم مالك بن بريدة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر، وكندة قوم الأشعث بن قيس الكندي، وبنو بكر بن وائل قوم الخطمي ابن يزيد، فكفى الله أمرهم على يد أبي بكر الصديق، وفرقة واحدة ارتدت في زمن خلافة عمر بن الخطاب وهم غسّان قوم جبلة بن الأيْهَم، فكفى الله أمرهم على يد عمر رضي الله عنه.

﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ المراد بالقوم الذين وعد الله سبحانه بالاتيان بهم هم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجيشه من الصحابة والتابعين الذين قاتل بهم أهل الردة، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين في جميع الزمن، قال بعض الصحابة ما ولد بعد النبيين أفضل من أبي بكر لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة.

ولما هَمَّ أبو بكر بقتالهم كره ذلك بعض الصحابة وقال بعضهم هم أهل

القبلة، فتقلّد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بداً من الخروج على أثره، فقال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه في الانتهاء.

وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما عن ابي موسى الأشعري قال: تليت عند النبي ﷺ هذه الآية فقال النبي ﷺ قومك يا أبا موسى أهل اليمن، وفي الباب روايات[1].

وأخرج البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جابر بن عبدالله قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ الآية فقال: هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم كندة ثم السكون ثم تجيب[2].

وعن ابن عباس هم أهل القادسية، وقال السدي نزلت في الأنصار لأنهم هم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعانوه على إظهار الدين، والأول أولى.

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء القوم بالأوصاف العظيمة المشتملة على غاية المدح ونهاية الثناء فقال: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ من كونهم ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وهذه من صفات الذين اصطفاهم الله يعني أنهم أرقاء رحماء لأهل دينهم، أشداء أقوياء غلظاء على أعدائهم، قاله علي، قال ابن عباس: تراهم كالولد لوالده وكالعبد لسيده، وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته.

قال ابن الأنباري: أثنى الله عليهم بأنهم يتواضعون للمؤمنين إذا لقوهم، ويعنفون الكافرين إذا لقوهم، ولم يرد ذل الهوان بل الشفقة والرحمة، وإنما أتى بلفظة (على) ليدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم، والأذلة جمع

---

(١) ابن كثير ٢/٧٠.
(٢) ابن كثير ٢/٧٠.

ذليل لا ذلول، والأعزة جمع عزيز أي يظهرون الحنوّ والعطف والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين.

﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ عذل عاذل في نصرهم الدين أي يجمعون بين المجاهدة في سبيل الله وعدم خوف الملامة في الدين، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الإزراء بأهل الدين وقلب محاسنهم مساوىء ومناقبهم مثالب حسداً وبغضاً وكراهة للحق وأهله.

والإشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ إلى ما تقدم من الصفات التي اختصهم الله بها ﴿فضل الله﴾ أي لطفه وإحسانه ﴿يؤتيه من يشاء والله واسع﴾ الفضل وكثير الفضائل ﴿عليم﴾ بمن هو أهلها.

﴿إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ عن ابن عباس قال: تصدّق عليّ بخاتم وهو راكع فأنزل الله فيه هذه الآية، وعن علي نحوه أخرجه أبو الشيخ وابن عساكر.

قلت: لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحل موالاته بيّن من هو الولي الذي تجب موالاته، والمراد بالركوع الخشوع والخضوع أي وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون، وقيل يضعون الزكاة في مواضعها غير متكبرين على الفقراء ولا مترفعين عليهم، وقيل المراد بالركوع على المعنى الثاني ركوع الصلاة، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال.

وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا﴾ قال ابن عباس: يريد المهاجرين والأنصار ومن يأتي بعدهم ﴿فإن حزب الله﴾ أي أنصار دينه ﴿هم الغالبون﴾ بالحجة والبرهان فإنها مستمرة أبدا لا بالدولة والصولة، وإلا فقد غلب حزب الله غير مرة حتى في زمن النبي ﷺ، قاله الكرخي.

وعد الله سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوهم، والحزب الصنف من الناس من قولهم حزبه كذا أي نابه، فكأن المتحزبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة التي تنوب، وحزب الرجل أصحابه، والحزب الورد، وفي الحديث «فمن فاته حزبه من الليل» وتحزبوا اجتمعوا، والأحزاب الطوائف.

وقد وقع ولله الحمد ما وعد الله به أولياءه وأولياء رسله وأولياء عباده المؤمنين من الغلب لعدوهم فإنهم غلبوا اليهود بالسبي والقتل والإجلاء وضرب الجزية حتى صاروا لعنهم الله أذل الطوائف الكفرية وأقلها شوكة، وما زالوا تحت كلكل المؤمنين يطحنونهم كيف شاؤوا يمتهنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغاية.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً﴾ هذا

النهي عن موالاة المتخذين للدين هزواً ولعباً يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام.

والبيان بقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ لا ينافي دخول غيرهم تحت النهي إذا وجدت فيه العلة المذكورة التي هي الباعثة على النهي ﴿والكفار﴾ المشركين أو المنافقين ﴿أولياء﴾ أي أنصاراً لكم في الدين والدنيا ﴿واتقوا الله﴾ بترك موالاتهم وترك ما نهاكم عنه من هذا وغيره ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الايمان يقتضي ذلك.

﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة﴾ النداء الدعاء برفع الصوت، وناداه مناداة ونداء صاح به، وتنادوا أي نادى بعضهم بعضاً وتنادوا أي جلسوا في النادي.

﴿اتخذوها هزواً ولعباً﴾ أي اتخذوا صلاتكم وقيل الضمير للمناداة المدلول عليها بناديتم.

قيل: وليس في كتاب الله تعالى ذكر الأذان إلا في هذا الموضع، وأما قوله تعالى في سورة الجمعة إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فهو خاص بنداء الجمعة، وقد اختلف أهل العلم في كون الأذان واجباً أو غير واجب، وفي ألفاظه هو مبسوط في مواطنه ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ الباء للسببية لأن الهزو واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش.

﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ أي تكرهون من أوصافنا وأحوالنا، قرأ الجمهور بكسر القاف وقرأ بفتحها، وهاتان مفرعتان على الماضي وفيه لغتان، الفصحى نقم بفتح القاف ينقم بكسرها حكاها ثعلب، والأخرى بعكس ذلك فيهما حكاها الكسائي، ولم يقرأ قوله: ﴿وما نقموا﴾ إلا بالفتح وأصل نقم أن يتعدى بعلى، يقال نقمت على الرجل أنقم بالكسر فيهما فأنا ناقم

إذا عتبت عليه، وإنما عُدّي هنا بمن لتضمنه معنى تكرهون وتنكرون.

في الصحاح ما نقمت منه إلا الإحسان، وقال الكسائي: نقمت بالكسر لغة، ونقمت الامر أيضاً ونقمته إذا كرهته، وانتقم الله منه أي عاقبه، والاسم منه النقمة والجمع نقمات ونقم مثل كلمة وكلمات وكلم، وإن شئت سكّنت القاف ونقلت حركتها إلى النون فقلت نقمة والجمع نقم مثل نعمة ونعم، وقيل المعنى تسخطون وقيل تنكرون أي هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا.

﴿إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ أي إلا ايماننا بالله وبكتبه المنزّلة وقد علمتم بأنّا على الحق، وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب، والاستثناء مفرغ أي ليس هذا مما ينكر أو ينقم به.

﴿وإن أكثركم فاسقون﴾ بترككم للايمان، والخروج عن امتثال أوامر الله أي ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان.

وفيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين، فإن الإيمان من جهتهم، والتمرد والخروج من الناقمين، وقيل هو على تقدير محذوف أي واعتقادنا أن أكثركم فاسقون وقيل غير ذلك.

خاتمة الجزء الثالث

تّم الجزء الثالث بفضل الله ونعمته ويليه الجزء الرابع
وأوله تفسير اية ٦٠ من سورة المائدة وتبدأ بقوله
تعالى:

فهرس الجزء الثالث

فتح البيان
في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الرابع

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع
المكتبة العصرية للطباعة والنشر
الدار النموذجية المطبعة العصرية
بيروت - ص. ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE
صيدا - ص. ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

يبدأ من قوله تعالى سورة المائدة آية ٦٠.

الى قوله تعالى :

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى
ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

سورة الأعراف ١٤١

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك﴾ بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالتعييب وهو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه، والمعنى هل أنبئكم أيها اليهود بشر من نقمكم علينا أو بشر مما تريدون بنا من المكروه أو بشر من أهل الكتاب أو بشر من دينهم.

﴿مثوبة عندالله﴾ أي جزاء ثابتاً وهي مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر، ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وهي منصوبة على التمييز من بشر ﴿من لعنه الله﴾ أي هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله ﴿وغضب عليه﴾ أي :انتقم منه لأن الغضب ارادة الانتقام من العصاة.

﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أي مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة، وكفار مائدة عيسى منهم خنازير[1]، وقال ابن عباس إن الممسوخين كلاهما أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير ﴿وعبد الطاغوت﴾ أي: جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت، والمعنى وجعل منهم من يبالغ في عبادة الطاغوت، لأن فعل من صيغ المبالغة كحذر وفطن للتبليغ في الحذر والفطنة، وقرىء على أن عبد فعل ماض معطوف على غضب ولعن كأنه

(١) رواه مسلم ٢٠٥١/٤ وأحمد ٢٦٠/٥ .

قيل: ومن عبد الطاغوت أو معطوف على القردة والخنازير أي وجعل منهم عبد الطاغوت حملاً على لفظ من.

وقرأ ابن مسعود عبدوا الطاغوت حملاً على معناها، وقرأ ابن عباس عُبُد كأنه جمع عبد كما يقال سقف وسقف، ويجوز أن يكون جمع عبيد كرغيف ورغف أو جمع عابد كبازل وبزل، وقرىء عبّاد جمع عابد للمبالغة كعامل وعمال، وقرىء عُبِد على البناء للمفعول، والتقدير: وعبد الطاغوت فيهم، وقرىء عابد الطاغوت على التوحيد، وقريء عبدة وأعبد الطاغوت مثل كلب وأكلب، وقرىء وعبد عطفاً على الموصول، وهي قراءة ضعيفة جداً.

وجملة القراآت في هذه الآية أربع وعشرون منها اثنتان سبعيتان والباقية شاذة ذكرها السمين، والطاغوت: الشيطان أو الكهنة أو العجل أو الأحبار أو غيرها مما تقدم مستوفى، وجملته: أن كل من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده وهو الطاغوت.

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بالصفات المتقدمة و﴿شر﴾ هنا على بابه من التفضيل، والمفضل عليه فيه احتمالان (احدهما) انهم المؤمنون (والثاني) انهم طائفة من الكفار.

و ﴿مكاناً﴾ تمييز لأن مأواهم النار وجعلت الشّرارة للمكان وهي لأهله للمبالغة، ويجوز أن يكون الاسناد مجازياً ﴿وأضلّ عن سواء السبيل﴾ أي: هم أضل من غيرهم عن الطريق المستقيم، قيل: التفضيل في الموضعين للزيادة مطلقاً أو لكونهم أشر وأضل ممن يشاركهم في أصل الشرارة والضلال.

﴿وإذا جاءوكم﴾ أي منافقو اليهود ﴿قالوا آمنا﴾ أي: أظهروا الإسلام ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ جملتان حاليتان أي: جاءوكم حال كونهم قد دخلوا عندك متلبسين بالكفر وخرجوا من عندك متلبسين به، لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك بل خرجوا كما دخلوا.

﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ عنك من الكفر والنفاق، وفيه وعيد شديد وهؤلاء هما المنافقون وقيل: هم اليهود الذين قالوا ﴿آمنوا بالّذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخرهُ﴾.

﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والضمير في (منهم) عائد إلى المنافقين أو اليهود أو الى الطائفتين جميعاً، وجملة يسارعون في محل النصب على الحال على أن الرؤية بصرية أو هو مفعول ثان لترى على أنها قلبية، والمسارعة في الشيء المبادرة إليه والاثم الكذب أو الشرك أو الحرام.

﴿والعدوان﴾ هو الظلم المتعدي إلى الغير أو مجاوزة الحد في الذنوب ﴿وأكلهم السّحت﴾ هو الحرام، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ من المسارعة إلى الاثم والعدوان وأكل السحت وهو الرشا وما كانوا يأكلونه من غير وجهه.

﴿لولا﴾ أي هلا، وهي هنا للتحضيض والتوبيخ لعلمائهم وعبّادهم عن تركهم النهي عن المنكر ﴿ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ قال الحسن: الربانيون علماء النصارى والأحبار علماء اليهود وقيل: الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم ﴿عن قولهم الاثم﴾ يعني الكذب ﴿وأكلهم السّحت﴾ أي: الرشا والحرام ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ أي: الأحبار والرهبان إذا لم ينهوا غيرهم عن المعاصي.

وهذا فيه زيادة على قوله ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ لأن العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرب فيه صاحبه، ولهذا تقول العرب سيف صنيع إذا جوّد عامله عمله فالصُّنع هو العمل الجيد لا مطلق العمل، فوبخ سبحانه الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعلي المعاصي.

فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم ويفرِّجوا لها عن قلوبهم، فانها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم بأن كفهم عن المعاصي مع ترك انكارهم على أهلها لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشدّ حالاً وأعظم وبالاً من العصاة، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما افترضه الله عليه، وأوجب ما وجب عليه النهوض به.

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وأعنّا على ذلك وقوّنا عليه، ويسره لنا وانصرنا على من تعدى حدودك وظلم عبادك انه لا ناصر لنا سواك ولا مستعان غيرك يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين، وقد وردت أحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا حاجة لنا في بسطها هنا.

ففي الآية أيضا ذم لعلماء المسلمين على توانيهم في النهي عن المنكرات، ولذلك قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية، وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، وفيه دلالة على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه لأن الله تعالى ذم الفريقين في هذه الآية.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أي مقبوضة عن إدرار الرزق علينا، كنوا به عن البخل، تعالى الله عن ذلك، واليد عند العرب تطلق على الجارحة ومنه قوله تعالى: ﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ وعلى النّعمة يقولون،كم يد لي عند فلان، وعلى القدرة ومنه قوله تعالى: ﴿قل ان الفضل بيد الله﴾ وعلى التأييد ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يد الله مع القاضي حين يقضي» وعلى الملك يقال هذه الضيعة في يد فلان أي في ملكه، ومنه قوله تعالى: ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾ أي يملك ذلك.

أما الجارحة فمنتفية في صفته عز وجل، وأما سائر المعاني التي فسرت اليد بها عند جمهور المتكلمين وأهل التأويل ففيه إشكال لأنها إذا فسرت بمعنى القدرة فقدرته واحدة، والقرآن ناطق باثبات اليدين، وأجيب عنه بأن هذه الآية على طريق التمثيل على وفق كلامهم كقوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ والعرب تطلق غل اليد على البخل وبسطها على الجود مجازاً ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل ومقبوض الكف، فمراد اليهود هنا عليهم لعائن الله أن الله بخيل، قال ابن عباس: مغلولة أي بخيلة.

وان فسرت بالنعمة فنص القرآن ينطق باليدين، ونعمه غير محصورة، وأجيب عنه بأن هذا بحسب الجنس، ويدخل تحته أنواع كثيرة لا نهاية لها وما أبعده.

والجواب عن الجواب الأول ان اليد صفة قائمة بذات الله وهي صفة سوى القدرة من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء، والذي يدل عليه ان الله تعالى أخبر عن آدم انه خلقه بيديه على سبيل الكرامة، ولو كان معناه بقدرته أو نعمته أو ملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم، وامتنع كون آدم مصطفى بذلك لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات، فلا بد من اثبات صفة أخرى وراء ذلك يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء وبه قال أبو الحسن الأشعري على ما نقله الرازي عنه وجماعة من أهل الحديث.

والجواب عن الجواب الثاني ان الاسم إذا ثني لا يؤدي في كلام العرب إلا عن اثنين بأعيانها دون الجمع ولا يؤدي عن الجنس، فثبت أن اليد صفة لله تعالى تليق بجلاله وانها ليست بجارحة كما قالت المجسمة واليهود، ولا بنعمة وقدرة كما قالت المعتزلة.

ولما قالت اليهود ذلك أجاب سبحانه عليهم بقوله: ﴿غلت أيديهم﴾ هذا دعاء عليهم بالبخل، فيكون الجواب عليهم مطابقاً لما أرادوه بقولهم يد الله مغلولة، ويجوز أن يراد غل أيديهم حقيقة بالأسر في الدنيا أو العذاب في الآخرة.

ويقوي المعنى الأول أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهودياً وان كان ماله غاية الكثرة إلا وهو من أبخل خلق الله، وقيل المجاز أوفق بالمقام لمطابقة ما قبله.

عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس ان ربك بخيل لا ينفق فأنزل الله هذه الآية، وعنه أنها نزلت في فنحاص اليهودي، وعن عكرمة نحوه، والمعنى أمسكت أيديهم عن كل خير، قال الزجاج: رد الله عليهم فقال انا الجواد الكريم وهم البخلاء وأيديهم هي الممسكة.

﴿ولعنوا بما قالوا﴾ الباء سببية أي:أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم هذا فمن لعنتهم أنهم مسخوا في الدنيا قردة وخنازير، وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية، وفي الآخرة لهم عذاب النار.

ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ أي:بل هو في غاية ما يكون من الجود، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة لإفادة الكثرة إذ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه.

وهذه الجملة الاضرابية معطوفة على جملة مقدرة يقتضيها المقام أي كلا ليس الأمر كذلك بل يداه مبسوطتان يعني:هو جواد كريم على سبيل الكمال، وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ بل يداه بسيطتان أي:منطلقتان.

ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه فيجب علينا الإيمان بها والتسليم وإثباتها له تعالى وإمرارها كما جاءت في الكتاب والسنة بلا كيف ولا تشبيه ولا تعطيل، قال تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن يمين الرحمن: «وكلتا يديه يمين» فالجارحة منتفية في صفته عز وجل، والجهمية أنكروها وتأولوا بالنعمة والقدرة وهم المعطلة، وهذا الانتفاء إنما هو عند المؤمنين، وأما اليهود فإنهم مجسمة فيصح حمل اليد عندهم على الجارحة بحسب اعتقادهم الفاسد.

﴿ينفق كيف يشاء﴾ جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه أي:انفاقه على ما تقتضيه مشيئته وحكمته، فإن شاء وسع وإن شاء قتر، لا اعتراض عليه، فهو القابض الباسط فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة لا شيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تفنى ومواد جوده لا تتناهى، قال تعالى: ﴿ولو

بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ وقال: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾.

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما بيده، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يرفع ويخفض»(١) أخرجه البخاري ومسلم، وفي الباب أحاديث.

﴿وليزيدن﴾ اللام هي لام القسم أي والله ليزيدن ﴿كثيراً منهم﴾ من علماء اليهود والنصارى ورؤسائهم ﴿ما أنزل إليك﴾ من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة ﴿من ربك طغياناً﴾ إلى طغيانهم ﴿وكفراً﴾ إلى كفرهم، عن قتادة قال حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم.

﴿وألقينا بينهم﴾ أي بين طوائف اليهود ﴿العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ فإن بعضهم جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة أو بين اليهود والنصارى فهم فرق كالملكانية والنسطورية واليعقوبية والماروانية.

لا يقال أن هذا المعنى حاصل بين المسلمين أيضاً فكيف يكون عيباً عليهم لا على المسلمين لأنا نقول: إن هذه البدع والافتراق لم يكن شيء منها حاصلاً بينهم في الصدر الأول، وإنما حدثت بعد عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحسن جعل ذلك عيباً عليهم في ذلك العصر الذي نزل فيه القرآن على رسول الله ﷺ، قال أبو حيان: العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض وقد يبغض من ليس بعدو، قاله الكرخي.

﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أي: كلما جمعوا للحرب جمعاً

(١) البخاري كتاب التفسير سورة ١١ ـ مسلم الباب ٣٧ من كتاب الزكاة.

وأعدوا له عدة شتت الله جمعهم، وذهب بريحهم، فلم يظفروا بطائل ولا عادوا بفائدة، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، وذلك بأن بعث الله عليهم بختنصر البابلي، ثم افسدوا فبعث عليهم طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس، وهم أهل الفرس، ثم أفسدوا وقالوا يد الله مغلولة فبعث الله المسلمين، فلا تزال اليهود في ذلة أبداً، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها ثم يبطل الله ذلك.

قال مجاهد: كلما مكروا مكراً في حرب محمد ﷺ أطفأه الله تعالى، وعن السّدي قال: كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله وقذف في قلوبهم الرعب، والآية مشتملة على استعارة بليغة وأسلوب بديع، وقيل: المراد بالنار هنا الغضب أي: كلما أثاروا في أنفسهم غضباً أطفأه الله بما جعله من الرعب في صدورهم والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم قال قتادة: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس فيها وهم أبغض خلق الله إليه.

﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ أي يجتهدون في فعل ما فيه فساد ومن أعظمه ما يريدون من إبطال الإسلام وكيد أهله ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ إن كانت اللام للجنس فهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمر لبيان شدة فسادهم وكونهم لا ينفكون عنه.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ولو أن أهل الكتاب﴾ أي لو أن المتمسكين بالكتاب وهم اليهود والنصارى على أن التعريف للجنس بيان لحالهم في الآخرة ﴿آمنوا﴾ الإيمان الذي طلبه الله منهم، ومن أهمه الايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما أمروا بذلك في كتب الله المنزلة عليهم ﴿واتقوا﴾ المعاصي التي من أعظمها ما هم عليه من الشرك بالله والجحود لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿لكفرنا عنهم سيئآتهم﴾ التي اقترفوها وإن كانت كثيرة متنوعة لأن الإسلام يجبُّ ما قبله، وقيل المعنى لوسعنا عليهم في أرزاقهم ﴿ولأدخلناهم﴾ تكرير اللام لتأكيد الوعد ﴿جنات النعيم﴾ مع المسلمين يوم القيامة.

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ بما فيهما من الأحكام التي من جملتها الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وما أنزل إليهم من ربهم﴾ أي من سائر كتب الله التي من جملتها القرآن فإنها كلها وإن نزلت على غيرهم فهي في حكم المنزلة عليهم لكونهم متعبدين بما فيها ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ ذكر فوق وتحت للمبالغة في تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتها وتعدد أنواعها.

عن ابن عباس قال: لأكلوا من فوقهم يعني لأرسل عليهم السماء مدراراً، ومن تحت أرجلهم قال يخرج الأرض من بركتها، وعن قتادة نحوه.

﴿منهم أمة مقتصدة﴾ جواب سؤال مقدر كأنه قيل هل جميعهم متصفون

بالأوصاف السابقة، أو البعض منهم دون بعض، فقال:منهم أمة عادلة غير غالية ولا مقصّرة، والمقتصدون منهم هم المؤمنون كعبدالله بن سلام ومن تبعه، وطائفة من النصارى قال مجاهد هم مسلمة أهل الكتاب، وعن الربيع بن أنس قال الأمة المقتصدة الذين لا هم فسقوا في الدين ولا هم غلوا، والغلو: الرغبة، والفسق: التقصير عنه، وعن السدي مقتصدة أي: مؤمنة والاقتصاد الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير.

﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ وهم المصرّون على الكفر المتمردون عن إجابة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان بما جاء به مثل كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود.

أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فذكر حديثاً قال ثم حدثهم النبي ﷺ وقال: «تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلو أمتي على الفريقين جميعاً بملة واحدة في الجنة واثنتان وسبعون منها في النار قالوا:من هم يا رسول الله؟قال: الجماعات الجماعات»[1].

وقال يعقوب بن زيد:كان علي بن أبي طالب إذا حدث عن رسول الله ﷺ بهذا الحديث تلا فيه قرآناً قال: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ الآية، وتلا أيضاً ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ يعني:أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروي من طرق عديدة قد ذكرناها في موضع آخر اهـ.

(١) المستدرك كتاب العلم ١/ ١٢٨.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾

قلت: أما زيادة كونها في النار إلا واحدة فقد ضعفها جماعة من المحدثين بل قال ابن حزم إنها موضوعة.

﴿يا أيّها الرَّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك﴾ العموم الكائن في: ما أنزل يفيد أنه يجب عليه ﷺ أن يبلغ جميع ما أنزله الله عليه لا يكتم منه شيئاً، وفيه دليل على أنه لم يسر إلى أحد مما يتعلق بما أنزله الله شيئاً، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «من زعم أن محمداً ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب».

وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبدالله السّوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن فقال: «لا والذي فلق الحبّة وبرأ النَّسَمَة إلاّ فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل[1] وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر».

﴿وإن لم تفعل﴾ ما أمرت به من تبليغ الجميع بل كتمت ولو بعضاً من ذلك خوفاً من أن تنال بمكروه ﴿فما بلغت﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿رسالته﴾ بالتوحيد، وقرأ أهل المدينة وأهل الشام ﴿رسالاته﴾ على الجمع، قال النحاس: والجمع أبين لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً ثم يبينه اهـ.

وفيه نظر فإن نفي التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن

(١) أي الدية يعني بيان مقادير الديات.

الرسالات كما ذكره علماء البيان على خلاف في ذلك، وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته ما نزل إليه وقال لهم في غير موطن هل بلغت؟ فيشهدون له بالبيان، فجزاه الله عن أمته خيراً، وحاشاه أن يكتم شيئاً مما أوحى إليه.

عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية يوم غدير خُمّ في علي بن أبي طالب، وعن ابن مسعود قال كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك إن علياً مولى المؤمنين[1] وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً وعرفت أن الناس مكذبي فوعدني لأبلغن أو ليعذبني فأنزلت يا أيها الرسول الآية.

﴿والله يعصمك من الناس﴾ إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعاً لما يظن أنه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس وقد كان ذلك بحمد الله فإنه بين لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام، ثم حملَ من أَبَى من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعاً أو كرهاً، وقتل صناديد الشرك وفرق جموعهم وبدد شملهم، وكانت كلمة الله هي العليا، وأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل حتى قال يوم الفتح لصناديد قريش وأكابرهم ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس إن قام ببيان حجج الله وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهراني من ضاد الله وعانده ومن لم يمتثل لشرعه كطوائف المبتدعة وقد رأينا من هذا في أنفسنا

(١) هذا والذي قبله من دسائس الشيعة ليت المؤلف أراحنا منه.

وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيماناً وصلابة في دين الله وشدة شكيمة في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متـزلزلو الأقـدام ومضطربو القلوب من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم، فهي خيالات مختلة وتوهمات باطلة.

فإن كلّ محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ وقصة غورث بن الحرث ثابتة في الصحيح وهي معروفة مشهورة كما تقدم[1].

فإن قلت أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد وقد أوذي بضروب من الأذى، فكيف يجمع بين ذلك وبين هذه الآية.

قلت المراد أنه يعصمه من القتل فلا يقدر عليه أحد ويدل له حديث جابر في الصحيحين وفيه فقال: إن هذا اخترط على سيفي، إلى قوله، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت الله، ثلاثاً، وقيل: إن هذه الآية نزلت بعد ما شج رأسه في يوم أحد، لأن سورة المائدة من آخر القرآن نـزولاً، وكان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت فقال: انصرفوا فقد عصمني الله، رواه الحاكم بطوله.

﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ جملة متضمنة لتعليل ما سبق من العصمة أي: إن الله لا يجعل لهم سبيلاً إلى الاضرار لك فلا تخف وبلغ ما أمرت بتبليغه، وقال ابن عباس: لا يرشد من كذبك وأعرض عنك، وقال ابن جرير الطبري: المعنى أن الله لا يرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئت به من عند الله ولم ينته فيما فرض عليه وأوجبه.

---

(١) راجع ص ٤٦٣ ج ٢.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ فيه تحقير وتقليل لما هم عليه أي: لستم على شيء يعتد به من الدين المرتضى عند الله ﴿حتى تقيموا التوراة والانجيل﴾ أي: حتى تعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه التي من جملتها أمركم باتباع محمد ﷺ ونهيكم عن مخالفته قال أبو علي الفارسي: ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما[1].

﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ قيل هو القرآن فإن اقامة الكتابين لا تصح بغير اقامته، ويجوز أن يكون المراد ما أنزل إليهم على لسان الأنبياء من غير الكتابين.

﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي كفراً إلى كفرهم وطغياناً إلى طغيانهم والمراد بالكثير منهم من لم يسلم واستمر على المعاندة، وقيل المراد به العلماء منهم وتصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد

---

(١) قوله تعالى: ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴾ سبب نزولها: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألست تؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها، فأنا بريء من إحداثكم. فقالوا: نحن على الهدى، ونأخذ بما في أيدينا، ولا نؤمن بك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. فأما أهل الكتاب، فالمراد بهم اليهود والنصارى. وقوله: ﴿ لستم على شيء ﴾ أي: لستم على شيء من الدين الحق حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وإقامتهما: العمل بما فيهما، ومن ذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم

مضمونها.

﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي دع عنك التأسف على هؤلاء فان ضرر ذلك راجع إليهم ونازل بهم.

﴿إن الذين آمنوا﴾ بألسنتهم وهم المنافقون ﴿والذين هادوا﴾ أي دخلوا في دين اليهود وهو مبتدأ والواو لعطف الجمل أو للاستئناف ﴿والصابئون والنصارى﴾ معطوفان على المبتدأ، وقال الخليل وسيبويه الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر والصابئون والنصارى كذلك، وقيل غير ذلك.

وفي المقام وجوه تسعة أخرى ذكرها السمين، والذي مشينا عليه أوضح وأظهر من الكل، وظاهر الإعراب يقتضي أن يقال ﴿والصابئين﴾ وكذا قرأ أبي وابن مسعود وابن كثير، وقرأ الجمهور بالرفع وقد تقدم الكلام على الصابئين والنصارى في سورة البقرة وهو من صبا يصبو لأنهم صبؤا إلى اتباع الهوى ويبدل من المبتدأ الذي هو الفرق الثلاثة بدل بعض قوله: ﴿من آمن بالله﴾ إيماناً خالصاً على الوجه المطلوب ﴿واليوم الآخر﴾ منهم، وحذف لكونه معلوماً عند السامعين ﴿وعمل﴾ عملاً ﴿صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فهو الذي لا خوف عليه ولا حزن.

هذا على كون المراد بالذين آمنوا المنافقين، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام المخلص والمنافق فالمراد بمن آمن من اتصف بالإيمان الخالص واستمر عليه ومن أحدث إيماناً خالصاً بعد نفاقه.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ كلام مبتدأ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة وجناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم أي والله لقد أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم في التوراة، وقد تقدم في البقرة بيان معنى الميثاق ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ ليعرفوهم بالشرائع وينذروهم ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ جملة شرطية وقعت جواباً لسؤال ناشيء من الاخبار بارسال الرسل كأنه قيل:ماذا فعلوا بالرسل؟وجواب الشرط محذوف أي عصوه.

﴿فريقاً كذبوا﴾ جملة مستأنفة أيضاً جواب عن سؤال ناشيء عن الجواب الأول كأنه قيل:كيف فعلوا بهم؟فقيل فريقاً كذبوا منهم ولم يتعرضوا لهم بضرر ﴿وفريقاً﴾ آخر منهم ﴿يقتلون﴾ أي:قتلوهم ولم يكتفوا بتكذيبهم، وإنما قال: وفريقاً يقتلون لمراعاة رؤوس الأي فممن كذبوه عيسى وأمثاله من الأنبياء، وممن قتلوه زكريا ويحيى، وإنما فعلوا ذلك نقضاً للميثاق وجرأة على الله ومخالفة لأمره.

﴿وحسبوا ألا تكون فتنة﴾ أي:حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد اغتراراً بقولهم:نحن أبناء الله وأحباؤه، وحسب بمعنى علم لأن (أن) معناها التحقيق أو حسب بمعنى الظن على أن (أن) ناصبة للفعل قال النحاس: والرفع عند النحويين في حسب

وأخواتها أجود، وإنما حملهم على ذلك الظن الفاسد أنهم كانوا يعتقدون أن كل رسول جاءهم بشرع آخر غير شرعهم يجب عليهم تكذيبه وقتله، فلهذا حسبوا ان لا يكون فعلهم ذلك فتنة يبتلون بها.

وقيل إنما أقدموا على ذلك لاعتقادهم أن آباءهم وأسلافهم يدفعون عنهم العذاب في الآخرة ﴿فعموا﴾ عن إبصار الهدى ﴿وصموا﴾ عن استماع الحق، وهذا اشارة إلى ما وقع من بني إسرائيل في الإبتداء من مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا وقيل سببه عبادتهم العجل في زمن موسى عليه السلام ولا يصح فإنها وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم لكنها في عصر موسى، ولا تعلق لها مما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاءوا إليهم بعد موسى عليه السلام.

﴿ثم تاب الله عليهم﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد بعد ما كانوا ببابل دهراً طويلاً تحت قهر بختنصر أسارى في غاية الذل والمهانة فكشف عنهم الذلة والقحط.

﴿ ثم عموا وصموا ﴾ وهذه إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا وقصدهم لقتل عيسى، وقيل: بسبب الكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

و﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير قال الكرخي: هذا الإبدال في غاية البلاغة ﴿والله بصير بما يعملون﴾ من قتل الأنبياء وتكذيب الرسل فيجازيهم بحسب أعمالهم، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ولرعاية الفواصل.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم يقال لهم اليعقوبية وقيل هم الملكانية قالوا: إن الله عز وجل حل في ذات عيسى، وأن مريم ولدت إلها فرد الله عليهم بقوله: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي والحال أن قد قال المسيح هذه المقالة فكيف يدعون الآلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم، ودلائل الحدوث ظاهرة عليه[1].

﴿إنه﴾ الشأن ﴿من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة إذا مات صاحبه على شركه، وقيل هو من قول عيسى ﴿ومأواه النار﴾ أي مصيره إليها في الآخرة.

﴿وما للظالمين﴾ أي: المشركين، فيه مراعاة معنى (من) بعد مراعاة لفظها، وفيه الاظهار في مقام الاضمار للتسجيل عليهم بوصف الظلم ﴿من أنصار﴾ ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار ويمنعونهم من عذاب الله، وصيغة الجمع هنا للاشعار بأن نصرة الواحد أمر غير محتاج إلى التعرض لنفيه لشدة ظهوره وإنما ينبغي التعرض لنفي نصرة الجمع.

---

(١) روى الامام ابن الجوزي قال محمد بن كعب: لما رُفع عيسى اجتمع مئة من علماء بني إسرائيل، وانتخبوا منهم أربعة، فقال أحدهم: عيسى هو الله كان في الأرض ما بدا له، ثم صعد إلى السماء، لأنه لا يحيي الموتى ولا يبرىء الأكمه والأبرص إلا الله. وقال الثاني: ليس كذلك، لأنا قد عرفنا عيسى، وعرفنا أُمه، ولكنه ابن الله. وقال الثالث: لا أقول كما قلتما، ولكن جاءت به أُمه من عمل غير صالح. فقال الرابع: لقد قلتم قبيحاً، ولكنه عبد الله ورسوله، وكلمته، فخرجوا، فاتبع كل رجل منهم عنق من الناس.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ كلام مبتدأ أيضاً لبيان بعض مخازيهم والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة ولهذا يضاف إلى ما بعده، ولا يجوز فيه التنوين كما قال الزجاج وغيره، وإنما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده دونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة، والقائل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم النصارى والمراد بالثلاثة: الله سبحانه وعيسىٰ ومريم كما يدل عليه قوله ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾ .

وهذا هو المراد بقولهم ثلاثة أقانيم إقنيم الأب وإقنيم الابن وإقنيم روح القدس، وقد تقدم في سورة النساء كلام في هذا، وهو كلام معلوم البطلان، ولا ترى في الدنيا مقالة أشد فساداً ولا أظهر بطلاناً من مقالة النصارى.

قال الواحدي: ولا يكفر من يقول :إن الله ثالث ثلاثة ولم يرد به أنه ثالث ثلاثة آلهة لأنه ما من اثنين إلا والله ثالثهما بالعلم، ويدل عليه قوله تعالى في سورة المجادلة ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

ثم رد الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة فقال ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ أي ليس في الوجود إله لا ثاني له ولا شريك له ولا ولد له ولا صاحبة

له إلا الله سبحانه، وهذه الجملة حالية والمعنى قالوا تلك المقالة والحال أنه لا موجود إلا الله، و(من) في قوله: (من إله) لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفي، قاله الزمخشري، قال السمين:ولكن لم أرهم قالوه وفيه مجال للنظر وقيل زائدة.

﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾ من الكفر وهذه المقالة الخبيثة ﴿ليمسّنّ الذين كفروا منهم﴾ من بيانية أو تبعيضية ﴿عذاب أليم﴾ أي:نوع شديد الألم من العذاب وجيع في الآخرة.

﴿أفلا﴾ الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ﴿يتوبون﴾ من قولهم بالتثليث ﴿إلى الله ويستغفرونه﴾ فيه تعجيب من إصرارهم بمعنى الأمر أي: ليتوبوا وليستغفروه ﴿والله غفور﴾ لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم والواو للحال ﴿رحيم﴾ بهم.

﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول﴾ أي هو مقصور على الرسالة لا يجاوزها كما زعمتم وجملة ﴿قد خلت﴾ صفة للرسول أي: ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا ﴿من قبله﴾ وما وقع من المعجزات لا يوجب كونه إلّهاً فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها، فإن الله أحيا العصا في يد موسى، وخلق آدم من غير أب فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى ووجوده من غير أب أنه يوجب كونه إلّهاً فإن كان كما تزعمون إلّهاً لذلك فَمن قبله من ﴿الرسل﴾ الذين جاءوا بمثل ما جاء به آلهة وأنتم لا تقولون بذلك.

﴿وأمّه﴾ عطف على المسيح أي:وما أمه إلا ﴿صدّيقة﴾ أي:صادقة فيما تقوله أو مصدّقة لما جاء به ولدها من الرسالة وذلك لا يستلزم الإلّهية لها بل هي كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق ويبالغن في الاتصاف به، فما رتبتها إلا رتبة بشرين أحدهما نبي

والآخر صحابي، فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الأنبياء وخواصهم، ووقع اسم الصديقة عليها لقوله تعالى ﴿وصدّقت بكلمات ربها وكتبه﴾.

﴿كانا يأكلان الطعام﴾ استئناف يتضمن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أفراد البشر أي من كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس برب بل عبد مربوب ولدته النساء، فمتى يصلح لأن يكون رباً وأما قولكم: إنه كان يأكل الطعام بناسوته لا بلاهوته فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله، ولو جاز اختلاط القديم بالحادث لجاز أن يكون القديم حادثاً ولو صحّ هذا في حق عيسى لصح في حق غيره من العباد.

﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ أي: الدلالات الواضحات على وحدانيتنا وفيه تعجب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزمة للإلهية ويغفلون عن كونها موجودة فيمن لا يقولون بأنه إله.

﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أي: يصرفون عن الحق بعد هذا البيان يقال: أفكه إذا صرفه، وكرّر الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب، وجاء بثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت، وقيل: الأول أمر بالنظر في كيفية إيضاح الله تعالى لهم الآيات وبيانها، والثاني بالنظر في كونهم صرفوا عن تدبرها والإيمان بها.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قل أتعبدون﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم هذا القول إلزاماً لهم وقطعاً لشبهتهم بعد تعجبه من أحوالهم أي أتعبدون ﴿من دون الله﴾ متجاوزين إياه ﴿ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ بل هو عبد مأمور، وما جرى على يده من النفع أو وقع من الضرر فهو بإقدار الله له وتمكينه منه، وأما هو، فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئاً من ذلك فضلاً عن أن يملكه لغيره، ومن كان لا ينفع ولا يضر فكيف تتخذونه إلهاً وتعبدونه وأي سبب يقتضي ذلك؟ والمراد هنا المسيح عليه السلام.

وايثار (ما) على (من) لتحقيق ما هو المراد من كونه بمعزل عن الالوهية رأساً ببيان انتظامه عليه السلام في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلاً، وقدم سبحانه الضر على النفع لأن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية والآلهية حيث لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب والإله أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور عن قدرته، وهذا في حق عيسى النبي، فما ظنك بولي من الأولياء؟ فإنه أولى بذلك.

﴿و﴾ الحال أن ﴿الله هو السميع العليم﴾ ومن كان كذلك فهو القادر على الضر والنفع لإحاطته بكل مسموع ومعلوم، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم، وقيل: إن الله هو المستحق للعبادة لأنه يسمع كل شيء ويعلمه وإليه ينحو كلام الزمخشري.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ لما أبطل سبحانه جميع ما تعلقوا به من الشبه الباطلة نهاهم عن الغلو في دينهم، وهو المجاوزة للحد كاثبات الآلهية لعيسى كما يقوله النصارى أو حطه عن مرتبته العلية كما يقوله اليهود، فإن كل ذلك من الغلو المذموم وسلوك طريقة الافراط أو التفريط واختيارهما على طريق الصواب.

و﴿غير﴾ منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أي غلواً غير غلو ﴿الحق﴾ وأما الغلو في الحق بابلاغ كلية الجهد في البحث عنه واستخراج حقائقه فليس بمذموم، وقيل: إن النصب على الاستثناء المتصل وقيل على المنقطع قال قتادة: لا تغلوا أي لا تبتدعوا، عن ابن زيد قال: كان مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولداً.

﴿ولا تتبعوا أهواء قوم﴾ جمع هوى وهو ما تدعو شهوة النفس إليه، قال الشعبي: ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلا وذمه، وقال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا موضع الشر، لأنه لا يقال فلان يهوى الخير إنما يقال فلان يحب الخير ويريده، والخطاب لليهود والنصارى الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ نهوا عن اتباع اسلافهم فيما ابتدعوه من الضلالة بأهوائهم وهو المراد بقوله ﴿قد ضلوا من قبل﴾ أي قبل البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والتحية،

والمراد أن اسلافهم ضلـوا قبل البعثة بغلوهم في عيسى.

﴿وأضلوا كثيراً﴾ من الناس إذ ذاك ﴿وضلوا﴾ من بعـد البعثة إمـا بأنفسهم أو جعل ضلال من أضلوه ضلالاً لهم لكونهم سنوا لهم ذلك ونهجوه لهم، وقيل المراد بالأول كفرهم بما يقتضيه العقل وبالثاني كفرهم بما يقتضيه الشرع وقيل الأول ضلالهم عن الانجيل، والثاني ضلالهم عن القرآن ﴿عن سواء السبيل﴾ أي عن طريق الحق.

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾ أي لعنهم الله سبحانه في الزبور والانجيل على لسان داود وعيسى بما فعلوه من المعاصي لاعتدائهم في السبت وكفرهم بعيسى، وعن أبي مالك الغفاري قال: لعنوا أي اليهود على لسان داود فجعلوا قردة وهم أصحاب أيلة، والنصارى على لسان عيسى فجعلوا خنازير، وهم أصحاب المائدة، وكانوا خمسة آلاف ليس فيهم امرأة ولا صبي والفريقان من بني إسرائيل وعن قتادة نحوه وكان داود بعد موسى وقبل عيسى.

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ جملة مستأنفة، والمعنى ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر، ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله.

﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أسند الفعل إليهم لكون فاعله من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعاً، والمعنى أنهم كانوا لا ينهون العاصي عن معاودة معصية قد فعلها أو تهيأ لفعلها، ويحتمل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لا حالة ترك الإنكار وبيان العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر لأن من أخل بواجب النهي عن المنكر فقد عصى الله سبحانه وتعدى حدوده.

والامر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الاسلامية، وأجل الفرائض الشرعية ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه، كما وقع لأهل السبت فإن الله سبحانه مسخ من لم يشاركهم في الفعل ولكن ترك الإنكار عليهم كما مسخ المعتدين فصاروا جميعا قردة وخنازير، إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم إن الله سبحانه قال مقبحاً لعدم التناهي عن المنكر: ﴿لبئسما كانوا يفعلون﴾ من تركهم الإنكار ما يجب عليهم إنكاره، واللام لام القسم.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا إلى قوله فاسقون﴾ ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتَأْطُرنّهُ على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً زاد في رواية أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم» اخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة وغيرهم وقد روي عن طرق كثيرة[1]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً فلا نطول بذكرها.

وعن أبي عبيدة بن الجراح يرفعه قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عبادهم فأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار، فهم الذين كفروا من بني إسرائيل الآيات.

---

(١) ابو داود الباب ١٧ من كتاب الملاحم ـ الترمذي كتاب التفسير سورة ٥، ٧.

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

﴿ترى كثيراً منهم﴾ أي من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يتولون الذين كفروا﴾ أي المشركين وليسوا على دينهم .

﴿ لبئسما قدمت ﴾ أي سولت وزينت ﴿ لهم أنفسهم ﴾ أو ما قدموه لأنفسهم ليردوا عليه يوم القيامة والمخصوص بالذم هو .

﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ أي موجب سخط الله عليهم على حذف مضاف أو سخط الله على حذف المبتدأ أي بما فعلوا من موالاة الكفار ﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾ يعني في الآخرة .

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي﴾ أي نبيهم محمد ﴿وما أنزل إليه﴾ من الكتاب ﴿ما اتخذوهم﴾ أي المشركين والكفار ﴿أولياء﴾ لأن الله سبحانه ورسوله المرسل إليهم وكتابه المنزل عليه نهوهم عن ذلك .

﴿ ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به وبرسوله وبكتابه قال مجاهد هم المنافقون .

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ هذه جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تعداد مساوىء اليهود وهناتهم، ودخول لام القسم عليها يزيدها تأكيداً وتقريراً، وقال ابن عطية: اللام للابتداء وليس بشيء، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز، والمعنى أن اليهود والمشركين لعنهم الله أشد جميع الناس عداوة للمؤمنين وأصلبهم في ذلك.

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ أي أن النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين وصفهم بلين العريكة وسهولة قبولهم الحق، قيل مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر والأذى إلى من خالفهم في الدين بأي طريق كان مثل القتل ونهب المال أو بأنواع المكر والكيد والحيل، ومذهب النصارى خلاف اليهود فإن الإيذاء في مذهبهم حرام، فحصل الفرق بينهما.

وقيل: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الرياسة، ومن كان كذلك كان شديد العداوة للغير، وفي النصارى من هو معرض عن الدنيا ولذاتها وترك طلب الرياسة، ومن كان كذلك فإنه لا يحسد أحداً ولا يعاديه بل يكون لين العريكة في طلب الحق والأول أولى.

وقال مجاهد: هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله وفي لفظ إلا حدث نفسه بقتله» رواه أبو الشيخ قال ابن كثير وهو غريب جداً.

وعن عطاء قال: ما ذكر الله به النصارى من خير فإنما يراد به النجاشي وأصحابه، وعنه قال: هم ناس من الحبشة آمنوا إذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين فذلك لهم ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ذلك﴾ أي كونهم أقرب مودة ﴿بأن﴾ الباء للسببية ﴿منهم قسيسين﴾ جمع قس وقسيس قاله قطرب، والقسيس العالم وأصله من قس إذا تتبع الشيء وطلبه وتقسست أصواتهم بالليل تسمعتها، والقس النميمة والقس أيضاً رئيس النصارى في الدين والعلم وجمعه قسوس أيضاً، وكذلك القسيس مثل الشر والشرير، ويقال في جمع قسيس تكسيراً قساوسة، والأصل قساسة فالمراد بالقسيسين في الآية المتبعون للعلماء والعباد وهو إما عجمي خلطته العرب بكلامها أو عربي.

﴿ورهباناً﴾ جمع راهب كركبان وراكب، والفعل رهب الله يرهبه أي خافه والرهبانية والترهب التعبد في الصوامع، قال أبو عبيد: وقد يكون رهبان للواحد والجمع قال الفراء ويجمع رهبان إذا كان للمفرد رهابين كقربان وقرابين، ثم وصفهم الله بعدم الاستكبار عن قول الحق فقال: ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ بل هم متواضعون بخلاف اليهود فإنهم على ضد ذلك.

وقيل: ولم يرد به كل النصارى فإن معظم النصارى في عداوة المسلمين كاليهود بل الآية فيمن آمن منهم مثل النجاشي وأصحابه، والعموم أولى، ولا وجه لتخصيص قوم دون قوم.

والآية الكريمة ساكتة على قيد الإيمان وإنما هو مدح في مقابلة ذم اليهود، وليس بمدح على الإطلاق، وقد تقدم الفرق بين وصف اليهود بشدة الشكيمة والنصارى بلين العريكة.

وفي الآية دليل على أن العلم أنفع شيء وأهداه إلى الخير، وإن كان علم القسيسين، وكذا علم الآخرة وإن كان في راهب، وكذا البراءة من الكبر وإن كانت في نصراني.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وإذا سمعوا﴾ مستأنفة قاله الجلال السيوطي أو معطوفة على ﴿لا يستكبرون﴾ قاله أبو السعود والضمير يعود على النصارى المتقدمين بعمومهم، وقيل هو لمن جاء من الحبشة إلى النبي ﷺ، قال ابن عطية: لأن كل النصارى ليسوا إذا سمعوا.

﴿ما أنزل إلى الرسول﴾ أي القرآن ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ أي تمتلىء فتفيض لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء جعل الأعين تفيض والفائض إنما هو الدمع قصداً للمبالغة كقولهم دمعت عينه، ووضع الفيض الذي ينشأ من الامتلاء موضع الامتلاء من إقامة المسبب مقام السبب ومن الأولى لابتداء الغاية والثانية بيانية أي كان ابتداء الفيض ناشئاً من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، ويجوز أن تكون الثانية تبعيضية، وقد أوضح أبو القاسم هذا غاية الإيضاح.

والمعنى أنهم عرفوا بعض الحق فاشتد بكاؤهم منه فكيف إذا عرفوه كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة.

عن ابن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه، وعن ابن عباس نحوه، والروايات في هذا الباب كثيرة، وهذا المقدار يكفي فليس المراد إلا بيان سبب نزول الآية، وصفهم سبحانه بسيل الدمع عند البكاء ورقة القلب عند سماع القرآن.

﴿يقولون﴾ مستأنفة لا محل لها كأنه قيل فما حالهم عند سماع القرآن

فقال: يقولون يعني القسيسين والرهبان أو حال من أعينهم أو من فاعل عرفوا.

﴿ربنا آمنا﴾ بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد ﷺ وبمن أنزلته عليه ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ على الناس يوم القيامة من أمة محمد أو مع الشاهدين بأنه حق أو مع الشاهدين بصدق محمد وأنه رسولك إلى الناس.

﴿وما لنا﴾ كلام مستأنف والاستفهام للاستبعاد أي أيّ شيء حصل لنا حال كوننا ﴿لا نؤمن بالله﴾ على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب والمسبب جميعاً لا إلى السبب فقط مع تحقق المسبب ﴿وما جاءنا من الحق﴾ أي القرآن من عنده على لسان رسوله أو المراد به الباري تعالى، والمعنى أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع وجود المقتضى له وهو الطمع في إنعام الله، فالاستفهام والنفي متوجهان إلى القيد والمقيد جميعاً كقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾.

﴿ونطمع﴾ عطف على نؤمن لا على لا نؤمن كما وقع للزمخشري إذ العطف عليه يقتضي إنكار عدم الإيمان وإنكار الطمع وليس مراداً بل المراد إنكار عدم الطمع أيضاً وجوز أبو حيان أن يكون معطوفاً على نؤمن على أنه منفي كنفي نؤمن والتقدير وما لنا لا نؤمن ولا نطمع فيكون في ذلك الإنكار لانتفاء إيمانهم وانتفاء طمعهم مع قدرتهم على تحصيل الشيئين الإيمان والطمع في الدخول مع الصالحين انتهى، ذكر ذلك أبو البقاء باختصار ولم يطلع عليه أبو حيان فبحثه وقال لم يذكروه، قاله الكرخي.

﴿أن يدخلنا ربنا﴾ الجنة ﴿مع القوم الصالحين﴾ أي ما لنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطمع في صحبة الصالحين يعني مع أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل مع الأنبياء والمؤمنين.

فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ أي على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ بمجرد القول لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم فيما قالوا وهو المعرفة والبكاء واستكانة القلب ﴿خالدين فيها﴾ أي في الجنات ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ الموحدين المخلصين في إيمانهم.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ التكذيب بالآيات كفر فهو من باب عطف الخاص على العام ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ هذا أثر الرد في حق الأعداء، والأول أثر القبول للأولياء، والجحيم النار الشديدة الاتقاد ويقال جحم فلان النار إذا شدد إيقادها ويقال أيضاً لعين الأسد جحمة لشدة اتقادها.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ الطيبات هي المستلذات مما أحله الله لعباده، نهى الذين آمنوا أن يحرموا على أنفسهم شيئاً منها إما لظنهم أن في ذلك طاعة لله وتقرباً اليه، وأنه من الزهد في الدنيا وقمع النفس عن شهواتها أو لقصد أن يحرموا على أنفسهم شيئاً مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم حرام عليّ وحرمته على نفسي ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل تحت هذا النهي القرآني.

قال ابن جرير: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله

لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح، ولذلك رد النبي ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله إليه عباده وعمل به رسول الله ﷺ وسنه لأمته واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ.

فإذا كان ذلك كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء، قال فإن ظن ظان أن الفضل في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأً، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء أضر على الجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته انتهى.

﴿ولا تعتدوا﴾ على الله بتحريم طيبات ما أحل لكم أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله عليكم أي تترخصوا فتحلوا حراماً كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن من حرم على نفسه شيئاً مما أحله الله له فلا يحرم عليه ولا تلزمه كفارة.

وقال أبو حنيفة وأحمد ومن تابعهما: أن من حرم شيئاً صار محرماً عليه وإذا تناوله لزمته الكفارة وهو خلاف ما في هذه الآية وخلاف ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، ولعله يأتي في سورة التحريم ما هو أبسط من هذا إن شاء الله تعالى، وظاهرة تحريم كل اعتداء أي مجاوزة لما شرعه الله في كل أمر من الامور.

أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال

أني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوة وأني حرمت عليّ اللحم فنزلت هذه الآية وأخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في الآية قال: نزلت في رهط من الصحابة قالوا نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل اليهم فذكر لهم ذلك فقالوا: نعم فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر وأقُومُ وأنام وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني»[1].

وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما من دون ذكر أن ذلك سبب نزول الآية، وفي الباب روايات كثيرة بهذا المعنى وكثير منها مصرح بأن ذلك سبب نزول الآية ﴿إن الله لا يحب المعتـدين﴾ أي المجاوزين الحـلال إلى الحرام.

﴿وكلوا مما رزقكم الله﴾ أي تمتعوا بأنواع الرزق، وإنما خص الاكل لأنه أغلب الانتفاع بالرزق ﴿حلالاً طيباً﴾ أي غير محرم ولا مستقذر، أو أكلاً حلالاً طيباً أو كلوا حلالاً طيباً، قال ابن المبارك: الحلال ما أخذته من وجهه، والطيب ما أغذى وأنمى، فأما الجامد كالطين والتراب وما لا يغذي فمكروه إلا على وجه التداوي.

ثم وصاهم الله تعالى بالتقوى فقال: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ هذا تأكيد للوصية، وفي الآية دليل على أن الله عز وجل قد تكفل برزق كل أحد من عباده.

(١) ابن كثير ٢/٨٥ ـ ٨٦.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قد تقدم تفسير اللغو والخلاف فيه في سورة البقرة، عن سعيد بن جبير قال: هو الرجل يحلف على الحلال، وقال مجاهد: هما رجلان يتبايعان يقول أحدهما والله لا أبيعك، ويقول الآخر والله لا أشتريه بكذا، وعن النخعي قال: اللغو أن يصل كلامه بالحلف والله لتأكلن والله لتشربن ونحو هذا لا يريد به يميناً ولا يتعمد حلفاً فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة.

قيل (في) بمعنى (من) قاله القرطبي، والايمان جمع يمين، وفي الآية دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ الله الحالف بها ولا تجب فيها الكفارة، وقد ذهب الجمهور من الصحابة ومن بعدهم إلى أنها قول الرجل لا والله وبلى والله، في كلامه غير معتقد لليمين، وبه فسر الصحابة الآية، وهم أعرف بمعاني القرآن، قال الشافعي وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة.

﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي بما تعمدتم وقصدتم به اليمين، قاله مجاهد، وقرىء عقدتم مخففاً ومشدداً، والتشديد إما للتكثير لأن المخاطب به جماعة أو بمعنى المجرد أو لتوكيد اليمين نحو والله الذي لا إله إلا هو، وقرىء عاقدتم وهو بمعنى المجرد أو على بابه، وهذا كله مبني على أن (ما) موصول اسمي وقيل مصدرية على القراءات الثلاث، وعليه جرى أبو السعود.

والعقد على ضربين حسي كعقد الحبل، وحكمي كعقد البيع واليمين

والعهد، فاليمين المعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لا يفعلن في المستقبل أي ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنثتم فيها، وأما اليمين الغموس فهي يمين مكر وخديعة وكذب قد باء الحالف بإثمها، وليست بمعقودة ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور.

وقال الشافعي: هي يمين معقودة لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخير مقرونة باسم الله، والراجح الأول، وجميع الأحاديث الواردة في تكفير اليمين متوجهة إلى المعقودة، ولا يدل شيء منها على الغموس بل ما ورد في الغموس إلا الوعيد والترهيب، وأنها من الكبائر بل من أكبر الكبائر، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ الآية.

﴿فكفارته﴾ هي مأخوذة من التكفير وهو التستير وكذلك الكفر هو الستر، والكافر هو الساتر سميت بها لأنها تستر الذنب وتغطيه، والضمير في كفارته راجع إلى الحنث الدال عليه سياق الكلام، وقيل إلى العقد لتقدم الفعل الدال عليه، وقيل إلى اليمين وإن كانت مؤنثة لأنها بمعنى الحلف، قالهما أبو البقاء وليسا بظاهرين، وقيل إن (ما) إن جعلناها موصولة اسمية، فالعبارة على حذف مضاف أي فكفارة نكثه كذا قدره الزمخشري.

﴿إطعام عشرة مساكين﴾ هو أن يغديهم ويعشيهم أو يعطيهم بطريق التمليك وقيل لكل مسكين مد، ولا يتعين كونه من فقراء بلد الحالف ﴿من أوسط ما تطعمون﴾ المراد الوسط هنا المتوسط بين طرفي الاسراف والتقتير، وليس المراد به الأعلى كما في غير هذا الموضع أي أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام ﴿أهليكم﴾ ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه بل من غالب قوت بلد الحالف أي: محل الحنث، قال ابن عباس يعني من عسركم ويسركم، وظاهره أنه يجزى اطعام عشرة حتى يشبعوا.

وقد روي عن علي بن أبي طالب قال: لا يجزى اطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغديهم ويعشيهم، قال أبو عمر وهو قول أئمة الفتوى بالامصار، وقال الحسن البصري وابن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً وسمناً أو خبزاً ولحماً قال عمر بن الخطاب وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي وميمون ابن مهران وأبو مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبو قلابة ومقاتل: يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر، وروي ذلك عن علي، وقال أبو حنيفة: نصف صاع من بر، وصاع مما عداه.

وقد أخرج ابن ماجة وابن مردويه عن ابن عباس قال: كَفَّرَ رسول الله ﷺ بصاع من تمر، وكفر الناس به ومن لم يجد فنصف صاع من بر، وفي اسناده عمر الثقفي وهو مجمع على ضعفه وقال الدارقطني متروك.

﴿أو كسوتهم﴾ قرىء بضم الكاف وكسرها وهما لغتان مثل أسوة وإسوة، والكسوة في الرجال تصدق على ما يكسو البدن ولو كان ثوباً واحداً، وهكذا في كسوة النساء وقيل الكسوة للنساء درع وخمار وقيل المراد بالكسوة ما تجزىء به الصلاة.

أخرج الطبراني عن عائشة عن النبي ﷺ في قوله: أو كسوتهم قال عباءة لكل مسكين، قال ابن كثير حديث غريب، وعن حذيفة قال: قلت يا رسول الله أو كسوتهم ما هو قال: عباءة عباءة أخرجه ابن مردويه[١]، وعن ابن عمر قال الكسوة ثوب أو إزار، وقيل قميص وعمامة.

﴿أو تحرير رقبة﴾ أي اعتاق مملوك، والتحرير الاخراج من الرق،

---

(١) مسلم ١٤٠١ ـ البخاري ٢٠٩٩.

ويستعمل التحرير في فك الاسير وإعفاء المجهود لعمل عن عمله، وترك إنزال الضرر به، ولأهل العلم أبحاث في الرقبة التي يجزىء في الكفارة، وظاهر هذه الآية أنها تجزىء كل رقبة على أي صفة كانت، وذهب جماعة منهم الشافعي إلى اشتراط الايمان فيها قياساً على كفارة القتل حملاً للمطلق على المقيد جمعاً بين الدليلين، وأو للتخيير، وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث.

﴿فمن لم يجد﴾ شيئاً من الأمور المذكورة ﴿فصيام﴾ أي فكفارته صيام ﴿ثلاثة أيام﴾ وقرىء متتابعات، حكي ذلك عن ابن مسعود وأُبَيّ فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم، وبه قال أبو حنيفة والثوري وهو أحد قولي الشافعي، وقال مالك والشافعي في قوله الآخر يجزىء التفريق، وظاهره أنه لا يشترط التتابع[1].

﴿ذلك﴾ المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ وحنثتم ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أمرهم بحفظ الأيمان وعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها، وفيه النهي عن كثرة الحلف والنكث ما لم يكن على فعل بر وإصلاح بين الناس كما في سورة البقرة.

وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير» أخرجه الشيخان[2].

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك البيان ﴿يبين الله لكم آياته﴾ أي جميع ما تحتاجون إليه في أمر دينكم وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز ﴿لعلكم تشكرون﴾ ما أنعم الله به عليكم من بيان شرائعه وإيضاح أحكامه.

---

(١) ابن كثير ٢/٩٠.

(٢) مسلم ١٦٤٩ ـ البخاري ١٤٧٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ خطاب لجميع المؤمنين، وقد تقدم تفسير الخمر والميسر في سورة البقرة ﴿والأنصاب﴾ هي الأصنام المنصوبة للعبادة، جمع نصب كجمل أو نصب بضمتين ﴿والأزلام﴾ قد تقدم تفسيرها في أول هذه السورة أي قداح الاستقسام ﴿رجس﴾ يطلق على العذرة والأقذار، قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل قبيح يقال رجس بكسر الجيم وفتحها يرجس رجساً إذا عمل قبيحاً، وأصله من الرجس بفتح الراء وهو شدة صوت الرعد.

وفرق ابن دريد بين الرجس والرجز والركس فجعل الرجس الشر، والرجز العذاب، والركس العذرة والنتن، وهو خبر للخمر، وخبر المعطوف عليه محذوف.

﴿من عمل الشيطان﴾ صفة لرجس أي كائن من عمله بسبب تحسينه لذلك وتزيينه له ودعائه إياكم إليها، وليس المراد أنها من عمل يديه، وقيل هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنو آدم.

والضمير في ﴿فاجتنبوه﴾ راجع إلى الرجس أو إلى المذكور أي كونوا جانباً منه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تدركوا الفلاح إذا اجتنبتم هذه المحرمات التي هي رجس.

قال في الكشاف: أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنها بعبادة الأصنام، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «شارب الخمر كعابد الوثن» ، ومنها أنه جعلها رجساً كما قال:

﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت، ومنها أنه أمر بالاجتناب ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة ومحقة، ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال، وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمار وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله، وعن مراعاة أوقات الصلوات

وفي هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنه الأمر بالاجتناب من الوجوب وتحريم الصد، ولما تقرر في الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلاً عن جعله شراباً يشرب.

قال أهل العلم من المفسرين وغيرهم: كان تحريم الخمر بتدريج ونوازل كثيرة لأنهم كانوا قد ألفوا شربها وحببها الشيطان إلى قلوبهم، فأول ما نزل في أمرها ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها ولم يتركه آخرون.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فتركها البعض أيضا وقالوا لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها البعض في غير أوقات الصلاة حتى نزلت هذه الآية ﴿إنما الخمر والميسر﴾ فصارت حراماً عليهم حتى كان يقول بعضهم ما حرم الله شيئاً أشد من الخمر، وذلك لما فهموه من التشديد فيما تضمنته هذه الآية من الزواجر، وفيما جاءت به الأحاديث الصحيحة من الوعيد لشاربها وأنها من كبائر الذنوب.

وقد أجمع على ذلك المسلمون جميعاً لا شك فيه ولا شبهة، وأجمعوا أيضاً على تحريم بيعها والانتفاع بها ما دامت خمراً.

وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر دلت أيضاً على تحريم الميسر والأنصاب والأزلام، قال قتادة: الميسر هو القمار، وقال ابن عباس: كل القمار من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب، وعن علي بن أبي طالب قال: النرد والشطرنج من الميسر، وعنه قال: الشطرنج ميسر الأعاجم، وقال

قاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر.

وعن ابن الزبير قال: يا أهل مكة بلغني عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها نردشير، والله يقول في كتابه: ﴿إنما الخمر والميسر﴾ الآية إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ وإني أحلف بالله لا أوتي بأحد يلعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره وأعطيت سلبه من أتاني به.

عن أنس بن مالك قال: الشطرنج من النرد، وبلغنا عن ابن عباس أنه ولي مال يتيم فأحرقها، وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال: هي شر من النرد، وسئل أبو جعفر عنه فقال: تلك المجوسية فلا تلعبوا بها.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من لعب النردشير فقد عصى الله ورسوله» وأخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن كثير قال: مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوم يلعبون بالنرد فقال: قلوب لاهية وأيد عليلة وألسنة لاغية، وقال ابن سيرين ما كان من لعب فيه قمار أو صياح أو شر فهو من الميسر، وفي الباب روايات كثيرة مشتملة على الوعيد الشديد لا نطول بذكرها.

وقد أشار سبحانه إلى ما في الخمر والميسر من المفاسد الدنيوية بقوله: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ ومن المفاسد الدينية بقوله: ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ لأن شرب الخمر يشغل عن ذكر الله وعن فعل الصلاة وكذلك القمار يشغل صاحبه عن ذكره سبحانه وعن الصلاة ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فيه زجر بليغ يفيده الاستفهام الدال على التقريع والتوبيخ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما سمع هذا: انتهينا.

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الخمر وشاربها والوعيد الشديد عليه، وأن كل مسكر حرام وهي مدونة في كتب الحديث، ورويت في سبب النزول روايات كثيرة فلا نطول المقام بذكرها فلسنا بصدد ذلك، بل نحن بصدد ما هو متعلق بالتفسير.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ثم أكد الله سبحانه هذا التحريم بقوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿واحذروا﴾ مخالفتهما فإن هذا وإن كان أمراً مطلقاً فالمجيء به في هذا الموضع يفيد ما ذكرناه من التأكيد، وهكذا ما أفاده بقوله: ﴿فإن توليتم﴾ أي أعرضتم عن الامتثال ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي قد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذي فيه رشادكم وصلاحكم ولم تضروا بالمخالفة إلا أنفسكم، وفي هذا من الزجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه.

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ من المطاعم التي يشتهونها، والطعم وإن كان استعماله في الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله في الشرب، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ أباح الله لهم سبحانه في هذه الآية جميع ما طعموا كائناً ما كان مقيداً بقوله: ﴿إذا ما اتقوا﴾ ما هو محرم عليهم كالخمر وغيره من الكبائر وجميع المعاصي ﴿وآمنوا﴾ بالله ورسوله ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال التي شرعها الله لهم واستمروا على عملها ﴿ثم اتقوا﴾ ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحاً فيما سبق ﴿وآمنوا﴾ بتحريمه، هذا معنى الآية.

وقيل التكرير باعتبار الحالات الثلاث: استعمال الانسان التقوى بينه وبين نفسه، وبينه وبين الناس، وبينه وبين الله، وقيل باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، وقيل باعتبار ما يتقيه الإنسان فإنه ينبغي له أن يترك المحرمات توقياً من العقاب، والشبهات توقياً من الوقوع في الحرام، وبعض

المباحات حفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة.

وقيل التكرير لمجرد التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون﴾ ونظائره[١].

وهذه الوجوه كلها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية. أما مع النظر إلى سبب نزولها وهو أنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت، فقد قيل إن المعنى: اتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله ثم اتقوا الكبائر وآمنوا أي ازدادوا إيماناً ﴿ثم اتقوا﴾ الصغائر، قال أبو السعود: ولا ريب في أنه لا تعلق لهذه العبارات بالمقام فأحسن التأمل انتهى.

﴿وأحسنوا﴾ أي تنقلوا قال ابن جرير الطبري: الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق، والاتقاء الثالث بالإحسان والتقرب بالنوافل.

قلت: والحق أنه ليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرير بالغاً ما بلغ ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي المتقربين إليه بالإيمان والأعمال الصالحة والتقوى والإحسان، وهذا ثناء ومدح لهم على الإيمان والتقوى والإحسان، لأن هذه المقامات من أشرف الدرجات وأعلاها.

---

(١) زاد المسير/ ٤١٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم﴾ اللام لام القسم أي والله ليختبرنكم ﴿الله بشيء من الصيد﴾ لما كان الصيد أحد معايش العرب ابتلاهم الله بتحريمه مع الإحرام وفي الحرم كما ابتلى بني إسرائيل أن لا يعتدوا في السبت.

وقد اختلف العلماء في المخاطبين بهذه الآية هل هم المحلون أو المحرمون، فذهب إلى الأول مالك، وإلى الثاني ابن عباس «والراجح أن الخطاب للجميع ولا وجه لقصره على البعض دون البعض» و(من) في (من الصيد) للتبعيض وهو صيد البر قاله ابن جرير الطبري وغيره،وقيل: إن مِنْ بيانية أي شيء حقير من الصيد وتنكير شيء للتحقير، والصيد بمعنى المصيد لا بمعنى المصدر لأنه حدث.

﴿تناله أيديكم ورماحكم﴾ هذه الجملة تقتضي تعميم الصيد، وأنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد وهو ما لا يطيق الفرار من صغار الصيد كالبيض والفرخ، وبين ما تناله الرماح وهو ما يطيق الفرار من كبار الصيد مثل حمر الوحش ونحوها.

وخص الأيدي بالذكر لأنها أكثر ما يتصرف به الصايد في أخذ الصيد، وخص الرماح بالذكر لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب، وكان ذلك الابتلاء بالحديبية سنة ست وهم محرمون بالعمرة، فكانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم.

﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ أي ليتميز عند الله من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروي فانه غائب عنكم غير حاضر، وفي البيضاوي ذكر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره أو تعلق العلم، وقال السيوطي ليعلم علم ظهور للخلق.

﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ البيان أو النهي الذي امتحنكم الله به فاصطاده لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة لله سبحانه وتجرؤ عليه ﴿فله عذاب أليم﴾ يعني في الدنيا، قال ابن عباس: هو أن يوشع ظهره وبطنه جلداً وتسلب ثيابه، وهذا قول أكثر المفسرين في معنى هذه الآية لأنه قد سمى الجلد عذاباً وهو قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين وقيل المراد عذاب الدارين.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ نهاهم عن قتل الصيد في حال الإحرام، وفي معناه غير محلي الصيْد وأنتم حرم والتصريح بقوله: ﴿لا تقتلوا﴾ مع كونه معلوماً مما قبله لتأكيد الحرمة وترتيب ما يعقبه عليه، واللام في الصيد للعهد حسبما سلف.

وهذا النهي شامل لكل أحد من ذكور المسلمين وإناثهم، لأنه يقال رجل حرام وامرأة حرام والجمع حرم، وأحرم الرجل دخل في الحرم وحرام هو المحرم وإن كان في الحل، وفي حكمه من في الحرم وإن كان حلالاً كردح جمع رداح، قيل هما مرادان بالآية، وسيأتي في النهي عن قتل الصيد فلا يجوز قتل الصيد للمحرم ولا في الحرم، والمراد بالصيد كل حيوان متوحش مأكول اللحم قاله الشافعي.

وقال أبو حنيفة: سواء كان مأكولاً أو لم يكن، فيجب عنده الضمان على من قتل سبعاً أو نمراً أو نحو ذلك، واستثنى الشارع خمس فواسق فأجاز قتلهن[1].

---

(١) في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور».

﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾ هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام، والمخطىء هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً، والناسي هو الذي يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه، وقد استدل ابن عباس وأحمد في رواية عنه وداود باقتصاره سبحانه على العامد بأنه لا كفارة على غيره بل لا تجب إلا عليه وحده، وبه قال سعيد بن جبير وطاوس وأبو ثور.

وقيل: إنها تلزم الكفارة المخطىء والناسي كما تلزم المتعمد، وجعلوا قيد التعمد خارجا مخرج الغالب، وهو مروي عن عمر والحسن والنخعي والزهري، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم، وروي عن ابن عباس، وقيل: إنه يجب التكفير على العامد الناسي لإحرامه وبه قال مجاهد، قال: فإن كان ذاكراً لإحرامه فقد حل ولا حج له لارتكابه محظور إحرامه فبطل عليه كما لو تكلم في الصلاة أو أحدث فيها.

﴿فجزاء﴾ أي فعليه جزاء ﴿مثل ما قتل من النعم﴾ بيان للجزاء المماثل قيل المراد المماثلة في القيمة وقيل في الخلقة، وقد ذهب إلى الأول أبو حنيفة، وذهب إلى الثاني مالك والشافعي وأحمد والجمهور من الصحابة ومن بعدهم وهو الحق. لأن البيان للماثل بالنعم يفيد ذلك وكذلك يفيده هدياً بالغ الكعبة.

وروي عن أبي حنيفة أنه يجوز إخراج القيمة ولو وجد المثل، وأن المحرم مخير. وللسلف في تقدير الجزاء المماثل وتقدير القيمة أقوال مبسوطة في مواطنها، وفي قراءة بإضافة جزاء، قال الواحدي: ولا ينبغي إضافة الجزاء إلى المثل لأن عليه جزاء المقتول لا جزاء مثله، فإنه لا جزاء عليه لما لم يقتله، وقد أجاب الناس عنها بأجوبة سديدة، ذكرها السمين.

﴿يحكم به﴾ أي بالجزاء وبمثل ما قتل ﴿ذوا عدل منكم﴾ أي رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به، وقد حكم ابن عباس وعمر وعلي في النعامة ببدنةٍ، وابن عباس وأبو عبيدة في بقر الوحش

وحماره ببقرة، وابن عمر وابن عوف في الظبي بشاة وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما في الحمام لأنها تشبهه في العب أي شرب الماء بلا مص.

أقول ههنا أمران أحدهما اعتبار المماثلة والثاني حكم العدلين، والظاهر أن العدلين إذا حكما بغير المماثل لم يلزم حكمهما لأنه قال يحكم به أي بالمماثل، وحق العدالة أن لا يقع من صاحبها الحكم بغير المماثل إلا لغلط أو طروء شبهة بأن المعتبر في المماثلة هو هذا الوصف دون هذا الوصف والواقع بخلافه.

ثم الظاهر أن العدلين إذا حكما بحكم في السلف لا يكون ذلك الحكم لازماً للخلف بل تحكيم العدلين ثابت عند كل حادثة تحدث في قتل الصيد.

إذا تقرر لك هذا فاعلم أن جعل الظبي مشبهاً للشاة دون التيس مخالف للمشاهد المحسوس، فإن الظبي يشبه التيس في غالب ذاته وصفاته، ولا مشابهة بينه وبين الشاة في غالب ذاته وصفاته، وكذلك الحمامة فانها لا تشبه الشاة في شيء من الأوصاف، وإذا صح من بعض السلف أنه حكم في شيء منها بشاة فذلك غير لازم لنا لما عرفت من أن حكم العدلين لا بد أن يكون بالمثل كما صرح به القرآن الكريم، وما أقرب ما حكم به ابن عباس وابن عمر في القطاة، فكان الأولى أن يكون الحكم في الحمامة وما يشابهها من الطيور كهذا الحكم في القطاة ويزاد قليلاً من الطعام لما هو أكبر، وينقص قليلاً لما هو أصغر، وكما قاله عمر تمرة خير من جرادة، وأقول أنا وصاع خير من حمامة.

﴿هدياً﴾ منصوب على الحال أو البدل من مثل ﴿بالغ الكعبة﴾ صفة لهدي لأن الإضافة غير حقيقية، والمعنى أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدي من الإرسال إلى مكة والنحر هنالك والإشعار والتقليد، ولم يرد الكعبة بعينها فإن الهدي لا يبلغها وإنما أراد جميع الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه، ولا يجوز أن يذبح حيث كان ولا خلاف في هذا.

﴿أو كفارة﴾ معطوف على محل من النعم وهو الرفع لأنه خبر مبتدأ

محذوف ﴿طعام مساكين﴾ من غالب قوت البلد ما يساوي قيمة الجزاء لكل مسكين مد ﴿أو عدل ذلك﴾ معطوف على طعام ﴿صياماً﴾ تمييز العدل، والمعنى أو قدر ذلك صياماً، والجاني مخير بين هذه الأنواع المذكورة وإليه ذهب جمهور العلماء منهم الشافعي ومالك وأبو حنيفة، وقال أحمد وزفر: إن كلمة أو للترتيب وهما روايتان عن ابن عباس.

وروي عنه أنه لا يجزىء المحرم الإطعام والصوم إلا إذا لم يجد الهدي، والعدل بفتح العين وكسرها لغتان وهما المثل قاله الكسائي، وقال الفراء: عدل الشيء بكسر العين مثله من جنسه، وبفتح العين مثله من غير جنسه وبمثل قول الكسائي قال البصريون.

وأوجبنا ذلك عليه ﴿ليذوق وبال أمره﴾ فهذا علة لإيجاب الجزاء، والذوق مستعار لإدراك المشقة، ومثله ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ والوبال سوء العاقبة والمرعى الوبيل الذي يتأذى به بعد أكله، وطعام وبيل إذا كان ثقيلاً، وإنما سمى الله ذلك وبالاً لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس لما فيه من تنقيص المال، وثقل الصوم من حيث إن فيه إنْهاك البدن.

﴿عفا الله عما سلف﴾ يعني في جاهليتكم من قتلكم للصيد فلم يؤاخذكم به، وقيل عما سلف قبل التحريم ونزول الكفارة ﴿ومن عاد﴾ إلى ما نهيتم عنه من قتل الصيد مرة ثانية بعد هذا البيان ﴿فينتقم الله منه﴾ في الآخرة فيعذبه بذنبه وقيل ينتقم منه بالكفارة، قال شريح وسعيد بن جبير: يحكم عليه في أول مرة، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له اذهب ينتقم الله منك أي ذنبك أعظم من أن يكفر، والإنتقام المبالغة في العقوبة.

ولكن هذا الوعيد لا يمنع إيجاب الجزاء في المرة الثانية والثالثة، فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء، وهذا قول الجمهور، وقد روي عن ابن عباس والنخعي وداود الظاهري أنه إذا قتل الصيد مرة ثالثة فلا جزاء عليه لأنه وعده بالإنتقام منه ﴿والله عزيز﴾ غالب على أمره ﴿ذو انتقام﴾ ممن عصاه وجاوز حدود الإسلام.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿أحل لكم﴾ الخطاب لكل مسلم أو للمحرمين خاصة ﴿صيد البحر﴾ هو ما يصاد فيه، والمراد بالبحر هنا كل ما يوجد فيه صيد بحري وإن كان نهراً أو غديراً فالمراد بالبحر جميع المياه العذبة والمالحة ﴿وطعامه﴾ هو اسم لكل ما يطعم وقد تقدم.

وقد اختلف في المراد منه هنا فقيل هو ما قذف به البحر إلى الساحل ميتاً وطفا عليه، وبه قال كثير من الصحابة والتابعين منهم أبو بكر وعمر وآبن عمر وأبو أيوب وقتادة، وقيل طعامه ما ملح منه وبقي وبه قال جماعة، وروي هذا عن ابن عباس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والسدي، وقيل طعامه ملحه الذي ينعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات وغيره وبه قال قوم، وقيل المراد به ما يطعم من الصيد أي ما يحل أكله وهو السمك فقط وبه قالت الحنفية.

والمعنى أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر وأحل لكم المأكول منه وهو السمك فيكون كالتخصيص بعد التعميم وهو تكلف ولا وجه له.

وجملة حيوان الماء على نوعين سمك وغير سمك، فالسمك جميعه حلال على اختلاف أجناسه قال رسول الله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه والحل ميتته»[1] أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي، لا فرق بين أن يموت بسبب أو غير سبب فيحل أكله، وبه قال الشافعي وأهل الحديث.

وما عدا السمك قسمان قسم يعيش في البر والبحر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكلها، وقال سفيان أرجو أن لا يكون بالسرطان بأس واختلفوا في

---

(١) ابو داود الباب ٤١ من كتاب الطهارة ـ الترمذي الباب ٥٢ من كتاب الطهارة.

الجراد فقيل هو من صيد البحر فيحل أكله للمحرم، وقال الجمهور إنه من صيد البر، ولا يحل أكله، وطير الماء من صيد البر أيضا.

قال أحمد يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح، وقال ابن أبي ليلى ومالك يباح كل ما في البحر، وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «طعامه ما لفظه ميتاً فهو طعامه»، وعن أبي بكر الصديق قال: صيد البحر ما تصطاده أيدينا وطعامه ما لاثه البحر، وفي لفظ طعامه كل ما فيه، وفي لفظ طعامه ميتته.

ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث العنبرة التي ألقاها البحر فأكل الصحابة منها وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك، وحديث هو الطهور ماؤه والحل ميتته، وحديث أحل لكم ميتتان ودمان.

﴿متاعاً لكم﴾ أي متعتم به متاعاً، وقيل مختص بالطعام أي أحل لكم طعام البحر متاعاً وهو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير، بل إذا كان مفعولاً له كان من الجميع أي لمن كان مقيماً منكم يأكله طرياً ﴿وللسيارة﴾ أي المسافرين منكم يتزودونه ويجعلونه قديداً، وقيل السيارة هم الذين يركبونه خاصة.

﴿وحرم عليكم صيد البر﴾ أي ما يصاد فيه وهو ما لا يعيش إلا فيه من الوحش المأكول أن تصيدوه ﴿ما دمتم حرماً﴾ أي محرمين، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالاً، وإليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله، وهو القول الراجح وبه يجمع بين الأحاديث.

وقيل انه يحل له مطلقاً، وذهب إليه جماعة، وقيل يحرم عليه مطلقاً، وإليه ذهب آخرون، وقد بسط الشوكاني هذا في شرحه نيل الأوطار.

وقد ذكر الله تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة (أحدها) في أولها وهو قوله: ﴿غير محلى الصيد وأنتم حرم﴾ الثاني قوله: ﴿لا

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾

تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ الثالث هذه الآية، وكل ذلك لتأكيد تحريم الصيد على المحرم.

﴿واتقوا الله﴾ فيما نهاكم عنه فلا تستحلوا الصيد في حال الاحرام ولا في الحرم أو في جميع الجائزات والمحرمات، ثم حذرهم بقوله: ﴿الذي إليه﴾ لا إلى غيره ﴿تحشرون﴾ وفيه تشديد ومبالغة في التحذير.

﴿جعل الله الكعبة﴾ جعل هنا بمعنى خلق، وقيل بمعنى صير وقيل بمعنى بين وحكم، وهذا ينبغي أن يحمل على تفسير المعنى لا تفسير اللغة إذ لم ينقل أهل العربية أنها تكون بمعنى بين ولا حكم، ولكن يلزم من الجعل البيان، والأول أولى، وسميت الكعبة كعبة لأنها مربعة والتكعيب التربيع، وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة وقيل سميت كعبة لنتوئها وبروزها، وكل بارز كعب مستديراً كان أو غير مستدير ومنه كعب القدم وكعوب القنا وكعب ثدي المرأة.

﴿البيت الحرام﴾ عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح، قاله الزمخشري وقيل مفعول ثان لجعل، ولا وجه له، وقيل بدل وسمي بيتاً لأن له سقوفاً وجدراً، وهي حقيقة البيت وإن لم يكن به ساكن، وسمي حراماً لتحريم الله سبحانه إياه.

ومعنى كونه ﴿قياماً للناس﴾ انه مدار لمعاشهم ودينهم أي يقومون فيه بما يصلح دينهم ودنياهم يأمن فيه خائفهم وينصر فيه ضعيفهم، وتربح فيه تجارتهم ويتعبد فيه متعبدهم، وقال ابن عباس: قياماً لدينهم ومعالم لحجهم،

وعنه قال: قياماً أن يأمن من توجه إليها، وعن ابن شهاب قال: يأمنون به من الجاهلية الأولى لا يخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت أو في الحرم أو في الشهر الحرام.

﴿والشهر الحرام﴾ عطف على الكعبة، وهو ذو الحجة وخصه من بين الأشهر الحرم لكونه زمان تأدية الحج، وقيل هو اسم جنس المراد به الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، فانهم كانوا لا يطلبون فيها دماً ولا يقاتلون بها عدواً، ولا يهتكون فيها حرمة، فكانت من هذه الحيثية قياماً للناس ﴿و﴾ جعل الله ﴿الهدي والقلائد﴾ قياماً لمصالحهم، والمراد بالقلائد ذوات القلائد من الهدي وهي البدن، خصت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر، فهو من عطف الخاص على العام، قاله أبو السعود، ولا مانع من أن تراد القلائد أنفسها أي التي كانوا يقلدون بها أنفسهم يأخذونها من لحاء شجر الحرم إذا رجعوا من مكة ليأمنوا على أنفسهم من العدو.

﴿ذلك﴾ الجعل المذكور، وقيل شرع الله ذلك وهو أقوى الوجوه ﴿لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي تفاصيل أمرهما ويعلم مصالحكم الدينية والدنيوية فانها من جملة ما فيهما، فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم ودفع لما يضركم ﴿وأن الله بكل شيء عليم﴾ هذا تعميم بعد التخصيص والمعنى لا تخفى عليه خافية.

﴿اعلموا أن الله﴾ لمن انتهك محارمه ولم يتب عن ذلك ﴿شديد العقاب﴾ لأن الإيمان لا يتم إلا بحصول الرجاء والخوف ﴿وأن الله﴾ لمن تاب وأناب ﴿غفور رحيم﴾.

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

ثم أخبرهم أن ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ لهم فإن لم يمتثلوا ولم يطيعوا فما ضروا إلا أنفسهم، وما جنوا إلا عليها، ولا عذر لهم في التفريط، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد فعل ما يجب عليه وقام بما أمره الله به، والبلاغ هو الإبلاغ، قاله السيوطي، وعبر القاضي كالكشاف بقوله: أتى بما أمر به من التبليغ، وذلك لقصد المبالغة والتكثير في زيادة الفعل والاستثناء مفرغ ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ لا يخفى عليه شيء من أحوالكم أي نفاقكم ووفاقكم ظاهراً وباطناً فيجازيكم به.

﴿قل لا يستوي﴾ في الدرجة والرتبة ولا يعتدل ﴿الخبيث والطيب﴾ قيل المراد بهما الحرام والحلال، وقيل المؤمن والكافر، وقيل العاصي والمطيع وقيل الرديء والجيد، والأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات وغيرها مما يتصف بوصف الخبث والطيب من الأشخاص والأعمال والأقوال، فالخبيث لا يساوي الطيب بحال من الأحوال.

﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا أو المراد نفي الاستواء في كل حال ولو في حال كون الخبيث معجباً للرائي للكثرة التي فيه، فإن هذه الكثرة مع الخبث في حكم العدم، لأن خبث الشيء يبطل فائدته ويمحق بركته، ويذهب بمنفعته.

والواو إما للحال أو للعطف على مقدر أي لا يستوي الخبيث والطيب لو لم يعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبك كقولك أحسن إلى فلان وإن أساء إليك

أي أحسن إليه إن لم يسيء إليك وإن أساء إليك والحاصل أن أهل الدنيا يعجبهم كثرة المال وزينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى، وفيه إشارة إلى قلة الخير وكثرة الشر.

﴿فاتقوا الله﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه وآثروا الطيب وإن قل على الخبيث وإن كثر ﴿يا أولي الألباب﴾ أي العقول السليمة الخالصة ﴿لعلكم تفلحون﴾ تفوزون وتنجون.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ لا حاجة لكم بالسؤال عنها ولا هي مما يعنيكم في أمر دينكم، وفي أشياء مذاهب للنحاة.

(أحدها) أنه اسم جمع من لفظ شيء فهو مفرد لفظاً جمع معنى، وهو رأي الخليل وسيبويه.

(الثاني) وبه قال الفراء أنها جمع شيء كهين.

(الثالث) وبه قال الأخفش أنها جمع شيء بِزِنَة فلس.

(الرابع) وهو قول الكسائي وأبي حاتم أنه جمع شيء كبيت، واعترض الناس عليه.

(الخامس) أن وزنه افعلاء أيضا جمع لشيء بزنة ظريف.

﴿إن تبد﴾ أي إذا بدت وظهرت ﴿لكم﴾ وكلفتم بها ﴿تسؤكم﴾ أي ساءتكم لما فيها من المشقة، نهاهم الله تعالى عن كثرة مسائلهم لرسول الله ﷺ فإن السؤال عما لا يعني ولا تدعو إليه حاجة قد يكون سبباً لإيجابه على السائل وعلى غيره.

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط فقال رجل: من أبي! فقال: فلان فنزلت هذه الآية لا تسألوا عن أشياء، وأخرج البخاري وغيره نحوه عن ابن عباس.

وقد بين هذا السائل في روايات أخر أنه عبدالله بن حذافة، وأنه قال: من أبي؟ فقال النبي ﷺ أبوك حذافة.

وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «ياأيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحج، فقام رجل فقال أكل عام يا رسول الله ﷺ فسكت عنه فأعادها ثلاث مرات فقال لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها، ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[1] وذلك أن هذه الآية أعني لا تسألوا عن أشياء نزلت في ذلك، وأخرجه أيضاً جماعة من أهل الحديث، وكل هؤلاء صرحوا في أحاديثهم أن الآية نزلت في ذلك.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال: كانوا يسألون عن الشيء وهو لهم حلال فما زالوا يسألون حتى يحرم عليهم وإذا حرم عليهم وقعوا فيه.

وأخرج ابن المنذر وهو في مسلم عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسألته»[2].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها. وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها»[3]، وعن ابن عباس قال: لا تسألوا عن أشياء قال البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٥ ـ ١٥ ـ النسائي كتاب المناسك الجزء ١.
(٢) البخاري كتاب الاعتصام الباب ٢ ـ مسلم كتاب الفضائل ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٣) المستدرك كتاب الاطعمة ٤/١١٥.

﴿وإن تسألوا عنها﴾ الضمير يعود على نوع الأشياء المنهيّ عنها لا عليها أنفسها قاله ابن عطية ونقله الواحدي عن صاحب النظم ويحتمل أن يعود عليها أنفسها قاله الزمخشري بمعناه ﴿حين ينزل القرآن﴾ أي مع وجود رسول الله ﷺ بين أظهركم ونزول الوحي عليه ﴿تبد﴾ أي تظهر ﴿لكم﴾ بما يجيب به عليكم النبي ﷺ أو ينزل به الوحي فيكون ذلك سبباً للتكاليف الشاقة، وإيجاب ما لم يكن واجباً، وتحريم ما لم يكن محرماً بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال.

وقد ظن بعض أهل التفسير أن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال مع وجود رسول الله ﷺ ونزول الوحي عليه فقال: إن الشرطية الأولى أفادت عدم جوازه فقال إن المعنى وإن تسألوا عن غيرها مما مست إليه الحاجة تبدو لكم بجواب رسول الله ﷺ عنها وجعل الضمير في عنها راجعاً إلى أشياء غير الأشياء المذكورة، وجعل ذلك كقوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ وهو آدم ثم قال: ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ أي ابن آدم، وقد أطال سليمان الجمل الكلام على هذه الآية بذكر أقوال الكرخي والخازن والقرطبي والجرجاني لا نطول بذكرها.

﴿عفا الله عنها﴾ أي عن ما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى ذلك، وقيل المعنى أن تلك الأشياء التي سألتم عنها هي مما عفا عنه ولم يوجبه عليكم فكيف تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من الله غير لازم، وضمير عنها عائد إلى المسألة على الأول وإلى أشياء على الثاني، على أن تكون جملة عفا الله عنها صفة ثالثة لأشياء والأول أولى، لأن الثاني يستلزم أن يكون ذلك المسؤول عنه قد شرعه الله ثم عفا عنه.

ويمكن أن يقال: إن العفو بمعنى الترك أي تركها الله ولم يذكرها بشيء فلا تبحثوا عنها، وهذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل ﴿والله غفور حليم﴾ جاء سبحانه بصيغة المبالغة ليدل ذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لكثرة مغفرته وسعة حلمه.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿قد سألها﴾ الضمير يرجع إلى المسألة المفهومة من ﴿لا تسألوا﴾ لكن ليست هذه المسألة بعينها بل مثلها في كونها لا حاجة إليها ولا توجبها الضرورة الدينية قاله الزمخشري، ونحا ابن عطية منحاه، قال الشيخ ولا يتجه قولها إلا على حذف مضاف، وقد صرح به بعض المفسرين أي سأل أمثالها أو أمثال هذه السؤالات.

﴿قوم من قبلكم﴾ كما سأل قوم صالح الناقة وسأل قوم عيسى المائدة وسأل قوم موسى رؤية الله جهرة ﴿ثم﴾ لم يعملوا بها بل ﴿أصبحوا بها كافرين﴾ أي ساترين لها تاركين للعمل بها فإن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا.

ولا بد من تقييد النهي في هذه بما لا تدعو إليه حاجة كما قدمنا لأن الأمر الذي تدعو إليه الحاجة في أمور الدين والدنيا قد أذن الله بالسؤال عنه فقال فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وقال صلى الله عليه وسلم: «قاتلهم الله ألا سألوا فإنما شفاء العي السؤال»[1].

﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن الرد على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه وجعل ههنا بمعنى سمي كما قال تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ ويتعدى لمفعولين أحدهما محذوف والتقدير ما سمى الله حيواناً بحيرة قاله أبو البقاء، وقال ابن عطية والزمخشري وأبو البقاء: إنها تكون بمعنى شرع

(١) ابو داود كتاب الطهارة الباب ١٢٥ ـ احمد بن حنبل ١/ ٢٨٠.

ووضع أي ما شرع الله ولا أمر بها، وقال ابن عطية، وجعل في هذه الآية لا تكون بمعنى خلق لأن الله خلق هذه الأشياء كلها، ولا بمعنى صير لأن التصيير لا بد له من مفعول ثان فمعناه ما بين الله ولا شرع.

ومنع الشيخ هذه التقولات كلها بأن جعل لم يعد اللغويون من معانيها شرع وخرج الآية على التصيير ويكون المفعول الثاني محذوفاً أي ما صير الله بحيرة مشروعة، وقال أبو السعود: معنى ما جعل ما شرع وما وضع ولذلك عدي إلى مفعول واحد هو بحيرة وما عطف عليها، ومن مزيدة لتأكيد النفي فإن الجعل التكويني كما يجيء تارة متعدياً إلى مفعولين وأخرى إلى واحد كذلك الجعل التشريعي يجيء مرة متعدياً إلى مفعولين كما في قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ وأخرى إلى واحد كما في الآية الكريمة انتهى.

وبحيرة فعيلة بمعنى مفعولة كالنطيحة والذبيحة مأخوذة من البحر وهو شق الأذن، ، قال ابن سيد الناس: البحيرة هي التي خليت بلا راع قيل هي التي يجعل درها للطّواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس وجعل شق أذنها علامة لذلك، قاله سعيد بن المسيب.

قال الشافعي: كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثا بحرت أذنها فحرمت، وبه قال أبو عبيدة زاد: فلا تركب ولا تحلب ولا تطرد عن مرعى ولا ماء، وإذا لقيها الضعيف لم يركبها، وقيل ان الناقة إذا نتجت خمسة أبطن فان كان الخامس ذكراً بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها.

وقيل إذا نتجت خمسة أبطن من غير تقييد بالاناث شقوا أذنها وحرموا ركوبها ودرها وقيل غير ذلك، ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن العرب كانت تختلف أفعالها في البحيرة.

﴿ولا﴾ أي وما جعل من ﴿سائبة﴾ أي مسيبة مخلاة وهي الناقة تسيب

أو البعير يسيب نذر على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزله فلا يحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد، قاله أبو عبيدة، وقيل هي التي تسيب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها، وقيل هي التي تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر فعند ذلك لا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا الضيف قاله الفراء، وقيل كانوا يسيبون العبد فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد.

﴿ولا﴾ أي وما جعل من ﴿وصيلة﴾ قيل هي ناقة ولدت أنثى بعد أنثى، وقيل هي الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، وقيل كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا فان كان السابع ذكراً ذبح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها وكان لحمها حراماً على النساء إلا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء.

وقيل: هي الناقة تبكر فتلد أنثى ثم تثنى أخرى ليس بينهما ذكر فيتركونها لآلهتهم ويقولون قد وصلت أنثى بأنثى.

﴿ولا﴾ جعل من ﴿حام﴾ هو الفحل الحامي ظهره عن أن يركب وينتفع به، وكانوا إذا ركب ولد ولد الفحل قالوا حمى ظهره فلا يركب، وقيل هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة قالوا حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء، وقيل هو الفحل ينتج من بين أولاده عشر اناث رواه ابن عطية وقيل هو الفحل يولد من صلبه عشرة أبطن، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وإليه مال أبو عبيدة والزجاج.

وقال الشافعي: انه الفحل يضرب في مال صاحبه عشر سنين، وقال ابن دريد: هو الفحل ينتج له سبع إناث متواليات فيحمي ظهره فيفعل به ما تقدم.

وقد عرفت منشأ خلاف أهل اللغة في هذه الأشياء وانه باعتبار اختلاف مذاهب العرب وآرائهم الفاسدة فيها.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تثنى بعد بالأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ان وصلت احداهما بالاخرى ليس بينهما ذكر، والحامي فحل الابل يضرب الضراب المعدود فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ورأيت عمراً يعني عمرو بن لحي يجر قصبه أي أمعاءه وهو أول من سيب السوائب» أخرجه الشيخان[1].

﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذباً لا لشرع شرعه الله لهم، ولا لعقل دلهم الله عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة ونفس الحمق، وهذا شأن علمائهم ورؤسائهم وكبرائهم.

﴿وأكثرهم﴾ أي أراذلهم وعوامهم الذين يتبعونهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يشهد به سياق النظم ﴿لا يعقلون﴾ إن هذا كذب باطل وافتراء من الرؤساء على الله سبحانه حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم فاستمروا في أشد التقليد، وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم.

(١) مسلم ٩٠١ ـ البخاري ٥٨٤.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

﴿وإذا قيل لهم﴾ أي لعوامهم المعبر عنهم بالأكثر ﴿تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أي إلى كتاب الله وسنة رسوله وحكمهما ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ وهذه أفعال آبائهم وسننهم التي سنوها لهم، وصدق الله سبحانه حيث يقول ﴿أو﴾ الواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار والتعجيب، وقيل للعطف على جملة مقدرة وهو الأظهر أي أحسبهم ذلك و ﴿لو كان آباؤهم﴾ جهلة ضالين ﴿لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في البقرة، وقال هنا: ﴿ما وجدنا﴾ وهناك ما ألفينا، ولا يعلمون هنا ولا يعقلون هناك للتفنن وأساليب من التعبير، وهذا مما استحسنه أبو حيان والسمين.

والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى الذي يبنى قوله على الحجة والبرهان والدليل وان آباءهم ما كانوا كذلك فكيف يصح الاقتداء بهم.

وقد صارت هذه المقالة التي قالتها الجاهلية نصب أعين المقلدة وعصاهم التي يتوكؤونعليها إن دعاهم داعي الحق وصرخ بهم صارخ الكتاب والسنة، فاحتجاجهم بمن قلدوه ممن هو مثلهم في التعبد بشرع الله مع مخالفة قوله لكتاب الله أو لسنة رسوله هو كقول هؤلاء، وليس الفرق إلا في مجرد العبارة اللفظية لا في المعنى الذي عليه تدور الإفادة والاستفادة، اللهم غفراً.

وكثيراً ما نسمع من أسراء التقليد الذين يعرفون الحق بالرجال لا بالاستدلال إذا قال لهم القائل الحق في هذه المسألة كذا أو الراجح قول فلان قالوا لست أعلم من فلان يعنون القائل من العلماء بخلاف الراجح في تلك

المسألة فنقول لهم نعم لست أعلم من فلان ولكن هل يجب علي اتباعه والأخذ بقوله فيقولون لا ولكن الحق لا يفوته، فنقول لهم لا يفوته وحده بخصوصية فيه أم لا يفوته ومن يشابهه من العلماء ممن بلغ إلى الرتبة التي بلغ إليها في العلم، فيقولون نعم لا يفوته هو وأشباهه ممن هو كذلك.

فيقال لهم: له من الأشباه والأنظار في علماء السلف والخلف آلاف مؤلفة بل فيهم أعداد متعددة يفضلونه ولهم في المسألة الواحدة الأقوال المتقابلة فربما كانت العين الواحدة عند بعضهم حلالاً وعند الآخر حراماً فهل تكون العين حلالاً وحراماً لكون كل واحد منهم لا يفوته الحق كما زعمتم، فإن قلتم نعم فهذا باطل ومن قال بتصويب المجتهدين إنما يجعل قول كل واحد منهم صواباً لا إصابة، وفرق بين المعنيين.

أو يقول القائل في جواب مقالتهم: فلان أعرف منك بالحق لكونه أعلم إذا كان الأسعد بالحق الأعلم، فما أحد إلا وغيره أعلم منه ففلان الذي يعنون غيره أعلم منه فهو أسعد منه بالحق فلم يكن الحق حينئذ بيده ولا بيد أتباعه.

وهذه المحاورات إنما يحتاج إليها من ابتلى بمحاورة المقصرين الذين لا يعقلون الحجج ولا يعرفون أسرار الأدلة، ولا يفهمون الحقائق، فيحتاج من ابتلي بهم وبما يرد عليه من قبلهم إلى هذه المناظرات التي لا يحتاج إلى مثلها من له أدنى تمسك بأذيال العلم، فإن كل عارف يعرف أن وظيفة المجتهد ليست قبول قول العالم المختص بمرتبة من العلم فوق مرتبته، إنما وظيفته قبول حجته فإذا لم تبرز الحجة لم يحل للمجتهد الأخذ بذلك القول الخالي عن الحجة في علمه وإن كان في الواقع وربما له حجة لم يطلع عليها العالم الآخر إلا أن مجرد هذا التجويز يجوز التمسك به في إحسان الظن بالعالم الأول وحمله على السلامة لا أنه يجوز التمسك به في أن المقالة حق يجوز التمسك بها كما يجوز التمسك بالدليل، فهو لا يقوله إلا من لاحظ له من العلم ولا نصيب له من العقل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم﴾ أي الزموا ﴿أنفسكم﴾ واحفظوها من ملابسة الذنوب والإصرار على المعاصي وقوموا بصلاحها، يقال عليك زيداً أي الزم زيداً فالنصب على الإغراء، واختلف النحاة في الضمير المتصل بها وبأخواتها نحو إليك ولديك ومكانك، والصحيح أنه في موضع جر، كما كان قبل أن تنقل الكلمة إلى الإغراء، وهذا مذهب سيبويه.

وذهب الكسائي إلى أنه منصوب المحل وفيه بعد لنصب ما بعده، وذهب الفراء إلى أنه مرفوع، وقد حققت هذه المسائل بدلائلها مبسوطة في شرح التسهيل.

﴿لا يضركم﴾ ضلال ﴿من ضل﴾ من الناس أي أهل الكتاب وغيرهم ﴿إذا اهتديتم﴾ للحق أنتم في أنفسكم، وليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد، وقد قال سبحانه: ﴿إذا اهتديتم﴾.

وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً مضيقاً متحتماً، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر والنهي أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضره وضرراً يسوغ له معه الترك.

أخرج الترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير والبغوي وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية قال أية آية؟ قلت قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الخ قال أما والله لقد سألت

عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم، وفي لفظ قيل يا رسول الله منا أو منهم، قال بل أجر خمسين منكم»[1].

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عامر الأشعري أنه كان فيهم أعمى فاحتبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه فقال له: «ماحبسك؟ قال يا رسول الله قرأت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ الآية، قال فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أين ذهبتم، إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم».

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والدارقطني وأحمد وغيرهم عن قيس ابن أبي حازم قال: قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وقال يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وإنكم تضعونها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب، وفي لفظ لابن جرير عنه والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله منه بعقاب»[2].

وعن ابن مسعود وسأله رجل عن قوله عليكم أنفسكم قال: إنه ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا أو قال فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم، وعن ابن عمر أنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم، وعن أبي بن كعب إنما

---

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٥ ـ ١٨ ـ ابن ماجـة كتاب الفتن الباب ٢١.
(٢) احمد بن حنبل ١/٥ ـ ٧.

تأويلها في آخر الزمان.

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال ذكرت هذه الآية عند رسول الله ﷺ فقال: «لم يجيء تأويلها لا يجيء تأويلها، حتى يهبط عيسى بن مريم عليه السلام».

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال وأوضح التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم والله ما نزل آية أشد منها.

وعن ابن المبارك هذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الله تعالى قال عليكم أنفسكم يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات.

وقال مجاهد وابن جبير: هي في اليهود والنصارى خذوا منهم الجزية واتركوهم.

وقال أبو السعود: ولا يتوهم أن في هذه الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتها، كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفي به الطاقة انتهى.

والاقوال والروايات في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية، ففيه ما يرشد إلى ما قدمنا من الجمع بين هذه الآية وبين الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أي إليه في الآخرة رجوع الطائع والعاصي والضال والمهتدي، ففي الآية اكتفاء ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها، وفي هذا وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بعمل غيره.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ استئناف مسوق لبيان الاحكام المتعلقة بأمور دنياهم أثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم ﴿شهادة بينكم﴾ قال مكي في كتابه المسمى بالكشف: هذه الآيات الثلاث يعني هذه واللتان بعدها عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن اعراباً ومعنى وحكماً وتفسيراً ولم يزل العلماء يستشكلونها ويكفون عنها. قال ويحتمل أن يبسط ما فيها من العلوم في ثلاثين ورقة أو أكثر وقد ذكرناها مشروحة في كتاب مفرد.

قال ابن عطية: هذا كلام من لم يقع له النتاج في تفسيرها وذلك بين من كتابه رحمه الله تعالى يعني من كتاب مكي، قال القرطبي: ما ذكره مكي ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً، قال السعد في حاشيته على الكشاف: واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن اعراباً ونظماً وحكماً انتهى.

قال السخاوي: لم أر أحداً من العلماء تخلص كلامه من أولها إلى آخرها قلت وأنا أستعين الله تعالى في توجيه إعرابها واشتقاق مفرداتها وتصريف كلماتها وقراآتها ومعرفة تأليفها، وأما بقية علومها فنسأل الله العون في تهذيبها إلى آخر ما في عبارة السمين، فارجع إليه إن شئت.

وأضاف الشهادة إلى البين توسعاً لأنها جارية بينهم، وقيل أصله شهادة ما بينكم فحذفت (ما) وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ واختلف في هذه الشهادة فقيل هي هنا بمعنى الوصية، وقيل بمعنى الحضور للوصية.

وقال ابن جرير الطبري: هي هنا بمعنى اليمن أي يمين ما بينكم أن يحلف اثنان، واستدل على ما قاله بأنه لا يعلم لله حكماً يجب فيه على الشاهد يمين، واختار هذا القول القفال، وضعف ذلك ابن عطية واختار أنها هنا هي الشهادة التي تؤدى من الشهود أي الأخبار بحق للغير على الغير.

﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ المراد بحضور الموت حضور علاماته لأن من مات لا يمكنه الإشهاد، وتقديم المفعول للاهتمام ولإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها فإنه أدخل في تهوين أمر الموت.

﴿حين الوصية﴾ بدل منه لا ظرف للموت كما توهم ولا لحضوره كما قيل، فإن في الإبدال تنبيهاً على أن الوصية من المهمات المقررة التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها.

﴿اثنان ذوا عدل منكم﴾ أي من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له ﴿أو آخران﴾ كائنان ﴿من غيركم﴾ أي من الأجانب وقيل إن الضمير في ﴿منكم﴾ للمسلمين والمراد بقوله ﴿غيركم﴾ الكفار وهو الأنسب بسياق الآية وبه قال أبو موسى الأشعري وابن عباس وغيرهما: فيكون في الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين في السفر في خصوص الوصايا كما يفيده النظم القرآني، ويشهد له السبب للنزول وسيأتي.

فإذا لم يكن مع الموصي من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا، وإن ما شهدا به حق فيحكم حينئذ بشهادتهما فإن عثر بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصي وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها.

هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره، وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى ابن يعمر وسعيد بن جبير وأبو مجلز والنخعي وشريح وعبيدة السلماني وابن

سيرين ومجاهد وقتادة والسدي والثوري وأبو عبيد وأحمد بن حنبل، وذهب إلى الأول أعني تفسير ضمير منكم بالقرابة أو العشيرة وتفسير غيركم بالأجانب: الزهري والحسن وعكرمة، وذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء إلى أن الآية منسوخة، واحتجوا بقوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ وقوله: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول.

وخالفهم الجمهور فقالوا: الآية محكمة وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ، وأما قوله تعالى: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ وقوله: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ فهما علمان في الأشخاص والأزمان والأحوال، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين، ولا تعارض بين خاص وعام.

﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ الضرب في الأرض هو السفر أي إن سافرتم فيها، قال السمين قوله: إن أنتم قيد في قوله: ﴿أو آخران﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى على لفظ إذا حضر أحدكم الموت لكان التركيب هكذا إن هو ضرب في الأرض فأصابته.

﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي فنزل بكم أسباب الموت وقاربكم الأجل وأردتم الوصية حينئذ ولم تجدوا شهوداً عليها من المسلمين فأوصيتم إليهما ودفعتم مالكم إليها ثم ذهبا إلى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا في أمرهما وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أنكم ﴿تحسبونهما﴾ وتوقفونهما، ويجوز أن يكون استئنافاً كأنهم قالوا فكيف نصنع إن ارتبنا في الشهادة فقال تحبسونهما.

﴿من بعد الصلاة﴾ إن ارتبتم في شهادتهما وهي صلاة العصر، قاله الأكثر، لكونه الوقت الذي يغضب الله على من حلف فيه فاجراً كما في الحديث الصحيح، وعدم تعيينها في الآية لتعينها عندهم للتحليف بعدها قيل وجميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب، وقيل لكونه وقت اجتماع الناس وقعود الحكام للحكومة، وقيل لأنه وقت تصادم ملائكة

الليل وملائكة النهار، وقيل صلاة أهل دينهما وقيل صلاة الظهر، قاله الحسن وقيل أي صلاة كانت، قاله القرطبي.

والمراد بالحبس توقيف الشاهدين في ذلك الوقت لتحليفهما، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام، وعلى جواز التغليظ على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما.

﴿فيقسمان﴾ أي الشاهدان على الوصية أو الوصيان ﴿بالله﴾ وقد استدل بذلك ابن أبي ليلى على تحليف الشاهدين مطلقاً إذا حصلت الريبة في شهادتهما وفيه نظر، لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو بوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها.

قال الشافعي: الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتي درهم، فيحلف بعد صلاة العصر إن كان بمكة بين الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وإن كان في بيت المقدس فعند الصخرة، وفي سائر البلاد في أشرف المساجد وأعظمها بها.

﴿إن ارتبتم﴾ أي شككتم أيها الورثة في قول الشاهدين وصدقهما فحلفوهما وهذا إذا كانا كافرين أما إذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع.

﴿لا تشتري به ثمناً﴾ الضمير راجع إلى الله تعالى، والمعنى لا نبيع حظنا من الله تعالى وعهده بهذا العرض النذر من الدنيا فنحلف به كاذبين لأجل مال ادعيتموه علينا وعوض نأخذه أو حق نجحده، وقيل يعود إلى القسم أي لا نستبدل لصحة القسم بالله عرضاً من أعراض الدنيا وقيل يعود إلى تحريف الشهادة قاله أبو علي.

وإنما ذكر الضمير لأنها بمعنى القول أي لا نستبدل بشهادتنا ثمناً، وهذا أقوى من حيث المعنى، قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن وهذا مبني على أن

العروض لا تسمى ثمناً، وعند الاكثر أنها تسمى ثمناً كما تسمى مبيعاً.

﴿ولو كان ذا قربى﴾ أي ولو كان المشهود له أو المقسم له ذا قرابة منا، وإنما خص القربى بالذكر لأن الميل إليهم أكثر من غيرهم، والمعنى لا نؤثر العرض الدنيوي ولا القرابة، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبلها عليه أي ولو كان ذا قربى لا نشتري به ثمناً.

﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ معطوف على ﴿لا نشتري﴾ داخل معه في حكم القسم، وأصاف الشهادة إلى الله سبحانه لكونه الآمر باقامتها والناهي عن كتمها، قال ابن زيد: لا نأخذ به رشوة ﴿انا إذاً﴾ ان كتمنا الشهادة ﴿لمن الآثمين﴾.

أخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والنحاس والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدا فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي. وقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم وأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآية، وفي اسناده محمد بن أبي القاسم الكوفي قال الترمذي: قيل إنه صالح الحديث، وقد روى ذلك أبو داود من طريقه.

وقد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هي السبب في نزول الآية، وذكرها المفسرون مختصرة ومطولة في تفاسيرهم، وقال القرطبي: إنه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هي سبب نزول الآية.

فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿فان عثر﴾ يقال عثر على كذا اطلع عليه ويقال عثرت منه على خيانة أي اطلعت وأعثرت غيري عليه ومنه قوله تعالى: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ وأصل العثور الوقوع على الشيء، وقيل الهجوم على شيء لم يهجم عليه غيره وكل من اطلع على أمر كان قد خفي عليه قيل له قد عثر عليه.

والمعنى أنه إذا اطلع وظهر بعد التحليف ﴿على أنهما﴾ أي الشاهدين أو الوصيين على الخلاف في أن الاثنين وصيان أو شاهدان على الوصية ﴿استحقا﴾ أي استوجبا ﴿إثماً﴾ إما بكذب في الشهادة أو اليمين أو بظهور خيانة بأن وجد عندهما مثلاً ما اتهما به وادعيا أنهما ابتاعاه من الميت أو وصى لهما به.

قال أبو علي الفارسي: الاثم هنا اسم الشيء المأخوذ لأن آخذه يأثم بأخذه فسمي اثماً كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة، وقال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك فكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر.

﴿فآخران﴾ أي فشاهدان آخران أو فحالفان آخران من أولياء الميت ﴿يقومان مقامهما﴾ أي مقام الذين عثر على أنهما استحقا اثماً فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق وليس المراد أنهما يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي شهدها المستحقان للاثم ﴿من الذين استحق﴾ قريء على البناء للمفعول وعلى الفاعل ﴿عليهم﴾ الوصية وهم الورثة ويبدل من آخران ﴿الأوليان﴾ هو على الأولى مرتفع كأنه قيل من هما فقيل هما الاوليان.

والمعنى على الاولى من الذين استحق عليهم الاثم اي جنى عليهم وهم

أهل الميت وعشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم فالاوليان تثنية أولى.

والمعنى على الثانية من الذين استحق عليهم الاوليان من بينهم بالشهادة ان يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الاقربين إلى الميت، فالأوليان فاعل استحق ومفعوله ان يجردوهما للقيام بالشهادة، وقيل المفعول محذوف والتقدير من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها.

﴿فيقسمان بالله﴾ أي فيحلفان على خيانة الشاهدين ﴿لشهادتنا﴾ أي يميننا فالمراد بالشهادة هنا اليمين كما في قوله تعالى: ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات﴾ بالله أي ليحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان ﴿أحق من شهادتهما﴾ أي أحق بالقبول من يمينهما على أنهما صادقان أمينان ﴿وما اعتدينا﴾ أي ما تجاوزنا الحق في يميننا وقولنا أن شهادتنا أحق من شهادة هذين الوصيين الخائنين ﴿إنا إذاً لمن الظالمين﴾ إن كنا حلفنا على باطل.

﴿ذلك﴾ أي البيان الذي قدمه الله سبحانه في هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية في السفر ولم يكن عنده أحد من أهله وعشيرته وعنده كفار ﴿أدنى﴾ أي أقرب إلى ﴿أن يأتوا بالشهادة﴾ أي يؤدي الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة ﴿على وجهها﴾ فلا يحرفوا ولا يبدلوا ولا يخونوا فيها، وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر المنفعة والفائدة في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع في كتابه، فالضمير في يأتوا عائد إلى شهود الوصية من الكفار، وقيل انه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم، والمراد تحذيرهم من الخيانة وأمرهم بأن يشهدوا بالحق.

﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي ترد على الورثة المدعين فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فتفتضح حينئذ شهود الوصية

وهو معطوف على قوله أن يأتوا فيكون الفائدة في شرع الله سبحانه لهذا الحكم هي أحد الأمرين إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها أو يخافون الافتضاح إذا ردت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سبباً لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب ولا خيانة.

وقال أبو السعود: معطوف على مقدر ينبيء عنه المقام كأنه قيل ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح برد اليمين، فأي الخوفين وقع حصل المقصود الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها ﴿واتقوا الله﴾ في مخالفة أحكامه وان تحلفوا أيماناً كاذبة أو تخونوا أمانة ﴿واسمعوا﴾ سمع قبول واجابة أو المواعظ والزواجر ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن طاعته بأي ذنب ومنه الكذب في اليمين أو في الشهادة، وهذا تهديد وتخويف لمن خالف حكم الله وخان أمانته أو حلف يميناً كاذبة.

قال الخازن: وهذه الآية الكريمة من أصعب ما في القرآن من الآيات نظماً واعراباً وحكماً انتهى وقد سهلنا هذا الصعب بتيسيره سبحانه وتعالى.

وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز ان من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين، فإن لم يجد شهوداً مسلمين وكان في سفر ووجد كفاراً جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصي حلفا بالله على أنهما شهدا بالحق وما كتما من الشهادة شيئاً ولا خانا مما ترك الميت شيئاً، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقسما عليه في خلل في الشهادة أو ظهور شيء من تركة الميت وزعما أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك.

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ أي اسمعوا أو اذكروا أو احذروا قال الزجاج: هي متصلة بما قبلها أي اتقوا الله يوم يجمع وهو يوم القيامة، وقيل يوم يجمع الله الرسل يكون من الأحوال كذا وكذا، وهذا شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين الرسل على وجه الإجمال.

فيقول لهم: ﴿ماذا أجبتم﴾ اي أيّ إجابة اجابتكم بها الأمم الذين بعثكم الله إليهم أو أي جواب أجابوكم به وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم في دار الدنيا إلى توحيدي وطاعتي، وتوجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم وأممهم.

﴿قالوا﴾ ذكر صيغة الماضي للدلالة على التحقيق والمعنى أجابوا بقولهم: ﴿لا علم لنا﴾ مع انهم عالمون بما أجابوا به عليهم وهذا تفويض منهم واظهار للعجز وعدم القدرة ورد للأمر إلى علمه ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فإن تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك.

قال الرازي: إن الرسل لما علموا أن الله عالم لا يجهل وحليم لا يسفه وعادل لا يظلم، علموا أن قولهم لا يفيد خيراً ولا يدفع شراً، فرأوا أن الأدب في السكوت وفي تفويض الأمر إليه وإلى عدله، فقالوا لا علم لنا انتهى، وقيل لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، وقيل لا علم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم، وقيل لا علم لنا كعلمك فيهم، وقيل لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا.

وقيل لا حقيقة لعلمنا بعاقبة أمرهم، وقيل المعنى لا علم لنا إلا علم ما

أنت أعلم به منا، وقيل انهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر، عن مجاهد قال يفزعون فيقولون لا علم لنا فترد إليهم أفئدتهم فيعلمون، وعن السدي في الآية قال ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا لا علم لنا ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم، وهذا فيه ضعف ونظر، لأن الله تعالى قال في حق الأنبياء لا يحزنهم الفزع الأكبر[1].

وعن ابن عباس قال: قالوا لا علم لنا فرقاً تذهل عقولهم، ثم يرد الله إليهم عقولهم فيكونوا هم الذين يسئلون لقول الله فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين.

﴿انك أنت علام الغيوب﴾ يعني انك تعلم ما غاب عنا من باطن الامور، ونحن نعلم ما نشاهد ولا نعلم ما في البواطن ليس تخفى عليك خافية، وبناء فعال للتكثير، وفيه جواز اطلاق العلام على الله تعالى.

---

(١) قال القرطبي : هذا في أكثر مواطن القيامة ، ففي الخبر « إن جهنم إذا جيءَ بها زفرت زفرة فلا يبقى نبيّ ولا صدّيق إلا جثا لركبتيه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خوفني جبريل يوم القيامة حتى ابكاني فقلت يا جبريل الم يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ؟ فقال لي يا محمد لتشهدنّ من هَوْل ذلك اليوم ما ينسيك المغفرة » .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

﴿إذ قال الله يا عيسى بن مريم﴾ اذ بدل من يوم يجمع وهو تخصيص بعد التعميم، وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه افراطاً وتفريطاً هذه تجعله إلهاً، وهذه تجعله كاذباً، والماضي هنا بمعنى المضارع لأن هذا القول يقع يوم القيامة مقدمة لقوله: ﴿أأنت قلت﴾ قاله السمين والكرخي، وقال البيضاوي: الماضي بمعنى الآتي على حد قوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾.

﴿اذكر نعمتي عليك﴾ بالنبوة وغيرها ﴿وعلى والدتك﴾ حيث أنبتها نباتاً حسناً وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، ذكره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها لقصد تعريف الأمم بما خصهما به الله من الكرامة وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة، وتوبيخ من اتخذهما الهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وانهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه ليس لهما من الأمر شيء.

﴿إذ أيدتك﴾ أي قويتك من الأيد وهو القوة ﴿بروح القدس﴾ فيه وجهان أحدهما انه الروح الطاهرة المقدسة التي خصه الله بها وقيل انه جبريل عليه السلام وكان يسير معه حيث سار يعينه على الحوادث التي تقع ويلهمه

المعارف والعلوم، وقيل انه الكلام الذي يجيء به الأرواح، والقدس الطهر، وإضافته إليه لكونه سببه.

وجملة ﴿تكلم الناس﴾ مبينة لمعنى التأييد أي تكلمهم ﴿في المهد﴾ حال كونك صبياً ﴿وكهلاً﴾ لا يتفاوت كلامك في الحالين بل يكون على نسق واحد بديع صادر عن كمال العقل والتدبير مع ان غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بيناً، وهذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لأحد قبله.

قال ابن عباس: أرسل الله عيسى وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه إليه ثم ينزله إلى الأرض وهو في سن الكهولة.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء وأممها ثم يدعى بعيسى فيذكره نعمته عليه فيقر بها فيقول يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك الآية ثم يقول أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسئلون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار».

﴿وإذ علمتك الكتاب﴾ أي اذكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب أي جنس الكتاب أو المراد بالكتاب الخط ﴿والحكمة﴾ أي الفهم والإطلال على أسرار العلوم، وقيل جنس الحكمة وقيل هي الكلام المحكم ﴿والتوراة والإنجيل﴾ فعلى الأول يكون هذا من عطف الخاص على العام وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما أما التوراة فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدال كما هو مصرح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه.

﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ أي تصور تصويراً مثل صورة الطير

﴿بإذني﴾ لك بذلك وتيسيري له ﴿فتنفخ فيها﴾ أي في الهيئة المصورة ﴿فتكون﴾ هذه الهيئة ﴿طيراً﴾ متحركاً حياً كسائر الطيور ﴿بإذني﴾ وكان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى أكرمه الله تعالى بها، وتقدم في آل عمران أنه كان صور لهم صورة الخفاش وكان ذلك بطلبهم فراجعه إن شئت.

﴿وتبرىء الأكمه﴾ أي تشفي الأعمى المطموس البصر ﴿والأبرص﴾ هو معروف ظاهر ﴿بإذني﴾ لك وتسهيله عليك وتيسيره لك، وقد تقدم تفسير هذا مطولاً في آل عمران فلا نعيده ﴿وإذ تخرج الموتى﴾ من قبورهم أحياء فيكون ذلك آية لك عظيمة، قيل أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية، وتكرير ﴿بإذني﴾ هنا في المواضع الأربعة بعد أربع جمل للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه، وقال في آل عمران ﴿بإذن الله﴾ مرتين لأن هناك أخبار فناسب الإيجاز، وهنا مقام تذكير بالنعمة والامتنان فناسب الإسهاب.

﴿وإذ كففت﴾ معناه دفعت وصرفت ومنعت ﴿بني إسرائيل﴾ أي اليهود ﴿عنك﴾ حين هموا بقتلك ﴿إذ جئتهم بالبينات﴾ أي المعجزات الواضحات والدلالات الباهرات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب، ولما أتى عيسى بهذه الدلالات البينات قصد اليهود بقتله فخلصه الله منهم ورفعه إلى السماء.

﴿فقال الذين كفروا منهم﴾ أي من اليهود ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين، ولما عظم ذلك في صدورهم وابتهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية بل نسبوه إلى السحر.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ الوحي في كلام العرب معناه الالهام أي ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم وقيل معناه أمرتهم على ألسنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولي، والحواريون هم خلص أصحاب عيسى وخواصه.

﴿قالوا آمنا﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا فقال: قالوا آمنا ﴿واشهد﴾ يا رب أو يا عيسى ﴿بأننا مسلمون﴾ أي مخلصون للإيمان، وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام لأن الإيمان من أعمال القلوب، والإسلام هو الإنقياد والخضوع في الظاهر، والمعنى أنهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم.

﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبىء عنه الإظهار في موضع الإضمار ﴿هل يستطيع ربك﴾ الخطاب لعيسى وقرىء هل تستطيع بالفوقية ونصب ربك وبالتحتية ورفع ربك.

واستشكلت على الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون والسؤال عن استطاعته لذلك ينافي ما حكوه عن أنفسهم، وأجيب بأن هذا كان في أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم اتقوا الله أي لا

تشكوا في قدرة الله أنهم ادعوا الإيمان والإسلام دعوى بـاطلة، ويرده أن الحواريين هم خلصاء عيسى وأنصاره كما قال: ﴿من أنصاري إلى الله قال الحـواريون نحن أنصار الله﴾.

وبهذا يظهر أن قول الزمخشري: إنهم ليسوا مؤمنين ليس بجيد، وكأنه خرق للاجماع قال ابن عطية: ولا خلاف أحفظه في أنهم كانوا مؤمنين، وقيل إن ذلك صدر ممن كان معهم وقيل، إنهم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل هل يستطيع فلان أن يأتي مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه، فالمعنى هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه، وقيل: إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام رب أرني كيف تحيي الموتى الآية، ويدل على هذا قولهم من بعد وتطمئن قلوبنا.

وأما على القراءة الأولى فالمعنى هل تستطيع أن تسأل ربك قال الزجاج: المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله، فهو من باب واسأل القرية.

عن عائشة قالت: كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا هل يستطيع ربك فإنما قالوا هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه، ويؤيد هذا ما أخرجه الحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تستطيع ربك بالتاء يعني بالفوقية وعن ابن عباس أنه قرأها كذلك وبه قرأ علي وسعيد بن جبير ومجاهد.

﴿أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ المائدة الخوان إذا كان عليه الطعام فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة هذا هو المشهور إلا أن الراغب قال المائدة الطبق الذي عليه الطعام وتقال أيضاً للطعام إلا أن هذا مخالف لما عليه المعظم، وهذه المسألة لها نظائر في اللغة، لا يقال للخوان مائدة إلا وعليه الطعام وإلا فهو خوان، ولا يقال كاس إلا وفيها خمر وإلا فهي قدح، ولا

يقال ذنوب وسجل إلا وفيه ماء وإلا فهو دلو، ولا يقال جراب إلا وهو مدبوغ وإلا فهو اهاب، ولا يقال قلم إلا وهو مبري وإلا فهو أنبوب.

واختلف اللغويون في اشتقاقها فقال الزجاج: هي من ماد يميد إذا تحرك، وقال أبو عبيدة هي من ماده إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم إليها، وبه قال قطرب وغيره وقيل فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية قاله أبو عبيدة وقيل غير ذلك، وأطال الكلام في تحقيقه سليمان الجمل فراجعه إن شئت.

﴿قال﴾ عيسى مجيباً للحواريين ﴿اتقوا الله﴾ من هذا السؤال وأمثاله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي صادقين في إيمانكم فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة وقيل: إنه أمرهم بالتقوى ليكون ذلك ذريعة إلى حصول ما طلبوه.

﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدة أي نأكل منها فإن الجوع قد غلب علينا وقيل نأكل منها للتبرك بها لا أكل حاجة وليس سببه إزالة شبهة في قدرته تعالى على تنزيلها حتى يقدح ذلك في الإيمان.

﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بكمال قدرة الله أو بأنك مرسل إلينا من عنده أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه وإن كنا مؤمنين به من قبل، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين.

﴿ونعلم﴾ علماً يقينياً ﴿أن قد صدقتنا﴾ في نبوتك ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ عند من لم يحضرها من بني إسرائيل أو من سائر الناس أو من الشاهدين لله بالوحدانية أو من الحاضرين دون السامعين.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

ولما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة ﴿قال عيسى ابن مريم﴾ قيل: إنه اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين وطأطأ رأسه وبكى ثم دعا فقال ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة﴾ كائنة أو نازلة ﴿من السماء تكون لنا عيداً﴾ أي عائدة من الله علينا أو يكون يوم نزولها لنا عيداً، وقد كان نزولها يوم الأحد وهو يوم عيد لهم، والعيد يوم السرور، وهو واحد الأعياد.

وقيل أصله من عاد يعود أي رجع فهو عود فقيل ليوم الفطر والأضحى عيدان لأنهما يعودان في كل سنة قاله ثعلب، وقال الخليل: العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه، قال ابن الانباري: النحويون يقولون لأنه يعود بالفرح والسرور، وعيد العرب لأنه يعود بالفرح والحزن وكل ما عاد إليك في وقت فهو عيد، وقال الراغب: العيد حالة تعاود الإنسان والعائدة كل نفع يرجع إلى الإنسان بشيء.

ومعنى ﴿لأولنا وآخرنا﴾ لمن في عصرنا ولمن يأتي بعدنا من ذرارينا وغيرهم، قال ابن عباس: معناه يأكل منها أول الناس كما يأكل آخرهم ﴿وآية منك﴾ أي دلالة وحجة واضحة على كمال قدرتك وصحة إرسالك من أرسلته ﴿وارزقنا﴾ أي أعطنا هذه المائدة المطلوبة بينة، أو ارزقنا رزقاً نستعين به على عبادتك ﴿وأنت خير الرازقين﴾ بل لا رازق في الحقيقة غيرك ولا معطي سواك.

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

فأجاب الله سبحانه سؤال عيسى عليه السلام ﴿قال الله إني منزلها﴾ أي المائدة ﴿عليكم﴾ وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا فذهب الجمهور إلى الأول وهو الحق لقوله سبحانه: ﴿إني منزلها عليكم﴾ ووعده الحق وهو لا يخلف الميعاد، وقال مجاهد: ما نزلت وإنما ضرب مثل ضربه الله لخلقه نهياً لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه.

وقال الحسن: وعدهم بالإجابة فلما قال: ﴿فمن يكفر بعد﴾ أي بعد نزولها ﴿منكم فإني أعذبه عذاباً﴾ أي تعذيباً قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا العذاب معجلاً في الدنيا أو مؤخراً إلى الآخرة ﴿لا أعذبه﴾ أي لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أحداً من العالمين﴾ قيل المراد عالمي زمانهم، وقيل جميع العالمين، وفي هذا من التهديد والترهيب ما لا يقادر قدره.

قيل لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا، وقالوا لا نريدها فلم تنزل وبه قال مجاهد والحسن، والصحيح الذي عليه جماهير الأمة ومشاهير الأئمة أنها قد نزلت.

عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى بن مريم أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم، فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا: يا معلم الخير قلت لنا أن

أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء إلى قوله أحداً من العالمين، فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال: قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير»[1]، وقد روي موقوفاً على عمار قال الترمذي: والوقف أصح.

وعن ابن عباس قال: المائدة سمكة وأرغفة، وعنه قال: نزلت على عيسى والحواريين خوان عليه سمك وخبز يأكلون منه أينما تولوا إذا شاءوا، عن عبدالله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون.

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة، والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى. وقال السدي وقطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت، والأول أولى.

وقيل إذ هنا بمعنى إذا كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ فزعوا﴾ تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقد قيل في توجيه هذا الاستفهام منه تعالى إنه لقصد التوبيخ كما سبق وقيل لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده وادعوا عليه ما لم يقله.

﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً له سبحانه أي أنزهك تنزيهاً أشار به إلى أن

---

(١) الترمذي، كتاب التفسير، سورة ٥ ـ ٢١.

اتخاذهما إلهين تشريك لهما معك في الألوهية لا إفرادهما بذلك إذ لا شبهة في ألوهيتك وأنت منزه عن الشريك فضلاً أن يتخذ إلهان دونك على ما يشعر به ظاهر العبادة نبه عليه السعد التفتازاني.

﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي ما ينبغي لي أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها وقيل التقدير ما ليس يثبت لي بسبب حق، وقيل ما ليس مستحقاً لي، وعلى هذا الباء زائدة.

ورد ذلك الى علمه سبحانه فقال: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ وهذا هو غاية الأدب واظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إلى علمه، وقد علم أنه لم يقله فثبت بذلك عدم القول به، وقيل التقدير أن تصح دعواي لما ذكر، وقدره الفارسي بقوله: إن أكن الآن قلته فيما مضى فقد تبين وظهر علمك به.

﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ هذه الجملة في حكم التعليل لما قبلها أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وقال ابن عباس: المعنى تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه، وقيل تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد، وقيل تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة وقيل تعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل.

وهذا الكلام من باب المشاكلة والمقابلة والازدواج كما هو معروف عند علماء المعاني والبيان، وعليه حام الزمخشري، والنفس عبارة عن ذات الشيء يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد، وقال الزجاج: النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته يقول تعلم جميع حقيقة أمري ولا أعلم حقيقة أمرك، والأول أولى، وفيه دلالة على إطلاق لفظ النفس عليه سبحانه ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ تعلم ما كان وما سيكون وهذا تأكيد لما قبله.

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

﴿ما قلت لهم إلا ما امرتني به﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني والاستثناء مفرغ ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ هذا تفسير لمعنى ما قلت لهم أي ما أمرتهم إلا أن وحدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴿وكنت عليهم شهيداً﴾ أي حفيظاً ورقيباً أرعى أحوالهم وأمنعهم عن مخالفة أمرك ﴿ما دمت﴾ أي مدة دوامي ﴿فيهم﴾.

﴿فلما توفيتني﴾ قيل هذا يدل على أن الله سبحانه توفاه قبل أن يرفعه، وليس بشيء لأن الأخبار قد تضافرت بأنه لم يمت، وأنه باق في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان، وإنما المعنى فلما رفعتني إلى السماء وأخذتني وافياً بالرفع.

قيل الوفاة في كتاب الله سبحانه قد جاءت على ثلاثة أوجه بمعنى الموت ومنه قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وبمعنى النوم ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ أي ينيمكم، وبمعنى الرفع ومنه ﴿فلما توفيتني﴾ وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك والتوفي يستعمل في أخذ الشيء وافياً أي كاملاً.

﴿كنت أنت الرقيب﴾ أصل المراقبة المراعاة أي كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد ﴿عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ أي شاهد لما كان وما يكون أو أنت العالم بكل شيء فلا يعزب عن عملك شيء ومنه قولي لهم وقولهم بعدي.

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

﴿إن تعذبهم﴾ أي من أقام على الكفر منهم ﴿فإنهم عبادك﴾ أي تصنع بهم ما شئت وتحكم فيهم بما تريد لا اعتراض عليك ﴿وإن تغفر لهم﴾ أي لمن آمن منهم ﴿فإنك أنت العزيز﴾ أي القادر على ذلك ﴿الحكيم﴾ في أفعاله، قيل: قاله على وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد بعبده، ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك.

وقيل: قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم، قال ابن عباس: يقول عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم وإن تغفر لهم أي من تركت منهم ومد في عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال فزالوا عن مقالتهم ووحدوك فإنك أنت العزيز الحكيم.

﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ كعيسى في الدنيا وقيل في الآخرة والأول أولى، عن ابن عباس هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم، والمراد بالصادقين النبيون والمؤمنون لأن الكفار لا ينفعهم صدقهم يوم القيامة وكذا صدق ابليس بقوله: إن الله وعدكم وعد الحق لكذبه في الدنيا التي هي دار العمل.

﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ قد تقدم تفسيره وهذا اشارة إلى ما يحصل لهم من الثواب الدائم الذي لا انقطاع له ولا انتهاء ﴿رضي الله عنهم﴾ بما عملوه من الطاعات الخالصة له ﴿ورضوا عنه﴾ بما

جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال، ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم وأعلى منازل الكرامة والرضا باب الله الأعظم ومحل استرواح العابدين، وسيأتي لهذا مزيد في سورة البينة.

﴿ذلك﴾ أي ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبداً ورضوان الله عنهم ﴿الفوز العظيم﴾ أي: إنهم فازوا بالجنة ونجوا من النار، والفوز الظفر بالمطلوب على أتم الأحوال.

﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ جاء سبحانه بهذه الخاتمة تحقيقاً للحق وتنبيهاً على كذب النصارى، ودفعاً لما سبق من اثبات من أثبت الآلهية لعيسى عليه السلام وأمه وأخبر بأن ملك السموات والأرض له دون عيسى وأمه ودون سائر مخلوقاته.

وقيل: المعنى أن له ملك السموات والأرض وما فيها من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء ايجاداً وإعداماً وإحياء واماتة أمراً ونهياً من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك، وهو الذي يعطي الجنات للمطيعين جعلنا الله تعالى منهم آمين ﴿وهو على كل شيء﴾ من المنع والإعطاء والإيجاد والإفناء ﴿قدير﴾ أي قادر، نسأله ان يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته.

---

(١) وقد روى أبو ذر قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم: قيام ليلة بآية يرددها: ﴿إن تعذبهم فانهم عبادك، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم﴾.
رواه أحمد في «المسند» ١٤٩/٥ ولفظه عن أبي ذر قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها. قال: «سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئاً» ورجاله ثقات، خلا جسرة بنت دجاجة العامرية، فانه لم يوثقها سوى العجلي وابن حبان، وقال البخاري: عند جسرة عجائب. انظر «تهذيب التهذيب» ٤٠٦/١٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

وهي مائة وخمس أو ست وستون آية قال الثعلبي : هي مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة وهي ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إلى آخر ثلاث آيات وقل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلى آخر ثلاث آيات قال ابن عطية وهي الآيات المحكمات أي في هذه السورة وقال القرطبي : هي مكية إلا آيتين هما ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ نزلت في ثابت ابن قيس.

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج ورسول الله ﷺ يقول سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم»[1] .

وعن ابن عباس وعليّ أنها نزلت بمكة جملة واحدة ليلا . وفي فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة قال القرطبي : قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور . وهذا يقتضي انزالها جملة واحدة نها في معنى واحد من الحجة وان تصرف ذلك بوجوه كثيرة . وعليها بنى المتكلمون أصول الدين .

(١) ابن كثير ١٢٢/١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾

﴿الحمد لله﴾ بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله للدلالة على أن الحمد كله له وإن لم يحمدوه، وفيه تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء ولإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعدلون، والحمد اللغوي الوصف بالجميل ذكره الزمخشري في الفائق، وزاد صاحب المطالع وغيره كونه على جهة التعظيم والتبجيل أي ظاهراً وباطناً.

وأما الحمد الاصطلاحي فهو فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً، قاله الكرخي، وقد تقدم في سورة الفاتحة ما يغني عن الإعادة له هنا.

وقال أهل المعاني لفظه خبر ومعناه الأمر أي احمدوا الله، وإنما جاء بهذا النمط لأنه أبلغ في البيان من حيث إنه جمع الأمرين.

ثم وصف نفسه بأنه هو ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ إخباراً عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الاختراع وبمعنى التقدير، وقد تقدم تحقيق ذلك، وجمع السموات لتعدد طباقها وإن بعضها فوق بعض، وقدمها على الأرض لشرفها لأنها متعبد الملائكة ولم يقع فيها معصية، ولتقدمها في الوجود، قاله القاضي لقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فإنه صريح في أن بسط الأرض مؤخر عن تسوية السماء.

والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور فليس بعضها فوق بعض بل بعضها موال لبعض وإنما خصها بالذكر لأنها أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، فالسماء بغير عمد يرونها وفيه العبر والمنافع، والأرض مسكن الخلق وفيها أيضاً ذلك.

وعن كعب الأحبار هذه الآية أول آية في التوراة وآخر آية فيها قوله: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ وفي لفظ هو آخر سورة هود، وقال ابن عباس: افتتح الله الخلق بالحمد وختمه به فقال وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين.

﴿وجعل الظلمات والنور﴾ ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله خلق السموات والأرض ثم ذكر الأعراض بقوله هذا لأن الجواهر لا تستغني عن الأعراض، واختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، وبالنور ضوء النهار وبه قال السدي، وقال الحسن: الكفر والإيمان، قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر انتهى.

وقيل المراد بهما الجهل والعلم، وقيل الجنة والنار والأولى أن يقال إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات﴾.

وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها نظيره ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الموضع المظلم يخالف كل واحد منها صاحبه، والنور ضرب واحد لا يختلف كما تختلف الظلمات.

قال النحاس: (جعل) ههنا بمعنى خلق، وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعد إلا إلى مفعول واحد، وقال القرطبي: جعل هنا بمعنى خلق، لا يجوز غيره، قال ابن عطية: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق فيكون الجمع معطوفاً على الجمع والمفرد معطوفاً على المفرد، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل، ولهذا كان النهار مسلوخاً عن الليل.

عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في الزنادقة قالوا إن الله لم يخلق الظلمة ولا الخنافس ولا العقارب ولا شيئاً قبيحاً، وإنما يخلق النور وكل شيء حسن فأنزلت فيهم هذه الآية وفيه أيضاً رد قول الثنوية بقدم النور والظلمة، وعن ابن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»[1] ذكره البغوي بغير سند.

﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ «ثم» لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور، قاله الزمخشري، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه لا الكفر به واتخاذ شريك له.

والباء متعلقة بيعدلون والتقديم للاهتمام ورعاية الفواصل وحذف المفعول لظهوره أي يعدلون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه وتعالى تلك النعم، ويكون من الكفرة الكفر.

قال علي: نزلت هذه الآية يعني الحمد لله إلى قوله يعدلون في أهل الكتاب، وقال قتادة: هم أهل الشرك وعن السدي مثله، وقال مجاهد: يعدلون أي يشركون وعن زيد قال: الآلهة التي عبدوها عدلوها بالله وليس لله عدل ولا ند، وليس معه آلهة ولا اتخذ صاحبة ولا ولداً، وأصل العدل مساواة الشيء بالشيء، وقال النضر بن شميل: الباء بمعنى عن أي عن ربهم ينحرفون من العدول عن الشيء.

---

(١) ابن كثير ٢/١٢٢.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ في معناه قولان (احدهما) وهو الأشهر وبه قال الجمهور أن المراد آدم عليه السلام، ومن لابتداء الغاية وأخرجه مخرج الخطاب للجميع لأنهم ولده ونسله (الثاني) أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين، وإنما ذكر الله سبحانه خلق آدم وبنيه بعد خلق السموات والأرض إتباعاً للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، والمطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث ورد جحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمترون فيه.

﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ جاء بكلمة ثم لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت فهي للترتيب الزماني على أصلها، وقضى بمعنى أظهر، وهي صفة فعل وإن كان بمعنى كتب وقدر، فهي للترتيب في الذكر لأنها صفة ذات وذلك مقدم على خلقهم.

وقد اختلف السلف ومن بعدهم في تفسير الأجلين فقيل قضى أجلاً يعني الموت وأجل مسمى القيامة والوقوف عند الله، وهو مروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك ومجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم وعطية والسدي وخصيف ومقاتل وغيرهم، وقيل الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثاني ما بين أن يموت إلى أن يبعث وهو البرزخ وهو قريب من الأول.

وقيل الأول مدة الدنيا والثاني عمر الإنسان إلى حين موته، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وقيل الأول قبض الأرواح في النوم، والثاني قبضها عند

الموت، وقيل الأول ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك والثاني أجل الموت، وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي، وقيل إن الأول الأجل الذي هو محتوم، والثاني الزيادة في العمر لمن وصل رحمه فإن كان براً تقياً وصولاً لرحمه زيد في عمره وإن كان قاطعاً للرحم لم يزد له.

ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن صلة الرحم تزيد في العمر وورد عنه أن دخول البلاد التي قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأول أجل الدنيا، والثاني أجل الآخرة، وجاز الابتداء بالنكرة في قوله: ﴿وأجل مسمى عنده﴾ لأنها قد تخصصت بالصفة.

﴿ثم أنتم تمترون﴾ استبعاد لصدور الشك منهم مع وجود المقتضى لعدمه أي كيف تشكون في البعث مع مشاهدتكم في أنفسكم من الابتداء والانتهاء ما يذهب بذلك ويدفعه، فإن من خلقكم من طين وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتاً وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت ويرد إليها الأرواح التي فارقتها بقدرته وبديع حكمته.

﴿وهو الله﴾ أي هو المعبود بحق أو المالك أو المتصرف ﴿في السموات وفي الأرض﴾ كما تقول زيد الخليفة في الشرق والغرب أي حاكم أو متصرف فيهما كقوله: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ وهو المعروف بالإلهية فيهما أو هو الذي يقال له الله فيهما.

قال الزجاج: هو متعلق بما تضمنه اسم الله، قال ابن عطية: هذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وآيات قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه

الصفات، فجمع هذه كلها في قوله وهو الله الذي له هذه كلها في السموات وفي الأرض. كأنه قال وهو الخالق والرازق والمحيي والمميت فيهما.

وقيل المعنى :وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض فلا تخفى عليه خافية، وقال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه، قال الشيخ وما ذكره الزجاج وأوضحه ابن عطية صحيح من حيث المعنى لكن صناعة النحو لا تساعده عليه، وقال ابن جرير: هو الله في السموات، ويعلم سركم وجهركم في الأرض. والأول أولى.

وتكون جملة ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ مقررة لمعنى الجملة الأولى لأن كونه سبحانه إلٰهاً في السماء والأرض يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم وعلمه بما يكسبونه من الخير والشر، وجلب النفع ودفع الضرر، وقال السمين: في هذه الآية أقوال كثيرة لخصت جميعها في اثني عشر وجهاً ثم بينها، وذكر سليمان الجمل منها أربعة أوجه منها ما تقدم ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ من خير أو شر، وهذا محمول على المكتسب لا على نفس الكسب، قاله الرازي.

﴿وما تأتيهم﴾ أي أهل مكة ﴿من آية من آيات ربهم﴾ كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمردهم وهو الإعراض عن آيات الله التي تأتيهم بالكلية، ومن في ﴿من آية﴾ مزيدة للاستغراق، وفي ﴿من آيات ربهم﴾ تبعيضية أي ما تأتيهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربهم، وإضافة الآيات إلى الرب لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها.

والمراد بها إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها، وإما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فإتيانها ظهورها لهم ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي كانوا لها تاركين وبها مكذبين، والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله.

فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

﴿فقد كذبوا﴾ ضمنه معنى استهزؤوا فعداه بالباء والظاهر كما قال السفاقسي: أن الفاء لتعقيب الإعراض بالتكذيب فهي عاطفة على الجملة قبلها، وجعلها الزمخشري جواب شرط مقدر أي إن كانوا معرضين عن الآيات فلا تعجب فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو الحق لما جاءهم، وفيه تكلف وهذه المرتبة أزيد من الأولى لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به بل قد يكون غافلاً عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذباً فقد زاد على الإعراض قاله الكرخي.

﴿بالحق لما جاءهم﴾ قيل المراد بالحق هنا القرآن وقيل محمد ﷺ ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون﴾ أي سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزءوا به ليس بموضع للاستهزاء وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم، كما يقال اصبر فسوف يأتيك الخبر، عند إرادة الوعيد والتهديد، وفي لفظ الإنباء ما يرشد إلى ذلك، فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم الوقع، وحملها على العقوبات الآجلة أو على ظهور الإسلام وعلو كلمته يأباه الآيات الآتية، قال ابن عطية: أي أنباء كونهم مستهزئين.

﴿ألم يروا﴾ أي أهل مكة والرؤية بصرية والهمزة للإنكار، وهذا شروع في توبيخهم ببذل النصح لهم ﴿كم أهلكنا من قبلهم﴾ كم استفهامية أو خبرية، ومن لابتداء الغاية و﴿من قرن﴾ تمييز، ومن للبيان، والقرن يطلق على أهل كل عصر سموا بذلك لاقترانهم.

أي ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار في أسفارهم للتجارة إلى

الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء، كم أهلكنا من قبل خلقهم أو من قبل زمانهم أمة من الأمم الموجودة في عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الماضية والقرون الخالية.

وقيل هو عبارة عن مدة من الزمان فيكون ما في الآية على تقدير مضاف أي من أهل القرن الذين وجدوا فيه، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم»[1].

﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ مكن له في الأرض جعل له مكاناً فيها ومكنه في الأرض أي أثبته فيها قاله الزمخشري، وقال أبو عبيدة مكناهم ومكنا لهم لغتان فصيحتان نحو نصحته ونصحت له، وبهذا قال أبو علي والجرجاني، والجملة مستأنفة كأنهوقيل:كيف ذلك؟ وقيل الجملة صفة لقرن، والأول أولى أي مكناهم تمكيناً لم نمكنه لكم.

والمعنى أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا وطول الأعمار وقوة الأبدان والبسطة في الأجسام والسعة في الأرزاق وقد أهلكناهم جميعا، فإهلاككم وأنتم دونهم بالأولى، ذكر معناه أبو البقاء.

وفيه التفات عن الغيبة في قوله: ﴿ألم يروا﴾ والالتفات له فوائد منها تطرية الكلام وصيانة السمع عن الزجر والملال لما جبلت علية النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد، هذه فائدته العامة ويختص كل موقع بنكت ولطائف باختلاف محله كما هو مقرر في علم البديع، ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عنايته وخصصه بالمواجهة ذكره الكرخي.

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ يريد المطر الكثير عبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها، والمدرار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كمذكار للمرأة التي كثرت

---

(١) مسلم ٢٥٣٥ ـ البخاري ١٢٨٨.

ولادتها للذكور ومئناث للتي تلد الإناث، يقال در اللبن يدر إذا أقبل على الحالب بكثرة أي أرسلنا المطر متتابعاً في أوقات الحاجة إليه.

﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ معناه من تحت أشجارهم ومنازلهم والمراد به كثرة البساتين أي أن الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض فكفروها ﴿فأهلكناهم﴾ أي كل قرن من تلك القرون ﴿بذنوبهم﴾ ولم يغن ذلك عنهم شيئاً فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب، وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار.

وأما قوله: ﴿وأنشأنا من بعدهم﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قرناً آخرين﴾ فصاروا بدلاً من الهالكين، ففي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنّه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء، وأن ما ذكر من إهلاك الأمم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيئاً بل كل ما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى.

وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وكثرة الأتباع وخصب العيش، أهلكوا بسبب الكفر والإثم فكيف حال من هو أضعف منهم خلقاً وأقل عدداً وعدداً، وهذا يوجب الانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

والقرن لفظ يقع على معان كثيرة فيطلق على الجماعة من الناس ويطلق على المدة من الزمان قيل إطلاقه على هـذين بطريق الاشتـراك أو الحقيقة والمجاز، والراجح الثاني لأن المجاز خير من الاشتراك، وإذا قلنا بالراجح فالأظهر أن الحقيقة هي القوم.

ثم اختلف في كمية القرن فالجمهور أنه مائة سنة وقيل مائة وعشرون وقيل ثمانون وقيل سبعون قاله الفراء وقيل ستون وقيل أربعون وقيل ثلاثون وقيل عشرون، وقيل هو المقدار الوسط من أعمار أهل ذلك الزمان واستحسن هذا بأن أهل الزمن القديم كانوا يعيشون أربعمائة سنة وثلثمائة وألفاً وأكثر وأقل.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ في هذه الجملة شدة صلابتهم في الكفر، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتاباً مكتوباً في قرطاس أي رق أو ورق بمرأى منهم ومشاهدة، قيل هما تفسير بالأخص.

والقرطاس في اللغة أعم منهما وهو ما يكتب فيه وكسر القاف أشهر من ضمها والقرطس وزن جعفر لغة فيه، وفي القاموس مثلث القاف وكجعفر ودرهم: الكاغد، والكاغد بالدال المهملة وربما قيل بالمعجمة وهو معرب.

وفي القاموس الكاغد القرطاس، وفي السمين هو الصحيفة يكتب فيها يكون من ورق وكاغد وغيرهما ولا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوباً وإلا فهو طرس وكاغد[1].

﴿فلمسوه بأيديهم﴾ حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين حاسة البصر وحاسة اللمس، فهو أبلغ من عاينوه لأنه أنفى للشك لأن السحر يجري على المرئي لا

---

(١) اختصر المؤلف رحمه الله كلام ابن قتيبة، وإليك نصه بتمامه من «غريب القرآن» ١٥٠ : ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ أي : صحيفة، وكذلك قوله : ﴿تجعلونه قراطيس﴾ أي : صحفاً . قال المرار .

عفت المنازل غير مثل الأنقس بعد الزمان عرفته بالقرطس
فوقفت تعترف الصحيفة بعدما عمس الكتاب وقد يرى لم يعمس

والأنقس : جمع نقس، مثل قدح وأقدح وأقداح . أراد غير مثل النقس عرفته بالقرطاس، ثم قال : «فوقفت تعترف الصحيفة» فأعلمك أن القرطاس هو الصحيفة، ومنه يقال للرامي إذا أصاب : قرطس، انما يراد أصاب الصحيفة .

على الملموس، ولأن الغالب أن اللمس بعد المعاينة.

﴿لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي لقال الكفار هذا هو السحر، ولم يعلموا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم في المرئي المحسوس فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه، وفيه إظهار في مقام الاضمار.

﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ وكفرهم بها أي قالوا هلا أنزل علينا ملكاً نراه ويكلمنا أنه نبي حق حتى نؤمن به ونتبعه كقولهم لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً.

﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم ﴿لقضي الامر﴾ بهلاكهم أي لأهلكناهم إذا لم يؤمنوا عند نزوله ورؤيتهم له لأن مثل هذه الآية البينة وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة، وهذه سنة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به.

﴿ثم لا ينظرون﴾ أي لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له طرفة عين لتوبة أو معذرة بل يعجل لهم العذاب، وقيل المعنى أن الله سبحانه لو أنزل ملكاً مشاهداً لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء بل تزهق أرواحهم عند ذلك، فيبطل ما أرسل الله له رسله وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ أي لو جعلنا الرسول إليهم أو إلى النبي ملكاً يشاهدونه ويخاطبونه لجعلنا ذلك الملك في صورة رجل، لأنهم لا

يستطيعون أن يروا الملك على صورته التي خلقه الله عليها إلا بعد أن يتجسم بالاجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بني آدم، لان كل جنس يأنس بجنسه، فلو جعل الله سبحانه الرسول إلى البشر أو الرسول إلى رسوله ملكاً مشاهداً مخاطباً لنفروا منه ولم يأنسوا به ولدخلهم الرعب وحصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه ومشاهدته، هذا أقل حال فلا يتم المصلحة من الارسال.

ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الانس كما جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين، وكذلك إلى ابراهيم ولوط عليهما السلام.

وعند أن يجعله الله رجلاً أي على صورة رجل من بني آدم ليسكنوا إليه ويأنسوا به سيقول الكافرون إنه ليس بملك وإنما هو بشر، ويعودون إلى مثل ما كانوا عليه.

وفي إيثار ﴿رجلاً﴾ على ﴿بشراً﴾ إيذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة وتعيين لما يقع به التمثيل.

﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم أو على غيرهم قاله أبو البقاء لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك، فإن استدل لهم بأنه ملك كذبوه، قال الزجاج: المعنى للبسنا على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفائهم، وكانوا يقولون لهم إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم.

فأعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون، واللبس الخلط يقال لبست عليه الامر ألبسه لبساً أي خلطته وأصله التستر بالثوب ونحوه وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً كأنه قيل لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الامر عليهم.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ
لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

ثم قال سبحانه مؤنساً لنبيه ﷺ ومسلياً له ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ كما استهزؤوا بك يا محمد، وفيه تسلية له ﷺ ووعيد أيضاً لأهل مكة كما أشار له بقوله: ﴿فحاق بالذين سخروا منهم﴾ يقال حاق الشيء يحيق حيقاً وحيوقاً وحيقاناً نزل أي فنزل بهم وأحاط بهم وحل ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء، به وقيل هو الرسول وقيل العذاب.

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المستهزئين ﴿سيروا في الأرض﴾ أي سافروا فيها معتبرين ومتفكرين، وقيل هو سير الاقدام ﴿ثم انظروا﴾ بأعينكم آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبة أو نظر فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر.

﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ بعدما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم عليه فهذه ديارهم خربة وجناتهم مغبرة وأراضيهم مكفهرة ، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون وبعد هلاكهم هالكون ، والعاقبة مصدر أي منتهى الشيء وما يصير إليه والعاقبة إذا اطلقت اختصت بالثواب وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة فصح أن تكون استعارة كقوله فبشرهم بعذاب أليم .

﴿قل لمن ما في السموات والارض﴾ هذا احتجاج عليهم قاطع، وتبكيت لهم ساطع، لا يقدرون على التخلص منه أصلاً ﴿ولمن﴾ خبر مقدم والمبتدأ ما وهي بمعنى الذي، وجملة ﴿قل لله﴾ تقرير لهم وتنبيه على أنه المتعين للجواب بالإتفاق بحيث لا يتأتى لأحد أن يجيب بغيره كما نطق به قوله ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنّ الله﴾. وإذا ثبت أن له ما في السموات والأرض إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقوبة ولكنه ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾أي: وعد بها فضلاً منه وتكرماً لا أنه مستحق عليه وذكر النفس هنا عبارة عن تأكد وعده وارتفاع الوسائط دونه. وفي الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة، ومن رحمته لهم إرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأدلة.

وقد أخرج مسلم وأحمد وغيرهما عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة منها رحمة يتراحم بها الخلق وتسعة وتسعون ليوم القيامة فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»[1].

وثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق وكتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي»[2] وقد روي من طرق أخرى بنحو هذا.

قيل معنى الجملة القسم، وعلى هذا فقوله ﴿ليجمعنكم﴾ جوابه لما تضمنه معنى القسم وقال الزجاج: إنها بدل من الرحمة لأنه فسره بأنه أمهلكم

---

(١) مسلم ٢٧٥٣.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٥٠٩٠.

وأمد لكم في العمر والرزق مع كفركم، فهو تفسير للرحمة وقد ذكره الفراء أيضاً ورده ابن عطية وقال: هو جواب قسم محذوف أي والله ليجمعنكم.

وقيل المعنى ليجمعنكم في القبور مبعوثين أو محشورين وقيل اللام بمعنى أن أي أن يجمعكم كما في قوله تعالى: ﴿ليسجننه﴾ أي أن يسجنوه وقيل زائدة وقيل: إن جملة ليجمعنكم مسوقة للترهيب بعد الترغيب وللوعيد بعد الوعد، أي إن أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم ثم يعاقب من يستحق عقوبته من العصاة.

﴿إلى يوم القيامة﴾ إلى بمعنى (في) وقيل المعنى في قبوركم إلى اليوم الذي أنكرتموه وهو يوم القيامة ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في اليوم أو في الجمع.

﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي ليجمعن المشركين الذين غبنوا أنفسهم باتخاذهم الأصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيئاً، وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل إذا غبن في بيعه ﴿فهم لا يؤمنون﴾ لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذي حملهم على الامتناع من الإيمان بحيث لا سبيل لهم إليه أصلاً.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ
١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

﴿وله﴾ أي لله ﴿ما سكن في الليل والنهار﴾ خص الساكن بالذكر لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة وقيل المعنى ما سكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة قال السدي: ما سكن أي استقر وثبت، ولم يذكر الزمخشري غيره وقال تعديته بفي كما في قوله وسكنتم في مساكن الذين ظلموا ورجح هذا التفسير ابن عطية.

وقال ابن جرير: كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار، فيكون المراد منه جميع ما حصل في الأرض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما في البر والبحر، وهذا يفيد الحصر والمعنى أن جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره ﴿وهو السميع﴾ لأقوالهم وأصواتهم ﴿العليم﴾ بسرائرهم وأحوالهم.

﴿قل أغير الله اتخذ ولياً﴾ الاستفهام للانكار قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي مطلقاً دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل والمراد بالولي هنا المعبود أي كيف اتخذ غير الله معبوداً بطريق الإستقلال أو الإشتراك.

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقها ومبدعها[1] ﴿ وهو يطعم ولا يطعم﴾ أي يرزق ولا يرزق وخص الإطعام دون غيره من ضروب الإنعام

---

(١) ومنه ما روى البخاري (٣/١٩٧) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو =

لأن الحاجة إليه أمس.

﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ أمره سبحانه بعدما تقدم من نفي اتخاذ غير الله ولياً أن يقول لهم ثانياً أنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه وأخلص من أمته، فهو من جملة أمته من حيث إنه مرسل لنفسه يعني يجب عليه الإيمان برسالة نفسه وبما جاء من الشريعة والأحكام كما أنه مرسل لغيره وهو أول من انقاد لهذا الدين، أو المعنى أول فريق أسلم وأفرد الضمير في أسلم باعتبار لفظ من، وقيل معنى أسلم استسلم لأمر الله.

ثم نهاه عز وجل أن يكون من المشركين فقال: ﴿ولا تكونن﴾ أي وقيل لي ولا تكونن ﴿من المشركين﴾ أي في أمر من أمور الدين ومعناه أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك وقد جوز عطفه على الأمر.

﴿قل﴾ أي جواباً ثالثاً ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ أي إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه، والخوف توقع المكروه وقيل هو هنا بمعنى العلم أي اني أعلم ان عصيت ربي ﴿عذاب يوم عظيم﴾ وهو عذاب يوم القيامة.

﴿من يصرف عنه﴾ قرأ أهل الحرمين يصرف على البناء للمفعول أي من يصرف عنه العذاب، وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل فيكون الضمير لله، ومعنى ﴿يومئذ﴾ يوم العذاب العظيم ﴿فقد رحمه﴾ أي نجاه الله وأنعم عليه وأدخله الجنة ﴿وذلك﴾ أي فذلك يعني صرف العذاب أو الرحمة كل منهما ﴿الفوز المبين﴾ أي الظاهر الواضح.

= ينصرانه، أو يُمَجِّسانِه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء» ورواه البخاري أيضاً (١٧٦/٣): ومسلم في «صحيحه» (٢٠٤٧/٤) بلفظ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» ثم يقول أبو هريرة: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله...) الآية. ورواه أحمد في «المسند» عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه، فاذا عبر عنه لسانه. إما شاكراً، وإما كفوراً» وفي رواية لمسلم (٢٠٤٨/٤) «ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة، حتى يعبر عنه لسانه» وفي رواية له أيضاً «حتى يبين عنه لسانه».

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ أي ينزل الله بك ضراً من فقر أو مرض أو شدة وبيه ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ أي فلا قادر على كشفه سواه ﴿وإن يمسسك بخير﴾ من رخاء أو عافية ونعمة، والخير اسم جامع لكل ما ينال الإنسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ ومن جملة ذلك المس بالخير والشر، وهذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام لكل واحد.

وعن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال لي: «يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1]، أخرجه الترمذي وزاد فيه رزين تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشدة قال ابن الأثير: وقد جاء نحو هذا ومثله بطوله في مسند أحمد.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ القهر الغلبة والقاهر الغالب وأقهر الرجل إذا صار مقهوراً ذليلاً، ومن الأول قوله: ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ ومن الثاني ﴿فأما

(١) صحيح الجامع الصغير ٧٨٣٤.

اليتيم فلا تقهر﴾ قيل ومعنى فوق فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم لا فوقية المكان كما تقول السلطان فوق رعيته أي بالمنزلة والرفعة، وقيل هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به سبحانه فهو على الذات وسمى الصفات وقال ابن جرير الطبري: معنى القاهر المتعبد خلقه العالي عليهم.

وإنما قال فوق عباده لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه انتهى، أي استعلاء يليق به وقيل هو القاهر مستعلياً أو غالباً ذكره أبو البقاء والمهدوي وفي القهر معنى زائدة ليس في القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد ﴿وهو الحكيم﴾ في أمره ﴿الخبير﴾ بأفعال عباده.

﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ الشيء يطلق على القديم والحادث والمحال والممكن، والمعنى أي شهيد أكبر شهادة فوضع شيء موضع شهيد، وقيل أن شيء هنا موضوع موضع اسم الله تعالى والمعنى الله أكبر شهادة أي انفراده بالربوبية وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم فهو شهيد بيني وبينكم.

وقيل هو الجواب لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شهادة له ﷺ وقيل: إنه قد تم الجواب عند قوله قل الله يعني الله أكبر شهادة ثم ابتدأ فقال شهيد أي هو شهيد بيني وبينكم.

والمراد بشهادة الله إظهار المعجزة على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإن حقيقة الشهادة ما بين به المدعى وهو كما يكون بالقول يكون بالفعل، ولا شك أن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول لعروض الاحتمالات في الالفاظ دون الأفعال فإن دلالتها لا يعرض لها الاحتمال. وتكرير البين لتحقيق المقابلة.

﴿وأوحى إلي﴾ أي أوحى الله إلي ﴿هذا القرآن﴾ الذي تلوته عليكم ﴿لأنذركم﴾ أي لأجل أن أخوفكم ﴿به﴾ وأحذركم مخالفة أمر الله وهذا بمنزلة

التعليل لما قبله أي نزوله على شهادة من الله بأني رسوله، وقرىء أوحى على البنائين للفاعل والمفعول قال ابن عباس: لأنذركم به يعني أهل مكة ﴿ومن بلغ﴾ يعني من بلغ هذا القرآن من الناس فهو له نذير أي أنذر به كل من بلغ اليه موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة إلى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الأمم.

وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النزول ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة في علم أصول الفقه.

وعن أنس قال: لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كسرى وقيصر والنجاشي وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه.

وأخرج أبو نعيم والخطيب وابن النجار عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به»، ثم قرأ هذه الآية، وعن محمد بن كعب القرظيّ قال: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وفي لفظ من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله كان كمن عاين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه.

وعن مجاهد قال: لأنذركم به يعني العرب ومن بلغ يعني العجم، قال السمين فيه ثلاثة أقوال (أحدها) لأنذر الذي بلغ القرآن (والثاني) لأنذر الذي بلغ الحلم (والثالث) لأنذركم به ولينذركم الذي بلغه القرآن.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية»[1] أخرجه البخاري وعن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) البخاري كتاب الأنبياء الباب ٥ ـ الترمذي كتاب العلم الباب ١٢.

«نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع» أخرجه الترمذي[1] وفي الباب أحاديث.

وقال ابن عباس: تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم، أخرجه أبو داود موقوفاً، وقد امتثل بهذا الأمر عصابة أهل الحديث دون غيرهم كثر الله سوادهم ورفع عمادهم.

﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها والاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية أي لا تنبغي ولا تصح منكم هذه الشهادة لأن المعبود واحد لا تعدد فيه، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم، وإنما قال آلهة أخرى لأن الآلهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث كذا قال الفراء ومثله قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ وقال: فما بال القرون الأولى ولم يقل الأول ولا الأولين.

﴿قل﴾ فأنا ﴿لا أشهد﴾ بما تشهدون به ان معه آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره وذلك لكون هذه الشهادة باطلة ومثله فان شهدوا فلا تشهد معهم ﴿قل إنما هو إله واحد﴾ لا شريك له وبذلك أشهد، وفي (ما) وجهان أظهرهما أنها كافة والثاني أنها موصولة قال أبو البقاء وهذا الوجه أليق بما قبله، قال السمين: ولا أدري ما وجه ذلك يعني الأولى هو الوجه الأول ﴿وانني بريء مما تشركون﴾ به وما موصولة أو مصدرية أي من الأصنام التي تجعلونها آلهة أو من اشراككم بالله.

---

(١) ابن ماجة كتاب المقدمة الباب ١٨ وكتاب المناسك الباب ٧٦.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ وهم علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، والتعريف للجنس فيشمل التوراة والانجيل وغيرهما ﴿يعرفونه﴾ أي يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال به جماعة من السلف وإليه ذهب الزجاج، وقيل يعرفون القرآن معرفة محققة بحيث لا يلتبس عليهم منه شيء وقيل يعود الضمير على التوحيد لدلالة قوله: ﴿إنما هو إله واحد﴾ أو على كتابهم أو على جميع ذلك وأفرد الضمير اعتباراً بالمعنى كأنه قيل يعرفون ما ذكرنا وقصصنا.

﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ بيان لتحقق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها فان معرفة الآباء للأبناء هي البالغة إلى غاية الايقان إجمالاً وتفصيلاً ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي أهلكوها وغبنوها وأوبقوها في نار جهنم بانكارهم نبوة محمد ﷺ وقيل المعنى أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق وعدم العمل بالمعرفة التي ثبتت لهم.

ومعنى هذا الخسران كما قاله جمهور المفسرين أن الله جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، فاذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، ذكره الكرخي ﴿فهم﴾ بعنادهم وتمردهم ﴿لا يؤمنون﴾ بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال البيضاوي: الفاء للدلالة على أن عدم ايمانهم مسبب عن خسرانهم

فان ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان.

﴿ومن﴾ أي لا أحد ﴿أظلم ممن افترى﴾ أي اختلق فجمع بين أمرين لا يجتمعان عند عاقل افتراؤه على الله بما هو باطل غير ثابت وتكذيبه ما هو ثابت بالحجة، هذا ما جرى عليه الكشاف وغيره من جمعه بين الأمرين، أو لأن المعنى لا أحد أظلم ممن ذهب إلى أحد الأمرين فكيف بمن جمع بينهما.

﴿على الله كذباً﴾ فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلهاً يعبدونه كما قال المشركون من عباد الأصنام أو قال ان في التوراة أو الانجيل ما لم يكن فيهما كما قالت اليهود ان عزيراً ابن الله، وقالت النصارى ان له صاحبة وولداً.

﴿أو كذب بآياته﴾ التي يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البينة، قال عكرمة: قال النضر بن عبد الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله هذه الآية ﴿انه﴾ الضمير للشأن ﴿لا يفلح الظالمون﴾ القائلون على الله الكذب والمفترون عليه الباطل.

﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ منصوب بفعل مضمر بعده أي ويوم نحشرهم كان كيت وكيت وحذف ليكون أبلغ في التخويف أو التقدير انه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ويوم نحشرهم، قاله محمد بن جرير وقيل التقدير أنظر كيف كذبوا وفيه بعد، وقيل اتقوا يوم نحشرهم، والأول أولى والضمير يعود على المفترين بالكذب، وقيل على الناس كلهم فيندرج هؤلاء فيهم والتوبيخ مختص بهم وقيل يعود على المشركين وأصنامهم.

﴿ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤهم﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين، وأضاف الشركاء إليهم لأنها لم تكن شركاء لله في الحقيقة بل لما سموها شركاء أضيفت اليهم وهي ما كانوا يعبدونه من دون الله أو مع الله ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ أي تزعمونها شركاء، ووجه التوبيخ ان معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال أو كانت حاضرة، ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه فكان وجودها كعدمها.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ أي معذرتهم قاله ابن عباس: أي التي يتوهمون أن يتخلصوا بها أو حجتهم والفتنة التجربة من فتنت الذهب إذا خلصته، قال الزجاج: فيه معنى لطيف وذلك أن الرجل يفتتن بمحبوب ثم تصيبه فيه محنة فيتبرأ منه فيقال لم تكن فتنته إلا بذلك المحبوب، فكذلك الكفار فتنوا بمحبة الأصنام ثم لما رأوا العذاب تبرؤوا منها، وقيل المراد بالفتنة هنا جوابهم وسماه فتنة لأنه لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبري فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذباً.

﴿إلا أن قالوا﴾ يعني المنافقين والمشركين قالوا: وهم في النار هلم فلنكذب فلعله أن ينفعنا والاستثناء مفرغ ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ قال القاضي: يكذبون ويحلفون عليه مع علمهم بأنه لا ينفع من فرط الحيرة والدهشة، قال الزجاج: تأويل هذه الآية أن الله عز وجل أخبر بقصص المشركين وافتتانهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنساناً يحب غاوياً فإذا وقع في هلكه تبرأ منه فتقول ما كانت محبتك اياه إلا أن تبرأت منه انتهى.

فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم أي لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتخروا به وقاتلوا عليه إلا ما وقع منهم من الجحود والحلف على نفيه بقولهم والله الخ.

﴿أنظر﴾ يا محمد بعين البصيرة والتأمل إلى حال هؤلاء المشركين ﴿كيف

كذبوا على أنفسهم﴾ بانكار ما وقع منهم في الدنيا من الشرك واعتـذارهم بالباطل، وفي البيضاوي وحمله على كذبهم في الدنيا تعسف يخل بالنظم ﴿وضل عنهم﴾ أي زال وذهب وتلاشى وبطل ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي ما يظنونه من أن الشركاء يقربونهم إلى الله، هذا على أن ما مصدرية وهو قول ابن عطية: أي ضل عنهم افتراؤهم، وقيل هي موصولة عبارة عن الآلهة أي فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغنِ عنهم شيئاً.

وهذا تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حالهم المختلفة، ودعواهم المتناقضة، وقيل لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة لأنها دار لا يجرى فيها غير الصدق، فالمعنى نفي شركهم عند أنفسهم وفي اعتقادهم.ويؤيـد هذا قوله تعالى: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾.

﴿ومنهم من﴾ هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين في الدنيا، والضمير عائد إلى الذين أشركوا أي وبعض الذين أشركوا ﴿يستمع إليك﴾ حين تتلو القرآن قال مجاهد وهم قريش وقال هنا يستمع وفي يونس ﴿يستمعون﴾ بالجمع لأن ما هنا في قوم قليلين فنزلوا منزلة الواحد، وما في يونس في جميع الكفار فناسب الجمع فأعيد الضمير على معنى (من) وفي الأول على لفظها وإنما لم يجمع ثم في قوله ومنهم من ينظر إليك لأن الناظرين إلى المعجزات أقل من المستمعين للقرآن.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، والأكنة الأغطية جمع كنان وهو الوعاء الجامع والغطاء الساتر كالأسنة والسنان كننت الشيء في كنة إذا جعلته فيها وأكننته أخفيته قال مجاهد في أكنة كالجعبة للنبل وجعل هنا للتصيير وبمعنى خلق أو ألقى، والجملة مستأنفة لـلاخبار بمضمونها أو حالية أي وقد جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة ﴿ان يفقهوه﴾ أي القرآن أو لئلا يفقهوه.

﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً وثقلاً يقال وقرت أذنه تقر أي صمت وقرىء وقر بكسر الواو أي جعل في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير والحمار وهو مقدار ما يطيق أن يحمله.

والحاصل أن المادة تدل على الثقل والرزانة ومنه الوقار للتؤدة والسكينة، وذكر الوقر والأكنة تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه كأن قلوبهم لا تعقل وأسماعهم لا تدرك قال قتادة: يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئاً كمثل البهيمة التي لا تستمع النداء ولا تدري ما يقال لها.

﴿وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي بشيء من الآيات التي يرونها من المعجزات ونحوها لعنادهم وتمردهم ﴿حتى﴾ هي الابتدائية التي تقع بعدها الجمل والمعنى أنهم بلغوا من الكفر والعناد إلى أنهم ﴿إذا جاءوك يجادلونك﴾ أي مجادلين مخاصمين لا مؤمنين بها ولم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان بل ﴿يقول الذين كفروا إن هذا﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إلا أساطير الأولين﴾ وقيل هي الجارة والمعنى حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون ذلك، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد.

والأساطير قال الزجاج: واحدها اسطار، وقال الأخفش أسطورة، وقال أبو عبيدة: اسطارة وقال النحاس: أسطور، وقال القشيري: أسطير، وقيل هو جمع لا واحد له كعبابيد وأبابيل، وظاهر كلام الراغب أنه جمع سطر، والمعنى ما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث قال الجوهري الأساطير الأباطيل والترهات، وقال السدي أساجيع الأولين، وقال ابن عباس: أحاديث الأولين، وقال قتادة: كذب الأولين وباطلهم.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٢٦ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝٢٨﴾

﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ أن ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن أو بمحمد ﷺ ويبعدونهم في أنفسهم عنه، وقال ابن عباس: لا يلقونه ولا يدعون أحداً يأتيه، وعن محمد بن الحنفية قال: كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يجيبونه، وعن سعيد بن هلال قال: نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر.

وعن ابن عباس قال: ينهون عنه الناس أن يؤمنوا به وينأون عنه أي يتباعدون بأنفسهم فلا يؤمنون، وعنه قال: نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به وعن القاسم بن المخيمرة وعطاء نحوه والأول أولى.

﴿وإن﴾ أي ما ﴿يهلكون﴾ بما يقع منهم من النهي والنأي ﴿إلا أنفسهم﴾ بتعريضها لعذاب الله وسخطه ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿ما يشعرون﴾ بهذا البلاء الذي جلبوه على أنفسهم.

﴿ولو ترى﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل أي يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعاني ﴿إذ وقفوا على النار﴾ معناه حبسوا عليها يقال وقفته وقفاً ووقف وقوفاً وقيل معناه ادخلوها فيكون ﴿على﴾ بمعنى في، وقيل هي بمعنى الباء أي وقفوا بالنار أي بقربها معاينين لها، ومفعول ترى وجواب لو محذوف ليذهب السامع كل مذهب والتقدير لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظراً هائلاً وحالاً

فظيعاً وأمراً عجيباً.

﴿فقالوا يا ليتنا نرد﴾ إلى الدنيا ﴿﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أي الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها إذ هي التي تخطر حينئذ ببالهم ويتحسرون على ما فرطوا في حقها أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاماً أولياً ﴿ونكون من المؤمنين﴾[1] بها والعاملين بما فيها والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمني أي تمنوا الرد، وأن لا يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة كما هي قراءة الكسائي وأهل المدينة، وقرىء بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمني، واختار سيبويه القطع في ولا نكذب فيكون غير داخل في التمني، والتقدير ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب أي لا نكذب رددنا أو لم نرد، قال وهو مثل دعني ولا أعود أي لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني.

واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمني بقوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ لأن الكذب في التمني لا يكون، وقرأ ابن عامر ونكون بالنصب وأدخل الفعلين الأولين في التمني، وقرأ أبي ولا نكذب بآيات ربنا أبداً. وقرأ

(١) إن أبا طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، ويتباعد عما جاء به، فنزلت فيه هذه الآية، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهو قول عمرو بن دينار، وعطاء بن دينار، والقاسم ابن مخيمرة. وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءاً، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم، فيقتلوه، فقال: ما لي عنه صبر؛ فقالوا: ندفع إليك من شبابنا من شئت مكان ابن أخيك؛ فقال أبو طالب: حين تروح الإبل، فان حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم، وقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم … حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة … وابشر وقر بذاك منك عيونا
وعرضت ديناً لا محالة أنه … من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة … لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

فنزلت فيه هذه الآية.

هو وابن مسعود فلا نكذب بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في جواب التمني كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، وقال أكثر البصريين لا يجوز الجواب إلا بالفاء.

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ هذا إضراب عما يدل عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق أي لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد، بل هو بسبب آخر وهو أنه بدا لهم ما كانوا يجحدون من الشرك وعرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة، وقيل ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم.

وقيل ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ وقال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه وهو مثل القول الأول، وقيل المعنى انه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كانوا يخفونه عنهم من أمر البعث والقيامة.

﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من القبائح التي رأسها الشرك كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند ـ عن قتادة قال: لو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم السوء التي كانوا نهوا عنها، وقال ابن عباس: أخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى أي ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حيل بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا.

﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا، وقيل كاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾

﴿وقالوا إن﴾ ما ﴿هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي ليس لنا غير هذه التي نحن فيها ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ بعد الموت ولم يكتفوا بمجرد الإخبار بذلك حتى أبرزوها محصورة في نفي وإثبات وهي ضمير مبهم يفسره خبره أي لا يعلم ما يراد به إلا بذكر خبره وهو من الضمائر التي يفسرها ما بعدها لفظاً ورتبة، قال السمين وهذا من شدة تمردهم وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث.

﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ قد تقدم تفسيره أي حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم، وقيل على بمعنى عند، وقال مقاتل: عرضوا على ربهم وجواب لو محذوف أي لشاهدت أمراً عظيماً، وقيل: إنه من باب المجاز لأنه كناية عن الحبس للتوبيخ كما يوقف العبد بين يدي سيده ليعاتبه، ذكر ذلك الزمخشري.

والاستفهام في ﴿قال أليس هذا بالحق﴾ للتقريع والتوبيخ أي أليس هذا البعث الذي تنكرونه كائناً موجوداً وهذا الجزاء الذي تجحدونه حاضراً والجملة مستأنفة أو حالية كأنه قيل وقفوا عليه قائلاً لهم أليس الخ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم ﴿قال فذوقوا العـذاب﴾ الذي تشاهدونه وهو عذاب النار، وإنما خص لفظ الذوق لأنهم في حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق في شدة الإحساس ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أي بسبب جحدكم وكفركم بالبعث بعد الموت أو بكل شيء مما أمرتم بالإيمان به في دار الدنيا.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ هم الذين تقدم ذكرهم وحكيت أحوالهم والمراد تكذيبهم بالبعث وقيل تكذيبهم بالجزاء والأول أولى لأنهم الذين قالوا قريباً إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين، وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم، وحصول العذاب الأليم في دركات الجحيم.

﴿حتى﴾ غاية للتكذيب لا للخسران فإنه لا غاية له ﴿إذا جاءتهم الساعة﴾ القيامة وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها أو لأنها تفجأ الناس ﴿بغتة﴾ أي فجأة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله، يقال بغتهم الأمر يبغتهم بغتاً وبغتة، قال سيبويه: وهي مصدر ولا يجوز أن يقاس عليه فلا يقال جاء فلان سرعة والبغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير اعتداد له ولا جعل بال منه، حتى لو استشعر الإنسان به ثم جاء بسرعة لا يقال فيه بغتة.

والألف واللام في الساعة للغلبة كالنجم والثريا لأنها غلبت على يوم القيامة وقيل المراد بالساعة وقت مقدمات الموت فالكلام على حذف المضاف أي جاءتهم مقدمات الساعة وهي الموت وما فيه من الأهوال، وقيل وهذا التحسر وإن كان يعتريهم عند الموت لكن لما كان الموت من مبادي الساعة سمي باسمها ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من مات فقد قامت قيامته» والأول أظهر.

﴿قالوا﴾ أي منكرو البعث وهم كفار قريش. ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد ﴿يا حسرتنا﴾ أوقعوا النداء على الحسرة وليست بمنادى في الحقيقة ليدل ذلك على كثرة تحسرهم، والمعنى يا حسرتنا احضري فهذا أوانك

وكذا قال سيبويه في هذا النداء وأمثاله كقولهم يا للعجب ويا للرجال، وقيل هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة كأنهم قالوا يا أيها الناس تنبهوا على ما نزل بنا من الحسرة، والحسرة الندم الشديد والتلهف والتحسر على الشيء الفائت والمراد تنبيه المخاطبين على وقوع الحسرة بهم.

﴿على ما فرطنا فيها﴾ أي على تفريطنا في الساعة أي في الاعتداد لها والاحتفال بشأنها والتصديق بها، ومعنى فرطنا ضيعنا وأصله التقدم يقال فرط فلان أي تقدم وسبق إلى الماء ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا فرطكم على الحوض»[1] ومنه الفارط أي المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم على ما قدمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها وقيل التفريط التقصير في الشيء مع القدرة على فعله.

وقال ابن جرير الطبري: إن الضمير في فرطنا فيها يرجع إلى الصفقة وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر والدنيا بالآخرة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا في صفقتنا وإن لم تذكر في الكلام فهو دال عليها لأن الخسران لا يكون إلا فيها وقيل الضمير راجع إلى الحياة أي على ما فرطنا في حياتنا وقيل إلى الدنيا لأنها موضع التفريط في الأعمال الصالحة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله يا حسرتنا قال: «الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة فتلك الحسرة».

﴿وهم يحملون أوزارهم﴾ أي يقولون تلك المقالة والحال أنهم يحملون ذنوبهم وأثقال خطاياهم. والأوزار جمع وزر، يقال وزر يزر فهو وازر وموزور، وأصله من الوزر، قال أبو عبيدة: يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيها

---

(١) النسائي كتاب الطهارة باب ١٠٩.

المتاع إحمل وزرك أي ثقلك ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية.

والحاصل أن هذه المادة تدل على الرزانة والعظمة والمعنى أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها.

﴿على ظهورهم﴾ جعلها محمولة على الظهور تمثيل ومجاز عما يقاسونه من شدة العذاب وقيل المعنى أوزارهم لا تزايلهم، وقيل خص الظهر لأنه يطيق من الحمل ما لا يطيقه من سائر الأعضاء كالرأس والكاهل ﴿ألا ساء ما يزرون﴾ أي بئس ما يحملون، وقال قتادة يعملون وقال ابن عباس بئس الحمل حملوا.

﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ أي وما متاع الدنيا على حذف مضاف أو ما الدنيا من حيث هي إلا باطل وغرور لا بقاء بها، والقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم إن هي إلا حياتنا الدنيا واللعب معروف وكذلك اللهو، وكل ما يشغلك فقد ألهاك، وقيل أصله الصرف عن الشيء ورد بأن اللهو بمعنى الصرف لامه ياء يقال لهيت عنه ولام اللهو واو يقال لهوت بكذا قال: ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق، وقيل هذا عام في حياة المؤمن والكافر.

وقيل: إن أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وإن كان وقوعه في الدنيا، وقيل غير ذلك، والأول أولى وقيل اللعب ما يشغل النفس عما تنتفع به، واللهو صرفها عن الجد إلى الهزل.

﴿وللدار الآخرة﴾ يعني الجنة التي هي محل الحياة الأخرى، وقرىء ولدار الآخرة بالإضافة وفيه تأويلات ذكرهما السمين، واللام فيه لام القسم وسميت آخرة لتأخرها عن الدنيا أي هي ﴿خير﴾ من الحياة الدنيا لأن منافعها خالصة عن المضار، ولذاتها غير متعقبة للآلام، بل مستمرة على الدوام ﴿للذين يتقون﴾ الشرك واللعب واللهو أو المعاصي، وفيه دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿أفلا تعقلون﴾ أن الآخرة خير من الدنيا فتعملون لها.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ هذا الكلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وإله وسلم عما ناله من الغم والحزن بتكذيب الكفار له، ودخول قد للتكثير فانها قد تأتي لإفادته كما تأتي رب. والضمير في أنه للشأن.

﴿فإنهم﴾ الفاء للتعليل ﴿لا يكذبونك﴾ في السر لعلمهم أنك صادق. وقرىء مشدداً ومخففاً، ومعنى المشدد لا ينسبونك إلى الكذب ولا يردون عليك ما قلته في السر، لأنهم عرفوا أنك صادق، ومعنى المخفف أنهم لا يجدونك كذاباً يقال أكذبته وجدته كذاباً وأبخلته وجدته بخيلاً، وحكى الكسائي عن العرب أكذبت الرجل أخبرت أنه جاء بالكذب، وكذبته أخبرت أنه كاذب. وقال الزجاج: كذبته إذا قلت له كذبت، وأكذبته إذا أردت أن ما جاء به كذب.

والمعنى أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به ولهذا قال: ﴿ولكن الظالمين﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ لهم والإزراء عليهم، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذي وقع منهم ظلم بين ﴿بآيات الله﴾ أي القرآن ﴿يجحدون﴾ في العلانية كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ قال قتادة: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

وعن أبي يزيد المدني أن أبا جهل قال: والله إني لأعلم أنه صادق ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف، والجحد والجحود نفي ما في القلب إثباته أو إثبات ما في القلب نفيه، وقيل الجحد إنكار المعرفة فليس مرادفاً للنفي من كل وجه.

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ هذا من جملة التسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك لأن عموم البلوى مما يهون أمرها بعض تهوين وتصدير الكلمة بالقسم لتأكيد التسلية أي: إن هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك.

﴿فصبروا على ما كذبوا به﴾ أي على تكذيب قومهم إياهم ﴿وأوذوا﴾ أي وصبروا على أذاهم ﴿حتى أتاهم نصرنا﴾ باهلاك من كذبهم، والظاهر أن هذه الغاية متعلقة بقوله فصبروا أي كان غاية صبرهم نصر الله اياهم.

وفيه التفات من ضمير الغيبة إلى التكلم إذ قبله بآيات الله فلو جاء على ذلك لقيل نصره وفائدة الالتفات اسناد النصر إلى المتكلم المشعر بالعظمة أي فاقتد بهم ولا تحزن، واصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فانا لا نخلف الميعاد، ولكل أجل كتاب [إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا] [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون] [كتب الله لأغلبن أنا ورسلي].

﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ بل وعده كائن وأنت منصور على المكذبين ظاهر عليهم وقد كان ذلك ولله الحمد ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ ما

جاءك من تجرىء قومهم عليهم في الابتداء وتكذيبهم لهم ثم نصرهم عليهم في الانتهاء وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لـك كعاقبـة المكذبـين للرسل فيرجعون إليك ويدخلون في الدين الذي تدعوهم إليه طوعاً أو كرهاً.

وهذه جملة قسمية جيء بها لتحقيق ما منحوا من النصر، وتأكيد ما في ضمنه من الوعد لرسول الله ﷺ أو لتقرير جميع ما ذكر من تكذيب الأمم وما ترتب عليه من الأمور، قال الأخفش: من هنا صلة أي زائدة، وقال غيره بل هي للتبعيض لأن الواصل إلى رسول الله ﷺ قصص بعض الأنبياء وأخبارهم، وسيبويه لا يجيز زيادتها في الواجب.

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ كان النبي ﷺ يكبر عليه إعراض قومه ويتعاظمه ويحزن له، فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له والإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله عز وجل، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك.

ثم علق ذلك بما هو محال فقال: ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾ فتأتيهم بآية منه ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ منها فافعل، ولكنك لا تستطيع ذلك فدع الحزن ولا تذهب نفسك عليهم حسرات وما أنت عليهم بمصيطر، والنفق السرب والمنفذ ومنه النافقاء لجحر اليربوع ومنه المنافق وقد تقدم في البقرة ما يغني عن الإعادة، والسلم الدرج الذي يرتقي عليه وهو مذكر لا يؤنث وقال الفراء أنه يؤنث قال الزجاج: وهو مشتق من السلامة لأنه يسلك به إلى موضع الأمن وقيل المصعد وقيل السبب.

ثم قيل: إن الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم، ولا يشعرون أن الله

سبحانه في ذلك حكمة لا تبلغها العقول ولا تدركها الأفهام، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى[1].

ولهذا قال: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ ولكنه لم يشأ ذلك ولله الحكمة البالغة ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ولست منهم فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطراراً لخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار، وإنما نهاه عن هذه وغلظ له الخطاب تبعيداً له عن هذه الحالة.

﴿إنما يستجيب﴾ لك إلى ما تدعو إليه ﴿الذين يسمعون﴾ سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجبه الأفهام، وهؤلاء ليسوا كذلك بل هم بمنزلة الموتى لا يسمعون ولا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة وفي آذانهم من الوقر، ولهذا قال: ﴿والموتى﴾ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق ﴿يبعثهم الله﴾ يوم القيامة أي: إن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادراً على ذلك كما يقدر على بعثه الموتى للحساب ﴿ثم إليه نرجعون﴾ فيجازي كلاً بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة.

---

(١) روى البخاري في « صحيحه »(٤٥٦/٦)و(١٢٦/٧)و(٢٨١/١٢)عن خباب بن الأرتّ رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : « كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾

﴿وقالوا لولا نــزّل عليه آية من ربه﴾ هذا كان منهم تعنتاً ومكابرة حيث لم يعتدوا بما قد أنزله الله على رسوله من الآيات البينات التي من جملتها القرآن، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله، ومرادهم بالآية هنا هي التي تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع أو نتق الجبل كما وقع لبني اسرائيل فأمره الله سبحانه أن يجيبهم فقال.

﴿قل إن الله قادر على أن ينزل﴾ على رسوله ﴿آية﴾ تضطرهم إلى الإيمان ولكنه ما نزل ذلك لتظهر فائدة التكليف الذي هو الابتلاء والامتحان وأيضاً لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا قال الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الله قادر على ذلك وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبلغها عقولهم، وأن نزولها بلاء عليهم لعدم نفعهم ووجوب هلاكهم إن جحدوا كما هو سنة الله.

﴿وما من دابة﴾ تقع على المذكر والمؤنث من دب يدب فهو داب إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو وقد تقدم بيان ذلك في البقرة، وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على تنزيل الآية، وإنما لم ينزلها محافظة على الحكم البالغة ﴿في الأرض﴾ إنما خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء وإن كان ما في السماء مخلوقاً له لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد.

﴿ولا طائر يطير﴾ يقال طار إذا أسرع قال أهل العلم جميع ما خلق الله

لا يخرج عن هاتين الحالتين إما أن يدب على الأرض أو يطير في الهواء حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير، لأن الحيتان تسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء، وذكر ﴿بجناحيه﴾ لدفع الإبهام لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير كقولهم طر في حاجتي أي أسرع.

وقيل ان اعتدال الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران ومع عدم الاعتدال يميل فاعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين، وقيل ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينيه ونحو ذلك، والجناح أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء وأصله الميل إلى ناحية من النواحي، والمعنى ما من دابة من الدواب التي تدب في أي مكان من أمكنة الأرض ولا طائر يطير في أي ناحية من نواحيها.

﴿إلا أمم أمثالكم﴾ أي طوائف متخالفة وجماعات كل أمة منها مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ورزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه وتقديره واحاطته بكل شيء وقيل أمثالكم في ذكر الله والدلالة عليه، وقيل أمثالكم في كونهم محشورين، روي ذلك عن أبي هريرة.

وقال سفيان ابن عيينة: أي ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاووس، وقيل أمثالكم في أن لها أسماء تعرف بها قاله مجاهد، وقال الزجاج: أمثالكم في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان.

وعن قتادة قال: الطير أمة والأنس أمة والجن أمة، وعن السدي قال: خلق أمثالكم وعن ابن جريج قال الذرة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من

الدواب، ويدل على أن كل جنس من الدواب أمة ما روى عبد الله بن مغفل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم»، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي[1].

﴿ما فرطنا﴾ أي ما أغفلنا ولا أهملنا ولا ضيعنا ﴿في الكتاب من﴾ مزيدة لاستغراق ﴿شيء﴾ والجملة اعتراضية مقررة لمضمون ما قبلها، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث، وعلى هذا فالعموم ظاهر، وقيل المراد به القرآن أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً، ومثله قوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ وقال: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾.

ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله ﷺ، وكل حكم سنه الرسول لأمته قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز بهذه الآية وبنحو قوله تعالى: ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ وبقوله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ يعني الأمم المذكورة من الدواب والطير، وضميرها بصيغة جمع العقلاء لإجرائها مجراهم في وجوه المماثلة السابقة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء ومنهم أبو ذر وأبو هريرة والحسن وغيرهم، وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها وبه قال الضحاك والأول أرجح للآية ولما صح في السنة المطهرة من أنه يقاد

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٥١٩٧.

يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ولقول الله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾.

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور في الآية حشر الكفار، وما تخلل كلام معترض قالوا وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص، واستدلوا أيضاً بأن في هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة ولفظه «حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء وللحجر لما ركب على الحجر وللعود لما خدش العود» قالوا والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها.

وعن أبي هريرة قال: ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر إلى يوم القيامة ثم يقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن ثم يقال لها كوني تراباً فعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً وإن شئتم فاقرأوا ﴿ما من دابة في الأرض﴾ الآية وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[1].

---

(١) الطبري ١١/٣٤٧، والحاكم ٢/٣١٦ وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٢/١٣١ ثم قال: وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور، وخرجه السيوطي في «الدر المنثور» ٣/١١ وزاد نسبته لأبي عبيد وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وروى مسلم في «صحيحه» ٤/١٩٩٧ عن أبي هريرة مرفوعاً «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» والجلحاء: الشاة إذا لم تكن ذات قرن، والقرناء: الشاة الكبيرة القرن.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ أي القرآن ﴿صم وبكم﴾ أي لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بألسنتهم، نزلهم بمنزلة من لا يسمع ولا ينطق لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة، وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

﴿في الظلمات﴾ أي في ظلمات الكفر والجهل والحيرة والعناد والتقليد لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم، والمعنى كائنين في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات فضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال، وقد تقدم في البقرة تحقيق المقام بما يغني عن الإعادة.

ثم بين الله سبحانه أن الأمر بيده ما شاء فعل فقال: ﴿من يشاءِ الله يضلله﴾ أي أضله عن الإيمان ﴿ومن يشاء﴾ أن يهديه ﴿يجعله على صراط مستقيم﴾ أي على دين الإسلام لا يذهب به إلى غير الحق ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة، وفيه دليل على أن الهادي والمضل هو الله تعالى، وهذا عدل منه لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يسألون.

﴿قل أرءيتكم﴾ التاء هي الفاعل والكاف والميم عند البصريين للخطاب ولا حظَّ لهما في الإعراب وهو اختيار الزجاج وقال الكسائي: ان الفاعل هو التاء وان أداة الخطاب اللاحقة في موضع المفعول الأول، وقال الفراء في موضع الفاعل والجملة استفهامية، والمعنى عند الكسائي أرأيتم أنفسكم، ورجح

صاحب الكشاف المذهب الأول، والمعنى أخبروني عن حالتكم العجيبة.

واستعمال أرأيت في الأخبار مجاز، ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سبباً للاخبار عنه أو الابصار به طريقاً إلى الإحاطة به علماً وإلى صحة الاخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم أو لطلب الإبصار في طلب الخبر لاشتراكهما في الطلب ففيه مجازان. استعمال رأى التي بمعنى علم أو أبصر في الاخبار، واستعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار، قاله الشهاب.

وقد أطال السمين في بيان تركيب هذه الكلمة ومذاهب النحاة فيها إطالة كثيرة لا فائدة من ذكره ههنا.

﴿إن أتاكم﴾ كما أتى غيركم من الأمم ﴿عذاب الله﴾ من الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب قبل الموت ﴿أو أتتكم الساعة﴾ أي القيامة وقد ذكر سليمان الجمل في جواب هذا الشرط خمسة أوجه منها أنه محذوف تقديره فمن تدعون أو فاخبروني عنه أو فادعوه أو دعوتم الله، ودل عليه قوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ أي أتدعون غير الله في هذه الحالة من الأصنام التي تعبدونها أم تدعون الله سبحانه لكشف ما حل بكم، قاله أبو حيان ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم أن الأصنام تضر وتنفع وأنها آلهة كما تزعمون، وهذا تأكيد لذلك التوبيخ.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾

﴿بل إياه تدعون﴾ أي لا تدعون غيره بل إياه تخصون بالدعاء في كشف ما نزل بكم ﴿فيكشف﴾ عنكم ﴿ما تدعون إليه﴾ أي إلى كشفه من الضر ونحوه ﴿إن شاء﴾ أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك ﴿وتنسون﴾ عند أن يأتيكم العذاب ﴿ما تشركون﴾ به تعالى أي ما تجعلونه شريكاً له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها ولا ترجون كشف ما بكم منها بل تعرضون عنها إعراض الناسي، قاله الحسن وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى وتتركون ما تشركون.

﴿ولقد أرسلنا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إلى أمم﴾ كائنة ﴿من قبلك﴾ رسلاً فكذبوهم.

﴿فأخذناهم﴾ أي عاقبناهم ﴿بالبأساء والضراء﴾ أي البؤس والضرر قال سعيد بن جبير: خوف السلطان، وغلاء السعر، وقيل شدة الجوع، وقيل المكروه، وقيل الفقر الشديد، وأصله من البؤس وهو الشدة وقيل البأساء المصائب في الأموال، والضراء المصائب في الأبدان من الأمراض والأوجاع والزمانة، وبه قال الأكثر وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما على أفعل كما هو القياس، فإنه لم يقل أضرر ولا أبأس صفة بل للتفضيل قاله الشهاب ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي يدعون الله بضراعة وهي الذل يقال ضرع فهو ضارع، وهذا الترجي بحسب عقول البشر.

﴿فلولا﴾ أي فهلا ﴿إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ لكنهم لم يتضرعوا مع قيام المقتضى له وهو البأساء والضراء، وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمردهم وغلوهم في الكفر، ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرعوا عند أن نزل بهم العذاب وذلك تضرع ضروري لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه، والأول أولى كما يدل عليه.

﴿ولكن قست﴾ أي صلبت وغلظت فلم تضرع ولم تخشع ﴿قلوبهم﴾ واستمرت على ما هي عليه من القساوة ولم تلن للإيمان، وهذا استدراك وقع بين الضدين قال أبو السعود: فهذا من أحسن مواقع الاستدراك.

﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ أي أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي، والجملة استئنافية أخبر تعالى عنهم بذلك أو داخلة في حيز الاستدراك وهو الظاهر، وهذا رأي الزمخشري فإنه قال: لم يكن لهم عذر في ترك التضرع الا قسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي تركوا ما وعظوا به وأعرضوا عنه لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به إذ ليس هو من فعلهم، وبه قال ابن عباس وأبو علي الفارسي، قال ابن جريج: ما دعاهم الله إليه ورسله أبوه وردوه عليهم، والمعنى أنهم لما تركوا الاتعاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء وأعرضوا عن ذلك ﴿فتحنا﴾ بالتخفيف والتشديد سبعيتان ﴿عليهم أبواب كل شيء﴾ أي استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم، وبدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في الرزق والعيش، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، قال مجاهد: يعني رخاء الدنيا ويسرها، ونحوه عن قتادة.

﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ من الخير والرزق على أنواعه والسعة والرخاء

والمعيشة والصحة وأعجبوا بذلك وظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذي هم عليه حقاً وصواباً. وهذا فرح بطر وأشر كما فرح قارون لما أوتي من الدنيا ﴿أخذناهم بغتة﴾ وهم غير مترقبين لذلك والبغتة الأخذ على غرة من غير تقدمة أمارة وهي مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه غيره عند سيبويه.

قال محمد بن النصر الحارثي: أمهلوا عشرين سنة ولا يخفى أن هذا مخالف لمعنى البغتة لغة ومحتاج إلى نقل عن الشارع، وإلا فهو كلام لا طائل تحته، قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة، وقال أهل المعاني: إنما أخذوا في حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال العافية والتصرف في ضروب اللذة فأخذناهم في آمن ما كانوا، وأعجب ما كانت الدنيا إليهم.

﴿فإذا﴾ هي الفجائية قال سيبويه إنها ظرف مكان، وقال جماعة منهم الراسي إنها ظرف زمان ومذهب الكوفيين أنها حرف ﴿هم مبلسون﴾ أي مهلكون في مكان إقامتهم أو في زمانها قاله السدي، والمبلس الحزين الآيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال ومن ذلك اشتق اسم إبليس يقال أبلس الرجل إذا سكت وأبلست الناقة إذا لم ترع.

والمعنى فإذا هم محزونون متحيرون آيسون من الفرح، قال ابن زيد: المبلس المجهود المكروب الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه، والمبلس أشد من المستكين وقال الفراء: هو اليائس المنقطع رجاؤه، وقال أبو عبيدة: هو النادم الحزين، والإبلاس هو الإطراق من الحزن والندم.

وعن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فإنما ذلك استدراج»[1] ثم تلا يعني هذه الآية ذكره البغوي بلا سند، وأسنده الطبري وغيره.

---

(١) احمد بن حنبل ٤/١٤٥.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فقطع﴾ بالبناء للمفعول و للفاعل وهو الله سبحانه وفيه التفات إلى غيبة ﴿دابر القوم الذين ظلموا﴾ الدابر الآخر يقال دبر القوم يدبرهم دابراً إذا كان آخرهم في المجيء قاله أبو عبيد، ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور، والمعنى أنه قطع آخرهم أي استؤصلوا جميعاً حتى آخرهم فلم يبق منهم باقية قال قطرب يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا، وقيل الدابر الأصل يقال قطع الله دابره أي أصله، قاله الأصمعي.

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على نصر الرسل وإهلاك الكافرين قال الزجاج: حمد نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم، وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه عند نزول النعم التي من أجلها إهلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فإنهم أشد على عباد الله من كل شديد، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين واقطع دابرهم وأبدلهم بالعدل الشامل لهم آمين.

﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم﴾ هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم، ووحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر فلهذا جمعه، والختم الطبع، وقد تقدم تحقيقه في البقرة والمراد أخذ المعاني القائمة بهذه الجوارح أو أخذ الجوارح أنفسها.

﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ الاستفهام للتوبيخ ووحد الضمير في ﴿به﴾

مع أن المرجع متعدد على معنى فمن يأتيكم بذلك المأخوذ، وقيل الضمير راجع إلى أخذ هذه المذكورة وقيل إن الضمير بمنزلة إسم الإشارة أي من يأتيكم بذلك المذكور.

﴿أنظر كيف نصرف الآيات﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالنظر في تصريف الآيات الباهرات وعدم قبولهم لها تعجيباً له من ذلك، ويدخل معه غيره، والتصريف المجيء بها على جهات مختلفة من أسلوب إلى أسلوب، تارة إنذار، وتارة إعذار، وتارة ترغيب، وتارة ترهيب ﴿ثم هم يصدفون﴾ أي يعرضون قاله مجاهد، يقال صدف عن الشيء اذا أعرض عنه صدفاً وصدوفاً. وقال ابن عباس: يعدلون عنها مكذبين لها، وهو محط التعجيب والعمدة فيه.

﴿قل أرأيتكم﴾ أي أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ تنازع أرأيت وأتاكم في عذاب الله فاعملنا الثاني واضمرنا في الأول والمفعول الثاني جملة الاستفهام، وقد تقدم تفسير البغتة قريباً أنها الفجاءة قال الكسائي: بغتهم يبغتهم بغتاً وبغتة إذا أتاهم فجأة أي من دون تقديم مقدمات تدل على العذاب، والجهرة أن يأتي العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه، هذا ما جرى عليه القاضي، وقيل البغتة إتيان العذاب ليلاً، والجهرة إتيان العذاب نهاراً كما في قوله تعالى ﴿بياتاً أو نهاراً﴾ وبه قال الحسن والأول أولى.

﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام للنفي أي ما يهلك هلاك تعذيب وغضب وسخط إلا المشركون، وقال الزجاج: معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم والاستثناء مفرغ.

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وما نرسل المرسلين﴾ كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل ﴿إلا مبشرين﴾ لمن أطاعهم بما أعد الله له من الجزاء العظيم ﴿ومنذرين﴾ لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الوبيل، وقيل مبشرين في الدنيا بسعة الرزق، وفي الآخرة بالثواب، ومنذرين مخوفين بالعقاب، وهما حالان مقدرتان أي ما نرسلهم إلا مقدرين تبشيرهم وإنذارهم.

﴿فمن آمن﴾ بما جاءت به الرسل ﴿وأصلح﴾ حال نفسه بفعل ما يدعونه إليه ﴿فلا خوف عليهم﴾ بوجه من الوجوه بلحوق العذاب ﴿ولا هم يحزنون﴾ بحال من الأحوال بفوات الثواب، وهذا حال من آمن وأصلح وأما حال المكذبين فبينه بقوله:

﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب﴾ أي يصيبهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم وخروجهم عن التصديق والطاعة، وقال ابن زيد: كل فسق في القرآن فمعناه الكذب.

﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه وتعنتهم بإنزال الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات، والمراد خزائن قدرته التي تشتمل على كل شيء من الأشياء، والخزائن جمع خزانة وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء أحرزه بحيث لا تناله الأيدي.

﴿و﴾ أمره أن يقول لهم أيضاً ﴿لا﴾ أدعي أني ﴿أعلم الغيب﴾ من

أفعاله حتى أخبركم به وأعرفكم بما سيكون في مستقبل الدهر ﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ من الملائكة حتى تكلفوني من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر كالرقي في السماء أو حتى تعدوا عدم اتصافي بصفاتهم قادحاً في أمري.

والمعنى أني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تقترحوا عليّ ما هو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التي لا تعلق لها بشيء مما ذكر قطعاً، بل إنما هي عبارة عن تلقي الوحي من جهة الله تعالى والعمل بمقتضاه فحسب كما سيأتي.

وليس في هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملاً بما يفيده القصر في هذه الآية والمسألة مدونة في الأصول والأدلة عليها معروفة، وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أوتيت القرآن ومثله معه»[1].

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ هذا الاستفهام للإنكار والمراد أنه لا يستوي الضال والمهتدي أو المسلم والكافر أو العالم والجاهل أو من اتبع ما أوحي إليه ومن لم يتبعه، والكلام تمثيل، قال قتادة الأعمى الكافر الذي عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، والبصير العبد المؤمن الذي أبصر بصراً نافعاً فوحد الله وحده وعمل بطاعة ربه وانتفع بما آتاه الله.

﴿أفلا تتفكرون﴾ في ذلك الكلام الحق حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما فإنه لا يلتبس على من له أدنى عقل وأقل تفكر.

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٦٤٠.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وأنذر﴾ الإنذار الإعلام مع تخويف. والضمير في ﴿به﴾ راجع إلى ما يوحى وقيل إلى الله وقيل إلى اليوم الآخر، وخص ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك.

وقيل ومعنى يخافون يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين. وقيل معنى الخوف على حقيقته والمعنى أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكره وإن لم يكن مصدقاً به في الأصل لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن من كان كذلك يكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع.

﴿ليس لهم من دونه ولي﴾ أي حال كونهم لا ولي لهم يواليهم ولا نصير يناصرهم ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم من دون الله وفيه رد على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آباءهم يشفعون لهم وهم أهل الكتاب أو أن أصنامهم تشفع لهم وهم المشركون أو أن المشايخ يشفعون لمريديهم وهم المتصوفة لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله لقوله عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ عن ابن مسعود قال مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا أنحن نكون

تبعاً لهؤلاء، اطردهم عنا فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فانزل الله فيهم ﴿وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى قوله من الظالمين﴾ وقد أخرج هذا السبب مطولاً ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ﴿لعلهم يتقـون﴾ ما نهيتهم عنـه فيدخلون في زمرة أهل التقوى.

﴿ولا تطرد الـذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الدعاء العبادة مطلقاً وقيل المحافظة على صلاة الجماعة، وقال ابن عباس: الصلاة المكتوبة، وقال مجاهد: هي الصبح والعصر، وقال سفيان: أي أهل الفقه، وقيل الذكر وقراءة القرآن وقيل المراد بالدعاء لله بجلب النفع ودفع الضرر، وقيل المراد بذكر الغداة والعشي الدوام على ذلك والاستمرار وقيل الصلوات الخمس وقيل هو على ظاهره أي لا تبعدهم عن مجلسك لأجل ضعفهم وفقرهم.

﴿يريدون وجهه﴾ أي يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته وتقييده به لتأكيد عليته للنهي، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام المضاد للطرد.

﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ هذا كلام معترض بين النهي وجوابه متضمن لنفي الحامل على الطرد أي حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شيء وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء فعلام تطردهم.

هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله: ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنـا﴾ وطعن عندك في دينهم وحسبهم، فكيف وقد زكاهم الله عز وجل بالعبادة والاخلاص وهذا هو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وقوله: ﴿وأن ليس للانسان إلا مع سعى﴾ وقوله ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾.

﴿فتطردهم﴾ هو من تمام الاعتراض أي إذا كان الأمر كذلك فاقبل

عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل ﴿فتكون﴾ جواب للنهي أي فإن فعلت ذلك كنت ﴿من الظالمين﴾ وحاشاه عن وقوع ذلك وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الاسلام كقوله تعالى: ﴿لئن اشركت ليحبطن عملك﴾.

أخرج مسلم والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد نزلت هذه الآية في ستة أنا وعبد الله بن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلين لست اسميهما فقال المشركون للنبي ﷺ اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله هذه الآية، وقد روي في بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا في المعنى.

﴿وكذلك﴾ أي مثل تلك الفتن العظيمة ﴿فتنا بعضهم ببعض﴾ أي ببعض الناس وابتلينا الغني بالفقير، والفقير بالغني، والشريف بالوضيع، فكل أحد مبتلى بضده، والفتنة الاختبار أي عاملناهم معاملة المختبرين ﴿ليقولوا﴾ اللام للصيرورة كقوله لدوا للموت وابنوا للخراب، وقوله [ليكون لهم عدواً وحزناً] وقيل: إنهالام كي وهو أظهر، وعليه أكثر المعربين والتقدير ومثل ذلك الفتون فتناً ليقول البعض الأول مشيراً إلى البعض الثاني.

﴿أهؤلاء﴾ الذين ﴿من الله عليهم من بيننا﴾ أي اكرمهم باصابة الحق دوننا قال النحاس: وهذا من المشكل لأنه يقال كيف فتنوا ليقولوا هذا القول وهو إن كان على طريقة الانكار فهو كفر، وأجاب بجوابين الأول أن ذلك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الانكار والثاني أنهم لما اختبروا بهذا كان عاقبة هذا القول منهم كقوله﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ قال ابن عباس: قالوا ذلك إستهزاء وسخرية وقال ابن جرير: لو كان لهم كرامة على الله ما أصابهم هذا الجهد.

﴿أليس الله بأعلم﴾ هذا الاستفهام للتقرير والمعنى أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر وهو أعلم ﴿بالشاكرين﴾ له فما بالكم تعترضون بالجهل وتنكرون الفضل.

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾ هم الذين نهاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين ﴿فقل سلام عليكم﴾ أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطييباً لخاطرهم وإكراماً لهم، والسلام والسلامة بمعنى واحد فالمعنى سلمكم الله وجاز الابتداء به وان كان نكرة لأنه دعاء والدعاء من المسوغات، قاله السمين.

وقد كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقيل إن هذا السلام هو من جهة الله أي: أبلغهم منا السلام، عن ماهان قال: أتى قوم النبي ﷺ فقالوا إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فما رد عليهم شيئاً فانصرفوا فأنزل الله هذه الآية فدعاهم فقرأها عليهم[1]. وقيل: إن الآية على اطلاقها في كل مؤمن لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان وقيل كتب ذلك في اللوح المحفوظ قيل هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بابلاغ السلام إليهم تبشيراً بسعة مغفرة الله

(١) رواه الطبري في تفسيره ١١/٣٩٠/٣٩١ من طريق مجمع بن صمعان قال سمعت ماهان.
وذكره السيوطي في الدر المنثور وزاد نسبته الى الفريابي وعبد بن حميد.
وماهان عابد ثقة قتله الحجاج سنة ٨٣ هجرية.

وعظم رحمته لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

﴿أنه﴾ أي الشأن ﴿من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾ قيل المعنى أنه فعل فعل الجاهلين لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه فقد فعل فِعْلَ أهل الجهل والسفه لا فعل أهل الحكمة والتدبير، وقيل المعنى أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة والعقاب وما فاته من الثواب فتكون فائدة التقييد بالجهالة الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدي إلى الضرر، قال مجاهد: كل من عمل ذنباً أو خطيئة فهو بها جاهل.

﴿ثم تاب من بعده﴾ أي من بعد عمله وارتكابه ذلك السوء ﴿وأصلح﴾ ما أفسده بالمعصية في المستقبل فراجع بالصواب وأخلص التوبة وعمل الطاعة ﴿فإنه﴾ أي فأمره أو فله أن الله ﴿غفور رحيم﴾ واختار الأول سيبويه والثاني أبو حاتم.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك التفصيل ﴿نفصل الآيات﴾ أي أدلة حججنا وبراهيننا في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل، والتفصيل بالتبيين وقيل: إن الله فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين وبين لهم حكم كل طائفة ﴿ولتستبين﴾ الخطاب على الفوقية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي: لتستبين يا محمد ﴿سبيل المجرمين﴾ وأما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين قال ابن زيد: هم الذين يأمرونك بطرد هؤلاء.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون﴾ أمره سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعونه ويعبدونه ﴿من دون الله، قل لا اتبع أهواءكم﴾ أمره سبحانه بأن يقول لهم لا أسلك المسلك الذي سلكتموه في دينكم من اتباع الأهواء والمشي على ما توجبه المقاصد الفاسدة التي يتسبب عنها الوقوع في الضلال، كرر الأمر مع قرب العهد اعتناء بالمأمور به وإيذاناً باختلاف القولين من حيث أن الأول حكاية لما هو من جهته تعالى وهو النهي، والثاني حكاية لما هو من جهته عليه السلام وهو الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه.

﴿قد ضللت إذاً﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم وطرد من أردتم طرده، قال الجوهري: الضلال والضلالة ضد الرشاد وقد ضللت أضل، قال الله تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي﴾ قال فهذه يعني المفتوحة لغة نجد وهي الفصيحة وأهل العالية تقول ضللت بالكسر أضل انتهى.

﴿وما أنا من المهتدين﴾ إن فعلت ذلك، وهذه الجملة الإسمية معطوفة على الجملة التي قبلها والمجيء بها إسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات.

﴿قل إني على بينة﴾ هي الحجة والبرهان أي: إني على برهان ﴿من ربي﴾ ويقين لا على هوى وشك، وقال أبو عمران الجوني: على ثقة وقيل على بيان

وبصيرة، وهذا تحقيق للحق الذي هو عليه إثر إبطال الباطل الذي هم عليه، أمره الله سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية لا كما هم عليه من إتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التي لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة.

﴿وكذبتم به﴾ أي بالرب أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبينة، وتذكير الضمير باعتبار المعنى، وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد أي والحال أن قد كذبتم به أو جملة مستأنفة مبنية لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول الله ﷺ من الحجج الواضحة والبراهين البينة.

﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلون به من العذاب فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم:

﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ وقولهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ وقولهم: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وقيل كانوا يستعجلون بالآيات التي اقترحوها وطلبوها وقيل كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾.

﴿إن﴾ أي ما ﴿الحكم﴾ في شيء ﴿إلا لله﴾ سبحانه وحده ليس معه حاكم، ومن ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة والمراد الحكم الفاصل بين الحق والباطل ﴿يقص﴾ هو من القصص أي يقص القصص ﴿الحق﴾ أو من قص أثره أي يتبع الحق فيما يحكم به، وقرىء يقضي بالضاد المعجمة والياء من القضاء أي يقضي القضاء الحق بين عباده ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين الحق والباطل بما يقضي به بين عباده ويفصله لهم في كتابه.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم: ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به﴾ الاستعجال المطالبة بالشيء قبل وقته فلذلك كانت العجلة مذمومة، والإسراع تقديم الشيء في وقته فلذلك كانت السرعة محمودة والمعنى ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقدور إليّ وفي وسعي.

﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ أي لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤالي له وطلبي ذلك أو لو كان العذاب عندي وفي قبضتي لأنزلته بكم وعند ذلك يقضىٰ الأمر بيني وبينكم ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ وبالوقت الذي ينزل فيه عذابهم وبما يقتضيه مشيئته من تأخيره استدراجاً لهم وإعذاراً إليهم.

﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ جمع مفتح بالفتح وهو المخزن أي عنده مخازن الغيب،، جعل للامور الغيبية مخازن يخزن فيها على طريق الاستعارة أو جمع مفتح بكسر الميم وهو المفتاح جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الإستعارة أيضاً، ويؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميقع ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ فإنها جمع مفتاح والمعنى أن عنده خاصة مخازن الغيب أو المفاتح التي يتوصل بها إلى المخازن.

﴿لا يعلمها إلا هو﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى وأنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، وهذا بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم اثر بيان اختصاص كلها

من حيث القدرة، ويندرج تحت هـذه الآية علم مـا يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق إندراجاً أولياً.

وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليـين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم، ولقـد ابتـلى الإسـلام وأهله بقـوم سـوء من هـذه الأجنـاس الضـالـة والأنـواع المخذولة ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: «من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد»[1].

قال ابن مسعود: أوتي نبيكم كل شيء إلا مفاتيح الغيب. وقال ابن عباس: إنها الأقدار والأرزاق وقال الضحاك: خـزائن الأرض وعلم نزول العذاب، وقال عطاء: هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب، وقيل هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم، وقيل هو علم ما لم يكن بعد أن يكون إذ يكون كيف يكون وما لا يكون إن لو كان كيف يكون، واللفظ أوسع من ذلك ويدخل فيه ما ذكروه دخولاً أولياً.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ولا يدري أحد متى يجيء المطر»[1]، أخرجه البخاري وله ألفاظ وفي رواية ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله.

﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله أي يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علماً مفصلاً لا يخفى عليه منه شيء أو

---

(١) ابو داود كتاب الطب باب ٢١.

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٧٦٠.

خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما، وعلى هذا هو بيان لتعلق علمه بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات، قال مجاهد: البر المفاوز والقفار، والبحر القرى والأمصار لا يحدث فيهما شيء إلا وهو يعلمه.

وقال الجمهور: هو البر والبحر المعروفان لأن جميع الأرض إما بر، وإما بحر وفي كل واحد منهما من عجائب وغرائب ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه.

﴿وما تسقط من ورقة﴾ أي من ورق الشجر وما يبقى عليه وهو تخصيص بعد التعميم ﴿إلا يعلمها﴾ ويعلم زمان سقوطها ومكانه وقيل المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق، وحكى النقاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بني آدم، قال ابن عطية: هذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه.

﴿ولا حبة﴾ كائنة ﴿في ظلمات الأرض﴾ أي في الأمكنة المظلمة وقيل في بطن الأرض قبل أن ينبت، وقيل هي الحبة في الصخرة التي في أسفل الأرضين ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ بنوع دون نوع ﴿إلا في كتاب مبين﴾ هو اللوح المحفوظ فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من ﴿إلا يعلمها﴾ وقيل هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة قاله الخطيب.

وقال الزمخشري: هو كالتكرير لقوله: ﴿إلا يعلمها﴾لأن معناهما واحد، قال الشيخ ولكنه لما طال الكلام أعيد الاستثناء على سبيل التوكيد، وحسن كونه فاصلاً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وهو الذي يتوفاكم﴾ ينيمكم ﴿بالليل﴾ فيقبض فيه نفوسكم التي بها تميزون، وليس ذلك موتاً حقيقة فهو مثل قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ والتوفي استيفاء الشيء وتوفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته أجمع، قيل ان في الجسد روحين، روح الحياة وهي لا تخرج إلا بالموت وروح التمييز وهي تخرج بالنوم فتفارق الجسد فتطوف بالعالم وترى المنامات ثم ترجع إلى الجسد عند تيقظه. وقيل غير ذلك، والأولى أن هذا الأمر لا يعرفه إلا الله سبحانه.

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه، فإذا أذن الله في قبض روحه قبضها وإلا ردها إليه فذلك قوله تعالى يتوفاكم بالليل»[1].

﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ما كسبتم بجوارحكم من الخير والشر، والتقييد بالظرفين جرى على الغالب إذ الغالب أن النوم في الليل والكسب في النهار ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أي في النهار يعني اليقظة برد أرواحكم، قال القاضي: أطلق البعث ترشيحاً للتوفي، وقيل يبعثكم من القبور فيه أي في شأن ذلك الذي قطعتم فيه اعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار.

وقيل في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير هو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه، وقيل ثم يبعثكم فيه أي في المنام، ومعنى

---

(١) ابن كثير ١٣٨/٢.

الآية ان امهاله تعالى للكفار ليس للغفلة عن كفرهم فانه عالم بذلك ولكن:

﴿ليقضى أجل مسمى﴾ أي معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق، وقال مجاهد هو الموت ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ أي رجوعكم بعد الموت ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فيجازي المحسن باحسانه والمسيء بإساءته.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ قيل المراد فوقية القدرة والرتبة كما يقال السلطان فوق الرعية أي العالي عليهم بقدرته لأن كل من قهر شيئاً وغلبه فهو مستعل عليه بالقهر، والمعنى أنه هو الغالب المتصرف في أمورهم لا غيره يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً إلى غير ذلك، وقيل هو صفة لله تعالى وهذا هو مذهب سلف الأمة وأئمتها يمرونها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا تعطيل أي فوقية تليق بحاله وهو الحق، وقد تقدم بيانه في أول السورة.

﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ أي ملائكة جعلهم الله حافظين لكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ والمعنى أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات ويحفظ أعمالكم، قال السدي: هم المعقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عمله، والحفظة جمع حافظ مثل كتبة جمع كاتب، وعليكم متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستعلاء وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه وانه أمر حقيق بذلك، وقيل هو متعلق بحفظة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ يحتمل أن تكون حتى للغاية ويحتمل أن تكون للابتداء، والمراد بمجيء الموت مجيء علامته، والرسل هم أعوان ملك الموت من الملائكة؛ قاله ابن عباس، ومعنى توفته استوفت روحه وقيل المراد ملك الموت وحده، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له.

﴿وهم لا يفرطون﴾ أي لا يقصرون ولا يضيعون وأصله من التقدم، وقال أبو عبيدة: لا يتوانون وقرىء لا يفرطون بالتخفيف أي لا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الاكرام والإهانة.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣﴾

﴿ثم ردوا﴾ الضمير راجع إلى أحد لأنه في معنى الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، والسر في الافراد أولاً والجمع ثانياً وقوع التوفي على الانفراد، والرد على الاجتماع أي ردوا بعد الحشر.

﴿إلى الله﴾ أي إلى حكمه وجزائه وبه قال جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون هذا الرد إلى الله بعد الموت فقد ورد في السنة المطهرة ما يفيد أن الملائكة يصعدون بأرواح الموتى من سماء إلى سماء حتى تنتهي بها إلى السماء السابعة، وفي رواية إلى السماء التي فيها الله، ثم ترد إلى عليين أو سجين.

وفي الآية دليل على علوه تعالى من خلقه والله أعلم، وقيل ردوا أي الخلق أو الملائكة قال الكلبي: يقبض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب ويصعدون بها إلى السماء حكاه القرطبي.

﴿مولاهم﴾ مالكهم الذي يلي أمورهم أو خالقهم ومعبودهم ﴿الحق﴾ صفة لِاسم الله وقرىء الحق بالنصب على اضمار فعل أي أعني أو أمدح أو على المصدر، وإنما قال ذلك لأنهم كانوا في الدنيا تحت أيدي موال بالباطل، والله مولاهم وسيدهم بالحق.

﴿ألا له الحكم﴾ أي لا حكم إلا له لا لغيره لا بحسب الظاهر ولا بحسب الحقيقة ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبر.

﴿قل﴾ توبيخاً وتقريراً لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الآلهية ﴿من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ المراد بظلماتها شدائدهما الهائلة التي تبطل الحواس وتدهش العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر، قال النحاس: والعرب تقول يوم مظلم إذا كان شديداً فإذا عظمت ذلك قالت يوم ذو كوكب أي اشتدت ظلمته حتى صار كالليل في ظلمته وفي ظهور الكواكب فيه لأنها لا تظهر إلا في الظلمة وقيل حمله على الحقيقة أولى.

فظلمة البر هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى طريق الصواب. وظلمة البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك، فالمقصود أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيها إلا إلى الله تعالى لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد وهو المراد من قوله:

﴿تدعونه تضرعاً وخفية﴾ أي حال دعائكم له دعاء تضرع وخفية أو متضرعين ومخفين والمراد بالتضرع هنا دعاء الجهر قائلين ﴿لئن انجانا من هذه﴾ الشدة التي نزلت بنا وهي الظلمات المذكورة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ له على ما أنعم به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد، قال ابن عباس: أي من كرب البر والبحر، وإذا ضل الرجل الطريق دعا الله لئن أنجانا الآية.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قل الله ينجيكم﴾ قرىء مشدداً ومخففاً وقراءة التشديد تفيد التكثير وقيل معناهما واحد والضمير في ﴿منها﴾ راجع إلى الظلمات ﴿ومن كل كرب﴾ بإعادة الجار وهو واجب عند البصريين، والكرب الغم الشديد يأخذ النفس ومنه رجل مكروب.

﴿ثم أنتم﴾ بعد أن أحسن الله إليكم بالخلاص من الشدائد وذهاب الكروب ﴿تشركون﴾ بعبادته تعالى شركاء لا ينفعونكم ولا يضرونكم ولا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعتم هذا الشرك، وضع ما وعدتم به عن أنفسكم من الشكر.

﴿قل﴾ أمره الله سبحانه أن يقول لهم ﴿هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً﴾ أي الذي قدر على انجائكم من تلك الشدائد ودفع عنكم تلك الكروب قادر على أن يعيدكم في شدة ومحنة وكرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب ﴿من فوقكم﴾ كالمطر والصواعق والقذف والحجارة والريح والطوفان ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ كالخسف والرجفة والزلازل والغرق وقيل من فوقكم يعني امراء الظلمة وأئمة السوء ومن تحت أرجلكم السفلة وعبيد السوء قاله ابن عباس، وعن الضحاك نحوه.

﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ من لبس الامر إذا خلطه وقرىء بضم الياء أي يجعل ذلك لباساً لكم قيل والاصل أو يلبس عليكم أمركم فحذف أحد المفعولين مع حرف الجر كما في قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم

يخسرون﴾ والمعنى يجعلكم مختلطي الاهواء مختلفي النحل متفرقي الآراء وقيل يجعلكم فرقاً يقاتل بعضكم بعضاً.

والشيع جمع شيعة أي الفرق وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وأشياع، وأصله من التشيع وفي القاموس شيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره والفرقة على حده وتقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا[1] وأهل بيته حتى صار اسماً لهم خاصة، والجمع أشياع وشيع كعنب انتهى قال مجاهد يعني أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف.

﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ أي يصيب بعضكم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب، وقال ابن زيد: هو الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والاهواء وسفك بعضهم دماء بعض ﴿أنظر كيف نصرف الآيات﴾ أي نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة ﴿لعلهم يفقهون﴾ الحقيقة فيعودون إلى الحق الذي بيناه لهم ببيانات مختلفة متنوعة.

أخرج البخاري وغيره عن جابر بن عبدالله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال هذا أهون أو أيسر»[2].

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم في حديث طويل عن ثوبان وفيه: «وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً

---

(١) أي مع الغلوّ فيه.
(٢) ابن كثير ٢/١٣٩.

من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»[١].

وأخرج مسلم وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة[٢] فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[٣].

وأخرج أحمد والترمذي وحسّنه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذه الآية فقال النبي ﷺ: «أما إنها كائنة ـ ولم يأت تأويلها بعد»[٤]. والاحاديث في هذا الباب كثيرة وفيها ذكرناه كفاية.

﴿وكذب به﴾ الضمير راجع إلى القرآن إو الى الوعيد المتضمن في هذه الآيات المتقدمة أو إلى النبي ﷺ وفيه بعد، لأنه خوطب بالكاف عقيبه وادعاء الالتفات فيه أبعد، أو إلى العذاب، قاله الزمخشري: ﴿قومك﴾ المكذبون هم قريش وقيل كل معاند أي كذبوا به ﴿وهو الحق﴾ أي في كونه كتاباً منزلاً من عند الله أو لأنه واقع لا محالة.

﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أي بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها قيل وهذه الآية منسوخة بآية القتال وقيل ليست بمنسوخة إذ لم يكن ايمانهم في وسعه.

---

(١) ابن كثير ٢/١٤٠.
(٢) أي بالقحط.
(٣) ابن كثير ٢/١٤٠.
(٤) ابن كثير ٢/١٤٠.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾

﴿لكل نبأ مستقر﴾ أي لكل شيء وقت يقع فيه والنبأ الشيء الذي ينبأ عنه، وقيل المعنى لكل عمل جزاء، وقال ابن عباس: لكل نبأ حقيقة قال الزجاج: يجوز أن يكون وعيداً لهم بما ينزل بهم في الدنيا، وقال الحسن: هذا وعيد من الله للكفار لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث، قال السدي: فكان نبأ القوم استقر يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب.

﴿وسوف تعلمون﴾ ذلك في الدنيا بحصوله ونزوله بكم، وقد علموا يوم بدر بحصول ما كان النبي ﷺ يتوعدهم به أو في الآخرة أو فيهما معاً، وسوف للتأكيد كما في قوله تعالى: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾.

﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له، والخوض أصله في اللغة هو الشروع في الماء والعبور فيه ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل شبهها بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول، وقيل هو مأخوذ من الخلط وكل شيء خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل خلطه والمعنى وإذا رأيت الذين يخوضون في القرآن بالتكذيب والرد والاستهزاء.

﴿فأعرض عنهم﴾ أي فدعهم ولا تقعد معهم بسماع مثل هذا المنكر العظيم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي مغاير له، الضمير للآيات والتذكير باعتبار كونها قرآنا أو باعتبار كونها حديثاً فإن وصف الحديث بمغايرتها

يشير إلى اعتبارها بعنوان الحديثية، أمره الله سبحانه بالاعـراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك.

وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وتقليداتهم الفاسدة وبدعهم الكاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم وذلك يسير عليه غير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيهـا من المفسـدة أضعـاف أضعـاف ما في مجـالسـة من يعصي الله بفعـل شيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه فيعمل بذلك مدة عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر.

قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله، وعن أبي جعفر قال: لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله، وعن محمد بن علي قال: إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون في آيات الله.

وقال مقاتل: كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي

ﷺ خاضوا واستهزؤوا فقال المسلمون: لا يصلح لنا مجالستهم، نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فأنزل الله هذه الآية، وقال السدي: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف ولا يصح.

﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ فقعدت معهم ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ أي إذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد ﴿مع القوم الظالمين﴾ أي المشركين، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر نعياً عليهم أنهم بذلك الخوض واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون في ذلك.

قال مجاهد: نهى محمد ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى فإذا ذكر فليقم وذلك قول الله يعني هذه الآية، وعن ابن سيرين: أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت في أهل الأهواء.

وقرىء بتشديد السين والمعنى إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد إذا ذكرت مع الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها، قيل وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبي ﷺ فالمراد التعريض لأمته لتنزهه عن أن ينسيه الشيطان، وقيل لا وجه لهذا فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني، ونحو ذلك.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وما على الذين يتقون﴾ مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله ﴿من حسابهم﴾ أي الكفار ﴿من شيء﴾ وقيل المعنى ما على الذين يتقون ما يقع منهم من الخوض في آيات الله في مجالستهم لهم من شيء، وعلى هذا التفسير ففي الآية الترخيص للمتقين في مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى ذلك.

قيل: وهذا الترخيص كان في أول الإسلام، وان الوقت وقت تقية ثم نزل قوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فنسخ ذلك، والحق أنها محكمة بإجماع أهل العلم خلافاً للكلبي كما تقدم في سورة النساء.

عن عمر بن عبد العزيز: أنه أُتِيَ بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم فضربه وقال: لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره وقيل مجالستهم مباحة بشرط الوعظ والنهي عن المنكر.

﴿ولكن ذكرى﴾ قال الكسائي: المعنى ولكن هذه ذكرى، والمعنى على الاستدراك من النفي السابق أي ولكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز، أما على التفسير الأول فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما على التفسير الثاني فالترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير، وفيه وجوه أخرى.

﴿لعلهم يتقون﴾ الخوض في آيات الله إذا وقعت منكم الذكرى لهم، وأما جعل الضمير للمتقين فبعيد جداً.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وذر الذين اتخذوا دينهم﴾ أي اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذي كان يحق عليهم العمل به والدخول فيه ودعوا إليه وهو دين الإسلام ﴿لعباً ولهواً﴾ حيث سخروا به واستهزؤوا فيه، فلا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت وإن كنت مأموراً بابلاغهم الحجة، وقيل هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقيل المعنى أنهم اتخذوا دينهم الذي هم عليه لعباً ولهواً كما في فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات والضلالات المتقدم ذكرها.

وقيل المراد بالدين هنا العيد أي اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً قال قتادة أي أكلاً وشرباً وكذا من جعل طريقته الخمر والزمر والرقص ونحوه، وفي البيضاوي بنوا أمر دينهم على التشهي وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً كعبادة الصنم وتحريم البحائر والسوائب، والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم، وقال مجاهد: هو مثل قوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ يعني أنه للتهديد، وعلى هذا تكون الآية محكمة.

﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ حتى آثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا [إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين]﴿وذكر به﴾ أي بالقرآن أوبالحساب أي لِ ﴿أن﴾ لا ﴿تبسل نفس﴾ الإبسال تسليم المرء نفسه للهلاك ومنه أبسلت ولدي أي رهنته في الدم، لأن عاقبته ذلك الهلاك، وأصل الابسال والبسل في اللغة التحريم والمنع، يقال هذا عليك بسل أي حرام ممنوع، ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه أو لأنه ممتنع، والباسل الشجاع لامتناعه

من قرنه، وهذا بسيل عليك أي ممنوع.

قال أبو عبيد: المتبسل الذي يسلم نفسه على الموت أو الضرب وإن استبسل أي أن يطرح نفسه في الحرب ويريد أن يقتل، فالمعنى وذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس ﴿بما كسبت﴾ أي ترتهن وتسلم للهلكة وتحبس في جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام.

وعن ابن عباس: أن تبسل أن تفضح وأبسلوا فضحوا وقال قتادة: تحبس في جهنم وقال الضحاك: تحرق بالنار وقال ابن زيد: تؤخذ به.

﴿ليس لها﴾ أي لتلك النفس التي هلكت ﴿من دون الله﴾ من لابتداء الغاية وقيل: إنها زائدة نقله ابن عطية وليس بشيء، والأول أظهر ﴿ولي﴾ قريب ناصر يلي أمرها ﴿ولا شفيع﴾ يشفع في الآخرة ويمنع عنها العذاب.

﴿وإن تعدل كل عدل﴾ العدل هنا الفدية والمعنى وإن بذلت تلك النفس التي سلمت للهلاك كل فدية ﴿لا يؤخذ منها﴾ ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك ﴿أولئك﴾ أي المتخذون دينهم لعباً ولهواً وهو مبتدأ، وخبره ﴿الذين أبسلوا﴾ أي أسلموا للهلاك ﴿بما كسبوا﴾ أي بجرائرهم.

وجملة ﴿لهم شراب من حميم﴾ مستأنفة كانه قيل كيف هؤلاء فقيل لهم شراب، الآية وهو الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ومثله قوله تعالى: ﴿يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم﴾ وهو هنا شراب يشربونه فيقطع امعاءهم ﴿وعذاب أليم﴾ مؤلم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي بسبب كفرهم.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ أمره الله سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة، والاستفهام للتوبيخ أي كيف ندعو من دون الله أصناماً لا تنفعنا بوجه من الوجوه إن أردنا منها نفعاً، ولا نخشى ضرها بوجه من الوجوه، ومن كان هكذا فلا يستحق للعبادة.

﴿ونرد على أعقابنا﴾ جمع عقب أي كيف ندعو من كان كذلك ونرجع إلى الضلالة التي أخرجنا الله منها، قال أبو عبيدة: يقال لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها قد رد على عقبيه، وقال المبرد: تعقب بالشر بعد الخير، وأصله من المعاقبة والعقبى وهما ما كان تالياً للشيء واجباً أن يتبعه، ومنه ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ومنه عقب الرجل ومنه العقوبة لأنها تالية للذنب.

﴿بعد إذ هدانا الله﴾ إلى دين الاسلام والتوحيد ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ هوى يهوى إلى الشيء أسرع إليه، قال الزجاج: هو من هوى النفس أي زين له الشيطان هواه واستهوته الشياطين هوت به أي نرد حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين، أي ذهبت به مردة الجن فألقته في هوية من الأرض بعد أن كان بين الانس، وعلى هذا أصله من الهوى وهو النزول من أعلى إلى أسفل.

﴿حيران﴾ أي حال كونه متحيراً تائهاً لا يدري كيف يصنع، والحيران

هو الذي لا يهتدي لجهة، وقد يقال حار يحار حيرة وحيرورة إذا تردد وبه سمي الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائراً.

﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ صفة لحيران أو حال أي له رفقة يقولون له ﴿ائتنا﴾ فلا يجيبهم ولا يهتدي بهديهم وبقي حيران لا يدري أين يذهب.

﴿ قل ﴾ أمره سبحانه بأن يقول لهم ﴿ إن هدى الله ﴾ أي دينه الذي ارتضاه لعباده ﴿ هو الهدى ﴾ وما عداه باطل ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾.

﴿وأمرنا لنسلم﴾ هي لام العلة والمعلل هو الأمر أي أمرنا لأجل أن نسلم، قاله الزمخشري وقال الفراء: أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب وبأن تذهب بمعنى، وقال النحاس: سمعت ابن كيسان يقول هي لام الخفض وقيل زائدة.

﴿لرب العالمين﴾ لأنه هو الذي يستحق العبادة لا غيره ﴿و﴾ أمرنا ﴿أن أقيموا الصلاة﴾ ويجوز أن يكون عطفاً على يدعونه أي يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا ﴿واتقوه﴾ لأن فيهما ما يقرب إليه.

﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ يوم القيامة فكيف تخالفون أمره مستأنفة موجبة لامتثال ما أمر به من الأمور الثلاثة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣)﴾

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ خلقاً ﴿بالحق﴾ أو حال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة أو اظهاراً للحق، وعلى هذا الباء بمعنى اللام وقيل كل ذلك بالحق وقيل خلقهما بكلامه الحق، وهو قوله كن وقيل بالحكمة أو محقاً لا هازلاً ولا عبثاً.

﴿و﴾ اذكروا أو اتقوا ﴿يوم يقول﴾ للسموات والأرض ﴿كن﴾ والمراد بالقول المذكور حقيقته أو المراد به التمثيل والتشبيه تقريباً للعقول، لأن سرعة قدرته تعالى أقل زمناً من زمن النطق بكن والأول أولى ﴿فيكون﴾ تام وفي فاعله أوجه.

(احدها) أنه ضمير جميع ما يخلقه الله تعالى يوم القيامة.

(الثاني) انه ضمير الصور المنفوخ فيه ودل عليه يوم ينفخ في الصور.

(الثالث) انه ضمير اليوم أي فيكون ذلك اليوم العظيم.

(الرابع) أن الفاعل هو ﴿قوله﴾ و ﴿الحق﴾ صفته أي فيوجد قوله الحق ويكون الكلام على هذا قد تم على الحق.

والمعنى قوله للشيء إذا أراده كن فيكون حق وصدق، وقيل المعنى لا يكون شيء من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب، وقيل المعنى وأمره المتعلق بالأشياء الحق أي المشهود له بأنه حق وقيل المعنى قوله المتصف بالحق كائن يوم يقول، الآية وقرىء فنكون بالنون وهو إشارة إلى

سرعة الحساب وقرىء بالتحتية وهو الصواب.

﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ أي له الملك في هذا اليوم وقيل هو بدل من اليوم الأول أخبر عن ملكه يومئذ وإن كان الملك له خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة لأنه لا منازع له يومئذ يدعى الملك، والصور قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء والثانية للإنشاء، وهو لغة أهل اليمن، وكذا قال الجوهري: ان الصور القرن أي المستطيل وفيه جميع الأرواح وفيه ثقب بعددها فاذا نفخ خرجت كل روح من ثقبها ووصلت لجسدها فتحله الحياة.

قال مجاهد: الصور كهيئة البوق وقرىء الصور جمع صورة والمراد الخلق وبه قال الحسن ومقاتل قال أبو عبيدة: وهذا وإن كان محتملاً يرد بما في الكتاب والسنة قال الله تعالى: ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾.

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وعبد بن حميد وابن المبارك عن عبدالله ابن عمرو قال سئل النبي ﷺ عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه»[1]، وأجمع عليه أهل السنة، والأحاديث الواردة في كيفية النفخ ثابتة في كتب الحديث لا حاجة لنا إلى إيرادها ههنا.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ صفة للذي خلق السموات والأرض أو هو يعلم ما غاب من عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن علمه شيء ﴿وهو الحكيم﴾ في جميع ما يصدر عنه ﴿الخبير﴾ بكل شيء.

---

(١) رواه الامام احمد في «المسند» ١٠/١٠، ١١، والترمذي: ٣/٢٩٥، وصححه، وابو داود في «سننه» ٤/٣٢٦، ورواه الحاكم في «المستدرك» ٢/٤٣٦، ٥٠٦ و٤/٥٦٠، وصححه ووافقه الذهبي.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ اختلف أهل العلم في لفظة آزر، قال الجوهري آزر اسم أعجمي وهو مشتق من آزر فلان فلاناً إذا عاونه فهو موازر قومه على عبادة الأصنام، وقال ابن فارس: انه مشتق من القوة قال الجويني: في النكت من التفسير انه ليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تارخ ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة، والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر، وقد تعقب في دعوى الاتفاق بما روي عن ابن اسحق والضحاك والكلبي انه كان له اسمان آزر وتارخ وقال مقاتل: آزر لقب وتارخ اسم.

وقال البخاري في تاريخه الكبير: إبراهيم بن آزر وهو في التوراة تارخ والله سماه آزر، وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارخ ليعرف بذلك وكان من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة.

وقال سليمان التيمي: إن آزر سب وعتب ومعناه في كلامهم المعوج، وقال الضحاك: معنى آزر الشيخ الهرم بالفارسية، وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن الفاظاً قليلة فارسية، وقال الفراء: هي صفة ذم بلغتهم كأنه قال يا مخطىء وروى مثله عن الزجاج وعن السدي قال اسم أبيه تارخ واسم الصنم آزر.

وقال ابن عباس: الآزر الصنم وأبو ابراهيم اسمه يازر، وأمه اسمها مثلى، وامرأته اسمها سارة وسريته أم اسمعيل اسمها هاجر، وقال سعيد بن

المسيب ومجاهد: إما للتعيير له لكونه معبوده أو على حذف مضاف أي قال لأبيه عابد آزر أو أتعبد آزر على حذف الفعل.

والصحيح أن آزر اسم لأبي ابراهيم لأن الله سماه به وعليه جرى جمهور المفسرين، وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارخ ففيه نظر، لأنهم إنما نقلوه من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم.

وقد أخرج البخاري في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة»[1]، الحديث وسماه النبي ﷺ آزر أيضا ولا قول لأحد مع قول الله تعالى ورسوله كائناً من كان.

والمعنى أذكر إذ قال إبراهيم لآزر ﴿أتتخذ أصناماً﴾ جمع صنم وهو والتمثال والوثن بمعنى، وهو الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان أي أتجعلها ﴿آلهة﴾ لك تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك ﴿إني أراك﴾ الرؤية إما علمية وإما بصرية، والجملة تعليل للإنكار والتوبيخ ﴿وقومك﴾ المتبعين لك في عبادة الاصنام ﴿في ضلال﴾ عن طريق الحق ﴿مبين﴾ واضح بين لأن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع.

﴿وكذلك﴾ أي مثل تلك الإراءة ﴿نري إبراهيم﴾ والجملة معترضة قيل كانت هذه الرؤية بعين البصر، وقيل بعين البصيرة ومعنى نرى أريناه حكاية حال ماضية أي أريناه ذلك، وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر، فأراد أن ينبههم على الخطأ وقيل: إنه ولد في سرب وجعل رزقه في أطراف أصابعه فكان يمصها، وسبب جعله في السرب أن النمرود رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود.

﴿ملكوت السموات والأرض﴾ أي ملكهما وزيدت التاء والواو للمبالغة

(١) صحيح الجامع الصغير ٨٠١٤.

في الصفة ومثله الرغبوت والرهبوت، مبالغة في الرغبة والرهبة قيل أراد بملكوتها ما فيهما من الخلق، وقيل عجائبهما وبدائعهما وقيل آياتهما، وقيل كشف الله عن ذلك حتى رأى إلى العرش وإلى أسفل الأرضين، وقيل رأى من ملكوتهما ما قصه الله في هذه الآية.

قال ابن عباس: كشف ما بين السموات حتى نظر اليهن على صخرة والصخرة على حوت وهو الحوت الذي منه طعام الناس، والحوت في سلسلة والسلسة في خاتم العزة(١).

وقال مجاهد: سلطانهما، وقيل المراد بملكوتهما الربوبية والإلهية أي نريه ذلك ونوفقه لمعرفته بطريق الإستدلال التي سلكها، قال قتادة: ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار.

وهذه الأقوال لا تقتضي أن تكون الأراءة بصرية إذ ليس المراد باراءة ما ذكر من الأمور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من إبصارها ومشاهدتها في أنفسها، بل اطلاعه على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شؤونه عز وجل، ولا ريب في أن ذلك ليس مما يدرك حساً كما ينبىء عنه اسم الإشارة المفصح عن كون المشار إليه أمراً بديعاً فإن الاراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك المثابة.

﴿وليكون من الموقنين﴾ أي ليستدل به ويكون من أهل اليقين عياناً كما أيقن بياناً واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة، قال ابن عباس: جلالَهُ الأمر سراً وعلانية فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق، أو المعنى أريناه ذلك ليكون ممن يوقن علم كل شيء حساً وخبراً.

---

(١) هذا لا يصح لأنه من عالم الغيب والغيب نقف فيه عند خبر المعصوم.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ
قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿فلما جن عليه﴾ أي ستره ﴿الليل﴾ بظلمته ومنه الجنة والمجن والجن كله من الستر أي واذكر إذ جن الليل، يقال جن الليل وأجن إذا أظلم وغطى كل شيء وهذه قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه ﴿رأى كوكباً﴾ قيل رأى من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذي كان فيه، وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس، وقيل رأى المشتري وقيل الزهرة.

﴿قال هذا ربي﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل فماذا قال عند رؤية الكوكب قيل وكان هذا منه عند قصور النظر لأنه في زمن الطفولية وقيل كان بعد بلوغ إبراهيم، وعليه جمهور المحققين.

ثم اختلف في تأويل هذه الآية فقيل أراد قيام الحجة على قومه كالحاكي لما هو عندهم وما يعتقدونه لأجل إلزامهم، وقيل معناه أهذا ربي؟ أنكر أن يكون مثل هذا رباً، ومثله قوله تعالى: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ أي أفهم الخالدون؟ وقيل المعنى وأنتم تقولون هذا ربي فأضمر القول وقيل المعنى على حذف مضاف أي هذا دليل ربي.

﴿فلما أفل﴾ أي غرب وغاب، والأفول غيبة النيرات ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿لا أحب الآفلين﴾ يعني لا أحب رباً يغيب ويطلع فإن الغروب تغير من حال إلى حال، وهو دليل الحدوث فلم ينجع فيهم ذلك.

﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾ أي طالعاً منتشر الضوء يقال بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، والبزغ الشق كأنه يشق بنوره الظلمة ﴿قال﴾ لهم أ ﴿هذا ربي﴾ بزعمكم وقد تقدم الكلام فيه.

﴿ فلما أفل ﴾ أي غاب ﴿ قال لئن لم يهدني ربي ﴾ أي لئن لم يثبتني على الهداية ويوفقني للحجة ، وليس المراد أنه لم يكن مهتدياً لأن الأنبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة ، وفي الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى لأن إبراهيم أضاف الهداية إليه سبحانه وتعالى ﴿ لأكونن من القوم الضالين ﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ويحرمونها حظها من الخير .

﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ الرؤية بصرية ﴿قال هذا ربي﴾ وإنما قال هذا مع كون الشمس مؤنثة لأن مراده هذا الطالع قاله الكسائي والأخفش، وقيل هذا الضوء وقيل الشخص وقيل لأن تأنيث الشمس غير حقيقي ﴿هذا أكبر﴾ أي مما تقدمه من الكوكب والقمر، وقيل أكبر جرماً وضوءاً ونفعاً فسعة جرم الشمس مائة وعشرون سنة كما قاله الغزالي.

﴿فلما أفلت﴾ أي غابت الشمس وقويت عليهم الحجة ولم يرجعوا ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي من الأشياء التي تجعلونها شركاء لله وتعبدونها من الأصنام والأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر مستدلاً على ذلك بأفولها الذي هو دليل حدوثها.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿إني وجهت وجهي﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل، وذكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدم ﴿للذي فطر السموات والأرض﴾ أي خلقهما وابتدعهما ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً إلى الدين الحق ﴿وما أنا من المشركين﴾ به، تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه.

﴿وحاجه قومه﴾ أي وقعت منهم المحاجة له في توحيده بما يدل على ما يدعونه من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة فأجاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما حكاه الله عنه أنه ﴿قال اتحاجوني في الله﴾ أي في كونه لا شريك له ولا ند له ولا ضد ﴿وقد هدانِ﴾ إلى توحيده وأنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية.

﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ قال هذا لما خوفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه أي: إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع، وإنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضرر، والضمير في به يجوز رجوعه إلى الله وإلى معبوداتهم المدلول عليها بما في ما تشركون به.

﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ أي إلا وقت مشيئة ربي بأن يلحقني شيئاً من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التي لا تضر ولا تنفع، والمعنى على نفي حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال،

وإثبات الضرر والنفع لله سبحانه وصدورهما حسب مشيئته، والاستثناء على هذا متصل لأنه من جنس الأول والمستثنى منه الزمان كما أشار إلى ذلك في الكشاف، وقيل منقطع بمعنى لكن وعليه جرى ابن عطية والحوفي وهو أحد قولي أبي البقاء والكواشي، وإليه نحا السيوطي، قال الحوفي تقديره لكن مشيئة الله إياي بضر أخافها.

ثم علل ذلك بقوله ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ يعني أن علمه محيط بكل شيء فلا يخرج شيء عن علمه قال أبو البقاء: لأن ما يسع الشيء فقد أحاط به، والعالم بالشيء محيط بعلمه فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته، وإذا شاء إنزال شر بي كان حسب مشيئته ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ثم قال لهم مكملاً للحجة عليهم ودافعاً لما خوفوه به ﴿أفلا تتذكرون﴾ أي تعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع، وأن النافع الضار هو الذي خلق السموات والأرض ومن فيهما.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨١﴾

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ أي كيف أخاف ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق ولا يبصر ولا يسمع ولا يقدر شيئاً استئناف مسوق لنفي الخوف عنه بالطريق الإلزامي بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر بقوله سابقاً ولا أخاف ما تشركون به.

﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ أي والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله وهو الضار النافع الخالق الرازق، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامي الذي لا يجدون عنه مخلصاً ولا متحولاً، والاستفهام للانكار عليهم والتقريع لهم.

﴿ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ أي ما ليس لكم فيه حجة وبرهان يعني لا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التي لم ينزل بها عليكم سلطاناً شركاء لله، والمعنى أن الله سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها، فكيف عبدوها واتخذوها آلهة وجعلوها شركاء الله سبحانه.

﴿فأي الفريقين أحق بالأمن﴾ المراد فريق المؤمنين وفريق المشركين أي إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودي هو الله المتصف بتلك الصفات، ومعبودكم هي تلك المخلوقات والجمادات، فكيف تخوفوني بها وكيف أخافها وهي بهذه المنزلة، ولا تخافون من إشراككم بالله سبحانه، وبعد هذا فأخبروني أي الفريقين أحق بالأمن من العذاب وعدم الخوف في يوم القيامة الموحد أم المشرك، ولم يقل أينا أحق أنا أم أنتم احترازاً عن تزكية نفسه، والمراد من الأحق الحقيق.

﴿إن كنتم تعلمون﴾ بحقيقة الحال وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة، ثم قال الله سبحانه قاضياً بينهم ومبيناً لهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا، وقيل من تمام قول إبراهيم، وقيل هو من قول قوم إبراهيم، أقوال للعلماء وعليها تترتب الأعاريب التي ذكرها السمين في هذا المقام لا نطول بذكرها، والمعنى لم يخلطوه بظلم والمراد بالظلم الشرك وقد فسره به أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي وأبي بن كعب وابن عباس.

وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ذلك، ويغني عن الجميع في تفسير الآية ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: أينا لم يظلم نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»[1].

والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول في تفسير هذه الآية وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس، وهو لا يدري أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

وفي زاده على البيضاوي وذهب المعتزلة إلى أن المراد بالظلم في الآية المعصية لا الشرك بناء على أن خلط أحد الشيئين بالآخر يقتضي اجتماعهما ولا

---

(١) ابن كثير ٢/١٥٢ - ١٥٣.

يتصور خلط الإيمان بالشرك لأنهما ضدان لا يجتمعان، وهذه الشبهة ترد عليهم بأن يقال كما أن الإيمان لا يجامع الكفر فكذلك المعصية لا تجامع الإيمان عندكم لكونه إسماً لفعل الطاعات واجتناب المعاصي، فلا يكون مرتكب الكبيرة مؤمناً عندكم انتهى.

والإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ إلى الموصول المتصف بما ذكر ﴿لهم الأمن﴾ يوم القيامة من عذاب النار، وفي الآية دليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئاً كانت عاقبته الأمن من عذاب النار، والجملة وقعت خبراً عن اسم الإشارة هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه ﴿وهم مهتدون﴾ إلى الحق ثابتون عليه، وغيرهم على ضلال وجهل.

والإشارة بقوله: ﴿وتلك حجتنا﴾ إلى ما تقدم من الحجج التي أوردها إبراهيم عليهم، أي تلك البراهين التي جرت بين إبراهيم وبين قومه من قوله: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ أو من قوله: ﴿أتحاجوني﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ وقال السمين من قوله: ﴿وكذلك نرى إبراهيم﴾ إلى قوله وما أنا من المشركين.

﴿آتيناها إبراهيم﴾ أي أعطيناها إياه وأرشدناه إليها حجة ﴿على قومه نرفع درجات من نشاء﴾ بالهداية والعلم والفهم والعقل والفضيلة والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة أو بما هو أعم من ذلك، وفيه نقض قول المعتزلة في الأصلح قال الضحاك: إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء ﴿إن ربك حكيم﴾ في كل ما يصدر عنه ﴿عليم﴾ بحال عباده أن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لا يستحقه، خطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم على ما قاله السمين وأبو حيان.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿ووهبنا له إسحق﴾ إبناً لصلبه ﴿ويعقوب﴾ ولد الولد أي وهبنا له ذلك جزاء على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه، والمقصود من تلاوة هذه النعم على محمد صلى الله عليه وآله وسلم تشريفه لأن شرف الوالد يسري إلى الولد، وجملة ما ذكر في هذه الآية ثمانية عشر رسولاً وبقي سبعة وهم آدم وإدريس وشعيب وصالح وهود وذو الكفل ومحمد فهؤلاء الخمسة والعشرون رسولاً هم الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً.

﴿كلا﴾ أي كل واحد منهما ﴿هدينا﴾ إلى سبيل الرشاد وطريق الحق والصواب الذي أوتيه إبراهيم فإنهما مقتديان به ﴿ونوحاً هدينا﴾ بين آدم ونوح ألف ومائة سنة، وعاش آدم تسعمائة وستين سنة ونوح ابن لمك وكان بين إدريس ونوح ألف سنة، وإبراهيم ولد على رأس ألفي سنة من آدم وبينه وبين نوح عشرة قرون، وعاش إبراهيم مائة وخمساً وسبعين سنة، وولده اسمعيل عاش مائة وثلاثين سنة، وكان له حين مات أبوه تسع وثمانون سنة. وأخوه إسحق ولد بعده بأربع عشرة سنة وعاش مائة وثمانين سنة.

ويعقوب بن اسحاق عاش مائة وسبعاً واربعين، ويوسف بن يعقوب عاش مائة وعشرين سنة، وبينه وبين موسى أربعمائة سنة، وبين موسى وإبراهيم خمسمائة وخمس وستون سنة، وعاش موسى مائة وعشرين سنة، وبين موسى وداود خمسمائة وتسع وستون سنة وعاش مائة سنة، وولده

سليمان عاش نيفاً وخمسين سنة، وبينه وبين مولد النبي ﷺ نحو ألف وسبعمائة سنة.

وأيوب عاش ثلاثاً وستين سنة وكانت مدة بلائه سبع سنين، ويونس هو ابن متى وهي أمه ذكره السيوطي في التحبير في علم التفسير.

﴿من قبل﴾ أي من قبل ابراهيم بعشرة قرون، وأرشدناه للحق والصواب ومننا عليه بالهداية ﴿ومن ذريته﴾ أي من ذرية ابراهيم لأن مساق النظم الكريم لبيانشؤونه العظيمة من إيتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الاولاد الأنبياء وإبقاء هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة، كل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته عليه السلام من المشركين واليهود.

وقال الفراء: من ذرية نوح واختاره ابن جرير والطبري والقشيري وابن عطية وجمهور المفسرين لأنه أقرب، ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية ابراهيم، فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين في هذه الآية والتي بعدها، وأما المذكورون في الآية الثالثة فعطف على نوحاً وقال الزجاج: كلا القولين جائز لأن ذكرهما جميعاً قد جرى.

﴿داود﴾ هو ابن ميشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة ﴿وسليمان﴾ كذلك وهو ابن داود ﴿وأيوب﴾ هو ابن اموص بن رازخ بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم ﴿ويوسف﴾ هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ﴿وموسى﴾ هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ﴿وهرون﴾ هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة، وإنما عد الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عددها ابراهيم لأن شرف الأبناء متصل بالآباء.

﴿وكذلك﴾ الجزاء ﴿نجزي المحسنين﴾ ﴿وزكريا﴾ هو ابن آدن بن بركيا ﴿ويحيى﴾ هو ابن زكريا ﴿وعيسى﴾ هو ابن مريم بنت عمران ﴿وإلياس﴾ هو ادريس قاله ابن مسعود، وقال محمد بن اسحق: هو إلياس بن سنا بن

فنحاص ابن العيزار بن هرون بن عمران، وهذا هو الصحيح لأن أهل الانساب قالوا إن ادريس جد نوح ولأن الله نسب إلياس في هذه الآية إلى نوح وجعله من ذريته، وقال الضحاك: إلياس من ولد اسمعيل.

وقال القتيبي: هو من سبط يوشع بن نون، قال محمد بن كعب: الخال والد، والعم والد نسب الله عيسى إلى اخواله فقال: ﴿ومن ذريته﴾ حتى بلغ إلى قوله زكريا ويحيى وعيسى.

أخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقي عن عبد الملك بن عمير قال: دخل يحيى بن يعمر على الحجاج فذكر الحسين رضي الله عنه فقال الحجاج: لم يكن من ذرية النبي ﷺ فقال يحيى: كذبت فقال: لتأتيني على ما قلت ببينة فتلا ﴿ومن ذريته إلى قوله وعيسى﴾ فأخبر الله أن عيسى من ذرية آدم بأمه فقال صدقت، وقد رويت هذه القضية بألفاظ وطرق، وفيه دليل على أن النسب يثبت من قبل الأم أيضاً لأنه جعله من ذرية نوح وهو لا يتصل به إلا بالأم.

﴿كل من الصالحين﴾ أي كل من ذكرنا وسمينا من أهل الصلاح ﴿واسمعيل﴾ هو ابن ابراهيم، وإنما أخر ذكره إلى هنا لأنه ذكر اسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد.

﴿واليسع﴾ هو ابن اخطوب بن العجوز وقد توهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم فإن الله أفرد كل واحد منهما، وقال وهب اليسع صاحب إلياس وكانا قبل يحيى وعيسى وزكريا وقيل اليسع هو الخضر ﴿ويونس﴾ هو ابن متى ﴿ولوطاً﴾ هو ابن هاران أخي ابراهيم ﴿وكُلًّا فضلنا على العالمين﴾ أي وكل واحد فضلناه بالنبوة على عالمي زمانه، والجملة معترضة.

ويستدل بهذه الآية من يقول: إن الأنبياء أفضل من الملائكة لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله فيدخل فيه الملك، وقد ذكر سبحانه هنا ثمانية عشر نبياً من غير ترتيب لا بحسب الفضل ولا بحسب الزمان لأن الواو لا تقتضي الترتيب.

وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾
ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿ومن آبائهم﴾ من للتبعيض لأن من آباء بعضهم من لم يكن مسلماً ﴿وذرياتهم﴾ أي بعضهم لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان في ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح.

﴿واخوانهم واجتبيناهم﴾ أي اخترناهم، الاجتباء الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار مشتق من جبيت الماء في الحوض أي جمعته، فالاجتباء ضم الذي تجتبيه إلى خاصتك، والجابية الحوض ﴿وهديناهم﴾ أي أرشدناهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي إلى دين الحق.

﴿ذلك﴾ الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة ﴿هدى الله يهدي به﴾ الله ﴿من يشاء من عباده﴾ وهم الذين وفقهم للخير واتباع الحق.

﴿ولو اشركوا﴾ أي هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله ﴿لحبط عنهم﴾ الحبوط البطلان والذهاب، وقد تقدم تحقيقه في البقرة ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الطاعات قبل ذلك لأن الله لا يقبل مع الشرك من الأعمال شيئاً.

﴿أولئك﴾ أي الانبياء المذكورون سابقاً ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أي جنس الكتاب ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين، وليس لكل

منهم كتاب فالمراد بإيتاء الكتاب لكل منهم تفهيم ما فيه أعم من أن يكون ذلك بالإنزال عليه ابتداء أو بوراثة من قبله ﴿والحكم﴾ العلم ﴿والنبوة﴾ الرسالة أو ما هو أعم من ذلك ﴿فإن يكفر بها﴾ الضمير راجع إلى الحكم والنبوة والكتاب أو للنبوة فقط.

و﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى كفار قريش بمكة المعاندين لرسول الله ﷺ ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ أي أرصدنا لها وأعددنا وألزمنا بالإيمان بها قوماً.

﴿ليسوا بها بكافرين﴾ وهم المهاجرون والانصار، والباء زائدة، قال ابن عباس: فان يكفر أهل مكة بالقرآن فقد وكلنا به أهل المدينة والانصار، وقال قتادة: هم الانبياء الثمانية عشر، وقال أبو رجاء العطاردي: هم الملائكة، وفيه بعد، لأن اسم القوم لا ينطبق إلا على بني آدم، وقيل هم الفرس، قال ابن زيد: كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكاً أو نبياً أو من الصحابة أو التابعين، والأولى أن المراد بهم الأنبياء المذكورون سابقاً لقوله فيها بعد:

﴿أولئك الذين هدى الله﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والانصار إذ لا يصح أن يؤمر النبي ﷺ بالإقتداء بهداهم وتقديم ﴿فبهداهم﴾ على الفعل أي ﴿اقتده﴾ يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء، قرىء اقتده بهاء السكت وقفاً ووصلاً، وهي حرف تجتلب للاستراحة عند الوقف فثبوتها وقفاً لا إشكال فيه، وأما ثبوتها وصلاً فاجراء له مجرى الوقف، وفي قراءة بحذفها وصلاً لحمزة والكسائي.

والاقتداء طلب موافقة الغير في فعله، وقيل المعنى اصبر كما صبروا، وقيل اقتد بهم في التوحيد وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة، وقيل في جميع الاخلاق الحميدة والافعال المرضية، والصفات الرفيعة الكاملة، وفيها دلالة على أنه ﷺ مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص.

أخرج البخاري والنسائي وغيرهما عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهداهم وكان يسجد في ﴿ص﴾ ولفظ ابن أبي حاتم عن مجاهد سألت ابن عباس عن السجدة التي في ﴿ص﴾ فقرأ هذه الآية وقال: أمر نبيكم أن يقتدى بداود عليه السلام[1] .

وقد احتج أهل العلم بهذه الآية على أن رسول الله ﷺ أفضل من جميع الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرقة في جميعهم.

﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أي على القرآن أو على التبليغ، فإن سياق الكلام يدل عليهما وإن لم يجر لهما ذكر ﴿أجراً﴾ عوضاً من جهتكم، قال ابن عباس: قل لهم يا محمد لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضاً من عروض الدنيا وكان ذلك من جملة هداهم.

﴿إن هو﴾ أي ما القرآن ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ أي موعظة وتذكير للخلق كافة الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد، وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الجن والانس وأن دعوته عمت جميع الخلائق.

---

(١) وسيأتي تفصيله في تفسير سورة ص ان شاء الله .

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى
جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا
لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ
أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ قدرت الشيء وقدرته عرفت مقداره وأصله الستر ثم استعمل في معرفة الشيء أي لم يعرفوه حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسل وإنزاله للكتب قاله الاخفش، وقيل المعنى وما قدروا نعم الله حق تقديرها، قال ابن عباس: هم الكفار لم يؤمنوا بقدرة الله، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير قد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، وقال مجاهد: قالها مشركو العرب، وعنه قال ما عظموا الله حق عظمته، وقال أبو العالية: ما وصفوا الله حق صفته، ويصح جميع ذلك في معناه[1].

﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ قال ابن عباس: قالت اليهود

---

(١) وروي أن مالك بن الصيف رأس اليهود، أتى رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال له رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أتجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين؟» قال: نعم، قال: «فأنت الحبر السمين». فغضب، ثم قال: (ما أنزل الله على بشر من شي) فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس؛ وكذلك قال سعيد بن جبير، وعكرمة: نزلت في مالك بن الصيف.
رجح هذا القول ابن كثير، وقال: إنه الأصح، لأن الآية مكية، واليهود ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر كما قال: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً. قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الاسراء: ٩٤، ٩٥].

يا محمد أأنزل الله عليك كتاباً قال: نعم قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، وعن السدي قاله فنحاص اليهودي فنزلت، وعن عكرمة قال: نزلت في مالك بن الصيف وعن سعيد بن جبير نحوه، ولكن بأطول منه، والمعنى الذين قالوا ذلك ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته، إذ لو عرفوه لما قالوا هذه المقالة.

ولما وقع منهم هذا الانكار وهم من اليهود أمر الله نبيه ﷺ أن يورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها فقال: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾.

وهم يعترفون بذلك ويذعنون له، وكان في هذا من التبكيت لهم والتقريع ما لا يقادر قدره مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال الله على البشر وهم الأنبياء عليهم السلام، فبطل جحدهم وتبين فساد إنكارهم، وقيل: إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش فيكون إلزامهم بإنزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ويعلمونه بالاخبار من اليهود وقد كانوا يصدقونهم.

﴿نوراً وهدى للناس﴾ أي التوراة ضياء من ظلمة الضلالة، وبيان يفرق بين الحق والباطل من دينهم، وذلك قبل أن تغير وتبدل ﴿تجعلونه﴾ بالتاء والياء أي الكتاب الذي جاء به موسى في ﴿قراطيس﴾ أو ذا قراطيس أو نزلوه منزلة القراطيس، وقد تقدم تفسير القرطاس أي يضعونه فيها ويكتبونه مقطعاً وورقات مفرقة ليتم لهم ما يريدونه من التحريف والتبديل والابداء والإخفاء وكتم صفة النبي ﷺ المذكورة فيه، وهذا ذم لهم قال مجاهد هم اليهود.

﴿تبدونها﴾ أي القراطيس المكتوبة ﴿وتخفون كثيراً﴾ مما كتبوه في القراطيس ومما أخفوه أيضاً آية الرجم، وكانت مكتوبة عندهم في التوراة.

﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ الخطاب لليهود ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقررة لما قبلها والذي علموه هو الذي أخبرهم به نبينا ﷺ من الأمور التي أوحى الله اليه بها فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم ولا على لسان أنبيائهم ولا علمه أنبياؤهم، ويجوز أن تكون «ما» في ما لم تعلموا عبارة عما علموه من التوراة فيكون ذلك على وجه المن عليهم بإنزال التوراة.

وقيل الخطاب للمشركين من قريش وغيرهم فتكون «ما» عبارة عما علموه من رسول الله ﷺ، قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيعوه ولم ينتفعوا به، وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان محمد ﷺ، والأول أولى، وقال قتادة: هم اليهود آتاهم علماً فلم يقتدوا به ولم يأخذوا به، ولم يعملوا، فذمهم الله في علمهم ذلك.

ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذي ألزمهم به حيث قال: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى فقال: ﴿قل﴾ أنزله ﴿الله﴾ فانهم لا يقدرون أن يناكروك، وقيل قل أنت الله الذي أنزله، والأول أولى.

﴿ثم ذرهم في خوضهم﴾ أي في باطلهم وكفرهم بالله حال كونهم ﴿يلعبون﴾ أي يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون، وقيل معناه يسخرون ويستهزئون، وفيه وعيد وتهديد بالمشركين وقيل هذا منسوخ بآية السيف، وفيه بعد ظاهر.

﴿وهذا كتاب أنزلناه﴾ هذا من جملة الرد عليهم في قولهم: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ أخبرهم بأن الله أنزل التوراة وعقبه بقوله: ﴿وهذا كتاب﴾ أنزله الله من عنده على محمد ﷺ فكيف تقولون ما أنزل الله على بشر

من شيء ﴿مبارك﴾ كثير البركة والخير دائم النفع، وأصل البركة النماء والزيادة ﴿مصدق﴾ أي كثير التصديق ﴿الذي بين يديه﴾ أي ما أنزله الله من الكتب من السماء على الأنبياء من قبله كالتوراة والانجيل، فإنه يوافقها في الدعوة إلى الله والى توحيده وإن خالفها في بعض الأحكام.

﴿ولتنذر أم القرى﴾ خصها وهي مكة لكونها أعظم القرى شأناً، ولكونها أول بيت وضع للناس، ولكونها قبلة هذه الامة ومحل حجهم، قال قتادة: بلغني أن الأرض دحيت من مكة ولهذا سميت بأم القرى وقيل لأنها سرة الأرض، والمراد بإنذارها إنذار أهلها وهو مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض فهو على تقدير مضاف محذوف.

﴿ومن حولها﴾ يعني جميع البلاد والقرى شرقاً وغرباً، وفيه دليل على عموم رسالته ﷺ إلى أهل الأرض كافة.

﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ أي أن من حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب ويصدقه ويعمل بما فيه، لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرها ويندفع بها ضرها.

﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ خص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات لكونها عمادها وبمنزلة الرأس لها، وكونها أشرف العبادات بعد الإيمان بالله تعالى، فإذا كان العبد محافظاً عليها حافظ على جميع العبادات والطاعات، والمعنى يداومون عليها في أوقاتها، والحاصل أن الإيمان بالآخرة يحمل على الإيمان بمحمد ﷺ، وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿ومن أظلم﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتب على رسله أي كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام، ولا أحد أظلم وأعظم خطأً وأجهل فعلاً ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ فزعم أنه نبي وليس بنبي ﴿أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء﴾ عطف خاص على عام، قاله أبو حيان أو عطف تفسير.

والأحسن أنه من عطف المغاير باعتبار العنوان وتكون أو للتنويع، وقد صان الله أنبياءه عما يزعمون عليهم، وإنما هذا شأن الكذابين رؤوس الضلال كمسيلمة الكذاب، ادعى النبوة باليمامة من اليمن، والأسود العنسي صاحب صنعاء وسجاح.

قال شرحبيل بن سعد: نزلت في عبدالله بن أبي سرح لما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة فر إلى عثمان أخيه من الرضاعة فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة ثم استأمن له، وقال ابن جريج: نزلت في مسيلمة الكذاب من ثمامة ونحوه ممن دعا إلى مثل ما دعا إليه، وقيل في مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نير نجات وكهانة وسجع ادعى النبوة في اليمن.

عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿والمرسلات عرفاً﴾ قال النضر وهو من بني

عبد الدار والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً قولاً كثيراً فأنزل الله هذه الآية.

﴿ومن قال سأنزل﴾ معطوف على من افترى أي ومن أظلم ممن افترى أو ممن قال أوحي إلي وممن قال سأنزل أي سآتي وأنظم وأجمع وأتكلم ﴿مثل ما أنزل الله﴾ وهم القائلون لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقيل هو عبدالله ابن أبي سرح فإنه كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فأملى عليه رسول الله ﷺ ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ فقال عبدالله: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزل، فشك عبدالله حينئذ وقال لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إلي كما أوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، ثم ارتد عن الإسلام و لحق بالمشركين، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف.

قال أهل العلم: وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم.

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، والمراد كل ظالم ويدخل فيه الجاحدون لما أنزل الله والمدعون للنبوات افتراء على الله دخولاً أولياً وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً، والغمرات جمع غمرة وهي الشدة، وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها، ومنه غمرة الماء، ثم استعملت في الشدائد ومنه غمرة الحرب قال الجوهري: والغمرة الشدة والجمع غمر مثل نوبة ونوب، قال ابن عباس: غمرات الموت سكراته.

﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ بقبض أرواح الكفار كالمتقاضي الملظ الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة من غير إمهال وتنفيس، قال ابن عباس: هذا ملك الموت عليه السلام، وقيل باسطوا أيديهم للعذاب وفي أيديهم مطارق الحديد، قاله الضحاك ومثله قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾.

﴿أخرجوا أنفسكم﴾ أي قائلين لهم تعنيفاً أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التي وقعتم فيها أو أخرجوا أنفسكم من الدنيا وخلصوها من العذاب أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وسلموها الينا لنقبضها.

﴿اليوم﴾ أي اليوم الذي تقبض فيه أرواحكم أو أرادوا باليوم الوقت الذي يعذبون فيه الذي مبدؤه عذاب القبر.

﴿ تجزون عذاب الهون ﴾ أي الهوان الذي تصبرون به في إهانة وذلة بعدما كنتم فيه من الكبر والتعاظم.

﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ أي بسبب قولكم هذا من إنكار إنزال الله كتبه على رسله والإشراك به.

﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ أي عن التصديق لها والعمل بها فكان ما جوزيتم به عذاب الهون جزاء وفاقاً.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

﴿و﴾ يقال لهم إذا بعثوا، والقائلون هم الملائكة وقيل هو قول الله تعالى: ﴿لقد جئتمونا فرادى﴾ قرىء بالتنوين وهي لغة بني تميم وبألف التأنيث للجمع وهو جمع فرد وفريد قاله الفراء، وقال ابن قتيبة: هو جمع فردان كسكران وسكارى، وقال الراغب: جمع فريد كأسير وأسارى، وقيل هو اسم جمع لأن فرداً لا يجمع على فرادى والمعنى جئتمونا منفردين واحداً واحداً كل واحد منفرد عن أهله وماله وولده وما كان يعبده من دون الله فلم ينتفع بشيء من ذلك.

قال سعيد بن جبير: كيوم ولد يرد عليه كل شيء نقص منه يوم ولد، وعن عكرمة قال: قال النضر بن الحرث سوف تشفع لي اللات والعزى فنزلت هذه الآية.

﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ أي على الصفة التي كنتم عليها عند خروجكم من بطون أمهاتكم حفاة عراة غُرْلًا يعني: خلقاً كما ولدتكم أمهاتكم في أول مرة في الدنيا ولا شيء عليكم ولا معكم.

﴿وتركتم ما خولناكم﴾ أي ما أعطيناكم من المال والولد والخدم في الدنيا، والخول ما أعطاه الله للإنسان من متاع الدنيا ﴿وراء ظهوركم﴾ أي تركتم ذلك خلفكم لم تأتونا بشيء منه ولا انتفعتم به بوجه من الوجوه.

﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين﴾ عبدتموهم وقلتم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى و﴿زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ لله يستحقون منكم العبادة كما يستحقها فإذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية.

ثم قال: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أي ما بينكم من الوصل وتواصلكم في الدنيا كما يدل عليه ﴿وما نرى معكم شفعاءكم﴾ وقيل لقد تقطع الأمر بينكم، وقرأ ابن مسعود لقد تقطع ما بينكم وقرىء بينكم برفع النون ومعناه وصلكم والبين من الأضداد يكون وصلاً ويكون هجراً ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ في الدنيا من الشركاء والشرك وحيل بينكم وبينهم.

﴿إن الله فالق الحب﴾ هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه والفلق الشق أي هو سبحانه شاق الحب فيخرج منه النبات ﴿و﴾ فالق ﴿النوى﴾ فيخرج منه الشجر الصاعد في الهواء، وقيل معناه الشق الذي فيه من أصل الخلقة وقيل معنى فالق خالق، وبه قال ابن عباس والضحاك ومقاتل، قال الواحدي: ذهبوا بفالق مذهب فاطر، وأنكر الطبري هذا وقال لا يعرف في كلام العرب فلق الله الشيء بمعنى خلق، ونقل الأزهري عن الزجاج جوازه والأول أولى.

والحب هو الذي ليس فيه نوى كالحنطة والشعير والأرز وما أشبه ذلك، والنوى جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ، والمعنى أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر عليها زمان أظهر الله منها ورقاً أخضر، ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب، ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقاً ضاربة في الأرض، فسبحان من أوجد جميع الأشياء بقدرته وابداعه وخلقه، وتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ هذه الجملة خبر بعد خبر، وقيل هي جملة

مفسرة لما قبلها لأن معناها معناه، والأول أولى فإن معنى ذلك يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهي ميتة ﴿و﴾ معنى ﴿مخرج الميت من الحي﴾ مخرج النطفة والبيضة وهي ميتة من الحي، وهذا قول الكلبي ومقاتل، وهذا عطف جملة إسمية على فعلية ولا ضير في ذلك.

قال قتادة: يخرج النخلة من النواة والسنبلة من الحبة، ويخرج النواة من النخلة والحبة من السنبلة وقال مجاهد: الناس الأحياء تخرج من النطف والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء، قال الطبري: من الأنعام والنبات كذلك أيضا، وقال ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، وبالعكس وبه قال الحسن، وقيل الطائع من العاصي وبالعكس، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع بل اللفظ أوسع من ذلك، وقيل المراد من الحي ما ينمو من الحيوان والنبات وان لم يكن فيه روح، والميت ما لا ينمو كالنطفة والحبة ولو كان أصل حيوان.

﴿ذلكم﴾ الإشارة إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاً و﴿الله﴾ خبره، والمعنى أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال والمفضل بكل أفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال.

﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البرهان وعن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته ، قال ابن عباس : فكيف تكذبون ، وقال الحسن : أنى تصرفون ، وفيه دليل أيضاً على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على إخراج البدن من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب .

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ
﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿فالق الإصباح﴾ بكسر الهمزة مصدر أصبح وبه قال الجمهور، والظاهر أن الإصباح في الأصل مصدر سمي به الصبح وبفتحها جمع صبح، والصبح والصباح أول النهار، وكذا الإصباح قاله الزجاج والليث، والمعنى أنه شاق عمود الضياء عن ظلام الليل وسواده أو يكون المعنى فالق ظلمة الإصباح وهي الغبش في آخر الليل الذي يلي الصبح، قاله الكشاف، أو فالق عمود الفجر إذا انصدع عن بياض النهار لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم يصير أبيض خالصاً، وقيل المعنى خالق الإصباح والصبح هو الضوء الذي يبدو أول النهار، قال ابن عباس: خلق الليل والنهار ويعني بالإصباح ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل، وقال إضاءة الفجر وقال قتادة فالق الصبح.

﴿وجعل الليل سكناً﴾ السكن محل السكون من سكن إليه إذا اطمأن إليه واستراح به، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة في معاشهم ويستريحون من التعب والنصب، قال قتادة: سكن فيه كل طير ودابة ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾ أي الشمس والقمر مجعولان حسباناً معيناً قال الأخفش: الحسبان جمع حساب مثل شهبان وشهاب، وقال يعقوب، حسبان مصدر حسبت الشيء أحسبه حسبا وحسباناً والحساب الإسم، وقيل الحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح والحسبان بالكسر مصدر حسب.

والمعنى جعلهما محل حساب يتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدل عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه، وقيل الحسبان الضياء وفي لغة أن الحسبان النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يرسل عليها حسباناً من السماء﴾ وقال ابن عباس: يعني عدد الأيام والشهور والسنين، وقال

الكلبي: منازلها بحساب لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصاها لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما.

﴿ذلك﴾ الجعل المدلول عليه يجعل ﴿تقدير العزيز﴾ القاهر الغالب ﴿العليم﴾ كثير العلم ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم.

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ أي خلقها للاهتداء بها في ظلمات الليل عند المسير في البحر والبر، وإضافة الظلمات إلى البر والبحر لكونها ملابسة لهما أو المراد بالظلمات اشتباه طرقهما التي لا يهتدى فيها إلا بالنجوم، وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها ومنها ما ذكره الله في قوله: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية.

وقيل يستدلون بها أيضاً على القبلة على ما يريدون في النهار بحركة الشمس، وفي الليل بحركة الكواكب، وعن عمر بن الخطاب قال: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم ثم أمسكوا فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها، وعن قتادة نحوه.

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا»[(١)]، وقد ورد في استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث منها عند الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله»، وعند ابن شاهين والطبراني والخطيب وأحمد عن ابن أبي أوفى وأبي الدرداء وأبي هريرة نحوه.

(١) ضعيف الجامع الصغير ٢٤٥٥.

وأخرج الحاكم في تاريخه والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: التاجر الأمين والإمام المقتصد، وراعي الشمس بالنهار»[1]، وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن سلمان الفارسي قال: سبعة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله فذكر منهم الرجل الذي يراعي الشمس لمواقيت الصلاة.

فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله والصلاة لا لغير ذلك، وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس وأول صلاة الظهر زوالها، ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية، ووقت المغرب غروب الشمس، وورد في صلاة العشاء أن النبي ﷺ كان يوقت مغيب القمر ليلة ثالث عشر، وبهما يعرف أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها، فمن راعى الشمس والقمر لهذه الأمور فهو الذي أراده ﷺ ومن راعاهما لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد.

وهكذا النجوم ورد النهي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه والخطيب عن علي قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم، وعن أبي هريرة عندهما وعند المرهبي مثله مرفوعاً، وأخرج الخطيب عن عائشة مرفوعاً مثله.

وأخرج الطبراني والخطيب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فامسكوا واذا ذكر القدر فامسكوا وإذا ذكرت النجوم فامسكوا»[2]، وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٢٦١١.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٥٥٩.

ما زاد»[١].

فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكر والاعتبار وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكر والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق، وعليه يحمل ما روي عن عكرمة أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم، فجعل الرجل يتحرج أن يخبره فقال: سمعت ابن عباس يقول علم عجز الناس عنه ووددت أني علمته.

وقد أخرج أبو داود والخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما بعد فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر، وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وأنهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة»[٢].

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي ﷺ: «أنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن يخوف الله بهما عباده».

﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي بيناها بياناً مفصلاً ليكون أبلغ في الاعتبار ﴿لقوم يعلمون﴾ إن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال قدرته وعظمته وبديع صنعته وعلمه وحكمته.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٩٥.
(٢) احمد بن حنبل ١٦/٥.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ أي آدم عليه السلام كما تقدم، وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته، أخرج ابن مردويه عن أبي أمامة مرفوعاً أن الله نصب آدم بين يديه ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذريته من صلبه حتى ملأ الأرض، فهذا الحديث هو بمعنى ما في هذه الآية.

﴿فمستقر﴾ قرىء بكسر القاف وبفتحها أي فمنكم قار في الارحام أو فلكم مقر، التقدير الأول على القراءة الأولى، والثاني على الثانية وقيل أي فمنكم مستقر على الأرض، أو فلكم مستقر على ظهرها ﴿و﴾ منكم ﴿مستودع﴾ في الرحم أو في باطن الأرض أو في أصلاب الرجال والدواب.

قال ابن عباس: المستقر في أرحام الأمهات، والمستودع في أصلاب الآباء، ثم قرأ ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء﴾ وروي عنه أنه قال بالعكس، يعني أن المستقر صلب الأب، والمستودع رحم الأم، وقال ابن مسعود: بالمستقر في الرحم إلى أن يولد، والمستودع في القبر إلى أن يبعث.

وقال مجاهد: المستقر على ظهر الأرض في الدنيا، والمستودع عند الله في الآخرة، وقال الحسن: المستقر في القبر، والمستودع في الدنيا، وقيل المستقر في الرحم والمستودع في الأرض.

قال القرطبي: وأكثر أهل التفسير يقولون المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما كان في الصلب، والفرق بينهما أن المستقر أقرب إلى الثبات من

المستودع، لأن المستقر من القرار والمستودع معرض للرد.

وجعل الحصول في الرحم استقراراً، وفي الصلب استيداعاً لأن النطفة

تبقى في صلب الآباء زماناً قصيراً والجنين يبقى في بطن الأم زماناً طويلاً، فكلما كان المكث في بطن الأم أكثر من المكث في صلب الأب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب.

وقيل المستقر من خلق، والمستودع من لم يخلق، وقيل المستودع في القبر والمستقر إما في الجنة أو النار لأن المقام فيهما يقتضي الخلود والتأبيد، وقيل الاستيداع اشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث، ومما يدل على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي بينا الدلائل الدالة على التوحيد والبراهين الواضحة والحجج النيرة ﴿لقوم يفقهون﴾ غوامض الدقائق، ذكر سبحانه ههنا يفقهون وفيما قبله ﴿يعلمون﴾ لأن في انشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقراً وبعضها مستودعاً من الغموض والدقة ما ليس في خلق النجوم للاهتداء فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تحقيق وإمعان فكر، وتدقيق نظر.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء﴾ هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته، والماء هو ماء المطر قيل ينزل المطر من السماء إلى السحاب، ومن السحاب إلى الأرض.

﴿فأخرجنا به﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم إظهاراً للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه، والضمير في به عائد إلى الماء أي بسببه، فالسبب واحد والمسببات كثيرة ﴿نبات كل شيء﴾ يعني كل صنف من أصناف النبات المختلفة، وقيل المعنى رزق كل شيء من الأنعام والبهائم والطير والوحوش وبني آدم وأقواتهم، والأول أولى.

ثم فصل هذا الإجمال فقال: ﴿فاخرجنا منه خضراً﴾ قال الأخفش: أي أخضر، والخضر رطب البقول، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة، وقيل يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب وجميع الزروع والبقول.

﴿نخرج منه حباً متراكباً﴾ أي نخرج من تلك الأغصان الخضر حباً مركباً بعضه على بعض كما في السنابل، قال السدي: أي سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب، وفي تقديم الزرع على النخل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر، لأنه القوت المألوف، والتعبير بالمضارع مع أن

المقام للماضي لاستحضار الصورة الغريبة.

﴿ومن النخل﴾ اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث قال تعالى: ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ وقال تعالى: ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾.

﴿من طلعها قنوان﴾ قرىء بكسر القاف وفتحها باعتبار إختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز، والطلع الكفري قبل أن ينشق عن الإغريض، والإغريض يسمى طلعاً أيضاً وهو ما يكون في قلب الطلع، والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فإذا شق عنه كيزانه يسمى عذقاً، وهو القنو، وجمعه قنوان مثل صنو وصنوان، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثنى مكسور النون، والجمع على ما يقتضيه الإعراب، والقنو العذق، والمعنى أن القنوان أصله من الطلع والعذق هو عنقود النخل، وقيل القنوان الجمار أو العراجين.

﴿دانية﴾ قريبة ينالها القائم والقاعد، وقال مجاهد: متدلية، وقال الضحاك: قصار ملتصقة بالأرض أي دانية في المجتنى لانحنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها قال الزجاج: المعنى منها دانية ومنها بعيدة فحذف ومثله ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ وخص الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان وذلك فيما يقرب تناوله أكثر.

وقال ابن عباس: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض، وعنه قنوان الكبائس والدانية المنصوبة، وقال أيضاً تهدل العذوق من الطلع، وذكر الطلع مع النخل لأنه طعام وإدام دون سائر الأكمام، وتقديم النبات لتقدم القوت على الفاكهة.

﴿وجنات﴾ أي ولهم جنات، قاله النحاس وأجازه سيبويه والكسائي والفراء، وأما على النصب فالتقدير وأخرجنا به جنات أي بساتين كائنة ﴿من

أعناب والزيتون والرمان﴾ أي وأخرجنا شجرهما ﴿مشتبها وغير متشابه﴾ أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضاً في بعض أوصافه، ولا يشبهه في البعض الآخر.

وقيل ان أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم، قال قتادة: متشابهاً ورقه مختلفاً ثمره لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان، يقال مشتبه ومتشابه بمعنى كما يقال اشتبه وتشابه كذلك.

وذكر سبحانه في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع لأن الزرع غذاء، وثمار الأشجار فواكه، والغذاء مقدم على الفواكه، وإنما قدم النخلة على غيرها لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار، وإنما ذكر العنب عقب النخلة لأنها من أشرف أنواع الفواكه، ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال، ثم ذكر عقبه الرمان لما فيه من الفوائد العظيمة لأنه فاكهة ودواء وقيل خص الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما في قول الله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾.

﴿أنظروا إلى ثمره﴾ أي ثمر كل واحد مما ذكر يعني رطبه وعنبه، قاله محمد بن كعب القرظي قرىء ثمره بفتح الثاء والميم وبضمهما وهو جمع ثمرة كشجرة وشجر، وخشبة وخشب ﴿إذا أثمر﴾ أي إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفاً لا ينتفع به ﴿وينعه﴾ عن البراء قال: نضجه أي إدراكه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع.

أمرهم الله سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر وإلى ينعه إذا ينع كيف أخرج هذه الثمرة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة ونقلها من حال

إلى حال، والثمر في اللغة جناء الشجر واليانع الناضج الذي قد أدرك وحان قطافه، قال ابن الانباري: الينع جمع يانع كركب وراكب وقال الفراء: أينع أحمر.

﴿ان في ذلكم﴾ الاشارة إلى ما تقدم ذكره مجملاً ومفصلاً ﴿لآيات﴾ أي لآيات عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته، فان حدوث هاتيك الأجناس المختلفة والأنواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع يحار في فهمها الألباب، لا يكاد يكون إلا بإحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد يناويه أو ند يقاويه.

﴿لقوم يؤمنون﴾ بالله استدلالاً بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التي قصها عليهم، وقيل معنى يؤمنون يصدقون يعني أن الذي يقدر على ذلك قادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم.

﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ هـذا كلام يتضمن ذكـر نوع آخـر من جهالاتهم وضلالاتهم، والمعنى أنهم جعلوا شركاء لله فعبـدوهم كما عبـدوه وعظموهم كما عظموه، قال الحسن: أي أطاعوا الجن في عبادةالأوثان، وقال الزجاج: أطاعوهم فيما سولت لهم من شركهم، وقيل المراد بالجن ههنا الملائكة لاجتنانهم أي استتارهم وهم الذين قالوا الملائكة بنات الله.

وقيل نزلت في الزنادقة الذين قالوا ان الله تعالى وابليس اخوان، فالله خالق الناس والدواب، وابليس خالق الحيات والسباع والعقارب، روى ذلك عن الكلبي نقله ابن الجوزي عن ابن السائب والرازي عن ابن عباس، ويقرب من هذا قول المجوس فانهم قالوا للعالم صانعان هما الرب سبحانه والشيطان وهكذا القائلون ان كل خير من النور وكل شر من الظلمة وهم المانوية.

ومعنى ﴿وخلقهم﴾ قد علموا أن الله خلقهم وخلق ما جعلوه شـريكاً لله وهذا كالدليل القاطع على أن المخلوق لا يكون شريكاً لله، وكل ما في الكون محدث مخلوق فامتنع أن يكون شـريكاً له في ملكه.

﴿وخرقوا﴾ بالتشديد على التكثير لأن المشركين ادعوا أن الملائكة بنات الله والنصارى ادعوا أن المسيح ابن الله، واليهود ادعوا أن عـزيراً ابن الله فكثر ذلك من كفرهم فشدد الفعل لمطابقة المعنى، وقرىء بالتخفيف، وقرىء وحرفوا من التحريف أي زوروا قال أهل اللغة معنى خرقوا اختلقوا وافتعلوا وكذبوا، يقال اختلق الافك واخترقه وخرقه، وأصله من خرق الثوب إذا شقه أي اشتقوا.

﴿له بنين وبنات﴾ كائنـين ﴿بغير علم﴾ بـل قالـوا ذلك عن جهـل خالص، وقيل بغير علم بحقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وانه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره.

ثم بعد حكاية هذا الضلال البين والبهت الفظيع من جعل الجن شركاء لله، واثبات بنين وبنات له، نزه الله نفسه عن هذه الأقاويل الفاسدة فقال: ﴿سبحانه﴾ وقد تقدم الكلام في معنى سبحانه وفيه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله ﴿و﴾ معنى ﴿تعالى عما يصفون﴾ تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذي وصفوه به.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مبتدعهما وقد جاء البديع بمعنى المبدع كالسميع بمعنى المسمع كثيراً، وقيل الأصل بديع سمواته وأرضه والابداع عبارة عن تكوين الشيء على غير مثال سابق، والاستفهام في ﴿انى يكون له ولد﴾ للإنكار والاستبعاد أي من كان هذا وصفه وهو أنه خالقهما ومبدع ما فيهما فكيف يكون له ولد، وهو من جملة مخلوقاته وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً ثم بالغ في نفي الولد فقال:

﴿ولم تكن له صاحبة﴾ أي والحال أنه لم تكن له صاحبة، والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد ﴿وخلق كل شيء﴾ جملة مقررة لما قبلها لأن من كان خالقاً لكل شيء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً، وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ لا يخفى عليه من مخلوقاته خافية.

﴿ذلكم﴾ أي المتصف بالأوصاف السابقة ﴿الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ أي مما سيكون كما خلق في الماضي فلا تكرار، يعني من كانت هذه صفاته فهو الحقيق بالعبادة ﴿فاعبدوه﴾ ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي رقيب حفيظ.

﴿لا تدركه﴾ أي لا تراه ﴿الأبصار﴾ جمع بصر وهو حاسة النظر أي القوة الباصرة، وقد يقال للعين من حيث إنها محلها أي الحاسة، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه والإحاطة به، قال الزجاج: أي لا يبلغ كنه حقيقته،

فالأبصار ترى الباري عز اسمه ولا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به، قال سعيد بن المسيب: لا تحيط به الأبصار، وقال ابن عباس: كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به، فالمنفى هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية فقد ثبتت الأحاديث المتواترة تواتراً لا شك فيه ولا شبهة ولا يجهله إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيماً.

والحاصل أنه لا متمسك فيه لمنكري الرؤية على الإطلاق.

وأيضاً قد تقرر في علم البيان والميزان أن رفع الإيجاب الكلي سلب جزئي فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار، وهي أبصار الكفار، هذا على تسليم أن نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية الخاصة، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأول يخلفه الجزئية، والتقدير لا تدركه كل الأبصار بل بعضها وهي أبصار المؤمنين، والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرفناك من تواتر الرؤية في الآخرة واعتضادها بقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾.

وقد تشبث قوم من أهل البدغ وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية ولا يستتب ذلك كما تقدمت الاشارة إليه، على أن مورد الآية التمدح وهو يوجب ثبوت الرؤية إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه، لأن كل ما لا يرى لا يدرك وإنما التمدح بنفي الإدراك مع تحقق الرؤية فكانت الحجة لنا عليهم، ولو أمعنوا النظر فيها لاغتنموا التقصي عن عهدتها، ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي كونه تعالى معلوماً موجوداً، والكلام في ذلك يطول جداً.

وقد أطال الواحد المتكلم الحافظ ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح في إثبات الرؤية ورد المنكرين لها. والشوكاني في البغية في مسألة الرؤية بما لا

مزيد عليه، وعن ابن عباس ذلك نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء، وفي لفظ إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر، وقال أيضاً لا يحيط بصر أحد بالله، وقال الحسن: لا تدركه الأبصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة، وعن اسمعيل ابن علبة مثله.

﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي يحيط بها ويبلغ كنهها لا يخفى عليه منها خافية أو يراها ولا تراه ولا يجوز في غيره أن يدرك البصر وهو لا يدركه، وخص الابصار ليجانس ما قبله.

قال الزجاج: في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار أي لا يعرفون كيفية حقيقة البصر وما الشيء الذي صار به الانسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه انتهى.

﴿وهو اللطيف﴾ أي الرفيق بعباده يقال لطف فلان بفلان أي رفق به. واللطف في العمل الرفق فيه واللطف من الله تعالى التوفيق والعصمة، وألطفه بكذا إذا برَّه، والملاطفة المبارَّة هكذا قال الجوهري وابن فارس، و﴿الخبير﴾ المختبر لكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء، ويجوز أن يكون هذا من باب اللف والنشر المرتب أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكثيف، وهو الذي لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها قاله البيضاوي والأول أولى.

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ البصائر جمع بصيرة وهي في الأصل نور القلب الذي تبصر به النفس أي الروح كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين، والمراد بها هنا الحجة البينة والبرهان الواضح، وإطلاق البصائر عليها مجاز من إطلاق إسم المسبب على السبب، وهذا الكلام استئناف وارد على لسان رسول الله ﷺ، ولهذا قال في آخره: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾، ووصف البصائر بالمجيء تفخيماً لشأنها وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه كما يقال جاءت العافية وانصرف المرض وأقبلت السعود وأدبرت النحوس.

﴿فمن أبصر فلنفسه﴾ أي فمن تعقل الحجة وعرفها وأذعن لها فنفع ذلك لنفسه، لأنه ينجو بهذا الابصار من عذاب النار ﴿ومن عمي﴾ عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها ﴿فعليها﴾ أي فضرر ذلك على نفسه، لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا ويكون مصيره إلى النار، قال قتادة: فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فعليها.

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحصي عليكم أعمالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم، قال الزجاج: نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان.

﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أي مثل ذلك التصريف البديع نصرفها في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه ليعتبروا ﴿وليقولوا درست﴾ أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست أو ليقولوا درست صرفناها، وعلى هذا تكون اللام

للعاقبة أو للصيرورة، والمعنى ومثل ذلك التصريف نصرف الآيات وليقولوا درست فإنه لا احتفال بقولهم ولا اعتداد بهم، فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم وعدم الاكتراث بقولهم، وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج.

وقال النحاس: وفي المعنى قول آخر حسن وهو أن يكون معنى نصرف الآيات نأتي بها آية بعد آية ليقولوا درست علينا فيذكرون الأول بالآخر، فهذا حقيقته، والذي قاله الزجاج مجاز، والجمهور على كسر اللام وهي لام كي، وجوز أبو البقاء فيها الوجهين.

وفي درست قــراآت دارست كفــاعلت ودرست كفــرحــت ودرست كضربت، فعلى الأولى المعنى دارست أهــل الكتاب ودارسـوك أي ذاكرتهم وذاكروك، ويدل على هذا ما وقع في الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله: ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أي أعان اليهود النبي ﷺ على القرآن ومثله قولهم [أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلاً]، وقولهم[إنما يعلمه بشر].

والمعنى على الثانية قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت وهو كقـولهم أساطير الأولين، وعلى الثالثة مثل المعنى على الأول قال الأخفش: هي بمعنى دارست إلا أنه أبلغ، وقرأ المبرد: وليقولوا بإسكان اللام فيكون بمعنى التهديد أي وليقولوا ما شاءوا فإن الحق بين.

وهذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة فهو من الدرس وهو القراءة وقيل من درسته أي ذللته بكثرة القراءة، وأصله درس الطعام أي داسه والدياس الدراس بلغة أهل الشام، وقيل أصله من درست الثوب أدرسه درساً أي أخلقته ودرست المرأة درساً أي حاضت،ويقال: إن فرج المرأة يكنى أبا دراس وهو من الحيض، والدرس أيضاً الطريق الخفي، وحكى الأصمعي بعير لم يدرس أي لم يركب.

وقرأ جمع من الصحابة درس أي محمد الآيات وقرىء درست أي الآيات على البناء للمفعول ودارست أي اليهود محمداً، قال ابن عباس: درست قرأت وتعلمت ودارست خاصمت جادلت تلوت.

﴿ولنبينه﴾ اللام فيه لام كي أي نصرف الآيات لكي نبينه، والضمير راجع إلى الآيات لأنها في معنى القرآن أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين المدلول عليه بالفعل ﴿لقوم يعلمون﴾ الحق من الباطل، قال ابن عباس: يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد وقيل المعنى نصرف الآيات ليسعد بها قوم ويشقى بها آخرون، فمن أعرض عنها وقال للنبي ﷺ درست فهو شقي، ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد، وفي هذا دليل قاطع على أن الله جعل تصريف الآيات سبباً لضلالة قوم وشقاوتهم وسعادة قوم وهدايتهم.

﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك﴾ أمره الله باتباع ما أوحي إليه وأن لا يشغل خاطره بهم بل يشتغل باتباع ما أمره الله.

وجملة ﴿لا إله إلا هو﴾ معترضة لقصد تأكيد إيجاب الاتباع، ثم أمره الله بالاعراض عنهم بعد أمره باتباع ما أوحي اليه فقال: ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي لا تلتفت إلى رأيهم ولا تحتفل بأقوالهم الباطلة التي من جملتها ما حكي عنهم آنفاً، وعلى هذا لا يجري فيها النسخ لأن المراد منه في الحال لا الدوام، وقيل هذا قبل نزول آية السيف قال السدي: هذا منسوخ نسخه القتال ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ والأول هو الأولى.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾

﴿ولو شاء الله﴾ عدم إشراكهم ﴿ما أشركوا﴾ أي لجعلهم مؤمنين وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه خلافاً للمعتزلة، والكلام في تقرير هذا على الوجه الذي يتعرف به أهل علم الكلام والميزان معروف فلا نطيل بإيراده، قال ابن عباس: يقول الله لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي رقيباً تمنعهم منا ومراعياً لأعمالهم مأخوذاً بإجرامهم ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة، قال قتادة: الوكيل الحفيظ.

﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ الموصول عبارة عن الآلهة التي كانت تعبدها الكفار، والمعنى لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون الله فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدواناً وتجاوزاً عن الحق وجهلاً منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق ووقوع في باطل أشد، كان الترك أولى به بل كان واجباً عليه.

وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحقين، وجرأة على الله سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجني على أهلها ديدنه وهجيراه كما يشاهد ذلك

في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أرشدوا إلى السنة قابلوها بما لديهم من البدعة.

فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع وهم أشر من الزنادقة لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام وتحاماهم أهله، وقد ينفق كيدهم ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة وهي أصل أصيل في سد الذرائع وقطع التطرق إلى الشبه، وقرىء عدوا بالضم وعدوا بالفتح ومعناهما واحد أي ظلماً وعدواناً، وعن ابن عباس قال: قالوا يا محمد ﷺ لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سب والديه، قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»[1].

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك التزيين ﴿زينا لكل أمة﴾ من أمر الكفار ﴿عملهم﴾ من الخير والشر والطاعة والمعصية باحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً وتخذيلاً، وفي هذه الآية رد على القدرية والمعتزلة حيث قالوا: لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه.

﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ أي مصيرهم ﴿فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ في الدنيا من المعاصي التي لم ينتهوا عنها ولا قبلوا من الأنبياء ما أرسلهم الله به إليهم وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم.

---

(١) البخاري كتاب الكسوف الباب ٦.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾

﴿وأقسموا بالله﴾ أي الكفار مطلقاً أو كفار قريش ﴿جهد أيمانهم﴾ أشدها أي أقسموا أشد أيمانهم التي بلغتها قدرتهم، وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم، فلهذا أقسموا به والجهد بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة ومن أهل اللغة من يجعلهما بمعنى واحد.

والمعنى أنهم اقترحوا على النبي ﷺ آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وأقسموا ﴿لئن جاءتهم آية﴾ أي هذه الآية التي اقترحوها كما جاءت من قبلهم وهذا إخبار عنهم من الله لا حكاية لقولهم وإلا لقيل لئن جاءتنا قاله أبو حيان ﴿ليؤمنن بها﴾ وليس غرضهم بذلك الإيمان بل معظم قصدهم التهكم على رسول الله ﷺ والتلاعب بآيات الله وعدم الاعتداد بما شاهدوا منها فأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بقوله:

﴿قل إنما الآيات﴾ أي هذه الآية التي يقترحونها وغيرها ﴿عند الله﴾ وليس عندي من ذلك شيء، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها، وإن أراد أن لا ينزلها لم ينزلها لأن المعجزات الدالة على النبوات شرطها أن لا يقدر على تحصيلها أحد إلا الله تعالى.

﴿وما يشعركم﴾ أي وما يدريكم يعني أنتم لا تدرون ذلك، قال مجاهد وابن زيد: المخاطب بهذا المشركون، وقال الفراء وغيره: الخطاب للمؤمنين لأن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون فقال الله: وما يشعركم ﴿أنها﴾ قرىء بفتح الهمزة قال الخليل: أنها بمعنى لعلها وفي التنزيل ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ أي أنه يزكى، وحكى عن العرب ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً أي لعلك، وقد وردت أن في كلام العرب كثيراً

بمعنى لعل.

﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ قال الكسائي والفراء: أن لا زائدة والمعنى وما يشعركم أنها أي الآيات إذا جاءت يؤمنون فزيدت لا كما زيدت في قوله تعالى:﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ وفي قوله: ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾ وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة لا وقالوا هو خطأ وغلط، وذكر النحاس وغيره أن في الكلام حذفاً والتقدير أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ قيل يعني يوم القيامة على لهب النار وحر الجمر، والتقلب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ونذرهم.

﴿كما لم يؤمنوا به﴾ في الدنيا ﴿أول مرة﴾ يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الأنبياء أو جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات الباهرات.

وقال ابن عباس: يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان فلا يؤمنون به كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم ﴿ونذرهم﴾ أي نمهلهم ولا نعاقبهم في الدنيا، فعلى هذا بعض الآيات في الآخرة وبعضها في الدنيا وقيل المعنى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة.

﴿في طغيانهم يعمهون﴾ أي يتحيرون يقال عمه في طغيانه عمها من باب تعب إذا تردد متحيراً مأخوذ من قولهم أرض عمهاء إذا لم يكن فيها امارات تدل على النجاة فهو عمه وأعمه، قال ابن عباس: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم يثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

﴿ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة﴾ أي لو آتيناهم ما طلبوه لا يؤمنون كما اقترحوه بقولهم لولا أنزل عليه ملك ﴿وكلمهم الموتى﴾ الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم ﴿وحشرنا عليهم كل شيء﴾ مما سألوه من الآيات وأصناف المخلوقات كالسباع والطيور، والحشر الجمع ﴿قبلاً﴾ أي كفلاء وضمناء بما جئناهم به من الآيات البينات أو حال كون الكفار معاينين رائين للآيات والأصناف.

قرىء قبلاً بضم القاف وقبلاً بكسرها أي مقابلة، قال المبرد: قبلاً بمعنى ناحية كما تقول لي قبل فلان مال، وبه قال أبو زيد وجماعة من أهل اللغة وعلى الأول ورد قوله تعالى: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي يضمنون كذا قال الفراء وقال الأخفش: هو بمعنى قبيل قبيل أي جماعة جماعة.

وحكى أبو زيد: لقيت فلاناً قبلاً ومقابلة وقبلاً كلها واحد بمعنى المواجهة فيكون على هذا الضم كالكسر وتستوي القراءتان، وهو قول أبي عبيدة والفراء والزجاج، ونقله الواحدي أيضاً عن جميع أهل اللغة، قال ابن عباس: قبلاً معاينة، وقال قتادة: فعاينوا ذلك معاينة، وقال مجاهد: قبلاً أفواجاً، وقيل القبيل الكفيل بصحة ما تقول.

﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ أي أهل الشقاء لما سبق في علم الله، واللام لام الجحود ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أيمانهم أي إيمان أهل السعادة والذين سبق لهم في علمه أن يدخلوا في الايمان فإن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن،

والاستثناء مفرغ، وبه قال ابن عباس وصححه الطبري، وقال أبو البقاء والحوفي الاستثناء منقطع وتبعه السيوطي لأن المشيئة ليست من جنس إرادتهم.

واستبعده أبو حيان وجرى على أنه متصل وكذلك البيضاوي وكثير من المعربين كالسفاقسي قالوا: والمعنى ما كانوا ليؤمنوا في حال من الأحوال إلا في حال مشيئته أو في سائر الأزمان إلا في زمن مشيئته، وقيل هو استثناء من علة عامة أي ما كانوا ليؤمنوا لشيء من الأشياء إلا لمشيئة الله الايمان وهو الأولى كما تقدم، وفي هذا رد على القدرية والمعتزلة في قولهم إن الله أراد الايمان من جميع الكفار.

﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ جهلاً يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلى الصواب، وقال البيضاوي: أي يجهلون أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم انتهى.

﴿وكذلك﴾ أي مثل هذا الجعل ﴿جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن﴾ هذا الكلام استئناف مسوق لتسلية رسول الله ﷺ ودفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم، والمعنى كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار فجعلنا لكل واحد منهم عدواً من كفار زمنهم وأن ذلك ليس مختصاً بك، والمراد بالشياطين المردة من الفريقين، والشيطان كل عات متمرد من الجن والانس، وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة.

قالوا وشياطين الانس أشد تمرداً من شياطين الجن، وبه قال مالك بن دينار والإضافة بيانية أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل الإنس والجن الشياطين، قال ابن عباس: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم فيلتقي شيطان الإنس وشيطان الجن فيقول هذا لهذا أضلله بكذا وأضلله بكذا، وعنه قال الجن هم الجان وليسوا شياطين، والشياطين ولد

إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس، والجن يموتون، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر.

وقال ابن مسعود: الكهنة هم شياطين الإنس، وقيل الكل من ولد إبليس وأضيف الشياطين إلى الإنس على معنى أنهم يغوونهم ويضلونهم، وبهذا قال عكرمة والضحاك والكلبي والسدي.

﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ أي حال كونهم يوسوس بعضهم لبعض، وقيل: إن الجملة مستأنفة لبيان حال العدو، وسمي وحياً لأنه إنما يكون خفية بينهم وجعل تمويههم ﴿زخرف القول﴾ لتزيينهم إياه والمزخرف المزين وزخارف الماء طرائقه، والزخرف هو الباطل من الكلام الذي قد زين ووشي بالكذب وكل شيء حسن مموه فهو زخرف يغرونهم بذلك ﴿غروراً﴾ هو الباطل.

قال ابن عباس: شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، فإن الله يقول ﴿وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ ويحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوهم في فتنتهم.

وقد أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس، قال يا نبي الله وهل للإنس شياطين قال نعم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً»[١].

﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقاً من الأمور التي جرت من الكفار في زمنه وزمن الأنبياء قبله أي لو شاء ربك عدم وقوع ما تقدم ذكره ما فعلوه وأوقعوه، وقيل ما فعلوا الإيحاء المدلول عليه بالفعل ﴿فذرهم﴾ أي دع الكفار واتركهم، وهذا الأمر للتهديد كقوله ذرني ومن خلقت وحيداً.

﴿وما يفترون﴾ إن كانت «ما» مصدرية فالتقدير اتركهم وإفتراءهم وإن كانت موصولة فالتقدير اتركهم والذي يفترونه، وهذا قبل الأمر بالقتال.

(١) النسائي، كتاب الاستعاذة، باب ٤٨ ـ أحمد بن حنبل ٥/١٧٨ ـ ٢٦٥.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم
مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

﴿ولتصغى﴾ اللام لام كي وقيل اللام للأمر وهو غلط فإنها لو كانت لام الأمر جزمت الفعل، والإصغاء الميل يقال صغوت أصغو وصغيت أصغي ويقال أصغيت الإناء إذا أملته ليجتمع ما فيه وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض، ويقال صغت النجوم إذا مالت للغروب وأصغت الناقة إذا مالت برأسها.

والضمير في ﴿إليه﴾ لزخرف القول أو لما ذكر سابقاً من زخرف القول وغيره أي أوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم ولتصغي إليه ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ من الكفار والمعنى أن قلوب الكفار تميل إلى زخرف القول وباطله وتحبه وترضى به، وهو قوله ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم بعد الإصغاء إليه ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ من الآثام والاقتراف والاكتساب، يقال خرج ليقترف لأهله أي ليكتسب لهم، وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه، وقرفه إذا رماه بالرمية واقترف كذب، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء أي ليكتسبوا من الأعمال الخبيثة ما هم مكتسبون.

وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنه أولاً يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون الفعل أي الاقتراف، فكل واحد مسبب عما قبله قاله أبو حيان.

﴿أفغير الله﴾ كلام مستأنف وارد على إرادة القول والاستفهام للإنكار أي قل لهم يا محمد كيف أضل وأميل إلى زخارف الشياطين و﴿ابتغي﴾ غير الله ﴿حكماً﴾ هو أبلغ من الحاكم كما تقرر في مثل هذه الصفة المشتقة، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه من أن يجعل بينهم وبينه حكماً من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى فيما اختلفوا فيه وإن الله هو الحكم العدل بينه وبينهم.

﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب﴾ أي القرآن ﴿مفصلاً﴾ مبيناً واضحاً مستوفياً لكل قضية على التفصيل ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي المعهود إنزاله من التوراة والإنجيل والزبور، أخبر الله نبيه ﷺ بأن أهل الكتاب وإن أظهروا الجحود والمكابرة فإنهم ﴿يعلمون أنه﴾ أي القرآن ﴿منزل من ربك﴾ أي من عند الله مما دلتهم عليه كتب الله المنزلة كالتوراة والانجيل من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء ﴿بالحق﴾ حال أي متلبساً بالحق الذي لا شك فيه ولا شبهة ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ الشاكين فيه.

نهاه الله عن أن يكون من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق، وبه قال الزمخشري: أو نهاه عن مطلق الإمتراء ويكون ذلك تعريضاً لأمته عن أن يمتري أحد منهم، أو الخطاب لكل من يصلح له أي فلا يكونن أحد من الناس من الممترين، ولا يقدح في ذلك كون الخطاب لرسول الله ﷺ فإن خطابه خطاب لأمته.

﴿وتمت كلمة ربك﴾ قرأ أهل الكوفة كلمة بالتوحيد والباقون بالجمع والمراد العبارات أو متعلقاتها من الوعد والوعيد، والمعنى أن الله قد أتم وعده ووعيده فظهر الحق وانطمس الباطل، وقيل المراد بالكلمة أو الكلمات القرآن أي لا أحد يقدر على تحريفه كما فعل بالتوراة فيكون هذا ضماناً له من الله بالحفظ أو لا نبي ولا كتاب بعده ينسخه، ومعنى تمت بلغت الغاية، وعن أنس

مرفوعاً قال: [لا إله إلا الله] أخرجه ابن مردويه وابن النجار.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبدالله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ولكل قوم صنم يعبدونه فجعل يأتيها صنماً صنماً ويطعن في صدر الصنم بعصا ثم يعقره فكلما طعن صنماً اتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسروه ويطرحوه خارجاً من المسجد والنبي ﷺ يقول: وتمت كلمات ربك الآية.

﴿صدقاً وعدلاً﴾ أي تمام صدق وعدل، قال أبو البقاء والطبري النصب على التمييز وتبعهما السيوطي، وقال ابن عطية: هو غير صواب وليس في ذلك إبهام وأعربه الكواشي حالاً من ربك أو مفعولاً له، قال قتادة: صدقاً فيما وعد وعدلاً فيما حكم، وقيل صدقاً فيما أخبر عن القرون الماضية والأمم الخالية، وعما هو كائن إلى قيام الساعة وعدلاً فيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام وسائر الاحكام.

﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا خلف فيها ولا مغير لما حكم به لما وصفها بالتمام وهو في كلامه تعالى يقتضي عدم قبول النقص والتغير، قال محمد بن كعب القرظي: لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والآخرة كقوله: ﴿ما يبدل القول لدي﴾ وفيه دليل على أن السعيد لا ينقلب شقياً ولا الشقي ينقلب سعيداً فالسعيد من سعد من الأزل والشقي من شقي في الأزل ﴿وهو السميع﴾ لكل مسموع ﴿العليم﴾ بكل معلوم ومنه قول المتحاكمين.

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من فيها أضلوه لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين وهم الطائفة التي لا تزال على الحق ولا يضرها خلاف من خالفها كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل المراد بالأكثر الكفار وبالأرض مكة أي أكثر أهل مكة.

﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ أي ما يتبعون إلا الظن الذي لا أصل له وهو ظنهم ان معبوداتهم تستحق العبادة وأنها تقربهم إلى الله ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ أي يحدسون ويقدرون، وأصل الخرص القطع ومنه خرص النخل يخرص إذا حرزه ليأخذ منه الزكاة فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين منه أي إذا كان هذا حال أكثر من في الأرض فالعلم الحقيقي هو عند الله فاتبع ما أمرك به ودع عنك طاعة غيره.

﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي بمن يهتدي إليه، قال بعض أهل العلم: إن أعلم في الموضعين بمعنى يعلم والوجه في هذا التأويل إن أفعل التفضيل لا ينصب الإسم الظاهر فتكون من منصوبة بالفعل الذي جعل أفعل التفضيل نائباً عنه، وقيل إن أفعل على بابه، والنصب بفعل مقدَّر، وقيل: إنها منصوبة بأفعل، أي إن ربك أعلم أيَّ الناس يضلُّ عن سبيله.

﴿فكلوا﴾ في هذه الفاء وجهان (أحدهما) أنها جواب شرط مقدر قاله

الزمخشري (والثاني) أنها عاطفة على محذوف، قاله الواحدي وهو الظاهر ﴿مما ذكر اسم الله عليه﴾ عند ذبحه، لما تقدم ذكر ما يصنعه الكفار في الأنعام من تلك السنن الجاهلية أمر الله المسلمين بأن يأكلوا مما ذكر الاسم الشريف عليه.

وقيل إنها نزلت في سبب خاص كما أخرج أبو داود والترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إنا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: ﴿إنكم لمشركون﴾ ولكن الإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم الله حل إن كان مما أباح الله أكله وقال عطاء في هذه الآية الأمر بذكر الله على الشراب والذبح وكل مطعوم.

والشرط في ﴿إن كنتم﴾ للتهييج والإلهاب ﴿بآياته مؤمنين﴾ أي بأحكامه من الأوامر والنواهي التي من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه، وهذا يدل على أن الخطاب للمسلمين وقيل كانوا يحرمون أصنافاً من النعم ويحلون الميتة فقيل أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله، وعلى هذا الخطاب للمشركين والأول أولى.

﴿وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الاستفهام للإنكار أي ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه بعد أن أذن لكم بذلك، وفيه تأكيد في إباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾ أي والحال أنه قد بين لكم بياناً مفصلاً يدفع الشك ويزيل الشبهة بقوله: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلى محرماً﴾ الآية وقال السيوطي يعني آية ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ أي آية المائدة.

وحينئذ في المقام إشكال أورده الرازي وحاصله أن سورة الأنعام مكية

وسورة المائدة مدنية من آخر القرآن نزولاً بالمدينة، وقوله: ﴿وقد فصل لكم﴾ يقتضي أن ذلك التفصيل قد تقدم على هذا المحل، والمدني متأخر عن المكي، فيمتنع كونها متقدمة ثم قال: بل الأولى أن يقال هو قوله بعد هذه الآية: ﴿قل لا أجد﴾ وهذه وإن كانت مذكورة بعدها بقليل إلا أن هذا القدر من التأخر لا يمنع أن يكون هو المراد انتهى.

قلت وذكر المفسرون وجهاً آخر وهو أن الله علم أن سورة المائدة متقدمة على سورة الأنعام في الترتيب لا في النزول فبهذا الاعتبار حسنت الحوالة على ما في المائدة بقوله: ﴿وقد فصل لكم﴾ باعتبار تقدمه في الترتيب وإن كان متأخراً في النزول والله أعلم.

ثم استثنى فقال: ﴿إلا ما اضطررتم اليه﴾ من جميع ما حرمه عليكم فإن الضرورة تحلل الحرام وقد تقدم تحقيقه في البقرة قال قتادة: ما اضطررتم إليه من الميتة والدم ولحم الخنزير والاستثناء كما قال الحوفي منقطع، وبه قال التفتازاني، وقال أبو البقاء: متصل من طريق المعنى لأنه وبخهم بترك الأكل مما سمي عليه، وذلك يتضمن إباحة الأكل مطلقاً، وحاصله أن الاستثناء من الجنس فهو متصل، وقال زكريا فيه: إنه لا يكون حينئذ استثناء متصلا بل هو استثناء مفرغ من الظرف العام المقدر.

﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾ هم الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة السائبة ونحوهما فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل كانوا يضلون الناس فيتبعونهم ولا يعلمون أن ذلك جهل وضلالة لا يرجع إلى شيء من العلم، قال سعيد بن جبير: يعني من مشركي العرب ليضلون في أمر الذبائح ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ أي بمن تعدى حدوده فأحل ما حرم وحرم ما أحل الله فيجازيهم على سوء صنيعهم.

وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟
يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ
لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ الظاهر ما كان يظهر كأفعال الجوارح، والباطن ما كان لا يظهر كأفعال القلب، وقيل ما أعلنتم وما أسررتم، وقيل الزنا الظاهر والزنا المكتوم، وقال ابن عباس: الظاهر نكاح الأمهات والبنات، والباطن هو الزنا، وقال سعيد بن جبير: الظاهر منه لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء وحرمت عليكم أمهاتكم الآية، والباطن الزنا، وقال قتادة: علانيته وسره.

وقال السدي: الظاهر الزواني في الحوانيت، وهن صواحب الرايات، والباطن المرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سراً، وقال ابن زيد: ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعري في الطواف، والباطن الزنا، وقيل هذا النهي عام في جميع المحرمات التي نهى الله عنها وهو الأولى، فإن الاعتبار بعموم اللفظ دون خصوص السبب، وبه قال ابن الإنباري، وإنما أضاف الظاهر والباطن إلى الإثم لأنه يتسبب عنهما.

﴿إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على الله سبحانه.

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسمه الشريف عليه بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وقد اختلف أهل العلم في ذلك فذهب ابن عمر ونافع مولاه والشعبي وابن سيرين وهو رواية عن مالك وأحمد

ابن حنبل وبه قال أبو ثور وداود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية، ولقوله تعالى في آية الصيد: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه في هذه الآية ﴿وإنه لفسق﴾.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتسمية في الصيد وغيره، وذهب الشافعي وأصحابه وهو رواية عن مالك وعن أحمد ان التسمية مستحبة لا واجبة وهو مروي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رياح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص، وقد روى أبو داود في المراسيل أن النبي ﷺ قال: «ذبيحة المسلم حلال ذكر الله أو لم يذكر»[1] وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية.

نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قوماً يأتوننا بلحمان لا ندري ذكر اسم الله عليه أم لا فقال: «سموا أنتم وكلوا»[2]، يفيد أن التسمية عند الأكل يجزى مع التباس وقوعها عند الذبح، وذهب مالك وأحمد في المشهور عنهما وأبو حنيفة وأصحابه وإسحق بن راهويه أن التسمية إن تركت نسياناً لم يضر، وإن تركت عمداً لم يحل اكل الذبيحة، وهو مروي عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاووس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة.

واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المسلم إن نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله»[3]، وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس.

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٣٠٣٩.
(٢) ابن كثير ٢/١٦٩.
(٣) ابن كثير ٢/١٧٠.

نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ كما سبق تقريره بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان».

أما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عدي أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ﷺ أرأيت الرجل هنا يذبح وينسى أن يسمي، فقال النبي ﷺ: «اسم الله على كل مسلم»[1]، فهو حديث ضعيف قد ضعفه البيهقي وغيره.

وقال ابن عباس الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها، وقال عطاء إنها في تحريم الذبائح كانوا يذبحونها على اسم الأصنام.

﴿و﴾ الضمير في ﴿إنه لفسق﴾ يرجع إلى «ما» بتقدير مضاف ويجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا، وقد تقدم تحقيق الفسق، والواو للاستئناف أو للحال، وقد استدل من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير الله بقوله: ﴿وإنه لفسق﴾ ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقاً بل الفسق الذبح لغير الله، ويجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعاً.

﴿وإن الشياطين﴾ أي إبليس وجنوده ﴿ليوحون إلى أوليائهم﴾ أي يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المباينة للصواب ﴿ليجادلوكم﴾ أي قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم ﴿وإن أطعتموهم﴾ فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ﴿إنكم لمشركون﴾ مثلهم، قال الزجاج: فيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أحل الله فهو مشرك وإنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً غير الله.

---

(٤) ابن كثير ٢/ ١٦٩.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿أو﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف ﴿من كان ميتاً فأحييناه﴾ المراد بالميت هنا الكافر أحياه الله بالإسلام والهدى، وقيل معناه كان ميتاً حين كان نطفة فأحياه بنفخ الروح فيه، والأول أولى لأن السياق يشعر بذلك لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، وكثيراً ما تستعار الحياة للهداية وللعلم، والموت للكفر والجهل.

﴿وجعلنا له نوراً﴾ النور عبارة عن الهداية والإيمان، وقيل هو القرآن وقيل الحكمة، وقيل هو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ وقيل المراد به اليقين ﴿يمشي﴾ أي يستضيء ﴿به في الناس﴾ ويهتدي إلى قصد السبيل، والضمير في به راجع إلى النور ﴿كمن مثله﴾ أي صفته ﴿في الظلمات﴾ أي لا يستويان.

وقيل مثل زائدة، والمعنى كمن في الظلمات كما تقول أنا أكرم من مثلك أي منك، ومثله فجزاء مثل ما قتل من النعم وليس كمثله شيء وقيل المعنى كمن مثله مثل من هو في الظلمات، والمعنى كمن هو خابط في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة.

و﴿ليس بخارج منها﴾ في محل نصب على الحال أي حال كونه ليس بخارج من تلك الظلمات بحال من الأحوال، وقيل المراد بهما حمزة وأبو جهل قاله ابن عباس، وعن زيد بن أسلم في الآية قال: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل بن هشام كانا ميتين في ضلالتهما فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزه وأقر أبا جهل في ضلالته وموته، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا

فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل أو بعمر»(١).

قال عكرمة والكلبي: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل، وقال مقاتل: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل، والحق أن الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر، وبه قال الحسن.

﴿كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ المزين هو الله سبحانه ويدل عليه قوله: ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي وحصولها لا يكون إلا بخلق الله، فدل ذلك على أن المزين هو الله سبحانه، وقالت المعتزلة: المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجعل بمكة ﴿جعلنا في كل قرية أكابر﴾ الأكابر جمع أكبر قيل هم الرؤساء والعظماء وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم، وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءها وجعل فساقها أكابر ﴿مجرميها﴾ قال الواحدي في الآية تقديم وتأخير أي مجرميها أكابر، وإنما جعل المجرمين أكابر لأن ما فيهم من السعة أدعى لهم إلى المكر والكفر.

﴿ليمكروا فيها﴾ بالصد عن الإيمان، واللام على ظاهرها أو للعاقبة أو للعلة مجازاً، قال أبو عبيدة: المكر الخديعة والغدر والحيلة والفجور، وزاد بعضهم الغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل، قال ابن عباس: ليقولوا فيها الكذب، عن عكرمة قال: نزلت في المستهزئين، وقيل المعنى ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي، دليله ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾.

﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ المكر الحيلة في مخالفة الاستقامة وأصله الفتل، فالماكر يفتل عن الاستقامة أي يصرف عنها أي ما يحيق هذا المكر إلا بهم لأن وبال مكرهم عائد عليهم ﴿وما يشعرون﴾ بذلك لفرط جهلهم.

(١) المستدرك كتاب معرفة الصحابة ٣/٨٣.

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿وإذا جاءتهم آية﴾ من الآيات أي حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد ﷺ والمعنى إذا جاءت الأكابر آية ﴿قالوا﴾ هذه المقالة ﴿لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله﴾ وإنما قالوها حسداً منهم للنبي ﷺ، وقيل المعنى إذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد ﷺ قالوا لن نصدقك حتى يأتينا جبريل ويخبرنا بصدقك يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء متبوعين لا تابعين.

وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ونظيره ﴿يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ قال بعضهم يسن الوقف هنا ويستجاب الدعاء بين هاتين الجلالتين (قلت) لعل هذا من التجارب دون المأثورات.

فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أي أن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولاً ويكون موضعاً لها وأميناً عليها، وقد اختار أن يجعلها في محمد ﷺ صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم، عن ابن جريج قال: قالوا لمحمد ﷺ حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق: لو كان هذا حقاً لكان فينا من هو أحق أن يؤتى به من محمد، [وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم].

ثم توعدهم بقوله: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار﴾ أي ذل وهوان،

وأصله من الصغر كأن الذل يصغر إلى المرء نفسه، وقيل الصغار هو الرضاء بالذل، روي ذلك عن ابن السكيت.

﴿عند الله﴾ أي في الآخرة يوم القيامة وقيل في الدنيا ﴿وعذاب شديد﴾ في الآخرة أو في الدارين من القتل والأسر وعذاب النار ﴿بما كانوا يمكرون﴾ أي بسبب مكرهم وحسدهم.

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ الشرح الشق وأصله التوسعة وشرحت الأمر بينته وأوضحته، والمعنى من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح.

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر المدايني رجل من بني هاشم، وليس هو محمد بن علي، قال: سئل النبي ﷺ عن هذه الآية وقالوا كيف شرح صدره يا رسول الله قال: نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له، قالوا فهل لذلك من أمارة يعرف بها قال: الانابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»[1]، وقد روي بطرق يقوي بعضها بعضاً والمتصل يقوي المرسل، فالمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين.

﴿ومن يرد أن يضله﴾ يصرف اختياره إليه ﴿يجعل صدره ضيقاً﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يكاد يدخله الإيمان، جعل بمعنى صير أو خلق أو سمى، وهذا الثالث ذهب إليه الفارسي وغيره من معتزلة النحاة، وضيقاً بالتشديد وقرىء بالتخفيف مثل هين ولين، وهما لغتان.

﴿حرجاً﴾ بالفتح جمع حرجة وهي شدة الضيق والحرجة الفيضة والجمع حريج وحرجات، ومنه فلان يتحرج أي يضيق على نفسه، وبالكسر معناه الضيق، كرر المعنى تأكيداً وحسن ذلك اختلاف اللفظ، وقال الجوهري: مكان

(١) ابن كثير ٢/١٧٤.

حرج أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية، والحرج الإثم وقال الزجاج: الحرج أضيق الضيق فالمعنى يجعل صدره ضيقاً حتى لا يدخله الإيمان.

وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ، وقال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، وإذا سمع ذكر الأصنام ارتاح إلى ذلك، وفي الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر.

﴿كأنما يصعد في السماء﴾ قرىء بالتخفيف من الصعود شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء، وقرىء يصاعد، وأصله يتصاعد وقرىء يصعد بالتشديد وأصله يتصعد ومعناه يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء المظلة أو إلى مكان مرتفع وعر كالعقبة، وقيل المعنى على جميع القراآت كاد قلبه يصعد إلى السماء نبواً عن الإسلام وتكبراً، وقيل ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد إلى السماء، وليس يقدر على ذلك.

وقيل هو المشقة وصعوبة الأمر، وقال ابن عباس: كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله في قلبه، ومن أراد أن يضله يضيق عليه حتى يجعل الإسلام عنه ضيقاً والاسلام واسع، وذلك حيث يقول: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ يقول ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر ضيقاً حرجاً ﴿يجعل الله الرجس﴾ هو في اللغة النتن وقيل هو العذاب، وقيل هو الشيطان يسلطه الله ﴿على الذين لا يؤمنون﴾ قاله ابن عباس: وقيل هو ما لا خير فيه، قاله مجاهد، والمعنى الأول هو المشهور في لغة العرب وهو مستعار لما يحل بهم من العقوبة، ويصدق على جميع المعاني المذكورة، وقال الزجاج: الرجس في الدنيا اللعنة وفي الآخرة العذاب.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وهذا﴾ أي ما أنت عليه يا محمد ومن معك من المؤمنين ﴿صراط ربك﴾ أي دينه ﴿مستقيماً﴾ لا اعوجاج فيه، وقال ابن مسعود: يعني القرآن لأنه يؤدي من تبعه وعمل به إلى طريق الاستقامة والسداد، وقيل الإشارة إلى ما تقدم مما يدل على التوفيق والخذلان، أي هذا هو عادة الله في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿لقوم يذكرون﴾ أي لمن يذكر ما فيها ويتفهم معانيها وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعهم بإحسان.

﴿لهم دار السلام﴾ أي لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السلام من كل مكروه، وبه قال جمهور المفسرين، أو دار الرب السلام مدخرة لهم ﴿عند ربهم﴾ يوصلهم إليها، قال قتادة: دار السلام الجنة، وقال جابر بن زيد: السلام هو الله وقال السدي والحسن: الله هو السلام وداره الجنة، وقيل المراد بالسلام التحية أي دارها وهي الجنة والمعنى متقارب.

﴿وهو وليهم﴾ أي ناصرهم ومتولي إيصال الخير إليهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ أي الخلق ﴿جميعاً﴾ في القيامة أو المعنى يوم الحشر نقول: ﴿يا معشر الجن﴾ المراد بهم الشياطين والمعشر الجماعة والجمع معاشر ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي من الاستمتاع بهم كقوله ﴿ربنا استمتع

بعضنا ببعض﴾ وقيل استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا في حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم، ومثله قولهم استكثر الأمير من الجنود، والمراد التوبيخ والتقريع، وعلى الأول فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم.

﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ لعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين وهم الإنس دون المضلين وهم الجن للإيذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلاً.

﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أما استمتاع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي فوقعوا فيها وتلذذوا بها، فذلك هو استلذاذهم بالجن.

وقيل استمتاع الانس بالجن أنه كان إذا مر الرجل بواد في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أحذر، يعني ربه من الجن، ومنه قوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ وقيل استمتاع الجن بالانس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، واستمتاع الانس بالجن أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب والأراجيف والسحر وينالون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان.

﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ أي يوم القيامة اعترافاً منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذبون به، قال الحسن والسدي: الأجل الموت، وقيل هو وقت البعث والحساب يوم القيامة، وهذا تحسر منهم على حالهم أي أن ذلك الاستمتاع كان إلى أجل معين محدود، ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة.

ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم و﴿قال النار مثواكم﴾ أي موضع مقركم ومقامكم، والمثوى المقام، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين في نار جهنم أبداً ﴿إلا ما شاء الله﴾ المعنى الذي تقتضيه لغة

العرب في التركيب أنهم يخلدون في النار في كل الأوقات إلا في الوقت الذي يشاء الله عدم بقائهم فيها، وعليه جرى السيوطي تبعاً لشيخه المحلي في سورة الصافات، وهو مخالف في ذلك لقوله تعالى: ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾.

والعجب منه أنه اختار هذا التفسير مع أنه في كتابه الدر المنثور قال: إن السلف على أن الكفار لا يخرجون من النار أصلاً، قاله القاري، وقال الزجاج: إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في الحساب إلى حين دخولهم إلى النار، وهو تعسف لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ولا يصدق على من لم يدخل النار. وقيل الاستثناء راجع إلى النار أي إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها في بعض الأوقات كالزمهرير، وبه فسر النسفي والشهاب وزاده الآية.

وقيل الاستثناء لأهل الايمان و(ما) بمعنى من أي إلا من شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار، وبه قال ابن عباس كما حكاه الجمهور، وبه قال الكرخي، وقيل المعنى إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب.

وكل هذه التأويلات متكلفة والذي ألجأ اليها ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار في النار أبداً، ولكن لا تعارض بين عام وخاص لا سيما بعد وروده في القرآن مكرراً كما سيأتي في سورة هود ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد﴾ ولعله يأتي هنالك إن شاء الله تعالى زيادة تحقيق.

قال ابن عباس: في هذه الآية إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه أن لا ينزل لهم جنة ولا ناراً، وقد أوضح المقام الحافظ ابن القيم رحمه الله في كتابه حادي الأرواح فليرجع إليه.

﴿ان ربك حكيم﴾ أي في تدبير خلقه وتصريفه إياهم في مشيئته من حال الى حال وغير ذلك من أفعاله ﴿عليم﴾ بعواقب أمور خلقه وما هم إليه صائرون.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ
قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

﴿وكذلك﴾ أي مثل ما جعلنا ما بين الجن والانس ما سلف ﴿نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ أي نجعل بعضهم يتولى البعض فيكونون بعضهم أولياء بعض ثم يتبرأ بعضهم من البعض، فمعنى نولي على هذا نجعله ولياً له، وقال عبد الرحمن ابن زيد: معناه نسلط ظلمة الجن على ظلمة الانس، وروي عنه أنه فسر هذه الآية بأن المعنى نسلط بعض الظلمة على بعض فنهلكه ونذله فيكون في الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالماً آخر.

وقال فضيل بن عياض: إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجباً وقيل معنى نولي نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، وقال قتادة: المعنى المؤمن ولي المؤمن حيث كان وأين كان، والكافر ولي الكافر حيث كان وأين كان، وقال ابن عباس في الآية: أن الله اذا أراد بقوم خيراً ولى عليهم خيارهم واذا أراد بقوم شراً ولى عليهم شرارهم.

﴿بما كانوا يكسبون﴾ الباء للسببية أي بسبب كسبهم الذنوب ولينا بعضهم بعضاً قال قتادة: يولي الله بعض الظالمين بعضاً في الدنيا، ويتبع بعضهم بعضاً في النار من الموالاة، وقال الأعمش سمعتهم يقولون اذا فسد الزمان أمر عليهم شرارهم.

﴿يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي يوم نحشرهم لنقول لهم ألم يأتكم، وهو شروع في حكاية ما سيكون في الحشر من توبيخ المعشرين بما يتعلق بخاصة أنفسهم إثر حكاية توبيخ الجن بإغواء الانس واضلالهم اياهم.

وظاهره أن الله يبعث في الدنيا إلى الجن رسلاً منهم كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم، وبه قال الضحاك، وقيل معنى منكم أي ممن هو مجانس لكم في الخلق والتكليف والقصد بالمخاطبة فإن الجن والإنس متحدون في ذلك وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجن من تلك الحيثية، وبه قال أكثر أهل العلم وابن عباس.

وقيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجن كما يغلب الذكر على الأنثى، وبه قال الفراء والزجاج، وقيل المراد بالرسل إلى الجن ههنا النذر منهم كما في قوله ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ عن مجاهد قال: ليس في الجن رسل إنما الرسالة في الإنس، والنذارة في الجن، ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة، وقيل التقدير رسل من أحدكم يعني من جنس الإنس.

والحاصل أن الخطاب للإنس وان تناولهما اللفظ فالمراد أحدهما كقوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب، وقال تعالى: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ وإنما هو في سماء واحدة.

﴿يقصون عليكم آياتي﴾ أي يقرأون كتبي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي ويتلونها مع التوضيح والتبيين، والقاص من يأتي بالقصة، وقد تقدم بيان معنى القص ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ وهو يوم القيامة، يقول الله ذلك لهم تقريعاً وتوبيخاً.

﴿قالوا﴾ أي كفار الإنس والجن ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بإرسال رسله إليهم، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ جملة معترضة أي لذاتها ومالوا إليها فكانت عاقبة أمرهم ان اضطروا إلى الشهادة عليهم بالكفر.

﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بالكفر في الدنيا بالرسل المرسلين إليهم والآيات التي جاؤوا بها، وقد تقدم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصرحة باقرارهم بالكفر على أنفسهم ومثل قولهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ محمول على أنهم يقرون في بعض مواطن يوم القيامة، وينكرون في بعض آخر، لطول ذلك اليوم واضطراب القلوب فيه، وطيشان العقول وانغلاق الافهام وتبلد الأذهان.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾ المعنى أن الله أرسل الرسل إلى عباده، لأنه لم يهلك من عصاه بالكفر من القرى والحال أنهم غافلون عن الاعذار والانذار بإرسال الرسل وإنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم كقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾.

وقيل المعنى ما كان الله مهلك أهل القرى بظلم منه فهو سبحانه يتعالى عن الظلم، بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء وقيل المعنى ان الله لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك فهو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ
ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ
كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ
وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

﴿ولكل﴾ من الجن والإنس، وقيل من المؤمنين خاصة، وقيل من الكفار خاصة لأنها جاءت عقيب خطاب الكفار إلا أنه يبعده قوله: ﴿درجات﴾ أي متفاوتة، وقد يقال ان المراد بها هنا المراتب وان غلب استعمالها في الخير ﴿مما عملوا﴾ فيجازيهم بأعمالهم كما قال في آية أخرى ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾.

وفيه دليل على أن المطيع من الجن في الجنة والعاصي في النار، قال الضحاك: الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، وعن ليث ابن أبي سليم قال: مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار، وذلك أن الله أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده ولا يعيد ولده.

وعن ابن عباس قال: الخلق أربعة فخلق في الجنة كلهم وخلق في النار كلهم وخلقان في الجنة والنار، فأما الذين في الجنة كلهم فالملائكة، وأما الذين في النار كلهم فالشياطين، وأما الذين في الجنة والنار فالانس والجن لهم الثواب وعليهم العقاب ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ من أعمال الخير والشر والغفلة ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره، قيل هذا مختص بأهل الكفر والمعاصي، ففيه وعيد وتهديد لهم، والأولى شموله لكل المعلومات على التفصيل التام.

﴿وربك الغني﴾ عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم ومع كونه غنياً عنهم فهو ﴿ذو الرحمة﴾ لا يكون غناؤه

عنهم مانعاً من رحمته لهم، وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطول، ومن جملة رحمته إرسال الرسل للخلق وإبقاؤهم بلا استئصال بالهلاك فهذا الوصف يناسب سابق الكلام ولا حقه.

﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المفضي إلى الهلاك، وقيل الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم، والعموم اولى ويدخل فيه أهل مكة دخولاً أولياً ﴿ويستخلف﴾ أي ينشيء ويوجد ﴿من بعدكم﴾ أي بعد إهلاككم ﴿ما يشاء﴾ من خلقه ممن هم أطوع له وأسرع إلى امتثال أحكامه منكم ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أي من نسل قوم لم يكونوا على مثل صفتكم بل كانوا طائعين، قيل هم أهل سفينة نوح وذريتهم من بعدهم من القرون إلى زمنكم.

قال الواحدي والزمخشري: ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ولطفاً بهم، وقال الرازي: المراد منه خلق ثالث أو رابع، واختلفوا فيه فقيل خلقاً آخر من أمثال الجن والانس.

قال القاضي: وهو الوجه الأقرب فكأنه نبه أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس، وقال الطبري: المعنى كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم، ﴿والذرية الأصل﴾ والنسل قاله أبان ابن عثمان.

﴿إنما توعدون﴾ من مجيء الساعة والبعث والحساب والمجازاة ﴿لآت﴾ لا محالة عن قريب فان الله لا يخلف الميعاد ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي بفائتين عما هو نازل بكم وواقع عليكم، يقال أعجزني فلان أي فاتني وغلبني، وقال ابن عباس: أي سابقين، وقيل هاربين منه وهو مدرككم لا محالة.

والمراد بيان دوام انتفاء الاعجاز لا بيان انتفاء دوامه فان الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوت كذلك تدل بمعونة المقام إذا دخل عليها حرف النفي على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام كما حقق في موضعه قاله الكرخي.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿قل يا قوم﴾ من كفار قريش ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ المكانة الطريقة أي اثبتوا على ما أنتم عليه فاني غير مبال بكم ولا مكترث بكفركم، وقيل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى قدرتكم واستطاعتكم وإمكانكم، قاله الزجاج، وقال ابن عباس: على ناحيتكم وجهتكم.

والمقصود من هذا الأمر الوعيد والتهديد والمبالغة في الزجر عما هم عليه، فهو كقوله:

﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ فلا يرد ما يقال كيف يأمركم بالثبات على الكفر .

﴿ اني عامل ﴾ على مكانتي أي ثابت على ما أنا عليه ﴿ فسوف ﴾ لتأكيد مضمون الجملة وهذه الجملة تعليل لما قبلها .

﴿ تعلمون ﴾ أي تعرفون عند نزول العذاب بكم أو غداً يوم القيامة .

﴿ من تكون له عاقبة الدار ﴾ وهي العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها أي من له النصر في دار الدنيا ومن له وراثة الأرض ومن له الدار الآخرة ، ومن هو على الحق ومن هو على الباطل ، نحن أم أنتم ، وفيه مع الانذار إنصاف في المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بأمره .

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وإيثارهم لآلهتهم على الله سبحانه أي جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم وهي الإبل والبقر والغنم نصيباً ولآلهتهم نصيباً من ذلك أي قسماً يصرفونه في سدنتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لآلهتهم بانفاقه في ذلك عوضوا عنه ما جعلوه لله قالوا الله غني عن ذلك.

وعن ابن عباس قال: جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيباً وللشيطان والاوثان نصيباً فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه وإن سقط مما جعلوه للشيطان في نصيب الله ردوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سقي ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله نزحوه، فهذا ما جعلوا لله من الحرث وسقي الماء وأما ما جعلوه للشيطان من الانعام فهو قول الله ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ الآية.

وقال مجاهد: جعلوا لله جزءاً ولشركائهم جزءاً فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غني، وما ذهبت به الريح من أجزاء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه، والأنعام التي سمى الله البحيرة والسائبة.

﴿فقالوا هذا لله بزعمهم﴾ الزعم الكذب وقرىء بضم الزاي وبفتحها وهما لغتان وإنما نسبوا للكذب في هذه المقالة مع أن كل شيء لله لأن هذا الجعل لم يأمرهم الله به فهو مجرد اختراع منهم، قال الازهري: وأكثر ما يكون الزعم فيما يشك فيه ولا يتحقق قال بعضهم هو كناية عن الكذب.

وقال المرزوقي: أكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً أو فيه ارتياب، وقال ابن القوطية: زعم زعماً قال خبراً لا يدري أحق هو أو باطل، قال الخطابي: ولهذا قيل:زعموامطية الكذب وزعم غير مزعم، قال غير مقول صالح وادعى ما لا يمكن.

﴿وهذا لشركائنا﴾ أي الاصنام ﴿فما كان لشركائهم﴾ أي ما جعلوه لها من الحرث والانعام ﴿فلا يصل إلى الله﴾ أي إلى المصارف التي شرع الله الصرف فيها كالصدقة وصلة الرحم وقراء الضيف ﴿وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي حكمهم في ايثارهم آلهتهم على الله سبحانه ورجحان جانب الاصنام على جانب الله تعالى في الرعاية والحفاظة، وهذا سفه منهم.

وقيل معنى الآية أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يـذكروا عليـه اسم الله فهذا معنى الوصول إلى الله والوصول إلى شركائهم[1].

---

(١) وكانوا إذا زكا ما لله، ولم يزك ما لشركائهم، ردوا الزاكي على اصنامهم، وقالوا: هذه أحوج، والله غني؛ وإذا زكا ما للأصنام، ولم يترك ما لله، اقروه على ما به.

قال المفسرون: وكانوا يصرفون ما جعلوا لله الى الضيفان والمساكين. فمعنى قوله:

﴿فلا يصل الى الله﴾ أي: الى هؤلاء. ويصرفون نصيب آلهتهم في الزرع الى النفقة على خُدامها. نصيبها في الانعام، ففيه ثلاثة اقوال:

أحدها: انه كان للنفقة عليها ايضاً. والثاني: انهم كانوا يتقربون به، فيذبحونه لها.

والثالث: انه البحيرة، والسائبة ـ والوصيلة، والحام.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١٣٧ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝١٣٨﴾

﴿وكذلك﴾ أي ومثل ذلك التزيين الذي زينه الشيطان لهم في قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم ﴿زين لكثير من المشركين قتل أولادهم﴾ قال الفراء والزجاج: ﴿شركاؤهم﴾ ههنا هم الذين كانوا يخدمون الاوثان وقيل هم الغواة من الناس، وقيل هم الشياطين، وأشار بهذا إلى الوأد وهو دفن البنات مخافة السباء والحاجة، وقيل كان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم كما فعله عبد المطلب.

قرىء زين بالبناء للفاعل ونصب قتل ورفع شركاؤهم على انه فاعل زين، وقرىء بضم الزاي، ورفع قتل وخفض أولاد ورفع شركاؤهم باضمار فعل دل عليه زين كأنه لما قيل زين لهم الخ قيل من زينه فقيل زينه شركاؤهم وقرىء بضم الزاي ورفع قتل ونصب أولاد وخفض شركاؤهم بإضافة القتل إليه مفصولاً بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول.

قال النحاس: إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا في شعر وهي بعيدة، وفي القرآن أبعد، وقال ابن حمدان النحوي: هي زلة عالم لم يجز اتباعه، وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبي ﷺ فهي فصيحة لا قبيحة، قالوا وقد ورد ذلك في كلام العرب وفي مصحف عثمان شركائهم بالياء.

قلت دعوى التواتر باطلة باجماع القراء المعتبرين كما بين الشوكاني ذلك في رسالة مستقلة فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فهو رد عليه، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل في النظم، فان ضرورة الشعر لا يقاس عليها.

وفي الآية قراءة رابعة وهي جر الاولاد والشركاء، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الاولاد لكونهم شركاءهم في النسب والميراث.

﴿ليردوهم﴾ من الإرداء وهو الاهلاك أي فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ أي يخلطوه عليهم، قال ابن عباس: ليدخلوا عليهم الشك في دينهم، وكانوا على دين اسمعيل فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين ﴿ولو شاء الله﴾ عدم فعلهم ﴿ما فعلوه﴾ أي ذلك الفعل الذي زين لهم من تحريم الحرث والانعام وقتل الاولاد، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا كان ذلك بمشيئة الله ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي فدعهم وافتراءهم فذلك لا يضر، والفاء فاء الفصيحة.

﴿وقالوا هذه انعام وحرث حجر﴾ هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم، وهذه اشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم، والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله: ﴿أنعام﴾ فهو وحرث خبر عن اسم الاشارة، والحجر بكسر أوله وسكون ثانيه، وقرىء بضم الحاء والجيم وبفتح الحاء واسكان الجيم، وقرىء حرج بتقديم الراء على الجيم من الحرج وهو الضيق، والحجر على اختلاف القراآت فيه هو مصدر بمعنى محجور كذبح وطحن بمعنى مذبوح ومطحون، يستوي فيه الواحد والكثير، والمذكر والمؤنث وأصله المنع، فمعنى الآية هذه انعام وحرث ممنوعة يعنون أنها لأصنامهم، قال مجاهد: يعني بالانعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، قال ابن عباس: الحجر ما حرموا من الوصيلة وقال قتادة والسدي حجر أي حرام.

﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ وهم خدام الاصنام والرجال دون النساء ﴿بزعمهم﴾ لا حجة لهم فيه فجعلوا نصيب الآلهة أقساماً ثلاثة الأول ما ذكره بقوله حجر، والثاني ما ذكره بقوله: ﴿وانعام حرمت ظهورها﴾ أي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، حموا ظهورها عن الركوب وقيل: إن هذا القسم أيضاً مما جعلوه لآلهتهم ﴿و﴾ القسم الثالث ﴿أنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ عند الذبح وهي ما ذبحوا لآلهتهم فإنهم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله وقيل: إن المراد لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير.

﴿افتراء عليه﴾ أي اختلاقاً وكذباً على الله سبحانه، نصب على العلة والجار متعلق به والتقدير قالوا ما تقدم لأجل الافتراء على الباري، وهو مذهب سيبويه، وهذا أظهر، وقال الزجاج: هو مصدر على غير المصدر لأن قوله المحكى عنهم افتراء فهو نظير قعد القرفصاء، وقيل: إنه مصدر عامله من لفظه مقدر أي افتروا ذلك افتراء، وقيل قالوا ذلك حال افترائهم وهي تشبه الحال المؤكدة.

﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ أي بافترائهم أو بالذي يفترونه، وفيه وعيد وتهديد لهم.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾

ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم فقال: ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام﴾ يعنون أجنة البحائر والسوائب وقيل هو اللبن ﴿خالصة لذكورنا﴾ أي حلال لهم، والهاء في خالصة للمبالغة في الخلوص كعلامة ونسابة، قاله الكسائي والأخفش، وقال الفراء: تأنيثها لتأنيث الأنعام ورد بأن ما في بطون الأنعام غير الأنعام، وتعقب هذا الرد بأن ما في بطونها أنعام وهي الأجنة، «وما» عبارة عنها فيكون تأنيث خالصة باعتبار المعنى.

﴿ومحرم على﴾ جنس ﴿أزواجنا﴾ وهي النساء فيدخل في ذلك البنات والأخوات ونحوهن وتذكير محرم باعتبار لفظ ما ﴿وإن يكن﴾ أي الذي في بطون الأنعام ﴿ميتة فهم فيه﴾ أي في الذي في البطون ﴿شركاء﴾ يأكل منه الذكور والأناث ﴿سيجزيهم﴾ الله ﴿وصفهم﴾ أي بوصفهم الكذب على الله، وقيل المعنى سيجزيهم جزاء وصفهم ﴿إنه حكيم عليم﴾ فلأجل حكمته وعلمه لا يترك جزاءهم الذي هو من مقتضيات الحكمة.

ثم بين الله سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم فقال: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ أي بناتهم بالوأد الذي كانوا يفعلونه ﴿سفهاً﴾ أي لأجل السفه وهو الطيش والخفة لا لحجة عقلية ولا شرعية، قال عكرمة: نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة وقال قتادة: هذا صنع أهل الجاهلية، وكان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة ويغذو كلبه ﴿بغير علم﴾ يهتدون به ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ من الأنعام التي سموها بحائر وسوائب ﴿افتراء على الله﴾ أي للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ
أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

﴿قد ضلوا﴾ عن طريق الصواب والرشاد بهذه الأفعال ﴿وما كانوا مهتدين﴾ إلى الحق ولا هم من أهل الاستعداد لذلك، قال ابن عباس: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين﴾ الآية أخرجه البخاري.

﴿وهو الذي أنشأ﴾ أي خلق ﴿جنات﴾ بساتين، وهذا تذكير لهم ببديع قدرة الله وعظيم صنعه ﴿معروشات﴾ مرفوعات ممسوكات على الأعمدة ﴿وغير معروشات﴾ غير مرفوعات عليها، وقيل المعروشات ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ، وغير المعروشات ما قام على ساق مثل النخل والزرع وسائر الأشجار.

وقال الضحاك: كلاهما في الكرم خاصة لأن منه ما يعرش ومنه ما لا يعرش بل يبقى على وجه الأرض منبسطاً، وقيل المعروشات ما أنبته الناس وغرسوه، وغير المعروشات ما نبت في البراري والجبال من الثمار، قاله ابن عباس، وقال قتادة: معروشات بالعيدان والقصب، وغير معروشات الضاحي، وأصل العرش في اللغة شيء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم أعرشه عرشاً وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهيئة السقف، واعترش العنب العريش إذ علاه وركبه.

﴿و﴾ أنشأ ﴿النخل والزرع﴾ وهو جميع الحبوب التي تقتات وتدخر، وخصهما بالذكر مع دخولهما في الجنات لما فيهما من الفضيلة على سائر ما ينبت في الجنات حال كونه ﴿مختلفاً أكله﴾ أي أكل كل واحد منهما في الطعم والجودة

والرداءة، والمراد بالاكل المأكول أي مختلف المأكول من كل منهما في الهيئة والطعم.

قال الزجاج: وهذه مسألة مشكلة في النحو، يعني انتصاب مختلفاً على الحال لأنه يقال قد أنشأها ولم يختلف أكلها، فالجواب أن الله سبحانه أنشأها مقدراً فيها الاختلاف، وهذه هي الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدونه في كتب النحو، وقال مختلفاً أكله ولم يقل أكلهما اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ أو الضمير بمنزلة اسم الاشارة أي أكل ذلك.

﴿و﴾ أنشأ ﴿الزيتون والرمان﴾ حال كونهما ﴿متشابها﴾ ورقهما في المنظر ﴿وغير متشابه﴾ في المطعم وقد تقدم الكلام على تفسير هذا ﴿كلوا من ثمره﴾ أي من ثمر كل واحد منهما أو من ثمر ذلك ﴿إذا أثمر﴾ أي إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد، وهذا امر إباحة وبه تمسك بعضهم فقال الأمر قد يرد لغير الوجوب، لأن هذه الصيغة مفيدة لدفع الحرج وقيل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الواجب، وقيل المعنى ليعلم أن المقصود من خلق هذه الأشياء هو الأكل، وقيل ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت اطلاع الشجر الثمر ولا يتوهم إنه لا يباح إلا إذا أدرك.

﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي جذاذه وقطعه، قرىء بفتح الحاء وكسرها وهما لغتان في المصدر كقولهم جذاذ وجذاذ وقطاف وقطاف، قال سيبويه: جاءوا بالمصدر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فعال، وربما قالوا فيه فعال يعني أن هذا مصدر خاص دال على معنى زائد على مطلق المصدر، فإن المصدر الاصلي إنما هو الحصد، والحصد ليس فيه دلالة على انتهاء زمان ولا عدمها بخلاف الحصاد والحصاد.

وقد اختلف أهل العلم هل الآية محكمة أو منسوخة أو محمولة على

الندب، فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير إلى أنها محكمة، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطي من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما، وذهب أنس بن مالك وابن عباس ومحمد بن الحنفية والحسن والنخعي وطاووس وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريج وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب إلى أنها منسوخة بالزكاة، واختاره ابن جرير.

ويؤيده أن هذه الآية مكية، وآية الزكاة مدنية في السنة الثانية بعد الهجرة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف، قال ابن عباس: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن.

وقالت طائفة من العلماء أن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب، وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «ما سقط من السنبل» وقال ابن عمر كانوا يعطون من اعتراهم شيئاً سوى الصدقة، وعن مجاهد قال: إذا حصدت فحضرك المساكين فأطرح لهم من السنبل.

وقال ميمون بن مهران ويزيد بن الاصم: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه في المسجد فيجيء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه فهو قوله: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وقال حماد بن أبي سليمان في الآية: كانوا يطعمون منه رطباً، وأخرج أحمد وأبو داود في سننه من حديث جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ أمر من كل حادي عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المسجد للمساكين واسناده جيد، وقال ابن عباس: أيضاً نسخها العشر ونصف العشر وعن السدي نحوه، وقال الشعبي: إن في المال حقاً سوى الزكاة وعن أبي العالية قال ما كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة.

وقال علي بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد: هو إطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والتمر، وقال سعيد بن جبير: كان هذا حقاً يؤمر باخراجه في

ابتداء الاسلام ثم صار منسوخاً بإيجاب العشر، واختاره الطبري وصححه واختار الأول الواحدي والرازي، وقيل المعنى وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التصفية.

ثم إنهم تبادروا وأسرفوا فأنزل الله ﴿ولا تسرفوا﴾ أي في التصدق بإعطاء كله، وأصل الاسراف في اللغة الخطأ والاسراف في النفقة التبذير، وقال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً، قال السدي: معناه لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء.

قال الزجاج: وعلى هذا لو أعطى الانسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف، لأنه قد صح في الحديث ابدأ بمن تعول، وقال سعيد بن المسيب: معناه لا تمنعوا الصدقة أي لا تجاوزوا الحد في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة.

وعلى هذين القولين المراد بالاسراف مجاوزة الحد إلا أن الأول في البذل والإعطاء، والثاني في الإمساك والبخل، وقال مقاتل: معناه لا تشركوا الأصنام في الحرث والانعام، وقال الزهري: لا تنفقوا في معصية الله، وقال ابن زيد: هو خطاب للولاة يقول لهم لا تأخذوا فوق حقكم من رب المال، وقيل المعنى لا تأخذوا الشيء بغير حقه وتضعونه في غير مستحقه.

﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ اعتراض وفيه وعيد وزجر عن الاسراف في كل شيء لأن من لا يحبه الله فهو من أهل النار، وعن ابن جريج قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخلا فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليس له تمرة فأنزل الله هذه الآية وعن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبي قيس ذهباً في طاعة الله لم يكن اسرافاً ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان اسرافاً، وللسلف في هذا مقالات طويلة.

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

﴿و﴾ أنشأ لكم ﴿من الانعام﴾ شروع في تفصيل حال الانعام وإبطال ما تقولوا في شأنها بالتحريم والتحليل ﴿حمولة وفرشاً﴾ الحمولة هي كل ما يحمل عليها واختصت بالابل فهي فعولة بمعنى فاعلة، والفرش ما يتخذ من الوبر والصوف والشعر فراشاً يفرشه الناس، وقيل الحمولة الابل، والفرش الغنم، وقيل هي كل ما حمل عليه من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، والفرش الغنم، وهذا لا يتم إلا على فرض صحة اطلاق اسم الانعام على جميع هذه المذكورات.

قال ابن مسعود: الفرش صغار الابل التي لا تحمل، وبه قال ابن عباس: وزاد الحمولة ما حمل عليه والفرش ما أكل منه، قال أبو العالية: الفرش الضأن والمعز قيل سمي فرشاً لأنه يفرش للذبح ولأنه قريب من الأرض لصغره، قال الزجاج: أجمع أهل اللغة على أن الفرش صغار الابل، قال أبو زيد: يحتمل أن يكون تسمية بالمصدر لأن الفرش في الأصل مصدر والفرش لفظ مشترك بين معان كثيرة منها ما تقدم ومنها متاع البيت والفضاء الواسع واتساع خف البعير قليلاً والأرض الملساء ونبات يلتصق بالأرض.

﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ من الثمار والزرع والانعام وأحلها لكم ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي طرقه وآثاره كما فعل المشركون وأهل الجاهلية من تحريم ما لم يحرمه الله وتحليل ما لم يحلله ﴿إنه﴾ أي الشيطان ﴿لكم عدو مبين﴾ مظهر للعداوة ومكاشف بها.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣)﴾

ثم بين الحمولة والفرش فقال: ﴿ثمانية أزواج﴾ اختلف في انتصاب ثمانية على ماذا قال الكسائي بفعل مضمر أي وأنشأ ثمانية أصناف، وقال الأخفش سعيد: هو منصوب على البدل من حمولة وفرشاً، وقال الاخفش: على هو منصوب بكلوا أي كلوا لحم ثمانية، وقيل منصوب على أنه بدل من ما في ﴿مما رزقكم الله﴾.

والزوج خلاف الفرد يقال: زوج أو فرد كما يقال شفع أو وتر، يعني ثمانية أفراد، وإنما سمي الفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، ويقع لفظ الزوج على الواحد فيقال هما زوج وهو زوج وتقول اشتريت زوجي حمام أي ذكراً وانثى والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً سواء كان ذكراً أو انثى قيل له فرد، وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما زوج ولكل واحد منهما على انفراده زوج، ويقال لهما أيضاً زوجان ومنه قوله تعالى: ﴿وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾.

﴿من الضأن﴾ أي ذوات الصوف من الغنم وهو جمع ضائن ويقال للانثى ضائنة والجمع ضوائن، وقيل هو جمع لا واحد، وقيل اسم جمع، وقيل في جمعه ضئين كعبد وعبيد، قال النحاس: الاكثر في كلام العرب المعز والضأن بالاسكان.

﴿اثنين﴾ أي الذكر والانثى يعني الكبش والنعجة ﴿ومن المعز اثنين﴾ أي الذكر والأنثى يعني التيس والعنز، فالتيس للذكر والعنز للأنثى إذا أتى عليها حول والمعز من الغنم خلاف الضأن وهي ذوات الأشعار والأذناب القصار، وهو إسم جنس لا واحد من لفظه، وواحد المعز ماعز مثل صحب

وصاحب، وركب وراكب، وتجر وتاجر، والجمع معزى والأنثى ماعزة، واثنين بدل من ثمانية أزواج صرح به أبو البقاء، وهو ظاهر قول الزمخشري.

والمراد من هذه الآية أن الله سبحانه بين حال الأنعام وتفاصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحا للامتنان بها على عباده، ودفعاً لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها وتحريم بعض، تقولاً على الله سبحانه وافتراء عليه.

عن ابن عباس قال: الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز، أخرجه البيهقي وابن جرير وغيرهما، وليت شعري ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة فإنه لا يتعلق به فائدة، وكون الأزواج الثمانية هي المذكورة هو هكذا في الآية مصرحاً به تصريحاً لا لبس فيه.

قال أبو السعود: وهذه الأزواج الأربعة تفصيل للفرش، ولعل تقديمها في التفصيل مع تأخر أصلها في الإجمال لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى: ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه في السائبة وأخواتها.

﴿قل﴾ يا محمد لمن حرم ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى ونسب ذلك إلى الله ﴿آلذكرين حرم أم الأنثيين﴾ منهما ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ منهما المراد بالذكرين الكبش والتيس، وبالأنثيين النعجة والعنز، وانتصاب الذكرين بحرم، والأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه والهمزة للإنكار، والمعنى الإنكار على المشركين في أمر البحيرة وما ذكر معها، وقولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، أي قل لهم إن كان حرم الذكور، فكل ذكر حرام وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين يعني من الضأن والمعز فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى وكلها مولود فيستلزم أن كلها حرام.

﴿نبئوني﴾ أي أخبروني ﴿بعلم﴾ لا بجهل عن كيفية تحريم ذلك وفسروا

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

لي ما حرمتم والمراد من هذا التبكيت لهم والتعجيز وإلزام الحجة لأنه يعلم أنه لا علم عندهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن الله حرم ذلك عليكم.

وهكذا الكلام في قوله: ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ هذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية، قال الشوكاني: وينبغي أن ينظر في وجه تقديم المعز والضأن على الإبل والبقر مع كون الإبل والبقر أكثر نفعاً وأكبر أجساماً وأعود فائدة لا سيما في الحمولة والفرش اللذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح في إعراب ثمانية.

﴿قل آلذكرين حرم أم الأنثيين اما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ قال ليث بن أبي سليم: الجاموس والبختي من الأزواج الثمانية.

وفي هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله لأهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله، وذكر الرازي وجهين آخرين في معنى هذه الآية ونسبهما إلى نفسه فقال: إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار، يعني أنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم.

والوجه الثاني أنكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام مخصوصاً بالإبل فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة، وهي الضأن والمعز والبقر والإبل، فَلِمَ لم تحكموا بهذه الأحكام في هذه الأنواع الثلاثة وهي

الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الابل بهذا الحكم دون هذه الأنواع الثلاثة انتهى؟.

﴿أم﴾ هي المنقطعة بمعنى بل، والاستفهام للانكار أي بل ﴿كنتم شهداء﴾ حاضرين مشاهدين ﴿إذ﴾ أي وقت أن ﴿وصاكم الله﴾ في زعمكم ﴿بهذا﴾ التحريم والمراد التبكيت والالزام بالحجة كما سلف قبله ﴿فمن﴾ أي لا أحد ﴿أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فحرم شيئاً لم يحرمه الله ونسب ذلك إليه افتراء عليه كما فعله كبراء المشركين ﴿ليضل﴾ اللام للعلة أي لأجل أن يضل ﴿الناس بغير علم﴾ أي بجهل أو افتراء عليه جاهلاً بصدور التحريم، وإنما وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه إيذاناً بخروجهم في الظلم عن حدود النهايات.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ على العموم وهؤلاء المذكورون في السياق داخلون في ذلك دخولاً أولياً، ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقهم أو ابتدع شيئاً لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله، لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص، فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي﴾ أي القرآن وفيه إيذان بأن مناط الحل والحرمة هو النقل لا محض العقل، ومعنى ﴿محرماً على طاعم﴾ أي أيٍّ طاعم كان من ذكر أو أنثى، فهذا رد لقولهم: ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾.

وفي ﴿يطعمه﴾ زيادة تأكيد وتقرير لما قبله، قال طاووس: إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويحلون أشياء فنزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، ثم تلا هذه الآية وقال: ما خلا هذا فهو حلال، وعن الشعبي أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا هذه الآية.

والمعنى أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحي إليه محرماً غير هذه المذكورات، فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها لولا أنها مكية، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك وأحاديثها مستوفاة في كتب الحديث.

وبالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدل عليه السياق ويفيده الإستثناء فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو

السنة مما يدل على تحريم شيء من الحيوانات، وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرمه الله من حيوان وغيره فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء.

وقد روي عن ابن عباس وابن عمر وعائشة أنه لا حرام إلا ما ذكره الله في هذه الآية، وروي ذلك عن مالك وهو قول ساقط ومذهب في غاية الضعف لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن وإهمال ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قاله بعد نزول هذه الآية بلا سبب يقتضي ذلك ولا موجب يوجبه.

أخرج البخاري وأبو داود وابن المنذر عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن زيد إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن أبى ذلك البحر ابن عباس وقرأ ﴿قل لا أجد﴾ الآية.

وأقول وإن أبى ذلك البحر ابن عباس فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتمسك بقول صحابي في مقابلة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم من سوء الاختيار وعدم الإنصاف.

﴿إلا﴾ منقطع قاله المكي والسيوطي، وظاهر كلام الزمخشري أنه متصل، وإليه نحا السمين ﴿أن يكون﴾ ذلك الشيء المحرم أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس ﴿ميتة﴾ وقرىء يكون بالتحتية والفوقية، وميتة بالرفع على أن كان تامة والمراد بالميتة هنا ما مات بنفسه لأجل عطف قوله ﴿أو فسقاً﴾ فإنه من أفراد الميتة شرعاً.

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه

عن ابن عباس أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة فقال: فلولا أخذتم مسكها[1] قالت: يا رسول الله أنأخذ مسك شاة قد ماتت فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قل لا أجد﴾ الآية وأنتم لا تطعمونه وإنما تدبغونه حتى تستنفعوا به، الحديث؛ ومثل هذا حديث شاة ميمونة ومثله حديث «إنما حرم من الميتة أكلها» وهما في الصحيح[2].

﴿أو دماً مسفوحاً﴾ أي جارياً سائلاً مصبوباً وغير المسفوح معفو عنه كالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح ومنه الكبد والطحال، وهكذا ما يتلطخ به اللحم من الدم، وقد حكى القرطبي الإجماع على هذا، والسفح الصب وقيل السيلان وهو قريب من الأول، وسفح يستعمل قاصراً ومتعدياً، يقال سفح زيد دمعه ودمه أي اهراقه، وسفح هو إلا أن الفرق بينهما وقع باختلاف المصدر ففي المتعدي، يقال سفح وفي اللازم يقال سفوح، ومن المتعدي قوله تعالى: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ فان اسم المفعول التام لا يبنى إلا من متعد، ومن اللازم ما أنشده أبو عبيدة لكثير عزة.

أقول ودمعي واكف عند رسمها   عليك سلام الله والدمع يسفح

قال ابن عباس: مسفوحاً أي مهراقاً، كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أو أو دجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه قال هو دم مسفوح، ومسفوحاً على قراءة العامة معطوف على ميتة وقيل معطوف على المستثنى وهو أن يكون.

---

(١) جلدها.

(٢) روى الامام احمد والبخاري ومسلم عن ابي ثعلبة قال: «حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية» وزاد أحمد «ولحم كل ذي ناب من السباع» وقد صح النهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية من حديث البراء بن عازب، وابن عمر، وأبي هريرة، وزاهر الأسلمي، وابن أبي أوفى. وروى الجماعة إلا البخاري والترمذي عن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير» وروى مسلم في «صحيحه» ٣/١٥٣٤ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كل ذي ناب من السباع حرام». ابن كثير، ٢/١٨٤.

﴿أو لحم خنزير﴾ ظاهر تخصيص اللحم انه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم، والضمير في ﴿فإنه﴾ راجع إلى الخنزير أو اللحم لأنه المحدث عنه وإن كان غيره من باقي أجزائه أولى بالتحريم، فلذلك خص اللحم بالذكر لكونه معظم المقصود من الحيوان فغيره أولى ﴿رجس﴾ أي نجس، وقد تقدم تحقيقه ﴿أو فسقاً﴾ عطف على لحم خنزير، وما بينهما اعتراض مقرر لحرمته ﴿أهل لغير الله به﴾ صفة فسقاً أي ذبح على الأصنام، ورفع الصوت على ذبحه باسم غير الله، وسمي فسقاً لتوغله في باب الفسق.

وقيل يجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له لأهل أي أهل به لغير الله فسقاً على عطف أهل على يكون وهو تكلف لا حاجة إليه، وقيل ذا فسق أي معصية فهذا من قبيل المبالغة على حد زيد عدل، وفي زاده جعل العين المحرمة عين الفسق مبالغة في كون تناولها فسقاً، وقيل انه منصوب عطفاً على محل المستثنى أي إلا أن يكون ميتة أو إلا فسقاً.

﴿فمن اضطر﴾ أي فمن أصابته ضرورة داعية إلى أكل شيء مما ذكر حال كونه ﴿غير باغ﴾ على مضطر آخر مثله تارك لمواساته أو على المسلمين ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله أو عليهم بقطع الطريق ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ أي كثير المغفرة والرحمة فلا يؤاخذ المضطر بما دعت إليه ضرورته، وقد تقدم تفسيره في البقرة فلا نعيده.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ قدم الظرف على الفعل للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لا يجاوزهم إلى غيرهم وهم اليهود، ذكر الله ما حرمه عليهم عقب ذكر ما حرمه على المسلمين، والظفر واحد الاظفار، ويجمع أيضاً على أظافير، وزاد الفراء في جمع ظفر أظافر وأظافرة، وذو الظفر ما له أصبع من دابة أو طائر، ويدخل فيه الحافر والخف والمخلب، فيتناول الإبل والبقر والغنم والنعام والأوز والبط، وكل ما له مخلب من الطير وحافر من الدواب، وتسمية الحافر والخف ظفراً مجاز.

والأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر في لغة العرب لأن هذا التعميم يأباه ما سيأتي من قوله: ﴿ومن البقر والغنم﴾ فان كان في لغة العرب بحيث يقال على البقر والغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصاً آخر، حرم الله ذلك عليهم عقوبة لهم على ما وقعوا فيه من الظلم كما قال تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾.

عن ابن عباس قال: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير يعني مشقوقها كالبعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب، وقال مجاهد: هو كل شيء لم ينفرج قوائمه من البهائم، وما انفرج أكلته اليهود، قال انفرجت قوائم الدجاج والعصافير فيهود تأكله، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة ولا قائمة الوزينة فلا تأكلها اليهود ولا تأكل حمار الوحش، وفي الظفر لغات خمس ذكرها السمين أعلاها بضم الظاء والفاء وهي قراءة العامة.

﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾ لا غير هذا المذكورات كلحمها والشحوم يدخل فيها الثروب وشحم الكلية وقيل الثروب جمع ثرب وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش والأمعاء كما في القاموس، والمراد بها هنا ما على الكرش فقط كما فسر به القرطبي، ولا يراد ما على الأمعاء وتفسيره بما على الأمعاء نظراً لمعناها اللغوي.

﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ أي ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم، استثنى الله سبحانه من الشحوم هذا الشحم فانه لم يحرمه عليهم، وقال السدي وأبو صالح: الإلية مما حملت ظهورهما وهذا مختص بالغنم لأن البقر ليس لها إلية.

﴿أو﴾ حملت ﴿الحوايا﴾ أي الأمعاء وهي المباعر التي يجتمع فيها البعر، فما حملته هذه من الشحم غير حرام عليهم، وبه قال جمهور المفسرين وهو قول ابن عباس، وواحدها حاوية مثل ضاربة وضوارب وقيل: واحدهما حاوِياء، مثل قاصعاء وقواصع وقيل حوية كسفينة وسفائن، قال الفارسي: يصح أن يكون جمعاً لكل من الثلاثة، وقال أبو عبيدة: الحوايا ما تحوي من البطن أي استدار وهي متحوية أي مستديرة وقيل الحوايا خزائن اللبن وهي تتصل بالمباعر وقيل الأمعاء التي عليها الشحوم.

﴿أو ما اختلط بعظم﴾ فانه غير محرم، قال الكسائي والفراء وثعلب معطوف على ما في ﴿ما حملت﴾ وقيل على الشحوم ولا وجه لهذا التكلف ولا موجب له، لأنه يكون المعنى ان الله حرم عليهم إحدى هذه المذكورات، والمراد بما اختلط ما لصق بالعظام من الشحوم في جميع مواضع الحيوان من الجنب والرأس والعين، ومنه الإلية فانها لاصقة بعجب الذنب.

عن ابن عباس قال: ما اختلط من شحم الإلية بالعصعص فهو حلال،

وكل شحم القوائم والجنب والرأس والعين والأذن يقولون قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم، إنما حرم عليهم الثرب وشحم الكلية.

﴿ذلك﴾ التحريم المدلول عليه بحرمنا، وقيل الإشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله ﴿جزيناهم﴾ وهو تحريم ما حرمه الله عليهم ﴿ببغيهم﴾ أي بسبب بغيهم وظلمهم كما سبق في سورة النساء من قوله ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله﴾ إلى أن قال ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات﴾ فكانوا كلما ارتكبوا معصية من هذه المعاصي عوقبوا بتحريم شيء مما أحلهم، وهم ينكرون ذلك ويدعون أنها لم تزل محرمة على الأمم قبلهم.

﴿وانا لصادقون﴾ في كل ما نخبر به، ومن جملة ذلك هذا الخبر وهو موجود عندهم في التوراة ونصها حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، وكل دابة ليست مشقوقة الحافر وكل حوت ليس فيه شقاشق أي بياض انتهى.

﴿فان كذبوك﴾ أي اليهود فيما وصفت من تحريم الله عليهم تلك الأشياء وقيل الضمير يعود إلى المشركين الذين قسموا الانعام إلى تلك الأقسام وحللوا بعضها وحرموا بعضها ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ للمطيعين، ومن رحمته حلمه عنكم وعدم معالجته لكم بالعقوبة في الدنيا فلا تغتروا بذلك فانه إمهال لا إهمال، وفيه أيضاً تلطف بدعائهم إلى الإيمان وهو وان أمهلكم ورحمكم فإنه ﴿ولا يرد بأسه﴾ أي عذابه ونقمته ﴿عن القوم المجرمين﴾ إذا أنزله بهم واستحقوا المعالجة بالعقوبة.

وقيل المراد لا يرد بأسه في الآخرة والأول أولى، فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها تحريم الطيبات عليهم في الدنيا، والمجرمون هم اليهود أو الكفار، وإنما قال ذلك نفياً للاغترار بسعة رحمته في الاجتراء على معصيته، ولئلا يغتروا برجاء رحمته عن خوف نقمته، وذلك أبلغ في التهديد.

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿سيقول الذين أشركوا﴾ أخبر الله عن المشركين انهم سيقولون هذه المقالة وقد وقع مقتضاه كما حكى عنهم في سورة النحل بقوله تعالى: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا﴾ الخ وهم كفار قريش أو جميع المشركين يريدون أنه ﴿لو شاء الله﴾ عدم شركهم وعدم تحريمهم.

﴿ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ أي ما أشركوا هم ولا آباؤهم ولا حرموا شيئاً من الأنعام كالبحيرة ونحوها، وظنوا أن هذا القول يخلصهم عن الحجة التي ألزمهم بها رسول الله ﷺ وأن ما فعلوه حق، ولو لم يكن حقاً لأرسل الله إلى آبائهم الذين ماتوا على الشرك وعلى تحريم ما لم يحرمه الله رسلاً يأمرونهم بترك الشرك وبترك التحريم لما لم يحرمه الله والتحليل لما لم يحلله.

﴿كذلك﴾ أي مثل ما كذب هؤلاء ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من كفار الأمم الخالية ومن المشركين أنبياء الله ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ أي استمروا على التكذيب حتى ذاقوا عذابنا الذي أنزلناه بهم، وقد تمسك القدرية والمعتزلة بهذه الآية ولا دليل لهم في ذلك على مذهب الجبر والاعتزال، لأن أمر الله بمعزل عن مشيئته وارادته ولا يلزم من ثبوت المشيئة دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام.

﴿قل هل عندكم من علم﴾ أمره الله أن يقول لهم هل عندكم دليل صحيح يعد من العلم النافع وحجة وكتاب يوجب اليقين بأن الله راض بذلك

﴿فتخرجوه لنا﴾ لننظر فيه ونتدبره، والمقصود من هذا التبكيت لهم لأنه قد علم أنه لا علم عندهم يصلح للحجة ويقوم به البرهان.

ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم فقال: ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ الذي هو محل الخطأ ومكان الجهل ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ أي تتوهمون مجرد توهم فقط كما يتوهم الخارص وتقولون على الله الباطل وقد سبق تحقيقه.

﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ على الناس أي التي تنقطع عندها معاذيرهم وتبطل شبههم وظنونهم وتوهماتهم، والمراد بها الكتب المنزلة والرسل المرسلة، وما جاؤوا به من المعجزات، قال الربيع بن أنس: لا حجة لأحد عصى الله أو أشرك به على الله، بل له الحجة التامة على عباده، وقال عكرمة: الحجة السلطان.

﴿فلو شاء﴾ هدايتكم جميعاً إلى الحجة البالغة ﴿لهداكم أجمعين﴾ ولكنه لم يشأ ذلك ومثله قوله: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا، وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ ومثله كثير فالمنتفى في الخارج مشيئة هداية الكل، وإلا فقد هدى بعضهم .

وعن ابن عباس أنه قيل له:إن أناساً يقولون ليس الشر بقدر ، فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية والعجز والكيس من القدر ، وقال علي بن زيد انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية قل فلله الحجة إلى قوله أجمعين.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ أمره الله سبحانه أن يقول لهؤلاء المشركين هاتوهم وأحضروهم، قال السدي: أروني شهداءكم وهلم اسم فعل يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع عند أهل الحجاز وأهل نجد يقولون هلما هلمي هلموا فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال وبلغة أهل الحجاز نزل القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿والقائلين لأخوانهم هلم إلينا﴾ والأصل عند الخليل ها ضمت إليها لم.

وقال غيره أصلها هل زيدت عليه الميم، وفي كتاب العين للخليل أن أصلها هل أؤم أي هل أقصدك، ثم كثر استعمالهم لها، وهذا أيضاً من باب التبكيت لهم حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حرم تلك الأشياء مع علمه أنه لا شهود لهم لتلزمهم الحجة، ويظهر ضلالهم، وأنه لا متمسك لهم سوى تقليدهم، ولذلك قيد الشهداء بالإضافة إليهم الدالة على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم.

﴿فإن شهدوا﴾ لهم بغير علم بل مجازفة وتعصباً ﴿فلا تشهد معهم﴾ أي فلا تصدقهم ولا تسلم لهم ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ فانهم رأس المكذبين بها ﴿و﴾ لا تتبع أهـواء ﴿الذين لا يؤمنـون بالآخـرة وهـم بربهم يعدلون﴾ أي يجعلون له عدلاً من مخلوقاته كالأوثان ويشركون.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾

﴿قل تعالوا﴾ أي تقدموا، قال ابن الشجري: ان المأمور بالتقدم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له: تعال أي ارفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي، وهكذا، قال الزمخشري في الكشاف انه من الخاص الذي صار عاماً وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم.

﴿أتل ما حرم ربكم﴾ أتل جواب الأمر، وما موصولة في محل نصب به والمراد من تلاوة ما حرم الله تلاوة الآيات المشتملة عليه، ويجوز أن يكون (ما) مصدرية أي أتل تحريم ربكم والمعنى ما اشتمل على التحريم، قيل ويجوز أن تكون (ما) استفهامية أي أتل أي شيء حرم ربكم؟ على جعل التلاوة بمعنى القول وهو ضعيف جدا، ﴿عليكم﴾ إن تعلق بأتل فالمعنى أتل عليكم الذي حرم ربكم وهو اختيار الكوفيين، وان تعلق بحرم فالمعنى أتل الذي حرم ربكم عليكم وهو اختيار البصريين، وهذا أولى لأن المقام مقام بيان ما هو محرم عليهم لا مقام بيان ما هو محرم مطلقاً.

﴿أن لا تشركوا به شيئاً﴾ ان مفسرة لفعل التلاوة المعلق بما حرم ولا ناهية وهذا وجه ظاهر لأمور من جملتها ان في إخراج المفسر على صورة النهي مبالغة في بيان التحريم وهو اختيار الفراء، وقيل (أن) ناصبة ومحلها النصب بعليكم على أنه للاغراء، وقيل النصب على البدلية مما حرم، والمعنى على الاغراء الزموا نفي الإشراك وعدمه.

وهذا وإن كان ذكره جماعة كما نقله ابن الانباري ضعيف لتفكيك

التركيب عن ظاهره ولأنه لا يتبادر إلى الذهن، وقيل التقدير لئلا تشركوا وهذا منقول عن أبي اسحق وقيل تقديره أوصيكم أن لا تشركوا وهو أيضا مذهب أبي اسحق، وقيل (ان) في محل رفع أي المحرم أن لا تشركوا وهذا يحوج إلى زيادة لا لئلا يفسد المعنى، وقيل تقديره عليكم عدم الإشراك وهو مذهب أبي بكر بن الانباري، وقيل استقر عليكم عدم الاشراك وهو ظاهر قول ابن الانباري.

وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث، ثم تلا ﴿قل تعالوا﴾ إلى ثلاث آيات، ثم قال فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهم شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه»[1].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن المنذر عن كعب الاحبار قال: أول ما أنزل في التوراة عشر آيات وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿قل تعالوا﴾ إلى آخرها.

وأخرج أبو الشيخ عن عبيدالله بن عبدالله ابن عدي بن الخيار قال: سمع كعب رجلاً يقرأ ﴿قل تعالوا﴾ الخ فقال كعب والذي نفس كعب بيده انها لأول آية في التوراة بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلى آخر الآيات انتهى.

قلت هي الوصايا العشر التي في التوراة، أولها أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله غيري، ومنها أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور، ولا تشته بنت قريبك ولا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيء مما لقريبك.

---

(١) إبن كثير، ٢/١٨٧.

فلعل مراد كعب الاحبار هذا، ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة، وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم، وأهل الإنجيل في أول انجيلهم، وهي مكتوبة في لوحين وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت، قال أبو السعود: وهذه الأحكام العشرة لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار.

﴿و﴾ أحسنوا ﴿بالوالدين إحساناً﴾ هو البر بهما وامتثال أمرهما ونهيهما، وقد تقدم الكلام على هذا، ولما كان إيجاب الإحسان تحريماً لترك الإحسان ذكر في المحرمات وكذا حكم ما بعده من الأوامر.

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ لما ذكر حق الوالدين على الأولاد، ذكر حق الأولاد عليهما وهو أن لا يقتلوهم ﴿من﴾ أجل ﴿إملاق﴾ هو الفقر فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكور والإناث خشية الإملاق، وتفعله بالإناث خاصة خشية العار، وحكى النقاش عن مؤرخ ان الاملاق الجوع بلغة لخم.

وذكر منذر بن سعيد البلوطي ان الاملاق الإنفاق يقال أملق ماله بمعنى أنفقه، وقيل الإملاق الإسراف يقال أملق أي أسرف في نفسه، قاله محمد بن نعيم اليزيدي، والإملاق الإفساد أيضا قاله شمر، يقال أملق ما عنده الدهر أي أفسده، وقال قتادة: الإملاق الفاقة، يقال أملق افتقر واحتاج، وهو الذي أطبق عليه أئمة اللغة والتفسير ههنا.

وقال هنا من «املاق» وفي الاسراء «خشية املاق» قال بعضهم لأن هذا في الفقر الناجز فيكون خطاباً للآباء الفقراء، وما في الاسراء في المتوقع فيكون خطاباً للآباء الأغنياء فلعلهم كان فقراؤهم يقتلون أولادهم وأغنياؤهم كذلك، وقيل هذا التقديم للتفنن في البلاغة والاول أولى لأن افادة معنى جديد أولى من ادعاء كون الآيتين بمعنى واحد للتأكيد.

﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ هذا تعليل للنهي قبله، وكان ظاهر السياق أن يقدم ويقال نحن نرزقهم وإياكم كما في آية الإسراء لأن الكلام في الأولاد، ولكن قدم هنا خطاب الآباء ليكون كالدليل على ما بعده.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ أي المعاصي ومنه ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة، والأولى حمل لفظ الفواحش على العموم في جميع المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره، ولا وجه لتخصيصه بنوع من الفواحش وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ما ظهر﴾ أي ما أعلن به ﴿منها﴾ واطلع عليه الناس ﴿وما بطن﴾ ما أسر ولم يطلع عليه إلا الله أي علانيتها وسرها، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر ويستقبحونه بالعلانية فحرم الله الزنا في السر والعلانية.

﴿ولا تقتلوا النفس﴾ اللام للجنس أي لا تقتلوا شيئاً من الأنفس ﴿التي حرم الله﴾ قتلها ﴿إلا بالحق﴾ أي إلا بما يوجبه الحق والاستثناء مفرغ أي لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا في حال الحق أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً وقتلها بسبب زنا المحصن، وقتلها بسبب الردة ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها، وإنما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيماً لأمر القتل وأنه من أعظم الفواحش والكبائر.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى جميع ما تقدم مما تلاه عليهم قاله أبو حيان. إلى الأمور الخمسة ﴿وصاكم﴾ أي أمركم ﴿به﴾ وأوجبه عليكم وفيه من

اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان.

ولما كان العقل هو مناط التكليف قال: ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تفهموا ما في هذه التكاليف من الفوائد النافعة في الدين والدنيا فتعملوا بها.

﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿إلا بالتي﴾ أي الخصلة التي ﴿هي أحسن﴾ من غيرها وهي ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته وتثميره وتحصيل الربح له فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله، والاستثناء مفرغ، وقيل المراد بالتي هي أحسن التجارة.

﴿حتى﴾ أي إلى غاية هي أن ﴿يبلغ﴾ اليتيم ﴿أشده﴾ فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه وقيل بالعكس وقيل هو اسم مفرد لفظا ومعنى، وقيل هو جمع، وعلى هذا فمفرده شدة كنعمة أو شد كفلس وأفلس أو شد كصر وأصر، أقوال ثلاثة في مفرده وأصله من شد النهار أي ارتفع قال سيبويه واحده شدة.

قال الجوهري: وهو حسن في المعنى لأنه يقال أبلغ الكلام شدته، ولكن لا تجمع فعلة على أفعل، وقيل الأشد استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشباب إلى حد الرجال.

واختلف أهل العلم في الأشد فقال أهل المدينة بلوغه وإيناس رشده، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو البلوغ، وقيل إنه إنتهاء الكهولة، والأولى في تحقيقه أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكاً مسلك العقلاء لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ فجعل بلوغ النكاح وهو بلوغ سن التكليف مقيداً بإيناس الرشد، ولعله قد سبق هنالك كلام في هذا.

قال الشعبي ومالك: الأشد الحلم حين تكتب له الحسنات وعليه السيآت وقال أبو العالية: حتى يعقل وتجتمع قوته، وقال أبو حنيفة: خمس وعشرون سنة، وقال الكلبي: هو ما بين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، وقيل: إلى أربعين وقيل إلى ستين، وقال الضحاك: عشرون سنة، وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال مجاهد: ثلاث وثلاثون سنة، وهذه الأقوال إنما هي في نهاية الأشد لا في ابتدائه والمختار في تفسيره ما ذكرناه.

﴿وأوفوا الكيل والميزان﴾ وهما الآلة التي يكال بها ويوزن، وأصل الكيل مصدر ثم أطلق على الآلة، والميزان في الأصل مفعال من الوزن، ثم نقل لهذه الآلة كالمصباح والمقياس لما يستصبح به ويقاس ﴿بالقسط﴾ أي بالعدل في الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء وترك البخس.

﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي طاقتها في كل تكليف من التكاليف ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن فلا يخاطب المتولي لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه في الزيادة والنقصان فإن أخطأ في الكيل والوزن والله يعلم صحة نيته فلا مؤاخذة عليه كما ورد في الحديث ومع ذلك يضمن ما أخطأ فيه كما في كتب الفروع.

﴿وإذا قلتم﴾ بقول في خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل ﴿فاعدلوا﴾ فيه وتحروا الصواب ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ولا على بعيد، ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو، بل سووا بين الناس فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به ﴿ولو كان﴾ الضمير راجع إلى ما يفيده ﴿وإذا قلتم﴾ فإنه لا بد للقول من مقول فيه أو مقول له أو مقول عليه أي ولو كان المقول فيه أو له أو عليه ﴿ذا قربى﴾ أي صاحب قرابة لكم، وقيل إن المعنى ولو كان الحق على مثل قراباتكم، والأول أولى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾.

﴿وبعهد الله﴾ أي بكل عهد عهده الله إليكم ﴿أوفوا﴾ ومن جملة ما عهده إليكم ما تلاه عليكم رسوله بأمره في هذا المقام، ويجوز أن يراد به كل عهد ولو كان بين المخلوقين لأن الله سبحانه لما أمر بالوفاء به في كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوغاً لإضافته إليه.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الأمور الأربعة ﴿وصاكم﴾ أي أمركم ﴿به﴾ أمراً مؤكداً ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي تتعظون بذلك فتأخذون ما أمركم به.

ولما كانت الخمسة المذكورة قبل قوله: ﴿لعلكم تعقلون﴾ من الأمور الظاهرة الجلية مما يجب تعقلها وتفهمها ختمت بقوله لعلكم تعقلون، ولما كانت هذه الأربعة خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله: ﴿لعلكم تذكرون﴾ قاله أبو حيان.

﴿وأن﴾ بالفتح على تقدير ﴿اتل﴾ قاله الفراء والكسائي، وقيل على تقدير الباء وقيل على تقدير اللام، قاله الخليل وسيبويه كما في قوله سبحانه ﴿وأن المساجد لله﴾ وبالكسر استئنافاً ﴿هذا﴾ أي الذي ذكر في هذه الآيات من الأوامر والنواهي، قاله مقاتل، وقيل الاشارة إلى ما ذكر في السورة فإنها بأسرها في اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة.

﴿صراطي﴾ وفي مصحف ابن مسعود وهذا صراط ربكم وفي مصحف أُبيّ ربك، والصراط الطريق وهو طريق دين الإسلام ﴿مستقيماً﴾ مستوياً لا اعوجاج فيه، وقد تشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار ﴿فاتبعوه﴾ أمرهم باتباع جملته وتفصيله.

﴿ ولا تتبعوا السبل﴾ نهاهم عن اتباع سائر السبل أي الاديان المتباينة طرقها والأهواء المضلة، والبدع المختلدة ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي فتميل بكم عن سبيل

الله المستقيم الذي هو دين الإسلام، قال ابن عطية: وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الاهواء والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد.

قال قتادة: اعلموا أن السبيل سبيل واحد جماعة الهدى ومصيره الجنة، وأن ابليس استبدع سبلاً متفرقة جماعة الضلالة ومصيرها إلى النار.

وأخرج أحمد وابن حميد والبزار والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ هذه الآية»[1].

وقال ابن عباس: السبل الضلالات[2] وعنه هذه الآيات محكمات في جميع الكتب لم ينسخهن شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم، وهن أم الكتاب، ومن عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار، وقال ابن مسعود: من سره أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هؤلاء الآيات، أخرجه الترمذي وحسنه.

﴿ذلكم﴾ أي ما تقدم ذكره ﴿وصاكم﴾ أكد عليكم الوصية ﴿به لعلكم تتقون﴾ ما نهاكم عنه من الطرق المختلفة والسبل المضلة.

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٢٣٩.

(٢) رواه الامام أحمد ٤/١٨٢ و ٤/١٨٣ والحاكم ١/٧٣.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا
عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة وهذا كلام مسوق لتقرير الوصية التي وصى الله بها عباده، وقد استشكل العطف بثم مع كون قصة موسى وايتاء الكتاب قبل المعطوف عليه وهو ذلك وصاكم به، فقيل «ثم» هنا بمعنى الواو من غير اعتبار مهلة ولا ترتيب، وبذلك قال بعض النحويين.

قلت وهذه استراحة، وقيل تقديره ثم كنا قد آتينا قبل انزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن القشيري، وقيل المعنى ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ ثم أتل ايتاء موسى الكتاب، قاله الزجاج: وقيل إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبي يوصي بها أمته، وقيل: إن ثم للتراخي في الأخبار وقيل غير ذلك.

﴿تماماً﴾ النصب على الحال أو المصدر أو على أنه مفعول لأجله ﴿على الذي أحسن﴾ قبوله والقيام به كائناً من كان، وقال الحسن ومجاهد: كان فيهم محسن وغير محسن، فأنزل الله الكتاب تماماً على المحسنين المؤمنين، وقيل المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزولها عليه، وقيل تماماً على الذي أحسن به الله عز وجل إلى موسى من الرسالة وغيرها، وقيل تماماً على احسان موسى بطاعة الله عز وجل قاله الفراء، وقال أبو صخر: تماماً لما كان قد أحسن إليه، وقال ابن زيد: تماماً لنعمته عليهم واحسانه إليهم.

﴿وتفصيلاً﴾ أي لأجل تفصيل ﴿لكل شيء﴾ يحتاج إليه من شرائع

الدين وأحكامه ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ منا عليهم وضمير ﴿لعلهم﴾ راجع إلى بني إسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى ﴿بلقاء ربهم يؤمنون﴾ قال ابن عباس: لكي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب.

﴿وهذا﴾ القرآن ﴿كتاب أنزلناه﴾ قدم صفة الإنزال لكون الانكار متعلقاً بها ﴿مبارك﴾ كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية

﴿ فاتبعوه ﴾ يا أهل مكة بالعمل بما فيه فإنه لما كان من عند الله وكان مشتملاً على البركة كان اتباعه متحتماً عليكم ﴿ واتقوا ﴾ مخالفته والتكذيب بما فيه ﴿ لعلكم ﴾ إن قبلتموه ولم تخالفوه ﴿ ترحمون ﴾ برحمة الله سبحانه .

﴿أن تقولوا﴾ قال الكوفيون: أنزلناه لئلا تقولوا، وقال البصريون كراهة أن تقولوا، وقال الفراء والكسائي: واتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ﴿إنما أنزل الكتاب﴾ أي التوراة والإنجيل .

﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ هم اليهود والنصارى ولم ينزل علينا كتاب ، وتخصيص الانزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام ، وفيه دليل على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب إذ لو كانوا منهم لكانوا ثلاث طوائف ، قاله ابن الكمال .

﴿وإن﴾ مخففة واسمها محذوف أي إنا ﴿كنا عن دراستهم﴾ أي تلاوة كتبهم بلغاتهم ﴿لغافلين﴾ أي لا ندري ما فيها ومرادهم اثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم والغفلة عن معناهما.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾

﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب﴾ كما أنزل على الطائفتين من قبلنا ﴿لكنا أهدى منهم﴾ إلى الحق الذي طلبه الله أو إلى ما فيه من الأحكام التي هي المقصد الأقصى، فإن هذه المقالة من كفار العرب والمعذرة منهم مندفعة بإرسال محمد ﷺ إليهم وإنزال القرآن عليه، ولهذا قال: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ أي كتاب بلسان عربي مبين حين لم تعرفوا دراسة الطائفتين وأنزله الله على نبيكم وهو منكم يا معشر العرب فلا تعتذروا بالاعذار الباطلة ولا تعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة فقد أسفر الصبح لذي عينين.

﴿وهدى ورحمة﴾ أي جاءكم البينة الواضحة والهدى الذي يهتدي به كل من له رغبة في الاهتداء ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله والصدوف والانصراف عنها وصرف من أراد الإقبال إليها.

﴿فمن﴾ الاستفهام للإنكار أي لا أحد ﴿أظلم ممن كذب بآيات الله﴾ التي هي رحمة وهدى للناس ﴿وصدف﴾ أي صرف الناس ﴿عنها﴾ فضل بانصرافه عنها وأضل بصرف غيره عن الإقبال إليها، وصدف لازم وقد يستعمل متعدياً كما هنا، في القاموس صدف عنه يصدف أعرض وصدف فلاناً صرفه كأصدفه عن كذا أماله عنه.

﴿سنجزي الذين يصدفون﴾ ينصرفون ﴿عن آياتنا سوء العذاب﴾ أي العذاب السيء من إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أي بسبب إعراضهم أو صدهم أو تكذيبهم بآيات الله ومعنى يصدفون يعرضون، قاله

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾

ابن عباس وهو مقارب لمعنى الصرف، وقد تقدم تحقيق معنى هذا اللفظ وفي هذه الآية تبكيت لهم عظيم.

﴿هل ينظرون﴾ أي لما أقمنا عليهم الحجة وأنزلنا الكتاب على رسولنا المرسل إليهم فلم ينفعهم ذلك ولم يرجعوا به عن غوايتهم فما بقي بعد هذا ﴿إلا﴾ أنهم ينتظرون ﴿أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو أن تأتيها الملائكة بالعذاب ﴿أو يأتي ربك﴾ يا محمد كما اقترحوه بقولهم: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ وقيل معناه يأتي أمر ربك بإهلاكهم، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً كقوله: ﴿واسأل القرية﴾ وقوله: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي حب العجل.

وقيل إتيان الله مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله: وجاء ربك والملك صفاً صفاً قاله ابن مسعود وقتادة ومقاتل، وقال: يأتي في ظلل من الغمام وقيل كيفية الإتيان من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله فيجب إمرارها بلا تكييف ولا تعطيل.

﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ الدالة على الساعة قال جمهور المفسرين هو طلوع الشمس من مغربها ويدل عليه ما أخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله بعض آيات ربك قال:

«طلوع الشمس من مغربها»(١) قال الترمذي غريب، وروي موقوفاً.

فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قادح فيه فهو واجب التقديم له متحتم الأخذ به، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسها إيمانها، ثم قرأ الآية»(٢)، وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي ذر مرفوعاً نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً نحوه أيضاً.

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ التي اقترحوها وهي التي تضطرهم إلى الإيمان، أو ما هو أعم من ذلك فيدخل فيه ما ينتظرونه، وقيل الآيات هي علامات القيامة المذكورة في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ فهي التي إذا جاءت ﴿لا ينفع نفسها إيمانها﴾.

والكبرى منها عشرة وهي: الدجال والدابة وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، والدخان وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى، ونار تخرج من عدن تسوق الناس إلى المحشر، والبحث مستوفى في كتابنا حجج الكرامة في آثار يوم القيامة.

﴿لم تكن آمنت من قبل﴾ أي قبل اتيان بعض الآيات، فأما التي قد كانت آمنت من قبل مجيء بعضها فإيمانها ينفعها ﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي لا ينفع نفساً إيمانها عند حضور الآيات متصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل أو آمنت من قبل ولكن لم تكسب في إيمانها خيراً، فحصل من هذا أنه لا ينفع

(١) البخاري كتاب الفتن الباب ٢٥ ـ ابو داود كتاب الجهاد الباب ٢.
(٢) مسلم ١٥٧ ـ بخاري ٧٣.

إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير في الإيمان، فمن آمن من قبل فقط ولم يكسب خيراً في إيمانه أو كسب خيراً ولم يؤمن فإن ذلك غير نافع.

قال السدى: يقول كسبت في تصديقها عملاً صالحاً فهؤلاء أهل القبلة، وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيراً فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها وإن عملت قبل الآية خيراً ثم عملت بعد الآية خيراً قبل منها، وقال مقاتل: يعني المسلم الذي يعمل في إيمانه خيراً وكان قبل الآية مقيماً على الكبائر.

أقول ووجه الاشكال في هذه الآية الكريمة هو أن عدم الايمان السابق يستلزم عدم كسب الخير فيه بلا شك ولا شبهة إذ لا خير لمن لا إيمان له، فيكون على هذا ذكره تكراراً إن كان حرف التخيير على بابه من دون تأويل، وأيضاً عدم الإيمان مستقل في إيجابه للخلود في النار فيكون ذكر عدم الثاني لغواً، وكذلك وجود الايمان مع كسب الخير فيه مستقل في إيجابه للخلوص عن النار وعدم الخلود فيها فيكون ذكر الأول أعني الايمان بمجرده لغواً.

فهذا وجه الاشكال في الآية باعتبار حرف التخيير المقتضى لكفاية أحد الأمرين على انفراده وقد ذكروا في التخلص عن هذا الاشكال وجوها.

أحدها: أنه يتحقق النفع بأيهما كان، ولا يخفاك أن هذا تدفعه الأدلة الواردة بعدم الانتفاع بالايمان من دون عمل.

والوجه الثاني: أنه لا ينفع إلا تحقق الأمرين جميعاً الإيمان وكسب الخير فيه، وهذا أيضاً يدفعه المعنى العربي والإعرابي فانه لو كان هو المراد لقال: لم تكن آمنت من قبل وكسبت في إيمانها خيراً.

الوجه الثالث أن ذكر الشق الثاني من شقي الترديد لقصد بيان النفع

الزائد وتحرّي الأفضل والأكمل، وهذا أيضاً فيه خروج عما يوجبه معنى الترديد الذي يقتضيه حرفه الموضوع له.

الوجه الرابع أن يراد الكلام مردداً على هذه الصفة المقصود به التعريض بحال الكفار المفرطين في الأمرين جميعاً، وهذا أيضاً خروج عن مقصود الآية بتأويل بعيد جداً لم يدل عليه دليل.

الوجه الخامس أن الآية من باب اللف التقديري أي لا ينفع نفساً إيمانها ولا كسبها في الايمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. ورد بأن معنى اللف التقديري على أن يكون المقدر من مهمات الكلام ومقتضيات المقام فترك ذكره تعويلاً على دلالة الملفوظ عليه واقتضائه إياه، وليس هذا من ذاك.

الوجه السادس أنهما معاً شرطان في النفع وان العدول الى هذه العبارة لقصد المبالغة في شأن كل واحد منهما بأنه صالح للاستقلال بالنفع في الجملة، ولا يخفى أن هذا مجرد دعوى لا دليل عليها، وإخراج للترديد عن مفاده الذي تقتضيه لغة.

الوجه السابع أن ظاهر الآية المقتضى لمجرد نفع الايمان يعارض بالأدلة الصحيحة الثابتة كتاباً وسنة أنه لا ينفع الإيمان إلا مع العمل وهذا هو الوجه القوي، والتقرير السوي، والاستدلال الواضح، والترجيح الراجح لسلامته عن التكلفات والتعسفات في معنى الآية وعن الاهمال لما فيها من الترديد الواضح بين شِقَّي الايمان المجرد والايمان مع العمل.

ولا ينافي هذا ما ورد من الأدلة على نفع الايمان المجرد فانها مقيدة بالأدلة الدالة على وجوب العمل بما شرعه الله لعباده من أصول الشرائع وفروعها، فاشدد يديك على هذا ولا تلتفت إلى ما وقع من التدقيقات الزائفة والدعاوي الداحضة، فان ذلك لا حامل عليه ولا موجب له إلا المحاماة على المذهب

وتقويمها، وجعل نصوص الله سبحانه تابعة لها، وتأويل ما خالفها حتى كأنها هي الشريعة المحكمة التي يرد إليها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن العجب أن محققي المفسرين وكبارهم مع ما في هذه الآية الكريمة من الاشكال المقتضى لتوسيع دائرة المقال اكتفوا في الكلام عليها بالنزر الحقير والبحث اليسير، حتى إن الرازي مع تطويله للمباحث في غالب تفسيره، اقتصر في تفسيره على قوله. والمعنى أن اشراط الساعة إذا ظهرت ذهب أوان التكليف فلم ينفع الايمان نفساً ما آمنت وما كسبت في إيمانها خيراً قبل ذلك انتهى بحروفه.

فانظر هذا الذي اقتصر عليه واجعله موعظة لك فانه إنما يكون تفسير الآية لو كانت هكذا: لم تكن آمنت من قبل وكسبت في إيمانها خيراً، من دون حرف التخيير، وهكذا الزمخشري قبله فانه اقتصر في تفسير الآية على ما لا يسمن ولا يغني من جوع، وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية والله ولي التوفيق.

﴿قل﴾ أمره الله سبحانه أن يقول لهم ﴿انتظروا﴾ ما تريدون إتيانه وما وعدتم به من مجيء الآيات، وهذا أمر تهديد على حد ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وذلك أنهم لا ينتظرون ما ذكر لانكارهم للبعث وما بعده ﴿إنا منتظرون﴾ وهو يقوي ما قيل في تفسير ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ انها الآيات التي اقترحوها من اتيان الملائكة أو اتيان العذاب لهم من قبل كما تقدم بيانه.

قال بعض المفسرين: وهذا إنما ينتظره من تأخر في الوجود من المشركين المكذبين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك الوقت، والمراد بهذا أن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فاذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الايمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبداً، وقيل المراد بهذه الآية الكف عن القتال فتكون الآية منسوخة بآية القتال. وعلى القول الأول تكون محكمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾

﴿إن الذين فرقوا﴾ أي تركوا ﴿دينهم﴾ وخرجوا عنه باختلافهم فيه، والمعنى أنهم جعلوا دينهم متفرقاً فأخذوا ببعضه وتركوا بعضه، قيل المراد بهم اليهود، قاله مجاهد، وقيل اليهود والنصارى، وبه قال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك.

وقد ورد في معنى هذا في اليهود قوله تعالى ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ وقبل المراد بهم المشركون، عبد بعضهم الأصنام وبعضهم الملائكة وبعضهم الكواكب، فكان هذا هو تفريق دينهم.

وقال أبو هريرة : هم أهل الضلالة من هذه الأمة، وقيل الآية عامة في جميع الكفار وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله، وهذا هو الصواب لأن اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب وطوائف المشركين وغيرهم ممن ابتدع من أهل الاسلام.

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه والحكيم الترمذي والشيرازي في الألقاب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في الآية قال «هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة»[1] وفي إسناده عبد بن كثير وهو متروك الحديث ولم يرفعه غيره ومن عداه وقفوه على أبي هريرة، وعن أبي أمامة قال هم الحرورية، وروي عنه مرفوعاً ولا يصح رفعه.

(١) ابن كثير ٢/١٩٦.

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائش إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة وهم مني براء»[1]، رواه الطبري والبيهقي وأبو نعيم وغيرهم. قال ابن كثير هو غريب لا يصح رفعه.

فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة.

وروى أبو داود والترمذي عن معاوية قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين إثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة»[2]، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أن بني اسرائيل تفرقت على آثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملةواحدة،قالوا: ومن هي يا رسولالله؟قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي» أخرجه الترمذي[3].

﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فِرقاً وأحزاباً فيصدق على كل قوم كان أمرهم في الدين واحداً مجتمعاً ثم اتبع كل جماعة منهم رأي كبير من كبرائهم يخالف الصواب ويباين الحق.

﴿لست منهم﴾ أي من تفرقهم أو من السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزبهم ﴿في شيء﴾ من الأشياء فلا يلزمك من ذلك شيء ولا تخاطب به إنما عليك البلاغ، وهو مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم «من غشنا فليس منا» أي نحن برآء منه[4].

---

(١) ابن كثير ٢/١٩٦.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٦٣٨.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٥٢١٩.
(٤) صحيح الجامع الصغير ٦٢٨٣.

وقال الفراء: لست من عقابهم في شيء وإنما عليك الانذار ، وقيل لست في قتال الكفار، وعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال والأول أولى . .

﴿إنما أمرهم﴾ يعني في الجزاء والمكافأة ﴿إلى الله﴾ فيه تسلية لهﷺ أي هو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته، والحصر بإنما هو في حكْم التعليل لما قبله والتأكيد له ﴿ثم﴾ هو ﴿ينبئهم﴾ يوم القيامة ويخبرهم بما ينزل بهم من المجازاة ﴿بما كانوا يفعلون﴾ من الأعمال التي تخالف ما شرعه الله لهم وأوجبه عليهم.

ولما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد ، بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به الممتثلين لما شرعه لهم بأن ﴿من جاء بالحسنة﴾ الواحدة من الحسنات، عن ابن مسعود أي قال لا إله إلا الله، وعن ابن عباس وأبي هريرة مثله وعن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين يا رسول الله لا إله إلا الله حسنة قال «نعم أفضل الحسنات»، أخرجه عبد بن حميد. وهذا مرسل لا ندري كيف إسناده الى سعيد.

﴿فله﴾ من الجزاء يوم القيامة ﴿عشر﴾ حسنات ﴿أمثالها﴾ فأقيمت الصفة مقام الموصوف، وقد ثبت هذا التضعيف في السنة بأحاديث كثيرة، وهذا هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة ، وقد وردت الزيادة على هذا عموماً وخصوصاً ففي القرآن[كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الآية]، وورد في بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب، وورد في السنة المطهرة تضعيف الجزاء الى سبعين وإلى سبعمائة وإلى ألوف مؤلفة. وفضل الله واسع وعطاؤه جم، وقد قدمنا تحقيق هذا في موضعين من هذا التفسير فليرجع اليهما.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ أي بالأعمال السيئة ﴿فلا يجزى الا مثلها﴾ من دون زيادة عليها أي على قدرها في الخفة والعظم ان جوزي، فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده في النار، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد

تقديره من العقوبات كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب فعلينا أن نقول يجازيه الله بمثله وإن لم نقف على حقيقة ما يجازى به، وهذا إن لم يتب، أما إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته أو تغمده الله برحمته وتفضل عليه بمغفرته فلا مجازاة، وأدلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب.

﴿وهم﴾ أي المحسنون والمسيئون ﴿لا يظلمون﴾ بنقص المثوبات ولا بزيادة العقوبات والأولى في هذه الآية أن اللفظ عام في كل حسنة يعملها العبد أو سيئة واعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله، وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه .

﴿قل﴾ لما بين سبحانه أن الكفار تفرقوا فرقاً وتحزبوا احزاباً أمر رسولهﷺ أن يقول لهم ﴿إنني هداني ربي﴾ أي أرشدني بما أوحاه إلي ﴿إلى صراط مستقيم﴾ هو ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿ديناً قيماً﴾ بكسر القاف والتخفيف وفتح الياء وبفتح القاف وكسر الياء المشددة وهما لغتان، ومعناه الدين المستقيم الذي لا عوج فيه.

﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ مائلاً الى الحق، وفي القاموس الحنيف كأمير الصحيح الميل إلى الاسلام الثابت عليه وكل من حج أو كان على دين إبراهيم، وتحنف عمل عمل الحنيفية أو اختتن أو اعتزل عبادة الأصنام، وإليه مال انتهى وقد تقدم تحقيقه.

﴿وما كان من المشركين﴾ جملة معترضة مقررة لما قبلها، وفيه رد على كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم فأخبر سبحانه أنه لم يكن ممن يعبد الأصنام.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿قل إن صلاتي﴾ قيل القول الأول إشارة الى أصول الدين وهذا إلى فروعها وإليه نحا أبو السعود وغيره، وهذا غير ظاهر لأن كون الصلاة وما بعدها لله من قبيل الأصول لا الفروع كما لا يخفى، والمراد بالصلاة جنسها فيدخل فيه جميع أنواعها وقيل صلاة الليل وقيل صلاة العيد وقيل الصلاة المفروضة والأول أولى.

﴿ونسكي﴾ النسك جمع نسيكة وهي الذبيحة كذا قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم أي ذبيحتي في الحج والعمرة، وقال الحسن ديني، وقال قتادة ضحيتي وقال الزجاج عبادتي من قولهم نسك فلان ناسك إذا تعبد، وبه قال جماعة من أهل العلم ونقل الواحدي عن ابن الاعرابي قال النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة، وقيل للمتعبِّد ناسك لأنه صفى نفسه كالسبيكة انتهى، ولا يخلو هذا من تكلف وبعد.

﴿ومحياي ومماتي﴾ أي ما أعمله في هاتين الحالتين من أعمال الخير، ومنها في الممات الوصية بالصدقات وأنواع القربات وقيل نفس الحياة ونفس الموت ﴿لله رب العالمين﴾ أي خالصة أو مخلوقة له.

﴿لا شريك له﴾ في العبادة والخلق والقضاء والقدر، وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه ﴿وبذلك﴾ أي بالتوحيد أو بما أفاده قوله لله من

الاخلاص في الطاعة وجعلها لله وحده ﴿أمرت وأنا أول المسلمين﴾ أي المنقـادين من هذه الأمة قاله قتادة.

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ: يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك فإنه يغفر لك بأول قـطرة تقطر من دمها كل ذنب عملته وقولي إن صلاتي «إلى» وأنـا أول المسلمين، قلت يا رسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامـة قال لا بل المسلمين عامة»[١].

﴿قل أغير الله﴾ الاستفهام للانكار وهو جواب على المشـركين لـما دعوه الى عبادة غيره سبحانه أي كيف ﴿أبغي﴾ غير الله ﴿رباً﴾ مستقلاً وأترك عبادة الله أو شريكا لله فأعبدهما معاً ﴿وهو﴾ أي والحال أنه ﴿رب كل شيء﴾ والذي تدعونني الى عبـادته هـو من جملة من هو مـربوب لـه مخلوق مثلي، لا يقـدر على نفـع ولا ضرر، فكيف يكون المملوك شريكاً لمالكه، وفي هذا الكلام من التقريع والتوبيخ لهم ما لا يقادر قدره.

﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ أي لا تؤخذ بما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها فكل نفس كسبها للشر عليها لا يتعداها الى غيرها. وهو مثل قـوله تعـالى ﴿لها مـا كسبت وعليها مـا اكتسبت﴾ وقولـه (لتجزى كـل نفس بمـا تسعى) ﴿ولا تـزر﴾ تحمل نفس ﴿وازرة﴾ حـاملة ﴿وزر﴾ حمـل ﴿أخـرى﴾ ولا تؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى[٢].

---

(١) المستدرك كتاب الاضاحي ٤/٢٢٢.

(٢) روى ابوداود عن ابي رمثه قال: انطلقت مع ابي نحو النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن النبي ﷺ قال لأبي: «ابنك هذا»؟ قال: أي وَرَبِّ الكعبة. قال: «حقاً». قال: اشهد به، قال: اقسم النبي صلى الله عليه وسلم ضاحكاً منها ثبت شبهي في أبي، ومن حَلِف ابي عليّ. ثم قال: «اما انه لا يجني عليك ولا تجني عليه». وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾.

وأصل الوزر الثقل؛ ومنه قوله تعالى ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ وهو هنا الذنب ، قال ابن عباس لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وفيه رد لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه. والواحد من القبيلة بذنب الآخر، وقد قيل: إن المراد بهذه الآية في الآخرة ، وكذلك التي قبلها لقوله تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ ومثله قول زينب بنت جحش يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم إذا كثر الخبث»[1].

والأولى حمل الآية على ظاهرها، أعني العموم وما ورد من المؤاخذة بذنب الغير كالدية التي تحملها العاقلة ونحو ذلك فيكون في حكم المخصص لهذا العموم ويقر في موضعه، ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ فإن المراد بالأثقال التي مع أثقالهم هي أثقال الذين يضلونهم كما في الآية الأخرى ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾.

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ في الدنيا من الأديان والملل وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين.

---

(١) مسلم ٢٨٨٠ ـ البخاري ١٥٨٢.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ جمع خليفة أي جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السابقة أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضاً أو أن هذا النوع الانساني خلفاء الله في أرضه؛ قال السدي: أهلك القرون الأولى فاستخلفنا فيها بعدهم والاضافة على معنى في.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في الخلق والرزق والقوة والضعف والعلم والعقل والجهل والحسن والقبح والغنى والفقر والشرف والوضع، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل، فإن الله سبحانه منزه عن صفات النقص.

وإنما هو ﴿ليبلوكم فيما أتاكم﴾ أي ليختبركم في تلك الأمور، ويعاملكم معاملة المبتلى والمختبر، وهو أعلم بأحوال عباده منهم أو ليبلي بعضكم ببعض كقوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾.

ثم خوفهم فقال ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا، وإنما وصف العقاب بالسرعة وإن كان في الآخرة لأن كل آت قريب كما قال ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾.

ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران لأوليائه عظيم الرحمة بجميع خلقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

هي مكية إلا ثمان آيات، وهي قوله: ﴿واسألهم عن القرية التي﴾ إلى قوله ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ قاله ابن عباس وابن الزبير، وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال قتادة: آية من الأعراف مدنية وهي ﴿واسألهم عن القرية﴾ وسائرها مكية. وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المغرب يفرقها في الركعتين[1] وآياتها مائتان وست آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾

﴿المص﴾ قال ابن عباس: معناه أنا الله أفصل، وعنه أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به، وهي اسم من أسماء الله تعالى، وقال السدي هو المصور، وقال محمد بن كعب القرظي هو الله الرحمن الصمد، وقال الضحاك أنا الله الصادق، وقيل غير ذلك. ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالظن، وتفسير بالحدس، ولا حجة في شيء من ذلك؛ والحق ما قدمناه في فاتحة سورة البقرة والله أعلم بمراده وهو سره في كتابه العزيز.

﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: هو كتاب وقال الكسائي أي هذا كتاب يعني القرآن أي القدر الذي كان قد نزل منه وقت نزول هذه الآية ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ الحرج الضيق أي ضيق من إبلاغه الى الناس مخافة أن يكذبوك ويؤذوك فإن الله حافظك وناصرك، وقيل المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك فإنما عليك البلاغ.

وقال مجاهد وقتادة الحرج هنا الشك لأن الشاك ضيق الصدر أي لا تشك في أنه منزل من عند الله. وعلى هذا يكون النهي له صلى الله عليه وآله وسلم من باب التعريض ، والمراد أمته أي لا يشك أحد منهم في ذلك ، والضمير في (منه) راجع إلى الكتاب فعلى الأول التقدير من إبلاغه، وعلى الثاني التقدير من إنزاله.

﴿لتنذر به﴾ أي لتنذر الناس بالكتاب الذي أنزلناه إليك، وهو متعلق بأنزل أي أنزل إليك لإنذارك للناس به أو متعلق بالنهي، لأن انتفاء الشك في

كونه منزلاً من عند الله أو انتفاء الخوف من قومه يقويه على الانذار ويشجعه لأن المتيقن يقدم على بصيرة ويباشر بقوة نفس، وصاحب اليقين جسور متوكل على ربه.

﴿وذكرى للمؤمنين﴾ قال البصريون وذكر به ذكرى، أو المعنى للانذار وللذكرى، وقال أبو اسحاق الزجاج وهو ذكرى ، وتخصيصه بالمؤمنين لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك، وفيه إشارة الى تخصيص الانذار بالكافرين.

﴿اتبعوا﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني الكتاب ومثله السنة لقوله ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ونحوها من الآيات ، قاله الزجاج وقيل هو أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته، وقيل هو أمر للأمة بعد أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله الى النبي ﷺ

قال الرازي قوله ﴿ما أنزل اليكم﴾ يتناول الكتاب والسنة، وإنما قال أنزل اليكم مع أنه أنزل على الرسول لأنه منزل على الكل بمعنى أنه خطاب للكل. ولفظ البيضاوي يعم القرآن والسنة لقوله سبحانه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ انتهى وقال الحسن يا إبن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والله ما نزلت آية إلا ويجب أن تعلم فيم أنزلت وما معناها.

وقيل هو خطاب للكفار أي اتبعوا أيها المشركون ما أنزل إليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ والأول أولى وهو نهي للأمة ان يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله من الشياطين والكهان.

وقال الزمخشري لا تتولوا أحداً من شياطين الإنس والجن ليحملوكم على

الأهواء والبدع، فالضمير في ﴿دونه﴾ يرجع الى رب «ويجوز أن يرجع إلى (ما) في ما أنزل إليكم أي لا تتبعوا من دون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أولياء تقلدونهم في دينكم كما كان يفعله أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم ويحرمونه عليهم.

وقرأ مالك بن دينار ﴿ولا تبتغوا﴾ من الابتغاء، قال الرازي هذه الآية تدل على أن تخصيص عموم القرآن بالقياس لا يجوز لأن عموم القرآن منزل من عند الله، والله تعالى أوجب متابعته فوجب العمل بعموم القرآن، ولما وجب العمل به امتنع العمل بالقياس. وإلا لزم التناقض انتهى، والبحث في ذلك يطول وله موضع غير هذا.

﴿قليلاً ما﴾ مزيد للتوكيد أي تذكراً قليلا أو زماناً قليلاً ﴿تذكرون﴾ .

ثم شرح الله في إنذارهم بما حصل للأمم الماضية بسبب اعراضهم عن الحق فقال ﴿وكم من قرية﴾ كم هي الخبرية المفيدة للتكثير، ولم ترد في القرآن إلا هكذا ويجب لها الصدر لكونها على صورة الاستفهامية، والقرية موضع اجتماع الناس أي كم من قرية من القرى الكثيرة ﴿أهلكناها﴾ نفسها بإهلاك أهلها أو أهلكنا أهلها والمراد أردنا إهلاكها.

وقوله ﴿فجاءها بأسنا﴾ معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مر، لأن ترتيب مجيء البأس على الاهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير إذ الإهلاك هو نفس مجيء البأس، وقال الفراء: إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير، والمعنى أهلكناها وجاءها بأسنا ، والواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها.

وقيل: إن الاهلاك واقع لبعض أهل القرية فيكون المعنى وكم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع، وقيل المعنى وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا، وقيل أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها

فجاءها بـأسنا، والبـأس العذاب، وحكي عن الفـراء أنه إذا كـان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قـدمت أيهما شئت فيكـون المعنى وكم من قريـة جاءهـا بأسنـا فأهلكناها مثل دنا فقرب وقرب فدنا .

﴿بياتاً﴾ أي ليلاً لأن البيات فيـه أو مصدر واقـع موقـع الحال، يقـال بات يبيت بيتاً وبياتـاً أي بائتين .

﴿ أو هم قائلون ﴾ أي قائلين ، و﴿ أو ﴾ في هذا الموضع للتفصيل لا للشك كأنه قيل أتاهم بأسنا تارة ليلاً كقوم لوط ، وتارة وقت القيلولة كقوم شعيب ، وهل يحتاج الى تقدير واو حال قبل هذه الجملة أم لا؟ خلاف بين النحويين فقدره بعضهم . ورجحه الزجاج وبه قال أبو بكر والقيلولة هي نوم نصف النهار .

وقيل هي مجرد الاستراحة في ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم، وخص الـوقتين لأنهما وقت السكـون والدعـة فمجيء العذاب فيهـما أشد وأفـظع وأزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة. والمعنى جاءها عذابنـا غفلة وهم غير متوقعين له ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون وقت الظهيرة أي جاءهم البأس على غير تقدم أمارة لهم على وقت نزوله، وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة فإن عذاب الله إذا نزل نزل دفعة واحدة.

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ الدعوى الدعاء أي فما كان دعاءهم واستغاثتهم بربهم عند نزول العذاب الا اعترافهم بالظلم على أنفسهم ، ومثله ﴿آخر دعواهم﴾ قال سيبويه: تقول العرب اللهم اشركنا في صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ وحكاه الخليل أيضاً وقيل الدعوى هنا بمعنى الادعاء، والمعنى ما كانوا يدعونه لدينهم وينتحلونه الا اعترافهم ببطلانه وفساده.

﴿فلنسألن الذين أرسل اليهم﴾ هذا وعيد شديد وبيان لعذابهم الأخروي إثر بيان عذابهم الدنيوي، غير أنه قد تعرض لبيان مبادي أحوال المكلفين جميعاً لكونه داخلاً في التهويل والسؤال للقوم الذين أرسل اليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ، واللام للقسم أي لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم . والفاء لترتيب الأحوال الأخرويةعلى الأحوال الدنيوية.

﴿ولنسألن المرسلين﴾ أي الأنبياء الذين بعثهم الله أي يسألهم عما أجاب به أممهم عليهم، ومن أطاع منهم ومن عصى، وقيل المعنى فلنسألن الذين أرسل اليهم يعني الأنبياء ولنسألن المرسلين يعني الملائكة، قال ابن عباس : يسأل الله الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا عنه، ونحوه عن السدي.

ولا يعارض هذا قول الله سبحانه ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ لما قدمنا غير مرة أن في الآخرة مواطن ففي موطن يسألون وفي موطن لا يسألون

وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن اثبت تارة ونفى أخرى بالنسبة الى يوم القيامة فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولاً عظيماً.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أي على الرسل والمرسل اليهم لما سكتوا ما وقع بينهم عند الدعوة لهم منهم ﴿بعلم﴾ لا بجهل أي عالمين بما يسرون وما يعلنون ﴿وما كنا غائبين﴾ عن ابلاغ الرسل والأمم الخالية في حال من الأحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم ومما عملوا، قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

﴿والوزن يومئذ الحق﴾ أي الوزن في هذا اليوم العدل الذي لا جور فيه، أو المعنى الوزن العدل كائن أو استقر في هذا اليوم، واختلف أهل العلم في كيفية هذا الوزن فقيل المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً وهذا هو الصحيح، وهو الذي قامت عليه الأدلة. وقيل توزن نفس الأعمال وان كانت اعراضاً فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً كما جاء في الخبر الصحيح «أن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف» وكذلك ثبت في الصحيح أنه يأتي القرآن في صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك.

وقيل ان الوزن هو نفس الأشخاص العاملين وقيل الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام في وزن هذا قاله مجاهد، وقال الزجاج: هذا شائع من جهة اللسان والأولى أن يتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان.

قال القشيري: وقد أحسن الزجاج فيما قال إذ يحمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة، ثم قال: وقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل، وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً انتهى.

والحق هو القول الأول، وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كل ما شاء وتركوا الشرع خلف ظهورهم، وليتهم جاؤوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ويتحد قبولهم لها بل كل فريق يدعي على العقل ما يطابق هواه ويوافق ما يذهب اليه ومن هو تابع له فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم.

يعرف هذا كل منصف ، ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه.

وقد ورد ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن كقوله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ وقوله ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ وقوله ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ وقوله ﴿وأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً مذكورة في كتب السنة المطهرة، وما في الكتاب والسنة يغني عن غيرهما فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه مع قول الله تعالى ورسوله الصادق المصدوق، والصباح يغني عن المصباح.

﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بالحسنات فضلاً من الله ، الفاء للتفصيل والموازين جمع ميزان وثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال وقيل: إن الموازين جمع موزون أي فمن رجحت أعماله الموزونة والأول أولى، وظاهر جمع الموازين المضافة الى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله.

وقيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال: خرج فلان الى مكة على البغال وقيل إنما جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن إلا باجتماع ذلك كله.

﴿فأولئك﴾ إشارة الى ﴿من﴾ والجمع باعتبار معناه كما رجع اليه ضمير موازينه باعتبار لفظه ﴿هم المفلحون﴾ أي الناجون غداً والفائزون بثواب الله وجزائه ومثله الكلام في قوله ﴿ومن خفت﴾ بالسيآت عدلاً ﴿موازينه﴾ والمراد موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي غبنوا حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته، والباء في ﴿بما كانوا﴾ سببية ﴿بآياتنا يظلمون﴾ أي يكذبون ويجحدونها.

وهذا الوزن للمسلمين عند الأكثر، وأما الكفار فتحبط أعمالهم على أحد الوجهين في تفسير قوله تعالى ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ وقيل إنها توزن أيضاً وإن لم تكن راجحة ليخفف بها لهم العذاب عنهم، وهو ظاهر النظم، وبقي من تساوت حسناته وسيآته مسكوتاً عنه وهم أهل الاعراف على قول، وقد يدرج في القسم الأول لقوله ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وعسى من الله تحقيق كما صرحوا به.

وللحافظ تأليف مستقل في الميزان قال فيه: إنهم اختلفوا في تعدد الميزان وعدمه والصحيح الثاني والوزن بعد الحساب وأعمال الكفرة يخفف بها عذابهم كما ورد في حق أبي طالب، وهو الصحيح كما قاله القرطبي، وقال السخاوي المعتمد أنه مخصوص بأبي طالب والمعتمد ما قاله القرطبي فلا وجه للتردد فيه.

أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فيقول أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون، فيقول لا يا رب فيقول أَفَلَكَ عذر أو حسنة فيهاب الرجل

فيقول لا يا رب، فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وأنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»[١]. وقد صححه أيضاً الترمذي وإسناده عند أحمد (حسن). ولنعم ما قيل:

مهما تفكرت في ذنوبي خفت على قلبي احتراقه
لكنه ينطفي لهيبي بذكر ما جاء في البطاقة

والسجل الكتاب، وقيل: إنه معرب وأصل معناه الكاتب وسجل عليه بكذا شهره ورسمه، قاله الزمخشري في شرح مقاماته.

وفي مسلم: نظرت الى مد بصري مكان مد البصر قال النووي كذا هو في جميع النسخ وهو صحيح ومعناه منتهى بصري، وأنكره بعض أهل اللغة وقال الصواب مدى بصري وليس بمنكر بل هما لغتان والمدى أشهر انتهى.

وقوله بطاقة بكسر الباء رقعة صغيرة وتطلق على حمام تعلق في جناحه، وليس مولدة كما قيل فإنها وردت في هذا الحديث وغيره، وفي فقه اللغة إنها معربة من الرومية، وفي المحكم الرقعة الصغيرة تكون في الثوب وفيها رقم ثمنه، حكاه شمر، وقال لأنها بطاقة من الثوب قيل وهو خطأ لأنه يقتضي أن الباء حرف جر، والصحيح ما تقدم كما حكاه الهروي.

ويؤيده ما أخرجه البخاري مرفوعاً «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان هما كلمتا الشهادة» قال الخفاجي ولك أن تقول المراد بها كلمة التوحيد فتأمل.

والكفة بفتح فتشديد كل مستدير، وبه سميت كفة الميزان المعروفة. وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[٢].

---

(١) المستدرك كتاب الدعاء ١/٥٢٩.
(٢) مسلم ٢٧٨٥ ـ البخاري ٢٠٢٣.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ أي جعلنا لكم فيها مكاناً وأقدرناكم على التصرف فيها، وقيل المراد من التمكين التمليك ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي هيأنا لكم فيها أسباب المعاش. والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطعوم والمشروب وما تكون به الحياة، وفي القاموس العيش الحياة وأيضاً الطعام وما يعاش به والخبز، والمتعيش من له بلغة من العيش.

وقال الزجاج: المعيشة ما يتوصلون به الى العيش وهو يعم جميع وجوه المنافع التي تحصل به الأرزاق من الزرع والثمار، وما يتحصل من المكاسب والأرباح في أنواع التجارات والصنائع، وكل ذلك بتمكينه سبحانه لعباده وإنعامه عليهم ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريباً، وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها.

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ هذا ذكر نعمة أخرى عظيمة من نعم الله تعالى على عبيده والمعنى خلقناكم نطفاً ثم صورناكم بعد ذلك بالتخطيط وشق الحواس، وقيل المعنى: خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم في ظهره، وذكره بلفظ الجمع لأنه أبو البشر، وقيل ﴿ثم صورناكم﴾ راجع إليه ويدل عليه قوله تعالى ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصور آدم عليه السلام.

وقال ابن عباس: خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء، وعنه قال خلقوا في ظهر آدم وصوروا في الأرحام، وعنه أيضاً أما خلقناكم فآدم وأما صورناكم فذريته، وقال الأخفش ثم بمعنى الواو، وقيل المعنى:

خلقناكم من ظهر آدم ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق، قال النحاس وهذا أحسن الأقوال.

قال أبو السعود: وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد خلق آدم وتصويره إعطاء لمقام الامتنان حقه وتأكيداً لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظاً من خلقه وتصويره لأنهما من الأمور السارية إلى ذريته جميعاً.

وقال القاري: نزل خلقه منزلة خلق الكل وتصويرهم لأنه أبو البشر، وقيل المعنى ولقد خلقنا الأرواح أولاً ثم صورنا الأشباح.

﴿ثم﴾ أي بعد إكمال خلقه، وفي السمين اختلف الناس في ﴿ثم﴾ في هذين الموضعين فمنهم من لم يلتزم فيها ترتيباً وجعلها بمنزلة الواو. ومنهم من قال هي للترتيب في الأخبار لا في الزمان، ولا طائل تحت هذا، ومنهم من قال هي للترتيب الزماني، وهذا هو موضوعها الأصلي ومنهم من قال الأولى للترتيب الزماني والثانية للترتيب الإخباري انتهى.

﴿قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر ﴿فسجدوا﴾ أي فعلوا السجود بعد الأمر قبل دخول الجنة وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، وأول من سجد جبريل، ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون.

﴿إلا إبليس﴾ قيل الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفرداً بينهم، أو كما قيل إن من الملائكة جنساً يقال لهم الجن وقيل غير ذلك، وقد تقدم تحقيقه في البقرة ﴿ لم يكن من الساجدين﴾ جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ومن جعل الإستثناء منقطعاً قال معناه لكن إبليس لم يكن من الساجدين لآدم عليه السلام.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)﴾

﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل فماذا قال له الله، ولا زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى في سورة ص ﴿ما منعك أن تسجد﴾ قاله الكسائي والفراء والزجاج، وقيل: إن منع بمعنى قال والتقدير من قال لك أن لا تسجد قاله أحمد بن يحيى، حكاه الواحدي وحكاه أبو بكر عن الفراء وقيل منع بمعنى دعا أي ما دعاك إلى أن لا تسجد قاله القاضي حكاه الرازي.

وقيل في الكلام حذف والتقدير ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أن لا تسجد في وقت أن أمرتك قاله الطبري.

وقد استدل به على أن الأمر للفور. والبحث مقرر في علم الأصول؛ والاستفهام ما منعك للتقريع والتوبيخ وإلا فهو سبحانه عالم بذلك، وقال هنا ما منعك وفي سورة الحجر ﴿قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين﴾ وقال في سورة ص ﴿أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدرج في معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والاستكبار مع تحقير آدم، وقد وبخ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر، وقد تركت حكاية التوبيخ رأساً في سورة البقرة والاسراء والكهف وطه.

﴿قال﴾ إبليس ﴿أنا خير منه﴾ إنما قال هذا ولم يقل منعني كذا لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده أنه أفضل منه، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله.

ثم علل ما ادعاه من الخيرية بقوله ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾

اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين لأنها جسم نوراني.

وقد أخطأ عدو الله فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه وطول بقائه، وفيه الأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت، والنار خفيفة مضطربة سريعة النفاذ وفيها الطيش والارتفاع والحدة. ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها وهي عذاب دونه، وهو محتاج إليه ليتحيز فيه وهو مسجد وطهور، والتراب عدة الممالك، والنار عدة المهالك، والنار مظنة الخيانة والإفناء والطين مئنة الأمانة والإنماء، والطين يطفىء النار ويتلفها والنار لا تتلفه، وهذه فضائل غفل عنها اللعين حتى زل بفاسد من القياس.

وقال النسفي: والقياس مردود عند وجود النص. وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص خارج عن الصواب انتهى.

ولولا سبق شقاوته وصدق كلمة الله عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة فعنصرهم النوري أشرف من عنصره الناري.

عن عكرمة قال: خلق إبليس من نار العزة، وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة قالت: « قال رسول الله ﷺ خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار وخلق آدم مما وصفه لكم، » وقال ابن سيرين ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وأصل هذا القياس الذي قاسه إبليس أنه رأى النار أفضل من الطين وأقوى ولم يدر أن الفضل ليس بالأصل والجوهر بل بالطاعة وقبول الأمر، فالمؤمن الحبشي خير من الكافر القرشي وقد خص الله آدم بأشياء لم يخص بها غيره وهو أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية إلى غير ذلك للعناية التي سبقت له في القدم، وأورث إبليس كبره اللعنة والطرد للشقاوة التي سبقت له في الأزل.

وقال الحسن في الآية أول من قاس إبليس، وإسناده صحيح إلى

(١) مسلم، ٢٩٩٦.

الحسن أخرجه ابن جرير، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله له أسجد لآدم فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»[1]، قال جعفر فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس، وينبغي أن ينظر في إسناد هذا الحديث فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة.

﴿قال فاهبط منها﴾ جملة استئنافية كالتي قبلها والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر أي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التي هي مقر من يعصي ويطيع فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصي أمر ربه مثلك، وقيل اهبط من الجنة والهبوط النزول والإنحدار من فوق إلى أسفل على سبيل القهر والهوان والاستخفاف ومن التفاسير الباطلة ما قيل: أن معنى أهبط منها أي أخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها إلى صورة مظلمة مشوهة، وقيل المراد هبوطه من زمرة الملائكة.

﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ أي في الجنة لأنه لا ينبغي أن يسكن في الجنة أو السماء متكبر مخالف لأمر الله عز وجل، ولا يتوهم أنه يجوز أن يتكبر في غيرها لأن التقدير ما يكون لك أن تتكبر فيها ولا في غيرها وعلى هذا لا مفهوم لها.

وجملة ﴿فاخرج﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط متفرع على علته، وجملة ﴿إنك من الصاغرين﴾ تعليل للأمر بالخروج أي: إنك من أهل الصغار والهوان على الله وعلى صالحي عباده يذمك كل إنسان، ويلعنك كل لسان لتكبرك، وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار فكل من تردى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار، ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع، وقال الزجاج: استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله بالصغار والذلة والصغار بالفتح الذل والضيم وكذا الصغر والصاغر الذليل والراضي بالضيم.

(١) الدارمي، كتاب المقدمة، الباب ٢٢.

قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ جملة استئنافية أي أمهلني إلى يوم البعث وكأنه طلب أن لا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده والضمير في يبعثون لآدم وذريته أي يبعثون من قبورهم بالنفخة الثانية عند قيام الساعة ﴿قال﴾ أي أجابه الله بقوله ﴿إنك من المنظرين﴾ أي المهملين المؤخرين ثم تعاقب بما قضاه الله عليك وأنزله بك في دركات النار.

وقد بين الله مدة النظر والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى ﴿إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، قيل الحكمة في إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه.

﴿قال فبما أغويتني﴾ الجملة مستأنفة والباء للسببية، وبه قال الزمخشري، وقيل قسمية وهو الظاهر كقوله ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ أي فباغوائك إياي، والاغواء الايقاع في الغي، وقيل الباء بمعنى مع والمعنى فمع إغوائك إياي وقيل ﴿ما﴾ في فبما أغويتني للاستفهام والمعنى فبأي شيء أغويتني والأول أولى.

ومراده بهذا الاغواء الذي جعله سبباً لما سيفعله مع العباد وهو ترك السجود منه وأن ذلك كان باغواء الله له حتى اختار الضلالة على الهدى، وقيل أراد به اللعنة التي لعنه الله بها أي فبما لعنتني فأهلكتني ومنه ﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي هلاكاً.

وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوى غياً إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه ومنه عصى آدم ربه فغوى أي فسد عيشه في الجنة، وغرض اللعين بهذا أخذ ثأره منهم لأنه لما طرد ومقت بسببهم على ما تقدم أحب أن ينتقم منهم أخذاً بالثأر.

﴿لأقعدن لهم﴾ أي لأجهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي كما فسدت بسبب تركي للسجود لأبيهم ﴿صراطك المستقيم﴾ هو الطريق الموصل إلى الجنة، وقال ابن عباس: طريق مكة يعني أمنعهم من الهجرة، وعن ابن مسعود مثله، وقيل هو طريق الاسلام، وقيل المراد الحج والأول أولى لأنه يعم الجميع والمعنى لأردن بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولأغوينهم ولأضلنهم.

﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ ذكر الجهات الأربع لأنها هي التي يأتي منها العدو عدوه ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بمن وإلى الآخريين بعن لأن الغالب فيمن يأتي من قدام وخلف أن يكون متوجهاً إلى ما يأتيه بكلية بدنه والغالب فيمن يأتي من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفاً فناسب في الأوليين التعدية بحرف الابتداء وفي الأخريين بحرف المجاوزة.

وهو تمثيل الوسوسة وتسويله بمن يأتي حقيقة، وفيه إشارة إلى نوع تباعد منه في هاتين الجهتين لقعود ملك اليمين وملك اليسار فيهما، وهو ينفر من الملائكة، وقيل المراد من بين أيديهم من دنياهم، ومن خلفهم من آخرتهم، وعن أيمانهم من جهة حسناتهم، وعن شمائلهم من جهة سيآتهم، استحسنه النحاس.

قال ابن عباس: أسن لهم المعاصي وأخفي عليهم للباطل، وعنه قال: من بين أيديهم من قبل الآخرة فأشككهم فيها، ومن خلفهم من قبل الدنيا فأرغبهم فيها وعن أيمانهم أشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي.

وقال الحكم بن عتبة من بين أيديهم أي من قبل الدنيا فازينها لهم، ومن خلفهم من قبل الآخرة فأثبطهم عنها، وعن أيمانهم من قبل الحق فاصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فازينه لهم.

وقال قتادة: أتاك إبليس يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله تعالى، ونحوه عن ابن عباس ولفظه ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى، قيل ولا يأتي أيضاً من تحتهم إما لأنه متكبر يحب العلو وإما لأن الإتيان منها ينفر ويفزع المأتي وهو يحب تأليفه لا تنفيره فلا يأتي إلا من الجهات الأربع.

قال مجاهد: يأتيهم من الجهات الأربع من حيث لا يبصرون وقيل من بين أيديهم فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة، ومن خلفهم فيما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عما أسلفوا فيه من معصية، وعن أيمانهم من قبل الغنى فلا ينفقون ولا يشكرون وعن شمائلهم من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور نالوه.

وعن شقيق البلخي ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد من بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ ومن خلفي فيخوفني الضيعة على مخلفي أي وقوع أولادي في الفقر فأقرأ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وعن يميني فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ ﴿والعاقبة للمتقين﴾ وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ قال النسفي: ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة.

وقيل إن ذكر هذه الجهات الأربع إنما أريد به التأكيد والمبالغة في إلقاء

الوسوسة في قلب ابن آدم وأنه لا يقصر في ذلك، والمعنى يأتيهم من جميع الوجوه الممكنة لجميع الاعتبارات.

﴿و﴾ عند ان أفعل ذلك ﴿لاتجد﴾ يا رب ﴿أكثرهم شاكرين﴾ موحدين لتأثير وسوستي فيهم وإغوائي لهم، وهذا قاله على الظن فأصاب لقوله تعالى ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ لما رأى منهم أن مبدأ الشر متعدد ومبدأ الخير واحد، وقيل: إنه سمع ذلك من الملائكة فقاله، وقيل رآه مكتوباً في اللوح المحفوظ والأول أولى وقيل شاكرين مؤمنين وقيل عبر بالشكر عن الطاعة أو هو على الحقيقة، وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء.

﴿قال اخرج منها﴾ أي من السماء أو من الجنة أو من بين الملائكة كما تقدم وقال له ذلك حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه ﴿مذءوماً﴾ من ذأمه يذأمه إذا ذمه وعابه ومقته وقيل المذءوم المنفي والذام العيب بهمز ولا يهمز، وحكى ابن الانباري فيه ذيماً، وقال الليث الذام الاحتقار، وقيل الذم قاله ابن قتيبة ﴿مدحوراً﴾ أي مطروداً والدحر الطرد والإبعاد يقال دحره يدحره دحراً ودحورا ومنه[ويقذفون من كل جانب دحوراً] وقال ابن عباس: صغيراً ممقوتاً، وقال قتادة: لعيناً مقيتاً، وقال الكلبي: ملوماً مقصياً من الجنة ومن كل خير والمعاني متقاربة.

﴿لمن﴾ بفتح اللام على أنها لام القسم وتسمى هذه اللام موطئة لأنها وطأت الجواب للقسم المحذوف أي مهدته له، وتسمى أيضا المؤذنة لأنها تؤذن بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط ﴿تبعك منهم﴾ أي من بني آدم وجواب القسم ﴿ لأملأن جهنم﴾ وقيل اللام الأولى للتأكيد والابتداء وهذه لام القسم والأول أولى، وفي هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره ﴿منكم أجمعين﴾ أي منك ومنهم، وفيه تغليب الحاضر وهو إبليس على الغائب وهو الناس.

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا
نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ
إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

﴿و﴾ قلنا ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ قال له هذا القول بعد إخراج إبليس من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة والمعنى اتخذها مسكناً وتخصيص الخطاب بآدم للإيذان بأصالته في تلقي الوحي وتعاطي المأمور به. واختلفوا في خلق حواء فقال ابن إسحق خلقت قبل دخول آدم الجنة وهو ظاهر هذه الآية وقيل بعد دخول الجنة وقيل الخطاب للمعدوم لوجوده في علم الله.

﴿فكلا من حيث﴾ أي من أي نوع من أنواع الجنة ﴿شئتما﴾ أكله ومثله ما تقدم من قوله تعالى ﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾ وقال أبو السعود حيث ظرف مكان أي فكلا من ثمارها في أي مكان شئتما الأكل فيه، وقال هناك بالواو وهنا بالفاء. قال الرازي: إن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب، فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو، ولا منافاة بينهما ففي البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ تقدم الكلام على هذا في البقرة مستوفى ﴿فتكونا﴾ أي فتصيرا ﴿من الظالمين﴾ لأنفسكما أي العاصين لله تعالى.

﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ الوسوسة الصوت الخفي وحديث النفس يقال وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواساً بكسر الواو، والوسوسة بالفتح الاسم مثل الزلزلة والزلزال، ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى وسواس والوسواس اسم الشيطان. ومعنى وسوس له وسوس إليه أو فعل الوسوسة لأجله، قال

الحسن: كان يوسوس في الأرض إلى السماء ثم الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له.

وقال ابو مسلم الأصبهاني: بل كان آدم وإبليس في الجنة لأن هذه الجنة كانت في الأرض، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحت ذكره، والذي يقوله بعض الناس: إن إبليس دخل في جوف الحية وهي دخلت به إلى الجنة فهو قصة ركيكة.

﴿ليبدي﴾ أي ليظهر ﴿لهما﴾ اللام للعاقبة كما في قوله ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ وقيل هي لام كي أي فعل ذلك ليتعقبه الإبداء أو لكي يقع الإبداء، ويصح أن تكون للعلة والغرض لجواز أن يكون ظهور سوآتهما زيادة على وقوعهما في المعصية.

﴿ما ووري﴾ أي ستر وغطى، فوعل من المواراة ﴿عنهما من سوآتهما﴾ سمي الفرج منهما سوأة لأن ظهوره وانكشافه يسوء صاحبه ويحزنه أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستوراً عنهما من عوراتهما فإنهما كانا لا يريان عوراتهما ولا يراها أحدهما من الأخر، قيل إنما بدت لهما لا لغيرهما وكان عليهما نور يمنع من رؤيتهما فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما، وفي الآية دليل على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات وأنه لم يزل مستقبحاً في الطباع والعقول.

﴿وقال﴾ الشيطان لآدم وحواء ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ أي عن الأكل منها ﴿إلا﴾ كراهة ﴿أن تكونا﴾ هكذا قاله البصريون وقال الكوفيون: التقدير لئلا تكونا والاستثناء مفرغ وهو مفعول من أجله ﴿ملكين﴾ من الملائكة تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ في الجنة أو من الذين لا يموتون قال ابن عباس: فإن أخطأ كما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا من الخالدين فلا تموتان فيها أبداً.

قال النحاس: فضل الملائكة على جميع الخلق في غير موضع مـن القرآن فمنها هذا ومنها ولا أقول إني ملك ومنها ولا الملائكة المقربون.

وقال ابن فورك: لا حجة في هذه الآية لأنه يحتمل أن يراد ملكين في أن لا يكون لهما شهوة في الطعام. وقيل لطول أعمارهم لا لأنهم أفضل منه حتى يلتحق بهم في الفضل فذلك بمعزل عن الدلالة على أفضلية الملائكة عليه، فليس في الآية دليل عليها وبنحوه قال أبو السعود.

وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافاً كثيراً وأطالوا الكـلام في غيرطائل، وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه فالكلام فيها لا يعنينا.

وقرىء ملكين وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال ولم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين، وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ قال أبو عبيدة: هذه حجة بينة لقراءة الكسر ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها.

قال النحاس: هذه قراءة شاذة وأنكر على أبي عبيدة هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش، قال وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهي غاية الطالبين، وإنما معنى وملك لا يبلى المقام في ملك الجنة والخلود فيه.

﴿وقاسمهما﴾ أي حلف لهما يقال أقسم إقساماً أي حلف وصيغة المفاعلة وإن كانت في الأصل تدل على المشاركة فقد جاءت كثيراً لغير ذلك وقد قدمنا تحقيق هذا في المائدة والمراد بها هنا المبالغة في صدور الإقسـام لهما من إبليس.

﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ في ذلك قيـل:أنهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة، قال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿فدلاهما بغرور﴾ أي مناهما، والتدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل يقال أدلى دلوه أرسلها والمعنى أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة أو من السماء إلى الأرض، وقيل معناه أوقعهما في الهلاك وقيل خدعهما، وقيل دلاهما من الدالة وهي الجرأة أي جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة.

﴿فلما ذاقا﴾ أي طعما الشجرة ﴿بدت﴾ ظهرت ﴿لهما سوآتهما﴾ عوراتهما أي ظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره بسبب زوال ما كان ساتراً لها وهو تقلص النور الذي كان عليها، قال ابن عباس تهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك.

وقال قتادة: كان لباسهما ظفراً كله فقشط عنهما أي غطاء على الجسد من جنس الأظفار فنزع عنهما وبقيت الأظفار في اليدين والرجلين تذكرة وزينة وانتفاعاً. وقبل كان من ثياب الجنة وهذا أقرب لأن إطلاق اللباس يتبادر فيه .

وقال مجاهد: كان لباسهما التقوى وقد تقدم في البقرة وفيه دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصداً إلى معرفة طعمه لأن الذوق يدل على الأكل اليسير.

﴿وطفقا﴾ طفق يفعل كذا شرع يفعل كذا، وحكى الاخفش طفق يطفق مثل ضرب يضرب أي شرعا أو جعلا وأقبلا ﴿يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قيل من التين، وقيل من الموز، قرأ الزهري يخصفان من أخصف، وقرأ

الجمهور يخصفان من خصف، والمعنى أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها من خصف النعل إذا جعله طبقة فوق طبقة.

عن عكرمة قال: كان لباس كل دابة منها ولباس الإنسان الظفر فادركت آدم التوبة عند ظفره، وقال ابن عباس: كان لباس آدم وحواء كالظفر فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر وطفقا ينزعان ورق التين فيجعلانه على سؤآتهما، وعنه قال لما سكن آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه.

وعن أنس بن مالك قال: كان لباس آدم في الجنة الياقوت فلما عصى قلص فصار الظفر، وقال مجاهد: يخصفان يرقعان كهيئة الثوب، وفي الآية دليل على أن كشف العورة من ابن آدم قبيح، ألا ترى انهما بادرا إلى ستر العورة لما تقرر في عقلهما من قبح كشفها.

﴿وناداهما ربهما﴾ قائلاً لهما ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ التي نهيتكما عن أكلها، وهذا عتاب من الله تعالى لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه والاستفهام للتقرير ﴿وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ أي مظهر للعداوة بترك السجود حسداً وبغياً كما قال في سورة طه فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك الآية، قال السدي: قال آدم إنه حلف لي بك ولم أكن أعلم أن أحداً من خلقك يحلف بك إلا صادقاً.

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ جملة مستأنفة مبنية على تقدير سؤال، كأنه قيل فماذا قالا وهذا اعتراف منهما بالذنب وانهما ظلما أنفسهما بما وقع منهما من المخالفة ثم قالا ﴿وإن لم تغفر لنا﴾ أي تستر علينا ذنبنا ﴿وترحمنا﴾ أي تتفضل علينا برحمتك ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ أي الهالكين، قال الحسن: هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه، وعن الضحاك مثله وقد استدل بهذا على صدور الذنب من الأنبياء وقد تقدم الكلام عليه فيما مضى.

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ
فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي
سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿قال اهبطوا﴾ استئناف كالتي قبلها والخطاب لآدم وحواء وذريتهما أو لهما ولإبليس قاله الرازي، وقيل لهم وللحية قاله الطبري وبه قال السدي: والمعنى اهبطوا من السماء إلى الأرض ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي متعادين يعاديهما ابليس ويعادياه ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي موضع استقرار وهو المكان الذي يعيش فيه الإنسان وقال ابن عباس: يعني القبور ﴿و﴾ لكم فيها ﴿متاع﴾ تتمتعون به في الدنيا وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما ﴿إلى حين﴾ إلى وقت موتكم وقيل إلى انقطاع الدنيا وقال ابن عباس إلى يوم القيامة.

﴿قال فيها﴾ أي في الأرض ﴿تحيون وفيها تموتون﴾ استئناف كالتي قبلها وأعيد إما للايذان ببعد اتصال ما بعده بما قبله وإما لاظهار الاعتناء بمضمون ما بعده ﴿ومنها تخرجون﴾ إلى دار الآخرة، ومثله قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى﴾ قيل الخطاب لآدم وذريته وابليس وأولاده وقد سبق شرح هذه القصة مستوفى في البقرة فارجع إليه.

﴿يا بني آدم﴾ هذا تذكير ببعض النعم لأجل امتثال ما هو المقصود الآتي بقوله لا يفتننكم الخ ﴿قد أنزلنا عليكم لباساً﴾ عبر سبحانه بالانزال عن الخلق أي خلقنا لكم لباساً، وقيل رزقناكم لباساً، وقيل أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكأنه أنزله عليهم، وقيل جميع بركات الأرض تنسب إلى السماء وإلى الانزال كما قال تعالى وأنزلنا الحديد.

﴿يواري سؤآتكم﴾ التي أظهرها ابليس حتى اضطررتم إلى لزق الأوراق

فأنتم مستغنون عن ذلك باللباس وقال مجاهد: كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة والسوأة العورة كما سلف والكلام في قدرها وما يجب ستره منها مبين في كتب الفروع.

﴿وريشا﴾ وقرىء رياشا جمع ريش وهو اللباس قال الفراء: ريش ورياش كما يقال لبس ولباس، وريش الطائر ما ستره الله به وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان، وقيل المراد بالريش هنا الخصب ورفاهية العيش، قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة.

وعن أبي عبيدة وهبت له دابة وريشها أي ما عليها من اللباس. وقيل المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله لباساً وعطفه عليه، قاله الزمخشري، وقال مجاهد والضحاك والسدي: ريشاً أي المال، وعن عروة بن الزبير مثله، وقال ابن عباس: المال واللباس والعيش والنعيم والإيمان، وقال ابن زيد: الريش الجمال، وقيل الأثاث وما ظهر مما يلبس أو يفرش.

﴿ولباس التقوى﴾ أي الناشىء عنها أو الناشئة عنه والاضافة قريبة من كونها بيانية أي لباس الورع واتقاء معاصي الله وهو الورع نفسه والخشية من الله تعالى، وقيل لباس التقوى الحياء وقيل الإسلام وقيل العمل الصالح، وقيل هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله، وقيل هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله، وقيل هو ستر العورة في الصلاة، وقال عثمان: هو السمت الحسن، وقال الكلبي: هو العفاف والأول أولى.

وهو يصدق على كل ما فيه تقوى الله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب.

﴿ذلك﴾ أي لباس التقوى هو ﴿خير﴾ أي خير لباس وأجمل زينة لأنه يستر من فضائح الآخرة، وقيل الإيمان والعمل خير من اللباس والريش قاله ابن عباس وأنشدوا في المعنى:

إذا انت لم تلبس ثياباً من التقى ... عريت وإن وارى القميص قميص

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ
أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا
بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٢٨)﴾

﴿ذلك﴾ أي الانزال المدلول عليه بانزلنا ﴿من آيات الله﴾ الدالة على أن له خالقاً ﴿لعلهم يذكرون﴾ نعمته فيشكرونها وفيه التفات عن الخطاب، وكان مقتضى المقام لعلكم.

ثم كرر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان فقال ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ أي لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة فالنهي وإن كان للشيطان فهو في الحقيقة لبني آدم بأن لا يفتتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك كما في قولك لا أرينك هنا ﴿كما أخرج﴾ أي: كما فتن.

﴿أبويكم﴾ بأن أخرجهما ﴿من الجنة﴾ أو لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم أو لا يخرجنكم بفتنته اخراجاً مثل اخراجه أبويكم.

﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ قد تقدم تفسيرها وأضاف نزعه إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك لأنه كان بسبب وسوسته فأسند إليه، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة التي وقعت فيما مضى، والنزع الجذب للشيء بقوة عن مقره ومنه ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ ومنه نزع القوس ويستعمل في الاعراض ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب ونزع فلان كذا سلبه، ومنه والنازعات غرقاً لأنها تقلع أرواح الكفرة بشدة ومنه المنازعة وهي المخاصمة والنزع عن الشيء الكف عنه والنزوع الاشتياق الشديد ومنه نزع إلى وطنه.

واختلفوا في اللباس فقيل الظفر وقيل النور وقيل التقوى، وقيل كان من ثياب الجنة، وهذا أقرب لأن اطلاق اللباس ينصرف إليه، ولأن النزع لا يكون إلا بعد اللبس.

﴿ليريهما سوآتهما﴾ اللام لام كي وقد تقدم تفسيره أيضاً، والضمير في ﴿إنه﴾ فيه وجهان الظاهر منهما أنه للشيطان، والثاني أن يكون ضمير الشأن، وبه قال الزمخشري ولا حاجة تدعو إلى ذلك.

﴿يراكم هو وقبيله﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ما يتضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه، لأن من كان بهذه المثابة كان عظيم الكيد، وكان حقيقاً بأن يحترس منه أبلغ احتراس، والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضاً.

وقال الليث: كل جيل من جن أو إنس قبيل، وقيل أعوانه من الشياطين وجنوده، وقال مجاهد: الجن والشياطين، وقال ابن زيد: قبيله نسله والقبيلة الجماعة من أب واحد، فليست القبيلة تأنيث القبيل لهذه المغايرة، وقيل الجماعة ثلاثة فصاعداً من قوم شتى، قاله أبو عبيدة والجمع قبل بضمتين والقبيلة لغة فيه، وقبائل الرأس القطع المتصل بعضها ببعض وبها سميت قبائل العرب.

﴿من حيث لا ترونهم﴾ أي إذا كانوا على صورهم الأصلية، أما إذا تصوروا في غيرها فترونهم كما وقع كثيراً، ومن ابتدائية أي رؤية مبتدأة من مكان لا ترونهم فيه، وقيل خلق الله في عيون الجن إدراكاً يرون به الإنس، ولم يخلق هذا في عيون الإنس.

وقالت المعتزلة: الوجه في هذا رقة أجسام الجن ولطافتها وكثافة أجسام الإنس.

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة وليس في الآية ما يدل على ذلك وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبداً فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً.

قال مالك بن دينار: إن عدواً يراكم ولا ترونه، كأن في الكلام حذفاً تقديره: جدير بأن يحذر ويتقى: مصحح، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة، وتكون الآية مخصوصة بها فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض، وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى»[1] كما قال تعالى ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ فهم يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم وقال مجاهد قال إبليس جعل لنا أربع نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا شاباً.

﴿إنا جعلنا﴾ أي صيرنا ﴿الشياطين أولياء﴾ أي أعواناً وقرناء ﴿للذين لا يؤمنون﴾ من عباده وهم الكفار.

﴿وإذا فعلوا﴾ أي العرب ﴿فاحشة﴾ هي ما يبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب، قال أكثر المفسرين هو طواف المشركين بالبيت عراة وبه قال ابن عباس والسدي ومحمد بن كعب، وقيل هي الشرك قاله عطاء، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعاً، والمعنى أنهم إذا فعلوا ذنباً قبيحاً

---

(١) مسلم/ ٢١٧٥ ان صفية زوج النبي اخبرته (علي بن حسين) انها جاءت النبي صلى الله عليه وسلم تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقل وقام النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها وكان مسكنها في دار اسامة بن زيد فمر رجلان من الانصار فلما رأيا النبي اسرعا فقال النبي على رسلكما انها صفية بنت حيي فقال سلمان الله يا رسول الله فقال رسول الله: « إن الشيطان . . .

مبالغاً في القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين:

الأول ﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ أي: أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم وتقليداً لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة، والثاني ﴿والله أمرنا بها﴾ أي إنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه، وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد لأن وجود آبائهم على القبيح لا يسوغ لهم فعله بل ذلك محض تقليد باطل لا أصل له والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة، ونهاهم عن مخالفتها ومما نهاهم عنه فعل الفواحش.

ولهذا رد الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم فقال ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ فكيف تدعون ذلك عليه قال قتادة: والله ما أكرم الله عبداً قط على معصيته ولا رضيها له ولا أمره بها، ولكن رضي لكم طاعته ونهاكم عن معصيته، والحاصل أن الأمرين باطلان لأن الأول تقليد للرجال والثاني افتراء على ذي الجلال.

وفي الجمل: رد عليهم في المقالة الثانية ولم يتعرض لرد الأولى لوضوح فسادها لما هو معلوم أن تقليد مثل الآباء ليس بحجة.

ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه فقال ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ وهو من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم وفيه من التقريع والتوبيخ أمر عظيم، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحاً في كل شيء فكيف إذا كان في التقول على الله.

وفي هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون

آباءهم في المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق فإنهم القائلون ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ والقائلون وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها.

والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية والنصراني على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعة وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغي، وهذا هو التقليد البحت، والقصور الخالص.

فيا من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأي بصحيح الرواية ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتباعه ونهاهم عن مخالفته فقال ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ ولو كان محض رأي أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأي المكلفون للناس بما لم يكلفهم الله به.

وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلد لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي العدل وبه قال مجاهد والسدي، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء وقيل القسط هنا هو لا إله إلا الله قاله ابن عباس، وقيل في الكلام حذف أي قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه.

﴿وأقيموا﴾ عطف على المحذوف المقدر وقيل عطف على معنى بالقسط ﴿وجوهكم عند كل مسجد﴾ أي توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم أو اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود على أن المراد بالسجود الصلاة قال مجاهد إلى الكعبة حيث صليتم في كنيسة أو غيرها وقيل اجعلوا سجودكم لله خالصاً، وقيل غير ذلك والأول أولى.

﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء أو العبادة له لا لغيره وقيل وحدوه ولا تشركوا به ﴿كما بدأكم تعودون﴾ قال السمين تقديره تعودون عوداً مثل ما بدأكم وقيل تقديره تخرجون خروجاً مثل ما بدأكم ذكرهما مكي، والأول أليق بلفظ الآية الكريمة.

قال الزجاج: كما أنشأكم في ابتداء الخلق وأوجدكم بعد العدم كذلك يعيدكم فالتشبيه في نفس الإحياء والخلق لا في الكيفية والترتيب، فيكون المقصود الاحتجاج على منكري البعث فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقيل كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شيء فيكون مثل قوله تعالى ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ وقيل كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب وقال مجاهد تعودون أي شقي وسعيد.

وقال ابن عباس: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً، وعن جابر قال: يبعثون على ما كانوا عليه، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه، وقال الحسن ومجاهد: المعنى كما خلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً فأحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة.

ويدل له ما روى عن ابن عباس: قال قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» أخرجه البخاري ومسلم[1].

﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أي تعودون فريقين سعداء وأشقياء، وفي القاموس الفرقة بالكسر الطائفة من الناس. والجمع فرق. والفريق كالأمير أكثر منها والجمع أفرقاء وأفرقة وفروق، والفريق الذي هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقت عليه الضلالة هم الكفار.

عن جابر أنه ذكر القدرية فقال: قاتلهم الله أليس قد قال الله سبحانه ﴿فريقاً هدى﴾ الآية وفيه دليل على أن الهدى والضلالة من الله، وعن ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله

(١) مسلم ٢٨٦٠ ـ البخاري ١٥٨٥.

خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»(١) أخرجه الترمذي.

﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ تعليل لقوله وفريقاً حق عليهم الضلالة أي ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله.

﴿ و ﴾ مع هذا فإنهم ﴿ يحسبون أنهم مهتدون ﴾ ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشد في تمردهم وعنادهم.

والآية حجة على أهل الاعتزال في كون الهداية والإضلال إلى الله ذي الجلال، وفيه دليل أيضاً على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق، والجاحد والمعاند في الكفر سواء، ودلت هذه الآية على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين بل لا بد من الجزم والقطع، لأنه تعالى ذم الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين، ولولا أن هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك. ودلت أيضاً على أن كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى أو لم يحسب ذلك قاله الكرخي.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٧٦٠.

وأخرجه الآجري في الشريعة/١٧٥ وابن حبان ١٨١٢ والحاكم ١/٣٠ واحمد ٢/١٧٦ و ١٦٧ من طرق اخرى والترمذي ٢/١٠٧ كذلك وله طرق أخرى عن ابن الديلمي.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾

﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ هذا خطاب لجميع بني آدم وإن كان وارداً على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس، أمزوا بالتزيين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف.

وقد استدل بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة وإليه ذهب جمهور أهل العلم بل سترها واجب في كل حال من الأحوال وإن كان الرجل خالياً كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة قال ابن عباس: إن النساء كن يطفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول:

اليوم يبدو بعضه أوكله ... وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية وعنه قال: كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس وما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع قال مجاهد: ما يواري عوراتكم ولو عباءة؛ وقيل الزينة المشط والطيب فيستحب التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر والأول أولى.

وأخرج ابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا زينة الصلاة قالوا وما زينةالصلاة؟ قال البسوا نعالكم فصلوا فيها»، وأخرج العقيلي وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبي ﷺ في قوله خذوا زينتكم عند كل مسجد قال: «صلوا في نعالكم».

والأحاديث في مشروعية الصلاة في النعل كثيرة جداً، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روى في هذين الحديثين فلا أدري كيف إسنادهما، وقد ورد النهي عن أن يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء وهو في

الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة.

﴿وكلوا واشربوا﴾ ما شئتم ﴿ولا تسرفوا﴾ أي بتحريم الحلال أو بالتعدي إلى الحرام أو بالإفراط في الطعام، أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ونهاهم عن الإسراف فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار كما صح في الأحاديث الصحيحة والمقل منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه من طاعة أو سعي على نفسه وعلى من يعول، مخالف لما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير، مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني.

وهكذا من حرم حلالاً أو حلل حراماً فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدين ومن الإسراف الأكل لا لحاجة وفي وقت شبع، قال ابن عباس: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة قال علي بن الحسين بن واقد، قد جمع الله الطب كله في نصف آية يعني هذه الآية، وفيه دليل على أن جميع المطعومات والمشروبات حلال إلا ما خصه الشرع بدليل في التحريم، لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع، وثبت تحريمه بدليل منفصل.

﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ في الطعام والشراب واللباس، وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»(١).

وفي الآية وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء لأن محبة الله عبارة عن رضاه عن العبد وإيصال الثواب إليه، وإذا لم يحبه علم أنه ليس براض عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد في الإسراف في المأكول والمشروب والملبوس، وما أحق بهذا الوعيد أهل الدول من الفساق والفجار.

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٣٨١.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿قل﴾ إنكاراً على هؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة والذين يحرمون على أنفسهم في أيام الحج اللحم والدسم ﴿من حرم زينة الله﴾ الزينة ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن التي لم يرد نهي عن التزين بها والجواهر ونحوها وقيل الملبوس خاصة، ولا وجه له. بل هو من جملة ما تشمله الآية.

فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم تكن مما حرمه الله ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيناً وقد قدمنا في هذا ما يكفي.

قال الرازي: إنه يتناول جميع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس والحلى، ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا في هذا العموم.

﴿التي أخرج لعباده﴾ أي أصلها يعني القطن والكتان من الأرض والقز من الدود، واللحاء من الشجر، والحرير والصوف من الحيوان والدروع والجواهر من المعادن، قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله هذه الآية وأمروا بالثياب أن يلبسوها.

﴿والطيبات من الرزق﴾ أي وهكذا الطيبات المستلذات من المطاعم

والمشارب والمآكل ونحوها مما يأكله الناس، فإنه لا زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه أو حرمه على غيره.

وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري: ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البر، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة.

وقد قدمنا نقل مثل هذا عنه مطولاً، والطيبات المستلذات من الطعام، وقال ابن عباس: الودك واللحم والسمن، وقيل اللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج يعظمون بذلك حجهم، فرد الله عليهم بقوله هذا، وقال قتادة: المراد ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب.

وقيل إن الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات إلا ما نهى عنه وورد النص بتحريمه، وهو الحق كما تقدم، وقيل هو اسم عام لما طاب كسباً ومطعماً قال أبو السعود: وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة لأن الاستفهام في ﴿من﴾ إنكاري انتهى ونحوه في البيضاوي.

﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي: إنها لهم بالاصالة والاستحقاق وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة ﴿خالصة يوم القيامة﴾ أي مختصة بهم والتقدير قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا خالصة للمؤمنين يوم القيامة فهي لهم اصالة وللكفار تبعاً لقوله ﴿ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار﴾.

قال ابن عباس في الآية: يعني شارك المسلمون الكفار في الطيبات في

الحياة الدنيا، فأكلوا من طيبات طعامها ولبسوا من جياد ثيابها، ونكحوا من صالحي نسائهم، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء، وقيل خالصة من التكدير والتنغيص والغم لأنه قد يقع لهم ذلك في الدنيا والأول أولى.

﴿كذلك﴾ أي مثل هذا التفصيل والتبيين ﴿نفصل الآيات﴾ المشتملة على التحليل والتحريم ﴿لقوم يعلمون﴾ أني أنا الله وحدي لا شريك لي فأحلوا حلالي وحرموا حرامي.

﴿قل﴾ للمشركين الذين يتجردون من ثيابهم في الطواف والذين يحرمون أكل الطيبات إن الله لم يحرم ما تحرمونه بل أحله و ﴿إنما حرم ربي الفواحش﴾ من الأفعال والأقوال جمع فاحشة أي كل معصية وقد تقدم تفسيرها ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أي ما اعلن منها وما أسر، يعني جهرها وسرها، وقيل هي خاصة بفواحش الزنا، ولا وجه لذلك، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه»، أخرجه البخاري ومسلم[1].

﴿والاثم﴾ هو يتناول كل معصية يتسبب عنها الاثم، وهو عطف عام على خاص لمزيد الاعتناء بها، وقيل هو الخمر خاصة، وقد أنكره جماعة من أهل العلم، قال النحاس: فأما أن يكون الاثم الخمر فلا يعرف ذلك وحقيقته أنه جميع المعاصي.

---

(١) رواه مسلم/ ٢٧٦٠ وله برواية اخرى . ليس احد احب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وليس احد اغير من الله.من اجل ذلك حرم الفواحش (ما ظهر منها وما بطن) وليس احد احب اليه العذر من الله . ورواه البخاري ٢٠٠٣ .

قال الفراء: الاثم ما دون الحق والاستطالة على الناس انتهى، وليس في اطلاق الاثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به فهو أحد المعاني التي يصدق عليها قال في الصحاح وقد سمي الخمر اثماً وقال الحسن وعطاء:

الاثم من أسماء الخمر، وقال ابن سيده صاحب المحكم: وعندي أن تسمية الخمر بالإثم صحيح لأن شربها إثم، وأنكر أبو بكر بن الأنباري تسمية الخمر بالإثم قال:

لأن العرب ما سمته إثماً قط في جاهلية ولا اسلام ولكن قد يكون الخمر داخلاً تحت الإثم لقوله: ﴿قل فيهما اثم كبير﴾.

وقيل: الإثم صغائر الذنوب والفواحش كبائرها وقيل الإثم اسم لما لا يجب فيه الحد والفاحشة ما يجب فيه الحد من الذنوب، وهذا القول قريب من الأول وقيل الإثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر، وقيل الفاحشة الكبيرة والإثم مطلق الذنب كبيراً كان أو صغيراً، وأولى هذه الأقوال أولها.

﴿والبغي بغير الحق﴾ أي الظلم المجاوز للحد والاستطالة على الناس، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنباً عظيماً كقوله ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ وإذا طلب ماله بالحق خرج من أن يكون بغير الحق.

﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي وأن تجعلوا لله شريكاً لم ينزل عليكم به حجة وتسووا به في العبادة والمراد التهكم بالمشركين لأن الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ بحقيقته وأن الله قاله، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات أو التحريمات التي لم يأذن بها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم المهلكة ﴿أجل﴾ أي وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أو يميتهم فيه، ويجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعاً.

﴿فإذا جاء أجلهم﴾ أي إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدره عليهم واقعاً في ذلك الأجل، قيل المراد بالأجل وقت نزول العذاب، وقيل أجل الحياة والعمر، وعلى هذا لكل واحد أجل لا ينفع فيه تقديم ولا تأخير، والأجل يطلق على كل من مدة العمر بتمامها وعلى الجزء الأخير منها وأجل الشيء مدته ووقته الذي يحل فيه، وهو مصدر أجل الشيء أجلاً من باب تعب وأجل أجولاً من باب قعد لغة وأجلته تأجيلاً جعلت له أجلاً، والآجال جمع أجل مثل سبب وأسباب.

﴿لا يستأخرون ساعة﴾ خص الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات في العرف وقد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله وإن كان موته بالقتل أو التردي أو نحو ذلك، والبحث في ذلك طويل جداً.

ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿ما تسبق من أمة اجلها وما يستأخرون﴾ وكان الحسن يقول: ما أحمق هؤلاء القوم يقولون اللهم أطل عمره والله يقول ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ الآية.

عن ابن المسيب قال: لما طعن عمر قال كعب لو دعا الله لأخر في أجله، فقيل له أليس قد قال الله فإذا جاء أجلهم الآية فقال كعب وقد قال الله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب.

﴿ولا يستقدمون﴾ مستأنف معناه الإخبار بأنهم لا يسبقون أجلهم المضروب لهم بل لا بد من استيفائهم اياه كما انهم لا يتأخرون عنه أقل زمان، وقال الحوفي وغيره إنـه معطوف على ﴿لا يستأخرون﴾ وهذا لا يجوز وقال الواحدي؛ المعنى لا يستأخرون عن آجالهم إذا انقضت ولا يستقدمون عليها إذا قاربت الانقضاء.

قلت هذا بناء منه على أنه معطوف على ﴿لا يستأخرون﴾ وهو ظاهر أقوال المفسرين وبالأول قال التفتازاني والكرخي، وقال أبو السعود: معطوف على الجواب لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه في نفسه كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلاً.

وقال القاري: حاصل كلام القاضي أن هذا بمنزلة المثل أي لا يقصد من مجموع الكلام إلا أن الوقت تقرر لا يتغير ولا يتبدل انتهى.

أقول قد طال الكلام من أهل العلم على ما يظهر في بادىء الرأي من التعارض بين هذه الآيات الشريفة وهي قوله تعالى ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾ وقوله تعالى ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ فقيل إنها معارضة لقوله عز وجل ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ وقوله سبحانه ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ وقوله سبحانه ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾.

فذهب الجمهور إلى أن العمر لا يزيد ولا ينقص استدلالاً بالآيات المتقدمة وبالأحاديث الصحيحة كحديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في أربعين يوماً ثم يكون علقة ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد» وهو في الصحيحين وغيرهما وما ورد

في معناه من الأحاديث الصحيحة[1].

وأجابوا عن قوله عز وجل ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ بأن المعنى يمحو ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب.

ولا يخفى أن هذا تخصيص لعموم الآية بغير مخصص.

وأيضاً يقال لهم: إن القلم قد جرى بما هو كائن إلى يوم القيامة كما في الأحاديث الصحيحة ومن جملة ذلك الشرائع والفرائض فهي مثل العمر إذا جاز فيها المحو والإثبات جاز في العمر المحو والإثبات.

وقيل المراد بالآية محو ما في ديوان الحفظة مما ليس بحسنة ولا سيئة لأنهم مأمورون بكتب كل ما ينطق به الإنسان، ويجاب عنه بمثل الجواب الأول.

وقيل يغفر الله ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء فلا يغفر، ويجاب عنه بمثل الجواب السابق.

وقيل يمحو ما يشاء من القرون كقوله ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ وكقوله تعالى ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ فنمحو قرناً ونثبت قرناً، ويجاب عنه أيضاً بمثل ما تقدم.

وقيل هو الذي يعمل بطاعة الله ثم يعمل بمعصية الله ثم يتوب فيمحوه الله من ديوان السيئآت ويثبته في ديوان الحسنات.

وقيل يمحو ما يشاء يعني الدنيا ويثبت الآخرة، وقيل غير ذلك وكل هذه الأجوبة دعاوى مجردة ولا شك أن آية المحو والإثبات عامة لكل ما يشاءه الله سبحانه فلا يجوز تخصيصها إلا بمخصص، وإلا كان ذلك من التقول على الله عز وجل بما لم يقل، وقد توعد الله تعالى على ذلك وقرنه بالشرك فقال ﴿قل إنما

---

(١) مسلم ٢٦٤٣ ـ البخاري ١٥١٤.

حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾.

وأجابوا عن قوله تعالى ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ بأن المراد بالمعمر الطويل العمر والمراد بالناقص القصير العمر، وفي هذا نظر لأن الضمير في قوله ﴿ولا ينقص من عمره﴾ يعود إلى قوله ﴿من معمر﴾ والمعنى على هذا وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذلك المعمر إلا في كتاب، هذا ظاهر معنى النظم القرآني.

وأما التأويل المذكور فإنما يتم على إرجاع الضمير المذكور إلى غير ما هو المرجع في الآية وذلك لا وجود له في النظم.

وقيل: إن معنى ما يعمر من معمر ما يستقبله من عمره ومعنى لا ينقص من عمره ما قد مضى، وهذا أيضاً خلاف الظاهر لأن هذا ليس بنقص من نفس العمر والنقص يقابل الزيادة وههنا جعله مقابلاً للبقية من العمر، وليس ذلك بصحيح.

وقيل المعنى ﴿وما يعمر من معمر﴾ من بلغ سن الهرم ولا ينقص من عمره أي من عمر آخر غير هذا الذي بلغ سن الهرم عن عمر هذا الذي بلغ سن الهرم ويجاب عنه بما تقدم.

وقيل المعمر من يبلغ عمره ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل الستين، وقيل غير ذلك من التأويلات التي يردها اللفظ ويدفعها.

وأجابوا عن قوله سبحانه ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ بأن المراد بالأجل الأول النوم والثاني الوفاة، وقيل الأول ما قد انقضى عن عمر كل أحد والثاني ما بقي من عمر كل أحد، وقيل الأول أجل الموت والثاني ما بين موته إلى بعثته، وقيل غير ذلك مما فيه مخالفة للنظم القرآني.

وقال جمع من أهل العلم: إن العمر يزيد وينقص واستدلوا بالآيات

المتقدمة فإن المحو والإثبات عامان يتناولان العمر والرزق والسعادة والشقاوة وغير ذلك وقد ثبت عن جماعة من السلف والصحابة ومن بعدهم أنهم كانوا يقولون في أدعيتهم اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني منهم، وإن كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني واثبتني في أهل السعادة، ولم يأت القائلون بمنع زيادة العمر ونقصانه ونحو ذلك بما يخصص هذا العموم.

وهكذا يدل على هذا المعنى الآية الثانية فإن معناها أنه لا يطول عمر الإنسان ولا ينقص إلا وهو في كتاب أي في اللوح المحفوظ، وهكذا يدل قوله تعالى ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ أن للإنسان أجلين يقضي الله سبحانه بما يشاء منهما من زيادة أو نقص.

ويدل على ذلك أيضاً ما في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي لفظ في الصحيحين: «من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1] وفي لفظ «من أحب أن يمد الله في عمره وأجله ويبسط له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه»[1]. وفي لفظ صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار.

ومن أعظم الأدلة ما ورد في الكتاب العزيز من الأمر للعباد بالدعاء كقوله عز وجل ﴿أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ وقوله ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ وقوله ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ وقوله ﴿واسألوا الله من فضله﴾ والأحاديث المشتملة على الأمر بالدعاء متواترة وفيها أن الدعاء يدفع البلاء ويرد القضاء كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء

---

(١) مسلم ٢٥٥٨.

وشماتة الأعداء»[1].

وثبت في حديث قنوت الوتر أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وقني شر ما قضيت»[2]، فلو كان الدعاء لا يفيد شيئاً وأنه ليس للإنسان إلا ما قد سبق في القضاء الأزلي لكان أمره عز وجل لغواً لا فائدة فيه، وكذلك وعده بالإجابة للعباد الداعين له، وهكذا يكون ما ثبت في الأحاديث المتواترة المشتملة على الأمر بالدعاء وأنه عبادة لغواً لا فائدة فيه.

وهكذا يكون إستعاذته صلى الله عليه وسلم من سوء القضاء لغواً لا فائدة فيه، وهكذا يكون قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وقني شر ما قضيت»[2] لغواً لا فائدة فيه. وهكذا يكون أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالتداوي وأن الله سبحانه ما أنزل من داء إلا وجعل له دواء لغواً لا فائدة فيه مع ثبوت الأمر بالتداوي في الصحيح عنه ﷺ.

فإن قلت فعلام يحمل ما تقدم من الآيات القاضية بأن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر.

قلت قد أجاب عن ذلك بعض السلف وتبعه بعض الخلف بأن هذه الآية مختصة بالأجل إذا حضر فإنه لا يتقدم ولا يتأخر عند حضوره، ويؤيد هذا أنها مقيدة بذلك فإنه قال ﴿إذا جاء أجلهم﴾ ومثل هذا التقييد المذكور في هذه الآية قوله عز وجل ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ وقوله سبحانه ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾.

فقد أمكن الجمع بحمل هذه الآيات على هذا المعنى، فإذا حضر الأجل لم يتأخر ولا يتقدم، وفي غير هذه الحالة يجوز أن يؤخره الله بالدعاء أو بصلة الرحم أو بفعل الخير، ويجوز أن يقدمه لمن عمل شراً أو قطع ما أمر الله به أن

(١) مسلم ٢٧٠٧ ـ البخاري ٢٤٠١.
(٢) ابو داود كتاب الوتر باب ٥.

يوصل أو انتهك محارم الله سبحانه.

فإن قلت فعلام يحمل قوله عز وجل ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ وقوله سبحانه ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ وكذلك سائر ما ورد في هذا المعنى.

قلت هذه أولاً معارضة بمثلها وذلك قوله عزو وجل ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ ومثل ذلك ما ثبت في الحديث الصحيح القدسي: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه[1].

وثانياً بامكان الجمع بحمل مثل قوله ﴿إلا في كتاب﴾ وقوله ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ على عدم التسبيب من العبد بأسباب الخير من الدعاء وسائر أفعال الخير، وحمل ما ورد فيما يخالف ذلك على وقوع التسبيب بأسباب الخير الموجبة بحسن القضاء واندفاع شره، وعلى وقوع التسبيب بأسباب الشر المقتضية لاصابة المكروه ووقوعه على العبد.

وهكذا يكون الجمع بين الأحاديث الواردة بسبق القضاء، وانه قد فرغ من تقدير الأجل والرزق والسعادة والشقاوة، وبين الأحاديث الواردة في صلة الرحم بأنها تزيد في العمر، وكذلك سائر أعمال الخير وكذلك الدعاء، فيحمل أحاديث الفراغ من القضاء على عدم تسبب العبد بأسباب الخير والشر، وتحمل الأحاديث الآخرة على أنه قد وقع من العبد التسبيب بأسباب الخير من الدعاء والعمل الصالح وصلة الرحم أو التسبب بأسباب الشر.

فإن قلت قد تقرر بالادلة من الكتاب والسنة بأن عمله عز وجل أزلي وأنه قد سبق في كل شيء ولا يصح أن يقدر وقوع غير ما قد علمه، وإلا انقلب العلم جهلاً وذلك لا يجوز اجماعاً.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٢٢١.

قلت: علمه عز وجل سابق أزلي وقد علم ما يكون قبل أن يكون، ولا خلاف بين أهل الحق من هذه الحيثية ولكنه غلا قوم فأبطلوا فائدة ما ثبت في الكتاب والسنة من الارشاد إلى الدعاء وأنه يرد القضاء وما ورد من الاستعاذة منه ﷺ من سوء القضاء، وما ورد من أنه يصاب العبد بذنبه وبما كسبت يده ونحو ذلك مما جاءت به الادلة الصحيحة، وجعلوه مخالفاً لسبق العلم ورتبوا عليه أنه يلزم انقلاب العلم جهلاً.

والأمر أوسع من هذا، والذي جاءنا بسبق العلم وأزليته هو الذي جاءنا بالأمر بالدعاء والأمر بالدواء وعرفنا بأن صلة الرحم تزيد في العمر، وأن الأعمال الصالحة تزيد فيه أيضاً وأن أعمال الشر تمحقه، وأن العبد يصاب بذنبه كما يصل إلى الخير ويندفع عنه الشر بكسب الخير والتلبس بأسبابه فأعمال بعض ما ورد في الكتاب والسنة واهمال البعض الآخر ليس كما ينبغي، فإن الكل ثابت عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ، والكل شريعة واضحة وطريقة مستقيمة، والجمع ممكن بما لا اهمال فيه بشيء من الأدلة.

وبيانه أن الله سبحانه كما علم أن العبد يكون له من العمر كذا أو من الرزق كذا أو هو من أهل السعادة أو الشقاوة، قد علم أنه إذا وصل رحمه زاد له في الأجل كذا أو بسط له من الرزق كذا أو صار من أهل السعادة بعد أن كان من أهل الشقاوة أو صار من أهل الشقاوة بعد أن كان من أهل السعادة، وهكذا قد علم ما يقتضيه للعبد كما علم أنه إذا دعاه واستغاث به والتجأ إليه صرف عنه الشر، ودفع عنه المكروه.

وليس في ذلك خلف ولا مخالفة لسبق العلم بل فيه تقييد المسببات بأسبابها، كما قدر الشبع والري بالاكل والشرب، وقدر الولد بالوطء وقدر حصول الزرع بالبذر.

فهل يقول عاقل بأن ربط هذه المسببات بأسبابها يقتضي خلاف العلم السابق أو ينافيه بوجه من الوجوه.

فلو قال قائل: أنا لا آكل ولا أشرب بل انتظر القضاء فإن قدر الله لي ذلك كان وإن لم يقدر لم يكن، أو قال قائل انا لا أزرع الزرع ولا أغرس الشجر وأنتظر القضاء، فإن قدر الله ذلك كان وإن لم يقدره لم يكن، أو قال قائل: أنا لا أجامع زوجتي أو أمتي لتحصل لي منهما الذرية بل إن قدر الله كان وإن لم يقدره لم يكن.

لكان هذا مخالفاً لما كان عليه رسول الله ﷺ وما جاءت به كتبه وما كان عليه صلحاء الأمة وعلماؤها، بل يكون مخالفاً لما عليه هذا النوع الإنساني من أبينا آدم إلى الآن، بل مخالفاً لما عليه جميع أنواع الحيوانات في البر والبحر.

فكيف ينكر وصول العبد إلى الخير بدعائه أو بعمله الصالح فإن هذا من الأسباب التي ربط الله مسبباتها بها وعلمها قبل أن تكون، فعلمه على كل تقدير أزلي في المسببات والأسباب، ولا يشك من له اطلاع على كتاب الله عز وجل ما اشتمل عليه من ترتيب حصول المسببات على أسبابها كما في قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم﴾ وقوله ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ وقوله ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وقوله ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وقوله ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾.

وكم يعد العاد من أمثال هذه الآيات القرآنية وما ورد مـوردها من الأحاديث النبوية وهل ينكر هؤلاء الغلاة مثل هذا ويجعلونه مخالفاً لسبق العلم مبايناً لأزليته، فإن قالوا: نعم فقد أنكروا ما في كتاب الله عز وجل من فاتحته إلى خاتمته، وما في السنة المطهرة من أولها إلى آخرها بل أنكروا أحكام الدنيا والآخرة لأنها كلها مسببات مترتبة على أسبابها وجزاآت معلقة بشروطها ومن بلغ إلى هذا الحد في الغباوة وعدم تعقل الحجة لم يستحق المناظرة ولا ينبغي

معه الكلام فيما يتعلق بالدين بل ينبغي إلزامه باهمال أسباب ما فيه صلاح معاشه وأمر دنياه حتى ينتعش من غفلته ويستيقظ من نومته ويرجع عن ضلالته وجهالته، والهداية تبري الحول والقوة ولا خير إلا خيره.

ثم يقال لهم هذه الأدعية الثابتة عن رسول الله ﷺ في دواوين الإسلام وما يلتحق بها من كتب السنة المطهرة قد علم كل من له علم أنها كثيرة جداً بحيث لا يحيط بأكثرها إلا مؤلف بسيط ومصنف حافل، وفيها تارة استجلاب الخير وفي أخرى استدفاع الشر وتارة متعلقة بأمور الدنيا وتارة بأمور الآخرة ومن ذلك تعليمه ﷺ لأمته ما يدعون به في صلاتهم وعقب صلاتهم وفي صيامهم وفي ليلهم ونهارهم، وعند نزول الشدائد بهم وعند وصول نعم الله إليهم.

هل كان هذا كله منه ﷺ لفائدة عائدة عليه وعلى أمته بالخير جالبة لما فيه مصلحة دافعة لما فيه مفسدة، فإن قالوا: نعم قلنا لهم فحينئذ لا خلاف بيننا وبينكم فإن هذا الاعتراف يدفع عنا وعنكم معرة الإختلاف، ويريحنا ويريحكم من التطويل بالكلام على ما أردتموه وأردناه.

وإن قالوا: ليس ذلك لفائدة عائدة عليه وعلى أمته بالخير جالبة لما فيه مصلحة دافعة لما فيه مفسدة، فهم أجهل من دوابهم وليس للمحاجة لهم فائدة ولا في المناظرة معهم نفع.

يا عجباً كل العجب، أما بلغهم ما كان عليه أمر رسول الله ﷺ من أول نبوته إلى أن قبضه الله من الدعاء لربه والالحاح عليه ورفع يديه عند الدعاء حتى يبدو بياض ابطيه وحتى يسقط رداؤه كما وقع منه ﷺ في يوم بدر، فهل يقول عاقل فضلاً عن عالم أن هذا الدعاء منه فعله ﷺ وهو يعلم أنه لا فائدة فيه، وأنه قد سبق العلم بما هو كائن وأن هذا السبق يرفع فائدة ذلك

ويقتضي عدم النفع به.

ومعلوم أنه ﷺ أعلم بربه وبقضائه وقدره وبأزليته وسبق علمه بما يكون في بريته، فلو كان الدعاء منه ومن أمته لا يفيد شيئاً ولا ينفع نفعاً لم يفعله ولا أرشد إليه الناس وأمرهم به، فإن ذلك نوع من العبث الذي تنزه عنه كل عاقل فضلاً عن خير البشر وسيد ولد آدم.

ثم يقال لهم إذا كان القضاء دافعاً لا محالة وأنه لا يدفعه شيء من الدعاء والالتجاء والالحاح والاستعانة فكيف لم يتأدب ﷺ مع ربه، فإنه قد صح عنه أنه استعاذ بالله سبحانه من سوء القضاء كما عرفناك وقال: «وقني شر ما قضيت»، فكيف يقول هؤلاء الغلاة في الجواب عن هذا وعلى أي محمل يحملونه؟

ثم ليت شعري علام يحملون أمره سبحانه وتعالى لعباده بدعائه بقوله ﴿ادعوني استجب لكم﴾ ثم عقب ذلك بقوله ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي عن دعائي كما صرح بذلك أئمة التفسير.

فكيف يأمر عباده بالدعاء أولاً ثم يجعل تركه استكباراً منهم، ثم يرغبهم إلى الدعاء ويخبرهم أنه قريب من الداعي مجيب لدعوته بقوله ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ ثم يقول معنونا لكلامه الكريم بحرف يدل على الاستفهام الانكاري والتقريع والتوبيخ ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ ثم يأمرهم بسؤاله من فضله بقوله: ﴿واسألوا الله من فضله﴾.

فإن قالوا إن هذا الدعاء الذي أمرنا الله به وأرشدنا إليه وجعل تركه استكباراً وتوعد عليه بدخول النار مع الذل ورغب عباده إلى دعائه وعرفهم أنه

قريب وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وأنكر عليهم أن يعتقدوا أن غيره يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف ما نزل به من السوء، وأمرهم أن يسألوه من فضله ويطلبوا ما عنده من الخير.

أن كل ذلك لا فائدة فيه للعبد وأنه لا ينال إلا ما قد جرى به القضاء وسبق به العلم، فقد نسبوا إلى الرب عز وجل ما لا يجوز عليه ولا تحل نسبته إليه، فإنه لا يأمر العبد إلا بما فيه فائدة يعتد بها ولا يرغبه إلا فيما يحصل له به الخير ولا يرهبه إلا عما يكون به عليه الضير ولا يعده إلا بما هو حق يترتب عليه فائدة فهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد ولا يأمرهم بسؤاله من فضله إلا وهناك فائدة تحصل بالدعاء ويكون سببه التفضل عليهم ورفع ما هم فيه من الضر وكشف ما حل بهم من السوء.

هذا معلوم لا يشك فيه، إلا من لا يعقل حجج الله ولا يفهم كلامه ولا يدري بخير ولا شر، ولا نفع ولا ضر.

ومن بلغ به الجهل إلى هذه الغاية فهو حقيق بأن لا يخاطب، وقمين بأن لا يناظر، فإن هذا المسكين المنخبط في جهله المتقلب في ضلاله قد وقع فيما هو أعظم خطراً من هذا وأكثر ضرراً منه، وذلك بأن يقال له إذا كان دعاء الكفار إلى الإسلام ومقاتلتهم على الكفر وغزوهم إلى مقر ديارهم لا يأتي بفائدة ولا يعود على القائمين به من الرسل وأتباعهم وسائر المجاهدين من العباد بفائدة، وأنه ليس هناك إلا ما قد سبق من علم الله عز وجل وأنه سيدخل في الإسلام ويهتدي إلى الدين من قد علم سبحانه منه ذلك سواء قوتل أو لم يقاتل وسواء دعى إلى الحق أو لم يدع إليه.

كان هذا القتال الصادر من رسل الله وأتباعهم ضائعاً ليس فيه إلا تحصيل الحاصل وتكوين ما هو كائن فعلوا أو تركوا وحينئذ يكون الأمر بذلك

عبثاً، تعالى الله عز وجل عن ذلك.

وهكذا ما شرعه الله لعباده من الشرائع على لسان أنبيائه وأنزل بها كتبه يقال مثل هذا فإنه إذا كان ما قد حصل في سابق علمه عز وجل كائناً سواء بعث الله إلى عباده رسله وأنزل إليهم كتبه أو لم يفعل ذلك كان عبثاً يتعالى الرب سبحانه ويتنزه عن أن ينسب إليه.

فإن قالوا: إن الله سبحانه قد سبق علمه بكل ذلك ولكنه قيده وشرطه بشروط وعلقه بأسباب فعلم مثلاً أن الكافر يسلم ويدخل في الدين بعد دعائه إلى الإسلام أو مقاتلته على ذلك، وأن العباد يعمل منهم من يعمل بما تعبدهم الله به بعد بعثة رسله إليهم وإنزال كتبه عليهم.

قلنا لهم: فعليكم أن تقولوا هكذا في الدعاء وفي أعمال الخير وفي صلة الرحم ولا نطلب منكم إلا هذا، ولا نريد منكم غيره وحينئذ قد دخلتم إلى الوفاق من طريق قريبة، فعلام هذا الجدال الطويل العريض واللجاج الكبير الكثير فانا لا نقول إلا أن الله سبحانه قد علم في سابق علمه أن فلاناً يطول عمره إذا وصل رحمه. وأن فلاناً يحصل له من الخير كذا ويندفع عنه من الشر كذا إذا دعا ربه وأن هذه المسببات مترتبة على حصول أسبابها، وهذه المشروطات مقيدة بحصول شروطها.

وحينئذ فارجعوا إلى ما قدمنا ذكره من الجمع بين ما تقدم من الأدلة واستريحوا من التعب، فإنه لم يبق بيننا وبينكم خلاف من هذه الحيثية، وقد كان الصحابة مثل عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وأبي وائل وعبد الله بن عمر يدعون الله عز وجل بأن يثبتهم في أهل السعادة إن كانوا قد كتبوا من أهل الشقاوة كما قدمنا، وهم أعلم بالله سبحانه وبما يجب له ويجوز عليه.

وقال كعب الأحبار حين طعن عمر وحضرته الوفاة: والله لو دعا الله

عمر أن يؤخر أجله لأخره فقيل له إن ربه عز وجل يقول ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فقال هذا إذا حضر الأجل فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص، وقرأ قوله تعالى ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾.

ثم قد علمنا من أهل الإسلام سابقهم ولاحقهم سيما الصالحين منهم أنهم يدعون الله عز وجل فيستجيب لهم ويحصل لهم ما طلبوه من المطالب المختلفة بعد أن كانوا فاقدين لها، ومنهم من يدعو لمريض قد أشرف على الموت بأن يشفيه الله فيعافى في الحال، ومنهم من يدعو على فاجر بأن يهلكه الله فيهلك في الحال.

ومن شك في شيء من هذا فليطالع الكتب الصحيحة في أخبار الصالحين كحلية أبي نعيم وصفوة الصفوة لابن الجوزي، ورسالة القشيري فإنه يجد من هذا القبيل ما ينشرح له صدره ويثلج به قلبه، بل لكل إنسان إذا حقق حال نفسه ونظر في دعائه لربه عند عروض الشدائد واجابته له وتفريجه عنه ما يغنيه عن البحث عن حال غيره إذا كان من المعتبرين المفكرين.

وهذا نبي الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله ويشفي المرضى بدعائه، وهذا معلوم عنه حسبما أخبرنا الله سبحانه في كتابه الكريم، وفي الإنجيل من القصص المتضمنة لإحياء الموتى منه وشفاء المرضى بدعائه ما يعرفه من اطلع عليه.

وبالجملة فهؤلاء الغلاة الذين قالوا إنه لا يقع من الله عز وجل إلا ما قد سبق به القلم وأن ذلك لا يتحول ولا يتبدل ولا يؤثر فيه دعاء ولا عمل صالح، قد خالفوا ما قدمنا من آيات الكتاب العزيز ومن الأحاديث النبوية الصحيحة من غير ملجىء إلى ذلك، فقد أمكن الجمع بما قدمناه وهو متعين،

وتقديم الجمع على الترجيح متفق عليه، وهو الحق.

وقد قابل هؤلاء بضد قولهم القدرية وهم معبد الجهني وأصحابه فإنهم قالوا: إن الأمر أنف أي مستأنف وقالوا: إن الله لا يعلم بالجزئيات إلا عند وقوعها تعالى الله عن ذلك، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين.

وقد تبرأ من مقالة معبد هذه وأصحابه من أدركهم من الصحابة منهم ابن عمر كما ثبت ذلك في الصحيح وقد غلط من ينسب مقالتهم هذه إلى المعتزلة فإنه لم يقل بها أحد منهم قط وكتبهم مصرحة بهذا ناطقة به، ولا حاجة لنا إلى نقل مقالات الرجال فقد قدمنا من أدلة الكتاب والسنة والجمع بينهما ما يكفي المنصف ويريحه من الأبحاث الطويلة العريضة الواقعة في هذه المسألة، ومن الإلزامات التي ألزم بها بعض القائلين البعض الآخر، ودين الله سبحانه بين المفرط والغالي وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية والله ولي التوفيق.

﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ «إن» هي الشرطية وما زائدة للتوكيد، والقصص قد تقدم معناه والمعنى إن أتاكم رسل كائنون منكم ومن جنسكم يخبرونكم بأحكامي ويبينونها لكم، وقيل المراد بالرسل النبي ﷺ، وذكره بلفظ الجمع للتعظيم، والخطاب لأهل مكة ومن يلحق بهم، وقيل أراد جميع الرسل، والخطاب عام في كل بني آدم وهو ظاهر الآية.

﴿فمن اتقى﴾ الشرك ومعاصي الله ﴿وأصلح﴾ حال نفسه باتباع الرسل وإجابتهم ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يوم القيامة وقد تقدم تفسيره مراراً.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ التي يقصها عليهم رسلنا ﴿واستكبروا عنها﴾ أي عن إجابتها والعمل بما فيها فـ ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها أبداً بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل.

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي من أعظم ظلماً ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكاً من خلقه وهو منزه عنه ﴿أو كذب بآياته﴾ أي بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ .

﴿ أولئك ﴾ الإشارة إلى المكذبين المستكبرين ﴿ ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ أي مما كتب الله لهم من خير وشر ، وقيل ينالهم من العذاب بقدر كفرهم ، وقيل نصيبهم من الشقاوة والسعادة .

وقال مجاهد : ما سبق من الكتاب ، ، وقال محمد بن كعب : رزقه وأجله وعمله وصححه الطبري، وقال الرازي: وإنما حصل الاختلاف لأن لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه، وقيل: الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه، وقيل هو اللوح المحفوظ[1].

---

(١) وذكر القرطبي عن الحسن بن علي الحلواني قال املى عليّ علي بن المديني قال : سألت عبد الرحمن ابن مهدي عن القدر قال : كل شيء بقدر والطاعة والمعصية بقدر .

﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ أي إلى غاية هي هـذه، والمراد بالرسل هنا ملك الموت وأعوانه أو الملائكة والموكلون بإدخالهم النار، ففي المقام قولان ذكرهما الخازن وقيل حتى هنا هي التي للابتداء ولكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافي كونها غاية لما قبلها.

والاستفهام في قوله ﴿قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ للتقريع والتوبيخ لا سؤال استعلام أي أين الآلهة التي كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها ليدفعوا عنكم ما نزل بكم؟ وقيـل: إن هذا يكون في الآخرة.

﴿ قالوا ﴾ استئنافية بتقدير سؤال وقعت هي جواباً عنه كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ ضلوا عنا ﴾ أي ذهبوا عنا وغابوا فلا ندري أين هم.

قال الكرخي: وهو جواب من حيث المعنى لا من حيث اللفظ. وذلك أن السؤال إنما وقع عن المكان، ولو جاء الجواب على نسق السؤال لقيل هم في المكان الفلاني، وإنما المعنى ما فعل معبودكم ومن كنتم تدعونه فأجابوا بأنهم ضلوا عنا وغابوا فلم نرهم مع شدة احتياجنا إليهم في هذا الوقت فلم ينفعونا وقت الاحتيـاج إليهم ﴿وشهدوا عـلى أنفسهم﴾ عند المـوت ﴿أنهم كـانـوا كافرين﴾ أي أقروا على أنفسهم بالكفر.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم﴾ القائل هو الله عز وجل، و «في» بمعنى مع أي مع أمم وقيل هي على بابها والمعنى ادخلوا في جملتهم وغمارهم وعدادهم، وقيل هو قول مالك خازن النار، والظاهر أن هذه الحال منتظرة إذ مصيرهم في غمار الأمم إنما هو بعد تمام الدخول، وذلك لأن الأمم المذكورة قد سبقتهم في الدخول فلا يصيرون في غمارها إلا بعد الدخول.

والمراد بالأمم الخالية ﴿من الجن والإنس﴾ هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية وأهل الملل ﴿في النار﴾ أي التي هي مستقركم ومأواكم ﴿كلما دخلت أمة﴾ من الأمم الماضية النار ﴿لعنت أختها﴾ أي الأمة الأخرى التي سبقتها إلى النار، وجعلت أختاً لها باعتبار الدين أو الضلالة أو الكون في النار.

قال السدي: يلعن المشركون المشركين واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى.

﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾ التدارك التلاحق والتتابع والاجتماع في النار ﴿قالت أخراهم﴾ دخولاً ﴿لأولاهم﴾ أي لأجلهم يعني قال آخر كل أمة لأولها واللام للتعليل ولا يجوز أن تكون للتبليغ. قال الزمخشري: لأن خطابهم مع الله لا معهم، وقد بسط القول قبله في ذلك الزجاج وقيل هي للتبليغ وخطابهم معهم بدليل قوله ﴿فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾.

قال السدي: قالت أخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لأولاهم الذين شرعوا لهم في ذلك الدين، وقيل أخراهم أي سفلتهم وأتباعهم لأولاهم لرؤسائهم وكبارهم قاله مقاتل وهذا أولى كما يدل عليه.

﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ عن الهدى فإن المضلين هم الرؤساء، ويجوز أن يراد أنهم أضلوهم لأنهم اتبعوهم واقتدوا هم بدينهم من بعدهم فيصح الوجه الأول لأن أخراهم تبعت دين أولاهم.

﴿فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ الضعف الزائد على مثله مرة أو مرات، ومثله قوله تعالى ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ وقيل الضعف هنا الأفاعي والحيات، وقال أبو عبيدة الضعف مثل الشيء مرة واحدة.

قال الزهري: والذي قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاري كلامهم وأما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره إلى موضوع كلام العرب، والضعف في كلامهم ما زاد، وليس بمقصور على مثلين بل أقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور، وقال الزجاج: ضعفاً أي مضاعفاً يعني تضعيف الشيء وزيادته إلى ما لا ينتهي.

﴿قال لكل﴾ أي لكل طائفة منكم ﴿ضعف﴾ من العذاب أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم قاله الكرخي

﴿ ولكن لا تعلمون ﴾ بما لكل فريق من نوع العذاب[1].

---

(١) زاد المسير ٣/١٩٥.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ أي قال السابقون للاحقين أو المتبوعين للتابعين مشافهة ومخاطبة لها ﴿فما كان لكم علينا﴾ في الدنيا ﴿من فضل﴾ بل نحن وأنتم سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه وقد ضللتم كما ضللنا فهذا رد لقول الطائفة الأخرى ﴿هؤلاء أضلونا﴾ قال مجاهد ﴿من فضل﴾ تخفيف من العذاب.

﴿فذوقوا العذاب﴾ النار كما ذقناه ﴿بما كنتم تكسبون﴾ من معاصي الله والكفر به والقائل لهذا القول القادة للأتباع أو الأمة الأولى للأخرى أو الله سبحانه.

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا﴾ ولم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا ﴿واستكبروا عنها﴾ أي عن الإيمان والتصديق بها ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ يعني أنها لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا وهي تفتح لأرواح المؤمنين ويصعد بروحهم إلى السماء السابعة، وقد دل على هذا المعنى وأنه المراد من الآية ما جاء في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكفار إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء، وقيل لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا قاله مجاهد والنخعي، وقيل لأعمالهم أي لا تقبل بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم.

وقيل المعنى أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها لأن الجنة في السماء وعلى هذا العطف بجملة ولا يدخلون الجنة الآتية يكون من عطف التفسير، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال، ولا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه فإن ذلك لا يدل على

عدم فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم الآية.

﴿ولا يدخلون الجنة﴾ أي هؤلاء الكفار المكذبون المستكبرون لا يدخلونها بحال من الأحوال ولهذا علقه بالمستحيل وقال ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ الولوج الدخول بشدة وخص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لكونه يضرب به المثل في كبر الذات وعظم الجرم عند العرب، فجسمه من أعظم الأجسام، وخص سم الخياط وهو ثقب الإبرة بالذكر لكونه غاية في الضيق وأضيق المنافذ، وهو لا يحل فيه أبداً فثبت أن الموقوف على المحال محال، فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعاً، والجمل الذكر من الإبل، والجمع جمال واجمال وجمالات، وإنما يسمى جملاً إذا أربع.

وقرأ ابن عباس الجمل بضم الجيم وفتح الميم مشددة وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس وهو حبال مجموعة قاله ثعلب، وقيل الحبل الغليظ من القنب، وقيل الحبل الذي يصعد به في النخل.

وقرأ ابن مسعود حتى يلج الجمل الأصغر، وقرىء سم بالحركات الثلاث لكن السبعة على الفتح والضم لغة لأهل العالية والكسر لغة لبني تميم وجمعه سمام، وكل ثقب ضيق فهو سم، وقيل كل ثقب في البدن أو أنف أو أذن فهو سم وجمعه سموم، والسم القاتل سمي بذلك للطفه وتأثيره في مسام البدن حتى يصل إلى القلب، وهو في الأصل مصدر ثم أريد به معنى الفاعل لدخوله باطن البدن والسم ثقب لطيف ومنه ثقب الإبرة.

والخياط ما يخاط به يقال خياط ومخيط قاله الفراء، والمراد به الإبرة في هذه الآية، قال بعض أهل المعاني: لما علق الله دخولهم الجنة بولوج الجمل في سم الخياط وهو خرق الإبرة كان ذلك نفياً لدخولهم الجنة على التأبيد، وذلك أن العرب إذا علقت ما يجوز كونه بما لا يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز، وهذا كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار.

﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي جنس من أجرم وقد تقدم تحقيقه.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿لهم﴾ أي للذين كذبوا واستكبروا فهذا بيان لجزاء آخر لهم غير الجزاء السابق ﴿من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ المهاد الفراش والغواش جمع غاشية أي نيران تحيط بهم من تحتهم وتغشاهم من فوقهم كالأغطية قاله ابن عباس: الغواش اللحف، وبه قال القرظي والضحاك والسدي.

﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من اتصف بصفة الظلم وذكر الجرم في حرمان الجنة والظلم في دخول النار تنبيهاً على أن الظلم أعظم الإجرام.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم من وحي الله وتنزيله عليه من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه في ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه.

﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم، وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر، ومثله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ قال الزجاج: الوسع ما يقدر عليه ولا يعجز عنه، وغلط من قال أن الوسع بذلك المجهود.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الموصول مبتدأ وخبره ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع ما في قلوبهم من غل بعضهم على بعض حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضاً، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيص لنعم الجنة لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهما عيش مع وجود الآخر.

والمعنى خلقناهم في الجنة على هذه الحالة وليس المراد إنهم دخلوا الجنة بما ذكر ثم نزع منهم فيها بل المراد أنهم دخلوها مطهرين منه، قاله أبو حيان والغل الحقد الكامن في الصدور، وقيل نزع الغل في الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل المنازل قال علي بن أبي طالب: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية.

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي من تحت قصورهم قد تقدم تفسيره مراراً ﴿وقالوا﴾ عند الاستقرار في منازلهم ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ الجزاء العظيم وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من صدورهم والهداية هذه لهذا هي الهداية المسببة من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا ﴿وما كنا لنهتدي﴾ نطيق لهذا الأمر جملة موضحة واللام لتوكيد النفي ﴿لولا أن هدانا الله﴾ جملة مستأنفة أو حالية.

أخرج النسائي وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا الله

فتكون حسرة عليهم، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لولا أن هدانا الله فهذا شكرهم[١].

﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ اللام لام القسم قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم اغتباطاً بما صاروا فيه بسبب ما تقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به في الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه.

﴿ونودوا أن تلكم الجنة﴾ أي وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقيل لهم ذلك، والمنادي هو الله وقيل الملائكة وقيل هذا النداء يكون في الجنة.

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا ولا تموتوا أبداً، وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عز وجل يعني هذه الآية أخرجه مسلم[٢].

﴿اورثتموها﴾ أعطيتموها بدلاً من أهل النار، وهو حال من الجنة، وسماها ميراثاً لأنها لا تستحق بالعمل بل هي محض فضل الله وعده على الطاعات كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة خالصة حصلت لكم بلا تعب ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي أورثتم منازلها بعملكم قال في الكشاف بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة انتهى.

أقول يا مسكين هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه: سددوا وقاربوا

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٤٣٩٠.
(٢) مسلم ٢٨٥٠.

واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته[١]، والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة.

وفي التنزيل ﴿ذلك الفضل من الله﴾ وفيه ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ وفي فتح الباري المنفي في الحديث دخولها بالعمل المجرد عن القبول والمثبت في الآية دخولها بالعمل المتقبل والقبول إنما يحصل من الله تفضلاً.

وفي القرطبي وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تنال إلا برحمته فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ودخلوها برحمته إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل منه عليهم انتهى[٢].

(١) روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة. فوالذي نفسي بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » رواه « البخاري » ٥/ ٧٠، و ١١/ ٣٤٦ « بشرح الفتح »، و « الطبري » ١٤/ ٣٨ قال الحافظ ١١/ ٣٤٦: قوله: « والذي نفس محمد بيده » هذا ظاهره أنه مرفوع كله، وكذا في سائر الروايات، إلا في رواية عفان عند الطبري، قال: فانه جعل هذا من كلام قتادة، فقال بعد قوله: « في دخول الجنة » قال: وقال قتادة: « والذي نفسي بيده لأحدهم أهدى... » الخ وفي رواية شعيب ابن إسحاق بعد قوله: « في دخول الجنة » قال: فوالذي نفسي بيده... الخ فأبهم القائل، فعلى رواية عفان يكون هو قتادة، وعلى رواية غيره يكون هو النبي ﷺ، وزاد محمد بن المنهال عند الاسماعيلي: قال قتادة: كان يقال: ما يشبه بهم إلا أهل الجمعة إذا انصرفوا من جمعتهم، وهكذا عند عبد الوهاب وروح. وفي رواية بشر ابن خالد وعفان جميعاً عند الطبري قال: وقال بعضهم.. فذكره، وكذا في رواية شعيب بن إسحاق، ويونس ابن محمد، والقائل: وقال بعضهم: هو قتادة، ولم أقف على تسمية القائل.

(٢) مسلم ٢٨١٨ ـ البخاري ٢٤٢٧.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، يقول أهل الجنة يا أهل النار، وهذه المناداة لم تكن لقصد الأخبار لهم مما نادوهم به بل لقصد تبكيتهم وايقاع الحسرة في قلوبهم ﴿أن قد وجدنا﴾ هو نفس النداء أي إنا قد وصلنا إلى ﴿ما وعدنا ربنا حقاً﴾ أي ما وعدنا الله به من النعيم على ألسنة رسله ﴿فهل وجدتم﴾ أي وصلتم إلى ﴿ما وعد﴾ به ﴿ربكم حقاً﴾ أي من العذاب الاليم، والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ.

﴿قالوا نعم﴾ وجدنا ذلك حقاً، وظاهر الآية يفيد العموم، والجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا ﴿فأذن مؤذن﴾ أي فنادى مناد ﴿بينهم﴾ أي بين الفريقين قيل المنادي هو من الملائكة، وقيل إنه إسرافيل ذكره الواحدي، وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر أن النبي ﷺ لما وقف على قليب بدر تلا هذه الآية ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ أي يقول المؤذن هذا القول.

ثم فسر الظالمين من هم فقال ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ الصد المنع أي يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي يطلبون اعوجاجها أي ينفرون الناس عنها ويقدحون في استقامتها بقولهم إنها غير حق وإن الحق ما هم فيه، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن منتصباً بالفتح ما كان في المنتصب كالرمح والحائط ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أي جاحدون منكرون لها.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿وبينهما حجاب﴾ أي حاجز بين الفريقين أو بين الجنة والنار والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى ﴿فضرب بينهم بسور﴾ ﴿وعلى الأعراف﴾ جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض وهي هنا شرفات السور المضروب بينهم، ومنه عرف الفرس، وعرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد، سمي بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض، والاعراف في اللغة المكان المرتفع.

وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ عن حذيفة قال: الأعراف سور بين الجنة والنار وبه قال مجاهد، وقال ابن عباس: هو الشيء المشرف، وقال سعيد بن جبير: الأعراف جبال بين الجنة والنار فهم على اعرافها أي على ذراها.

وقيل: إنها تلّ بينهما حبس عليه ناس من أهل الذنوب، وعن ابن جريج قال: زعموا أنه الصراط، وقال ابن عباس أيضاً: سور له عرف كعرف الديك وقيل الاعراف هو نفس الحجاب عبر عنه تارة بالحجاب وتارة بالاعراف قاله الواحدي، ولم يذكر غيره ولذلك عرف الاعراف لأنه عنى به الحجاب.

وقال القرطبي: الاعراف جبل أحد يوضع هناك، وذكر الزهراوي حديثاً فيه ما ذكر ﴿رجال﴾ من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولاً في الجنة أو من لم يرض عنه أحد أبويه.

وقد اختلف العلماء في أصحاب الاعراف من هم، على ثلاثة عشر قولاً

ذكر الخازن منها ثمانية وزاد عليه القرطبي خمسة فقيل هم الشهداء ذكره القشيري وشرحبيل بن سعد، وقيل هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، ذكره مجاهد وقيل هم قوم أنبياء ذكره الزجاج وحكاه ابن الأنباري.

وقيل هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبي والضحاك وسعيد بن جبير، وقيل هم العباس وحمزة وعلي وجعفر الطيار يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسوادها، حكى ذلك عن ابن عباس وقيل هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، واختار هذا القول النحاس، وقال هو من أحسن ما قيل فيهم وقيل هم أولاد الزنا روى ذلك القشيري عن ابن عباس.

وقيل هم أطفال المشركين وقال مجاهد هم قوم صالحون فقهاء علماء، وقيل هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين عن المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار، ذكره أبو مجلز وضعفه الطبري وقال: إن لفظ الرجال في لسان العرب لا يطلق إلا على الذكور من بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق.

وفي هذه الأقوال ما يدل على أن أصحاب الاعراف دون أهل الجنة في الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى، وفيها ما يدل على أنهم أفضل من أهل الجنة وأعلى منهم منزلة، وليس في الباب ما يقطع به من نص جلي وبرهان نير.

وقال حذيفة: أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار وهم آخر من يدخل الجنة قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار، وقيل هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم.

وذكر ابن الجوزي أنهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم أو أمهاتهم دون آبائهم، ورواه عن إبراهيم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زرعة بن عمر قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال: هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم، قال ابن كثير وهذا مرسل حسن[١].

وأخرج البيهقي في البعث عن حذيفة أراه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، ويؤمر بأهل النار إلى النار ثم يقال لأصحاب الأعراف ما تنتظرون؟ قالوا ننتظر أمرك فيقال لهم إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتي ورحمتي.

وعن عبد الرحمن المزني قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله، ومنعهم من الجنة معصيتهم آباءهم[٢] أخرجه البيهقي والطبراني وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم، وروي بطرق عن جماعة من الصحابة نحوه مرفوعاً فإن ثبت الرفع فالمصير إليه متعين ولا قول لأحد بعده والله أعلم.

﴿يعرفون كلاً بسيماهم﴾ السيما العلامة أي يعرفون كلاً من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها أو مواضع الوضوء من المؤمنين أو علامة

---

(١) ابن كثير ٢/٢١٦.

(٢) ابن كثير ٢/٢١٦.

يجعلها الله لكل فريق في ذلك الموقف يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء، قال السدي: إنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس أي زيادة على معرفتهم بكونهم في الجنة وكونهم في النار(١).

﴿ونادوا﴾ أي نادى رجال الأعراف ﴿أصحاب الجنة﴾ حين رأوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ أي نادوهم بقولهم هذا تحية لهم وإكراماً وتبشيراً أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب والآفات ﴿لم يدخلوها﴾ أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ولا محل له لأنه استئناف ﴿وهم يطمعون﴾ أي والحال يطمعون في دخولها، وأنهم قيل معنى يطمعون يعلمون أنهم يدخلونها وذلك معروف عند أهل اللغة أي طمع بمعنى علم ذكره النحاس، وهذا القول أعني كونهم أهل الأعراف مروي عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود، وقال أبو مجلز: هم أهل الجنة أي إن أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها، والحال أنهم يطمعون في دخولها، قال الحسن ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم.

---

(١) قال القرطبي: روى القشيري عن ابن عباس في قوله عز وجل: «وعلى الأعراف رجال» قال: الأعراف موضع عالٍ على الصراط، عليه العباس وحمزة وعلي بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين، رضي الله عنهم، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه. وحكى الزهراوي أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم في كل أمة. وآختار هذا القول النحاس، وقال: وهو من أحسن ما قيل فيه؛ فهم على السور بين الجنة والنار. وقال الزجاج: هم قوم أنبياء. وقيل: هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم. وتمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون. وقيل: هم أولاد الزنى.

۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

﴿وإذا صرفت أبصارهم﴾ أي أبصار أهل الأعراف لا عن قصد لأن المكروه لا ينظر إليه الإنسان قصداً في العادة ﴿تلقاء أصحاب النار﴾ أي وجاههم وحيالهم، وأصل معنى تلقاء جهة اللقاء وهي جهة المقابلة ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أو له غير مصدرين أحدهما هذا والآخر تبيان، وما عداهما بالفتح وزاد بعضهم الزلزال.

﴿قالوا﴾ أي أهل الأعراف إذا نظروا إليهم وإلى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ سألوا الله أن لا يجعلهم منهم.

﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً﴾ من الكفار كانوا عظماء في الدنيا ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾ أي بعلاماتهم ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم﴾ الذي كنتم تجمعون من الأموال والعدد في الدنيا للصد عن سبيل الله، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿و﴾ ما أغنى عنكم ﴿ما كنتم تستكبرون﴾ أي استكباركم عن الإيمان شيئاً.

﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ هذا من كلام أصحاب الأعراف أي قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة، وقد كان الكفار يقسمون في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم، وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم ﴿أدخلوا الجنة﴾ بفضلي ورحمتي ﴿لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ هذا تمام كلام أصحاب الأعراف أي قالوا للمسلمين أدخلوا الجنة فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ من الطعام قاله السدي والإفاضة التوسعة، يقال أفاض عليه نعمة ويتضمن أفيضوا معنى القوا وأو بمعنى الواو لقوله حرمهما أو هي على بابها من اقتضائها لأحد الشيئين إما تخييراً أو إباحة أو غير ذلك مما يليق بهما. وعلى هذا تقديره حرم كلاً منهما أو كليهما كما سيأتي، والمعنى طلبوا منهم أن يواسوهم بشيء من الماء أو بشيء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة والاطعمة.

﴿قالوا﴾ أي فأجابوا بقولهم ﴿إن الله حرمهما﴾ أي حرم الماء وما رزقنا ﴿على الكافرين﴾ ومنعهما فلا نواسيكم بشيء مما حرمه عليكم، والتحريم مستعمل في لازمه لانقطاع التكليف حينئذ، قيل إن هذا النداء كان من أهل النار بعد دخول أهل الأعراف الجنة.

قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه فيقول يا أخي اغثني فإني قد احترقت فأفض علي من الماء فيقال أجبه فيقول إن الله حرمهما على الكافرين، وقال ابن زيد: يستسقونهم ويستطعمونهم وإن الله حرمهما أي طعام الجنة وشرابها وهو تحريم منع[1].

---

(١) في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال. وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين آستغاثوا بأهل الجنة « ان افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله »؟. وروى أبو داود أن سعداً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أي الصدقة أعجب إليك؟ قال: « الماء». وفي رواية: فحفر بئراً فقال: « هذه لأم سعد»، وعن أنس قال، قال سعد: يارسول الله، إن أم سعد كانت تحب الصدقة، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: «نعم وعليك بالماء».

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا﴾ قد تقدم تفسير اللهو واللعب والغرر، وقال ابن عباس: هم المستهزئون وذلك انهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزئوا به استهزاء بالله عز وجل، وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والماء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية، وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهواً ولعباً لا يذكرون الله فيه.

﴿فاليوم ننساهم﴾ أي نتركهم في النار، وقال مجاهد: نؤخرهم جياعاً عطاشاً والمعنى نفعل بهم فعل الناسي بالمنسى من عدم الاعتناء بهم وتركهم في النار تركاً كلياً، والفاء فصيحة وكثر مثل هذه الاستعارة في القرآن لأن تعليم المعاني التي في عالم الغيب لا يمكن أن يعبر عنها إلا بما يماثلها من عالم الشهادة.

﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي كما تركوا العمل للقاء هذا اليوم قاله ابن عباس ومجاهد والسدي وقال ابن عباس أيضاً: نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر، وسمى جزاء نسيانهم بالنسيان مجازاً لأن الله لا ينسى شيئاً.

﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي ينكرونها .

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم﴾ أي عالمين بتفصيله حال كونه ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ المراد بالكتاب الجنس إن كان الضمير للكفار جميعاً، وإن كان للمعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فالمراد به القرآن، والتفصيل التبيين أي ما بيناه بالأخبار والوعد والوعيد، وكذا بقية الأنواع التسعة التي نظمها بعضهم في قوله:

حلال حرام محكم متشابه بشير نذير قصة عظة مثل

وقال السمين المراد بتفصيله إيضاح الحق من الباطل أو تنزيله في فصول مختلفة كقوله ﴿وقرآناً فرقناه﴾ وقرىء فضلناه من التفضيل أي على غيره من الكتب السماوية.

﴿هل ينظرون﴾ النظر الانتظار أي ما ينتظرون أهل مكة ﴿إلا تأويله﴾ أي ما وعدوا به في الكتاب من العقاب الذي يؤل الأمر إليه، وقيل تأويله جزاؤه، وقيل عاقبة ما فيه والمعنى متقارب.

﴿يوم يأتي تأويله﴾ وهو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه﴾ أي التأويل وتركوا العمل بالقرآن ﴿من قبل﴾ أي قبل أن يأتي تأويله ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ الذي أرسلهم الله به إلينا ﴿فهل لنا من شفعاء﴾ استفهام ومعناه التمني، ومن زائدة ﴿فيشفعوا لنا﴾ جواب الاستفهام والمعنى هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب.

﴿أو﴾ هل ﴿نرد﴾ إلى الدنيا ﴿فنعمل﴾ صالحاً ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ من المعاصي فبدل الكفر بالإيمان والتوحيد والمعاصي بالطاعة والإنابة فيقال لهم في جواب الاستفهامين ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ أي صاروا إلى الهلاك ولم ينتفعوا بها فكانت بلاء عليهم ومحنة لهم فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله وقيل خسروا النعيم وحظ الأنفس.

﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي افتراءهم أو الذي كانوا يفترونه من دعوى الشريك والمعنى أنه بطل كذبهم الذي كانوا يقولونه في الدنيا أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله فلم ينفعهم ولا حضر معهم وعلموا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ هذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالإيجاد الذي يوجب على العباد توحيده وعبادته وأصل الخلق في اللغة التقدير، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم، فمعنى الآية أنشأ خلقهما وقدر أحوالهما ﴿في ستة أيام﴾ اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وهو من طلوع الشمس إلى غروبها.

قيل هذه الأيام من أيام الدنيا وقيل من أيام الآخرة، قال ابن عباس: كل يوم مقداره ألف سنة وبه قال الجمهور وهذه الأيام الستة أولها الأحد وآخرها الجمعة، وبه قال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير والطبري وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور.

وقال سعيد بن جبير تعليماً لخلقه التثبت كما في الحديث التأني من الله والعجلة من الشيطان أو خلقها لكون كل شيء له عنده أجل، وفي آية أخرى ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ وحديث: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء الخ رواه مسلم والحاكم عن ابن عباس[1]

لكن يشكل على هذا التوزيع أنه لم يكن ثم أيام لعدم الشمس والقمر حينئذ ولا يتعين الأحد ولا غيره من الأيام إلا بوجودها بالفعل، ذكره سليمان

---

(١) مسلم /٢٧٨٩.

الجمل. وقال والجواب بقوله ﴿أي في قدرها﴾ لا يدفع هذا الإشكال كما لا يخفى.

﴿ثم استوى على العرش﴾ قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه.

والاستواء في لغة العرب هو العلو والاستقرار، قال الجوهري: استوى على ظهر دابته أي استقر واستوى إلى السماء أي صعد، واستوى أي استولى وظهر وبه قال المعتزلة وجماعة من المتكلمين: واستوى الرجل أي انتهى شبابه واستوى أي :اتسّق واعتدل.

وحكي عن أبي عبيدة أن معنى استوى هنا علا وارتفع، وللشوكاني رسالة مستقلة في اثبات إجراء الصفات على ظواهرها منها صفة الاستواء، ولشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني والحافظ الإمام محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزي إلمام تام بمسألة الاستواء هذه وإثبات الفوقية والعلو له تعالى على خلقه ولهما في ذلك رسائل مستقلة ما بين مطولة منها ومختصرة، وكتاب العلو للحافظ الذهبي فيه جميع ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث وغيرها، وقد أوضحت هذا المقام في كتابي الانتقاد الرجيح في شرح الاعتقاد الصحيح.

وعن أم سلمة قالت: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإقرار به إيمان والجحود له كفر، أخرجه ابن مردويه وعن مالك بن أنس نحوه وزاد والسؤال عنه بدعة، قال النسفي وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل انتهى.

وأقول يا مسكين أما شعرت أن العرش في اللغة هو السرير، والاستواء هو الاستقرار وبه فسره حبر الأمة وترجمان القرآن إبن عباس كما في البخاري

وليس في ذلك تشبيه أصلاً إنما التشبيه في بيان الكيفية بل الإنكار عن ذلك تعطيل يخالف مذهب سلف الأمة وأئمتها، وهو امرار الصفات كما جاءت وإجراؤها على ظواهرها بلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، ويعالج التشبيه بكلمة إجمالية ليس كمثله شيء.

والعرش قال الجوهري هو سرير الملك، وقيل هو ما علا فأظل، وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً لعلوه ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز.

ويطلق على معان أخر منها عرش البيت سقفه وعرش البئر طيها بالخشب وعرش السماك أربعة كواكب صغار.

وعبارة الخفاجي العرش هو فلك الأفلاك إما حقيقة لأنه بمعنى المرتفع أو استعارة من عرش الملك وهو سريره ومنه ورفع أبويه على العرش، أو بمعنى الملك بضم الميم وسكون اللام، ومنه ثل عرشه إذا انتقض ملكه واختل انتهى.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما وهو المراد هنا، قال الراغب: وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة، وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له، تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب.

قيل والمراد به هنا هو الجسم النوراني المرتفع على كل الأجسام المحيطة بكلها.

﴿يغشي الليل النهار﴾ أي يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه قرىء يغشي بالتشديد والتخفيف وهما لغتان، يقال أغشى يغشي غشي يغشي والتغشية في الأصل إلباس الشيء الشيء، ولم يذكر في هذه الآية يغشي

الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أو لدلالة الحال عليه أو لأن اللفظ يحتملهما بجعل الليل مفعولاً أولاً والنهار مفعولاً ثانياً أو بالعكس.

وذكر في آية أخرى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ذكره الكرخي، والتقدير استوى على العرش مغشياً الليل النهار.

والآية الكريمة من باب أعطيت زيداً عمراً لأن كلا من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشياً ومغشياً فوجب جعل الليل هو الفاعل المعنوي، والنهار هو المفعول من غير عكس.

﴿يطلبه حثيثاً﴾ أي حال كون الليل طالباً للنهار طلباً لا يفتر عنه بحال، والحث الحمل على فعل الشيء كالحض عليه والاستعجال والسرعة، يقال ولى حثيثاً أي مسرعاً، والحث والحض أخوان يقال حثثت فلاناً فاحتث فهو حثيث ومحثوث وفعله من باب رد.

قال الرازي: إنه سبحانه وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك أن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة، فإن الإنسان إذ كان في أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل وهي ألف فرسخ. ولهذا قال يطلبه حثيثاً لسرعته وحركته أي يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما بشيء، والجملة حال من الليل لأنه هو المحدث عنه أي يغشي النهار طالباً له أو من النهار أي مطلوباً أو من كل منهما وعليه الجلال.

﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي خلقها حال كونها

مسخرات والإخبار عن هذه بالتسخير وهو التذليل لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع إذ ليس هن قادرات بأنفسهن، وإنما يتصرفن على إرادة المدبر لهن على ما أراد منهن.

﴿ألا﴾ أداة استفتاح و ﴿له﴾ خبر مقدم والمبتدأ ﴿ الخلق والأمر﴾ إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له، والخلق المخلوق والأمر كلامه، وهو كن في قوله ﴿إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل والتصرف في مخلوقاته.

قال سفيان بن عيينة: الخلق ما دون العرش والأمر فوق ذلك.

واستخرج من هذا المعنى أن كلام الله ليس بمخلوق لأنه فرق بين الخلق والأمر ومن جعل الأمر الذي هو كلامه من جملة ما خلقه فقد كفر. وفي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم فأخبر أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا هن وله الأمر المطلق. وليس لأحد أمر غيره، فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه.

﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي كثرت بركته واتسعت. ومنه بورك الشيء وبورك فيه كذا قال ابن عرفة، وقال الأزهري معناه تعالى وتعاظم، وقيل تمجد وارتفع، وختم الآية بالثناء عليه لأنه هو المستحق للمدح المطلق، وقال ابن عباس: معناها جاء بكل بركة، وقيل تقدس وقيل باسمه يتبرك في كل شيء، وقيل معناه ثبت ودام. وفي الجمل تبارك فعل ماض لا يتصرف أي لم يجيء منه مضارع ولا أمر ولا إسم فاعل، وقال الزجاج: تبارك من البركة، وهي الكثرة في كل خير.

ﭐدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾

﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ أمرهم الله سبحانه بالدعاء وقيد ذلك بكون الداعي متضرعاً بدعائه مخفياً له أي متضرعين بالدعاء مخفين له. أو ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية، وقيل الدعاء هنا بمعنى العبادة والأول أولى.

والتضرع من الضراعة وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية الإسرار به فإن ذلك أقطع لعرق الرياء وأحسم لمادة ما يخالف الإخلاص، وقال الزجاج: تضرعاً يعني تملقاً، وقال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً وقال تعالى ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾.

وعن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله ﷺ: أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته[١] والحديث أخرجه الشيخان.

ثم علل ذلك بقوله ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي المجاوزين لما أمروا به في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت وفي كل شيء، فمن جاوز ما أمره الله به في شيء من الأشياء فقد اعتدى، وتدخل المجاوزة في الدعاء في هذا العموم دخولاً أولياً، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل الداعي ما ليس له كالخلود في الدنيا أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الانبياء في الآخرة أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به.

---

(١) مسلم /٢٧٠٤ ـ البخاري /١٤٢٣.

قال النووي : أرفقوا بأنفسكم وآخفضوا أصواتكم.

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿ولا تفسدوا في الارض﴾ نهاهم الله سبحانه عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه قليلاً كان أو كثيراً، ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم، ومن الفساد في الأرض الكفر بالله والوقوع في معاصيه ﴿بعد إصلاحها﴾ أي بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع قاله الحسن والسدي والضحاك والكلبي، وقيل بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب.

﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ فيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظهر بمطلوبه، قال القرطبي: أمرنا الله تعالى بأن يكون العبد وقت الدعاء في حال ترقب وتخوف وأمل في الله حتى يكون الخوف والرجاء للانسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته، وإذا انفرد أحدهما هلك الإنسان فيدعو الانسان خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه.

والخوف الانزعاج في الباطن من المضار التي لا يؤمن من وقوعها وقيل توقع مكروه فيما بعد والطمع توقع حصول الامر المحبوب في المستقبل قال ابن جريج: معناه خوف العدل وطمع الفضل وقيل خوفاً من الرياء وطمعاً في الاجابة.

قال بعض أهل العلم: ينبغي للعبد أن يغلب الخوف حال حياته فإذا جاء الموت غلب الرجاء قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى، أخرجه مسلم[1]، والآية الاولى في بيان شرط

---

(١) مسلم /٢٨٧٧.

صحة الدعاء والثانية في بيان فائدة الدعاء.

﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأي نوع من الانواع كان إحسانهم، وفي هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم، فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله.

وقد اختلف ائمة اللغة والاعراب في وجه تذكير خبر رحمة الله حيث قال ﴿قريب﴾ ولم يقل قريبة فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم لكونها بمعنى العفو والغفران، ورجح هذا التأويل النحاس.

وقال النضر بن شميل الرحمة مصدر بمعنى الترحم، وحق المصدر التذكير، وقال الأخفش: أراد بالرحمة هنا المطر وتذكير بعض المؤنث جائز. وقال أبو عبيدة: المعنى مكان قريب.

قال علي بن سليمان الاخفش: وهذا خطأ ولو كان كما قال لكان قريب منصوباً، وقال الفراء: إن القريب إذا كان بمعنى المسافة فيذكر ويؤنث وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم، وروي عن الفراء أنه قال: في النسب قريبة فلان وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث يقال دارك منا قريب، وفلانة منا قريب، قال الله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾.

وروي عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال: إن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالها، وقيل: إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقي جاز في خبرها التذكير، ذكر معناه الجوهري، وأصل الرحمة تقتضي الاحسان إلى المرحوم وتستعمل تارة في مجرد الرقة وتارة في الاحسان المجرد عن الرقة. وإذا وصف بها الباري يراد بها الاحسان فقط.

وقيل هي إرادة إيصال الخير والنعمة على عباده، فعلى الاول تكون الرحمة من صفات الافعال وعلى الثاني من صفات الذات، قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿و﴾ قوله ﴿هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ يتضمن ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته، ورياح جمع ريح وأصل ريح روح وقرىء «نشراً» بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب أي ذات نشر، وقرىء بضم النون وإسكان الشين وبفتح النون وإسكان الشين.

ومعنى هذه القرآت يرجع إلى النشر الذي هو خلاف الطي، فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفتحة، وقال أبو عبيدة: معناه متفرقة في وجوهها على معنى ينشرها ههنا وههنا.

وقيل هي الريح الطيبة الهبوب تهب من كل ناحية. وقيل يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها، وقال الفراء: النشر الريح اللينة التي تنشر السحاب، وقال ابن الانباري: هي المنتشرة الواسعة الهبوب، وقرىء بشراً بالموحدة وإسكان الشين جمع بشير أي الرياح تبشر بالمطر ومثله قوله تعالى ﴿وهو الذي يرسل الرياح مبشرات﴾ والمراد بالرحمة المطر أي قدام رحمته.

والمعنى أنه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدي المطر، والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة وجمعه الرياح وهي أربعة، الصباء وهي الشرقية تثير السحاب، والدبور وهي الغربية تفرقه، والشمال تجمعه وهي التي تهب من تحت القطب الشمالي، والجنوب تدرسه وهي قبلية.

عن ابن عمر: أن الرياح ثمان أربع منها عذاب وهي القاصف

والعاصف والصرصر والعقيم، وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات قال كعب: لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الأرض.

﴿حتى﴾ غاية لقوله يرسل ﴿إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ حقيقة أقله جعله قليلاً أو وجده قليلاً ثم استعمل بمعنى حمله، لأن الحامل يستقل ما يحمله، ومنه المقل بمعنى الحامل، واشتقاق لإقلال من القلة فإن من يرفع شيئاً يراه قليلاً يقال أقل فلان الشيء حمله ورفعه، والسحاب اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث تصح مراعات لفظه ومراعاة معناه، وهو الغيم فيه ماء أو لا سمي سحاباً لانسحابه في الهواء، والمعنى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء الذي صارت تحمله.

﴿سقناه﴾ أي السحاب وفيه التفات عن الغيبة في قوله هو الذي يرسل ﴿لبلد ميت﴾ أي مجدب ليس فيه نبات لعدم الماء، يقال سقته لبلد كذا وإلى بلد كذا، وقيل لأجل بلد ميت، قاله الزمخشري، وجعلها لام العلة ولا يظهر بل هي لام التبليغ كقولك قلت لك.

قال أبو حبان: فرق بين قولك سقت لك مالاً، وسقت لأجلك فإن الأول معناه أوصلته لك وبلغتكه، والثاني لا يلزم منه وصوله إليك، والبلد هو الموضع العامر من الأرض، وقال الأزهري: عامر أو غير عامر خال أو مسكون، والطائفة منها بلدة والجمع بلاد، وزاد غيره والمفازة تسمى بلدة لكونها مسكن الوحش والجن، والبلد يذكر ويؤنث والجمع بلدان.

﴿فأنزلنا به الماء﴾ أي بالبلد الذي سقناه لاجله قاله الزجاج وابن الأنباري وهذا هو الظاهر، وقيل أنزلنا بالسحاب الماء الذي تحمله أو فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدي المطر الماء، وقيل: إن الباء هنا بمعنى من أي فأنزلنا منه

الماء،وقيل: إنها سببية أي فأنزلنا الماء بسبب السحاب، وقيل يعود على السوق المفهوم من الفعل أي بسبب سوق السحاب وهو ضعيف لعود الضمير على غير مذكور مع امكان عوده على المذكور.

﴿فأخرجنا به﴾ أي بالماء أو بذلك البلد الميت، والاول أولى بل لا ينبغي أن يعدل عنه ﴿من كل الثمرات﴾ أي من جميع أنواعها، ومن تبعيضيه أو ابتدائية ﴿كذلك﴾ أي مثل اخراج الثمرات ﴿نخرج الموتى﴾ من القبور يوم حشرهم بعد فنائهم ودروس آثارهم، والتشبيه في مطلق الاخراج من العدم.

وهذا رد على منكري البعث ومحصله أن من قدر على إخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس، قادر على إحياء الموتى من قبورهم ﴿لعلكم تذكرون﴾ فتعلمون عظيم قدرة الله وبديع صنعته، وتؤمنون بأنه قادر على بعثكم كما قدر على اخراج الثمرات التي تشاهدونها، والخطاب لمنكري البعث.

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ أي التربة الطيبة السهلة السمحة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره خروجاً حسناً تاماً وافياً، وخص خروج نبات الطيب بقوله ﴿بإذن ربه﴾ على سبيل المدح والتشريف وإن كان كل من النباتين يخرج بإذنه تعالى، قاله أبو حيان في النهر، والمعنى بمشيئته وعبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه اوقعه في مقابلة قوله:

﴿والذي خبث﴾ أي والتربة الخبيثة السبخة ﴿لا يخرج﴾ نباتها ﴿إلا نكداً﴾ أي قليلاً لا خير فيه، وقيل عسراً بمشقة وكلفة، يقال نكد نكداً من باب تعب فهو نكد تعسر، ونكد العيش نكداً اشتد وعسر، وفي القاموس ونكد عيشهم كفرح اشتد وعسر، والبئر قل ماؤها ونكد زيد حاجة عمرو كنصر منعه إياها، ورجل نكد شؤم عسر، وقوم انكاد ومناكيد والنكد بالضم قلة العطاء ويفتح.

وقيل معنى الآية التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب، والبليد بالبلد الخبيث ذكره النحاس، وقيل هذا مثل للقلوب فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، والنابي عنه بالبلد الخبيث قاله الحسن، وقيل هو مثل لقلب المؤمن والمنافق قاله قتادة، وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم قاله مجاهد.

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به»[1] أخرجاه في الصحيحين، وليس في هذا ما يدل على أنه السبب في نزول الآية.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك التصريف ﴿نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ الله ويعترفون بنعمته وينتفعون بسماع القرآن.

---

(١) مسلم /٢٢٨٢ ـ البخاري /٦٨

ومعناه ان الناس مثل الأرض.

النوع الأول: من الناس: يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيي قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع.

والنوع الثاني: من الناس: لهم قلوب حافظة ولكن ليست لهم افهام ثاقبة ولا رسوخ لهم في العلم يستنبطون به المعاني والأحكام وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم اهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما ابلغهم.

النوع الثالث: ليس لهم قلوب حافظة ولا افهام واعية..

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ لما بين الله سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته في الآيات السابقة ذكر هنا أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة، واللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا نوح ابن لمك بن متوشلخ.

ومعنى أرسلنا بعثنا، وكان نوح نجاراً بعثه الله وهو ابن أربعين سنة، وقيل خمسين سنة، وقيل مائتين وخمسين سنة، وقيل ابن مائة سنة وهو أول الرسل الى أهل الأرض بعد آدم.

أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: [أول نبي أرسل نوح] قال يزيد الرقاشي إنما سمي نوحاً لطول ما ناح على نفسه[1]، وكان اسمه عبد الغفار بن لمك، واختلف في سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك. وقيل لمراجعته ربه في شأن ابنه كنعان وقيل لأنه مر بكلب مجذوم فقال له إخسأ يا قبيح، فأوحى الله تعالى إليه أعبتني أم عبت الكلب.

وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون في حد واحد وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازاً للمجاورة، وفي التنزيل ﴿قال يا قوم اتبعوا

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٥٨٢ . رواه الديلمي ١/١/٩ وابن عساكر ١٧/٣٢٦/٢ ومسلم ١/٣٢٧ والترمذي/ ٢٤٣٦ برواية « يا نوح انت اول الرسل على الأرض » وقال حديث حسن صحيح .

المرسلين﴾ وكان مقيماً بينهم ولم يكن منهم، وقيل كانوا قومه قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، وقد تقدم ذكر نوح في آل عمران فأغنى عن الاعادة هنا.

وماقيل: إن إدريس قبل نوح فقال ابن العربي: إنه وهم، قال المازري: فإن صح ما ذكره المؤرخون كان محمولاً على أن إدريس كان نبياً غير مرسل.

﴿فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ أي اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً ﴿إني أخاف عليكم﴾ إن عبدتم غيره ﴿عذاب يوم عظيم﴾ جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الطوفان، وإنما قال أخاف على الشك وإن كان على يقين وجزم من حلول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به لأنه لم يعرف وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة.

﴿قال الملأ من قومه﴾ الملأ أشراف القوم ورؤساؤهم، وقيل هم الرجال سموا بذلك لملأتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي أو لأنهم يملؤون العيون أبهة، والصدور هيبة، والجمع املاء مثل سبب وأسباب وقد تقدم بيانه في البقرة.

﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ الضلال العدول عن طريق الحق والذهاب عنه يقال ضل الرجل الطريق وضل عنه يضل من باب ضرب ضلالاً وضلالة زل عنه فلم يهتد اليه فهو ضال هذه لغة نجد، وهي الفصحى، وبها جاء القرآن في قوله: [إن ضللت فإنما أضل على نفسي]، وفي لغة لأهل العالية من باب تعب.

والأصل في الضلال الغيبة ومنه قيل للحيوان الضائع ضالة بالهاء للمذكر والمؤنث، والجمع الضوال مثل دابة ودواب أي إنا لنراك في دعائك الى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق وخطأ وزوال عنه بين، والرؤية قلبية.

قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة﴾ كما تزعمون ، وهي أعم من الضلال فنفيها أبلغ من نفيه ﴿ولكني رسول﴾ جاءت لكن هنا أحسن مجيء لأنها بين نقيضين لأن الانسان لا يخلو من أحد شيئين، ضلال وهدى، والرسالة لا تجامع الضلال.

و ﴿من رب العالمين﴾ صفة لرسول ، ومن لابتداء الغاية المجازية أي أرسلني لسوق الخير إليكم ودفع الشر عنكم، نفى عن نفسه الضلالة وأثبت لها ما هو أعلى منصب وأشرف رفعة وهو أنه رسول الله إليهم.

﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ جمع الرسالة لاختلاف أوقاتها ولتنوع معانيها أو لأن المراد بها المرسل به، وهو يتعدد أي ما أرسله الله به اليهم مما أوحاه اليه

﴿وأنصح لكم﴾ يقال نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في امحاض النصح، قال الأصمعي : الناصح الخالص من الغل وكل شيء خالص فقد نصح ،فمعنى أنصح هنا أخلص النية لكم عن شوائب الفساد والاسم النصيحة ، وقيل النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح للغير، وقيل إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك أو النهاية في صدق العناية.

﴿و﴾ جملة ﴿أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ مقررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه وأنه يختص بعلم الأشياء التي لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك،ومنها قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه، وإن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾

﴿أوعجبتم﴾ الاستفهام للانكار والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قبل استبعدتم أو أكذبتم أو أنكرتم وعجبتم من ﴿أن جاءكم ذكر﴾ أي وحي ورسالة أو موعظة ﴿من ربكم﴾ والمراد به الكتاب الذي أنزل على نوح وقبل المعجزة التي جاء بها نوح، والأول أولى ﴿على﴾ لسان ﴿رجل منكم﴾ أي من جنسكم تعرفونه ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته، وقيل على بمعنى مع، قال الفراء.

﴿لينذركم﴾ به علة للمجيء ﴿ولتتقوا﴾ ما يخالفه. علة ثانية مرتبه على العلة قبلها ﴿ولعلكم ترحمون﴾ بسبب ما يفيده الانذار لكم، والتقوىٰ منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم. وهي علة ثالثة مرتبة على التي قبلها، وهذا الترتيب في آية من الحسن لأن المقصود من الارسال الانذار ومن الانذار التقوى ومن التقوىٰ الفوز بالرحمة.

﴿فكذبوه﴾ أي فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الانذار، واستمروا على تكذيبه في دعوى النبوة وما نزل عليه من الوحي الذي بلغه اليهم ﴿فأنجيناه﴾ من الطوفان والغرق ﴿والذين معه﴾ من المؤمنين به المستقرين معه، قيل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة؛ وقيل كانوا تسعة. ابناؤه الثلاثة وستة من غيرهم ﴿في الفلك﴾ أي السفينة؛ روي أنه اتخذها في سنتين وركبها في عاشر رجب ونزل منها في عاشر محرم؛ والفلك واحد وجمع تذكر وتؤنث .

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي استمروا على ذلك ولم يرجعوا الى التوبة ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ عن الحق وفهمه قاله مجاهد أي لكونهم عمي القلب لا ينجع فيهم الموعظة ولا يفيدهم التذكير، قال ابن عباس عمين كفاراً.

قال الزجاج: عموا عن الحق والايمان يقال رجل عم في البصيرة؛ وأعمى في البصر، قاله الليث: وقيل هما بمعنى ،وقال مقاتل: عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق، وعمين جمع عم صفة مشبهة لكن تصرف فيه بحذف لامه كقاض اذا جمع فأصله عميين.

قال بعضهم : عم فيه دلالة على ثبوت الصفة واستقرارها كفرح وضيق، ولو أريد الحدوث لقيل عام كما يقال فارح وضائق، وقد قرىء عامين حكاها الزمخشري ﴿و﴾ أرسلنا ﴿الى﴾ قوم ﴿عاد﴾ وهو من ولد سام بن نوح قيل هو عاد بن عوص بن أرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح وهي عاد الأولى. وعاد الثانية قوم صالح، وهم ثمود، وبينهما مائة سنة ﴿أخاهم﴾ أي واحداً من قبيلتهم أو صاحبهم، وسماه أخاً لكونه ابن آدم مثلهم، قاله الزجاج والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم ﴿هوداً﴾ هو ابن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص المذكور قاله السيوطي في التحبير.

وقال ابن إسحق: هو هود بن شالخ المذكور. والأول أولى واشتهر في ألسنة النحاة أن هوداً عربي وفيه نظر لأن الظاهر من كلام سيبويه لما عده مع نوح ولوط أنه أعجمي. وكان بينه وبين نوح ثمانمائة سنة، وعاش أربعمائة وأربعاً وستين سنة.

وصرح هنا بتعيين المرسل اليهم دون ما سبق في نوح وما سيأتي في لوط لأن المرسل اليهم اذا كان لهم اسم قد اشتهروا به ذكروا به وإلا فلا. وقد امتازت عاد وثمود ومدين بأسماء مشهورة.

قال الربيع بن خثيم: كانت عاد ما بين اليمن الى الشام مثل الذر، وقيل كانت منازل عاد بالأحقاف باليمن، والأحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت.

وقال وهب: كان الرجل من عاد ستين ذراعاً بذراعهم، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع. وكذلك مناخرهم.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً، وعن ابن عباس: كان الرجل منهم ثمانين باعاً، وكانت البرة فيهم ككيلة البقرة والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر. ولا تخلو هذه الأقاويل عن ضعف وبعد.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ ولم يقل هنا فقال كما قال في قصة نوح لأن الفاء تدل على التعقيب وكان نوح مواظباً على دعوة قومه غير متوان فيها، وكان هود دون نوح في المبالغة في الدعاء، وقيل هذا على تقدير سؤال سائل قال فما قال لهم هود فقيل قال يا قوم.

﴿أفلا تتقون﴾ استبعاد وإنكار أي أفلا تخافون ما نزل بكم من العذاب. وقال في سورة هود أفلا تعقلون، ولعله خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل منهما في موطن عن حكايته في موطن آخر كما لم يذكر ههنا ما ذكر هناك من قوله ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من أجزاء القصة، بل حال نظائره في سائر القصص لا سيما في المحاورات الجارية في الأوقات المتعددة والله أعلم قاله أبو السعود.

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي
ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ هي الخفة والحمق، وقد تقدم بيانه في البقرة نسبوه الى الخفة والطيش وقلة العقل والجهالة ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة .

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ كما تدعون ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ إليكم، استدرك على ما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في الغاية القصوى من الرشد، فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك فكأنه قيل ليس بي شيء مما تنسبوني إليه ولكني في غاية من الرشد والصدق، ولم يصرح بنفي الكذب اكتفاء بما في حيز الاستدراك، ومن لابتداء الغاية، وقد تقدم بيان معنى هذا قريباً وكذا سبق تفسير قوله .

﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح﴾ فيما آمركم به من عبادة الله وترك عبادة ما سواه ﴿أمين﴾ هو المعروف بالأمانة والثقة على ما ائتمن عليه وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه في موضع الضرورة الى مدحها، وفي اجابة الأنبياء من ينسبهم الى السفاهة والضلال بما أجابوه به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، أدب حسن وخلق عظيم وتعليم من الله لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيال حلمهم على ما يكون منهم. ونحوه قوله تعالى ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ .

وأتى هود بالجملة الاسمية ونوح بالفعلية حيث قال: وأنصح لكم وذلك لأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة وكان نوح يكرر في دعائهم ليلاً ونهاراً من غير تراخ. فناسب التعبير بالفعل وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتاً دون وقت، فلهذا عبر بالاسمية.

﴿أوعجبتم﴾ من ﴿أن جاءكم ذكر من ربكم على﴾ لسان ﴿رجل منكم لينذركم﴾ بأس ربكم ويخوفكم عقابه، وقد سبق تفسيره ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها أذكرهم الله نعمة من نعمه عليهم أو جعلهم ملوكاً. جعل الذكر للوقت والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة، لأن الشيء إذا كان وقته مستحقاً للذكر فهو مستحق له بالأولى.

﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي طولاً في الخلق وعظم جسم وقوة زيادة على ما كان عليه آباؤهم في الأبدان، وقيل بسطة أي شدة قاله ابن عباس، وعن أبي هريرة قال: كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا ان يقلوه ، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها.

قال السدي والكلبي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع، وقامة القصير ستين، وقيل سبعين ذراعاً وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد وفيها كما تقدم.

﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي نعمه عليكم جمع إلى بكسر الهمزة وسكون اللام كحمل وأحمال أو الى بضم الهمزة وسكون اللام كقفل وأقفال، أو إلى بكسر الهمزة وفتح اللام كضلع وأضلاع وعنب وأعناب أو الى بفتحها كقفا وأقفاء ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض والبسطة في الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم، وكرر التذكير لزيادة التقرير ﴿لعلكم تفلحون﴾ إن تذكرتم ذلك لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ومن شكر فقد أفلح .

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قالوا﴾ في جواب نصحه لهم ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ هذا استنكار منهم لدعائه الى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله ، وإنما كان هذا مستنكر عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه فلذا قالوا ﴿ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ أي نترك الذي كانوا يعبدونه من الأصنام وهذا داخل في جملة ما استنكروه وهكذا يقول المقلدة لأهل الاتباع، والمبتدعة لأهل السنة.

﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به لشدة تمردهم على الله ونكوصهم عن طريق الحق وبعدهم عن اتباع الصواب.

﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكر أئمة المعاني والبيان، وقيل معنى وقع وجب والرجس العذاب، وقيل السخط، وقيل هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر.

ثم استنكر ما وقع منهم من المجادلة فقال ﴿أتجادلونني في أسماء﴾ يعني أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها جعلها أسماء عارية لأن مسمياتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطل، فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها فقط، والاستفهام على سبيل الانكار.

﴿سميتموها﴾ أي سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم ﴿أنتم

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟
مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ
ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

وآباؤكم﴾ ولا حقيقة لذلك ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ أي حجة تحتجون بها على ما تدعونه لها من الدعاوي الباطلة، ثم توعدهم بأشد وعيد فقال ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي فانتظروا ما طلبتموه من العذاب وهو واقع بكم لا محالة ونازل عليكم بلا شك.

﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا﴾ أخبر الله سبحانه أنه نجى هودا ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم يقبل رسالته فالمعية مجاز عن المتابعة.

أخرج ابن عساكر: لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليهم الجلود وتلتذ به الأنفس وانها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة.

﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ الدابر الأصل أو الكائن خلف الشيء وهو الآخر، وإذا قطع الآخر فقد قطع ما قبله فحصل الاستئصال أي الاستيعاب بالقطع، وقد تقدم تحقيق معناه، والمعنى استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا وعدم الايمان، وأراد بالآيات المعجزات الدالة على صدقه.

وعن أبي هريرة قال كان عمر هود اربعمائة سنة واثنتين وسبعين سنة، وعن علي بن أبي طالب قال: قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر عند رأسه

سدرة، وعن عثمان بن أبي العاتكة قال: قبلة مسجد دمشق قبر هود، وقال عبد الرحمن ابن شبابة: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبياً، وأن قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل في تلك البقعة. ويروى أن كل نبي من الأنبياء اذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه الى مكة يعبدون الله حتى يموتوا بها، والله أعلم بصحة ذلك.

﴿وما كانوا مؤمنين﴾ مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه السلام، وقد أطال القوم في بيان قصة قومه وهلاكهم، وإجمال القرآن يغني عن تفصيل لا يسند.

﴿والى ثمود أخاهم صالحاً﴾ ثمود قبيلة سموا باسم أبيهم وهو ثمود بن عاد ابن رام بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح وصالح هو ابن عبيد بن اسف ابن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود، وكانت مساكن ثمود «الحجر» بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمود لقلة مائها، والثمد الماء القليل، وكان صالح أخاهم في النسب، لا في الدين وكان بينه وبين هود مائة سنة، وعاش صالح مائتين وثمانين سنة كما في التحبير.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿مالكم من إله غيره﴾ يستحق ان يعبد سواه وقد تقدم تفسيره في قصة نوح ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ أي معجزة ظاهرة وبرهان جلي وهي اخراج الناقة من الحجر الصلد، عن أبي الطفيل قال: قالت ثمود لصالح: ائتنا بآية ان كنت من الصادقين،

قال: أخرجوا فخرجوا الى هضبة[١] من الأرض فاذا هي تمخض كما تمخض الحامل ثم انها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها فقال لهم صالح.

﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ وليس هذا أول خطاب لهم بل بعد ما نصحهم كما قص في سورة هود من قوله ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ الآيات ، وهذه الآية مشتملة على بيان البينة المذكورة، وفي اضافة الناقة الى الله تشريف لها وتكريم، وكونها آية على صدق صالح أنها خرجت من صخرة في الجبل لا من ذكر ولا أنثى، وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج وقيل غير ذلك.

﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله فإن ذلك يوجب عدم التعرض لها أي دعوها فهي ناقة الله والأرض أرضه، فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه .

﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أي لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها ، نهى عن المس الذي هو مقدمة الاصابة بالسوء الشامل لأنواع الأذى ﴿ فيأخذكم عذاب أليم ﴾ أي شديد الألم بسبب عقرها وأذاها ومنعها من الرعي .

---

(١) الهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض إ هـ منه.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أي استخلفكم في الأرض أو جعلكم ملوكاً فيها كما تقدم في قصة هود ﴿وبوأكم في الأرض﴾ أي جعل لكم فيها مباءة وهي المنزل الذي تسكنونه أي اسكنكم وأنزلكم في أرض الحجر بكسر الحاء ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي من سهولة الأرض وهي ترابها تتخذون منه اللبن والآجر ونحو ذلك فتبنون به القصور، وإنما سميت بذلك لقصور الفقراء عن تحصيلها وحبسهم عن نيلها.

﴿وتنحتون﴾ أي تشقون والنحت نجر الشيء الصلب. وفي القاموس نحته ينحته براه والنحاتة البراية والمنحت ما ينحت به ﴿الجبال بيوتاً﴾ تسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الصخور فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها، لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم، قال الضحاك: كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة وكذا كان قوم هود، وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء، وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفهين[1].

﴿فاذكروا آلاء الله﴾ عليكم واشكروه عليها ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ العثى والعثو لغتان، قال قتادة معناه لا تفسدوا والعثو: أشد الفساد، وقيل أراد به عقر الناقة، وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهي عن جميع أنواع الفساد، وقد تقدم تحقيقه في البقرة بما غنى عن الاعادة.

---

(١) قال وهب بن منبه كان الرجل منهم يبني البنيان. فتمر عليه مائة سنة فيخرب ثم يجدده وهكذا حتى اتخذوا من الجبال بيوتاً.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي الرؤساء المتكبرون من قوم صالح الذين تعظموا عن الايمان به ، والسين زائدة ﴿للذين استضعفوا﴾ أي المساكين الذين استضعفهم المستكبرون، واللام للتبليغ ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الموصول بإعادة العامل بدل الكل إن كان ضمير منهم لقومه وبدل البعض إن كان للذين على أن المستضعفين من لم يؤمن ، والأول هو الوجه إذ لا داعي الى توجيه الخطاب أولاً الى جميع المستضعفين مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم، على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين أي قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم .

﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ إليكم قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته مع كون سؤال المستكبرين لهم انما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسالته أم لا ، مسارعة الى اظهار ما لهم من الايمان وتنبيهاً على أن كونه مرسلاً أمر واضح مكشوف لا يحتاج الى السؤال عنه .

﴿قال الذين استكبروا﴾ عن أمر الله والايمان به وبرسوله صالح تمرداً وعناداً ﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ أي جاحدون ، وهذه الجمل المعنونة بقال مستأنفة لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم .

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾

﴿فعقروا الناقة﴾ العقر الجرح[1]، وقيل قطع عضو يؤثر في تلف النفس، يقال عقرت الفرس إذا ضربت قوائمه بالسيف، وقيل أصل العقر كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر في الغالب وأسند العقر الى الجميع مع كون العاقر واحداً منهم لأنهم راضون بذلك موافقون عليه وقال عاقر الناقة لا أقتلها حتى ترضوا اجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون أترضين فتقول نعم، والصبي حتى رضوا أجمعين فعقروها.

وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل ما لا يخفى. قد اختلف في عاقر الناقة ما كان اسمه فقيل قدار بن سالف، وكان رجلاً أحمر أزرق يزعمون أنه ابن زانية، ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه وكان عزيزاً منيعاً في قومه، وقيل غير ذلك، وفر ولد الناقة هارباً فانفتحت له الصخرة التي خرجت منها أمه فدخلها وانطبقت عليه، وقيل: إنهم أدركوه وذبحوه.

﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي استكبروا يقال عتا يعتو عتواً استكبر وتعتى فلان إذا لم يطع والليل العاتي الشديد الظلمة والمراد بالأمر الحكم ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت من المرسلين﴾ هذا استعجال منهم للنقمة وطلب منهم لنزول العذاب وحلول البلية بهم قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً له.

---

(١) روى ابن ماجه ٩٣٤/٢ عن عمرو بن عبسة: اتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله اي الجهاد افضل قال: من أهرق دمه وعقر جواده واسناده ضعيف.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي الزلزلة الشديدة العظيمة قال الزجاج والفراء، يقال رجف الشيء يرجف رجفاناً، وأصله حركة مع صوت ومنه يوم ترجف الراجفة ، وقيل كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم، قاله مجاهد والسدي وقيل: انه أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا، وعلى هذا في الآية كفاية وقد وقع التصريح بها في آية أخرى فكان عذابهم بالرجفة والصيحة فذكر في كل موضع واحدة منهما.

﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي بلدهم وأرضهم ﴿جاثمين﴾ أي لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر، وأصل الجثوم للأرنب وشبهها، وقيل الجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير، وجثوم الطير هو وقوعه لاطئاً بالأرض في حال نومه وسكونه بالليل، والمراد أنهم أصبحوا في دورهم ميتين لا حراك بهم.

﴿فتولى عنهم﴾ صالح عند اليأس من اجابتهم وقيل بعد أن ماتوا وهلكوا ﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ يحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية الماضية كما وقع من النبي ﷺ من التكلم لأهل قليب بدر بعد موتهم، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم، وكأنه كان مشاهداً لذلك فتحسر على ما فاتهم من الايمان والسلامة من العذاب.

وقيل انما خاطبهم بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهداً في إبلاغهم

الرسالة ومحض النصح، ولكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه.

عن قتادة أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة: تمتعوا ثلاثة أيام، ثم قال لهم: آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غدا مصفرة، واليوم الثاني محمرة، واليوم الثالث مسودة، فأصبحت كذلك فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفنوا وتحنطوا ثم أخذتهم الصيحة فأهمدتهم.

وأخرج أحمد من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالحجر: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم[١] وأصل الحديث في الصحيحين من غير وجه.

وفي لفظ لأحمد من هذا الحديث قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، قيل وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح الى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي حضرموت، ثم بنوا أربعة آلاف مدينة وسموها حاضوراء، وقال قوم توفي صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة.

(١) مسلم ٢٩٨٠ ـ البخاري ٢٨٤.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً إذ قال لقومه﴾ أي وقت ان قال لقومه، قال الفراء: لوط مشتق من قولهم هذا أليط بقلبي أي الصق، وقال الزجاج: ومن زعم أنه من لطت الحوض إذا ملسته بالطين فقد غلط لأن الأسماء العجمية لا تشتق، وقال سيبويه: نوح ولوط أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة فلذلك صرفت.

ولوط هو ابن هاران بن تارخ فهو ابن أخي ابراهيم، وليس من أنبياء بني اسرائيل وكانا ببابل بالعراق فهاجرا الى الشام فنزل ابراهيم أرض فلسطين، ونزل لوط بالأردن وهي قرية بالشام وبعثه الله الى أمة يقال لها سذوم بالذال المعجمة وهي بلد بحمص.

﴿أتأتون﴾ الخصلة ﴿الفاحشة﴾ الخسيسة المتمادية في الفحش والقبح وهي أدبار الرجال قاله ابن عباس قال ذلك انكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ أي لم يفعلها أحد من قبلكم، فان اللواط لم يكن في أمة من الأمم قبل هذه الأمة، والباء للسببية وقال الزمخشري: للتعدية ومن مزيدة للتوكيد للعموم في النفي، وانه مستغرق لما دخل عليه، والجملة مسوق لتأكيد النكير عليهم والتوبيخ لهم، قال عمرو بن دينار: ما نزى ذكر على ذكر في الدنيا إلا ما كان من قوم لوط.

﴿انكم لتأتون الرجال﴾ في أدبارهم هذا توبيخ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بأن وباللام واسمية الجملة ﴿شهوة﴾ أي تشتهونهم شهوة أو لأجل الاشتهاء أو مشتهين، يقال شهى يشهى شهوة وشها يشهو شهوة، قال ابن عباس: إنما كان

بـدأ عمـل قـوم لـوط ان ابليس جـاءهم في هيئـة صبي أجمـل صبي رآه النـاس فدعاهم الى نفسه فنكحوه ثم جسروا على ذلك.

قرىء إن بهمزة مكسورة وبهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ والتقريع، واختار الأولى أبو عبيد والكسائي وغيرهما والثانية الخليل وسيبويه، وفيه أنه لا غرض لهم باتيان هذه الفاحشة الا مجـرد قضاء الشهـوة من غير أن يكـون لهم في ذلك غرض يوافق العقل فهم في هـذا كالبهـائم التي ينزو بعضهـا على بعض لمـا يتقاضاه من الشهوة.

﴿من دون النسـاء﴾ أي متجاوزين في فعلكم هـذا للنساء الـلاتي هن محل لقضـاء الشهوة ومـوضع لـطلب اللذة ﴿بل أنتم قـوم مسـرفـون﴾ أي مجـاوزون الحلال إلى الحرام يعني من فروج النساء الى أدبـار الرجـال. أضرب عن الانكـار المتقدم الى الاخبار بما هم عليه من الاسراف الذي تسبب عنه اتيان هذه الفاحشة الفظيعة، والمشهور أنه إضراب انتقالي من قصـة الى قصة، وقيـل بل لـلاضراب عن شيء محذوف، قال أبو البقاء: تقديره ما عدلتم بل أنتم الخ وقـال الكرمـاني بل أنتم رد لجواب زعموا أن يكون لهم عذر أي لا عذر لكم بل أنتم.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾

﴿وما كان جواب قومه﴾ الواقعين في هذه الفاحشة عما أنكره عليهم منها والمستكبرين منهم المتصدين للحل والعقد ﴿إلا أن قالوا﴾ استثناء مفرغ ﴿اخرجوهم﴾ أي لوطاً وأتباعه ﴿من قريتكم﴾ من سذوم بوزن رسول وهي من قرى حمص بالشام، ولم يكن لهم جواب إلا هذا القول المبائن للانصاف المخالف لما طلبه منهم، وأنكره عليهم.

﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي يتنزهون من أدبار الرجال والنساء والتطهر تعليل لما أمروا به من الاخراج ووصفهم بالتطهر يمكن ان يكون على حقيقته، وانهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة فلا يساكنوننا في قريتنا ، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء، وقيل ان البعد عن المعاصي والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنها فقد تطهر.

﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أخبر سبحانه أنه أنجى لوطاً وأهله المؤمنين به، وقيل المراد بأهله المتصلون به بسبب النسب أو المراد ابنتاه ، واستثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن به، والمعنى أنها كانت من الباقين في عذاب الله لأنها كانت كافرة، يقال غبر الشيء إذا مضى وغبر إذا بقي فهو من الأضداد وحكى ابن فارس في المجمل عن قوم أنهم قالوا الماضي عابر بالمهملة، والباقي غابر بالمعجمة.

وقال الزجاج : من الغائبين عن النجاة، وقال أبو عبيد: المعنى من المعمرين وكانت قد هرمت وأتى عليها دهر طويل ثم هلكت، وأكثر أهل اللغة على ان الغابر الباقي، قال سعيد بن أبي عروبة: كان قوم لوط أربعة آلاف ولم يقل من الغابرات لأنها هلكت مع الرجال. .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ قيل أمطر بمعنى أرسل المطر وقال أبو عبيد: مطر في الرحمة وأمطر في العذاب وهذا مردود بقوله تعالى ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ فإنهم إنما عنوا بذلك الرحمة وهو من أمطر رباعياً ومطر وأمطر بمعنى واحد، والمعنى هنا أن الله أمطر عليه حجارة من سجيل قد عجنت بالكبريت والنار.

﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ هذا خطاب لكل من يصلح له ولمحمد صلى الله عليه وسلم قاله الأصفهاني في تفسيره، وسيأتي في هود قصة لوط بأبين مما هنا، قال مجاهد: نزل جبريل فادخل جناحه تحت مداين قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ اسم قبيلة وقيل اسم بلد والأول أولى، وسميت القبيلة باسم أبيهم وهو مدين بن ابراهيم كما يقال بكر وتميم، وقيل مدين اسم الماء الذي كانوا عليه، وقيل مشترك بينهما.

﴿أخاهم شعيباً﴾ وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن ابراهيم قاله عطاء وابن اسحاق وغيرهما، وقال الشرفي بن القطامي أنه شعيب بن عيفاء ابن ثويب بن مدين بن ابراهيم، وزعم ابن سمعان انه شعيب بن حرة بن يشجب بن لاوي بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم، وقال ابن اسحق: هو شعيب ابن مكيل بن شجر بن مدين بن ابراهيم، وأم مكيل بنت لوط، وقيل هو شعيب ابن شيرون بن مدين، وقال قتادة: هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن

ثابت ابن مدين.

عن عكرمة والسدي قالا ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً مرة الى مدين، فأخذتهم الصيحة، ومرة الى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة وكان شعيب أعمى، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه. وكان قومه أهل كفر وبخس في المكيال والميزان.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ قد سبق شرحه في قصة نوح ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ قد تبين تفسيره أيضاً ولم يتبين هذه المعجزة في القرآن العظيم كأكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم. وقيل ان المراد بها نفسه، وقيل ان المراد بها قوله ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ وقيل غير ذلك وأمرهم بإبقاء الكيل والميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن وكانوا لا يوفونها.

وذكر الكيل الذي هو المصدر وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للآلة واختلف في توجيه ذلك فقيل المراد بالكيل المكيال فيناسب عطف الميزان عليه، وقيل المراد بالميزان الوزن فيناسب الكيل والمعنى أتموهما وأعطوا الناس حقوقهم.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ البخس النقص وهو يكون بالتعييب للسلعة أو التزهيد فيها أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وظاهر الآية أنهم كانوا يبخسون في كل الأشياء، وقيل كانوا مكاسين يمكسون كل ما دخل الى أسواقهم، وقال ابن عباس: لا تبخسوا أي لا تظلموا الناس وبه قال قتادة.

﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل وإقامة العدل، قيل كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً تعمل فيها المعاصي وتستحل فيها المحارم، وتسفك فيها الدماء فذلك فسادها، فلما بعث الله شعيباً ودعاهم الى الله صلحت الأرض، وكل نبي يبعث الى قوم فهو صلاحهم ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ودقيقه وجليله.

﴿ذلكم﴾ إشارة الى العمل بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه ﴿خير لكم﴾

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)﴾

المراد بالخيرية هنا الزيادة المطلقة لأنه لا خير في عدم إيفاء الكيل والوزن وفي بخس الناس وفي الفساد في الأرض أصلاً ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مصدقين بما أقول ومريدين الايمان فبادروا اليه.

﴿ولا تقعدوا﴾ لهم ﴿بكل صراط﴾ محسوس ﴿توعدون﴾ الصراط الطريق قيل كانوا يقعدون في الطرقات المفضية الى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب اليه كما كانت قريش تفعله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وغيرهم وقيل المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة ويؤيده ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾ كما سيأتي.

وقيل المراد بالآية النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب وكان ذلك من فعلهم وقيل: إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس فنهوا عن ذلك، والقول الأول أقربها الى الصواب مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة والمعنى لا تقعدوا بكل طريق موعدين لأهله ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس كل مذهب.

﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ أي صادين عنه باغين لها عوجاً والمراد بالصد عنه صد الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه ومنعهم من الوصول الى شعيب

فإن سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول الى نبي الله هو سلوك سبيل الله(١).

والضمير في ﴿ من آمن به ﴾ يرجع الى الله أو الى السبيل أو الى كل صراط أو الى شعيب ﴿وتبغونها عوجاً﴾ أي تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة، وقيل معناه تلتمسون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد، وقد سبق الكلام على العوج، وقال الزجاج: كسر العين في المعاني وفتحها في الاجرام.

﴿واذكروا﴾ نعمته عليكم ﴿إذ كنتم﴾ أي عددكم أو مالكم أو قوتكم ﴿قليلاً فكثركم﴾ بالنسل والقوة والغناء ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله فإن الله أهلكهم وأنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم ومحا أثرهم . وأقربهم اليكم قوم لوط فانظروا كيف أنزل الله عليهم حجارة من السماء.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به﴾ إليكم من الأحكام التي شرعها الله لكم ﴿وطائفة ﴾ منكم ﴿لم يؤمنوا﴾ به ﴿فاصبروا ﴾ أي انتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا ﴾ وبينكم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي أعدلهم، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين ومثله قوله تعالى ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحل بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم، وقيل للفريقين وهذا هو الظاهر.

---

(١) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رأيت ليلة أسري بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا يا جبريل قال هذا مثل لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ـ ثم تلا ـ ﴿ ولا تقعدوا بكل صراطٍ توعدون ﴾ الآية.

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

﴿قال الملأ الذين استكبروا﴾ أي الأشراف المستكبرون عن الايمان ﴿من قومه﴾ استئناف بياني كأنه قيل فماذا قالوا بعد سماعهم هذه المواعظ من شعيب ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ لم يكتفوا بترك الايمان والتمرد عن الاجابة الى ما دعاهم اليه، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشراً الى توعد نبيهم ومن آمن به بالاخراج من قريتهم أو عودهم في ملتهم الكفرية أي لابد من أحد الأمرين إما الاخراج أو العود.

ومقصودهم الأصلي هو العود، وإنما ذكر النفي والاجلاء لمحض القسر والالجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه لجواب الاخراج على ما هو ظاهر النظم، وتوسيط النداء باسمه العلمي بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان أي والله لنخرجنك وأتباعك ، وإنما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ما قبله لما أن مرادهم العود بطريق الاختيار وصورة الطواعية.

وكلمة «عاد» لها في لسانهم استعمالان (أحدهما) وهو الأصل أنه الرجوع إلى ما كان عليه من الحال الأول (والثاني) استعمالها بمعنى صار، قال السمين: واستشكلوا على كونها بمعناها الأصلي أن شعيباً لم يكن قط على دينهم ولا في ملتهم فكيف يحسن أن يقال أو لتعودن أي ترجعن الى حالتكم الأولى والخطاب له ولأتباعه.

وقد أجيب عن ذلك بثلاثة أوجه (أحدها﴾ أن هذا القول من رؤسائهم قصدوا به التلبيس على العوام والايهام لهم أنه كان على دينهم وعلى ملتهم
الثاني: أن يراد بعوده رجوعه الى حاله قبل بعثته من السكوت لأنه قبل

أن يبعث اليهم كان يخفي إيمانه وهو ساكت عنهم ، بريء من معبوداتهم غير الله .

الثالث: تغليب الجماعة على الواحد لأنهم لما أصحبوه مع قومه في الاخراج حكموا عليه وعليهم بالعود الى الملة تغليباً لهم عليه .

وأما إذا جعلناهم بمعنى صار فلا إشكال في ذلك إذ المعنى لتصيرن في ملتنا بعد أن لم تكونوا ، وفي ملتنا حال على الأول، خبر على الثاني ، وعدى عاد بفي الظرفية تنبيهاً على أن الملة صارت لهم بمنزلة الوعاء المحيط بهم انتهى .

والأولى ما قال الزجاج يجوز ان يكون العود بمعنى الابتداء يقال عاد الى من فلان مكروه أي صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك فلا يرد ما يقال كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولاً، ويحتاج الى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب بالعود الى ملتهم والقرية هي مدين وبينها وبين مصر ثمانية مراحل.

﴿قال أو لو كنا كارهين﴾ الهمزة لانكار وقوع ما طلبوه من الاخراج أو العود أي أتعيدوننا في ملتكم حال كراهتنا للعود إليها، او اتخرجوننا من قريتكم في حال كراهتنا للخروج منها، أو في حال كراهتنا للأمرين جميعاً، والمعنى أنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ولا يصلح لكم ذلك، فإن المكره لا اختيار له ولا تعد موافقته مكرهاً موافقة ولا عوده الى ملتكم مكرهاً عوداً.

وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام .

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم﴾ التي هي الشرك، والجملة استئناف إخبار فيه معنى التعجب قاله الزمخشري كأنه قيل ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر أو أنه جواب قسم محذوف ، والتقدير : والله لقد افترينا وجعله ابن عطية احتمالاً ﴿بعد إذ نجانا الله منها﴾ بالايمان فلا يكون منا عود اليها أصلاً.

﴿وما يكون﴾ أي ما يصح ﴿لنا﴾ ولا يستقيم ولا ينبغي ﴿أن نعود فيها﴾ بحال من الأحوال ﴿إلا ان يشاء الله﴾ أي إلا في حال ووقت مشيئة الله عودنا فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قال الزجاج: أي إلا بمشيئة الله عز وجل قال وهذا قول أهل السنة، والمعنى أنه لا يكون منا العود الى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك، فالاستثناء منقطع وقيل ان الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل كما في قوله وما توفيقي إلا بالله.

وقيل هو كقولهم لا أكلمك حتى يبيض الغراب وحتى يلج الجمل في سم الخياط والغراب لا يبيض والجمل لا يلج، فهو من باب التعليق بالمحال ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر، ألا ترى الى قول الخليل ﴿واجنبني وبني ان نعبد الأصنام﴾ وكان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[١] وقيل المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها

---

(١) صحيح الجامع الصغير /٧٨٦٥.

أي القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لكم الا أن يشاء الله عودنا اليها.

﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي أحاط علمه بكل المعلومات فلا يخرج عنه منها شيء ﴿على الله توكلنا﴾ أي عليه نعتمد واليه نستند في أن يثبتنا على الايمان ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نقمته.

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ إعراض عن مكالمتهم لما ظهر له من شدة عنادهم بحيث لا يتصور منهم الايمان، واقبال على الله بالدعاء لفصل ما بينه وبينهم بما يليق بحال كل من الفريقين أي احكم بيننا بالحق، والفتاحة بالضم الحكومة، وحكمه سبحانه لا يكون إلا بنصر المحقين على المبطلين كما أخبرنا به في غير موضع من كتابه، وكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين وحلول نقمة الله بهم.

قال الفراء: إن أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح، وقال غيره من أهل اللغة هي لغة مراد، وهذا قول قتادة والسدي وابن جريح وجمهور المفسرين وقيل لغة حمير، وقال الزجاج: المعنى ربنا أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف، وعلى هذا افتح مجاز بمعنى أظهر وبين. ومنه فتح المشكل لبيانه وحله تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الاغلاق حتى يوصل إلى ما خلفه.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ يحتمل أن يكون هؤلاء هم الذين استكبروا ويحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل اليهم شعيب ﴿لئن اتبعتم شعيباً﴾ أي دخلتم في دينه وتركتم دينكم ﴿إنكم إذاً لخاسرون﴾ في الدين أو الدنيا وخسرانهم هلاكهم أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل والوزن وترك الطفيف الذي كانوا يعاملون الناس به وهو جواب القسم الموطأ له باللام قاله الزمخشري.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي الزلزلة وقيل الصيحة كما في قوله ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ ولعلها كانت في مبادىء الرجفة فأسند هلاكهم الى السبب القريب تارة والى البعيد أخرى ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ باركين على الركب ميتين، قد تقدم تفسيره في قصة صالح، قال قتادة: بعث الله شعيباً الى اصحاب الايكة والى مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة، وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعاً، وروي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا.

﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ جملة مبينة لما حل بهم من النقمة يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به، وغنى القوم في دارهم أي طال مقامهم فيها، والمغنى المنزل، والجمع المغاني، وهي المنازل التي بها أهلها، والمعنى كأن لم يقيموا في دارهم أصلاً ولم ينزلوها يوماً من الدهر، فإن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب وقيل المعنى كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين، يقال غني الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر والأول أولى.

﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ هذه الجملة مستأنفة كالأولى متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين، واعادة الموصول والصلة كما هي لزيادة التقرير والايذان بأن ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿فتولى﴾ أي فأعرض ﴿عنهم﴾ شعيب شاخصاً من بين أظهرهم لما شاهد نزول العذاب بهم ﴿وقال﴾ أي قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه السلام ﴿يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي﴾ التي أرسلني بها اليكم ﴿ونصحت لكم﴾ ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم ﴿فكيف آسى﴾ أي أحزن ﴿على قوم كافرين﴾ بالله مصرين على كفرهم متمردين عن الاجابة ، والأسى شدة الحزن أسي على ذلك فهو آس.

قال شعيب: هذه المقالة تحسراً على عدم الايمان ثم سلى نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله أو أراد لقد أعذرت لكم في الابلاغ والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف أحزن عليكم، يعني انكم لستم مستحقين لأن يحزن عليكم والأول أولى.

عن ابن عباس قال: في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما قبر اسمعيل وقبر شعيب فقبر اسمعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود وعن وهب بن منبه أن شعيباً مات بمكة ومن معه من المؤمنين فقبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم.

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن أبي اسحق قال: ذكر لي يعقوب بن أبي مسلمة أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة»[1].

---

(١) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٦٨.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

﴿وما أرسلنا﴾ لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم وهم المذكورون سابقاً أجمل حال سائر الأمم المرسل اليها، والمعنى ما أرسلنا في حال من الأحوال ﴿في قرية﴾ من القرى ﴿من﴾ مزيدة لتوكيد النفي ﴿نبي﴾ من الأنبياء فكذبه أهلها ﴿الا أخذنا أهلها﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ﴿بالبأساء﴾ أي البؤس وشدة الفقر ﴿والضراء﴾ أي وبالضر.

وقال الزجاج: البأساء كل ماناهم من الشدة في أموالهم والضراء كل ماناهم من الأمراض، وقيل البأساء الشدة وضيق العيش، والضراء سوء الحال، وقد تقدم تفسيرهما ﴿لعلهم يضرعون﴾ أي لكي يتضرعوا ويتذللوا فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء، وفيه تخويف وتحذير لكفار قريش وغيرهم من الكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

﴿ثم﴾ أي بعد الأخذ لأهل القرى ﴿بدلنا﴾ هم ﴿مكان السيئة﴾ التي اصبناهم بها من البلاء والامتحان الخصلة ﴿الحسنة﴾ فصاروا في خير وسعة وأمن وصحة، وقال ابن عباس أي مكان الشدة الرخاء قال أهل اللغة السيئة كل ما يسوء صاحبه، والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل، فأخبر الله في هذه الآية بأنه يؤاخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج.

﴿حتى عفوا﴾ يقال عفا النبات إذا كثر وتكاثف ومنه اعفاء اللحى، واللحى بالضم والكسر كما في كتاب العين، وعفا درس فهو من الأضداد والمراد هنا انهم كثروا عدداً وعُدداً.

﴿وقالوا﴾ عند أن صاروا في الرخاء بعد الشدة ﴿قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ أي إن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء ثم من الرخاء والخصب من بعد هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله،فمسّهم من البأساء والضراء ما مسنا ومن النعمة والخير ما نلناه، ومرادهم أن هذه العادة الجارية في السلف والخلف ، وإن ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم واختباراً لما عندهم.

وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم ما لا يخفى ، ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم كما قال ﴿فأخذناهم بغتة﴾ أي فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا امهال ليكون ذلك أعظم لحسرتهم، والمراد من ذكر هذه القصة أن يعتبر من سمعها فينزجر ﴿وهم لا يشعرون﴾ بذلك العذاب النازل بهم ولا يترقبونه.

﴿ولو أن أهل القرى﴾ التي أرسلنا اليها رسلنا، ويجوز أن تكون اللام للجنس والمراد لو أن أهل القرى أين كانوا وفي أي بلد سكنوا ﴿آمنوا﴾ بالرسل المرسلين اليهم ﴿واتقوا﴾ ما صمموا عليه من الكفر ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ﴿لفتحنا عليهم﴾ أي يسرنا لهم ﴿بركات من السماء والأرض﴾ أي خيرهما كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها قيل المراد بخير السماء المطر وبخير الأرض النبات والثمار.

والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات وجميع ما فيهما وكل ذلك من فضل الله واحسانه، وأصل البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء ويسمى المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه، وكذا ثبوت البركة في نبات الأرض لأنه نشأ من بركات السماء وهي المطر، وقال البغوي: أصل البركة المواظبة على الشيء أي رفعنا عنهم القحط والجدب وتابعنا عليهم المطر والنبات.

﴿ولكن كذبوا﴾ بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا بهم ولا اتقوا وقد اكتفى بذكر الأول لاستلزامه للثاني ﴿فأخذناهم﴾ بأنواع العذاب ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

بسبب ما كسبوا من الكفر والذنوب الموجبة لعذابهم ومن جملتها قولهم قد مس آباءنا الآية.

﴿أفأمن﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ وهو مثل ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ والفاء للعطف على أخذناهم بغتة وما بينهما اعتراض، والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى، ذكره أبو السعود، وبه قال الزمخشري.

قال الشيخ: وهذا رجوع عن مذهبه في مثل ذلك الى مذهب الجماعة، وذلك أن مذهبه في الهمزة الداخلة على حرف العطف تقدير معطوف عليه بين الهمزة وحرف العطف، ومذهب الجماعة أن حرف العطف في نية التقديم، وانما تأخر وتقدمت عليه الهمزة لقوة تصدرها في أول الكلام، والزمخشري هنا لم يقدر بينهما معطوفاً عليه بل جعل ما بعد الفاء معطوفاً على ما قبلها من الجمل وهو قوله ﴿فأخذناهم بغتة﴾ ذكره السمين.

﴿أهل القرى﴾ المذكورة قبله وقيل المراد بالقرى مكة وما حولها لتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والعموم أولى ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾ أي وقت بيات وهو الليل ﴿وهم نائمون﴾ غافلون عنه ﴿أو أمن أهل القرى﴾ إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ أي نهاراً والضحى ضحوة النهار أي صدره وهو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت.

وفي السمين الضحى اشتداد الشمس وامتداد النهار يقال ضحى وضحاء اذا ضممته قصرته، واذا فتحته مددته، وقال بعضهم الضحى بالضم والقصر لأول ارتفاع الشمس، والضحاء بالفتح والمد لقوة ارتفاعها قبل الزوال،

والضحى مؤنث انتهى ﴿وهم يلعبون﴾ أي حال كونهم مشتغلين بما لا يعود عليهم بفائدة.

﴿أفأمنوا مكر الله﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ وإنكار ما هم عليه من أمان ما لم يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ما أنكره عليهم، وقيل مكر الله استدراجه إياهم بما أنعم عليهم من الدنيا والنعمة والصحة، والأولى حمل الآية على ما هو أعم من ذلك.

ثم بين حال من أمن مكر الله فقال ﴿فلا يأمن مكر الله﴾ المكر الاحتيال والخديعة والمراد بمكر الله هنا فعل ما يعاقب به الكفرة على كفرهم، وأضيف الى الله لما كان عقوبة على ذنبهم، فان العرب تسمى العقوبة على أي وجه كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة، وهذا نص في قوله ﴿ومكروا ومكر الله﴾ قاله ابن عطية.

قلت وهو تأويل حسن وانه من باب المقابلة أيضاً والفاء في قوله ﴿فلا يأمن﴾ للتنبيه على أن العذاب يعقب أمن مكر الله ﴿إلا القوم الخاسرون﴾ أي الذين أفرطوا في الخسران ووقعوا في وعيده الشديد حتى صاروا الى النار، قال الشبلي: مكره بهم تركه اياهم على ما هم عليه.

﴿أولم يهد﴾ أي أو لم يبين فالهداية هنا بمعنى التبيين، ولهذا عديت باللام ﴿للّذين يرثون الأرض من بعد﴾ إهلاك ﴿أهلها﴾ أي المشركين، قاله السدي وقيل المراد بهم أهل مكة وما حولها أي الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أي ان الشأن هو هذا والمعنى عاقبناهم بسبب كفرهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين.

﴿ونطبع﴾ نختم ﴿على قلوبهم﴾ مستأنفة ولا يصح عطفه على أصبناهم لأنهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للايمان ﴿فهم لا يسمعون﴾ أي اخبار الأمم المهلكة فضلاً عن التدبر والتفكر فيها والاعتبار بها والاغتنام بما في تضاعيفها من الهداية أي صاروا بسبب الطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله الله إليهم من المواعظ والأعذار والانذار سماع تدبر.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟
لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾
وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿تلك﴾ مبتدأ مشار بها الى ما بعدها و ﴿القرى﴾ خبرها أي التي أهلكناها وهي قرى قوم نوح وهود وثمود وصالح ولوط وشعيب المقدم ذكرها ﴿نقص﴾ حال أي قاصين وهذا كقوله تعالى ﴿هذا بعلي شيخاً﴾ في كونه مبتدأ خبراً وحالاً قاله الزمخشري ﴿عليك من أنبائها﴾ أي أخبارها وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين وتحذير للكافرين من قريش وغيرهم.

ومن للتبعيض لأنه إنما قص عليه صلى الله عليه وآله وسلم ما فيه عظة وانزجار دون غيرها ولها أنباء غيرها لم يقصها عليه، وإنما قص عليه أنباء أهل هذه القرى لأنهم اغتروا بطول الامهال مع كثرة النعم، فتوهموا أنهم على الحق فذكرها الله لقوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليحترزوا عن مثل تلك الأعمال.

﴿ولقد﴾ لام قسم ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي المعجزات الباهرات كما سبق بيانه في قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل اللام زائدة لتوكيد النفي ﴿بما كذبوا﴾ به ﴿من قبل﴾ أي قبل مجيئهم أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل في حال من الأحوال ولا في وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم بل هم مستمرون على الكفر متشبثون بأذيال الطغيان دائماً ولم ينجح فيهم مجيء الرسل ولا ظهر له أثر بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله.

وقيل المعنى فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم

كقوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا ﴾ قاله مجاهد وقيل سألوا المعجزات فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها ، والأول أولى .

ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل أنهم كانوا في الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل وانزال الكتب.

وقال أبي بن كعب: كان في علم الله يوم أقروا له بالميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم من يكذب به ممن يصدق به، وهو معنى قول ابن عباس والسدي آمنوا كرهاً يوم أخذ الميثاق ، وقال الطبري: وأولى الأقوال قول أبي بن كعب والربيع ابن أنس وذلك ان من سبق في علم الله انه لا يؤمن به فلا يؤمن أبداً.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد على قلوب أهل القرى المنتفى عنهم الايمان ﴿يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ الجائين بعدهم فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير يرجع الى أهل القرى المذكورين سابقاً أي عهد يحافظون عليه ويتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود في كل حال، وقيل الضمير يرجع الى الناس على العموم أي ما وجدنا لأكثر الناس من عهد وقيل المراد بالعهد هو المأخوذ عليهم في عالم الذر، وقيل الضمير يرجع الى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى أي لأكثر منهم لا عهد ولا وفاء والقليل منهم قد يفي بعهده ويحافظ عليه قال ابن عباس : ذاك ان الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به ﴿وان وجدنا اكثرهم لفاسقين﴾ أي وإن الشأن هذا والمعنى خارجين عن الطاعة خروجاً شديداً.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾

﴿ثم بعثنا﴾ أي أرسلنا ﴿من بعدهم﴾ أي بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقيل ضمير «هم» راجع الى الأمم السالفة أي من بعد اهلاكهم ﴿موسى﴾ قال ابن عباس: إنما سمي موسى لأنه القي بين ماء وشجر فالماء بالقبطية مو والشجر سا وعاش من العمر مائة وعشرين سنة وبينه وبين يوسف أربعمائة سنة وبين موسى وابراهيم سبعمائة سنة كما ذكره في التحبير.

﴿بآياتنا﴾ أي حججنا وأدلتنا على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك مما جاء به موسى، وهذا يدل على أن النبي لا بد له من آية يتميز بها عن غيره، وإلا لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

﴿الى فرعون﴾ هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالقة مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى، وملك الروم قيصر، وملك الحبشة النجاشي، وكان اسم فرعون الذي أرسل اليه موسى «الوليد بن مصعب بن الريان» وكان ملك القبط وكنيته أبو مرة، وقيل أبو العباس وكان قبله فرعون آخر وهو أخوه واسمه قابوس ولم يذكر في القرآن.

وعن مجاهد أن فرعون كان فارسياً من أهل اصطخر، وعن ابن لهيعة انه كان من أبناء مصر، وعن ابن المنكدر قال: عاش فرعون ثلاثمائة سنة، عن علي

ابن أبي طلحة: أن فرعون كان قبطياً ولد زنا، طوله سبعة أشبار، وعن الحسن قال: كان علجاً من همدان، وعن ابراهيم بن مقسم قال: مكث فرعون أربعمائة سنة لم يصدع له رأس.

﴿وملئه﴾ أي أشراف قومه وتخصيصه بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم لأن من عداهم كالأتباع لهم ﴿فظلموا﴾ أي فكفروا ﴿بها﴾ أطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التي جاء بها موسى كان كفراً بالغاً لوجود ما يوجب الايمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم بها، أو المعنى ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الايمان بها أو ظلموا أنفسهم بسببها.

﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بالمكذبين بالآيات الكافرين بها وكيف أهلكناهم، وجعلهم مفسدين لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد.

﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أخبره بأنه مرسل من الله إليه وجعل ذلك عنواناً لكلامه معه لأن من كان مرسلاً من جهة من هو رب العالمين أجمعين فهو حقيق بالقبول لما جاء به كما يقول من أرسله الملك في حاجة الى رعيته. أنا رسول الملك اليكم ثم يحكي ما أرسل به اليهم فان في ذلك من تربية المهابة وإدخال الروعة ما لا يقادر قدره.

﴿حقيق﴾ جدير ﴿على أن﴾ أي بأن ﴿لا أقول على الله إلا﴾ القول ﴿الحق﴾ قيل في توجيه هذه القراءة إن على بمعنى الباء كما سبق. ويؤيده قراءة أبي والأعمش فإنهم قرآ ﴿حقيق بأن لا أقول﴾ وقيل إن حقيق مضمن معنى حريص وقيل إنه لما كان لازماً للحق كان الحق لازماً له فقول الحق حقيق عليه، وهو حقيق على قول الحق.

وقيل: إنهأغرق في وصف نفسه في ذلك المقام حين جعل نفسه حقيقة على قول الحق كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله، وقرىء على أي واجب على ولازم لي أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق، وقرىء ﴿حقيق أن لا أقول﴾ باسقاط على ومعناها واضح والاستثناء مفرغ.

ثم قال بعد هذا ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ أي بما يتبين به صدقي وإني رسول من رب العالمين ، والمراد بها معجزته وهي العصا واليد البيضاء. وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاورة كما في موضع آخر أنه قال فرعون ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ ثم قال بعد جواب موسى ﴿وما رب العالمين﴾ الآيات الحاكية لما دار بينهما.

﴿فأرسل معي بني اسرائيل﴾ أمره أن يدعهم يذهبون معه ويرجعون الى أوطانهم وهي الأرض المقدسة وقد كانوا بائنين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع الى وطنهم ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

وكان سبب سكناهم بمصر مع أن أباهم كان بالأرض المقدسة ان الأسباط أولاد يعقوب جاؤوا مصر الى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر ، فلما توفي يوسف غلب فرعون على نسل الأسباط واستعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة، فأحب موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم الى أرض الشام التي هي وطن آبائهم فأنقذهم الله بموسى وكان بين اليوم الذي دخل يوسف عليه السلام مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام.

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ
فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

فلما قال ذلك ﴿قال﴾ له فرعون ﴿ان كنت جئت بآية﴾ من عند الله كما تزعم ﴿فأت بها﴾ حتى نشاهدها وننظر فيها ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في هذه الدعوى التي جئت بها.

﴿فألقى عصاه﴾ أي وضعها على الأرض ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي فانقلبت ثعباناً يعني حية عظيمة من ذكور الحيات ظاهراً واضحاً لا لبس فيه في تلك الحال، ووصفها في آية أخرى بأنها جان والجان الحية الصغيرة، والجمع بين هذين الوصفين أنها كانت في عظم الجثة كالثعبان العظيم، وفي خفة الحركة كالحية الصغيرة وهي الجان.

قال قتادة: ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم أعطاه إياها ملك حين توجه الى مدين فكانت تضيء بالليل ويضرب بها الأرض بالنهار فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه فإذا هي حية تكاد تساوره.

وعن ابن عباس قال: لقد دخل موسى على فرعون وعليه رزمانقه من صوف ما تجاوز مرفقيه فاستأذن على فرعون فقال أدخلوه فدخل فقال إن إلٰهي أرسلني إليك فقال للقوم حوله ما علمت لكم من إله غيري، خذوه قال إني قد جئتك بآية قال فأت بها فالقى عصاه فصارت ثعباناً بين لحييه ما بين السقف الى الأرض، وعصا موسى اسمها ما شاء، قال السدي: فاتحة فمها واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذعر منها ووثب فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك، وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بربك وأرسل معك بني اسرائيل فأخذها موسى فصارت عصا.

﴿ونزع يده﴾ اليمنى أي أخرجها وأظهرها من جيبه أو من تحت إبطه وفي التنزيل ﴿وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ والنزع عبارة عن إخراج الشيء عن مكانه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي تتلألأ نوراً يظهر لكل مبصر ، قال ابن عباس: أخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار فخروا على وجوههم، وقيل لها شعاع غلب نور الشمس، وأخذ موسى عصاه ثم خرج ليس أحد من الناس إلا نفر منه وكان موسى آدم اللون[1].

﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ أي الأشراف لما شاهدوا إنقلاب العصا حية ومصير يده بيضاء من غير سوء ﴿إن هذا﴾ أي موسى ﴿لساحر عليم﴾ أي كثير العلم بالسحر يأخذ بعين الناس حتى يخيل لهم أن العصا صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه، ولا ينافي نسبة هذا القول الى الملأ هنا وإلى فرعون في سورة الشعراء فكلهم قد قالوه فكان ذلك مصححاً لنسبته إليهم تارة وإليه أخرى.

﴿يريد أن يخرجكم﴾ أيها القبط ﴿من أرضكم﴾ وهي أرض مصر وهذا من كلام الملأ ﴿فماذا تأمرون﴾ هو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا بما تقدم، أي بأي شيء تأمرونني وتشيرون أن نفعل به، وقيل هو من كلام الملأ أي قالوا لفرعون فبأي شيء تأمرنا وخاطبوه بما يخاطب به الجماعة تعظيماً له كما يخاطب الرؤساء أتباعهم.

---

(١) قال القرطبي : «كان موسى اسمر شديد السمرة ، ثم اعاد يده الى جيبه فعادت الى لونها الأول . قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض . وقيل : كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تَلوح ، فإذا ردها عادت الى مثل سائر بدنه .

قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾
وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ
نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ
ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو
بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾

وكون هذا من كلام فرعون هو الأولى بدليل ما بعده وهو ﴿قالوا أرجه﴾ أي أخره وفيه ست قرآات في المشهور المتواتر ثلاث مع الهمز وثلاث مع عدمه والارجاء في اللغة التأخير. وقيل معناه احبسه. وهو ضعيف وقيل هو من رجا يرجو أي أطعمه ودعه يرجوك حكاه النحاس عن المبرد.

﴿و﴾ أرج ﴿أخاه وأرسل في المدائن حاشرين﴾ أي أرسل جماعة حاشرين في المدائن التي فيها السحرة والمدائن جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به يعني مدائن صعيد مصر، ومعنى حاشرين جامعين يعني رجالاً يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد ﴿يأتوك﴾ أي هؤلاء الذين أرسلت يعني الشرط ﴿بكل ساحر﴾ وقرىء سحار أي الماهر في السحر قيل الساحر من يكون سحره وقتاً دون وقت، والسحار من يدوم سحره ويعمل في كل وقت ﴿عليم﴾ أي كثير العلم بصناعة السحر.

﴿وجاء السحرة فرعون﴾ قد اختلفت كلمة السلف في عددهم فقال ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، وقيل كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بني اسرائيل قاله مقاتل، وقال الكلبي: كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل خمسة عشر ألفاً، قاله ابن اسحق وقيل سبعة عشر ألفاً وقيل

تسعة عشر ألفاً وقيل ثلاثين ألفاً وقيل سبعين ألفاً، قاله عكرمة وقيل ثمانين ألفاً، قاله محمد بن المنكدر وقيل ثلاثمائة ألف وقيل تسعمائة ألف[1].

﴿قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ الأجر الجائزة والعطاء والجعل، الزموا فرعون أن يجعل لهم جعلاً أن غلبوا موسى بسحرهم وقرىء ﴿أئن لنا﴾ على الاستفهام للتقرير أي استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة وعلى القراءة الأولى كأنهم قاطعون بالجعل وأنه لا بد لهم منه.

﴿قال نعم﴾ لكم الأجر ﴿وإنكم﴾ مع هذا الأجر المطلوب منكم ﴿لمن المقربين﴾ لدينا قال الكلبي تكونون أول من يدخل علي وآخر من يخرج من عندي. وفي الخطيب والآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً وإلا لما احتاج الى الاستعانة بالسحرة.

وتدل أيضاً على أن السحرة ما كانوا قادرين على قلب الأعيان، وإلا لما احتاجوا الى طلب الأجر والمال من فرعون لأنهم لو قدروا على قلب الأعيان لقلبوا التراب ذهباً ولنقلوا ملك فرعون لأنفسهم، ولجعلوا أنفسهم ملوك العالم ورؤساءهم، والمقصود من هذه الآيات تنبيه الانسان لهذه الدقائق وأن لا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب لها.

﴿قالوا﴾ أي السحرة ﴿يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾ يعني أنهم خيروا موسى بين أن يبتدىء بإلقاء ما يلقيه عليهم أو يبتدئوه هم بذلك تأدباً معه وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون وإن تأخروا قال الكسائي والفراء إما أن تفعل الالقاء أو نفعله نحن.

﴿قال ألقوا﴾ اختار ان يكون المتقدمين عليه بإلقاء ما يلقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاءوا به، قال الفراء في الكلام حذف والمعنى قال لهم موسى إنكم

---

(١) اختلفوا في عدد السحرة على ثلاثة عشر قولاً: أحدها: اثنان وسبعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني؛ اثنان وسبعون ألفاً، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال مقاتل. والثالث: سبعون، روي عن ابن عباس أيضاً. والرابع: اثنا عشر ألفاً، قاله كعب. والخامس: سبعون ألفاً، قاله عطاء، وكذلك قال وهب في رواية، إلا أنه قال: فاختار منهم سبعة آلاف. والسادس: سبعمائة. وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب أنه قال: كان عدد السحرة الذين عارضوا موسى سبعين ألفاً متخيرين من سبعمائة ألف، ثم إن فرعون اختار من السبعين ألف سبعمائة.

لن تغلبوا ربكم ولن تبطلوا أيامه، وقيل هو تهديد أي ابتدئوا بالالقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح.

والموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز لموسى أن يأمرهم بالسحر، وقيل إنما أمرهم لتظهر معجزته لأنهم إذا لم يلقوا قبله لم تظهر معجزته، والأول أولى.

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم قال ابن عباس حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴿سحروا أعين الناس﴾ أي قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاءوا به من التمويه والتخييل الذي يفعله المشعوذون وأهل الخفة، وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء التي هي فعل الله. وذلك لأن السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك الشيء، والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته كقلب عصا موسى حية تسعى.

﴿واسترهبوهم﴾ أي أدخلوا الرهبة في قلوبهم إدخالاً شديداً بما فعلوه من السحر، واستفعل هنا بمعنى افعل أي أرهبوهم وهو قريب من قولهم: قر واستقر وعظم واستعظم، وهذا رأي المبرد وقيل السين على بابها أي استدعوا رهبة الناس منهم وهو رأى الزجاج ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾ في أعين الناظرين وإن كان لا حقيقة له في الواقع، وكانت تلك الواقعة في اسكندرية قاله الخطيب والخازن.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾

﴿وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك﴾ أمره سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاءوا به من السحر على لسان جبريل أن يلقي عصاه، وصريح السياق يقتضي أن إلقاء العصا وانقلابها حية وقع مرتين بحضرة فرعون (الأولى) كانت سبباً في جمع السحرة (والثانية) بحضرتهم فالأولى ذكرت سابقاً بقوله ﴿فألقى عصاه﴾ والثانية هي المذكورة هنا ووقع انقلابها حية أيضاً مرة أخرى قبل هاتين المرتين ولم يكن هناك حاضراً أحد غير موسى وقد ذكرت هذه المرة في سورة طه في قوله ﴿إذ رأى ناراً﴾ الى قوله ﴿ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾.

﴿فإذا هي﴾ أي العصا ﴿تلقف﴾ من لقف يلقف وقيل من تلقف يتلقف يقال لقفت الشيء وتلقفته إذا أخذته أو بلعته بسرعة. وقال أبو حاتم بلغني في بعض القراآت تلقم بالميم والتشديد ﴿ما يأفكون﴾ أصل الافك قلب الشيء عن وجهه، ومنه قيل للكذاب أفاك لأنه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح الى الباطل، أفك يأفك إفكاً من باب ضرب وأفكته صرفته وكل أمر صرف عن وجهه فقد أفك، وسماه إفكاً لأنه لا حقيقة له في الواقع بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة.

قال ابن زيد: كان اجتماعهم بالاسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً فإذا هي تبتلع كل شيء أتوا به من السحر.

﴿فوقع الحق﴾ أي ظهر وتبين بما جاء به موسى ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ من سحرهم أي تبين بطلانه ﴿فغلبوا﴾ أي السحرة ﴿هنالك﴾ أي في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم وهذا هو الظاهر ﴿وانقلبوا﴾ من ذلك الموقف ﴿صاغرين﴾ أذلاء مقهورين.

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾
قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ
مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وألقى السحرة ساجدين﴾ أي خروا كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا أنفسهم، قال السدي: ألقى موسى عصاه فأكلت كل حية لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا، وعن قتادة نحوه، قال ابن عباس: لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر. فخروا سجداً قيل كانت مع السحرة حمل ثلاثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها آمنوا به وخروا ساجدين.

﴿قالوا آمنا﴾ وإنما قالوا هذه المقالة وصرحوا بأنهم آمنوا ﴿برب العالمين﴾ ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا ﴿رب موسى وهرون﴾ لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بإلهيته أن السجود له قال الأوزاعي: لما خر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، وقدموا موسى في الذكر وإن كان هرون أسن منه لكبره في الرتبة أو لأنه وقع فاصلة هنا. ولذلك قال في سورة طه ﴿رب هرون وموسى﴾ لوقوع موسى فاصلة أو لكون كل طائفة منهم قالت إحدى المقالتين فنسب فعل البعض الى المجموع في سورة وفعل بعض آخر الى المجموع في أخرى.

﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ والاستفهام للانكار والتوبيخ والقرآت هنا أربع كلها سبعية ذكرها السمين، أنكر فرعون على السحرة إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك وقال ﴿إن هذا لمكر مكرتموه﴾ أي حيلة احتلتموها أنتم وموسى على مواطأة بينكم سابقة، ومعنى ﴿في المدينة﴾ أن هذه الحيلة

والمواطأة كانت بينكم وأنتم بمدينة مصر قبل أن تبرزوا أنتم وموسى الى هذه الصحراء ﴿لتخرجوا منها﴾ أي من مدينة مصر ﴿أهلها﴾ من القبط وتستولوا عليها وتسكنوا فيها أنتم وبنو إسرائيل.

وهاتان شبهتان ألقاهما إلى اسماع عوام القبط تثبيتاً لهم على ما هم عليه وتهييجاً لعداوتهم لموسى، ثم هددهم بقوله ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة صنعكم هذا وسوء مغبته ليريهم أن له قوة.

ثم لم يكتف بهذا الوعيد والتهديد المجمل بل فصله فقال ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي الرجل اليمنى واليد اليسرى أو الرجل اليسرى واليد اليمنى، قال ابن عباس: هو أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف وقال قتادة: أي يداً من ههنا ورجلاً من ههنا.

ثم لم يكتف عدو الله بهذا بل جاوزه الى غيره فقال ﴿ثم لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ على شاطىء نيل مصر أي أجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكل بهم وإفراطاً في تعذيبهم.

قال ابن عباس: أول من صلب فرعون، وجيء هنا ثم وفي السورتين ولأصلبنكم بالواو لأن الواو صالحة للمهلة فلا تنافي بين الآيات ﴿أجمعين﴾ تأكيد أتى به دون كل وإن كان الأكثر سبقه بكل، وجاء بجملة قسمية تأكيداً لما يفعله يقال صلبه يصلبه ويصلبه وهما لغتان في المضارع.

﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل فبعده يوم الجزاء سيجازيك الله بصنعك ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته، فتوعدوه بعذاب الله في الآخرة لما توعدهم بعذاب الدنيا، ويحتمل أن يكون المعنى إنا إليه لمنقلبون بالموت أي لابد لنا من الموت، ولا يضرنا كونه بسبب منك.

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا
مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿وما تنقم﴾ بكسر القاف وقرىء بفتحها، قال الأخفش هي لغة يقال نقمت الأمر أنكرته أي لست تعيب علينا وتنكر ﴿منا﴾ قال عطاء أي مالنا عندك من ذنب تعذبنا عليه، وقيل ما تكره منا وما تطعن علينا وتقدح فينا ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل، وأصل المفاخر، ومثله لا يكون موضعاً للعيب ومكاناً للانكار. بل هو حقيق بالثناء الحسن والاستحسان البالغ فلا نعدل عنه أصلاً طلباً لمرضاتك ، والاستثناء مفرغ.

ثم تركوا خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا إلى خطاب الجناب العليّ مفوضين الأمر إليه طالبين منه عز وجل أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر قائلين ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ الافراغ الصب أي أصببه كاملاً تاماً حتى يفيض علينا ويغمرنا ،ولهذا أتى بلفظ التكثير يعني صبراً وأي صبر عظيم يصب صباً ذريعاً كما يفرغ الماء فراغاً ، طلبوا أبلغ أنواع الصبر استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله وتوطيناً لأنفسهم على التصلب في الحق وثبوت القدم على الايمان.

ثم قالوا ﴿وتوفنا﴾ إليك ﴿مسلمين﴾ أي ثابتين على الاسلام غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين بالوعيد. ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شراً محضاً سبباً للفوز بالسعادة لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر، وأنه من فعل الله سبحانه، فوصلوا بالشر الى

الخير، ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الاذعان والاعتراف والايمان.

وإذا كانت المهارة في علم الشر قد تأتي بمثل هذه الفائدة، فما بالك بالمهارة في علم الخير، اللهم انفعنا بما علمتنا وثبت أقدامنا على الحق وأفرغ علينا سجال الصبر وتوفنا مسلمين آمين قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء، قيل فعل بهم فرعون ما توعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾.

﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر﴾ الاستفهام منهم للانكار عليه أي أتترك ﴿موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ أي في مصر بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل ﴿ويذرك﴾ بياء الغيبة ونصب الراء هذه قراءة العامة، وفيها وجهان أظهرهما أنه على العطف على ليفسدوا، والثاني أنه منصوب على جواب الاستفهام كما ينصب في جوابه بعد الفاء.

والمعنى كيف يكون الجمع بين تركك موسى وقومه مفسدين، وبين تركهم إياك وعادة آلهتك، أي لا يمكن وقع ذلك وقرىء برفع الراء وفيها ثلاثة أوجه أظهرها أنه نسق على أتذر أي اتطلق له ذلك، والثاني أنه استئناف أخبار ذلك، الثالث أنه حال ولا بد من اضمار مبتدأ أي وهو يذرك، وقرىء بالجزم إما على التخفيف بالسكون لنقل الضمة أو على ما قيل في ﴿وأكن من الصالحين﴾ في توجيه الجزم، وقرىء بالنون والرفع والمعنى أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونك.

﴿وآلهتك اختلف المفسرون في معناها لكون فرعون كان يدعي الربوبية كما في قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ وقوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ فقيل ومعنى آلهتك طاعتك وقيل معناه عبادتك، ويؤيده قراءة علي وابن عباس والضحاك:

وإلاهتك وفي حرف أبي ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وقيل إنه كان يعبد بقرة، وقيل كان يعبد النجوم وقيل كان له أصنام يعبدها قومه تقرباً إليه فنسبت اليه، ولهذا قال ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ قاله الزجاج، وقيل كان يعبد الشمس والكواكب.

والأقرب أن يقال: إن فرعون كان دهرياً منكراً لوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب فاتخذ أصناماً على صورتها وكان يعبدها ويأمر بعبادتها، وكان يقول في نفسه إنه هو المطاع والمخدوم في الأرض فلهذا قال أنا ربكم الأعلى.

قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لم ير مكروهاً قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية.

﴿قال﴾ فرعون مجيباً لهم ومثبتاً لقلوبهم على الكفر ﴿سنقتل﴾ قرىء بالتشديد والتخفيف ﴿أبناءهم ونستحي نساءهم﴾ أي نتركهن في الحياة ولم يقل سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه، قيل كان ترك القتل في بني اسرائيل بعد ما ولد موسى فلما جاء موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان أعاد فيهم القتل

﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ أي مستعلون عليهم بالقهر والغلبة وهم تحت قهرنا وبين أيدينا ، ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل .

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ أي لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة ثم أخبرهم ﴿إن الأرض لله﴾ يعني أرض مصر وإن كانت الأرض كلها لله أو أراد جنس الأرض ، والأول أولى ﴿يورثها من يشاء من عباده﴾ هو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه وإن الله سيورثهم أرضهم وديارهم ﴿والعاقبة﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة وعاقبة كل شيء آخره وقيل أراد الجنة ﴿للمتقين﴾ من عباده وهم موسى ومن معه.

﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ وذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده، وبقتل ابنائنا الآن، وقيل المعنى أوذينا من قبل أن يأتينا بالرسالة باستعمالنا في الأعمال الشاقة بغير جعل كضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك، ، ومن بعد ما جئتنا بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا وقيل إن الأذى من قبل ومن بعد واحد وهو قبض الجزية منهم.

﴿قال﴾ موسى مجيباً لهم ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ مستأنفة كالتي قبلها وعدهم باهلاك الله لعدوهم وهو فرعون وقومه ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ هو تصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله، وقد حقق الله رجاءه وملكوا مصر في زمان داود وسليمان وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون، واهلك

فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم ﴿فينظر كيف تعملون﴾ فيها من الأعمال أي من الاصلاح والافساد بعد أن يمن عليكم بإهلاك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فيجازيكم بما عملتم من خير وشر.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن بنا أهل البيت يفتح ويختم، ولا بد أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن يكون من بني هاشم، وفيهم نزلت ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الآية، وينبغي أن ينظر في صحة هذا عن ابن عباس فالآية نازلة في بني اسرائيل واقعة في هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون لا في بني هاشم.

﴿ولقد أخذنا﴾ لام قسم أي والله لقد ابتلينا وهذا شروع في تفصيل مبادىء هلاكهم وتصدير الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها ﴿آل فرعون﴾ أي قومه ﴿بالسنين﴾ أي الجدب والقحط، وهذا معروف عند أهل اللغة يقولون اصابتهم سنة أي جدب سنة، ويقال أسنتوا كما يقال أجدبوا، وفي الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِنِي يوسف وهن سبع سنين، والسنة من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم.

والمعنى أخذناهم بالجوع سنة بعد سنة، وأكثر العرب يعربون السنين اعراب الجمع المذكر السالم ومنهم من يعربه اعراب المفرد ويجري الحركات على النون، قاله أبو زيد وحكى الفراء عن بني عامر انهم يقولون اقمت عنده سنياً مصروفاً قال وبنو تميم لا يصرفونه، قال ابن مسعود: السنين الجوع، وقال مجاهد: الجوائح، قال ابن عباس: لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لهم وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر.

واجتمعوا إلى فرعون فقالوا إن كنت كما تزعم فأتنا في نيل مصر بماء قال، غدوة يصبحكم الماء فلما خرجوا من عنده قال أي شيء صنعت إن لم

أقدر على أن أجري في نيل مصر ماء غدوة كذبوني، فلما كان جوف الليل قام فاغتسل ولبس مدرعة صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر فقال اللهم انك تعلم أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء فما علم إلا بخرير الماء يقبل فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة(١).

﴿ونقص من الثمرات﴾ بسبب عدم نزول المطر وكثرة العاهات واتلاف الغلات بالآفات قال قتادة: أما السنون فلأهل البوادي، وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار، والمعنى اخذناهم بها ﴿لعلهم يذكرون﴾ يتعظون ويرجعون عن غوايتهم.

---

(١) وفي رواية ابن الجوزي قال : (٣/٢٤٧) :

روى الضحاك عن ابن عباس قال : يبس لهم كل شيء ، وذهبت مواشيهم ، حتى يبس نيل مصر ، فاجتمعوا إلى فرعون فقالوا له : إن كنت رباً كما تزعم ، فاملأ لنا نيل مصر ، فقال غُدْوة يصبحكم الماء، فلما خرجوا من عنده ، قال : أي شيء صنعت ؟ أنا أقدر أن أجيء بالماء في نيل مصر غدوة أصبح ، فيكذبوني ؟! فلما كان جوف الليل ، اغتسل ، ثم ليس مدرعة من صوف ، ثم خرج حافياً حتى أتى بطن نيل مصر فقام في بطنه ، فقال : اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر أن تملأ نيل مصر ماء ، فاملأه ، فما علم إلا بخرير الماء لما أراد الله به من الهلكة . قلت : وهذا الحديث بعيد الصحة ، لأن الرجل كان دهرياً لا يثبت إلهاً. ولو صح ، كان إقراره بذلك كاقرار إبليس ، وتبقى مخالفته عناداً .

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

ثم بين انهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً كما قال تعالى ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر وصلاح الثمار ورخاء الاسعار والسعة والعافية والسلامة من الآفات ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي اعطيناها باستحقاق وهي مختصة بنا ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق وصحة الابدان، ولم يروا ذلك من فضل الله فيشكروه على انعامه.

﴿وإن تصبهم﴾ خصلة ﴿سيئة﴾ من الجدب والقحط، وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء قيل ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع وتعلق الإرادة بإحداثها، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها وعدم القصد لها إلا بالتبع. هذا من محاسن علم المعاني، قال مجاهد: الحسنة العافية والرخاء والسيئة بلاء وعقوبة ﴿يطيروا﴾ يتشاءموا ﴿بموسى ومن معه﴾ من المؤمنين به، وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء في قول جميع المفسرين، ومثل هذا قوله تعالى ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾

﴿ألا﴾ التصدير بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه و ﴿إنما﴾ أداة حصر ﴿طائرهم﴾ أي سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط ﴿عند الله﴾ يأتيهم به ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته ومشيئته ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم والحق أن الكل من الله.

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿وقالوا﴾ بعد ما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمار ﴿مهما﴾ اسم شرط ﴿تأتنا به﴾ من عند ربك ﴿من آية﴾ بيان لمهما، وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيده ما بعده وهو ﴿لتسحرنا بها﴾ أي لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعل السحرة بسحرهم، وضمير به عائد إلى مهما وضمير بها عائد إلى آية وقيل: إنهما عائدان إلى مهما وتذكير الأول باعتبار اللفظ وتأنيث الثاني باعتبار المعنى.

﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾ أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر.

فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المبينة بقوله ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ وهو المطر الشديد قال الأخفش: واحده طوفانة وقيل هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له، وقيل الطوفان الموت. روته عائشة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أخرجه ابن جرير وابن ابي حاتم وغيرهما قال ابن كثير وهو حديث غريب وبه قال مجاهد وعطاء.

وقال النحاس: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل أي ما يطيف بهم فهلكهم، وقال ابن عباس: الطوفان أمر ربك، ثم قرأ ﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ وقال مجاهد: هو الماء والطاعون وقال وهب: هو الطاعون بلغة أهل اليمن.

وقال أبو قلابة: الطوفان هو الجدري، وهم أول من عذبوا به ثم

بقي في الأرض، وقال مقاتل: الماء طفا فوق حروثهم وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام من السبت إلى السبت في ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمراً ولا يقدر أحد أن يخرج من داره، وقيل دخل الماء في بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم فمن جلس غرق ولم تدخل بيوت بني اسرائيل قطرة، قال ابن عباس: مطروا دائماً بالليل والنهار ثمانية أيام.

﴿والجراد﴾ جمع جرادة الذكر والأنثى فيه سواء قال أهل اللغة: هو مشتق من الجرد قالوا والاشتقاق في أسماء الأجناس قليل جداً يقال أرض جرداء أي ملساء وثوب أجرد إذا ذهب وبره، والمراد به هنا هو الحيوان المعروف أرسله الله لأكل زروعهم فأكلها وأكل ثمارهم وسقوف بيوتهم وثيابهم وأمتعتهم، وابتلى الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بني اسرائيل من ذلك شيء.

﴿والقمل﴾ بضم القاف وفتح الميم المشددة، وقرأ الحسن القمل بفتح القاف وسكون الميم قيل هي الدباء قاله مجاهد وقتادة والسدي والكلبي ، والدباء الجراد قبل أن تطير ، وقال عطاء : انه القمل المعروف فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض وقيل هي السوس الذي يخرج من الحنطة قاله ابن عباس، وقيل البراغيث وقيل دواب سود صغار، وقيل ضرب من القردان وقيل الجعلان.

قال النحاس: يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم، وقد فسر عطاء الخراساني القمل بالقمل، قال ابن عباس: القمل الجراد الذي له أجنحة، وقال أبو عبيدة هو الحمنان، وهو ضرب من القراد وأقام عليهم من السبت إلى السبت.

﴿ والضفادع ﴾ جمع ضفدع وهو الحيوان المعروف الذي يكون في الماء وكانت

تقع في طعامهم وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع في فيه وأقامت عليهم ثمانية أيام قال ابن عباس: كانت الضفادع برية فلما أرسلها على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور، ومكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين سنة يريهم الآيات والجراد والقمل والضفادع.

﴿والدم﴾ روى أنه سال عليهم النيل دماً قاله مجاهد، وقيل هو الرعاف قاله زيد بن أسلم وقيل مياههم انقلبت دماً فما يستقون من بئر ولا نهر الا وجدوه دماً عبيطاً أحمر، قال ابن عباس: يمكث فيهم سبتا إلى سبت ثم يرفع عنهم شهراً.

﴿آياتٍ﴾ حال من الخمسة المذكورة ﴿مفصلات﴾ أي مبينات يتبع بعضها بعضاً لتكون لله الحجة عليهم، والمعنى أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله أو مفرقات بين كل آيتين شهر، وكان امتداد كل واحدة اسبوعاً يمتحن فيه أحوالهم، وينظر أيقبلون الحجة والدليل أو يستمرون على الخلاف والتقليد.

﴿فاستكبروا﴾ أي ترفعوا عن الإيمان بالله ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ لا يهتدون إلى حق ولا ينزعون عن باطل[1].

---

(١) قال ابن عباس: جاءهم الطوفان، فكان الرجل لا يقدر أن يخرج إلى ضيعته، حتى خافوا الغرق، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشفه عنا، ونؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل؛ فدعا لهم، فكشفه الله عنهم، وأنبت لهم شيئاً لم ينبته قبل ذلك، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل ما أنبتت الأرض، فقالوا: ادع لنا ربك، فدعا، فكشف الله عنهم، فأحرزوا زروعهم في البيوت، فأرسل الله عليهم القُمل، فكان الرجل يخرج بطحين عشرة أجربة إلى الرحى، فلا يرى منها ثلاثة أقفزة، فسألوه، فدعا لهم، فكُشف عنهم، فلم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، ولم يكن شيء أشد منها، كانت تجيء إلى القدور وهي تغلي وتفور، فتلقي أنفسها فيها، فتفسد طعامهم =

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم، وقيل كان هذا الرجز طاعوناً مات به من القبط في يوم واحد سبعون ألفاً، قاله سعيد بن جبير، وعلى هذا هو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت، وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني اسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، أخرجه الشيخان.(١)

﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي بما أوصاك أو استودعك من العلم أو بما اختصك به من النبوة أو بما نبأك أو بما عهد إليك أن تدعوه فيجيبك. والباء متعلقة بادع على معنى أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله أو أدع لنا متوسلاً إليه بعهده عندك، وقيل ان الباء للقسم وجوابه لنؤمنن الآتي أقسمنا بعهد الله عندك.

﴿لئن كشفت عن الرجز لنؤمنن لك﴾ أي لنصدقن بما جئت به

= وتطفىء نيرانهم ، وكانت الضفادع برية ، فأورثها الله تعالى برد الماء والثرى إلى يوم القيامة، فسألوه ، فدعا لهم ،فلم يؤمنوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فجرت أنهارهم وقُلُبُهم دماً ، فلم يقدروا على الماء العذب ، وبنو إسرائيل في الماء العذب ، فاذا دخل الرجل منهم يستقي من أنهار بني إسرائيل صار ما دخل فيه دماً ، والماء من بين يديه ومن خلفه صافٍ عذب لا يقدر عليه ، فقال فرعون : أقسم بالهي يا موسى لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل ، فدعا موسى ، فذهب الدم وعذب ماؤهم ، فقالوا : والله لا نؤمن ولا نرسل معك بني إسرائيل .

(١) مسلم ٢٢١٨ ـ البخاري ١٦٣١ .

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

﴿ولنرسلن معك بني اسرائيل﴾ أي لنخلينهم حتى يذهبوا حيث شاءوا، وقد كانوا حابسين لبني اسرائيل عندهم يمتهنونهم في الأعمال فوعدوه بارسالهم معه.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز﴾ بدعوة موسى عليه السلام ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ أي الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق لا رفعاً مطلقاً ﴿إذا هم ينكثون﴾ أي ينقضون ما عقدوه على أنفسهم، وإذا هي الفجائية أي فاجأوا النكث وبادروه، وأصل النكث من نكث الصوف ليغزله ثانياً فاستعير لنقض العهد بعد إحكامه وإبرامه، قاله زاده.

﴿فانتقمنا﴾ أي أردنا الإنتقام ﴿منهم﴾ لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب/المتعددة وأصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب، وقيل هو ضد الأنعام كما أن العقاب ضد الثواب ﴿فأغرقناهم في اليم﴾ أي في البحر، قيل هو الذي لا يدرك قعره وقيل هو لجته وأوسطه، قال الأزهري: اليم معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع على البحر الملح والعذب، والمراد به نيل مصر وهو عذب.

﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ تعليل للاغراق ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي عن النقمة المدلول عليها بإنتقمنا أو عن الآيات التي لم يؤمنوا بها بل كذبوا بها فكأنهم في تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها والثاني أولى لأن الجملتين تعليل للاغراق والمراد بالغفلة عدم التدبر، وهذا مؤاخذ به فسقط ما يقال إن الغفلة لا مؤاخذة بها، وقد تستعمل الغفلة في ترك الشيء إهمالاً وإعراضاً، في القاموس غفل عنه غفولاً تركه وسها عنه.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ يعني بني اسرائيل الذين كانوا يذلون ويمتهنون بالخدمة لفرعون وقومه ﴿مشارق الأرض﴾ هي مصر والشام ﴿ومغاربها﴾ المراد جهات مشرقها وجهات مغربها، وهي التي كانت لفرعون وقومه من القبط فملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فيها شرقاً وغرباً كيف شاءوا.

وقال الزجاج: المراد جميع الأرض ونواحيها لأن داود وسليمان كانا من بني اسرائيل وقد ملكا الأرض، وقيل أراد الأرض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب.

﴿التي باركنا فيها﴾ بإخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون وأنفع ما ينفق، قال الحسن هي الشام، وعن قتادة وزيد بن أسلم نحوه، وقال عبد الله بن شوذب: هي فلسطين، وقد روى عن النبي ﷺ في فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها.

﴿وتمت﴾ أي مضت واستمرت على التمام ﴿كلمة ربك﴾ هي قوله تعالى ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على

أملاكهم فتمامه مجاز عن إنجازه ، و ﴿الحسنى﴾ صفة للكلمة وهي تأنيث الأحسن ﴿على بني إسرائيل بما صبروا﴾ أي تمام هذه الكلمة عليهم بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه، وقال مجاهد: تمام الكلمة ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض وإهلاك عدوهم وما ورثهم منها.

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ التدمير الاهلاك أي أهلكنا ما كانوا يصنعون في أرض مصر من العمارات وبناء القصور. وفيه أربعة أوجه من الاعراب ، ذكرها السمين ﴿وما كانوا يعرشون﴾ من الجنات والثمار والأعناب، قاله الحسن. ومنه قوله تعالى ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ وقيل يسقفون من ذلك البنيان، وقيل المعنى ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء. يقال عرش يعرش أي بنى يبني. قال مجاهد: ما كانوا يبنون من البيوت والقصور، وهذا آخر قصة فرعون وقومه.

﴿وجاوزنا ببني اسرائيل البحر﴾ هذا شروع في بيان ما فعله بنو اسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه، ومعنى جاوزنا جزناه بهم وقطعنا ، يقال جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره وهو كقوله ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ قال الكلبي: عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكراً لله تعالى.

﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ يقال عكف يعكف ويعكف بالضم والكسر بمعنى أقام على الشيءولزمه، والمصدر منهما عكوف، قيل هؤلاء القوم الذي أتاهم بنو اسرائيل هم من لخم وجذام كانوا نازلين بالرقة يعني ساحل البحر كانت أصنامهم تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم الحجة فينتقم منهم بعد ذلك. وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم.

﴿قالوا﴾ أي بنو اسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل ﴿يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة﴾ أي صنماً نعبده كائناً كالذي لهؤلاء القوم، قال البغوي: لم يكن ذلك شكاً من بني اسرائيل في توحيد الله وإنما المعنى اجعل لنا شيئاً نعظمه ونتقرب بتعظيمه الى الله، وظنوا أن ذلك لا يضر، وفيه بعد وقيل: إنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله فحملهم جهلهم على ما قالوا، قال الكرخي: وعلى كل فالقائل للقول المذكور بعضهم لا كلهم إذ كان من جملة من معه السبعون الذين اختارهم موسى للميقات ويبعد منهم مثل هذا القول.

﴿قال﴾ أي أجاب عليهم موسى ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ وصفهم بالجهل لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله ولكن هؤلاء القوم أعني بني اسرائيل أشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوناً، وقد سلف في سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك.

وأخرج ابن ابي سيبة وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ الله أكبر هذا قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم»[1].

(١) احمد بن حنبل ٥/٢١٨.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾

ثم قال لهم موسى ﴿إن هؤلاء﴾ يعني القوم العاكفين على الأصنام ﴿متبر﴾ التبار الهلاك وكل إناء منكسر فهو متبر أي: إن هؤلاء هالك ﴿ما هم فيه﴾ مدمر مكسر. والذي فيه هو عبادة الأصنام، أخبرهم بأن هذا الدين الباطل الذي هؤلاء القوم عليه هالك مدمر لا يتم منه شيء، وقال ابن عباس: متبر خسران ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام.

قال في الكشاف وفي إيقاع هؤلاء إسماً لإنّ وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار، وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض اليهم ما أحبوا .

﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً﴾ الاستفهام للانكار والتوبيخ أي كيف أطلب لكم غير الله إلهاً تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفي منه البعض والمعنى أن هذا الذي طلبتم لا يكون أبداً وإدخال الهمزة على الغير للاشعار بأن المنكر هو كون المبغي غير الله إلهاً ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ من أهل عصركم وهم القبط بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوكم ، واستخلافكم في الأرض وإخراجكم من الذل والهوان الى العز والرفعة فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره.

﴿وإذْ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾ أي اذكروا وقت

إنجائنا لكم من آل فرعون بعد أن كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيها يريدونه منكم ويمتهنونكم بأنواع الامتهان، هذا على أن هذا الكلام محكي عن موسى، وأما إذا كان في حكم الخطاب لليهود الموجودين في عصر محمد فهو بمعنى إذكروا إذ أنجينا أسلافكم حال كونهم يسومونكم سوء العذاب ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه.

﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ مفسرة للجملة التي قبلها أو بدل منها وقد سبق بيان ذلك ﴿وفي ذلكم﴾ أي هذا العذاب الذي كنتم فيه ﴿بلاء﴾ عليكم نعمة أو محنة ﴿من ربكم عظيم﴾ وقد تقدم تفسيرها في البقرة والفائدة في ذكرها في هذا الموضع أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

نهاية الجزء الرابع

تم الجزء الرابع من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء الخامس بإذن الله وأوله.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ
مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ
هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ
سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾

فهرس الجزء الرابع

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الخامس

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الخامس

يبدأ من قوله تعالى سورة الأعراف - ١٤٢
إلى قوله تعالى

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ نكلمه عند انتهائها بأن يصومها وهي ذو القعدة لإعطاء التوراة ﴿وأتممناها﴾ أي المواعدة المفهومة من واعدنا أو ثلاثين ليلة قاله الحوفي والأول أولى ﴿بعشر﴾ ليال من ذي الحجة للتقرب قاله ابن عباس ومجاهد، وفي مصحف أُبَيّ وتمّمناها بالتضعيف وحذف تمييز بعشر لدلالة الكلام عليه.

﴿فتمّ ميقات ربّه﴾ الميقات هو الوقت الذي قدر أن يعمل فيه عمل من الأعمال ، ولهذا قيل:مواقيت الحج أي وقت وعده بكلامه إياه ﴿أربعين ليلة﴾ هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه.

ولقد أجمل ذكر الأربعين في البقرة وذكره هنا على التفصيل وضرب هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته، قاله مجاهد وابن عباس ، قيل وكان التكليم في يوم النحر ، والفائدة في ﴿أربعين ليلة﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها فبين أن العشر غير الثلاثين ، وفي نصب أربعين ثلاثة أوجه (أحدها) أنه حال قاله الزمخشري أي تم بالغاً هذا العدد (الثاني) على المفعول به (الثالث) على الظرف قاله ابن عطية وفيه ضعف.

﴿وقال موسى لأخيه هرون﴾ عند ذهابه الى الجبل للمناجاة ﴿ آخلفني في قومي﴾ أي كن خليفتي فيهم ﴿وأصلح﴾ أمر بني اسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم واحملهم على عبادة الله تعالى ﴿ولا تتّبع سبيل المفسدين﴾ أي لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عوناً للظالمين ، قال ابن عباس: إن موسى قال لقومه:إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلّف هرون فيكم، فلما فصل موسى الى ربه زاده الله عشراً فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب ، ثم ذكر قصة السامري.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ اللام للاختصاص أي كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود، وكان يوم الخميس وكان يوم عرفة وأعطاه التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر ﴿وكلمه ربه﴾ أي اسمعه كلامه من غير واسطة ولا كيفية وأزال الحجاب بين موسى وبين كلامه فسمعه وليس المراد أنه أنشأ كلاماً سمعه لأن كلام الله قديم ولم نر في التفاسير هنا بيان ما فهمه موسى من ذلك الكلام.

أخرج البزار وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات من حديث جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما كلم الله موسى يوم الطور كلّمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا يا موسى صف لنا كلام الرحمن فقال لا تستطيعونه ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به»، وفيه دليل على كلام الله مع موسى.

قال الزمخشري: تكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الاجرام كما خلقه محفوظاً في الألواح انتهى وإليه ذهب المعتزلة وهو مذهب فاسد يرده الكتاب والسنة وأين للشجر وذلك الجرم أن يقول إنني أنا الله الآية.

وذهب الحنابلة ومن وافقهم من أهل الحديث أن كلامه تعالى حروف وأصوات مقطعة وأنه قديم وهو الحق وقد نطق به السنة المطهرة، وقال جمهور المتكلمين: إن كلامه صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات وأرادوا به الكلام النفسي. ولا توجد له رائحة في السنة المطهرة، وكذا ما ذكره الشيخ في التأويلات: أن موسى سمع صوتاً دالاً على كلام الله وهو ظاهر البطلان لمخالفة نص القرآن.

وقد سكت جمع من السلف والخلف عن الخوض في تأويل صفة كلام الله تعالى. وقالوا إنه متكلم بكلام قديم يليق بذاته بحرف وصوت لا يشبه كلام المخلوق ليس كمثله شيء وله المثل الأعلى.

ولما سمع موسى كلام ربه عز وجل اشتاق إلى رؤيته وسأله بقوله ﴿قال ربي أرني﴾ أي أرني نفسك قاله الزجاج وقال ابن عباس: أعطني وأرني فعل أمر مبني على حذف الياء، والمعنى مكني من رؤيتك وهيئني لها فإن فعلت بي ذلك ﴿أنظر إليك﴾ فتغاير الشرط والجزاء، وبالجملة فقد سأله النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لمّا أسمعه كلامه. وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها.

﴿قال لن تراني﴾ جملة مستأنفة لكونها جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل فما قال الله؟ والمعنى: لن تراني بعين فانية بالسؤال بل بعين باقية بالعطاء والنوال أو أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة.

ومنهج الحق واضح، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه أباه وأهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة

المطهرة يوقع في التعصب، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح، وتلقّي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم.

وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجاً وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه والهداية منه.

يـأبى الفتى إلا اتبـاع الهــوى ومـنهــج الحـق لــه واضــح

ولم يقل لن أُرى ليكون نفياً للجواز ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئي، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان، وقد تمسك أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وقالوا لن للتأبيد والدوام، وهذا غلط إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة العربية ولم يقل به أحد منهم. والكتاب والسنة على خلاف ذلك فقد قال تعالى في حق اليهود ﴿ولن يتمنَّوه أبداً﴾ مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ونادوا يا مالك لِيقْض علينا ربّك﴾ وقوله ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ والسنة أكثر من أن تحصى وعبّر بلن تراني دون لن تنظر إليّ مع أنه المطابق لقوله ﴿أنظر إليك﴾ لأن الرؤية هي المقصودة والنظر مقدمتها وقد يحصل دونها.

وأما المطابقة في الاستدراك بقوله ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ فواضحة لأن المقصود منه تعظيم أمر الرؤية. ومعناه أنك لا تثبت لرؤيتي ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة وهو الجبل فانظر إليه ﴿فإن استقرَّ مكانه﴾ وبقي على حاله ولم يتزلزل عند رؤيتي له ﴿فسوف تراني﴾ أي تثبت لرؤيتي، وإن ضعف عن ذلك فأنت منه أضعف، ولا طاقة لك، فهذا الكلام بمنزلة

ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل، وقيل هو من باب التعليق بالمحال، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدمنا.

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والأشعرية، فالمعتزلة استدلوا بقوله لن تراني كما تقدم وبأمره بأن ينظر إلى الجبل. والأشعرية قالوا: إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة، ولا يخفاك أن الرؤية الأخروية هي بمعزل عن هذا كله والخلاف بينهم هو فيها لا في الرؤية في الدنيا فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف.

﴿فلما تجلّى ربّه﴾ تجلى معناه ظهر من قولك جلوت العروس أي أبرزتها وجلوت السيف: خلّصته من الصّدأ. وتجلى الشيء: انكشف، والمعنى فلما ظهر ربه، وقيل المتجلي هو أمره وقدرته، قاله قطرب وغيره ﴿للجبل جعله دكاً﴾ الدك مصدر بمعنى المفعول أي جعله مدكوكاً مدقوقاً فصار تراباً، هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة والدك والدق أخوان وهو تفتيت الشيء وسحقه، وقيل تسويته بالأرض.

وقرأ أهل الكوفة دكاء على التأنيث والجمع دكّاوات كحمراء وحمراوات وهي اسم للرابية الناشزة من الأرض أو للأرض المستوية. فالمعنى أن الجبل صار صغيراً كالرابية أو أرضاً مستوية.

قال الكسائي: الدوك الجبال العراض واحدها أدك والدكاوات جمع دكاء وهي رواب من طين ليست بالغلاظ، والدكادك ما التبد من الأرض فلم يرتفع وناقة دكّاء لا سنام لها، قال سهل بن سعد الساعدي: دكاً يعني مستوياً بالأرض وقيل تراباً، وقيل ساخ حتى وقع في البحر.

وقال عطية العوفي: صار رملاً هائلاً، وقال الكلبي: يعني كسر جبالاً صغاراً، قيل واسم الجبل زبير، قال الضحاك: أظهر الله من نوره مثل منخر

الثور، وقال ابن سلام وكعب: ما تجلى إلا مثل سم الخياط، وقال السدي: إلا قدر الخنصر.

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وغيرهم عن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية جعله دكاً قال: «هكذا وأشار بأصبعيه ووضع ابهامه على أنملة الخنصر، وفي لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل وخر موسى صعقاً، وفي لفظ فساخ الجبل في الأرض فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة[1].

وهذا الحديث صحيح على شرط مسلم، وقال ابن عباس: هذا الجبل هو الطور وما تجلى منه إلا قدر الخنصر جعله تراباً، وقال سهل بن سعد: أظهر نوراً قدر الدرهم من سبعين ألف حجاب، وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لما تجلى الله للجبل صارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة أحد وورقان ورضوى، وبمكة حراء وثبير وثور»[2]، أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم وغيرهم وفي لفظ سبعة أجبل في اليمن اثنان حضور وصبر.

﴿وخرَّ موسى﴾ أي سقط، والخرور السقوط وقيده الراغب بسقوط يسمع له خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو ﴿صعقاً﴾ أي مغشياً عليه لهول ما رأى، مأخوذ من الصاعقة، والمعنى أنه صار حاله لما غشي عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له، يقال صعق الرجل فهو صعق ومصعوق إذا أصابته الصاعقة.

قال الكلبي: صعق موسى يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطى التوراة

(١) ابن كثير ٢/٢٤٤.
(٢) ابن كثير ٢/٢٤٥.

يوم الجمعة يوم النحر، قال ابن عباس: فلم يزل صعقاً ما شاء الله، وقال قتادة: ميتاً والأول أولى لقوله ﴿فلما أفاق﴾ والميت لا إفاقة له، إنما يقال أفاق من غشيته والإفاقة رجوع الفهم والعقل الى الإنسان بعد جنون أو سكر أو نحوهما ومنه إفاقة المريض وهي رجوع قوته وإفاقة الحلب هي رجوع الدر إلى الضّرْع.

قال الواقدي: لما خر موسى صعقاً قالت الملائكة ما لابن عمران وسؤال الرؤية فلما أفاق وعرف أنه سأل أمراً عظيماً لا ينبغي له ﴿قال سبحانك﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به أو عن أن تُرى في الدنيا أو من النقائص كلها ﴿تبت إليك﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فإن الأنبياء معصومون وقيل هي توبته من قتله للقبطي، ذكره القشيري ولا وجه له في مثل هذا المقام، وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فمنعها قال تبت إليك يعني من سؤال ما ليس لي، وما أبعده والأول أولى[1].

﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك وبأنك لا ترى في الدنيا مع جوازها[1].

---

(١) وفي الحديث الصحيح من حديث ابي هريرة وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُخيِّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصعَقون يوم القيامة فأرفع رأسي فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أصعق فيمن صعق فأفاق قبلي أو حُوسب بصعقته الاولى». أو قال «كفته صعقته الأولى». وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن كعب قال: إن الله تبارك وتعالى قسّم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله وسلم عليهما. ذكره القرطبي ٧/ ٢٨٠.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿قال يا موسى إني اصطفيتك﴾ جملة مستأنفة والتي قبلها متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به، والاصطفاء الاختيار والاجتباء أي اخترتك ﴿على الناس﴾ المعاصرين لك﴾﴿برسالاتي﴾ كأنه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب فجمع لاختلاف الأنواع وقرىء بالافراد ﴿وبكلامي﴾ المراد به هنا التكليم، امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة.

﴿فخذ ما آتيتك﴾ أمره بأن يأخذ ما آتاه أي أعطاه من هذا الشرف الكريم والفضل الجسيم ﴿وكن﴾ أمره بأن يكون ﴿من الشاكرين﴾ على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ مما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم، وقال السدي: من كل شيء أمروا به ونهوا عنه، وعن مجاهد مثله.

وقد اختلف السلف في المكتوب في الألواح اختلافاً كثيراً، ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافي، وهذه الألواح هي التوراة قيل كانت من زمردة خضراء، وقيل من-ياقوتة حمراء، وقيل من زبرجدة خضراء وقيل من صخرة صماء، وقيل من خشب نزلت من السماء.

وقد اختلف في عدد الألواح وفي مقدار طولها وعرضها، والالواح جمع

لوح وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب في الألواح وهي مكتوبة بأمره سبحانه، وقيل هي كتابة خلقها الله في الألواح.

وفي الحديث «خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وفي لفظ غرس الفردوس بيده» ، رواه الدارمي وابن النجار وغيرهما عن عبد الله بن الحرث والمحفوظ أنه موقوف وفيه أبو معشر متكلم فيه.

قال ابن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده العرش والقلم وعدن وآدم، وعن ميسرة أن الله لم يمس شيئاً من خلقه غير ثلاث خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده ونحوه عن كعب، رواهما الدارمي، وعن علي بن أبي طالب قال: كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام في اللوح، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: الالواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً» أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه.

وعن سعيد بن جبير قال: كانوا يقولون كانت الالواح من ياقوتة حمراء، وأنا أقول إنما كانت من زمرد وكتابتها الذهب كتبها الله بيده فسمع أهل السموات صريف الاقلام.

أقول: رحم الله سعيداً ماكان أغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه فمثله لا يقال بالرأي ولا بالحدس، والذي يغلب به الظن: أن كثيراً من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور فلهذا اختلفت واضطربت الأقوال فيها فهذا يقول من خشب، وهذا يقول من ياقوت وهذا

يقول من زمرد، وهذا يقول من زبرجد، وهذا يقول من برد وهذا يقول من حجر[١].

﴿موعظة﴾ لمن يتعظ بها من بني اسرائيل وغيرهم، وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي للاحكام المحتاجة إلى التفصيل وتبياناً لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام، قيل أنزل التوراة وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها إلا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى.

﴿فخذها﴾ أي الالواح وقيل:الضمير عائد الى الرسالات أو إلى كل شيء أو إلى التوراة قيل:وهذا الأمر على اضمار القول أي قلنا له خذها ﴿بقّوة﴾ أي بجد ونشاط وقال ابن عباس: بحزم، وقال الربيع بن أنس: بطاعة وقال السدي: باجتهاد وقيل: بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة.

﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أي بأحسن ما فيها مما أجره أكثر من غيره وهو مثل قوله تعالى ﴿اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وقوله ﴿فيتبعون أحسنه﴾ ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة وبالفريضة دون النافلة وفعل المأمور وترك المنهى عنه وقال ابن عباس: يحلُّوا حلالها ويحرِّموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى أشدَّ عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به.

وقيل: الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والأحسن الأخذ بالأشد والأشق على النفس، وقيل: أحسن بمعنى حسن وكلها حسن.

---

(١) وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دينار قال: بلغني ان موسى بن عمران نبي الله صلى الله عليه وسلم صام اربعين ليلة فلما القى الالواح تكسرت، فصام مثلها فردت اليه.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أي الكفار قاله ابن عباس وهي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه قاله عطية العوفي وقيل منازل عاد وثمود قال الكلبي: قيل هي جهنم قاله الحسن، وعطاء وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها قاله السدي، وقال قتادة: سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية، وقيل الدار الهلاك والمعنى سأريكم هلاك الفاسقين، وقد تقدم تحقيق معنى الفسق، وقال مجاهد: سأريكم مصيرهم في الآخرة وقال قتادة: منازلهم في الدنيا.

ومعنى الإراءة: الإدخال بطريق الإرث، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿سأورثكم﴾ بالثاء المثلثة كما في قوله ﴿وأورثنا﴾ القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، قاله أبو السعود، وهذه القراءة ترد القول بأنها جهنم.

والعجب من السيوطي بعد هذا الخلاف المقرر كيف يرده بدعوى التصحيف والتحريف فإنه قد ذكر في حسن المحاضرة ما نصه:

اشتهر على ألسنة كثير من الناس أنها مصر، وقد أخرج ابن الصلاح وغيره من الحفاظ أن ذلك خلط نشأ عن تصحيف، وإنما الوارد عن مجاهد وغيره من مفسري السلف في قوله تعالى ﴿سأريكم﴾ الخ قال مصيرهم فصحفت انتهى، وجمهور المفسرين على أن بني اسرائيل بعد ذهابهم إلى الشام رجعوا إلى مصر وملكوا أرض القبط وأموالهم وبه قال القرطبي والكرخي وهو قول الحسن وقيل إنهم لم يعودوا إلى مصر، وهو قول ضعيف جداً.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض﴾ قيل معناه سأمنعهم فهم كتابي أي أنزع عنهم فهم القرآن، قاله سفيان بن عيينة، وقال السدي: عن أن يتفكروا في آياتي، وقال ابن جريج عن التفكر في خلق السموات والأرض والآيات التي فيهما، وقيل سأصرفهم عن الإيمان بها والتصديق بما فيها وقيل عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقيل سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها.

واختلف في تفسير الآيات فقيل هي المعجزات التسع التي أعطاها الله لموسى. وقيل: الكتب المنزلة وقيل خلق العالم ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك، وحمل الصرف على جميع المعاني المذكورة، والتكبر: اظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق العباد أي يفتعلون الكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال ﴿بغير الحق﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق أو متلبسين بغير الحق.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة والآيات التكوينية والمعجزات أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت.

﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة

في حكمه وكذلك ﴿وإن يروا سبيل الغي يتَّخذوه سبيلاً﴾ والمعنى: أنهم إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب تركوه وتجنبوه، وان رأوا سبيلاً من سبل الغي والضلال سلكوه واختاروه لأنفسهم.

قال أبو عبيدة: فرق أبو عمرو بين الرُّشد والرَّشد فقال الرشد الصلاح والرَّشد في الدين وقال النحاس: سيبويه يذهب إلى أن الرُّشد والرَّشد كالسُّخط والسَّخط وهما لغتان وأصل الرُّشْد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد وهو ضد الخيبة.

﴿ذلك﴾ اشارة إلى ما ذكر من تكبرهم وعدم الإيمان بالآيات وتجنب سبيل الرشد وسلوك سبيل الغي وهو مبتدأ خبره قوله سبحانه ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها.

﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء﴾ الدار ﴿الآخرة﴾ يعني لقاءهم لها أو لقاءهم ما وعدوا به فيها ذكرهما الزمخشري ﴿حبطت أعمالهم﴾ الحباط البطلان أي بطل ما عملوه في الدنيا مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وإن كانوا في حال كفرهم لا طاعات لهم كأن لم تكن، ويحتمل أن يراد: أنها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير اسلامهم لما في الحديث الصحيح[أسلمت على ما أسلفت من خير].

﴿هل يجزون إلا ما﴾ أي بما ﴿كانوا يعملون﴾ أو على ما كانوا أو جزاء ما كانوا، قدره الواحدي وقال هنا: لا بد منه قال السمين وهو واضح، لأن نفس ما كانوا يعملونه لا يجزونه إنما يجزون بمقابلة أعمالهم من الكفر بالله والتكذيب بآياته وتنكب سبيل الحق وسلوك سبيل الغي.

وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أي من بعد خروجه إلى الطور وذهابه إلى المناجاة ﴿من﴾ للتبعيض أو للابتداء أو للبيان ﴿حُليّهم﴾ التي استعاروها من قوم فرعون للعيد ليتزينوا به حين هموا بالخروج من مصر، واضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو لأنها بقيت عندهم إلى أن هلك فرعون وقومه فصارت ملكاً لهم، والحليّ بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء جمع حلى وبه قرأ أهل المدينة وأهل البصرة.

وقرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي إلا عاصماً بكسر الحاء بالاتباع أي باتباع الحاء للام كدلي وهو ظاهر، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء قال النحاس: جمع حَلي وحَليّ وحُلى مثل ثَدي وثَديّ وثُدى .

﴿عجلاً﴾ أي اتخذوا عجلاً إلهاً و ﴿جسداً﴾ بدل من عجلاً أو وصف له يعني: اتخذوا من ذلك الحلي وهو الذهب والفضة عجلاً ﴿له خُوار﴾ أي صوت البقر، هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين، والخوار: الصياح يقال: خار يخور خواراً إذا صاح، وكذلك خار يخار ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً مع أنه اتخذه السامري وحده لكونه واحداً منهم وهم راضون بفعله.

روي أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فأبطأ عليهم في العشر المزيدة قال السامري لبني اسرائيل وكان مطاعاً فيهم: أن معكم حلياً من حلى آل فرعون الذي استعرتموه منهم لتتزينوا به في العيد وخرجتم وهو معكم، وقد

أغرق الله أهله من القبط فهاتوه فدفعوه إليه فاتخذ منه العجل المذكور.

قال قتادة: فجعله جسداً لحماً ودماً له خوار قال عكرمة: صوت، وقيل كان جسداً لا روح فيه وكان يسمع منه صوت من خفق الريح والأول أولى لأنه كان يخور قال وهب: كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك، وقال السدي: كان يخور ويمشي وقرأ علي وأبو السماك له جؤار بالجيم والهمزة وهو الصوت الشديد.

﴿ألم يروا أنّه لا يكلمهم﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم أو دفع ضر عنهم ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي طريقاً واضحة يسلكونها وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد ﴿اتخذوه﴾ إلهاً، وأعيد تأكيداً ﴿وكانوا ظالمين﴾ لأنفسهم في اتخاذه إلهاً أو في كل شيء ومن جملة ذلك الاتخاذ.

﴿ولماً سقط في أيديهم﴾ أي ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات، يقال للنادم المتحير: قد سقط في يده قال الأخفش: يقال سقط وأسقط، ونقله أيضاً الفراء والزجاج إلا أن الفراء قال: سقط أي الثلاثي أكثر وأجود.

وهذه اللفظة تستعمل في الندم والتحير، وقد اضطربت أقوال أهل اللغة في أصلها، قال الواحدي: قد بان من أقوال المفسرين وأهل اللغة أن سقط في يده ندم وانه يستعمل في صفة النادم، فأما القول في أصله ومأخذه فلم أر لأحد من أئمة اللغة شيئاً أرتضيه فيه إلا ما ذكره الزجاج فانه قال: إنه بمعنى ندموا.

وقال أبو عبيدة: يقال لمن ندم على أمر وعجز عنه سقط في يده، وقال الزمخشري: معناه لما اشتد ندمهم، ومن قال: سقط على البناء للفاعل فالمعنى عنده: سقط الندم وأصله ان من شأن من اشتد ندمه وحسرته ان يعض يده غماً

فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها، وفي الجمل سقط فعل ماض مبني للمجهول وأصله سقطت أفواههم على أيديهم، فـ (في) بمعنى (على) وذلك من شدة الندم فان العادة ان الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصابعه فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم فاطلق اسم اللازم وأريد الملزوم على سبيل الكناية.

وهذا التركيب لم تعرفه العرب إلا بعد نزول القرآن، ولم يوجد ذلك في أشعارهم والسقوط: عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل، وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم: معنى سقط في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وان كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال تعالى ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾.

وأيضاً الندم وإن حلَّ القلب فأثره يظهر في اليد لأن النادم يعض يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال تعالى ﴿فأصبح يقلب كفّيه على ما انفق فيها﴾ ومنه: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ أي من الندم وأيضاً النادم يضع ذقنه في يده.

﴿ورأوا﴾ أي تبينوا وتيقنوا ﴿أنهم قد ضلوا﴾ باتخاذهم العجل وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه في عبادتهم العجل ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننَّ من الخاسرين﴾ وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال والاعتراف بعظم ماأقدموا عليه من الذنب، والندم على ما صدر منهم والرَّغب إلى الله في إقالة عثرتهم واعترافهم على أنفسهم بالخسران ان لم يغفر لهم ربهم ويتب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم، وسيأتي في سورة طه ان شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

﴿ولمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، والأسف: شديد الغضب قاله محمد بن كعب، وقيل هو منزلة وراء الغضب أشد منه، قاله أبو الدرداء، وقال ابن عباس والسدي: الأسف الحزن والأسيف الحزين، قال الواحدي: والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزناً والأخرى غضباً يقال: هو أسف وأسيف وأسفان وأسوف.

قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، وأن السّامري قد أضلهم فلذلك رجع وهو غضبان أسفاً.

﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ هذ ذم من موسى لقومه أي بئس العمل ما عملتموه من بعد غيبتي عنكم وفراقي إياكم، يقال: خلفه بخير، وخلفه بشر، استنكر عليهم ما فعلوه وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الإنزجار، والإيمان بالله وحده، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلوُّن حالهم واضطراب أفعالهم.

ثم قال منكراً عليهم ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ العجلة التقدم بالشيء قبل وقته يقال: عجلت الشيء سبقته وأعجلت الرجل حملته على العجلة، ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشيء في أول وقته،

والمعنى أعجلتم عن انتظار أمر ربكم أي ميعاده الذي وعدنيه وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم، قاله الحسن وقيل معناه تعجلتم سخط ربكم وقيل معناه أعجلتم وأسبقتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم، قاله الكلبي، وقيل معنى أعجلتم تركتم والأول أولى.

﴿وألقى الألواح﴾ التي فيها التوراة أي طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف وفرط الزجر حمية للدين حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، قال ابن عباس: لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها.

وعنه كما أخرج أبو الشيخ رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع، وقال مجاهد: لما ألقاها موسى ذهب التفصيل يعني أخبار الغيب، وبقي الهدى أي ما فيه المواعظ والأحكام، عن ابن جريج قال: كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة وفي زاده: المراد بإلقائها أنه وضعها في موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمة قومه لا رغبة عنها فلما عاد إليها أخذها بعينها.

﴿وأخذ برأس أخيه﴾ هارون أو بشعر رأسه ولحيته حال كونه ﴿يجره﴾ إليه من شدة غضبه لا هواناً به قال ابن الانباري: مد يده إلى رأسه لشدة وجده عليه وفعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري ولا غير ما رآه من عبادة بني إسرائيل للعجل.

﴿قال﴾ هارون معتذراً منه يا ﴿ابن أم﴾ إنما قال هذا مع كونه أخاه لأبيه وأمه لأنها كلمة لين ورفق وعطف، ولأن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد مع أنها كما قيل كانت مؤمنة، وقال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه، قال أبو السعود: وكان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل.

﴿إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ أي إني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي، مع إني لم آل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار.

﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ الشماتة: أصلها الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال: شمت فلان بفلان إذا سر بمكروه نزل به، والمعنى لا تسر الأعداء بما تفعل بي من المكروه، وفي المصباح شمت به يشمت من باب سلم إذا فرح بمصيبة نزلت به، والاسم الشماتة وأشمت الله العدو به ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء»، وهو في الصحيح[1].

قيل: والمعنى لا تفعل بي ما يكون سبباً للشماتة منهم، وقال مجاهد ومالك ابن دينار: لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي، وقال ابن جني: والمعنى فلا تشمت بي أنت يا رب، وما أبعد هذا المعنى عن الصواب، وأبعد تأويلها عن وجوه الاعراب.

﴿ولا تجعلني مع القوم الظّالمين﴾ أي لا تجعلني بغضبك في عداد القوم الذين عبدوا العجل أو لا تعتقد أني منهم مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾ طلب المغفرة له أولاً ولأخيه ثانياً ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة فكأنه قد ندم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ التي وسعت كل شيء ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ فيه ترغيب في الدعاء لأن من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة، وفيه تقوية لطمع الداعي في نجاح طلبته.

---

(١) مسلم ٢٧٠٧ ـ البخاري ٢٤٠١.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿إن الذّين اتّخذوا العجل﴾ إلهاً عبدوه من دون الله ﴿سينالهم غضب من ربهم﴾ الغضب ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب ﴿وذلّة في الحياة الدنيا﴾ الذلة هي التي ضربها الله عليهم بقوله: ﴿ضربت عليهم الذّلـة﴾ وقيل هي إخـراجهم من ديارهم، والأولى أن يقيدً الغضب والذلة بالدنيا لقوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾ وإن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلهاً لا لمِن بعدهم من ذراريهم،ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم وبه يصيرون أذلاء وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم وبه يصيرون أذلاء.

وأما ما نال ذراريهم من الذل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال ابن عباس وعطية العوفي فلا يصح تفسير ما في الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي، وهو لم يتعذر هنا، وقال ابن جريج: إن هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل، وهذا الذي قاله وإن كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلاف ذلك.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء ﴿نجزي المفترين﴾ أن نفعل بهم، عن أيوب قال هو جزاء كل مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله، وقال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة، وقال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد ما فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال: والمبتدع مفتر في دين الله اهـ.

والافتراء الكذب، فمن افترى على الله سيناله غضب وذلة في الحياة الدنيا وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء، بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه وإن فيه ذلة بأي نوع كان، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى.

﴿والذين عملوا السَّيئات﴾ أي سيئة كانت حتى الكفر وما دونه ومن جملتها عبادة العجل ﴿ثم تابوا من بعدها﴾ أي من بعد عملها ﴿وآمنوا﴾ بالله ﴿إن ربك﴾ أيها التائب أو يا محمد ﴿من بعدها﴾ أي من بعد هذه التوبة أو من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله ﴿لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم.

وفي الآية دليل على أن السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعاً بفضله ورحمته، وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين.

﴿ولما سكت﴾ وقرىء أسكت ﴿عن موسى الغضب﴾ أصل السكوت السكون والإمساك عن الشيء يقال جرى الوادي ثلاثاً ثم سكت أي مسك وسكن عن الجري، وقيل هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك فترك الإغراء وسكت.

وقيل هذا الكلام فيه قلب، والأصل سكت موسى عن الغضب كقولهم أدخلت الأصبع الخاتم والخاتم الأصبع، وأدخلت القلنسوة رأسي، ورأسي القلنسوة، والأول أولى، وبه قال أهل اللغة والتفسير وفيه مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغري عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت.

﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها عند الغضب، قال الرازي: وظاهر هذا

يدل على أن الألواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة شيء ﴿وفي نسختها﴾ فعله بمعنى مفعولة كالخطبة، والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه نسخة وللمنقول نسخة أيضاً، قال القشيري: والمعنى أي فيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة، وقيل المعنى وفيما نسخ لـه منها أي من اللوح المحفوظ وقيل المعنى وفيما كتب له فيها فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، وهذا كما يقال انسخ ما يقول فلان أي اثبته في كتابك.

﴿هدى﴾ أي ما يهتدون به من الأحكام ﴿ورحمة﴾ أي ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة، قال مجاهد: ولم يذكر التفصيل ههنا وقال ابن عباس: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿للّذين هم﴾ أي كائنة لهم أو لأجلهم واللام في ﴿لربهم﴾ للتقوية للفعل، وقد صرح الكسائي بأنها زائدة وقال الأخفش: هي لام الأجل، وقال المبرد: التقدير للذين هم رهبتهم لربهم ﴿يرهبون﴾ أي يخافون منه سبحانه[1].

---

(١) قيل: هذا من تمام كلام موسى عليه السلام؛ اخبر الله عز وجل به عنه، وتمّ الكلام. ثم قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ»، وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل ان يتوب القوم بقتلهم أنفسهم، فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد ان جرى القتل العظيم ـ كما تقدّم بيانه في «البقرة» أخبرهم ان من مات قتيلاً فهو شهيد، ومن بقي حياً فهو مغفور له. وقيل: كان ثم طائفة اشربوا في قلوبهم العجل، اي حبه، فلم يتوبوا، فهم المعنيون بقوله: «إن الذين اتخذوا العجل». وقيل: أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات، وقيل: أراد اولادهم. وهو ما جرى على قريظة والنضير، اي سينال أولادهم. والله اعلم. ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ اي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين. ذكره القرطبي في ٢٩٢/٧.

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم، والاختيار افتعال من الخيار، يقال اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره، والمعنى اختار من قومه فحذف كلمة من وذلك شائع في العربية لدلالة الكلام عليه قيل اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين، فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحنوا فقال لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وذهب معه الباقون.

وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً فأوحى الله إليه أن يختار من الشبان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم موسى أن يصوموا ويطهروا ثيابهم ثم خرج بهم إلى طور سيناء ذكره الخطيب وقيل غير ذلك.

﴿لميقاتنا﴾ أي للوقت الذي وقتناه له بعد أن وقع من قومه ما وقع، والميقات الكلام الذي تقدم ذكره لأن الله أمره أن يأتي إلى الطور في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل، كذا قيل وقال مجاهد: المعنى لتمام الموعد، وقيل هذا الميقات غير ميقات الكلام السابق في قوله: ﴿وواعدنا موسى﴾ فهذا بعد ميقات الكلام ولم يبينوا مدة هذا.

وقال ابن عباس: أمره الله أن يختار سبعين رجلاً فاختارهم وبرز بهم

ليدعو ربهم فكان فيما دعوا لله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة كما قال: ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ هي في اللغة الزلزلة الشديدة قيل إنهم زلزلوا حتى ماتوا يوماً وليلة وقال وهب لم تكن موتاً ولكن أخذتهم الرِّعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم.

ومعظم الروايات أنهم ماتوا قال مجاهد: ماتوا ثم أحياهم الله تعالى وسبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة﴾ على ما تقدم في البقرة وقيل هؤلاء السبعون غير من قالوا أرنا الله جهرة بل أخذتهم الرجفة بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل، وقيل إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم.

فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ المعنى لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت وقال ذلك اعترافاً منه عليه السلام بالذنب وتلهفاً على ما فرط من قومه ﴿وإياي﴾ معهم وذلك أنه خاف أن يتهمه بنو إسرائيل على السبعين ولم يصدقوا بأنهم ماتوا.

﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ الاستفهام للجحد أي لست ممن يفعل ذلك قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع، قاله ابن الانباري وقيل معناه الدعاء والطلب أي لا تهلكنا قاله المبرد، وقيل قد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره ولكنه كقول عيسى عليه السلام إن تعذبهم فإنهم عبادك وقيل المراد بالسفهاء السبعون، والمعنى أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم أرنا الله جهرة، وقيل المراد بهم السامري وأصحابه.

﴿إن هي﴾ قال الواحدي: الكناية في هي تعود إلى الفتنة كما تقول إن

هو إلا زيد ﴿إلا فتنتك﴾ التي تختبر بها من شئت وتمتحن بها من أردت، ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه: ﴿إنا قد فتنا قومك من بعدك﴾ قال أبو العالية: بليّتك وقال ابن عباس: مشيئتك ﴿تضل بها﴾ أي بهذه الفتنة ﴿من تشاء﴾ من عبادك ﴿وتهدي﴾ بها ﴿من تشاء﴾ منهم ومثله ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال الواحدي: وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر.

ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال: ﴿أنت ولينا﴾ أي المتولي لأمورنا وهذا يفيد الحصر أي لا ناصر ولا حافظ إلا أنت ﴿فاغفر لنا﴾ ما أذنبناه ﴿وارحمنا﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿وأنت خير الغافرين﴾ للذنوب.

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة أو تفضل علينا بإفاضة النعم من الحياة الطيبة والعافية وسعة الرزق ﴿و﴾ اكتب لنا ﴿في الآخرة﴾ الجنة بما تجازينا به أو بما تتفضل به علينا من النعيم في الآخرة ﴿إنا هدنا﴾ تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة في الدنيا وفي الآخرة أي إنا تبنا ﴿إليك﴾ ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل، والهود التوبة، وقد تقدم في البقرة وبه قال جميع المفسرين قيل وبه سميت اليهود، وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم ثم صار اسم ذم وهو لازم لهم، وأصل الهود الرجوع برفق والمهادنة المصالحة قال عكرمة فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة.

وقال أبو وجزة السعدي: وكان من أعلم الناس بالعربية: لا والله ما أعلمها في كلام العرب هدنا قيل فكيف؟ قال: هدنا بكسر الهاء يقول ملنا.

﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾ قيل المراد بالعذاب هنا الرجفة، وقيل

أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم أي ليس هذا إليك يا موسى بل ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن، والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولاً أولياً، وقيل المراد من أشاء من المستحقين للعذاب أو من أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق ليس لأحد عليّ اعتراض لأن الكل ملكي وعبيدي.

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من المكلفين وغيرهم، قيل هذا من العام الذي أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في الدنيا، وهي للمؤمنين خاصة في الآخرة، قاله الحسن وقتادة، وقال جمع من المفسرين: لما نزلت هذه الآية تطاول إبليس إليها قال وأنا من ذلك الشيء فنزعها الله من إبليس قاله السدي وابن جريج، وعن قتادة نحوه فقال: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ الذنوب أو الشرك قاله ابن عباس ﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة عليهم ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي يصدقون ويذعنون لها، فأيس إبليس، وقالت اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الأمة.

وأخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ان لله مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»[1]، وعن ابن عباس قال سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وأعطى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كل شيء سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه في هذه الآية.

---

(١) وفي رواية لمسلم: ان لله مائة رحمة، انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس، والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة مسلم (٢٧٥٢) البخاري ٢٣٢٠.
وفي رواية خلق الله مائة رحمة، فوضع واحدة بين خلقه وخبأ عنده مائة الا واحدة.

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال: ﴿الذين يتبعون﴾ قال الرازي: هم من بني إسرائيل خاصة وقال الجمهور: هم جميع الأمة سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿الرسول النبي الأمي﴾ هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإجماع المفسرين فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل، والأمي إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب ولا تقرأ، وهم العرب قاله الزجاج أو نسبة إلى الأم والمعنى أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وقيل نسبة إلى أم القرى، وهي مكة والأول أولى.

وكونه أمياً من أكبر معجزاته وأعظمها، قال السيد الغبريني المقري شارح البردة: إن كونه أمياً معجزة له كما قرروه حتى لا يرتاب أحد في كلام الله، يرد عليه إنه لو ثم قيل عليه لم خلق أفصح الناس ولم يخلق غير فصيح حتى يعلم أن ما يتلوه من الكلام المعجز ببلاغته ليس كلامه.

قال الشهاب في الريحانة قوله هذا ليس بشيء لأن الامية سابقة في أكثر فصحاء العرب وهم في غناء عن الكتابة، وأما عدم الفصاحة فلكنة وعيب عظيم منزه عنه عال مقامه، وطاهر فطرته وجوهر جبلته، وهذا البحث مما لا تراه في غير كتابنا هذا.

وقال في حاشية البيضاوي قيل إنه منسوب إلى الأم بفتح الهمزة بمعنى

القصد لأنه المقصود وضم الهمزة من تغيير النسب، ويؤيده قراءة يعقوب بفتح الهمزة انتهى.

قال أبو السعود: أي الذي لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين انتهى، وهل صدر عنه ذلك في كتابه صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور أو إنه لم يكتب وإنما اسند إليه مجازاً، وقيل إنه صدر عنه ذلك على سبيل المعجزة وتفصيله في فتح الباري.

﴿الذي يجدونه﴾ يعني اليهود والنصارى أي يجدون نعته ﴿مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ وهما مرجعهم في الدين وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الاخبار بما سيكون.

قال الرازي: وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب فيهما لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله لأن الاصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله وينفر الناس عن قبول قوله، فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته انتهى وسيأتي الكلام على ذلك في آخر هذه الآية إن شاء الله تعالى مستوفى.

أخرج ابن سعد والبخاري وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن عطاء ابن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للاميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

وروي نحو هذا مع اختلاف في بعض الألفاظ وزيادة ونقص في بعض

عن جماعة، وذكر الخميسي في تاريخه أن لفظ محمد مذكور في التوراة باللغة السريانية بلفظ المنحمنا، ومعنى هذا اللفظ في تلك اللغة هو معنى لفظ محمد وهو الذي يحمده الناس كثيراً وذكر أن لفظ أحمد مذكور في الإنجيل بهذا اللفظ العربي الذي هو أحمد.

﴿يأمرهم بالمعروف﴾ أي بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التي هي من مكارم الأخلاق ﴿وينهاهم عن المنكر﴾ أي عما تنكره القلوب ولا تعرفه وهو ما كان من مساوىء الأخلاق، قال عطاء: يأمرهم بخلع الانداد وصلة الارحام، وينهاهم عن عبادة الأصنام وقطع الارحام.

﴿ويحل لهم الطيبات﴾ أي المستلذات التي تستطيبها الأنفس، فتكون الأية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل، وقيل ما حرم عليهم من الأشياء التي حرمت عليهم بسبب ذنوبهم من لحوم الإبل وشحوم الغنم والمعز والبقر، وقيل ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ أي المستخبثات كالحشرات والخنازير والربا والرشوة وقال ابن عباس يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل ما يستخبثه الطبع أو تستقذره النفس فإن الأصل في المضار الحرمة إلا ما له دليل متصل بالحل.

﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ الإصر الثقل أي يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة أو العهد الذي أخذ عليهم أن يعملوا بما في التوراة من الأحكام وقد تقدم بيانه في البقرة ﴿والأغلال التي كانت عليهم﴾ الاغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التي كانوا قد كلفوها، وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت، وإن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس إلى غير ذلك.

﴿فالذين آمنوا به﴾ أي بمحمد ﷺ واتبعوه فيما جاء به من الشرائع ﴿وعزروه﴾ أي عظموه ووقروه قاله الأخفش وقيل معناه منعوه من عدوه وأصل العزر المنع ﴿ونصروه﴾ أي قاموا بنصره على من يعاديه ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ أي القرآن الذي أنزل عليه مع نبوته وقيل المعنى واتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتباعه بالعمل بسنته مما يأمر به وينهي عنه أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتصفين بهذه الأوصاف ﴿هم المفلحون﴾ أي الناجون الفائزون بالخير والفلاح والهداية لا غيرهم من الامم.

وهذه الآية فيها دلالة واضحة وحجة نيرة على كون ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثابتاً في الكتب القديمة، فلنذكر ههنا ما يوافقها منها فأقول.

قال أهل الكتاب يجب على النبي أن يكون منصوصاً عليه فيما قبله من الكتب، ومحمد لم يكن منصوصاً عليه فليس بنبي، أما الصغرى فلأنه لو لم يكن منصوصاً عليه لأشكل على الأمة معرفته، وأما الكبرى فلعدم وجود النص.

والجواب عنه بمنع الصغرى لأنه لا يجب أن يكون منصوصاً عليه في سجل من قبله لأن شرط صدق النبوة الاتيان بالخارقة، ولو كان شرطه النص لامتنع الاستعجاز وعليه أهل التحقيق فيبطل القياس، وبمنع الكبرى لأن محمداً ﷺ قد نص عليه موسى ويوشع وداود وسليمان وأشعيا وارميا وملاخيا وزكريا وعيسى عليهم السلام فيكون نبياً.

ومن البراهين على اثبات نبوته ﷺ ما ورد في الأعمال من كتاب الاستثناء «وسيقيم لكم الرب إلهكم من اخوتكم نبياً مثلي فاسمعوا جميع ما يأمركم به فإن كل نفس لا تسمع أمر ذلك النبي تستأصل من بين القوم».

وهذا هو الدليل الذي تمسك به جماعة من المسلمين على نبوته ﷺ وأثبتوا

دلالته على ذلك بعشرة وجوه ذكرت في محلها، وفسره النصارى في شأن المسيح وزعموا أنه هو الذي وعد به موسى لأنه تولد في دار يوسف بن يعقوب بن متان من زوجته مريم بنت عمران، وهذا التفسير بديهي البطلان إذ لو كان المراد به نبياً من بني إسرائيل لكان الأولى به يوشع بن نون أو اشمويل أو العزير أو داود أو سليمان أو اشعيا أو غيره من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، ولكنه تعالى فرزه عن بني إسرائيل بقوله: «من إخوتكم» نظراً إلى أنهم نفس اسحق فتكون اخوتهم بنو اسمعيل بلا مناقشة.

وهذا حوار مطرد عند اليهود والعرب كما قال: «سيأتي المنقذ من صهيون ويخرج النفاق من يعقوب» أي من بني يعقوب إلى غير ذلك.

وإلا فأقول إن عيسى ابن مريم بن اسرائيل وإسرائيل أخ لنفسه ينتج أن عيسى بن مريم ابن أخ لنفسه، وليس الأمر كذلك أما الصغرى فلاعتراف النصارى بأن المسيح من أولاد داود ولا شك أن داود من أولاد إسرائيل وولد الولد ولد، وأما الكبرى فلما ظهر من هذا النص من أن أخ الإنسان عبارة عن نفسه.

وأجيب بمنع الصغرى لأن الاخوين لفظان متباينان لا يصدق أحدهما على مفهوم الآخر وإلا يلزم ترادف المتباينين وهو باطل، ولا يرد عليه مثل البيع لأن العمدة في اللغة السماع ولم ينقل عن أحد فيكون المنصوص عليه محمداً ﷺ بلا مناقشة بدليل قوله: «فاسمعوا جميع ما يأمركم به» الخ لأن عيسى عليه السلام لم يأت في دعوته بقهر يجبر به القوم لأن دعوته كانت على سنبيل الترغيب لا غير.

وإلا فليكن المسيح هو المنصوص عليه، وحينئذ أقول كل نصراني يسلم أو يتهود يجب عليه القتل وكل نصرانية تزني يجب عليها الرجم لقوله: ﴿كل نفس﴾ الخ لكن النصراني إذا ارتد والنصرانية إذا زنت لا يحدا، فالمسيح ليس بمنصوص عليه في هذا المقام، أما المقدم فلوضوح النص في قوله: ﴿كل نفس

لا تسمع﴾ الخ لأنه أمر بالاستقامة على الدين والإحصان وإلا فليس بنبي، وأما التالي فلعدم إجراء الحدود في ملته ألم تر أن النصراني يسلم ويتهود ويتبرهم ولا يجب عليه حد، وانه ربما ينقض جميع سنن الانجيل وأحكامه ويرتكب ما يخالفها ولا ينكر عليه أحد.

وهذا بخلاف ملة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فان عدم امتثال بعض أوامره يوجب هرق الدم وازهاق الأنفس فيكون هو المنصوص عليه بهذا النص، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾.

وفي انجيل متى وفي كتاب اشعيا هذا هو عبدي الذي انتخبت ومحبوبي الذي رضيت عليه فسأحل روحي عليه وسيظهر للعوام الدينونة ولن يصرخ ولن يصيح ولن يسمع صوته في الأزقة أحد، ولن يكسر قصبة مرضوضة ولن يطفيء ذبالة مدخنة حتى يخرج الدينونة المنصرة ويتكل على اسمه العوام انتهى، وهذا نص صريح على اثبات نبوة نبينا ﷺ.

وأما استدلال النصارى بهذا على كون المسيح ابن الله وخاتم الأنبياء فلا دلالة لها عليه إذ الجزاء فيه اتكال العوام عليه، وقد صلب أو رفع ولم يتكل عليه العوام، وقد مضى من ارتفاعه أو صلبه إلى زمان تحرير هذه السطور ١٨٧٩ سنة ولم يجتمع عليه من العوام أحد إلا اليونانيون والأرمن والجروج والفرنج وبعض الحبش، وهذا ليس باجماع لأن أقل مراتب الإجماع أعظم النصفين، وقد يظهر لك بالنظر في الجغرافيا أن النصارى أقل من عشر غيرهم فينتقض الإجماع.

وأما حلول الروح عليه وإظهاره الدينونة للعوام واتصافه بهذه الصفات المرضية فلا دلالة لها على كونه ابن الله وخاتم الأنبياء، لأن نزول الروح مما يختص بالاخيار واظهار الدينونة مما يختص بالملوك، ولا شك أن روح القدس قد حلت عليه، وانه قد أخبرنا بالدينونة العظمى التي هي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم، لكنه يدل على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وهو ممنوع.

وأما اظهار الدينونة واتكال العوام عليه، فليس كما أوله النصارى، بل إنما المراد بالاظهار الاخبار، وباتكال العوام عليه، اتكالهم على ذلك الاخبار لا غير، وإلا لفسد المعنى لأن حلول الروح عليه واظهاره الدينونة للعوام وعدم صراخه وصياحه إلى آخره مقيد بأخبار الدينونة للنصرة واتكال العوام على اسمه ووقوع المشروط عين اطلاق الشرط فما يكون بعد ذلك.

فإن قلت سيكون سلطاناً شديداً منعته لعدم وقوعه وعدم ادعاء النصارى به، وإن قلت شيطاناً عنيداً منعته لتقدس ذاته وانكار النصارى له.

ولأني أقول ان كان عيسى بن مريم هو المخصوص بهذا النص فبعد اخراج الدينونة للنصرة واتكال العوام على اسمه لا بد أن ترفع عنه روح الله التي حلت عليه، لكن المسيح هو المقصود بهذا النص ينتج أن روح الله قد رفعت عنه، والتالي باطل فالمقدم مثله.

أما بطلان التالي فلأن روح الله لا ترتفع عن أنبيائه، وأما بطلان المقدم فلصدق استثناء نقيضه.

إذا علمت ذلك فاعلم أيدك الله بروحه القدسية ان خلاصة هذا النص أنه تعالى قد أخبر بأن عيسى عليه السلام هو نبيه الذي انتخب في ذلك الزمان ومحبوبه الذي رضي عليه في تلك الأيام، ووعد أنه سيحل عليه روحه، وسيظهر الدينونة أي القضاء للعوام أي يخبر بها ووصفه بالسكوت وعدم المكابرة ردعاً لليهود لأنهم يقولون ان المسيح ملك عظيم الشأن وقيد ذلك باخراج الدينونة للنصرة التي هي محمد ﷺ.

وفي بعض التراجم «حتى يخرج الحكم بالغلبة» عوض «يخرج الدينونة للنصرة» وهما مترادفتان لأنه هو الذي نصر دين الله وباتكال العوام على اسمه أي عليه يعني على اخباره يريد بذلك أن العوام سيتكلون على اخباره حين

ظهور محمد ﷺ فيؤمنون به، فتكون هذه الأمور غاية بعثته عليه السلام وبعد نفوذها يؤوب إلى مآبه الأصلي سواء كان بالصلب ثم الرفع أو بالرفع بغير الصلب، فتفكر في هذا المقام فانه دقيق وأمعن نظرك فيه.

وفي كتاب يهودا وكتاب زكريا ان الرب قد جاء أو سيجيء بربوات مقدسة ليقضي على جميع الناس، ويوبخ المنافقين لجميع أعمال نفاقهم التي نافقوا بها وجميع الأقوال الصعبة التي تكلم بها عليه الخاطئون انتهى.

ودلالة هذا النص على انبعاث نبينا محمد ﷺ بديهية لا تحتاج إلى نظر لانحصار جميع هذه الصفات في ذاته المقدسة لكونه مبعوثاً بالسيف أي بالجهاد ولوثوبه بربوات صناديد العرب ولقضائه على جميع الناس ولتوبيخه أهل النفاق، ولا تقل انه لم يقض على جميع الناس لما صرحت لك فيما قبل هذا بأن الاجماع عبارة عن أعظم النصفين.

وأما استدلال النصارى بهذه الدلالة على ربوبية المسيح نقلا عن صحيفة زكريا فلا شك في صحة النقل إلا أنه لا دلالة فيه على ما ادعوه مطلقاً ولا على ثبوته بل ولا دلالة له عليه بوجه من الوجوه، لأن المنصوص عليه بالاتيان بهذه الربوات المقدسة والقضاء على جميع الناس وتوبيخ المنافقين ينبغي أن يقوم بالأمر لجد الحديد الأخضر، ولا دلالة لشيء من هذه الصفات على المسيح عليه السلام لأنه لم يأت إلا في زي بعض الزهاد المتخلقين بالمسوح والرماد.

وإلا فان كان المسيح هو المقصود بهذا النص فلا شك أنه قد قهر اليهود وصلب بيلاطوس النبتي لكن المسيح هو المقصود بهذا النص فيكون كذلك والتالي باطل فالمقدم مثله، أما بطلان التالي فلعدم وقوع ذلك ولإنكار النصارى اياه، وأما بطلان المقدم فلصدق استثناء نقيضه، وكيف يجوز العقل احتياج الاله في الإنتقام من الأعداء إلى الجند والسلاح.

فان قيل انه ليس بإله لكنه ابن الله، قلت لا أسلم عدم الألوهية لأن

جميع النصارى قد اتفقوا في تفسير هذا النص بالألوهية قوله من الأعمال «فاحتاطوا على أنفسكم وعلى الرعية التي أقامكم الروح القدس عليها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بخالص دمه» مع أن الضمير يرجع إلى عيسى المذكور باللفظ وإلى الروح القدس الذي هو عبارة عن نفس المسيح، فتأمل فيه.

ومع قطع النظر عن هذا كله إذا كان ابن الله يجب على أبيه أن يذب عنه.

وفي مرقص وفي متى ثم طفق يضرب لهم الأمثال ويقول اغترس رجل كرماً وحوطه بحائط وبحث فيه معصرة وبنى برجاً وآجره للفلاحين وسافر، ولما جاء الموسم أرسل إلى الفلاحين خادماً لينال من ثمرة الكرم شيئاً فأخذوه وضربوه وردوه خائباً فأرسل إليهم خادماً ثانياً فرجموه وشجوه وردوه محقراً ثم أرسل ثالثاً فقتلوه وكثيرين آخرين ضربوا بعضهم وقتلوا بعضاً وكان قد بقي له ابن وحيد هو محبوبه فأرسله إليهم آخر الأمر وقال انهم سيكرمون ابني فقال الفلاحون فيما بينهم ان هذا هو الوارث فهلموا بنا نقتله فيصير الميراث لنا فأخذوه وقتلوه وأخرجوه خارج الكرم فماذا يفعل رب الكرم، نعم انه سيأتي ويهلك الفلاحين ويسلم الكرم إلى آخرين ألم تقرأوا هذا المرقوم قوله إن الحجرة التي رفض البناؤون صارت رأس الزاوية هذا هو ما وقع عند الرب وهو في نظركم عجيب انتهى.

وهذا من أعظم الدلائل الواردة في الإنجيل على نبوة محمد ﷺ، وقد تغافل عنه النصارى وأولوه بتأويل باطل.

وتقرير ذلك أن هذا أول الفصل وهو جملة استئنافية، فالغارس فيه هو الباري تعالى شأنه، والمغرسة الدنيا، والكرم بنو آدم، والحائط الناموس، والمعصرة الأحكام الناموسية، والبرج الأنبياء، والفلاحون الذين بلغتهم الدعوة، فأول الرسل موسى بن عمران عليه السلام، وثانيهم يوشع بن نون،

وثالثهم يحيى بن زكريا، والمجهولون المتوسطون، من موسى إلى زمان عيسى عليهما السلام، والولد الوحيد عيسى عليه السلام.

وناهيك به من مثل لطيف نبه وأنبأ فيه عيسى على نفسه أيضاً والآخرون الذين يسلم إليهم الكرم هم العرب.

فإن قلت لم كنى في الأول بالأنبياء وههنا بالأمة، قلت تبجيلاً له ﷺ وإكراماً لأمته إذ هم أفضل الأمم وتصديقاً لقوله سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ الآية وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» على كلام فيه، وفيه من عظمة شأنه وسمو مكانه ما لا يخفى بل ما يفوق على شأن جميع الأنبياء فتأمّله.

ثم انظر إلى حسن أداء المثل فكأنه عليه السلام قد سئل عن ذلك فقال إنه من أولاد إسماعيل، فأجيب بأنه هل يبعث من اولاد الفتاة نبي، فقال عليه السلام ألم تقرأوا ما قال أشعياء في قوله إن الحجرة التي رفض الخ فإن كذبتموني فما تفعلون بقول نبيكم اشعياء «فهذا الذي أنتم تستحقرونه يكون في الدرجة العليا لأنه هو قضاء الرب وهو الوفاء لعهده الذي عاهد به إبراهيم عليه السلام في بابت إسماعيل حيث قال في التكوين قوله: «وأما إسماعيل فإني قد سمعت دعاءك له وها أنذا قد باركت فيه وجعلته مثمراً وسأكثره تكثيراً وسيلد اثني عشر ملكاً وسأصيرهم أمة عظيمة».

وأما ما ذهب إليه اليهود والنصارى من أن المراد بالملوك الإثني عشر أولاد إسماعيل الإثنا عشر فهو باطل لأنهم لم يتملكوا، ولم يدعوا الملكية، والحق أنه في شأن الأئمة الإثني عشر من قريش كما ورد في ذلك الحديث وعهده الذي عاهد به هاجر في كتاب الخليقة حيث قال فقال لها أي هاجر ملك الرب إنك حاملة وستلدين إبناً تسميه إسماعيل لأن الله قد سمع اضطرابك وسيكون بدوياً وتكون يده معارضة لجميع الناس ويد جميع الناس معارضة له.

وهذا في غاية اللطافة والعموم، وفي كتاب متى وكتاب أشعيا وفي المزامير أن تلك الحجرة التي رفض البناؤون صارت رأس الزاوية هذا هو عمل الرب وهو في أعيننا عجيب اهـ.

ولا شك أن هذا النص يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه من ولد إسماعيل وهو المرفوض قبل وجود موسى ورأس الزاوية هو ملتقى الخطين فيكون هو الخاتم لأن طرفي الخطين يذهبان إلى حيث ما يذهبان إليه، ولا حاجة لتعيين ابتدائها فيكون ملتقى الخطين هو منتهاهما وهذا هو محمد ﷺ الذي ختم الله به فيلق رسله.

وقوله هذا هو عمل الرب الخ جواب سؤال مقدر تقديره هل يمكن أن تستقر الحجرة المرفوضة رأس الزاوية وهل يجوز أن يقوم من أولاد الجارية المصرية هاجر نبي، فيكون الجواب هذا هو عمل الرب الخ وسياقه في أشعياء قوله: «هذا ما يقول الرب الإله ها أنا ذا قد ألقيت في صهيون حجرة أساس الإبل زاوية وأساس محقق لا يخجل من يعتقد بها.

فقوله: «هذا» للتحضيض والترغيب في الاستماع، وما مفرد في معنى الكل ويقول في معنى القول، فيكون المعنى هذا كل قول الرب الإله وصفة الرب للتعظيم والتخويف، ها أنا ذا إلى قوله حجرة أساس الإضافة بمعنى اللام الإبل زاوية بدل من الأساس، وأساس محقق بدل من البدل، لا يخجل من يعتقد بها غاية إلقائها، فيكون معنى قول أشعياء إن هذا هو قول الرب فمن يعتقد به وينتظر وقوعه ويؤمن به لن يخجلن والمراد به نفس النص.

ومعنى قول متى أن تلك الحجرة يعني إسماعيل التي رفض البناؤون إبراهيم وسارة والجمع للحوار العبراني أو للتفخيم، والمضي في رفض لغبور الفعل فيه صارت للتأكيد. رأساً للزاوية خاتماً للرسل.

ووجه المطابقة إن كلام أشعياء يدل على الإخبار، وكلام متى يدل على التحقيق، جعلني الله ممن يسلك سواء الطريق.

وذهب النصارى إلى تأويل هذا النص في شأن عيسى عليه السلام على عادتهم وقالوا إن اليهود كانوا يحتقرونه فيكون النص في شأنه وهو باطل لأن تأكيد التعريف يفيد العهد الذهني وليس في بني إسرائيل محتقر ولا مرفوض من حيث إنه من بني إسرائيل، وعيسى ابن مريم من بني إسرائيل فلا دلالة للنص عليه مع أن العهد الخارجي المشار إليه في أيام موسى يجب أن يكون غابراً، والفعل ماض فيجب مضي العهد، وإن كان المسيح بن مريم قد رفضه اليهود في أيام موسى أو قبل أيامه فهو المنصوص عليه لكنه لم يكن كذلك فلن يكون كذلك.

ولا شك أن النص دال على ما ذكرناه من نبوة محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم برمته.

وفي رومية ويوشع سأدعو الذين ليسوا من شيعتي لي شيعة والتي ليست بمحبوبتي لي محبوبة اهـ.

واختلس النصارى هذا النص على عادتهم وأولوه في شأن اتباع المسيح وقالوا إنه لم يأت إلا لاستدعاء العوام مع أنه خلاف لما تواتر عليه النص، فمنه ما ورد في متى «إني لم أرسل إلا لغنم بيت إسرائيل الضالة فجاءت الامرأة وسجدت له وقالت أعني يا رب فقال لها وهو يحاورها إنه لا يجوز أن يؤخذ خبز الأولاد ويلقى للكلاب».

وما ورد في متى لما أرسل الحواريين للدعوة حيث قال: «بل سيروا إلى غنم بيت إسرائيل الضالة» إلى غير ذلك.

وتقرير الأول أن امرأة سريانية أتت إليه تلتمسه أن يبرىء بنتها فقال لها: إني لم أرسل إلا لأبرىء بني إسرائيل الذين هم أحباء الله، ولا يجوز لأحد أن يأخذ خبز الأولاد ويلقى أمام الكلاب، فإذا كان بمحض الإبراء والوعظ

ليس بمأمور أن يبرىء أو يعظ غير اليهود فكيف تكون نبوته عامة.

وأما استدلالهم بما ذكره في رومية فلا دلالة له أيضا على الخصوصية لأن موضوع هذا الفصل ممانعة اليهود لليونانيين عن التنصر، فاستدل بولوس على جواز ذلك بإضافة الإختيار إلى المختار الحقيقي حيث قال: «فمن أنت أيها الإنسان حتى تجيب الله تعالى لعل الجبلة تقول لجابلها لم صنعتني هكذا أو لعل الفخار لا سلطان له على الطين حتى يعمل من كتلة واحدة إناء للكرامة وإناء للإهانة الخ.

فذكر ذلك استدلالاً على جواز اضطباع العوام استحسـانـاً لأن الجواز غير الوجوب بخلاف نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوجب عليه دعوة الثقلين وعليه الإجماع، ولو كانت علة مجيء عيسى دعوة العوام لما احتاج إلى الاستدلال فينتقض.

ويدل على محمد نفسه ﷺ بالضرورة لأنه لم يكن من بني إسرائيل فلم يكن من شيعة الرب الخاصة ولما لم يكن من شيعته الخاصة فلم يكن له محبوباً فيكون الباري تعالى قد تبرع بارساله وهو أبلغ وأظهر للقدرة لأن اليهود كانوا يتفاخرون على العرب لما ورد في متى من سفر الخروج لأنهم من أولاد إسحاق وهو ابن سارة ومحمد صلى الله عليه وسلم من أولاد إسماعيل وهو ابن هاجر جارية سارة لكن الواجب تعالى رغم أنفهم به وصيره له محبـوبـاً وشيعته له شيعة.

وإن لم يكن كذلك فنقول إن كان اليونانيون هم الذين رفضتهم سارة لما حكمت على إبراهيم عليه السلام أن يخرجهم إلى البر وطردتهم من بيتها لما حملت جاريتها المصرية هاجر من إبراهيم، فهذا النص صادق عليهم لكن اليونانيين ليسوا بالذين طردتهم سارة فلا يصدق عليهم النص. أما المقدم فلادعاء اليهود بأن بني إسماعيل ليسوا من شيعة الرب وهم المرفوضون، ولا وجه

للعموم لأن غير استيلاء الخصم لا يشق مشقة استيلاء الخصم، وأما التالي فلأن هذا النص لا يصدق إلا على من يصدق عليه المقدم لأن التعريف يفيد العهد الذهني.

وفي رومية والاستثناء إني سأعيركم بأمة أخرى وأغيظكم بأمة لا فهم لها انتهى.

استدل النصارى بهذا النص على عموم نبوة المسيح وقالوا إنه خاص في شأن اليونانيين والرومانيين وهو باطل لأنهم كانوا أعلم من اليهود في جميع الفنون.

وتقريره في هذا الفصل أن بُولُس كان يعظ اليهود ويعترض عليهم لما تنفروا من تنصر اليونانيين والرومانيين ويقول إنهم لم يميزوا الكتب ولم يمعنوا النظر في النواميس حيث قال الله تعالى على لسان موسى: «إني سأعيركم» الخ فهذا لا دلالة له على عمومية نبوته البتة إذ لا دلالة له على دعوة كلا الفريقين، لكنه تنبيه لليهود حتى يرتدعوا عما كانوا عليه من الغرور ويذكروا هذا النص ويحذروا يوم يعيرهم الله بأمة أخرى ويغيظهم بأمة لا فهم لها والمراد بهم العرب أولاد هاجر.

والبرهان على ذلك أنهم كانوا أميين لأنهم هم الذين لا فهم لهم ولا علم، وسياق النص في الاستثناء قوله: «إنهم قد عيروني بلا إله وأغاظوني بعبثهم فسأعيرهم بلا فئة وسأغيظهم بأمة لا فهم لها» قوله: «عيروني بلا إله أي بعبادة الأوثان لما اتخذوا العجل، وأغاظوني بعبثهم أي العبث الصادر منهم لما قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فأنا سأعيرهم بلا فئة يريد بها أولاد هاجر المصرية يعني بني إسرائيل، وأغيظهم بأمة لا فهم لها لأنهم كانوا في تلك الأيام لا يتعاطون شيئاً من العلوم العقلية ولا النقلية ما سوى علم الشعر والمنازل وليسا بشيء».

وإلا فأقول إن كان اليونانيون في زمان موسى جهالاً لا دخل لهم في شيء من العلوم بحيث إن اليهود كانوا يستحقرونهم بالنظر إلى جهالتهم فهذا النص صادق عليهم لكن اليونانيين في زمان موسى كانوا أعلم من اليهود في جميع الأحوال، فلا يكون هذا النص صادقاً عليم، أما المقدم فلأن النصارى يدعون ذلك وأما التالي فلأنه لا شك في أن اليونانيين كانوا أعلم من اليهود في جميع العلوم سيما الإلّهيات إلا علم فقه اليهود وليس بشيء.

والدليل على ذلك ما حققه داود جانز في كتابه الذي سماه صحيح داود قوله: شرع سطريوس الحكيم في تعليم المساحة في مصر أيام مطيطوس أول ملوك بابل سنة ٢٨ ومن تاريخ الخليقة ولاطينوس اللاطيني علم الطبيعيات وبحث عن كائنات الجو زمان سقزينس ١٥ من ملوك بابل سنة ٢٣٦٥ وأرقيلوس الحكيم اليوناني بحث عن حركات الأفلاك هو وولداه سردينوس وقرسيقوس عهد أمينوس ١٩ من ملوك بابل سنة ٢٤٧٥ وكانت ولادة موسى سنة ٢٣٦٨ ولم يزل اليونانيون يزدادون بسطة في الملك والعلم حتى ظهور رب الجنودﷺ، ومن الذين ظهروا أيام بني إسرائيل مرقورياس علم الموسيقى سنة ٢٦٢٦ ولوسيوس قيصراً بحث في حركة الشمس مع فيلقوس الحكيم سنة ٢٨٢٥ وكان فيلقوس فاضلاً مرتاضاً في علم النجوم وأبقراط أو بقراط الطبيب الحاذق وإبنه أوقليدس المهندس، وأفلاطون الحكيم بحثوا عن أكثر فنون الحكمة النظرية عهد مردخان واستير سنة ٣٤١[1] واسكندر ابن قبلقوس أو داراب وأستاذه لقوما خشيوس بحثاً عن أكثر فنون الحكمة سنة ٢٤٤٢ أيام العزير عليه السلام إلى غير ذلك.

فعلى هذا يكون محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو المكنى عنه به وأمته المهدية هي المشار إليها.

---

(١) قوله سنة ٣٤١ كذا بالأصل، وكذا جميع الأعداد في هذه الصحيفة هي كذلك في الأصل وحــرر إ هـ مصححه.

وفي رومية وأشعياء قوله: إني قد وجدت عند من لم يطلبني وظهرت عند من لم يسأل عني انتهى.

أول النصارى هذا النص الصريح في حق اليونانيين الذين اتبعوا عيسى عليه السلام في زمان الفترة وقالوا إنهم لم يطلبوا معرفة الله تعالى قبل المسيح فيختص النص بهم وسياقه في رومية يظهر لك مما قبله ولا دلالة له عليهم لأنه لا يصدق إلا على مفهوم ما قبله، ومع تسليمه كيف يجوز العقل أن اليونانيين لم يطلبوا معرفة الواجب تعالى مع أنهم هم أول من دون الإلهيات وبحث في وحدة الواجب تعالى.

إذا تحقق ذلك فاعلم أن هذا النص يخص العرب فقط ولا يدخل فيه ولا فيما قبله من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحد لأنهم هم الأميون البله الذين لم يكونوا يفهمون ما الواجب بل ولا الممكن قبل بعثته عليه السلام، وأما قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

فلمداخلة اليهود والنصارى أو بالنظر إلى الناموس الطبيعي لأن جميع الأمم الذين لم تبلغ إليهم دعوة الأنبياء لا بد لهم من ناموس يتمسكون به.

ومن المعلوم أن الأبكم مع عدم اطلاعه على شيء من هذه الأشياء إذا اشتبه أو اضطر ينظر إلى السماء وكذلك البهائم الوحشية إذا أصابها الجدب، وساقه في أشعياء قوله: إني قد أصبت عند من لم يسأل عني ووجدت عند من لم يطلبني وقلت لأمة لم تدع باسمي أنظري إلي أنظري إلي لأني قد أظهرت يدي طوال النهار إلى فئة طاغية سالكة في سبيل سيىء ممتثله لأهوائها وفئة أي فئة تغيظني أمام وجهي وتقرب قرابينها في البساتين وتبخر في مباخر الشياطين التي

تسكن المقابر وتأكل لحم الخنازير ومرق النجاسة في أوانيها.

فمن قوله أصبت قوله أنظري إلي، إشارة إلى انحراف الناموس إلى العرب واصطفائه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ومن قوله لأني إلى قوله ممتثلة لأهوائها إشارة إلى اليهود، ومن قوله وفئة إلى قوله في أوانيهم إشارة ظاهرة في حق النصارى.

إذا فهمت فاعلم أن هذا النص لا يمكن أن يستدل به على غير ما ذكرته لك لأنه هو موضوعه ولا يجوز الاستدلال بالتأويلات التضمينية أو الاستلزامية فيما لم تكن قرينتهما موجودة سيما إذا كانت قرينة المطابقة فيه ظاهرة، وفقني الله وإياك لاقتفاء سنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وفي لوقا وأشعياء صوت صارخ في البرية أعدوا طرق الرب وهيئوا سبله فإن كل واد سيمتلىء وكل جبل وأكمة ستتضع وتعتدل المعوجات وتلين الصعبات ويشاهد خلاص الله كل ذي جسد انتهى.

وهذا من أوضح البراهين الواردة في شأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد تغافل اليهود والنصارى عنه فأوله اليهود في شأن مسيحهم الموهوم، وأوله النصارى في حق إلههم المعلوم، والحق أنه لا يدل على ذلك.

أما إنه لا يدل على المسيح الموهوم فلأن سياقه في أشعياء قوله سلوا شيعتي سلوهم قال إلهكم سلوا أورشليم وقولوا لها إن تعبها قد تم وخطيئتها قد غفرت لأنه قد وقع عليها من يد الرب لخطيئتها ضعفان من العذاب، وهذا صوت صارخ يقول في الهدية هيئوا طريق الرب ووطئوا لأجل إلهنا في البادية سبيلاً مرتفعاً فإن كل واد سيرتفع، وكل جبل وأكمة ستتضع وسيعتدل المعوج وستلين الصعبات وسيظهر مجد الله ويشاهده كل ذي جسم لأن فم الله نطق

به، فقال الصوت اصرخ فقال بماذا أصرخ فإن جميع الأجسام كلأ وكل مجدها كزهر الحقل فالكلأ يذبل والزهر يسقط لأن روح الرب يرف عليه، ولا شك أن الملأ كلأ فيجف الكلأ ويسقط الزهر وكلمة الله تمكث إلى الأبد.

فمن قوله: «سلوا إلى من العذاب» ظاهر الدلالة على أن الواجب تعالى يقول لنبيه أن يسلى ويخبر أمته بما هو مزمع الوقوع وباستقامة دعائم أورشليم في آخر الزمان، وفي قوله ضعفان من العذاب إشارة إلى أنها كانت قد أخطأت فانتقم الله منها بما حدث عليها من الذل بعد المسيح عليه السلام في أيام تسلط الروم والنصارى عليها الى زمان محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعد محمد ﷺ أيام تسلط العرب عليها وهي أيامنا هذه الى زمان ظهور القائم إن شاء الله تعالى، وبعد ذلك تستقيم دعائمها وتعمر رسومها.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن المهدي سينطلق إلى أورشليم ويصلي فيها ويجتمع هناك بالمسيح عليه السلام عند نزوله، ومن قوله: «هذا صوت صارخ إلى قوله نطق به» إشارة إلى يحيى بن زكريا عليه السلام لما كان يعظ بهذه الجملة على شاطيء شط الأردن وقوله: «وطئوا له في البادية سبيلاً مرتفعاً لا يدل على غير السبيل المستقيم من مكة إلى أورشليم البتة لأن أورشليم ليست في البادية وقوله فإن كل واد يريد به الجهال كأهل السواحل والارتفاع عبارة عن الصعود على ذروة طود الإيمان، وكل جبل وأكمة يشير به إلى الجبابرة من الفرس والروم، والاتضاع الانقياد إلى أوامر الدين الحنيف وسيعتدل المعوج إشارة إلى اليونانيين وحكماء الهند بقبول الشريعة الغراء لانحراف طبائعهم عن الانعطاف إلى اتباع النواميس الإلهية.

وقوله تلين الصعاب، كناية عن العرب لأنهم هم أقوى الناس جناناً، وأبعدهم إيماناً، وإلى ذلك اشار بقوله: ﴿ولو نزلناه على بعض الاعجمين﴾ الخ وقوله: «وسيشاهد مجد الله» أي المهدي والسين للاستقبال البعيد، والمعنى أنه إذا كملت جميع هذه الأمور، وبعث محمد ﷺ يظهر المهدي.

وقوله لأن فم الرب قد نطق به إشارة إلى وجوب وقوعه، ومن قوله: فقال الصوت اصرخ الخ ضرب من شديد التأكيد لوجوب وقوعه، فلا دلالة لشيء منه على مسيح اليهود الموهوم، اللهم إلا أن يريدوا بالمسيح نفس المهدي، فحينئذ يلزمهم الإعتراف بنبوة عيسى ومحمد ﷺ.

وأما إنه لا يدل على عيسى بن مريم فلأن سياقه في أشعياء قد مر بيانه ولا محتمل له غيره، ولأن لوقا لم يذكره مستدلاً به عليه، ولا قرينة هناك يؤول إليها الضمير، بل إنه جملة مستأنفة في أول الاصحاح، ومضمون الاصحاح على الاجمال أن لوقا أخبر أنه في زمان كذا جاء يحيى بن زكريا إلى البرية يصرخ ويقول كذا.

وهذا لا يدل على المسيح بن مريم بوجه من الوجوه، ولكنه يدل على بعثة محمد ﷺ وقيام المهدي لأن الجملة مستأنفة والقاعدة في المستأنفات أن تحمل على ما يناسبها فيكون ما ذكره لوقا ضرباً من التأكيد لكلام أشعياء عليه السلام لا غير.

فعليك أن تتأمل في هذا البرهان فإنه في غاية اللطافة.

وفي متى ثم ضرب لهم مثلاً آخر وقال إن ملكوت الله تماثل حبة خردل أخذها رجل وزرعها في مزرعته وهي أصغر جميع الحبوب، فلما نمت صارت أعظم النباتات وأصبحت شجرة تأتي إليها طيور الجو، وتسكن في أغصانها انتهى.

وسياق هذا المثل أن المسيح كان جالساً على ساحل البحر فاجتمع عنده القوم فأخذ يضرب لهم الأمثال ومن جملتها هذا المثل، وقد أوله النصارى في حق من يكون محباً للمسيح مواظباً على عمل الخير، وهل فيه يا للرجال على هذا المعنى الضعيف دلالة ولا شك أنه من الأمثال التي كان يضربها المسيح عليه السلام في شأن محمد ﷺ.

وتأويل المثل أن الزارع هو الواجب تعالى والمزرعة الدنيا وحبة خردل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي أصغر جميع الحبوب على بادىء الرأي لأن جميع الأمم كانوا يستهزئون بالعرب لكونهم من أهل البادية وعدم رواج العلم في أماكنهم وعدم تنعمهم باللذات الجسمانية، واليهود كانوا يستحقرونهم لكونهم من أولاد هاجر، فقوله: «هي أصغر الحبوب» جملة حالية فلما نمت أي بلغ إلى رشده واستوفى من درجة الرسالة العامة أَشُدَّه صارت أعظم النباتات أي صار أشرف الرسل وأكملهم لبقاء ملته إلى قيام القيامة، ولأنه لم يقلِّد ما قبله من الرسل الرِّسالةَ العامة اصبحت أي صارت شجرة تأتي إليها طيور الجو جملة حالية وقعت صفة الشجرة والمراد بطيور الجو الأمم الذين لم يقلدوا بغير الناموس وتسكن في أغصانها أي تطمئن تحت أحكام شريعته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه أحد عشر نصاً يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ولا يقدر أحد من أهل الكتاب على إنكار وجوده فيهما، والبراهين على إثبات نبوة محمد ﷺ في الكتب القديمة السماوية من التوراة والإنجيل والزبور كثيرة جداً لا يسع بسطها هذا المقام، فإن شئت الاطلاع عليها فارجع إليها وإلى ما نقله الإسلاميون عنها في كتب الرد على النصارى.

وهذه الأدلة كلها لها دلالة صريحة على ما نطق به القرآن الكريم في هذه الآية أعني يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل وفي أمثالها وهذا مع تحريف تلك الكتب لفظاً أو معنى أو بكليهما.

وأما البشارات التي وردت في حقه ﷺ كما قال سبحانه وتعالى مشيراً إلى ذلك في قوله نقلاً عن عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ فهي كثيرة جداً ايضاً سنذكر بعضه تحت الآية الكريمة المذكورة إن شاء الله.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً﴾ لما تقدم ذكر اوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس والجن جميعاً لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، قال ابن عباس: بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأسود والأحمر، والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها.

﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ملكاً وعبيداً وتصرفاً وقوله ﴿لا إله إلا هو﴾ بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة، وهكذا من كان ﴿يحيي ويميت﴾ هو المستحق بتفرده بالربوبية ونفي الشركاء عنه، والجملة سيقت لبيان اختصاصه بالإلهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماته غيره، قاله الزمخشري وذكره السمين فلذا قال:

﴿فآمنوا﴾ والأمر بالإيمان ﴿بالله ورسوله﴾ متفرع على ما قبله وفي العدول عن المضمر إلى الاسم الظاهر بلاغة ﴿النبي الأمي﴾ هما وصفان لرسوله وكذلك ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ وصف له والمراد بالكلمات ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله أو آياته أو عيسى قاله مجاهد والسدي أو القرآن فقط قاله قتادة والعموم أولى.

وجملة ﴿واتبعوه﴾ مقررة لجملة فآمنوا به، والاتباع يعم الأقوال والأفعال والاعتقاد والأعمال ﴿لعلكم تهتدون﴾ علة للأمر بالإيمان والاتباع.

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ لما قص الله سبحانه علينا ما وقع من السامري وأصحابه وما جصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين، قص علينا سبحانه أن من قومه أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم ووصفهم بأنهم ﴿يهدون﴾ أي يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين ﴿بالحق﴾ أو يهتدون به ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه ﴿وبه يعدلون﴾ بين الناس في الحكم أي بالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون وبه يتصفون.

واختلفوا في هؤلاء فقيل هم القوم الذين بقوا على الدين الحق الذي جاء به موسى قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس إليه، وقال الكلبي والضحاك والربيع: هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر يسمى نهر الأردن ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل، ويصحون في النهار ويزرعون ولا يصل إليهم أحد منا وهم على الحق إلى آخر القصة، وما ابعدها عن الصحة واقربها إلى الوضع، وقد ابتلى بذكرها جمع من المفسرين الذين ليس لهم معرفة بعلم الحديث.

وقيل هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ والقرآن.

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال موسى: يا رب أجد أمة أنا جيلهم في قلوبهم قال: تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد، قال: يا رب

أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن، قال: تلك أمة تكون بعدك أمة أحمد، قال: يا رب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون قال: تلك أمة بعدك أمة أحمد قال: يا رب اجعلني من أمة أحمد ﷺ، فأنزل الله كهيئة المرضية لموسى ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ الآية.

﴿وقطعناهم﴾ الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق، والمعنى صيرناهم ﴿اثنتي عشرة أسباطاً﴾ أي قطعاً متفرقة وفرقناهم معدودين بهذا العدد وميزنا بعضهم من بعض. وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل وانه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطا كل سبط معروف على انفراده، لكل سبط نقيب كما في قوله تعالى: ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾.

والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد صاروا اثني عشر أمة من اثني عشر ولداً، واراد بالأسباط القبائل ولهذا انث العدد، والمراد أولاد يعقوب لأن يعقوب هو إسرائيل وأولاده الأسباط وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط في البقرة.

وسماهم ﴿أمماً﴾ لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد وكانوا مختلفي الآراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال: افترقت بنو اسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، ولتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، فأما اليهود فإن الله يقول: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ فهذه التي تنجو، وأما النصارى فإن الله يقول: ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ فهذه التي تنجو، وأما نحن فيقول: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ فهذه التي تنجو من هذه

الأمة، وقد قدمنا ان زيادة كلها في النار لم تصح لا مرفوعة ولا موقوفة.

﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ أي وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش في التيه ﴿أن﴾ تفسير لفعل الإيحاء ﴿اضرب بعصاك الحجر﴾ الذي فر بثوبه فضربه ﴿فانبجست﴾ الانبجاس الانفجار أي فانفجرت وقيل عرقت ﴿منه اثنتا عشرة عيناً﴾ بعدد الاسباط لكل سبط عين يشربون منها.

﴿قد علم كل أناس﴾ اسم جمع واحده انسان وقيل جمع تكسير له والإنسان اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع، والأناس بالضم مشتق من الإنس وقد تحذف همزته تخفيفاً على غير قياس فيصير ناساً ﴿مشربهم﴾ والمعنى علم كل سبط منهم بالعلم الضروري الذي خلقه الله في كُلٍّ: العين المختصة به التي يشرب منها لا يدخل سبط على سبط في مشربهم، وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة.

﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ أي جعلناه ظللاً عليهم في التيه يسير بسيرهم ويقيم باقامتهم ويقيهم حرَّ الشمس ﴿وأنزلنا عليهم﴾ في التيه ﴿المن والسلوى﴾ أي الترنجبين والسُّمانى طعاماً لهم وقيل السلوى جنس من الطير وقد تقدم تحقيقه في البقرة ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لهم كلوا من المستلذات التي رزقناكم ﴿وما ظلمونا﴾ بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم[1].

---

(١) ذكره القرطبي ١١٢/٦: وقال الربيع والسدي وغيرهما: إنما بعث النقباء من بني اسرائيل امناء على الاطلاع على الجبّارين والسبر لقوتهم ومنعتهم، فساروا ليختبروا حال من بها، ويعلموه بما اطلعوا عليه فيها حتى ينظر في الغزو اليهم، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة ـ على ما يأتي ـ وظنوا انهم لا قبل لهم بها؛ فتعاقدوا بينهم على ان يخفوا ذلك عن بني اسرائيل، وان يعلموا به موسى عليه السلام، فلما انصرفوا الى بني اسرائيل خان منهم عشرة فعرفوا قراباتهم، ومن وثقوه على سرهم؛ ففشا الخبر حتى اعوج امر بني اسرائيل.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

﴿وإذ قيل﴾ أي اذكر وقت أن قيل ﴿لهم﴾ هذا القول وهو ﴿اسكنوا هذه القرية﴾ أي بيت المقدس أو أريحاء، وقيل غير ذلك مما تقدم بيانه وفي البقرة ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن في موضع لا بد له من الدخول إليه ﴿وكلوا منها﴾ أي من المأكولات الموجودة فيها من الثمار والزروع والحبوب والبقول ﴿حيث﴾ أي في أي مكان ﴿شئتم﴾ من أمكنتها لا مانع لكم من الأكل فيه.

وقال في البقرة فكلوا بالفاء لأن الدخول حالة مقتضية للأكل عقبه فحسن دخول الفاء للتعقيب، والسكنى حالة استمرار والأكل حاصل متى شاءوا ولم يقل رغداً هنا كما قال في البقرة لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل، ومع السكنى ليس كذلك.

﴿وقولوا حطة﴾ أي حط عنا ذنوبنا وقد تقدم تفسيرها في البقرة ﴿وادخلوا الباب﴾ أي باب القرية المتقدمة حال كونكم ﴿سجداً﴾ أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة وبين الدخول ساجدين، فلا يقال كيف قدم الأمر بالقول هنا على الدخول وأخره في البقرة وقد تقدم معنى السجود الذي أمروا به ﴿نغفر لكم خطيآتكم﴾ أي ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها، وإنما قال هنا خطيآتكم وفي البقرة خطاياكم لأن المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة إذا أتوا بالدعاء والتضرع ﴿سنزيد المحسنين﴾ على المغفرة للخطايا بما نتفضل به عليهم من النعم، وقال في البقرة ﴿وسنزيد﴾ بالواو لأن هنا استئنافاً على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد.

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

﴿فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ يعني أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم، وتغييرهم ودخلوا يزحفون على أستاههم وأدبارهم، وقد تقدم بيان ذلك في البقرة، لكن ألفاظ هذه الآية تخالف الآية المذكورة في سورة البقرة من وجوه ثمانية ذكرها الخطيب وقد أشرنا إليها فيما تقدم.

﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء﴾ أي عذاباً كائناً منها وهو الطاعون ومات به منهم في وقت واحد سبعون ألفا، وقال في البقرة ﴿أنزلنا﴾ ولا منافاة بينهما لأنهما لا يكونان إلا من أعلى إلى أسفل ﴿بما كانوا يظلمون﴾ أي بسبب ظلمهم، وقال في البقرة: ﴿بما كانوا يفسقون﴾ والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى.

﴿و﴾ اذكر إذ قيل لهم و﴿اسألهم عن القرية﴾ هذا سؤال تقريع وتوبيخ، والمراد من سؤال القرية سؤال أهلها أي اسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به، والأولى عدم تقدير المضاف كما سيأتي تحقيقه في سورة يوسف ان شاء الله تعالى.

وفي ضمن هذا السؤال فائدة جليلة وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وان اطّلاعه عليه لا يكون إلا باخبار له

من الله سبحانه فيكون دليلاً على صدقه.

واختلف أهل التفسير أي قرية هي؟فقيل :أيلة قاله علي وقيل: مدين، وقيل: ايلياء، وقيل قرية بين مصر والمدينة والمغرب قاله ابن عباس، وقيل: بين مدين والطور على شاطيء البحر، وقال الزهري: هي طبرية الشام، وقال وهب: هي ما بين مدين وعيوني، وقيل قرية من قرى ساحل الشام.

﴿التي كانت حاضرة البحر﴾ أي التي كانت بقرب بحر القلزم يقال: كنت بحضرة الدار أي بقربها، والمعنى سل يا محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء اليهود الموجودين الذين هم جيرانك عن قصة أهل القرية المذكورة ﴿إذ يعدون﴾ أي يتجاوزون حدود الله بالصيد، وقرىء بتشديد الدال من الاعداد للآلة ﴿في﴾ يوم ﴿السبت﴾ الذي نهوا عن الاصطياد فيه، والسبت هو اليوم المعروف، وأصله السكون يقال سبت إذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم، والجمع أسبت وسبوت وأسبات.

﴿إذ تأتيهم حيتانهم﴾ جمع حوت وأضيفت إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان ﴿يوم سبتهم﴾ دون ما عداه قال الضحاك: تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضاً ﴿شرعاً﴾ جمع شارع أي: ظاهرة على الماء قريباً من الساحل، وقيل: رافعة رؤوسها، وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابها كالكباش البيض، قال في الكشاف يقال شرع علينا فلان إذا دنا وأشرف علينا وشرعت على فلان في بيته فرأيته يفعل كذا انتهى.

﴿ويوم لا يسبتون﴾ أي لا يفعلون ولا يراعون أمر السبت وذلك عند خروج يوم السبت، والمعنى لا سبت ولا مراعاة ﴿لا تأتيهم﴾ الحيتان كما كانت تأتيهم في يوم السبت ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك البلاء العظيم والاختبار الشديد ﴿نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿وإذ قالت أمة منهم﴾ أي جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة واقلاعهم عن المعصية ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ أي مستأصل لهم بالعقوبة ﴿أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ بما انتهكوا من الحرمة وفعلوا من المعصية، وقيل إن الجماعة القائلة لم تعظون قوماً هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم، والمعنى إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا.

﴿قالوا﴾ أي قال الواعظون للجماعة القائلين لهم لم تعظون وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول أو الفاعلون على الثاني أي فعلنا ذلك ﴿معذرة﴾ أي لأجل المعذرة أو موعظتنا معذرة على قراءة الرفع ﴿إلى ربكم﴾ حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا، ويقلعوا عما هم فيه من المعصية.

قال جمهور المفسرين إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق: فرقة عصت وصادت، وكانت نحو سبعين ألفا، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية لم تعظون [قوماً] يريدون الفرقة العاصية [الله مهلكهم] أو معذبهم، قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك فقالت الناهية موعظتنا معذرة إلى الله ﴿ولعلهم يتقون﴾ ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية وعاصية لقال لعلكم تتقون.

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الإعراض ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أي الذين فعلوا النهي ولم يتركوه ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم العصاة المعتدون في السبت ﴿بعذاب بئيس﴾ أي شديد وجيع من:بؤس الشيء بأساً إذا اشتد، وفيه احدى عشرة قراءة للسبعة وغيرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا.

قال ابن عباس: نجت الفرقة الساكتة، وقال يمان بن رباب: نجت الطائفتان وأهلك الذين أخذوا الحيتان وبه قال الحسن، وقال ابن زيد: نجت الناهية وهلكت الفرقتان، وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر.

﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أي تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه وأبوا أن يرجعوا عنها تمرداً وتكبراً ﴿قلنا لهم كونوا﴾ أي أمرناهم امرا تكوينياً لا أمراً قولياً يعني مسخناهم﴿قردة﴾ قيل إنه سبحانه عذبهم أولاً بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم الله قردة، وقيل: إن قوله: فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا ما ذكروا به للتأكيد والتقرير، وأن المسخ هو العذاب البئيس ﴿خاسئين﴾ الخاسىء الصاغر الذليل أو المباعد المطرود، يقال خسأته فخسىء أي باعدته فتباعد.

قال قتادة: لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعدما كانوا رجالاً ونساء، قيل صار شبان القوم قردة والمشيخة خنازير، وبقوا ثلاثة

أيام ينظر الناس أليهم ثم هلكوا جميعاً.

واعلم أن ظاهر النظم القرآني هو أنه لم ينج من العذاب إلا الفرقة الناهية التي لم تعص لقوله انجينا الذين ينهون عن السوء وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ فإن كان الطوائف منهم ثلاثاً كما تقدم فالطائفة التي لم تنه ولم تعص يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر، ويحتمل أنها لم تمسخ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة وهي صيد الحوت في يوم السبت ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد.

وأما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالثانية فهما في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النهي والاعتزال والنجاة من المسخ، وإنما جعلت طائفة مستقلة لأنها قد جرت المقاولة بينها وبين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين.

﴿وإذ تأذن ربك﴾ أي واسألهم وقت تأذن ربك، تأذّن تفعل من الإيذان وهو الإعلام، قال أبو علي الفارسي: آذن بالمد أعلم وأذّن بالتشديد نادى، وقال قوم كلاهما بمعنى أعلم كما يقال أيقن وتيقن، وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك، وقيل آلى ربك، وقال الزمخشري: عزم ربك، وقيل معناه حتم وأوجب والمعنى واسألهم وقت أن وقع الاعلام لهم من ربك.

وقيل في هذا الفعل معنى القسم كعلم الله وشهد الله، ولذلك أجيب كما يجاب به القسم حيث قال: ﴿ليبعثن﴾ أي ليرسلن ﴿عليهم﴾ ويسلطن كقوله: بعثنا عليهم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴿إلى يوم القيامة﴾ غاية لقوله: ﴿من يسومهم﴾ يذيقهم ﴿سوء العذاب﴾ مما يبعثه الله عليهم، وقد كانوا

أقمأهم الله هكذا أذلاء مستضعفين معذبين بأيدي أهل الملل.

وهكذا هم في هذه الملة الإسلامية في كل قطر من أقطار الأرض في الذلّة المضروبة عليهم والعذاب والصغار يسلمون الجزية لحقن دمائهم ويمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التي يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار،

وعن ابن عباس قال: يسومهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته سوء العذاب اي الجزية والخراج، وقيل هو بختنصر وسنحاريب وملوك الروم، وهذا نص في ان العذاب، انما يحصل لهم مستمراً الى يوم القيامة، ولهذا فسر هذا العذاب بالإهانة والذلة واخذ الجزية منهم فإذا أفضوا إلى الآخرة كان عذابهم اشد وأعظم[1].

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن أقام على الكفر يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿وانه لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران والرحمة لمن آمن منهم ودخل في دين الإسلام.

---

(١) عن سعيد بن جابر، قال: ولم يجب الخراج نبي قط الا موسى، جباه ثلاث عشرة سنة، ثم امسك النبي ﷺ وقال السدي: بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾

﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ أي فرقناهم في جوانبها أو شتتنا أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة، قال ابن عباس: هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس فيها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة، وقيل المعنى وجعلنا كل فرقة منهم في قطر بحيث لا تخلو ناحية من الأرض منهم حتى لا تكون لهم شوكة، قاله أبو السعود فلا توجد بلدة كلها يهود، ولا لهم قلعة ولا سلطان بل هم متفرقون في كل الأماكن.

﴿منهم الصالحون﴾ قيل: هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدل، قال الطبري: وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ويدل له قوله الآتي: فخلف من بعدهم خلف، وقيل: هم الذين سكنوا وراء الصين ولا يصح كما تقدم بيانه.

﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي دون هذا الوصف الذي اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح والتقدير: ومنهم أناس أو قوم دون ذلك والمراد بهؤلاء من لم يؤمن بل انهمك في المخالفة لما أمره الله به.

﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ أي امتحناهم جميعا الصالح وغيره بالخير والشر، قال ابن عباس: الحسنات: الرخاء والعافية، والسيئات: البلاء والعقوبة أو الخصب والجدب ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي رجاء أن يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ المراد بهم أولاد الذين قطعهم الله في الأرض قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام الأولاد الواحد والجمع سواء، والخلف بفتح اللام البدل ولداً كان أو غيره، وقال ابن الأعرابي: الخلف بالفتح الصالح وبالسكون الطالح ومنه قيل للرديء من الكلام خلف بالسكون، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجيء بعد قرن كان قبله.

﴿ورثوا الكتاب﴾ أي: التوراة من أسلافهم يقرأونها ولا يعملون بها، والمراد بإرثه: انتقاله إليهم ووقوعه في أيديهم ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، والعرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير، والأدنى مأخوذ من الدنو وهو القرب أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشا وما هو مجعول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة وكتمهم لما يكتمونه منها.

وقيل إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط أي أنهم يأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط التافه الخسيس الحقير، والمعنى متقارب لأن الدنيا بأسرها

حقيرة فانية والراغب فيها أحقر منها.

وعن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقال: أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ويتبعون رخص القرآن ويقولون سيغفر لنا ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، وقال مجاهد: هم النصارى يأخذون عرض هذا الأدنى ما أشرف لهم شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه ويتمنون المغفرة، وإن يجدوا مثله يأخذوه كما سيأتي.

﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ أي ويعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماديهم في الضلالة وعدم رجوعهم الى الحق، ويتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة والمراد بهذا الكلام التقريع والتوبيخ لهم، عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[1]، أخرجه الترمذي، وكان اليهود يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا.

وهذا هو التمني بعينه والحال أنهم ﴿إن يأتهم﴾ كما يؤخذ من الكشاف، وقال السفاقسي أنه مستأنف ﴿عرض مثله يأخذوه﴾ أي مثل الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة ولا خائفين من التبعة، وقيل الضمير في يأتهم: ليهود المدينة أي: وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرض مثل العرض الذي كان يأخذه أسلافهم أخذوه كما أخذ أسلافهم.

﴿ألم يؤخذ عليهم﴾ أي على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، والاستفهام للتقريع والتوبيخ أو للتقرير، فالمعنى أخذ عليهم الميثاق لأن القصد منه إثبات ما بعد النفي ﴿ميثاق الكتاب﴾ أي التوراة ﴿أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون

(١) المستدرك كتاب الايمان ١/٥٧.

منها قاله ابن عباس.

﴿و﴾ الحال أنهم قد ﴿درسوا ما فيه﴾ أي الكتاب وعلموه ولم يأتوه بجهالة فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنباً وأعظم جرماً وقيل معناه: محوه بترك العمل به وإلْفهم له من قولهم درست الريح الآثار إذا محتها ﴿والدار الآخرة خير﴾ من ذلك العرض الذي أخذوه وآثروه عليها وارتشوا في الأحكام ﴿للذين يتقون﴾ الله ويخافون عقابه ويجتنبون معاصيه ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه، وفي هذا الالتفات من التوبيخ والتقريع ما لا يقادر قدره.

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ قرأ الجمهور بالتشديد من مسَّك بالشيء وتمسك به أي استمسكوا بالكتاب وهو التوراة وقرىء بالتخفيف من أمسك مسك، والمعنى أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدم ذكرهم، وطائفة يتمسكون بالكتاب أي التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمر دينهم فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله وقال عطاء: هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي داموا على إقامتها في مواقيتها، قال الحسن: هي لأهل الإيمان منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وقال مجاهد: هي لليهود والنصارى وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة لأنها رأس العبادات وأعظمها وعماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر وكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر، وقيل لأنها تقام في أوقات مخصوصة والتمسك بالكتاب مستمر فذكرت لهذا وفيه نظر، فإن كل عبادة في الغالب تختص بوقت معين ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿وإذ﴾ أي اسألهم إذ والغرض من هذا إلزام اليهود والرد عليهم في قولهم: إن بني إسرائيل لم يصدر منهم مخالفة في الحق ﴿نتقنا﴾ النتق اختلفت فيه عبارات أهل اللغة فقال أبو عبيدة: هو قلع الشيء من موضعه والرمي به ومنه نتق ما في الجراب إذا نفضه فرمى ما فيه، وامرأة ناتق ومنتاق إذا كانت كثيرة الولادة، وفي الحديث: «عليكم بزواج الأبكار فإنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً، وأرضى باليسير»[1]، وقيل النتق الجذب بشدة ومنه نتقت السقاء إذا جذبته بشدة لتقلع الزبدة من فمه، وقال الفراء: هو الرفع، وقال ابن قتيبة هو الزعزعة وبه فسر مجاهد.

وكل هذه معان متقاربة أي رفعنا ﴿الجبل﴾ من أصله وهو الطور الذي سمع موسى عليه كلام ربه وأعطي الألواح وقيل هو جبل من جبال فلسطين وقيل هو الجبل عند بيت المقدس وكان ارتفاعه على قدر قامتهم، فكان محاذياً لرؤوسهم كالسقيفة ﴿فوقهم كأنه﴾ لارتفاعه ﴿ظلة﴾ أي سحابة تظلهم وهي اسم لكل ما أظل، وقال البيضاوي: كأنه سقيفة وهي كل ما أظلك وقرىء طلة بالطاء من أطل عليه إذا أشرف.

﴿وظنوا﴾ قيل الظن هنا بمعنى العلم وقيل هو على بابه ﴿أنه﴾ أي الجبل ﴿واقع بهم﴾ أي ساقط عليهم ﴿خذوا﴾ أي قلنا لهم خذوا ﴿ما آتيناكم بقوة﴾ هي الجد والعزيمة أي أخذاً كائناً بقوة واجتهاد، قال ابن عباس: أي خذوا ما

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٩٣٢.

آتيناكم وإلا أرسلته عليكم ورفعته الملائكة فوق رؤسهم فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا.

وعنه قال: إني لأعلم لم يسجد اليهود إلا على حرف قال الله وإذ نتقنا الجبل قال لتأخذن أمري أو لأرمينكم به فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة، وقال قتادة في الآية انتزعه الله من أصله ثم جعله فوق رؤوسهم فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً أن يسقط عليه، ولذلك لا تسجد اليهود إلا على شق وجوههم الأيسر.

﴿واذكروا ما فيه﴾ من الأحكام التي شرعها الله لكم ولا تنسوها ﴿لعلكم تتقون﴾ أي رجاء أن تتقوا ما نهيتم عنه وتعملوا بما أمرتم به، وقد تقدم تفسير ما هنا في البقرة مستوفى فلا نعيده.

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ وكذا من آدم فالأخذ منه لازم للأخذ منهم لأن الأخذ منهم بعد الأخذ منه، ففي الآية الاكتفاء باللازم عن الملزوم ﴿من ظهورهم﴾ بدل اشتمال مما قبله بإعادة الجار، قاله الكواشي، والذي في الكشاف أنه بدل بعض من كل، قال الحلبي: وهو الظاهر وإيثار الأخذ على الإخراج للاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الإنباء عن اختيار الاصطفاء وهو السبب في إسناده إلى الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف.

﴿ذريتهم﴾ هي تقع على الواحد والجمع، واستدل بهذا على أن المراد بالمأخوذين هنا هم ذرية بني آدم أخرجهم الله من أصلابهم نسلاً بعد نسل على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فلذلك قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين وقالوا معنى ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ دلهم بخلقه على أنه خالقهم فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى فقال لها

وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين وبه قال الشيخ أبو منصور والزجاج والزمخشري.

وقيل المعنى أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، وقيل المراد ببني آدم هنا نفسه كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد وهؤلاء هم عالم الذر وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ وموقوفاً على غير واحد من الصحابة ولا ملجيء للمصير إلى المجاز، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

وقد ذكر البيضاوي والنسفي القولين وكذا الرازي وأبو السعود وغيرهما من المفسرين الذين مستهم الفلسفة، والحق ما ذكرناه وإليه ذهب جمهور المفسرين.

وقد أخرج مالك في الموطأ وأحمد في المسند وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات والضياء في المختارة عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عنها فقال: إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال

أهل النار فيدخله النار»[1].

ومسلم بن يسار[2] لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الاسناد بين مسلم بن يسار وعمر بن الخطاب رجلاً قال البغوي: قلت ذكر الطبري في بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبي ﷺ بنحوه، وفي الباب عن أبي هريرة يرفعه عند الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وفيه قصة اعطاء آدم ابنه داود أربعين سنة من عمره.

واختلف الناس في كيفية الاستخراج على أقوال لا مستند لها والحق وجوب اعتقاد اخراجها من ظهر آدم كما شاء الله تعالى كما ورد في الصحيح، قال المقبلي في الابحاث المسددة ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الاحاديث والروايات الواردة في ذلك، وقال بعضهم الظاهر أنه استخرجهم أحياء لأنه سماهم ذرية والذرية هم الاحياء لقوله: ﴿انا حملنا ذريتهم في الفلك﴾ قال ابن عباس: إن أول ما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها إلى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق واشهدهم على أنفسهم أي أشهد كل واحد منهم.

﴿ألست بربكم﴾ أي قائلاً هذا فهو على إرادة القول، وفي هذه الآية رد على أهل المعاني في قولهم: إن الإغراق غير مقبول ما لم يقارن كاد، ونحو هذا مما شهد به الذوق السليم وزكّى شهادته الطبع المستقيم.

قال الشهاب في الريحانة: وهذا وان سلمه علماء المعاني والبيان إلا أنه محتاج إلى الإيضاح والبيان فإنه يعترض عليه بما يعارضه ويكدره ورود ما يناقضه كقوله عز وجل هذا. فإنه بمعناه إذ إخراج الذرية من الظهور قبل الخلق والظهور وأخذ المواثيق والعهود مما يقتضي الترغيب والترهيب، وهذا على سبيل

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٦٠٢.

(٢) راوي الحديث عن عمر.

التحقيق دون التخييل والتقدير.

وقد ذكر هذا في حديث الصحيحين المعلوم عند علماء الحديث ولهم فيه طريقان مشهوران وهو مما خفي على كثير من العلماء ولهم فيه كلام محتاج للإيضاح فأقول لعلماء التفسير فيه طريقان.

(الأول) إنه من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلى هذا لا يبقى فيه اشكال، ولا للبحث عنه مجال.

(الثاني) إن له معنى جليلاً قام عليه أقوى برهان ودليل، فمنهم من ذهب إلى أنه استعارة وتمثيل نزّل فيه وضوح الادلة القائمة على توحيده تعالى وصحة أحكام الشريعة المركوزة في الفطرة السليمة منزلة بروزهم في الخارج، وأخذ العهود منزلة اتباع ما ذكر وتسليمه والعمل بمقتضاه، فلا يرد عليه شيء مما ذكر.

ونحن نقول:إن الأمر الذي وقع فيه المبالغة لا يخلو إما أن يقع بعد زمان بعيد كالساعة أو لا يقع، وهو إما محال متعذر الوقوع له نظائر ومشابه أو لا، الأول مقبول لتنزيل المتحقق الوقوع منزلة الواقع، وكذا الثاني لإمكان أن يراد مجاز أو كناية والأخير هو محل الكلام، والذي عليه أهل المعاني أنه مردود ما لم يقترن به مسوغ مثل كاد ونحوها، والآية ليست من هذا القبيل لإسنادها لله الذي أبرز المعدومات من أرحام العدم، ولا يقتضي قدرته شيء في القدم، فما علينا إلا الإيمان بذلك، وما لم تصل له أفهامنا نكله إليه ونسأله أن يهدينا للوقوف عليه، وكفى هذا الاحتمال في مثل هذه الحال، وما بعد الهدى إلا الضلال انتهى.

﴿قالوا بلى شهدنا﴾ أي على أنفسنا بأنك ربنا، واختلفوا في الاجابة هذه كيف كانت هل كانوا أحياء فأجابوا بلسان المقال، أو أجابوه بلسان الحال

والظاهر الأول ونكل علم كيفيتها إلى الله سبحانه، وكان هذا القول على وفق السؤال لأنه تعالى سألهم عن تربيتهم ولم يسألهم عن إلههم فقالوا بلى فلما انتهوا إلى زمان التكليف وظهر ما قضى الله في سابق علمه لكل أحد منهم من وافق ومنهم من خالف قاله أبو طاهر القزويني.

وقيل تجلى للكفار بالهيبة وللمؤمنين بالرحمة، فقال كلهم بلى، قيل وكان ذلك قبل دخول آدم الجنة بين مكة والطائف قاله الكلبي، وقيل بعد الهبوط منها، وقال علي في الجنة وقيل بسرانديب من أرض الهند، وهو الموضع الذي هبط آدم فيه من الجنة، وكل ذلك محتمل، ولا يضرنا الجهل بالمكان بعد صحة الاعتقاد بأخذ العهد والله أعلم.

أخرج أحمد والنسائي وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه كالذر، ثم كلمهم فقال: ألست بربكم إلى قوله. .المبطلون»، واسناده لا مطعن فيه[1].

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي والطبراني وأبو الشيخ عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين فقال يا أصحاب اليمين فاستجابوا له، فقالوا لبيك ربنا وسعديك قال ألست بربكم قالوا بلى، الحديث».

والاحاديث في هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية وبعضها مطلق يشتمل على ذكر اخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ العهد عليهم كما في

(١) صحيح الجامع الصغير ١٦٩٧.

حديث أنس مرفوعا في الصحيحين وغيرهما، وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية باخراج ذرية آدم من صلبه في عالم الذر وأخذ العهد عليهم واشهادهم على أنفسهم فهي كثيرة جداً، وقد روي عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية باخراج ذرية آدم من ظهره، وفيما قاله رسول الله ﷺ في تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل.

وقال أهل الكلام والنظر قولهم: بلى شهدنا على المجاز لا على الحقيقة، وهو خلاف مذهب جمهور المفسرين من السلف، قال ابن الانباري: مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم صور كالذر واخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم، وأنهم مصنوعه، فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولاً حتى خوطبوا بقوله: ﴿يا جبال أوّبي معه﴾ وكما جعل للبعير عقلاً حتى سجد للنبي ﷺ وكذلك الشجرة حتى سمعت لأمره وانقادت.

وقولهم: شهدنا إقرار له بالربوبية وكلام مستأنف وقيل شهدنا على أنفسنا بهذا الاقرار وليس في الآية ما يدل على بطلان ما ورد في الأحاديث، وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير إليه والاخذ به جميعاً بينهما، وحكى الواحدي عن صاحب النظم أنه قال ليس بين قوله ﷺ إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله تعالى لأنه تعالى إذا أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته، لأن ذرية آدم كذرية بعضهم من بعض.

فإن قيل إذا سبق لنا عهد وميثاق مثل هذا فلأي شيء لا نذكره اليوم، والجواب على ما ذكره سليمان الجمل إننا لم نتذكر هذا العهد لأن تلك البنية قد انقضت وتغيرت أحوالها بمرور الدهور عليها في أصلاب الأباء وأرحام

الأمهات وتطور الأطوار الواردة عليها من العلقة والمضغة واللحم والعظم، وهذا كله مما يوجب النسيان.

وكان علي بن أبي طالب يقول إني لأذكر العهد الذي عهد إليّ ربي، وكذا كان سهل بن عبدالله التستري يقول اهـ.

قلت: وكذا روي عن الشيخ نظام الدين الدهلوي المعروف بسلطان الأولياء ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر، ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والتكليف، ولم يبلغنا في كون تلك الذرات مصورة بصورة الإنسان دليل، والأقرب للعقول عدم الاحتياج إلى كونها بصورة الإنسان إذ السمع والنطق لا يفتقران إلى الصورة بل يقتضيان محلا حياً لا غير، ويحتمل أن يكونوا مصورين بصورة الإنسان لقوله تعالى: ﴿من ظهورهم ذرياتهم﴾ ولم يقل ذراتهم ولفظ الذرية يقع على المصورين.

والحكمة في أخذ الميثاق منهم إقامة الحجة على من لم يوف بذلك العهد، والظاهر أنه لما ردهم إلى ظهره قبض أرواحهم، وأما أن الأرواح أين رجعت بعد رد الذرات إلى ظهره فهذه مسألة غامضة لا يتطرق إليها النظر العقلي بأكثر من أن يقال رجعت لما كانت عليه قبل حلولها في الذرات.

وورد أن كتاب العهد والميثاق مودع في باطن الحجر الأسود، ذكره الشعراني في رسالته [القواعد الكشفية في الصفات الإلهية] وذكر فيها على هذه الآية اثني عشر سؤالاً وأجاب عنها، والحق عندي إن كل ما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة فإطواؤه على غرة أولى وترك الخوض فيه أحرى.

﴿أن تقولوا﴾ أي كراهة أن أو لئلا تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هذا﴾ أي عن كون الله ربنا وحده لا شريك له ﴿غافلين﴾

أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

﴿او تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ أي فعلنا ذلك كراهة ان تعتذروا بالغفلة او تنسبوا الشرك الى آبائكم دونكم وأو لمنع الخلو دون الجمع فقد يعتذرون بمجموع الأمرين ﴿من قبل﴾ أي قبل زماننا ﴿وكنا ذرية من بعدهم﴾ أي أتباعاً لهم فاقتدينا بهم في الشرك لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا.

بيّن الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة ففي هذه الآية قطع لعذر الكفار فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك.

وقال أهل النظر: المراد منه مجرد نصب الدلائل وإظهارها للعقول، والحق هو الأول والمعنى لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد والتذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك التفصيل البليغ ﴿نفصل الآيات﴾ لهم ليتدبروها ﴿ولعلهم يرجعون﴾ إلى الحق ويتركون ما هم عليه من الباطل وقيل يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه والمآل واحد.

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ وهي علوم الكتب القديمة والتصرف بالاسم الأعظم فكان يدعو به حيث شاء فيجاب بعين ما طلب في

الحال، وإيراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة.

وقد اختلف في هذا الذي أوتي الآيات فقيل هو بلعم بن باعوراء، قاله ابن عباس، وفي لفظٍ بلعام بن باعر الذي أوتي الإسم الأعظم، كان في بني إسرائيل وبه قال مجاهد، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة.

وقيل كان قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان فاعطوه الأعطية الواسعة فاتبع دينهم وترك ما بعث به فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى فقام ليدعو عليه فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه فقيل له في ذلك فقال لا أقدر على أكثر مما تسمعون، واندلع لسانه على صدره فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسأمكر لكم وإني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا فإن وقعوا فيه هلكوا فوقع بنو إسرائيل في الزنا فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً.

وقيل إن هذا الرجل اسمه باعم وهو من بني إسرائيل، وقيل من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل: هو من مدينة البلقاء وقال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن آبن، والقصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها أن موسى دعا على بلعام بأن ينزع عنه الإسم الأعظم والإيمان.

ولا يصح ذلك من غير نظر فيه ولا بحث.

وقيل المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم حسده

وكفر به، قاله عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم، وقيل: هو أبو عامر بن صيفي، وكان يلبس المسوح في الجاهلية فكفر بمحمد ﷺ.

وكانت الأنصار تقول هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق، وقيل: نزلت في البسوس رجل من بني إسرائيل قاله ابن عباس وقيل: نزلت في منافقي أهل الكتاب قاله الحسن وابن كيسان وقيل نزلت في قريش آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكفروا بها، وقيل: نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكفروا به.

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى ولم يقبله، قيل والمراد بالآيات اسم الله الأكبر قاله ابن عباس، وقال ابن زيد: كان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه قال السدي: كان يعلم اسم الله الأعظم، وقيل إنه أوتي كتاباً وقيل إن الله آتاه حجة وأدلة[1].

﴿فانسلخ منها﴾ كما تنسلخ الحية والشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال، وقال ابن عباس: نزع منه العلم والانسلاخ التعري من الشيء، وليس في الآية قلب إذ لا ضرورة تدعو إليه وإن زعمه بعضهم وأن أصله فانسلخت منه.

﴿فأتبعه الشيطان﴾ عند انسلاخه عن الآيات أي لحقه فأدركه وصار قريناً له أو فأتبعه خطواته وصيره تابعاً لنفسه وقيل أتبعه بمعنى استتبعه ﴿فكان من الغاوين﴾ أي المتمكنين في الغواية وهم الكفار.

---

(١) راجع فقه اسم الله الاعظم في زاد المسير ٣/٢٨٨.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ
وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿ولو شئنا﴾ رفعه بما آتيناه من الآيات ﴿لرفعناه بها﴾ أي بسببها إلى منازل العلماء ولكن لم نشأ ذلك لانسلاخه عنها وتركه للعمل بها، وقيل: المعنى لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصي فرفعناه إلى الجنة بها أي بالعمل بها قاله ابن عباس وقال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات.

﴿ولكنه أخلد﴾ أصل الاخلاد اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه، والمعنى هنا أنه مال وسكن إلى الدنيا ورغب فيها ورضي بها واطمأن وآثرها على الآخرة ﴿إلى الأرض﴾ هي هنا عبارة عن الدنيا لأن بها المفاوز والقفار والمدن والضياع والمعادن والنبات، ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الأرض.

﴿واتبع هواه﴾ أي ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله وهو حطام الدنيا وقيل كان هواه مع الكفار وقيل: اتبع رضاء زوجته وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله، وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى.

﴿فمثله كمثل الكلب﴾ أي وصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة مماثلاً له في أقبح أوصافه ﴿إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي في كلتا حالتي قصد

الانسان له وتركه هو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شد عليه أو لم يشد، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء.

والمعنى مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة أي: إن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره الزاجر أو لم يقع شيء من ذلك، قال القتيبي: كل شيء يلهث فانما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فانه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال ان وعظته ضل وان تركته ضل فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث كقوله تعالى: ﴿وان تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾.

واللهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش أو غير ذلك قاله الجوهري قيل معنى الآية إنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً وإن تركته شد عليك ونبح فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومدبراً عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان، يقال لهث الكلب يلهث إذا أدلع لسانه.

﴿ذلك﴾ أي التمثيل بتلك الحالة الخسيسة ﴿مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ من اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذبوا بها، وقيل عم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها وهو الحق لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿فاقصص القصص﴾ الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات عليهم فان مثل المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين نقص عليهم ﴿لعلهم يتفكرون﴾ في ذلك ويعملون فيه افهامهم فينزجرون عن الضلال ويقبلون على الصواب، وقيل هذا المثل لكفار مكة ولا وجه لتخصيصه بفرد دون فرد والأولى هو العموم.

﴿ساء مثلاً﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة في القبح إلى الغاية يقال ساء الشيء قبح فهو لازم وساءه يسوءه مساءة فهو متعد وهو من افعال الذم كبئس والمخصوص بالذم ﴿القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها، وقيل المعنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم وهذا أفيد.

﴿من يهدي الله﴾ أي يرشده إلى دينه أو يتول هدايته ﴿فهو المهتدي﴾ لما أمر به وشرعه لعباده ﴿ومن يضلل﴾ أي يتول ضلالته ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران من هداه فلا مضل له ومن أضله فلا هادي له ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

أخرج مسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردوية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، ثم يقول بعثت أنا والساعة كهاتين[1].

فلو كان الهدى من الله البيان كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر والمؤمن إذ البيان ثابت في حقهما فدل انه من الله التوفيق والعصمة والمعونة ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.

(١) مسلم /٨٦٧.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ أي خلقنا للتعذيب بها خلقاً ﴿كثيراً من﴾ طائفتي ﴿الجن والإنس﴾ جعلهم سبحانه للنار بعدله وبعمل أهلها يعملون وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن النجار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ان الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم، وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: ان الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم[٢]، أخرجه مسلم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ شيئاً من أمور الآخرة، جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم ورشادهم غير فاقهة مطلقاً، وإن كانت تفقه في غير ما فيه النفع والرشاد فهو كالعدم والفقه في اللغة الفهم والعلم بالشيء يقال فقه الرجل فهو فقيه إذا فهم، وهكذا معنى ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ طريق الهدى والحق ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ الحق فان الذي انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة وما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام وإن كانوا يسمعون غير ذلك.

(٢) مسلم /٢٦٦٢.

﴿أولئك﴾ المتصفون بهذه الأوصاف ﴿كالأنعام﴾ أي البهائم في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر مع وجودها فيهم، والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ثم جعلهم شراً من الأنعام فقال: ﴿بل هم أضل﴾ أي حكم عليهم بأنهم أضل منها لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها فتنتفع بما ينفع وتجتنب ما يضر وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به بل يقدمون على النار معاندة ﴿أولئك هم الغافلون﴾ حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذي هو من شأن من له عقل وبصر وسمع.

﴿ولله الأسماء﴾ ذكر ذلك في أربع سور في القرآن: أولها هذه السورة، وثانيها في آخر بني إسرائيل، وثالثها في أول طه، ورابعها في آخر الحشر، وهذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول، وقيل الحسنى مصدر وصف به كالرجعى وأفرده كما أفرد وصف ما لا يعقل.

وقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وأبو عوانة وابن جبير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مسْنده وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة أنه وتر يحب الوتر[1]، وفي لفظ ابن مردويه وأبي نعيم من دعا بها استجاب الله دعاءه، وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، إلى قوله الصبور، وهي معروفة، هكذا أخرج الترمذي هذه الزيادة عن أبي هريرة مرفوعة وقال هذا حديث غريب، وقد روي من غير وجه

(١) مسلم /٢٦٧٧.

عن أبي هريرة ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

قال ابن كثير في تفسيره والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء مدرج في هذا الحديث وأنهم جمعوها من القرآن، ثم قال: ليعلم ان الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ انه قال:[ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم اني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك،الحديث. .] وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه بمثله انتهى[1].

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات قال النووي:. اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وليس معناه انه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما المقصود أن من أحصاها دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الأسماء انتهى.

قال ابن حزم جاءت في إحصائها يعني الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً وقد أخرجها بهذا العدد الذي أخرجه الترمذي ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ: فذكراه ولا أدري كيف اسناده.

وعن أبي جعفر محمد بن الصادق قال: هي في القرآن ثم سردها سورة فسورة.

---

(١) ابن كثير ٢/٢٦٩.

وقد ذكر ابن حجر في التلخيص أنّه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررها منه تسعة وتسعين ثم سردها ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة وهي في القرآن.

وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربي في شرح الترمذي حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، ومعنى أحصاها حفظها، قاله البخاري وبه قال أكثر المحققين ويعضده الرواية الأخرى من حفظها دخل الجنة، وقيل العدد أي عدها في الدعاء بها وقيل المعنى من أطاقها وأحسن المراعاة لها وقيل أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها والأول أولى، وقد ذكر الرازي في هذا المقام بحثاً في أن الإسم عين المسمى أو غيره وهو مما لم يكلف الله به عباده.

وفي قوله: ﴿فادعوه بها﴾ دليل على أن أسماء الله سبحانه توقيفية لا اصطلاحية والمعنى سموه به وأجروها عليه واستعملوها فيه دعاء ونداء وغير ذلك فلا تسموه بغيرها مما لم يرد إطلاقه عليه تعالى، أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة.

﴿وذروا الذين يلحدون﴾ الإلحاد الميل والانحراف وترك القصد، يقال لحد الرجل في الدين وألحد إذا مال، ومنه اللحد في القبر لأنه في ناحيته قال ابن عباس: الإلحاد التكذيب، وقال عطاء: هو المضاهاة، وقال الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها وقال قتادة: يشركون.

والإلحاد ﴿في أسمائه﴾ سبحانه يكون على ثلاثة أوجه.

إما بالتغيير كما فعله المشركون فإنهم أخذوا اسم اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان قاله ابن عباس ومجاهد.

أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها قال أهل المعاني: هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة، لأن أسماءه كلها توقيفية فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل يدعوه بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم[١].

أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض ولا يسميه باسم لا يعرف معناه ولا باسم فيه من الغرابة والمعنى أتركوهم لا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم. وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال وقيل معناه الوعيد كقوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وقوله: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ وهذا أولى لقوله: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم.

وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول: في صلاته يا رحمن يا رحيم فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين حكى ذلك القرطبي[٢].

(١) قال ابن العربي: «فحذار منها، ولا يدعون احدكم الا بما في كتاب الله والكتب الخمسة؛ وهي البخاري ومسلم والترمذي وابو داود والنسائي. فهذه الكتب التي يدور الإسلام عليها، وقد دخل فيها ما في الموطأ الذي هو اصل التصانيف، وذروا ما سواها، ولا يقولن احدكم اختار دعاء كذا وكذا، فإن الله قد اختار له وارسل بذلك الى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم. (ذكره القرطبي في ٣٢١/٧)

(٢) وقد روى مقاتل: ان رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال ابو جهل: اليس يزعم محمد واصحابه انهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يداعونني فنزلت الاية.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

﴿وممن خلقنا﴾ أي من جملة من خلقه الله ﴿أمة﴾ وعصابة وجماعة ﴿يهدون﴾ الناس متلبسين ﴿بالحق﴾ أو يهدونهم بما عرفوه من الحق ﴿وبه﴾ أي بالحق ﴿يعدلون﴾ بينهم قيل هم من هذه الأمة وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان قاله ابن عباس.

وعن الكلبي هم من آمن من أهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة إلى الدين وقيل إنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين كما ورد في الحديث الصحيح عن معاوية قال وهو يخطب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك[1] أخرجه البخاري ومسلم.

وعن ابن جريج قال: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: هذه أمتي يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون، وعن قتادة قال: بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول إذا قرأها: هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة الآية[2].

وعن الربيع في الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى نزل أخرجه ابن أبي حاتم.

---

(١) مسلم /١٠٣٧ البخاري /٦٢.
(٢) ابن كثير ١/٢٦٩.

وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدي إليه قيل وفيه دلالة على أن إجماع كل عصر حجه، والبحث في ذلك مفصل في الأصول.

ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم أهل مكة والأول أولى، لأن صيغة العموم تتناول الكل إلا ما دل الدليل على خروجه منه ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ الاستدراج هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة والدرج كف الشيء يقال أدرجته ودرجته ومنه إدراج الميت في أكفانه وقيل هو من الدرجة فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في إثر بعض.

والمعنى سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم وذلك بإدرار النعم عليهم وإنسائهم شكرها فينهمكون في الغواية ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة.

قال الأزهري: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون، وقال السدي سنأخذهم من حيث لا يعلمون، قال عذاب بدر: وعن يحيى بن المنى قال كلما أحدثوا ذنباً جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار، وبه قال الضحاك وقال سفيان: نسبغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها، وعن ثابت البناني أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين، قال الكلبي: نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها روي أن عمر بن الخطاب لما حمل إليه كنوز كسرى، قال: اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون.

وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

﴿وأملي﴾ الإملاء الإمهال والتطويل أي أطيل ﴿لهم﴾ المدة وأمهلهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي وأؤخر عنهم العقوبة ﴿إن كيدي متين﴾ جملة مقررة لما قبلها من الاستدراج والإملاء ومؤكدة له والكيد المكر والمتين الشديد القوي وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب لأنه أقوى ما في الحيوان وقد متن بالضم يمتن متانة أي قوي.

والمعنى أن أخذي أو مكري شديد لا يطاق قال ابن عباس: كيد الله العذاب والنقمة قال في الكشاف سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان، وفي الآية دليل على مسألة القضاء والقدر، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿أو لم يتفكروا﴾ الإستفهام للانكار عليهم حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيما جاء به ﴿ما بصاحبهم من جنة﴾ ما للاستفهام الإنكاري والجنة مصدر أي وقع منهم التكذيب ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون؟فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلاً وقولهم زوراً وبهتاناً.

وقيل أي ليس بصاحبهم شيء مما يدعونه من الجنون فيكون هذا رداً لقولهم:[يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون]ويكون الكلام قد تم عند قوله ﴿أو لم يتفكروا﴾ والوقف عليه من الأوقاف الحسنة.

عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قام على الصفا فدعا قريشاً فخذاً فخذاً يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائل: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت حتى أصبح فأنزل الله هذه الآية(١).

وإنما نسبوه إلى الجنون وهو بريء منه لأنه صلى الله عليه وآله وسلم خالفهم في الأقوال والأفعال لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها مشتغلاً بالدعاء إلى الله وانذار بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه إلى جنون فبرأه الله من الجنون وقال ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي بين الانذار والجملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ.

﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ الاستفهام للانكار والتوبيخ والتقريع ولقصد التعجب من إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفرده بالإلهية.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والملكوت من أبنية المبالغة ومعناه الملك العظيم، وقد تقدم بيانه، والمعنى أن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به بل هم متبادرون في ضلالتهم خائضون في غوايتهم لا يعملون فكراً، ولا يمعنون نظراً.

﴿وما خلق الله﴾ أي ولم ينظروا فيما خلق ﴿من شيء﴾ من الأشياء كائناً ما كان فإن في جميع مخلوقاته عبرة للمعتبرين وهو عظة للمتفكرين سواء كانت

---

(١) رواه الطبري ١٣/٢٨٩ وابن كثير ٢/٢٧٠.

من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض أو من دقائقها من سائر مخلوقاته ﴿وأن﴾ أي أولم ينظروا في أن الشأن والحديث ﴿عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ فيموتون عن قريب، والمعنى أنهم إذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به، وافتعل هنا بمعنى الفعل المجرد أي قرب وقت أجلهم(١).

﴿فبأي حديث بعده﴾ الضمير للقرآن وقيل لمحمد ﷺ وقيل للاجل المذكور قبله وقيل الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكر والنظر في الأمور المذكورة أي بأي حديث بعد هذا المتقدم بيانه ﴿يؤمنون﴾ وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره، والجملة الاستفهامية سيقت للتعجب أي إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فكيف يؤمنون بغيره.

وجملة ﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ مقررة لما قبلها أي هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن اضله الله ومن يضلله فلا يوجد له من يهديه إلى الحق وينزعه عن الضلالة البتة ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي يتحيرون وقيل يترددون ولا يهتدون سبيلا.

---

(١) قلت: هذا هو الصحيح في الباب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». وترجم ابن المنذر في كتاب الأشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) اجمع كل من يحفظ عنه من اهل العلم على ان الكافر اذا قال: اشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام ـ وهو بالغ صحيح العقل ـ أنه مسلم. (ذكره القرطبي ٧/٣٣١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿يسئلونك﴾ استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم والسائلون هم اليهود وقيل قريش ﴿عن الساعة﴾ أي القيامة وهي من الأسماء الغالبة واطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها ساعة عند الله مع طولها في نفسها ﴿أيان﴾ ظرف زمان مبني على الفتح ومعناه متى واشتقاقه من أي وقيل من أين ﴿مرساها﴾ أي أيُّ وقت ارساؤها واستقرارها وحصولها وكأنه شبهها بالسفينة القائمة في البحر مأخوذ من ارساها الله أي أثبتها.

وقرىء بفتح الميم من رست أي ثبتت ومنه وقدور راسيات ومنه رسى الجبل، والمعنى متى يثبتها ويوقعها ويرسيها الله،؟ وقال الطيبي: الرسو انما يستعمل في الاجسام الثقيلة واطلاقه على الساعة تشبيه للمعاني بالأجسام، وقال ابن عباس: منتهاها أي وقوعها، قال: والساعة الوقت الذي تموت فيه الخلائق، وظاهر الآية أن السؤال عن نفس الساعة، وظاهر أيان مرساها أن السؤال عن وقتها فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك.

ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله: ﴿قل إنما علمها﴾ أي علم وقت ارسائها باعتبار وقوعها ﴿عند ربي﴾ قد استأثر به لا يعلمها غيره ولا يهتدي إليها سواه ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ﴿لا يجليها﴾ التجلية إظهار الشيء يقال جلى لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه أي لا يظهرها ولا يكشف عنها، وقال مجاهد: لا يأتي بها، وقال السُّدِّي: لا

يرسلها ﴿لوقتها إلا هو﴾ سبحانه بالذات من غير ان يشعر به أحد من المخلوقين.

وفي استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها مبينة لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها.

﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أي عظمت على أهلها وشقت على العالم العلوي والسفلي، قيل معنى ذلك أنه لما خفي علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب، وقيل المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب، وقيل عظم وصفها عليهم، وقيل ثقلت المسألة عنها.

وقال ابن عباس: يعني ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة وقيل ثقلت لأن فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على الافئدة، وقيل كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل عليه، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها أيضاً.

﴿لا تأتيكم﴾ الساعة ﴿إلا بغتة﴾ أي فجأة على حين غفلة من الخلق، وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة صحيحة هي معروفة وهذه الجملة كالتي قبلها في التقرير.

﴿يسئلونك كأنك حفي عنها﴾ استئناف مسوق لبيان خطئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على زعمهم أنه عالم بالمسؤول عنه، قال ابن فارس: الحفي العالم بالشيء والحفي المستقصي في السؤال يقال

أحفى في المسئلة وفي الطلب فهو محف وحفي على التكثير مثل مخضب وخضيب، والمعنى يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها أو كأنك مستقص للسؤال عنها ومستكثر منه ومتطلع إلى علم مجيئها وعن بمعنى الباء.

وقيل المعنى كأنك حفي بهم، والأول هو معنى النظم القرآني على مقتضى المسلك العربي، قال ابن عباس: يقول كأن بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم.

﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر ما أجاب به عليهم سابقاً لتقرير الحكم وتأكيده، قال في المدارك: وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلو عن فائدة انتهى.

وقيل ليس بتكرير بل أحدهما معناه استئثار الله بهذا وعدم علم خلقه به لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، والآخر الاستئثار بكنهها نفسها وثقلها وشدائدها.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن علمها عند الله وأنه استأثر به حتى لا يسألوا عنه وقيل لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفي علم وقت قيامها عن الخلق[1].

---

(١) روى البخاري ١٣/٧٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» وهو جزء من حديث طويل، يدل على أن الساعة تأتي بغتة. وقوله: «يليط حوضه» بفتح أوله من الثلاثي، وبضمه من الرباعي، والمعنى: يصلحه بالطين والمدر، فيسد شقوقه، ليملأه ويسقي منه دوابه.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ قال ابن جرير: يعني الهدى والضلالة وهذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ومتى تقع لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضر عنه.

﴿إلا ما شاء الله﴾ سبحانه من النفع له والدفع عنه، فبالأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه، وفي هذا من اظهار العبودية والاقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له صلى الله عليه وآله وسلم ما فيه أعظم زاجر، وأبلغ واعظ لمن يدعي لنفسه ما ليس من شأنها وينتحل علم الغيب بالنجامة أو الرمل أو الطرق بالحصى أو الزجر.

قال النسفي: أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر كالمماليك إلا ما شاء مالكي من النفع لي والدفع عني، والاستثناء منقطع، وبه قال ابن عطية وهو أبلغ في إظهار العجز.

ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ أي لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني، ولكني عبد لا أدري ما عند ربي ولا ما قضاه فيّ وقدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه، وقيل المعنى لو

كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته، وقيل لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب، وقيل لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه، وقيل لو كنت أعلم وقت الموت لاستكثرت من العمل الصالح، وقيل لو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاعتددت من الخصب للجدب وقيل غير ذلك والاولى حمل الآية على العموم فيندرج هذه الأمور وغيرها تحتها.

﴿وما مسنى السوء﴾ كلام مستأنف أي ليس لي ما تزعمون من الجنون، والأولى أنه متصل بما قبله والمعنى لو علمت الغيبَ ما مسني السوء ولحذرت عنه كما قدمنا ذلك وقال ابن جريج: لا يصيبني الفقر، وقال ابن زيد: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، وقال الكرخي: أي ما مسني سوء يمكن التفصي عنه بالتوقي عن موجباته والمدافعة بموانعه لا سوء ما فإن منه ما لا مدفع له.

﴿إن أنا إلا نذير وبشير﴾ أي ما أنا إلا مبلغ عن الله أحكامه ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي كتب في الأزل أنهم يؤمنون فإنهم المنتفعون به فلا ينافي كونه بشيراً ونذيراً للناس كافة، واللام في لقوم من باب التنازع، فعند البصريين تتعلق ببشير، وعند الكوفيين بنذير، وقيل نذير بالنار للكافرين وبشير بالجنة للمؤمنين.

وعلى هذا متعلق النذارة محذوف والذي أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم عن المغيبات، وقد جاءت بها أحاديث في الصحيح فهو من قبيل المعجزات.

ومن قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك على سبيل التواضع والأدب فقد أبعد النجعة بل قاله صلى الله عليه وآله وسلم معتقداً

بذلك، وأن الله هو المستأثر بعلم الغيب والمعجزات مخصصة من هذا العموم كما قال تعالى: ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾.

﴿هو الذي خلقكم﴾ خطاب لأهل مكة ﴿من نفس واحدة﴾ أي آدم قاله جمهور المفسرين والتأنيث باعتبار لفظ النفس وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده وعدم مكافأتهم لها بما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية وأنه المتفرد بالإلٰهية.

﴿وجعل منها﴾ أي من هذه النفس وقيل من جنسها كما في قوله تعالى: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ والأول أولى ﴿زوجها﴾ وهي حواء خلقها من ضلع من أضلاعه ﴿ليسكن﴾ علة للجعل أي لأجل أن يأنس ﴿إليها﴾ ويطمئن بها فإن الجنس بجنسه أسكن وإليه آنس، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما فقال:

﴿فلما تغشاها﴾ أي آدم زوجه والتغشي كناية عن الوقاع أي فلما جامعها كنى به عن الجماع أحسن كناية لأن الغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها إذا علاها وتجللها ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ أي علقت به بعد الجماع، والمشهور أن الحمل بالفتح ما كان في بطن أو على شجرة، والحمل بالكسر خلافه وقد حكى في كل منهما الكسر والفتح وهو هنا إما مصدر فينتصب انتصاب المفعول المطلق أو الجنين المحمول فيكون مفعولاً به، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة، وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة، وعند كونه مضغة أخف مما بعده، وقيل إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه ولم تجد منه ثقلاً كما تجده الحوامل من النساء لقوله:

﴿فمرت به﴾ أي استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضي في

حوائجها، لا تجد به ثقلاً ولا مشقة ولا كلفة، وقرىء فمرت به بالتخفيف أي فجزعت لذلك، وقرىء فمارت به من المور وهو المجيء والذهاب، قال سمرة: حملاً خفيفاً لم يستبن فمرت به لما استبان حملها، وقال ابن عباس: فمرت به أي شكت أحملت أم لا.

وعن الحسن سئل عن قوله فمرت به قال: لو كنت عربياً لعرفتها إنما هي استمرت بالحمل، وعن السدي قال: حملاً خفيفاً هي النطفة فمرت به أي استمرت به، وبه قال ابن عباس وعن ميمون بن مهران قال: استخفته والوجه الأول أولى لقوله:

﴿فلما أثقلت﴾ فإن معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها ﴿دعوا الله﴾ جواب لما أي دعا آدم وحواء ﴿ربهما﴾ ومالك أمرهما ﴿لئن آتيتنا﴾ ولداً ﴿صالحاً﴾ عن أبي صالح قال: أشفقا أن يكون بهيمة فقالا لئن آتيتنا بشراً سوياً، وعن مجاهد نحوه، وعن الحسن قال: غلاماً سوياً أي متسوي الأعضاء خالياً من العوج والعرج وغير ذلك، وقيل ولداً ذكراً لأن الذكورة من الصلاح ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لك على هذه النعمة، وفي هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث في بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما وعلما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب[1].

---

(١) قال: «الطبري» ١٣/٣٠٧ ـ ٣٠٨: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء صالحاً، ليكونان لله من الشاكرين، والصلاح قد يشمل معاني كثيرة، منها الصلاح في استواء الخلق، ومنها الصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير، وإذ كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يعم كما عمه الله فيقال: إنهما قالا: لئن آتيتنا صالحاً بجميع معاني الصلاح.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي ما طلباه من الولد الصالح وأجاب دعاءهما ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ قرأ سائر أهل الكوفة بالجمع وقرأ أهل المدينة شركاً على التوحيد، وأنكره الأخفش، وأجيب عنه بأنها صحت على حذف المضاف أي جعلا له ذا شرك أو ذوي شرك، وقال أبو عبيدة: معناه حظاً ونصيباً.

قال كثير من المفسرين:إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها: إن ولدت ولداً فسميه باسمي فقالت: وما اسمك؟قال: الحرث ولو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحرث فكان هذا شركاً في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة، ولكن قصدت بتسميتها الولد بعبد الحرث أن الحرث سبب لنجاة الولد، فمعاتبتها على ذلك من حيث إنها نظرت إلى السبب دون المسبب.

وقد روي هذا بطرق وألفاظ عن جماعة من الصحابة ومن بعدهم، ويدل له حديث سمرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال:سميه عبد الحرث فإنه يعيش فسمته عبد الحرث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره، أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والروياني والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه[1].

وفيه دليل على أن الجاعل شركاً فيما آتاهما هو حواء دون آدم وقوله جعلا له شركاء بصيغة التثنية لا ينافي ذلك لأنه قد يسند فعل الواحد إلى اثنين بل

---

(١) ابن كثير ٢ / ٢٧٤ .

إلى جماعة وهو شائع في كلام العرب، وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير الطيب.

قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ ثم قال في هذه السورة ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ وقال: ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ والمراد به الزوج فقط قاله الفراء، وإنما ذكرهما جميعاً لاقترانهما وقال تعالى: ﴿نسيا حوتهما﴾ وإنما الناسي يوشع دون موسى، وقال تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو المالح، وقال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ وإنما الرسل من الإنس دون الجن لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صح هذا التركيب وقال تعالى: ﴿ألقيا في جهنم﴾ والخطاب لواحد دون اثنين وفي الحديث المرفوع: «إذا سافرتما فأذنا»[1] والمراد أحدهما وقال امرؤ القيس.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقد أكثر الشعراء من قولهم خليليّ والمراد بهما الواحد دون الاثنين.

وعلى هذا فمعنى الآية الكريمة جعل أحدهما له شركاء وهو حواء.

وإذا عرفت هذا علمت أن المصير إلى هذا التأويل الذي ذكرناه متعين وقد عاضده الكتاب والسنة وكلام العرب والحديث المتقدم ليس فيه إلا ذكر حواء.

وقد استشكل هذه الآية جمع من أهل العلم لأن ظاهرها صريح في وقوع الإشراك من آدم عليه السلام، والأنبياء معصومون عن الشرك ثم اضطروا إلى التفصي من هذا الإشكال فذهب كلٌّ إلى مذهب واختلفت أقوالهم في تأويلها اختلافاً كثيراً حتى أنكر هذه القصة جماعة من المفسرين منهم الرازي

(١) صحيح الجامع الصغير ٦٠٢.

وأبو السعود وغيرهما، وقال السدي: هذا فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب وعن أبي مالك نحوه.

وقال الحسن: هذا في الكفار يدعون الله فإذا آتاهما صالحا هوّدا ونصرا وقال ابن كيسان: هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد الشمس وعبد الدار ونحو ذلك، وقيل هم اليهود والنصارى خاصة.

قال الحسن: كان هذا في بعض أهل الملل وليس بآدم، وقيل هـذا خطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم آل قصي وحسنه الـزمخشري، وقال هذا تفسير حسن لا اشكال فيه، وقيل معناها على حذف المضاف أي جعل أولادهما شركاء ويدل له ضمير الجمع في قوله الآتي: ﴿عما يشركون﴾ واياه ذكر النسفي والقفال وارتضاه الرازي وقال: هذا جواب في غاية الصحة والسداد وبه قال جماعة من المفسرين.

وقيل: خطاب كل واحد من الخلق بقـوله خلقكم وجعـل من جنسه زوجة، قال البغوي: وهذا قول حسن لولا قول السلف بخلافه، وقيل ان هذه القصة لم تصح وإنما عصى من كان في ظهر آدم من ذريته وكان آدم أنموذج التقدير فظهرت ورئيت خطايا بني آدم في ذاته كما ترى الصورة في المرآة لأن ظهره كان كالسفينة لسائر أولاده.

وقيل معنى من نفس واحدة من هيئة واحدة وشكل واحد فجعل منها أي من جنسها زوجها فلما تغشاها يعني جنس الذكر جنس الأنثى وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين، وقيل ان فاعل تغشاها ضمير راجع إلى أحدهم، والمعنى خلق الله الناس من آدم وكان بدء خلقهم ان خلق من آدم زوجته ليسكن إليهـا فحصل منهما النسل، ثم رجع إلى أول الكلام وهو أن الله خلقهم فلم يشكروا له ولم يؤدوا حقه، وذلك أن أحدهم لما تغشى امرأته فحملت حملاً خفيفاً فحصل بسبب ذلك

الاختصار غموض في الآية وأصل الكلام عام وكانت حواء من جملة ذلك، فلا يجب صدق جميع خصوصيات الآيات عليها وإنما يجب وجود أصل القصة.

وقد يؤخذ هذا الوجه من قوله تعالى في موضع آخر ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ وبهذا قال الشيخ أحمد ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله.

وهذه الأقوال كلها متقاربة في المعنى متخالفة في المبنى، ولا يخلو كل واحد منها من بعد وضعف وتكلف بوجوه.

الأول ان الحديث المرفوع المتقدم يدفعه وليس في واحد من تلك الأقوال قول مرفوع حتى يعتمد عليه ويصار إليه، بل هي تفاسير بالآراء المنهى عنها المتوعد عليها.

الثاني أن فيه انخرام نظم الكلام سياقاً وسباقاً (الثالث) أن الحديث صرح بأن صاحبة القصة هي حواء وقوله جعل منها زوجها إنما هو لحواء دون غيرها فالقصة ثابتة ولا وجه لانكارها بالرأي المحض (الرابع) أن الحديث ليس فيه إلا ذكر حواء وكان هذا شركاً منها في التسمية ولم يكن شركاً في العبادة، وقيل والشرك في التسمية أهون.

قلت: وفيه بعد ظاهر لأن الله تعالى ساق آيات التشنيع عليها وهو شرك وإن لم يكن في العبادة وما قيل انها إنما قصدت ان الحرث كان سبب نجاة الولد كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه فهو خطأ لأن الأعلام كما يقصد بها المعاني العلمية كذلك قد يلاحظ معها المعاني الأصلية بالتبعية كما صرح بـه أهل المعاني، وكان اسم أبي بكر الصديق في الجاهلية عبد الكعبة، واسم أبي هريرة عبد الشمس فغيرهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسماهما صديقاً وعبد الرحمن.

وما قيل انها سمته بعبد الحرث باذن من آدم فهذا يحتاج إلى دليل يدل عليه ويصح وأنى له الدليل ولعلها سمته بغير اذن منه ثم تابت من ذلك.

والحاصل أن ما وقع إنما وقع من حواء لا من آدم عليه السلام ولم يشرك آدم قط، وعلى هذا فليس في الآية اشكال، والذهاب إلى ما ذكرناه متعين تبعاً للكتاب والحديث وصوناً لجانب النبوة عن الشرك بالله تعالى، والذي ذكروه في تأويل هذه الآية الكريمة يرده كله ظاهر الكتاب والسنة كما تقدم، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل والله أعلم.

وما ذكرنا من صحة اطلاق المثنى على المفرد هو شائع في كلام العرب ولكنهم لم يذهبوا إليه في هذه الآية، ولم يخطر ذلك ببالهم مع كونه ظاهر الأمر وواضحه ومع أنهم ذكروه وذهبوا إليه في غير هذا الموضع في غير واحد من مواضع في القرآن والحديث وغيرهما، وهذا عجيب منهم غاية العجب.

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ هذا ابتداء كلام مستأنف أراد به اشراك أهل مكة وقيل معطوف على ﴿خلقكم﴾ وما بينهما اعتراض، وقيل أراد به حواء لأنه يجوز اطلاق الجمع على الواحد، وقيل يعود على آدم وحواء وابليس والأول أولى وبه قال السمين، وليس لها تعلق بقصة آدم وحواء أصلاً ولو كانت القصة واحدة لقال عما يشركان.

قال ابن الجزري في كتابه النفيس: قد يأتي العرب بكلمة إلى جانب كلمة كأنها معها وفي القرآن يريد أن يخرجكم من أرضكم، هذا قول الملأ قال فرعون: فماذا تأمرون، انتهى. فالضمير في يشركون يعود على الكفار، والكلام قد تم قبله.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا
شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف يجعل أهل مكة لله شريكاً لا يخلق شيئاً ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع ضر عنهم ﴿وهم يخلقون﴾ الضمير راجع إلى الشركاء أي وهؤلاء الذي جعلوهم شركاء من الأصنام والشياطين مخلوقون وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك.

﴿ولا يستطيعون لهم﴾ أي لمن جعلهم شركاء ﴿نصراً﴾ ان طلبوه منهم ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ ان حصل عليهم شيء من جهة غيرهم ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ هذا خطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبيء عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت، وبيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر، وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب أي وان تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم ﴿لا يتبعوكم﴾ ولا يجيبوكم إلى ذلك وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع ودفع الضر والنصر على الأعداء.

قال الأخفش: معناه وان تدعوهم أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم

وقيل يجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين والضمير المنصوب للمشركين ممن سبق في علم الله انه لا يؤمن، والمعنى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين لا يتبعوكم وقرىء لا يتبعوكم مشدداً ومخففاً وهما لغتان وقال بعض أهل اللغة: اتبعه مخففاً إذا مضى خلفه ولم يدركه واتبعه مشدداً إذا مضى خلفه فأدركه.

﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لا فرق بينهما لأنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يسمعون ولا يجيبون، وقال ﴿أم أنتم صامتون﴾ مكان أو صمتم لما في الجملة الاسمية من المبالغة في عدم افادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر، وقال محمد بن يحيى: إنما جاء بالاسمية لكونها رأس آية يعني لمطابقة ولا أنفسهم ينصرون وما قبله.

﴿ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباداً لله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره، وهذا تقريع لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم، قال مقاتل: انها الملائكة والخطاب مع قوم كانوا يعبدونها، والأول أولى وإنما وصفها بأنها عباد مع أنها جماد تنزيلاً لها منزلة العقلاء على وفق معتقدهم ولذلك قال:

﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من أنهم ان دعوهم الى الهدى لا يتبعوهم وانهم لا يستطيعون شيئاً أي ادعوا هؤلاء الشركاء فان كانوا كما تزعمون فليستجيبوا لكم، وإنما ورد هذا اللفظ في معرض الاستهزاء بالمشركين ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضرر وانها آلهة.

ثم بين غاية عجزهم وفضل عابديهم عليهم فقال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها في نفع أنفسهم، فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم، وليس لهم أيد يبطشون بها كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون. وليس لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات وبهذه المنزلة من العجز.

وأم في هذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة كما ذكره أئمة النحو والاضراب المفاد ببل انتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر، والبطش هو الأخذ بقوة وعنف.

ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعاور وجوه العجز والنقص لها من كل باب أمره الله بأن يقول لهم ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضرر واستعينوا بهم في عداوتي حتى يتبين عجزها ﴿ثم كيدون﴾ أنتم وهم جميعاً بما شئتم من وجوه الكيد ﴿فلا تنظرون﴾ أي فلا تمهلوني ولا تؤخروا إنزال الضرر بي من جهتها والكيد المكر، وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء.

إِنَّ وَلِـِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

ثم قال: قل لهم ﴿إن وليِّيَ الله الذي نزل الكتاب﴾ أي كيف أخاف هذه الأصنام التي هذه صفتها ولي وليّ ألجأ إليه وأستنصر به وهو الله عز وجل، وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها وولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع منه الضرر والكتاب هو القرآن أي أوحى إلي وأعزني برسالته ﴿وهو﴾ الذي ﴿يتولى الصالحين﴾ أي يحفظهم وينصرهم ويحول بينهم وبين أعدائهم والصالحون هم الذين لا يعدلون بالله شيئاً ولا يعصونه وفي هذا مدح للصلحاء وأن من سنته نصرهم.

﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ كرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير ولما في تكرار التوبيخ والتقريع، من الإهانة للمشركين والتنقص بهم وإظهار سخف عقولهم، وركاكة أحلامهم وقيل الأولى على جهة التقريع والتوبيخ، والأخرى على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين هذه الأصنام وبالجملة هو من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم المفهوم من السوق فهماً جلياً.

﴿وإن تدعوهم﴾ أي المشركين قاله الحسن وقيل أي الأصنام ﴿إلى الهدى لا يسمعوا﴾ دعاءكم لأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق فضلاً عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغ من نفي الاتباع ﴿وتراهم﴾ الرؤية بصرية ﴿ينظرون إليك﴾ أي يقابلونك كالناظر.

﴿وهم﴾ أي حال كونهم ﴿لا يبصرون﴾ جملة مبتدأة لبيان عجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار أصلاً أو جملة حالية والمراد الأصنام أي انهم يشبهون الناظرين ولا أعين لهم يبصرون بها قيل كانوا يجعلون للأصنام أعيناً من جواهر مصنوعة فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ولا يبصرون.

وقيل المراد بذلك المشركون أخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

﴿خذ العفو﴾ لما عدد الله سبحانه من أحوال المشركين ما عدده وتسفيه رأيهم وضلال سعيهم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يأخذ العفو من أخلاقهم، يقال أخذت حقي عفواً أي سهلاً. وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[1]، والمراد بالعفو هنا ضد الجهد وقيل الفضل وما جاء بلا كلفة والعفو التساهل في كل شيء وقيل المراد خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدد عليهم فيها وتأخذ ما يشق عليهم وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة، عن عبدالله بن الزبير قال: ما نزلت هذه الآية إلا في أخلاق الناس، رواه البخاري قال مجاهد: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسيس.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي بالمعروف وقرىء بالعرف بضمتين وهما لغتان والعرف والمعروف والعارفة كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس وكل ما يعرفه الشارع، وقال عطاء: وأمر بقول لا إله إلا الله والعموم أولى.

﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أي إذا أقمت الحجة عليهم في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا فأعرض عنهم ولا تمارهم ولا تسافههم مكافأة لما يصدر

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٧٩٤٢.

منهم من المراء والسفاهة، وقيل وهذه الآية هي من جملة ما نسخ بآية السيف قاله عطاء وابن زيد.

وقيل هي محكمة قاله مجاهد وقتادة وقيل أول هذه الآية وآخرها منسوخ وأوسطها محكم، قال الشعبي: لما أنزل الله هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا جبريل قال: لا أدري حتى أسأل العالم فذهب ثم رجع فقال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك أخرجه ابن جرير وابن المنذر وغيرهما(١)، وعن قيس بن سعد بن عبادة قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمزة بن عبد المطلب قال: والله لأمثلن بسبعين منهم فجاءه جبريل بهذه الآية أخرجه ابن مردويه.

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ النزغ الوسوسة وكذا الغز والنخس والنسغ، قال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة، وأصل النزغ الفساد يقال نزغ بيتاً أي أفسد، وقيل النـزغ الإغواء والمعنى متقارب، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك شيئاً من وسوسة الشيطان أن يستعيذ بالله ويلجأ إليه في دفعه عنه، وقيل:إنه لما نزل قوله خذ العفو قال النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يا رب بالغضب(٢)، فنزلت هذه الآية وفي الآية استعارة تبعية حيث شبه الإغراء على المعاصي بالنزغ واستعير النزغ للاغراء ثم اشتق منه ينزغنك.

وجملة ﴿إنه سميع عليم﴾ علة لأمره بالاستعاذة أي استعذ به والتجىء إليه فإنه يسمع ذلك منك ويعلم به، وقيل الخطاب لكل أحد والأول أولى، والكلام خرج مخرج التقدير والفرض فلا يقال: لو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم معصوماً لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ في قلبه ويحتاج إلى الاستعاذة.

---

(١) ابن كثير ٢/٢٧٧.

(٢) ابن كثير ٢/٢٧٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾ مقررة لمضمون ما قبلها أي: إن شأن الذين يتقون الله وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة والالتجاء إليه عند أن يمسهم طائف من الشيطان وإن كان يسيراً وقرىء طيف مخففاً ومشدداً قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف، وقال الكسائي هو مخفف مثل ميت وميت.

قال النحاس: ومعناه في اللغة ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم وكذا معنى طائف وقيل معنيان مختلفان فالأول التخيل، والثاني الشيطان نفسه فالأول من طاف الخيال يطوف طيفاً، ولم يقولوا من هذا طائف، قال السهيلي: لأنه تخيل لا حقيقة له وأما قوله ﴿فطاف عليهم طائف من ربك﴾ فلا يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة.

قال الزجاج: طفت عليهم أطوف وطاف الخيال يطيف، وسميت الوسوسة والجنون والغضب طيفاً لأنها لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال.

وذكر في الآية الأولى النزغ وهو أخف من الطيف لأن حالة الشيطان مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أضعف من حاله مع غيرهم، وقال ابن عباس: الطيف الغضب، وقرأ سعيد بن جبير تذكروا بتشديد الذال قال النحاس: ولا وجه له في العربية، وقال السدي: تذكروا أي إذا زلوا تابوا، وقيل معناه عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده، وقال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب فيذكر الله فيكظم، وقال مجاهد: هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه.

﴿فإذا هم﴾ بسبب التذكر ﴿مبصرون﴾ أي منتهون عن المعصية آخذون

بأمر الله عاصون للشيطان، قاله ابن عباس وقيل على بصيرة، وقيل: إنهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكير وقيل مبصرون الحق من غيره فيرجعون.

﴿واخوانهم يمدونهم﴾ قيل المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلّال الإنس، على أن الضمير في إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقاً والمراد به الجنس فجاز ارجاع ضمير الجمع إليه، والمعنى تمدهم الشياطين ﴿في الغي﴾ وتكون مدداً لهم، وهذا التأويل هو قول الجمهور وعليه عامة المفسرين، قال الزمخشري: هو أوجه لأن اخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

وقيل المعنى الشياطين الذين هم اخوان الجاهلين أو غير المتقين يمدون الجاهلين، أو غير المتقين في الغي، وهذا تفسير قتادة، وقيل المعنى واخوان الشياطين في الغي وهو الجهل بخلاف الأخوة في الله تعالى يمدونهم أي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم.

قال ابن عباس في الآية: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس، وسميت الفجّار من الانس اخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم، وقال الزجاج: المعنى والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصراً ولا أنفسهم ينصرون واخوانهم يمدونهم في الغي لأن الكفار اخوان الشياطين.

وعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير، قال الكلبي: لكل كافر أخ من الشياطين يطيل له في الاغواء حتى يستمر عليه، وقيل يزيدونهم من الضلالة يقال مد وأمد وهما لغتان قال مكي ومد أكثر، وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة: إنه يقال إذا كثّر شيء شيئاً بنفسه مده وإذا كثره بغيره قيل أمده نحو يمددكم ربكم، وقيل يقال مددت في الشر، وأمددت في الخير.

﴿ثم لا يقصرون﴾ الاقصار الانتهاء عن الشيء وقال ابن عباس: لا يسأمون والمعنى: لا يقصر الشياطين في مدّ الكفار في الغي ولا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها والكافر لا يتذكر ولا يرعوي، وقال ابن عباس: لا الانس يمسكون عما يعملون من السيئآت ولا الشياطين تمسك عنهم، وعلى هذا يحمل قوله لا يقصرون على فعل الإنس والشياطين جميعاً.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿وإذا لم تأتهم﴾ أي أهل مكة ﴿بآية﴾ مما اقترحوا ﴿قالوا لولا﴾ هلا ﴿اجتبيتها﴾ يقال اجتبى الشيء جباه لنفسه أى جمعه أي هلا جمعتها افتعالاً لها من عند نفسك، وقيل لولا أحدثتها لولا تلقيتها فأنشأتها، قاله ابن عباس، وقيل المعنى اختلقتها يقال اجتبيت الكلام انتحلته واختلقته واخترعته إذا جئت به من عند نفسك، كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي هذه المقالة فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله.

﴿قل﴾ لست ممن يأتي بالآيات من قبل نفسه ويقترح المعجزات كما تزعمون بل ﴿إنما أتبع ما يوحي إليّ من ربي﴾ فما أوحاه إليّ وأنزله عليّ أبلغته إليكم.

﴿هذا﴾ أي القرآن المنزل عليّ هو ﴿بصائر من ربكم﴾ يتبصر بها من قبلها جمع بصيرة وقيل البصائر الحجج والبراهين، وقال الزجاج الطرق ولما كان القرآن سبباً لبصائر العقول، أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب والبصيرة الحجة، والاستبصار في الشيء، قال الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك.

﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هو بصائر وهدى يهتدي به المؤمنون ورحمة لهم، وذلك أن الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد، وهم أصحاب عين اليقين، ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين، ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وأصحاب حق اليقين.

فالقرآن للاولين بصائر وللمستدلين هدى ولعامة المؤمنين رحمة، وقال أبو السعود كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة إلى الكل، وبه تقوم الحجة على الجيمع، وأما كونه هدى ورحمة فمختص بـالمؤمنين بـه إذ هم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره والجملة من تمام القول المأمور به انتهى.

﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ يحتمل أنه من عند الله مستأنف ويحتمل أنه من جملة المقول المأمور به، أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والانصات له عند قراءته لينتفعوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح وقال أبو البقاء: الضمير لله بمعنى لأجله وفيه بعد.

قيل هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الامام ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا والعام لا يقتصر على سببه فيكون الاستماع والانصات عند قراءة القرآن في كل حالة وعلى أي صفة مما يجب على السامع، وقيل هذا خاص بقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن دون غيره ولا وجه لذلك، وظاهر الأمر الوجوب، وهو قول الحسن وأهل الظاهر وقيل الندب والاستحباب.

قال أبو هريرة: نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة وفي لفظ عنه أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت، وإليه ذهب جمهور المفسرين كما في المعالم والكشاف وأنوار التنزيل وحاشية الكمالين وغيرها، وقال ابن عباس: يعني في الصلاة المفروضة وعن محمد بن كعب القرظي ومجاهد وعبد الله بن مغفل وابن مسعود نحوه.

وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف، وصرحوا بأن هذه الآية نزلت في قراءة الصلاة من الإمام، وعن الحسن قال: عند الصلاة المكتوبة وعند الذكر، وعن ابن عباس في الصلاة وحين ينزل الوحي، وقيل نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة، وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء واختاره جماعة وفيه بعد، لأن الآية مكية، والجمعة إنما وجبت بالمدينة والأول أولى، وقال ابن عباس في الجمعة والعيدين.

وقال الرازي: انه خطاب مع الكفار عند قراءة الرسول عليهم القرآن في معرض الاحتجاج بكونه معجزاً على صدق نبوته، وعند هذا يسقط احتجاج الخصوم بهذه الآية من كل الوجوه، ثم ذكر ما يقوى أن حمل الآية على ما ذكر أولى بوجوه.

وقال لو حملنا الآية على منع المأموم من القراءة خلف الامام فسد النظم واختل الترتيب فثبت أن حمله على ما ذكرناه أولى، وهذه الآية لا دلالة فيها على هذه الحالة انتهى.

وأشار القاضي إلى أن احتجاجهم بهذه الآية ضعيف، وقال بعض محشيه: أي مردود بخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب انتهى.

أقول: رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت وفي لفظ: «لا تجزى صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب،»[1] رواه الدارقطني وقال اسناده صحيح وصححه ابن القطان ولها شاهد من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ مرفوعاً، أخرجه ابن خزيمة وابن حبان وغيرهما، ولأحمد بلفظ: «لا تقبل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن» وفي الباب عن أنس عند مسلم والترمذي وعن أبي قتادة عند أبي داود والنسائي وعن ابن عمر وجابر عند ابن ماجة، وعن علي عند البيهقي وعن عائشة وأبي هريرة.

والحديث يدل على تعيين فاتحة الكتاب في الصلاة وأنه لا يجزي غيرها، وإليه ذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء والتابعين ومن بعدهم وهو مذهب العترة لأن النفي المذكور في الحديث يتوجه إلى الذات إن أمكن انتفاؤها وإلا توجه إلى ما هو أقرب إلى الذات وهو الصحة لا الكمال لأن الصحة أقرب المجازين، والكمال أبعدهما والحمل على أقرب المجازين واجب وتوجُّه النفي إلى الذات ههنا ممكن كما قال الحافظ في الفتح لأن المراد بالصلاة معناها

(١) الدارقطني كتاب الصلاة ١/٣٢٢.

الشرعي لا اللغوي لما تقرر من أن ألفاظ الشارع محمولة على عرفه لكونه بعث لتعريف الشرعيات لا لتعريف الموضوعات اللغوية، وإذا كان المنفي الصلاة الشرعية استقام نفي الذات.

ولو سلم أن المراد هنا الصلاة اللغوية لكان المتعين توجه النفي إلى الصحة أو الإجزاء لا إلى الكمال لأنها أقرب المجازين، ولأن الرواية المتقدمة مصرحة بالإجزاء فيتعين تقديره.

وإذا تقرر هذا فالحديث صالح للاحتجاج به على أن الفاتحة من شروط صحة الصلاة لا من واجباتها فقط لأن عدمها يستلزم عدم الصلاة وهذا شأن الشرط، وذهبت الحنفية وطائفة قليلة إلى أنها لا تجب بل الواجب آية من القرآن، قاله النووي: والصواب ما قاله الحافظ ان الحنفية يقولون بوجوب قراءتها لكن بنوا على قاعدتهم انها مع الوجوب ليست شرطاً في صحة الصلاة لأن وجوبها إنما ثبت بالسنة والذي لا يتم الصلاة إلا به فرض، والفرض عندهم لا يثبت بما يزيد على القرآن وقد قال تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ فالفرض قراءة ما تيسر، وتعين الفاتحة إنما ثبت بالحديث فيكون واجباً يأثم من يتركه وتجزى الصلاة بدونه.

وهذا تأويل على رأي فاسد حاصله رد كثير من السنة المطهرة بلا برهان ولا حجة نيرة فكم موطن من المواطن يقول فيه الشارع لا يجزى كذا ولا يقبل كذا ولا يصح كذا ويقول المتمسكون بهذا الرأي يجزى ويقبل ويصح، ولمثل هذا حذر السلف من أهل الرأي والكلام في ذلك تعقباً ورداً يطول جداً وقد قضى الوطر منه الشوكاني في نيل الأوطار فراجعه.

ومن أدلتهم حديث أبي سعيد بلفظ: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب أو غيرها[١]، قال ابن سيد الناس لا ندري بهذا اللفظ من أين جاء، وقد صح

(١) صحيح الجامع الصغير ٧٣٨٩.

عن أبي سعيد عند أبي داود أنه قال: أمرنا أن نقرأ فاتحة الكتاب وما تيسر، ورواته ثقات، وقال ابن سيد الناس اسناده صحيح ورجاله ثقات وصححه الحافظ أيضاً.

ومن أدلتهم حديث أبي هريرة عند أبي داود بلفظ: لا صلاة إلا بقرآن ولو بفاتحة الكتاب ويجاب بأنه من رواية جعفر بن ميمون وليس بثقة كما قاله النسائي، وقال أحمد ليس بقوي في الحديث، وقال ابن عدي يكتب حديثه في الضعفاء.

وأيضاً قد روى أبو داود هذا الحديث من طريقه عن أبي هريرة بلفظ أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي انه لا صلاة إلا بقراءة الفاتحة فما زاد، ورواه أحمد وليست الرواية الأولى بأولى من هذه.

وأيضاً أين تقع هـذه الروايـة على فـرض صحتها بجنب الأحـاديث المصرحة بفرضية فاتحة الكتاب وعدم إجزاء الصلاة بدونها.

وقد نسب القول بوجوب الفاتحة في كل ركعة النووي في شرح مسلم والحافظ في الفتح إلى الجمهور، ورواه ابن سيد الناس في شرح الترمذي عن علي وجابر وعن ابن عون والأوزاعي وأبي ثور، قال وإليه ذهب أحمد وداود، وبه قال مالك إلا في الناسي.

واستدلوا أيضاً على ذلك بما وقع عند الجماعة واللفظ للبخاري من قوله صلى الله عليه وآله وسلم للمسيء: ثم افعل ذلك في صلاتك كلها، بعد أن أمره بالقراءة وفي رواية لأحمد وابن حبان والبيهقي في قصة المسيء صلاته أنه قال في آخره: ثم افعل ذلك في كل ركعة. وهذا الدليل إذا ضممته إلى قوله في حديث المسيء ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم حملته على الفاتحة لما تقدم انتهض ذلك للاستدلال به على وجوب الفاتحة في كل ركعة وكان قرينة لحمل قوله في حديث المسيء «ثم كذلك في كل صلاتك فافعل» على المجاز

وهو الركعة وكذلك حمل لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب عليه[١].

ويؤيد وجوب الفاتحة في كل ركعة حديث أبي سعيد عند ابن ماجه بلفظ لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها، قال الحافظ واسناده ضعيف[٢]، وحديث أبي سعيد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، رواه اسمعيل بن سعيد الشاكنجي صاحب الإمام أحمد.

وظاهر هذه الأدلة وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من غير فرق بين الإمام والمأموم وبين سر الإمام وجهره.

ومن جملة المؤيدات لذلك ما أخرجه مالك في الموطأ والترمذي وصححه عن جابر موقوفاً قال: من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام، وما أخرجه أحمد وابن ماجة عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من صلى صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج[٣]، ومثله عن أبي هريرة عند ابن ماجة من طريق محمد بن اسحق وفيه مقال مشهور، ولكنه يشهد لصحته حديث أبي هريرة عند الجماعة إلا البخاري بلفظ: من صلى صلاة لم يقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج[٤]، ولا يقال إن الخداج معناه النقص. وهو لا يستلزم البطلان لأن الأصل ان الصلاة الناقصة لا تسمى صلاة حقيقة.

وأما حديث أبي هريرة مرفوعاً: وإذا قرأ فأنصتوا، رواه الخمسة إلا الترمذي وقال مسلم هو صحيح فهو عام لا يحتج به على خاص.

وأما حديث عبدالله بن شداد مرفوعا: من كان له إمام فقراءة الإمام له

(١) مسلم ٣٩٧ ـ البخاري ٤٦١.
(٢) ضعيف الجامع الصغير ٦٣١٣.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٦٢٢٤.
(٤) مسلم ٣٩٥.

قراءة رواه الدارقطني(١)، فقال في المنتقى وقد روي مسنداً من طرق كلها ضعاف والصحيح أنه مرسل انتهى، قال الدارقطني وهو الصواب، وقال الحافظ هو مشهور من حديث جابر وله طرق عن جماعة من الصحابة كلها معلولة، وقال في الفتح إنه ضعيف عند جميع الحفاظ وقد استوعب طرقه وعلله الدارقطني، وهو عام أيضاً لأن القراءة مصدر مضاف وهو من صيغ العموم وحديث عبادة في هذا الباب خاص فلا معارضة، وقال في شرح المنتقى هو حديث ضعيف لا يصلح للاحتجاج به انتهى.

وأما قوله تعالى: ﴿فاستمعوا له وأنصتوا﴾ فقد مر الجواب عنه وهو أيضاً عام وحديث عبادة خاص، ويؤيد ذلك الأحاديث المتقدمة والآتية القاضية بوجوب قراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة من غير فرق بين الإمام والمؤتم لأن البراءة عن عهدتها انما تحصل بناقل صحيح لا بمثل هذه العمومات التي اقترنت بما يجب تقديمه عليها.

وعن عبادة قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال: إني أراكم تقرأون وراء إمامكم قال قلنا يا رسول الله أي والله قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن فأنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها رواه أبو داود والترمذي، وفي لفظ فلا تقرأوا بشيء من القرآن إذا جهرت به إلا بأم القرآن(٢)، رواه أبو داود والنسائي والدارقطني، وقال رجاله كلهم ثقات.

وعنه أن النبي ﷺ قال: لا يقرأن أحد منكم شيئاً من القرآن إذا جهرت بالقراءة إلا بأم القرآن(٣)، رواه الدارقطني، وقال رجاله كلهم ثقات، وأخرجه أيضا أحمد والبخاري في جزء القراءة وصححه وابن حبان والحاكم والبيهقي من

---

(١) الدارقطني كتاب الصلاة ١/٤٠٣.
(٢) الدارقطني كتاب الصلاة ١/٣١٩.
(٣) الدارقطني كتاب الصلاة ١/٣٢٠.

طريق ابن اسحق قال حدثني مكحول عن محمود بن ربيعة عن عبادة، وتابعه زيد بن واقد وغيره عن مكحول.

ومن شواهد ما رواه أحمد من طريق خالد الحذاء عن أبي قلابة عن محمد ابن أبي عائشة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: لعلكم تقرأون والإمام يقرأ قالوا انا لنفعل، قال: لا إلا أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب، قال الحافظ: اسناده حسن ورواه ابن حبان من طريق أيوب بن أبي قلابة عن أنس، وليست بمحفوظة ومحمد ابن اسحق قد صرح بالتحديث فذهبت مظنة تدليسه، وتابعه من تقدم.

قال الشوكاني: والحديث استدل به من قال بوجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام وهو الحق وظاهر الحديث الإذن بقراءة الفاتحة جهراً لأنه استثنى من النهي عن الجهر خلفه، ولكنه أخرج ابن حبان من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: أتقرأون في صلاتكم خلف الإمام والإمام يقرأ فلا تفعلوا وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب في نفسه وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط والبيهقي وأخرجه عبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلاً.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ معي أحد منكم آنفاً فقال رجل نعم يا رسول الله، فقال اني أقول ما لي أنازع القرآن[1] قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يجهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلوات بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن، وأخرجه أيضاً مالك في الموطأ والشافعي وأحمد وابن ماجة وابن حبان.

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٦٩١٣.

وقوله: «فانتهى الناس عن القراءة»، مدرج في الخبر كما بينه الخطيب، واتفق عليه البخاري في التاريخ وأبو داود ويعقوب ابن سفيان والذهلي والخطابي وغيرهم.

قال النووي: وهذا مما لا خلاف فيه بينهم والاستدلال به على عدم قراءة المؤتم خلف الإمام خارج عن محل النزاع، لأن الكلام في قراءة المؤتم خلف الإمام سراً والمنازعة إنما تكون مع جهر المؤتم لا مع إسراره، وأيضاً لو سلم دخول ذلك في المنازعة لكان هذا الاستفهام الذي للإنكار عاماً لجميع القرآن أو مطلقاً في جميعه وحديث عبادة خاص أو مقيد.

وقد أجاب المهدي في البحر عن حديث عبادة بأنه معارض بهذا الحديث وهي من معارضة العام بالخاص وهو لا يعارضه، أما على قول من قال من أهل الأصول إنه يبنى العام على الخاص مطلقاً وهو الحق فظاهر، وأما على قول من قال إن العام المتأخر عن الخاص ناسخ له وإنما يخصص المقارن والمتأخر بمدة لا يتسع فكذلك أيضاً لأن عبادة روى العام والخاص في حديثه، فهو من التخصيص بالمقارن فلا يعارض بالمقام على جميع الأقوال.

وأما الاحتجاج بحديث جابر فلم يصل إلا وراء الإمام فهو مع كونه غير مرفوع: مفهوم لا يعارض بمثله منطوق حديث عبادة.

وإذا تقرر لك هذا فقد عرفت مما سبق وجوب الفاتحة على كل إمام ومأموم في كل ركعة وعرفناك أن تلك الأدلة صالحة للاحتجاج بها على أن قراءة الفاتحة من شروط صحة الصلاة وأدلة أهل الخلاف عمومات، وحديث عبادة خاص وبناء الخاص على العام واجب كما تقرر في الأصول، وهذا لا محيص عنه.

والآية الكريمة وما على نحوها من القرآن والحديث لا دلالة فيها على المقصود فمن زعم أنها تصح صلاة من الصلوات أو ركعة من الركعات بدون فاتحة الكتاب فهو محتاج إلى إقامة برهان يخصص تلك الأدلة، ومن هنا يتبين

لك أيضاً ضعف ما ذهب إليه الجمهور من أن من أدرك الإمام راكعاً دخل معه واعتد تلك الركعة وإن لم يدرك شيئاً من القراءة.

وحاصل الكلام أنه لا محيد عن تحتم المصير إلى القول بالفرضية بل القول بالشرطية.

وقد اختلف أهل العلم في قراءتها هل تكون عند سكتات الإمام أو عند قراءته، وظاهر الأحاديث أنها تقرأ عند قراءة الإمام وفعلها حال سكوت الإمام إن أمكن أحوط لأنه يجوز عند أهل الخلاف فيكون فاعل ذلك آخذاً بالإجماع وأما اعتياد قراءتها حال قراءة الإمام للفاتحة فقط او حال قراءته للسورة فقط فليس عليه دليل بل الكل جائز وسنة.

نعم قراءتها حال قراءة الامام للفاتحة مناسب من جهة عدم الاحتياج إلى تأخير الاستعاذة عن محلها الذي هو بعد التوجه، وتمام الكلام على هذا المرام في كتابنا هداية السائل إلى أدلة المسائل وغيره فراجعه.

قال الشوكاني: واختلف في القراءة خلف الامام سراً وجهراً وقد وردت السنة المطهرة بقراءة سورة الفاتحة خلفه مخرجة في الصحيحين وغيرهما فالآية في غير الفاتحة وقد جاءنا بها من جاء بالقرآن، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل[1].

﴿لعلكم ترحمون﴾ أي تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه.

---

(١) ذكر السيوطي في الدر ٣/١٥٥ .

عن ابن عباس : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الصلاة المكتوبة. فقرأ أصحابه وراءه رافعين صوتهم فنزلت هذه الآية .

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين قيل المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الاذكار التي يذكر الله بها وقال النحاس: لم يختلف في معنى هذا الذكر أنه الدعاء وقيل هو خاص بالقرآن أي اقرأ القرآن بتأمل وتدبر أمره. أن يذكره في نفسه سراً فإن الإخفاء أدخل في الاخلاص وأقرب إلى حسن التفكر وأدعى للقبول.

﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي متضرعاً وخائفاً أو متضرعين وخائفين أو ذوي تضرع وخيفة والخيفة الخوف قاله الجوهري وحكى الفراء أنه يقال في جمع خيفة خيف ﴿ودون الجهر﴾ أي دون المجهور به يعني متضرعاً وخائفاً ومتكلماً بكلام هو دون الجهر ﴿من القول﴾ وفوق السر يعني قصداً بينهما ﴿بالغدو والآصال﴾ أي أوقات الغدوات وأوقات الأصائل، والغدو جمع غدوة بضم الغين وسكون الدال وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والآصال جمع أصيل قاله الزجاج والأخفش مثل يمين وأيمان.

وقيل الأصال جمع أصل والأصل جمع أصيل، فهو على هذا جمع الجمع قاله الفراء وليس للقلة وليس جمعاً لأصيل لأن فعيلاً لا يجمع على أفعال، وقيل إنه جمع لأصل مفرداً كعنق، قال الجوهري: الأصيل الوقت من بعد العصر إلى المغرب وجمعه أصل وآصال وأصائل كأنه جمع أصيلة ويجمع أيضاً على أصلان مثل بعير وبعران.

وقرأ أبو مجلز واسمه لاحق بن حميد السدوسي البصري وهي شاذة

والايصال وهو مصدر آصل إذا دخل في الأصيل وهو مطابق للغدو في الافراد والمصدرية، قال قتادة: الغدو صلاة الصبح والآصال الصلاة بالعشي وعن أبي صخر قال الآصال ما بين الظهر والعصر، وقال ابن زيد:بالبكر والعشي وقال مجاهد: الغدو آخر الفجر صلاة الصبح والآصال آخر العشي صلاة العصر.

وخص هذين الوقتين لشرفهما ولأن الانسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله عز وجل، وأما وقت الآصال وهو أخر النهار فإن الانسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يشغله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل.

وقيل إن أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر، ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى الغروب، فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه به، وقيل غير ذلك والمراد دوام الذكر لله.

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكر الله وعما يقربك إلى الله.

﴿إن الذين عند ربك﴾ المراد بهم الملائكة قال القرطبي: بالاجماع قال الزجاج: وقال عند ربك والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده فالمراد بالعندية القرب من الله بالزلفى والرضا لا المكانية أو المراد عند عرش ربك قاله الشهاب، والمراد بقوله والله بكل مكان أي علمه وقدرته وهو بائن من خلقه مستوي على عرشه كما وصف به نفسه في غير موضع من الكتاب العزيز.

وقال القرطبي: يعني أنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله وقيل إنهم

رسل الله كما يقال عند الخليفة جيش كبير، وقيل هذا على جهة التشريف والتكريم لهم وأنهم بالمكان المكرم وهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة.

﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي لا يتعظمون عنها لأنهم عبيده ومعنى ﴿ويسبحونه﴾ يعظمونه وينزهونه عن كل شين ﴿وله يسجدون﴾ أي يخصونه بعبادة السجود التي هي أشرف عباده، وقيل المراد بالسجود الخضوع والذلة، وفي ذكر الملأ الأعلى تعريض لبني آدم، وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن والأحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة وعدد المواضع التي يسجد فيها وكيفية السجود وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقه فلا نطول بايراد ذلك ههنا[١] .

---

(١) وقيل : سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا : أنسجد لما تأمرنا ؟ فنزلت هذه الآية تخبر أن الملائكة وهم أكبر شأناً منكم ، لا يتكبرون عن عبادة الله . وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ويقول : يا ويله ، أُمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فلي النار » .

رواه مسلم ١/٨٧ ، وابن ماجة ١/٣٣٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأورده السيوطي في « الدر » ١٥٨/٣ وزاد نسبته للبيهقي .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية لم يستثنوا منها شيئا. وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبدالله بن الزبير وزيد ابن ثابت. وعن ابن عباس أنه قال: نزلت في بدر، وفي لفظ تلك سورة بدر. قال القرطبي وعنه: هي مدنية الا سبع آيات من قوله: ﴿واذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الى آخرها، يعني فانها مكية.

«قلت» وان كانت في شأن الواقعة التي وقعت بمكة فلا يلزم أن تكون كذلك فالآيات نزلت بالمدينة تذكيرا بما وقع في مكة، فهذا القول ضعيف والاول هو الاصح، وجملة آياتها خمس أو ست أو سبع وسبعون آية، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)

﴿يسألونك﴾ يا محمد ﴿عن الانفال﴾ جمع نفل محركاً وهو الغنيمة أي الغنائم لمن هي، وبه قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأكثر المفسرين على أنها نزلت في غنائم بدر، وأصل النفل الزيادة وسميت الغنيمة به لانها زيادة فيما أحل الله لهذه الامة مما كان محرماً على غيرهم، أو لانها زيادة على ما يحصل للمجاهدين من أجر الجهاد.

ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين والابتغاء ونبت معروف، والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب والنافلة ولد الولد لأنه زيادة على الولد.

وهو سؤال استفتاء لان هذا أول تشريع الغنيمة، وفاعل السؤال من حضر بدراً، وقال الضحاك وعكرمة: هو سؤال طلب، وعن بمعنى من، وهذا لا ضرورة تدعو إليه، وقيل صلة ويؤيده قراءة سعد بن ابي وقاص وابن مسعود وعلي بن الحسين وغيرهم بدون عن، والصحيح أنها على إرادة حرف الجر.

وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة في غنائم يوم بدر، فقال الشبان: هي لنا لأنا باشرنا القتال، وقال الشيوخ: كنا رِدْءاً لكم تحت الرايات، ولو انكشفتم أي انهزمتم لفئتم أي لرجعتم الينا، فنزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول فقال: ﴿قل﴾ لهم ﴿الانفال لله والرسول﴾ أي حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه حيث شاء، وليس لكم حكم في ذلك، فقسمها صلى الله عليه

وسلم بينهم على السواء، رواه الحاكم في المستدرك.

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين الى أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه﴾ فهي على هذا منسوخة، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن زيد: محكمة مجملة، وقد بين الله مصارفها في آية الخمس، وللامام ان ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس.

﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي نفس ما بينكم، والذي بينهم هو الوصلة الاسلامية، فالبين هنا بمعنى الاتصال كما في قوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ والبين يطلق على الضدين الاتصال والفراق، وذات هذا البين هي حاله أي الامور التي تحققه بالمودة وترك النزاع ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أمرهم بالتقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما وترك الاختلاف الذي وقع بينهم، وقال: امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ بالله جوابه كما ذهب اليه أبو العباس المبرد وغيره أطيعوا الله السابق، إذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط، والصحيح ما ذهب اليه سيبويه وهو أنه محذوف لدلالة ما قبله عليه.

وفيه من التهييج والالهاب والتنشيط للمخاطبين والحث لهم على المسارعة الى الامتثال ما لا يخفى مع كونهم في تلك الحال على الايمان فكأنه قال ان كنتم مستمرين على الايمان بالله لان هذه الامور الثلاثة لا يكمل الايمان بدونها، بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمتثلها، فإن من ليس بمتق وليس بمطيع لهما ليس بمؤمن، قال عطاء: طاعة الله والرسول اتباع الكتاب والسنة. أخرجه ابن ابي حاتم.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿إنما المؤمنون﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخلال الثلاث، وفيه مزيد ترغيب لهم في الامتثال بالأوامر المذكورة، أي إنما الكاملون في الايمان المخلصون فيه.

﴿الذين اذا ذكر الله﴾ أي وعيده ﴿وجلت﴾ أي فزعت وخضعت وخافت ورقت ﴿قلوبهم﴾ لذكر الله استعظاماً له وتهيباً من جلاله، والوجل الخوف والفزع، يقال وجل بالكسر في الماضي يوجل بالفتح، وقرىء كوعد يعد ويقال بإثبات الواو في المضارع، والمراد ان حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الايمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الايمان لا باعتبار أصل الايمان.

قال جماعة من المفسرين: هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر به من قسمة الغنائم، ولا يخفاك أن هذا وان صح ادراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الايمان عند تلاوة آيات الله يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول.

ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو اثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال، ولا بوقت دون وقت، ولا بواقعة دون واقعة.

وعن ابن عباس: وجلت فرقت، وقال المنافقون: لا يدخل قلوبهم شيء

من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ولا يصلون اذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله انهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ فأدوا فرائضه.

وعن أم الدرداء قالت: انما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر ابن حوشب أما تجد قشعريرة؟ قلت: بلى، قالت: فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك، وقال ثابت البناني: قال فلان إني لأعلم متى يستجاب لي، قالوا: ومن أين لك؟ قال: إذا اقشعر جلدي ووجل قلبي وفاضت عيناي فذلك حين يستجاب لي.

وعن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضرمة السعفة فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك، وعن السدي قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه، فإن قيل، قال: هنا وجلت قلوبهم وقال في آية أخرى ﴿وتطمئن قلوبهم﴾ فكيف الجمع بينهما، قلت: الاطمئنان بذكره بصفات الجمال، والوجل انما هو بذكر وعيده.

﴿واذا تليت عليهم آياته﴾ المراد من التلاوة الآيات المنزلة أو التعبير عن بديع صنعته وكمال قدرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون ﴿زادتهم ايماناً﴾ أي تصديقاً، قاله ابن عباس، وعن الربيع بن أنس قال خشية، والمراد بزيادة الايمان هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانفلاح الخاطر عند تلاوة الآيات.

وقيل المراد بها زيادة العمل لأن الايمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه، والآية صريحة في زيادة الإيمان، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان[١]، أخرجه الشيخان.

وفي هذا دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى، وإذا كان كذلك كان قابلاً للزيادة والنقصان، قال الـواحدي عن عامة أهل العلم: إن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد، قال الكرخي: ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الامة.

ويؤيد ذلك قول عليّ رضي الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، وكذا من قام عليه دليل واحد ومن قامت عليه أدلة كثيرة لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه، وعليه يحمل ما نقل عن الشافعي من أنه يقبل الزيادة والنقص، فلا يرد كيف قال ذلك مع أن حقيقة الايمان عند الاكثر لا تزيد ولا تنقص كالإلهية والوحدانية اهـ. وقيل المعنى أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في إيمانهم.

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ التوكل على الله تفويض الأمر إليه في جميع الأمور قال ابن عباس: لا يرجون غيره، وعلى بمعنى الباء ويتوكلون بمعنى يثقون، وتقديم المعمول للحصر، وقال السمين التقديم يفيد الاختصاص أي عليه لا على غيره والجملة في محل الحال أو مستأنفة أو معطوفة على الصلة.

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها، ومن في ﴿ومما﴾ للتبعيض ﴿رزقناهم ينفقون﴾ ويدخل فيه النفقة في الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق في أنواع البر والقربات، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونها أصل الخير وأساسه.

---

(١) مسلم /٥٩ ـ البخاري /٣١.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالأوصاف المتقدمة ﴿هم المؤمنون﴾ أي الكاملون الايمان البالغون فيه الى أعلى درجاته وأقصى غاياته ﴿حقاً﴾ أي حق ذلك حقاً أو ايماناً حقاً يعني يقيناً لا شك في إيمانهم وصدقاً لا ريب فيه، قال ابن عباس: برئوا من الكفر، وحقاً أي خالصاً وقيل التقدير حقاً لهم درجات، وهذا إنما يجوز على رأي ضعيف أعني تقديم المصدر المؤكد لمضمون جملة عليها.

وقد استدل بظاهر هذه الآية أبو حنيفة ومن قال بقوله انه يجوز أن يقول أنا مؤمن حقاً ولا يجوز الاستثناء، وأجيب عنه بأن الاستثناء ليس على طريق الشك بل للتبرك كقوله: وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي أنه لاحق بهم أو المراد صرف الاستثناء إلى الخاتمة، والنزاع عند التحقيق لفظي كما تقرر في موطنه، وانما حكم سبحانه بكونهم مؤمنين حقاً في هذه الآية إذا أتوا بتلك الاوصاف الخمسة كما يفيده لفظة انما لانها للحصر.

﴿لهم درجات﴾ يعني فضائل ورحمة، قاله سعيد بن جبير، وعن مجاهد قال: أعمال رفيعة، وقال الضحاك: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الاسفل فضل أحد عليه، ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال لهم منازل خير وكرامة وشرف في الجنة كائنة ﴿عند ربهم﴾ وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتفخيم.

﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم، وعن ابن زيد قال: بترك الذنوب ﴿ورزق كريم﴾ دائم مستمر يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده، وعن ابن زيد قال: هو الاعمال الصالحة، وعن محمد بن كعب القرظي قال: اذا سمعتم الله يقول: ﴿ورزق كريم﴾ فهي الجنة.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

﴿كما أخرجك ربك﴾ قال الزجاج: أي الانفال ثابتة لك مثل إخراج ربك، وبه قال المبرد، والمعنى امض لامرك في الغنائم ونفل من شئت وان كرهوا لأن بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً قال: بقي أكثر الناس بغير شيء، فموضع الكاف نصب، وقال أبو عبيدة: هو قسم أي والذي أخرجك فالكاف بمعنى الواو، وما بمعنى الذي.

وقال الاخفش: المعنى أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك، وقال عكرمة: المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك، وقيل الكاف كاف التشبيه على سبيل المجازاة، وقيل بمعنى على أي امض على الذي أخرجك فانه حق، وقيل بمعنى اذ أي اذكر يا محمد اذ أخرجك.

وقيل هذه الحال كحال اخراجك يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب، ذكره صاحب الكشاف، وقال السمين فيه عشرون وجهاً، (الثاني) منها أن تقديره أصلحوا ذات بينكم اصلاحاً كما اخرجك، وقد التفت من خطاب الجماعة الى خطاب الواحد.

(الثالث) تقديره واطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما اخرجك (الرابع) تقديره يتوكلون توكلاً حقيقياً كما اخرجك (السادس عشر) منها تقديره قسمتك الغنائم حق كما كان اخراجك حقاً (السابع عشر) ان التشبيه وقع بين اخراجين اهـ.

﴿من بيتك﴾ أي المدينة أو بيتك الذي بها ﴿بالحق﴾ اي اخراجاً متلبساً بالحق لا شبهة فيه وقال مجاهد كما اخرجك ربك من بيتك بالحق كذلك

يجادلونك في خروج القتال، وعن السدي قال: خروج النبي ﷺ إلى بدر، وقيل المراد اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة، والاول اولى، وبه قال جمهور المفسرين.

وقيل هذا الوعد للمؤمنين حق في الاخرة كما اخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له فأنجز وعدك وظفرك بعدوك واوفى لك، ذكره النحاس واختاره، وفي الجمل اي اخرجك من المدينة لتأخذ العير التي مع ابي سفيان اي فتغنمها فأصل خروج النبي والمؤمنين لأجل ان يغنموا القافلة فلم تكن في خروجهم كراهة وانما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريب بدر لما اخبروا ان العير نجت منهم وان قريشاً اتوا الى بدر،

وأشار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يمضون الى قتال قريش الذين خرجوا ليذبوا المسلمين عن القافلة فكره المسلمون القتال لا عصياناً بل بالطبع ، حيث خرجوا من غير استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدد ، وإنما كان أصل خروجهم لأخذ الغنيمة لقوله :

﴿وان فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ حال مقدرة لما علمت ان الكراهة لم تقارن الخروج وقيل اي كما اخرجك في حال كراهتهم لذلك لانه لما وعدهم الله احدى الطائفتين اما العير أو النفير، رغبوا في العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال وكرهوه لقلة عددهم وسلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم، وفي ﴿لكارهون﴾ مراعاة معنى الفريق.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

﴿يجادلونك﴾ ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين وفات العير وأمرهم بقتال النفير ولم يكن معهم كثير أهبة لذلك شق عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكملنا الأهبة، والجملة مستأنفة أو حال ثانية أي أخرجك حال مجادلتهم أو حال من الضمير في ﴿لكارهون﴾ أي لكارهون في حال الجدال، والضمير يجوز أن يعود على الكفار وجدالهم ظاهر، والظاهر أنه يعود على الفريق المتقدم.

﴿في الحق﴾ أي في القتال ﴿بعد ما تبين﴾ لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله، أو بعد ما تبين لهم ان الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين وأن العير اذا فاتت ظفروا بالنفير ﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾ أي حال كونهم في شدة فزعهم من القتال يشبهون حال من يساق بالعنف والصغار ليقتل ﴿وهم ينظرون﴾ يعني الى الموت كمن هو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها بعينه لا يشك فيها، والجامع بينهما الكراهة في كل.

﴿واذ يعدكم الله احدى الطائفتين﴾ أي واذكروا وقت وعد الله اياكم وأمرهم بتذكر الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة، والطائفتان هما فرقة أبي سفيان مع العير، وفرقة أبي جهل مع النفير.

﴿أنها﴾ أي احدى الطائفتين مسخرة ﴿لكم﴾ وانكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة لا يطيقون لكم دفعاً، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضراً ولا نفعاً، وفي هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من

النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿وتـودون﴾ أي تريـدون وتتمنون، معـطوف عـلى يعـدكم من جملة الحوادث التي أمروا بذكر وقتها ﴿أن غير ذات الشوكة﴾ من الطائفتين وهي طائفة العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة ﴿تكون لكم﴾ دون ذات الشوكة وهي طائفة النفير، قال أبو عبيدة: أي غير ذات الحد، والشوكة السلاح والنبت الذي له حد، ومنه رجل شائك السلاح أي حديد السلاح ثم يقلب فيقال شاكي السلاح فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك.

والمعنى: وتودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح وهي طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها، قال الضحاك: وهي عير أبي سفيان، ودّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن العير كانت لهم وأن القتال صرف عنهم.

﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته أي ويريد الله غير ما تريدون وهو أن يحق الحق بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجلبوا بها عليكم وراموا دفعكم بها، والمراد بالكلمات الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدكم منه بالظفر بها، وقيل الكلمات عداته التي سبقت لكم من اظهار الدين وإعزازه، وقيل أسباب النصر مثل نزول الملائكة وأوامره لهم بالامداد.

﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ الدابر الآخر، وقطعه عبارة عن الاستئصال، والمعنى ويستـأصلهم جميعا حتى لا يبقى منهم أحد.

لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله أي أراد ذلك أو يريده ليظهر الحق ويرفعه وهو الاسلام ، ويبطل الباطل ، ويضعه وهو الكفر ، أو فعل ذلك ليحق الحق .

وليس في هذه الجملة تكرير لما قبلها لان الاولى لبيان التفاوت فيما بين الارادتين، وهذه لبيان الحكمة الداعية الى ذلك، والعلة المقتضية له والمصلحة المترتبة عليه، وقيل لا يقال فيه تحصيل الحاصل اذ المراد بالحق الايمان، وبالباطل الشرك وقيل المراد بالأول تثبيت ما وعد به في هذه الواقعة من النصرة والظفر بالأعداء، وبالثاني تقوية الدين وإظهار الشريعة لأن الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم، ومن قهر الكافرين مع كثرتهم كان سبباً لاعزاز الدين وقوته ولهذا قرنه بقوله ويبطل الباطل.

﴿ولو كره﴾ أن يحق الحق ويبطل الباطل ﴿المجرمون﴾ أي المشركون من قريش أو جميع طوائف الكفار، ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتواريخ مستوفاة فلا نطيل بذكرها.

﴿اذ تستغيثون ربكم﴾ أي اذكروا وقت استغاثتكم، تذكير لهم بنعمة أخرى والمقام للماضي، وانما عبر بالمضارع حكاية للحال الماضية أي اذ تستغيثون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر، والاستغاثة طلب الغوث يقال استغاثني فلان فأغثته والاسم الغياث.

والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لا بد من قتال الطائفة ذات الشوكة

وهم النفير كما أمرهم الله بذلك وأراده منهم، ورأوا كثرة عدد النفير وقلة عددهم استغاثوا بالله سبحانه، وهو معنى قول الازهري، وقيل المستغيث هو رسول الله ﷺ وحده، وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له.

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أن عدد المشركين يوم بدر ألف، وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى ذلك استقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني، اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبية ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل هذه الآية[1].

﴿فاستجاب لكم﴾ عطف على ﴿تستغيثون﴾ داخل معه في التذكير وهو وان كان مستقبلاً فهو بمعنى الماضي ولهذا عطف عليه استجاب ﴿أني﴾ أي بأني ﴿ممدكم﴾ بوعدي اياكم بالامداد وذلك لانه وقت الاجابة لم يحصل الامداد بالفعل لان الدعاء واستجابته كانا قبل وقوع القتال.

﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ قرىء بكسر الدال وفتحها وهما واضحتان لأنه يروى في التفسير أنه كان وراء كل ملك ملك رديفاً له، فقراءة الفتح تشعر بأن غيرهم أردفهم لركوبهم خلفهم وقراءة الكسر تشعر بأن الراكب خلف صاحبه قد أردفه فصح التعبير باسم الفاعل تارة واسم المفعول أخرى.

وجعل أبو البقاء مفعول مردفين بالكسر محذوفاً أي مردفين أمثالهم، ويجوز أن يكون معنى الارداف المجيء بعد الاوائل أي جعلوا ردفاً للاوائل، قاله السمين.

---

(١) مسلم /١٧٦٣.

وقد قيل ان ردف وأردف بمعنى واحد، وأنكره أبو عبيدة قال لقوله تعالى: ﴿تتبعها الرادفة﴾ ولم يقل المردفة، قال ابن عباس: مردفين متتابعين، وعنه قال: المدد، وعنه قال: وراء كل ملك ملك، وعن الشعبي قال: كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين وكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم.

وقال مجاهد: مردفين مجدين، وقال قتادة: متتابعين أمدهم الله بألف ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف، وعن علي قال: نزل جبريل في خمسمائة من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في خمسمائة من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة.

وعن مجاهد قال: ما أمد النبي ﷺ بأكثر من هذه الألف التي ذكر الله في الانفال، وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف إلا بشرى، قال في الجمل: لم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل كما وقع في حنين.

﴿وما جعله الله﴾ أي الإمداد المدلول عليه بقوله أني ممدكم ﴿إلا بشرى﴾ أي بشارة لكم بنصره وهو استثناء مفرغ أي ما جعل إمدادكم بشيء من الاشياء إلا للبشرى لكم بالنصر ﴿ولتطمئن به﴾ أي بالامداد ﴿قلوبكم﴾ وفي هذا اشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ولتثبت قلوبهم يعني بنزول الملائكة، قال قتادة: وذكر لنا أن عمر قال أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا، وأما بعد ذلك فالله أعلم.

﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ لا من عند غيره ليس للملائكة في ذلك أثر فهو الناصر على الحقيقة وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التي سببها الله لكم وأمدكم بها، وفيه تنبيه على أن الواجب على المسلم أن لا يتوكل إلا على الله في جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده الظفر والاعانة ﴿ان الله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ في كل أفعاله.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ
وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ
يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

﴿اذ يغشيكم﴾ الفاعل هو الله وفيه ثلاث قراآت سبعية يغشاكم كيلقاكم من غشيه :اذا أتاه وأصابه، ويغشيكم من أغشاه أي أنزله بكم وأوقعه عليكم، ويغشيكم من غشاه تغشية غطاه، وقيل الفاعل ﴿النعاس أمنة منه﴾ وهو النوم الخفيف والأكثر على الاول وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم، وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه، سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها.

قيل وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان.

احدهما: أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

والثاني: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم، وقيل ان النوم غشيهم في حال التقاء الصفين، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران.

عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة حتى أصبح، قال مجاهد: أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم.

وقال قتادة: رحمة منه أمنة من العدو، وعنه قال: النعاس في الرأس والنوم في القلب، وعنه قال: كان النعاس أمنة من الله وكان النعاس نعاسين يوم بدر ويوم أحد، وقال ابن مسعود: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقيل ان ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة.

﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ هذا المطر كان بعد النعاس وقيل قبله، وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماء لهم فأنزل الله المطر ليلة بدر.

والذي في سيرة ابن اسحق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا الى ماء بدر وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهس الوادي وأعانهم على المسير، وقال مجاهد: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار والتبدت به الأرض وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم.

وعن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

﴿ليطهركم به﴾ أي ليرفع عنكم الاحداث والجنابة، عن ابن عباس: أن المشركين غلبوا المسلمين في أول امرهم على الماء فظمأ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين، وقد قدمنا ان المشهور في كتب السير المعتمدة ان المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء، وهذا المروي عن ابن عباس في اسناده العوفي وهو ضعيف جداً.

﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبكم من الخواطر التي منها الخوف والفشل حتى كانت حالكم حال من يساق الى الموت، والرجز في الأصل العذاب الشديد، واريد به هنا نفس وسوسة الشيطان مجازاً لمشقتها على اهل الايمان كما قيل كل ما اشتدت مشقته على النفوس فهو رجز.

﴿وليربط على قلوبكم﴾ بالنصر واليقين فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب، والربط في اللغة الشد، وكل من صبر على امر فقد ربط نفسه عليه، قيل لفظة على صلة كذا في الوسيط وقيل للاستعلاء أي أن القلوب

امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها ذكره الواحدي.

﴿ويثبت به﴾ أي بالماء الذي انزله الله عند الحاجة اليه، وقيل الضمير راجع إلى الربط المدلول عليه بالفعل ﴿الأقدام﴾ أي اقدامكم في مواطن القتال ومعارك الجدال، وقال قتادة: كان الوادي دهاساً فلما مطروا اشتدت الرملة وسهل المشي عليه لأن العادة ان المشي في الرمل عسر فإذا نزل عليه الماء وجمد سهل المشي ولم يبق فيه غبار يشوش على الماشي فيه.

﴿اذ يوحي ربك﴾ اي اذكر يا محمد وقت ايحاء ربك لانه لا يقف على ذلك سواه وقيل يثبت الاقدام وقت الوحي، وليس لهذا التقييد معنى، وقيل العامل فيه ليربط، ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الايحاء ﴿إلى الملائكة﴾ الذين امد بهم المسلمين ﴿اني معكم﴾ بالنصر والمعونة.

عن ابي امامة بن سهل بن حنيف قال: قال لي ابي: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليسير سيفه الى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل ان يصل اليه السيف وعن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحترق به.

﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي بشروهم بالنصر والظفر او ثبتوهم على القتال بالحضور معهم وتكثير سوادهم، أو قووا قلوبهم، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما أن الشيطان له قوة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر، فكذلك للملك قوة إلقاء الإلهام في قلب ابن آدم بالخير، ويسمى ما يلقي الشيطان وسوسة، وما يلقي الملك لمة والهاما فهذا هو التثبيت.

﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي الخوف فلا يكون لهم ثبات، وقد تقدم بيان معنى القاء الرعب في آل عمران، وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب في قلوب الكفار، قيل هذه الجملة تفسير

لقوله أني معكم وكانت الملائكة لا تعرف قتال بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ المراد بها أنفسها، قاله عطية، وفوق زائدة قاله الاخفش وغيره.

وقال محمد بن يزيد: وهذا عند الجمهور خطأ لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها ولكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها، وقيل المراد الرؤوس قال عكرمة: وهذا ليس بجيد لأن فوق لا يتصرف، وزعم بعضهم أنه يتصرف، وانك تقول فوق رأسك برفع فوق وهو ظاهر قول الزمخشري، وقال أبو عبيدة إنها بمعنى (على) تقديره فاضربوهم على الاعناق وهو قريب من الأول.

وقال ابن قتيبة: هي بمعنى (دون) قال ابن عطية: وهذا خطأ بين، وغلط فاحش وانما دخل عليه اللبس من قوله تعالى: ﴿بعوضة فما فوقها﴾ أي فما دونها، وليست فوق هنا بمعنى دون، وانما المراد فما فوقها في القلة والصغر، وعن الضحاك قال: اضربوا الرقاب وقيل المراد بفوق الاعناق أعاليها لأنها المفاصل التي يكون الضرب فيها أسرع الى القطع. قاله في الكشاف، قيل هذا أمر للملائكة فيكون متصلاً بما قبله، وقيل للمؤمنين فيكون منقطعاً عما قبله، وعلى الاول قيل هو تفسير لقوله فثبتوا الذين آمنوا.

﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي كل مفصل، قال الزجاج: واحد البنان بنانة وهي هنا الاصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم أبن الرجل بالمكان اذا أقام به لانه يعمل بها ما يكون للاقامة والحياة، وقيل المراد بالبنان هنا اطراف الاصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب، فاذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء.

قال ابن فارس: البنان الأصابع، وقال عطية: كل مفصل بنانة، وقال ابن عباس: الاطراف، وقال أبو الهيثم: البنان المفاصل قيل أمرهم الله بضرب أعلى الجسد، وهو الرأس وفيه هلاك الانسان، وبضرب أضعف الاعضاء وهو البنان، وفيه تعطيل حركة الانسان فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾

﴿ذلك﴾ اشارة إلى ما وقع عليهم من القتل والاسر ودخل في قلوبهم من الرعب ﴿بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي بسبب مشاقتهم، والمشاقة المخالفة وأصلها من المجانبة وكذا الشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق كأنهم صاروا في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم، وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله وقد تقدم تحقيق ذلك.

﴿ومن يشاقق الله﴾ أي يخالفه ويجانبه ﴿ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ له يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شيء قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة، والشرطية تكملة لما قبلها وتكرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني، كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان فله بذلك عقاب شديد، فإذا لهم بسبب مشاقتهم عقاب شديد قاله أبو السعود ﴿ذلكم﴾ اشارة الى ما تقدم من العقاب والعذاب بالقتل والاسر، وفيه أوجه منها العقاب ذلكم أو الامر ذلكم (الثاني) ذلكم العقاب ﴿فذوقوه﴾ الخطاب هنا للكافرين، كما أن الخطاب في قوله ذلكم للنبي ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب، وأشار بالذوق الى أن عذاب الدنيا عاجل يسير بالاضافة الى المؤجل.

﴿وأنّ للكافرين عذاب النار﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الاشارة على هذا الى العقاب العاجل الذي أصيبوا به، ويكون ذلك اشارة الى العقاب

الآجل الذي أعده الله لهم في الآخرة، ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما، وفي (أن) وجوه خمسة ذكرها السمين.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا﴾ الزحف الدنو قليلاً قليلاً وأصله الاندفاع على الالية ثم سمى كل ماش في الحرب الى آخر زاحفاً، والتزاحف التداني والتقارب، يقال زحف الى العدو زحفاً وازدحف القوم أي مشى بعضهم الى بعض، ويطلق على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف، أي حال كونكم زاحفين الى الكفار أو حال كون الكفار زاحفين اليكم أو متزاحفين على أدبارهم في بطء السير، وذلك لان الجيش اذا كثر والتحم بعضهم ببعض يتراءى ان سيره بطيء وان كان في نفس الامر سريعاً فالمقصود من هذه الحال بعد كون المراد التشبيه ما يلزم هذه المشابهة وهو الكثرة أي مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون.

﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي ظهوركم منهزمين منهم، فإن المنهزم يولي ظهره ودبره. نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم وقد دب بعضهم الى بعض للقتال وظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن وعلى كل حال إلا في حالة التحريف والتحيز.

وقد روي عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبي حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر، وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا الى المشركين إذ لم يكن في الارض يومئذ مسلمون غيرهم ولا لهم فئة إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأما بعد ذلك فان بعضهم فئة لبعض، وبه قال أبو حنيفة، قالوا ويؤيده قوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ فإنه اشارة إلى يوم بدر، وقيل ان هذه

الآية منسوخة بآية الضَّعف.

وذهب جمهور العلماء الى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة وان الفرار من الزحف محرم، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب في يوم بدر وأجيب عن قول الأولين بأن الاشارة في ﴿يومئذ﴾ الى يوم بدر بأن الاشارة الى يوم الزحف كما يفيده السياق.

ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف بل هذه الاية مقيدة بها فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف.

ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج، لأنه صلى الله عليه وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال.

ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث.اجتنبوا السبع الموبقات وفيه «والتولي يوم الزحف» ونحوه من الأحاديث، وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه وهو مبين في مواطنه، وورد عن جماعة من الصحابة أن التولي يوم الزحف من الكبائر.

قال ابن عطية: والادبار جمع دبر، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له.

قلت ويطلق الدبر على مقابل القبل وعلى الظهر وهو المراد هنا، والمقصود ملزوم تولية الظهر وهو الانهزام، وهذا من باب التعريض حيث ذكر لهم حالة تستهجن من فاعلها فأتى بلفظ الدبر دون الظهر لذلك، وبعض أهل علم البيان يسمي هذا النوع كناية وليس بشيء.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

﴿ومن يولهم يومئذ﴾ أي يوم لقيتموهم ﴿دبره إلا متحرفاً لقتال﴾ أي منعطفاً ومائلاً اليه، والنصب على الحال أو الاستثناء من ضمير المؤمنين أي ومن يولهم الا رجلاً منهم متحرفاً، واللام للتعليل أي لاجل قتال أي لاجل التمكن منه، والتحرف الزوال عن جهة الاستواء والمراد به هنا التحريف من جانب الى جانب في المعركة طلباً لمكائد الحرب وخدعاً للعدو، كمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو، فيكر عليه ويتمكن منه ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة.

﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي منضماً وصائراً إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو أي رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لأنه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز، والتحيز والتحوز الانضمام وتحوزت الحية انطوت، وحزت الشيء ضممته والحوزة ما يضم الاشياء.

﴿فقد باء﴾ أي من ينهزم ويفر من الزحف إلا في هاتين الحالتين فقد رجع ﴿بغضب﴾ كائن ﴿من الله ومأواه جهنم﴾ أي المكان الذي يأوي اليه هو النار ففراره أوقعه الى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة، والمأوى ما يأوي اليه الانسان ﴿وبئس المصير﴾ ما صار اليه من عذاب النار.

وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف وفي ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فلم تقتلوهم﴾ أي إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة وايقاع الرعب في قلوبهم فلم تقتلوهم بقوتكم ﴿ولكن الله قتلهم﴾ بما يسره لكم من الاسباب الموجبة للنصر، قال الزمخشري الفاء في ﴿فلم﴾ جواب شرط محذوف أي وان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم، وقال الشيخ: وليست جواباً بل لربط الكلام بعضه ببعض.

﴿وما رميت إذ رميت﴾ اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال فروي عن مالك أن المراد به ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين فانه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي، فأصابت كل واحد منهم، وقيل المراد به الرمية التي رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن خلف بالحربة في عنقه فانهزم ومات منها، وقيل المراد به السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حصن خيبر، فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه.

وهذه الأقوال ضعيفة فإن الاية نزلت عقب وقعة بدر، وأيضاً المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة والصحيح كما قال ابن اسحاق وغيره: أن المراد بالرمي المذكور في هذه الاية هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم بدر، فانه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم، ودخلت في عينيه ومنخريه وأنفه.

وقال ثعلب المعنى وما رميت الفزع والرعب في قلوبهم إذ رميت بالحصباء فانهزموا ﴿ولكن الله رمى﴾ أي أعانك وأظفرك، والعرب تقول رمى الله لك أي أعانك وأظفرك وصنع لك، وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز، قال محمد بن يزيد المبرد: المعنى وما رميت بقوتك اذ رميت ولكنك بقوة الله رميت.

وقيل المعنى ان الرمية بتلك القبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة لانك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلاً، هكذا في الكشاف.

وفي الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسباً وإلى الله خلقاً لا كما تقوله الجبرية والمعتزلة لأنه أثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه وأثبته لنفسه، فصح هذا النفي والاثبات، قال الكرخي: نفى الفعل عنهم وعنه باعتبار الايجاد إذ الموجد حقيقة هو الله تعالى، واثباته لهم وله باعتبار الكسب والصورة.

قال مجاهد: هذا لمحمد ﷺ حين حصب الكفار، وقال قتادة: رماهم يوم بدر بالحصباء، وعن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال: شاهت الوجوه فانهزمنا فذلك قوله تعالى: ﴿وما رميت اذ رميت﴾ الآية وعن جابر نحوه.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فما بقي أحد من القوم الا

امتلأت عيناه من الحصباء فنزلت هذه الآية، وقال ابن المسيب: أخذ رسول الله ﷺ حربته في يده فرمى بها أبي بن خلف وكسر ضلعاً من أضلاعه، وفي ذلك أنزل الله ﴿وما رميت اذ رميت﴾ وعن الزهري نحوه وإسناده صحيح إليهما.

قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الامامين غريب جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها وهكذا قال فيها قاله عبد الرحمن بن جبير ان رسول الله ﷺ دعا بقوس فرمى بها الحصن فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه فأنزل الله ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾[1].

﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ البلاء يستعمل في الخير والشر على حد ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئآت﴾ والمراد هنا الخير والنعمة، وعليه أجمع المفسرين والمعنى ولينعم على المؤمنين بالغنيمة انعاماً جميلاً أي للانعام عليكم بنعمه الجليلة فعل ذلك لا لغيره.

وقيل التقدير لكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلي المؤمنين، وقال عروة ابن الزبير: أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عددهم وقلة هؤلاء ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته ﴿ان الله سميع﴾ لدعائهم ﴿عليم﴾ بأحوالهم.

﴿ذلكم﴾ أي البلاء الحسن والقتل والرمي ﴿وان الله موهن كيد الكافرين﴾ أي إن الغرض منه بما وقع مما حكته الآيات السابقة ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين.

(١) ابن كثير ٢/٢٩٦.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الاستفتاح طلب النصر، وقد اختلف في المخاطبين بالآية من هم فقيل انها خطاب للكفار تهكماً بهم لأنهم الذين وقع بهم الهلاك والذلة، والمعنى ان تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله ان ينصر أحق الطائفتين وأعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين بالنصر والظفر، وهو في نفس الامر دعاء عليهم وإن أرادوا به الدعاء على محمد وحزبه ﷺ، فتهكم الله بهم وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً.

ومعنى بقية الآية على هذا القول ﴿وإن تنتهوا﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﷺ ﴿فهو﴾ أي الانتهاء ﴿خير لكم وان تعودوا﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿نعد﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم في يوم بدر، وقال قتادة: نعد لكم بالقتل والأسر.

﴿ولن تغني عنكم فئتكم﴾ أي جماعتكم ﴿شيئاً ولو كثرت﴾ أي لا تغني عنكم في حال من الأحوال ولو في حال كثرتها، ثم قال ﴿وإن﴾ بالكسر استئنافاً وبفتحها على تقدير اللام ﴿الله مع المؤمنين﴾ أي محمد وأصحابه قاله السدي ومن كان الله معه فهو المنصور ومن كان الله عليه فهو المخذول.

وقيل ان الآية خطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر، وان تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء

الاسرى قبل الإذن لكم بذلك وعن التكاسل في القتال والرغبة عما يختاره الرسول فهو خير لكم وان تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم كما في قوله ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الآية.

ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً﴾ ويأباه أيضاً ان الله مع المؤمنين وتوجيه ذلك لا يمكن الا بتكلف وتعسف.

وقيل ان الخطاب في ان تستفتحوا للمؤمنين وفيما بعده للكافرين، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد الى طائفتين مختلفتين.

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله في أمر الجهاد لأن فيه بذل المال والنفس، ﴿ولا تولوا﴾ نهاهم عن التولي عن رسوله، فالضمير في ﴿عنه﴾ عائد إلى الرسول لأن طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ويحتمل أن يكون راجعاً الى الله والى رسوله كما في قوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ وقيل راجع إلى الامر الذي دل عليه أطيعوا.

هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين وبه قال الجمهور وقيل انه خطاب للمنافقين، والمعنى يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط قال ابن عطية: وهذا وان كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالايمان وهو التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء.

وأبعد من هذا من قال الخطاب لبني إسرائيل فإنه أجنبي من الآية ﴿وأنتم تسمعون﴾ ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين والقرآن والمواعظ وتصدقون بها ولستم كالصم البكم.

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء فانهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل ﴿وهم لا يسمعون﴾ سماع تدبر واتعاظ أي فهم كالذي لم يسمع أصلاً لأنه لم ينتفع بما سمعه، وهذه صفة المنافقين أو المشركين ﴿ان شر الدواب﴾ أي ما دب على وجه الأرض واطلاق الدابة على الانسان حقيقي لما ذكروه في كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا، وفي المصباح الدابة كل حيوان في الأرض مميزا أو غير مميز.

﴿عند الله﴾ أي في حكمه ﴿الصم البكم﴾ أي الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿الذين لا يعقلون﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شر الدواب عند الله لانها تميز بعض تمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها، قال ابن عباس: هم نفر من قريش من بني عبد الدار، وعن ابن جريج قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وقومه.

﴿ولو علم الله فيهم﴾ أي في هؤلاء الصم والبكم ﴿خيراً﴾ أي خير ﴿لأسمعهم﴾ سماعاً ينتفعون به ويتعقلون عنده الحجج والبراهين، قال الزجاج: لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه، وقيل لأسمعهم كلام الموتى

الذين طلبوا إحياءهم لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ وقال عروة بن الزبير: لأسمعهم أي لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بألسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم.

﴿ولو أسمعهم﴾ فرضاً وقد علم أن لا خير لهم ﴿لتولوا﴾ عنه ولم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل ولم يستقيموا ﴿وهم معرضون﴾ عن قبوله عناداً وجحوداً لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾ الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الامر بالطاعة والاستجابة الطاعة، قال أبو عبيدة: معنى استجيبوا ﴿أجيبوا﴾ والسين والتاء زائدتان وان كان استجاب يتعدى باللام وأجاب بنفسه كما في قوله ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ وقد يتعدى استجاب بنفسه.

﴿اذا دعاكم﴾ وحد الضمير هنا كما وحده في قوله: ﴿ولا تولوا عنه﴾ لان استجابة الرسول استجابة لله تعالى، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد، وقد تقدم وجه ذلك ﴿لما يحييكم﴾ أي استجيبوا لما يحييكم اذا دعاكم، ولا مانع من أن تكون اللام متعلقة بدعا أي اذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة، لان العلم حياة، كما ان الجهل موت.

لا تعجبنَّ الجهول حلّته فذاك ميت وثوبه كفن

قال الجمهور من المفسرين: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ففيه الحياة الابدية والنعمة السرمدية، وقيل المراد الجهاد فإنه سبب الحياة في الظاهر لان العدو إذا لم يغُز غزا، قاله ابن اسحق، وقال السدي: هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالإيمان، وقال مجاهد: هو الحق.

وقيل هو الشهادة لان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وعن قتادة

قال: هذا هو القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة، وقال عروة ابن الزبير: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بها بَعْد الضعف ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم.

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته فقلت: يا رسول الله اني كنت أصلي فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم﴾ الحديث[1].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب وهو يصلي فقال: يا أُبَيّ فالتفت أبي ولم يجبه، الحديث وفيه فقال: اني كنت في الصلاة فقال: أفلم تجد فيما أوحى الله إلى ﴿استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم﴾؟ قال: بلى ولا أعود ان شاء الله تعالى، أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح.

وهذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ وليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته والاول أولى.

ويستدل بهذا الامر بالاستجابة على أنه لا بد من الاجابة في كل ما دعا الله ورسوله إليه، فيجب على كل مسلم اذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر الى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الاراء وأقوال الرجال.

وفي هذه الاية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الادلة وترك التقليد بالمذاهب وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان.

---

(١) ابن كثير ٢/٢٩٧.

﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قيل معناه بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم وقيل معناه أنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمناً ويبدل عدوهم من الأمن خوفاً، واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الانسان شيئاً الا بمشيئته عز وجل.

ولا يخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على هذه المعاني، وقال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله، وبه قال سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد، وقال السدي: يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه وإرادته.

قيل وهذا القول هو الذي دلت عليه البراهين العقلية لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواع وإرادات، وتلك الارادات لا بد لها من فاعل مختار وهو الله تعالى، فثبت بذلك أن المتصرف في القلب كيف شاء هو الله، فالمعنى أنه يحول بين المرء وخواطر قلبه أو وادراك قلبه بمعنى أنه يمنعه من حصول مراده أو يمنعه من الادراك والفهم.

وفي الشهاب أصل الحول كما قال الراغب: تغير الشيء وانفصاله عن غيره وباعتبار التغير قيل حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا، فحقيقة كون الله يحول بين المرء وقلبه أنه يفصل بينهما، ومعناه الحقيقي غير متصور في حقه فهو مجاز عن غاية القرب من العبد لأن من فصل بين شيئين كان أقرب الى كل منهما من الاخر لاتصاله بهما وانفصال أحدهما عن الآخر، وهو إما استعارة تبعية فمعنى يحول يقرب أو تمثيلية.

وقيل ان الانسب أن يكون مجازاً مركباً مرسلاً لاستعماله في لازم معناه

وهو القرب وليس ببعيد، وقال أبو السعود: تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله: ﴿ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾ وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فإنها حائلة بين المرء وقلبه، أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفر ان أراد سعادته ويبدله بالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً وما أشبه ذلك من الأمور العارضة المفوتة للفرصة اهـ.

وقال الربيع بن أنس: علمه يحول، وقال مجاهد: يحول حتى يتركه لا يعقل، وعن الحسن قال: في القرب منه، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك[1] أخرجه مسلم، وفي الباب أحاديث.

﴿وأنه اليه تحشرون﴾ أي وأنكم محشورون اليه وهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً، قال الفراء: ولو استأنفت فكسرت همزة إنه لكان صواباً، ولعل مراده أن مثل هذا جائز في العربية.

وهذا الحديث من أحاديث الصفات يجب إمراره على ما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، وكذا هذه الآية وكونه من الصفات يرد تأويلها بالتمثيل.

---

(١) مسلم ٢٦٥٤

وروى الترمذي ٢/٣٦ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿واتقوا﴾ خطاب للمؤمنين مطلقاً صلحائهم وغيرهم ﴿فتنة﴾ المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء، وتسلط الظلمة وغير ذلك أي اتقوا سبب فتنة ﴿لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح، ولا يختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم، وفي ﴿لا﴾ وجهان (احدهما) انها ناهية والنهي في الصورة للمصيبة، وفي المعنى للمخاطبين (والثاني) انها نافية والجملة صفة لفتنة.

وهذا واضح من هذه الجهة إلا أنه يشكل عليه توكيد المضارع في غير قسم ولا طلب ولا شرط وفيه خلاف.

وقد اختلف النحاة في هذه النون المؤكدة في تصيبن فقال الفراء: هو جواب الأمر بلفظ النهي، ومثله قوله تعالى: ﴿ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم﴾ أي إن تدخلوا، وقال المبرد: انه نهي بعد أمر، والمعنى النهي للظالمين أي لا يقربن الظلم ومثله ما روي عن سيبويه لا أريتك ههنا أي لا تكن ههنا فإن من كان ههنا رأيته وقال الجرجاني: نهي في موضع وصف لفتنة.

وقيل ﴿لا تصيبن﴾ جواب قسم محذوف، والجملة القسمية صفة لفتنة أي فتنة والله لا تصيبن ودخول النون أيضاً قليل لأنه منفي، قال الزبير: الفتنة البلاء والأمر الذي هو كائن.

وعن الحسن قال: نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير، وعن الضحاك قال: نزلت في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة، وعن السدي

قال: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، وكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر فتصيب الظالم والصالح عامة، وعن مجاهد والضحاك وقتادة مثله.

روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي قال: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة(١).

والذي ذكره ابن الأثير في جامع الأصول عن عدي بن عميرة الكندي ان النبي ﷺ قال: اذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها(٢).

وأخرج أبو داود عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا(٣).

وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً.

وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به(٤).

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٦٧٥.
(٢) ابو داوود كتاب الملاحم باب ١٧.
(٣) ابو داوود كتاب الملاحم باب ١٧.
(٤) مسلم ٢٨٨٧.

قال الكرخي: واستشكل هذا بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وأجيب بأن الناس اذا تظاهروا بالمنكر فالواجب على كل من رآه أن يغيره إذا كان قادراً على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله بحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة اهـ.

وعلامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الانسان كارهاً له إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار، هكذا قرره القسطلاني على البخاري.

﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ولا يعذب إلا بجنايته، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة والله أعلم.

ويمكن أن يقال ان الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الاصابة المتعدية للظالم الى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم، وعن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب[1].

﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ الخطاب للنبي وللمهاجرين بتذكير نعمة الله عليهم بالحماية من أعدائهم حيث آواهم في المدينة ونصرهم ببدر وهذه الآية نزلت بعد بدر أي اذكروا وقت قلتكم، والأرض هي أرض مكة وأطلقها في الآية لأنها لعظمها كأنها هي الأرض كلها أو لأن حالهم كان

في بقيّة البلاد كحالهم فيها أو قريباً من ذلك، ولهذا عبر عنهم بالناس في قوله.

﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ والخطف الأخذ بسرعة والمراد بالناس مشركو قريش وكفار مكة، وقال عكرمة: كفار العرب وقيل فارس والروم، قاله وهب ﴿فآواكم﴾ يقال أوى اليه بالمد والقصر بمعنى الضم اليه، والمعنى ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار.

﴿وأيدكم بنصره﴾ أي وقواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر، أو قواكم بالملائكة يوم بدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي من جملتها الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي ارادة أن تشكروا هذه النعم التي أنعم الله بها عليكم.

وقال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاه عيشاً وأجوعه بطناً وأعراه جلوداً وأبينه ضلالة، من عاش عاش شقياً، ومن مات منهم ردّي في النار يؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما نعلم قبيلاً من حاضري الأرض يومئذ كان أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالاسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالاسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل[1].

---

(١) روى البخاري ٥/٩٤ ـ ٢١٦ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً ».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم﴾ الخون أصله كما في الكشاف النقص كما ان الوفاء التمام، ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان، وقيل معناه الغدر واخفاء الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾.

نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم أو يخونوا رسوله بترك شيء مما آمنهم الله عليه أو بترك شيء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئاً من الأمانات التي ائتمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، قال ابن عباس: لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سننه وارتكاب معصيته.

وقال المغيرة بن شعبة: نزلت هذه الاية في قتل عثمان، وقال يزيد بن أبي حبيب: هو الاخلال بالسلاح في المغازي، ولعل مرادهما ان هذا مما يندرج تحت عمومها.

قال جابر بن عبدالله: إن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي ﷺ فقال ان أبا سفيان بمكان كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه بمكان كذا فاخرجوا اليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين الى أبي سفيان أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله هذه الآية.

وعن عبدالله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية في ابي لبابة بن عبد المنذر سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر فأشار الى حلقه أنه الذبح فنزلت، وعن

الزهري: نحوه بأطول منه، وعن الكلبي والسدي نحوه.

ولما اشتد الحصار ببني قريظة أطاعوا وانقادوا أن ينزلوا على ما يحكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحكم فيهم سعد بن معاذ وقال: اني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1].

وفي رواية محمد بن صالح: لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات، والقصة بطولها في المواهب اللدنية ﴿وأنتم تعلمون﴾ أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد، أو أنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل.

ثم قال: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب وصادة عن أمور الآخرة فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما في الآية الأخرى.

عن ابن مسعود قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة، لأن الله يقول: ﴿انما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن، وقال ابن زيد: فتنة الاختبار اختبرهم، وقرأ [ونبلوكم بالشر والخير فتنة] ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.

---

(١) ذكره القرطبي في ٧/٣٩٤ روى أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قُريظة بالذبح. قال أبو لُبابة: والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله؛ فنزلت هذه الآية. فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليّ. الخبر مشهور. مسلم ١٧٦٨.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ جعل سبحانه التقوى شرطاً في الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً، والتقوى اتقاء مخالفة أوامره والوقوع في مناهيه، والفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل، والمعنى أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس، وقيل الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه، قاله ابن عباس وعكرمة.

وقال الفراء: المراد بالفرقان الفتح والنصر، قال ابن اسحاق الفرقان الفصل بين الحق والباطل وبمثله قال ابن زيد، وقال السدي: الفرقان النجاة ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ وبه قال مجاهد ومالك بن أنس.

﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ويغفر لكم﴾ ما اقترفتم من الذنوب، وقد قيل إن المراد بالسيئآت الصغائر وبالذنوب التي تغفر الكبائر، وقيل المعنى أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئآت ومغفرة الذنوب.

﴿واذ يمكر بك الذين كفروا﴾ أي واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين

بك، ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم له بمكة لأن هذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة، والسورة مدنية.

وقال عكرمة: هذه الآية مكية، والمكر الاحتيال في إيصال الضرر للغير.

﴿ليثبتوك﴾ أي يثخنوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما، وقيل المعنى ليحبسوك يقال أثبته إذا حبسه، وقيل ليوثقوك لأن كل من شد شيئاً وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة، وهذا أشار لرأي أبي البختري ومنه فشدوا الوثاق، وقرأ الشعبي: ليبيتوك من البيات.

﴿أو يقتلوك﴾ أي كلهم قتلة رجل واحد كما أشار عليهم أبو جهل ﴿أو يخرجوك﴾ منفياً من مكة التي هي بلدك وبلد أهلك، وهذا أشار لرأي هشام ابن عمرو، كذا في شرح المواهب، عن ابن عباس قال: تشاورت قريش بمكة ليلة فقال بعضهم إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق يريدون النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فبات عليّ على فراش النبي ﷺ حتى لحق بالغار، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوه علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا، فقال: لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال.

وروى البيهقي وغيره عنه بأطول مما هنا وفيها ذكر الشيخ النجدي أي ابليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في أمر النبي ﷺ وان أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاماً ويعطوا كل واحد منهم سيفاً ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فاذا قتلوه تفرق دمه في

القبائل، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي فتفرقوا على ذلك.

﴿ويمكرون﴾ بك ﴿ويمكر الله﴾ بهم، والمكر التدبير في الأمر في خفية، والمعنى أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله ﷺ من المكائد فيجازيهم الله على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم بأن يخرجهم إلى بدر، ويقلل المسلمين في أعينهم حتى يحملوا عليهم فيقتلوا، وسمى ما يقع منه تعالى مكراً مشاكلة كما في نظائره، والمشاكلة تزيده حسناً على حسن، وقيل استعارة تبعية وقيل مجاز مرسل بعلاقة السببية، وقيل استعارة تمثيلية.

﴿والله خير﴾ المجازين لمكر ﴿الماكرين﴾ بمثل فعلهم فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم، ووضع خير موضع أقوى، فيه تنبيه على ان كل مكر يبطل بفعل الله.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ التي تأتيهم بها وتتلوها عليهم ﴿قالوا﴾ تعنتاً وتمرداً وبعداً عن الحق ﴿قد سمعنا﴾ ما تتلوه علينا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ الذي تلوته علينا أي مثل هذا القرآن وهو التوراة والإنجيل، وقد تنازع هذا العامل مع قوله: ﴿لقلنا﴾ في قوله: ﴿مثل هذا﴾ كما يستفاد من الخازن، قيل إنهم قالوا هذا توهماً منهم أنهم يقدرون على ذلك لأنهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فلما راموا ان يقولوا مثله عجزوا عنه ثم قالوا عناداً وتمرداً.

﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما يسطره الوراقون من أخبار الأولين وقد تقدم بيانه مستوفى، وعن السدي أنها نزلت في النضر بن الحرث وكان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار، وأحاديث العجم، فلما جاء مكة ووجد النبي ﷺ قد أوحى إليه قال: ﴿قد سمعنا﴾ الآية.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿اذ قالوا اللهم ان كان هذا﴾ أي القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ﴿هو الحق﴾ قرىء بالنصب وهو خبر الكون وبالرفع على الخبر، وبه قرأ الأعمش وزيد ابن علي، وقال ابن عطية: ويجوز في العربية رفع الحق على خبر هو والجملة خبر لكان، قال الأخفش: ولا أعلم أحداً بهذا الجائز (قلت) قد ظهر من قرأ به وهما رجلان جليلان قاله السمين.

﴿من عندك فأمطر﴾ قال أبو عبيدة: يقال أمطر في العذاب، ومطر في الرحمة وقال في الكشاف: قد كثر الإمطار في معنى العذاب، والإمطار استعارة أو مجاز عن الإنزال أي أنزل ﴿علينا حجارة﴾ فائدة توصيف الحجارة بقوله ﴿من السماء﴾ الدلالة على أن المراد بالحجارة السجيل، وهو حجارة مسومة أي معلمة معدة لتعذيب قوم من العصاة.

﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والانكار، سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء أو غيرها من أنواع العذاب الشديدة فأجاب الله عليهم بقوله.

﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت﴾ يا محمد ﴿فيهم﴾ موجود فإنك ما دمت فيهم بأرض مكة فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال، قال السيوطي: لأن العذاب إذا نزل عم، ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها.

أخرج البخاري وابن أبي حاتم والبيهقي عن أنس بن مالك قال: قال

أبو جهل ابن هشام «اللهم ان كان هذا هو الحق» الآية فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ وعن قتادة أنها نزلت في أبي جهل، وعن سعيد بن جبير أنها نزلت في النضر بن الحرث، وعن مجاهد وعطاء نحوه، قال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر، قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة من قريش صبراً طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث، وفيه نزل سأل سائل بعذاب واقع.

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾روي أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك فنزلت أي ﴿وما كان الله معذبهم﴾ في حال كونهم مستغفرين، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الاستغفار.

وأخرج الترمذي وضعفه عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار[1]، وقيل معنى الآية لو كانوا ممن يؤمنون بالله ويستغفرونه لم يعذبهم، وقيل ان الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم أي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم بيوم بدر وما بعده.

وقيل المعنى وفي أصلابهم من يستغفر الله، وقيل هذا دعاء لهم إلى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة، وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون أي يسلمون يعني لو أسلموا لما عذبوا، قال أهل المعاني دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب، والأحاديث عن رسول الله ﷺ في مطلق الاستغفار كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث.

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٣٤١.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم، ووقوع الاستغفار ذكر بعد ذلك أن هؤلاء أعني كفار مكة مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح والمعنى أى شيء لهم يمنع من تعذيبهم، قيل هذا العذاب هو القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة.

﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿يصدون﴾ الناس ﴿عن المسجد الحرام﴾ كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت ﴿وما كانوا أولياءه﴾ كما زعموا أي مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من انهم ولاة البيت والحرم، وان أمرهم مفوض اليهم، ثم قال مبيناً لمن له ذلك ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي من كان في عداد المتقين للشرك والمعاصي، وعن مجاهد قال: من كانوا حيث كانوا.

﴿ولكن أكثرهم﴾ أى أكثر الناس ﴿لا يعلمون﴾ ذلك، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الاقلين يعلمون ولكنهم يعاندون، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ أى ما كان شيء مما يعدونه صلاة وعبادة ﴿إلا مُكاء وتصدية﴾ أي إلا هذين الفعلين، والمكاء الصفير من مكأ يمكؤ مكاء ومكوأ، ومنه مكت است الدابة اذا نفخت بالريح، وقيل المكاء هو الصفير على لحن

طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء، والتصدية التصفيق يقال صدى يصدي تصدية اذا صفق، وقيل المكاء الضرب بالأيدي والتصدية الصياح، وقيل المكاء أدخالهم أصابعهم في أفواههم والتصدية الصفير. وقيل التصدية صدهم عن البيت.

ومعنى الآية أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذي هو موضع للصلاة والعبادة، فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة، وعن عكرمة قال: كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال فالمكاء مثل نفخ البوق والتصدية طوافهم على الشمال.

وقال السمين: التصدية فيها قولان «أحدهما» أنها من الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية الصلبة، يقال منه صدى يصدي تصدية، والمراد بها هنا ما يسمع من صوت التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، وقيل مأخوذ من التصدد وهو الضجيج والصياح والتصفيق، ويدل عليه قراءة[إذا قومك منه يصدون] بالكسر أى يضجون ويلغطون «والثاني» أنها من الصدّ وهو المنع، ويؤيده قراءة يصدون بالضم أي يمنعون انتهى، والمكاء الصفير وهو الصوت الخالي عن الحروف.

والمعنى أنهم فوتوا ما حقهم أن يشتغلوا به في هذا المكان من الصلاة وشغلوه بهذا اللعب والخراف والهوس، واستثنى المكاء والتصدية مع أنهما ليسا من جنس الصلاة تقريعاً للمشركين بتركهم ما أمروا به في المسجد الحرام، فإن ما لا يدخل تحت الشيء قد يستثنى منه لمصلحة وغرض كقصد المدح والذم؛ فعلى هذا يكون التقدير وما كان موضع صلاتهم أي عوضها إلا مكاء وتصدية.

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديداً لهم ومبالغة في ادخال الروعة في قلوبهم، والمراد به عذاب الدنيا كيوم بدر، وعذاب الآخرة، قال الضحاك: يعني أهل بدر عذبهم الله بالقتل والاسر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ لما فرغ سبحانه من شرح حال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية، والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب فان الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش.

وعن ابن عباس قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وعن مجاهد وسعيد بن جبير نحوه. وعن الحكم بن عتيْبة قال: نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب، وكانت الأوقية يومئذ أربعين واثنين مثقالا من ذهب.

ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الاعجاز فقال ﴿فسينفقونها﴾ أى سيقع منهم هذا الانفاق وسيعلمون عاقبة إنفاقها من الخيبة وعدم الظفر بالمقصود فحصلت المغايرة ﴿ثم تكون﴾ أي عاقبة ذلك ان يكون إنفاقهم ﴿عليهم حسرة﴾ كأن ذات الأموال تنقلب حسرة وتصير ندماً لفوات ما قصدوه بها ﴿ثم﴾ آخر الأمر ﴿يُغلبون﴾ في الدنيا كما وعد الله في مثل قوله ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ ومعنى ثم في الموضعين إما التراخي في الزمان لما بين الانفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة لما بين بذل الأموال وعدم حصول المقصود من المباينة.

ثم قال ﴿والذين كفروا﴾ أي استمروا على الكفر لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقاً من أسلم وحسن إسلامه ﴿الى جهنم يحشرون﴾ أي يساقون اليها لا الى غيرها.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ثم بين العلة التي لأجلها فعل بهم ما فعل فقال: ﴿ليميز الله الخبيث﴾ وهم الكافرون ﴿من الطيب﴾ وهم المؤمنون، قال ابن عباس: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وقيل العمل الخبيث من العمل الطيب، وقيل الإنفاق في طريق الشيطان وسبيل الرحمن، وقيل الخبيث والطيب صفة للمال، والتقدير ﴿ليميز المال الخبيث الذي أنفقه المشركون في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، من الطيب الذي أنفقه المسلمون في نصرته صلى الله عليه وسلم، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها الى بعض فيلقيها في جهنم ويعذبهم بها، كما في قوله تعالى: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾.

قال في الكشاف: واللام على هذا متعلقة بقوله: ثم تكون عليهم حسرة، وعلى الأول بيحشرون، انتهى. وعن شمر بن عطية قال: يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم.

﴿ويجعل الخبيث﴾ أي يجعل فريق الكفار الخبيث ﴿بعضه على بعض﴾ أي فوق بعض ﴿فيركمه﴾ الركوم عبارة عن الجمع والضم، أي يجمع بعضهم الى بعض ويضم بعضهم الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم، يقال ركم الشيء يركمه اذا جمعه وألقى بعضه على بعضه، وبابه نصر، وارتكم الشيء وتراكم اجتمع والركام الرمل المتراكم والسحاب ونحوه.

﴿جميعاً﴾ حال من الهاء في يركمه أو توكيد لها ﴿فيجعله﴾ أي الخبيث فيه مراعاة اللفظ ﴿في جهنم أولئك﴾ أي الفريق الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخسران، فيه مراعاة المعنى لأن الضمير راجع على الخبيث.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قل للذين كفروا﴾ كأبي سفيان وأصحابه واللام للتبليغ ﴿إن ينتهوا﴾ الخ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذا المعنى، سواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: ولو كان كما قال الكسائي انه في مصحف ابن مسعود تنتهوا بالتاء لما تأدت الرسالة الا بتلك الألفاظ بعينها، وقال في الكشاف: هي لام العلة، أي قل لأجلهم هذا القول وهو أن ينتهوا، ولو كان بمعنى خاطبهم به لقيل ان تنتهوا يغفر لكم.

والمعنى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الاسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ لهم من العداوة اهـ.

وقيل معناه إن ينتهوا عن الكفر، قال ابن عطية: والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم ما قد سلف، ومغفرة ما قد سلف لا يكون إلا لمنته عن الكفر وفي هذه الآية دليل على أن الاسلام يجبّ ما قبله.

وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال: لما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ابسط يدك فلأبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي قال: مالك؟ فقلت أردت أن أشترط، قال تشترط ماذا؟ قلت: أن تستغفر لي قال: أما علمت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها، وان الحج يهدم ما كان قبله[1].

---

(١) مسلم ١٢١.

وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الاسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما قبلها[1]، قال يحيى بن معاذ الرازي التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر، فكيف يعجز عن هدم ما بعده من ذنب.

﴿وإن يعودوا﴾ الى القتال والعداوة أو الى الكفر الذي هم عليه، ويكون العود بمعنى الاستمرار، وفي الجمل العود يشعر بسبق التلبس بالشيء الذي حصل العود اليه، فالمعنى وإن يرتدوا عن الاسلام بعد دخولهم فيه ويرجعوا الى الكفر وقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجواب الشرط محذوف تقديره ننتقم منهم بالعقاب والعذاب.

وقوله: ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ تعليل للمحذوف ولا يصلح للجوابية كما لا يخفي أي سبقت واستقرت سنة الله في إهلاك أعدائه ونصر أوليائه.

وهذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن أهلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله، أي قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب فليتوقعوا مثل ذلك.

عن مجاهد قال: فقد مضت سنة الأولين في قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل ذلك، وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بما مضى في الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر، وقال السدي ومحمد ابن إسحاق: المراد بالآية يوم بدر، وترسم سنت هذه بالتاء المجرورة وكذا الثلاثة التي في فاطر، وكذا التي في آخر غافر والاضافة على معنى في.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي شرك قاله ابن عباس، وقيل بلاء

(١) الإمام احمد ٤/١٩٩.

قاله الحسن، وقد فسرها جمهور السلف بالكفر، وقال محمد بن اسحق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا المعنى حتى لا يفتن مسلم عن دينه، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة مستوفى، والجملة معطوفة على «قل للذين» لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبي وحده جاء بالافراد ولما كان الغرض من الثاني تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا جميعاً.

﴿ويكون الدين كله﴾ أي الطاعة والعبادة كلها ﴿لله﴾ خالصة دون غيره وقال قتادة: حتى يقال لا إله إلا الله عليه قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم واليه دعا، وقيل يضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الاسلام وحده والمعاني متقاربة.

﴿فان انتهوا﴾ عما ذكر من الشرك وافتتان المؤمنين وإيذائهم ﴿فإن الله بما يعملون﴾ بالتحتية باتفاق السبعة، وقرأ بالفوقية يعقوب من العشرة ﴿بصير﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم من انتهاء فيجازيهم به.

﴿وان تولّوا﴾ عما أمروا به من الانتهاء أو عن الايمان، وجوابه محذوف أي فلا تخشوا بأسهم ﴿فاعلموا﴾ أيها المؤمنون ﴿إن الله مولاكم﴾ أي ناصركم عليهم ومتولي أموركم ﴿نعم المولى﴾ هو ﴿ونعم النصير﴾ فمن والاه فاز ومن نصره غلب[1].

---

(١) روى مسلم في «صحيحه» ١/١١١ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر».

وروى مسلم أيضاً في «صحيحه» ١/١١٢ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله».

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿واعلموا أنما﴾ «ما» موصولة وكان القياس فصلها في الرسم من «أن» لكن ثبت وصلها في خط المصحف الامام، وثبت فصلها أيضاً في بعضها على القياس كما ذكره ابن الجزري في قوله: «وخلف الانفال ونحل وقعا».

﴿غنمتم﴾ لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة، ذكر حكم الغنيمة، والغنيمة قد قدمنا ان أصلها إصابة الغنم من العدو، ثم استعملت في كل ما يصاب منهم، وقد يستعمل في كل ما ينال بسعي.

وأما معنى الغنيمة في الشرع فحكى القرطبي الاتفاق على أن المراد بقوله أنما غنمتم مال الكفار اذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر قال: ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص، ولكن عرف الشرع قيد هذا اللفظ بهذا النوع.

وقد ادعى ابن عبد البر الاجماع على أن هذه الآية نزلت بعد قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين، وان قوله: ﴿يسألونك عن الانفال﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر وقيل انها يعني قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ محكمة غير منسوخة، وان الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليست مقسومة بين الغانمين وكذلك لمن بعده من الأئمة حكاه الماوردي عن كثير من المالكية.

وقالوا: وللامام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين،

وكان أبو عبيدة يقول افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة ومنَّ على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً .

وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودي والمازري والقاضي عياض وابن العربي، والأحاديث الواردة في قسمة الغنيمة بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جداً.

قال القرطبي: ولم يقل أحد فيما أعلم ان قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية ناسخ لقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ الآية بل قال الجمهور ان قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ ناسخ وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله.

وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها قال: وأما قصة حنين فقد عوض الانصار لما قالوا يعطي الغنائم قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه، فقال لهم أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى بيوتكم[1] كما في مسلم وغيره، وليس لغيره ان يقول هذا القول بل ذلك خاص به، وقوله: ﴿أنما غنمتم﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة قليلاً كان أو كثيراً.

و﴿من شيء﴾ بيان لما الموصولة، وقد خصص الاجماعَ من عموم الآية الاسارى فان الخيرة فيها الى الامام بلا خلاف، وكذلك سَلَب المقتول إذا نادى به الامام قيل وكذلك الأرض المغنومة، ورد بأنه لا إجماع على الأرض.

﴿فأن﴾ أي فحق أو فواجب أن ﴿لله خمسه وللرسول﴾ وقد اختلف

(١) مسلم ١٠٥٩.

العلماء في كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة.

القول الأول: قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة.
فيجعل السدس للكعبة وهو الذي لله.

والثاني: لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
والثالث: لذوي القربى.
والرابع: لليتامى.
والخامس: للمساكين.
والسادس: لابن السبيل.

القول الثاني: قاله أبو العالية والربيع أنها تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهم واحد، ويقسم أربعة على الغانمين ثم يضرب يده في السهم الذي عزله فما قبضه من شيء جعله للكعبة ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده في الآية.

القول الثالث: روي عن زين العابدين علي بن الحسين أنه قال: الخمس لنا فقيل له ان الله يقول: ﴿واليتامى والمساكين وابن السّبيل﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا وابناء سبيلنا.

والقول الرابع: قول الشافعي: ان الخمس يقسم على خمسة وان سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الاخماس على الاربعة الأصناف المذكورة في الآية.

القول الخامس: قول أبي حنيفة: انه يقسم الخمس على ثلاثة اليتامى

والمساكين وابن السبيل، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته كما ارتفع حكم سهمه قال ويبدأ من الخمس باصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند، وروي نحو هذا عن الشافعي.

القول السادس: قول مالك: أنه موكول الى نظر الامام واجتهاده فيأخذ منه بغير تقدير، ويعطي منه الغزاة باجتهاد ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القرطبي: وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا، وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم: مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم فانه لم يقسمه أخماساً ولا اثلاثاً، وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع اليه.

وقال الزجاج: محتجاً لهذا القول قال الله تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ وجائز باجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجعل سهم الله في السلاح والكراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج اليه الكعبة، ويجعل سهم الرسول في الكراع والسلاح ونفقة أهله، وسهم ذي القربى لقرابته يضعه رسول الله فيهم مع سهمهم مع الناس، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيمن شاء وحيث شاء ليس لبني عبد المطلب في هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله سهم مع سهام الناس.

وعن ابن بريدة قال: الذي لله لنبيه والذي للرسول لأزواجه، وعن

محمد ابن الحنفية في قوله: ﴿فأن لله خمسه﴾ قال: هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة وللرسول ولذي القربى، فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين قال قائل منهم: سهم ذي القربى لقرابة رسول الله ﷺ، وقال قائل: منهم سهم ذي القربى لقرابة الخليفة، وقال قائل منهم سهم النبي ﷺ للخليفة بعده.

واجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكان ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وأبو الحاكم عن قيس بن مسلم الجدلي عن محمد بن الحنفية.

وأخرج ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: ﴿فأن لله خمسه﴾ مفتاح كلام أي على سبيل التبرك، وانما أضافه لنفسه لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهماً منه لله مفرداً لأن لله ما في السموات وما في الأرض، وبه قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي قالوا: سهم الله وسهم رسوله واحد، وذكر الله للتعظيم فجعل هذين السهمين في الخيل والسلاح وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهمين ولراكبه سهماً وللراجل سهماً.

وعنه رضي الله عنه قال: كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربع لله وللرسول ولذي القربى يعني قرابة رسول الله ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً، والربع الثاني لليتامى، والربع الثالث للمساكين والربع الرابع لابن السبيل، وهو الضعيف الفقير

الذي ينزل بالمسلمين، أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿ولذي القربى﴾ قيل اعادة اللام في ذي القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ، والمعنى أن سهماً من خمس الخمس لذوي القربى، وقد اختلف العلماء فيهم على أقوال الأول أنهم قريش كلها، روي ذلك عن بعض السلف، واستدل بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلاً يا بني فلان يا بني فلان.

وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس وبني نوفل منه شيء وان كانوا اخوة لقوله صلى الله عليه وسلم: انما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه وهو في الصحيح[1].

وأخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم عن الزهري وعبدالله بن أبي بكر عن جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قسم سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه فقلنا: يا رسول الله هؤلاء اخوانك من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم أرأيت اخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب، فقال: إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام[2]، وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

وقيل هم بنو هاشم خاصة وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم وهو مروي عن علي بن الحسين ومجاهد، وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل.

---

(١) رواه ابن ماجه كتاب الجهاد باب ٤٦ بلفظ: «انما ارى بني هاشم بني المطلب شيئاً واحداً».

(٢) روى الإمام احمد نظيره في مسنده ٤ / ٨١.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان للنبي ﷺ شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس، وعن علي وصححه الحاكم قال: ولاني رسول الله ﷺ خمس الخمس فوضعته مواضعه حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

واختلفوا في سهمهم هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين، وبه قال مالك والشافعي، وقيل إنه غير ثابت وسقط سهمه وسهمهم بوفاته، وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية وبه قال أبو حنيفة وأصحاب الرأي.

وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد الرسول ﷺ كانوا يعطونهم ولا يفضلون فقيراً على غني، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس مع كثرة غناه وكذا الخلفاء بعده، وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد.

﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ قد تقدم بيان سهمهم قريباً والمراد باليتيم هنا هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة إليه، والمساكين هم أهل الفاقة من المسلمين، وابن السبيل هو المسافر البعيد عن ماله المنقطع في سفره، فهذا مصرف خمس الغنيمة، ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الحاضرين في الواقعة الحائزين للغنيمة، فيعطى للفارس ثلاثة أسهم: سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم واحد لحديث ابن عمر في الصحيح، وبه قال أكثر أهل العلم وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد واسحق.

وقال أبو حنيفة: للفارس سهمان وللراجل سهم والحديث يرد عليه، وظاهر الآية يدل على أنه لا فرق بين العقار والمنقول، وعند أبي حنيفة يخير الامام في العقار بين قسمه ووقفه على المصالح، ومن قتل من المسلمين مشركاً

استحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ومن قتل قتيلاً فله سلبه»[١]، أخرجه الشيخان وغيرهما، ويجوز تنفيل بعض الجيش من الغنيمة.

﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ قال الزجاج: عن فرقة أن المعنى فاعلموا أن الله مولاكم ان كنتم آمنتم بالله وقالت فرقة أخرى أن «إن» متعلقة بقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ قال ابن عطية: وهذا هو الصحيح لأن قوله واعلموا يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق ان بقوله واعلموا على هذا المعنى أي ان كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وأسلموا الأمر لله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة.

وقال في الكشاف: إنه متعلق بمحذوف يدل عليه واعلموا بمعنى ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم العلم المجرد ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله لأن العلم المجرد يستوي فيه المؤمن والكافر اهـ.

﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه إضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر، وبدر ماء بين مكة والمدينة وسمي يومه يوم الفرقان لأن الله فرق بين أهل الحق بإظهاره وأهل الباطل بإخماده.

﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي الفريقان من المسلمين والكافرين، عن علي ابن أبي طالب قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر.

---

(١) مسلم ١٧١٥.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿اذ﴾ أي اذكروا أيها المسلمون اذ ﴿أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى﴾ قرىء بضم العين في الموضعين وكذا بالفتح والكسر وقرىء بهما أيضا وهي لغات بمعنى واحد، وهذا هو قول جمهور اللغويين، والعدوة شط الوادي وشفيره وحافته سميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوزها أي منعته، وقال أبو عمرو: هي المكان المرتفع، والدنيا تأنيث الأدنى من دنا يدنو أي القربى من المدينة، والقصوى تأنيث الأقصى من قصا يقصو، ويقال القصيا والأصل الواو وهي لغة أهل الحجاز، والمعنى وقت نزولكم بالجانب الادنى من الوادي إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الاقصى منه مما يلي مكة والباء بمعنى في كقولك زيد بمكة.

﴿والركب أسفل منكم﴾ أي والحال ان الركب في مكان أسفل من المكان الذي أنتم فيه مما يلي البحر، وأجاز الاخفش والكسائي والفراء رفع أسفل على معنى أشد سفلاً منكم، وقيل الواو للعطف، والركب اسم جمع لراكب أو جمع له وهم العشرة فصاعداً، ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبي الابل، وقد يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب والجمع أركب وركوب كذا قال ابن فارس وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة.

والمراد بالركب هنا ركب أبي سفيان وهي المراد بالعير فإنهم كانوا في موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر، قيل وفائدة ذكر هذه الحالة التي كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة

القصوى، والركب أسفل منهم، الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته وذلك لأن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها، وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم، فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم والحال هذه.

﴿ولو تواعدتم﴾ أي أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا في هذا الموضع للقتال وأعلم كل منكم الآخر للخروج له ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾ أي لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالوعد وثبطهم ما في قلوبهم من المهابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالميعاد معناه التواعد والميعاد المواعدة ووقتها ومكانها كما في القاموس.

﴿ولكن﴾ جمع الله بينكم في هذا الموطن بغير ميعاد ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي حقيقاً بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها ولم يكن في حسبان الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة.

﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة﴾ أي ليموت من يموت عن بينة ويعيش من يعيش عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه، لئلا تبقى لأحد على الله حجة، وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والاسلام أي ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة، وهو معنى قول ابن اسحق وقتادة ﴿وان الله لسميع﴾ بكفر الكافرين وإيمان المؤمنين ﴿عليم﴾ بهما لا يخفى عليه خافية.

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ
فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ
إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾
وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

﴿اذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر﴾ المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم في منامه قليلاً فقص ذلك على أصحابه، فكان ذلك سبباً لثباتهم، قاله مجاهد ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا في الأمر هل يلاقونهم أم لا، والمضارع بمعنى الماضي لأن نزول الآية كان بعد الإراءة.

﴿ولكن الله سلّم﴾ وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، قال ابن عباس: ﴿سلّم﴾ أي أتم يقول سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وقيل عنى بالمنام محل النوم وهي العين أي في موضع منامك وهو عينك، روي ذلك عن الحسن، قال الزجاج: هذا مذهب حسن، ولكن الاول أسوغ في العربية لقوله: ﴿واذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء وتلك رؤية النوم.

﴿انه عليم بذات الصدور﴾ أي بما يحصل فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع، وقيل بما فيه من الحب لله عز وجل، قاله ابن عباس.

﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾ أي واذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلاً حتى قال القائل من المسلمين لآخر أتراهم سبعين قال هم نحو المائة، قال ابن مسعود: حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه قال: كنا ألفاً.

﴿ويقللكم في أعينهم﴾ أي وقلل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم إنما هم أكلة جزور، وكان هذا قبل القتال والتحام الحرب، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين كما قال في آل عمران ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين ثم يرونهم كثيراً فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه.

﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ في علمه، وانما كرره لاختلاف الفعل المعلل به، عن عباد بن عبدالله بن الزبير قال: ليلف بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والانعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته، وقيل المراد بالامر إعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله، وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله، والمعاني متقاربة ﴿وإلى الله ترجع﴾ أي تصير ﴿الامور﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضي في شأنها ما يشاء.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة﴾ اللقاء الحرب والفئة الجماعة ولا واحد لها من لفظها ويجمع على فئات، وقد تجمع بالواو والنون جبراً لما نقص منها أي اذا حاربتم جماعة من المشركين ﴿فاثبتوا﴾ لهم ولا تجبنوا عنهم، وهذا

لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله: ﴿الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة﴾ فان الأمر بالثبات هو في حال السعة، والرخصة هي في حال الضرورة، وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف أو التحيز.

﴿واذكروا الله كثيراً﴾ عند جزع قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد، وقيل المعنى اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فان القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان.

قيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب، وتزيغ عندها البصائر.

قال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف وأخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثنتان لا يردان الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً[1]، وأخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره الصوت عند القتال[2].

﴿لعلكم تفلحون﴾ أي كونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم اليه ونهاهم عن التنازع، وهو الاختلاف في الرأي فإن ذلك يتسبب عنه الفشل وهو الجبن في الحرب، وأما المنازعة بالحجة لاظهار الحق فجائزة كما قال ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ بل هي مأمور بها بشروط

---

(١) المستدرك كتاب الجهاد ٢/١١٣. (٢) المستدرك كتاب الجهاد ٢/١١٦.

منها قصد إظهار الحق على لسان أي الخصمين وعلامته ان يفرح لظهوره على لسان خصمه.

﴿وتذهب ريحكم﴾ الريح القوة والنصر كما يقال الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر، وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ امرها بالريح في هبوبها، والمختار أن الريح يطلق ويراد به القوة والغلبة والرحمة والنصرة والدولة، قال في الخازن: الريح هنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب هبت ريح فلان إذا اقبل امره على ما يريد، وقال قتادة وابن زيد: هي ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تضرب وجوه العدو ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور[١].

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ امرهم بالصبر على شدائد الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين بالنصر والعون في كل أمر ينبغي الصبر فيه، ويا حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وان كانت كثيرة ﴿ولا تكونوا﴾ في البطر والاستكبار ﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ أي مكة ﴿بطراً﴾ أي فخراً وأشراً ﴿ورئاء الناس﴾ فيصيبكم مثل ما أصابهم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء وهم قريش فانهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان ومعهم القيان[٢] والمعازف فلما بلغوا الجحفة بلغهم ان العير قد نجت وسلمت فلم يرجعوا بل قالوا لا بد لهم من الوصول الى بدر ليشربوا الخمر وتغني لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم فكان ذلك منهم بطراً وأشراً وطلباً للثناء من الناس والتمدح اليهم، والفخر عندهم، وهو الرياء.

قيل والبطر في اللغة التقوّي بنعم الله على معاصيه أي خرجوا بطرين مرائين أو خرجوا للبطر والرياء، قال الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك

(١) مسلم ٩٠٠.

(٢) المغنيات.

شكرها وجعلها وسيلة الى ما لا يرضاه الله، والرياء اظهار الجميل مع ابطان القبيح، وقيل معناهما الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بها، والرياء مصدر راءى كقاتل قتالاً.

وظاهر النظم الكريم ان قوله بطراً متعلق بخرجوا وهو لا يوافق الواقع لأن خروجهم كان لغرض مهم، وهو المنع عن عيرهم ولهذا جعله السيوطي متعلقاً بمحذوف وقدر لخرجوا علة أخرى حيث قال خرجوا من ديارهم ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها بطراً، فجعله علة لهذا المقدر وهو قوله ولم يرجعوا والمعنى عليه واضح ولم يسلك هذا المسلك غيره ممن رأيناه من المفسرين.

وعن قتادة قال: ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ: «اللهم ان قريشاً قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك»، وقال: جاءت من مكة افلاذها وقد احتج بهذه الآية الشيخ عبد العزيز الدهلوي على انه لا يجوز طوف البلد للعروس بركوب الخيل وغيرها كما اعتاده أهل الهند في عقود مناكحاتهم.

﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ عطف على بطراً إن جعل مصدراً في موضع الحال وكذا ان جعل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر يعني صادين عن دين الله أو للصد عنه، والصد إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية، ويجوز أن يكون ويصدون معطوفاً على يخرجون والمعنى يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد، ونكتة التعبير بالاسم أولاً ثم الفعل ان البطر والرئاء كانا دأبهم بخلاف الصد فانه تجدد لهم في زمن النبوة قاله الشهاب ﴿والله بما يعملون محيط﴾ لا يخفى عليه من أعمالهم خافية، فهو مجازيهم عليها.

---

(١) المغنيات.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي واذكر يا محمد تزيين الشيطان لهم أعمالهم بأن شجعهم وقواهم لما خافوا الخروج من أعدائهم بني بكر وهم قبيلة كنانة قريبة من قريش وبينها وبينهم الحروب الكثيرة، والتزيين التحسين، وقد روي ان الشيطان تمثل لهم يوم بدر في جند من الشياطين معه، قال ابن عباس: رأيته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم سيد تلك الناحية، وكانت قريش تخاف من بني بكر ان يأتوهم من ورائهم.

﴿وقال﴾ لهم ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ أي كنانة وغيرها ﴿واني جار﴾ أي مجير ومعين وناصر ﴿لكم﴾ من كل عدو أو من بني كنانة، ومعنى الجار هنا الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار، وقيل المعنى أنه ألقى في روعهم هذه المقالة وخيل اليهم انهم لا يغلبون ولا يطاقون.

﴿فلما تراءت﴾ التقت ﴿الفئتان﴾ أي فئة المسلمين والمشركين ورأى الملائكة وكان يده في يد الحرث بن هشام ﴿نكص﴾ أي رجع ﴿على عقبيه﴾ هارباً أي رجع القهقرى يمشي الى ظهره، وقيل معنى نكص ههنا بطل كيده وذهب ما خيله.

﴿وقال إني بريء منكم﴾ أي من جواركم وحفظكم ونصركم والذب عنكم وتبرأ منهم لما رأى امارات النصر مع المسلمين بامداد الله لهم بالملائكة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿اني أرى ما لا ترون﴾ من الملائكة ثم علل بعلة أخرى فقال ﴿اني أخاف الله﴾ قيل خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا

الوقعة، وقيل ان دعوى الخوف كذب منه ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك ﴿والله شديد العقاب﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام ابليس بسطاً للعذر ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً من جهة الله سبحانه تهديداً لإبليس[1].

﴿إذ يقول المنافقون﴾ قيل هم الذين أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر وكانوا بالمدينة وهو ابتداء كلام منقطع عما قبله ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ هم الشاكون من غير نفاق الكائنون بمكة لم يقو اسلامهم لكونهم حديثي عهد بالاسلام، وعن الحسن قال: مرضى القلوب هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين، وقال الكلبي: هم قوم كانوا أقروا بالاسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا المسلمين وافقوا المنافقين في قولهم.

﴿غر هؤلاء﴾ المسلمين ﴿دينهم﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش، وعن الشعبي نحوه، وقيل هم المشركون ولا يبعد ان يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها وانهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين الى بدر لما رأوهم في قلة من العدد، وضعف من العدد.

فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿ومن يتوكل على الله﴾ يثق به ﴿فإن الله عزيز﴾ لا يغلبه غالب ولا يذل من توكل عليه ﴿حكيم﴾ له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول.

---

(١) قال ابن السائب: كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة، آخذاً بيد الحارث بن هشام؛ فرأى الملائكة فنكص على عقبيه؛ فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فقال: (إني أرى ما لا ترون)؛ فلما هُزم المشركون، قالوا: هَزَمَ الناس سراقة؛ فبلغه ذلك، فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. قال قتادة: صدق عدو الله في قوله: (إني أرى ما لا ترون)، ذُكر لنا أنه رأى جبريل ومعه الملائكة، فعلم أنه لا يد له بالملائكة، وكذب عدو الله في قوله: (إني أخاف الله)، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾

﴿ولو ترى﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع، والرؤية بصرية والمعنى لو رأيت ﴿إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ لان لو يقلب المضارع ماضياً أي ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر.

وقيل هي فيمن قتل ببدر، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً ﴿يضربون وجوههم﴾ أي جهة الأمام ﴿وأدبارهم﴾ أي جهة الخلف يعني أستاههم كنى عنها بالأدبار، وقيل ظهورهم بمقامع من حديد، وهذا نص في أن ملائكة الموت عند قبضها لروح الكافر تضربه بما ذكر وتقول له ما ذكر وإن كنا محجوبين عن رؤية ذلك وسماعه.

واختلفوا في وقت هذا الضرب، فقيل يكون عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار كما يفيده ذكر التوفي، وقيل هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار، قال ابن جريج: يريد ما أقبل من أجسادهم وأدبر يعني يضربون جميع أجسادهم، قيل كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم على المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، واذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم، قيل كان معهم مقامع من حديد محماة بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم.

﴿و﴾ يقول لهم خزنة جهنم عند القتل ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي المحرق وقال ابن عباس: تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت، وقال الحسن: هذا يوم القيامة، والذوق قد يكون محسوساً وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالفم.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٥١) كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٥٢)﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم من الضرب والحريق والعذاب والقتل ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أي واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب، هذا من جملة قول الملائكة، عبر بها دون غيرها لأن أكثر الأفعال تـزاول بها ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي والأمر انه لا يظلمهم أو ذلك العذاب بسبب المعاصي وبسبب أن الله ليس بذي ظلم لهم فيعذبهم بغير ذنب، لانه سبحانه قد أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل وهداهم النجدين كما قال سبحانه: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمـون﴾ والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها،

﴿كدأب﴾ لما ذكر سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعهَ بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل، يقال فلان يدأب في كذا إذا داوم عليه وأتعب نفسه فيه، ثم سميت العادة دأباً لأن الانسان يداوم على عادته ويواظب عليها، أي دأب هؤلاء في كفرهم مثل دأب ﴿آل فرعون والذين من قبلهم﴾ والمعنى انه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر من الأمم الماضية المكذبة فيما فعلوا وفعل بهم.

﴿كفروا بآيات الله﴾ مفسرة لدأب آل فرعون وبيان لفعلهم أي دأبهم هذا هو أنهم كفروا بها ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ هذا بيان لما فعل بهم أي فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم، والمراد بذنوبهم معاصيهم المترتبة على كفرهم، فالباء للملابسة أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ﴿ان الله قوي﴾ على ما يريده ﴿شديد العقاب﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ذلك﴾ أي العقاب الذي أنزله الله بهم ﴿بأن الله لم يك﴾ مجزوم بسكون النون المحذوفة تخفيفاً أي ما كان ﴿مغيراً نعمة أنعمها على قوم﴾ المراد بالنعمة هو محمد ﷺ أنعم بها على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله إلى الانصار، قاله السدي والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله أي أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله في عباده عدم تغيير النعمة التي ينعم بها عليهم مبـدلاً لها بالنقمة.

﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الاحوال والاخلاق بكفران نعم الله وغمص[1] إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه، وهذا يعم الحال المرضية والقبيحة، فكما تغير الحال المرضية الى المسخوطة كذلك تغير الحال المسخوطة الى ما هو أسوأ منها، هذا حاصل ما في الكشاف، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه والعمل به من شكرها وقبولها.

وجملة ﴿وان الله سميع عليم﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة معها في التعليل، أي ذلك بسبب ان الله لم يك مغيراً وبسبب ان الله سميع يسمع ما

(١) الغمص كفران النعمة إ. هـ منه.

يقولونه، وعليم يعلم ما يفعلونه.

ثم كرر ما تقدم فقال: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للاخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق، وقيل ان الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم، والثاني باعتبار ما فعل بهم وقيل المراد بالأول كفرهم بالله وبالثاني تكذيبهم الأنبياء، وقيل الاول اخبار عن عذاب لم يمكن الله أحداً من فعله وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم والثاني إخبار عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله وهو الإهلاك والاغراق، وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف.

وفي قوله: ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق والكلام في ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كالكلام المتقدم في ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ قيل المعنى أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ، فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف.

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أي قومه معه معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الاهلاك ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله بالظلم لغيرهم كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم وبالتكذيب لأنبيائهم، وجمع الضمير في ﴿كانوا﴾ وفي ظالمين مراعاة لمعنى ﴿كل﴾ لأن كلاً متى قطعت عن الاضافة جاز مراعاة لفظها تارة ومعناها أخرى، وانما اختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل ولو روعي اللفظ فقط فقيل وكل كان ظالما لم تتفق الفواصل، قاله السمين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ان شر الدواب عند الله الذين كفروا﴾ أي شر ما يدب على وجه الارض في حكم الله وقضائه المصرون على الكفر المتمادون في الضلال، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس ايماء إلى انسلاخهم عن الانسانية ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم، ومع ذلك هم شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ان هم إلا كالانعام بل هم أضل﴾ عن سعيد بن جبير قال: نزلت في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت ولهذا قال: ﴿فهم لا يؤمنون﴾ أي هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً ولا يرجعون عن الغواية أصلاً،

وهذا حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلاً. جيء به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا داخل معه في حيز الصلة التي لا حكم فيها بالفعل، قاله أبو السعود ﴿الذين عاهدت منهم﴾ أي أخذت منهم عهدهم ان لا يعينوا المشركين أي كفار مكة قيل من في ﴿منهم﴾ صلة أي عاهدتهم وقيل للتبعيض أي الذين عاهدتهم، وهم بعض أولئك الكفرة يعني الاشراف منهم.

﴿ثم ينقضون عهدهم﴾ الذي عاهدتهم، وعطف المستقبل على الماضي للدلالة على استمرار النقض منهم، وهؤلاء هم قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك ﴿في كل مرة﴾ من مرات المعاهدة فنقصوا وأعانوهم بالسلاح وقالوا نسينا العهد ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوا الكفار عليه يوم الخندق ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم ﴿لا يتقون﴾ الله في النقض والغدر، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم فقال: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي فإما تصادفنهم في ثقاف وتلقاهم في حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم وتظفر بهم يقال ثقفت الشيء ثقفاً من باب تعب أخذته، وثقفت الرجل في الحرب أدركته وثقفته ظفرت به، وثقفت الحديث فهمته بسرعة والفاعل ثقيف وبه سمي حي من اليمن، والثقاف في أصل اللغة ما يشد به القناة ونحوها يقال فلان ثقف أي سريع الوجود لما يحاوله.

﴿فشرِّد بهم﴾ أي ففرق بقتلهم والتنكيل بهم والعقوبة لهم ﴿من خلفهم﴾ من المحاربين لك من أهل الشرك كفار مكة حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء أو يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن والتشريد التفريق مع الاضطراب والازعاج، وقال أبو عبيدة: شرد بهم سمّع بهم وقال الزجاج: افعل بهم فعلاً من القتل تفرق به من خلفهم، يقال شردت بني فلان قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها، ومنه شرد البعير إذا فارق صاحبه.

وقرأ ابن مسعود بالذال، قال قطرب: التشريذ هو التنكيل، وبالمهملة هو التفريق، وقال المهدوي: الذال المعجمة لا وجه لها ولا يعرف في اللغة ﴿لعلهم﴾ أي الذين خلفهم ﴿يذكرون﴾ أي يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك، قاله السدي.

﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ أي غشاً ونقضاً للعهد من القوم المعاهدين

بأمارة تلوح لك وهم قريظة والنضير ﴿فانبذ﴾ أي فاطرح ﴿إليهم﴾ العهد الذي بينك وبينهم، والنبذ الطرح، وهذا مجاز عن إعلامهم بأن لا عهد لهم بعد اليوم فشبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه، وأثبت النبذ له تخييلاً ومفعوله محذوف وهو عهدهم، قاله الشهاب.

﴿على سواء﴾ أي طريقة مستوية والمعنى أنه يخبرهم اخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة، وقيل معنى على سواء على وجه يستوي في العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم أو تستوي أنت وهم فيه لئلا يتهموك بالغدر، قال الكسائي: السواء العدل، وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه قوله: ﴿في سواء الجحيم﴾.

وقيل معنى على سواء على جهر لا على سر، والظاهر أن هذه الآية عامة في كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه، قال ابن عطية: والذي يظهر من ألفاظ القرآن ان أمر بني قريظة انقضى عند قوله: ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ ثم ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة ﴿ان الله لا يحب الخائنين﴾ تعليل لما قبلها يحتمل أن تكون تحذيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة.

﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ أي فاتوا عذابه وخلصوا ونجوا منه وانهزموا يوم بدر وأفلتوا من أن يظفر بهم، وعلى القراءة بالفوقية يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قراءة واضحة قاله أبو السعود، وقال الخفاجي: وهي ظاهرة، وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم ان قراءة من قرأ يحسبن بالتحتية لحن لا يحل القراءة بها لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول وهو يحتاج لمفعولين.

قال النحاس: وهذا تحامل شديد، ومعنى هذه القراءة ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن قراءة التاء أبين، قال الخفاجي: وأما القراءة بالياء للغيبة فضعفها الزمخشري، وقال إنها غير نيرة، وقد ردوا عليه ذلك بوجهين:

الأول: ان حمزة وحفصاً وابن عامر وغيرهم قرأوا بها.

الثاني: أن قوله أنها غير نيرة ليس كما زعم فإنها أنور من الشمس في وسط النهار لأن فاعل يحسبن ضمير أي لا يحسبن هو أي قبيل المؤمنين أو الرسول أو الحاسب أو من خلفهم أو أحد لأنه معلوم من الكلام فلا يرد عليه أنه لم يسبق له ذكر، وأما حذف الفاعل فلا يخطر بالبال كما توهم، وعليه فمفعولاه ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ وقيل الفعل مسند إلى الذين كفروا، والمفعول الأول محذوف وسبقوا هو الثاني أي لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سابقين انتهى.

﴿إنهم لا يعجزون﴾ تعليل لما قبلها أي أنهم بهذا السبق لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم والانتقام منهم، وقيل المراد بهذه الآية من أفلت من وقعة بدر من المشركين والمعنى أنهم وان أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون بل هم واقعون في عذاب الله في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بعذاب النار، وفيه تسلية للنبي ﷺ فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمه الله أنهم لا يعجزونه[1].

---

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة» قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأفحش منه في غيره لما في ذلك من المفسدة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أمر سبحانه بإعداد القوة للاعداء الناقضي العهد كما يقتضيه السياق أو للكفار مطلقاً كما يقتضيه ما بعده، والاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه، ومن لبيان الجنس، والقوة كل ما يتقوى به في الحرب على العدو، ومن ذلك السلاح والقسيّ.

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي قالها ثلاث مرات»[١]، وقيل هي الحصون والمعاقل، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين.

وعن ابن عباس: القوة الرمي والسيوف والسلاح، وقال ابن الزبير: أمرهم بإعداد الخيل، وعن عكرمة قال: القوة ذكور الخيل والرباط الأناث، وعن مجاهد مثله، وعن ابن المسيب قال: القوة السهم إلى الفرس فما دونه، وقال عكرمة: الحصون وقيل كل ما هو آلة يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور بإعدادها، وقوله ﷺ ألا إن القوة الرمي لا ينفى كون غير الرمي ليس من القوة فهو كقوله: (الحج عرفة)[٢] وقوله: (الندم توبة)[٣] فهذا لا

(١) مسلم ١٩١٧.
(٢) صحيح الجامع الصغير ٣١٦٧.
(٣) الإمام احمد ١/٣٧٦.

ينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله، فكذا هنا بحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية، كل ذلك مأمور به لأنه من فروض الكفايات.

﴿ومن رباط الخيل﴾ قال أبو حاتم: الرباط من الخيل الخمس فما فوقها وهي الخيل التي ترتبط بإزاء العدو، قال في الكشاف: الرباط اسم للخيل التي ترتبط في سبيل الله، ويجوز أن تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال اهـ والرباط ما تربط به القربة وغيرها والجمع ربط مثل كتاب وكتب ويقال للمصاب ربط الله على قلبه بالصبر كما يقال أفرغ الله عليه الصبر أي ألهمه، والرباط الذي يبنى للفقراء مولد ويجمع في القياس على ربط بضمتين ورباطات والمرابطة إقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها.

وربط الخيل للجهاد من أعظم ما يستعان به، قال ابن محيريز: كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشتات والغارات، وقيل ربط الفحول أولى من الإناث لأنها أقوى على الكر والفر والعدو، وقيل لفظ الخيل عام يتناول الفحول والإناث فأي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله.

ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام، وقد ورد في استحباب الرمي وما فيه من الأجر، واستحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث كثيرة لا يسع المقام بسطها وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات.

﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ الترهيب التخويف والضمير في به راجع

إلى ما في ما استطعتم أو إلى المصدر المفهوم من ﴿وأعدوا﴾ وهو الإعداد فقوله ترهبون إما حال من فاعل ﴿أعدوا﴾ أو من مفعوله أي حصلوا لهم هذا حال كونكم مرهبين أو أعدوه مرهباً به، وجاز نسبته لكل منهما لأن في الجملة ضميريهما، والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركي العرب.

﴿وآخرين من دونهم﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم ومعنى من دونهم من غيرهم، قيل هم اليهود، وقيل فارس والروم، وقيل المنافقون وفيه بعد، وقيل كفار الجن، قاله الحسن ورجحه ابن جرير الطبري وهو أبعد، وقيل المراد كل من لا تعرف عداوته، قاله السهيلي وقيل هم بنو قريظة خاصة، وقيل غير ذلك والأولى الوقف في تعيينهم لقوله.

﴿لا تعلمونهم﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم، ومن عينهم قال: أي لا تعلمون بواطنهم وما انطووا عليه من النفاق، والعلم فيه قولان.

احدهما: أنه متعدّ لواحد لأنه بمعنى المعرفة ولذلك تعدى لواحد.

والثاني: أنه على بابه فيتعدى لاثنين والثاني محذوف أي لا تعلمونهم فازعين أو محاربين.

وهذان القولان لا يجوز أن يجريا في قوله: ﴿الله يعلمهم﴾ بل يجب أن

يقال إنه المتعدي إلى اثنين وأن ثانيهما محذوف للفرق بين العلم والمعرفة بوجوه (منها) أن المعرفة تستدعي سبق جهل ومنها أن متعلقها الذوات دون النسب، وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يطلق الوصف بالمعرفة على الله تعالى، وهذا لا يرد لأنه ليس في الآية اطلاق اسم العارف عليه، وإنما فيها اطلاق

اسم العلم وان كان بمعنى العرفان(١).

﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ أي في الجهاد وان كان يسيراً حقيراً، وقيل هو أمر عام في كل وجوه الخيرات والطاعات ويدخل فيه نفقة الغزو، دخولاً أولياً ﴿يوف إليكم﴾ أجره وجزاؤه في الاخرة فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقاً، ويعجل لكم عوضه في الدنيا ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله أي من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافياً وافراً كاملاً وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾.

والتعبير عنه بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة الثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى.

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ أي إن مالوا إلى المصالحة فاقبل منهم الصلح ومل الى المصالحة، والجنوح الميل، يقال جنح الرجل إلى الرجل مال اليه ومنه قيل للأضالع الجوانح لأنها مالت الى الحشوة، وجنحت الإبل إذا مالت أعناقها في السير، ويقال جنح الليل أقبل.

قال النضر بن شميل: جنح الرجل الى فلان ولفلان اذا خضع له، والجنوح الاتباع أيضاً لتضمنه الميل والجناح من ذلك لميلانه الى الطائر، والسلم

---

(١) ذكره ابن كثير في « تفسيره » ٢/٣٢٢ من رواية ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد الله ابن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ﴾ قال: « هم الجن » ثم قال: ورواه الطبراني عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد: قال رسول الله ﷺ: « لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل » وقال: وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه.

الصلح، قرىء بالكسر والفتح وهما قراءتان سبعيتان، وقرىء فاجنح بضم النون وبالفتح والأولى لغة قيس والثانية لغة تميم قال ابن جني: ولغة قيس هي القياس، والسلم يذكر ويؤنث كما يؤنث الحرب إذ هي مؤولة بالخصلة أو الفعلة.

وعن مجاهد قال: وان جنحوا يعني قريظة وعن ابن عباس قال: السلم الطاعة.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة، فقيل هي منسوخة بقوله: ﴿فاقتلوا المشركين﴾ قاله ابن عباس. وقيل ليست بمنسوخة لأن المراد بها قبول الجزية وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم فتكون خاصة بأهل الكتاب، قاله مجاهد وقيل إن المشركين إن دعوا الى الصلح جاز أن يجابوا اليه.

وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾ وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك، فإنه جائز كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من مهادنة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك، وهذا كله مبني على أن المراد بالصلح هو عقد الجزية، أما لو أريد غيره من العقود التي تفيدهم الامن وهي الهدنة والامان فلا نسخ مطلقاً إذ يصح عقدهما لكل كافر، وكلام أهل العلم في هذه المسألة معروف مقرر في مواطنه.

﴿وتوكل على الله﴾ في جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم وفوض أمرك اليه فيما عقدته معهم ليكون ذلك عوناً لك في جميع أحوالك ﴿إنه﴾ سبحانه ﴿هو السميع﴾ لما يقولون ﴿العليم﴾ بما يفعلون.

وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ﴾ بالصلح وهم مضمرون الغدر والخدع وجواب الشرط محذوف أي فصالحهم ولا تخش منهم ﴿ فإن ﴾ أي لأن ﴿ حسبك الله ﴾ أي كافيك بنصره ومعونته ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر ودفع خديعتهم .

﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ تعليلية أي لا تخف من خدعهم ومكرهم، فإن الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى وهو يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث، والمراد بالمؤمنين المهاجرون والانصار.

فإن قلت: إذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة إلى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين؟ قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة، وبأسباب ظاهرة معلومة، فأما الذي يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله: ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ لان أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذي يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله: ﴿وبالمؤمنين﴾ لأن أسبابه ظاهرة بوسائط معلومة وهم المؤمنون، والله تعالى هو مسبب الاسباب، وهو الذي أقامهم لنصره.

ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: ﴿وألّف بين قلوبهم﴾ وظاهره العموم وان ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله.

وقال جمهور المفسرين: المراد الاوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة وأنفة عظيمة وانطواء على الضغينة من أدنى شيء وحروب عظيمة وفتن

من منذ مائة وعشرين سنة، لا يكاد يأتلف منهم قلبان، فألف الله بين قلوبهم بالايمان برسول الله ﷺ وانقلبت تلك الحالة واستجمعت كلمتهم، وزالت حمية الجاهلية، وأبدلت تلك الضغائن بالمحبة لله وفي الله، واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصاراً لرسول الله ﷺ وأعواناً يقاتلون عنه ويحمونه، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، وصار ذلك معجزة لرسول الله ﷺ ظاهرة باهرة دالة على صدقه.

وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والانصار، والحمل على العموم أولى، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضاً ولا يحترم ماله ولا دمه حتى جاء الاسلام فصاروا يداً واحدة، وذهب ما كان بينهم من العصبية والأنفة والحمية الجاهلية.

﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم﴾ مقررة لمضمون ما قبلها، والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ الى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له طلبه من التأليف لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جداً.

﴿ولكنّ الله ألّف بينهم﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه، وفيه دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء ﴿إنه عزيز﴾ لا يغالبه مغالب ولا يستعصي عليه أمر من الأمور ﴿حكيم﴾ في تدبيره ونفوذ أمره ونهيه.

وعن ابن مسعود قال: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله، وهذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ وفيه رد على الرافضة حيث اعتقدوا في الصحابة ما يخالف تأليف الله تعالى بينهم، وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا الله أنا الله وحدي لا شريك لي محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي[1] وذلك قوله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين والله أعلم.

(١) من أين جاء هذا لابي هريرة وهو غيب؟ هذا لا يصح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾

﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ في كل شيء وعند كل مهم، ليس هذا تكريراً لما قبله فإن الأول مقيد بإرادة الخدع وان يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله فتلك كفاية خاصة، وفي هذه كفاية عامة غير مقيدة، أي حسبك الله في كل حال فيما بينك وبين الكفرة من الحراب.

والواو في قوله: ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الجليل والعلم الشريف على انه في محل الرفع، والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون أي كافيك الله وكافيك المؤمنون.

قال علي المهايمي في تفسيره تبصير الرحمن: حسبك الله وان لم يكن معك أحد وان نظرت الى السببية حسبك من اتبعك من المؤمنين وان لم يألفهم من لم يتم اتباعهم لك فإن لمتابعتك أثراً عظيماً في سببية النصر انتهى. وقال أبو السعود والقاضي: الجملة في محل النصب على انه مفعول معه أي كفاك وكفى اتباعك الله ناصراً كقوله:

اذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك عضب مهند

انتهى.

واختاره النحاس، وقال الفراء: انه يقدر نصبه على موضع الكاف واختاره ابن عطية ورده السفاقسي بأن اضافته حقيقية لا لفظية فلا محل له اللهم إلا أن يكون من عطف التوهم وكونه مفعولاً معه، ذكره الزجاج.

وقال أبو حيان: انه مخالف لكلام سيبويه فإنه جعل زيداً في قولهم حسبك وزيداً درهم منصوباً بفعل مقدر أي وكفى زيداً درهم وهو من عطف الجمل عنده لا يضرنا، وذكره الفراء في تفسيره، وقيل في محل الجر عطفاً على الضمير أي اسم الله تعالى أي كافيك وكافي المؤمنين الله لان عطف الظاهر على

المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع عند البصريين كما تقرر في علم النحو، وأجازه الكوفيون وحجة المانعين انه كجزء الكلمة فلا يعطف عليه.

قال الفراء: ليس بكثير في كلامهم أن تقول حسبك وأخيك بل المستعمل أن تقول حسبك وحسب أخيك بإعادة الجار، فلو كان قوله: ﴿ومن اتبعك﴾ مجروراً لقيل حسبك الله وحسب من اتبعك، وبه قال الشعبي.

وقال شيخ الاسلام احمد بن تيمية رضي الله عنه: أي وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين اتبعوك، ومن قال ان المعنى ان الله والمؤمنين حسبك فقد ضل بل قوله من جنس الكفر، فإن الله وحده هو حسب كل عبد مؤمن، والحسب الكافي كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ وقال تعالى ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ ولم يقل ورسوله وقالوا إنا الى الله راغبون ولم يقل هنا والى رسوله اهـ.

وضعف في الهدي النبوي رفعه عطفاً على اسم الله وقال انما هو عطف على الكاف فإن المعنى عليه، قال الخفاجي: ولا وجه له فإن الفراء والكسائي رجحاه وما قبله وما بعده يؤيده اهـ. قلت وليس كما ينبغي فتأمل.

وقيل يجوز أن يكون التقدير ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر. وعبارة البغوي في المعالم، اختلفوا في محل ﴿من﴾ فقال أكثر المفسرين محله خفض عطفاً على الكاف في قوله حسبك معناه حسبك الله وحسب من اتبعك اهـ.

قال الزهري: نزلت في الأنصار، وقيل في جميع المهاجرين والأنصار، وقال سعيد بن جبير: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت هذه الآية، وعن ابن عباس نحوه.

قال الشيخ معين الدين في جامع البيان: اعترض عليه بأن الانفال كلها مدنية واسلام عمر قبل الهجرة فلا يصح هذا اهـ. لكن قال الخازن وسليمان الجمل إن هذه الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ، وقيل نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾ أي حثهم وحضهم، والتحريض في اللغة المبالغة في الحث على الشيء بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه كأنه في الأصل ازالة الحرض وهو الهلاك وهو كالتحضيض مأخوذ من الحرض وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه الى الهلاك لو تخلف عن المأمور به.

ثم بشرهم تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم بأن الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار فقال: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ أي فيهم قوة وشجاعة فالمقاومة مدارها على العدد مع مراعاة المعنى لا على العدد وحده كما هو مقرر في الفروع، وفي البحر انظر الى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر وحذف نظيره من الثانية وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الأولى وهو غاية الفصاحة.

وقال الخفاجي: ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في جملتي التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه، ثم ختمت بقوله: ﴿والله مع الصابرين﴾ مبالغة في شدة المطلوبية ولم يأت في جملتي التخفيف بقيد الكفر اكتفاء بما قبله.

قلت هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك، وبقي عليه أنه ذكر في التخفيف باذن الله وهو قيد لهما، وقوله: ﴿والله مع الصابرين﴾ اشارة الى تأييدهم وأنهم منصورون حتماً لأن من كان الله معه لا يغلب، وبقي فيها لطائف فلله در التنزيل ما أحلى ماء فصاحته وأنضر رونق بلاغته.

ثم زاد هذا إيضاحاً مفيداً لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد بل هي جارية في كل عدد فقال: ﴿وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ وفي هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلاً كانوا أو كثيراً لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال.

وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين بل مثل نصفهم بل مثلهم، وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر عند اللقاء.

وقيل ان هذا الخبر الواقع في الآية هو في معنى الأمر كقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن، والمطلقات يتربصن﴾ فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن يثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم.

وفي الخطيب حاصل هذه العبارة المطولة أن الواحد يثبت للعشرة فما الفائدة في العدول الى تلك.

أجيب بأن هذا إيماء ورد على وفق الواقعة فكان رسول الله ﷺ يبعث السرايا، والغالب أن تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة، فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي ان هذا الغلب بسبب جهلهم بالله وباليوم

الآخر وعدم فقههم، وانهم يقاتلون على غير بصيرة، ولا يقاتلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون، وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان، وإثارة ثائرة البغي والعدوان، ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب.

ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ عن قتال عشرة أمثالكم، قرىء بضم الضاد وفتحها ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ منهم ﴿وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ فأوجب على الواحد أن يثبت لأثنين من الكفار.

قال سفيان وابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا ان كانا رجلين أمرهما وان كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم، وقد قيل في نكتة التنصيص على غلب المائة للمائتين والألف للألفين أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الاسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف.

ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو ﴿باذن الله﴾ وتسهيله وتيسيره وإرادته لا بقوتهم وجلادتهم، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين فقال: ﴿والله مع الصابرين﴾ بعونه، وفيه الترغيب الى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد ان يغلبه.

وعن النصر باذى: ان هذا التخفيف كان للأمة دون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يقول بك أصول وبك أجول، ومن كان كذا لا يثقل عليه شيء حتى يخفف، وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ولا يتعلق بذلك كثير فائدة.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

﴿ما كان﴾ أي ما صح وما استقام ﴿لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ هذا حكم آخر من أحكام الجهاد، والأسرى جمع أسير مثل قتلى وقتيل وجرحى وجريح، ويقال في جمع أسير أسارى وهو مأخوذ من الإسار وهو القيد لأنهم كانوا يشدون به الأسير فسمي كل أخيذ وان لم يشد بالقيد أسيراً.

وقال أبو عمرو بن العلاء الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً، والاثخان كثرة القتل والمبالغة فيه تقول العرب أثخن فلان في هذا الأمر أي بالغ فيه فالمعنى ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يبالغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك، وقيل معنى الاثخان التمكن وقيل هو القوة، وقيل الثخانة هي الغلظة والصلابة فاستعمل هنا في لازم المعنى الأصلي وهو القوة اللازمة وأثخن في الأرض إثخاناً سار الى العدو وأوسعهم قتلاً وأثخنته أوهنته بالجراحة وأضعفته.

وعن ابن عباس: حتى يثخن حتى يظهر على الأرض، وعن مجاهد قال: الاثخان هو القتل أخبر الله سبحانه ان قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله في ذلك فقال فإما مناً بعد وإما فداء كما يأتي في سورة القتال.

قال الرازي: ان هذا الكلام يوهم أن قوله فإما مناً بعد وإما فداء يزيل

حكم الآية التي نحن في تفسيرها، وليس الأمر كذلك لأن كلتا الآيتين متوافقتان، وكلتاهما تدلان على أنه لا بد من تقديم الاثخان ثم بعده أخذ الفداء انتهى.

وقال غيره: لا تظهر دعوى النسخ من أصلها إذ النهي الضمني كما هنا مقيد بالاثخان أي كثرة القتال اللازمة لها قوة الاسلام وعزته، وما في سورة القتال من التخيير محله بعد ظهور شوكة الاسلام بكثرة القتال، فلا تعارض بين الآيتين إذ ما هناك بيان للغاية التي هنا.

﴿تريدون عرض الدنيا﴾ الخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بعرض الدنيا نفعها ومتاعها بما قبضوا من الفداء، وسمى عرضاً لأنه سريع الزوال كما تزول الاعراض التي هي مقابلة الجواهر، قال قتادة: أراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف درهم، وقيل كان الفداء لكل أسير أربعين أوقيه والأوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم، وعن عكرمة قال عرض الدنيا الخراج.

﴿والله يريد﴾ لكم الدار ﴿الاخرة﴾ بما يحصل لكم من الثواب في الاثخان بالقتل، والمراد بالارادة هنا الرضاء وعبر بها للمشاكلة فلا يرد أن الآية تدل على عدم وقوع مراد الله وهو خلاف مذهب أهل السنة، قاله الشهاب: ﴿والله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ في أفعاله، وقد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الانبياء واشتغل المفسرون برده وجوابه وما أقل فائدة ذلك(١).

﴿لولا كتاب﴾ أي حكم مكتوب ومثبت في اللوح المحفوظ ﴿من الله سبق﴾ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو على أقوال:

الأول: أنه ما سبق في علم الله من أنه سيحصل لهذه الأمة الغنائم والأسرى بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم.

---

(١) سبق لنا تعليق في هذا الموضوع ص ٣٦١ ج٢.

والثاني: أنه مغفرة الله لاهل بدر ما تقدم من ذنـوبهم وما تأخر كما في الحديث الصحيح «ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١].

القول الثالث: هو أنه لا يعذبهم ورسول الله فيهم كما قال تعالى ﴿وما كانَ الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾.

القول الرابع: أنه لا يعذب أحداً بذنب فعله جاهلاً لكونه ذنباً.

القول الخامس: انه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

القول السادس: انه لا يعذب أحداً الا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي ولم يتقدم نهي عن ذلك، وذهب ابن جرير الطبري الى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ وانه يعمها.

﴿لمسكم﴾ أي لحل بكم ﴿فيما﴾ أي لأجل ما ﴿أخذتم﴾ من الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ وهذا عتاب له صلى الله عليه وسلم على ترك الأولى اذ كان الأولى له تدارك كثرة القتل فيهم لا الفداء وليس عتاباً على فعل محرم تنزيهاً لمنصب النبوة عن ذلك.

وقد أخرج أحمد عن أنس قال: استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأسارى يوم بدر فقال: «ان الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم عاد فقال: مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق فقال: نرى ان تعفو عنهم وان تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الآيـة»، وفي الباب روايات كثيرة بطرق عديدة بألفاظ مختلفة[٢].

---

(١) مسلم ٢٤٩٤ ـ البخاري /١٤٢٩.
(٢) الإمام احمد ٢٤٣/٣.

وفي بعضها عند أحمد والترمذي وحسنه عن ابن مسعود فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿من تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم﴾ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام اذ قال: ﴿ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم﴾ ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام اذ قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام اذ قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ الحديث[1].

روي انهم أمسكوا عن الغنائم فنزل ﴿فكلوا﴾ فالفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أي قد أبحت لكم الغنائم فكلوا ﴿مما غنمتم﴾ أو المعنى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره، وقيل ان «ما» عبارة عن الفداء أي كلوا من الفداء الذي غنمتم فانه من جملة الغنائم التي أحلها الله لكم أكلاً، ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه.

﴿حلالاً طيباً﴾ أي أكلاً حلالاً أو النصب على الحال، عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ولم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا وذلك بأن رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا[2] أخرجه البخاري ومسلم ﴿واتقوا الله﴾ فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأذن الله لكم به ﴿ان الله غفور﴾ لما فرط منكم ﴿رحيم﴾ بكم فلذلك رخص لكم في اخذ الفداء في مستقبل الزمان.

---

(١) مسند الإمام احمد ١/٣٨٣.

(٢) البخاري كتاب الخمس باب ٨.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

﴿يا أيها النبي﴾ خاطب الله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أي ﴿قل لمن﴾ أي لهؤلاء الذين ﴿في أيديكم من الأسرى﴾ أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء ﴿ان يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ من حسن ايمان وصلاح نية وخلوص طوية ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ من الفداء أي يعوضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه وأنفع لكم، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم ﴿والله غفور رحيم﴾ شأنه المغفرة لعباده والرحمة بهم.

وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص[١] وبعثت فيه بقلادة، فلما رآها رسول الله ﷺ رق رقة شديدة وقال ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها[٢].

وقال العباس[٣] اني كنت مسلماً يا رسول الله قال: الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحرث وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه ونزلت ﴿قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ الآية[٤]، الحديث مختصراً والروايات

---

(١) زوجها.

(٢) المستدرك كتاب زينب بنت خديجة ٤/ ٤٥.

(٣) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر اسلامه.

(٤) الإمام احمد ١/ ٣٥٣.

في هذا الباب كثيرة[١].

قال العباس: فأبدلني الله خيراً مما أخذ مني، عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أوقية، وأعطاني زمزم وأنا أنتظر المغفرة.

ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه خيراً ذكر من هو على ضد ذلك منهم فقال: ﴿وان يريدوا خيانتك﴾ بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة، بل هو مماكرة ومخادعة فليس ذلك بمستبعد منهم فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي من قبل أن يظفر بهم فكفروا به وقاتلوا رسوله ﴿فأمكن منهم﴾ بأن نصرك عليهم في يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت ﴿والله عليم﴾ بما في ضمائرهم ﴿حكيم﴾ في أفعاله بهم.

(١) قال مقاتل: إن الله غفور لما أخذتم من الغنيمة قبل حلها، رحيم بكم إذ أحلها لكم. فجعل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت يوم بدر على القبض، وقسمها النبي ﷺ بالمدينة، وانطلق بالأسارى، فيهم العباس، وعقيل، ونوفل بن الحارث ابن عبد المطلب. وكان مع العباس يومئذ عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدائه، وكلف أن يفدي ابني أخيه، فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب. وقال النبي ﷺ: «أضعفوا على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية، وكان فداء كل أسير أربعين أوقية. فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني ما حييت أسأل قريشاً بكفي. فقال له: «أين الذهب الذي تركته عند أم الفضل»؟ فقال: أي الذهب؟ فقال: «إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فان حدث بي حدث، فهو لك ولولدك» فقال: ابن أخي، من أخبرك؟ فقال: «الله أخبرني»، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم؛ وأمر ابني أخيه فأسلما. وفيهم نزلت: ﴿قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ الآية.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾

﴿ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به، وسمى سبحانه المهاجرين الى المدينة بهذا الاسم لانهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلباً لما عند الله واجابة لداعيه، وسبقوا للهجرة بأن هاجروا قبل العام السادس عام الحديبية بدليل قوله فيما يأتي ﴿والذين آمنوا من بعد﴾ بأن هاجروا بعد عام الحديبية وقبل الفتح.

﴿والذين آووا﴾ هم الأنصار آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴿ونصروا﴾ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاشارة بقوله ﴿أولئك﴾ الى الموصول الأول والآخر وخبره الجملة المذكورة بعده ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في النصرة والمعونة، وقيل في الميراث وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض.

﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ من مكة بل أقاموا بها ﴿مالكم من ولايتهم﴾ بفتح الواو وكسرها أي من نصرتهم وإعانتهم أو من ميراثهم ﴿من شيء﴾ ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم فلا ارث بينكم وبينهم

﴿حتى يهاجروا﴾ الى المدينة فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الايمان والهجرة.

﴿وان استنصروكم في الدين﴾ أي هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿فعليكم﴾ أي فواجب عليكم ﴿النصر﴾ قال الزجاج: ويجوز النصر بالنصب على الاغراء أثبت للقسمين الأوّلين النصرة والارث ونفى عن هذا القسم الارث وأثبت له النصرة.

﴿إلا﴾ أن يستنصروكم ﴿على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ عهد فلا تنصرونهم عليهم ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضي مدته وهي عشر سنين ﴿والله بما تعملون بصير﴾ تحذير عن تعدي حد الشرع الشريف.

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ أي بعضهم ينصر بعضاً ويتولاه في أموره أو يرثه إذا مات، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجاب المباعدة والمصارمة وان كانوا أقارب.

﴿إلا تفعلوه﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور وترك موالاة الكافرين ﴿تكن﴾ أي تقع ﴿فتنة في الأرض﴾ إن لم تفعلوا ذلك وهي قوة الكفار ﴿وفساد كبير﴾ أي مفسدة كبيرة في الدين والدنيا وهو ضعف المسلمين.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

ثم بين سبحانه حكماً آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر اليهم ونصروهم وهم الأنصار فقال: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي صدقاً من غير ريب دون من آمن وسكن دار الشرك، وفي الحديث المتفق على صحته بل المتواتر «المرء مع من أحب»[1] ونصب حقاً على المصدر المؤكد أو تقديره إيماناً حقاً، قاله في جامع البيان.

وقال أبو السعود: كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم اهـ. والحاصل انهم هم الكاملون في الايمان لأنهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الاهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة.

ثم أخبر سبحانه أن ﴿لهم﴾ منه ﴿مغفرة﴾ لذنوبهم في الآخرة ﴿و﴾ لهم في الدنيا ﴿رزق كريم﴾ خالص عن الكدر طيب مستلذ لا تبعة له ولا منة فيه.

ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسيمتهم فقال:

(١) مسلم ٢٦٤٠ ـ البخاري ٢٣٥٧.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم﴾ اختلف في قوله: ﴿من بعد﴾ فقيل من بعد الحديبية وبيعة الرضوان.

قال القرطبي: وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة الأولى، والهجرة الثانية هي التي وقع فيها الصلح ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة اهـ. وقيل بعد نزول هذه الآية، وقيل من بعد غزوة بدر، وقال الخازن: الأصح أن المراد بهم أهل الهجرة الثانية لانها بعد الهجرة الأولى لأن الهجرة قد انقطعت بعد فتح مكة لانها صارت دار الاسلام بعد الفتح.

﴿فأولئك منكم﴾ أي مثلكم في استحقاق ما استحقيتموه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، لكن فيه دليل على أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لأن الله تعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم معهم، وذلك معرض المدح والشرف، ولولا أن الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق.

قال في الجمل: ولم ينبهوا هنا على حكم التوارث بالهجرة الثانية هل هو ثابت كما في الهجرة الأولى أو غير ثابت لانحطاط رتبة أهل الهجرة الثانية عن رتبة أهل الهجرة الأولى إلا ما رأيته في الخطيب ونصه فأولئك منكم أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار فلهم مالكم وعليهم ما عليكم من المواريث والغنائم وغيرهما ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ بين سبحانه بأن ذوي القرابات بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث فيتناول كل قرابة، وقيل المراد بهم هنا العصبات قالوا: ومنه قول العرب وصلتك رحم فانهم لا يريدون قرابة الأم، ولا يخفاك أنه ليس في هذا ما يمنع من اطلاقه على غير العصبات.

وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوي الأرحام وهم من ليس بعصبة ولا ذوي سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث، واليه ذهب أصحاب أبي حنيفة والخلاف في ذلك معروف مقرر في مواطنه.

وقد قيل ان هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ وما بعده بالتوارث وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الاية اخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض ﴿في كتاب الله﴾ أي في حكم الله أو في اللوح المحفوظ أو في القرآن وهو أن قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن، وكذا إعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقي للعصبات، وبهذا أجاب الشافعي أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، ويدخل في هذه الأولوية الميراث دخولاً أولياً لوجود سببه. أعني القرابة.

﴿ان الله بكل شيء عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء كائناً ما كان ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات من التوارث بمقتضى الايمان والهجرة ولو بدون قرابة الذي قد نسخ، والتوارث بمقتضى القرابة ولو بدون مشاركة في الهجرة أو النصرة والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

---

(١) ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الخال وارث». ورروي عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ميراث العمة والخالة فقال: «لا أدري حتى يأتيني جبريل» ثم قال: «أين السائل عن ميراث العمة والخالة»؟ قال: فأتى الرجل فقال: «ساررني جبريل أنه لا شيء لهما». قال الدارقطني: لم يسنده غير مسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف، والصواب مرسل. ورُوي عن الشعبي قال قال زياد بن أبي سفيان لجليسه: هل تدري كيف قضى عمر في العمة والخالة؟ قال لا. قال: إني لأعلم خلق الله كيف قضى فيهما عمر، جعل الخالة بمنزلة الأم، والعمة بمنزلة الأب.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة براءة

هي مائة وثلاثون آية، وقيل مائة وسبع وعشرون آية، ولها أسماء منها سورة التوبة لان فيها ذكر التوبة على المؤمنين، وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب أهـ وتسمى الفاضحة لانه ما زال ينزل فيها ﴿ ومنهم ومنهم ﴾ حتى كادت أن لا تدع أحدا، وتسمى البحوث لانها تبحث عن أسرار المنافقين وتسمى المبعثرة والبعثرة البحث، وتسمى أيضا بأسماء أخر كالمقشقشة لانها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه، والمخزية لكونها أخزت المنافقين والمثيرة لانها تثير أسرارهم، والحافرة لكونها تحفر عنها، والمنكلة لما فيها من التنكيل لهم والمدمدمة لانها تدمدم عليهم أي تهلكهم، قال الخفاجي: وأسماؤها كلها بصيغة الفاعل الا البحوث بفتح الباء فانه صيغة مبالغة بمعنى اسم الفاعل أهـ.

قلت: والا البراءة والتوبة وسورة العذاب، وهي مدنية، قال القرطبي: باتفاق وعن ابن عباس قال: نزلت بعد فتح مكة، وعنه قال نزلت بالمدينة، وعن ابن الزبير وقتادة نحوه، وعن البراء قال: آخر سورة نزلت تامة براءة، رواه البخاري.

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أولها على أقوال منها ما روي عن المبرد وغيره انه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد فاذا أرادوا نقضه كتبوا اليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسمله، فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين بعث بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب في نقض العهد من ترك التسمية.

وعن علي قال: البسملة أمان، وبراءة نزلت بالسيف، أشار إلى وجه ترك كتابة البسملة في هذه السورة والتلفظ بها دون غيرها، قال الخفاجي: وللسلف فيه أقوال ثلاثة أصحها هذا اهـ.

قلت: وروي نحوه عن سفيان بن عيينة، وروي عن مالك بن أنس وابن عجلان وابن جبير أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريباً منها وانه لما سقط أولها سقطت البسملة.

ومن جملة الأقوال في سقوطها أنهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلفت الصحابة، فقال بعضهم براءة والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت البسملة لقول من قال هما سورة واحدة فرضي الفريقان معاً، قاله خارجة وأبو عصمة وغيرهما وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر لأنهما جميعاً نزلتا في القتال ومجموعهما مائتان وخمس آيات ويعدان جميعاً سابعة السبع الطوال.

ومنها ما قال السيوطي: انه لم تكتب فيها البسملة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم. اهـ.

وعن عثمان: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، أخرجه الترمذي وحسنه.

والصحيح أنها لم تكتب لأن جبريل ما نزل بها في هذه السورة، قاله القشيري قال أبو السعود: واشتهارها بهذه الأسماء يقضي بأنها سورة مستقلة وليست بعضاً من سورة الأنفال، وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها في رفع الأمان الذي يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعاً بوصف الرحمة، كما روي عن ابن عيينة رضي الله عنه: لا الاشتباه في استقلالها وعدمه، كما يحكى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم من الاختلاف في ذلك.

على أن ذلك ينزع إلى القول بأن التسمية ليست من القرآن، وإنما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية، وإن مناط إثباتها في المصاحف، وتركها إنما هو رأي من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف، ولا ريب في أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها، وأن لا مدخل لرأي أحد في الاثبات والترك، وانما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف ولا مرية في عدم نزولها ههنا، وإلا لامتنع أن يقع في الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو إما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا، لا سبيل الى الاول والا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثاني لان عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

﴿براءة﴾ أي هذه براءة وتنوينه للتفخيم، وقرىء بالنصب أي اسمعوا براءة قاله عيسى بن عمر، يقال: برئت من الشيء ابرأ براءة وأنا منه بريء إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه، وقيل معناها هنا التباعد مما تكره مجاورته ﴿من الله ورسوله﴾ من ابتدائية أي هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ عهدا مطلقاً أو دون أربعة أشهر أو فوقها، والعهد العقد الموثق باليمين، والخطاب للمسلمين ومن بيان للموصول وقد عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإذن من الله واتفاق من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

والمعنى الإخبار للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة. بسبب ما وقع من الكفار من النقض فصار النبذ اليهم بعهدهم واجباً على المعاهدين من المسلمين ومعنى براءة الله سبحانه وقوع الاذن منه سبحانه بالنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقض منهم، وفي ذلك من التفخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذل والهوان ما لا يخفى.

﴿فسيحوا﴾ أيها المشركون ﴿في الأرض أربعة أشهر﴾ أمر إباحة منه سبحانه بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة والسياحة السير، يقال ساح فلان في الأرض يسيح سيحاً وسياحة وسيوحاً وسيحاناً، ومنه سيح الخيل.

قال أبو السعود: السياحة والسيح الذهاب في الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشية كسيح الماء على موجب الطبيعة، ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ما ليس في سيروا ونظائره، وزيادة قوله: ﴿في الأرض﴾ لقصد التعميم لأقطارها من دار الاسلام وغيرها انتهى.

ومعنى الآية ان الله سبحانه بعد أن أذن بالنبذ الى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الأربعة الاشهر، وليس المراد من الامر بالسياحة تكليفهم بها، وهذا القول كناية عن عقد الأمان لهم أربعة أشهر بعد نقضهم العهد بصوره الثلاث، وانما اقتصر على الاربعة لقوة المسلمين اذ ذاك بخلاف صلح الحديبية فانه كان على عشر سنين لضعف المسلمين إذ ذاك.

قال محمد بن إسحاق وغيرهما: ان المشركين صنفان صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر، فأمهل تمام أربعة أشهر، والاخر كانت مدته أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يُقتل حيث يوجد إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان.

وابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر، فاما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوماً عشرون من ذي الحجة وشهر محرم.

وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد دون أربعة أشهر فتتم له الأربعة ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي أمر الله ان يتم له عهده بقوله: ﴿فاتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ كما سيأتي، ورجح هذا ابن جرير وغيره.

وعن الزهري قال: نزلت في شوال فهي أربعة أشهر شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، والقول الاول أصوب وعليه الاكثرون، وفي الباب أقوال.

وقيل المقصود من هذا التأجيل ان يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الاسلام أو القتل، فيصير هذا داعياً لهم إلى

الدخول في الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد، وقال ابن الانباري: التقدير قل لهم فسيحوا، وليس هذا من باب الأمر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الأمان وزوال الخوف يعني سيحوا في الأرض وأنتم آمنون من القتل والقتال.

وقد توهم بعضهم ان بعث علي بن أبي طالب بقراءة أول براءة عزل أبي بكر عن الامارة، وذلك جهل من هذا المتوهم والبحث مستوفى في موطنه.

﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي اعلموا أن هذا الامهال ليس لعجز ولكن لمصلحة ليثوب من تاب، وفي ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل افعلوا في هذه المدة كلما أمكنكم من إعداد الآلات والأدوات فانكم لا تفوتون الله ولا تغتروا بعقد الامان لكم ﴿وان الله مخزي الكافرين﴾ أي وهو مخزيكم ومذلكم ومهينكم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب والنار، وفي وضع الظاهر موضع المضمر اشارة إلى أن سبب هذا الاخزاء هو الكفر، ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولاً أولياً.

وأخرج الترمذي وحسنه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه علياً وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات فانطلقا وحجا فقام علي في أيام التشريق فنادى ان الله بريء من المشركين ورسوله فسيحوا في الارض أربعة أشهر، ولا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا مؤمن، فكان علي ينادي، فاذا أعيا قام أبو بكر ينادي بها[1] وفي الباب أحاديث في الصحيحين وغيرهما بألفاظ.

---

(١) المستدرك كتاب المغازي ٥٢/٣.

وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿وأذان من الله ورسوله﴾ الاذان بمعنى الايذان وهو الاعلام كما أن الامان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء، ومعنى ﴿الى الناس﴾ التعميم في هذا أي إنه ايذان من الله الى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الاعلام لجميع الناس، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة.

﴿يوم الحج الأكبر﴾ ظرف لقوله وأذان ووصفه بالاكبر لأنه يجتمع فيه الناس أو لكون معظم أفعال الحج فيه أو احترازاً عن العمرة فهي الحج الاصغر، لأن أعمالها أقل من أعمال الحج إذ يزيد عليها بأمور كالرمي والمبيت، فكان أكبر بهذا الاعتبار، وسمي يوم الحج لان أعمال الحج يتم فيه معظمها.

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية فذهب جمع منهم علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد إلى أنه يوم النحر، ورجحه ابن جرير، وذهب آخرون منهم عمر وابن عباس وطاووس إلى أنه يوم عرفة والاول أرجح لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر من بعثه لابلاغ هذا الى المشركين أن يبلغهم يوم النحر.

وأخرج الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي قال:

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر[1]. وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن عبدالله بن قرط قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر[2] وعن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: يوم الأضحى، هذا يوم الحج الأكبر[3]. أخرجه ابن مردويه.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال: أي يوم هذا؟ قالوا يوم النحر، قال: هذا يوم الحج الأكبر. أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجة وغيرهم[4].

ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الاكبر هي ثابتة في الصحيحين وغيرهما من طرق فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة، وقيل أيام منى كلها، وبه قال مجاهد وسفيان الثوري هو يوم النحر، وقيل اليوم الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبه قال ابن سيرين والاول أولى، وقيل القرآن. قاله مجاهد.

﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أي بأن الله بريء ورسوله بريء منهم، وقرىء ورسوله بالجر على أن الواو للقسم وهي ضعيفة جداً، وقرىء شاذاً أيضاً بالنصب على أنه مفعول معه، قاله الزمخشري، والرفع قراءة الجمهور باتفاق السبعة.

﴿فإن تبتم﴾ من الكفر، وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب، وقيل

(١) الترمذي كتاب التفسير ٩/٤.
(٢) المستدرك كتاب الأضاحي ٤/٢٢١.
(٣) ابو داوود كتاب المناسك باب ٧١.
(٤) ابو داوود كتاب المناسك باب ٦٦.

فائدة هذا الالتفات زيادة التهديد ﴿فهو﴾ أي المتاب أو التوب أو التوبة ﴿خير لكم﴾ أي: أخير وأحسن من بقائكم على الكفر الذي هو خير في زعمكم، أو التفضيل ليس على بابه، والمعنى: هو خير لا شر، وفيه ترغيب في التوبة والإقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار.

﴿وإن توليتم﴾ أي أعرضتم عن التوبة وبقيتم على الكفر ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي غير فائتين عليه، بل هو مدرككم فمجازيكم بأعمالكم، وفيه وعيد عظيم وتهديد شديد ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ عبر عن الاخبار بالبشارة تهكماً بهم وفيه من التهديد ما لا يخفى.

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ قال ابن عباس: هم قريش، وقال قتادة: هم مشركو قريش الذين عاهدهم نبي الله زمن الحديبية، وقيل هم بنو ضمرة حي من كنانة، وعن محمد بن عبادة هم بنو جذيمة بن عامر من بني بكر ابن كنانة.

قال أبو السعود ﴿إلا الذين﴾ الخ استدراك من النبذ السابق الذي أخر فيه القتال أربعة أشهر، كأنه قيل لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر، لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم، ولا يضر في ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ الخ لأنه ليس بأجنبي بالكلية، بل هو أمر بإعلام تلك البراءة، كأنه قيل وأعلموها.

وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول، ويرده بقاء الثاني على العموم مع كونها عبارة عن فريق واحد، وجعله استثناء من الثاني يأباه بقاء الأول كذلك، وقيل هو استدراك من المقدر في ﴿فسيحوا﴾ أي قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم.

﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً﴾ من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط أي لم يقع منهم أي نقص وإن كان يسيراً، وقرأ عكرمة وعطاء ابن يسار بالضاد المعجمة أي لم ينقضوا عهدكم، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده ومنهم من ثبت عليه، فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ بنقض عهد من نقض، وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدته.

وقرأ الجمهور بالصاد المهملة، قال الكرماني: قراءة المعجمة مناسبة لذكر العهد فإن من نقض العهد فقد نقص من المدة إلا أن قراءة العامة أوقع لمقابلتها التمام، وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة.

﴿ولم يظاهروا﴾ المظاهرة المعاونة أي لم يعاونوا ﴿عليكم أحداً﴾ من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة في غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح ﴿فأتموا اليهم عهدهم﴾ أي أدوا اليهم عهدهم تاماً غير ناقص ﴿الى مدتهم﴾ التي عاهدتموهم اليها وان كانت أكثر من أربعة أشهر، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقاً وهي أربعة أشهر أو خمسون يوماً على الخلاف السابق.

﴿ان الله يحب المتقين﴾ الذين يتقون الله فيما حرم عليهم فيوفون بالعهد، قال السدي: فلم يعاهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الآيات أحداً.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ انسلاخ الشهر تكامله جزءاً فجزءاً الى أن ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال سلخت المرأة درعها نزعته، وفي التنزيل ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ قال الخفاجي: السلخ يستعمل تارة بمعنى الكشط، كسلخت الاهاب عن الشاة، أي نزعته عنها، وأخرى بمعنى الاخراج كسلخت الشاة عن الاهاب أي أخرجتها منه، فإطلاق الانسلاخ على الأشهر استعارة من المعنى الأول فإن الزمان ظرف محيط بالأشياء كالاهاب، والبيضاوي جعله من الثاني، كأنه لما انقضى أخرج من الأشياء الموجودة كذا قيل، ومثل انسلخ انجرد وسنة جرداء تامة اهـ.

واختلف العلماء في تعيين الاشهر الحرم المذكورة ههنا، فقيل هي الاشهر الحرم المعروفة التي هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد، ومعنى الآية على هذا وجوب الامساك عن قتال من لا عهد له من المشركين في هذه الاشهر الحرم.

وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الاشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة خمسين يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر، وروي عن ابن عباس واختاره ابن جرير.

وقيل المراد بها شهور العهد المشار اليها بقوله: ﴿فأتموا اليهم عهدهم الى

مدتهم﴾ وسميت حرماً لان الله سبحانه حرم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب، وقيل هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة ورجحه ابن كثير، وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله تعالى.

﴿فاقتلوا المشركين حيث﴾ أي في أي مكان وأي وقت ﴿وجدتموهم﴾ من حل أو حرم ﴿وخذوهم﴾ أي إئسروهم فإن الأخيذ هو الأسير ﴿واحصروهم﴾ أي احبسوهم في القلاع والحصون حتى يضطروا ويلجئوا الى القتل أو الإسلام، ومعنى الحصر منعهم من التصرف في بلاد المسلمين إلا بإذن منهم، وقيل امنعوهم من دخول مكة خاصة والأول أولى.

﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي طريق يسلكونه ونصب ﴿كل﴾ على نزع الخافض أي على كل طريق، والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو ويقعد، ويقال رصدت فلاناً أرصده أي رقبته، أي اقعدوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها لئلا ينتشروا في البلاد، والمعنى كونوا لهم رصداً حتى تأخذوهم من أي وجه توجهوا، وقيل بكل طريق مكة حتى لا يدخلوها.

وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته السنة وهو المرأة والصبي والعاجز الذي لا يقاتل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم.

وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على

أذاهم. وقال الضحاك وعطاء والسدي: هي منسوخة بقوله: ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ وان الأسير لا يقتل صبراً بل يمنّ عليه أو يفادى، وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله: ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ وانه لا يجوز في الأسارى من المشركين الا القتل، وقال ابن زيد: الآيتان محكمتان، قال القرطبي: وهو الصحيح لأن المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم من أول حرب حاربهم وهو يوم بدر، قال الرازي: كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على انه لا بد من تقديم الأثخان ثم بعده أخذ الفداء اهـ.

﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي تابوا عن الشرك الذي هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الاسلام وهو إقامة الصلاة وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها، واكتفى بالركن الاخر المالي، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات لانه أعظمها[1].

﴿فخلوا سبيلهم﴾ أي اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا تحصروهم ولا تقتلوهم ولا تمنعوهم من الدخول الى مكة والتصرف في بلادهم ولا تتعرضوا لهم ﴿ان الله غفور﴾ لهم ﴿رحيم﴾ بهم.

---

(١) ذكره القرطبي ٧٤/٨ : قوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال . وقال ابن عباس : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه . وقال ابن العربي .

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

﴿وان أحد﴾ مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لأن ﴿ان﴾ لا تدخل الا على الفعل ﴿من المشركين﴾ الناقضين للعهد الذين أمرت بالتعرض لهم في قوله ﴿فإذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾.

﴿استجارك﴾ استأمنك من القتل ﴿فأجره﴾ يقال استجرت فلاناً أي طلبت أن يكون جاراً أي محامياً ومحافظاً من أن يظلمني ظالم أو يتعرض لي متعرض، وفي القاموس جار واستجار طلب أن يجار وأجاره أنقذه واعاده، وفي المصباح استجاره طلب منه أن يحفظه فأجار والمعنى أمنه.

﴿حتى﴾ يصح أن تكون للغاية وللتعليل ﴿يسمع كلام الله﴾ منك ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة ما تدعو اليه، ويتحقق انه ليس من كلام الخلق، والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شيء آخر في الفهم لكونهم من أهل الفصاحة.

﴿ثم﴾ ان أراد الانصراف ولم يسلم ﴿أبلغه مأمنه﴾ أي الى الدار التي يأمن فيها وهو دار قومه لينظر في أمره ويعرف ما له من الثواب ان آمن، وما عليه من العقاب إن أصر على الشرك، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله من غير عذر ولا خيانة فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من اباحة دمه ووجوب قتله حيث يوجد.

عن سعيد بن أبي عروبة قال: كان الرجل يجيء اذا سمع كتاب الله وأقر به وأسلم فذاك الذي دعى اليه، وان أنكر ولم يقر به رد مأمنه ثم نسخ

ذلك فقال: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ وعن ابن زيد قال: ان لم يوافقه ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه، وهذا ليس بمنسوخ، قال الحسن: هذه الآيـة محكمة الى يوم القيامة.

﴿ذلك﴾ أي الامر بالاجارة وابلاغ المأمن ﴿بأنهم قوم لا يعلمون﴾ ما الايمان وما حقيقة ما تدعوهم اليه بسبب فقدانهم العلم النافع المميز بين الخير والشر في الحال والمآل، فلا بد لهم من أمان بقدر زمان يسمعون فيه القرآن ويتدبرون.

﴿كيف يكون للمشركين﴾ الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للانكار، ولهذا حسن بعده ﴿الا﴾ والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة هي في شأنهم ﴿عهد عند الله﴾ يأمنون به من عذابه ﴿وعند رسوله﴾ وقيل معنى الآيـة محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم مضمرون للغدر، فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به أنفسكم، والمعنى ليس لمن لم يف بعهد أن يفي الله ورسوله له بالعهد.

ثم استدرك فقال: ﴿الا الذين عاهدتم﴾ أي لكن الذين عاهدتم ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم، وقيل الاستثناء متصل، وفيه احتمالان.

(أحدهما) انه منصوب على أصل الاستثناء من المشركين.

(والثاني) انه مجرور على البدل منهم.

﴿عند المسجد الحرام﴾ أي عند قربه يوم الحديبية، قاله قتادة، والمراد به جميع الحرم كما هي عادته في القرآن الا ما استثنى ﴿فما استقاموا لكم﴾ أي فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم ولم ينقضوه، وفي ﴿ما﴾ وجهان أحدهما انها مصدرية زمانية والثاني انها شرطية ﴿فاستقيموا لهم﴾ على الوفاء به، قيل هم بنو بكر، وقيل بنو كنانة وبنو ضمرة وقال ابن عباس: هم قريش، وعن ابن زيد نحوه، وقال السـدي: هم بنو جذيمة، وقال مجاهد: هم أهل العهد من خزاعة.

كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

﴿ان الله يحب المتقين﴾ اشارة الى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين، فيكون تعليلاً للامر بالاستقامة، وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوا بإعانة بني بكر على خزاعة.

﴿كيف﴾ يكون لهم عهد وهو زيادة ترق في استبعاد بقاء عهد لهم، ولهذا أعاد الاستفهام التعجبي للتأكيد والتقرير ﴿و﴾ الحال انهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بالغلبة لكم ويظفروا بكم ﴿لا يرقبوا﴾ أي لا يراعوا أو لا يحفظوا أو لا ينتظروا فيكم ﴿إلا ولا ذمة﴾ قال في الصحاح: الإل العهد والقرابة، قال الزجاج: الإل عندي على ما يوجبه اللغة يدور على معنى الحدة، ومنه الإلة للحربة ومنه أذن مؤللة أي محددة، وقال الفراء: المراد به القرابة، وقيل ان الإل الجؤار وهو رفع الصوت عند التحالف، وذلك انهم كانوا إذا تحالفوا جأروا بذلك جؤاراً، ويجمع الإل في القلة على آل وفي الكثرة على إلال كقدح وقداح، والأل بالفتح قيل شدة القنوط، قال الهروي في الحديث «عجب ربكم من ألكم وقنوطكم».

وفي القاموس الإلّ بالكسر العهد والحلف وموضع، والجوار والقرابة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله تعالى، وكل اسم آخره ال أو إيل فمضاف الى الله تعالى، والوحي والأمان والجزع عند المصيبة ومنه ما روي عجب ربكم من إلّكم، فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح أكثر اهـ.

وقال ابن زيد والسدي وأبو عبيدة: الإلّ العهد وقيل الذمة والنديم، وقال الأزهري: هو اسم لله بالعبرانية وأصله من الاليل وهو البريق يقال أل

لونه يؤل ألاّ أي صفا ولمع، والذمة العهد وجمعها ذمم فمن فسر الاول بالعهد كان التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين، وقيل الذمة الضمان يقال هو في ذمتي أي في ضماني وبه سمي أهل الذمة لدخولهم في ضمان المسلمين، ويقال له ذمة وذمام ومذمة وهي الذم قاله ابن عرفة.

وقال الراغب: الذمام ما يذم الرجل على إضاعته من عهد، وكذلك الذمة والمذمة بالفتح والكسر وقيل لي مذمة فلا تهتكها، وقال غيره: سميت ذمة لأن كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم يقال لها ذمة، وقال أبو عبيدة والأزهري: الذمة الأمان كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم «ويسعى بذمتهم أدناهم» وروي عنه أيضاً ان الذمة ما يتذمم به أي ما يجتنب فيه الذم، وقال قتادة: الإل الحلف، وقال أبو مجلز: هو الله تعالى، وعن مجاهد وعكرمة مثله، وقال ابن عباس: الإل القرابة. والذمة العهد.

﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ أي يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم طلباً لمرضاتكم وتطييب قلوبكم، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين، والكلام مستأنف لبيان حالهم عند عدم الظفر فهو مقابل في المعنى لقوله: ﴿وان يظهروا عليكم﴾ الخ يقال أبى يأبى أي اشتد امتناعه فكل اباء امتناع من غير عكس، ولم يصب من فسره بمطلق الامتناع، ومجيء المضارع منه على يفعل بفتح العين شاذ، ومنه قلى يقلى في لغة قاله السمين، ثم حكم عليهم بالفسق فقال: ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ وهو التمرد والتجري والخروج عن الحق لنقضهم العهود وعدم مراعاتهم لها.

ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي
دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

ثم وصفهم بقوله: ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي استبدلوا بآيات القرآن التي من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمناً حقيراً، وهو ما آثروه من حطام الدنيا أي تركوا اتباعها للشهوات والهوى وكانت شهواتهم أكلة أطعمها أبو سفيان حملتهم على نقض العهد ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق، أو صرفوا الناس عنه، وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقوُّوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿انهم ساء ما كانـوا يعملون﴾ من الشرك ونقضهم العهد، ومنعهم الناس عن الدخول في دين الاسلام.

﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة﴾ قال النحاس: ليس هذا تكريراً، ولكن الأول لجميع المشركين، والثاني لليهود خاصة، والدليل على هذا اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً يعني اليهود، وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الاطلاق، وفي الأول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة، وقيل الأول وقع جوابا لقوله: ﴿وان يظهروا﴾ والثاني وقع خبراً عن تقبيح حالهم ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ أي المجاوزون للحلال الى الحرام بنقض العهد أو المبالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى.

﴿فإن تابوا﴾ عن الشرك وعن نقض العهد الى الوفاء به، قال قتادة:

يقول إن تركوا اللات والعزى وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي التزموا أحكام الاسلام المفروضة ﴿فاخوانكم﴾ أي فهم اخوانكم ﴿في الدين﴾ أي في دين الإسلام لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وكرره لاختلاف جزاء الشرط إذ جزاء الشرط في الاول تخلية سبيلهم في الدنيا، وفي الثاني أخوتهم لنا في الدين، وهي ليست عين تخليتهم بل سببها.

﴿ونفصل الآيات﴾ أي نبينها ونوضحها ﴿لقوم يعلمون﴾ بما فيها من الأحكام ويفهمونه، وخص أهل العلم لأنهم المنتفعون بها، والمراد بالآيات ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم، وعن ابن عباس قال: حرمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصلاة، وقال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له.

وقال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرق بينهما، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه، يريد ما قاله في حق من منع الزكاة والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما، يعني الصلاة والزكاة.

﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ مقابل قوله: ﴿فان تابوا﴾ والنكث النقض وأصله نقض الخيط بعد إبرامه ثم استعمل في كل نقض ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة ﴿من بعد عهدهم﴾ أي من بعد أن عاهدوهم والمعنى ان الكفار إن نكثوا العهود التي عاهدوا بها المسلمين ووثقوا لهم بها.

﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي وضموا إلى ذلك الطعن في دين الاسلام والقدح فيه، وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر، وأخرجوه من القول إلى الفعل حسبما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ وان يظهروا عليكم لا يرقبوا ﴾ الآية

وثبتوا على ما هم عليه من النكث لا انهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل ، وعطف طعنوا على ما قبله مع ان نقض العهد كاف في إباحة القتل لزيادة تحريض المؤمنين على قتالهم ، وقيل عطف تفسير .

﴿فقاتلوا﴾ أي فقد وجب على المسلمين قتالهم ﴿أئمة الكفر﴾ بهمزتين وبابدال الثانية ياء صريحة وفيه وضع الظاهر موضع المضمر، وهي جمع إمام، والمراد صناديد المشركين وأهل الرياسة فيهم على العموم، وعن قتادة: قال هم أبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل ابن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله وهموا باخراج الرسول من مكة، وعن مالك ابن أنس مثله، وقال ابن عباس: رؤوس قريش؛ وعن الحسن: انهم الديلم، وعن حذيفة قال: ما قوتل أهل هذه الآية، ولم يأت أهلها، وعن علي نحوه، وقال مجاهد: هم فارس والروم.

والأولى ان الآية عامة في كل رؤساء الكفر من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان في عهد أبي بكر الصديق الى الناس حين وجههم الى الشام أنه قال انكم ستجدون قوماً مجوفة رؤوسهم فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب الي من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾.

﴿انهم لا أيمان لهم﴾ قال الزمخشري هذه الجملة تعليل لما قبلها، والأيمان جمع يمين أي لا عهد لهم، وسمي العهد يميناً لاشتماله عليه غالباً، والمعنى لا أيمان بارة لهم وان وجدت صورة، ويمين الكافر شرعية عندنا والاستدلال به على ان يمين الكافر ليست يميناً ضعفه ظاهر، لأن المراد نفي الوثوق بقرينة ﴿وان نكثوا أيمانهم﴾ لا يقال الكلام باعتبار اعتقادهم، لأن المخاطب هم

المؤمنون، قال حذيفة: لا عهود لهم، وعن عمار مثله.

وقرىء بكسر الهمزة والمعنى ان هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين في الدين ليسوا من أهل الايمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدمائهم وأموالهم فقتالهم واجب على المسلمين، وقيل لا وفاء لهم بالعهود وقيل هو من الأمان أي لا يعطون أماناً بعد نكثهم وطعنهم، يعني لا تؤمنوهم بل اقتلوهم حيث وجدتموهم.

﴿لعلهم ينتهون﴾ عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الاسلام، والمعنى إن قتالهم يكون إلى غاية هي الانتهاء عن ذلك، وقد استدل بهذه الآية على ان الذمي إذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين أحدهما: نقض العهد والثاني: الطعن في الدين، وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنه إذا طعن في الدين قتل لأنه ينقض عهده بذلك قالوا وكذلك إذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين فانه يقتل[1].

(١) وقال سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى عليّ بن أبي طالب فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قتل!.
فقال عليّ بن أبي طالب: لا، لأن الله تبارك وتعالى يقول: «وإن أحدٌ من المشركين آستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله» وهذا هو الصحيح. والآية محكمة.

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحققه، والمعنى أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد فهو حقيق بأن لا يترك قتاله وان يوبخ من فرط في ذلك.

﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة لكن لم يخرجوه بل خرج باختياره بإذن الله له في الهجرة، وتقدم انهم هموا بأحد أمور ثلاثة، قتله وحبسه وإخراجه، وانما اقتصر هنا على الهم بالاخراج لأنه هو الذي وقع أثره في الخارج بحسب الظاهر، وكانت دار الندوة مكان اجتماع القوم للتحدث وكان قد بناها قصي وقد أدخلت الآن في المسجد فهي مقام الحنفي الآن.

﴿وهم بدؤوكم﴾ بالقتال ﴿أول مرة﴾ أي يوم بدر، قال مجاهد: قتال قريش حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وهمهم باخراج الرسول، زعموا أن ذلك عام عمرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العام التاسع للحديبية نكثت قريش العهد عهد الحديبية وجعلوا في أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوه منها فذلك همهم باخراجه فلم تتابعهم خزاعة على ذلك، فلما خرج النبي صلى

الله عليه وسلم من مكة قالت قريش لخزاعة: عميتمونا عن اخراجه فقاتلوهم فقتلوا منهم رجالاً.

﴿أتخشونهم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي أتخشون ان ينالكم منهم مكـروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه فقال: ﴿فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين﴾ أي هو أحق بالخشية منكم فانه هو الضار النافع في الحقيقة ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله، فان قضية الايمان توجب ذلك عليكم.

ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ ورتب على هذا الأمر فوائد:

الأولى: تعذيب الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والاسر.

والثانية: اخزاؤهم قيل بالاسر وقيل بما نزل بهم من الذل والهوان.

والثالثة: نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم.

والرابعة: أن الله يشفي بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره.

والخامسة: انه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر.

فإن قيل شفاء الصدور وإذهـاب غيظ القلوب كلاهمـا بمعنى فيكون تكراراً.

قيل في الجواب: إن القلب أخص من الصدر، وقيل: إن شفاء الصدور

إشارة الى الوعد بالفتح، ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيه شفاء للصدور، وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح، وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها.

عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وعن مجاهد والسدي وقتادة نحوه، وقد ساق القصة ابن إسحاق في سيرته وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم أوله.

يـا رب اني نـاشـد محمداً حلف أبينـا وأبيـه الأتـلدا

وأخرج القصة البيهقي في الدلائل ثم قال: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ وهو ابتداء كلام مستأنف يتضمن الإخبار بما سيكون، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح فإنهم أسلموا وحسن إسلامهم كأبي سفيان وعكرمة وسهيل ابن عمرو، فهؤلاء كانوا أئمة الكفر ثم منّ الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة.

فإن قيل[1] كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة؟ أجيب بأن القتال قد يكون سبباً لها اذا كانت من جهة الكفار، وأما إذا كانت من جهة المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سبباً لخلوص النية والتوبة عن الذنوب. ﴿والله عليم حكيم﴾.

(١) قوله فإن قيل الخ كذا في أصله ولعله مرتب على قراءة نصب يتوب كما يؤخذ من عبارة الكشاف. ١ هـ مصححه.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة والاستفهام للتوبيخ وحرف الاضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر، والمعنى كيف يقع الحسبان منكم بأن تتركوا على ما أنتم عليه. وقوله أن تتركوا في موضع مفعولي الحسبان عند سيبويه، وقال المبرد: انه حذف الثاني والتقدير أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب يعني: بدون تكليفكم بالقتال الذي سئمتموه.

﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ الواو حالية ولما للنفي مع التوقع، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني اذ لو شم رائحة الوجود لعلم قطعاً فلما لم يعلم لزم عدمه قطعاً، والمعنى كيف تحسبون انكم تتركون ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص، و (ما) في (لما) من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقاً للعلم ومداراً للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الانـدراج تحت ارادة أكرم الأكرمين.

وجملة ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ معطوفة على جاهدوا داخلة معه في حكم النفي واقعة في حيز الصلة، والوليجة من

الولوج وهو الدخول، ولج يلج ولوجاً اذا دخل، فالوليجة الدخيلة، قال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، ويكون للمفرد وغيره بلفظ واحد وقد يجمع على ولائج وولج كصحائف وصحف[1].

قال الفراء: الوليجة البطانة من المشركين، وقيل وليجة الرجل من يداخله في باطن أموره، والمعنى واحد، أي كيف تتخذون دخيلة أو بطانة من المشركين تفشون اليهم أسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله، وقال قتادة: وليجة يعني خيانة، وقال الضحاك: خديعة.

وقال الراغب: الوليجة كل ما يتخذه الانسان معتمداً عليه، وليس من قولهم فلان وليجة في القوم اذا دخل فيهم ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي بجميع أعمالكم .

﴿ ما كان للمشركين ﴾ أي ما ينبغي ولا يصح لهم ﴿ أن يعمروا ﴾ من عمر يعمر ، وقرىء من أعمر يعمر أي يجعلون لها من يعمرها عمارة معتداً بها .

﴿ مساجد الله ﴾ قرىء بالجمع واختاره أبو عبيدة ، قال النحاس : لأنها أعم ، والخاص يدخل تحت العام ، وقد يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة لقوله وعمارة المسجد الحرام ، وهذا جائز فيما كان من أسماء الاجناس ، كما يقال فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرساً .

---

(١) وقيل ان جماعة من المنافقين جاؤوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون الخروج معه الى الجهاد تعزيزاً فنزل هذه الآيات.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

وقرىء بالافراد ويراد به جنس المسجد، وعلى هذا يندرج فيه سائر المساجد ويدخل المسجد الحرام دخولاً أولياً، قال النحاس: وقد أجمعوا على الجمع في قوله: ﴿انما يعمر مساجد الله﴾.

قلت: وهي أيضاً محتملة للأمرين وعن الحسن البصري: إنما قال تعالى مساجد والمراد المسجد الحرام لانه قبلة المساجد كلها وإمامها فعامره كعامر جميع المساجد أو لأن كل بقعة وناحية من بقاعه ونواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد، إذ ليس في نواحيها اختلاف الجهة، ويؤيده القراءة بالتوحيد.

قال الفراء: العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم فلان كثير الدرهم وبالعكس، كقولهم فلان يجالس الملوك، ولعله لم يجالس إلا ملكاً واحداً، والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي وهو ملازمته ودخوله والتعبد والقعود فيه، وكلاهما ليس للمشركين، أما الاول فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم، وأما الثاني فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام.

قيل لو أوصى كافر ببناء المسجد لم تقبل وصيته، وكذا يمنع من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل عزر، وان داخل بإذن لم يعزر، ولكن لا بد من حاجة فيشترط للجواز الاذن والحاجة، ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد، وهو كافر، والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها.

﴿شاهدين﴾ بإظهار ما هو كفر من نصب الاوثان والعبادة لها وجعلها آلهة، فإن هذا شهادة منهم ﴿على أنفسهم بالكفر﴾ وإن أبوا ذلك بألسنتهم، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين، عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرب الى الله بعمارة مساجده.

وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، مع قولهم نحن نعبد اللات والعزى، وقيل ان اليهودي يقول هو يهودي، والنصراني يقول هو نصراني، والصابىء يقول هو صابىء، والمشرك يقول هو مشرك.

وقال ابن عباس: شهادتهم سجودهم للاصنام. وقال الحسن: كلامهم بالكفر، وقيل شاهدين على رسولهم بالكفر، لانه من أنفسهم وما أبعده عن المقام.

﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ التي يفتخرون بها ويظنون انها من أعمال الخير مثل العمارة والحجابة والسقاية، وفك العاني لانها مع الكفر لا تأثير لها، أي بطلت ولم يبق لها أثر ﴿وفي النار هم خالدون﴾ في هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها.

ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال: ﴿انما يعمر مساجد الله﴾ الظاهر أن الجمع هنا حقيقة لان المراد جميع المؤمنين العامرين لجميع مساجد أقطار الارض، والتعمير بنحو البناء والتزيين بالفرش والسراج، وبالعبادة وترك حديث الدنيا، يقال عمرت الدار عمراً من باب قتل بنيتها، والاسم العمارة بالكسر وعمرت الخراب عمراً من باب كتب فهو عامر أي معمور.

قال أبو السعود: والمراد بالعمارة ما يعم مرمة ما استرم منها وقمها وتنظيفها ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك انتهى، وقد تقدم الكلام في وجه جمع المساجد وفي بيان ماهية العمارة، ومن يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما قال أبو السعود : إدراج المسجد الحرام في ذلك غير مخالف لمقتضى الحال ، فإن الايجاب ليس كالسلب، وقد قرىء بالافراد أيضاً ، والمراد هنا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لا قصر جوازها ولياقتها، أي إنما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها .

﴿ من آمن بالله ﴾ وحده ﴿ واليوم الآخر ﴾ بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحي ﴿ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ على ما علم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم حتماً ، وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فإن أحد جزأي كلمتي الشهادة علم للكل .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر ﴾[1] أخرجه أحمد والدارقطني والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن المنذر والبيهقي وعبد بن حميد .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة »[2] أخرجه الترمذي .

وعن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة»[3] وقد

---

(١) الدارميّ كتاب الصلاة باب ٢٣ .
(٢) الترمذي كتاب المواقيت باب ١٢٠ .
(٣) مسلم ٥٣٣ ـ البخاري ٢٩٧ .

وردت أحاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردد اليها للطاعات.

﴿ولم يخش﴾ أحداً ﴿إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ فيه حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم. فإن الموصوفين بتلك الصفات الاربع اذا كان اهتداؤهم مرجواً فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات، وقيل عسى من الله واجبة.

وقال ابن عباس: كل عسى في القرآن فهي واجبة، كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ وهي الشفاعة.

وقيل هي بمعنى خليق، أي فخليق أن يكونوا من المهتدين، وقيل ان الرجاء راجع الى العباد.

قال ابن عباس: يقول من وحد الله وآمن بما أنزل الله وأقام الصلوات الخمس ولم يتعبد الا الله فهو من المهتدين، فمن كان جامعاً بين هذه الاوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد لا من كان خالياً منها أو من بعضها.

واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده لان كل ذلك من لوازم الايمان.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ
مُّقِيمٌ (٢١)﴾

والاستفهام في قوله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ للانكار وهو استئناف خوطب به المشركون التفاتاً عن الغيبة في قوله: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا﴾.

والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية لا يتصور تشبيههما بالأعيان والجثث فلا بد من اضمار تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج أو أجعلتم سقاية الحاج كايمان من آمن، ويؤيد الاول قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد جمع ساق وعامر وفيها تشبيه ذات بذات كما في الوجه الأول، وعلى هذا لا يحتاج الى تقدير المحذوف.

﴿كمن﴾ أي كايمان أو كعمل من ﴿آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ حتى يتفق الموضوع والمحمول ﴿لا يستوون عند الله﴾ المعنى أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الاعمال التي صورتها صورة الخير وان لم ينتفعوا بها، وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله.

وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونها على عمل المسلمين فأنكر الله عليهم ذلك، فصرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم أي لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام، وهذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله.

ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة التي يدعيها المشركون

أي إذا لم تبلغ أعمال الكفار الى أن تكون مساوية لاعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، وهذا الكلام استئناف مؤكد لما علم من إبطال المساواة بالتوبيخ المستفاد من الاستفهام أي لا يستوي الفريقان.

ثم حكم عليهم بالظلم فقال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي انهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وهو تعليل في المعنى لنفي المساواة، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضول ثم صرح بالفريق الفاضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة﴾ أي الجامعون بين الايمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس أحق بما لديه من الخير، من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة.

وفي قوله: ﴿عند الله﴾ تشريف عظيم للمؤمنين ﴿وأولئك﴾ أي المتصفون بالصفات الثلاثة المذكورة ﴿هم الفائزون﴾ بسعادة الدارين المختصون بالفوز المحصلون لأصله بالنسبة لكون الغير أهل السقاية والعمارة والمحصلون لأكمله بالنسبة لكون الغير من لم يجمع الاوصاف المذكورة، ثم فسر الفوز بقوله.

﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات﴾ التنكير في الثلاثة للتعظيم، والمعنى انها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين، قال أبو حيان: لما وصف الله المؤمنين بثلاث صفات الايمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث، وبدأ بالرحمة في مقابلة الايمان لتوقفها عليه، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الاحسان في مقابلة الجهاد الذي فيه بذل الأنفس والأموال، ثم ثلث بالجنات في مقابلة الهجرة وترك الأوطان إشارة إلى أنهم لما آثروا تركها بدلهم داراً عظيمة دائمة وهي الجنات انتهى.

﴿لهم فيها نعيم مقيم﴾ الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

﴿خالدين فيها أبداً﴾ ذكر الأبد بعد الخلود تأكيد له ﴿ان الله عنده أجر عظيم﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل أي أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيماً يهب منه ما يشاء لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم، وهذه أعظم البشارات ونهاية المقصودات.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء﴾ يعني بطانة وأصدقاء تفشون اليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة، والخطاب للمؤمنين كافة وهو حكم باق إلى يوم القيامة، يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين والمراد النهي لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من أفراد المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجب لانقسام الآحاد الى الآحاد كما في قوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من اللفظ دلالة لا عبارة.

وقالت طائفة من أهل العلم انها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب، نهوا أن يوالوا الآباء والأخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر، وقال بعضهم: حمل هذه الآية على الهجرة مشكل، لأن هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي آخر القرآن نزولاً، والأقرب ان يقال ان الله تعالى لما أمر بالتبرىء عن المشركين قالوا: كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه، فذكر الله تعالى ان مقاطعة الرجل أهله وأقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي الكافر وإن

كان أباه أو أخاه أو ابنه.

وقال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة، وقال ابن عباس: لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك بالله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم، وأنزل هذه الآية، والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

﴿إن استحبوا الكفر﴾ أي أحبوا كما يقال استجاب بمعنى أجاب، وهو في الأصل طلب المحبة أي إن اختاروا الكفر وأقاموا عليه ﴿على الايمان﴾ وتركوه وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة، ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الايمان من الآباء والاخوان بالظلم فقال:

﴿ ومن يتولهم ﴾ فيه مراعاة لفظ من ﴿ منكم فأولئك ﴾ فيه مراعاة معناها ﴿ هم الظالمون ﴾ فدل ذلك على أن تولي من كان كذلك واختيار المقام معه على الهجرة والجهاد من أعظم الذنوب وأشدها.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم قائلا له: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾.

العشيرة الجماعة المجتمعة التي ترجع الى نسب وعقد واحد أو ود كعقد العشرة وعشيرة الرجل أهله وقرابته الأدنون وهم الذين يعاشرونه ويتكثر بهم سواء بلغوا العشرة أم فوقها وهي اسم جمع، وقرأ السلمي وأبو رجاء عشيراتكم بالجمع ووجهه ان لكل من المخاطبين عشيرة فحسن الجمع قال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات وانما يجمعونها على عشائر، وهذه القراءة حجة عليه.

وقرأ الحسن: عشائركم والباقون عشيرتكم، والاقتراف الاكتساب، وأصله اقتطاع الشيء من مكانه، والتركيب يدور على الدنو والكاسب يدني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه، والتجارة الأمتعة التي يشترونها ليربحوا فيها، والكساد عدم النفاق لفوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان.

ومن غرائب التفسير ما روي عن ابن المبارك أنه قال: ان المراد بالتجارة في هذه الآية البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدون لهن خاطباً واستشهد لذلك بقول الشاعر:

كسدن من الفقر في قومهن وقد زادهن مقامي كسادا

وهذا البيت وان كان فيه اطلاق الكساد على عدم وجود الخاطب لهن فليس فيه جواز اطلاق اسم التجارة عليهن، والمراد بالمساكن المنازل التي تعجبهم وتميل اليها أنفسهم ويرون الاقامة اليها أحب اليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله ومن الجهاد في سبيله فقعدوا لأجل ما ذكر من الأمور الثمانية أو لأجل حبها والتعرض للصفات المذكورة للايذان بأن اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسي ما فيها من مبادىء المحبة وموجبات الرغبة فيها، وانها مع ما لها من فنون المحاسن بمعزل من ان يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله عز وجل: ﴿ ما غرك بربك الكريم﴾ والمراد بالحب الاختياري دون الطبيعي وهو ايثارهم وتقديم طاعتهم لا ميل الطبع فانه أمر جبلي لا يمكن تركه ولا يؤاخذ عليه ولا يكلف الانسان بالتحفظ عنه.

﴿فتربصوا﴾ أي فانتظروا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم، وقيل المراد بأمر الله سبحانه القتال، وقيل فتح مكة وفيه بعد، فقد روي ان هذه السورة نزلت بعد الفتح، وقيل هو عقوبة عاجلة أو آجلة، وفي هذا وعيد شديد وتهديد لهم ويؤكده ابهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات.

وإنما كان تهديداً لكونهم آثروا لذات الدنيا على الآخرة، وهذا قل من يتخلص منه، ولذا قيل انها أشد آية نعت على الناس كما فصله في الكشاف، وهذه الاية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين مهمات الدنيا وجب ترجيح الدين على الدنيا ليبقى الدين سليماً ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعته النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ تذكير للمؤمنين بنعمه عليهم والمواطن جمع موطن، وفي المصباح الوطن مكان الانسان ومقره، والجمع أوطان مثل سبب وأسباب، والموطن مثل الوطن والجمع مواطن كمسجد ومساجد، والموطن أيضا المشهد من مشاهد الحرب، والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر وقريظة والنضير وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة في حديثه «قاتل في ثمان منهن» ويقال ان جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون.

﴿و﴾ نصركم أيضاً ﴿يوم حنين﴾ وهو واد بين مكة والطائف بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً كما في الخازن وانصرف على انه اسم مكان، ومن العرب من يمنعه على أنه اسم للبقعة.

قال قتادة: قاتل بها نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو، وذلك في شوال سنة ثمان عقيب رمضان الذي وقع فيه الفتح، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير.

﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ وانما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم

لانهم كانوا أحد عشر ألفاً، وقيل اثني عشر ألفاً، وقيل ستة عشر ألفاً، والكفار أربعة آلاف، قاله السيوطي، والذي في شرح المواهب انهم كانوا أكثر من عشرين ألفاً، وقتل من المسلمين أربعة ومن المشركين أكثر من سبعين انتهى.

وبالجملة قال بعضهم لن نُغلب اليوم من قلة فوكلوا إلى هذه الكلمة ﴿فلم تغن﴾ أي لم تدفع الكثرة ﴿عنكم شيئاً﴾ بل انهزمتم وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس، وكان آخذا بلجام البغلة، وأبو سفيان آخذ بركابه وهو ابن عمه إذ هو ابن الحرث ابن عبد المطلب وقد أسلم هو والعباس يوم الفتح، ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر.

وفي سيرة الشامي ان الذين ثبتوا معه في حنين مائة وثلاثة وثلاثون من المهاجرين، وسبعة وستون من الأنصار، والإغناء إعطاء ما يدفع الحاجة أي لم يعطكم الكثرة شيئاً يدفع حاجتكم ولم تفدكم.

﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ الرحب بضم الراء السعة، والرحب بفتحها المكان الواسع والباء بمعنى مع، وما مصدرية والمعنى ان الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حل بهم من الخوف والوجل، وقيل إن الباء بمعنى على أي على رحبها.

﴿ثم وليتم﴾ أي انهزمتم حال كونكم ﴿مدبرين﴾ أي مولين أدباركم جاعلين لها الى جهة عدوكم.

أخرج ابن المنذر عن الحسن قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن نقاتل حين اجتمعنا، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على

أحد، حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي أحياء العرب: إليّ فوالله ما يعرج عليه أحد حتى أعرى موضعه، فالتفت الى الانصار وهم ناحية فناداهم: يا أنصار الله وأنصار رسوله إليّ عباد الله أنا رسول الله، فجثوا يبكون وقالوا: يا رسول الله ورب الكعبة اليك والله فنكسوا، رؤوسهم يبكون وقدموا أسيافهم يضربون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليهم.

وقيل ناداهم العباس بإذنه، وكان صيتاً يسمع صوته من نحو ثمانية أميال، فقاتلوا، ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها فلا نطول بذلك.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر، والمراد بالمؤمنين هم الذين لم ينهزموا وقيل الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا.

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ هم الملائكة، واختلف في عددهم على أقوال، قيل كانوا خمسة آلاف، وقيل ثمانية آلاف، وقيل ستة عشر ألفاً، وقيل غير ذلك، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة. واختلفوا أيضاً هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا، وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر وانهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين وادخال الرعب في قلوب المشركين وان كانوا لا يرونهم، وقيل ان الكفار كانت تراهم.

عن جبير بن مطعم قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل

البجاد[1] الاسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي لم أشك أنها الملائكة، ولم تكن الا هزيمة للقوم.

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والانصار، فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً، ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل عليهم السكينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء يمضي قدماً فقال: ناولني كفاً من تراب فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً وولى المشركون أدبارهم[2].

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية، وقال السدي: قتلهم بالسيف، قيل أسر ستة الاف من نسائهم وصبيانهم، ولم تقع غنيمة أعظم من غنيمتهم فقد كان فيها من الابل اثنا عشر ألفاً ومن الغنم ما لا يحصى عدداً ومن الاسرى ما سمعته وكان فيها غير ذلك.

﴿وذلك﴾ التعذيب المفهوم من عذب ﴿جزاء الكافرين﴾ سمي ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع انه غير كاف، بل لا بد من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيماً له.

---

(١) بجاد بالكسر كليم مخطط. إ هـ صراح.

(٢) المستدرك كتاب الجهاد ٢/١١٧.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك﴾ التعذيب ﴿على من يشاء﴾ ممن هداه منهم الى الاسلام ﴿والله غفور﴾ يغفر لمن أذنب فتاب ﴿رحيم﴾ بعباده متفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه.

﴿يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس﴾ أي ذوو نجاسة لان معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، والنجس مصدر لا يثنى ولا يجمع، يقال رجل نجس، وامرأة نجس، ورجلان نجس، وامرأتان نجس، ورجال نجس، ونساء نجس، ويقال نجس ونجس بكسر الجيم وضمها، ويقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك، قيل لا يستعمل إلا إذا قيل معه رجس، وقيل ذلك أكثري لا كلي.

والمشركون مبتدأ وخبره المصدر، وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة والقذر لخبث باطنهم مبالغة في وصفهم بها. قال ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وقال قتادة ومعمر وغيرهما: انهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، قيل أراد بالمشركين عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار، وقيل بل جميع أصنافهم من اليهود والنصارى وغيرهم.

وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات كما ذهب اليه بعض الظاهرية وروي عن الحسن البصري وهو محكي عن ابن عباس، وقال الحسن ابن صالح: من مس مشركاً فليتوضأ، ويروى هذا عن الزيدية، وذهب

الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة الى أن الكافر ليس بنجس الذات لأن الله سبحانه أحل طعامهم، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل في آنيتهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم في مسجده وهو الحق، وعن جابر بن عبدالله في هذه الآية قال: إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة.

﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ الفاء للتفريع فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم، وإنما نهوا عن الاقتراب للمبالغة في المنع من دخول الحرم، ونهى المشركين أن يقربوا راجع الى نهي المسلمين عن تمكينهم من ذلك، قاله أبو السعود فهو من باب قولهم لا أرينك ههنا، والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم، روي ذلك عن عطاء فيمنعون عنده من جميع الحرم، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام﴾ أراد به الحرم لأنه أسرى رسول الله ﷺ من بيت أم هانىء.

وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد المسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم، وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد، فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد، وقال الشافعي: الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد.

قال ابن العربي وهذا جمود منه على الظاهر لأن قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، ويجاب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه صلى الله عليه وسلم لثمامة بن أثال في مسجده وانزال وفد ثقيف فيه.

وروي عن ابي حنيفة مثل قول الشافعي، وزاد انه يجوز دخول الذمي

سائر المساجد من غير حاجة، وقيده الشافعي بالحاجة، وقال قتادة انه يجوز ذلك للذمي دون المشرك.

والحاصل أن بلاد الاسلام في حق الكفار ثلاثة أنواع (أحدها) الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال،ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الاية، وبه قال الشافعي وأحمد ومالك: واذا جاء رسول من دار الكفر الى الامام والامام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم، بل يخرج اليه الامام أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم.

والثاني الحجاز وحدُّه ما بين يمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة، قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي، وقيل كلها حجازي، وقال ابن الكلبي: حد الحجاز ما بين جبل طي وطريق العراق.

قال الحربي: وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالإذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام لاحاديث صحيحة في هذا الباب. منها ما روي عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع الا مسلماً، وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة، وجزيرة العرب من أقصى عدن الى ريف العراق في الطول، وأما في العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشام.

والثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد أو أمان وذمة لكن لا يدخلون المساجد الا بإذن مسلم لحاجة.

﴿بعد عامهم هذا﴾ فيه قولان (أحدهما) انه سنة تسع وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم وهو عام نزول السورة (الثاني) أنه سنة عشر، قاله

قتادة. قال ابن العربي: وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ.

وان من العجب أن يقال انه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الاذان، ولو دخل غلام رجل داره يوماً فقال له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه اهـ.

ويجاب عنه بأن الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه، فإن الاشارة بقوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾ الى العام المذكور قبل اسم الاشارة وهو عام النداء، وهكذا في المثال الذي ذكره، المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب، والامر ظاهر لا يخفى، ولعله أراد تفسير (بعد) المضاف الى عامهم ولا شك أنه عام عشر.

وأما تفسير العام المشار إليه بهذا فلا شك ولا ريب أنه عام تسع، وعلى هذا يحمل قول قتادة، وقد استدل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد، أعني قوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾ قائلاً: إن النهي مختص بوقت الحج والعمرة، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط، لا عن مطلق الدخول، ويجاب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الاوقات الكائنة بعده، وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص.

﴿وان خفتم عيلة﴾ بالفتح الفقر، يقال عال الرجل يعيل اذا افتقر، وقرأ علقمة وغيره عائلة، وهو مصدر كالقائلة، والعافية والعاقبة، وقيل معناه خصلة شاقة، يقال عالني الامر يعولني أي شق عليّ واشتد. وحكى ابن جرير الطبري انه يقال عال يعول اذا افتقر، وعيال الرجل من يعولهم، وواحد العيال عيل كجيد والجمع عيائل كجيائد، وأعال الرجل كثرت عياله فهو معيل، والمرأة معيلة قال الاخفش: أي صار ذا عيال.

وكأن المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون اليه الأطعمة والتجارات قذف في قلوبهم الشيطان الخوف من الفقر بانقطاع تجارتهم عنهم وقالوا من أين نعيش، فوعدهم الله أن يغنيهم وقال: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ قال الضحاك: ففتح الله عليهم باب الحرب من أهل الذمة بقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ الآية.

وقال عكرمة: أغناهم بإدرار المطر والنبات وخصب الأرض وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به، وقيل أغناهم بالفيء، قال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون، وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

﴿ان شاء﴾ فائدة التقييد بالمشيئة التعليم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل، ولئلا يفتروا عن الدعاء والتضرع ويعلموا ان الغنى الموعود به يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام ﴿ان الله عليم﴾ بأحوالكم ﴿حكيم﴾ في إعطائه ومنعه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف الآتية، ولما فرغ من الكلام على مشركي العرب بقوله: ﴿براءة من الله﴾ إلى هنا أخذ يتكلم على أهل الكتابين وهو نص في ان أهل الكتاب لا يؤمنون بالله تعالى فاليهود كفروا لأنهم ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه بصفات كماله، وفرقوا بين الايمان بالله ورسوله، وغلوا في عزير فقالوا هو ابن الله، والنصارى كفروا لانهم غلوا في المسيح وقالوا هو ثالث ثلاثة.

قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أمر محمد وأصحابه بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك، وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الاسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين.

﴿و﴾ نص الله تعالى في الآية بأنهم ﴿لا﴾ يؤمنون ﴿باليوم الاخر﴾ فإن قلت إنهم قد قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى واثبات الجنة والنار فرع اثبات اليوم الآخر.

قلت: لما كان اثباتهم إياه بغير صفاته ودعوى كاذبة بأنهم أهل الجنة لا غير وانهم يعذبون أياماً معينة، كان إثباته بهذه الصفة نفياً له فانه ايمان باطل، وإلا لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقيل انهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الاجسام ويعتقدون ان أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون، ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم أنه مؤمن.

﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ مما ثبت في كتبهم بأن الله حرم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها، قال سعيد ابن جبير في الآية: يعني الذين لا يصدقون بتوحيد الله وما حرم الله من الخمر والخنزير، وقيل معناه لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة، والأول أولى وقيل لا يعلمون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم وقلدوا أحبارهم ورهبانهم واتخذوهم أرباباً من دون الله.

﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي دين الاسلام الثابت الناسخ لسائر الأديان وقيل دين أهل الحق وهم المسلمون، وقيل دين الله، والمعنى واحد وفيه ان دينهم بعد بعثته ﷺ قد صار ديناً باطلاً.

ثم انه تعالى لما وصل اليهم بهذه الصلات الأربع بينهم بقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ فكلمة من بيانية كما في قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الاوثان﴾ وانما أبهم أولاً ثم بين ثانياً زيادة في تمكن العلم في قلب السامع فيعلم المأمور به علمين، علماً اجمالياً ثم علماً تفصيلياً فيكون زيادة في تمكن الخبر عنده، ولما في ذلك من تشويق النفس إلى البيان بعد الابهام.

فهذا بيان لاسم المبهم الموصول مع ما في حيزه وهم اليهود والنصارى أهل التوراة والانجيل بالاتفاق، ويدل له قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل﴾ فإذا أتى لفظ أهل الكتاب فالمراد به الفريقان وإذا قيل بنو إسرائيل فالمراد بهما اليهود وإذا قيل النصارى فهم الذين أنزل اليهم الانجيل، والمجوس ليسوا من أهل الكتاب لقوله ﷺ: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أخرجه البخاري من حديث عبد الرحمن بن عوف.

ويدل له أيضاً قوله تعالى: ﴿أن يقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ وهذا صريح في أنهم ليسوا منهم.

قال أبو الوفاء بن عقيل في الآية: ان قوله قاتلوا أمر بالعقوبة ثم قال ﴿لا يؤمنون بالله﴾ فبين الذنب الذي يوجب العقوبة ثم قال: ﴿واليوم الآخر﴾ فأكد الذنب الذي في جانب الاعتقاد ثم قال: ﴿ولا يحرمون﴾ وفيه زيادة للذنب في مخالفة الأعمال ثم قال: ﴿ولا يدينون﴾ وفيه اشارة الى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام ثم قال: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ تأكيداً للحجة عليهم لأنهم كانوا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ثم قال: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ فبين الغاية التي تمتد اليها العقوبة أ هـ.

والجزية وزنها فعلة من جزى يجزي إذا كافى عما أسدي اليه وكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن، وقيل سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه، وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده وهو الخراج المضروب على رقابهم كل عام إذلالاً وصغاراً.

قال أحمد بن تيمية رحمه الله: والأول أصح وهذا يرجع إلى انها عقوبة أو أجرة فهي غاية للقتال، والمراد باعطائها التزامها بالعقد وان لم يجيء وقت دفعها ﴿عن يد﴾ في موضع النصب على الحال أي يعطوها أذلاء مقهورين عن يد متوانية غير ممتنعة، هذا إن أريد به المعطي، وان أريد به الآخذ فالمراد عن يد قاهرة مستولية وقيل معناه يعطونها بأيديهم غير مستنيبين فيها أحداً، وقيل المعنى نقداً غير نسيئة، وقيل عن انعام منكم عليهم لأن أخذها منهم نوع من أنواع الانعام عليهم، قاله في الكشاف، وقيل معناه مذمومون.

وفي زاده « اليد » قد تجعل كناية عن الانقياد أعطى فلان بيده إذا أسلم وانقاد لأن من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد كأنه قيل قاتلهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد ، دون أن يكرهوا عليه فإذا احتيج في أخذها منهم إلى الاكراه لا يبقى عقد الذمة أ هـ.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل

الكتاب، وقال الأوزاعي ومالك: ان الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائناً من كان ويدخل في أهل الكتاب على القول الأول المجوس، قال ابن المنذر لا أعلم خلافاً في ان الجزية تؤخذ منهم.

قال علي بن أبي طالب: أنا أعلم الناس بالمجوس كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه. الحديث ولكن ضعفه جماعة من الحفاظ كما قاله ابن القيم، ويدل له ما في البخاري ان عمر توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.

وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ان رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها وكان هو ﷺ صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي.

وذكر أبو عبيدة في كتاب الأموال عن الزهري قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً، فالجزية تؤخذ من هذه الطوائف الثلاث اتفاقاً، فاليهود والنصارى تؤخذ منهم بنص القرآن، والمجوس تأخذ منهم بنص السنة لقوله صلى الله عليه وسلم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أخرجه البخاري.

ثم اختلف أهل العلم في مقدار الجزية فقال عطاء: لا مقدار لها، وانما تؤخذ على ما صولحوا عليه، وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير إلا أنه قال: أقلها دينار وأكثرها لا حد له، وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير من الاحرار البالغين لا ينقص منه شيء، وبه قال أبو ثور، وقال الشافعي: وان صولحوا على أكثر من دينار جاز، وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم.

وقال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهماً على أهل الورق الغني والفقير سواء ولو كان مجوسياً لا تزيد ولا تنقص، وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل: اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية

وأربعون ولا تجب على صبي ولا مجنون ولا امرأة، وهو اتفاق.

وفي كتابه صلى الله عليه وسلم لمعاذ إلى أهل اليمن أنه يأخذ من كل حالم ديناراً فخص الحالم دون المرأة والصبي، وقد روي في ذلك حالمة، قال الأئمة من المحدثين: ان هذه الزيادة غير محفوظة، ولأن عمر بن الخطاب لما فتح الأمصار لم يأخذ الجزية إلا من الرجال دون النساء وأقره الصحابة واستمروا عليه.

وقال أبو محمد بن حزم رحمه الله: تلزم الجزية الأنثى لقوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ ولا شك أن الدين لازم النساء كلزومه للرجال، ولم يأت نص بالفرق بينهما في الجزية، ثم ساق حديث معاذ بلفظ حالم وحالمة، وأسنده إلى ابن جريج وساق حديثاً مرسلاً مثله، ولا يخفى ضعف ما ذهب اليه.

وأما العبد فإن كان سيده مسلماً فلا جزية عليه بالاتفاق، ومن اليهود السامرية وانهم فرق كثيرة وقد فتح الصحابة الأمصار وأقروهم على تسليم الجزية وكذلك الأئمة والخلفاء بعدهم.

وأما الصابئة فقال ابن القيم: انهم أمة كثيرة وأكثرهم فلاسفة ولهم مقالات مشهورة، ثم ذكر انها تؤخذ منهم الجزية فإنهم أحسن حالاً من المجوس، فأخذها من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بالطريق الأولى، فإن المجوس من أخبث الأمم ديناً ومذهباً، ثم ساق مذاهبهم.

وأما بنو تغلب وهم فرقة انتقلوا في الجاهلية الى النصرانية فهم من النصارى كانت لها شوكة وقوة، وجاء الاسلام وهم كذلك وأنفوا من الجزية فضوعفت عليهم الصدقة عوضاً عن الجزية، فهذه الطوائف التي تؤخذ منها الجزية أو ما صولحوا عليه.

ويهود خيبر وغيرهم داخلون في عموم الآية، ولم يأت لهم مخصص، وإنما لم يأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يهود المدينة ولا من يهود خيبر لانه أجلى يهود المدينة، وقاتل من قاتل منهم قبل نزولها، وأما أهل خيبر

فإنه صالحهم قبل نزول فريضة الجزية ولم ينزل فرضها إلا في التاسعة من الهجرة.

واختلف الناس في أخذ الجزية ممن عدا من ذكرناه بعد الاتفاق على أخذها من أهل الكتابين والمجوس، فقالت الحنفية: تؤخذ أيضاً من عبدة الأوثان من العجم، ولا تؤخذ من عبدة الاوثان من العرب، واستدلوا بالحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن ابن عباس مرفوعاً قال: «أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي الجزية بها اليهم العجم»[1] وذهب مالك وأبو يوسف إلى أنها تقبل الجزية من العربي الوثني مستدلين بحديث بريدة الذي أخرجه مسلم، وهو حديث طويل شريف فيه وصايا لأمراء السرايا، وفيه «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال وفيه: فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم» فدل على أن الجزية تؤخذ من كل كافر[2].

هذا ظاهر الحديث ولم يستثن منهم كافراً دون كافر، ولا يقال هذا خاص بأهل الكتاب فإن اللفظ يأبى اختصاصه بهم، وأيضاً سرايا رسول الله ﷺ وجيوشه أكثر ما كانت تقاتل عبدة الأوثان من العرب، فيؤخذ من عموم الكفار بالسنة، ومن أهل الكتاب بالقرآن، وقد أخذها صلى الله عليه وسلم من المجوس عباد النار. ولا فرق بينهم وبين عباد الأوثان.

فإن قيل إنه لم يأخذها من أحد من عباد الأوثان مع كثرة قتاله لهم، قلنا آية الجزية إنما نزلت عام تبوك في التاسعة بعد إسلام من كان في جزيرة العرب، ولم يبق بها أحد من عبّاد الأوثان.

قال الحافظ بن القيم: والمسألة مبنية على حرف واحد، وهو أن الجزية هل وضعت عاصمة للدم أو مظهرة لصغار الكفر وإذلال أهله، والثاني راجح،

---

(١) الإمام احمد ١/ ٢٢٧.
(٢) مسلم ١٧٣١.

وقد جاز استرقاق العربي الوثني، فإنه صح ذلك بلا مرية، ويبقى على كفره، والمقصود انه لا فرق بين الكفار في أخذ الجزية والاسترقاق، وأطال في هذا واختاره.

وأما تقدير الجزية كما تقدم فيرد على الجميع انه صلى الله عليه وسلم أمر معاذاً يقبض ديناراً من كل حالم، وجعله صنفا واحداً لا ثلاثة أصناف، وأول من جعلهم ثلاثة عمر بن الخطاب.

وقد اختلف الجواب عن حديث معاذ.

ثم اعلم انه لا يتعين في الجزية ذهب ولا فضة بل يجوز أخذها مما تيسر من أموالهم من ثياب وسلاح يعملونه وحديد ونحاس ومواش وحبوب وغير ذلك وهذا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه أخرج أحمد بسند جيد عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله معافرياً[1]، ورواه أهل السنن وقال الترمذي حسن. وكذلك أهل نجران لم يأخذ في جزيتهم ذهباً ولا فضة، انما أخذ الحلل والسلاح.

واذا عرف هذا فقد تبين أن الجزية غير مقدرة بالشرع تقديراً لا يقبل الزيادة والنقصان، ولا معينة في جنس من الأجناس.

وأما وقت قبض الجزية فإنها تجب في آخر الحول ولا يطالبون بها قبل ذلك وبه قال أحمد والشافعي. وقال أبو حنيفة: تجب بأول الحول ويؤخذ منه كل شهر بقسطه، وقال غيرهم وهم الأكثرون: انه صلى الله عليه وسلم لما ضرب الجزية على أهل الكتاب والمجوس لم يطالبهم بها حين ضربها، ولا ألزمهم بأدائها في الحال وقت نزول الآية بل صالحهم عليها، وكان يبعث رسله

(١) الإمام احمد ٥/٢٤٧.

وسعاته فيأتون بالجزية والصدقة عند محلها، واستمرت على ذلك سيرة خلفائه من بعده.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله: وهذا مقتضى قواعد الشريعة وأصولها، فإن الأموال التي تتكرر بتكرر الأعوام انما تجب في آخر العام لا في أوله.

وأما قوله: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ فليس المراد به العطاء الأول بل العطاء المستمر المتكرر. وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ فيهم.

وقال أصحاب الشافعي: تجب بأول السنة دفعة واحدة، ولكن يستقر جزء بعد جزء، وقال بعضهم: انما يدخل وقت وجوبها عند انقضاء السنة، وتسقط الجزية بالاسلام ولو اجتمعت عليه جزية سنين، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ليس على مسلم جزية»(١).

﴿وهم صاغرون﴾ أي يعطي الذمي الجزية حال كونه صاغراً والصغار الذل واختلف العلماء في المراد من الصغار فقال عكرمة أن يدفعها وهو قائم، والآخذ جالس، وقيل أن يأتي بها بنفسه ماشياً لا راكباً، ويطال وقوفه عند اتيانه بها ويجر الى الموضع الذي فيه الآخذ ثم تجر يده ويمتهن.

وفي الكشاف انه يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلابيبه ويقال له أد الجزية وان كان يؤديها ويزج في قفاه انتهى. وقال ابن عباس: يمشون بها متلتلين، وعنه قال: يلكزون، وقال الكلبي: إذا أعطى يصفع قفاه، وقيل هو أن يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه، ويقال له: أد حق الله يا عدو الله وقال سلمان: معنى صاغرين غير محمودين وقيل غير ذلك مما لم يدل عليه دليل.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله: وهذا كله مما لا دليل عليه ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه، قال: والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجريان أحكام الله تعالى عليهم وإعطاء الجزية، فإن ذلك هو الصغار، وبه قال الشافعي.

قلت: ومن الصغار ما أخذه عمر رضي الله عنه في العهد العمري وهو

(١) الترمذي، كتاب الزكاة، باب ١١.

ما أخرجه عبد الله بن أحمد عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه.

أن لا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلابة ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه، ولا يؤووا جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يظهروا شركاً ولا يمنعوا ذوي قراباتهم الاسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكنوا بكناهم ولا يركبوا سرجاً ولا يتقلدوا سيفاً ولا يبيعوا الخمور، وان يجزوا مقادم راويتهم وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا، وأن يشدوا على أوساطهم ولا يظهروا صليباً ولا شيئاً من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعابين ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين، فإن خالفوا في شيء مما شرطوه فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين ما يحل من ذوي المعاندة والشقاق.

قال الحافظ ابن القيم: وشهرة هذه الشروط تغني عن اسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول، وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء وعملوا بموجبها. انتهى.

قلت: الدير للنصارى خاصة يبنونه للرهبان خارج البلد يجتمعون فيه للرهبانية وينفردون عن الناس، وأما القلابة بقاف مكسورة وباء موحدة فيبنيها رهبانهم مرتفعة كالمنارة والفرق بينها وبين الدير أن الدير يجتمعون فيه، والقلابة لا تكون إلا لواحد ينفرد بها بنفسه ولا يكون لها باب بل فيها طاقة يتناول منها شرابه وطعامه وما يحتاج اليه، وأما الصومعة فهي كالقلابة تكون للراهب وحده، والبيع جمع بيعة وهي متعبد النصارى.

وعن ابن عباس: انها مساجد اليهود، والكنائس جمع كنيسة وهي لأهل الكتابين.

ثم اعلم أنه لا يحل تكليفهم بما لا يقدرون عليه ولا حبسهم ولا تعذيبهم على أداء الجزية ولا ضربهم لما أخرج أبو عبيد أن هشام بن حكيم مر على قوم يعذبون في الجزية بفلسطين فقال هشام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ان الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا»[1]، وعن عياض بن غنم مثله رواه الزهري عن عروة بن الزبير.

وقد أخرج عن جبير بن نفير عن أبيه أنه أتى عمر بن الخطاب بمال كثير أحسبه قال: الجزية فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس، قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفواً، قال: بلا سوط ولا نوط قالوا: نعم، قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني.

وعن علي بن أبي طالب أنه استعمل رجلاً على عكبرى فقال له: لا تبيعن لهم في خراجهم حماراً ولا بقرة ولا كسوة شيئاً ولا صنفاً وارفق بهم، وكان رضي الله عنه يأخذ من صاحب الابر ابراً، ومن صاحب الحبال حبالاً ونحوه من الامتعة.

قال أبو عبيد انما كان يأخذ منهم هذه الأمتعة بقيمتها من الدراهم التي كانت عليهم من جزية رؤوسهم، ولا يحملهم على بيعها إرادة الرفق بهم والتخفيف عليهم ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً بأخذ معافر عدلاً عن الدينار، وانما يراد بهذا كله الرفق بأهل الذمة لا يباع عليهم من متاعهم شيء، ولكن يؤخذ مما سهل عليهم في القيمة، والكلام في الجزية مقرر في مواطنه، والحق ان هذه الأقوال ما قد قرره الشوكاني في شرحه للمنتقى وفي غيره من مؤلفاته، وفي الباب كتاب افادة الأمة في أحكام أهل الذمة للسيد محمد بن إسماعيل الأمير اليمني وهو حافل جداً.

---

(1) مسلم، ٢٦١٣.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين ، وظاهر الآية ان هذه المقالة لجميعهم ، وقيل هو لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص ، لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم أو من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة ، وقال النقاش : لم يبق يهودي يقولها بل قد انقرضوا ، وقيل انه قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جماعة منهم ،فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود لأن قول بعضهم لازم لجميعهم .

وقوله: ﴿عزير﴾ بتنوين الصرف وتركه قراءتان سبعيتان فالأولى بناء على انه عربي وليس فيه إلا علة والثانية بناء على أنه أعجمي ففيه العلتان، وعلى كل هو مبتدأ وابن الله خبر، فلذلك ثبتت الألف في ابن لانها لا تحذف منه إلا إن كان صفة ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ قالوا: هذا لما رأوا من احيائه للموتى مع كونه من غير أب فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أن يقال انهم قالوا هذه المقالة لكون وصفه في الانجيل تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الانجيل، ولم يفهموا ان ذلك لقصد التشريف والتكريم أو لم يظهر لهم ان ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الاغراض الفاسدة.

قال الرازي: والاقرب عندي ان يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق إبراهيم على سبيل التشريف، فبالغوا وفسروا لفظ الإبن بالبنوة الحقيقية، والجهال قبلوا ذلك منهم، وفشا هذا

المذهب الفاسد في أتباع عيسى عليه السلام.

﴿ذلك قولهم﴾ الاشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة، ووجه قوله ﴿بأفواههم﴾ مع العلم بأن القول لا يكون إلا بالفم، بأن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الافواه غير مفيدة لفائدة يعتد بها.

وقيل لان اثبات الولد له مع أنه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل ليس له تأثير في العقل، وقيل ان ذكر الافواه لقصد التأكيد كما في ﴿كتبت بيدي﴾ ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ وقوله: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾.

وقال بعض أهل العلم: ان الله سبحانه لم يذكر قولا مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً، كقوله: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ وقوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ وقوله:﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾.

﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ المضاهاة المشابهة قيل ومنه قول العرب امرأة ضهيأوهي التي لا تحيض لأنها شابهت الرجال، قال أبو علي الفارسي: هذا خطأ لأن الهمزة في ضاهأ أصلية وفي ضهيأ زائدة كحمراء وأصله يضاهئون، وقيل فيه لغتان ضاهأت وضاهيت، والأولى لغة ثقيف، قال الحسن: يوافقون، وقال مجاهد: يواطئون.

ومعنى مضاهاتهم لقولهم فيه أقوال لأهل العلم.

الأول: انهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم اللات والعزى ومناة بنات الله.

الثـاني : شابهوا قول من يقول من الكافرين ان الملائكة بنات الله .

الثالث : انهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيراً ابن الله والمسيح ابن الله .

﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم بالهلاك لأن من قاتله الله هلك، وقيل هو تعجب من شناعة قولهم وقيل معناه لعنهم الله، وحكى النقاش أن أصل قاتل الله الدعاء ثم كثـر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء.

﴿أنى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بأن الله واحد أحد، فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الأحبار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول ومنه ثوب محبر، وقيل جمع حبر بكسر الحاء قال يونس: لم أسمعه إلا بكسر الحاء، وقال الفراء: الفتح والكسر لغتان، وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر العالم، والحبر بالفتح العالم، قال الأصمعي: لا أدري أهو الحبر أو الحبر وقال أبو الهيثم: هو بالفتح وأنكر الكسر.

وقيل الكسر أفصح لأنه يجمع على أفعال دون فعول، وقال أبو عبيد: هو بالفتح، وقال الليث: الحبر العالم ذمياً كان أو مسلماً بعد أن يكون من أهل الكتاب والحبر الذي يكتب به وموضعه المحبرة بالكسر، والحبر أيضاً الأثر، وفي الحديث «يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسبره» قال الفراء: أي لونه وهيئته، وقال الاصمعي: الجمال والبهاء وأثر النعمة، وتحبير الخط والشعر وغيرهما تحسينه، والحبر بالفتح الحبور، وهو السرور وحبره أي سره وبابه نصر وحبرة أيضا بالفتح، ومنه قوله تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ أي يسرون وينعمون ويكرمون.

والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة وهم علماء النصارى كما ان الاحبار علماء اليهود، وقيل الرهبان أصحاب الصوامع من النصارى، وقيل الرهبان النساك وقيل القراء، ومعنى الآية لما اطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً لانهم أطاعوهم كما تطاع الارباب.

وقال الربيع: قلت لابي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل قال: انهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الاحبار والرهبان فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

قال الرازي في تفسيره: قال شيخنا رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها، وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت على خلافها.

ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

والقول الثاني في تفسير هذه الربوبية ان الجهال والحشوية إذا بالغوا في تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم إلى الحلول والاتحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالباً للدنيا بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له، وكان يقول لهم أنتم عبيدي فكان يلقي اليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء ولو خلا ببعض الحمقاء من أتباعه فربما ادعى الإلٓهية، فإذا كان ذلك مشاهداً في هذه الأمة فكيف يبعد ثبوته في الأمم السالفة.

وحاصل الكلام أن تلك الربوبية تحتمل أن يكون المراد منها انهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله، وأن يكون المراد منها انهم قبلوا أنواع الكفر فكفروا بالله فصار ذلك جارياً مجرى انهم اتخذوا أرباباً من دون الله، ويحتمل أنهم أثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد، وكل هذه الوجوه الاربعة مشاهد وواقع في هذه الأمة. انتهى.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً، وفيه اشارة إلى أن

اليهود لم يتخذوا عزيراً رباً معبوداً، وانظر لم ثبتت الالف في ابن هنا مع انه صفة بين علمين لأن المسيح لقب وهو من أقسام العلم.

وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير ما يقوله الاسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الامة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه. هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الامة وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء.

فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبدالله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً وعمدتم الى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه للعمل منهم بما دلا عليه وأفاداه، فعملتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة تنادي بأبلغ نداء وتصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه فأعرتموها آذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وأفهاماً مريضة وعقولاً مهيضة وأذهاناً كليلة وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا الا من غزية ان غوت   غويت وان ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله واياي كتباً كتبها لكم الاموات من أسلافكم واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتهم وقدوتكم، وهو الامام الأول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

دعوا كل قول عند قول محمد   فما آمن في دينه كمخاطر

اللهم هادي الضال مرشد التائه موضح السبيل، اهدنا إلى الحق وأرشدنا الى الصواب وأوضح لنا منهج الهداية.

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي والحال أنهم ما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم إلا بعبادة الله وحده، أو ما أمر الذين اتخذوهم أرباباً من الأحبار والرهبان إلا بذلك فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أرباباً.

﴿لا إله إلا هو﴾ صفة ثانية لقوله إلَهاً أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سبحانه عما يشركون﴾ أي تنزيهاً له عن الاشراك في طاعته وعبادته.

وقد أخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقال: «أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»[1]، وأخرجه أيضا أحمد وابن جرير.

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق، وهو ما راموه من ابطال الحق بأقاويلهم الباطلة التي هي مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة، وهذا تمثيل لحالهم في محاولة ابطال دين الحق ونبوة نبي الصدق بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم

---

(١) الترمذي تفسير سورة ٩/ ١٠.

قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب أضواءه، قيل المراد بالنور شرائعه وبراهينه، وسميت الدلائل نوراً لأنه يهتدى بها الى الصواب كما يهتدى بالنور الى المحسوسات.

وقيل المراد به الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهي أمور:

أحدها : المعجزات الباهرات الخارقة للعادات.

وثانيها : القرآن العظيم وهو معجزة له باقية على الأبد.

وثالثها : ان دينه الذي أمر به هو دين الاسلام ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه والتبري من كل معبود سواه: فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صدقه، فمن أراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله.

﴿ويأبى الله الا أن يتم نوره﴾ أي دينه القويم بإعلاء كلمته، قال في الكشاف ان أبى قد أجري مجرى لم يرد أي ولا يريد إلا أن يتم نوره، وقال علي بن سليمان: انما جاز هذا في أبى لأنها منع أو امتناع فضارعت النفي. قال النحاس: وهذا أحسن وقال الزجاج: التقدير ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم، وقال الفراء: انما دخلت (الا) لأن في الكلام طرفاً من الجحد، وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفي، وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة، أي لا يريد شيئاً من الأشياء الا اتمام نوره، فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء. قاله الكرخي.

﴿ولو كره الكافرون﴾ أي أبى الله إلا أن يتم نوره ويعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث الله به رسوله ولو كره ذلك الكافرون، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير ولو كره الكافرون تمام نوره لأتمه ولم يبال بكراهتهم وقيل لو لم يكرهوه أو كرهوه أي على كل حال مفروضة.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ
وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ
ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾

ثم أكد هذا بقوله: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ يعني محمداً ﴿بالهدى﴾ أي بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التي شرعها الله لعباده والتوحيد والاسلام والقرآن ﴿ودين الحق﴾ وهو دين الاسلام، وفائدة ذكره مع دخوله في الهدى قبله بيان شرفه وتعظيمه كقوله والصلاة الوسطى ﴿ليظهره﴾ أي ليظهر رسوله أو دين الحق بما يشتمل عليه من الحجج والبراهين.

﴿على الدين كله﴾ أي على سائر الأديان، وهو أن لا يعبد الله إلا به، فلا دين بخلاف الاسلام إلا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم في بعض المواضع وان لم يكن كذلك في جميع مواضعهم، فقهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها الى ناحية الروم والغرب، وغلبوا المجوس على ملكهم، وغلبوا عباد الأصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك والهند وكذلك سائر الأديان.

فثبت أن الذي أخبر الله عنه في هذه الآية قد وقع وحصل، وكان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً، وقد ذكرنا فتوح الاسلام في كتابنا حجج الكرامة في آثار القيامة الذي حررناه بعد هذا التفسير، وقيل ذلك عند نزول عيسى وخروج المهدي فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الاسلام، ويدل له بعض الأحاديث، فمنها حديث أبي هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«وتهلك في زمانه الملل كلها إلا الاسلام»[١].

وقال الشافعي: قد أظهر الله دين رسوله على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه انه الحق وما خالفه من الأديان باطل، وقيل قهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاميين حتى دانوابالاسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الأصنام وسبى حتى دان بعضهم بالاسلام، وأعطى بعضهم الجزية وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله.

وقيل المراد ظهوره على الدين كله في جزيرة العرب وقد حصل ذلك، فإنه تعالى ما أبقى فيها أحداً من الكفار، وقيل المراد أن يوقفه على جميع شرائع الدين ويطلعه عليها بالكلية حتى لا يخفى عليه منها شيء، وقيل المراد ظهوره على الدين كله بالحجة والبيان، وفيه ضعف لان هذا وعد بأنه تعالى سيفعله والتقوية بالحجة والبرهان كان حاصلاً من أول الامور.

﴿ولو كره المشركون﴾ الكلام فيه كالكلام في ﴿ولو كره الكافرون﴾ كما قدمنا ذلك ووصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله تعالى، وهذا آخر الآيـات التي أمر علي بالتأذين بها في موسم الحج.

﴿يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الاحبار والرهبان المتخذين لهم أرباباً، ذكر حال المتبوعين وبين إغواءهم لأراذلهم، قال الضحاك: يعني علماء اليهود والنصارى.

وفي قوله: ﴿ان كثيراً﴾ دليل على أن الاقل منهم لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولم يتلبسوا بذلك بل بقوا على ما يوجبه دينهم من غير تحريف ولا تبـديل ولا ميـل الى حطام الـدنيا، ولعلهم الـذين كانـوا قبـل مبعث النبي صـلى الله

(١) ابو داوود كتاب الملاحم باب ١٤.

عليه وسلم وعبر عن أخذ الاموال بالاكل لأن المقصود الاعظم من جمع المال الاكل، فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده، والباطل كتب كتبوها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾.

وقيل المعنى انهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة في تخفيف الاحكام والمسامحة في الشرائع، وقيل انهم كانوا يدعون عند العوام والحشرات انه لا سبيل لأحد الى الفوز بمرضاة الله تعالى الا بخدمتهم وطاعتهم وبذل الاموال في طلب مرضاتهم، والعوام كانوا يغترون بتلك الاكاذيب.

وقيل التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة ويحملونها على محامل باطلة وكانوا يأخذون الرشوة، وقيل كانوا يقررون عند عوامهم ان الدين الحق هو الذي هم عليه، فإذا قرروا ذلك قالوا وتقوية الدين الحق واجبة، ثم قالوا ولا طريق الى تقويته إلا اذا كان أولئك الفقهاء أصحاب الاموال الكثيرة والجمع العظيم، فبهذا الطريق يحملون العوام على أن يبذلوا في خدمتهم نفوسهم وأموالهم، فهذا هو الباطل الذي كانوا به يأكلون أموال الناس.

قال الرازي: وهي بأسرها حاضرة في زماننا وهو الطريق لأكثر الجهال والمزورين الى أخذ أموال العوام والحمقى من الخلق، انتهى.

ولقد اقتدى بهؤلاء الاحبار والرهبان من علماء الاسلام ومشايخه من لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، قال الرازي: ولعمري من تأمل في أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا وجد هذه الآيات كأنها ما أنزلت إلا في شأنهم، وفي شرح أحوالهم، فترى الواحد منهم يدعي انه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات، وأنه في الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين حتى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والدناءة في تحصيله انتهى، ولنعم ما قيل:

عجبت من شيخي ومن زهده وذكره النار وأهوالها
يكره ان يشرب في فضة ويسرق الفضة إن نالها

﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي عن الطريق اليه وهو دين الإسلام، وعن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعما كان حقاً في شريعتهم قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل.

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قيل هم المتقدم ذكرهم من الأحبار والرهبان وأنهم كانوا يصنعون هذا الصنع، قاله معاوية بن أبي سفيان، وقيل هم من يفعل ذلك من المسلمين قاله ابن عباس، وقال السدي: نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين، وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين جميعاً.

والاولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك، وأصل الكنز في اللغة الضم والجمع، ولا يختص بالذهب والفضة، قال ابن جرير: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الارض كان أو على ظهرها انتهى، ومنه ناقة كناز أي مكتنزة اللحم، يقال كنزت المال كنزاً من باب ضرب جمعته وادخرته، وكنزت التمر في وعائه كنزاً أيضاً وهذا زمن الكناز.

قال ابن السكيت: لم يسمع الا بالفتح، وحكى الأزهري الفتح والكسر، والكنز المال المدفون معروف تسمية بالمصدر والجمع كنوز، واكتنز الشيء اكتنازاً اجتمع وامتلأ ومال مكنوز أي مجموع.

واختلف أهل العلم في المال الذي أديت زكاته هل يسمى كنزاً أم لا فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز، ومن القائلين بالاول أبو ذر وقيده بما فضل عن الحاجة، وبالثاني عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم وهو الحق لما سيأتي من الادلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز.

أخرج أحمد في الزهد والبخاري وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في

سننه عن ابن عمر قال: إنما كان هذا قبل ان تنزل الزكاة، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للاموال ثم قال: ما أبالي لو كان عندي مثل أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعة الله، وعن أم سلمة مرفوعاً نحوه.

ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لأن الإعراض اختيار للأفضل، والاقتناء مباح لا يذم صاحبه.

وعن ابن عباس: لما نزلت هذه الآية انطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال: ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم، الحديث مختصراً أخرجه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي شيبة وأبو يعلى وغيرهم[١].

وعن علي قال: أربعة آلاف وما دونها نفقة، وما فوقها كنز، وعن أبي أمامة قال: حلية السيوف من الكنوز ما أحدثكم الا ما سمعت، وعن عراك ابن مالك وعمر بن عبد العزيز قالا نسختها الآية الأخرى ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها الا جعل له يوم القيامة صفائح ثم أحمى عليها في نار جهنم ثم تكوى بها جنباه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين الناس فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[٢].

﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ اختلف في وجه إفراد الضمير مع كون

---

(١) المستدرك كتاب الزكاة ١/٤٠٩.
(٢) مسلم ٩٨٧.

المذكور قبله شيئين هما الذهب والفضة فقال ابن الأنباري: أنه قصد إلى الأعم الأغلب وهو الفضة، قال ومثله قوله تعالى: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة﴾ رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم، ومثله قوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها﴾ أعاد الضمير الى التجارة لأنها الأعم، وقيل ان الضمير راجع إلى الذهب، والفضة معطوفة عليه والعرب تؤنث الذهب وتذكره.

وقيل الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله: ﴿يكنزون﴾ لأنه أعم من النقدين وغيرهما، وقيل إلى الأموال، وقيل إلى الزكاة: وقيل إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى وهو كثير في كلام العرب.

وقيل ان إفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونها أثمن الأشياء وغالب ما يكنز وان كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز.

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ هذا من باب التهكم بهم كما في قوله:

* تحية نبيهم ضرب وجيع *

وقيل ان البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتأثيره في القلب سواء كان من الفرح أو من الغم، وعن أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة» قال: فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم قال: «هم الأكثرون اموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم» الحديث مختصراً أخرجه مسلم وفرقه البخاري في موضعين[1].

---

(١) مسلم ٩٩٠ ـ البخاري ٧٧٥.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ
هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ
عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ أي أن النار توقد عليها وهي ذات حمى وحر شديد، ولو قال: يوم تحمى أي الكنوز لم يعط هذا المعنى، فجعل الاحماء للنار مبالغة، ويحمى يجوز أن يكون من حميت وأحميت ثلاثياً ورباعياً، يقال حميت الحديدة وأحميتها أي أوقدت عليها لتحمى، والتقدير يوم تحمى النار عليها وخص الجباه والجنوب والظهور لأن التألم بكيها أشد لما في داخلها من الاعضاء الشريفة.

وقيل ليكون الكي في الجهات الأربع من قدام وخلف وعن يمين ويسار، وقيل لان الجمال في الوجه والقوة في الظهر والجنبين والانسان إنما يطلب المال للجمال والقوة، وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف.

﴿هذا ما كنزتم لانفسكم﴾ أي كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه، ويقال لهم ذلك على طريق التهكم والتوبيخ ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي ذوقوا وباله وسوء عاقبته وقبح مغبته وشؤم فائدته، لأن الكنوز لا تذاق، وما بمعنى الذي، والآية عامة، وفي الباب أحاديث صحيحة توافق معنى هذه الآية لا نطول بذكرها.

﴿ان عدة الشهور﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك ان الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسيء والكبيسة، فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال ان عدة الشهور أي عدد الشهور المعتد بها للسنة.

﴿عند الله﴾ أي في حكمه وقضائه، وحكمته لا بابتداع الناس ﴿اثنا عشر شهراً﴾ هي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، فهذه شهور السنة القمرية التي تدور على سير القمر في المنازل، وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم، وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوم وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام، فبسبب هذا النقصان يقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف.

﴿في كتاب الله﴾ أي فيما أثبته في كتابه أي القرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر، وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلائق وما يأتون وما يذرون، وقيل المراد بالكتاب الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالأخذ به، وفي هذه الآية بيان ان الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف.

﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ أي منذ خلق الاجرام والأزمنة وبيان ان هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين وبعضها أكثر وبعضها أقل.

﴿منها أربعة حُرم﴾ أي محترمة قد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكرة ان النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال: «ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[١] والمعنى رجعت الاشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج الى ذي الحجة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسيء الذي أحدثوه في الجاهلية، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر قبلها في ذي القعدة.

واختلف في ترتيبها فقيل أولها المحرم وآخرها ذو الحجة فهي شهور عام، وقيل أولها رجب فهي من عامين، وقيل أولها ذو القعدة وهو الصحيح لتواليها، قاله النووي، وأورد عليه ابن المنير في تفسيره انه إنما يتمشى على أن أول السنة المحرم وهو حدث في زمن عمر رضي الله تعالى عنه، وكان يؤرخ قبله بعام الفيل ثم أرخ في صدر الإسلام بربيع الاول فتأمل.

وقال الضحاك: انما سمين حرماً لئلا يكون فيهن حرب.

قلت: وكانت العرب في الجاهلية تعظمها وتحرم فيها القتال حتى ان أحدهم لو لقي قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه في هذه الأربعة الأشهر لم يزعجه، ولما جاء الاسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيماً لان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف، والسيئآت فيها أشد من غيرها فلا تنتهك حرمة هذه الأشهر الحرم.

﴿ذلك الدين القيم﴾ أي كون هذه الشهور كذلك ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منها وقيل الحساب الصحيح والعدد المستوفى، وقيل الدين القيم هو الحكم

---

(١) مسلم، ١٦٧٩ ـ البخاري، ٥٩.

الذي لا يغير ولا يبدل ولا يزول.

﴿فلا تظلموا فيهن﴾ أي في هذه الاشهر الحرم ﴿أنفسكم﴾ بايقاع المعاصي فإنها فيها أعظم وزراً، وبايقاع القتال فيها والهتك لحرمتها، وبه قال أكثر المفسرين، وقيل ان الضمير يرجع الى الشهور كلها الحرم وغيرها وان الله نهى عن الظلم فيها والاول أولى.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية ولقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾ ولقوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ الآية.

وذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف، ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه.

وأما ما استدلوا به من أنه صلى الله عليه وسلم حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين وغيرهما فقد أجيب عنه بأنه لم يبتدىء محاصرتهم في ذي القعدة بل في شوال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع.

﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ أي جميعاً في كل الشهور لأن عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والازمنة والبقاع، وهو مصدر في موضع الحال من ضمير الفاعل في قاتلوا أو من المفعول وهو المشركين، قال الزجاج: مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع ولا تدخله أل ولا يتصرف فيه بغير الحال.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا
وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ
سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم
بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ فيه دليل على وجوب قتال المشركين وانه فرض على الاعيان ان لم يقم به البعض ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي ينصرهم ويثبتهم ومن كان الله معه فهو الغالب وله العاقبة.

﴿إنما النسيء﴾ قال الجوهري: النسيء فعيل بمعنى مفعول، من قولك نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته ثم تحول منسوء الى نسيء كما تحول مقتول إلى قتيل. وإلى ذلك نحا أبو حاتم، وقيل مصدر على فعيل من أنسأ أي أخر كالنذير من أنذر والنكير من أنكر، وهذا ظاهر قول الزمخشري لانه يحتاج إلى تقدير بخلاف ما إذا كان صفة فإنه لا يخبر عنه بزيادة إلا بتأويل أي ذو زيادة أو انساء النسيء زيادة. قال ابن جرير: في النسيء بالهمزة معنى الزيادة، يقال نسأ اذا زاد، ولا يكون بترك الهمزة الا من النسيان كما قال تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾.

وقرأ الجمهور النسيء بهمزة بعد الياء وغيرهم بإدغام الياء، وقرىء النسء بإسكان السين، والنسؤ بزنة فعول وهو التأخير، وفعول في المصادر قليل، والنسيئة كالفعيلة التأخير، وكذلك النساء بالفتح والمد التأخير، والنسيء في الآية فعيل بمعنى مفعول كما تقدم.

وكانت العرب تحرم القتال في الاشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا الى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم حرموا بدله شهر صفر وهكذا في غيره، وكان الذي يحملهم على هذا ان كثيراً منهم انما كانوا يعيشون بإغارة بعضهم على البعض، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الاشهر الثلاثة المسرودة يضربهم تواليها وتشتد حاجاتهم وتعظم فاقتهم، فيحلون بعضها ويحرمون مكانه بقدره من غير الاشهر الحرم. فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه.

وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك، فقيل هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عبيد ويلقب القلمس، وقيل هو عمرو بن لحي، وقيل هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة.

﴿زيادة في الكفر﴾ أي نوع من أنواع كفرهم ومعصية من معاصيهم المنضمة الى كفرهم بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وفي الشهاب يعني أنهم لما توارثوه على انها شريعة ثم استحلوه كان ذلك مما يعد كفراً.

﴿يضل به الذين كفروا﴾ قرىء على البناء للمعلوم والمجهول، ومعنى الاولى أن الكفار يضلون بما يفعلون من النسيء، ومعنى الثانية ان الذي سن لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة، والاولى من طريق العشرة، والثانية سبعية.

﴿يحلونه﴾ أي النسيء ﴿عاماً ويحرمونه عاماً﴾ أو الشهر الذي يؤخرونه ويقاتلون فيه، أي يحلونه عاماً بإبداله بشهر آخر من شهور الحل ويحرمونه عاماً أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال بل يبقونه على حرمته، والجملة تفسيرية للضلال أو حالية.

﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ أي لكي يواطئوا، والمواطأة الموافقة، يقال

تواطأ القوم على كذا أي توافقوا عليه واجتمعوا، والمعنى انهم لم يحلوا شهراً إلا حرموا شهراً لتبقى الأشهر الحرم أربعة، قال قطرب: معناه عمدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرم في التحريم، وكذا قال الطبري.

﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ من الاشهر الحرم التي أبدلوها بغيرها، ولم ينظروا الى أعيانها ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي زين لهم الشيطان أعمالهم السيئة التي يعملونها ومن جملتها النسيء فظنوه حسناً، وقرىء على البناء للفاعل ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي المصرين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم الى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والارشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض﴾ لما شرح معائب أولئك الكفار عاد الى ترغيب المؤمنين في قتالهم، والاستفهام في ﴿ما لكم﴾ للانكار والتوبيخ، أي أيّ شيء يمنعكم عن ذلك، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة بعد رجوعه من الطائف بعد الفتح بعام، وتبوك مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة عشرة مراحل، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث وبعضهم يصرفه على ارادة الموضع، فقد جاء في البخاري مصروفاً وممنوعاً منه، وقصة هذه الغزوة في سيرة الحلبي مفصلة.

والنَّفر هو الانتقال بسرعة من مكان الى مكان لأمر يحدث، يقال استنفر الامام الناس اذا حثهم على الخروج الى الجهاد ودعاهم اليه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «اذا استنفرتم فانفروا»(١)، والاسم النفير.

---

(١) مسلم ١٨٦٤.

واثاقلتم معناه تباطأتم وعدي بإلى لتضمنه معنى الميل والاخلاد، وقيل معناه ملتم الى الاقامة بأرضكم والبقاء فيها عن الجهاد، وقرىء أثاقلتم على الاستفهام ومعناه التوبيخ مع النفي.

﴿أرضيتم﴾ استفهام توبيخ وتعجيب ﴿بالحياة الدنيا﴾ أي بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها ونعيمها بدلاً ﴿من الآخرة﴾ كقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة﴾ أي بدلاً منكم ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة﴾ أي محسوباً في جنبها وفي مقابلتها، و﴿في﴾ هذه تسمى قياسية ﴿إلا قليل﴾ أي إلا متاع حقير لا يعبأ به لأن لذات الدنيا خسيسة في نفسها ومشوبة بالآفات والبليات، ومنقطعة عن قرب لا محالة، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن الآفات دائمة أبدية سرمدية وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة قليل.

ويجوز أن يراد بالقليل العدم إذ لا نسبة للمتناهي الزائل الى غير المتناهي الباقي والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من الكل إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطؤ والتثاقل، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل وهو كثير شائع، وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لأن الله سبحانه نص على ان تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر، فلو لم يكن منكراً لما عاتبهم على ذلك.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

ويؤيد هذا قوله: ﴿إلّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما﴾ أي يهلككم بعذاب شديد مؤلم، قيل في الدنيا فقط باحتباس المطر وغيره، وقيل هو أعم من ذلك لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة، قال الحسن وعكرمة:

هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ وقال الجمهور: هذه الآية محكمة لانها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس، وعلى هذا التقدير فلا نسخ، وفي الآية تهديد شديد ووعيد مؤكد لمن ترك النفر مع رسول الله ﷺ.

﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي يجعل لرسله بدلاً منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم اليهم ويكون خيراً منكم وأطوع، واختلف في هؤلاء القوم من هم فقيل أهل اليمن، وقيل أهل فارس، قاله سعيد بن جبير، ولا وجه للتعيين بدون دليل

﴿ ولا تضروه ﴾ أي الله بترك امتثال أمره بالنفير ﴿ شيئاً ﴾ لأنه غني عن العالمين أو لا تضروا رسول الله بترك نصره والنفير معه شيئاً فان الله ناصره على أعدائه ولا يخذله أبداً نفرتم أو اثاقلتم.

﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم .

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿إلّا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي ان تركتم نصره فالله متكفل به أعنتموه أو لا فقد نصره في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر أو فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي وقت اخراجهم إياه حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾ وقرىء بسكون الياء على لغة من يجري الناقص مجرى المقصور في الاعراب أي أحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه من غير اعتبار كونه ﷺ ثانياً فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الاعداد مطلقاً لا الثالث والرابع خاصة، ولذلك منع الجمهور ان ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة.

﴿اذ هما في الغار﴾ هو ثقب عظيم في الجبل المسمى ثوراً، وهو المشهور بغار ثور وهو جبل قريب من مكة وبينهما مسيرة ساعة ويجمع على غيران، والغار أيضا نبت طيب والجماعة والغاران البطن والفرج، وألف الغار منقلبة عن واو، وقصة خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار ومكثهما فيه ثلاثاً مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث، وسياق حديث الهجرة من أفراد البخاري وهو طويل جداً.

﴿إذ يقول لصاحبه﴾ أي وقت قوله لابي بكر ﴿لا تحزن﴾ أي دع الحزن ﴿ان الله﴾ بنصره وعونه وتأييده وعصمته وحفظه وولايته ومعونته وتسديده

﴿معنا﴾ والمراد بالمعية المعية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن، وما هو المشهور من اختصاص «مع» بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية في الأمر المباشر، قاله أبو السعود، وقال الخفاجي: انها معية مخصوصة والا فهو مع كل أحد اهـ.

والمعنى من كان الله معه فلن يغلب ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن وذلك ان أبا بكر خاف من الطلب[1] أن يعلموا بمكانهم، فجزع من ذلك وكان حزنه على رسول الله ﷺ لا على نفسه وقال: إذا أنا مت فانا رجل واحد وإذا مت أنت هلكت الأمة والدين.

أخرج الشيخان عنه رضي الله عنه قال: نظرت الى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[2] وزاد البزار والطبراني والبيهقي في الدلائل عن أنس والمغيرة بن شعبة فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه.

قال النووي: هو داخل في قوله سبحانه: ﴿ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وفيه بيان عظيم توكل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجل مناقبه، وقال الشعبي: عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر.

وقال الحسن بن الفضل: من قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن، وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر: أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار[3]، أخرجه الترمذي، وقال حديث صحيح حسن غريب، وعبارة أبي

---

(١) وهم رجال اقتصوا أثر الرسول يطلبون رده إلى قريش.
(٢) مسلم ٢٣٨١ ـ البخاري ١٧١٦.
(٣) الترمذي كتاب المناقب باب ١٦.

السعود وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضي الله تعالى عنه وسابقة صحبته ما لا يخفى اهـ.

وفي الكشاف: وقالوا من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لانكاره كلام الله، وليس ذلك لسائر الصحابة، وقيل انه ليس بمنصوص عليه فيها بل المنصوص عليه أن له ثانياً هو صاحبه فيه، فانكار ذلك يكون كفراً لا انكار صحبته بخصوصه، ولذا قال قالوا فجعل العهدة فيه على غيره، وفيه نظر، قاله الخفاجي، وقد استنبط أهل العلم من هذه الآية وجوهاً كثيرة على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه يطول ذكرها.

﴿فأنزل الله سكينته﴾ هي تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الأمن على أن الضمير في ﴿عليه﴾ لأبي بكر، وبه قال ابن عباس وأكثر المفسرين، وقيل هو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له.

ويؤيد كون الضمير في ﴿عليه﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم الضمير في ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ فانه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة في الغار يحرسونه ويسكنون روعه ويصرفون أبصار الكفار عنه كما كان في يوم بدر، وقيل انه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿عليه﴾ الى أبي بكر، ومن ﴿وأيده﴾ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فان ذلك كثير في القرآن وفي كلام العرب.

﴿وجعل كلمة الذين كفروا﴾ أي كلمة الشرك وهي دعوتهم اليه ونداؤهم للاصنام أو كل ما يدل على الشرك أو المراد بها عقيدة الشرك أي الكفر مطلقاً بسائر أنواعه، أقوال للمفسرين ﴿السفلى﴾ المغلوبة إلى يوم القيامة ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ في ضمير الفصل أعني هي تأكيد لفضل كلمته في العلو، وانها المختصة به دون غيرها، والمراد بها كلمة التوحيد والدعوة الى الاسلام، فهي ظاهرة غالبة باقية الى يوم القيامة عالية ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب.

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وضرب له من الامثال ما ذكره، عقبه بالأمر بالجزم فقال: ﴿انفروا﴾ حال كونكم ﴿خفافاً وثقالاً﴾ أي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيهما فقيل المراد منفردين أو مجتمعين، وقيل نشاطاً وغير نشاط، وقيل فقراء وأغنياء وقيل شباباً وشيوخاً، وقيل ركباناً ومشاة رجالاً وفرساناً، وقيل من سبق إلى الحرب كالطلائع ومن يتأخر كالجيش.

وقيل أهل الميسرة وأهل العسرة، وقيل مقلين من السلاح ومستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل، وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزاباً ومتأهلين، وقيل خفافاً من الحاشية والأتباع وثقالاً مستكثرين منهم، وقيل مسرعين في الخروج إلى الغزو ساعة سماع النفير وبعد التروي فيه والاستعداد له، وقيل غير ذلك.

ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني، لأن معنى الآية انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت، فالاولى أن هذا عام لكل الاحوال فيهما، والامر محمول على الوجوب.

قال السدي: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا

على المرضى﴾ وقيل الناسخ لها قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ الآية. قاله ابن عباس.

وقيل الأمر محمول على الندب وهي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج﴾ وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ من باب التخصيص لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خفافاً وثقالاً﴾ والظاهر عدم دخولهم تحت العموم، ويدل عليه ان هذه الآية نزلت في غزوة تبوك وأن النبي صلى الله عليه وسلم خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فذلك دل على أن الجهاد من فروض الكفايات ليس على الأعيان.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والاموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والاغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من أكبر الفرائض وأعظمها، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه، فإن كان لا يقوم بالعدو الا جميع المسلمين في قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين.

﴿ذلكم﴾ أي ما تقدم من الأمر بالنفير والامر بالجهاد ﴿خير لكم﴾ عظيم في نفسه وخير من السكون والدعة ﴿ان كنتم تعلمون﴾ ذلك وتعرفون الاشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة فافعلوه.

ونزل في الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿لو كان﴾ المدعو اليه أو ما تدعوهم اليه ﴿عرضاً﴾ هو ما يعرض من منافع الدنيا ومتاعها، يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر، والفاجر ﴿قريباً﴾ والمعنى غنيمة سهلة قريبة التناول غير بعيدة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي متوسطاً بين القرب والبعد، وكل

متوسط بين الافراط والتفريط فهو قاصد ﴿لاتَّبعوك﴾ أي لوافقوك في الخروج ولخرجوا معك طمعاً في تلك المنافع التي تحصل لهم ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ قال أبو عبيدة وغيره: إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة، يقال منه شقة وشاقة، والشقة المسافة التي تقطع بمشقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب والشقة أيضاً السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر فهي مشتقة من المشقة كما في السمين، والمراد بها غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة وكانوا يستعظمون غزو الروم، لا جرم تخلفوا بهذا السبب.

﴿وسيحلفون﴾ أي المتخلفون عن غزوة تبوك، وأتى بالسين لأنه من قبيل الإخبار بالغيب فإن الله أنزل هذه الآية قبل رجوعه من تبوك أي سيحلفون ﴿بالله﴾ اعتذاراً عنه حال كونهم قائلين ﴿لو استطعنا﴾ أي لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج اليه فيه مما لا بد منه، وقيل: لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما حسبما عنَّ لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله: ﴿لخرجنا معكم﴾ ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعاً وقد وقع حسبما أخبر به وهو من جملة المعجزات الباهرة.

وقوله: ﴿يهلكون أنفسهم﴾ بدل من قوله: ﴿سيحلفون﴾ لأن من حلف كذباً فقد أهلك نفسه، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع» أو يكون حالاً أي مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك بسبب هذه الأيمان الكاذبة ﴿والله يعلم انهم لكاذبون﴾ في حلفهم الذي سيحلفون به لك لأنهم كانوا مستطيعين للخروج.

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ الاستفهام للانكار من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث وقع منه الاذن لمن استأذنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه، وفي ذكر العفو عنه صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن هذا الاذن الصادر منه كان خلاف الاولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه، وقيل ان هذا عتاب له صلى الله عليه وآله وسلم في إذنه للمنافقين بالخروج معه لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج، قاله الطبري والاول أولى.

وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فَأْذن لمن شئت منهم﴾ ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الاذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب، والاذن هنالك متوجه الى الاذن بعد الاستثبات والله أعلم.

وقيل إن قوله: ﴿عفا الله عنك﴾ افتتاح كلام كما تقول أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا وكذا، حكاه مكي والنحاس والمهدوي، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على ﴿عفا الله عنك﴾ وعلى التأويل الاول لا يحسن، ولا يخفاك أن التفسير الاول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي.

وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم والمسألة

مدونة في الاصول، وفيها أيضاً دلالة على مشروعيـة الاحتراز عن العجلة والاغترار بظواهر الامور.

وقال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ باجتهاده لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين في التخلف، وأخذه الفداء من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون، قال سفيان بن عيينة: انظر هذا التلطف به، بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.

و﴿حتى﴾ في قوله: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ للغاية، كأنه قيل لم سارعت الى الاذن لهم، وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه، وكذب من هو كاذب منهم في دعواه، قال ابن عباس: لم يكن يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنافقين يومئذ حتى نزلت سورة براءة.

ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد، بل كان من عادتهم أنه صلى الله عليه وسلم اذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك فقال: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ وهذا على أن معنى الآية أن لا يجاهدوا وقيل المعنى لا يستأذنك في التخلف كراهة الجهاد، وقيل ان معنى الاستئذان في الشيء الكراهة.

وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد بل دأبهم أن يبادروا اليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الاذن منك فضلاً أن يستأذنوك في التخلف، فحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مظنة للتأني في أمرهم بل دليلاً على نفاقهم ﴿والله عليم بالمتقين﴾ الذين لم يستأذنوا.

﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿انما يستأذنك﴾ في القعود عن الجهاد والتخلف عنه من غير عذر، وكذا يقال فيما بعده ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ وهم المنافقون وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً، وذكر الايمان بالله أولاً ثم باليوم الاخر ثانياً في الموضعين لانهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله ﴿وارتابت قلوبهم﴾ جاء بالماضي للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم وهو الشك فإذا دخلها الشك كان ذلك نفاقاً.

﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ أي في شكهم الذي حل بقلوبهم يتحيرون، والتردد التحير، والمعنى فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين، بل كانوا مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب ولا يعرفون الحق، والآيـة محكمة كلها، وقال ابن عباس: نسختها الآية التي في سورة النور ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾ فجعل الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعلى النظرين في ذلك من غزا غـزا في فضيلة، ومن قعد قعد في غير حرج إن شاء الله.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي لو كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من انهم يريدون الجهاد معك ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاجون اليه لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام انهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو، والعدة ما يحتاج اليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾ الاستدراك هنا يحتاج إلى تأمل،

فلذلك قال الزمخشري: ما حاصله ولكن كره الله خروجهم فثبطوا عن الخروج فيكون المعنى ما خرجوا ولكن ثبطوا لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانبعاث الخروج أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم وكسلهم لأنهم قالوا إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين.

وقيل المعنى لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لكراهة الله له، وعلى هذا فهو استدراك على نفس المقدم على نهج ما في الأقيسة الاستثنائية، وكان في خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبر عنها بقوله الآتي ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾ وأما عتاب الله لرسوله بقوله ﴿لم أذنت لهم﴾ فإنه أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم، فلهذا السبب عاتبه، وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى اليه في أمرهم بالقعود.

﴿وقيل اقعدوا﴾ والقائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة، وقيل قاله بعضهم لبعض، وقيل قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً عليهم، وقيل هو عبارة عن الخذلان أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم، وقال السيوطي: أي قدر الله ذلك أي القعود يعني فلا قول بالفعل لا من الله ولا من النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿مع القاعدين﴾ أي مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان وفيه من الذم لهم والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿لو خرجوا﴾ شروع في بيان المفاسد التي تترتب على خروجهم، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن تخلف المنافقين، ومعنى ﴿فيكم﴾ في جيشكم أو (في) بمعنى مع أي معكم ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾ هو الشر والفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف، وأصله اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون، قيل هذا الاستثناء منقطع أي ما زادوكم قوة، ولكن طلبوا الخبال وليس بذاك لأنه لا يكون مفرغاً، قاله الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود.

قال الخفاجي: وفيه بحث لأنه لا مانع منه إذا دلت القرينة عليه، كما إذا قيل ما أنيسك في البادية؟ فقلت ما لي بها إلا اليعافير، أي ما لي أنيس إلا هذه، انتهى.

وقيل المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون فيه من الرأي إلا خبالاً، فيكون متصلاً، وقيل قوله استثناء من أعم العام أي ما زادوكم شيئا الا خبالاً فيكون الاستثناء من قسم المتصل لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ الايضاع سرعة السير، يقال أوضع البعير إذا أسرع السير، وقيل هو سير الخبب، وأوضع يستعمل لازماً كما في القاموس ومتعدياً كما في المختار، والخلة الفرجة بين الشيئين والمفرد خلل، والجمع الخلال كجمل وجمال أي الفرج التي تكون بين الصفوف.

والمعنى على الأول لسعوا بينكم بـالإفساد بمـا يختلقونـه من الأكاذيب المشتملة على الأرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذوات البين، وعلى الثاني أسرعوا ركائبكم بينكم بالنميمة، وفيه استعارة تخييلية ومكنية، وقيل إنه استعارة تبعية شبه سرعة إفسادهم لذات البين بالنميمة بسرعة سير الركائب المسماة بالايضاع وهو إسراع سير البعير، ثم استعير لسرعة الافساد لفظ الايضاع وهو للابل ثم اشتق منه أوضعوا وأصل الاستعارة ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم، ثم حذف النمائم وأقيم المضاف اليه مقامها لدلالة سياق الكلام على أن المراد النميمة ثم حذف الركائب، قاله الطيبي كما ذكره زكريا.

﴿يبغونكم﴾ يقال بغيته كذا طلبته له وأبغيته كذا أعنته على طلبـه، والمعنى يطلبون لكم ﴿الفتنة﴾ أي ما يفتنون به في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والافساد، وقولهم للمؤمنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم، ونحو ذلك من الاحـاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل، وقيل الفتنة العيب والشر، وقيل الفتنة هنا الشرك.

﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي والحال أن فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله اليكم، فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم والفساد لأحوالكم، قال مجاهد: معناه محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين وهم عيون للمنافقين. انتهى. فعلى هذا يكون المراد فيكم جواسيس منهم يسمعون لهم الاخبار منكم فاللام على الاول للتقويـة، وعلى الثـاني للتعليل أي لاجلهم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم وكره انبعاثهم معكم.

ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقدم من عتابه على الاذن لهم في التخلف، لانه سارع الى الاذن لهم ولم يكن

قد علم من أحوالهم لو خرجوا انهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب صلى الله عليه وسلم على تسرعه إلى الاذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ الآية.

وقال في سورة الفتح ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها﴾ إلى قوله: ﴿قل لن تتبعونا﴾ وفي الآية وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم، قال أبو السعود: ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين.

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي لقد طلبوا الافساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها، كما وقع من عبدالله بن أبيّ وغيره يوم أحد حيث انصرف بأصحابه عنك، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي صرفوها من وجه إلى وجه ودبروا لك الحيل والمكايد، وردوا الآراء في إبطال أمرك وتقليب الأمر تصريفه من أمر إلى أمر وترديده لأجل التدبير والاجتهاد في المكر والحيلة، ومنه قول العرب للرجل حوَّل وقلب إذا كان دائراً حول المكايد والحيل يدبر الرأي فيها ويتدبره، وقرىء بالتخفيف.

﴿حتى جاء الحق﴾ أي إلى غاية هي مجيء الحق وهو النصر لك والتأييد، وقيل الحق القرآن ﴿وظهر أمر الله﴾ بإعزاز دينه وإعلاء شريعته وقهر أعدائه ﴿وهم كارهون﴾ لمجيء الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ ومنهم ﴾ أي من المنافقين ﴿ من يقول ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ائذن لي ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿ ولا تفتني ﴾ أي لا توقعني في الفتنة أي المعصية والاثم إذا لم تأذن لي فتخلفت بغير إذنك ، وقيل معناه لا توقعني في الهلكة بالخروج .

عن ابن عباس قال: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج الى غزوة تبوك قال للجدّ بن قيس: يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الاصفر؟ فقال: يا رسول الله اني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن، فأْذن لي ولا تفتني، فأنزل الله ﴿ومنهم من يقول ائذن لي﴾ الآية[1].

﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي في نفس الفتنة، وهي فتنة التخلف عن الجهاد والاعتذار الباطل، والمعنى انهم ظنوا انهم بالخروج أو بترك الاذن لهم يقعون في الفتنة وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة، وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة.

ثم توعدهم على ذلك فقال: ﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصاً، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الاحوال، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على

---

(١) ابن كثير ٢/ ٣٦١.

الجملة السابقة داخل تحت التنبيه، وقصة تبوك مذكورة في كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها. ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ أي حسنة كانت بأي سبب اتفق كما يفيده وقوعها في حيز الشرط وكذلك القول في المصيبة وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيده السياق دخولاً أولياً.

فمن جملة ما يصدق عليه الحسنة الغنيمةوالظفر، ومن جملة ما يصدق عليه المصيبة الخيبة والانهزام، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم والاخبار بعظم عدواتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على انهم قد بلغوا في العداوة الى الغاية.

﴿وان تصبك مصيبة﴾ أي هزيمة أو شدة كما تقدم، وقابل الله هنا الحسنة بالمصيبة ولم يقابلها بالسيئة كما قال في سورة آل عمران ﴿وان تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ لأن الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم وهي في حقه مصيبة يثاب عليها لا سيئة يعاتب عليها، والتي هناك خطاب للمؤمنين. قاله الشهاب.

﴿يقولوا﴾ أي المنافقون حامدين لرأيهم ﴿قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم واعتزلنا عنهم، وقعدنا عن الحرب، فلم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ أي رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين وبما صنعوا من أخذ الأمر، وبما أصابه صلى الله عليه وآله وسلم، والجملة حال من الضمير في يقولوا ويتولوا لا من الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معاً.

قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ
قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيب عليهم فقال: ﴿قل﴾ لهم بياناً لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ في اللوح المحفوظ أو في كتابه المنزل علينا، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن وان كل ما ناله من خير أو شر انما هو بقدر الله وقضائه، هانت عليه المصائب ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة.

﴿هو مولانا﴾ أي ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الأديان ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ الفاء سببية والأصل ليتوكل قدم الظرف على الفعل لإفادة القصر، ثم أدخلت الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل كما في قوله: ﴿واياي فارهبون﴾ والتوكل على الله تفويض الأمور اليه والمعنى ان من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم في جميع أمورهم مختصاً بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره.

﴿قل هل تربصون بنا﴾ أي هل تنتظرون أيها المنافقون أن يقع بنا ﴿إلا إحدى﴾ الخصلتين ﴿الحسنيين﴾ إما النصرة والغنيمة أو الشهادة والمغفرة وكلاهما مما يحسن لدينا، والحسنى تأنيث الأحسن ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ، وهذا ايضاح وكشف لقوله إلا ما كتب الله لنا.

﴿ونحن نتربص بكم﴾ احدى المساءتين لكم من العـواقب إما ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ أي قارعة نازلة من السماء كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة فيسحتكم بعذابه ﴿أو﴾ بعذاب لكم ﴿بأيدينا﴾ أي بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والاسر والنهب والسبي، والفاء في ﴿فتربصوا﴾ فصيحة والأمر للتهديد كما في قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا ﴿إنا﴾ أي نحن ﴿معكم متربصون﴾ ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوءكم.

﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، والتقدير ان أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم، وقيل هو أمر في معنى الخبر أي أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم فهو كقوله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ وفيه الاشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول.

وانتصاب طوعاً وكرهاً على الحال فهما مصدران في موقع المشتقين أي انفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما، وليس المراد بالطوع الرغبة لقوله الآتي: ﴿إلا وهم كارهون﴾ أي لا رغبة لهم وسمى الأمر منهما اكـراهاً لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر فكانوا بأمرهم الذي لا يأتمرون به كالمكرهين على الانفاق أو طائعين من غير اكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم، قال الخطيب: وهذه الآية وان كانت خاصة في انفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه ﴿انكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لعدم قبول انفاقهم، والفسق هنا التمرد والعتو وقد سبق بيان الفسق لغة وشرعا.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال: ﴿وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله وبرسوله﴾ استثناء من أعم الاشياء أي ما منعهم من قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم بهما، جعل المانع من القبول ثلاثة أمور.

الاول: الكفر.

والثاني ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي أنهم لا يصلون في حال من الاحوال إلا في حال الكسل والتثاقل لانهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظاهراً بالاسلام الذي يبطنون خلافه والثالث انهم ﴿لا ينفقون﴾ أموالهم ﴿إلا وهم كارهون﴾ ولا ينفقونها طوعاً لانهم يعدون انفاقها وضعاً لها في مضيعة لعدم ايمانهم بما وعد الله ورسوله.

لا يقال ان الكفر سبب مستقل لعدم القبول، فما وجه التعليل بمجموع الأمور الثلاثة وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره أثر، لأن هذا إنما يتوجه على قول المعتزلة القائلين بأن العلل مؤثرة في الحكم، وأما أهل السنة فانهم يقولون هذه الاسباب معرفة غير موجبة للثواب ولا للعقاب، واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد جائز، قاله الشهاب.

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ الاعجاب بالشيء ان تسر به سرور راض به متعجب من حسنه، قيل مع نوع من الافتخار به واعتقاد انه ليس لغيره ما يساويه، وهذا المعنى انما يناسب في اعجاب الشخص بمال نفسه، يقال

أعجب بماله أو ولده أي فرح به واغتر به، وما هنا في اعجاب المرء بمال غيره، والمعنى عليه لا تستحسن ما معهم من الاموال والاولاد ولا تحمدها ولا تخبر برضاك بها فهي استدراج، وقيل يقال في الاستحسان أعجبني بالالف، وفي الذم والانكار عجبت، وزان تعبت، وهذا الخطاب وان كان مختصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم لكن يعم جميع المؤمنين.

﴿انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ بما يحصل معهم من الغم والحزن عند ان يغنمها المسلمون ويأخذوها قسراً من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرة أعينهم أو بما يلقون في جمعها من المشقة والمتاعب، وفيها من المصائب، ومنه قول العرب بلوغ الآمال في ركوب الاهوال.

والمؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة، وانه يثاب بالمصائب الحاصلة في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عـذاباً في الدنيا، وأما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له ولا ان له فيها ثواباً فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا، فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافق في الدنيا دون المؤمن، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها والتصدق بما يحق التصدق به.

وقيل في الكلام تقديم وتأخير والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم المنافقون فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون.

﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ الزهوق الخروج بصعوبة والمعنى ان الله يريد أن يزهق أنفسهم ويخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة، قال الزمخشري: والمراد الاستدراج بالنعم كقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ كأنه قيل ويريد أن يديم عليهم نعمه إلى أن يموتوا وهم كافرون مشغولون بالتمتع عن النظر للعاقبة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين فقال: ﴿ويحلفون بالله انهم لمنكم﴾ أي من جملتكم في دين الاسلام والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتاب الله سبحانه ﴿وما هم منكم﴾ في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبي فيظهرون لكم الاسلام تقية منهم لا عن حقيقة.

﴿لو يجدون ملجأً﴾ أي مكاناً يلتجئون اليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو رأس جبل أو قلعة أو جزيرة، والملجأ يصلح للمصدر والزمان والمكان والظاهر منها هنا المكان، قال ابن عباس: الملجأ الحرز في الجبال وقيل حصناً ومعقلاً ﴿أو مغارات﴾ جمع مغارة من غار يغير.

قال الأخفش: ويجوز أن يكون من أغار يغير، والمغارات الغيران والسراديب وهي المواضع التي يستتر فيها، ومنه غار الماء وغارت العين، والمغارة هي المكان المنخفض في الأرض أو في الجبل. والغور من كل شيء قعره والغور المطمئن من الأرض، وغار الرجل غوراً أتى الغور وأغار بالألف مثله، والغار والمغار والمغارة كالكهف في الجبل، والكهف كالبيت في الجبل، وقيل المغارة السرب في الأرض كنفق اليربوع، والغار الثقب في الجبل.

وهذا من أبدع النظم، ذكر أولاً الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر الغيران التي يختفى فيها في أعلى الأماكن وهي الجبال ثم الأماكن

التي يختفى فيها في الأكن السافلة وهي السروب، وهي التي عبر عنها بالمدخل، والمعنى لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هرباً منكم.

﴿أو مدخلاً﴾ من الدخول أي مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات. قال ابن عباس: المدخل السرب كنفق اليربوع، وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لَّوَلَّوْاْ اليه﴾ أي لالتجأوا اليه وأدخلوا أنفسهم فيه، وقيل المعنى لو كانوا يجدون مهرباً لهربوا اليه أو قوماً يأمنون عندهم على أنفسهم لصاروا اليهم ولفارقوكم.

﴿وهم يجمحون﴾ أي والحال انهم يسرعون إسراعاً الى ذلك المكان لا يردهم شيء، من جمح الفرس براكبه يجمح إذا لم يرده اللجام واستعصى عليه حتى غلبه فهو جموح وجامح يستوي فيه المذكر والمؤنث، وحاصل المعنى لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة وهي شر الأمكنة وأضيقها لولوا اليه مسرعين، هرباً من المسلمين لشدة بغضهم إياهم تستراً عنهم واستكراهاً لرؤيتهم.

﴿ومنهم من يلمزك﴾ هذا ذكر نوع آخر من قبائحهم، واللمز بمعنى العيب كما قال النحاس والجوهري يقال: لمزه يلمزه إذا عابه، وأصله الاشارة بالعين ونحوها، ورجل لماز ولمزة أي عياب فهو أخص من الغمز إذ هو الإشارة بالعين ونحوها، سواء كان على وجه الاستنقاص أو لا، وأما اللمز فهو خاص بكونه على وجه العيب.

وقال الزجاج: لمزت الرجل ألمزه وألمزه بكسر الميم وضمها اذا عبته وكذا همزته وروي عن مجاهد أنه قال: معنى يلمزك يرزؤك ويسألك، والقول عند أهل اللغة هو الأول.

وقال الأزهري: أصله الدفع، يقال لمزته أي دفعته، وقال الليث هو الغمز في الوجه، ومنه همزة لمزة أي كثير هذين الفعلين، وقرىء يلمزك بكسر العين مع التشديد وضمها وهما لغتان في المضارع.

ومعنى الآية ومن المنافقين من يعيبك ﴿في الصدقات﴾ أي الزكوات أو الغنائم وتفريقها وقسمتها.

﴿ فإن أعطوا منها ﴾ أي من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿ رضوا ﴾ بما وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعيبوه، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا وليسوا من الدين في شيء ﴿ وان لم يعطوا منها ﴾ ما يريدونه ويطلبونه ﴿اذا هم يسخطون ﴾ أي فاجئوا السخط، وفائدة اذا الفجائية أن الشرط مفاجىء للجزاء وهاجم عليه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي ما فرضه الله لهم وقسمه وما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات، وقيل ذكر الله للتّعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره تعالى، والأصل ما آتاهم الرسول، وجواب لو محذوف أي لكان خيراً لهم، فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل.

﴿وقالوا﴾ عند أن أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو لهم ﴿حسبنا﴾ أي كفانا ﴿الله سيؤتينا﴾ أي سيعطينا ﴿الله من فضله و﴾ يعطينا ﴿رسوله﴾ بعد هذا ما نرجوه ونؤمله ﴿انا الى الله راغبون﴾ فهاتان الجملتان كالشرح لقولهم ﴿حسبنا الله﴾ فلذلك لم يتعاطفا لأنهما كالشيء الواحد، فشدة الاتصال منعت العطف. قاله الكرخي.

وقد أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً اذ جاءه ابن ذي الخويصرة التيمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويحك ومن يعدل اذا لم أعدل، فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فأضرب عنقه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1] الحديث حتى قال: وفيهم نزلت هذه الآية.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين سمعت رجلاً يقول: ان هذه القسمة ما أريد بها الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وذكرت ذلك له فقال: «رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» ونزل يعني هذه الآية.

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب ٦١.

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾

﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ لما لمز المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات، بين الله لهم مصرفها دفعاً لطعنهم وقطعاً لشغبهم و﴿انما﴾ من صيغ القصر، وتعريف الصدقات للجنس، أي جنس هذه الصدقات مقصورة على هذه الأصناف الثمانية المذكورة لا يتجاوزها بل هي لهم لا لغيرهم، ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء منها، ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً.

وقد اختلف العلماء هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الاصناف الثمانية أو يجوز صرفها الى البعض دون البعض على حسب ما يراه الامام أو صاحب الصدقة، فذهب الى الأول حذيفة والشافعي وجماعة من أهل العلم، وذهب الى الثاني مالك وأبو حنيفة وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران.

قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، احتج الأولون بما في الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك[1].

وأجاب الآخرون بأن ما في الآيه من القصر انما هو لبيان الصرف

(١) الدارقطني كتاب الزكاة ٢/١٣٧.

والمصرف لا لوجوب استيعاب الأصناف، وبان في اسناد الحديث: عبد الرحمن ابن زياد ابن أنعم الافريقي وهو ضعيف.

ومما يؤيد ما ذهب اليه الآخرون قوله تعالى: ﴿إن تبدو الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم[1].

وقد ادعى مالك الاجماع على القول الآخر. قال ابن عبد البر: يريد اجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفاً منهم وقدم الفقراء لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم.

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال، فقال يعقوب ابن السكيت والقتيبي ويونس بن حبيب: ان الفقير أحسن حالاً من المسكين. قالوا لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذي لا شيء له، وذهب الى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة.

وقال آخرون بالعكس فجعلوا المسكين أحسن حالاً من الفقير، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين﴾ فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر وربما ساوت جملة من المال ويؤيده تعوذ النبي ﷺ من الفقر مع قوله: «اللهم احيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» والى هذا ذهب الاصمعي وغيره من أهل اللغة وحكاه الطحاوي عن الكوفيين وهو أحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه. وقال قوم ان الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولي الشافعي واليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك وبه قال أبو يوسف.

وقال قوم: الفقير المحتاج المتعفف والمسكين السائل، قاله الازهري

---

(١) الإمام احمد ٥/٣٦٩.

واختاره ابن شعبان وهو المروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة.

وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتد بها.

والاولى في بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً»(١).

﴿والعاملين عليها﴾ أي السعاة والجباة الذين يبعثهم الامام لتحصيل الزكاة فإنهم يستحقون منها قسطاً. واختلف في القدر الذي يأخذونه منها فقيل الثمن روي ذلك عن مجاهد والشافعي، وقيل على قدر أعمالهم من الاجرة، روي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه، وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم، روي ذلك عن مالك ولا وجه لهذا، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيباً من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها.

واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشمياً أم لا؟ فمنعه قوم وأجازه آخرون، قالوا: ويعطى من غير الصدقة ولا ينحصر العامل في الساعي والجابي، اذ منه القاسم والكاتب الذي يكتب ما أعطاه أرباب الاموال، والحاشر الذي يجمع المستحقين والعريف والحاسب.

﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم قوم كانوا في صدر الاسلام فقيل هم الكفار الذين كان النبي ﷺ يتألفهم ليسلموا وكانوا لا يدخلون في الاسلام بالقهر والسيف بل بالعطاء، وقيل هم أسلموا في الظاهر ولم يحسن اسلامهم فكان رسول الله ﷺ يتألفهم بالعطاء، وقيل هم من أسلم من اليهود والنصارى.

وقيل هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع أعطاهم النبي صلى الله عليه

---

(١) مسلم ١٠٣٩ ـ البخاري ٧٨٨.

وسلم ليؤلفوا أتباعهم على الاسلام، وقد أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة ممن أسلم ظاهراً كأبي سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل ابن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، أعطى كل واحد منهم مائة من الابل يؤلفهم بذلك وأعطى آخرين دونهم.

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الاسلام أم لا فقال عمر والحسن والشعبي: قد انقطع هذا الصنف بعزة الاسلام وظهوره، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي، وقد ادعى بعض الحنفية ان الصحابة أجمعت على ذلك وقد صار اليه الروياني وجماعة، وقال جماعة من العلماء منهم الشافعي وهو الموافق لظاهر الآية ان سهمهم باق لان الامام ربما احتاج أن يؤلف على الاسلام، وانما قطعهم عمر لما رأى من اعزاز الدين، وبه أفتى الماوردي في كتابه الاحكام السلطانية، قال يونس: سألت الزهري عنهم فقال: لا أعلم نسخ ذلك وعلى القول الاول يرجع سهمهم لسائر الاصناف.

ومن المؤلفة قلوبهم كفار يخاف شرهم بحيث لو أعطوا لانكف شرهم وهذا لا يعطى من زكاة ولا من غيرها باتفاق ومنهم من يذب عن المسلمين ومنهم من يقاتل من يليهم ويجاورهم من مانعي الزكاة ويقبض زكاتهم، فتلخص ان المؤلفة أقسام، وفي هذه الاقسام أقوال ذكرها في الجمل.

﴿وفي الرقاب﴾ أي مصروفة في فكها بأن يشتري رقاباً ثم يعتقها، روي ذلك عن ابن عباس وابن عمر، وبه قال مالك وأحمد بن حنبل واسحاق وأبو عبيد وقال الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد: انهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة وهو قول الشافعي وأكثر الفقهاء وأصحاب الرأي، ورواية عن مالك، وبه قال سعيد بن جبير والضحاك والزهري والليث.

ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾

والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعاً لصدق الرقاب على شراء العبد واعتاقه، وعلى اعانة المكاتب على مال الكتابة.

﴿والغارمين﴾ هم الذين ركبتهم الديون ولا وفاء عندهم بها، ولا خلاف في ذلك إلا من لزمه دين في سفاهة فانه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب وقد أعان النبي صلى الله عليه وسلم من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى اعانته منها، وقال السيوطي: ولإصلاح ذات البين ولو أغنياء إذا استدانوه لذلك، وأصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق على النفس وسمي الدين غرماً لكونه شاقاً على الإنسان ومنه قيل للعشق غرام ويعبر به عن الهلاك في قوله تعالى: ﴿ان عذابها كان غراماً﴾ وغرامة المال فيه مشقة عظيمة.

﴿وفي سبيل الله﴾ هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم وان كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء وقال ابن عمر: هم الحجاج والعمار، وروي عن أحمد واسحاق انهما جعلا الحج من سبيل الله، وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيراً منقطعا به، وقيل ان اللفظ عام فلا يجوز قصره على نوع خاص، ويدخل فيه جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك والأول أولى لاجماع الجمهور عليه.

﴿وابن السبيل﴾ هو المسافر، والسبيل الطريق ونسب اليها المسافر لملازمته إياها، والمراد الذي انقطعت به الاسباب في سفره عن بلده ومستقره فإنه يعطى منها وان كان غنياً في بلده، وان وجد من يسلفه، وقال مالك: إذا وجد من يسلفه فلا يعطى، وقال قتادة: هو الضعيف، وقال فقهاء العراق: هو الحاج المنقطع في سفره والأول أولى.

أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة العامل عليها أو الرجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز

في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغني[1].

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي عن عبدالله بن عدي بن الخيار قال: أخبرني رجلان أنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين فقال: ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب[2].

﴿فريضة من الله﴾ مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿انما الصدقات للفقراء﴾ معناه فرض الله الصدقات لهم، والمعنى أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته، وقيل انها حال من الفقراء قاله الكرماني وأبو البقاء أي كائنة لهم حال كونها فريضة أي مصروفة أو هي بمعنى مفروضة أو مصدر وقع موقع الحال.

قال في الكشاف: فإن قلت لم عدل عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة قلت للايذان بأنها أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره وقيل النكتة في العدول ان الأصناف الأربعة الأول يصرف المال اليهم حتى يتصرفوا به كما شاءوا، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال اليهم بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة.

﴿والله عليم﴾ بمصالح عباده ﴿حكيم﴾ فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقص ولا خلل، قال السيوطي: فلا يجوز صرفها لغير هؤلاء ولا منع صنف منهم إذا وجد، فيقسمها الإمام عليهم على السواء وله تفضيل بعض آحاد الصنف على بعض، وأفادت اللام وجوب استغراق افراده اهـ وهو ظاهر الآية.

وقال الرازي: لا دلالة في الآية على قول الشافعي في أنه لا بد من صرفها إلى الأصناف وقد أشار إلى ذلك القاضي ورد عليه بعض الشيوخ، وقال: ظاهر الآية يؤيد قوله، وتمام البحث في الجمل.

---

(١) أبو داوود، كتاب الزكاة، باب ٢٥.
(٢) أبو داوود، كتاب الزكاة، باب ٢٤.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُنٌ﴾ هذا نوع آخر مما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم على وجه الطعن والذم هو أذن.

قال الجوهري: يقال رجل اذن اذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع ومرادهم أقمأهم الله انهم إذا آذوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبسطوا فيه ألسنتهم وبلغه ذلك اعتذروا له وقَبِلَ ذلك منهم، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه انه أذن مبالغة لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع حتى كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم للربيئة أي الطليعة عين.

وفي اطلاق الاذن عليه مجاز مرسل من اطلاق اسم الجزء على الكل للمبالغة في استماعه وايذاؤهم له هو قولهم أذن لانهم نسبوه الى أنه يصدق كلما يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغتراراً منهم بحلمه عنهم وصفحه عن جناياتهم كرماً وحلماً وتغاضياً.

ثم أجاب الله عن قولهم هذا فقال: ﴿قل﴾ هو ﴿أذن خير﴾ بالاضافة وقرىء بالتنوين كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير ﴿لكم﴾ وليس بأذن في غير ذلك كقولهم رجل صدق يريدون الجودة والصلاح والمعنى انه يسمع الخير ولا يسمع الشر.

﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي يصدق بالله ويصدق المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الايمان ويقبل قولهم ويسلم ويرضى لهم ولا يقبل قول

المنافقين، واللام زائدة للفرق بين ايمان الأمان من الخلود في النار وهو الايمان المقابل للكفر، وحقه ان يعدى بالباء، وبين ايمان التسليم والتصديق فإنه يعدى باللام وان كان حقه ان يعدى بنفسه كالتصديق.

وهذا موافق لكثير من الآيات كقوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ وقوله أن يؤمنوا لكم وقوله أنؤمن لك.

وأما قوله: ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ وقوله: آمنتم به فمشترك الدلالة بين الايمان بموسى والايمان بالله لأن من آمن بموسى حقيقة آمن بالله كعكسه.

﴿ورحمة﴾ أي وانه رحمة لهم، وقرىء رحمة بالخفض واستبعده النحاس عند أهل العربية، والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن خير للمنافقين ورحمة لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم ولا فضحهم، فكأنه قال هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء، فسلم لهم قولهم فيه إلا انه فسره بما هو مدح له وثناء عليه وان كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته.

﴿للذين آمنوا منكم﴾ أي أظهروا الايمان وان لم يكونوا مؤمنين حقيقة ﴿والذين يؤذون رسول الله﴾ صلى الله عليه وسلم لما تقدم من قولهم هو أذن ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لهم عذاب أليم﴾ أي شديد الألم.

عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحرث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس اليه ويسمع منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين وهو الذي قال لهم انما محمد أذن من حدثه بشيء صدقه فأنزل الله فيه هذه الآية، وعن عمير بن سعد قال: فيَّ أنزلت هذه الآية؟ وذلك ان عميراً كان يسمع أحاديث أهل المدينة فيأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسارّه حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته وقالوا هو أذن فأنزلت فيه.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ الخطاب للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم، قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة ان يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فنعى الله ذلك عليهم فقال: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ من ارضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة فانهم لو اتقوا الله وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم.

وافراد الضمير في يرضوه إما للتعظيم للجناب الآلهي بإفراده بالذكر، أو لكونه لا فرق بين ارضاء الله وارضاء رسوله، فارضاء الله ارضاء لرسوله أو المراد الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك كما قال سيبويه ورجحه النحاس أو لأن الضمير موضوع موضع الإشارة فإنه يشار به الى الواحد والمتعدد أو الضمير راجع إلى المذكور وهو يصدق عليهما، وقال الفراء: المعنى ورسوله أحق أن يرضوه، والله افتتاح كلام كما تقول ما شاء الله وشئت.

وجواب ﴿ان كانوا مؤمنين﴾ محذوف أي فليرضوا الله ورسوله فإنهما أحق بالارضاء ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والمتابعة وإيفاء الحقوق في باب الاجلال والاعظام مشهداً ومغيباً.

﴿ألم يعلموا﴾ أي أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من الجريمة العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها، أي ألم يعلموا بما سمعوا

من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون القوارع والإنذارات، وقرىء بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ.

قال الخازن: قال أهل المعاني: ألم تعلم خطاب لمن علم شيئاً ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم أنه كان كذا وكذا، ولما طال مكث رسول الله ﷺ بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله: ألم تعلموا، يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا.

﴿أنه من يحادد الله﴾ أي يخالفه ﴿و﴾ يخاصم ﴿رسوله﴾ وأصل المحاددة في اللغة وقوع هذا في حد وذلك في حد كالمشاقة، يقال حاد فلان فلاناً أي صار في حد غير حده، وكأن كل واحد من المتخاصمين صار في محل غير محل صاحبه ﴿فَأن له﴾ أي فحق أن له.

وقال الأخفش: المعنى فوجوب النار له، وأنكره المبرد وقال هذا خطأ. ﴿نار جهنم﴾ جزاء ﴿خالداً فيها﴾ على الدوام ﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من العذاب ﴿الخزي العظيم﴾ أي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ اليها غيره وهو الذل والهوان

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا
قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا
مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ قيل هو خبر وليس بأمر، وقال الزجاج: معناه ليحذر، والمعنى على الأول إن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم خوفاً من الفضيحة، وعلى الثاني الأمر لهم بأن يحذروا ذلك، ومعنى عليهم على المؤمنين في شأن المنافقين على أن الضمير للمؤمنين ولا يبالي بتفكيك الضمائر عند ظهور الأمر لعود المعنى اليه. قاله الكرخي، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين أي في شأنهم.

﴿تنبئهم﴾ أي المنافقين ﴿بما في قلوبهم﴾ مما يسرونه فضلاً عما يظهرونه، وهم وإن كانوا عالمين بما في قلوبهم فالمراد من أنباء السورة لهم اطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم قال قتادة: وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة لأنها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم واثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم.

ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم فقال:﴿قل استهزِؤوا﴾ هو أمر تهديد أي افعلوا الاستهزاء ﴿ان الله مخرج ما تحذرون﴾ من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون إما بإنزال سورة أو بإخبار رسوله ﷺ بذلك أو نحو ذلك ﴿ولئن﴾ لام قسم أي والله لئن ﴿سألتهم﴾ عما قالوه من الطعن في الدين وثلب المؤمنين وهم سائرون معك الى تبوك بعد أن يبلغ اليك ذلك، ويطلعك الله عليه ﴿ليقولن

انما كنا نخوض ونلعب﴾ في الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك، ولم يكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين.

ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزِؤون﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم لأنهم كانوا كاذبين في الانكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به والياً لحرف النفي فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته. ثم قال: ﴿لا تعتذروا﴾ نهياً لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطلة فإن ذلك غير مقبول منهم.

وقد نقل الواقدي عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه من قولهم اعتذر المنزل اذا درس، واعتذرت المياه اذا انقطعت ﴿قد كفرتم﴾ أي أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور، وفيه أن محمداً يزعم انه ترك في أصحابنا قرآناً وانما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على قولهم ﴿بعد إيمانكم﴾ أي بعد اظهاركم الايمان مع كونكم تبطنون الكفر.

﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ وهم من أخلص الايمان وترك النفاق وتاب عنه كجحش بن حمير.

قال الزجاج: الطائفة في اللغة الجماعة، قال ابن الأنباري: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿نعذب طائفة بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كانوا مجرمين﴾ مصرين على النفاق لم يتوبوا منه.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿المنافقون﴾ وكانوا ثلثمائة ﴿والمنافقات﴾ وكن مائة وسبعين ﴿بعضهم من بعض﴾ أي متشابهون في الدين كأبعاض الشيء الواحد، ذكر ههنا جملة أحوال المنافقين وأن ذكورهم في ذلك كإناثهم وانهم متناهون في النفاق والبعد عن الايمان، وفيه إشارة إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين ورد لقولهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾.

ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يأمرون﴾ أي يأمر بعضهم بعضاً ﴿بالمنكر﴾ هو كل قبيح عقلاً أو شرعاً ﴿وينهون عن المعروف﴾ هو كل حسن عقلاً أو شرعاً، قال الزجاج: هذا متصل بقوله يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم، أي ليسوا من المؤمنين ولكن بعضهم من بعض، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي يشحون فيما ينبغي إخراجه من المال في الصدقة والصلة والجهاد، فالقبض كناية عن الشح كما أن البسط كناية عن الكرم ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ النسيان الترك، أي تركوا ما أمرهم به فتركهم من رحمته وفضله أو تركوا ذكر الله وعبادته فترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والاحسان. لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان، فهو مجاز مرسل.

ثم حكم عليهم بالفسق فقال: ﴿ان المنافقين هم الفاسقون﴾ الفسق

الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه والانسلاخ من كل خير، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق والتمرد والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير أو للاهانة والتحقير، فإن الاظهار كما يأتي للتعظيم يأتي للتحقير كما نص عليه بعضهم.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ يقال وعده في الخير والشر، والاختلاف إنما هو بالمصدر. فمصدر الأول وعد ومصدر الثاني وعيد، فاستعمل وعد في الشر كما هنا وفي الخير فيما سيأتي في قوله: ﴿وعد الله المؤمنين﴾.

ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأن لهم ﴿نار جهنم خالدين﴾ أي يصلونها مقيمين ﴿فيها﴾ مقدرين الخلود ﴿هي﴾ أي النار ﴿حسبهم﴾ أي كافيهم جزاء وعقاباً لا يحتاجون الى زيادة على عذابها ﴿ولعنهم الله﴾ أي ومع ذلك فقد طردهم عن بابه وأبعدهم عن رحمته ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي نوع آخر من العذاب غير النار دائم لا ينفك عنهم كالزمهرير أو عذاب في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق إذ هم دائماً في حذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا
فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم
بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْأٓخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿كالذين من قبلكم﴾ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً من الغيبة الى الخطاب، أي أنتم مثل الناس قبلكم أو المعنى فعلتم مثل فعل الذين مضوا من قبلكم من الأمم.

وقال الزجاج: التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلهم وقيل المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقبض الأيدي.

ثم وصف حال هؤلاء الكفار الذين من قبلهم وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ أي بطشاً في الأبدان ومنعة من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ منكم.

﴿فاستمتعوا﴾ أي تمتعوا، وفي صيغة الاستفعال ما ليس في صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة في التمتع ﴿بخلاقهم﴾ أي نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاذ الدنيا وخاضوا في الباطل واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير، فإنه ما قدر لصاحبه ﴿فاستمتعتم﴾ .أنتم ﴿بخلاقكم﴾ أي نصيبكم الذي قدره الله لكم ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ أي انتفعتم به كما انتفعوا به.

والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم بمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله من الشهوات الفانية والتشاغل بها عن السعي في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية.

وقد قيل ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً ثم تكريره في حق الاولين ثالثاً، وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضائهم بها وحرمانهم من سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ الفانية، فلما قرر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك نهاية في المبالغة في ذم المخاطبين وتقبيح حالهم. ولم يسلك هذه الطريقة في التشبيه الثاني وهو قوله خضتم حيث لم يقل وخاضوا وخضتم كخوضهم اكتفاء بالتمهيد الأول فاستغنى عن ذكر التمهيد في التشبيه الثاني.

قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة، هؤلاء بنو اسرائيل أشبهناهم والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه.

﴿وخضتم﴾ في الباطل وتلبستم به ﴿كالذي خاضوا﴾ أي خوضاً كخوضهم أو كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه، يقال: خضت الماء أخوضه خوضاً وخياضاً والموضع مخاضة، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً وجمعها المخاض والمخاوض، ويقال منه خاض القوم في الحديث، والمعنى خضتم في أسباب الدنيا واللهو واللعب، وقيل في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، ودخلتم في ذلك.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل من المشبهين والمشبه بهم فهي لمجموع الفريقين ﴿حبطت﴾ بطلت ﴿أعمالهم﴾ أي ما عملوه مما هو في صورة طاعة لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصي وعاقبتها غنية عن البيان ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي إنها باطلة على كل حال، أما بطلانها في الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من السعة والصحة وغير ذلك لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقراً، ومن العز ذلاً ومن القوة ضعفاً، وأما في الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار، ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ أي المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة.

﴿ألم يأتهم﴾ أي المنافقين، رجوع الى الغيبة عن الخطاب ففيه التفات وهو استفهام بمعنى التقرير والتحذير، أي قد أتاهم ﴿نبأ الذين من قبلهم﴾ أي خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه من التكذيب وما فعل بهم من الاهلاك، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الاجمال في المشبه بهم، ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم لأن آثارهم باقية، وبلادهم بالشام والعراق واليمن، وكل ذلك قريب من أرض العرب، فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم.

﴿قوم نوح﴾ وقد هلكوا بالاغراق وأهلكوا بالطوفان وهم أولهم ﴿و﴾ ثانيهم قوم ﴿عاد﴾ وقد أهلكوا بالريح العقيم ﴿و﴾ ثالثهم قوم ﴿ثمود﴾ وقد أخذوا بالصيحة وأهلكوا بالرجفة ﴿وقوم ابراهيم﴾ وقد سلط الله عليهم البعوض وقيل أهلكوا بسلب النعمة عنهم وهم رابعهم ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب وقد أخذتهم الرجفة وأهلكوا بعذاب يوم الظلة وهي غمامة أطبقت عليهم وهم خامسهم ﴿و﴾ سادسهم أصحاب ﴿المؤتفكات﴾ وهي قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة، فإن كانت مرادة به فهي على حقيقتها وان كان المراد مطلق قرى المكذبين وهي لم تخسف بأجمعها فيكون المراد به مجازاً انقلاب حالها من الخير إلى الشر تشبيهاً له بالخسف على

طريق الاستعارة كقول ابن الرومي:

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة أعاليها بل أن تسود الاراذل

وهي بدل من الذين بدل بعض من كل، فقوله: وعاد إلى آخر المعطوفات كلها على قوم نوح لا على نوح غير أن الاخير وهو المؤتفكات على حذف مضاف كما قدرنا اذ هي القرى، وليست من الذين خلوا حتى تكون من جملة البدل، وسميت مؤتفكات لأنها انقلبت بهم حتى صار عاليها سافلها، والائتفاك الانقلاب يقال أفكه اذا قلبه وبابه ضرب، ويقال أفكته فائتفك أي قلبته فانقلب، والمادة تدل على التحول والصرف، ومنه ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف.

﴿آتتهم﴾ استئناف لبيان نبأهم ﴿رسلهم﴾ أي رسل هذه الطوائف الست، وقيل رسل أصحاب المؤتفكات لأن رسولهم لوط وقد بعث الى كل قرية من قراهم رسولاً ﴿بالبينات﴾ أي المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا، فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، والفاء في ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ للعطف على مقدر يدل عليه الكلام، أي فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ولم يعجل العقوبة لهم، لأنه قد بعث اليهم رسله فأنذروهم وحذروهم.

﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بسبب ما فعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد لأنبيائه، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمراً. وقيل تقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف واتفاق الكلمة والعون والنصر بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الايمان بالله. قال ابن عباس: آخاهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية له فظهر الفرق بين الفريقين.

ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال: ﴿يأمرون بالمعروف﴾ أي بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿وينهون عن المنكر﴾ أي عما هو منكر في الدين غير معروف أي جنس المعروف وجنس المنكر الشاملين لكل خير وشر، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحاديث ما هو معروف.

﴿ويقيمون الصلاة﴾ المفروضة ويتمون أركانها وحدودها فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ما سبق من قوله نسوا الله ﴿ويؤتون الزكاة﴾ الواجبة عليهم وهو في مقابلة قوله: ﴿يقبضون أيديهم﴾ قيل خصصهما بالذكر من جملة العبادات لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال، وقد تقدم معنى هذا.

﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ في جميع ما أمرهم بفعله أو نهاهم بتركه، وهذا في

مقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة.

﴿أولئك﴾ يعني المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف الفاضلة ﴿سيرحمهم الله﴾ السين للمبالغة في إنجاز الوعد والدلالة على تحقق ذلك وتقرره بمعونة المقام كما هنا إذ السين موضوعة للدلالة على الوقوع مع التأخير، فإذا كان المقام ليس مقام تأخير لكونه بشارة ووعداً تمحضت لتأكيد الوقوع أي وقوع ما وعد به من الرحمة والرضوان وما أعد لهم من النعيم المقيم في الجنان.

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالب ولا يعجزه شيء عن انجاز وعده ووعيده ﴿حكيم﴾ في أفعاله وأقواله لا يضع شيئاً إلا في محله، وفيه ترغيب وترهيب وتعليل لقوله سيرحمهم الله.

ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت آثار الرحمة إجمالاً باعتبار الرحمة في الدار الآخرة فقال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات﴾ أي كل مؤمن ومؤمنة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان للوعد المذكور، ومعنى جري الأنهار من تحت الجنات انها تجري تحت أشجارها وغرفها، والمراد البساتين التي يتحير في حسنها الناظر.

﴿خالدين﴾ أي مقدرين الخلود ﴿فيها﴾ وقد تقدم تحقيق الآية في البقرة ﴿ومساكن﴾ أي منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت ﴿طيبة﴾ تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش ﴿في جنات عدن﴾ إقامة، يقال عدن بالمكان إذا أقام به ومنه المعدن أي بساتين خلد، وقيل هي أعلى الجنة، وقيل أوسطها، وقيل قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبري بسنده عن عمران وابن مردويه عن الحسن قال: سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى:

﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ قالا: على الخبير سقطت، سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع: قلت: ووصف الله الجنة هنا بأوصاف.

الأول: جري الانهار من تحتها ليميل الطبع اليها.

والثاني: أنهم فيها خالدون لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيير.

والثالث: طيب مساكنها الخالية عن الكدورات، والرابع: انها ذات عدن إي إقامة غير منقطعة، هذا على ما هو معنى عدن لغة وقيل هو علم.

قال الرازي: والحاصل أن في عدن قولين: أحدهما أنه اسم علم لموضع معين في الجنة، والآثار والاخبار تقوي ذلك، وقال الزمخشري: انه علم بدليل قوله جنات عدن التي وعد الرحمن عباده. والثاني أنه صفة للجنة بمعنى إقامة، فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها عدن، والاحاديث في صفة الجنات وأصنافها كثيرة، وقد أوضحت المقام في كتابي مثير ساكن الغرام إلى روضات دار السلام فليرجع إليه.

﴿ورضوان﴾ يسير ﴿من الله أكبر﴾ من ذلك كله الذي أعطاهم الله إياه إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة، وبه يناط كل شرف وسيادة، ولعل عدم نظمه في سلك الموعود به مع عزته في نفسه لأنّه متحقق في ضمن كل موعود، ولأنه مستمر في الدارين.

وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم وإن جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه، وإن أدنى رضوان الله لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهم ارض عنا رضاً لا يشوبه سخط، ولا يكدره نكد يا من بيده الخير دقه وجله.

﴿ذلك﴾ أي ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿هو الفوز العظيم﴾ دون كل فوز مما يعده الناس فوزاً من حطام الدنيا، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك، قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1].

---

(١) مسلم ٢٨٢٩ ـ البخاري ٢٤٥٨.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم بالسيف والسنان حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم باللسان والبيان حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله، وبه قال ابن مسعود، قال الحسن: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، واختاره قتادة، قيل في توجيهه إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود.

قال ابن العربي: ان هذه دعوى لا برهان عليها وليس العاصي بمنافق، انما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائماً لا بما يتلبس به الجوارح ظاهراً، وأخبار المحدودين تشهد سياقتها انهم لم يكونوا منافقين. وقال الطبري: أولى الأقوال قول ابن مسعود لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد، وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين، وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر، وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف، ومع المنافقين بإظهار الحجة عليهم تارة، وبترك الرفق بهم تارة، وبالانتهار تارة، وهذا هو قول ابن مسعود.

﴿واغلظ﴾ أي شدد ﴿عليهم﴾ أي الفريقين بالانتهار والمقت والجهاد، وأصل الغلظ قبض الرأفة وهو شدة القلب وخشونة الجانب، قيل وهذه الآية

نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح ﴿ومأواهم﴾ أي مسكنهم ﴿جهنم﴾ قال أبو البقاء: ان قيل كيف حسنت الواو هنا والفاء أشبه بهذا الموضع، ففيه ثلاثة أجوبة.

أحدها: أن الواو واو الحال وتلك الحال حال كفرهم، والتقدير افعل ذلك في حال استحقاقهم جهنم. والثاني تقديره واعلم أن مأواهم جهنم. والثالث أن الكلام قد حمل على المعنى، والمعنى انه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الاخرة، فيجعل جهنم مأواهم، قال السمين: ولا حاجة الى هذا كله بل هذه جملة استئنافية. قال أبو السعود: مستأنفة لبيان مآل أمرهم بعد بيان عاجله ﴿وبئس المصير﴾ مصيرهم اليها.

ثم ذكر من خصال المنافقين انهم يحلفون الأيمان الكاذبة فقال: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ استئناف مسوق لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة للأمر بجهادهم والغلظة عليهم.

وقد اختلف أئمة التفسير في سبب نزول هذه الآية، فقيل نزلت في الجلاس ابن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت، وذلك انه لما كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذمهم فقالا: لئن كان محمد صادقاً على اخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير، فقال له عامر بن قيس أجل والله ان محمداً لصادق مصدق، وانك لشر من الحمار، وأخبر عامر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء الجلاس فحلف بالله ان عامراً لكاذب، وحلف عامر لقد قال، وقال: اللهم أنزل على نبيك شيئاً فنزلت. وقيل إن الذي سمع ذلك عاصم بن عدي وقيل حذيفة.

وقيل بل سمعه ولد امرأته ـ أي امرأة الجلاس ـ واسمه عمير بن سعد فهمّ الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره.

وقيل إن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أُبيّ رأس المنافقين لما قال ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل سمّن كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فجاء عبدالله بن أبيّ فحلف أنه لم يقله.

وقيل انه قول جميع المنافقين، وان الآية نزلت فيهم، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف، وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية وفيما ذكرناه كفاية.

ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين انهم حلفوا كذباً فقال: ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ وهي ما تقدم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم الاسلام وان كانوا كفاراً في الباطن، والمعنى انهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قيل هو همهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك وهم بضعة عشر رجلاً فضرب عمار بن ياسر، وفي قول حذيفة بن اليمان وجوه الرواحل لما غشوه فرجعوا، والقصة مبسوطة في سيرة الحلبي وغيرها، وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبدالله بن أبيٍّ، وقيل هو همٌّ الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة فأخبر رسول الله ﷺ.

﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي ما عابوا وأنكروا وكرهوا الا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو اغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعم العام فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم، وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم، فجعلوا موضع شكر النبي صلى الله عليه

وسلم النقمة، وقيل إنهم بطروا النعمة أشـراً.

﴿فإن يتوبوا﴾ أي فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق ﴿يك﴾ ذلك الذي فعلوه من التوبة ﴿خيراً لهم﴾ في الدين والدنيا، وقد تاب الجلاس ابن سويد وحسن إسلامه، وفي ذلك دليل عـلى قبول التـوبة من المنـافق والكافر، وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق، فمنع قبولها مالك وأتباعه لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو في كل حين يظهر التوبة والإسلام.

﴿وان يتولوا﴾ أي يعرضوا عن التوبة والايمان ويصروا على النفاق والكفر ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال عـاجـلاً فلا ينافي ما سبق من أن قتالهم باللسان والحجة لا بالسيف، لأن ذاك إذا لم يظهروا الكفر بل أظهروا الايمان ﴿و﴾ في ﴿الاخرة﴾ بعذاب النار آجـلاً ﴿وما لهم في الأرض﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها ﴿من ولي﴾ يواليهم ﴿ولا نصير﴾ ينصرهم.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿ومنهم من عاهد الله لئن﴾ هي لام قسم أي والله لئن ﴿آتانا من فضله﴾ بأن يوسع علينا في الرزق ﴿لنصدَّقنَّ﴾ هي لام الجواب للقسم وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه، ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة له، أي لنخرج من ذلك المال الصدقة وهي أعم من المفروضة وغيرها ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ أي من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرماته، والصلاح ضد الفساد، والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع.

﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ أي لما أعطوهم ما طلبوا من الرزق لم يتصدقوا بشيء منه كما حلفوا به ﴿وتولوا﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله ﴿وهم﴾ أي والحال انهم ﴿معرضون﴾ في جميع الاوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده.

عن ابن عباس قال: ذلك أن رجلاً كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه وتصدقت منه، وجعلت منه للقرابة، فابتلاه الله فآتاه من فضله فأخلف ما وعده فأغضب الله بما أخلف ما وعده، فقص الله شأنه في القرآن.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم هذه القصة بأطول من هذا جداً، وفيه قال: يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له ـ يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، فقال ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال اللهم ارزقه مالاً، فاتخذ غنماً فنمت كما تنمى الدود حتى ضاقت بها

المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل، ثم نمت حتى لا يشهد جمعة ولا جنازة. الحديث[1].

﴿فأعقبهم﴾ الله سبحانه ﴿نفاقاً في قلوبهم﴾ بسبب البخل الذي وقع منهم والاعراض نفاقاً كائناً في قلوبهم متمكناً منها مستمراً فيها ﴿الى يوم يلقونه﴾ أي الله عز وجل، وقيل ان الضمير يرجع الى البخل، أي فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه الى يوم يلقون البخل أي جزاء بخلهم، يعني أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم الى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل.

﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ الباء للسببية أي بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدق والصلاح وكذلك الباء في ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي وبسبب تكذيبهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف واذا ائتمن خان[2]، وعن ابن عمرو ابن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها، الحديث وفيه: إذاخاصم فجر[3].

---

(١) ابن كثير ٢ / ٣٧٤ (الحديث بطوله).
(٢) مسلم ٥٩ ـ البخاري ٣١.
(٣) مسلم ٥٨ ـ البخاري ٣٢.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

ثم أنكر عليهم فقال: ﴿ألم يعلموا﴾ أي المنافقون ﴿ان الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ أي جميع ما يسرونه من النفاق وما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وعلى دين الاسلام ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ أي ما غاب عن العيان فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين.

﴿الذين يلمزون﴾ أي يعيبون وقال قتادة يطعنون ﴿المطوّعين﴾ أي المتطوعين والتطوع التبرع والتنفل بما ليس بواجب ﴿من المؤمنين في الصدقات﴾ والمعنى أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكانوا يقولون ما أغنى الله عن هذا ويقولون ما فعلوا هذا إلا رياء ولم يكن لله خالصاً.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مراء، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون: ان الله لغني عن صدقة هذا فنزلت هذه الاية، وفي الباب روايات كثيرة.

﴿والذين لا يجدون الا جهدهم﴾ بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وهي المشقة، وقيل هما لغتان ومعناهما واحد، وفي القرطبي: الجهد شيء يسير يعيش به المقل، وقد تقدم بيان ذلك، والمعنى أن المنافقين كانوا يعيبون المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم.

﴿فيسخرون منهم﴾ أي يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه في الصدقة مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه، يقال سخرت منه سخراً من باب تعب هزئت به، والسخري بالكسر اسم منه وبالضم لغة فيه، والسخرة وزان غرفة ما سخرت من خادم أو جارية أو دابة بلا أجر ولا ثمن، والسخري بالضم بمعناه وسخرته في العمل بالتثقيل استعملته مجاناً، وسخر الله الابل ذللها وسهلها ومنه سخر لنا هذا وما كنا لَهُ مقرنين.

﴿سخر الله منهم﴾ أي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في غيره، وقيل هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ثابت مستمر شديد الألم في الآخرة.

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء، فهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه الخبر، وذلك لأنهم ليسوا بأهل الاستغفار منه صلى الله عليه وسلم ولا للمغفرة من الله سبحانه فهو كقوله تعالى ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين وان أكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الاستغفار لهم. وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً كما في سائر مفاهيم الاعداد، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند ارادة التكثير، والمعنى انه لن يغفر الله لهم وان استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة غاية المبالغ.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه، ويدل لذلك ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبدالله ابن أبيٍّ قال: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله، وهو القائل ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ فأنزل الله ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأزيدن على السبعين، فأنزل الله ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ وعن مجاهد وابن عباس نحوه.

قال الضحاك: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين، لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله ﴿سواء عليهم﴾ الآية، يعني فبين له حسم المغفرة.

ومعلوم أنه لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال اظهار كمال رحمته ورأفته بمن بعث اليهم، وفيه لطف بأمته وحث على المراحم وشفقة بعضهم على بعض، وهذا دأب الانبياء كما قال ابراهيم ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾.

وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً وليس بشيء فقال ان السبعة عدد شريف لانها عدد السموات والارضين والبحار والاقاليم والنجوم السيارة والاعضاء وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة لأن الحسنة بعشرة أمثالها.

وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه صلى الله عليه وسلم كبر على عمه حمزة سبعين تكبيرة فكأنه قال ان تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة وهذا كالذي قبله.

ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله: ﴿ذلك﴾ الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ ولفظ الكرخي ذلك اليأس من الغفران لهم بسبب انهم كفروا لا ببخل منا أو قصور فيك، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنه. اهـ.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحدودها، والمراد هنا الهداية الموصلة الى المطلوب لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال ﴿فرح المخلفون﴾ هم المتروكون وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك أو الذين خلفهم الله وثبطهم أو الشيطان أو نفاقهم أو كسلهم أو المؤمنون ﴿بمقعدهم﴾ أي بقعودهم، يقال قعد قعوداً ومقعداً أي جلس وأقعده غيره، ذكر معناه الجوهري ﴿خلاف رسول الله﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: انه منصوب على المصدر أي تخلفوا خلاف رسول الله **والثاني**: انه مفعول من أجله أي فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله أو بقعودهم لمخالفتهم له، واليه ذهب الطبري والزجاج، ويؤيده قراءة خلف بضم الخاء وسكون اللام **والثالث** أن ينتصب على الظرف أي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال أقام زيد خلاف القوم أي تخلف بعد ذهابهم، وخلاف أن يكون ظرفاً، واليه ذهب أبو عبيدة وعيسى بن عمر.

قال الأخفش ويونس: الخلاف بمعنى الخلف، وذلك أن جهة الأمام التي يقصدها الانسان تخالفها جهة الخلف، وقال قطرب: معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار الى تبوك وأقاموا أي قعدوا لأجل المخالفة أو مخالفين له ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ لكمال شحهم بالاموال والانفس، وعدم وجود باعث الايمان وداعي الاخلاص، ووجود الصارف عن ذلك وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم

وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم وانتفاء الصارف عنهم، وفي الخازن وكرهوا الخروج إلى الجهاد، وذلك ان الانسان يميل بطبعه الى إيثار الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره إتلاف النفس والمال.

﴿وقالوا﴾ أي قال المنافقون لاخوانهم ﴿لا تنفروا في الحر﴾ تثبيطاً لهم وكسراً لنشاطهم وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله، وكانت غزوة تبوك في شدة الحر والقحط، فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾ المعنى انكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حراً مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حر يسير في زمن قصير، ووقعتم في حر كثير في زمن كبير، بل غير متناه أبد الآبدين ودهر الداهرين.

﴿لو كانوا يفقهون﴾ انها كذلك لما فعلوا ما فعلوا، وهذا اعتراض تذييلي من جهته تعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه.

﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ هذان الامران معناهما الخبر والمعنى فسيضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلاً بالنسبة للبكاء في الآخرة وان كان كثيراً في نفسه لان الدنيا فانية والآخرة باقية، والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل، ويبكون كثيراً، وإنما جيء بهما على لفظ الامر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره، والتقدير ضحكاً قليلاً وبكاء كثيراً أو زماناً قليلاً وزماناً كثيراً.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً[1] أخرجه البخاري.

﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من المعاصي، والمعنى يجزون جزاء، أو سبب الامر بقلة الضحك وكثرة البكاء جزاؤهم بعملهم.

---

(١) البخاري كتاب الكسوف باب ٢.

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿فإن رجعك الله﴾ الرجع متعد كالرد والرجوع لازم واللازم من باب جلس والمتعدي من باب قطع وفي الكرخي معنى الرجوع تصيير الشيء الى المكان الذي كان فيه، يقال رجعته رجعاً كقولك رددته رداً والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها.

وإنما قال ﴿إلى طائفة منهم﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا، وسيأتي بيان ذلك.

وقيل انما قال: ﴿الى طائفة﴾ لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، وفي البيضاوي أن المتخلفين كانوا اثني عشر رجلاً.

﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿فقل﴾ لهم اخراجاً لهم عن ديوان الغزاة وابعاداً لمحلهم عن محفل صحبتك ﴿لن تخرجوا معي أبداً﴾ إلى غزوة ولا إلى سفر، وهذا إخبار في معنى النهي للمبالغة ﴿ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ أي قل لهم ذلك عقوبة لهم ولما في استصحابهم من المفاسد كما تقدم في قوله ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾.

﴿انكم رضيتم بالقعود﴾ تعليل أي لن تخرجوا معي ولن تقاتلوا لأنكم

رضيتم بالقعود والتخلف ﴿أول مرة﴾ وهي غزوة تبوك، والفاء في ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها، والخالفين جمع خالف كأنهم اخلفوا الخارجين، والمراد بهم من تخلف عن الخروج بعد القوم، وقيل المعنى فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم.

ومن ذلك خلف اللبن أي فسد بطول المكث في السقاء، ذكر معناه الاصمعي وقريء مع الخلفين، قال الفراء: معناه المخالفين، قيل المراد بهم النساء والصبيان والرجال العاجزون، فلذلك جاز جمعه للتغليب.

وقال قتادة: الخالفون النساء وهو مردود لأجل الجمع، قال ابن عباس: الخالفين هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو بغير عذر، وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته.

﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً﴾ يعني صلاة الجنازة ﴿ولا تقم على قبره﴾ قال الزجاج: معناه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع ههنا منه، وقيل معناه لا تقم بمهمات اصلاح قبره. ولا تتول دفنه، ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها.

﴿انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ تعليل للنهي عن الصلاة والقيام على قبره، وانما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه بأن يؤدي الأمانة، ولا يضمر لأحد سوءاً، وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والنفاق والخداع والجبن واضمار السوء للغير والخبث وهي مستقبحة في كل دين عند كل أحد.

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: لما توفي عبدالله

بن أبي ابن سلول أتى ابنه عبدالله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عمر فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين فقال: إن الله خيرني وقال[استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم]وسأزيد على السبعين، فقال انه منافق فصلى عليه فأنزل الله ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية فترك الصلاة عليهم(١)، والحديث له ألفاظ في الصحاح والسنن.

وكان ابن أبيّ رئيس الخزرج وينسب لأبيه وأمه فأبوه أبيّ وأمه سلول وكان اسمه عبد الله.

﴿فلا تعجبك﴾ نهى رسوله أن تعجبه ﴿أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ هذا تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه وارادة أن يكون المخاطب به على بال ولا ينساه، وان يعتقد أن العمل به مهم، وقيل ان الآية المتقدمة في قوم وهذه في آخرين، وقيل هذه في اليهود والأولى في المنافقين وقيل غير ذلك.

وقد تقدم في الآية الأولى جميع ما يحتاج اليه في تفسير هذه الآية، وذكر في الخازن ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين ولا يأتي بكثير فائدة.

---

(١) مسلم ٢٤٠٠ ـ البخاري ٦٧٥.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ
مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ
وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٨٧ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨٨﴾

ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين فقال: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ أي طائفة من القرآن، ويجوز أن يراد بعض السورة وان يراد تمامها وقيل هي هذه السورة ﴿أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾ الخطاب للمنافقين أي أخلصوا في ايمانكم وجهادكم، وانما قدم الأمر بالايمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الايمان.

﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ أي ذوو الفضل والسعة والقدرة وأهل الغنى والثروة، من طال عليه طولاً، كذا قال ابن عباس والحسن، وقال الأصم: هم الرؤساء والكبراء المنظور اليهم، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم إذ لا عذر لهم في القعود، ولان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان.

﴿وقالوا﴾ عطف تفسيري ﴿ذرنا﴾ أي اتركنا ﴿نكن مع القاعدين﴾ أي المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزَّمْنَى.

﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ استئناف لبيان سوء صنيعهم، والخوالف جمع خالفة ولذا قيل الخوالف النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف وهو من لا خير فيه وهو مردود، فان فواعل لا يكون جمعاً لفاعل وصفاً لعاقل إلا ما شذ من نحو

فوارس ونواكس وهوالك، وقال النحاس: يجوز أن تكون من صفة الرجال بمعنى أنها جمع خالفة يقال رجل خالفة أي لا خير فيه، فعلى هذا يكون جمعاً للذكور باعتبار لفظه.

﴿وطبع على قلوبهم﴾ هو كقوله ختم الله على قلوبهم وقد مر تفسيره ﴿فهم لا يفقهون﴾ شيئاً مما فيه نفعهم وضرهم بل هم كالانعام أي لا يفهمون الخير الذي في الجهاد ولا الشر الذي في التخلف.

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ المقصود من الاستدراك الاشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر فانه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والانفس.

ثم ذكر منافع الجهاد فقال: ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين من النصر والغنيمة والجنة والكرامة، وقيل المراد بها النساء الحسان أي الحور، قاله الحسن كقوله تعالى: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ ومفرده خيرة بالتشديد ثم خففت مثل هينة وهينة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ قد تقدم معنى الفلاح والمراد بهم هنا الفائزون بالمطلوب وتكرير اسم الاشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم.

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾
وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

﴿أعد الله لهم﴾ استئناف لبيان كونهم مفلحين ﴿جنات﴾ أي بساتين ﴿تجري من تحتها الانهار﴾ قد تقدم بيان جري الأنهار من تحتها ﴿خالدين فيها﴾ قد سبق بيان الخلود والفوز الآتي أيضا ﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من الخيرات والفلاح ونيل الكرامة العظمى واعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة ﴿الفوز العظيم﴾ وصف الفوز بكونه عظيماً يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز.

﴿وجاء المعذرون من الاعراب﴾ قرىء بالتخفيف من أعذر، وكان ابن عباس يقرؤها مخففة ويقول والله هكذا أنزلت، قال النحاس: إلا أن مدارها على الكلبي يقال أعذر إذا بالغ في العذر، ومنه من أنذر فقد أعذر.

وقرأ الجمهور بالتشديد وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون أصله المعتذرون وهم الذين لهم عذر فالمعذرون على هذا هم المحقون في اعتذارهم، وقد روي هذا عن الفراء والزجاج وابن الانباري وأبي عبيد والاخفش وأبي حاتم، وقيل هو من عذر وهو الذي يعتذر ولا عذر له يقال عذر في الامر إذا قصر فيه واعتذر بما ليس بعذر، ذكره الجوهري وصاحب الكشاف.

فالمعذرون على هذا هم المبطلون لانهم اعتذروا بأعذار كاذبة باطلة لا أصل لها، والمعنى انه جاء هؤلاء من الاعراب بما جاءوا به من الاعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين، قال الضحاك: هم رهط عامر، وقيل من أسد وغطفان، وقال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بعذر.

وهذا شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب اثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة والاعراب سكان البادية وهم أخص من العرب إذ العربي من تكلم باللغة العربية سواء كان يسكن البادية أو الحاضرة، وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة.

﴿ليؤذن لهم﴾ أي لاجل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتخلف عن الغزو ﴿وقعد﴾ طائفة أخرى لم يعتذروا بل قعدوا عن الغزو بغير عذر وهم منافقو الأعراب ﴿الذين كذبوا الله ورسوله﴾ بالتخفيف أي كذبوا في إدعاء ايمانهم وبالتشديد أي لم يؤمنوا ولا صدقوا ما جاء به الرسول عن ربه ولا امتثلوا أمره.

قال أبو إسحاق: ذكر لي أنهم نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا، منهم خفاف بن إيماء، وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهالينا ومواشينا، وقيل منافقو الاعراب قسمان: قسم جاءوا واعتذروا بالأعذار الكاذبة وقسم لم يجيء ولم يعتذر.

ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ أي من الأعراب وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة والذين لم يعتذروا بل كذبوا الله ورسوله. وأتى بمن التبعيضية، لأن منهم من أسلم فلم يصبه العذاب ﴿عذاب أليم﴾ أي كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا بالقتل والأسر، وعذاب الآخرة بالنار المؤبدة.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾

ولما ذكر سبحانه المعذرين ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو، وبدأ بالعذر في أصل الخلقة فقال: ﴿ليس على الضعفاء﴾ وهم أرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ونحو ذلك كالشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً، والضعفاء جمع ضعيف، وهو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو.

ثم ذكر العذر العارض فقال: ﴿ولا على المرضى﴾ المراد بالمرض كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعاً، وقيل انه يدخل في المرضى الاعمى والاعرج ونحوهما. ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال: ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾ أي ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون اليه من التجهز للجهاد لفقرهم، كجهينة ومزينة وبني عذرة، فنفى سبحانه عن هؤلاء الثلاثة الحرج، وأبان أن الجهاد مع هذه الاعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم مقيداً بقوله: ﴿اذا نصحوا لله ورسوله﴾ في حال قعودهم بالطاعة وعدم الارجاف والتثبيط، وأصل النصح إخلاص العمل من الغش ومنه التوبة النصوح.

قال نفطويه: نصح الشيء إذا خلص ونصح له القول أي أخلصه له، والنصح لله الايمان به والعمل بشريعته وترك ما يخالفها كائناً ما كان، ويدخل تحته دخولاً أولياً نصح عباده ومحبة المجاهدين في سبيله وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه، ونصيحة الرسول صلى الله

عليه وسلم التصديق بنبوته وبما جاء به، وطاعته في كل ما يأمر به أو ينهي عنه وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، ومحبته وتعظيم سنته وإحياؤها بعد موته بما تبلغ اليه القدرة.

وقد ثبت في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: الدين النصيحة ثلاثاً، قالوا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[1]. وفي الخازن: النصح أن يقيموا في البلد ويحترزوا عن إفشاء الاراجيف وإثارة الفتن ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل الجهاد ويقوموا بمصالح بيوتهم.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ جملة مقررة لمضمون ما سبق، أي ليس على المعذورين الناصحين طريق عقاب ومؤاخذة، ومن مزيدة للتأكيد، وعلى هذا فيكون لفظ المحسنين موضوعاً في موضع الضمير الراجع الى المذكورين سابقاً، وأتى بالظاهر للدلالة على انتظامهم بنصحهم في سلك المحسنين، أو يكون المراد ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية، وقولهم لا سبيل عليه معناه لا حرج ولا عتاب، وانه بمعنى لا عاتب يمر عليه فضلاً عن العتاب، واذا تعدى بإلى كقوله:

ألا ليت شعري هل الى أم سالم سبيل فأما الصبر عنها فلا صبر

فبمعنى الوصول كما قال:

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج

ونحوه، فتنبه لمواطن استعماله فإنه من مهمات الفصاحة ﴿والله غفور

(١) مسلم ٥٥.

رحيم﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن، والجملة تذييلية.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ وقوله ﴿ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج﴾.

وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذر الله عنه مع رغبتهم اليه لولا حبسهم العذر عنه، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد، وأصله في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم فيه» قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال «حبسهم العذر» (١).

وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر (٢) عن قتادة قال: أنزلت هذه الآية في عائذ بن عمر المزني، وقال الضحاك: عذرهم وجعل لهم من العذر ما جعل للمجاهدين.

قال الرازي: ليس في الآية انه يحرم عليهم الخروج، لأن الواحد لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة إما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم، بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم لكان ذلك طاعة مقبولة.

---

(١) البخاري كتاب الجهاد باب ٣٥.

(٢) مسلم ١٩١١.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾

ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ العطف على جملة ما على المحسنين أو على الضعفاء أى لا عليهم حرج، والمعنى أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك قيل هم سبعة من الأنصار وقيل بنو مقرن، وقيل المعنى إذا ما أتوك قائلاً لا أجد وقيل غير ذلك وهذا أولى.

وفي إيثار هذا التعبير على «ليس عندي» لطف في الكلام وتطييب لقلوب السائلين كأنه قال انا اطلب ما تسألونه وأفتش عنه فلا أجده فأنا معذور، وعن أنس في الآية قال: الماء والزاد. وعن علي بن صالح قال: حدثني مشيخة من جهينة قالوا: أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحملان فقالوا ما سألناه إلا الحملان على النعال.

وعن إبراهيم بن أدهم عمن حدثه في الآية قال: ما سألوه الدواب، ما سألوه إلا النعال. وعن الحسن بن صالح قال استحملوه النعال.

﴿تولوا﴾ أى انصرفوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه ﴿وأعينهم تفيض﴾ أي تسيل ﴿من الدمع﴾ أي حال كونهم باكين، ومن للبيان، وفي الشهاب أن الفيض انصباب عن امتلاء فوضع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها، يعني أن الفيض مجاز عن الامتلاء بعلاقة السببية فإن الثاني سبب للأول، فالمجاز في المسند والدمع هو

ذلك الماء أو الفيض على حقيقته، والتجوز في إسناده إلى العين للمبالغة كجرى النهر. ومن التعليل:

﴿حزناً ألا يجدوا﴾ قال الفراء: أى ليس يجدوا، وقيل حزناً على أن لا يجدوا وقيل المعنى حزناً انهم لا يجدوا، وقيل لأجل أن لا يجدوا ﴿ما ينفقون﴾ في الجهاد لا عند أنفسهم ولا عندك.

عن محمد بن كعب قال: هم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف: سالم ابن عمير ومن بني واقف حرمى بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر؛ ومن بني حارثة عبد الرحمن ابن زيد أبو غيلة، ومن بني سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله ابن عمرو المزني، من ثَمَّ [1] قيل لهم البكاءون فحمل العباس منهم اثنين وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذي جهزه وهو ألف. وحمل يامين بن عمرو النضرى اثنين، كذا في مختصر سيرة الحلبى.

وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة واختلفوا في البعض ولا يأتي التطويل في مثل ذلك بكثير فائدة.

---

(١) بفتح الثاء أي ومن هنا.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال ﴿إنما السبيل﴾ أى طريق العقوبة والمؤاخذة وهي الأعمال السيئة، وأتى بإنما للمبالغة في التوكيد لا للحصر، قال السفاقسي: وليس ثَمَّ ما يمنع أن تكون للحصر.

﴿على الذين يستأذنوك﴾ في التخلف عن الغزو ﴿وهم﴾ أي والحال انهم ﴿أغنياء﴾ يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ وهم النساء والصبيان، والجملة مستأنفة كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء، فقيل رضوا أي بالدناءة والضعة والانتظام فيهم وإليه مال الزمخشري وقيل انه في محل نصب على الحال وقد مقدرة. قاله الكرخي.

﴿وطبع على قلوبهم﴾ معطوفه على رضوا أي سبب الاستئذان مع الغنى أمران ﴿أحدهما﴾ الرضا بالصفقة الخاسرة وهي أن يكونوا مع الخوالف ﴿والثاني﴾ الطبع من الله على قلوبهم ﴿فهم﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسر. عن مجاهد قال: هي في المنافقين، قال السيوطي؛ وقد تقدم مثله اهـ.

قال في الجمل: لكن مع نوع اختلاف في الألفاظ كما لا يخفى.

﴿يعتذرون اليكم إذا رجعتم اليهم﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين

المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا عن الغزو، وهذا كلام مستأنف وإنما قال اليهم أي إلى المعتذرين بالباطل ولم يقل إلى المدينة لأن مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع اليها، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول اليها.

ويحتمل أن يكون الضمير في اليكم لرسول الله (ﷺ) على التأويل المشهور في هذا. روي أن المعتذرين كانوا بضعة وثمانين رجلاً.

ثم أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجيب به عليهم فقال: ﴿قل لا تعتذروا﴾ فنهاهم أولاً عن الاعتذار بالباطل ثم علله بقوله: ﴿لن نؤمن لكم﴾ أي لن نصدقكم كأنهم ادعوا انهم صادقون في اعتذارهم، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به؛ فإذا عرف انه لا يصدق ترك الاعتذار، وإنما خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب عليهم مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين لأنه صلى الله عليه وسلم رأسهم والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير.

وجملة ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ تعليلية للتي قبلها أي لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصدق اعتذاركم ﴿وسيرى الله عملكم﴾ أي ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه، وقيل سيعلم عملكم السيء واقعاً أي مستمراً على الوقوع، والظاهر أن الاستقبال في علم الله بالنظر لظهوره لنا.

﴿ورسوله﴾ معطوف على الاسم الشريف ووسط مفعول الرؤية إيذاناً بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي تدور عليها الاثابة أو العقوبة. وفي جملة ﴿ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ تخويف شديد لما هي مشتملة عليه من التهديد ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه.

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

﴿سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم﴾ ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين اليهم من الغزو، وغرضهم من هذا التأكيد ﴿لتعرضوا عنهم﴾ أي يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ويظهرون الرضا عنهم كما يفيده ذكر الرضا من بعد، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه، وهو اعتذارهم الباطل.

﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي دعوهم وما اختاروا لأنفسهم، والمراد به تركهم والمهاجرة لهم لا الرضا عنهم والصفح عن ذنبهم كما تفيده جملة ﴿انهم رجس﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض، والمعنى أنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة فكأنها قد صيرت ذواتهم رجساً أو أنهم ذوو رجس أي ذوو أعمال قبيحة، ومثله ﴿إنما المشركون نجس﴾.

وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الارشاد الى الخير والتحذير من الشر فليس لهم الا الترك، قال أهل المعاني: ان هؤلاء طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت.

﴿ومأواهم جهنم﴾ من تمام التعليل فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء الى الخير، أو تعليل مستقل قاله أبو السعود، والمأوى كل مكان يأوي اليه الشيء ليلاً أو نهاراً، وقد أوى فلان الى منزله يأوي ﴿جزاء﴾ أي يجزون جزاء أو مفعول من أجله ﴿بما كانوا يكسبون﴾ الباء للسببية.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا
أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ
مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿يحلفون لكم﴾ حذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق والمحلوف عليه بمثل ما تقدم ﴿لترضوا عنهم﴾ بين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم ذكر ما يفيد انه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل فقال: ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم وقبلتم عذرهم فلا ينفعهم رضاكم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ تعليل للمحذوف المتقدم.

وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا عن هؤلاء الفسقة العصاة فينبغي لكم أيها المؤمنون ان لا تفعلوا خلاف ذلك، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على ان رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيداً لهم.

والمقصود من اخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم هو نهي المؤمنين عن ذلك لأن الرضا عمن لا يرضى الله عنه مما لا يفعله مؤمن، ونكتة العدول لهذا الظاهر التسجيل عليهم حيث وصفهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك.

﴿الأعراب﴾ أي جنسهم لا كل واحد لما سيأتي ﴿أشد كفراً ونفاقاً﴾ لما ذكر سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب؛ وبين ان كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم،

لانهم أقسى قلوباً وأغلظ طباعاً وأجفى قولاً وأبعد عن سماع كتب الله وما جاءت به رسله وأوحش فعلاً، ولان نشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم.

وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض افراده كما في قوله تعالى: ﴿وكان الإنسان كفورا﴾ إذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبراً.

والاعراب هم من سكن البوادي بخلاف العرب فانه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا البوادي أو القرى، هكذا قال أهل اللغة، ولهذا قال سيبويه: ان الاعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب، لئلا يلزم كون الجمع أخص من مفرده.

قال النيسابوري: قال أهل اللغة رجل عربي إذا كان نسبه إلى العرب ثابتاً وجمعه عرب كالمجوسي والمجوس، واليهودي واليهود، فالاعرابي إذا قيل له يا عربي فرح وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب، وذلك ان من استوطن القرى العربية فهو عربي، ومن نزل البادية فهو أعرابي، ولهذا لا يجوز ان يقال للمهاجرين والانصار أعراب؛ وإنما هم عرب.

فإن قيل إنما سمي العرب عرباً لان أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤوا بالعرب وهي من تهامة فنسبوا إلى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم.

وقيل. لأن ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى.

وفي المصباح وأما الأعراب بالفتح فأهل البدو من العرب، الواحد أعرابي بالفتح أيضاً وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ وزاد الأزهري: سواء كان من العرب أو من مواليهم، فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء.

﴿وأجدر﴾ معناه أخلق يقال فلان جدير بكذا أي خليق به وأنت جدير أن تفعل كذا وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء يقال هو جدير وأجدر وحقيق وأحق، وقمن وخليق وأولى بكذا كله بمعنى واحد، قال الليث جدر يجدر جدارة فهو جدير، ويؤنث ويثنى ويجمع.

وقد نبه الراغب على أصل اشتقاق هذه المادة وانها من الجدار أي الحائط فقال والجدير المنتهي لانتهاء الأمر اليه انتهاء الشيء إلى الجدار، والذي يظهر أن اشتقاقه من الجدر وهو أصل الشجرة فكأنه ثابت كثبوت الجدر في قولك جدير بكذا.

﴿ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ من الشرائع والأحكام والفرائض وما أمر به من الجهاد لبعدهم عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل، ومشاهدة المعجزات، ومعاينة ما ينزل عليه من تضاعيف الكتاب والسنة.

ووصف العرب بأنهم جاهلون لا ينافي صحة الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم إذ وصفهم بالجهل انما هو في أحكام القرآن لا في ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم في بيان الأحكام بل في معاني بيان الألفاظ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم قاله الكرخي.

﴿والله عليم﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم وهؤلاء منهم ﴿حكيم﴾ فيما يجازيهم به من خير وشر، عن الكلبي ان هذه الآية نزلت في أسد وغطفان.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن[1] قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري.

وأخرج أبو داود والبيهقي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان افتتن. وما ازداد أحد من سلطانه قرباً إلا ازداد من الله بعداً»[2].

---

(١) الترمذي، كتاب الفتن، باب ٦٩.

(٢) أبو داوود، كتاب الأضاحي، باب ٢٤.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ هذا تنويع الجنس الى نوعين ﴿الأول﴾ هؤلاء ﴿والثاني﴾ ومن الأعراب من يؤمن بالله، والمغرم: الغرم والخسران وهو ثاني مفعولي يتخذ لأنه بمعنى الجعل، والمعنى انه اعتقد ما ينفقه في سبيل الله غرامة وخسراناً، وأصل الغرم والغرامة ما ينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده، ولكنه ينفقه للرياء والتقية، وقيل أصل الغرم اللزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس.

قال الضحاك: يعني بالمغرم انه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة، وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرهاً، وعن ابن زيد قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين انما ينفقون رياء اتقاء أن يغزوا، ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرماً وهم بنو أسد وغطفان.

﴿ويتربص﴾ أي ينتظر ﴿بكم الدوائر﴾ جمع دائرة وهي الحالة المتقلبة عن النعمة إلى البلية، وأصلها ما يحيط بالشيء ودوائر الزمان نوبه وتصاريفه ودوله وكأنه لا تستعمل إلا في المكروه، وفي الدائرة مذهبان أظهرهما انها صفة على فاعلة كقائمة وقال الفارسي: يجوز أن تكون مصدراً كالعاقبة، والمعنى ينتظر بكم تقلب الزمان وصروفها التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر، قال يمان بن رباب: يعني يموت الرسول ويظهر المشركون.

ثم دعا سبحانه عليهم بقوله: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ وجعل ما دعا به

عليهم مماثلاً لما أرادوه بالمسلمين، والسوء عند الجمهور مصدر أضيف اليه الدائرة للملابسة كقولك رجل صدق؛ وهو مصدر في الحقيقة، قال أبو البقاء: وهو الضرر، وقال مكي: من فتح السين فمعناه الفساد والرداءة، ومن ضمها فمعناه البلاء والضرر، وظاهر هذا أنهما إسمان لما ذكر، ويحتمل أن يكونا مصدرين ثم أطلقا على ما ذكر.

وقال غيره: المضموم العذاب والضرر، والمفتوح الذم، وقرأ ابن كثير وغيره بضم السين وهو المكروه، قال الأخفش: عليهم دائرة الهزيمة والشر، وقال الفراء: دائرة العذاب والبلاء قال: والسوء بالفتح سؤته سوءاً ومساءة وبالضم اسم لا مصدر وهو كقولك دائرة البلاء والمكروه، قال الخفاجي: وبين الفتح والضم شبه طباق، وقال الضحاك: الدوائر الهلكات ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه ﴿عليم﴾ بما يضمرونه.

﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر﴾ هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدم أي منهم من يصدق بهما، عن عبد الرحمن بن معقل قال: كنا عشرة ولد مقرن فنزلت هذه الآية فينا، وقال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ الآية، وقال الكلبي: هم أسلم وغفار وجهينه ومزينة، وفي الباب أحاديث يطول ذكرها.

﴿ويتخذ ما ينفق قربات﴾ أي سبب قربات ﴿عند الله﴾ وهي جمع قربة بالضم وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه، تقول منه قربت لله قرباناً والجمع قرب وقربات والمعنى انه يجعل ما ينفقه في سبيل الله سبباً لحصول القربات عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾ أي سبباً لدعوات الرسول لهم لأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين، ومنه قوله: ﴿وصلِّ عليهم ان صلاتك سكن لهم﴾ ومنه قوله: (ﷺ) «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»[1].

(١) مسلم ١٠٧٨ ـ البخاري ٨٠٠.

وقال ابن عباس: استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل انها منسوقة على ما ينفق أي ويتخذ ما ينفق وصلوات الرسول قربة، وجوزه ابن عطية ولم يذكر أبو البقاء غيره، وظاهر كلام الزمخشري انها نسق على قربات كما تقدم.

ثم انه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الاعراب تقرباً إلى الله مقبول واقع على الوجه الذي أرادوه فقال: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ أخبر سبحانه بقبولها خبراً مؤكداً باسمية الجملة وحرفي التنبيه والتحقيق؛ وفي هذا من التطييب لخواطرهم والطمأنينة لقلوبهم ما لا يقادر قدره مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مغرماً والتوبيخ له بأبلغ وجه، والضمير في ﴿انها﴾ راجع إلى ما في ما ينفق وتأنيثه باعتبار الخبر وقيل راجع إلى صلوات الرسول صلى الله عليه وسلم والأول أولى. ثم فسر سبحانه القربة بقوله: ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ السين لتحقيق الوعد. وهذه النعمة هي أقصى مرادهم ﴿إن الله غفور﴾ لأهل طاعته ﴿رحيم﴾ بعباده

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ
رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ
سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ لما ذكر أصناف الأعراف ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين لهم .

وقرأ عمر بن الخطاب الأنصار بالرفع عطفاً على والسابقون، وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر. قال الأخفش: الخفض في الأنصار الوجه لأن السابقين منهم يدخلون في قوله: ﴿والسابقون﴾.

وفي هذه الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم الذين صلوا للقبلتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي أو أهل بدر في قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار. ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها. قال محمد بن كعب القرظي: هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو منصور البغدادي أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون ثم البدريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

﴿والذين اتبعوهم﴾ أي اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والانصار وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم الى يوم القيامة، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله

عليه وسلم بل هم من جملة من يدخل تحت الآية فتكون ﴿من﴾ في قوله ﴿من المهاجرين﴾ على هذا للتبعيض.

وقيل إنها للبيان فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة الى يوم القيامة كما قال ابن زيد هم من بقي من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة.

قال جماعة من الصحابة. لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا لأمتي كلهم وليس بعد الرضا سخط.

عن حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي: أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانما أريد الفتن قال: ان الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم، قلت له وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه؟ قال ألا تقرؤون قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون﴾ الآية، أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطاً لم يشرطه فيهم، قلت وما اشترط عليهم؟ قال اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان، يقول يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك. قال أبو صخر: فوالله لكأني لم أقرأها قبل ذلك ولا عرفت تفسيرها حتى قرأها عليَّ محمد بن كعب.

وقوله: ﴿بإحسان﴾ قيد للتابعين أي والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الافعال والاقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين ﴿رضي الله عنهم﴾ أي قبل طاعتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم ﴿ورضوا عنه﴾ بما أعطاهم من فضله ومع رضائه عنهم فقد ﴿أعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ في الدار الآخرة وفي قراءة بزيادة ﴿من﴾ قاله السيوطي. وفي الجمل أي سبعية لابن كثير،

ومعلوم أن قراءته الصلة فليتنبه القارىء اذا قرأ بزيادة من لصلة الميم في المواضع الثلاثة وهي اتبعوهم وعنهم وأعد لهم لئلا يقع في التلفيق، وقد تقدم تفسير جري الانهار من تحت الجنات وتفسير الخلود.

﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ اختلفوا في أول الناس اسلاماً بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق اسلاماً على أقوال يطول ذكرها. وقال اسحق ابن ابراهيم: أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب، ومن العبيد زيد بن حارثة؛ فهؤلاء الاربعة سباق الخلق الى الاسلام. وأسلم على يد أبي بكر عثمان والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة، ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول في الاسلام، فهؤلاء السابقون الاولون من المهاجرين.

وأما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي العقبة الأولى، وكانوا خمسة نفر: سعد وعوف ورافع وقطبة وجابر، ثم أصحاب العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلاً، ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلاً، فهؤلاء سابقو الأنصار. وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ هذا عود الى شرح أحوال المنافقون من أهل المدينة ومن يقرب منها من الأعراب، قيل وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ومزينة وأشجع وغفار وأسلم، ذكره جمع من المفسرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي والنسفي والخازن والسيوطي وغيرهم وفيه اشكال لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل، فإن صح هذا النقل فتحمل الآية على القليل منهم، لأن لفظة ﴿من﴾ للتبعيض، ويحمل الدعاء لهم على الأكثر والأغلب، وبهذا يمكن الجمع بينهما.

وأطلق الطبري القول ولم يعين أحداً من القبائل المذكورة بل قال من القوم الذين حول مدينتكم؛ أيها المؤمنون من الأعراب منافقون ﴿ومن أهل

المدينة﴾ قوم أو ناس ﴿مردوا على النفاق﴾ قال البغـوي: أي من الأوس والخزرج. وقيل المعنى وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا، وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه غصن أمرد لا ورق عليه، وفرس أمرد لا شعر فيه، وغلام أمرد لا شعر بوجهه، وأرض مرداء لا نبات فيها وصرح ممرد مجرد مملس، كما قال:

في منزل شيد بنيانه   يزل عنه ظفر الطائر

فالمعنى أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه ولم يتوبوا منه، قال ابن زيد: معناه لجوا فيه وأبوا غيره.

قال الخفاجي: أصل معنى التمرد التمرن أي الاعتياد والتدرب في الأمر حتى يصير ماهراً فيه لاتخاذه صنعة وديدناً له، ولذا خفي نفاقهم عليه صلى الله عليه وسلم مع كمال فطنته وفراسته.

وقال الراغب: انه من قولهم شجرة مرداء أي لا ورق عليها أي أنهم خلوا من الخير. وروى أهل الجنة جرد مرد وهو محمول على ظاهره، أو المراد انهم خالصون من الشوائب والقبائح.

وجملة ﴿لَا تعلمهم﴾ مبنية للجملة الأولى وهي مردوا على النفاق أي ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف سائر المؤمنين، والمراد عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم لا من حيث الجملة، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وسلم.

ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ لأن آية النفي نزلت قبل آية الإثبات، وهذه الجملة صفة المنافقون أو مستأنفة، والعلم هنا اما على بابه فيتعدى لإثنين أي لا تعلمهم منافقين أو عرفاني فيتعدى لواحد. قاله أبو البقاء.

وأما قوله: ﴿نحن نعلمهم﴾ فلا يجوز أن يكون الا على بابه وهي مقررة

لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر. ثم توعدهم سبحانه فقال: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قيل المراد بهما عذاب الدنيا بالقتل والسبي وعذاب الآخرة، وقيل الفضيحة بانكشاف نفاقهم والعذاب في الآخرة، وقيل المصائب في أموالهم وأولادهم وعذاب القبر. قال مجاهد مرتين يعني بالجوع والقتل.

وعن أبي مالك قال: بالجوع وعذاب القبر. وعن قتادة قال: عذاب في القبر وعذاب في النار، وقد روي عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على انه المراد بعينه، والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب وانهم يعذبون مرة بعد مرة ثم يردون بعد ذلك الى عذاب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ثم يردون الى عذاب عظيم﴾.

ومن قال ان العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال معنى قوله ﴿ثم يردون﴾ انهم يردون بعد عذابهم في النار كسائر الكفار إلى الدرك الاسفل منها أو انهم يعذبون في النار عذاباً خاصاً بهم دون سائر الكفار ثم يردون بعد ذلك الى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار.

وفي مسند أحمد عن ابن مسعود: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن منكم منافقين فمن سميته فليقم، ثم قال: قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين[1].

---

(١) الإمام احمد ٥/٢٧٢.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون في دينهم فقال: ﴿و﴾ ممن حولكم أو من أهل المدينة قوم ﴿آخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ المعنى إن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو بغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا بالاعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجوا أن يتوب الله عليهم.

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ المراد بالعمل الصالح ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الاسلام وخروجهم الى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السيىء هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السيّء عملاً صالحاً وهو الاعتراف به والتوبة عنه. وأصل الاعتراف الاقرار بالشيء ومجرد الاقرار لا يكون توبة الا اذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا.

ومعنى الخلطة انهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء؛ ذكره غالب المفسرين وأنكره الرازي وقال: الواو لمطلق الجمع، وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة وانه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر.

ويجوز أن يكون الواو بمعنى الباء، كقولك بعت الشاء شاة ودرهماً أي بدرهم وقال الواحدي: الواو أحسن من الباء لأنه أريد به معنى الجمع لا حقيقة الخلط ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيىء كما لا يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما؛ وقال التفتازاني: وتحقيقه أن الواو للجمع والباء

للالصاق، والجمع والالصاق من قبيل واحد فسلك به طريق الاستعارة. وقال الزمخشري: كل واحد مخلوط ومخلوط به وفيه ما ليس في الباء.

وفي قوله: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة أو أن مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة وحرف الترجي هو ﴿عسى﴾ في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع، لأن الاطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الاكرمين، وفي المواهب واتفق المفسرون على ذلك، قال القسطلاني: وعبر بعسى للاشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه حتى لا يتكل المرء بل يكون على خوف وحذر ﴿ان الله غفور رحيم﴾ يغفر الذنوب ويتفضل على عباده، وهذا يفيد انجاز الوعد.

عن ابن عباس قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع عليهم، فلما رآهم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم، قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تطلقهم وتعذرهم قال: وأنا أقسم بالله لا اطلقهم ولا اعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فنزلت ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾.

وقيل الآية تعم جميع المسلمين، والحمل على العموم أولى وان كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك، وروى الطبراني عن أبي عثمان قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية.

﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها

فقيل هي صدقة الفرض، وقيل هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية كما تقدم، و﴿من﴾ للتبغيض على التفسيرين والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة والصدقة مأخوذة من الصدق إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه.

﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ الضمير المرفوع في الفعلين للنبي صلى الله عليه وسلم أي تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم، وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة والضمير في تزكيهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والأول أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين، ومعنى التطهير إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب، ومعنى التزكية المبالغة في التطهير.

قال الزجاج: الأجود أن يكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي فانك يا محمد تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف ويجوز الجزم على جواب الأمر والمعنى ان تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم، قال السيوطي: فأخذ ثلث أموالهم وتصدق بها على سبيل الكفارة لذنوبهم فان كل من أتى ذنباً يسن له التصدق.

﴿وصل عليهم﴾ أي ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم، قال النحاس: وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه ان الصلاة في كلام العرب الدعاء؛ ثم علل سبحانه أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال: ﴿ان صلاتك سكن لهم﴾ السكن ما تسكن اليه النفس وتطمئن به وهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض والمعنى يسكنون اليها، قال ابن عباس: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ان صلاتك رحمة لهم.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبي أوفى قال كان

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بصدقة قال: اللهم صل على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى[1].

﴿والله سميع﴾ لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عليم﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم.

ولما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقاً قال: ﴿ألم يعلموا﴾ أي غير التائبين أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم، والاستفهام للتقرير أو للتحضيض والتأكيد ﴿ان الله هو يقبل التوبة﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين وعدم مبالاته بمعصية العاصين، وقرىء بالتاء وهو اما خطاب للتائبين أو الجماعة المؤمنين، والمعنى أن ذلك ليس لرسول الله (ﷺ) انما الله هو الذي يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها.

﴿عن عباده﴾ قيل لا فرق بين عن ومن، قال ابن عطية: وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه نحو لا صدقة إلا عن غني ومن غني وفعل ذلك فلان من أشره وبطره وعن أشره وبطره، وقيل بينهما فرق ولعل ﴿عن﴾ في هذا الموضع أبلغ لأن فيه تبشير القبول للتوبة مع تسهيل سبيلها، وقيل لفظة عن تشعر ببعد ما، تقول جلس عن يمين الأمير أي مع نوع من البعد،

(١) مسلم ١٠٧٨ ـ البخاري ٨٠٠.

والظاهر أن عن هنا للمجاوزة وإذا قلت منه فمعناه ابتداء الغاية.

﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي يتقبلها منهم وفي إسناد الاخذ اليه سبحانه بعد أمره لرسوله (ﷺ) بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها، وفي ذكر لفظ الاخذ ترغيب في بذل الصدقة واعطائها الفقراء.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت ثمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوّه أو فصيله»[1] أخرجه الشيخان وفي الباب أحاديث يطول ذكرها.

﴿وان الله هو التواب الرحيم﴾ أي ان هذا شأنه سبحانه؛ وفي صيغة المبالغة في التواب مع توسيط ضمير الفصل والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى.

﴿وقل﴾ لهم أو للناس وهما قولان للمفسرين ﴿اعملوا﴾ ما شئتم من الأعمال الصالحة والسيئة ﴿فسيرى الله عملكم﴾ خيراً كان أو شراً تعليل لما قبله ﴿ورسوله والمؤمنون﴾ فيه تخويف وتهديد للمذنبين أي ان عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى اعمال الخير أو أخلصوا أعمالكم لله عز وجل، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط للمطيعين، فإن من علم أن عمله لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير وتجنب أعمال الشر، وما أحسن قول زهير:

ومهما يكن عند امرىء من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

(١) مسلم ١٠١٤ ـ البخاري ٧٥١.

فظاهره ترغيب وترهيب، والمراد بالرؤية هنا العلم بما يصدر من الأعمال والاستقبال بالنظر للمجازاة وإلا فالعلم حاصل بالفعل أي فسيجازيكم على عملكم والمجازاة من الله معلومة ومن رسوله والمؤمنين بمعنى الثناء عليهم والدعاء لهم.

قال مجاهد: هذا وعيد من الله عز وجل، وقال أبو السعود: زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح، وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والبيهقي وغيرهم عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان[1].

ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال ﴿وستردون﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي اليه سبحانه الذي يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه. وفي تقديم الغيب على الشهادة اشعار بسعة علمه عز وجل وانه لا يخفى عليه شيء، ويستوى عنده كل معلوم.

ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردهم اليه فقال ﴿فينبئكم﴾ أي يخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته ويتفضل على من يشاء من عباده.

---

(١) المستدرك كتاب الرقاق ٤/٣١٤.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام في المتخلفين (الأول) المنافقون الذين مردوا على النفاق (الثاني) التائبون المعترفون بذنوبهم (الثالث) الذين بقي أمرهم موقوفاً في تلك الحال وهم المرجون لأمر الله من أرجيته وأرجأته إذا أخرته وهما لغتان والقراءتان أي بالهمز ودونه سبعيتان، والمعنى انهم مؤخرون في تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها، بل هم على ما تبين من أمر الله سبحانه في شأنهم.

والفرق بين الثاني والثالث أن الثاني اعتذر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعذار فقبلها منه فجعلت توبته، وان الثالث لم يعتذر لأنه فتش فلم يجد عذراً صادقاً فأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره حتى ينزل الله قبول توبته فأخر الله قبولها خمسين يوماً.

﴿إما يعذبهم﴾ إن بقوا على ماهم عليه ولم يتوبوا ﴿وإما يتوب عليهم﴾ ان تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً، والتقدير وآخرون مرجون لامر الله حال كونهم إما معذبين وإما متوباً عليهم، وإما هنا للشك بالنسبة إلى المخاطب، وإما للابهام بالنسبة إلى الله تعالى بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أعني هذا الترديد بالنظر لاعتقادنا فيهم، وإلا فالله تعالى عالم بعين ما هو فاعله بهم ﴿والله عليم﴾ بأحوالهم ﴿حكيم﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شر.

وعن عكرمة قال: وآخرون مرجون لأمر الله هم الثلاثة الذين خلفوا، وعن مجاهد قال: هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج تخلفوا كسلاً وميلاً الى الدعة لا نفاقاً، ولم يعتذروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم كغيرهم، فوقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين﴾ لما ذكر سبحانه أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وسيأتي بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار وفي إعرابه وجوه ذكرها في الجمل.

وقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة:

الأول: الضرار لغيرهم وهو المضاررة. الثاني: الكفر بالله والمباهاة لأهل الاسلام لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق. الثالث: التفريق بين المؤمنين لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الالفة ما لا يخفى.

الرابع قوله ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ قال الزجاج: الارصاد الانتظار. وقال ابن قتيبة: الارصاد الانتظار مع العداوة، وقال الاكثرون: هو الاعداد، والمعنى متقارب، يقال أرصدت لكذا اذا أعددته مرتقباً له، وبه قال أبو زيد، يقال رصدته وأرصدته في الخير وأرصدت له في الشر، وقال ابن الاعرابي: لا يقال أرصدت ومعناه ارتقبت، والمراد بمن حارب الله ورسوله المنافقون وهم اثنا عشر رجلاً منهم ابو عامر الراهب، أي أعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنون.

﴿من قبل﴾ أي من قبل أن ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار أو المعنى

لمن وقع منه الحرب لله ورسوله من قبل بناء مسجد الضـرار ﴿وليحلفن﴾ جواب قسم مقدر أي والله ﴿ان أردنا الا الحسنى﴾ أي ما أردنا ببنائه الا الخصلة أو الارادة الحسنى، وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المطر والحر، فرد الله عليهم بقوله ﴿والله يشهد﴾ أي يعلم ﴿انهم لكاذبون﴾ فيما حلفوا عليه وقالوه.

عن ابن عباس قال: هم أناس من الانصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة ابنوا مسجدكم واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فأنزل الله ﴿لا تقم فيه أبداً﴾.

وعنه قال: لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال من الانصار فبنوا مسجد النفاق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بخدج ما أردت الا ما أرى، قال: ما أردت الا الحسنى وهو كاذب، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن يعذره، فأنزل الله ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ الآية.

ثم نهى الله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ أي في وقت من الاوقات، فأرسل رسول الله (ﷺ) جماعة هدموه وأحرقوه وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف، والنهي عن القيام فيه يستلزم النهي عن الصلاة فيه، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، يقال فلان يقوم الليل أي يصلي، ومنه الحديث الصحيح «من قام

رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[١].

ثم ذكر الله سبحانه علة النهي عن القيام بقوله ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ اللام في لمسجد لام القسم، وقيل لام الابتداء وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة، وعلى قيل انها بمعنى مع والابلغ ابقاؤها على ظاهرها، وجعل التقوى أساساً له وتأسيس البناء تثبيته ورفعه، ومعنى تأسسه على التقوى تأسيسه على الخصال التي لا تبقى بها العقوبة.

واختلف العلماء في هذا المسجد فقالت طائفة هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبي وغيرهم ورجحه البيضاوي لظاهر قوله تعالى، ﴿من أول يوم﴾ إذ لا يراد أول الأيام مطلقاً بل أول أيام الهجرة ودخول المدينة المنورة لأنه بني قبل مسجد المدينة ولقوله ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ ولأنه أوفق بالمقام لأنه بقباء كمسجد الضرار.

وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لما أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان، رجل من بني خدرة، وفي لفظ تماريت أنا ورجل من بني عمروبن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد، لمسجد رسول الله (ﷺ) وقال: في ذلك خير كثير يعني: مسجد قباء.

وأخرج أحمد وغيره عن أبيٍّ بن كعب قال: سألت النبي صلى الله عليه

---

(١) مسلم ٧٥٩ ـ البخاري ٣٣.

وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى، قال هو مسجدي هذا[1]، وعن زيد بن ثابت مرفوعاً مثله عند الطبراني وغيره وفي الباب أحاديث كثيرة.

وقد جمع الشريف السمهودي بين الأحاديث وقال: كل منهما مراد لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه.

والسر في إجابته صلى الله عليه وآله وسلم السؤال عن ذلك مما في الحديث دفع ما يوهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء والتنويه بمزية هذا على ذاك وهو غريب هناك وقد سبقه اليه السهيلي في الروض الانف.

ولا يخفاك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى وجزم بأنه مسجده صلى الله عليه وسلم كما تقدم من الأحاديث الصحيحة فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا من غيرهم، ولا يصلح لإيراده في مقابلة ما قد صح عن النبي (ﷺ).

قال الكرخي: والتحقيق إن رواية نزولها في مسجد قباء لا تعارض تنصيصه صلى الله عليه وسلم على انه مسجد المدينة، فإنها لا تدل على اختصاص أهل قباء بذلك. انتهى.

ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى، على أن ما ورد في فضائل مسجده (ﷺ) أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة.

و﴿من أول يوم﴾ متعلق بأسس، أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه: قال بعض النحاة: ان من ههنا بمعنى منذ، أي منذ أول يوم

---

(١) الإمام احمد ٣/٨.

ابتدىء ببنائه ووضع أساسه.

قال السهيلي نور الله مرقده: في الآية من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضي الله تعالى عنه حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة لأنه الوقت الذي عز فيه الاسلام، والحين الذي أمن فيه النبي صلى الله عليه وسلم وبنيت المساجد وعُبد الله كما يحب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل.

وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى ﴿من أول يوم﴾ ان ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن، فإن كان الصحابة رضوان الله عليهم أخذوه من هذه الاية فهو الظن بهم لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما في القرآن من الاشارات.

وإن كان ذلك على رأي واجتهاد فقد علمه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل إذ لا يعقل قول القائل فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم أو شهر معلوم أو تاريخ معلوم. وليس ههنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينه لفظ أو حال، فتدبره ففيه معتبر لمن ادّكـر وعلم لمن رأى بعين فؤاد واستبصر.

﴿أحق أن تقوم فيه﴾ مصلياً وأفعل التفضيل على غير بابه أو المفاضلة باعتبار زعمهم أو بالنظر له في ذاته، فإن المحظور قصدهم ونيتهم، والمعنى لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله لكونه أسس على التقوى من أول يوم ولكونه ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ هذه الجملة، مستأنفة لبيان أحقية قيامه صلى الله عليه وسلم فيه أي كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل، فهو أولى من جهة الحال فيه، ومعنى محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه، يعني من الأحداث

والجنابات وسائر النجاسات؛ وهذا قول أكثر المفسرين، وقيل معناه يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار والاول أولى.

وقال الرازي : المراد بها الطهارة من الذنوب والمعاصي، وعينه بوجوه ثلاثة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة للذنوب فحموا جميعاً وهذا ضعيف جداً.

﴿والله يحب المطهرين﴾ معنى محبة الله لهم الرضا عنهم والاحسان اليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم عن أبي أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ان الله قد اثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا؟ قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة؛ قال فهل مع ذلك غيره؟ قالوا لا، غير أن أحدنا إذا خرج الى الغائط أحب أن يستنجي بالماء، قال هو ذاك فعليكموه[1].

وفي حديث رواه البزاز قالوا نتبع الحجارة بالماء؟ فقال هو ذاك فعليكموه، وفي الباب روايات بألفاظ، وقد روي عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا.

ولا يخفاك أن بعض هذه الاحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله وبعضها ضعيف وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء؛ وعلى كل حال لا يقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي (ﷺ) في صحتها وصراحتها.

---

(١) المستدرك كتاب الطهارة ١/١٥٥.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بوناً بعيداً فقال ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾ الهمزة للانكار والجملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين على أهل مسجد الضرار، والفاء عاطفة على مقدر أي أبعد ما علم حالهم فمن أسس، والبنيان مصدر كالعمران وأريد به المبنى.

والمعنى ان من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضد ذلك وهو الباطل والنفاق، قيل انه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقي أو مجاز فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينية أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة بحال من بنى شيئاً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن فيه أو البنيان استعارة أصلية والتأسيس ترشيح والشفا الشفير، وشفا كل شيء حرفه وطرفه.

ومنه يقال أشفى على كذا إذا دنا منه وقرب ان يقع فيه، والجرف بضم الراء وسكونها قراءتان سبعيتان، وعلى كل فالجيم مضمومة وهو ما يتجرف بالسيول وهي الجوانب التي تنحفر بالماء وقيل المكان الذي أكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب، وقيل البئر التي لم تطو، وقيل هو الهوة، والاجتراف اقتلاع الشيء من أصله، والهار الساقط يقال هار البناء إذا سقط وأصله هائر كما قالوا شاك السلاح وشائك، كذا قال الزجاج: يقال هار يهور ويهار وهار يهير وتهور

البناء وتهير فهو مقلوب بتقديم لامه على عينه، وقيل حذفت عينه اعتباطاً أي لغير موجب.

وقال أبو حاتم: ان اصله هاور أي ساقط متداع منها، قال في شمس العلوم: الجرف ما جرف السيل أصله وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار انتهى وقيل لا قلب فيه ولا حذف وان أصله هورأو هير قال السمين وهذا أعدل الوجوه لاستراحته من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الأصل لولا أنه غير مشهور عند أهل التصريف انتهى.

جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ثم قال ﴿فانهار﴾ الجرف أو الشفا أو بنيان الباني على شفا جرف هار ﴿به﴾ أي بالبنيان أو المعنى انه طاح الباطل بالبناء والباني ﴿في نار جهنم﴾ قال ابن عباس: صيرهم نفاقهم الى النار، روى انهم رأوا الدخان حين حفروا أساسه، وقال قتادة: والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار.

والباء في به للتعدية أو المصاحبة أي فانهار مصاحباً له وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترجيحاً للمجاز، وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام وأقوى تراكيبه وأوقع معناه وأفصح مبناه، عن جابر بن عبدالله قال: لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أخرجه الحاكم ومسدد وابن جرير وغيرهم.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ثم ذكر سبحانه ان بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم واستمرار ترددهم وشكهم فقال: ﴿لا يزال بنيانهم﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ﴿الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي شكاً ونفاقاً أي سبب ريبهم كأنه نفس الريبة أما حال بنائه فظاهر وأما حال هدمه فلأنه رسخ به ما كان في قلوبهم من الشر وتضاعفت

آثاره وأحكامه، وقيل معنى الريبة الحسرة والندامة لأنهم ندموا على بنيانه، وقال المبرد أي حرارة وغيظاً.

وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليهم وسلم له نفاقاً وتصميماً على الكفر ومقتاً للاسلام لما أصابهم من الغيظ الشديد والغضب العظيم بهدمه.

ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها وهو قوله: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ قطعاً وتتفرق أجزاء إما بالموت أو بالسيف، وقيل في القبور أو في النار، والمقصود ان هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة وقيل معناه الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

وقرىء تقطع بالتخفيف والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم وتتمكن منهم كل التمكن، وقرىء ولو تقطعت قلوبهم، وقرىء شاذاً إلى أن تقطع على الغاية أي لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا والمستثنى منه محذوف، والتقدير في كل وقت إلا وقت تقطيع قلوبهم، أو في كل حال إلا حال تقطيعها ﴿والله عليم﴾ بعزائمهم ﴿حكيم﴾ في جزاء جرائمهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾

﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ لما شرح الله تعالى فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك، وذكر أقسامهم وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه وقد بالغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبوله أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله واثابته إياهم بمقابلتها بالجنة بالشراء، فذكر الشراء تمثيل على طريقة الاستعارة التبعية كما في قوله: ﴿اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾.

ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد، انفس المؤمنين واموالهم وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة، ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم واموالهم، ليدل على ان المقصود في العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة اليها إيذاناً بكمال العناية بهم وبأموالهم.

ثم انه لم يقل بالجنة بل قال ﴿بأن لهم الجنة﴾ مبالغة في تقرر وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم، واصل الشراء بين العباد هو اخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه أو انفع منه، فهؤلاء المجاهدون باعوا انفسهم من الله بالجنة التي اعدها الله للمؤمنين أي بأن يكونوا من أهل الجنة وممن يسكنها جادوا بأنفسهم وهي أنفس الاعلاق

والجود بها غاية الجود، وجاد الله عليهم بالجنة وهي أعظم ما يطلبه العباد ويتوسلون اليه بالاعمال، والمراد بالانفس هنا انفس المجاهدين، وبالاموال ما ينفقونه في الجهاد أو في جميع وجوه البر والطاعات، ويدخل فيها الجهاد دخولاً أولياً.

قال أهل المعاني: لا يجوز أن يشتري الله شيئاً في الحقيقة لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملكه والاشياء كلها ملك لله عز وجل، ولهذا قال الحسن: انفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها، لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء إلى الطاعة والجهاد وجعل ذلك استبدالاً وشراء، ودخلت الباء هنا على المتروك على بابها وسماها أبو البقاء باء المقابلة كقولهم باء العوض وباء الثمنية.

وقرأ عمر بن الخطاب بالجنة، عن جابر بن عبدالله قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد كبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية قال: نعم، فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اشترط في بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة والسمع والطاعة ولا ينازعوا في الأمر أهله، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم قالوا نعم، قال قائل الأنصار نعم لك هذا يا رسول الله فما لنا قال الجنة، وأخرجه ابن سعد أيضاً من وجه آخر، وليس في قصة العقبة ما يدل على انها سبب نزول الآية.

﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ استئناف لبيان البيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور لا لبيان نفس الاشتراء، لأن قتالهم في سبيل الله ليس باشتراء من الله أنفسهم وأموالهم كأنه قيل كيف يبيعونها بالجنة فقيل يقاتلون، وقيل فيه معنى الأمر أي قاتلوا في سبيله.

ثم بين هذه المقاتلة بقوله: ﴿فيقتلون﴾ أعداء الله ﴿ويُقتلون﴾ في طاعته والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب ويبذلون أنفسهم في ذلك، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة، وان لم يقع القتل عليهم بعد الابلاء في الجهاد والتعرض للموت بالإقدام على الكفار، وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس.

وفي قراءة بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة في الباب، وايذاناً بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله بل بكونه أحب اليهم من السلامة أي فيقتل بعضهم، ويقاتل الباقي يعني لا يشترط اجتماع الأمرين في الشخص الواحد بل يتحقق الفضل العظيم وان لم يوجد واحد من الوصفين كما إذا وجدت المضاربة من غير قتل بل يتحقق الجهاد بمجرد العزم وتكثير السواد.

﴿وعداً عليه حقاً﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف أي وعدهم وعداً وحق ذلك الوعد حقاً أي تحقق وثبت اخبار من الله سبحانه بأن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله.

﴿في التوراة والانجيل والقرآن﴾ أي كما وقع في القرآن وفيه وجهان (أحدهما) أنه متعلق باشترى وعلى هذا ففيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل وكل أمة وعدت عليه بالجنة (والثاني) أنه متعلق بمحذوف والمعنى وعداً مذكوراً كائناً في التوراة وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكوراً في كتب الله المنزلة.

﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد والتنشيط لهم على بذل الانفس والاموال ما لا يخفى، فإنه أولاً أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وجاء بهذه العبارة الفخيمة وهي كون الجنة قد صارت ملكاً لهم، ثم أخبر ثانياً بأنه قد وعد بذلك في كتبه

المنزلة ثم أخبر ثالثاً بأنه بعد هذا الوعد الصادق لا بد من حصول الموعود به فانه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، فان إخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره منهم، فكيف بجناب الخلاق الغني عن العالمين جل جلاله، فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه أوفى بالعهد من كل واف.

ثم زادهم سروراً وحبوراً فقال: ﴿فاستبشروا ببيعكم﴾ البشارة هي إظهار السرور وظهوره يكون في بشرة الوجه، ولذا يقال أسارير الوجه أي التي يظهر فيها السرور، والسين ليست للطلب كاستوقد وأوقد بل للمطاوعة وقد تقدم ايضاح هذا والفاء لترتيب الاستبشار أو الامر به على ما قبله، والمعنى أظهروا السرور وافرحوا غاية الفرح بهذا البيع.

﴿الذي بايعتم به﴾ الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم، وفيه التفات عن الغيبة تشريفاً لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور، وفيه زيادة تقرير بيعهم واشعار بكونه مغايراً لسائر البياعات، فإنه بيع للفاني بالباقي وكلا البدلين له سبحانه وتعالى.

والاشارة بقوله: ﴿وذلك﴾ إلى الجنة أو إلى نفس المبيع الذي ربحوا فيه الجنة ﴿هو الفوز العظيم﴾ وصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظيم يدل على أنه فوز لا فوز مثله، قال عمر بن الخطاب: ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن، وعنه أن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها، وقال قتادة: ثامنهم فأغلى لهم، وقال الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

﴿التائبون﴾ رفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين والتائب الراجع أي هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة، وقال الزجاج: عندي أن قوله التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر، أي التائبون ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا. قال: وهذا أحسن إذ لو كانت هذه أوصافاً للمؤمنين المذكورين لكان الوعد خاصاً بالمجاهدين.

وقد ذهب إلى هذا طائفة من المفسرين، وقيل إن الخبر قوله: ﴿الآمرون﴾ وقيل إن التائبون بدل من الضمير المستتر في يقاتلون، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين في الآية الأولى وإنها على جهة الشرط، أي لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف، وبه قال ابن عطية وقيل غير ذلك.

وجوز صاحب الكشاف أن يكون التائبون مبتدأ وخبره العابدون وما بعده اخبار كذلك أي التائبون عن الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، وفيه من البعد ما لا يخفى.

ثم قيل المراد به التوبة عن الشرك والبراءة من النفاق وقيل من كل معصية، وقيل من جميع المعاصي، لأن اللفظ عام يتناول الكل، وحاصل ما ذكر أوصاف تسعة، الستة الأولى تتعلق بمعاملة الخالق، والسابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والتاسع يعم القبيلين. قاله الحفناوي، وأتى بترتيب هذه الصفات في الذكر على أحسن نظم، وهو ظاهر بالتأمل فإنه قدم التوبة

أولاً ثم ثنى بالعبادة إلى آخرها.

﴿العابدون﴾ أي القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الاخلاص ﴿الحامدون﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على كل حال في السراء والضراء ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى ﴿السائحون﴾ السياحة في اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه، فالسياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها.

وفي القاموس السياحة بالكسر الذهاب في الأرض للعبادة ومنه المسيح بن مريم، وذكرت في اشتقاقه خمسين قولاً في شرحي لمختصر البخاري، والسائح الصائم الملازم للسياحة، قيل هم الصائمون، واليه ذهب جمهور المفسرين، وبه قال ابن مسعود ومنه قوله تعالى: ﴿عابدات سائحات﴾ وإنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلها كما يترك السائح في الأرض، قاله سفيان بن عيينة.

وقال الأزهري: سمي الصائم سائحاً لأن الذي يسيح في الارض متعبداً لا زاد معه فكان ممسكاً عن الاكل، وكذلك الصائم ممسك عنه، قال الزجاج: ومذهب الحسن أن السائحين هنا هم الذين يصومون الفرض، وقيل انهم الذين يديمون الصيام، وقال عطاء: السائحون هم الغزاة والمجاهدون، وقال عبد الرحمن بن زيد: هم المهاجرون، وقال عكرمة: هم الذين يسافرون لطلب الحديث، وقيل هم الحائرون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر، وقيل هم طلبة العلم مطلقاً لانهم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلبه ويسيحون في الارض يطلبونه من مظانه ويدخل فيه طالب الحديث دخولاً أولياً.

﴿الراكعون الساجدون﴾ معناه المصلون المحافظون على الصلوات، وعبر

عنها بهما لانهما معظم أركانها وبهما يمتاز المصلي من غيره بخلاف غيرهما كالقيام والقعود لانهما حالتا المصلي وغيره ﴿الآمرون بالمعروف﴾ أي القائمون بأمر الناس بما هو معروف في الشريعة ﴿والناهون عن المنكر﴾ أي القائمون بالانكار على من فعل منكراً أي شيئاً ينكره الشرع.

قال الحسن: اما انهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله، ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه، لم يأت بعاطف بين هذه الاوصاف لمناسبتها لبعضها إلا في هذين الوصفين للمضادة بينهما اذ الاول طلب فعل والثاني طلب ترك أو كف ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أي القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها الله في كتبه وعلى لسان رسله، وقيل بطاعة الله.

وقال الحسن: بفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله، وقيل بأوامره ونواهيه أو بمعالم الشرع، وقيل إن العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها، كقوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ وقيل إن الواو زائدة، وقيل هي واو الثمانية المعروفة عند النحاة كما في قوله تعالى: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ وقوله: ﴿وفتحت أبوابها﴾ وقوله: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾.

وقد أنكر واو الثمانية أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه، قال الخفاجي: وقائل هذا القول يعني كون السبع عدداً تاماً هو أبو البقاء تبعاً لغيره ممن أثبت واو الثمانية، وهو قول ضعيف لم يرضه النحاة كما فصله صاحب المغنى اهـ والحافظ ابن القيم في البدائع.

﴿وبشر المؤمنين﴾ الموصوفين بالصفات السابقة بالجنة، عن ابن عباس قال: من مات على هذه التسع فهو في سبيل الله، ومن مات وفيه تسع فهو شهيد، وفيه إظهار في مقام الإضمار للتنبيه على علة الحكم أي سبب استحقاقهم الجنة هو إيمانهم وحذف المبشر به لخروجه عن حد البيان.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ما كان﴾ أي لا يصح ولا ينبغي ولا يجوز ﴿للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ لما بين الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً وصرح بأن ذلك متحتم ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ فإن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها.

وقد ذكر أهل التفسير أن ﴿ما كان﴾ في القرآن يأتي على وجهين (الأول) على النفي نحو ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله، والآخر على النهي نحو ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله.

﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار، والمعنى ان هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا، وعدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك، وقد قال سبحانه ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به﴾ فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده.

عن عليّ قال: أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب فبكى فقال: اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه، ففعلت وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه ﴿ما كان للنبي﴾ الآية .

وقد روى في سبب نزول الآية استغفار النبي ﷺ لأبي طالب من طرق كثيرة وأصله في الصحيحين، وما فيهما مقدم على ما لم يكن فيهما على فرض أنه صحيح فكيف وهو ضعيف غالبه، وقيل إن أريد بطلب المغفرة للكافر هدايته للاسلام قبل الموت جاز الاستغفار له، وإن أريد به أن يغفر ذنبه مع بقائه على الكفر لم يجز فمفهوم هذه الآية فيه تفصيل.

وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار وتحريم الاستغفار لهم والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً، ولا ينافي هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار لهم.

وعلى فرض انه قد كان بلغه كما يفيده سبب النزول فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء كما في صحيح مسلم عن عبدالله قال: كأني أنظر الى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه ويمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

﴿وما كان استغفار ابراهيم لأبيه﴾ بقوله واغفر لأبي أي بأن توفقه للايمان وتهديه اليه، وجه تعلق هذه الآية بما قبلها انه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع عن المشركين الأحياء منهم والأموات بين أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد صلى الله عليه وسلم بل هو مشروع أيضا في دين ابراهيم فتكون المبالغة في وجوب الانقطاع أكمل وأقوى.

---

(١) مسلم ١٧٩٢ ـ البخاري ١٦٣٣.

﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ ذكر سبحانه السبب في استغفار ابراهيم لأبيه انه كان لأجل وعد تقدم من ابراهيم لأبيه بالاستغفار له، والاستثناء مفرغ من أعم العلل أي لم يكن استغفاره لأبيه ناشئاً عن شيء ولأجل شيء إلا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره وعدها إياه أي لأجلها.

﴿فلما تبين له انه عدو لله﴾ مصر على العداوة والكفر ومستمر عليه، وانه غير مستحق للاستغفار بموته على الكفر ﴿تبرأ منه﴾ وترك الاستغفار له، وهذا يدل على انه انما وعده قبل أن يتبين له انه من أهل النار ومن أعداء الله، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين انه كيف خفي ذلك على ابراهيم فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو لله، فإن ثبوت هذه العداوة يدل على الموت على الكفر، وكذلك لم يعلم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية، وهذا حكم انما يثبت بالسمع لا بالعقل.

وقيل المراد من استغفار ابراهيم لأبيه دعاؤه الى الاسلام وهو ضعيف جداً وقيل المراد به هنا النهي عن الصلاة على جنائز الكفار فهو كقوله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ ولا حاجة الى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجىء إلى ذلك.

ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على ابراهيم فقال: ﴿ان ابراهيم﴾ استئناف مسوق لبيان الحامل له على الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يقتدي به فيه إذ ليس لغيره ما له من الرأفة والرقة، فلا بد من أن يكون غيره أكثر اجتناباً وتبرياً ﴿لأوّاه﴾ هو كثير التأوه كما تدل على ذلك صيغة المبالغة، وبه قال كعب الاحبار، وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه، والتأوّه أن يقول الرجل عند الشكاية والتوجع آه، وقد أوّه الرجل تأويها، وتأوه تأوها

اذا قال: أوَّه أي أتوجع.

وحكى قطرب: يقال آه يؤه كقام يقوم أوهاً، وأنكر النحويون هذا القول عليه، وقالوا: لا يقال من أوه فعل ثلاثي.

وقد اختلف أهل العلم في معنى الاواه، فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير انه الذي يكثر الدعاء وقال الحسن وقتادة: انه الرحيم بعباد الله. وروي عن ابن عباس: انه المؤمن التواب بلغة الحبش، وقال الكلبي: انه الذي يذكر الله في الارض القفر، وروي مثله عن ابن المسيب، وقيل الذي يكثر الذكر من غير تقييد، روي ذلك عن عقبة بن عامر.

وقيل هو الذي يكثر التلاوة؛ وقيل انه الفقيه، قاله مجاهد والنخعي، وقيل المتضرع الخاضع روي ذلك عن عبدالله بن شداد، وقيل الموقن قاله مجاهد، وقيل هو الذي إذا ذكر خطاياه استغفر لها روي ذلك عن أبي أيوب، وقيل هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى، وقيل هو المسيح قاله سعيد بن جبير، وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع ايقاناً ولزوماً للطاعة.

قال الزجاج: انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الاواه، وقيل انه المعلم للخير؛ وقيل انه الراجع عن كل ما يكرهه الله الخائف من النار، قاله عطاء، والمطابق لمعنى الاواه لغة أن يقال إنه الذي يكثر التأوه من ذنوبه فيقول مثلا آه من ذنوبي، آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك، وبه قال الفراء: وهو مروى عن أبي ذر.

وكان ابراهيم عليه السلام يكثر أن يقول أوّه من النار قبل أن لا ينفع أوه، وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء والفعل منه أوه قال في الصحاح وقد أوه الرجل تأويهاً وتأوه تأوها والاسم منه الآهة

بالمد، قال المثقب العبدي:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

وعن ابن شداد بن الهاد قال: قال رجل يا رسول الله ما الأواه قال: الخاشع المتضرع في الدعاء، أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي حاتم، وفيه شهر بن حوشب فيه الخلاف وهذا ان ثبت وجب المصير اليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأواه.

﴿حليم﴾ الكثير الحلم كما تفيده صيغة المبالغة، وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الاذى ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم مع أبيه حين قال له لئن لم تنته لأرجمنك فأجابه بقوله: ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾ وقيل الذي لا يعاقب أحداً قط إلا لله، قال ابن عباس: كان من حلمه إذا آذاه الرجل من قومه قال له هداك الله، وقيل الحليم السيد.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾ لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار فأنزل الله هذه الآية أي ان الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم إلى الاسلام والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن تبين لهم أنه محرم، وأما قبل ان يتبين لهم ذلك فلا اثم عليهم ولا يؤاخذون به؛ وهذا مثل قوله في آل عمران [بعد إذ هديتنا] وفيه وجهان أي بعد ان هداهم أو بعد وقت هداهم فيه يعني إذ بمعنى أن أو انها ظرف بمعنى وقت.

﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ أي ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع وقال الضحاك: ما يأتون وما يذرون، وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ أي ما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ، قال ابن عباس: نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال: لم يكن لكم ان تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون أي ينهاهم قبل ذلك.

وقال مجاهد: بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في طاعته ومعصيته عامة فافعلوا أو اتركوا ﴿ان الله بكل شيء عليم﴾ مما يحل لعباده ويحرم عليهم ومن سائر الاشياء التي خلقها ومنه مستحق الاضلال والهداية.

إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾

ثم بين لهم ﴿ان الله﴾ سبحانه ﴿له ملك السموات والأرض﴾ لا يشاركه في ذلك مشارك، ولا ينازعه منازع يتصرف في ملكه بما يشاء من التصرفات التي من جملتها انه ﴿يحيي ويميت﴾ من قضت مشيئته باحيائه وبإماتته ﴿وما لكم﴾ أي لعباده ﴿من دون الله من ولي﴾ يواليهم ﴿ولا نصير﴾ ينصرهم فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، فإن القرابة لا تنفع شيئاً ولا تؤثر أثراً بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده.

﴿لقد تاب الله﴾ أي أدام توبته ﴿على النبي﴾ فيما وقع منه صلى الله عليه وسلم من الاذن في التخلف أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين، وليس من لازم التوبة ان يسبق الذنب ممن وقعت منه أو له لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار، وقد يكون التوبة منه على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى والاليق كما في قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم.

ويجوز أن يكون ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها، قال أهل المعاني: هو مفتاح كلام للتبرك وفيه تشريف لهم في ضم توبتهم الى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله: ﴿فإن لله خمسه وللرسول﴾ فهو تشريف له.

﴿و﴾ كذلك تاب الله سبحانه على ﴿المهاجرين والانصار﴾ فيما قد

اقترفوه من الذنوب، ومن هذا القبيل ما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، والانسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره إما من باب الصغائر واما من باب ترك الافضل.

ثم وصف سبحانه المهاجرين والانصار بأنهم ﴿الذين اتبعوه﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتخلفوا عنه ﴿في ساعة العسرة﴾ هي غزوة تبوك فانهم كانوا فيها في عسرة شديدة، وقد ذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم سار الى تبوك في سبعين ألفاً ما بين راكب وماش من المهاجرين والانصار وغيرهم من سائر القبائل، فالمراد بالساعة أوقات جميع تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها، والعسرة صعوبة الامر والشدة والضيق.

وقد وقع الاتفاق بين الرواة ان ساعة العسرة هي غزوة تبوك وتسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار يسمى جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة في الزاد والظهر والماء.

وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابن عباس انه قال لعمر بن الخطاب: حدثنا من شأن ساعة العسرة فقال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا ان رقابنا ستنقطع حتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء؛ فأهطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ في كاد ضمير الشأن بيان

لتناهي الشدة وبلوغها النهاية، ومعنى يزيغ يتلف بالجهد والمشقة والشدة، وقيل معناه يميل عن الحق ويترك المناصرة والممانعة، وقيل معناه يهم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة، وفي قراءة ابن مسعود من بعد ما زاغت وهم المتخلفون على هذه القراءة.

وفي تكرير التوبة عليهم بقوله : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها ، هذا إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم وان كان الضمير الى الفريق الثاني فلا تكرار ، وذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيماً لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم .

ثم أتبعه بقوله : ﴿ انه بهم رؤوف رحيم ﴾ تأكيداً لذلك أي رفيق بعباده لأنه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات ، وبين الرؤوف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا في المعنى ، قال الخطابي : قد تكون الرحمة مع الكراهة ولا تكاد الرأفة تكون معها ، وقيل الرأفة عبارة عن السعي في ازالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعي في ايصال النفع .

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

﴿و﴾ تاب ﴿على الثلاثة الذين خُلفوا﴾ أي أخروا ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم، قال ابن جرير معنى خلفوا تركوا يقال خلفت فلاناً فارقته، وقرىء خلفوا بالتخفيف أي أقاموا بعد نهوض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الى الغزو، وقرىء خالفوا، وقيل معنى خلفوا فسدوا مأخوذ من خلوف الفم، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامري وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم.

﴿حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ كناية عن شدة التحير وعدم الاطمئنان، يعني أخروا عن قبول التوبة الى هذه الغاية وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض برحبها لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى الناس أن يكالموهم، والرحب الواسع يقال منزل رحب ورحيب وراحب والمضموم مصدر والمفتوح مكان، وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديباً لهم لينزجروا عن المعاصي.

﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة وشدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك كلامهم فلا يسعها سرور ولا أنس، وعبر بالظن في قوله: ﴿وظنوا﴾ عن العلم أي علموا وأيقنوا ﴿ان لا ملجأ﴾ يلجؤون اليه قط ﴿من الله﴾ أي من عذابه أو من سخطه ﴿الا اليه﴾ سبحانه بالتوبة والاستغفار.

﴿ثم تاب﴾ أي رجع ﴿عليهم﴾ بالقبول والرحمة وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ﴿ليتوبوا﴾ عنها ويرجعوا فيها الى الله ويندموا على ما وقع منهم ويحصلوا التوبة وينشؤوها فحصل التغاير وصح التعليل ﴿ان الله هو التواب﴾ أي الكثير القبول لتوبة التائبين ﴿الرحيم﴾ أي الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده.

قال أبو بكر الوراق: التوبة النصوح ان تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة، وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والرأفة والاحسان من الله تعالى، وأنه لا يجب عليه شيء.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ في مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة يفيد الاشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم، قال نافع: قيل للثلاثة كونوا مع محمد وأصحابه. وقال سعيد بن جبير: كونوا مع أبي بكر وعمر وزاد الضحاك وأصحابهما وعن ابن عباس مع علي بن أبي طالب، وعن جعفر قال: مع الثلاثة الذين خلفوا.

قال ابن جرير: مع المهاجرين وقيل مع الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ الى تبوك، وقيل مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة، وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق.

روي أن أبا بكر احتج بهذه الآية على الأنصار في يوم السقيفة حين قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير، فقال: إن الله يقول في كتابه ﴿للفقراء المهاجرين﴾ الى قوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ فمن هؤلاء قال الأنصار أنتم هم؛ فقال إن الله يقول: ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم.

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قيل والآية تدل على أن الإجماع حجة لأنه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم، وقيل مع بمعنى من، أي كونوا منهم والله أعلم.

﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريم التخلف عنه أي ما صح وما استقام لهم ولمن حولهم كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار أن يتخلفوا عنه صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وقيل هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى، وإنما خصهم الله سبحانه لانهم قد استنفروا فلم ينفروا بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن زيد: هذا حين كان الاسلام قليلاً لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كثر الاسلام وفشا قال الله: وما كان المؤمنون لينفروا كافة.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي وما كان لهم ذلك فيشحون بها ويصونونها ولا يشحون بنفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها، يقال رغبت عن كذا أي ترفعت عنه وأعرضت.

والمعنى ولا يجعلوا أنفسهم راغبة معرضة عما ألقى فيه نفسه الكريمة، بل

واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاء، ويبذلوا أنفسهم دون نفسه بأن يصحبوه على البأساء والضراء علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع عزتها وكرامتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الانفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث بها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً وتكون أخف شيء عليهم وأهونه.

وفي هذا الإخبار معنى الامر لهم مع ما يفيده ايراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتقريع الشديد والتهييج لهم والازراء عليهم.

والاشارة بقوله: ﴿ذلك﴾ الى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي ذلك الوجوب ﴿بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة﴾ أي بسبب انهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد، والظمأ العطش والنصب التعب، والمخمصة المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن، وتوسيط كلمة لا ههنا للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به.

ومعنى ﴿في سبيل الله﴾ في طاعة الله ﴿ولا يطأون موطئاً يغيظ﴾ بفتح الياء باتفاق السبعة وان كان يجوز لغة ضمها إذ يقال لغة غاظه وأغاظه بمعنى واحد، أي يغضب ﴿الكفار﴾ أي لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظ والغم والحزن للكفار، والمَوْطِيء اسم مكان ويجوز أن يكون مصدراً، وفيه أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لان وطء ديارهم مما يغيظهم.

﴿ولا ينالون﴾ أي لا يصيبون ﴿من عدو نيلاً﴾ أي قتلاً وأسراً أو هزيمة أو غنيمة وأصله من نلت الشيء أنال أي أصبت، قال الكسائي: هو من قولهم أمر منيل منه، وليس هو من التناول إنما التناول من نلته بالعطية، قال

غيره نلت أنول من العطية ونلته أناله أدركته.

﴿إلا كتب لهم به﴾ أي بكل واحد من الامور الخمسة ﴿عمل صالح﴾ حسنة مقبولة يجازيهم بها وثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى.

قال الاوزاعي وجماعة من الأئمة: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة، وقال قتادة: هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم والاول أولى، وفي الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله وكان سعيه مشكوراً.

﴿ان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جملة في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقاً أولياً، والعدول من الاضمار إلى الاظهار لأجل مدحهم.

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي ولا يقع منهم الانفاق في الحرب أو في سبيل الله، وإن كان شيئاً حقيراً صغيراً يسيراً، كتمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ مقبلين أو مدبرين فيه، وهو في الأصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل؛ والعرب تقول واد وأودية على غير قياس، قال النحاس: ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة، والمراد هنا مطلق الارض، قاله الحفناوي.

﴿إلا كتب لهم﴾ ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد ﴿ليجزيهم الله﴾ به ﴿احسن﴾ جزاء ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الاعمال، وقال الرازي: الاحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح، فالله يجزيهم على الاحسن، وهو الواجب والمندوب دون المباح والاول أولى.

وقيل يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيراً لأجرهم، وفي الآية دليل على فضل الجهاد وانه من أحسن أعمال العباد.

وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها وهي قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ فإنها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض، واختلف المفسرون في معنى هذه الآية؛ فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد، لأنه سبحانه لما بالغ في الامر بالجهاد والانتداب إلى الغزو وكان المسلمون اذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

سرية إلى الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك، أي ما صح ولا استقام أن ينفروا جميعاً.

﴿فلولا﴾ تحضيضية فالمعنى على الطلب أي فهلا ﴿نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ الطائفة في اللغة الجماعة، أي بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرَق، ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة، قالوا ويكون الضمير في قوله: ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ عائداً إلى الفرقة الباقية، والمعنى أن طائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم ويعلمون الغزاة أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه في الدين.

﴿ولينذروا قومهم﴾ عطف علة ففيه إشارة إلى انه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة وتبليغ الشريعة لا الترفع على العباد والتبسط في البلاد كما هو دأب أبناء الزمان ﴿اذا رجعوا﴾ أي وقت رجوعهم ﴿اليهم﴾ من الغزو.

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد، وهي حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه في الدين، جعله الله سبحانه متصلاً بما دل على إيجاب الخروج الى الجهاد فيكون السفر نوعين (الاول) سفر الجهاد (والثاني) السفر لطلب العلم، ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون اذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر.

والفقه هو العلم بالاحكام الشرعية وبما يتوصل به الى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان وأصول، وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين وانذار من لم يتفقه، فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين، وهما تعلم العلم وتعليمه، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض ديني.

﴿لعلهم يحذرون﴾ الترجي لوقوع الحذر منهم عن التفريط فيما يجب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

فعله فيترك أو فيما يجب تركه فيفعل، واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم تعتبر الاخبار ما لم تتواتر لم يفد ذلك.

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ في هذا الفعل لغتان أكثرهما وليه يليه بالكسر فيهما والثانية من باب وعد وهي قليلة الاستعمال، وجلست مما يليه أي يقاربه، وكأن الآية جاءت على اللغة الثانية وأصله يليون أي الاقرب فالاقرب منهم.

أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار في الدار والبلاد والنسب، قيل مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها، قاله ابن عباس.

وقال ابن عمر: هم الروم لأنهم كانوا سكان الشام والشام أقرب الى المدينة من العراق، وقيل هم الديلم، وقال ابن زيد: هم العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم، ثم أمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة كما قال.

﴿وليجدوا﴾ أي ليدركوا ﴿فيكم غلظة﴾ أي شدة وقوة وشجاعة، قال الخفاجي: قالوا انها كلمة جامعة للجرأة والصبر على القتال وشدة العدواة والانف في القتل والاسر، وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة، والمقصود أمر المؤمنين بالاتصاف بصفات كالصبر وما معه حتى يجدهم الكفار المتصفين بها

فهي على حد قولهم لا أرينك ههنا، والغلظة بالكسر ضد الرقة وهي لغة أسد، والفتح لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم.

حكى أبو عمرو اللغات الثلاث وبها قرىء لكن السبعة على الكسر، والغلظة أصلها في الاجرام فاستعيرت هنا للشدة والتجلد والصبر، وقال الحسن: صبراً على جهادهم والجهاد واجب لكل الكفار وان كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم أهم وأقدم ثم الاقرب فالاقرب.

ونقل عن بعض العلماء أنه قال أنزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ صارت ناسخة لهذه الآية.

وقال المحققون من العلماء: ولا وجه للنسخ فإنه تعالى أمرهم بقتالهم كافة وأرشدهم الطريق الأصوب الاصلح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالاقرب قرباً مكانياً لا قرباً نسبياً حتى يصلوا الى الأبعد فالأبعد، وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور، ولهذا السبب قد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً قومه، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم الى قتال أهل الكتاب، وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك، ثم انتقل الى غزو الروم والشام فكان فتحه في زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب أولاً تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد.

ثم أخبرهم الله بما يقوي عزائمهم ويثبت أقدامهم فقال: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالنصرة لهم وتأييدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شيء.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين أي والحال إذا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من كتابه العزيز ﴿فمنهم﴾ أي فمن المنافقين ﴿من يقول﴾ لاخوانه منهم ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة النازلة ﴿إيماناً﴾ يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم على الإسلام وتزهيدهم فيه، وقد تقدم بيان معنى السورة ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه ان المؤمنين زادتهم إيماناً الى إيمانهم لتصديقهم بها، والزيادة ضم شيء إلى آخر من جنسه مما هو في صفته، وقد تقدم الكلام على زيادة الايمان ﴿وهم يستبشرون﴾ أي والحال انهم يفرحون مع هذه الزيادة بنزول الوحي شيئا بعد شيء وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ وهم المنافقون، والمراد بالمرض هنا الشرك والنفاق ﴿فزادتهم﴾ السورة المنزلة ﴿رجساً الى رجسهم﴾ أي خبثاً مضموماً إلى خبثهم الذي هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد، واظهار غير ما يضمرونه، ولذا عدى بإلى، وقيل ان إلى بمعنى مع، وسمي الكفر رجساً لأنه أقبح الأشياء وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي وثبتوا واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفاراً منافقين، وقيل المعنى زادتهم اثماً إلى اثمهم.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿أولا يرون﴾ قرىء بالتحتية وبالفوقية خطاباً للمؤمنين، وقرأ الأعمش ألم يروا، وقرأ طلحة أولا ترى خطاباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والهمزة على القراءة بالياء للانكار والتوبيخ، وعلى الخطاب للتعجيب والرؤية قلبية أو بصرية ﴿انهم يفتنون﴾ يختبرون، قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله بالقحط والشدة والجوع والسنة قاله مجاهد، وقال ابن عطية: بالامراض والاوجاع، وقال قتادة: بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقال الحسن: بالعدو.

﴿في كل عام مرة أو مرتين﴾ عن أبي سعيد قال: كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان قال حذيفة: فيضل بها فئام من الناس كثير، وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم، وقيل ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون؛ وقيل ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين ويرون ما وعد الله من النصر.

﴿ثم لا يتوبون﴾ بسبب ذلك من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون إلى الله مع ان الابتلاء يقتضي الرجوع والتذكر، وثم للعطف على يرون ﴿ولا هم يذكرون﴾ أي لا يرون ولا ينظرون ولا يتعظون، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق واهمالهم للنظر والاعتبار.

ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه فقال: ﴿واذا ما أنزلت سورة﴾ فيها عيب المنافقين وذكرهم وتوبيخهم وقرأها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿نظر بعضهم﴾ أي بعض المنافقين ﴿إلى

بعض﴾ آخر وتغامز بالعيون إنكاراً لها أو سخرية أو غيظاً لما فيها من عيوبهم.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم انه قال: ﴿نظر﴾ في هذه الآية موضوع موضع قال أي قال بعضهم لبعض ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المؤمنين لننصرف عن المقام الذي ينزل فيه الوحي فانه لا صبر لنا على استماعه أو لنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك، وقيل المعنى وإذا أنزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم قال بعض من يحضر مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم للبعض الآخر منهم هل يراكم من أحد.

﴿ثم انصرفوا﴾ إلى منازلهم عن ذلك المجلس أو عما يقتضي الهداية والايمان الى ما يقتضي الكفر والنفاق، والتراخي باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين.

ثم دعا الله سبحانه عليهم فقال: ﴿صرف الله قلوبهم﴾ عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها، وقيل المعنى إنه خذلهم عن قبول الهداية، قال الزجاج: أضلهم الله مجازاة على فعلهم، وقيل هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم قاتله الله، وقيل اخبار بحالهم.

ثم ذكر سبحانه السبب الذي لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية أو السبب الذي لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله صرف الله قلوبهم فقال: ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ ما يسمعونه لعدم تدبرهم وانصافهم.

عن ابن عباس: لا تقولوا انصرفنا من الصلاة فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة، وعن ابن عمر نحوه.

وأقول الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر وليس في اطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق الا على نحو ذلك، والالزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعددة اذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع عن أهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود، واللازم باطل بالإجماع فالملزوم مثله ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى.

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة فقال موبخاً ﴿لقد جاءكم﴾ يا معشر العرب، والخطاب لهم عند جمهور المفسرين، وقال الزجاج: هي خطاب لجميع العالم أي لقد جاءكم ﴿رسول﴾ أرسله الله اليكم له شأن عظيم ﴿من أنفسكم﴾ أي من جنسكم في كونه عربياً قرشياً مثلكم تعرفون نسبه وحسبه، وأنه من ولد اسماعيل لا من العجم ولا من الجن ولا من الملك، وقرىء أنفس أفعل تفضيل من النفاسة والمراد الشرف أي أشرفكم وأفضلكم وسيأتي تخريجه.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ ما مصدرية والعنت التعب لهم والمشقة عليهم ولقاء المكروه بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه او بعذاب الآخرة بالنار او بمجموعها والمعنى شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثاً لهدايتكم ﴿حريص﴾ شحيح ﴿عليكم﴾ بأن تدخلوا النار أو حريص على ايمانكم وهدايتكم والأول أولى، وبه قال الفراء.

﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ قد تقدم بيان معناهما اي هذا الرسول بالمؤمنين الطائعين منكم أيها العرب او الناس رؤوف رحيم، فسماه الله رؤوفاً رحيماً ولم يجمع لاحد من انبيائه بين اسمين من اسمائه إلا النبي صلى الله عليه وسلم، قاله الحسن ابن الفضل قرىء رؤوف بالمد وبالقصر وهما قراءتان سبعيتان في هذه الكلمة اينما وقعت في القرآن، والرؤوف اخص من الرحيم، وانما قدم عليه رعاية للفواصل وعن ابن عباس في هذه الآية ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي «ﷺ» مضريها وربيعيها ويمانيها، وعلى هذا يكون المقصود ترغيب العرب في نصره والايمان به فانه تم شرفهم بشرفه وعزهم وفخرهم بفخره، فانه من عشائرهم.

وعن جعفر بن محمد عن ابيه قال: من انفسكم بفتح الفاء من النفاسة أي من اشرفكم، قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «خرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح» وهذا فيه انقطاع ولكنه وصله الحافظ الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي عن علي بن ابي طالب، وزاد «من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي».

وقال علي ما معنى من أنفسكم يا رسول الله؟ قال: نسباً وصهراً وحسباً ليس فيّ ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح. وعن ابن عباس: ان رسول الله «ﷺ» قرأ من أنفسكم، يعني من أعظمكم قدراً، وبه قرأ الزهري، وفي الباب أحاديث بمعناه. ويؤيده ما في صحيح مسلم وغيره من حديث واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل، واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم[1].

واخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن مردويه وابو نعيم والبيهقي عن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً[2]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه[3] اخرجه البخاري وفي الباب أحاديث.

---

(١) مسلم ٢٢٧٦.

(٢) الإمام احمد ١/٢١٠.

(٣) البخاري كتاب المناقب باب ٢٣.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

ثم قال مخاطباً لرسوله ومسلياً له ومرشداً له الى ما يقوله عند أن يعصى ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿فقل﴾ يامحمد ﴿حسبي﴾ أي كافي ﴿الله﴾ سبحانه ﴿لا إله إلا الله﴾ أي المتفرد بالألوهية وهذه الجملة الحالية كالدليل لما قبلها ﴿عليه توكلت﴾ أي فوضت جميع أموري اليه لا الى غيره ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ وصفه بالعظيم لأنه أعظم المخلوقات قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة العرش وقرىء بالرفع صفة لرب، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير. قال ابو بكر الاصم: وهذه القراءة اعجب اليّ لان جعل العظيم صفة للرب أولى من جعله صفة للعرش.

قال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته وقدره، وقال السيوطي الكرسي، قال الصاوي: قوله الكرسي مرور على القول باتحاد العرش مع الكرسي، وهو خلاف الصحيح ان العرش غير الكرسي. اهـ

وعبارة الخازن اعترض بعضهم على هذا التفسير بأن العرش غير الكرسي وان الكرسي أصغر من العرش فكيف يفسر به وهو مدفوع بأن المسألة خلافية والمشهور ما سمعته؛ وقيل إنهما اسمان لشيء واحد فالعرش والكرسي معناهما الجسم العظيم المحيط بجميع المخلوقات المسمى بالعرش على القول المشهور. أ. هـ.

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان. ذكره القاضي والمفتي وغيرهما. قال السيوطي رواه الحاكم في المستدرك وقال الخفاجي أخرجه أحمد بن حنبل.

وقوله آخر ما نزل الخ يعارضه ما رواه الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن آخر آية نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وآخر سورة نزلت براءة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ وكان بينها وبين موته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوماً، وقيل تسع ليال، وحاول بعضهم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يخلو عن كدر، وفي هذه الآية إشكال مشهور في كتب الحديث.

خاتمة الجزء الخامس

تم بعون الله الجزء الخامس من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء السادس.

واوله سورة يونس

فهرس الجزء الخامس

فتح البيان
في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء السادس

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

أوله تفسير سورة يونس من قوله تعالى:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ١﴾

- سورة هود

- سورة يوسف إلى آخر السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس عليه السلام

وهي مائة وتسع آيات وهي مكيّة . قال الحسن وعطاء وعكرمة وجابر : الا ثلاث آيات ﴿ فان كنت في شك ﴾ الى آخرهن قاله ابن عباس وبه قال قتادة. وقال مقاتل الا آيتين ﴿ فان كنت في شك ﴾ الى آخرهما أو ثلاث . وقال الكلبي الا قوله ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ الآية فانها نزلت بالمدينة .

وقالت فرقة من أولها نحو من أربعين آية مكي وباقيها مدني . قاله القرطبي. وقال ابن سيرين : كانت هذه السورة بعد السابعة . واخرج ابن مردويه عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ان الله أعطاني الرائيات أي الطواسين مكان الانجيل .

وعن الاحنف قال : صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما : قال الصاوي : سميت السورة بذلك لذكر اسمه فيها وقصته . وقد جرت عادة الله بتسمية السورة ببعض أجزائها .

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿الٓر﴾ قال الجلال: الله اعلم بمراده بذلك، قال الصاوي: هذا أحد الأقوال: وهو أتمها واسلمها. اهـ.

وقد تقدم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أول سورة البقرة فلا نعيده ففيه ما يغني عن الاعادة.

وقد قيل إن معنى ﴿الٓر﴾ أنا الله أرى. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق يميل الى هذا القول لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب، وقال الحسن وعكرمة ﴿الٓر﴾ قسم، وقال قتادة ﴿الٓر﴾ اسم للسورة، وقيل غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه.

وقد اتفق القراء على أن ﴿الٓر﴾ ليس بآية وعلى أن ﴿طه﴾ آية، وفي مقنع أبي عمرو والداني أن العادّين لـ «طه» آية هم الكوفيون فقط، ولعل الفرق أن ﴿الٓر﴾ لا تشاكل مقاطع الآي التي بعدها.

﴿تلك﴾ أي ما تضمنته السورة من الآيات والتبعيد للتعظيم، وقيل الآيات المتقدمة على هذه السورة، وقال مجاهد وقتادة: أراد التوارة والانجيل وسائر الكتب المتقدمة فإن تلك اشارة الى غائب مؤنث، وقيل تلك بمعنى هذه اي هذه ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو القرآن، ويؤيد كون الاشارة الى القرآن انه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر وان الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره، والاضافة بمعنى من لأن هذه السورة بعض القرآن، والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والاحكام، قاله أبو عبيدة وغيره.

وقيل الحكيم معناه الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل، كقوله ﴿وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس﴾ وقيل بمعنى المحكوم، اي حكم الله فيه بالعدل والاحسان قال الحسن وغيره. وقيل الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها، وقيل الحكيم المنظوم نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه، وقيل الممتنع من الفساد، فيكون المعنى لا تغيره الدهور والمراد براءته من الكذب والتناقض.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

والاستفهام في قوله ﴿أكان الناس عجباً أن أوحينا﴾ لانكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ، أي أكان ايحاؤنا عجباً للناس، والعجب حالة تعتري الانسان من رؤية شيء على خلاف العادة، وقيل العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة، يعني قريشاً.

﴿الى رجل منهم﴾ أي من جنسهم، وليس في هذا ما يقتضي العجب فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه إلا من كان من جنسه، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة او من الجن ويتعذر المقصود حينئذ من الارسال لانهم لا يأنسون اليه ولا يشاهدونه، ولو فرضنا تشكله لهم وظهوره فإما أن يظهر في غير شكل النوع الانساني وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من انسهم أو في الشكل الانساني فلا بد من انكارهم لكونه في الاصل غير انسان.

هذا ان كان العجب منهم لكونه من جنسهم، وان كان لكونه يتيماً او فقيراً فذلك لا يمنع من ان يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف مالا يجمعه غيره وبالغاً في كمال الصفات الى حد يقصر عنه من كان غنياً او غير يتيم، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصطفيه الله بالرسالة من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار حتى كانوا يسمونه الأمين ﴿أن أنذر الناس﴾ أي خوفهم .قيل: أن هي المفسرة لأن في الايحاء معنى القول، وقيل مصدرية والانذار إخبار مع تخويف كما أن البشارة إخبار مع سرور.

﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة كمسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد، وفائدة هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لأن كل شيء أضيف الى الصدق فهو ممدوح ومثله مقعد صدق ومدخل صدق.

واختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق، فقيل منزل صدق، وقال الزجاج: درجة عالية، وقال ابن الاعرابي : القدم المتقدم في الشرف وقال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم ، يقال لفلان قدم في الاسلام وله عندي قدم صدق وقدم خير وقدم شر.

وقال ثعلب: القدم كل ما قدمت من خير. وقال ابن الانباري: القدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا ابطاء، وقال قتادة: سلف صدق، وقال الربيع والضحاك: ثواب صدق، وقال الحسن: هو محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم، ونحوه عن زيد بن أسلم وهو قول قتادة.

وقال الحكيم الترمذي : قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، وقيل عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. قاله الحسن.

وقال الليث وأبو الهيثم: القدم السابقة أي سبق لهم عند الله خير، وقال مقاتل: أعمالاً قدموها واختاره ابن جرير. قال ابن عباس: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول يعني اللوح المحفوظ. وقال أيضاً : أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم .

وعن ابن مسعود قال: القدم هو العمل الذي قدموه ، قال الله سبحانه ﴿سنكتب ما قدموا وآثارهم﴾ والآثار ممشاهم، قال: مشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين اسطوانتين من مسجده ثم قال: هذا أثر مكتوب، وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة الى التطويل بإيراده والروايات من التابعين وغيرهم في هذا كثيرة وقد قدمنا أكثرها، والسبب في اطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن

السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم، فسمي المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يداً لأنها تعطي باليد.

﴿قال الكافرون ان هذا لسحر مبين﴾ قرىء لساحر على أنهم أرادوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسم الاشارة وقرىء لسحر على أنهم أرادوا القرآن، وقد تقدم معنى السحر في البقرة ، والجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب ؛ وقال القفال: فيه اضمار والتقدير فلما أنذرهم قال الكافرون ذلك.

ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الايحاء إلى رجل منهم فقال ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ من أيام الدنيا أي في قدرها لأنه لم يكن ثمَّ شمس ولا قمر، ولو شاء لخلقهن في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التأني والتمهل في الأمور ، وتخصيص الستة بالذكر مع أن التثبت يتأتى بأقل منها وبأزيد عليها قد استأثر الله بعلمه.

والمعنى ان من كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون ارساله لرسوله الى الناس من جنسهم محلاً للتعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة لهذا الرسول.

﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق به وهذه طريقة السلف المفوضين وقد تقدم تفسير هذه الآية في الاعراف بما فيه كفاية فلا نعيده هنا، قال الكرخي: ان الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف. انتهى فهذه الصفة يجب الإيمان بها وإمرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وطريقة الخلف المؤولين محجوجة بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وأئمتها، وظاهر الآية يدل على أنه تعالى انما استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض لأن كلمة ثم للتراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل العرش غنياً عنه، فلما خلقه امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته عن الاستغناء إلى

الحاجة فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنياً عنه، ولكن لما قال هو سبحانه وتعالى باستوائه عليه وجب الايمان به على ما يليق لجلاله.

ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه مع ما مر من خلق هاتيك الأجرام العظام فقال ﴿يدبر الأمر﴾ وترك العاطف لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل لما قبلها، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول والشكل المحمود، وقال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده على الوجه الأتم الأكمل، وقيل يبعث الأمر ، وقيل ينزل الأمر، وقيل يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب؛ واشتقاقه من الدبر، والأمر الشأن وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق من الجزئيات الحادثة شيئاً فشيئاً على أطوار شتى لا تكاد تحصى.

﴿ما من شفيع﴾ يشفع عنده يوم القيامة ﴿إلا من بعد اذنه﴾ له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده في تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم، قال الزجاج: ان الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون ان الأصنام شفعاؤنا عند الله، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع اليه في شيء إلا بعد اذنه لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب، وله التصرف المطلق في العالم، وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمور في كل شيء سبحانه وتعالى.

﴿ذلكم﴾ أي فاعل هذه الأشياء العظيمة من الخلق والتدبير ﴿الله ربكم﴾ أي سيدكم لا رب لكم سواه ، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ ﴿فاعبدوه﴾ أمرهم بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبديع صنعه وعظيم اقتداره فكيف تعبدون الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر.

والاستفهام في قوله ﴿أفلا تذكرون﴾ للانكار والتوبيخ والتقريع لأن من له أدنى تذكر وأقل اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا فقال ﴿اليه مرجعكم جميعاً﴾ وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، والمراد بالمرجع الرجوع اليه سبحانه إما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما، وانتصاب ﴿وعد الله﴾ على المصدر أو هو منصوب بفعل مقدر.

ثم أكد ذلك الوعد بقوله ﴿حقاً﴾ فهو تأكيد للتأكيد، فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك وقرىء وعدُ الله حق على الاستئناف.

ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله ﴿انه﴾ بالكسر استئنافاً ﴿يبدأ الخلق﴾ أي ان هذا شأنه يبتدىء خلقه من التراب ﴿ثم يعيده﴾ اليه والخلق بمعنى المخلوق والمضارع بمعنى الماضي ، وعبر به استحضاراً للصورة الغريبة أو معنى الاعادة الجزاء يوم القيامة، قال مجاهد ينشئه ثم يميته ثم يحييه للبعث، وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال.

وقرىء أنه بالفتح وهي شاذة أي وعدكم الله انه يبدأ الخلق ثم يعيده أو التقدير لأنه يبدأ الخلق ، قال أحمد بن يحي : التقدير حقاً ابداؤه الخلق، وفي الآية دليل على امكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه، ورد على منكري البعث.

ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا

الصالحات بالقسط﴾ أي بالعدل الذي لا جور فيه أي يجزيهم متلبساً بالقسط أو متلبسين به أو بسبب قسطهم ، والمراد به هنا الايمان بدليل المقابلة في قوله بما كانوا يكفرون .

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل وجهين أحدهما أن يكون مرفوعاً بالابتداء وجملة ﴿لهم شراب من حميم وعذاب أليم﴾ خبره والثاني أن يكون منصوباً عطفاً على الموصول قبله وتكون الجملة بعده مبينة لجزائهم، وقيل الجملة في محل نصب على الحال أي حال كونهم لهم هذا الشراب وهذا العذاب المؤلم .

ولكن يشكل على ذلك ان هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره، وكل مسخن عند العرب فهو حميم، وتغيير الأسلوب للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على ان المقصود بالذات من الابداء والاعادة هو الاثابة والعذاب وقع بالعرض وأنه تعالى يتولى اثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه اليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي بسبب كفرهم .

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ ذكر ههنا بعض نعمه على المكلفين وهو مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته باتقان صنعه في هذين النيرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا ابداعه للسموات والأرض واستواءه على العرش وغير ذلك .

والضياء قيل جمع ضوء كالسياط والسوط والحياض والحوض والأولى أن يكون ضياء مصدراً لا جمعاً ولا بد من تقدير مضاف أي جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة كأنها جعلا نفس الضياء والنور قيل الضياء أقوى من النور، وقيل هو ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض، فما قام

بالشمس يقال له ضياء وما قام بالقمر يقال له نور.

ومن هنا قال الحكماء ان نور القمر مستفاد من ضوء الشمس، والشعاع الفائض من الشمس قيل جوهر ، وقيل عرض ، قال الصاوي: والحق انه عرض لقيامه بالأجرام ، وضياء مفعول ثان ان جعل الجعل بمعنى التصيير، وحال ان جعل بمعنى الخلق، قال السدي: لم يجعل الشمس كهيئة القمر لكي يعرف الليل من النهار وهو قوله ﴿فمحونا آية الليل﴾ الآية ، قال ابن عباس: وجوههما الى السموات وأقفيتهما الى الأرض ، وعن ابن عمرو مثله.

﴿وقدره ﴾ أي قدر مسير القمر في ﴿منازل﴾ أو قدره ذا منازل وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك ان الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي القمرية لا الشمسية، ومنازله هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به وجملتها ثمانية وعشرون وهي معروفة منقسمة على اثني عشر برجاً لكل برج منزلان وثلث منزل ينزل القمر في كل ليلة منزلاً منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين لا يتخطاه ، فيبدو صغيراً في أول منازله ثم يكبر قليلاً قليلاً حتى يبدو كاملاً، واذا كان في آخر منازله رق واستقوس ثم يستتر ليلتين لا يبصر ولا يرى إذا كان الشهر كاملاً أو ليلة إذا كان الشهر ناقصاً.

والكلام في هذا يطول وقد جمع الشوكاني فيه رسالة مستقلة جواباً عن سؤال أورده عليه بعض الأعلام ، وقيل ان الضمير راجع الى كل واحد من الشمس والقمر كما قيل في قوله تعالى ﴿واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها﴾ وقوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ وقد قدمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير الى القمر وحده كما في قوله تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل﴾.

ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير فقال ﴿لتعلموا﴾ بذلك التقدير

﴿عدد السنين والحساب﴾ أي حساب الشهور والأيام والساعات ونقصانها وزيادتها ووقت دخولها وانقضائها، فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى ، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى. ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم، والسنة تتحصل من اثني عشر شهراً، والشهر يتحصل من ثلاثين يوماً إن كان كاملاً، ومن تسع وعشرين يوماً ان كان ناقصاً واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي أربع وعشرون ساعة لليل والنهار، وقد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ذكرناه في لقطة العجلان وحجج الكرامة.

﴿ما خلق الله ذلك﴾ بين سبحانه انه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الأحوال ﴿إلا بالحق﴾ والصواب دون الباطل والعبث ، والاشارة بقوله ﴿ذلك﴾ الى المذكور قبله من جعل الشمس ضياء والقمر نوراً أو تقديره منازل والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال.

﴿يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ معنى التفصيل تبيينها والمراد بالآيات التكوينية او التنزيلية أو مجموعها ، ويدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولاً أولياً في ذلك، قرىء يفصل بالياء والنون وهما سبعيتان ، وعلى الثانية فيه التفات.

إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض من تلك المخلوقات فقال ﴿ان في اختلاف الليل والنهار﴾ أي في تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها أو في تفاوتهما في أنفسهما بازدياد كل منهما وانتقاص الآخر باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قرباً وبعداً بحسب الأزمنة أو في اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة أما في الطول والقصر فإن البلاد القريبة من القطب الشمالي أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها، وأما في أنفسها فإن كروية الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً.

﴿وما خلق الله في السموات﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونجوم وغير ذلك ﴿والأرض﴾ من حيوان وجبال وبحار وأنهار وأشجار وغيرها ﴿لآيات﴾ دلالات على قدرته تعالى ﴿لقوم يتقون﴾ الله سبحانه ويجتنبون معاصيه، خصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذراً منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه، ونظراً لعاقبة أمرهم وما يصلحهم في معادهم.

قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما أهملهم بل جعلها لهم دار عمل، واذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي.

عن خليفة العبدي قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد الا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل اذا جاء فملأ كل شيء وغطى كل شيء وفي مجيء سلطان النهار اذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم وفي الشتاء والصيف، فو الله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم حتى أيقنت قلوبهم بربهم، وقد تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها.

﴿ان الذين لا يرجون لقاءنا﴾ شرع الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ومن يؤمن به، وقدم الطائفة التي لم تؤمن لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه، ويهملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي اهماله مما هو مساعد لكل حي طول حياته فيتسبب عن اهمال النظر والتفكر الصادق عدم الايمان بالمعاد.

ومعنى الرجاء هنا الخوف وقيل الطمع، فالمعنى على الأول لا يخافون عقاباً وعلى الثاني لا يطمعون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى لا يخافون رؤيتنا أو لا يطمعون في رؤيتنا، وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع فيكون المعنى لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه.

﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ عوضاً عن الآخرة فعملوا لها ﴿واطمأنوا بها﴾ أي وقد سكنت نفوسهم اليها وفرحوا بها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ العطف انما هو لتغاير الصفات أي غفلوا عن آياتنا الكونية والشرعية لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقيل محمد والقرآن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالصفات السابقة من عدم الرجاء وحصول الرضا والاطمئنان والغفلة ﴿مأواهم النار﴾ أي مثواهم ومكان إقامتهم ﴿بما كانوا﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يكسبون﴾ من الكفر والتكذيب بالمعاد، فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد.

وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم من التفكر والاعتبار فيما تقدم ذكره من الآيات ﴿وعملوا الصالحات﴾ التي يقتضيها الايمان وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي يرزقهم الهداية بسبب هذا الايمان المضموم اليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة.

وعبارة أبي السعود يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس اليها. قال القاضي: ومفهوم الترتيب وان دل على أن سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح، لكن دل منطوق قوله بإيمانهم على استقلال الايمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتتمة والرديف له: انتهى.

وهذا رد لما في الكشاف من أن الآية دلت على أن المعتبر في الهداية الى الجنة هو المقيد بالعمل الصالح لا المطلق، قال الخفاجي: وقد رد هذا بأن الجمع بين العمل الصالح والايمان ظاهر في انهما السبب والتصريح بسببية الايمان المضاف الى الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالتنصيص على انه ذلك الايمان المقرون بما معه لا المطلق، لكنه ذكر لأصالته وزيادة شرفه فلا استدراك ولا دلالة على استقلاله ثم إن النزاع إنما هو في سبب الهداية الى طريق الجنة لا الى

الاستقامة على سلوك السبيل المؤدي الى الثواب وأن من لا يكون مهتدياً الى الجنة لا يدخل الجنة مطلقاً ومنعه مكابرة فتدبر. اهـ

وعبارة أبي السعود: وفي النظم الكريم اشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لا يكفي في الوصول الى الجنة، بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصي كافية في دخول النار، ثم انه لا نزاع في أن المراد بالايمان الذي جعل سبباً لتلك الهداية هو ايمانهم الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منهما ، الا ان ذلك بمعزل عن الدلالة ، على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالي عن العمل الصالح يفضي الى الجنة في الجملة ولا يخلد صاحبه في النار، فإن منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية الى الجنة، وأما ان كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعاً، كيف لا وقوله عز وجل ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ مناد بخلافه فإن المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون، والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك.

ولئن حمل على ظاهره أيضاً يدخل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحاً ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب . اهـ

وقال النسفي في المدارك: وهذا دليل على أن الايمان المجرد منج حيث قال: بإيمانهم ولم يضم اليه العمل الصالح .

ولفظ الخازن والمهايمي بإيمانهم وبأعمالهم ، وقال الصاوي: أي وبسبب أعمالهم أيضاً، فالايمان والأعمال الصالحة سببان موصلان لدار السعادة ، أو المراد بالايمان الكامل ليشمل الأعمال،والمسألة من المعارك ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات .

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ مستأنفة أو خبر ثان لأن أو في محل النصب على الحال والمعنى من تحت بساتينهم أو من بين أيديهم لأنهم على سرر مرفوعة ﴿في جنات النعيم﴾ خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الأنهار أو متعلق بتجري .

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم ونداؤهم وطلبهم لما يشتهونه في الجنة هذا اللفظ وهو من باب الاسناد اللفظي، وقيل هذا من باب الاسناد المعنوي فلا يلزم ان يقولوا هذا اللفظ فقط، بل يقولونه أو ما يؤدي معناه من جميع صفات التنزيه والتقديس.

قيل الدعاء العبادة كقوله ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى ان أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعائب والاقرار له بالالهية، وقيل قولهم وكلامهم.

قال القفال: أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه طريقتهم وسيرتهم وذلك ان المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن أن يجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن في قوله سبحانك اللهم دعوى ولا دعاء وقيل معناه تمنيهم كقوله ﴿ولهم ما يدعون﴾ وكان تمنيهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه.

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قالوا سبحانك اللهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

فهذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في احضار الطعام، فإذا أرادوه قالوا سبحانك اللهم فيأتوهم به في الوقت على حسب ما يشتهون واضعين له على

الموائد في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضه بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم كما يأتي فترفع الموائد عند ذلك.

قال الزجاج: أعلم الله ان أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكر الله والثناء عليه وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث والمعنى نسبحك يا الله تسبيحاً.

﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ أي تحية بعضهم للبعض فيكون المصدر مضافاً الى الفاعل أو تحية الله أو الملائكة لهم فيكون من اضافة المصدر إلى المفعول، والتحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة، والسلام السلامة من كل مكروه وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء.

﴿وآخر دعواهم﴾ أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح في كل مجلس ﴿أن﴾ يقولوا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وليس معناه انقطاع الحمد فإن اقوال أهل الجنة واحوالها لا آخر لها والدعوى مشهورة في الادعاء لكنها وردت بمعنى الدعاء ايضاً وهو المراد هنا بقرينة ما بعده لأنه من جنس الدعاء، وتكون ايضاً بمعنى العبادة، وقد جوز ارادته هنا وان كانت الجنة ليست دار تكليف أي لا عبادة لهم غير هذا القول، والأول أظهر، والثاني أدق او المراد انه عبادة لهم تلذذاً لا تكليفاً ذكره الخفاجي؛قال ابو السعود ولا يساعده تعيين الخاتمة اهـ.

قال النحاس: مذهب الخليل ان ﴿أنْ﴾ هذه مخففة من الثقيلة والمعنى انه الحمد لله، وقال المبرد يجوز ان تعملها خفيفة عملها ثقيلة والرفع أقيس، ولم يحك ابو عبيد إلا التخفيف، قال ابو الهذيل: الحمد أول الكلام وآخر الكلام ثم تلا هذه الآية.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ
فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ
ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ
ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

ولما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الايمان بالمعاد، ذكر ان هذا العذاب من حقه ان يتأخر عن هذه الحياة الدنيا فقال ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ أي اجابة دعائهم بالشر مما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس او مال، والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته، وقال القفال: لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب، فبين الله سبحانه انه لا مصلحة في ايصال الشر اليهم فلعلهم يتوبون او يخرج من أصلابهم من يؤمن.

قيل ومعناه لو عجل الله للناس العقوبة ﴿استعجالهم بالخير﴾ اي كما يستعجلون بالثواب والخير أي استعجالاً مثل استعجالهم قال مكي: وهذا مذهب سيبويه أو تعجيلاً مثل استعجالهم، وهذا تقدير أبي البقاء وهو الظاهر، وقال الزمخشري: أصله تعجيله لهم بالخير وهو ضعيف جداً، وقيل منصوب على إسقاط كاف التشبيه أي كاستعجالهم، والاستعجال طلب العجلة.

﴿لقضي اليهم أجلهم﴾ أي لأهلكهم، وقيل معناه لأميتوا، قال ابن قتيبة: ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم واهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء المسؤول،

يقول لو أجابهم الله اذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لفرغ من اهلاكهم، ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي في الخير ولا يستجب له في الشر، وقال مجاهد: في الآية هو قول الانسان لولده واهله عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم، وقال سعيد بن جبير: هو قول الرجل للرجل اللهم العنه اللهم اخزه وهو يحب ان يستجاب له، وقال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه.

وقيل الآية خاصة بالكفار الذين انكروا البعث وما يترتب عليه، وقيل نزلت في النضر بن الحرث حين قال: اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية.

وقرىء لقضي على البناء للفاعل وهي قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله ﴿ولو يعجل الله﴾ وصورة القياس هكذا لو يعجل الله الشر للناس لأهلكهم لكنه لم يهلكهم بل امهلهم فلم يعجل لهم الشر، ويدل على هذا القول قوله ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ اي لا يتوقعونه فالفاء للعطف على مقدر، يدل عليه الكلام فكأنه قيل لكن لا يعجل لهم الشر، ولا يقضي اليهم أجلهم فيذرهم اي فيتركهم ويمهلهم ﴿في طغيانهم﴾ اي الذي هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على اعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة، والطغيان التطاول وهو العلو والارتفاع ﴿يعمهون﴾ يعني يتركهم يتحيرون في تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجاً لهم منه سبحانه وخذلاناً.

ثم بين سبحانه انهم كاذبون في استعجال الشر ولو اصابهم ماطلبوه لأظهروا العجز والجزع فقال ﴿وإذا مس الانسان الضر﴾ اي هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به كالمرض والفقر ﴿دعانا لجنبه﴾ اللام للوقت او بمعنى على اي دعانا مضطجعاً ﴿او قاعداً او قائماً﴾ كأنه قال دعانا في جميع الاحوال المذكورة وغيرها، وخص المذكورة بالذكر لانها الغالب على

الانسان ولا يخلو عنها عادة وما عداها نادر كالركوع والسجود.

ويجوز ان يراد انه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود، وقاعداً غير قادر على القيام وقائماً غير قادر على المشي والاول أولى، قال الزجاج: ان تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرة لأنه اذا كان داعياً على الدوام ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب.

وعن أبي الدرداء قال: ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك.

واقول أنا أكثر من شكر الله على السراء ليدفع عني الضراء فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النقمة، اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم فإنا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان ومكان.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه﴾ اي مضى على طريقته التي كان عليها قبل ان يمسه الضر. ونسي حالة الجهد والبلاء والضيق والفقر، وأهمل جانب الله او مضى عن موقف الدعاء والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضر الى كشف ذلك الضر الذي مسه.

وقيل معنى مر، استمر على كفره مشبهاً بمن لم يدعنا ولم يشكر ولم يتعظ، وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر بل تتفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم ، فاذا كشفه الله عنهم غفلوا عن التضرع والدعاء وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه.

وهـذا مما يـدل عـلى ان الآيـة تعم المسلم والكـافـر كـما يشعـر بـه لفظ النـاس ولفظ الانسان. اللهم اوزعنا شكر نعمك وأذكرنا الاحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره، وما اغناك عنه واحوجنا اليه ولئن شكرتم لأزيدنكم.

﴿كذلك﴾ اي مثل ذلك التزيين العجيب اي كـما زين له الـدعاء عنـد الضرر والإعراض عند الرخاء ﴿زين للمسرفين مـا كانـوا يعملون﴾ أي عملهم، والمسرف في اللغة هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريق التخلية وعدم اللطف بهم او من طريق الشيطان بالوسوسة أو من طريق النفس الأمارة بالسوء؛ والمعنى إنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات.

ثم ذكر سبحانه ما يجري مجرى الردع والزجر عما صنعه هؤلاء فقال ﴿ولقد اهلكنا القرون﴾ يعني الأمم الماضيـة ﴿من قبلكم﴾ أي قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم يعني أهلكناهم من قبل زمانكم، وقيل الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر.

﴿لما ظلموا﴾ أي أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتجارؤ على الرسل والتطاول في المعاصي من غير تأخير لاهلاكهم كما أخرنا إهلاككم. وقيل الظلم هنا الشرك أي لما أشركوا.

﴿وجاءتهم رسلهم﴾ الذين أرسلناهم اليهم ﴿بالبينات﴾ أي بالآيـات الواضحات الدالة على صدق الرسل ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ الجملة اعتراضية واللام لتأكيد النفي، أي وما صح لهذه الأمم وما استقام أن يؤمنوا برسلهم لعدم استعدادهم لذلك وسلب الالطاف عنهم.

﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو الاستئصال الكلي لكل مجرم، وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار او لكفار مكة على الخصوص.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ
أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ
إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ
عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ثم خاطب سبحانه الذين بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ثم جعلناكم خلائف﴾ اي استخلفناكم ﴿في الأرض﴾ بعد تلك القرون التي تسمعون اخبارها وتنظرون آثارها، والخلائف جمع خليفة، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة الانعام.

﴿لننظر كيف تعملون﴾ اللام لام كي اي لكي ننظر أي عمل تعملونه من اعمال الخير والشر، أو على أي حالة تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف وقيل النظر هنا بمعنى العلم أي لنختبر اعمالكم كقوله تعالى ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ذكره الواحدي والرازي، وقيل لنعامل معاملة من ينظر فهي استعارة تمثيلية والاول أولى.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء[1]». اخرجه مسلم. ثم حكى الله سبحانه نوعاً ثالثاً من تعنتهم وتلاعبهم بآياته فقال ﴿وإذا تتلى عليهم﴾ فيه التفات عن الخطاب الى الغيبة إعراضاً عنهم ﴿آياتنا﴾ التي في الكتاب العزيز، اي واذا تلا التالي عليهم

---

(١) مسلم ٢٧٤٢.

آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حال كونها ﴿بينات﴾ اي واضحات الدلالة على المطلوب ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ اي لا يخافون البعث وهم المنكرون للمعاد. وقال قتادة: هم مشركو مكة، وقد تقدم تفسيره قريباً، أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ائت بقرآن غير هذا او بدّله﴾ طلبوا منه صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الاتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله؛ وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته او كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم.

قال الرازي: إقدامهم على هذا الالتماس اما على سبيل السخرية والاستهزاء أو على سبيل التجربة والامتحان، حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كاذب في قوله ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله تعالى.

فأمره الله ان يقول في جوابه ﴿قل ما يكون﴾ اي ما ينبغي ولا يحل ﴿لي ان ابدله من تلقاء نفسي﴾ فنفى عن نفسه احد القسمين وهو التبديل لانه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس بوسعه ولا يقدر عليه.

وقيل انه صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلاً على نفي اصعبهما بالطريق الاولى، وهذا منه صلى الله عليه وسلم من باب مجازاة السفهاء. اذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد ان امره الله سبحانه بذلك وهو اعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة.

قال الزجاج: سألوه اسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور، وقيل سألوه

ان يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه احلامهم، وقيل سألوه ان يحول الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً.

ثم أمره ان يؤكد ما أجاب به عليهم من انه ما صح له ولا استقام ان يبدله من تلقاء نفسه بقوله ﴿ان أتبع إلا ما يوحى اليّ﴾ من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف، فقصر حاله صلى الله عليه وسلم على اتباع ما يوحى اليه، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي (ﷺ) بأن القرآن كلامه، وانه يقدر على الاتيان بغيره والتبديل له.

ثم امره الله سبحانه ان يقول لهم تكميلاً للجواب عليهم ﴿اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها واليوم العظيم هو يوم القيامة، اي إني أخاف ان عصيت ربي بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وإنه صلى الله عليه وسلم انما يبلغ اليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك فقال ﴿قل لو شاء الله﴾ أي ان هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وارادته ولو شاء الله ان لا أتلوه عليكم ولا أبلغكم إياه ﴿ما تلوته عليكم﴾ فالأمر كله منوط بمشيئة الله ليس لي في ذلك شيء ﴿ولا ادراكم به﴾ أي ولو شاء الله ما ادراكم بالقرآن أي ما اعلمكم به على لساني، يقال دريت الشيء وادراني الله به، هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدريه، أعلمه يعلمه، وقرأ ابن كثير: ولأدراكم به بغير الف بين اللام والهمزة والمعنى لأعلمكم به على لسان غيري من غير ان أتلوه عليكم، فيكون اللام لام تأكيد دخلت على ألف أفعل.

وقد قرىء أدرأكم بالهمزة فقيل هي منقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد، ويحتمل ان يكون من درأته اذا دفعته وأدرأته اذا جعلته دارياً، والمعنى لا اجعلكم بتلاوته خصماء تدرءونني بالجدال وتكذبونني، وقرأ ابن عباس

والحسن ولا أدرأتكم به قال أبو حاتم: أصله ولا أدريتكم به فأبدل من الياء ألفا، قال النحـاس: وهذا غلط، والرواية عن الحسن ولا أدرأتكم به بالهمزة.

﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾ تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ولم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم إلا التبليغ، اي أقمت فيما بينكم زماناً طويلاً من قبل القرآن وهو اربعون سنة تعرفونني بالصدق والأمانة لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب ﴿أفلا تعقلون﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ أي أفلا تجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبي لما عرفتم من العادة المستمرة لي المدة الطويلة بالصدق والامانة وعدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل وتعلمي لما عند أهلها من العلم ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ولا حرصي عليه.

ثم جئتكم بهذا الكتاب الذي عجزتم عن الاتيان بسورة منه وقصرتم عن معارضته وانتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة، المعترف لهم بأنهم البالغون فيها الى مبلغ لا يتعلق به غيركم.

اخرج ابن أبي شيبة والبخاري والترمذي عن ابن عباس قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة يوحى اليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة[1] وعن السدي نحوه.

قال النووي: ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات: إحداها انه توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها واشهرها، رواه مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس، واتفق العلماء عليها؛ وتأولوا الباقي عليه، فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر، ورواية الخمس متأولة ايضا بأنها حصل فيها اشتباه.

---

(١) البخاري كتاب مناقب الأنصار باب ٤٥.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

﴿فمن أظلم﴾ استفهام فيه معنى الجحد أي لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ زيادة كذباً مع أن الافتراء لا يكون إلا كذباً لبيان ان هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه فربما يكون الافتراء كذباً في الاسناد فقط كما اذا اسند ذنب زيد الى عمرو، وذكر معنى هذا ابو السعود في تفسيره.

قيل وهذا من جملة رده صلى الله عليه وسلم على المشركين لما طلبوا منه ان يأتي بقرآن غير هذا القرآن او يبدله، فبين لهم انه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله ولا ظلم يماثل ذلك، وقيل المفتري على الله الكذب هم المشركون.

﴿أو كذب بآياته﴾ وهم أهل الكتاب ﴿إنه﴾ أي أن الشأن ﴿لا يفلح المجرمون﴾ تعليل لما قبله، أي لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير، قال عكرمة: قال النضر: اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى، فأنزل الله هذه الآية.

ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الاصنام وبين انها لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدها فقال ﴿ويعبدون من دون الله﴾ اي متجاوزين الله سبحانه الى عبادة غيره لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وضم عبادة الغير اليها للتقرب والشفاعة.

﴿ما لايضرهم ولا ينفعهم﴾ اي ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع، ومن حق المعبود ان يكون مثيباً لمن اطاعه، معاقباً لمن عصاه، ونفي الضر والنفع هنا عن الاصنام باعتبار الذات واثباتها لها في الحج في قوله ﴿يدعو لمن ضره اقرب من نفعه﴾ باعتبار السبب فلا منافاة بينهما.

﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ اي زعموا انهم يشفعون في الآخرة فلا يعذبهم الله بذنوبهم؛ قاله ابن جريج، وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال، وقيل ارادوا بهذه الشفاعة اصلاح احوال دنياهم، قاله الحسن، أي لإنكارهم البعث وما يترتب عليه. ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم فقال ﴿قل﴾ لهم تبكيتاً ﴿اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولافي الأرض﴾ والمعنى اتخبرون الله ان له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، او أتخبرونه ان لكم شفعاء بغير اذنه والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولاشفيعاً بغير اذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سماواته وفي ارضه، وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلاً وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ بالياء والتاء سبعيتان، نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل ان يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ويحتمل ان يكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم جواباً عليهم.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وما كان الناس﴾ قد تقدم تفسيره في البقرة والمعنى أن الناس جميعاً ما كانوا ﴿الا أمة واحدة﴾ موحدة لله سبحانه مؤمنة به من لدن آدم إلى نوح، وقيل من عهد إبراهيم إلى عمرو بن لحي لأن التوحيد والاسلام ملة قديمة اجتمعت عليه الناس قاطبة فطرة وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة.

﴿فاختلفوا﴾ أي فصار البعض كافراً، وبقي البعض الآخر مؤمناً فخالف بعضهم بعضاً، وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك وقال: كل مولود يولد على الفطرة فاختلفوا عند البلوغ والأول أظهر؛ وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للاخرى بل المراد كفر البعض وبقي البعض على التوحيد كما قدمنا، وقال ابن مسعود: كانوا على هدى، وروي أنه قرأ هكذا.

وعن مجاهد قال: آدم وحده فاختلفوا حين قتل أحد ابني آدم أخاه، وعن السدي قال: أهل دين واحد على دين آدم فكفروا وقيل ليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج، وقيل كانوا في الكفر وهو منقول عن جماعة من المفسرين والأول أولى.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي أنه سبحانه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا بنزول العذاب وتعجيل

العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلاً بينهم ﴿فيما فيه يختلفون﴾ لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف، وقيل المعنى لقضى بينهم باقامة الساعة عليهم، وقيل لفرغ من هلاكهم، وقيل: الكلمة أن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا قاله الكلبي.

وقيل الكلمة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة وهي إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وقيل الكلمة قوله سبقت رحمتي غضبي وعبر بالمضارع عن الماضي حكاية للحال الماضية.

﴿ويقولون﴾ ذكر سبحانه ههنا نوعاً رابعاً من مخازيهم وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه، قيل والقائلون هم أهل مكة كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسوله ﷺ من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكفى به دليلاً بيناً ومصدقاً قاطعاً.

﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه آية﴾ من الآيات التي نقترحها عليه ونطلبها منه كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهباً ونحو ذلك ﴿من ربه﴾ كما كان للانبياء من الناقة والعصا واليد؛ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال: ﴿فقل انما الغيب لله﴾ أي أن نزول الآية غيب والله هو المحيط بعلمه المستأثر به لا علم لي ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته وانما علي التبليغ.

﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه من الآيات ﴿اني معكم من المنتظرين﴾ لنزولها وقيل المعنى انتظروا قضاء الله بيني وبينكم باظهار الحق على الباطل، وقال الربيع: خوفهم عذابه وعقوبته إن لم يؤمنوا.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ (٢١) هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢)﴾

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا﴾ لما بين سبحانه في الآية المتقدمة انهم طلبوا آية عناداً ومكراً ولجاجاً أكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد ان مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله.

والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه أنه وسع عليهم في الأرزاق وأدرَّ عليهم النعم بالمطر والخصب وصلاح الثمار بعد أن مسهم الضر بالجدب وضيق المعايش، فما شكروا نعمته ولا قدروها حق قدرها. بل أضافوها الى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة وهو معنى المكر فيها وإذا الأولى شرطية وجوابها اذا لهم مكر، وهي فجائية ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه، ويستفاد منه السرعة لأن المعنى انهم فاجؤوا المكر أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة، وقال مجاهد: في الآية استهزاء وتكذيب. وهذا تفسير مراد، وإلا فأصل المكر إخفاء الحيل والمكايد، وقال مقاتل: لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا.

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء من سرعة مكرهم، وقد دل أفعل التفضيل على ان مكرهم كان سريعاً ولكن مكر الله أسرع منه، وتسمية

عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز.

﴿ان رسلنا﴾ أي الملائكة ﴿يكتبون ما تمكرون﴾ قرىء بالتاء والياء، والأولى سبعية والثانية عشرية أي لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة فكيف يخفى على العليم الخبير؛ وفي هذا وعيد لهم شديد وتحقيق للانتقام منهم.

وهذه الجملة تعليل للتي قبلها فـإن مكرهم إذا كان ظـاهراً لا يخفى فعقوبة الله كائنة لا محالة ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهي إذا مس الإنسان الضر، وفي هذه الآية زيادة وهي انهم لا يقتصرون على مجرد الاعراض بل يطلبون الغوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر.

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً، وهو كلام مستأنف ومعنى تسييرهم في البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لينتفعوا بها ويركبون على ما خلقه الله لركوبهم من الدواب ومعنى تسييرهم في البحر أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر، ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك.

وقد قرأ ابن عامر وهو الذي ينشركم في البر والبحر بالنون من النشر كما في قوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض﴾ أي ينشرهم سبحانه في البحر فينجي من يشاء ويغرق من يشاء.

﴿حتى﴾ غاية للسير في البحر والغاية مضمون الجملة الشرطية بكمالها ﴿إذا كنتم في الفلك﴾ يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث والحركات فيه بينها تغاير اعتباري ﴿وجرين﴾ أي السفن ﴿بهم﴾ أي بالراكبين عليها والفائدة

في صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الانكار والتقبيح، قاله الزمخشري.

وقيل ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده إلى الغائب، وقيل هذا الالتفات فيه امتنان واظهار نعمة المخاطبين، والمسيرون في البحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة.

ولما كان في آخر الآية ما يقتضي انهم إذا نجوا بغوا في الأرض عدل عن خطابهم بذلك إلى الغيبة لئلا يخاطب المؤمنين بما لا يليق صدوره منهم وهو البغي بغير الحق، قاله السمين، وقيل ان الالتفات في الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب.

وقال الرازي: الانتقال من مقام الخطاب الى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك في قوله إياك نعبد دليل الرضا والتقريب.

﴿بريح طيبة﴾ أي ساكنة لينة الهبوب إلى جهة المقصد، والباء للسببية أو للحال ﴿وفرحوا بها﴾ أي ريح السفينة فالقيود المعتبرة في الشرط ثلاثة أولها الكون في الفلك والثاني جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة وثالثها فرحهم والقيود المعتبرة في الجزاء ثلاثة.

الأول ﴿جاءتها﴾ أي جاءت الفلك وعارضته وقابلته أو جاءت الريح الطيبة أي تلقتها ﴿ريح عاصف﴾ أي ذات عصف وهو من باب النسب كلابن وتامر وهو مما يستوى فيه المذكر والمؤنث كما صرحوا به والعصوف شدة هبوب

الريح وهي الهواء بين السماء والأرض، والجمع أرواح ورياح، وقيل أرياح على لفظ الواحد، وغلطه أبو حاتم وهي مؤنثة على الأكثر، وقد تذكر على معنى الهواء نقله أبو زيد، وقال ابن الأنباري: الريح مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر، وراح اليوم يروح روحاً من باب قال، وفي لغة من باب خاف إذا اشتدت ريحه فهو رائح.

والثاني ﴿وجاءهم﴾ أي ركبان السفينة ﴿الموج من كل مكان﴾ أي من جميع الجوانب للفلك، والموج ما ارتفع من غوارب الماء وعلا فوق البحر، وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه.

﴿و﴾ الثالث ﴿ظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وان كان بغير العدو، كما هنا وهو استعارة تبعية، وقيل الظن هنا اليقين أي أيقنوا أنه الهلاك، وقيل بل المراد المقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه.

وقوله ﴿دعوا الله﴾ بدل من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظن الهلاك وهو الباعث عليه فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه، ويمكن أن يكون جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا صنعوا فقيل دعوا الله.

﴿مخلصين له الدين﴾ أي لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب كما جرت عادتهم في غير هذا الموطن انهم يشركون أصنامهم في الدعاء، وليس هذا لاجل الايمان بالله وحده بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم إلا الله سبحانه.

وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد وإن المضطر يجاب دعاؤه وأن كان كافراً، وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها.

فيا عجباً لما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك الينا تواتراً يحصل به القطع.

فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية واين وصل بها أهلها وإلى أين رمى بهم الشيطان، وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الاصنام، فإنا لله وإنا اليه راجعون.

واللام في ﴿لئن أنجيتنا﴾ هي الموطئة للقسم المحذوف على إرادة القول أي دعوا قائلين ذلك، ويجوز أن يجري دعوا الله مجرى قالوا لان الدعاء بمعنى القول إذ هو نوع من أنواعه فتحكى به الجملة، وهو مذهب كوفي والأول هو الأولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط.

﴿من هذه﴾ أي ما وقعوا فيه من مشارفة الهلاك في البحر من الريح العاصفة والامواج الشديدة ﴿لنكونن﴾ في كل حال ﴿من الشاكرين﴾ أي ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا منها هذه المحنة التي نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجينا منها، وهذا جواب القسم وفيه من المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظمين في سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال لنشكرن.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٣﴾

﴿فلما أنجاهم﴾ الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم، بل فعلوا فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر ﴿إذا هم يبغون﴾ أي فاجاؤا البغي والفساد وسارعوا إليه، والبغي هو الفساد من قولهم بغى الجرح إذا ترامى في الفساد، وقيل هو الشرك، وزيادة ﴿في الأرض﴾ للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أن يكون بحق بل لا يكون إلا بالباطل لكن زيادة.

﴿بغير الحق﴾ إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمرداً وعناداً لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة.

وقيل البغي: مجاوزة الحد وهو محمود ان كان من العدل الى الاحسان ومن الفرض الى التطوع، ومذموم إن كان من الحق الى الباطل أو إلى الشبهة، وقال الزمخشري: البغي قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة، وهذا فائدة تقييده بغير الحق.

﴿يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق، ذكر عاقبة البغي وسوء مغبته، قرىء بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف، أي بغيكم وبال على أنفسكم تتمتعون متاع الحياة الدنيا؛ وقيل على انه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أي زمن متاع الحياة الدنيا، وقيل على أنه

مفعول له، أي لأجل متاع الحياة الدنيا.

وقيل منصوب على نزع الخافض أي كمتاع، وقيل على الحال على انه مصدر بمعنى المفعول أي ممتعين، وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر، أي تبغون متاع الحياة الدنيا.

وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب، والحق الذي تقتضيه جزالة التنزيل انما هو الوجه الأول، أما من قرأ برفع متاع فيجعله خبراً لمبتدأ، أي بغيكم متاع الحياة الدنيا ويكون على أنفسكم متعلقاً بالمصدر، والتقدير انما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعتها التي لا بقاء لها، فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه أبناء جنسهم، وعبر عنهم بالانفس استعارة لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة.

وقيل ارتفاع متاع على انه خبر ثان وقيل على انه خبر لمبتدأ محذوف أي هو متاع كما في قوله تعالى: ﴿الا ساعة من نهار بلاغ﴾ أي هذا بلاغ.

وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه في توجيه الرفع بما يطول به البحث في غير طائل، والحاصل انه اذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم فالمعنى أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغي باعتبار ما يؤول اليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه، وان جعل الخبر متاعاً فالمراد أن بغي هذا الجنس الانساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال قريب الاضمحلال كسائر أمتعة الحياة الدنيا فإنها ذاهبة عن قريب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر والنكث والبغي، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: انما بغيكم على

أنفسكم ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

وعن مكحول: ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر والبغي والنكث.

أقول أنا: وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على انها تعود على فاعلها «الخدع» فإن الله يقول: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي منهما»[1].

ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال: ﴿ثم الينا مرجعكم﴾ تقديم الخبر للدلالة على الثبات والقصر، والمعنى انكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله سبحانه فيجازي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه.

﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من خير وشر، والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء سأخبرك بما صنعت وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد.

ثم لما ذكر سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يتضمن بيان حالها وسرعة تقتضيها وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود به، بعد أن تملأ الأعين برونقها وتخلب النفوس ببهجتها، وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً ويهتكوا حرمهم، حباً لها وعشقاً لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع بها وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب العجيب البديع المثال المنتظم في سلك الأمثال فقال.

(١) ضعيف الجامع الصغير ٤٨١٣.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ أي إن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه ويباينه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيه، بعد أن كان غضاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلألأت أنواع نوره وحاكت الزهر أنواع زهره، وانما ليست للحصر لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالاً غير هذا، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله كماء بل ما يفهم من الكلام.

﴿فاختلط به﴾ أي بسببه ﴿نبات الأرض﴾ بأن اشتبك بعضه ببعض لكثرته حتى بلغ الى حد الكمال، ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز، ولا مترعرع فإذا نزل الماء عليه اهتز، وربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ أي كائناً من الحبوب والثمار والكلأ والتبن والعشب.

﴿حتى اذا أخذت الأرض زخرفها﴾ قال في الصحاح: الزخرف الذهب ثم يشبه به كل مموه مزور. اهـ.

وفي القاموس الزخرف بالضم الذهب وكمال حسن الشيء، ومن القول

حسنه،ومن الأرض ألوان نباتها، والمعنى أن الارض استوفت واستكملت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب وبعضه للون الفضة وبعضه للون الياقوت وبعضه للون الزمرد وحتى غاية لمحذوف، أي ما زال ينمو ويزهر حتى أخذت حسنها ونضارتها وبهجتها، وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأخضر وأحمر وأصفر وغير ذلك.

﴿وازينت﴾ أي تزينت به، وقرىء أزينت على وزن أفعلت أي ازينت بالزينة التي عليها،شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كثيرة ففي الكلام استعارة مكنية.

﴿وظن أهلها﴾ أي أهل تلك الارض الآخذة زخرفها ﴿انهم قادرون عليها﴾ أي غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها متمكنون على جدادها وقطافها، والضمير في عليها للأرض، والمراد النبات الذي هو عليها.

﴿أتاها﴾ أي جاءها ﴿أمرنا﴾ بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات ﴿ليلاً أو نهاراً﴾ أو للتنويع أي تارة يأتي قضاؤنا وعذابنا ليلاً، وتارة يأتي نهارا ﴿فجعلناها حصيداً﴾ أي جعلنا زرعها شبيهاً بالمحصود في قطعه من أصوله، قال أبو عبيدة: الحصيد المستأصل وقيل المقطوع بالمناجل.

﴿كأن لم تغن بالامس﴾ أي كأن لم يكن زرعها موجوداً فيها بالامس مخضراً طرياً، من غني بالمكان بالكسر يغني بالفتح اذا أقام، قال البيضاوي: أي لم تلبث أي لم تقم ولم تمكث.

وقيل لم تكن ولم توجد، وفي القاموس ما يقتضي أن غني يأتي بمعنى كان ووحد كقوله غنيت دارنا بتهامة أي كانت بها.

والمراد بالامس الوقت القريب والزمن الماضي لا خصوص اليوم الذي قبل يومك، قاله الكرخي، والمغاني في اللغة المنازل، وقال قتادة: كأن لم ينعم، وقرأ «لم يَغْنَ»بالتحتية بإرجاع الضمير إلى الزخرف، قرأ من عده «تغن» بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نفصل الآيات﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآية المنبهة على أحوال الدنيا، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيما اشتملت عليه، عن أبي مجلز قال: كان مكتوباً في سورة يونس الى جنب هذه الآية ﴿ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى ثالثاً ولا يشبع نفس ابن آدم الا التراب، ويتوب الله على من تاب﴾ فمحيت.

قال النسفي في الآية: هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الأرض في جفافه، وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه، والتنبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها، كما ان صفو الماء في أعلى الإناء:

ألم تر أن العمر كأس سلافة فأوله صفو وآخره كدر

وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين، فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم، وحبوب الحب، وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة.

والخبيثة تخرج خلاف الخلف؛ وثمام الاثم وشوك الشرك، وشيح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب.

ثم يدعوه معاده، كما يحين للحرث حصاده، فتزايله الحياة مغتراً كما يهيج

النبات مصفراً، فتغيب جثته في الرمس كأن لم تغن بالامس، إلى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث.

وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله، ويهلك كثيره ولا بد من ترك ما زاد، كما لا بد من أخذ الزاد، وأخذ المال لا يخلو من زلة، كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة، وجمعه وامساكه، تلف صاحبه واهلاكه، فما دون النصاب كضحضاح ماء؛ يجاوز بلا احتماء، والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة وعمارتها بذل الصلاة، فمتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة.

وكذا المال يساعد الاوغاد، دون الامجاد، كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكد البخيل، كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف انتهى.

﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق، رغبهم في الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام، قال الحسن وقتادة: السلام هو الله تعالى وداره الجنة، وقال الزجاج: والمعنى والله يدعو إلى دار السلامة، ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة.

وقيل أراد دار السلام الذي هو التحية لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما في قوله: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وقيل السلام اسم لأحد الجنان السبع (أحدها) دار السلام (والثانية) دار الجلال (والثالثة) جنة عدن (والرابعة) جنة المأوى (والخامسة) جنة الخلد (والسادسة) جنة الفردوس (والسابعة) جنة النعيم.

وقيل المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنة،

وقد اتفقوا على أن دار السلام هي الجنة،وإنما اختلفوا في سبب التسمية بدار السلام.

﴿ويهدي من يشاء﴾ هدايته، قال أبو العالية: يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات ﴿إلى صراط مستقيم﴾ دين الاسلام، جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلاً للحجة واظهاراً للاستغناء عن خلقه.

أخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر محمد بن علي قال: حدثني جابر قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً، فقال اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، انما مثلك ومثل أمتك مثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس الى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من ترك فالله هو الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد رسول، فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها[1]» وقد روي معنى هذا من طرق.

(١) المستدرك كتاب تعبير الرؤيا ٣٩٣/٤. وفي رواية: أكل منها مما فيها ثم تلا - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قسم سبحانه أهل الدعوة الى قسمين وبين حال كل طائفة فقال: ﴿للذين أحسنوا﴾ بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الايمان والأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي، وقيل للذين شهدوا أن لا إله إلا الله ﴿الحسنى﴾ أي المثوبة الحسنى وان كان معه ذنوب، فعصاة المؤمنين داخلون في هذا، وقال ابن الانباري: الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن، والعرب توقع هذه اللفظة على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها ولذلك ترك موصوفها، وقيل المراد بالحسنى الجنة.

﴿وزيادة﴾ قيل المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله: ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ وقيل الزيادة النظر إلى وجهه الكريم، وبه قال جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت، وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي.

وقيل الزيادة هي مضاعفة الحسنة الى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقيل الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، قاله علي بن أبي طالب، وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد، وقيل هي ما يعطيهم سبحانه في الدنيا من فضله لا يحاسبهم عليه يوم القيامة، قاله ابن زيد، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ قال

فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم»[1].

وفي لفظ من حديث أبي موسى مرفوعاً: الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن، أخرجه الدارقطني وابن جرير وغيرهما، وروي مثله عن جماعة من الصحابة مرفوعاً بطرق، وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله سبحانه، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق حينئذ لقائل مقال ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم والله المستعان.

﴿ولا يرهق﴾ الرهق الغشيان، وقيل أصله المقاربة، وقيل معناه يلحق ومنه قيل غلام مراهق إذا لحق بالرجال، وقيل يعلو والمعاني متقاربة والمعنى لا يغشى ﴿وجوههم قتر﴾ هو غبار معه سواد، وقيل سواد الوجه واحده قترة وقيل هو الدخان ومنه غبار القدر، وقيل التقليل ومنه ولم يقتروا، ومنه على المقتر قدره، وقيل الكآبة.

﴿ولا ذلة﴾ هي ما يظهر على الوجه من الخضوع والانكسار والهوان، يعني لا يعلو وجوههم غبرة ولا يظهر فيها هوان، وقال مجاهد في الآية: خزي، وعن صهيب عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: هذا بَعد نظرهم اليه عز وجل، أخرجه أبو الشيخ، والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال، قاله أبو البقاء.

وهذا ليس بجائز لأن المضارع متى وقع حالاً منفياً بلا امتنع دخول واو الحال عليه كالمثبت أو في محل الرفع نسقاً على الحسنى، والتقدير وان لا يرهق أي وعدم رهقهم.

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بالصفات السابقة هم ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي المتنعمون بأنواع نعمها لا يخرجون منها أبداً.

---

(١) الإمام أحمد، ٣٣٣/٤.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)

﴿والذين كسبوا السيئآت جزاء سيئة بمثلها﴾ أي يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزاد عليها كما يزاد في الحسنة؛ وهذا أولى مما عداه وفيه سبعة أوجه قررها السمين لا نطول بذكرها، والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصي التي ليست بشرك وهي ما يتلبس به العصاة من المعاصي، قال ابن كيسان: الباء زائدة والمعنى جزاء سيئة مثلها وقيل جزاء سيئة كائن بمثلها.

وقيل التقدير فلهم جزاء سيئة، وفيه التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئآت لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى اضعاف كثيرة تفضلاً منه سبحانه وتكرماً، وأما السيئآت فانه يجازي فاعلها عليها بمثلها عدلا منه سبحانه.

﴿وترهقهم﴾ أي تغشاهم ﴿ذلة﴾ أي هوان وخزي، وقال ابن عباس: ذلة وشدة ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي لا يعصمهم أحد كائناً من كان من سخط الله وعذابه، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين والأول أولى.

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ القطع بفتح الطاء جمع قطعة وباسكانها جزء وهما قراءتان سبعيتان، قال ابن السكيت: القطع طائفة من الليل وقيل ظلمة آخر الليل، وقال الأخفش: سواد الليل، والجملة حالية أو مستأنفة أي أغشيت وألبست وجوههم قطعاً وسواداً من الليل في حال ظلمته.

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ اطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر في السنة من خروج عصاة الموحدين.

﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد وقال مجاهد: الحشر الموت، ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أي انذرهم يوم نحشرهم لموقف الحساب، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة، والمعنى ان الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم يوم القيامة.

﴿ثم نقول﴾ في حالة الحشر ووقت الجمع ﴿للذين أشركوا﴾ تقريعاً لهم على رؤوس الاشهاد وتوبيخاً لهم مع حضور من يشاركهم في العبادة وحضور معبوداتهم ﴿مكانكم﴾ أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا في موضعكم، ولا تنفكوا منه ولا تبرحوا عنه حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم، ونصب مكانكم على أنه في الأصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأي الفارسي، قاله أبو السعود.

قال الخفاجي: وهذا كله تكلف، قال الدماميني: لا أدري ما الداعي الى جعل هذا الظرف اسم فعل إما لازماً وإما متعدياً، وهلا جعلوه ظرفاً على بابه ولم يخرجوه عن أصله أي اثبت مكانك انتهى وفيه بحث.

والضمير في قوله ﴿أنتم﴾ تأكيد للضمير الذي في مكانكم لسده مسد الزموا ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه وقرىء بالنصب على المفعول معه، وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين، والمراد بالشركاء هنا الملائكة وقيل الشياطين وقيل الأصنام وان الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت وقيل المسيح وعزير، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائناً ما كان.

﴿فزيلنا﴾ أي فرقنا وقطعنا ما كان ﴿بينهم﴾ من التواصل في الدنيا يقال زيلته فتزيل أي فرقته فتفرق، والمزايلة المفارقة والتزايل التباين، قال السيوطي: ميزنا بينهم وبين المؤمنين، كما في آية ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ انتهى. وفيه مسامحة.

قال القرطبي: هذا التفسير بعيد من سابقه ولاحقه إذ هما في الكلام على المشركين ومعبوداتهم فالأولى القول الآخر الذي جرى عليه غيره كالبيضاوي والخازن ونص الخطيب: بينهم، أي بين المشركين وشركائهم، وذلك حين يتبرأ كل معبود عمن عبده، وهذا أنسب بقوله.

﴿وقال شركاؤهم﴾ الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه، وإنما أضاف الشركاء اليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية، وقيل لكونهم شركاءهم في هذا الخطاب والإضافة لأدنى ملابسة.

﴿ما كنتم ايّانا تعبدون﴾ في الحقيقة ونفس الأمر، وانما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغووكم، لأنها الآمرة لكم بالإشراك على حد قوله ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ الآية. وهذا الجحد من الشركاء وان كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم فمعناه انكار عبادتهم اياهم عن أمرهم لهم بالعبادة وتقديم المفعول للفاصلة.

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رضينا ذلك منكم ﴿ان كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ القائل لهذا الكلام هم المعبودون قالوا لمن عبدهم من المشركين، والمراد بالغفلة هنا عدم الرضاء بما فعله المشركون من العبادة لهم،أو عدم علمهم بها،أو كل من الأمرين.

وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم، قال أبو السعود: هذا من كلام الاصنام كما علمت. انتهى.

قلت: ويمكن أن يكونوا من الشياطين ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم ولا أكرهوهم عليها.

﴿هنالك﴾ أي في ذلك المكان الدهش أو في ذلك الموقف الدحض أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلو﴾ أي تختبر وتذوق ﴿كل نفس﴾ مؤمنة كانت أو كافرة، سعيدة أو شقية جزاء ﴿ما أسلفت﴾ من العمل وتعاينه بكنهه متتبعة لآثاره من نفع أو ضر، وخير أو شر، فمعنى تبلو تذوق وتختبر، وقيل تعلم وقيل تتبع فهو من التلو، وهذا على القراءة بالفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس.

وأما على القراءة بالنون فالمعنى ان الله يبتلي كل نفس ويختبرها وانه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها، ويجوز أن يراد يصيب بالبلاء أي

العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، والبلية والبلاء والبلوى واحد، والجمع البلايا ومعنى الكل الاختبار.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونهم حتى يؤدوهم النار ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿هنالك تبلو﴾ الآية. وعن ابن زيد قال: تعاين كل نفس ما عملت، وقرىء تتلو من التلاوة، أي تقرأ كل نفس صحيفة عملها من خير أو شر.

﴿وردوا﴾ أي الذين أشركوا ﴿إلى الله﴾ أي إلى جزائه وما أعد لهم من عقابه والرد عبارة عن صرف الشيء الى الموضع الذي جاء منه ﴿مولاهم﴾ ربهم ومالكهم ﴿الحق﴾ صفة له، أي الصادق الربوبية دون ما اتخذوه من المعبودات الباطلة، وقرىء بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد ﴿وضل عنهم﴾ أي ضاع وبطل وذهب في الموقف ﴿ما كانوا يفترون﴾ عليه من أن الآلهة التي لهم حقيقة بالعبادة تشفع لهم الى الله وتقربهم اليه.

والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق ويعترفون به ويقرون ببطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلهاً، ولكن حين لا ينفعهم ذلك. وعن السدي قال: نسخها قوله ﴿بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾.

ثم لما بين الله سبحانه فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والاعادة والارشاد والهدى، وبنى سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب الى المسؤولين ليكون أبلغ في إلزام الحجة وأوقع في النفوس فقال:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ
ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾
فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قل﴾ يا محمد للمشركين احتجاجاً لحقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك؛ وهذه أسئلة ثمانية، جواب الخمسة الأولى منها منهم، وجواب الاثنين بعدها منه صلى الله عليه وسلم بتعليم الله إياه لعدم قدرتهم عليه، وجواب الأخير لم يذكر لشهرته والعلم به.

﴿ من يرزقكم من السماء ﴾ بالمطر ﴿ والأرض ﴾ بالنبات والمعادن فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم ، ومن لابتداء الغاية فإن اعترفوا حصل المطلوب وان لم يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما فقل .

﴿أم من يملك السمع والابصار﴾ أم هي المنقطعة بمعنى بل وفي هذا إضراب انتقال، انتقال من سؤال الى سؤال على القاعدة المقررة في القرآن لا اضراب إبطال، اي من يستطيع خلقهما وتسويتهما او من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء وحقيقة الملك معروفة ويلزمها الاستطاعة لان المالك لشيء يستطيع التصرف فيه والحفظ له والحماية، لذلك تجوّز به عن كل منهما وخصهما بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ويحصلون بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين، ثم انتقل الى حجة ثالثة فقال ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾ أي الانسان من النطفة والطير من البيضة والنبات من الحبة او المؤمن من الكافر، والاول أقرب الى الحقيقة ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ اي النطفة من الانسان او الكافر من المؤمن، او البيضة من الطائر الحي، والمراد

بهذا الاستفهام عمن يحيي ويميت، وهذه حجة رابعة ثم انتقل الى حجة خامسة فقال:

﴿ومن يدبر الامر﴾ بين الخلائق أي يقدره ويقضيه، وهذا من عطف العام على الخاص لانه قد عم ما تقدم وغيره ﴿فسيقولون الله﴾ اي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات الخمس ان الفاعل لهذه الامور هو الله سبحانه ان انصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم، والمعنى الله يفعل ذلك.

﴿فقل﴾ أمره ان يقول لهم ذلك وعظاً وتذكيراً بعد ان يجيبوا بهذا الجواب ﴿أفلا تتقون﴾ الاستفهام للانكار والفاء للعطف على مقدر اي تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الافعال، وتعبدون هذه الاموات والاصنام التي لا تقدر على شيء من هذه الامور بل ولا تعلم به، وفي البيضاوي أفلا تتقون عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿فذالكم﴾ الذي يفعل هذه الافعال ﴿الله﴾ وهو ﴿ربكم﴾ المتصف بأنه ﴿الحق﴾ لا ما جعلتموهم شركاء له في الموتى والأصنام، والاستفهام في قوله ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ للتقريع والتوبيخ ان كانت ما استفهامية لا ان كانت نافية كما يحتمله الكلام، والمعنى اي شيء بعد الحق إلا الضلال فان ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق باقرارهم وكان غيره باطلاً لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحداً في ذاته وصفاته.

﴿فأنى تصرفون﴾ أي كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال اذ لا واسطة بينهما فمن تخطى احدهما وقع في الآخر، والاستفهام للانكار والاستبعاد والتعجب.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾
قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ
أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا
ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿كذلك﴾ أي كما ثبت ان الحق ليس بعده إلا الضلال او كما حق انهم مصروفون عن الحق كذلك ﴿حقت كلمة ربك﴾ أي حق حكمه وقضاؤه ﴿على الذين فسقوا﴾ خرجوا من الحق الى الباطل وتمردوا في كفرهم عناداً ومكابرة، قال الزمخشري: أي مثل ذلك الحق حقت، وقال الزجاج: أي حقت عليهم هذه الكلمة ووجبت وهي ﴿انهم لا يؤمنون﴾ أي عدم ايمانهم بدل كل من كل، او المعنى لانهم لا يؤمنون فيكون تعليلاً لحقيتها عليهم.

﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أورد سبحانه في هذا حجة سادسة على المشركين وامر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقولها لهم وهم وان كانوا لا يعترفون بالمعاد لكنه لما كان أمراً ظاهراً بيّناً وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من انصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا انكار فيه.

والمعنى هل من هذه الاصنام والاموات التي تزعمون انها آلهة من يقدر على ان ينشيء الخلق من العدم على غير مثال سبق ثم يعيده بعد الموت في القيامة كهيئته اول مرة للجزاء.

وهذا السؤال استفهام إنكار، وانما لم يعطف على ما قبله ايذاناً باستقلاله في اثبات المطلوب، وعبارة أبي السعود هذا احتجاج آخر على حقية التوحيد

وبطلان الإشراك باظهار كون شركائهم بمعزل عن استحقاق الالوهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به تعالى. اهـ

والحاصل انه لا يقال ان الكفار ينكرون الإعادة والبعث فكيف يحتج عليهم بها لان إلزام الخصم كما يصح بما يعترف به يصح ايضاً بما تبينت وثبتت حقيته لقوة برهانه، فلذا جعل الاعادة كالبدء في الالزام لظهور برهانها وان لم يعترفوا بها.

ولذلك امر الرسول ان ينوب عنهم في الجواب كما قال سبحانه ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر الله سبحانه له نيابة عن المشركين في الجواب كما تقدم، اما عن طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وارشادهم الى ما يقولون، واما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح الى غاية لا يحتاج معها الى اقرار الخصم ومعرفة ما لديه، واما لكون المشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا الجواب فراراً منهم عن ان تلزمهم الحجة او ان يسجل عليهم بالمكابرة ان حادوا عن الحق.

﴿فأنى تؤفكون﴾ اي فكيف تصرفون عن الحق وتنقلبون منه الى غيره، والمراد التعجب من احوالهم.

ثم امره الله سبحانه ان يورد عليهم حجة سابعة فقال ﴿قل هل من شركائكم﴾ الاستفهام ههنا كالاستفهامات السابقة ﴿من يهدي الى الحق﴾ الإستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ وقوله ﴿الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وقوله ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام والى وهما بمعنى واحد، روى ذلك عن الزجاج.

وقيل كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء باللام للدلالة على ان المنتهى

غاية الهداية والمعنى متقارب، وقد يحذف الحرف تخفيفاً وقد جمع بين المتعديين هنا بحرف الجر، فعدى الاول والثالث بإلى والثاني باللام والتعدية بهذين الحرفين من باب التفنن في البلاغة، ولذلك قال الزمخشري هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين: والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل.

ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك او معاندين امر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يجيب بقوله ﴿قل﴾ لهم ﴿الله﴾ الذي له الاحاطة الكاملة ﴿يهدي للحق﴾ من يشاء دون غيره ممن زعمتموهم شركاء، ودليل ذلك ما تقدم من الادلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده الى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وارساله للرسل وانزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد الى ذلك من العقول والافهام والاسماع والابصار.

والاستفهام في قوله ﴿أفمن﴾ للتقرير والزام الحجة والفاء لترتيبه على ما سبق وهو برهان ثامن لم يذكر جوابه في الآية، والمعنى أفمن ﴿يهدي﴾ الناس ﴿الى الحق﴾ وهو الله سبحانه ﴿أحق أن يتبع﴾ ويقتدي ﴿أم من لا يهدي﴾ أي أم الأحق بان يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه ﴿الا ان يهدى﴾ الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا يهتدي في حال من الاحوال الا في حال هدى الغير اياه، وكان مقتضى المقابلة ان يقال أم من لا يهدي، وانما خولف اشارة الى انه اذا لم يهتد بنفسه لا يهدي غيره.

وقال النحاس: الاستثناء منقطع كما تقول فلان لا يسمع غيره الا ان يسمع اي لكنه يحتاج ان يسمع، فمعنى الا ان يهدى اي لكنه يحتاج ان يهدى ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ هذا تعجيب من حالهم باستفهامين متواليين اي أيُّ شيء يثبت لكم في هذه الحالة؟ فهذه جملة مستقلة، وكيف تحكمون لي باتخاذ هؤلاء شركاء لله؟ وهي جملة اخرى مستقلة، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ.

ثم بين سبحانه ما هؤلاء عليه في امر دينهم وعلى أي شيء بنوه وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل وهو الشرك فقال ﴿وما يتبع اكثرهم الا ظناً﴾ هذا كلام مبتدأ غير داخل في الاوامر السابقة، والمعنى ما يتبع هؤلاء المشركون في اشراكهم بالله وجعلهم له انداداً الا مجرد الظن والتخمين والتحدس، ولم يكن ذلك عن بصيرة والتفات الى فرد من افراد العلم، فضلاً عن ان يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الصادقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على مقتضاها وبطلان ما يخالفها، بل ظن من ظن من سلفهم ان هذه المعبودات تقربهم الى الله وانها تشفع لهم.

ولم يكن ظنه هذا لمستند قط بل مجرد خيال مختل وحدس باطل فقلدوا فيه آباءهم ولعل تنكير الظن هنا للتحقير، اي إلا ظناً ضعيفاً واهياً لا يستند الى ما تستند اليه سائر الظنون.

وقيل المراد بالآية انه ما يتبع اكثرهم في الايمان بالله والاقرار به إلا ظناً والاول اولى، وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميعهم يتبعون الظن في دعواهم أن الأصنام تشفع لهم، قال الكرخي: وفيه دليل على ان تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز، وقيل المراد بالاكثر الرؤساء.

ثم اخبرنا الله سبحانه ﴿ان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ لان امر الدين إنما ينبني على العلم وبه يتضح الحق من الباطل، والظن لا يقوم مقام العلم ولا يدرك به الحق ولا يغني عن الحق في شيء من الاشياء، والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه ومن بمعنى عن والحق بمعنى العلم ﴿ان الله عليم بما يفعلون﴾ من الافعال القبيحة الصادرة لا عن برهان فيندرج تحتها ما حكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجاً اولياً.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

﴿وما كان هذا القرآن ان يفترى﴾ قيل ان بمعنى اللام اي ليفترى، وقيل بمعنى لا أي لا يفترى.

لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت امر النبوة أي وما صح وما استقام ان يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة مفترى من الخلق ﴿من دون الله﴾ وانما هو من عند الله عز وجل، وكيف يصح ان يكون مفترى على سبيل الافتعال والاختلاق وقد عجز عن الاتيان بسورة منه القوم الذين هم افصح العرب لساناً وادقهم اذهاناً.

قال الفراء: ومعنى الآية وما ينبغي لهذا القرآن ان يفترى كقوله ﴿وما كان لنبي أن يغل وكقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ يعني ليس وصف القرآن وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، وانه مبرأ عن الافتراء والكذب.

﴿ولكن﴾ كان هذا القرآن، ووقعت لكن هنا احسن موقع اذ هي بين نقيضين وهما الكذب والصدق المضمن للتصديق، وفيه اوجه (احدها) العطف على خبر كان (الثاني) انه خبر لكان مضمرة وتقدم تقديره واليه ذهب الكسائي والفراء وابن سعدان والزجاج وهذا كالذي قبله في المعنى (الثالث) تقديره وما كان هذا القرآن ان يفترى ولكن انزل للتصديق (والرابع) تقديره ولكن يصدق الذي، قاله السمين.

﴿تصديق الذي بين يديه﴾ أي أمامه من الكتب الإلٓهية المنزلة على

الانبياء قبله، اي انها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصدقاً لها، ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة،لان اقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة مع ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك، وقيل المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد (ﷺ) لانهم شاهدوه قبل ان يسمعوا منه القرآن.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ التفصيل التبيين، أي بين ما في كتب الله المتقدمة، والالف واللام في الكتاب للجنس، وقيل اراد ما بين في القرآن من الاحكام فيكون المراد بالكتاب القرآن وقيل اللوح المحفوظ ﴿لا ريب فيه﴾ الضمير عائد الى القرآن وهو داخل في حكم الاستدراك وهو خبر ثالث او حال من الكتاب اي منتفياً عنه الريب او مستأنف او معترض بين تصديق وبين ﴿من رب العالمين﴾ أي كائن منه خبر رابع او حال ثانية او متعلق بتصديق او بتفصيل او التقدير انزل للتصديق من رب العالمين.

﴿أم يقولون افتراه﴾ الاستفهام للانكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة وام هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة اي بل أيقولون افتراه واختلقه. وقال ابو عبيدة: ام بمعنى الواو أي ويقولون، وقيل الميم زائدة اي أيقولون والاستفهام للتقريع والتوبيخ والانكار والاستبعاد، اي هذا القول منهم في غاية البعد والشناعة، وقيل التقدير أيقرون به ام يقولون.

ثم امره الله سبحانه ان يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال ﴿قل﴾ تبكيتاً لهم واظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة ﴿فأتوا﴾ اي ان كان الامر كما تزعمون من ان محمداً افتراه فأتوا انتم على جهة الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ في البلاغة وجودة الصناعة فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الالسن، وحسن النظم وبلاغة الكلام، والمراد مثل هذه السورة لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه، هكذا قال الرازي وهي مكية والاولى التناول لجميع السور، فانهم

لا يقدرون ان يأتوا بأقصر سورة.

﴿وادعوا﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم التي تجعلونها شركاء لله ﴿من دون الله﴾ اي من سوى الله من خلقه ﴿ان كنتم صادقين﴾ في دعواكم ان هذا القرآن مفترى، فان ذلك مستلزم لإمكان الاتيان بمثله، وهو ايضا مستلزم لقدرتكم عليه.

وسبحان الله العظيم ما اقوى هذه الحجة واوضحها واظهرها للعقول، فانهم لما نسبوا الافتراء الى واحد منهم في البشرية والعربية قال:لهم هذا الذي نسبتموه اليّ وانا واحد منكم ليس عليكم الا ان تأتوا وانتم الجمع الجَمّ بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من اهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، او من غيرهم من بني آدم ومن الجن او من الاصنام، فان فعلتم هذا بعد اللتيا والتي فأنتم صادقون فيما نسبتموه اليّ والصقتموه بي.

فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل.

ومراتب تحدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن أربعة: **أولها** :انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن﴾

ثانيها : انه تحداهم بعشر سور. قال تعالى ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾.

ثالثها : انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى ﴿فأتوا بسورة مثله﴾

رابعها: انه تحداهم بحديث مثله كما قال تعالى ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾

فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله في اثبات ان القرآن معجز.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

ثم ان الله تعالى ذكر السبب الذي لاجله كذبوا بالقرآن واتى به عقب هذا التحدي البالغ فقال ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ فاضرب عن الكلام الأول وانتقل الى بيان انهم سارعوا الى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه، وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا الى الحق وتمسك بذيول الانصاف، بل يرده بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل ان يعرف معناه ويعلم مبناه كما تراه عياناً، وتعلمه وجداناً.

والحاصل ان من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل ان يحيط بعلمه فهولم يتمسك بشيء فيهذا التكذيب الا مجرد كونه جاهلاً انما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب منادياً على نفسه بالجهل بأعلى صوته ومسجلاً بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء.

ما يبلغ الاعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

﴿ولما يأتهم تأويله﴾ اي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله، اي كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغته عقولهم ولا وصلت اذهانهم معانيه الرائقة المُنبئة عن علو شأنه.

والمعنى ان التكذيب وقع منهم قبل الاحاطة بعلمه، وقبل ان يعرفوا ما

يؤول اليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ما سلف من اخبار الرسل المتقدمين، والامم السابقين، ومن حكايات ما سيحدث من الامور المستقبلة التي اخبر عنها قبل كونها او قبل ان يفهموه حق الفهم وتتعقله عقولهم، فانهم لو تدبروه كل التدبر لفهموه كما ينبغي، وعرفوا ما اشتمل عليه من الامور الدالة ابلغ دلالة على انه كلام الله.

وعلى هذا فمعنى تأويله ما يئول اليه لمن تدبره من المعاني الرشيقة واللطائف الانيقة وكلمة التوقع اظهر في المعنى الاول، والمعنى ان القرآن معجز من جهة النظم ومن جهة المعنى من حيث الاخبار بالغيب.

﴿كذلك﴾ اي مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من الامم عند ان جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه فانهم كذبوا به قبل ان يحيطوا بعلمه، وقبل ان يأتيهم تأويله ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ من الامم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسخ ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم، كما حكى ذلك القرآن عنهم واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم او لكل فرد من الناس والجملة في قوة فأهلكناهم.

﴿ومنهم﴾ اي ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن ﴿من يؤمن به﴾ في نفسه ويعلم انه صدق وحق ولكنه كذَّب مكابرة وعناداً، وقيل المراد ومنهم من يؤمن به في المستقبل وان كذب به في الحال ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ ولا يصدقه في نفسه بل كذب به جهلاً وتقليداً، او لا يؤمن به في المستقبل بل يبقى على جحوده واصراره؛ وقيل الضمير في الموضعين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قيل ان هذا التقسيم خاص بأهل مكة، وقيل عام في جميع الكفار ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ فيجازيهم بأعمالهم والمراد بهم المصرون المعاندون.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وان كذبوك فقل﴾ امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ان اصروا على تكذيبه واستمروا عليه ﴿لي﴾ جزاء ﴿عملي ولكم عملكم﴾ اي جزاؤه فقد ابلغت اليكم ما امرت بابلاغه وليس علي غير ذلك، ثم اكد بقوله ﴿انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون﴾ اي لا تؤاخذون بعملي ولا أوخذ بعملكم، وفيه توكيد لما افادته لام الاختصاص من عدم تعدي اجر العمل الى غير عامله.

وقد قيل ان هذا منسوخ بآية السيف لما فيه من ايهام الاعراض عنهم وتخلية سبيلهم كما ذهب اليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل والكلبي، وعن ابن زيد قال: امره الله بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم.

قال الرازي: وهو بعيد لان شرط الناسخ ان يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات افعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً.

﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بين الله سبحانه في هذا ان في اولئك الكفار من بلغت حاله،في النفرة والعداوة الى هذا الحد وهي انهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول اثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه، وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من وافرده في ومنهم من ينظر حملاً على لفظه، قيل والنكتة كثرة المستمعين بالنسبة الى الناظرين لان

الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قوله ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر.

﴿أفأنت تسمع الصم﴾ الهمزة للانكار يعني ان هؤلاء وان استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم في ذلك مع حصول المانع وهو الصمم، فكيف اذا انضم الى ذلك ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ فإن من كان أصمَّ غير عاقل لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له، والفاء عاطفة.

وفيه تنبيه على ان حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه،ولذلك لا توصف به البهائم،وهو لا يتأتى الا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الإلف والتقليد، تعذر افهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الالفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

والكلام في ﴿ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ كالكلام فيما تقدم لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر، وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة، لأن الاعمى الذى له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الاحوال فهماً يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم العاقل قد يتحدس تحدساً يفيده بعض فائدة بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الادراك، وكذا من جمع له بين الصمم وذهاب العقل فقد انسد عليه باب الهدى.

والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الطبيب اذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج اصلاً أعرض عنه واستراح من الاشتغال به والهمزة للانكار.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ
كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ
مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون﴾ ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالاسماع والابصار لبيان ان ذلك لم يكن لاجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة بل لاجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق والمجادلة بالباطل، والاصرار على الكفر فهم الذين ظلموا انفسهم بذلك، ولم يظلمهم الله شيئاً من الاشياء، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به اكمل ادراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به الى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية *فعلى نفسها براقش تجني*

قيل والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمر زيادة اليقين والتقرير، وتقديم المفعول على الفعل لافادة القصر او لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم﴾ اي المشركين المنكرين للبعث لموقف الحساب،واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم اي احياؤهم من القبور ﴿كأن﴾ اي كأنهم ﴿لم يلبثوا﴾ اي مشبهين بمن لم يلبث ﴿إلا ساعة من النهار﴾ اي شيئاً قليلاً.

والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا وقيل في القبور، استقلوا المدة الطويلة اما لانهم ضيعوا اعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم او استقصروها للدهش والحيرة او لطول وقوفهم في المحشر او لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ومثل هذا قولهم ﴿لبثنا يوماً او بعض يوم﴾ او لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً.

والمقصود من هذا التشبيه كما قاله ابو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة اليه تعالى ولو بعد دهر طويل، واظهار بطلان استعبادهم وانكارهم له بقولهم ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ ونحو ذلك او بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الاشكال والصور فان اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير.

والمراد بالساعة الزمن القليل فانها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان ساعاته اعرف حالاً من ساعات الليل.

﴿يتعارفون بينهم﴾ اي يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا الا قليلاً، بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع اي في ابتدائه وينقطع في اثنائه وقيل عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين ايديهم من الامور المدهشة للعقول المذهلة للافهام، واما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه.

وهذا احد وجهين في المقام ذكره البيضاوي وابو البقاء، وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث من القبور وجرى على هذا ابوالسعود والخازن والقرطبي، وقيل ان هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع يقول بعضهم لبعض انت اضللتني واغويتني، لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ وقوله تعالى ﴿فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ فيجمع بأن المراد بالتعارف هو تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله ﴿ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول﴾ وقوله تعالى ﴿كلما دخلت امة﴾ الآية وقوله ﴿ربنا انا اطعنا سادتنا﴾ الآية، قال القرطبي: وهو الصحيح.

وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر.

﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

بالخسران وتعجيب منه ولذا أتى بحرف التحقيق، والمراد باللقاء يوم القيامة عند الحساب والجزاء اي من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفاني على الباقي، والجملة مستأنفة او في محل نصب باضمار قول اي قائلين قد خسر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ نفى عنهم ان يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم ويصلحهم.

﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ اصله ان نُرِكَ وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولاجله زيدت نون التأكيد خلافاً لسيبويه، والمعنى ان حصلت منا الاراءة لك بعض الذي وعدناهم من اظهار دينك في حياتك بقتلهم واسرهم، وجواب الشرط محذوف،والتقدير فتراه او فذاك.

وجملة ﴿أو نتوفينك﴾ معطوفة على ما قبلها، المعنى او لا نرينك ذلك في حياتك بل نتوفينك قبل ذلك ﴿فالينا مرجعهم﴾ فعند ذلك نعذبهم في الآخرة فنريك عذابهم فيها، وجواب او نتوفينك محذوف ايضاً والتقدير او نتوفينك قبل الاراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة، وقيل انه جواب للشرط وما عطف عليه اذ معناه صالح لذلك، والى هذا ذهب العوفي وابن عطية.

وقيل ان جواب او نتوفينك هو قوله فإلينا مرجعهم لدلالته على ما هو

المراد من اراءة النبي صلى الله عليه وسلم تعذيبهم في الآخرة وقيل العدول في الموضعين الى صيغة المستقبل لاستحضار الصورة، والاصل اريناك او توفيناك وفيه نظر فان اراءة صلى الله عليه وسلم ببعض ما وعد المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة.

وحاصل معنى هذه الآية: إن لم ننتقم منهم عاجلاً إنتقمنا منهم آجلاً، وقد اراد الله قتلهم واسرهم وذلهم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم بما اصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن فللّه الحمد.

﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ من تكذيبهم وكفرهم فيعذبهم اشد العذاب وجاء بثم الدالة على التبعيد مع كون الله سبحانه شهيداً على ما يفعلونه في الدارين للدلالة على ان المراد بهذه الافعال ما يترتب عليها من الجزاء او ما يحصل من انطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابوري.

وفي السمين ﴿ثم﴾ هنا ليست للترتيب الزماني بل هي لترتيب الاخبار لا لترتيب القصص في نفسها كقولك زيد عالم ثم هو كريم.

قال الزمخشري: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهوالعقاب، كأنه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون، وفيه وعيد لهم وتهديد شديد.

﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الخالية في وقت من الاوقات ﴿رسول﴾ يرسله الله اليهم يبين لهم ما شرعه الله لهم من الاحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة ﴿فاذا جاء رسولهم﴾ اليهم وبلغهم ما ارسله الله به فكذبوه جميعاً ﴿قضى بينهم﴾ اي بين الامة ورسولها ﴿بالقسط﴾ اي العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له، فيكون ما يعذبون به عدلاً لا ظلماً كما قال سبحانه ﴿وما

كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ وقوله تعالى ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾

ويجوز ان يراد بالضمير في ﴿بينهم﴾ الامة على تقدير انه كذبه بعضهم وصدقه البعض الآخر فيهلك المكذبون وينجو المصدقون، وفي وقت هذا القضاء قولان احدهما انه في الدنيا، والآخر انه في الآخرة، والاول أولى.

﴿وهم لا يظلمون﴾ في ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة، ومنه قوله تعالى ﴿وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم﴾ وقوله ﴿فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد﴾ والمراد المبالغة في اظهار العدل والنصفة بين العباد.

ثم ذكر سبحانه شبهة اخرى من شبه الكفار ﴿و﴾ ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا (يقولون متى هذا الوعد) والاستفهام منهم للانكار والاستبعاد، والقدح في النبوة لا طلباً لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما في سورة الملك فإن المطلوبهناك تعيين الوقت.

﴿ان كنتم صادقين﴾ خطاباً منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا لرسلهم الذين ارسلهم الله اليهم.

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ اي لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضر عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري، وقدم الضر لان السياق لإظهار العجز عن ظهور الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه.

والاستثناء في قوله ﴿إلا ما شاء الله﴾ منقطع كما ذكره ائمة التفسير، وبه قال الزمخشري أي ولكن ما شاء الله من ذلك كان فكيف اقدر على أن أملك لنفسي ضراً أو نفعاً، وقيل متصل تقديره إلا ما شاء الله ان املكه واقدر عليه، والأول أولى.

وفي هذا اعظم واعظ وابلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها الا الله سبحانه، وذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فان هذا مقام رب العالمين الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين رزقهم واحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبي من الانبياء او ملك من الملائكة او صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع.

وحسبك في هذه الآية موعظة فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ الى منزلته لنفسه، فضلاً عن ان يملكه لغيره.

فياعجباً لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه الا الله عز وجل، كيف لا يتيقظون لما وقعوا به من الشرك ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله الا الله، ومدلول قل هو الله احد.

واعجب من هذا اطلاع اهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى بل الى ما هو اشد

منها. فان اولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيي المميت الضار النافع، وانما يجعلون اصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين اليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذي الجلال وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه ومظهر شريعته من اوضار الشرك وادناس الكفر.

ولقد توسل الشيطان اخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً، إنا لله وإنا اليه راجعون.

ثم بين سبحانه ان لكل طائفة حداً محدوداً لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال ﴿لكل أمة﴾ ممن قضى بينهم وبين رسولهم او بين بعضهم لبعض ﴿أجل﴾ اي وقت خاص ومدة مضروبة يحل بهم ما يريده الله سبحانه لهم عند حلوله والاجل يطلق على مدة العمر، وعلى آخر جزء منه، والمراد هنا الثاني كما يؤخذ من التفاسير.

﴿فإذا جاء أجلهم﴾ أي أجل كل أمة، قال ابو السعود: ان جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر، وان اريد به ما امتد من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه اذ هنـاك يتحقق مجيئه بتمامه ﴿فلا يستأخرون﴾ عن ذلك الاجل المعين ﴿ساعة﴾ اي شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ولا يستقدمون﴾ منه، ومثله قوله تعالى ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ والسين زائدة فيهما، والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في أول الاعراف فلا نعيده.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿قل أرأيتم ان اتاكم عذابه﴾ هذا منه سبحانه تزييف لرأي الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف الاول، اي اخبروني عن عذاب الله ان اتاكم اي شيء تستعجلون منه وليس شيء من العذاب يستعجله العاقل، اذ العذاب كله مر المذاق، موجب لنفار الطبع منه.

فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل التلطف بهم، والتنبيه لهم على ان العذاب لا ينبغي ان يستعجل، أو جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب، أي أيُّ شيء شديد تستعجلون منه، أي ما أشد وما أهول ما تستعجلون من العذاب. قاله أبو حيان.

﴿بياتاً﴾ أي وقت بيات، والمراد به الوقت الذي يبيتون فيه وينامون ويغفلون عن التحرز، والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر كالسلام بمعنى التسليم، وكذلك قوله ﴿او نهاراً﴾ اي وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب، والاستفهام في قوله ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ للانكار المتضمن للنهي كما في قوله ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾

ووجه الانكار عليهم في استعجالهم ان العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع فما المقتضى لاستعجالهم له، وضمير منه راجع الى العذاب، وقيل الى الله، والجملة جواب الشرط بحذف الفاء وقيل ان الجواب محذوف.

والمعنى إن أتاكم عذابه تندموا على الاستعجال او تعرفوا الخطأ منكم فيه، وقيل ان الجواب قوله ﴿أثُمَّ اذا ما وقع﴾ ويكون جملة ماذا يستعجل اعتراضاً، والمعنى ان اتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان، والأول أولى.

قال الخفناوي: ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال وهو الاجرام لان من حق المجرم ان يخاف من العذاب على اجرامه وان يهلك فزعاً من مجيئه وان ابطأ فكيف يستعجله.

ودخول الهمزة الاستفهامية في ﴿أَثُمَّ اذا ما وقع آمنتم به﴾ لانكار ايمانهم حيث لا ينفع الايمان وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفظيع ما فعلوه في غير وقته مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع، وهذه الجملة داخلة تحت القول المأمور به، وجيء بكلمة ثم التي للتراخي دلالة على الاستبعاد، وجيء بإذا مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الايمان منهم في غير وقته ليكون في ذلك استجهال لهم.

والمعنى ابعد ما وقع عذاب الله عليكم وحل بكم سخطه وانتقامه آمنتم حين لا ينفعكم هذا الايمان شيئاً ولا يدفع عنكم ضراً، وقيل ان هذه الجملة ليست داخلة تحت القول المأمور به وانها من قول الملائكة استهزاء بهم وازراء عليهم ، والاول اولى، وقيل ثم هنا بفتح الثاء بمعنى هناك والأول أولى.

﴿آلآن﴾ بهمزتين الاولى همزة الاستفهام والثانية همزة ال المعرفة اذا اجتمع هاتان الهمزتان وجب في الثانية احد أمرين: تسهيلها من غير الف بينها وبين الاولى وابدالها مداً بقدر ثلاث ألفات، وقد وقع في القرآن الكريم من هذا القبيل ستة مواضع اثنان في الانعام وهما ﴿آلذكرين﴾ مرتين، وثلاثة في هذه السورة فقط آلآن هنا وفيها سيأتي ولفظ ﴿آلله أذن لكم﴾ وواحد في النمل ﴿آلله خير﴾ فلا يجوز في هذه المواضع الستة تحقيق الهمزتين، بل يجب احد الامرين اللذين قد عرفتهما، قيل هو استئناف بتقدير للقول غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوله لهم، اي قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به ﴿و﴾ الحال انكم ﴿قد كنتم به﴾ اي العذاب ﴿تستعجلون﴾ يعني تكذبون لان استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ويكون المقصود بأمره صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم هذا القول على سبيل التوبيخ لهم والازراء عليهم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)
وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾

﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ انفسهم بالكفر وعدم الايمان ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ اي العذاب الدائم الذي لا ينقطع وهو عطف على ما قدر قبل آلآن، والمراد منه التقريع والتوبيخ لهم يوم القيامة على سبيل الاهانة، اي قيل لهم ان هذا الذي تطلبونه ضرر محض عار عن النفع من كل وجه، والعاقل لا يطلب ذلك، والقائل لهم هذه المقالة قيل هم خزنة جهنم، ولا يبعد ان يكون القائل لذلك هم الانبياء على الخصوص او المؤمنون على العموم.

﴿هل تجزون الا بما كنتم تكسبون﴾ في الحياة الدنيا من الكفر والمعاصي والاعمال والاستفهام للتقرير، والاستثناء مفرغ وكأنه يقال لهم هذا القول عند استغاثتهم من العذاب وحلول النقمة بهم.

ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذا البيانات البالغة والجوابات عن اقوالهم الباطلة انهم استفهموا تارة اخرى عن تحقق العذاب فقال ﴿ويستنبئونك﴾ اي يستخبرونك على جهة الاستهزاء منهم والانكار ﴿أحق هو﴾ اي ما تعدنا به من العذاب في العاجل والآجل، وهذا السؤال منهم جهل محض وظلمات بعضها فوق بعض، فقد تقدم ذكره عنهم مع الجواب عليه، فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل ما يقول ولا ما يقال له.

وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقية القرآن.

﴿قل﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم في جواب استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء، أي قل لهم يا محمد غير ملتفت الى

ما هو مقصودهم من الاستهزاء ﴿إي﴾ أي نعم ﴿وربي انه﴾ أي أن ما أعدكم به من العذاب ﴿لحق﴾ ثابت كائن لا محالة.

وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه (الاول) القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم (الثاني) دخول إن المؤكدة (الثالث) اللام في لحق (الرابع) اسمية الجملة وذلك يدل على انهم قد بلغوا في الانكار والتمرد الى الغاية التي ليس وراءها غاية.

ثم توعدهم بأشد توعد ورهبهم بأعظم ترهيب فقال ﴿وما انتم بمعجزين﴾ أي فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً بل هو مدرككم ولا بد، وهذه الجملة اما معطوفة على جملة جواب القسم او مستأنفة لبيان عدم خلوصهم عن عذاب الله بوجه من الوجوه.

ثم زاد في التأكيد فقال ﴿ولو﴾ امتناعية على ما هو الكثير فيها ﴿أن لكل نفس﴾ من الأنفس المتصفة بأنها ﴿ظلمت﴾ نفسها بالكفر بالله وعدم الايمان به ﴿ما في الارض﴾ من كل شيء من الاشياء التي تشتمل عليها من الاموال النفيسة والذخائر الفائقة ﴿لافتدت به﴾ اي جعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة لاينفعها الفداء ولا يقبل منها، ومثله قوله تعالى ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به﴾

ويجوز ان يكون الافتداء متعدياً وان يكون قاصراً، فاذا كان مطاوعاً لمتعد كان قاصراً، تقول فديته فافتدى وان لم يكن مطاوعاً يكون بمعنى فدى فيتعدى لواحد، والفعل يحتمل الوجهين فان جعلناه متعدياً فمفعوله محذوف تقديره لافتدت به نفسها وهو من المجاز كقوله تعالى ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾.

﴿وأسروا الندامة﴾ الضمير راجع الى الكفار الذين سياق الكلام معهم،

وقيل راجع الى الانفس المدلول عليها بكل نفس وان كان المراد خصوص الرؤساء منهم.

ومعنى اسروا اخفوا، اي لم يظهروا الندامة على ترك الايمان بل اخفوها لما قد شاهدوه في ذلك الموطن مما سلب عقولهم وذهب بتجلدهم، ويمكن انه بقي فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم الى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا فأسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون.

وقيل أسرها الرؤساء فيما بينهم دون اتباعهم خوفاً من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين اضلوهم وحالوا بينهم وبين الاسلام، وقيل معنى أسروا أظهروا لأن أسر من الاضداد ومعنى الاول هو المشهور في اللغة وهو في الآية يحتمل الوجهين؛ وقيل وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم لان الندامة لا يمكن إظهارها.

وذكر المبرد في ذلك وجهين: الاول: انها بدت في وجوهم أسرة الندامة وهي الانكسار واحدها سرار وجمعها أسارير والثاني: ما تقدم وقيل معنى أسروا الندامة اخلصوها لان إخفاءها اخلاصها، قيل انه ماض على بابه قد وقع، وقيل بل هو بمعنى المستقبل.

﴿لما﴾ ظرف بمعنى حين أي حين ﴿رأوا العذاب﴾ اي وقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ومعاينته، واما بعد الدخول فيه فهم الذين قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا.

﴿وقضى بينهم بالقسط﴾ أي العدل مستأنفة وهو الظاهر او معطوفة على رأوا اي قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين او بين الرؤساء او بين الظالمين من الكفار والمظلومين بالعدل، وقيل معنى القضاء بينهم انزال العقوبة عليهم ﴿وهم لا يظلمون﴾ اي لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذي حل بهم فانه بسبب ما كسبوا.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

وجملة ﴿ألا إن لله ما في السموات والارض﴾ مسوقة لتقرير كمال قدرته لأن من ملك ما في السموات والارض يتصرف به كيف يشاء، وغلب غير العقلاء لانهم اكثر المخلوقات، قيل لما ذكر سبحانه افتداء الكفار بما في الارض لو كان لهم ذلك بين ان الاشياء كلها لله وليس لهم شيء يتمكنون من الافتداء به.

وقيل لما أقسم على حقية ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم،أراد ان يصحب من ذلك بدليل البرهان البين،بأن ما في العالم على اختلاف انواعه ملكه يتصرف به كيف يشاء وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه انتباه للغافلين وايقاظ للذاهلين.

ثم أكد ما سبق بقوله ﴿ألا ان وعد الله حق﴾ أي كائن لا محالة وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندارجاً اولياً، وتصدير الجملة بحرف التنبيه كما قلنا في التي قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الجملتين وتقرير ما سلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضار المحافظة عليه ﴿ولكن اكثرهم﴾ اي اكثر الناس يعني الكفار ﴿لا يعلمون﴾ ما فيه صلاحهم فيعملون به وما فيه فسادهم فيجتنبونه لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم.

﴿هو يحيي ويميت﴾ أي يهب الحياة ويسلبها ﴿واليه ترجعون﴾ في الدار الآخرة فيجازي كلًّا بما يستحقه ويتفضل على من يشاء من عباده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿يأيها الناس﴾ قيل أراد قريشاً وقيل هو على العموم وهو الأولى واختاره الطبري وفيه التفات ورجوع الى استمالتهم عقب تحذيرهم من غوائل الضلال وشروع في بيان أدلة الرسالة بعد بيان أدلة التوحيد ﴿قد جاءتكم موعظة﴾ يعني القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه والوعظ في الاصل هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب او الترهيب، والواعظ هو كالطبيب، ينهى المريض عما يضره وقيل الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب.

﴿من ربكم﴾ من لابتداء الغاية وهو مجاز، او للتبعيض اي موعظة كائنة من مواعظ ربكم ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين لوجود ما يستفاد منه فيه من العقائد الحقة، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة.

عن ابي سعيد الخدري قال: جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: اني اشتكي صدري، فقال: اقرأ القرآن، يقول الله: ﴿شفاء لما في الصدور﴾ اخرجه ابن المنذر وابن مردويه.

واخرج البيهقي في شعب الايمان عن واثلة بن الاسقع ان رجلاً شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم وجع حلقه قال: «عليك بقراءة القرآن والعسل فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء» والشفاء في الاصل مصدر جعل وصفاً مبالغة او هو اسم لما يشفى به اي يتداوى فهو كالدواء لما

يداوى به، وانما خص الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الانسان لمكان القلب فيه، وداء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن، والقرآن مزيل لأمراض القلب كلها.

﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ بانجائهم من الضلال، نزل بالعطف تغاير الصفات منزلة تغاير الذات، والهدى والارشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه الى الطريق الموصلة الى الجنة، والرحمة هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الامور التي يرحم بها عباده فيطلبها من اراد ذلك حتى ينالها فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الامور جامع لهذه الاشياء كلها.

قال الكرخي: والحاصل ان الموعظة اشارة الى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة، والشفاء اشارة الى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة، والهدى اشارة الى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة، والرحمة اشارة الى كونها بالغة في الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين، وهي النبوة فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الالفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره إ ـ هـ.

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم، وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم فقال ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر والرحمة رحمة لهم، وروي عن ابن عباس انه قال: فضل الله القرآن، ورحمته الاسلام؛ وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة ان فضل الله الايمان ورحمته القرآن.

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله وسلم: فضل الله القرآن ورحمته: أن جعلكم من أهله. رواه ابو الشيخ وابن مردويه، وقد روي عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة، والاولى حمل الفضل والرحمة على العموم، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً اولياً.

وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة

سبب مستقل في الفرح، وأصل الكلام قل بفضل الله وبرحمته فيفرحوا ثم حذف هذا الفعل لدلالة الثاني عليه في قوله ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ وقيل ان فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح وهو اللذة في القلب بسبب ادراك المطلوب وتقديم الظرف على الفعل لإفادة الحصر والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا وفي هاتين الفائين اوجه ذكرها في الجمل.

وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله ﴿لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين﴾ وجوَّزه في قوله ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وكما في هذه الآية وقيل التقدير جاءتكم موعظة بفضل الله ورحمته فبذلك أي فبمجيئهما فليفرحوا ﴿هو خير﴾ اي ان هذا خير لهم ﴿مما يجمعون﴾ من حطام الدنيا ولذاتها الفانية قرىء بالياء والتاء وهما سبعيتان.

ثم اشار سبحانه بقوله ﴿قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ الى طريق اخرى غير ما تقدم في اثبات النبوة وتقرير ذلك ما حاصله انكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم، وان كان لاعتقادكم انه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة الى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين ارسلهم الله الى عباده.

والمعنى اخبروني الذي انزل الله اليكم من رزق اي زرع وضرع وغيرهما فجعلتم بعضه حراماً كالبحيرة والسائبة وبعضه حلالاً كالميتة وذلك كما كانوا يفعلونه في الانعام والحرث حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في سورة الانعام من الكتاب العزيز، وقيل ما استفهامية، واليه ذهب الحوفي والزمخشري والظاهر انها موصولة كما تقدم لان فيه ابقاء أرأيت على بابها، ومعنى انزال الرزق كون المطر ينزل من جهة العلو.

وقال الزجاج: انزل بمعنى خلق كما قال ﴿وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وانزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ ﴿قل آلله أذِنَ لكم﴾ في هذا التحليل والتحريم والهمزة للانكار ﴿أم على الله تفترون﴾ ام منقطعة بمعنى بل كما في الكشاف، والظاهر انها متصلة كما قال السفاقسي: أي آلله اذن لكم ام تكذبون عليه في نسبة الاذن اليه.

قال الكرخي: وكفى به زاجراً لمن افتى بغير اتقان كبعض فقهاء هذا الزمان اهـ.واظهارالاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء.

قلت وفي هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدرين للافتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم وجعلوه شارعاً مستقلاً، ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم وما لم يبلغه او بلغه ولم يفهمه حق فهمه واخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه فهو في حكم المنسوخ عندهم، المرفوع حكمه عن العباد، مع كون من قلدوه متعبداً بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكوماً عليه بأحكامها كما هم محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه وفاز بأجرين مع الاصابة وأجر مع الخطأ، انما الشأن في جعلهم لرأيه الذي اخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلاً معمولاً به.

وقد أخطأوا في هذا خطأً بيّناً وغلطوا غلطاً فاحشاً فان الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه وحده، ولا قائل من أهل الاسلام المعتد بأقوالهم انه يجوز لغيره ان يعمل به تقليداً له واقتداء به، وما جاء به المقلدة في تقويمهذا الباطل فهو من الجهل العاطل، اللهم كما رزقتنا من العلم ما نميز به الحق والباطل فارزقنا من الانصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك ياواهب الخير.

قال النسفي: الآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الاحكام وباعثة على وجـوب الاحتياط فيه وان لا يقول احد في شيء جائز او غير جائز إلا بعد ايقان واتقان وإلا فهو مفتر على الديّان .

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

ثم قال ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي أيُّ شيء ظنهم في هذا اليوم وما يصنع بهم فيه، اي لا ينبغي هذا الحسبان ولا صحة له بوجه من الوجوه، وهذه الجملة الاستفهامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لهم غير داخلة تحت القول الذي امر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله لهم بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحل بهم من عذاب الله، وذكر الكذب بعد الافتراء مع ان الافتراء لا يكون إلا كذباً لزيادة التأكيد.

﴿ان الله لذو فضل على الناس﴾ يتفضل عليهم بأنواع النعيم في الدنيا والآخرة ومنه بعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام وابقاء الكتاب والسنة الى آخر الدهر والزمان ﴿ولكن اكثرهم لا يشكرون﴾ الله على نعمه الواصلة اليهم منه سبحانه في كل وقت من الاوقات وطرفة من الطرفات، ولا يصرفون مشاعرهم الى ما خلقت له.

﴿وما تكون في شأن﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما نافية والشأن الأمر بمعنى القصد وجمعه شئون، قال الاخفش: تقول العرب ما شأنت شأنه اي ما عملت عمله، وما قصدت قصده فهو مصدر بمعنى المفعول.

﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ قال الفراء والزجاج: الضمير يعود على الشأن والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف اي تلاوة كائنة منه، اذ التلاوة للقرآن من اعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم، والمعنى انه يتلو من اجل الشأن الذي حدث القرآن فيعلم كيف حكمه او يتلو القرآن الذي ينزل في ذلك الشأن، وقال ابن

جرير الطبري: الضمير في منه عائد الى الكتاب اي ما يكون من كتاب الله من قرآن واعاده تفخيماً له كقوله ﴿إني أنا الله﴾ وقيل ما تتلو من الله من قرآن نازل عليك، فمن الثانية زائدة والاولى إما تعليلية او ابتدائية بحسب الـوجهين المتقدمين .

والخطاب في ﴿ولا تعملون من عمل﴾ لـرسول الله ولـلأمة، وقيـل الخطاب لكفار قريش ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال للمخاطبين بالأفعال الثلاثة أي ما تلابسون بشيء منها في حال من الأحوال الا في حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له، يقال شهدت على الشيء اطلعت عليه فأنا شاهد وشهيد، والجمع اشهاد وشهود.

والضمير في ﴿اذ تفيضون فيه﴾ عائد الى العمل يقال أفاض فلان في الحديث والعمل اذا اندفع فيه، وقال الضحاك الضمير في ﴿فيه﴾ عائد الى القرآن والمعنى اذ تشيعون في القرآن الكذب ، والافاضة الدخول في العمل على جهة الانتصاب اليه والانبساط فيه.

قال ابن الأنباري: اذ تدفعون فيه وتبسطون في ذكره، وقيل الافاضة الدفع بكثرة، وقال الزجاج: تنشرون فيه، وقيل تخوضون فيه، وقيل تأخذون اي تشرعون فيه والمعاني متقاربة .

﴿ومـا يعزب﴾ أي يغيب ويخفى، وقيـل يبعد، وقـال ابن كيسـان: يذهب، وهذه المعاني متقاربة، قرىء بضم الزاي وبكسرها سبعيتان وهما لغتان فصيحتان ﴿عن ربك﴾ أي عن علمه، ومن في ﴿من مثقال ذرة﴾ زائـدة للتأكيد أي وزن ذرة أي نملة حمراء وهي خفيفة الوزن جداً ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ أي في دائرة الوجود والامكان، وإنما عبر عنها بهما مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات؛ وقدم الأرض على السماء لأنها محل استقرار العالم، فهم يشاهدون ما فيها من قرب.

﴿ولا أصغر من ذلك﴾ أي من مثقال ذرة كلام برأسه مقرر لما قبله، ولا نافية للجنس ﴿ولا أكبر﴾ منها ﴿الا﴾ وهو ﴿في كتاب مبين﴾ فكيف يغيب عنه وهو الكتاب الذي عند الله، يعني اللوح المحفوظ، قاله السدي. وقد أورد على توجيه للنصب والرفع في أصغر وأكبر على العطف على لفظ مثقال ومحله أو على لفظ ذرة اشكال، وهو انه يصير تقدير الآية لا يعزب عنه شيء في الارض ولا في السماء إلا في كتاب، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجاً عن علم الله وهو محال.

وقد أجيب عن هذا الاشكال بأن الاشياء المخلوقة قسمان: قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض، وقسم آخر أوجده بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني متباعد في السلسلة العلية عن مرتبة الأول.

فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء الا وهو في كتاب مبين أثبت فيه صورة تلك المعلومات، والغرض الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات.

وأجيب أيضاً بأن الاستثناء منقطع أي لكن هو في كتاب مبين، وذكر أبو علي الجرجاني أن إلا بمعنى الواو أي وهو أيضا في كتاب مبين، والعرب قد تضع إلا موضع الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿إني لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم﴾ يعني ومن ظلم، وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا﴾ أي والذين ظلموا، وقدر هو بعد الواو التي جاءت إلا بمعناها كما في قوله ﴿وقولوا حطة﴾ أي هي حطة.

قال الكرخي: وهذا الوجه فيه تعسف، ومثله قوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

وجوّز الكواشي كونه متصلاً مستثنى من «يعزب» على أن معناه يبين

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ
لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

ويصدر، والمعنى لا يصدر عن الله شيء بعد خلقه له الا وهو في كتاب؛ وقال الكلبي: قد حاول الرازي جعله متصلاً بعبارة طويلة محصلها أنه جعله استثناء مفرغاً وهو حال من أصغر وأكبر، وهو في قوة المتصل، ولا يقال فيه متصل ولا منقطع.

ثم لما بين سبحانه احاطته بجميع الأشياء وكان في ذلك تقوية لقلوب المطيعين وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين فقال: ﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم﴾ الولي في اللغة ضد العدو فهو المحب، ومحبة العباد لله طاعتهم له، ومحبته لهم اكرامه إياهم، وعلى الأول يكون فعيل بمعنى فاعل، وعلى الثاني بمعنى مفعول فهو مشترك بينهما، وتركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب، فولي كل شيء هو الذي يكون قريباً منه.

والمراد بالأولياء خُلَّص المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته، والمراد بنفي الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم، لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظن بربهم.

وكذلك ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوت مطلب من المطالب لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر، فصدورهم منشرحة وجوارحهم نشطة وقلوبهم مسرورة.

وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي يؤمنون بما يجب الايمان به، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه قال أبو السعود: والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك التي يفيدها الايمان أيضاً، ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك، أعني تنزه الانسان عن كل ما يشغل سره عن الحق، والتبتل اليه بالكلية وهي التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذي عليه يدور إطلاق الاسم عليه فملاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون.

وعن سعيد بن جبير قال: هم الذين إذا رُؤوا ذكر الله. وعن ابن عباس قال: إذا رُؤوا يذكر الله لرؤيتهم. وقال أبو حنيفة والشافعي: اذا لم تكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي، قال النووي: وذلك في العالم العامل بعلمه.

وقد أكثر أهل العلم من المتكلمين والصوفية وغيرهم في تعريف الولي ووصفه وأطالوا المقالات في ذلك بما لا حاجة اليه، وهذه الآية تغني عنها، فإنه اذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

والحاصل أن ولي الله من كان آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، وبالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به السنة المطهرة، لأن الايمان مبني على العقيدة والعمل، ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه.

وعن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحق العبد حق صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض

لله فقد استحق الولاية من الله وأن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري واذكر بذكرهم»[١] أخرجه أحمد وغيره.

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم «خيار عباد الله الذين اذا رُؤوا ذكر الله، وشرار عباده المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون البراء العنت»[٢].

وعن ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خياركم من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه ورغبكم في الآخرة عمله»[٣] أخرجه الحكيم الترمذي، وعن ابن عمر مرفوعاً: ان لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه، فجثى اعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله صفهم لنا، جلهم لنا، قال قوم من أفناء الناس من نزاع القبائل تصافوا في الله وتحابوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٤] أخرجه الحاكم وصححه.

وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن عمر ابن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه، قال ابن كثير:[٥] واسناده جيد، وروي بطريق عن جماعة من الصحابة، وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية.

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ تفسير لمعنى كونهم أولياء الله

(١) الإمام احمد ٣/ ٤٣٠.
(٢) الإمام احمد ٦/ ٤٥٩.
(٣) ضعيف الجامع الصغير ٢٨٧٣.
(٤) المستدرك كتاب البر والصلة ٤/ ١٧٠
(٥) ابن كثير ٢/ ٤٢٢.

أي لهم البشرى من الله ما داموا في الحياة بما يوحيه الى أنبيائه وينزله في كتبه من كون حال المؤمنين عنده هو ادخالهم الجنة ورضوانه عنهم كما وقع كثير من البشارات للمؤمنين في القرآن الكريم.

وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة وما يتفضل الله به عليهم من اجابة دعائهم، وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتنزل الملائكة عليهم قائلين لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة. قاله الزهري وقتادة.

وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب، والبشرى مصدر أريد به المبشر به، والمراد حال كونهم في الدنيا وحال كونهم في الآخرة.

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن معنى قوله: ﴿لهم البشرى﴾ فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت عليَّ، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له فهي بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة الجنة» وفي اسناده هذا الرجل المجهول. وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً مثله عند أحمد والدارمي والترمذي وابن ماجة. وأخرج أحمد والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً قال: الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها»[1] الحديث، وفي الباب أحاديث وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات، وأنها جزء من أجزاء النبوة ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية.

---

(١) الإمام احمد ٢/٢١٩.

وقد روي عن ابن عباس أن المراد بالبشرى في الآية هي قوله: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ وعنه انها قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ وقيل البشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة.

وعن أبي ذر قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، قال: تلك عاجل بشرى المؤمن»[1] أخرجه مسلم، قال أهل العلم وهي دليل للبشرى المؤخرة في الآخرة، وهذه البشرى المعجلة دليل على رضاء الله عنه؛ وقيل غير ذلك واللفظ أوسع من ذلك.

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا خلف لمواعيده على العموم فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين دخولاً أولياً ﴿ذلك﴾ أي المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين في الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا يقادر قدره ولا يماثله غيره، والجملتان اعتراض في آخر الكلام عند من يجوزه وفائدتها تحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، والأولى اعتراضية والثانية تذييلية.

(١) مسلم ٢٦٤٢.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ولا يحزنك قولهم﴾ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح في دينه، والمقصود تسلية له صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة، وتبشير له بأنه تعالى ينصره.

ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معللاً لما ذكره من النهي فقال: ﴿إن العزة لله جميعاً﴾ أي الغلبة والقدرة والقهر له في مملكته وسلطانه، ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئاً، ولا ينافي هذا ما في سورة المنافقين ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ لأن كل عزة بالله فهي كلها لله حقيقة لكن قد يظهرها على يد رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أيدي المؤمنين تكريماً وتعظيماً لهم؛ ومنه قوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إنّا لننصر رسلنا﴾ ﴿هو السميع﴾ لما يقولون ﴿العليم﴾ بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك.

﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض﴾ ومن جملتهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم، وإذا كانوا في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يأذن الله به، و﴿ألا﴾ كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد فيهما إلا لله عز وجل فهو يملك ما فيهما.

وقال في الآية الاولى ﴿ما﴾ وفي هذه ﴿من﴾ فمجموعهما دل على ان الله يملك جميع كل شيء فيهما من العقلاء وغيرهم، أو غلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف: وفي الآية نعي على عباد البشر والملائكة، والجمادات لأنهم عبدوا المملوك وتركوا المالك وذلك مخالف لما يوجبه العقل، ولهذا عقبه بقوله:

﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ ما نافية وشركاء مفعول يتبع وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفاً، والاصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة إنما هي أسماء لا مسميات لها، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور عليه، يعني أنهم وان سموا معبوداتهم شركاء لله فليس شركاء له على الحقيقة لان ذلك محال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

وقيل ما استفهامية أي أيُّ شيء يتبع الذين يدعون؛ وعلى هذا شركاء منصوب بيدعون والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والازراء عليهم.

وقيل موصولة، والمعنى ان الله مالك لمعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الارض.

ثم زاد سبحانه في تأكيد الرد عليهم والدفع لاقوالهم فقال: ﴿ان يتبعون الا الظن﴾ أي ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظناً ويظنون انهم آلهة تشفع لهم، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴿وان هم إلا يخرصون﴾ أصل معنى الخرص الحزر بتقديم الزاي على الراء أي التخمين والتقدير، ويستعمل بمعنى الكذب لغلبته في مثله، والاسم الخرص بالكسر أي يقدرون انهم شركاء تقديراً باطلاً وكذباً بحتاً وقد تقدمت هذه الآية في الانعام.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾

ثم ذكر سبحانه طرقاً من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال: ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ الجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصراً حال، وان كان بمعنى التصيير فهو المفعول الثاني أي جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين أحدهما مظلم وهو الليل لأجل أن يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب، والآخر مبصر لأجل ان يسعوا فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معايشهم ويحصلون ما يحتاجون اليه في وقت مضيء منير لا يخفى عليهم كبير ولا حقير، وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجاز.

والمعنى أنه مبصر صاحبه كقولهم نهاره صائم وقال قطرب: تقول العرب أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء، وفي الكلام شبه احتباك حيث حذف من كل ما أثبته أو مقابله في الآخر فحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه، وهذا أفصح الكلام.

﴿ان في ذلك﴾ الجعل المذكور ﴿لآيات﴾ عجيبة كثيرة ﴿لقوم يسمعون﴾ ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات التكوينية مما ذكره الله سبحانه ههنا منها ومن غيرها مما لم يذكره فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون ويعلمون ان الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله المتفرد بالوحدانية في الوجود فيكون ذلك من أعظم أسباب الايمان.

﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين أو أهل الكتاب التي كانوا يتكلمون بها وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ وتبنى ولداً فرد ذلك عليهم بقوله: ﴿سبحانه﴾ فتنزه جل وعلا عما نسبوه اليه من هذا الباطل البين وكلمتهم الحمقاء، وبين أنه ﴿هو الغني﴾ عن ذلك، وان الولد انما يطلب لأجل الحاجة، والغنى المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها، واذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وأيضاً إنما يحتاج الى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، والازلي القديم لا يفتقر إلى ذلك، وقد تقدم تفسير الآية في البقرة.

ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان فقال: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ وإذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداً له للمنافاة بين الملك والبنوة والأبوة.

ثم زيف دعواهم الباطلة وبين انها بلا دليل فقال ﴿إن﴾ أي ما ﴿عندكم من سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿بهذا﴾ القول الذي تقولونه ومن زائدة للتأكيد؛ ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ استفهام توبيخ ويستفاد من هذا ان كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء بل من الجهل المحض.

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقول لهم قولاً يدل على أن ما قالوه كذب، وان من كذب على الله لا يفلح فقال: ﴿قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي كل مفتر هذا شأنه ويدخل فيه قائل هذا القول دخولاً أولياً؛ وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز والمعنى أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب، ولا يسعدون وان اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة

مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

ثم بين سبحانه ان هذا الافتراء وان فاز صاحبه بشيء من المطالب العاجلة فهو ﴿متاع﴾ قليل ﴿في الدنيا﴾ ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله، فيعذب المفتري عذاباً مؤبداً، والجملة مستأنفة لبيان ان ما يحصل للمفتري بافترائه وما يتراءى فيه بحسب الظاهر من نيل المطالب والحظوظ الدنيوية بمعزل أن يكون من جنس الفلاح وليس بفائدة يعتد بها، بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه الموت والعذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جملتها الكذب على الله، وليس بنافع في الآخرة، وقال الأخفش: ان التقدير لهم متاع في الدنيا، وقال الكسائي: ذلك متاع أو هو متاع.

﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ بعد الموت ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما﴾ أي بسبب ما ﴿كانوا يكفرون﴾ أي يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله.

ولما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبه المنهارة شرع في ذكر قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم، لما في ذلك من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأسوة بمن سلف من الانبياء، ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكاً وأعظمهم كفراً وجحوداً ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال:

﴿واتل عليهم﴾ أي على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة ﴿نبأ نوح﴾ أي خبره، والنبأ هو الخبر الذي له خطر وشأن؛

والمراد بعض ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم.

﴿اذ﴾ أي وقت ان ﴿قال لقومه﴾ اللام لام التبليغ ﴿يا قوم ان كان كبر﴾ أي عظم وثقل ﴿عليكم مقامي﴾ من باب الاسناد المجازي كقولهم ثقل عليّ ظله، والمقام بفتح الميم الموضع الذي يقام فيه، وبالضم مكان الاقامة أو الاقامة نفسها، وقد اتفق القراء هنا على الفتح.

وقرأ أبو رجاء وأبو مجلز وابن الجوزي بالضم، قال ابن عطية: ولم يقرأ هنا بالضم، وكأنه لم يطلع على قراءة هؤلاء، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان أي لأجله، ومنه ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ أي خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام المكث أي شق عليكم مكثي بين أظهركم لانه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ويجوز أن يراد بالمقام القيام لان الواعظ يقوم حال وعظه.

والمعنى إن كان كبر عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم ﴿و﴾ كبر عليكم ﴿تذكيري﴾ لكم ﴿بآيات الله﴾ التكوينية والتنزيلية ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي دمت على تخصيص التوكل به تعالى، وهذه الجملة جواب الشرط، والمعنى اني لا أقابل ذلك منكم الا بالتوكل على الله، فان ذلك دأبي الذي انا عليه قديماً وحديثاً، ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل، ويجوز أن يكرن جواب الشرط فأجمعوا كما يأتي، قاله الاكثرون، والجملة اعتراض كقولك ان كنت أنكرت عليّ شيئاً فالله حسبي وثقتي.

وقيل ﴿فأجمعوا أمركم﴾ عطف على الجواب، وجزم السفاقسي بأن جوابه محذوف أي فافعلوا ما شئتم، والمعنى اعزموا عليه، من أجمع الأمر اذا نواه وعزم عليه قاله الفراء، وروي عنه أجمع الشيء أعده وقال مؤرج السدوسي: أجمع الامر أفصح من أجمع عليه، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً، وتفرقه أن يقول مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه أي جعله جميعاً.

فهذا هو الأصل في الاجماع ثم صار بمعنى العزم والتصميم، يقال أجمع في المعاني وجمع في الأعيان وقد يستعمل كل واحد مكان الآخر، وفي التنزيل ﴿فجمع كيده﴾ قال ابن الانباري: المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعو من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه.

﴿وشركاءكم﴾ أي ادعوهم لنصرتكم، قاله الكسائي والفراء، وقال الزجاج والفارسي: والمعنى مع شركائكم، ولم يذكر الزمخشري غير هذا، وقيل أجمعوا شركاءكم، وفي مصحف أُبَي: وادعوا شركاءكم، قال النحاس وغيره: وقراءة الرفع بعيدة، وقال المهدوي: يجوز رفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف أي وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم، ونسبة ذلك الى الشركاء مع كون الاصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتقريع لمن عبدها.

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي خفياً، والغمة التغطية من قولهم غم الهلال إذا استتر أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً قاله الزجاج، وقال الهيثم: معناه لا يكن أمركم مبهماً، وقيل ان الغمة ضيق الامر، كذا روي عن أبي عبيدة.

والمعنى لا يكن أمركم عليكم بمصاحبتي والمجاملة لي ضيقاً شديداً بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شئتم وقدرتم عليه، وعلى الوجهين الأولين يكون المراد بالامر الثاني هو الامر الاول، وعلى الثالث يكون المراد غيره، وانما نسب عدم الستر الذي هو عدم الغمة إلى الأمر مبالغة.

﴿ثم اقضوا إليّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدونه بي؛ وأصل اقضوا من القضاء وهو الاحكام، والمعنى احكموا ذلك الأمر.

قال الأخفش والكسائي: هو مثل «وقضينا اليه ذلك الأمر» أي أنهيناه اليه وأبلغناه إياه. وقيل معناه ثم امضوا إليّ، قال النحاس: هذا قول صحيح في اللغة ومنه قضى الميت مضى. وعن بعض القراء ثم افضوا بالفاء أي توجهوا ﴿ولا تنظرون﴾ أي ثم لا تمهلوني ولا تؤخروني، بل عجلوا أمركم ونفذوا واصنعوا ما بدا لكم.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعده به قومه، ثم بين لهم أن كل ما أتى به اليهم من الأعذار والانذار وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوي ولا لغرض خسيس فقال ﴿فإن توليتم﴾ أي إن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم وتذكيري إياكم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

﴿فما سألتكم﴾ في مقابلة ذلك عليه ﴿من أجر﴾ تؤدونه إليّ حتى تتهموني فيما جئت به والفاء جزائية ﴿ان أجري﴾ أي ما ثوابي في النصح والتذكير ﴿إلا على الله﴾ سبحانه فهو يثيبني آمنتم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ المنقادين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه لا يأخذون عليها أجراً ولا يطمعون في عاجل أو من المستسلمين لكل ما يصعب من البلاء. ﴿فكذبوه﴾ أي استمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك. وليس المراد أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن.

﴿فنجيناه﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ومن معه﴾ أي من قد أجابه وصار على دينه، وكانوا ثمانين: أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿في الفلك﴾ أي السفينة، والمفرد على وزن قفل والجمع على وزن أسد والمراد هنا المفرد.

﴿وجعلناهم﴾ أي الذين نجاهم معه في الفلك حملاً على معنى من ﴿خلائف﴾ جمع خليفة، والمعنى انه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض

التي كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها ﴿وأغرقنا﴾ بالطوفان ﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾ من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به، تأخيره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً﴾ الآية لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التي هي من مقتضيات الربوبية على الغضب الذي هو من مستتبعات جرائم المجرمين ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ من إهلاكهم، فكذلك نفعل بمن كذبك، فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين وتهويل عليهم..

﴿ثم بعثنا من بعده﴾ أي من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل، وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب ﴿فجاؤوهم بالبينات﴾ أي بالمعجزات الباهرات والدلالات الواضحات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها لقوم كل نبي ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ أي فما أحدثوا الايمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه.

والمعنى أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله اليهم رسله أن يؤمنوا في وقت من الأوقات ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ أي من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل اليهم، والمعنى أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل الله اليهم الرسول المبعوث اليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه اليهم، لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين، ولو كانوا مؤمنين لم يبعث اليهم رسولاً، وهذا مبني على أن الضمير في ﴿كانوا وكذبوا﴾ راجع إلى القوم المذكورين في قوله ﴿الى قومهم﴾ وقيل ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح، أي فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح، وقيل المعنى بما كذبوا به من قبل أي في عالم الذر.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الطبع العظيم المحكم ﴿نطبع﴾ بنون العظمة، وقرىء بالياء على أن الضمير لله ﴿على قلوب المعتدين﴾ أي المتجاوزين للحدود

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾

المعهودة في الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغي والضلال، وقد تقدم تفسير هذا في غير موضع.

﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي بعد الرسل المتقدم ذكرهم وخص ﴿موسى وهرون﴾ بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ما جرى بينهما وبين فرعون ﴿الى فرعون وملئه﴾ المراد بالملأ الأشراف، هكذا قرره بعض المفسرين؛ وقرر بعضهم أن المراد بالملأ هنا مطلق القوم من استعمال الخاص في العام وهو ظاهر صنيع السيوطي في الجلالين.

﴿بآياتنا﴾ أي مصحوبين بالمعجزات وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها ولم يتواضعوا لها ولم يذعنوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق من جاء بها، والاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق، والفاء فصيحة، وقيل عن الايمان بموسى وهرون، والأول أولى. ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي كانوا ذوي اجرام عظام وآثام كبيرة، فبسبب ذلك اجترؤوا على ردها لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وابصار الصواب، قيل وهذه الجملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.

﴿فلما جاءهم﴾ أي فرعون وملأه ﴿الحق﴾ أي المعجزات التسع ﴿من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ أي لم يؤمنوا بها، بل حملوها على السحر مكابرة منهم.

قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿قال موسى﴾ أي جملاً ثلاثاً: الأولى ﴿أتقولون للحق لما جاءكم﴾ قيل في الكلام حذف والتقدير أتقولون للحق سحر، فلا تقولوا ذلك.

ثم استأنف انكاراً آخر من جهة نفسه فقال: ﴿أسحر هذا﴾ وهي الثانية والملجىء الى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله أسحر هذا بل هم قوم قاطعون بأنه سحر لأنهم قالوا ان هذا الا سحر مبين، فحينئذ لا يكون قوله ﴿أسحر هذا﴾ من قولهم. وقال الأخفش: هو قولهم، وفيه نظر لما قدمنا.

وقيل معنى أتقولون أتعيبون الحق وتطعنون فيه وكان عليكم أن تذعنوا له ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ منكراً لما قالوه؛ والاستفهام للتقريع والتوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة، والمعنى أتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين، وهو أبعد شيء من السحر.

ثم أنكر عليهم وقرعهم ووبخهم فقال: ﴿أسحر هذا﴾ فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد انكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل. والثالثة ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ أي والحال كذا فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه، فكيف يقع في هذا من هو مرسل من عند الله، وقد أيده بالمعجزات والبراهين الواضحة، وحاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبداً.

﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾ مستأنفة، قال مجاهد:

لتلوينا وتصرفنا، وقال السدي: لتصدنا عن آلهتنا، وفي هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجؤوا إلى ما يلجأ اليه أهل الجهل والبلادة، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا انها ستذهب عنهم إن آمنوا.

وكم بقي على الباطل وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر، ومنهم من حبسه عن الخروج الى السنة من البدعة والى الرواية الصحيحة من الرأي البحت. قال أبو السعود: استئناف بياني مسوق لبيان انه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه صلى الله عليه وسلم فضلاً عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد الذي هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل عاند لدود. انتهى.

واللفت والفتل أخوان وكلاهما من باب ضرب، يقال لفته لفتاً اذا صرفه عن الشيء ولواه عنه، وفي السمين: اللفت الليّ والصرف، يقال لفته عن رأيه اذا صرفه، ولواه عنه الى ذات اليمين أو الشمال.

وقال الأزهري: لفت الشيء وفتله لواه وهذا من المقلوب.

قلت ولا يدعي فيه قلب حتى يرجح أحد اللفظين في الاستعمال على الآخر. أي تريد أن تصرفنا عن الشيء الذي وجدنا عليه آباءنا وهو عبادة الأصنام.

﴿وتكون لكما﴾ أي لموسى وهرون ﴿الكبرياء﴾ مصدر على وزن فعلياء ومعناها العظمة والملك والسلطان ﴿في الأرض﴾ أي مصر، وفيه خمسة أوجه جوزها أبو البقاء.

«أحدها» أن يكون متعلقاً بنفس الكبرياء «الثاني» أن يتعلق بنفس تكون «الثالث» أن يتعلق بالاستقرار في لكما لوقوعه خبراً «الرابع» أن يكون حالاً من الكبرياء «الخامس» أن يكون حالاً من الضمير في لكما لتحمله اياه.

قال الزجاج: سمي الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمور الدنيا، وقيل سمي بذلك لان الملك يتكبر، والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للآباء والحرص على الرياسة الدنيوية، لانهم اذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته اليه، ولم يبق للملك رياسة تامة لان التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات.

ثم قالوا ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ تصريحاً منهم بالتكذيب وقطعاً للطمع في ايمانهم، وقد أفردوا الخطاب لموسى في قولهم اجئتنا لتلفتنا ثم جمعوا بينه وبين هرون في الخطابين الاخيرين، ووجه ذلك انهم أسندوا المجيء والصرف عن طريق آبائهم الى موسى لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم، وجمعوا بينهما في الضميرين الآخرين لان الكبرياء شامل لهما في زعمهم، ولكن ترك الايمان بموسى يستلزم ترك الايمان بهرون، وقد مرت القصة في الاعراف.

﴿وقال فرعون﴾ لما رأى اليد البيضاء والعصا ﴿ائتوني بكل ساحر عليم﴾ لانه اعتقد أنهما من السحرة فأمر قومه بأن يأتوا بكل ساحر، أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر أن ما أتى به موسى سحر، وقد تقدم الكلام على هذا في الاعراف، وقرىء «سحّار» على صيغة المبالغة أي كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه.

﴿فلما جاء السحرة﴾ في الكلام حذف أي فأتوا بهم اليه، فلما جاء السحرة ﴿قال لهم موسى﴾ بعد أن قالوا له اما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي اطرحوا على الارض ما معكم من حبالكم وعصيكم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد زاهق.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوه من ذلك الحبال والعصى ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى ما جئتم به﴾ ما موصولة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبره، والمعنى انه سحر لا انه آية من آيات الله كما سماه فرعون وقومه أو هو من جنس السحر، يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال: ما جئتم به مما لا ينبغي أن يجاء به، وقرىء السحر على الاستفهام فما استفهامية أي شيء جئتم به أهو السحر الذي يعرف حاله كل أحد، ولا يتصدى له عاقل، وقرىء ما جئتم به سحر، وقرىء ما أتيتم به سحر، ودلالتهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهر، وأجاز الفراء وغيره نصب السحر بجئتم وما شرطية والجزاء:

﴿ان الله سيبطله﴾ على تقدير الفاء أي سيمحقه بالكلية ويهلكه فيصير باطلاً بما يظهره على يديَّ من الآيات والمعجزة فلا يبقى له أثر والسين للتأكيد: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أي عمل هذا الجنس فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحر والسحرة دخولاً أولياً، والجملة تعليل لما قبلها أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم.

﴿ويحق الله الحق﴾ أي يبينه ويوضحه ﴿بكلماته﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين أو بوعده الصادق لموسى انه يظهره أو بما سبق من قضائه وقدره لموسى انه يغلب السحرة، أو بأوامره وأحكامه، والأول أولى.

﴿ولو كره المجرمون﴾ من آل فرعون أو المجرمون على العموم ويدخل تحتهم آل فرعون دخولاً أوليا والاجرام الآثام.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾

﴿فما آمن لموسى الا ذرية﴾ اسم يقع على القليل من القوم، وقيل المراد به التصغير وقلة العدد ﴿من قومه﴾ أي من قوم موسى، وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل، وقيل المراد طائفة من ذراري فرعون فيكون الضمير عائداً على فرعون. قيل ومنهم مؤمن آل فرعون وامرأته وماشطة ابنته وامرأة خازنه. وقيل هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل.

روي هذا عن الفراء، كما يقال لأولاد فارس الذين نقلوا الى اليمن الابناء لأن أمهاتهم من غير جنس الآباء.

﴿على﴾ أي مع ﴿خوف من فرعون وملئهم﴾ الضمير لفرعون وجمع لأنه لما كان جباراً جمعوا ضميره تعظيماً له.

وقيل ان قوم فرعون سموا فرعون مثل ثمود فرجع الضمير اليهم بهذا الاعتبار، وقيل انه عائد على مضاف محذوف أي على خوف من آل فرعون روي هذا عن الفراء ومنعه الخليل وسيبويه، وروي عن الأخفش ان الضمير يعود على الذرية وقواه النحاس.

﴿أن يفتنهم﴾ أي يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذي كان ينزله بهم وهو بدل اشتمال أو مفعول للمصدر أو مفعول له بعد حذف اللام والضمير عائد لفرعون وأفرد، ولم يقل ان يفتنوهم أي فرعون والملأ للدلالة على ان الخوف من الملأ كان بسبب فرعون وتجبره من حيث استعانتهم به.

﴿وان فرعون لعال في الارض﴾ أي عات متكبر متغلب على أرض مصر اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق ﴿وانه لمن المسرفين﴾ المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات أو لانه كان عبداً فادعى الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وقال موسى يا قوم﴾ تطميناً لقلوبهم وازالة للخوف عنهم، وسماهم قومه من حيث ايمانهم به والا فهم من قوم فرعون أو المراد به بنو إسرائيل أو مطلق من آمن به ولو من القبط ﴿ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين﴾ قيل ان هذا من باب التكرير للشرط فشرط في التوكل على الله الايمان به والاسلام أي الاستسلام لقضائه وقدره، وبه قال الكرخي.

وقيل ان هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالايمان هو وجوب التوكل والمشروط بالاسلام حصوله ووجوده فإنه لا يوجد مع التخليط، والمعنى أن يسلموا أنفسهم لله أي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط، قال الكازروني: المعنى ان كنتم آمنتم وجب عليكم التوكل وان كنتم مسلمين توكلتم عليه.

﴿فقالوا﴾ أي قوم موسى مجيبين له ﴿على الله توكلنا﴾ أي اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا الله مخلصين فقالوا ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة﴾ أي موضع فتنة ﴿للقوم الظالمين﴾ والمعنى لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، قاله مجاهد أو لا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا فيقولون لهم لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم، قاله مجاهد أيضاً وعلى المعنى الأول تكون الفتنة بمعنى المفتون.

ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه ان يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا: ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ أي من أيديهم، وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً﴾ قيل هي الاسكندرية، وقيل هي مصر المعروفة لا الاسكندرية، وأن هي المفسرة لأن في الايحاء معنى القول أي اتخذوا لقومكما يقال بوأت زيداً مكاناً وبوأت لزيد مكاناً، والمبوأ المنزل الملزوم، ومنه بَوَّأَهُ الله منزلاً أي ألزمه اياه وأسكنه فيه، ومنه حديث «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1] والتبوء النزول والرجوع؛ واللام زائدة أي بوآ قومكما، وقيل غير زائدة.

﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي متوجهة الى جهة القبلة، قال قتادة: ذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وان يوجهوها نحو القبلة، وعن مجاهد قال: كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وعن ابن عباس نحوه، وقيل المراد بالبيوت هنا المساجد، واليه ذهب جماعة من السلف، وقيل التي يسكنون فيها أمروا بأن يجعلوها مقابلة بعضها بعضاً.

والمراد بالقبلة على القول الأول هي جهة بيت المقدس وهو قبلة اليهود الى اليوم، وقيل جهة الكعبة وانها كانت قبلة موسى ومن معه، قال أبو سنان: إن آدم فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة، وظاهر القرآن لا يدل على

---

(١) مسلم ٣ ـ البخاري ٩٤.

تعيينها، وقيل انهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سراً لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة.

ومما يؤيد هذا قوله ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي التي أمركم الله باقامتها فانه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة إما في المساجد أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة وقيل أمر الله موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل بأن يصونهم عن شر الأعداء، ذكره الخطيب، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهرون ثم جعله لهما ولقومهما في قوله ﴿واجعلوا، وأقيموا﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك فقال ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي بالنصر والجنة لان اختيار المكان مفوض الى الأنبياء، ثم جعل عاماً في استقبال القبلة وإقامة الصلاة لان ذلك واجب على الجميع لا يختص بالانبياء ثم جعل خاصاً بموسى لانه الاصل في الرسالة وهرون تابع له فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها.

وقيل ان الخطاب في ﴿وبشر المؤمنين﴾ لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض والاول أولى.

﴿و﴾ لما بالغ موسى عليه السلام في اظهار المعجزات واقامة الحجج البينات ولم يكن لذلك تأثير فيمن أرسل اليهم، دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد ﴿قال موسى﴾ مبيناً للسبب أولاً ﴿ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾ قد تقدم أن الملأ هم الاشراف، والزينة اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك، والمال ما زاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه.

ثم كرر النداء للتأكيد فقال ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ قال الخليل

وسيبويه: انها لام العاقبة والصيرورة، والمعنى أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا، وقيل انها لام كي؛ قاله الفراء: أي أعطيتهم لكي يضلوا، وقال قوم ان المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا، كما قال سبحانه ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾.

قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن فموَّه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله تعالى المتقدم، وقيل اللام للدعاء عليهم، والمعنى إبتلِهِمْ بالهلاك عن سبيلك، قاله ابن الانباري واستدل بقوله سبحانه بعد هذا ﴿اطمس واشدد﴾ واليه ذهب الحسن البصري، وقيل انها لام العلة والمعنى انك آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الايتاء لهذه العلة.

وقد أطال صاحب الكشاف في تقرير هذا بما لا طائل تحته، والقول الاول هو الاولى، وقرىء ليضلوا بضم الياء أي يوقعوا الاضلال على غيرهم، وقرأ الباقون بالفتح أي يضلون في أنفسهم.

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي امسخها وأزل صورها، قال الزجاج: طمس الشيء إذهابه عن صورته وإزالة أثر الشيء بالمحو. قال مجاهد: أهلكها، وقال أكثر المفسرين أمسخها وغيرها عن هيئاتها، والمعنى الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها.

وقرىء بضم الميم من ﴿اطمُس﴾ وقد روي عن قتادة أن أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم ودراهمهم ودنانيرهم تحولت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. قيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة.

قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة والنخل والثمار والدقيق والأطعمة، وقال القرظي: صارت صورهم حجارة، وفيه ضعف لأن موسى دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ، وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام.

﴿واشدد على قلوبهم﴾ أي اربط عليها واجعلها قاسية مطبوعة حتى لا تقبل الحق ولا تنشرح للايمان ولا تلين، قال الواحدي: وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما جسر موسى على هذا السؤال.

﴿فلا يؤمنوا﴾ أي آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا، قاله المبرد والزجاج، وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: هو دعاء بلفظ النهي والتقدير، اللهم فلا يؤمنوا. وقال الاخفش: انه جواب الأمر أي اطمس واشدد فلا يؤمنوا ﴿حتى يروا العذاب الاليم﴾ أي فلا يحصل منهم الايمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به وعند ذلك لا ينفع ايمانهم، قال ابن عباس العذاب هو الغرق.

وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء وقال: ان الرسل انما تطلب هداية قومهم وايمانهم، وأجيب بأنه لا يجوز لنبي أن يدعو على قومه الا بإذن الله سبحانه، وانما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن قال: ﴿رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً﴾.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾
۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ جعل الدعوة ههنا مضافة إلى موسى وهرون، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده، فقيل إن هرون كان يؤمّن على دعاء موسى فسمى ههنا داعياً وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أول الكلام أضاف الدعاء الى موسى لكونه الداعي، وههنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمّن منزلة الداعي.

ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين، ولكن أضاف الدعاء الى موسى في أول الكلام لإصالته في الرسالة. قال النحاس: سمعت علي بن سليمان يقول: الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب، وقرىء دعاؤكما ودعواكما. قال ابن عباس: فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الايمان، ويزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة لحكمة يعلمها هو، وعن ابن جريج ومجاهد نحوه ﴿فاستقيما﴾ أي امضيا لأمري ودوما على الاستقامة، قاله ابن عباس، والاستقامة الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله.

قال الفراء وغيره: أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه وعلى دعاء فرعون وقومه إلى الايمان إلى أن يأتيهما تأويل الاجابة أربعين سنة ثم أهلكوا، وقيل معنى الاستقامة ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضاء والتسليم لما يقضي الله به سبحانه.

﴿ولا تتبعان﴾ قرىء بتشديد النون للتأكيد وبتخفيفها على النفي لا على

النهي أو انه نفي في معنى النهي أي لا تسلكا ﴿سبيل الذين لا يعلمون﴾ حكمة تأخير المطلوب، نهاهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعبادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلاً وتأجيلاً، وقيل انه خبر محض مستأنف لا تعلق له بما قبله، والمعنى أنهما أخبرا بأنهما لا يتبعان، وأما تشديد التاء وتخفيفها فلغتان من أتبع يتبع، وتبع يتبع وهما بمعنى واحد، يقال تبعه أي مشى خلفه واتبعه كذلك إلا أنه حاذاه في المشي واتبعه لحقه.

قال الرازي: وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهرون كما أن قوله ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ لا يدل على صدور الشرك منه.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان إذا خلفه وتخطاه، والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط، لأن الله سبحانه جعل البحر يبساً فمروا فيه حتى خرجوا منه الى البر، والمراد بحر القلزم وهو بحر السويس وكانوا ستمائة ألف، قاله الخطيب.

وفي الخازن قال أهل التفسير: اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف وهم اثنان وتسعون وخرج بنوه مع موسى من مصر في الوقت المعلوم وهم ستمائة الف، وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه ﴿واذ فرقنا بكم البحر﴾ وقرأ الحسن وجوزنا وهما لغتان والآية دليل على خلق الأفعال.

﴿فأتبعهم فرعون وجنوده﴾ يقال تبع وأتبع بمعنى واحد اذا لحقه. قال الأصمعي: يقال تبعه بقطع الألف إذا لحقه وأدركه، واتبعه بوصل الألف اذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه، وكذا قال أبو زيد، وقال أبو عمرو: اتبعه بالوصل اقتدى به، وفي المختار تبعه من باب طرب اذا مشى خلفه أو مر به فمضى معه، وكذا اتبعه وهو افتعل، واتبعه على افعل إذا كان قد سبقه فلحقه؛ وقال الاخفش: تبعه وأتبعه بمعنى مثل ردفه وأردفه.

﴿بغياً﴾ ظلماً ﴿وعدوا﴾ اعتداء، أي لأجلهما أو باغين معتدين، وقرأ

الحسن عدواً بضم العين والدال وتشديد الواو، وقيل إن البغي الاستعلاء في القول بغير حق، والعدو في الفعل، قال عكرمة: العدو والعتو والعلو في كتاب الله التجبر.

﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي ناله ووصله وألجمه غاية لاتباعه، وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ففرق الله البحر لموسى وبني اسرائيل فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الاخر، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضي موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من الجانب الاخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك.

﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ أي صدقت، ولم ينفعه هذا الايمان لأنه وقع منه بعد ادراك الغرق له كما تقدم في النساء، ولم يقل اللعين آمنت بالله أو برب العالمين، بل قال ما تقدم لأنه بقي فيه عرق من دعوى الإلهية ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي المستسلمين لأمر الله المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ما سواه.

فإن قيل إنه آمن ثلاث مرات كما في هذه الآية فما السبب في عدم القبول؟.

قيل إنه آمن عند نزول العذاب، والايمان والتوبة عنده غير مقبول، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ وأن الايمان إنما يتم بالاقرار بالتوحيد والنبوة، وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح إيمانه، وقيل غير ذلك، ذكره الخطيب.

أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أغرق الله فرعون فقال: آمنت. الآية. قال جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»[١] والمعنى دس جبريل في فيه بأمر الله فلا اعتراض عليه.

وقد روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه وقال صحيح حسن غريب، وصححه أيضا الحاكم عن ابن عباس من طرق أخرى واسناده على شرط البخاري، وليس في رواتها متهم وإن كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره. وقد أطال الخازن في جواب ما اعترض به الرازي وأشكله في هذا الحديث بما يطول ذكره.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال لي جبريل: ما كان على الأرض - يعني أبغض إليّ - من فرعون فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة وأنا أعطه خشية أن تدركه الرحمة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً نحوه، وأبو الشيخ عن أبي أمامة نحوه أيضاً، وفي إسناد حديث أبي هريرة رجل مجهول وباقي رجاله ثقات. والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين، ولا يكاد يميز بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والحكم ببطلان ما صح منها؛ ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت، والقصور الفاضح الذي يضحك منه كل من له أدنى ممارسة بفن الحديث. فيا مسكين ما لك ولهذا الشأن الذي لست فيه في شيء، ألا تستر نفسك وتربع على ضلعك وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين، وتشتغل بما هو علمك الذي لا تجاوزه وحاصلك الذي ليس لك غيره، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية.

(١) الإمام احمد ١/٢٤٥.

ولقد صار صاحب الكشاف عفا الله عنه بسبب ما يتعرض له في تفسيره من علم الحديث الذي ليس هو منه في ورد ولا صدر سخرة للساخرين، وعبرة للمعتبرين، فتارة يروي في كتابه الموضوعات وهو لا يدري انه منها، وتارة يتعرض لرد ما صح ويجزم بأنه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والبهت عليه، وقد يكون في الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة بأسانيد كلها أئمة ثقات حجج اثبات.

وادنى نصيب من عقل يحجر صاحبه عن التكلم في علم لا يعلمه ولا يدري به اقل دراية، وان كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التي يتواضع عليها طائفة من الناس، ويصطلحون على أمور فيما بينهم، فما بالك بعلم السنة الذي هو قسم كتاب الله، وقائله رسول الله صلى الله عليه وسلم وراويه عنه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع عام لجميع أهل الاسلام.

﴿آلآن﴾ أي فقيل له أتؤمن من الآن، وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة، فقيل هي من قول الله سبحانه، وقيل من قول جبريل، وقيل من قول ميكائيل وقيل من قول فرعون قال ذلك في نفسه لنفسه، والمعنى انكار الايمان منه عند أن ألجمه الغرق، والمقصود التقريع والتوبيخ له، قال ابن عباس: لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل، والايمان والتوبة عند اليأس لا يقبل ﴿وقد عصيت قبل﴾ تأكيد لهذا المقصود، والجملة حالية أي وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار، والايمان في هذه الحالة لا يفيد، يعني آلآن تتوب وقد ضيعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية ﴿وكنت من المفسدين﴾ في الارض بضلالك عن الحق واضلالك لغيرك.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿فاليوم ننجيك﴾ أي نخرجك من البحر ونلقيك على الشط، وذلك ان بني اسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق وقالوا هو اعظم شأناً من ذلك فألقاه الله على نجوة من الارض أي مكان مرتفع حتى شاهدوه أحمر قصيراً كأنه ثور، ثم اعاده الى البحر ثانياً، فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً أبداً، قاله الخازن، وقيل المعنى نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافياً ليشاهدوك ميتاً بالغرق، وقرىء بالحاء المهملة من التنحية، اي نطرحك على ناحية من الأرض.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿ببدنك﴾ فقيل معناه بجسدك بعد سلب الروح منه لا كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لطمعه، والباء للمصاحبة، وقيل معناه بدرعك والدرع تسمى بدناً، والأبدان الدروع، قاله ابو عبيدة، ورجح الاخفش الأول. وقرأ ابو حنيفة رحمه الله بأبدانك وهو مثل قولهم هو بأجرامه أي ببدنك كله وافياً بأجزائه، وقيل عرياناً لا شيء عليه، وقيل الباء سببية لان بدنه سبب في تنجيته.

﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ هذا تعليل لتنجيته ببدنه، وفي ذلك دليل على انه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلّة لا سوى، والمراد بالآية العلامة، أي لتكون علامة يعرفون بها هلاكك وانك لست كما تدعي ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق.

وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك

آية من آيات الله يعتبر بها الناس او يعتبر بها من سيأتي من الأمم اذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبّر والتمرد على الله سبحانه فان هذا الذي بلغ الى ما بلغ اليه من دعوى الإلهية واستمر على ذلك دهراً طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة.

وقرىء لمن خلفك على صيغة الماضي، اي لمن يأتي بعدك من القرون او من خلفك في الرياسة او في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه، وهذا آخر مقول جبريل عليه السلام.

﴿وان كثيراً من الناس عن آياتنا﴾ التي توجب الاعتبار والتفكر وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لغافلون﴾ عما توجبه تلك الآيات، وهذه الجملة تذييلية جيء بها عقب الحكاية تقرير الكلام المحكى.

﴿ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق﴾ هذا من جملة ما عدده الله سبحانه من النعم التي انعمها عليهم، ومعنى بوأنا أسكنا يقال بوأت زيداً منزلاً أسكنته فيه، والمبوأ اسم مكان او مصدر، واضافته الى الصدق على ما جرت عليه قاعدة العرب فانهم كانوا اذا مدحوا شيئاً اضافوه الى الصدق، والمراد به هنا المنزل المحمود الصالح المختار المرضي، قيل هو ارض مصر، قاله الضحاك، وقيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره، وقيل الاردن وفلسطين، وقيل الشام قاله قتادة، وقيل بيت المقدس لانها بلاد الخصب والخير والبركة.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ اي المستلذات من الرزق ﴿فما اختلفوا﴾ في أمر دينهم وتشعبوا فيه شعباً بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة ﴿حتى جاءهم العلم﴾ اي لم يقم منهم هذا الاختلاف في الدين الا بعد ما جاءهم

العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها وما اشتملت عليه من الاخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل العلم هو القرآن المنزل على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فاختلفوا فيه وفي صفته وآمن به من آمن منهم، وكفر به من كفر، قال ابن زيد: يعني كتاب الله الذي أنزله وأمره الذي أمرهم به، وانما سمي القرآن علماً لانه سبب العلم، فيكون المراد بالمختلفين على القول الاول هم اليهود بعد ان أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها، وعلى القول الثاني هم اليهود المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد روي في الحديث ان اليهود اختلفوا على احدى وسبعين فرقة وان النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة[1] وهو في السنن والمسانيد، والكلام فيه يطول.

﴿ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين بانجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين فيجازي المحسن باحسانه، والمسيء باساءته، والمحق بعمله بالحق، والمبطل بعمله بالباطل.

(١) الإمام أحمد، ٢/٣٣٢ نحوه. وقد ألف العلماء الكثير من الكتب حول ماهية هذه الفرق وبعضهم كتب وعَدَّ الفرق الضالة، انظر مثلاً كتاب (الفَرْقُ بين الفِرَقْ) للبغدادي.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

﴿فإن كنت﴾ يامحمد ﴿في شك﴾ هو في أصل اللغة ضم الشيء بعضه الى بعض، ومنه شك الجوهر في العقد والشاك كأنه يضم الى ما يتوهمه شيئاً آخر خلافه فيتردد ويتحير، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد غيره كما ورد في القرآن في غير موضع.

وعن ابن عباس قال: لم يشك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وعن قتادة قال: ذكر لنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا اشك ولا أسأل وهو مرسل.

﴿مما﴾ أي في شك ناشيء مما ﴿انزلنا اليك﴾ بأن تشك فيه، ومن للابتداء او انها بمعنى في من اول الامر، قال القاضي عياض في الشفاء: احذر ثبت الله قلبك ان يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين من اثبات شك النبي (ﷺ) فيما اوحى اليه فمثل هذا لا يجوز عليه اهـ.

وقال ثعلب والمبرد: أي قل يامحمد للكافر فان كنت في شك ﴿فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾ يعني مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وامثاله وقد كان عبدة الاوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرون بأنهم اعلم منهم، فأمر الله سبحانه نبيه ان يرشد الشاكين فيما انزله الله اليه من القرآن ان يسألوا اهل الكتاب الذين قد اسلموا فانهم سيخبرونهم بأنه كتاب الله حقا، وان هذا رسوله وان التوراة شاهدة بذلك ناطقة به فان ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم، والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاخبار، وفي هذا الوجه مع حسنه مخالفة للظاهر.

قال الزجاج: ان الله خاطب الرسول وهو شامل للخلق، وهذا وجه حسن أيضاً لكن فيه بعد لأن الرسول متى كان داخلاً في هذا الخطاب كان الايراد موجوداً، والاعتراض وارداً.

وقيـل ان في قوله ﴿فان﴾ للنفى اي ما أنت في شك حتى تسأل وهذا أبعد.

وقال القتيبي: المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتصديقه بل كان في شك، وقيل المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره والمعنى لو كنت ممن يلحقه الشـك فيما اخبرناك به فسألت اهل الكتاب لأزالوا عنك الشك، وقيل الشك هو ضيق الصدر أي ان ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر واسأل يخبرونك بصبر من قبلك من الانبياء على اذى قومهم.

وقيل معنى الآية الفرض والتقدير كأنه قال له فان وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً، فاسأل فانهم سخبرونك عن نبوءتك وما نزل عليك، ويعترفون بذلك لانهم يجدونه مكتوباً عندهم، وقد زال فيمن اسلم منهم ما كان مقتضياً للكتم عندهم.

﴿لقد﴾ أي اقسم لقد ﴿جاءك الحق من ربك﴾ وفي هذا بيان ما يقلع الشك من اصله ويذهب به بجملته، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذي وقع الشك فيه على اختلاف التفاسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل ولا تشوبه شبهة.

ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وسلم عن الامتراء فقال ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ فيما انزل الله عليه بل تستمر على ما انت عليه من اليقين وانتفاء الشك، ويمكن ان يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره كما في مواطن من الكتاب العزيز، وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وسلم عن التكذيب في قوله تعالى ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ فان الظاهر فيه التعريض

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ
حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ
لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ
شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ
مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾

ولا سيما بعد تعقيبه بقوله ﴿فتكون من الخاسرين﴾ وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو ابلغ واوقع من النهي لهم انفسهم، لانه اذا كان ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف بمن يمكن منه ذلك.

﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ قد تقدم مثله في هذه الصورة والمعنى انه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر ويموتون عليه، لا يقع منهم الايمان بحال من الاحوال وان وقع منهم ما صورته صورة الايمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العدم، قال مجاهد: حق عليهم سخط الله بما عصوه، وقيل لعنة الله، وقيل الكلمة هي قوله «خلقت هؤلاء للنار ولا أبالي»

﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية فان ذلك لا ينفعهم لان الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم ﴿حتى يروا العذاب الاليم﴾ فيقع منهم ما صورته صورة الايمان وليس بايمان، ولا يترتب عليه شيء من أحكامه.

﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾ لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا، كما قال الأخفش والكسائي وغيرهما، ويدل على ذلك ما في مصحف أُبَيّ وابن

مسعود ﴿فهلا قرية﴾ وفي هذا التحضيض معنى التوبيخ والنفي فوبخ الله اهل القرى المهلكة قبل يونس على عدم ايمانهم قبل نزول العذاب بهم، والمعنى فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي اهلكناها آمنت ايماناً معتداً به نافعاً وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ولم تؤخره كما أخره فرعون.

﴿فنفعها ايمانها﴾ في حال اليأس ﴿إلا قوم يونس﴾ استثناء منقطع من القرى لان المراد أهلها، والمعني لكن قوم يونس، وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الائمة منهم الكسائي والاخفش والفراء، وقيل متصل، والجملة في معنى النفي، كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، قال ابن جرير: خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب، وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج: انه لم يقع العذاب وانما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان، وهذا أولى من قول ابن جرير.

﴿لما آمنوا﴾ ايماناً معتداً به قبل معاينة العذاب حين رؤية أماراته او عند اول المعاينة قبل حلوله بهم ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ هو العذاب الذي كان قد وعدهم يونس انه سينزل عليهم ولم يروه او الذي قد رأوا علاماته دون عينه ﴿ومتعناهم الى حين﴾ أي بعد كشف العذاب عنهم متعهم الله في الدنيا الى حين معلوم قدره لهم اي الى وقت انقضاء آجالهم.

قال قتادة: لم يكن هذا في الأمم قبل قوم يونس لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس، وذكر لنا ان قومه كانوا بنينوى من ارض الموصل فلما فقدوا نبيهم قذف الله في قلوبهم التوبة، وبحث في ذلك الزجاج فقال: انه لم يقع بهم العذاب وانما رأوا علامته ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الايمان.

قال القرطبي: وهو كلام حسن فإن المعاينة التي لا ينفع معها الايمان هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون.

واخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن يونس دعا قومه فلما أبوا ان يجيبوه وعدهم العذاب فقال: إنـه يأتيكم يوم كذا وكذا ثم خرج عنهم، وكانت الانبياء اذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما اظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة وولدها والسخلة وولدها، وخرجوا يعجون الى الله، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر فمر به رجل فقال: ما فعل قوم يونس؟ فحدثه بما صنعوا فقال: لا ارجع الى قوم قد كذبتهم، وانطلق مغاضباً، يعني مراغماً. وعن سعيد بن جبير قال: غشي قوم يونس العذاب كما يغشى القبر، بالثوب اذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً.

وعن ابن عباس: ان العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشفه الله عنهم، وقال قتادة: قدر ميل. وقال وهب: غامت السماء غيماً اسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت اسطحتهم فتابوا واخلصوا النية فرحمهم ربهم وكشف ما نزل بهم من العذاب بعدما اظلهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء، وكان يوم الجمعة، قيل انهم قالوا: ياحي حين لا حي، ويا حي يحيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت. وقيل قالوا: اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلَّت وانت اعظم وأَجَلّ، فافعل بنا ما أنت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله، قاله الفضيل بن عياض، والله اعلم ما قالوه.

ثم بيّن سبحانه ان الايمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره فقال ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم﴾ بحيث لا يخرج عنهم احد ﴿جميعاً﴾

مجتمعين على الايمان لا يتفرقون فيه ويختلفون، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي ارادها الله سبحانه.

قال الاخفش: جاء بقوله جميعاً بعد كلهم للتأكيد كقوله ﴿لا تتخذوا إلٰهين اثنين﴾ وقيل اتى به مع ان كُلًّا منهما يفيد الاحاطة والشمول للدلالة على ان وجود الايمان منهم بصفة الاجتماع الذي لا يدل عليه كلهم، ذكره الكرخي.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لا يكون لأن مشيئته الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجحة لا تقتضي ذلك فقال ﴿أفأنت تكره الناس﴾ استفهام تأديب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اتكرههم بما لم يشأه الله منهم.

﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ فإن ذلك ليس في وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك، وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ودفع لما يضيق به صدره، من طلب صلاح الكل الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون الى الفساد أقرب، ولله الحكمة البالغة وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للاعلام بأن الاكراه ممكن مقدور عليه، وانما الشأن في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه لأنه هو القادر على أن يخلق في قلوبهم ما يضطرون عنده الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن
قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ
فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

ثم بيّن سبحانه ما تقدم بقوله ﴿وما كان﴾ اي ما صحّ وما استقام ﴿لنفس﴾ من الأنفس ﴿ان تؤمن إلا بإذن الله﴾ اي بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائناً ما كان ﴿ويجعل الرجس﴾ بكسر الراء وضمنها لغتان، اي العذاب او السخط او الكفر او الخذلان الذي هو سبب العذاب، وهذا معطوف على محذوف، كأنه قيل فيأذن لبعضهم في الايمان ويجعل الخ، والمضارع في المعطوف والمعطوف عليه بمعنى الماضي.

والمراد بقوله ﴿على الذين لا يعقلون﴾ هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ولا يتفكرون في آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الادلة.

﴿قل انظروا﴾ بضم اللام وكسرها سبعيتان ﴿ماذا في السموات والارض﴾ لما بين سبحانه ان الايمان لا يحصل الا بمشيئة الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، والمراد بالنظر التفكر والاعتبار، أي قل يامحمد للكفار تفكروا واعتبروا بما فيهما من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته.

ثم ذكر سبحانه ان التفكر والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحكمت شقاوته فقال ﴿وما تغني﴾ اي ما تنفع على ان ﴿ما﴾ نافية وهذا هو الظاهر ويجوز ان تكون استفهامية أي أيُّ غنى تغني ﴿الآيات﴾ هي التي عبَّر عنها بقوله ماذا في السموات والأرض، ففي الكلام اظهار في مقام الاضمار،

والجملة إما حالية او اعتراضية بنوع ايضاح ﴿والنذر﴾ جمع نذير وهم الرسل او جمع انذار وهو المصدر ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ في علم الله سبحانه، والمعنى ان من كان هكذا لا يجدى فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبه إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وثمود، فقد كان الانبياء المتقدمون يتوعدون كفار زمانهم بأيام مشتملة على انواع العذاب، وهم يكذبونهم ويصممون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه، والعرب تسمي العذاب اياماً والنعم اياماً، كقوله تعالى ﴿وذكرهم بأيام الله﴾.

ثم قال: ﴿قل﴾ يامحمد لهؤلاء الكفار المعاصرين لك ﴿فانتظروا﴾ اي تربصوا لوعد ربكم ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لوعد ربي، وفي هذا تهديد شديد ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الاهلاك.

﴿ثم ننجي﴾ بالتشديد باتفاق العشرة وقرىء بالتخفيف وهما لغتان فصيحتان أنجى ينجي انجاء، ونجى ينجي تنجية بمعنى واحد، وثم للعطف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا ﴿رسلنا﴾ المرسلين اليهم ﴿و﴾ نجينا ﴿الذين آمنوا﴾ والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلاً لأمرها.

﴿كذلك﴾ صفة لمصدر محذوف اي انجاء مثل ذلك الإنجاء، وقوله ﴿حقاً علينا﴾ اعتراض، اي حق ذلك علينا حقاً أي وجب وتحتم بمقتضى الفضل والكرم ﴿ننجي﴾ بالتخفيف والتشديد قراءتان سبعيتان ﴿المؤمنين﴾ من عذابنا للكفار والمراد بالمؤمنين الجنس فيدخل في ذلك الرسل واتباعهم او يكون خاصاً بالمؤمنين وهم اتباع الرسل لان الرسل داخلون في ذلك بالاولى، وقال السيوطي: النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه حين تعذيب المشركين لهم.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿قل يا أيها الناس﴾ أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطباً لجميع الناس او للكفار منهم أو لأهل مكة على الخصوص بقوله ﴿ان كنتم في شك من ديني﴾ الذي انا عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صحته، وانه الدين الحق الذي لا دين غيره فاعلموا اني بريء من اديانكم التي انتم عليها.

﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ في حال من الاحوال ﴿ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم﴾ اي أخصه بالعبادة لا اعبد غيره من معبوداتكم من الاصنام وغيرها، وخص صفة التوفي من بين الصفات لما في ذلك من التهديد لهم، أي أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابة في القلوب ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة فكأنه قال أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم.

ولما ذكر انه لا يعبد إلا الله بيَّن انه مأمور بالايمان فقال ﴿وامرت أن أكون من المؤمنين﴾ أي بأن أكون من جنس من آمن بالله واخلص له الدين ﴿وان أقم وجهك للدين﴾ المعنى ان الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين والثبات فيه وعدم التزلزل عنه بحال من الاحوال وخص الوجه لانه اشرف الاعضاء، أو أمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن كل دين من الاديان الى دين الاسلام مستقيماً عليه غير معوج عنه الى دين آخر، ثم أكد الأمر المتقدم بالنهي عن ضده فقال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ عطف على أقم داخل تحت الأمر، وهو من باب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم.

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

﴿ولا تدع من دون الله﴾ على حال من الاحوال ﴿مالا ينفعك ولا يضرك﴾ بشيء من النفع والضر ان دعوته، ودعاء من كان هكذا لا يجلب نفعاً ولا يقدر على ضر، ضائع لا يفعله عاقل على تقدير انه لا يوجد من يقدر على النفع والضر غيره فكيف إذا كان موجوداً فإن العدول عن دعاء القادر الى دعاء غير القادر أقبح وأقبح.

﴿فإن فعلت﴾ أي فإن دعوت ولكنه كنى عن القول بالفعل ﴿فإنك اذاً من الظالمين﴾ هذا جزاء الشرط، اي فإنك في عداد الظالمين لأنفسهم، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره صلى الله عليه وسلم.

﴿و﴾ جملة ﴿إن يَمْسَسْك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ مقررة لمضمون ما قبلها، والمعنى ان الله سبحانه هو الضار النافع، فإن انزل بعبده ضراً لم يستطع احد ان يكشفه كائناً من كان بل هو المختص بكشفه كما هو اختص بإنزاله.

﴿وان يردك بخير﴾ أيَّ خير كان لم يستطع احد أن يدفعه عنك ويحول بينك وبينه كائناً من كان، هو من القلب واصله ان يرد بك الخير، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز ان يكون كل واحد منهما مكان الآخر.

قال النيسابوري: وفي تخصيص الارادة بجانب الخير والمس بجانب الشر دليل على ان الخير يصدر عنه سبحانه بالذات والشر بالعرض.

قلت: وفي هذا نظر فإن المس هو أمر وراء الارادة فهو مستلزم لها، وقيل ان الضر انما مسهم لا بالقصد الاول والمعنى متقارب.

﴿فلا راد لفضله﴾ اي لا دافع لما ارادك به من الخير ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على انه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لان مراد الله تعالى لا يمكن رده وإرادة الله قديمة لا تتغير بخلاف مس الضر فانه صفة فعل.

﴿يصيب به﴾ أي بفضله او بكل واحد من الخير والضر ﴿من يشاء من عباده﴾ وجملة ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ تذييلية.

عن عامر بن قيس قال: ثلاث آيات في كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق اولهن ﴿ان يَمْسَسْك الله﴾ الآية، والثانية ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له﴾ والثالثة ﴿وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها﴾ اخرجه البيهقي في الشعب، وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

ثم ختم هذه السورة بما يستدل به على قضائه وقدره فقال ﴿قل يا أيها الناس﴾ لأجل ان تنقطع معذرتهم فهذا نهاية الأمر ﴿قد جاءكم الحق من ربكم﴾ أي القرآن او الإسلام او محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه﴾ اي منفعة اهتدائه مختصة به ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ اي ضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه، وليس لله حاجة في شيء من ذلك ولا غرض يعود اليه ومن في الموضعين يجوز ان تكون شرطية والفاء واجبة الدخول وان تكون موصولة والفاء جائزته ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ اي بحفيظ يحفظ اموركم وتوكل اليه، انما أنا بشير ونذير.

ثم أمره الله سبحانه ان يتبع ما اوحاه من الأوامر والنواهي التي شرعها الله له ولأمته فقال ﴿واتبع ما يوحى اليك﴾ ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقيه من مشاق التبليغ وما يعانيه من تلون اخلاق المشركين وتعجرفهم فقال ﴿واصبر﴾ وجعل ذلك الصبر ممتداً الى غاية هي قوله ﴿حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ اي يحكم الله بينه وبينهم في الدنيا بالنصر له عليهم وفي الآخرة بعذابهم بالنار وهم يشاهدونه صلى الله عليه وسلم هو وامته المتبعون له المؤمنون به العاملون بما يأمرهم به المنتهون عما ينهاهم عنه، ينقلبون في نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا يمكن وصفه ولا يوقف على ادنى مزاياه.

وقال مجاهد: هذا منسوخ بأمره بجهادهم والغلظة عليهم وبه قال ابن عباس، قال السيوطي: وقد صبر حتى حكم على المشركين بالقتال واهل الكتاب بالجزية اهـ؛واشار بهذا الى قول مجاهد، قاله الكرخي.

سورة هود عليه السلام

وهي مائة وثلاث وعشرون آية . وهي مكّية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومجاهد وابن زيد . وقال ابن عباس وقتادة : الا آية وهي قوله : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ وقال مقاتل : أو الا ﴿ فلعلك تارك ﴾ الآية ﴿ واولئك يؤمنون به ﴾ الآية :

والحاصل ان المدني عند ابن عباس آية واحدة وعند مقاتل آيتان . وعن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اقرؤا هود يوم الجمعة »[1] . أخرجه الدارمي وأبو داود والبيهقي وغيرهم . وعن أبي بكر الصديق قال : قلت يا رسول الله لقد اسرع اليك الشيب فقال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت[2] أخرجه الطبراني والترمذي وحسنه . وعن أنس مرفوعاً وهل أتاك حديث الغاشية رواه البزار . وقد روي بطرق عن جمع من الصحابة .

قال بعض العلماء : سبب شيبه من هذه السور ما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله اعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١١٦٨ .

(٢) الترمذي تفسير سورة ٦/٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿الر﴾ ان كان مسروداً على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له، وان كان اسماً للسورة فهو في محل الرفع على انه مبتدأ وما بعده خبره او خبر مبتدأ محذوف وهو الاظهر، او في محل النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر او اقرأ.

وقوله ﴿كتاب﴾ خبر لمبتدأ محذوف اي هذا كتاب، ويدل على ذلك قوله في آية اخرى ﴿ذلك الكتاب﴾ والاشارة اما الى بعض القرآن او الى مجموعه.

ومعنى ﴿أحكمت آياته﴾ صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم المرصف، وقيل معناه انها لم تنسخ بخلاف التوراة والانجيل، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب وهو المحكم الذي لم ينسخ، وقيل معناه احكمت آياته بالأمر والنهي، والآيات المراد بها حقيقتها وهي الجمل من السور المنفصل بعضها عن بعض اي نظمت نظماً متقناً لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه، وقيل معنى احكامها ان لا فساد فيها أخذاً من قولهم أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح.

﴿ثم فصلت﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب، وقيل احكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام، وقيل أحكمت جملته ثم فصلت آياته، وقيل جُمعت في اللوح المحفوظ ثم فُصلت بالوحي، وقيل أيدت بالحجج القاطعة الدالَّة على كونها من عند الله، والتراخي المستفاد من ثم إما زماني إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح، واما رتبي ان فسر بغيره مما تقدم، واليه ذهب الزمخشري، وقال: هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن

التفصيل كما يقال فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل.

﴿من لدن حكيم خبير﴾ فيه طباق حسن، لان المعنى احكمها حكيم وفصلها خبير عالم بواقع الامور، وقيل صفة ثانية لكتاب خبر ثان واليه نحا الزمخشري وقيل غير ذلك ﴿ان لا تعبدوا إلا الله﴾ قال الكسائي والفراء: التقدير احكمت بأن، وقال الزجاج: احكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا، وقيل تعليل للفعلين قبله اي لأجل ان تتركوا عبادة غير الله وتعبدوا الله فأخذ الترك من لا النافية والاثبات من الاستثناء.

وقيل تقديره هي ان لا تعبدوا، وقيل ان مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أي قال لا تعبدوا او أمركم ان لا تعبدوا، وهذا اظهر الاقوال لانه لا يحوج الى اضمار، ولما ذكر شؤون الكتاب ذكر ان من جاء به مرسل من عند الله لتبليغ احكامه فقال ﴿انني لكم منه نذير وبشير﴾ اي ينذرهم ويخوفهم من عذابه لمن عصاه ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن اطاعه، والضمير في منه راجع الى الله سبحانه اي كائن من جهة الله.

وهذا على ظاهره ليس بجيد لان الصفة لا تتقدم على الموصوف فكيف تجعل صفة لنذير وكأنه يريد انه صفة في الاصل لو تأخر، ولكن لما تقدم صار حالاً، صرح به ابو البقاء فصوابه كائناً من جهته، وقيل يعود على الكتاب أي نذير لكم من مخالفته وبشير منه لمن آمن وعمل صالحاً، وقدم الانذار لأن التخويف أهم إذ يحصل به الانزجار، وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله ﴿ويحذركم الله نفسه﴾

﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه﴾ قدم الارشاد الى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة اليها وقيل ان التوبة من متممات الاستغفار وقيل معنى استغفروا توبوا، ومعنى توبوا أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، وقيل استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها.

وقيل استغفروا من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة؛ قال الفراء: ثم ههنا بمعنى الواو أي وتوبوا اليه لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار فذكرهما للتأكيد، وقيل إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب اليها، وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب، وقيل استغفروا في الصغائر وتوبوا اليه في الكبائر.

ثم رتب على ما تقدم أمرين: الأول ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أصل الامتاع الاطالة ومنه امتع الله بك، فمعنى الآية يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية موسعة للرزق ورغد العيش، وقيل هو الرضاء بالميسور والصبر على المقدور ﴿الى أجل مسمى﴾ الى وقت مقدر عند الله وهو الموت، وقيل القيامة، وقيل دخول الجنة والأول أولى.

والأمر الثاني قوله ﴿ويؤت كل ذي فضل﴾ في الطاعة والعمل ﴿فضله﴾ أي جزاء فضله إما في الدنيا او في الآخرة او فيهما جميعاً، والضمير راجع الى كل ذي فضل، وقيل راجع الى الله سبحانه على معنى ان الله يعطي كل من فضلت حسناته الذي يتفضل به على عباده.

عن ابن مسعود قال: من عَمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول هلك من غلب آحاده اعشاره، وقال ابو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة.

ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال ﴿وان تولوا﴾ أي تعرضوا عن الاخلاص في العبادة والاستغفار والتوبة ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامة، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال، وقيل اليوم الكبير يوم بدر، وقيل صفة لعذاب فهو منصوب وإنما خفض على الجوار.

إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

ثم بيَّن سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله ﴿الى الله مرجعكم﴾ أي رجوعكم اليه بالموت ثم البعث ثم الجزاء لا الى غيره.

﴿وهو على كل شيء قدير﴾ ومن ذلك عذابكم على عدم الامتثال، وهذه الجملة مقررة لما قبلها.

ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الانذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم، ولا لانت له قلوبهم، بل هم مصرون على العناد مصممون على الكفر، فقال مصدراً لهذا الاخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجيب من حالهم، وانه أمر ينبغي ان يتنبه له العقلاء ويفهموه ﴿ألا انهم يثنون صدورهم﴾ يقال ثنى صدره عن الشيء اذا ازور وانحرف عنه، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض لأن من عارض عن الشيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه.

وقيل معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة، فيكون في الكلام كناية عن الاخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين، والوجه الثاني أولى، ويؤيده قوله ﴿ليستخفوا منه﴾ أي من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين او من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم كرر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذي يثنون فيه صدورهم فقال ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أي يستخفون في وقت استغشاء الثياب وهو التغطي

بها، وقد كانوا يقولون: إذا اغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن يعلم بنا.

وقيل معناه يأوون الى فراشهم ويتدثرون بثيابهم، وقيل انه حقيقة، وذلك ان بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال البخاري عن ابن عباس: يغطون رؤوسهم، وروى عنه ايضاً قال: يعني به الشك في الله وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهما، أي إنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون إنهم سيخفون من الله بذلك، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل يعلم سرهم وعلانيتهم.

وعن عبد الله بن شداد قال: كان المنافقون إذا مر أحدهم بالنبي (ﷺ) ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه فنزلت، وعن الحسن قال: في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم، وعن قتادة قال: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله.

وجملة ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ مستأنفة لبيان انه لا فائدة لهم في الاستخفاء لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه في أنفسهم أو في ذات بينهم وما يظهرونه فالظاهر والباطن عنده سواء والسر والجهر سيان ﴿انه عليم بذات الصدور﴾ تعليل لما قبله وتقرير له، وذات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور وقيل هي القلوب.

والمعنى انه عليم بجميع الضمائر او عليم بالقلوب واحوالها في الأسرار والاظهار فلا يخفى عليه شيء من ذلك.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

ثم أكد كونه عالماً بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الاحسان فقال ﴿وما من دابة﴾ هي كل حيوان يدب على وجه الأرض، وتطلق على كل ذي اربع من الحيوان على سبيل العرف، والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الآدمي وغيره من جميع الحيوان، وفي المصباح دب منه الصغير يدب من باب ضرب إذا مشى ودب الجيش دبيباً ايضاً سار، ومن زائدة للتأكيد أي ما من حيوان وغيره.

﴿في الارض إلا على الله رزقها﴾ أي الرزق الذي يحتاج اليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف انواعه تفضلاً منه واحساناً، وانما جيء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة ﴿على﴾ اعتباراً بسبق الوعد به منه، وقيل أن ﴿على﴾ على بابها وانه عليه من باب الفضل لا الوجوب لانه لا يجب عليه شيء.

والحاصل ان المراد بالوجوب وجوب اختيار لا وجوب الزام، فهو موكول الى مشيئته، إن شاء رزقها وان شاء لم يرزقها. وقيل ان على بمعنى «من» أي من الله رزقها، أي ما يقوم به رمقها وتعيش به، قال مجاهد: ما جاءها من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها فتموت جوعاً.

ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله ان الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله ﴿ويعلم مستقرها﴾ أي محل استقرارها في الأرض أو محل قرارها في

الاصلاب ﴿ومستودعها﴾ موضعها في الأرحام وما يجري مجراها كالبيضة ونحوها، وقال الفراء: مستقرها حيث تأوى اليه ليلاً أو نهاراً، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه، وقد مر تمام الاقوال في سورة الأنعام.

ووجه تقديم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر، واما على القول الاول فلعل وجه ذلك ان المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة، والمعنى وما من دابة الا يرزقها الله حيث كانت من اماكنها بعد كونها دابة، وقبل كونها دابة، وذلك حين تكون في الرحم ونحوه.

وفي البيضاوي أماكنها في الحياة وفي الممات أو الاصلاب والأرحام أو مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة. اهـ

والمراد كالمني والعلقة، والمقار كالصلب والرحم، وعن ابن مسعود قال: مستقرها في الأرحام ومستودعها حيث تموت، ويؤيد هذا التفسير ما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبي (ﷺ) قال: اذا كان أجل أحدكم بأرض اتيحت له اليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض، فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتني[١]

ثم ختم الآية بقوله ﴿كل في كتاب مبين﴾ أي كل مما تقدم ذكره من الدواب ومستقرها ومستودعها ورزقها في اللوح المحفوظ أي مثبت فيه قبل خلقها.

ثم أكد دلائل قدرته بالتعرض لذكر خلق السموات والأرض وكيف كان الحال قبل خلقها فقال ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض﴾ وما بينهما ﴿في ستة أيام﴾ الكلام على التوزيع، فكان خلق السموات في يومين والأرضين في يومين، وما عليها من أنواع الحيوان والنبات والأقوات والجمادات في يومين،

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/٤١.

والمراد بالأيام هنا الأوقات، أي في ستة أوقات، كما في قوله ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ وقيل مقدار ستة ايام.

وقيل المراد هنا الأيام المعروفة وهي المقابلة لليالي أولها الأحد وآخرها الجمعة ولا يستقيم ذلك لانه لم تكن حينئذ أرض ولا سماء، وليس اليوم إلا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الارض؛ وفي الجمل وهذا مشكل جداً إذ لا يتعين الأحد ولا غيره من الأيام إلا عند وجودها بالفعل، وفي تلك الحال لم يكن زمان قط فضلاً عن تفضيله أياماً فضلاً عن تخصيص كل يوم باسم.

والجواب عن هذا الاشكال بأن المراد مقدار ستة أيام لا يدفع هذا الاشكال إنما يدفع الاشكال الآخر وهو انه لم يكن ثم زمان اهـ.

﴿وكان عرشه﴾ قبل خلقهما ﴿على الماء﴾ ليس تحته شيء غيره، سواء كان بينهما فرجة او كان موضوعاً على متنه فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء، كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدل على ان خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما.

قلت: وكونه قبل خلقهما مأخوذ من كان لأن المعنى المستفاد منها بالنسبة للحكم لا للتكلم وهو خلق السموات والأرض، وهذا ظاهر سواء كانت الجملة معطوفة او حالية بتقدير قد. ونقل عن السلف انه كان على الماء وهو الآن على ما كان عليه وعبارة سليمان الجمل: بل هو في مكانه الذي هو فيه الآن وهو ما فوق السموات السبع والماء في المكان الذي هو فيه الآن وهو ما تحت الأرضين السبع. انتهى

عن ابن عباس انه سئل على أي شيء كان الماء؟ قال على متن الريح، وعن أبي رزين العقيلي قال: قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء[1]

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١١/١.

اخرجه الترمذي. قال أحمد: يريد بالعماء انه ليس معه شيء. قال البيهقي: العماء ان كان ممدوداً فمعناه سحاب رقيق والمعنى فوق سحاب مدبراً له وعالياً عليه، وان كان مقصوراً فمعناه لاشيء ثابت لانه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء، ونحوه قال جمع من أهل العلم.

قال الازهري: فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته، وقد وردت احاديث كثيرة في صفة العرش، وفي كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها. ﴿ليبلوكم﴾ أي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته على البعث والجزاء ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ فيما أمر به ونهى عنه من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد لانه من أعمال القلب، وقيل المراد بالأحسن عملاً الأتم عقلاً، وقيل الأزهد في الدنيا وقيل الأكثر شكراً، وقيل الأتقى لله، وجاز تعليق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم لانه طريق اليه فهو ملابس له.

﴿ولئن قلت﴾ اللام موطئة للقسم فقد اجتمع في الكلام شرط وقسم، والقاعدة ان يحذف جواب المتأخر ويذكر جواب المتقدم، فقوله ليقولن جواب القسم وجواب الشرط محذوف، وكذا في قوله ﴿ولئن أخرنا﴾ وقوله ﴿ولئن أذقنا الانسان﴾ وقوله ﴿ولئن أذقناه﴾ فالمواضع اربعة.

ولما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره، والمعنى لئت قلت لهم يامحمد على ما توجبه قضية الابتلاء ﴿إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قيل أنكم بمعنى لعلكم على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين، أي توقعوا ذلك ولا تبثوا القول بإنكاره ﴿ليقولن الذين كفروا﴾ من الناس ﴿ان هذا﴾ الذي تقوله يامحمد ﴿إلا سحر مبين﴾ أي كالسحر أو باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه فالكلام من باب التشبيه البليغ.

ويجوز ان تكون الاشارة بهذا الى القرآن لانه المشتمل على الاخبار بالبعث وقرىء ساحر يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾ أي الذي يستعجلونه استهزاء، وهو ما تقدم ذكره في قوله ﴿عذاب يوم كبير﴾ وقيل عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل عذاب يوم بدر ﴿الى أمة معدودة﴾ أي الى طائفة من الأيام قليلة لأن ما يحصره العد قليل والأمة اشتقاقها من الأم وهو القصد وأراد بها الوقت المقصود لايقاع العذاب، وقيل هي في الأصل الجماعة من الناس، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه، كقولك كنت عند فلان صلاة العصر، أي في ذلك الحين، فالمراد على هذا الى حين تنقضي أمة معدودة من الناس ﴿ليقولن ما يحبسه﴾ أي أيُّ شيء يمنعه من النزول استعجالاً له على جهة الاستهزاء والتكذيب والسخرية.

فأجابهم الله بقوله ﴿ألا﴾ أداة استفتاح داخلة على ليس في المعنى ﴿يوم يأتيهم﴾ أي العذاب ﴿ليس مصروفاً﴾ أي محبوساً ﴿عنهم﴾ بل واقع بهم لا محالة، ويوم منصوب بخبر ﴿ليس﴾ مقدماً عليه وهو دليل البصريين على جواز تقديم خبرها عليها إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع متبوعه والا يلزم تقديم الفرع على أصله.

ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز في غيره توسعاً، ويبنى الأمر فيه على التسامح فيه، وبأنه قد يقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما في قوله تعالى ﴿فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر﴾ فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها.

قال أبو حيان: وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ﴿ليس﴾ عليها ولا بتقديم معموله إلا ما دل عليه ظاهر هذه الآية، وقول الشاعر:

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة ◦ وكنت أبياً في الخنا لست أقدم

قلت وهذا الخلاف بينهم في تقديم الخبر على ﴿ليس﴾ لا على اسمها فإنه جائز بلا خلاف والكلام فيه وفي أدلته مفصل في كتب النحو.

﴿وحاق﴾ أي أحاط ﴿بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم، ووضع هذا مكان يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء منهم، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم ﴿ولئن أذقنا الانسان﴾ أي الجنس فيشمل المؤمن والكافر، ويدل على ذلك الاستثناء الآتي، قيل المراد به جنس الكفار، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الاسلام في الغالب، وقيل المراد بالانسان الوليد بن المغيرة، وقيل عبد الله بن أمية المخزومي ﴿منا رحمة﴾ أي نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن وسعة العيش والرخاء.

﴿ثم نزعناها منه﴾ أي سلبناه اياها واخذناها قهراً عليه، وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها ﴿انه ليؤوس﴾ أي آيس من الرحمة شديد القنوط من عودها وامثالها لقلة صبره وعدم ثقته بالله ﴿كفور﴾ عظيم الكفران وهو الجحود لها. قاله ابن الاعرابي

وفي ايراد صيغتي المبالغة ما يدل على ان الانسان كثير اليأس وكثير الجحد عند ان يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ولا يشكر ما قد سلف له منها. وفي التعبير بالذوق ما يدل على انه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾

﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ والنعماء انعام يظهر اثره على صاحبه؛ والضراء ظهور أثر الاضرار على من أصيب به، والمعنى انه ان أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة والغنى بعد أن كان في ضر من فقر او مرض أو خوف، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى.

﴿ليقولن﴾ اي بل يقول ﴿ذهب السيئآت عني﴾ أي المصائب التي ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه ﴿انه لفرح فخور﴾ أي كثير الفرح بطراً أو أشراً كثير الفخر على الناس بتعديد المناقب والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم، والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى.

وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة فإن كليهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة كما تقدم.

﴿إلا الذين صبروا﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن، والشكر عند حصول المنن، قال الاخفش: هو استثناء منقطع، يعني ولكن الذين صبروا فإنهم ليسوا كذلك، وقيل متصل اذ المراد بالانسان الجنس لا واحد بعينه قاله الفراء ﴿وعملوا الصالحات﴾ في حالة النعمة والنقمة.

﴿اولئك﴾ إشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم وان جمت ﴿وأجر﴾ يؤجرون به على اعمالهم الحسنة ﴿كبير﴾ متناه في الكبر، وهو الجنة، ووصف الأجر به لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ودفع التكاليف والأمن من عذاب الله والنظر الى وجهه الكريم، واختياره على العظيم لعله لرعاية الفواصل.

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ
كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾

ثم سلى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال ﴿فلعلك﴾ لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب واقتراح الآيات التي يقترحونها عليك على حسب هواهم وتعنتهم ﴿تارك بعض ما يوحى اليك﴾ مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه مما يشق عليهم سماعه او يستشقون العمل به كسب آلهتم، وأمرهم بالايمان بالله وحده. وقيل هذا الكلام خارج مخرج الاستفهام أي هل أنت تارك، وقيل هو في معنى النفي مع الاستبعاد أي لا يكون منك ذلك بل تبلغهم جميع ما انزل الله عليك أحبوا ذلك أم كرهوا، شاءوا أم أبوا.

﴿وضائق به صدرك﴾ الضمير راجع الى «ما» او الى بعض وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿أن يقولوا﴾ أي كراهة أو مخافة، أو لأجل أن أو بأن لا. وقال أبو البقاء: لأن يقولوا ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه كنز﴾ أي مال مكنوز مخزون ينتفع به ويستغني به ﴿أو جاء معه ملك﴾ يصدقه ويبين لنا صحة رسالته.

ثم بيّن سبحانه أن حاله صلى الله عليه وسلم مقصور على النذارة فقال ﴿إنما أنت نذير﴾ أي ليس عليك إلا الانذار بما أوحى اليك، وليس عليك حصول مطلوبهم وايجاد مقترحاتهم ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب ان يفعل.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أم هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة، أضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحي وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة، وشرع في ذكر ارتكابهم لما هو أشد من ذلك وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراء، والاستفهام للتقريع والتوبيخ والضمير المستتر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والبارز لما يوحى.

ثم أمره الله سبحانه ان يجيب عليهم بما يقطعهم ويبيِّن كذبهم ويظهر به عجزهم فقال ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله﴾ أي مماثلة له في البلاغة وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعنى، ووصف السور بما يوصف به المفرد فقال مثله ولم يقل أمثاله لأن المراد مماثله كل واحدة من السور أو لقصد الايماء الى أن وجه الشبه ومداره المماثلة في شيء واحد وهو البلاغة البالغة الى حد الاعجاز.

وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية والافراد شرط، وقيل لفظة مثل وان كانت بلفظ الافراد فانها يوصف بها المثنى والمجموع والمؤنث كقوله تعالى ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ وتجوز المطابقة قال تعالى ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ﴾ وقال تعالى: ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ والهاء في مثله تعود لما يوحى.

ثم وصف السور بصفة أخرى فقال ﴿مفتريات﴾ جمع مفتراة كمصطفيات في مصطفاة فانقلبت الألف ياء كالتثنية، قاله السمين أي مختلفات حيث قالوا له افتريت هذا القرآن من عند نفسك وليس من عند الله، فتحداهم وارخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم وقال مفتريات في مقابلة قولهم افتراه.

ولما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم ﴿وادعوا﴾ للاستظهار على المعارضة بالعشر السور ﴿من استطعتم﴾ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الانساني و ﴿من دون الله﴾ أي ممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً لله سبحانه أي ادعوا من استطعتم متجاوزين الله سبحانه ﴿ان كنتم صادقين﴾ فيما تزعمون من افترائي له.

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

﴿فإلَّم﴾ تكتب بغير نون كما في خط المصحف وهذا في خصوص هذا الموضع ﴿يستجيبوا لكم﴾ أي فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم به من الاتيان بعشر سور مثله، ولا استجابوا الى المعارضة المطلوبة منهم، ويكون الضمير في لكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للنبي (ﷺ) وحده وجمع تعظيماً وتفخيماً.

﴿فاعلموا﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين او للرسول وحده على التأويل الذي سلف قريباً ومعنى أمرهم بالعلم أمرهم بالثبات عليه لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الاتيان بعشر سور مثله او المراد بالأمر بالعلم الأمر بالازدياد منه الى حد لا يشوبه شك، ولا تخالطه شبهة، وهو علم اليقين، والأول أولى.

﴿أنما أنزل﴾ متلبساً ﴿بعلم الله﴾ المختص به الذي لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الافهام لما اشتمل عليه من الاعجاز الخارج عن طوق البشر، وليس مفترى على الله، وانما أداة حصر ويجوز في ما أن تكون موصولة اسمية او حرفية تقديره فاعلموا ان تنزيله أو أن الذي أنزله متلبس بعلم الله ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي واعلموا أن الله هو المتفرد بالالوهية لا شريك له ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه، ثم ختم الآية بقوله ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ اي ثابتون على الاسلام راسخون فيه مخلصون له إذا تحقق عندكم اعجازه.

عن مجاهد قال: الخطاب لاصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي هل أنتم مزدادون من الطاعات لانه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الاتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم وبصيرة زائدة وان كنتم مسلمين من قبل هذا فان الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم.

وقيل المعنى فان لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن تعبدونهم وتزعمون أنهم يضرون وينفعون فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى لما اشتمل عليه من الاعجاز الذي يتقاصر دونه قوة المخلوقين وانه أنزل الله الذي لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأفهام.

واعلموا انه المتفرد بالألوهية لا شريك له فهل أنتم بعد هذا مسلمون أي داخلون في الإسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه بعد قيام الحجة القاطعة.

وفي مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر، وهذا الوجه أقوى من الوجه الأول من جهة، وأضعف منه من جهة.

فأما جهة قوته فلاتّساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تأويل، وأما ضعفه في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه الى تكلف، وهو أن يقال إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم، على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم في عدم ايمانهم واستمرارهم على الكفر، يفيد حصول العلم لهؤلاء

الكفار بأن هذا القرآن من عند الله وان الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له وذلك يوجب دخولهم في الإسلام.

وأعلم انه قد اختلف التحدث للكفار بمعارضة القرآن فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله: ﴿لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾ وبعشر سور كما في هذه الآية وذلك لأن العشرة أول عقد من العقود، وبسورة منه كما تقدم في البقرة ويونس، وذلك لأن السورة أقل طائفة منه.

ثم ان الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ واختلف أهل التفسير في هذه الآية فقال الضحاك: نزلت في الكفار وأهل الشرك واختاره النحاس بدليل الآية التي بعدها ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ وقال أنس: نزلت في اليهود والنصارى، وعن الحسن مثله، وقيل نزلت في المنافقين، وقيل الآية واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم والحمل على العموم أولى.

والمعنى ان من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك وليس المراد مجرد الارادة والمراد بزينتها ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة في الرزق وارتفاع الحظ ونفاذ القول وكثرة الاولاد والرياسة ونحو ذلك، وادخال كان في الآية يفيد انهم مستمرون على ارادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ولهذا قيل انهم مع اعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الآخرة لأنهم جردوا قصدهم الى الدنيا ولم يعملوا للآخرة.

وظاهر قوله: ﴿نوف اليهم أعمالهم فيها﴾ ان من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوي لا محالة، ولكن الواقع في الخارج يخالف ذلك فليس كل متمن ينال من الدنيا أمنيته وان عمل لها وأرادها فلا بدّ من تقييد ذلك

بمشيئة الله سبحانه، عن ابن عباس قال: يعني من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة او تهجداً بالليل لا يعمله إلا لذلك.

قال القرطبي: ذهب اكثر العلماء الى ان هذه الآية مطلقة وكذلك الآية التي في الشورى ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه - ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ ﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها كذلك، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾ وقيدتها وفسرتها التي في سبحان ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾.

﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم في الدنيا لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب اعمالهم لها وذلك في الغالب، وليس بمطرد بل ان قضت به مشيئته سبحانه ورجحته حكمته البالغة.

وقال القاضي: معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والطيبات والمنافع، فخص الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلاً يسيراً. أ هـ.

وانما عبر عن عدم نقص أعمالهم بنفي البخس الذي هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التي هي إعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل عن كونها مستوجبة لذلك، بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة في نفي النقص، كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ الاشارة الى المريدين المذكورين ولا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها الموجبة للجزاء الحسن في الدار الآخرة او تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدم.

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي ظهر في الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الاخروي لولا انهم أفسدوها بفساد مقاصدهم وعدم الخلوص وارادة ما عند الله في دار الجزاء، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها.

ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال: ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي انه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتد به، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح.

عن مجاهد قال: هم أهل الرياء، وهذا مشكل لأن قوله اولئك الذين، الآية لا يليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا إن تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار. ويدل له ما روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار»[1] أخرجه الترمذي.

---

(١) الترمذي، كتاب العلم باب ٦.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً اشرك فيه معي غيري تركته وشركه[٢] اخرجه مسلم. وفي الباب أحاديث بمعناه والرياء هو الشرك الأصغر كما ورد في الحديث، وهذا هو أحد الأقوال.

والذي تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون في القرآن العظيم اندراجاً أولياً، فإنه عز وعلا لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن يزدادوا علماً ويقيناً بأن القرآن مُنزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شيء أصلاً، وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة، وتبين أنهم ليسوا على شيء أصلاً، اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شيء في الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية، وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه، لقد بيّن ذلك أي بيان.

(٢) مسلم ٢٩٨٥.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

ثم بيَّن سبحانه ان بين من كان طالباً للدنيا فقط ومن كان طالباً للآخرة تفاوتاً وتبايناً بعيداً فقال: ﴿أفمن كان على بيّنة﴾ برهان يدل على الحق ﴿من ربه﴾ في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والايمان بالله كغيره، ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها، وقيل المراد به النبي صلى الله عليه وسلم، أي أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل، وقد بشرت به الكتب السابقة كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

والضمير في ﴿ويتلوه شاهد﴾ راجع الى البيّنة باعتبار تأويلها بالبرهان أي يؤيده ويشدّده ويقويه، والضمير في ﴿منه﴾ راجع الى القرآن لأنه تقدم ذكره في قوله أم يقولون افتراه أو راجع الى الله تعالى. والمعنى ويتلو البرهان الذي هو البيّنة شاهد يشهد بصحته من القرآن أو من الله سبحانه، والشاهد هو الاعجاز الكائن في القرآن او المعجزات التي ظهرت لرسول الله (ﷺ) فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن.

وقال الفراء: قال بعضهم: ويتلوه شاهد منه الانجيل وان كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق، والهاء في منه لله عز وجل. وقيل المراد بمن كان على بيّنة من ربه هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه.

وعن علي بن أبي طالب قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فرسول الله صلى الله عليه وسلم بيّنة

من ربه وأنا شاهد منه، اخرجه أبو نعيم وابن أبي حاتم.

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويتلوه شاهد منه، علي[1] أخرجه ابن عساكر. وعنه وددت أني أنا هو ولكنه لسان محمد. وعن ابن عباس أن الشاهد جبريل، ووافقه سعيد بن جبير وعلقمة وابراهيم ومجاهد والضحاك واكثر المفسرين. وقال الحسن وقتادة: هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم.

ووجه ذلك أن اللسان لما كان يعرب عما في الجنان، ويظهره جعل كالشاهد له لأنه آية الفصل والبيان وبه يتلى القرآن. وقال مجاهد: الشاهد هو ملك يحفظ النبي (ﷺ) ويسدده والأول أولى.

﴿ومن قبله﴾ أي القرآن ﴿كتاب موسى﴾ عطف على شاهد والتقدير ويتلوه الشاهد وشاهد آخر وهو كتاب موسى، فهو ان كان متقدماً في النزول فهو يتلو الشاهد في الشهادة، وانما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخراً في الوجود لكونه وصفاً لازماً غير مفارق فكان أعرق في الوصفية من كتاب موسى.

ومعنى شهادة كتاب موسى وهو التوراة انه بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخبر بأنه رسول من الله.

قال الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، وقرىء كتاب موسى بالنصب أي يتلو كتاب موسى جبريل.

﴿إماماً ورحمة﴾ الإمام هو الذي يؤتم به في أمور الدين ويقتدى به في الأحكام والشرائع، والرحمة النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله

---

(١) فيه رائحة التشيع.

عليهم وعلى من بعدهم الى يوم القيامة باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن.

﴿أولئك﴾ أي المتصفون بتلك الصفة الفاضلة وهو الكون على البينة من الله ﴿يؤمنون به﴾ أي يصدقون بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن ﴿ومن يكفر به﴾ أي بالنبي أو بالقرآن ﴿من الأحزاب﴾ وهم المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة وغيرهم أو المتحزبون من أهل الأديان كلها قال قتادة: الكفار أحزاب كلهم على الكفر.

﴿فالنار موعده﴾ أي هو من أهل النار لا محالة وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط بها الوصف من أفانين العذاب.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي ارسلت به إلا كان من أصحاب النار[1] اخرجه البغوي بسنده، قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله حتى بلغني هذا الحديث، فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية.

﴿فلا تك في مرية منه﴾ أي في شك من كون القرآن نازلاً من عند الله وفيه تعريض بغيره صلى الله عليه وسلم لأنه معصوم عن الشك في القرآن او في شك من الموعد. والمرية بالكسر والضم والأولى لغة الحجاز، وبها قرأ جماهير الناس، والثانية لغة أسد وتميم وبها قرأ السلمي وغيره ﴿انه الحقّ من ربك﴾ فلا مدخل للشك منه بحال من الأحوال ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك مع وجوب الايمان به وظهور الدلائل الموجبة له، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقاً أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلاً.

---

(١) شرح السنة ١/١٠٤.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)﴾

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم منهم لانفسهم لأنهم افتروا عليه سبحانه كذباً بقولهم لأصنامهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقولهم الملائكة بنات الله، وأضافوا كلامه سبحانه الى غيره، واللفظ وان كان لا يقتضي إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الانكاري فالمقام يفيد نفي المساوي لهم في الظلم، فالمعنى على هذا لا أحد مثلهم في الظلم فضلاً عن أن يوجد من هو أظلم منهم، وذكر لهم هنا من أوصافهم أربعة عشر وصفاً، أولها افتراء الكذب وآخرها كونهم في الآخرة أخسر من غيرهم

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بالظلم المتبالغ ﴿يعرضون على ربهم﴾ يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم أو المراد بعرضهم عرض أعمالهم عرضاً تظهر به فضيحتهم ﴿ويقول الاشهاد﴾ جمع شهيد، ورجحه أبو علي بكثرة ورود شهيد في القرآن كقوله ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً، فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾.

وقيل هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب. قال مجاهد: هم الملائكة الحفظة وقيل المرسلون. قاله ابن عباس، وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه، وقيل جميع الخلائق، قاله قتادة. والمعنى انه يقول هؤلاء الاشهاد عند العرض

﴿هؤلاء﴾ المعرضون أو المعروضة أعمالهم ﴿الذين كذبوا على ربهم﴾ في

الدنيا بما نسبوه اليه ولم يصرحوا بما كذبوا به، كأنه كان أمراً معلوماً عند أهل ذلك الموقف ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء، هذا من تمام كلام الاشهاد، أي يقولون ألا لعنة الله الخ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه. قاله بعدما قال الاشهاد.

وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يدني المؤمن حتى يضع كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول رب أعرف، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه انه قد هلك قال فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد الى قوله الظالمين[1].

والفائدة في قول الاشهاد بهذه المقالة المبالغة في فضيحة الكفار والتقريع لهم على رؤوس الاشهاد.

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه، وقال السدي عن محمد صدت قريش عنه الناس.

﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي يصفونها بالاعوجاج تنفيراً للناس عنها أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر، يقال بغيتك شراً أي طلبته لك. وقال أبو مالك: يعني يرجون بمكة غير الاسلام ديناً.

﴿وهم﴾ أي والحال أنهم هم بالآخرة ﴿كافرون﴾ أي غير مصدقين فكيف يصدون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت، وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به، حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة الى عظيم كفرهم.

---

(١) البخاري كتاب التوحيد باب ٣٦ بلفظ: «يدنو احدكم من ربه حتى. . .».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا إن أراد عقوبتهم، وقيل معناه سابقين، وقيل فائتين، وقيل مفلتين أنفسهم من أخذه لو أرادوا ذلك في الارض مع سعتها وان هربوا فيها كل مهرب

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله سبحانه من عقوبتهم وانزال بأسه بهم؛ ومن زائدة

﴿يضاعف﴾ وقرىء يضعّف بالتشديد ﴿لهم العذاب﴾ في الآخرة مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخي عن تعجيله لهم ليكون عذاباً مضاعفاً بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث، بعد الموت

وقال السيوطي: بإضلالهم غيرهم قال الصاوي: حاصله[1] ان المضاعفة مخصوصة بالحسنات، وأما السيئات فلا تضاعف قال تعالى ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ فمعنى المضاعفة الشدة لأنهم يعذبون عذابين عذاباً على ضلالهم في أنفسهم وعذاباً على اضلالهم غيرهم.

﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أي أفرطوا في إعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرون على السمع للحق وهذا تعليل لمضاعفة

(١) قوله حاصله أي حاصل قول السيوطي إ هـ منه.

العذاب ﴿وما كانوا يبصرون﴾ أي ولا يقدرون على الابصار لفرط تعاميهم عن الصواب.

ويجوز أن يراد بقوله ﴿ وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ انهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعاً ويدفعون عنهم ضراً .

وقوله : ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ اعتراض وسط بينهما نعياً عليهم من أول الأمر سوء العاقبة ويجوز أن يكون ما هي المدة، والمعنى انه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر، وقال الفراء: لا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ.

وقال الزجاج : لبغضهم النبي صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون ان يسمعوا منه ولا يفهموا عنه .

قال النحاس: هذا معروف في كلام العرب يقال فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان، إذا كان ثقيلاً عليه.

﴿أولئك﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ بعبادة غير الله، والمعنى اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم في تجارتهم أعظم خسران ﴿وضل﴾ أي ذهب وضاع ﴿عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة التي يدعون انها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم إلا الخسران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾

﴿لا جرم انهم في الآخرة هم الاخسرون﴾ قال الخليل وسيبويه: لا جرم بمعنى حق فهي عندهما بمنزلة كلمة واحدة وبه قال الفراء، وروي عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك لا بد ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً.

وقال الزجاج: ان جرم بمعنى كسب وفاعله مضمر أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وان منصوبة بجرم.

قال الأزهري: وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة، وقال الكسائي: معنى لا جرم لا صد ولا منع، وقال جماعة من النحويين: ان معنى لا جرم لا قطع قاطع قالوا والجرم القطع وقد جرم النخل واجترمه أي قطعه.

ووردت هذه اللفظة في القرآن في خمسة مواضع متلوة بأن واسمها ولم يجيء بعدها فعل ويقال في كل واحد منها ما قيل هنا، وفيه لغات بكسر الجيم وبضمها ولا جر بحذف الميم، ولا ان ذا جرم ولا ذو جرم وغير ذلك:

وفي هذه الآية بيان انهم قد بلغوا في الخسران الى حد يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ اليه، وهذه الآيات مقررة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها وبين من كان على بينة من ربه.

﴿ان الذين آمنوا﴾ أي صدقوا بكل ما يجب عليهم التصديق به من

كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الايمان ﴿وعملوا الصالحات﴾ أراد بها جميع أعمال الجوارح ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي أنابوا اليه وسكنوا، وقيل خشعوا وقيل خضعوا وقيل خافوا، قاله ابن عباس وقيل اطمأنوا قاله مجاهد، وهذا اشارة إلى أعمال القلوب، وقيل وأصل الاخبات الاستواء في الخبت وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان.

قال الفراء: الى ربهم ولربهم واحد، وقيل لفظ الاخبات يتعدى باللام وإلى فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن اليه، وإذا قلت له فمعناه خشع وخضع ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ لا انقطاع لنعيمها ولا زوال لأهلها.

﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع على ان كل فريق شبه بشيئين أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا يكون الواو في والاصم وفي والسميع لعطف الصفة على الصفة.

﴿هل يستويان مثلاً﴾ أي حالاً وصفة ﴿أفلا تذكرون﴾ في عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر لا يخفى على من له تذكر وعنده تفكر وتأمل. والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين.

ولما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس أكد ذلك بذكر القصص على طريقة الافتنان في الكلام، ونقله من اسلوب الى اسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين والقبول أتم فقال.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

﴿ولقد﴾ الواو للابتداء واللام هي الموطئة للقسم ﴿أرسلنا نوحاً الى قومه اني لكم نذير مبين﴾ بالكسر على ارادة القول أي فقال أو قائلا، وقرىء بالفتح على اضمار حرف الجر-أي أرسلناه متلبساً بذلك الكلام وهو اني لكم، واقتصر على النذارة دون البشارة لأن دعوته كانت لمجرد الانذار أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به.

وفي هذه السورة ذكر أنواع من القصص، الأولى قصة نوح، الثانية قصة هود، الثالثة قصة صالح، الرابعة قصة ابراهيم؛ الخامسة قصة لوط، السادسة قصة شعيب، السابعة قصة موسى وهي آخر القصص على الترتيب الزماني.

﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ أن مصدرية أو مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير أو بمبين ولا ناهية ﴿اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ تعليلية والمعنى نهيتكم عن عبادة غير الله لاني أخاف عليكم، وفيها تحقيق لمعنى الانذار، واليوم هو يوم القيامة أو يوم الطوفان، ووصفه بالأليم من باب الاسناد المجازي مبالغة.

ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه، وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ الملأ الاشراف كما تقدم غير مرة، ووصفهم بالكفر ذماً لهم وفيه دليل على أن بعض اشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته، أي نحن وأنت مشتركون في البشرية فلم تكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا.

والجهة الثانية ﴿وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا﴾ أي ولم يتبعك أحد من الاشراف فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الاراذل لك، والأراذل جمع أرذل بضم الذال وأرذل جمع رذل بسكونها مثل أكالب واكلب وكلب فهو جمع الجمع، وقيل الاراذل جمع أرذل كالاساود جمع أسود، وهم السفلة كالحاكة والاساكفة، والارذل الأدون من كل شيء فقال النحاس الأراذل الفقراء والذين لا حسب لهم والحسب الصناعات.

وقال الزجاج: نسبوهم الى الحياكة ولم يعلموا ان الصناعات لا أثر لها في الديانة لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسل لا تكون بالشرف والمال والمناصب العلية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين، وهذه عادة الله في الانبياء والأولياء ان أول من يتبعهم ضعفاء الناس لذلهم فلا يتكبرون عن الاتباع بمال ولا جاه.

وقال ثعلب عن ابن الاعرابي: السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه قيل له فمن سفلة السفله، قال: الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه.

والظاهر من كلام أهل اللغة ان السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية، والرؤية في الموضعين ان كانت القلبية فبشراً في الأول واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني، وان كانت البصرية فهما منتصبان على الحال.

﴿بادي الرأي﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تعمق، يقال بدا يبدو إذا ظهر قال الازهري: معناه فيما يبدو لنا من الرأي، وقيل أول الرأي قرىء بالهمز وتركه وهما سبعيتان ونصبه على الظرف أي وقت حدوث أول رأيهم.

والوجه الثالث من جهات قدحهم في نبوته ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ بالمال والشرف والجاه والرأي خاطبوه في الوجهين الأولين منفرداً، وفي هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه، ثم اضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد واستبقاء ماهم فيه من الرياسة الدنيوية فقالوا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ فيما تدعونه، ويجوز

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أن يكون هذا خطاباً للأراذل وحدهم، والأول أولى لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له.

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليه السلام عليهم اجمالاً فقال ﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ أي اخبروني ﴿ان كنت على بينة﴾ برهان ﴿من ربي﴾ في النبوة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحاً ليس بقادح في الحقيقة فان المساواة في صفة البشرية لا تمنع المفارقة في صفة النبوة واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فانهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة، وفي هذا الخطاب غاية التلطف بهم.

﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ وهي النبوة وقيل الرحمة المعجزة والبينة النبوة قيل ويجوز أن يكون الرحمة هي البينة نفسها والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البينة وقيل الرحمة هي على الحق، وقيل هي الهداية إلى معرفة البرهان، وقيل الإيمان والافراد في ﴿فعميت﴾ على ارادة كل واحدة منهما أو على ارادة البينة لأنها هي التي تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر، ومعنى عميت خفيت يقال عميت عن كذا وعمي عليّ كذا إذا لم أفهمه.

قيل وهو من باب القلب لأن البينة أو الرحمة لا تعمي، وانما يعمى عنها

فهو كقولهم ادخلت القلنسوة رأسي، وقيل ان عمى الدليل بمعنى خفائه مجازاً فيقال حجة عمياء كما يقال مبصرة للواضحة وهو استعارة تبعية، شبه خفاء الدليل بالعمى في ان كُلّاً يمنع الوصول الى المقاصد وقرىء فعميت بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول أي فعماها الله.

﴿عليكم﴾ فلم تهدكم كما لو عمي على القوم دليلهم في المفازة بقوا بغيرها وفي قراءة أُبيّ فعماها عليكم.

والاستفهام في ﴿أنلزمكموها﴾ للانكار أي لا يمكنني ان اضطركم الى المعرفة بها أي بالرحمة والمراد الزام الجبر بالقتل ونحوه لا إلزام الايجاب إذ هو حاصل ولذا فسره السيوطي بقوله انجبركم على قبولها ﴿وأنتم﴾ أي والحال انكم ﴿لها كارهون﴾ أي منكرون ونافون لها، والمعنى أخبروني ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة النبوة إلا انها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها والحال انكم لها كارهون غير متدبرين فيها فان ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وعن قتادة قال: أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه.

﴿ويا قوم لا أسالكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله﴾ فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالاً حتى يكون بذلك محلاً للتهمة، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه ادعى طلباً للدنيا، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا.

﴿و﴾ قوله ﴿ما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل

عنه وقيل إنهم سألوه طردهم تصريحاً لا تلميحاً، وهذا كما قالت قريش لمحمد (ﷺ) كما تقدم في سورة الأنعام ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ الآية

ثم علل ذلك بقوله ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي لا أطردهم فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه، وكأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم.

ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ كل ما ينبغي أن يعلم، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم.

وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله ﴿ويا قوم من ينصرني من الله﴾ أي من يمنعني من عذاب الله وانتقامه ﴿ان طردتهم﴾ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الايمان والاجابة الى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم لا يقع من الأنبياء المؤيدين بالعصمة، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس.

﴿أفلا تذكرون﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر فلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكره وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ، وما هم عليه الصواب، وقيل تقديره أتامروني بطردهم فلا تذكرون، وقيل الأصل فلا تذكرون، وقيل أفلا بمعنى هلا التحضيضية كما ذكره الكرخي.

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أعطيكم منها، بين لهم انه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تبليغ الرسالة، كذلك لا يدعي أن عنده خزائن الله حتى تستدلوا بعدمها على كذبه كما قالوا ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ والمراد بخزائن الله خزائن رزقه، وقال ابن الانباري: الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق والأول أولى لقوله ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أدعي أني أعلم بغيب الله بل لم أقل لكم إلا إني نذير مبين إني أخاف

عليكم عذاب يوم أليم وهذا رد لقولهم ﴿وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي في ظاهر حالهم وأول فكرهم، وفي الباطن لم يتبعوك، فقال لهم إني إنما أعوّل على الظاهر لأني لا أعلم الغيب فأحكم به.

﴿ولا أقول﴾ لكم ﴿إني ملك﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا، فإن البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها، وقد استدل بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الانبياء، والأدلة نفي هذه المسألة مختلفة وليس لطالب الحق الى تحقيقها حاجة، فليست هي مما كلفنا الله بعلمه

﴿ولا أقول للذين﴾ أي في شأن الذين ﴿تزدري أعينكم﴾ أي تحتقر وتستصغر، والإزدراء مأخوذ من أزرى عليه إذا عابه وزرى عليه إذا احتقره، والمعنى اني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ أي توفيقاً وهداية وإيماناً وأجراً بل قد آتاهم الخير العظيم بالايمان به واتباع نبيه، فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ورافعهم في الدنيا الى أعلى محل، ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئاً.

﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ من الايمـان به والاخلاص له فمجازيهم على ذلك ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء ﴿اني اذاً لمن الظالمين﴾ لهم ان فعلت ما تريدونه بهم أو من الظالمين لأنفسهم ان فعلت ذلك بهم

ثم جاوبوه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه ﴿قالوا﴾ عجزاً عن القيام بالحجة وقصوراً عن رتبة المناظرة وانقطاعاً عن المباراة بقولهم ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ أي خاصمتنا بأنواع الخصام ودفعتنا بكل حجة لها مدخل في المقام، ولم يبق لنا في هذا الباب مجال فقد ضاقت علينا المسالك وانسدت أبواب الحيل ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب الذي تخوفنا منه وتخافه علينا ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فيما تقوله لنا.

إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

فأجاب بأن ذلك ليس اليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته و﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفائتين عما أراده الله بكم بهرب أو مدافعة ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ الذي أبذله لكم وأستكثر منه قياماً مني بحق النصيحة لله بإبلاغ رسالته لكم بإيضاح الحق؛ وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿ان أردت أن أنصح لكم﴾ وجواب هذا الشرط محذوف والتقدير لا ينفعكم نصحي كما يدل عليه ما قبله

﴿ان كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي إغواءكم فلا ينفعكم النصح مني، وكان جواب هذا الشرط محذوفاً كالأول وتقديره ما ذكرنا، وهذا التقدير انما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزاء على الشرط، وأما على مذهب من يجيزه فجزاء الشرط الأول ولا ينفعكم نصحي، والجملة جزاء للشرط الثاني.

قال ابن جرير: معنى يغويكم يهلككم بعذابه؛ وظاهر لغة العرب أن الاغواء الاضلال، فمعنى الآية لا ينفعكم نصحي ان كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد، ويخذلكم عن طريق الحق. وحكى عن طي أصبح فلان غاوياً أي مريضاً وليس هذا المعنى هو المراد في الآية، وقد ورد الإغواء بمعنى الاهلاك، ومنه فسوف يلقون غياً، وهو غير ما في الآية هذه.

﴿هو ربكم﴾ فإليه الاغواء واليه الهداية ﴿واليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم ان خيراً فخير، وان شراً فشر

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم ان ما أوحى الى نوح مفترى ثم أمره أن يجيب بكلام منصف فقال ﴿قل ان افتريته فعليَّ اجرامي﴾ بكسر الهمزة مصدر أجرم أي فعل ما يوجب الاثم وجرم واجرم بمعنى، قاله النحاس أي اكتسب الذنب وافتعله، والمعنى فعليّ اثمي أو جزاء كسبي، ومن قرأ بفتح الهمزة قال هو جمع جرم ذكره النحاس أيضاً.

قال قتادة: اجرامي أي عملي، والاجرام اكتساب السيئة واقترافها، يقال جرم جرماً أذنب والاسم منه الجرم بالضم والجريمة مثله، وأجرم هو الفاشي في الاستعمال، ويجوز جرم ثلاثياً، والمعنى ان كنت افتريته فعليّ عقاب جرمي، وان كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذفت هذه البقية لدلالة الكلام عليها، ولا يدل ذلك على انه كان شاكاً لأنه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي من اجرامكم بسبب ما تنسبون الى من الافتراء، قيل وفي الكلام حذف والتقدير لكن ما افتريته فالاجرام وعقابه ليس الا عليكم وأنا بريء منه.

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية فقيل انها حكاية عن نوح وما قاله لقومه، وقيل هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكفار مكة قاله مقاتل، فعلى هذا تكون الآية معترضة في قصة نوح والأول أولى، لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام.

﴿وأوحى الى نوح انه﴾ في محل رفع على أنه نائب الفاعل الذي لم يسم، ويجوز أن يكون في محل نصب بتقدير الباء أي بأنه ﴿لن يؤمن من قومك الا من قد آمن﴾ وفي الكلام تأييس له من ايمانهم وانهم مستمرون على كفرهم مصممون عليه لا يؤمن أحد منهم الا من قد سبق ايمانه، أو المراد الا من استعد للايمان وتوقع منه ولا يراد ظاهره، والا كان المعنى الا من آمن فإنه يؤمن

وقيل ان الاستثناء منقطع وهو على طريقة قوله ﴿الا ما قد سلف﴾ قال قتادة: وذلك حين دعا عليهم نوح قال ﴿لا تذر على الارض من الكافرين دياراً﴾ وعن الحسن قال: ان نوحاً لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ البؤس الحزن أي فلا تحزن عليهم، قاله ابن عباس والبائس المستكين، فنهاه الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن في استكانة، يقال ابتأس فلان اذا بلغه ما يكره والمبتئس الكاره الحزين.

ثم ان الله سبحانه لما أخبره انهم لا يؤمنون البتة عرفه الله هلاكهم وألهمه الأمر الذي يكون به خلاصة وخلاص من آمن معه فقال ﴿واصنع الفلك﴾ الظاهر أنه أمر ايجاب لأنه لا سبيل إلى صون روح نفسه وأرواح غيره من الهلاك إلا بهذا الطريق وصون النفس من الهلاك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أي اعمل السفينة متلبساً ﴿بأعيننا﴾ أي بمرأى منا وبأبصارنا لك وهو مجاز عن كلاء الله له بالحفظ وعبر بالأعين عن ذلك لأنها آلة الرؤية وهي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب.

وقيل بعلمنا لك وجمع الأعين للمبالغة والتعظيم لا للتكثير، وقيل معناها بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك، وقيل بأمرنا، والحق ان العين صفة من صفاته لا ندري كيفيتها فيجب إمرارها على ظاهرها من دون

تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تقدير.

ومعنى ﴿ووحينا﴾ بما أوحينا اليك من كيفية صنعتها، وقال ابن عباس: بعين الله ووجهه ولم يعلم نوح كيف يصنع الفلك فأوحى الله اليه ان يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ قيل هم امرأته وابنه أي لا تطلب إمهالهم وترك اهلاكهم أي لا تراجعني ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم فقد حان وقت الانتقام منهم ﴿انهم مغرقون﴾ تعليل لما قبله أي فانهم محكوم منا عليهم بالغرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل الى دفعه ولا تأخيره، وقيل المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم فانهم مغرقون في الوقت المضروب لذلك لا يتأخر اغراقهم عنه.

﴿و﴾ طفق ﴿يصنع الفلك﴾ أو أخذ أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة، وأياً ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الآتية الواقعة حالاً من ضميره، ومكث في صنع السفينة مائتي سنة ذكره الصاوي وقيل أربعمائة سنة ذكره أبو السعود، وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين وقيل ثلاثين سنة.

وكان طولها ثلثمائة ذراع وسمكها في السماء ثلاثين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً والذراع إلى المنكب، وكانت من خشب الساج لها ثلاثة بطون وأطباق سفلي ووسطى وعليا، وكان بابها في عرضها فحمل في أسفلها الدواب والوحش، وفي أوسطها الانس وفي أعلاها الطير، وقيل السفلى للوحش والوسطى للطعام والعليا له ولمن آمن، قال الخفاجي: والساج شجر عظيم يكثر بالهند، وقيل إنه ورد في التوراة انها من الصنوبر وقيل غير ذلك[1].

﴿وكلما مر عليه ملأ﴾ أي جماعة ﴿من قومه سخروا منه﴾ كل ظرفية وما

---

(١) ليس على ما أورده المفسر من دليل صريح عن المعصوم فلا داعي إلى مثله.

مصدرية ظرفية أي كل وقت مرور قوم استهزؤوا به لعمله السفينة، والجملة في محل نصب على الحال، قال الأخفش والكسائي: يقال سخرت به ومنه.

وفي وجه سخريتهم منه قولان ﴿أحدهما﴾ انهم كانوا يرونه يعمل السفينة فيقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً، وكان يصنعها في برية في أبعد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة ﴿والثاني﴾ انهم لما شاهدوه يعمل السفينة وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وقالوا: يا نوح ما تصنع بها.

﴿قال﴾ أمشي بها على الماء فعجبوا من قوله وسخروا به ثم أجاب عليهم بقوله ﴿إن تسخروا منا﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال والمعنى ان تسخروا منا بسبب عملنا السفينة اليوم.

﴿فانا نسخر منكم﴾ غداً عند الغرق، ومعنى السخرية هنا الاستجهال أي ان تستجهلونا فانا نستجهلكم، وهذا على سبيل المشاكلة إذ السخرية لا تليق بمقام الأنبياء، وقيل انه لجزائهم من جنس صنيعهم فلا يقبح ﴿كما تسخرون﴾ أي تستجهلون واستجهاله لهم باعتبار اظهاره لهم ومشافهتهم وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده والتشبيه لمجرد التحقيق والوقوع أو التجدد والتكرر.

والمعنى انا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك، وقيل معناه نسخر منكم في المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق وفيه نظر فان حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية إذ هم في شغل شاغل عنها ثم هددهم بقوله.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾

﴿فسوف تعلمون من﴾ موصولة في محل نصب او استفهامية في محل رفع أي أينا ﴿يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي يهينه وهو عذاب الغرق في الدنيا، قاله ابن عباس: والمراد بعذاب الخزي العذاب الذي يخزي صاحبه ويحل عليه العار ﴿ويحل﴾ التلاوة بكسر الحاء ويجوز لغة ضمها كما في المصباح أي ينزل ﴿عليه عذاب مقيم﴾ في الآخرة وهو عذاب النار الدائم والخلود فيها.

وقيل معنى يحل يجعل المؤجل حالاً مأخوذ من حلول الدين المؤجل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعمل منها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول اعملها سفينة فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر وكيف تجري، قال سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب الماء بها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي[1]، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم، وقد روي في صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدة.

(١) المستدرك كتاب التفسير /هود ٣٤٢/٢١.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾

﴿حتى اذا جاء أمرنا﴾ حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ وما بينهما اعتراض والمراد بالأمر العذاب أو وقته وهو واحد الأمور لا الأوامر ويصح أن يراد الثاني على معنى جاء أمرنا بركوب السفينة.

﴿وفار التنور﴾ أي غلى، واختلف في تفسير التنور على أقوال (الأول) انه وجه الأرض والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً أو اشرف موضع فيها؛ روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عيينة.

(الثاني) أنه تنور الخبز الذي يخبزون فيه ابتدىء منه النبع على خلاف العادة وبه قال مجاهد وعطية والحسن وهو قول أكثر المفسرين، قيل وهذا أولى لأن اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى، ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه (الثالث) انه موضع اجتماع الماء في

السفينة وروى هذا عن الحسن. (الرابع) انه طلوع الفجر من قولهم تنور الفجر، روي ذلك عن علي بن أبي طالب (الخامس) انه مسجد الكوفة، روي ذلك عن علي أيضاً ومجاهد، وقال مجاهد: كان ناحية التنور بالكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان الشعبي يحلف بالله أنه ما فار إلا من ناحية الكوفة. (السادس) أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة قاله قتادة (السابع) انه العين التي بالجزيرة المسماة عين الوردة وهي بالشام، روي ذلك عن عكرمة، وبه قال مقاتل (الثامن) انه موضع بالهند، قال ابن عباس: كان تنور آدم

بالهند وكانت حواء تخبز فيه وصار إلى نوح.

قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض قال ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً﴾ فهذه الأقوال تجتمع في ان ذلك كان علامة هكذا، قال: وفيه نظر فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخراً.

وقد ذكر أهل اللغة أن الفور الغليان، يقال فار الماء يفور فوراً نبع وجرى وفارت القدر فوراً من باب قال وفوراناً غلت، وعلى هذا لا تجوز في الآية إلا من حيث نسبة الفوران إلى التنور، وهو اسم أعجمي عربته العرب، وعلى هذا فلا اشتقاق له.

وقيل فارسي لا تعرف له العرب اسماً غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون، وقيل جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي، وانه مما اتفق عليه لغة العرب والعجم كالصابون ووزنه تفعول ويعزى هذا لثعلب، وقيل فعول ويعزى لأبي علي الفارسي، وقيل معنى فار التنور التمثيل بحضور العذاب كقولهم حمي الوطيس إذا اشتد الحرب، وعلى هذا فهو كناية عن اشتداد الأمر.

وقيل كان من حجر لحواء فصار إلى نوح، وقد روى في تفسير التنور غير هذا. ذكر ابن جرير وغيره إن الطوفان كان في ثالث عشر من أبيب رجب في شدة القيظ وكان الفوران علامة لنوح على مجيئه وركوب السفينة.

﴿قلنا﴾ يا نوح ﴿احمل فيها﴾ أي في السفينة ﴿من كل زوجين﴾ مما في الأرض من الحيوانات ﴿اثنين﴾ ذكراً وأنثى، وقرىء من كل بالتنوين أي من كل شيء زوجين، والزوجان للاثنين اللذين لا يستغني أحدهما عن الآخر،

ويطلق على كل واحد منهما زوج كما تقول للرجل زوجٍ وللمرأة زوج؛ وهو المراد هنا أي من كل فردين متزاوجين اثنين بأن تحمل من الطير ذكراً وأنثى ومن الغنم ذكراً وأنثى، وهكذا وتترك الباقي، والمراد من الحيوانات التي تنفع والتي تلد أو تبيض ليخرج المضرات، والتي تتوالد من العفونة والتراب كالدود والقمل والبق والبعوض فلم يحمل منه شيئاً.

ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلاً للفرد، ويطلق الزوج على الضرب والصنف ومنه قوله تعالى ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

قال الرازي: وأما ما يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد لأنه من الجن، وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يفر من الغرق، وأيضاً فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح، فالأولى ترك الخوض فيه اهـ.

﴿و﴾ احمل ﴿أهلك﴾ والمراد امرأته المؤمنة وبنوه ونساؤهم ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ أي من تقدم الحكم عليه بأنه من المغرقين في علمه أو في قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون﴾ على الاختلاف الشائع فيهم، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة احمل فيها وأهلك ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامرأته الكافرة واعلة أم كنعان جعل الاستثناء من أهلك ويكون متصلاً إن أريد بالأهل ما هو أعم من المسلم والكافر منهم، ومنقطعاً إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط.

﴿و﴾ احمل ﴿من آمن﴾ من قومك في السفينة، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية بهم أو للاستثناء منهم على القول الآخر.

ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة الى من كفر به فقال ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ واعتبار المعية في إيمانهم للإيماء إلى المعية في مقر الأمان والنجاة، قيل كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم، وبه قال

قتادة وابن جرير ومحمد بن كعب القرظي، وقيل كانوا ثمانين رجلاً أحدهم جرهم، قاله ابن عباس. قال الخفاجي: وهي الرواية الصحيحة. اهـ.

ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين وهي موجودة بناحية الموصل، وقيل سبعة نوح وبنوه وثلاث كنائن له، قاله الاعمش، قال الخفاجي: ويرده عطف من آمن إلا أن يكون الأهل بمعنى الزوجة فإنه ثبت بهذا المعنى، وهو خلاف الظاهر، وقيل كانوا تسعة وسبعين: زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم.

وعن ابن اسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل غير ذلك، قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال عز وجل ﴿وما آمن معه الا قليل﴾ ولم يحد عدداً بمقدار، فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وقال اركبوا فيها﴾ القائل نوح، وقيل الله سبحانه، والأول أولى لقوله: ﴿ان ربي لغفور رحيم﴾ والركوب العلو على ظهر الشيء المتحرك حقيقة نحو ركب الدابة أو مجازاً نحو ركبه الدين؛ وفي الكلام حذف أي اركبوا الماء في السفينة فلا يرد ان ركب يتعدى بنفسه.

وقيل ان الفائدة في زيادة «في» أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لا على ظهرها، وقيل بل أنها زيدت لرعاية جانب المحلية والمكانية في السفينة كما في قوله ﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ وقوله ﴿حتى إذا ركبا في السفينة﴾.

قيل ولعل نوحاً قال هذه المقالة بعد ادخال ما أمر بحمله في الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج وأدخلها في الفلك وقال للمؤمنين اركبوا فيها، ويمكن أن يقال أنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الازواج والاهل

والمؤمنين، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات، أو يكون هذا على طريقة التغليب، وقد روى صفة القصة وما حمله نوح في السفينة وكيف كان الغرق. وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه ﴿بسم الله﴾ متعلق باركبوا أو حال من فاعله أي اركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله ﴿مجريٰها ومرساها﴾ بضم الميم فيهما من أجريت وأرسيت على إنهما اسماً زمان وهما في موضع نصب على الظرفية أي وقت إجرائها وإرسائها أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل أو إرادة القول.

وقرىء الأول بفتح الميم والثاني بضمها وهاتان القراءتان سبعيتان، وقرىء بفتحها فيهما من جرى ورسى، وهذه شاذة، وقرىء مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل على انهما وصفان لله، ويجوز أن يكونا في موضع رفع بإضمار مبتدأ أي هو مجريها ومرسيها، والرسو الثبات والاستقرار. قال مجاهد في الآية: أي حين تركبون وتجرون وترسون.

وعن الضحاك قال: كان اذا أراد أن ترسى قال: بسم الله فرست، وإذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت.

﴿ان ربي لغفور﴾ للذنوب ﴿رحيم﴾ بعباده ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني وعدم استئصاله بالغرق.

أخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وغيرهم عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمان لأمتي من الغرق اذا ركبوا الفلك أن يقولوا بسم الله الملك الرحمن بسم الله مجراها الآية ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية[1].

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ١٣٤٦ ـ تخريج الكلم ١٧٥ ـ الأحاديث الضعيفة ٢٩٣٢.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

﴿وهي تجري بهم﴾ أي فركبوا مسمين والسفينة تجري، والجملة مستأنفة أو حالية ولذلك فسره الزمخشري بقوله أي تجرى وهم فيها ﴿في موج﴾ جمع موجة وهي ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح واضطرابه في خلاله ﴿كالجبال﴾ شبهها بالجبال المرتفعة على الأرض، أي كل موجة منه كالجبل في تراكمها وارتفاعها وعظمها.

قال أهل السير: ارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً، وقيل خمسة عشر ذراعاً حتى أغرق كل شيء وعم العباد وشمل كل البلاد، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت فغير ثابت.

﴿ونادى نوح ابنه﴾ هو كنعان وقيل يام وكان كافراً؛ واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ وأجيب بأنه كان منافقاً فظن نوح أنه مؤمن، وقيل حملته شفقة الأبوه على ذلك وكان من صلبه على المعتمد.

وقال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل، وقيل أنه كان ابن امرأته ولم يكن ابنه. ويؤيده ما روي أن علياً قرأ ﴿ونادى نوح ابنها﴾ وقيل أنه كان لغير رشدة وولد على فراش نوح، ورد بأن قوله هذا وقوله ﴿ان ابني من أهلي﴾ يدفع ذلك مع ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة فإن جناب الأنبياء أرفع من أن يشار اليه بأصبع الطعن.

﴿وكان في معزل﴾ أي في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح ﴿اركبوا فيها﴾ وقيل في معزل من دين الله وقيل من السفينة. قيل وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان في أول فور التنور قبل سير السفينة.

﴿يا بني﴾ أصله بثلاث ياءات ياء التصغير ولام الكلمة وياء المتكلم ﴿اركب معنا﴾ في السفينة أي أسلم واركب، قال ملا عليّ الجيلاني: الظاهر أن معنى الآية أسلم لتستحق الركوب معنا.

﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ في البعد عنا فتهلك معهم، نهاه عن الكون معهم خارج السفينة، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم في الكفر، والأول أولى لأنه عليه السلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر.

ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال ﴿قال سآوي﴾ أي سألتجيء وأصير ﴿إلى جبل يعصمني﴾ أي يمنعني بارتفاعه وعلوه ﴿من﴾ وصول ﴿الماء﴾ إليّ زعماً منه أن ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة التي ربما يتقي منها بالصعود الى الربى، وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى، وجهلاً بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة، وان لا محيص من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجأ المؤمنين، فلذلك أراد عليه السلام أن يبين له حقيقة الحال، وأن يصرفه عن ذلك الفكر المحال.

﴿قال﴾ أي فأجاب عنه نوح بقوله ﴿لا عاصم﴾ من الجبال أي لا مانع ﴿اليوم من أمر الله﴾ فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن، فيه نفي جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجاً أولياً، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره ﴿إلا من رحم﴾ وقرىء على البناء للمفعول والاستثناء منقطع قاله الزجاج أي لكن من رحمه فهو يعصمه واستظهره السفاقسي أو متصل على ان يكون عاصم

بمعنى معصوم أي لا معصوم اليوم من أمر الله الا من رحمه الله مثل ماء دافق وعيشة راضية، واختار هذا الوجه ابن جرير والزمخشري وتبعه القاضي.

وقيل العاصم بمعنى ذي العصمة كلابن وتامر، والتقدير لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله وهو السفينة وحينئذ فلا يرد ما يقال ان معنى من رحم من رحمه الله ومن رحمه الله فهو معصوم، فكيف يصح استثناؤه عن العاصم لأن في كل وجه من هذه الوجوه دفعاً للاشكال.

وذكر صاحب الانتصاف ان الاحتمالات الممكنة هنا أربعة لا عاصم إلا راحم، لا معصوم إلا مرحوم، لا عاصم إلا مرحوم، لا معصوم إلا راحم، فالأولان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس فيكون منقطعاً أي لكن المرحوم يعصم على الأول؛ ولكن الراحم يعضم من أراد على الثاني قال عكرمة: لا ناج إلا أهل السفينة.

﴿وحال بينهما الموج﴾ أي حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق وقيل بين ابن نوح وبين الجبل والأول أولى لأن تفرع ﴿فكان من المغرقين﴾ عليه يدل على الأول لا على الثاني لأن الجبل ليس بعاصم والمعنى فصار أو فكان كنعان من المغرقين في علم الله بالفعل والمهلكين بالماء.

﴿وقيل﴾ أي بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح والقيل كما قيل في هذين الموضعين عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي بزوال الماء وبهلاكهم كما قيل في قوله تعالى ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ وعلى هذا فالآية على الاستعارة المكنية والتخييلية وقيل تمثيلية، كما فصل ذلك الخفاجي في العناية تفصيلاً بسيطاً مع ما يصحبه من لطائف البلاغة.

ولكن الحق الذي لا تردد فيه عند أولي البصيرة ان الآية على حقيقتها من النداء والأمر وهو المختار في قوله سبحانه ﴿كن فيكون﴾ وأمثاله أيضاً.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾

﴿يا أرض ابلعي﴾ يقال بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائي والفراء: والبلع الشرب وتغوير الماء ومنه البالوعة وهي الموضع الذي يشرب الماء والازدراد يقال بلع ما في فمه من الطعام إذا ازدرده، واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على ان ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج.

قال الخفاجي: النشف من نشف الثوب العرق كسمع وبصر إذا شربه، قال المدقق: هذا أولى من جعل السكاكي البلع مستعاراً لغور الماء في الأرض لدلالته على جذب الأرض ما عليها كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ولان النشف فعل الأرض والغور فعل الماء. فالله دره ما أكثر اطلاعه على حقائق المعاني اهـ.

وقال عكرمة: ابلعي هو بالحبشية ازدرديه وعن ابن منبه نحوه وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: معناه اشربي بلغة الهند وعن ابن عباس مثله.

أقول وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب ظاهر مكشوف فمالنا وللحبشة والهند والمعنى انشفي وتشربي ﴿ماءك﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفان؛دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار.وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه بأمر الله، لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل.

﴿وياسماء أقلعي﴾ الاقلاع الامساك يقال اقلع المطر إذا انقطع وأقلع عن

الشيء إذا تركه وهو قريب من الأول، والمعنى أمر السماء بامساك الماء عن الارسال، ولفظ أحمد المهايمي في تفسيره: أي اجذبي الى جهة الفوق ما نزل منك اهـ. وقيل ميز الله بين الماءين فما كان من ماء الارض أمرها فبلعته وصار ماء السماء بحاراً، وخوطبت الأرض أولاً بالبلع لأن الماء نبع منها أولاً قبل ان تمطر السماء.

﴿وغيض الماء﴾ أي نقص ونضب ما بين السماء والأرض من الماء يقال غاض الماء وغضته أنا وهو لازم ومتعد، فمن اللازم قوله تعالى ﴿وما تغيض الأرحام﴾ أي تنقص، وقيل بل هو هنا متعد أيضاً وسيأتي، ومن المتعدي هذه الآية لأنه لا يبنى للمفعول من غير واسطة حرف الجر الا المتعدي بنفسه وهو اخبار عن حصور المأمورية من السماء والأرض معاً أي فامتثلا ما أمرا به ونقص الماء، ولا يخص غيض الماء بطوفان السماء كما توهم، وفيه كلام طويل في الكشف، قال الصاوي: أي ولم يذهب بالكلية لما علمت من بقاء ماء السماء.

﴿وقضي الأمر﴾ أي أحكم وفرغ منه يعني أهلك الله قوم نوح على تمام واحكام وأنجز ما كان وعده، قاله القرطبي ﴿واستوت على الجودي﴾ أي استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودي، روى انه عليه السلام ركب في الفلك في عاشر رجب ونزل عنها في عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكراً فصار سنة، والجودي جبل بقرب الموصل.

وقيل ان الجودي اسم لكل جبل وقيل هو بالشام، وقيل بآمل وفي الحديث لقد بقي منها شيء ادركه أوائل هذه الامة ويقال انه من جبال الجنة فلذا استوت عليه بعد ان طافت الارض كلها ستة أشهر.

﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية، وقيل هو نوح وأصحابه والمعنى وقيل هلاكاً لهم وهو من الكلمات التي تختص

بدعاء السوء، ووصفهم بالظلم للاشعار بأنه علة الهلاك وللايماء إلى قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾.

قال عبد الرحمن بن خلدون: اتفقوا على ان الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ذهب بعمران الارض أجمع وبما كان من خراب المعمور وهلك الذين ركبوا معه في السفينة ولم يعقبوا فصار أهل الارض كلهم من نسله وعاد أباً ثانيا للخليقة انتهى.

وقال ابن الاثير في الكامل: واما المجوس فلا يعرفون الطوفان وكان بعضهم يقر به ويزعم انه كان في اقليم بابل وما قرب منه، وان مساكن ولد خيومرت كانت بالمشرق فلم يصل ذلك اليهم، وكذلك جميع الامم المشرقية من الهند والفرس والصين لا يعترفون بالطوفان، وبعض الفرس يعترف به ويقول لم يكن عاماً ولم يتعد عقبة حلون.

والصحيح ان جميع أهل الارض من ولد نوح عليه السلام لقوله تعالى ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ فجميع الناس من ولد سام وحام ويافث أولاد نوح انتهى.

وقال المقريزي في الخطط: ان جميع أهل الشرائع أتباع الانبياء من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على ان نوحاً هو الاب الثاني للبشر، وان العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم، فليس أحد من بني آدم إلا وهو من أولاد نوح، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك فأنكروا الطوفان.

وزعم بعضهم ان الطوفان انما حدث في اقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط وان أولاد كيومرت الذي هو عندهم الانسان الاول كانوا بالبلاد الشرقية من بابل فلم يصل الطوفان اليهم ولا إلى الهند والصين.

والحق ما عليه أهل الشرائع وان نوحاً عليه السلام لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة نزل بهم وهم ثمانون رجلًا سوى أولاده فماتوا بعد ذلك ولم يعقبوا، وصار العقب من نوح في أولاده الثلاثة، ويؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح. ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ انتهى.

وقد أطبق علماء البلاغة على ان هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة الى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الاتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الاقدام في علم البيان، الراسخين في اللغة المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها.

قال الصاوي وسليمان الجمل: قال بعضهم: هذه الآية ابلغ آية في القرآن باحتوائها على احد وعشرين نوعاً من أنواع البديع، والحال أن كلماتها تسعة عشر انتهى.

قلت: وقد تعرض لبيان ما اشتملت عليه من ذلك جماعة فأطالوا وأطابوا رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة منهم أبو حيان محمد بن يوسف الامام الاندلسي في تفسيره المسمى بالنهر الماد من المحيط ذكر فيه أحداً وعشرين نوعاً من البديع وكذا السيد محمد بن اسماعيل بن صلاح الامير في رسالته المسماة بالنهر المورود، في تفسير آية هود، وهو المناسبة والمطابقة، والمجاز، والاستعارة، والاشارة والتمثيل، والارداف، والتعليل، وصحة التقسيم، والاحتراس، والايضاح، والمساواة، وحسن النسق، والايجاز، والتسهيم والتهذيب، وحسن البيان، والتمكين، والتجنيس، والمقابلة، والذم، والوصف.

وبسط في بيان هذه الأنواع أتم بسط وقال هذا كله نظراً في الاية من

جانب البلاغة، وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف سديد وتأدية لها ملخصة مبينة، لاتعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق على المرتاد، بل ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية أصلية مستعملة جارية على قانون اللغة سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات، كل منها كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة. انتهى.

قلت: النظر في هذه الآية من أربع جهات:

(الأول) من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز وغيره كما تقدمت الاشارة اليه (والثاني) من جهة علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها (والثالث والرابع) من جهة الفصاحة المعنوية واللفظية كما تقدم.

وقد ذكر طرفاً من هذه الجهات الأربع النسفي في المدارك، ثم قال: ومن ثم أطبق المعاندون، على أن طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية، ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر.

ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور. اهـ.

قال القاضي: والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها

والدلالة على كنه الحال مع الايجاز الخالي عن الاخلال. قال الخفاجي: هذه الآية حوت من البلاغة أمراً عجيباً ترقص الرؤوس له طرباً وما اشتملت عليه من الفصاحة والنكات مفصل في شرح المفتاح.

وقال أبو السعود: ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها، وملكت من غرر المزايا ناصيتها، وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون، ولعمري إن ذلك فوق ما يصفه الواصفون، فحري بنا أن نوجز الكلام في هذا الباب ونفوّض الأمر الى تأمل أولي الألباب والله عنده علم الكتاب.

﴿ونادى نوح ربه﴾ أي دعاه، والظاهر أن هذا النداء كان قبل سيرها لأنه سؤال في نجاه ابنه ولا معنى للسؤال إلا عند إمكان النجاة، والمراد انه أراد دعاءه بدليل الفاء في قوله ﴿فقال رب ان ابني من أهلي﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ فلا بد من التقدير المذكور قاله الزمخشري. وقيل عطف تفسير أو تفصيل إذ القول المذكور هو عين النداء فهو مرتبط في المعنى بقوله ﴿ونادى نوح ابنه﴾ والمعنى انه من الأهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك وأهلك.

فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام انجاز ما وعده الله بقوله ﴿وأهلك﴾ وهو المستثنى منه وترك ما يفيده الاستثناء وهو إلا من سبق عليه القول فيجاب بأنه لم يعلم اذ ذاك انه ممن سبق عليه القول فإنه كان يظنه من المؤمنين.

﴿وان وعدك الحق﴾ الصدق الذي لا خلف فيه وهذا منه ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أي أتقن المتقنين لما يكون به الحكم فلا يتطرق الى حكمك نقض، وقيل أراد به أعلمهم وأعدلهم أي أنت أكثر علماً وعدلاً من ذوي الحكم، وقيل أن الحاكم بمعنى ذي الحكمة كدراع.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾

ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل وانه خارج بقيد الاستثناء ﴿قال يا نوح انه﴾ يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته ﴿ليس من أهلك﴾ الذين آمنوا بك وتابعوك ومن أهل دينك، وان كان من أهلك باعتبار القرابة، قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين: انه ابن نوح من صلبه وهو الصحيح.

وعن ابن عباس قال: ما بغت امرأة نبي قط، وان الله نص عليه بقوله ﴿ونادى نوح ابنه﴾ ونوح أيضاً نص عليه بقوله ﴿يابني﴾ ولا يجوز صرف الكلام عن الحق إلى المجاز من غير ضرورة.

وقيل المعنى إنه ليس من الذين وعدتك أن أنجيهم معك، وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً، وهذا خطأ ممن قاله لأن الله يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، فإن الله سبحانه قد أخرج قابيل من صلب آدم وهو نبي وكان كافراً. وأخرج إبراهيم: وهو نبي من صلب آزر وكان كافراً، فكذلك أخرج كنعان من صلب نوح وهو كافر، فهو المتصرف في خلقه كيف شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال ﴿إنه عمل عير صالح﴾ قرأ الجمهور ﴿عمل﴾ على لفظ المصدر وقرىء على لفظ الفعل، ومعنى الأولى المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل وأصله ذو عمل غير صالح، كذا قال أبو

إسحق الزجاجي وأبو علي الفارسي وابن الانباري والواحدي، وعبارة الصاوي إن الضمير عائد الى الولد، ويقال في الاخبار عنه بعمل ما قيل في زيد عدل وهو الراجح. اهـ.

ومعنى الثانية ظاهر، أي انه عمل عملاً غير صالح، وهو كفره وعدم متابعته لأبيه. قاله أبو علي.

قال الصاوي: أشار السيوطي الى أن الضمير في (انه) عائد الى نوح على حذف مضاف، والمعنى قال الله له: يانوح ان سؤالك عمل غير مقبول. انتهى. ويؤيده ما قال ابن عباس: يقول مسألتك اياي يا نوح عمل غير صالح لا ارضاه لك.

ثم نهاه عن مثل هذا السؤال فقال ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ أي ما لا تعلم أصواب هو فتسأل عنه أم ليس كذلك فتتركه، وهو وان كان نهياً عاماً بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه ان حصول مطلوبه منه صواب فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولاً أولياً. وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الانسان مطابقته للشرع وسمى دعاءه سؤالاً لتضمنه معنى السؤال باعتبار استنجازه في شأن ولده.

﴿اني أعظك﴾ من ﴿أن تكون من الجاهلين﴾ أي أحذرك وأنهاك أن تكون جاهلاً فتسأل مثل ما يسألون كقوله يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً، وسمى سؤاله جهلاً لأن حب الولد شغله عن تذكر استثناء من سبق عليه القول منهم بالاهلاك قاله الكرخي.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

وقيل المعنى أرفعك أن تكون منهم، قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها الى مقام العلماء العاملين. ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع وان دعاءه ناشىء عن وهم كان يتوهم بادر الى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة و﴿قال رب اني أعوذ بك﴾ أي ألجأ اليك وأعتذر من ﴿أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ أي أطلب منك بعد ذلك ما لا علم لي بصحته وجوازه ﴿والا تغفر لي﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم مني وجهلي واقدامي عليه ﴿وترحمني﴾ برحمتك التي وسعت كل شيء فتقبل توبتي ﴿أكن من الخاسرين﴾ في أعمالي فلا أربح فيها.

وليس في الآية ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح سوى تأويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه. وهذا ليس بذنب ولا معصية.

وقال الخطيب: أخطأ في ذلك الاجتهاد كما وقع لآدم في الاكل من الشجرة فلم يصدر منه الا هذه الزلة.

﴿قيل يانوح﴾ القائل هو الله أو الملائكة ﴿اهبط﴾ أي أنزل من السفينة الى الارض أو من الجبل الى المنخفض منها فقد بلعت الارض ماءها وجفت ﴿بسلام منا﴾ أي بسلامة وأمن.

وقيل بتحية وعظمة كما قال ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ وذلك ان الغرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعندما خرج من السفينة علم انه ليس في

الارض شيء ينتفع به من النبات والحيوان فكان كالخائف في انه كيف يعيش وكيف يدفع جهات الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب، فلما قال الله ذلك زال عنه الخوف لأن السلامة لا تكون الا مع الأمن وسعة الرزق.

ثم أردفه الله تعالى بالبركة بقوله ﴿وبركات﴾ أي خيرات نامية ونعم ثابتة باقية دائمة في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق والبركة مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته ومنه البركة لثبوت الماء فيها ﴿عليك﴾ وفي هذا الخطاب دليل على قبول توبته ومغفرة زلته وخلاصه من الخسران وإعلام وبشارة من الله تعالى بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي وما يذر.

﴿وعلى أمم﴾ ناشئة وهم المُتَشَعِّبُونَ ﴿ممن معك﴾ أي من ذرية من كان معك في السفينة وهي الأمم الى آخر الدهر؛ قيل الذين كانوا معه في السفينة لم يعقب أحد منهم إلا أولاد نوح الثلاثة، فانحصر النوع الانساني بعد نوح في ذريته ولذلك يقال انه آدم الصغير وقد كان بينه وبين آدم ألف سنة وثمانية أجداد.

فالمراد من هذه الآية تقسيم ذرية أولاد نوح الى فريق مؤمن وفريق كافر لا تقسيم من كان معه في السفينة إذ كانوا كلهم مؤمنين، قال أبو السعود: ويجوز ان تكون من بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك، وانما سموا أمماً لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الامم انما تشعبت منهم، فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله ﴿وأمم سنمتعهم﴾ بعض الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة، ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهماً غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء، لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل اهـ.

قيل أراد الله سبحانه بهذا الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمناً من ذريتهم وأراد بقوله وأمم سنمتعهم من صار كافراً من ذريتهم الى يوم القيامة، والتقدير ومنهم أمم أو يكون أمم، والمعنى سنمتعهم في الدنيا بما فيها من المتاع ونعطيهم منها ما يعيشون به ﴿ثم يمسهم منا﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿عذاب أليم﴾ وعن الضحاك قال: وعلى أمم ممن معك يعني ممن لم يولد أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة، وأمم سنمتعهم يعني متاع الحياة الدنيا لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة.

قال محمد بن كعب القرظي: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامه وعن ابن زيد: هبطوا والله راض عنهم، ثم أخرج منهم نسلاً منهم من رحم الله ومنهم من عذب، وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب وبالعذاب ما نزل بهم، والى هنا انتهت قصة نوح عليه السلام.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١)﴾

﴿تلك﴾ أي قصة نوح وهو مبتدأ ﴿من أنباء الغيب﴾ خبره أي من جنسها والأنباء جمع نبأ وهوالخبر أي اخبار الغيب التي مرت بك في هذه السورة ﴿نوحيها﴾ أي القصة ﴿اليك﴾ خبر ثانٍ والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة.

﴿ما كنت﴾ يامحمد ﴿تعلمها أنت﴾ تفصيلاً خبر ثالث والا كانت مشهورة عند كل القرون لكن اجمالاً ﴿ولا﴾ يعلمها ﴿قومك﴾ يعني العرب بل هي مجهولة عندكم وفي ذكرهم تنبيه على انه لم يتعلمه اذا لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يسمعوه فكيف بواحد منهم ﴿من قبل هذا﴾ أي الوحي أو القرآن أو من قبل هذا الوقت.

﴿فاصبر﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك كما صبر نوح على أذى قومه والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿ان العاقبة﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿للمتقين﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله؛ وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمر ولا اعتبار بمباديه.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿الى عاد أخاهم هوداً﴾ أي واحداً منهم في النسب لا في الدين، وهود عطف بيان وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا في الأعراف، وقيل هم عادان الأولى والأخرى، فهؤلاء هم عاد الأولى من ذرية سام

ابن نوح، وعاد الاخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون في قوله ﴿إرم ذات العماد﴾ وأصل عاد اسم رجل ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما وبين هود ونوح ثمانمائة سنة وعاش أربعمائة سنة وأربعاً وستين سنة.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحدوه ولا تشركوا معه شيئاً في العبادة ﴿مالكم من إلّه غيره﴾ في معنى العلة لما قبله قرىء غيره بالجر على اللفظ، وبالرفع على محل من إلّه، وبالنصب على الاستثناء ﴿إن أنتم﴾ أي ما أنتم باتخاذ إلّه غير الله وجعله شفيعاً ﴿إلا مفترون﴾ أي كاذبون على الله عزّ وجلّ.

ثم خاطبهم فقال ﴿ياقوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على الذي أبلغكم وأنصحكم به من الارشاد الى عبادة الله وحده وانه لا إله لكم سواه، فالضمير راجع الى مضمون هذا الكلام وخاطب بهذا كل نبي قومه ازاحة لما عسى أن يتوهموه وإمحاضاً للنصحية،فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع فهي بمعزل عن التأثير، وقد تقدم معنى هذا في قصة نوح وقال هنا أجراً وهناك ما لا تفنناً أو لذكر الخزائن بعده هناك ولفظ المال بها أليق.

﴿ان أجري إلا على الذي فطرني﴾ أي ما أجري الذي أطلب إلا ممن خلقني فهو الذي يثيبني على ذلك ﴿أفلا تعقلون﴾ ان أجر الناصحين انما هو من رب العالمين.

وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا
وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا
بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن
نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا
تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة فقال ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه﴾ أي اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم بفعل الطاعة ثم توسلوا اليه بالتوبة وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا في قصة نوح ثم رغبهم في الايمان بالخير العاجل فقال ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي كثير الدرور أي السيلان والنزول والتتابع، والسماء المطر يقال درت السماء تدر فهي مدرار، ولم يؤنثه لأن المراد بالسماء المؤنثة السحاب أو المطر كما تقدم فذكر على المعنى أو ان مفعالاً للمبالغة فيستوي فيه المذكر والمؤنث أو ان الهاء حذفت من مفعال على طريق النسب قاله مكي.

وكان قوم هود أهل بساتين وزروع وعمارة وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن، عن الضحاك قال: أمسك الله القطر عن عاد ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فقال لهم هود ﴿استغفروا﴾ الآية فأبوا إلا تمادياً.

﴿ويزدكم قوة الى قوتكم﴾ أي شدة مضافه إلى شدتكم أو خصباً إلى خصبكم أو عزاً إلى عزكم، قال الزجاج: قوة في النعم، وقال عكرمة: القوة الى القوة ولد الولد، وقيل كانت قد عقمت نساؤهم ثلاثين سنة لم تلد؛ وقيل قوة في الدين الى قوة الابدان.

﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم اليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه والاجرام الاثام كما تقدم ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم وعظيم غباوتهم.

﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي بحجة واضحة نعمل عليها ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عناداً وبعداً عن الحق والباء للتعدية أو للمصاحبة ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا﴾ التي نعبدها من دون الله ﴿عن قولك﴾ أي لأجله أو تركاً صادراً عنه، فعن على الأول للتعليل كما أشار اليه ابن عطية ولكن المختار الثاني ولم يذكر الزمخشري غيره.

﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي بمصدقين في شيء مما جئت به ﴿إن نقول الا اعتراك﴾ يقال عراه الأمر واعتراه اذا ألم به أي ما نقول الا أنه أصابك ﴿بعض آلهتنا﴾ التي تعيبها وتسفه رأينا في عبادتها ﴿بسوء﴾ بجنون حتى نشأ عنه ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها والاستثناء مفرغ كما قال الزمخشري.

فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه وأنهم لا يقدرون على شيء مما يريده به الكفار، بل الله سبحانه هو الضار النافع ﴿قال اني أشهد الله﴾ على نفسي ﴿واشهدوا﴾ أنتم أيضاً عليها ﴿أني بريء مما تشركون﴾ به ﴿من دونه﴾ أي من اشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطاناً ﴿فكيدوني جميعاً﴾ انتم وآلهتكم ان كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الاضرار بي وانها اعترتني بسوء ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي لا تمهلوني بل عاجلوني واصنعوا مابدا لكم واحتالوا في هلاكي.

وفي هذا من اظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التي يعبدونها ما يصك مسامعهم ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شيء وهذا من معجزاته الباهرة.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾

﴿اني توكلت على الله ربي وربكم﴾ فهو يعصمني من كيدكم وإن بلغتم في تطلب وجوه الاضرار بي كل مبلغ فمن توكل على الله كفاه.

ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض اليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم وانه مالك للجميع فقال ﴿ما من دابة﴾ تدب على الأرض ﴿الا هو آخذ بناصيتها﴾ أي ان ناصية كل دابة.

قال الرازي وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً.

﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بين الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة الى هذا الحد وهي أنهم يستمعون الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول أثر السماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه، وجمع الضمير في يستمعون حملاً على معنى من وأفرده في ومنهم من ينظر حملاً على لفظه، قيل والنكتة كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل

وانفصال الشعاع والنور الموافق لنور البصر، والتقدير في قولـه ومنهم من يستمعون ومنهم من ينظر ومنهم ناس يستمعون ومنهم بعض ينظر.

﴿أفأنت تسمع الصم﴾ الهمزة للانكار يعني أن هؤلاء وان استمعوا في الظاهر فهم صم والصمم مانع من سماعهم فكيف يطمع منهم في ذلك مع حصول المانع وهو الصمم، فكيف إذا انضم إلى ذلك ﴿لو كانوا لا يعقلون﴾ فان من كان اصم غير عاقل لا يفهم شيئاً ولا يسمع ما يقال له، والفاء عاطفة.

وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لما كانت مريضة بمعارضة الوهم ومتابعة الإلف والتقليد، تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق.

والكلام في ﴿ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ كالكلام فيما تقدم لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر، وقد انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر، وكذلك الأصم ﴿وعصوا﴾ أي رؤساؤهم وسفلتهم ﴿رسله﴾ أي هوداً وحده لانه لم يكن في عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا للتعظيم أو لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل.

وقيل إنهم عصوا هوداً ومن كان قبله من الرسل أو كانوا بحيث لو بعث الله اليهم رسلاً متعددين لكذبوهم ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ الجبار المتكبر والعنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ويتجاوز في الظلم.

قال أبو عبيدة: العنيد والعنود والعاند والمعاند هو المعارض بالخلاف منه، ومنه قيل للعرق الذي يتفجر بالدم عاند، وعن قتادة قال: عنيد مشرك، وقال السدي: العنيد المشاق.

وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ
هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾
قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

﴿واتبعوا﴾ أي جميعهم أوالسفلة والرؤساء ﴿في هذه الدنيا لعنة﴾ أي ألحقوها على لسان الانبياء، واللعنة هي الابعاد من الرحمة والطرد من الخير، والمعنى انها لازمة لهم لا تفارقهم ماداموا في الدنيا ﴿و﴾ اتبعوها ﴿يوم القيامة﴾ فلعنوا هنالك كما لعنوا في الدنيا.

قال السدي: لم يبعث نبي بعد عاد الا لعنت على لسانه، وقال قتادة: تتابعت عليهم لعنتان من الله، لعنة في الدنيا ولعنة في الاخرة.

﴿ألا ان عاداً كفروا ربهم﴾ قال الفراء: أي بنعمة ربهم، يقال كفرته وكفرت به مثل شكرته وشكرت له ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي لا زالوا مبعدين من رحمة الله، والبعد الهلاك والتباعد عن الخير، يقال بعد يبعد بعداً اذا تأخر وتباعد، وبعد يبعد بعداً اذا هلك، والمبالغة في التنصيص والتكرير بعبارتين مختلفتين تدل على تقوية التأكيد ونهاية التحقيق، وقد تقدم ان العرب تستعمله في الدعاء بالهلاك.

﴿و﴾ أرسلنا ﴿الى ثمود أخاهم صالحاً﴾ وهم سكان الحجر، فقوم هود عاد الاولى وقوم صالح عاد الثانية كما قال المحلي في سورة النجم، وقرأ الحسن ثمود بالتنوين في جميع المواضع، واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع، فالصرف باعتبار التأويل بالحي والمنع بالقبيلة، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان، وبين صالح وهود مائة سنة، وعاش صالح مائتي سنة

وثمانين سنة ومكانهم بين الشام والمدينة، وتقدم في الأعراف بسط قصتهم وقصة الناقة بأكثر مما هنا.

والكلام فيه وفي قوله ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ كما تقدم في قصة هود ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي ابتدأ خلقكم لأن كل بني آدم من صلب آدم وهو مخلوق منها فمن لابتداء الغاية، وقيل هي بمعنى في ﴿واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم عمارها وسكانها من قولهم أعمر فلان فلاناً داره فهي له عمرى فيكون استفعل بمعنى افعل مثل استجاب بمعنى أجاب والسين والتاء زائدتان.

وقال الضحاك: معناه أطال عمركم، وكانت أعمارهم ثلثمائة إلى ألف سنة، وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار. وقال ابن زيد: استخلفكم فيها.

﴿فاستغفروه﴾ أي سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ﴿ثم توبوا اليه﴾ أي ارجعوا إلى عبادته ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي قريب الاجابة لمن دعاه، وقد تقدم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى ﴿فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيداً مطاعاً ننتفع برأيك ونسعد بسيادتك لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد لأنه كان من قبيلتهم، وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم ﴿قبل هذا﴾ الذي أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك الى التوحيد، وقيل كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه الى دينهم فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك.

والاستفهام في قوله: : ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ للانكار، أنكروا عليه هذا النهي، والمعنى ما كان يعبد آباؤنا فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا اليه﴾ من عبادة الله ﴿مريب﴾ موقع في الريبة من أربته فأنا أريبه اذا فعلت به فعلاً يوجب له الريبة، وهي قلق النفس وانتفاء

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

الطمأنينة أو من أراب الرجل اذا كان ذا ريبة، فالاسناد مجازى للمبالغة كجد جده، والظاهر انه على الأول مجازى أيضاً، والمعنى اننا مرتابون في عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان، والتنوين فيه وفي شك للتفخيم.

﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ قال ابن عطية: هي من رؤية القلب، والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسد مفعولين لأرأيتم. قال الشيخ: والذي تقرر أن أرأيت ضمن معنى أخبرني، وعلى تقدير ان لا يضمن فجعله الشرط والجواب لا تسد مسد مفعولي علمت.

﴿ان كنت على بينة من ربي﴾ أي حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿وآتاني منه﴾ أي من جهته ﴿رحمة﴾ أي نبوة، وهذه الأمور وان كانت متحققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً بحال المخاطبين لانهم في شك من ذلك كما وصفوه عن أنفسهم، وعبارة الشهاب انه من باب ارخاء العنان.

﴿فمن ينصرني من الله﴾ استفهام معناه النفي أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله والنصرة مستعملة في لازم معناها وهو المنع ولذا عدي بمن ﴿ان عصيته﴾ في تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب علي من البلاغ ﴿فما تزيدونني﴾ بتثبيطكم اياي ﴿غير تخسير﴾ بأن تجعلوني خاسراً بإبطال عملي وما منحني الله والتعرض لعقوبة الله لي، قال الفراء: أي تضليل وابعاد من الخير. وقيل المعنى فما تزيدونني باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم، وقال مجاهد وعطاء الخراساني: ما تزدادون أنتم الا خساراً.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ (٦٥)﴾

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي معجزة ظاهرة، وقد مر تفسير هذه الآية في الاعراف، وانما قال هذه ناقة الله لانه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم. وقيل من صخرة صماء، والاضافة للتشريف كبيت الله وعبد الله ﴿فذروها﴾ أي فدعوها ﴿تأكل في أرض الله﴾ مما فيها من المراعي التي تأكلها الحيوانات وليس عليكم كلفة في مؤنتها، وهذا من تتمة إلزامهم.

قال الكرخي: أي ترع نباتها وتشرب ماءها فهو من قبيل الاكتفاء نحو ﴿تقيكم الحر﴾ وجعل تأكل من عموم المجاز يحتاج الى قرينة صارفة.

﴿ولا تمسوها بسوء﴾ قال الفراء: بعقر، والظاهر أن النهي عما هو أعم من ذلك ﴿فيأخذكم﴾ ان قتلتموها ﴿عذاب قريب﴾ في الدنيا، جواب النهي أي قريب من عقرها وذلك ثلاثة أيام.

﴿فعقروها﴾ أي فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهي بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها وعقرها قدار وهو من اشقى الأشقياء ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا في داركم﴾ أي بالعيش في منازلكم أو بلادكم ومساكنكم فان العقاب نازل عليكم وعبر عن الحياة بالتمتع لأن الحي يكون متمتعاً بالحواس ﴿ثلاثة أيام﴾ ثم تهلكون قيل عقروها يوم الأربعاء فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد.

﴿ذلك﴾ أي التمتع ثلاثة أيام ﴿وعد غير مكذوب﴾ فيه، فحذف الجار اتساعاً أو من باب المجاز كأن الوعد إذا وفي به صدق ولم يكذب، ويجوز أن يكون مصدراً أي وعد غير كذب.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي عذابنا أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة﴾ عظيمة ﴿منا﴾ قد تقدم تفسير هذا في قصة هود، والباء للسببية أو للمصاحبة وهي بالنسبة الى صالح النبوة وبالنسبة الى المؤمنين الايمان ﴿و﴾ نجيناهم ﴿من خزي يومئذ﴾ وهو هلاكهم بالصيحة، وسمي خزياً لأن فيه خزياً للكفار والخزي الذل والمهانة، وقيل من عذاب يوم القيامة والأول أولى ويومئذ بكسر الميم اعراباً وفتحها بناء لإضافته الى مبنى، قال السيوطي: وهو الاكثر أي في الاستعمال وإلا فهما قراءتان سبعيتان على السواء ﴿ان ربك هو القوي العزيز﴾ القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء والخطاب لرسول الله (ﷺ) والقصة تمت عند قوله يومئذ.

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ أي في اليوم الرابع من عقر الناقة صيح بهم فماتوا وذكر الفعل لان الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقي والصيحة فعلة تدل على المرة من الصباح وهو الصوت الشديد يقال صاح يصيح صياحاً أي صوّت بقوة قيل صيحة جبريل وقيل صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا وتقدم في الأعراف فأخذتهم الرجفة قيل ولعلها وقعت عقب الصيحة.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين صرعى هلكى ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت، والجثوم كالركوب من البعير والفاعل جاثم وجثام مبالغ يقال جثم الطائر والأرنب يجثم.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم ولم يعيشوا فيها ولم يعمروا ولم ينعموا، والتقدير مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط، يقال غنيت بالمكان إذا أتيته وأقمت فيه.

﴿ألا ان ثمود كفروا ربهم﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله ﴿ألا بعداً لثمود﴾ بالصرف وتركه قراءتان سبعيتان على معنى الحي والقبيلة وقد تقدم تفسير هذه القصة في الاعراف بما يحتاج الى مراجعته ليضم ما في احدى القصتين من الفوائد إلى الاخرى.

﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم﴾ بسكون السين وضمها حيثما وقع مضافاً الى الضمير بخلاف ما إذا أضيف الى مظهر فليس فيه إلا ضمها، وهذا شروع في قصة ابراهيم لكنها مذكورة هنا توطئة لقصة لوط لا استقلالاً ولذا لم يذكرها على أسلوب ما قبلها وما بعدها فلم يقل وأرسلنا ابراهيم الى كذا، وعاش ابراهيم من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة وبينه وبين نوح ألفا سنة وستمائة سنة وأربعون سنة، وابنه اسحاق عاش مائة وثمانين سنة ويعقوب بن اسحاق عاش مائة وخمساً وأربعين سنة، ولوط عليه السلام هو ابن أخي ابراهيم عليه السلام.

وكانت قرى قوم لوط بنواحي الشام وابراهيم ببلاد فلسطين فلما انزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده وكان كل من نزل عنده

يحسن قِراه وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذا البشارة الآتية فظنهم أضيافاً وهم جبريل وميكائيل واسرافيل، قاله عطاء، وقيل كانوا تسعة قاله الضحاك، وقيل احد عشر قاله السدي، وقيل اثني عشر قاله مقاتل، وقيل كان جبريل ومعه سبعة املاك، قاله محمد بن كعب القرظي والأول أولى لأن أقل الجمع ثلاثة.

﴿بالبشرى﴾ التي بشروه بها هي بشارته بالولد وقيل بإهلاك قوم لوط، والأول أولى ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلمنا عليك سلاماً وهذه تحيتهم التي وقعت منهم وهي لفظ سلاماً ﴿قال﴾ لهم ابراهيم ﴿سلام﴾ أي أمركم سلام أو عليكم سلام وهذه التحية الواقعة منه جواباً وهي لفظ سلام وحياهم بالجملة الاسمية في جواب تحيتهم بالفعلية ومن المعلوم ان الأولى أبلغ من الثانية فكانت تحيته أحسن من تحيتهم كما قال تعالى ﴿فحيوا بأحسن منها﴾.

﴿فما لبث﴾ أي ابراهيم ﴿ان جاء بعجل حنيذ﴾ قال أكثر النحاة «ان» هنا بمعنى حتى، وقيل التقدير فما لبث عن ان جاء أي ما ابطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل، وما نافية قاله سيبويه، وقال الفراء: فما لبث مجيئه أي ما ابطأ مجيئه، وقيل ان ما موصولة والتقدير فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه والحنيذ المشوي مطلقاً.

وقيل المشوي بحرِّ الحجارة من غير أن تمسه النار، وهذا من فعل أهل البادية يقال حنذ الشاة يحنذها جعلها فوق حجارة محماة لينضجها فهي حنيذ وقيل هو سمين وقيل هو السميط، وقيل النضيج وهو فعيل بمعنى مفعول وإنما جاءهم بعجل لان البقر كانت أكثر أمواله.

﴿فلما رأى﴾ الرؤية بصريه أي أبصر ﴿أيديهم لا تصل اليه﴾ أي لا يمدونها إلى العجل المشوي كما يمد يده من يريد الاكل ﴿نكرهم﴾ يقال نكرته وأنكرته واستنكرته إذا وجدته على غير ما تعهد، ويقال أنكرت لما تراه بعينك

ونكرت لما تراه بقلبك، قيل وانما استنكر منهم ذلك لأن عادتهم ان الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا انه قد جاء بشر، ولم يأت بخير قاله قتادة.

وفي الذاريات ﴿قوم منكرون﴾ أي غرباء لا أعرفهم قال ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس، وقيل انما انكر أمرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وقال أبو العالية: انكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض.

﴿وأوجس منهم﴾ أي أحس في نفسه ﴿خيفة﴾ أي خوفاً وفزعاً، وقيل معنى أوجس أضمر في نفسه، والأول ألصق بالمعنى اللغوي، والوجس هو رعب القلب والايجاس الادراك وقيل الاضمار، وفي السمين الايجاس حديث النفس وأصله من الدخول كأن الخوف داخله والوجيس ما يعتري النفس أوان الفزع ووجس في نفسه كذا أي خطر بها يجس وجساً ووجيساً وكأنه ظن انهم قد نزلوا به لأمر ينكره أو لتعذيب قومه.

﴿قالوا لا تخف﴾ قالوا له ذلك مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف بل أوجس ذلك في نفسه فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدل على الخوف كما في قوله في سورة الحجر ﴿قال إنا منكم وجلون﴾ ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما هنالك.

ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم ﴿إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ خاصة ولوط أول من آمن بإبراهيم وأبوه هاران أخو إبراهيم، ويمكن ان يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولاً يكون هذا جواباً عنه كما قال: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين﴾.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

﴿وامرأته﴾ أي سارّةُ زوجة ابراهيم وهي ابنة هرون بن ناحورا وهي ابنة عمّ ابراهيم ﴿قائمة﴾ قيل كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت واقفة قائمة تخدم الملائكة وهو جالس؛ والجملة مستأنفة أو حالية ﴿فضحكت﴾ الضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور، وأصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد أيضا وعليه أكثر المفسرين.

وقال مجاهد وعكرمة انه الحيض، والعرب تقول ضحكت الأرنب اذا حاضت وقد انكر بعض- اللغويين ان يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت، قال الراغب: وقول من قال حاضت ليس تفسيراً لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين وانما ذكر ذلك تنصيصاً لحالها فان ذلك أمارة لما بشرت به فحيضها في الوقت ليعلم ان حملها ليس بمنكر لأن المرأة ما دامت تحيض فانها تحمل.

قال الفراء: ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة، وقال الزجاج: ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت، وقال ابن الانباري: قد أنكر الفراء وأبو عبيده ان يكون ضحكت بمعنى حاضت، وقال في المحكم: ضحكت المرأة حاضت والأول أولى ولا مصير الى المجاز الا عند تعذر الحقيقة، وظاهر النص أنها ضحكت.

قال قتادة: ضحكت تعجباً مما فيه قوم لوط من الغفلة ومما أتاهم من العذاب، وقال السدي: ضحكت تعجباً من عدم أكلهم، وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه

وخواصه. وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهم، حين قالوا لا تخف. وقيل ضحكت سرروا من البشارة.

وقال وهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها. وقيل غير ذلك مما ليس في ذكره كثير فائدة والله أعلم مما ضحكت. وقال ابن عباس: حاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة. وعن مجاهد قال: وكان ابراهيم ابن مائة سنة.

﴿فبشرناها بإسحاق﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك، وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير، والمعنى فبشرناها فضحكت سروراً بالولد وولد إسحق بعد البشارة بسنة وكانت ولادته بعد اسماعيل بأربعة عشر سنة ﴿ومن وراء﴾ أي وهبنا لها من وراء ﴿اسحاق يعقوب﴾ وقرىء بجر يعقوب ومنعه الفراء وقرىء بالرفع على الابتداء وخبره الظرف الذي قبله وبالنصب وهما سبعيتان.

وقد وقع التبشير هنا لها ووقع لابراهيم في قوله تعالى ﴿وبشرناه بغلام حليم﴾ وبشروه بغلام عليم لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما، قال ابن عباس: هو ولد الولد أي فبشرت بأنها تعيش حتى ترى ولد الولد وقد رأته.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قالت ياويلتا﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قالت وهي لم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تقع كثيراً على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه، وأصل الويل الخزي، ثم شاع في كل أمر فظيع، والألف مبدلة من ياء الاضافة والاستفهام في قولها.

﴿أألد وأنا عجوز﴾ للتعجب، أي كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت في السن يقال عجزت تعجز مخففاً ومثقلاً عجزاً وتعجيزاً أي طعنت في السن، ويقال عجوز وعجوزة، وأما عجزت بكسر الجيم فمعناه عظمت عجيزتها ﴿وهذا بعلي﴾ أي زوجي ابراهيم ﴿شيخاً﴾ لا تحبل من مثله النساء ونصبه على الحال والعامل فيه معنى اسم الاشارة.

ومثل هذه الحال من غوامض العربية اذ لا تجوز الا حيث يعرف الخبر، وقرىء بالرفع على انه خبر محذوف أي هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر، وبعلي بدل؛ وجوّز كونه عطف بيان، وكون شيخ تابعاً لبعلي أيضاً والبعل هو المستعلي على غيره، والزوج مستعل على المرأة قائم بأمرها فسمي بعلاً لذلك. قيل كان ابراهيم ابن مائة وعشرين سنة وهي بنت تسع وتسعين وقيل بنت تسعين وهذه المبشرة هي سارة امرأة ابراهيم، وقد كان ولد لابراهيم من هاجر أمته اسماعيل فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها فبشرها الله به على لسان ملائكته، وكانت بين الولادة والبشارة سنة.

﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أي ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها في هذه السن العالية التي لا يولد لمن كان في مثلها شيء يقضى منه العجب ولم تنكر قدرة الله.

قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر والاستفهام فيها للانكار، أي كيف تعجبين من قضاء الله وقدره وهو لا يستحيل عليه شيء. وقيل المعنى لا تعجبي من ذلك، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه، ولهذا قالوا.

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي الرحمة التي وسعت كل شيء واستتبعت كل خير، وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها، والبركات الخيرات النامية المتكاثرة في كل باب، التي من جملتها هبة الاولاد، والبركة هي النمو والزيادة؛ وقيل الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بني اسرائيل لما فيهم من الانبياء وكلهم من ولد ابراهيم.

وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص وبين النصبين فرق ذكره السمين، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى الجمع لقصد التعميم، وقيل خطاب لها وله، وهذا على معنى الدعاء من الملائكة بالخير والبركة، وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته عن ابن عباس أنه كان ينهي عن أن يزاد في جواب التحية على قولهم عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ويتلو هذه الآية. وعن ابن عمر نحوه ﴿إنه حميد﴾ أي يفعل موجبات الحمد من عباده على سبيل الكثرة ﴿مجيد﴾ كثير الاحسان إلى عباده بما يفيضه اليهم من الخيرات. وقيل المجيد المنيع الذي لا يرام.

وقال الخطابي: المجيد الواسع الكريم وأصل المجد في كلامهم السعة، وقيل هو ذو الشرف والكرم والجملة تعليل لقوله رحمة الله وبركاته الخ.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع﴾ أي الخيفة التي أوجسها في نفسه، يقال ارتاع من كذا إذا خاف. قال مجاهد: الروع الفرق وهو الخوف وقيل الفزع ﴿وجاءته البشرى﴾ أي بالولد أو بقولهم لا تخف ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ قال الأخفش والكسائي: إن يجادلنا في موضع جادلنا فيكون هو جواب لما، لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضي لا بالمستقبل.

قال النحاس: جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضي مكان المستقبل في الشرط وقيل ان الجواب محذوف ويجادلنا في محل نصب على الحال قاله الفراء وتقديره فلما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا، أي يجادل رسلنا.

وقيل ان المعنى أخذ أو جعل يجادلنا ومجادلته لهم، قيل انه لما سمع قولهم إنا مهلكو أهل هذه القرية، قال: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم قالوا: لا، قال: فأربعون، قالوا: لا، قال فعشرون: قالوا: لا، قال: فعشرة فخمسة، قالوا: لا، قال: فواحد؛ قالوا: لا، قال: ان فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله. الآية.

وعن ابن عباس قال: لما جاءت الملائكة الى ابراهيم قالوا لابراهيم ان كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب، فهذا معنى مجادلته في قوم لوط، أي في شأنهم وأمرهم، وقيل معناه يكلمنا ويسألنا، لأن العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وإن كان نبياً؛ ولهذا قال جمهور المفسرين معناه يجادل رسلنا.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ
آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

ثم أثنوا على ابراهيم أو أثنى الله عليه فقال ﴿ان ابراهيم لحليم﴾ أي ليس بعجول في الأمور ولا بموقع لها على غير ما ينبغي ﴿أوّاه﴾ أي كثير التأوه أو الرحيم ﴿منيب﴾ أي راجع الى الله، وقد تقدم في براءة الكلام على الاوّاه والمنيب هو المقبل الى طاعة الله. وقال قتادة: المنيب المخلص. وفي الآية ما يشير الى أن المراد بالمجادلة فيما تقدم مجادلة الرسل لا مجادلة الرب كما قاله الجمهور، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه وفرط رحمته، فطلب تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي.

﴿يا ابراهيم أعرض عن هذا﴾ هذا قول الملائكة له أي أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال في أمر قد فرغ منه وجف به القلم وحق به القضاء ﴿انه قد جاء أمر ربك﴾ الضمير للشأن والمعنى مجيء عذابه الذي قدره عليهم وسبق به قضاؤه في أزله ﴿وانهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ أي لا يرده دعاء ولا جدال بل هو واقع بهم لا محالة ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع.

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً﴾ أي لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم وكان بين ابراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ، جاءوا الى لوط فلما رآهم لوط وكانوا في صورة غلمان حسان مرد ﴿سيء بهم﴾ أي ساءه مجيئهم اليه، يقال ساءه يسوؤه لأنهم جاءوه في صورة غلمان حسان مرد، فظن أنهم أناس، فخاف عليهم أن

يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم.

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ قال الأزهري: الذرع يوضع موضع الطاقة، وأصله أن البعير يذرع بيده في سيره على قدر سعة خطوة أي يبسطها فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر.

وقيل هو من ذرعه القيء اذا غلبه وضاق عن حبسه، والمعنى انه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ولم يجد مخلصاً.

قال ابن عباس. ساء ظناً بقومه وضاق ذرعاً بأضيافه، وقيل ضاق بهم قلباً وصدراً ولا يعرف أصله، ويقال ضاق فلان ذرعاً بكذا إذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ أي شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي يشد بها الرأس، يقال عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير أي يوم مكروه يجتمع فيه الشر، ومنه عصبة وعصابة أي مجتمعو الكلمة، ورجل معصوب أي مجتمع الخلق.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾

﴿وجاءه قومه يهرعون اليه﴾ أي جاءوا لوطاً يسرعون اليه قاله قتادة، وقال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهـراع إلا إسراعـاً مع رعدة يقال أهرع الرجل إهـراعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى وقيل يهرولون قاله مجاهد، وقيل هو مشيّ بين الهرولة والعدو، قاله الحسن وقال شمر: هو بين الهرولة والخبب والجمز.

والمعنى أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا اليه كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ومن قبل﴾ أي ومن قبل مجيء الرسل ﴿كانوا يعملون السيئآت﴾ أي يأتون الرجال في أدبارهم وكانت ذلك عادتهم، فلا حياء عندهم منها فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه لذلك العمل قام إليهم لوط مدافعاً.

﴿قال يا قوم﴾ خاطبهم بهذا الخطاب وهم من وراء الباب خارجه ﴿هولاء بناتي﴾ أي تزوجوهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي، وقد كان له ثلاث بنات وقيل ابنتان وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهم لا لعدم كفاءتهم، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه والمراد بالجمع ما فوق الواحد.

وقيل أراد بقوله هؤلاء بناتي النساء جملة،لأن نبي القوم أب لهم قاله ابن عباس وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير، قال الكرخي: وهذا القول أولى لأن

إقدام الانسان على عرض بناته على الأوباش والفجار مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بالأنبياء. وأيضاً فبناته لا تكفي الجمع العظيم أما بنات أمته ففيهن كفاية للكل انتهى.

لكن فيه مخالفة لظاهر النظم، وقيل كان في ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة قال قتادة: المراد بناته لصلبه، وفي أضيافه ببناته، وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقالت طائفة: أما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة، وعن حذيفة بن اليمان قال: عرض عليهم بناته تزويجاً وأراد أن يقي أضيافه بتزويج بناته.

﴿هن أطهر لكم﴾ أي أحل وأنزه والتطهر التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة أطهر دلالة على التفضيل، بل هي مثل ﴿الله أكبر﴾ وقرأ الحسن وعيسى ابن عمر بنصب أطهر، وقرأ الباقون بالرفع، ووجه النصب أن يكون اسم إشارة مبتدأ وخبره بناتي. وهن ضمير فصل، وأطهر حال، وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا، لأن ضمير الفصل الذي يسمى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها، نحو كان زيد هو أخاك ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم، ولا تذلوني وتجلبوا عليّ العار في ضيفي، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، ومنه قول الشاعر:

لا تعدمي الدهر شفار الجازر للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع، والأول أكثر، يقال خزي الرجل خزاية: أي استحيا أو ذلّ أو هان. وخزي خزياً: إذا افتضح، ومعنى في ضيفي: في حق ضيفي، فخزي الضيف خزي للمضيف، ثم وبخهم فقال ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به،

وأرشدهم إليه بقولهم ﴿ما لنا في بناتك من حق﴾ أي ما لنا فيهم من شهوة ولا حاجة لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء، ويمكن أن يريدوا: أنهم لا حق لنا في نكاحهنّ، لأنه لا ينكحهنّ ولا يتزوجهنّ إلّا مؤمن ونحن لا نؤمن أبداً، وقيل إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم، وكان من سنتهم أن من خطب فردّ فلا تحل المخطوبة أبداً؛ ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ من إتيان الذكور، ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ وجواب لو محذوف، والتقدير لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم، وهذا منه عليه السلام على طريق التمني: أي لو وجدت معيناً وناصراً، فسمي ما يتقوى به قوة ﴿أوآوي إلى ركن شديد﴾ عطف على ما بعد لو لما فيه من معنى الفعل، والتقدير: لو قويت على دفعكم أوآويت إلى ركن شديد. وَقرىء ﴿أوآويَ﴾ بالنصب عطفاً على قوة كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد، ومراده بالركن الرشيد: العشيرة، وما يمنع به عنهم هو ومن معه لأنه كان أولاً بالعراق مع إبراهيم فلما هاجر إلى الشام أرسله الله إلى أهل سدوم وهي قرية عند حمص.

قال أبو هريرة: ما بعث الله نبياً بعده الا في منعة من عشيرته، وقيل أراد بالقوة الولد وبالركن من ينصره من غير ولده، وقيل أراد بالقوة قوته في نفسه قال السدي: الى جند شديد لقاتلتكم.

وقد ثبت في البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يغفر الله للوط ان كان يأوي الى ركن شديد، وهو مروي في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة، وقال النووي: المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه أشد الأركان وأقواها وأمنعها اهـ. وهو يخالف ظاهر الآية والحديث المتقدم.

قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾

ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿قالوا يا لوط انا رسل ربك﴾ أخبروه أولاً انهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم ﴿لن يصلوا اليك﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها لأنهم اذا كانوا مرسلين من عند الله اليه لم يصل عدوه اليه بسوء ولم يقدروا عليه ثم أمروه ان يخرج عنهم فقالوا له.

﴿فأسر بأهلك﴾ قرىء بالوصل وبالقطع من اسرى وسرى وهما لغتان سبعيتان فصيحتان، قال تعالى ﴿والليل اذا يسر﴾ وقال ﴿سبحان الذي أسرى﴾ وهل هما بمعنى واحد أو بينهما فرق.

خلاف مشهور فقيل هما بمعنى واحد وهو قول أبي عبيد. وقيل ان أسرى للمسير من أول الليل وسرى للمسير من آخره وهو قول الليث، وأما سار فمختص بالنهار، وليس مقلوباً من سرى والباء للتعدية أو للمصاحبة والأهل هم بنتاه فلم يخرج من القرية الا هو وبنتاه فقط، وفي القرطبي: خرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم.

﴿بقطع﴾ أي مصاحبين بقطع ﴿من الليل﴾ القطع الطائفة منه، قال ابن الاعرابي: بساعة منه؛ وقال الأخفش: بجنح من الليل، وقال الضحاك: ببقية الليل وقال قتادة: بعد مضي أوله وقيل انه السحر الأول، وقيل بنصف منه لأنه قطعة منه مساوية لباقيه، وقيل بظلمة منه، وقيل بعد هدو من الليل، وقال

ابن عباس: بجوف الليل وبسواده.

وقيل ان الباء بمعنى في؛ وقد تقدم الكلام على القطع في يونس بأشبع من هذا وقيل ان السرى لا يكون إلا في الليل فما وجه زيادة بقطع من الليل؟ قيل لو لم يقله لجاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة وليس ذلك بمراد.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي بقلبه إلى ما خلف أو لا ينظر إلى ما وراءه أو لا يشتغل بما خلفه من مال أو غيره، قيل وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم وهول ما نزل بهم فيرحموهم ويرقوا لهم، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات فانه لا بد للملتفت من فترة في سيره، وقع فيه ضمير منكم للاهل فهو التفات فقوله لا يلتفت من تسمية النوع.

وهذا من بديع النكات وهو عند المتأخرين من أهل البديع أن يؤتى بشيء من البديع ويذكر اسمه على سبيل التورية، وتبجحوا باختراعه وانه قد وقع في القرآن في هذه الآية.

قال الخفاجي: ثم أني وجدت منه قوله تعالى ﴿من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ في سورة يوسف فإن ﴿فهو جزاؤه﴾ جزاء من الشرطية وقد ذكر انه جزاء ومنه قوله تعالى؛ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ إلى قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ اهـ.

﴿الا امرأتك﴾ بالنصب سبعية والاستثناء من قوله فأسر بأهلك أي أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسر بها لكونها كافرة، وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيدة، قال النحاس: الرفع على البدل له معنى صحيح أي لا يلتفت منكم أحد الا امرأتك فانها تلتفت وتهلك، وقيل أن الرفع على البدل من أحد ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف، فكأنه قال ولا

يتخلف منكم أحد الا امرأتك فانها تتخلف، والملجىء إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين.

﴿انه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب وهو رميهم بالحجارة، والجملة تعليل للاستثناء ﴿إن موعدهم الصبح﴾ هذه الجملة تعليل لما تقدم من الأمر بالاسراء والنهي عن الالتفات، والمعنى ان موعد عذابهم أي وقت هلاكهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، روي انه قال لهم متى موعد هلاكهم فقالوا هذه المقالة فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا ﴿أليس الصبح بقريب﴾ الهمزة للانكار التقريري على حد ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ والجملة تأكيد للتعليل ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه أو المراد بالأمر نفس العذاب والأول أولى ﴿جعلنا عاليها﴾ أي عالي قرى قوم لوط ﴿سافلها﴾ والمعنى انه قلبها على هذه الهيئة وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم:

قال مجاهد: لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم وقطعها من أركانها ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها الى السماء، حتى سمع أهل السماء صياح ديكهم ونباح كلابهم ثم قلبها فكان أول ما سقط منها سرادقها فلم يصب قوماً ما أصابهم.

ثم ان الله طمس على أعينهم ثم قلبت قريتهم وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة يقال كان فيها أربعة آلاف ألف.

﴿وأمطرنا عليها﴾ أي على المدن حين رفعها جبريل أو على شذاذها وعلى من كان خارجاً عنها من مسافريها أو من بعد قلبها، قيل انه يقال امطرنا في

العذاب ومطرنا في الرحمة وقيل هما لغتان يقال مطرت السماء وأمطرت حكى ذلك الهروي.

﴿حجارة من سجيل﴾ هو الطين المتحجر بطبخ أو غيره، وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة، وقيل هو الكثير، وقيل ان السجيل لفظة غير عربية أصله سنج وجيل وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً.

قال سعيد: معناه سنك كل فارسي معرب لأن العرب اذا تكلمت بشيء من الفارسي صار لغة للعرب ولا يضاف الى الفارسي مثل قوله سندس واستبرق، فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية.

قال قتادة وعكرمة: هو الحجر والطين، دليله قوله تعالى في موضع آخر ﴿حجارة من طين﴾ وقال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين. وقال الحسن: أصل الحجارة طين فشدت، وقال الضحاك: يعني الآجر. وقيل هو من لغة العرب. وذكر الهروي إن السجيل اسم لسماء الدنيا.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود، وقيل هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض، وقيل هي جبال في السماء الدنيا. وقال الزجاج: هو من التسجيل لهم أي ما كتب لهم من العذاب فهو في معنى سجين، ومنه قوله تعالى ﴿وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم﴾ وقيل هو من أسجلته إذا أعطيته فكأنه عذاب أعطوه والأول أولى.

﴿منضود﴾ أي نضد بعضه فوق بعض، ومنه ﴿وطلح منضود﴾ أي متراكب والمراد وصف الحجارة بالكثرة. وقيل بعضه في إثر بعض، يقال نضدت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض فهو منضود ونضيد أي متتابع أو مجموع معه العذاب نعت لسجيل.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

﴿مسوَّمة﴾ معلمة أي التي لها علامة حال من حجارة، وسوغ مجيئها من النكرة تخصيص النكرة بالوصف، والتسويم العلامة، قيل كان عليها أمثال الخواتيم. قاله الحسن والسدي، وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رمى به، وقال الفراء: زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض فذلك تسويمها. قال ابن جريج: عليها سيماء لا تشاكل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع.

﴿عند ربك﴾ أي في خزائنه أو في حكمه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وما هي﴾ أي الحجارة الموصوفة، وقيل العقوبة المفهومة من السياق والأول أولى لأنه أقرب مذكور ﴿من الظالمين﴾ وهم قوم لوط ﴿ببعيد﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم من الظلمة، ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة ممن كفر بالنبي (ﷺ) فإنها بين الشام والمدينة يمرون بها في أسفارهم وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجراء له على موصوف مذكر أي شيء بعيد أو مكان بعيد أو لكونه مصدراً كالزفير والصهيل، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث.

وعن مجاهد قال: يرهب بها قريشاً أن يصيبهم ما أصابهم. وعن السدي قال: من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها، وعن قتادة قال: من ظالمي هذه الأمة. وقد ذكر المفسرون روايات وقصصاً في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة وليس في ذكرها فائدة ولا سيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح. وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب وحالهم في الرواية معروف، وقد أمرنا بأن لا نصدقهم

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

ولا نكذبهم فاعرف هذا فهو الوجه لحذفنا كثيراً من هذه الروايات الكائنة في قصص الانبياء وقومهم ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ هو اسم ابن ابراهيم الخليل ثم صار اسماً للقبيلة من أولاده وهو المراد هنا.

وقيل هو في الأصل اسم مدينة بناها مدين المذكور والتقدير إلى أهل مدين قال المقريزي في الخطط: إن مدين أمة شعيب هم بنو مديان بن ابراهيم وأمهم قنطورا ابنة يقطان الكنعانية ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم، ومدين على بحر القلزم تحاذي تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شعيب وعمل عليها بيت.

قال الفراء: مدين اسم بلد وقطر والجمهور على أن مدين أعجمي، وقيل عربي، فإن كان عربياً فإنه يحتمل أن يكون فعيلاً من مدن بالمكان أقام به وهو بناء نادر، وقيل مهمل أو مفعلاً من دان فتصحيحه شاذ وهو ممنوع الصرف على كل حال، سواء كان اسم الارض أو اسم القبيلة عجمياً أو عربياً اهـ. وبه قال النحاس وقد تقدم الكلام على هذا في الأعراف بأبسط مما هنا وهم قوم شعيب.

﴿أخاهم﴾ في النسب لأن ﴿شعيباً﴾ بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام، وقد تقدم تفسير قوله ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ في أول السورة، وهذه الجملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قال لهم

شعيب عليه السلام لما أرسله الله تعالى اليهم.

وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الانبياء لحسن مراجعته لقومه، وهذه عادة الأنبياء عليه السلام يبدؤون بالأهم فالأهم.

ولما كان الدعوة الى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء دعاهم اليه ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، وكان المعتاد منهم البخس في الكيل والوزن، وكانوا اذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وكذلك إذا وصل اليهم الموزون أخذوا بوزن زائد، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص فقال:

﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ أي لا عند الأخذ ولا عند الدفع، والنقص فيهما على وجهين كما قدمنا الاشارة اليه، والمراد بالمكيال المكيل به وبالميزان الموزون به، وهذا أبلغ في الأمر بوفائهما ﴿إني أراكم بخير﴾ أي بثروة وسعة في الرزق تغنيكم عن البخس فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والاضرار بعباده، وهذه النعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، وهو في الجملة علة النهي.

ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى فقال ﴿واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا، ووصف اليوم بالاحاطة والمراد العذاب لان العذاب واقع في اليوم، فهو مجاز في الاسناد كقولهم نهاره صائم، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم انه لا يشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأً ولا مهرباً، واليوم هو يوم القيامة، وقيل هو يوم الانتقام منهم في الدنيا بالصيحة. قال ابن عباس: الخير رخص السعر والعذاب غلاء السعر.

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

ثم أكد النهي عن نقص الكيل والوزن بقوله: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ الإيفاء هو التمام والقسط العدل وهو عدم الزيادة والنقص، وإن كانت الزيادة على الإيفاء فضل وخير ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل والنهي عن النقص وان كان يستلزم الإيفاء ففي تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن وشدة اهتمام فلذا كرر ليقوي الزجر والمنع من ذلك الفعل، والمعنى أتموهما ولا تطففوا فيهما، وقيل القسط تقويم لسان الميزان وتعديل المكيال. ثم زاد ذلك تأكيداً ثالثاً فقال ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ قد مر تفسير هذا في الأعراف وفيه النهي عن البخس على العموم والأشياء أعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن في هذا دخولاً أولياً، فظهر بهذا البيان فائدة هذا التكرير، وقيل البخس الكسر خاصة.

ثم قال ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ بتطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم، وقد مر أيضاً تفسيره في البقرة. والعثي في الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الاضرار بالناس فيدخل فيه كل ما في السياق من نقص المكيال والميزان، وعثى مصدر قياسي وعثو سماعي وقيده بالحال وهو قوله ﴿مفسدين﴾ ليخرج ما كان صورته من العثي في الأرض، والمراد به الإصلاح كما وقع من الخضر في السفينة.

﴿بقية الله﴾ أي ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط

﴿خير لكم﴾ أي أكثر خيراً وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الأرض، ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين، وقال مجاهد: بقية الله طاعته.

وقال الربيع: وصيته، وقال الفراء: مراقبته، وقال قتادة: حظكم من ربكم. وقال ابن عباس: رزق الله، وقيل ثوابه في الآخرة.

وبقيت ترسم التاء المجرورة؛ واذا وقف عليه اضطراراً يصح الوقف بالمجرورة والمربوطة، وليس في القرآن غيرها.

وإنما قيد ذلك بقوله ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر، والمراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب عليه السلام، وفي البيضاوي: بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما وأحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها، وإنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعذرت حين أنذرت؛ أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قالوا لشعيب عليه السلام والاستفهام للانكار عليه والاستهزاء به لأن الصلاة عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند ارادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب أصدقتك أمرتك بهذا، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة قاله الأعمش، وقيل المراد بها الدين، وقيل المراد بها اتباعه، ومنه المصلي الذي يتلو السابق، قال الاحنف: ان شعيباً كان أكثر الانبياء صلاة فلذلك قالوا هذه المقالة وانما ذكر الصلاة لانها من أعظم شعائر الدين.

﴿أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي عبادة الاوثان وفيه ان الترك فعلهم لا فعل شعيب وهو المأمور والانسان يؤمر بفعل نفسه فالمضاف محذوف وهو التكليف

وهـذا فعله أي هل هي تـأمرك بتكليفـك إيانـا ترك عبـادة الأصنام، وهـذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده.

وقـولهم ﴿أو أن نفعل في أمـوالنا مـا نشاء﴾ جـواب له عن أمـرهـم بإيفـاء الكيـل والـوزن ونهيهم عن نقصهـا وعن بخس النـاس، وعن العثي في الأرض معطوف على ما يعبد، فالترك مسلط عليـه، وأو بمعنى الواو، والمعنى هـل تأمـرك بتكليفـك لنا تـرك ان نفعل في أمـوالنا مـا نشـاء من الاخـذ والاعـطاء والـزيـادة والنقص، وهذا لف ونشر مرتب.

وقرىء بالتاء في الفعلين عطفاً على مفعول تأمـرك أي أصلاتـك تأمـرك ان تفعل أنت في أموالنا ما تشاء، وقرىء نفعل بالنون وما تشـاء بالفـوقية أي نفعـل فيها ما تشاء انت وندع ما نشاء نحن وما يجري به التراضي بيننا.

وعن ابن زيد في الآية قال: نهاهم عن قطع هذه الدنانير والـدراهم فقالـوا انما هي أموالنا نفعل فيها ما نشاء ان شئنا قطعناها وان شئنا أحـرقناهـا وان شئنا طرحناها، وعن محمد بن كعب وزيد بن أسلم وابن المسيب نحوه.

ثم وصفـوه بوصفـين عظيمـين فقالـوا ﴿انك لأنت الحليم الـرشيد﴾ عنـد نفسك وفي اعتقادك ومعناه ان هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما نعتقده في نفسك من الحلم والرشد، وقيل انهم قالوا ذلك لا على طـريق الاستهزاء بـل هو عندهم كذلك، وأنكروا عليه الأمر والنهي منـه لهم بما يخـالف الحلم والرشـد في اعتقادهم والمعنى انك فينا حليم رشيد فلا يحمد بك شق عصا قـومك ومخـالفتهم في دينهم.

وقال ابن عباس: يقـولون انـك لست بحليم ولا رشيد أي ارادوا السفيـه الغاوي لأن العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكـة مفازة؛ وقيل هو على حقيقتـه وانما قـالوا ذلـك على سبيـل السخريـة قال قتـادة: استهزاء به.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

﴿قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها، والمعنى اخبروني ان كنت على بيان وحجة واضحة وبصيرة وهداية من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿ورزقني منه﴾ أي من فضله وخزائن ملكه ومن عنده وباعانته بلا كد مني ولا تعب في تحصيله ﴿رزقاً حسناً﴾ أي كثيراً واسعاً حلالاً طيباً وقد كان عليه السلام كثير المال والنعمة، وقيل أراد بالرزق النبوة وقيل الحكمة وقيل العلم وقيل التوفيق وقيل المعرفة وقيل الهداية.

وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره أأترك أمركم ونهيكم أو تقولون في شأني ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء أو هل يسعني مع هذه النعمة ان اخون في وحيه، وهذا الجواب شديد المطابقة بقولهم انك لأنت الحليم الرشيد أي كيف يليق بالحليم الرشيد ان يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة

﴿وما أريد﴾ بنهي لكم عن التطفيف والبخس ﴿ان اخالفكم الى ما أنهاكم﴾ نهيتكم ﴿عنه﴾ فأفعله دونكم يقال خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه وخالفته عن كذا في عكس ذلك، قال الزجاج: معناه لست انهاكم عن شيء وادخل فيه انما اختار لكم ما اختار لنفسي، قال ابن الانباري: بين ان الذي يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه ولا

ينطوي إلا عليه، فكان هذا محض النصح لهم، وقال قتـادة: لم اكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه.

﴿ان أريد﴾ أى ما أريد بالأمر والنهي ﴿إلا الاصلاح﴾ لكم ودفع الفساد عن دينكم ومعاملاتكم ﴿ما استطعت﴾ ما بلغت اليه استطاعتي وتمكنت منه طاقتي ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أى ما صرت موفقاً هادياً نبياً مرشداً إلا بتأييد الله سبحانه وإقداري عليه ومنحي اياه ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أمـوري التي منها أمـركم ونهيكم ﴿واليه أنيب﴾ أي اليه ارجع في كل ما نابني من الأمور وأفوض جميع أموري الى ما يختاره لي من قضائه وقدره وقيل معناه اليه أرجع في الآخرة وقيل ان الإنابة الدعاء ومعناه وله أدعو.

وعن علي قال: قلت يا رسول الله أوصني قال: قل الله ربي ثم استقم قلت ربي الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب، قال؛ ليهنك العلم يا أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً، أخرجه أبو نعيم في الحلية وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي.

﴿ويـا قوم لا يجـرمنكم شقاقي﴾ قـال الزجـاج: معنـاه لا يكسبنكم والشقـاق العداوة، وقال قتادة: لا يحملنكم فراقي، وعن السدي: لا يحملنكم عداوتي، وعن مجـاهـد نحـوه ﴿ان يصيبكم﴾ مفعـول ثـان ليجـرمنكم أي أن لا يكسبنكم معاداتكم لي ان لا يصيبكم ﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾ من الغرق ﴿أو قوم هود﴾ من الريح ﴿أو قوم صالح﴾ من الحجارة وغيرها.

﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ يحتمل ان يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم أو ليسوا منكم ببعيد في السبب الموجب لعقوبتهم وهو مطلق الكفر وأفرد لفظ بعيد لمثل ما سبق، وقيل بشيء بعيد كذا قدره الزمخشري وتبعه الشيخ، وقال الزمخشري يجوز أن يستوي في بعيد وقريب وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي كالصهيل والنهيق ونحوهما، وقال قتادة: انما كانوا حديثي عهد قريب بهلاكهم بعد نوح وثمود.

وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا
نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال ﴿واستغفروا ربكم﴾ من عبادة الأوثان ﴿ثم توبوا اليه﴾ من البخس والنقصان في المكيال والميزان وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أول السورة ﴿إن ربي رحيم﴾ بالمؤمنين ﴿ودود﴾ للتائبين، وتقدم تفسير الرحيم والمراد هنا انه عظيم الرحمة، والودود المحب صيغة مبالغة من ود الشيء يودّ وداً ووداد أو ودادة أي أحبه وآثره.

قال في الصحاح: وددت الرجل أوده وداً إذا أحببته والود المحبة والمشهور وددت بكسر العين وسمع بفتحها والودود بمعنى فاعل أى يود عباده ويرحمهم، وقيل بمعنى مفعول بمعنى ان عباده يحبونه ويوادون أولياءه فهم بمنزلة المواد مجازاً، والأول أولى، والمعنى هنا انه يفعل بعباده فعل من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير اليه ودفع الشر عنه وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة.

وجملة ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ مستأنفة كالجمل السابقة والمعنى أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفهم ذلك كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً.

وقيل قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه،وإيذاناً بقلة المبالاة به واحتقاراً لكلامه مع كونه مفهوماً لديهم معلوماً عندهم، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازاً، يقال فقه يفقه إذا فهم فقهاً وفقهاً وحكى الكسائي فقهاناً ويقال فقه فقهاً إذا صار فقيهاً.

﴿وإنـا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أى لا قوة لك تقدر بها على ان تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا أو مهيناً لا عز لك، وهذا قريب من الأول، وقيل المراد انه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى وقيل انه كان مصاباً ببصره، قال النحاس وحكى أهل اللغة ان حمير تقول للأعمى ضعيف أى قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير أى ضر بذهاب بصره، وقال الزجاج: الأعمى يسمى ضعيفاً.

عن سعيد بن جبير قال: كان أعمى، وإنما عمي من بكائه من حب الله عز وجل وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمي، أخرجه ابن عساكر والواحدي، قال السدي: معناه إنما أنت واحد، وقال علي: كان مكفوفاً فنسبوه الى الضعف، وقيل الضعيف العاجز عن الكسب والتصرف؛ وقـال الحسن ومقاتل: يعني ذليلاً والأول أولى ويدل لصحته قوله.

﴿ولولا رهطك﴾ رهط الرجل جماعته وعشيرته الذين يستند اليهم ويتقوى بهم، ومنه الراهط لحجر اليربوع لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده، والرهط والراهط يقع على الثلاثة إلى العشرة، وقيل الى السبعة، قاله الزمخشري ولا يقع الرهط والعصبة والنفر إلا على الرجال ويجمع على أرهط وأرهط على أراهط وانما جعلوا رهطه مانعاً من إيقاع الضرر به مع كونهم في قلة، والكفار ألوف مؤلفة لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراماً لهم لا خوفاً منهم وقال علي: فوالله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم. ما هابوا إلا العشيرة.

﴿لرجمناك﴾ أى لقتلناك بالحجارة، والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وأشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول والأول أظهر.

ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي كريم مكرم معظم حتى نكف عنك لأجل عزتك ومنعتك عندنا بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا لموافقتهم لنا في الدين لا لقوة شوكتهم.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ مستأنفة وإنما قال من الله ولم يقل مني لأن نفي العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفي استهانة به والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل، فقد تضمن كلامهم ان رهطه أعز عليهم من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى.

والضمير في ﴿واتخذتموه﴾ راجع إلى الله سبحانه والمعنى واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذي أرسله اليكم ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي منبوذاً وراء الظهر لا تبالون به، وقيل المعنى واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه اليكم وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم كالشيء الملقى الذي لا يلتفت اليه.

يقال جعلت أمره بظهر إذا قصرت فيه، وظهرياً منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، والقياس فتح الظاء كما قالوا في أمس إمسي بكسر الهمزة وفي دهر دهري بضم الدال، قال مجاهد: نبذتم أمره، وقال قتادة: لا تخافونه، وقال الضحاك: تهاونتم به، وقيل إن الضمير يعود إلى العصيان أي واتخذتم العصيان عوناً على عداوتي فالظهري على هذا بمعنى المعين المقوي ﴿إن ربي بما تعلمون محيط﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم، ولا أفعالكم فيجازيكم بها يوم القيامة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾

﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ لما رأى اصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ تمكن.

﴿اني عامل﴾ على حسب ما يمكنني ويقدره الله لي ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله ﴿سوف تعلمون﴾ أينا الجاني على نفسه المخطىء في فعله وتعلمون عاقبة ما أنتم عليه من عبادة غير الله والاضرار بعباده، وقد تقدم مثله في الأنعام.

قال الزمخشري: وصل سوف تارة بالفاء وتارة بالاستئناف كما هو عادة البلغاء من العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف لأنه أكمل في باب الفصاحة والتهويل اهـ. يعني حذف الفاء هنا لأنه جواب سائل هو المسمى في علم البيان بالاستئناف البياني كأن كان قائلاً قال: فماذا يكون بعد ذلك فهو أبلغ في التهويل.

﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب المخزي الذي يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار ﴿ومن هو كاذب﴾ في زعمكم ومن هو المعذب، وفيه تعريض بكذبهم في قولهم لولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز.

وقيل التقدير من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره ﴿وارتقبوا اني معكم رقيب﴾ أي انتظروا اني معكم منتظر لما يقضي به الله بيننا.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

﴿ولما جاء أمرنا﴾ بعذابهم أو عذابنا ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ لهم بسبب ايمانهم أو بهدايتهم للايمان ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿الصيحة﴾ التي صاح بها جبريل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم، وفي الأعراف ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وكذا في العنكبوت وقد قدمنا ان الرجفة الزلزلة وانها تكون تابعة للصيحة لتموج الهواء المفضي اليها، وهذا في أهل قريته واما أصحاب الايكة فأهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء أحرقتهم.

﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين باركين على الركب وقد تقدم تفسيره وتفسير ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ قريباً وكذا تفسير ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾

قال المهدوي: من ضم العين من بعدت فهي لغة تستعمل في الخير والشر، وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل في الشر خاصة وهي هنا بمعنى اللعنة وقيل بكسر العين بمعنى الهلاك وبضمها ضد القرب والمصدر البعد بفتح العين، والمعنى هلاكاً لهم كما هلكت ثمود والتشبيه من حيث ان هلاك كل بالصيحة.

قال ابن الأنباري: من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب قيل لم يعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾

﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ هذه سابعة قصص ذكرت في هذه السورة فتقدم قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ومدين على هذا الترتيب وهذه قصة موسى ﴿بآياتنا﴾ أي بالتوراة حال كونه متلبساً بها ﴿وسلطان مبين﴾ أي المعجزات الباهرات.

وقيل المراد بالآيات هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع منها ثمانية في الأعراف، والتاسعة في يونس.

وليس من الآيات المرادة هنا التوراة لأنها أنزلت بعد اغراق فرعون وقومه والسلطان العصا وهي وان كانت من التسع لكنها لما كانت أعظم الآيات وأبهرها للعقول وأشدها خرقاً للعادة أفردت بالذكر.

وقيل المراد بالآيات ما يفيد الظن، والسلطان ما يفيد القطع مما جاء به موسى وقيل هما جميعاً عبارة عن شيء واحد أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية وكونه سلطاناً بيناً، وقيل ان السلطان المبين ما أورده موسى على فرعون في المحاورة بينهما.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أرسلناه بذلك إلى هؤلاء، وقد تقدم أن الملأ أشراف القوم وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم لأنهم اتباع لهم في الإصدار والإيرادوخص هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي أمره لهم بالكفر لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره.

ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقه فيعم الكفر وغيره ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد قط، بل هو غي وضلال، والرشيد بمعنى المرشد والاسناد مجازي، أو بمعنى ذي رشد، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى.

﴿يقدم قومه﴾ تعليل للنفي قبله من قدمه بمعنى تقدمه أي يصير متقدماً لهم ﴿يوم القيامة﴾ وسابقاً لهم الى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فأوردهم النار﴾ أي أنه لا يزال متقدماً لهم وهم يتبعونه حتى يوردهم النار في الآخرة. والورود الدخول وأورد ماض لفظاً مستقبل معنى لانه عطف على ما هو نص في الاستقبال.

وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه والهمزة في أورد للتعدية لأنه قبلها يتعدى لواحد، قال تعالى ﴿ولما ورد ماء مدين﴾.

وقيل بل هو ماض على حقيقته وهذا قد وقع وانفصل، وذلك انه اوردهم في الدنيا النار، قال تعالى ﴿النار يعرضون عليها﴾

وقيل أوردهم موجباتها وأسبابها، وفيه بعد لأجل العطف بالفاء قال قتادة: يمضي فرعون بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار. قال الخفاجي: وأنزل لهم النار منزلة الماء فسمى اتيانها وروداً فالنار استعارة مكنية تهكمية للضد وهو الماء وإثبات الورود لها تخييل.

ثم ذم الورد الذي أوردهم اليه فقال ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي المدخل المدخول فيه الذي وردوه لأن الوارد إلى الماء الذي يقال له الورد إنما يرده ليطفىء حر العطش ويذهب ظمأه، والنار على ضد ذلك، والورد يكون مصدراً بمعنى الورود فلا بد من حذف مضاف تقديره وبئس مكان الورد المورود وهو النار، وإنما احتيج الى هذا التقدير، لأن تصادق فاعل نعم وبئس ومخصوصهما شرط، فلا يقال نعم الرجل الفرس.

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

ثم ذمهم بعد ذم المكان الذي يردونه فقال ﴿وأتبعوا﴾ أي أتبع قوم فرعون مطلقاً أو الملأ خاصة أو هم وفرعون ﴿في هذه﴾ الدنيا ﴿لعنة﴾ عظيمة أي طرداً وابعاداً من الأمم بعدهم ﴿و﴾ أتبعوا لعنة ﴿يوم القيامة﴾ يلعنهم أهل المحشر جميعاً، ثم انه جعل اللعنة رفداً لهم على طريقة التهكم فقال ﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي العون المعان أو العطاء المعطى.

قال الكسائي وأبو عبيدة: رفدته أرفده رفداً أعنته وأعطيته، واسم العطية الرفد أي بئس العطاء والاعانة ما أعطوهم إياه وأعانوهم به والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة التي اتبعوها في الدنيا والآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمد الاخرى وتؤيدها.

وسميت اللعنة عوناً لأنها اذا تبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن رحمة الله وأعانتهم على ما هم فيه من الضلال، وسميت رفداً أي عوناً لهذا المعنى على التهكم، والا فاللعنة إذلال لهم وانزال بهم الى الحضيض الاسفل، وسميت معاناً لانها أرفدت في الآخرة بلعنة أخرى لتكونا هاديتين الى طريق الجحيم.

وذكر الماوردي حكاية عن الاصمعي ان الرفد بالفتح القدح وبالكسر ما فيه من الشراب فكأنه ذم ما يستقونه في النار وهذا أنسب بالمقام، وقيل ان الرفد الزيادة، أي بئسما يرفدونه به بعد الغرق وهو الزيادة، قاله الكلبي: وأصل الرفد العون والعطاء والصلة، والارفاد أيضاً الاعطاء والاعانة. قال أبو السعود: وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام، وأصله ما يضاف الى غيره ليعمده.

﴿ذلك﴾ أي ما قصه الله سبحانه في هذه السورة من القصص السبعة ﴿من أنباء القرى﴾ أي من أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية وما فعلوه بأنبيائهم ﴿نقصه عليك﴾ أي هو مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبروا، وقد تقدم تحقيق معنى القصص ﴿منها﴾ أي من القرى التي أهلكنا أهلها ﴿قائم وحصيد﴾ القائم ما كان قائماً على عروشه والحصيد ما لا أثر له.

وقيل القائم العامر والحصيد الخراب، وقيل القائم القرى الخاوية على عروشها والحصيد المستأصل بمعنى محصود، شبه ما بقي من آثار القرى بالزرع القائم على ساقه وشبه المقطوع والمعفو منها بالحصيد.

قال ابن عباس: يعني قرى عامرة وقرى خامدة، وقال قتادة: قائم يرى مكانه وحصيد لا يرى له أثر، وقال ابن جريج: قائم خاو على عروشه وحصيد ملصق بالأرض، والمعنى بعضها باق وبعضها عاف، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنه لما ذكر أنباء القرى اتجه لسائل أن يقول ما حال هذه القرى أباقية آثارها أم لا؟ ﴿وما ظلمناهم﴾ بما فعلنا بهم من العذاب والإهلاك ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه من الكفر والمعاصي.

﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ أي فما دفعت عنهم أصنامهم أو ما نفعت، قاله أبو عاصم ﴿التي يدعون﴾ يعبدونها ﴿من دون الله﴾ أي غيره ﴿من شيء﴾ أي شيئاً من العذاب،وبأس الله،ومن زائدة ﴿لما جاء﴾ أي حين جاء ﴿أمر ربك﴾ أي عذابه ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ أي هلاك وخسران. قال ابن عمر: أي هلكة وقال ابن زيد: أي تخسير، وقيل تدمير، والتتبيب اسم من تببه بالتشديد، وتبت يده تتب بالكسر خسرت كناية عن الهلاك وتباً له أي هلاكاً واستتب الأمر تهيأ ويستعمل لازماً ومتعدياً، يقال تببه غيره وتب هو بنفسه، والمعنى ما زادتهم أصنامهم التي يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً، وقد كانوا يعتقدون انها تعينهم على تحصيل المنافع ودفع المضار.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الأخذ ﴿أخذ ربك﴾ قرىء على انه فعل وعلى انه مصدر ﴿اذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي أهلها وهم ظالمون بالذنوب فلا يغني عنهم من أخذه شيء ﴿ان أخذه﴾ عقوبته للكافرين ﴿أليم شديد﴾ أي موجع غليظ على المأخوذ وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك﴾ الآية[1] ولا تظنن ان الآية حكمها مختص بظالمي الأمم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث.

﴿إن في ذلك﴾ أي أخذ الله سبحانه لأهل القرى أو في القصص السبعة التي قصها الله على رسوله ﴿لآية﴾ لعبرة وموعظة لأن القصص المذكورة فيها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقد حصل الأول فيعلم العاقل أن القادر على إنزال الاول قادر على إنزال الثاني ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ويتعظون بالمواعظ. قال ابن زيد: يقول انا سوف نفي لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للأنبياء إنا لننصرهم.

﴿ذلك﴾ أي يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿يوم مجموع له﴾ صفة ليوم جرت على غير من هي له فلذلك رفعت الظاهر وهو ﴿الناس﴾ من الأولين والآخرين للمحاسبة والمجازاة ﴿وذلك﴾ أي يوم القيامة ﴿يوم مشهود﴾ يشهده أهل المحشر، أو مشهود فيها الخلائق،أو يشهده أهل السماء والأرض فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول.

(١) مسلم ٢٥٨٣ ـ البخاري ٢٠١٣.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦﴾

﴿وما نؤخره﴾ أي ذلك اليوم ﴿الا لأجل﴾ اللام للتعليل أي لانتهاء أجل أي وقت ﴿معدود﴾ معلوم بالعدد لا يعلمه الا الله وهو مدة الدنيا وقد عين سبحانه وقوع الجزاء بعده، وعبارة أبي السعود: الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿يوم﴾ حين ﴿يأت﴾ يوم القيامة وقيل الضمير لله تعالى كقوله الا أن يأتيهم الله أو يأتي ربك ﴿لا تكلم﴾ أي لا تتكلم فيه ﴿نفس﴾ بما ينفع وينجي من جواب ﴿الا بإذنه﴾ أي بما أذن لها من الكلام، وقيل لا تكلم بحجة ولا شفاعة الا بإذنه سبحانه لها في التكلم بذلك كقوله لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن، وقوله تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾.

وقد جمع بين هذا وبين قوله ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ وقوله إخباراً عن محاجة الكفار ﴿ربنا ما كنا مشركين﴾ وقوله ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة وقد تكرر مثل هذا الجمع في مواضع.

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة أنواع من البديع. الجمع في قوله لا تكلم نفس والتفريق في قوله فمنهم شقي وسعيد والتقسيم في قوله فأما الذين شقوا.

﴿فمنهم﴾ أي من الأنفس أو من أهل الموقف وان لم يذكروا قال الزمخشري: لأن ذلك معلوم ولأن قوله لا تكلم نفس يدل عليه وكذا قال ابن عطية ﴿شقي﴾ هو من كتبت عليه الشقاوة ﴿وسعيد﴾ أي من كتبت له السعادة وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام تحذير.

أخرج الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت فمنهم شقي وسعيد قلت يا رسول الله فعلام نعمـل على شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يفرغ منه قال: بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الاقلام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له(١)

وقد استدل بهذه الآية على ان أهل الموقف قسمان لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيآته أو لا حسنات لهم ولا سيآت كالمجانين والأطفال فهم تحت مشيئته يحكم فيهم بما شاء وتخصيص القسمين لا ينفي القسم الثالث.

﴿فأما الذين شقوا﴾ أي الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الكفر وان تقدم منهم إيمان ﴿ففي النار﴾ أي فمستقرون فيها ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ قال الزجاج: الزفير من شدة الأنين وهو المرتفع جداً.

قال: وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين ان الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير والشهيق بمنزلة آخره، وقيل الزفير للحمار والشهيق للبغل، وقيل الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف، وقيل الزفير إخراج النفس والشهيق ردها، وقيل الزفير من الصدر والشهيق من الحلق.

وقيل الزفير ترديد النفس في الصدر من شدة الخوف حتى تنتفخ منه الاضلاع والشهيق النفس الطويل الممتد أو رد النفس الى الصدر والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه

وقال الليث: الزفير ان يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه والشهيق ان يخرج ذلك النفس وهو قريب من قولهم تنفس الصعداء، والجملة إما مستأنفة أو حالية.

---

(١) الترمذي كتاب القدر الباب الثالث.

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

﴿خالدين﴾ لابثين ﴿فيها﴾ أي في النار ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ ما مصدرية أي مدة دوامها في الدنيا وهذه المدة غير ما يزيده الله مما لا نهاية له ودامت هنا تامة لأنها بمعنى بقيت.

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت لأنه قد علم بالادلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعه عنهم.

وثبت أيضاً ان السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا فقالت طائفة: ان هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء قالوا هو دائم ما دامت السموات الأرض ومنه قولهم لا آتيك ما جن الليل وما اختلف الليل والنهار وما ناح الحمام ونحو ذلك فيكون المعنى انهم خالدون فيها أبداً لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له.

وقيل ان المراد سموات الآخرة وأرضها فقد ورد ما يدل على ان للآخرة سموات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وأيضاً لا بد لهم من موضع يقلهم وآخر يظلهم وهما أرض وسماء؛ قال ابن عباس: لكل جنة أرض وسماء؛ وروى نحوه عن السدي والحسن

﴿إلا ما شاء ربك﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال.

الأول: انه من قوله ففي النار كأنه قال: الا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك روى هذا عن أبي سعيد الخدري.

الثاني: ان الاستثناء انما هو للعصاة من الموحدين وانهم يخرجون بعد مدة من النار وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿فاما الذين شقوا﴾ عاماً في الكفرة

والعصاة ويكون الاستثناء من خالدين ويكون ما بمعنى من، وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم.

قال البيضاوي: هو استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها وذلك كاف في صحة الاستثناء، لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض؛ وهم المرادون بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأبيد من مبدأ معين ينتقص باعتبار الابتداء كما ينتقص باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم اهـ.

وقد ثبت بالأحاديث المتواترة -تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد فكان ذلك مخصصاً لكل عموم.

الثالث: ان الاستثناء من الزفير والشهيق أي لهم فيها ذلك إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق، قاله ابن الانباري.

الرابع: أن معنى الاستثناء أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض لا يموتون فيها إلا ما شاء ربك، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا ثم يجدد الله خلقهم، روي ذلك عن ابن مسعود.

الخامس: ان إلا بمعنى سوى ولكن والاستثناء منقطع والمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ثم زاد عليه الدوام الذي لا آخر له حكاه الزجاج.

السادس: ما روي عن الفراء وابن الأنباري وابن قتيبة من ان هذا لا ينافي عدم المشيئة كقولك والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التي شاء الله فالمشيئة قد حصلت جزماً، وقد حكى هذا القول الزجاج أيضاً.

السابع: ان المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبورهم وللحساب حكاه الزجاج أيضاً.

الثامن: ان المعنى خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لاهل الجحيم حكاه الزجاج أيضاً واختاره الحكيم الترمذي.

التاسع: ان إلا بمعنى الواو قاله الفراء والمعنى وما شاء ربك من الزيادة، قال مكي: وهذا القول بعيد عند البصريين ان يكون إلا بمعنى الواو.

العاشر: إن إلا بمعنى الكاف، والتقدير كما شاء ربك ومنه قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ أي كما قد سلف.

الحادي عشر: ان هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ندب اليه الشارع في كل كلام فهو على حد قوله ﴿لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين﴾ قاله ابن عطية، وروى نحو هذا عن أبي عبيد، ولا يحتاج إلى أن يوصف بمتصل ولا منقطع.

وهذه الأقوال هي جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم، وقد نوقش بعضها بمناقشات ودفعت بدفوعات، وقد اوضح الشوكاني ذلك في رسالة مستقلة جمعها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام، قال السيوطي: وما تقدم من التأويل هو الذي ظهر وهو خال من التكلف، والله أعلم بمراده انتهى.

قال في الجمل: أي التفسير للاستثناء وحاصله ان إلا في المعنى بمعنى حرف العطف والاستثناء منقطع، فكأنه قيل ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ وزيادة على هذه المدة لا منتهى لها؛ وقوله هو الذي ظهر أي ظهر له اختياره من ثلاثة عشر وجهاً للمفسرين في هذا المقام وهو وجه حسن لأن فيه التأبيد بما يعلمه المخاطبون بالمشاهدة ويعترفون به وهو دوام الدنيا.

وأما التأبيد بدوام سموات الآخرة وأرضها كما قيل ففيه انه غير معلوم

للمخاطبين خصوصاً من ينكر البعث، وقد استوفى السمين الوجوه المذكورة، ولنقتصر على نقل بعضها لكونه أقرب من غيره انتهى.

ثم ذكر الوجه الثاني والخامس والحادي عشر كما مر.

وقال ابن حجر الهيتمي المكي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: دلت الآيات والاحاديث على ان عذاب الكفار في جهنم دائم مؤبد، وما ورد مما يخالف ذلك يجب تأويله، فمن ذلك قوله تعالى ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد﴾ فظاهره ان مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض إلا ماشاء الله من هذه المدة فلا يكونون فيه خالدين فيها.

وقد أوله العلماء بنحو عشرين وجهاً يرجع بعضها الى حكمة التقييد بمدة دوام السموات والارض، وبعضها إلى حكمة الاستثناء ومعناه، فمن الأول ان المراد سموات الجنة وأرضها إذ السماء كل ما علاك، والارض كل ما استقررت عليه، وكون الجنة والنار لهما سماء وأرض بهذا الاعتبار أمر قطعي لا يخفى على أحد، فاندفع التنظير في هذا القول بأنه لا يجوز حمل مافي الآية عليه لانه غير معروف للمخاطبين او سموات الدنيا وأرضها وأجرى ذلك على عادة العرب في الاخبار عن دوام الشيء وتأييده بذلك ونحوه كقولهم لا آتيك ما سال سيل وما جن ليل وما طما البحر، وما قام جبل، لأنه تعالى يخاطب العرب على عرفهم في كلامهم وهذه الالفاظ في عرفهم تفيد الابد والدوام.

وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش وان السموات والارض في الآخرة تردان إلى النور الذي خلقنا منه وهما دائمتان أبداً من نور العرش.

ثم هذا الجواب إنما يحتاج اليه بناء على ان مفهوم التقييد بدوام السموات والارض انهم لا يبقون في النار إلا بقدر مدة دوامها من حين

ايجادها إلى اعدامها، ومنع بعضهم ذلك بأن المفهوم من الآيـة انهما متى كانتا دائمتين كان كونهم في النار باقياً، وقضية ذلك انه كلما حصل الشرط وهو دوامهما حصل المشروط وهو بقاؤهم في النار، ولا يقتضي انه إذا عدم الشرط يعدم المشروط.

فاذا قلنا ما دامتا بقي عقابهم، ثم قلنا لكنهما دائمتان لزم دوام عقابهم أو لكنهما ما بقيتا لم يلزم عدم دوام عقابهم، لا يقال اذا دام عقابهم بقيتا أو عدمتا فلا فائدة للتقييد بدوامهما لأنا نقول بل فيه أعظم الفوائد وهو دلالته على بقاء ذلك العذاب دهراً دائماً طويلاً لا يحيط العقل بقدر طوله وامتداده.

فأما انه هل لذلك العذاب آخِر أم لا فذلك يحصل من أدلة أخرى، وهي الآيات المصرحة بتأييد خلودهم المستلزم انه لا آخر له، ومن الثاني انه استثناء من فيها لانهم يخرجون من النار الى الزمهرير والى شرب الحميم ثم يعودون فيها فهم خالدون فيها أبداً الا في تلك الاوقات فإنها وان كانت أوقات عذاب أيضاً الا انهم ليسوا حينئذ فيها حقيقة أو أن ما لمن يعقل كانكحوا ما طاب لكم من النساء وحينئذ فيكون استثناء لعصاة المؤمنين من ضمير خالدين متصلاً بناء على شمول شقوا لهم أو منقطعاً بناء على عدم شموله لهم وهو الأظهر، أو انه منقطع والا بمعنى سوى أي ما دامتا سوى ما شاء ربك زيادة على ذلك.

وبقيت اجوبة كثيرة اعرضت عنها لبعدها، ولا ينافي ذلك ما رواه أحمد عن عبد الله بن عمر وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، لأن في سنده من قالوا فيه انه غير ثقة وصاحب أكاذيب كثيرة عظيمة.

نعم نقل غير واحد هذه المقالة عن ابن مسعود وأبي هريرة، قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهو قول عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وأبي

هريرة وأنس واليه ذهب الحسن البصري وحماد بن سلمة، وبه قال علي بن طلحة الوالي وجماعة من المفسرين انتهى.

ويرد ما نقله عن الحسن قول غيره، قال العلماء: قال ثابت: سألت الحسن عن هذا فأنكره، والظاهر أن هؤلاء الذين ذكرهم لم يصح عنهم من ذلك شيء، وعلى التنزل فمعنى كلامهم كما قاله العلماء ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين، أما مواضع الكفار فهى ممتلئة بهم لا يخرجون عنها أبداً كما ذكره الله في آيات كثيرة.

وفي تفسير الرازي قال قوم: ان عذاب الكفار منقطع وله نهاية، واستدلوا بهذه الآية وبـ «لابثين فيها أحقاباً»، وبأن معصية الظالم متناهية فالعقاب عليها بما لا يتناهى ظلم انتهى.

والجواب عن الآية وقوله تعالى أحقاباً لا يقتضى ان له نهاية لما مر أن العرب يعبرون به وبنحوه عن الدوام، ولا ظلم في ذلك لأن الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حياً فعوقب دائماً فهو لم يعاقب بالدائم إلا على دائم، فلم يكن عذابه الا جزاء وفاقاً.

واعلم ان التقييد والاستثناء في أهل الجنة ليس المراد بهما ظاهرهما باتفاق الكل لقوله تعالى ﴿غير مجذوذ﴾ فيؤول بنظير ما مر،ويكون المراد بما اذا جعلناها بمعنى ﴿من﴾ أهل الاعراف عصاة المؤمنين الذين لم يدخلوها بعد.

قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: عطاء غير مجذوذ أي غير مقطوع ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. انتهى كلام ابن حجر.

وفي الذي تحامل به على ابن تيمية نظر فقد اوضح البحث الحافظ ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح الى بلاد الأفراح مستوفياً بما له وعليه فمن شاء فليرجع اليه.

أخرج أبو الشيخ عن قتادة أنه تلا هذه الآية فقال حدثنا أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج قوم من النار» ولا نقول كما قال أهل حروراء إن من دخلها بقى فيها.

وعن جابر قال: قرأ رسول الله صلى الله عايه وسلم هذه الآية فقال: إن شاء آلله ان يخرج أناساً من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل، أخرجه ابن مردويه. وعن خالد بن معدان في الآية قال: إنها في ذوي التوحيد من أهل القبلة وعن جابر بن عبد الله أو أبي سعيد الخدري قال: هذه الآية قاضية على القرآن كله يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه، وعن ابن عباس في قوله ﴿إلا ماشاء ربك﴾ قال: فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار، وأن يخلد هؤلاء في الجنة.

وعنه قال: استثنى الله من النار أن تأكلهم، وعن السدي في الآية قال: فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة «إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً» الى آخر الآية، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها وأوجب لهم خلود الأبد.

وقوله: وأما الذين سعدوا؛ الآية، فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها، فأنزل بالمدينة «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات - إلى قوله - ظلاً ظليلاً»، فأوجب لهم خلود الأبد.

وعن أبي نضرة قال: ينتهي القرآن كله الى هذه الآية، يعني ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ وفي المناوي الكبير على الجامع الصغير ما نصه:

تنبيه: ما ذكرته آنفا من أن عذاب الكفار في جهنم دائم أبداً هو ما دلت عليه الآيات والأخبار وأطبق عليه جمهور الأمة سلفاً وخلفاً، ووراء ذلك أقوال يجب تأويلها، فمنها ما ذهب اليه الشيخ محيي الدين بن عربي انهم

يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، فإن الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز، وقال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، ولم يقل وعيده، بل قال ويتجاوز عن سيئآتهم مع انه توعد على ذلك وأثنى على اسماعيل بأنه كان صادق الوعد.

وقال في موضع آخر: ان أهل النار اذا أدخلوها لا يزالون خائفين مترقبين أن يخرجوا منها فإذا أغلقت عليهم أبوابها اطمأنوا لأنها خلقت على وفق طباعهم قال الحافظ ابن القيم: وهذا في طرف أي جهة، والمعتزلة القائلون بأنه يجب على الله تعذيب من توعده بالعذاب في طرف آخر، فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أبداً، والقولان مخالفان لما علم بالاضطرار أن الرسول جاء به وأخبر به عن الله.

ومنها قولُ جمعٍ: النارُ تفنى فإنه تعالى جعل لها أمداً تنتهي اليه ثم يزول عذابها لهذه الآية، وقوله تعالى ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ قال هؤلاء: وليس في القرآن دلالة على بقاء النار وعدم فنائها، انما الذي فيه ان الكفار خالدون فيها وانهم غير خارجين منها وانه لا يفتر عنهم عذابها وانهم لا يموتون، وان عذابهم فيها مقيم وانه غرام لازم، وهذا لا نزاع فيه من الصحابة والتابعين، انما النزاع في أمر آخر وهو أن النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء، وأما كون الكفار لا يخرجون منها ولا يدخلون الجنة فلم يختلف فيه أحد من أهل السنة.

وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله القول بفنائها عن جمع من الصحابة والتابعين، وقد نصر هذا القول ابن القيم كشيخه ابن تيمية وهو مذهب متروك وقول مهجور لا يصار اليه ولا يعول عليه، وقد أول ذلك كله الجمهور، وأجابوا عن الآيات المذكورة بنحو عشرين وجهاً وعما نقل أولئك الصحب بأن معناه ليس فيها أحد من عصاة المؤمنين، أما مواضع الكفار فهي ممتلئة منهم لا يخرجون عنها أبداً كما ذكر الله في آيات كثيرة، انتهى كلامه.

قلت وبالله التوفيق: أخرج ابن المنذر عن عمر قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه، وروى عبد بن حميد بإسناد رجالة ثقات عن عمر نحوه. وأخرج بن راهويه عن أبي هريرة قال: سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ ﴿فأما الذين شقوا﴾.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابراهيم قال: ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية ﴿خالدين فيها﴾ الخ. قال: وقال ابن مسعود: ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها، وروى أحمد عن ابن عمرو بن العاص: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وحكاه البغوى وغيره عن أبي هريرة وغيره وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال: جهنم أسرع الدارين عمراناً وأسرعهما خراباً، وعن قتادة قال: الله أعلم بتثنيته على ما وقعت. وقد روى عن جماعة من السلف مثل ماذكره ابن مسعود وعمر وأبو هريرة كابن عباس وابن عمر وجابر وأبي سعيد من الصحابة. وعن أبي مجلز وعبد الرحمن بن زيد آبن أسلم وغيرهما من التابعين، وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي وإسناده ضعيف.

وقد ثبت بذلك صحة ما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية عن هؤلاء وانتصره الحافظ آبن القيم، ووضح وهن ما قاله ابن حجر والمناوي عليهما وإن كان لا شك في أن الراجح هو الأول . ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة وفي السكوت عنه غنى فقال:

ولا يخدعنك قول المجبرة ان المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن ابن عمرو: ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد.

ثم قال: وأقول ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما علي بن ابي

طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. ا هـ.

قال الشوكاني: وأقول أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار فالقائل بذلك يامسكين رسول الله (ﷺ) كما صح عنه في دواوين الإسلام التي هي دفاتر السنة المطهرة وكما صح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر، فما لك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأي مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب الى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف.

وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادي على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة، وأي مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة فالاستثناء الأول يحمل على معنى الا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الامة من النار والاستثناء الثاني يحمل على معنى الا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخر دخولهم اليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره، وبه قال ابن عباس حبر الأمة.

وأما الطعن على صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه فالى أين يا محمود أتدري ما صنعت، وفي أي واد وقعت، وعلى أي جنب سقطت، ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك العرجاء، أما كان لك في مِكسَّري طِلبَتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف والتكلم بما لا تدري، فيالله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية والبعد عن معرفتها الى أبعدّ مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وأما الذين سعدوا﴾ أي في علمه تعالى وهم الذين يموتون على الايمان وان تقدم منهم كفر أو غيره من المعاصي قرأ الكسائي وغيره سعدوا بضم السين وقرأ الباقون بفتحها، قال سيبويه: لا يقال سعد فلان كما لا يقال شقي فلان لكونه مما لا يتعدى، قال النحاس: ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية وهذا لحن لا يجوز.

قال السمين: قرأ الأخوان وحفص بضم السين والباقون بفتحها فالأولى من قولهم سعده الله أي أسعده حكى الفراء عن هذيل انها تقول كذلك، قال الأزهري: سعد فهو سعيد كسلم فهو سليم وسعد فهو مسعود، وقال أبو عمرو بن العلاء: يقال سعد الرجل كما يقال حسن، وقيل سعده لغة مهجورة وقد ضعف جماعة قراءة الأخوين، وفي المصباح: سعد فلان يسعد من باب تعب في دين أو دنيا سعداً وبالمصدر سمي ومنه سعد بن عبادة والفاعل سعيد والجمع سعداء ويعدى بالحركة في لغة فيقال سعده الله يسعده بفتحتين فهو مسعود، وقرىء في السبعة بهذه اللغة في هذه الآية بالبناء للمفعول والأكثر ان يتعدى بالهمزة فيقال أسعده الله وسعد بالضم خلاف شقي.

﴿ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ معنى الآية كما مر في قوله،وأما الذين شقوا ﴿الا ما شاء ربك﴾ من الزيادة التي لا منتهى لها فالمعنى خالدين فيها أبداً وقد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ولا يستقيم الا على التأويل المذكور في الوجه الخامس والسابع وما بعده ﴿عطاء﴾ اسم مصدر والمصدر في الحقيقة الإعطاء أو يكون مصدراً

على حذف الزوائد كقوله أنبتكم من الأرض نباتاً أو منصوب بمقدر يقال عطوت بمعنى ناولت ﴿غير مجذوذ﴾ من جذه يجذه إذا قطعه وكسره والجذاذ بكسر الجيم ما تكسر منه والضم أفصح والجذاذات القراضات، والمعنى يعطيهم الله عطاء غير مقطوع يعني انه ممتد إلى غير نهاية.

قال القاضي: وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبيه على ان المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع ولأجله فرق بين الثواب والعقاب في التأبيد انتهى، قال الخفاجي: وقع لبعضهم هنا ان النار ينقطع عذابها بخلاف نعيم أهل الجنة وأورد فيه حديثاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد تقدم، قال ابن الجوزي: انه موضوع وأشار لنحو منه الزمخشري إلا أنه تكلم في ابن عمرو كلاماً لا ينبغي ذكره انتهى.

وقد ثبت بالنصوص القاطعة ان لا وجود لذلك فيقدر الخلود، ولا يتوهم جواز التعارض بين هذه وبين النصوص الدالة على عدم الخلود لأن المحتمل لا يعارض القطعي.

ولما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء سلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهي عن الامتراء فقال ﴿فلا تك﴾ حذف النون لكثرة الاستعمال ولأن النون إذا وقعت طرف الكلام لم يبق عند التلفظ بها إلا مجرد الغنة فلا جرم أسقطوها قاله الكرخي ﴿في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أي ما يعبدونه غير نافع لهم ولا ضار ولا تأثير له في شيء والمرية الشك والاشارة بهؤلاء إلى كفار عصره صلى الله عليه وآله وسلم من قريش.

وقيل المعنى لا تك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء من الاصنام، وقيل لا تك في شك من سوء عاقبتهم ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني

وهذا النهي له صلى الله عليه وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك فانه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك أبداً.

ثم بين له سبحانه بقوله ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ ان معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم وان عبادتهم كعبادة آبائهم ﴿من قبل﴾ وفي هذا الاستئناف تعليل للنهي عن الشك والمعنى انهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك فهم كمن قبلهم من طوائف البشر وفي الخازن يعني انه ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مستند إلا تقليد آبائهم انتهى. وجاء بالمضارع في كما يعبد لاستحضار الصورة.

ثم بين له انه مجازيهم بأعمالهم فقال ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم﴾ من العذاب ﴿غير منقوص﴾ لا ينقص ذلك شيء وانتصاب غير على الحال والتوفية لا تستلزم عدم النقص فقد يجوز ان يوفى وهو ناقص كما يجوز ان يوفى وهو كامل، قال القاضي كالزمخشري: فانك تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً انتهى.

وأنت خبير بأنه إذا لم تكن قرينة المجاز قائمة كما في هذا المقام لا تكون الحال إلا للتأكيد لأن التوفية تقتضي الإكمال فقد استفيد معناها من عاملها وهو شأن المؤكدة وفائدته دفع توهم التجوز، قال بعضهم: وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصاً في حد نفسه مبني على الذهول عن كون العامل هو التوفية تأمل قاله الكرخي، وقيل المراد نصيبهم من الرزق وقيل ما هو أعم من الخير والشر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ أي في شأنه وتفاصيل أحكامه فآمن به قوم وكفر به آخرون وعمل بأحكامه قوم وترك العمل ببعضها آخرون فلا يضيق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء في القرآن، وقيل في سببية أي هو سبب اختلافهم وقيل بمعنى على.

﴿ولولا كلمة﴾ الإنظار الى يوم القيامة أي الحكم الأزلي بتأخير عذابهم ﴿سبقت من ربك﴾ لما علم في ذلك من الصلاح ﴿لقضي بينهم﴾ أي بين قومك أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين فأثيب المحق وعذب المبطل وعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم والكلمة هي ان رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك وقيل ان الكلمة هي انهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وسلم.

ثم وصفهم بأنهم في شك من الكتاب فقال ﴿وانهم لفي شك منه﴾ أي من القرآن ان حمل على قوم محمد صلى الله عليه وسلم أو من التوراة ان حمل على قوم موسى ﴿مريب﴾ موقع في الريبة من أراب إذا حصل الريب لغيره أو صار هو في نفسه ذا ريب ثم جمع الأولين والآخرين في حكم توفية العذاب لهم أو هو والثواب فقال:

﴿وان كُلاًّ﴾ أي كل الخلائق ﴿لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أي جزاءها وفي ان وكُلاًّ ولما أقوال متخالفة هل ان مخففة أم مثقلة والتنوين في كُلاًّ مع النصب عوض عن المضاف اليه ونصبه بأن ولما خفيفة أم ثقيلة وهي بمعنى إلا أم لا.

وأحسن هذه الأقوال انها بمعنى الاستثنائية، وقد روي ذلك عن الخليل وسيبويه ورجحه الزجاج، وقرأ أبيّ ان كُلًّا الا ليوفينهم وقرىء بالتنوين بمعنى جميعاً وبسط الكلام في ذلك في جمل، قال السمين: هذه الآية الكريمة مما تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً وعسر على أكثرهم تلخيصها قراءة وتخريجاً وقد سهل الله تعالى ذلك فذكرت أقاويلهم وما هو الراجح منها فأقول:

قرأ بعضهم ان ولما مخففتين وبعضهم خفف ان وثقل لما وبعضهم شددهما وبعضهم شدد ان وخفف لما فهذه أربع قراآت في هذين الحرفين وكلها متواترة سبعية قال: والرابعة وهي تشديد إن وتخفيف لما فواضحة جداً وقرىء شاذاً وان كل بتخفيف ان ورفع كل ولما بالتشديد، وهي قراءة الحسن البصري وعليها فلما بمعنى إلا انتهى ملخصاً وقرىء أيضاً شاذاً قراآت أخر فلتراجع في السمين وغيره.

﴿انه بما تعملون﴾ أيها المختلفون ﴿خبير﴾ لا يخفي عليه منه شيء والجملة تعليل لما قبلها وفيه وعد للمحسنين المصدقين ووعيد للمكذبين الكافرين.

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال ﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي كما أمرك الله فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبده بفعله. وأمته اسوته في ذلك.

قال قتادة: أمره ان يستقيم على أمره ولا يطغى في نعمته، وقال سفيان: استقم على القرآن، وعن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية قال: شمروا شمروا فما رئي ضاحكاً قال أبو السعود: وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: شيبتني سورة هود[1].

﴿و﴾ ليستقم ﴿من تاب معك﴾ اي آمن ورجع عن الكفر الى الاسلام

وشاركك في الايمان وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها فان الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الانفس المطهرة والذوات المقدسة ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم شيبتني هود كما تقدم.

وعن سفيان الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: قل آمنت بالله ثم استقم[٢] أخرجه مسلم أقول هي تشمل العقائد والاعمال والاخلاق فانها في العقائد اجتناب التشبيه والتأويل والتعطيل والصرف عن الظاهر وفي الاعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع والمحدثات والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال وللآراء وفي الاخلاق التباعد عن طرفي الافراط والتفريط وهذا في غاية العسر وبالله التوفيق وهو المستعان.

﴿ولا تطغوا﴾ الطغيان مجاوزة الحد لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين ان الغلو في العبادة والافراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهى عنه وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: اما انا فأصوم وافطر واقوم وانام وانكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني[٣]، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته تغليباً لحالهم على حاله أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة.

قال ابن عباس: لا تطغوا لا تظلموا، وقال العلاء بن عبد الله: لم يرد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم، وعن ابن زيد الطغيان خلاف أمره وارتكاب معصيته ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل لما قبلها، قيل ما نزلت آية على رسول الله صلّى الله عليه وسلم هي أشد عليه من هذه الآية.

---

(١) الترمذي، تفسير سورة، ٦/٥٦.
(٢) مسلم، ٣٨.
(٣) النسائي، كتاب النكاح، باب ٤.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا﴾ قريء بفتح الكاف وضمها وهي لغة تميم وقيس والاول لغة أهل الحجاز، قال أبو عمرو: ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف، وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من باب علم يعلم، قال الأزهري: وليست بالفصيحة وركن يركن بفتحتين وليست بالأصل، بل من تداخل اللغتين.

وقال الراغب: والصحيح إنه يقال بالفتح فيهما وبالكسر في الماضي والفتح في المضارع؛ وبالفتح في الماضي والضم في المضارع، وقرىء على البناء للمفعول من أركنه، وقال في الصحاح: ركن اليه يركن بالضم، وحكى أبو زيد: ركن اليه بالكسر يركن ركوناً فيهما، أي مال اليه وسكن، قال الله تعالى ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا﴾ وأما بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين. اهـ.

وقال في شمس العلوم: الركون السكون، وقال في القاموس: ركن اليه كنصر وعلم ومنع ركوناً مال وسكن. اهـ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال: فإن الركون هو الميل اليسير.

وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد الا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف، ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيوداً لم يذكرها أئمة اللغة.

قال القرطبي في تفسيره: الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون الى الشيء والرضا به، ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه

اللغوي، فروي عن قتادة وعكرمة أن معناها لا تودوهم ولا تطيعوهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الركون هنا الادهان، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم، وقال أبو العالية: معناه لا ترضوا أعمالهم، وقال ابن عباس: الركون إلى الشرك ولا تركنوا لا تميلوا ولا تدهنوا. وعن عكرمة: لا تصطنعوهم.

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة، فقيل خاصة وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين وإنهم المرادون بالذين ظلموا. وقد روي ذلك عن ابن عباس، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإن قلت وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح أطيعوا السلطان وإن كان عبداً حبشياً رأسه كالزبيبة، وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة وما لم يظهر منهم الكفر البواح وما لم يأمروا بمعصية الله.

وظاهر ذلك إنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به الى الكفر البواح فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله، ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله، ومن جملة ما يأمرون به الجهاد وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، واقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم واقامة الحدود على من وجبت عليه.

وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية الله، ولا بد في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ونحو ذلك مما لا بد منه ولا محيص عن هذا الذي ذكرنا من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.

بل ورد انهم يعطون الذي لهم من الطاعة وان منعوا ما هو عليهم للرعايا، كما في بعض الاحاديث الصحيحة: «أعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم» بل ورد الامر بطاعة السلطان وبالغ في ذلك النبي (ﷺ) حتى قال: «وان أخذ مالك وضرب ظهرك»[1].

فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هي ميل وسكون، وان اعتبرنا الميل والسكون ظاهراً وباطناً فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال اليهم في الظاهر لأمر يقتضي ذلك شرعاً كالطاعة أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة اذا لم يكن له ميل اليهم في الباطن ولا محبة ولا رضى بأفعالهم.

قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله فهي على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدمنا الاشارة اليها ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل في شيء من الاعمال التي أمرها اليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها اذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل اليه فذلك واجب عليه، فضلاً عن أن يقال جائز له.

وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الامارة فذلك مقيد بعدم وقوع الامر ممن تجب طاعته من الائمة والسلاطين والامراء جمعاً بين الادلة او مع

(١) مسلم ١٨٤٧ بلفظ: «تسمع وتطيع للأمير. وان ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع واطع».

ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الامارة بذلك في بعض الاحاديث الصحيحة.

وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس اليهم ومحبتها لهم وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة، فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا فهو مخصص بالادلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى، ولا تخفى على الله خافية.

وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك فعلى نفسها براقش تجني، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الاولى له والأليق به. يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم وقونا على ذلك ويسره لنا وأعنا عليه.

قال القرطبي في تفسيره: وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار انتهى. وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحققون: الركون المنهي،عنه هو الرضا بما عليه الظلمة أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب، فأما مداخلتهم لدفع شيء من الضرر واجتلاب منفعة عاجلة فغير داخلة في الركون.

قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية، أليس الله بكاف عبده. اهـ.

﴿فتمسكم النار﴾ بحرها بسبب الركون اليهم، وفيه إشارة إلى أن

الظلمة أهل النار أو كالنار، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار، قيل هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم. والجملة حالية أو مستأنفة. قال أبو السعود: وإذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء إلى مساس النار هكذا، فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيي بزيهم؛ ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية، ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية، وهو في الحقيقة من الحبة طفيف، ومن جناح البعوض خفيف، بمعزل عن أن تميل اليه القلوب، ضعف الطالب والمطلوب.

والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين تثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الميل الى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو غيره. انتهى.

﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ ان ركنتم اليهم، والمعنى انها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها، ونفى الأولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام.

﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه اذ قد سبق في علمه انه يعذبكم بسبب ركونكم الذي نهيتم عنه فلم تنتهوا عناداً وتمرداً والجملة حالية أو مستأنفة معترضة وأتى بثم هنا تنبيهاً على تراخي رتبة كونهم غيرمنصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج انهم لا ينصرون أصلاً.

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها اقامة الصلاة لكونها رأس الايمان، والمراد صلاة الغداة والعشي وهما الفجر والعصر، قاله الحسن، وقيل الظهر موضع العصر، وقيل الطرفان الصبح والمغرب، قاله ابن عباس. وقيل هما الظهر والعصر، وقال مجاهد: صلاة الفجر وصلاتي العشي يعني الظهر والعصر، ورجح ابن جرير انهما الصبح والمغرب.

قال: والدليل عليه اجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح، فدل على أن الطرف الآخر المغرب.

قال الرازي: كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والاشهر انهما الفجر والعصر لأن أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها، فالطرف الاول هو صلاة الفجر، والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله وزلفاً من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر. ﴿وزلفاً﴾ أي في زلف ﴿من الليل﴾ والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة، وقرىء زلفاً بضم اللام جمع زليف، ويجوز أن يكون واحده زلفة، وقرىء بإسكان اللام، وقرأ مجاهد: زلفى على وزن فعلى، وقرأ الباقون: زلفا بفتح اللام كغرفة وغرف، قال ابن الاعرابي: الزلف الساعات واحدتها زلفة.

وقال قوم: الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس، وفي القاموس الزلفة الطائفة من الليل والجمع زلف وزلفات والزلف ساعات الليل الآخذة من النهار وساعات النهار الآخذة من الليل. قال الأخفش: معنى زلفاً من الليل صلاة الليل، قال ابن عباس: صلاة العتمة، وقال الحسن: هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء، وعن مجاهد والحسن نحوه، وقال أيضاً: ساعة بعد ساعة يعني صلاة العشاء الآخرة.

﴿ إن الحسنات﴾ أي الواجبة والمندوبة وغيرها على العموم ومن جملتها بل عمادها الصلوات. عن ابن مسعود قال: هي الصلوات الخمس. وزاد ابن عباس والباقيات الصالحات ﴿يذهبن السيئآت﴾ على العموم، وقيل المراد بها الصغائر ومعنى يذهبن يكفرنها حتى كأنها لم تكن.

أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها، فأنزلت عليه ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ الآية، فقال الرجل يارسول الله ألي هذه؟ قال: هي لمن عمل بها من أمتي.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله أقم فيَّ حد الله، مرة أو مرتين، فأعرض عنه؛ ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال أين الرجل؟ قال أنا ذا، قال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا؟ قال نعم، قال فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد وأنزل الله حينئذ على رسوله ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ وفي الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة.

ووردت أحاديث صحيحة أيضاً أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن.
وقال مجاهد: الحسنات قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والاول أولى، وبه قال ابن المسيب والقرطبي والضحاك وجمهور المفسرين: أي الصلوات الخمس وله تدل الأحاديث.

﴿ذلك﴾ إشارة الى قوله فاستقم وما بعده، وقيل الى القرآن ﴿ذكرى للذاكرين﴾ أي موعظة للمتعظين. عن الحسن قال: هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء. وعن ابن جريج قال: لما نزع الذي قَبَّل المرأة تذكر فذلك قوله ذلك ذكرى للذاكرين.

﴿واصبر﴾ على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان والركون إلى الذين ظلموا، وقيل ان المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه لأنه لا مشقة في اجتنابه وفيه نظر فان المشقة في اجتناب المنهى عنه كائنة وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيئاً فلا يهمله ولا يبخسه بنقص قيل المحسنون المصلون.

﴿فلولا كان﴾ هذا عود الى أحوال الأمم الخالية لبيان ان سبب حلول عذاب الاستئصال بهم انه ما كان فيهم من ينهي عن الفساد ويأمر بالرشاد فقال ﴿فلولا﴾ أي فهلا كان ﴿من القرون﴾ الماضية المهلكة بالعذاب الكائنة ﴿من قبلكم أولوا بقية﴾ من الرأي والعقل والدين، والبقية في الاصل اسم لما يستبقيه الرجل مما يخرجه وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير، والمراد بها حينئذ جيد الشيء وخياره، من قولهم فلان بقية الناس وبقية الكرام وإنما صفة على فعيلة للمبالغة بمعنى فاعلة ولذلك دخلت التاء فيها.

وقيل معناه أولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا؛ وقيل انها مصدر بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذووا بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه، وقرىء بتخفيف الياء وهي اسم فاعل من بقي، والتقدير أولو طائفة بقية أي باقية.

وقرىء بضم الباء وسكون القاف، أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أولو بقية وأحلام.

﴿ينهون﴾ قومهم ﴿عن الفساد في الأرض﴾ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل وقوة الدين، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى والاستثناء في قوله ﴿إلا قليلاً﴾ منقطع أي لكن قليلاً ﴿ممن أنجينا منهم﴾ أي من الأمم الماضية وهم أتباع الانبياء نهوا عن الفساد في الأرض وسائرهم تركوا النهي، وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي فكأنه قال ما كان في القرون أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم الا انه يؤدي إلى النصب في غير الموجب وان كان غير النصب أولى.

قال الزمخشري: ان جعلته متصلاً كان المعنى فاسداً لأن الكلام يؤول إلى أن الناجين لا يحضون على النهي ومن في ممن بيانية لأنه لم ينج الا الناهون قيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر إلا قوم يونس، وقيل هم أتباع الأنبياء أهل الحق من الأمم على العموم.

﴿واتبع الذين ظلموا﴾ أنفسهم بسبب مباشرتهم للفساد وتركهم للنهي عنه ﴿ما أترفوا فيه﴾ أي أنعموا من الشهوات فاهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك والمترف الذي أبطرته النعمة يقال صبي مترف منعم البدن.

وفي القاموس الترفة بالضم النعمة والطعام والشيء الظريف تخص به صاحبك وترف كفرح تنعم وأترفته النعمة أطغته وأترف فلان أصر على المكر والمترف كمكرم المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال

وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا بأعمارهم في الشهوات النفسانية.

وقبل المراد بالذين ظلموا، تاركوا النهي وردبأنه يستلزم خروج مباشري الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلماً ممن لم يباشر وكان ذنبه ترك النهي وقرىء واتبع على البناء للمفعول ومعناه اتبعوا جزاء ما أترفوا فيه، قال مجاهد: واتبع الذين ظلموا أي في ملكهم وتجبرهم وتركهم للحق، وقال ابن عباس: أترفوا وأبطروا.

وجملة ﴿وكانوا مجرمين﴾ متضمنة لبيان سبب اهلاكهم أي وكان هؤلاء الذين اتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين كافرين والاجرام الآثام والمعنى انهم أهل اجرام بسبب اتباعهم للشهوات واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها ويجوز أن تكون معطوفة على واتبع الذين أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بسبب ذلك الاتباع مجرمين.

﴿وما كان ربك ليهلك القرى﴾ أي ما صح ولا استقام بل استحال في الحكمة ان يهلك القرى التي اهلكها حسب ما بلغك انباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي ﴿بظلم﴾ أي متلبساً به قيل هو حال من الفاعل اي ظالماً لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائناً ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة.

قال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه وان كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه في ملكه دليله قوله تعالى ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ وقوله: وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿وأهلها

مصلحون﴾ حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حـالاً من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلماً بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مـطلقـاً عن ذلك.

وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببيـة أي لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها أي بمجرد الشرك وحده حتى ينضم اليه الفساد في الأرض ومتابعة الهوى كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم لا يظلمون الناس شيئاً وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى.

ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله الغنـي الحميد وقيل الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم وأنت تدري ان مقام النهي عن المنكرات التي أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فإن الشرك داخل في الفساد فـي الأرض دخولاً أولياً ولذلك ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولاً عن الاشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشـرك وغيره من أصناف المعاصي وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه يكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبصنعهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد.

وقيل المعنى وما كان يهلكهم بذنوبهم وهم مخلصون في الايمان فالظلم المعاصي على هذا، أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن تفسير هذه الآية فقال: وأهلها ينصف بعضهم بعضاً، وروي موقوفاً على جرير، قيل والمراد بالهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا وأما عذاب الآخرة فهو لازم لهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي أهل دين واحد اما أهل ضلالة أو أهل هدى، وقيل معناه جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه أو مجتمعَين على دين الاسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ولهذا قال:

﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في ذات بينهم على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل هؤلاء قد اختلفوا في أديانهم اختلافاً كثيراً لا ينضبط، وقيل مختلفين في الحق أو دين الإسلام وقيل مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير، وعن ابن عباس في الآية قال: أهل الحق وأهل الباطل. عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى كذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة[١].

أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال: قام فينا رسول الله (ﷺ) فقال: ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة[٢]، أخرجه أبو داود.

قال الخطابي: فيه دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة عن الملة والدين إذ جعلهم من أمته، وقال غيره: المراد بها أهل البدع والأهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول في قوله وفعله ولم يقلدوا أحداً في خلافه.

---

(١) و(٢) أبو داوود كتاب السنة باب ١.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿الا من رحم ربك﴾ أي إلا أهل رحمته فانهم لا يختلفون وعن عطاء ابن أبي رباح قال: لا يزالون مختلفين أي اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية وهم الذين رحم ربك. وقال الحسن: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك فمن رحم ربك غير مختلف.

وعن مجاهد قال: من اختلف أهل الباطل ومن رحم أهل الحق فمن الله عليهم بالتوفيق والهداية الى الدين الحق، فإنهم لم يختلفوا أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الاسلام بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله وهو الحق الذي لا حق غيره أو الا من رحم ربك بالقناعة والاولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في الا من رحم واضحاً غير محتاج الى تكلف.

﴿ولذلك﴾ أي ولما ذكر من الاختلاف أو ولرحمته وصح تذكير الاشارة الى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي، والضمير في ﴿خلقهم﴾ ان كان راجعاً الى الناس فالاشارة الى الاختلاف واللام للعاقبة أو اليه والى الرحمة، وان كان الى من فإلى الرحمة، وقيل الاشارة بذلك الى مجموع الاختلاف والرحمة ولا مانع من الاشارة بها الى شيئين كما في قوله ﴿عوان بين ذلك﴾ وقوله ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ وقوله ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ قال مجاهد: خلقهم للرحمة وعن عكرمة نحوه وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، فريقاً يرحم فلا يختلف، وفريقاً لا يرحم فيختلف فذلك قوله فمنهم شقي وسعيد.

وقال الحسن وعطاء: خلقهم للاختلاف، وقال أشهب: سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير. وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين: ان القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسل والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم فإنهم يكونوا أضل، وقد أمر الله بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وقال تعالى ﴿ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ وقال ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾.

وقد أخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون فقال تعالى ﴿ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك﴾ ولذلك يوجد أتبع الناس للرسول أقلهم اختلافاً كأهل الحديث والسنة فإنهم أقل اختلافاً من جميع الطوائف، ثم من كان اليهم أقرب كان من الاختلاف أبعد، فأما من بعد عن السنة كالمعتزلة والرافضة فتجدهم أكثر الطوائف اختلافاً، وأما اختلاف الفلاسفة فلا يحصره أحد.

وقد ذكر أبو الحسن الأشعري في كتاب المقالات مقالات غير الاسلاميين عنهم من المقالات مالم يذكره الفارابي وابن سينا وأمثالهما، وكذلك القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب الدقائق الذي رد فيه على الفلاسفة والمنجمين، ورجح فيه منطق المتكلمين من العرب على منطق اليونان.

وكذلك متكلمة المعتزلة والشيعة وغيرهم في ردهم على الفلاسفة ذكروا أنواعاً من المقالات وردوها ولكن مذهب الفلاسفة الذي نصره الفارابي وابن سينا وأمثالهما كالسهروردي المقتول على الزندقة وكأبي بكر بن الصائغ وابن رشد الحفيد هو مذهب المشائين أتباع ارسطو صاحب المنطق وهو الذي يذكره الغزالي في كتاب مقاصد الفلاسفة، وعليه رد في التهافت، وهو الذي يذكره الرازي في الملخص والمباحث المشرقية ويذكره الآمدي في دقائق الحقائق ورموز الكنوز وغير ذلك.

وعلى طريقتهم مشى أبو البركات صاحب المعتبر لكن لم يقلدهم تقليد غيره بل اعتبر ما ذكروه بحسب نظره وعقله، وكذلك الرازي والآمدي

يعترضان عليهم في كثير مما يذكرونه بحسب ما يسنح لهم، وابن سينا أيضاً قد يخالف الأولين في بعض ما ذكروه.

والفلاسفة طوائف كثيرون وبينهم اختلاف كثير في الطبيعيات والإلهيات وفي الهيئة أيضاً وأول من خلط منطقهم بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي وتكلم فيه علماء المسلمين بما يطول ذكره، وهذا الرد عليهم مذكور في كثير من كتب أهل الكلام.

والفلاسفة ليسو أمة واحدة لها مقالة في العلم الآلهي والطبيعي وغيرهما بل هم أصناف متفرقون وبينهم من التفرق والاختلاف مالا يحصيه الا الله أعظم مما بين الملة الواحدة كاليهود والنصارى أضعافا مضاعفة.

والمقصود أن نظار المسلمين ما زالوا يصنفون في الرد عليهم في المنطق وغير المنطق ويثبتون خطأهم فيما ذكروه جميعاً إذ لا يحكم بين الناس فيما تنازعوا فيه إلا كتاب منزل ونبي مرسل كما قال تعالى ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ولهذا قال تعالى ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ انتهى المقصود بتصرف في العبارة.

وحاصل الآية ان الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين وحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم إلى النار وحكم على بعضهم بالرحمة ومصيرهم الى الجنة وهم أهل الاتفاق.

ويدل لصحة هذا قوله ﴿وتمت كلمة ربك﴾ أي ثبتت كما قدره في أزله وإذا تمت وحقت ووجبت وامتنعت من التغيير والتبديل وقيل الكلمة هي قوله للملائكة ﴿لأملأن جهنم من الجنة﴾ أي الجن والتاء للمبالغة ﴿والناس أجمعين﴾ أي ممن يستحقها من الطائفتين.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا
عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿وكُلًّا﴾ أي وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه ﴿نقص عليك﴾ أي نخبرك به مما يحتاج اليه وقوله ﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكُلًّا، وقوله ﴿مانثبت به فؤادك﴾ بدل منه والأظهر ان يكون المضاف اليه المحذوف في ﴿كُلًّا﴾ المفعول المطلق لنقص أي كل اقتصاص أي كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل، وقوله ﴿ما نثبت﴾ مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة في تماديهم في الضلال وما لقي الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق لان تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم.

﴿وجاءك في هذه﴾ أي السورة قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن جبير والحسن وعليه الاكثر: أو في هذه الدنيا قاله قتادة وفيه بعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر، وقيل في هذه الآية أو في هذه الأنباء ﴿الحق﴾ أي البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد.

وقيل النبوة وعلى الأول يكون تخصيص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها.

وقيل لأنها جمعت من اهلاك الأمم وشرح حالهم مالم يجمع غيرها، وقيل خصها بالذكر تشريفاً لها والتعريف في الحق اما للجنس أو للعهد وانما عرفه

ونكر تالييه تفخيماً له لكونه يطلق على الله بخلاف تالييه.

﴿وموعظة﴾ يتعظ بها الواقف عليها إذا تذكر أحوال الأمم الماضية ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ أي يتذكر بها من تفكر فيها منهم، وخص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر.

﴿وقُل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون ﴿اعملوا﴾ حال كونكم قارين وثابتين ﴿على مكانتكم﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم من الكفر وقد تقدم تحقيقه.

وقال قتادة: على منازلكم ﴿انا عاملون﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الايمان بالحق والاتعاظ والتذكر وفي هذا تشديد للوعيد وتهديد لهم.

﴿وانتظروا﴾ عاقبة أمرنا، وقال ابن جريج: انتظروا مواعيد الشيطان اياكم على مايزين لكم ﴿انا منتظرون﴾ عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى.

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما وخص الغيب مع كونه يعلم، بما هو مشهود كما يعلم بما هو مغيب لكونه من العلم الذي لا يشاركه فيه غيره.

وقيل ان غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض، والأول أولى؛ وبه قال أبو علي الفارسيي وغيره وأضاف الغيب إلى المفعول توسعاً.

﴿واليه يرجع﴾ بالبناء للفاعل يعود وللمفعول يرد ﴿الأمر كله﴾ أي أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة فيجازي كُلًّا بعمله فينتقم ممن عصى ويثيب من أطاع.

وقال ابن جريج: فيقضي بينهم بحكم العدل ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فانه كافيك كل ما تكره ومعطيك كل ما تحب والفاء لترتيب الامر بالعبادة

والتوكل على كون مرجع الامور كلها إلى الله سبحانه قيل هذا الخطاب له ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وفي تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بأنه لا ينفع دونها.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً، وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالفوقية على الخطاب وهي سبعية والباقون بالتحتية وهم الجمهور:

وأخرج عبد الله بن أحمد وابن الدريس وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب الأحبار قال: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ولله غيب السموات والارض﴾ إلى آخر الآية.

استدراك

فاتنا أن نعلق على الآيات التي مرت في سورة هود الواردة في بيان وظيفة الرسل بأوسع مما كتبه المؤلف فرأينا أن نستدركه هنا:

وظيفة الرسل الأساسية هي ما بعثهم الله لأجله من تبليغ رسالته بإنذار من تولى عن الإيمان وعصى، وتبشير من أجاب الدعوة فآمن واهتدى، والشواهد عليها من هذه السورة قوله تعالى في دعوة رسوله خاتم النبيين ﴿إنني لكم منه نذير مبين﴾ وقوله حكاية عن رسوله هود صلى الله عليه وسلم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم.

وموضوع التبليغ هو الدعوة إلى أركان الدين، وعليها مدار سعادة المكلفين في الدنيا والآخرة، وكلها مبطلة لما كان عليه أقوامهم المشركون من أن بينهم وبين الله تعالى وسائط منهم أو من غيرهم من خلقه يقربونهم اليه بجاههم الشخصي ويقضون حوائجهم من جلب نفع أو دفع ضر بشفاعتهم لهم عنده، أو بتصرفهم في خلقه بما خصهم به من خوارق العادات، إلا ما جعله من آياته دليلاً على صدقهم في دعوى الرسالة.

والرسل بشر بمعنى انهم لا يملكون من أمور العالم شيئاً مما هو فوق كسب البشر، غير ما خصهم الله به من الرسالة دون شؤون ربوبيته، حتى انهم لا يملكون هداية أحد إلى الدين بالفعل لأن هدايتهم خاصة بالتبليغ والتعليم، وحكاية نوح مع ابنه الكافر حجة في هذا الموضوع واضحة.

والشواهد على هذا في القرآن كثيرة، ومنها في هذه السورة ما علمت من آيات توحيد الربوبية، والرد على مشركي مكه في اقتراحهم مجيء الملك بقوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾

وقوله حكاية عن نوح ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلمَ الغيب ولا أقول إني ملك﴾ وفي معناه آيات كثيرة في السور الأخرى.

ومنها في احتجاج المشركين على رسلهم بأنهم بشر في قصة نوح ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك الا بشراً مثلنا﴾ وقد قال مثل هذا سائر أقوام الرسل بعده الى خاتمهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ولو كان أولئك الرسل في عصرهم على غير ما يعهد أقوامهم من البشر بأن كانوا يتصرفون في الكون بالضر والنفع وعلم الغيب لما احتجوا عليهم بأنهم بشر مثلهم كما يدعي الذين ضلوا من أقوامهم من بعدهم عما جاءوا به مع دعوى اتباعهم فزعموا أنهم وبعض من وصفوا بالصلاح والولاية من أتباعهم يضرون وينفعون: أحياؤهم وأمواتهم في هذا سواء.

بل يزعمون أنهم أحياء في قبورهم حياة مادية بدنية، يأكلون فيها ويشربون ويسمعون كلام من يدعوهم ويستغيث بهم، ويستجيبون دعاءهم فيها: يخالفون بهذه الدعاوي مئات من آيات القرآن المحكمات في صفات الأنبياء، وكونهم بشراً لا يقدرون على شيء مما لا يقدر عليه البشر.

وقد يحتجون بما ورد فيه من بعض أنباء الغيب في حياة الشهداء البرزخية فيقيسون عليها بأهوائهم حياة أوليائهم رجماً بالغيب وافتراء على الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف عليه السلام

قيل هي مائة واحدى عشرة آية وهي مكية كلها، وقيل نزلت ما بين مكة والمدينة وقت الهجرة، وقال ابن عباس وقتادة: الا أربع آيات قال القرطبي: قال العلماء: ذكر الله أقاصيص الانبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة ما لم يتكرر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

﴿آلر﴾ قد تقدم الكلام فيه في فاتحة سورة يونس ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، والمبين من أبان بمعنى بان أي الظاهر أمره في كونه من عند الله، وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبار عن الغيب، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يلتبس على قارئه وسامعه لنزوله على لغتهم، أو بمعنى بين أي المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفاء الملك والملكوت وأسرار النشأتين في الدارين، أو المبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين، أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف.

قال قتادة: مبين بينه الله ببركته ورشده فهذا من بان أي ظهر، وقال الزجاج: مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر، قال مجاهد: بين الله حلاله وحرامه، وعن معاذ قال: بين الله الحروف التي سقطت عن ألسن الأعاجم وهي ستة أحرف.

﴿إنا أنزلناه﴾ أي الكتاب المبين حال كونه ﴿قرآنا﴾ فعلى تقدير أن الكتاب السورة يكون تسميتها قرآنا باعتبار أن القرآن اسم جنس يقع على الكل وعلى البعض وعلى تقدير أن المراد به كل القرآن فتكون تسميته قرآنا واضحة و﴿عربياً﴾ صفة لقرآن أي لغة العرب وفيه من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة وأليم واستبرق ونحو ذلك، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وهذا هو الصحيح وأنكرها أبو عبيدة محتجاً بهذه الآية والجمع أنها لما تكلمت بها العرب نسبت إليهم وصارت لهم لغة ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه لأنه نازل بلغتكم.

أخرج الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿قرآناً عربياً﴾ ثم قال: ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً[1]، وعن مجاهد قال: نزل القرآن بلسان قريش وهو كلامهم.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ هو تتبع الشيء ومنه قوله تعالى ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ أي تتبعي أثره وهو مصدر وسميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً، والتقدير نقص عليك قصصاً أحسن القصص فيكون بمعنى الاقتصاص، أو هو بمعنى المفعول أي المقصوص، والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، قال ابن عباس: قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه الآية.

وعن ابن مسعود مثله وقال قتادة: نقص عليك من الكتب الماضية والقرون الخالية وأمور الله السابقة في الأمم أحسن البيان، واختلف في وجه كون هذه السورة أو القرآن هو أحسن القصص فقيل لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها وقيل لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوه عنهم، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والانس والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار العلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن.

وقيل لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما وقيل أن أحسن هنا بمعنى أعجب، وقيل أن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة، قال خالد بن معد: أن سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

﴿بما أوحينا﴾ بإيحائنا ﴿إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله﴾ أي من قبل إيحائنا إليك ﴿لمن الغافلين﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك،

---

(١) المستدرك، كتاب التفسير، ٢/٤٤١.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

﴿إذ﴾ أي اذكر وقت أن ﴿قال يوسف لأبيه﴾ قرأ الجمهور يوسف بضم السين وقرىء بكسرها مع الهمز مكان الواو وحكي الهمز وفتح السين وهو اسم عبراني غير منصرف للعلمية والعجمة وقيل هو عربي والأول أولى بدليل عدم صرفه وأبوه يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم وعاش يوسف من العمر مائة وعشرين سنة ذكره السيوطي في التحبير.

﴿يا أبت﴾ بكسر تاء التأنيث اللفظي التي هي عوض عن ياء المتكلم المحذوفة وأصله يا أبي وهذا التعويض مختص بلفظين يا أبت ويا أمت ولا يجوز في غيرهما من الأسماء وممن نص على كونها للتأنيث سيبويه والخليل ويدل عليه كتبهم إياها هاء وقياس من وقف بالتاء أن يكتبها تاء كبنت وأخت وجاز إلحاقها المذكر كما جاز حمامة ذكر وشاة ذكر ورجل ربعة وغلام يفعة

﴿إني رأيت﴾ من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه لا تقصص رؤياك على إخوتك قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء حق وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر فرأى أن أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكان يوسف إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة وقيل سبع سنين.

﴿أحد عشر كوكباً﴾ وهي جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفلق والمصبح والصروخ والفرع ووثاب وذو الكتفين قاله البيضاوي وهذه نجوم غير مرصودة خصت بالرؤيا لغيبتهم عنه قاله الشهاب وورد في حديث أسماؤها هكذا ساقه السيوطي في الدر المنثور وفيه الضعفاء والمتروكون وقال ابن

الجوزي: هو موضوع، قال ابن عباس: أحد عشر كوكباً إخوته والشمس أمه والقمر أبوه وعن قتادة والسدي وابن زيد نحوه.

﴿والشمس والقمر﴾ أخرهما عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة وقيل أن الواو بمعنى مع ﴿ رأيتهم لي ساجدين﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي رآهم عليها كأن سائلاً سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك.

وإنما أجريت مجرى العقلاء في الضمير المختص بهم لوصفها بوصف العقلاء وهو كونها ساجدة كذا قال الخليل وسيبويه والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا نزلوا منزلته وقيل كررت للتأكيد لما طال الفصل بالمفاعيل والأول أولى وإليه نحا الزمخشري لأنه متى دار الكلام بين الحمل على التأكيد والتأسيس فحمله على الثاني أولى، والمراد حقيقة السجود لأنه كان التحية فيما بينهم السجود، وقيل المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره والأول أولى.

ولم تظهر رؤية يوسف إلا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة حين اجتمع عليه أبواه وإخوته وخروا له ساجدين.

﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ الرؤيا مصدر رأي في المنام رؤيا على وزن فعلى كالسقيا والبشرى وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف نهى يعقوب ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على أخوته لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها عليهم فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له ولهذا قال.

﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ وهذا جواب النهي أي فيفعلوا لاجلك كيداً مثبتاً

راسخاً لا تقدر على الخلوص منه أو كيداً خفياً عن فهمك وهذا المعنى الحاصل بزيادة اللام آكد من أن يقال فيكيدوا كيداً وقيل إنما جيء باللام لتضمنه معنى الاحتيال المتعدي باللام فيفيد هذا التضمن معنى الفعلين جميعاً الكيد والاحتيال كما هو القاعدة في التضمين أن يقدر أحدهما أصلاً والآخر حالاً.

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ مستأنفة كأن يوسف قال: كيف يقع ذلك منهم فنبه بأن الشيطان يحملهم على ذلك لأنه عدو للانسان مظهر للعداوة مجاهر بها وقد وردت أحاديث صحيحة في بيان الرؤيا الصالحة وأنها من الله والسوء وأنها من الشيطان وفي أن رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوة وليس لها تعلق بهذه الآية بل هي تعم.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

﴿وكذلك﴾ أي ومثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في المنام وشاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية النيرة لك الدال على شرف وعز وكمال نفس وبحسبه وعلى وفقه ﴿يجتبيك ربك﴾ ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا فيجعلك نبياً ويصطفيك على سائر العباد ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك.

قال النحاس: الاجتباء أصله من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ومنه جبيت الماء في الحوض جمعته ومعنى الاجتباء الاصطفاء واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين وهذا يتضمن الثناء على يوسف وتعديد نعم الله عليه ومنها.

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي تأويل الرؤيا قال مجاهد: عبارة الرؤيا، وقال ابن زيد: تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس وسمى الرؤيا أحاديث لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة وأحاديث الشيطان إن كانت كاذبة، قال القرطبي: وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا وقد كان يوسف أعلم الناس بتأويلها.

وقيل المراد تأويل أحاديث الأمم السالفة والكتب المنزلة قاله الزجاج وقيل المراد به إحواج أخوته إليه وقيل إنجاؤه من كل مكروه وقيل إنجاؤه من القتل خاصة والأحاديث جمع تكسير فقيل لواحد ملفوظ به وهو حديث ولكنه شذ جمعه

على أحاديث وله نظائر في الشذوذ كأباطيل وأفاظيع وأعاريض في باطل وفظيع وعريض وزعم أبو زيد أن لها واحداً مقدراً وهو أحدوثة ونحوه وليس باسم جمع لأن هذه الصيغة مختصة بالتكسير وإذا كانوا قد التزموا ذلك فيما لو يصرح له بمفرد من لفظه نحو عباديد وشماطيط وأبابيل، ففي أحاديث أولى قاله السمين.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم قرابته من إخوته وأولاده ومن بعدهم وذلك أن الله سبحانه أعطاهم النبوة كما قاله جماعة من المفسرين ولا يبعد أن يكون إشارة إلى ما حصل لهم بعد دخولهم مصر من النعم التي من جملتها كون الملك فيهم مع كونهم أنبياء وبه قال أكثر المفسرين.

﴿كما أتمها على أبويك﴾ أي إتماما مثل اتمامها عليهما وهي نعمة النبوة عليهما مع كون إبراهيم اتخذه الله خليلاً ومع كون اسحق نجاه الله سبحانه من الذبح قاله عكرمة وصار لهما الذرية الطيبة وهم يعقوب ويوسف وسائر الأسباط ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه أو من قبلك ﴿إبراهيم واسحاق﴾ عطف بيان لأبويك أو بدل منه أو على إضمار أعني وعبر عنهما بالأبوين مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام ﴿إن ربك عليم﴾ بمصالح خلقه ﴿حكيم﴾ في أفعاله والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها تعليلاً له أي فعل ذلك لأنه عليم حكيم إشارة إلى قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته وأنه لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية.

وكان هذا الكلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال أو علم ذلك من طريق الوحي، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ أي لقد كان في قصتهم

علامات دالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه للسائلين من الناس عنها وغيرهم ففيه اكتفاء، وقرأ أهل مكة أية على التوحيد، قال النحاس: وآية ههنا قراءة حسنة، وقيل المعنى لقد كان في يوسف وأخوته آيات دالة على نبوة محمدﷺ للسائلين له من اليهود فإنه روي أنه قال جماعة منهم وهو بمكة أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجهوا إليه من أهل المدينة من يسأله عن هذا فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة.

وقيل معنى آيات للسائلين عجب لهم، وقيل بصيرة وقيل عبرة للمعتبرين، فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم منها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها، ومنها حسد أخوته له وما آل إليه أمرهم، ومنها صبر يوسف على ما فعلوا به وما آل إليه أمره من الملك، ومنها حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات.

قال القرطبي: وأسماؤهم يعني أخوة يوسف وهم أحد عشر: روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي بنت خال يعقوب وولد له من سريتين زلفة وبلهة أربعة وهم دان وتفتونا وجاد وأوشير، ثم ماتت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، فهؤلاء بنو يعقوب وهم الأسباط وعددهم اثنا عشر نفراً. . .

وقال السهيلي: أن أم يوسف اسمها وفقا وراحيل ماتت من نفاس بنيامين وهو أكبر من يوسف وعن قتادة في الآية يقول: من سأل عن ذلك فهو هكذا ما قص الله عليكم وأنبأكم به وعن الضحاك نحوه وعن ابن اسحاق قال: إنما قص الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم خبر يوسف وبغي أخوته عليه وحسدهم إياه حين ذكر رؤياه لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بغي قومه عليه وحسدهم إياه حين أكرمه الله بنبوته ليأتسي به.

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾

﴿إذ﴾ أي وقت أن ﴿قالوا ليوسف وأخوه﴾ هو بنيامين بكسر الباء وصحح بعضهم فتحها ففيه الوجهان وهو أصغر من يوسف وخصوه بكونه أخاه مع أنهم جميعاً أخوته لأنه أخوه لأبويه كما تقدم واللام لام القسم أي والله ليوسف ووحد الخبر فقال ﴿أحب إلى أبينا منا﴾ مع تعدد المبتدأ لأن أفعل التفضيل يستوي فيه الواحد وما فوقه إذا لم يعرف وهو مبني من حب المبني للمفعول وهو شاذ قياساً فصيح استعمالاً لوروده في أفصح الفصيح وإذا بنيت أفعل التفضيل من مادة الحب والبغض تعدى إلى الفاعل المعنوي بإلى وإلى المفعول المعنوي باللام أو بفي وعلى هذا جاءت الآية الكريمة.

وإنما قالوا هذا لأنه بلغهم خبر الرؤيا فأجمع رأيهم على كيده.

﴿ونحن عصبة﴾ الواو للحال والعصبة الجماعة قيل وهي ما بين الواحد إلى العشرة وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل هي العشرة فما زاد وقيل من العشرة إلى خمسة عشر وقيل ستة وقيل تسعة وقيل من العشرة إلى الأربعين قاله قتادة. والمادة تدل على الإحاطة من العصابة لإحاطتها بالرأس وقيل الأصل فيه إن كل جماعة يتعصب بعضهم لبعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها بل هي كالنفر والرهط وقد كانوا عشرة.

﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي لفي ذهاب عن وجه التدبير بالترجيح لهما علينا وإيثارهما دوننا مع استوائنا في الإنتساب إليه ولا يصح أن يكون مرادهم أنه في دينه في ضلال إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به قال ابن زيد: أي لفي خطأ من رأيه.

ﭐقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا
صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ
ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي في أرض وإليه ذهب الحوفي وابن عطية وقال الزمخشري: أي أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الناس ولأنها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة وقيل أنها مفعول ثان والمعنى أنزلوه أرضاً والطرح الرمي ويعبر به عن الاقتحام في المخاوف يعني قالوا: افعلوا به أحد الأمرين إما القتل أو الطرح في أرض أو المشير بالقتل بعضهم، والمشير بالطرح البعض الآخر أو كان المتكلم بذلك واحداً منهم فوافقه الباقون، فكانوا كالقاتل في نسبة هذا المقول إليهم وجواب الأمر.

﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي يصف ويخلص فيقبل عليكم ويحبكم حباً كاملاً لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي بعد يوسف والمراد بعد الفراغ من قتله أو طرحه وقيل من بعد الذنب الذي اقترفتموه في يوسف ﴿قوماً صالحين﴾ في أمور دينكم وطاعة أبيكم أو صالحين في أمور دنياكم بذهاب ما كان يشغلكم عن ذلك وهو الحسد ليوسف وتكدر خواطركم بتأثيره عليكم هو وأخوه، أو صالحين مع أبيكم بعذر تمهدونه أو المراد بالصالحين التائبون من الذنب في المستقبل.

﴿قال قائل منهم﴾ أي من الإخوة قيل هو يهوذا وقيل روبيل وقيل شمعون والأول أولى قيل وجه الإظهار في ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ استجلاب شفقتهم عليه فلم ير هذا القائل القتل ولا طرحه في أرض خالية قفراء بل قال ﴿وألقوه في

غيابة الجب﴾ أي في بئر يشرب منها الماء فإنه أقرب لخلاصه، فمحصل ذلك أنه أختار خصلة ثالثة هي أرفق بيوسف من تينك الخصلتين.

قرأ جماعة غيابة بالإفراد وغيرهم بالجمع، وأنكر أبو عبيد الجمع لأن الموضع الذي ألقوه فيه واحد، قال النحاس: وهذا تضييق في اللغة والجمع يجوز والغيابة كل شيء غيب عنك شيئاً وقيل للقبر غيابة والمراد بها هنا غور البئر الذي لا يقع عليه البصر أو طاقة فيه.

قال الهروي: الغيابة سد أو طاق في البئر قريب الماء يغيب ما فيه من العيون وقال الكلبي: الغيابة تكون في قعر الجب لأن أسفله واسع ورأسه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه وقال الزمخشري: هي غورة وما غاب منه من عين الناظر وأظلم من أسفله والمعاني متقاربة والجب البئر التي لم تطو ويقال لها قبل الطي ركية فإذا طويت قيل لها بئر وسميت جباً لأنها قطعت في الأرض قطعاً أو لكونه محفوراً في جبوب الأرض أي ما غلظ منها.

وجمع الجب جبب وجباب وأجباب وجمع بين الغيابة والجب مبالغة في أن يلقوه في مكان أسفل من الجب شديد الظلمة حتى لا يدركه نظر الناظرين قيل وهذه البئر ببيت المقدس قاله قتادة وقيل ببعض نواحي ايلياء، وقيل بالأردن، قاله وهب وقيل بالشام، وعن ابن زيد قال: بحذاء طبرية بينه وبينها أميال وقال مقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب الأمر.

﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قرىء بالتحتية والفوقية ووجهه أن بعض السيارة سيارة وهي الجمع الذي يسير في الطريق جمع سيار أي المبالغ في السير والالتقاط هو أخذ شيء مشرف على الضياع من الطريق أو من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة كأنهم أرادوا أن بعض السيارة إذا التقطه حمله إلى مكان بعيد بحيث يخفى عن أبيه ومن يعرفه ولا يحتاجون إلى الحركة بأنفسهم إلى المكان البعيد فربما أن

والدهم لا يأذن لهم بذلك وكان هذا الجب معروفاً يرد عليه كثير من المسافرين.

﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي عاملين بما أشرت به عليكم في أمره كأنه لم يجزم بالأمر بل وكله إلى ما يجمعون عليه كما يفعله المشير مع من استشاره، وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلماً وبغياً، وقيل كانوا أنبياء وكان ذلك منهم زلة قدم أوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم.

ورد بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد، وقيل عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعاً، وقيل أنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء بل صاروا أنبياء من بعد وكان كل ذلك قبل أن ينهاهم الله.

ولما أجمع رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب جاءوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة استعطافاً له وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه واستفهموه استفهام المنكر لأمر ينبغي أن يكون الواقع على خلافه.

﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف﴾ أي أي شيء لك لا تجعلنا أمناء عليه وكأنهم قد كانوا سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف، فأبى قرىء تأمناً بالإظهار وبالإدغام من غير إشمام واتفق الجمهور على الإخفاء أو الإشمام ﴿وإنا له لناصحون﴾ في حفظه وحيطته عاطفون عليه قائمون بمصلحته حتى نرده إليك.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿أرسله معنا غداً﴾ أي في غد إلى الصحراء التي أرادوا الخروج إليها وغداً ظرف والأصل عند سيبويه غدوة وقال النضر بن شميل ما بين الفجر وطلوع الشمس يقال له غدوة وكذا يقال له بكرة والغد اليوم الذي بعد يومك الذي أنت فيه ﴿يرتع﴾ هذا جواب الأمر، قرىء بالنون وإسكان العين وبها وكسر العين إسناداً للكل والأولى مأخوذ من قول العرب رتع الانسان أو البعير إذا أكل كيف شاء.

والمعنى يتسع في الخصب، وكل مخصب راتع والرتع التمتع في أكل الفواكه ونحوها والثانية مأخوذة من رعي الغنم وقرىء بالتحتية فيهما ورفع يلعب على الاستئناف والضمير ليوسف وقال القتيبي: معنى نرتع نتحارس ونتحافظ ويرعى بعضنا بعضاً من قولهم رعاك الله أي حفظك.

﴿ويلعب﴾ من اللعب قيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا نلعب وهم أنبياء فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء وقيل المراد به اللعب المباح وهو مجرد الانبساط لانشراح الصدر وقيل هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقوون به عليه، وكان اللعب بالاستباق والانتضال تمرينا لقتال الأعداء كما في قولهم إنا ذهبنا نستبق لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، وسماه لعباً لشبهه به، ولذلك لم ينكر عليهم يعقوب لما قالوا ونلعب، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر: «فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك». [1] وقال ابن عباس: نرتع ونلعب نسعى وننشط ونلهو ﴿و﴾ الحال ﴿إنا له لحافظون﴾ من أن يناله مكروه.

---

(١) مسلم ٧١٥ ـ البخاري ٢٩٢ .

﴿ قال ﴾ أي فأجابهم يعقوب بقوله ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي ذهابكم به واللام لام الابتداء للتأكيد ولتخصيص المضارع بالحال أخبرهم بأنه يحزن لغيبة يوسف عنه لفرط محبته له وحنوه عليه والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾ قال هذا يعقوب تخوفاً عليه منهم فكنى عن ذلك بالذئب وقيل إنه خاف أن يأكله الذئب حقيقة لأن ذلك المكان كان كثير الذئاب. ولو خاف منهم أن يقتلوه لأرسل معهم من يحفظه.

قال ثعلب: الذئب مأخوذ من تذأبت الريح إذا هاجت من كل وجه، قال: والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه ﴿وأنتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لكونكم غير مهتمين بحفظه.

أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تلقنوا الناس فيكذبون فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب».

﴿قالوا﴾ جواباً عن عذره الثاني وهو قوله أخاف أن يأكله الذئب، وأما عذره الأول وهو قوله إني ليحزنني فلم يجيبوا عنه إما لكون الحزن زمنه قصيراً لانقضائه برجوعهم، وإما لأنه ليس غرضهم إزالة الحزن عنه بل إيقاعه فيه والثاني هو المتعين ﴿لئن أكله الذئب﴾ اللام هي الموطئة للقسم والمعنى والله لئن أكله الذئب ﴿و﴾ الحال إنا ﴿نحن عصبة﴾ جماعة كثيرة عشرة رجال.

﴿إنا إذاً﴾ أي في ذلك الوقت وهو أكل الذئب له ﴿لخاسرون﴾ لهالكون ضعفاً وعجزاً أو مستحقون للهلاك لعدم الاعتداد بنا وانتفاء القدرة عن أيسر شيء وأقله أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار، وقيل معناه لجاهلون حقه وهذه الجملة جواب القسم المقدر في الجملة التي قبلها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧)﴾

﴿فلما ذهبوا به﴾ من عند يعقوب ﴿وأجمعوا﴾ أمرهم أي عزموا لأن أصل معنى الإجماع العزم المصمم ﴿أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ قد تقدم تفسيرهما قريباً وجواب لما محذوف لظهوره ودلالة المقام عليه أي فعلوا به ما فعلوا من الأذى وقيل جوابه ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ وقيل الجواب المقدر جعلوه فيها وقيل الجواب أوحينا والواو مقحمة ومثله قوله تعالى ﴿فلما أسلما وتله للجبين ونـاديناه﴾ أي ناديناه ،قال ابن عباس : كان يوسف في الجب ثلاثة أيام .

﴿وأوحينا إليه﴾ أي إلى يوسف تبشيراً له وتأنيساً لوحشته مع كونه صغيراً اجتمع على انزال الضرر به عشرة رجال من اخوته بقلوب غليظة قد نزعت عنها الرحمة، وسلبت منها الرأفة فإن الطبع البشري دع عنك الدين يتجاوزعن ذنب الصغير ويغتفره لضعفه عن الدفع وعجزه عن أيسر شيء يراد منه، فكيف بصغير لا ذنب له بل كيف بصغير هو أخ وله وهم أب مثل يعقوب .

فلقد أبعد من قال إنهم كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فما هكذا عمل الأنبياء ولا فعل الصالحين، وفي هذا دليل على أنه يجوز أن يوحي الله إلى من كان صغيراً ويعطيه النبوة حينئذ كما وقع في عيسى ويحيى بن زكريا وقيل معنى الوحي هنا الإلهام كقوله تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ والأول أولى، وقد قيل أنه كان في ذلك الوقت قد بلغ مبلغ الرجال وهو بعيد جداً، فإن من كان قد بلغ مبلغهم لا يخاف عليه أن يأكله الذئب .

﴿لتنبئنهم﴾ أي لتخبرن أخوتك ﴿بأمرهم هذا﴾ الذي فعلوه معك بعد

خلوصك مما أرادوه بك من الكيد وأنزلوه عليك من الضرر ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم لا يشعرون﴾ بأنك أخوهم يوسف لاعتقادهم هلاكك بإلقائهم لك في غيابة الجب ولبعد عهدهم بك ولكونك قد صرت عند ذلك في حال غير ما كنت عليه وخلاف ما عهدوه منك وسيأتي ما قاله لهم عند دخولهم عليه بعد أن صار إليه ملك مصر.

وقال مجاهد: وهم لا يشعرون بذلك الوحي، وقال قتادة فهون ذلك الوحي عليه ما صنع به وعن ابن عباس قال: وهم لم يعملوا بوحي الله إليه.

﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾ وهو آخر النهار وقيل في الليل ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب أي جاءوا باكين أو متباكين لأنهم لم يبكوا حقيقة، بل فعلوا فعل من يبكي ترويجاً لكذبهم وتنفيقاً لمكرهم وغدرهم فلما وصلوا الى أبيهم ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نتسابق في العدو أو في الرمي، وقيل ننتضل بالسهام، ويؤيده قراءة ابن مسعود ننتضل، قال الزجاج: وهو نوع من المسابقة، وقال الأزهري : النضال في السهام والرهان في الخيل والمسابقة تجمعها.

قال القشيري: نستبق أي في الرمي أو على الفرس أو على الأقدام والغرض من المسابقة التدرب بذلك في القتال، وقال السدي: يعني نشتد ونعدو وقال مقاتل: نتصيد أي نستبق إلى الصيد ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي ثيابنا ليحرسها ﴿فأكله الذئب﴾ الفاء للتعقيب أي أكله عقب ذلك وقد اعتذروا إليه بما خافه سابقاً عليه ورب كلمة تقول لصاحبها دعني.

﴿وما أنت بمؤمن﴾ أي بمصدق ﴿لنا﴾ في هذا العذر الذي أبدينا والكلمة التي قلناها، وفي هذا الكلام منهم فتح باب اتهامهم كما لا يخفى على صاحب الذوق ﴿ولو كنا﴾ عندك أو في الواقع ﴿صادقين﴾ لما قد علق بقلبك من التهمة لنا في ذلك مع شدة محبتك له، قال الزجاج: والمعنى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذه القصة لشدة محبتك ليوسف وكذا ذكره ابن جرير وغيره.

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿وجاءوا على﴾ فوق ﴿قميصه بدم كذب﴾ وصف الدم بأنه كذب مبالغة كما هو المعروف في وصف اسم العين باسم المعنى فكأنه نفسه صار كذباً أو قيل المعنى بدم ذي كذب أو بدم مكذوب فيه، قال ابن عباس ومجاهد: كان دم سخلة، وقرأ الحسن وعائشة: بدم كدب بالدال المهملة أي بدم طرى يقال للدم الطري كدب، وقال الشعبي: أنه المتغير والكذب أيضاً البياض الذي يخرج في اظفار الأحداث فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين.

وقد استدل يعقوب على كذبهم بصحة القميص وقال لهم متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص.

ثم ذكر الله سبحانه ما أجاب به يعقوب عليه السلام فقال ﴿قال بل سولت﴾ أي زينت وسهلت وأمرت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ قال النيسابوري: التسويل تقرير معنى في النفس مع الطمع في اتمامه وهو تفعيل من السول وهو الأمنية قال الأزهري: وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمزة وفي الشهاب من السول بفتحتين وهو استرخاء العصب ونحوه فكأن المسول بذله فيما حرص عليه.

﴿فصبر جميل﴾ قال الزجاج: أي فشأني أو الذي اعتقده صبر جميل وقال قطرب: أي فصبري صبر جميل وقيل فصبر جميل أولى بي قيل الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه لأحد غير الله وعنه ﷺ قال: «لا شكوى فيه من بث لم يصبر» أخرجه ابن جرير وهو مرسل وقال مجاهد: ليس فيه جزع وقرىء فصبراً جميلاً وكذا في

مصحف أنس. قال المبرد: بالرفع أولى من النصب لأن المعنى رب عندي صبر جميل وإنما النصب على المصدر أي فلأصبرن صبراً جميلاً.

﴿والله المستعان﴾ أي المطلوب منه العون والجملة انشائية دعائية لا اخبار منه ﴿على﴾ أي على إظهار حال أو احتمال ﴿ما تصفون﴾ أي تذكرون من أمر يوسف عليه السلام، وقال قتادة على ما تكذبون.

﴿وجاءت سيارة فأرسلوا﴾ ذكر على المعنى مكان أرسلت ﴿واردهم﴾ هذا شروع في حكاية خلاص يوسف وما كان بعد ذلك من خبره، وقد تقدم تفسير السيارة أي جماعة مسافرون سموا سيارة لسيرهم في الأرض، والمراد بها هنا رفقة مارة تسير من الشام او من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجب، وكان في قفرة بعيدة من العمران ترده المارة والرعاة وكان ماؤه ملحاً والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم وكان اسمه فيما ذكر المفسرون مالك ابن ذعر الخزاعي من العرب العاربة.

﴿فأدلى دلوه﴾ يقال أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ودلاها إذا أخرجها قال الأصمعي والدلو مؤنث وقد يذكر والدلو الذي يستقى بها فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج الدلو من البئر أبصره الوارد ﴿قال يا بشرى﴾ ومعنى مناداته للبشرى أنه أراد حضورها في ذلك الوقت فكأنه قال هذا وقت مجيئك وأوان حضورك.

وقيل أنه نادى رجلاً اسمه بشرى وهذا على ما فيه من البعد لا يتم إلا على قراءة من قرأ يا بشرى وقد قرىء يا بشراي وعليه أهل المدينة وأهل البصرة وأهل الشام قرأوا بإضافة البشرى الى الضمير فالأول أولى، قال النحاس: والمعنى من نداء البشرى التبشير لمن حضر وهو أوكد من قولك بشرته كما تقول يا عجباً أي يا عجب هذا من أيامك فاحضر قال: وهذا مذهب سيبويه.

﴿هذا غلام﴾ وكان يوسف أحسن ما يكون من الغلمان، وقد أعطى شطر الحسن وقيل ورثه من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن، فكان حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان إذا تبسم ظهر النور من

ضواحكه وإذا تكلم ظهر من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه.

قال الضحاك: فاستبشروا بأنهم أصابوا غلاماً لا يعلمون علمه ولا منزلته من ربه وقال قتادة: تباشروا به حين استخرجوه من البئر وهي ببيت المقدس معلوم مكانها.

﴿وأسروه﴾ أي أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف عن بقية الرفقة فلم يظهروه لهم وقيل انهم لم يخفوه ولكن اخفوا وجدانهم له في الجب وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر. وقال مجاهد: أسره التجار بعضهم من بعض وقيل ضمير الفاعل في أسروه لاخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام فأتاه يوم خروجه من البئر فلم يجده فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة ان يأخذوه فيقتلوه.

وعن ابن عباس: يعني إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس والأول أولى.

﴿بضاعة﴾ أي أخفوه حال كونه بضاعة أي متاعاً للتجارة والبضاعة ما يبضع من المال أي يقطع منه لأنها قطعة من المال الذي يتجر به قيل قاله لهم الوارد وأصحابه أنه بضاعة استبضعناها من الشام مخافة أن يشاركوهم فيه.

﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي بما يترتب على عملهم القبيح بحسب الظاهر من الأسرار والفوائد المنطوية تحت باطنه ، فإن هذا البلاء الذي فعلوه به كان سبباً لوصوله الى مصر، وتنقله في أطوار حتى صار ملكها، فرحم الله به العباد والبلاد خصوصاً في سني القحط الذي وقع بها كما سيأتي ، قيل وفيه وعيد شديد لمن كان فعله سبباً لما وقع فيه يوسف من المحن وما صار فيه من الابتذال يجري البيع والشراء فيه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كما قال نبينا صلّى الله عليه وسلم في وصفه بذلك.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

﴿وشروه﴾ يقال شراه بمعنى اشتراه وشراه بمعنى باعه والمراد هنا الثاني أي باعه الوارد وأصحابه أو اشتراه السيارة من إخوته ﴿بثمن بخس﴾ ناقص أو زيف وقيل ظلم وقيل حرام لأن ثمن الحر حرام والحرام يسمى بخساً لأنه مبخوس البركة أي منقوصها فلم يحل لهم بيعه ولا أكل ثمنه قاله ابن عباس وقيل قليل ﴿دراهم﴾ بدل من ثمن أي لا دنانير ﴿معدودة﴾ قيل باعوه بعشرين درهماً، وقيل بأربعين درهماً وفيه إشارة الى انها قليلة تعد ولا توزن لأنهم كانوا لا يزنون ما دون أوقية وهي أربعون درهماً.

أخرج الطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنما اشتري يوسف بعشرين درهماً وكان أهله حين أرسل إليهم بمصر ثلثمائة وتسعين إنساناً رجالهم أنبياء ونساؤهم صديقات والله ما خرجوا مع موسى حتى كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً[١]. وقد روي في مقدار ثمن يوسف غير هذا المقدار مما لا حاجة الى التطويل بذكره.

﴿وكانوا﴾ الضمير يرجع إلى ما قبله على حسب اختلاف الأقوال ﴿فيه﴾ أي في يوسف ﴿من الزاهدين﴾ أصل الزهد قلة الرغبة يقال زهدت وزهدت بفتح الهاء وكسرها، قال سيبويه والكسائي: قال أهل اللغة: زهد فيه أي رغب عنه وزهد عنه أي رغب فيه، والمعنى أنهم كانوا فيه من الراغبين عنه الذين لا يبالون به فلذلك باعوه بذلك الثمن البخس لأن غرضهم إبعاده عنهم لا تحصيل ثمنه، وقيل ذلك لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به، ولما دخلوا مصر وعرضوه للبيع ترافع الناس في ثمنه.

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإسراء وفرض الصلوات رقم ١٦٢ من حديث طويل فيه: «فإذا أنا بيوسف (ص). إذا هو قد اعطى شطر الحسن. وأخرجه الإمام احمد ١٤٨/٣، ٢٨٦».

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ هو العزيز الذي كان على خزائن مصر وكان وزيراً لملك مصر وهو الريان بن الوليد من العمالقة وقيل أن الملك هو فرعون موسى، وقال ابن عباس: كان اسم المشتري قطفير وعن محمد بن اسحاق أطفير بن روحب وكان اسم امرأته راعيل بنت رعابيل، واسم الذي باعه من العزيز مالك بن ذعر قيل اشتراه بعشرين ديناراً، وقيل تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلىء وجواهر. وكان وزنه أربعمائة رطل.

روي انه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة.

فلما اشتراه العزيز قال ﴿لامرأته﴾ عن شعيب الجبائي أن اسم امرأة العزيز زليخا بفتح الزاي وكسر اللام والمد كما في القاموس أو بضم الزاء وفتح اللام على هيئة المصغر كما قال الشهاب وقيل اسمها راعيل بوزن هابيل وقيل أحدهما لقبها والآخر اسمها ﴿أكرمي مثواه﴾ أي منزله الذي يثوي فيه بالطعام الطيب واللباس الحسن يعني أحسني تعهده حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا وساكنة في كنفنا، ويقال للرجل كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد هل تطيب نفسه بثوائك عنده وهل يراعي حق نزولك.

وقال ابن عباس وقتادة: أكرمي منزلته والمثوى محل الثوى وهو الاقامة

وإكرام مثواه كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه لأن من أكرم المحل باحسان الأسرة واتخاذ الفراش ونحوه فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به أو المقام مقحم كما يقال المجلس العالي والمقام السامي ومنه قول آزاد:

قلبي الذي يهواك طال نواه   آت إليك فأكرمي مثواه

وعن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته ﴿أكرمي مثواه﴾ الآية والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها ﴿يا أبت استأجره﴾ وأبو بكر رضي الله تعالى عنه حين استخلف عمر.

﴿عسى أن ينفعنا﴾ أي يكفينا بعض المهمات مما نحتاج فيه الى مثله أو إن أردنا بيعه بعناه بربح ﴿أو نتخذه ولداً﴾ أي نتبناه فنجعله ولداً لنا قيل كان العزيز حصوراً لا يأتي النساء أو كان عقيماً لا يولد له كما جرى عليه القاضي والاصفهاني تبعاً للكشاف وقد كان تفرس فيه أنه ينوب عنه فيما إليه من أمر المملكة.

﴿وكذلك﴾ إشارة الى ما تقدم من إنجائه من إخوته وإخراجه من الجب وعطف قلب العزيز عليه أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿مكنا ليوسف﴾ يقال مكنه فيه أي أثبته فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكاناً ولتقارب المعنيين يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يعني أعطيناه مكانة ورتبة عالية ﴿في الأرض﴾ أي في أرض مصر حتى صار متمكناً من الأمر والنهي وبلغ ما بلغ من السلطنة.

﴿ولنعلمه﴾ هو علة معلل محذوف كأنه قيل فعلنا ذلك التمكين لنعلمه،أو كان ذلك الإنجاء لهذه العلة أو معطوف على مقدر وهو أن يقال مكنا ليوسف ليترتب على ذلك ما يترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه ﴿من تأويل

الأحاديث﴾ أي عبارة الرؤيا وتفسيرها قاله مجاهد والتأويل قيل فهم أسرار الكتب الإلهية وسنن من قبله من الأنبياء ولا مانع من حمل ذلك على الجميع.

﴿والله غالب على أمره﴾ أي على أمر نفسه لا يمتنع منه شيء ولا يغالبه عليه غيره من مخلوقاته إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد لا دافع لأمره ولا راد لقضائه ومن جملة ما يدخل تحت هذا العام كما يفيد ذلك إضافة اسم الجنس إلى الضمير ما يتعلق بيوسف من الأمور التي أرادها الله سبحانه في شأنه وقيل المعنى إنه كان من أمر يعقوب أن لا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله سبحانه حتى قصت عليهم حتى وقع منهم ما وقع وهذا بعيد جداً.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يطلعون على غيب الله وما في طيه من الأسرار العظيمة والحكم النافعة وقيل المراد بالأكثر الجميع لأنه لا يعلم الغيب إلا الله وقيل أن الله سبحانه قد يطلع بعض عبيده على بعض غيبه كما في قوله ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ وقيل المعنى لا يعلمون أن الله غالب على أمره وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر وقيل ما هو صانع بيوسف وما يريد منه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ولما بلغ أشده﴾ قال سيبويه: الأشد جمع واحده شدة نحو نعمة وأنعم وقال الكسائي: واحده شد بزنة قفل وقال أبو عبيد: أنه جمع لا واحد له من لفظه عند العرب وخالفه الناس في ذلك وهو من الشد وهو الربط على الشيء والعقد عليه والأشد هو وقت استكمال القوة ثم يكون بعده النقصان قيل هو ثلاث وثلاثون سنة قاله ابن عباس وقيل ثماني عشرة سنة قاله سعيد بن جبير وقيل خمس وعشرون سنة قاله عكرمة وقيل أربعون سنة قاله الحسن وقيل ثلاثون سنة قاله السدي وقيل بلوغ الحلم وبه قال ربيعة والشعبي وقيل عشرون سنة قاله الضحاك وقيل غير ذلك مما قد قدمنا في النساء والأنعام.

قال الراغب: وفيه تنبيه على أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله ولم يقل هنا واستوى كما قال في شأن موسى في سورة القصص لأن موسى كان قد بلغ أربعين سنة وهي مدة النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل أعباء الرسالة وأسرار النبوة وأما يوسف فلم يكن إذ ذاك بلغ هذا السن.

﴿آتيناه حكماً﴾ هو ما كان يقع منه من الأحكام في سلطان ملك مصر ﴿وعلماً﴾ هو العلم بالحكم الذي كان يحكمه وقيل العقل والفهم والنبوة والفقه قاله مجاهد وقيل الحكم هو النبوة والعلم هو العلم بالدين وقيل علم الرؤيا ومن قال أنه أوتي النبوة صبياً قال المراد بهذا الحكم والعلم اللذين آتاهما الله هو الزيادة فيهما.

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نجزي المحسنين﴾ فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه وجعل عاقبته الخير من جملة ما يجزيه به، وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولياً.

قال الطبري: هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله كما فعل هذا بيوسف ثم أعطيته ما أعطيته كذلك أنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وأمكن لك في الأرض والأولى ما ذكرناه من حمل العموم على ظاهره فيدخل تحته ما ذكره ابن جرير الطبري، وقيل معنى المحسنين المؤمنين، وقيل الصابرين على النوائب قاله الضحاك وقيل المهتدين.

﴿وراودته﴾ أي حين بلغ مبلغ الرجال قاله ابن زيد وهذا رجوع الى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه وقوله ﴿وكذلك مكنا ليوسف﴾ إلى هنا اعتراض جيء به انموذجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه يوسف من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه محسن في جميع أحواله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته، ولا يخفى أن مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز.

والمراودة الارادة والطلب برفق ولين، وقيل هي مأخوذة من الرود أي الرفق والتأني يقال أرودني أي أمهلني وقيل مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء كأن المعنى أنها فعلت في مراودتها له فعل المخادع ومنه الرائد لمن يطلب الماء والكلأ وقد يخص بمحاولة الوقاع فيقال راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع وهي عبارة عن التمحل في مواقعته إياها، وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة

المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل، ومن الآخر سببه.

وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزى، فإن فعل البادىء وإن لم يكن جزاء أطلق عليه اسمه لكونه سبباً للجزاء، وهذه قاعدة مطردة مستمرة فكأن يوسف عليه السلام لما كان ما أعطيه من كمال الخلق والزيادة في الحسن والجمال سبباً لمراودة امرأة العزيز له مراوداً والمراد بالمفاعلة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك.

وإنما قال ﴿التي هو في بيتها عن نفسه﴾ ولم يقل امرأة العزيز أو زليخا قصداً الى زيادة التقرير، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه:قالت قرب الوساد وطول السواد، ولإظهار كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكها ينادى بكونه في أعلى معارج العفة والنزاهة، والعدول عن اسمها للمحافظة على الستر أو للاستهجان بذكرها قال قتادة: هي امرأة العزيز.

﴿وغلقت الأبواب﴾ أي أطبقتها قيل في هذه الصيغة ما يدل على التكثير لتعدد المحال وهي الأبواب فيقال غلق الأبواب ولا يقال غلق الباب بل يقال أغلق الباب وقد يقال أغلق الأبواب قيل وكانت الأبواب سبعة كما في البيضاوي وغيره وأنها أغلقتها لشدة خوفها.

﴿وقالت هيت لك﴾ قرأ أبو عمر وعاصم والأعمش والكسائي بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء وبها قرأ ابن عباس وابن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة

ككيف وليت قال ابن مسعود: لا تنطعوا في القراءة فإنما هو مثل قول أحدكم هلم وتعال.

وقرأ ابو اسحق النحوي بكسر التاء وقرأ ابن كثير وغيره بضم التاء مع فتح الهاء وقرأ أبو جعفر ونافع بكسر الهاء وفتح التاء بوزن قيل وغيض وهذه القرآت سبعية وقرأ علي وابن عباس بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة وضم التاء وقرأ ابن عامر وأهل الشام بكسر الهاء وبالهمزة وفتح التاء وهذه كلها لغات في هذه الكلمة وهي في كلها اسم فعل بمعنى هلم وتعال أي اقبل إلا في قراءة كسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة فإنها بمعنى تهيأت لك وأنكرها ابو عمرو وقال: باطل جعلها بمعنى تهيأت اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهي الى اليمن هل تعرف أحداً يقول هكذا، وانكرها ايضاً الكسائي.

وقال النحاس: هي جيدة عند البصريين لأنه يقال هاء الرجل ويهيء هيأة ورجح الزجاج القراءة الأولى وتكون اللام في لك، على القراءة الأولى التي هي فيها بمعنى اسم الفعل للبيان أي لك اقول هذا كما في هلم لك قال النحويون: هيت جاء بالحركات الثلاث فالفتح للخفة والكسر لالتقاء الساكنين والضم تشبيهاً بحيث، وإذا بين باللام نحو هيت لك فهو صوت قائم مقام المصدر كأف له أي لك، أقول هذا وإن لم يبين باللام فهو صوت قائم مقام مصدر الفعل فيكون اسم فعل إما خبر أي تهيأت وإما أمر أي اقبل.

وقال في الصحاح: يقال هوت به وهيت به إذا صاح به ودعاه، وقد روي عن ابن عباس والحسن: أنها كلمة سريانية معناها أنها تدعوه الى نفسها وقال الكسائي: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها تعال قال أبو عبيدة: فسألت شيخاً عالماً من حوران فذكر أنها لغتهم وعن ابن عباس معناه: هلم لك بالقبطية.

وقال الحسن: أي عليك بالسريانية وقيل هي بالعبرانية ومن قال أنها بغير

لغة العرب يقول أن العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فإن العرب إذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وعن مجاهد أنها لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها.

﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله معاذاً مما دعوتني إليه يقال عاذ يعوذ عياذاً ومعاذاً وعوذاً مصدر بمعنى الفعل ﴿إنه﴾ أي الذي اشتراني ﴿ربي﴾ تعليل للإمتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز وقيل الضمير للشأن فكأنه قيل أن الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي الذي رباني العزيز ﴿أحسن مثواي﴾ حيث أمرك بقوله أكرمي مثواه فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك وقال الزجاج: إن الضمير لله سبحانه أي إن الله ربي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمه.

قال مجاهد والسدي وابن اسحق: يبعد جداً أن يطلق نبي كريم على مخلوق أنه ربه ولو بمعنى السيد لأنه ليس مملوكاً في الحقيقة والأول فيه إرشادها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ تعليل آخر للامتناع منه عن إجابتها، والفلاح الظفر والمعنى أنه لا يظفر الظالمون بمطالبهم ومن جملة الظالمين الواقعون في مثل هذه المعصية التي تطلبها امرأة العزيز من يوسف وقيل معناه أنه لا يسعد الزناة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿ولقد﴾ لام قسم ﴿همت به وهم بها﴾ يقال هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه والمعنى أنه هم بمخالطتها كما همت بمخالطته ومال كل واحد منهما الى الآخر بمقتضى الطبيعة البشرية والجبلة الخلقية ولم يكن من يوسف عليه الصلاة والسلام القصد إلى ذلك اختياراً كما يفيده ما تقدم من استعاذته بالله وإن ذلك نوع من الظلم بل قصد من غير رضا ولا عزم ولا تصميم، والقصد على هذا الوجه لا مؤاخذة فيه فلا خلاف في أن يوسف لم يأت بفاحشة وإنما الخلاف في وقوع الهم.

ولما كان الأنبياء معصومين عن الهم بالمعصية والقصد إليها أيضاً تكلم أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف فمن ذلك ما قاله أبو حاتم قال: كنت أقرأ على أبي عبيدة غريب القرآن فلما أتيت على قوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ قال: هذا على التقديم والتأخير كأنه قال ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة وهم يوسف ولم يوقع ما هم به فبين الهمين فرق ومن هذا قول الشاعر:

همت بهم من ثنية لؤلؤ   شفيت غليلات الهوى من فؤاديا

فهذا إنما هو حديث نفس من غير عزم، وقيل هم بها اي هم بضربها وقيل هم بمعنى تمنى أن يتزوجها وقد ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى ما قدمنا من حمل اللفظ على معناه اللغوي.

ويدل على هذا قوله الآتي ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ وقوله: ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ ومجرد الهم لا ينافي العصمة فإنها قد وقعت العصمة عن الوقوع في المعصية وذلك المطلوب.

قال الشهاب: قال الإمام: المراد بالهم في الآية خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه عنه وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالاً تتهيأ للشاب النامي القوي فتقع بين الشهوة والعفة وبين النفس والعقل مجاذبة ومنازعة، فالهم هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ورؤية البرهان جواذب الحكمة وهذا لا يدل على حصول الذنب بل كلما كان هذه الحال أشد كانت القوة على لوازم العبودية أكمل انتهى.

ويؤيده ما في البيضاوي المراد بهمه عليه الصلاة والسلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله تعالى من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفة الهم كقولك قتلته لو لم أخف الله انتهى. وقيل انه هم بالفاحشة وأتى ببعض مقدماتها وقد أفرط الزمخشري في التشنيع عليه والصحيح نزاهته عن الهم المحرم أيضاً وقد أطنب الرازي في هذا المقام فليراجعه وقيل معنى الهم أنها اشتهته واشتهاها قال الخفاجي: وأنه أحسن الوجوه.

وجواب لو في ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ محذوف أي لفعل ما هم به واختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو؟فقيل أن زليخا قامت عند أن همت به وهم بها الى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين قالت استحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة فقال يوسف أنا أولى ان استحي من الله تعالى، روي معنى هذا عن علي بن أبي طالب وفي رواية عن علي بن الحسين، وقيل أنه رأى في سقف البيت مكتوباً ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة، وقيل رأى كفاً مكتوباً عليها وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين، وقيل ان البرهان هو تذكرة عهد الله وميثاقه وما أخذه على عباده.

وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء، وقيل

رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أنملته يتوعده، وبه قال قتادة وأكثر المفسرين والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك، وقيل رأى جبريل في صورة يعقوب قاله ابن عباس وقيل مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل رأى جبريل قاله البيضاوي.

قال الخفاجي: هذا مع ما في القصص ونحوه مما لا يليق ذكره وتركه أحسن منه كله مما لا أصل له والنص ناطق بخلافه والبرهان ما عنده من العلم الدال على تحريم ما همت به وإنه لا يمكن الهم فضلاً عن الوقوع فيه هذا هو الذي يجب اعتقاده والحمل عليه اهـ.

وعلى الجملة إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها، والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما هم به والله أعلم بما هو وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً.

﴿كذلك﴾ إشارة الى الآراء المدلول عليها بقوله رأى برهان ربه أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك أي مثل تلك الآراء أريناه أو مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لنصرف عنه السوء﴾ أي كل ما يسوؤه ﴿والفحشاء﴾ هو كل أمر مفرط القبح وقيل السوء الخيانة للعزيز في أهله والفحشاء الزنا وقيل السوء الشهوة والفحشاء المباشرة وقيل السوء الثناء القبيح والأولى الحمل على العموم فيدخل فيه ما يدل عليه السياق دخولاً أولياً قال أبو السعود: وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها قط وإلا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل.

﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ تعليل لما قبله قرىء بكسر اللام وفتحها وهي

سبعية والمعنى على الأولى أن يوسف كان ممن أخلص طاعته لله وعلى الثانية أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة وقد بان عليه السلام مخلصاً مستخلصاً وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الأسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية.

قال الخفاجي: قيل فيه إن كل من له دخل في هذه القصة شهد ببراءته فشهد الله بقوله لنصرف الخ وشهد هو على نفسه بقوله هي راودتني ونحوه وشهدت زليخا بقولها ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، وسيدها بقوله إنك كنت من الخاطئين وإبليس بقوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فتضمن إخباره بأنه لم يغوه ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص كما قيل:

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس من جندي

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

﴿واستبقا الباب﴾ أي تسابقا إليه وهذا كلام متصل بقوله ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ الآية وما بينهما اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام ووجه تسابقهما أن يوسف يريد الفرار والخروج من الباب وامرأة العزيز تريد أن تسبقه إليه لتمنعه عن الفتح والخروج ووحد الباب هنا وجمعه فيما تقدم لأن تسابقهما كان إلى الباب البراني الذي يخلص منه إلى خارج الدار قال السيوطي: بادرا إليه يوسف للفرار وهي للتشبث به فأمسكت ثوبه.

﴿وقدّت﴾ أي جذبت ﴿قميصه من دبر﴾ من ورائه فانشق إلى أسفله والقد القطع وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً والقط بالطاء يستعمل فيما كان عرضا قال الشهاب في الريحانة: القد والقط متقاربان معنى وهما نوعان من القطع وفيه لطيفة اتفاقية لأن القد قطع الشيء من نصفه أو قطعه نصفين والقط قطع الطرف كما في الشمع والقلم فكأنه لكونه قليلاً من القطع نقص منه للعين انتهى.

وإسناد القد إليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضاً دخلاً فيه إما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة وإما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب او لخوف الافتضاح.

﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ أي وجدا العزيز هنالك وعني بالسيد الزوج لأن القبط يسمون الزوج سيداً وإنما لم يقل سيدهما لأن ملكه ليوسف لم يكن صحيحاً فلم يكن سيداً له.

﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ من الزنا ونحوه والجملة مستأنفة كأنه قيل فما كان منهما عند أن ألفيا سيدها لدى الباب قالت هذه المقالة طلباً منها للحيلة وللستر على نفسها فنسبت ما كان منها إلى يوسف أي أيُّ جزاء يستحقه من فعل مثل فعل هذا ثم أجابت عن استفهامها بقولها ﴿إلا أن يسجن﴾ أي ما جزاؤه إلا أن يسجن، ويحتمل أن تكون ما نافية أي ليس جزاؤه إلا السجن وانما بدأت بذكر السجن لأن المحب لا يشتهي ايلام المحبوب، وإنما أرادت أن يسجن عندها يوماً أو يومين ولم ترد السجن الطويل.

قال الخازن: وهذه لطيفة فافهمها، وقال ابن الخطيب: وأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال يجب ان يجعل من المسجونين كما قال فرعون لأجعلنك من المسجونين ذكره الكرخي ﴿أو عذاب أليم﴾ قيل هو الضرب بالسياط والظاهر أنه ما يصدق عليه العذاب الأليم من ضرب أو غيره وفي الابهام للعذاب زيادة تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانوناً مطرداً في حق كل أحد كائناً من كان.

وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب وإغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية قاله أبو السعود، ولم تقل أن يوسف يجب أن يقابل بأحد هذين الأمرين بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر الشر.

فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت، والجملة مستأنفة كالجملة الأولى وقد تقدم بيان معنى المراودة أي هي التي طلبت مني ذلك ولم أرد بها سوءاً، ولم يقل هذه ولا تلك لفرط استحيائه وهو أدب حسن حيث أتى بلفظ الغيبة دون الحضور، ولم يكن يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال ما قال.

﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ أي من قرابتها وسمي الحكم بينهما شهادة لما يحتاج فيه من التثبت والتأمل، قيل لما التبس الأمر على العزيز احتاج الى حاكم يحكم بينهما ليتبين له الصادق من الكاذب قيل كان ابن عم لها واقفاً مع العزيز في الباب، وقيل ابن خال لها وقيل أنه الطفل في المهد تكلم قال السهيلي: وهو الصحيح للحديث الوارد في ذلك عن النبيﷺ في ذكر من تكلم في المهد وذكر من جملتهم شاهد يوسف.

وقيل إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في أموره وكان من قرابة المرأة قال ابن عباس: ظبي أنطقه الله كان في الدار وعنه قال: كان رجل ذا لحية من خاصة الملك وعن الحسن قال: هو رجل له فهم وعلم وعن مجاهد قال: إنه ليس بإنسي ولا جنى هو خلق من خلق الله، قلت ولعله لم يحضر قوله تعالى من اهلها وإنما كان الشاهد من أهل المرأة وقرابتها ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدقه.

﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ أي من قدام فقال الشاهد هذه المقالة مستدلاً على بيان صدق الصادق منها وكذب الكاذب بأن قميص يوسف إن كان مقطوعاً من قبل أي من جهة القبل ﴿فصدقت﴾ أي فقد صدقت بأنه أراد بها سؤا ﴿وهو من الكاذبين﴾ في قوله أنها راودته عن نفسه وقرىء من قبل بضم اللام وكذا من دبر قال الزجاج جعلاهما غايتين.

﴿وإن كان قميصه قد من دبر﴾ أي من ورائه ﴿فكذبت﴾ في دعواها عليه ﴿وهو من الصادقين﴾ في دعواه عليها ولا يخفى أن هاتين الجملتين الشرطيتين لا تلازم بين مقدميها وتاليها لا عقلاً ولاعادة وليستا من الشهادة في شيء وإنما ذكرتا توسيعاً للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى أن يحتمله الحال في الجملة مجرى الظاهر الغالب الوقوع فليس ههنا إلا مجرد إمارة غير مطردة إذ من الجائز ان يجذبه اليها وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر وأن تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قبل.

فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾
يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾
۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا
إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

﴿فلما رأى﴾ العزيز ﴿قميصه﴾ أي قميص يوسف ﴿قد من دبر﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك أو قد لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال وعرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام ﴿قال﴾ أي العزيز وقيل هذا من قول الشاهد والأول أولى ﴿إنه﴾ أي الأمر الذي وقع فيه الاختلاف بينكما أو أن قولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴿من﴾ جنس ﴿كيدكن﴾ ومكركن وحيلكن يا معشر النساء ﴿إن كيدكن عظيم﴾ خاطب الجنس لأن الحيل والمكايد لا تختص بها، وإنما وصف الكيد بالعظيم لأن كيدهن أعظم من كيد جميع البشر في اتمام مرادهن لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس.

وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وقال للنساء ﴿ان كيدكن عظيم﴾ ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال.

وفي حاشية الخفاجي: وقيل عليه ان ضعف كيد الشيطان في مقابلة كيد الله وعظم كيدهن بالنسبة للرجال وهو ليس بشيء لأنه استدل بظاهر اطلاقهما ومثله مما تنقبض له النفس وتنبسط يكفي فيه ذلك القدر انتهى.

قال الحفناوي: هذا فيما يتعلق بأمر الجماع والشهوة لا عظيمٌ على الاطلاق إذ الرجال أعظم منهن في الحيل والمكايد في غير ما يتعلق بالشهوة.

ثم خاطب العزيز يوسف عليه السلام بقوله ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾

الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به حتى لا يفشو ويشيع بين الناس وقيل معناه لا تكترث به ولا تهتم به فقد بان عذرك ثم أقبل عليها بالخطاب فقال ﴿واستغفري﴾ يا زليخا ﴿لذنبك﴾ الذي وقع منك، قال الكرخي: كان العزيز قليل الغيرة، بل قال في البحر إن قرية تربة إقليم قطفير مصر تقتضي هذا، ولهذا لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لا يبقى.

﴿إنك كنت﴾ بسبب ذلك ﴿من الخاطئين﴾ أي من جنسهم برمي يوسف بالخطيئة، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار ولم يقل من الخاطئات تغليباً للمذكر على المؤنث كما في قوله ﴿كانت من القانتين﴾ومعنى من الخاطئين من المتعمدين يقال خطأ إذا أذنب متعمداً وقيل التقدير من القوم الخاطئين وقيل ان القائل ليوسف ولامرأة العزيز بهذه المقالة هو الشاهد الذي حكم بينهما.

﴿وقال نسوة﴾ قرىء نسوة بضم النون قاله أبو البقاء وبكسرها والمراد جماعة من النساء ويجوز التذكير في الفعل المسند إليهن كما يجوز التأنيث ولا واحد له من لفظه بل من معناه وهو امرأة والنساء جمع كثرة أيضاً ولا واحد له من لفظه قيل وكن خمساً وهن امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه وامرأة صاحب دوابه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه ﴿في المدينة﴾ هي مصر وقيل مدينة الشمس.

﴿امرأة العزيز﴾ يعني زليخا ﴿تراود فتاها﴾ الفتى في كلام العرب الشاب الحديث السن والفتاة الشابة والمراد هنا غلامها يقال فتاي وفتاتي أي غلامي وجاريتي وجيء بالمضارع تنبيهاً على أن المراودة صارت مهنة لها وديدناً دون الماضي فلم يقلن راودت ﴿عن نفسه﴾ وهو يمتنع منها ﴿قد شغفها حباً﴾ أي غلبها حبه وقيل دخل حبه في شغافها قال أبو عبيدة: شغاف القلب غلافه وهو جلدة عليه، وقيل هو وسط القلب.

وعلى هذا يكون المعنى دخل حبه إلى شغافها فغلب عليه وقرىء شعفها

بالعين المهملة قال ابن الاعرابي: معناه أجرى حبه عليها قال الجوهري: شغفه الحب أحرق قلبه وقال أبو زيد: أمرضه وقال النحاس: معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب لأن شغاف الجبال أعاليها وقد شغف بذلك شغفاً باسكان الغين المعجمة إذا ولع به.

وقرأ الحسن: قد شغفها بضم الغين وحكى بكسرها قال النحاس: ولا يعرف ذلك في كلام العرب إلا شغفاً بفتح الغين، ويقال ان الشغاف الجلدة اللاصقة بالكبد التي لا ترى وهي الجلدة البيضاء فكأنه لصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالكبد وقيل المعنى أن حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل أن حبه قد أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب. قال الكلبي: حجب حبه قلبها حتى صارت لا تتعقل شيئاً سواه.

وقال السمين: خرق شغاف قلبها أي حجاب القلب وهو جلدة رقيقة وقيل سويداء القلب، وقيل داء يصل إلى القلب من أجل الحب وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ليس محيطة به. والمعنى خرق حجابه وأصابه فأحرقه بحرارة الحب، يقال شغف الهوى قلبه شغفاً وشغفه المال زين له فأحبه فهو مشغوف به.

وعن ابن عباس: شغفها غلبها وقال قتلها حب يوسف وقال قد علقها قال آزاد في سبحة المرجان: ولا استبعاد في إظهار العشق من جانب المرأة أما ترى في القرآن الكريم غرام امرأة العزيز بيوسف عليه السلام، والأهاند يذكرون العشق في تغزلاتهم من جانب المرأة بالنسبة الى الرجل خلاف العرب، وسببه ان المرأة في دينهم لا تنكح إلا زوجاً واحداً فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج وإذا مات تحرق نفسها معه، والعشق بين الرجل والمرأة وضع إلّهي فتارة يكون من الطرفين وتارة يكون من أحدهما وإذا لوحظ الوضع الإلّهي فالمرأة معشوقة عاشقة والرجل عاشق معشوق.

وأهل الهند[1] وافقوا العرب في التغزل بالنساء بخلاف الفرس والترك فان تغزلهم بالأمارد فقط، ولا ذكر من المرأة في غزلهم، ولعمر المحبة أنهم لظالمون حيث يضعون الشيء في غير موضعه كما قال سبحانه وتعالى في قوم لوط ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾.

والعرب في التغزل بالأمارد مقلدون لهم والأصل فيهم التغزل بالنساء ومعناه التحدث بهن، وأما الأهاند فلا يعرفون التغزل بالأمارد قطعاً انتهى. هذا وقد عقد رحمه الله الفصل الرابع من كتابه المذكور في بيان أقسام المعشوقات والعشاق وأورد لكل قسم منها أشعاراً عجيبة وأبياتاً غريبة. باعتبار الجهات المتنوعة والحيثيات المتلونة إن رآها السالي تذوب طبيعته الجامدة أو العاذل تشعل ناره الخامدة.

﴿إنا لنراها﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها أي نعلمها في فعلها هذا وهو المراودة لفتاها ﴿في ضلال﴾ عن طريق الرشد والصواب ﴿مبين﴾ واضح لا يلتبس على من نظر فيه حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر

(١) هذا الكلام ينبغي أن تُنَزَّه كتب التفسير منه وقد تركناه للمحافظة على أسلوب المفسّر وعباراته، أ. هـ مصححه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾

﴿فلما سمعت﴾ امرأة العزيز ﴿بمكرهن﴾ أي بغيبتهن اياها سميت الغيبة مكراً لاشتراكهما في الاخفاء وقيل أردن أن يتوسلن بذلك الى رؤية يوسف فلهذا سمي قولهن مكراً، وقيل أنها أسرت إليهن فافشين سرها فسمي ذلك مكراً، عن سفيان قال: أي بعملهن ، وكل مكر في القرآن فهو العمل.

﴿أرسلت إليهن﴾ أي تدعوهن إليها لتقيم عذرها عندهن ولينظرن الى يوسف حتى يقعن فيما وقعت فيه قيل دعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها ﴿وأعتدت لهن متكئاً﴾ أي أعدت وأحضرت وهيأت لهن مجالس يتكئن عليها من نمارق ومسانيد وأعتدت من الاعتداد، وهو كل ما جعلته عدة لشيء وقرىء متكاً مخففاً غير مهموز والمتك هو الاترنج بلغة القبط، قاله مجاهد، وعن عكرمة قال: هو كل شيء يقطع بالسكين وعن الضحاك مثله وقيل ان ذلك هو لغة أزد شنوأة وقيل حكي ذلك عن الأخفش قال الفراء: إنه ماء الورد.

وقرأ الجمهور متكئاً بالهمز والتشديد وأصح ما قيل فيه انه المجلس وقيل هو الطعام وبه قال ابن جبير والحسن وقتادة: وسمي متكئاً على الاستعارة قاله الخازن أي للاتكاء عنده على عادة المتكبرين في أكل الفواكه فهو مجاز مرسل وعلاقته المجاورة ، وقيل المتكأ كل ما اتكىء عليه عند طعام أو شراب أو حديث، وحكى القتيبي أنه يقال اتكأنا عند فلان أي أكلنا.

ويؤيد هذا قوله ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ فإن ذلك إنما يكون لشيء يأكلنه بعد أن يقطعنه والسكين تذكر وتؤنث قاله الكسائي والفراء قال الجوهري: والغالب عليه التذكير والمراد من إعطائها لكل واحدة سكيناً أن

يقطعن ما يحتاج إلى التقطيع من الأطعمة قيل وكان من عـادتهن أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين وكانت تلك السكاكين خناجر ويمكن أنها أرادت بذلك ما سيقع منهن من تقطيع أيديهن .

﴿وقالت﴾ ليوسف ﴿أخرج عليهن﴾ أي في تلك الحالة التي هن عليها من الاتكاء والأكل وتقطيع ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام ﴿فلما رأينه أكبرنـه﴾ أي أعظمنه قال مجاهد: واحترمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة جماله، وقيل أمنين وقيل أمذين ومنه قول الشاعر:

إذا ما رأين الفحل من فوق قلة   صهلن وأكبـرن المني المقـطرا

وقال الأزهري : أكبـرن بمعنى حضن، والهاء للسكت يقـال أكبرت المـرأة أي دخلت في الكبر بالحيض وقال ابن عباس: حضن من الفرح ووقع منهن ذلك دهشاً وفزعاً لما شاهدنه من جمالـه الفائق وحسنـه الرائق، وأنكـر ذلك أبـو عبيدة وغيره، وقالوا ليس ذلك في كلام العرب، قـال الزجـاج: يقال أكبـرنه ولا يقـال حضنه فليس الاكبار بمعنى الحيض وأجاب الأزهري فقـال: يجوز أن يكـون هاء الوقف لا هاء الكناية.

وقد زيف هذا بأن هاء الوقف تسقط في الوصـل، قالـه ابن الأنباري: أن الهاء كناية عن مصدر الفعل أي أكبرن إكباراً بمعنى حضن حيضاً وسمي الحيض إكباراً لكون البلوغ يعرف به كأنه يدخلهم سن الكبر فيكون في الأصل كناية أو مجازاً ، وهذا منقول عن قتادة والسدي .

قال الرازي: وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر هو أنهن إنما أكبرنـه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وشاهدن فيه مهابة ملكية، وهي عدم الالتفـات الى المطعوم والمنكـوح وعدم الاعتـداد بهن فتعجبن من تلك الحالـة فلا جـرم أكبرنـه وأعظمنه ، وحمل الآية على هذا أولى اهـ .

﴿وقطعن أيديهن﴾ أي جرحنها حتى سال الدم وليس المراد به القطع الذي تبين من اليد بل المراد به الخدش والحز وذلك معروف في اللغة كما قال النحاس:

يقال قطع يد صاحبه إذا خدشها وقيل المراد بالأيدي هنا أناملهن وقيل أكمامهن والمعنى أنه لما خرج يوسف عليهن أعظمنه ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت أيديهن فوقع القطع عليها وهن في شغل عن ذلك بما دهمهن مما تطيش عنده الأحلام وتضطرب له الأبدان وتزول العقول، قال مجاهد: فما أحسن إلا بالدم وقال قتادة: أبنَّ أيديهن حتى ألقينها والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة وعن منبه عن أبيه قال: مات من النسوة اللاتي قطعن أيديهن تسع عشرة امرأة كمداً.

﴿وقلن حاش الله﴾ قرىء بإثبات الألف وبحذفها وبإسكان الشين حاش لله وقرىء حاش الإله وحاشا الله، قلت إثبات الألف وحذفها قراءتان سبعيتان وهذا بالنظر للنطق وأما رسم المصحف فلا تكتب فيه ألف بعد الشين وان نطق بها قال الزجاج: أصل الكلمة من الحاشية بمعنى الناحية يقال كنت في حاشية فلان أي في ناحيته فقولك حاشا لزيد من هذا أي تباعد منه وقال أبو علي: هو من المحاشاة وقيل ان حاش حرف وحاشا فعل.

وكلام أهل النحو في هذه الكلمة معروف ومعناها هنا التنزيه كما تقول آسى القوم حاشا زيداً فمعنى حاشا لله براءة لله وتنزيه له أي صفة العجز عن خلق هذا وأمثاله قال مجاهد: حاشا لله معاذ الله.

﴿ما هذا بشراً﴾ اعمال «ما» عمل «ليس» هي في لغة أهل الحجاز وبهذا نزل القرآن كهذه وكقوله سبحانه ﴿ما هن أمهاتهم﴾ وأما بنو تميم فلا يعملونها عمل ليس وقال الكوفيون: أصله ما هذا ببشر فلما حذفت الباء انتصب قال أحمد ابن يحيى ثعلب: اذا قلت ما زيد بمنطلق فموضع الباء موضع نصب وهكذا سائر حروف الخفض.

وأما الخليل وسيبويه وجمهور النحويين فقد أعملوها عمل ليس وبه قال البصريون والبحث مقرر في كتب النحو بشواهده وحججه وقرأ الحسن وما هذا بشراً على أن الباء حرف جر والشين مكسورة أي ما هذا بعبد يشترى وهذه قراءة ضعيفة لا تناسب ما بعدها من قوله إن هذا إلا ملك كريم.

قال الخفاجي : ورد بأنها صحيحة رواية ودراية أما الأول فلأنها رواها في المبهج عن عبد الوارث بسند صحيح ، وأما الثاني فلأن من قرأ بهذه قرأ ملك بكسر اللام فتصح المقابلة أي ما هذا عبد لئيم بملك بل سيد كريم مالك انتهى

وإنما نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقري ولأنه قد برز في صورة قد لبست من الحسن البديع ما لم يعهد على أحد من البشر ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع النسمة البشرية ثم لما نفين عنه البشرية لهذه العلة أثبتن له الملكية وإن كن لا يعرفن الملائكة وقلن :

﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ على الله لأنه قد تقرر في الطباع وركز في النفوس أنهم على شكل فوق شكل البشر في الذوات والصفات وأن لا شيء أحسن من الملك وأنهم فائقون في كل شيء كما تقرر فيها أن الشياطين على العكس من ذلك ولا أقبح منهم والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف .

واعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بني آدم فإنهن لم يقلنه لدليل بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن وذلك ممنوع ، فإن الله سبحانه يقول ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾ وظاهر هذا أنه لم يكن شيء مثله من أنواع المخلوقات في حسن تقويمه وكمال صورته فما قاله صاحب الكشاف في هذا المقام هو من جملة تعصباته لما رسخ في عقله من أقوال المعتزلة .

على أن هذه المسألة أعني مسألة المفاضلة بين الملائكة والبشر ليست من مسائل الدين في ورد ولا صدر فما أغنى عباد الله عنها وأحوجهم إلى غيرها من مسائل التكاليف قال قتادة : قلن ملك من الملائكة من حسنه وغرابة جماله ، وأخرج أحمد وغيره عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : أعطى يوسف وأمه شطر الحسن[1] وقد وردت روايات عن جماعة من السلف في وصف

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء وفرض الصلوات، رقم ١٦٢ من حديث طويل فيه: «فإذا أنا بيوسف (ص) إذا هو قد أعطى شطر الحسن. وأخرجه الإمام احمد ١٤٨/٣ ، ٢٨٦ .

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

حسن يوسف والمبالغة في ذلك ففي بعضها أنه أعطى نصف الحسن وفي بعضها ثلثه وفي بعضها ثلثيه.

﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ الاشارة الى يوسف والخطاب للنسوة أي عيرتنني فيه قالت لهن هذا لما رأت افتتانهن بيوسف إظهاراً لعذر نفسها ومعنى فيه في حبه وقيل الاشارة إلى الحب فالضمير له والمعنى فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب والأول أولى ورجحه ابن جرير.

ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذاك العبد الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه، قال الزمخشري: قالت فذلكن ولم تقل هذا وهو حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به فلام البعد هنا لتعظيم رتبته أو لبعد رتبته وحالته عن رتبة البشر وأصل اللوم الوصف بالقبيح وما أحسن اقتباس السيد غلام علي آزاد رحمه الله تعالى من هذه الآية في قوله:

أيا صواحب أكباد مقطعة فذلكن الذي لمتنني فيه

ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدنه مما وقعن فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عن كتم ما تجده في قلبها من حبه فأقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة له فقالت.

﴿ولقد﴾ اللام لام قسم ﴿راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي استعف وامتنع واستعصى مما أريده طالباً لعصمة نفسه عن ذلك وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهن وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم توعدته إن لم

يفعل ما تريده منه كاشفة لجلباب الحياء هاتكة لستر العفاف فقالت.

﴿ولئن﴾ لامُ قسم ﴿لم يفعل ما آمره﴾ أي ما قد أمرته فيها تقدم ذكره عند أن أغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴿ليسجنن﴾ أي ليعتقل في السجن ﴿وليكوناً من الصاغرين﴾ من صغر بكسر الغين يصغر صغراً وصغاراً والصغير من صغر بالضم صغراً أي من الأذلاء لما يناله من الاهانة ويسلب عنه النعمة والعزة في زعمها فلما سمع يوسف مقالتها هذه عرف أنها عزمة منها مع ما قد علمه من نفاذ قولها عند زوجها العزيز.

﴿قال﴾ مناجياً لربه سبحانه يا ﴿رب السجن﴾ أي دخوله الذي أوعدتني به هذه وقرأ عثمان السجن بفتح السين وهو مصدر سجنه سجناً ﴿أحب إليّ﴾ أي آثر عندي لأنه مشقة قليلة نافدة أثرها راحات جليلة أبدية ﴿مما يدعونني إليه﴾ من مؤاتاتها التي تؤدي إلى الشقاء والوقوع في المعصية العظيمة التي تذهب بخيري الدنيا والآخرة.

وهذا الكلام منه عليه السلام مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها إذ ليس له شائبة محبة لما دعته إليه وإنما هو والسجن شران أهونها وأقربها إلى الإيثار السجن وإن كان في أحدهما مشقة وفي الآخر لذة.

قال بعضهم: لو لم يقل هذا لم يبتل به فالأولى للعبد أن يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على من كان يسأل الصبر، والتعبير عن الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث أن الصغار من فروعه ومستتبعاته وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأن النسوة رغبنه في مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها.

وقيل أنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن أو لأنه كان بحضرتهن والأول أولى ثم جرى على هذا في نسبة الكيد إليهن جميعاً فقال:

﴿وإن لا تصرف عني كيدهن﴾ في تحبيب ذلك اليّ وتحسينه لديّ بأن تثبتني على ما أنا عليه من العصمة والعفة، وأما الكيد من امرأة العزيز فما قد قصه الله سبحانه في هذه السورة وأما كيد سائر النسوة فهو ما تقدم من الترغيب له في المطاوعة والتخويف من المخالفة وقيل أنها كانت كل واحدة تخلو به وحدها وتقول له يا يوسف اقض لي حاجتي فأنا خير لك من امرأة العزيز.

وقيل أنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض، والكيد الاحتيال وجزم ﴿أصب إليهن﴾ على أنه جواب الشرط أي أمل إليهن وأتبعهن وأطاوعهن من صبا يصبو إذا مال واشتاق ومنه قول الشاعر؛

إلى هند صبا قلبي وهند حبها يصبي

والصبوة الميل إلى الهوى ومنه ريح الصبا لأن النفس تستطيبها وتميل إليها لطيب نسيمها وروحها.

﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي ممن يجهل ما يحرم ارتكابه ويقدم عليه أو ممن يعمل عمل الجهال أو ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة قال أبو السعود: وهذا فزع منه عليه السلام والتجاء إلى ألطاف الله جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركني وإلا هلكت لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن.

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فاستجاب له ربه﴾ لما قال وإن لا تصرف عني كيدهن كان ذلك منه تعرضاً للدعاء وكأنه قال اللهم اصرف عني كيدهن فالاستجابة من الله تعالى هي بهذا الاعتبار لأنه لم يتقدم دعاء صريح منه عليه السلام وفي إسناد الاستجابة إلى الرب مضافاً إليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف.

﴿فصرف عنه كيدهن﴾ حسب دعائه والمعنى أنه لطف به وعصمه عن الوقوع في المعصية لأنه إذا صرف عنه كيدهن لم يقع شيء مما رمنه، ووجه إسناد الكيد قد تقدم ﴿إنه هو السميع العليم﴾ تعليل لما قبلها من صرف الكيد أي أنه هو السميع لدعوات الداعين له العليم بأحوال الملتجئين إليه وفيه أنه لا يقدر أحد على الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به وهو معنى قوله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿ثم بدا لهم﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه في الرأي وأما فاعل بدا فقال سيبويه: هو ليسجننه أي ظهر لهم أن يسجنوه قال المبرد: وهذا غلط لأن الفاعل لا يكون جملة ولكن الفاعل ما دل عليه بدا وهو المصدر فحذف الفاعل لدلالة الفعل عليه وقيل الفاعل المحذوف هو رأي أي وظهر لهم رأي لم يكونوا يعرفونه من قبل وهذا الفاعل حذف لدلالة ليسجننه عليه.

﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ قيل هي القميص وشهادة الشاهد وقطع

الأيدي وقيل هي البركات التي فتحها الله عليهم بعد وصول يوسف إليهم ولم يجد ذلك فيهم بل كانت امرأته هي الغالبة على رأيه الفاعلة لما يطابق هواها في يوسف،وانفاذ ما تقدم منها من الوعيد له بقولها ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين قال ابن عباس: الآيات قد القميص وأثرها في جسده وأثر السكين وقالت امرأة العزيز إن أنت لم تسجنه ليصدقنه الناس.

وعن ابن زيد قال: من الآيات كلام الصبي وقال قتادة: والآيات حزهن أيديهن وقد القميص، وأقول: إن كان المراد بالآيات الآيات الدالة على براءته فلا يصح عد قطع أيدي النسوة منها لأنه وقع منهن ذلك لما حصل لهن من الدهشة عند ظهوره لهن ما ألبسه الله سبحانه من الجمال الذي ينقطع عند مشاهدته عرى الصبر ويضعف عند رؤيته قوى التجلد وإن كان المراد الآيات الدالة على أنه قد أعطى من الحسن ما يسلب عقول المبصرين ويذهب بإدراك الناظرين فنعم يصح عد قطع الأيدي من جملة الآيات ولكن ليس هذه الآيات هي المرادة هنا.

﴿ليسجننه﴾ اللام جواب قسم محذوف على تقدير القول أي قائلين والله ليسجننه وقرىء بالفوقية على الخطاب إما للعزيز ومن معه أو له وحده على طريق التعظيم وفي الخطط للمقريزي قال القضاعي سجن يوسف ببو صير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن به المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين والآخر موسى وقد بني على أثره بمسجد يعرف بمسجد موسى انتهى.

ثم أطال بيان حال ذلك السجن وموضعه وما يصنع هناك قيل وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة وكتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه، وقيل إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه تحمل نفسها

عليه على أي صفة كانت ﴿حتى حين﴾ أي إلى مدة غير معلومة كما قاله أكثر المفسرين وقيل إلى انقطاع ما شاع في المدينة.

وقال سعيد بن جبير: إلى سبع سنين وقبل إلى خمس وقيل إلى ستة أشهر وقد تقدم في البقرة الكلام في تفسير الحين وحتى بمعنى إلى، قال السدي: جعل الله ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه بالمرأة وعن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات: أما أول مرة فبالحبس لما كان من همه بها والثانية لقوله ﴿أذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين﴾ عوقب بطول الحبس، والثالثة حيث قال ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ فاستقبل في وجهه ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ التقدير فسجنوه ودخل معه، ومع للمصاحبة وفتيان تثنية فتى وذلك يدل على أنهما عبدان له ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً قال ابن عباس: أحدهما خازن الملك على طعامه والآخر ساقيه وقد كانا وضعا للملك سماً لما ضمن لهما أهل مصر مالاً في مقابلة ذلك ثم إن الساقي رجع من ذلك وقال للملك لا تأكل الطعام فإنه مسموم وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقي: إشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز: كل فأبى فجرب الطعام على حيوان فهلك مكانه فحبسهما وكان دخولهما السجن مع دخول يوسف وقيل قبله وقيل بعده قال ابن جرير: انهما سألا يوسف عن علمه فقال: إني أعبر الرؤيا فسألاه عن رؤياهما كما قص الله سبحانه.

﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً﴾ أي رأيتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة والمعنى إني أراني أعصر عنباً فسماه باسم ما يُؤَوّل إليه لكونه المقصود من العصر وقراءة ابن مسعود وإني أعصر عنباً لا تدل على الترادف، قال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له

ما معك قال خمر وقيل معناه أعصر عنب خمر فهو على حذف مضاف وقيل الخمر هو العنب حقيقة بلغة غسان وعمان وهذا الذي رأى هذه الرؤيا هو الساقي وكان بين دخوله السجن وبين الرؤيا خمس سنين وهذه الجملة مستأنفة بتقدير سؤال وكذلك الجملة التي بعدها وهي:

﴿وقال الآخر﴾ أي الخباز ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً﴾ ثم وصف الخبز هذا بقوله ﴿تأكل﴾ أي تنهش ﴿الطير منه﴾ ثم قالا ليوسف جميعاً بعد أن قصا رؤياهما عليه﴿نبئنا بتأويله﴾ أي بتأويل ما قصصناه عليك من مجموح المرئيين أو بتأويل المذكور لك من كلامنا وقيل إن كل واحد منهما قال له عقب قص رؤياه عليه فيكون الضمير راجعاً إلى ما رآه كل واحد منهما وقيل إن الضمير في بتأويله موضوع موضع اسم الإشارة بطريق الاستعارة فإن الإشارة يشار به إلى متعدد والتقدير بتأويل ذلك

﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي من الذين يحسنون عبارة الرؤيا وكذا قال الفراء: ان معناه من العالمين الذين أحسنوا العلم وقال ابن اسحاق من المحسنين إلينا إن فسرت ذلك أو من المحسنين إلى أهل السجن قد روي أنه كان كذلك قال قتادة: وكان يعزي حزنتهم ويداوي مرضاهم ورأوا منه عبادة واجتهاداً فأحبوه وعن الضحاك قال: كان إحسانه إذا مرض إنسان في السجن قام عليه وإذا ضاق عليه المكان أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن ابن عباس قال: دعا يوسف لأهل السجن فقال اللهم لا تعم عليهم الأخبار وهون عليهم مر الأيام.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن
شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾
يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ من جهة الله أو الملك والجملة صفة لطعام ﴿إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ومعنى ذلك أنه يعلم شيئاً من الغيب بإلهام الله تعالى وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام في اليقظة إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما وقيل أراد به في النوم والأول هو الأظهر وهذا ليس من جواب سؤالهما تعبير ما قصاه عليه بل جعل عليه السلام مقدمة قبل تعبيره لرؤياهما بياناً لعلو مرتبته في العلم وأنه ليس من المعبرين الذين يعبرون الرؤيا عن ظن وتخمين فهو كقول عيسى عليه السلام وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم.

وإنما قال يوسف لهما بهذا ليحصل الانقياد له منهما فيما يدعوهما إليه بعد ذلك من الإيمان بالله والخروج من الكفر والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا يأتيكما في حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما أي بينت لكما ماهيته وكيفيته وسماه تأويلاً بطريق المشاكلة لأن الكلام في الرؤيا أو المعنى إلا نبأتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع.

﴿ذلكما﴾ أي التأويل والخطاب للسائلين له عن تعبير رؤياهما ﴿مما علمني ربي﴾ مما أوحاه إليّ وألهمني إياه لا من قبيل الكهانة والتنجيم ونحو ذلك مما يكثر فيه الخطأ، ثم بين لهما أن ذلك الذي ناله من هذه الرتبة العلية والعلوم

الجمة هو سبب ترك الملـة التي لا يؤمن أهلها بالله ولا بالآخرة واتباعه لملة الأنبياء من آبائه فقال.

﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهـو كلام مستـأنف يتضمن التعليل لما قبله والمراد بالترك هو عدم التلبس بذلك من الأصل وعدم الالتفات إليه بالكلية لا أنه قد كان تلبس به ثم تركه كما يدل عليه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله ثم وصف هؤلاء القوم بما يدل على تصلبهم في الكفر وتهالكهم عليه فقال ﴿وهم بالآخرة هم كافـرون﴾ أي هم يختصون بـذلك دون غيـرهم لإفراطهم في الكفر بالله.

﴿واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب﴾ وسماهم آباء جميعاً لأن الأجداد آباء وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب لكون ابراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه اسحاق ثم يعقوب وإنما قاله عليه السلام ترغيباً لصاحبيه في الإيمان وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية.

﴿مـا كان﴾ أي ما صح وما استقام فضلاً عن الوقوع ﴿لنا﴾ معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ أي شيء كان من ملك أو جني أو انسي فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر قال الواحدي: لفظة من زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد.

﴿ذلك﴾ أي الايمان والتوحيد وعدم الاشراك والعلم الذي رزقنا ﴿من فضل الله﴾ أي ناشيء من تفضلاته ﴿علينا﴾ ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه ﴿و﴾ من فضل الله ﴿على الناس﴾ كافة ببعثه الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبين طرائق الحق لهم ﴿ولكن أكثر الناس﴾

وهم الكفار ﴿لا يشكرون﴾ الله سبحانه على نعمه التي أنعم بها عليهم فيؤمنون به ويوحدون ويعملون بما شرعه لهم أو لا يستدلون بما نصب لهم من الدلائل وإنزال الآيات فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها أو لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيها ذكر من أدلة التوحيد الأفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية.

قال قتادة: إن المؤمن ليشكر ما به من نعمة الله ويشكر ما بالناس من نعمة، ذكر لنا أن أبا الدرداء كان يقول يا رُبَّ شاكر نعمة غير منعم عليه لا يدري ويا رب حامل فقه غير فقيه ثم دعاهم إلى الإسلام صريحاً فقال:

﴿ يا صاحبي السجن﴾ جعلهما مصاحبين للسجن لطول مقامهما فيه وقيل المراد يا صاحبي في السجن لأن السجن ليس بمصحوب بل مصحوب فيه وأن ذلك من باب يا سارق الليلة وعلى الأول يكون من باب الاضافة الى الشبيه بالمفعول به والمعنى يا ساكني السجن كقوله أصحاب الجنة وأصحاب النار قال قتادة: لما عرف يوسف أن أحدهما مقتول دعاهما إلى حظهما من ربهما وإلى نصيبهما من آخرتهما فقال:

﴿أأرباب متفرقون﴾ الاستفهام للإنكار مع التوبيخ والتقريع ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد أي هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم المتنافون في عددهم ﴿خير﴾ لكما يا صاحبي السجن ﴿أم الله الواحد﴾ أي المعبود بحق المتفرد في ذاته وصفاته الذي لا ضد له ولا ند ولا شريك ﴿القهار﴾ الذي لا يغالبه مغالب ولا يعانده معاند وقيل استفهام تقرير أي طلب الإقرار بجواب الاستفهام أي أقروا واعلموا أن الله هو الخير والأول أولى.

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ
خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

أورد يوسف عليهما هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام وقد قيل أنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عند أن خاطبهما بهذا الخطاب ولهذا قال لهما ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء﴾ فارغة لامسميات لها وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات وهي الآلهة التي تعبدونها لكنها لما كانت لا تستحق التسمية بذلك صارت الأسماء كأنها لامسميات لها.

وقيل المعنى ما تعبدون من دون الله إلامسمياته أسماء وقيل خطاب لأهل السجن جميعاً لا لخصوص الصاحبين، وهذا هو الأظهر وكذلك ما بعده من الضمائر لأنه قصد خطاب صاحبي السجن ومن كان على دينهم.

﴿سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ من تلقائكم بمحض جهلكم وضلالتكم وليس لها من الإلهية شيء إلا مجرد الأسماء لكونها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر والتقدير سميتموها آلهة من عند أنفسكم ﴿ماأنزل الله بها﴾ أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿إن﴾ أي ما ﴿الحكم﴾ في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ﴿إلا لله﴾ عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الذي خلقكم وخلق هذه الأصنام التي جعلتموها معبودة بدون حجة ولا برهان ﴿أمر أن لا﴾ أي بأن لا ﴿تعبدوا إلا إياه﴾ حسبما تقضي به قضية العقل أيضاً والجملة مستأنفة أو حالية والأول هو الظاهر.

والمعنى انه امركم بتخصيصه بالعبادة دون غيره مما تزعمون أنه معبود، ثم بين لهم ان عبادته وحده دون غيره هي دين الله الذي لا دين غيره فقال:

﴿ذلك﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ أي المستقيم الثابت العدل الذي تعاضدت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ ان ذلك هو دينه القويم وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق أو لا يعلمون ما يصيرون اليه من العذاب فيشركون وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقه.

ثم بعد تحقيق الحق ودعوتهما إليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال.

﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾ أي الساقي وانما أبهمه لكونه مفهوماً أو لكراهة التصريح للخباز بانه الذي سيصلب ﴿فيسقي ربه﴾ أي مالكه ﴿خمراً﴾ وهي عهدته التي كان قائماً بها في خدمة الملك فكأنه قال أما أنت أيها الساقي فستعود بعد ثلاث من الايام الى ما كنت عليه ويدعوك الملك ويطلقك من الحبس.

﴿وأما الآخر﴾ وهو الخباز فيخرج بعد ثلاث ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ تعبيراً لما رآه من أنه حمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وهو ما رأياه وقصاه عليه يقال استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا والمراد بالأمر ما يؤول إليه أمرهما ولذلك وحده قاله البيضاوي.

وقال الزمخشري: المراد بالأمر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا من

أجله عن ابن مسعود قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئاً إنما تحالما ليجربا علمه فلما أول رؤياهما قالا إنما كنا نلعب ولم نر شيئاً فقال قضي الأمر، الآية يعني وقعت العبارة فصار الامر على ما عبر يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة وعن أبي مجلز قال: كان أحد اللذين قصا على يوسف الرؤيا كاذباً وكان هذا التعبير بالوحي كما ينبىء عنه قوله قضي الأمر وقيل هو بالاجتهاد.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وقال للذي ظن انه ناج منهما﴾ أي قال يوسف عليه السلام والظان هو أيضاً يوسف عليه السلام والمراد بالظن العلم لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابيّ وهلاك الخباز ، هكذا قال جمهور المفسرين .

وقيل الظاهر انه على معناه لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً ، والأول أولى وأنسب بحال الأنبياء ، ولا سيما وقد أخبر عن نفسه عليه السلام بأنه قد أطلعه الله على شيء من علم الغيب كما تقدم .

﴿اذكرني عند ربك﴾ هي معقول القول ، أمره بأن يذكره عند سيده ويقول له إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً منذ خمس سنين ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والاطلاع على شيء من علم الغيب فخرج .

﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ وكانت هذه المقالة منه صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان ، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً الى يوسف عليه السلام ، هكذا قال أكثر المفسرين ، ويكون المراد بربه في قوله ذكر ربه هو الله سبحانه ، أي أنسى الشيطان يوسف عليه السلام ذكر الله تعالى في تلك الحال . فقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما يذكره عند سيده ليكون ذلك سبباً لانتباهه على ما أوقعه من الظلم البيّن عليه بسجنه بعد أن رأى من الآيات ما يدل على براءته ، وذلك غفلة عرضت له عليه السلام فإن الإستعانة

بالمخلوق في دفع الضرر وان كانت جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف عليه السلام أعلى المقامات ورتبته أعلى الرتب وهي منصب النبوة والرسالة لاجرم صار مؤاخذاً بهذا القدر ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه وهو الذي نجا من الغلامين وهو الشرابي ، والمعنى أنسى الشرابي الشيطان ذكر سيده ، أي ذكره لسيده فلم يبلغ اليه ما أوصاه به يوسف عليه السلام من ذكره عند سيده ، ويكون المعنى فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف عليه السلام مع خلوصه من السجن ورجوعه الى ما كان عليه من القيام بسقي الملك .

وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء . وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف عليه السلام ونسبته الى الشيطان على طريق المجاز ، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني[1] . ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب ، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف عليه السلام لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين ، وأجيب بأن النسيان بمعنى الترك وانه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه ، ويؤيد رجوع الضمير الى يوسف عليه السلام ما بعده من قوله ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ ويؤيد رجوعه الى الذي نجا من الغلامين قوله فيما سيأتي ﴿الذي نجا منهما وادَّكر بعد أمة﴾ .

(١) مسلم ٥٧٢ .

﴿فلبث﴾ يوسف عليه السلام ﴿في السجن﴾ بسبب ذلك القول الذي قاله للذي نجا من الغلامين أو بسبب ذلك الإنساء ، أخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو لم يقل يوسف عليه السلام الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله[٢] . وعن عكرمة مرفوعاً نحوه وهو مرسل ﴿بضع سنين﴾ البضع ما بين الثلاث الى التسع كما حكاه الهروي عن العرب وبه قال قتادة .

وحكى عن أبي عبيدة أن البضع ما دون نصف العقد ، يعني ما بين واحد الى أربعة ، وقيل ما بين ثلاث الى سبع قاله مجاهد ، وقيل هو ما دون العشرة . وحكى الزجاج انه ما بين الثلاث الى الخمس ، وقد اختلف السلف في تعيين قدر المدة التي لبث فيها يوسف عليه السلام في السجن، فقيل سبع سنين، قاله ابن جريج وقتادة ووهب بن منبه، وقيل اثنتي عشرة سنة، قاله ابن عباس، وقيل أربع عشرة سنة قاله الضحاك، وقيل خمس سنين.

وعن أنس قال: أوحى الى يوسف عليه السلام من استنقذك من القتل حين هم اخوتك أن يقتلونك ؟ قال : أنت يارب ، قال: فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال: أنت يارب ، قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال: أنت يارب ، قال: فمالك نسيتني وذكرت آدمياً ؟ قال: جزعاً وكلمة تكلم بها لساني ، قال: فوعزتي لأخلدنك في السجن بضع سنين ، فلبث فيه سبع سنين ، اخرجه ابن أبي شيبة وعبدالله بن أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله .

---

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٧٩ .

﴿و﴾ لما دنا فرج يوسف عليه السلام ﴿قال الملك﴾ أي الملك الأكبر وهو الريان ابن الوليد الذي كان العزيز وزيراً له ﴿إني أرى﴾ أي رأيت في منامي ﴿سبع بقرات سمان﴾ خرجن من نهر يابس ﴿يأكلهن سبع عجاف﴾ أي مهازيل في غاية الضعف ، والتعبير في الموضعين بالمضارع لاستحضار الصورة والسمان جمع سمين وسمينة ، يقال رجال سمان كما يقال نساء كرام ، والعجاف جمع عجفاء سماعي وقياس جمعه عجف لأن فعلى وافعل لا تجمع على فعال ولكنه عدل عن القياس حملاً على السمان لأنه نقيضه .

﴿و﴾ رأيت ﴿سبع سنبلات خضر﴾ قد انعقد حبها ﴿و﴾ رأيت سبعاً ﴿أخر يابسات﴾ وهي التي قد بلغت حد الحصاد ، وانما حذف اسم العدد لأن التقسيم في البقرات يقتضي التقسيم في السنبلات وكان قد رأى ان السبع السنبلات اليابسات قد أدركت الخضر وٱلْتَوَتْ عليها حتى غلبتها ولم يبق من خضرتهن شيء ولعل عدم التعرض لذكر هذا في النظم القرآني للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات ، ولما شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى غلبه وقهره أراد أن يعرف ذلك فقال:

﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾ الخطاب للأشراف مَن قومه ، وقيل هم السحرة والكهنة والمعبرون للرؤيا ، والمعنى أخبروني بحكم هذه الرؤيا ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ أي تعلمون عبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية الى المعاني النفسانية التي هي مثالها ، وأصل العبارة مشتقة من عبور النهر وهو المجاوزة ، فمعنى عبرت النهر بلغت شاطئه ، فعابر الرؤيا يخبر بما يؤول اليه أمرها .

قال الزجاج : اللام في للرؤيا للبيان ، وقيل هو لتقوية العامل وتأخير الفعل العامل فيه لرعاية الفواصل .

قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٖۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٞ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٞ شِدَادٞ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾

﴿قالوا﴾ هذه ﴿أضغـاث أحلام﴾ أي تخاليطها وهي جمع ضغث وهو في الأصل كل مختلط من أخلاط من بقل أو حشيش أو غيرهما فاستعير للرؤيا الكاذبة ، والأحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان ، والاضافة بمعنى من أي هي اضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول اليها ويعتني بأمرها وجمعوها وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان كما في قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك إلا فرساً واحداً وعمامة فردة ، أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف ، والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات .

فتأمل حسن موقع الأضغـاث مع السنابل ، فللّه در شأن التنزيل ، ويجوز ان يكون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه الله علينا . قال ابن عباس : أضغاث أحلام يقول مشتبهة ، وعنه قال الكاذبة ؛ وعن الضحاك مثله .

﴿وما نحن بتأويـل الأحلام﴾ المختلطة ﴿بعـالمين﴾ يـريدون بـالأحلام المنامات الباطلة خاصة ، أي ليس لها تأويل عندنا وإنما التأويل للمنامات

الصادقة كأنه مقدمة ثانية للعذر لجهلهم بتأويله ؛ نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له لا مطلق العلم بالتأويل .

وقيل إنهم نفوا عن أنفسهم علم التأويل مطلقاً ولم يدعوا انه لا تعبير لهذه الرؤيا ، وقيل إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة .

﴿وقال الذي نجا منهما﴾ أي من الغلامين ، وهو الساقي الذي قال له يوسف عليه السلام : اذكرني عند ربك ﴿وادَّكر﴾ بالدال المهملة على قراءة الجمهور وهي الفصيحة ، وقرىء بالمعجمة أي تذكر الساقي يوسف عليه السلام وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا ﴿بعد أمة﴾ مدة طويلة وحين بعيد ، ومنه الى أمة معدودة الى وقت قال ابن درستويه : والأمة لا تكون على الحين إلا على حذف مضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، كأنه قال: والله أعلم وادكر بعد حين أمة او بعد زمن أمة .

قيل وسمى الحين من الزمان أمة لأنه جماعة أيام ، والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أمة ، وقرىء بعد أمة أي بعد نسيان ، وإمة بكسر الهمزة أي بعد نعمة ، وهي نعمة النجاة . وعن الحسن : بعد أمة من الناس . وقال ابن عباس : بعد سبع سنين وقيل تسع سنين وقيل سنتين .

﴿أنا انبئكم بتأويله﴾ أي اخبركم به بسؤالي عنه من له علم بتأويله ، وهو يوسف عليه السلام او أدلكم عليه او أخبركم بمن عنده تأويله ﴿فأرسلون﴾ خاطب الملك بلفظ الجمع للتعظيم ، او خاطبه ومن كان معه من الملأ ، طلب منهم أن يرسلوه الى يوسف عليه السلام ليقص عليه رؤيا الملك حتى يخبره بتأويلها فيعود بذلك الى الملك او إلى السجن .

فأتى السجن فقال يا ﴿يوسف أيها الصديق﴾ إنما سماه صديقاً لأنه لم يجرب عليه كذباً قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط ، وقيل لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن ، وجملة مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن أربع مرات هذه أولاها .

﴿أفتنا﴾ أي اخبرنا وبيِّن لنا ﴿في سبع بقـرات سمان يـأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ وترك ذكر الرؤيا اكتفاء بما هو واثق به من فهم يوسف عليه السلام بأن ذلك رؤيا وان المطلوب منه تعبيرها .

ولما عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً نبئنا بتأويله ، وفي قوله أفتنا مع انه المستفتي وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة ، وانه في ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال ﴿لعلي أرجع الى الناس﴾ أي الى الملك ومن عنده من الملأ بتأويل هذه الرؤيا او الى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه .

﴿لعلهم يعلمون﴾ ما تأتي به من تأويل هذه الرؤيا او يعلمون فضلك ومنزلتك ومعرفتك لفن الرؤيا ، وانما لم يبت الكلام فيها لأنه لم يكن جازماً بالرجوع فربما اخترمته المنية دونه ولا يعلمهم .

﴿قال تزرعون﴾ مستأنفة كغيرها مما يرد هذا المورد ﴿سبع سنين دأباً﴾ أي متوالية متتابعة ، قرىء بفتح الهمزة وسكونها وهما لغتان في مصدر دأب في العمل إذا جد فيه وتعب ، قال الفراء : حرك لأن فيه حرفاً من حروف الحلق ، وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز في كلمات معروفة .

وأصل معنى الدأب التعب ويكنى به عن العادة المستمرة لأنها تنشأ عن

مداومة العمل اللازم له التعب وانتصابه بفعل مقدر أي تدأبون دأباً ، قاله سيبويه ، او على أنه مصدر واقع موقع الحال فيكون فيه الأوجه المعروفة إما المبالغة وإما وقوعه موقع الصفة وإما على حذف مضاف أي دائبين او ذوي دأب ، او جعلهم نفس الدأب مبالغة ، فعبر يوسف عليه السلام السبع البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين فيها خصب ، والعجاف واليابسات بسبع سنين فيها جدب وأوَّلَ ابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة ، واستدل بالسبع الخضر على ما ذكره في التعبير من قوله :

﴿فما حصدتم﴾ في كل سنة من السنين المخصبة ﴿فذروه﴾ أي ذلك المحصود ﴿في سنبلة﴾ وقصبه ليكون القصب علفا للدواب ولا تفصلوه عنها لئلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ، قيل وهذه نصيحة منه لهم خارجة عن التعبير وما شرطية او موصولة وسنبل فنعل بضم الفاء والعين الواحدة سنبلة ، يقال سنبل الزرع أي أخرج سنبله .

﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ في هذه السنين المخصبة فإنه لا بد لكم من فصله عن سنبله واخراجه عنها ، واقتصر على استثناء المأكول دون ما يحتاجون اليه من البذر الذي يبذرونه في أموالهم لأنه قد علم من قوله تزرعون .

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ السبع السنين المخصبة ﴿سبع شداد﴾ أي سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة يصعب أمرها على الناس وهي تأويل السبع العجاف والسبع اليابسات .

﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ من تلك الحبوب المتروكة في سنابلها في السنين المخصبات ، واسناد الأكل الى السنين مجازي تطبيقاً بين المعبر والمعبر به كما في نهاره صائم .

وفيه تلويح بأنه تأويل الأكل العجاف السمان واللام في لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر في السنابل من الحبوب شيء قد هيء وقدم لهن كالذي يقدم للنازل وإلا فهو في الحقيقة مقدم للناس فيهن والمعنى يأكل الناس فيهن أو يأكل أهلهن ما قدمتم أي ما أدخرتم لهن ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾ أي مما تحبسون من الحب لتزرعوا به لأن في استيفاء البذر تحصين الأقوات .

وقال أبو عبيدة : معناه تحرزون وقيل تدخرون وقيل تخزنـون والمعنى واحد والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ،

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد عجبت من يوسف عليه السلام وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط عليهم أن يخرجوني ولقد عجبت من يوسف عليه السلام وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر»[1]

(١) وهو حديث مرسل وقد أورده ابن كثير في تفسيره ٢/٤٨١ .

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦۖ
فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ
لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ
ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ السنين المجدبات ﴿عام﴾ سنة وهذه بشارة منه لهم زائدة على تعبير الرؤيا ولعله علم ذلك بالوحي او بأن انتهاء الجدب بالخصب على العادة الآلهية حيث يوسع على عباده بعد تضييقه عليهم ﴿فيه يغاث الناس﴾ من الإغاثة او الغوث وهو الفرج وزوال الهم والكرب والغيث المطر وقد غاث الغيث الأرض أي أصابها وغاث الله البلاد يغيثها غوثاً امطرها فمعنى يغاث الناس يمطرون .

﴿وفيه يعصرون﴾ الاشياء التي تعصر كالعنب والسمسم والزيتون ، وقيل أراد حلب الألبان ، وقيل معناه ينجون مأخوذ من العصرة وهي المنجاة ، قال ابو عبيدة: والعصر بالتحريك الملجأ والمنجى واعتصرت بفلان التجأت به وقرىء بتاء الخطاب ويعصرون بضم الياء وفتح الصاد ومعناه يمطرون ومنه قوله تعالى ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ قال ابن عباس : يصيبهم فيه غيث يعصرون فيه العنب والزبيب ومن كل الثمرات ويحتلبون وعنه قال : اخبرهم بشيء لم يسألوه عنه كان الله قد علمه إياه وفيه يعصرون السمسم دهناً والعنب خمراً والزيتون زيتاً والمراد كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار .

﴿وقال الملك﴾ في الكلام حذف قبل هذا والتقدير فذهب الرسول الى الملك فأخبره بما أخبره به يوسف عليه السلام من تعبير الرؤيا وقال الملك لمن بحضرته ﴿أئتوني به﴾ أي بيوسف عليه السلام رغب الى رؤيته ومعرفة حاله بعد ان علم بفضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه ﴿فلما جاءه﴾ أي إلى يوسف عليه السلام ﴿الرسول﴾ واستدعاه الى حضرة الملك وأمره بالخروج من السجن وهذه هي المرة الثانية من مجيء الرسول اليه في السجن .

﴿قال﴾ يوسف عليه السلام للرسول قاصداً اظهار براءته ﴿ارجع الى ربك﴾ أي سيدك ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أمره بأن يسأل الملك عن ذلك وتوقف عن الخروج من السجن ولم يسارع الى إجابة الملك ليظهر للناس براءة ساحته ونزاهة جانبه وانه ظلم بكيد امرأة العزيز ظلماً بيناً . قال ابن عباس : أراد يوسف عليه السلام العذر قبل ان يخرج من السجن ولقد أعطى عليه السلام من الحلم والصبر والاناة ما تضيق الأذهان عن تصوره .

ولهذا ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : (ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف عليه السلام لاجبت الداعي)[1] يعني الرسول الذي جاء يدعوه إلى الملك ، قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً وطلباً لبراءة ساحته وذلك انه خشي ان يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه فيراه الناس بتلك العين يقولون هذا الذي راود امرأة العزيز .

وفيه دليل على ان الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وإنما قال فاسأله ما بال النسوة وسكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز او خوفاً منه من كيدها وعظم شرها وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي ولم يذكر مراودتهن له تنزيهاً منه عن نسبة ذلك اليهن ولذلك لم ينسب

(١) مسلم ١٥١ ـ البخاري ١٥٩٣ .

المراودة فيما تقدم الى امرأة العزيز إلا بعد ان رمته بدائها وانسلت وقد اكتفى هنا بالاشارة الاجمالية بقوله :

﴿ان ربي بكيدهن عليم﴾ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنياً عن التصريح وقيل المراد بالرب هنا الملك وجعله رباً لنفسه لكونه مربياً له والأول أولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن .

﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قال الملك بعد أن أبلغه الرسول ما قال يوسف عليه السلام والخطب الشأن العظيم الذي يحق له ان يخاطب فيه صاحبه خاصة وإنما يخطب في الأمور العظام قال الأزهري : تقول هذا خطب جليل وخطب يسير والمعنى ما شأنكن وكانت النسوة أربعين كما تقدم وقد تقدم معنى المراودة وإنما نسب إليهن المراودة لأن كل واحدة منهن وقع منها ذلك كما تقدم .

ومن جملة من شمله خطاب الملك امرأة العزيز او أراد بنسبة ذلك إليهن وقوعه منهن في الجملة كما كان من امرأة العزيز تحاشياً عن التصريح منه بنسبة ذلك اليها لكونها امرأة وزيره وهو العزيز فأجبن عليه بقولهن ﴿قلن حاش لله﴾ أي معاذ الله تنزيهاً له عن ان يتصف بالعجز عن خلق بشر عفيف مثل هذا .

﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ أي من أمر سيء ينسب اليه من خيانة في شيء من الأشياء وغير ذلك ولما علمت زليخا ان هذه المناظرات والتفحصات إنما هي بسببها فعند ذلك كشفت الغطاء وصرحت بما هو الواقع .

و ﴿قالت امرأة العزيز﴾ منزهة لجانبه مقرة على نفسه بالمراودة له ﴿الآن حصحص الحق﴾ أي تبين وظهر بعد خفائه وأصله حص فقيل حصحص كما قيل في كبوا كبكبوا قاله الزجاج ، واصل الحص استئصال الشيء يقال حص

شعره اذا استأصله والمعنى انه انقطع الحق عن الباطل بظهوره وبيانه ، وقيل هو مشتق من الحصة والمعنى بانت حصة الباطل .

قال الخليل : معناه ظهر الحق بعد خفائه ، وقال ابن عباس : تبين ، وعن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد والسدي مثله .

ثم لما علمت ان يوسف عليه السلام راعى جانبها حيث قال : ما بال النسوة ولم يذكرها مع ان الفتن كلها إنما نشأت من جهتها ، كافأته على ذلك باعترافها بأن الذنب منها واوضحت ذلك بقولها ﴿أنا راودته عن نفسه﴾ ولم تقع منه المراودة لي أصلاً ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ فيما قاله من تنزيه نفسه ونسبة المراودة اليها وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام فأخبر الرسول يوسف عليه السلام بجواب النسوة المذكورة فقال ﴿ذلك﴾ أي الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتأنيه ، ذهب اكثر المفسرين الى أن هذا الكلام من كلام يوسف عليه السلام .

قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة الصارفة لكل منهما الى ما يليق به . وهذه هي المرة الثالثة من مرات مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن ، والمعنى فعلت ذلك ﴿ليعلم﴾ العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ في أهله ﴿بالغيب﴾ والمعنى بظهر الغيب ، أي وهو غائب عني أو وأنا غائب عنه . قال الزمخشري : أي مكان الغيب وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة .

قيل انه قال ذلك وهو في السجن بعد ان أخبره الرسول بما قالته النسوة وما قالته امرأة العزيز ، وقيل انه قال ذلك وقد صار عند الملك والأول أولى . وذهب الأقلون من المفسرين الى ان هذا كلام امرأة العزيز ، والمعنى ذلك القول الذي قلته في تنزيهه والاقرار على نفسي بالمراودة ليعلم يوسف عليه السلام اني لم أخنه فأنسب اليه ما لم يكن منه وهو غائب عني أو أنا غائبة عنه .

﴿وان الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ أي لا يثبته ولا ينفذه ولا يمضيه ولا يسدده ، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له ما يثبت به ويدوم واذا كان من قول يوسف عليه السلام ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منه الكيد له والخيانة لزوجها ، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد ان علم براءته ونزاهته ، ولعل المراد منه اني لو كنت خائناً لما خلصني الله من هذه الورطة ، وحيث خلصني منها ظهر اني كنت بريئاً مما نسبوني اليه ، ثم تواضع لله تعالى وتبارك فقال:

﴿وما أبرىء نفسي﴾ وهذا ان كان من كلام يوسف عليه السلام فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية لها مع انه قد علم هو وغيره من الناس انه بريء وظهر ذلك ظهور الشمس وأقرت به المرأة التي ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وان كان من كلام امرأة العزيز فهو واقع على الحقيقة لأنها قد أقرت بالذنب واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف عليه السلام .

وقد قيل إن هذا من قول العزيز وهو بعيد جداً ، ومعناه وما أُبرّىء نفسي من سوء الظن بيوسف عليه السلام والمساعدة على حبسه بعد ان علمت براائته .

﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ أي إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله الى الشهوات وتأثيرها بالطبع وصعوبة قهرها، وكفها عن ذلك ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها .

وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن رحمة ربي هي التي تكفها عن أن تكون أمارة بالسوء ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ تعليل لما قبلها . أي إن من شأنه كثرة المغفرة لعباده والرحمة لهم .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾ الملك هو الريان بن الوليد لا العزيز كما تقدم ، والمعنى أجعله خالصاً لي دون غيري وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شوائب الشركه. قال ذلك لما كان يوسف عليه السلام نفيساً ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم .

قال ابن عباس : فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن والبس ثياباً جدداً وقم الى الملك ، فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاماً حدثا فقال: أيعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة ، واقعده قدامه وقال: لا تخف ، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير ، واعطاه دابة مسروجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر ان يوسف عليه السلام خليفة الملك .

وعنه قال: قال الملك ليوسف عليه السلام اني أحب ان تخالطني في كل شيء إلا في أهلي وأنا آنف ان تأكل معي ، فغضب يوسف عليه السلام فقال: أنا أحق أن آنف أنا ابن ابراهيم خليل الله وأنا ابن اسحاق ذبيح الله وأنا ابن يعقوب نبي الله، وهذه هي المرة الرابعة من مجيء الرسول ليوسف عليه السلام في السجن.

﴿فلما كلمه﴾ في الكلام حذف وتقديره فأتوه به فلما كلمه أي الملك يوسف عليه السلام ويحتمل ان يكون المعنى فلما كلم يوسف عليه السلام الملك ، قيل والأول أولى لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلا هم دون من يدخل عليهم ، وقيل الثاني الأولى لقول الملك ﴿قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ فإن هذا يفيد انه لما تكلم يوسف عليه السلام في الملك جاء بما حببه الى الملك وقربه من قلبه فقال له هذه المقالة ، ومعنى مكين أمين ذو مكانة وأمانة بحيث يتمكن مما يريده من الملك يأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره او على ما يكله اليه من ذلك .

وقيل المكانة المنزلة والجاه ، والمعنى قد عرفنا أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نُسِبَ اليك، ومكين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو آن التكلم ، والمراد تحديد مبدئهما احترازاً عن احتمال كونهما بعد حين .

قيل انه لما وصل الى الملك أجلسه على سريره وقال له : إني أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك ، فعبرها له بأكمل بيان وأتم عبارة ، فلما سمع الملك منه ذلك قال له : انك اليوم لدينا مكين أمين .

فلما سمع يوسف عليه السلام منه ذلك ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض﴾ أي ولني أمر الأرض التي أمرها اليك ، وهي أرض مصر ، أو اجعلني على حفظ خزائن الأرض وهي الأمكنة التي تخزن فيها الأموال والطعام ، جمع خزينة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به الى نشر العدل ، ورفع الظلم ويتوسل به الى دعاء أهل مصر الى الايمان بالله وترك عبادة الاوثان .

وفيه دليل على انه يجوز لمن وثق من نفسه اذا دخل في أمر من أمور السلطان ان يرفع منار الحق ويهدم ما أمكنه من الباطل ان يطلب ذلك

لنفسه ، ويجوز له ان يصف نفسه بالأوصاف التي لها ترغيباً فيما يرومه وتنشيطاً لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور اليه وجعلها منوطة به .

ولكنه يعارض هذا الجواز ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن طلب الولاية والمنع من توليه من طلبه أو حرص عليها ، وكان يوسف عليه السلام طلبه ابتغاء لوجه الله لا لحب الملك والدنيا وبهذا يجمع بينهما .

﴿اني حفيظ﴾ وهو الذي يحفظ الشيء أي اني حفيظ لما جعلته اليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخارجها ولا أصرفها في غير مصارفها ﴿عليم﴾ بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها ومصالحها .

عن شيبة بن نعامة الضبي قال : يقول اجعلني على جميع الطعام اني حفيظ لما استودعتني عليم بسنين المجاعة . وقيل حفيظ لما استودعتني عليم لما وليتني ، وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني .

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك التمكين العجيب ﴿مكنا ليوسف﴾ أي جعلنا له مكاناً ﴿في الأرض﴾ أي أرض مصر . روي انها كانت اربعين فرسخا في أربعين والتمكين عبارة عن كمال قدرته ونفوذ أمره ونهيه حتى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع وصار الناس يعملون على أمره ونهيه .

﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ أي ينزل منها حيث أراد بعد الضيق والحبس ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته كما تقدم وكأنه يتصرف في الأرض التي أمرها الى سلطان مصر كما يتصرف الرجل في منزله ، وفي القصة ان الملك توَّجَهُ وختمه وولاه مكان العزيز وعزله فمات بعد ، فزوجه امرأته فوجدها عذراء وولدت له ولدين وأقام العدل بمصر ودانت له الرقاب . قاله السيوطي .

وعن ابن زيد ان يوسف عليه السلام تزوج امرأة العزيز فوجدها بكراً ، وكان زوجها عنيناً ، وقد استدل بهذه الآية على انه يجوز تولي الأعمال من جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق ، وقد قدمنا الكلام مستوفى على هذا في قوله سبحانه ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا﴾ قال مجاهد : ولم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك الى الاسلام ويتلطف به حتى اسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله ﴿وكذلك مكنا﴾ الخ .

﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ من العباد فنرحمه في الدنيا بالإحسان اليه والانعام عليه وفي الآخرة بإدخاله الجنة وانجائه من النار ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم الحسنة التي هي مطلوبنا منهم ، أي لا نضيع ثوابهم فيها ومجازاتهم عليها .

﴿ولأجر الآخرة﴾ أي أجرهم في الآخرة ، وأضيف الأجر الى الآخرة للملابسة واللام للقسم وأجرهم هو الجزاء الذي يجازيهم الله به فيها وهو الجنة التي لا ينفذ نعيمها ولا تنقضي مدتها .

﴿خير للذين آمنوا﴾ بالله ﴿وكانوا يتقون﴾ الوقوع فيما حرمه عليهم ، والمراد بهم المحسنون الذين تقدم ذكرهم ، وفيه تنبيه على ان الاحسان المعتد به هو الإيمان والتقوى ، وفي الكلام إظهار في مقام الإضمار للتوصل الى وصفهم بالإيمان والتقوى بعد وصفهم بالإحسان .

﴿وجاء إخوة يوسف﴾ أي جاءوا الى مصر من أرض كنعان ليمتاروا لما أصابهم القحط وكانوا عشرة ، وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين ، والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وشياه .

﴿فدخلوا عليه﴾ أي على يوسف عليه السلام وهو في مجلس ولايته ﴿فعرفهم﴾ لقوة

فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لأنه فارقهم رجالاً قيل بأول نظرة نظر اليهم عرفهم ، وقيل لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه . قاله الحسن والأول أولى وهو ظاهر النظم القرآني ، وبه قال ابن عباس ومجاهد .

﴿وهم له منكرون﴾ لم يعرفوه لأنهم فارقوه صبياً يباع بالدراهم في أيدي السيارة بعد ان اخرجوه من الجب ، ودخلوا عليه الآن وهو رجل عليه أبهة الملك ورونق الرياسة وعنده الخدم والحشم ، وقيل انهم أنكروه لكونه في تلك الحال على هيئة ملك مصر ولبس تاجه وتطوق بطوقه ، وقيل كانوا بعيدي العهد منه فلم يعرفوه .

قيل كان بين ان قذفوه بالجب وبين دخولهم عليه مدة اربعين سنة ؛ فلذلك انكروه ، وقيل غير ذلك ، وكل واحد من هذه الأسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه، ولما كان إنكارهم له مستمراً في حالتي المحضر والمغيب اخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام .

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ المراد به هنا أنه أعطاهم ما طلبوه من الميرة وما يصلحون به سفرهم من العدة التي يحتاجها المسافر ، يقال جهزت القوم تجهيزاً اذا تكلفت لهم جهاز السفر قال الازهري : القراء كلهم على فتح الجيم والكسر لغة جيدة . وقيل بالعكس .

وفي الآية تضمين ضمن جهز معنى أكرم ، أي ولما أكرمهم بجهازهم أي بتحصيله لهم ، قيل حمل لكل واحد منهم بعيراً من الطعام وأكرمهم في النزول واحسن ضيافتهم ، وجميع ما فعله يوسف عليه السلام معهم في هذه القصة كان بالوحي كما قاله بعض المفسرين .

﴿قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ يعني أخاه بنيامين الذي تقدم ذكره ،

وهو أخو يوسف لأبيه وأمه ، ولم يقل بأخيكم بالاضافة مبالغة في عدم تعرفه بهم ، ولذلك فرقوا بين مررت بغلامك وبغلام لك ، فإن الأول يقتضي عرفانك بالغلام وان بينك وبين مخاطبك نوع عهد ، والثاني لا يقتضي ذلك قاله الكرخي ، أو أتى باللام لانه كان أخاهم لأبيهم لا لأمهم وهذا أحسن من الأول .

ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من انهم سألوه عليه السلام حملاً زائداً على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم ان يأتوا به ، لا لما قيل من انه لما رأوه وكلموه بالعبرية .

قال لهم : من أنتم فإني أنكركم ؟

فقالوا له : نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار .

فقال لهم : لعلكم جئتم عيوناً.

فقالوا : معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب .

قال : كم انتم ؟

قالوا : كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا الى البرية فهلك وكان أحبنا الى أبينا .

فقال : كم أنتم ههنا ؟

قالوا : عشرة .

قال : فأين الحادي عشر ؟

قالوا : هو عند ابيه يتسلى به عن الهالك .

قال : فمن يشهد لكم أنكم لست عيوناً وان ما تقولون حق ؟

قالوا : نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم عندي رهينا وأتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى اصدقكم ، فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالإتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بإيفاء الكيل ولا الإحسان في الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الإتيان به ولا جعل بضاعتهم في رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالإتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال اخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة ، على ان استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال .

ثم قال لهم ﴿ألا ترون أني أوف الكيل﴾ أي أتممه وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على ان ذلك عادته المستمرة وغرضه ترغيبهم في العود اليه مرة أخرى ، ثم أخبرهم بما يزيدهم وثوقاً به وتصديقاً لقوله فقال :

﴿وأنا خير المنزلين﴾ أي والحال أنا خير لمن نزل بي كما فعلته بكم من حسن الضيافة وحسن الإنزال، قال الزجاج: قال يوسف عليه السلام ذلك حين انزلهم واحسن ضيافتهم، وقال ابن عباس: أنا خير من يضيف بمصر، قال الرازي: وهذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون الخ ، وايضاً يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقاً أن يقول لهم ذلك مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق .

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا
لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟
إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا
ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ
ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

ثم توعدهم أذا لم يأتوه به فقال ﴿فإن لم تأتوني﴾ إذا عدتم مرة اخرى ﴿به﴾ أي بأخيكم الذي من أبيكم ﴿فلا كيل لكم عندي﴾ أي فلا ابيعكم شيئا فيما بعد فضلاً عن ايفائه ، واما في الحال فقد أوفاهم كيلهم ، وهذا نهاية التخويف لانهم كانوا محتاجين الى تحصيل الطعام ولا يمكن إلا من عنده فإذا منعهم من العود فقد ضيق عليهم .

﴿ولا تقربون﴾ أي لا تدخلوا بلادي فضلاً أن أحسن اليكم ، وقيل معناه لا انزلكم عندي كما أنزلتكم هذه المرة ولم يرد أنهم لا يقربون بلاده والمعنى لا تدنوا مني ولا تقربون مجزوماً على أن لا ناهية أو على انها نافية وهو معطوف على محل الجزاء داخل في حكمه كأنه قال فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا ، فلما سمعوا منه ذلك وعدوه بما طلبه منهم .

﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أي سنطلبه منه ونجتهد في ذلك ، بما نقدر عليه ، وقيل معنى المراودة هنا المخادعة منهم لأبيهم والاحتيال عليه حتى ينتزعوه منه ﴿وإنا لفاعلون﴾ هذه المراودة غير مقصرين فيها ، وقيل معناه وانا لقادرون على ذلك لا نتعانى به ولا نتعاظمه .

﴿وقال﴾ يوسف ﴿لفتيته﴾ أي لغلمانه واتباعه ، قرأ به أهل المدينة وابو

عمرو وعاصم من رواية شعبة وابن عامر ، واختار هذه القراءة أبو حاتم والنحاس وغيرهما ، وقرأ سائر الكوفيين لفتيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وبه قرأ ابن مسعود ، قال النحاس لفتيانه مخالف للسواد الاعظم ولا يترك السواد المجمع عليه لهذا الاسناد المنقطع .

وايضا فإن فتية أشبه من فتيان لأن فتية عند العرب لأقل العدد ، وأمر القليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال اشبه ، والجملة مستأنفة جواب سؤال كأنه قيل فما قال يوسف عليه السلام بعد وعدهم له بذلك فأجيب بأنه قال لفتيته..

قال الزجاج : الفتية والفتيان في هذا الموضع المماليك ، وقال الثعلبي : هما لغتان جيدتان مثل الصبية والصبيان .

قال الكرخي : وكلاهما جمع فتى كإخوة واخوان جمع أخ ، الأول للقلة والثاني للكثرة قال البيضاوي وهم الكيالون .

﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ المراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام وكانت نعالاً وأدماً ، وقال ابن عباس : اوراقاً.

﴿في رحالهم﴾ وكل لكل رحل واحداً من غلمانه يدس فيه البضاعة التي اشتروا بها الطعام الذي في هذا الرحل ، والرحال جمع رحل وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره والمراد به هنا ما يستصحبه الرجل معه من الأثاث .

قال الواحدي : الرحل كل شيء معد للرحيل من وعاء للمتاع ومركب للبعير ومجلس ورسن انتهى . والمراد هنا الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام .

قال ابن الأنباري : يقال للوعاء رحل وللبيت رحل ، فعل يوسف عليه السلام ذلك تفضلاً عليهم ، وقيل ليستعينوا بها على الرجوع إليه سريعاً لشراء الطعام، وقيل ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلاّ بثمن قاله الفراء، وجرى عليه الجلال.

وقيل انه خاف ان لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة وقيل اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه منة ولا عيب وقيل اراد ان يريهم بره وكرمه واحسانه اليهم ، وقيل اراد ان يكون ذلك عوناً لأبيه ولأخوته على شدة الزمان ، وقيل غير ذلك ، وقيل انه استقبح ان يأخذ من أبيه واخوته ثمن الطعام .

ثم علل يوسف عليه السلام ما أمر به من جعل البضاعة في الرحال وهي معرفتهم لها فقال ﴿لعلهم يعرفونها﴾ أي بضاعتهم ﴿اذا انقلبوا﴾ رجعوا ﴿الى اهلهم﴾ لانهم لا يعلمون برد البضاعة اليهم الا عند تفريغ الاوعية التي جعلوا فيها الطعام وهم لا يفرغونها الا عند الوصول الى اهلهم .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة اليهم المجعولة في رحالهم بقوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ الينا فانهم اذا عرفوا ذلك علموا انهم اخذوا الطعام بلا ثمن وان ما دفعوه عوضاً عنه قد رجع اليهم وتفضل به من وصلوا اليه عليهم ، نشطوا الى العود ولا سيما مع ما هم فيه من الجدب الشديد والحاجة الى الطعام وعدم وجوده لديهم ، فإن ذلك من أعظم ما يدعوهم الى الرجوع ؛ وبهذا يظهر يوسف عليه السلام لم يرد البضاعة اليهم الا لهذا المقصود وهو رجوعهم اليه فلا يتم تعليل ردها بغير ذلك .

﴿فلما رجعوا الى أبيهم﴾ قبل ان يشتغلوا بفتح المتاع ﴿قالوا يا أبانا﴾ قدمنا على خير رجل انزلنا واكرمنا كرامة عظيمة فقال لهم يعقوب إذا رجعتم الى ملك مصر فاقرأوا عليه مني السلام وقولوا ان أبانا يدعو لك بما أوليتنا فقالوا ﴿منع منا الكيل﴾ وارادوا بهذا ما تقدم من قول يوسف عليه السلام :

﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ أي منع الكيل في المستقبل بعد هذه المرة وفيه دليل على ان الامتياز مرة بعد مرة معهود فيما بينهم وبينه ولعلهم قالوا له بهذه المقالة قبل ان يفتحوا متاعهم ويعلموا برد بضاعتهم كما يفيد ذلك قوله فيما بعد ﴿فلما فتحوا متاعهم﴾ الآية .

ثم ذكروا له ما أمرهم به يوسف عليه السلام فقالوا ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ بنيامين الى مصر ﴿نكتل﴾ بسبب ارساله معنا ما نريده من الطعام وهو مجزوم في جواب الامر.واصله نكتيل بوزن نغتنم ووزنه الان نفتل ، وبحسب الاصل نفتعل قرأ سائر الكوفيين بالتحتية ، واختار ابو عبيدة قراءة النون قال : ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكتال ، وزعم انه اذا كان بالياء كان للاخ وحده أي يكتال اخونا بنيامين واعترضه النحاس بما حاصله ان اسناد الكيل الى الاخ لا ينافي كونه للجميع والمعنى يكتال بنيامين لنا جميعاً ، والقراءتان سبعيتان ، قال الزجاج : أي ان ارسلته اكتلنا والا منعنا الكيل ﴿وإنا له﴾ أي لبنيامين ﴿لحافظون﴾ من ان يصيبه سوء أومكروه .

﴿قال﴾ يعقوب لما قالوا له هذه المقالة ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ مستأنفة كما تقدم نظائر ذلك في مواضع كثيرة ، والمعنى أنه لا يأمنهم على بنيامين إلا كما أمنهم على اخيه يوسف عليه السلام وقد قالوا له في يوسف عليه السلام وإنا له لحافظون كما قالوا هنا ثم خانوه في يوسف عليه السلام فهو إن آمنهم في بنيامين خاف ان يخونوه كما خانوه في يوسف عليه السلام .

﴿فالله خير حافظاً﴾ منصوب على الحالية وقرىء حفظاً على التمييز ، ولعل هنا اضماراً والتقدير فتوكل يعقوب على الله ودفعه اليهم وقال فالله خير حافظاً والمعنى ان حفظ الله إياه خير من حفظهم له وانما ارسله معهم لانه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف عليه السلام ، أو ان شدة القحط وضيق الوقت احوجه الى ذلك .

﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو ان ينعم عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين قيل لما وكل يعقوب حفظه الى الله سبحانه حفظه وارجعه اليه ، ولما قال في يوسف عليه السلام ﴿وأخاف ان يأكله الذئب﴾ وقع له من الامتحان ما وقع ، قال كعب : لما قال ذلك قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما .

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ولما فتحوا﴾ بحضرة ابيهم ﴿متاعهم﴾ أي أوعية الطعام او ما هو أعم من ذلك مما يطلق عليه اسم المتاع سواء كان الذي فيه طعاماً او غير طعام ﴿وجدوا بضاعتهم﴾ التي حملوا الى مصر ليمتاروا بها وهي ثمن الطعام وقد تقدم بيانها ﴿ردت إليهم﴾ وجملة ﴿قالوا يا أبانا﴾ مستأنفة كما تقدم ﴿ما نبغي﴾ ما للاستفهام الانكاري ، والمعنى أي شيء نطلب من هذا الملك بعد ان صنع معنا ما صنع من الاحسان بِرَدِّ البضاعة والاكرام عند القدوم اليه ، وتوفير ما اردناه من الميرة ، وارادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم .

وقال قتادة : ما نبغي وراء هذا ، وقيل ان ما نافية أي ما نبغي في القول وما نزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا واكرامه لنا ، وقرىء بالفوقية خطابا ليعقوب أي أيُّ شيء تطلب وراء هذا الاحسان أو أي شيء تطلب من الدليل على صدقنا .

ثم برهنوا على ما نفوه من التزيد في وصف الملك بقولهم ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ فإن من تفضل عليهم برد ذلك حقيق بالثناء عليه منهم ، مستحق لما وصفوه به وهي جملة مقررة لما دل عليه الاستفهام من الانكار لطلب شيء مع كونها قد ردت اليهم .

﴿ونمير أهلنا﴾ نجلب اليهم الميرة وهي الطعام يقال مار أهله يميرهم إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم ، والمائر الذي يأتي بالطعام ، وقرأ السلمي بضم النون ﴿ونحفظ أخانا﴾ بنيامين مما تخافه عليه ﴿ونزداد﴾ بسبب

إرساله معنا ﴿كيل﴾ حمل ﴿بعير﴾ زائد على ما جئنا به هذه المرة لأنه كان يكال لكل رجل ومرّ بعير قال مجاهد حمل حمار وهي لغة، قال أبو عبيدة: يعني أن الحمار يقال له في بعض اللغات بعير.

﴿ذلك﴾ أي زيادة كيل بعير لاخينا ﴿كيل يسير﴾ يسهل على الملك ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه، وقيل ان المعنى ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد ان ينضاف اليه حمل بعير لأخينا، واختار الزجاج الاول، وقيل ان هذا من كلام يعقوب جواباً على ما نزله أولاده ﴿ونزداد كيل بعير﴾ يعني ان حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لأجله بالولد وهو ضعيف لأن جواب يعقوب هو :

﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون﴾ أي تعطوني ﴿موثقاً﴾ ما أثق به وأركن اليه ﴿من﴾ جهة ﴿الله﴾ سبحانه وهو الحلف به والموثق العهد المؤكد باليمين، وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه، واللام في ﴿لتأتنني به﴾ جواب القسم أي تحلفو بالله لتردن بنيامين أي لتأتُنّني به، والاستثناء بقوله ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ مفرغ من أعم الأحوال لأن لتأتنني به وان كان كلاماً مثبتاً فهو في معنى النفي فكأنه قال : لا تمنعون من إتياني به على حال إلا حال الاحاطة بكم أو من أعم العلل أي لعلة من العلل إلا لعلة الاحاطة بكم، والاحاطة مأخوذة من أحاطه العدو ومن أحاط به العدو فقد غلب أو هلك .

تقول العرب : احيط بفلان اذا هلك او قارب هلاكه، فأخذ يعقوب عليهم العهد بأن يأتوه ببنْيامين الا ان يغلبوا عليه او يهلكوا دونه جميعاً فيكون ذلك عذراً لهم عنده.

﴿فلما آتوه موثقهم﴾ أي أعطوه ما طلبه منهم من اليمين والعهد ﴿قال : الله على ما نقول وكيل﴾ أي قال يعقوب : الله على ما قلناه من طلبي الموثق منكم واعطائكم لي ما طلبته منكم مطلع رقيب لا يخفى عليه منه خافية فهو المعاقب لمن خاس في عهده وفجر في الحلف به، أو موكول اليه القيام بما شهد عليه منا .

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا
حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ
أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ لما تجهز أولاد يعقوب للسير الى مصر خاف عليهم أبوهم ان تصيبهم العين لكونهم كانوا ذوي جمال ظاهر ، وثياب حسنة مع كونهم أولاد رجل واحد ، فنهاهم ان يدخلوا مجتمعين من باب واحد ، لان في ذلك مظنة لإصابة العين لهم والعين حق فأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة ، وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب ، وقال السدي ؛ أراد الطرق لا الأبواب ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الاولى لأنهم كانوا مجهولين في الكرة الاولى .

ولم يكتف بقوله ﴿لا تدخلوا من باب واحد﴾ من قوله ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه ان تصيبهم العين ، أمرهم ان يدخلوا من أبواب متفرقة .

قال النخعي : أحب يعقوب أن يلقى أخاه في خلوة ، قيل وكان قد علم أن ملك مصر هو ولده يوسف عليه السلام إلا أن الله لم يأذن له في اظهاره ذلك، فلما بعث أبناءه اليه قال لهم ذلك القول ، والأول أولى ، أعني أنه خاف عليهم العين ، وبه قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين .

وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي علي الجبائي واتباعه ان للعين تأثيراً انكاراً بليغاً ولم يذكروا في انكاره شبهة فضلاً عن حجة ، وليس هذا بمستنكر من هؤلاء فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأي مانع من اصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق واصيب بها جماعة في عصر النبوة منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعجب من انكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الإزراء على من يعمل بالدليل المخالف لمجرد الاستبعاد العقلي ، والتنطع في العبارات كالزمخشري في تفسيره ، فإنه في كثير من المواطن لا يقف على دفع دليل الشرع بالاستبعاد الذي يدعيه على العقل حتى يضم الى ذلك الوقاحة في العبارة على وجه يوقع المقصرين في الاقوال الباطلة والمذاهب الزائفة .

وبالجملة فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة واجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً ، وبما هو مشاهد في الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الانساني وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب ، وقد اختلف العلماء فيمن عرف بالاصابة بالعين ، فقال قوم يمنع من الاتصال بالناس دفعاً لضرره بحبس أو غيره من لزوم بيته ، وقيل ينفى ، وأبعد من قال انه يقتل إلا اذا كان يتعمد ذلك ويتوقف اصابته على اختياره وقصده ولم ينزجر عن ذلك فإنه اذا قتل كان له حكم القاتل .

ثم قال يعقوب لأولاده ﴿وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾ أي لا أدفع عنكم ضرراً ولا أجلب اليكم نفعاً بتدبيري هذا بل ما قضاه الله عليكم فهو واقع لا محالة قال الزجاج وابن الأنباري : لو سبق في علم الله أن العين تهلكهم مع الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم .

وقال آخرون : ما كان يغني عنهم يعقوب شيئاً قط حيث أصابهم ما أصابهم مع تفرقهم من اضافة السرقة اليهم ، قال ابو السعود : ولم يرد عليه السلام الغاء الحذر بالمرة ، كيف لا وقد قال تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة﴾ وقال تعالى ﴿خذوا حذركم﴾ بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة ، وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير ، وان ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله وهرب منه اليه . ثم صرح يعقوب بأنه لا حكم إلا لله سبحانه فقال ﴿إن الحكم إلا لله﴾ وحده لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك ﴿عليه﴾ لا على غيره ﴿توكلت﴾ أي اعتمدت ووثقت في كل ايراد واصدار ﴿وعليه﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ على العموم ويدخل فيه أولاده دخولاً أولياً .

﴿ولما دخلوا﴾ المدينة ﴿من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي من الابواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد ، وجواب لما ﴿ما كان يغني عنهم﴾ ذلك الدخول أو رأي يعقوب واتباعهم له ﴿من الله﴾ أي من جهته ﴿من شيء﴾ من الاشياء مما قدره الله عليهم ، أي الذي اراد وقوعه فقد نسبوا للسرقة واخذ منهم بنيامين ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب لأن الحذر لا يدفع القدر .

والاستثناء بقوله ﴿الا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ منقطع ، والمعنى ولكن حاجة كانت في نفسه وهي شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم أظهرها يعقوب لهم ووصاهم بها غير معتقد ان للتدبير الذي دبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم ، وقيل أنه خطر ببال يعقوب أن الملك اذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقداً وخوفاً منهم فأمرهم بالتفرق لهذه العلة .

وقد اختار هذا النحاس وقال لا معنى للعين هنا ؛ وفيه ان هذا لو كان السبب لأمرهم بالتفرق لم يخص النهي عن ذلك بالاجتماع عند الدخول من

باب واحد لأن هذا الحسد أو الخوف يحصل باجتماعهم داخل المدينة كما يحصل باجتماعهم عند الدخول من باب واحد ، وقيل إن الفاعل في قضاها ضمير يعود الى الدخول لا الى يعقوب ؛ والمعنى ما كان الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً ولكنه قضى ذلك الدخول حاجة في نفس يعقوب لوقوعه حسب ارادته .

﴿وإنـه﴾ أي وان يعقوب ﴿لذو علم﴾ جليل ﴿لما علمناه﴾ أي لتعليمنا بالوحي ونصب الأدلة حيث لم يعتقد ان الحذر يدفع القدر وان التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل في رأيه عند تخلف الأثر ، وعلم أن ما قضاه الله سبحانه فهو كائن لا محالة وقيل غير ذلك ، وهذا أولى ، وفي تأكيد الجملة بإن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ بذلك كما ينبغي ، وقيل لا يعلمون ان الحذر مندوب اليه وإن كان لا يغني من القدر شيئاً والسياق يدفعه ، وقيل المراد بأكثر الناس المشركون .

﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ أي في محل حكمه ﴿آوى﴾ ضم ﴿اليه أخاه﴾ بنيامين ، قيل أنه أمر بإنزال كل اثنين في منزل ، فبقي أخوه منفرداً فضمه اليه ﴿وقال اني أنا اخوك﴾ يوسف قال له ذلك سراً من دون أن يـطلع عليه إخوتـه .

﴿فلا تبتئس﴾ أي فلا تحزن ، والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس والضر والشدة ﴿بما كانوا يعملون﴾ إخوتـك من الاعمال الماضية التي عملوها ، وقيل انه لم يخبره بأنه يوسف عليه السلام بل قال له اني أنا اخوك مكان أخيك يوسف عليه السلام فلا تحزن بما كنت تلقاه منهم من الجفاء حسداً وبغياً .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ
إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ
ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا
جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ
كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

وقيل أنه أخبره بما سيدبره معهم من جعل السقاية في رحله فقال لا أبالي فدس الصاع في رحله وهو المراد بالسقاية في قوله ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية﴾ وأصلها المشربة التي كان الملك يشرب بها جعلت صاعاً يكال به . وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحب ، وقيل كانت من فضة ، وقيل من ذهب ، وقيل من زبرجد ، وقيل مرصعة بالجوهر ؛ وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تفسير الجهاز والرحل .

وعبر بالفاء هنا اشارة الى طلب سرعة سيرهم وذهابهم لبلادهم لأن الغرض منه قد حصل ، وقد عرفت حالهم بخلاف المرة الأولى كان المطلوب طول مدة اقامتهم ليتعرف الملك حالهم .

والمعنى انه جعل السقاية التي هي الصواع ﴿في رحل أخيه﴾ الذي هو الوعاء الذي يجعل فيه ما يشتريه من الطعام من مصر ﴿ثم﴾ بعد ذلك ﴿أذن﴾ نادى ﴿مؤذن﴾ منادٍ وأعلم معلم ، والأذان في اللغة الاعلام ، وكان ذلك النداء مع رفع الصوت مراراً كثيرة بدليل التفعيل بعد انفصالهم عن مجلس يوسف عليه السلام حتى انطلقوا وخرجوا من العمارة ، ثم ارسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم كما يشير له التعبير بثم التي للتراخي بل قيل انهم وصلوا الى بلبيس وردوا من عندها .

﴿أيتها العير﴾ قال الزجاج : معناه ياأصحاب العير ، أي الإبل فهو مجاز مرسل علاقته المجاورة كما قاله السمين ، وفي المصباح العير بالكسر اسم للإبل التي تحمل الميرة في الأصل ثم غلب على كل قافلة ، انتهى .

وكل ما آمتير عليه من الإبل والحمير والبغال فهو عير ، قاله الهيثم ، وقيل قافلة الحمير . وقال أبو عبيدة : العير الإبل المرحولة المركوبة ، ثم كثر ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير لأنه يعير أي يذهب ويجيء .

﴿إنكم لسارقون﴾ نسبة السرقة اليهم على حقيقتها لأن المنادي غير عالم بما دبره يوسف عليه السلام . وقيل أن المعنى أن حالكم حال السارقين من كون الصواع صار لديكم من غير رضاً من الملك ، وليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف عليه السلام ، وهو الأقرب الى ظاهر الحال ؛ لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم ، وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم ؛ وقيل غير ذلك وهذا أولى .

﴿قالوا﴾ أي إخوة يوسف عليه السلام ﴿وأقبلوا عليهم﴾ أي حال كونهم مقبلين على من نادى منهم المنادي من أصحاب الملك ، أي التفتوا اليهم وخاطبوهم بقوله ﴿ماذا تفقدون﴾ أي ما الذي فقدتموه ، والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه ، يقال فقدت الشيء اذا عدمته بضياع او نحوه ، فكأنهم قالوا ماذا ضاع عليكم وما استفهامية وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة .

﴿قالوا﴾ في جوابهم ﴿نفقد صواع الملك﴾ وقرىء بالغين المعجمة وقرىء صوع وصياع وصاع ، وقال الزجاج : الصواع الصاع بعينه وهو يذكر ويؤنث وهو السقاية ، قال ابن عباس : كل شيء شربت منه فهو صواع وقيل الصواع

الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان وفيه قراآت كثيرة وهي ثمانية كلها لغات في هذا الحرف ، والمراد هنا آلة الكيل سماها تارة كذا وتارة كذا وانما اتخذ هذا الإناء مكيالاً لعزة ما يكال به في ذلك الوقت .

﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ من الطعام جعلاً له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع ﴿وجود﴾ الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد في رحله ، وهذا قول المؤذن وحده فهو الذي كفر وضمن والبعير الجمل ، وفي لغة بعض العرب أنه الحمار ؛ والمراد بالحمل ههنا ما يحمله البعير من الطعام .

ثم قال المنادي ﴿وأنا به﴾ أي بحمل البعير الذي جعل لمن جاء بالصواع قبل التفتيش للأوعية ﴿زعيم﴾ كفيل ، قاله ابن عباس أي بلسان أهل اليمن .

وعن سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك مثله ، ولعل القائل بفقد صواع الملك هو المنادي ، وإنما نسب القول الى الجماعة لكونه واحداً منهم ، ثم رجع الكلام الى نسبة القول الى المنادي وحده لأنه القائل بالحقيقة وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم في ذلك الزمان .

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ التاء بدل من واو القسم عند الجمهور، وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأياً ما كان ففيه التعجب، ولا تدخل إلا على هذا الاسم الشريف دون سائر اسمائه سبحانه وقد دخلت نادراً على الرب وعلى الرحمن، والكلام على هذا مستوفى في علم الاعراب.

وجعلوا المقسم عليه هو علم يوسف واصحابه بنزاهة جانبهم وطهارة ذيلهم عن التلوث بقذر الفساد في الأرض الذي من أعظم أنواعه السرقة لأنهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرة الأولى وهذه المرة من التعفف والزهد عما هو دون السرقة بمراحل ما يستفاد منه العلم الجازم بأنهم ليسوا ممن يتجارى على هذا النوع العظيم من أنواع الفساد ، ولو لم يكن من ذلك الا ردهم

لبضاعتهم التي وجدوها في رحالهم لكفى ، والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

ثم أكدوا هذه الجملة التي اقسموا بالله عليها بقولهم : ﴿وما كنا سارقين﴾ لزيادة التبري مما قذفوهم به والتنزه عن هذه النقيصة الخسيسة الرذيلة الشنعاء .

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ هذه جملة مستأنفة كما تقدم غير مرة في نظائرها ، والقائلون هم أصحاب يوسف عليه السلام او المنادي منهم وحده كما مر ، والضمير في جزاؤه للصواع على حذف مضاف أي فما جزاء سرقة الصواع عندكم او الضمير للسارق .

﴿إن كنتم كاذبين﴾ فيما تدعونه لأنفسكم من البراءة عن السرقة ؛ وذلك بأن يوجد الصواع معكم .

فأجاب إخوة يوسف عليه السلام ﴿قالوا جزاؤه﴾ أي جزاء سرقة الصواع أو جزاء سارق الصواع والتقدير جزاء السرقة للصواع أخذ ﴿من وجد في رحله﴾ واسترقاقه ، وتكون جملة ﴿فهو جزاؤه﴾ لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها .

قال الزجاج : هو زيادة في البيان أي جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير .

قال المفسرون : وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترقّ سنة ثم يخلى سبيله فلذلك استفتوهم في جزائه .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكامل ﴿نجزي الظالمين﴾ لغيرهم من الناس بسرقة أمتعتهم ، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها إذا كانت من كلام اخوة يوسف عليه السلام ، ويجوز أن تكون من كلام أصحاب يوسف أي كذلك نحن نجزي الظالمين بالسرق .

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ثم لما ذكروا جزاء السارق ارادوا ان يفتشوا أمتعتهم حتى يتبين الأمر فأقبل يوسف عليه السلام على ذلك ﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ يعني بتفتيش أوعية إخوته العشرة وقيل إن المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيشهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين ﴿قبل﴾ تفتيش ﴿وعاء أخيه﴾ بنيامين دفعاً للتهمة ورفعاً لما دبره من الحيلة .

﴿ثم استخرجها﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث ﴿من وعاء أخيه﴾ فنكس إخوة يوسف عليه السلام رؤوسهم من الحياء ولاموا بنيامين فأخذوه وردوه الى يوسف عليه السلام .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب ﴿كدنا﴾ أي دبرنا قاله القتيبي أو أردنا قاله ابن الأنباري ﴿ليوسف﴾ يعني علمناه إياه وأوحينا اليه واللام زائدة واليه نحا السيوطي .

وفي أبي السعود : ما يقتضي ان اللام للتعليل أي صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه والكيد مبدؤه

السعي في الحيلة والخديعة ونهايته إلقاء المخدوع من حيث لا يشعر في أمر مكروه لا سبيل الى دفعه ، وهو محمول في حق الله سبحانه على النهاية لا على البداية .

وقال ابن الأعرابي : الكيد التدبير بالباطل وبالحق ، وقيل الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف عليه السلام في الابتداء فعلنا بهم وقيل غير ذلك والأول أولى ، وفي الآية دليل على جواز التوصل الى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً .

﴿ما كان﴾ يوسف عليه اللام ﴿ليأخذ أخاه﴾ بنيامين ﴿في دين الملك﴾ أي ملك مصر وفي شريعته التي كان عليها بل كان دينه وقضاؤه أن يضرب السارق ويغرم ضعف ما سرقه دون الاستعباد سنة كما هو دين يعقوب وشريعته ؛ وحاصله أن يوسف ما كان يتمكن من اجراء حكم يعقوب على أخيه مع كونه مخالفاً لدين الملك وشريعته لولا ما كاد الله له ودبره وأراده حتى وجد السبيل إليه ،وهو ما اجراه على ألسن اخوته من قولهم أن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان قولهم هذا هو بمشيئة الله وتدبيره .

وهذه الجملة تعليل لما صنعه الله من الكيد ليوسف عليه السلام او تفسير له يعني ان ذلك الأمر كله كان الهاماً من أمر الله ليوسف عليه السلام واخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد وهو معنى قوله ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي إلا حال مشيئته واذنه بذلك وإرادته له والاستثناء منقطع ، إذ الأخذ بدين الملك لا يشمل المراد به ، فالمعنى ولكن أخذه بشريعة يعقوب .

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بضروب العلوم والمعارف والعطايا والكرامات كما رفعنا درجة يوسف عليه السلام بذلك ؛ والآية على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف عليه السلام ورفع درجته

على أخوته بالعلم ، وقرىء درجات بالاضافة والتنوين وهما سبعيتان .

﴿وفوق كل ذي علم﴾ ممن رفعه الله بالعلم من المخلوقين ﴿عليم﴾ أرفع رتبة منه وأعلى درجة لا يبلغون مداه ولا يرتقون شأوه ، وقيل معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم الى ان ينتهي العلم الى الله وهو سبحانه فوق كل عالم .

عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث ؛ فقال رجل عنده وفوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بئس ما قلت؛ الله العليم الخبير وهو فوق كل عالم .

وعن محمد بن كعب : سأل رجل علياً كرم الله وجهه عن مسئلة فقال فيها ، فقال الرجل : ليس هكذا ولكن كذا وكذا ، فقال عليّ : أصبت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم .

وعن عكرمة قال : علم الله فوق كل عالم ، قال ابن الأنباري : يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه ولا يطمع نفسه بالغلبة لأنه لا يخلو عالم عن عالم فوقه ، وفي الآية دليل على أن اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء . وكان يوسف عليه السلام أعلم منهم .

﴿قالوا إن يسرق﴾ أي بنيامين الصواع ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون يوسف عليه السلام وكان غرضهم من هذا الكلام إنا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، بل هذا واخوه كانا على هذه الطريقة لانهما من أم أخرى غير أمنا ، وقال الخفاجي : أتوا بكلمة إن لعدم تحققهم له بمجرد خروج السقاية من رحله ، وأما قولهم إن ابنك سرق فبناء على الظاهر ، ويسرق لحكاية الحال الماضية .

والمعنى ان كان سرق فليس ببدع لسبق مثله من أخيه ، والعرق نزاع ، وقيل انهم جزموا بذلك وان لمجرد الشرط انتهى .

وقد اختلف المفسرون في هذه السرقة التي نسبوها الى يوسف عليه السلام ، ما هي فقيل انه كان ليوسف عليه السلام عمة هي أكبر من يعقوب وكانت عندها منطقة اسحاق لكونها أسن أولاده وكانوا يتوارثونها فيأخذها الأكبر سناً من ذكر أو أنثى ، وكانت قد حضنت يوسف عليه السلام وأحبته حباً شديداً ، فلما ترعرع قال لها يعقوب سلمي يوسف اليّ فأشفقت من فراقه واحتالت في بقائه لديها فجعلت المنطقة تحت ثيابه وحزمته بها ، ثم قالت قد سرقت منطقة اسحق فانظروا من سرقها ، فبحثوا عنها فوجدوها مع يوسف عليه السلام فأخذته عندها كما هو شرع الأنبياء في ذلك الوقت من آل ابراهيم . ذكره محمد بن اسحاق ، وقد سبق بيان شريعتهم في السرقة .

وقيل ان يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره، وألقاه على الطريق تغييراً للمنكر فعيره بذلك اخوته ، وقد روى معناه عن ابن عباس مرفوعاً . وعن سعيد بن جبير وقتادة مثله غير مرفوع ، وقد روي نحوه عن جماعة من التابعين ، وحكى عن الزجاج انه كان صنماً من ذهب ، وقيل من فضة ، وقال عطية سرق في صباه ميلين من ذهب .

وعن ابن عباس سرق مكحلة لخالته ، وقيل كان في المنزل دجاجة فأعطاها لسائل ، قاله سفيان بن عيينة ، وقيل كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء . قال ابن الأنباري : وليس في هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبهها فعيروه بها عند الغضب .

وحكى الواحدي عن الزجاج قال : الله أعلم أسرق أخ له أم لا ، وحكى القرطبي في تفسيره عنه انه قال ؛ كذبوا عليه فيما نسبوه اليه .

قلت وهذا أولى فما هذه الكذبة بأول كذباتهم ، وقد قدمنا ما يدفع قول من قال أنهم قد كانوا أنبياء عند صدور هذه الأمور منهم ، وفي البحر لابن المنير أن ما ذكر في تفسير السرقة تكلف لا يسوغ نسبة مثله الى بيت النبوة ولا الى أحد من الأشراف فالواجب تركه ، واليه ذهب مكي وفسره بعضهم بإن يسرق فقد سرق مثله من بني آدم ، وذكر له نظائر في الحديث ، قال الخفاجي وهو كلام حقيق بالقبول .

قال الزجاج وغيره الضمير في ﴿فأسرَّها﴾ يعود الى الكلمة او الجملة كأنه قيل فأسر الجملة ﴿يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ ثم فسرها بقوله ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ وقد رد أبو علي الفارسي هذا فقال : إن هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل ؛ وعلى هذا يكون في الكلام رجوع الضمير على متأخر لفظاً ورتبة . وفيه ايضاً اطلاق الكلمة على الكلام ، والاول سائغ في مقام التفسير كما هنا . والثاني سائغ في اللغة .

وقيل الضمير عائد الى الاجابة أي أسر يوسف عليه السلام اجابتهم في ذلك الوقت الى وقت آخر . وقيل أسر في نفسه قولهم إن يسرق الخ . وهذا هو الأولى ويكون معنى ولم يبدها لهم انه لم يبد لهم هذه المقالة التي أسرها في نفسه بإن يذكر لهم صحتها وبطلانها .

وجملة: قال أنتم شر مكاناً مفسرة على القول الأول ومستأنفة على القولين الأخيرين كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام لما قالوا هذه المقالة ، أي انتم شر موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه الى السرقة ورميتموه بها وهو بريء فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف عليه السلام في الجب والكذب على أبيكم وغير ذلك من افاعيلكم، ولم يكن من يوسف عليه السلام سرقة حقيقية.

ثم قال ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ من الباطل بنسبة السرقة الى يوسف

عليه السلام وانه لا حقيقة لذلك . ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين ويكون معهم ويرجعون به الى أبيهم لما تقدم من أخذه الميثاق عليهم بأن يردوه اليه ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له﴾ أي لبنيامين هذا ﴿أباً﴾ متصفاً بكونه ﴿شيخاً كبيراً﴾ في السن لا يستطيع فراقه ولا يصبر عنه ولا يقدر على الوصول اليه ، وقيل كبيراً في القدر لأنه نبي من أولاد الأنبياء وفيه بعد ظاهر ، والأول أولى ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ يبقى لديك فإن له منزلة في قلب أبيه ليست لواحد منا ، فلا يتضرر بفراق أحدنا كما يتضرر بفراق بنيامين .

ثم عللوا ذلك بقولهم ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ الى الناس كافة، وإلينا خاصة فأتم إحسانك إلينا بإجابتنا الى هذا المطلب ، فأجاب عليهم يوسف و ﴿قال معاذ الله﴾ أي نعوذ بالله معاذاً فهو مصدر ، والمستعيذ بالله هو المستعصم به ﴿أن﴾ أي من أن ﴿نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ وهو بنيامين لأنه الذي وجد الصواع في رحله فقد حل لنا استعباده بفتواكم التي أفتيتمونابقولكم ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ ولم يقل « من سرق » تحرزاً عن الكذب لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق .

وفيه جواز التوصل الى الأغراض بالحيل اذا لم تخالف شريعة ولا هدمت أصلاً، ولعل الله أمر يوسف عليه السلام بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ، ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر صاحب موسى بقتل من لو بقي لطغى وكفر ، قاله ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب . وجزم صاحب الكشاف بأن هذه الواقعة كانت بوحي كما مر مراراً ﴿إنا إذاً﴾ أي إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ﴿لظالمون﴾ في دينكم وما تقتضيه فتواكم .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ
أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ
حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟
يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن
يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

﴿فلما استيأسوا منه﴾ أي يئسوا من يوسف وإجابته إياهم وإسعافهم منه الى مطلبهم الذي طلبوه ، والسين والتاء للمبالغة ، قاله الزمخشري والبيضاوي . قال ابن اسحاق أي أيسوا منه ورأوا شدته في أمره .

قال أبو عبيدة : استيأسوا أي استيقنوا أن الأخ لا يرد عليهم ، وقيل أيسوا من أخيهم أن يرد اليهم ، والأول أولى .

﴿خلصوا نجياً﴾ أي انفردوا عن الناس واعتزلوا مجلسه وانحازوا على حدة حال كونهم متناجين متحدثين فيما بينهم ليس فيهم غيرهم في التشاور في أمر هذه القضية وهو مصدر يقع على الواحد والجمع كقوله ﴿وقربناه نجياً﴾ .

قال الزجاج : معناه انفردوا وليس معهم اخوهم متناجين فيما يعملون به في ذهابهم الى أبيهم من غير أخيهم ، وقال قتادة وحدهم .

﴿قال كبيرهم﴾ قيل هو روبيل لأنه الأسن وهو الذي كان نهاهم عن قتله وكان أكبر القوم في الميلاد قاله قتادة ، وقيل كبيرهم في العقل والعلم لا في السن وقيل يهوذا لأنه الأوفر عقلاً .

وقيل شمعون لأنه رئيسهم ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً﴾

أي عهدا ﴿من الله﴾ في حفظ ابنه ورده اليـه ، ومعنى كونه من الله انه بإذنه ذكره النحاس وغيره .

﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ أي وألم تعلموا أن تفريطكم في أمر يوسف عليه السلام كائن من قبل تفريطكم في بنيامين أو من قبل أخذكم العهد في شأنه ، على ان ما مصدرية ، ويجوز ان تكون زائدة والأول أولى ، والمعنى قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه .

﴿فلن أبرح الأرض﴾ يقال برح براحاً وبروحاً أي زال فإذا دخله النفي صار مثبتاً أي لن أبرح من أرض مصر بل ألزمها ولا أفارقها ولا أزال مقيماً فيها على أن أبرح هنا تامة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في مفارقتها والخروج منها بالعود اليه وانما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي اليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الميثاق بإرجاعه اليه إلا أن يحاط بهم كما تقدم .

﴿أو يحكم الله لي﴾ بمفارقتها والخروج منها ، وقيل المعنى او يحكم الله لي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود الى أبي وأعود معه ، وقيل المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأجازيه واخذ أخي منه أو أعجز فأنصرف بعد ذلك قال مجاهد : أقاتل بسيفي حتى أقتل ، وعن أبي صالح نحوه ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأن احكامه لا تجري إلا على ما يوافق الحق ويطابق الصواب ومراده بهذا الكلام الالتجاء الى الله في اقامة عذره الى والده يعقوب .

ثم قال كبيرهم مخاطباً لهم ﴿ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ على البناء للفاعل وذلك لأنهم قد شاهدوا استخراج الصـواع من وعائه ؛ وقرىء على البناء للمفعول.

قال الزجاج : ان سرق يحتمل معنيين أحدهما علم منه السرق والآخر اتهم بالسرق أمرهم بهذه المقالة مبالغة في ازالة التهمة عـن أنفسهم عند أبيهم لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب وقعة يوسف عليه السلام .

﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ من استخراج الصواع من وعائه ، وقيل

المعنى ما شهدنا عند يوسف عليه السلام بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ حتى يتضح لنا هل الأمر على ما شاهدناه أو على خلافه فإن الغيب لا يعلمه إلا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك .

وقيل المعنى ما كنا وقت أخذنا له منك ليخرج معنا الى مصرللغيب حافظين بأنه سيقع منه السرق الذي افتضحنا به ، وقيل الغيب هو الليل ومرادهم انه سرق وهم نيام وقيل مرادهم انه فعل ذلك وهو غائب عنهم فخفي عليهم فعله . قال عكرمة : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق وعن قتادة نحوه ، وقال ابن عباس : ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين .

﴿واسأل﴾ أهل ﴿ القرية التي كنا فيها﴾ أي قولوا لأبيكم اسأل القرية أي مصر ، قاله قتادة وابن عباس ، وقيل هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها وجرى فها حديث السرقة والتفتيش ، قال المفسرون : المراد اهلها ، وقيل المعنى واسأل القرية نفسها ، وان كانت جماداً فانك نبي الله والله سبحانه سينطقها فتجيبك .

ومما يؤيد هذا أنه قال سيبويه : لا يجوز كلم هنداً وانت تريد غلام هند ؛ قيل والأول أولى لأن مثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب ، وتعقبه الحافظ ابن القيم في البدائع وقال انما يضمر المضاف حيث يتعين ولا يصح الكلام الا بتقديره للضرورة كما إذا قيل أكلت الشاة فان المفهوم من ذلك أكلت لحمها فحذف المضاف لا يلبس ونظائره كثيرة وليس منه قوله تعالى ﴿واسأل القرية﴾ وان كان أكثر الأصوليين يمثلون به فإن القرية اسم للسكان في مسكن مجتمع فإنما تطلق القرية باعتبار الأمرين كالكأس لما فيه الشراب ، والذنوب للدلو الملآن ماء والخوان للمائدة اذا كان عليها طعام ونظائره .

ثم لكثرة استعمالهم هذه اللفظة ودورانها في كلامهم أطلقوها على السكان تارة وعلى المسكن تارة بحسب سياق الكلام وسباقه ، وإنما يفعلون

هذا حيث لا لبس ، فلا اضمار في ذلك ولا حذف فتأمل هذا الموضع الذي خفي على القوم مع وضوحه انتهى .

﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي أصحابها وكانوا قوماً معروفين من جيران يعقوب من كنعان ، حمل العير هنا إلى الدواب نفسها وهذا هو المعنى الحقيقي لها فاحتاج إلى تقدير المضاف وفيما سبق على المعنى المجازي وهو نفس أصحابها فاستغنى عن تقدير المضاف .

﴿وإنا لصادقون﴾ فيما قلنا ، جاءوا بهذه الجملة مؤكدة هذا التأكيد لأن ما قد تقدم منهم مع أبيهم يعقوب يوجب كمال الريبة في خبرهم هذا عند السامع ، وهذا آخر الكلام الذي علمه لهم أخوهم الكبير .

فلما قالوا هذا ليعقوب ﴿قال بل سولت﴾ زينت او خيلت ﴿لكم أنفسكم أمراً﴾ لا أصل له ، والأمر هنا قولهم ﴿إن ابنك سرق﴾ وما سرق في الحقيقة وقيل المراد بالأمر اخراجهم بنيامين والمضي به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد ذلك بالمضرة ، وقيل هذا الأمر فتياهم بأن السارق يؤخذ بسرقته ، والإضراب هنا هو باعتبار ما اثبتوه من البراءة لأنفسهم لا باعتبار أصل الكلام فإنه صحيح والجملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كغيرها .

﴿فصبر جميل﴾ أي فأمري صبر أو فصبر جميل أجمل بي وأولى لي ، والصبر الجميل هو الذي لا يبوح صاحبه بالشكوى بل يفوض أمره الى الله ويسترجع ، وقد ورد أن الصبر عند أول الصدمة .

﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ أي بيوسف عليه السلام واخيه بنيامين ، والأخ الثالث الباقي بمصر وهو كبيرهم كما تقدم ، وإنما قال هكذا على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لأنه قد كان عنده أن يوسف عليه السلام لم يمت وانه باق على الحياة وإن غاب عنه خبره ، واذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع الى الفرج قال تعالى ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ ﴿انه هو العليم﴾ بحالي ﴿الحكيم﴾ فيما يقضي به .

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ
كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ
ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟
مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وتولى﴾ أي أعرض ﴿عنهم﴾ وقطع الكلام معهم حين بلغوه خبر بنيامين ﴿و﴾ لما ساء حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهاج غمه ﴿قال يا أسفا على يوسف﴾ قال الزجاج الأصل يا أسفي فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة ، والأسف شدة الجزع ، وقيل شدة الحزن .

عن ابن عباس أي يا حزناً ، وعن قتادة مثله ، وعن مجاهد يا جزعاً .

قال يعقوب هذه المقالة لما بلغ منه الحزن غاية مبالغة بسبب فراقه ليوسف عليه السلام وانضمام فراقه لأخيه بنيامين وبلوغ ما بلغه من كونه أسيراً عند ملك مصر ، فتضاعفت احزانه وهاج عليه الوجد القديم بما أثاره من الخبر الأخير .

وقد روي عن سعيد بن جبير أن يعقوب لم يكن عنده ما ثبت في شريعتنا من الاسترجاع والصبر على المصائب ، ولو كان عنده ذلك لما قال يا أسفاً على يوسف عليه السلام يعني ان الاسترجاع خاص بهذه الأمة ، ومعنى المناداة للأسف طلب حضوره كأنه قال تعال يا أسفي وأقبل عَليّ وفيه شكوى إلى الله لا منه .

﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي انقلب سواد عينه بياضاً من كثرة

البكاء قيل أنه زال ادراكه بحاسة البصر بالمرة ، قال مقاتل : لم يبصر شيئاً ست سنين ، والتزمه بعضهم بناء على جواز مثل هذا على الأنبياء بعد التبليغ .

وقيل كان يدرك ادراكاً ضعيفاً ، قال بعض أهل اللغة الحزن بالضم والسكون البكاء وبفتحتين ضد الفرح، وقال أكثر أهل اللغة هما لغتان بمعنى ، والبكاء بالمد رفع الصوت وبالقصر نزول الدمع من غير صوت وهو المناسب هنا وهو أحد قولين والذي جرى عليه المصباح والقاموس انه لا فرق بينهما في أن كُلًّا يستعمل في كليهما .

وقد قيل في توجيه ما وقع من يعقوب عليه السلام من هذا الحزن العظيم المفضي إلى ذهاب بصره كُلًّا او بعضاً أنه إنما وقع منه ذلك لأنه علم أن يوسف عليه السلام حيّ فخاف على دينه مع كونه بأرض مصر وأهلها حيئنذ كفار ، وقيل ان مجرد الحزن ليس بمحرم وإنما المحرم ما يفضي منه الى الوله وشق الثياب والتكلم بما لا ينبغي .

قال ابو السعود : وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف من ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنّا عليك ياابراهيم لمحزونون انتهى .

ويؤيد هذا قوله ﴿فهو كظيم﴾ أي مكظوم فإن معناه أنه مملوء من الحزن ممسك له لا يبثه ومنه كظم الغيظ وهو اخفاؤه فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه من كظم السقاء اذا سده على ما فيه والكظم بالفتح مخرج النفس ، يقال أخذ بأكظامه ، وقيل الكظيم بمعنى الكاظم أي المشتمل على حزنه الممسك له ومنه والكاظمين الغيظ .

وقال الزجاج : معنى كظيم محزون ، وعن ابن عباس قال : كظيم حزين ، وعن قتادة قال ؛ كظم على الحزن وحزنه في جوفه فلم يقل إلا خيراً ، وعن عطاء الخراساني ، قال مكروب ، وعن عكرمة مثله ، وعن الضحاك الكظيم الكمد ، وعن مجاهد نحوه .

قال الحسن : كان بين خروج يوسف عليه السلام من حجر أبيه الى يوم التقيا ثمانون سنة ولم تجف فيها عينا يعقوب ، وما على وجه الارض يومئذ أكرم على الله منه والله أعلم .

﴿قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف﴾ أي لا تفتؤ فحذف حرف النفي لعدم اللبس قال الفراء : أن لا مضمرة ، قال النحاس : والذي قاله صحيح ، وعن الخليل وسيبويه مثل قول الفراء ، قال الكسائي : فتأت وفتيت أفعل كذا أي مازلت ، وعن ابن عباس تفتأ أي لا تزال تذكر يوسف عليه السلام ولا تفتر عن حبه .

﴿حتى تكون حرضاً﴾ أي دنفاً من المرض ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : هرماً، والحرض مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والصفة المشبهة حرض بكسر الراء كدنف ودنف ، وأصل الحرض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم ، حكى ذلك عن ابي عبيدة وغيره ، وقيل الحرض ما دون الموت ، وقيل الحارض البالي الدائر ، وقال الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل وكذا الحرض .

وقال المؤرج : هو الذائب من الهم ، ويقال رجل محرض ، قال النحاس : وحكى اهل اللغة أحرضه الهم إذا أسقمه ، ورجل حارض أي أحمق ، وقال الأخفش الحارض الذاهب ، وقال ابن الأنباري : هو الهالك ، وفي المصباح حرض حرضاً من باب تعب أشرف على الهلاك .

والأولى تفسير الحرض هنا بغير الموت والهلاك من هذه المعاني المذكورة لقوله ﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي من الميتين ، قاله مجاهد ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن والأسف شفقة عليه وإن كانوا هم سبب أحزانه ومنشأ همومه وغمومه .

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني﴾ بضم الحاء وسكون الزاي وقرىء بفتحهما ﴿إلى الله﴾ هذه الجملة مستأنفة كأنه قيل فما قال يعقوب لما قالوا له ما قالوا ، والبث ما يرد على الانسان من الأشياء التي تعظم حزن صاحبها حتى لا يقدر على اخفائها كذا قال أهل اللغة وهو مأخوذ من بثثته أي فرقته ، فسميت المصيبة بثاً مجازاً . قال ابن قتيبة البث أشد الحزن .

وقد ذكر المفسرون أن الإنسان اذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزناً وهماً ، وإن لم يقدر على كتمه وذكره لغيره كان ذلك بثاً ، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه، وقيل البث الهم وقيل الحاجة وعلى هذا يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى ، وأما على تفسير البث بالحزن العظيم فكأنه قال : إنما أشكو حزني العظيم وما دونه من الحزن القليل إلى الله لا إلى غيره من الناس ولا إليكم.

وعن مسلم بن يسار يرفعه قال : من بث لم يصبر ، ثم قرأ هذه الآية . اخرجه ابن جرير وعبدالرزاق . قال ابن عباس : بثي همي .

﴿وأعلم من الله﴾ أي من لطفه واحسانه وثوابه على المصيبة ﴿ما لا تعلمون﴾ انتم وانه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب، وقيل أراد علمه بأن يوسف عليه السلام حي لكنه لم يعرف أين هو ، وقيل أراد علمه بأن رؤياه صادقة وأني لأسجد له ، قاله ابن عباس ، وقيل أعلم من اجابة المضطرين الى الله ما لا تعلمون.

﴿يابني اذهبوا فتحسسوا﴾ التحسس بمهملات طلب الشيء بالحواس مأخوذ من الحس أو من الاحساس ، أي اذهبوا فتعرَّفوا ﴿من﴾ خبر ﴿يوسف وأخيه﴾ بالحاسة كالبصر والسمع وتطلبوه ، وقرىء بالجيم وهو ايضاً التطلب وقيل بالحاء في الخير وبالجيم في الشر ومنه الجاسوس ، ومن هنا بمعنى عن لأنه لا يقال تحسست من فلان بل عن فلان أو هي للتبعيض أي تحسسوا خبراً من أخبارهما ولم يقل أخويه لأنه كان يعلم أن الثالث مقيم بمصر فليس حاله مجهولاً عنده بخلافهما .

﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ورحمته .

قال الأصمعي : الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه ، والتركيب يدل على الحركة والهزة ، فكل ما يهتز الانسان بوجوده ويلتذ به فهو روح .

وحكى الواحدي عنه ايضاً الروح الاستراحة من غم القلب .

وقال أبو عمرو : الروح الفرج . وعن ابن زيد قال : من فرج الله يفرج عنكم الغم الذي أنتم فيه .

وقال ابن عباس : الروح الرحمة ، يعني انه استعير الروح للرحمة ، وقيل انه مصدر بمعنى الرحمة .

﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين﴾ لكونهم لا يعلمون بقدرة الله سبحانه وعظيم صنعه وخفيٍّ ألطافه ، والمؤمن يصبر عند البلاء وينتظر الفرج والرحمة فينال به خيراً ويحمد الله عند الرخاء ، والكافر بضد ذلك .

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

﴿فلما دخلوا عليه﴾ أي على يوسف عليه السلام والتقدير فذهبوا كما أمرهم أبوهم الى مصر ليتحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه، فلما دخلوا على يوسف عليه السلام ﴿قالوا ياأيها العزيز﴾ أي الملك الممتنع القادر ، وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾ أي الجوع والحاجة .

قال قتادة : الضر في المعيشة وعدلوا إلى الشكوى لأن المتحسس يتوصل إلى مطلوبه بجميع الطرق ، والاعتراف بالعجز وضيق اليد وشدة الحاجة مما يرقق القلب ، فقالوا نختبره بهذه الأمور فإن رق قلبه لنا ذكرنا المقصود والا شكونا. وفيه دليل على أنه يجوز الشكوى عند الضرورة إذا خاف من إصابته على نفسه، كما يجوز للعليل أن يشكو إلى الطبيب ما يجده من العلة.

وعبارة ابي السعود وإنما لم يبدءوا بما أمروا به استجلاباً للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو انتهى . وهذه المرة التي دخلوا فيها مصر هي المرة الثالثة كما يفيده ما تقدم من سياق الكتاب العزيز .

﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ البضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء

شيء يقال أبضعت الشيء واستبضعته اذا جعلته بضاعة ، وفي المثل كمستبضع التمر إلى هجر ، والإزجاء السوق بدفع .

وقال الواحدي الإزجاء في اللغة السوق والدفع قليلاً قليلاً، ومنه قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً﴾ والمعنى أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار.

قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . قال ابوعبيد : إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة .

قال ابن عباس : دراهم مزجاة أي كاسدة ، وعنه ايضاً مزجاة رثة المتاع خلقة الحبل والغرارة والشيء ، وايضاً الورق الزيوف التي لا تنفق حتى يوضع منها .

وفي القاموس زجاه ساقه ودفعه ومزجاة قليلة أو لا يتم صلاحها ، وفي المصباح زجيته بالتثقيل دفعته برفق .

واختلف في هذه البضاعة ما هي ، فقيل كانت قديداً وحيساً ، وقيل صوف وسمن ؛ وقيل الحبة الخضراء والصنوبر ، وقيل دراهم رديئة زيوف ، وقيل النعال والأدم ، ثم طلبوا منه بعد أن أخبروه بالبضاعة التي معهم أن يوفي لهم الكيل أي يجعله تاماً لا نقص فيه وأن يتصدق عليهم فقالوا :

﴿فأوف لنا الكيل وتصدق علينا﴾ إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم او بالاغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها وان يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها ، وبهذا قال أكثر المفسرين ، وقد قيل كيف يطلبون التصدق عليهم وهم أنبياء والصدقة محرمة عليهم . وأجيب باختصاص ذلك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جريج : معنى قولهم أردد علينا أخانا . وبه قال الضحاك . وقال ابن الأنباري وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة لا نفس الصدقة .

﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ بما يجعله لهم من الثواب الأخروي او التوسيع عليهم في الدنيا قال الضحاك : ولم يقولوا أن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ولما قالوا ذلك لم يتمالك يوسف عليه السلام أن عرفهم نفسه حيث ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، وقد كانوا عالمين بذلك ولكنه أراد ما ذكرناه ويستفاد منه تعظيم الواقعة لكونه في قوة ما أعظم الأمر الذي ارتكبتم من يوسف عليه السلام واخيه ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، والذي فعلوه بيوسف عليه السلام هو ما تقدم مما قصه الله سبحانه علينا في هذه السورة .

وأما ما فعلوا بأخيه فقال جماعة من المفسرين هو ما أدخلوه عليه من الغم بفراق أخيه يوسف عليه السلام وما كان يناله منهم من الاحتقار والإهانة ولم يستفهم عما فعلوا بأبيهم يعقوب مع أنه قد ناله منهم ما قصه الله فيما سبق من صنوف الأذى .

قال الواحدي ؛ ولم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم بفراقه تعظيماً له ورفعاً من قدره ، وعلماً بأن ذلك كان بلاء له من الله عز وجل ليزيد في درجته عنده تعالى .

﴿اذ أنتم جاهلون﴾ نفى عنهم العلم وأثبت لهم صفة الجهل لأنهم لم يعملوا بما يقتضيه العلم ، وقيل انه أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم وتخفيف الأمر عليهم ، فكأنه قال إنما اقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر وقت عدم علمكم بما فيه من الإثم وقصور معارفكم عن عاقبته وما يترتب عليه ، او أراد أنهم عند ذلك في أوان الصبا وزمان الصغر اعتذاراً لهم ودفعاً لما يدهمهم من الخجل والحيرة مع علمه وعلمهم بأنهم كانوا في ذلك الوقت كباراً، وهذا الآية تصديق لقوله تعالى ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ .

﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ قرىء بالاستفهام التقريري وبدونه ، وكان

ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب .

وقيل سبب معرفتهم له بمجرد قوله ﴿ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾ أنهم لما قال لهم ذلك تنبهوا وفهموا أنه لا يخاطبهم بمثل هذا إلا هو ، وقيل إنه لما قال لهم هذه المقالة وضع التاج عن رأسه فعرفوه ، وقيل إنه تبسم فعرفوا ثناياه .

﴿قال أنا يوسف﴾ أجابهم بالاعتراف بما سألوه عنه ، قال ابن الأنباري : أظهر الاسم فقال أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيماً لما وقع له من ظلم إخوته ، كأنه قال أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله ، فاكتفى باظهار الاسم عن هذه المعاني وقال ﴿وهذا أخي﴾ مع كونهم يعرفونه ولا ينكرونه لأن قصده وهذا أخي المظلوم كظلمي ﴿قد منَّ الله علينا﴾ بالخلاص عما ابتلينا به ، وقيل منَّ الله علينا بكل خير في الدنيا والآخرة وقيل بالجمع بيننا بعد التفرق وقيل بالسلامة في ديننا ودنيانا ولا مانع من إرادة جميع ذلك .

﴿إنه من يتق ويصبر﴾ قرىء بالجزم على أن من شرطية وقرىء بإثبات الياء في يتقي وقيل من موصولة لا شرطية وهو بعيد والمعنى من يفعل التقوى او يفعل ما يتقيه من الذنوب ويصبر على المصائب ، وقيل يتقي الزنا ويصبر على العزوبة ، وقيل يتقي المعصية ويصبر على السجن ، وقيل يتقي الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله ، وقيل يتقي الفحشاء ويصبر على الطاعة والعموم أولى ، ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع .

﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ على العموم فيدخل فيه ما يفيده السياق دخولاً أولياً وجاء بالظاهر وكان المقام مقام المضمر أي أجرهم للدلالة على أن الموصوفين بالتقوى موصوفون بصفة الاحسان .

﴿قالوا تالله لقد آثرك﴾ اختارك وفضلك ﴿الله علينا﴾ بما خصك به من صفات الكمال أو بالعلم والعقل أو بالملك قاله الضحاك أو بالصبر قاله ابو صالح أو بالحلم والصفح أو بالحسن ، وقيل بالنبوة وقيل بسائر الفضائل التي أعطاها الله له دون اخوته ، واللفظ أوسع من ذلك ويدخل فيه ما ذكر دخولاً

أوليـاً، وهذا اعتراف منهم بفضله وعظيم قدره قيل ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا أنبياء، فإن درجة الأنبياء متفاوتة قال الله تعالى ﴿تلك الرسـل فضلنا بعضهم على بعض﴾ ويستعار آثر للفضل والإيثار للتفضيل .

﴿وإن كنا لخاطئين﴾ أي وإن الشأن كذلك ، قال ابو عبيدة : خطأ واخطأ واحد ، وقال الازهري : المخطىء من اراد الصواب فصار الى غيره . ومنه قولهم المجتهد يخطىء ويصيب والخاطىء من تعمد ما لا ينبغي ، قالوا هذه المقالة المتضمنة للاعتراف بالخطأ والـذنب استجلابـا لعفوه واستجـذاباً لصفحه ، وقيل آثر لفظ خاطئين على مخطئين موافقة لرؤوس الآي .

﴿قال لا تثريب﴾ التثريب التعيير والتوبيخ أي لا لوم ﴿عليكم اليوم﴾ قال الاصمعي : ثربت عليه قبحت عليه فعله ، وقال الزجاج : المعنى لا افساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الاخوة ولكم عندي الصفح والعفو ، وأصل التثريب الإفساد وهي لغة أهل الحجاز ، وقال ابن الأنباري : معناه قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب .

قال ثعلب : ثرب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة التثريب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع أي لا تثريب مستقر أو ثابت عليكم .

وقد جوز الأخفش الوقف على ﴿عليكم﴾ فيكون اليوم متعلقـاً بالفعل الذي بعده وقد ذكر مثل هذا ابن الأنباري عن عكرمة قال لا تثريب لا تعيير ، واخرج أبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة التفت إلى الناس فقال ماذا تقولون وماذا تظنون فقالوا : ابن عم كريم فقال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم[1] .

ثم دعا لهم بقوله ﴿يغفر الله لكم﴾ على تقدير الوقف على اليوم وهو بمنزلة التعليل او أخبرهم بأن الله قد غفر لهم ذلك اليوم على تقدير الوقف على

(١) أنظر كامل القصة في سيرة ابن هشام ٥٤/٤، ٥٥؛ طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٥ هـ، ١٩٣٦ م.

عليكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم .

قال عطاء الخراساني : طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ألم تر إلى قول يوسف عليه السلام ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ وقال يعقوب ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ .

أقول وفي هذا الكلام نظر فإنهم طلبوا من يوسف عليه السلام أن يعفو عنهم لقولهم ﴿لقد آثرك الله علينا﴾ فقال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ لأن مقصودهم صدور العفو منه عنهم وطلبوا من أبيهم يعقوب أن يستغفر الله لهم وهو لا يكون إلا بطلب ذلك منه إلى الله عز وجل وبين المقامين فرق ، فلم يكن وعد يعقوب لهم بخلاً عليهم بسؤال الله لهم ولا سيما اذا صح ما تقدم من أنه أخر ذلك الى وقت الإجابة فإنه لو طلبه لهم في الحال لم يحصل له علم بالقبول .

واخرج الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه قال : لما كان من أمر إخوة يوسف عليه السلام ما كان كتب يعقوب إلى يوسف عليه السلام وهو لا يعلم أنه يوسف عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم إلى عزيز آل فرعون سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد فإنّا أهل بيت مولع بنا أسباب البلاء كان جدي ابراهيم خليل الله ألقي في النار في طاعة ربه فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وأمر الله جدي أن يذبح له أبي[1] ففداه الله بما فداه، وكان لي ابن وكان أحب الناس إليَّ ففقدته فأذهب حزني عليه نور بصري وكان له أخ من أمه كنت اذا ذكرته ضممته إلى صدري فأذهب على بعض وجدي وهو المحبوس عندك في السرقة وإني أخبرك لم أسرق، ولم ألد سارقاً، فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب بكى وصاح وقال:

(١) الصحيح والقول الراجح أن الذبيح هو نبي الله إسماعيل وهو الابن الأكبرللخليل صلّى الله عليه وسلم.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿اذهبوا بقميصي﴾ الباء للتعدية او اذهبوا معكم قميصي و ﴿هذا﴾ نعت له او بيان او بدل قيل هو القميص الذي ألبسه الله ابراهيم لما أُلقي في النار وكساه ابراهيم اسحاق وكساه اسحاق يعقوب ، وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قصب وعلقه في عنق يوسف عليه السلام لما كان يخاف عليه من العين ، فأخبر جبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ليعود عليه بصره لأن فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ، ولا مُبْتَلّى إلا عوفي.

قال ابن عباس : ولو علم إخوته إذ ألقوه في الجب لأخذوه فلما أراد الله أن يرد يوسف عليه السلام على يعقوب وكان بين رؤياه وتعبيره أربعون سنة أمر البشير أن يبشره من ثمان مراحل فوجد يعقوب ريحه ، وليس يقع شيء من الجنة على عاهة من عاهات الدنيا إلا أبرأها بإذن الله .

﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا﴾ المعنى يصير بصيراً على أن يأت هي التي من أخوات كان ، قال الفراء : يرجع بصيراً ، وقال السدي : يعود بصيراً ويشهد له ﴿فارتد بصيراً﴾ قيل كان ذلك بوحي الله وقيل بعث اليه قميصه ليزول بكاؤه وينشرح صدره ، قال يهوذا أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء قيل حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً وقيل معناه يأت إليّ إلى مصر وهو بصير قد ذهب عنه العمى .

ويؤيده قوله ﴿وأْتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي جميع من شمله لفظ الأهل

من النساء والذراري ، قيل كانوا نحو سبعين وقيل ثلاثة وتسعين .

﴿ولما فصلت العير﴾ أي خرجت منطلقة من عريش مصر أو من مصر الى الشام ، يقال فصل فصولاً وفصلته فصلاً لازم ومتعد . ويقال فصل من البلد فصولاً اذا انفصل عنه وخرج منه وجاوز حيطانه .

﴿قال أبوهم﴾ يعقوب لمن عنده في أرض كنعان من أهله ﴿اني لأجد ريح يوسف﴾ أي أدركها بحاسة الشم أي أشمها أي ريح الجنة من قميص يوسف عليه السلام ، فالاضافة لأدنى ملابسة .

قيل إنها هاجت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة في الدنيا فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة فأخبرهم بما وجد . قال ابن عباس : وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ، وقيل من مسيرة عشرة أيام ؛ وقيل من مسيرة ثمانين فرسخاً .

ثم قال ﴿لولا أن تفندون﴾ أي لولا ان تنسبوني الى الفند وهو ذهاب العقل من الهرم ، يقال أفند الرجل اذا خرف وتغير عقله قاله مجاهد ، وقال ابو عبيدة : لولا أن تسفهون فجعل الفند السفه .

وقال الزجاج وابن عباس : لولا أن تجهلون فجعل الفند الجهل ، وقال أبو عمرو الشيباني : التفنيد التقبيح ، وقيل هو الكذب ، قاله ابن عباس ، وقال ابن الأعرابي : لولا أن تضعفوا رأيي . وروى مثله عن ابي عبيدة ، وقال الأخفش : التفنيد اللوم وضعف الرأي .

وكل هذه المعاني راجع الى التعجيز وتضعيف الرأي ، يقال فنده تفنيداً إذا اعجزه التعجيز وافند إذا تكلم بالخطأ ، والفند الخطأ من الكلام . وعن الربيع

قال: لولا أن تحمقون، أخبرهم يعقوب بأن الصَّبا قد حملت إليه ريح حبيبه وأنه لولا ما يخشاه من التفنيد لما شك في ذلك:

فإن الصبا ريح اذا ما تنفست ... على نفس مهموم تجلت همومها
اذا قلت هذا حين أسلو يهيجني ... نسيم الصبا من حيث ما يطلع الفجر
ولقد تهب لي الصبا من أرضها ... فيلذ مسّ هبوبها ويطيب

قيل إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف عليه السلام قبل ان يأتيه البشير.

قال أهل المعاني: إنّ الله أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في مدة المحنة صعب، وكل صعب فهو في زمان الاقبال سهل.

﴿قالوا﴾ أي قال الحاضرون عنده من أهله ﴿تالله إنك﴾ يايعقوب ﴿لفي ضلالك﴾ ذهابك ﴿القديم﴾ عن طريق الصواب الذي كنت عليه قديماً من إفراط حبك ليوسف عليه السلام ورجاء لقائه على بعد العهد لا تنساه ولا تفتر عنه، ولسان حال يعقوب يقول لهم:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها
لا تعذل المشتاق في أشواقه ... حتى تكون حشاك في أحشائه

وقيل الضلال الجنون قاله سعيد بن جبير، وقيل أنك في محبتك القديمة، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: في خطئك القديم، قالوا له ذلك لأنه لم يكن قد بلغهم قدوم البشير وكان عندهم أن يوسف قد مات وهلك.

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بين يدي العير قال ابن عباس : البشير البريد ، وعن الضحاك مثله ، قال المفسرون البشير هو يهوذا بن يعقوب قال لأخيه أنا جئته بالقميص ملطخاً بالدم فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنـك حي فأفرحه كما أحزنته وبه قال سفيان .

﴿ألقاه على وجهه﴾ أي ألقى البشير قميص يوسف عليه السلام على وجه يعقوب أو ألقـاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فارتد﴾ الارتداد انقلاب الشيء الى حال قد كان عليها ، والمعنى عاد ﴿بصيراً﴾ ورجع الى حالته الأولى من صحة بصره وقوته وسروره . وعن الحسن قال : لما أن جاء البشير الى يعقوب فألقى عليه القميص قال على أي دين خلفت يوسف ؟ قال على الإسـلام، قال الآن تمت النعمة .

﴿قال﴾ يعقوب لمن كان عنده من أهله الذين قال لهم إني لأجد ريح يوسف عليه السلام ﴿ألم أقل لكم﴾ هذا القول فقلتم ما قلتم ، ويكون قوله ﴿إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ كلاماً مبتدأً لا يتعلق بالقول ، ويجوز أن

تكون الجملة مقول القول ويريد بذلك إخبارهم بما قاله لهم سابقاً إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، والمعنى أعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام وأن الله يجمع بيننا .

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم واعترفوا بالذنب ؛ وفي الكلام حذف والتقدير لما رجعوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم ، قالوا هذا القول اعتذاراً عما حصل منهم فوعدهم بما طلبوه منه و ﴿قال سوف استغفر لكم ربي﴾ قال الزجاج أراد يعقوب أن يستغفر لهم في وقت السحر لأنه أخلق بإجابة الدعاء لا أنه بخل عليهم بالاستغفار . قاله ابن مسعود .

وقال ابن عباس : أخرهم إلى السحر ، وكان يصلي لأن دعاء السحر مستجاب . واخرج ابن جرير وابو الشيخ عنه ايضاً قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة «هو قول أخي يعقوب لبنيه سوف استغفر لكم ربي، يقول حتى تأتي ليلة الجمعة[1]» .

قيل أخره إلى ليلة الجمعة لأنها اشرف الأوقات ، وقيل أخره الى أن يستحل لهم من يوسف عليه السلام ولم يعلم انه قد عفا عنهم أو ليعرف حالهم في صدق التوبة ، وجملة ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ تعليل لما قبلها .

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ لعل في الكلام محذوفاً مقدراً وهو فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر فلما دخلوا على يوسف عليه السلام وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة .

وقال مسروق : كانوا ثلاثة وسبعين ، قيل وكان دخولهم يوم عاشوراء ،

---

(١) ابن كثير ٢/٤٩٠ .

وكانوا حين خرجوا من مصر مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف ، قاله القرطبي ، فقد بورك فيهم كثيراً حتى بلغوا هذا العدد في مدة موسى مع أن بينه وبين يوسف عليه السلام أربعمائة سنة كما في التحبير .

قال أبو هريرة : دخل يعقوب مصر في ملك يوسف عليه السلام وهو ابن مائة وثلاثين سنة وعاش في ملكه ثلاثين سنة ومات يوسف عليه السلام وهو ابن مائة وعشرين سنة، قال ابو هريرة : وبلغني أنه كان عمر ابراهيم خليل الله مائة وخمسة وتسعين سنة .

﴿آوى اليه أبويه﴾ أي ضمهما وأنزلهما عنده ، قال المفسرون المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف عليه السلام لأن أمه قد ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين ، وقيل أحيى الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له ، وبه قال قتادة وسفيان بن عيينة .

قال الخازن : والأول هو المعتمد وهذا مبني على أنه تزوج راحيل في حياة اختها ليا ، قال الحفناوي وهذا قول ضعيف وأن الراجح أن ليا ماتت قبل أن يتزوج راحيل ، وعلى هذا فلعله كانت لهما اخت ثالثة تزوجها يعقوب بعدهما وأدركت هذه القضية انتهى ، وقيل كانت أمه باقية فلا حاجة إلى التأويل وهو الأولى بظاهر النظم القرآني .

﴿وقال ادخلوا مصر﴾ أي للاقامة بها ﴿إن شاء الله آمنين﴾ على أنفسكم وأهليكم مما تكرهونه من القحط وأصناف المكاره ، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجوار منهم ، وقيل والتقييد بالمشيئة عائد إلى الدخول مع الأمن ولا مانع من عوده إلى الجميع لأن دخولهم لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه كما أنهم لا يكونون آمنين إلا بمشيئته .

وقيل إن التقيد بالمشيئة راجع إلى قوله عليه السلام: سوف استغفر لكم ربي ، وهو بعيد جداً وظاهر النظم القرآني أن يوسف عليه السلام قال لهم هذه المقالة أعني ادخلوا مصر قبل دخولهم ، وقد قيل في توجيه ذلك أنه تلقاهم الى خارج مصر فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة فدخلوا عليه فآوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ، فلما دخلوا مصر دخلوا عليه دخولاً آخر في المكان الذي له بمصر فهذا الدخول غير الأول .

ولمصر فضائل كثيرة ذكرها المقريزي في الخطط منها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرة تارة بصريح الذكر وتارة ايماء وقال ابن عباس سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن وقد جاء في فضل مصر أحاديث أوردها المقريزي في تاريخه ، ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ومن شاء أن يطلع على مواقع مصر ومجرياتها فعليه ان ينظر في الخطط وفي حسن المحاضرة للسيوطي .

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه كما هي عادة الملوك قال ابن عباس : العرش السرير والرفع النقل إلى العلو ﴿وخروا﴾ أي الأبوان والاخوة ﴿له﴾ أي ليوسف عليه السلام ﴿سجداً﴾ وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزل التحية ، وقيل لم يكن ذلك سجوداً بل هو مجرد ايماء وانحناء وكانت تلك تحيتهم وهو يخالف معنى خروا له سجداً فإن الخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض .

وقيل الضمير في له راجع الى الله سبحانه أي وخروا لله سجداً وهو بعيد جداً وقيل ان الضمير ليوسف عليه السلام واللام للتعليل أي وخروا لأجله وفيه ايضاً بعد ، قال عدي بن حاتم في الآية كانت السجدة تحية من كان قبلكم فأعطاكم الله السلام مكانها ، وعن قتادة نحوه ، وعن ابن زيد قال ذلك سجود تشرفة كما

سجدت الملائكة تشرفة لآدم وليس سجود عبادة وكان ذلك بأمر الله لتحقيق رؤياه .

﴿وقال﴾ يوسف عليه السلام ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي﴾ التي تقدم ذكرها ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا الوقت في حال الصغر ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صدقاً بوقوع تأويلها في اليقظة على ما دلت عليه قيل وكان بين الرؤيا والتأويل اربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو اثنتان وعشرون ، وقيل خمس وثلاثون ، وقيل سبعون حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزي والله أعلم كم كان بينهما .

﴿وقد أحسن بي﴾ الأصل أن يتعدى فعل الإحسان بإلى وقد يتعدى بالباء كما في قوله وبالوالدين إحساناً ويقال بي وإليّ بمعنى واحد ، وقيل انه ضمن احسن معنى لطف أي لطف بي محسناً ﴿اذ أخرجني من السجن﴾ بعدما ابتليت به ، ولم يذكر اخراجه من الجب ، لأن في ذكره نوع من تثريب وتخجيل للاخوة وقد قال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ وقد تقدم سبب سجنه ومدة بقائه فيه .

وقد قيل إن وجه عدم ذكر اخراجه من الجب أن المنة كانت في اخراجه من السجن أكبر من المنة في اخراجه من الجب لأن دخوله الجب كان بحسد اخوته ودخوله السجن بسبب تهمة المرأة فإخراجه من السجن كان لزوال التهمة عنه ، وكان ذلك من أعظم نعمه سبحانه عليه وفيه بعد وضعف ، وقيل لأن اخراجه من السجن كان سبباً لوصوله الى الملك ، أو لأن مصيبة السجن عنده كانت أعظم لطول مدتها ولمصاحبة الأوباش واعداء الدين فيه بخلاف مصيبة الجب لقصر مدتها ولكون المؤنس له فيها جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة .

﴿وجاء بكم من البدو﴾ أي البادية أي ارض كنعان بالشام وكانوا أهل

مواشي وبرية فسكنوا البادية ، وقيل أن يعقوب عليه السلام تحول إلى البادية بعد النبوة لأن الله لم يبعث نبياً من البادية وأن المكان الذي كان فيه يعقوب يقال له بدا وفيه نظر والبدو هو البسيط من الأرض والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة ، قال الخفاجي البادية والبدو بمعنى ، قيل سميت به لأن مافيها يبدو للناظر لعدم ما يواريه .

﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي﴾ أي بعد أن أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض يقال نزغه إذا نخسه وأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها وأحال يوسف ذنب اخوته على الشيطان تكرماً منه وتأدبا ﴿إنّ ربي لطيف﴾ قال الازهري : هو من أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده يقال لطف فلان بفلان يلطف اذا رفق به .

وقال عمرو بن أبي عمرو : اللطيف الذي يوصل اليك أَرَبَكَ[1] في لطف ، قال الخطابي ؛ اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، وقيل اللطيف العالم بدقائق الأمور ، قال قتادة : لطف بيوسف عليه السلام وصنع له حين أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو ونزع من قلبه نزع الشيطان وتحريشه على اخوته .

﴿لما يشاء﴾ أي لأجل ما يشاء حتى يجيء على وجه الصواب ﴿إنه هو العليم﴾ بأموره ﴿الحكيم﴾ في أفعاله .

---

(١) الإِرْبَةُ، والأَرَبُ: الحاجة (مجمل اللغة لابن فارس /٩٣؛ تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.)

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

ولما أتمّ الله نعمته على يوسف عليه السلام بما خلصه من المحن العظيمة، وبما خوله من الملك وعلمه من العلم، تاقت نفسه إلى الخير الأخروي الدائم الذي لا ينقطع فقال ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ من للتبعيض أي بعض الملك لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكاً خاصاً وهو ملك مصر في زمن خاص، وقيل زائدة، وقيل لبيان الجنس، والملك عبارة عن الاتساع في الشيء المقدور لمن له السياسة والتدبير ولم يملك جميع أقطار الأرض إلا أربعة: اثنان مسلمان اسكندر وسليمان، وإثنان كافران بختنصر وشداد بن عاد.

قلت وسيملك خامس وهو عيسى بن مريم حين ينزل من السماء إلى الأرض كما وردت به الأحاديث الصحيحة.

﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي بعضها لأنه لم يعط جميع علم التأويل سواء أريد به مطلق العلم والفهم أو مجرد تأويل الرؤيا، وقيل من للجنس كما في قوله تعالى فاجتنبوا الرجس من الأوثان وقيل زائدة كما تقدم.

﴿فاطر السموات والارض﴾ أي يا فاطرهما أو منتصب بإضمار أعني أو على أنه صفة لرب أو بدل أو بيان، والفاطر الخالق والمنشيء والمخترع والمبدع

﴿أنت وليي﴾ أي ناصري ومتولي أموري ﴿في الدنيا والآخرة﴾ تتولاني فيهما .

﴿توفني مسلماً﴾ أي على الاسلام لا يفارقني حتى أموت ، قيل إنه دعا بذلك مع علمه بأن كل نبي لا يموت إلا مسلماً إظهاراً للعبودية والافتقار وشدة الرغبة في طلب سعادة الخاتمة وتعليماً لغيره ، وهذه حالة زائدة على الاسلام الذي هو ضد الكفر ؛ والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى ، قاله الرازي والخطيب والكرخي .

قال ابن عباس : ما سأل نبي الوفاة غير يوسف عليه السلام اشتاق إلى لقاء الله واحب أن يلحق به وبآبائه ، فدعا الله أن يتوفاه ﴿و﴾ قال ﴿ألحقني بالصالحين﴾ من النبيين من آبائي وغيرهم فأظفر بثوابهم منك ودرجاتهم عندك ، قال الضحاك : يعني إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ، وقال عكرمة : يعني أهل الجنة .

قيل إنه لما دعا بهذا الدعاء توفاه الله عز وجل ولم يأت عليه اسبوع بعد هذا الدعاء ، قيل كان عمره عند أن ألقي في الجب سبع عشرة سنة ، وكان في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة إلى قدوم ابيه يعقوب ، ثم عاش بعد اجتماع شملهم حتى كمل عمره المقدار الذي سيأتي وتوفاه الله .

وليس في اللفظ ما يدل أنه طلب الوفاة في الحال ولهذا ذهب الجمهور الى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال وانما دعا ربه أن يتوفاه على دين الاسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله .

وقد عاش بعد ذلك سنين كثيرة وولد له من امرأة العزيز ثلاثة أولاد إفراثيم وميشا ورحمة امرأة ايوب ، ولما مات دفنوه في أعلى النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر لتعم البركة جانبيه ، فسبحان من لا انقضاء لملكه ، فبقي اربعمائة سنة إلى أن أخرجه موسى وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الأرض المقدسة فهو الآن هناك .

﴿ذلك﴾ المذكور من أمر يوسف أي قصته وما جرى له مع اخوته وما

صار اليه من الملك بعد الرق ﴿من أنباء الغيب﴾ أخباره ﴿نوحيه إليك﴾ خبر ثان ، قال الزجاج : ويجوز ان يكون ﴿ذلك﴾ بمعنى الذي أي الذي من أنباء الغيب نوحيه اليك والمعنى الاخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن هذا الذي قصه عليه من أمر يوسف واخوته من الاخبار التي كانت غائبة عنه فأوحاه الله اليه واعلمه به ، ولم يكن عنده قبل الوحي شيء من ذلك .

وفيه تعريض ساطع بكفار قريش لأنهم كانوا مكذبين له صلى الله عليه وسلم بما جاء به جحوداً وعناداً وحسداً مع كونهم يعلمون حقيقة الحال، ودليل قاطع على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً بحتاً لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى غير بلده الذي نشأ فيه ، ومع ذلك أتى بهذه القصة الطويلة على أحسن تركيب وأفصح عبارة فعلم ان اتيانه بها بوحي من الله سبحانه وتعالى .

﴿وما كنت لديهم﴾ أي لدى إخوة يوسف وهو تعليل لكل من الخبرين ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ إجماع الأمر العزم عليه أي إذ عزموا جميعاً على إلقائه في الجب ﴿وهم﴾ أي بنو يعقوب في تلك الحالة ﴿يمكرون﴾ بيوسف عليه السلام في هذا الفعل الذي فعلوه به ويبغونه الغوائل أو يمكرون بيعقوب حين جاءوه بقميص ملطخاً بالدم وقالوا أكله الذئب .

وإذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لديهم عند أن فعلوا ذلك انتفى علمه بذلك مشاهدة ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة ، ولا خالطهم ولا خالطوه ، فانتفى علمه بذلك بطريق الرواية عن الغير ، فلم يبق بعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه فهذا يستلزم الايمان بما جاء به .

فلما لم يؤمن بذلك من عاصره من الكفار قال الله سبحانه ذاكراً لهذا ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾ على هدايتهم وبالغت في ذلك ﴿بمؤمنين﴾ بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم ، يقال حرص يحرص مثل ضرب

يضرب وفي لغة ضعيفة مثل حمد يحمد ، والحرص طلب الشيء باجتهاد والاسم الحرص بكسر وحرص حرصاً من باب تعب لغة إذا رغب رغبة مذمومة .

وقال الزجاج : معناه ما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على ان تهديهم ، لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، قال ابن الأنباري : ان قريشاً واليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف واخوته فشرحها شرحاً شافياً وأتى بها على وفق ما عندهم في التوراة، وهو يأمل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنه ولم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فعزاه الله بقوله وما أكثر الناس . الآية .

﴿وما تسألهم عليه﴾ أي على القرآن وما تتلوه عليهم منه أو على الإيمان وحرصك على وقوعه منهم أو على ما تحدثهم به من هذا الحديث ﴿من أجر﴾ من مال يعطونك إياه ويجعلونه لك كما يفعله أحبارهم ﴿إن هو﴾ أي القرآن أو الحديث الذي حدثتهم به ﴿إلا ذكر للعالمين﴾ كافة قاطبة لا يختص بهم وحدهم وهذا كالتعليل لما قبله لأن الوعظ العام ينافي أخذ الأجر من البعض .

﴿وكأين من آية﴾ قال الخليل وسيبويه ان كأين أصلها (أي) دخل عليها كاف التشبيه لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الافرادي وصار المجموع باسم واحد بمعنى كم الخبرية التكثيرية والأكثر ادخال من في مميزة وهو تمييز عن الكاف لا عن أي كما في مثلك رجلاً .

والمعنى كم من آية كائنة ﴿في السموات﴾ من كونها منصوبة بغير عمد مزينة بالكواكب النيرة السيارة والثوابت ﴿والأرض﴾ من جبالها وقفارها وبحارها ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه ، وأنه الخالق لذلك والرازق له المحيي المميت .

قال الضحاك : كم من آية في السماء ، يعني شمسها وقمرها ، ونجومها وسحابها ، وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور

ولكن أكثر النّاس ﴿يمرون عليها﴾ أي على هذه الآيات غير متأملين لها ولا متفكرين فيها ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها ، وفي مصحف عبد الله يمشون عليها ، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآثار والعبر .

﴿وهم عنها معرضون﴾ وان نظروا اليها بأعيانهم فقد أعرضوا عما هو الثمرة للنظر بالحدقة وهي التفكر والاعتبار والاستدلال .

﴿وما يؤمن﴾ أي ما يصدق ﴿أكثرهم﴾ أي أكثر الناس ﴿بالله﴾ من كونه الخالق الرازق المحيي المميت ﴿إلا وهم مشركون﴾ بالله يعبدون معه غيره .

أقول إن إيضاح ما تضمنه هذه الآية يتوقف على ايضاح ما ذكره أهل التفاسير المعتبرة وينحصر ذلك في وجوه اثني عشر ، وينضم الى ذلك ما ذكرته أنا فيكون الوجوه ثلاثة عشر .

الوجه الأول: ان أهل الجاهلية كانوا يقرون بأن الله سبحانه خالقهم ورازقهم ويعبدون غيره من أصنامهم وطواغيتهم ، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ لكنهم كانوا يثبتون له شركاء فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله كما قالوا ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى﴾ ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله . والمعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه الا الله سبحانه كما يفعله كثير من عباد القبور .

فهذا الاقرار الصادر منهم بأن الله عز وجل خالقهم ورازقهم هو يصدق عليه انه ايمان بالمعنى الاعم أي تصديق لا بالمعنى الاخص أعني ايمان المؤمنين ، فهذا الايمان الصادر منهم واقع في حال الشرك فقد آمنوا حال كونهم مشركين ، والى هذا الوجه ذهب جمهور المفسرين ، ولكنهم لم يذكروا ما ذكرناه

ههنا من تقريره بكونه ايماناً بالمعنى الأعم ولا بد من ذلك حتى يستقيم الكلام ويصدق عليه مسمى الإيمان .

الوجه الثاني : ان المراد بالآية المنافقون لأنهم كانوا يظهرون الايمان ويبطنون الشرك فما كانوا يؤمنون ظاهراً الا وهم مشركون باطناً . وروي هذا عن الحسن البصري .

الوجه الثالث : انهم أهل الكتاب يؤمنون بكتابهم ويقلدون علماءهم في الكفر بغيره ويقولون المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، فهم يؤمنون بما أنزل الله على أنبيائهم حال كونهم مشركين .

الوجه الرابع: ان المقصود بذلك ما كان يقع في تلبية العرب من قولهم لبيك لا شريك لك الا شريكاً هو لك ، فقد كانوا في هذه التلبية يؤمنون بالله وهم مشركون . روي نحو ذلك عن ابن عباس .

الوجه الخامس: ان المراد بهذه الآية المراؤون من هذه الأمة لان الرياء هو الشرك المشار اليه بقوله صلى الله عليه وسلم : «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل»[1] فالمراؤون آمنوا بالله حال كونهم مشركين بالرياء . وأخرج أحمد في المسند من حديث محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء[2] ، يقول الله يوم القيامة : اذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

الوجه السادس: ان المراد بالآية من نسي ربه في الرخاء وذكره عند الشدائد روى ذلك عن عطاء ، وفيه انه لا يصدق على ذلك انه آمن بالله حال كونه مشركاً الا أن يجعل مجرد نسيان الذكر والدعاء عند الرخاء شركاً مجازاً كأنه بنسيانه وتركه للدعاء قد عبد إلهاً آخر وهو بعيد، على انه لا يمكن

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٣٦٢٤ .

(٢) أحمد بن حنبل ٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

اجتماع الأمرين لأنه حال الذكر والدعاء غير متصف بالنسيان وترك الذكر ، وقد تقرر أن الحال قيد في عاملها الا أن يعتبر بما كان عليه الشيء فإن ذلك أحد العلاقات المصححة للتجوز ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾ .

الوجه السابع : أن المراد من أسلم من المشركين فإنه كان مشركاً قبل إيمانه حكم بذلك الحاكم في تفسيره وتقريره انه ما يؤمن أحدهم بالله الا وقد كان مشركاً قبل ايمانه والكلام فيه كالكلام في الوجه الذي قبله ، والجواب الجواب .

الوجه الثامن : ان المراد بالشرك ههنا ما يعرض من الخواطر والأحوال حال الايمان ، قاله الواسطي كما حكاه عنه البقاعي ، وفيه أن هذه الخواطر والأحوال ان كانت مما يصدق عليه الشرك الأكبر أو الأصغر فذاك وان كانت خارجة عن ذلك فهو فاسد .

الوجه التاسع : انهم الذين يشبهون الله بخلقه ، رواه الكشاف عن ابن عباس وتقريره انهم آمنوا بالله حال تشبيههم له بما يكون شركاً أو يؤول الى الشرك .

الوجه العاشر : هو ما تقوله القدرية من اثبات القدرة للعبد حكاه النسفي في مدارك التنزيل. وتقريره انهم آمنوا بالله حال اثباتهم ما هو مختص به لغيره وهو شرك أو منزل منزلة الشرك .

الوجه الحادي عشر : ما قاله محيي الدين بن عربي في تفسيره أن أكثر الناس انما يؤمنون بغير الله ويكفرون بالله دائماً ، ففي بعض الأحيان يشركون الله سبحانه مع ذلك الإلـٰـه الذي هم مؤمنون به فلا يؤمن أكثرهم بالله الا حال كونه مشركاً ، وفيه أن ظاهر النظم القرآني ان الايمان بالله والشرك بتشريك غيره معه لا يكون الا بتشريكه مع غيره وبين المعنيين فرق .

الوجه الثاني عشر : ذكره ابن كثير في تفسيره ، وهو أن ثمة شركاً خفياً

لا يشعر به غالب الناس ممن يفعله ، كما روى عن حذيفة انه دخل على مريض يزوره فرأى في عضده سيراً فقطعه وانتزعه ثم قال : «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن عمر مرفوعاً «من حلف بغير الله فقد أشرك»[1] .

وأخرج أحمد وأبو داود من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان الرقى والتمائم والتولة شرك»[2] وفي لفظ لهما : الطيرة شرك وما منا الا . ولكن الله يذهبه بالتوكل .

وروى أحمد في المسند عن عدي بن عبد الرحمن قال دخلت على عبد الله ابن حكيم وهو مريض فقيل له لو تعلقت فقال أتعلق شيئاً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من تعلق شيئاً وكل إليه»[3]، ورواه النسائي عن أبي هريرة .

وفي المسند عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من علق تميمة فقد أشرك»[4] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه)[5].

وروى أحمد وغيره من حديث غيره ؛ وفي المسند أيضاً من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك قال ان يقول أحدهم : «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»[6].

وأخرج أحمد من حديث أبي موسى قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٦٠٨٠ .
(٢) صحيح الجامع الصغير/ ١٦٢٨ .
(٣) ابن كثير ٢/٤٩٤ .
(٤) صحيح الجامع الصغير ٦٢٧٠ .
(٥) مسلم ٢٩٨٥ .
(٦) صحيح الجامع الصغير ٦١٤٠ .

وسلم ذات يوم فقال يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، ثم قالوا له كيف نجتنبه وهو أخفى من دبيب النمل ؟ قال قولوا:«اللهم انا نعوذ بك ان نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه» وقد روي من حديث غيره[1] .

إذا عرفت ما تضمنته كتب التفسير من الوجوه التي ذكرناها وعرفت تقريرها على الوجه الذي قررناه فاعلم ان هذه الأقوال إنما هي اختلاف في سبب النزول وأما النظم القرآني فهو صالح لحمله على كل ما يصدق عليه مسمى الايمان مع وجود مسمى الشرك ، والاعتبار بما يفيده اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في مواطنه .

فيقال مثلاً في أهل الشرك انه ما يؤمن أكثرهم بأن الله هو الخالق الرازق الا وهو مشرك بالله بما يعبده من الأصنام ، ويقال فيمن كان واقعاً في شرك من الشرك الخفي وهو من المسلمين انه ما يؤمن بالله إلا وهو مشرك بذلك الشرك الخفي ، ويقال مثلاً في سائر الوجوه بنحو هذا على التقرير الذي قررناه سابقاً ، وهذا يصلح ان يكون وجهاً مستقلاً وهو أوجهها وأرجحها فيما أحسب وان لم يذكره أحد من المفسرين .

فما قيل من انه يشكل وجود اتصافهم بالإيمان في حال تلبسهم بالشرك استشكال واقع موقعه ، وسؤال حال محله ، وجوابه قد ظهر مما سبق فإنه يقال مثلاً ان أهل الجاهلية كان ايمانهم المجامع للشرك هو مجرد الاقرار بأن الله هو الخالق الرازق وهو لا ينافي ما هم عليه من الشرك .

وكذلك يقال ان أهل الاسلام كان شرك من وقع منهم في شيء من الشرك الخفي الأصغر غير مناف لوجود الايمان منهم لأن الشرك الأصغر لا يخرج به فاعله عن مسمى الايمان ولهذا كانت كفارته ان يتعوذ بالله من ان يشرك وان يقول في الطيرة اللهم لا طير إلا طيرك ولا إله غيرك .

---

(١) احمد بن حنبل ٤٠٢/٤ .

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم
مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا
يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

فقد صح بهذا انه اجتمع الايمان الحقيقي والشرك الخفي في بعض المؤمنين ، واجتمع الايمان بالمعنى الأعم والشرك الحقيقي في أهل الجاهلية ، وكذا يقال في أهل الكتاب انه اجتمع فيهم الإيمان بما أنزل الله على أنبيائهم والاشراك بجعل بعض المخلوقين أبناء لله عز وجل وهكذا في بقية الوجوه .

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ الاستفهام للانكار والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هي الساعة ، وقيل الصواعق والقوارع ، وقيل وقيعة تغشاهم ، قاله قتادة ، وقيل نقمة تشملهم ولا مانع من الحمل على العموم .

﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي فجأة من غير سابقه علامة والنصب على الحال قال المبرد جاء عن العرب حال بعد نكرة وهو قولهم وقع أمر بغتة يقال بغتهم الأمر بغتاً وبغتة إذا فاجأهم .

﴿وهم لا يشعرون﴾ باتيانها قيل تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم غير مستعدين لها .

﴿قل﴾ يا محمد للمشركين ﴿هذه﴾ الدعوة التي أدعو اليها والطريقة

التي أنا عليها ﴿سبيلي﴾ طريقي وسنتي وفسر ذلك بقوله : ﴿أدعو إلى الله على بصيرة﴾ أي على حجة واضحة والبصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل ﴿أنا ومن اتبعني﴾ أي ويدعو اليها من اتبعني واهتدى بهديي ، قال الفراء : والمعنى ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو.

وفي هذا دليل على ان كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حق عليه ان يقتدي به في الدعاء إلى الله أي الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده والعمل بما شرعه لعباده ، قال ابن الأنباري : ويجوز ان يتم الكلام عند قوله أدعو إلى الله ، ثم ابتدأ فقال على بصيرة أنا ومن اتبعني ، قال قتادة على بصيرة أي على هدى .

﴿و﴾ أسبح ﴿سبحان الله﴾ أي وأنزه تنزيهاً له عما لا يليق بجلاله من جميع النقائص والشركاء والاضداد والانداد ﴿وما أنا من المشركين﴾ بالله الذين يتخذون من دونه أنداداً .

﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ هذا رد على من قال لولا أنزل عليه ملك أي لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم ﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، قاله ابن عباس ، فكيف ينكرون إرسالنا إياك ، وتدل الآية على ان الله سبحانه لم يبعث نبياً من السماء ولا من الجن ، وهذا يرد على من قال ان في النساء أربع نبيات حواء وآسية وأم موسى ومريم .

وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب حتى ، قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة :

أضحت نبيتنا انثى فطيف بها ... وأصبحت أنبياء الله ذكرانا
فلعنة الله والأقوام كلهم ... على سجاح ومن باللوم أغرانا

﴿نوحي إليهم﴾ كما نوحي إليك، وقرىء بالياء مبنياً للمفعول ﴿من أهل القرى﴾ أي المدائن والأمصار دون أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على البدو

ولكون أهل الأمصار أتم عقلاً وأكمل حلماً وأحسن علماً وأجل فضلاً .

قال قتادة : ما نعلم ان الله أرسل رسولاً قط إلا من أهل القرى لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل المعمور ، وقال الحسن : لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء .

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أفلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فينظروا إلى مصارع الأمم الماضية فيعتبروا بهم وما حل بهم من عذاب الله حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب . قال الحسن : أي كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التي عذبها .

﴿ولدار﴾ الساعة ﴿الآخرة﴾ أو الحالة الآخرة أو الحياة الآخرة على حذف الموصوف . وقال الفراء : إن الدار هي الآخرة ، وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ كيوم الجمعة وصلاة الأولى ومسجد الجامع ، والكلام في ذلك مبين في كتب الإعراب ، والمراد بهذه الدار الجنة ، وقرىء للدار الآخرة ﴿خير﴾ من دار الدنيا ﴿للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾ على الخطاب ، وقرىء بالتحتية أي يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنوا .

﴿حتى﴾ غاية لمحذوف دل عليه الكلام ، وتقديره وما أرسلنا من قبلك يامحمد إلا رجالاً ولم نعاجل أممهم الذين لم يؤمنوا بما جاءوا به بالعقوبة حتى ﴿اذا استيأس الرسل﴾ عن النصر بعقوبة قومهم ، أو حتى إذا استيأسوا من إيمان قومهم لانهماكهم في الكفر ، وقدره القرطبي إلا رجالاً ثم لم نعاقب أمتهم حتى إذا ، وقدره ابن الجوزي إلا رجالاً فدعوا قومهم فكذبوهم وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا ، وقدره الزمخشري إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى ؛ وأحسنها ما قدمته . وقال الواحدي : حتى هنا من حروف الابتداء يستأنف بعدها .

﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ جماعة من الصحابة وتابعيهم والكسائي والفراء بالتخفيف مبنياً للمفعول ، أي ظن القوم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ولم يصدقوا .

وقيل المعنى ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما ادعوا من النصر ، وقيل المعنى وظن الرسل أنها قد كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم النصر ، وقرأ الباقون كذبوا بالتشديد .

والمعنى عليها واضح ، أي ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد ، وقرأ مجاهد وحميد قد كذبوا بالتخفيف معروفاً على معنى وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا . وقد قيل إن الظن في هذه الآية بمعنى اليقين لأن الرسل قد تيقنوا أن قومهم كذبوهم ، وليس ذلك مجرد ظن منهم ، والذي ينبغي أن يفسر الظن باليقين في مثل هذه الصورة ، ويفسر بمعناه الأصلي فيما يحصل فيه مجرد ظن فقط من الصور السابقة ، وقد أطال الخازن والخفاجي في بيان معنى هذه الآية بما ليس في ذكره كثير فائدة وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ .

﴿جاءهم نصرنا﴾ أي فجاء الرسل نصر الله سبحانه فجأة او جاء قوم الرسل الذين كذبوهم نصر الله لرسله بايقاع العذاب على المكذبين .

وأخرج البخاري وغيره من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله سبحانه حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا قال : قلت أكذبوا أم كذبوا يعني هل هذه الكلمة مخففة او مشددة؟ فقالت بل كذبوا تعني بالتشديد ، قلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ، قالت أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها وظنوا أنهم قد كذبوا مخففة ، قالت معاذ الله !

تكن الرسل لتظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك .

وقال ابن عباس : كذبوا مخففة يقول اخلفوا وكانوا بشراً حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، قال عروة : عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت : والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم انه سيكون قبل أن يموت ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم ، وكانت تقرأها مثقلة .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ مخففة أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، وعن ابن عباس ايضاً أنه كان يقرأ قد كذبوا مخففة وقال : يئس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم بما جاؤهم به جاؤوهم نصرنا أي الرسل ، وبها قرأ ابن مسعود قال : استيأس الرسل من ايمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين ابطاء النصر أنهم قد كذبوا ، وقال حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة ، وللسلف في هذا كلام يرجع إلى ما ذكرناه من الخلاف عن الصحابة .

﴿فنجى من نشاء﴾ من عبادنا عند نزول العذاب بالكافرين والذين نجاهم الله هم الرسل ومن آمن معهم وهلك المكذبون ﴿ولا يرد بأسنا﴾ أي عذابنا عند نزوله ﴿عن القوم المجرمين﴾ المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن الله بعث الرسل يدعون قومهم فأخبروهم أن من أطاع الله نجا ، ومن أعرض عُذب وغوى ، وفيه بيان من يشاء الله نجاته من العذاب وهم من عدا هؤلاء المجرمين .

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي قصص الرسل ومن بعثوا إليهم من الأمم أو في قصص يوسف عليه السلام واخوته وأبيه قاله مجاهد ﴿عبرة﴾ هي الفكرة والبصيرة المخلصة من الجهل والحيرة ، وقيل هي نوع من الاعتبار وهي العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول ﴿لأولي الألباب﴾ هم ذوو العقول السليمة الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم .

وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الاخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الرسل الذين قص حديثهم ومنهم يوسف عليه السلام وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم، وعبارة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم أنه قال في أول السورة ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ثم قال ههنا لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب وذلك تنبيه على أن حسن هذه القصة إنما هو لأجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة .

﴿ما كان﴾ هذا المقصوص الذي يدل عليه ذكر القصص أو القرآن المشتمل على ذلك المتقدم ذكره في قوله إنا انزلناه قرآناً عربياً ﴿حديثاً يفترى﴾ قال قتادة : الفرية الكذب ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور ، وقيل هو تصديق ذلك كله ويشهد عليه أن جميعه حق من عند الله .

﴿وتفصيل كل شيء﴾ من الشرائع المجملة المحتاجة إلى تفصيلها لأن الله

سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء من الاحكام والحدود والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك .

وقيل تفصيل كل شيء من قصة يوسف عليه السلام مع اخوته وأبيه وقيل وليس المراد به ما يقتضيه من العموم بل المراد به الأصول والقوانين وما يؤول اليها ، قال قتادة : فصل الله بين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وقيل ما من شيء من أمر ديني إلا وله مستند في القرآن بواسطة أو بغير واسطة .

﴿وهدى﴾ في الدنيا يهتدي به كل من أراد الله هدايته ﴿ورحمة﴾ في الآخرة يرحم الله بها عباده العاملين بما فيه بشرط الايمان الصحيح ولهذا قال ﴿لقوم يؤمنون﴾ اي يصدقون به وبما تضمنه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وقدره ، وأما من عداهم فلا ينتفع به ولا يهتدي بما اشتمل عليه من الهدى فلا يستحق ما يستحقونه .

خاتمة الجزء السادس.

تم بعون الله الجزء السادس من فتح البيان في
مقاصد القرآن ويليه الجزء السابع وأوله
تفسير سورة الرعد.

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ
مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١

فهرس الجزء السادس

تمّ الفهرس والحمدلله رب العالمين

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

الجزء السابع

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص. ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص. ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١٩٨

الجزء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

أوله تفسير سورة الرعد وتبدأ بقوله تعالى :

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

- سورة ابراهيم
- سورة الحجر
- سورة الاسراء الى آخرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرعد

﴿وهي ثلاث وقيل أربع أو خمس أو ست وأربعون آية﴾

وقد وقع الخلاف هل هي مكّية أو مدنيّة. وممن ذهب الى الاول سعيد بن جبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر وابن زيد. والى الثاني ابن الزبير والكلبي ومقاتل. والقول الثالث أنها مدنيّة الا آيتين فانهما نزلتا بمكة وهما قوله تعالى: ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ﴾ وقيل قوله: ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ وقيل هو الذي يريكم البرق ـ الى قوله ـ له دعوة الحق. وعن جابر بن زيد كان يستحب اذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد فان ذلك يخفف عن الميت وأنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

﴿المر﴾ قد تقدم الكلام في الحروف الواقعة في أوائل السور بما يغني عن الاعادة ، قال ابن عباس : المعنى أنا الله أرى ؛ وقال مجاهد فواتح يفتتح بها كلامه والحق أن الله تعالى أعلم بمراده أو هو اسم للسورة والتقدير هذه السورة اسمها هذا .

﴿تلك﴾ أي آيات هذه السورة ، وقيل إشارة إلى ما قص عليه من أنباء الرسل وقيل إلى آيات القرآن وعليه جرى الزمخشري وجمهور المفسرين ﴿آيات الكتاب﴾ والمراد بالكتاب السورة أي تلك آيات السورة الكاملة العجيبة الشأن والإضافة بمعنى من ، وقال مجاهد : الكتاب التوراة والإنجيل .

﴿والذي أنزل اليك من ربك﴾ المراد به القرآن كله ، قال قتادة وغيره أي هو ﴿الحق﴾ البالغ في اتصافه بهذه الصفة لاشك فيه ﴿ولكن أكثر الناس﴾ يعني مشركي مكة ﴿لا يؤمنون﴾ بهذا الحق الذي أنزل الله إليك ، قال الزجاج : لما ذكر أنهم لا يؤمنون ذكر الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال :

﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد﴾ العمد الأساطين والدعائم جمع عماد أي على غير قياس والقياس أن يجمع على عمد بضم العين والميم ، وقيل إن عمداً جمع عماد في المعنى أي أنه اسم جمع لا جمع صناعي وهو صادق بأن لا عماد أصلاً وهذا هو أصح القولين أي قائمات بغير عمد تعتمد عليها ، وقيل لها عمد ولكن لا نراها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة ، قال الزجاج : العمد قدرته التي يمسك بها السموات وهي غير مرئية لنا ، وقرىء عمد على أنه جمع عمود يعمد به أي يسند اليه .

وجملة ﴿ترونها﴾ مستأنفة استشهاد على رؤيتهم لها كذلك ، وقيل هي صفة لعمد ، وهو أقرب مذكور ورجحه الزمخشري ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير رفع السموات ترونها بغير عمد ، ولا ملجىء إلى مثل هذا التكلف ، قال ابن عباس : وما يدريك لعلها بعمد لا ترونها وقال يقول لها عمد ، ولكن لا ترونها يعني الاعماد .

قال إياس بن معاوية : السماء مقببة على الأرض مثل القبة ، وبه قال الحسن وقتادة وجمهور المفسرين ، وعن ابن عباس قال : السماء على أربعة أملاك كل زاوية موكل بها ملك ، قال السمين في هذا الكلام وجهان :

أحدهما: انتفاء العمد والرؤية جميعاً أي لا عمد فلا رؤية يعني لا عمد لها فلا ترى ، وإليه ذهب الجمهور .

والثاني : أن لها عمداً ولكن غير مرئية .

﴿ثم﴾ هنا لمجرد العطف لا للترتيب لأن الاستواء عليه غير مرتب على رفع السموات ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق به هذا مذهب السلف ، وقال المعتزلة استولى عليه بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وأقبل على خلق العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى ، والحق أن الاستواء على العرش صفة الله سبحانه بلا كيف كما هو مقرر في موضعه من علم الكلام ﴿وسخر

الشمس والقمر﴾ أي ذللهما لما يراد منهما من منافع الخلق ومصالح العباد فالحركة المستمرة على حد من السرعة تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى وقت معلوم معين وهو فناء الدنيا وزوالها وقيام الساعة التي تتكور عندها الشمس وينخسف القمر وتنكدر النجوم وتنتثر ، وقيل المراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتيهان اليها لا يجاوزانها وهي سنة للشمس وشهر للقمر لا يختلف جري واحد منهما قيل وهذا هو الحق في تفسير الآية .

﴿يدبر الأمر﴾ أي أمر العالم العلوي والسفلي يعني يقضيه ويمضيه وحده ، قاله مجاهد ، والمعنى يصرفه على ما يريد وهو أمر ملكوته وربوبيته يدبره على أكمل الأحوال وأتم الأفعال لا يشغله شأن عن شأن ، وقيل يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة ، ولا وجه للتخصيص بشيء دون شيء فان اللفظ أوسع من ذلك ، قال الكرخي : وحمل التدبير على العموم أولى من حمله على نوع من أحوال العالم كما جرى عليه جمع من المفسرين ، وهذا التدبير والإنفاذ والإمضاء هو من فوق العرش وهو ظاهر نظم القرآن الكريم .

﴿يفصل﴾ أي يبين ﴿الآيات﴾ الدالة على كمال قدرته وربوبيته ومنها ما تقدم من رفع السماء بغير عمد وتسخير الشمس والقمر وجريهما لأجل مسمى والمراد بهذا تنبيه العباد على أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة ولهذا قال ﴿لعلكم﴾ عند مشاهدة هذه الآيات ﴿بلقاء ربكم توقنون﴾ لا تشكون فيه ولا تمترون في صدقه .

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ على وجه الماء ، قال الفراء : بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام ويتقلب عليها الحيوان ، وقال الأصم : إن المدّ هو البسط إلى ما

لا يـدرك منتهـاه زاد الكـرخـي : فقوله مد الأرض يشعر بأنـه تعالى جعـل الأرض حجماً عظيماً لا يقع البصر على منتهاه انتهى .

قيل وهذا المد الظاهر للبصر لا ينافي كرويتها في نفسها لتباعد أطرافها ، وبه قال أهل الهيئة[١]، والله أخبر أنه مد الأرض وأنه دحاها وبسطها وأنه جعلها فراشاً وكل ذلك يدل على كونها مسطحة كالأكف ، وهو أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة .

وفي الجامع الصغير حديث رواه البيهقي عن ابن عباس ولفظه : أول بقعة وضعت من الارض موضع البيت ثم مدت منها الأرض ، وأن أول جبل وضعه الله على وجه الأرض أبو قبيس ثم مدت منه الجبال[١] .

وعن ابن عمرو قال : الدنيا مسيرة خمسمائة عام ، أربعمـائة عـام خراب ومائة عمران ، في أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة ، وقد روي عن جماعة من السلف في ذلك تقريرات لم يأت عليها دليل يصح .

وعن علي بن أبي طالب قال : لما خلق الله الأرض قمصت وقالت : أي رب تجعل عليّ بني آدم يعملون عليّ الخطايا ويجعلون عليّ الخبث فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون فكان إقرارها كاللحم ترجرج .

﴿وجعل فيها﴾ جبالاً ﴿رواسي﴾ أي ثوابت تمسكها عن الاضطراب واحدها راسية لأن الأرض ترسو بها أي تثبت والرسو الثبوت ﴿وأنهاراً﴾ أي مياهاً جارية في الأرض فيها منافع الخلق ، أو المراد جعل فيها مجاري الماء .

﴿ومن كل الثمرات﴾ متعلق بجعل في قوله ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر ، واكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع ، ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية ، أي جعل من كل نوع من أنواع ثمرات الدنيا صنفين ،

---

(١) ضعيف الجامع الصغير/ ٢١٣١ .

إما في اللونية كالبياض والسواد ونحوهما او في الطعمية كالحلو والحامض ونحوهما او في القدر كالصغر والكبر او في الكيفية كالحر والبرد وما أشبه ذلك ، ويجوز أن يتعلق بجعل الأول ويكون الثاني استئنافاً لبيان كيفية ذلك الجعل ، قاله أبو السعود .

قال الفراء : يعني بالزوجين هنا الذكر والانثى من كل صنف ، ومثله عن مجاهد والأول أولى .

﴿يغشى الليل النهار﴾ أي يلبسه مكانه فيصير أسوداً مظلماً بعدما كان أبيضاً منيراً أشبه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التي تسترها أي يستر النهار بالليل ، والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول فإن ضوء النهار أيضاً ساتر لظلمة الليل إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي .

وعدَّ هذا في تضاعيف الآيات السفلية وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار ظهوره في الأرض فإن الليل إنما هو ظلها وفيها فوق موقع ظلها لا ليل أصلاً ، ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على أنهما ايضاً زوجان متقابلان مثلها ، وقرىء يغشى من التغشية ، وقد سبق تفسير هذا في الاعراف .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من مد الأرض وإثباتها بالجبال وما جعله الله فيها من الثمرات المتزاوجة وتعاقب النور والظلمة ﴿لآيات﴾ بينة ﴿لقوم يتفكرون﴾ أي للناظرين المتفكرين المعتبرين فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء .

وقال صاحب المفردات : الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان ولا يقال

إلا فيما يمكن أن يكون له صورة في القلب ، ولهذا روى تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله إذ الله منزه عن أن يوصف بصورة .

﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي بقاع مختلفة ، وهذا كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع آخر من أنواع الآيات ، قيل وفي الكلام حذف ، أي قطع متجاورات وغير متجاورات كما في قوله ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أي والبرد ، وقيل المتجاورات المدن وما كان عامراً ، وغير المتجاورات الصحاري وما كان غير معمور .

وقيل معنى متجاورات متدانيات ترابها واحد وماؤها واحد وفيها زرع وجنات ثم تتفاوت في الثمار فيكون البعض حلواً والبعض حامضاً ، والبعض طيباً والبعض غير طيب ، والبعض يصلح فيه نوع والبعض الآخر نوع آخر .

وعن ابن عباس قال : يريد الأرض الطيبة العذبة التي يخرج نباتها بإذن ربها تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا يخرج منها نباتها وهما أرض واحدة وماؤها شيء واحد ، ملح او عذب ففضلت أحداهما على الأخرى قال قتادة : قرىء متجاورات قريب بعضها من بعض .

وقال ابن عباس : الأرض تنبت حلواً والأرض تنبت حامضاً وهي متجاورات تسقى بماء واحد ، وقيل متلاصقات فمنها طيب وسبخ ، وقليل الريع وكثيره ، وهو من دلائل قدرته تعالى سبحانه .

﴿و﴾ في الأرض ﴿جنات﴾ أي بساتين وعلى النصب تقديره جعل فيها جنات ، والجنة كل بستان ذي شجر من نخيل واعناب وغير ذلك ، سمي جنة لأنه يستر بأشجاره الأرض وإليه الإشارة بقوله ﴿من أعناب﴾ جمع عنب ﴿وزرع ونخيل﴾ ذكر سبحانه الزرع بين الأعناب والنخيل لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك ، ومثله في قوله سبحانه جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب

وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، والنخل والنخيل بمعنى والواحد نخلة ، لكن النخل يذكر ويؤنث والنخيل مؤنث لا غير .

﴿صنوان وغير صنوان﴾ قرىءبالرفع في الأربعة عطفاً على جنات وبالجر عطفاً على أعناب وبضم الصاد وكسرها وهما لغتان والأولى لغة قيس وتميم والثانية لغة العامة وقرىء بفتحها وهو اسم جمع لا جمع تكسير لأنه ليس من ابنية فعلان بالفتح ، ونظير صنوان بالفتح سعدان ، قال ابو عبيدة جمع صنو ، وهو أن يكون الأصل واحداً ثم يتفرع فيصير نخيلاً ثم يحمل .

وهذا قول جميع أهل اللغة والتفسير ، فالصنوان جمع صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، فالصنو المفرد واحد هذه النخلات ، قال ابن الاعرابي : الصنو المثل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « عم الرجل صنو ابيه »[1] فمعنى الآية على هذا أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون .

قال في الكشاف : جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد ، وقيل الصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق . قال النحاس : وهو كذلك في اللغة ، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان . والصنو المثل ولا فرق بين التثنية والجمع إلا بكسر النون في المثنى وبما يقتضيه الإعراب في الجمع .

عن البراء بن عازب قال : الصنوان ما كان أصله واحداً وهو متفرق وغير الصنوان التي تنبت وحدها ، وفي لفظ الصنوان النخلة في النخلة ملتصقة وغير الصنوان النخل المتفرق . وعن ابن عباس : هي مجتمع النخل في أصل واحد وغيرها المتفرق ، وفي السمين والصنو الفرع يجمعه ، وفرعاً آخر أصل

---

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٣٩٧٩ .

واحد والمثل ، وفي المختار إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهن صنو ، والاثنتان صنوان بكسر النون والجمع صنوان برفعها .

﴿يسقى﴾ بالتحتية أي يسقى ذلك كله ، يعني أشجار الجنة وزروعها ﴿بماء واحد﴾ والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام ، وقيل في حده هو جوهر سيال به قوام الأرواح ، وقرىء تسقى بالفوقية بإرجاع الضمير إلى جنات . وقال أبو عمرو : التأنيث أحسن لقوله :

﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ أي في الطعم ما بين الحلو والحامض وغير ذلك من الطعام ولم يقل بعضه ، قرىء بالنون على تقدير ونحن نفضل ، وقرىء بالياء ، ومتى قرىء الأول بالتاء جاز في الثاني الياء والنون ، ومتى قرىء الأول بالياء تعين في الثاني النون لاغير ، فالقراءات ثلاثة لا أربعة كما توهم وكلها سبعية .

قال الكرخي : قرىء بالتحتية ليطابق قوله يدبر وقرىء بنون العظمة وأنت خبير بأن القراء يتبعون فيما اختاروه من القراءات الأثر لا الرأي فإنه لا مدخل له فيها .

أخرج الترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال « الدقل والفارسي والحلو الحامض »[1] ، وقال مجاهد هذا كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم ، وأبوهم واحد ، وعن ابن عباس قال : هذا حامض وهذا حلو ، وهذا دقل وهذا فارسي .

والأكل بضمتين وإسكان الثاني للتخفيف المأكول والمراد به ما يؤكل منها وهو الثمر والحب ، فالثمر من النخيل والأعناب والحب من الزرع ، كأنه قال

---

(١) الترمذي كتاب التفسير/ سورة ١٣ .

ونفضل الحب والثمر بعضها على بعض طعماً وشكلا ورائحة وقدراً وحلاوة وحموضة وغضاضة وغير ذلك من الطعوم ، وفضلها أيضاً في غير ذلك كاللون والنفع والضر وإنما اقتصر على الأكل لأنه أعظم المنافع .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور ﴿لآيات﴾ دلالات على بديع صنعه وعظيم قدرته فإن القطع المتجاورة والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد وتتفاضل في الثمرات في الأكل فيكون طعم بعضها حلو والآخر حامضاً وهذا في غاية الجودة ، وهذا ليس بجيد ، وهذا فائق في حسنه ، وهذا غير فائق مما يقطع من تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه ، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلا للسببين . إما اختلاف المكان الذي هو المنبت أو اختلاف الماء الذي تسقى به ، فإذا كان المكان متجاوراً وقطع الأرض متلاصقة والماء الذي تسقى به واحداً لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلا تلك القدرة الباهرة والصنع العجيب .

﴿لقوم يعقلون﴾ أي يعملون على قضية العقل وما يوجبه غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات والاعتبار في العبر الموجودات ، أي يستعملون عقولهم بالتفكر فيها ، خص هذا بالعقل والأول بالتفكر لأن الاستدلال باختلاف النهار أسهل ، ولأن التفكر في الشيء سبب لتعقله والسبب مقدم على المسبب ، فناسب تقديم التفكر على التعقل .

قال الحسن : هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم ، فالناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم وتخشع وتخضع ، وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع . وقال أيضاً : والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة او نقصان ، قال الله تعالى ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ .

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑤ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⑥ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ⑦ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ⑧﴾

﴿وإن تعجب﴾ يامحمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم من الصادقين ﴿فعجب﴾ أي فأعجب منه ﴿قولهم﴾ أي تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يجوز عليه التعجب لأنه تغير النفس بشيء تخفى أسبابه، وذلك في حق الله تعالى محال ، قاله القرطبي .

وقيل العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة وإنما ذكر ذلك ليعجب منه رسوله واتباعه .

قال الزجاج : أي هذا موضع عجب أيضاً أنهم أنكروا البعث وقد بين لهم من خلق السموات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الإبداء فهذا موضع التعجيب ، وقيل الآية في منكري الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير فهو محل التعجب .

والأول أولى لقوله ﴿أئذا كنا تراباً أئنّا لفي خلق جديد﴾ والجملة في محل الرفع أو النصب والعجب على الاول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك أو لا يرون أنه خلقهم من نطفة ، فالخلق منها أشد من الخلق من تراب وعظام ، والعامل في إذا نبعث أو نعاد، والاستفهام منهم للانكار المفيد لكمال

الاستبعاد ، وفي هذا الاستفهام المكرر اختلف القراء اختلافاً منتشراً وهو في أحد عشر موضعاً في تسع سور من القرآن ولا بدّ من تعيينها .

فأولها هنا .

والثاني والثالث في الإسراء بلفظ واحد ﴿أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ .

والرابع : في المؤمنون ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾.

والخامس : في النمل ﴿أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ .

والسادس : في العنكبوت ﴿أئنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال﴾ .

والسابع : في الم السجدة﴿أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد﴾ .

والثامن والتاسع : في الصافات ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ وأئنا لمدينون .

والعاشر : في الواقعة مثل الصافات .

والحادي عشر: في النازعات ﴿أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاماً نخرة﴾ .

فهذه هي المواضع المختلف فيها ثم الوجه في قراءة من استفهم في الأول والثاني المبالغة في الانكار فأتى به في الجملة الأولى وأعاد في الثانية تأكيداً له ، والوجه في قراءة من أتى به مرة واحدة حصول المقصود ، لأن كل جملة مرتبطة بالأخرى فإذا أنكر في إحداهما حصل الإنكار في الأخرى ، ذكره السمين ، وتقديم الظرف في قوله ﴿لفي خلق﴾ لتأكيد الإنكار بالبعث .

وكذلك تكرير الهمزة في قوله أئنا ، والمعنى أي نعاد خلقاً جديداً بعد

الموت كما كنا قبله ؛ ولم يعلموا ان القادر على إنشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على إعادتهم .

ثم لما حكى الله سبحانه ذلك عنهم حكم عليهم بأمور ثلاثة :

الأول : ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أي أولئك المنكرون لقدرته سبحانه على البعث هم المتمادون في الكفر الكاملون فيه ، وفيه دليل على كفر منكري البعث .

﴿و﴾ **الثاني** ﴿أولئك الأغلال في أعناقهم﴾ الأغلال جمع غل بالضم وهو طوق من حديد يجعل في العنق أو تشد به اليد إلى العنق ، اي يغلون بها يوم القيامة كما يقاد الأسير ذليلاً بالغل ، وقيل الأغلال أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم لزوم الأطواق للأعناق ﴿و﴾ **الثالث** ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ، وفي توسيط ضمير الفصل دلالة على تخصيص الخلود بمنكري البعث .

﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ نزل في استعجالهم العذاب استهزاء والسيئة العقوبة المهلكة ، والحسنة العافية والسلامة ، قالوا هذه المقالة لفرط إنكارهم وشدة تصميمهم .

﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ جمع مثلة كسمرة وهي العقوبة الفاضحة ، سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه وهو الذنب من المماثلة في أن كُلاًّ منهما مذموم .

قال ابن الأنباري : المثلة العقوبة التي تبقى في المعاقب شيئاً بتغيير بعض خلقه من قولهم مثل فلان بفلان إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه ، وقرىء بفتح الميم وإسكان الثاء تخفيفاً لثقل الضمة ، قيل وهي لغة الحجاز ، وفي لغة تميم بضم الميم والثاء جميعاً ، واحدتها على لغتهم مثلة ، مثل غرفة وغرفات ، وقرىء بفتحهما .

وقيل المثلة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع غيره به . قال قتادة : المثلات العقوبات ، يعني وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم . وقال ابن عباس : المثلات ما أصاب القرون الماضية من العذاب ، والمعنى أن هؤلاء يستعجلونك بإنزال العقوبة بهم وقد مضت من قبلهم عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بهم ويحذرون من حلول ما حل بهم .

وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية ﴿وإن ربك لذو مغفرة﴾ أي لذو تجاوز عظيم ، والمراد بها الإمهال وتأخير العذاب ﴿للناس على﴾ أي مع ﴿ظلمهم﴾ باقترافهم الذنوب ووقوعهم في المعاصي إن تابوا عن ذلك ورجعوا إلى الله سبحانه ، والجار والمجرور في محل نصب على الحال أي حال كونهم ظالمين .

وفي الآية بشارة عظيمة ورجاء كبير ، لأن من المعلوم أن الانسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً فيجوز العفو قبل التوبة ولهذا قيل إنها في عصاة الموحدين خاصة .

وقيل المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة كما تقدم ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة ، وكما يفيده قوله تعالى ﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ فيعاقب من يشاء من العصاة المكذبين من الكافرين عقاباً شديداً على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال .

عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد »[1] .

﴿ويقول الذين كفروا﴾من أهل مكة﴿لولا﴾ هلا ﴿أنزل عليه﴾ أي على

(١) ابن كثير ٥٠١ .

محمد صلى الله عليه وسلم ﴿آية من ربه﴾ غير ما قد جاء به من الآيات كالعصا واليد والناقة ، وهؤلاء القائلون هم المستعجلون للعذاب وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ذماً لهم بكفرهم بآيات الله التي تخر لها الجبال حيث لم يرفعوا لها رأساً ولم يعدوها من جنس الآيات ، وهذا مكابرة من الكفار وعناد وإلا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه .

قال الزجاج : طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى فقال الله تعالى ﴿إنما أنت منذر﴾ تنذرهم بالنار وليس إليك من الآيات من شيء وفيه إزالة لرغبته صلى الله عليه وسلم في حصول مقترحهم ، فإنه كان شديد الرغبة في إيجاب مقترحاتهم لشدة التفاته إلى إيمانهم ، قاله الخطيب .

وجاء في إنما أنت بصيغة الحصر لبيان أنه صلى الله عليه وسلم مرسل لإنذار العباد وبيان ما يحذرون عاقبته وليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ما هو عليه وأنذر أبلغ إنذار ، ولم يدع شيئاً مما يحصل به ذلك إلا أتى به وأوضحه وكرره فجزاه الله عن أمته خيراً .

﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ، ورشادهم بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون وإن لم تقع الهداية لهم بالفعل ولم يقبلوها ، وآيات الرسل مختلفة ، هذا يأتي بآياته أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها ، ومن طلب من بعضهم ما جاء به البعض الآخر فقد بلغ في التعنت الى مكان عظيم فليس المراد من الآيات إلا الدلالة على النبوة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية ، وذلك لا يختص بفرد منها ولا بأفراد معينة . قال الرازي : فهذا هو الوجه الذي قرره القاضي ، وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظما . انتهى .

وقيل إن المعنى ولكل قوم هاد هو الله سبحانه عز وجل فإنه القادر على ذلك وليس على أنبيائه إلا مجرد الإنذار. قال ابن عباس : هاد أي داع ،

وقال مجاهد : المنذر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكل قوم هاد نبي يدعوهم إلى الله ، وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس نحوه ، وعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المنذر وهو الهادي . أخرجه ابن مردويه ، وعن عكرمة وأبي الضحى نحوه .

وقيل الهادي هو العمل الصالح ، وقيل الهادي هو القائد إلى الخير لا إلى الشر وهو يعم الرسل وأتباعهم إلى آخر الدهر .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال : أنا المنذر ، وأومأ بيده الى منكب عليّ فقال (أنت الهادي يا عليّ بك يهتدي المهتدون من بعدي[1])، اخرجه ابن جرير وأبو نعيم في المعرفة ، والديلمي وابن عساكر وابن النجار ، قال ابن كثير في تفسيره ، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة .

وجملة ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إحاطته سبحانه بالعلم وعلمه بالغيب الذي هذه الأمور منه . وقيل الاسم الشريف خبر ، أي لكل قوم هاد هو الله ، وجملة ﴿يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ تفسير لهاد ، وهذا بعيد جداً ، والعلم هنا متعد لواحد بمعنى العرفان وما موصولة ، أي يعلم الذي تحمله كل أنثى في بطنها من علقة أو مضغة أو ذكر أو أنثى أو صبيح أو قبيح أو سعيد أو شقي أو طويل أو قصير ، أو تام أو ناقص ، أو استفهامية ، أي يعلم أي شيء في بطنها وعلى أي حال هو ؛ أو مصدرية ، أي يعلم حملها .

﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ وما في الموضعين محتملة للأوجه المتقدمة وغاض وازداد سمع تعديهما ولزومهما ولك أن تدعي حذف العائد على القول بتعديهما وأن تجعل ما مصدرية على القول بلزومهما ، والغيض النقص وعليه

(١) ابن كثير/ ٥٠٢ .

أكثر المفسرين أي يعلم الذي تغيضه الأرحام أي تنقصه ، ويعلم ما تزداده لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من أوقاته وأحواله فقيل المراد نقص خلقة الحمل وزيادته كنقص أصبع أو زيادتها .

وقيل ان المراد نقص مدة الحمل عن تسعة أشهر او زيادتها ، وقيل إذا حاضت المرأة في حال حملها كان ذلك نقصا في ولدها ، قاله ابن عباس واذا لم تحض يزداد الولد وينمو فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم ، وقال سعيد بن جبير : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداده منه ، وقال الضحاك : ما تغيض السقط وما تزداد ، ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما ؛ وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله وكل ذلك يعلمه الله .

وقال مجاهد : الغيض خروج الدم ؛ والزيادة استمساكه ؛ ومدة الحمل أكثرها عند قوم سنتان ، وبه قالت عائشة وابو حنيفة ، وقيل إن الضحاك ولد لسنتين ، وقيل أكثرها أربع سنين ، وإليه ذهب الشافعي وقيل خمس سنين ، وبه قال مالك وأقلها ستة أشهر ، وقد يولد لهذه المدة ويعيش .

﴿وكل شيء﴾ من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة ﴿عنده﴾ سبحانه ﴿بمقدار﴾ هو القدر الذي قدره الله وهو معنى قوله سبحانه ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ أي كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه لا يخرج عن ذلك شيء ، وهذا مذهب السلف ، وقال الكرخي : هذه عندية علم ، أي يعلم كيفية كل شيء وكميته على الوجه المفصل المبين .

ويحتمل أن يكون المراد بالعندية أنه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية ، ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم وهي من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة .

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي عالم كل غائب عن الحس وكل مشهود حاضر او كل معدوم وموجود ، وقال الضحاك : عالم السر والعلانية ولا مانع من حمل الكلام على ما هو أعم من ذلك ﴿الكبير المتعال﴾ أي العظيم الذي كل شيء دونه المتعالي عما يقوله المشركون او المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره او المتعالي عن الخلق باستوائه على عرشه ومباينته عن خلقه وهو الأولى .

ثم لما ذكر سبحانه أنه يعلم تلك المغيبات لا يغادر شيئاً منها بين أنه عالم بما يسرونه في أنفسهم وما يجهرون به لغيره تعالى وأن ذلك لا يتفاوت عنده فقال ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾ فهو يعلم ما أسره الإنسان كعلمه بما جهر به من خير أو شر أي سواء ما أضمرته القلوب او نطقت به الألسن ، وسر من أسر ، وجهر من جهر .

﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أي مستتر في الظلمة الكائنة في الليل المتواري عن الأعين يقال خفي الشيء واستخفى أي استتر وتوارى ﴿وسارب بالنهار﴾ .

قال الكسائي : سرب يسرب سراباً وسروباً إذا ذهب ، وقال القتيبي : أي متصرف في حوائجه بسرعة من قولهم أسرب الماء .

قال الأصمعي: حل سربه أي طريقته ، والسرب بالكسر النفس يقال هو واسع السرب أي رخى البال والسرب بفتحتين بيت في الأرض لا منفذ له وهو الوكر .

وقال الزجاج : معنى الآية الجاهر بنطقه والمضمر في نفسه ، والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات ، علم الله فيهم جميعاً سواء وهذا الصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب ، فالمستخفي المستتر ، والسارب البارز الظاهر ، ولنعم ما قاله بعضهم :

يا من ترى مدَّ البعوض جناحها   في ظلمة الليل البهيم الأليل
وترى عروق نياطها في نحرها   والمخ في ذاك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته   ما كان منه في الزمان الأول

وقيل مستخف راكب رأسه في المعاصي ، وسارب ظاهر بالنهار بالمعاصي .

وعن ابن عباس : قال هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس انه بريء من الإثم .

﴿له﴾ الضمير راجع الى ﴿من﴾ في قوله ﴿من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف﴾ أي لكل من هؤلاء ﴿معقبات﴾ هي المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلاً منه وهم الحفظة من الملائكة تعتقبه في قول عامة المفسرين ؛ قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض قيل هم خمسة بالليل وخمسة بالنهار .

وفي الخطيب انهم عشرون لكل انسان عشرة بالليل وعشرة بالنهار ، وهو

الذي في شرح الجوهرة ، وإنما قال معقبات مع كون الملائكة ذكوراً لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ثم جمع معقبة على معقبات ذكر معناه الفراء كما قيل أبناوات سعد ، ورجالات بكر .

وقيل أنث لكثرة ذلك منهم نحو نسابة وعلامة ، قال الجوهري : والتعقب العود بعد البدء قال الله تعالى ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ وقرىء معاقيب جمع معقب وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر » ، الحديث بطوله أخرجه الشيخان[1] ، وقال ابن عباس هذه للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

قلت العموم أولى ويدخل فيه سبب النزول دخولاً أولياً .

﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ أي من بين يدي من له المعقبات ؛ والمراد أن الحفظة من الملائكة يتعاقبون من جميع جوانبه ، وقيل المراد بالمعقبات الأعمال ومعنى من بين يديه ومن خلفه ما تقدم منها وما تأخر ﴿يحفظونه من﴾ أجل ﴿أمر الله﴾ وقيل يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب ، وقيل يحفظون عليه الحسنات والسيئات ، وقيل من شر طوارق الليل والنهار .

قال الفراء في هذا قولان :

أحدهما : انه على التقديم والتأخير أي له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه .

والثاني : أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به ، قال الزجاج : المعنى حفظهم إياه من أمر الله أي مما أمرهم به لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله قال ابن الأنباري : وفي هذا قول آخر وهو أن من بمعنى الباء أي يحفظونه بأمر

---

(١) مسلم/ ٦٣٢ ـ البخاري/ ٣٥٩ .

الله واعانته واستظهره السفاقسي ، وقيل إن من بمعنى عن أي يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم كقوله ﴿أطعمهم من جوع﴾ أي عن جوع .

وقيل يحفظونه عن ملائكة العذاب وقيل يحفظونه من الجن والأنس فهي على بابها ، واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب والحراس والجلاوزة بين أيدي الأمراء في حول السلطان على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء .

وقال ابن عباس : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله وبإذن الله ، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحداً من أمر الله ومما قضاه الله عليه إلا بأمره وإذنه ، وعن قتادة مثله .

وعنه أيضاً قال : وليّ السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه يقول يحفظونه من أمري ، فإني إذا أردت بقوم سوءاً فلا مرد له ، وقال أيضاً الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم وعن خلفهم وعن شمالهم يحفظونهم من القتل ، ألم تسمع أن الله يقول ﴿إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له﴾ أي إذا أراد سوءاً لم تغن الحرس عنه شيئاً .

وعن عكرمة قال : هؤلاء الأمراء ، وعن ابن عباس قال : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فاذا جاء قدر الله خلوا عنه .

وعن علي قال : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى في بئر أو يأكله سبع أو يغرق أو يحرق ، فاذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر ، وقد ورد في ذكر الحفظة الموكلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة في كتب الحديث .

﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ من النعمة والعافية ﴿حتى يغيروا ما

بأنفسهم﴾ من طاعة الله والحالة الجميلة بالحالة القبيحة ؛ والمعنى أنه لا يسلب قوماً نعمة أنعم بها عليهم حتى يغيروا الذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة ، او يغيروا الفطرة التي فطرهم الله عليها ، قيل وليس المراد أنه لا ينزل بأحد من عباده عقوبة حتى يتقدم له ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ، كما في الحديث انه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سائل فقال : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم اذا كثر الخبث[1] .

﴿واذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ أي هلاكاً وعذاباً ﴿فلا مرد﴾ أي فلا راد ﴿له﴾ وقيل المعنى إذا أراد بقوم سوءاً أعمى قلوبهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وما لهم من دونه من وال﴾ يلي أمرهم ويلتجئون اليه فيدفع عنهم ما ينزل بهم من الله سبحانه من العقوبات ، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله .

والمعنى أنه لا راد لعذاب الله ولا ناقض لحكمه .

ولما خوف سبحانه عباده بإنزال ما لا مرد له أتبعه بأمور ترجى من بعض الوجوه وتخاف من بعضها ، وهي البرق والسحاب والرعد والصاعقة ، وقد مر في أول البقرة تفسير هذه الألفاظ وأسبابها فقال ﴿هو الذي يريكم البرق﴾ هو لمعان يظهر من خلال السحاب .

وعن علي بن أبي طالب قال : البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب . وروي عن جماعة من السلف ما يوافق هذا ويخالفه .

﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي لتخافوا خوفاً ولتطمعوا طمعاً ، وقيل النصب على العلة بتقدير إرادة الخوف والطمع او على الحالية من البرق او من المخاطبين

(١) مسلم ٢٨٨٠ ـ البخاري ١٥٨٢ .

بتقدير ذوي خوف ، وقيل غير ذلك مما لا حاجة إليه، قيل والمراد بالخوف هو الحاصل من الصواعق وبالطمع هو الحاصل بالمطر .

وقال الزجاج : الخوف للمسافر لما يتأذى به من المطر ، والطمع للحاضر لأنه إذا رأى البرق طمع في المطر الذي هو سبب الخصب ، قال قتادة : خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يطمع في رزق الله ويرجو بركة المطر ومنفعته وعن الحسن خوفاً لأهل البحر وطمعاً لأهل البر . وعن الضحاك قال : الخوف ما يخاف من الصواعق والطمع الغيث .

﴿وينشيء السحاب الثقال﴾ التعريف للجنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة والسحاب الغيم المنسحب في الهواء ، والمراد أن الله سبحانه يجعل السحاب التي ينشئها ثقالاً بما يجعله فيها من الماء .

﴿ويسبح الرعد﴾ نفسه متلبساً ﴿بحمده﴾ وليس هذا بمستبعد ، ولا مانع من أن ينطقه الله بذلك ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد بذلك ويكون ذكره على الإنفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له وعناية به ، والمسموع لنا منه هو نفس صوته إذا سبح التسبيح المذكور .

وقيل هو صوت الآلة التي يضرب بها السحاب أي الصوت الذي يتولد عنه الضرب ، وقيل المراد ويسبح سامعو الرعد ، أي يقولون سبحان الله وبحمده ، والأول أولى .

أخرج أحمد عن شيخ من بني غفار قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله ينشيء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك[1] ، وقيل والمراد بنطقها الرعد وبضحكها البرق ، وقد ثبت عند أحمد والترمذي والنسائي في

(١) صحيح الجامع الصغير ١٩١٦ .

اليوم والليلة والحاكم في مستدركه من حديث ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك[١] .

وأخرج العقيلي وضعَّفه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينشيء الله السحاب ثم ينزل فيه الماء فلا شيء أحسن من ضحكه ولا شيء أحسن من نطقه ، ومنطقه الرعد وضحكه البرق[٢] .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاري سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن منشأ السحاب فقال : إن ملكاً موكلاً يلم القاصية ويلحم الدانية ، بيده مخراق فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت ، واذا ضرب صعقت .

وعن ابن عباس قال : أقبلت يهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : ملك من ملائكة الله سبحانه موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله ، قالوا : فما هذا الصوت الذي يُسمع ؟ قال : صوته ، قالوا : صدقت ، اخرجه الترمذي وغيره[٣] .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد وابن أبي الدنيا في المطر وابن جرير عن ابن عباس أنه كان اذا سمع صوت الرعد قال سبحان الذي سبحت له ، وقال إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه ، وقد روي نحو هذا عنه من طرق وعن أبي هريرة أن الرعد صوت الملك ، وعن ابن عمر نحوه .

---

(١) المستدرك كتاب الأدب ٤/٢٨٦ .

(٢) أحمد بن حنبل ٥/٤٣٥ .

(٣) الترمذي كتاب التفسير سورة ١٣ ـ احمد بن حنبل ١/٢٧٤ .

وعن ابن عباس قال : الرعد ملك اسمه الرعد وصوته هذا تسبيحه ، فإذا اشتّد زجره احتك السحاب واضطرم من خوفه فتخرج الصواعق من بينه . وعن أبي عمران الجوني قال : ان بحوراً من نار دون العرش تكون منها الصواعق . وعن السدي قال : الصواعق نار .

وتسبح ﴿الملائكة من خيفته﴾ سبحانه أي هيبته وجلاله ، وقيل من خيفة الرعد ، وقد ذكر جماعة من المفسرين أن هؤلاء الملائكة هم أعوان الرعد وان الله سبحانه جعل له أعواناً .

﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ من خلقه فيهلكه ، وسياق هذه الأمور هنا للغرض الذي سيقت له الآيات التي قبلها وهو الدلالة على كمال قدرته ، والصواعق جمع صاعقة وهي العذاب النازل من البرق ، وقيل هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد ، وهذه الأشياء تنشأ منها .

قال الكرخي : وأمر الصاعقة عجيب جداً لأنها نار تتولد في السحاب وإذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان . قال محمد ابن علي الباقر : الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر .

﴿وهم﴾ أي الكفار المخاطبون في قوله ، وهو الذي يريكم البرق ﴿يجادلون في﴾ شأن ﴿الله﴾ فينكرون البعث تارة ويستعجلون بالعذاب أخرى ويكذبون الرسل ويعصون الله ، وقيل الضمير راجع إلى من وأعاد عليها الضمير جمعاً باعتبار معناها ، ثم المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله والجملة مستأنفة .

﴿وهو شديد المحال﴾ أي المماحلة والمكايدة لأعدائه من محل بفلان إذا كاده وعرّضه للهلاك ومنه تمحّل إذا تكلف استعمال الحيلة ، ولعل أصله المحل بمعنى القحط ، والجملة حالية من الجلالة الكريمة ويضعف استئنافها .

قال ابن الأعرابي : المحال المكر والمكر من الله التدبير بالحق ، وقال

النحاس : المكر من الله ايصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر ، وقال الأزهري : المحال فعال من المحل بمعنى القوة والشدة والميم أصلية وماحلت فلاناً محالاً أينا أشد ، وقال أبو عبيدة المحال العقوبة والمكروه .

قال الزجاج : يقال ماحلته محالاً إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد والمحل في اللغة الشدة ، قال ابن قتيبة : أي شديد الكيد وأصله مفعل من الحول أو الحيلة جعل الميم كميم المكان وأصله من الكون ثم يقال تمكنت فاعل على غير قياس ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول إذا احتال .

قال الأزهري : غلط ابن قتيبة ان الميم فيه زائدة بل هي أصلية وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراس وغير ذلك من الحروف ، وفي القاموس المحال ككتاب الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعادلة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والإهلاك .

ومحل به مثلث الحاء محلاً ومحالاً كاده بسعاية الى السلطان وماحله مماحلة ومحالاً قاواه حتى يتبين أيهما أشد انتهى . وللصحابة والتابعين في تفسير المحال هنا أقوال ثمانية :

الأول : العداوة .

الثاني : الحول .

الثالث : الأخذ ، وبه قال ابن عباس .

الرابع : الحقد .

الخامس : القوة .

السادس : الغضب .

السابع : الهلاك .

الثامن : الحيلة .

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ
لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ
فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

﴿له دعوة الحق﴾ الإضافة للملابسة أي الدعوة الملابسة للحق المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه كما يقال كلمة الحق والمعنى أنها دعوة مجابة واقعة في موقعها لا كدعوة من دونه ، وقيل الحق هو الله سبحانه ، والمعنى ان لله سبحانه دعوة المدعوّ الحق وهو الذي يسمع فيجيب ، وقيل المراد بدعوة الحق ههنا كلمة التوحيد والإخلاص، والمعنى لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له ، وقيل معنى كونها له تعالى أنه شرعها وأمر بها وجعلها افتتاح الإسلام بحيث لا يقبل بدونها ، وقيل دعوة الحق دعاؤه سبحانه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه سواه كما قال تعالى ﴿ضل من تدعون إلا إياه﴾ وقيل الدعوة العبادة فإن عبادة الله هي الحق والصدق .

﴿و﴾ الآلهة ﴿الذين يدعون﴾ بالياء متواترة وبالتاء شاذة لا من السبعة ولا من العشرة وعليها فيقرأ كباسط بالتنوين ويكون في قوله الآتي لا يستجيبون التفات ﴿من دونه﴾ أي غير الله عز وجل وهم الأصنام ﴿لا يستجيبون﴾ أي لا يجيبون ﴿لهم بشيء﴾ مما يطلبونه منهم كائناً ما كان ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء﴾ أي استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فإنه لا يجيبه لأنه جماد لا يشعر بحاجته اليه ، ولا يقدر ان يجيب دعاءه ولا يدري انه طلب منه

﴿ليبلغ فاه﴾ بارتفاعه من البئر اليه ولهذا قال ﴿وما هو﴾ أي الماء ﴿ببالغه﴾ أي ببالغ فيه .

وقيل وما الفم ببالغ الماء إذ كل واحد منهما لا يبلغ الآخر على هذه الحال، وقيل وما باسط كفيه إلى الماء ببالغ الماء ذكره السمين، والأول أولى.

أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه الى بلوغ فمه وما الماء ببالغه ، وقيل أنه كباسط كفيه الى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه ، وقد ضرب العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء ، وقال الفراء : أن المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء وانه شبهه بمن مدَّ يديه الى البئر بغير رشا .

ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام ، عن عليّ قال : كان الرجل العطشان يمد يده الى البئر ليرتفع الماء اليه وما هو ببالغه ، وعن ابن عباس قال : هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر الى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه .

﴿وما دعاء الكافرين﴾ أي عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء والأول هو الظاهر ، والثاني قول ابن عباس:﴿إلا في ضلال﴾ أي يضل عنهم ذلك الدعاء إذا احتاجوا اليه لأن اصواتهم محجوبة عن الله تعالى فلا يجدون منه شيئاً ولا ينفعهم بوجه من الوجوه بل هو ضائع ذاهب .

﴿ولله يسجد من في السموات والأرض﴾ إن كان المراد بالسجود معناه الحقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض للتعظيم مع الخضوع والتذلل فذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن ، وأما في الكفار فلا يصح تأويل

السجود بهذا في حقهم فلا بد أن يحمل السجود المذكور في الآية على معنى حق لله السجود ووجب حتى يتناول السجود بالفعل وغيره أو يفسر السجود بالانقياد لأن الكفار وان لم يسجدوا لله سبحانه فهم منقـادون لأمره وحكمـه فيهم بالصحة والمرض والحياة والموت ، والفقر والغنى ، وجاء بمن تغليباً للعقلاء على غيرهم ، ولكون سجود غيرهم تبعاً لسجودهم .

ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم لله على الفعل من الاختصاص فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله في الأمور التي يقرون على أنفسهم بأنها من الله كالخلق والحياة والموت وغير ذلك .

وايضاً يدل على ارادة هذا المعنى قوله ﴿طوعاً وكـرهاً﴾ فـإن الكفار ينقادون كرهاً كما ينقاد المؤمنون طوعاً ، وهما منتصبان على المصدرية أي انقياد طوع وانقياد كره ، أو على الحال أي طائعين وراضين وكارهين غير راضين ، قال الفراء : الآية خاصـة بالمؤمنـين فإنهم يسجـدون طوعـاً وبعض الكفار يسجدون إكراهاً بالسيف ، وخوفاً كالمنافقين فالآية محمولة على هؤلاء .

وقيل الآية في المؤمنين فمنهم من يسجد طوعاً لا يثقل عليه السجود ومنهم من يثقل عليه لأن التزام التكليف مشقة ، ولكنهم يتحملون المشقة ايماناً بالله واخلاصاً له أو المراد بالسجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية وكل من فيهما من ملك وإنس وجن فإنهم يقرون له بالعبودية والتعظيم ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ والأول أولى .

﴿وظلالهم﴾ جمع ظل والمراد به من له ظل منهم كالإنسان لا الجن ولا الملك اذ لا ظل لهما والمعنى سجوده حقيقة تبعاً لصاحبه حيث صار لازماً لا

ينفك عنه ، قال الزجاج : جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله فظله يسجد لله وقال ابن الأنباري ولا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه ، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً وظل الكافر يسجد لله كرهاً .

وقيل المراد بالسجود ميلان الظلال من جانب الى جانب آخر وطولها تارة وقصرها أخرى بسبب ارتفاع الشمس ونزولها والأول أولى .

﴿بالغدو والآصال﴾ أي البكر والعشايا وخصهما بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما وهما ظرف للسجود المقدر ، أي ويسجد ظلالهم في هذين الوقتين ، وقيل لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما ، والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والغدوة والغداة أول النهار ، وقيل الى نصف النهار .

والآصال جمع أصيل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس ، وقد تقدم تفسير الغدو والآصال في الأعراف أيضاً. وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾ قيل وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسن للقارىء والمستمع ان يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة .

﴿قل من رب السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومتولي أمورهما ، أمر الله سبحانه رسوله أن يسأل الكفار مَنْ ربهما؟ سؤال تقرير ، ثم لما كانوا يقرون بذلك ويعترفون به كما حكاه الله سبحانه في قوله ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ وقوله ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب فقال ﴿قل

الله﴾ فكأنه حكى جوابهم وما يعتقدونه لأنهم ربما تلعثموا[١] في الجواب حذراً مما يلزمهم .

ثم أمره بأن يلزمهم الحجة ويبكتهم فقال ﴿قل أفاتخذتم﴾ الاستفهام للإنكار ، أي إذا كان رب السموات والأرض هو الله كما تقرون بذلك وتعترفون به كما حكاه سبحانه عنكم بقوله ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله﴾ فما بالكم اتخذتم لأنفسكم بعد إقراركم هذا ﴿من دونه أولياء﴾ عاجزين ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا﴾ يضرون به غيرهم أو يدفعونه عن أنفسهم فكيف ترجون منهم النفع والضر وهم لا يملكونهما لأنفسهم .

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلاً وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم فقال ﴿قل هل يستوي الأعمى﴾ في دينه وهو الكافر ﴿والبصير﴾ فيه وهو الموحد ، فإن الأول جاهل لما يجب عليه وما يلزمه والثاني عالم بذلك . قال ابن عباس يعني المؤمن والكافر .

﴿أم هل﴾ أم هذه هي المنقطعة فتقدر ببل . والهمزة عند الجمهور ، وببل وحدها عند بعضهم ، وقد تقوى بهذه الآية من يرى تقديرها ببل فقط بوقوع هل بعدها ، وأجيب بأن هل هنا بمعنى قد وإليه ذهب جماعة ، وقيل استفهامية للتقريع والتوبيخ وهو الظاهر ﴿تستوي﴾ قرىءبالتاء والياء والوجهان واضحان ﴿الظلمات﴾ أي الكفر ﴿والنور﴾ أي الايمان ، أي كيف يكونان مستويين وبينهما من التفاوت ما بين الأعمى والبصير ، وما بين الظلمات والنور ، ووحد النور وجمع الظلمات لأن طريق الحق واحدة لا تختلف ، وطرائق الباطل كثيرة غير منحصرة .

---

(١) لعثم فيه لعثمة، وتلعثم تمكث وتوقف وتأنى أو نكص عنه وتبصره . إنتهى قاموس .

﴿أم﴾ هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أ ﴿جعلوا لله شركاء﴾ والاستفهام لإنكار الوقوع قال إبن الأنباري : معناه أجعلوا لله شركاء ﴿خلقوا كخلقه﴾ أي مثل خلق الله ، يعني سموات وأرضاً وشمساً وقمراً ، وجبالاً وبحاراً وجناً وإنساً .

﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ أي فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، وهذا كله في حيز النفي كما علمت ، أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه الأمر عليهم ، بل اذا فكروا بعقولهم وجدوا الله هو المتفرد بالخلق وسائر الشركاء لا يخلقون شيئاً . والمعنى أنهم لم يجعلوا لله شركاء متصفين بأنهم خلقوا كخلقه فتشابه بهذا السبب الخلق عليهم حتى يستحقوا بذلك العبادة منهم . بل إنما جعلوا له شركاء الاصنام ونحوها بمحض سفه وجهل . وهي بمعزل أن تكون كذلك لأنه لم يصدر عنها فعل ولا خلق ولا أثر البتة .

ثم أمره الله سبحانه وتعالى بأن يوضح لهم الحق ويرشدهم الى الصواب فقال ﴿قل الله خالق كل شيء﴾ كائناً ما كان ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه فلا شريك له في العبادة ، قال الزجاج : والمعنى انه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً ، ألا ترى انه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿وهو الواحد﴾ أي المنفرد بالربوبية مقول القول او مستأنفه ﴿القهار﴾ لما عداه فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر للحق وذويه وللباطل ومنتحليه ، فقال ﴿أنزل من السماء ماء﴾ مطراً يعني من جهتها والتنكير للتكثير أو للنوعية ﴿فسالت أودية﴾ جمع واد وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع وإذا نزل لا يعم جميع الأرض ولا يسيل في كل الأودية بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون واد .

قال ابو علي الفارسي : لا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة إلا هذا ، وكأنه حمل على فعيل مثل جريب وأجربة كما أن فعيلاً حمل على فاعل فجمع على أفعال مثل يتيم وأيتام وشريف وأشراف كأصحاب وأنصار في صاحب وناصر .

قال وفي قوله أودية توسع أي سال ماؤها قال ومعنى ﴿بقدرها﴾ بقدر مائها لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها ، قال الواحدي : والقدر مبلغ الشيء والمعنى بقدرها من الماء فإن صغر الوادي قل الماء وإن اتسع كثر ، قال ابن عباس : الصغير قدر صغره ، والكبير قدر كبره، ونحوه قال ابن جريج وقال في الكشاف بمقدارها الذي يعرف الله انه نافع للممطور عليهم غير ضار ، وقيل بمقدار ملئها أي ما يملؤها كل واحد بحسبه صغراً وكبراً ؛ والباء للملابسة .

قال ابن الأنباري : شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر

إذ نفْع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر ، وشبه الأودية بالقلوب إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين .

﴿فاحتمل السيل﴾ احتمل بمعنى حمل فافتعل بمعنى المجرد وإنما نكر الأودية وعرف السيل لأن المطر ينزل على المناوبة والسيل قد فهم من الفعل قبله وهو فسالت ﴿زبداً رابياً﴾ الزبد هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل ويقال له الغُثاء والرغوة وكذلك ما يعلو عن القدر عند غليانها ، وقيل الزبد وضر الغليان والوضر بفتحتين وسخ الدسم ونحوه وهو مجاز عما يعلو الماء من الغُثاء والرابي العالي المرتفع فوق الماء ، قال الزجاج : هو الطافي فوق الماء ، وقال غيره هو الزائد بسبب انتفاخه من ربا يربو إذا زاد .

والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح ، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، وعن ابي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ووعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين ونفعه ما بعثني الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به[1] ، أخرجه البخاري ومسلم .

وقد تم هنا المثل الأول ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾ مِن لابتداء الغاية أي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء أو للتبعيض بمعنى وبعضه زبد مثله والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره ؛ هذا على قراءة التحتية واختاره أبو عبيدة ، وقرىء بالفوقية على الخطاب والمعنى ومما توقدون عليه في النار فيذوب من الأجسام المتطرفة

---

(١) مسلم/ ٢٢٨٢ البخاري/ ٦٨ .

الذائبة ، وفي المصباح وقدت النار وقداً من باب وعد ووقوداً والوقود بالفتح الحطب وأوقدتها إيقاداً ومنه على الاستعارة كلما أوقدوا ناراً للحرب ، والوقد بفتحتين النار نفسها والموقد موضع الوقود .

﴿ابتغاء﴾ أي لطلب اتخاذ ﴿حلية﴾ بتزينون بها ويتجملون كالذهب والفضة ﴿أو﴾ لطلب ﴿متاع﴾ آخر يتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفر والنحاس والرصاص ﴿زبد مثله﴾ المراد بالزبد هنا الخبث فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء فالضمير في مثله يعود الى زبداً رابياً وزبد مبتدأ وخبره مما توقدون ، ووجه المماثلة أن كلا منهما ناش من الاكدار .

﴿كذلك﴾ الضرب البديع ﴿يضرب﴾ أي يبين ﴿الله﴾ المثل ﴿الحق﴾ أي الايمان ﴿و﴾ المثل ﴿الباطل﴾ أي الكفر فالحق هو الماء والجوهر الصافي الثابت والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به ثم شرع في تتميم المثل فقال :

﴿فأما الزبد﴾ بقسميه ﴿فيذهب جفاء﴾ باطلاً مرمياً به يقال جفأ الوادي غثاء جفأ إذا رمى به أي يرميه الماء الى الساحل ويرميه الكير فلا ينتفع به والجفاء بمنزلة الغثاء وكذا قال أبو عمرو بن العلاء ، وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ ﴿جفالاً﴾ قال أبو عبيدة أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته ، قال أبو حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفار .

والمعنى يذهب باطلاً ضائعاً أي أن الباطل وان علا في وقت فإنه يضمحل ويذهب ، وقيل الجفاء المتفرق قاله ابن الأنباري يقال جفأت الريح السحاب أي قطعته وفرقته ووجه المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المتطرقة ان تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام

المتطرقة فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها .

﴿وأما ما ينفع الناس﴾ منها وهو الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الأجسام المذابة والذائب الخالص من الخبث ﴿فيمكث في الأرض﴾ أي يثبت فيها ويبقى ولا يذهب ، أما الماء فإنه يسلك في عروق الأرض فينتفع الناس به ، وأما ما أذيب من تلك الأجسام فإنه يصاغ حلية وأمتعة .

وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل يقول إن الباطل وان ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل ، وكخبث هذه الأجسام فإنه وان علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض وكذلك الصفو من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه وهو مثل الحق .

قال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الايمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به ، وقد حكينا عن ابن الأنباري فيما تقدم أنه شبه نزول القرآن الى آخر ما ذكرناه فجعل ذلك مثلاً ضربه الله للقرآن .

﴿كذلك﴾ الضرب العجيب ﴿يضرب الله الأمثال﴾ في كل باب لكمال العناية بعباده واللطف بهم في الارشاد والهداية ، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول أو بجعل ذلك اشارة إليهما جميعاً.

ثم بيّن سبحانه من ضرب له مثل الحق ومثل الباطل من عباده ، فقال

فيمن ضرب له مثل الحق ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ خبر مقدم ، أي أجابوا دعوته إذ دعاهم الى توحيده وتصديق أنبيائه والعمل بشرائعه .

﴿الحسنى﴾ مبتدأ مؤخر ، أي المثوبة الحسنى وهي الجنة ، وبه قال جمهور المفسرين ، وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع والأول أولى . وهو قول ابن عباس . وقال سبحانه فيمن ضرب له مثل الباطل :

﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي لدعوته الى ما دعاهم إليه وهم الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه ، والموصول مبتدأ أخبر عنه بثلاثة أخبار ، الأول الجملة الشرطية وهي ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من أصناف الأموال التي يتملكها العباد ويجمعونها بحيث لا يخرج عن ملكهم منها شيء ﴿ومثله معه﴾ أي مثل ما في الأرض جميعاً كائناً معه ومنضماً اليه ﴿لافتدوا به﴾ أي بمجموع ما ذكر وهو ما في الأرض ومثله ، والمعنى ليخلصوا به مما هم فيه من العذاب الكبير والهول العظيم ، ثم بيَّن سبحانه ما أعد لهم فقال :

﴿أولئك﴾ يعني الذين لم يستجيبوا وهو خبر ثان للموصول ﴿لهم سوء الحساب﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الحساب السيء ، وهو أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء .

قال الزجاج : لأن كفرهم أحبط أعمالهم ، وقال غيره هو المناقشة فيه ، وفي الحديث « من نوقش الحساب عذب »[1] ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مرجعهم اليها ﴿وبئس المهاد﴾ أي المستقر الذي يستقرون فيه أو الفراش الذي يفرش لهم في جهنم ، والمخصوص بالذم محذوف وهو خبر ثالث للموصول المتقدم .

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٦٤٥٤ .

﴿۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أفمن يعلم﴾ الهمزة للإنكار على من يتوهم المماثلة بين من يعلم وبين من هو أعمى لا يعلم ذلك ولا يؤمن به ﴿أنما أنزل اليك من ربك الحق﴾ أي ما أنزل الله سبحانه الى رسوله صلى الله عليه وسلم من الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة وهو القرآن ﴿كمن هو أعمى﴾ فإن الحال بينهما متباعد جداً كالتباعد الذي بين الماء والزبد وبين الخبيث والخالص من تلك الأجسام .

قيل نزل في حمزة وأبي جهل ، ومع هذا فالأولى حمل الآية على العموم وان كان السبب خاصاً ، والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه ، وعن قتادة قال : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي انما يقف على تفاوت المنزلتين وتباين الرتبتين أو يتعظ أهل العقول الصحيحة .

ثم وصفهم بالأوصاف المادحة فقال ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ أي بما عقدوه من العهود فيما بينهم وبين ربهم أو فيما بينهم وبين العباد ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ الذي وثقوه على أنفسهم وأكدوه بالأيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص لانه يدخل تحت الميثاق كل ما أوجبه العبد على نفسه كالنذور ونحوها .

ويجوز ان يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يراد بالعهد جميع عهود الله ، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عباده على ألسنة الرسل في الكتب الإلٓهية ويدخل في ذلك الالتزامات التي يلزم بها العبد نفسه ويراد بالميثاق ما أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب آدم في عالم الذر المذكور في قوله سبحانه ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ الآية بأن يؤمنوا إذا وجدوا في الخارج ولا يكفروا، قال قتادة: إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين آية من القرآن.

﴿والذين يصلون ما أمر به ان يوصل﴾ ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده ، ومنه الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرق بين أحد منهم ، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولاً أولياً ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصل قرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿انما المؤمنون إخوة﴾ بالإحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وإفشاء السلام وعيادة المرضى .

ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر إلى غير ذلك وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم ، واللفظ أوسع من ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين يصلون ما أمر الله ـ الى ـ ويخافون سوء الحساب وقد ورد في صلة الرحم وتحريم قطعها أحاديث كثيرة .

﴿ويخشون ربهم﴾ خشية تحملهم على فعل ما وجب واجتناب ما لا يحل والخشية خوف يشوبه تعظيم وإجلال، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ وهو الإستقصاء فيه والمناقشة للعبد ، فمن نوقش

الحساب عذب ومن حق هذه الخيفة أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

﴿والذين صبروا﴾ قيل مستأنف وقيل معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ الماضي للتنبيه على انه ينبغي تحققه والمراد بالصبر الصبر على الإتيان بما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه . وقيل على الرزايا والمصائب ، وقيل عن الشهوات والمعاصي والأولى حمله على العموم ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ أي ثوابه ورضاه معناه أن يكون خالصاً له لا شائبة فيه لغيره كأن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل أو لأجل أن لا يعاب على الجزع أو لأجل أن لا يشمت به الاعداء .

﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي فعلوها في أوقاتها على ما شرعه الله سبحانه في أذكارها وأركانها مع الخشوع والإخلاص والمراد بها الصلوات المفروضة وقيل أعم من ذلك ﴿وأنفقوا﴾ في الطاعة ﴿مما رزقناهم﴾ أي بعضه ﴿سراً وعلانية﴾ المراد بالسر صدقة النفل والعلانية صدقة الفرض ، وقيل السر لمن لم يعرف بالمال ولا يتهم بترك الزكاة والعلانية لمن كان يعرف بالمال أو يتهم بترك الزكاة والحمل على العموم أولى .

﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون سيئة من أساء اليهم بالإحسان إليه كما في قوله تعالى ادفع بالتي هي أحسن ، أو يدفعون بالعمل الصالح السيء فيمحوه أو يدفعون الشر بالخير أو المنكر بالمعروف أو الظلم بالعفو أو الذنب بالتوبة أو الحرمان بالإعطاء أو القطع بالوصل أو الهرب بالإنابة ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور .

﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصفات المتقدمة ﴿لهم عقبى الدار﴾ العقبى مصدر كالعاقبة والإضافة على معنى في ، أي العقبى المحمودة فيها قال الخطيب العقبى الانتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خير أو شر ، والمراد بالدار الدنيا وعقباها الجنة ، وقيل المراد دار الآخرة وعقباها الجنة للمطيعين والنار للعصاة .

﴿جنات عدن يدخلونها﴾ أي لهم جنات عدن والعدن أصله الاقامة ثم

صار علماً لجنة من الجنان واسم المكان معدن مثال مجلس لأن أهله يقيمون عليه الصيف والشتاء أو لأن الجوهر الذي خلقه الله فيه عدن به ، قال القشيري : وجنات عدن وسط الجنة وقصبتها وسقفها عرش الرحمن ولكن في صحيح البخاري وغيره إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة(١) .

وعن ابن مسعود قال : جنات عدن بطنان الجنة أي وسطها ، وعن الحسن ان عمر قال لكعب : ما عدن قال هو قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل .

وأخرج ابن مردويه عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جنة عدن قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان(٢) .

﴿ومن صلح﴾ أي آمن في الدنيا ، قاله مجاهد ﴿من آبائهم﴾ أي أصولهم وهي تشمل الآباء والأمهات ومن لبيان الجنس ﴿وأزواجهم﴾ اللاتي متن في عصمتهم ﴿وذرياتهم﴾ أي ويدخلها هؤلاء الفرق الثلاث وإن لم تعمل بأعمالهم تكرمة لهم قاله ابن عباس ورجحه الواحدي .

قال الرازي : وليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه ، وذكر الصلاح دليل على أنه لا يدخل الجنة إلا من كان كذلك من قرابات اولئك ، ولا ينفع مجرد كونه من الآباء أو الأزواج أو الذرية بدون صلاح .

﴿والملائكة يدخلون عليهم﴾ في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات للتهنئة ، وقيل بل هو في أول دخولهم . قاله السيوطي في الجمل والتقييد بهذا لم نره لغيره من المفسرين . بل في كلام غيره ما يدل على عدمه ﴿من كل باب﴾ أي من جميع أبواب القصور والمنازل التي يسكنونها أو من كل باب من أبواب الجنة أو من كل باب من أبواب التحف والهدايا من الله سبحانه .

(١) البخاري ، كتاب التوحيد ٢٢ ـ كتاب الجهاد ٤ .
(٢) الترمذي، كتاب الجنة، الباب ٤ .

سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ
وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ
ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ
يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ
أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

﴿سلام عليكم﴾ أي قائلين سلام عليكم ، فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه أي سلمتم من الآفات أو دامت لكم السلامة ، وقيل دعاء لهم من الملائكة ، أي سلمكم الله تعالى ﴿بما صبرتم﴾ أي بسبب صبركم في الدنيا على الآفات وهو متعلق بالسلام ، أي إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم أو متعلق بعليكم أو بمحذوف، أي هذه الكرامة بسبب صبركم وبدل ما احتملتم من مشاق الصبر ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أي نعم ما أعقبكم الله من الدنيا الجنة .

أخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا ان نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ؟ .

قال الله : ان هؤلاء عبادي كانوا يعبدوني ولا يشركون بي شيئا وتسد

بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب قائلين لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[١] .

وفي القرطبي عن عبدالله بن سلام وعلي بن الحسين : اذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا الى الجنة فتلقاهم الملائكة فتقول الى أين ؟ فيقولون الى الجنة ، قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا: نعم ، فيقولون : من انتم ، فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصي الله ، وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا .

قال علي بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها وعملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ، فالعقبى على هذا اسم والدار هي الدنيا .

وقال أبو عمران الجوني : أي الجنة عن النار بضم الجيم ، وعنه الجنة عن الدنيا وبالجملة فقد جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق .

ثم أتبع أحوال السعداء بأحوال الأشقياء فقال : ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول بقولهم بلى ﴿ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل﴾ من الإيمان والرحم وغير ذلك ، وقد مر تفسير عدم النقض وعدم القطع فعرف منهما تفسير النقض والقطع ولم يتعرض

(١) احمد بن حنبل ١٦٨/٢ .

لنفي الخشية والخوف عنهم وما بعدهما من الأوصاف المتقدمة لدخولها في النقض والقطع ﴿ويفسدون في الأرض﴾ بالكفر وارتكاب المعاصي والإضرار بالأنفس والأموال .

﴿أولئك﴾ الموصوفون بهذه الصفات الذميمة ﴿لهم﴾ بسبب ذلك ﴿اللعنة﴾ أي الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه ﴿ولهم سوء الدار﴾ أي سوء عاقبة دار الدنيا وهي النار او عذاب جهنم فإنها دارهم .

﴿الله يبسط الرزق﴾ أي يوسعه ﴿لمن يشاء﴾ أي لمن كان كافراً استدراجاً ﴿ويقدر﴾ أي ويقتره على من كان مؤمناً إبتلاء وامتحاناً وتكفيراً لذنوبه ولا يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة ، ومعنى يقدر يضيق ، ومنه ومن قدر عليه رزقه ، أي ضيق ، وقيل معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية ، وقرأ السبعة يقدر بكسر الدال وهو أفصح ، واستعمل بالضم ايضاً على ما في المصباح ، ومعنى الآية إنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره .

﴿وفرحوا﴾ أي مشركو مكة ﴿بالحياة الدنيا﴾ فرح بطر لا فرح سرور والفرح لذة تحصل في القلب عند حصول المشتهى وجهلوا ما عند الله ، والجملة مستأنفة لبيان قبح أفعالهم مع ما وسعه عليهم ، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا والركون إليها حرام .

قيل وفي هذه الآية تقديم وتأخير ، والتقدير ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا ، والأول أولى لأنه ماض وما قبله مستقبل ، وقيل العطف على ينقضون ولا يصح لأنه يستلزم تخلل الفاصل بين أبعاض الصلة .

﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة﴾ أي بالنسبة اليها وفي جنبها ففي هنا

للمقايسة وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق وليست ظرفاً للحياة ولا للدنيا لأنهما لا يكونان في الآخرة ﴿إلا متاع﴾ أي ما هي إلا شيء يستمتع به . وقيل المتاع واحد الأمتعة كالقصعة والسكرجة ونحوهما ، وقيل المعنى شيء قليل ذاهب من متع النهار إذا ارتفع فلا بدّ من زوال ، وقيل زاد كزاد الراكب يتزودونه منها إلى الآخرة . وقال عبدالرحمن بن سابط : كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق او الشيء يشرب عليه اللبن .

وعن ابن عباس قال : كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله او غنمه فيقول لأهله متعوني فيمتعونه فلقة الخبز او التمر ، فهذا مثل ضربه الله للدنيا .

وأخرج الترمذي وصححه عن ابن مسعود قال : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك ، فقال : « مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »[(١)] .

واخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع » وأشار بالسبابة[(٢)] .

﴿ويقول الذين كفروا﴾ أي المشركون من أهل مكة ﴿لولا﴾ هلا ﴿أنزل عليه﴾ أي على محمد ﴿آية﴾ أي معجزة ، مثل معجزة موسى وعيسى عليهما السلام ﴿من ربه﴾ كالعصا واليد والناقة ، وقد تقدم تفسير هذا قريبا وتكرر في مواضع .

---

(١) الترمذي كتاب الزهد باب ٤٤ .

(٢) مسلم ٢٨٥٨ .

﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بهذا وهو أن الضلال بمشيئة الله سبحانه من شاء ان يضله كما ضل هؤلاء القائلون ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ ولا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات إن لم يهده الله عز وجل وإن أنزلت كل آية فان ذلك في أقصى مراتب المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء .

﴿ويهدي اليه﴾ أي إلى الحق او إلى الاسلام او إلى جنابه عز وجل ﴿من أناب﴾ أي رجع الى الله بالتوبة والاقلاع عما كان عليه ، وأصل الانابة الدخول في نوبة الخير . كذا قال النيسابوري .

﴿الذين آمنوا﴾ منصوب على البدل من أناب ، والمعنى انهم هم الذين هداهم الله وأنابوا اليه : أو خبر مبتدأ محذوف ، اي هم الذين آمنوا ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي تسكن عن القلق والاضطراب وتستأنس بذكره سبحانه بألسنتهم كتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد أو بسماع ذلك من غيرهم عبر بالمضارع لأن الطمأنينة تتجدد بعد الإيمان حيناً بعد حين ، قاله الشهاب . وقال الكرخي المضارع قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال او استقبال فيدل إذ ذاك على الاستمرار ومنه الآية أ هـ .

قال في الجمل : وهذا ينفع في مواضع كثيرة , وقد سمى الله سبحانه القرآن ذكراً قال ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ وقال ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ .

قال الزجاج : أي إذا ذكر الله وحده آمنوا به غير شاكين بخلاف من وصف بقوله ﴿واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ .

وقيل الذكر هنا الطاعة وقيل بوعد الله وقيل بالحلف بالله فإذا حلف

خصمه بالله سكن قلبه ، قاله السدي ، وقيل بذكر رحمته ، وقيل بذكر دلائله الدالة على توحيده ، وقال قتادة هشت إليه واستأنست به ، وقال مجاهد بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولا مانع من حمل الآية على جميعها .

﴿ألا بذكر الله﴾ وحده دون غيره من الأمور التي تميل اليها النفوس من الدنيويات ﴿تطمئن القلوب﴾ والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وان كان يفيد طمأنينة في الجملة لكن ليست كهذه الطمأنينة وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله ، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر .

وأما قوله تعالى في الأنفال ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ والوجل ضد الاطمئنان فالمعنى أنهم إذا ذكروا العقوبات وجلوا وإذا ذكروا المثوبات سكنوا .

أخرج أبو الشيخ عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه حين نزلت هذه الآية : هل تدرون ما معنى ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : من أحب الله ورسوله وأحب أصحابي .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال ذلك من أحب الله ورسوله وأحب أهل بيته صادقاً غير كاذب وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً ألا بذكر الله يتحابون .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ
أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ
يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿طوبى لهم﴾ وجاز الابتداء بطوبى إما لأنها علم لشيء بعينه وإما لأنها نكرة في معنى الدعاء كسلام عليك وويل له ، قال أبو عبيدة والزجاج : وأهل اللغة طوبى فعلى من الطيب فهو يائي وأصله طيبي ، قال ابن الأنباري : وتأويلها الحال المستطابة ، وقيل طوبى شجرة في الجنة . وقيل هي الجنة وقيل هي البستان بلغة الهند وقيل هي اسم الجنة بالحبشية وقيل معناه حسنى لهم وقيل خير لهم وقيل كرامة لهم وقيل غبطة لهم قال النحاس : وهذه الاقوال متقاربة ، واللام في لهم للبيان مثل سقياً لك ورعياً لك .

قال الأزهري : تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول اكثر النحويين وقيل هو مصدر من طاب كبشرى ورجعى وزلفى فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى ومعناه أصبت خيراً وطيباً، وقيل هي شجرة في جنة عدن تظلل الجنان كلها ، وقال ابن عباس : طوبى لهم فرح لهم وقرة أعين ، وقال عكرمة : نعمى لهم ، وقد روي عن جماعة من السلف نحو ما قدمنا ذكره من الأقوال .

والأرجح تفسير الآية بما روي مرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم كما أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن عتبة بن عبد قال : جاء إعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله في الجنة فاكهة قال : « نعم فيها شجرة تدعى طوبى » الحديث .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والخطيب في تاريخه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان رجلا قال يارسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال : « طوبى لمن آمن بي ورآني ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني ، فقال رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[1] وفي الباب أحاديث وآثار عن السلف .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرأوا ان شئتم وظل ممدود » وفي بعض الألفاظ إنها شجرة الخلد وفي بعضها شجرة غرسها الله بيده[2] .

﴿وحسن مآب﴾ من آب إذا رجع أي ولهم حسن مرجع وهو الدار الآخرة وهي الجنة قال السدي حسن منقلب وعن الضحاك مثله .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن المشتمل على المعجزة الباهرة ﴿أرسلناك﴾ يامحمد ارسالاً له شأن ، وقيل شبه الإنعام على من أرسل اليه محمد صلى الله عليه وسلم بالإنعام على من أرسل اليه الأنبياء قبله ، وقيل كما هدى الله من أناب كذلك أرسلناك .

وقال ابن عطية الذي يظهر لي أن المعنى كما أجرينا العادة بأن الله يضل ويهدي لا بالآيات المقترحة فكذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة أرسلناك إليها بوحي لا بالآيات المقترحة ، وقال أبو البقاء : كذلك الأمر كذلك ، وقال الحوفي : أي كفعلنا الهداية والإضلال، والإشارة بذلك الى ما وصف به نفسه من أن الله

---

(١) احمد بن حنبل ٣/٧١ .
(٢) مسلم ٢٨٢٦ - البخاري ١٥٣٩ .

يضل من يشاء ويهدي من يشاء وكل ذلك فيه تكلف وبعد ، والأول أظهر وأولى .

﴿في أمة﴾ أي قرن ﴿قد خلت﴾ مضت ﴿من قبلها﴾ أي قبل الأمة ﴿أمم﴾ قرون أو في جماعة من الناس كثيرة قد مضت من قبلها جماعات ﴿لتتلو﴾ لتقرأ ﴿عليهم الذي أوحينا اليك﴾ أي القرآن ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم يكفرون﴾ او استئناف وهم عائد على أمة من حيث المعنى ، ولو عاد على لفظها لقيل وهي تكفر، وقيل على أمة ، وعلى أمم ، وقيل على الذين قالوا لولا أنزل ﴿بالرحمن﴾ أي بالكثير الرحمة لعباده ، ومن رحمته لهم إرسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم كما قال سبحانه ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ .

عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب في الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه دعنا نقاتلهم ، فقال : لا ولكن اكتبوا كما يريدون »[1] وعن ابن جريج في هذه الآية نحوه وقيل حيث قالوا لما أمروا بالسجود له وما الرحمن كما ذكر في سورة الفرقان بقوله ﴿واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ فهذه الآية متقدمة على ما هنا في النزول وان تأخرت عنها في المصحف والتلاوة ، وقيل غير ذلك ، ﴿قل هو ربي﴾ مستأنفة بتقدير سؤال كأنهم قالوا وما الرحمن ؟ فقال سبحانه : قل يامحمد هو ربي ، اي الرحمن الذي انكرتم معرفته ربي وخالقي .

﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا يستحق العبادة له والإيمان به سواه ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره ﴿متاب﴾ أي توبتي قاله مجاهد ، وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع الى الله والتوبة من الكفر والدخول في الإسلام .

(١) انظر تمام القصة في سيرة ابن هشام ٢٤ .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿ولو أن قرآنا سيرت به﴾ أي بإنزاله وقراءته ﴿الجبال﴾ عن محل استقرارها وانتقلت عن أماكنها وأذهبت عن وجه الأرض، قيل هذا متصل بقوله ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وإن جماعة من الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسير لهم جبال مكة حتى تتفسح فإنها أرض ضيقة فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن وفساد رأي الكفار حيث لم يقنعوا به وأصروا على تعنتهم وطلبهم ما لو فعله الله سبحانه لم يبق ما تقتضيه الحكمة الإلهية من عدم انزال الآيات التي يؤمن عندها جميع العباد.

﴿أو قطعت به الأرض﴾ أي صدعت وشققت حتى صارت قطعاً متفرقة من خشية الله عند قراءته وجعلت أنهاراً أو عيوناً ﴿أو كلم به الموتى﴾ أي صاروا أحياء بقراءته عليهم فكانوا يفهمونه عند تكليمهم به كما يفهمه الأحياء وقد اختلف في جواب لو فقيل لكان هذا القرآن، وقيل لكفروا بالرحمن أي لو فعل بهم هذا وقيل لما آمنوا كما سبق في قوله ﴿وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾.

وقيل التقدير وهم يكفرون بالرحمن لو أن قرآنا إلخ وكثيراً ما تحذف

العرب جواب لو إذا دل عليه سياق الكلام وتذكير كلِّم خاصة دون الفعلين قبله لان الموتى تشتمل على المذكر الحقيقي والتغليب له فكان حذف التاء أحسن ، والجبال والأرض ليستا كذلك قاله الكرخي .

قال ابن عباس : قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم وافسح لنا هذه الجبال فنزلت هذه الآية ، وعن عطية العوفي قال : قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا كما كان يحيي عيسى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية .

﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي لو ان قرآنا فعل به ذلك لكان هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن فلو شاء ان يؤمنوا لآمنوا واذا لم يشأ أن يؤمنوا لم ينفع تسيير الجبال وسائر ما اقترحوه من الآيات ، فالإضراب متوجه الى ما يؤدي اليه كون الأمر لله سبحانه ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ويدل على أن هذا هو المعنى المراد من ذلك قوله .

﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ قال الكلبي : بمعنى ألم يعلم وهي لغة النخع قال في الصحاح ، وقيل هي لغة هوازن ، وبهذا قال جماعة من السلف ، قال ابوعبيدة : أفلم يعلموا ويتبينوا قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليائس من الشيء عالم بأنه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما .

وقرأ جماعة من الصحابة والتابعين أفلم يتبين بطريق التفسير فمعنى الآية على هذا أفلم يعلموا ﴿أن﴾ أي انه ﴿لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ من غير أن يشاهدوا الآيات ولكن لم يفعل ذلك لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره؛ والمعنى أنه تعالى لم يهد جميع الناس الذين

آمنوا من ايمان هؤلاء الكفار لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم لأن المؤمنين تمنوا نزول الآيات التي اقترحها الكفار طمعاً في إيمانهم.

قال ابن عباس : لا يصنع من ذلك إلا ما يشاء ولم يكن ليفعل وقال ييأس يعلم وعن ابن زيد نحوه وعن أبي العالية ، قد يئس الذين آمنوا ان يهدوا ولو شاء لهدى الناس جميعاً وفيه دلالة على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلائق .

﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ هذا وعيد للكفار على العموم ولكفار مكة على الخصوص اي لا يزال تصيبهم بسبب ما صنعوا من الكفر والتكذيب للرسل والأعمال الخبيثة داهية تفجؤهم وتهلكهم وتستأصلهم يقال قرعه الأمر إذا أصابه والجمع قوارع والأصل في القرع الضرب والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية ، والمعنى أن الكفار لا يزالون كذلك حتى تصيبهم نازلة وداهية مهلكة من قتل أو أسر أو جدب أو حرب أو نحو ذلك من العذاب وقد قيل إن القارعة النكبة ، وقيل الطلائع والسرايا قاله ابن عباس ولا يخفى ان القارعة تطلق على ما هو أعم من ذلك .

﴿أو تحل﴾ القارعة ﴿قريباً من دارهم﴾ فيفزعون منها ويشاهدون من آثارها ما ترجف له قلوبهم وترعد منه بوادرهم ، وقيل إن الضمير في تحل للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أو تحل أنت يامحمد مكاناً قريباً من دارهم محاصراً لهم آخذاً بمخانقهم كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الطائف والأول أبين وأظهر .

﴿حتى يأتي وعد الله﴾ وهو موتهم أو قيام الساعة عليهم ، فإنه اذا جاء وعد الله المحتوم وحل بهم من عذابه ما هو الغاية في الشدة ، وقيل المراد بوعد الله هنا الإذن منه بقتال الكفار والنصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه ، وقال ابن عباس : فتح مكة وكان في الثامنة وحج في العاشرة ولم يحج غيرها والأول أولى ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ فما جرى به وعده فهو كائن

لا محالة ﴿ولقد استهزىء برسل﴾ التنكير للتكثير أي برسل كثيرة ﴿من قبلك﴾ كما استهزىء بك وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿فأمليت للذين كفروا﴾ الإملاء الامهال مدة طويلة من الزمان في دعةٍ وأمن ، وقد مر تحقيقه في آل عمران ﴿ثم أخذتهم﴾ في الدنيا بالعذاب الذي أنزلته بهم من القحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار .

﴿فكيف كان عقاب﴾ الاستفهام للتقريع والتهديد ، أي فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزؤوا بالرسل فأمليت لهم ثم أخذتهم هل كان ظلماً لهم او كان عدلاً ؟ أي هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك .

ثم استفهم سبحانه استفهاماً آخر للتوبيخ والتقريع يجرى مجرى الحجاج للكفار واستركاك صنعهم والإزراء عليهم فقال ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ القائم الحفيظ والمتولي للأمور ، وأراد سبحانه نفسه فإنه المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت ، والجواب محذوف ، اي أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر .

قال الفراء : كأنه في المعنى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله ، والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهما ، وقيل المراد بالقائم الملائكة الموكلون ببني آدم والأول أولى ، وبه قال ابن عباس ، وقال عطاء : الله قائم بالقسط والعدل على كل نفس .

﴿و﴾ قد ﴿جعلوا لله شركاء﴾ استئناف وهو الظاهر جيء به للدلالة على الخبر المحذوف كما تقدم ، وقيل الواو للحال وأقيم الظاهر مقام المضمر تقريراً للإلٰهية وتصريحاً بها ، وقيل عطف على استهزىء أي ولقد استهزؤوا وجعلوا ،

وقال أبو البقاء : معطوف على كسبت أي وجعلهم لله شركاء والأول أولى .

﴿قل سموهم﴾ أي عينوا حقيقتهم من أي جنس ومن أي نوع أي وما اسماؤهم ، وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ ، لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق ان يلتفت إليه فيقال سمه إن شئت ، يعني انه أحقر من أن يسمى وقيل إن المعنى صفوهم وبينوا أوصافهم بما يستحقون ويستأهلون به ، ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد ، وقيل المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون فيكون ذلك تهديداً لهم .

﴿أم تنبئونه﴾ أي بل أتنبئون الله ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾ من الشركاء الذين تعبدونهم مع كونه العالم بما في السموات والأرض ، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها وان لم يكن له شريك في غير الأرض أيضاً لأنهم ادعوا له شريكاً فيها ﴿أم﴾ أي بل أتسمونهم شركاء ﴿بظاهر من القول﴾ من غير أن يكون له حقيقة كتسمية الزنجي كافوراً .

وقيل المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر يعلمه ، فإن قالوا بباطن لا يعلمه فقد جاءوا بدعوى باطلة ، وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم سموهم فإذا سموا اللات والعزى ونحوهما فقل لهم إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ، وقيل المعنى أم بزائل من القول باطل ، قاله مجاهد ، وقيل بكذب من القول ، وقيل بظن باطل لا حقيقة له في الباطن ، وقيل المعنى بحجة من القول ظاهرة على زعمهم قال الطيبي في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان .

أولها : أفمن هو قائم الخ احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لها .

ثانيها : وجعلوا لله شركاء وفيه وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه .

ثالثها : قل سموهم أي عينوا اسماءهم فقولوا فلان وفلان فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني ، كما تقول إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمه ، لأن المراد بالاسم العلم .

رابعها : أم تنبئونه بما لا يعلم ، احتجاج من باب نفي الشيء ، أعني المعلوم بنفي لازمه وهو العلم وهو كناية .

خامسها : أم بظاهر من القول احتجاج من باب الاستدراج والهمزة للتقرير لبعثهم على التفكير ، المعنى أتقولون بأفواهكم من غير روية وأنتم ألبَّاء فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه .

سادسها : التدريج في كل من الاضرابات على ألطف وجه ، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها كان الاحتجاج المذكور منادياً على نفسه بالإعجاز وإنه ليس من كلام البشر . أ هـ .

﴿بل﴾ إضراب عن محاجتهم بالكلية ، فكأنه قيل دع ذا فإنه لا فائدة فيه لأنه ﴿زين للذين كفروا﴾ قرأ ابن عباس زين على البناء للفاعل على ان الذي زين لهم ذلك هو ﴿مكرُهم﴾ وقرأ غيره على البناء للمفعول ، والمزين هو الله سبحانه أو الشيطان بإلقاء الوسوسة ، ويجوز أن يسمى المكر كفراً لأن مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كان كفراً ، وأما معناه الحقيقي فهو الكيد أو التمويه بالأباطيل، أي كيدهم للإسلام بشركهم .

﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي صدهم الله أو صدهم الشيطان ، وقرىء بالبناء للفاعل ، أي صدوا غيرهم عن الايمان ، قراءتان سبعيتان ، وقد يستعمل صد لازماً بمعنى أعرض .

﴿ومن يضلل الله﴾ أي يجعله ضالاً ويقتضي مشيئته إضلاله ﴿فما له من هاد﴾ يهديه الى الخير ، وقرأ الجمهور هاد من دون اثبات الياء على اللغة الكثيرة الفصيحة وقرىء بإثباتها على اللغة القليلة وهما سبعيتان .

لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾
۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ
تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ
وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

ثم بين سبحانه ما يستحقونه فقال ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ بما يصابون به من القتل والأسر وأنواع المحن ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ عليهم من عذاب الحياة الدنيا وأشد وأغلظ ، لأن المشقة غلظ الأمر على النفس وشدته ، مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع ﴿وما لهم من الله من واق﴾ يقيهم عذابه ولا عاصم يعصمهم منه .

ثم لما ذكر سبحانه ما يستحقه الكفار من العذاب في الأولى والأخرى ذكر ما أعده للمؤمنين فقال ﴿مثل الجنة﴾ أي صفتها العجيبة الشأن التي هي في الغرابة كالمثل ، قال ابن قتيبة : المثل الشبه في أصل اللغة ، ثم قد يصير بمعنى صورة الشيء وصفته ، يقال مثلت لك كذا أي صورته ووصفته ، فأراد هنا بمثل الجنة صورتها وصفتها وجريان الأنهار من تحتها كالتفسير للمثل .

قال سيبويه : وتقديره فيما قصصنا عليك مثل الجنة ، وقال الفراء المثل مقحم للتأكيد والمعنى الجنة .

﴿التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾ والعرب تفعل ذلك كثيراً ، وقال الخليل وغيره : إن مثل الجنة مبتدأ والخبر تجري ، وقال الزجاج : انه تمثيل للغائب بالشاهد ومعناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار . وقال عكرمة : نعت الجنة ليس للجنة مثل ، وقيل إن فائدة الخبر ترجع الى قوله .

﴿أكلها﴾ أي ما يؤكل فيها ﴿دائم﴾ أي لا ينقطع أبداً ولا يفنى ، ومثله قوله تعالى ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ قال ابراهيم التيمي : لذاتها دائمة في أفواههم ، وقيل دائم بحسب نوعه ، فكل شيء أكل يتجدد غيره لا بحسب شخصه اذ عين المأكول لا ترجع ﴿وظلها﴾ كذلك دائم لا يتقلص ولا ينسخه الشمس لأنه ليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول.

وفي الآية رد على جهم وأصحابه فإنهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى وينقطع ، وفيها دليل على ان حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم كما يقوله ابو الهذيل واستدل عبدالجبار المعتزلي بهذه الآية على أن الجنة لم تخلق بعد ، ويرده قوله تعالى ﴿أعدت للمتقين﴾ إلى غير ذلك من الآيات والأخبار الصحيحة .

﴿تلك﴾ الجنة الموصوفة بالصفات المتقدمة وهو مبتدأ خبره ﴿عقبى﴾ أي عاقبة ﴿الذين اتقوا﴾ المعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ ليس لهم عاقبة ولا منتهى إلا ذلك .

﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي التوراة والانجيل ﴿يفرحون بما أنزل اليك﴾ يامحمد وهم أهل الكتابين مطلقاً أو من أسلم منهم لكون ذلك موافقاً لما في كتبهم مصدقاً له .

وعلى الأخير يكون المراد بقوله ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ من لم يسلم من اليهود والنصارى ، وعلى الأول يكون المراد به المشركين من أهل مكة ومن يماثلهم أو يكون المراد به بعض أهل الكتابين أي من أحزابها ، فانهم أنكروه لما اشتمل عليه من كونه ناسخاً لشرائعهم فيتوجه فرح من فرح به منهم الى ما هو موافق لما في الكتابين ، وإنكار من أنكر منهم الى ما خالفهما .

وقيل المراد بالكتاب القرآن والمراد بمن يفرح به المسلمون والمراد

بالأحزاب المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين واليهود والنصارى ، والمراد بالبعض الذي أنكروه ما خالف ما يعتقدونه على اختلاف اعتقادهم .

واعترض على هذا بأن فرح المسلمين بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره واجيب عنه بأن المراد زيادة الفرح والاستبشار بما يتجدد من الأحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت ، وقال كثير من المفسرين ان عبدالله بن سلام والذين آمنوا معه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فأنزل الله ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ ففرحوا بذلك .

قال قتادة : الذين يفرحون أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فرحوا بكتاب الله وصدقوا به وبرسله ، والأحزاب اليهود والنصارى والمجوس ، وقال ابن زيد : هؤلاء من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب يفرحون بذلك ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به .

ثم لما بين ما يحصل بنزول القرآن من الفرح للبعض والإنكار للبعض صرح بما عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره إن يقول لهم ذلك فقال ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ وحده ﴿ولا أشرك به﴾ بوجه من الوجوه أي قل لهم يامحمد ذلك إلزاماً للحجة ورداً للإنكار إنما أمرت فيما أنزل اليّ بعبادة الله وتوحيده وهذا أمر اتفقت عليه الشرائع وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المقتدية بالرسل .

﴿إليه﴾ أي الى الله لا الى غيره ﴿أدعو﴾ أو إلى ما أمرت به وهو عبادة الله وحده والأول أولى لقوله ﴿واليه مآب﴾ فإن الضمير لله سبحانه أي إليه وحده لا إلى غيره مرجعي يوم القيامة للجزاء ، قال قتادة : إليه مصير كل عبد .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

ثم ذكر بعض فضائل القرآن وأوعد على الإعـراض عن اتباعـه مع التعريض لرد مـا أنكروه من اشتمـاله عـلى نسخ بعض شـرائعهم فقال : ﴿وكذلك﴾ الإنزال البديع ﴿أنزلناه﴾ أي القرآن مشتملاً على أصول الشرائع وفروعها .

وقيل المعنى وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم ولسانهم كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب ﴿حكماً عربياً﴾ يريد بالحكم ما فيه من الأحكام والنقض والإبرام أو أنزلناه حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ولغتها ليسهل عليها فهمها وحفظها وتحكم بها بين الناس فيما يقع لهم من الحوادث الفرعية وان خالفت ما في الكتب القديمة إذ لا يجب عليك توافق الشرائع .

﴿ولئن﴾ اللام هي الموطئة للقسم ﴿اتبعت أهواءهم﴾ التي يطلبون منك موافقتهم عليها كالاستمرار منك على التوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتك لشيء مما يعتقدونه ﴿بعدما جاءك من العلم﴾ الذي علمك الله إياه ﴿مالك﴾ ساد مسد جواب القسم والشرط ﴿من الله﴾ أي من جنابه ﴿من ولي﴾ يلي أمرك وينصرك ﴿ولا واق﴾ يقيك من عذابه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض لأمته لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدراً وأعلى رتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى .

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ أي أن الرسل الذين أرسلناهم من جنس البشر لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم

ومن أزواجهم ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية .

وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجه بالنساء أي أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه فإنه قد كان لسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لأبيه داود مائة امرأة وكانوا ينكحون ويأكلون ويشربون فكيف يجعل هذا قادحاً في نبوتك .

وعن الحسن عن سمرة قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبتل »[1] أخرجه ابن ماجة والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وعن سعد بن هشام قال : دخلت على عائشة وقلت : إني أريد أن أتبتل . قالت : لا تفعل أما سمعت الله يقول ﴿ولقد أرسلنا رسلاً﴾ الآية اخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وقد ورد في النهي عن التبتل والترغيب في النكاح ما هو معروف وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أولاد أربع اناث وثلاثة ذكور وكانوا في الترتيب في الولادة هكذا القاسم فزينب فرقية ففاطمة فأم كلثوم فعبدالله ويلقب بالطيب والطاهر فإبراهيم وكلهم من خديجة إلا ابراهيم فمن مارية القبطية وماتوا جميعاً في حياته إلا فاطمة فعاشت بعده ستة أشهر .

﴿وما كان﴾ أي لم يكن ﴿لرسول﴾ من الرسل ﴿أن يأتي بآية﴾ من الآيات ﴿إلا بإذن الله﴾ سبحانه فإن شاء أظهر وان شاء لم يظهرها وليس ذلك الى الرسول لأن الرسل مربوبون ومقهورون ومغلوبون محكوم عليهم متصرف فيهم بتدبير أمرهم .

﴿لكل أجل كتاب﴾ أي لكل أمر مما قضاه الله أو لكل وقت من

---

(١) أحمد بن حنبل ١٥٨/٣ ـ ٢٤٥ ـ ١٧/٥ ـ ١٢٥/٦ ـ ١٥٧ ـ ٢٥٣ .

الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم ، وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى لكل كتاب أجل أي لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ووقت معلوم كقوله سبحانه ﴿لكل نبأ مستقر﴾ وليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم بل على حسب ما يشاؤه الله ويختاره ، وفيه رد لاستعجالهم الآجال والأعمار وإتيان المعجزات والعذاب ، فقد كان يخوفهم بذلك فاستعجلوه عناداً فرد الله عليهم ذلك .

والمراد بالأجل هنا أزمنة الموجودات فلكل موجود زمان يوجد فيه محدود لا يزاد عليه ولا ينقص ، والمراد بالكتاب صحف الملائكة التي تنسخها من اللوح المحفوظ أو اللوح نفسه .

﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ أي يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه يقال محوت الكتاب محواً إذا أذهبت أثره ، قرىء مخففاً ومشدداً وعن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل هذه الآية ما نراك يامحمد تملك من شيء ولقد فرغ الأمر فأنزلت هذه الآية تخويفاً لهم ووعيداً لهم أي إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ويحدث الله في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت من أرزاق الناس ومصائبهم ما يعطيهم وما يقسم لهم .

وقال ابن عباس : ينزل الله في كل شهر رمضان إلى سماء الدنيا فيدبر أمر السنة إلى السنة فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت ، وعنه قال : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله ، وقد سبق له خير حتى يموت على طاعة الله وقال أيضاً: هما كتابان يمح الله ما يشاء من أحدهما ويثبت .

وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شر ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وإلى هذا ذهب عمر بن

الخطاب وابن مسعود وابن عباس وابو وائل وقتادة والضحاك وابن جريج وغيرهم ، وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة .

وقيل يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .

وقيل يمحو ما يشاء من الرزق ، وقيل من الأجل ، وقيل من الشرائع فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ، وقيل يمحو ما يشاء من ذنوب عباده ويترك ما يشاء وقيل يمحو ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويترك ما يشاء منها مع عدم التوبة .

وقيل يمحو الآباء ويثبت الأبناء .

وقيل يمحو القمر ويثبت الشمس كقوله ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ وقيل يمحو ما يشاء من الأرواح التي يقبضها حال النوم فيميت صاحبه ويثبت ما يشاء فيرده إلى صاحبه .

وقيل يمحو ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها .

وقيل يمحو الدنيا ويثبت الآخرة ، وقيل غير ذلك مما لا حاجة إلى ذكره والأول أولى كما يفيده ما في قوله ما يشاء من العموم مع تقدم ذكر الكتاب في قوله لكل أجل كتاب ومع قوله ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي جملة الكتاب قاله ابن عباس .

والمعنى أصله وهو اللوح المحفوظ ، والأم أصل الشيء والعرب تسمى كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أماً له ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة ، فالمراد من الآية انه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما يقتضيه مشئيته .

وهذا لا ينافي ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله « جف القلم بما هو كائن »[1] وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله

---

(١) المعنى جزء من حديث طويل من حديث رسول الله : يا غلام احفظ الله يحفظك . . ..

سبحانه ، وقيل إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق .

قال ابن عباس : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرته خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة والدفتان لوحان لله فيه في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينزل في ثلاث ساعات تبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت » الحديث أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وغيرهما .

وأخرج الطبراني بإسناد قال السيوطي ضعيف عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الشقاوة والسعادة والحياة والممات » وعن ابن عباس قال « لا ينفع الحذر من القدر ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر »[1] .

وقال قيس بن عباد : العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء . وعن عمر بن الخطاب انه قال وهو يطوف بالبيت : اللهم إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، واجعله سعادة ومغفرة . وعن ابن مسعود نحوه .

وقيل أم الكتاب الذكر قاله ابن عباس ، وقد استدلت الرافضة على مذهبهم في البدء بهذه الآية ، وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده وقالوا إنه جائز على الله ، وهو ظاهر الفساد لأن علمه سبحانه صفة قديمة أزلية لا يتطرق إليه التغير والتبديل والمحو والاثبات من معلوماته الأزلية وليسا من البدء في شيء وقد علم ما هو خالق وما خلقه وما هم يعملون .

---

(١) أحمد بن حنبل ٥/٢٣٤ .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا
ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

﴿وإما نرينك﴾ ما زائدة وأصله وان نرك ﴿بعض الذي نعدهم﴾ به من العذاب في حياتك كما وعدناهم بذلك بقولنا ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ وبقولنا ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ ، والمراد أريناك ما نعدهم قبل موتك ، وجواب الشرط محذوف ، أي فذاك شافيك من أعدائك ودليل على صدقك .

﴿أو نتوفينك﴾ أي أو توفيناك قبل إراءتك لذلك ، وجوابه أيضا محذوف أي فلا تقصير منك ولا لوم عليك ، وقوله ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ تعليل لهذا المحذوف ، والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ ، أي ليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم.

﴿وعلينا الحساب﴾ أي محاسبتهم إذا صاروا إلينا يوم القيامة بأعمالهم ومجازاتهم عليها وليس ذلك عليك ؛ وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ويصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترى عليه من ذلك .

﴿أولم يروا﴾ يعني أهل مكة والاستفهام للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكّوا أو ألم ينظروا ، وفي ذلك

لم يروا ﴿أنا نأتي الأرض﴾ أي أرض الكفر كمكة ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً بما ينقص من أطراف المشركين ويزيد في أطراف المؤمنين .

قال الزجاج : أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر ، يقول أو لم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم فكيف لا يعتبرون وهذا قول قتادة وجماعة من المفسرين ، وقيل إن معنى الآية ننقصها بموت العلماء والصلحاء . وقال ابن عباس : موت علمائها وفقائها وذهاب خيار أهلها . وعن مجاهد نحوه .

قال القشيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ، وقد قال ابن الاعرابي : الطرف الرجل الكريم ، قال القرطبي : وهذا القول بعيد لأن مقصود الآية أنا أريناهم النقصان في أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلا أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى .

قال الواحدي ؛ التفسير الأول أولى لأن هذا القول وإن صح فلا يليق بهذا الموضع وبه قال الرازي ، وقيل المراد خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها . قاله ابن عباس وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبي وعطاء وجماعة من المفسرين أي نخربها ونهلك أهلها أفلا تخافون أن يفعل بكم ذلك .

وقيل المراد بالآية هلاك من هلك من الأمم ، وقيل المراد جور ولاتها حتى تنقص . وقال ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها . وعنه إنما تنقص الأنفس والثمرات ،وأما الأرض فلا تنقص .

﴿والله يحكم﴾ ما يشاء في خلقه فيرفع هذا ويضع هذا ، ويحيي هذا ويميت هذا ويغني هذا ويفقر هذا ، وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الشريف والعلم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى على ذي بصيرة .

﴿لا معقب لحكمه﴾ أي لا راد لقضائه ، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يقفيه بالرد والإبطال . قال الفراء : معناه لا راد لحكمه .

قال : والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه ولا يستدرك أحد عليه ، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يتعقب غريمه بالطلب ، يعني أنه حكم للإسلام بالاقبال وعلى الكفر بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره ، ومحل ﴿لا﴾ مع المنفي النصب على الحال ، أي يحكم نافذاً حكمه خالياً من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب أحد حكمه سبحانه بنقض ولا تغيير . قال ابن زيد : ليس أحد يتعقب حكمه فيرده كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده .

﴿وهو سريع الحساب﴾ أي الانتقام فيحاسبهم بعد زمن قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل وأخرجهم من ديارهم في الدنيا فلا تستبطىء عقابهم فإنه آت لا محالة وكل آت قريب ، وقد تقدم الكلام في معناه قبل هذا ، والمعنى فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته على السرعة .

﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ أي قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله اليهم من الرسل فكادوهم وكفروا بهم ، والمكر إيصال المكروه الى الانسان الممكور به من حيث لا يشعر ، مثل مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى ويهود بعيسى ؛ وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ولا تأثير له وأن المكر كله لله لا اعتداد بمكر غيره فقال ﴿فَلِلَّه المكر جميعاً﴾ يعني عند الله جزاء مكرهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم . وقال الواحدي : يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وإرادته ، فالمكر جميعاً مخلوق له بيده الخير والشر واليه النفع والضر ، والمعنى ان المكر لا يضر إلا بإذنه وارادته فإثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق .

ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره فقال ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ من خير وشر ، فيجازيها على ذلك ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وسيعلم الكفار﴾ جميعهم وقرىء الكافر على التوحيد أي جنس الكافر وقيل المراد بالكافر أبو جهل ﴿لمن عقبى الدار﴾ أي العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا أو في دار الآخرة أو فيهما .

﴿ويقول الذين كفروا﴾ أي المشركون أو جميع الكفار خطاباً وشفاهاً لك ﴿لست﴾ يامحمد ﴿مرسلاً﴾ إلى الناس من عند الله فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم فقال ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ فهو يعلم صحة رسالتي وصدق دعواي ويعلم كذبكم ﴿و﴾ كذا يعلم ذلك ﴿من عنده علم الكتاب﴾ أي علم جنس الكتاب السماوي كالتوراة والإنجيل فان أهلهما العالمين بهما كانوا يعلمون صحة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الأحبار وتميم الداري ونحوهم وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية الى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك .

وقيل المراد بالكتاب القرآن ومن عنده علم منه هم المسلمون فأنهم يشهدون ايضاً على نبوته او المراد من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه قاله مجاهد وبه قال الحسن ومثله عن ابن عمر بسند ضعيف واختار هذا الزجاج ، وقال لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره .

عن جندب قال : جاء عبدالله بن سلام حتى أخذ بعضادتي باب المسجد ثم قال : أنشدكم بالله أتعلمون اني الذي أنزلت فيه ومن عنده علم الكتاب قالوا اللهم نعم ، وعن ابن عباس هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى يشهدون بالحق ويعرفونه منهم ابن سلام والجارود ، وعن الشعبي ما نزل في

ابن سلام شيء من القرآن ، وعن سعيد بن جبير أنه سئل عن الآية أهو ابن سلام فقال : كيف وهذه السورة مكيّة وعبدالله أسلم بالمدينة ، وعنه قال هو جبريل .

وهذه السورة مدارها كما في الكشف على حقية الكتاب المجيد واشتماله على ما فيه صلاح الدارين وأن السعيد من تمسك بحبله والشقي من أعرض عنه إلى آخر ما فصله .

وهنا أقول ما قاله الخفاجي اللهم اجعلنا ممن تمسك بعروته الوثقى ، واهتدى بهداه حتى لا يضل ولا يشقى ببركة من أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم اقول يابركة النبي تعالي وانزلي ثم لا ترتحلي[1] .

---

(١) هذا الدعاء غير معهود من المؤلف، وفي النفس منه شيء .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ابراهيم عليه السلام

هي مكيّة قاله ابن عباس والزبير والحسن وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة إلا آيتين منها. وقيل إلا ثلاث آيات نزلت في الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قوله ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا - إلى قوله - فان مصيركم الى النار. وعن ابن عباس قال: هي مكيّة سوى آيتين منها نزلتا في قتلى بدر من المشركين وهي اثنتان وخمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

﴿الر﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذا وبيان قول من قال أنه متشابه وبيان قول من قال إنه غير متشابه ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا القرآن ﴿أنزلناه اليك﴾ يامحمد ﴿لتخرج الناس﴾ بدعائك إياهم إلى اتباع ما تضمنه الكتاب من التوحيد وغيره واللام في لتخرج للغرض والغاية والتعريف في الناس للجنس والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم يخرج الناس بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه .

﴿من الظلمات﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل والضلالة ﴿إلى﴾ ما صاروا اليه من ﴿النور﴾ أي نور الإيمان والعلم والهداية .

قال الرازي : فيه دليل على أن طريق الكفر والبدعة كثيرة ، وطريق الحق ليس إلا واحداً لأنه عبر عنها بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الحق بالنور وهو لفظ مفرد جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة وقيل أن الظلمة مستعارة للبدعة والنور مستعار للسنة وقيل من الشك إلى اليقين ، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور وأسند الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والهادي والمنذر .

﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره وعلمه وتيسيره وتسهيله ، قال الزجاج ؛ أي بما اذن لـك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿الى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً أي لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها الله لعباده وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها .

ويجوز أن يكون مستأنفاً كأنه قيل ما هذا النور الذي أخرجهم اليه فقيل صراط العزيز الحميد لأنه نور في نفسه طريق للخلود في الجنة المؤبد ، وإضافة الصراط الى الله تعالى لأنه المظهر له وأفهم بتخصيص الوصفين أنه لا يزل سالكهُ ولا يخيب قـاصده ، والعـزيز هـو القادر الغـالب الغني عن جميع الحاجات ، والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد .

﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ قرأ الجمهور بالجر على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به لأن العلم لا يوصف به ، وقيل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى وقرأ نافع وابن عامر بـالـرفـع عـلى أنـه خبـر مبتـدأ محـذوف أي هـو الله المتصف بملك مـا فيهـما خلقـاً وملكـاً وعبيداً وكان يعقوب إذا وقف على الحميد رفع وإذا وصل خفض ، قال ابن الأنباري : من خفض وقف على وما في الأرض .

ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال ﴿وويل للكافرين من عـذاب شديد﴾ معدّ لهم في الآخرة ، وقد تقدم بيان معنى الويل وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع للدلالة على الثبات ، قال الزجاج : هي كلمة تقال للعذاب والهلكة فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أنزله الله عليه مما هو فيه من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، قيل والويل هو نقيض لو أل أي النجاة وقيل الويل واد في جهنم ، ومن بيانية وقيل الويل بمعنى التأوه فمن للتعدية أي يولولون ويضجون

من العذاب الشديد الذي صاروا فيه قائلين ياويلاه .

ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا﴾ أي يؤثرونها لمحبتهم لها ﴿على الآخرة﴾ الدائمة والنعيم الأبدي .

﴿ويصدون﴾ أي يصرفون الناس ﴿عن سبيل الله﴾ أي عن دينه الذي شرعه لعباده ﴿ويبغونها﴾ أي السبيل ﴿عوجا﴾ أي يطلبون لها زيغاً وميلاً وعدولاً وانحرافاً عن الحق لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ، وقيل الهاء راجعة الى الدنيا أي يطلبونها على سبيل الميل عن الحق ، والميل إلى الحرام والعِوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الأعيان وقد سبق تحقيقه ، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال :

﴿اولئك﴾ يعني من هذه صفته ﴿في ضلال بعيد﴾ عن طريق الحق ، اي بالغ في ذلك غاية الغايات القاصية أو ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال قد يضل ويبعد عن الطريق مكاناً قريباً وقد يضل بعيداً ، والبعد وان كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازاً لقصد المبالغة كجد جدّه وداهية دهياء .

ثم لما منّ على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال :

﴿وما أرسلنا من رسول إلا﴾ متلبساً ﴿بلسان قومه﴾ متكلماً بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل اليهم ما يقوله لهم ويدعوهم اليه وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهراً طويلاً ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ، ولهذا علّل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله :

﴿ليبين﴾ أي ليوضح ﴿لهم﴾ ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة . عن ابن عباس أن الله فضل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء . قيل ما فضله على أهل السماء ؟ قال : إن الله قال لأهل السماء ﴿ومن يقل منهم إني إلّه من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فكتب له براءة من النار . قيل فما فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله يقول ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ فأرسله الى الانس والجن .

وقال عثمان بن عفان : نزل القرآن بلسان قريش . وعن مجاهد مثله ، وقد قيل في هذه الآية إشكال لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل الى الناس جميعاً بل الى الجن والانس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة وأجيب بأنه صلى الله عليه وسلم وان كان مرسلاً الى الثقلين كما مر ، لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به واقرب اليه ، كان أرساله بلسانهم أولى من أرساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهماً له كفهمهم إياه .

ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل قوم بلسانه ، لكان ذلك مظنةً للاختلاف ، وفتحاً لباب التنازع ، لان كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وربما كان ذلك ايضاً مفضياً الى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون .

قال في الجمل والأولى أن يحمل القوم على من أرسل اليهم الرسول أياً كان وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد خصوص عشيرة رسولهم ، وبالنسبة إليه كل من أرسل اليه من سائر القبائل وأصناف الخلق وهو صلى الله عليه وسلم كان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وإن لم يثبت أنه تكلم باللغة التركية لأنه لم يتفق أنه خاطب أحداً من أهلها ، ولو خاطبه لكلمه بها ، تأمل انتهى .

﴿فيضل الله من يشاء﴾ اضلاله فيه التفات عن التكلم الى الغيبة ﴿ويهدي من يشاء﴾ هدايته ، والجملة مستأنفة .

قال الفراء : اذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، يعني لا يجوز نصبه عطفاً على ما قبله لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى ، والرسل أرسلت للبيان لا للضلال .

وقال الزجاج : ولو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة جاز ، والمعنى على الأول وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها ، ومع ذلك فإن المضل والهادي هو الله عز وجل ، والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسبباً ، وتقديم الاضلال على الهداية لأنه متقدم عليها اذ هو إبقاء على الأصل ، والهداية انشاء ما لم يكن .

﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغالبه مغالب في ملكه ﴿الحكيم﴾ الذي تجري أفعاله على مقتضى الحكمة في صنعه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

ثم لما بيَّن أن المقصود من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم هو اخراج الناس من الظلمات الى النور ؛ أراد أن يبيِّن أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلا ذلك وخص موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية فقال ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ متلبساً ﴿بآياتنا﴾ التسع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات ، قاله مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير .

﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ المعنى قلنا لموسى أخرج ، لأن الإرسال فيه معنى القول أو بأن أخرج بني اسرائيل بعد ملك فرعون من الكفر أو الجهل الذي قالوا بسببه اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إلى الايمان أو العلم ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي بوقائعه .

قال ابن السكيت : العرب تقول الأيام في معنى الوقائع ، يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعها .

وقال الزجاج : بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود ، والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد . وأخرج النسائي والبيهقي وغيرهما عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

« ذكرهم بنعم الله وآلائه »وبه قال ابن عباس .

وقال الربيع بوقائع في القرون الأولى ، ويترجح تفسير أيام الله ببلائه ونعمه وفي تفسير ابن جرير بأيام الله ، أي بأنواع عقوباته الفائضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه ، وفي القاموس وأيام الله نعمه ويوم أيوم شديد ،وآخر يوم في الشهر ، وفي المختار وربما عبروا عن الشدة باليوم .

﴿إن في ذلك﴾ التذكير بأيام الله أو في نفس أيام الله ﴿لآيات﴾ أي لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة ﴿لكل صبار﴾ كثير الصبر على المحن والمنح ﴿شكور﴾ كثير الشكر للنعم التي أنعم الله بها عليه لانه اذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر وقيل المراد بذلك كل مؤمن ، وعبر عنه بالوصفين لأنهما ملاك الإيمان وعنوان المؤمن ، وقدم الصبار على الشكور لكون الشكر عاقبة الصبر .

قال قتادة في الآية : نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ؛ واذا أعطى شكر ، وإنما خص الصبار والشكور وان كان فيها عبرة للكافة لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم .

﴿واذ قال موسى﴾ أي اذكر وقت قول موسى ﴿لقومه﴾ والمعنى اذكر يامحمد لقومك ما ذكر لعلهم يعتبرون ﴿اذكروا نعمة الله﴾ أي انعامه ﴿عليكم اذ أنجاكم﴾ أي وقت إنجائه لكم ﴿من آل فرعون يسومونكم﴾ أي يبغونكم ، يقال سامه ظلماً أي أولاه ظلماً ، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء .

﴿سوء العذاب﴾ مصدر ساء يسوء والمراد جنس العذاب السيء وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة .

﴿ويذبحون أبناءكم﴾ المولودين لقول بعض الكهنة أن مولوداً يولد في بني اسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون ، وعطف ﴿يذبحون﴾ على ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ وان كان التذبيح من جنس سوء العذاب اخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة ومع طرح الواو كما في الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيراً لسوء العذاب .

﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي يتركونهن في الحياة لإهانتهن واذلالهن ، ولذلك عدَّ من جملة البلاء ، وزاد الكرخي كانوا يستخدمونهن بالاستعباد ويفردونهن عن الأزواج وذلك من أعظم المضار .

﴿وفي ذلكم﴾ أي في انجائكم أو في افعالهم المذكورة ﴿بلاء﴾ أي ابتلاء لكم بالتنعم أو بالعذاب ، فالله تعالى يختبر عباده تارة بالنعم وتارة بالشدائد ، كما قال ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ ﴿من ربكم عظيم﴾ وقد تقدم تفسير هذه الآيات في البقرة مستوفى .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ
مُرِيبٍ ۝٩﴾

﴿واذ تأذن﴾ بمعنى أذن قاله الفراء ، قال في الكشاف : ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل ، وكأنه قيل واذ آذن ﴿ربكم﴾ إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه ، والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم ، وأجرى تأذن مجرى قال لانه ضرب من القول انتهى ، وهذا من قول موسى لقومه ، أي واذكروا حين تأذن ربكم .

وقيل هو من قول الله سبحانه أي أذكر يامحمد اذ تأذن ربكم وقرىء واذ قال ربكم والمعنى واحد كما تقدم واللام في .

﴿لئن شكرتم﴾ هي الموطئة للقسم والخطاب لبني اسرائيل وقوله ﴿لأزيدنكم﴾ سادّ مسد جوابي الشرط والقسم والمعنى لئن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر وما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني ، وقيل من طاعتي قاله الحسن ؛ وقيل من الثواب والأول أظهر فالشكر سبب المزيد .

قال الربيع : أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم ، وقال سفيان الثوري في الآية : لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون عند الله من ذلك ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي .

﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ لمن كفر نعمتي فلا بد أن يصيبكم منه ما يصيب وهو ساد مسد الجوابين أيضاً ، وقيل الجواب محذوف أي ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه لاعذبنكم ، دل عليه إن عذابي لشديد وانما حذف هنا وصرح به في جانب الوعد لأن من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين .

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ أي وجميع الخلق من الثقلين نعمته تعالى ولم تشكروها وجواب الشرط محذوف أي فما أضررتم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها من مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد ﴿فإن الله﴾ سبحانه ﴿لغني﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص ﴿حميد﴾ أي مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه وان لم تشكروه أو يحمده غيركم من الملائكة وتنطق بنعمه ذرّات الكائنات .

ولعله عليه السلام إنما قال هذا عندما عاين منهم دلائل العناد ومخائل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب .

أخرج البخاري في تاريخه والضياء في المختار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة » وفيها من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة . وعن أبي هريرة مرفوعاً « من أعطى الشكر لم يمنع الزيادة » أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر ، ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء الشكر ، فمن شكر الله على ما رزقه وسَّع الله عليه في رزقه ومن شكر الله على ما أقدره

عليه من طاعته زاده من طاعته ومن شكره على ما أنعم من الصحة زاده الله صحة الى غير ذلك .

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم﴾ استفهام تقرير يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وإخبارهم ومجيء رسل الله اليهم ، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم تحذيراً لهم عن مخالفته والنبأ الخبر والجمع الأنباء .

﴿قوم نوح وعاد وثمود﴾ بدل من الموصول أو عطف بيان ﴿والذين من بعدهم﴾ أي من بعد هؤلاء الأمم الماضية الثلاثة ﴿لا يعلمهم﴾ أي لا يحصى عددهم ومقاديرهم ولا يحيط بهم علماً ﴿إلا الله﴾ سبحانه والجملة معترضة وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً الى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم أي هذه الأمور لا يعلمها إلا الله ولا يعلمها غيره أو يكون راجعاً الى ذواتهم أي أنه لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلا الله سبحانه ولم يبلغنا خبرهم أصلاً .

وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ويقول كذب النسابون ، وعن عمرو بن ميمون مثله ، وعن أبي مجلز قال : قال رجل لعلي بن أبي طالب أنا أنسب الناس قال إنك لا تنسب الناس ، فقال بلى ، فقال له عليّ أرأيت قوله عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً قال أنا أنسب ذلك الكثير قال أرأيت قوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، فسكت ، وعن عروة بن الزبير قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان ، وعن ابن عباس قال : ما بين عدنان واسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون .

﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي المعجزات الظاهرة والدلالات الباهرة والشرائع الواضحة مستأنف وهذا في المعنى تفسير لنبأ الذين من قبلهم ﴿فردوا أيديهم﴾ أي جعلوا أيدي أنفسهم ﴿في أفواههم﴾ ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما في قوله تعالى ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم .

وقيل إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم الى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات أي اسكتوا واتركوا هذا الذي جئتم به تكذيباً لهم ورداً لقولهم ، وقيل المعنى أنهم أشاروا الى ألسنتهم وما يصدر عنها من قولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به أي لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بألسنتنا هذه، قيل وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاء وتعجباً كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه .

وقيل المعنى ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم ، فالضمير الأول للرسل ، والثاني للكفار ، وقيل جعلوا أيديهم في أفواه الرسل رداً لقولهم ؛ فالضمير الاول على هذا للكفار ، والثاني للرسل ، وقيل معناه أومأوا الى الرسل أن اسكتوا ، وقيل أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم ، والمراد بهما على هذا هاتان الجارحتان المعلومتان .

وقيل إن الأيدي هنا النعم أي ردوا نعم الرسل بأفواههم أي بالنطق والتكذيب ، والمراد بالنعم هنا ما جاءوهم به من الشرائع ، وقال أبو عبيدة ونعم ما قال هو ضرب مثل أي لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت قد رد يده في فيه ، وهكذا قال الأخفش .

واعترض على ذلك القتيبي فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول رد يده في فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنقاً وغيظاً ، وهذا هو القول الذي قدمناه على جميع هذه الأقوال ، وبه قال ابن مسعود وهو

أقرب التفاسير للآية ان لم يصح عن العرب ما ذكره الأخفش وأبو عبيدة ، فإن صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب .

﴿وقالوا﴾ أي الكفار للرسل ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ من البينات على زعمكم ﴿وإنا لفي شك﴾ عظيم ﴿مما تدعوننا اليه﴾ من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿مريب﴾ أي موجب للريب ، يقال أربته إذا فعلت أمراً أوجب ريبة وشكاً ، والريب قلق النفس وعدم سكونها وأن لا تطمئن إلى شيء .

وقد قيل كيف صرحوا بالكفر ثم بنوا أمرهم على الشك وأجيب بأنهم أرادوا أنّا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنّا نشك في صحة نبوتكم ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم ، وقيل كانوا فرقتين إحداهما جزمت بالكفر ، والأخرى شكت ، وقيل إن كفرهم بالمعجزات وشكهم في التوحيد فلا تخالف .

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿قالت رسلهم﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل فماذا قالت لهم الرسل فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿أفي الله شك﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار أي أفي وحدانيته سبحانه شك وهي في غاية الوضوح والجلاء ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته فقالوا ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما وما فيهما بعد العدم .

﴿يدعوكم﴾ إلى الإيمان به وتوحيده أو الى الايمان بإرساله إيانا لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا إليه ﴿ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي لأجل غفران ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم أو اللام للتعدية كقولك دعوتك لزيد .

قال أبو عبيدة : من صلة زائدة في الإيجاب ، ووجه ذلك قوله في موضع آخر ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ وأجازه الأخفش وقال سيبويه : هي للتبعيض ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع .

وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غفران جميعها لغيرهم ، وبهذه الآية احتج من جوز زيادة ﴿من﴾ في الإثبات ، وجمهور البصريين لا يجوزون زيادتها إلا في النفي إذا

جرت نكـرة ومن ثم جعلها بعضهم للبدل وقال ليست بزائدة ولا تبعيضية أي لتكون المغفرة بدلاً من عقوبة الذنوب ، ويحتمل أن يضمن يغفر معنى يخلص أي يخلصكم من ذنوبكم ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب وهو أولى من دعوى زيادته ﴿ويؤخركم﴾ بلا عذاب ﴿إلى أجل﴾ أي وقت ﴿مسمى﴾ عنده سبحانه وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا .

﴿قالوا إن﴾ أي ما ﴿أنتم إلا بشر مثلنا﴾ في الهيئة والصورة ، تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ، فلا فضل لكم علينا ولستم ملائكة ﴿تريدون أن تصدونا﴾ وصفوهم بالبشر أولاً ثم بإرادة الصدّ لهم ﴿عما كان يعبد آباؤنا﴾ أي آباؤهم ثانياً أي تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها ﴿فأتونا﴾ إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله ﴿بسلطان مبين﴾ أي حجة ظاهرة واضحة تدل على صحة ما تدعونه من المزية أو النبوة وقد جاؤوهم بالسلطان المبين والحجـة الظاهـرة ولكن هذا نـوع من تعنتاتهم ولـون من تلوناتهم .

﴿قالت لهم رسلهم﴾ مسلمين مشاركتهم في الجنس ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ أي في الصورة والهيئة كما قلتم لا ننكر ذلـك ﴿ولكن الله يمن﴾ ويتفضل ﴿على من يشاء من عباده﴾ بالنبوة والرسالة ، وقيل بالتوفيق والهداية جعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى وفيه دليل على أن النبوة أمر وهبي لا كسبي كما يزعمه المتفلسفة والحكماء .

﴿وما كان﴾ أي ما صح ﴿لنا﴾ ولا استقام ﴿أن نأتيكم بسلطان﴾ أي بحجة من الحجج ، وقيل المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت ، وقيل أعم من ذلك فإن ما شاء الله كان وما لم يشأه لم يكن ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بمشيئته وإرادته وليس ذلك في قدرتنا ، وقيل بأمره لنا بالإتيان أي إذنه لنا فيه والأول أولى .

﴿وعـلى الله﴾ وحده ﴿فليتـوكل المؤمنـون﴾ في دفع شـرور أعدائهم عنهم وفي

وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم
مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ
صَدِيدٍ ﴿١٦﴾

الصبر على معاداتهم وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أولياً ولهذا قالوا :

﴿وما لنا﴾ أي وأيُّ مانع وعذر لنا في ﴿أن لا نتوكل على الله﴾ سبحانه في دفع شروركم عنا ، فيه التفات عن الغيبة الى التكلم والاستفهام للإنكار ﴿وقد هدانا سبلنا﴾ بضم الباء وسكونها سبعيتان ، أي والحال إنه قد فعل بنا ما يوجب التوكل عليه ويستدعيه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه وعرفنا طريق النجاة وبيَّن لنا الرشد .

وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة ﴿و﴾ الله ﴿لنصبرن على ما آذيتمونا﴾ من وقوع التكذيب لنا منكم والعناد والاقتراحات الباطلة وغير ذلك مما لا خير فيه وما مصدرية أو موصولة اسمية ﴿وعلى الله﴾ وحده دون من عداه ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ قيل المراد بالتوكل الأول استحداثه وإنشاؤه، وبهذا السعي في بقائه وثبوته فالتوكلان مختلفان .

وقيل معنى الأول إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا ، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم

يظهرها . ومعنى الثاني إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم .

﴿وقال الذين كفروا﴾ هم طائفة من المتمردين عن إجابة الرسل ﴿لرسلهم﴾ واللام في ﴿لنخرجنكم﴾ هي الموطئة للقسم ، أي والله لنخرجنكم ﴿من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ لم يقنعوا برد ما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترؤوا عليهم بهذا وخيروهم بين الخروج من أرضهم أو العود في ملتهم الكفرية .

وقد قيل أن ﴿أو﴾ بمعنى حتى أو بمعنى إلا أن كما قاله بعض المفسرين ، ورد بأنه لا حاجة الى ذلك بل أو على بابها للتخيير بين أحد الأمرين ، قيل والعود هنا بمعنى الصيرورة ، أي لتصيرن داخلين في ديننا أي في الشرك لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها ، وقيل إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب الرسل على أتباعهم، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأعراف ﴿فأوحى اليهم﴾ أي إلى الرسل بعد هذه المخاطبات والمحاورات ﴿ربهم لنهلكن الظالمين﴾ الكافرين ﴿ولنسكننكم الأرض﴾ أي أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوكم من الإخراج او العود .

﴿من بعدهم﴾ أي بعد هلاكهم ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ وقال ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾ .

عن ابن عباس قال : كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم إلى أن يعودوا في ملتهم ، فأبى الله لرسله والمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر ، وأمرهم أن يتوكلوا على الله وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم ، فأنجز لهم ما وعدهم واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا .

وعن قتادة قال : وعدهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، فبيَّن الله

من يسكنها من عباده فقال ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وإن لله مقاماً هو قائمه ، وأن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار .

﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين في مساكنهم ﴿لمن خاف مقامي﴾ أي موقفي ، وذلك يوم الحساب فإنه موقف الله سبحانه ، والمقام بفتح الميم مكان الاقامة وبالضم فعل الاقامة ، وقيل ان المقام هنا مصدر بمعنى القيام ، أي لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له كقوله تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ وقال الأخفش مقامي بمعنى عذابي .

﴿وخاف وعيد﴾ أي خشي وعيدي بالعذاب ، وقيل بالقرآن وزواجره ، وقيل هو نفس العذاب الموعود للكفار ، والوعيد اسم من الوعد ، وهذه الآية تدل على أن الخوف من الله غير الخوف من وعيده لأن العطف يقتضي التغاير ، قاله الكرخي .

﴿واستفتحوا﴾ أي استنصروا بالله على أعدائهم أو سألوا الله القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة بين الخصمين ، ومن الأول قوله ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ ومن الثاني قوله ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا﴾ أي احكم ، والضمير في استفتحوا للرسل ، وقيل للكفار وقيل للفريقين وقيل لقريش لأنهم في سني الجدب استمطروا فلم يمطروا ، وهو على هذا مستأنف والأول أولى ، وقرىء استفتحوا بكسر التاء الثانية على لفظ الأمر ، أمراً للرسل بطلب النصرة فنصروا وسعدوا وربحوا .

﴿وخاب﴾ أي خسر وقيل هلك ﴿كل جبار﴾ هو المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة .

وقيل من تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها ، وهو صفة ذم في

حق الانسان ، وقيل الذي لا يرى فوقه أحداً . وقيل المتعظم في نفسه المتكبر على اقرانه والمعاني متقاربة ﴿عنيد﴾ هو المعاند للحق والمجانب له قاله مجاهد ، وهو مأخوذ من العند وهو الناحية ، أي آخذ في ناحية معرضاً .

قال الزجاج : العنيد الذي يعدل عن القصد ، وبمثله قال الهروي . وقال أبو عبيد : هو الذي عند وبغى وقال ابن كيسان : هو الشامخ بأنفه ، وقيل المراد به العاصي ، وقيل الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله . قاله قتادة ، وقيل العنيد الناكب عن الحق . قاله ابراهيم النخعي ، وقال مقاتل : المتكبر ، وقال ابن عباس : هو المعرض عن الحق .

وقيل هو المعجب بما عنده ، وقيل هو الذي يعاند ويخالف ، ومعنى الآية انه خسر وهلك من كان متصفاً بهذه الصفة .

﴿من ورائه﴾ أي من بعده ﴿جهنم﴾ والمراد بعد هلاكه على أن وراء هنا بمعنى بعد : ومثله قوله تعالى ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي من بعده ، كذا قال الفراء . وقيل من ورائه أي من أمامه قال أبو عبيدة : هو من أسماء الأضداد لأن أحدهما ينقلب الى الآخر ، ومنه قوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾ أي أمامهم ، وبه قال قطرب .

وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك أي سوف يأتيك وأنا من وراء فلان أي في طلبه .

وقال النحاس : من ورائه أي من أمامه ، وليس من الأضداد ، ولكنه من توارى أي استتر فصارت جهنم من ورائه لأنها لا ترى.وحكى مثله ابن الأنباري وقال ثعلب: هو اسم لماتوارى عنك سواء كان خلفك أو قدامك.

﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي يلقى فيها ويسقى ، والصديد ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم واشتقاقه من الصد لأنه يصد الناظرين عن رؤيته وهو دم مختلط بقيح يسيل من جلد الكافر ولحمه .

يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ
كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾

وقال عكرمة : هو القيح والدم . وقال محمد بن كعب القرظي : هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر والصديد صفة لماء أو بدل منه ، وقيل عطف بيان له ﴿يتجرعه﴾ التجرع التحسي أي يتحساه مرة بعد مرة لا مرة واحدة لمرارته وحرارته ونتنه وكراهته ، وقيل يكلف تجرعه ويقهر عليه ولم يذكر الزمخشري غيره ، وقيل إنه دال على المهلة أي يتناوله شيئاً فشيئاً . وقيل انه بمعنى جرعه المجرد ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً اذا كان سهلاً ، والمعنى لا يقارب ان يسيغه ويبتلعه فكيف يكون الاساغة بل يغص به بعد اللتيا واللتي فيشربه جرعة بعد جرعة فيطول عذابه بالحرارة والعطش تارة ، ويشربه على هذه الحالة أخرى ، فإن السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفي ما ذكر جميعاً .

وقيل لا يكاد يدخله في جوفه ، وعبر عنه بالاساغة لما انها المعهودة في الاشربة وقيل انه يسيغه بعد شدة وابطاء كقوله ﴿وما كادوا يفعلون﴾ أي يفعلون بعد ابطاء كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿يصهر به ما في بطونهم﴾ قيل كاد صلة ، وقال الزمخشري للمبالغة ؛ وقيل معناه لا يجيزه .

أخرج أحمد والترمذي واستغربه والنسائي وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي وابو نعيم في الحلية وصححه عن ابي أمامة عن النبي صلى الله

عليه وسلم في الآية قال : «يقرب الى فيه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فاذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره » يقول الله ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم﴾ وقال :﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ .

﴿ويأتيه الموت﴾ أي أسبابه ﴿من كل مكان﴾ أي من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله ، أو من كل موضع من مواضع بدنه .

وقال الأخفش : المراد بالموت هنا البلايا التي تصيب الكافر في النار ، سماها موتاً لشدتها .

وقال ابن عباس : يعني أنواع العذاب وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت لأن الله يقول لا يقضى عليهم فيموتوا .

وقال ميمون بن مهران : المعنى من كل عظم وعرق وعصب . وعن محمد بن كعب نحوه ، وعن ابراهيم التيمي قال : من موضع كل شعرة في جسده .

﴿وما هو بميت﴾ أي والحال انه لم يمت حقيقة فيستريح . وقيل تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع الى مكانها من جوفه فيحيا ، ومثله قوله ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾ .

وقيل المعنى وما هو بميت لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه ، والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه ﴿لا يموت فيها

ولا يحيى﴾ وقوله ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ .

﴿ومن ورائه﴾ أي من أمامه أو من بعده أو من بين يديه ، قاله البيضاوي . وقيل الضمير عائد على كل جبار كما في السمين ﴿عذاب غليظ﴾ أي شديد يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه ، قيل هو الخلود في النار ، قال ابراهيم التيمي وقيل حبس الأنفاس ، قاله فضيل بن عياض .

﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ كلام مستأنف منقطع عما قبله ، قال سيبويه : تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين ، والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة . وقال الزجاج والفراء : التقدير مثل اعمال الذين . وروي عنه أنه قال بالغاء مثل ، وقيل مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول مثلهم فقيل :

﴿أعمالهم﴾ الصالحة كالصدقة وصلة الأرحام وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك أو عبادتهم الأصنام في عدم الانتفاع بها أو الأعمال التي اشركوا فيها غير الله تعالى .

﴿كرماد﴾ أي باطلة غير مقبولة ، والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء ، وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد احتراقه بالنار وجمعه في الكثرة على رمد ؛ وفي القلة على أرمد .

﴿اشتدت به الريح﴾ حملته بشدة وسرعة فنسفته وطيَّرته ولم تبق منه شيئاً ﴿في يوم عاصف﴾ العصف شدة الريح وصف به زمانها مبالغة كما يقال يوم حار ويوم بارد والبرد والحر فيها لا منها والاسناد فيه تجوّز ، ووجه الشبه أن الريح العاصفة تطيِّر الرماد وتفرِّق اجزاءه بحيث لا يبقى له أثر ، فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم واحبطها بحيث لا يبقى لها أثر .

وقد بيَّن محصله بقوله ﴿لا يقدرون مما كسبوا﴾ من تلك الاعمال الباطلة

﴿على شيء﴾ منها ولا يرون له أثراً في الآخرة يجازون به ويثابون عليه ، جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها وهو فذلكة التمثيل . وعن ابن عباس : لا يقدرون على شيء من اعمالهم ينفعهم كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل في يوم عاصف .

﴿ذلك﴾ أي ما دل عليه التمثيل من هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها ﴿هو الضلال﴾ الهلاك ﴿البعيد﴾ عن طريق الحق المخالف لمنهج الثواب أو عن فعل الثواب ، ولما كان هذا خسراناً لا يمكن تداركه ولا يرجى عوده سماه بعيداً ﴿ألم تر أن الله خلق السموات والارض﴾ الرؤية هنا هي القلبية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضاً لأمته او الخطاب لكل من يصلح له «بالحق» أي بالوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقها عليه ليستدل بها على كمال قدرته لا باطلاً ولا عبثاً والباء للمصاحبة .

ثم بيَّن كمال قدرته سبحانه واستغنائه عن كل أحد من خلقه فقال : ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها الناس ﴿ويأت بخلق جديد﴾ سواكم فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ؛ ويهلك العصاة ، ويأتي بمن يطيعه من خلقه ، لأن القادر لا يصعب عليه شيء وانه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، والمقام يحتمل ان يكون هذا الخلق الجديد من نوع الانسان ، ويحتمل ان يكون من نوع آخر .

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا
ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟
أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿وما ذلك﴾ أي الاذهاب والاتيان بإعدام الموجود وإيجاد المعدوم ﴿على الله بعزيز﴾ أي بممتنع ومتعذر لأنه سبحانه قادر على كل شيء، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه، فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال ﴿وبرزوا لله جميعاً﴾ أي الخلائق من قبورهم يوم القيامة، والبروز الظهور والبراز بالفتح المكان الواسع لظهوره، ومنه امرأة برزة أي تظهر للرجال، وبرز حصل في البراز أي الفضاء، وذلك بأن يظهر بذاته كلها، فمعنى برزوا ظهروا من قبورهم.

وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني وإنما قال وبرزوا لله مع كونه سبحانه عالماً بهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه.

﴿فقال الضعفاء للذين استكبروا﴾ أي قال الاتباع الضعفاء في الرأي للرؤساء الأقوياء المتكبرين بما هم فيه من الرياسة ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ في الدنيا

في الدين والاعتقاد فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم ، والتبع جمع تابع مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد ، أو مصدر وصف به للمبالغة أو على تقدير ذوي تبع .

قال الزجاج : جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم وقادتهم عن عبادة الله انا كنا لكم تبعاً .

﴿فهل أنتم﴾ في هذا اليوم ، والاستفهام للتوبيخ ﴿مغنون﴾ أي دافعون ﴿عنا﴾ يقال أغنى عنه اذا دفع عنه الأذى واغناه إذا أوصل اليه النفع ﴿من عذاب الله من شيء﴾ أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله ، فمن الأولى للبيان والثانية للتبعيض قاله الزمخشري ، وقيل هما للتبعيض معاً قاله في الكشاف ايضاً وقيل الأولى تتعلق بمحذوف والثانية مزيدة .

﴿قالوا﴾ أي قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين ﴿لو هدانا الله﴾ الى الايمان في الدنيا ﴿لهديناكم﴾ اليه ولكن لما أضلنا وضللنا دعوناكم الى الضلالة واضللناكم واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، والجملة مستأنفة كأنه قيل كيف أجابوا ، وقيل المعنى لو هدانا الله الى طريق الجنة لهديناكم اليها ، وقيل لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه .

﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ أي مستو علينا الجزع والصبر ، والجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما في قوله تعالى ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ .

﴿ما لنا من محيص﴾ أي منجاة ومهرب من العذاب من الحيص وهو العدول على جهة الفرار يقال حاص فلان عن كذا أي فرَّ وزاغ يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً .

والمعنى مالنا وجه نتباعد به عن النار ، ويجوز ان يكون هذا من كلام الفريقين وأن كان الظاهر انه من كلام المستكبرين ، وفي مجيء كل جملة مستقلة من غير عاطف دلالة على أن كُلاًّ من المعاني مستقل بنفسه كاف في الأخبار ، وقال زيد بن أسلم : جزعوا مائة سنة وصبروا مائة سنة .

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول أهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا هلموا فلنجزع فبكوا خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » .

والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار كما في قوله تعالى ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد﴾ .

﴿وقال الشيطان﴾ للفريقين ﴿لما قضي الأمر﴾ أي دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار على ما سيأتي بيانه في سورة مريم ﴿ان الله وعدكم وعد الحق﴾ فصدق في وعده وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيىء بإساءته .

قال الفراء : وعد الحق هو من اضافة الشيء الى نفسه كقولهم مسجد الجامع ؛ وقال البصريون وعدكم وعد اليوم الحق .

﴿ووعدتكم﴾ وعداً باطلاً بأنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار

﴿فأخلفتكم﴾ ما وعدتكم به من ذلك ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم .

﴿إلا أن دعوتكم﴾ أي مجرد دعائي لكم الى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان ودعوته لهم ليست من جنس السلطان حتى يستثنى منه بل الاستثناء منقطع أي لكن دعوتكم وقيل المراد بالسلطان هنا القهر أي ما كان لي عليكم من قهر يضطركم الى اجابتي وقيل هذا الاستثناء هو من باب « تحية بينهم ضرب وجيع» مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من سلطان وليس منه قطعاً.

﴿فاستجبتم لي﴾ أي فسارعتم الى اجابتي ﴿فلا تلوموني﴾ بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل واخلافي هذا الموعد فإن من صرح بالعداوة لا يلام بأمثال ذلك ﴿ولوموا أنفسكم﴾ باستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ولمارنه قطع ولا سيما ودعوتي هذه الباطلةوموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وهو الحق ودعوته لكم الى دار السلام مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ولا تلتبس إلا على مخذول .

وقريب من هذا من يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله ولما في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويؤثرها على ما فيهما فانه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة ، ولا دل عليه برهان ، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المقلدين لهم ، المتنكبين عن طريق الحق بسوء اختيارهم ، اللهم غفراً .

﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ﴾ يقال صرخ فلان اذا استغاث يصرخ صراخاً وصرخاً واستصرخ بمعنى صرخ والمصرخ المغيث والمستصرخ

المستغيث ، يقال استصـــرخني فأصرخته والصريخ صوت المستصرخ والصريخ ايضا الصارخ وهو المغيث والمستغيث وهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح .

قال ابن الأعرابي : الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث ، ومعنى الآية ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من العذاب ، وما أنتم بمغيثي ولا منقذي مما أنا فيه وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب ، محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه فكيف يطمعون في إغاثة من هو محتاج الى من يغيثه .

قال ابن عباس : المعنى ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي ، وقال الشعبي في هذه الآية : خطيبان يقومان يوم القيامة إبليس وعيسى ؛ فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول القول المذكور في الآية ، وأما عيسى فيقول ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ وقال قتادة : المعنى ما أنا بمعينكم . ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قد ذهب جمهور المفسرين الى أن ما مصدرية أي بإشراككم أياي مع الله في الطاعة لأنهم كانوا يطيعونه في أعمال الشر ، كما يطاع الله في أعمال الخير ، فالإشراك استعارة بتشبيه الطاعة به وتنزيلها منزلته ، أو لأنهم لما أشركوا الأصنام ونحوها بايقاعه لهم في ذلك فكأنهم أشركوه وقيـل موصـولة عـلى معنى إني كفرت بـالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم .

ولما كشف لهم القناع بأنه لا يغنى عنه من عذاب الله شيئاً ولا ينصرهم بنوع من انواع النصر ، صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله في الربوبية من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة ، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكاً .

ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم :

أولا أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه ، وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها .

ثم أوضح لهم **ثانيا** بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ، ولا يتفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قول غيره .

ثم أوضح لهم **ثالثاً** بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء .

ثم نعى عليهم **رابعاً** ما وقعوا فيه ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .

ثم اوضح لهم **خامساً** بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة .

ثم صرح لهم **سادساً** بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب .

واذا كان جملة ﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ من تتمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع **سابع** من كلامه الذي خاطبهم به . فاثبت لهم الظلم ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم لا على قول من قال إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه وتعالى .

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

ولما اخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة فقال ﴿وادخل﴾ قراءة الجمهور على البناء للمفعول وقرىء بالبناء على الفاعل أي وأنا أدخل ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ثم ذكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم فقال ﴿خالدين فيها﴾ ثم ذكر أن ذلك ﴿بإذن ربهم﴾ أي بتوفيقه ولطفه وهدايته ، هذا على القراءة الأولى وفيه تعظيم لذلك الأجر ، وأما على الثانية فيكون بإذن ربهم متعلقاً بقوله .

﴿تحيتهم فيها﴾ أي تحية الملائكة في الجنة ﴿سلام﴾ بإذن ربهم ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة يونس .

ولما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح ، ثم ذكر نعيم المؤمنين وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها وتحية الملائكة لهم ، ذكر تعالى ههنا مثلا للكلمة الطيبة وهي كلمة الإسلام أي لا إله إلا الله أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير ، وذكر مثلا للكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشر ، فقال مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم أو لمن يصلح للخطاب :

﴿ألم تر﴾ بعين قلبك فتعلم علم يقين بإعلامي إياك ﴿كيف ضرب الله مثلاً﴾ أي اختار مثلاً وضعه في موضعه اللائق به ، والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأول ﴿كلمة طيبة﴾ وهي قول لا إله إلا الله عند الجمهور أو كل

كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة . قاله الزمخشري ﴿كشجرة طيبة﴾ أي طيبة الثمر نعت لكلمة وبه بدأ الزمخشري ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هي قاله ابن عطية .

ثم وصف الشجرة بقوله ﴿أصلها ثابت﴾ أي راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿وفرعها في السماء﴾ أي في أعلاها ذاهب الى جهة السماء مرتفع في الهواء . ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿تؤتى أكلها﴾ أي ثمرها ﴿كل حين﴾ أي كل وقت والحين في اللغة: الوقت يطلق على القليل والكثير، واختلفوا في مقداره كما سيأتي ﴿بإذن ربها﴾ أي بإرادته ومشيئته وأمره، قيل وهي النخلة كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن وعمله يصعد إلى السماء وتناله بركته وثوابه كل وقت.

وأخرج أحمد وابن مردويه ، قال السيوطي بسند جيد عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « هي التي لا تنقص ورقها النخلة﴾ .

وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً لأصحابه « أي شجرة من الشجر لا يطرح ورقها مثل المؤمن ؟ قال فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في قلبي أنها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هي النخلة »[1] وفي لفظ للبخاري «أخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وتؤتى أكلها كل حين » فذكر نحوه[2] .

وفي لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما الشجرة الطيبة ثم قال هي النخلة » وروى نحو هذا جماعة من الصحابة والتابعين ، وقيل غيرها ؛

(١) مسلم ٢٨١١ ـ البخاري ٥٤ .

(٢) البخاري كتاب الأدب باب ٨٩ .

والمراد تؤتى أكلها كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار ، في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف ، قاله ابن عباس .

وقيل المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين ، وقيل كل غدوة وعشية ، وقيل الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة ، وقيل كل شهر ، وقيل كل ستة أشهر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن يعني من وقت طلعها الى حين صرامها ، وقال علي بن أبي طالب ثمانية أشهر ، وقيل أربعة اشهر من حين ظهور حملها الى إدراكها، وقال سعيد بن المسيب شهران .

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره . وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به أكثر كقوله ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر﴾ وقد تقدم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة . وقال الزجاج : الحين الوقت طال أم قصر .

عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ قال يكون أخضر ثم يكون أصفر ، وعنه قال كل حين جداد النخل ، وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة .

ووجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق أن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع نابت ، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان والأركان وقيل غير ذلك ؛ وعن ابن عباس : الكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن ، وأصلها الثابت قول لا إله إلا الله ثابت في القلب وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن الى السماء ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم .

﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ أحوال المبدأ والمعاد

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾
يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ
وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته ، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني وتقريب لها من الحس ومواعظ لمن تذكر واتعظ .

﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ قد تقدم تفسيرها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل وضرب الله مثلاً كلمة خبيثة لـلإيـذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان ﴿كشجرة﴾ أي كمثل شجرة ﴿خبيثة﴾ قيل هي شجرة الحنظل وقيل هي شجرة الثوم وقيل الكمأة ، وقيل الطحلبة ، وقيل هي كشوث بالضم وآخره مثلثة وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض .

﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت واقتلعت وقطعت من أصلها ، قال المؤرج أخذت جثتها وهي نفسها وذاتها والجثة شخص الانسان قاعداً ونائماً يقال جثه قلعه واجتثه اقتلعه كأنها اجتثت وكأنها غير ثابتة بالكلية وكأنها ملقاة على وجه الأرض ومعنى ﴿من فوق الأرض﴾ أنه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الأرض .

﴿ما لها﴾ أي لهذه الشجرة ﴿من قرار﴾ أي من استقرار ، وقيل من ثبات لأنها ليس لها أصل ثابت تغوص في الأرض بل عروقها في وجهها ولا فرع لها صاعد إلى السماء بل ورقها يمتد على الأرض كشجرة البطيخ وثمرها رديء كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه أصلاً . ولا يصعد

له قول طيب ولا عمل صالح وفي الحقيقة تسميتها شجرة مجاز لأن الشجر ماله ساق والنجم ما لا ساق له وهي من النجم فتسميتها شجرة للمشاكلة .

قال ابن عباس : الكلمة الخبيثة الشرك والشجرة الخبيثة الكافر يعني الشرك ليس له اصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملاً ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم .

﴿يثبت الله﴾ راجع للمثل الاول ﴿الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ أي بالحجة الواضحة عندهم وهي الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها ، وقد ثبت في الصحيح أنها كلمة الشهادة يقولها المؤمن اذا قعد في قبره قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «فذلك قوله تعالى يثبت الله» الآية[1] وقيل معنى تثبيت الله لهم هو ان يدوموا عليه ﴿في الحياة الدنيا﴾ ويستمروا حتى اذا فتنوا في دينهم لم يزالوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود وغير ذلك .

﴿وفي الآخرة﴾ أي في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب ، قاله الجمهور وقيل يوم القيامة عند البعث والحساب ، وقيل المراد بالحياة الدنيا وقت المسألة في القبر وفي الآخرة وقت المسألة يوم القيامة والمراد أنهم اذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم[2] ولا تردد ولا جهل ، كما يقول من لم يوفق لا أدري فيقال له لادريت ولا تليت .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم اذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله » فذلك قوله ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾ الآية[3] ، وعن البراء قال « اذا جاء الملكان الى الرجل في القبر فقالا من ربك فقال ربي الله ، وقالا وما دينك قال ديني الاسلام ، وقالا من نبيك قال نبيي محمد صلى

---

(١) النسائي كتاب الجنائز باب ١١٤ .
(٢) التلعثم ، التوقف أ هـ ، قاموس أ هـ منه .
(٣) مسلم ٢٨٧١ ـ البخاري ٧٢٥ .

الله عليه وسلم فذلك التثبيت في الحياة الدنيا »[١] وعن ابن عباس نحوه ، وعن أبي سعيد قال في الآخرة القبر ، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « هذا في القبر » .

وأخرج البزار عنها أيضا قالت : قلت يارسول الله تبتلى هذه الأمة في قبورها فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾ الآية .

وعن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل »[٢] أخرجه أبو داود ، وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته ، وليس هذا موضع بسطها وهي معروفة ، نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

﴿ويضل الله الظالمين﴾ راجع للمثل الثاني ، أي يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم في قبورهم ولا عند الحساب ، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا ، قيل والمراد بالظالمين هنا الكفرة ، وقيل كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة فإنه لا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي إلى الحق .

﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ من التثبيت للمؤمنين والخذلان للظالمين لا راد لحكمه ولا اعتراض عليه . قال الفراء : أي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل والاظهار في محل الإضمار في الموضعين لتربية المهابة .

﴿ألم تر﴾ هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له تعجيباً مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له ادنى

---

(١) ابو داود كتاب السنة باب ٢٤ ـ الترمذي تفسير سورة ١٤ .
(٢) أبو داود كتاب الجنائز الباب ٦٩ .

ادراك وذلك بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله منهم وانعم عليهم به ، وقيل إنهم بدلوا نفس النعمة كفراً .

فالتبديل على الأول تغيير في الوصف والنعمة باقية لكنها موصوفة بالكفران وعلى الثاني تغيير في الذات والنعمة زائلة مبدلة بالكفر ، فانهم لما كفروها سلبت عنهم ، فصاروا تاركين لها محصلين للكفر بدلها ، ولفظ ابن عباس هم كفار أهل مكة ، أخرجه البخاري والنسائي وبه قال جمهور المفسرين .

قيل نزلت في الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، قال عليّ : هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر ، أخرجه النسائي . وقد روى عنه في تفسير هذه الآية من طرق نحو هذا ، وعن عمر بن الخطاب قال : هم الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا الى حين ، وعن عليّ نحوه ايضاً ، وعن ابن عباس قال : هم جبلة بن الايهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ، أخرجه ابن أبي حاتم وفيه نظر فان جبلة وأصحابه لم يسلموا إلا في خلافة عمر بن الخطاب ؛ وقيل انها عامة في جميع المشركين .

﴿وأحلوا﴾ أي أنزلوا ﴿قومهم﴾ بسبب ما زينوه لهم من الكفر ﴿دار البوار﴾ وهي جهنم قيل هم قادة قريش احلوهم يوم بدر دار الهلاك وهو القتل الذي اصيبوا به والأول أولى لقوله .

﴿جهنم﴾ فانه عطف بيان لدار البوار يقال بار الشيء يبور بوراً بالضم هلك وبار الشيء بواراً كسد على الإستعارة لأنه إذا ترك صار غير منتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه ﴿يصلونها﴾ مستأنفة لبيان كيفية حلولهم فيها أي داخلين فيها مقاسين لحرها ﴿وبئس القرار﴾ أي قرارهم فيها أو بئس المقر جهنم فالمخصوص بالذم محذوف .

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي أمثالاً وأشباهاً أي شركاء في الربوبية أو في التسمية وهي الأصنام ، قال قتادة : يعني اشركوا بالله وليس له تعالى شريك ولا ند ولا شبيه تعالى عن ذلك علواً كبيراً فسَّر بغير قراءة حفصٍ فهي بضم الياء أما هنا ففسرها على الفتح فجعل الأصل قراءة والقراءة أصلاً ﴿ليضلوا﴾ بفتح الياء أنفسهم ﴿عن سبيله﴾ أي عن سبيل الله، اللام للعاقبة بطريق الاستعارة التبعية أي ليتعقب جعلهم لله أنداداً ضلالهم لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه.

وحسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز ، وقرىء بضم الياء أي ليوقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله ، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً والقراءتان سبعيَّتان، ثم هددهم سبحانه فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قل تمتعوا﴾ في الدنيا بما أنتم فيه من الشهوات وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم واضلال الناس أياماً قلائل .

وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب لافضائه الى المهدد به ﴿فإن مصيركم﴾ أي مردكم ومرجعكم في الآخرة ﴿الى النار﴾ .

ولما كان هذا حالهم وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه ولا يقبلون فيه نصح الناصحين ، جعل الأمر بمباشرته مكان النهي عن قربانه ايضاحاً لما تكون عليه عاقبتهم وأنهم لا محالة صائرون الى النار فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية لذلك ، فجملة فإن مصيركم الى النار تعليل للأمر بالتمتع وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره ، أو المعنى فان دمتم على ذلك فان مصيركم الى النار والأول أولى والنظم القرآني عليه أدل كما يقال لمن سعى في مخالفة السلطان اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك الى السيف .

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قل لعبادي﴾ بثبوت الياء مفتوحة وبحذفها لفظاً لا خطاً ، والقراءتان سبعيتان ويجريان في خمس مواضع من القرآن ، هذا وقوله في سورة الأنبياء ﴿ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ وقوله في العنكبوت ﴿ياعبادي الذين آمنوا﴾ وقوله في سبأ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وفي سورة الزمر ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾ .

﴿الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم﴾ لما أمره بأن يقول للمبدلين نعمة الله كفراً الجاعلين له أنداداً ما قاله لهم ، أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم وهي طائفة المؤمنين هذا القول ، والمقول محذوف دل عليه المذكور ، أي قل لهم اقيموا الصلاة الواجبة ، واقامتها اتمام أركانها ، وانفقوا أي اخرجوا الزكاة المفروضة ، وقيل أراد به جميع الانفاق في جميع وجوه الخير والبر ، والحمل على العموم أولى ويدخل فيه الزكاة دخولاً أولياً .

﴿سراً وعلانية﴾ قال الفراء : أي مسرين ومعلنين أو انفاق سر وعلانية أو وقت سر وعلانية فالانتصاب على الحال أو المصدر أو الظرف . قال الجمهور السر ما خفي والعلانية ما ظهر ، وقيل السر التطوع والعلانية الفرض ، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله ﴿ان تبدو الصدقات فنعما هي﴾ .

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ قال أبو عبيدة : البيع

ههنا الفداء والخلال المخالة وهو مصدر . قال الواحدي : هذا قول جميع أهل اللغة .

وقال ابو علي الفارسي : جمع خلة مثل قلة وقلال وبرمة وبرام وعلبة وعلاب ، والمعنى أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصـر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك ، وليس هناك مخالة حتى يشفع الخليل لخليله وينقذه من العذاب .

فأمرهم سبحانه بالانفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله سبحانه ما داموا في الحياة الدنيا ، قادرين على انفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة فإنهم لا يقدرون على ذلك ، بل لا مال لهم إذ ذاك ، فالجملة لتأكيد مضمون الأمر بالانفاق مما رزقهم الله ، ويمكن أن يكون فيها ايضـاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة ، وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع ورعاية حقوق الأخلاء .

قيل هذه الآية الدالة على نفي الخلة محمولة عـلى نفيها بسبب ميـل الطبيعة وشهوة النفس ، والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها كقوله سبحانه في الزخرف ﴿الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ، ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم .

وقيل إن ليوم القيامة أحوالاً مختلفة ؛ ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفي بعضها يتعاطف الأخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله تعالى في محبته ، وقد تقدم تفسير البيع والخلال .

﴿الله الذي خلق السموات والأرض﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثال سبق وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية ، وإنما بدأ بذكر خلقهما لأنهما أعظم المخلوقات الشاهدة الـدالة عـلى وجود الصـانع الخـالق القادر المختار ، ذكر لهذا الموصول سبع صلات تشتمل على عشرة ادلة : على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته .

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ المراد بالسماء هنا جهة العلو فإنه يدخل في ذلك الفلك عند من قال إن ابتداء المطر منه ، ويدخل فيه السحاب عند من قال إن ابتداء المطر منها ، ويدخل فيه الاسباب التي تثير السحاب كالرياح ، قيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الريح ، ومن الريح الى الأرض ، وتنكير الماء هنا للنوعية أي نوعاً من أنواع الماء وهو ماء المطر .

﴿فأخرج به﴾ أي بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المتنوعة ﴿رزقاً لكم﴾ أي لبني آدم يعيشون به ، ومن للبيان كقولك انفقت من الدراهم وقيل للتبعيض لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم ومنها ما هو ليس برزق لهم وهوما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ، والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع ايضاً كقوله تعالى ﴿كلوا من ثمره إذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وقيل المراد به ما يشمل المطعوم والملبوس .

﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي السفن الجارية على الماء فجرت على ارادتكم لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد آخر ، فاستعملتموها في مصالحكم ، ولذا قال ﴿لتجري في البحر﴾ كما تريدون على ما تطلبون بالركوب والحمل ونحو ذلك ﴿بأمره﴾ أي بأمر الله ومشيئته وإذنه ، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة .

﴿وسخر لكم الانهار﴾ بكل فائدة قاله مجاهد : اي ذللها لكم بالركوب عليها والاجراء لها الى حيث تريدون ، وهو من أعظم نعم الله على عباده .

﴿وسخر لكم الشمس والقمر﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما ﴿دائبين﴾ الدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية ، والدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ، ودأب في السير دوام عليه ، ودأب في عمله جد وتعب ، وبابه قطع وخضع فهو دائب بالالف لا غير ، والدائبان الليل والنهار ، والدأب بسكون الهمزة العادة والشأن ، وقد يحرك .

ومعنى دائبين يجريان دائما في اصلاح ما يصلحانه من النبات والحيوان

وإزالة الظلمة لأن الشمس سلطان النهار ، وبها يعرف فصول السنة ، والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور ، وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده ، وقيل دائبين في السير امتثالاً لأمر الله .

قال ابن عباس : دؤبهما في طاعة الله ، والمعنى يجريان الى يوم القيامة ولا يفتران ولا ينقطع سيرهما في فلكهما ، وهو السماء الرابعة للشمس ، وسماء الدنيا للقمر الى آخر الدهر ، وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون اليه من أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه كما قال سبحانه ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ ولم يقتصر على النعم المتقدمة بل .

﴿وآتاكم من كل﴾ نوع وصنف ﴿ما سألتموه﴾ قال الأخفش : أي أعطاكم من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر ، وقيل المعنى من كل ما سألتم ومن كل ما لم تسألوه قاله ابن الأنباري : لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى ؛ وقيل من زائدة وبه قال الأخفش ، أي آتاكم كل ما سألتموه ، وقيل للتبعيض أي بعض ما سألتموه ، وهو رأي سيبويه .

قال عكرمة : أي من كل شيء رغبتم اليه فيه ، وعن مجاهد مثله ، وعن الحسن من كل الذي سألتموه ، وقرىء ﴿من كل﴾ بتنوين ، وعلى هذا ما نافية حرفية ، أي آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له ، أو مصدرية أو موصولة اسمية .

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ أي وإن تتعرضوا لتعداد النعم التي انعم الله تعالى بها عليكم اجمالاً فضلاً عن التفصيل لا تطيقوا احصاءها بوجه من الوجوه ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال .

وفي السمين : النعمة هنا بمعنى المنعم به ، وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقداً معيناً من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظه بها .

ومن المعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ولا أمكنه أصلاً فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة اليه في كل وقت على تنويعها واختلاف أجناسها ، اللهم إنا نشكرك على كل نعمة أنعمت بها علينا مما لا يعلمه إلا أنت ، ومما علمناه شكراً لا يحيط به حصر ولا يحصره عد ، وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان .

قال سليمان التيمي : إن الله أنعم على العباد على قدره وكلفهم الشكر على قدرهم وعن بكر بن عبدالله المزني قال : يا ابن آدم إن اردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه ، وعن أبي أيوب القرشي قال : قال داود عليه السلام : رب أخبرني ما أدنى نعمتك عليَّ ؟ فأوحى اليه يا داود تنفس فتنفس ، فقال هذا أدنى نعمتي عليك .

﴿ان الانسان لظلوم﴾ لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه ، وظاهره شمول كل انسان ، وقال الزجاج : إن الانسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما قال إن الانسان لفي خسر ، وقيل يريد أبا جهل والأول أولى .

﴿كفار﴾ أي شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها غير شاكر لله سبحانه عليها كما ينبغي ويجب عليه .

عن عمر بن الخطاب قال : اللهم اغفر لي ظلمي وكفري ، فقال قائل يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر ، قال إن الانسان لظلوم كفار ، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿واذ قال ابراهيم﴾ أي واذكر وقت قوله ، ولعل المراد بسياق ما قاله ابراهيم عليه السلام في هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم ، وهي إسكانهم مكة بعدما بين كفرهم بالنعم العامة . وقيل إن ذكر قصة ابراهيم ههنا لمثال الكلمة الطيبة ، وقيل لقصد الدعاء الى التوحيد وانكار عبادة الأصنام . وهذه القصة كانت بعدما وقع له من الإلقاء في النار ؛ وفي تلك لم يسأل ولم يدع بل اكتفى بعلم الله بحاله وفي هذه قد دعا وتضرع ؛ ومقام الدعاء أجل وأعلى من مقام تركه اكتفاء بعلم الله كما قاله العارفون . فيكون ابراهيم قد ترقى وانتقل من طور الى طور من أطوار الكمال .

﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي مكة ﴿آمناً﴾ أي ذا أمن الى قرب القيامة وخراب الدنيا ، وقدَّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الانسان لشيء آخر من أمور الدنيا والدين ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى ﴿رب اجعل هذا بلداً آمنا﴾ والفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب ههنا مجرد الأمن للبلد ، والمطلوب هنالك البلدية والأمن .

وفي الجمل فسر الشارح البلد هنا بمكة ، وفي سورة البقرة بالمكان فيقتضي أن هذا الدعاء وقع مرتين مرة قبل بنائها ومرة بعده ، ولذلك كتب

الكرخي هناك ما نصه نكر البلد هنا وعرفه في ابراهيم لأن الدعوة هنا كانت قبل جعل المكان بلداً فطلب من الله ان يجعل ويصير بلداً آمناً وثم كانت بعد جعله بلداً انتهى .

وقال الزمخشري : سأل في الأول ان يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا انتهى .

قلت والمعاني متقاربة والمراد من الدعاء جعل مكة آمنة من الخراب ، وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على تخريبها وان أغار جماعة من الجبابرة عليها وأخافوا أهلها ، وقيل هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين من الحبشة على ما في الصحيحين فلا تعارض بين النصين .

او المراد جعل أهل هذا البلد آمنين ، وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين وغيرهم ، وهذا الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها الى الآن قال السيوطي : وقد أجاب الله دعاءه فجعله حرماً لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه .

﴿واجنبني وبني ان نعبد الأصنام﴾ يقال جنبته كذا واجنبته أي باعدته عنه ثلاثياً ورباعياً وهي لغة نجد ، وجنبه إياه مشدداً وهي لغة الحجاز وهو المنع وأصله من الجانب كأنه سأله ان يبعده عن جانب الشرك بألطاف منه وأسباب خفية والمعنى باعدني وباعد بني عن عبادة الأصنام قيل اراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية ، وقيل أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه ، وقيل أراد جميع ذريته ما تناسلوا .

قيل ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد ابراهيم صنماً ، والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الاحجار ونحوها

فيعبدونه ، والتأييد هذا يستقيم على القولين الأولين ، وأما القول الثالث فلا يستقيم فقريش من أولاد اسماعيل وقد عبدوا الأصنام بلا شك ، وقال الواحدي : المعنى وبني الذين اذنت لي في الدعاء لهم ، وقد كان من بنيه من عبد الصنم ، فيكون هذا الدعاء من العام المخصوص .

وقيل هذا مختص بالمؤمنين من أولاده بدليل قوله في آخر الآية فمن تبعني فإنه مني وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه ، وعن مجاهد قال : فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته ، واستجاب الله له وجعل هذا البلد آمناً ورزق أهله الثمرات وجعله إماماً وجعل من ذريته من يقيم الصلاة ويقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه ، قيل هو دعاء لنفسه في مقام الخوف أو قصد به الجمع بينه وبين بنيه ليستجاب لهم ببركته والمراد طلب الثبات والدوام على ذلك .

﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ أسند الاضلال الى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل لأنها سَبب لضلالهم فكأنها أضلتهم ، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه واعادة النداء لتأكيد النداء وكثرة الابتهال والتضرع وهذا التركيب مجاز كقولهم فتنتهم الدنيا وغرَّتهم وإنما فتنوا بها واغتروا بسببها .

﴿ثم قال : ﴿فمن تبعني﴾ أي من تبع ديني من الناس فصار مسلماً موحداً ﴿ فإنه مني ﴾ أي من أهل ديني جعل أهل ملته كنفسه مبالغة .

﴿ومن عصاني﴾ فلم يتابعني ولم يدخل في ملتي ﴿فإنك غفور رحيم﴾ قادر على ان تغفر له قيل قال هذا قبل ان يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك قاله ابن الانباري ، قيل المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك قاله مقاتل ، وقيل ان هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك ، قاله السدي ، وقيل تغفر له بأن تنقله من الكفر الى الإيمان والاسلام وتهديه إلى الصواب والأول أولى : .

ثم قال ﴿ربنا اني أسكنت من ذريتي﴾ قال الفراء : من للتبعيض أي

بعض ذريتي ، وقال ابن الأنباري : انها زائدة أي أسكنت ذريتي والأول أولى لأنه إنما أسكن اسماعيل وهو بعض ولده وأمه هاجر ﴿بواد﴾ هو المنخفض بين الجبلين ﴿غير ذي زرع﴾ أي لا زرع فيه قط وهو وادي مكة أو لا يصلح للانبات لأنه أرض حجرية لا تنبت شيئاً نفى ان يكون اسكانهم لأجل الزراعة ﴿عند بيتك المحرم﴾ أي الذي كان قبل الطوفان ، واما وقت دعائـه فلم يكن ، وإنما كان تلاً من الرمل ، وأما البيت فقد رفع الى السماء من حين الطوفان ولو جعل التجوز باعتبار ما يؤول لكان صحيحاً أيضاً يعني أنه سيعمره أو بيتك الذي جرى في سابق علمك انه سيحدث في هذا المكان .

وسمي محرماً لأن الله حرَّم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه أو لأنه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه ، وقيل انه محرَّم على الجبابرة ، وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الاعادة .

أخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال كانت سارة تحت ابراهيم فمكثت تحته دهراً لا ترزق منه ولداً فلما رأت ذلك وهبت له هاجر ، أَمَة لها قبطية فولدت له اسماعيل فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر فحلفت أن يقطع منها ثلاثة أطراف فقال لها ابراهيم : هل لك أن تبري يمينك قالت : كيف اصنع قال : اثقبي أذنيها واخفضيها والخفض هو الختان ، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في اذنيها قرطين فازدادت بهما حسناً فقالت سارة : اراني إنما زدتها جمالاً فلم تضارُّه على كونه معها ووجد بها ابراهيم وجداً شديداً فنقلها الى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

ثم قال ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ اللام لام كي أي ما اسكنتهم بهذا الوادي الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا لاقامة الصلاة فيه متوجهين اليه متبركين به ، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ، ولعل تكرير النداء

وتوسيطه لاظهار العناية الكاملة بهذه العبادة وللاشعار بأنها المقصودة بالذات من اسكانهم ثَمَّ[١] والمقصود من الدعاء توفيقهم لها ، وقيل اللام لام الأمر والمراد الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الاقامة وسأل من الله ان يوفقهم لها اثبت أن الاقامة عنده للعبادة وقد نفى كونها للكسب فجاء الحصر .

﴿فاجعل أفئدة﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب عبر به عن جميع البدن لأنه أشرف عضو فيه ، وقيل هو جمع وفد والأصل أوفده فكأنه قال واجعل وفوداً ﴿من الناس تهوي اليهم﴾ من للتبعيض ، وقيل زائدة ولا يلزم منه ان يحج اليهود والنصارى لدخولهم تحت لفظ الناس ، لأن المطلوب توجيه قلوب الناس اليهم للسكون معهم والجلب اليهم لا توجيهها الى الحج ، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي اليه ، وقيل من للابتداء كقوله القلب مني سقيم تريد قلبي ، ومعنى تهوي اليهم تنزع اليهم ؛ وقيل تسرع وتميل وتحن اليهم لزيارة بيتك لا لذواتهم واعيانهم .

وفي هذا بيان أن حنين الناس اليهم إنما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم ، يقال هوى نحوه اذا مال وهوت الناقة تهوي هوياً فهي هاوية إذا عدت عدواً شديداً كأنها تهوي في بئر ، ويحتمل أن يكون المعنى تجيء اليهم او تسرع اليهم وقيل تحن وتطير وتشتاق اليهم ، واصله أن يتعدى باللام وانما تعدى بإلى لأنه ضمن معنى تميل .

قال السدي : أي أمل قلوبهم الى هذا الموضع ، وقيل تريدهم ، قاله الفراء وقيل تنحط اليهم وتنحدر وتنزل ، وهذا قول أهل اللغة والمعاني

(١) بفتح الثاء أي هناك .

متقاربة ، قال ابن عباس : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والترك والروم والهند ، ولحج اليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكنه قال ﴿أفئدة من الناس﴾ فخص به المؤمنين أخرجه البيهقي بسند حسن وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم في هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته .

﴿وارزقهم﴾ أي ذريتي الذين أسكنتهم هنالك أو اياهم ومن يساكنهم من الناس ﴿من﴾ أنواع ﴿الثمرات﴾ التي تنبت فيه كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار او المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة لقوله تعالى ﴿تجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ وهذا أولى ﴿لعلهم يشكرون﴾ نعمتك التي انعمت بها عليهم .

قال محمد بن مسلم : إن ابراهيم لما دعا للمحرم نقل الله الطائف من فلسطين ، وعن الزهري قال : إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم ، وأما إجابة قوله فاجعل أفئدة الخ فقد حصلت بجرهم ، وقد استمر قصد الحجاج والعمار لهذا البيت كل عام الى آخر الزمان .

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي ما نكتمه وما نظهره ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة اليه سبحانه سيان لا تفاوت فيهما ، قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن فالمعنى ما نظهره وما لا نظهره ، وقدم الاخفاء على الاعلان للدلالة على انهما مستويان في علم الله سبحانه ، وظاهر النظم القرآني عموم كل ما يظهره وما لا يظهره من غير تقييد بشيء معين من ذلك .

وقيل المراد ما يخفيه ابراهيم من وجده باسماعيل وامه حيث أسكنهما بواد غير ذي زرع ، وما يعلنه من ذلك ، وقيل ما يخفيه ابراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن ابراهيم لم يرد نفسه فقط بل أراد جميع العباد ، فكان المعنى ان الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهرونه .

﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ قال جمهور المفسرين هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله ابراهيم من أنه سبحانه يعلم بما يخفيه العباد وما يعلنونه ، فقال سبحانه ما يخفى عليه شيء من الأشياء الموجودة كائناً ما كان ، وانما ذكر السموات والارض لأنهما المشاهدتان للعباد ، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافية قيل ويحتمل أن يكون هذا من قول ابراهيم تحقيقاً لقوله

الأول وتعميماً بعد التخصيص ، فإن قيل بالأول فهو اعتراض بين كلامي ابراهيم ، وان قيل بالثاني ففيه وضع الظاهر موضع المضمر .

ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة اليه فقال ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر﴾ أي على كبر سني وسن امرأتي ﴿إسماعيل واسحاق﴾ قيل ولد له اسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحاق وهو ابن مائة واثنتا عشرة سنة وقيل على هنا بمعنى مع أي مع كبري ويأسي عن الولد .

عن سعيد بن جبير قال : بشر ابراهيم بعد سبع عشرة ومائة سنة وهبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لأنه سن اليأس فلهذا شكر الله على هذه المنة ، وهذا قاله ابراهيم في وقت آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء ، لان الظاهر أنه دعا بذلك الدعاء المتقدم أول ما قدم بهاجر وابنها وهي ترضعه ووضعها عند البيت ؛ واسحاق لم يولد في ذلك الوقت ، قال الكرخي : وزمان الدعاء والحمد مختلف ، فان الدعاء في طفولية اسماعيل ولم يكن اسحاق حينئذ .

﴿ان ربي لسميع الدعاء﴾ أي لمجيب الدعاء من قولهم سمع كلامه اذا اجابه واعتد به وعمل بمقتضاه ، وهو من اضافة الصفة المتضمنة للمبالغة الى المفعول ، والمعنى انك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك وكان ابراهيم قد دعا ربه فسأله الولد بقوله ﴿رب هي لي من الصالحين﴾ فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ .

ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها فقال ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي ممن يقيمها بأركانها ويحافظ عليها في أوقاتها ، ثم قال ﴿ومن ذريتي﴾ أي اجعلني واجعل بعض ذريتي مقيمين للصلاة وانما خص البعض من ذريته لأنه علم أن منهم من لا يقيمها

كما ينبغي ؛ ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم فقال ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أولياً قيل والمراد بالدعاء هنا العبادة، فيكون المعنى وتقبل عبادتي التي أعبدك بها.

ثم طلب من الله سبحانه ان يغفر له ما وقع منه مما يستحق ان يغفره الله وإن لم يكن كبيراً لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر . فقال التجاء الى الله وقطعاً للطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه ، واعترافاً بالعبودية لله والاتكال على رحمته .

﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ﴾ قيل إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم انهما عدوان لله سبحانه وقيل بشرط الاسلام ، وقيل كانت أمه مسلمة والأول أولى ، وقيل أراد بوالديه آدم وحواء وفيه بعد ؛ وقرىء شاذاً ولولديّ ـ يعني اسماعيل واسحاق ـ وأنكرها الجحدري بأن في مصحف ولأبوي ، فهي مفسرة لقراءة العامة .

﴿وللمؤمنين﴾ ظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذريته أو لم يكن منهم .

وقيل أراد المؤمنين من ذريته فقط والأول أولى . والله تعالى لا يرد دعاء خليله ، ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة اللهم اغفر لي مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً ، وإني من ذرية خليلك ابراهيم فاغفر لي ولمن أخلفه من المؤمنين .

﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر ، استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقة في قيام الرجل للدلالة على أنه في غاية الاستقامة . وقيل إن المعنى يوم يقوم الناس للحساب ، وقيل يبدو ويظهر فيه الحساب والأول أولى .

﴿ولا تحسبن﴾ بفتح السين وكسرها قراءتان سبعيتان ، أي لا تظنن

﴿الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو تعريض لأمته فكأنه قال ولا تحسب أمتك يامحمد ، ويجوز ان يكون خطاباً لكل من يصلح له من المكلفين وإن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم من غير تعريض لأمته ، فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ ونحوه ، وقيل المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ؛ أو يكون المراد بالنهي عن الحسبان الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية .

قال ميمون بن مهران في الآية : هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم ، وعن سفيان بن عيينة نحوه ، والغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور ، وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ ؛ وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم بل سنة الله سبحانه في إمهال العصاة .

﴿إنما يؤخرهم﴾ أي يؤخر جزاءهم وعذابهم ولا يؤاخذهم بظلمهم ، وهذه الجملة استئناف وقع تعليلاً للنهي السابق ﴿ليوم﴾ أي لأجل يوم فاللام للعلة وقيل بمعنى الى التي للغاية ﴿تشخص فيه الابصار﴾ أي أبصارهم فلا تقر في أماكنها ، قال الفراء : المعنى ترفع فيه أبصار أهل الموقف ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم .

شخوص البصر حدة النظر وعدم استقراره في مكانه ، يقال شخص سمعه وبصره وأشخصهما صاحبهما وشخص بصره أي لم يطرف جفنه ، ويقال شخص من بلده أي بعد ، والشخص سواد الانسان المرئي من بعيد ، والمراد أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرك من شدة الحيرة والدهشة . قال قتادة : شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد اليهم ، قيل أل للعهد وقيل لو حمل على العموم كان أبلغ في التهويل وأسلم من التكرير .

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ
يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ
وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾
وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا
بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ
وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ
رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

﴿مهطعين﴾ أي مسرعين قاله قتادة وزاد في الجمل الى الداعي وهو اسرافيل وقيل هو جبريل والنافخ اسرافيل . قال الشهاب : وهو الاصح كما دلت عليه الآثار وقيل المهطع الذي يديم النظر . قاله مجاهد .

قال أبو عبيدة : قد يكون الوجهان جميعاً ، يعني الاسراع مع ادامة النظر ، وقيل المهطع الذي لا يرفع رأسه وقال ثعلب : المهطع الذي ينظر في ذل وخضوع وقيل هو الساكت ، قال النحاس : والمعروف في اللغة أهطع إذا أسرع ، وبه قال أبو عبيدة ، قال ابن عباس : يعني بالاهطاع النظر من غير أن يطرف .

﴿مقنعي رؤوسهم﴾ اقناع الرأس رفعه ، واقنع صوته إذا رفعه ، وقال ابن عباس : الاقناع رفع الرأس ، والمعنى أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم الى السماء ينظرون اليها نظر فزع وذل ولا ينظر بعضهم الى بعض ، وقيل أن اقناع الرأس نكسة ، وقيل يقال أقنع إذا رفع رأسه وأقنع رأسه إذا طأطأه ذلة وخضوعاً ، والآية محتملة للوجهين ، قال المبرد : والقول الأول أعرف في اللغة .

﴿لا يرتد اليهم طرفهم﴾ أي لا ترجع اليهم أبصارهم من شدة الخوف ، وأصل الطرف تحريك الأجفان ، وسميت العين طرفاً لأنه يكون لها ، وقال ابن عباس : يعني شاخصة أبصارهم قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿وأفئدتهم هواء﴾ الهواء في اللغة الجوف الخالي الذي لم تشغله الاجرام ، والمعنى أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش وجعلها نفس الهواء مبالغة ومنه قيل للأحمق والجبان قلبه هواء أي لا رأي فيه ولا قوة .

وقيل معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر لا تخرج من أفواههم ولا تعود الى أماكنها ، وقيل هواء بمعنى مترددة تهوي في اجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ، وقيل المعنى إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير . قال ابن عباس : ليس فيها شيء من الخير فهي كالخربة ، قال قتادة : ليس فيها شيء خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم ، وعن مرة قال : منخرقة لا تعي شيئاً ، وقيل المعنى وأفئدتهم ذات هواء .

ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أي خالياً من كل شيء إلا من همّ موسى عليه السلام ، والحاصل أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته .

﴿وأنذر الناس﴾ هذا رجوع الى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله سبحانه بأن ينذرهم ، والمراد الناس على العموم ، وقيل المراد كفار مكة وقيل الكفار على العموم والأول أولى لأن الانذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم ، ومنه قوله تعالى ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ .

﴿يوم يأتيهم العذاب﴾ أي يوم القيامة ، قاله مجاهد ، أي خوفهم يوم إتيان العذاب ، وإنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان

الثواب ايضاً لأن المقام مقام تهديد ، وقيل المراد به يوم موتهم فإنه أول أوقات إتيان العذاب ، وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل .

﴿فيقول الذين ظلموا﴾ المراد بهم هنا هم الناس ، أي فيقولون ، والعدول الى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم . هذا إذا كان المراد بالناس هم الكفار ، وعلى تقدير كون المراد بهم من يعم المسلمين فالمعنى فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ﴿ربنا أخرنا﴾ أي أمهلنا ﴿الى أجل قريب﴾ أي أمد من الزمان معلوم غير بعيد ﴿نجب دعوتك﴾ لعبادك على ألسن أنبيائك الى توحيدك .

﴿ونتبع الرسل﴾ المرسلين منك الينا فنعمل بما بلغوه الينا من شرائعك ونتدارك ما فرط منا من الإهمال ، وانما جمع الرسل لأن دعوتهم الى التوحيد متفقة فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم ، وهذا منهم سؤال للرجوع الى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ .

ثم حكى الله سبحانه ما يجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة فقال ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي فيقال لهم هذا القول توبيخاً وتقريعاً من قبل الله أو الملائكة والاستفهام تقريري .

قال ابن عباس : من زوال عما أنتم فيه الى ما تقولون ، وقال السدي : بعث بعد الموت ، أي ألم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم ما لكم من زوال من دار الدنيا ، وقيل أنه لا قسم منهم حقيقة وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات واخلادهم الى الحياة الدنيا .

وقيل قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ وجواب القسم ﴿ما لكم من زوال﴾ وانما جاء بلفظ الخطاب في ما لكم لمراعاة أقسمتم ، ولولا ذلك لقال ما لنا من زوال .

﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي استقررتم ، يقال سكن الدار وسكن فيها ، وهي بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله والعصيان له .

وقال الحسن : عملتم بمثل أعمالهم ﴿وتبين لكم﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كيف فعلنا بهم﴾ من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوا من الذنوب وكيف منصوب بما بعده من الفعل ، وليس الجملة فاعلاً لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة واضحة ، أي فعلنا العجيب بهم ، وقيل فاعله مضمر لدلالة الكلام عليه ، أي حالهم وخبرهم وهلاكهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ في كتب الله وعلى ألسن رسله ايضاحاً لكم وتقريراً وتكميلاً للحجة عليكم ﴿وقد مكروا﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا ، والحال أنهم قد مكروا في رد الحق واثبات الباطل .

﴿مكرهم﴾ العظيم الذي استفرغوا فيه وسعهم ، وقيل المراد كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حين هموا بقتله ونفيه كما ذكر في سورة الانفال والأول أولى .

﴿وعند الله مكرهم﴾ أي علمه او جزاؤه أو مكتوب مكرهم فهو مجازيهم أو عند الله مكرهم الذي يمكرهم به ، على أن يكون المكر مضافاً الى المفعول .

وقيل المراد ما وقع من النمرود حيث حاول الصعود الى السماء فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمه بأربعة نسور ، وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بأطول من هنا ، وروي نحو هذه القصة لبختنصر وللنمرود من طرق ذكرها في الدر المنثور ، واستبعدها بعض أهل العلم ، وقال إن الخطر فيه عظيم ، ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم الذي ذكروه وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ، ولا مناسبة لهذه القصة بتأويل الآية البتة .

﴿وان كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وقرىء كاد موضع كان وقرىء

لتزول بفتح اللام على انها لام الابتداء ، وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود ، قال ابن جرير : والمختارة هي الأخيرة وإن هي الخفيفة من الثقيلة واللام هي الفارقة وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته أي وان الشأن كان مكرهم معداً لذلك .

قال الزجاج : وان كان مكرهم يبلغ في الكيد الى إزالة الجبال ، فان الله ينصر دينه ، وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين :

أحدهما : أن تكون إن هي المخففة من الثقيلة والمعنى كما مر .

والثاني : أن تكون نافية واللام المكسورة لتأكيد النفي كقوله : ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهور المشبهة بها في القرار والبقاء ، وقال ابن عباس : مكرهم شركهم والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها ، وقيل المراد بالمكر كفرهم ، ويناسبه ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾ .

﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ المعنى مخلف رسله وعده ، قال القتيبي : هو من المقدم الذي يوضحه التأخير ، والمؤخر الذي يوضحه التقديم ، وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ومخلف رسله وعده ، وقال الزمخشري : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله ﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾ ثم قال ﴿رسله﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه اخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ، والمراد بالوعد هنا هو ما وعدهم سبحانه بقوله ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ وكتب الله لأغلبن أنا ورسلي .

﴿إن الله عزيز﴾ غالب لا يغالبه أحد ﴿ذو انتقام﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه والجملة تعليل للنهي ، وقد مر تفسيره في أول آل عمران ، قال قتادة : عزيز والله في أمره يملي وكيده متين ثم إذا انتقم انتقم بقدرة .

يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى
ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ
وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ
وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿يوم﴾ أي اذكر وارتقب يوم ﴿تبدل الأرض﴾ المشاهدة ﴿غير الأرض﴾ والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم بالدنانير وقد يكون في الصفات كما في بدلت الحلقة خاتماً ، والآية تحتمل الأمرين وبالثاني قال الأكثر ﴿والسموات﴾ أي وتبدل السموات غير السموات لدلالة ما قبله عليه على الاختلاف الذي مر ، وتقديم تبديل الأرض لقربانها ولكون تبديلها أعظم أثراً بالنسبة الينا .

أخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان قال جاء رجل من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في الظلمة دون الجسر »[1] .

وأخرج مسلم ايضا وغيره من حديث عائشة قالت : أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، قلت : أين الناس يومئذ قال : « على الصراط »[2] والصحيح على هذا ازالة عين هذه الأرض .

وأخرج البزار وابن المنذر والطبراني في الأوسط ، والبيهقي وابن عساكر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال : «أرض بيضاء كأنها فضة لم

(١) مسلم ٣١٥ .
(٢) مسلم ٢٧٩١ .

يسفك فيها دم حرام ولم يعمل بها خطيئة » قال البيهقي : والموقوف أصح ، وفي الباب روايات ، وقد رُوي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة .

وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقى »[١] وفيهما ايضاً عن حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده »[٢] الحديث .

وقد أطال القرطبي في بيان ذلك في تفسيره وفي تذكرته ، وحاصله ان هذه الأحاديث نص في أن الأرض والسموات تبدل وتزال ويخلق الله أرضاً أخرى تكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر ، وهو الصراط لا كما قال كثير من الناس ان تبديل الأرض عبارة عن تغيير صفاتها وتسوية آكامها ونسف جبالها ومد أرضها .

ثم قال وذكر شبيب بن إبراهيم في كتاب الإفصاح أنه لا تعارض بين هذه الآثار ، وأنها تبدلان كرتين : أحداهما هذه الأولى قبل نفخة الصعق ، والثانية إذا وقفوا في المحشر ، وهي أرض عفراء من فضة لم يسفك عليها دم حرام ولا جرى عليها ظلم ويقوم الناس على الصراط على متن جهنم ، ثم ذكر في موضع آخر من التذكرة ما يقتضي ان الخلائق وقت تبديل الأرض تكون في أيدي الملائكة رافعين لهم عنها .

قال في الجمل : فتحصل من مجموع كلامه ان تبديل هذه الأرض بأرض

---

(١) مسلم ٢٧٩٠ ـ البخاري ٢٤٩٩ .

(٢) مسلم ٢٧٩٢ ـ البخاري ٢٤٤٨ .

أخرى من فضة يكون قبل الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك مرفوعة في أيدي الملائكة وان تبديل الأرض بأرض من خبز يكون بعد الصراط وتكون الخلائق إذ ذاك على الصراط ، وهذه الأرض خاصة بالمؤمنين عند دخولهم الجنة .

﴿وبرزوا﴾ أي العباد أو الظالمون كما يفيده السياق أي ظهروا من قبورهم ليستوفوا جزاء أعمالهم وهذه هي علة الخروج او ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه ، والتعبير عن المستقبل بالماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله ونفخ في الصور ﴿لله الواحد القهار﴾ المنفرد بالالوهية الكثير القهر لمن عانده .

﴿وترى﴾ التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿المجرمين﴾ أي المشركين ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿مقرنين﴾ أي مشدودين ﴿في الاصفاد﴾ إما بجعل بعضهم مقروناً مع بعض ، قاله ابن قتيبة أي بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال كقوله ﴿واذا النفوس زوجت﴾ أو قرنوا مع الشياطين كما في قوله نقيض له شيطاناً فهو له قرين أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة أو جعلت أيديهم مقرونة الى أرجلهم ، قاله ابن زيد .

والمقرن من جمع في القرن وهو الحبل الذي يربط به والأصفاد الأغلال والقيود قاله قتادة ، يقال صفدته صفداً أي قيدته ، والاسم الصفد بفتحتين فإذا أردت التكثير قلت صفدته ، ويقال صفدته وأصفدته إذا أعطيته ، قال ابن عباس : الكبول ، وعنه يقول في وثاق ، قال سعيد بن جبير : السلاسل .

﴿سرابيلهم﴾ هي القمص ، قاله السدي . وعن ابن زيد مثله واحِدُها سربال يقال سربلته أي ألبسته السربال ﴿من قطران﴾ هو قطران الإبل الذي تهنأ به قاله الحسن ، أي قمصناهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل ، وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه ولذعه مع نتن

رائحته ووحشة لونه ، وقال جماعة هو النحاس المذاب ، وبه قال عمر وابن عباس .

قال عكرمة : هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً ، وقال سعيد بن جبير : القطر الصفر ، والآن الحار وعن عكرمة نحوه ، والقطران فيه لغات بفتح القاف وكسر الطاء وهي قراءة العامة وبزنة سكران وبزنة سرحان وهو ما يستخرج من شجر فيطبخ ويطلى به الإبل ليذهب جربها لحدته .

وقيل هو دهن ينحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء ، ولو أراد الله المبالغة في احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون .

وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الاشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب »[1] .

﴿وتغشى﴾ أي تعلو ﴿وجوههم النار﴾ وتضربها وتخللها وقلوبهم ايضاً ، وخص الوجوه لأنها أشرف ما في البدن وفيها الحواس المدركة .

﴿ليجزي﴾ أي يفعل ذلك بهم ليجزي ﴿الله﴾ متعلق ببرزوا والجمل التي بينهما اعتراض كما في السمين ﴿كل نفس ما كسبت﴾ من المعاصي أي جزاء موافقاً لما كسبت من خير أو شر ﴿ان الله سريع الحساب﴾ لا يشغله عنه شيء ولا حساب عن حساب ، بل يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك وقد تقدم تفسيره .

---

(١) مسلم ، ٩٣٤ .

﴿هذا بلاغ﴾ أي هذا الذي أنزل اليك تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير ومبلغ وموصل للناس الى مراتب السعادة ، قيل إن الاشارة الى ما ذكره سبحانه هنا من قوله ﴿ولا تحسبن الله غافلاً ، الى سريع الحساب﴾ أي هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة ، وقيل الاشارة الى جميع السورة ، وقيل الى القرآن وبه قال ابن زيد ، وفيه من المحسنات رد العجز على الصدر فقد افتتحت هذه السورة بقوله ﴿كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور﴾ .

﴿للناس﴾ أي للكفار او لجميع الناس على ما قيل في قوله وأنذر الناس ، أي أنزل لتبليغهم الى ما فيه رشدهم ونفعهم أي لإيصالهم الى الخير ﴿ولينذروا به﴾ أي بالقرآن ، قاله ابن زيد ، وقرىء بفتح التحتية والذال المعجمة ، يقال نذرت بالشيء أنذر إذا علمت به واستعددت له .

﴿وليعلموا﴾ بالأدلة التكوينية المذكورة سابقاً أو بالقرآن بما فيه من الحجج ﴿انما هو اله واحد﴾ لا شريك له ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي وليتعظ أصحاب العقول السليمة والأفهام الصحيحة .

وهذه اللامات متعلقة بمحذوف ، والتقدير وكذلك أنزلنا أو متعلقة بالبلاغ المذكور أي كفاية لهم في أن ينصحوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه ، وانه لا شريك له ، وليتعظ بذلك أرباب العقول التي تعقل وتدرك .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر

مكيّة بالاتفاق والاجماع كما قال القرطبي . وعن ابن عباس وابن الزبير مثله . وهي تسع وتسعون آية . والحجر واد بين المدينة والشام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾
وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا
تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا
كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

﴿الر﴾ قد تقدم الكلام عليه في محله مستوفى مراراً ﴿تلك﴾ أي ما تضمنته السورة من الآيات ﴿آيات الكتاب﴾ التعريف للتفخيم وقيل هو للجنس ، والمراد جنس الكتب المنزلة المتقدمة . قال مجاهد : يعني التوراة والانجيل ، وقيل المراد به هذه السورة والاضافة بمعنى من وقيل المراد القرآن ، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب فقد قيل إنه جمع له بين الاسمين عطفاً للتغاير اللفظي لأجل التعدد في الاسم بزيادة صفة .

﴿وقرآن مبين﴾ أي الكامل الظاهر رشده وهداه وخيره وتنكير القرآن للتفخيم ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ قرىء ربما بالتخفيف والتشديد ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون وتميم وربيعة يثقلون ، وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير .

قال الكوفيون : أي يود الكفار في أوقات كثيرة ، وقيل هي هنا للتقليل لأنهم ودوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب ، وقيل إن هذا التقليل أبلغ في التهديد فإن الأهوال تدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا في أحيان قليلة . وقيل معناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن الفعل ؛ فكيف بكثيره .

قيل وما هنا لحقت رب لتهيأ للدخول على الفعل وقيل نكرة بمعنى شيء وإنما دخلت رب هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلا على الماضي لأن المترقب في أخباره سبحانه كالواقع المتحقق ، فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا بهذا الكتاب والقرآن ، فهذا مرتبط بما قبله .

﴿لو كانوا مسلمين﴾ أي منقادين لحكمه مذعنين له من جملة أهله ، وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة ، والمراد أنه لما انكشف لهم الأمر واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، وأن الدين عند الله سبحانه هو الاسلام لا دين غيره ، حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله .

وقيل كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين ، وقيل عند خروج عصاة الموحدين من النار ، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم ، ولو مصدرية أو امتناعية وجوابها محذوف أي لسروا بذلك أو تخلصوا مما هم فيه والأول أولى .

والتعبير عن متمناهم بالغيبة نظراً للاخبار عنهم ، ولو نظر لصدوره منهم لقيل لو كنا .

عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار انهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم . وعن ابن مسعود قال : هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار .

وعن ابن عباس قال : لا يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول : من كان مسلماً فليدخل الجنة ، فذلك قوله ربما يود الذين كفروا .

وعن ابن عباس وأنس انهما تذاكرا هذه الآية فقالا : حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المشركين والمسلمين في النار ، فيقول المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون ، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته ، أخرجه البيهقي في البعث وابن المبارك في الزهد .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله ان يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى أحد إلا أخرجه الله من النار . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية » وفي الباب أحاديث مرفوعة عن جمع من الصحابة في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية .

﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ هذا تهديد لهم أي خل هؤلاء الكفرة ودعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهي فهم لا يرعوون أبداً ولا يخرجون من باطل : ولا يدخلون في حق بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الحياة الدنيا من إلهاء العمل لهم عن اتباعك فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره وهذا الأمر لا يستعمل له ماض إلا قليلا استغناء عنه بترك بل يستعمل منه المضارع نحو ونذرهم في طغيانهم ، ومن مجيء الماضي قوله صلى الله عليه وسلم : «ذروا الحبشة ما وذرتكم» وترك ووذر يكونان بمعنى صير أي ذرهم مهملين أي أترك كفار مكة والعموم أولى .

﴿ويلههم الأمل﴾ أي يشغلهم طول الأمل والعمر وبلوغ الوطر واستقامة الحال عن الايمان والأخذ بطاعة الله تعالى ، يقال ألهاه كذا أي شغله ولهى هو

عن الشيء يلهي والمعنى يشغلهم الأمل عن اتباع الحق ، وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذى عينين وانكشف الأمر ، ورأوا العذاب يوم القيامة فعند ذلك يذوقون ما صنعوا وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة امرهم وسوء صنيعهم ، وفيه من التهديد والزجر ما لا يقادر قدره وفيه تنبيه على أن ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدي اليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين ، قال بعض أهل العلم ذرهم تهديد ، وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين .

قال عليّ بن أبي طالب : انما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فإن الأول ينسي الآخرة والثاني يصد عن الحق .

﴿وما أهلكنا من قرية﴾ من القرى بنوع من أنواع العذاب في حال من الأحوال ﴿إلا ولها﴾ أي ولتلك القرية ﴿كتاب معلوم﴾ أي أجل مؤقت مقدر لهلاكها لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه معلوم غير مجهول ولا منسي ، فلا يتصور التخلف عنه بوجه من الوجوه والواو فيها أوجه :

أحدها: وهو الظاهر أنها واو الحال.

والثاني : أنها مزيدة.

الثالث : انها داخلة على الجملة الواقعة صفة تأكيداً ، وبه قال الزمخشري .

﴿ما تسبق من أمة﴾ من الأمم ﴿أجلها﴾ المضروب لها المكتوب في اللوح المحفوظ والمعنى انه لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها قيل من زائدة ، وقيل على

بابها لأنها تفيد التبعيض في هذا الحكم فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد ﴿وما يستأخرون﴾ عنه ، والسين زائدة فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له .

وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الحار والمجرور ، والجملة مبينة لما قبلها فكأنه قيل ان هذا الامهال لا ينبغي ان يغتر به العقلاء فإن لكل أمة وقتا معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر ، وقال الزهري : نرى انه إذا حضره أجله فانه لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، وأما ما لم يحضر أجله فإن الله يؤخر ما يشاء ويقدم ما يشاء .

قلت وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه ، وقد تقدم تفسير الأجل في أول سورة الانعام .

ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوهم في الكفر وتماديهم في الغيّ مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب فقال :

﴿وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي قال كفار مكة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومتهكمين به حيث أثبتوا له انزال الذكر عليه مع انكارهم لذلك في الواقع أشد انكار ونفيهم له أبلغ نفي ﴿إنك﴾ بسبب هذه الدعوى التي تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه ﴿لمجنون﴾ فإنه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً فقولهم هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم هو كقول فرعون إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون .

﴿لو ما﴾ حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمني ﴿ومن ما﴾ المزيدة

فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخلة هي عليه ، قال الفراء : الميم في لو ما بدل من اللام في لولا ، وقال الكسائي لولا ولو ما سواء في الخبروالاستفهام ، قال النحاس : لوما ولولا وهلا واحد والمعنى هلا .

﴿تأتينا بالملائكة﴾ ليشهدوا على صدقك ، وقيل المعنى لوما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في قولك وادعائك الرسالة والحاصل انهم قالوا مقالتين تعنتا ، الأولى يا أيها الذي إلخ ، والثانية لو ما تأتينا فقال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا اتيان الملائكة اليهم وراداً عليهم المقالتين على سبيل اللف والنشر المشوش .

﴿ما ننزل﴾ نحن الملائكة ﴿إلا﴾ تنزيلاً متلبساً ﴿بالحق﴾ الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيها تقتضيه الحكمة الإلٓهية والمشيئة الربانية ، وليس هذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة ، وهذا رد للثانية وقرىء من الانزال ، وقيل معنى بالحق بالرسالة ، وقيل بالقرآن وقيل بالعذاب قاله مجاهد ، وقيل وقت الموت .

﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾ قال السدي : أي وما كانوا لو نزلت الملائكة منظرين من أن يعذبوا فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة .

قال صاحب النظم إذن مركبة من إذ وإن وهي اسم بمنزلة حين ثم ضم اليها أن فصار إذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فصار إذن ، ومجيء لفظة إن دليل على اضمار فعل بعدما ، والتقدير وما كانوا إذ كان ما طلبوا .

ثم انكر سبحانه على الكفار استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم المذكور فقال سبحانه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ الذي أنكروه ونسبوك بسببه الى الجنون وهو القرآن واعتقدوا أنه مختلق من عندك .

﴿وإنا له لحافظون﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقصان ونحو ذلك ، فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر واحد من جميع الخلق من الانس والجن أن يزيد فيه او ينقص منه حرفاً واحداً أو كلمة واحدة .

وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها تلك الأشياء ، ولما تولى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصوناً على الأبد محروساً من الزيادة والنقصان وغيرهما ، وفيه دليل على أنه منزل من عنده آية إذ لو كان من البشر لتطرق اليه الزيادة والنقصان كما يتطرق الى كل كلام سواه . وقيل المعنى نزله محفوظاً من الشياطين . وقيل حفظه بأن جعله معجزة باقية الى آخر الدهر ، وقيل حفظه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارض ولو بأقصر آية .

وقيل أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه الى آخر الدهر لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله ومن أسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في أبواب إفساده وإبطاله وتحريفه وتصحيفه وزيادته ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان وأصول الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن .

وأخرج مسلم عن عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى « نزلت عليك قرآناً لا يغسله الماء »[١] .

(١) مسلم ٢٨٦٥ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ
سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟
إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا
وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ
ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

وأيضاً في الآية وعيد شديد للمكذبين به المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل الضمير في له لرسول الله صلى الله عليه وسلم والأول أولى بالمقام . قال الخطابي : إنما لم يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وتلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته صلى الله عليه وسلم ألهم الله تعالى الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق رضي الله عنه بمشورة عمر رضي الله عنه ، انتهى . ذكره السيوطي في الاتقان ، وقد بسطنا الكلام على جمع القرآن في رسالتنا المسماة بالأكسير في أصول التفسير فليرجع اليه . ثم ذكر سبحانه أن عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ولقد أرسلنا﴾ رسلاً كائنة ﴿من قبلك﴾ وحذف المفعول لدلالة الارسال عليه ﴿في شيع الأولين﴾ أي في أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم .

قال الفراء : الشيع الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجمعون عليه ، وأصله من شاعه إذا تبعه ، وهم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم ، وشيعة الرجل أتباعه ، وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان .

وفي المصباح : الشيعة الأتباع والأنصار وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ، ثم صارت الشيعة اسماً لجماعة مخصوصة والجمع شيع والأشياع جمع الجمع واضافته الى الأولين من إضافة الصفة الى الموصوف عند بعض النحاة أو من حذف المضاف اليه عند آخرين منهم ، أي في شيع الأمم الأولين ، وفي البيضاوي من قبيل إضافة الموصوف لصفته كقوله حق اليقين .

﴿وما﴾ كان ﴿يأتيهم﴾ أي الشيعة ﴿من رسول﴾ من الرسل ﴿الا كانوا به يستهزئون﴾ كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿نسلكه﴾ أي الذكر ﴿في قلوب المجرمين﴾ فالإشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحي مقروناً بالاستهزاء ، والسلك ادخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط قاله الزجاج ، والسلوك النفاذ في الطريق ، قال والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزؤوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين ، وقال ابن عباس الشرك نسلكه في قلوب المشركين . وعن قتادة مثله .

وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين في ثبوت القدر لمن أذعن للحق ولم يعاند ، قال الواحدي : أضاف الله سبحانه الى نفسه ادخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه ، فمن آمن بالقرآن فليستحسنه . وقال الرازي : احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب الكفار .

﴿لا يؤمنون به﴾ أي بالذكر الذي انزلناه او بمحمد صلى الله عليه وسلم حال من ضمير نسلكه او مستأنفة لبيان ما قبلها ، وقيل إن الضمير في نسلكه للاستهزاء وفي به للذكر وهو بعيد ، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أي مضت طريقتهم التي سنها الله في اهلاكهم حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء .

وقال قتادة : مضت وقائع الله فيمن خلا من الأمم فاحذروا ان يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب ، وقال الزجاج : قد مضت سنة الله فيهم بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم .

ثم حكى الله سبحانه اصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء فقال ﴿ولو فتحنا عليهم﴾ أي على هؤلاء المعاندين لمحمد صلى الله عليه وسلم المكذبين له المستهزئين به ﴿باباً من السماء﴾ من أبوابها المعهودة ومكناهم من الصعود اليه ﴿فظلوا فيه﴾ أي في ذلك الباب ، يقال ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار .

﴿يعرجون﴾ يصعدون بآلة او بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد ولا يعاند عند مشاهدتها معاند ، وقيل الضمير في فظلوا للملائكة ، أي فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب والكفار يشاهدونهم وينظرون صعودهم من ذلك الباب . قاله ابن عباس .

﴿لقالوا﴾ أي الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوهم ﴿انما سكرت أبصارنا﴾ قرىء مشدداً ومخففاً وهم سبعيتان وهو من سكر الشراب أو من السكر وهو سدها عن الاحساس ، قاله مجاهد ، يقال سكر النهر اذا سده وحبسه عن الجري . وعن قتادة نحوه . قال أبو عمرو بن العلاء : سكرت غشيت وغطت ، وبه قال أبو عبيد وأبو عبيدة .

وروي عنه ايضا انه من سكر الشراب أي غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله ، وعلى التخفيف بمعنى سحرت ، وقيل أصله من السكور يقال سكرت عينه اذا تحيرت وسكنت عن النظر ، قال النحاس : وهذه الاقوال متقاربة والتشديد لأجل التكثير والمبالغة ، قال ابن عباس قريش تقوله .

﴿بل نحن﴾ أضربوا عن قولهم سكرت أبصارنا ، ثم ادعوا أنهم ﴿قوم مسحورون﴾ أي سحرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان ، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا الى أبصارهم أن ادراكها غير حقيقي لعارض السكر أو أن عقولهم قد سحرت فصار ادراكهم غير صحيح ، ومن بلغ في التعنت الى هذا الحد فلا تنفع فيه موعظة ولا يهتدي بآية . وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل خيل اليهم بنوع من السحر .

ولما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته فقال :

﴿ولقد جعلنا﴾ الجعل إن كان بمعنى الخلق فقوله ﴿في السماء بروجاً﴾ متعلق به، وإن كان بمعنى التصيير فهو خبره، والبروج في اللغة القصور والمحال والطرق والمنازل، والمراد بها هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة السبعة وهي الاثنا عشر المشهورة، كما يدل على ذلك التجربة.

والعرب تعد المعرفة بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب ، وقالوا الفلك إثنا عشر برجاً واسماء هذه البروج : الحمل الثور الجوزاء السرطان الاسد السنبلة الميزان العقرب القوس الجدي الدلو الحوت ، كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة عند المشتغلين بهذا العلم ، ويسمون الحمل والاسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والدلو والميزان هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مائية .

وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلاً ، لكل برج منزلان

وثلث منزل ، وتلك البروج منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة ولها الثور والميزان ، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر وله السرطان ، والشمس ولها الاسد ، والمشتري وله القوس والحوت ، وزحل وله الجدي والدلو ، ذكره السيوطي وهي مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً .

وأصل البروج الظهور ، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها ، وقال الحسن وقتادة البروج النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها ، وقيل السبعة السيارة منها ، قاله أبوصالح .

وقيل هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس ، قاله عطية . وقال مجاهد : البروج الكواكب .

﴿وزيناها﴾ أي السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج ﴿للناظرين﴾ اليها أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها إذا كان من النظر وهو الاستدلال ، أي بأبصارهم أو بصائرهم ، وفي السمين النظر عينيّ ، وقيل قلبيّ وحذف متعلقه ليعم .

﴿وحفظناها﴾ أي السماء بالشهب ﴿من﴾ دخول ﴿كل شيطان رجيم﴾ قال أبو عبيدة الرجيم المرجوم بالنجوم كما في قوله ﴿رجوماً للشياطين﴾ والرجم في اللغة هو الرمي بالحجارة ، ثم قيل للعن والطرد والإبعاد رجم ، لأن الرمي بالحجارة يوجب هذه المعاني وقال قتادة : الرجيم الملعون .

﴿إلا﴾ أي لكن ﴿من استرق السمع﴾ من غير دخول ، وهذا وجه الانقطاع ، والسمع بمعنى المسموع وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً

حتى يبلغوا الى السماء فيسترقوا السمع من الملائكة ، وقيل الاستثناء متصل ، أي إلا من استرق فإنها لا تحفظ منه .

قال أبو السعود : محله النصب على المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين من التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة او المنقطع إن فسر ذلك بالمنع من دخولها والتصرف فيها انتهى . قال ابن عباس : أراد أن يخطف السمع كقوله إلا من خطف الخطفة .

﴿فأتبعه شهاب مبين﴾ والمعنى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنه تتبعه وتلحقه الشهب فتقتله أو تخبله أو تحرقه أو تثقبه ، ومعنى فأتبعه تبعه ولحقه أو أدركه والشهاب الكوكب نفسه أو النار المشتعلة الساطعة منه كما في قوله بشهاب قبس .

وصنيع البيضاوي يقتضي أن الشهاب بمعنى الشعلة هو الحقيقة والكثير وبمعنى الكوكب هو القليل ، وسمي الكوكب شهاباً لبريقه شبه بشهاب النار وانفصاله منها ، والمبين الواضح الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم . قال القرطبي : واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا ، فقال ابن عباس : يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل ، يقال خبلته خبلاً من باب ضرب إذا أفسدت عضواً من اعضائه أو أذهبت عقله ، والخبال بالفتح يطلق على الفساد والجنون .

وقال الحسن وطائفة يقتل . فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع الى الجن قولان :

أحدهما : أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم فلا تصل أخبار السماء الى غير الأنبياء ولذلك انقطعت الكهانة .

والثاني : انهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع الى غيرهم من الجن قال ذكره الماوردي ثم قال : والقول الأول أصح .

قال : واختلف هل كان رمى بالشهب قبل المبعث فقال الأكثرون نعم : وقيل لا ، وانما ذلك بعد المبعث ، قال الزجاج : والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في اشعارهم والجمع بين هذين القولين ان الرمي بالنجوم كان موجوداً قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صوناً لأخبار الغيوب .

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها[١] وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ، ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له أليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » اخرجه البخاري[٢] .

قال كثير من أهل العلم : نحن نرى إنقضاض الكواكب فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم تصير ناراً إذا أدرك الشيطان ويجوز أن يقال يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل الينا أنه نجم يسري .

---

(١) أي أمالها انتهى مجمع البخار .

(٢) البخاري كتاب التوحيد الباب ٣٢ ـ كتاب التفسير سورة ١/١٥ سورة ١/٣٤ الترمذي تفسير سورة ٢/٣٤ .

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا
لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا
نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ
﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿والأرض﴾ نصب على اشتغال ولم يقرأ بغيره لأنه أرجح من حيث العطف على جملة فعلية قبلها ﴿مددناها﴾ أي بسطناها وفرشناها على وجه الماء كما في قوله والأرض بعد ذلك دحاها وفي قوله والأرض فرشناها فنعم الماهدون وفيه رد على من زعم انها كالكرة ﴿وألقينا﴾ أي جعلنا ووضعنا ﴿فيها رواسي﴾ أي جبالاً ثابتة لئلا تتحرك بأهلها جمع راسية كما في المختار ، وقد تقدم بيان ذلك في سورة الرعد ﴿وأنبتنا فيها من﴾ تبعيضية وهو الصحيح او مزيدة عند الكوفيين والأخفش ﴿كل شيء موزون﴾ أي مقدر معلوم فعبر عن ذلك بالوزن لانه مقدار تعرف به الأشياء ، وقيل موزون مقسوم وقيل معدود .

والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد ، قال ابن زيد : الأشياء توزن ، وقيل الضمير راجع الى الجبال أي أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والكحل والرصاص ونحو ذلك ، وقيل موزون بميزان الحكمة ومقدر بقدر الحاجة ، وقيل الموزون هو المحكوم بحسنه كما يقال كلام موزون أي حسن وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن .

﴿وجعلنا لكم فيها﴾ أي في الأرض ﴿معايش﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة وهي ما يعيش به الانسان مدة حياته في الدنيا ، وقيل هي الملابس ، وقيل هي التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة ، قال الماوردي : وهو الظاهر .

قلت : والأول أظهر قال النسفي هي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها خطأ انتهى . وقرىء بالهمز على التشبيه بشمائل ، وقد ذكر في الأعراف وهي شاذة وقراءة الجمهور بالياء لأنها في المفرد أصلية لأن مفرده معيشة من العيش فالياء أصلية والمد في المفرد لا يقلب همزاً في الجمع إلا إذا كان زائداً في المفرد قاله في الجمل .

﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معايش أو على محل لكم وهم المماليك والعبيد والخدم والدواب والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله وان ظن بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب ، وهذا في غاية الامتنان والمعنى على الثاني وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش ، وهم من تقدم ذكره ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها ، وقيل أراد الوحش قاله منصور . وقال مجاهد : الأنعام ، وقيل الطيور ، ومنه قوله ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ .

﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ إن هي النافية ومن مزيدة للتأكيد ، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من ومع لفظ شيء المتناول لكل الموجودات الصادق على كل فرد منها ، فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء ، والخزائن جمع خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأمور ، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور .

والمعنى ان كل الممكنات مقدورة ومملوكة لله تعالى يخرجها من العدم الى الوجود بمقدار كيف شاء ، وقال جمهور المفسرين إن المراد بما في الآية هو المطر لأنه سبب الأرزاق والمعايش ، وعن ابن مسعود وابن عباس : ما نقص المطر منذ أنزله الله ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى ، ثم قرأ وما ننزله الآية .

قال ابن الخطيب : وتخصيص قوله هذا بالمطر تحكم محض لأن قوله وان من شيء يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل ، وقيل الخزائن المفاتيح أي ما من شيء الا عندنا في السماء مفاتيحه والأولى ما ذكرناه من العموم لكل

موجود بل قد يصدق الشيء على المعدوم على الخلاف المعروف في ذلك ، وقيل في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر وهو تأويل هذه الآية .

وأخرج البزار وأبو الشيخ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خزائن الله الكلام فإذا أراد شيئاً قال له كن فكان »(١)

﴿وما ننزله﴾ من السماء الى الأرض أو نوجده للعباد ﴿إلا بقدر﴾ أي بمقدار ﴿معلوم﴾ والمعنى أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلا متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد اليه كما قال تعالى ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ وقد فسر الإنزال بالإعطاء وبالانشاء وبالإيجاد والمعنى متقارب .

﴿وأرسلنا الرياح﴾ جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجو سريع المرور ﴿لواقح﴾ أي حوامل لانها تحمل السحاب أي تقله وتصرفه ثم تمر به فتنزله ، قال تعالى ﴿إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ أي حملت وناقة لاقح إذا حملت الجنين في بطنها قاله الأزهري ، وبه قال الفراء وابن قتيبة ، وقيل لواقح بمعنى ملقحة ، قال ابن الأنباري : تقول العرب أبقل النبت فهو باقل أي مبقل والمعنى انها تلقح الشجر أي تقويها ، وقيل معنى لواقح ذوات لقح ، قال الزجاج : معناه ذوات لقحة لانها تعصر السحاب وتدره كما تدر اللقحة ، يقال رامح أي ذو رمح ولابن أي ذو لبن وتامر أي ذو تمر .

قال أبو عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح ذهب الى انها جمع ملقحة ، وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل ولقاح الشجر بلقاح الحمل ، قال ابن مسعود : يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر ، وعن ابن عباس نحوه ، وعن عبيد بن عمير قال : يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً ، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب فتجعله

(١) ضعيف الجامع الصغير ٢٨٢٤ .

كسفاً ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه فتجعله ركاماً ثم يبعث الله اللواقح فتلقحه فتمطر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه »[1] قال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه .

﴿فأنزلنا من السماء﴾ أي من السحاب وكل ما علاك فأظلك فهو سماء ، وقيل من جهة السماء ﴿ماء﴾ المراد هنا ماء المطر ﴿فأسقيناكموه﴾ أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم ؛ قال أبو علي : يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي وأسقيته نهراً أي جعلته شرباً له ، وعلى هذا فأسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه ، وقيل سقى واسقى بمعنى واحد .

﴿وما انتم له بخازنين﴾ بل نحن الخازنون له ، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه في قوله ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ وقيل إن المعنى ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم ، أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون ، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة اليه .

﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ أي نوجد الحياة في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا ، وان واللام تفيدان الحصر ، يعني لا يقدر على ذلك سوانا وبيدنا احياء الخلق واماتتهم ؛ والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته عز وجل وإنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته ، ولهذا قال ﴿ونحن الوارثون﴾ أي للأرض ومن عليها لأنه سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه ، الحي الذي لا يموت ، الدائم

(١) ضعيف الجامع الصغير والأحاديث الضعيفة ٣٦٥٢ .

الذي لا ينقطع وجوده ومصير الخلق اليه ، ولله ميراث السموات والأرض .

﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ المراد علمنا من تقدم ولادة وموتاً ومن تأخر فيهما ؛ وقيل من تقدم طاعة ومن تأخر فيها ، وقيل من تقدم في صف القتال ومن تأخر ، وقيل المستقدمون هم الأمم المتقدمون على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من لدن آدم . والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة .

وقيل المستقدمون من قتل في الجهاد والمستأخرون من لم يقتل . وقيل من خلق ومن لم يخلق بعد ، وقيل من أسلم أولاً ومن يسلم آخراً ، واللفظ أوسع من ذلك ، واللام في الموضعين هي الموطئة للقسم .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن النساء ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت ابطيه ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وقد رواه عبدالرزاق وابن المنذر من قول أبي الجوزاء عن ابن عباس . قال الترمذي وهذا أشبه أن يكون أصح .

وقال ابن كثير : في هذا الحديث نكارة شديدة وعن ابن عباس قال : المستقدمين الصفوف المتقدمة والمستأخرين الصفوف المؤخرة ، وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها وعن مقاتل وعطاء إن الآية في صفوف القتال . وقال الحسن المستقدمين في طاعة الله والمستأخرين في معصية الله .

وعن ابن عباس يعني بالمستقدمين من مات والمستأخرين من هو حي لم يمت ، وقال ايضاً المستقدمين آدم ومن مضى من ذريته ، والمستأخرين في أصلاب الرجال ، وعن قتادة نحوه .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى
خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى
فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن
يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾ أي هو المتولي لذلك القادر عليه دون غيره كما يفيده ضمير الفصل من الحصر ، وفيه انه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لأنه الأمر المقصود من الحشر .

﴿انه حكيم﴾ يجري الامور على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿عليم﴾ أحاط علمه بجميع الأشياء لا يخفى عليه شيء منها ، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه وجرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو .

﴿ولقد خلقنا الانسان﴾ أي آدم عليه السلام لأنه أصل هذا النوع ﴿من﴾ لابتداء الغاية أو للتبعيض ﴿صلصال﴾ أي طين يابس إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع ، واذا نقرته سمعت له صلصلة . أي صوتاً .

قال أبو عبيدة : هو الطين المخلوط بالرمل الذي يتصلصل إذا حرك ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، وهذا قول أكثر المفسرين وقال الكسائي هو الطين المنتن مأخوذ من قول العرب صل اللحم ، وأصل إذا أنتن مطبوخاً كان او نيئاً .

وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية . وأول ابتدائه انه كان تراباً متفرق الأجزاء ثم بُل فصار طيناً ثم أنتن واسود فصار حمأً مسنوناً أي متغيراً ثم يبس فصار صلصالاً ، وعلى هذه الاطوار والأحوال تتخرج الآيات الواردة في أطواره

الطينية كآية خلقه من تراب وآية بشراً من طين ، وهذه الآية التي نحن فيها . ﴿من﴾ ابتدائية ﴿حمأ مسنون﴾ الحمأ الطين الأسود المتغير أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير .

قال ابن السكيت : تقول منه حمأت البئر حمأً بالتسكين إذا نزعت حمأها ؛ وحميت البئر حمأً بالتحريك كثرت حمأتها ، وأحميتها احماء ألقيت فيها الحمأة . قال أبو عبيدة : الحمأة سكون الميم مثل الحمأة يعني بالتحريك ، والجمع حمأ مثل تمرة وتمر والحمأ مصدر مثل الهلع والجزع ثم سمي به . والمسنون قال الفراء : هو المتغير وأصله من سننت الحجر على الحجر اذا حككته وما يخرج بين الحجرين يقال له السنانة والسنين ، ويقال أسن الماء إذا تغير ؛ ومنه قوله ﴿لم يتسنه﴾ وقوله ﴿من ماء غير آسن﴾ وكلا الاشتقاقين يدل على التغيير لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلا منتناً .

وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب وهو من قول العرب سننت الماء على الوجه أذا صببته والسن الصب .

وقال سيبويه : المسنون المصور مأخوذ من سنة الوجه وهي صورته ، وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم . من قولهم وجه مسنون إذا كان فيه طول ، والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بُل صار طيناً فلما أنتن صار حمأً مسنوناً فلما يبس صار صلصالاً ، فأصل الصلصال هو الحمأ المسنون ، ولهذا وصف بهما ، وعن ابن عباس قال : خلق الانسان من ثلاث : من طين لازب وصلصال وحمأ مسنون ، فالطين اللازب اللازم الجيد والصلصال المدقق الذي يصنع منه الفخار ، والحمأ المسنون الطين الذي فيه الحمأة .

وقال أيضا الصلصال الماء يقع على الارض الطيبة ثم يحسر عنها فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق ، وعنه قال : الصلصال هو التراب اليابس الذي يبل بعد يبسه ، وقال أيضاً طين خلط برمل . وقال أيضاً الذي اذا ضربته صلصل ، وعنه قال الطين تعصر بيدك فتخرج الماء من بين أصابعك ، وقال

حمأ مسنون من طين رطب وقال من طين منتن .

﴿والجان﴾ منصوب على الاشتغال وهو أبو الجن عند جمهور المفسرين ، وقال الحسن وعطاء وقتادة ومقاتل هو ابليس أبو الشياطين وسمي جاناً لتواريه عن الأعين ، يقال جن الشيء إذا ستره ، فالجان يستر نفسه عن أعين بني آدم ، وهما نوعان يجمعهما وصف الاستتار عنا .

وفي الجن مسلمون وكافرون ، وهم يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم ، وأما الشياطين فليس منهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات ابليس أبوهم . ذكره الخازن .

قال ابن عباس : الجان مسيخ الجن كالقردة والخنازير مسيخ الانس ، وقيل كان إبليس من حي الملائكة يسمون الجان ، خلقوا من نار السموم ، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور .

﴿خلقناه من قبل﴾ أي من قبل خلق آدم ﴿من نار السموم﴾ وهي الريح الحارة النافذة في المسام لشدة لطفها وقوة حرارتها يكون بالنهار ، وقد يكون بالليل ، كذا قال ابو عبيدة .

وقال ابو صالح : السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها ، وهي نار تكون بين السماء وبين الحجاب ، فاذا أحدث الله أمراً أخرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به ، فالهدة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب . قاله الخطيب .

وقيل السموم نار جهنم ، وقيل هي جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان ، قاله ابن مسعود ، وفي السمين : السموم ما يقتل من إفراط الحر من شمس أو ريح أو نار لأنها تدخل في المسام ، وقيل السموم ما كان ليلاً والحرور ما كان نهاراً ، وقيل هو من باب إضافة الموصوف لصفته .

وذكر خلق الجان والانسان في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة الإلٓهية وبيان أن القادر على النشأة الاولى قادر على النشأة الأخرى . قال ابن عباس : من نار السموم من أخس النار الحارة التي تقتل ، وعن ابن مسعود قال: السموم التي

خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، واخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً .

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ بيَّن سبحانه بعد ذكره لخلق الانسان ما وقع له عند خلقه ، وقد تقدم تفسير ذلك في البقرة ﴿إني خالق بشراً﴾ مأخوذ من البشرة وهي ظاهر الجلد ﴿من صلصال﴾ قد تقدم تفسيره قريباً مستوفى وكذا تفسير ﴿من حمأ مسنون فإذا سويته﴾ أي سويت خلقه وعدلت صورته الانسانية وخلقته البشرية وأكملت أجزاءه وأتممت خلقه ، او سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه .

﴿ونفخت فيه من روحي﴾ النفخ اجراء الريح في تجاويف جسم آخر صالح لامساكها والامتلاء بها ، فمن قال إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر ، ومن قال إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز فمعنى النفخ عنده تهيؤ البدن لتعلق النفس الناطقة به، ومن زائدة أو تبعيضية. قال النيسابوري : ولا خلاف في أن الإضافة في روحي للتشريف والتكريم، مثل ناقة الله وبيت الله .

قال القرطبي : والروح جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم وحقيقته إضافة خلق الى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه الى نفسه تشريفاً وتكريماً ، قال ومثله روح منه ، وقد تقدم في النساء .

قال أبو السعود : وليس ثمة نفخ ولا منفوخ فيه وإنما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فإذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيى به من الروح التي هي من أمري .

﴿فقعوا له ساجدين﴾ الفاء تدل على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير تراخ وهو أمر بالوقوع ، من وقع يقع أي اسقطوا وخروا ، وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود الحقيقي أي وضع الجبهة على الأرض لا مجرد الانحناء كما قال السيوطي ، وهذا السجود هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء . وقيل كان السجود لله تعالى وكان آدم قبله لهم تشريفاً له ، وهذا وإن كان معنى صحيحاً لكن يخالفه

ظاهر النظم القرآني . والأولى ما دل عليه ظاهر اللفظ فالأول أولى والخطاب للملائكة الذين قال الله لهم اني خالق بشراً .

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ ، قال المبرد : قوله كلهم أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد ، فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ، ثم عند هذا بقي احتمال وهو أنهم هل سجدوا دفعة واحدة او سجد كل واحد في وقت ؟ فلما قال ﴿أجمعون﴾ ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ، وهو ايضاح لما سبق ، وقيل قوله أجمعون توكيد بعد توكيد ، ورجح هذا الزجاج .

قال النيسابوري : وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً ، قال الكرخي : فيه تأكيدان لزيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن ولا يكون تحصيلاً للحاصل ؛ لأن نسبة أجمعون الى كلهم كنسبة كلهم الى أصل الجملة ، أو أجمعون يفيد معنى الاجتماع . وقيل هما تأكيدان للمبالغة وزيادة الاعتناء .

ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال ﴿إلا إبليس﴾ قيل هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ استكباراً واستعظاماً لنفسه وحسداً لآدم فحقت عليه كلمة الله وقيل انه لم يكن من الملائكة ولكنه كان معهم وبينهم فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلا .

زاد أبو السعود إما لأنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة فعد منهم تغليباً ، وإما لأن من الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم ، وقيل إن الاستثناء منقطع منفصل بناء على عدم كونه منهم وعدم تغليبهم عليه ، أي ولكن إبليس أبى من السجدة ، وقد تقدم الكلام في هذا في سورة البقرة .

وهذه الجملة على الأول استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء لأن مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد ، فبيَّن سبحانه أنه كان على وجه الإباء والاستكبار .

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ
مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ
ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا
صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

﴿قال يا إبليس﴾ مستأنفة ايضاً ، وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم بل على سبيل الاهانة والإذلال والتقريع والتوبيخ ، وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة ، لأنه قال في الجواب ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته﴾ فقوله ﴿خلقته﴾ خطاب الحضور لا خطاب الغيبة ، فقول بعض المتكلمين انه تعالى أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله ضعيف .

قيل معنى ﴿مالك﴾ أيُّ غرض لك وأي سبب حملك على ﴿أن لا تكون مع الساجدين﴾ لآدم مع الملائكة ، وهم في الشرف وعلو المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها ، وعلى هذا فليست لا زائدة واليه مال البيضاوي ، وقيل زائدة بدليل ما في سورة (صۤ) ما منعك أن تسجد .

﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته﴾ مستأنفة كالتي قبلها ، أي لا ينبغي لي ولا يصح مني ولا يليق بحالي ؛ فاللام لتأكيد النفي جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ زعماً منه أنه مخلوق من عنصر نار ، وهي أشرف من عنصر آدم عليه السلام وهو الطين المتغير المنتن لأنها نيرة والطين كثيف مظلم .

وفيه اشارة اجمالية الى كونه خيراً منه وقد صرح بذلك في موضع آخر فقال ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وقال في موضع آخر ﴿أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ ولم يدر الخبيث أن الفضل فيما فضله الله تعالى ، قال الكرخي : وحاصل كلامه أن كونه بشراً يشعر بكونه جسماً كثيفاً وهو كان روحانياً لطيفاً فكأنه يقول البشر الجسماني الكثيف أدوَن حالاً من الروحاني اللطيف فكيف يسجد الأعلى للأدنى .

وايضاً فآدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون ، وهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هي النار وهي أشرف العناصر ، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون ، فهذا مجموع شبه إبليس فأجاب الله سبحانه عليه بقوله :

﴿قال فاخرج منها﴾ أي فحيث عصيت وتكبرت فاخرج منها ﴿فانك رجيم﴾ والضمير في منها قيل عائد الى الجنة ، وقيل الى السماء ، وقيل الى زمرة الملائكة ، والرجيم المرجوم بالشهب ، وقيل معناه ملعون أي مطرود ، لأن من يطرد يرجم بالحجارة .

وفي القاموس الرجم اللعن والشتم والطرد والهجران ؛ وفي المصباح الرجم بفتحتين الحجارة والرجم القبر سمي بذلك لما يجتمع عليه من الأحجار ورجمته رجماً من باب قتل ضربته بالرجم .

﴿وان عليك اللعنة﴾ أي الطرد والابعاد من رحمة الله سبحانه مستمراً عليك لازماً لك ﴿الى يوم الدين﴾ وهو يوم القيامة والجزاء ، وقيل هو ملعون في السموات والأرض وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت لأن المراد دوامها من غير انقطاع وذكر يوم الدين للمبالغة كما في قوله تعالى ﴿مادامت السموات والأرض﴾ أو ان المراد أنه في يوم الدين وما بعده يُعَذَّب بما هو أشد من اللعن من أنواع العذاب بما ينسى اللعن معه فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب .

﴿قال رب فانظرني﴾ أي أخرني وامهلني ولا تمتني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي آدم وذريته طلب أن يبقى حياً الى هذا اليوم ؛ لأنه لما سمع ذلك علم أن الله قد أخر عذابه الى الدار الآخرة وكأنه طلب أن لا يموت أبداً لأنه إذا أخر موته الى ذلك اليوم وأمهل الى يوم البعث الذي هو وقت النفخة الثانية لا يموت بعد ذلك الانقطاع الموت من حين النفخة الأولى فهو يوم لا موت فيه .

وفي البيضاوي أراد بهذا السؤال ان يجد فسحة في الإغواء ونجاة عند الموت إذ لاموت بعد وقت البعث ، فأجابه الى الأول دون الثاني ، وقيل انه لم يطلب أن لا يموت بل طلب أن يؤخر عذابه الى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا .

﴿قال فانك من المنظرين﴾ لما سأل الإنظار أجابه الله سبحانه الى ما طلبه ، وأخبره بأنه من جملة المنظرين ممن أخر آجالهم من مخلوقاته أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترفوا ولم يكن إجابة الله إياه في الإمهال اكراماً له بل زيادة في بلائه وشقائه وعذابه .

ثم بيَّن سبحانه الغاية التي امهله اليها فقال ﴿الى يوم الوقت المعلوم﴾ الذي عينت وهو يوم القيامة فإن يوم الدين ، ويوم يبعثون ، ويوم الوقت المعلوم ، كلها عبارات عن القيامة وسمي معلوماً لأن ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى فهو معلوم عنده ، وقيل إن جميع الخلائق تموت فيه ، فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث فعند ذلك يموت .

وقال ابن عباس : هو النفخة الأولى يموت فيها إبليس وبين النفختين أربعون سنة ، وهي مدة موته .

﴿قال رب بما أغويتني﴾ الباء للقسم وما مصدرية أي أقسم باغوائك إياي واختار البيضاوي في الأعراف كونها للسببية ، ونقل كونها للقسم بصيغة التمريض لأنه وقع في مكان آخر قال فبعزتك والقصة واحدة إلا أن **احدهما** إقسام بصفة ذاته ، **والثاني** إقسام بفعله والفقهاء قالوا الإقسام بصفات الذات صحيح ، واختلفوا في القسم بصفات الأفعال ومنهم من فرق بينهما ، ولأن جعل الاغـواء

مقسما به غير متعارف ، قاله الكرخي .

قلت : وإقسامه هنا باغواء الله له لا ينافي اقسامه في موضع آخر بعزة الله التي هي سلطانه وقهره لأن الاغواء هو من جملة ما يصدق عليه العزة ، وقال أهل العراق الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين ، والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين ، قيل والأصح أن الأيمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يميناً وما لا فلا .

وجواب القسم ﴿لأزينن لهم﴾ أي لذرية آدم وان لم يجر لهم ذكر للعلم بهم ﴿في الأرض﴾ أي ما داموا في الدنيا والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وايقاعهم فيها أو بشغلهم بزينة الدنيا وحبها عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون الى غيرها .

﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي لأضلنهم عن طريق الهدى وأوقعهم في طريق الغواية واحملهم عليها بالقاء الوسوسة في قلوبهم ، وذلك أن إبليس لما علم أنه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على إضلال الخلق بالكفر واغوائهم ، وفي الآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال وحملهم على التسبب عدول عن الظاهر .

﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي الذين استخلصتهم من العباد أو الذين أخلصوا لك العبادة والطاعة فلم يقصدوا بها غيرك ، وإنما استثناهم لأنه علم أن كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الاخلاص فعل الشيء خالصاً لله عن شائبة الغير .

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾ لا عوج فيه والمعنى حق عليّ أن أراعيه واحفظه وهو أن لا يكون لك على عبادي سلطان ، فالكلام على التشبيه عند أهل السنة كما في قوله تعالى ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ إذ لا تجب رعاية الأصلح عندنا ، وقيل قال الكسائي هذا على الوعيد والتهديد كقولك لمن تهدده: طريقك عليّ ومصيرك إليّ وكقوله ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ فكان معنى هذا الكلام هذا طريق مرجعه اليّ فأجازي كلا بعمله .

وقيل ﴿عليّ﴾ هنا بمعنى ﴿اليّ﴾ وقيل المعنى على أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والحجة ، وقيل بالتوفيق والهداية ، وقيل عائد الى الاخلاص أي أن الاخلاص طريق عليَّ واليّ يؤدي الى كرامتي ورضواني .

وقال أبو السعود : والأظهر أن ذلك رد لما وقع في عبارة إبليس حيث قال ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ الآية ، وقرأ عليّ على أنه صفة مشبهة ومعناه رفيع .

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ المراد بالعباد هنا هم المخلصون ، والمراد انه لا تسلط أنت عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه ، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء او نحوهما فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه قال أهل المعاني معنى ﴿عليهم﴾ على قلوبهم ، وقال سفيان بن عيينة : معناه ليس لك عليهم قوة وقدرة على أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي ، وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم واجتباهم من عباده .

﴿إلا من اتبعك﴾ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لإبليس ﴿من الغاوين﴾ عن طريق الحق الواقعين في الضلال وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصون﴾ .

ويمكن أن يقال بين الكلامين فرق ، فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين ، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس ، وكلام إبليس اللعين يتضمن اغواء الجميع إلا المخلصين ، فدخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً .

والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لإبليس ، وقد قيل أن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ قال أبو السعود : وفيه مع كونه تحقيقاً لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين ، وبيان لمنزلتهم ، ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وإن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم .

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ
مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا
نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾

ثم قال الله تعالى متوعداً لأتباع إبليس ﴿وان جهنم لموعدهم﴾ أي موعد المتبعين الغاوين ﴿أجمعين﴾ تأكيد للضمير أو حال ﴿لها سبعة أبواب﴾ يدخل أهل النار منها وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿لكل باب منهم﴾ أي من الأتباع الغواة ﴿جزء مقسوم﴾ أي نصيب وقدر معلوم متميز عن غيره . والجزء بعض الشيء ، وجزأته جعلته أجزاء ، والمراد هنا بالجزء الحزب والطائفة والفريق وقيل المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق .

قال ابن جريج : النار سبع دركات وهي : جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . فأعلاها لعصاة الموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها ، ثم كذلك ، كذا قيل .

والمعنى أن الله تعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة اجزاء فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار ، والسبب فيه أن مراتب الكفر والمعاصي مختلفة ، فلذلك اختلفت مراتبهم في النار .

قال الخطيب : تخصيص هذا العدد لأن أهلها سبع فرق ، وقيل جعلت

سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة .

ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الأعضاء واحداً فجعلت أبواب الجنان ثمانية ، انتهى .

أقول : الحكمة في تخصيص هذا العدد لا تنحصر فيما ذكر ، بل الأولى تفويضها الى جاعلها وهو الله سبحانه ، الا أن يرد خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب المصير اليه .

وعن عليّ رضي الله عنه قال : أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيملأ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها .

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي واستغربه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لجهنم سبعة أبواب ؛ باب منها لمن سل السيف على أمتي »[1] وأخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « في الآية جزء أشركوا بالله وجزء شكوا في الله وجزء غفلوا عن الله »

وقد وردت في صفة النار وأهوالها أحاديث وآثار كثيرة ليس هذا موضع استقرائها[2] ﴿ان المتقين﴾ أي الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه كما قاله جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح ، وقيل هم الذين اتقوا جميع المعاصي ، وبه قال الجبائي وجمهور المعتزلة والأول أولى ، وأجمعت الأمة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول الحكم بدخول الجنة ، وليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً أن يكون آتياً بجميع أنواع التقوى لأن الآتي بفرد واحد من افراد التقوى يكون آتياً بالتقوى كما ان الضارب هو الآتي بالضرب ولو مرة واحدة والقاتل هو الآتي بالقتل ولو مرة واحدة وكل فرد من أفراد الماهية يجب أن يكون مشتملاً على تلك الماهية ، وبهذا التحقيق استدلوا على أن الأمر لا يفيد التكرار .

---

(١) الترمذي ، كتاب التفسير ، سورة ١٥/٢ ـ أحمد بن حنبل ٢٩/٩٤ .

(٢) وللمفسر كتاب جيد في التخويف من النار نشرته مطبعة الإمام .

﴿في جنات﴾ هي البساتين ﴿وعيون﴾ هي الأنهار الجارية أي مستغرقون فيهما والتركيب يحتمل أن يكون لجميعهم جنات وعيون أو لكل واحد منهم جنات وعيون أي عدة منهما كقوله تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ او لكل واحد منهم جنة وعين تجري في قصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ، قال الرازي : يحتمل أن يكون منها ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الأنهار .

﴿ادخلوها﴾ أي قيل لهم ادخلوها وقرىء على انه فعل مبني للمفعول أي ادخلهم الله إياها ، وقد قيل إنهم إذا كانوا في جنات وعيون فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها ، وأجيب بأن المعنى إنهم لما صاروا في الجنات فإذا انتقلوا من بعضها الى بعض يقال لهم عند الوصول الى التي أرادوا الانتقال اليها ادخلوها ، والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته .

﴿بسلام آمنين﴾ أي بسلامة من جميع الآفات وأمن من المخافات أو من زوال هذا النعيم أو مسلمين على بعضهم بعضاً أو مسلماً عليهم من الملائكة أو من الله عز وجل .

وقال الضحاك : أمنوا الموت فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون .

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ هو الحقد والعداوة والشحناء والبغضاء والحسد وكل ذلك مذموم داخل في الغل لأنها كامنة في القلب ، وقد مر تفسيره في الأعراف ، وعن الحسن البصري عن عليّ : فينا والله أهل الجنة نزلت وعنه قال نزلت في ثلاثة أحياء من العرب بني هاشم وبني تميم وبني عدي ، وفي أبي بكر وعمر ، وعنه قال : اني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وعن ابن

عباس قال : نزلت في عشرة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وابن مسعود ، وفي الباب روايات .

﴿إخواناً﴾ حال مقدرة قاله أبو البقاء يعني من فاعل ادخلوها ولا حاجة اليه بل هي حال مقارنة من ضمير صدورهم ، والمعنى حال كونهم اخوة في الدين بالتعاطف والمحبة والمودة والمخالطة ، وليس المراد منه اخوة النسب ، يروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد وصاروا إخواناً حال كونهم ﴿على سرر﴾ من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدر والياقوت .

قال أبو البقاء : يجوز ان يتعلق بنفس إخواناً لأنه بمعنى متصافين أي متصافين على سرر ، وفيه نظر من حيث تأويل جامد بمشتق بعيد منه والسرر جمع سرير ، وهو مثل ما بين صنعاء الى الجابية ، وقيل هو المجلس العالي الرفيع المهيأ للسرور ومنه قولهم سر الوادي لأفضل موضع منه .

﴿متقابلين﴾ أي ينظر بعضهم الى وجه بعض . قال مجاهد : لا يرى بعضهم قفا بعض ، وعن ابن عباس نحوه فإذا اجتمعوا وتلاقوا ثم أرادوا الانصراف يدور سرير كل واحد منهم به بحيث يصير راكبه مقابلاً بوجهه لمن كان عنده ، وقفاه الى الجهة التي يسير لها السرير ، وهذا أبلغ في الانس والاكرام .

وأخرج الطبراني والبغوي وابن أبي حاتم وغيرهم عن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية قال : « المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم الى بعض » .

﴿لا يمسهم فيها﴾ أي في الجنة مستأنفة أو حالية ﴿نصب﴾ أي تعب

وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة لانها نعيم خالص ، ولذة محضة تحصل لهم بسهولة وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد ، بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفواً عفواً قال السدي النصب المشقة والأذى ﴿وما هم منها﴾ أي من الجنة ﴿بمخرجين﴾ أبداً ، وهذا نص من الله الكريم في كتابه العزيز على خلود أهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان ، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم ، فان علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدر لذته .

ثم قال سبحانه بعد أن قص علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والأجر الجزيل ﴿نبىء عبادي أني﴾ بفتح الياء فيهما وسكونهما فيهما سبعيتان أي أخبر يامحمد كل من كان معترفاً بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ﴿أنا الغفور الرحيم﴾ أي أنا الكثير المغفرة لذنوبهم الكثير الرحمة لهم كما حكمت به على نفسي ان رحمتي سبقت غضبي[1] اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة وأدخلتهم تحت أوسع الرحمة .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على ناس من أصحابه يضحكون فقال : « اذكروا الجنة واذكروا النار » فنزلت هذه الآية .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل

---

(١) مسلم ٢٧٥١ ـ البخاري ١٥٠٩ .

الذي عند الله من رحمته لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار[1] .

ثم إن الله سبحانه لما أمر رسوله أن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال ﴿وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي الكثير الإيلام .

وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير ، صاروا في حالة وسطاً بين اليأس والرجاء وخير الأمور أوسطها ، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف ، وبين حالتي الانس والهيبة ، وقيل لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لما أقدم على ذنب .

وفي هذه الآية لطائف منها أنه أضاف العباد الى نفسه بقوله ﴿نبىء عبادي﴾ وهذا تشريف لهم وتعظيم كما أضاف في قوله ﴿أسرى بعبده ليلاً﴾ ولم يزد عليه ومنها أنه أكد ذكر الرحمة والمغفرة بمؤكدات ثلاثة :

أولها : قوله ﴿أني﴾ .

وثانيها : ﴿أنا﴾ .

وثالثها : التعريف في ﴿الغفور الرحيم﴾ . وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ، ولم يقل في ذكر العذاب أني أنا المعذب ولم يصف نفسه بذلك بل قال على سبيل الإخبار ﴿أن عذابي هو العذاب الأليم﴾ .

ومنها أنه أمر رسوله أن يبلغ عباده هذا المعنى ، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

ثم أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها

(١) لم يوجد بهذا اللفظ عند مسلم وورد ما جاء في حديثين مختلفين ٢٧٥٢ ـ ٢٧٥٥ واخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب ١٩ .

مرغباً في العبادة الموجبة للفوز بدرجات السعداء ، ومحذراً عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقياء وذكر هنا أربع قصص : قصة ابراهيم ثم قصة لوط ثم قصة شعيب ثم قصة صالح ، وسيأتي تفصيلها . وافتتح من ذلك بقصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقال :

﴿ونبئهم عن ضيف ابراهيم﴾ أي أخبرهم بما جرى على ابراهيم من الأمر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف والتبشير الذي خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنة الله في عباده ؛ وأيضاً لما اشتملت القصة على انجاء المؤمنين واهلاك الظالمين كان في ذلك تقرير لكونه الغفور الرحيم ، وأن عذابه هو العذاب الأليم .

وأصل الضيف الميل ، يقال أضفت الى كذا اذا ملت اليه ، والضيف من مال إليك نزولاً بك، وصارت الضيافة متعارفة في القرى، وهو في الأصل مصدر ولذلك وحد ، وان كانوا جماعة ملائكة اثني عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل على صورة غلمان حسان أرسلهم الله اليه ليبشروه بالولد ويهلكوا قوم لوط عليه السلام ، وقد مر تفسير القصة مفصلاً في سورة هود عليه السلام ، وسمي الضيف ضيفاً لاضافته الى المضيف ، وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان ﴿إذ دخلوا﴾ أي اذكر لهم وقت دخولهم ﴿عليه فقالوا سلاماً﴾ أي هذا اللفظ قالوه تحية لابراهيم .

وفي الشهاب يجوز أن يكون سلاماً منصوباً بفعل مقدر أي سلمنا أو نسلم سلاماً ، ويجوز نصبه بقالوا ، ولم تذكر هنا تحية ابراهيم لهم ، وقد ذكرت في سورة هود فالقصة هنا مختصرة .

﴿قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون فزعون ، وانما قال هذا بعد أن قرب اليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه كما تقدم في سورة هود ، فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة . وقيل أنكر السلام منهم لأنه لم يكن في بلادهم ، وقيل أنكر دخولهم عليه بغير استئذان .

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ
فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن
يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾

﴿قالوا﴾ أي الملائكة ﴿لا توجل﴾ أي لا تخف ، قاله عكرمة ، وقرىء لا تأجل وتوجل من أوجله أي أخافه ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾ مستأنفة لتعليل النهي عن الوجل لأن المبشر لا يخاف منه ، والعليم كثير العلم ، وقيل هو الحليم كما وقع في موضع آخر من القرآن . وهذا الغلام هو اسحاق كما تقدم في هود ، ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف .

﴿قال أبشرتموني﴾ قرىء بألف الاستفهام وبغيرها ﴿على أن مسني الكبر﴾ أي مع حالة الكبر والهرم ﴿فبم تبشرون﴾ استفهام انكار أو تعجب كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار اليه من الهرم الذى جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ اليه ، والمعنى فبأي شيء تبشرون ، فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ أي بما يكون لا محالة ، أو باليقين الذي لا لبس فيه ولا خلف فيه فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ولا يستحيل عليه شيء ، فإنه القادر على كل شيء .

﴿فلا تكن من القانطين﴾ أي الآيسين من ذلك الذي بشرناك به فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر ، وكان تعجب ابراهيم باعتبار العادة دون القدرة ولذلك :

﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه﴾ قرىء بفتح النون من يقنط وبكسرها

وهما لغتان سبعيتان ، وحكى فيه ضم النون شاذاً ، والقنوط اليأس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم فهو قانط وقنوط .

﴿إلا الضالون﴾ أي المكذبون أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب والمعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته ، كما قال الله تعالى إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، أي إني إنما استبعدت الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة ربي .

ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الخطب الأمر الخطير والشأن العظيم ، أي فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به ، وكان قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا لأنهم كانوا عدداً والبشارة لا تحتاج الى عدد ، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام ، أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال لازالة الوجل ، ولو كانت البشارة تمام المقصود لابتدأوه بها .

﴿قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين﴾ أي الى قوم لهم إجرام ، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه ، وهؤلاء القوم هم قوم لوط عليه السلام ، ثم استثنوا منهم من ليسوا بمجرمين فقالوا :

﴿إلا آل لوط﴾ وهو استثناء متصل لأنه من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم إلا آل لوط فإنهم لم يجرموا ، ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين ، وليس آل لوط مجرمين البتة ، ويجب فيه على هذا النصب .

ثم ذكروا ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في اجرامهم فقالوا ﴿إنا لمنجوهم﴾ أي آل لوط ﴿أجمعين﴾ وهم أتباعه وأهل بيته ودينه لايمانهم ، قرىء من التنجية والانجاء ومعناهما التخليص مما وقع فيه غيرهم وهذا الكلام استئناف اخبار بنجاتهم بكونهم لم يجرموا ويكون الارسال

حينئذ شاملاً للمجرمين ولآل لوط لإهلاك أولئك وانجاء هؤلاء على تقدير الاتصال ، وعلى انه منقطع ، جرى هذا الكلام مجرى خبر ، لكن في اتصاله بآل لوط لأن المعنى لكن آل لوط ننجيهم .

﴿إلا امرأته﴾ فليست ممن ننجيه بل ممن نهلكه لكفرها ، وهذا الاستثناء من الضمير في لمنجوهم اخراجاً لها من التنجية ، وقيل من آل لوط باعتبار ما حكم لهم به من التنجية ، والمعنى انها من الهالكين لأن الاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي ، ومنعه الزمخشري وقال : كيف يكون استثناء من استثناء ، وقد اختلف الحكمان .

﴿قدرنا انها لمن الغابرين﴾ أي قضينا وحكمنا انها من الباقين في العذاب مع الكفرة ، والغابر الباقي والماضي ، وهو من الاضداد وبابه دخل .

قال الزجاج : معنى قدرنا دبرنا وهو قريب من معنى قضينا ، وأصل التقدير جعل الشيء على مقدار الكفاية ، وقرىء قدرنا بالتخفيف وبالتشديد . قال الهروي : هما بمعنى وقيل ضمن قدرنا معنى العلم فلذلك علق باللام مع كون التعليق من خصائص أفعال القلوب فكسرت إن .

وقيل هذا لا يصلح علة لكسرها إنما يصلح علة لتعليقها الفعل قبلها فقط ، والعلة في كسرها وجود اللام ولولاها لفتحت ، وانما أسند التقدير الى الملائكة مع كونه من فعل الله سبحانه مجازاً لما لهم من القرب عند الله ، أو أنهم رسل الله وواسطة بينه وبين خلقه .

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ مستأنفة لبيان اهلاك من يستحق الهلاك وتنجية من يستحق النجاة ، وفي الكلام حذف ، أي فخرجوا من عند ابراهيم وسافروا من قريته الى قرية لوط ، وكان بينهما أربعة فراسخ ، ولفظة آل زائدة بدليل ولقد جاءت رسلنا لوطاً .

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾
وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ
هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

﴿قال﴾ لوط مخاطباً لهم ﴿إنكم قوم منكرون﴾ لا أعرفكم بل أنكركم وأخاف أن تصيبوني بمكروه ولا أعرف غرضكم ولا من أي القبائل أنتم .

﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره ، كأنهم قالوا ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل جئناك بما فيه سرورك وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه .

﴿وأتيناك﴾ متلبسين ﴿بالحق﴾ أي باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردد أو متلبساً أنت به لإبصارك له ، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿وإنا لصادقون﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك .

وقد تقدم تفسير قوله ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ في سورة هود أي سر في جزء من الليل بهم ، وهم بنتاه ، فلم يخرج من قريته إلا هو وبنتاه ، وفي القرطبي في سورة هود : فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل الى ابراهيم ﴿واتبع أدبارهم﴾ أي كن من ورائهم وامش خلفهم تذودهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب ، أو لأجل أن تطمئن عليهم وتعرف أنهم ناجون .

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي أنت ولا أحد منهم فيرى ما نزل بهم من

العذاب فيشتغل بالنظر في ذلك ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين وقيل معنى لا يلتفت لا يتخلف ﴿وأمضوا حيث تؤمرون﴾ أي الى الجهة التي أمركم الله سبحانه بالمضي اليها وهي جهة الشام وقيل مصر ، وقيل قرية من قرى لوط ، وقيل أرض الخليل عليه الصلاة والسلام وقيل الأردن ، وزعم بعضهم إن حيث هنا ظرف زمان مستدلاً بقوله ﴿بقطع من الليل﴾ ثم قال ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ أي في ذلك الزمان ، وهو ضعيف ، ولو كان كما قال لكان التركيب وامضوا حيث أمرتم ، على انه لو جاء التركيب هكذا لم يكن فيه دلالة ﴿وقضينا اليه﴾ أي أوحينا الى لوط عليه السلام ﴿ذلك الأمر﴾ هو **إهلاك** قومه ثم فسره بقوله :

﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ الدابر هو الآخر ، أي أن آخر من يبقى منهم يهلك ﴿مصبحين﴾ أي حال كونهم داخلين في وقت الصبح ، ومثله ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ وقدره الفراء وأبو عبيدة إذا كانوا مصبحين ، قال الكرخي : فإن كان تفسير معنى فصحيح ، وأما الاعراب فلا ضرورة تدعو اليه ، قال ابن عباس : يعني استئصال هلاكهم .

ثم ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة الى قريتهم فقال ﴿وجاء أهل المدينة﴾ أي أهل مدينة قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة فذال معجمة على وزن فعول ، وأخطأ من قال بمهملة مدينة من مدائن قوم لوط كما سبق وتقدم أن هذا المجيء قبل قول الملائكة ﴿فأسر بأهلك﴾ فما في سورة هود على الترتيب الواقعي ، وما هنا على خلافه ، والواو لا تفيد ترتيباً .

قال الكرخي : ذكر القصة في هود بترتيب الوقوع ، وهنا أخر ذكر مجيئهم عن قول الرسل ، بل جئناك مع تقدمه ليستقل الأول ببيان كيفية نصرة الصابرين ، والثاني بتساوي الأمم ﴿يستبشرون﴾ أي مستبشرين بأضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم ، والاستبشار إظهار الفرح والسرور .

﴿قال﴾ لهم لوط ﴿إن هؤلاء ضيفي﴾ وحد الضيف لأنه مصدر كما تقدم ، والمراد أضيافي ، وسماهم ضيفاً لأنه رآهم على هيئة الأضياف ، وقومه رأوهم مرداً حسان الوجوه في غاية الحسن ونهاية الجمال ، فلذلك طمعوا فيهم ﴿ فلا تفضحون﴾ يقال فضحه يفضحه فضيحة وفضحاً إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره .

وفي المختار فضحه فافتضح ، أي كشف مساويه وبابه قطع ، والاسم الفضيحة والفضوح أيضا بضمتين ، والمعنى لا تفضحوني عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون إني عاجز عن حماية من نزل بي ، أو لا تفضحوني بفضيحة ضيفي ، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف .

﴿واتقوا الله﴾ في أمرهم من ركوب الفاحشة ﴿ولا تخزون﴾ يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، أي لا تذلوني ، ويجوز أن يكون من الخزاية وهي الحياء والخجل ، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة هود .

﴿قالوا﴾ أي قوم لوط مجيبين له ﴿أوَ لم ننهك عن العالمين﴾ الاستفهام للانكار والواو للعطف على مقدر ، أي ألم نتقدم اليك وننهك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ، وقيل نهوه عن ضيافة غرباء الناس قال قتادة : يقولون أو لم ننهك ان تضيف أحداً أو تؤويه في قريتنا ، ويجوز حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك .

﴿قال هؤلاء بناتي﴾ فتزوجوهن حلالاً إن أسلمتم ولا تركبوا الحرام ، وقيل أراد ببناته نساء قومه لكون النبي بمنزلة الأب لقومه أو إنه كان في شريعته يحل تزوج الكافر بالمسلمة ، والأول أولى وقد تقدم تفسير هذا في هود ﴿إن كنتم فاعلين﴾ ماعزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفي أو ما أمركم به .

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

﴿لعمرك﴾ العمر والعمر بالفتح والضم واحد لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم ؛ ذكر ذلك الزجاج وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وعيشه والبقاء مدة حياته في الدنيا ، والمعنى لعمرك قسمي او يميني فحذف الخبر لدلالة الكلام عليه .

قال القاضي عياض : اتفق أهل التفسير في هذا انه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم . وكذا حكى اجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له ، قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم البرية عنده .

وعن ابن عباس قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال ﴿لعمرك﴾ الآية يقول وحياتك يامحمد وعمرك وبقائك في الدنيا وعيشك بها .

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم قال ﴿لعمرك﴾ الآية » أخرجه ابن مردويه ، كذا في الدر المنثور للسيوطي .

قال ابن العربي : ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله سبحانه للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم على الله منه ، أو لا تراه سبحانه أعطى ابراهيم الخلة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، قال فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد صلى الله عليه وسلم أرفع ، قال القرطبي : ما قاله حسن فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاماً معترضاً في قصة لوط عليه السلام .

فإن قيل قد اقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين ونحو ذلك فما فيها من فضل ، وأجيب بأنه ما من شيء أقسم الله به إلا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه ، وقيل الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين والنجم والضحى والشمس والليل ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به ، أي وخالق التين وكذلك ما بعده ، وفي قوله ﴿لعمرك﴾ أي وخالق عمرك .

وذكر صاحب الكشاف وأتباعه أن هذا القسم هو من الملائكة على ارادة القول ، أي قالت الملائكة للوط لعمرك ، ثم قال : وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له . انتهى .

وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه ، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله فليس لعباده ان يقسموا بغيره وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿انهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي أنهم لفي غوايتهم وشدة غِلمَتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذي يشار به اليهم

يتحيرون ، جعل الغواية لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة ، والضمير لقريش على أن القسم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والجملة اعتراض ، أو لقوم لوط على أن القسم بلوط ، قال قتادة : أي في ضلالهم يلعبون ، وقال الاعمش لفي غفلتهم يترددون ، وعمه من باب تعب كما في المختار .

﴿فأخذتهم الصيحة﴾ العظيمة أو صيحة جبريل والصيحة العذاب ، قال ابن جريج : الصيحة مثل الصاعقة وكل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ﴿مشرقين﴾ أي حال كونهم داخلين في وقت الشروق ، يقال أشرقت الشمس أي أضاءت وشرقت اذا طلعت ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، وأشرق القوم اذا دخلوا في وقت شروق الشمس ، وقيل أراد شروق الفجر ، وقيل أول العذاب كان عند شروق الفجر حين أصبحوا وامتد تمامه الى طلوع الشمس حين أشرقوا ، فلذلك قال أولا مقطوع مصبحين وقال ههنا مشرقين ﴿فجعلنا﴾ مرتب على أخذ الصيحة ﴿عاليها﴾ أي عالي المدينة أو عالي قرى قوم لوط ﴿سافلها﴾ وقال الزمخشري الضمير لقرى ، ورجح الأول بأنه تقدم ما يعود اليه لفظاً بخلاف الثاني ، والمراد بعاليها وجه الأرض وما عليه رفعها جبريل الى السماء من الأرض السفلى وأسقطها مقلوبة الى الأرض ، وكانت أربعة قرى فيها أربعمائة ألف مقاتل .

﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي على من كان خارجاً عن قراهم بأن كان غائباً في سفر او غيره ﴿حجارة من سجيل﴾ أي من طين متحجر طبخ بالنار ، وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من قصتهم وبيان ما أصابهم ﴿لآيات للمتوَسِّمين﴾ أي للمتفكرين الناظرين في الأمر يستدلون بها ، وقال أبو عبيدة للمتبصرين ، وقال قتادة : للمعتبرين ، وقيل للمتأملين كأنهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة وقال مجاهد للمتفرسين .

وأخرج البخاري في التاريخ والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ؛ ثم قرأ ﴿ان في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ »[1] والفراسة على نوعين :

أحدهما : ما يوقعه الله في قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بإصابة الحدس والنظر والظن والتثبت .

والثاني : ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق ، وللناس في هذا العلم تصانيف قديمة وحديثة ، وقال ثعلب : الواسم الناظر اليك من فرقك الى قدمك ، والمعنى متقارب ، واصل التوسم التثبت والتفكر تفعل مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير او البقر ، وقيل أصله استقصاء التعرف يقال توسمت أي تعرفت مستقصياً وجوه التعرف ، وقيل هو من الوسم بمعنى العلامة .

﴿وانها لبسبيل مقيم﴾ يعني قرى قوم لوط أو مدينتهم على طريق ثابت أو الباء بمعنى (في) وهي الطريق من المدينة الى الشام فإن السالك في هذه الطريق يمر بتلك القرى ويشاهدها ويرى أثر عذاب الله وغضبه لأنه لم يدثر ولم يخف ولم يزل ، وعن ابن عباس معنى لبسبيل لبهلاك ، وعن مجاهد لبطريق معلم ليس يخفى وعن قتادة لبطريق واضح .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من المدينة أو القرى أو ما أنزل بهم من العذاب ﴿لآية للمؤمنين﴾ يعتبرون بها فإن المؤمنين بالله والأنبياء والمرسلين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار ويعرفون ان ذلك انما كان لانتقام

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٦/١٥ .

الله من الجهال لأجل مخالفتهم ، وأما الذين لا يؤمنون فيحملونه على حوادث العالم وحصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية .

وجمع الآيات أولا باعتبار تعدد ما قص من حديث لوط وضيف ابراهيم وتعرض قوم لوط لهم وما كان من اهلاكهم وقلب المدائن على من فيها وامطار الحجارة على من غاب عنها ، وحدها ثانياً باعتبار وحدة قرية قوم لوط المشار اليها بقوله ﴿وأنها لبسبيل مقيم﴾ فلا يرد كيف جمع الآية أولاً ووحدها ثانياً والقصة واحدة .

﴿وإن كان أصحاب الأيكة﴾ شروع في قصة شعيب وذكرت ههنا مختصرة وسيأتي بسطها في سورة الشعراء ، والأيكة الغيضة وهي جماع الشجر ومجمع الشيء والجمع الأيك ، وفي الأصل اسم للشجر الملتف ، والمراد بها هنا البقعة التي فيها شجر مزدحم ، ففي الكلام مجاز من اطلاق الحال على المحل ، ويروى ان شجرهم كان دوماً وهو **المقْل**.

فالمعنى وان كان أصحاب الشجر المجتمع وأرباب بقعة الأشجار باعتبار اقامتهم فيها وملازمتهم لها ﴿لظالمين﴾ بتكذيبهم شعيباً ، واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم ، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق ، واللام فيه للتأكيد وقيل الأيكة اسم القرية التي كانوا فيها ، قال أبو عبيدة : أيكة وليكة مدينتهم كمكة وبكة ، وأصحابها هم قوم شعيب ، وقد تقدم خبرهم .

وقد أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيباً » ، وعن ابن عباس قال : « أصحاب الأيكة هم قوم شعيب » والأيكة ذات آجام وشجر كانوا فيها .

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ
﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي أهلكناهم بالعذاب وذلك أن الله سلط عليهم شدة الحر سبعة ايام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه لهم سحابة كالظلة فالتجؤوا اليها واجتمعوا تحتها للتظلل يلتمسون الروح ، فبعث ناراً فأحرقتهم جميعاً .

﴿وإنهما﴾ الضمير يرجع الى مدينة قوم لوط ومكان أصحاب الأيكة أي وان المكانين ﴿لبإمام مبين﴾ أي لبطريق واضح ظاهر ، قاله ابن عباس ، وقيل يعود على الخبرين خبر إهلاك قوم لوط وخبر اهلاك قوم شعيب ، وقيل يعود على اصحاب الأيكة وأصحاب مدين لأنه مرسل اليهما فذكر أحدهما مشعر بالآخر وأرجح الأقوال هو الأول .

والامام اسم لما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك ، قال الفراء والزجاج ، سمي الطريق إماماً لأنه يؤتم به ويتبع ، وقال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتم به حتى يصل الى الموضع الذي يريده ، وقيل الضمير للأيكة ، ومدين لأن شعيباً كان ينسب اليهما .

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر﴾ قال قتادة : هم أصحاب الوادي وكانوا ثمود قوم صالح ، والحجر اسم لديار ثمود قاله الأزهري وهي ما بين مكة وتبوك ، وقال ابن جرير : هي أرض بين الحجاز والشام وآثارها موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وبالعكس .

وإنما قال الله سبحانه ﴿المرسلين﴾ ولم يرسل اليهم إلا صالحاً لأن من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة الى الله ، وقيل كذبوا صالحاً ومن تقدمه من الأنبياء ، وقيل كذبوا صالحاً ومن معه من المؤمنين .

﴿وآتيناهم آياتنا﴾ المنزلة على نبيهم ومن جملتها الناقة فإن فيها آيات جمة كخروجها من الصخرة ودنوّ نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها وإنما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لأنه مرسل اليهم بهذه الآيات ﴿فكانوا عنها﴾ أي عن الآيات ﴿معرضين﴾ أي غير معتبرين بها ولا ملتفتين اليها بل تاركين لها ، ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به نبيهم ، قال الكرخي : وذلك يدل على أن النظر والاستدلال واجب وان التقليد مذموم .

﴿وكانوا ينحتون﴾ النحت في كلام العرب البري والنجر ، نحته ينحته بالكسر نحتاً أي براه وفي التنزيل أتعبدون ما تنحتون أي تنجرون وكانوا يتخذون لأنفسهم ﴿من الجبال بيوتاً﴾ بضم الباء وكسرها سبعيتان أي يخرقونها في الجبال ﴿آمنين﴾ أي حال كونهم آمنين من الخراب ونقب اللصوص لها لشدة إحكامها أو من أن يقع عليهم الجبل أو السقف ، قاله الفراء ، وقيل آمنين من الموت وقيل من العذاب ركوناً منهم على قوتها ووثاقتها .

وقال بعضهم المراد أنهم يتخذون بيوتاً في الجبال بنقرها وقطع الصخر منها بالمعاويل حتى تصير مساكن من غير بنيان .

﴿فأخذتهم الصيحة﴾ أي العذاب وهو الرجفة او الزلزلة الشديدة من الأرض ﴿مصبحين﴾ أي داخلين في وقت الصبح ، وقد تقدم ذكر الصيحة في الأعراف وفي هود وتقدم ايضاً قريباً .

فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ
مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ
إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ
ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

﴿فما أغنى﴾ أي لم يدفع ﴿عنهم﴾ شيئاً من عذاب الله ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من الأموال والحصون في الجبال أو من الشرك والأعمال الخبيثة .

أخرج البخاري وغيره عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[1] وأخرج ابن مردويه عنه قال نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فأمرهم باهراق القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال إني أخشى أن يصيبكم مثل الذي أصابهم فلا تدخلوا عليهم »[2] .

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا﴾ متلبسة ﴿بالحق﴾ وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح ، ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعاً

---

(١) مسلم ٢٩٨٠ ـ البخاري ٢٨٤ .
(٢) مسلم ٢٩٨١ ـ البخاري ١٥٩٥ .

لفسادهم وارشاداً لمن بقي الى الصلاح ، وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ وقيل المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل .

﴿وان الساعة لآتية﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ، ويحسن الى من يستحق الإحسان ، وفيه وعيد للعصاة وتهديد ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصفح عن قومه فقال ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ أي تجاوز عنهم واعف عفواً حسناً ، وقيل فأعرض عنهم إعراضاً جميلًا ولا تعجل عليهم بالانتقام وعاملهم معاملة الصفوح الحليم .

قال عليّ : الصفح الجميل الرضا بغير عتاب ؛ وعن ابن عباس مثله وعن مجاهد قال : هذه الآية قبل القتال : وعن عكرمة مثله ، يعني هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد ، لأن الله أمر نبيه أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف والأمر بالصفح الجميل لا ينافي قتالهم .

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ أي الخالق للخلق جميعاً ﴿العليم﴾ بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم .

﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ من للتبعيض أو للبيان على اختلاف الأقوال في المراد ، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال : هي للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الاسباع ؛ واختلف أهل العلم فيها ماذا هي ، فقال جمهور المفسرين انها الفاتحة .

قال الواحدي : وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي ، وزاد القرطبي أبا هريرة وأبا العالية ، وزاد النيسابوري الضحاك. وسعيد بن جبير ، وقد روي ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه .

وقيل هي السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والسابعة الأنفال والتوبة لأنهما كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية روي هذا عن ابن عباس .

وقيل السابعة هي سورة يونس ، وقيل المراد بها السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف : وقيل هي السور التي دون الطوال وفوق المفصل وهي المئين .

والمثاني جمع مثناة من التثنية وهي التكرير أو جمع مثنية . وقال الزجاج : يثنى بما يقرأ بعدها معها ؛ فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تثنى أي تكرر في كل صلاة ، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية أن العبر والاحكام والحدود كررت فيها ، وعلى القول بأنه السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها .

وقد ذهب الى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاووس وأبو مالك وهو رواية عن ابن عباس ، واستدلوا بقوله تعالى ﴿كتاباً متشابهاً مثاني﴾ وقيل المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن : وهي الأمر والنهي والتبشير والانذار وضرب الامثال وتعريف النعم، وأنباء القرون الماضية ، قاله زياد بن أبي مريم . ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا يستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم ، وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها ﴿والقرآن العظيم﴾ المراد به سائر القرآن ؛ قاله ابن مسعود ، فيكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن ؛ وكذلك ان أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن إن أريد به القدر المشترك الصادق على الكل والبعض أو من عطف الكل على البعض ان اريد به المجموع الشخصي .

وأما اذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه من باب عطف أحد الوصفين على الآخر .

ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكيّة وأكثر

السبع الطوال مدنية ؛ وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه ، وظاهر قوله ﴿ولقد آتيناك﴾ الخ انه قد تقدم إيتاء السبع على نزول هذه الآية .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد ؛ فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرت فقال « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم »[١] .

وأخرج البخاري ايضاً من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم »[٢] .

فوجب بهذا المصير الى القول بأنها فاتحة الكتاب ، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدمنا ، وعن الضحاك قال : المثاني القرآني يذكر الله القصة الواحدة مراراً ، وعن زياد بن أبي مريم في الآية قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مُرْ، وأْنَه، وبشِّر، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، واتل نبأ القرآن .

ثم لما بيَّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره الله عن اللذات العاجلة الزائلة فقال ﴿لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي لا تطمح ببصرك الى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمن لها ؛ قال الواحدي : إنما يكون ماداً عينيه الى الشيء إذا أدام النظر نحوه وإدامة النظر اليه تدل على استحسانه وتمنيه .

وقال بعضهم : المعنى لاتحسدن أحداً على ما أوتي من الدنيا ، ورد بأن الحسد منهى عنه مطلقاً ، وإنما قال في هذه السورة لا تمدن بغير واو ؛ لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه .

(١) البخاري التفسير سورة ١/١ ـ ٣/١٥ .الترمذي كتاب ثواب القرآن الباب ١ .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، الباب ٩ ـ الترمذي ، كتاب ثواب القرآن ، باب ١ .

وعن ابن عباس قال : في قوله لا تمدن عينيك نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه والأزواج الأصناف قاله ابن قتيبة . وقال الجوهري : الأزواج القرناء ؛ وقيل يعني اليهود والنصارى والمجوس . وعن مجاهد في قوله أزواجاً منهم ، قال الأغنياء الأمثال والأشباه .

وعن سفيان بن عيينة قال : من أعطي القرآن فمد عينيه الى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن ألم تسمع قوله ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ الى قوله ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾ وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[1] فقال إن المعنى لم يستغن به .

ثم لما نهاه عن الالتفات الى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات اليهم فقال ﴿ولا تحزن عليهم﴾ حيث لم يؤمنوا وصمموا على الكفر والعناد . وقيل المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا وفاتك من مشاركتهم فيها فإن لك الآخرة ؛ والأول أولى .

روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تغبطن فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته إن له عند الله قاتلاً لا يموت ، قيل وما هو؟ قال النـار »[2] .

وعنه عند مسلم مرفوعاً « انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم »[3] قال عوف : كنت أصحب الأغنياء فما كان أحداً أكثر هماً مني ، كنت أرى دابة خيراً من دابتي وثوباً خيراً من ثوبي ، فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت .

ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه الى أموال الكفار وأن يحزن عليهم وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم أمره أن يتواضع للمؤمنين فقال ﴿واخفض

(١) البخاري، كتاب التوحيد ، باب ٤٤ ـ أبو داود ، كتاب الوتر ، الباب ٢٠ .
(٢) مشكاة المصابيح ٥٢٤٨ .
(٣) مسلم ٢٩٦٣ ـ البخاري ٢٤٣٤ .

جناحك للمؤمنين﴾ خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ، ومنه قوله سبحانه ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه الى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفاً لتواضع الانسان لأتباعه ، ويقال فلان خافض الجناح أي وقور ساكن ، والجناحان من ابن آدم جانباه ، ومنه واضمم يدك الى جناحك .

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أي المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله ﴿كما انزلنا على المقتسمين﴾ عذاباً ، أي اني أنا النذير لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم كقوله تعالى ﴿أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ وقيل ان الكاف زائدة ، وقيل متعلق بمحذوف والتقدير أنزلنا اليك إنزالاً مثل ما أنزلنا . قاله الكرخي .

وقيل هو متعلق بقوله ﴿ولقد آتيناك﴾ أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون قاله الزمخشري ، والأولى أن يتعلق بقوله ﴿إني أنا النذير المبين﴾ لأنه في قوة الأمر بالانذار .

وقد اختلف في المقتسمين من هم على أقوال سبعة ، فقال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها ، يقولون لمن دخل مكة لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن ، فقيل لهم المقتسمون لأنهم اقتسموا هذه الطرق .

وقيل إنهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً وبعضه سحراً وبعضه كهانة وبعضه أساطير الأولين ، قاله قتادة ، وقيل هم أهل الكتاب وسموا مقتسمين لأنهم كانوا يقسمون القرآن استهزاء فيقول بعضهم هذه السورة لي وهذه لك ، روي هذا عن ابن عباس ، وقيل إنهم اقتسموا كتابهم وفرقوه وبددوه وحرفوه .

وقيل المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال تعالى ﴿تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله﴾ .

قلت : وفي هذا الوجه قرب من حيث المقاسمة وبعد من حيث وصفهم بجعلهم القرآن عضين ، وأما الأوجه الآخرة فهي مستقيمة ، وقيل تقاسموا أيماناً تحالفوا عليها قاله الأخفش ، وقيل أنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وابو البختري والنضر بن الحرث وأمية بن خلف وشيبة بن الحجاج ؛ ذكره الماوردي .

﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء فيكون المعنى على هذا : الذين جعلوه أجزاء متفرقة بعضه شعر وبعضه سحر وبعضه كهانة ونحو ذلك ، وقيل مأخوذ من عضهته إذا بهته فالمحذوف منه الهاء لا الواو ، وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء ، وقيل معنى عضين ايمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، وقيل العضة والعضين في لغة قريش السحر وهم يقولون للساحر عاضه وللساحرة عاضهة .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن العاضهة والمستعضهة وفسر بالساحرة والمستسحرة ، والمعنى انهم أكثروا البهت على القرآن وسموه سحراً وكذباً وأساطير الأولين ، ونظير عضة في النقصان شفة والأصل شفهة وكذلك سنة أصلها سنهة ، قال الكسائي : العضة الكذب والبهتان ، وجمعها عضون وقال الفراء : انه مأخوذ من العضاة وهي شجرة تؤذي وتجرح كالشوك ، ويجوز أن يراد بالقرآن التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ ويراد بالمقتسمين هم اليهود والنصارى ، أي جعلوهما أجزاء متفرقة وهو أحد الأقوال المتقدمة .

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿فوربك﴾ أقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة وربوبيته العظيمة ﴿لنسألنهم﴾ أي هؤلاء الكفرة ﴿أجمعين﴾ يوم القيامة سؤال توبيخ ﴿عما كانوا يعملون﴾ في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها ، وقيل إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد .

وقد أخرج الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال عن قول لا إله إلا الله ، وروي عن أنس موقوفاً ، وعن ابن عمر مثله ، والعموم يفيد ما هو أوسع من ذلك .

وقيل ان المسؤولين ههنا هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار ، ويدل عليه قوله : ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ وقوله : ﴿وقفوهم انهم مسؤولون﴾ وقوله ﴿ان الينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم﴾ ويمكن أن يقال إن قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف العموم اليهم لا ينافي سؤال غيرهم .

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ قال الزجاج : يقول أظهر ما تؤمر به من الشرائع أخذاً من الصديع وهو الصبح انتهى . وأصل الصدع الفرق والشق يقال صدعته فانصدع أي انشق وتصدع القوم أي تفرقوا ، ومنه يومئذ يصدعون أي يتفرقون ، قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر أي أظهر دينك ، فـ﴿ما﴾ مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر ، وقال ابن الأعرابي معناه اقصد ، وقيل فرق

جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم الى التوحيد فإنهم يتفرقون ، والأولى أن الصدع الاظهار كما قاله الزجاج والفراء وغيرهما .

قال الواحدي : قال المفسرون أي اجهر بالأمر أي بأمرك بعد إظهار الدعوة وما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه وقال ابن عباس هذا أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل اليه ، واصدع بمعنى أمضه وأعلن .

ثم أمره الله سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات الى المشركين فقال ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي لا تبال بهم ولا تلتفت اليهم إذا لاموك على اظهار الدعوة .

قال ابن عباس نسخه قوله تعالى ﴿واقتلوا المشركين﴾ وليس للنسخ وجه لأن معنى الإعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم ، فلا يكون منسوخاً .

ثم أكد هذا الأمر وثبت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿انا كفيناك المستهزئين﴾ مع أنهم كانوا من أكابر الكفار وأهل الشوكة فيهم ، فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى ، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحرث بن الطلاطلة ، كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين .

وقد أهلكهم الله جميعا يوم بدر ، وكفاه أمرهم في يوم أحد ، وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم ونقص على طول في ذلك .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال ﴿الذين يجعلون مع الله إلٰهاً آخر﴾ فلم يكن ذنبهم مجرد الاستهزاء بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه ثم توعدهم فقال ﴿فسوف يعلمون﴾ كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه .

ثم ذكر تسلية أخرى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد التسلية الأولى بكفايته شرهم ودفعه مكرهم فقال ﴿ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون﴾ الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والكهانة والكذب وقد كان يحصل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الانساني وان كان مفوضاً جميع أموره لربه .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر الى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال ﴿فسبح بحمد ربك﴾ أي افزع الى الله فيما نابك وافعل التسبيح المتلبس بالحمد أو فنزهه عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق ﴿وكن من الساجدين﴾ أي من المصلين فانك إذا فعلت ذلك كشف الله همك وأذهب غمك وشرح صدرك ، وفي الكلام مجاز ثم أمره بعبادة ربه فقال :

﴿واعبد ربك﴾ من عطف العام على الخاص أي دم على عبادته الى غاية هي قوله ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ قال الواحدي : قال جماعة المفسرين يعني الموت لأنه موقن به متيقن الوقوع والنزول ، لا يشك فيه أحد .

وقال أبو حيان : ان اليقين من أسماء الموت وبنزوله يزول كل شك ، ووقَّت العبادة بالموت إعلاماً بأنها ليست لها نهاية دون الموت ، فلا يرد ما قيل أي فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات .

وايضاح الجواب أن المراد واعبد ربك في جميع زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة من العبادة والله أعلم بمراده .

قال الزجاج : المعنى اعبد ربك أبداً لأنه لو قيل اعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الانسان مرة أن يكون مطيعاً فإذا قال حتى يأتيك اليقين فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً ، ومثله قوله تعالى في سورة مريم ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة .

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أوحي إليّ أن اجمَع المال وكن من التاجرين ، ولكن أوحي اليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وروي بطرق كثيرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النحل

﴿مائة وثمان وعشرون آية﴾

وهي مكيّة كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن عبد الله . وروي عن ابن عباس وأبي الزبير انها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أحد وهي قوله تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ الى قوله ﴿ تعملون ﴾ وقال قتادة هي مكيّة الا خمس آيات وهي قوله : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴾ وقوله : ﴿ ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ﴾ وقوله : ﴿ وان عاقبتم ﴾ الى آخر السورة . وزاد مقاتل قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد ايمانه ﴾ الآية ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ . وحكى الاصم عن بعضهم انها كلها مدنية . والاول أولى وتسمى هذه سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من النعم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ
بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا
دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

﴿أتى أمر الله﴾ أي جاء ودنا وقرب عقابه للمشركين بالقتل بالسيف ، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه ، وقال جماعة من المفسرين الأمر القيامة ، قال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم « بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما » أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد .

وقيل إن المراد بالأمر حكمه بذلك وقد وقع وأتى ، فأما المحكوم به فانه لم يقع لأنه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود وقيل المراد بإتيانه إتيان مباديه ومقدماته ، وقال الضحاك : يعني الأحكام والحدود والفرائض .

﴿فلا تستعجلوه﴾ أي فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت فإنه واقع لا محالة ولا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه ، وقد كان المشركون يستعجلون العذاب كما قال النضر بن الحرث ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية . والمعنى قَرُب أمر الله فلا تستعجلوه

وقوعاً ، وقد كان استعجالهم على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة ، وفي نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم .

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله وترفع عن إشراكهم أو عن أن يكون له شريك ، وشركهم ههنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب وقيام الساعة استهزاء وتكذيباً ، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك وإنه عاجز عنه ، والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق لا من صفات الخالق فكان ذلك شركاً .

وهذه الجملة تنازع فيها العاملان ، وفيه التفات من الخطاب الى الغيبة تحقيراً لشأنهم وحطاً لدرجتهم عن رتبة الخطاب ، وفي قراءة سبعية بالتاء وما مصدرية فلا عائد لها عند الجمهور أو موصولة كما قاله السمين ، أي عما يشركونه به و (ما) عبارة عن الأصنام .

﴿ينزل الملائكة﴾ قرىء بالياء التحتية والفاعل هو الله سبحانه ، وقرىء تنزل من التفعل والأصل تتنزل ، فالفعل مستند الى الملائكة ، وقرىء تنزل على البناء للمفعول وننزل بالنون ، والمراد بالملائكة هنا جبريل ، وعبر عنه بالجمع تعظيماً له ﴿بالروح﴾ هو الوحي قاله ابن عباس ، ومثله يلقي الروح من أمره ، وسمي الوحي روحاً لأنه يحيى قلوب المؤمنين ، فإن من جملة الوحي القرآن ، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد ، وبه قال الحسن .

فالتعبير بالروح عن الوحي على طريق الاستعارة التصريحية بجامع أن الروح به إحياء البدن والوحي به إحياء القلوب من الجهالات . وقيل المراد أرواح الخلائق وقيل الرحمة وقيل الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح قال الزجاج : الروح ما كان فيه من الله حياة بالارشاد الى أمره . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل ، ويكون الباء على هذا بمعنى مع .

وعن ابن عباس قال : الروح أمر من أمر الله وخلق من خلق الله وصورهم على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من

الروح ، ثم تلا ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ . ومن في ﴿من أمره﴾ بيانية أي ناشئاً ومبتدئاً من أمره أو صفة للروح أو متعلق بينزل ﴿على من يشاء من عباده﴾ يعني من يصطفيه للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي الى الخلق وهم الأنبياء ؛ ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره ونهاهم عن الاستعجال ترددوا في الطريق التي علم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأخبر أنه علم بها بالوحي على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته .

﴿أن أنذروا﴾ قال الزجاج أي ينزلهم بأن أنذروا أو المعنى بأن الشأن أقول لكم أنذروا أي أعلموا الناس . وعبارة البيضاوي وأن مفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول أو مصدرية في موضع الجر بدلاً من الروح ، أو النصب بنزع الخافض أو مخففة من الثقيلة .

﴿أنه لا إله إلا أنا﴾ أي مروهم بتوحيدي واعلموهم ذلك مع تخويفهم لأن في الانذار تخويفاً وتهديداً والضمير في أنه للشأن ﴿فاتقون﴾ رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود ، والخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات وهو تحذير لهم من الشرك بالله والفاء فصيحة .

وفي الشهاب اذا كان الانذار بمعنى التخويف فالظاهر دخول فاتقون في المنذر به لأنه هو المنذر به في الحقيقة ؛ وإذا كان بمعنى الاعلام فالمقصود بالاعلام هو الجملة الأولى ، وهذا متفرع عليها انتهى . وفيه تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العلمية بقوله أنه لا إله إلا الله ، فقد جمعت هذه الآية بين الأحكام الأصلية والفرعية .

ثم إنه سبحانه لما أرشدهم الى توحيده ذكر دلائل التوحيد فقال ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليها ﴿بالحق﴾ أي للدلالة على قدرته ووحدانيته ، وقيل المراد بالحق هنا الفناء والزوال ﴿تعالى﴾ الله ﴿عما يشركون﴾ أي تقدس وترفع عن إشراكهم أو عن شريكه الذي يجعلونه شريكاً له ، وقيل عما يشركونه من الأصنام أو منهما أي السموات

والأرض .

ثم لما كان نوع الانسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية قدمه وخصه بالذكر فقال ﴿خلق الانسان﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿من نطفة﴾ أي من جماد يخرج من حيوان وهو المني فقلبه أطواراً الى أن كملت صورته ونفخ فيه الروح واخرجه من بطن أمه الى هذه الدار فعاش فيها ومن لابتداء الغاية وانتهاؤها محذوف كما قرره الكرخي والنطفة القطرة من الماء يقال نطف رأسه ماء أي قطر ، وقيل هي الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل والمرأة جمعها نطف ونطاف ولا يستعمل للنطفة فعل من لفظها .

﴿فاذا هو﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿خصيم﴾ كثير الخصومة والمجادلة والمعنى انه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته ﴿مبين﴾ ظاهر الخصومة وواضحها ، وقيل يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى ﴿أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ قيل نزلت في أبيّ بن خلف والأولى أنها عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة فإنه لا اعتبار بخصوص السبب إذا اقتضى المقام العموم كما تقرر .

قال الكرخي أن هذه ذكرت لتقرير الاستدلال على وجود الصانع الحكيم لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الغي والكفر .

ثم عقب ذكر خلق الانسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع والامتنان بها أكمل من الامتنان بغيرها فقال ﴿والأنعام خلقها﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز وأكثر ما يقال نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة ، وقال الجوهري : والنعم واحد الأنعام وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم ، قال الواحدي تم الكلام عند هذا ثم ابتدأ فقال ﴿لكم فيها دفء﴾ ويجوز أن يكون تمامه عند قوله لكم . والأول أولى وأحسن والدفء السخانة وهو ما

استدفىء به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، قال ابن عباس : دفء الثياب أي من الأكسية والاردية قال بعض المفسرين أن في الآية التفاتاً من الغيبة في الانسان الى الخطاب في لكم فيقتضي أن المخاطب مطلق بني آدم المندرجين تحت الانسان .

﴿ومنافع﴾ أي ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة ، قاله ابن عباس وهي درها وركوبها ونتاجها والحراثة ونحو ذلك ، وقد قيل إن الدفء النتاج واللبن قال في الصحاح الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ، ثم قال والدفء ايضا السخونة ، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأول فلا بد من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها وان حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحاً ، وقيل المراد بالمنافع النتاج خاصة ، وقيل الركوب .

﴿ومنها﴾ أي من لحومها وشحومها ﴿تأكلون﴾ وخص هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها ، وقيل خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها ، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للاشارة الى أن الأكل منها هو الأصل وغيره نادر فالأكل من غيرها كالدجاج والبط والأوز وصيد البر والبحر يجري مجرى التفكه به ، وقيل تقديم الظرف للفاصلة لا للحصر .

ولما كانت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الأكل قدمه على الأكل ﴿ولكم فيها﴾ مع ما تقدم ذكره ﴿جمال﴾ هو ما يتجمل به ويتزين والحسن والمعنى هنا لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين اليها ﴿حين تريحون وحين تسرحون﴾ أي في هذين الوقتين وهما وقت ردها من مراعيها ووقت تسريحها اليها فالرواح والاراحة رجوعها بالعشي وردها من المراعي والسراح مسيرها الى مراعيها بالغداة .

يقال سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً إذا غدوت بها الى المرعى وقدم الاراحة على التسريح مع أنه خلاف الواقع لأن منظرها عند الاراحة أجمل وذواتها أحسن لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب

فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع .

وخص هذين الوقتين لانهما وقت نظر الناظرين اليها لانها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد ، وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى في جانب ، وأكثر ما تكون هذه الراحة ايام الربيع إذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة ، وأحسن ما تكون النعم في هذا الوقت فإنه يسمع للإبل رغاء وللبقر خوار وللشياه ثغاء يجاوب بعضها بعضاً .

﴿وتحمل﴾ أي الأنعام والمراد بها هنا الإبل خاصة ﴿أثقالكم﴾ جمع ثقل وهو متاع المسافر من طعام وغيره ، وسمي ثقلاً لأنه يثقل الانسان حمله ، وقيل المراد أبدانهم ﴿الى بلد﴾ غير بلدكم ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ أي واصلين اليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم ﴿إلا بشق الأنفس﴾ لبعده عنكم وعدم وجود ما يحمل ما لا بد لكم منه في السفر ، وظاهره يتناول كل بلد بعيد من غير تعيين ، وقيل المراد بالبلد مكة ، قاله ابن عباس ، وقيل اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب ، وشق الأنفس مشقتها ، قرىء بكسر الشين وبفتحها .

قال الجوهري : الشق المشقة ، ومنه قوله تعالى ﴿إلا بشق الأنفس﴾ وحكى ابو عبيدة فتح الشين وهما بمعنى ، ويجوز أن يكون المفتوح مصدراً من شققت عليه أشق شقاً والمكسور بمعنى النصف ، يقال أخذت شق الشاة وشقة الشاة ، ويكون المعنى على هذا لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب نصف الأنفس من التعب .

قد امتن الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على العموم ثم خص الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم ، والاستثناء من أعم العام أي لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس ، قال ابن عباس : لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد ﴿إن ربكم لرءوف رحيم﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح .

وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ
قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ
لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ أي وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف ، وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في مشيها وواحد الخيل خائل كضائن واحد الضأن ، وقيل اسم جنس لا واحد له من لفظه بل من معناه وهو الفرس ، والبغال جمع بغل وهو المتولد من الخيل والحمير والحمير جمع حمار .

ثم علّل سبحانه خلق هذه الأنواع الثلاثة بقوله ﴿لتركبوها﴾ وهذه العلّة هي باعتبار معظم منافعها لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها ﴿وزينة﴾ عطف على محل لتركبوها لأنها في محل نصب على أنه علة لخلقها ، ولم يقل لتتزينوا بها حتى يطابق لتركبوها ، لأن الركوب فعل المخاطبين والزينة فعل الزائن وهو الخالق .

والتحقيق فيه أن الركوب هو المعتبر في المقصود بخلاف الزينة فإنه لا يلتفت اليه أهل الهمم العالية لأنه يورث العجب ، فكأنه سبحانه قال خلقتها لتركبوها فتدفعوا بواسطتها عن أنفسكم ضرر الإعياء والمشقة ، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ولكنه غير مقصود بالذات .

وقد استدل بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل

بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها ، قالوا ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر وإخراجها عن الأنعام ، فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل ، قالوا ولو كان أكل الخيل جائزاً لكان ذكره والامتنان به أولى من ذكر الركوب لأنه أعظم فائدة منه .

وقد ذهب الى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابها والاوزاعي ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين وغيرهم الى حل لحوم الخيل ، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير ، واليه ذهب الشافعي وأحمد واسحق ، ولا حجة لأهل القول الأول في التعليل بقوله لتركبوها ، لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره ، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب .

وأيضاً لو كانت هذه الآية تدل على تحريم الخيل لدلت على تحريم الحمر الأهلية وحينئذ لا يكون ثم حاجة لتجديد التحريم لها عام خيبر ، وقد قدمنا أن هذه السورة مكيّة .

والحاصل أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل ، فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ، ودافعة لهذا الاستدلال ، وقد أوضح الشوكاني هذه المسألة في مؤلفاته بما لا يحتاج الناظر فيه الى غيره .

وقد ورد في حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما في الصحيحين وغيرهما من حديث أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً فأكلناه[1] .

وأخرج أبو عبيد وابن شيبة والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم

---

(١) مسلم ١٩٤٢ البخاري/ ٢٢٠٢ .

الخيل ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية[1]وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضا وهما على شرط مسلم .

وثبت ايضا في الصحيحين من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمير الأهلية وأذن في الخيل[2] .

وأما ما أخرجه أبو عبيد وأبو داود والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير ، ففي اسناده صالح بن يحيى بن أبي المقدام وفيه مقال ، ولو فرضنا أن الحديث صحيح لم يقو على معارضة أحاديث الحل ، على أنه يمكن أن هذا الحديث المصرح بالتحريم متقدم على يوم خيبر فيكون منسوخاً .

﴿ويخلق مالا تعلمون﴾ من الأشياء العجيبة والغريبة مما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدده ههنا ، وقيل المراد من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوه ، وقيل هو ما أعده الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر وقيل هو خلق السوس في النبات والدود في الفواكه ؛ وقيل عين تحت العرش وقيل نهر من النور وقيل أرض بيضاء .

ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد ، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به ، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة ، لأنه سبحانه قد خلق ما لم يعلم به العباد ولا يأتي عليه الحصر والعد .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان مما خلق الله أرضاً من لؤلؤة بيضاء، ثم ساق من أوصافها ما يدل

(١) الترمذي كتاب الصيد باب ٩ ـ ابو داوود كتاب الأطعمة باب ٢٥ .
(٢) مسلم ١٩٤١ ـ البخاري ١٩٠٩ .

على أن الحديث موضوع ثم قال في آخره فذلك قوله ويخلق ما لا تعلمون » .

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل فالمعنى وعلى الله هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعْدِه المحتوم وتفضله الواسع ، وقيل هو على حذف مضاف ، والتقدير وعلى الله بيان قصد السبيل ، والسبيل الاسلام وبيانه بارسال الرسل وإنزال الكتب واقامة الحجج والبراهين ، والقصد في السبيل هو كونه موصلاً الى المطلوب فالمعنى وعلى الله بيان الطرق الموصلة الى المطلوب .

﴿ومنها﴾ الضمير راجع الى السبيل بمعنى الطريق لأنها تذكر وتؤنث أو لأنها في معنى سبل فـأنِّث على معنى الجمع ؛ وقيل راجع اليها بتقدير مضاف أي ومن جنس السبيل ﴿جائر﴾ مائل عن الحق والجور العدول عن الاستقامة ، وقيل ان الطريق كناية عن صاحبها ، والمعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق أي عادل عنه فلا يهتدي اليه ، قيل وهم أهل الأهواء المختلفة ، وقيل أهل الملل الكفرية . فقصد السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر .

وقيل قصد السبيل السنة المطهرة والجائر البدع المحدثة المضلة . قال ابن عباس : على الله أن يبين الهدى والضلالة ومنها جائر ، قال السبل المتفرقة ، وقال قتادة : وعلى الله بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ومنها جائر ، قال من السبل ناكب عن الحق . وعن عليّ كان يقرأ ومنكم جائر .

﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أي ولو شاء أن يهديكم جميعاً هداية موصلة الى الطريق الواضح الصحيح والمنهج الحق الصريح لفعل ذلك ولكنه لم يشأ بل اقتضت مشيئته سبحانه اراءة الطريق والدلالة عليها كما قال وهديناه النجدين ، وأما الايصال اليها بالفعل فذلك يستلزم ان لا يوجد في العباد كافر ، ولا من يستحق النار من المسلمين وقد اقتضت المشيئة الربانية بكون البعض مؤمناً والبعض كافراً كما نطق بذلك القرآن في غير موضع .

ولما استدل سبحانه على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال ﴿هو الذي أنزل من﴾ جهة ﴿السماء﴾ وهي السحاب ﴿ماءً﴾ أي نوعاً من أنواع الماء وهو المطر ﴿لكم منه شراب﴾ هو اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم ، والمعنى أن الماء النازل من السماء قسمان ، قسم يشربه الناس ومن جملته ماء الآبار والعيون فإنه من المطر لقوله فسلكه ينابيع في الأرض ﴿و﴾ قسم يحصل ﴿منه شجر﴾ ترعاه المواشي .

قال الزجاج : كل ما نبت من الأرض فهو شجر لأن التركيب يدل على الاختلاط ، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض ، ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق . وقال ابن قتيبة : المراد من الشجر في الآية الكلأ ، وقيل الشجر كل ما له ساق لقوله تعالى ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ والعطف يقتضي التغاير ، فلما كان النجم ما لا ساق له وجب أن يكون الشجر ما له ساق ، وأجيب بأن عطف الجنس على النوع جائز .

﴿فيه تسيمون﴾ أي في الشجر ترعون مواشيكم ، يقال سامت السائمة تسوم سوماً رعت فهي سائمة ، واسمتها أي اخرجتها الى الرعي فأنا مسيم وهي مسامة وسائمة ، وأصل السوم الابعاد في المرعى ، قال الزجاج : أخذ من السومة وهي العلامة لأنها تؤثر في الأرض علامات برعيها .

وهذه الآية مبنية على مكارم الأخلاق ، وهو أن يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بنفسه . وأما الآية الأخرى ﴿كلوا وارعَوا أنعامكم﴾ فمبنية على قوله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ﴿ينبت﴾ الله ﴿لكم به﴾ أي بذلك الماء الذي أنزله من السماء ؛ وهذا استئناف اخبار عن منافع الماء وقدم ﴿الزرع﴾ لأنه أصل الأغذية التي يعيش بها الناس ، وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما اشبههما .

﴿و﴾ ذكر ﴿الزيتون﴾ بعد الزرع لكونه فاكهة من وجه واداماً من وجه لكثرة ما فيه من الدهن والبركة وهو جمع زيتونة ويقال للشجرة نفسها زيتونة[1] ﴿و﴾ ذكر ﴿النخيل﴾ لكونه غذاء وفاكهة وهو مع العنب أشرف الفواكه ﴿و﴾ جمع ﴿الأعناب﴾ لاشتمالها على الأصناف المختلفة، وهي شبه النخلة في المنفعة من التفكه والتغذية .

ثم أشار الى سائر الثمرات اجمالاً فقال ﴿ومن كل الثمرات﴾ كما أجمل الحيوانات التي لم يذكرها فيما سبق بقوله ويخلق ما لا تعلمون ومن تبعيضية إذ كلها إنما يوجد في الجنة وماأنبتت الأرض بعض من كلها للتذكرة .

﴿ان في ذلك﴾ الانزال والانبات ﴿لآية﴾ عظيمة دالة على كمال القدرة والتفرد بالربوبية ﴿لقوم يتفكرون﴾ في مخلوقات الله ولا يهملون النظر في مصنوعاته، وقد ذكر لفظ الآية في هذه السورة سبع مرات خمس بالافراد واثنتان بالجمع قال الكرماني : ما جاء الافراد فلوحدة المدلول وهو الله تعالى، وما جاء منها بلفظ الجمع فلمناسبة مسخرات انتهى .

وختم هذه الفاصلة بالتفكر لأن النظر في ذلك يعني انبات النبات بالماء يحتاج الى مزيد تأمل واستعمال فكر، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان مع رطوبة الأرض فإنها تنتفخ وينشق أعلاها فتصعد منه شجرة الى الهواء وأسفلها تغوص منه عروق في الأرض ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطباع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع .

ومن تفكر في ذلك علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال فضلاً عن أن يشاركه أخص الأشياء في أخص صفاته التي هي الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علواً كبيراً ذكره الخازن وأبو السعود .

(١) وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتبه فوائد جمة للزيتون .

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ
ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ معنى تسخيرهما للناس تصييرهما نافعين لهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم وتستدعيه حاجاتهم يتعاقبان دائماً كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمر به ولا يخرج عن إرادته ولا يهمل السعي في نفعه ﴿و﴾ كذا الكلام في تسخيره ﴿الشمس والقمر و﴾ قوله : ﴿النجوم﴾ قرأ حفص عن عاصم برفعه على انه مبتدأ وخبره ﴿مسخرات﴾ أي مذللات مقهورات ﴿بأمره﴾ تعالى تجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان ولا تصرف لها في نفسها فضلاً عن غيرها ، وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فأخبر سبحانه انها مذللات تحت قهره وإرادته .

﴿إن في ذلك﴾ التسخير وما بعده ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي يعملون عقولهم في هذه الآيات الدالة على وجود الصانع وتفرده وعدم وجود شريك له وختم الفاصلة الثانية بالعقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة ، وجمع الآيات ليطابق قوله مسخرات ، وقيل ان

وجه الجمع هو ان كُلاًّ من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم آية في نفسها بخلاف ما تقدم من الانبات فإنه آية واحدة ، ولا يخلو كل هذا عن تكلف والاولى أن يقال أن هذه المواضع التي أفرد الآية في بعضها وجمعها في بعضها كل واحد منها يصلح للجمع باعتبار وللافراد باعتبار فلم يجرها على طريقة واحدة افتناناً وتنبيهاً على جواز الأمرين وحسن كل واحد منهما .

﴿وما ذرأ﴾ أي خلق ﴿لكم في الأرض﴾ يقال ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرأً فهو ذارىء ومنه الذرية ، وهي نسل الثقلين ، وقد تقدم تحقيق هذا أي وسخر لكم ما ذرأ في الأرض من الدواب والأنعام والأشجار والثمار فالمعنى أنه سبحانه سخر لهم تلك المخلوقات السماوية والمخلوقات الأرضية ﴿مختلفاً ألوانه﴾ أي هيئآته ومناظره فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده ، قال قتادة : مختلفاً في الدواب والشجر والثمار نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله .

﴿إن في ذلك﴾ التسخير لهذه الأمور مع اختلاف طبائعها وأشكالها مع اتحاد موادها ﴿لآية﴾ واضحة ﴿لقوم يذكرون﴾ فإن من تذكر اعتبر ومن اعتبر استدل على المطلوب ، قيل وإنما خص المقام الأول بالتفكر لإمكان إيراد الشبهة ، وخص الثاني بالعقل لذكره بعد إماطة الشبهة وإزاحة العلة ، فمن لم يعترف بعدها بالواحدانية فلا عقل له ، وخص الثالث بالتذكر لمزيد الدلالة فمن شك بعد ذلك فلا حس له ، وفي هذا من التكلف ما لا يخفى .

والأولى أن يقال هنا كما قلنا فيما تقدم في افراد الآية في البعض وجمعها في البعض الآخر ، وبيانه أن كُلاًّ من هذه المواضع الثلاثة يصلح لذكر التفكر ولذكر التعقل ولذكر التذكر لاعتبارات ظاهرة غير خفية فكان في التعبير في كل موضع بواحد منها افتنان حسن لا يوجد في التعبير بواحد منها في جميع المواضع الثلاثة .

﴿وهو الذي سخر البحر﴾ امتن الله سبحانه بتسخير البحر بإمكان

الركوب عليه واستخراج ما فيه من صيد وجواهر لكونه من جملة النعم التي أنعم الله بها على عباده مع ما فيه من الدلالة على وحدانية الرب سبحانه وكمال قدرته ، وقد جمع الله سبحانه لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية فأرشدهم الى النظر ، والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة وتكميلاً للانذار وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان ، ومواضع النظر والاعتبار .

ثم ذكر العلة في تسخير البحر فقال ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ المراد به السمك ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والارشاد الى المسارعة بأكله لكونه مما يفسد بسرعة ، قال قتادة : يعني حيتان البحر ، وقال السدي : وما فيه من الدواب وبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود وبه قوام البدن .

وتسميته لحماً هو مذهب المالكية بخلاف الشافعية والحنفية وعلى هذا فلو حلف لا يأكل لحماً لا يحنث بأكل السمك ولاظهار قدرته في خلقه عذباً طرياً في ماء ملح ؛ والطراوة ضد اليبوسة أي غضا جداً ؛ ويقال طريت كذا اي جددته وأطريت فلانا مدحته بأحسن ما فيه ويقال بالغت في مدحه وجاوزته .

﴿وتستخرجوا منه﴾ أي من البحر وهو الملح فقط ﴿حلية﴾ أي لؤلؤاً ومرجاناً كما في قوله سبحانه ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ والحلية اسم لما يتحلى به واصلها الدلالة على الهيئة كالعمة وفي المصباح حلى الشيء بعيني وبصدري من باب تعب حلا وحسن عندي واعجبني ، وحليت المرأة حلياً ساكن اللام لبست الحلي وجمعه حلي ، والأصل على فعول مثل فلس وفلوس والحلية بالكسر الصفة والجمع حلى مقصور وتضم الحاء وتكسر وحلية السيف زينته .

قال ابن فارس : ولا تجمع وتحلت المرأة لبست الحلي أو اتخذته وحليتها بالتشديد ألبستها الحلي أو اتخذته لها لتلبسه وحليت السويق جعلت فيه شيئاً حلواً حتى حلا .

وظاهر قوله ﴿تلبسونها﴾ انه يجوز للرجال ان يلبسوا اللؤلؤ والمرجان أي يجعلونهما حلية لهم كما يجوز للنساء ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله تلبسونها بقولهم تلبسها نساؤهم لأنهن من جملتهم او لكونهن يلبسنها لأجلهم .

وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها إلا النساء خاصة فإن ذلك ممنوع قد ورد الشرع بمنعه من جهة كونه تشبهاً بهن لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان؛ وعن أبي جعفر قال: ليس في الحلي زكاة ثم قرأ هذه الآية أخرجه أبي شيبة.

أقول وفي هذا الاستدلال نظر والذي ينبغي التعويل عليه ان الأصل البراءة من الزكاة حتى يرد الدليل بوجوبها في شيء من أنواع المال فتلزم ، وقد ورد في الذهب والفضة ما هو معروف ولم يرد في الجواهر على اختلاف أصنافها ما يدل على وجوب الزكاة فيها .

﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ أي ترى السفن شواق للماء تدفعه بصدورها ، قال عكرمة ومخر السفينة شقها الماء بصدرها ، قال الجوهري : مخر السابح إذا شق الماء بصدره ومخر الأرض شقها للزراعة ، وقيل مواخر جواري قاله ابن عباس وأصل المخر الجري .

في المختار مخرت السفينة من باب قطع ودخل إذا جرت تشق الماء مع صوت وقيل معترضة ، وقيل تذهب وتجيء ، قال الضحاك : السفينتان تجريان بريح واحدة مقبلة ومدبرة وقيل مواقر أي مملوءة متاعاً وقال أبو عبيدة : صوائح وقيل ملججة[1] قال ابن جرير : الماخر في اللغة صوت هبوب الريح عند شدتها ولم يقيد بكونه في الماء .

﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا أو فعل ذلك لتبتغوا

(١) يقال لججت السفينة أي خاضت اللجة أ هـ صحاح .

أي لتتجروا فيه فيحصل لكم الربح من فضل الله سبحانه ، قال السدي : هي التجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي أذا وجدتم فضله عليكم واحسانه اليكم اعترفتم بنعمته عليكم فشكرتم ذلك باللسان والأركان ، قيل ولعل وجه تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعاً لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلاً مع انها في تضاعيف المهالك .

ويمكن أن يضم الى ما ذكر من قطع المسافة على الصفة المذكورة ما أشتمل عليه البحر من كونه فيه أطيب مأكول وأنفس ملبوس وكثرة النعم مع نفاستها وحسن موقعها من أعظم الأسباب المستدعية للشكر الموجبة له .

ثم أردف هذه النعم الموجبة للتوحيد المفيدة للاستدلال على المطلوب بنعمة أخرى وآية كبرى فقال ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ أي جبالاً ثابتة يقال رسا يرسو إذا ثبت واقام ﴿أن تميد بكم﴾ أي كراهة ان تميد بكم على ما قاله البصريون أو لئلا تميد بكم على ما قاله الكوفيون والميد الاضطراب يميناً وشمالاً يقال ماد الشيء يميد ميداً تحرك ومادت الأغصان تمايلت وماد الرجل تبختر قال قتادة : حتى لا تميد بكم كانوا على الأرض تمور بهم لا تستقر فأصبحوا صبحاً وقد جعل الله سبحانه الجبال وهي الرواسي أوتاداً في الأرض .

﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ لأن الالقاء هنا بمعنى الجعل والخلق كقوله ﴿والقيت عليك محبة مني﴾ وذكر الأنهار عقب الجبال لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال قال السيوطي كالنيل ولم يذكر في المثال غير هذا لأنه من أهل مصر .

﴿و﴾ جعل فيها ﴿سبلاً﴾ واظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم الى مقاصدكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان وهي الطرق ، وقال السدي : هي الطرق في الجبال ﴿لعلكم تهتدون﴾ بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون او الى توحيد ربكم .

وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ
يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿و﴾ جعل فيها ﴿علامات﴾ هي معالم الطرق جمع علامة وفي المصباح أعلمت على كذا بالالف من الكتاب وغيره جعلت عليه علامة وأعلمت الثوب جعلت له علماً من طراز وغيره وهو العلامة وجمع العلم أعلام مثل سبب وأسباب وجمع العلامة علامات وعلمت له علامة بالتشديد وضعت له امارة يعرف بها ، والمعنى انه سبحانه جعل للطرق علامات يهتدون بها .

﴿وبالنجم﴾ المراد به الجنس ﴿هم يهتدون﴾ به في سفرهم ليلاً ؛ وقرأ ابن وثاب وبالنجم بضمتين والمراد النجوم فقصره أو هو جمع نجم كسقف وسقف وقيل المراد بالنجم هنا الجدي والفرقدان ، قاله الفراء . وقيل الثريا وبنات نعش وقيل العلامات الجبال ، وقيل هي النجوم لأن من النجوم ما يهتدى به ومنها علامة لا يهتدى بها .

وذهب الجمهور الى أن المراد في الآية الاهتداء في الأسفار ، وقيل هو الاهتداء الى القبلة ، ولا مانع من حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك . قال الأخفش : تم الكلام عند قوله ﴿وعلامات﴾ وقوله ﴿وبالنجم﴾ الخ كلام منفصل عن الأول .

قال السدي : علامات النهار الجبال وعلامات الليل النجوم . وقال ابن عباس : معالم الطرق بالنهار الجبال ويهتدون بالنجم بالليل ، قال قتادة : إنما

خلق الله النجوم لثلاثة أشياء . لتكون زينة للسماء ومعالم الطرق ورجوماً للشياطين ، فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به .

ثم لما عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال ﴿أفمن يخلق﴾ هذه المخلوقات العجيبة العظيمة والمصنوعات الغريبة الجليلة ويفعل هذه الافاعيل العجيبة المرئية بالعيان ﴿كمن لا يخلق﴾ شيئاً منها ولا يقدر على ايجاد واحد منها ، وهي هذه الأصنام التي يعبدونها ويجعلونها شركاء لله سبحانه .

وأطلق عليها لفظ ﴿من﴾ اجراء لها مجرى أولي العلم جرياً على زعمهم بأنها آلهة أو مشاكلة لقوله ﴿أفمن يخلق﴾ لوقوعها في صحبته أو هو من عكس التشبيه . وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى ، وما أحقهم بذلك فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقه ، تعالى الله عما يشركون .

﴿أفلا تذكرون﴾ مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك ، فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها لا يحتاج الى دقيق الفكر والنظر ، قال قتادة في الآية : الله هو الخالق الرازق ، وهذه الاوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئاً ، ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً .

ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة الى المكلفين نعم قال ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ولو اجتهدتم في ذلك واتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه فضلاً عن أن تطيقوا القيام بحقها من اداء الشكر وهذا تذكير اجمالي بنعمه تعالى، وقد مر تفسير هذا في سورة ابراهيم.

قال العقلاء : إن كل جزء من اجزاء الانسان لو ظهر فيه أدنى خلل

وأيسر نقص لنغص النعم على الانسان وتمنى ان ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل ، فهو سبحانه يدبر بدن هذا الانسان على الوجه الملائم له ، مع أن الانسان لا علم له بوجود ذلك ، فكيف يطيق حصر نعم الله عليه او يقدر على احصائها أو يتمكن من شكر أدناها .

ياربنا هذه نواصينا بيدك خاضعة لعظم نعمك معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها لا تحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكر لك ، فتجاوز عنا واغفر لنا واسبل ذيول سترك على عوراتنا فإنك ان لا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاء عن مناهيك ، وما احسن ما قال من قال :

العفـو يـرجى من بني آدم فكيف لا يـرجى من الـرب

وما احسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على انسان مشيراً الى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال ﴿ان الله لغفور رحيم﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه والقصور عن احصائها والعجز عن القيام بأدناها . ومن رحمته ادامتها عليكم وادرارها في كل لحظة وعند كل نفس تتنفسونه وحركة تتحركون بها اللهم اني اشكرك عدد ما شكرك وسيشكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان ، فلقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير من خلقك من انسان وحيوان وان رأيت منها شيئاً على بعض خلقك لم أر عليه بقيتها فأني أطيق شكرك وكيف استطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف استطيع أعلاها ، فكيف استطيع شكر نوع من أنواعها .

ثم بيّن لعباده انه عالم بجميع ما يصدر منهم لا يخفى عليه خافية فقال ﴿والله يعلم ما تسرون﴾ أي ما تضمرونه من العقائد والأعمال ﴿وما تعلنون﴾

أي وما تظهرونه منها ، وحذف العائد لمراعاة الفواصل ، أي يستوي بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم ، وفيه وعيد وتعريض وتوبيخ وتنبيه على أن الإلـه يجب أن يكون عـالمـاً بالسر والعلانية لا كالأصنام التي تعبدونها فـإنها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلاً عن الضمائر والسرائر فكيف تعبدونها ، وقراءة التحتية شاذة فيهما كما نبه عليه السمين .

ثم شرع سبحانه في تحقيق كون الأصنام التي أشار اليها بقوله كمن لا يخلق عاجزة عن أن يصدر منها خلق شيء فلا تستحق عبادة فقال ﴿والذين يدعون﴾ بالياء والتاء سبعيتان ، أي الآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿من دون الله﴾ سبحانه صفتهم هذه الصفات الثلاثة المذكورة المنافية للألوهية ، وهي أنهم ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ من المخلوقات أصلاً لا كبيراً ولا صغيراً ولا جليلاً ولا حقيراً .

﴿وهم يُخلقون﴾ أي وصفهم أنهم يخلقون فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره ؛ ففي هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال بخلاف قوله ﴿أفمن يخلق كمن لايخلق﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال .

ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال ﴿أموات﴾ يعني أن هذه الأصنام اجسادها جمادات ميتة لا حياة بها أصلاً ، فزيادة قوله ﴿غير أحياء﴾ لبيان انها ليست كبعض الأجساد التي تموت بعد ثبوت الحياة لها بل لا حياة لهذه أصلاً فكيف يعبدونها وهم أفضل منها لأنهم أحياء ﴿وما يشعرون﴾ أي الآلهة ﴿أيان يبعثون﴾ أي الكفار الذين يعبدون الأصنام ؛ والمعنى ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم لهم لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلاً عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله سبحانه .

وقيل معناه ما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث ومتى يبعثها الله ، وبه بدأ القاضي تبعاً للكشاف ، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحاً معها شياطينها فيؤمر بكلها الى النار ، ويدل على هذا قوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ .

وقيل قد تم الكلام عند قوله ﴿وهم يخلقون﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، فيكون الضميران على هذا للكفار وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جرياً على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل ، وأيان بفتح الهمزة وكسرها لغتان .

وفي الآية قول آخر وهو أن أيان ظرف لقوله ﴿إلٰهكم إلٰه واحد﴾ يعني أن الإلٰه يوم القيامة واحد ولم يدع أحد تعدد الآلهة في ذلك اليوم بخلاف أيام الدنيا فإنه قد وجد فيها من ادعى ذلك ، وعلى هذا فقد تم الكلام على قوله يشعرون ، إلا أن هذا القول مخرج لأيان عن موضوعها ، وهو إما الشرط وإما الاستفهام الى محض الظرفية بمعنى وقت مضاف للجملة بعده ، والظاهر تفسيره بمتى يبعثون كما في الكشاف وغيره .

ولما زيف سبحانه طريقة عبدة الأصنام صرح بما هو الحق في نفس الأمر وهو وحدانيته سبحانه وهو نتيجة ما قبله ، ثم ذكر ما لأجله أصر الكفار على شركهم فقال ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ جاحدة للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير ﴿وهم مستكبرون﴾ عن قبول الحق متعظمون عن الاذعان للصواب مستمرون على الجحد .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لا جرم﴾ قال الخليل : هي كلمة تحقيق ولا يكون إلا جواباً أي حقاً ، قلت لا نافية وجرم بمعنى بد ، وهذا بحسب الأصل ، واما الآن فقد ركبت لا مع جرم تركيب خمسة عشر وجعلا بمعنى كلمة واحدة ، وتلك الكلمة مصدر أو فعل معناه حق وثبت .

وقوله ﴿إن الله﴾ فاعل لا جرم وقد مر تحقيق الكلام في لا جرم بأبسط من هذا قال أبو مالك لاجرم ، يعني الحق ، وقال الضحاك لا كذب ﴿يعلم ما يسرون﴾ من أقوالهم وأفعالهم ﴿وما يعلنون﴾ من ذلك ﴿انه لا يحب المستكبرين﴾ أي لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه ، والجملة تعليل لما تضمنه الكلام المتقدم .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، فقال رجل يارسول الله الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ؛ فقال : ان الله جميل يحب الجمال ؛ الكبر من بطر الحق وغمطُ الناس »(١) .

(١) مسلم ٩١ .

وفي ذم الكبر ومدح التواضع أحاديث كثيرة ، وكذلك في إخراج محبة حسن الثوب وحسن النعل ونحو ذلك من الكبر أحاديث كثيرة ، فقد روي عن الحسين بن علي أنه مرّ بمساكين قد قدموا كسراً لهم وهم يأكلون فقالوا الغذاء يا أبا عبدالله فنزل وجلس معهم وقال إنه لا يحب المستكبرين ثم أكل فلما فرغوا قال : قد اجبتكم فأجيبوني فقاموا معه الى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم فانصرفوا .

قال العلماء ؛ كل ذنب يمكن ستره واخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الاعلان وهو أصل العصيان كله ، وفي الحديث الصحيح « أن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة تطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم »[1] أو كما قال صلى الله عليه وسلم « تصغر لهم أجسامهم في المحشر حين يضرهم تصغيرها وتعظم لهم في النار حين يضرهم عظمها » ذكره القرطبي .

والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن ماهية الكبر أنه بطر الحق وغمط الناس ، فهذا هو الكبر المذموم ، وقد ساق صاحب الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة ليس هذا مقام ايرادها ، بل المقام مقام ذكر ما له علاقة بتفسير الكتاب العزيز . ثم شرع في ذكر شيء من قبائح المشركين فقال ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي واذا قال لهؤلاء الكفار المنكرين المستكبرين قائل ﴿ماذا﴾ أي أيُّ شيء أو ما الذي ﴿أنزل ربكم﴾ قيل القائل النضر بن الحرث وكانت عنده كتب التواريخ ويزعم أن حديثه أجمل وأتم مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والآية نزلت فيه فيكون هذا القول منه على طريق التهكم .

وقيل القائل هو من يفد عليهم او بعضهم لبعض ، وقيل القائل

---

(١) الترمذي كتاب القيامة باب ٤٧ ـ الإمام أحمد ٢/١٧٩ .

المسلمون . فأجاب المشركون المنكرون المستكبرون ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ بالرفع أي ما تدعون ايها المسلمون أساطير الأوائل وأحاديثهم وأباطيلهم ، أو أن المشركين أرادوا السخرية بالمسلمين فقالوا المنزل عليكم أساطيرهم، وعلى هذا فلا يرد ما قيل من أن هذا لا يصلح ان يكون جواباً من المشركين وإلا لكان المعنى الذي أنزله ربنا أساطير الأولين والكفار لا يقرون بالانزال، ووجه عدم وروده هو ما ذكرناه .

وقيل هو كلام مستأنف أي ليس ما تدعون انزاله ايها المسلمون منزلاً بل هو أساطير الأولين ، والأساطير الأباطيل والترهات التي يتحدث الناس بها عن القرون الأولى وليس من كلام الله في شيء ولا مما أنزله أصلاً في زعمهم ، وهي جمع أسطورة كأحاديث وأضاحيك وأعاجيب جمع أحدوثة وأضحوكة وأعجوبة .

﴿ليحملوا﴾ أي قالوا هذه المقالة لكي يحملوا ﴿أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ لم يكفر منها شيء لعدم اسلامهم الذي هو سبب لتكفير الذنوب ، وقيل ان اللام هي لام العاقبة لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير لأجل أن يحملوا الأوزار ولكن لما كان عاقبتهم ذلك حسن التعلل به كقوله ليكون لهم عدواً وحزناً ، وقيل هي لام الأمر .

قال الرازي في الآية : وهذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين إذ لو كان هذا المعنى حاصلاً في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة.

﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾ أي ويحملون بعض أوزار الذين أضلوهم لأن « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها »[1] كما ورد في

---

(١) مسلم ١٠١٧ .

الحديث وقيل من للجنس لا للتبعيض أي يحملون كل أوزار الذين يضلونهم قاله الواحدي .

﴿بغير علم﴾ حال من الفاعل والمعنى أن الرؤساء يضلون الناس جاهلين غير عالمين بما يدعونهم اليه ولا عارفين بما يلزمهم من الآثام ، وقيل إنه حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال قاله الزمخشري وعليه جرى القاضي وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين الحق والباطل ولا يقنعوا بالتقليد البحت العمى .

ورجح الأول بأنه من المحدث عنه والمسند اليه الاضلال على جهة الفاعلية والمعنى أنهم يقدمون على الاضلال جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد في مقابلته ومثل هذه الآية قوله ﴿وليحملن اثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ وقوله ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ .

وقد تقدم في الأنعام الكلام على قوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فمعناه وزراً لا مدخل لها فيه ولا تعلق له بها بتسبب ولا غيره ، قال ابن عباس : يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم ، وعن مجاهد نحوه وزاد لا يخفف ذلك عمن أطاعكم من العذاب شيئاً .

﴿ألا ساء ما يزرون﴾ أي بئس شيئاً يزرونه ويحملونه ، وفي ذلك وعيد وتهديد لهم ، ثم حكى سبحانه حال أضرابهم من المتقدمين فقال :

﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ ذهب أكثر المفسرين الى ان المراد به نمروذ ابن كنعان حيث بنى بناء عظيماً ببابل طوله في السماء خمسة آلاف ذراع ؛ وقيل فرسخان ورام الصعود الى السماء ليقاتل أهلها فأهب الله الريح فخرَّ ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا ، وكان أعظم أهل الأرض تجبراً في زمن ابراهيم

عليه السلام ونمروذ بضم النون والذال المعجمة وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة .

والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين الماكرين الذين يحاولون إلحاق الضر بالمحقين المؤمنين ، ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق ، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه وسلم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم .

﴿فأتى الله﴾ أي أتى أمر الله وهو الريح التي أخربت ﴿بنيانهم﴾ قال المفسرون أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر وخر عليهم الباقي بالزلزلة من أسفله فأهلكهم وهم تحته ﴿من القواعد﴾ .

قال الزجاج : أي من الأساطين ، وقيل من أصوله وأساسه بكسر الهمزة جمع أس وأما بالفتح فجمعه أسس بضمتين قيل لما سقط تبلبلت ألسن الناس بالفزع فتكلموا يومئذ بثلاث وسبعين لساناً فلذلك سميت بابل .

وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية هكذا ذكره البغوي وفي هذا نظر لأن صالحاً كان قبلهم وكان يتكلم بالعربية ، وكان أهل اليمن عرباً منهم جرهم الذي نشأ اسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكان قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم كل هؤلاء عرب ، والمعنى أنه أتاها أمر الله من جهة قواعدها فزعزعها .

﴿فخرَّ عليهم السقف﴾ بفتح السين وضمها مع سكون القاف وبضمها وضم القاف أي أنه سقط عليهم السقف لأنه بعد سقوط قواعد البناء يسقط جميع ما هو معتمد عليها قال ابن الأعرابي وانما قال ﴿من فوقهم﴾ ليعلمك انهم كانوا حالين تحته والعرب تقول خر علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان

يملكه وان لم يكن وقع عليه فجاء بقوله ﴿من فوقهم﴾ ليخرج هذا الشك الذي في كلام العرب فقال من فوقهم أي عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما افلتوا وقيل هو للتأكيد لأن السقف لا يخر إلا من فوق ، وقيل ان المراد بالسقف السماء أي أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم .

وقد اختلف في هؤلاء الذين خرَّ عليهم السقف فقيل هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ، قاله ابن عباس ، وعن مجاهد نحوه ، وقيل انه بختنصر وأصحابه ، وقيل هم المقتسمون الذين تقدم ذكرهم في سورة الحجر .

وقيل المعنى على العموم يعني انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنياناً وثيقاً شديداً ودعموه بالأساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم ، فهو مثل ضربه لمن مكر بآخر فاهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه ، وهذا ما اختاره القاضي كالكشاف ، والأول أولى ، ومع ذلك العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، قال قتادة : أتاها أمر الله من أصلها فخرَّ عليهم السقف من فوقهم والسقف أعالي البيوت فائتفكت بهم بيوتهم فأهلكهم الله ودمرهم .

﴿وأتاهم العذاب﴾ أي الهلاك ﴿من حيث لا يشعرون﴾ به بل من حيث أنهم في أمان لا يخطر العذاب ببالهم .

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

ثم بيَّن سبحانه أن عذابهم غير مقصور على عذاب الدنيا فقال ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي الكفار بإدخالهم النار ويفضحهم بذلك ويذلهم ويهينهم عطف على مقدر ، أي هذا عذابهم في الدنيا ثم يوم القيامة يخزيهم ﴿ويقول﴾ الله لهم مع ذلك توبيخاً وتقريعاً ﴿أين شركائي﴾ كما تزعمون وتدعون .

ثم وصف هؤلاء الشركاء بقوله ﴿الذين كنتم تشاقون﴾ قرأ نافع بكسر النون على الاضافة والباقون بفتحها أي تخاصمون الأنبياء والمؤمنين ﴿فيهم﴾ والمعنى على قراءة الكسر تخاصمونني وتعادونني وتخالفونني ، وقد ضعف أبو حاتم هذه القراءة والمشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه والمعنى ما لهم لا يحضرون معكم ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب النازل بكم .

﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ وهم في الموقف قيل هم العلماء قالوا لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون الى وعظهم وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة وقيل هم الأنبياء ، وقيل الملائكة والظاهر الأول لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف وهو كونهم أنبياء او كونهم ملائكة ولا يقدح في هذا جواز الاطلاق لان المراد الاستدلال على الظهور فقط .

﴿ان الخزي اليوم﴾ أي الذل والهوان والفضيحة يوم القيامة ﴿والسوء﴾ أي العذاب ﴿على الكافرين﴾ مختص بهم يقولونه شماتة بهم .

﴿الذين تتوفاهم﴾ بالتاء والياء وهما سبعيتان لكنه مع الياء يقرأ بالامالة في الموضعين والتذكير على ان الملائكة ذكور والتأنيث لأن لفظ الجمع مؤنث ﴿الملائكة﴾ وهم ملك الموت عزرائيل وأعوانه ﴿ظالمي أنفسهم﴾ بالكفر وقد تقدم تفسيره .

﴿فألقوا السلم﴾ أي أقروا بالربوبية وانقادوا عند الموت ومعناه الاستسلام قاله قطرب ، وقيل معناه المسالمة أي سالموا وتركوا المشاقة قاله الأخفش ، وقيل معناه الاسلام أي أقروا بالإسلام وتركوا ما كانوا فيه من الكفر ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ تفسير للسَّلم على أن يكون المراد بالسلم الكلام الدال عليه .

ويجوز أن يكون المراد بالسوء هنا الشرك ويكون هذا القول منهم على وجه الجحود والكذب أو من شدة الخوف ومن لم يجوّز الكذب على أهل القيامة حمله على أنهم أرادوا أنهم لم يعملوا سوءاً في اعتقادهم وعلى حسب ظنونهم ، ومثله قوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ .

فلما قالوا هذا أجاب عليهم أهل العلم بقولهم ﴿بلى﴾ كنتم تعملون السوء ﴿ان الله عليم بما﴾ أي بالذي ﴿كنتم تعملون﴾ فيجازيكم عليه ولا ينفعكم هذا الكذب شيئاً . وقال عكرمة عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر .

﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ يقال لهم ذلك عند الموت وقد تقدم ذكر الأبواب وإن جهنم درجات بعضها فوق بعض ، أي ليدخل كل صنف الى الطبقة التي هو موعود بها ، وإنما قيل لهم ذلك لأنه أعظم في الخزي والغم ، وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذاباً من بعض .

﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة لأن خلودهم مستقبل ﴿فلبئس مثوى

المتكبرين﴾ هي فالمخصوص بالذم محذوف ، والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الايمان والعبادة كما في قوله : إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إلـه إلا الله يستكبرون .

ثم اتبع أوصاف الأشقياء بأوصاف السعداء فقال ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ وهم المؤمنون ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي أنزل خيراً ، ورفع الأول ونصب هذا فرقاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ قيل هذا من كلام الله عز وجل ، وقيل هو حكاية لكلام الذين اتقوا فيكون هذا بدلاً من خير . قاله الزمخشري . وعلى الأول يكون كلاماً مستأنفاً مسوقاً لمدح المتقين .

والمعنى للذين أحسنوا أعمالهم بالايمان في الدنيا مثوبة حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيـرة . وقال قتادة : أحسنوا أي آمنوا بالله وكتبه ورسله ، وأمروا بطاعة الله وحثوا عباد الله على الخير ودعوهم اليه .

قال الضحاك : هي النصر والفتح ، وقال مجاهد : هي الرزق الحسن . وقيل الحياة الطيبة وهي استحقاق المدح والثناء او فتح أبواب المشاهـدات والمكاشفات . قاله الكرخي .

﴿ولدار الآخرة﴾ أي مثوبتها وهي الجنة ﴿خير﴾ مما أوتوا في الـدنيا ﴿ولنعم دار المتقين﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه ﴿جنات عدن﴾ أي بساتين اقامة من عدن بالمكان إذا أقام به . قيل يجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح فيجيء فيها ثلاثة أوجه : رفعها بالابتداء والجملة المتقدمة خبرها ، أو رفعها خبراً لمبتدأ مضمر أو رفعها بالابتداء والخبر محذوف وهو أضعفها ، ويجوز أن يكون جنات عدن خبر مبتدأ مضمر لا على ما تقدم بـل يكون المخصـوص محذوفاً تقديـره ولنعم دارهم هي جنـات ، وقـدره الزمخشري ولنعم دار المتقين دار الآخرة ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله يدخلونها ، ويجوز أن يكون الخبر مضمراً تقديره لهم جنات دل عليه قوله للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . قاله السمين .

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ
ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ
بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ
كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾

﴿يدخلونها﴾ أي تلك الجنات ولا يرحلون عنها ولا يخرجون منها ﴿تجري من تحتها﴾ أي من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم ﴿الأنهار لهم فيها﴾ أي في الجنات ﴿ما يشاءون﴾ أي ما يقع عليه مشيئتهم صفواً عفواً يحصل لهم بمجرد ذلك ، وهذه الحالة لا تحصل إلا في الجنة ، وذلك يدل على أن الانسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا .

﴿كذلك﴾ أي الأمر كذلك أو مثل ذلك الجزاء ﴿يجزي الله المتقين﴾ المراد بهم كل من يتقي الشرك وما يوجب النار من المعاصي ﴿الذين تتوفاهم﴾ أي تقبض أرواحهم ﴿الملائكة طيبين﴾ حال من المفعول أو الفاعل مقارنة أو مقدرة ، وفيه أقوال ، أي طاهرين من شوائب الشرك والكفر والنفاق ، أو صالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو من ظلم أنفسهم بالمعاصي . قاله البيضاوي . أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله ، أو طيبة نفوسهم بالرجوع الى الله ، أو طيبين الوفاة أي هي عليهم سهلة لا صعوبة فيها .

وقال مجاهد : طيبين أحياء وأمواتاً قدر الله لهم ذلك ، أو فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى حضرة القدس وقيل طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن حملاً لها على العموم فدخل فيه جميع ما ذكر .

﴿يقولون﴾ أي قائلين لهم يعني الملائكة حال مقارنة ان كان القول واقعاً منهم في الدنيا أو مقدرة إن كان واقعاً في الآخرة .

﴿سلام عليكم﴾ معناه يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون السلام انذاراً لهم بالوفاة .

الثاني : أن يكون تبشيراً لهم بالجنة لأن السلام أمان ، وفي الكرخي يقولون لهم عند الموت سلام عليكم أي لا يلحقكم بعد مكروه ، فهي حال مقارنة .

واستشهد له في الدر المنثور بما أخرجه مالك وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولي الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ونحوه في الكشاف وقال أبو حيان : الظاهر أن السلام إنما هو في الآخرة ، ولذلك جاء بعده ادخلوا الجنة فهو من قول خزنة الجنة ، وعليه فهي حال مقدرة .

﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي بسبب عملكم ، قيل يحتمل هذا وجهين الأول : يكون تبشيراً بدخول الجنة عند الموت ، والثاني : أن يكون ذلك لهم في الآخرة . ولاينافي هذا دخول الجنة بالتفضل كما في الحديث الصحيح « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1] وقد قدمنا البحث عن هذا .

(١) مسلم ٢٨١٨ ومن لفظ اعملوا وفي آخر أبشروا بدل اعملوا ـ البخاري ٢٤٢٧ .

﴿هل ينظرون﴾ هذا جواب شبهة أخرى لمنكري النبوة فإنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال : هل ينظرون في تصديق نبوتك ﴿إلا أن تأتيهم﴾ بالتاء والياء سبعيتان ﴿الملائكة﴾ شاهدين بذلك .

ويحتمل أن يقال أنهم لما طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين أوعدهم الله بقوله : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي عذابه في الدنيا المستأصل لهم ، أو المراد بأمر الله القيامة ، والمراد بكونهم ينظرون أنهم ينتظرون إتيان الملائكة أو إتيان أمر الله على التفسير الآخر انهم قد فعلوا فعل من وجب عليه العذاب وصار منتظراً له .

وليس المراد أنهم ينتظرون ذلك حقيقة فإنهم لا يؤمنون بذلك ولا يصدقونه قيل أو مانعه خلو فإن كُلًّا من الموت والعذاب يأتيهم ، وإن اختلف الوقت . وإنما عبر بأو دون الواو اشارة الى كفاية كل واحد من الأمرين في تعذيبهم كما افاده أبو السعود .

﴿كذلك﴾ أي مثل فعل هؤلاء من الاصرار على الكفر والتكذيب والاستهزاء ﴿فعل الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفار فأتاهم أمر الله فهلكوا ﴿وما ظلمهم الله﴾ بتدميرهم بالعذاب فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بما ارتكبوه من القبائح وفيه أن ظلمهم مقصور عليهم باعتبار ما يؤول اليه ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ أي أجزِيَة أعمالهم السيئة أو جزاء سيئآت أعمالهم معطوف على فعل الذين من قبلهم وما بينهم اعتراض ﴿وحاق﴾ أي نزل ﴿بهم﴾ على وجه الإحاطة والحيق لا يستعمل إلا في الشر ، قاله البيضاوي فلا يقال حاقت به النعمة بل النقمة . قاله الشهاب ﴿ما﴾ أي العذاب الذي ﴿كانوا به يستهزئون﴾ أو عقاب استهزائهم .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا
حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ
ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي
ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾

﴿وقال الذين أشركوا﴾ هذا نوع آخر من كفرهم الذي حكاه الله تعالى عنهم والمراد بالذين أشركوا هنا أهل مكة ﴿لو شاء الله﴾ عدم عبادتنا لشيء غيره ﴿ما عبدنا من دونه من شيء﴾ أي لحصل ذلك ، جئت أو لم تجيء ، ولو شاء منا الكفر لحصل جئت أو لم تجيء ، واذا كان كذلك فالكل من عند الله فلا فائدة في بعثة الرسل الى الامم ، ومن الأولى بيانية والثانية زائدة لتأكيد الاستغراق .

﴿نحن﴾ تأكيد لضمير عبدنا لا لتصحيح العطف لوجود الفواصل وان كان محسناً له ﴿ولا آباؤنا﴾ الذين كانوا على ما نحن عليه الآن من الكفر والشرك بالله .

قال الزجاج : انهم قالوا هذا على وجه الاستهزاء ، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين انتهى . وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة الأنعام .

﴿ولا حرّمنا من دونه من شيء﴾ من السوائب والوصائل والبحائر ونحوها ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة الطعن في الرسالة ، أي لو كان ما قاله الرسول حقاً من المنع من عبادة غير الله والمنع من تحريم ما لم يحرمه الله حاكياً ذلك عن الله لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا فأنه قد شاء الله ذلك وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه ،

كان ذلك دليلاً على أن ذلك هو المطابق لمراده والموافق لمشيئته ، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرون به ، لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل ، والظاهر أن من الأولى والثانية ههنا زائدتان ، أي ولا حرمنا شيئاً حال كوننا دونه أي دون الله ، أي مستقلين بتحريمه . قاله الحفناوي .

﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفر فإنهم أشركوا بالله وحرموا ما لم يحرمه وجادلوا رسلهم بالباطل واستهزؤوا بهم ثم قال ﴿فهل على الرسل﴾ الذين يرسلهم الله الى عباده بما شرعه لهم من الشرائع التي رأسها توحيده وترك الشرك به ﴿إلا البلاغ المبين﴾ الى من أرسلوا اليهم ، بما أمروا بتبليغه بلاغاً واضحاً يفهمه المرسل اليهم ولا يلتبس عليهم والبلاغ مصدر بمعنى الابلاغ ثم إنه سبحانه أكد هذا وزاده ايضاحاً فقال :

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ كما بعثنا في هؤلاء لإقامة الحجة عليهم وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً وأن في قوله ﴿أن اعبدوا الله﴾ إما مصدرية أي بعثنا بأن اعبدوا الله وحده أو مفسرة لأن في البعث معنى القول والوجهان حكاهما السمين وغيره .

﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا الى الضلال وهو من الطغيان يذكر ويؤنث ، ويقع على الواحد كقوله يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به وعلى الجمع كقوله تعالى أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم ، والجمع طواغيت والتقدير واجتنبوا عبادتها فالكلام على حذف المضاف .

﴿فمنهم﴾ أي فمن هذه الأمم التي بعث الله اليها برسله ﴿من هدى الله﴾ أي أرشده الى دينه وتوحيده وعبادته واجتناب الطاغوت فآمن ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ أي وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لاصراره على الكفر والعناد فلم يؤمن .

قال الزجاج : إعلم أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة وهو من وراء

الضلال والهداية ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ .

وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته واجتناب الشيطان وكل ما يدعو الى الضلال ، وأنهم بعد ذلك فريقان فمنهم من هدى ومنهم من حقت عليه الضلالة فكان في ذلك دليل على أن أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة ارادته فإنه يأمر الكل بالإيمان ، ولا يريد الهداية إلا البعض إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد ، وهذا معنى ما حكيناه عن الزجاج هنا .

﴿فسيروا في الأرض﴾ سير المعتبرين المتفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك وفي الفاء اشعار بوجوب المبادرة الى النظر والاستدلال ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ رسلهم من الأمم السابقة عند مشاهدتكم لآثارهم كعاد وثمود أي كيف ما آخر أمرهم الى خراب الديار بعد هلاك الأبدان بالعذاب .

ثم خصص الخطاب برسوله صلى الله عليه وآله وسلم مؤكداً لما تقدم فقال ﴿إن تحرص﴾ يا محمد ﴿على هداهم﴾ أي تطلب بجهدك ذلك وقد أضلهم الله لا تقدر على ذلك ، وفي المصباح حرص عليه حرصاً من باب ضرب إذا اجتهد والاسم الحرص بالكسر وحرص على الدنيا وحرص حرصاً من باب تعب لغة اذا رغب رغبة مذمومة .

وفي السمين قراءة العامة إن تحرص بكسر الراء مضارع حرص بفتحها وهي اللغة العالية لغة الحجاز وقرىء بكسر الراء مضارع حرص بكسرها وهي لغة لبعضهم .

﴿فإن الله﴾ تعليل للجواب ﴿لا يهدي من يضل﴾ قرىء يهدي بفتح حرف المضارعة على أنه فعل مستقبل مسند الى الله سبحانه أي فإن الله لا يرشد من أضله وقرىء بضم حرف المضارعة على أنه مبني للمجهول على أنه لا يهديه هاد كائناً من كان وهما سبعيتان ، فهذه الآية كقوله في الآية الأخرى

﴿من يُضلل الله فلا هادي له﴾ وقال الفراء : على القراءة الأولى معنى لا يهدي لا يهتدي كقوله تعالى ﴿أم من لا يهدى إلا أن يهدى﴾ بمعنى يهتدي .

قال النحاس : حكى عن المبرد معنى لا يهدي من يضل من علم ذلك منه وسبق له عنده ﴿ومالهم من ناصرين﴾ ينصرونهم على الهداية لمن أضله الله أو ينصرونهم بدفع العذاب عنهم ومن زائدة .

ثم ذكر عناد قريش وانكارهم للبعث فقال ﴿وأقسموا بالله﴾ أي حلفوا وسمى الحلف قسماً لأنه يكون عند انقسام الناس الى مصدق ومكذب .

﴿جهد أيمانهم﴾ أي جاهدين غاية اجتهادهم فيها وذلك أنهم كانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم فاذا كان الأمر عظيماً اقسموا بالله ، والجهد بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة وانتصابه على المصدرية وظاهره أنه استئناف إخبار وجعله الزمخشري نسقاً على وقال الذين أشركوا .

﴿لا يبعث الله من يموت﴾ من عباده زعموا أن الله سبحانه عاجز عن بعث الأموات ، عن أبي العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان مما يتكلم به والذي أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا فقال له المشرك إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وعن عليّ قال نزلت فيَّ .

﴿بلى وعداً عليه حقاً﴾ هذا اثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم ووعداً مصدر مؤكد لما دل عليه بلى وهو يبعثهم لأن البعث وعد من الله والتقدير وعد البعث وعداً عليه وحقه حقاً لا خلف فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ إن ذلك يسير عليه سبحانه غير عسير إما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناع البعث .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ليبين﴾ أي ليظهر ﴿لهم﴾ وهو غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير في لهم راجع الى من يموت ﴿الذي يختلفون فيه﴾ أي الأمر الذي وقع الخلاف بينهم فيه وبيانه إذ ذاك يكون بما جاءتهم به الرسل ونزلت عليهم فيه كتب الله ، وقيل ليبين متعلق بقوله ولقد بعثنا ﴿وليعلم الذين كفروا﴾ بالله سبحانه وانكروا البعث ﴿أنهم كانوا كاذبين﴾ في جدالهم وانكارهم البعث بقولهم لا يبعث الله من يموت .

﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون﴾ جملة مستأنفة لبيان كيفية الابداء والاعادة مسوقة لهذا المقصد بعد بيان سهولة البعث عليه سبحانه ، قال الزجاج : أعلمهم بسهولة خلق الأشياء عليه فأخبر أنه متى أراد الشيء كان وهذا كقوله ﴿فإذا قضى أمراً يقول له كن فيكون﴾ قال ابن الأنباري : أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق لأنه بمنزلة ما قد وجد وشوهد ، قال الزجاج : إن معنى لشيء لأجل شيء فجعل اللام سببية وليس بواضح .

وقيل هي لام التبليغ ، قاله أبو السعود أي أيَّ شيء كان مما عز وهان كما في قولك قلت له قم فقام ، وهذا الكلام من باب التمثيل على معنى أنه لا

يمتنع عليه شيء وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمور به عند أمر الأمير المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، وليس هناك قول ولا مقول له، ولا أمر ولا مأمور، ولا كاف ولا نون حتى يقال إنه يلزم منه أحد محالين إما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل.

قلت : هكذا قال أكثر المفسرين وهو يخالف ظاهر النظم القرآني والحق ما دلت عليه الآية من القول وهو على حقيقته وانه جرت العادة الإلٓهية وقد مضى تفسير ذلك في سورة البقرة مستوفى ، وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقول والألباب .

﴿والذين هاجروا﴾ قد تقدم معنى الهجرة في سورة النساء وهي ترك الأهل والأوطان أي انتقلوا من مكة الى المدينة لإقامة دين الله تعالى ومعنى ﴿في الله﴾ في شأن الله سبحانه وفي رضاه ، وقيل في دين الله ، وقيل في بمعنى لام التعليل أي الله ﴿من بعد ما ظُلموا﴾ أي عُذبوا وأهينوا ، وقد اختلف في سبب نزول الآية فقيل نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار واعترض بأن السورة مكيّة وذلك يخالف قوله ﴿والذين هاجروا﴾ وأجيب بأنه يمكن أن تكون هذه الآية من جملة الآيات المدنية في هذه السورة كما قدمنا في عنوانها .

وقيل نزلت في أبي جندل بن سهيل ، وقيل نزلت في أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما ظلمهم المشركون بمكة واخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم انصاراً من المؤمنين .

﴿لنبوّأنهم في الدنيا حسنة﴾ قيل المراد نزولهم المدينة قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة ، وقيل المراد الرزق الحسن قاله مجاهد ، وقيل النصر على عدوّهم ، قاله الضحاك ، وقيل ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات ، وقيل ما بقي لهم فيها من الثناء وصار لأولادهم من الشرف ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور والمعنى لنبوّأنهم مباءة

حسنة أو تبوئة حسنة فحسنة صفة مصدر محذوف .

﴿ولأجر الآخرة﴾ أي جزاء أعمالهم الكائن في الآخرة وهو النعيم الكائن في الجنة التي هي المراد بالآخرة ﴿أكبر﴾ وأعظم من ان يعلمه أحد من خلق الله قبل ان يشاهده ومنه قوله تعالى وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴿لو كانوا﴾ أي هؤلاء الظلمة ﴿يعلمون﴾ ذلك ، وقيل ان الضمير راجع الى المؤمنين المهاجرين أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا وهو اسكانهم المدينة .

﴿الذين صبروا﴾ على أذى المشركين أو على مفارقة الوطن والهجرة أو على الجهاد وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله واللفظ أعم من ذلك ﴿وعلى ربهم﴾ وحده خاصة ﴿يتوكلون﴾ في جميع أمورهم معرضين عما سواه والصبر مبدأ السلوك الى الله تعالى والتوكل هو آخر الطريق ومنتهاه والظاهر والله أعلم أن المعنى على المضيّ والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة توكلهم البديعة ، وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة الله عز وجل وجواب الموصول محذوف أي فيرزقهم من حيث لا يحتسبون .

﴿وما أرسلنا من قبلك﴾ رد على قريش حيث زعموا أن الله سبحانه أجل من أن يرسل رسولاً من البشر فرد الله عليهم بأن هذه عادته وسنته أن لا يرسل ﴿إلا رجالاً﴾ من البشر ﴿نوحي اليهم﴾ وزعم أبو عليّ الجبائي ان معنى الآية أن الله سبحانه لم يرسل الى الأنبياء بوحيه إلا من هو على صورة الرجال من الملائكة ويرد عليه أن جبريل كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صور مختلفة .

ولما كان كفار مكة مقرّين بأن اليهود والنصارى هم أهل العلم بما أنزل الله في التوراة والانجيل صرف الخطاب اليهم وأمرهم أن يرجعوا الى أهل الكتاب فقال ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ أي فاسألوا أيها المشركون إن شككتم فيما ذكر مؤمني أهل الكتاب فإنهم سيخبرونكم بأن جميع الأنبياء كانوا بشراً أو اسألوا أهل الكتاب من غير تقييد بمؤمنيهم كما يفيده

الظاهر فإنهم كانوا يعترفون بذلك ولا يكتمونه ، وقيل المعنى فاسألوا أهل القرآن .

عن سعيد بن جبير قال : نزلت في عبدالله بن سلام ونفر من أهل التوراة ، وقد استدل مجوزو التقليد بهذه الآية وقالوا أمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من له علم والجواب أن هذه الآية الشريفة واردة في سؤال خاص خارج عن محل النزاع كما يفيده السياق المذكور قبل هذا اللفظ الذي استدلوا به وبعده ، وبه قال ابن جرير والبغوي وأكثر المفسرين ، واستوفاه السيوطي في الدر المنثور ، وهذا هو المعنى الذي يفيده السياق والسباق .

وعلى فرض أن المراد السؤال العام فالمأمور بسؤالهم هم أهل الذكر ، والذكر هو كتاب الله وسنة رسوله لا غيرهما ، ولا أظن مخالفاً يخالف في هذا لأن هذه الشريعة المطهرة هي إما من الله عز وجل وذلك هو القرآن الكريم أو من رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك هو السنة المطهرة ولا ثالث لذلك .

وإذا كان المأمور بسؤالهم هم أهل القرآن والحديث فالآية الكريمة حجة على المقلدة لا لهم ، لأن المراد أنهم يسألون أهل الذكر فيخبرونهم به ، فالجواب من المسؤولين أن يقولوا قال الله كذا وقال رسوله صلى الله عليه وسلم كذا فيعمل السائلون بذلك ، وهذا هو غير ما يريده المقلد المستدل بها فإنه إنما استدل بها على جواز ما هو فيه من الأخذ بأقوال الرجال من دون سؤال عن الدليل فإن هذا هو التقليد ولهذا رسموه بأنه قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة .

فحاصل التقليد أن المقلد لا يسأل عن كتاب الله ولا عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل يسأل عن مذهب إمامه فقط فإذا جاوز ذلك الى السؤال عن الكتاب والسنة فليس بمقلد ، وهذا يسلمه كل مقلد ولا ينكره .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

وإذا تقرر أن المقلد إذا سأل أهل الذكر عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن مقلداً علمت أن هذه الآية الشريفة على تسليم ان السؤال ليس عن الشيء الخاص الذي يدل عليه السياق ، بل عن كل شيء من الشريعة كما يزعمه المقلد تدفع في وجهه وترغم أنفه وتكسر ظهره ، فإن معنى هذا السؤال الذي شرعه الله تعالى هو السؤال عن الحجة الشرعية وطلبها من العالم فيكون هو راوياً وهذا السائل مُستَروياً، والمقلد يقر على نفسه بأنه يقبل قول العالم ولا يطالبه بالحجة ، فالآية هي دليل الاتباع لا دليل التقليد .

وبهذا ظهر لك ان هذه الحجة التي احتج بها المقلد هي حجة داحضة على فرض أن المراد المعنى الخاص وهي عليه لا له على فرض أن المراد المعنى العام .

﴿بالبينات والزبر﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : ما تقديره أي رجالاً متلبسين بالبينات وهو وجه حسن . ذكره الزمخشري ولا محذور فيه .

الثاني : ما أرسلناهم بها ذكره الحوفي والزمخشري وغيرهما وبه بدأ في الكشاف .

الثالث : تقديره ما أرسلنا بها إلا رجالاً حكاه ابن عطية .

الرابع : انه متعلق بنوحي كما تقول أوحي اليه بحق . ذكره الزمخشري وأبو البقاء .

الخامس : أنه منصوب بتقدير أعني والباء زائدة .

السادس : أنه متعلق بمحذوف كأنه قيل بم ارسلوا ، فقيل أرسلوا بها ، كذا قدّره الزمخشري .

قال السمين : وهو أحسن من تقدير أبي البقاء يعني لموافقته للدال عليه لفظاً ومعنى ، والبينات الحجج الواضحة والبراهين الساطعة ، والزبر الكتب والصحف وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران .

﴿وانزلنا اليك﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ﴿الذكر﴾ أي القرآن ، وسماه ذكراً لأن فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ، ثم بيّن الغاية المطلوبة من الانزال فقال ﴿لتبين للناس﴾ جميعاً ﴿ما نزل اليهم﴾ في هذا الذكر من الأحكام الشرعية والوعد والوعيد وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولهذا قيل متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لأن القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على المجمل ، وقيل المحكم مبين والمتشابه مجمل بطلب بيانه من السنة ، فهذه الآية محمولة على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ أي إرادة أن يتأملوا ويعملوا أفكارهم فيتعظوا ويعملوا به .

﴿أفأمن الذين مكروا﴾ الاستفهام للتوبيخ والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم ﴿السيئات﴾ أي المكرات السيئآت ولم يذكر الزمخشري غيره ، أو المعنى عملوا أو فعلوا السيئآت أو أمن الماكرون للعقوبات السيئات أو مكروا بالسيئآت .

قال مجاهد : يعني نمروذ بن كنعان وقومه وعن قتادة قال : مكرهم الشرك . وقال الضحاك : تكذيبهم الرسل وعملهم بالمعاصي ، أو هو سعيهم

في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذى أصحابه على وجه الخفية واحتيالهم في إبطال الإسلام وكيد أهله في دار الندوة من تقييده او قتله أو إخراجه كما ذكر في الأنفال .

﴿أن﴾ أي أفأمنوا من أن ﴿يخسف الله بهم الارض﴾ كما خسف بقارون وقرون من قبلهم ، يقال خسف المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض وخسف الله به الأرض خسوفاً أي غاب به فيها ، ومنه قوله فخسفنا به وبداره الأرض وخسف هو في الأرض وخسف به .

﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ به أي حال غفلتهم عنه ومن جهة لا تخطر ببالهم كما فعل بقوم لوط وغيرهم ؛ وقيل يريد يوم بدر فإنهم أهلكوا في ذلك اليوم ولم يكن في حسبانهم .

﴿أو يأخذهم في تقلبهم﴾ ذكر المفسرون فيه وجوهاً ، فقيل المراد في أسفارهم ومتاجرهم ، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر ، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض وبعدهم عن الأوطان ، والتقلب الحركة إقبالاً وادباراً .

وقيل المراد في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجوه الحيل فيحول الله بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم ، وقيل في حال تقلبهم في الليل على فرشهم ، وقيل في اختلافهم ، وقيل في حال إقبالهم وإدبارهم ، وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار والتقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله وقلبوا لك الأمور .

﴿فما هم بمعجزين﴾ أي بفائتين ولا ممتنعين ولا سابقين ﴿أو يأخذهم على﴾ حال ﴿تخوّف﴾ وتوقع للبلايا بأن يكونوا متوقعين للعذاب حذرين منه غير غافلين عنه فهو خلاف ما تقدم من قوله ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون .

وقال ابن الأعرابي : على تنقص من الأموال والأنفس والثمرات حتى يهلكهم كلهم . قال الواحدي قال عامة المفسرين ، معنى على تخوف على تنقص إما بقتل أو بموت يعني بنقص من أطرافهم ونواحيهم يأخذهم الأول فالأول حتى يأتي الأخذ على جميعهم قال والتخوف التنقص ، يقال هو يتخوف المال أي ينتقصه ويأخذ من أطرافه . انتهى .

يقال تخوفه الدهر وتخونه بالفاء والنون تنقصه ، قال الهيثم بن عدي : التخوف بالفاء التنقص لغة لأزد شنوءه. وقال ابن قتيبة : هذه لغة هذيل وقيل على تخوف على عجل ، قاله الليث بن سعد ، وقيل على تقريع بما قدموه من ذنوبهم ، روي ذلك عن ابن عباس ، وقيل على تخوف أن يعاقب ويتجاوز . قاله قتادة .

وعن ابن عباس على أثر موت صاحبه : وعنه أيضاً وتنقص من أعمالهم . وعن عمر أنه سألهم عن هذه الآية فقالوا : ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردوه من الآيات ، فقال عمر : ما أرى إلا أنه على ما يتنقصون من معاصي الله ، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقى أعرابياً فقال : يافلان ما فعل ربك ؟ قال قد تخيفته يعني تنقصته ، فرجع الى عمر فأخبره فقال قد رأيته ذلك .

وعبارة البيضاوي روي أن عمر قال على المنبر : ما تقولون فيها ؟ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف التنقص ، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ فقال : نعم ، قال شاعرنا أبوبكر يصف ناقته :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا : وما ديواننا . قال شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم أهـ .

قال الشهاب : الرحل رحل الناقة والتامك السنام المشرف والقرد هو المرتفع او المتراكم ، والنبع شجر يتخذ منه القسيّ ، والسفن هنا المبرد والقدوم يصف ناقته بأنها أثر الرحل في سنامها ، فأكله وانتقصه كما ينتقص المبرد العود . انتهى .

وعن مجاهد قال : على تخوف يأخذهم بنقص بعضهم بعضاً وقال الضحاك والكلبي : هو من الخوف يعني يهلك طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم ما أصابهم ؛ والحاصل أنه سبحانه خوفهم بخسف يحصل في الأرض أو بعذاب ينزل من السماء ، أو بآفات تحدث دفعة ، أو بآفات تحدث قليلاً قليلاً الى أن يأتي الهلاك على آخرهم .

ثم انه سبحانه ختم الآية بقوله ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ لا يعاجل بالعذاب بل يمهل رأفة بكم ورحمة لكم مع استحقاقكم للعقوبة .

ثم لما خوف سبحانه الماكرين بما خوف أتبعه ذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير العالم العلوي والسفلي ومكانهما مصدراً بالاستفهام الانكاري فقال : ﴿أو لم يروا﴾ بالتحتية بإرجاع الضمير الى ماكري السيئآت وقرىء بالفوقية على أنه خطاب لجميع الناس وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بإلى لأن المراد منها الاعتبار والاعتبار لا يكون إلا بنفس الرؤية التي يكون معها النظر الى الشيء ليتأمل أحواله ويتفكر فيه ويعتبر به .

﴿إلى ما خلق الله﴾ ما مبهمة مفسرة بقوله ﴿من شيء﴾ له ظل وهي الأجسام فهو عام أريد به الخاص وخرج به الملك والجن ﴿يتفيأ ظلاله﴾ أي تميل وتدور وتنتقل من جانب الى جانب وتكون أول النهار على حال وتتقلص ثم تعود في آخر النهار على حالة أخرى قال الأزهري : تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي وما انصرفت عنه الشمس والقمر ، والذي يكون بالغداة هو الظل وهو ما لم تنله .

وقال ثعلب : أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل ، وفي السمين التفيؤ تفعل من فاء يفيء اذا رجع وفاء قاصر فإذا أريد تعديته عدِّى بالهمزة كقوله ما أفاء الله على رسوله أو بالتضعيف نحو فيأ الله الظل فتفيأ وتفيأ مطاوع فيأ فهو لازم .

واختلف في الفيء فقيل هو مطلق الظل سواء كان قبل الزوال أو بعده وهو الموافق لمعنى الآية ههنا ، وقيل ما كان قبل الزوال فهو ظل فقط وما كان بعده فهو ظل وفيء فالظل أعم ، وقيل بل يختص الظل بما قبل الزوال والفيء بما بعده والظلال جمع ظل وهو مضاف الى مفرد لأنه واحد يراد به الكثرة .

﴿عن اليمين والشمائل﴾ أي عن جهة أيمانها وعن شمائلها أي عن جانبي كل واحد منها استعارة أو مجاز من اطلاق المقيد على المطلق ، قال أبو السعود : استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله ، وقيل المراد باليمين يمين الفلك وهو جهة المشرق لأن الكواكب منه تظهر آخذة في الارتفاع والسطوع ومن الشمائل شماله وهي جهات المغرب المقابل له فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من الشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقي منها . قال الفراء : وحد اليمين لأنه أراد واحداً من ذوات الاظلال وجمع الشمال لأنه أراد كلها لأن ما خلق الله لفظ مفرد ومعناه جمع .

وقال الواحدي : وحد اليمين والمراد به الجمع ايجازاً في اللفظ كقوله ويولون الدبر ، وبه قال الزمخشري ودلت الشمائل على أن المراد بها الجمع ، وقيل ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن أحدهما بلفظ الواحد كقوله وجعل الظلمات والنور ، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم .

وقيل المراد باليمين النقطة التي هي مشرق الشمس وأنها واحدة

والشمائل عبارة عن الانحراف في تلك الأظلال بعد وقوعها على الارض وهي كثيرة ، قيل اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فإذا استوت الشمس في وسط السماء كان ظلك في خلفك فإذا مالت إلى الغروب كان ظلك عن يسارك .

وقال قتادة والضحاك : أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار دائماً وانما عبر عن المشرق باليمين لأن أقوى جانبي الانسان يمينه ؛ ومنه تظهر الحركة القوية والشمائل جمع شمال على غير قياس والقياس أشمل كذراع وأذرع .

﴿سجداً﴾ جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع أي حال كون الظلال ساجدة ﴿لله﴾ قال الزجاج يعني أن هذه الاشياء مجبولة على الطاعة وقال ايضاً سجود الجسم انقياده وما يرى فيه من أثر الصنعة .

قال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ، وقيل إن الظلال ملتصقة بالأرض كالساجد عليها فلما كانت يشبه شكلها شكل الساجدين اطلق الله عليها هذا اللفظ ﴿وهم﴾ أي والحال أن الظلال ﴿داخرون﴾ أي خاضعون صاغرون والدخور الصغار والذي يقال دخر الرجل فهو داخر وادخره الله ولما وصفها بالطاعة والانقياد لأمره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا
تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا
مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ولله﴾ وحده لا لغيره ﴿يسجد﴾ أي يخضع وينقاد والسجود على نوعين : سجود طاعة وعبادة وسجود إنقياد وخضوع كسجود الإنسان وسجود الظلال والآية تحتمل النوعين ﴿مافي السموات﴾ جميعاً ﴿وما في الأرض من دابة﴾ أي حيوان جسماني ونسمة تدب وتتحرك على الأرض والمراد به كل دابة : قال الأخفش هو كقولك ما أتاني من رجل مثله وما أتاني من الرجال مثله .

وقد دخل في عموم ما فيهما جميع الأشياء الموجودة فيهما ، قال قتادة : لم يدع شيئاً من خلقه إلا عبده له طائعاً أو كارهاً ، وعن الحسن قال : يسجد من في السموات طوعاً ومن في الأرض طوعاً وكرهاً وإنما خص الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء انقياد الجمادات ومن بيانية بياناً لما في الشقين او بيانا لما الثانية فقط .

﴿و﴾ عطف ﴿الملائكة﴾ على ما قبلهم عطف خاص على عام تشريفاً لهم وتعظيماً لدخولهم في المعطوف عليه ، وقيل أفرد الملائكة لأنهم أولو أجنحة يطيرون بها أو تكون في السماء خلق يدبون ﴿وهم﴾ أي والحال انهم ﴿لا يستكبرون﴾ عن عبادة ربهم ، والمراد الملائكة ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة وفي هذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله ، والمعنى يسجد لله

ما في السموات وما في الأرض والملائكة وهم جميعاً لا يستكبرون عن السجود .

﴿يخافون﴾ أي حال كونهم خائفين ﴿ربهم من فوقهم﴾ أو جملة مستأنفة لبيان نفي استكبارهم ومن آثار الخوف عدم الاستكبار أي يخافون عذاب ربهم كائناً من فوقهم أو يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عالياً عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة بائناً عنهم بالاستواء على العرش ، وقيل معناه يخافون الملائكة فيكون على حذف المضاف أي يخافون ملائكة ربهم كائنين من فوقهم وهو تكلف لا حاجة اليه .

وإنما اقتضى مثل هذه التأويلات البعيدة المحاماة على مذاهب قد رسخت في الاذهان وتقررت في القلوب قيل وهذه المخافة هي مخافة الاجلال واختاره الزجاج فقال : يخافون ربهم خوف مجلين ويدل على صحة هذا المعنى قوله وهو القاهر فوق عباده وقوله اخباراً عن فرعون وإنا فوقهم قاهرون .

﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ به من طاعة الله يعني الملائكة أو جميع من تقدم ذكره وحمل هذه الجملة على الملائكة أولى لأن في مخلوقات الله من يستكبر عن عبادته ولا يخافه ولا يفعل ما يؤمر به كالكفار والعصاة الذين لا يتصفون بهذه الصفات وإبليس وجنوده ، وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها .

ولما بيَّن سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضيّة منقادة له خاضعة لجلاله أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله ﴿وقال الله لاتتخذوا إلٰهين اثنين إنما هو إلٰه واحد﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلٰهين ثم أثبت أن الإلٰهية منحصرة في إلٰه واحد وهو الله سبحانه وقد قيل أن التثنية في الإلٰهين قد دلت على الاثنينية والإفراد في إلٰه قد دل على الوحدة فما وجه وصف إلٰهين باثنين ووصف إلٰه بواحد فقيل في

الجواب أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والتقدير لا تتخذوا اثنين إلٓهين وفيه بعد .

وقال أبو البقاء : هو مفعول ثان وهذا كالغلط إذ لا معنى لذلك البتة ، وقيل ان التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك ، وقيل انه تأكيد لإلٓهين وعليه أكثر الناس ، وكلام الزمخشري هنا يفهم منه إنه ليس بتأكيد ، وقيل إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع الى التعدد لا الى الجنسية وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد اثبات الالٓهية دون الواحدية مع أن الالٓهية له سبحانه مسلمة في نفسها وإنما خلاف المشركين في الواحدية .

ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة الى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب فقال : ﴿فإياي فارهبون﴾ أي أن كنتم راهبين شيئاً فإيَّاي فارهبون لا غيري فالتركيب أفاد الحصر ، وقيل التقدير إياي ارهبوا فارهبون وقدره ابن عطية : ارهبوا إياي فارهبون .

قال الشيخ : وهو ذهول عن القاعدة النحوية وقد يجاب عنه والرهب مخافة مع حزن واضطراب وقد مر هذا في أول البقرة .

ثم لما قرر سبحانه وحدانيته وأنه الذي يجب أن يخص بالرهبة منه والرغبة اليه ذكر أن الكل في ملكه وتحت تصرفه فقال ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً والجملة مقررة لما تقدم في قوله ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض إلخ . . وتقديم الخبر لافادة الاختصاص والتفت فيه من التكلم الى الغيبة والجملة معطوفة على قوله إنما هو إلٓه واحد أو على الخبر أو مستأنف .

﴿وله الدين واصباً﴾ أي ثابتاً واجباً دائماً لا يزول والدين هو الطاعة والاخلاص ، قال الفراء : واصباً معناه دائماً . وروي عنه ايضاً الواصب الخالص والأول أولى ومنه قوله سبحانه ولهم عذاب واصب أي دائم .

وقال الزجاج : أي طاعته واجبة أبداً ففسر الواصب بالواجب ، وقال ابن قتيبة في تفسير الواصب : أي ليس أحد يطاع إلا إنقطع ذلك بزوال او بهلكة غير الله تعالى فإن الطاعة تدوم له ففسر الواصب بالدائم وإذا دام الشيء دواماً لا ينقطع فقد وجب وثبت ، يقال وصب الشيء يصب وصوباً فهو واصب إذا دام ووصب الرجل على الامر إذا واظب عليه .

وقيل الوصب التعب والأعياء أي حب طاعة الله سبحانه وإن تعب العبد فيها وهو غير مناسب لما في الآية ، قال مجاهد الدين الاخلاص وواصباً دائماً ، وقال أبو صالح : يعني لا إله إلا الله .

وعن ابن عباس : دائماً واجباً ، وفي البيضاوي : واصباً لازماً ، وقال الشهاب : الوصب ورد في كلامهم بمعنى اللزوم والدوام ، وفي القاموس وصب يصب دام وثبت كأوصب وعلى الأمر واظب واحسن القيام عليه ، وفي المصباح وصب الشيء وصوباً دام ووصب الدين وجب .

والاستفهام في قوله ﴿أفغير الله تتقون﴾ للتقريع والتوبيخ أو للتعجب والانكار والفاء للتعقيب ، والمعنى إذا كان الدين أي الطاعة واجباً له دائماً لا ينقطع كان المناسب لذلك تخصيص التقوى به وعدم إيقاعها لغيره فكيف يعقل أن يكون للانسان رغبة أو رهبة في غير الله .

ثم امتن سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ أي ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فهي منة سبحانه ، والنعمة اما دينية وهي معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به واما دنيوية نفسانية أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها ، وكل واحدة من هذه جنس تحته أنواع لا حصر لها والكل من الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه ، وما موصولة متضمنة

لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول ، والفاء زائدة او شرطية ، واليه نحا الفراء وتبعه الحوفي وأبو البقاء .

ثم بيّن تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال : ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ أي الشدة والأمراض والأسقام أو أي ضر كان ، والضر المرض والبلاء والحاجة والقحط وكل ما يتضرر به الانسان ﴿فإليه﴾ سبحانه لا الى غيره ﴿تجأرون﴾ تتضرعون وتستغيثون وتضجون في كشفه فلا كاشف له إلا هو ، يقال جأر يجأر جؤراً اذا رفع صوته بالدعاء في تضرع .

قال مجاهد : تتضرعون بالدعاء وقال السدي : تضجون بالدعاء ، وفي القاموس جأر جأراً وجؤراً بوزن غراب رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث ، والبقرة والثور صاحا والنبات طال والأرض طال نبتها .

﴿ثم اذا كشف الضر عنكم﴾ أي إذا رفع عنكم ما نزل بكم من الضر ﴿اذا فريق﴾ أي جماعة ﴿منكم بربهم﴾ الذي رفع الضر عنهم ﴿يشركون﴾ فيجعلون منه إلهاً آخر من صنم أو نحوه ، إذا الأولى شرطية والثانية فجائية جوابها ، وفي الآية دليل على أن إذا الشرطية لا تكون معمولة لجوابها ، لأن ما بعد اذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها .

والآية مسوقة للتعجب من فعل هؤلاء حيث يضعون الإشراك بالله الذي أنعم عليهم بكشف ما نزل بهم من الضر مكان الشكر له ، وهذا المعنى قد تقدم في الأنعام ويونس ، ويأتي إن شاء الله تعالى في سبحان .

قال الزجاج : هذا خاص بمن كفر وقابل كشف الضر عنه بالجحود والكفر ، وعلى هذا فيكون من في منكم للتبعيض حيث كان الخطاب للناس جميعاً والفريق هم الكفرة ، وإن كان الخطاب موجهاً الى الكفار فمن للبيان ، وبه قال الزمخشري كأنه قيل إذا فريق كافر وهم أنتم . قاله السمين .

لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا
رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ
ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

واللام في ﴿ليكفروا﴾ لام كي لكي يكفروا يعني إشراكهم سبب كفرهم وقيل إنها لام الصيرورة ، أي صار أمرهم الى ذلك ، وقيل انها لام الأمر واليه نحا الزمخشري . وقيل إنها لام العاقبة ، أي فعاقبة إشراكهم بالله غيره كفرهم ﴿بما آتيناهم﴾ من نعمة وهي كشف الضر عنهم حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم ، وهذا غاية في العتو والعناد ليس وراءها غاية .

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتاً من الغيبة الى الخطاب ﴿فتمتعوا﴾ بما أنتم فيه من ذلك ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون إليه في الدار الآخرة . قال الحسن هذا وعيد .

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من قبائح أعمالهم فقال ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ أي يقع منهم هذا الجعل بعدما وقع منهم الجؤار الى الله سبحانه في كشف الضر عنهم وما تعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والاشراك به ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا من أموالهم يتقربون به اليه .

وقيل المعنى إنهم أي الكفار يجعلون للأصنام وهم لا يعلمون شيئاً

لكونهم جمادات ، وأجراها مجرى العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار فيها ، وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئاً نصيباً من أموالهم التي رزقهم الله إياها . قال مجاهد : يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ، ثم يجعلون لما لا يعلمون إنه يضرهم وينفعهم نصيباً مما رزقناهم .

وقال قتادة : هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله وجزءوا من أموالهم جزءاً فجعلوه لهم ، وعن السدي قال : هو قولهم هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا .

﴿تالله لتسألن﴾ أقسم بنفسه على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة ، وهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب ، وهو من بديع الكلام وبليغه ، وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ ﴿عما كنتم تفترون﴾ أي تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا .

﴿ويجعلون لله البنات﴾ هذا نوع آخر من فضائحهم وقبائحهم ، وقد كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله ، فنزه ﴿سبحانه﴾ نفسه عما نسبه اليه هؤلاء الجفاة الذين لا عقول لهم صحيحة ولا أفهام مستقيمة . قال ابن عباس : يقول تجعلون لي البنات ترتضونهن لي ولا ترتضونهن لأنفسكم ، وذلك انهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية امسكها على هوان أو دسها في التراب وهي حية ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ، وفي هذا التنزيه تعجيب من حالهم ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهونه من البنين ، والجملة مستأنفة أو في محل النصب على الحال من الواو في يجعلون هذا .

ثم ذكر سبحانه كراهتهم للاناث التي جعلوها لله سبحانه فقال ﴿وإذا بشر أحدهم بالانثى﴾ أي اذا أخبر أحدهم بولادة بنت له ﴿ظل﴾ صار ﴿وجهه

مسوداً﴾ أي متغيراً ، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض ، بل المراد به الكناية عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم والحزم والغيظ والكراهة ، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحزناً. قاله الزجاج .

وقال الماوردي : بل المراد سواد اللون حقيقة ، قال وهو قول الجمهور والأول أولى ، فان المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي .

﴿وهو كظيم﴾ أي ممتلىء من الغم غيظاً وحنقاً ، يقال كظمت الغيظ كظماً وكظوماً ما أمسكت على ما في نفسك منه على صفح أو غيظ ، وربما قيل كظمت على الغيظ وكظمني الغيظ فأنـا كظيم ومكظوم ، وكظم البعير كظوماً لم يجتر ، قال الأخفش : هو الذي يكظم غيظه ولا يظهره ، وقيل انه المغموم الذي يطبق فاه من الغم ، مأخوذ من الكظامة وهو سد فم البئر . قاله علي بن عيسى ، وقد تقدم في سورة يوسف .

﴿يتوارى﴾ أي يتغيب ويختفي ﴿من القوم من سوء ما بشر به﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب حدوث البنت له ، تعلق هنا جارّان بلفظ واحد لاختلاف معناهما ، فإن الأولى للابتداء والثانية للعلة ، أي من أجل سوء وسوؤها من حيث كونها يخاف عليها الزنا ، ومن حيث كونها لا تكتسب ومن حيث غير ذلك .

﴿أيمسكه على هون﴾ قال اليزيدي : الهون الهوان بلغة قريش ، وكذا حكى عن الكسائي ، وحكى عنه أيضاً أنه البلاء والمشقة . وقال الفراء : الهون القليل بلغة تميم . وعن الأعمش : أنه قرأ أيمسكه على سوء ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي يخفيه فيه بالوأد كما كانت تفعله العرب ، والدس إخفاء الشيء في الشيء فلا يزال الذي بشر بحدوث الأنثى متردداً بين هذين الأمرين ،

والتذكير في يمسكه ويدسه مع كونه عبارة عن الأنثى لرعاية اللفظ ، وقرأ الجحدري أم يدسها ويلزمـه أن يقرأ أيمسكها ، وقيل دسها إخفاؤها عن الناس حتى لا تعرف كالمدسوس لإخفائه عن الأبصار .

﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث أضافوا البنات التي يكـرهونها الى الله سبحانه ، واضافوا البنين المحبوبين عندهم الى أنفسهم ، ومثله قوله تعالى ﴿ألكم الذكر وله الانثى تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ قال السدي : بئسما حكموا بقول شيء لا يرضونه لأنفسهم فكيف يرضونه لي .

﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي لهؤلاء الذين وصفهم الله سبحانه بهذه القبائح الفظيعة صفة السوء من الجهل والكفر بالله ، وقيل هو وصفهم لله سبحانه بالصاحبة والولد ، وقيل هو حاجتهم الى الولد ليقـوم مقامهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الإملاق ، وقيل العذاب والنار ﴿ولله المثل الأعلى﴾ هي أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل والجـود الشامل والعلم الواسع أو التوحيد وإخلاص العبادة ، أو أنه خالق رازق قادر مجاز منزه عن الولد . وقيل شهادة أن لا إلّه إلا الله ، قاله قتـادة.

وقيل : الله نور السموات والأرض مثل نوره . الآية : وقيل : ليس كمثله شيء ، قاله ابن عباس ﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغالب فلا يضره نسبته اليه ما لا يليق به ﴿الحكيم﴾ في أقواله وافعاله .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

ثم لما حكى سبحانه عن القوم عظم كفرهم بين سعة كرمه وحلمه حيث لم يعاجلهم بالعقوبة فقال ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم﴾ المراد بالناس هنا الكفار أو جميع العصاة والباء للسببية ﴿ما ترك عليها﴾ أي على الأرض وإن لم تذكر فقد دل عليها ذكر الناس او الدابة ﴿من دابة﴾ قط بل أهلكها بالمرة شؤم ظلم الظالمين فإن الجميع مستقرون على الأرض ، والمراد بالدابة الكافر وقيل كل ما دب .

وقد قيل على هذا كيف يعم بالهلاك وفيهم من لا ذنب له ، وأجيب بأن إهلاك الظالم انتقاماً منه وإهلاك غيره إن كان من أهل التكليف فلأجل توفير أجره ، وان كان من غيرهم فبشؤم ظلم الظالمين ولله الحكمة البالغة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ومثل هذا قوله واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة .

وفي معنى هذه الآية أحاديث منها ما عند مسلم وغيره من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا أراد الله بقوم

عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم»[1] وكذلك حديث الجيش الذي يخسف بهم في البيداء ،وفي آخره أنهم يبعثون على نياتهم[2] ، وقد قدمنا عند تفسير قوله سبحانه ﴿واتقوا فتنة﴾ الآية تحقيقاً حقيقاً بالمراجعة له .

قال سعيد بن جبير : ما ترك عليها من دابة : ما سقاهم المطر ، وعن السدي نحوه ، أي يمسك المطر بسبب ظلمهم وانقطاعه يوجب انقطاع النسل وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء ، وذلك يستلزم أن لا يبقى في العالم أحد من الناس ؛ وقال قتادة : قد فعل ذلك في زمن نوح ، أهلك الله ما على الأرض من دابة إلا ما حمل في سفينته .

وهذا ايذان بأن ما أتوه من القبائح فقد تناهى الى أمد لا غاية وراءه ؛ وعن ابن مسعود قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره . ثم قال أي والله زمن غرق قوم نوح . وعنه قال : كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ هذه الآية . وعن أنس نحوه .

وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه . قال أبو هريرة بلى والله إن الحبارى لتموت هزالاً في وكرها من ظلم الظالم .

﴿ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى﴾ معلوم معين عنده تعالى وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم ، وفي هذا التأخير حكمة بالغة ، منها الإعذار اليهم وارخاء العنان معهم ، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم .

﴿فإذا جاء أجلهم﴾ الذي سماه لهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه والساعة المدة القليلة ، وقد تقدم تفسير هذا وتحقيقه .

---

(١) مسلم ٢٨٧٩ بلفظ «ثم بعثوا على اعمالهم» ـ البخاري ٢٥٥٨ .

(٢) مسلم ٢٨٨٢ ـ البخاري كتاب البيوع باب ما ذكر في الأسواق .

ثم ذكر نوعاً آخر من جهلهم وحمقهم فقال ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ أي ينسبون اليه سبحانه ما يكرهون نسبته الى أنفسهم من البنات والشريك في الرياسة واهانة الرسل وهو تكرير لما تقدم لقصد التأكيد والتقرير او لزيادة التوبيخ والتقريع ، قال الضحاك : أي يجعلون لي البنات ويكرهون ذلك لأنفسهم .

ثم ذكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائحهم فقال ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ والذي تصفه ألسنتهم من الكذب هو قولهم ﴿أن لهم﴾ الخصلة او العاقبة ﴿الحسنى﴾ قال الزجاج : يصفون أن لهم مع قبح قولهم من الله الجزاء الحسن أي الجنة كقوله ولئن رجعت الى ربي إن لي عنده الحسنى ، وقرىء الكذب بضمتين على أنه صفة للألسن وهو جمع كذب فيكون المفعول على هذا أن لهم الحسنى ، قال مجاهد : قول كفار قريش لنا البنون وله البنات وعن قتادة نحوه .

ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله :﴿لاجرم﴾ تركيب مزجي من لفظ لا ولفظ جرم ومعناه الفعل أي ثبت أو المصدر أي حقاً ﴿أن لهم﴾ مكان ما جعلوه لأنفسهم من الحسنى ﴿النار﴾ الموقدة والعذاب الدائم ﴿وأنهم مفرطون﴾ بفتح الراء تخفيفاً أي مقدمون الى النار .

قال ابن الأعرابي وأبو عبيدة : أي متروكون منسيون في النار وبه قال مجاهد وعن سعيد بن جبير نحوه ، وبه قال الكسائي والفراء فيكون مشتقاً من أفرطت فلاناً خلفي إذا خلفته ونسيته .

وقال قتادة والحسن : معجلون اليها مقدمون في دخولها من أفرطته أي قدمته في طلب الماء والفارط هو الذي يتقدم الى الماء والفراط المتقدمون في طلبه والوراد المتأخرون ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « أنا فرطكم على

الحوض »[1] أي متقدمكم ، وقرىء مفرطون بكسر الراء وتخفيفها وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومعناه مسرفون في الذنوب والمعاصي يقال أفرط فلان على فلان إذا أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر .

وقرىء مفرطون بكسر الراء وتشديدها أي مضيعون أمر الله فهو من التفريط في الواجب .

ثم بين سبحانه أن مثل صنيع قريش قد وقع من سائر الأمم فقال مسلياً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم ﴿تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك﴾ رسلاً ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ الخبيثة من الكفر فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب والمزين هو الله سبحانه والشيطان إنما له الوسوسة فقط فمن أراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته ﴿فهو وليهم اليوم﴾ لفظ اليوم المعرف بأل إنما يستعمل حقيقة في الزمان الحاضر المقارن للتكلم كالآن ، وحينئذ فلفظ اليوم في الآية يحتمل أن يكون عبارة عن زمان الدنيا فيكون المعنى هو قرينهم في الدنيا .

ويحتمل أن يكون عبارة عن يوم القيامة وما بعده فيكون للحال الآتية ويكون الوليّ بمعنى الناصر والمراد نفي الناصر عنهم على أبلغ الوجوه لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلاً في الدار الآخرة واذا كان الناصر منحصراً فيه لزم أن لا نصرة من غيره .

ويحتمل أن يراد باليوم بعض زمان الدنيا وهو على وجهين : **الاول** : أن يراد البعض الذي قد مضى وهو الذي وقع فيه التزيين من الشيطان للأمم الماضية فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية . **الثاني** : أن يراد البعض الحاضر وهو وقت نزول الآية والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش فيكون الضمير في وليهم لكفار قريش أي فهو ولي هؤلاء اليوم ، أو على حذف

(١) مسلم ٢٤٩ .

مضاف أي فهو ولي أمثال أولئك الأمم اليوم ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وإنما سماه ولياً لهم لطاعتهم إياه ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة وهو عذاب النار .

ثم ذكر سبحانه انه ما هلك من هلك إلا بعد اقامة الحجة عليهم وازاحة العلة منهم فقال :

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب﴾ هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن والاستثناء في ﴿الا﴾ مفرغ من أعم الأحوال أي ما أنزلنا عليك لحال من الأحوال ولا لعلة من العلل ﴿إلا لتبين لهم﴾ أي للناس وإنما جر هذا باللام لاختلاف فاعله مع فاعل الفعل فإن المنزل هو الله والمبين هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانما نصب اللذان بعده لاتحاد فاعلهما مع فاعل الفعل لأن الهادي والراحم هو الله كما انه المنزل ﴿الذي اختلفوا فيه﴾ من التوحيد والشرك والجبر والقدر وأحوال البعث واثبات المعاد وسائر الأحكام الشرعية .

﴿وهدى﴾ عطف على لنبين ﴿ورحمة لقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه ويصدقون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب لأنهم هم المنتفعون .

ثم عاد سبحانه الى تقرير وجوده وتفرده بالآلهية بذكر آياته العظام وبيناته الفخام فقال ﴿والله أنزل من السماء﴾ أي من السحاب أو من جهة العلو كما مر ﴿ماء﴾ أي نوعاً من أنواع الماء ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي أحياها بالنبات والزرع بعد أن كانت يابسة لا حياة بها .

﴿إن في ذلك﴾ الانزال والاحياء ﴿ لآية﴾ أي علامة دالة ودلالة واضحة على وحدانيته وعلى بعثه للخلق ومجازاتهم ﴿لقوم يسمعون﴾ كلام الله سماع تدبر وانصاف ويفهمون ما يتضمنه من العبر ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، فالمراد سمع القلوب لا سمع الآذان لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه لم يسمع وكأنه أصم .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ
ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

﴿وان لكم في الأنعام لعبرة﴾ الأنعام هي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ومنه فاعتبروا يا أولي الأبصار والظاهر أن في سببية أي بسبب الأنعام ، وقال أبو بكر الوراق : العبرة في الأنعام تسخيرها لاربابها وطاعتها لهم .

والظاهر أن العبرة هي قوله ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة قرىء من سقى يسقي ومن أسقى يسقي قيل هما لغتان وقرىء بالتاء على ان الضمير راجع الى الأنعام وبالتحتية على ارجاع الضمير الى الله سبحانه وهما ضعيفان وجميع القراء على القراءتين الاوليين والفتح لغة قريش والضم لغة حمير .

وقيل أن بين سقى وأسقى فرقاً فإذا كان الشراب من يد الساقي الى فم المسقى فيقال سقيته وان كان بمجرد عرضه عليه وتهيئته له قيل أسقاه ومن تبعيضية أو ابتدائية والضمير في بطونه راجع الى الأنعام ، قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد ، وقال الزجاج : لما كان لفظ الجمع يذكر ويؤنث فيقال هو الأنعام وهي الانعام جاز عود الضمير بالتذكير .

وقال الكسائي : معناه مما في بطون ما ذكرنا فهو على هذا عائد الى المذكور ، قال الفراء وهو صواب ، وقال المبرد : هذا فاش في القرآن كثير مثل قوله للشمس ﴿هذا ربي﴾ يعني هذا الشيء الطالع وكذلك ﴿إني مرسلة إليهم

بهديَّةٍ﴾ ثم قال ﴿فلما جاء سليمان﴾ ولم يقل جاءت لأن المعنى جاء الشيء الذي ذكرنا انتهى .

ومن ذلك قوله ﴿ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره﴾ وحكى الكسائي أن المعنى مما في بطون بعضه وهي الاناث لأن الذكور لا ألبان لها ، وبه قال أبو عبيدة ، وحكى عن الفراء انه قال : النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد فرجع الضمير الى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام وهو كقول الزجاج ، ورجحه ابن العربي فقال : إنما يرجع التذكير الى معنى الجمع والتأنيث الى معنى الجماعة فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة ﴿من بين فرث ودم﴾ الفرث الزبل الذي ينزل الى الكرش ، فاذا خرج منه لم يسم فرثاً بل يسمى روثاً وهو ثفل الكرش يقال أفرثت الكرش إذا أخرجت ما فيها .

وقال البيضاوي : الفرث الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش والمعنى ان الشيء الذي تأكله يكون منه ما في الكرش وهو الفرث ويكون منه الدم فيكون أسفله فرثاً وأعلاه دما وأوسطه .

﴿لبناً﴾ فيجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش كما هو فسبحان من هذه بعض حكمته ﴿خالصاً﴾ من حمرة الدم وقذارة الفرث بعد أن جمعهما وعاء واحدٌ وذلك ان الحيوان إذا أكل العلف طبخه الكرش ثم انقسم الى أقسام ثلاثة ثفل وفوقه اللبن وفوقه الدم ثم تسلط الكبد عليها فترسل الدم الى العروق واللبن الى الضروع ويبقى الثفل في الكرش حتى ينزل الى الخارج والحاصل ان الله تعالى خلق اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم ﴿سائغاً للشاربين﴾ أي لذيذاً هنيئاً لا يغص به من شربه يقال ساغ الشراب يسوغ سوغاً أي سهل مدخله في الحلق وفي ذلك عبرة لمن اعتبر .

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ قال ابن جرير التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون فحذف ما ، ودل على حذفه قوله منه : وقيل التقدير وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة ، وقيل نسقيكم مما في بطونه ومن ثمرات النخيل وقيل نسقيكم من ثمرات النخيل قدره الزمخشري ويكون على هذا تتخذون منه سكراً بياناً للإسقاء وكشفاً عن حقيقته .

وقيل تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ويكون تكرير منه للتأكيد وإنما ذكر الضمير في منه لانه يعود الى المذكور أو الى المضاف المحذوف وهو العصير كأنه قال من عصير ثمرات تتخذون منه والسكر بفتحتين ما يسكر من الخمر ، وقيل إنه من أسماء الخمر وقيل انه في الأصل مصدر سمى به الخمر .

﴿ورزقاً حسناً﴾ هو جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب والخل والدبس ، قال ابن عباس : السكر ما حرم من ثمرتهما والرزق الحسن ما حل وعنه قال السكر الحرام ، والرزق زبيبه وخله وعنبه ومنافعه ، وايضاً قال السكر النبيذ والرزق الزبيب فنسختها آية إنما الخمر والميسر ، وعنه قال فحرم الله بعد ذلك السكر مع تحريم الخمر لأنه منه ثم قال ﴿ورزقاً حسناً﴾ فهو الحلال من الخل والزبيب والنبيذ أو أشباه ذلك فاقرّه الله وجعله حلالاً للمسلمين .

وعن ابن عمر أنه سئل عن السكر فقال : الخمر بعينها وعن ابن مسعود قال : السكر الخمر وبالجملة فقد كان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر وبه جزم السيوطي اعتماداً على قولهم في السورة أنها مكية إلا ثلاث آيات من آخرها ، والمائدة مدنية وتحريم الخمر فيها وهي آخر القرآن نزولاً كما ثبت في الحديث .

وقيل ان السكر الخل بلغة الحبشة والرزق الطعام من الشجرتين ، وقيل السكر العصير الحلو الحلال ، وسمي سكراً لأنه قد يصير مسكراً اذا بقي فإذا بلغ الاسكار حرم والقول الأول أولى وعليه الجمهور ، وقد صرح أهل اللغة بأن السكر اسم للخمر ولم يخالف في ذلك إلا أبو عبيدة فإنه قال السكر الطعم .

ورجح هذا ابن جرير فقال : إن السكر ما يطعم من الطعام ويحل شربه من ثمار النخيل والأعناب وهو الرزق الحسن فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل ﴿إنما أشكو بثي وحزني الى الله﴾ .

قال الزجاج : قول أبي عبيدة هذا لا يعرف وأهل التفسير على خلافه . وقد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما لا يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ قالوا وإنما يمتن الله على عباده ، بما أحله لا بما حرمه عليهم ، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من اخراج اللبن واتخاذ السكر والرزق من الثمرات ﴿لآية لقوم يعقلون﴾ أي لدلالة لمن يستعمل العقل ويعمل بما يقتضيه عند النظر في الآيات التكوينية .

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ قد تقدم الكلام في الوحي وأنه يكون بمعنى الالهام وهو ما يخلقه في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، ومنه قوله سبحانه: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ ومن ذلك الهام البهائم لفعل ما ينفعها وترك ما يضرها ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وأنه الخالق لجميع الأشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته .

وقرىء النحل بفتح الحاء ، قال الزجاج : وسمي نحلاً لأن الله سبحانه نحله العسل الذي يخرج منه ، قال الجوهري : والنحل والنحلة الدبر يقع على الذكر والانثى وقيل اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ويذكر ويؤنث ، والنحل بالضم مصدر قولك نحلته من العطية أنحله نحلاً ، والنحلى العطية على فعل .

﴿أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾ أي بأن اتخذي على أن ﴿أن﴾ هي المصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية لأن في الايحاء معنى القول ، وبهذا قال الزمخشري وغيره ومن منع وهو أبو عبد الله الرازي قال : لا نسلم انها مفسرة ، كيف وقد انتفى شرط التفسير بأن المراد من الايحاء هو الالهام اتفاقاً ، وليس فيه معنى القول وحينئذ فهي مصدرية ، كأنه قيل أوحى ربك باتخاذ بعض الجبال بيوتاً ورده في المغني بأن الإلهام فيه معنى القول من حيث الدلالة على المعنى .

وأنث الضمير في اتخذي لكونه أحد الجائزين كما تقدم أو للحمل على المعنى أو لكون النحل جمعاً وأهل الحجاز يؤنثون النحل ، والمعنى سخرها لما خلقها له وألهمها رشدها وقدر في نفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر ، وذلك أن النحل تبني بيوتاً على شكل مسدس من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ، ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الأشكال لكان فيها فرج خالية ضائعة ، ولما حصل المقصود فألهمها الله تعالى أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة خالية .

وألهمها أيضا أن يجعلوا عليهم أميراً كبيراً نافذ الحكم فيهم ، وهم يطيعونه ويمتثلون أمره ويكون هذا الأمير أكبرهم جثة وأعظمهم خلقة ويسمى يعسوب النحل يعني ملكهم ، كذا حكاه الجوهري .

وألهمها أيضا أن جعلوا على باب كل خلية بواباً لا يمكن غير أهلها من الدخول اليها ؛ وألهمها أيضا أنها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلٓهي .

ومن في من الجبال ﴿و﴾ كذا في ﴿من الشجر و﴾ كذا في ﴿مما يعرشون﴾ للتبعيض ، أي مساكن توافقها وتليق بها في كوى الجبال وتجويف الشجر وفي العروش التي يعرشها بنو آدم من الأجباح[1] والحيطان وغيرها ، وأكثر ما يستعمل فيها يكون من الخشب ، يقال عرش يعرش بكسر الراء وضمها وهما سبعيتان وبابه نصر وضرب كما في المختار .

والظاهر أن من في ﴿مما﴾ بمعنى في إذ لا معنى لكونها تبنى من بناء الناس بل الظاهر انها تبنى في بنائهم ويكون المراد من بنائهم الكوارة ومن بنائها بيتها الذي تمج فيه العسل ، فإن من المشاهد أنها تبني لها بيتاً داخل الخلية من الشمع ثم تمج فيه العسل شيئاً فشيئاً .

والظاهر أن ﴿من﴾ في الموضعين الأولين بمعنى في أيضا كما صرح به الشهاب ويكون المراد ببيوتها ما تبنيه من الشمع كما تقدم ، فالشمع تارة تبنيه في الجبال وتارة في الأشجار ، وهذا في النحل الوحشيّ ، وتارة تبنيه في الخلايا ، وهذا في النحل الأهلي فإن النحل قسمان كما ذكره الخازن .

(١) الجبح ويثلث خلية العسل الجمع أجبح وأجباح. أ هـ قاموس .

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ من للتبعيض لأنها تأكل النور من الأشجار فإذا أكلتها ﴿فاسلكي﴾ أي فادخلي ﴿سبل ربك﴾ أي الطرق التي فهمك الله وعلمك وأضافها الى الرب لأنه خالقها وملهم النحل أن تسلكها ؛ أي ادخليها لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر ، أو اسلكي ما أكلت في سبل ربك أي في مسالكه التي يستحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك أو إذا أكلت الثمار في الأمكنة البعيدة فاسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها .

﴿ذللاً﴾ حال من السبل وهي جمع ذلول أي مذللة غير متوعرة ، واختار هذا الزجاج وابن جرير ، وقيل حال من النحل ، يعني مطيعة للتسخير وإخراج العسل من بطونها . واختار هذا ابن قتيبة .

قال مجاهد : طرقاً لا يتوعر عليها مكان سلكته ، وعن قتادة قال مطيعة.. قال السدي ذليلة ﴿يخرج من بطونها﴾ مستأنفة عدل به عن خطاب النحل تعديداً للنعم وتعجيباً لكل سامع وتنبيهاً على العبر وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الضعيف الشبيه بالذباب .

﴿شراب﴾ المراد به في الآية هو العسل قاله ابن عباس ﴿مختلف ألوانه﴾ يعني أن بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أزرق وبعضه أصفر باختلاف ذوات النحل وألوانها ومأكولاتها ، وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والإزهار ويستحيل في بطونها عسلاً . وفي هذا دليل على قدرته .

وفي البيضاوي مختلف ألوانه بسبب اختلاف سن النحل أو الفصل قال الشهاب : فالأبيض لفَتِيِّها والأصفر لكهلها والأحمر لمسنها ، ولا يخفى إنه مما لا دليل عليه. انتهى . وجمهور المفسرين على أن العسل يخرج من أفواه النحل ويسيل كاللعاب وقيل من أسفلها ، وقيل لا يدري من أين يخرج منها .

﴿فيه﴾ أي في الشراب الخارج من بطون النحل وهو العسل ، والى هذا ذهب الجمهور ﴿شفاء للناس﴾ قال مجاهد : العسل فيه الشفاء وفي القرآن . وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من السلف أن الضمير راجع الى القرآن ، ويكون التقدير فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ومخالفة المرجع الواضح والسياق البين .

وعن ابن مسعود قال : ان العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وعنه مرفوعاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن »[١] وقد وردت أحاديث في كون العسل شفاء ؛ منها ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار ، وأنا أنهي أمتي عن الكي »[٢] .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إن أخي استطلق بطنه ، استطلاقاً ، قال اذهب فاسقه عسلاً ، فذهب فسقاه ثم جاء فقال : مازاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً ، فذهب فسقاه فبرأ[٣] .

---

(١) ابن ماجة كتاب الطب الباب السابع .
(٢) البخاري كتاب الطب باب ٣ رقم ٢٢٥٠ مسلم ٢٢٠٥ .
(٣) مسلم ٢٢١٧ .البخاري ٢٢٥١ .

وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء أو خاص ببعض الأمراض ، فقالت طائفة هو على العموم في كل حال ولكل أحد ؛ وقالت طائفة إن ذلك خاص ببعض الأمراض ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل انسان ، وليس هذا بأول لفظ خصص ، فالقرآن مملوء منه ، ولغة العرب يأتي فيها العام كثيراً بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام .

ومما يدل على هذا أن العسل نكرة في سياق الاثبات فلا يكون عاماً باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل الأصول ، وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل الا على أن فيه شفاء عظيماً لمرض أو أمراض لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم .

والظاهر المستفاد من التجربة ومن قوانين علم الطب انه إذا استعمل مفرداً كان دواء لأمراض خاصة ، وان خلط مع غيره كالمعاجين ونحوها كان مع ما خلط به دواء لكثير من الأمراض .

قلت وحديث البخاري أن أخي استطلق بطنه الحديث أوضح دليل على ما ذهبت اليه طائفة من تعميم الشفاء ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم صدق الله أي أنه شفاء ، فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الأمر بالسقيا .

وقد اعترض على هذا الحديث بعض الملحدين ومن في قلبه مرض بكونه خلاف ما أجمع عليه الأطباء من أن العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال وأجاب عنه الخازن على الطريق الجاري على صناعة الطب وأورده الشيخ سليمان الجمل ثم قال : ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الأطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك انتهى .

وعن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلا حتى الدمل إذا خرج طلى عليه العسل ، وعن أبي وجرة أنه كان يكتحل

بالعسل ويستنشق ويتداوى به ذكره القرطبي ، وفي الباب آثار عن جماعة من السلف .

وقال البيضاوي : شفاء للناس إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الأمراض إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه ، وقيل أن هذا القول خرج مخرج الأغلب وأنه في الأغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس ولكل داء لكنه في الجملة دواء ، وأن نفعه أكثر من مضرته ومنافعه كثيرة جداً ، قال السدي : شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه ، وبالجملة فهو من أعظم الأغذية وأنفع الأدوية وقليلاً ما يجتمع هذان الأمران في غيره .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من أمر النحل ﴿لآية لقوم يتفكرون﴾ أي يعملون أفكارهم عند النظر في صنيع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته فإن أمر النحل من أعجبها وأغربها وأدقها وأحكمها ، ومن تدبر إختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعاً أنه لا بدّ له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه .

ولما ذكر سبحانه بعض أحوال الحيوان وما فيها من عجائب الصنعة الباهرة وخصائص القدرة القاهرة أتبعه بعجائب خلق الانسان وما فيه من العبر فقال ﴿والله خلقكم﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثم يتوفاكم﴾ عند إنقضاء آجالكم إما صبياناً وإما شباباً وإما كهولاً ﴿ومنكم من يرد الى أرذل العمر﴾ أي أضعفه وأرداه وأخسه وهو الهرم يقال رذل يرذل رذالة والأرذل والرذالة أردأ الشيء وأخسه وأحقره وأوضعه .

قال النيسابوري : إن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الانسان في أربع :

أولها : سن النشوء والنماء وهو من أول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب وبلوغ الأشد .

وثانيها : سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين الى أربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل .

وثالثها : سن الكهولة وهو من الأربعين الى الستين وهذه المرتبة تسرع الانسان الى النقص لكنه يكون النقص خفياً لا يظهر .

ورابعها: سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص ويكون الهرم والخرف .

قال علي أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون وقيل تسعون سنة قاله قتادة ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ وعن السدي قال : هو الخرف ، وعن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر ؛ وعن طاووس العالم : لا يخرف وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح وغيره أنه كان يتعوذ بالله أن يرد الى أرذل العمر[1] .

ثم علّل سبحانه رد من يرده الى أرذل العمر بقوله ﴿لكيلا﴾ اللام لام التعليل وكي حرف مصدر ونصب ولا نافية ، وقيل اللام هنا للصيرورة والعاقبة ﴿يعلم بعد علم﴾ كان حصل له ﴿شيئاً﴾ منه لا كثيراً ولا قليلاً أو شيئاً من المعلومات اذا كان العلم هنا بمعنى المعلوم ، وقيل المراد بالعلم هنا العقل ؛ وقيل المراد لئلا يعلم زيادة على علمه الذي قد حصل له قبل ذلك ، وقيل لكي يصير كالصبي الذي لا عقل له .

وقال الزجاج : المعنى وإن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفاً فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على إماتته واحيائه قادر على نقله من العلم الى الجهل وأنه قادر على احيائه بعد إماتته فيكون ذلك دليلاً على صحة البعث بعد الموت .

﴿إن الله عليم﴾ بحكم التحويل الى الأرذل من الأكمل أو الى الإفناء من الإحياء ﴿قدير﴾ على تبديل ما يشاء من الأشياء وعلى ما يريد .

---

(١) مسلم ٢٧٠٦ ـ البخاري ١٣٥٠ .

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

ثم لما بيَّن سبحانه خلق الإنسان وتقلبه في أطوار العمر ذكر طرفاً من أحواله لعله يتذكر عند ذلك فقال ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك ، أي فجعلكم متفاوتين فيه فوسع على بعض عباده وبسط حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلفة من بني آدم ، وضيقه على بعض عباده وقتر حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفف لهم ، وكثَّر لواحد وقلَّل على واحد ، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها والاطلاع على حقيقة أسبابها .

وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم والفهم والخلق والخلق والجهل وقوة البدن وضعفه والحسن والقبح والصحة والسقم وغير ذلك من الأحوال ، وعن ابن عباس في الآية قال : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني ، وعن مجاهد قال : هذا مثل لآلهة الباطل مع الله ، وقيل معنى الآية أن الله سبحانه أعطى الموالي أفضل مما أعطى مماليكهم بدليل قوله .

﴿فما الذين فُضلوا﴾ أي فما الذين فضلهم الله بسعة الرزق على غيرهم كالموالي والسادة ﴿برادّي رزقهم﴾ الذي رزقهم الله إياه ﴿على ما ملكت أيمانهم﴾ من المماليك ﴿فهم﴾ أي المالكون المماليك ﴿فيه﴾ أي في الرزق ﴿سواء﴾ أي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فالفاء على هذا للدلالة على ان

التساوي مترتب على التَّرادّ أي لا يردونه عليهم رداً مستتبعاً للتساوي ، وإنما يردون عليهم منه شيئاً يسيراً .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعبدة الأصنام كما تقدم والمعنى إذا لم يكونوا عبيدكم معكم سواء ولا ترضون بذلك فكيف تجعلون عبيدي معي سواء ، والحال ان عبيدكم مساوون لكم في البشرية والمخلوقية فلما لم تجعلوا عبيدكم مشاركين لكم في أموالكم فكيف تجعلون بعض عباد الله سبحانه شركاء له فتعبدونهم معه أو كيف تجعلون بعض مخلوقاته كالأصنام شركاء له في العبادة ذكر معنى هذا ابن جرير .

ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ وفي هذه الجملة أوجه **(أحدها)** تقديره أفهم فيه سواء ومعناه النفي أي ليسوا مستوين فيه (والثاني) أنها إخبار بالتساوي أي إنما هو رزقي أجريته على أيديهم فهم فيه سواء : قال أبو البقاء : إنها واقعة موقع فعل تقديره يستووا ، وقيل أن الفاء في « فهم » بمعنى حتى .

﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الشرك . والنعمة هي كونه سبحانه جعل المالكين مفضلين على المماليك وقراءة الغيبة أولى لقرب المخبر عنه ، ولأنه لو كان خطاباً لكان ظاهره للمسلمين والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع والفاء للعطف على مقدر أي أيشركون به فيجحدون نعمته .

ويكون المعنى على قراءة الخطاب أن المالكين ليسوا برادّي رزقهم على مماليكهم بل أنا الذي أرزقهم وإياهم فلا تظنوا أنهم يعطونهم شيئاً وإنما هو رزقي أجريه على أيديهم جميعاً وهم في ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم ،

فيكون المعطوف عليه المقدر فعلا يناسب هذا المعنى كأن يقال ألا تفهمون ذلك فتجحدون نعمة الله .

ثم ذكر سبحانه الحالة الأخرى من أحوال الإنسان فقال ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ قال المفسرون : يعني النساء فإنه خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام . قال قتادة : خلق آدم ثم خلق زوجته منه أو المعنى خلق لكم من جنسكم أزواجاً لتستأنسوا بها لأن الجنس يأنس الى جنسه ويستوحش من غير جنسه ، وبسبب هذه الأنسة يقع بين الرجال والنساء ما هو سبب للنسل الذي هو المقصود بالزواج ولم يذكر البنات لكراهيتهم لهن فلم يمتن عليهم ألا بما يحبونه ولهذا قال ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ جمع حافد يقال حفد يحفد حفداً وحفوداً إذا أسرع فكل من أسرع في الخدمة فهو حافد ومنه اليك نسعى ونحفد أي نسرع الى طاعتك .

قال أبو عبيدة : الحفد العمل والخدمة ، وهذا أصله في اللغة قال الخليل ابن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم والأعوان . وبه قال الحسن وعكرمة والضحاك . وقال الأزهري : قيل الحفدة أولاد الأولاد وروي هذا عن ابن عباس والحفيد ولد الابن ذكراً كان أو انثى وولد البنت كذلك .

وتخصيصه بولد الذكر وتخصيص ولد الأنثى بالسبط عرف طارىء على أصل اللغة ، وقيل الحفدة الأختان قاله ابن مسعود وعلقمة وأبو الضحى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي ، وقيل الحفدة الأصهار .

قال الأصمعي : الختن من كان من قبل المرأة كابنها وأخيها وما أشبههما والأصهار منهما جميعا ، يقال أصهر فلان الى بني فلان فهو صاهر ، وقيل هم أولاد إمرأة الرجل من غيره وقيل أولاد الرجل الذين يخدمونه وقيل البنات الخادمات لأبيهن.

وكل هذه الأقوال متقاربة لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك ؛ ورجح كثير من العلماء أنهم أولاد الأولاد لأنه سبحانه امتن على عباده بأن جعل لهم من الأزواج بنين وحفدة فالحفدة في الظاهر معطوفون على البنين وإن كان يجوز أن يكون المعنى جعل لكم من أزواجكم بنين وجعل لكم حفدة ولكن لا يمتنع على هذا المعنى الظاهر أن يراد بالبنين من لا يخدم وبالحفدة من يخدم الأب منهم أو يراد بالحفدة البنات فقط ، ولا يفيد أنهم أولاد الأولاد إلا إذا كان تقدير الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة .

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التي تستطيبونها وتستلذونها من أنواع الأثمار والحبوب والحيوان والأشربة المستطابة الحلال من ذلك كله ، ومن للتبعيض لأن الطيبات لا تكون مجتمعة إلا في الجنة والمرزوق في الدنيا أنموذج منها .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر أي أيكفرون بالله فيؤمنون بالباطل ، وفي تقديم بالباطل على الفعل دلالة على أنه ليس لهم ايمان إلا به والباطل هو اعتقادهم في أصنامهم أنها تضر وتنفع ، وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة ونحوهما .

﴿وبنعمة الله﴾ أي ما أنعم به عليهم مما لا يحيط به حصر ﴿هم يكفرون﴾ بإضافتها الى غيره ، وفي تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل دليل على أن كفرهم مختص بذلك لا يتجاوزه لقصد المبالغة والتأكيد ، وعن ابن جريج الباطل هو الشيطان ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ويعبدون من دون الله﴾ داخل تحت الإنكار التوبيخي انكاراً منه سبحانه عليهم حيث يعبدون الأصنام وهي لا تنفع ولا تضر، ولهذا قال ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ المعنى إن هؤلاء الكفار يعبدون معبودات لا تملك لهم رزقاً أي رزق كائناً منهما.

عن قتادة قال: هذه الأوثان التي تعبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقاً من السموات والأرض ولا خيراً ولا حياة ولا نشوراً، وفي شيئا ثلاثة أوجه:

أحدها: إنه منصوب على المصدر، أي لا يملك لهم ملكاً، أي شيئاً من الملك.

والثاني: إنه بدل من رزقاً، وهذا غير مفيد، إذ ليس فيه بيان ولا تأكيد.

والثالث: إنه منصوب برزقاً على إنه اسم مصدر وهو يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك، وبه قال الفارسي. ورد عليه ابن الطراوة بأن الرزق اسم المرزوق كالرعي والطحن، ورد عليه بأن الرزق أيضاً مصدر.

﴿ولا يستطيعون﴾ الضمير راجع الى ﴿ما﴾ وجمع جمع العقلاء بناء على

زعمهم الباطل ، والفائدة في نفي الاستطاعة عنهم أن من لا يملك شيئاً قد يكون موصوفاً بإستطاعة التملك بطريق من الطرق ، فبيَّن سبحانه أنه لا يملك ولا يستطيع وقيل الضمير للكفار والمعنى لا يستطيع هؤلاء الكفار مع كونهم أحياء متصرفين فكيف بالجمادات التي لا حياة لها ولا تستطيع التصرف .

ثم نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه فقال ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، قاله قتادة ، فإن ضارب المثل يشبه حالاً بحال وقصة بقصة .

قال الزجاج : لا تجعلوا لله مثلاً فإنه واحد لا مثيل له ، وكانوا يقولون إن إلّه العالم أجلَّ من أن يعبده الواحد منا فكانوا يتوسلون الى الأصنام والكواكب كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك وعلَّل النهي بقوله ﴿ان الله﴾ علم ﴿يعلم﴾ ما عليكم من العبادة ﴿وانتم لا تعلمون﴾ ما في عبادتها من سوء العاقبة والتعرض لعذاب الله سبحانه أو أنه تعالى يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمون فدعوا رأيكم دون نصه .

ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال فإنه يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ، أو أنتم لا تعلمون بشيء من ذلك ، وفعلكم هذا هو عن توهم فاسد وخاطر باطل وخيال مختل .

وعن ابن عباس قال : يعني اتخاذهم الأصنام ، يقول لا تجعلوا معي إلّهاً غيري فإنه لا إلّه غيري ، ثم علمهم كيفية ضرب الأمثال في هذا الباب فقال :

﴿ضرب الله مثلاً﴾ أي ذكر شيئاً يستدل به على تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه وبينَّ ما جعلوه شريكاً له من الأصنام ، والمثل في الحقيقة هي حالة للعبد عارضة له وهي المملوكية والعجز عن التصرف ، فقوله ﴿عبداً﴾ تفسير للمثل وبدل منه ووصفه بكونه ﴿مملوكاً﴾ لأن العبد والحر مشتركان في

كون كل واحد منهما عبداً لله سبحانه ووصفه بكونه ﴿لا يقدر على شيء﴾ لأن المكاتب والمأذون يقدران على بعض التصرفات ، فهذا الوصف لتمييزه عنهما ، واحتج الفقهاء بهذا على أن العبد لا يملك شيئاً .

﴿ومن﴾ أي الذي ، وقيل موصوفة ، واختاره الزمخشري كأنه قيل وحراً من الأحرار الذين يملكون الأموال ويتصرفون بها كيف شاءوا ﴿رزقناه﴾ ليطابق عبداً ﴿منا﴾ أي من جهتنا ﴿رزقاً حسناً﴾ والمراد به أنه مما يحسن في عيون الناس لكونه رزقاً كثيراً مشتملاً على أشياء مستحسنة نفيسة تروق الناظرين اليها ﴿فهو ينفق منه﴾ في وجوه الخير ويصرف منه الى أنواع البر والمعروف ﴿سراً وجهراً﴾ أي في حال السر وحال الجهر ، والمراد بيان عموم الانفاق للأوقات وتقديم السر على الجهر مشعر بفضيلته عليه وان الثواب فيه أكثر .

﴿هل يستوون﴾ أي الحر والعبد الموصوفان بالصفات المتقدمة ، وجمع الضمير لمكان ﴿من﴾ لأنه اسم مبهم يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ، وقيل إنه أريد بالعبد ، والموصول الذي هو عبارة عن الحر الجنس أي من اتصف بتلك الأوصاف من الجنسين ، والاستفهام للانكار أي هل يستوي العبيد والأحرار مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر ، ومن المعلوم أنهم لا يستوون فكيف يجعلون لله سبحانه شركاء لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ويجعلونهم مستحقين للعبادة مع الله سبحانه .

وحاصل المعنى إنه كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجل حر قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه ، كذلك لا يستوي الرب الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي تعبدونها وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، وقيل المراد بالعبد المملوك في الآية هو الكافر المحروم من طاعة الله وعبوديته ، والآخر هو المؤمن . وقال ابن عباس بمعناه بأطول من هذا ، والغرض إنهما لا يستويان في الرتبة والشرف .

وقال عطاء : هما أبو جهل بن هشام وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقيل العبد هو الصنم والثاني عابد الصنم ، والمراد انهما لا يستويان في القدرة والتصرف لأن الأول جماد والثاني إنسان .

﴿الحمـد﴾ كله ﴿لله﴾ وحده حمـد نفسه لأنـه المنعم المستحق لجميع المحامد لا يستحق غيره من العباد شيئاً منه فكيف تستحق الأصنام منه شيئاً ولا نعمـة منها أصـلاً لا بالاصـالة ولا بـالتوسط ، وقيـل أراد الحمد لله عـلى مـا أنعم به على اوليائه من نعمة التوحيد ، وقيل أراد قل الحمد لله ، والخطاب إما لمحمد صلى الله عليه وسلم أو لمن رزقه الله رزقاً حسناً ، وقيل إنه لما ذكر مثلاً مطابقاً للغرض كاشفاً عن المقصود قال الحمد لله أي على قوة هذه الحجة .

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك حتى يعبدوا من تحق له العبادة ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة ، ونفى العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم أو هم يتركون الحق عناداً مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له وخص الاكثر بنفي العلم إما لكونه يريد الخلق جميعاً وأكثرهم المشركون أو ذكر الأكثر وهو يريد الكل ، أو المراد أكثر المشركين لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم .

ثم ذكر سبحانه مثلا ثانياً ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع فقال ﴿وضرب الله مثلاً﴾ آخر أوضح مما قبله وأظهر منه ﴿رجلين﴾ بدل من مثل وتفسير له ﴿احدهما أبكم﴾ **أي العييّ المفحم**، وقيل هو الأقطع اللسان الذي لا يحسن الكلام ، وقيل هو الذي ولد أخرس ، فكل أبكم أخرس ، وليس كل أخرس أبكم ، وروى ثعلب عن ابن الاعرابي أنه الذي لا يسمع ولا يبصر .

ثم وصف الأبكم فقال ﴿لا يقدر على شيء﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، وهو إشارة الى العجز التام

والنقصان الكامل ﴿وهو كل﴾ أي ثقيل ﴿على مولاه﴾ أي على وليه وقرابته وعيال على من يلي أمره ويعوله ووبال على إخوانه ، وقد يسمى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ، وفي هذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقاً .

ثم وصفه بصفة رابعة فقال ﴿أينما يوجهه﴾ أي يرسله ويصرفه في طلب الحاجة أو كفاية المهم ﴿لا يأت بخير﴾ قط لأنه عاجز أخرس لا يفهم ولا يعقل ما يقال له ولا يمكنه أن يقول ﴿هل يستوي هو﴾ في نفسه مع هذه الأوصاف التي اتصف بها .

﴿ومن يأمر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ مع كونه في نفسه ينطق بما يريد النطق به ويفهم ويقدر على التصرف في الأشياء وهو سليم الحواس نفاع ذو كفاية ورشد وديانة ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ أي على دين قويم وسيرة صالحة ليس فيه ميل الى أحد جانبي الإفراط والتفريط .

وإنما قابل الأوصاف الأول بهذين الوصفين المذكورين للآخر لأن حاصل أوصاف الأول عدم استحقاقه لشيء ، وحاصل وصفي هذا أنه مستحق أكمل استحقاق ، والمقصود الإستدلال بعدم تساوي هذين الأمرين على امتناع التساوي بينه سبحانه وبين ما يجعلونه شريكاً له ، قال ابن عباس : يعني بالأبكم الكافر وبالآمر بالعدل المؤمن .

وهذا المثل في الأعمال ، وعلى هذا تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر ، وقيل هي على الخصوص ، والذي يأمر بالعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم والأبكم هو أبو جهل وقيل الأبكم أبي بن خلف والآمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون .

وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان ومولى له كافر ، وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما .

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا
تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾

ولما فرغ سبحانه من ذكر المثلين مدح نفسه بقوله ﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ أي يختص ذلك به لا يشاركه فيه غيره ولا يستقل به ، والمراد علم ما غاب عن العباد فيهما ، أو أراد بغيبهما يوم القيامة لأن علمه غائب عن العباد ومعنى الإضافة اليهما التعلق بهما ، والمراد التوبيخ للمشركين والتقريع لهم ، أي أن العبادة إنما يستحقها من كانت هذه صفته لا من كان جاهلاً عاجزاً لا يضر ولا ينفع ولا يعلم بشيء من أنواع العلم .

﴿وما أمر الساعة﴾ التي هي أعظم ما وقعت فيه المماراة من الغيوب المختصة به سبحانه ، وهو إماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين وتبديل صور الأكوان أجمعين ، أو المعنى ما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته ﴿إلا كلمح البصر﴾ أي كرجع طرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ، وإنما ضرب به المثل لأنه لا يعرف زمان أقل منه ، واللمح النظر بسرعة ولا بدّ فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي وكل زمان قابل للتجزئة ولذا قال .

﴿أو هو﴾ أي بل أمرها ﴿أقرب﴾ منه بأن يكون من زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي تبتدأ فيه ، فإن الله تعالى يحيي الخلق دفعة ، وما يوجد دفعة كان في آن أي جزء غير منقسم .

وليس هذا من قبيل المبالغة بل هو كلام في غاية الصدق ، لأن مدة ما

بين الخطاب وقيام الساعة متناهية ، ومنها الى الأبد غير متناه ، ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي أو يقال إن الساعة لما كانت آتية ولا بد جعلت في القرب كلمح البصر وقال الزجاج : لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ، وإنما وصف سرعة القدرة على الاتيان بها لأنه يقول للشيء كن فيكون .

وقيل المعنى هي عند الله كذلك وإن لم تكن عند المخلوقين بهذه الصفة ، ومثله قوله سبحانه ﴿انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ ولفظ ﴿أو﴾ ليس للشك بل للتمثيل أو للتخيير ، وقيل دخلت لشك المخاطب ، وقيل هي بمنزلة بل ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته .

ثم أنه سبحانه ذكر حالة أخرى للإنسان دالّة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ معطوف على قوله والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً منتظم معه في سلك أدلة التوحيد أي أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء ولا تعلمون شيئاً مما أُخذ عليكم من الميثاق وقيل مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة ، وقيل شيئاً من منافعكم والأولى التعميم لتشمل الآية هذه الأمور وغيرها اعتباراً بعموم اللفظ فإن شيئاً نكرة واقعة في سياق النفي .

﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي ركب فيكم هذه الأشياء وليس فيه دلالة على تأخير هذا الجعل عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو مطلق الجمع والمعنى جعل لكم هذه الأشياء لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوباً عنكم عند اخراجكم من بطون أمهاتكم وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه .

ونكتة تأخيره أن السمع ونحوه من آلات الإدراك إنما يعتد به إذا أحس وأدرك ، وذلك بعد الاخراج وقدم السمع على البصر لأنه طريق تلقي الوحي

أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب منزل منه بمنزلة القلب من الصدر ، وقد قدمنا الوجه في افراد السمع وجمع الأبصار والافئدة وهو أن افراد السمع لكونه مصدراً في الأصل يتناول القليل والكثير ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لكي تصرفوا كل آلة فيها خلقت له فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر .

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته فقال ﴿ألم يروا الى الطير مسخرات﴾ أي ألم ينظروا اليها حال كونها مذللات للطيران ، بما خلق الله لها من الأجنحة وسائر الأسباب المؤاتية لذلك كرقة قوام الهواء والهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء ﴿في جو السماء﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو واضافته الى السماء لكونه في جانبها قال كعب أن الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلاً ولا ترتفع فوق ذلك .

﴿ما يمسكهن﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن في الجوّ ﴿إلا الله﴾ سبحانه بقدرته الباهرة فإن ثقل أجسامها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها لأنها لم تتعلق بشيء من فوقها ولا اعتمدت على شيء تحتها ﴿ان في ذلك﴾ التسخير على تلك الصفة ﴿لآيات﴾ ظاهرة تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته الباهرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه وبما جاءت به رسله من الشرائع التي شرعها .

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾

﴿والله جعل﴾ أي صيَّر أو خلق ﴿لكم من بيوتكم﴾ التي هي من الحجر والمدر وغيرهما ومن ابتدائية ﴿سكنا﴾ مصدر يوصف به الواحد والجمع واليه ذهب ابن عطية ومنعه الشيخ ولم يذكر وجه المنع وهـو بمعنى مسكون أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة وهذا من جملة تعديد الله نعمه على الانسان فإن الله سبحانه لو شاء لخلق العبد مضطرباً دائماً كالأفلاك ولو شاء لخلقه ساكناً أبداً كالأرض .

﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ لما ذكر سبحانه بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة وهي الانطاع والأدم جعلها بيوتاً كالخيام والقباب والأخبية والفساطين ، قال مجاهد وهي خيـام العرب وقيل ذلك في بعض الناس كالسودان فإنهم يتخذون خيامهم من الجلود ويجوز أن يتناول المتخذة من الصوف والوبر والشعر فإنها من حيث أنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها .

﴿تستخفونها﴾ أي يخف عليكم حملها في الأسفار وغيرها ولهذا قال ﴿يوم ظعنكم﴾ أي في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم ، والظعن بفتح العين وسكونها وهما لغتان قرىء بهما كالنهر والنهر وهو سير أهل البادية للانتجاع

والتحول من موضع الى موضع والظعن الهودج أيضاً ، قال ابن عباس : بعض بيوت السيارة بنيانه في ساعة .

﴿ويوم اقامتكم﴾ أي حضركم والمعنى لا يثقل عليكم حملها في الحالين ﴿و﴾ جعل لكم ﴿من أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾ والأنعام تعم الإبل والبقر والغنم كما تقدم والأصواف للغنم والأوبار للإبل والأشعار للمعز وهي من جملة الغنم فيكون ذكر هذه الثلاثة على وجه التنويع كل واحد منها لواحد من الثلاثة أعني الإبل ونوعي الغنم ولم يذكر القطن والكتان لأنها لم يكونا ببلاد العرب .

﴿أثاثاً﴾ هو متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث أي كثير مجتمع يقال أث أي كثر وتكاثف ، وقيل للمال أثاث إذا كثر ، قال الخليل : اثاثاً أي منضماً بعضها الى بعض من أث إذا كثر .

قال الفراء : لا واحد له ﴿ومتاعاً﴾ هو ما يتمتع به بأنواع التمتع ، قال الخليل : الأثاث والمتاع واحد وجمع بينهما لاختلاف لفظيهما وعلى قول أبي زيد الانصاري أن الأثاث المال أجمع الإبل والغنم والعبيد ، والمتاع يكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام .

وقيل إن الأثاث ما يكتسي به الانسان ويستعمله من الغطاء والوطاء ، والمتاع ما يفرش في المنازل من الفرش والأكسية ويتزين به ، ومعنى ﴿الى حين﴾ الى أن تقضوا أوطاركم منه أو الى أن يبلى ويفنى أو الى الموت أو الى القيامة .

ثم لما كان الإنسان قد لا يكون له خيام أو أبنية يستظل بها لفقر أو لعارض آخر فيحتاج الى أن يستظل بشجر أو جدار أو غمام أو نحو ذلك ، نبه سبحانه على ذلك فقال ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ أي أشياء تستظلون بها من شدة الحر والبرد كالأشياء المذكورة وهي ظلال الأبنية والجدران والأشجار والحاصل أن الظلال تعم الأشياء التي تظل ثم لما كان

المسافر قد يحتاج الى كن يأوي اليه في نزوله والى ما يدفع به عن نفسه آفات الحر والبرد نبه سبحانه على ذلك فقال :

﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ جمع كن وهو ما يستكن به من المطر وشدة الحر والبرد وفي المختار الكن السترة والجمع أكنان والأكنة الأغطية ، وقال الكسائي كن الشيء ستره وبابه رد ، وفي القاموس الكن بالكسر وقاء كل شيء وستره كالكنة والكنان كسرهما والكن البيت جمعه أكنان وأكنة وكنه كناً وكنوناً وأكنه وكننه واكتنه ستره واستكن استتر كاكتن والكنة جناح يخرج من حائط او سقيفة فوق باب الدار أو ظله هنالك او مخدع انتهى .

وهي هنا الغيران والأسراب في الجبال ونحوه جعلها الله سبحانه عدة للخلق يأوون اليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها لأن الإنسان غني أو فقير فالغني يستصحب معه الخيام في سفره ليسكن فيها ، واليه الإشارة في الآية المتقدمة ، والفقير يسكن في ظلال الأشجار والحيطان والكهوف والى هذه الإشارة في هذه الآية وكانت بلاد العرب شديدة الحرارة وحاجتهم الى الظلال وما يدفع شدة الحر وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنانعليهم بها لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة .

﴿وجعل لكم سرابيل﴾ جمع سربال وهي القمصان والثياب من الصوف والقطن والكتان وغيرها ، قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال ﴿تقيكم الحر﴾ أي تدفع عنكم ضرر الحر والبرد وهو ما عليه أكثر المفسرين من أنه من حذف المعطوف للعلم به .

قال الشهاب في الريحانة في الآية نكتة لطيفة لم ينبهوا عليها وهو أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ثم إن ما يقي الحر يحصل به برودة في الهواء في الجملة فوقاية الحر إنما هي لتحصيل البرد ، وهذا فيه من اللطف ما هو ألطف من النسيم ، فلِلّه در التنزيل فكم فيه من أسرار لا تتناهى انتهى ، ونظيره بيدك الخير أي والشر لأن

الخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر أو لتقدم وقاية البرد في قوله لكم فيها دفء.

﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ وهي الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في الحرب من السلاح تتقون بها الطعن والضرب والرمي والمعنى انها تقيكم البأس الذي يصل من بعضكم الى بعض في الحرب ﴿كذلك﴾ الإتمام البالغ ﴿يتم نعمته عليكم﴾ فإنه سبحانه قد منَّ على عباده بصنوف النعم المذكورة هنا وبغيرها وهو بفضله واحسانه سيتم نعمة الدين والدنيا ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي إرادة أن تسلموا فإن من أمعن النظر في هذه النعم لم يسعه إلا الإسلام والانقياد للحق.

وقرأ ابن عباس وعكرمة من السلامة من الجراح، وقرأ الباقون من الإسلام قال أبو عبيد: والاختيار قراءة العامة لأن ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح، وقيل الخطاب لأهل مكة أي لعلكم ياأهل مكة تخلصون لله الربوبية والحمل على العموم أولى وافرد النعمة هنا لأن المراد بها المصدر.

﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا ما جئت به فقد تمهد عذرك وفيه التفات وجواب الشرط محذوف أي فلا لوم عليك وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم والتعبير بالتولي إشارة الى أن الأصل فطرة الإسلام وخلافها عارض متجدد والمعنى إن داموا على التولي لظهور توليهم.

﴿فإنما عليك البلاغ﴾ لما أرسلت به اليهم وقد فعلت ذلك بهم ﴿المبين﴾ أي الواضح وليس عليك غير ذلك وصرف الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسلية له، وهذا قبل الأمر بالقتال فتكون الآية منسوخة الحكم وهو لا يظهر إلا لو قدر جواب الشرط فأعرض عنهم ولا تقاتلهم مع أن أكثر المفسرين قدروه بقولهم فلا عتب عليك ولا مؤاخذة في عدم ايمانهم لأنك بلغت ما أمرت بتبليغه وهدايتهم من الله لا اليك، وهذا لا ينافي أن يكون مأموراً بقتالهم.

يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ
نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ
مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ
ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾

ثم استأنف لبيان توليهم فقال ﴿يعرفون نعمة الله﴾ التي عدَّدها في هذه السورة ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ﴿ثم ينكرونها﴾ بما يقع عنهم من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة حيث يقولون هي من الله ولكنها بشفاعة الأصنام وحيث يقولون انهم ورثوا تلك النعم من آبائهم وأيضاً لكونهم لا يستعملون هذه النعم في مرضاة الرب سبحانه وفي وجوه الخير التي أمرهم الله بصرفها فيها ، وقيل نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم ثم ينكرون نبوته .

وقيل هي الاسلام وجيء بثم للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن من عرف النعمة حقه أن يعترف لا ان ينكر ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ بالله أو الجاحدون لنعم الله .

وعبر هنا بالأكثر عن الكل لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع واليه أشار في التقرير أو أراد بالأكثر العقلاء دون الاطفال ونحوهم أو أراد كفر الجحود ولم يكن كفر كلهم كذلك بل كان كفر بعضهم كفر جهل وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ .

ولما بيَّن سبحانه من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وان أكثرهم كافرون أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة فقال ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نبعث﴾ أي نحيي ونخرج ﴿من كل أمة شهيداً﴾ أو المعنى يوم نبعث وقعوا فيها وقعوا فيه وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالايمان والتصديق وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب .

قال ابن عباس : شهيدها نبيها ، على أنه قد بلغ رسالات ربه ، قال الله ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه وذلك اليوم هو يوم القيامة .

﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار إذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أو في كثرة الكلام أو في الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف أو في حالة شهادة الشهود ، بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود أو لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بإلقاء معذرة أو ادلاء بحجة بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك ، وايراد ﴿ثم﴾ ههنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الاقناط الكلي أشدّ من ابتلائهم بشهادة الأنبياء .

﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع الى ما يرضي الله من العبادات ، لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود الى الرضاء ، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في العتاب . والمعنى أنهم لا يسترضون أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم . لأن الآخرة ليست بدار عمل ولا تكليف ، ولا يتركون الى رجوع الدنيا فيتوبون .

وأصل الكلمة من العتب وهو الموجدة ، يقال عتب عليه يعتب اذا وجد عليه وبابه ضرب ونصر ، فإذا أفاض عليه ما عاتب فيه عليه ، قيل عاتبه فإذا

رجع الى مسرته قيل أعتبه والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العاتب قاله الهروي ، فالاستعتاب التعرض لطلب الرضاء ، وهذا باب منسد على الكفار في الآخرة .

وفي الخطيب أي لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون ؛ يقال استعتبت فلاناً أي أزلت عتباه ، انتهى . واستفعل بمعنى أفعل غير مستنكر .

قال الخليل : العتاب مخاطبة الادلال ومذاكرة الموجدة ، وعاتبه معاتبة وعتاباً واعتبه سره بعدما ساء واستعتب واعتب بمعنى واستعتب أيضاً طلب أن يعتب ، أي استرضاه فأرضاه .

﴿وإذا رأى﴾ أي أبصر ﴿الذين ظلموا﴾ أي أشركوا وكفروا ﴿العذاب﴾ الذي يستحقونه بشركهم وهو عذاب جهنم ﴿فلا يخفف﴾ ذلك العذاب ﴿عنهم ولا هم يُنظرون﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخرون ليتوبوا إذ لا توبة هنالك .

﴿وإذا رأى الذين أشركوا﴾ يوم القيامة ﴿شركاءهم﴾ مفعول به والاضافة لأدنى ملابسة باعتبار ادعائهم شركتها لله ، أي أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها في الدنيا لما تقرر من أنهم يبعثون مع المشركين ، يقال لهم من كان يعبد شيئاً فليتبعه كما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم .

﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو﴾ أي نعبدهم ونتخذهم آلهة ﴿من دونك﴾ ونطيعهم ، ولعلهم قالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم ، قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين بهذا القول حالة الذنب على تلك الأصنام تعللاً بذلك واسترواحاً مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة . ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه .

﴿فألقوا اليهم﴾ أي ألقى أولئك الشركاء من الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم الى المشركين والكفار ﴿القول﴾ وعن مجاهد قال حدثوهم وقالوا لهم ﴿إنكم﴾ أيها المشركون ﴿لكاذبون﴾ فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذي هو مقصودكم من هذا القول، أو في تسميتنا آلهة، وما دعوناكم الى عبادتنا بل عبدتم أهواءكم.

فإن قيل ان المشركين أشاروا الى الأصنام ونحوها ان هؤلاء شركاؤنا وقد كانوا صادقين في ذلك فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها.

فالجواب بأن مرادهم من قولهم هؤلاء شركاؤنا، هؤلاء شركاء الله في المعبودية فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشركة، والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق فإن الله سبحانه ينطقها في تلك الحال لتخجيل المشركين وتوبيخهم. وهذا كما قالت الملائكة بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم. قال الكرخي: إن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم لها والمنفي عنهم في الكهف النطق بالإجابة الى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافي.

﴿والقوا الى الله يومئذ السلم﴾ أي ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذاب الله والخضوع لعزته، وبه قال ابن جريج وعن قتادة نحوه، وقيل المعنى استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم، لكن الانقياد في هذا اليوم لا ينفعهم لانقطاع التكليف فيه ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ضاع وبطل وزال ما افتروا من أن لله سبحانه شركاء وما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم وأن عبادتهم لهم تقربهم الى الله سبحانه.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله﴾ أي عن طريق الحق وهي طريق الاسلام والايمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر ، وقيل المراد به الصد عن المسجد الحرام والعموم أولى .

﴿زدناهم عذاباً﴾ لأجل الاضلال لغيرهم ﴿فوق العذاب﴾ الذي استحقوه لأجل ضلالهم ، وقيل المعنى زدنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم أي أشد منه وقيل ان هذه الزيادة هي اخراجهم من حر النار الى برد الزمهرير وغير ذلك . وعن ابن مسعود قال : زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم في جهنم ، وروي مثله عن البراء مرفوعاً أخرجه الخطيب وغيره .

وقال سعيد بن جبير : حيات كالبخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها أربعين خريفاً ، وعن ابن عباس قال : خمسة أنهار من نار صبها الله عليهم يعذبون بعضها بالليل وبعضها بالنهار .

وقد روى ابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «الزيادة خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار ثلاثة انهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار ، فذلك قوله ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بصدهم الناس عن سبيل الله مع ما

يستحقونه من العذاب على الكفر .

﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً﴾ أي نبياً يشهد ﴿عليهم من أنفسهم من﴾ أي جنسهم إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة ، وهو أعدل شاهد عليها ، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد .

وقال الخطيب : كرر سبحانه التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما أفهمته الآية السابقة وهو ان الشهادة تقع على الأمم لا لهم وتكون بحضرتهم ﴿وجئنا بك﴾ يامحمد ؛ وإيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه الصلاة والسلام ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع .

﴿شهيداً﴾ تشهد ﴿على هؤلاء﴾ أي على هذه الأمم ، وقيل على أمتك وقومك ، هكذا قال الجلال ، وسنده قوله سابقاً ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ الخ ومثله في البيضاوي ، وفي الشهاب عليه ، وقيل الآية مسوقة لشهادته على الأنبياء فتخلوا عن التكرار ، ورد بأن المراد بشهادته على أمته تزكيته وتعديله لهم وقد شهدوا على تبليغ الأنبياء ، وهذا لم يعلم مما مر وهو الوارد في الحديث ، وقد تقدم مثل هذا في البقرة والنساء .

﴿ونزلنا عليك﴾ في الدنيا ﴿الكتاب﴾ أي القرآن والجملة مستأنفة ﴿تبياناً لكل شيء﴾ أي بياناً له والتاء للمبالغة فالتبيان أخص من مطلق البيان على قاعدة أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، ونظيره من المصادر التلقاء ولم يأت غيرهما وفي الأسماء كثير نحو التمساح والتمثال .

ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ومعنى كونه تبياناً لكل شيء أن فيه البيان البليغ لكثير من الأحكام والاحالة فيها بقي منها على السنة ، وأمرهم باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يأتي به من الأحكام وطاعته كما في الآيات القرآنية الدالة على ذلك .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إني أوتيت القرآن ومثله معه »[1] . وعن ابن مسعود قال : تبياناً لكل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن وعنه قال : من أراد العلم فليؤثر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين .

قال الكرخي : إما بتبيينه في نفس الكتاب أو بإحالته على السنة لقوله تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أو بإحالته على الاجماع كما قال تعالى ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ الآية . أو على القياس كما قال ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ والاعتبار النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس .

فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها وكلها مذكورة في القرآن ، فكان تبياناً لكل شيء فاندفع ما قيل ، كيف قال الله ذلك ونحن نجد كثيراً من أحكام الشريعة لم يعلم من القرآن نصاً كعدد ركعات الصلاة ومدة المسح والحيض ومقدار حد الشرب ونصاب السرقة وغير ذلك ، ومن ثم اختلفت الأمة في كثير من الأحكام . أ هـ .

وفي هذا التقرير بحث ونظر ذكر في محله فليراجعه ؛ ولذلك قال الشهاب على قول البيضاوي بالإحالة الى السنة أو القياس وفيه تأمل . انتهى . وقد احتج بهذه الآية جمع من أهل العلم على منع التقليد .

﴿وهدى﴾ للعباد من الضلالة ﴿ورحمة﴾ لهم ﴿وبشرى للمسلمين﴾ خاصة دون غيرهم ، أو يكون الهدى والرحمة والبشرى خاصة لهم لانهم المنتفعون بذلك . ثم لما ذكر سبحانه أن في القرآن تبيان كل شيء ذكر عقبه آية جامعة لأصول التكليف كلها تصديقاً لذلك فقال .

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٦٤٠ ـ تخريج المشكاة ١٦٣ .

﴿ان الله يأمر﴾ أي فيما نزله تبياناً لكل شيء وهدى وبشرى ﴿بالعدل والاحسان﴾ وإيثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدد والاستمرار ، وقد اختلف أهل العلم في تفسير العدل والإحسان ، فقيل العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض . وقيل العدل الفرض والاحسان النافلة .

وقيل العدل استواء العلانية والسريرة والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية ، وقيل العدل التوحيد والاحسان التفضل ، وقيل العدل خلع الانداذ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .

وقيل العدل التوحيد والاحسان الاخلاص ، وقيل العدل في الأفعال والإحسان في الأقوال فلا يفعل إلا ما هو عدل ولا يقول إلا ما هو حسن . وقيل غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره ، والعدل هو المساواة في كل شيء من غير شطط ولا وكس .

والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي وهو التوسط بين طرفي الافراط والتفريط فمعنى أمره سبحانه بالعدل أن تكون عبادة في الدين على حالة متوسطة ليست بمائلة الى جانب الافراط وهو الغلو المذموم في الدين ولا الى جانب التفريط وهو الإخلال بشيء مما هو من أمر الدين اعتقاداًكالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك ، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير .

وأما الاحسان فمعناه اللغوي يرشد الى أنه التفضل بما لم يجب كصدقة التطوع ، ومن الاحسان فعل ما يثاب عليه العبد مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها ولم يذكر متعلقات العدل والاحسان والبغي ليعم جميع ما يعدل فيه ويحسن به واليه وينبغي فيه وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم انه فسر الإحسان بأن يعبد الله العبد حتى كأنه يراه فقال في حديث ابن عمر في الصحيحين « والاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] وهذا هو المعنى بالإحسان شـرعـاً .

﴿وايتاء ذي القربى﴾ ما تدعو اليه حاجتهم وفي الآية ارشاد الى صلة الأقارب والأرحام وترغيب في التصدق عليهم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ان كان اعطاء الأقارب قد دخل تحت العدل والاحسان ، وقيل من باب عطف المندوب على الواجب ، ومثل هذه الآية قوله ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ وانما خص ذوي القربى لأن حقهم آكد فان الرحم قد اشتق الله اسمها من اسمه الشريف وجعل صلتها من صلته وقطيعتها من قطيعته فيستحب أن يصلهم من فضل ما رزقه الله فإن لم يكن له فضل فدعاء حسن وتودد .

﴿وينهى عن الفحشـاء﴾ هي الخصلة المتـزايـدة في القبح من قـول أو فعـل ، وقيل هي الزنا وقيل البخل ﴿والمنكر﴾ وهو ما أنكره الشرع بالنهي عنه وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها ، وقيل هو الشرك ﴿والبغي﴾ قيل هو الكبر، وقيل هو الظلم وقيل الحقد وقيل التعدي ، وحقيقتـه تجاوز الحـد فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع اقسامه تحت المنكر وإنما خص بالذكر اهتماماً به لشدة ضـرره ووبـال عاقبته وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله سبحانه ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ وهذه الآية من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعن عبدالملك بن عمير أن هذه الآية لما بلغت أكثم بن صيفي حكيم العرب قال اني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ثم قال لقومه كونوا في هذه الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناباً وكونوا فيه أولاً ولا تكونوا فيه آخـــراً .

---

(١) مسلم/ ٨.

وعن ابن عباس قال : أعظم آية في كتاب الله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر التي في النحل ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان﴾ وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ، وأشد آية في كتاب الله رجاء ﴿يا عبادي﴾ الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية .

وعن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له : يا ابن أخي أعد عليّ فأعادها عليه فقال له الوليد والله إن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر ، وعن الحسن انه قرأ هذه الآية الى آخرها ؛ ثم قال : إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك العدل والاحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً الا جمعه وزجر عنه .

وفي المستدرك عن ابن مسعود وهذه أجمع آية في القرآن للخير والشر ، قال البيضاوي : وبسببها أسلم عثمان بن مظعون ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة ولعل إيرادها عقب قوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ للتنبيه عليه .

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله ﴿يعظكم﴾ بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي إرادة أن تتذكروا ما ينبغي تذكره فتتعظوا بما وعظكم الله به فإنه كاف في باب الوعظ والتذكير.

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ
جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي
نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن
تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا
كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم﴾ خص الله سبحانه الايفاء من جملة المأمورات التي تضمنها قوله ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان﴾ وظاهرة العموم في كل عهد يقع من الانسان من غير فرق بين عهد البيعة وغيره ، وخص هذا العهد المذكور في الآية بعض المفسرين بالعهد الكائن في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام وهو خلاف ما يفيده العهد المضاف الى اسم الله سبحانه من العموم الشامل لجميع عهود الله ، ولو فرض ان السبب خاص بعهد من العهود لم يكن ذلك موجباً لقصره على السبب فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفسره بعضهم باليمين وهو مدفوع بذكر الوفاء بالايمان بعده حيث قال سبحانه :

﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ أي بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها بزيادة الاسماء والصفات ، وقيل ان تأكيد اليمين هو حلف الانسان على الشيء الواحد مراراً ، وحكى القرطبي عن ابن عمر أن التوكيد هو ان يحلف مرتين فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه .

وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالايمان المؤكدة لا بغيرها مما لا تأكيد فيه فإن تحريم النقض يتناول الجميع ، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من

الاثم فوق الاثم الذي في نقض ما لم يؤكد منها ، يقال وكد وأكد توكيداً وتأكيداً وهما لغتان .

وقال الزجاج : الاصل الواو والهمزة بدل منها ، وقيل ليست الهمزة بدلاً من الواو كما زعمه أبو اسحاق لأن الاستعمالين في المادتين متساويان فليس ادعاء كون أحدهما أصلاً أولى من الآخر وتبع مكي الزجاج في ذلك ثم قال ولا يحسن ان يقال الواو بدل من الهمزة ولذلك تبعه الزمخشري ايضاً.

وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه »[1] حتى بالغ في ذلك صلى الله عليه وسلم فقال « والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني »[2] وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيحين وغيرهما ويخص أيضاً من هذا العموم يمين اللغو لقوله سبحانه ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لاخراج أيمان اللغو وقد تقدم بسط الكلام على الايمان في البقرة .

﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ أي شهيداً إما على التشبيه فهو استعارة أو باستعماله في لازم معناه فهو مجاز مرسل ، وقيل حافظاً ، وقيل ضامناً وقيل رقيباً لأن الكفيل يراعي حال المكفول له ﴿ان الله يعلم ما تفعلون﴾ من وفاء العهد ونقضه فيجازيكم بحسب ذلك ان خيراً فخير وان شراً فشر وفيه ترغيب وترهيب .

ثم أكد وجوب الوفاء تحريم النقض فقال ﴿ولا تكونوا﴾ فيما تصنعون

(١) مسلم ١٦٥٠ .
(٢) مسلم ١٦٤٩ ـ البخاري ١٤٧٦ .

من النقض بعد التوكيد ﴿كالتي نقضت غزلها﴾ أي ماغزلته ﴿من بعد قوة﴾ أي ابرام الغزل وإحكامه . عن ابن عباس ان سعيدة الاسدية كانت تجمع الشعر والليف فنزلت فيها هذه الآية ، وعن أبي بكر بن حفص مثله وفي الروايتين جميعاً أنها كانت مجنونة ، وعن السدي في سبب نزولها قال : كانت امرأة بمكة تسمى خرقاء مكة كانت تغزل فإذا أبرمت غزلها نقضته .

وعن عبدالله بن كثير معناه ، وقيل هي امرأة حمقاء اسمها ريطة بنت سعد بن تيم قرشية فالمشبه به معين على هذا ، وفي الكرخي المراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه من غير تعيين لأن القصد بالأمثال صرف المكلف عن الفعل إذا كان قبيحاً والدعاء اليه إذا كان حسناً ، وذلك يتم بدون التعيين إذ لا يلزم في التشبيه أن يكون المشبه به موجوداً في الخارج .

﴿أنكاثا﴾ جمع نكث بكسر النون ما ينكث فتله ليغزل ثانياً بمعنى منكوث أي منقوض يقال نكث الرجل العهد نكثاً من باب قتل نقضه ونبذه فانتكث ، قال ابن قتيبة هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان فانكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً أي اقطاعاً واجزاء .

﴿تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم﴾ قال الجوهري : الدخل المكر والخديعة ، وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ، وقيل الدخل ما أدخل في الشيء على فساده ، وقال الزجاج : غشاً وغلاً ، وقيل أصل الدخل العيب والعيب ليس من الشيء الذي يدخل فيه ﴿أن تكون أمة﴾ أي بأن تكون جماعة أو لأجل وجدانكم أمة ﴿هي أربى من أمة﴾ جماعة أي أكثر عدداً منها وأوفر مالاً ، يقال ربى الشيء يربو إذ كثر ، قال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالايمان قيل وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا

أعداءهم قاله مجاهد : وقيل هو تحذير للمؤمنين ان يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي يختبركم بكونكم أكثر وأوفر لينظر هل تتمسكون بحبل الوفاء أم تنقضون اغتراراً بالكثرة ، فالضمير في به راجع الى مضمون الجملة المتقدمة ، أي إنما يبلوكم الله بتلك الكثرة ليعلم ما تصنعون أو إنما يبلوكم الله بما يأمركم وينهاكم .

﴿وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ فيوضح الحق والمحقين ويرفع درجاتهم ويبين الباطل والمبطلين فينزل بهم من العذاب ما يستحقونه او يبين لكم ما كنتم تختلفون فيه من البعث والجنة والنار وفي هذا انذار وتحذير من مخالفة الحق والركون الى الباطل .

ثم بيَّن سبحانه انه قادر على ان يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء أو على الايمان فقال ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على الحق ﴿ولكن﴾ بحكم الإلهية ﴿يضل من يشاء﴾ بخذلانه إياهم عدلاً منه فيهم ﴿ويهدي من يشاء﴾ بتوفيقه إياهم فضلاً منه عليهم ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ ولهذا قال ﴿ولنسألن﴾ يوم القيامة سؤال تبكيت لا سؤال استفسار وتفهم وهو المنفي في غير هذه الآية ﴿عما كنتم تعملون﴾ من الأعمال في الدنيا لتجازوا عليها ، واللام في ليبين وفي لنسألن هي الموطئة للقسم .

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا
صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ
بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ
صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

ثم لما نهاهم سبحانه عن نقض مطلق الايمان نهاهم عن نقض أيمان مخصوصة فقال ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾ قال الشهاب وغيره : ولما كان اتخاذ الأيمان دخلاً قيداً للمنهى عنه كان منهياً عنه ضمناً فصرح به هنا تأكيداً ومبالغة في قبح المنهى عنه .

قال في الجمل وعلى هذا فهو تأسيس لا تأكيد ولا تكرير ، قال أبو حيان : لم يتكرر النهي وإنما الذي سبق اخبار بأنهم اتخذوا أيمانهم دخلاً معللاً بشيء خاص هو ان تكون أمة هي أربى من أمة وجاء النهي بقوله هذا استئنافاً للنهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً على العموم ، اي في كل حال ، فيشمل جميع الصور من الخديعة في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك .

قال الواحدي : قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد على الاسلام ونصرة الدين ، واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله فتزل قدم بعد ثبوتها ، من المبالغة ، وبما في قوله وتذوقوا السوء بما صددتم لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدوا غيرهم عن الدخول في الاسلام ؛ وعلى تسليم أن هذه

الأيمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سبب نزول هـذه الآية ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿فتزل قدم﴾ أي قدم من اتخذ يمينه دخلاً عن محجة الحق ﴿بعد ثبوتها﴾ عليها ورسوخها فيها ؛ قيل وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة أية قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة ، وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه ، لان القدم اذا زلت نقلت الانسان من حال خير الى حال شر ، ويقال لمن اخطأ في شيء زلت به قدمه .

﴿وتذوقوا السوء﴾ أي العذاب السيء في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ﴿بما صددتم﴾ أي بسبب امتناعكم وصدودكم ﴿عن سبيل الله﴾ وهو الاسلام أو بسبب صدكم لغيركم عن الاسلام ، فإن من نقض البيعة وارتد اقتدى به غيره في ذلك فكان فعله سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولهذا قال ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي متبالغ في العظـم، وهو عذاب الآخرة إن كان المراد بما قبله عذاب الدنيا .

ثم نهاهم سبحانه عن الميل الى عرض الدنيا والرجوع عن العهد لأجله فقال ﴿ولا تشتروا بعهد الله﴾ الذي تركتموه ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي لا تأخذوا في مقابلة عهدكم عوضاً يسيراً حقيـراً ، وكل عرض دنيوي وان كان في الصورة كثيراً فهو لكونه ذاهباً زائلاً يسيراً . ولهذا ذكر سبحانه بعد تقليل عرض الدنيا خيرية ما عند الله فقال :

﴿إنمـا عند الله﴾ وفي رسم ان هـذه اختـلاف بـين المصـاحف العثمـانيـة ففي بعضها وصلها بما ، وفي بعضها فصلها عنها كما ذكر ابن الجزري ، أي ما عنده من النصر في الدنيا والغنائم والرزق الواسع وما عنده في الآخرة من نعيم الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع ﴿هو خير لكم﴾ ثم علل النهي عن أن يشتروا

بعهد الله ثمناً قليلاً بقوله ﴿إن كنتم تعلمون﴾ وتميزون بين الأشياء .

ثم ذكر دليلاً قاطعاً على حقارة عرض الدنيا وخيرية ما عند الله فقال ﴿ماعندكم ينفد وما عند الله باق﴾ والنفاد الفناء والذهاب ، يقال نفد بكسر العين ينفد بفتحها نفاداً ونفوداً ، وأما نفذ بالمعجمة ففعله نفذ بالفتح ينفذ بالضم ، ويقال أنفد القوم اذا فنى زادهم ، وباق بثبوت الياء وحذفها مع سكون القاف وهما سبعيتان .

ومعلوم لكل عاقل ان ما ينفد ويزول وان بلغ في الكثرة الى أي مبلغ فهو حقير يسير ، وما كان يبقى ولا يزول فهو كثير جليل أما نعيم الآخرة فظاهر ؛ وأما نعيم الدنيا الذي أنعم الله به على المؤمنين فهو وان كان زائلاً لكنه لما كان متصلاً بنعيم الآخرة كان من هذه الحيثية في حكم الباقي الذي لا ينقطع .

ثم قال ﴿ولنجزين﴾ بالنون ففيه التفات ، وقرىء بالياء واللام هي الموطئة للقسم أي والله لنجزين ﴿الذين صبروا﴾ بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكليف والفاقة وجهاد الكافرين والصبر على ما ينالهم منهم من الأذى ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من الطاعات ، قيل وانما خص أحسن أعمالهم لأن ما عداه وهو الحسن مباح والجزاء انما يكون على الطاعة ، وقيل المعنى ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من أعمالهم ، كقوله ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ .

وقيل ﴿أحسن﴾ هنا ليس للتفضيل بل بمعنى الحسن أو لنجزينهم بحسب أحسن افراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيهم بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل لا إنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن ، والأحسن بالأحسن ، كذا قيل ، وفيه ما لا يخفى من العدة

الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم في تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه في سلك الصبر الجميل .

﴿ومن عمل صالحاً﴾ هذا شروع في ترغيب كل مؤمن في كل عمل صالح وتعميم للوعد ، والمعنى من عمل صالحاً أي عمل كان ﴿من ذكر أو أنثى﴾ زيادة التمييز بذكر وانثى مع كون لفظ من شاملاً لهما لقصد التأكيد والمبالغة في تقرير الوعد . وقيل إن لفظ من ظاهر في الذكور فكان في التنصيص على الذكر والأنثى بيان لشموله للنوعين .

﴿وهو مؤمن﴾ جعل سبحانه الايمان قيداً في الجزاء المذكور لأن عمل الكافر لا اعتداد به لقوله سبحانه ﴿وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ ثم ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون ، فقيل بالرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا وإذا صار الى ربه جازاه بأحسن ما كان يعمل .

روي ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك ، وقيل بالقناعة قاله الحسن البصري وزيد بن وهب ، ووهب بن منبه ، وروي أيضاً عن عليّ وابن عباس قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو « اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف عليَّ كل غائبة لي بخير» .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن ابن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه »[١] وأخرج الترمذي والنسائي من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول

(١) مسلم ١٠٥٤ .

الله صلى الله عليه وسلم يقول « قد أفلح من هدى الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به »[١].

وقيل بالكسب الطيب والعمل الصالح ، قاله ابن عباس ، وقيل بالتوفيق الى الطاعة قاله الضحاك ، وقيل هي حياة الجنة ، روي هذا عن مجاهد وقتادة وغيرهما وحكي عن الحسن أنه قال : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة ، وقيل الحياة الطيبة هي السعادة ، روي ذلك عن ابن عباس ، وقيل هي المعرفة بالله ، حكي ذلك عن جعفر الصادق رضي الله عنه .

وقال أبو بكر الوراق : هي حلاوة الطاعة ، وقال مقاتل : هي العيش في الطاعة وقيل رزق يوم بيوم .

وقال السدي : إنما هي تحصل في القبر لأن المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها ، وقال سهل بن عبد الله التستري : هي ان ينزع عن العبد تدبير نفسه ويرد تدبيره الى الحق ، وقيل هي الاستغناء عن الخلق والافتقار الى الحق .

وأكثر المفسرين على أن الحياة الطيبة هي في الدنيا لا في الآخرة ، لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾ وقد قدمنا قريباً تفسير الجزاء بالأحسن ووحد الضمير في ﴿لنحيينه﴾ وجمعه في لنجزينهم حملاً على لفظ ﴿من﴾ وعلى معناه .

ثم لما ذكر سبحانه العمل الصالح والجزاء عليه أتبعه بذكر الاستعاذة التي تخلص بها الأعمال الصالحة عن الوساوس الشيطانية فقال ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ الفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح ، وقيل هذه الآية

(١) الترمذي كتاب الزهر باب ٣٥ ـ الإمام احمد ٥/٢٥٥ .

متصلة بقوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ والتقدير فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله .

قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة : معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ ، وهذا على مذهب الأكثرين من الفقهاء والمحدثين من أن الاستعاذة تطلب قبل القراءة ، وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن ، ومثله إذا أكلت فقل بسم الله .

قال الواحدي : وهذا اجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة إلا ما روي عن أبي هريرة وابن سيرين ومالك وحمزة من القراء فإنهم قالوا : الاستعاذة بعد القراءة ذهبوا الى ظاهر الآية ، واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وداود الظاهري .

وأما مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الامصار انها قبل القراءة كما تقدم ، ومعنى فاستعذ بالله اسأله سبحانه أن يعيذك ﴿من الشيطان الرجيم﴾ أي من وساوسه لئلا يوسوسك في القراءة وفيه دليل على أن المصلي يستعيذ في كل ركعة لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً ، وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه ايذان بأن الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل .

وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على انها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم لأنه اذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كانت عند إرادة غيره أولى كذا قيل وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للاشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة لأنه صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان مع عصمته ، فكيف بسائر أمته ، قال السيوطي في الآية ، أي قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم انتهى .

وهذا بيان للأفضل وإلا فأصل السنة يحصل بأي صيغة كانت من صيغ الاستعاذة ، وقد ذهب الجمهور الى أن الأمر في الآية للندب ، وروي عن

إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً
مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا
يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

عطاء الوجوب أخذاً بظاهر الأمر ، والضمير في ﴿انه﴾ للشأن او للشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ أي تسلط تعليل لمحذوف هو جواب الأمر تقديره فإن استعذت كفيت شره ﴿على﴾ اغواء ﴿الذين آمنوا﴾ وحكى الواحدي عن جميع المفسرين أنهم فسروا السلطان بالحجة وقالوا المعنى ليس له حجة على المؤمنين في اغوائهم ودعائهم الى الضلالة .

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي يفوضون أمورهم اليه في كل قول وفعل فان الايمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم وان وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه وسوسته وهؤلاء الجامعون بين الايمان والتوكل هم الذين قال فيهم ابليس ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ وقال الله فيهم ﴿ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ .

ثم حصر سبحانه سلطان الشيطان فقال : ﴿انما سلطانه﴾ أي تسلطه ﴿على﴾ اغواء ﴿الذين يتولونه﴾ أي يتخذونه ولياً ويطيعونه في وساوسه يقال توليته إذا أطعته وتوليت عنه إذا أعرضت عنه وهذا مقابل لقوله وعلى ربهم يتوكلون ﴿والذين هم به﴾ أي بالله والباء للتعدية ﴿مشركون﴾ وقيل الضمير يرجع إلى الشيطان والباء للسببية أي والذين هم من أجله وبسبب وسوسته مشركون بالله وهذا مقابل لقوله على الذين آمنوا .

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾(١) هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبهة كفرية ودفعها ومعنى التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها قال مجاهد : وهو كقوله ﴿ما ننسخ من آية او ننسها﴾ الخ . . وقد تقدم الكلام على النسخ في البقرة ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ اعتراض دخل في الكلام أي أنه أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير وما يبدل من أحكامه ، وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار ، وقيل الجملة حالية وليس بظاهر .

وجواب إذا قوله ﴿قالوا﴾ أي كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ ﴿إنما أنت﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ﴿مفتر﴾ أي كاذب مختلق على الله فتقول عليه بما لم يقل حيث تزعم أنه أمرك بشيء ثم تزعم انه أمرك بخلافه فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال :

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ شيئاً من العلم أصلاً أو لا يعلمون حقيقة القرآن وهو انه اللفظ المنزل من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم للاعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته أو لا يعلمون بالحكمة في النسخ فإنه مبني على المصالح التي لا يعلمها إلا الله سبحانه فقد تكون في شرع هذا الشيء مصلحة موقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره .

وفيه التخفيف على العباد ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف .

ثم بيَّن سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم افتراه فقال ﴿قل نزله﴾ أي القرآن المدلول عليه بذكر الآية ﴿روح القدس﴾ بضم الدال وسكونها سبعيتان والقدس التطهير والطهارة والمعنى نزله الروح المطهر من أدناس البشرية

(١) كانت هذه الآية أوضح دليل لنا على وجود النسخ في القرآن حين نشرنا بحثاً وافياً في الموضوع في كتابنا (الايمان واثاره والشرك ومظاهره) وذلك عندما أعلن بعض العلماء الذين نحترمهم رأيه في عدم وجود النسخ في القرآن والكتاب عموماً، مهم جداً.

وهو جبريل عليه السلام فهو من إضافة الموصوف الى الصفة كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير ﴿من ربك﴾ أي ابتداء تنزيله من عنده سبحانه ﴿بالحق﴾ أي متلبساً بكونه حقاً ثابتاً لحكمة بالغة .

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ على الايمان فيقولون كل من الناسخ والمنسوخ من عند ربنا ولأنهم ايضاً إذا عرفوا ما في النسخ من المصالح ثبتت أقدامهم على الايمان ورسخت عقائدهم وقرىء من الاثبات ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ معطوفان على محل ليثبت أي تثبيتاً لهم وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصائل لغيرهم .

ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبههم فقال ﴿ولقد نعلم﴾ علماً مستمراً ﴿انهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ وليس هو من عند الله كما هو يزعم ، واللام هي الموطئة أي والله لقد نعلم أن هؤلاء الكفار يقولون انما يعلم محمداً القرآن بشر من بني آدم غير ملك .

وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه مازعموا فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً حداداً رومياً فأسلم ، وكان قريش إذا سمعوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبار القرون الأولى مع كونه أمياً قالوا إنما يعلمه جبر .

وقيل اسمه عايش أو يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الاعجمية ، وقيل غلام لبني عامر بن لؤي ، وقيل عنوا سلمان الفارسي ، وقيل عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة ، وقيل عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية ، وفي رواية اسمه عداس وقيل أرادوا بالبشر غلامين اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر ، وكانا صيقليّين يعملان السيوف بمكة ، وكانا يقرآن كتاباً لهم ، وقيل كانا يقرآن التوراة والانجيل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه فقال المشركون انما يتعلم منهما ؛ قاله عبدالله بن مسلم الحضرمي .

قال النحاس : وهذه الأقوال غير متناقضة لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قـول من قال انه سلمان لأن هذه الآية مكية وهو إنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال ﴿لسان الذي يلحدون اليه﴾ أي لغته وكلامه ﴿أعجمي﴾ والالحاد الميل يقال لحد وألحد أي مال عن القصد ومنه لحد القبر لأنه حفرة مائلة عن وسطه ، وقد تقدم في الاعراف ، والمعنى لسان الذي يميلون اليه ويشيرون ويزعمون أنه يعلمك أعجمي يقال رجل أعجم وامرأة عجماء أي لا يفصحـان والعجمة الاخفـاء وهي ضد البيـان والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً .

قال الفراء والراغب : الاعجم الذي في لسـانه عجمـة وان كان في العرب والاعجمي هو الذي أصله من العجم ، وقال أبو علي الفـارسي : العجمي المنسوب الى العجم الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم وكذلك الأعجم والأعجمي المنسـوب الى العجم وان كان فصيحاً بالعربية والأعرابي الذي يسكن البادية والعربي الذي يسكن الأمصار من بلاد العرب .

﴿وهذا﴾ أي القرآن ﴿لسان﴾ أي كلام ﴿عربي مبين﴾ وسماه لساناً لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً أو أراد باللسان البلاغة فكأنه قال وهذا قرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون أن بشراً يعلمه من العجم وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي تشيرون اليه وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصـاحة وقـادة البلاغة .

فثبت بهذا أن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي أوحاه الله اليه ، وليس هو من تعليم البشر الذي تشيرون اليه ولا هو آت به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل وهاتان الجملتان مستأنفتان سيقتا لإبطال طعنهم ودفع كذبهم .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

ولما ذكر سبحانه جوابهم وبخهم وهددهم فقال ﴿ان الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي لا يصدقون بها في علم الله ﴿لا يهديهم الله﴾ الى الحق الذي هو سبيل النجاة وهداية موصلة الى المطلوب لما علم من شقاوتهم ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ بسبب ما هم عليه من الكفر والتكذيب بآيات الله .

ثم لما وقع منهم نسبة الافتراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليهم بقوله ﴿انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ فكيف يقع الافتراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهورأس المؤمنين بها والداعين الى الايمان بهاوهؤلاء الكفار هم الذين لا يؤمنون بها فهم المفترون للكذب ، قال الزجاج : المعنى انما يفتري الكذب الذين اذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها هؤلاء أكذب الكذبة ، ثم سماهم الكاذبين فقال ﴿وأولئك﴾ المتصفون بذلك ﴿هم الكاذبون﴾ أي أن الكذب نعت لازم لهم وعادة من عاداتهم ، فهم الكاملون في الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيبهم بآيات الله ، وقولهم انما يعلمه بشر والتأكيد بالتكرار وإن ، وغيرهما ردا لقولهم إنما أنت مفتر .

﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ أي تلفظ وتكلم بالكفر أو فعل فعل كفر سواء كان مختاراً في ذلك او مكرهاً عليه فالاستثناء في قوله ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ متصل .

وقال القرطبي : أجمع المفسرون وأهل العلم على أن من أكره على الكفر

حتى خشي على نفسه القتل أنه لا اثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالايمان ، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر .

وحكى عن محمد بن الحسن أنه اذا أظهر الكفر كان مرتداً في الظاهر وفيما بينه وبين الله على الاسلام وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات ولا يرث أباه إن مات مسلماً ، وهذا القول مردود على قائله مدفوع بـالكتاب والسنة .

وذهب الحسن البصـري والاوزاعي والشافعي وسحنـون الى ان هذه الرخصة إنما جاءت في القول واما في الفعل فلا رخصة مثل أن يكره على السجود لغير الله ، ويدفعه ظاهر الآية فانها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل كما تقدم ، والمعنى إلا من كفر بإكراه والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر الى المدينة قال لأصحابه : « تفرقوا عني فمن كانت به قوة فليتأخر الى آخر الليل ومن لم تكن به قوة فليذهب أول الليل فإذا سمعتم بي قد استقرت لي الأرض فالحقوا بي » .

فأصبح بلال المؤذن وخباب وعمار وجارية من قريش كانت أسلمت فأخذهم المشركون وأبو جهل فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى فجعلوا يضعون درعاً من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه فإذا ألبسوه إياه قال أحد أحد ، وأما خباب فجعلوا يجرونه في الشوك ، وأما عمار فقال لهم كلمة اعجبتهم تقية ، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أربعة أوتاد ثم مدها فأدخل الحربة في قلبها حتى قتلها ، ثم خلوا عن بلال وخباب وعمار فلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بأمرهم ، واشتد على عمار الذي كان تكلم به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف كان قلبك حين قلت ، أكان منشرحا بالذي قلت أم لا ؟ قال : لا . فأنـزل الله ﴿إلا من أكره وقلبـه مطمئن

بالايمان﴾وقيل نزلت في أناس من أهل مكة .

وقيل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي أكرهه سيده على الكفر ، والأول أولى ، والحق أن الآية عامة في كل من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصاً ، وفيه دليل على أن محل الايمان هو القلب .

﴿ولكن﴾ الإستدراك واضح لأن قوله إلا من أكره قد يسبق الوهم الى الإستثناء مطلقاً فاستدرك هذا ، وقوله ﴿مطمئن﴾ لا ينفي ذلك الوهم ﴿من﴾ موصولة أو شرطية والأول أولى .

﴿شرح بالكفر صدراً﴾ أي اختاره ورضي به وطابت به نفسه ﴿فعليهم﴾ فيه مراعاة معنى ﴿من﴾ ولو راعى لفظها لأفرد وقال فعليه ﴿غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ في الآخرة .

عن ابن عباس قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير فتركوه ؛ فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما وراءك ؟ قال : شر ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالايمان ، قال « إن عادوا فعد » ، فنزلت ﴿إلا من أكره﴾ الخ . قال : فذاك عمار بن ياسر ، ولكن من شرح بالكفر صدراً عبد الله بن أبي سرح[1] ، أخرجه البيهقي والحاكم وصححه ، وفي الباب روايات مصرحة بأنها نزلت فيه .

وعن محمد بن سيرين قال : نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة وعن ابن عباس قال : هو عبدالله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم . وعن الحسن وعكرمة مثله ، وليس بعد هذا الوعيد العظيم وهو الجمع للمرتدين بين غضب الله وعظيم عذابه وعيد .

---

(١) المستدرك ، كتاب التفسير ٢/٣٥٧ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ
هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا
فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿ذلك﴾ أي الكفر بعد الايمان أو الوعيد بالغضب والعذاب ﴿بأنهم استحبوا الحياة الدنيا﴾ أي ذلك بسبب تأثيرهم للحياة الدنيا الفانية ﴿على الآخرة﴾ الباقية الدائمة ﴿وأن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ في علمه الى الايمان به ولا يعصمهم من الزيغ .

ثم وصفهم بقوله ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق ، وقد سبق تحقيق الطبع في أول البقرة ، ثم أثبت لهم صفة نقص غير الصفة المتقدمة فقال ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ عما يراد بهم من العذاب في الآخرة ، وضمير الفصل يفيد أنهم متناهون في الغفلة إذ لا غفلة أعظم من غفلتهم هذه .

﴿لا جرم﴾ قد تقدم تحقيق الكلام في معناها أي حقاً ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخسران البالغون الى غاية منه ليس فوقها غاية لمصيرهم الى النار المؤبدة عليهم ، والموجب لخسرانهم أن الله وصفهم بست صفات تقدمت :

الأولى : أنهم استوجبوا غضب الله .

الثانية : أنهم استحقوا عذابه العظيم .

الثالثة : أنهم استحبوا الحياة الدنيا .

الرابعة : أنهم حرمهم الله من الهداية .

الخامسة : أنه طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

السادسة : أنه جعلهم من الغافلين .

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾ من دار الكفر الى دار الإسلام ، وخبر ﴿إن﴾ محذوف أي لغفور رحيم ؛ وقيل الخبر هو الذين هاجروا ، أي إن ربك لهم بالولاية والنصرة لا عليهم وفيه بعد ، قال في الكشاف ﴿ثم﴾ ههنا للدلالة على تباعد حال هؤلاء ، يعني الذين نزلت الآية فيهم عن حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه ، ويدل على ذلك ما روي أنها نزلت في ابن أبي السرح .

قال ابن عباس : كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا بذلك اليهم أن الله قد جعل لكم مخرجاً فاخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم فنجى من نجى وقتل من قتل .

﴿من بعد ما فتنوا﴾ أي فتنتهم الكفار بتعذيبهم لهم ليرجعوا في الكفر ، وقرىء فتنوا على البناء للفاعل وهي سبعية ايضاً ، أي للذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم على الإسلام ﴿ثم جاهدوا﴾ في سبيل الله ﴿وصبروا﴾ على ما أصابهم من الكفار وعلى ما يلقونه من مشاق التكليف ﴿ان ربك من بعدها﴾ أي من بعد الفتنة التي فتنوها أو بعد المهاجرة أو الجهاد أو الصبر أو جميع ذلك ﴿لغفور رحيم﴾ أي كثير الغفران والرحمة لهم .

ومعنى الآية على قراءة البناء للفاعل واضح ظاهر ، أي أن ربك لهؤلاء الكفار الذين فتنوا من أسلم وعذبوهم ثم جاهدوا وصبروا لغفور رحيم ، وأما على قراءة البناء للمفعول وهي قراءة الجمهور فالمعنى أن هؤلاء المفتونين الذين تكلموا بكلمة الكفر مكرهين وصدورهم غير منشرحة للكفر اذا صلحت أعمالهم وجاهدوا في الله وصبروا على المكاره لغفور لهم رحيم بهم .

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾

وأما إذا كان سبب الآية هو هذا عبدالله بن أبي سرح الذي ارتد عن الإسلام ثم رجع بعد ذلك اليه ، فالمعنى أن هذا المفتون في دينه بالردة إذا أسلم وجاهد وصبر فالله غفور له رحيم به .

﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ أي تخاصم وتسعى في خلاصها ، وقد استشكل إضافة ضمير النفس الى النفس ولا بد من التغاير بين المضاف والمضاف اليه .

وأجيب بأن المراد بالنفس الأولى جملة بدن الانسان وبالنفس الثانية الذات فكأنه قيل يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه غيرها بل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار بما لا يقبل منه كقوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة فهو مجادل ومخاصم عن نفسه لا يتفرغ لغيرها يوم القيامة .

﴿وتوفى كل نفس﴾ جزاء ﴿ما عملت﴾ في الدنيا من خير أو شر ﴿وهم لا يظلمون﴾ من جزاء أعمالهم بل يوفون ذلك كاملاً من غير زيادة أو نقصان ﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ قد قدمنا أن ضرب مضمن معنى جعل ولذا عُدِّيَ الى مفعولين قد اختلف المفسرون هل المراد بهذا القرية قرية معينة أو المراد قرية غير معينة . قال الزمخشري : بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، ونحوه في البيضاوي .

قال القرطبي : إنه مثل مضروب لأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، ويجوز أن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة انـذاراً من مثل عاقبتها .

وذهب الأكثرون الى الأول وصرحوا بأنها مكة ، وذلك لما دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : «اللهم أشـدد وطأتـك على مضر وأجعلها عليهم سنين كسني يوسف»[1] فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد بذلك ، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولاً أولياً .

وأيضا يكون الوعيد أبلغ والمثل أكمل وغير مكة مثلها ، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها . وعن ابن عباس قال : يعني مكة وعن عطية مثله وزاد فقال : ألا ترى انه قال ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه﴾ قال الواقـدي : ذكر المشبـه به ولم يـذكر المشبـه لوضـوحه عنـد المخاطبين .

والآية عند عامة المفسرين نازلة في أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الأمن والنعمة بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلاً لقريتكم، أي بيَّن الله لها شبهاً، ثم وصف القرية بأنها ﴿كانت آمنة﴾ غير خائفة.

﴿مطمئنة﴾ غير منزعجة ، أي لا يخاف أهلها ولا ينزعجون ، وعن ابن شهاب قال القرية التي كانت آمنة مطمئنة هي يثرب .

قلت ولا أدري أي دليل على هذا التعيين ولا أي قرينة قامت له على ذلك ومتى كفرت دار الهجرة ومسكن الأنصار بأنعم الله وأي وقت أذاقها الله

---

(١) مسلم ٦٧٥ ـ البخاري ٤٨٣ .

لباس الجوع والخوف وهي التي تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد كما صح ذلك عن الصادق المصدوق .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ﴿يأتيها رزقها﴾ أي ما يرتزق به أهلها ﴿رغداً﴾ أي واسعاً يقال رغد العيش بالضم رغادة اتسع ولان فهو رغد ورغيد ورغد ورغد رغداً من باب تعب لغة فهو راغد وهو في رغد من العيش أي رزق واسع ، وأرغد القوم بالألف أخصبوا والرغيد الزبد ﴿من كل مكان﴾ من الأمكنة التي يجلب ما فيها اليها أي من نواحيها من البر والبحر .

﴿فكفرت﴾ أي كفر أهلها ﴿بأنعم الله﴾ التي أنعم بها عليهم وهي جمع نعمة كالأشد جمع شدة ، وقيل كالأدرع جمع درع على ترك الاعتداد بالتاء وقيل جمع نعم مثل بؤس وأبؤس ويحتمل أنه جمع نعماء بفتح النون والمد وهي بمعنى النعمة وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتكذيب رسله .

﴿فأذاقها الله﴾ أي أهلها ﴿لباس الجوع والخوف﴾ أي أثرهما فقحطوا سبع سنين وسمي ذلك لباساً لأنه يظهربه عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة وأصلها الذوق بالفم ثم استعيرت لمطلق الإيصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين إدراك اللمس والذوق .

روي أن ابن الراوندي الزنديق ، قال لابن الأعرابي إمام اللغة والأدب : هل يذاق اللباس ؟ فقال له ابن الأعرابي : لا بأس أيها النسناس هب أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما كان نبياً أما كان عربياً ، كأنه طعن في الآية بأن المناسب أن يقال فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع ، فرد عليه ابن الأعرابي .

وقد أجاب علماء البيان هذا أن تجريد الاستعارة وذلك انه استعار

اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة فيقولون ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه غيره فكانت الاستعارة مجردة ولو قال فكساها كانت مرشحة قيل وترشيح الإستعارة وإن كان مستحسناً من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث أنه روعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحاً .

قال الرازي : والحاصل أنه حصل لهم في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق ، وحالة تشبه الملبوس ، فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فأذاقها ، والتقدير : أن الله عرفها لباس الجوع والخوف إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة ، وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختيار قال الشاعر :

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها وسيق الينا عذبها وعذابها

أو يحمل اللبس على المماسة أي فأذاقها الله مساس الجوع ﴿بما كانوا يصنعون﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم ، ولم يقل صنعت لأنه أراد أهل القرية ، قال الفراء : كل الصفات أجريت على القرية إلا قوله يصنعون تنبيهاً على أن المراد في الحقيقة أهلها .

﴿ولقد جاءهم﴾ يعني أهل مكة ﴿رسول منهم﴾ أي من جنسهم يعرفونه ويعرفون نسبه فأمرهم بما فيه نفعهم ونهاهم عما فيه ضررهم ﴿فكذبوه﴾ فيما جاء به ﴿فأخذهم العذاب﴾ النازل بهم من الله سبحانه ﴿وهم﴾ أي والحال أنهم في حال أخذهم العذاب لهم ﴿ظالمون﴾ لأنفسهم بإيقاعها في العذاب الأبدي ولغيرهم بالاضرار لهم وصدهم عن سبيل الله .

وهذا الكلام من تمام المثل المضروب وقيل ان المراد بالعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم ، وقيل القتل يوم بدر والأول أولى .

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ
لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا
تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

ثم لما وعظهم الله سبحانه بما ذكره من حال أهل القرية المذكورة أمرهم بأن يأكلوا مما زرقهم الله من الغنائم ونحوها وقال ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ جاء بالفاء للاشعار بأن ذلك متسبب عن ترك الكفر، والمعنى انكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنائم واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم، قيل الخطاب للمسلمين، وبه قال جمهور المفسرين، وقيل للمشركين من أهل مكة حكاه الواحدي وغيره والأول أولى.

وقيل إن الفاء ﴿فكلوا﴾ داخلة على الأمر بالشكر، وإنما دخلت على الأمر بالأكل لأن الأكل ذريعة الى الشكر ﴿واشكروا نعمة الله﴾ التي أنعم بها عليكم واعرفوا حقها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ ولا تعبدون غيره أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادة الله تعالى.

﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير و﴾ حرم الله ﴿ما أهلَّ﴾ أي ما رفع الصوت ﴿لغير الله به﴾ سواء كان صنماً أو وثناً أو نصباً أو روحاً خبيثاً من جن أو روحاً طيباً من إنس كالنبي والولي والصالح، حياً كان أو ميتاً فهو حرام.

وقد ورد في الحديث « ملعون من ذبح لغير الله »[١] سواء سمى الله عند ذبحه او لم يسم لأن ما اشتهر لغيره سبحانه وتعالى ورفع به الصوت باسم الفلاني لا ينفع بعد ذلك ذكر الله تعالى عند ذبحه لأن هذا الحيوان قد انتسب الى ذلك الغير ، وحدث فيه من الخبث ما زاد على خبث الميتة فانها لم يذكر عليها اسم الله وهذا الحيـوان قد عين روحه لغير خالقه ثم ذبح له وهو الشرك بعينه وحين سرى هذا الخبث وأثر فيه لا يحل بحال وان ذكر اسم الله عليه كما لو ذبح الكلب او الخنزير على اسمه سبحانه وتعالى لا يحل .

والسر في ذلك ان نذر الروح لغير خالق الروح لا يجوز وإن كان حكم جميع المأكولات والمشروبات والأموال المنذورة للتقرب الى غير الله سبحانه هكذا فانها شرك وحرام ، ولكن ثوابها الذي كان يعود الى الناذر جاز جعله للغير كما جاز للانسان ان يعطي ماله من شاء بخلاف روح الحيوان فإنه ليس بمملوك للانسان حتى يعطيه لأحد غير الله ، وإنما وجب الأجر في انفاق المال لأن المال شيء ينتفع به في الحال .

ولما كان الموتى لا ينتفعون بعين المال جعل طريق ايصال النفع اليهم أن تجعل الأموال المعطاة لأهل الاستحقاق لهم فيعود ثوابها اليهم ، وأما روح الحيوان فلا يصلح للانتفاع في حياة الانسان فكيف بعد مماته ومضي الازمان .

وأما الاضحية عن الميت التي ورد بها الحديث فمعناها أن الأجر الذي كاد يثبت في ازهاق الروح لله سبحانه وتعالى يعطى لذلك الميت لا أنه يذبح لأجله ويرفع به الصوت للتقرب اليه .

وهذه الآية الكريمة جاءت في اربعة مواضع من التنزيل ومعناها ما رفع به الصوت لغير الله لا ما ذبح باسم غير الله ، فمن رفع الصوت بحيوان لغيره

---

(١) أحمد بن حنبل ٢١٧/١ .

تعالى ثم ذكر اسم الله عند ذبحه لا ينجع له هذا الذكر شيئاً ولا يأتي بفائدة ولا يعود بعائدة ولا يحل أكله بهذا الذكر عند الذبح . وإنما الاهلال في لغة العرب بمعنى رفع الصوت لا بمعنى الذبح .

كيف ولم يرد به عرف ولا وقع في شعر قط ، هذه كتب اللسان العربي ودفاتر اللغات على وجه البسيطة ليس في أحد منها الإهلال بمعنى الذبح، وانما يقال الإهلال لرؤية الهلال ولبكاء الطفل وللتلبية بالحج لا للذبح ، فليس معنى أهللت لله ذبحت له ، في القاموس استهل الصبي رفع صوته بالبكاء كأهلَّ وكذا كل متكلم رفع صوته أو خفض ، وأهلَّ نظر الى الهلال والملبي رفع صوته بالتلبية .

وقال الجوهري : استهل الصبي أي صاح عند الولادة وأهلَّ المعتمر إذا رفع صوته بالتلبية وأهلَّ بالتسمية على الذبيحة ، وقوله تعالى ﴿وما أهلَّ لغير الله به﴾ أي نودي عليه بغير اسم الله ، وأصله رفع الصوت انتهى .

ولو سلم ان معناه ذبح لغير الله فأين هذا من معنى ذبح باسم غير الله حتى تنتهض به الحجة ، فالقول بأن الاهلال في هذه الآية ونظائرها بمعنى الذبح وغير الله بمعنى اسم غير الله يقرب بتحريف كلامه سبحانه وتعالى حاشاه عن ذلك .

وقد حكى النظام النيسابوري في تفسيره إجماع أهل العلم على أن ذبيحة المسلم التي قصد بذبحها التقرب الى غير الله ذبيحة مرتد ، وقد صار هو مرتداً ايضاً وكان الكفار في الجاهلية إذا خرجوا من ديارهم رفعوا الأصوات بأسماء الأصنام في الطرق والشوارع وإذا وصلوا الى مكة المكرمة طافوا الكعبة مع أن طوافهم هذا لم يكن يقبل عند الله ولهذا نزل قوله تعالى : ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

فكذلك فيما نحن فيه إذا رفع أحد الصوت بحيوان أنه لفلان أو لأجله أو

يذبح له ثم ذكر عليه اسم الله عند الذبح فههنا لا تترتب عليه الحليّة أصلاً ، نعم أن يغير النية ويبدل الامنية ويزيل قصد التقرب به الى غير الله ، ويرفع به الصوت خلاف ما رفع به أولاً ويقول تبت عنه ، ثم يذبح ويذكر عليه اسم الله تعالى يحل أكله .

وإذا تقرر لك أن الإهلال بمعنى رفع الصوت في اللغة لا بمعنى الذبح علمت أن الذي فسره بالذبح قد غلط غلطاً بيناً او تجوّز ولا يصار الى المجاز إلا عند تعدد الحقيقة أو تأول رفع الصوت بالذبح بناء على سبب النزول وانما العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقد فسرنا الاهلال في البقرة والمائدة والأنعام بما فسر به جمهور المفسرين وهو تسامح سبق به القلم ، وانما الحق في المقام تفسيره برفع الصوت والغاء قيد الذبح ليتناول النظم الكريم كل حيوان رفع به الصوت لغير الله سبحانه وتعالى سواء ذبح باسم الله او باسم غيره ، وعليه تدل اللغة العربية وهي الأصل المقدم في تفسير كلام الله العزيز على الجميع ما لم يعارضه نص مقدم او ناقل مرجح أو دليل مساو ، والذي فسرنا به الآية هنا قد فسرها به الشيخ عبدالعزيز المحدث الدهلوي رحمه الله في تفسيره وهو الصواب وبالله التوفيق .

ثم ذكر الله سبحانه الرخصة في تناول شيء مما ذكر فقال ﴿فمن اضطر﴾ أي دعته ضرورة المخمصة الى تناول شيء من ذلك حال كونه ﴿غير باغ﴾ على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ متعد قدر الضرورة وسد الرمق ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه بذلك ، وقيل معناه غير باغ على الوالي ولا متعد على الناس بالخروج لقطع الطريق ، فعلى هذا لا يباح تناول شيء من المحرمات في سفر المعصية .

ثم زيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال : ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ .

قال الكسائي والزجاج ﴿ما﴾ مصدرية ، والكذب منتصب بلا تقولوا أي لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم ، ومعناه لا تحللوا ، ولا تحرموا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة ، وقيل ﴿ما﴾ موصولة والكذب منتصب بتصف أي لا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه ؛ فحذف لفظ فيه لكونه معلوماً فيكون هذا حلال وهذا حرام بدلاً من الكذب .

قال مجاهد : في البحيرة والسائبة ، وقيل يعني قولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحي .

وقيل في الكلام حذف بتقدير القول أي فتقول هذا حلال وهذا حرام او قائلة هذا حلال وهذا حرام ، وقيل لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب ، وقرىء كذب بضم الثلاثة على انه نعت للألسنة ، وقرىء ككتف نعتاً لما أو بدلاً منها ، ولا تقولوا الكذب الذي تصفه السنتكم هذا حلال وهذا حرام .

عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا الى يومي هذا .

قلت صدق رحمه الله فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتياً من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأي المقدمين له على الرواية أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة وانهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاواهم ويمنعوا من جهالاتهم ، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

واخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا ، فيقول الله عز وجل كذبت ، أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت .

﴿لتفتروا﴾ اللام هي لام العاقبة لا لام الغرض ، أي فيتعقب ذلك افتراؤكم ﴿على الله الكذب﴾ بالتحليل والتحريم واسناد ذلك اليه من غير أن يكون منه .

﴿إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ أي افتراء كان ﴿لايفلحون﴾ بنوع من أنواع الفلاح والفوز بالمطلوب لا في الدنيا ولا في الآخرة بدليل ما بعده ﴿متاع قليل﴾ قال الزجاج : متاعهم متاع قليل ، وقيل لهم متاع قليل ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يردون اليه في الآخرة .

ثم خص محرمات اليهود بالذكر فقال ﴿على الذين هادوا﴾ أي على اليهود خاصة دون غيرهم ﴿حرمنا ما قصصنا عليك﴾ بقولنا حرمنا عليهم كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما . الآية .

﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمنا . قال الحسن : يعني في سورة الأنعام ؛ وعن قتادة مثله وقال حيث يقول : ﴿ وعلى الذين هادوا ـ الى قوله وإنا لصادقون ﴾ وتحريم الشيء إما لضرر فيه وإما لبغي المحرم عليهم ، فقوله إنما حرم عليكم الخ ، اشارة للقسم الأول وهذا إشارة للقسم الثاني .

﴿وما ظلمناهم﴾ بذلك التحريم بل جزيناهم ببغيهم ﴿ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾ حيث فعلوا أسباب ذلك فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم . ثم بيّن سبحانه أن الافتراء على الله سبحانه ومخالفة أمره لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة فقال :

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ أي متلبسين بجهالة، أي جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه أي غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم، وعن السلف كل من عصى الله فهو جاهل، ولا يصدر العمل السوء إلا من الجاهل بالعاقبة، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح، وفيه بيان سعة مغفرته ورحمته لأن السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح، فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة النساء.

﴿ثم تابوا من بعد ذلك﴾ أي من بعد عملهم للسوء، وفيه تأكيد، فإن «ثم» قد دلت على البعدية فأكدها بزيادة ذكر البعدية ﴿واصلحوا﴾ أعمالهم التي كان فيها فساد بالسوء الذي عملوه؛ ثم كرر ذلك تأكيداً وتقريراً فقال ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي من بعد التوبة ﴿لغفور﴾ كثير الغفران ﴿رحيم﴾ أي واسع الرحمة.

ولما فرغ سبحانه من دفع شبه المشركين وإبطال مطاعنهم، وكان ابراهيم عليه السلام من الموحدين، وهو قدوة كثير ممن ذكره الله في آخر هذه السورة قال ﴿إن ابراهيم كان أمّة﴾ قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أمة، والأمة الرجل الجامع للخير.

قال الواحدي: قال أكثر المفسرين معنى الأمة المعلم للخير وبه قال ابن

مسعود ، وعلى هذا فمعنى كون ابراهيم أمة انه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله من الشرائع .

وقيل انه كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار ، فلهذا المعنى كان أمة وحده ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل : « يبعثه الله أمة وحده لأنه كان فارق الجاهليـة » . قال مجاهد : قيل بمعنى مأموم أي الذي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال تعالى ﴿اني جاعلك للناس إماماً﴾ وحكى ابن الجوزي عن ابن الانباري انه قال : إن هذا مثل قول العرب فلان رحمة وعلامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث التناهي في المعنى الذي يصفونه به ، والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد ، كقوله فنادته الملائكة ، وإنما ناداه جبريل وحده ، وإنما سمي ابراهيم أمة لأنه اجتمع فيه من صفات الفضل وسمات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع من أمة .

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

﴿قانتاً لله﴾ أي مطيعاً له قائماً بأوامره . قال ابن مسعود : هو الذي يطيع الله ورسوله . وعن ابن عباس قال : كان على الاسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الاسلام غيره فذلك ما قاله الله ﴿كان أمة قانتاً لله﴾ .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من عبد تشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم ، والأمة الرجل فما فوقه ، إن الله يقول إن ابراهيم كان أمـة » أخرجـه ابن مردويه وقد تقدم معنى القنوت في البقرة .

﴿حنيفاً﴾ الحنيف المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق ، أي مسلماً

مقيماً على دين الاسلام وقد تقدم بيانه في الأنعام ﴿ولم يك من المشركين﴾ بالله كما تزعمه كفار قريش أنه كان على دينهم الباطل ، بل كان من الموحدين المخلصين لله تعالى من صغره الى كبره .

﴿شاكراً لأنعمه﴾ التي أنعم الله بها عليه وإن كانت قليلة ، كما يدل عليه جمع القلة ، فهو شاكر لما كثر منها بالأولى ﴿اجتباه﴾ أي اختاره للنبوة واختصه بها ﴿وهداه الى صراط مستقيم﴾ وهو ملة الاسلام ودين الحق .

﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي خصلة حسنة أو حالة حسنة ، قيل هي الولد الصالح وقيل الثناء الجميل وقيل النبوة وقيل الصلاة منا عليه في التشهد ، وقيل لسان الصدق وقيل القبول العام في جميع الأمم فإنه يتولاه جميع أهل الأديان ويثنون عليه ولا يكفر به أحد ورزقه أولاداً طيبة وعمراً طويلاً في السعة والطاعة ، ولا مانع ان يكون ما آتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عداه من خصال الخير ، وفيه التفات عن الغيبة ونكتة الالتفات زيادة الاعتناء بشأنه عليه السلام .

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي في أعلى مقاماتهم في الجنة ، وقيل من بمعنى مع ، وهذا حسبما وقع منه السؤال لربه حيث قال ﴿وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ اللهم اني اسألك ان تجعلني ممن يصدق عليه هذا الدعاء وإني من ذرية خليلك ابراهيم وما ذلك عليك بعزيز وآتني في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقني عذاب النار إنك أنت التواب الرحيم .

وحاصل ما ذكر من الصفات هنا تسعة بل عشرة إذ قوله سبحانه ﴿ثم أوحينا إليك﴾ يامحمد مع علو درجتك وسمو منزلتك وكونك سيد ولد آدم يرجع لوصف ابراهيم وتعظيمه بأن محمداً أمر باتباعه ﴿أن﴾ مفسرة أو مصدرية ﴿اتبع ملة ابراهيم﴾ أي دينه وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان

نبي من أنبيائه من أمللت الكتاب إذا أمليته وهو الدين بعينه ، لكن باعتبار الطاعة له وتحقيق ذلك أن الوضع الإلهي مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ، ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى ديناً .

قال الراغب : الفرق بينها ان الملة لا تضاف إلا الى النبي ولا تكاد توجد مضافة الى الله ولا الى آحاد الأمة ، ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته الاسلام الذي عبر عنه آنفاً بالصراط المستقيم .

وقيل والمراد اتباعه صلى الله عليه وسلم ولملته عليه السلام في التوحيد والدعوة اليه ، وقال ابن جرير : في التبري من الأوثان والتدين بدين الاسلام ، وقيل في مناسك الحج ، وقيل في الأصول دون الفروع . وقال أبو السعود في الأصول والعقائد وأكثر الفروع دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار انتهى . وقيل في جميع شريعته إلا ما نسخ ، وهذا هو الظاهر .

وفي الكرخي : انما جاز اتباع الأفضل المفضول لسبقه الى القول والعمل به ، قال القرطبي وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدي الى الصواب ولا درك على الفاضل في ذلك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام وقد أمر بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم فقال تعالى ﴿**فبهداهم اقتده**﴾

﴿حنيفا﴾ حال من ابراهيم ، وجاز مجيء الحال منه لأن الملة كالجزء منه ، وقد تقرر في علم النحو أن الحال من المضاف اليه جائز اذا كان يقتضي المضاف العمل في المضاف اليه أو كان جزء أو كالجزء من حيث صحة الاستغناء بالثاني عن الأول ، إذ يصح أن يقال أن اتبع ابراهيم حنيفاً.

﴿وما كان من المشركين﴾ تكرير لما سبق للنكتة التي ذكرناها ، أي كرر رداً على زعم المشركين انهم على دينه .

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ
وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ
هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿إنما جعل السبت﴾ أي وبال السبت وهو المسخ في زمن داود عليه السلام أو فرض تعظيم السبت وترك الصيد فيه ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ وهم اليهود لا على غيرهم من الأمم .

وقد اختلف العلماء في كيفية الاختلاف الكائن بينهم في السبت ، فقالت طائفة أن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم وأخبرهم بفضيلته على غيره فخالفوه وقالوا أن السبت أفضل ، فقال الله له دعهم وما اختاروا لأنفسهم .

وقيل إن الله أمرهم بتعظيم يوم في الاسبوع فاختلف اجتهادهم فيه فعينت اليهود السبت لأن الله سبحانه فرغ فيه من الخلق ؛ وعينت النصارى يوم الأحد لأن الله بدأ فيه الخلق ، فألزم الله كُلاًّ منهم ما أدى اليه اجتهاده وعين لهذه الأمة الجمعة من غير أن يكلهم الى اجتهادهم فضلاً منه ونعمة .

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شرائع ابراهيم عليه السلام ، فأخبر الله سبحانه أنه إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ولم يجعله على ابراهيم ولا على غيره ، وإنما شرع ذلك لبني اسرائيل بعد مدة طويلة .

قال الواحدي : هذا مما أشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف في السبت أن بعضهم قال هو أعظم الأيام حرمة وقال آخرون الأحد أفضل ؛ وهذا غلط لأن اليهود لم يكونوا فرقتين في السبت وانما اختار الأحد النصارى بعدهم بزمان طويل .

وعن مجاهد في الآية قال : أراد الجمعة فأخذوا السبت مكانها ، وعن أبي مالك وسعيد بن جبير في الآية قالا باستحلالهم إياه ، رأى موسى عليه السلام رجلاً يحمل حطباً يوم السبت فضرب عنقه .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يعني الجمعة فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد »[1] وأخرج مسلم وغيره من حديث حذيفة نحوه .

﴿وان ربك ليحكم بينهم﴾ أي بين المختلفين فيه ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيجازى فيه كُلًّا بما يستحقه ثواباً وعقاباً كما وقع منه سبحانه من المسخ لطائفة منهم والتنجية لأخرى .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو أمته الى الاسلام فقال ﴿ادع الى سبيل ربك﴾ وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث الى الناس كافة أو المعنى افعل الدعاء والأول أولى وكأن المعنى وخاطب الناس في دعائك لهم وسبيل الله هو الاسلام ﴿بالحكمة﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة الموضحة للحق المزيلة للشبهة والشك ، قيل وهي الحجج القَطْعيّة المفيدة لليقين وقيل القرآن وقيل النبوة .

﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي

---

(١) مسلم ٨٥٥ ـ البخاري ١٧٧ .

يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها قيل هي الحجج الظنية الاقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة قيل وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان .

ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألدّ الى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل ولهذا قال سبحانه ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وإيثار الوجه الأيسر والمقدمات التي هي أشهر فان ذلك أنفع في تسكين شرهم وهو ردّ على من يأبى المناظرة في الدين وانما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقاً وغرضه صحيحاً وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً .

قيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام :

الأول: هم العلماء وهم المشار اليهم بقوله : ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة﴾ .

والثاني : هم اصحاب النظر السليم والخلقة الأصلية وهم غالب الناس وهم المشار اليهم بقوله ﴿والموعظة الحسنة﴾ .

والثالث : هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهم المشار اليهم بقوله وجادلهم الخ ، وقال مجاهد في الآية اعرض عن أذاهم إياك ولا تقصر في تبليغ الرسالة ، وعلى هذا فالآية منسوخة بآية السيف ، قال بعضهم لا حاجة الى دعوى النسخ إذ الأمر بالمجادلة ليس فيه تعريض للنهي عن المقاتلة .

﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين ان الرشد والهداية ليس الى النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك الى الله تعالى وهو الأعلم بمن يضل .

﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي بمن يبصر الحق فيقصده غير متنعت ، وإنما شرّع لك الدعوة وأمرك بها قطعاً للمعذرة وتتميماً للحجة وازاحة للشبهة وليس

عليك غير ذلك ، وفي إيثار الفعلية في الضالين والإسمية في مقابليهم إشارة الى أنهم غيّروا الفطرة وبدّلوها بإحداث الضلال ومقابلوهم استمروا عليه وتقديم أرباب الضلال لأن الكلام وارد فيهم .

ثم لما كانت الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع الى الحق فإن أبوا قوتلوا ، أمر الداعي بأن يعدل في العقوبة فقال ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ أي بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك .

قال ابن جرير : نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه اذا تمكن إلا مثل ظلامته لا يتعداها الى غيرها ونحوه في البيضاوي ، وهذا صواب لأن الآية وإن قيل إن لها سبباً خاصاً كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ وعمومه يؤدي هذا المعنى الذي ذكره ، وسمى سبحانه الفعل الاول الذي هو فعل البادىء بالشر عقوبة مع ان العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازي ، للمشاكلة وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز .

ثم حث سبحانه على العفو فقال ﴿ولئن صبرتم﴾ عن المعاقبة بالمثل وعن الانتقام بتركه بالكلية ﴿لهو﴾ بضم الهاء وسكونها قراءتان سبعيتان أي فالصبر ﴿خير للصابرين﴾ من الانتصاف ووضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد .

وقد ذهب الجمهور الى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم ، وفي تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق والقصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة ، وهذه الأشياء لا تكون منسوخة ولا تعلق لها بالنسخ ، وقيل هي منسوخة بآيات القتال وبه قال ابن عباس والضحاك ولا وجه لذلك .

أخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن أبي ابن كعب قال : لما كان يوم أُحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الأنصار :

لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى ﴿وان عاقبتم﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « نصبر ولا نعاقب : كفوا عن القوم إلا أربعة »[١]

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حيث استشهد فنظر الى منظر لم ينظر الى شيء قط كان أوجع لقلبه منه ونظر اليه قد مُثل به فقال « رحمة الله عليك فانك كنت ما علمت وصولاً للرحم فعولاً للخير ،ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى ، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك» فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وان عاقبتم﴾ الآية فكفر النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر ، وعن ابن عباس مرفوعاً نحوه أخرجه الطبراني وابن المنذر وغيرهما[٢] .

وهذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم كأنه كان باجتهاد منه وعليه فلينظر هل قوله تعالى ﴿ولئن صبرتم﴾ الخ نسخ لهذا الاجتهاد او تنبيه على خطئه تأمل ، وعنه قال هذا حين أمر الله نبيه أن يقاتل من قاتله ثم نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم فهذا منسوخ .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر فقال ﴿واصبر﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أي بتوفيقه وتثبيته ؛ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء أي وما صبرك مصحوباً بشيء من الأشياء إلا بتوفيقه لك ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ثم نهاه عن الحزن فقال ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على الكافرين في اعراضهم عنك واستحقاقهم للعذاب الدائم أو لا تحزن على قتلى أُحد فإنهم قد أفضوا الى رحمة الله .

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٥٩ .

(٢) المستدرك كتاب حمزة ٣/١٩٧ .

﴿ولا تك في ضيق﴾ أي ضيق صدر قرىء بفتح الضاد وكسرها وهما سبعيتان قال ابن السكيت هما سواء ، وقال الفراء : الضيق بالفتح ما ضاق عنه صدرك وبالكسر ما يكون في الذي يتسع كالدار والثوب وكذا قال الأخفش : وهو من الكلام المقلوب لأن الضيق وصف للانسان يكون فيه ولا يكون الانسان فيه وكأنه أراد وصف الضيق بالعظم حتى صار كالشيء المحيط بالانسان من جميع جوانبه .

وقال هنا : ﴿تك﴾ بحذف النون ليكون ذلك مبالغة في التسلية وأثبتها في النمل على القياس ولأن الحزن ثم دون الحزن هنا والى ذلك أشار في التقرير ﴿مما يمكرون﴾ أي من مكرهم بك فيما يستقبل من الزمان و ﴿ما﴾ مصدرية او بمعنى الذي .

ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال ﴿ان الله مع الذين اتقوا﴾ المعاصي على اختلاف أنواعها ، وقيل اتقوا المثلة والزيادة في القصاص وسائر المناهي والعموم أولى وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة .

﴿والذين هم محسنون﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا به منها او بالعفو عن الجاني ، وقيل المعنى محسنون في أصل الانتقام ، فيكون الأول إشارة الى نوله ﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ والثاني إشارة الى قوله ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ وقيل الذين اتقوا إشارة الى التعظيم لأمر الله والذين هم محسنون إشارة الى الشفقة على عباد الله تعالى .

وعن الحسن قال ؛ اتقوا فيما حرم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم ، والعموم أولى ، وقيل لهرم بن حيان عند الموت أوصِ فقال : إنما الوصية في المال ولا مال لي ولكني أوصيك بخواتيم سورة النحل .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الاسراء)

وتسمى سورة سبحان وسورة الاسراء مائة واحدى عشرة آية وهي مكية ، وبه قال ابن عباس . وعن ابن الزبير مثله الا ثلاث آيات ، قوله : ﴿ وان كادوا ليستفزونك ﴾ نزلت حين جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفد ثقيف وحين قالت اليهود ليست هذه بأرض الانبياء وقوله : ﴿ رب ادخلني مدخل صدق ﴾ وقوله : ﴿ ان ربك أحاط بالناس ﴾ وزاد مقاتل قوله ان الذين أوتوا العلم من قبله وقيل الآيات الثمان .

وعن ابن مسعود قال في هذه والكهف ومريم انهن من العتاق الاول وهن من تلادي. وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا
ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ
مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

﴿سبحان﴾ هو مصدر سماعي لسبح المشدد أو اسم مصدر ، يقال سبح يسبح تسبيحاً وسبحاناً أو مصدر قياسي لسبح المخفف ، فانه يقال سبح في الماء ، ومعناه التنزيه والبعد والبراءة لله سبحانه من كل نقص وسوء ، وعلى كل فهو علم جنس للتنزيه والتقديس .

وقال سيبويه : العامل فيه فعل لا من لفظه ، والتقدير أنزه الله تنزيهاً ، فوقع سبحان مكان تنزيهاً فهو على هذا مثل قعد القرفصاء واشتمل الصماء ، وقيل هو علم للتسبيح كعثمان للرجل أي أسبح الله سبحان ثم نزل منزلة الفعل وسدّ مسده ودل على التسبيح البليغ والتنزيه الكامل ولذا لا يستعمل إلا فيه تعالى .

﴿الذي أسرى بعبده﴾ الاسراء قيل هو سير الليل يقال سرى وأسرى كسقى واسقى لغتان بمعنى سار في الليل وهما لازمان لكن مصدر الأول الاسراء ومصدر الثاني سرى بضم السين كهدى فالهمزة ليست للتعدية الى المفعول وانما جاءت التعدية هنا من الباء ومعنى اسرى به صيّره سارياً في الليل ، وقيل هو سير أول الليل خاصة .

وإذا كان الاسراء لا يكون إلا في الليل فلا بد للتصريح بذكر الليل بعده من فائدة ، فقيل أراد بقوله ﴿ليلاً﴾ تقليل مدة الاسراء وإنه أسرى به في بعض الليل

من مكة الى الشام مسافة أربعين ليلة ، ووجه دلالة ليلاً على تقليل المدة ما فيه من التنكير الدال على البعضية بخلاف ما اذا قلت سريت الليل فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً .

وقد استدل صاحب الكشاف على افادة ليلاً للبعضية بقراءة عبدالله وحذيفة من الليل أي في جزء من الليل ، قيل قدر أربع ساعات ، وقيل ثلاث وقيل أقل من ذلك ، والتقليل والتبعيض متقاربان ، فاستعمل في التبعيض ما هو للتقليل وقال الزجاج : معنى الآية سيَّر عبده يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ليلاً وعلى هذا معنى أسرى سيَّر فيكون للتقييد بالليل فائدة .

وقد أجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون على أن المراد بالعبد محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف أحد من الأمة في ذلك وقال بعبده ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بمحمد تشريفاً له صلى الله عليه وسلم .

قال أهل العلم : لو كان غير هذا الاسم أشرف منه لسماه الله سبحانه به في هذا المقام العظيم والحالة العلية .

أصم اذا نوديت باسمي وانني اذا قيل لي يا عبدها لسميع
غيره
لا تدعني الا بيا عبدها فإنه اشرف اسمائي

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة . وعن ابن شهاب قال : أسري به الى بيت المقدس قبل خروجه الى المدينة بسنة . وعن عروة نحوه . وقال السدي قبل مهاجره بستة عشر شهراً .

﴿من المسجد الحرام﴾ قال الحسن وقتادة : يعني المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن ، وقال عامة المفسرين · أسري به صلى الله عليه وسلم من دار أم هانىء ،

فحملوا المسجد الحرام على مكة او الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام أو لأن الحرم كله مسجد .

وفي حديث مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر » وذكر حديث المعراج بكماله ومن ابتدائية ثم ذكر سبحانه الغاية التي اسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم اليها فقال ﴿الى المسجد الاقصى﴾ وهو بيت المقدس ، وسمي الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام فهو أبعد بالنسبة الى من بالحجاز وفي تاريخ القدس انه سمي به لأنه أبعد المساجد التي تزار من المسجد ،وقيل لبعده عن الاقذار والخبائث ، وقيل لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ، وفي ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب ما لا يخفى .

وأول من بناه آدم بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة كما في المواهب . فهو أول مسجد بني في الأرض بعد الكعبة ، وتمام حاله في كتابنا لقطة العجلان فيما تمس الى معرفته حاجة الانسان .

وكان الاسراء به ببدنه في اليقظة وكان قبلها في المنام كما انه رأى فتح مكة سنة ست وتحقق منه سنة ثمان ؛ والحكمة في اسرائه الى بيت المقدس دون العروج به من مكة لأنه محشر الخلائق فيطؤه بقدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه أو لأنه مجمع أرواح الأنبياء ، فأراد أن يشرفهم بزيارته صلى الله عليه وآله وسلم ، أو ليخبر الناس بصفاته فيصدقوه في الباقي ، قاله الكرخي والوجه الأخير أظهر والله أعلم .

ثم وصف المسجد الأقصى بقوله ﴿الذي باركنا حوله﴾ بركة دنيوية وهي ليست إلا حول الأقصى ، وأما في الداخل فالبركة في كل من المسجدين بل هي في الحرام أتم ، وهي كثرة الثواب بالعبادة فيهما ، وعبارة الخازن يعني بالثمار والأنهار والأشجار أو بالأنبياء والصالحين لأنه قبلتهم قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وسماه

مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة والوحي ، واليه تحشر الخلق يوم القيامة ، فقد بارك الله سبحانه حول المسجد الأقصى ببركات الدنيا والآخرة .

قال السدي : المعنى أنبتنا حوله الشجر وجعل الاسراء اليه كالتوطئة لمعراجه الى السماء .

ثم ذكر العلة التي أسرى به لأجلها فقال ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي ما أراه الله سبحانه في تلك الليلة من العجائب التي من جملتها قطع هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل ، ومن تبعيضية وإنما أتى بها تعظيماً لآيات الله ، فإن الذي رآه صلى الله عليه وسلم وإن كان جليلاً عظيماً فهو بعض بالنسبة الى آيات الله تعالى وعجائب قدرته وجليل حكمته ، قاله أبوشامة والرؤية هنا بصرية وقيل قلبية ، واليه نحا ابن عطية .

﴿إنه﴾ سبحانه ﴿هو السميع﴾ بكل مسموع ، ومن جملة ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿البصير﴾ بكل مبصر ، ومن جملة ذلك ذات رسوله وافعاله ، قيل في هذه الآية أربعة التفاتات ، وذلك انه التفت أولاً من الغيبة في قوله الذي أسرى بعبده الى التكلم في قوله باركنا حوله .

ثم التفت ثانياً من التكلم في باركنا الى الغيبة في ليريه على قراءة الحسن بالياء ، ثم التفت ثالثاً من هذه الغيبة الى التكلم في آياتنا ، ثم التفت رابعاً من هذا التكلم الى الغيبة في قوله انه هو على الصحيح في الضمير ﴿إنه﴾ لله تعالى .

وأما على قول نقله أبو البقاء إن الضمير في أنه هو للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يجيء ذلك ، ويكون في قراءة العامة التفات واحد وفي قراءة الحسن ثلاثة ، وهذا موضع غريب ، واكثر ما ورد الالتفات ثلاث مرات على ما قال الزمخشري في قول امرىء القيس :

تطاول ليلك بالأثمد (الأبيات)

وقيل فيها خمسة التفاتات ، والخامس الالتفات من قوله انه هو الى التكلم في قوله الآتي ﴿وآتينا موسى﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل كان الاسراء بجسده صلى الله عليه وسلم مع روحه أو بروحه فقط ، فذهب معظم السلف والخلف الى الأول ، وذهب الى الثاني طائفة من أهل العلم منهم عائشة ومعاوية والحسن وابن اسحاق ، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان .

وذهبت طائفة الى التفصيل فقالوا كان الإسراء بجسده يقظة الى بيت المقدس والى السماء بالروح ، واستدلوا على هذا التفصيل بقوله الى المسجد الأقصى فجعله غاية للإسراء بذاته صلى الله عليه وسلم فلو كان الاسراء من بيت المقدس الى السماء وقع بذاته لذكره .

والذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب اليه معظم السلف والخلف من الاسراء بجسده وروحه يقظة الى بيت المقدس ثم الى السموات ولا حاجة الى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من ألفاظ الأحاديث الى ما يخالف الحقيقة ، ولا مقتضى لذلك إلا مجرد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من انه لا يستحيل عليه سبحانه شيء .

ولو كان ذلك مجرد رؤيا كما يقوله من زعم ان الاسراء كان بالروح فقط وأن رؤيا الأنبياء حق لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي صلى الله عليه وسلم عند اخباره لهم بذلك حتى ارتد من ارتد ممن لم يشرح بالايمان صدراً ، فإن الانسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد بل ما هو محال ولا ينكر ذلك أحد.

وأما التمسك لمن قال بأن هذا الاسراء إنما كان بالروح على سبيل الرؤيا بقوله ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس﴾ فعلى تسليم أن المراد بهذه

الرؤيا هو هذا الاسراء فالتصريح الواقع هنا بقوله سبحانه الذي اسرى بعبده ليلًا ؛ والتصريح في الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأنه أسرى به لا يقصر عن الاستدلال به على تأويل هذه الرؤيا الواقعة في الآية برؤية العين ، فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا .

وكيف يصح حمل هذا الاسراء على الرؤيا مع تصريح الأحاديث الصحيحة بأن النبي صلى الله عليه وسلم ركب البراق ، وكيف يصح وصف الروح بالركوب ، وهكذا كيف يصح حمل الاسراء على الرؤيا مع تصريحه صلى الله عليه وسلم بأنه كان عند أن أسرى به بين النائم واليقظان ، فالأولى ما ذهب اليه الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم .

وقد اختلف أيضاً في تاريخ الاسراء فروي أن ذلك كان قبل الهجرة الى المدينة بسنة ، وروي أن الاسراء كان قبل الهجرة بأعوام ، ووجه ذلك أن خديجة صلت مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ماتت قبل الهجرة بخمس سنين ، وقيل بثلاث ، وقيل بأربع ، ولم تفرض الصلاة إلا ليلة الاسراء وقد استدل بهذا ابن عبد البر على ذلك .

وقد اختلفت الرواية عن الزهري وممن قال بأن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة . الزهري في رواية عنه ، وكذلك الحربي فانه قال : أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة .

وقال ابن القاسم في تاريخه : كان الاسراء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً ، قال ابن عبدالبر : لا أعلم أحداً من أهل السير قال بمثل هذا ، وروي عن الزهري أنه أسري به قبل مبعثة بسبعة أعوام ، وروي عنه أنه قال : كان قبل مبعثه بخمس سنين ، وروى يونس عن عروة عن عائشة انها قالت : توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة .

وأعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الاسراء على اختلاف ألفاظها وما يتعلق بها من الأحكام وما قال أهل العلم فيه وما ظهر بعد المعراج من الآيات الدالة على صدقه .

وليس في ذلك كثير فائدة فهي معروفة في مواضعها من كتب الحديث ، وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهو مبحث آخر ، والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز وذكر أسباب النزول وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية ، وما عدا ذلك فهو فضل لا تدعو اليه حاجة .

﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة قيل والمعنى كرمنا محمداً بالمعراج واكرمنا موسى بالكتاب قال الشهاب : عقبت آية الاسراء بهذا استطراداً بجامع أن موسى اعطي التوراة بمسيره الى الطور وهو بمنزلة معراجه لأنه منح ثمة التكليم وشرف باسم الكليم والواو استئنافية او عاطفة على جملة سبحان الذي أسرى لا على أسرى بعبده وتكلفة .

﴿وجعلناه﴾ أي ذلك الكتاب ، وقيل موسى ﴿هدى لبني اسرائيل﴾ يهتدون به ﴿أن لا تتخذوا﴾ قرىء بالتحتية ولا نافية وأن مصدرية ولام التعليل مقدرة وبالفوقية ولا ناهية وان زائدة والمعنى على الأولى آتيناه الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا وعلى الثانية قلنا لهم لا تتخذوا والأولى أن تكون ﴿ان﴾ مفسرة لأن هذا ليس من مواضع زيادة بل ذلك في نحو ولما أن جاءت رسلنا .

﴿من دوني وكيلاً﴾ أي كفيلاً بأمورهم قاله الفراء ، وروي عنه انه قال كافياً ، وقيل معناه متوكلون عليه في أمورهم ، وقيل شريكاً ومعنى الوكيل في اللغة من توكل اليه الأمور .

﴿ذرية من حملنا من نوح﴾ نصب على الاختصاص ، وبه بدأ الزمخشري أو النداء أي يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا كما كان نوح في العبودية والانقياد وفي كثرة الشكر لله تعالى بفعل الطاعات ذكرهم سبحانه انعامه عليهم في ضمن انجاء آبائهم من الغرق ، وقيل المعنى ولا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً كقوله ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ والمراد بالذرية هنا جميع من في الأرض لأنهم من ذرية من كان في السفينة .

وقيل موسى وقومه وهذا هو المناسب لقراءة النصب على النداء والنصب على الاختصاص والرفع على البدل من فاعل لا تتخذوا أو على الخبر فإنها كلها راجعة الى بني اسرائيل المذكورين ، وأما على جعل النصب على أن ذرية هي المفعول الأول لقوله ﴿لا تتخذوا﴾ فالأولى تفسير الذرية بجميع من في الأرض من بني آدم .

أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن زيد الانصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذرية من حملنا مع نوح قال ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد حام وسام ويافث وكوش فذلك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلف » .

﴿إنه﴾ أي إن نوحاً ﴿كان عبداً شكوراً﴾ وصفه الله بكثرة الشكر في السراء والضراء وذلك انه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال الحمد لله وجعله كالعلة لما قبله ايذاناً بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات وحثاً لذريته على شكر الله سبحانه .

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟
خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم
بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ
أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

﴿وقضينا﴾ أي أعلمنا وأخبرنا قاله ابن عباس أو حكمنا وأتممنا وأصل القضاء الأحكام للشيء والفراغ منه ، وقيل أوحينا ويدل عليه قوله ﴿الى بني اسرائيل﴾ ولو كان بمعنى الاعلام والاخبار لقال قضينا بني اسرائيل ولو كان بمعنى حكمنا لقال على بني اسرائيل ولو كان بمعنى أتممنا لقال لبني اسرائيل ﴿في الكتاب﴾ أي التوراة ويكون إنزالها على نبيهم موسى كإنزالها عليهم لكونهم قومه ، وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ .

﴿لتفسدن﴾ أي والله لتفسدن ﴿في الأرض﴾ قرىء بفتح الفوقية ومعناها قريب من معنى قراءة الجمهور لأنهم إذا أفسدوا أفسدوا في نفوسهم ، والمراد بالفساد مخالفة ما شرعه الله لهم في التوراة والمراد بالأرض أرض الشام وبيت المقدس ، وقيل أرض مصر واللام جواب قسم محذوف ، قال النيسابوري : أو أجرى القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن .

﴿مرتين﴾ تثنية مرة وهي الواحدة من المر أي المرور على حد وفعلة لمرة كجلسة وفي القاموس مر مراً ومروراً جاز وذهب كاستمر ومره وبه جاز عليه والمرة الفعلة الواحدة والجمع مر بالضم ومرار بالكسر ومرر كعنب ولقيه ذات مرة لا يستعمل إلا ظرفاً وذات المرار أي مراراً كثيرة وجئته مراً أو مرين أي مرة أو مرتين انتهى .

والمرة الأولى قتل شعيا وحبس أرميا ومخالفة أحكام التوراة ، والثانية قتل يحيى بن زكريا والعزم على قتل عيسى ، وقيل الأولى قتل زكريا والثانية قتل يحيى وذكر ابن اسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتاً ولم يقتل .

قال ابن مسعود : أول الفساد قتل زكريا فبعث الله عليهم ملك النبط ، ثم ان بني اسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم فذلك قوله ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ وعن ابن عباس قال : بعث الله في الأولى جالوت وبعث عليهم في المرة الأخرى بختنصر فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين .

﴿ولتعلنّ علواً كبيراً﴾ هذه اللام كاللام التي قبلها أي لتستكبرن عن اطاعة الله ولتستعلن على الناس بالظلم والبغي مجاوزين للحد في ذلك وتبغون بغياً عظيماً .

﴿فإذا جاء وعد﴾ أي وقت وعد ﴿أُولَيهُما﴾ أولى المرتين المذكورتين والمراد بالوعد الوعيد والمراد بالوعيد المتوعد به أي حان وقت حلول العقاب الموعود به ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي قوة في الحروب وبطش عند اللقاء قيل هو بختنصر وجنوده وقيل جالوت وقيل جند من فارس وقيل جند من بابل وقيل هو سنحاريب من اهل نينوى فقتلوا علماءهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاً .

﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي عاثوا وترددوا يقال جاسوا وهاسوا وداسوا بمعنى ذكره ابن عزيز والقتيبي ، قال الزجاج : معناه طافوا هل بقي أحد لم يقتلوه قال : والجوس طلب الشيء باستقصاء ، قال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار أي تخللوها كما يجوس الرجل للأخبار أي يطلبها وكذا قال أبو عبيدة .

وقال ابن جرير : ومعنى جاسوا طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين

وجاثين ، وقال الفراء : معناه قتلوهم بين بيوتهم ، وقال قطرب : معناه نزلوا ، وقرأ ابن عباس فحاسوا بالحاء المهملة ، قال أبو زيد : الحوس والجوس والعوس والهوس الطوف بالليل ، وقيل الطوف بالليل هو الحوسان محركاً كذا قال ابو عبيدة ، وقال ابن عباس : جاسوا مشوا ومعنى خلال الديار وسط الديار فهو على هذا اسم مفرد بمعنى الوسط ويؤيده قراءة الحسن خلل الديار ، والثاني جمع خلل بفتحتين كجبل وجبال وجمل وجمال قاله السمين .

﴿وكان﴾ ذلك ﴿وعداً مفعولاً﴾ أي كائناً لا محالة لازماً لا خلف فيه ﴿ثم رددنا لكم الكرّة﴾ أي الدولة والغلبة والرجعة ﴿عليهم﴾ وذلك عند توبتهم قيل وذلك حين قتل داود جالوت وقيل حين قتل بختنصر ووضع رددنا موضع ترد لأنه لم يقع وقت الاخبار لكن لتحققه عبر بالماضي والكرّة في الأصل مصدر كر بكر أي رجع ثم يعبر بها عن الدولة والقهر .

﴿وامددناكم بأموال وبنين﴾ بعد نهب أموالكم وسبي أبنائكم حتى عاد أمركم كما كان ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ قال أبو عبيدة : النفير العدد من الرجال فالمعنى أكثر رجالاً من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من عشيرته يقال نفير ونافر مثل قدير وقادر ويجوز أن يكون النفير جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو .

﴿ان أحسنتم﴾ أفعالكم وأقوالكم على الوجه المطلوب منكم ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن ثواب ذلك عائد عليكم ﴿وإن اسأتم﴾ أعمالكم فأوقعتموها لا على الوجه المطلوب منكم ﴿فلها﴾ أي فعليها اساءتها وانما عبر بها للمشاكلة قاله الكرماني قال ابن جرير : اللام بمعنى الى أي فاليها ترجع الاساءة كقوله تعالى ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ أي اليها وقيل المعنى فلها الجزاء والعقاب .

وقال الحسين بن الفضل : فلها رب يغفر الاساءة ، وقال الكرخي : أجرى اللام على بابها ، قال أبو البقاء : وهو الصحيح لأن اللام للاختصاص والعامل

مختص بجزاء عمله حسنة وسيئة انتهى . وهذا الخطاب قيل هو لبني اسرائيل الملابسين لما ذكر في هذه الآيات ؛ وقيل لبني إسرائيل الكائنين في زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعناه اعلامهم ما حل بسلفهم فليرتقبوا مثل ذلك ؛ وقيل هو خطاب لمشركي قريش .

﴿فاذا جاء وعد الآخرة﴾ أي حضر وقت ما وعدوا من عقوبة المرة الآخرة والمرة الآخرة هي قتلهم يحيى بن زكريا كما سبق وقصة قتله مستوفاة في الانجيل واسمه فيه يوحنا قتله ملك من ملوكهم بسبب امرأة حملته على قتله واسم الملك لاخت قاله ابن قتيبة .

وقال ابن جرير : هيردوس فسلط عليهم الفرس والروم فسبوهم وقتلوهم ، وقيل هو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه اليه وجواب إذا محذوف لدلالة جواب إذا الأولى تقديره بعثناهم .

﴿ليسؤوا وجوهكم﴾ أي ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم حتى تظهر عليكم آثار المساءة وتبين في وجوهكم الكآبة وقيل المراد بالوجوه السادة منهم وقرىء لنسوء بالنون على أن الضمير لله سبحانه ، وقرىء لنسوءن بنون التأكيد وقرىء ليسوء بالتحتية وافراد الضمير لله أو للوعد وقرىء ليسوءوا على أن الفاعل عباد لنا ، وفي عود الواو على العباد نوع استخدام إذ المراد بهم أولاً جالوت وجنوده والمراد بهم في ضمن الضمير بختنصر وجنوده .

﴿وليدخلوا المسجد﴾ أي بيت المقدس ونواحيه فيخربوها ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ أي وقت افسادهم الأول ﴿وليتبروا﴾ أي يدمروا ويهلكوا ، قاله ابن عباس ، وقال قطرب يهدموا ، قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ﴿ما علوا﴾ ما غلبوا عليه من بلادكم أو مدة علوهم ﴿تتبيراً﴾ أي تدميراً ذكر المصدر إزالة للشك وتحقيقاً للخبر .

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ
ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ
فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟
عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

قال الضحاك : كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وإن عدتم﴾ الى المعصية ثالثاً ﴿عدنا﴾ الى عقوبتكم ، قال أهل السير : ثم انهم عادوا الى ما لا ينبغي وهو تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد من نعته في التوراة والانجيل فعاد الله الى عقوبتهم على أيدي العرب ، فجرى على بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر ما جرى من القتل والسبي والاجلاء وضرب الجزية على من بقي منهم وضرب الذلة والمسكنة .

وقال قتادة : فعادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقد اختلفت الروايات في تعيين الواقع منهم في المرتين وفي تعيين من سلطه الله عليهم وفي كيفية الانتقام منهم ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

﴿وجعلنا جهنم للكافرين﴾ منهم ومن غيرهم ﴿حصيراً﴾ أي سجناً ومحبساً جعل الله مأواهم فيها قاله ابن عباس ، والحصير هو المحبس فهو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، والمعنى أنهم محبوسون في جهنم لا يتخلصون عنها ابداً . قال الجوهري : حصره يحصره حصراً ضيق عليه وأحاط به ، ويقال للسجن محصر وحصير ، وقيل فراشاً ومهاداً ، قاله الحسن ، وأراد على هذا بالحصير الحصير الذي يفرشه الناس .

﴿ان هذا القرآن يهدي﴾ الناس ﴿للتي﴾ أي للطريقة التي ﴿هي أقوم﴾ وأصوب من غيرها من الطرق وهي ملة الاسلام . وقال الزجاج : للحال التي هي أقوم الحالات ، وهي توحيد الله والايمان برسله ، وكذا قال الفراء ، وقيل للكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، فبعضهم يصل بهدايته وهم المؤمنون وبعضهم لا يصل وهم الكافرون.

﴿ويبشر المؤمنين﴾ بما اشتمل عليه من الوعد بالخير آجلاً وعاجلاً ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ التي أرشد الى عملها القرآن ﴿أن لهم﴾ أي بأن لهم ﴿أجراً كبيراً﴾ وهو الجنة ﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ واحكامها المبينة في القرآن ﴿أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ وهو عذاب النار فلا يكون ذلك داخلاً في حيز البشارة وعليه جرى السفاقسي والبيضاوي والسيوطي .

والجملة عطف على جملة يبشر بتقدير يخبر ، وقيل عطف على قوله ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ ويراد بالتبشير الاخبار سواء كان بخير أو شر أو معناه الحقيقي ويكون الكلام مشتملاً على تبشير المؤمنين ببشارتين ، الأولى ما لهم من الثواب والثانية ما لأعدائهم من العقاب ، ولا شك أن ما يصيبُ عدوهم سرور لهم . ﴿ويدع﴾ القياس أن تثبت واو يدع لأنه مرفوع ، إلا أنه لما وجب سقوطها لفظاً لاجتماع الساكنين سقطت في الخط ايضاً على خلاف القياس ، ونظيره سندع الزبانية .

﴿الانسان بالشر﴾ المراد بالانسان هو الجنس لوقوع هذا الدعاءِ من بعض أفراده ، وهو دعاء الرجل على نفسه وماله وولده وعند الضجر بما لا يحب ان يستجاب له نحو اللهم أهلكه اللهم آلعنه ونحو ذلك .

﴿دعاءه بالخير﴾ أي مثل دعائه لربه بالخير لنفسه ولأهله ، كطلب العافية والرزق ونحوهما ، فلو استجاب الله دعاؤه على نفسه بالشر لهلك ، لكنه لم يستجب تفضلاً منه ورحمة .

ومثل ذلك ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾ وقد تقدم في

سورة يونس انه يستجاب له بالخير ولا يستجاب له في الشر فراجعه ، وقيل المراد بالانسان القائل هذه المقالة هو الكافر يدعو لنفسه بالشر وهو استعجال العذاب دعاءه بالخير كقوله ﴿اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ .

وقال ابن عباس : قوله اللهم العنه واغضب عليه ، وقيل هو أن يدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح .

﴿وكان الانسان عجولاً﴾ أي مطبوعاً على العجلة يسارع الى كل ما يخطر بباله لا ينظر الى عاقبته ، ومن عجلته أنه يسأل البشر كما يسأل الخير وقال ابن عباس : ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء ، والمراد بالانسان الجنس لأن أحداً من الناس لا يعرى عن عجلة ، ولو تركها لكان تركها أصلح في الدين والدنيا .

وقيل أشار به الى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن يكمل فيه الروح ، فعن سلمان الفارسي قال : أول ما خلق الله من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه ، فلما كان بعد العصر قال يارب أعجل قبل الليل ، فذلك قوله ﴿وكان الانسان عجولاً﴾ والمناسب للسياق هو الأول .

ولما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه وبدائع خلقه فقال ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ وذلك لما فيهما من الاظلام والانارة مع تعاقبهما وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأحلام ، ومعنى كونهما آيتين انهما يدلان على وجود الصانع وقدرته وعلى إنفاذ الحكم بتعاقبهما على نسق واحد مع إمكان غيره ؛ وقدم الليل على النهار لكونه الأصل ، وثنى الآية ههنا وافردها في قوله ﴿وجعلناها وابنها آية﴾ لتباين الليل والنهار من كل وجه ولتكررهما ؛ فناسب هنا التثنية بخلاف عيسى مع أمه فإنه جزء منها ولا تكرر فيهما فناسب فيهما الافراد ، قاله الكرخي .

﴿فمحونا آية الليل﴾ أي طمسنا نورها ، وقد كان القمر كالشمس في الانارة والضوء ، قيل ومن آثار المحو السواد الذي يرى في القمر ؛ وقيل المراد بمحوها أنه سبحانه خلقها ممحوة الضوء مطموسة مظلمة لا يستبين فيه شيء ، وليس المراد أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك ، والفاء تفسيرية لأن المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقب جعل الليل والنهار آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته . وعن عليّ قال في الآية : هو السواد الذي في القمر . وعن ابن عباس نحوه .

واخرج البيهقي وابن عساكر عن سعيد المقبري أن عبدالله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السواد الذي في القمر فقال « كان شمسين ، فالسواد الذي رأيت هو المحو » وعن ابن عباس مرفوعاً نحوه بأطول منه . أخرجه ابن مردويه ، قال السيوطي واسناده واه .

﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي مبصراً فيها قال الكسائي وغيره هو من قول العرب : أبصر النهار إذا صار بحالة يبصر بها ، وأشار بهذا الى أن في الكلام مجازاً عقلياً لأن النهار لا يبصر ، بل يبصر فيه فهو من إسناد الحديث الى زمانه ، وقيل مبصرة للناس من قولهم أبصره فبصر . فالأول وصف لها بحال أهلها ؛ والثاني وصف لها بحال نفسها واضافة آية الى النهار بيانية ، أي فمحونا الآية التي هي النهار مبصرة ، كقولهم نفس الشيء وذاته . وقيل آية النهار الشمس ، كما أن آية الليل القمر ، فمعنى وجعلنا آية النهار مبصرة ، أي جعلنا شمس النهار مضيئة تبصر بها الأشياء رؤية بينة .

﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف في وجوه المعاش ، والمعنى جعلناها لتبتغوا وتطلبوا فضلاً أي رزقاً ، اذ غالب تحصيل

الأرزاق وقضاء الحوائج يكون بالنهار ، ولم يذكر هنا السكون في الليل اكتفاء بما قاله في موضع آخر: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ .

ثم ذكر مصلحة أخرى في ذلك الجعل فقال: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ وهذا متعلق بالفعلين جميعاً ، أعني محونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتعلموا الخ لا بأحدهما فقط كالأول ، اذ لا يكون علم عدد السنين والحساب إلا باختلاف الجديدين ومعرفة الأيام والشهور والسنين ، والفرق بين العدد والحساب أن العدد احصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء ، والحساب احصاء ما له كمية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص .

فالسنة مثلاً إن وقع النظر اليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد ، وان وقع النظر اليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل شهر من عدة أيام قد تحصل كل يوم من عدة ساعات قد تحصلت كل ساعة من عدة دقائق فذلك هو الحساب . ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار ولتعطلت الأمور ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج والصوم والصلاة ولا وقت الزراعة ولا وقت حلول الديون المؤجلة وقال الكرخي لا تكرار إذ العدد موضوع الحساب .

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي كل ما تفتقرون اليه في أمر دينكم ودنياكم بيناه تبييناً واضحاً لا يلتبس فهو كقوله ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ وقوله ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ وإنما ذكر المصدر وهو قوله ﴿تفصيلاً﴾ لأجل تأكيد الكلام وتقريره فكأنه قال فصلناه حقاً على الوجه الذي لا مزيد عليه وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الأعذار ليهلك من هلك عن بينة ولهذا قال :

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

﴿وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب الحظ ويقال له البخت فالطائر ما وقع للشخص في الأزل بما هو نصيبه من العقل والفهم والعمل والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كان طائراً يطير اليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب طيراناً لا نهاية له ولا غاية الى أن انتهى الى ذلك الشخص في وقته المقدر من غير خلاص ولا مناص .

وقال الأزهري : الأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي فكتب ما علمه منهم أجمعين وقضى بسعادة من علمه مطيعاً وشقاوة من علمه عاصياً فطار لكل منهم ما هو صائر اليه عند خلقه وانشائه وذلك قوله ﴿وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ أي ما طار له في علم الله ، وقيل إن العرب كانوا إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم الى خير أو شر اعتبروا أحوال الطير ، فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه .

وفي عنقه عبارة عن شدة اللزوم وكمال الارتباط ، قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس ، قال مجاهد : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد .

أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير بسند حسن عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « طائر كل انسان في عنقه »[١] وقال ابن عباس : طائره سعادته وشقاوته وما قدر الله له وعليه فهو لازمه أينما كان . وعن أنس قال : طائره كتابه فالطائر له تفسيران :

الأول : العمل وما قدر له .

والثاني : الكتاب الحقيقي .

﴿ونخرج﴾ بنون التعظيم ﴿له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ وقرىء يخرج بالتحتية وبالراء المضمومة على معنى ويخرج له الطائر فيصير كتاباً وقرىء يخرج والفاعل هو الله سبحانه وقرىء على البناء للمفعول أي يخرج له الطائر كتاباً والمعنى مكتوباً فيه أعماله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

قال الحسن : بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ عليك سيآتك حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة .

وإنما قال سبحانه ﴿يلقاه منشوراً﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ على السيئة قال ابن عباس هو عمله الذي أحصي عليه فأخرج له يوم القيامة ما كتب له من العمل فقرأه منشوراً ، والمعنى يلقاه الانسان او يلقى الانسان

﴿إقرأ كتابك﴾ أي يقال له أو قائلين له اقرأ قيل يقرأ في ذلك اليوم الكتاب من كان قارئاً ومن لم يكن قارئاً قاله قتادة ﴿كفى بنفسك﴾ أي بشخصك ﴿اليوم عليك حسيباً﴾ أي حاسباً أو كافياً والحسيب بمعنى المحاسب كالشريك والجليس والخليط ، قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك .

---

(١) أحمد بن حنبل ٣/٣٤٢ - ٣٤٩ - ٣٦٠ .

﴿من اهتدى فانما يهتدي لنفسه﴾ بيَّن سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضـده يختصان بفاعلهما لا يتعديان منه الى غيره فمن اهتدى بفعل ما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام فانما تعود منفعة ذلك الى نفسه لا تتخطاه الى غيره ممن لم يهتد .

﴿ومن ضل﴾ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به ولم يترك ما نهى عنه ﴿فانما يضل عليها﴾ أي فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها فكل أحد محاسب عن نفسه مجزيّ بطاعته معاقب بمعصيته ، وهذا حاصل ما تقدم من بيان كون القرآن هادياً لأقوم الطريق ولزوم الأعمال لصاحبها .

ثم أكد هذا الكلام بأبلغ تأكيد فقال ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ الوزر الاثم يقال وزر يزر وزراً ووزرة أي اثماً والجمع أوزار والوزر الثقل ومنه يحملون أوزارهم على ظهورهم أي أثقال ذنوبهم ومعنى الآية لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى تخلص الأخرى عن وزرها وتؤخذ به الأولى وقد تقدم مثل هذا في الأنعام .

قال الزجاج في تفسير هذه الآية : إن الآثم والمذنب لا يؤاخذ بذنب غيره وهذا تحقيق معنى قوله وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ، وأما ما يدل عليه قوله تعالى ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ وقوله تعالى ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئتها فإن جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له ، وإنما الذي يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصل الحسنة والسيئة .

وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الاضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للاطماع الفارغة حيث

كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالشفاعة على أسلافهم الذين قلدوهم .

أخرج ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة قالت : سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : « هم من آبائهم » ثم سألته بعد ذلك فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت ﴿ولا تزر وازرة﴾ الآية فقال هم على الفطرة أو قال في الجنة » قال السيوطي وسنده ضعيف .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : يارسول الله إنا نصيب في البيات من ذراري المشركين قال « هم منهم » وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل ، وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع اليه .

﴿وما كنا معذبين﴾ أحداً ﴿حتى نبعث رسولاً﴾ لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدايته والضال بضلالته وعدم مؤاخذة الانسان بجناية غيره ذكر انه لا يعذب عباده إلا بعد الاعذار اليهم بإرسال رسله وانزال كتبه فبيَّن سبحانه انه لم يتركهم سدى ولا اخذهم قبل إقامة الحجة عليهم ، والظاهر انه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعد الاعذار اليهم بإرسال الرسل ، وبه قالت طائفة من أهل العلم وذهب الجمهور الى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة ؛ وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل .

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية﴾ اختلف المفسرون في معنى ﴿أمرنا مترفيها﴾ على قولين (الأول) أن المراد به الذي هو نقيض النهي ، وعلى هذا اختلفوا في المأمور به فالأكثر على أنه الطاعة والخير .

وقال في الكشاف معناه أمرناهم بالفسق ﴿ففسقوا فيها﴾ وأطال الكلام

(١) مسلم ١٧٤٥ ـ البخاري ١٤٣١ .

في تقرير هذا وتبعه المقتدون به في التفسير، وما ذكره هو ومن تابعه معارض بمثل قول القائل: أمرته فعصاني، فإن كل من يعرف اللغة العربية يفهم من هذا أن المأمور به شيء غير المعصية لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له.

فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المراد به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه.

والقول الثاني أن معنى أمرنا مترفيها أكثرنا فساقها، قال الواحدي: تقول العرب أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله إذا كثرهم، وقد قرىء أمرنا بتشديد الميم أي جعلناهم أمراء مسلطين، وقرىء آمرنا بالمد والتخفيف أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها، قاله الكسائي، وقال أبو عبيدة: آمرته بالمد وأمرته لغتان بمعنى كثرته ومنه الحديث خير المال مهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والنسل وكذا قال ابن عزير.

وقرىء أمرنا بالقصر وكسر الميم على معنى فعلنا ورويت هذه القراءة عن ابن عباس قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيدة وأنكره الكسائي، قال لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد، قال في الصحاح وقال أبو الحسن أمر ماله بالكسر أي كثر، وأمر القوم أي كثروا، وقرأ الجمهور أمرنا من الأمر ومعناه ما قدمنا في القول الأول.

وقد قيل في تأويل أمرنا بأنه مجاز عن الأمر الحامل لهم على الفسق وهو إدرار النعم عليهم، وقيل المراد قرب اهلاك قرية وهو عدول عن الظاهر بدون ملجىء اليه.

والمراد بالمترفين المنعمون الذين قد أبطرتهم النعمة وسعة العيش، والمفسرون يقولون في تفسير المترفين أنهم الجبارون المتسلطون والملوك الجائرون، قالوا وإنما خصوا بالذكر لأن من عداهم أتباع لهم، وفي القاموس الترفه بالضم النعمة والطعام الطيب والشيء الظريف تخص به صاحبك وترف

كفرح تنعم وأترفته النعمة أطغته أو نعمته كتَرَّفَتْه تَتْريفاً والمترف كمكرم المتروك يفعل ما يشاء ولا يمنع والمتنعم لا يمنع من تنعمه وترف تنعم .

﴿ فحق عليها القول ﴾ أي ثبت وتحقق ووجب عليهم العذاب والعقاب بعد ظهور فسقهم وتمردهم في كفرهم ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾ عظيماً لا يوقف على كنهه لشدته وعظيم موقعه وأهلكناها إهلاك إستئصال والدمار الهلاك والخراب .

ثم ذكر سبحانه أن هذه عادته الجارية مع القرون الخالية فقال ﴿ وكم أهلكنا من القرون﴾ أي كثيراً ما اهلكنا منهم فكم مفعول أهلكنا أي أن من قوم كفروا ﴿ من بعد نوح ﴾ كعاد وثمود وغيرهم من الأمم الخالية فحل بهم البوار ونزل بهم سوط العذاب وفيه تخويف لكفار مكة ، وإنما قال ذلك لأنه أول من كذبه قومه ومن ثم لم يقل من بعد آدم، ومن الثانية لإبتداء الغاية والأولى للبيان فلذلك إتحد متعلقهما .

وقال الحوفي الثانية بدل من الأولى وليس كذلك لإختلاف معنييهما ، ثم خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو ردع للناس كافة فقال﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ .

قال الفراء : إنما يجوز إدخال الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم كقولك كفاك به وأكرم به رجلاً وطاب بطعامك طعاماً ولا يقال قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك ؛ والمراد بكونه سبحانه خبيراً أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهراً وباطناً عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا تخفى عليه خافية من أحوال الخلق .

وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة وتخويف شديد لأهل المعصية لأن العلم التام والخبرة الكاملة والبصيرة النافذة يقتضي إيصال الجزاء الى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا
مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ
عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ
دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

﴿من كان يريد العاجلة﴾ هذا تأكيد لما سلف من جملة ﴿كل انسان ألزمناه طائره﴾ وجملة ﴿من اهتدى﴾ والمراد بالعاجلة المنفعة العاجلة او الدار العاجلة ، والمعنى من كان يريد بأعمال البر أو بأعمال الآخرة ذلك فيدخل تحته الكفرة والفسقة والمراؤون والمنافقون .

﴿عجلنا له﴾ أي لذلك المريد ﴿فيها﴾ أي في تلك العاجلة قيد المعجل والمعجل له بقيدين ؛ الأول قوله ﴿ما نشاء﴾ تعجيله له منها لا ما يشاؤه ذلك المريد ، ولهذا ترى كثيراً من هؤلاء المريدين للعاجلة يريدون من الدنيا ما لا ينالون ويتمنون ما لا يصلون اليه ، والقيد الثاني قوله ﴿لمن نريد﴾ التعجيل له منهم ما اقتضته مشيئتنا . وقيل الآية في المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها .

وهذه الآية تقيد الآيات المطلقة كقوله سبحانه ﴿من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ وقوله ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ .

وقيل قرىء ما يشاء بالتحتية والضمير على هذا لله سبحانه ، وفيه بعد لمخالفته لما قبله وهو عجلنا وما بعده وهو لمن نريد .

وقيل الضمير راجع الى ﴿من﴾ في قوله ﴿من كان يريد﴾ فيكون ذلك مقيداً بقوله لمن نريد ، أي عجلنا له ما يشاؤه لكن بحسب إرادتنا ، فلا

يحصل لمن أراد العاجلة ما يشاؤه إلا اذا أراد الله له ذلك ، ثم بعد هذا كله فمن وراء هذه الطلبة الفارغة التي لا تأثير لها الا بالقيدين المذكورين عذاب الآخرة الدائم ولهذا قال ﴿ثم جعلنا له جهنم﴾ أي بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة واخلاصه عن الشوائب جعلنا له عذاب جهنم على اختلاف أنواعه .

﴿يصلاها﴾ أي يدخل جهنم ﴿مذموماً﴾ ملوماً من الخلق ﴿مدحوراً﴾ أي مطروداً من رحمة الله مبعداً عنها ، وفي المختارة دحره يدحره من باب خضع طرده ، فهذه عقوبته في الآخرة أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه فأين حال هذا الشقي من حال المؤمن النقي ، فإنه ينال من الدنيا ما قدره الله له وأراده بلا هلع منه ولا جزع مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه ، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من الله سبحانه وهو الجنة ولهذا قال .

﴿ومن أراد﴾ بأعماله الدار ﴿الآخرة وسعى لها﴾ أي من أجلها ، وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص لأنها للاختصاص ﴿سعيها﴾ أي السعي الحقيقي بها اللائق بطالبها ، وهو الاتيان بما أمر به وترك ما نهى عنه خالصاً لله غير مشوب وكان الاتيان به على القانون الشرعي من دون ابتداع ولا هوى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم .

﴿وهو مؤمن﴾ بالله ايماناً صحيحاً ، لأن العمل الصالح لا يستحق صاحبه الجزاء عليه الا اذا كان من المؤمنين ﴿انما يتقبل الله من المتقين﴾ والواو للحال ﴿فأولئك﴾ أي المريدون للآخرة الساعون لها سعيها ؛ وفيه مراعاة معنى من بعد مراعاة لفظها وهو مبتدأ وخبره ﴿كان سعيهم مشكوراً﴾ عند الله أي مقبولاً غير مردود؛ وقيل مضاعفاً الى أضعاف كثيرة .

فقد اعتبر سبحانه في كون السعي مشكوراً أموراً ثلاثة :

الأول : ارادة الآخرة .

الثاني : أن يسعى لها السعي الذي يحق لها .

والثالث : أن يكون مؤمناً وفي الخطيب قال بعض السلف الصالح ؛ من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب ، وتلا هذه الآية .

ثم بيَّن سبحانه كمال رأفته وشمول رحمته فقال ﴿كُلًّا﴾ أي كل واحد من الفريقين ، من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة ﴿نمد﴾ أي نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾ بدل من المفعول وهو ﴿كُلًّا﴾ فكأنه قيل نمد هؤلاء وهؤلاء الأول للأول والثاني للثاني فهو لف ونشر مرتب ، أي نرزق الكفار والمؤمنين وأهل المعصية وأهل الطاعة ، لا نؤثر معصية العاصي في قطع رزقه ، وما به الامداد هو ما عجله لمن يريد الدنيا وما أنعم به في الأولى والاخرى على من يريد الآخرة .

وفي قوله ﴿من عطاء ربك﴾ اشارة الى أن ذلك بمحض التفضل ، وهو متعلق بنمد ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ممنوعاً عن أحد ، قاله الضحاك . يقال حظره يحظره حظراً منعه ، وكل ما حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك، والمراد بالعطاء العطاء في الدنيا كالرزق والجاه إذ لا حظ للكافر في الآخرة .

قال الزجاج : علم الله سبحانه انه يعطي المسلم والكافر وأنه يرزقهم جميعاً . وقال الحسن : كل يرزقه الله في الدنيا البر والفاجر وقال ابن عباس : يرزق الله من أراد الدنيا ويرزق من أراد الآخرة .

﴿أنظر﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل من له أهلية النظر والاعتبار . وهذه الجملة مقررة لما مر من الامداد وموضحة له ، والمعنى انظر ﴿كيف فضلنا﴾ في العطايا العاجلة ﴿بعضهم﴾ أي بعض العباد ﴿على بعض﴾ فمن غني وفقير ، وقوي وضعيف ، وصحيح ومريض ، وعاقل واحمق ، وذلك لحكمة بالغة تقصر العقول عن إدراكها .

﴿وللآخرة﴾ اللام لام ابتداء أو قسم ﴿أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ من

الدنيا وذلك لأن نسبة التفاضل في درجات الآخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا ، وليس للدنيا بالنسبة الى الآخرة مقدار ، فلهذا كانت الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . وقيل المراد أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرين يدخلون النار ، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين .

وحاصل المعنى أن التفاضل في الآخرة ودرجاتها فوق التفاضل في الدنيا ومراتب أهلها فيها من بسط وقبض ونحوهما ، وثبت في الصحيحين « أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء »[1] .

ثم لما أجمل سبحانه أعمال البر في قوله وسعى لها سعيها وهو مؤمن أخذ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال ﴿لا تجعل﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به أمته تهييجاً وإلهاباً أو لكل مكلف متأهل له صالح لتوجيهه اليه .

وقيل التقدير قل لكل مكلف لا تجعل ﴿مع الله إلهاً آخر فتقعد﴾ النصب على جواب النهي ، أي لا يكن منك جعل فقعود ، ومعنى تقعد تصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ؛ واليه ذهب الفراء والزمخشري ، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام .

وقيل هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات ، فإن السعي فيه إنما يتأتى بالقيام والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب .

وقيل إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادماً مفكراً على ما فرط منه فالقعود على هذا حقيقة .

﴿مذموماً مخذولاً﴾ ونصبهما على خبرية تقعد أو على الحال ، اي من غير حمد وبغير ناصر فتصير جامعاً بين الأمرين : الذم لك من الله ومن ملائكته ومن صالحي عباده ، والخذلان لك منه سبحانه ، أو حال كونك جامعاً بينهما . وحاصل ما ذكر في هذه الآيات من أنواع التكاليف خمسة وعشرون نوعاً بعضها أصلي وبعضها

---

(١) مسلم ٢٨٣١ ـ البخاري ١٥٤٠ .

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ
أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾
رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾
وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

فرعي ، وقد ابتدأ بالأصلي في قوله لا تجعل ، ثم ذكر عقيبه سائر الأعمال التي يكون من عمل بها ساعياً في الآخرة فقال :

﴿وقضى ربك﴾ أي أمر أمراً جزماً وحكماً قطعاً وحتماً مبرماً وعن ابن عباس أنه قرأ ووصى ربك مكان وقضى ، وقال التزقت الواو والصاد وأنتم تقرأونها وقضى ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد ، وبه قرأ الضحاك أيضاً أقول إنما يلزم هذا لو كان القضاء بمعنى الفراغ من الأمر ، وهو وإن كان أحد معاني مطلق القضاء كما في قوله ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وقوله ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ وقوله ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ ولكنه ههنا بمعنى الأمر وهو أحد معاني القضاء والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين .

ومن معاني مطلق القضاء معان أخر غير هذين المعنيين كالقضاء بمعنى الخلق ومنه ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ وبمعنى الارادة كقوله ﴿إذا قضى أمراً﴾ وبمعنى العهد كقوله ﴿إذ قضينا الى موسى الأمر﴾ وقد روى عنه أيضاً أنه قال قضى أمر، وقيل أوجب ربك؛ وعن مجاهد قال: عهد ربك.

قال الرازي : هذا القول ـ أي قول ابن عباس ـ بعيد جداً لأنه يفتح باب

أن التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ؛ ولو جوَّزنا ذلك لارتفع الامان على القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ، ولا شك أنه طعن عظيم في الدين .

﴿أن لا﴾ أي بأن ﴿لا تعبدوا إلا إياه﴾ قاله السيوطي ، وقال في الجمل قوله هذا غير سديد حيث أثبت النون بين الهمزة ولا النافية ، بقلم الحمرة فيقتضي انها من رسم القرآن مع انه ليس كذلك ، وقد نص في شرح الجزرية أن ما عدا المواضع العشرة يكتب موصولاً أي لا تثبت فيه النون ، وقيل أن مفسرة ولا تعبدوا نهي وفيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره ؛ وهذا هو الحق .

ثم اردفه بالأمر بين الوالدين فقال ﴿وبالوالدين﴾ أي وقضى بأن تحسنوا بهما أو واحسنوا بهما ﴿إحساناً﴾ وتبروهما قيل وجه ذكر الإحسان الى الوالدين بعد عبادة الله سبحانه إنهما السبب الظاهر في وجود المتولد بينهما وفي جعل الإحسان الى الأبوين قريناً لتوحيد الله وعبادته من الإعلان بتأكد حقهما والعناية بشأنهما مالا يخفى ؛ وهكذا جعل سبحانه في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره فقال ﴿أن أشكر لي ولوالديك﴾ .

ثم خص سبحانه حالة الكبر بالذكر لكونها الى البر من الولد أحوج من غيرها فقال ﴿إما يبلغن﴾ إن شرطية وما زائدة والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التأكيد الثقيلة ﴿عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ معنى عندك أن يكونا في كنفك وكفالتك وتوحيد الضمير في عندك ولا تقل وما بعدهما للاشعار بأن كل فرد من الأفراد منهى بما فيه النهي ومأمور بما فيه الأمر .

﴿فلا تقل لهما أف﴾ جواب الشرط قيل والتقييد بهذا الشرط خرج مخرج الغالب من أن الولد إنما يتهاون بوالديه عند الكبر وإلا فلا يختص بالكبيرين ، والمعنى لا تقل لواحد منهما في حالتي الاجتماع والانفراد ، وليس المراد حالة الاجتماع فقط .

عن الحسين بن عليّ مرفوعاً : لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أف لحرّمه .

وقال مجاهد : لا تقل لهما أف لما تميط عنهما من الأذى الخلاء والبول كما كانا لا يقولانه فيما كانا يميطان عنك من الخلاء والبول . وفي أف أربعون لغة قاله السمين ثم قال وقد قرىء من هذه اللغات بسبع ثلاث في المتواتر وأربع في الشواذ وقال الفراء : تقول العرب فلان يتأفف من ريح وجدها أي يقول أف أف ، وقال الأصمعي : الأف وسخ الأذن والتف وسخ الاظفار ، يقال ذلك عند استقذار الشيء ثم كثر حتى استعملوه في كل ما يتأذون به ، وعن ابن الأعرابي أن الأف للضجر وقال القتيبي : أصله أنه اذا سقط عليه تراب ونحوه نفخ فيه ليزيله ؛ فالصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قول القائل أف . ثم توسعوا فذكروه عند كل مكروه يصل اليهم ، وقال الزجاج معناه النتن . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأف وسخ بين الاظفار والتف قلامتها .

والحاصل أنه اسم فعل ينبىء عن التضجر والاستثقال أو صوت ينبىء عن ذلك فنهى الولد عن أن يظهر منه ما يدل على التضجر من أبويه أو الاستثقال لهما وقيل أف مصدر بمعنى تباً وقبحاً وخسراناً والأول أرجح ، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بفحوى الخطاب أو بلحنه كما هو مقرر في الأصول .

﴿ ولا تنهرهما﴾ أي لا تضجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك ، والنهي والنهر والنهم أخوات بمعنى الزجر والغلظة ، يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره قال الزجاج : معناه لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما .

﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولاً كريماً﴾ أي ليناً لطيفاً جميلاً سهلاً أحسن ما يمكن التعبير عنه من لطف القول وكرامته مع حسن التأدب والحياء والاحتشام .

قال محمد بن زبير : يعني اذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما . وقيل هو أن يقول يا أماه يا أبتاه ولا يدعوهما باسمائهما ولا يكنيهما .

﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ قال سعيد بن جبير : اخضع لوالديك كما يخضع العبد للسيد الفظ الغليظ ، ذكر القفال في معنى خفض الجناح وجهين :

الأول : ان الطائر اذا أراد ضم فراخه اليه للتربية خفض لها جناحه ، فلهذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير ، فكأنه قال للولد اكفل لوالديك بأن تضمهما الى نفسك لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك وكنت مفتقراً اليهما .

والثاني : ان الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه واذا أراد النزول خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية بليغة عن التواضع وترك الارتفاع ، وفي اضافة الجناح الى الذل وجهان .

الأول : انها كاضافة حاتم الى الجود في قولك حاتم الجود فالأصل فيه الجناح الذليل .

والثاني : سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً والذل من ذل يذل ذلاً وذلة ومذلة فهو ذليل ، وقرىء بكسر الذال من قولهم دابة ذلول بينة الذل أي منقادة سهلة لا صعوبة فيها .

وقوله ﴿من الرحمة﴾ فيه معنى التعليل أي من أجل فرط الشفقة والعطف عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم لمن كان أفقر خلق الله اليهما بالأمس ، قال السمين وفي ﴿من﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها للتعليل .

والثاني : انها ابتدائية ؛ قال ابن عطية : أي أن هذا الخفض يكون ناشئاً من الرحمة المستكنة في النفس .

الثالث : انها نصب على الحال من جناح ؛ ثم كأنه قال له سبحانه ولا تكتف برحمتك التي لا دوام لها ﴿و﴾ لكن ﴿قل رب ارحمهما﴾ أي وادع الله لهما ولو خمس مرات في اليوم والليلة أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة وأراد به إذا كانا مسلمين ﴿كما ربياني صغيراً﴾ أي رحمة مثل تربيتهما لي قدره الحوفي أو مثل رحمتهما اليّ ، قدره أبو البقاء وقيل ليس المراد رحمة مثل الرحمة بل الكاف لاقترانهما في الوجود أي فلتقع هذه كما وقعت تلك والتربية التنمية .

ويجوز ان تكون الكاف للتعليل أي لأجل تربيتهما لي كقوله ﴿واذكروه كما هداكم﴾ ولقد بالغ سبحانه في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالإحسان اليهما ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتَضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها وان يذل ويخضع لهما ، ثم ختمها بالأمر بالدعاء لهما والترحم عليهما ، وهذه خمسة أشياء كلف الانسان بها في حق الوالدين ، وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما وهي معروفة في كتب الحديث .

﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ أي بما في ضمائركم من الاخلاص وعدمه في كل الطاعات ومن التوبة من الذنب الذي فرط منكم أو الاصرار عليه ويتدرج تحت هذا العموم ما في النفس من البر والعقوق اندراجاً أولياً ، وقيل إن الآية خاصة بما يجب للوالدين من البر ويحرم على الأولاد من العقوق ، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ فلا تخصصه دلالة السياق ولا تقيده .

﴿إن تكونوا صالحين﴾ أي أبرار مطيعين قاصدين الصلاح والبر والتوبة من الذنب والاخلاص للطاعة ﴿فانه كان للأوابين﴾ أي الرجاعين عن الذنوب الى التوبة ومن السيئات الى الحسنات ومن العقوق الى البر ومن عدم الاخلاص الى محض الاخلاص ﴿غفوراً﴾ لما فرط منكم من قول أو فعل او اعتقاد فلا يضركم ما

وقع من الذنب الذي تبتم عنه ، فمن تاب تاب الله عليه ومن رجع الى الله رجع الله اليه .

وقال سعيد بن جبير : يعني البادرة من الولد الى الوالد أي إن تكن النية صادقة فانه كان غفوراً للبادرة التي بدرت منه كالفلتة والزلة تكون من الرجل الى أبويه أو أحدهما وهو لا يضمر عقوقاً ، ولا يريد بذلك بأساً ، قال سعيد بن المسيب هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب .

وقيل الأواب الذي اذا ذكر خطاياه استغفر منها ، وقال عبد بن عمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله ، وهذه الاقوال متقاربة ، قال ابن عباس الأوابين المطيعين المحسنين التوابين ، وقيل المسبحين وقيل المصلين قال عون العقيلي هم الذين يصلون صلاة الضحى ، وقيل من يصلي بين المغرب والعشاء ، والأول أولى .

ثم ذكر سبحانه التوصية بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ الخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم تهييجاً وإلهاباً لغيره من الأمة أو لكل من هو صالح لذلك من المكلفين كما في قوله وقضى ربك والأمر للوجوب عند ابي حنيفة فعنده يجب على الموسر مواساة أقاربه اذا كانوا محارم كالأخ والأخت وعند غيره للندب فلا يجب عند غيره إلا نفقة الأصول والفروع دون غيرهما من الأقارب .

أقول المراد بذوي القربى أولو القرابة وحقهم هو صلة الرحم التي أمر الله بها والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء ، وكرر الوصية فيها ، والخلاف بين أهل العلم في وجوب النفقة للقرابة لبعضهم كالوالدين على الأولاد والأولاد على الوالدين معروف ، والذي ينبغي الاعتماد عليه وجوب صلتهم بما تبلغ اليه القدرة وحسبما تقتضيه الحال .

قال ابن عباس : أمره بأحق الحقوق وعلمه كيف يصنع إذا كان عنده وكيف يصنع اذا لم يكن عنده .

﴿و﴾ آت ﴿المسكين وابن السبيل﴾ حقهما من الزكاة وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القربى من الحق هو تعهدهم بالمال ، وعن سفيان في الآية قال : هو أن يصل ذا القرابة ويطعم المسكين ويحسن الى ابن السبيل ، وعن السدي قال : القربى قربى بني عبد المطلب وقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقول ليس في السياق ما يفيد هذا التخصيص ولا دل عليه دليل ، ومعنى النظم القرآني واضح ان كان الخطاب مع كل من يصلح له من الأمة لأن معناه أمر كل مكلف متمكن من صلة قرابته بأن يعطيهم حقهم وهو الصلة التي أمر الله بها ؛ وإن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فان كان على وجه التعريض لأمته فالأمر فيه كالأول وإن كان خطاباً له من دون تعريض فأمته أسوته فالأمر له صلى الله عليه وسلم بإيتاء ذي القربى حقه أمر لكل فرد من أفراد أمته ، والظاهر أن هذا الخطاب ليس خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم بدليل ما قبل الآية وهي قوله : ﴿وقضى ربك﴾ وما بعدها وهي قوله :

﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ هو تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه وهو الاسراف المذموم لمجاوزته للحد المستحسن شرعاً في الانفاق او هو الانفاق في غير الحق وان كان يسيراً .

قال الشافعي : التبذير انفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير ، قال القرطبي : وهذا قول الجمهور ، قال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه وهو الاسراف وهو حرام لقوله :

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن

التبذير ، والمراد بالاخوة المماثلة التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه اطلاق المماثلة ، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به ، وهذا غاية المذمة لأنه لا شر من الشياطين ، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو اخوهم .

قال ابن مسعود : التبذير انفاق المال في غير حقه ، وعنه كنا اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث ان التبذير النفقة في غير حقه ، وعن ابن عباس قال : هم الذين ينفقون المال في غير حقه ، وعن عليّ قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

وقيل هو انفاق المال في العمارة على وجه السرف ، وقيل لو أنفق الانسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق درهما أو مداً في باطل كان مبذرا ، قيل إن بعضهم أنفق نفقة في خير فأكثر ، فقال له صاحبه لا خير في السرف ، فقال لا سرف في الخير ، ولا مانع من حمل الآية على الجميع والعموم أولى .

﴿وكان الشيطان لربه﴾ أي لنعم ربه ﴿كفوراً﴾ أي كثير الكفران جحود النعمة ، عظيم التمرد عن الحق ، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شراً ، ولا يأمر إلا بعمل الشر ، ولا يوسوس إلا بما خير فيه ، وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين ، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور ، فاقتضى ذلك ان المبذر مماثل للشيطان ، وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان ، وكل شيطان كفور فالمبذر كذلك .

قال الكرخي : وكذلك من رزقه الله جاهاً أو مالاً فصرفه الى غير مرضاة الله كان كفوراً لنعمة الله لانه موافق للشيطان في الصفة والفعل .

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ
يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ
خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟
ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

﴿وإما تعرضن عنهم﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل لأمر اضطرك الى ذلك الاعراض ﴿ابتغاء رحمة﴾ أي لفقد رزق ﴿من ربك﴾ ولكنه اقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق ، لأن فقد الرزق مبتغ له ﴿ترجوها﴾ أي ترجو أن يفتح الله به عليك ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي قولاً سهلاً ليناً كالوعد الجميل أو الاعتذار المقبول قيل هو ان يقول رزقنا الله وإياكم من فضله . قال الكسائي : يسرت له القول أي ليَّنته وقال الفراء : معنى الآية ان تعرض عن السائل اضاقة واعساراً فعدهم عدة حسنة ، ويجوز ان يكون المعنى وان تعرض عنهم ولم تنفعهم لعدم استطاعتك فقل لهم قولاً ميسوراً ، وليس المراد هنا الاعراض بالوجه ، وفي هذه الآية تأديب من الله سبحانه لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبما يردون ، ولقد احسن من قال :

ان لا يكن ورق يوماً أجود بها ... للسائلين فإني لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي ... اما نوال واما حسن مردود

ولما ذكر الله سبحانه أدب المنع بعد النهي عن التبذير بيَّن أدب الانفاق فقال ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ هذا النهي يتناول كل مكلف سواء كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تعرضاً لأمته وتعليماً لهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين ، والمراد النهي للانسان بأن يمسك امساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ، ولا يوسع في الانفاق توسيعاً لا حاجة اليه

بحيث يكون به مسرفاً ، فهو نهي عن جانبي الافراط والتفريط ويتحصل من ذلك مشروعية التوسط ، وهو العدل الذي ندب الله اليه .

ولا تك فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة الى عنقه مضمومة اليه مجموعة معه في الغل بحيث لا يستطيع التصرف بها ، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها مما يقبض الايدي عليه ولا يبقى شيئاً في كفه ، وفي هذا التصوير مبالغة عظيمة بليغة ثم بيّن سبحانه غاية الطرفين المنهى عنهما فقال ﴿فتقعد﴾ تصير ﴿ملوماً﴾ مذموماً عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح أو عند الله سبحانه لأن الشح غير مرضي لديه أو عند نفسك وأصحابك أو يلومك سائلوك اذا لم تعطهم .

﴿محسوراً﴾ بسبب ما فعلته من الاسراف ، أي منقطعاً عن المقاصد سبب الفقر والمحسور في الأصل المنقطع عن السير من حسره السفر إذا بلغ منه أي أثر فيه ؛ والبعير الحسير هو الذي ذهبت قوته فلا انبعاث به ، ومنه قوله تعالى ﴿ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي كليل منقطع ، وقيل معناه نادماً على ما سلف فجعله هذا القائل من الحسرة التي هي الندامة ، وفيه نظر لأن الفاعل من الحسرة حسران ولا يقال محسوراً إلا للملوم .

وفي المختار الحسرة شدة التلهف على الشيء الفائت ، تقول حسر على الشيء من باب طرب ، وحسره ايضاً فهو حسير ، وحسره غيره تحسيراً . وعن سيار ابي الحكم قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزّ من العراق وكان معطاء كريماً فقسمه بين الناس ، فبلغ ذلك قوماً من العرب فقالوا : إنا نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله ﴿ولا تجعل يدك﴾ الآية . أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر .

أقول ولا أدري كيف هذا فالآية مكية ولم يكن إذ ذاك عرب يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحمل اليه شيء من العراق ولا مما هو أقرب منه ، على

أن فتح العراق لم يكن إلا بعد موته صلى الله عليه وسلم .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذي يرهقهم من الإضافة ليس لهوانهم على الله سبحانه ولكن لمشيئة الخالق الرزاق فقال ﴿ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسعه على بعض ويضيقه على بعض لحكمة بالغة ، لا يكون من وسع له رزقه مكرماً عنده ومن ضيقه عليه هيناً لديه ، ويقدر ويقتر مترادفان . قيل ويجوز ان يراد أن البسط والقبض انما هما من أمر الله الذي لا تفنى خزائنه فأما عباده فعليهم أن يقتصدوا .

وعن الحسن في الآية قال : ينظر له فإن كان الغنى خيراً له أغناه ، وان كان الفقر خيراً له أفقره .

ثم علَّل ما ذكره من البسط للبعض والتضييق على البعض بقوله ﴿انه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي يعلم ما يسرون وما يعلنون لا تخفى عليه خافية من ذلك ، فهو الخبير بأحوالهم البصير بكيفية تدبيرهم في أرزاقهم ، وفي هذه الآية دليل على أنه المتكفل بأرزاق عباده فلذلك قال بعدها:

﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ خطاب للموسرين بدليل قوله ﴿ خشية إملاق ﴾ أي فاقة وفقر يقع بكم يقال أملق الرجل إذا لم يبق له إلا الملقات وهي الحجارة العظام الملس ، يقال أملق إذا افتقر وسلب الدهر ما بيده ، نهاهم الله سبحانه عن أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ، وقد كانوا يفعلون ذلك؛ وقد تقدم في سورة الأنعام نهي المعسرين بقوله ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾.

وفي الكرخي حاصله أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم فالأول ضد التعظيم لأمر الله ، والثاني ضد الشفقة على خلق الله وكلاهما مذموم .

ثمّ بيّن أن خوفهم من الفقر حتى يبلغوا بسبب ذلك إلى قتل الأولاد لا وجه له فإن الله سبحانه هو الرازق لعباده يرزق الأبناء كما يرزق الآباء فقال ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ولستم لهم برازقين حتى تصنعوا بهم هذا الصنع ، ثم علل سبحانه النهي عن قتل الأولاد لذلك بقوله ﴿ إن قتلهم كان خطأً

كبيراً ﴾ قرأ الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء ، وقرىء بفتح الخاء والطاء يقال خطىء في دينه خطأ إذا أثم وأخطأ إذا سلك سبيل خطأ عامداً أو غير عامد ، قال الأزهري خطىء يخطأ خطأً مثل أثم يأثم إثماً إذا تعمد الخطأ وأخطأ إذا لم يتعمد خطأً والخطأ الإثم يقوم مقام الأخطاء وفيه لغتان القصر وهو الجيد والمد وهو قليل .

وقرأ إبن كثير خطاء بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الهمزة ، قال النحاس ليس لهذه القراءة وجه وكذلك جعلها أبو حاتم غلطاً .

ولما نهى سبحانه عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل ذكر النهي عن الزنا المفضى إلى ذلك لما فيه من اختلاط الأنساب فقال ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ قربت الأمر أقربه من باب تعب وفي لغة من باب قتل قرباناً بالكسر فعلته أو دانيته ومن الأول هذه الآية ، ومن الثاني لا تقرب الحمى أي لا تدن منه ، وفي النهي عن قربانه بمباشرة مقدماته نهى عنه بالأولى فإن الوسيلة إلى الشيء إذا كان حراماً كان المتوسل إليه حراماً بفحوى الخطاب ، والزنا فيه لغتان المد والقصر .

ثم علل النهى عن الزنا بقوله ﴿ إنه كان فاحشة ﴾ أي قبيحاً متبالغاً في القبح مجاوزاً للحد شرعاً وعقلاً ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي بئس طريقاً طريقه وذلك لانه يؤدي الى النار ولا خلاف في كونه من كبائر الذنوب .

وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم وهو يشتمل على أنواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الأنساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته ، وذلك يوجب ضياع الأولاد وانقطاع النسل ، وذلك يوجب خراب العالم .

وعن السدي في الآية قال : يوم نزلت هذه لم تكن حدود فجاءت بعد ذلك الحدود في سورة النور ، وعن أبيّ بن كعب قال : ساء سبيلاً إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيماً فذكر لعمر فأتاه فسأله فقال : أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع .

وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ
سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى
ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

ولما فرغ سبحانه من ذكر النهي عن القتل لخصوص الأولاد وعن النهي عن الزنا الذى يفضي الى مايفضي اليه قتل الأولاد من اختلاط الانساب وعدم استقرارها نهى عن قتل الأنفس المعصومة على العموم فقال ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله﴾ أي التي جعلها الله معصومة بعصمة الدين أو عصمة العهد، والأصل في القتل هو الحرمة الغليظة، وحل القتل إنما يثبت بسببٍ عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الأصل.

ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهي الأسباب العارضة فقال ﴿إلا بالحق﴾ كالردة والزنا من المحصن وكالقصاص من القاتل عمداً عدواناً وما يلتحق بذلك والاستثناء مفرغ أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب متلبس بالحق أو إلا متلبسين بالحق ، وقد تقدم الكلام في هذا في الأنعام .

وعن الضحاك قال : نزل هذا بمكة ونبي الله صلى الله عليه وسلم بها وهو أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل ، كان المشركون من أهل مكة يغتالون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله من قتلكم من المشركين فلا يحملنكم قتله إياكم على أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو واحداً من عشيرته وان كانوا مشركين فلا تقتلوا إلا قاتلكم .

وهذا قبل ان تنزل براءة وقبل أن يؤمر بقتال المشركين فذلك قوله ﴿فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً﴾ يقول لا تقتل غير قاتلك وهي اليوم على ذلك الموضع من المسلمين لا يحل لهم أن يقتلوا إلا قاتلهم .

ثم بيَّن حكم بعض المقتولين بغير حق فقال ﴿ومن قتل مظلوماً﴾ أي لا بسبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعاً وهو أحد ثلاث كفر بعد ايمان وَزِناً بعد احصان وقتل مؤمن معصوم عمداً كما في الحديث ﴿فقد جعلنا لوليه﴾ أي لمن يلي أمره من ورثته ان كانوا موجودين أو لمن له سلطان لم يكونوا موجودين ﴿سلطاناً﴾ أي تسلطاً على القاتل إن شاء قتل وان شاء عفا وان شاء أخذ الدية قال ابن عباس : سلطاناً بينة من الله أنزلها يطلبها ولي المقتول القود او العقل .

ثم لما بيَّن اباحة القصاص لمن هو مستحق لدم المقتول أو ما هو عوض عن القصاص نهاه عن مجاوزة الحد فقال ﴿فلا يسرف﴾ أي لا يجاوز الولي اباحة الله له ﴿في القتل﴾ فيقتل بالواحد الاثنين أو جماعة أو يمثل بالقاتل أو يعذبه وقرأ الجمهور بالتحتية وقرىء بالفوقية فهو خطاب للقاتل الأول ونهي له عن القتل أي فلا تسرف أيها القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فإن عليك القصاص مع ما عليك من عقوبة الله وسخطه ولعنته .

وقال ابن جرير الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة من بعده أي لا تقتل يامحمد غير القاتل ولا تفعل ذلك الأئمة بعدك وفي قراءة أُبيّ لا تسرفوا قال مجاهد : معنى لا يسرفْ لا يكثر ولا يقاتل الا قاتل رحمه ، وعن زيد بن أسلم ان الناس في الجاهلية كانوا إذا قتل الرجل من القوم رجلاً لم يرضوا بقتل قاتله حتى يقتلوا به رجلاً شريفاً واذا كان قتيلهم شريفاً لم يقتلوا قاتله وحده بل قتلوا معه غيره فوعظوا في ذلك بقول الله سبحانه فلا يسرف في القتل .

ثم علَّل النهي عن السرف فقال ﴿انه﴾ يعني ولي المقتول ﴿كان

منصوراً﴾ أي مؤيداً معاناً فإن الله سبحانه قد نصره بإثبات القصاص له او الدية بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ، ويجوز أن يكون الضمير راجعاً الى المقتول ظلماً أي أن الله نصره بوليه يعني منصوراً في الدنيا بإيجاب القود على قاتله وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله قيل وهذه الآية من أول ما نزل من القرآن في شأن القتل لأنها مكيّة كما تقدم .

ولما ذكر سبحانه النهي عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن اتلاف الأموال وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ الخطاب لأولياء اليتيم والنهي عن قربانه مبالغة في النهي عن المباشرة واتلافه ، قال قتادة : كانوا لا يخالطونهم في مال ولا مأكل ولا مركب حتى نزلت وإن تخالطوهم فإخوانكم .

ثم بيَّن سبحانه أن النهي عن قربانه ليس المراد منه النهي عن مباشرته فيما يصلحه ويفسده بل يجوز لولي اليتيم أن يفعل في مال اليتيم ما يصلحه وذلك يستلزم مباشرته فقال ﴿إلا بالتي﴾ أي إلا بالخصلة التي ﴿هي أحسن﴾ من جميع الخصال وهي حفظه وطلب الربح فيه والسعي فيما يزيد به والانفاق عليه بالمعروف ثم ذكر غاية النهي عن قربان مال اليتيم فقال ﴿حتى يبلغ﴾ أي لا تقربوه حتى يبلغ اليتيم ﴿أشده﴾ فاذا بلغ أشده كان لكم ان تدفعوه اليه او تتصرفوا فيه بإذنه لأن التصرف له حينئذ .

والأشد مفرد بمعنى القوة ، وقيل جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل جمع شدة بكسر الشين ، وقيل جمع شد كذلك ، وقيل جمع بفتحها وعلى كل فالمراد به القوة وكمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله وإلا لم ينفك عنه الحجر وان كان الأشد في الأصل عبارة عن بلوغ ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل هي ثماني عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى في الأنعام .

﴿وأوفوا بالعهد﴾ قد تقدم الكلام فيه في غير موضع ، قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه وما بين العباد بعضهم لبعض والوفاء بالعهد هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي إلا إذا دلّ دليل خاص على جواز النقض .

﴿ان العهد كان مسؤولاً﴾ عنه فالمسؤول هنا هو صاحبه ، وقيل إن العهد يُسأل تبكيتاً لناقضه فيقال فيهم نقض كالموؤودة تُسأل فيم قتلت وان كان سؤال العهد تخييلاً وتمثيلاً وسؤال الموؤودة تحقيقاً ، قال سعيد بن جبير : ان الله يسأل ناقض العهد عن عهده ، وعن ابن جريج قال : يسأل عهده من أعطاه إياه .

﴿وأوفوا الكيل﴾ أي أتموه ولا تخسروه خطاب للبائعين ﴿إذا كلتم﴾ أي وقت كيلكم للناس ، وأخذ من هذا بعضهم أن أجرة الكيال على البائع لأنها من تمام التسليم وكذلك عليه اجرة النقاد للثمن وهو كذلك كما هو مقرر في الفروع .

﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ قال الزجاج : هو ميزان العدل ، أي ميزان كان صغيراً أو كبيراً من موازين الدراهم وغيرها ، وفيه لغتان : ضم القاف وكسرها وقيل هو القبان المسمى بالقرسطون ، قاله الضحاك ، وقيل هو العدل نفسه ، قاله مجاهد وهي لغة الروم قاله ابن جبير ، وقيل لغة سريانية ثم عُربت .

ولا يقدح ذلك في عربية القرآن لأن العجمي اذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربياً ، والأصح أنه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل والتفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب الاحتراز عنه ، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إبقاء الأموال على أربابها .

﴿ذلك﴾ أي ايفاء الكيل والوزن بالميزان المستوي ﴿خير﴾ لكم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي عاقبة من آل إذا رجع .

ثم أمر سبحانه بإصلاح اللسان والقلب فقال ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ، وهو مأخوذ من قولك قفوت فلاناً اذا اتبعت أثره ، ومنه قافية الشعر لانها تقفو كل بيت ، ومنه القبيلة المشهورة بالقافة لانهم يتبعون آثار أقدام الناس . وحكى ابن جرير عن فرقة انها قالت : قفى وقاف مثل عثى وعاث .

وقال منذر بن سعيد البلوطي : قفى وقاف مثل جذب وجبذ ، وقيل مجزوم بحذف الواو من بابي عدا وسما ، أي لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم .

ومعنى الآية النهي عن أن يقول الانسان ما لا يعلمه او يعمل بما لا علم له . وهذه قضية كلية وقد جعلها جماعة من المفسرين خاصة بأمور ، فقال ابن عباس : لا تذم أحداً بما ليس لك به علم . وقيل هي في شهادة الزور ، قاله محمد بن الحنفية وقيل هي في القذف .

وقال القتيبي : معنى الآية لا تتبع الحدس والظنون ، وهذا صواب فإن ماعدا ذلك هو العلم . وقيل المراد بالعلم هنا هو الاعتقاد الراجح المستفاد من مستند قطعياً كان او ظنياً . قال ابو السعود في تفسيره : واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه .

وأقول أن هذه الآية دلت على عدم جواز العمل بما ليس بعلم ، ولكنها عامة مخصصة بالأدلة الواردة بجواز العمل بالظن كالعمل بالعام وبخبر الواحد والعمل بالشهادة والاجتهاد في القبلة وفي جزاء الصيد ونحو ذلك فلا يخرج من عمومها ومن عموم أن الظن لا يغني من الحق شيئاً إلا ما قام دليل جواز العمل به .

فالعمل بالرأي في مسائل الشرع ان كان لعدم وجود الدليل في الكتاب والسنة فقد رخص فيه النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله لمعاذ لما بعثه قاضياً « بم تقضي ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي[1] ، وهو حديث صالح للاحتجاج به ، كما اوضح الشوكاني ذلك في بحث مفرد .

وأما التوثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب او السنة ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أولياً لأنه محض رأي في شرع الله ، وللناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم تدع اليه حاجة ، على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به ، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزل منزلة مسائل الشرع .

وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء والعامل بها على شفا جرف هار ، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم ، والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ، ظلمات بعضها فوق بعض وقد قيل أن هذه الآية خاصة بالعقائد ولا دليل على ذلك أصلاً .

ثم علّل سبحانه النهي عن العمل بما ليس بعلم بقوله ﴿ان السمع والبصر والفؤاد﴾ أي القلب ﴿كل اولئك﴾ أي كل واحد من الحواس الثلاثة وأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على أصحابها .

وقال الزجاج : ان العرب تعبر عما لا يعقل وعما يعقل بأولئك والضمير في ﴿كان﴾ يرجع الى كل وكذا الضمير في ﴿عنه﴾ وقيل الضمير في كان يعود الى القافي المدلول عليه بقوله لا تقف وقوله عنه في محل رفع لاسناد ﴿مسؤولاً﴾ اليه ورد بما حكاه النحاس من الإجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام

---

(١) الإمام أحمد ٥/٢٣٦ - /٢٤٢ .

الفاعل اذا كان جاراً ومجروراً .

قيل والأولى أن يقال انه فاعل مسؤول المحذوف والمذكور مفسر له ومعنى سؤال هذه الجوارح أنه يسأل صاحبها عما استعملها فيه لأنها آلات والمستعمل لها هو الروح الانساني فان استعملها في الخير استحق الثواب وان استعملها في الشر استحق العقاب وهو اختيار الزمخشري ، وقيل ان الله سبحانه يُنطق الاعضاء هذه عند سؤالها فتخبر عما فعله صاحبها وعليه جرى القاضي فتسأل توبيخاً لاصحابها وهذا أبلغ مما قبله . وفي الآية دليل على ان العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية .

﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ قيل وهو شدة الفرح ، وقيل التكبر في المشي وقيل تجاوز الانسان قدره وقيل الخيلاء في المشي ، وقيل البطر والاشر ؛ وقيل النشاط والظاهر أن المراد به الخيلاء والفخر، قال الزجاج في تفسير الآية : لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً ، وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيداً وتقريراً ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وان كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمنع

والمرح مصدر وقع حالاً أي ذا مرح أي مارحاً متلبساً بالكبر والخيلاء وفي وضع المصدر موضع الصفة نوع تأكيد وقرىء مرحاً بفتح الراء ومرحاً بكسرها على انه اسم فاعل .

ثم علَّل سبحانه هذا النهي فقال ﴿انك لن تخرق الأرض﴾ يقال خرق الثوب أي شقه وخرق الأرض قطعها ، والخرق الواسع من الأرض ، والمعنى إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً حتى تبلغ آخرها ، وفيه تهكم بالمختال المتكبر ، وقيل المراد بخرق الأرض نقبها لا قطعها بالمسافة ، وقال الأزهري : خرقها قطعها قال النحاس : وهذا بين كأنه مأخوذٌ من الخرق وهو الفتحة الواسعة ، ويقال فلان أخرق من فلان أي أكثر سفراً .

﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ أي ولن تبلغ قدرتك الى ان تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها . ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال وتساويها بكبرك ، فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر وأصغر من كل واحد من الجمادين ، فكيف يليق بك الكبر .

﴿كل ذلك﴾ أي جميع ما تقدم ذكره من الأوامر والنواهي الخمس والعشرين أو ما نهى عنه فقط من قوله ولا تقف ولا تمش ﴿كان سيئه عند ربك﴾ على اضافة سيىء الى الضمير ، ويؤيد هذه القراءة قوله : ﴿مكروهاً﴾ فإن السبي هو المكروه ويؤيدها أيضاً قراءة أبيّ كان سيئآته .

وقرأ نافع وغيره سيئة على انها واحدة السيئآت وانتصابها على خبرية كان ومكروهاً خبر ثان لكان أو بدل من سيئه ، ورجح أبو علي الفارسي البدل ، وقد قيل في توجيهه بغير هذا مما فيه تعسف لا يخفى ، قال الزجاج والاضافة أحسن لان ما تقدم من الآيات فيها سيىء وحسن فسيئه المكروه ويقوي ذلك التذكير في المكروه .

ومن قرأ بالتنوين جعل ﴿كل ذلك﴾ احاطة بالمنهى عنه دون الحسن ، والمعنى كل ما نهى الله عنه كان سيئة وكان مكروهاً ، والمكروه على هذا بدل من السيئة وليس بنعت ، والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه لا انه غير مراد مطلقاً لقيام الأدلة القاطعة على أن الأشياء واقعة بإرادته سبحانه .

وذكر مطلق الكراهة مع أن في الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر اشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع واجتنابه لذلك .

والحاصل أن في الخصال المتقدمة ما هو حسن وهو المأمور به ، وما هو مكروه وهو المنهيّ عنه ، فعلى قراءة الاضافة تكون الاشارة بقوله ﴿كل ذلك﴾ الى جميع الخصال ، حسنها ومكروهها ، ثم الاخبار بأن ما هو سيىء من هذه

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا
مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا
عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ
ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

الأشياء هو المنهى عنه عند الله ، وعلى قراءة الافراد تكون الاشارة الى المنهيات ثم الاخبار عن هذه المنهيات بأنها سيئة مكروهة عند الله .

﴿ذلك﴾ اشارة الى ما تقدم ذكره من قوله لا تجعل مع الله الى هذه الغاية ﴿مما أوحى اليك ربك﴾ أي من جنسه او بعض منه ، وذكر هنا في ثمان عشرة آية أولها لا تجعل ، وذكر في التوراة في عشر آيات ﴿من الحكمة﴾ سمي حكمة لانه كلام محكم وهو ما علمه من الشرائع أو من الاحكام المحكمة التي لا يتطرق اليها النسخ والفساد ، وعند الحكماء ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به ، قاله البيضاوي فالتوحيد من القسم الأول وباقي التكاليف من القسم الثاني .

﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك تأكيداً وتقريراً وتنبيهاً على أنه رأس خصال الدين وعمدته ومبدأ الأمر ومنتهاه ، وعلى انه ملاك الحكمة وأسها . قيل وقد راعى سبحانه في هذا التأكيد دقيقة فرتب على الأول كونه مذموماً مخذولاً ، وذلك اشارة الى حال الشرك في الدنيا ؛ ورتب على الثاني ما هو نتيجة في العقبى فقال ﴿فتلقى في جهنم ملوماً﴾ تلوم نفسك ﴿مدحوراً﴾ مبعداً من رحمة الله مطروداً وفي القعود هناك والالقاء هنا اشارة الى أن للانسان في الدنيا صورة اختيار بخلاف الآخرة .

﴿أفأصفاكم﴾ أي خصكم ، قاله ابو عبيدة ، وقال الفضل : أخلصكم ﴿ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً﴾ أي بنات ، والخطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفيه توبيخ شديد وتقريع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره مما قد كررناه .

﴿انكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ بالغاً في العظم والجرأة على الله الى مكان لا يقادر قدره بإضافة الأولاد اليه ، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها ، ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ، ثم يجعل الملائكة الذين هم أشرف الخلق أدونهم .

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾ أي بيّنا او كررنا ضروب القول فيه من الأمثال والعبر والحكم والحجج والمواعظ والقصص والأخبار والأوامر والنواهي وغيرها . وقيل في زائدة والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن ، والتصريف في الأصل صرف الشيء من جهة الى جهة والتشديد فيه للتكثير والتكرير ، وقيل معنى التصريف المغايرة ؛ أي غايرنا بين المواعظ .

ثم علّل سبحانه ذلك فقال ﴿ليذكروا﴾ أي ليتعظوا ويعتبروا ويتدبروا بعقولهم ويتفكروا فيه حتى يقفوا على بطلان ما يقولونه ﴿و﴾ الحال أن هذا التصريف والتذكير ﴿ما يزيدهم إلا نفوراً﴾ أي تباعداً عن الحق وغفلة عن النظر في الصواب لأنهم قد اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر وهم لا ينزعون عن هذه الغواية ولا وازع لهم يزعهم إلى الهداية، وكان الثوري إذا قرأها يقول: زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿قل﴾ لهم في شأن الاستدلال على إبطال التعدد الذي زعموه واثبات الوحدانية ﴿لو كان معه آلهة كما﴾ أي كوناً مشابهة لما ﴿يقولون﴾ والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة ، قرىء بالتحتية وبالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ﴿اذاً﴾ قال الزمخشري : هي دالة على انما بعدها وهو ﴿لابتغوا﴾

جواب لمقالة المشركين وجزاء للو ﴿إلى ذي العرش﴾ هو الله سبحانه ﴿سبيلاً﴾ طريقاً للمغالبة والمقاتلة والممانعة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصاولة عند تعددهم .

وقيل معناه اذاً لابتغت الآلهة الى الله القربة والزلفة عنده لأنهم دونه والمشركون انما اعتقدوا أنها تقربهم الى الله ، والظاهر المعنى الاول، ومثله معنى قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وحاصل الدليل انه قياس استثنائي يستثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم ، وحذف منه كل من الاستثنائية والنتيجة والتقدير لكنهم لم يطلبوا طريقاً لقتاله فلم يكن هناك تعدد .

ثم نزه تعالى نفسه فقال ﴿سبحانه﴾ والتسبيح التنزيه وقد تقدم مراراً ﴿وتعالى﴾ أي تباعد ﴿عما يقولون﴾ من الأقوال الشنيعة والفرية العظيمة ﴿علواً﴾ أي تعالياً ولكنه وضع العلو موضع التعالي ، كقوله والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴿كبيراً﴾ وصف العلو بالكبير مبالغة في النزاهة وتنبيهاً على أن بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين الغنى المطلق والفقير المطلق مباينة لا يعقل الزيادة عليها .

ثم بين سبحانه جلالة ملكه وعظمة سلطانه فقال : ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ قال فيهن بضمير العقلاء لإسناده اليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء ، وقد أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تسبحه ، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة من الإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل .

ففيه دلالة على أن الأكوان بأسرها دالة شاهدة بتلك النزاهة ، ولكن المشركين لا يفهمون تسبيحها ، فالقصد من هذا توبيخهم وتقريعهم على اتباعهم الشركاء لله مع أن كل شيء ممن عداهم ينزهه عن كل نقص .

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن قرظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به الى المسجد الأقصى كان جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا بـه حتى بلغ السموات العلى ، فلما رجـع قال : سمعت تسبيحاً في السموات العُلى مع تسبيح كثير ، سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا سبحان العلي الاعلى سبحانه وتعالى» .

وأخرج ابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو جالس مع أصحابه إذ سمع هدة فقال : «أطت السماء ، ويحقها أن تئط ، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده»[1] .

ثم زاد ذلك تعمياً وتأكيداً فقال : ﴿وإن من شيء الا يسبح﴾ متلبساً ﴿بحمده﴾ فيشمل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان حتى صرير الباب ونقيض السقف وتسبيحها سبحان الله وبحمده . وقيل انه يحمل قوله ومن فيهن على الملائكة والثقلين ويحمل قوله وإن من شيء على ما عدا ذلك من المخلوقات .

وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا ، فقالت طائفة ليس بمخصوص ، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لان كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر .

وقالت طائفة هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره ، والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله هذا التسبيح الذي معناه التنزيه ، وان كان البشر لا يسمعون ذلك لكونهم محجوبين عن سماعه ولا يفهمونه لكونه بغير لغاتهم .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٢٦٩ بهذا اللفظ وبسند ضعيف .

وهذا يقتضي أن تسبيح الجماد بلسان المقال وهو الذي اختاره الخازن واثبته بأحاديث متعددة ، قال في الجمل وهو قريب جداً ، ويؤيد هذا قوله سبحانه ﴿ولكن لا تفقهون﴾ بالتاء والياء ﴿تسبيحهم﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد .

وأجيب بأن المراد بقوله ﴿لا تفقهون﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار وقالت طائفة : هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات ، وقيل خاص بالاجسام النامية فيدخل النباتات ، كما روى هذا القول عن عكرمة والحسن وخص تسبيح النباتات بوقت نموها لا بعد قطعها .

وقد استدل لذلك بحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على قبرين وفيه « ثم دعا بعسيب رطب فشقه بإثنين وقال انه يخفف عنهما ما لم ييبسا »[1] ويؤيد حمل الآية على العموم قوله ﴿انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشيّ والاشراق﴾ وقوله ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ وقوله ﴿وتخر الجبال هداً﴾ ونحو ذلك من الآيات .

وثبت في الصحيح انهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] . وهكذا حديث حنين الجذع ، وحديث أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلها في الصحيح .

ومن ذلك تسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم ، ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات ، ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده .

قال السدي : ما اصطيد حوت في البحر ولا طائر يطير إلا بما يضيع من تسبيح الله تعالى .

(١) مسلم ٢٩٢ البخاري ١٦٤ .

(٢) البخاري كتاب المناقب باب ٢٥ ـ الإمام أحمد ١ /٤٦٠ .

﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ فمن حلمه الامهال لكم وعدم انزال عقوبته عليكم على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح ، ومن مغفرته لكم انه لا يؤاخذ من تاب منكم .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه أن نوحاً قال لابنه : يابني آمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلائق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله اليه من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح »[١] .

وأخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر وقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتل الضفدع وقال « نقيقها تسبيح »[٢] وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس قال : الزرع يسبح واجره لصاحبه والثوب يسبح ويقول الوسخ ان كنت مؤمناً فاغسلني اذن ، وعنه قال : كل شيء يسبح إلا الكلب والحمار أخرجه أبو الشيخ .

وعن الحسن قال : هذه الآية في التوراة كقدر ألف آية وان من شيء إلا يسبح بحمده ، قال : في التوراة تسبح له الجبال وتسبح له الشجر ويسبح له كذا وكذا ، وفي الباب أحاديث وروايات عن السلف فيها تصريح بتسبيح جميع المخلوقات .

---

(١) مسلم ٢٢٤١ ـ البخاري ١٤٣٤ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٦٨٤٨ بلفظ «نهى عن قتل الضفدع للدواء» ـ الروض النضير / ٢٦٥ .

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ
وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ
يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ
فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا
جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

ولما فرغ سبحانه من الإلهيات شرع في ذكر بعض من آيات القرآن وما يقع من سامعيه فقال ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وهم المنكرون للبعث ﴿حجاباً مستوراً﴾ يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به أي أنهم لاعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب يمرون بك ولا يرونك ، ذكر معناه الزجاج وغيره ومعنى مستوراً ساتراً .

قال الأخفش : والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول انك لمشؤوم وميمون وإنما هو شائم ويامن ، وقيل معناه ذا ستر كقولهم سيل مفعم أي ذو افعام ، وقيل هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها ، وقيل حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره ، وقيل المراد بالحجاب المستور الطبع والختم ؛ قال السيوطي : نزل فيمن أراد الفتك به صلى الله عليه وسلم انتهى . كأبي جهل وأم جميل زوجة أبي لهب .

والمراد بما في الآية مطلق القرآن أو ثلاث آيات مشهورات من النحل والكهف والجاثية وهي في سورة النحل ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم﴾ الآية وفي سورة الكهف ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ الآية وفي حم الجاثية ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ الآية

فكأن الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين . ذكره الخطيب .

وفي القرطبي ﴿قلت﴾ ويزاد الى هذه الآيات أول سورة يس الى قوله ﴿فهم لا يبصرون﴾ فان في السيرة في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ومقام عليّ في فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس حتى فرغ ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ثم انصرف الى حيث أراد أن ينصرف .

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ جمع كنان وهي الاغطية وقد تقدم تفسيره في الأنعام وقيل هو حكاية لما كانوا يقولونه من قولهم قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴿ان يفقهوه﴾ أي كراهة أن يفقهوه أو لئلا يفقهوه أي يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني .

﴿وجعلنا في آذانهم وقراً﴾ أي صمماً وثقلاً كراهة ان يسمعوه او لئلا يسمعوه ومن قبائح المشركين انهم كانوا يحبون ان يذكر آلهتهم كما يذكر الله سبحانه فاذا سمعوا ذكر الله دون ذكر آلهتهم نفروا عن المجلس كما قال تعالى :

﴿واذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ يقال وحد يحد وحداً وحدة نحو وعد يعد وعداً وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى واحداً، وقال يونس منصوب على الظرف .

﴿ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ هو مصدر بمعنى التولية والتقدير هربوا نفوراً أو نفروا نفوراً ، وقيل جمع نافر كقاعد وقعود قاله البيضاوي والشهاب والأول أولى ، وقيل المصدر في موضع الحال والمعنى ولوا نافرين ، قال ابن عباس : ولوا نفور الشياطين .

﴿نحن أعلم بما﴾ أي بالحال الذي ﴿يستمعون﴾ القرآن ﴿به﴾ اي متلبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن ، وقيل الباء للسببية أو

بمعنى اللام وعبارة الكواشي بما يستمعون به هازئين ، وقال الزمخشري : يستمعون بالهزء ﴿اذ يستمعون اليك﴾ ظرف لأعلم وفيه تأكيد للوعيد .

﴿وإذ هم نجوى﴾ أي ونحن أعلم بما يتناجون به فيما بينهم وقت تناجيهم وقد كانوا يتناجون بينهم بالتكذيب والاستهزاء ﴿إذ﴾ بدل من إذ قبله ﴿يقول الظالمون﴾ أي الوليد بن المغيرة واصحابه ﴿ان تتبعون﴾ أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ما تتبعون ﴿إلا رجلاً مسحوراً﴾ أي سحر به فاختلط عقله وزال عن حد الاعتدال .

قال ابن الأعرابي : المسحور الذاهب العقل الذي افسد من قولهم طعام مسحور اذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها وقيل هو المخدوع لأن السحر الحيلة والخديعة وذلك لأنهم زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتعلم من بعض الناس وكانوا يخدعونه بذلك التعليم .

وقال أبو عبيدة : معنى مسحوراً أن له سحراً أي رئة فهو لا يستغني عن الطعام والشراب فهو مثلكم وتقول العرب للجبان قد انتفخ سحره وكل من كان يأكل من آدمي أو غيره مسحور ، قال ابن قتيبة : لا أدري ما حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة .

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أي قالوا تارة انك كاهن وتارة ساحر وتارة شاعر وتارة مجنون ﴿فضلوا﴾ عن طريق الصواب في جميع ذلك وحادوا ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ الى الهدى أو الحق أو الطعن الذي تقبله العقول السليمة ويقع التصديق له لا أصل الطعن فقد فعلوا منه ما قدروا عليه وقيل لا يستطيعون مخرجاً لتناقض كلامهم كقولهم ساحر كاهن مجنون شاعر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية شبهة القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الاستفهام للاستنكار والاستبعاد لما بين رطوبة الحي ويبوسة الرميم من المباعدة والمنافاة وتقرير الشبهة أن الانسان

إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ثم عود الحياة الى ذلك المجموع .

فأجاب سبحانه عنهم كما سيأتي بأن اعادة بدن الميت الى حال الحياة أمر ممكن ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد فهو كقول القائل أتطمع فيَّ وأنا ابن فلان فيقول كن ابن السلطان أو ابن من شئت فسأطلب منك حقي .

والرفات ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتاة والحطام والرضاض قاله أبو عبيدة والكسائي والفراء والأخفش يقول منه رفت الشيء رفتاً أي حطم فهو مرفوت وقيل الرفات الغبار قاله ابن عباس وقيل التراب ، قال مجاهد ويؤيده انه تكرر في القرآن تراباً وعظاماً ، وقيل الرفات هو ما بولغ في دقه وتفتيته وهو اسم لأجزاء ذلك الشيء المفتت أي أجزاء متفتتة .

﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تأكيداً وتقريراً ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ قال ابن جرير : معناه ان عجبتم من انشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة في الشدة أو حديداً في القوة إن قدرتم على ذلك .

وقال علي بن عيسى : معناه انكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم إلا أنه خرج مخرج الأمر لأنه أبلغ من الالزام .

وقيل معناه لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم قال النحاس : وهذا قول حسن لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة أو حديداً وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارة أو حديداً لبعثتم كما خلقتم أول مرة فليس المراد الأمر وإنما عبر فيه بمادة الكون لتعبيرهم بها في سؤالهم ، قلت وعلى هذا الوجه قررنا جواب الشبهة قبل هذا .

أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ
يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي
يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا
مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ أي يعظم عندكم مما هو أكبر من الحجارة والحديد مباينة للحياة فانكم لمبعوثون لا محالة وقيل المراد به السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس، وقال جماعة من الصحابة والتابعين: المراد به الموت لأنه ليس شيء اكبر في نفس ابن آدم منه .

والمعنى لو كنتم الموت لأماتكم الله ثم بعثكم ولا يخفى ما في هذا من البعد لأن معنى الآية الترقي من الحجارة الى الحديد ثم من الحديد الى ما هو أكبر في صدور القوم منه والموت نفسه ليس بشيء يعقل ويحس حتى يقع الترقي من الحديد اليه .

﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ الى الحياة إذا كنا عظاماً ورفاتاً أو حجارة أو حديداً مع ما بين الحالتين من التفاوت ﴿قل﴾ يعيدكم ﴿الذي فطركم﴾ خلقكم واخترعكم ﴿أول مرة﴾ أي عند ابتداء خلقكم من غير مثال سابق ولا صورة متقدمة فمن قدر على البدء والانشاء قدر على الاعادة بل هي أهون .

﴿فسينغضون اليك رؤوسهم﴾ أي يحركونها استهزاء، يقال نغض رأسه ينغض نغضاً ونغوضاً اذا تحرك وانغض رأسه حركه كالمتعجب من الشيء ﴿ويقولون﴾ استهزاء وسخرية ﴿متى هو﴾ أي البعث والاعادة ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي هو قريب لأن عسى في كلام الله واجب الوقوع ومثله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً وكل ما هو آت قريب .

﴿يوم يدعوكم﴾ الظرف منتصب بفعل مضمر أي أذكر أو بدل من قريباً أو التقدير يوم يدعوكم كان ما كان والدعاء النداء الى المحشر بكلام يسمعه الخلائق وقيل هي الصيحة التي يسمعونها فتكون داعية لهم الى الاجتماع في أرض المحشر وقيل أن المنادي جبريل وإن النافخ اسرافيل وصورة الدعاء والنداء أن يقول أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . قاله الجلال المحلى في سورة قَ .

﴿فتستجيبون بحمده﴾ منقادين له حامدين لما فعله بكم وقيل المعنى فتستجيبون والحمد لله أو له الحمد ، وقد روي أن الكفار عند خروجهم من قبورهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قاله سعيد بن جبير .

وقيل المراد بالدعاء هنا البعث وبالاستجابة انهم يبعثون ، فالمعنى يوم نبعثكم فتبعثون منقادين ، والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه وهي الاجابة إلا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي أوكد من الإجابة . وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين . قال ابن عباس : معنى بحمده بأمره . وقال قتادة بمعرفته وطاعته .

﴿وتظنون﴾ عند البعث ﴿ان لبثتم﴾ ان نافية وهي معلقة للظن عن العمل وقل من يذكر ان النافية في أدوات تعليق هذا الباب أي ما لبثتم في الدنيا أو في قبوركم ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلاً﴾ وقيل بين النفختين وذلك ان العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين وذلك اربعون عاماً ينامون فيها ، فلذلك قالوا بعثنا من مرقدنا ؛ وقيل إن الدنيا تحقرت في أعينهم وقلت حين رأوا يوم القيامة ، لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة . قاله قتادة .

﴿وقل﴾ يامحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لعبادي﴾ المؤمنين ﴿يقولوا﴾ عند محاورتهم للمشركين الكلمة ﴿التي هي أحسن﴾ من غيرها من الكلام الخشن كأن يقولوا لهم إنكم من أهل النار فإنه يهيجهم الى الشر مع أن

عاقبتهم مغيبة عنا وهذا كقوله سبحانه ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وقوله ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ لأن المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الاجابة أو تؤدي الى ما قال سبحانه ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ وهذا كان قبل نزول آية السيف .

وقيل المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه ، وقيل هذه الآية للمؤمنين فيما بينهم خاصة والأول أولى كما يشهد له السبب . قال ابن سيرين : يعني لا إله إلا الله . وعن ابن جريج في الآية قال : يعفون عن السيئة وعن الحسن قال : يقول له يرحمك الله ، يغفر الله لك .

﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ بالفساد وإلقاء العداوة والاغـراء ، فلعل المخاشنة معهم تفضي الى العناد وازدياد الفساد ، قال اليزيدي : نزغ بيننا أي أفسد . وقال غيره : النزغ الاغراء ، قال قتادة : نزغ الشيطان تحريشه ، وفي القاموس نزغه كمنعه طعن فيه واغتابه وبينهم أفسد وأغوى ووسوس .

﴿إن الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً﴾ أي متظاهراً بالعداوة ومكاشفاً بها وهو تعليل لما قبله ، وقد تقدم مثل هذا في البقرة .

﴿ربكم أعلم بكم﴾ أي بعاقبة أمركم كما يدل عليه قوله ﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ قيل هذا خطاب للمشركين ، والمعنى إن يشأ يوفقكم للاسلام فيرحمكم أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ، وقيل هو خطاب للمؤمنين ، أي إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من الكفار أو يرحمكم بالتوبة والايمان ، وان يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ، وقيل ان هذا تفسير للكلمة التي هي أحسن .

﴿ومـا أرسلناك عليهم وكيـلاً﴾ أي ما وكلنـاك في منعهم من الكفر وقسرهم على الايمان ، وقيل ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم ، قيل نسختها آية القتال .

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾ ذاتاً وحالاً واستحقاقاً فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبياً ، وأن يكون العراة الجوع أصحابه ، قاله البيضاوي .

أقول عبر بهذه العبارة حكاية عن الكفار ، وإلا فلا يجوز اطلاقها على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه أفتى بعض المالكية بقتل قائلها كما في الشفاء فكان ينبغي له تركها ، وفي هذه البـاء قولان أشهـرهما انها تتعلق بأعلم ، ولا يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما فقط ، والثاني انها متعلقة بيعلم مقدراً ، قاله الفارسي محتجاً بأنه يلزم من ذلك تخصيص علمه بما فيهما ، وهو وهم لأنه لا يلزم من ذكر الشيء نفي الحكم عما عداه .

وهذا هو الذي يقول الأصوليون أنه مفهوم اللقب ، ولم يقل به إلا أبو بكر الدقاق في طائفة قليلة والأصح خلافه ، فالجمهور على أن اللقب لا يحتج به ، قاله الكرخي وتمام هذا البحث في كتابنا حصول المأمول من علم الأصول فراجعه ، وهذه الآية أعم من قوله ﴿ربكم أعلم بكم﴾ لأن هذا يشمل كل ما في السموات والأرض من مخلوقاته ، وذلك خاص ببني آدم او ببعضهم .

وهذا كالتوطئة لقوله ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ أي أن هذا التفضيل عن علم منه بمن هو أعلى رتبة وبمن هو دونه وبمن هو يستحق مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله، أي فيخصهم بما شاء على قدر أحوالهم ، قيل يعني بالفضائل النفسانية والتبري عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الأموال والاتباع حتى داود عليه السلام فإن شرفه بما أوحى إليه من الكتاب كما يأتي لا بما أوتيه من الملك .

وقيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تقدم هذا في البقرة ، وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً وموسى كليماً وجعل عيسى كلمته وروحه ؛ وجعل سليمان على نبينا وعليهم الصلوات والتسليمات ملكاًعظيماً ، وغفر لمحمد صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر وجعله سيد ولد آدم . وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفار مما يحكيه رسول الله (ﷺ) من ارتفاع درجته عند ربه عز وجل .

ثم ذكر ما فضل به داود فقال (وآتينا داود زبوراً) أي كتاباً مزبوراً . قال الزجاج أي فلا تنكروا تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم واعطاءه القرآن فقد أعطى الله داود زبوراً ، وفيه دلالة على وجه تفضيله وأنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم لأن ذلك مكتوب في الزبور . قال تعالى ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته وإنما خصّ كتاب داود بالذكر لأن اليهود زعمت أنه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله هذا .

وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى ، إما لأنه في الأصل فعول بمعنى المفعول أو مصدر بمعناه كالقبول ، وإما لأن المراد إيتاء داود زبوراً من الزبر فيه ذكره صلى الله عليه وسلم .

قال قتادة : كنا نحدث أن الزبور دعاء علمه داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام .

وعن الربيع بن أنس قال : الزبور على الله ودعاء وتسبيح .

قلت الأمر كما قاله قتادة والربيع ، فإنا وقفنا على الزبور فوجدناه خطباً يخطبها داود عليه السلام ويخاطب بها ربه عند دخوله الكنيسة وجملته مائة وخمسون خطبة كل خطبة تسمى مزموراً بفتح الميم الأولى وسكون الزاي وضم الميم الثانية وآخره راء ، ففي بعض هذه الخطب يشكو داود على ربه من اعدائه ويستنصره عليهم ، وفي بعضها يحمد الله ويمجده ويثني عليه بسبب ما وقع له من النصر عليهم والغلبة لهم وكان عند الخطبة يضرب بالقيثارة وهي آلة من آلات الملاهي .

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ههنا روايات عن جماعة من السلف يذكرون الفاظاً وقفوا عليها في الزبور ليس لها كثير فائدة فقد أغنى عنها وعن غيرها ما اشتمل عليه القرآن من المواعظ والزواجر .

﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ هذا رد على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على انها صور الملائكة وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله .

وقيل اراد بالذين زعمتم نفراً من الجن عبدهم ناس من العرب وإنما خصصت الآية بمن ذكرنا لقوله الآتي يبتغون الى ربهم الوسيلة فإن هذا لا يليق بالجمادات روي معنى ذلك عن ابن مسعود ، وقال ابن عباس : كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً والشمس والقمر .

﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ أي لا يستطيعون ذلك والمعبود الحق هو الذي يقدر على كشف الضر وعلى تحويله من حال الى حال ومن مكان الى مكان فوجب القطع بأن هذه التي تزعمونها آلهة ليست بآلهة .

ثم انه سبحانه أكد عدم اقتدارهم ببيان غاية افتقارهم الى الله في جلب المصالح ودفع المضار فقال ﴿أولئك الذين يدعون﴾ قرىء بالتحتية على الخبر

وقرأ ابن مسعود بالفوقية على الخطاب ولا خلاف في ﴿يبتغون﴾ انه بالتحتية والضمير في ﴿إلى ربهم﴾ يعود الى العابدين او المعبودين ﴿الوسيلة﴾ هي القربة بالطاعة والعبادة أي يتضرعون الى الله في طلب ما يقربهم الى ربهم .

أخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لي الوسيلة ، قالوا : وما الوسيلة ؟ قال : القرب من الله ثم قرأ هذه الآية »[1] .

﴿أيهم أقرب﴾ بالوسيلة الى الله قاله الزجاج أي يتقرب اليه بالعمل الصالح أو يبتغي من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه ، وقيل ان يبتغون مضمن معنى يحرصون أي يحرصون أيهم أقرب اليه سبحانه بالطاعة والعبادة .

﴿ويرجون رحمته﴾ كما يرجوها غيرهم ﴿ويخافون عذابه﴾ كما يخافه غيرهم فكيف يزعمون أنهم آلهة لأن الإلـه يكون غنياً بالغنى المطلق ﴿ان عذاب ربك كان محذوراً﴾ تعليل لقوله يخافون أي أن عذابه سبحانه حقيق بأن يحذره العباد من الملائكة والأنبياء وغيرعم .

ثم بيَّن سبحانه مآل الدنيا وأهلها فقال ﴿وإن﴾ نافية للاستغراق ﴿من﴾ أي ما من ﴿قرية﴾ أي قرية كانت من قرى الكفار ﴿إلا نحن مهلكوها﴾ قال الزجاج : أي ما من أهل قرية إلا سيهلكون اما بموت أو خراب واما بعذاب يستأصلهم وإنما قال ﴿قبل يوم القيامة﴾ لأن اهلاك يوم القيامة ليس بمختص بالقرى الكافرة بل يعم كل قرية لانقضاء عمر الدنيا ﴿أو معذبوها عذاباً شديداً﴾ بالقتل وأنواع العقاب إذا كفروا وعصوا .

وقيل الاهلاك للصالحة والتعذيب للطالحة والأول أولى لقوله تعالى ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا واهلها ظالمون﴾ قال ابن مسعود : إذا ظهر الزنا والربا

---

(١) الترمذي كتاب المناقب باب ١ ـ الإمام أحمد ٢/٢٦٥ .

في قرية أذن الله في هلاكها وقد ذكر في المدارك عن مقاتل في تفسير هذه الآية عن كتب الضحاك خراب كل قرية خاصة وبلدة معينة بنوع خاص من العذاب وقسم مخصوص من الهلاك وليس بمرفوع حتى يعتمد عليه او يصار اليه .

﴿كان ذلك﴾ المذكور من الاهلاك والتعذيب ﴿في الكتاب﴾ أي اللوح المحفوظ قاله ابراهيم التيمي ﴿مسطوراً﴾ أي مكتوباً والسطر الخط وهو في الأصل مصدر والسطر بالتحريك مثله وجمع السطر اسطاراً وجمع السطر بالسكون أسطر عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال : ما اكتب ؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن الى يوم القيامة الى الأبد » اخرجه الترمذي .[1]

﴿وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ قال المفسرون : إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهباً وان ينحي عنهم جبال مكة فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان ما سأله قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا وان شئت استأنيت بهم فأنزل الله هذه الآية روى معنى هذا أحمد والنسائي وغيرهما عن ابن عباس .

واخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم فإن عصيتم هلكتم فقالوا : لا نريدها » والمعنى وما منعنا من ارسال الآية التي سألوها إلا تكذيب الأولين فان أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده فالمنع مستعار للترك والاستثناء مفرغ من أعم

(١) الترمذي، كتاب القدر، باب ١٧ ـ تفسير سورة ٦٨.

الأشياء أي ما تركنا إرسالها لشيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين فإن كذب بها هؤلاء كما كذب بها اولئك لحل بهم ما حل بهم لاشتراكهم في الكفر والعناد .

والحاصل ان المانع من إرسال الآية التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستئصال وقد عزمنا على ان نؤخر أمر من بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وقيل معنى الآية أن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم فلا يؤمنون البتة كما لم يؤمن اولئك فيكون ارسال الآيات ضائعاً .

ثم انه سبحانه استشهد على ما ذكر بقصة صالح وناقته فإنهم لما اقترحوا عليه ما اقترحوا من الناقة وصفتها التي قد بينت في محل آخر واعطاهم الله ما اقترحوا فلم يؤمنوا استؤصلوا بالعذاب وانما خص قوم صالح بالاستشهاد لأن آثار اهلاكهم في بلاد العرب قريبة من قريش وأمثالهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال : ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ آية ﴿مبصرة﴾ أي ذات ابصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله وجعلنا آية النهار مبصرة أو اسند اليها حال من يشاهدها مجازاً أو انها جعلتهم ذوي ابصار من أبصره إذا جعله بصيراً ﴿فظلموا بها﴾ أي بتكذيبها أو فجحدوا بها أو كفروا بها[1] ظالمين ولم يكتفوا بمجرد الكفر أو الجحد فعاجلناهم بالعقوبة ﴿وما نرسل بالآيات﴾ المقترحة ﴿إلا تخويفاً﴾ من نزول العذاب المستأصل فإن لم يخافوا أنزل او بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة فإن أمر من بعثت اليهم مؤخر الى يوم القيامة .

اختلف في تفسير الآيات على وجوه : **الاول** : ان المراد بها العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الانذار تخويفاً للمكذبين . **الثاني** : انها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي . **الثالث** : تقلب الأحوال من صغر الى شباب ثم الى تكهل ثم الى شيب ليعتبر الانسان بتقلب احواله فيخاف عاقبة أمره . **الرابع** : آيات القرآن . **الخامس** : الموت الذريع والمناسب للمقام تفسير الآيات المذكورة بالآيات المقترحة كما تقدم .

---

(١) هذا على تقدير تضمين ظلموا معنى جحدوا أو كفروا أ هـ .

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾

ولما ذكر سبحانه الامتناع من ارسال الآيات المقترحة على رسوله صلى الله عليه وسلم للصارف المذكور قوى قلبه بوعد النصر والغلبة فقال ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ يعني انهم في قبضته وتحت قدرته فلا سبيل لهم الى الخروج مما يريده بهم لاحاطته بهم بعلمه وقدرته وقيل المراد بالناس أهل مكة واحاطته بهم اهلاكه إياهم أي أن الله سيهلكهم وعبر بالماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه وذلك كما وقع في يوم بدر ويوم الفتح .

وقيل المراد انه سبحانه عصمه من الناس أن يقتلوه حتى يبلغ رسالة ربه .

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ لما بيَّن سبحانه ان انزال الآيات يتضمن التخويف ضم اليه ذكر آية الاسراء وهي المذكورة في صدر السورة وسماها رؤيا لأنها وقعت بالليل أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا وقد قدمنا في صدر السورة وجهاً آخر في تفسير هذه الرؤيا وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا اسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسري به .

وقيل كانت رؤيا نوم وان النبي صلى الله عليه وسلم رأى أنه يدخل مكة هو واصحابه وهو يومئذ بالمدينة فسار الى مكة قبل الأجل فرده المشركون فقال

ناس : قد ورد وقد كان حدثنا انه سيدخلها فكانت رجعته فتنتهم فافتتن المسلمون لذلك فلما فتح الله مكة نزل قوله تعالى ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ .

وقد تعقب هذا بأن هذه الآية مكية والرؤيا المذكورة كانت بالمدينة ، وأجيب بأنه لا يبعد أنه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان حقيقة بالمدينة وفيه تكلف .

وقال الخفاجي : بعيد لقلة جدواه ، قيل إن هذه الرؤيا هي أنه رأى بني مروان ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فقيل إنما هو هي الدنيا اعطوها فسرى عنه وفيه ضعف جداً فإنه لا فتنة للناس في هذه الرؤيا إلا ان يراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ويراد بالفتنة ما حصل من الاساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو يحمل على انه قد كان أخبر الناس بها فافتتنوا .

وقيل إن الله سبحانه أراه في المنام مصارع قريش حتى قال : والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومىء الى الأرض ويقول هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فلما سمع ذلك قريش جعلوا رؤياه سخرية .

وقد تعارضت هذه الأسباب ولم يمكن الجمع بينها فالواجب المصير الى الترجيح والراجح كثرة وصحة هو كون سبب نزول هذه الآية قصة الاسراء فتعين ذلك ، قال ابن عباس : رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسرى به الى بيت المقدس ، أخرجه البخاري ، وبه قال سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم ، وقد حكى ابن كثير اجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك في الرؤيا وفي تفسير الشجرة الآتية وانها شجرة الزقوم فلا اعتبار بغيرهم معهم .

﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ عطف على الرؤيا قيل والتقدير وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس قال جمهور المفسرين : هي شجرة الزقوم ، وكذا أخرجه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس والمراد بلعنها لعن آكلها كما قال سبحانه ﴿ان شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ قال الزجاج : ان العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون ولأن اللعن هو الابعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة .

ومعنى الفتنة فيها أن أبا جهل وغيره قالوا : زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر ثم يقول تنبت فيه الشجر فأنزل الله هذه الآية ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار ، فوبر السمندر وهو دويبة بلاد الترك تتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار ، وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها ، وخلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها وروي أن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمراً وزبداً وقال لأصحابه : تزقموا .

وقال ابن الزبعرى : كثر الله من الزقوم في داركم فإنه التمر والزبد بلغة اليمن ، وقيل هي التي تلتوي على الشجرة فتقتلها وهي شجرة الكشوث ، وقيل هي الشيطان ، وقيل هي اليهود ، وقيل بنو أمية .

وعن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك إنكم الشجرة الملعونة في القرآن ، وفي هذا نكارة .

﴿ونخوّفهم﴾ بالآيات وبنظائرها ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على

التجدد والاستمرار ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿ألا طغياناً﴾ متجاوزاً للحد متمادياً غاية التمادي ﴿كبيراً﴾ فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر؛ فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار وهو عذاب الاستئصال ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة .

ولما ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في بلية عظيمة من قومه ومحنة شديدة أراد أن يبيِّن أن جميع الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام كانوا كذلك حتى إن هذه عادة قديمة سنها إبليس اللعين مع أول الأنبياء ، وايضاً لما ذكر أن الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ذكر ههنا ما يحقق ذلك فقال :

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ هذه القصة قد ذكرها الله سبحانه في سبعة مواضع : في البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص وقد تقدم تفسيرها مبسوطاً .

﴿فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ نصب بنزع الخافض ، أي من طين كما صرح به في الآية الأخرى ﴿وخلقته من طين﴾ وذلك أن آدم خلق من تراب الأرض ؛ من عذبها وملحها ، فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي .

وقال الزجاج: منصوب على الحال او التمييز وتبعه فيه ابن عطية ، ولا يظهر ذلك اذ لم يتقدم إبهام ذات ولا نسبة .

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

﴿قال أرأيتك﴾ أي اخبرني عن ﴿هذا الذي كرمت﴾ أي فضلته ﴿عليَّ﴾ بأمري بالسجود له لم كرمته عليَّ وقد خلقتني من نار ، ولم يجبه عن هذا السؤال إهمالاً له وتحقيراً حيث اعترض على مولاه وسأله بلم ﴿لئن اخرتن الى يوم القيامة﴾ كلام مبتدأ او اللام موطئة للقسم ، وجوابه ﴿لأحتنكن ذريته﴾ أي لأستولين عليهم بالاغواء والاضلال قال الواحدي : أصله من احتناك الجراد الزرع وهو ان تستأصله بإحناكها وتفسده ، وهذا هو الأصل ؛ ثم سمى الاستيلاء على الشيء وأخذه كله احتناكاً .

وقيل معناه لأسوقنهم واقودنهم حيث أردت من حنك الدابة إذا جعل الرسن في حنكها ، وفي المختار حنك الفرس جعل في فيه الرسن وبابه نصر وضرب والحنك المنقار ، يقال أسود مثل حنك الغراب واسود حانك مثل حالك والحنك ما تحت الذقن من الانسان ، والمعنى الأول انسب بمعنى هذه الآية .

وقال مجاهد : المعنى لأحتوينهم . وعن ابن زيد قال : لأضلنهم ، وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ما ذكره لعلم قد سبق اليه من سمع استرقه أو انه استنبط ذلك من قول الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ، وقيل علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات أو ظن ذلك لأنه وسوس لآدم فقبل منه ذلك ولم يجد له عزماً ، كما روي عن الحسن أو قاله

لما ظنه من قوة نفوذ كيده في بني آدم ، وانه يجري منهم في مجاري الدم ، وانهم بحيث يروج عندهم كيده وينفق لديهم وسوسته ، إلا من عصم الله كالأنبياء وصلحاء هذه الأمة وهم المرادون بقوله :

﴿إلا قليلاً﴾ قيل من كل الف واحد ، وفي معنى هذا الاستثناء قوله تعالى سبحانه ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ويؤيده ما ذكرناه قوله تعالى ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ فإنه يفيد أنه قال ما قاله هنا إعتماداً على الظن .

﴿قال﴾ الله تعالى ﴿اذهب﴾ ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء ، وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية بينه وبين ما سوّلته نفسه ، أمره بأوامر خمسة القصد بها التهديد والاستدراج لا التكليف ، لأنها كلها معاص والله لا يأمر بها ؛ والمعنى اذهب منظراً الى وقت النفخة الأولى مع أن غرضه الامهال والانظار الى النفخة الثانية ، وغرضه بذلك طلب أن لا يموت أصلاً لانه يعلم انه لا موت بعد النفخة الثانية .

ثم عقب الذهاب بذكر ما جره سوء اختياره فقال ﴿فمن تبعك﴾ وأطاعك ﴿منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي إبليس ومن أطاعه ، والخطاب للتغليب لأنه تقدم غائب ومخاطب في قوله ﴿فمن تبعك منهم﴾ فغلب المخاطب أو يكون الخطاب مراداً به من خاصة ويكون ذلك على سبيل الالتفات ﴿جزاء موفوراً﴾ أي وافراً مكملاً ، يقال وفرته أفره وفراً ، ووفر المال بنفسه يفر وفوراً فهو وافر فهو مصدر .

ثم كرر سبحانه الامهال لإبليس اللعين فقال : ﴿واستفزز﴾ أي استزعج واستعجل واستزل واستخف ﴿من استطعت﴾ ان تستفزه ﴿منهم﴾ أي من بني آدم ، يقال أفزه واستفزه أي ازعجه واستخفه والمعنى استخفهم ﴿بصوتك﴾ داعياً لهم الى معصية الله ، وقيل هو الوسوسة والغناء واللهو واللعب والمزامير ﴿وأجلب﴾ قال الفراء وابو عبيدة : من الجلبة والصياح أي صح ﴿عليهم﴾

وقال الزجاج : أي اجمع عليهم ما تقدر عليه من مكايدك وحبائلك وأحثهم على الاغواء فالاجلاب الجمع .

وقال ابن السكيت : الإجلاب الإعانة ، أي استعن عليهم وتصرف فيهم بكل ما تقدر ، والأمر للتهديد كما يقال اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك ﴿بخيلك﴾ أي بركبان جندك ؛ والخيل يقع على الفرسان كقوله صلى الله عليه وسلم « ياخيل الله اركبي » ويقع على الافراس ، قاله ابن السكيت ، قيل الباء للملابسة أي صح وصوّت عليهم حال كونك متلبساً ومصحوباً بجنودك .

قلت كون الباء للملابسة بعيد من حيث المعنى المراد كما تدل عليه عبارة اللغويين واللائق بها أن تكون زائدة ، وقد نص الشهاب على زيادتها ، وفي المختار جلب على فرسه يجلب جلباً صاح به من خلفه واستحثه للسبق وكذا اجلب عليه ، وهذا يقتضي زيادة الباء ، والمعنى حث وأسرع عليهم جندك خيلاً ومشاة لتدركهم وتتمكن منهم فليتأمل ﴿ورجلك﴾ أي مشاتك ؛ يقال أن له خيلاً ورجلاً من الجن والأنس ، فكل من ركب أو مشى في معصية الله فهو من جند إبليس ، والرجل بسكون الجيم جمع راجل ، كتاجر وتجر وصاحب وصحب .

وقال أبو زيد : يقال رجل ورجل بمعنى راجل ، وقيل اسم لراجل بمعنى الماشي ، وقرىء في السبعة بكسر الجيم وهو مفرد بمعنى الجمع فهو بمعنى المشاة ، فالخيل والرجل كناية عن جميع مكايد الشيطان أو المراد ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الأمر جئتنا بخيلك ورجلك والحمل على الظاهر أولى .

﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أما المشاركة في الأموال فهي كل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذاً من غير حق أو وضعاً في غير حق كالغصب والسرقة والربا ، ومن ذلك تبتيك آذان الأنعام وجعلها بحيرة وسائبة ، والمشاركة في الأولاد دعوى الولد بغير سبب شرعي وتحصيله بالزنا

وتسميتهم بعبد اللات والعزى والاساءة في تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء .

ويدخل فيه ما قتلوا من أولادهم خشية إملاق ووأد البنات وتصيير أولادهم على الملة الكفرية التي هم عليها من الأديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة ومن ذلك مشاركة الشيطان للمجامع اذا لم يسم . وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال : إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار ، قال ذلك من وطء الجن .

ثم قال ﴿وعدهم﴾ بأنهم لا يبعثون قاله الزجاج : وقال الفراء : أي قل لهم لا جنة ولا نار ، وقيل وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة من النصرة على من خالفهم وشفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة والاتكال على كرامة الله وتأخير التوبة لطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك ، وهذا على طريق التهديد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ .

﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي باطلاً إعتراض لبيان مواعيده فإنه وقع بين الجمل التي خاطب الله بها الشيطان وفيه إظهار في مقام الإضمار والإلتفات عن الخطاب الى الغيبة وكان مقتضى الظاهر أن يقال وما تعدهم إلا غروراً ، وأصل الغرور تزيين الخطأ بما يوهم الصواب .

﴿ان عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ يعني عباده المؤمنين كما في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز من أن إضافة العباد اليه يراد بها المؤمنون لما في الإضافة من التشريف وقيل المراد الأنبياء وأهل الصلاح والفضل لأنه لا يقدر على إغوائهم وقيل المراد جميع العباد بدليل الإستثناء بقوله في غير هذا الموضع إلا من اتبعك من الغاوين والمراد بالسلطان التسلط .

﴿وكفى بربك﴾ الباء زائدة في الفاعل ﴿وكيلاً﴾ يتوكلون عليه فهو الذي يدفع عنهم كيدك ويعصمهم من إغوائك ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بقوته .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً
أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا
بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

﴿ربكم الذي يزجي﴾ الإزجاء السوق والدفع والاجراء والتسيير ومنه قوله تعالى ألم تر أن الله يزجي سحاباً وهذا تعليل لكفايته وبيان لقدرته على عصمة من توكل عليه في أموره وشروع في تذكير بعض النعم عليهم حملاً لهم على الإيمان حتى لا يعبدوا غيره ولا يشركون به أحداً .

والمعنى أن الله سبحانه يسير ﴿لكم الفلك في البحر﴾ بالريح والفلك هنا جمع بمعنى السفائن وقد تقدم والبحر هو الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً وقد غلب هذا الاسم على المشهور ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي من رزقه الذي تفضل به على عباده أو من الربح بالتجارة أو أنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم ومن زائدة او للتبعيض .

﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ تعليل ثان لما تقدم أي فهداكم إلى مصالح دنياكم ﴿وإذا مسّكم الضُرُّ﴾ يعني خوف الغرق ﴿في البحر ضل من تدعون﴾ من الآلهة وذهب عن خواطركم ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم أو جن أو ملك أو بشر أو حجر في حوادثكم ﴿إلا إياه﴾ وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته واغاثته والاستثناء متصل إن كان المراد بمن جميع الآلهة ومنقطع ان كان المراد بها غيره تعالى .

ومعنى الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها

نافعة لهم في غير هذه الحالة ، فأما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها .

﴿فلما نجاكم﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿الى البر أعرضتم﴾ عن الاخلاص لله وتوحيده ورجعتم الى دعاء أصنامكم والاستغاثة بها ﴿وكان الانسان كفوراً﴾ أي كثير الكفران لنعمة الله وهو تعليل لقوله ﴿أعرضتم﴾ والمعنى أنهم عند الشدائد يتمسكون برحمة الله وفي الرخاء يعرضون عنه وترك فيه خطابهم تلطفاً بهم بحيث لم يقل وكنتم كفاراً.

ثم أنكر عليهم سبحانه سوء معاملتهم قائلاً ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ والتقريع والفاء عاطفة على مقدر والتقدير أنجوتم من الغرق فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض فبيَّن لهم أنه قادر على إهلاكهم في البر وان سلموا من البحر لأن الجهات كلها له وفي قدرته براً كان أو بحراً يعني إن كان الغرق في البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف لأنه يغيب تحت الثرى كما أن الغرق يغيب تحت الماء .

وأصل الخسف أن تنهار الأرض بالشيء يقال : بئر خسيف إذا إنهدم أصلها وعين خاسفة ، أي غائرة حدقتها في الرأس وخسفت عين الماء إذا غار ماؤها وخسفت الشمس إذا غابت عن الأرض وجانب البر ناحية الأرض وسماه جانباً لانه يصير بعد الخسف جانباً وايضاً فإن البحر جانب من الأرض والبر جانب .

وقيل إنهم كانوا على ساحل البحر وساحله جانب البر فكانوا فيه آمنين من مخاوف البحر فحذرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر وقال السمين : المعنى جانب البر الذى أنتم فيه فيلزم من خسفه هلاككم ولولا هذا التقدير لم يكن في التوعد به فائدة انتهى وجملة هذه الافعال خمسة وكلها

تقرأ بالياء ولا التفات حينئذ وبالنون التفاتاً عن الغيبة الى التكلم والقراءتان سبعيتان .

﴿أو يرسل عليكم حاصباً﴾ قال أبو عبيدة والقتيبي الحصب الرمي أي ريحاً شديدة حاصبة وهي التي ترمي بالحصباء الصغار ؛ وقال الزجاج : الحاصب التراب الذي فيه حصباء ، فالحاصب هو ذو الحصباء كاللابن والتامر ، وقيل الحاصب حجارة من السماء ، قاله قتادة تحصبهم كما فعل بقوم لوط ، ويقال للسحابة التي ترمي بالبرد حاصب .

﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله ﴿أم﴾ متصلة أي أيّ الأمرين كائن أو منقطعة أي بل ﴿أمنتم أن يعيدكم فيه﴾ أي في البحر بأن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم الى ركوبه وجاء بفي ولم يقل الى البحر للدلالة على استقرارهم فيه ﴿تارة﴾ أي مرة ﴿أخرى﴾ وهو مصدر ويجمع على تيرة وتارات وألفها واو أو ياء .

﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ القاصف الريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه من باب ضرب أي كسره بشدة والقصف الكسر أو هو الريح التي لها قصف أي صوت شديد من قولهم رعد قاصف أي شديد الصوت ، وقال ابن عباس : الريح التي تغرق ؛ وقال ابن عمرو : القاصف والعاصف في البحر .

﴿فيغرقكم﴾ وقرىء بالفوقية على أن فاعله الريح ﴿بما كفرتم﴾ أي بسبب كفركم أو بالسبب الذي كفرتم به وما مصدرية أو بمعنى الذي ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ أي نصيراً قاله ابن عباس أو ثائراً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً لكم قال الزجاج : لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم قال النحاس : وهو من الثأر وكذا يقال لكل من طلب بثأر أو غيره تبيع وتابع .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿ولقد كرمنا﴾ هذا إجمال لذكر النعمة التي أنعم الله على ﴿بني آدم﴾ أي كرمناهم جميعاً وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة المعتدلة والطهارة بعد الموت وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله .

وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم وسائر الحيوانات تأكل بالفم وكذا حكاه النحاس ، وقيل ميَّزهم بالنطق والعقل والتمييز وقيل باعتدال القامة وامتدادها ، وقيل بحسن التقويم والتصوير ، وقيل أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب .

وقال ابن جرير : أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق وتسخير سائر الخلق لهم وقيل بالكلام والخط والفهم وقيل بحسن تدبيرهم في أمر المعاش والمعاد وقيل بأن منهم خير أمة أخرجت للناس .

ولا مانع من حمل التكريم على جميع هذه الأشياء وأعظم خصال التكريم العقل فإنه به تسلطوا على جميع الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح وتوسعوا في المطاعم والمشارب وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها سائر الحيوان ، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم مما يخافون ،

وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد.

وقيل تكريمهم هو أن جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم . وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب والخطيب في تاريخه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم ، قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال : ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر .

وأخرج الطبراني عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان الملائكة قالت يا رب أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت كن فكان .

﴿ وحملناهم ﴾ هذا تخصيص وتأكيد لبعض أنواع التكريم حملهم سبحانه ﴿ في البر ﴾ على الدواب كالإبل والخيل والبغال والحمير ﴿ و ﴾ في ﴿ البحر ﴾ على السفن ، وقيل حملناهم فيهما حيث لم تخسف بهم ولم نغرقهم والمعنى جعلناهم قارين فيهما بواسطة أو دونها كما في السباحة في الماء ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي لذيذ المطاعم والمشارب وسائر ما يستلذونه وينتفعون به .

وقيل المراد الزبد والتمر والحلوى وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى ، وقيل إن جميع الأغذية إما نباتية كالثمار والحبوب وإما حيوانية كاللحم والسمن واللبن ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان .

﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ والأقرب في الفرق بين التكريم والتفضيل إن يقال أن الله كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية طبعية ذاتية مثل العقل ثم عرفه بواسطته اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل .

أجمل سبحانه هذا الكثير ولم يبين أنواعه فأفاد ذلك ان بني آدم فضلهم الله سبحانه على كثير من مخلوقاته لا على الكل ، وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن اليه حاجة ولا تتعلق به فائدة وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء والأنبياء على الملائكة ، ومن جملة ما تمسك به مفضلو الأنبياء عليهم السلام على الملائكة هذه الآية ولا دلالة لها على المطلوب لما عرفت من اجمال الكثير وعدم تبيينه ، والتعصب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الاشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتم له التفضيل على الملائكة وهو تعسف لا حاجة اليه .

وتمسك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ولا دلالة لها على ذلك فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير ولو سلمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد انه أفضل من بني آدم بل غاية ما فيه انه لم يكن الإنسان مفضلاً عليه فيحتمل أن يكون مساوياً للانسان ، ويحتمل أن يكون أفضل منه ومع الإحتمال لا يتم الإستدلال ، والتأكيد بقوله ﴿تفضيلاً﴾ يدل على عظم هذا التفضيل وانه بمكان مكين فعلى بني آدم أن يتلقوه بالشكر ويحذروا من كفرانه .

﴿يوم﴾ أي أذكر يوم ﴿ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال الزجاج : يعني يوم القيامة وقرىء يدعو بالتحتية ، ويدعى على المجهول ، والاناس فعال بضم الفاء ويجوز حذف الهمزة تخففاً على غير قياس فيبقى ناس ووزنه عال والباء للإلصاق كما تقول أدعوك باسمك .

ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف هو حال والتقدير ندعو كل أناس متلبسين بإمامهم أي يدعون وامامهم فيهم نحو ركب الأمير بجنوده والأول أولى ، والإمام في اللغة كل ما يؤتم به من نبي أو مقدم في الدين أو الكتاب .

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي يدعى كل أناس به فقال

ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : انه كتاب كل انسان الذي فيه عمله أي يدعى كل انسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله ﴿فأما من أوتي كتـابه﴾ الآية .

وقال ابن زيد : الإمام هو الكتاب المنزل عليهم فيدعى أهل التوراة بالتوراة وأهل الانجيل بالانجيل وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يا أهل التوراة يا أهل الانجيل يا أهل القرآن .

وقال مجاهد وقتادة : إمامهم نبيهم . وعن أنس مثله فيقال : هـاتوا متبعي ابراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وبه قال الزجاج ، وروي عن أبي هريرة مرفوعاً ايضاً فلينظر في سنده .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : المراد بالإمام إمام عصرهم فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذي كانوا يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه . وقال الحسن وأبو هريرة وأبو العالية : المراد بإمامهم أعمالهم ؛ فيقال مثلاً : أين المجاهدون أين الصابرون أين الصائمون أين المصلون ونحو ذلك .

وقال أبو عبيدة : المراد إمامهم صاحب مذهبهم ، فيقال مثلاً : أين التابعون للعالم فلان بن فلان ، وهذا من البعد بمكان ، وأبعد منه ما قال محمد ابن كعب : بإمامهم بأمهاتهم ، على أن إماماً جمع أم كخف وخفاف .

وأيضا في هذا القول نظر فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء ، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان » أخرجه البخاري ومسلم[1] .

---

(١) مسلم ١٧٣٥ ـ البخاري ١٥٠٥ .

وهذا دليل على أن الناس يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ويرد على من قال إنما يدعون بأسماء آبائهم وبأسماء أمهاتهم لأن في ذلك ستراً على آبائهم ، ولذا قال الزمخشري : ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم وأنهم يدعون بأمهاتهم دون آبائهم ، وان الحكمة فيه رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وان لا يفتضح أولاد الزنا .

قال القرطبي : قيل بمذاهبهم فيدعون بما كانوا يأتمون به في الدنيا ويقلدونه ، فيقال ياحنفي ، يا شافعي ، يامعتزلي ، يا قدري ، ونحو ذلك . وهذا كالأول بل أبعد منه ، وقيل كل خلق حسن يظهر من الانسان كالعلم والكرم والشجاعة أو قبيح كأضدادها ، فالداعي الى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام ، ذكره الرازي في تفسيره . وعن ابن عباس قال : بإمامهم إمام هدى وإمام ضلالة ، وعنه ايضاً بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بمعبودهم . واخرج الترمذي وحسنه البزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أنه قال « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق الى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا .

وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستين ذراعاً على صورة آدم ويلبس تاجاً من نار فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا . قال فيأتيهم فيقولون اللهم أخره ، فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا»[1] قال البزار بعد إخراجه لا يروى إلا من هذا الوجه .

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٢٤٣ .

﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ من أولئك المدعوين وهم السعداء أولو البصائر وتخصيص اليمين بالذكر للتشريف والتبشير ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من باعتبار معناه . قيل وجه الجمع الإشارة الى أنهم مجتمعون على شأن جليل أو الإشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الإجتماع لا على وجه الإنفراد ﴿يقرأون كتابهم﴾ الذي أوتوه ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي لا ينقصون من اجورهم قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة أو هو عبارة عن أقل شيء ، وفي النواة أمور ثلاثة : فتيل وهو الخيط الذي في الحز الكائن فيها طولاً ، والقطمير وهو قشرة النواة ، والنقير وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها .

ولم يذكر أصحاب الشمال تصريحاً ولكنه ذكر سبحانه ما يدل على حالهم القبيح فقال ﴿ومن كان﴾ من المدعوين ﴿في هذه﴾ الدنيا ﴿أعمى﴾ أي فاقد البصيرة وهو الذي يعطي كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له ، ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع أنه الذي يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع في سورة الحاقة وسورة الانشقاق للإيذان بالعلة الموجبة له كما في قوله تعالى ﴿وأما ان كان من المكذبين الضالين﴾ الخ بعد قوله ﴿وأما ان كان من أصحاب اليمين﴾ وللرمز الى علة حال الفريق الأول ، وقد ذكر في أحد الجانبين المسبب وفي الآخر السبب ، ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلاً على شهادة العقل كما في قوله ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله﴾ ذكره أبو السعود . قال النيسابوري : لا خلاف أن المراد بهذا العمى ، عمى القلب لا عمى البصر .

وأما قوله ﴿فهو في الآخرة﴾ التي لم تعاين ولم تر ﴿أعمى﴾ فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ وفي هذه زيادة العقوبة ، ويحتمل ان يراد عمى القلب ، وقيل المراد بالآخرة عمل الآخرة فهو في عمل الآخرة أو في أمرها

أعمى ؛ وقيل المراد من عمى عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى .

وقيل من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى .

وقيل من كان في الدنيا عن حجج الله أعمى فهو في الآخرة أعمى ، وقد قيل إن قوله فهو في الآخرة أعمى أفعل تفضيل أي أشد عمى ، وهذا مبني على أنه من عمى القلب إذ لا يقال ذلك في عمى العين .

قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقه بمنزلة اليد والرجل فلا يقال ما أعماه كما لا يقال ما أيداه .

وقال الأخفش : لا يقال فيه ذلك لأنه أكثر من ثلاثة أحرف ، وقد حكى الفراء عن بعض العرب إنه سمعه يقول ما أسود شعره والبحث مستوفى في النحو ﴿وأضل سبيلاً﴾ من الأعمى لكونه لا يجد طريقاً الى الهداية بخلاف الأعمى فإنه قد يهتدي في بعض الأحوال .

قال ابن عباس : من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السماء والأرض والجبال والبحار والناس والدواب وأشباه ذلك فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره أعمى وأبعد حجة .

ثم لما عدد سبحانه في الآية المتقدمة أقسام النعم على بني آدم أردفه بما يجري مجرى التحذير من الاغترار بوساوس الاشقياء فقال ﴿وان كادوا ليفتنونك﴾المعنى إن الشأن انهم قد قاربوا أن يخدعوك فاتنين ، وأصل الفتنة الاختبار ، ومنه فتن الصائغ الذهب ثم استعمل في كل من أزال الشيء عن حده وجهته ﴿عن الذى أوحيْنا اليك﴾ من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد

﴿لتفتري علينا غيره﴾ أي لتتقوّل وتكذب علينا غير الذي أوحينا اليك مما اقترحه علينا كفار قريش ولم نقله .

وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن وافتراء على الله سبحانه من تبديل الوعد بالوعيد وغير ذلك . وعن ابن عباس قال : ان أمية ابن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تعال فتمسح آلهتنا وندخل معك في دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرقّ لهم ، فأنزل الله هذه الآية ، وعن جابر بن عبدالله مثله .

وعن سعيد بن جبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر فقالوا : لا ندعك تستلمه حتى تستلم بآلهتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما عليَّ لو فعلت والله يعلم مني خلافه » فأنزل الله ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ الآية وعن ابن شهاب نحوه .

وعن جبير بن نفير أن قريشاً أتو النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ان كنت أرسلت الينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن اليهم ، فأوحى الله اليه هذه الآية . وقال الجلال السيوطي وغيره ان ثقيفاً سألوه صلى الله عليه وسلم أن يحرم واديهم والحوا عليه فنزلت هذه الآية :

﴿واذن لاتخذوك خليلاً﴾ أي لو اتبعت أهواءهم لوالوك ووافوك وصافوك مأخوذ من الخلة بفتح الخاء .

﴿ولولا أن ثبتناك﴾ على الحق وعصمناك من موافقتهم ﴿لقد كدت تركن اليهم﴾ أي لقاربت أن تميل اليهم أدنى ميل والركون هو الميل اليسير ، ولهذا

قال ﴿شيئاً قليلاً﴾ لكن أدركته صلى الله عليه وسلم العصمة فمنعته من أن يقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلاً عن نفس الركون ، وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم ما همّ بإجابتهم ، ذكر معناه القشيري وغيره والنظم صريح في انه لم يركن أي باللازم ولا قارب أي بمنطوق التركيب .

وذلك لأن لولا حرف امتناع لوجود فالترتيب يدل على امتناع القرب من الركون واذا امتنع القرب منه امتنع هو بالضرورة ؛ وقيل المعنى وان كادوا ليخبرون عنك بأنك ملت الى قولهم فنسب فعلهم اليه مجازاً واتساعاً كما تقول للرجل كدت تقتل نفسك أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت ، ذكر معناه المهدوي ، ثم توعده سبحانه في ذلك أشد الوعيد فقال :

﴿اذن﴾ أي لو قاربت ان تركن اليهم ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي مثلي ما يعذب به غيرك ممن يفعل هذا الفعل في الدارين والمعنى عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات أي مضاعفاً ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه واضيفت وذلك لأن خطأ العظيم عظيم كما قال سبحانه ﴿يانساء النبي من يـأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ وضعف الشيء مثلاه ؛ وقد يكون الضعف النصيب كقوله لكل ضعف أي نصيب .

وقال الرازي : حاصل الكلام انك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون همـك لاستحققت تضعيف العذاب عليـك في الدنيـا والآخرة ولصار عذابك مِثْلَي عذاب المشرك في الدنيا وَمِثْلَيْ عذابه في الآخرة ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ ينصرك فيدفع عنك ويمنع منك هذا العذاب .

قال النيسابوري : إعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها فلا يلزم من الآية طعن في العصمة .

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

﴿وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ الكلام في هذا كالكلام في أن كادوا ليفتنونك أي وان الشأن أنهم قاربوا أن يزعجوك بعداوتهم ومكرهم من أرض مكة لتخرج عنها ولكنه لم يقع ذلك منهم بل منعهم الله عنه حتى هاجر بأمر ربه بعد أن هموا به والإستفزاز الإزعاج وقيل إنه أطلق الإخراج على إرادة الإخراج تجوزاً ، قال سعيد بن جبير قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كانت الأنبياء تسكن الشام فما لك وللمدينة فهم أن يشخص ، فأنزل الله وان كادوا الآية .

﴿واذن لا يلبثون خلافك﴾ أي لا يبقون بعد اخراجك ﴿إلا﴾ لبثاً او زمناً ﴿قليلاً﴾ حتى يهلكوا ثم يعاقبون عقوبة تستأصلهم جميعاً .

قال ابن عباس : يعني بالقليل يوم أخذهم ببدر فكان ذلك هو القليل الذي لبثوا بعده ، قال ابن الأنباري خلافك بمعنى مخالفتك .

وقال قتادة همَّ أهل مكة باخراج النبي صلى الله عليه وسلم منها وقد فعلوا بعد ذلك فأهلكهم الله يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً وكذلك كانت سنة الله في الرسل إذ فعل بهم قومهم مثل ذلك .

﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ أي سن الله سنة ، قال الفراء : أي يعذبون كسنة من قد أرسلنا ، وقيل المعنى سنتنا سنة من قد أرسلنا ، وقيل اتبع أنت سنة من ، وقال الزجاج : يقول أن سنتنا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك اليهم أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه أن ينزل العذاب بهم ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ أي ما أجرى الله به العادة لم يتمكن من تحويله ولا يقدر على تغييره .

ولما ذكر سبحانه الإلَهيـات والمعاد والجزاء اردفها بذكر أشرف الطاعات وهي الصلاة فقال ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ أجمع المفسرون على أن المراد بها الصلوات المفروضة ، وقد اختلف العلماء في الدلوك على قولين :

أحدهما : انه زوال الشمس عن كبد السماء قاله عمر وابنه وابو هريرة وابن عباس وجابر والحسن والشعبي وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو جعفر الباقر وأكثر التابعين واختاره ابن جرير .

والقول الثاني : انه غروب الشمس قاله علـيّ وابن مسعود وأبي بن كعب ، وروي عن ابن عباس ؛ وبه قال النخعي ومقاتل والسدي ، قال الفراء : دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها ، قال الازهري : معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار دالكة وقيل لها اذا أفلت دالكة لأنها في الحالتين زائلة قال : والقول عندي انه زوالها نصف النهار لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس .

وأصل هذه المادة أي ما تركب من الدال واللام والكاف يـدل على التحول والانتقال ومنه الدلك فإن الدلاك لا تستقر يده ومنه دلوك الشمس ففي الزوال انتقال من وسط السماء الى ما يليه وكذا كل ما تركب من الدال واللام بقطع النظر عن آخره يدل على ذلك كدلج بالجيم من الدلجة وهي سير الليل والانتقال فيه من مكان الى مكان آخر ودلح بالحاء المهملة إذا مشى مشياً

متثاقلاً ودلع بالعين المهملة إذا أخرج لسانه ودلف بالفاء إذا مشى مشي المقيد أو بالقاف لاخراج الماء من مقره ودله إذا ذهب عقله ففيه انتقال معنوي .

وقال أبو عبيد : دلوكها غروبها ودلكت براح أي غابت وبراح اسم من اسماء الشمس على وزن حذام وقطام وعن ابن عمر قال : دلوك الشمس زياغها بعد نصف النهار ، وعن ابن عباس قال : إذا فاء الفيء ، وعن عقبة ابن عمرو مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر » الحديث أخرجه ابن جرير وعن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر إذا زالت الشمس ثم تلا ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ .

والحاصل أن اللفظ يجمعهما لأن أصل الدلوك الميل والشمس تميل إذا زالت وإذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به ، واذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها كما ذكروا وعلى الثاني يخرج الظهر والعصر وفي هذه اللام وجهان :

أحدهما : انها بمعنى بعد ومثله قولهم كتبته لثلاث خلون .

والثاني : انها على بابها أي لأجل دلوك ، قال الواحدي : لأنها إنما تجب بزوال الشمس وفيه ثلاثة أقوال **اشهرها** انه الزوال وهو نصف النهار ، **والثاني** انه من الزوال الى الغروب ، **والثالث** انه الغروب .

﴿الى غسق الليل﴾ أي اجتماع الظلمة قاله ابن عباس ، وقال الفراء والزجاج : يقال غسق الليل وأغسق إذا أقبل بظلامه ، وقيل مغيب الشفق وهذا يتناول المغرب والعشاء والجاري متعلق بأقم لانتهاء غاية الإقامة أو أقمها

ممدودة اليه قاله ابو البقاء وفيه نظر من حيث انه قدر المتعلق كوناً مقيداً إلا أن يريد تفسير المعنى لا الإعراب .

والغسق دخول أول الليل قاله ابن شميل وقيل هو سواد الليل وظلمته وأصله من السيلان يقال غسقت العين أي سـال دمعـها فكأن الظلمة تنصب على العالم وتسيل عليهم ويقال غسق الجرح امتلأ دماً فكأن الظلمة ملأت الوجود ، والمراد في قوله من شر غاسق القمر اذا كسف واسود .

وقيل الليل والغساق بالتخفيف والتشديد ما يسيل من صديد أهل النار ويقال غسق الليل واغسق وظلم وأظلم ودجا وأدجى وغبش واغبش نقله الفراء قاله السمين وقد استدل بهذه الغاية من قال ان صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال الى الغروب روى ذلك عن الاوزاعي وأبي حنيفة وجوزه مالك والشافعي في حال الضرورة .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعيين أوقات الصلوات فيجب حمل مجمل هذه الآية على ما بينته السنة فلا نطيل بذكر ذلك ، ومعنى الآية أقم الصلاة من وقت دلوك الشمس الى غسق الليل فيدخل فيها الظهر والعصر وصلاتا غسق الليل وهما العشاآن .

ثم قال ﴿وقرآن الفجر﴾ عطف على الصلاة أي أقمه قاله الفراء ، وقال الأخفش وتبعه أبو البقاء وعليك قرآن الفجر وأصول البصريين تأبى هذا لأن أسماء الأفعال لا تعمل مضمرة ، وقيل الزم قرآن الفجر ، قال المفسرون : المراد به صلاة الصبح عبر عنها ببعض أركانها .

قال الزجاج : وفي هذه فائدة عظيمة تدل عليه أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة حتى سميت الصلاة قرآنا وهو حجة على الأصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أنـه لا صـلاة إلا بفاتحة

الكتاب ، وفي بعض الأحاديث الخارجة من مخرج حسن وقرآن معها وورد ما يدل على وجوب الفاتحة في كل ركعة أو سميت صلاة الصبح قرآنا لطول قراءتها ، وقد حرره الشوكاني في مؤلفاته تحريراً مجوداً .

ثم علّل سبحانه ذلك بقوله ﴿ان قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي تشهده وتحضره ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح الآتي وبذلك قال جمهور المفسرين فينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار .

وقال الشهاب · أي الكاتبون والحفظة أو يشهده الكثير من المصلين في العادة والأول أولى .

وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها »[١] وهو في الصحيحين عنه مرفوعاً بلفظ يجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر[٢] ثم يقول أبو هريرة إقرأوا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهوداً ، وفي الباب أحاديث .

قال الرازي : وهذا دليل قاطع قوي على ان التغليس أفضل من التنوير لأن الانسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت ظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الأسفار فهناك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في الآية ، فثبت أن قوله يعني هذه الآية دليل على أن الصلاة في أول وقتها أفضل انتهى .

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١٧/٥ ـ الإمام أحمد ٢/٤٧٤ .
(٢) مسلم ٦٣٢ ـ البخاري ٣٥٩ .

﴿ومن الليل فتهجد به﴾ في ﴿من﴾ وجهان **أحدهما** : انها متعلقة بتهجد أي تهجد بالقرآن بعض الليل . **والثاني** : انها متعلقة بمحذوف أي قم بعد نومك نومة من الليل أو اسهر من الليل ذكرهما الحوفي ومن للتبعيض أي قم بعض الليل والضمير المجرور راجع الى القرآن من حيث هو لا يقيد إضافته الى الفجر ففي الكلام استخدام ، وقيل التقدير بذلك الوقت والباء بمعنى في ، قاله السمين ولو قال من بمعنى في لكان أوضح وما قيل من أنه منتصب على الإغراء والتقدير وعليك بعض الليل فبعيد جداً .

والتهجد مأخوذ من الهجود ، وقال أبو عبيدة وابن الأعرابي : هو من الأضداد لأنه يقال هجد الرجل إذا نام وهجد إذا سهر ؛ وقال الأزهري : الهجود في الأصل هو النوم بالليل ولكن التفعل فيه لأجل التجنب ومنه تأثم وتحرج أي تجنب الإثم والحرج فالمتهجد من تجنب الهجود فقام بالليل ، وروي عنه أيضا المتهجد القائم الى الصلاة من الليل هكذا حكى عنه الواحدي فقيد التهجد بالقيام من النوم وهكذا قال مجاهد وعلقمة والأسود فقالوا : التهجد بعد النوم ، قال الليث : يقال تهجد إذا استيقظ للصلاة .

﴿نافلة لك﴾ معناها في اللغة الزيادة على الأصل ، فالمعنى إنها للنبي صلى الله عليه وسلم نافلة زائدة على الفرائض ، والامر بالتهجد وان كان ظاهره الوجوب لكن التصريح بكونه نافلة قرينة صارفة للأمر .

وقيل المراد بالنافلة هنا إنها فريضة زائدة على الفرائض الخمس في حقه صلى الله عليه وسلم ، ويدفع ذلك التصريح بلفظ النافلة ، وقيل كانت صلاة الليل فريضة في حقه صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعاً وعلى هذا يحمل ما ورد في الحديث أنها عليه فريضة ولأمته تطوع .

قال الواحدي : إن صلاة الليل كانت زيادة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة لرفع الدرجات لا للكفارات ، لأنه قد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر ،

وليس لنا بنافلة لكثرة ذنوبنا إنما نعمل لكفارتها . قال : وهو قول جميع المفسرين .

والحاصل أن الخطاب في هذه الآية وان كان خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم في قوله أقم الصلاة فالأمر له أمر لأمته ، فهو شرع عام ، ومن ذلك الترغيب في صلاة الليل فإنه يعم جميع الأمة والتصريح بكونه نافلة يدل على عدم الوجوب ، فالتهجد من الليل مندوب اليه ومشروع لكل مكلف .

وأخرج البيهقي في سننه والطبراني في الأوسط عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث هن عليَّ فرائض وهن لكم سنة : الوتر والسواك وقيام الليل » .

ثم وعد سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم على اقامة الفرائض والنوافل فقال ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ قد ذكرنا في مواضع أن عسى من الكريم اطماع واجب الوقوع ﴿مقاماً محموداً﴾ نصب على الظرفية أي يبعثك فيقيمك في الآخرة مقاماً محموداً ، ويجوز أن يكون حالاً بتقدير مضاف أي ذا مقام محمود ، ومعنى كون المقام محموداً أنه يحمده كل من علم به .

وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال :

الأول : انه المقام الذي يقومه النبي صلى الله عليه وسلم للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربهم سبحانه مما هم فيه وهذا القول هو الذي دلت عليه الأدلة الصحيحة في تفسير الآية ، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل . قال الواحدي : واجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة في فصل القضاء .

القول الثاني : إن المقام المحمود اعطاء للنبي صلى الله عليه وسلم لواء

الحمد يوم القيامة ، ويمكن أن يقال أن هذا لا ينافي القول الأول إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد .

الثالث : إن المقام المحمود هو أن الله سبحانه يجلس محمداً صلى الله عليه وسلم معه على كرسيه ، حكاه ابن جرير عن فرقة منهم مجاهد ، وقد ورد في ذلك حديث وحكى النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا الحديث .

قال ابن عبد البر : مجاهد وان كان أحد الائمة بالتأويل فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم : **أحدهما** : هذا **والثاني** : في تأويل وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة قال معناه ينتظر الثواب وليس من النظر . انتهى .

وعلى كل حال فهذا القول غير مناف للقول الأول لإمكان أن يقعده الله سبحانه هذا المقعد ويشفع تلك الشفاعة .

وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجلسني معه على السرير » وينبغي الكشف عن اسناد هذا الحديث . وقال ابن مسعود يقعده على العرش ، رواه أبو وائل . وعن عبدالله بن سلام قال : يقعد على الكرسي ، والأحاديث في الشفاعة كثيرة وأول من أنكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة .

الرابع : انه مطلق في كل مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات ذكره صاحب الكشاف ، والمقتدون به في التفسير ، ويجاب عنه بأن الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة فالمصير اليها متعين ، وليس في الآية عموم في اللفظ حتى يقال الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومعنى قوله مطلق في كل ما يجلب الحمد انه عام في كل ما هو كذلك ، ولكنه يعبر عن العام بلفظ المطلق كما ذكره في ذبح البقرة ، ولهذا قال هنا .

وقيل المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله ، يعني لفظ المقام . والفرق بين العموم البدلي والعموم الشمولي معروف فلا نطيل بذكره .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسئل عنه ، يعني المقام ، فقال « هو المقام المحمود الذي أشفع فيه لأمتي » .[1]

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود »[2] والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكرها ، ومن رام الاستيفاء نظر في أحاديث الشفاعة في الأمهات وغيرها .

﴿وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ قرىء بضم الميمين وبفتحهما وهما مصدران بمعنى الإدخال والإخراج فهما كالمجرى والمرسى والإضافة الى الصدق لأجل المبالغة نحو حاتم الجواد ، أي إدخالاً يستأهل أن يسمى إدخالاً ولا يرى فيه ما يكره . وقال الواحدي : اضافتهما الى الصدق مدح لهما وكل شيء أضفته الى الصدق فهو مدح .

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية ، فقيل نزلت حين أمر صلى الله عليه وسلم بالهجرة يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة ، واختاره ابن جرير ، وهذا يقتضي أن الآية مكيّة مع أنها آخر الثمان المدنيات ، لكن البيضاوي مشى على أن السورة كلها مكيّة . وحكى الاستثناء الذي ذكره الجلال بقيل ، وعليه فلا إشكال ومن المعلوم أن إدخاله المدينة بعد إخراجه من مكة وإنما قدمه عليه إهتماماً بشأنه ولأنه هو المقصود .

---

(١) الإمام أحمد ٤٤١/٢ - ٥٢٨/٢ .

(٢) المستدرك كتاب التفسير ٣٦٣/٢ .

وقيل المعنى أمتني إماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ، وقيل المعنى أدخلني فيما أمرتني به واخرجني مما نهيتني عنه . وقيل إدخاله موضع الأمن واخراجه من بين المشركين ، وهو كالقول الأول ، وقيل المراد إدخال عز واخراج نصر .

وقيل أدخلني في الأمر الذي كرّمتني بـه من النبوة مـدخل صـدق وأخرجني منـه إذا أمتني مخرج صدق ؛ وقيل أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق ، وقيل أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق واخرجني بالصدق ، وقيل الآية عامة في كل ما تتناوله من الأمور فهي دعاء ومعناها رب أصلح لي وردي في كل الأمور وصدي عنها .

﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ أي حجة ظاهرة قاهرة تنصرني بها على جميع ما خالفني ، وقيل اجعل لي من لدنك ملكاً وعزاً قوياً أقيم به دينك وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم علم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً ، وبه قال الحسن وقتادة واختاره ابن جرير .

وقال ابن كثير : هو الأرجح لأنه لا بدّ مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ .

وفي الأثر أن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد وهذا هو الواقع انتهى .

وقيل وعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له وأجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس ؛ وقال : ليظهره على الدين كله ، وقال : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض . الآية وقد كان كما وعد ولله الحمد .

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ
شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ
أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا
تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

﴿وقل﴾ عند، دخولك مكة يوم الفتح ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ المراد بالحق الإسلام ، وقيل القرآن ، وقيل الجهاد ، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك وعلى ما هو حق كائناً ما كان والمراد بالباطل الشرك وقيل الشيطان ولا يبعد أن يحمل على كل ما يقابل الحق من غير فرق بين باطل وباطل ، ومعنى زهق بطل واضمحل ومنه زهوق النفس وهو بطلانها وخروجها ، ومنه قوله تعالى ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ .

قال الشاعر :

ألمت فحيَّت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي مضمحلاً زائلاً يعني أن هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت ، والحق ثابت دائماً ، وذلك أن الباطل وان كان له دولة وصولة في وقت من الأوقات فهو سريع الذهاب والزوال .

واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً وجاء الحق وما

يبدىء الباطل وما يعيد حتى سقطت .[1] وفي الباب أحاديث .

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾ من لابتداء الغاية قاله أبو حيان ويصح أن تكون لبيان الجنس ، قاله الزمخشري وابن عطية وأبو البقاء فإن جميع القرآن شفاء وقدم على المبين للاهتمام وأبو حيان ينكر جوازه لأن التي للبيان لا بدّ أن يتقدمها ما تبينه لا أن تتقدم هي عليه فالمختار هو الأول ، وقيل للتبعيض وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه ورده ابن عطية بأن المبعض هو انزاله .

واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على قولين : **الاول** : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه . **الثاني** : انه شفاء عن الأمراض الظاهرة بالرقي والتعوذ ونحو ذلك والتبرك بقراءته يدفع كثيراً من الادواء والأسقام يدل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في فاتحة الكتاب وما يدريك انها رقية ، ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز أو من باب حمل المشترك على معنييه .

﴿ورحمة للمؤمنين﴾ لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا والدين ، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ .

والحاصل أن القرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق وإبطال المذاهب الفاسدة فهو شفاء لأمراض القلوب وتكفير للذنوب وتفريج للكروب وتطهير للعيوب ، وفي الحديث « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله » .

ثم لما ذكر سبحانه ما في القرآن من المنفعة لعباده المؤمنين ذكر ما فيه لمن

(١) مسلم ١٧٨١ ـ البخاري ١٢٢٢ .

عداهم من المضرة عليهم فقال ﴿ولا يزيد﴾ القرآن كله أو كل بعض منه ﴿الظالمين﴾ الذين وضعوا التكذيب موضع التصديق والشك والارتياب موضع اليقين والاطمئنان ﴿إلا خساراً﴾ أي هلاكاً لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم ويدعوهم الى زيادة إرتكاب القبائح تمرداً وعناداً ، فعند ذلك يهلكون ، وقيل الخسار النقص كقوله ﴿فزادتهم رجساً الى رجسهم﴾ قال قتادة : لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان .

ثم نبَّه سبحانه على قبح بعض ما جبل عليه الانسان من الطبائع المذمومة فقال ﴿وإذا أنعمنا على﴾ جنس ﴿الانسان﴾ بالنعم التي توجب الشكر كالصحة والسعة والغنى والفراغ ﴿أعرض﴾ عن الشكر لله والذكر له ﴿ونأى بجانبه﴾ أي ثنى عطفه متبختراً والنأي البعد والباء للتعدية أو للمصاحبة وهو تأكيد للإعراض لأن الإعراض عن الشيء هو أن يوليه عرض وجهه أي ناحية والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره .

ولا يبعد أن يراد بالإعراض هنا الإعراض عن الدعاء والابتهال الذي كان يفعله عند نزول البلوى والمحنة به ويراد بالنأي بجانبه التكبر والبعد بنفسه عن القيام بحقوق النعم وقرىء ناء مثل باع على القلب قال مجاهد نأى تباعد .

﴿واذا مسه الشر﴾ من شدة أو مرض أو فقر أو نازلة من النوازل ﴿كان يؤوساً﴾شديد اليأس قنوطاً من رحمة الله ، هذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ، والمعنى أنه إن فاز بالمطلوب الدنيوي وظفر بالمقصود نسي المعبود ،وان فاته شيء من ذلك وتأخرت الإجابة استولى عليه الأسف وغلب عليه القنوط ويئس وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة .

ولا ينافي ما في هذه الآية قوله تعالى ﴿وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ ونظائره فإن ذلك شأن بعض آخر منهم غير البعض المذكور في هذه الآية ، ولا يبعد

أن يقال لا منافاة بين الآيتين فقد يكون مع شدة يـأسـه وكثرة قنوطه كثير الدعاء بلسانه .

﴿قل كل﴾ أي كل أحد ﴿يعمل على شاكلته﴾ التي جبل عليها قال الفراء : الشاكلة الطريقة وقيل الناحية قاله ابن عباس ، وقيل الطبيعة وقيل الدين وقيل النية ، قاله الحسن وبه فسرها البخاري في كتاب التفسير ، وقيل الجبلة ، وأحسن ما قيل فيها ما قاله الزمخشري انها مذهبه الذي يشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم طريق ذو شواكل ، وهي الطرق التي تشعبت منه وهي مأخوذة من الشكل وهو المثل والنظير : يقال لست على شكلي ولا على شاكلتي .

وأما الشكل بالكسر فهو الهيئة يقال جارية حسنة الشكل او الشاكلة الروح والمعنى أن كل انسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التي ألفها أو على حسب جوهر نفسه ، فإن كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه أفعال جميلة وأخلاق زكية ، وان كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه أفعال خبيثة فاسدة رديئة وهذا ذمّ للكافر ومدح للمؤمن .

﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى﴾ لأنه الخالق لكم العالم بما جبلتم عليه من الطبائع وما تباينتم فيه من الطرائق فهو الذي يميز بين المؤمن الذي لا يعرض عند النعمة ولا ييأس عند المحنة وبين الكافر الذي شأنه البطر للنعم والقنوط عند النقم وأهدى من اهتدى على حذف الزوائد أو من هدى المتعدي أو من هدى القاصر بمعنى اهتدى و﴿سبيلاً﴾ تمييز أي أوضح طريقاً وأحسن مذهباً وأشد اتباعاً للحق .

ثم لما انجر الكلام الى ذكر الانسان وما جبل عليه ، ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال﴿ويسألونك عن الروح﴾ قد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه ، فقيل هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته وبهذا قال أكثر المفسرين .

قال الفراء : الروح الذي يعيش به الانسان لم يخبر الله به سبحانه أحداً من خلقه ولم يعط علمه أحداً من عباده .

وقيل الروح المسؤول عنه جبريل ، وقيل عيسى وقيل القرآن وقيل ملك من الملائكة عظيم الخلق وقيل خلق كخلق بني آدم ، وقال بعضهم هو الدم ، ألا ترى الانسان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم ، وقال قوم : هو نفس الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس ، وقال قوم : هو عرض ، وقال قوم : هو جسم لطيف يحيا به الانسان ، وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلوّ والبقاء ، والظاهر هو القول الأول .

وسيأتي ذكر سبب نزول هذه الآية وبيان السائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، ثم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله .

ثم أمره سبحانه أن يجيب عن السائلين له عن الروح فقال ﴿قل الروح﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه ﴿من أمر ربي﴾ من بيانية والأمر بمعنى الشأن والإضافة للإختصاص العلمي لا الإيجادي لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما في الإضافة الثانية من تشريف المضاف اليه اي هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده .

وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة ايضاً ، وقيل المعنى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر ، وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ماهيته وايضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتسع له المقام وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا .

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت الى ثمانية

عشر مائة قول ، فانظر الى هذا الفضول الفارع والتعب العاطل عن النفع بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ، ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث على حقيقته فضلاً عن أممهم المقتدين بهم .

فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول والقانعين بالمعقول من المنقول الى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هـذه المسألـة مما أذن الله بـالكلام فيـه ولم يستأثر بعلمه ، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد انفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه .

والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن ادراك خالقه أعجز ، ولذا رد ما قيل في حده قديماً وحديثاً .

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ الخطاب عام لجميع الخلق ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل هو خطاب لليهود خاصة ، والأول أولى ، ويدخل فيه اليهود دخولاً أولياً .

والمعنى إن علمكم الذي علمكم الله ليس إلا المقدار القليل بالنسبة الى علم الخالق سُبحانه وان أوتيتم حظاً من العلم وافراً ، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة الى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام .

وعبارة الخازن أن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة ، فوصف الشيء بالقلة بالنسبة الى ما فوقه وبالكثرة الى ما تحته . أ هـ .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكىء على عسيب فمر بقوم من اليهود

فقال بعضهم لبعض : اسألوه عن الروح ، فقال بعضهم : لا تسألوه ، فقالوا : يامحمد ما الروح ؟ فما زال متكئاً على العسيب فظننت انه يوحى اليه فقال ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ الآية .[1]

وأخرج أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن المنذر وابن حبان في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، قالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت هذه الآية ، قالوا : أوتينا علماً كثيراً وأوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فأنزل الله ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ الآية ، وفي الباب أحاديث وآثار .

ولما بيَّن سبحانه ما آتاهم من العلم إلا قليلا بيَّن انه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال ﴿ولئن﴾ اللام هي الموطئة الدالة على القسم المقدر ، أي والله لئن ﴿شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك﴾ وبقيت كما كنتما تدري ماالكتاب وهذا جواب القسم وجواب الشرط محذوف ، أي ذهبنا به على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم من حذف جواب المتأخر استغناء عنه بجواب المتقدم . قال الزجاج : أي لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر ، انتهى . وعبر عن القرآن بالموصول تفخيماً لشأنه ﴿ثم لا تجد لك به﴾ بالقرآن ﴿علينا وكيلاً﴾ أي من يتوكل علينا في رد شيء منه بعد ان ذهبنا به ويتعهد ويلتزم استرداده بعد رفعه كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه .

---

(١) مسلم ٢٧٩٤ ـ البخاري ١٠٦ .

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾

﴿ألا رحمة من ربك﴾ الإستثناء فيه قولان :

أحدهما : انه متصل لأن الرحمة تندرج في قوله وكيلا ، يعني إلا رحمة فإنها ان نالتك فلعلها تسترده عليك .

والثاني : انه منقطع فمعناه لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك أو لكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به ، أو لكن أبقيناه الى قرب قيام الساعة فعند ذلك يرفع ، ويقدر إلا بـ ﴿لكن﴾ عند البصريين وببل عند الكوفيين .

وقد أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي وغيرهم عن ابن مسعود قال : ان هذا القرآن سيرفع ، قيل كيف يرفع ، وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في المصاحف ، قال : يسري عليه في ليلة واحدة فلا تترك منه آية في قلب ولا مصحف إلا رفعت فتصبحون وليس فيكم منه شيء ، ثم قرأ هذه الآية وقد روي هذا عنه ، وعن جمع من الصحابة موقوفاً ومرفوعاً .

﴿إن فضله كان عليك كبيراً﴾ حيث جعلك رسولاً وأنزل عليك الكتاب وألقى عليك القرآن والعلم وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك مما أنعم الله به عليك .

ثم احتج سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن فقال ﴿قل لئن﴾ اللام لام

قسم وفيه ما تقدم ﴿اجتمعت الانس والجن﴾ وكذا الملائكة ، وانما لم يذكروا لأن التحدي ليس معهم والتصدي لمعارضته لا يليق بشأنهم .

﴿على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾ المنزل من عند الله الموصوف بالصفات الجليلة من كمال الفصاحة ونهاية البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ ﴿لا يأتون بمثله﴾ أظهر في مقام الاضمار ولم يكتف بأن يقول لا يأتون به ؛ على أن الضمير راجع الى المثل المذكور لدفع توهم أن يكون له مثل معين ، وللاشعار بأن المراد نفي المثل على أي صفة كان ، وهو جواب قسم محذوف أو جواب للشرط واعتذروا عن رفعه بأن الشرط ماض والأول أظهر .

ثم أوضح سبحانه عجزهم عن المعارضة سواء كان المتصدي لها أحدهم على الإنفراد أو كان المتصدي لها المجموع بالمظاهرة فقال ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي عوناً ونصيراً في تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله ، فثبت أنهم لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ، ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلاً عن غيرها ، وفيه حسم لأطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض وقد تقدم وجه الاعجاز في اوائل سورة البقرة .

وفي هذه الآية رد لما قاله الكفار ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وإكذاب لهم .
عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمود بن شحان ونعيمان ابن آصي وبحري بن عمرو وسلام بن مشكم ، فقالوا : أخبرنا يامحمد بهذا الذي جئت به أحق من عند الله ، فإنا لا نراه متناسقاً كما تناسق التوراة ، فقال لهم « والله إنكم لتعرفونه انه من عند الله ، قالوا : إنا نجيئك بمثل ما تأتي به ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

فالقرآن كلام الله في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة لا يشبه كلام الخلق وهو

غير مخلوق ، ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله ، وهو معجز في النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب .

ثم بيَّن سبحانه أن الكفار مع عجزهم عن المعارضة استمروا على كفرهم وعدم إيمانهم فقال ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي رددنا القول فيه بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان ، وكررنا بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي ، وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة ، وقيل من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ووقوعه موقعاً في الأنفس والأول أولى .

﴿فأبى أكثر الناس﴾ يعني من أهل مكة ﴿إلا كفورا﴾ فإنهم جحدوا وأنكروا كون القرآن كلام الله بعد قيام الحجة عليهم واقترحوا من الآيات ما ليس لهم وأظهر في مقام الإضمار حيث قال فأبى أكثر الناس تأكيداً وتوضيحاً ولما كان أبى ومؤلاً بالنفي أي ما قبل أو لم يرض صح الاستثناء منه .

﴿وقالوا﴾ أي قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير ، ولما تبيَّن إعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات أخر وبيِّنات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعلَّلون باقتراح الآيات وقالوا ﴿لن نؤمن لك﴾ ثم علقوا نفي ايمانهم بغاية طلبوها فقالوا ﴿حتى تفجر لنا من الأرض﴾ أي مكة ﴿ينبوعاً﴾ عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء ، قرىء تفجر مخففاً ومشدداً وهما سبعيتان ، ولم يختلفوا في فتفجر الأنهار أنها مشدّدة باتفاق السبعة .

ووجه ذلك أبو حاتم بأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد والثانية بعدها الأنهار وهي جمع ، وأجيب عنه بأن الينبوع وان كان واحداً في اللفظ فالمراد به الجمع ، فأن الينبوع العيون التي لا ينضب ماؤها ويرد بأن الينبوع عين الماء والجمع ينابيع ، وإنما يقال للعين ينبوع إذا كانت غزيرة من شأنها النبوع من غير انقطاع وهو يفعول

من نبع الماء والياء زائدة كيعبوب من عب الماء . قال مجاهد : ينبوعاً عيوناً ، وعن السدي الينبوع هو النهر الذي يجري من العين .

﴿أو تكون لك جنة﴾ أي بستان تستر أشجاره أرضه . وقال ابن عباس : جنة ضيعة ، والمعنى هب انك لا تفجر الأنهار لأجلنا ففجرها من أجلك بأن تكون لك جنة ﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾ أي تجريها بقوة ﴿خلالها﴾ أي وسط الجنة ﴿تفجيراً﴾ كثيراً وتشقيقاً .

﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ أي قطعاً قاله ابن عباس ، قرأ مجاهد أو تسقط مسند الى السماء ، وقرأ من عداه أو تسقط على الخطاب أي أو تسقط أنت يامحمد السماء ، والكسف بفتح السين جمع كسفة ، والكسفة القطعة من الشيء ، قاله الجوهري ، يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف ، أي أسقاطاً مماثلة كما زعمت ، يعنون بذلك قول الله سبحانه ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ .

قال أبو علي : الكسف بالسكون الشيء المقطوع كالطحن للمطحون واشتقاقه على ما قال من كسفت الثوب كسفاً إذا قطعته ، وقال الزجاج : من كسفت الشيء إذا غطيته كأنه قيل أو تسقطها طبقاً طبقاً علينا ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي حال كونهما مقابلين بفتح الباء ومرئيين لنا فالقبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر .

اختلف المفسرون في معنى ﴿قبيلاً﴾ فقيل معناه معاينة قاله قتادة وابن جريج واختاره أبو علي الفارسي فقال : إذا حملته على المعاينة كان القبيل مصدراً كالنكير والنذير وقيل معناه كفيلاً بما تدعيه قاله الضحاك ، وقيل شهيداً قاله مقاتل وقيل هو جمع القبيلة أي تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة قاله مجاهد وعطاء .

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا
كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن
يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي
ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا
رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي من ذهب قاله ابن عباس وبه قرأ ابن مسعود وأصله الزينة والمزخرف المزين وزخارف الماء طرائقه وقال الزجاج : هو الزينة فرجع الى أصل معنى الزخرف وهو بعيد لأنه يصير المعنى أو يكون لك بيت من زينة .

﴿أو ترقى في السماء﴾ أي حتى تصعد في معارجها والرقي الصعود يقال : رقيت في السلم إذا صعدت من باب تعب وارتقيت مثله ويقال رقي بكسر القاف يرقى بالفتح رقياً على فعول والأصل رقوى وبالكسر في المحسوسات كما هنا وأما في المعاني فهو من باب سعى يقال رقى في الخير والشر ، يرقى في الماضي والمضارع ، وأما رقى المريض بمعنى عوّذه فهو من باب رمى يقال رقاه يرقيه إذا عوذه وتلا عليه شيئاً من القرآن .

﴿ولن نؤمن لرقيك﴾ أي لأجل رقيك أو به فاللام للتعليل أو بمعنى الباء وهو مصدر نحو مضى يمضي مضياً وهوى يهوي هوياً ﴿حتى تنزل علينا كتاباً﴾ يصدقك ويدل على نبوتك ﴿نقرؤه﴾ جميعاً أو يقرؤه كل واحد منا ، وقيل معناه كتاباً من الله الى كل واحد منا كما في قوله ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ .

قال مجاهد : يعنون كتاباً من رب العالمين الى فلان بن فلان تصبح عند كل رجل صحيفة عند رأسه موضوعة يقرؤها فأمر سبحانه رسوله صلى الله

عليه وآله وسلم أن يأتي بما يفيد التعجب من قولهم والتنزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال :

﴿قل﴾ وفي قراءة سبعية قال ﴿سبحان ربي﴾ تعجب عما تقدم أو عن أن يتحكم عليه او يشاركه أحد في القدرة ﴿هل كنت إلا بشراً﴾ من البشر لا ملكاً حتى أصعد السماء ﴿رسولاً﴾ كسائر الرسل مأموراً من الله سبحانه بإبلاغكم ، فهل سمعتم أيها المقترحون لهذه الأمور أن بشراً قدر على شيء منها ، وان أردتم اني أطلب ذلك من الله سبحانه حتى يظهرها على يدي فالرسول اذا أتى بمعجزة واحدة كفاه ذلك لأن بها يتبين صدقه ولا ضرورة الى طلب الزيادة وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على ربي بما ليس بضروري ولا دعت اليه حاجة ، ولو لزمتني الإجابة لكل متعنت لاقترح كل معاند في كل وقت اقتراحات وطلب لنفسه اظهار آيات فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وتنزه عن تعنتاتهم وتقدس عن اقتراحاتهم .

وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها وليست بدون ما اقترحوه ، بل أعظم منه ولكن لم يكن قصدهم طلب الدليل بل كانوا متعنتين ثم حكى سبحانه شبهة أخرى قد تكرر في الكتاب العزيز التعرض لإيرادها وردها في غير موضع فقال :

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾ المراد الناس على العموم ، وقيل أهل مكة على الخصوص أي ما منعهم الإيمان بالقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إذ جاءهم الهدى﴾ أي الوحي من الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم وبيّن ذلك لهم وارشدهم إليه أي ما منعهم وقت مجيء الهدى أن يؤمنوا بالقرآن والنبوة ﴿إلا أن قالوا﴾ أي ما منعهم إلا قولهم ﴿أبعث الله بشراً رسولاً﴾ الهمزة للإنكار منهم ان يكون الرسول من جنس البشر .

والمعنى أن هذا الاعتقاد الشامل لهم هو الذي منعهم عن الإيمان

بالكتاب وبالرسول وعبر عنه بالقول للإشعار بأنه ليس إلا مجرد قول قالوه بأفواههم .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال ﴿قل لو كان﴾ أي لو وجد وثبت ﴿في الأرض﴾ بدل من فيها من البشر ﴿ملائكة يمشون﴾ على الأقدام كما يمشي الأنس ﴿مطمئنين﴾ مستقرين فيها ساكنين بها ، قال الزجاج مستوطنين في الأرض أي لا يظعنون عنها الى السماء ومعنى الطمأنينة السكون فالمراد ههنا المقام والاستيطان فإنه يقال سكن البلد فلان إذا أقام فيها وان كان ماشياً متقلباً في حاجاته .

﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ حتى يكون من جنسهم ويمكنهم مخاطبته والفهم عنه ، وفيه اعلام من الله سبحانه بأن الرسل ينبغي أن يكونوا من جنس المرسل اليهم فكأنه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين :

الأول : كون سكان الأرض ملائكة .

والثاني : كونهم ماشين على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم الى السماء إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا اليها وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه فلا تكون في بعثة الملائكة اليهم فائدة .

ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد فقال ﴿قل﴾ لهم يامحمد من جهتك ﴿كفى بالله﴾ وحده ﴿شهيداً﴾ على ابلاغي اليكم ما أمرني به من أمور الرسالة وقال ﴿بيني وبينكم﴾ ولم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة الكلية ، وقيل إن اظهار المعجزة على وفق دعوى النبي شهادة من الله له على الصدق ثم علّل كونه سبحانه شهيداً كافياً بقوله ﴿انه كان بعباده خبيراً﴾ أي عالماً بجميع أحوالهم محيطاً بظواهرها وبواطنها ﴿بصيراً﴾ بما كان منها وما يكون وفيه تهديد لهم وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

ثم بيَّن سبحانه ان الاقرار والإنكار مستندان الى مشيئته فقال ﴿ومن يهد الله﴾ أي من يرد الله هدايته ﴿فهو المهتد﴾ الى الحق أو الى كل مطلوب وافرد الضمير حملاً على لفظ من ﴿ومن يضلل﴾ أي يرد اضلاله ﴿فلن يجد﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له ﴿لهم﴾ جمع الضمير حملاً على معنى من ﴿أولياء﴾ ينصرونهم ويهدونهم الى الحق الذي أضلهم الله عنه أو الى طريق النجاة ﴿من دونه﴾ أي من دون الله سبحانه .

﴿ونحشرهم يوم القيامة﴾ ماشين ﴿على وجوههم﴾ هذا الحشر فيه وجهان للمفسرين :

الأول : انه عبارة عن الاسراع بهم الى جهنم من قول العرب قد مر القوم على وجوههم إذا اسرعوا .

الثاني : انهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في اهانته وتعذيبه ، وهذا هو الصحيح لقوله تعالى ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ .

ولما صح في السنة فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال :

قيل يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم قال : « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم»[1] .

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف مشاة وصنف ركباناً وصنف على وجوههم ، قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ، قال : « ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوهم كل حدب وشوك »[2] والحدب ما ارتفع من الأرض وفي الباب أحاديث .

﴿عمياً وبكماً وصماً﴾ النصب على الحال والأبكم الذي لا ينطق ، والأصم الذي لا يسمع أي لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون ، وهذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، وقد اثبت الله تعالى لهم الرؤية والكلام والسمع في قوله ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وقوله ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ وقوله ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ .

فالمعنى هنا عمياً لا يبصرون ما يسرهم بُكماً لا ينطقون بحجة صماً لا يسمعون ما يلذ مسامعهم وقيل هذا حين يقال لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون وقيل يحشرون على ما وصفهم الله ثم تعاد اليهم هذه الأشياء بعد ذلك ثم من وراء ذلك ﴿مأواهم﴾ أي المكان الذي يأوون اليه ﴿جهنم﴾ مستأنفة أو حال من الضمير ، قال ابن عباس : يعني انهم وقودها .

﴿كلما خبت﴾ أي سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، يقال خبت النار تخبو خبواً إذا خمدت وسكن لهبها زاد السمين فإذا ضعف جمرها خمدت

(١) مسلم ٢٨٠٦ بلفظ: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا ، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة البخاري ٢٠٢٨ .

(٢) الترمذي تفسير سورة ١٧/٣ ـ الإمام أحمد ٢/٣٥٤.

فإذا طفئت بالجملة قيل همدت ، وكلاهما من باب قعد ، قال ابن قتيبة : معنى ﴿زدناهم سعيراً﴾ تسعراً وهو التلهب والتوقد أي فتعود ملتهبة ومتسعرة فانهم لما كذبوا بالإعادة بعد الافناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء .

وقد قيل أن في خبو النار تخفيفاً لعذاب اهلها ، فكيف يجمع بينه وبين قوله ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ وأجيب بأن المراد بعدم التخفيف انه لا يتخلل زمان محسوس بين الخبو والتسعر ، وقيل ضعفت وهدأت من غير أن يوجد نقصان في ايلامهم ، لأن الله تعالى قال ﴿لا يفتر عنهم﴾ وقيل معناه أرادت أن تخبو ، وقيل معناه كلما نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا الى ما كانوا عليه وزيد في سعير النار لتحرقهم .

﴿ذلك﴾ العذاب المذكور ﴿جزاؤهم﴾ الذي أوجبه الله لهم واستحقوه عنده ﴿بأنهم كفروا بآياتنا﴾ أي بسبب كفرهم بها فلم يصدقوا بالآيات التنزيلية ولا تفكروا في الآيات التكوينية ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ الهمزة للإنكار وقد تقدم تفسير هذه الآية في هذه السورة ﴿أئنا لمبعوثون﴾ أي مخلوقون ﴿خلقاً جديداً﴾ مصدر من غير لفظة أو حال أي مخلوقين مستأنفين فجاء سبحانه بحجة تدفعهم عن الإنكار وتردهم عن الجحود فقال :

﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي من هو قادر على خلقها في عظمها وشدتها فهو على إعادة ما هو أدون منه في الصغر والضعف أقدر ، وقيل المراد أنه قادر على افنائهم وإيجاد غيرهم من الأنس قال الكرخي : أراد بمثلهم إياهم فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين الإعادة مثل الابتداء وذلك أن مثل الشيء مساوٍ له في حاله فجاز أن يعبر عن الشيء نفسه .

يقال مثلك لا يفعل كذا أي أنت لا تفعله ، أو أنه تعالى قادر على أن

يخلق عبيداً يوحدون ويقرون بكمال حكمته وقدرته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله ﴿يأت بخلق﴾ ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ وعلى القول الأول يكون الخلق بمعنى الإعادة وعلى هذا القول هو على حقيقته ، والمعنى قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منها كما قال أأنتم أشد خلقاً أم السماء . قال الواحدي : والأول أشبه .

﴿وجعل لهم﴾ أي لبعثهم ﴿أجلاً﴾ أي وقتاً محققاً لعذابهم ﴿لا ريب﴾ أي غير مرتاب ﴿فيه﴾ وهو الموت او القيامة ، ويحتمل أن يكون الواو للاستئناف . وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، أي أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿فأبى الظالمون إلا كفروا﴾ أي أبى المشركون إلا جحوداً للأجل وعناداً مع وضوح الدليل .

وفيه وضع الظاهر موضع المضمر للحكم عليهم بالظلم ومجاوزة الحد ، ثم لما وقع من هؤلاء الكفار طلب اجراء العيون والأنهار في أراضيهم لتتسع معايشهم بيّن الله سبحانه انهم لا يقنعون بل يبقون على بخلهم وشحهم فقال :

قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ
قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ
لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن
يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

﴿قل﴾ لهم شرحاً لحالهم التي يدعون خلافها ﴿لو أنتم تملكون﴾ تقديره لو تملكون أنتم لأن ﴿لو﴾ تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من فعل بعدها ؛ وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب ، وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن في حذف الفعل الذي ارتفع به أنتم وإبراز الكلام في صورة المبتدأ والخبر دلالة على انهم هم المختصون بالشح المتبالغ فلا ينافي قوله تعالى ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ الآية . لأن ذلك في الآخرة .

﴿خزائن رحمة ربي﴾ هي خزائن الأرزاق ﴿إذاً لأمسكتم﴾ أي لبخلتم وحبستم في دار الدنيا .

قال الزجاج : أعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق والنعم لأمسكوا شحاً وبخلاً ﴿خشية الإنفاق﴾ أي خشية أن ينفقوا فيفتقروا . قال أهل اللغة : أنفق وأصرم وأعدم وأقتر بمعنى قل ماله ، فيكون المعنى لأمسكتم خشية قلة المال وخوف نفاده وذهابه بالإنفاق ﴿وكان الانسان قتوراً﴾ أي بخيلاً ممسكاً مضيقاً عليه ، يقال قتر على عياله يقتر قتراً وقتوراً ضيق عليهم من النفقة .

وقيل معنى قتوراً قليل المال ؛ والظاهر أن المراد المبالغة في وصفه بالشح

لأن الانسان ليس بقليل المال على العموم بل بعضهم كثير المال إلا أن يراد أن جميع النوع الانساني قليل المال بالنسبة الى خزائن الله وما عنده ، وقد اختلف في هذه الآية على قولين : **أحدهما** : انها نزلت في المشركين خاصة وبه قال الحسن . **والثاني** : إنها عامة ، وهو قول الجمهور وحكاه الماوردي .

﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بيِّنات﴾ أي علامات واضحات دالة على نبوته ، قيل ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعجزات المذكورة كأنها مساوية لتلك الأمور التي اقترحها كفار قريش بل أقوى منها فليس عدم الاستجابة لما طلبوه من الآيات إلا لعدم المصلحة في استئصالهم إن لم يؤمنوا بها .

قال أكثر المفسرين : الآيات التسع هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصار واليد والسنين ونقص الثمرات ، وجعل الحسن مكان السنين ونقص الثمرات البحر والجبل .

وقال محمد بن كعب القرظي : هي الخمس التي في الأعراف والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم ، وقد تقدم الكلام على هذه الآيات مستوفى .

وعن ابن عباس : في تسع آيات مثل ما ذكرناه عن أكثر المفسرين ، وعنه قال : يده وعصاه ولسانه والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

وعن صفوان بن عسال : أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا الى هذا النبي نسأله ، فأتياه فسألاه عن هذه الآية فقال : « لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء الى السلطان فيقتله ، ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا

محصنة ، أو قال : لا تفروا من الزحف . شك شعبة وعليكم يا يهود خاصة أن لا تعتدوا في السبت ، فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد إنك نبي الله . قال فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا الله أن لايزال في ذريته نبي ، وانا نخاف ان أسلمنا تقتلنا اليهود »[1] أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة والطبراني وابن قانع والبيهقي وغيرهم .

وعلى هذا المراد بالآيات الأحكام العامة الثابتة في كل الشرائع ، سميت بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقاتها في الآخرة من السعادة والشقاوة ، وقوله عليكم يا يهود الخ كلام مستأنف زائد على الجواب ، ولذلك غير فيه سياق الكلام ﴿فاسأل﴾ يامحمد صلى الله عليه وسلم ﴿بني اسرائيل إذ جاءهم﴾ أي حين جاءهم موسى ، وقرىء فسأل أي سأل موسى فرعون أن يخلي بني اسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه ، وعلى الأول السؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والايقان لأن الأدلة إذا تظافرت كان ذلك أقوى ، والمسؤولون مؤمنو بني اسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

﴿فقال له فرعون﴾ الفاء هي الفصيحة أي فأظهر موسى عند فرعون ما آتيناه من الآيات البيِّنات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون ﴿إني لأظنك ياموسى مسحوراً﴾ المسحور هو الذي سحر فخولط عقله . وقيل هو المخدوع ، وقيل هو المطبوب . وقال أبو عبيدة والفراء : هو بمعنى الساحر فوضع المفعول موضع الفاعل ﴿قال﴾ موسى ﴿لقد علمت﴾ يافرعون ﴿ما أنزل﴾ أي أوجد ﴿هؤلاء﴾ يعني الآيات التسع التي أظهرها ؛ وقرىء علمت بضم التاء أيضاً على انها لموسى ، ووجه الأولى أن فرعون كان عالماً بذلك كما قال سبحانه وتعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ .

قال أبو عبيدة : المأخوذ به عندنا فتح التاء وهو الأصح للمعنى ، لأن

(١) النسائي كتاب التحريم باب ١٨ ـ الترمذي تفسير سورة ١٧/ ١٥ . الإمام أحمد ٤/ ٢٤٠ .

موسى لا يقول علمت أنا وهو الداعي . وروي نحو هذا عن الزجاج ، ووجه الثانية أن فرعون لم يعلم ذلك وإنما علمه موسى .

﴿إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي بيِّنات يبصر بها ودلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته ﴿واني لأظنك يافرعون مثبوراً﴾ الظن هنا بمعنى اليقين والثبور الهلاك والخسران أي مخسوراً ؛ وقيل مسحوراً وقيل مطبوعاً على الشر وقيل المثبور الملعون ؛ وقيل ناقص العقل ، وقيل هو الممنوع المصروف من الخير يقال ما ثبرك عن كذا أي ما منعك منه . حكاه أهل اللغة .

﴿فأراد﴾ فرعون ﴿أن يستفزهم من الأرض﴾ أي يخرج بني اسرائيل وموسى ويزعجهم من أرض مصر بإبعادهم عنها . وقيل أراد أن يقتلهم ويستأصلهم وعلى هذا يراد بالأرض مطلق الأرض ، وفي القاموس فز عنى عدل ، وفز فلاناً عن موضعه أزعجه واستفزه استخفه وأخرجه من داره وافززته أفزعته ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ أي فعكسنا عليه فكره فوقع عليه وعليهم الهلاك بالغرق ولم يبق منهم أحد ونجى موسى وقومه .

﴿وقلنا من بعده﴾ أي من بعد أغراقه ومن معه جميعاً ﴿لبني اسرائيل اسكنوا الأرض﴾ أي أرض الشام ومصر التي أراد أن يستفزهم منها ﴿فإذا جاء وعد﴾ الدار ﴿الآخرة﴾ هي القيامة أو الكرّة الآخرة أو الساعة الآخرة وهي النفخة الثانية الموعود بها ، وقيل أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء ﴿جئنا بكم لفيفاً﴾ أي جميعاً الى موقف القيامة .

قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى ، يقال جاء القوم بلفهم ولفيفهم ، أي بأخلاطهم ، فالمراد هنا جئنا بكم من قبوركم مختلطين من كل موضع قد اختلط المؤمن بالكافر والسعيد بالشقي ، قال الأصمعي : اللفيف جمع وليس له واحد وهو مثل الجمع .

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى
ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن
قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا
لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ
ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا
وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى
ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نـزل﴾ الضمير يـرجع الى القـرآن ، والمعنى وأوحيناه متلبساً بالحق وانه نزل وفيه الحق ، وقيل المعنى ومع الحق أنزلناه ، كقولهم ركب الأمير بسيفه أي مع سيفه ؛ وبالحق نزل أي بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما تقول نزلت بزيد . وقال أبو علي الفارسي : الباء في الموضعين بمعنى مع .

وقيل المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل وكذلك نزل ، أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم إلا محفوظاً من تخليط الشياطين والتقديم في الموضعين للتخصيص . وفي الشهاب الحق فيهما ضد الباطل ، لكن المراد بالأول الحكمة الإلهية المقتضية لإنزاله وبالثاني ما يشتمل عليه من العقائد والأحكام ونحوها .

﴿وما أرسلناك إلا مبشراً﴾ لمن أطاع بالجنة ﴿ونذيراً﴾ مخوفاً لمن عصى بالنار والقصر إضافي أي لا هادياً فإن الهدى هدى الله .

﴿وقرآناً﴾ منصوب بفعل مقدر أي وآتيناك قرآناً ، وقيل نصب بفعل مضمر يفسره قـوله ﴿فـرقناه﴾ بـالتخفيف على قـراءة الجمهور ، أي بينـاه وأوضحناه أو فرقنا فيه بين الحق والباطل .

وقال الزجاج : فرقه الله في التنزيل ليفهمه الناس . قال أبو عبيدة : التخفيف أعجب اليّ لأن تفسيره بيّناه ، وليس للتشديد معنى إلا أنه نزل متفرقاً ، ويؤيده ما رواه ثعلب عن ابن الأعرابي انه قال : فرقت مخففاً بين الكلام وفرقت مشدداً بين الأجسام .

وعن ابن عباس فرقناه مثقلاً وقال : نزل القرآن الى السماء في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً ففرقه الله في ثلاث وعشرين سنة . وقد روى نحو هذا عنه بطرق ، وعن فرقناه فصلناه على مكث بأمد . قال : في الجمل وبالتشديد قرأ علي وجماعة من الصحابة وغيرهم وفيه وجهان : **أحدهما** : ان التضعيف للتكثير ، أي فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ومواعظ وأمثال وقصص واخبار ماضية ومستقبلة . **والثاني** : انه دال على التفريق والتنجيم . انتهى .

ثم ذكر سبحانه العلة لقوله فرقناه فقال ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ أي على تطاول في المدة شيئاً بعد شيء على القراءة الثانية أو أنزلناه آية آية وسورة سورة ،ومعناه على القراءة الاولى على ترسل وتمهل وتؤدة في التلاوة ؛ فإن ذلك أقرب الى الفهم وأسهل للحفظ ، وقد اتفق القراء على ضم الميم في مكث إلا ابن محيصن فإنه قرأ بفتح الميم .

﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة والمعنى انزلناه منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث لما في ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا .

﴿قل﴾ يامحمد للكافرين المقترحين للآيات ﴿آمنوا به﴾ أي بالقرآن ﴿أو لا تؤمنوا﴾ فسواء ايمانكم به وامتناعكم عنه لا يزيده ذلك كمالاً ولا ينقصه نقصاناً ، وفي هذا وعيد شديد لأمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم واحتقارهم ، ثم علّل ذلك بقوله ﴿ان الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أي أن العلماء الذين قرأوا الكتب السابقة قبل إنزال القرآن وعرفوا حقيقة الوحي

وامارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين المحق والمبطل ورأوا نعتك وصفة ما أنزل اليك في تلك الكتب كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وأبي ذر .

وقيل الضمير في قوله من قبله راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم والأولى ما ذكرناه من رجوعه الى القرآن لدلالة السياق على ذلك .

﴿إذ يتلى عليهم﴾ القرآن ﴿يخرون للاذقان سجداً﴾ أي يسقطون على وجوههم ساجدين لله سبحانه ، وإنما قيد الخرور وهو السقوط بكونه للاذقان أي عليها لأن الذقن وهو مجتمع اللحيين أول ما يحاذي الأرض ، قال الزجاج : لأن الذقن مجتمع اللحيين ، وكما يبتدىء الانسان بالخرور للسجود فأول ما يحاذي الأرض به من وجهه الذقن .

وقيل المراد تعفير اللحية بالتراب فإن ذلك غاية الخضوع وإيثار اللام في للاذقان على ﴿على﴾ للدلالة على الاختصاص فكأنهم خصوا أذقانهم بالخرور .

وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصلها انه ان لم يؤمن به هؤلاء الجهال الذين لا علم عندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه فلا تبال بذلك فقد آمن به أهل العلم وخشعوا له وخضعوا له عند تلاوته عليهم خضوعاً ظهر أثره البالغ بكونهم يخرون على اذقانهم سجداً لله .

﴿ويقولون﴾ في سجودهم ﴿سبحان ربنا﴾ أي تنزيهاً لربنا عما يقوله الجاهلون من التكذيب أو تنزيهاً له عن خلف وعده ﴿ان كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ ان هذه هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة ﴿ويخرون للاذقان يبكون﴾ كرر ذلك الخرور للاذقان لاختلاف السبب فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتنزيهه وللسجود والثاني للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم ولهذا قال ﴿ويزيدهم﴾ أي سماع القرآن أو القرآن بسماعهم له أو البكاء أو السجود أو المتلو لدلالة قوله إذا يتلى ﴿خشوعاً﴾ أي لين قلب ورطوبة عين فالبكاء مستحب عند قراءة القرآن .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم » أخرجه الترمذي والنسائي[١] .

وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » أخرجه الترمذي[٢] .

ثم أراد سبحانه ان يعلم عباده كيفية الدعاء والخشوع فقال ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ ومعناه أنهما مستويان في جواز الإطلاق وحسن الدعاء بهما ولهذا قال ﴿أياً ما تدعوا﴾ أصل الكلام أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ للمبالغة وللدلالة على أنه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان ، ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والإكرام ذكر معنى هذا النيسابوري وتبعه أبو السعود .

قال الزجاج : أعلمهم الله أن دعاءهم الله ودعاءهم الرحمن يرجعان الى قول واحد وسيأتي ذكر سبب نزول الآية وبه يتضح المراد منها ، والحسنى مؤنث الأحسن الذي هو أفعل تفضيل لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء كما في القاموس ، عن ابن عباس قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ذات يوم فقال في دعائه : يا الله يارحمن فقال المشركون : انظروا الى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية .

وعن ابراهيم النخعي قال : ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرحمن وكان لهم كاهن باليمامة يسمونه الرحمن فنزلت الآية وهو مرسل وعن مكحول أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بمكة ذات ليلة

---

(١) الترمذي كتاب فضائل الجهاد باب ٨ ـ النسائي كتاب الجهاد باب ٨ .
(٢) الترمذي كتاب فضائل الجهاد باب ١٢ .

يقول في سجوده : يارحمن يارحيم فسمعه رجل من المشركين فلما أصبح قال لأصحابه : إن ابن أبي كبشة يدعو الرحمن الذي باليمن وكان رجل باليمن يقال له رحمن فنزلت .

ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ أي بقراءة صلاتك على حذف المضاف للعلم بأن الجهر والمخافتة من نعوت الصوت لا من نعوت أفعال الصلاة فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء يقال خفت صوته خفوتاً إذا انقطع كلامه وضعف وسكن وخفت الزرع إذا ذبل وخافت الرجل بقراءته إذا لم يرفع بها صوته .

وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها والأول أولى ؛ أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : نزلت يعني هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار فكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوا عنك الحديث[1] .

وعن محمد بن سيرين قال : نبئت أن ابا بكر كان إذا قرأ خفض وكان عمر إذا قرأ جهر فقيل لأبي بكر لَمَ تصنع هذا فقال : أنا أناجي ربي وقد عرف حاجتي وقيل لعمر لَمَ تصنع هذا قال : أطرد الشيطان واوقظ الوسنان فلما نزل ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت﴾ قيل لأبي بكر ارفع شيئاً ، وقيل لعمر اخفض شيئاً ، وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت : إنما نزلت هذه الآية في الدعاء وعنها أنها نزلت في التشهد .

﴿وابتغ بين ذلك﴾ أي الجهر والمخافتة المدلول عليهما بالفعلين ﴿سبيلاً﴾

---

(١) مسلم ٤٤٦ ـ البخاري ٢٠٢٠ .

أي طريقاً متوسطاً بين الأمرين فلا تكن مجاهراً ولا مخافتاً بها وعلى التفسير الثاني يكون معنى ذلك النهي عن الجهر بقراءة الصلوات كلها والنهي عن المخافتة بقراءة الصلوات كلها والأمر بجعل بعض منها مجهوراً به وهو صلاة الليل والمخافتة بصلاة النهار وذهب قوم الى أن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ .

ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادي إلا بالأسماء الحسنى نبه على كيفية الحمد فقال ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ كما يقوله اليهود والنصارى ومن قال من المشركين أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي مشارك له في ملكه وألوهيته وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ أي لم يحتج الى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير .

قال الزجاج : أي لم يحتج ان ينتصر بغيره وفي التعرض في اثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بإن المستحق للحمد من له هذه الصفات لأنه القادر على الايجاد وافاضة النعم لكون الولد مجبنة مبخلة ، ولأنه ايضا يستلزم حدوث الأب لأنه متولد من جزء من أجزائه والمحدث غير قادر على كمال الأنعام .

والشركة في الملك إنما يتصور لمن لا يقدر على الاستقلال به ومن لا يقدر على الاستقلال عاجز فضلاً عن تمام ما هو فضلاً عن نظام ما هو عليه وايضاً الشركة موجبة للتنازع بين الشريكين وقد يمنعه الشريك من افاضة الخير الى اوليائه ويؤديه الى الفساد كما قال تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ والمحتاج الى ولي يمنعه من الذل وينصره على من أراد إذلاله ضعيف لا يقدر على ما يقدر عليه من هو مستغنٍ بنفسه .

﴿وكبره تكبيراً﴾ أي وعظمه تعظيماً تاماً وصفه بأنه أعظم من كل شيء

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم أهله هذه الآية الحمد لله الخ الصغير من أهله والكبير أخرجه ابن جرير ، وأخرج عبدالرزاق في المصنف عن عبدالكريم بن أبي أمية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات الحمد لله الى آخر السورة وروى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول آية العز الحمد لله الذي الخ .

خاتمة الجزء السابع

تم بعون الله سبحانه وتعالى الجزء السابع من كتاب فتح
البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء الثامن وأوله تفسير
سورة الكهف:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾

فهرس الجزء السابع

فتح البيان
في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الثامن

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الثامن

ويشتمل على تفسير

١ ـ سورة الكهف .

٢ ـ سورة مريم .

٣ ـ سورة طه .

٤ ـ سورة الأنبياء .

سورة الكهف

مائة وإحدى عشرة آية

قال القرطبي : وهي مكية في قول جميع المفسرين ، وبه قال ابن عباس وابن الزبير وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة الى قوله جرزا والاول أصح وقد ورد في فضلها أحاديث منها ما أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال »[1] .

وأخرج مسلم والبخاري وغيرهما عن البراء قال : قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فاذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « اقرأ فلان فإن السكينة نزلت للقرآن »[2] وهذا الذي كان يقرأ هو أسيد بن حضير كما بينه الطبراني . وفي قراءة العشر الآيات من أولها أو من آخرها أحاديث .

وأخرج الطبراني في الاوسط والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الكهف كانت له نورا من مقامه الى مكة ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره »[3] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه الى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين » .

---

(١) مسلم ٨٠٩ ـ الإمام أحمد ٦/٤٤٩ ـ ابو داوود ٤٣٢٣ .
(٢) مسلم ٧٩٥ ـ البخاري ١٦٩٨ .
(٣) المستدرك كتاب فضائل القرآن ١/٥٦٥ .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والارض ولكاتبها من الاجر مثل ذلك ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الاخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن قرأ الخمس الاواخر منها عند نومه بعثه الله من أي الليل شاء قالوا: بلى يا رسول الله قال: سورة أصحاب الكهف» أخرجه ابن مردويه[4].

وأخرج ايضا عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة» وفي الباب أحاديث وآثار وفيما أوردناه كفاية مغنية.

---

(٤) ضعيف الجامع ٢١٥٩ ـ الأحاديث الضعيفة ٢٤٨٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ هل المراد الإعلام بذلك للإيمان به وتكون الجملة خبرية لفظاً ومعنى أو الثناء به ، أي إنشاء الثناء بثبوت الحمد لله وتكون الجملة انشائيـة لفظاً ومعنى ، بمعنى أنها نقلت في العرف للإنشاء أو الإعلام والثناء كلاهما ، والجملة مستعملة في الخبر والإنشاء على طريق الجمع بين الحقيقة والمجاز ، احتمالات أفيدّها الثالث .

وقال الشوكاني رحمه الله : علم عباده كيف يحمدونه على إفاضة نعمه عليهم ،ووصفه بالموصول يشعر بعلية ما هو في حيز الصلة لما قبله ، ووجه كون إنزال الكتاب وهو القرآن نعمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه اطلع بواسطته على أسرار التوحيد وأحوال الملائكة والأنبياء وعلى كيفية الأحكام الشرعية التي تعبده الله وتعبد أمته بها ؛ وكذلك العباد كان إنزال الكتاب على نبيهم نعمة لهم لمثل ما ذكرناه في النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ولم يجعل له﴾ أي فيه ﴿عوجاً﴾ أي شيئاً من العوج بنوع من أنواع الاختلال في اللفظ والمعنى ، والعوج بالكسر في المعاني ، أي فيما لا يدرك بالبصر بل بالبصيرة ، وبالفتح في الأعيان أي فيما يدرك به ، كذا قيل ، ويرد عليه قوله سبحانه ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أَمْتاً﴾ يعني الجبـال وهي من الأعيان .

قال الزجاج : المعنى لم يجعل فيه اختلافاً كما قال: ﴿ولو كان من عند غير

الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه ؛ وقيل لم يجعله مخلوقاً ، والجملة معطوفة على الصلة قبلها أو اعتـراضية او حالية .

﴿قيماً﴾ القيم المستقيم الذي لا ميل ولا إفراط فيه ولا تفريط ، او القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، أو القيم على ما قبله من الكتب السماوية مهيمناً عليها يشهد بصحتها ، وعلى الأول يكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج ، فرُب مستقيم في الظاهر لا يخلو عن أدنى عوج في الحقيقة ، أي جعله قيماً عدلاً ، قيل في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً .

ثم فصل سبحانه ما أجمل في قوله [قَيِّماً] فقال ﴿لينذر﴾ وحذف المنذر للعلم به مع قصد التعميم ، والمعنى لينذر الكـافرين ﴿بأساً﴾ أي عـذاباً ﴿شديداً من لدنه﴾ أي صادراً من عنده نازلاً من لدنه ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ قرىء يبشر مشدداً ومخففاً وأجري الموصول على موصوفه المذكور لأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ هو الجنة قاله السدي حال كونهم ﴿ماكثين فيه﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أبداً﴾ أي مكثاً دائماً لا انقطاع له ، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار .

ثم كرر الإنذار وذكر المنذر بخصوصه وحذف المنذر به وهو البـأس الشديد لتقدم ذكره فقال ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ وهم اليهود والنصارى . قال السدي وبعض كفار قريش القائلين بأن الملائكة بنات الله ، فذكر سبحانه أولا قضية كلية وهي إنذار عموم الكفار ، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية تنبيهاً على كونها أعظم جزئياتها ، فأفاد ذلك أن نسبة الولد الى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر .

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا
﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا
لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ
كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ
رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

﴿ما لهم به﴾ أي بالولد واتخاذ الله إياه ﴿من علم﴾ ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة مستأنفة ، والمعنى ما لهم بذلك علم أصلاً ، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل اليه أو لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به ﴿ولا لآبائهم﴾ أي ولا لأحد من أسلافهم علم بذلك ، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعاً ، وهذا مبالغة في كون تلك المقالة فاسدة باطلة .

﴿كبرت كلمة﴾ قال الفراء : كبرت تلك الكلمة كلمة . وقال الزجاج : كبرت مقالتهم كلمة ، والمراد بهذه الكلمة هي قولهم اتخذ الله ولداً ، ومعنى الكلام على التعجب أي ما أكبرها كلمة ، ثم وصف الكلمة بقوله ﴿تخرج من أفواههم﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوه بها ، وكثيراً ما يوسوس الشيطان في قلوب الناس من المنكرات ما لا يتمالكون أن يتفوهوا به ، بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر .

والخارج من الفم وان كان مجرد الهواء لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهواء أسند الى الحال ما هو من شأن المحل او المعنى هذا الذي

يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان ، فكأنه يجري على لسانهم على سبيل التقليد .

ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال ﴿إن﴾ أي ما ﴿يقولون إلا﴾ قولاً ﴿كذباً﴾ لا مجال للصدق فيه بحال . ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ قال الأخفش والفراء : البَخْـع الجهد ، وقال الكسائي : بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة ، وبخع الرجل نفسه إذا انهكها وقال أبو عبيدة : معناه مهلك نفسك أو مضعفها أو مهلكها ، والمقصود من هذا الترجي النهي ، أي لا تبخع نفسك من أجل غمك على عدم إيمانهم ، أي لا تغتم لئلا تهلك نفسك .

وفي السمين ولعل قيل للإشفاق على بابها وقيل للاستفهام وهو رأي الكوفيين ،وقيل للنهي ﴿على آثارهم﴾ أي على فراقهم من بعد توليهم عنك وإعراضهم أو هلاكهم ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أي القرآن ﴿أسفاً﴾ أي غيظا وحزناً . قاله قتادة . وقال مجاهد : جزعاً ونصبه على المفعول له وجواب إن محذوف دل عليه الترجي تقديره فلا تحزن ، وهذا عند الجمهور وعند غيرهم هو جواب متقدم .

عن ابن عباس قال : اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبدالمطلب وأبو البختري في نفر من قريش وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله سبحانه ﴿فلعلك باخع نفسك﴾. الآية.

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ هذه الجملة تعليل للنهي المقصود من الترجي والقصد منه تسلية له صلى الله عليه وسلم وتسكين أسفه وغيظه

على عدم إيمانهم لأنه مختبر لأعمال العباد مجازيهم ، فكأنه يقول له صلى الله عليه وسلم لا تحزن فإني منتقم منهم لك،وقيل استئناف .

والمعنى إنا جعلنا ما عليها مما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من الحيوانات والنبات والشجر والأنهار والجماد وغير ذلك من النعم كالذهب والفضة والمعادن كقوله سبحانه ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال ابن عباس : يعني الرجال والعلماء زينة الأرض،وعن سعيد بن جبير مثله ، وقال الحسن : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة .

﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ اللام للغرض او العاقبة،والمراد بالابتلاء أنه سبحانه يعاملهم معاملة لو كانت تلك المعاملة من غيره لكانت من قبيل الابتلاء والامتحان ، قال الزجاج : أيهم رفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام والمعنى لنمتحنن أهذا أحسن عملاً أم ذلك ، قال الحسن : أيهم أزهد وأشد للدنيا تركاً ، ومثله عن الثوري وقال مقاتل : أيهم أصلح فيما أوتي من المال،وقال قتادة : أيهم أتم عقلاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلت : ما معنى ذلك يارسول الله قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرعكم في طاعة الله»

ثم أعلم سبحانه أنه مبيد لذلك كله ومفنيه فقال ﴿وإنا لجاعلون﴾ أي مصيرون ﴿ما عليها﴾ من هذه الزينة عند تناهي عمر الدنيا ﴿صعيداً﴾ تراباً قال أبو عبيدة : الصعيد المستوي من الأرض ، وقال الزجاج : هو الطريق الذي لانبات فيه بعد ان كانت خضراء معشبة أي أرضاً ملساء ، وقيل فُتَاتاً

وهو الذي يضمحل بالريح لا اليابس الذي يرسب، ونظيره ﴿كل من عليها فان﴾ وقوله ﴿فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾.

والمعنى انه لا بد من المجازاة بعد إفناء ما على الأرض ، وتخصيص الأهلاك بما على الأرض يوهم بقاء الأرض إلا أن سائر الآيات دلت ايضاً على أن الأرض لا تبقى وهو قوله ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال قتادة : الصعيد الجبال التي ليس فيها زرع .

﴿جرزاً﴾ يابسا قال الفراء : الجرز الأرض التي لا نبات فيها من قولهم امرأة جَرُوز إذا كانت أكولاً، وسيف جُراز إذا كان مستأصلاً وجرز الجراد والشاة والإبل الأرض اذا أكلت ما عليها، ويقال سنة جُرُز وسنونٌ أَجْرَاز لا مطر فيها وأرض جُرُز وأرضون أَجْرَاز لا نبات بها، وجرزاً نعت«لصعيداً»فكأنه مجاز علاقته المجاورة .

وعن الحسن الجرز الخراب،أي نعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار وغير ذلك. ومعنى النظم القرآني لا تحزن يامحمد بما وقع من هؤلاء من التكذيب فإنا قد جعلنا ما على الأرض زينة لاختبار أعمالهم وإنا لمذهبون ذلك عند انقضاء عمر الدنيا فمجازونهم إن خيراً فخير وان شراً فشر .

﴿أم حسبت﴾ أي بل أحسبت أو بل حسبت ومعناها الانتقال من حديث الى حديث آخر لا لإبطال الأول والإضراب عنه كما هو معني بل في الأصل ﴿إن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ المعنى أن القوم لما تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على سبيل الامتحان .

قال سبحانه بل أظننت يامحمد أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط لا تحسب

ذلك فإن آياتنا كلها عجب؛فإن من كان قادراً على جعل ما على الأرض زينة لها للابتلاء ثم جعل ما عليها صعيداً جرزاً كأن لم تغن بالأمس لا تستبعد قدرته ولا حفظه ورحمته بالنسبة الى طائفة مخصوصة وإن كانت قصتهم خارقة للعادة فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك .

ومعنى عجباً ذات عجب ، والكهف هو الغار الواسع في الجبل ، فإن كان صغيراً سمي غاراً والجمع كُهُوف في الكثرة وأَكْهُف في القلة ؛ والرقيم قال كعب والسدي : إنه اسم القرية التي خرج منها أصحاب الكهف ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد : إنه لوح من حجارة أو رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف ففيه فلان بن فلان من مدينة كذا خرج في وقت كذا من سنة كذا .

قال الفراء : ويروى أنه انما سمي رقيماً لأن أسماءهم كانت مرقومة والرقم الكتابة. وعن قتادة أن الرقيم دراهمهم التي كانت معهم .

وقال ابن عباس : الرقيم كتاب مرقوم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام ، وقيل إن الرقيم اسم كلبهم قاله أنس ، وقيل:هو اسم الوادي الذي كانوا فيه ، وقيل اسم الجبل الذي فيه الغار .

قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم ، وقال ابن عباس : يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾ أي صاروا اليه ونزلوه وسكنوه والتجأوا اليه وجعلوه مأواهم. يقال أوى إلى منزله من باب ضَرَب[1] إذا نزله بنفسه وسكنه

(١) أي مفتوح العين في الماضي مكسورها في المضارع فيقال أوى يأوي مثل ما يقال ضَرَب يضرِب.

والمأوى لكل حيوان مسكنه. والفتية هم أصحاب الكهف جمع فتى وهو الطرىء من الشباب،إظهار في مقام الإضمار للتنصيص على وصفهم وسنهم فكانوا في سن الشباب مُرْداً وكانوا سبعة خرجوا من مدينتهم خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار حيث أمروهم بعبادة غير الله وكذلك ملك المدينة أمرهم بما ذكر ، واسمه دقيانوس ومدينتهم اسمها أفسوس عند أهل الروم لأنها من مدائنهم واسمها عند العرب طرسوس .

فلما أمروهم بعبادة غير الله ذهب كل واحد منهم الى بيت أبيه وأخذ منه زاداً ونفقة وخرجوا فارين هاربين حتى أووا الى كهف في جبل قريب من المدينة فاختفوا فيه وصاروا يعبدون الله ويأكلون ويشربون ويبعثون أحداً منهم خفية ليشتري لهم الطعام من المدينة وهم خائفون من اطلاع أهل المدينة عليهم فيقتلوهم لعدم دخولهم في دينهم ، فجلسوا يوماً بعد الغروب يتحدثون فألقى الله عليهم النوم وذلك قوله تعالى ﴿فضربنا على آذانهم﴾ الخ كما سيأتي تفصيله .

﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك﴾ أي من عندك ﴿رحمة﴾ التنوين إما للتعظيم أو للتنويع وتقديم من لدنك للاختصاص أي رحمة مختصة بأنها من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وهي المغفرة في الآخرة والأمن من الأعداء والرزق في الدنيا ﴿وهيىء لنا من أمرنا رشداً﴾ أي أصلح لنا من قولك هيأت الأمر فتهيأ والمراد بِأَمْرِهِم الأمـرُالذي هم عليه وهو مفارقتهم للكفار ، والرشد نقيض الضلال ، ومن للابتداء ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك رأيت منك أسداً وتقديم المجرورَيْن للاهتمام بهما أي اجعل أمرنا رشداً أو يسر لنا طريق رضاك .

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

﴿فضربنا على آذانهم﴾ قال المفسرون : أنمناهم والمعنى سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات أي ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيها للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ففي الكلام تجوز بطريق الاستعارة التبعية، وهذا النوم من جملة الرحمة التي طلبوها فكأنه قال فاستجبنا دعاءهم ومن جملة استجابته أن أنمناهم وقلبناهم في نومهم ذات اليمين وذات الشمال .

﴿في الكهف سنين عدداً﴾ أي ذوات عدد على أنه مصدراً وبمعنى معدودة على أنه بمعنى المفعول. ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة ، قال الزجاج : إن الشيء إذا قل مقدار عدده لم يحتج إلى العدد وإن كثر احتاج الى أن يعدّ وقيل يستفاد منه التقليل لأن الكثير قليل عند الله وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون .

﴿ثم بعثناهم﴾ أي أيقظناهم من تلك النومة ﴿لنعلم﴾ أي ليظهر معلومنا واللام للعاقبة ، وقيل للتعليل وقرىء بالتحتية والفاعل هو الله تعالى ففيه التفات عن التكلم الى الغيبة ، قيل والمراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو الاختبار مجازاً فيكون المعنى بعثناهم لنعامل معاملة من يختبرهم.والأَوْلَى ما ذكرناه من أن المراد به ظهور معلوم الله سبحانه لعباده .

﴿أيّ الحزبين﴾ من قوم الفتية أهل الهدى وأهل الضلالة فالمراد بالحزبين

الفريقان من المؤمنين والكافرين المختلفين في مدة لبثهم، وقيل المراد نفس أصحاب الكهف لا أهل المدينة اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا ، وقيل المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك وأصحاب الكهف ، وقيل أن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب ، وقال الفراء : ان طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم .

﴿أحصى﴾ أي أضبط ﴿لما لبثوا أمداً﴾ وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه ، قال ابن جريج : إنهم كتبوا اليوم الذي خرجوا فيه والشهر والسنة وما مصدرية أي أحصى لِلُبْثِهِم أو بمعنى الذي واللام زائدة ، وقيل على بابها من العلة أي لأجل قاله أَبُو الْبَقَاء،وما بمعنى الذي والأمد الغاية .

وقيل إن أحصى أفعل تفضيل واختاره الزجاج والتبريزي ورد بأنه خلاف ما تقرر في علم الإعراب وما ورد من الشاذ لا يقاس عليه كقولهم أفلس من ابن الْمُذَلَّق[1]وأعدى من الْجَرَب، وقال أبو علي والزمخشري وابن عطية : أن أحصى فعل ماض .

﴿نحن نقص عليك نبأهم﴾ هذا شروع في تفصيل ما أجمل في قوله إذ أوى الفتية،والنبأ الخبر الذي له شأن وخطر أي نحن نخبرك بخبرهم ﴿بالحق﴾ أي نقص قصصاً متلبساً بالحق أو نقصه متلبسين به أو نقص نبأهم متلبساً به أو نبأهم المتلبس به ﴿إنهم فتية﴾ أي أحداث وشبان وكان أحدهم وزير الملك دقيانوس وكانوا من أشراف تلك المدينة ومن عظماء أهلها والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال اقتضاه ما قبلها فكأنه قيل وما نبؤهم؟والفتية جمع قلة .

﴿آمنوا بربهم﴾ فيه التفات من التكلم الى الغيبة إذ لو جاء على نسق الكلام لقيل آمنوا بنا ﴿وزدناهم هدى﴾ بالتثبيت والتوفيق وفيه التفات من

---

(١) ويروى بالدال وهو رجل من بني عبد شمس لم يكن يجد بيتة ليلة وعرف أبوه وأجداده بالإفلاس. قال الشاعر في أبيه: إنك إذ ترجو تميماً ونفعها .. كراجي الندى والعرف عند المذلّق

الغيبة الى التكلم ، قال الربيع بن أنس : هدى إخلاصاً، وقيل إيماناً وبصيرة ، وقيل يقيناً .

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قويناها بالصبر على هجر الأهل والأوطان وفراق الخلان والأخدان؛ والفرار الى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام حيث قالوا للملك ربنا رب السموات إلخ ولم يحصل لهم منه رعب في الله ، قال قتادة : ربطنا قلوبهم بالإيمان وشددنا عليها بالصبر والتثبيت وفيه استعارة تصريحية تبعية لأن الربط هو الشد بالحبل .

﴿إذ قاموا﴾ اختلف أهل التفسير في هذا القيام على أقوال فقيل إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد فقال رجل منهم هو أكبر القوم : إني لأجد في نفسي شيئاً أن ربي رب السموات والأرض فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا فقاموا جميعاً .

﴿فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ قاله مجاهد : وقال أكثر المفسرين إنه كان لهم ملك جبار يقال له(دقيانوس)وكان يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله هؤلاء الفتية وعصمهم حتى قاموا بين يديه ، وقد أمرهم بالسجود للأصنام فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، أي قالوا جملاً ستاً ، ثلاثة بين يدي ملكهم آخرها قوله شططاً ، وثلاثة بعد انصرافهم عن مجلسه ذماً لقومهم آخرها قوله كذباً ، وقال عطاء ومقاتل : إنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم .

﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾ أي لن نعبد معبوداً آخر غير الله لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿لقد قلنا إذاً شططاً﴾ أي قولاً ذا شطط ، أي إفراط في الكفر أن دعونا إلهاً غير الله فرضاً أو قولاً هو نفس الشطط لقصد المبالغة ، والشطط الغلو ومجاوزة الحد المقدر في كل شيء ، يقال شَطَّت الدار بعدت ، وشَطَّ فلان في حكمه شطوطاً وشططاً جار وظلم ، وَشَطَّ في القول أغلظ ، وشط في السوم أفرط ، والجميع من بابي ضرب وقتل ، وقال قتادة : شططاً كذباً . وقال السدي جوراً .

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿هؤلاء﴾ أي أهل بلدهم ﴿قومنا﴾ عطف بيان أو بدل ﴿اتخذوا من دونه﴾ أي من دون الله ﴿آلهة﴾ أصناماً يعبدونها . وفي هذا الإخبار معنى الإنكار وفي الإشارة اليهم تحقير لهم .

﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي هَلاَّ يأتون على عبادتهم لها بحجة نيرة ظاهرة تصلح للتمسك بها ، وفيه تبكيت لأن الإتيان بحجة على عبادة الأصنام محال ، وهذه جملة طلبية وليست صفة لآلهة لفساده معنى وصناعة . قال الزمخشري : وفي الآية دليل على فساد التقليد وإنه لا بدّ في الدين من الحجة حتى يتضح ويثبت .

﴿فمن﴾ أي لا أحد ﴿أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ بنسبة الشريك اليه فزعم أن له شريكاً في العبادة ، ثم قال بعضهم لبعض وقت اعتزالهم ﴿وإذ اعتزلتموهم﴾ أي فارقتموهم في الاعتقاد أو اردتم الاعتزال الجسماني وَتَنَحَّيْتُمْ عنهم جانباً أي عن العابدين للأصنام .

﴿وما يعبدون إلا الله﴾ عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أي اذا اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله أو وعبادتهم إلا عبادة الله، وعلى

التقديرين فالاستثناء استثناء منقطع على تقدير أنهم لم يعبدوا إلا الأصنام أو متصل على تقدير انهم شركوهم في العبادة مع الله سبحانه .

وقيل هو كلام معترض إخبار من الله سبحانه عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله فيكون ما على هذا نافية ﴿فأووا﴾ أي الجئوا وصيروا ﴿إلى الكهف﴾ واجعلوه مأواكم . قال الفراء : هو جواب إذ ومعناه اذهبوا اليه واجعلوه مأواكم ، وقيل هو دليل على جوابه ، أي اذا اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانياً أو اذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف .

﴿ينشر﴾ أي يبسط ويوسع ﴿لكم ربكم﴾ مالك أمركم ﴿من رحمته﴾ في الدارين ﴿ويهيىء﴾ أي يسهل وييسر ﴿لكم من أمركم﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿مرفقاً﴾ بكسر الميم وفتحها لغتان قرىء بهما مأخوذ من الارتفاق وهو الانتفاع وقيل فتح الميم أقيس وكسرها أغلب، وأكثر العرب على كسر الميم من الأمر ومن مرفق الانسان ، وقد تفتح العرب الميم فيهما فهُما لغتان .

وكأن الذين فتحوا أرادوا أن يفرقوا بين المرفق من الأمر والمرفق من الإنسان. وقال الكسائي : الكسر في مرفق اليد ، وقيل المرفق بالكسر ما ارتفقت به والمرفق بفتح الميم الأمر الرافق ، والمراد هنا ما يرتفقون به وينتفعون بحصوله والتقديم[1] في الموضعين يفيد الاختصاص ، وانما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه أو أخبرهم به نبي عصرهم .

﴿وترى الشمس إذا طلعت﴾ شرع سبحانه في بيان حالهم بعد أن أووا الى الكهف ﴿تزاور﴾ مأخوذ من الزور بفتح الواو وهو الميل ، ومنه زاره اذا مال اليه ، وقيل تَزْوَرّ بمعنى تنقبض من ازْوَرّ أي انقبض والأول أولى . ومعنى

---

(١) أي تقديم الجار والمجرور في ينشر لكم، ويهيء لكم.

الآية أن الشمس اذا طلعت تميل وتعدل وتتنحى ﴿عن كهفهم ذات اليمين﴾ أي ناحية اليمين وهي الجهة المسماة باليمين .

﴿واذا غربت تقرضهم﴾ القرض القطع ، قال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو عبيدة : تعدل عنهم وتتركهم ، قَرَضْتُ المكانَ عَدَلْتُ عنه ، تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا ؟ فيقول انما قَرَضْتُه إذا مر به وتجاوز عنه .

وقال الفارسي : معنى تقرضهم تعطيهم من ضوئها شيئاً ثم يزول بسرعة كالقرض يسترد ، وقد ضُعِّف بأنه كان ينبغي أن يقرأ تقرضهم بضم التاء لأنه من أقرض ؛ والمعنى أن الشمس اذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أي يمين الداخل للكهف واذا غربت تمر .

﴿ذات الشمال﴾ أي جهة شمال الكهف لا تصيبه لا في ابتداء النهار ولا في آخر الليل ، بل تعدل عن سمته الى الجهتين ﴿وهم في فجوة منه﴾ الفجوة المكان المتسع ، ومما يدل على أن الفجوة المكان الواسع قول الشاعر :

أَلْبَسْتَ قومَكَ مِخزاةً ومنقصةً حتى أُبيحُوا وَخَلَّوا فجوَةَ الدار

وقال سعيد بن جبير : الفجوة الخلوة من الأرض ، ويعني بالخلوة الناحية منها وللمفسرين في تفسير هذه الجملة قولان :

الأول : انهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحاً واسعاً في ظل جميع نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لأن الله سبحانه حجبها عنهم كرامة .

والثاني : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً الى جانب الشمال مستقبلاً

لبنات النعش في أرض الروم ، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف واذا غربت كانت عن يساره ولا تقع عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بِحَرِّها وتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم ، ولكن اختار الله لهم مضجعاً في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه .

ويؤيد القول الأول قوله ﴿ذلك من آيات الله﴾ فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة الى مكان تصل اليه عادة أنسب بمعنى كونها آية . ويؤيده أيضاً إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا ؛ وعلى الثاني يكون المعنى إن شأنهم وحديثهم من آيات الله والأول أولى . وقد قيل إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته .

وذهب الزجاج الى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى من دون أن يكون باب الكهف الى جهة توجب ذلك . وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى أواهم الى كهف هذه صفته لا الى كهف آخر يتأذون فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار ، وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر .

والمقصود بيان حفظهم من تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان اليهم والتأذي بحرّ أو برد .

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله :﴿من يهد الله﴾ الى الحق مثل أصحاب الكهف ﴿فهو المهتد﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ومن يضلل﴾ أي يضلله الله ولم يرشده كدقيانوس وأصحابه ﴿فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي ناصراً يهديه الى الحق .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم
بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم
بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ
وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

ثم حكى سبحانه طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال ﴿وتحسبهم﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ﴿أيقاظاً﴾ جمع يَقِظ بكسر القاف وفتحها ﴿وهم رقود﴾ أي نيام وهو جمع راقد كقعود في قاعد، قيل وسبب هذا الحسبان أن عيونهم كانت مفتحة وهم نيام. وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم.

﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ أي نقلبهم في رقدتهم الى الجهتين لئلا تأكل الأرض أجسادهم ولحومهم، قاله سعيد بن جبير، وتعجب منه الإمام الرازي وقال: إن الله قادر على حفظهم من غير تقليب.

ولقائل أن يقول لا ريب في قدرة الله تعالى ولكن جعل لكل شيء سبباً في أغلب الأحوال، قاله الكرخي، قيل تقلبة واحدة في كل سنة مرة في يوم عاشوراء. وقال ابن عباس: ستة أشهر على ذلك الجنب اليمين وستة أشهر على ذي الجنب الشمال وعلى هذا كان لهم تقلبتان في السنة، وقيل كل تسع سنين. وقالت فرقة إنما قلبوا في التسع الأواخر، وأما في الثلاثمائة فلا، وظاهر كلام المفسرين أن التقليب من فعل الله، ويجوز أن يكون من ملَك بأمر الله فيضاف الى الله تعالى. قاله القرطبي والأول أولى.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى المضي كما تقرر في علم النحو ، اي ماد يديه . قال أكثر المفسرين : هربوا من ملكهم ليلاً فمروا براع معه كلب فتبعهم ، وقيل كان لواحد منهم : قال مجاهد : اسم كلبهم قطمورا . وعن الحسن اسمه قطمير ؛ وقيل اسمه ريان ، وقيل صهبان قيل كان كلباً أغر . وقيل فوق القلطي ودون الكرزي ، والقلطي كلب صيني . وقيل كان أصفر ، وقيل كان أسمر اللون ، وقيل كان يضرب الى حمرة ، وقيل كلون السماء .

قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم ، ولا أدري أي تعلق لهذا التدقيق والتحقيق بتفسير الكتاب العزيز وما الذي حملهم على هذا الفضول الذي لا مستند له في السمع ولا في العقل .

﴿بالوصيد﴾ قال أبو عبيد وأبو عبيدة : هو فناء الباب وكذا قال المفسرون ، وقيل العتبة ، ورد بأن الكهف لا يكون له عتبة ولا باب ، وانما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت .

وقال ابن عباس : بالوصيد بالفناء وبالباب ، وقيل بفناء الكهف ، وقيل الصعيد والتراب ، قال بعضهم كلب أحب قوماً فذكره الله معهم فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام وحب النبي وآله وصحبه ، وقول الله ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ الآية . وفي هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال المحبين للصالحين والأنبياء والعلماء المخالطين للأولياء والأصفياء .

﴿لو اطلعت عليهم﴾ أي لو نظرت اليهم وهم على تلك الحالة ﴿لوليت منهم فراراً﴾ أي لفررت منهم هارباً ﴿ولملئت منهم رعباً﴾ أي خوفاً وفزعاً يملأ الصدر قرىء رعْباً بسكون العين وضمها وسبب الرعب الهيبة التي ألبسهم الله إياها .

وقيل طول أظفارهم وشعورهم وعظم اجرامهم ووحشة مكانهم ، ذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري ، ويدفعه قوله تعالى : ﴿لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً ولا وجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة ؛ وقيل لأن أعينهم كانت منفتحة كالمتيقظ . وقيل إن الله منعهم بالرعب حتى لا يراهم أحد .

قال ابن عطية : والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ماتوا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية ، فلم يَبْلَ لهم ثوب ولم تتغير لهم صفة ،ولم ينكر الناهض الى المدينة إلا معالم الأرض والبناء ، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليهم أهم . ذكره القرطبي .

﴿وكذلك﴾ أي وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات وأَنَمْناهم في الكهف تلك النومة وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ﴿بعثناهم﴾ من نومهم وجعلنا بعثهم آية قاله الزجاج والزمخشري وفيه تذكير بقدرته على الإماتة والبعث جميعاً ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة .

وقيل اللام للصيرورة لأن البعث لم يكن للتساؤل قاله ابن عطية والصحيح انها على بابها من السببية والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار ﴿قال قائل﴾ أي واحد ﴿منهم﴾ وهو كبيرهم ورئيسهم(مكسلمينا)﴿كم لبثتم﴾ في النوم قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهدونه في العادة والجملة مبينة لما قبلها من التساؤل .

﴿قالوا﴾ أي قال بعضهم وقيل قال الستة الباقون جواباً على سؤال من سأل منهم قال المفسرون : إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله سبحانه آخر

النهار فلذلك قالوا ﴿لبثنا يوماً﴾ أي لظنهم أن الشمس قد غربت فلما رأوا الشمس لم تغرب قالوا ﴿أو بعض يوم﴾ وكان قد بقيت بقية من النهار وقد مر مثل هذا الجواب في قصة عزير في البقرة او للشك ، وقيل للتفصيل أي قال بعضهم كذا وبعضهم كذا وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب .

﴿قالوا﴾ متوقفين في قدر مدة لبثهم ﴿ربكم أعلم بما لبثتم﴾ إما على طريق الاستدلال أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه أي أنكم لا تعلمون مدة لبثكم وإنما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الأدب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين في قوله سابقاً لنعلم أي الحزبين .

وقد استدل ابن عباس على أن عددهم سبعة بهذه الآية لأنه قد قال في الآية قال قائل منهم وهذا واحد ، وقالوا في جوابه لبثنا وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قالوا وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة .

﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ كأنه قال القائل منهم يعني يمليخا اتركوا ما أنتم عليه من المحاورة وخذوا في شيء آخر مما يهمكم وفيها تنتفعون به والفاء للسببية أي فأرسلوا واحداً منكم الى البلد ، والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة ويقال لها الرقة وفي الحديث (وفي الرقة ربع العشر) وجمعت شذوذاً جمع المذكر السالم يقال عندي رِقون والباء للمصاحبة والملابسة .

وفي حملهم لهذه الورق معهم دليل على أن إمساك بعض ما يحتاج إليه الإنسان لا ينافي التوكل على الله ، والمدينة أُفسوس بضم الهمزة كما قاله النيسابوري وهي مدينتهم التي كانوا فيها من مدائن الروم ويقال لها اليوم

في الإسلام طرطوس كذا قال الواحدي، وفي الكشف: أن المدينة التي خرجوا منها غير المدينة التي بعثوا إليها لشراء الطعام، إذ أفسوس من أعمال طرطوس وهي ناحية.

﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً﴾ أي لينظر أي أهلها أطيب طعاماً وأحل مكسباً أو أرخص سعراً وأي استفهامية أو موصولة .

قال ابن عباس : أحل وأطهر ذبيحة لأنهم كانوا يذبحون للطواغيت أو أكثر بركة ، وقيل يجوز أن يكون الضمير الى الأطعمة المدلول عليها في المقام كما يقال زيد طيب أبا علي أن الأب هو زيد وفيه بعد :

﴿فليأتكم برزق منه﴾ أي من الوَرِق أي بَدَلَه أو من قوت وطعام تأكلونه واستدل بالآية على حل ذبائح أهل الكتاب لأن عامة أهل المدينة كانوا كفاراً وفيه قوم يخفون إيمانهم؛ ووجه الاستدلال أن الطعام يتناول اللحم كما يتناول غيره مما يطلق عليه اسم الطعام ﴿وليتلطف﴾ أي يدقق النظر حتى لا يُعْرَف أو لا يُغْبَن والأول أولى ويؤيده ﴿ولا يشعرن بكم أحداً﴾ من الناس أي لا يفعلن ما يؤدي الى الشعور ويتسبب له فهذا النهي يتضمن التأكيد للأمر بالتلطف .

ثم علَّل ما سبق من الأمر والنهي فقال ﴿إنهم﴾ أي أهل المدينة ﴿إن يظهروا عليكم﴾ أي يطلعوا ويعلموا بمكانكم ﴿يرجموكم﴾ يقتلوكم بالرجم وهذه القِتْلة هي أخبث قِتْلة وكأن ذلك كان عادة لهم ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل ، وقيل يشتموكم ويؤذوكم بالقول والأول أولى ﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي يردوكم الى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله أو يصيِّروكم إليها كرهاً والمراد بالعود هنا الصيرورة على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم وإيثاركلمة «في» على كلمة الى للدلالة على الاستقرار .

﴿ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ في إذاً معنى الشرط والجزاء كأنه قال إن رجعتم الى دينهم فلن تفلحوا إذاً أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ
يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

﴿وكذلك﴾ أي وكما أنمناهم وبعثناهم. ﴿أعثرنا﴾ أي أطلعنا الناس ﴿عليهم﴾ وأظهرناهم وسمي الإعلام إعثاراً لأن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه وعرفه فكان الإعثار سبباً لحصول العلم ﴿ليعلموا﴾ أي ليعلم الذين أعثرهم الله عليهم ﴿أن وعد الله﴾ بالبعث ﴿حق﴾ قيل وكان ملك زمانهم ممن ينكر البعث فأراه الله هذه الآية.

قيل وسبب الإعثار عليهم أن ذلك الرجل الذي بعثوه بالورق وكانت من ضربة دقيانوس الى السوق فلما اطلع عليها أهل السوق اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به الى الملك فقال له من أين وجدت هذه الدراهم؟ قال: بعت بها أمس شيئاً من التمر وخرجنا فراراً من الملك دقيانوس فعرف الملك صدقه ثم قص عليه القصة فركب الملك وركب أصحابه معه حتى وصلوا الى الكهف.

﴿و﴾ ليعلموا ﴿أن الساعة﴾ أي القيامة ﴿لا ريب فيها﴾ أي لا شك في حصولها فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من بعث الأرواح والأجساد جميعاً وحشرها ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي أعثرنا عليهم وقت التنازع والاختلاف بين أولئك الذين أعثرهم الله في أمر البعث، وقيل في أمر أصحاب الكهف في قدر مكثهم وفي عددهم وفيما يفعلونه بعد أن اطلعوا عليهم، وقيل قال المسلمون: نبني عليهم مسجداً يصلي فيه الناس لأنهم على

ديننا ، وقال المشركون : نبني عليهم بيعة لأنهم من أهل ملتنا .

﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ لئلا يتطرق الناس اليهم كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة ، وذلك أن الملك وأصحابه لما وقفوا عليهم وهم أحياء أمات الله الفتية فقال بعضهم ابنوا عليهم بنياناً يسترهم عن أعين الناس ، وقيل يتنازعون متعلق بمحذوف هو اذكر .

ويؤيده أن الإعثار ليس في زمن التنازع بل قبله ويمكن أن يقال إن أولئك القوم مازالوا متنازعين فيما بينهم قرناً بعد قرن منذ أوَوا الى الكهف الى وقت الإعثار ويؤيد ذلك أن خبرهم كان مكتوباً على باب الغار كتبه بعض المعاصرين لهم من المؤمنين الذين كانوا يخفون ايمانهم كما قاله المفسرون .

ثم قال سبحانه حاكياً لقول المتنازعين فيهم وفي عددهم وفي مدة لبثهم وفي نحو ذلك مما يتعلق بهم ﴿ربهم أعلم بهم﴾ من هؤلاء المتنازعين فيهم قالوا ذلك تفويضاً للعلم الى الله سبحانه ، وقيل هو من كلام الله سبحانه رداً لقول المتنازعين فيهم أي دعوا ما أنتم فيه من التنازع فإني أعلم بهم منكم والأول هو الظاهر قاله الكرخي .

﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ يعني يندوسيس وأصحابه قاله الخازن أي كانت الكلمة لهم وكان كلامهم هو النافذ لأن ملك الوقت كان من جملتهم وكان مؤمناً وأما الملك الذي خرجوا هاربين منه فقد مات في مدة نومهم ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾ يصلي فيه المسلمون ويعتبرون بحالهم. وذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون ، وقيل هم أهل السلطان والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم والأول أولى .

قال الزجاج : هذا يدل على انه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لأن المساجد للمؤمنين .

﴿سيقـولون﴾ هؤلاء القـائلون بأنهم ثـلاثة أو خمسـة أو سبعة وهم المتنازعون في عددهـم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمسلمين ، وقيل هم أهل الكتاب خاصة ، قال السدي : هم اليهود ، وعلى كل تقدير فليس المراد أنهم جميعاً قالوا جميع ذلـك بل قـال بعضهم بكذا وبعضهم بكذا .

قيل إنما أتى بالسين في هذا لأن في الكلام طياً وادماجاً تقديره فاذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصـة أهـل الكهف فسلهم عن عــددهم فـانهم سيقولون ، ولم يأت بها في باقي الأفعال لأنها معطوفة على ما فيه السين فأعطيت حكمه من الاستقبال ، والمعنى يقولون لك يامحمد ويخبرونك على ثلاثة اقوال : **الأولان** : للنصارى . **والثالث** : للمؤمنين .

﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أي هم ثـلاثة أشخـاص حال كـون كلبهم جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾ الكلام فيه كالكلام فيما قبله قاله السدي : هم النصارى ،وقيل اليهود كما في البيضاوي .

قال أبو علي الفارسي : قوله رابعهم كلبهم وسـادسهم كلبهم جملتان استغني عن حرف العطف فيهما بما تضمنتا من ذكر الجملة الأولى وهي قوله ثلاثة والتقدير هم ثلاثة . هكذا حكاه الواحدي .

﴿رجماً بالغيب﴾ أي راجمين او يرجمون رجماً والرجم بالغيب هو القول بالظن والحدس من غير يقـين ودليل ولا بـرهان كـما قالـه الطيبي وغيـره والموصوفون بالرجم بالغيب هم كلا الفريقين القائلون بأنهم ثلاثة والقائلون بأنهم خمسة ، قال قتادة : رجمـاً قذفـاً بالـظن ، ولم يقل هـذا في السبعة وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه ، والرجم بمعنى الرمي وهو استعارة للتكلم بما لم يطلع عليه لخفائه عنه تشبيهاً له بالرمي بالحجارة التي لا تصيب غرضاً والباء فيه للتعدية على تشبيه الظن بالحجر المرمي على طريق الكناية .

﴿ويقولون﴾ أي المؤمنون يعني قالوه بإخبار الرسول لهم عن جبريل عليه السلام ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾ وكان قول هذه الفرقة أقرب الى الصواب بدليل عدم إدخالهم في سلك الراجمين بالغيب ، قيل وإظهار الواو في هذه الجملة يدل على أنها مرادة في الجملتين الأوليين ، وعلى رأي الأخفش والكوفيين الواو زائدة لأن وجودها في الكلام كالعدم في عدم إفادة أصل معناها . قاله الكرخي .

وقيل زائدة لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت ، وهذا ما جنح اليه الزمخشري وصرح به البيضاوي واختاره ابن هشام ، وقيل إنها واو العطف كأنه قيل هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وقيل واو الحال فيؤول المعنى إلى أنهم يقولون ذلك مع هذا الحال وهو كون ثامنهم كلبهم واقعاً لا محالة ويلزم منه أن يكونوا سبعة .

قال ابن هشام : وقول جماعة الأدباء كالحريري ومن النحويين كابن خالويه ومن المفسرين كالثعلبي أنها واو الثمانية لا يرضاه نحوي لأنه لا يتعلق به حكم إعرابي ولا سر معنوي . قال الكرخي : هي في التحقيق واو العطف ، لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص تضمنت أمراً غريباً واعتباراً لطيفاً ناسب أن تسمى باسم غير جنسها فسميت بواو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة ، وذلك لأن السبعة عندهم عقد تام كعقود العشرات لاشتمالها على أكثر مراتب أصول الأعداد ، والثمانية عقد مستأنف فكان بينهما اتصال من وجه وانفصال من وجه ، وهذا هو المقتضي للعطف . وهذا المعنى ليس موجوداً بين السبعة والستة . انتهى ملخصاً من الكرخي .

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبر المختلفين في عددهم بما يقطع التنازع بينهم فقال ﴿قل ربي أعلم﴾ أي أقوى علماً وأزيد في الكيفية ﴿بعدَّتهم﴾ منكم أيها المختلفون ؛ فإن مراتب اليقين متفاوتة في القوة ، وهذا هو الحق لأن العلم بتفاصيل العالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون

إلا لله تعالى أو من أخبرهم الله سبحانه .

ثم أثبت العلم على ذلك لقليل من الناس فقال ﴿ما يعلمهم﴾ أي ما يعلم ذواتهم فضلاً عن عددهم ، أو ما يعلم عددهم على حذف المضاف ﴿إلا قليل﴾ من الناس عن ابن مسعود قال : أنا من القليل كانوا سبعة . وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح أنا من أولئك القليل كانوا سبعة، ثم ذكر اسماءهم .

وذكر بعض المفسرين لأسمائهم خواص ومنافع ليست من التفسير في شيء ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الجدال مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف فقال :

﴿فلا تمار فيهم﴾ أي لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم ؛ والمراء في اللغة الجدال ، يقال مارى يماري مماراة ومراء أي جادل . قال ابن عباس : يقول حسبك ما قصصت عليك ؛ ثم استثنى سبحانه من المراء ما كان ظاهراً واضحاً فقال ﴿إلا مراء ظاهراً﴾ أي غير متعمق فيه ، وهو أن يقص عليهم ما أوحى الله اليه فحسب من غير تجهيل لهم ومن غير رد عليهم .

وقال الرازي : هو أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد ، بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فوجب التوقف .

ثم نهاه سبحانه عن الاستفتاء في شأنهم فقال ﴿ولا تستفت فيهم﴾ أي في شأنهم ﴿منهم﴾ أي من الخائضين فيهم ﴿أحداً﴾ منهم لأن المفتي يجب ان يكون أعلم من المستفتي . وههنا الأمر بالعكس ولا سيما في واقعة أهل الكهف ، وفيما قص الله عليك في ذلك ما يغنيك عن سؤال من لا علم له .

قال ابن عباس : يعني اليهود ، وقال القرطبي : النصارى وهو الأولى ، قال البيضاوي : لا تسأل سؤال مسترشد ولا سؤال متعنت ، يريد فضيحة المسؤول وتزييف ما عنده فإنه يخل بمكارم الأخلاق ، وفي الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِي كَهْفِهِمْ
ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

﴿ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ أي لا تقولن لأجل شيء أو في شأن شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان ، فعبر عنه بالغد ، ولم يرد الغد بعينه ، فيدخل فيه الغد دخولاً أولياً ، قال الواحدي : قال المفسرون لما سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن خبر الفتية فقال : أخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عنه حتى شق عليه ، فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله ، يقول اذا قلت لشيء اني فاعل ذلك غداً فقل إن شاء الله .

قيل:وهذا الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا في حال ملابسته لمشيئة الله ، وهو أن تقول إن شاء الله ، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقاً بل بإذن الله ، فحذف الوقت وهو مراد ، أو لا تقولن أفعل غداً إلا قائلاً إن شاء الله ، فحذف القول ونقل شاء الى لفظ الاستقبال حملاً على المعنى . قاله الأخفش والمبرد والكسائي .

وقيل :التقدير إلا بأن يشاء الله ، أي متلبساً بقول إن شاء الله ، والمعنى إلا أن تذكر مشيئة الله فليس إلا أن يشاء الله من القول الذي نهى عنه،وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد، كأنه قيل لا تقولنه أبداً ، كقوله ﴿وما يكون لنا

أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله .

﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ الاستثناء بمشيئة الله ، أي فقل إن شاء الله سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة ؛ وقد اختلف أهل العلم في المدة التي يجوز إلحاق الاستثناء فيها بعد المستثنى منه على أقوال معروفة في مواضعها ،وقيل: المعنى واذكر ربك بالاستغفار اذا نسيت مبالغة في الحث عليه ، أو اذكر ربك عقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك على التدارك ، أو اذكره إذا اعتراك النسيان لتذكر المنسيّ . وعن ابن عباس أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ثم قرأ هذه الآية . وعنه قال : هي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لأحد أن يستثني إلا في صلة يمين .

وعن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه واذا كان غير موصول فهو حانث .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . وفي رواية تسعين تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقال له الملك قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف انسان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته »[1] .

وعن عكرمة قال : معنى إذا نسيت إذا غضبت . وعن الحسن قال : إذا نسيت إذا لم تقل إن شاء الله . وقيل الآية في الصلاة ويدل له حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَن نسي صلاةً فليُصلِّها اذا ذَكَرَها»[2] أقم الصلاة لذكري متفق عليه . والأول أولى .

---

(١) مسلم ١٦٥٤ ـ البخاري ١٣٤٧ .
(٢) مسلم ٦٨٤ ـ البخاري ٣٨٤ .

﴿وقل﴾ يامحمد ﴿عسى أن يهدين﴾ أي يوفقني ويدلني ﴿ربي لأقرب﴾ أي لشيء أقرب ﴿من هذا﴾ أي من خبر أهل الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رشداً﴾ هداية أو إرشاداً للناس ودلالة على ذلك ، وعلى الأول هو مفعول مطلق ، وعلى الثاني تمييز لأقرب . قال الزجاج : عسى أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف .

وقد فعل الله به ذلك حيث آتاه من علم غيوب المرسلين وخبرهم والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلة الى قيام الساعة ما كان أوضح في الحجة وأقرب الى الرشد من خبر أصحاب الكهف . وقيل عسى أن يهديني ربي عند هذا النسيان لشيء آخر بدل هذا المنسي ، وأقرب من ذلك رشداً وأدنى منه خيراً ومنفعة ، والأول أولى .

﴿ولبثوا﴾ أي أقاموا ﴿في كهفهم ثلثمائة سنين﴾ عطف بيان لثلثمائة وهذه السنون عند أهل الكتاب شمسية وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين وقد ذكرت في قوله ﴿وازدادوا تسعاً﴾ أي تسع سنين ، فالثلثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع قمرية ، وقرىء في السبعة بالإضافة، وعليه فسنين تمييز غير انه قليل ، لأن تمييز المائة الكثير فيه الإفراد.

قال الفراء : ومن العرب من يضع سنين موضع سنة . قال أبو علي الفارسي : هذه الأعداد التي تضاف في المشهور الى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف الى المجموع ، وفي مصحف عبد الله ثلثمائة سنة ، وقال الأخفش : لاتكاد العرب تقول مائة سنين .

قال ابن جرير : إن بني اسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم ، فقال بعضهم إنهم لبثوا ثلثمائة سنة ، وقال بعضهم لبثوا ثلثمائة وتسع سنين ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن هذه المدة في كونهم نياماً وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر ، فأمر الله أن يرد علم ذلك اليه فقال :

﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي بالزمن الذي لبثوا فيه ،وقيـل: بعد موتهم الى نزول القرآن فيهم على قول مجاهد أو الى أن ماتوا على قول الضحاك أو الى وقت تغيرهم بالبلى على قول بعضهم ، قال ابن عطية : فقوله على هذا لبثوا الأول يريد في نوم الكهف ، ولبثوا الثاني يريد بعد الإعثار عليهم الى مدة محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى أن ماتوا .

وقال القرطبي : إنه لما قال وازدادوا تسعاً لم يدر الناس أهي ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام ؛ فاختلف بنو اسرائيل بحسب ذلك فأمر الله برد العلم إليه في التسع فهي على هذا مبهمة والأول أولى ، لأن الظاهر من كلام العرب المفهوم منه بحسب لغتهم أن التسع أعوام بدليل أن العدد في هذا الكلام للسنين لا للشهور ولا للأيام ولا للساعات .

قال القشيري : لا يفهم من التسع تسع ليال ولا تسع ساعات لوجود لفظ السنين . وعن الزجاج إن المراد بثلثمائة سنة شمسية وثلثمائة وتسع سنين قمرية . وهذا إنما يكون من الزجاج على جهة التقريب ، وقال الشهاب : وأما احتمال كون السنين شمسية أو قمرية وكون التسع سنين أو شهوراً أو أياماً فليس بشيء ، قال الضحاك عن ابن عباس : لما نزلت ولبثوا في كهفهم ثلثمائة قيل يارسول الله أياماً أم أشهراً أم سنين ، فأنزل الله سنين وازدادوا تسعاً .

وحكى النقاش ما معناه إنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأمم ، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي صلى الله عليه وسلم ذكر التسع إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين ، ونحوه ذكر القونوي أي باختلاف سني الشمس والقمر لأنه يتفاوت في كل ثلاث وثلاثين وثلث ، سنة فيكون في ثلثمائة تسع سنين . انتهى .

أقول : هذا يبتنى على حساب الكبس ، والكبس عندهم مختلف وقد حققناه في كتابنا لقطة العجلان فراجعه . وعن ابن عباس قال : إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ، ثم تلا

﴿ولبثوا في كهفهم﴾ الآية ، ثم قال : كم لبث القوم ؟ قالوا ثلثمائة وتسع سنين . قال لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : قل الله أعلم بما لبثوا ، ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجماً بالغيب ، فأخبر أنهم لا يعلمون ، ثم قال سيقولون ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

قال القرطبي : اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفنوا أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ، فروي عن ابن عباس أنه قال : أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة ، ومشى الناس معه في بعض غزوات الشام الى موضع الكهف فوجدوا عظاماً .

وروت فرقة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ليحجن عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد ، ذكره ابن عيينة ونحوه في التوراة والإنجيل وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله في التذكرة ؛ فعلى هذا هم نيام لم يموتوا ولا يموتون الى يوم القيامة بل يموتون قبل الساعة ، انتهى والله أعلم .

ثم أكد سبحانه اختصاصه بعلم ما لبثوا بقوله ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أي ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء ، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدل على التعجب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال ﴿أبصر به وأسمع﴾ فأفاد هذا التعجب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين وأنه يستوي في علمه الغائب والحاضر والخفي والظاهر والصغير والكبير واللطيف والكثيف .

وكان أصله ما أبصره وما أسمعه ، ثم نقل الى صيغة الأمر للإنشاء على سبيل المجاز والباء زائدة عند سيبويه وخالفه الأخفش ، والبحث مقرر في علم النحو ، والهاء لله تعالى ، وقيل هو أمر حقيقة لا تعجب وان الهاء تعود على الهدى المفهوم من الكلام أي أبصر بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحق من الأمور وأسمع به العالم والأول أولى ، وقرىء أبصر وأسمع فعلاً ماضياً

والفاعل الله تعالى أي أبصر عباده وأسمعهم.

﴿مالهم﴾ أي لأهل السموات والأرض، وقيل لأهل الكهف؛ وقيل لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار ﴿من دونه من ولي﴾ أي من موال يواليهم أو يتولى أمورهم أو ينصرهم وفي هذا بيان لغاية قدرته وأن الكل تحت قهره ﴿ولا يشرك فى حكمه أحداً﴾ قرأ الجمهور برفع الكاف على الخبر عن الله سبحانه وقرىء بالفوقية واسكان الكاف على انه نهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لله شريكاً في حكمه والمراد بحكم الله ما يقتضيه أو علم الغيب والأول أولى ويدخل علم الغيب في ذلك دخولاً أولياً فإن علمه سبحانه من جملة قضائه.

﴿واتل ما أوحي إليك﴾ أمره الله سبحانه أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى اليه قيل: يحتمل أن يكون معنى قوله ﴿واتل﴾ واتبع أمراً من التلو لا من التلاوة أي اتبع ما فيه وآعمل به ولا تلتفت لقوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿من كتاب ربك﴾ بيان للذي أوحي اليه.

﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا قادر على تبديلها وتغييرها وإنما يقدر على ذلك هو وحده؛ قال الزجاج: أي ما أخبر الله به وما أمر به فلا مبدل له وعلى هذا يكون التقدير لا مبدل لحكم كلماته.

﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي ملتجأ، وأصل اللحد الميل، وقال أبو عبيدة: ألحد إلحاداً جادل ومارى ولحد جار وظلم وألحد في الحرم استحل حرمته وانتهكها والملتحد اسم الموضع وهو الملجأ، قال الزجاج: لن تجد معدلاً عن أمره ونهيه، والمعنى انك إن لم تتبع القرآن وتتلوه وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه. وهذه الآية آخر قصة أهل الكهف.

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

ثم شرع سبحانه في نوع آخر كما هو دأب الكتاب العزيز فقال ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾ أي يعبدونه قد تقدم في (الأَنْعَام)[1] نهيه صلى الله عليه وسلم عن طرد فقراء المؤمنين بقوله ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ وأمره سبحانه ههنا بأن يحبس نفسه معهم فصبر النفس هو حبسها عن الجوع وبابه ضرب، وصبره حبسه. وهذه الآية[2] أبلغ من التي في الأنعام لأن في تلك نهى الرسول عن طردهم وفي هذه أمره بمجالستهم والمصابرة معهم.

﴿بالغداة والعشي﴾ ذكرهما كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات، وقيل في طرفي النهار، وقيل المراد صلاة العصر والفجر. وقرىء غدوة وأنكره النحاس وقال ولا تكاد العرب تقول الغدوة، ومعنى ﴿يريدون وجهه﴾ انهم يرتقبون بدعائهم رضا الله سبحانه لا عرض الدنيا.

وعن سلمان قال: جاءت المؤلفة قلوبهم: عيينة بن بدر والأقرع بن حابس فقالوا: يارسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب

---

(١) اسم السورة.

(٢) الأولى أن يقال: هذه الآية أفادت معنى جديداً هو أمره بمجالستهم والمصابرة معهم. لأن قوله: «وهذه الآية أبلغ» تدل على الموازنة بين الآيات في البلاغة والقرآن الكريم كله في غاية البلاغة.

الصوف جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله ﴿واتل ما أوحي إليك﴾ الى قوله ﴿إنا اعتدنا للظالمين ناراً﴾ أخرجه البيهقي وغيره .

وزاد أبو الشيخ عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال « الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا والممات » .

وعن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بعض أبياته واصبر نفسك الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله منهم ثائر الرأس وحاف الجلد وذو الثوب الخلق فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم» .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » . وفي الباب روايات . وعن ابن عمر قال : إنهم الذين يشهدون الصلوات الخمس وعن ابن عباس مثله وقيل نزلت في صلاة الصبح وصلاة العصر .

ثم أمره سبحانه بالمراقبة لأحوالهم فقال ﴿ولا تعدُ عيناك عنهم﴾ أي لا تتجاوز الى غيرهم ، قال الفراء : معناه لا تصرف عينيك عنهم ؛ وقال الزجاج : لا تصرف بصرك الى غيرهم من ذوي الهيئآت والزينة واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو ، من عدوته عن الأمر أي صرفته عنه ، وقال : معناه لا تحتقرهم عيناك عَبَّرَ بهما عن صاحبها .

﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي مجالسة أهل الترف والشرف والغنى وصحبة أهل الدنيا والمعنى حال كونك مريداً لذلك ، هذا إذا كان فاعل تريد

هو النبي صلى الله عليه وسلم وان كان الفاعل ضميراً يعود إلى العينين فالتقدير مريدة زينة الحياة الدنيا وإسناد الإرادة الى العينين مجاز وتوحيد الضمير للتلازم والأول أولى ، وهو نهي له صلى الله عليه وسلم وإن لم يُرِدْه وليس هو أكبر من قوله ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ وإن كان أعاذه من الشرك وإنما هو على فرض المحال .

﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه﴾ أي جعلناه غافلاً ﴿عن ذكرنا﴾ بالختم عليه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلاً عن ذكره كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم غافلون عن ذكر الله .

﴿و﴾ مع هذا فهم ممن ﴿اتبع هواه﴾ وآثره على الحق فاختار الشرك على التوحيد ﴿وكان أمره فرطاً﴾ أي متجاوزاً عن حد الاعتدال من قولهم فرس فرط إذا كان متقدماً على الخيل فهو على هذا من الإفراط ، وقيل هو من التفريط وهو التقصير والتضييع والأول أظهر .

قال الزجاج : ومن قدم العجز في أمره أضاعه وأهلكه . وعن ابن عباس قال : نزلت في أمية بن خلف وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم الى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فأنزل الله هذه الآية يعني من ختمنا على قلبه يعني التوحيد واتبع هواه يعني الشرك وكان أمره فرطاً يعني فرطاً في أمر الله وجهالة به .

وعن ابن بريدة قال : دخل عيينة بن حصن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حار وعنده سلمان عليه جبة صوف فثار منه ريح العرق في الصوف فقال عيينة : يامحمد إذا نحن أتيناك فَأَخْرِج هذا وضرباءه من عندك لا يؤذينا فإذا خرجنا فأنت وهم أعلم فأنزل الله ﴿ولا تطع﴾ الآية .

وقد ثبت في صحيح مسلم في سبب نزول الآية المتضمنة لمعنى هذه الآية وهي قوله ﴿ولا تطرد الذين﴾ الآية عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع

النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله ﴿ولا تطرد الذين﴾ الآية[1] .

ثم بيّن سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ما يقوله لأولئك الغافلين فقال ﴿وقل الحق من ربكم﴾ أي قل لهم : إن ما أوحي اليَّ وأمرت بتلاوته هو الحق الكائن من جهة الله لا من جهة غيره حتى يمكن فيه التبديل والتغيير ، وقيل المراد بالحق الصبر مع الفقراء ، قال الزجاج : أي الذي أتيتكم به هو الحق من ربكم يعني لم آتكم به من قبل نفسي إنما أتيتكم به من الله ، وعن قتادة قال : الحق هو القرآن .

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ قيل هو من تمام القول الذي أمر رسوله أن يقوله ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه لا من القول الذي أمر به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه تهديد شديد وتخويف وردع لا تخيير وإباحة ، ويكون المعنى قل يامحمد الحق من ربكم ، وبعد أن تقول لهم هذا القول من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر به ويكذبك فليكفر .

وقال ابن عباس : يقول من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وهو قوله ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ .

ثم أكد الوعيد وشدده فقال ﴿إنا أعتدنا﴾ أي أعددنا وهيأنا ﴿للظالمين﴾ الذين اختاروا الكفر بالله والجحد له والإنكار لأنبيائه ﴿ناراً﴾ عظيمة ﴿أحاط بهم﴾ أي اشتمل عليهم ﴿سرادقها﴾ واحد السرادقات ، قال الجوهري وهي

---

(١) مسلم ٢٤١٣ .

التي تمد فوق صحن الدار وكل بيت من كرسف أي قطن فهو سرادق ، وقيل للحائط المشتمل على شيء سرادق قاله الهروي .

وقال الراغب : السرادق فارسي معرب وليس في كلامهم اسم مفرد ثالث حروفه ألف بعدها حرفان إلا هذا يقال بيت مسردق ، وقال ابن الأعرابي : سرادقها سورها ؛ وقال القتيبي : السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط والمعنى أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه ، وعن ابن عباس قال : حائط من نار .

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « سرادق النار أربعة جدر كثافة كل جدار منها مسيرة أربعين سنة »[1] وأخرج أحمد والبخاري والحاكم وصححه عن يعلى ابن أمية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن البحر هو من جهنم ثم تلا ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾[2] .

﴿وإن يستغيثوا﴾ من حر النار أي يطلبوا الإنقاذ من شدة العطش ﴿يغاثوا﴾ فيه مشاكلة إذ لا إغاثة لهم بالماء الآتي ذكره بل إتيانهم به وإلجاؤهم بشربه غاية الإضرار، والإغاثة هي الانقاذ من الشدة فكأنه قال يضروا ويعذبوا ﴿بماء كالمهل﴾ وهو الحديد المُذاب .

قال الزجاج : إنهم يغاثون بماء كالرصاص المُذاب أو الصفر ، وقيل هو دردي الزيت أي ما بقي في أسفل الإناء ووجه المشابهة الثخن والرداءة في كل .

وقال أبو عبيدة والأخفش : العكر وهو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، وقيل هو ضرب من القطران ، أخرج أحمد

---

(١) المستدرك كتاب الأهوال ٦٠١/٤ ـ الإمام أحمد ٢٩/٣ .

(٢) المستدرك كتاب الأهوال ٥٩٦/٤ .

والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه »[1] عن ابن عباس قال : أسود كعكر الزيت وعنه قال : ماء غليظ كدردي الزيت .

وعن ابن مسعود أنه سئل عن المهل فدعا بذهب أو فضة فأذابه فلما ذاب قال : هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب أهل النار ولونه لون السماء غير أن شراب أهل النار أشد حراً من هذا . وعن ابن عمر : هل تدرون ما المهل ؟ المهل مهل الزيت ، يعني آخره .

ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بأنه ﴿يشوي الوجوه﴾ إذا قدم عليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته ، والشيّ الإنضاج بالنار من غير إحراق ﴿بئس الشراب﴾ شرابهم هذا الذي يغاثون به ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقاً﴾ متكأً ، يقال ارتفقت أي اتكأت ، وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد ؛ ويقال ارتفق الرجل إذا نام على مرفقه .

وقال القتيبي : هو المجلس والمنزل ، وقيل المجتمع ، وبه قال مجاهد ، وإنما جاء كذلك لمشاكلة قوله ﴿وحسنت مرتفقاً﴾ وإلا فأي ارتفاق لأهل النار وأي متكأ .

---

(١) الترمذي كتاب جهنم باب ٤ ـ الإمام أحمد ٧١/٣ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ
وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ
وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ
شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠
أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

﴿إن الذين آمنوا﴾ هذا شروع في وعد المؤمنين بعد الفراغ من وعيد الكافرين والمعنى أن الذين آمنوا بالحق الذي أوحي اليك ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن﴾ منهم ﴿عملاً﴾ وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر ، والمعنى أجرهم أي نثيبهم بما تضمنه قوله ﴿أولئك لهم جنات عدن﴾ أي إقامة مستأنفة لبيان الأجر ، والإشارة الى من تقدم ذكره ، وقيل أولئك خبر إن الذين آمنوا ، وجملة انا لا نضيع اعتراض وقيل غير ذلك .

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ لأن أفضل المساكن ما كان يجري فيه الماء ، وقد تقدم الكلام في كيفية جري الأنهار من تحتها ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ .

قال الزجاج : أساور جمع أَسْوِرَة وهي جمع سِوَار وهي زينة تلبس في الزند من اليد وهي من زينة الملوك ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، وجاء في آية أخرى من فضة ، وفي أخرى من ذهب ولؤلؤ ، فيلبسون الأساور الثلاثة ، فيكون في يد الواحد منهم سوار من ذهب وآخر من فضة وآخر من لؤلؤ . فعلم من هذا أن كُلًّا من هذه الآية ومن آية هل أتى على الانسان ، ومن

آية الحج ومن آية فاطر فيه الاخبار ببعض ما يحلون به ، و ﴿من﴾ في من أساور للابتداء وقيل زائدة بدليل سقوطها في سورة هل أتى ،﴿وحلوا أساور من فضة﴾ و ﴿من﴾ في من ذهب للبيان ، وحكى الفراء يَحْلَوْن بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام يقال : حليت المرأة تحلى فهي حالية إذا لبست الحلي .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »[1] .

﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾ عطف على يحلون وبني الفعل في التحلية للمفعول إيذاناً بكرامتهم وأن غيرهم يفعل بهم ذلك ويزيّنهم به بخلاف اللبس فإن الإنسان يتعاطاه بنفسه. وقدم التحلي على اللباس لأنه أشهى للنفس ، وخص الأخضر لأنه الموافق للبصر ، ولكونه أحسن الألوان .

قال الكسائي : السندس الرقيق واحده سندسة، والإستبرق ما ثخن واحده استبرقة ، وكذا قال المفسرون، وقيل ليسا جمعين ، وقيل الاستبرق هو الديباج ، وقيل هو المنسوج بالذهب ، قال القتيبي : وهو فارسي معرب ، قال الجوهري : وتصغيره أبيرق قال السمين : وهل استبرق عربي الأصل مشتق من البريق أو معرب أصله استبره ، خلاف بين اللغويين .

قال مرثد بن عبدالله : في الجنة شجرة تنبت السندس منه تكون ثياب أهل الجنة ، وعن عكرمة قال : الاستبرق الديباج الغليظ ، وعن مجاهد مثله ، وفي آية الرحمن ﴿بطائنها من استبرق﴾ أي الفرش فيقاس عليها اللباس الذي الكلام فيه فظهارة الكل من سندس وبطانته من استبرق قال المحلى في سورة «هل أتى» فالاستبرق بطانة ثيابهم والسندس ظهارتها .

﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ أصل اتكأ أو تكأ وأصل متكئين موتكئين والاتكاء التحامل على الشيء أي يجلسون متربعين ومضطجعين . أخرج ابن

(١) مسلم ٢٥٠ .

أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليتكىء مقدار أربعين سنة لا يتحول منه ولا يمله يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه» .

قال الزجاج : الأرائك جمع أريكة وهي السرر في الحجال وقيل هي أسرة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وعن ابن عباس قال : الأرائك السرر في جوف الحجال عليها الفرش منضود في السماء فرسخ، وعنه قال لا يكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة وعن عكرمة : الأرائك هي الحجال على السرر ، وفي القاموس الأريكة كسفينة سرير في حجلة،أو كل ما يتكأ عليه من سرير ومنصة وفراش،أو سرير متخذ مزين في قبة أو بيت فإن لم يكن فيه سرير فهو حجلة والجمع أرائك.

﴿نعم الثواب﴾ ذلك الذي أثابهم الله به وهو الجنة ﴿وحسنت﴾ تلك الأرائك في الجنات ﴿مرتفقاً﴾ أي متكأً ومقراً ومجلساً ومنتفعاً ومسكناً ومنزلاً وقد تقدم قريباً. وقد اشتمل هذا القول على خمسة أنواع من الثواب : **الأول** : لهم جنات عدن ، **الثاني** : تجري من تحتهم الخ ، **الثالث** : يحلون فيها ، **الرابع** : ويلبسون ، **الخامس** : متكئين .

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتغرر بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء فهو على هذا متصل بقوله ﴿واصبر نفسك﴾ وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدران او محققان فقال بالأول بعض المفسرين وقال بالآخر بعض آخر ، واختلفوا في تعيينهما فقيل هما أخوان من بني اسرائيل أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس ، وقيل تمليخا والآخر كافر واسمه قيطوس وهما اللذان وصفهما الله في سورة(والصافات)بقوله ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ .

وقيل هما أخوان مخزوميان من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ،

وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان وأصحابه وانتصاب مثلاً ورجلين على انهما مفعولا اضرب ، قيل **والأول** هو الثاني **والثاني** هو الأول .

﴿جعلنا لأحدهما﴾ هو الكافر ﴿جنتين﴾ قال السدي : الجنة البستان فكان له بستان واحد وجدار واحد وكان بينهما نهر فلذلك كانا جنتين ولذلك سماه جنة من قبل الجدار الذي عليها ، وعن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال : نهر أبي فرطس نهر الجنتين ، قال ابن أبي حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة .

﴿من أعناب﴾ بيان لما في الجنتين أي من كروم متنوعة جمع عنب والعنبة الحبة ﴿وحففناهما بنخل﴾ الحف الإحاطة ومنه﴿حافين من حول العرش﴾ويقال حف القوم بفلان يحفون حفاً أي أطافوا به فمعنى الآية وجعل النخل مطيفاً بالجنتين من جميع جوانبهما وهذا مما يوثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مُوزَرَة بالأشجار المثمرة ﴿وجعلنا بينهما﴾ أي بين الجنتين وهو وسطهما ﴿زرعاً﴾ يقتات به ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والتركيب الأنيق .

ثم أخبر الله سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدي حملها وما فيها فقال ﴿كلتا الجنتين آتت أُكلها﴾ أخبر عن كلتا بآتت لأن لفظه مفرد يدل على التثنية فراعى جانب اللفظ . وقد ذهب البصريون الى أن كلا وكلتا اسم مفرد غير مثنى . وقال الفراء : هو مثنى وهو مأخوذ من كل فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية ، وروعيت التثنية المعنوية في قوله الآتي ،﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾، وأُكُلْها بضم الكاف وسكونها سبعيتان .

﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي لم تنقص من أكلها شيئا في بعض السنين بل في كل سنة يأتي ثمرها وافياً ؛ يقال ظلمه حقه أي أنقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فإنها في الغالب تكثر في عام وتقل في عام ، قال ابن عباس : لم ينقص كل شجر الجنة أطعمة .

﴿وفجرنا﴾ أي أجرينا وشققنا ﴿خلالهما﴾ أي وسط الجنتين ﴿نهراً﴾ يجري بينهما يسقيهما دائماً من غير انقطاع ﴿وكان له﴾ أي لأحدهما أو لصاحب الجنتين ﴿ثمر﴾ بفتح الثاء والميم وكذا قرأوا في قوله أحيط بثمره ، وقرىء ثُمْر بضم الثاء وإسكان الميم في الموضعين ، وبه قرأ ابن عباس وقال : هي أنواع المال .

قال الجوهري : الثمرة واحدة الثمر وجمع الثمر ثمار مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار ثمر مثل كتاب وكتب ، وجمع الثمر[1] أثمار مثل عنق وأعناق . انتهى . والثمرة مؤنث والجمع ثمرات مثل قصبة وقصبات ، والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أو لا ، فيقال ثمر الأراك وثمر العوسج وثمر الدوم وهو المقل ، كما يقال ثمر النخل وثمر العنب .

قال الأزهري : أثمر الشجر أطلع ثمره أول ما يخرجه فهو مثمر ؛ ومن هنا قيل لما لا نفع فيه ليس له ثمرة ؛ وقيل الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، سمي ثمراً لأنه يثمر ويزيد مأخوذ من ثمَّر ماله بالتشديد اذا كثَّره، وقيل الثمر هو الذهب والفضة خاصة . قاله مجاهد .

﴿فقال﴾ الكافر ﴿لصاحبه﴾ المؤمن ﴿وهو يحاوره﴾ أي والكافر يحاور المؤمن والمعنى يراجعه الكلام ويجاوبه، والمحاورة المراجعة والتحاور التجاوب وحاصل ما قاله من القول الشنيع ثلاث مقالات الأولى ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ النفر الرهط وهو ما دون العشرة وأراد ههنا الأتباع . والخدم والأولاد والعشيرة .

(١) هناك فرق بين ثُمُر وعُنُق لأن «ثُمُر» جمع ثِمَار، وأما عُنُق فمفرد.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ
ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ
صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ
ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ
خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ
يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾

﴿ودخل جنته﴾ أي دخل الكافر جنة نفسه ، قال المفسرون : أخذ بيد أخيه المسلم فأدخله جنته يطوف به فيها ويريه آثارها وعجائبها وبهجتها وحسنها وأثمارها ، ويفاخر بما ملك من المال دونه، وإفراد الجنة هنا يحتمل أن وجهه كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة منهما أو لكونهما لما اتصلتا كانتا كواحدة أو لأنه أدخله في واحدة ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما أو اكتفاء بالواحدة .

وقال المحلي: لم يقل جنتيه إرادة للروضة . وعبارة الشهاب أفرد الجنة مع أن له جنتين لنكتة وهي أن الإضافة تأتي لما تأتي له اللام فالمراد بها العموم والاستغراق أي كل ما هو جنة له ينتفع بها فيفيد ما افادته التثنية مع زيادة وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه انتهى ؛ وما أبعد ما قاله صاحب الكشاف انه وحد الجنة للدلالة على أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون .

﴿وهو﴾ أي ذلك الكافر ﴿ظالم لنفسه﴾ بكفره وعُجْبه قال قتادة: كفور لنعمة ربه مستأنف بياني لسبب الظلم ﴿قال﴾ أي الكافر لفرط غفلته وطول أمله ﴿ما أظن أن تبيد﴾ أي تفنى وتنعدم ﴿هذه﴾ الجنة التي تشاهدها ﴿أبداً﴾

وهذه هي الثانية من مقالاته والثالثة قوله ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته .

قال الزجاج : أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة ﴿ولئن رددت إلى ربي﴾ اللام هي الموطئة للقسم والمعنى أنه والله إن يرد الى ربه فرضاً وتقديراً كما زعم صاحبه واللام في ﴿لأجدن﴾ جواب القسم والشرط أي لأجدن يومئذ ﴿خيراً منها﴾ على الإفراد على ما في مصاحف أهل البصرة والكوفة أي من هذه الجنة ، وفي مصاحف مكة والمدينة والشام منهما ﴿ منقلباً﴾ هو المرجع والعاقبة لأنها فانية وتلك باقية قال هذاقياساً للغائب على الحاضر ، وانه كما كان غنياً في الدنيا سيكون غنياً في الآخرة اغتراراً منه بما صار فيه من الغنى الذي هو الاستدراج له من الله ﴿قال له﴾ أي للكافر﴿صاحبه﴾ المؤمن وقد تعقبه في الثلاثة على سبيل اللف والنشر المشوش ﴿وهو يحاوره﴾ أي حال محاورته له منكراً عليه ما قاله ﴿أكفرت﴾ بقولك﴿ما أظن الساعة قائمة﴾ استفهام توبيخ وتقريع أي لا ينبغي ولا يليق منك الكفر ﴿بالذي خلقك﴾ أي جعل أصل خلقك ﴿من تراب﴾ حيث خلق أباك آدم منه وهو أصلك وأصل مادة البشر ، فلكل فرد حظ من ذلك ، وقيل يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه من الكفر ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة .

﴿ثم من نطفة﴾ وهي المادة القريبة ﴿ثم سواك رجلاً ﴾ أي صيَّرك وجعلك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال ، وعدل أعضاءك وَكَلَّمك ، وهو ظاهر كلام الحوفي ، وقيل إنه حال ، ومن الجائز أن يسويه غير رجل ، وهو كقولهم : خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها ، والأول أولى ، وإنما جعل كفره بالبعث كفراً بالله ، لأن منشأه الشك في كمال قدرة الله ، فلذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب ، وفي هذا تلويح بالدليل على البعث ، وأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة .

﴿لكنا﴾ أصله لكن أنا وضمير ﴿هو﴾ للشأن ، والمعنى أنا أقول ﴿الله ربي﴾ قال أهل العربية : اثبات ألف أنا في الوصل ضعيف، وعن الكسائي :

الأصل لكن الله هو ربي أنا ، وقال الزجاج : إثبات الألف في لكنا في الإدراج جيد لأنها قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضاً ، قال : وفي قراءة أُبيّ لكن أنا هو الله ربي ، ولا خلاف في إثباتها في الوقف ، وتكلم في الجمل على هذا الألف بأطول من هذا .

ثم نفى عن نفسه الشرك بالله تعالى فقال ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ فيه إشارة الى أن أخاه كان مشركاً ثم أقبل عليه يلومه على الثانية فقال :

﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت﴾ لولا للتحضيض أي هَلاَّ قلت عندما دخلتها ﴿ما شاء الله﴾ قال الفراء والزجاج : هلا قلت حين دخلتها الأمر بمشيئة الله وما شاء الله كان ، وقيل كائن أي أيُّ شيء شاء الله كان فترد أمر جنتك من الحسن والنضارة لخالقه ولا تفتخر به لأنه ليس من صنعك .

وقوله ﴿لا قوة إلا بالله﴾ من جملة مقول ، أي هلا قلت هاتين الجملتين تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ، وعلى الاعتراف بالعجز ، وأن ما تيسر له من عمارتها وحسنها ونضارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته .

وهذا نصح من المؤمن للكافر وتوبيخ له على قوله ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ قال الزجاج : لا يقوى أحد على ما في يده من ملك ونعمة إلا بالله ولا يكون إلا ما شاء الله .

أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت عميس قالت : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن عند الكرب : الله الله ربي لا أشرك به شيئاً ، وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته ، وقرأ هذه الآية[1] وفي اسنادهِ عيسى بن عون . وروي عن أنس نحوه موقوفاً .

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٠٢٨ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢٠١٢ .

وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قلت نعم ، قال أن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله[١] .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله[٢] ، وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف في فضل هذه الكلمة .

ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال ﴿إن ترن﴾ الرؤية علمية أو بصرية ﴿أنا أقل منك مالاً وولداً﴾ أي لأجل ذلك تكبرت وتعظمت عليَّ ويجوز في أنا وجهان **أحدهما** : أن يكون مؤكد الياء المتكلم ، **والثاني** : انه ضمير الفصل بين المفعولين ، وأقل مفعول ثان أو حال بحسب الوجهين في الرؤية ، إلا أنك إذا جعلتها بصرية تعين في أنا أن يكون توكيداً لا فصلاً ، لأن شرطه أن يقع بين مبتدأ وخبر ، أو ما أصله المبتدأ والخبر .

وقرأ عيسى بن عمر أقلُّ بالرفع ويتعين أنا مبتدأ وأقل خبره، والجملة إما في موضع المفعول الثاني وإما في موضع الحال على ما تقدم في الرؤية ، ومالاً وولداً تمييزان وجواب الشرط قوله :

﴿فعسى ربي أن يؤتين﴾ أي إن ترني أفقر منك فأنا أرجو أن يرزقني الله سبحانه جنة ﴿خيراً من جنتك﴾ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ، وفي الأول يكون الكافر أشد غيظاً وحسرة ،، وهذا رجاء من المؤمن وقرع على مقالة الكافر الأولى

﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك ﴿حُسباناً﴾ هو مصدر بمعنى الحساب كالغفران ، أي مقداراً قدره الله عليها ووقع في حسابه سبحانه وهو الحَكَم بتخريبها قال الزجاج الحسبان من الحساب ، أي يرسل عليها عذاب الحساب ، وهو حساب ما كسبت يداك وهو حسن .

---

(١) الإمام أحمد ١٧٢/٥ بلفظ: «هل لك بكنز من كنوز الجنة؟».

(٢) مسلم ٢٧٠٤ ـ البخاري ١٤٢٣ .

وقال الأخفش ﴿حسباناً﴾ أي مرامي وقيل ناراً ﴿من السماء﴾ واحدها حسبانة ، وكذا قال أبو عبيدة والقتيبي والكرخي .

وقال ابن الأعرابي: الحسبانة السحابة والوسادة والصاعقة وقال قتادة: حسباناً عذاباً ، وقال النضر بن شميل : الحسبان سهام يرمى بها الرجل في جوف قصبة تنزع من قوس ثم يرمى بعشرين منها دفعة ، والمعنى يرسل عليها مرامي من عذابه إما برد وإما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب .

﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ مثل الجرز، قاله ابن عباس، أي فتصبح جنة الكافر بعد إرسال الله سبحانه عليها حسباناً أرضاً جرداء ملساء لا نبات فيها ولا يثبت عليها قدم .

وقال قتادة: أي قد حصد ما فيها فلم يترك فيها شيء، وفي اللغة من جملة معاني الصعيد وجه الأرض ، وزلقاً أي تزل فيه الأقدام لملاستها ، يقال مكان زلق بالتحريك أي دحض ، وقيل رملاً هائلاً ، وهو في الأصل مصدر قولك زَلَقَت رجله تَزْلُقُ زلقاً وأزْلَقَها غيره، والمَزْلَقَة الموضع الذي لا تثبت عليه قدم وكذا الزلاقة ، وصف الصعيد بالمصدر مبالغة أو أريد به المفعول وصيرورتها كذلك لاستئصال نباتها وأشجارها بالذهاب والإهلاك فلم يبق له أثر .

﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي ذاهباً في الأرض لا تناله الأيدي ولا الدِّلاَء ولا سبيل اليه ، والغور والغائر ، وصف الماء بالمصدر مبالغة والمعنى انها تصير عادمة للماء بعد أن كانت واجدة له وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً، ويجيء الغور بمعنى الغروب، والعطفُ على يرسل دون تصبح لأن غور الماء لا يتسبب عن الصواعق والمرامي قال أبو حيان إلا إن عنى بالحسبان القضاء الإلهي فحينئذ يتسبب عنه إصباح الجنة صعيداً زلقاً أو إصباح مائها غوراً .

﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي لن تستطيع لطلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده ورده ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل تدركه بها، وقيل المعنى فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

ثم أخبر سبحانه عن وقوع ما رجاه ذلك المؤمن وتوقعه من إهلاك جنة الكافر فقال ﴿وأحيط بثمره﴾ أي أمواله كالنقد والمواشي وهذا راجع لقوله﴿وكان له ثمر﴾وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما تقدم في قوله﴿إلا أن يحاط بكم﴾وهي عبارة عن إهلاكه وإفنائه وهو معطوف على مقدر كأنه قيل فوقع ما توقعه المؤمن فهلكت جنته بالصواعق وغور الماء وأحيط بثمره أي أحاط العذاب والهلاك بثمره .

﴿فأصبح﴾ أي صار صاحبها الكافر ﴿يقلب كفيه﴾ أي يضرب احدى يديه على الأخرى ويصفق بكف على كف وهو كناية عن الندم والتحسر كأنه قيل فأصبح يتندم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي في عمارتها واصلاحها من الأموال ، وقيل المعنى يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم في يده مال ، وهو بعيد جداً ، قال قتادة:يصفق على ما أنفق فيها متلهفاً على ما فاته .

﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي والحال أن تلك الجنة ساقطة على دعائمها التي تعمد بها الكروم أو ساقط بعض تلك الجنة على بعض مأخوذ من خوت النجوم تخوى إذا سقطت ولم تمطر في نوئها ومنه قوله تعالى : ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ قيل وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل وأيضاً ذكر إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقي .والعرش شبه بيت من جريد

يجعل فوقه الثمام[١]، الجمع عروش والعريش مثله وجمعه عُرُش بضمتين كبريد وَبُرُد، وعريش الكرم ما يُعْمَل مرتفعاً يمتد عليها الكرم ؛ والجمع عرائش أيضاً ، وقال الشهاب : جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليها الكرم فإذا سقط سقط ما عليه .

﴿ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة يقلب كفيه أو حال من ضميره أي وهو يقول يعني أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى عند مشاهدته الهلاك لجنته بأنه لم يشرك بالله حتى تسلم جنته من الهلاك، أو كان هذا القول منه على حقيقته لا لما فاته من الغرض الدنيوي بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه ، والأول هو الأقرب إذ يؤيده قوله :

﴿ولم تكن﴾ بالتاء والياء سبعيتان ﴿له﴾ خبر كان ﴿فئة﴾ اسمها ﴿ينصرونه من دون الله﴾ صفة لفئة أي فئة ناصرة بدفع الهلاك عنها او بردّ الهالك منها، أو بردّ مثله عليه ، وقيل هو الخبر، ورجح الأول سيبويه والثاني المبرد واحتج بقوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ والمعنى : انها لم تكن له فرقة وجماعة يلتجىء إليها وينتصر بها ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق .

﴿وما كان﴾ في نفسه ﴿منتصراً﴾ أي ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته وانتقامه منه وقادراً على واحد من هذه الأمور .

﴿هنالك﴾ أي في ذلك المقام ؛ وقيل يوم القيامة ﴿الولاية﴾ بفتح الواو النصرة وبكسرها الملك أي القهر والسلطنة ﴿لله﴾ وحده لا يقدر عليها غيره ﴿الحق﴾ بالجر صفة الجلالة وبالرفع صفة الولاية وكل منهما راجع لفتح الواو وكسرها فالقراآت أربعة وكلها سبعية ، قال الزجاج : ويجوز النصب على المصدر والتوكيد كما تقول هذا لك حقاً ، وقيل هو على التقديم والتأخير أي الولاية لله الحق هنالك .

---

(١) الثُمامَ: عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إلى مائة وخمسين سنتيمتراً.

﴿هو﴾ سبحانه ﴿خير ثواباً﴾ أي إثابة لأوليائه أي اعطاء للثواب في الدنيا والآخرة من غيره لو كان يثيب ﴿وخير عقباً﴾ أي عاقبة قرىء عقباً بسكون القاف وضمها وهما سبعيتان بمعنى واحد أي هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به يقال هذا عاقبة أمر فلان ، وعقباه أي أخراه ؛ ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال :

﴿واضرب﴾ أي اذكر وقرر ﴿لهم﴾ أي لقومك ﴿مثل الحياة الدنيا﴾ أي ما يشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا اليها وقد تقدم هذا المثل في سورة يونس . ثم بيَّن سبحانه هذا المثل فقال ﴿كماء﴾ أي كصفة وحال وهيئة ماء ، فالمشبه هيئة الدنيا بهيئة ماء .

﴿أنزلناه من السماء فاختلط﴾ أي تكاثف وغلظ ﴿به﴾ أي بسبب نزول الماء ﴿نبات الأرض﴾ حتى استوى والتف بعضه على بعض أو امتزج الماء بالنبات فَرَوَى وحسن .

وعلى هذا كان حق التركيب أن يقال فاختلط بنبات الأرض ، لكن لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته .

﴿فأصبح﴾ أي صار النبات عن قريب ﴿هشيماً﴾ يابساً والهشيم الكسير واحده هشيمة وهو اليابس وهو من النبات ما تكسر بسبب انقطاع الماء عنه وَتَفَتَّت ، ورجل هشيم ضعيف البدن وتهشم عليه فلان اذا تعطف،واهتشم ما في ضرع الناقة إذا احتلبه ، وهشم الثريد كسره وثرده . قال ابن قتيبة : كل ما كان رطباً فيبس فهو هشيم .

﴿تذروه﴾ تفرقه وتنثره ، قال أبو عبيدة وابن قتيبة : تذروه تنسفه ﴿الرياح﴾ قال ابن كيسان : أي تذهب به وتجيء والمعنى متقارب ، وقرىء تذريه ، يقال ذرته الريح تذروه وأذرته تذريه . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أي قلبته ﴿وكان الله على كل شيء﴾ من الأشياء ﴿مقتدراً﴾ أي كامل القدرة يحييه ويفنيه بقدرته لا يعجز عن شيء .

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ يتجمل بها فيها ، وهذا رد على الرؤساء الذين كانوا يفتخرون بالمال والغنى والأبناء فأخبرهم الله سبحانه أن ذلك مما يتزين به في الدنيا لا مما ينتفع به في الآخرة كما قال في الآية الأخرى ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وقال ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ وقال ﴿لا ينفع مال ولا بنون﴾ الآية .

وهذا إشارة الى قياس حذفت كبراه ونتيجته. ونظمه هكذا: المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، وكل ما هو زينتها فهو هالك غير باق ينتج المال والبنون هالكان ، ثم يقال وكل ما هو هالك فلا يفتخر به ، فالمال والبنون لا يفتخر بهما ، ولهذا عقب هذه الزينة الدنيوية بقوله :

﴿والباقيات الصالحات﴾ أي أعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الأبد ، وهي ما كان يفعله فقراء المسلمين من الطاعات ﴿خير﴾ أي أفضل من هذه الزينة بالمال والبنين ﴿عند ربك ثواباً﴾ وأكثر عائدة ومنفعة لأهلها ﴿وخير أملاً﴾ يعني أن الأعمال الصالحة لأهلها من الأمل أفضل مما يؤمله أهل المال والبنين لأنهم ينالون بها في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا .

وليس في زينة الدنيا خير حتى تفضل عليها الآخرة ، ولكن هذا التفضيل خرج مخرج قوله تعالى ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ والظاهر أن الباقيات الصالحات كل عمل خير فلا وجه لقصرها على الصلاة كما قال بعض ، ولا لقصرها على نوع من أنواع الذكر كما قاله بعض آخر ، ولا على ما كان يفعله فقراء المهاجرين باعتبار السبب ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وبهذا يعرف أن تفسير الباقيات الصالحات في الأحاديث بما سيأتي لا ينافي إطلاق هذا اللفظ على ما هو عمل صالح من غيرها .

عن عليّ قال : المال والبنون حَرْثُ الدنيا والعمل الصالح حَرْثُ الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام . عن ابن عباس قال : الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل وما هن يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله »[1] .

وأخرج الطبراني وغيره عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله هن الباقيات الصالحات . وأخرج النسائي والطبراني في الصغير والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة مرفوعاً : خذوا جُنَّتَكم . قيل يارسول الله من أي عدو قد حضر ؟ قال : بل جُنَّتُكم من النار قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله

(١) المستدرك كتاب الدعاء ١/٥١٢ .

أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات ، وهي الباقيات الصالحات[1] . وعن عائشة مرفوعاً وزادت ولا حول ولا قوة إلا بالله . أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر .

وكل هذه الأحاديث مصرحة بأنها الباقيات الصالحات . وأما ما ورد في فضل هذه الكلمات من غير تقييد بكونها المرادة في الآية فأحاديث كثيرة ولا فائدة في ذكرها ها هنا .

وعن قتادة : كل شيء من طاعة الله فهو من الباقيات الصالحات ، فيندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وأعمال الحج والعمرة وصيام رمضان والكلام الطيب وغير ذلك اندراجاً أولياً .

﴿ويوم نسير الجبال﴾ بالنون على أن فاعله هو الله سبحانه ، وقرىء بالتحتية وبالفوقية على أن الجبال فاعل ، ويناسب الأولى قوله تعالى﴿واذا الجبال سيرت﴾ ويناسب الثانية قوله تعالى ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ ومعنى تسيير الجبال إزالتها من أماكنها ، وتسييرها كما تسير السحاب ، ومنه قوله تعالى ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ثم تعود الى الأرض بعد أن جعلها الله كما قال ﴿وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثاً﴾ والمعنى نذهب بها عن وجه الأرض ونجعلها هباء منثوراً كما يسير السحاب .

والخطاب في قوله ﴿وترى الأرض بارزة﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للرؤية ، والرؤية بصرية ، ومعنى بروزها ظهورها وزوال ما يسترها من الجبال والشجر والبنيان .

وقيل المراد ببروزها بروز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال سبحانه ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ وقال ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ فيكون المعنى وترى

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٢٠٩ ـ الروض النضير ١٠٩٢ .

الأرض بارزاً ما في جوفها . قال قتادة : ليس عليها بناء ولا شجر ولا بحر ولا حيوان وعن مجاهد نحوه .

﴿وحشرناهم﴾ أي الخلائق ، ومعنى الحشر الجمع أي جمعناهم الى الموقف من كل مكان وفيه ثلاثة أوجه : **أحدها**: أنه ماض مراد به المستقبل أي ونحشرهم ، وكذلك وعرضوا ووضع الكتاب الآتيان . **والثاني** : أن الواو للحال أي نفعل التسيير في حال حشرهم ليشاهدوا تلك الأهوال ، **والثالث** : للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : والأولى أن تكون الواو للحال .

﴿فلم نغادر﴾ فلم نترك ﴿منهم أحداً﴾ والمفاعلة هنا ليس فيها مشاركة ، يقال غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الغدر ، لأن الغادر يترك الوفاء للمغدور ؛ قالوا : وإنما سمي الغدير غديراً لأن الماء ذهب وتركه والسيل غادره ، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ، والغديرة الشعر الذي نزل حتى طال .

﴿وعرضوا على ربك صفاً﴾ أي مصفوفين كل أمة وزمرة صف ، وقيل عرضوا صفاً واحداً كما في قوله ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ أي جميعاً وهو أبلغ في القدرة ؛ وقيل قياماً وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان ليقضي بينهم لا ليعرفهم قاله الكرخي .

وخرج الحافظ أبو القاسم عبدالرحمن بن منده في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تبارك وتعالى ينادي بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، ياعبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم فإنكم مسؤولون محاسبون ، ياملائكتي أقيموا عبادي على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

قال القرطبي : هذا حديث غاية في البيان في تفسير الآية ولم يذكره كثير من المفسرين ، وقد كتبناه في كتاب التذكرة . أ هـ .

ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ أو قلنا لهم ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم﴾ أي مجيئاً كائناً كمجيئكم عند أن خلقناكم ﴿أول مرة﴾ أو كائنين كما خلقناكم أول مرة ، أي حفاة عراة غرلاً لا مال ولا ولد ، كما ورد ذلك في الحديث . قال الزجاج : أي بعثناكم واعدناكم كما خلقناكم ، لأن قوله ﴿لقد جئتمونا﴾ معناه بعثناكم وبه قال الزمخشري .

﴿بل زعمتم﴾ هذا ضرب وانتقال من كلام الى كلام للتقريع والتوبيخ ، وهو خطاب لمنكري البعث ، أي زعمتم في الدنيا ﴿أن لن نجعل لكم موعداً﴾ نجازيكم بأعمالكم وننجز ما وعدناكم به من البعث والعذاب .

﴿ووضع﴾ العامة على بنائه للمفعول، وزيدُ بنُ عليّ على بنائه للفاعل وهو الله او الملك وقوله ﴿الكتاب﴾ مرفوع على الأول ومنصوب على الثاني، والمراد به صحائف الأعمال، وإفراده لكون التعريف فيه للجنس والوضع إما حسي بأن توضع صحيفة كل واحد في يده،السعيد في يمينه والشقي في شماله أو في الميزان وإما عقلي أي أظهر عمل كل واحد من خير أو شر بالحساب الكائن في ذلك اليوم وقيل: توضع بين يدي الله تعالى .

﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع من الأعمال السيئة لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع والمجازاة بالعذاب الأليم ﴿ويقولون﴾ إذا رأوها ﴿ياويلتنا﴾ يدعون على أنفسهم بالويل لوقوعهم في الهلاك وهو مصدر لا فعل له من لفظه ونداؤها على تشبيهها بشخص يطلب إقباله كأنه قيل يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ففيه استعارة مكنية وتخييلية،وفيه تقريع لهم وإشارة إلى أنه لا صاحب لهم غير الهلاك وطلبوا هلاكهم لئلا يروا ما هم فيه وقد تقدم تحقيقه في المائدة .

﴿ما﴾ أي شيء ثبت ﴿لهذا الكتاب﴾ حال كونه ﴿لا يغادر﴾ لا يترك معصية ﴿صغيرة ولا﴾ معصية ﴿كبيرة إلا أحصاها﴾ أي عدّها وحواها وضبطها وأثبتها ، قال ابن عباس : الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك ، وفي لفظ عنه الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين والكبيرة القهقهة بذلك ، وقال سعيد بن جبير الصغيرة الهم والمس والقبلة والكبيرة الزنا .

وأقول صغيرة وكبيرة نكرتان في سياق النفي فيدخل تحت ذلك كل ذنب يتصف بالصغر وكل ذنب يتصف بالكبر فلا يبقى شيء من الذنوب إلا أحصاه الله وما كان من الذنوب ملتبساً بين كونه صغيراً أو كبيراً فذلك إنما هو بالنسبة الى العباد لا بالنسبة الى الله سبحانه ، وهذا لا ينافي قوله تعالى ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الآية . إذ لا يلزم من العد عدم التكفير إذ يجوز أن تكتب الكبائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فعلم قدر نعمة العفو عليه ، قاله الكرخي والاستفهام للتعجب منه في ذلك .

﴿ووجدوا ما عملوا﴾ في الدنيا من المعاصي الموجبة للعقوبة أو وجدوا جزاء ما عملوا ﴿حاضراً﴾ مكتوباً مثبتاً في كتابهم ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي لا يعاقب أحداً من عباده بغير ذنب وجرم ولا ينقص فاعل الطاعة من أجره الذي يستحقه وإنما سمي هذا ظلماً بحسب عقولنا لو خليت ونفسها ولو فعله الله لم يكن ظلماً في حقه لأنه لا يسئل عما يفعل .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله »[1] أخرجه الترمذي وقال: لا يصح من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبي موسى .

---

(١) الترمذي كتاب القيامة باب ٤ ـ الإمام أحمد ٤/٤١٤ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ
بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ
مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم
مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

ثم إنه سبحانه عاد الى الرد على أرباب الخيلاء من قريش فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ أي واذكر وقت قولنا لهم ﴿اسجدوا لآدم﴾ سجود تحية وتكريم بالخرور كما مر تحقيقه ﴿فسجدوا﴾ طاعة لأمر الله وامتثالاً لطلبه السجود .

﴿إلا إبليس﴾ فانه أبى واستكبر ولم يسجد ﴿كان من الجن﴾ مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه لم يكن من الملائكة فلهذا عصى ، والاستثناء منقطع وإبليس هو أبو الجن وأصلهم كما أن آدم أصل الإنس وله ذرية ذكرت معه بعد ، والملائكة لا ذرية لهم ، وقيل كان من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم .

وعلى هذا القول فقد نقل عن ابن عباس أن هذا النوع يتوالد وليس معصوماً والاستثناء متصل وكونه ،من الملائكة لا ينافي كونه من الجن بدليل قوله سبحانه ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ وذلك أن قريشاً قالت: إن الملائكة بنات الله فهذا يدل على أن الملك يسمى جناً وتعضده اللغة لأن الجن من الاجتنان وهو الستر فتدخل الملائكة فيه ، فكل ملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة .

ووجه كونه من الملائكة أن الله سبحانه استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل أو يصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ، ووجه من قال إنه من الجن هذه الآية . والجن جنس مخالف للملائكة. وأجيب عن الاستثناء بأنه منقطع كما تقدم وهو مشهور في كلام العرب قال تعالى ﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ وقال تعالى ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ .

﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أي خرج عن طاعته بترك السجود لآدم عليه السلام قال الفراء : تقول العرب فسقت الرطبة عن قشرها لخروجها منه ، قال النحاس : اختلف في معناه على قولين : الأول مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أمر فعصى فكان سبب الفسق أمر ربه كما تقول أطعمه من جوع ، والقول الآخر قول قطرب أن المعنى على حذف المضاف أي فسق عن ترك أمره .

وعن ابن عباس قال : إن من الملائكة قبيلة يقال لهم الجن فكان إبليس منهم وكان يوسوس ما بين السماء والأرض فعصى فسخط الله عليه فمسخه شيطاناً رجيماً وعنه قال : كان خازن الجنان فسمي بالجان ، وعن الحسن قال : قاتل الله أقواماً زعموا أن إبليس كان من الملائكة والله يقول كان من الجن وعنه قال : ما كان من الملائكة طرفة عين إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس.

ثم إنه سبحانه عجب من حال من أطاع إبليس في الكفر والمعاصي وخالف أمر الله فقال ﴿أفتتخذونه﴾ كأنه قال أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه ﴿و﴾ تتخذون ﴿ذريته﴾ أي أولاده ، وقيل أتباعه مجازاً ، قال قتادة : يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ، وقال مجاهد : من ذرية إبليس لاقس وولهان وهما صاحبا الطهارة والصلاة اللذان يوسوسان فيهما ومن ذريته مرة وبه

يكنى وزلنبور وبتر الأعور ومطروس وداسم .

﴿أولياء من دوني﴾ فتطيعونهم بدل طاعتي وتستبدلونهم بي ﴿و﴾ الحال أن ﴿هم﴾ أي إبليس وذريته ﴿لكم عدو﴾ أي أعداء وأفرده لكونه اسم جنس او لتشبيهه بالمصادر كما في قوله : ﴿فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ وقوله هم العدو أي كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم بمن لم يكن لكم منه منفعة قط بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت .

﴿بئس للظالمين﴾ الواضعين للشيء في غير موضعه المستبدلين بطاعة ربهم طاعة الشيطان فبئس ذلك البدل الذي استبدلوه ﴿بدلاً﴾ عن الله سبحانه والتقدير بئس البدل إبليس وذريته .

﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ قال أكثر المفسرين : الضمير للشركاء ؛ والمعنى أنهم لو كانوا شركاء لي في خلقهما وفي خلق أنفسهم لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه ولكنهم لم يشاهدوا ذلك ولا أشهدتهم إياه أنا فليسوا لي بشركاء وهذا استدلال بانتفاء اللازم المساوي على انتفاء الملزوم .

وقيل الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين والمراد أنهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق ذلك ، وقيل المعنى أن هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلم في الأزل لأنهم لم يكونوا مشاهدين خلق العالم فكيف يمكنهم أن يحكموا بحسن حالهم عند الله ، وقيل ما أشهدت الملائكة فكيف يعبدونهم ، وقيل جميع الخلائق والأول من هذه الوجوه أولى لما يلزم في الوجهين الآخرين من تفكيك الضميرين وهذه الجملة مستأنفة لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور .

وقرىء ما أشهدناهم ، ويؤيد الأولى ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي ما اعتضدت بهم بل هم كسائر الخلق، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر إذ المراد بالمضلين من انتفى عنهم إشهاد خلق السموات والأرض ، والعضد يستعمل كثيراً في معنى العون ، وذلك أن العضد قوام اليد ومنه قوله سنشد عضدك بأخيك أي سنعينك ونقويك به ، ويقال أعضدت بفلان إذا استعنت به وذكر العضد على جهة المثل وأصله العضو الذي هو من المرفق الى الكتف ففي الكلام استعارة .

وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ والمعنى ما استعنت بهم على خلقهما ولا شاورتهم وما كنت متخذ الشياطين أو الكافرين أعواناً، ووحد العضد لموافقة الفواصل. وقرىء ما كنت على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي ما كنت يامحمد متخذاً لهم عضداً ولا صح لك ذلك،وفي عضد لغات أفصحها فتح العين وضم الضاد وبها قرأ الجمهور .

ثم عاد سبحانه الى ترهيبهم بأحوال القيامة فقال ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يقول﴾ الله عز وجل للكفار توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم، وأضافهم سبحانه إلى نفسه جرياً على ما يعتقده المشركون تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿فدعوهم﴾ أي فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء واستغاثوا بهم والمعنى على الاستقبال كما هو ظاهر ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ ذلك ولم ينصروهم أي لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم فضلاً عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم .

﴿وجعلنا بينهم﴾ أي بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله أو بين المؤمنين والكفار ﴿موبقاً﴾ ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق في جهنم فرق الله تعالى به بينهم ؛ وبه قال أنس وزاد: من قيح ودم .

وقال ابن عمر : فرق الله به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة ، وقيل : هو نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم ، وقيل :الموبق البرزخ البعيد لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان ، وعلى هذا فهو اسم مكان .

قال ابن الأعرابي : كل حاجز بين الشيئين فهو موبق ، وقال الفراء : الموبق المهلك ، وبه قال مجاهد وابن عباس، والمعنى جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة يقال وَبِق يَوْبَق فهو وَبِقٌ هكذا ذكره الفراء في المصادر ، وحكى الكسائي وَبِق يَبِق وبوقاً فهو وابق ، والمراد بالمهلك على هذا هو عذاب النار يشتركون فيه ، والأول أولى لأن من جملة من زعموا أنهم شركاء لله الملائكة وعزير والمسيح فالموبق هو المكان الحائل بينهم ، وقال أبو عبيدة : الموبق هنا الموعد للهلاك ، وقد ثبت في اللغة أَوْبَقَهُم بمعنى أهلكهم ولكن المناسب لمعنى الآية هو المعنى الأول .

﴿ورأى المجرمون النار﴾ أي عاينوها من مسيرة أربعين عاماً وهو موضوع موضع الضمير للاشارة إلى زيادة الذم لهم بهذا الوصف المسجل عليهم به ﴿فظنوا﴾ أي أيقنوا ﴿أنهم مواقعوها﴾ أي داخلوها وواقعون فيها ، والمواقعة المخالطة بالوقوع فيها ، وقيل : إن الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون ذلك ظناً ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي معدلاً يعدلون اليه أو انصرافاً لأن النار قد أحاطت بهم من كل جانب .

قال الواحدي : اَلْمَصْرِف الموضع الذي ينصرف اليه . وقال القتيبي : أي معدلاً ينصرفون اليه ، وقيل ملجأً يلجأون اليه ، والمعنى متقارب في الجميع .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ
جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن
تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى
وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

ولما ذكر سبحانه افتخار الكفرة على فقراء المسلمين بأموالهم وعشائرهم وأجابهم عن ذلك وضرب لهم الأمثال الواضحة ، حكى بعض أهوال الآخرة فقال ﴿ولقد صرفنا﴾ أي كررنا ورددنا وبينا ﴿في هذا القرآن للناس﴾ أي لأجلهم ولرعاية مصلحتهم ومنفعتهم ﴿من كل مثل﴾ من الأمثال التي من جملتها الأمثال المذكورة في هذه السورة ليتذكروا ويتعظوا ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة بني إسرائيل وحين لم يترك الكفار ما هم فيه من الجدل بالباطل ختم الآية بقوله ﴿وكان الانسان أكثر شيء جدلاً﴾ أي خصومة في الباطل .

قال الزجاج : المراد بالإنسان الكافر ، واستدل عليه بقوله تعالى ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ .

وقيل المراد به في الآية النضر بن الحرث ؛ وقيل أراد أبي بن خلف ، والظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر شيء يتأتى منه الجدل جدلاً ، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلاً فقال ألا تصليان ، فقلت يارسول الله إن أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾[1] .

(١) مسلم ٧٧٥ ـ البخاري ٦١٦ .

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾ قد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة بني إسرائيل، والناس هنا أهل مكة ، والهدى القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ المعنى على حذف مضاف ؛ أي ما منع الناس من الايمان والاستغفار الا طلب أو انتظار إتيان سنة الأولين ،وإنما احتيج الى حذف المضاف إذ لا يمكن جعل إتيان سنة الأولين مانعاً عن إيمانهم، فإن المانع يقارن الممنوع ، وإتيان العذاب متأخر عن عدم إيمانهم بمدة كثيرة .

وزاد الاستغفار في هذه السورة لأنه قد ذكر هنا ما فرط منهم من الذنوب التي من جملتها جدالهم بالباطل ، وسنة الأولين هو أنهم إذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . قال قتادة : عقوبة الأولين ، وقال الزجاج : سنتهم هو قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية .

﴿أو يأتيهم العذاب﴾ أي عذاب الآخرة ﴿قبلًا﴾ جمع قبيل ، قاله الفراء أي متفرقاً يتلو بعضه بعضاً ، وقيل عِياناً وجهاراً ، قاله الأعمش، وقيل فجاءة . قاله مجاهد .

ويناسب ما قاله الفراء قراءة قُبُلًا بضمتين فإنه جمع قبيل نحو سبيل وسُبُل ، والمراد أصناف العذاب ويناسب التفسير الثاني ، أي عياناً قراءة قِبَلًا بكسر القاف وفتح البـاء أي مقابلة ومعاينة ، وقرىء بفتحتين على معنى أو يأتيهم العذاب مستقبلاً، فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته .

﴿وما نرسل المرسلين﴾ من رسلنا إلى الأمم ﴿إلا﴾ حال كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين ﴿ومنذرين﴾ للكافرين ؛ فالاستثناء مفرغ من أعم العام وقد تقدم تفسير هذا .

﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ مستأنف ﴿ليدحضوا به﴾ أي ليزيلوا

بالجدال الباطل ﴿الحق﴾ ويبطلوه ، وأصل الدحض الـزَّلْقَ، يقال دحضت رجله أي زلقت تدحض دحضاً ، ودحضت الشمس عن كبد السماء أي زالت ، ودحضت حجته دحوضاً بطلت ، والدحض الطين لأنه يزلق فيه .

ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل :ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وقولهم :أبعث الله بشراً رسولاً ونحو ذلك ﴿واتخذوا آياتي﴾ أي القرآن ﴿و﴾ اتخذوا ﴿ما أنذروا﴾ به من الوعيدوالتهديد، وما بمعنى الذي أو مصدرية ، قاله أبو حيان ﴿هزوا﴾ أي لعباً وباطلاً ، وقد تقدم هذا في البقرة .

﴿ومن﴾ أي لا أحد ﴿أظلم﴾ لنفسه ﴿ممن ذكر﴾ وعظ ، وقد روعي لفظ من في خمسة ضمائر هذا أولها ؛ وروعي معناها في خمسة أولها على قلوبهم ﴿بآيات ربه﴾ التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما .

﴿فأعرض عنها﴾ أي عن قبولها فتهاون بها ولم يتدبرها حق التدبير ولم يتفكر فيها حق التفكر وتركها ولم يؤمن بها ، وأتى بالفاء الدالة على التعقيب لأن ما هنا في الأحياء من الكفار فإنهم ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ، وقاله في السجدة بثم الدالة على التراخي ، لأن ما هناك في الأموات من الكفار فإنهم ذكروا مرة بعد أخرى ثم أعرضوا بالموت فلم يؤمنوا .

﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي فلم يتب عنها . وقال قتادة : ما سلف من الذنوب الكثيرة . قيل والنسيان هنا بمعنى الترك والتشاغل والتغافل عن كفره المتقدم ، وقيل هو على حقيقته .

﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي أغطية جمع كِنان، وفي القاموس إنه جمع كِنَّ ايضاً ؛ ونصه والْكِنُّ وقاء كل شيء وستره كَالْكِنَّة والْكِنان بكسرهما والجمع أكنان وأكنة والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم . قال الزجاج : أخبر الله سبحانه أن هؤلاء طبع على قلوبهم ﴿أن يفقهوه﴾ أي لئلا يفقهوه ﴿و﴾ جعلنا ﴿في آذانهم وقراً﴾ أي ثقلاً وصمماً يمنع من استماعه سماع انتفاع ، وقد تقدم تفسير هذا في الأنعام ﴿وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذاً أبداً﴾ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم بسبب كفرهم ومعاصيهم .

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم
مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟
وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ
مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي كثير الرحمة بليغها وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء فلم يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال ﴿لو يؤاخذهم﴾ الله ﴿بما كسبوا﴾ أي بسبب ما كسبوه من المعاصي التي من جملتها الكفر والمجادلة والإعراض . وقال ابن عباس بما عملوا ﴿لعجل لهم العذاب﴾ أي عذاب الاستئصال في الدنيا لاستحقاقهم لذلك ﴿بل﴾ جُعِلَ ﴿لهم موعد﴾ مصدر أو مكان أو زمان ، أي أجل مقدر لعذابهم . قيل هو عذاب الآخرة ؛ وقيل يوم بدر . وعن السدي يوم القيامة .

﴿لن يجدوا من دونه﴾ أي من دون الله أو العذاب ، والثاني أولى وأبلغ لدلالته على أنهم لا ملجأ لهم ، فإن من يكون ملجأه العذاب كيف يرى وجه الخلاص ﴿موئلاً﴾ أي ملجأً يلجأون اليه ومرجعاً ، وبه قال ابن عباس : وقال أبو عبيدة : منجاً وبه قال ابن قتيبة وقيل محيصاً ، وعن مجاهد قال محرزاً .

﴿وتلك القرى﴾ أي قرى عاد وثمود ولوط وأمثالها ﴿أهلكناهم﴾ هذا خبر اسم الإشارة ، والمعنى أهل القرى أهلكناهم في الدنيا ﴿لما ظلموا﴾ أي وقت وقوع الظلم منهم بالكفر والمعاصي .

﴿وجعلنا لمهلكهم﴾ في الآخرة ، المهلك هو مصدر هلك . وقال

الزجاج : اسم للزمان والتقدير لوقت مهلكهم ﴿موعداً﴾ أي وقتاً معيناً وهو يوم القيامة فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم .

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لفتاه﴾ قيل ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة أن اليهود لما سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا . ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيهاً على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يلزمه أن يكون عالماً بجميع القصص والأخبار ، وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور ههنا هو موسى ابن عمران من سبط لاوى بن يعقوب ، قال الكرخي : هذا هو الأصح كما قاله ابن عباس وعليه الجمهور من العلماء وأهل التاريخ وليس في القرآن موسى غيره .

وقالت فرقة منهم نوف البكالي : إنه ليس موسى بن عمران وإنما موسى ابن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبياً قبل موسى بن عمران ، وهذا باطل قد رده السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم ، منهم ابن عباس كما في صحيح البخاري وغيره ، كيف ولو أراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة تُوجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة ، فلما لم يميزه بصفة علمنا أنه موسى بن عمران ، والمراد بفتاه هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف . وقيل إنه أخو يوشع وقيل إنه عبده ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي(١) والأول أولى وأصح ، وقد نبأه الله بعد موسى .

قال الواحدي : أجمعوا على أنه يوشع بن نون وقد مضى ذكره في المائدة وفي آخر سورة يوسف . ومن قال إنه موسى بن ميشى قال: إن هذا الفتى لم يكن يوشع بن نون . قال الفراء : وإنما سمي فتى موسى لأنه كان ملازماً له

(١) مسلم ٢٢٤٩ ـ البخاري ١٢٥١ .

يأخذ عنه العلم ويخدمه ويتبعه ، وهذا بيان وجه إضافته لموسى وكان ابن أخته .

ومعنى ﴿لا أبرح﴾ لا أزال سائراً ، ومنه قوله ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ ، وبرح إذا كان بمعنى زال يزال فهو من الأفعال الناقصة وخبره محذوف لدلالة ما بعده وهو ﴿حتى أبلغ﴾ أي أنتهي ، قاله ابن زيد ﴿مجمع البحرين﴾ أي ملتقاهما . قال الزجاج : لا أبرح بمعنى لا أزال ، وقد حذف الخبر لدلالة حال السفر عليه ، ولأن قوله حتى أبلغ غاية مضروبة فلا بد لها من ذي غاية ، فالمعنى لا أزال أسير إلى أن أبلغ ، ويجوز أن يراد لا يبرح مسيري حتى أبلغ ، وقيل معناه: لا أفارقك حتى أبلغ ، وقيل: يجوز أن يكون من برح التام بمعنى زال يزول فلا تستدعي خبراً بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه .

قيل: المراد بالبحرين بحر فارس والروم وهما نحو المشرق والمغرب ، قاله قتادة وقيل: بحر الاردن وبحر القلزم ، ومجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد ابن كعب ، وقيل بإفريقية ، قاله أبي بن كعب ؛ وقيل: إن ملتقاهما عند البحر المحيط . وقالت طائفة ؛ المراد بالبحرين موسى والخضر ، وهو من الضعف بمكان . وقد حكى عن ابن عباس ولا يصح .

﴿أو أمضي﴾ أي أسير ﴿حقباً﴾ أي زماناً طويلاً ، قال الجوهري : الحقب بالضم ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون خريفاً ، وقيل سنة واحدة بلغة قريش ، وفي معناه الحقبة بالكسر والضم وتجمع الأولى على حقب بكسر الحاء كَقِرْبَة وقِرَب والثانية على حُقَب بضم الحاء كَغُرْفَة وَغُرَف.

وقال النحاس : الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود ، كما أن رهطاً وقوماً مبهمان غير محدودين وجمعه أحقاب ، وسبب هذه العزمة على السير من موسى عليه السلام ما روي أنه سئل موسى من أعلم الناس؟ فقال أنا ، فأوحى الله اليه أن عبداً لي بمجمع

البحرين هو أعلم منك ﴿فلما بلغا﴾ أي موسى وفتاه ﴿مجمع بينهما﴾ أي بين البحرين وأضيف مجمع إلى الظرف تـوسعـاً .

وقيل:البين بمعنى الافتراق ، أي البحران المفترقان يجتمعان هناك . وقيل الضمير لموسى وخضر ، أي وصلا الموضع الذي يكون فيه اجتماع شملهما ويكون البين على هذا بمعنى الوصل لأنه من الأضداد والأول أولى ﴿نسيا حوتهما﴾ قال المفسرون : إنهما تزوَّدا حوتاً مملحاً مشقوق البطن في زنبيل ، وكانا يصيبان منه عند حاجتهما إلى الطعام ، وكان قد جعل الله فُقْدَانـه أمارة لهما على وجدانَ المطلوب ، والمعنى أنهما نسيا تَفَقُّـدَ أمره .

وقيل:الذي نسي إنما هو فتى موسى لأنه وكل أمر الحوت إليه وأمره أن يخبره إذا فقده ، وإنما أضاف النسيان اليهما لأنهما تزوّداه لسفرهما ، والثاني أولى لقوله ﴿فإني نسيت الحوت﴾ وهو كقولهم نسوا زادهم وإنما ينساه متعهد الزاد ، فلما انتهيا الى ساحل البحر وضع فتاه المكتل الذي فيه الحوت فأحياه الله فتحرك واضطرب في المكتل ثم انسرب في البحر ، ولهذا قال :

﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ أي اتخذ الحوت سبيلاً سرباً، وهو النفق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات . قال سعيد بن جبير : أثره يابس في البحر كأنه في جحر ، وذلـك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق ، فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجباب الماء عنه بالسـرب الذي هـو الكوَّة المحفـورة في الأرض .

قال الفراء : لما وقع في الماء جمد مذهبه في البحر فكان كالسرب ، فلما جاوزا ذلك المكان الذي كان عند الصخرة وذهب الحوت فيه انطلقا فأصابهما ما يصيب المسافر من النصب والكلال ولم يجد النصب حتى جاوزا الموضع الذي فيه الخضر ولهذا قال سبحانه :

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾

﴿فلما جاوزا﴾ مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة ﴿قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ هو ما يؤكل بالغداة ، وأراد موسى أن يأتيه بالحوت الذي حملاه معهما ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي تعباً وإعياء وإشارة هذا إلى السفر الكائن منهما بعد مجاوزة الموعد فإنهما لم يجدا النصب إلا في ذلك دون ما قبله ، والنَّصَبُ بفتح النون والصاد وبضمهما وهما لغتان من لغات أربع في هذه اللفظة ، قاله أبو الفضل الدارمي في لوامحه .

﴿قال﴾ لموسى فتاه ﴿أرأيت﴾ معنى الاستفهام تعجبية لموسى مما وقع له من النسيان هناك مع كون ذلك مما لا يكاد ينسى لأنه قد شاهد أمراً عظيماً من قدرة الله الباهرة ﴿إذ أوينا الى الصخرة﴾ وكانت عند مجمع البحرين الذي هو الموعد وانما ذكرها دون ان يذكر مجمع البحرين لكونها متضمنة لزيادة تعيين المكان لاحتمال أن يكون المجمع مكاناً متسعاً يتناول مكان الصخرة وغيره .

﴿فـإني نسيت الحوت﴾ أي نسيت أن أذكر لك أمره ، وما شاهدت منه من الأمور العجيبة وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذي تقدم ذكره لبيان أن ذلك الغداء المطلوب هو ذلك الحوت الذي جعلاه زاداً لهما وأمارة لوجدان مطلوبهما،ثم ذكر ما يجري مجرى السبب في وقوع ذلك النسيان فقال :

﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ بما يقع منه من الوسوسة ﴿أن أذكره﴾ بدل اشتمال من الضمير في(أنسانيه)وفي مصحف عبد الله (وماأنسانيه أن أذكره إلا الشيطان)﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ يحتمل أن يكون هذا من كلام يوشع ، أخبر موسى أن الحوت اتخذ سبيله عجباً للناس ، وموضع التعجب أن يحيا حوت قد مات وأكل شقه ثم يثب الى البحر ويبقى أثر جريته في الماء لا يمحو أثرها جريان الماء .

ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه لبيان طرف آخر من أمر الحوت فيكون ما بين الكلامين اعتراضاً ، وقال أبو الشجاع في كتاب الطبري : أتيت به فرأيته فاذا هو شقة حوت بعين واحدة وشق آخر ليس فيه شيء من اللحم عليه قشرة رقيقة تحتها الشوك .

﴿قال﴾ موسى لفتاه ﴿ذلك﴾ الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع ﴿ما كنا نبغ﴾ ونطلبه فإن الرجل الذي نريده هوهنالك،وياء نبغ من ياآت الزوائد فلا تثبت رسماً وقفاً لا وصلاً وابن كثير أثبتها في الحالين ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ أي رجعا على الطريق الذي جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما أي قاصين أو مقتصين والقصص في اللغة اتباع الأثر ؛ قال قتادة : عودهما على بدئهما .

﴿فوجدا عبداً من عبادنا﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة وخالف في ذلك من لا يعتدّ بقوله فقال ليس هو الخضر بل عالم آخر ، وقيل كان ملكاً من الملائكة قيل سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله ، قاله مجاهد قيل : واسمه بليا بن ملكان وهو من نسل نوح .

عن ابن عباس : قال الخضر بن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى

يكذب الدجال وفيه نظر ، وقيل كان من بني اسرائيل أو من أبناء الملوك تزهد وترك الدنيا ، وأخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء »[1] والخضر بكسر الخاء مع سكون الضاد وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها ففيه لغات ثلاثة ، وهذا لقبه وكنيته ابو العباس .

ثم وصفه الله سبحانه فقال ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ قيل الرحمة هي النبوة والهداية قاله ابن عباس ، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه وهي الولاية وعليه الأكثر والجمهور من العلماء على أنه حي الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة، والأصح ما ذهب اليه أهل الحديث من عدم حياته والله أعلم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين :

ومن ملاحدة المتصوفة من يزعم أن أرسطو كان هو الخضر خضر موسى وقولهم هذا من أظهر الكذب البارد ، والخضر على الصواب مات قبل ذلك بزمان طويل ، والذين يقولون إنه حي كبعض العباد وبعض العامة وكثير من اليهود والنصارى غالطون في ذلك غلطاً لا ريب فيه ، وسبب غلطهم أنهم يرون في الأماكن المنقطعة وغيرها من يظن أنه من الزهاد ويقول إنه الخضر ، ويكون ذلك شيطاناً قد تمثل بصورة آدمي .

وهذا مما علمناه في وقائع كثيرة حتى في المكان الذي كتبت فيه هذا عند الربوة بدمشق رأى شخص بين الجبلين صورة رجل قد سد ما بين الجبلين وبلغ رأسه رأس الجبل وقال أنا الخضر وأنا نقيب الأولياء وقال للرجل الرائي أنت رجل صالح وأنت وليّ الله ومدَّ يده الى فأس كان الرجل نسيه في مكان وهو ذاهب اليه فناوله إياه وكان بينه وبين ذلك المكان نحو ميل ؛ ومثل هذه الحكاية كثيرة .

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء باب ٢٧ ـ الترمذي تفسير سورة ١٨/٣ .

وكل من قال انه رأى الخضر وهو صادق فإما أن يتخيل له في نفسه أنه رآه ويظن ما في نفسه كان في الخارج كما يقع لكثير من أرباب الرياضات، وإما ان يكون جنياً يتصور له بصورة إنسان ليضله وهذا كثير جداً قد علمنا منه ما يطول وصفه، وإما أن يكون رأى إنسياً ظن أنه الخضر وهو غالط في ظنه فإن قال له ذلك الجني أو الإنسي أنه الخضر فيكون قد كذب عليه، لا يخرج الصدق في هذا الباب عن هذه الأقسام الثلاثة.

وأما الأحاديث فكثيرة ولهذا لم ينقل عن أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ولا اجتمع به لأنهم كانوا أكمل علماً وإيماناً من غيرهم فلم يكن يمكن شيطان التلبيس عليهم كما لبس على كثير من العباد، ولهذا كثير من الكفار اليهود والنصارى يأتيهم من يظنون أنه الخضر ويحضر في كنائسهم وربما حدثهم بأشياء وإنما هو شيطان جاء اليهم يضلهم، ولو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتي الى النبي صلى الله عليه وسلم فيؤمن به ويجاهد معه كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء واتباعهم بقوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾.

والخضر قد أصلح السفينة لقوم من عرض الناس فكيف لا يكون بين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو إن كان نبياً فنبينا أفضل منه، وان لم يكن نبياً فأبو بكر وعمر أفضل منه، وهذا مبسوط في موضعه انتهى وسيأتي الكلام على ذلك في آخر هذه القصة إن شاء الله تعالى.

﴿وعلمناه﴾ من علم الغيب الذي استأثرنا به، وفي قوله ﴿من لدنا علماً﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له، قال الزجاج: وفيما فعل موسى وهو من أجله الأنبياء من طلب العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته وأن يتواضع لمن هو أعلم منه.

ثم قص سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال ﴿قال موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ في هذا السؤال ملاطفة ومبالغة في الأدب والتواضع لأنه استجهل نفسه واستأذنه أن يكون تابعاً له على أن يعلمه مما علمه الله من العلم، والرُّشْدُ بضم الراء وسكون الشين هو الوقوف على الخير وإصابة الصواب أي علماً ذا رشد أرشد به ، وقرىء رَشَداً بفتحتين وهما لغتان كالبخل والبَخَل.

وفي الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، وليس في ذلك ما يدل على أن الخضر أفضل من موسى فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول اذا اختص أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى علم الأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر علم بعض الغيب ومعرفة البواطن ، وقد زل أقدام أقوام من الضلال في هذا المقام في تفضيل الولي على النبي حيث قالوا ؛ أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولي وهو كفر جلي والجواب ما ذكرناه .

﴿قال﴾ الخضر لموسى ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي لأن الظواهر التي هي علمك لا توافق ذلك ثم أكد ذلك مشيراً الى علة عدم الاستطاعة فقال ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ أي كيف تصبر على علم ظاهره منكر وأنت لا تعلم، ومثلك مع كونك صاحب شرع لا يسوغ له السكوت على منكر والاقرار عليه، والخبر العلم بالشيء والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وما يحتاج الى الاختبار منها .

قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا
تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ
خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾
فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا
نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

﴿قال﴾ موسى للخضر ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ معك ملتزماً طاعتك،وإنما استثنى لأنه لم يثق من نفسه بالصبر ولم يستثن الخضر لأنه في مقام التعليم ﴿ولا أعصي لك أمراً﴾ أي لا أخالفك فيما تأمرني به،والتقييد بقوله إن شاء الله شامل للصبر ونفي المعصية،وقيل إن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر لأنه أمر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه ونفي المعصية معزوم عليه في الحال ويجاب عنه بأن الصبر ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزوماً عليه في الحال وفي كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه في المستقبل .

﴿قال﴾ الخضر لموسى ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾ مما تشاهد من أفعالي المخالفة لما يقتضيه ظاهر الشرع الذي بعثك الله به أي لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي حتى أكون أنا المبتدىء لك بذكره وبيان وجهه ومايؤول اليه وفيه إيذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وهذه الجمل المعنونة بقال وقال مستأنفات لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كل واحدة ينشأ السؤال عنها مما قبلها .

واعلم أنه قد رويت في قصة موسى مع الخضر المذكورة في كتاب العزيز أحاديث كثيرة وأتمها وأكملها ما روي عن ابن عباس ولكنها اختلفت في بعض

الألفاظ وكلها مروية عن سعيد بن جبير عنه وبعضها في الصحيحين وغيرهما وبعضها في أحدهما وبعضها خارج عنهما ، وقد رويت من طريق العوفي عنه كما أخرجـهابن جرير وابن أبي حاتم ومن طرق أخرى فلنقتصر على الرواية التي هي أتم الروايات الثابتة في الصحيحين ففي ذلك ما يغني عن غيره وهي[1] :

قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله اليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم[2] .

فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به ، فقال له فتاه أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً قال فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً .

(١) مسلم ٢٣٨٠ ، البخاري ٦٤ .

(١) ثم بفتح الثاء أي هناك .

قال سفيان : يزعم الناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة لا يصيب ماؤها ميتاً إلا عاش ، قال وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش ، قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وإني بأرضك السلام ، قال أنا موسى ؛ قال موسى بن اسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ، قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ، ياموسى إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمك الله لا أعلمه . قال موسى ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ، فقال له الخضر : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً .

قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت الأولى من موسى نسياناً ، قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور الذي وقع على حرف السفينة من هذا البحر .

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال موسى :أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ، قال: وهذه أشد من الأولى ، قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً .

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال مائل ، فقال الخضر بيده هكـذا فأقامه ، فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ! لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما ، قال سعيد بن جبير : وكان ابن عباس يقرأ : وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين وبقية روايات سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب هي موافقة لهذه الرواية في المعنى وان تفاوتت الألفاظ في بعضها ، فلا فائدة في الإطالة بذكرها ، وكذلك روايات غير سعيد عنه .

﴿فانطلقا﴾ أي موسى والخضر على ساحل البحر يطلبان السفينة ومعهما يوشع ، وإنما لم يذكر في الآية لأنه تابع لموسى ؛ فالمقصود ذكر موسى والخضر وقال القشيري ؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقي الخضر ، وقال أبو العباس : اكتفى بذكر المتبوع عن التابع ، فمرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فحملوهم بغير نول ﴿حتى اذا ركبا في السفينة خرقها﴾ قيل قلع لوحاً من ألواحها وقيل لوحين مما يلي الماء بفأس لما بلغت اللجج ، وقيل خرق جدار السفينة ليعيبها ولا يتسارع الغرق اليها .

﴿قال﴾ موسى ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾ أي عظيماً يقال أمر الأمر اذا كبر وعظم ، وإمر الاسم منه ، وقال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة ، وقـال القتيبي : الإمـر العجب ، وبـه قال قتـادة ، وقال الأخفش : أمر أمره يأمر إذا اشتد والاسم الإمر . وقال ابن عباس : أمراً نكراً . وعن مجاهد نحوه روى أن الماء لم يدخلها .

﴿قال﴾ الخضر ﴿ألم أقل إنـك لن تستطيع معي صبراً﴾ أذكره ما تقدم

من قوله له سابقا إنك لا تستطيع معي صبراً ﴿قال﴾ موسى ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ ما مصدرية ، أي لا تؤاخذني بنسياني أو موصولة أي لا تؤاخذني بالذي نسيته ، وهو قول الخضر فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ، فالنسيان إما على حقيقته على تقدير أن موسى نسي ذلك ، أو بمعنى الترك على تقدير أنه لم ينس ما قاله له ولكنه ترك العمل به .

عن أبيّ بن كعب قال : لم ينس ولكنها من معاريض الكلام ، أي أورده في صورة دلت على النسيان ولم يقصد نسيان الوصية بل نسيان شيء آخر حتى لا يلزم الكذب قاله الكازروني ، قيل: كانت الأولى من موسى نسياً والثانية شرطاً والثالثة عمداً ﴿ولا ترهقني﴾ أي لا تكلفني ﴿من أمري عسراً﴾ مشقة في صحبتي . قال أبو زيد : أرهقته عسراً اذا كلفته ذلك ، والمعنى عاملني باليسر والعفو لا بالعسر ، وقرىء عُسُراً بضمتين .

﴿فانطلقا﴾ بعد خروجهما من السفينة يمشيان ﴿حتى إذا لقيا غلاماً﴾ قيل كان اسمه شمعون ، ذكره القرطبي ؛ ولفظ الغلام يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصغير ، قيل كان الغلام يلعب مع الصبيـان ﴿فقتله﴾ أي فاقتلع الخضر رأسه أو ذبحه بالسكين أو ضرب رأسه بالجدار أقوال ، وأتى هنا بالفاء العاطفة لأن القتل عقب اللقىّ وجواب إذا ﴿قال﴾ موسى ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ هي البريئة من الذنوب ، الطاهرة .

قال أبو عمر : الزاكية التي لم تذنب ، والزكية التي أذنبت ثم تابت ، وقال الكسائي : الزاكية والزكية لغتان ، وقال الفراء : الزاكية والزكية مثل القاسية والقسية ، قال ابن عباس : زاكية مسلمة ، وقال سعيد بن جبير : لم يبلغ الخطايا . وعن الحسن نحو ﴿بغير﴾ قتل ﴿نفس﴾ محرمة حتى يكون قتل هذه قصاصاً ﴿لقد جئت﴾ أي فعلت ﴿شيئاً نكراً﴾ أي فظيعاً منكراً لا يعرف في الشرع ، قرىء بسكون الكاف وضمها وهم سبعيتان ، قيل معناه أنكر من

الأمر الأول لكون القتل لا يمكن تداركه بخلاف نزع اللوح من السفينة فإنه يمكن تداركه بإرجاعه . وقيل النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة .

وعن قتادة قال : النكر أنكر من العجب ، قيل استبعد موسى أن يقتل نفساً بغير نفس ولم يتأول للخضر بأنه يحل القتل بأسباب أخر . عن أبي العالية عند ابن المنذر وابن أبي حاتم قال : كان الخضر عبداً لا تراه الأعين إلا من أراد الله أن يريه إياه ، فلم يره من القوم إلا موسى ، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة وبين قتل الغلام .

وأقول ينبغي أن ينظر من أين له هذا ، فإن لم يكن مستنده إلا قوله « ولو رآه القوم الخ » فليس ذلك بموجب لما ذكره أما أولاً فإن من الجائز أن يفعل ذلك من غير أن يراه أهل السفينة وأهل الغلام لا لكونه لا تراه الأعين ، بل لكونه فعل ذلك من غير اطلاعهم .

وأما ثانياً فيمكن أن أهل السفينة وأهل الغلام قد عرفوه ؛ ويدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول ، وعرفوا أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر من الله كما يفعل الأنبياء فسلموا الأمر لله . وعن عطاء قال : كتب نجدة الحروري الى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان فكتب اليه ان كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم ، وفي لفظ ولكنك لا تعلم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم فاعتزلهم .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، ولو أدرك لأرهق بأبويه طغياناً وكفراً .(١)

(١) مسلم ٢٦٦١ ـ ابو داوود كتاب السنة باب ١٩ .

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

﴿قال﴾ الخضر ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ زاد هنا لفظ لك لأن سبب العتاب أكثر وموجبه أقوى فقد نقض العهد مرتين ، وقيل زاد لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه ، لك أقول وإياك أعني ، وقيل زاد لعدم العذر هنا تحاملاً في الخطاب وتقريعاً لموسى .

ولهذا ﴿قال﴾ موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾ أي بعد هذه المرة أو بعد هذه النفس المقتولة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي لا تجعلني صاحباً لك ؛ وقرىء تصحبني قال الكسائي : معناه لا تتركني أصحبك ، وقرىء بضم التاء والباء وتشديد النون ؛ نهاه عن مصاحبته مع حرصه على التعلم لظهور عذره .

ولذا قال ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾ في مفارقتك لي ، يريد أنك قد أعذرت حيث خالفتك ثلاث مرات . وهذا كلام نادم شديد الندامة اضطره الحال الى الاعتراف وسلوك سبيل الإنصاف، وقرأ الجمهور لدني مخففاً وشددها الباقون ، وعن أبيّ قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ من لدني عذراً مثقلة . أخرجه أبو داود والترمذي والطبراني وغيرهم . وقرأ الجمهور عذْراً بسكون الذال وقرىء بضمها ، وحكى الداني أن أبيا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بكسر الراء وياء بعدها بإضافة العذر الى نفسه .

﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ قيل هي(أيلة)وهي أبعد الأرض من السماء وقيل انطاكية ، وقيل برقة ، وقيل قرية من قرى أذربيجان ، وقيل قرية من قرى الروم ، وقيل هي بلدة بـالأندلس ﴿استطعما أهلهـا﴾ طلبا منهم الطعام بضيافة ؛ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التأكيد أو للتأسيس أو لكراهة اجتماع الضميرين في هذه الكلمة لما فيه من الكلفة او لزيادة التشنيع على أهل القرية بإظهارهم ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ أي أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من ضيافتهما ؛ فمن استدل بهذه الآية على جواز السؤال وحل الكدية فقد اخطأ خطأً بيّناً ومن ذلك قول بعض الأدباء الذين يسألون الناس :

فإن رددت فما في الرد منقصة عليَّ قد ردّ موسى قبل والخضر

وقـد ثبت في السنة تحريم السؤال بما لا يمكن دفعـه من الأحاديث الصحيحة الكثيرة . عن أبيّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ أن يضيفوهما مشددة ، قيل شر القُرَى التي تبخل بالْقِرَى أي لا تضيف الضيف ، قيل أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم .

﴿فوجدا فيها﴾ أي في القريـة ﴿جداراً﴾ طـوله مـائة ذراع وعـرضه خمسون ذراعاً وامتداده على وجه الأرض خمسمائة ذراع ﴿يريد ان ينقضّ﴾ إسنـاد الإرادةالى الجدار مجاز ، قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقة إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين فوصف بالإرادة ومعنى الانقضاض السقوط بسرعة يقال انقض الحائط إذا وقع وانقض الطائر إذا هوى من طيرانه فسقط على شيء .

﴿فأقامه﴾ أي فسواه الخضر بيده لأنه وجده مائلاً فرده كما كان ، وقيل نقضه وبناه ، وقيل أقامه بعمود ، عن أبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أنه قرأ يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه «قلت» ورواية الصحيحين التي قدمناها أنه مسحه بيده أولى .[١]

﴿قال﴾ موسى ﴿لو شئت لتخذت﴾ عن أبيّ ان الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ لتخذت مخففاً يقال تخذ فلان يتخذ تخذاً مثل اتخذ ﴿عليه أجراً﴾ أي على إقامته وإصلاحه، تحريضاً من موسى للخضر على أخذ الجعل والأجرة ليتعشيا به أو تعريضاً بأنه فضول ، والأول أولى ، قال الفراء : معناه لو شئت لم تقمه حتى يقرونا فهو الأجر .

﴿قال﴾ الخضر ﴿هـذا فراق بيني وبينك﴾ على إضافة فراق الى الظرف اتساعاً أي هذا الكلام والإنكـار منك على ترك الأجر هو المفرق بيننا قال الزجاج : المعنى هذا فراق بيننا أي هذا فراق اتصالنا وكرر بين تأكيداً .

أخرج أبو داود والنسائي والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لقص الله علينا من خبره ولكن ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾[٢] ولما قال الخضر لموسى بهذا أخذ في بيان الوجه الذي فعل بسببه تلك الأفعال التي أنكرها موسى فقال :

﴿سأنبئك﴾ قبل فراقي لك ﴿بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أي الأمور الثلاثة المتقدمة ، والمراد بالتأويل إظهار ما كان باطناً ببيان وجهه ؛ قاله الشهاب وفي القرطبي المراد بالتأويل التفسير ، وأصل التأويل رجوع الشيء الى مآله .

ثم شرع في البيان له فقال ﴿أما السفينة﴾ يعني التي خرقها ﴿فكانت لمساكين﴾ لضعفاء عشرة وكانوا إخوة لا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم وقد

---

(١) مسلم ٢٣٨٠ ـ البخاري ٦٤ .

(١) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٧٤ .

ذكر النقاش أسماءهم وقرأ جماعة مساكين بتشديد السين واختلف في معناها فقيل هم ملاحو السفينة وذلك أن المساك هو الذي يمسك السفينة والأظهر قراءة الجمهور بالتخفيف .

﴿يعملون في البحر﴾ ولم يكن لهم مال غير تلك السفينة يكرونها من الذين يركبون البحر ويأخذون الأجرة،وقد استدل الشافعي بهذه الآية على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أي أجعلها ذات عيب بنزع ما نزعته منها ﴿وكان وراءهم ملك﴾ جملة حالية بإضمار قد قال المفسرون : يعني أمامهم ، وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ أمامهم ، وعن أبيّ بن كعب انه قرأها كذلك وكتب عثمان ﴿وكان وراءهم﴾ ووراء يكون أمام ، وقد مر الكلام على هذا في قوله ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ .

وقيل أراد خلفهم وكان طريقهم في الرجوع عليه وما كان عندهم خبر بأنه ﴿يأخذ كل سفينة﴾ صالحة لا معيبة ﴿غصباً﴾ نصبه على المصدر المبين لنوع الأخذ ، وقد قرأ ابن عباس وابي بن كعب بزيادة صالحة والملك الغاصب كان اسمه الجلندي الأزدي وكان كافراً ، وقيل كان اسمه هدد بن بدد ، وقيل كان ملك غسان واسمه جيسورا ذكره القرطبي .

﴿وأما الغلام﴾ يعني الذي قتله ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ ولم يكن هو كذلك وقرأ ابن عباس وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين ﴿فخشينا﴾ الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه ، وقيل معناه فعلمنا والأول أولى .

وعن قتادة : هي في مصحف عبدالله فخاف ربك ﴿أن يرهقهما﴾ أي يرهق الغلام أبويه يقال رهقه أي غشيه وأرهقه أغشاه ، قال المفسرون : معناه

خشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه في دينه وهو الكفر، وقيل المعنى فخشينا أن يرهق الوالدين ﴿طغياناً﴾ عليهما ﴿وكفراً﴾ لنعمتهما بعقوقه.

قيل ويجوز أن يكون فخشينا من كلام الله ويكون المعنى كرهنا كراهة من خشي سوء عاقبة أمره فغيره ، وهذا ضعيف جداً فالكلام كلام الخضر .

وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة فقيل: إنه كان بالغاً وقد استحق ذلك بكفره ، وقيل كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك ويكون معنى خشينا الخ أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا في المعصية ، وقد يؤدي ذلك الى الكفر والارتداد .

والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً أو قاطعاً للطريق هذا فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة من عند الله سبحانه تسوغ له ذلك .

وأما إذا كان الغلام صبياً غير بالغ فقيل: إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما وهذا وإن كان ظاهر الشريعة الإسلامية يأباه فإن قتل من لا ذنب له ولا قد جرى عليه قلم التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحل في الشريعة المحمدية ، ولكنه حل في شريعة أخرى فلا إشكال.

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

﴿فأردنا أن يبدلهما﴾ الإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه ، قال الزجاج : معنى فأردنا فأراد الله ومثله في القرآن ، وقيل المعنى أردنا أن يرزقهما الله ﴿ربهما﴾ بدل هذا الولد ولداً ﴿خيراً منه﴾ والتفضيل ليس على بابه ﴿زكاة﴾ أي ديناً وصلاحاً وتقوى وطهارة من الذنوب ﴿وأقرب رحماً﴾ بسكون الحاء وقرىء بضمها الرحمة يقال رحمه الله رحمة ورحماً والألف للتأنيث قال ابن عباس : رحماً مودة فأبدلا جارية ولدت نبياً .

﴿وأما الجدار﴾ يعني الذي أصلحه ﴿فكان لغلامين يتيمين﴾ قيل اسمهما أصرم وصريم ﴿في المدينة﴾ هي القرية المذكورة سابقاً وفيه جواز إطلاق المدينة على القرية لغة ، وقيل عبر هناك بالقرية تحقيراً لها لخسة أهلها وعبر هنا بالمدينة تعظيماً لها من حيث اشتمالها على هذين الغلامين وعلى أبيهما ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ قيل كان مالاً جسيماً كما يفيده لفظ الكنز ، وبه قال عكرمة وقتادة إذ هو المال المجموع .

قال الزجاج : المعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه المال المدفون فإذا لم يكن مالاً قيل كنز علم وكنز فهم ، وقيل لوح من ذهب ، وقيل علم في صحف مكتوبة مدفونة ، عن قتادة قال : كان الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة على من كان قبلنا وأحلت لنا ، فلا يعجبن الرجل فيقول ما شأن الكنز أحل لمن قبلنا وحرم علينا فإن الله يحل من أمره ما شاء ويحرم ما شاء ، وهي السنن والفرائض تحل لأمة وتحرم على أخرى .

وعن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : وكان تحته كنز ذهب وفضة أخرجه البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه والطبراني والحاكم وصححه[١] ، وعن أبي الدرداء قال : أحلت لهم الكنوز وحرمت عليهم الغنائم ، وأحلت لنا الغنائم وحرمت علينا الكنوز .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذر رفعه قال : إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت فيه « عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل لا إله إلا الله محمد رسول الله » وفي نحو هذا روايات كثيرة لا تتعلق بذكرها فائدة .

﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فكان صلاحه مقتضياً لرعاية ولديه وحفظ مالهما ، فظاهر اللفظ أنه أبوهما حقيقة ، وقيل هو الذي دفنه ، وقيل هو الأب السابع من عند الدافن له . قاله جعفر بن محمد وقيل العاشر وكان يسمى كاشحاً وكان من الأتقياء قاله مقاتل ، واسم أمهما دنيا . ذكره النقاش ، ففيه ما يدل على أن الله يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا . قال ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرته ، وأهل دويرات حوله ، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم »[١] . وعن ابن عباس نحوه وقال موضع حفظ الله في ستر من الله وعافية .

قال سعيد بن المسيب : إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي . وقد

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١٨/ ٤٠ .

روي أن الله يحفظ الصالح في سبعة من ذريته ، وعلى هذا يدل قوله تعالى ﴿ان وليّيَ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ قاله القرطبي .

﴿فأراد ربك﴾ أي مالكك ومدبر أمرك ، وأضاف الرب الى ضمير موسى تشريفاً له ، وانما ذكر أولاً : فأردت لأنه إفساد في الظاهر وهو فعله ، وثانياً : فأردنا لأنه إفساد من حيث الفعل إنعام من حيث التبديل ، وثالثاً : فأراد ربك لأنه إنعام محض وغير مقدور للبشر .

قال الشوكاني في الفتح الرباني : علم أنه قد وجد في الخضر عليه السلام المقتضى للمجيء بنون العظمة لما تفضل الله بـه عليه من العطايا العظيمة والمواهب الجسيمة التي من جملتها العلم الذي فضله الله به حين أخبر موسى عليه السلام لما سأله هل في الأرض أعلم منه ؟ فقال عبدنا خضر كما هو ثابت في الصحيح ، كان هذا وجهاً صحيحاً ومسوغاً صحيحاً للمجيء بنون العظمة تارة وعدم المجيء بها أخرى ، فقال فأردت أن أعيبها ، وقال فـأردنا ملاحظاً في أحد الموضعين لما يستحقه من التعظيم تحدثاً بنعمة الله سبحانه عليه وفي الموضع الآخر قاصداً للتواضع وانه فرد من أفراد البشر غير ناظر الى تلك المزايا التي اختصه الله بها سبحانه مع كون ذلك هو الصيغة التي هي الأصل في تكلم الفرد .

ومع هذا ففي تلوين العبارة نوع من الحسن آخر وهو الافتنان في الكلام فإنه أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر إيقاظاً له ، كما قيل في نكتة الالتفات ، ويمكن أن يقال إن خرق السفينة لما كان باعتبار تحصيل مسماه أمراً يسيراً فإنه يحصل بنزع لوح من ألواحها ، قال ﴿فأردت أن أعيبها﴾ ولما كان القتل مما تتعاظمه النفوس وتدخل فاعله الروعة العظيمة نزل منزلة ما لا يقدر عليه إلا جماعة . ويمكن أيضاً وجه ثالث وهو أن يقال لما كان خرق السفينة مما يمكن تداركه بأن يرد اللوح الذي نزعه كان ذلك وجهاً للإفراد لأنه يسير بالنسبة الى ما لا يمكن تداركه وهو القتل .

وأما قوله ﴿فأراد ربك﴾ فوجه نسبة الإرادة الى الرب سبحانه أن هذه الإرادة وقعت على قوله أن يبلغا أشدهما ، ومعلوم أن ذلك لا يكون من فعل البشر ولا بإرادته لأن بقاءهما في الحياة حتى يبلغا الأشد لا يدخل تحت طاقة البشر ولا يصح نسبته الى غير الرب عز وجل ؛ ولهذا يقول الخضر ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ هذا ما خطر بالبال عند الوقوف على هذه الآية ، ولم أقف على كلام لأحد من أهل التفسير فيما يتعلق بذلك أ هـ .

﴿أن يبلغا أشدهما﴾ أي كمالهما وتمام نموهما ﴿ويستخرجا كنزهما﴾ من ذلك الموضع الذي عليه الجدار ، ولو انقض لخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية ﴿رحمة من ربك﴾ لهما وهو مصدر في موضع الحال أي مرحومين من الله سبحانه .

﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي عن اجتهادي ورأيي وهو تأكيد لما قبله فقد علم بقوله: فأراد ربك أنه لم يفعله الخضر عن أمر نفسه لأن تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم وتغيير أحوالهم لا يكون إلا بالنص ، وليس في هذا دلالة على نبوة الخضر كما زعم الجمهور بل هو إلهام من الله سبحانه اليه .

﴿ذلك﴾ المذكور من تلك البيانات التي بينتها لك وأوضحت وجوهها ﴿تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي ما ضاق صبرك عنه ولم تطق السكوت عليه .ومعنى التأويل هنا هو المآل الذي آلت اليه تلك الأمور ، وهو اتضاح ما كان مشتبهاً على موسى وظهور وجهه ، وحذف التاء من تسطع تخفيفاً ، يقال اسطاع واستطاع بمعنى أطاق ، ففي هذا وما قبله جمع بين اللغتين .

وقد اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبياً وفي طول عمره وبقاء حياته وكونه باقياً الى زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحياته بعده على أقوال كثيرة ، فقيل هو ابن آدم لصلبه وهو ضعيف منقطع . وقيل إنه ابن قابيل بن آدم وهو معضل ؛ وقيل إنه من سبط هرون أخي موسى وهو بعيد . وقيل إنه أرميا بن خلقيا ورده ابن جرير وقيل إنه ابن بنت فرعون ، وقيل ابن

فرعون لصلبه ، وقيل إنه اليسع ، وقيل إنه من ولد فارس . وقيل من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل ، وقيل كان أبوه فارسياً وأمه رومية ، وقيل بعكس ذلك .

ثم قيل كان اسمه عامراً ؛ وقيل بليا بن ملكان ، وقيل كلمان بدل ملكان ، وقيل معمر بن مالك وكنيته أبو العباس ، وهذا متفق عليه . قاله النووي .

واحتج من قال إنه نبي بقوله تعالى ﴿وما فعلته عن أمري﴾ لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله والأصل عدم الواسطة .

قال الثعلبي : هو نبي في سائر الأقوال ، ثم قيل نبي غير مرسل ، وقيل أرسل الى قومه فاستجابوا له ونصره الرماني ثم ابن الجوزي ، وقيل كان ولياً واليه ذهب جماعة من الصوفية ، وبه قال علي بن أبي موسى من الحنابلة وابن الأنباري والقشيري ، وقيل إنه ملك من الملائكة .

قال ابن جرير في تاريخه : إنه كان في أيام فريدون الملك في قول عامة أهل الكتاب الأول ، وقيل كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في زمن إبراهيم الخليل ، وقصته هذه ذكرها جماعة منهم خيثمة بن سليمان .

وأما تعميره فقال ابن عباس : نسيء للخضر في أجله حتى يكذب الدجال ، وقال أبو مخنف : أجمع أهل العلم بالأحاديث والجمع لها أنه أطول آدمي عمراً وشرب من عين الحياة ، وقال الحسن : وكل الخضر بالبحور وإلياس بالفيافي ، وإنهما يجتمعان في موسم كل عام ، وروى أبان مرفوعاً اليه صلى الله عليه وسلم اجتماعهما عند ردم يأجوج ومأجوج كل ليلة ، وفي سنده متروكان .

وقال النووي في التهذيب . قال الأكثرون من العلماء : هو حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم

في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تذكر .

قال ابن الصلاح : هو حي عند جماهير العلماء والصلحاء والعامة منهم ، إنما شذ بإنكاره بعض المحدثين . وقال بعضهم : إن لكل زمان خضراً ، وهي دعوى لا دليل عليها ، وقال السهيلي : اسمه عاميل وإن أباه كان ملكاً ، وانه الرجل الذي يقتله الدجال ثم يحييه .

وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث : إنه مات قبل انقضاء مائة سنة من الهجرة ، ونصره أبو بكر العربي لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر حياته لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن عليها اليوم[1] ؛ وله ألفاظ عند الشيخين وغيرهما عن جابر وابن عمر .

وأجاب من أثبت حياته بأنه كان حينئذ على وجه البحر ، وما أبرد هذا الجواب وأبعده عن الصواب .

وأما اجتماعه مع النبي صلى الله عليه وسلم وتعزيته لأهل البيت وهم مجتمعون لغسله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عليّ : هو الخضر فقد ذكره ابن عبد البر في التمهيد ، وقيل اجتمع الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا جاز ذلك جاز لقاء الخضر ، رواه ابن أبي الدنيا عن أنس ، وتعقبه الحافظ أبو الخطاب بن دحية وقال : لم يصح من طرقه شيء ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء إلا مع موسى كما قصه الله من خبره ، وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء باتفاق أهل النقل .

وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه ، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخاً لا يعرفه فيقول له أنا فلان فيصدقه ، وحديث التعزية المتقدم موضوع وفيه ابن محرز متروك ، قال مسلم صاحب الصحيح فلما رأيته كانت بعرة

(١) مسلم ٢٥٣٧ ـ البخاري ١٠٠ .

أحب إليَّ منه ، وما روي عن أنس فموضوع أيضاً ، وقد نقل تكذيبه عن أحمد ويحيى وإسحاق وأبي زرعة ، وسياق المتن ظاهر النكارة وإنه من المجازفات .

وتمسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخاري وجامع الترمذي لكن لم يثبت ذلك مرفوعاً ، وأخرج الطبراني في المعجم الكبير حديثاً طويلاً عن أبي أمامة الباهلي مرفوعاً اليه صلى الله عليه وسلم في قصة الخضر يدل على كونه نبياً وسنده حسن لولا عنعنة بقية وهو ضعيف . وقد ذهب الى أن الخضر مات عليٌّ بن موسى الرضا والبخاري ، وانكر أن يكون باقياً للحديث المتقدم ، وهو عمدة من تمسك بأنه مات .

قال أبو حيان في تفسيره : الجمهور على أن الخضر مات ، وبه قال ابن أبي الفضل المرسي ، لأنه لو كان حياً لزمه المجيء الى النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه ، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي ؛ وبذلك جزم ابن المناوي وابراهيم الحربي وابو طاهر العبادي . وأخرج مسلم من حديث جابر قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بشهر : أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة[1]، وله ألفاظ وطرق عند الترمذي وغيره .

وممن جزم أنه غير موجود الآن أبو يعلى الحنبلي وأبو الفضل بن ناصر والقاضي أبو بكر بن العربي وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزي ، واستدل على ذلك بأدلة منها ما تقدم ، ومنها قوله تعالى ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق إن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه . أخرجه البخاري .

فلو كان الخضر موجوداً لجاء إليه ونصره بيده ولسانه وقاتل تحت رايته ،

(١) مسلم ٢٥٣٨ .

ولم يأت في خبر صحيح أنه جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو قاتل معه .

قال أبو الحسين بن المناوي : بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق أم لا فإذا أكثر المغفلين مغترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك ، والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية ، والسند الى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم ؛ وخبر مسلمة بن مصقلة كالخرافة ، وخبر رياح كالريح وما عدا ذلك من الأخبار كلها واهية الصدور والأعجاز لا يخلو حالها من أمرين ؛ إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً أو يكون بعضهم تعمد ذلك . وقد قال الله ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ .

وفي تفسير الأصفهاني عن الحسن أن الخضر مات ، وقد مر عنه أيضاً أنه حي ، وإذا تعارضا تساقطا ، واحتج ابن الجوزي أيضاً بما ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض[1] ، ولم يكن الخضر فيهم ، ولو كان يومئذ حياً لورد على هذا العموم ، فإنه كان ممن يعبد قطعاً .

وقد بسط الحافظ بن حجر العسقلاني القول في بيان أحوال الخضر وأخباره قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي وردت أن الخضر وإلياس كانا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعده الى الآن ، وما جاء في بقائه بعد النبي صلى الله عليه وسلم ومن نقل عنه أنه رآه وكلمه في أبواب مستقلة من كتابه الإصابة في معرفة الصحابة ، وتكلم على أسانيدها جرحاً وتعديلاً وغالبها لا يخلو عن علة أو ضعف أو انقطاع أو إعضال أو وضع أو نكارة أو شذوذ ، ولا يصلح شيء للاستدلال على حياة الخضر وبقائه الى الآن أو الى خروج الدجال .

---

(١) مسلم ١٧٦٣ ـ الإمام أحمد ١/٣٠ ولم اجده في البخاري .

والحق ما ذكرناه عن البخاري وأضرابه في ذلك ولا حجة في قول أحد كائناً من كان إلا الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد في ذلك نص مقطوع به ولا حديث مرفوع اليه صلى الله عليه وسلم حتى يعتمد عليه ويصار اليه ؛ وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد وطول التعمير لأحد من البشر ، وهما قاضيان على غيرهما ، ولا يقضي غيرهما عليهما .

ومن قال إنه نبي أو مرسل أو حي باق لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين ، واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، وقد تكلم الحافظ على هذا الباب في فتح الباري ايضاً فَمَنْشاء الاطلاع على تفصيل ذلك فليرجع إليه وبالله التوفيق ، ومنه الفتح والإصابة . ولما أجاب سبحانه عن سؤالين من سؤالات اليهود وانتهى الكلام الى حيث انتهى شرع سبحانه في السؤال الثالث والجواب عنه ، فالمراد بالسائلين في قوله ﴿ويسألونك﴾ هم اليهود أي سؤال تعنت ﴿عن ذي القرنين﴾ واختلفوا فيه اختلافاً كثيرا ، فقيل هو الاسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا كلها بأسرها اليوناني باني الاسكندرية .

وقال ابن اسحاق : هو رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح ، وقيل هو ملك اسمه هرمس وقيل هردس ، وقيل شاب من الروم وقيل كان نبياً وقيل كان عبداً صالحاً وقيل اسمه عبدالله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبدالله من أولاد كهلان بن سبا .

وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال : إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان أحدهما كان على عهد ابراهيم عليه السلام ، والآخر كان قريباً من عيسى عليه السلام ، وقيل هو أبو كرب الحميري وقيل هو ملك من الملائكة ؛ ورجح الرازي القول الأول قال : لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو اسكندر اليوناني كما يشهد به كتب التواريخ قال فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الاسكندر .

قال : وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم وكان

على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب ارسطاطاليس حق وصدق، وذلك مما لا سبيل إليه.

قال النيسابوري : قلت ليس كل ما ذهب اليه الفلاسفة باطلاً فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم ، ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي من أنهما اثنان كما قدمنا ذلك وبين أن الأول طاف بالبيت مع ابراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر ، وأما الثاني فهو الاسكندر المقدوني اليوناني وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس وكان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل .

هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره راوياً له عن الأزرقي وغيره ثم قال : وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب (البداية والنهاية) بما فيه كفاية[١] ، وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال ؛ وإنما بيَّنا هذا يعني أنهما اثنان لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد ، وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كثير وفساد كبير .

كيف لا والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكاً عادلاً ووزيره الخضر ، وقد قيل إنه كان نبياً ، وأما الثاني فقد كان كافراً ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف وكان بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة ، فأين هذا من ذاك انتهى .

قلت : لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً وسماه بالبداية والنهاية ولم نقف عليه والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم لا كما ذكر الرازي وادعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا؟وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الرد على المنطقيين : المشهور

---

(١) ابن كثير ٣/١٠٠ .

المتواتر أن أرسطو وزير الاسكندر بن فيلبس كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة وكثير من الجهال يحسب أن هذا هو ذو القرنين المذكور في القرآن ويعظم ارسطو بكونه كان وزيراً له كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله من الجهال بأخبار الأمم ، وهذا من جهلهم فإن الاسكندر الذي وزر له أرسطو هو المقدوني الذي يؤرخ له تاريخ الروم المعروف عند اليهود والنصارى وهو إنما ذهب الى أرض القدس لم يصل الى السد عند من يعرف أخباره، وكان مشركاً يعبد الأصنام ، وكذلك ارسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الأصنام وذو القرنين كان موحداً مؤمناً بالله وكان متقدماً على هذا ؛ ومن يسميه الإسكندر ويقول هو الإسكندر بن فيلبس .

ولهذا كان هؤلاء المتفلسفة إنما راجوا على أبعد الناس عن العقل والدين كالقرامطة والباطنية الذين ركبوا مذهبهم من فلسفة اليونان ودين المجوس وأظهروا الرفض ، وكجهال المتصوفة وأهل الكلام ، وإنما ينفقون[1] في دولة جاهلية بعيدة عن العلم والإيمان إما كفاراً وإما منافقين كما نفق منهم من نفق على المنافقين الملاحدة ثم نفق على المشركين الترك ، وكذلك إنما ينفقون دائماً على أعداء الله ورسوله من الكفار والمنافقين انتهى .

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين فقال الزجاج والأزهري : إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها وقرن الشمس من مغربها ، وقيل إنه كان له ضفيرتان من شعر والضفائر تسمى قروناً ، وقيل إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك ، وقيل كان له قرنان تحت عمامته ، وقيل: إنه دعا الى الله فشجه قومه على قرنه ثم دعا الى الله فشجوه على قرنه الآخر وقيل إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قِبل أبيه وأمه وقيل :لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي ، وقيل

(١) أي يروجون .

لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركائبه جميعاً ، وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن .

وقيل لأنه دخل النور والظلمة ، وقيل لأنه ملك فارس والروم ، وقيل لأنه ملك الروم والترك ، وقيل :لأنه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب ، وهذا هو القدر المعمور من الأرض،وقيل لأنه كان لتاجه قرنان .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أدري أتُبَّع كان نبياً أم لا؟ وما ادري أذو القرنين كان نبياً أم لا؟ وما ادري الحدود كفارات لأهلها أم لا[1] ؟ أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن عليّ بن أبي طالب قال ؛ لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه الله ، ونصح لله فنصحه الله ، بعثه الله إلى قوم فضربوه على قرنه فمات ثم أحياه الله لجهادهم ، ثم بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر فمات فأحياه الله لجهادهم فلذلك سمي ذا القرنين وإن فيكم مثله .

وعن ابن عمر قال ؛ ذو القرنين نبي ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : هو ملك يسيح الأرض بالأسباب ، أخرجه ابن أبي حاتم عن الأحوص بن حكيم عن أبيه وعن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلاً ينادي بمنى ياذا القرنين فقال ها أنتم قد سميتم بأسماء الأنبياء فما بالكم وأسماء الملائكة ، وفي الباب غير ما ذكرناه مما يغني عنه ما قد أوردناه .

وقد أخرج أبو الشيخ والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني حديثاً يتضمن أن نفراً من اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذي القرنين فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء وكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم وأنه بنى الاسكندرية وأنه علا به ملك الى السماء وذهب به إلى السد ، وإسناده

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/ ٤٥٠ .

ضعيف وفي متنه نكارة ، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني اسرائيل ، ذكر معنى هذا ابن كثير في تفسيره وعزاه الى ابن جرير والأموي في مغازيه : ثم قال بعد ذلك والعجب أن أبا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة انتهى[1] .

وقد ساقه بتمامه السيوطي في الدر المنثور وساق أيضاً خبراً طويلا عن وهب بن منبه وعزاه الى ابن اسحاق وابن المنذر وغيرهم ، وفيه أشياء منكرة جداً وكذلك ذكر خبراً طويلاً عن محمد الباقر أخرجه أبو الشيخ وغيره ، ولعل هذه الأخبار ونحوها منقولة عن أهل الكتاب وقد أمرنا بأن لا نصدقهم ولا نكذبهم فيما ينقلونه الينا .

واختلفوا أيضاً في وقته فقال قوم : كان بعد موسى ، وقال قوم : كان في الفترة بعد عيسى ، وقال قوم : كان في وقت ابراهيم واسماعيل ، وقد حققنا ذلك في لقطة العجلان فراجعه .

وبالجملة فإن الله مكنه وملكه ودانت له الملوك ، وروي أن الذين ملكوا الدنيا كلها أربعة مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود والاسكندر ، والكافران نمروذ وبختنصر ، وسيملكها من هذه الأمة خامس لقوله تعالى ﴿ليظهره على الدين كله﴾ وهو المهدي ذكره القرطبي .

وعن السدي قال ؛ قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك إنما تذكر إبراهيم وموس وعيسى والنبيين إنك سمعت ذكرهم منا فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلا في مكان واحد ، قال ومن هو؟ قالوا ذو القرنين قال : ما بلغني عنه شيء فخرجوا فرحين قد غلبوا في أنفسهم ، فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ويسألونك عن ذي القرنين .

﴿قل سأتلو عليكم﴾ أيها السائلون ﴿منه﴾ أي من ذي القرنين ﴿ذكراً﴾ خبراً وذلك بطريق الوحي المتلو .

---

(١) ابن كثير ٣/١٠٠ .

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ
ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ
وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل
لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

ثم شرع سبحانه في بيان ما أمر به رسوله أن يقوله لهم من أنه سيتلو عليهم منه ذكرا فقال ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ أي أقدرناه بما مهدنا له من الأسباب فجعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فيها وسهل عليه المسير في مواضعها وذلّل له طرقها حتى تمكن منها أين شاء وكيف شاء ، ومن جملة تمكينه فيها أن جعل الله الليل والنهار عليه سواء في الإضاءة ﴿وآتيناه من كل شيء﴾ مما يتعلق بمطلوبه أو مما يحتاج إليه الخلق ﴿سبباً﴾ أي طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده كآلات السير وكثرة الجند واستقصاء بقاع الأرض والوصول الى عين الحياة ، وقال ابن عباس : سبباً أي علماً وقال أيضا: بلاغاً الى حيث أراد .

قال المفسرون : والمعنى طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس قاله الزجاج : وقيل من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به الى شيء .

﴿فأتبع سبباً﴾ سلك طريقاً نحو المغرب ، قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى مثل ردفته وأردفته ومنه قوله تعالى ﴿فأتبعه شهاب﴾ وحكى الأصمعي أنه يقال تبعته واتبعته إذا سار ولم يلحقه واتبعه إذا لحقه .

قال ابو عبيدة : ومثله ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ قال النحاس وهذا من الفرق وان كان الأصمعي قد حكاه فلا يقبل إلا بعلم أو دليل ، وقوله عز وجل ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ ليس في الحديث أنهم لحقوهم ، وإنما في الحديث لما خرج موسى وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه في البحر انطبق عليهم البحر.

والحق في هذا أن تبع واتبع وأتبع لغات ، بمعنى واحد وهو بمعنى السير ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾ أي نهاية الأرض من جهة المغرب وآخر العمارة منها لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط وهو لا يمكن المضي فيه فلما لم يبق قدامه شط بل مياه لا آخر لها ﴿وجدها﴾ أي رأى الشمس ﴿تغرب في عين حمئة﴾ أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء يقال حمأت البئر حَمْأً بالتسكين إذا نزعت حمأتها وحمأت البئر حماً بالتحريك كثرت حمأتها وقرىء حامية من الحمأة أي حارة وقد يجمع بين القراءتين فيقال كانت حارة وذات حمئة .

قال كعب : أما أنا فاني أجد في التوراة تغرب الشمس في ماء وطين ، وأشار بيده إلى المغرب وأنشد ابن أبي حاصر :

فرأى مغيب الشمس عند غروبها   في عين ذي خلب وثاط حرمد

فقال ابن عباس : ما الخلب ؟ قال الطين بكلامهم ، قال فما الثاط ؟ قال الحمئة ، قال فما الحرمد ؟ قال الأسود ، فدعا ابن عباس غلاماً فقال اكتب ما يقول هذا الرجل .

قيل ولعل ذا القرنين لما بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك في نظره إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء . ولذلك قال ﴿وجدها تغرب﴾ ولم يقل كانت تغرب ، قاله البيضاوي ، يعني على العادة من أن الشخص إذا كان في البحر

يرى الشمس كأنها تغرب فيه ، قيل وتسمية البحر المحيط عيناً لا محذور فيه ، خصوصا وهو بالنسبة الى ما هو أعظم منه في علم الله .

وفي القرطبي قال بعض العلماء : ليس المراد أنه انتهى الى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل الى جرمها ومسها لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلصق بالأرض ، وهي أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض لأنها أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، بل المراد أنه انتهى الى آخر العمارة من جهتي المغرب والمشرق فوجدها في رأي العين تغرب في عين حمئة ، كما انا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض ؛ ولهذا قال ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليه .

وقال القتيبي : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر وتكون الشمس تغيب وراءها أو عندها أو معها فيقام حرف الصفة مقام صاحبه والله أعلم . أ هـ .

أقول ولا يبعد أن يقال لا مانع من أن يمكنه الله من عبور البحر حتى يصل إلى تلك العين التي تغرب فيها الشمس ، وما المانع من هذا بعد أن حكى الله عنه أنه بلغ مشرق الشمس ومكن له في الأرض والبحر من جملتها ، ومجرد الاستبعاد لا يوجب حمل القرآن على خلاف ظاهره .

قال الكرخي : فالله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس ، فلمَ لا يجوز ذلك وإن كنا لا نعلم به لقصور عقولنا عن الإحاطة بذلك ، وأيضاً الأنبياء والحكماء لا يبعد أن يقع منهم مثل ذلك . ألا ترى الى ظن موسى فيما أنكره على الخضر . أ هـ .

﴿ووجد عندها﴾ أي عند العين أو الشمس ﴿قوماً﴾ قيل هم قوم عراة

لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لفظ البحر ، وكانوا كفاراً ، قاله البيضاوي . ومن المعلوم أن الكفر إنما يتحقق بعد بعثة رسول وعدم إيمانهم به ، ولينظر أي رسول أرسل الى هؤلاء حتى كفروا به .

هذا والأظهر أنهم كانوا أهل فترة لم يرسل إليهم أحد ، ولما جاءهم ذو القرنين دعاهم الى ملة ابراهيم ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ؛ فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم فقال :

﴿قلنا ياذا القرنين﴾ يستدل بها من يزعم أنه كان نبياً فإن الله خاطبه بالوحي ومن قال إنه لم يكن نبياً أوّله بالإلهام ، ويحتمل أن يكون الخطاب على لسان نبي غيره ﴿إما أن تعذب﴾ إياهم بالقتل من أول الأمر ﴿وإما أن تتخذ فيهم حُسناً﴾ أي أمراً ذا حسن أو أمراً حسناً مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر ، والمراد دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع ،قيل: وإما للتقسيم دون التخيير ، أي ليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الاحسان ، فالأول لمن أصرّ على الكفر والثاني لمن تاب منه والأول أولى .

﴿قال﴾ ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترديد ﴿أما من ظلم﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي ﴿فسوف نعذبه﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ثم يرد إلى ربه﴾ في الآخرة ﴿فيعذبه﴾ فيها ﴿عذاباً نكراً﴾ أي منكراً فظيعاً شديداً بالنار لأنها أنكر من القتل، قال الزجاج : خيره الله بين الأمرين .

قال النحاس : وَرُدَّ على ابن سليمان قوله لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا فكيف يقول لربه عز وجل ﴿ثم يرد الى ربه﴾ وكيف يقول فسوف نعذبه فيخاطبه بالنون ، قال والتقدير قلنا يامحمد قالوا ياذا القرنين ، قال النحاس : وهذا الذي ذكره لا يلزم لجواز أن يكون الله عز وجل خاطبه

على لسان نبي في وقته ، وكان ذو القرنين خاطب أولئك القوم ، فلا يلزم ما ذكره ، ويمكن أن يكون مخاطباً للنبي الذي خاطبه الله على لسانه أو خاطب قومه الذي وصل بهم الى ذلك الموضع .

﴿وأما من آمن﴾ بالله وصدق دعوتي ﴿وعمل﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿فله جزاء الحسنى﴾ بنصب جزاء وتنوينه، قال الفراء : نصبه على التمييز وقال الزجاج : هو مصدر في موضع الحال ، أي مجزياً بها جزاء ، وقرىء بالإضافة أي جزاء الخصلة الحسنى عند الله أو الفعلة الحسنى وهي الجنة ، قاله الفراء .وقيل: إضافة الجزاء الى الحسنى التي هي الجنة كإضافة حق اليقين ودار الآخرة ، ويجوز ان يكون هذا الجزاء من ذي القرنين أي أعطيه وأتفضل عليه .

﴿وسنقول له﴾ أي لمن آمن ﴿من أمرنا يسراً﴾ أي مما نأمر به قولاً ذا يسر ليس بالصعب الشاق أو أطلق عليه المصدر مبالغة ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً آخر غير الطريق الأولى ، وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها الى المشرق واستمر فيه لا يمل ولا تغلبه أمة مرَّ عليها .

﴿حتى إذا بلغ﴾ في مسيره ذلك ﴿مطلع الشمس﴾ أي الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمور الأرض،أو مكان طلوعها لعدم المانع شرعاً ولا عقلاً من وصوله اليه كما أوضحناه فيما سبق ، قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة ، وقيل في أقل من ذلك بناء على أنه سخر له السحاب وطويت له الأسباب .

﴿وجدها تطلع على قوم﴾قيل: هم الزنج وقيل:هم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم حاحيالق واسمها بالسريانية مرقسا ، وهم مجاورون يأجوج ومأجوج ﴿لم نجعل لهم من دونها﴾ أي الشمس ﴿ستراً﴾ يسترهم لا من

البيوت والسقوف ولا من اللباس بل هم حفاة عراة لا يأوون الى شيء من العمارة ، قيل لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء .

قال كعب : أرضهم لا تمسك الأبنية لرخاوتها وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها فـإذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم . قال الزمخشري وعن بعضهم قال : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء القوم فقيل لي بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا أحدهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف الأخرى ، فلما قرب طلوع الشمس سمعت صوتاً كهيئة الصلصلة فغشي عليَّ ثم أفقت فلما طلعت الشمس فإذا هي فوق الماء كهيئة الزيت ، فأدخلوني سرباً لهم فلما طلع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم .

وقال مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض ، وفي كتب الهيئة إن أكثر حال الزنج كذلك ، وكذا حال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء .

﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ أي كذلك أمر ذي القرنين ، اتبع هذه الأسباب حتى بلغ ، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به أو من الآلات والجند وغيرهما .

وقيل المعنى لم نجعل لهم ستراً مثل ذلك الستر الذي جعلنا لكم من الأبنية والثياب ، وقيل المعنى وكذلك بلغ مطلع الشمس مثل ما بلغ من مغربها وقيل المعنى كذلك يطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم ، فقضى في هؤلاء مثل ما قضى في أولئك من تعذيب الظالمين والإحسـان الى المؤمنين وهو الأصح ويكون تأويل الإحاطة بما لديه في هذه على ما يناسب ذلك كما قلنا في الوجه الأول، ثم حكى سبحانه سفر ذي القرنين الى ناحية أخرى وهي ناحية القطر الشمالي بعد تهيئة أسبابه فقال :

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ
أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا
قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ
نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب واستمر آخذاً فيه ﴿حتى إذا بلغ﴾ في مسيره ذلك ﴿بين السدين﴾ بفتح السين وقرىء بضمها وهما سبعيتان .

وقال أبو عبيدة وابن الأنباري وأبو عمروبن العلاء : السد إن كان بخلق الله تعالى فهو بضم السين حتى يكون بمعنى مفعول أي هو مما فعله الله وخلقه ، وإن كان من عمل العباد فهو بالفتح حتى يكون حدثاً .

وقال ابن الأعرابي : كل ما قابلك فَسَدَّ ما وراءه فهو سد ، وسد نحو الضعف والضعف والفقر والفقر ، والسدان هما جبلان من قِبل أرمينية وأذربيجان. قاله ابن عباس . وقيل موضع بين السدين هو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق ، وقيل هما جبلان عاليان جداً أملسان لا يستطاع الصعود عليهما كالسد الآتي ، ويسمى كل واحد منهما سداً لأنه سد فجاج الأرض .

وفي الشهاب إطلاق السد على الجبل لأنه سد في الجملة، وفي القاموس السد الجبل والحاجز أو لكونه ملاصقاً للسد فهو مجاز بعلاقة المجاورة .

وحكى ابن جرير في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجه إنساناً

من ناحية الجزر فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع وراء خندق وثيق منيع .

وحكى أن الواثق بعث بعض من يثق به إليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الأبواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل ، وقيل جبلان في أواخر الشمال .

قال الرازي : والأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال سد الإسكندر ما بينهما ، أي الفتحة وطولها مائة فرسخ ، وليس ليأجوج ومأجوج طريق يخرجون منها الى أرض العمارة إلا هذه الفتحة ومسكنهم وراء هذين الجبلين ، وأرضهم متسعة جداً تنتهي الى البحر المحيط .

﴿وجد من دونهما﴾ أي من ورائهما مجاوزاً عنهما ، وقيل أمامهما أي خارجة عنهما لا داخلة بناحية يأجوج ومأجوج . وقال الخطيب بقربهما من الجانب الذي هو أدنى منهما الى الجهة التي أتى منها ذو القرنين ﴿قوماً﴾ أي أمة من الناس لغتهم في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم من بقية البلاد ، فلذا ﴿لايكادون﴾ أي لا يقربون ﴿يفقهون﴾ أي يفهمون ﴿قولاً﴾ ممن مع ذي القرنين فهماً جيداً كما يفهم غيرهم لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم .

وقرىء بضم الياء وكسر القاف من أفقه اذا أبان ، أي لا يبينون لغيرهم كلاماً ، وقرىء بفتح الياء والقاف أي لا يفهمون كلام غيرهم ، والقراءتان صحيحتان ومعناهما لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم ولسانهم غريب مجهول لشدة عجمتهم فكلامهم مغلق قال ابن جريج هم الترك .

﴿قالوا﴾ أي هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً ﴿ياذا القرنين﴾ وهو الإسكندرالأكبر ، قيل إن فهمه لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله ، وقيل إنهم قالوا ذلك لترجمانهم ؛ فقال لذي القرنين بما قالوا له ، وذلك لأنهم

من أولاد يافث بن نوح وذو القرنين من أولاد سام فلا يفهم لغتهم .

﴿إن يأجوج ومأجوج﴾ اسمان عجميان لا اشتقاق لهما بدليل منع صرفهما للعلمية والعجمة ، وبه قال الأكثر ، وقيل عربيان مشتقان من أج الظليم في مشبه اذا هرول ، وتأججت النار إذا تلهبت ، وقرأهما الجمهور بغير همز ، وقرأ عاصم بالهمز .

قال ابن الأنباري : وجه همزهما وإن لم يعرف له أصل أن العرب قد همزت حروفاً لا يعرف الهمز فيها أصل ، كقولهم كَبْأَتَ وَرَثْأَتَ وَاسْتَشْأَتَ الريح ، ويحتمل أن تكون الهمزة أصلاً والألف بدلاً عنها أو بالعكس ، لأن العرب تتلاعب بالأسماء العجمية ، قال أبو علي : يجوز أن يكونا عربيين ، فمن همز فهو على وزن يفعول ، مثل يربوع ، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفاً مثل رأس .

وأما مأجوج فهو مفعول من أج والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق ، قال وترك الصرف فيهما على تقدير كونهما عربيين للتأنيث والتعريف كأنه اسم للقبيلة . وقيل : اشتقاقهما من الأَوْجَة وهي الاختلاط أو شدة الحر ، وقيل من الأوج وهو سرعة العدو ، واختلف في نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم ، وقيل يأجوج ومأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم .

وقال كعب الأحبار: احتلم آدم فاختلط ماؤه بالتراب فخلقوا من ذلك الماء قال القرطبي : وهذا فيه نظر لأن الأنبياء لا يحتلمون ، وانما هم من ولد يافث ، كذلك قال مقاتل وغيره . وقد وقع الخلاف في صفتهم ، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة ، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة ، ومنهم من يكون لهم مخالب كمخالب السباع ، وإن منهم صنفاً يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى ، ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم .

قال ابن عباس : يأجوج ومأجوج شبر وشبران وأطولهم ثلاثة أشبار وهم من ولد آدم وفيهبعد،وعن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً ، وإن من ورائهم ثلاث أمم تاويل وتاريس ومنسك ، أخرجه الطبراني وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي وغيرهم قيل هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء ومسافة الأرض بتمامها خمسمائة عام ثلثمائة بحار ومائة وتسعون مسكن لهم بقي عشرة سبعة للحبشة وثلاثة لجملة الخلق غيرهم وهم كفار دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الايمان ليلة الإسراء فلم يجيبوا والله أعلم .

﴿مفسدون في الأرض﴾ بالنهب والبغي عند خروجهم ، وقيل سيفسدون بعد خروجهم إلينا، واختلف فيإفسادهم في الأرض فقيل هو أكل بني آدم ، وقيل هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد، وقيل كانوا يخرجون الى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم الى ذي القرنين في أيام الربيع فلا يدعون فيها شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا حملوه وأدخلوه أرضهم .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض يحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستفتحونه غداً فيعودون اليه أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستفتحونه إن شاء الله تعالى ويستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الأرض وعلونا من في السماء قسراً وعلواً فيبعث الله عليهم نغفا في أقفائهم فيهلكون ، قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم فوالذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم[١] .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق ، قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم اذا كثر الخبث[٢] ، وأخرجا نحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً وقد ذكرنا تفصيل حالهم في حجج الكرامة فراجعه ﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ هذا الاستفهام من باب حسن الأدب مع ذي القرنين وقرىء خراجاً .

قال الأزهري : الخراج يقع على الضريبة ويقع على مال الفيء ويقع على الجزية وعلى الغلة ، والخراج أيضاً اسم لما يخرج من الفوائض في الأموال والخرج المصدر ، وقال قطرب : الخرج الجزية والخراج في الأرض وقيل : الخرج ما يخرجه كل أحد من ماله والخراج ما يجبيه السلطان ، وقيل : هما بمعنى واحد قال ابن عباس خرجاً أي أجراً عظيماً وجعلاً من الأموال .

﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي ردماً حاجزاً بيننا وبينهم فلا يصلون إلينا، قال الخليل وسيبويه : الضم[٣] هو الاسم والفتح المصدر ، وقال الكسائي : الضم والفتح لغتان بمعنى واحد وقد سبق قريباً ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء وأبي عبيدة وابن الأنباري من الفرق بينهما .

وقال ابن أبي اسحاق : ما رأته عيناك فهو سُد بالضم وما لا ترى فهو سد بالفتح وقد قدمنا بيان من قرأ بالفتح وبالضم في السدين .

﴿قال﴾ لهم ذو القرنين ﴿ما مكني فيه ربي﴾ أي ما بسطه الله لي من

---

(١) الترمذي ٢/١٩٧ ـ الحاكم ٤/٤٨٨ ـ الإمام أحمد ٢/٥١٠ .

(٢) مسلم ٢٨٨٠ ـ البخاري ١٥٨٢ .

(٣) الضم : أي ضم السين في «سدّا» ومثله الفتح .

المال والقدرة والملك وفي قراءة سبعية بنونين من غير ادغام ﴿خير﴾ من خرجكم الذي تجعلونه لي فلا حاجة لي اليه وأجعل لكم السد تبرعاً ثم طلب منهم المعاونة له فقال ﴿فأعينوني بقوة﴾ أي برجال منكم يعملون بأيديهم أو أعينوني بآلات البناء او بمجموعهما .

قال الزجاج : بعمل تعملونه معي ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ حاجزاً حصيناً وهذا جواب الأمر ، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل .

قال الهروي : يقال ردمت الثلمة أردمها بالكسر ردماً أي سددتها والردم أيضا الاسم وهو السد ، وقيل :الردم أبلغ من السداد، السد كل ما يسد به والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوهما حتى يقوم من ذلك حجاب منيع ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض ، قال ابن عباس : الردم هو أشد الحجاب .

﴿آتوني﴾ أي أعطوني وناولوني ﴿زبر الحديد﴾ جمع زبرة كغرفة وغرف وهي القطعة ، قال الخليل : الزبرة من الحديد القطعة الضخمة ، قال الفراء : معناه آتوني بها على قدر الحجارة التي يبنى فيها فبنى بها وجعل بينها الحطب والفحم ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ بفتح الحرفين وضمهما وضم الأول وسكون الثاني ، والثاني اشهر اللغات وقرىء بفتح الصاد وضم الدال .

وقال الأزهري : يقال لجانبي الجبل صدفان اذا تحاذيا لتصادفهما أي تلاقيهما وكذا قال أبو عبيدة والهروي وقد يقال لكل بناء عظيم مرتفع صدف قاله أبو عبيدة ؛ وفي البيضاوي الصدفين من الصدف وهو الميل لأن كلا منهما منعزل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل وقال ابن عباس : الصدفين الجبلين ، وقال مجاهد : رؤوس الجبلين ، ومعنى الآية أنهم أعطوه زبر الحديد فجعل يبني بها بين الجبلين حتى ساواهما .

ثم ﴿قال﴾ للعملة ﴿انفخوا﴾ على هذه الزُّبَر بالكيران ﴿حتى إذا

جعله﴾ أي جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزُّبَرُ ﴿ ناراً﴾ أي كالنار في حرها وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الآمر بالنفخ قيل :كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى يحمى ، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة وهو معنى قوله :

﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال أهل اللغة هو النحاس الذائب وبه قال ابن عباس : والإفراغ الصب وكذا قال أكثر المفسرين ، وقالت طائفة : القطر الحديد المذاب ، وقالت طائفة أخرى منهم ابن الأنباري : هو الرصاص المذاب فدخل القطر بين زُبَره فصار شيئاً واحداً قيل :وهذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لأن الزُّبْرَة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها والنفخ عليها لا يمكن إلا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه .

﴿فما اسطاعوا﴾ أصلها فما استطاعوا ، قال ابن السكيت : يقال ما أستطيع وما أسطيع وما أستيع وبالتخفيف قرأ الجمهور وقرأ حمزة وحده فما اسطاعوا بتشديد الطاء وهي قراءة ضعيفة الوجه .

قال أبو علي الفارسي : هي غير جائزة وقرىء على الأصل ﴿أن يظهروه﴾ أي يعلوه قاله ابن جريج ، وقال قتادة : أن يرتقوه فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته فكان ارتفاعه مائتي ذراع ولملاسته لا يثبت عليه قدم ولا غيره .

﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ يقال نقبت الحائط إذا خرقت فيه خرقاً فخلص ما وراءه ، قال الزجاج : ما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته وسمكه وثخنه أي عرضه قيل : إن عرضه خمسون ذراعاً وطوله فرسخ وسعة الفتحة التي بين الجبلين مائة فرسخ .

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا
بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

﴿قال﴾ ذو القرنين مشيراً الى السد ﴿هذا﴾ السد أي الإقدار عليه ﴿رحمة من ربي﴾ أي أثر من آثار رحمته لهؤلاء المجاورين للسد ولمن خلفهم ممن يخشى عليه معرتهم ولو لم يكن ذلك السد فهو نعمة لأنه مانع من خروجهم ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي أجله أن يخرجوا منه وقيل هو مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة ﴿جعله﴾ الظاهر أن الجعل هنا بمعنى التصيير وعند ابن عطية بمعنى خلق وفيه بعد لأنه إذ ذاك موجود ﴿دكاء﴾ أي مستوياً بالأرض ومنه ﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ قاله الترمذي : اي مستوياً يقال ناقة دكاء إذا ذهب سنامها .

وقال القتيبي : أي جعله مدكوكاً مبسوطاً ملصقاً بالأرض وقيل مساوياً للأرض فيغور فيها أو يذوب حتى يصير تراباً ، وقال الحليمي قطعاً منكسرة ومن قرأ دكاء بالمد أراد التشبه بالناقة الدكاء وهي التي لا سنام لها أي مثل دكاء لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء وقرأ الباقون دكاً بالتنوين على أنه مصدر ومعناه ما تقدم ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الحال أي مدكوكاً ، قال قتادة لا أدري آلجبلين يعني به أم بينهما؟

﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي بخروجهم أو وعده بالثواب والعقاب أو

الوعد المعهود حقاً ثابتاً لا يتخلف ، وهذا آخر قول ذي القرنين .

ثم قال الله تعالى ﴿وتركنا بعضهم﴾ أي بعض يأجوج ومأجوج ﴿يومئذ يموج في بعض﴾ أي جعلنا وصيَّرنا بعضهم يوم مجيء الوعد أو يوم خروج يأجوج ومأجوج يختلط ويموج في بعض آخر منهم ، يقال ماج الناس إذا دخل بعضهم في بعض حيارى كموج الماء ، والمعنى أنهم يضطربون ويختلطون من شدة الازدحام عند خروجهم عقب موت الدجال فينحاز عيسى بالمؤمنين الى جبل الطور فراراً منهم ، ثم يسلط الله عليهم دوداً في أنوفهم فيموتون به ولا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ولا يصلون الى من تحصن منهم بورد أو ذكر وتمام قصتهم في كتابنا حجج الكرامة .

وقيل الضمير في بعضهم للخلق واليوم يوم القيامة أي وجعلنا بعض الخلق من الجن والأنس يموج في بعض ، وقيل المعنى وتركنا يأجوج ومأجوج يوم كمال السد وتمام عمارته بعضهم يموج في بعض .

﴿ونفخ في الصور﴾ أي القرن للبعث وقد تقدم تفسيره وفيه دليل على أن خروجهم من علامات قرب الساعة ، قيل هي النفخة الثانية بدليل قوله بعد ﴿فجمعناهم جمعاً﴾ فإن الفاء تشعر بذلك ولم يذكر النفخة الأولى لأن المقصود هنا ذكر أحوال القيامة والمعنى جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها تراباً جمعاً تاماً على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب في صعيد واحد .

﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ المراد بالعرض هنا الإظهار أي أظهرنا جهنم حتى شاهدوها يوم جمعنا لهم ، وفي ذلك وعيد للكفار عظيم لما يحصل معهم عند مشاهدتها من الفزع والروعة .

ثم وصف الكافرين المذكورين بقوله ﴿الذين كانت أعينهم﴾ في الدنيا أي أعين قلوبهم أي بصائرهم ﴿في غطاء﴾ أي غشاء وستر وهو ما غطى الشيء وستره من جميع الجوانب ﴿عن﴾ سبب ﴿ذكري﴾ وهي الآيات التي

يشاهدها من له تفكر واعتبار فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد فأطلق المسبب على السبب أو عن القرآن العظيم وتأمل معانيه وتدبر فوائده فهم عمي لا يهتدون به .

ثم لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل التكوينية أو التنزيلية أو مجموعهما أراد أن يصفهم بالصم عن استماع الحق فقال: ﴿وكانوا لا يستطيعون﴾ أي لا يعقلون ﴿سمعاً﴾ قاله مجاهد ، وقيل: لا يقدرون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم لغلبة الشقاوة عليهم ولشدة عداوتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا أبلغ مما لو قال : وكانوا صماً لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية ، وفي ذكر غطاء الأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الأدلة السمعية .

﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ الحسبان هنا بمعنى الظن والاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، والمعنى أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر آيات الله وتمردهم عن قبول الحق ، وعن عليّ أنه قرأ أَفَحَسْبُ بجزم السين وضم الباء .

وعن عكرمة أنه قرأ كذلك ومعناه أَكَافِئُهُم وَمُحْسِبُهُم أن يتخذوا عيسى وعزيراً والملائكة أرباباً من دونه تعالى بل هم لهم أعداء يتبرأون منهم ، وقيل يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله .

والمعنى أظنوا أن الاتخاذ المذكور لا يغضبني ولا أعاقبهم عليه ، قال الزجاج : المعنى أيحسبون أن ينفعهم ذلك يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا كلا ﴿إنا اعتدنا﴾ هيأنا ﴿جهنم للكافرين نزلاً﴾ يتمتعون به عند ورودهم قال الزجاج : النزل المأوى والمنزل ، وفي القاموس ما يقتضي أن كل منزل يقال له نُزُل، ففي تقييد النزل بمكان الضيف نظر كما قال بعضهم إنه الذي يعد للضيف ؛ وعلى هذا فيكون تهكماً بهم كقوله ﴿فبشرهم

بعذاب أليم﴾ والمعنى أن جهنم معدة لهم عندنا كما يعد المنزل للضيف .

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ جمع أخسر أي أشد خسراناً من غيرهم أو بمعنى خاسر،وجمع العمل للدلالة على إرادة الأنواع منه ، عن مصعب بن سعد قال : سألت أبي أَهُمُ الحرورية؟ قَال: لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب،والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وكان سعد يسميهم الفاسقين ، وعنه قال : لا ولكنهم أصحاب الصوامع،والحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم .

وعن عليّ قال : إنهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري،وعنه قال هم فجرة قريش، وعنه قال: لا أظن إلا أن الخوارج منهم ﴿الذين ضل﴾ أي بطل وضاع ﴿سعيهم﴾ كالعتق والوقف وإغاثة الملهوف لأن الكفر لا تنفع معه طاعة ﴿في الحياة الدنيا وهم يحسبون﴾ أي والحال أنهم يظنون ﴿أنهم يحسنون صنعاً﴾ عملاً يجازون عليه وأنهم منتفعون بآثاره .

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا
﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ
كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾
قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم﴾ مستأنفة مسوقة لبيان تكميل الخسران وسببه، وهذا أولى الوجوه ومعنى كفرهم بالآيات كفرهم بدلائل توحيده من الآيات التكوينية والتنزيلية ﴿ولقائه﴾ أي كفروا بالبعث والحساب والثواب والعقاب وما بعده من أمور الآخرة ثم رتب على ذلك قوله ﴿فحبطت أعمالهم﴾ التي عملوها مما يظنونه حسناً وهو خسران وضلال ثم حكم عليهم بقوله ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم بل نزدريهم ونستذلهم .

وقيل لا يقام لهم ميزان توزن به أعمالهم لأن ذلك إنما يكون لأهل الحسنات والسيئآت من الموحدين وهؤلاء لا حسنات لهم .

قال ابن الأعرابي : العرب تقول ما لفلان عندنا وزن أي قدر لخسته ويوصف الرجل بأنه لا وزن له لخفته وسرعة طيشه وقلة تثبته ، والمعنى على هذا أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة .

وقرأ مجاهد يقيم أي فلا يقيم الله وقرأ الباقون بالنون وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنه ليأتي

الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال اقرأوا إن شئتم: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً[١] .

ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء ومايؤول إليه أمرهم فقال ﴿ذلك﴾ أي الذي ذكرناه من أنواع الوعيد وحبوط أعمالهم وخسة قدرهم ﴿جزاؤهم جهنم﴾ عطف بيان للجزاء والسبب في ذلك أنهم ضموا الى الكفر اتخاذهم آيات الله واتخاذ رسله هزواً ، والباء في ﴿بما كفروا﴾ للسببية ﴿واتخذوا آياتي ورسلي هزوا﴾ أي مهزوءاً بهم .

ثم ذكر سبحانه بعد هذا الوعيد لهؤلاء الكفار الوعد للمؤمنين فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بينهما حتى كانوا على ضد صفة من قبلهم ﴿كانت لهم﴾ فيما سبق من علم الله لأهل طاعته قاله ابن الأنباري ﴿جنات الفردوس نزلاً﴾ قال المبرد: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب ، واختار الزجاج ما قاله مجاهد أن الفردوس البستان باللغة الرومية ، وقيل كل ما حوط فهو فردوس والجمع فراديس .

وحكى الزجاج : أنها الأودية التي تنبت ضروباً من النبت فقيل هو عربي وقيل أعجمي وقيل فارسي وقيل سرياني ، وقد تقدم بيان النزل ، والمعنى كانت لهم ثمار جنة الفردوس نزلاً معداً لهم مبالغة في إكرامهم.

أخرج الطبراني والحاكم وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سلوا الله الفردوس فانها سُرَّةُ الجنة وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش[٢] .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله

---

(١) مسلم ٢٧٨٥ ـ البخاري ٢٠٢٣ .

(٢) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧١ .

صلى الله عليه وسلم : إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة[١] .

وأخرج الترمذي وأحمد والحاكم والبيهقي وعبد بن حميد عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن في الجنة مائة درجة كل درجة منها ما بين السماء والأرض ، الفردوس أعلاها درجة ومن فوقها يكون العرش ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس[٣] .

وعن السدي هو الكرم بالنبطية ، وقال كعب : هي جنات الأعناب بالسريانية وعنه ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأوسعها وأفضلها وأرفعها وقيل :هي الجنة الملتفة بالأشجار التي تنبت ضروباً من النبات ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة وقد أوضحنا ما جاء في الجنان كلها ونعيمها من الأحاديث والآثار في كتاب سميناه مثير ساكن الغرام الى روضات دار السلام .

﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾ قال مجاهد : متحولاً أي لا يطلبون تحولاً عنها إلى غيرها إذ هي أعز من أن يطلبوا غيرها أو تشتاق أنفسهم الى سواها قال ابن الأعرابي وابن قتيبة والأزهري : الحول اسم بمعنى التحول يقوم مقام المصدر ، وقال أبو عبيدة والفراء : إن الحول التحويل .

ولما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ قال ابن الأنباري : سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب وأصله من الزيادة ومجيء الشيء،بعد الشيء،ويقال للزيت الذي يوقد به السراج مداداً ، والمراد بالبحر هنا الجنس، والمعنى لو كتبت كلمات علم الله

---

(١) الإمام أحمد ٢/٣٣٥ ـ ٢/٣٣٩ ولم أجده في الصحيحين .

(٣) الترمذي كتاب الجنة باب ٤ .

وحكمته وعجائبه وفرض أن جنس البحر مداد لها ﴿لنفد البحر﴾ أي لفنى ماؤه ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ أي قبل نفود الكلمات، وقيل المعنى لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب لنفد البحر قبل نفود كلمات ربي أي علمه . قاله مجاهد .

وقال قتادة : ينفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام الله وحكمته ، وقيل المراد بها معلوماته ، قرىء تنفد بالتاء والياء وهما سبعيتان وذكر في الكشاف أن قبل هنا بمعنى غير أو بمعنى دون ، وقيل عنى سبحانه بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى ، وهو إن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من الفوائد، وقد عبرت العرب عن الفرد بلفظ الجمع قال الأعشى :

ووجه نقي اللون صاف يزينه مع الجيد لبات لها ومعاصم

فعبر باللبات عن اللبة قال الجبائي : إن قوله ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ يدل على أن كلماته قد تنفد في الجملة ، وما ثبت عدمه امتنع قدمه ، وأجيب بأن المراد الألفاظ الدالة على متعلقات تلك الصفة الأزلية ، وقيل في الجواب إن نفاد شيء قبل نفاد شيء آخر لا يدل على نفاد الشيء الآخر ولا على عدم نفاده ، فلا يستفاد من الآية إلا كثرة كلمات الله بحيث لا تضبطها عقول البشر ، أما أنها متناهية أو غير متناهية فلا دليل على ذلك في هذه الآية ، والحق أن كلمات الله تابعة لمعلوماته وهي غير متناهية فالكلمات غير متناهية .

﴿ولو جئنا بمثله مددا﴾ كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت قوله ﴿قل لو كان البحر﴾ وفيه زيادة مبالغة وتأكيد،والواو لعطف ما بعده على جملة مقدرة مدلول عليها بما قبلها أي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لو لم يجيء بمثله مدداً ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي البحر ﴿مدداً لنفد﴾ أيضاً والمدد الزيادة وقرىء مداداً وهي كذلك في مصحف أبيّ .

ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسلك مسلك التواضع فقال ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي آدمي حالي مقصور على البشرية لا يتخطاها إلى الملكية ومن كان هكذا فهو لا يدعي الإحاطة بكلمات الله إلا أنه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه فقال ﴿يوحى إليَّ﴾ وكفى بهذا الوصف فارقاً بينه وبين سائر أنواع البشر .

ثم بيَّن أن الذي أوحي اليه هو قوله ﴿إنما إلهكم إله واحد﴾ لا شريك له في الألوهية والملك وفي هذا إرشاد الى التوحيد ثم أمرهم بالعمل الصالح والتوحيد فقال ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل،والمعنى من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين ويخاف المصير اليه ، وقيل يؤمل رؤية ربه والبعث والجزاء ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ هو ما دل الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله أي مستوفياً لمعتبر أنه شرعٌ عن ابن عباس قال : أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً آخر غيره وليست هذه في المؤمنين .

﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ من خلقه سواء كان صالحاً أو طالحاً ، حيواناً أو جماداً ، قال الماوردي : قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً .

وأقول إن دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء . ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية .

عن ابن عباس قال : قال رجل يانبيّ الله إني أقف المواقف أبتغي وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية .

وعنه قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لقالة الناس فلا يريد به الله فنزل في ذلك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد بن أبي فضالة الانصاري وكان من الصحابة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك[١] .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا فقال : لا أجر له فأعظم الناس ذلك فعاد الرجل فقال لا أجر له[٢] ، وعن شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشرك الأصغر .

وعنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صلى يرائي فقد أشرك ومن صام يرائي فقد أشرك ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، ثم قرأ ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الآية[٣] ، أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن شداد أيضاً قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غني[٤] ، أخرجه أحمد وأبو نعيم الطيالسي .

واخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان رجل[٥] .

---

(١) الترمذي تفسير سورة ١٨/٦ - الإمام أحمد: ٢١٥/٤ .
(٢) المستدرك كتاب التفسير ٣٧١/٢ .
(٣) الإمام أحمد ١٢٦/٤ .
(٤) الإمام أحمد ١٢٦/٤ .
(٥) الإمام أحمد ٣٠/٣ .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن شداد ابن أوس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية قلت أتشرك أمتك بعدك؟ قال: نعم أما أنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكن يراؤون الناس بأعمالهم ، قلت:يارسول الله ما الشهوة الخفية؟ قال: يصبح أحدهما صائماً فيعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته[1] .

وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه أنه قال : أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو الذي أشرك وفي لفظ فمن أشرك بي أحداً فهو له كله[2] .

وفي الباب أحاديث كثيرة في التحذير من الرياء وأنه الشرك الأصغر وأن الله لا يقبله ، وقد استوفاها صاحب الدر المنثور في هذا الموضع فليرجع اليه ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية بل الشرك الجلي يدخل تحتها دخولاً أولياً وعلى فرض أن سبب النزول هو الرياء كما يشير الى ذلك ما قدمنا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في علم الأصول .

وقد ورد في فضائل هذه الآية بخصوصها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه عن حكيم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم ، وأخرج ابن راهويه والبزار والحاكم وصححه والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ في ليلة ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾

---

(١) الإمام أحمد ١٢٤/٤ .

(٢) مسلم ٢٩٨٥ ـ الإمام أحمد ٣٠١/٢

الآية كان له نور من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة قال ابن كثير بعد إخراجه غريب جداً[١] .

وعن معاوية بن أبي سفيان أنه تلا هذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن ، قال ابن كثير وهذا أثر مشكل فإن هذه الآية هي آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها ولا ما يغير حكمها بل هي مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروي بالمعنى على ما فهمه[٢] .

---

(١) إبن كثير ٣/١١٠ .

(٢) إبن كثير ٣/١١٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

هي مكية وآياتها ثمان أو تسع وتسعون آية

قال ابن عباس : أنزلت بمكة . وعن ابن الزبير وعائشة مثله . وفي البيضاوي . الا آية السجدة . وفي الجلالين : الا سجدتها فمدنية . أو والا ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ الآيتان وأخرج أحمد والبيهقي وابن أبي حاتم عن أم سلمة أن النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب : هل معك مما جاء به - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن الله شيء ؟ قال : نعم، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) فبكى النجاشي[1] حتى أخضلت لحيته وبكت أساقفته . حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم . ثم قال النجاشي : ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة وقد ذكر ابن اسحاق القصة بطولها .

وقد تقدم في الجزء الاول من هذا التفسير أن أسماء السور وترتيبها . وترتيب الآيات توقيفي . ولم تذكر امرأة باسمها صريحا في القرآن الا مريم فذكرت فيه في ثلاثين موضعا .

---

(١) أخضل الشيء اخضلالاً واخضوضل أي ابتل إ هـ صحاح ، والأسقف رئيس من رؤساء النصارى في الدين والجمع أساقفة إ هـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ
رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ
سَمِيًّا ﴿٧﴾

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ قال ابن عباس : كبير هاد أمين عزيز صادق . وعن ابن مسعود وناس من الصحابة : هو الهجاء المقطع الكاف من الملك والهاء من الله والياء والعين من العزيز والصاد من المصور .

وعن أم هانىء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كاف هاد عالم صادق ،وعن علي كان يقول يا كٓهيعٓصٓ اغفر لي ، وعن السدي قال : كان ابن عباس يقول : في كٓهيعٓصٓ ، وحٓم ، ويٓس ، وأشباه هذا هو بسم الله الأعظم وعن ابن عباس : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله وقال قتادة : هو اسم من اسماء القرآن ، وقيل هو اسم السورة . وعن الكلبي : هو ثناء أثنى الله به على نفسه .

وكما وقع الخلاف في هذا وأمثاله بين الصحابة ، وقع بين من بعدهم ، ولم يصح مرفوعاً في ذلك شيء . ومن روي عنه من الصحابة في ذلك شيء فقد روي عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابي نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة في هذه الفواتح ، فلا يقوم شيء من ذلك حجة ، بل الحق الوقف ، وردُّ لعلم في مثلها إلى الله سبحانه ، ولذا قال في الجلالين : الله أعلم بمراده

بذلك . وفي الخطيب أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه. وقد قدمنا تحقيق هذا في فاتحة سورة البقرة .

﴿ ذكر ﴾ أي هذا ذكر ، أو المتلو ذكر ، وقيل إنه خبر الحروف المقطعة ، وهو قول يحيى بن زياد . قال أبو البقاء : وفيه بعد ، وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليك ذكر .

قال الزجاج : المعنى هذا الذي نتلوه عليك ذكر ﴿ رحمة ربك ﴾ مضاف لفاعله ومفعوله ﴿ عبده زكريا ﴾ يعني إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد . قيل عبده مفعول لذكر ، ومعنى ذكر الرحمة بلوغها وإصابتها . كما يقال ذكرني معروف فلان أي بلغني .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان زكريا نجاراً[1] ، أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه ، وعن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم من ذرية يعقوب ﴿ إذ نادى ربه ﴾ ظرف زمان للرحمة أي رحمة الله إياه وقت أن ناداه ﴿ نداء ﴾ مشتملاً على دعاء ﴿ خفياً ﴾ سراً جوفَ الليل لأنه أسرع الى الإجابة .

واختلف في وجه كون ندائه هذا خفياً ، فقيل لأنه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الصفاء ، وقيل أخفاه لئلا يلام على طلبه للولد في غير وقته ، ولكونه من أمور الدنيا . وقيل أخفاه مخافة من قومه ، وقيل كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفاً هرماً لا يقدر على الجهر ، لأنه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة وكان النداء في المحراب .

﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله نادى ربه . فالنداء أوله قوله هذا وآخره قوله الآتي ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ فجملة النداء ثمان جمل والدعاء منه هو قوله ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ كما سيأتي ،

---

(١) المستدركَ كتاب التاريخ ٢/٥٩٠ .

والوهن الضعف ، يقال وهن يهن وهناً ، من باب وعد إذا ضعف فهو واهن في الأمر والعمل والبدن ، ووهنته أضعفته ، يتعدى ؛ ولا يتعدى في لغة فهو موهون البدن والعظم ، والأجود أنه يتعدى بالهمزة ، فيقال أوهنته ، والوهن بفتحتين لغة في المصدر ، ووهن يهن بالكسر فيهما لغة ، وقرىء بالحركات الثلاث ، أراد أن عظامه فترت ورقت ؛ وضعفت قوته من الكبر .

وذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه ، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته،ولأنه أشد ما في الانسان وأصلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن . ووحد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام،وقيل اشتكى سقوط الأضراس .

﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ الاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية بأن حذف المشبه به ، وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها . قال الزجاج : يقال للشيب إذا كثر جداً . قد اشتعل رأس فلان .

﴿ ولم أكن بدعائك ﴾ أي بدعائي إياك ﴿ رب شقيا ﴾ يقال شقي بكذا أي تعب فيه ، ولم يحصل مقصوده منه ، فالمعنى لم أكن خائفاً في وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لي ، وهذا توسل بما سلف له من الاستجابة ، وتنبيه على أن المطلوب ـ وإن لم يكن معتاداً ـ فإجابته لدعائه معتادة ، وقد عوده سبحانه بالإجابة وأطعمه ، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطعمه .

قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع . وذكر نعم الله عليه . كما فعل زكريا ههنا . فإن قوله الماضي غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن سرد مطالبه وبلوغ مآربه ، وفي هذا ذكر ما

عوده الله . والإنعام عليه بإجابة أدعيته ، والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع .

﴿ وإني خفت ﴾ بكسر الخاء ﴿ الموالي من ورائي ﴾ وقرىء خفت بكسر التاء وفاعله الموالي ، أي قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدي أو انقطعوا بالموت ، مأخوذ من خفت القوم إذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة وبعيدة عن الصواب . والموالي هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بني العم ، ونحوهم ، والعرب تسمي هؤلاء موالي . وقيل هم الناصرون له ، وقيل الكلالة، وقيل جميع الورثة.

واختلفوا في وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده ، فقيل خاف أن يرثوا ماله وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولداً .

وقال آخرون : إنهم كانوا مهملين لأمر الدين فخاف أن يضيع الدين بموته ، فطلب ولياً يقوم به بعد موته ، وهذا القول أرجح من الأول ، لأن الأنبياء لا يورثون ، وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا وراثة المال ، بل المراد وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين ، وقد ثبت عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] .

﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ هي التي لا تلد لكبر سنها والتي لا تلد أيضاً لغير كبر ، وهي المرادة هنا ؛ ويقال للرجل الذي لا يلد عاقر أيضاً . قال ابن جرير : وكان اسم امرأته أشاع بنت فاقود بن ميل ، وهي أخت حنة ، وهي أم مريم ، فولد لأشاع يحيى ولحنة مريم . وقال القتيبي : هي أشاع بنت عمران ، فعلى القول الأول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أم عيسى . وعلى

(١) مسلم ١٧٥٧ ـ البخاري ١٣٩٠ .

الثاني يكونان ابني خالة ، كما ورد في الحديث الصحيح .

﴿ فهب لي من لدنك ﴾ أي أعطني من فضلك ﴿ ولياً ﴾ مرضياً لأن مثله لا يرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك . ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته في حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما ، وحصوله منها ، وقد قيل : إنه كان ابن بضع وتسعين سنة ، وقيل : بل أراد بالولي الذي طلبه هو الولد ، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة . فإن الله سبحانه قد يكرم رسله ما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ قرىء بالرفع في الفعلين جميعاً على أنهما صفتان للولي ، وليسا بجواب الدعاء ، وقرىء بالجزم فيهما على أنهما جواب للدعاء ، ورجح الأول أبو عبيد ، وقال : هي أصوب في المعنى لأنه طلب ولياً هذه صفته ، فقال : هب لي الذي يكون وارثي . ورجح ذلك النحاس ، والوراثة هنا هي وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف .

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق ابن ابراهيم . وزعم بعضهم أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبي ومقاتل : وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم اليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ، وقد كان فيهم أنبياء وملوك ، وقرىء يرثني وارث آل يعقوب، وقرىءوأرث آل يعقوب، أي أنا، وقرىء «أُوَ يَرِثُ آل يعقوب» على أن هذاالمصغر فاعل يرثني، وهذه القراآت في غاية الشذوذ لفظاً ومعنى.

﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أي مرضياً في أخلاقه وأفعاله ؛ وقيل راضياً بقضائك ، وقدرك ، وقيل رجلاً صالحاً ترضى عنه ، وقيل نبياً كما جعلت آباءه أنبياء .

﴿ يا زكريا ﴾ بالهمز ، وحذفه سبعيتان . قال جمهور المفسرين : إن هذا النداء من الله سبحانه ، وقيل من جهة الملائكة ، لقوله في آل عمران ﴿ فنادته الملائكة ﴾ ويمكن أن يكن وقع له الخطاب مرتين ، مرة بواسطة الملائكة وأخرى من غير واسطة ، وفي الكلام حذف ، أي فاستجاب له دعاءه فقال : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾ وبين هذه البشارة ووجود الغلام في الخارج بالفعل ثلاث عشرة سنة لأن طلب زكريا للولد والبشارة به كان في صغر مريم وهي في كفالته ، وأن الحمل بيحيى كان مقارناً للحمل بعيسى ، وكانت مريم إذ ذاك بنت ثلاث عشرة سنة، وأن أشاع حملت به قبل حمل مريم بعيسى بستة أشهر .

﴿ اسمه يحيى ﴾ قد تقدم في آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا . قال الزجاج : سمي يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها ، وهو الممنوع من الصرف للعلمية والعجمية ، وتقول في تثنيته يحييان رفعاً ويحيين نصباً وجراً ، وفي جمع سلامته يحيون رفعاً ، ويحيين نصباً وجراً .

﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ فعيل بمعنى مفعول، أي مسمى يحيى قال أكثر المفسرين : معناه لم نسم أحداً قبله يحيى .

وقال مجاهد وابن عباس وجماعة : معناه أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً ، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ ، ورد هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى . وقيل: معناه لم تلد عاقر مثله، والأول أولى .

وفي إخباره سبحانه بأنه لم يُسَمِّ بهذا الاسم قبله أحداً فضيلة له من جهتين . الأولى أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به ولم يكلها الى الأبوين ، وسماه بخصوص يحيى لأنه به حيي رحم أمه بعد موته بالعقم ، والجهة الثانية أن تسميته باسم لم يوضع لغيره تفيد تشريفه وتعظيمه .

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ
ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن
قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن
سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾
وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾

﴿ قال رب أنّى ﴾ أي كيف ومن أين ﴿ يكون لي غلام ﴾ وليس معنى هذا الاستفهام الاستبعاد والإنكار، بل التعجب والاستكشاف من قدرة الله وبديع صنعه حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ أي لا تلد ؛ والجملة حال من الياء في لي ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في آل عمران .

﴿ وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ أي يأساً ، يريد بذلك نحول الجسم والجلد ودقة العظم أو يبساً جساوة[1] في المفاصل والعظام من أجل الكبر والطعن في السن العالية يقال عتا الشيخ يعتو عتياً إذا انتهت سنه وكبر ، وشيخ عات اذا صار الى حال اليبس والجفاف والأصل عتواً لأنه من ذوات الواو فأبدلوها ياء لكونها أخف قال السمين : فيه أربعة أوجه أظهرها أنه مفعول به ، أو مصدر مؤكد لمعنى الفعل أو مصدر وقع موقع الحال ، أي عاتياً أو ذا عتو ، الرابع أنه تمييز ، وعلى هذه الأوجه الثلاثة ﴿ من ﴾ مزيدة ذكره أبو البقاء ، والأول هو الأوجه ، انتهى ، وقرىء عِتياً بكسر العين وبضمها وهما لغتان ، وكلتا الجملتين لتأكيد الاستبعاد .

---

(١) جسا ضد لطف وجست اليد وغيرها جسوا وجساء يبست وجسا الشيخ جسوا بلغ غاية السن والماء جمد ، آ هـ صحاح .

والتعجب المستفاد من قوله : ﴿ أنّى يكون لي غلام ﴾ قال ابن عباس : لا أدري كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذا الحرف عتياً أو عتياً . وعن عطاء في قوله عتياً قال : لبث زماناً في الكبر وقال السدي : هرماً ، والمعنى كيف يحصل بيننا ولد الآن وقد كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي : وهي الآن عجوز وأنا شيخ هرم .

ثم أجاب الله سبحانه عن هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : ﴿ قال ﴾ أي الملك المبلغ للبشارة ، وهو كما قال الكواشي : جبريل عليه السلام ، والأكثر على أنه الله تعالى لسلامته عن فك النظم .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك تصديق له والإشارة الى ما سبق من قول زكريا: ثم ابتدأ بقوله : ﴿ قال ربك ﴾ أو قال قولاً مثل ذلك ، والإشارة إلى مبهم يفسره قوله ﴿ هو عليَّ هين ﴾ وعلى الأول هذه الجملة مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، وإنما أعيد : قال ربك ، اهتماماً أي قال هو مع بعده عندك ، عليّ هين ، وهو فيعل من هان الشيء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد . قال الفراء : أي خلقه عليّ هين بأن أرد عليك قوة الجماع وأفتق رحم امرأتك للعلوق .

﴿ وقد خلقتك من قبل ﴾ أي من قبل يحيى ، والجملة حال وقرأ سائر الكوفيين وقد خلقناك ﴿ ولم تك شيئاً ﴾ لأن المعدوم ليس بشيء ، هذه الجملة مقررة لما قبلها قال الزجاج : أي فخلق الولد لك كخلقك ، والمعنى أن الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض ، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه ، وإنما لم ينسب ذلك الى آدم عليه السلام لأنه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئاً ، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم .

﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة تدلني على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل . والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه قال ابن الانباري : وجه ذلك أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما مَنَّ به عليه، وقيل: طلب آية تدله على أن البشرى من الله سبحانه لا من الشياطين ، لأن إبليس أوهمه بذلك ، كذا قال الضحاك والسدي وهو بعيد جداً .

﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ نصب على الحال أي آيتك أن لا تقدر على الكلام ، والحال أنك سوي الخلق صحيح سليم من غير بأس ليس بك آفة تمنعك منه ، والمراد ثلاث ليال بأيامها ، كما في آل عمران ثلاثة أيام وإنما عبر هنا بالليالي ، وهناك بالأيام ، لأن هذه السورة مكية ، والمكي سابق على المدني ، والليل سابق على النهار ، فأعطى السابق للسابق ؛ وأعطى المؤخر للمؤخر ، وقيل : ثلاث ليال متتابعات ، والأول أولى ، قال ابن عباس : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفي لفظ من غير خرس .

﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي من مصلاه متغير اللون ؛ عاجز الكلام فأنكروا ذلك عليه، في القاموس : المحراب الغرفة ، وصدر البيت ، وأكرم مواضعه ، ومقام الإمام من المسجد ، والموضع الذي يتفرد به الملك فيتباعد عن الناس، ومحاريب بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها.

وفي الشهاب: وأما المحراب المعروف الآن، وهو طاق مجوّف في حائط المسجد يصلي فيه الإمام فهو محدث لا تعرفه العرب، فتسميته محراباً اصطلاح للفقهاء انتهى، وهو ممنوع ؛بل هو معنى لغوي إذ هو من أفراد المعنى اللغوي الذي ذكره في القاموس بقوله: ومقام الإمام بالمسجد واشتقاقه من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان، وقيل من الحَرَب محركاً؛ كأن ملازمه يلقى حرباً وتعباً ونصباً.

﴿ فأوحى إليهم﴾ أي أومأ ؛ وأشار، بدليل قوله في آل عمران : إلا رمزاً وقيل كتب لهم على الأرض ، وبالأول قال الكلبي ، والقرظي وقتادة وابن منبه وبالثاني ، قال مجاهد : وقد يطلق الوحي على الكتابة . قال ابن عباس : كتب لهم كتاباً (﴿ أن سبحوا ﴾ مصدرية أو مفسرة ، والمعنى فأوحى إليهم بأن صلوا ؛ أو أي صلوا .

﴿ بكرة وعشياً ﴾ أي نزهوا ربكم طرفي النهار ؛ فهما ظرفا زمان للتسبيح . وانصرفت بكرة لأنه لم يقصد بها العلمية ، فلو قصد بها العلمية امتنعت من الصرف ، قال الفراء : العشي يؤنث ، ويجوز تذكيره اذا أبهم ، قال : وقد يقال : العشي جمع عشية قيل والمراد صلاة الصبح والعصر، وقيل المراد بالتسبيح هو قولهم سبحانه الله .

﴿ يا يحيى ﴾ أي قال الله للمولود يا يحيى ، أو ولد له مولود فبلغ المبلغ لذي يجوز أن يخاطب فيه . فقلنا له يا يحيى .

وقال الزجاج : المعنى فوهبنا له وقلنا له يا يحيى أي بعد ولادته بثلاث سنين على ما قاله قتادة ، وقيل بسنتين يعني على لسان الملك كما قاله أبو حيان ﴿خذ الكتاب ﴾ المراد به التوراة لأنه المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتاباً مختصاً به وإن كنا لا نعرفه الآن .

والمراد بالأخذ إما الأخذ الحسي ، أو الأخذ من حيث المعنى ، وهو القيام بما فيه كما ينبغي ، وذلك بتحصيل ملكة تقضي سهولة الإقدام على المأمور به ، والإحجام على المنهي عنه ، ثم أكده بقوله ﴿ بقوة ﴾ أي متلبساً بجد ، وعزيمة ، واجتهاد قاله مجاهد .

﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ المراد بالحكم الحكمة ، وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه ، وفهم الأحكام الدينية ، وقيل هي العلم وحفظه والعمل

به : وقيل النبوة،وقيل العقل ، وقال مجاهد : الفهم ، وقال مالك بن دينار : اللب ، ولا مانع من حمل الحكم على جميع ما ذكر ، والجملة مستأنفة .

قال ابن عباس : أعطي الفهم ، والعبادة ، وهو ابن سبع سنين ، وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال يحيى ما للعب خُلقنا اذهبوا نصلي ، فهو قول الله ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ أخرجه الحاكم في تاريخه ، وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيا ، أخرجه البيهقي ، وأخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عليه .

﴿ وحناناً ﴾ معطوف على الحكم ، قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والرقة والشفقة ، العطف والمحبة وأصله توقان النفس مأخوذ من حنين الناقة على ولدها قال : يقول حنانك يا رب وحنانيك يا رب معنى واحد يريد رحمتك ، قال إن الأول الحنان مشددا من صفات الله عز وجل، والحنان محققاً للعطف والرحمة والحنان التوق والبركة .

قال ابن عطية: والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل: والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حناناً ، يعني بلالاً لما مر به وهو يعذب،وقيل إن القائل لذلك هو ورقة ابن نوفل، قال الأزهري: معنى ذلك لأترحمن عليه ولأعطفن عليه لأنه من أهل الجنة.

ومعنى ﴿من لدنا﴾ من عندنا ومن جنابنا، وقيل المعنى أعطيناه رحمة من

لدنا، كائنة في قلبه، يتحنن بها على الناس، ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر، قال ابن عباس في ﴿حناناً﴾ لا أدري ما هو إلا أني أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة كما مر، ومنه قول الشاعر:

وعسير بلاء حاق به ... ويسير حنانك يدفعه

﴿وزكاة﴾ معطوف على ما قبله، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبر أي جعلناه مباركاً للناس يهديهم إلى الخير، وقيل ذكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهود، وقيل صدقة تصدقنا بها على أبويه قاله ابن قتيبة، وقيل تصدقاً على الناس أي أعطيناه توفيقاً للتصدق عليهم وقيل يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص، وقيل: هي العمل الصالح، فلم يعمد بذنب.

﴿وكان تقياً﴾ قال ابن عباس: طهر فلم يأت بذنب أي متجنباً لمعاصي الله سبحانه مطيعاً له بطبعه، وقد روي أنه لم يعمل معصية ولم يهم بها قط، ومن جملة تقواه أنه كان يتقوت بالعشب، وكان كثير البكاء فكان لدمعه مجار على خده.

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

﴿وبراً﴾ فعل بمعنى فاعل أي باراً ﴿بوالديه﴾ والمعنى لطيفاً بهما محسناً إليهما، لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله أعظم من برهما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ .

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي لم يكن متكبراً يقتل، ويضرب على الغضب، ولا عاصياً لوالديه، أو لربه، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح، والمراد أصل الفعل، فالمنفي أصل الجبر، والعصيان، لا المبالغة فيهما ﴿وسلام﴾ منا ﴿عليه﴾.

قال ابن جرير وغيره: معناه أمان عليه من الله، قال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة فهي أشرف وأنه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهو أقل درجاته. وإنما الشرف في أن سلم الله عليه. وقال سلام هنا منكراً، وفي قصة عيسى ﴿والسلام﴾ معرفاً لأن الأول من الله، والقليل منه كثير، والثاني من عيسى.

ومعنى ﴿يوم ولد﴾ أنه أمن من الشيطان وغيره في ذلك اليوم، وسلم من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم، أو أن الله حياه في ذلك اليوم ﴿ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ قيل أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً لم يكن قد عرفهم وأحكاماً ليس لديها عهد، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة، فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ هذا شروع في ابتداء خلق عيسى، والمراد بالكتاب هذه السورة: أي اذكر يا محمد للناس في هذه السورة قصة مريم وخبرها ونبأها؛ أو المراد به جنس القرآن وهذه السورة منه ﴿إذ انتبذت﴾ النبذ الطرح والرمي. قال تعالى: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾، والمعنى أنها تنحت وتباعدت. وقال ابن قتيبة: اعتزلت وقيل انفردت.

﴿من أهلها﴾ أي من قومها والمعاني متقاربة. واختلفوا في سبب انتباذها، فقيل لأجل أن تعبد الله سبحانه، وقيل للتطهر من حيضها ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ أي من جانب الشرق، والنصب على الظرفية أو مفعول به، على أن معنى انتبذت أتت مكاناً، كما في السمين، وفي المصباح ما يؤيده.

والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير، وقال ابن عباس: مكاناً أظلها من الشمس أن يراها أحد منهم، وقال: إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة. لأن مريم اتخذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذوا ميلاده قبلة، وإنما سجدت اليهود على خوف حين شق فوقهم الجبل، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه يتخوفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة رضيها الله فاتخذوها عنه.

وقيل كان ذلك اليوم شاتياً شديد البرد فجلست في مشرقه تعلي رأسها.

﴿ فاتخذت ﴾ أي ضربت ﴿ من دونهم ﴾ أي من دون أهلها ﴿ حجاباً﴾ أي حاجزاً وستراً يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة أو حال التطهر من الحيض، والحجاب الستر والحاجز ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ هو جبريل عليه السلام ليبشرها بالغلام ولينفخ فيها فتحمل به.

وقد اختلف الناس في نبوة مريم، فقيل إنها نبية لمجرد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك، وقيل لم تكن نبية لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر، والمتفق عليه أن المنفي وحي الرسالة لا مطلق الوحي، والوحي هنا إنما هو بشارة الولد لا بالرسالة، وقد تقدم الكلام على هذا في آل عمران،

وقيل هو روح عيسى لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد. والأول أولى لقوله ﴿ فتمثل ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿ لها ﴾ بعد لبسها ثيابها ﴿ بشراً سوياً ﴾ تاماً مستوي الخلق لم يفقد من نعوت بني آدم شيئاً .

وقال البيضاوي : ولعله أي التمثل ليهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها ، إ هـ قال في الخميس في أحوال أنفس نفيس : فيه نظر ، انتهى ، ولم يبين أحد هذا النظر الصحيح لا هو ولا غيره من المفسرين فيما تصفحت إلا أبا السعود حيث قال : هو مع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى : ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك ﴾ فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة مثل ما إليه فضلاً عما ذكر من الحالة المرتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة .

نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه ، وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها إ هـ .

وقد تكلموا في كيفية تمثله ، فقال إمام الحرمين: يفني الله الزائد من خلقه أو يزيله عنه ثم يعيده اليه، يعني أن له أجزاء أصلية كما في الإنسان وأجزاء زائدة،وجزم ابن عبد السلام بالإزالة دون الفناء وقال ابن حجر : إن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفيه الله تعالى عن الرأي فقط قاله الكرخي .

وقيل إنما ظهر لها في صورة البشر لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فتفهم كلامه ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه ، وأنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته ، فلما رأته في صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء فاستعاذت بالله منه .

و﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ أي ممن يتقي الله

ويخافه ، ويعامل بمقتضى التقوى والإيمان ، وخصت الرحمن بالـذكر ليـرحم ضعفها وعجزها عن دفعه . وقيل إن تقياً اسم رجل صالح فتعوذت منـه تعجباً . وقيل إنه اسم رجل فاجر معروف في ذلك الوقت ، والأول أولى .

وتعوذها من تلك الصورة الحسنة دل على كمال عفتها وغاية ورعها ، وجواب الشرط محذوف ، أي فلا تتعرض لي واتركني وانته عني ، أو فتنتهي عني لتعوذي ، وهذه الجملة كقول القائل : إن كنت مؤمناً فلا تظلمني .

﴿ قال ﴾ جبريل ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ الذي استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما خطر على بالك من إرادة السوء ؛ وإنما جئت ﴿ لأهب لك ﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سبباً فيها ، من جهة كون الإعلام لها من جهته أو من جهة كون النفخ الذي قام به في الظاهر ، ويقويه ما في بعض المصاحف أمرني أن أهب لك ، وقرىء لِيَهَبَ على معنى أرسلني الله ليهب لك ﴿ غلاماً زكياً ﴾ هو الطاهر من الذنوب ، الذي ينمو على النزاهة والعفة . وقيل المراد بالزكي النبي .

﴿ قالت أنّى يكون لي غلام ﴾ والحال أنني ﴿ لم يمسسني ﴾ أي لم يقربني ﴿ بشر ﴾ زوج بنكاح ﴿ ولم أك بغياً ﴾ أي فاجرة ، فجعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه ، والزنا ليس كذلك ، وإنما يقال فيه : فجر بها وحنث بها . وما أشبه ذلك .

والبغيّ هي الزانية التي تبغي الرجال . قال المبرد : أصله بغوي على فعول . وقال ابن جني : إنه فعيل . وقال ابن الأنباري : إن بغياً غالب في النساء إجراء له مجرى حائض وعاقر . وقلما تقول العرب رجل بغي ، وزيادة ذكر ذلك يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيهاً لجانبها من الفحشاء ، يعني أن الولد لا يكون إلا من نكاح أو سفاح ولم يكن هنا واحد منهما . قيل وما استبعدت من قدرة الله شيئاً ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد ، هل من قبل زوج نتزوجه في المستقبل؟ أم يخلقه الله سبحانه ابتداء .

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

﴿ قال ﴾ جبريل ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر هكذا من خلق غلام منك من غير أب ﴿ قال ربك هو ﴾ أي خلق ولدك بلا أب ﴿ عليّ هين ﴾ بأن ينفخ بأمري جبريل فيك فتحملي به ، والجملة مستأنفة والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكريا ﴿ و ﴾ خلقناه ﴿ لنجعله ﴾ أي هذا الغلام أو خلقه بلا أب ﴿ آية للناس ﴾ يستدلون بها على كمال القدرة على أنواع الخلق فإنه خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى ، قاله الكرخي .

﴿ و ﴾ لنجعله ﴿رحمة﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ لمن آمن به لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبي رحمة لأمته ﴿ وكان ﴾ خلقه ﴿ أمراً مقضياً ﴾ به في علمي مقدراً محكوماً مفروغاً منه لا يرد ولا يبدل ولا يتغير مسطوراً في اللوح المحفوظ قد قدره الله سبحانه وجف به القلم .

﴿ فحملته ﴾ أي الموهوب ههنا كلام مطوي ، والتقدير فاطمأنت إلى قوله: فدنا منها فنفخ في جيب درعها وهو بعيد عنها فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته وأحست في بطنها مصوراً ؛ وكان سنها ثلاث عشرة سنة ، أو عشراً ، أو عشرين . أو ست عشرة سنة . وقيل كانت النفخة في ذيلها أو كمها ، وقيل في فمها ، وليس المراد أنه نفخ في فرجها مباشرة .

عن أبي بن كعب قال : تمثل روح عيسى في صورة بشر فحملته ، قال :

حملت الذي خاطبها دخل في فيها ، قيل إن وضعها كان متصلاً بهذا الحمل من غير مضي مدة للحمل ، ويدل على ذلك قوله .

﴿ فأنتبذت به مكاناً قصياً ﴾ أي تنحت بالحمل مصاحبة له واعتزلت الى مكان بعيد من أهلها مخافة اللائمة ؛ قيل كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل أبعد مكان في تلك الدار ؛ وقيل أقصى الوادي ، وهو وادي بيت لحم ، وقيل إنها حملت به ستة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر ، وذلك آية أخرى ، لأنه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر ، وقيل سبعة أشهر وقيل تسعة أشهر كحمل النساء ، وقيل كان الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل حملته في ساعة وَصُوِّر في ساعة، ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومه ، وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى .

قلت : وهذا التفصيل لا دليل عليه ولا مستند له إلا أخبار الأخبار أو آراء الرجال ، ولو صح من نص صحيح لوجب المصير اليه وكان آية أخرى .

﴿ فأجاءها ﴾ يقال جاء وأجاء لغتان بمعنى واحد ، أي ألجأها واضطرها وجاء بها . وقرأ شبل فَاجَأَهَا من المفاجأة ، وفي مصحف أُبيّ (فلما أجاءها). قال في الكشاف : إن أجاءها منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل ﴿ المخاض ﴾ أو وجع الولادة وهو مصدر مخضت المرأة تمخض مخضاً ومخاضاً ، إذا دنا ولادها قرأ الجمهور بفتح الميم وقرىء بكسرها .

﴿ إلى جذع النخلة ﴾ الجذع ساق النخلة اليابسة التي لا رأس لها ، كأنها طلبت شيئاً تستند اليه وتعتمد عليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد ، والمستفيض المشهور أن ولادة عيسى كانت ببيت لحم، وأنها لما هربت وخافت عليه أسرعت به وجاءت به الى بيت المقدس فوضعته على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالمهد ، وهي الآن موجودة تزار بحرم بيت المقدس .

ثم بعد أيام توجهت به الى بحر الأردن فغمسته فيه ، وهو اليوم الذي تتخذه النصارى عيداً ويسمونه يوم الغطاس ، وهم يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقدست فلذلك يغطسون في كل ماء . ومن زعم أنها ولدت بمصر ، قال: بكورة أنهاس ، ولم يثبت ، انتهى من البحر لأبي حيان ، وأنهاس بجانب البهنسا .

﴿ قالت ﴾ جزعاً مما أصابها ﴿ يا ﴾ للتنبيه لأن المنادى غير عاقل ﴿ ليتني مت قبل هذا ﴾ الوقت أو الأمر تمنت الموت استحياء من الناس ، أو خوفاً من الفضيحة لأنها خافت أن يظن بها السوء في دينها أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان .

﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ أي شيئاً حقيراً متروكاً ، والنِّسْيُ في كلام العرب الشيء الحقير الذي من شأنه أن يُنسى ولا يذكر ولا يعرف ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل وقال الفراء : النسي ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فتقول مريم : نسياً منسياً أي حيضة ملقاة ، وقد قرىء بفتح النون وكسرها وهما لغتان مثل الحجر والحجر والوتر والوتر ، وقرأ القرظي : نِسأ بالهمز مع كسر النون ، ونوف البكالي بالهمز مع فتح النون والمنسي المتروك الذي لا يذكر ولا يعرف ولا يخطر ببال أحد من الناس ، قال ابن عباس : نسياً منسياً أي لم أخلق ولم أك شيئاً .

﴿ فناداها ﴾ أي خاطبها لما سمع قولها ﴿ من ﴾ قرىء بكسر الميم وفتحها وهما سبعيتان ﴿ تحتها ﴾ الضمير إما لمريم وإما للنخلة والأول أولى لتوافق الضميرين وكانت على أكمة وكان جبريل أسفل منها تحت الأكمة ، قال قتادة : الذي ناداها جبريل ، وبه قال ابن عباس : وزاد. ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادى هو جبريل ؟ أو عيسى ؟ فمن قرأ ﴿ من ﴾ بالفتح فهو عيسى ، ومن قرأ بالكسر فهو جبريل ﴿ أن لا تحزني ﴾ تفسير للنداء أو المعنى بأن لا تحزني على أنها مصدرية ولا ناهية أو نافية ﴿ قد جعل ربك تحتك ﴾ أي قربك ﴿ سرياً ﴾ .

قال جمهور المفسرين : السَّرِيُّ النهر الصغير لأن الماء يسري فيه ، والسري . الجدول ، والجمع سِرْيَان والسَّرِي الرئيس ، والجمع سُرَاة وهو عزيز لا يكاد يوجد له نظير ، لأنه لا يجمع فعيل على فعلة وجمع السراة سروات وسري مفعول ، وجعل بمعنى صير أو خلق .

وقيل : السري من سريت الثوب أي نزعته ، وسررت الحبل عن الفرس ، والأول أولى ، والمعنى قد جعل تحت قدمك نهراً قيل : كان هذا قد انقطع عنه الماء فأرسل الله فيه الماء لمريم وأحيى به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر .

وقيل : معنى تحتك تحت أمرك أي إن أَمَرْتِهِ أن يجري جرى ، وإن أمرتِهِ بالإمساك أمسك ؛ والأول أولى . وعن جماعة من التابعين أن المراد بالسري هنا عيسى ، والسري العظيم من الرجال ، ومنه قولهم فلان سري ، أي عظيم ومن قوم سُرَاة أي عظام .

أخرج الطبراني وابن النجار وابن مردويه ،عن ابن عمر أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن السري الذي في الآية نهر أخرجه الله لها لتشرب منه ، وفي سنده أيوب بن نهيك الجبلي قال فيه أبو حاتم الرازي : ضعيف وقال أبو زرعة : منكر الحديث ، وقال أبو الفتح الأزدي : متروك الحديث ، وقال الطبراني بعد إخراجه إنه غريب جداً .

﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ الْهَزُّ التحريك يقال هزه فاهتز والباء مزيدة للتأكيد ، وقال الفراء ؛ العرب تقول هزه وهز به ، والجذع هو أسفل الشجرة ، قال قطرب : كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع ﴿ تساقط عليك ﴾ أصله تتساقط ؛ وقرىء تسقط ويسقط ، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ، ومن قرأ بالتحتية جعله للجذع ﴿ رطباً جنياً ﴾ الجَنيّ المأخوذ طرياً ، وقيل : هو ما طاب وصلح للجني ، وهو فعيل يعني مفعول ، أي رطباً طرياً طيباً ، قاله ابن عباس أي استحق أن يجنى .

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

﴿ فكلي ﴾ من ذلك الرطب ﴿ واشربي ﴾ من ذلك الماء أو من عصير الرطب وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء .

ثم قال : ﴿ وقري عيناً ﴾ قرأ الجمهور ، بفتح القاف ، وقرىء بكسرها ، قال ابن جرير : هي لغة نجد ، والمعنى طيبي نفساً وارفضي عنك الحزن وهو مأخوذ من القرِّ والقِرَّة وهما البرد ، والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح ، وذلك أن العين إذا فرح صاحبها كان دمعها قاراً أي بارداً وإذا حزن كان دمعها حاراً ، ولذلك قالوا في الدعاء عليه : أسخن الله عينه .

وقيل : المعنى وقري عيناً برؤية الولد الموهوب لك، وقال الشيباني : معناه نامي ، قال أبو عمرو : أقر الله عينه أي أنام عينه ، وأذهب سهره ، وقيل مأخوذ من الاستقرار أي أعطاها الله ما يسكن عينها ، فلا تطمح إلى غيره .

﴿ فإما ترين ﴾ أصله تَرْأَيين مثل تسمعين ﴿ من البشر أحداً فقولي ﴾ أي إن طلب منك الكلام أحد من الناس فقولي ، وبهذا المقدر يتخلص من إشكال وهو أن قولها فلن أكلم اليوم إنسياً ، كلام فيكون ذلك تناقضاً لأنها قد

كلمت إنسياً بهذا الكلام ، وقيل قوله فقولي أي بالإشارة وليس بشيء ، بل المعنى فلن أكلم اليوم إنسياً بعد هذا الكلام قاله السمين .

﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ قيل المراد بـه الصوم الشـرعي ، وهو الإمساك عن المفطرات[1] والأول أولى ، وفي قراءة أُبَيّ صوماً صمتاً بالجمع بين اللفظين، وكذا روي عن أنس وروي عنه الواو بينهما ، والذي عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت ، ويدل عليه فلن أكلم اليوم إنسياً كما سيأتي ومعنى الصوم في اللغة أوسع من المعنيين .

قال أبو عبيدة : كل ممسك من طعام أو كلام أو سير فهو صائم ، وقراءة أبي تدل على أن المراد بالصوم هنا الصمت ، لأنه تفسير للصوم ، وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما يفيده الواو ، ومعنى ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ أنها لا تكلم أحداً من الأنس بعد إخبارهم بهذا الخبر ، بل إنما تكلم الملائكة وتناجي ربها .

ولما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات ﴿ فأتت به ﴾ أي بعيسى ﴿ قومها تحمله ﴾ أي أتت مصاحبة له وكان إتيانها إليهم في المكان القصي الذي انتبذت فيه للوضع قيل:في يوم الوضع ، وقيل بعد أن طهرت ، قال ابن عباس : بعد أربعين يوماً بعدما تعالت من نفاسها ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين .

﴿ قالوا ﴾ منكرين لذلك ﴿ يا مريم لقد جئت ﴾ أي فعلت، وارتكبت ﴿شيئاً فرياً﴾ عجيباً نادراً قاله أبو عبيدة ، وقال مجاهد : الْفَرِيُّ العظيم أي من الأمر يقال في الخير والشر .

وقال قطرب : الْفَرِيّ الجديد من الأسقية أي جئت بأمر بديع جديد لم

---

(١) قوله (والأول أولى) لم يذكر الأول وأصل التركيب بعد قوله : ﴿ صوماً ﴾ أي امساكاً وسكوتاً ، وقيل المراد الخ فتأمل إ هـ مصححة .

تُسبقي اليه وقيل الْفَرِيُّ القطع أي شيئاً قاطعاً وخارقاً للعادة التي هي الولادة بواسطة الأب وقال سعيد بن مسعدة : الْفَرِيُّ المختلق المفتعل ، والاسم الفرية ويقال فريت الجلد وأفريت بمعنى واحد قطعته والولد من الزنا كالشيء المفتري قال تعالى : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ .

﴿ يا أخت هارون ﴾ هذا من كلامهم أيضاً ، وقد وقع الخلاف في معنى هذه الأَخوة وفي هارون المذكور ، من هو؟ فقيل هو هارون أخو موسى ، والمعنى أن من كانت نظنها مثل هارون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا ؟ وقيل كانت مريم من ولد هارون أخي موسى ، فقيل لها يا أخت هارون كما يقال لمن كان من العرب يا أخا العرب ، وقيل كان لها أخ من أبيها اسمه هارون ، وقيل :هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت شبهت به في عفتها وصلاحها ، وقيل :بل كان في ذلك الوقت رجل فاسق اسمه هارون فنسبوها اليه على جهة التعيير والتوبيخ حكاه ابن جرير ولم يسم قائله ، وهو ضعيف .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرؤون يا أخت هارون؟ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم[١] ، وهذا التفسير النبوي يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك .

﴿ ما كان أبوك ﴾ أي عمران ﴿ امرأ سوء وما كانت أمك ﴾ أي حنة ﴿ بغياً ﴾ هذا فيه تقرير لما تقدم من التعيير والتوبيخ وتنبيه على أن الفاحشة من ذرية الصالحين،ممـالا ينبغي أن تكون ﴿ فأشارت ﴾ أي مريم ﴿إليــه﴾ أي إلى عيسى أن كلموه،وانما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق لأنها نذرت للرحمن

(١) مسلم ٢١٣٥ ـ الترمذي تفسير سورة ١٩ ـ الإمام احمد ٢٥٢/٤ .

صوماً عن الكلام ، كما تقدم هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها ، وعلى تقدير أنها قد خرجت منها فيمكن أن يقال إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة .

﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها الى ذلك المولود بأن يكلمهم ، قال أبو عبيدة : في الكلام حشو زائد والمعنى كيف نكلم صبياً في المهد .

وقال الزجاج : الأجود أن يكون ﴿مَنْ﴾ في معنى الشرط والجزاء والمعنى من يكون في المهد صبياً فكيف نكلمه ، ورجحه ابن الأنباري ، وقيل إن كان هنا التامة التي هي بمعني الحدوث والوجود ، وَرُدَّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، وقيل:إنها بمعنى صار .

وقيل: إنها الناقصة على بابها من دلالتها على اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي من غير تعرض للانقطاع ، ولذلك يعبر عنها بأنها ترادف لم يزل ، والمهد هو شيء معروف يتخذ لتنويم الصبي ، ولفظ القاموس المهد الموضع يهيأ للصبي ويوطأ ، والأرض كالمهاد ، والجمع مهود انتهى ، وقيل : هو هنا جحر الأم ؛ وقيل سرير كالمهد .

والمعنى كيف نكلم من سبيله أن يُنَوَّم في المهد لصغره . فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم ﴿ قال إني عبد الله ﴾ فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لله ، لئلا يتخذوه إلهاً وفيه إزالة التهمة عن الأم لأن الله لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في الزنا ، ووصف نفسه بصفات ثمانية ، أولها العبودية وآخرها تأمين الله له في أخوف المقامات ﴿ آتاني الكتاب ﴾ أي الانجيل ﴿ وجعلني نبياً ﴾ أي حكم لي بإيتاء الكتاب ، والنبوة في الأزل وإن لم يكن قد نزل عليه في تلك الحال ولا قد صار نبياً ، وقيل إنه آتاه الكتاب وجعله نبياً في تلك الحال وهو بعيد جداً .

وعن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها في بطن أمه فذلك قوله آتاني الكتاب، وهو أبعد، وقال عكرمة: قضى ان أكون كذلك، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد(١).

﴿ وجعلني مباركاً ﴾ البركة أصلها من بروك البعير والمعنى جعلني ثابتاً في دين الله ﴿ أينما كنت ﴾ وقيل البركة الزيادة والعلو فكأنه قال: جعلني في جميع الأشياء زائداً عالياً محجاً، وقيل معنى المبارك النفاع للعباد لأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويرشد ويهدي وقيل: المعلم للخير وقيل: الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر.

وعن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم قال: جعلني نفاعاً للناس أينما اتجهت أخرجه الاسماعيلي في معجمه وأبو نعيم في الحلية.

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: معلماً ومؤدباً، أخرجه ابن عدي وابن عساكر، وأينما شرطية لا استفهامية وجوابها إما محذوف وإما هو المتقدم عند من يرى ذلك.

﴿ وأوصاني ﴾ أي أمرني ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ أي بزكاة المال إذا ملكته، أو تطهير النفس عن الرذائل في الوقت المعين لهما وهو البلوغ أو الآن، قولان للمفسرين والأول أولى ﴿ ما دمت حياً ﴾ أي مدة دوام حياتي، وهذه الأفعال الماضية هي من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع تنبيهاً على تحقق وقوعه لكونه قد سبق في القضاء المبرم.

وقيل: المراد إن الله صيره حين انفصل عن أمه بالغاً عاقلاً. قال الخازن: وهذا القول أظهر ﴿ قلت ﴾ بل أبعد ويحتاج الى مستند صحيح ثابت.

---

(١) لم يرو هذا الحديث في كتاب من الكتب المعتبرة كالصحاح والمسانيد والسنن والمعاجم والمستدركات وانما رواه صاحب الحلية عن ميسرة الفحل وابن سعد من طريق ابن أبي الجدعاء.

وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا
كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ
ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

﴿ وبراً بوالدتي ﴾ اقتصر على البر بوالدته لأنه قد علم في تلك الحال أنه لم يكن له أب وقرىء براً بكسر الباء إما على حذف مضاف وإما على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ الجبار المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً والشقي العاصي لربه. وقيل الخائب وقيل العاق . وقال ابن عباس : شقياً عصياً ، أي بل أنا خاضع متواضع ، ومن تواضعه أنه كان يأكل ورق الشجر ويجلس على التراب ولم يتخذ له مسكناً . روي أنه قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي .

﴿ والسلام ﴾ قال المفسرون : هو هنا بمعنى السلامة أي الأمان من الله ﴿ عليّ ﴾ والألف واللام فيه للعهد لأنه قد تقدم لفظه في قوله وسلام عليه أي ذلك السلام الموجه إلى يحيى موجه إليّ .

وقال الزمخشري : والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها من اليهود وتحقيقه أن اللام للجنس ، أي جنس السلام عليّ خاصة ، فقد عَرَّض بأن ضده عليكم . ونظيره والسلام على من اتبع الهدى .

﴿ يوم وُلدت ﴾ فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت بالطعن ولا أغواني

﴿ ويوم أموت ﴾ أي ولا عند الموت ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ أي ولا عند البعث وإنما خص هذه المواضع لكونها أخوف من غيرها. وهذا آخر كلامه فعلموا به براءة أمه، ولم يتكلم بعد هذا الكلام، حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان في العادة.

﴿ ذلك ﴾ أي المتصف بالأوصاف الثمانية السابقة . وقال الزجاج : ذلك الذي قال : إني عبد الله ﴿ عيسى بن مريم ﴾ لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إلّه .

﴿ قول الحق ﴾ قرىء بالنصب على المدح أو على أنه مصدر مؤكد لقال إني عبد الله ، قاله الزجاج . وقرىء بالرفع على أنه نعت لعيسى . قاله الكسائي . وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله . والحق هو الله عز وجل قاله قتادة . وقال أبو حاتم : المعنى هو قول الحق . وقيل التقدير هذا الكلام قول الحق ، وهو من باب إضافة الموصوف الى الصفة مثل حق اليقين . وقيل الإضافة للبيان . وقرىء قال الحق ، وروي ذلك عن ابن مسعود . وقرأ الحسن قول الحق بضم القاف ، والقَوْل والقُول والقال والمقال بمعنى واحد .

﴿ الذي فيه يمترون ﴾ أي ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون ، ومعناه يختلفون على أنه من المماراة أو يشكون على أنه من المرية ، وقد وقع الاختلاف في عيسى ، فقالت اليهود : هو ساحر وأنه ابن يوسف النجار ، وقالت النصارى : هو ابن الله أو إلّه .

وعن قتادة في الآية قال : اجتمع بنواسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر ؛ أخرج كل قوم عالمهم ، فامتروا في عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو الله هبط الى الأرض فأحيى من أحيى وأمات من أمات ثم صعد الى السماء . وهم اليعقوبية فقالت الثلاثة كذبت ، ثم قال اثنان منهم للثالث قل فيه ، فقال هو

ابن الله ، وهم النسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ، فقال هو ثالث ثلاثة : الله إله وعيسى إله وأمه إله . وهم الاسرائيلية وهم ملوك النصارى فقال الرابع كذبت هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال ، فاقتتلوا وظهروا على المسلمين ، فذلك قول الله سبحانه ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ .

قال قتادة : وهم الذين قال الله فيهم : فاختلف الأحزاب من بينهم ، فاختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، فاختصم القوم فقال المرء المسلم أنشدكم بالله هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله لا يطعم ؟ قالوا اللهم نعم . قال فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن الله لا ينام ؟ قالوا اللهم نعم ، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون ، فأنزل الله ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ .

﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ أي ما صح ولا استقام ذلك . قال الزجاج : ﴿ من ﴾ مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة ، والمعنى ما كان من صفته اتخاذ الولد أي ثبوت الولد له محال .

ثم نزه الله نفسه فقال ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه وتقدس عن مقالتهم هذه . ثم صرح سبحانه بما هو شأنه ، تعالى سلطانه فقال : ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ من الأمور وهذا بمنزلة التعليل لما قبله ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي فيكون حينئذ بلا تأخير لا يتعذر عليه إيجاده على الوجه الذي أراده ، وفي إيراده في هذا الموضع تبكيت عظيم وإلزام بالحجة للنصارى ، أي من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ، وقد سبق الكلام على هذا مستوفى في البقرة .

﴿وإن الله ﴾ بفتح أن بتقدير اذكر او لأن ، واليه ذهب الزمخشري تابعاً للخليل وسيبويه ، وبكسرها بتقدير قل ، أو على الاستئناف ، وقيل على الأول

أنها عطف على الصلاة ، أي أوصاني بالصلاة وبأن الله ، واليه ذهب الفراء ، ولم يذكر مكي غيره ، وقيل على الثاني عطف على قوله إني عبد الله ، وهو من البعد بمكان ﴿ ربي وربكم فاعبدوه ﴾ هذا من تمام كلام عيسى بدليل ما قلت لهم إلا ما أمرتني الآية .

﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي الذي ذكرته لكم من أنه ربي وربكم ، هو الطريق القيم الذي لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه ﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ من بينهم ﴾ أي فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى ، فأفرطت النصارى وغلت وفرطت اليهود وقصرت ، ومن زائدة وقيل للتبعيض إذ بقي منهم فرقة أخرى مؤمنة يقولون إنه عبد الله كما تقدم .

﴿ فويل للذين كفروا ﴾ وهم المختلفون في أمره ، عبر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحكم ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ أي من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والجزاء والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم . وقيل المعنى فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور .

﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا في موضع التعجب فيقولون أسمع بزيد وأبصر به ، أي ما أسمعه وأبصره ، فعجب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم منهم . وقال السمين : هذا لفظ أمر ومعناه التعجب ، وقيل بل هو أمر حقيقة ، والمأمور هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أسمع الناس وأبصرهم بهم وبحالهم ، ماذا تصنع بهم من العذاب ، وهو منقول عن أبي العالية ، وقال ابن عباس : يقول الكفار يومئذ : أسمع شيء وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون .

﴿ يوم يأتوننا ﴾ للحساب والجزاء ﴿ لكن الظالمون ﴾ الأصل لكنهم وهو من إقامة الظاهر مقام المضمر للإيذان بأنهم في ذلك ظالمون لأنفسهم

﴿ اليوم ﴾ أي في الدنيا ﴿ في ضلال ﴾ أي خطأ ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر ، ولكنهم اغفلوا التفكر والاعتبار والنظر في الآثار ﴿ وأنذرهم ﴾ أي خوّف يا محمد كفار مكة ﴿ يوم الحسرة ﴾ أي يوم يتحسرون جميعاً ، فالمسيء يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير .

وعن ابن عباس قال : يوم الحسرة هو من أسماء يوم القيامة ، وقرأ ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾، وفي سنده علي ابن أبي طلحة وهو ضعيف ، والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام .

﴿ إذ قضي الأمر ﴾ من الحساب وطويت الصحف وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ﴿ وهم في غفلة ﴾ أي غافلين عما يعمل بهم وتلك الحال متضمنة للتعليل ، أي أنذرهم لأنهم في حالة يحتاجون فيها إلى الانذار ، وهي الغفلة والكفر .

﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ به ، أخرج البخاري ومسلم وغيرهم ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون ، وينظرون اليه ، فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون اليه فيقولون نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه فيؤمن به فيذبح ، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ؛ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ الآية وأشار بيده فقال أهل الدنيا في غفلة[1] . وأخرج النسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

(١) مسلم ٢٨٤٩ ـ البخاري ١٠٢٤ .

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ
صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ
شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾
يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ
لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

﴿ إنّا نحن ﴾ تأكيد للضمير في إنا لأنه بمعناه ﴿ نرث الأرض ﴾ أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات ، فكأنه سبحانه ورث الأرض ﴿ ومن عليها ﴾ حيث أماتهم جميعاً ﴿ وإلينا يرجعون ﴾ أي يردون إلينا يوم القيامة فنجازي كلًّا بعمله ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الحجر .

﴿ واذكر ﴾ لكفار مكة ﴿ في الكتاب إبراهيم ﴾ أي خبره والمراد بذكر الرسول إياه في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ فالمراد ما ذكر ، وإلا فالذاكر له هو الله في كتابه ، وعاش إبراهيم من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة ؛ وبينه وبين آدم ألفا سنة ، وبينه وبين نوح ألف سنة ذكره السيوطي(١) وفي التحبير ﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾ تعليل لما تقدم من الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يذكره ، وهي معترضة ما بين البدل والمبدل منه والصديق كثير الصدق بليغه أي اذكر ابراهيم الجامع لهذين الوصفين ، ولما ثبت أن كل نبي يجب أن يكون صديقاً ولا يجب في كل صديق أن يكون نبياً ، ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبي ، فلهذا انتقل من ذكر كونه صدِيقاً إلى ذكر كونه نبياً .

---

(١) السيوطي يرجع في هذا إلى نقل عن التوراة في سفر التكوين مشوه ، وليس له سند في الإسلام .

﴿إذ قال لأبيه﴾ بدل اشتمال من إبراهيم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة، وأبو ابراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره ﴿يا أبت﴾ التاء عوض عن الياء ولهذا لا يجتمعان ﴿لم تعبد﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي لأي شيء ولأي سبب تعبد ﴿ما لا يسمع﴾ ما تقوله من الثناء عليه، والدعاء له ﴿ولا يبصر﴾ ما تفعله من عبادته؛ ومن الأفعال التي تفعلها مريداً بها الثواب، ويجوز أن يحمل نفي السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك أي لا يسمع شيئاً من المسموعات ولا يبصر شيئاً من المبصرات.

﴿ولا يغني عنك شيئاً﴾ من الأشياء فلا يجلب لك نفعاً؛ ولا يدفع عنك ضرراً، وهي الأصنام التي كان يعبدها آزر، أورد ابراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه، وامتثالاً لأمر ربه، ووصف الأصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح في الإلٰهية، ورتب هذا الكلام على غاية الحسن، ثم كرر دعوته الى الحق فقال:

﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ أي بعض العلم وهو علم الوحي أو التوحيد أو الآخرة أقوال ثلاثة ذكرها أبو حيان فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل الى أبيه، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه الى الحق ويقتدر به على إرشاد الضال، ولهذا أمره باتباعه فقال: ﴿فاتبعني﴾ في الإيمان، والتوحيد ﴿أهدك صراطاً سوياً﴾ مستوياً موصلاً الى المطلوب منجياً من المكروه ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال:

﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه فإن عبادة الأصنام هي من طاعة الشيطان ثم علل ذلك بقوله: ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم. ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاصٍ لله، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم وتحل به النقم، قال

الكسائي : العصي والعاصي واحد ، ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال : ﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ﴾ إن لم تتب.

قال الفراء : معنى أخاف هنا أعلم وبه فسر الأقلون الآية ، واليه أشار في التقرير وقال الأكثرون : إن الخوف هنا محمول على ظاهره لأن ابراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازماً بذلك لم يشتغل بنصحه ، فوجب إجراؤه على ظاهره ، ومعنى الخوف على الغير، هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير .

﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ أي أنك إن أطعت الشيطان كنت معه قريناً في النار واللعنة . فتكون بهذا السبب موالياً له أو تكون بسبب موالاته في العذاب معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه :﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾.وقيل الولي بمعنى التالي ؛ وقيل بمعنى القريب .

قال الشهاب : الْوَلِيُّ من الوَلِيْ وهو القرب ، وكل من المتقاربين قريب من صاحبه أي تكون للشيطان قريباً منه في النار ، تليه ويليك ، فلما مرت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة المفرطة ، حيث :

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ ناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيا بني وأخره وقدم الخبر على المبتدأ . وصدره بهمزة الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، ولإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل . والمعنى أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف الى غيره . ثم توعده وهدده فقال : ﴿ لئن لم تنته ﴾ عن مقالتك فيها أو الرغبة عنها ، واللام للقسم ﴿ لأرجمنك ﴾ بالحجارة حتى تموت ، وقيل باللسان فيكون معناه لأشتمنك . قاله ابن عباس ، وقيل معناه لأضربنك وقيل لأبعدنك عني بالقول القبيح ، وقيل لأظهرن أمرك فاحذرني ﴿ واهجرني ملياً ﴾ أي زماناً طويلاً . وقال ابن عباس حيناً . قال الكسائي : يقال هجرته ملياً وملوة وملاوة ، بمعنى الملاوة من

الزمان وهو الطويل .

وقيل معناه اعتزلني سالم العرض سوياً لا تصيبك مني معرة ، واختار هذا ابن جرير وعن ابن عباس قال : اجتنبني سوياً واجتنبني سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة وعن عكرمة : ملياً دهراً ، وعن قتادة : سالماً ، وعن الحسن مثله ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿ قال سلام عليك ﴾ أي تحية توديع ومقاطعة ومتاركة ، كقوله تعالى : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

وقيل معناه أمنة مني لك . قاله ابن جرير . وانما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله والأول أولى وبه قال الجمهور .

وقيل معناه الدعاء له بالسلامة استمالة له ورفقاً به ، وهذا في مقابلة قوله : لئن لم تنته ، وهذا مقابلة للسيئة بالحسنة . ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفاً له وطمعاً في لينه وذهاب قسوته .

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

فقال : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على كفره وتحق عليه الكلمة . ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر : ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾بعد قوله :﴿وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها أياه﴾ وقيل المراد باستغفاره له طلب توفيقه للإيمان الموجب للمغفرة ، أي سأسأل لك ربي توبة تنال بها المغفرة ، يعني الإسلام ، والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز ، كأنه يقول اللهم وفقه للإسلام أو تب عليه واهده . قاله الكرخي والصحيح هو الأول .

﴿إنه كان بي حفياً﴾ تعليل لما قبلها ، والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله ، فإنه كان بي كثير البر واللطف . يقال حفي به وتحفى اذا بره . قال الكسائي . يقال حفي بي حفاوة وحفوة أي اعتنى بي وبالغ في إكرامي والطافي . وقال الفراء : حفياً أي عالماً لطيفاً يجيبني إذا دعوته . وبه قال ابن عباس . والحفي أيضاً المستقصي في السؤال ، ومنه كأنك حفي عنها .

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى
شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا
جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى
ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ
وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة فقال: ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ أي أهاجر بديني عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحي ولا نجعت فيكم دعوتي ، وهذا في مقابلة قوله : واهجرني ملياً .

﴿ وأدعو ربي ﴾ وحده ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ أي خائباً كما شقيتم بعبادة الأوثان . وقيل عاصياً قيل: أراد بهذا الدعاء هو أن يهب الله له ولداً وأهلاً يستأنس بهم في اعتزاله ويطمئن اليهم عند وحشته ، وفي تصدير الكلام بعسى التواضع وهضم النفس والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل منه تعالى غير واجبين وأن ملاك الأمر خاتمته وهو عيب .

وقيل: أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدري أيستجاب له فيه أم لا ، والأول أولى لقوله:

﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ أي بأن ذهب مهاجراً من بابل أو كوثي الى الأرض المقدسة ﴿ وهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ أي جعلنا هذين الموهوبين له أهلاً وولداً بدل الأهل الذين فارقهم يأنس بهما . وهذا يقتضي أنه عاش حتى رأى يعقوب وهو كذلك ، كما مرت الإشارة اليه في قوله : فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وخصهما لأنه سيذكر إسماعيل بفضله منفرداً قال ابن عباس : وهبنا له إسحاق ابناً ويعقوب ابن ابنه ﴿ وكُلًّا ﴾ مفعول لجعلنا قدم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة الى من عداهم ، أي كل واحد منهم ﴿ جعلنا نبياً ﴾ لا

بعضهم دون بعض .

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا ﴾ أي للثلاثة بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هي من باب الرحمة . وقيل المراد بالرحمة هنا المال وسعة الرزق ، وقيل كثرة الأولاد ، وقيل الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور . ومن للتبعيض .

﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ أي الثناء الحسن قاله ابن عباس ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به ، كما عبر باليد عن العطية ، وإضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد ، ففي اللسان مجاز مرسل من اطلاق اسم الآلة وإرادة ما ينشأ منها . والمعنى وجعلنا لهم ثناء صادقاً يذكرهم الأمم كلها الى يوم القيامة ، بما لهم من الخصال المرضية ، ويصلون على ابراهيم وعلى آله الى قيام الساعة ، وهذا توبيخ لكفار مكة إذ كان مقتضى ترضيهم وثنائهم على المذكورين أن يتبعوهم في الدين مع أنهم لم يفعلوا .

ثم قفى الله سبحانه قصة ابراهيم بقصة موسى لأنه تِلوه في الشرف ، وقدمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب فقال :

﴿ واذكر في الكتاب ﴾ أي واقرأ عليهم من القرآن قصة ﴿ موسى إنه كان مخلصاً ﴾ بفتح اللام أي جعلناه مختاراً وأخلصناه ، وقرىء بكسرها أي أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد ﴿ و ﴾ أنه ﴿ كان رسولاً نبياً ﴾ أي أرسله الله الى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التي شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبي بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوة ، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوي لا الشرعي ، والله أعلم .

وقال النيسابوري : الرسول النبي الذي معه كتاب والنبي الذي ينبىء عن الله عز وجل وان لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعم قبل الأخص إلا أن رعاية الفواصل اقتضت عكس ذلك ؛ كقوله في طه : ﴿ رب هرون وموسى ﴾. قال مجاهد : النبي هو الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل ،

وفي لفظ الأنبياء الذين ليسوا برسل يوحى الى أحدهم ولا يرسل الى أحد ، والرسل الأنبياء الذي يوحى اليهم ويرسلون .

﴿ وناديناه ﴾ أي كلمناه كما في سورة القصص في قوله : ﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين﴾ ﴿ من جانب الطور الأيمن ﴾ أي من ناحيته اليمنى ، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير .

ومعنى الأيمن أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجهاً الى مصر فإن الشجرة كانت في ذلك الجانب والنداء وقع منها ؛ وليس المراد يمين الجبل نفسه ، فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال ، وقيل معنى الأيمن الميمون . ومعنى النداء أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب .

قال قتادة : جانب الجبل الأيمن . وهذا صريح في أن المراد بالطور هو الذي عند بيت المقدس ، لا الطور الذي عند السويس ، لأنه يكون على يسار المتوجه من مدين الى مصر كما هو محسوس ﴿ وقربناه نجياً ﴾ أي أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجي بمعنى المناجي كالجليس والنديم ؛ فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام، مثلت حاله بحال من قربه الملك لمناجاته .

قال الزجاج : قرّبه منه في المنزلة حتى سمع مناجاته . وقيل: إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم ، روي هذا عن بعض السلف ، وبه قال أبو العالية ، وروي نحوه عن جماعة من التابعين قال ابن عباس حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح المحفوظ وأخرجه الديلمي عنه مرفوعاً قال قتادة : في نجيا نجي بصدقه .

﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أي من نعمتنا ، وفي ﴿ من ﴾ هذه وجهان . أحدهما أنها تعليلية أي من أجل رحمتنا ، والثاني انها تبعيضية ، أي بعض رحمتنا ﴿ أخاه هرون نبياً ﴾ وذلك حين سأل ربه وقال : واجعل لي وزيراً من أهلي . هرون أخي قال ابن عباس : كان هرون أكبر من موسى ، أي بأربع سنين ، ولكن إنما وهب له نبوته .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾

﴿ واذكر في الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد ﴾ وصف الله سبحانه إسمعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك ، لأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً فيه ، وناهيك أنه وعد الصبر من نفسه على الذبح ، فوفى بذلك وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالي ، حتى قيل: إنه انتظر لبعض من وعده حولاً ؛ والمراد بإسماعيل هنا هو اسماعيل بن ابراهيم ، ولم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد به ، فقال هو إسمعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله فيما شاء من عذابهم ، وثوابه فاستعفاه ورضي بثوابه .

﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ قد استدل بهذا الى أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة ، فإن أولاد ابراهيم كانوا على شريعته ، وقيل انه وصفه بالرسالة لكون ابراهيم أرسله إلى جرهم ، وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم اسماعيل بوادي مكة ﴿ وكان يأمر أهله ﴾ المراد به هنا أمته وقيل جرهم وقيل عشيرته ، كما في قوله :(وأنذر عشيرتك الأقربين).

والمراد ﴿ بالصلاة والزكاة ﴾ هنا هما العبادتان الشرعيتان ، ويجوز أن يراد معناهما اللغوي ﴿ وكان عند ربه مرضياً ﴾ أي رضياً زاكياً صالحاً ، والمعنى قائماً

لله بطاعته . وقيل رضيه لنبوته ورسالته ، وهذا نهاية في المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات قال الفراء والكسائي : من قال مرضي بني على رضيت ، قال وأهل الحجاز يقولون مرضوي .

﴿ واذكر في الكتاب إدريس﴾ هو ابن شيث بن آدم لصلبه ، أفاده السيوطي في التحبير واسمه أخنوخ . قيل هو جد نوح ، فإن نوحاً هو ابن لمك ابن متوشلخ ابن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جد أبي نوح ، ذكره الثعلبي وغيره ، وقد قيل إن هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية .

وقولهم سمي به لكثرة دراسته الكتب لا يصح ، لأنه لو كان إفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفاً ، وهو أول مرسل بعد آدم عليه السلام وأول من أعطى النبوة من بني آدم وأول من خط بالقلم ، ونظر في النجوم والحساب وأول من خاط الثياب وأول من اتخذ السلاح . وقاتل الكفار .

﴿ انه كان صديقاً نبياً ﴾ وذلك ان الله شرفه بالنبوة ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة . وقد اختلف في معنى قوله : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ فقيل ان الله رفعه الى السماء الرابعة . وقيل الى السادسة وقيل الى الثانية . وقد روى البخاري في صحيحه من حديث الإسراء، وفيه : « ومنهم إدريس في الثانية »[1] وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، والصحيح : « أنه في السماء الرابعة » كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم[2] .

(١) البخاري ١٦٨٤ .
(٢) مسلم ١٦٢ .

وقيل ان المراد برفعه ما أعطيه من شرف النبوة والزلفى عند الله ، وقيل إنه رفع الى الجنة . وقيل هو الرفعة بعلو المرتبة في الدنيا والأول أصح ؛ عن ابن عباس قال : كان إدريس خياطاً ، وكان لا يغرز غرزة إلا قال سبحان الله ؛ وكان يمسي حين يمسي وليس على الأرض أفضل عملاً منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال يا رب ائذن لي فأهبط الى إدريس ، فأذن له ، فأتى إدريس فقال : إني جئتك لأخدمك ، قال كيف تخدمني وأنت ملك وأنا إنسان، ثم قال إدريس هل بينك وبين ملك الموت شيء ؟ قال الملك : ذاك أخي من الملائكة ، قال هل تستطيع أن تنفعني ؟ قال أما نؤخر شيئاً أو نقدمه فلا ، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت ، فقال اركب بين جناحي ، فركب إدريس فصعد الى السماء العليا فلقي ملك الموت وإدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : إن لي إليك حاجة قال علمت حاجتك ، تكلمني في إدريس وقد محي اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات إدريس بين جناحي ملك أخرجه ابن أبي حاتم، وعنه سألت كعباً فذكر نحوه فهذا هو من الإسرائيليات التي يرويها كعب . وعنه قال رفع إدريس الى السماء السادسة .

وأخرج الترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبي (ﷺ) قال : لما عرج بي رأيت إدريس في السماء الرابعة[1] . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه ، وعن مجاهد قال : رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت . وعن ابن مسعود قال : إدريس هو الياس ، وحسنه السيوطي ﴿ أولئك ﴾ خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم والإشارة الى الأنبياء المذكورين من أول السورة إلى هنا ، وهم عشرة أولهم في الذكر زكريا وآخرهم فيه إدريس ، وهو مبتدأ وقوله: ﴿ الذين أنعم الله عليهم ﴾ صفته و ﴿ من النبيين ﴾ بيان للموصول من بيان العام بالخاص

(١) الترمذي تفسير سورة ١٩ ـ الإمام احمد ٣/٢٦٠ .

و ﴿ من ذرية آدم ﴾ بدل منه بإعادة الخافض، وقيل (من)فيه للتبعيض ، يعني إدريس ونوحاً .

﴿ وممن حملنا مع نوح ﴾ أي من ذرية من حملنا معه في السفينة ، وهم من عدا إدريس ، فإن إدريس من ذرية آدم لقربه منه ، وابراهيم من ذرية من حمل مع نوح لأنه من ذرية سام بن نوح ، فإن ابراهيم بن آزر وبينه وبين نوح عشرة قرون كما في التحبير .

﴿ ومن ذرية إبراهيم ﴾ وهم الباقون ﴿ و ﴾ من ذرية ﴿ إسرائيل ﴾ وهو يعقوب ؛ وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية . وقيل إنه أراد بقوله من ذرية آدم إدريس وحده ، وبقوله ممن حملنا مع نوح ابراهيم وحده ، وبقوله ومن ذرية ابراهيم ، إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وبقوله إسرائيل موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ، قال السدي : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم ، أما من ذرية آدم فإدريس ونوح وأما من ذرية من حمل مع نوح فإبراهيم ، وأما ذرية ابراهيم فإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأما ذرية إسرائيل فموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ، لأن مريم من ذريته .

﴿ وممن هدينا ﴾ أي من جملة من هدينا الى الإسلام ﴿ واجتبينا ﴾ بالإيمان وقيل على الأنام وهذا آخر الصفات ، والتقدير والكائنين ممن هدينا الخ ، واعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء ، ثم جمعهم آخراً فقال أولئك الخ ، فرتب تعالى أحوال الأنبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبهاً بذلك على أنهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم منزلة في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء ، ثم بين أنهم ممن هدينا واجتبينا منبهاً بذلك على أنهم خصوا بهذه المنازل لهداية الله لهم ، ولأنه اختارهم للرسالة .

﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ وهذا خبر

لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو الذين أنعم الله عليهم ، وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه ، والسجد والبُكِيّ جمع ساجد قياساً وباك على غير قياس، وقياسه بكاة ، كقاض وقضاة ، وقد تقدم في سبحان بيان معنى خروا سجداً ، يقال بكى يبكي بكاء وبكياً ؛ قال الخليل: إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن، أي ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر :

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

قال الزجاج: قد بين الله أن الأنبياء كانوا اذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا خضوعاً وخشوعاً وخوفاً وحذراً، والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم ، وقيل المراد بها ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد؛ وفيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن .

قال صالح المري : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وفي الحديث : اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا(١) . وعن ابن عباس : اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه ، وقد استدل بهذه على مشروعية سجود التلاوة ، وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن ، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوة هذه الآية ، وقال بعضهم : إنه الصلاة .

وقال الرازي : يحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلوا ذلك لأجل ذكر السجود في الآية .

ولما مدح الله سبحانه هؤلاء الأنبياء بهذه الصفات ترغيباً لغيرهم في الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ، ذكر أضدادهم تنفيراً للناس على طريقتهم فقال :

---

(١) ابن ماجة كتاب الإقامة باب ١٧٦ ـ كتاب الزهد باب ٦٩ .

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾

﴿ فخلف ﴾ أي وجد وحدث ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد النبيين المذكورين ﴿ خلف ﴾ أي عقب سوء . قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير والصدق خلف بفتح اللام ، ولعقب الشر والسوء خلف بسكون اللام ، وقد قدمنا الكلام على هذا في آخر الأعراف .

﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ أي أخروها عن وقتها ، قاله الأكثر ، وهو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى يأتي المغرب ، وقيل أضاعوا الوقت، وقيل كفروا بها وجحدوا وجوبها ، وقيل لم يأتوا بها على الوجه المشروع . وقيل تركوها كاليهود والنصارى ، والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو جحدها دخولاً أولياً .

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ، فقيل في اليهود وقيل في النصارى وقيل في قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يأتون في آخر الزمان . وقال بالأولين السدي . وقال بالثالث مجاهد ، ولفظه هم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ولا يخافون من الله في السماء ، وعن ابن مسعود قال : ليس إضاعتها تركها ، قد يضيع الإنسان الشيء ولا يتركه . ولكن إضاعتها اذا لم يصلها لوقتها .

﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب اليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ هو الشر عند أهل اللغة كما أن الخير هو الرشاد . والمعنى أنهم سيلقون شراً لا خيراً .

وقيل الغي الضلال . وقيل الخيبة وقيل الخسران وقيل الهلاك وقيل العذاب وقيل هو اسم واد في جهنم تستعيذ من حره أوديتها أعد للزناة وشربة الخمر وشهاد الزور وأكلة الربا والعاقين لوالديهم .

وقيل في الكلام حذف . والتقدير سيلقون جزاء الغي . قاله الزجاج . ومثله قوله سبحانه : يلق أثاماً . أي جزاء أثام .

أخرج أحمد وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا هذه الآية قال : يكون خلف من بعد ستين سنة ؛ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً ، ثم يكون خلف يقرأون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة ؛ مؤمن ومنافق وفاجر[1].

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللبن قلت : يا رسول الله ما أهل الكتاب؟ قال قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا ، قلت : ما أهل اللبن ؟ قال قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات[2] .

وعن عائشة أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربرياً ، ولا بربرية ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧٤ .
(٢) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧٤ .

هم الخلف الذين قال الله فخلف من بعدهم خلف[1] ، أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه .

وعن ابن مسعود قال : الغي نهر أو واد في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات ، وقد قال بأنه واد في جهنم ، البراء بن عازب ، وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ، ثم ينتهي إلى غي ، وأثام ؛ قلت: وما غي؟ وأثام ؟ قال نهران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللذان ذكر الله في كتابه فسوف يلقون غياً ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً.

وأخرج ابن مردويه؛ عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : الغي واد في جهنم.

﴿ إلا من تاب ﴾ مما فرط منه من تضييع الصلاة واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله ﴿ وآمن ﴾ به ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿صالحاً﴾ الاستثناء منقطع قاله الزجاج وجرى أبو حيان وغيره على أنه متصل ، وهو ظاهر الآية ، لما روي عن قتادة أنها في حق هذه الأمة ، ويجوز أن يحمل على التغليظ ، كما قال تعالى : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ وبهذا التأويل يحسن قول قتادة . إن هذا الكلام نازل في شأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل في هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا في المسلمين .

﴿ فأولئك يدخلون الجنة ﴾ بفتح الياء وضم الخاء ، وقرىء بضم الياء

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٢٤٤ .

وفتح الخاء ﴿ ولا يظلمون شيئاً ﴾ أي لا ينقص من أجورهم شيء ، وان كان قليلاً ، فإن الله سبحانه يوفي أجورهم اليهم ﴿ جنات عدن ﴾ قرىء بالرفع على الابتداء وقرىء بالنصب على البدل من الجنة بدل البعض ، لكون جنات عدن ، بعضاً من الجنة ، وعلى المدح أيضاً .

قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان جنة عدن ، يعني بالإفراد مكان الجمع وليس هذا بشيء ، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التي هي بمنزلة الأنواع للجنس ، وقرىء بصرف عدن ؛ ومنعها عن الصرف ، على أنها علم بمعنى العدن ؛ وهو الإقامة أي بساتين إقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فإنها لا تدوم ، أو علم لأرض الجنة لكونها مقام إقامة .

﴿ التي وعد ﴾ ها ﴿ الرحمن عباده ﴾ متلبسة أو متلبسين ﴿ بالغيب ﴾ والمعنى أنهم لا يرونها فهي غائبة عنهم ، أو هم غائبون عنها ﴿ إنه ﴾ أي الرحمن ، وقيل إنه ضمير الشأن والأمر لأنه مقام تعظيم وتفخيم ﴿ كان وعده ﴾ أي موعوده على العموم فيدخل فيه الجنات دخولاً أولياً ، وقيل الوعد مصدر على بابه ﴿ مأتياً ﴾ أي هم يأتونها ، قال الفراء : لم يقل آتياً لأن كل ما أتاك فقد أتيته ، وكذا قال الزجاج ، وقال الزمخشري : كان وعده مفعولاً لا منجزاً .

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ هو الهذر ، والفضول من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم ، وقيل اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله ﴿إلا سلاماً ﴾ هو استثناء منقطع أي سلام بعضهم على بعض أو سلام الله أو سلام الملائكة عليهم ، وقال الزجاج : السلام اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ، والمعنى أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم ؛ وانما يسمعون ما يسلمهم ؛ وأبدى الزمخشري فيه ثلاثة أوجه ذكرها سليمان الجمل .

﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال المفسرون : ليس في الجنة بكرة ولا عشية ولا نهار ولا ليل بل ضوء ونور أبداً ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء في الدنيا ، وبه قال ابن عباس وإنما يعرفون الليل بإرخاء الحجب ، وغلق الأبواب،والنهار بفتحها ورفع الحجب ، كما روي،والرزق في البكرة والعشي ، أفضل العيش عند العرب ، وقيل أراد دوام الرزق .

أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن الحسن وأبي قلابة قالا : قال رجل يا رسول الله هل في الجنة من ليل ؟ قال وما هيجك على هذا؟ قال سمعت الله يذكر في الكتاب : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ فقلت الليل من البكرة والعشي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو ، تأتيهم طرف الهدايا من الله بمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة .

﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوالها نورثها ونعطيها وننزل بها من كان من أهل التقوى ، كما يتقي على الوارث مال مورثه ، ولا يرد كالميراث الذي يأخذه الوارث فلا يرجع فيه المورث ، أي نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم ، قرىء نورث بفتح الواو وتشديد الراء من ورّث مضعفاً وبالتخفيف ، وقرأ الأعمش نورثها بإبراز عائد الموصول .

وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، أي نورث من كان تقياً من عبادنا والوراثة أقوى لفظ يستعمل في التمليك ، والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا تبطل بردّ ولا إسقاط ، وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار ، لو أطاعوا زيادة في كرامتهم .

والآية تدل على أن المتقي يدخلها ، وليس فيها دلالة على أن غير المتقي لا يدخلها ، وأيضاً صاحب الكبيرة متق عن الكفر ﴿ وما نتنزل إلا بـأمر ربك ﴾ أي قال الله سبحانه قل يا جبريل ، وما نتنزل وقتاً غب وقت ، الا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استبطأ نزول جبريل عليه حين سألوه في أمر الروح ، وأصحاب الكهف ، وذي القرنين ، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل الا بأمر الله ، قيل احتبس جبريل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ، وقيل خمسة عشر ، وقيل اثني عشر ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل إن هذا حكاية عن أهل الجنة ، وإنهم يقولون عند دخولها وما نتنزل هذه الجنان الا بأمر ربك ، والأول أولى بدلالة ما قبله ، ومعناه يحتمل وجهين :

الأول : وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل .

والثاني : وما نتنزل عليك الا بأمر ربك الذي يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك.والتنزل : النزول على مهل فإنه مطاوع نزل بالتشديد وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق نزل المشدد بمعنى أنزل .

وقد أخرج البخاري وغيره ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟[1] فنزلت هذه الآية الى آخرها وكان ذلك الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الباب روايات تدل على أنه السبب في النزول ، ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي (ﷺ) فقال .

﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ أي من الجهات والأماكن أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه ، فلا نقدر أن ننتقل من جهة إلى جهة ، ومن مكان الى مكان أو من زمان

(١) البخاري كتاب التوحيد باب ٢٨ ـ الإمام احمد ١/٢٣١ .

الى زمان الا بأمر ربك ومشيئته ، وقيل المعنى له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة . قاله سعيد بن جبير .

وقيل ما أمامنا من أمور الآخرة وما خلفنا من أمور الدنيا وما بين ذلك أي ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة ، وقيل هو ما بين النفختين قاله قتادة ، وقبل الأرض التي بين أيدينا اذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها ؛ والحالة التي نحن فيها وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : ان الله سبحانه هو المحيط بكل شيء : لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، فلا نقدم على أمر الا بإذنه ، وقال ما بين ذلك ولم يقل ما بين ذينك لأن المراد ما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه عوان بين ذلك .

﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ ناسياً أي لم يَنْسَكَ ولم يتركك وإن تأخر عنك الوحي وقيل المعنى أنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئاً ، وقيل المعنى وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذي يرسل فيه رسله .

أخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن مردويه والطبراني والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث ، قال : ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾[1] ومن حديث جابر عند ابن مردويه مثله .

(١) المستدرك كتاب التسير ٢/٣٧٥ .

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾
وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ
مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾
ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

﴿ رب السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ﴿ و ﴾ خالق ﴿ ما بينهما ﴾ ومالكهما ومالك ما بينهما ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه. وكيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة؟ ،وفيه دليل على أن فعل العبد خلق الله لأنه حاصل بين السموات والأرض ، ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعبادته ، والصبر عليها فقال :

﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ الفاء للسببية لأن كونه لا ينساك ، وكونه رب العالمين ، سبب موجب لأن يعبد ، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿ هل تعلم له سمياً ؟ ﴾ الاستفهام للإنكار ، والمعنى أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له هذا مبني على ان المراد بالسَّمِيِّ، هو الشريك في المسمى .

وقيل المراد به الشريك في الاسم ، كما هو الظاهر من لغة العرب فقيل المعنى أنه لم يسم شيء من الأصنام ولا غيرها بالله قط يعني بعد دخول الألف واللام التي عوضت عن الهمزة ولزمت أو برب السموات والأرض . وإليه نحا

أبو السعود . والجملة تأكيد لما أفادته الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب تخصيص العبادة به تعالى .

قال الزجاج : تأويله والله أعلم هل تعلم له سمياً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ؟ وعلى هذا لا سَمِيٌّ لله في جميع أسمائه لأن غيره وان سمي بشيء من أسمائه فلله سبحانه حقيقة ذاك الوصف . والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله . وقال ابن عباس : هل تعلم ؟ أي تعرف للرب شبهاً أو مثلاً ، ليس أحد يسمي الرحمن غيره ، وعنه قال : يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد ؟ .

﴿ ويقول الإنسان﴾ المراد به ها هنا الكافر لأن الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث . قال ابن جريج : الإنسان هو العاص بن وائل . وقيل أبي بن خلف أو الوليد بن المغيرة والنازل فيه الآية ، وهذا من قبيل العام الذي أريد به الخاص،وقيل اللام في الانسان للجنس بأسره ، وإن لم يقل هذه المقالة إلا بعضهم، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم، وعلى كل فلفظ الإنسان لا يشمل المؤمنين.

﴿أئذا ما مت﴾ قرىء على الاستفهام وعلى الخبر ﴿ لسوف أخرج حياً ﴾ من القبر كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم؟والاستفهام بمعنى النفي أي لا أحيى بعد الموت، و ﴿ حياً ﴾ حال مؤكدة لأن من لازم خروجه من القبر أن يكون حياً وهو كقوله : ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ .

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والواو لعطف الجملة على أخرى مقدرة ، أي أيقول ذلك ولا يذكر . وقرىء يذكر بالتخفيف وبالتشديد وأصله يتذكر ، وفي قراءة أبي أو لا يتذكر ، والمراد بالذكر هنا إعمال الفكر أي ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدل بالإبتداء على الإعادة؟. والابتداء أعجب وأغرب من الاعادة لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه

المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعاً واختراعاً لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها .

ومعنى ﴿ من قبل ﴾ من قبل بعثه ، وقدره الزمخشري من قبل الحالة التي هو عليها الآن وهي حالة بقائه ﴿ ولم يك شيئاً ﴾ أي والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً من الأشياء أصلاً، فالإعادة بعد أن كان شيئاً موجوداً أسهل وأيسر وأهون . ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم تكن في حجج البعث حجة أقوى منها أكد بالقسم باسمه سبحانه . مضافاً الى رسوله تشريفاً له وتعظيماً ، أو لأن العادة جارية بتأكيد الخبر بالتمييز فقال :

﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ أي لنسوقنهم الى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا ﴿ والشياطين ﴾ والواو للعطف أو بمعنى مع . والمعنى أن هؤلاء الجاحدين للبعث يحشرهم الله مع شياطينهم الذين أغووهم واضلوهم في سلسلة ، وهذا ظاهر على جعل اللام في الانسان للعهد وهو الانسان الكافر ، وأما على جعلها للجنس فلكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه .

﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم ﴾ من خارجها قبل دخولها ، وقيل من داخلها ﴿ جثياً ﴾ جمع جاث من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثواً أي جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب ، أو يكون الجثي على الركب شأن أهل الموقف كما في قوله سبحانه : وترى كل أمة جاثية .

وقيل المراد بقوله جثياً جماعات وأصله جمع جَثْوة، والجثوة هي المجموع من التراب والحجارة . قال ابن عباس : جثياً قعوداً .

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ أي من كل أمة وفرقة وأهل دين وملة من الكفار . والشيعة الفرقة التي تبعث ديناً من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشري

فقال هي الطائفة التي شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة ، قال الله تعالى : ﴿ ان الذين فرقوا دينهم[1] وكانوا شيعاً﴾ ﴿أيهم أشد[2] على الرحمن عتياً ﴾ أي أعصى لله وأعتى وقال ابن عباس : عتياً معصية وعصياً ، فإنه ينزع من كل طوائف الغي والفساد أعصاهم وأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحهم في جهنم ، والعتي هنا مصدر كالعتو وهو التمرد في العصيان ، أي عصياناً وجرأة .

وقيل :المعنى لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر ، قاله قتادة وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن كثير من أهل العصيان ، ولو خص ذلك بالكفرة ، فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب ، أو يدخل كُلًّا طبقته التي تليق به ، وللنحويين في إعراب أيهم كلام طويل وأقوال كثيرة أظهرها عند الجمهور من المعربين ، وهو مذهب سيبويه أن أيهم موصولة بمعنى الذي وأن حركتها حركة بناء ، وأشد خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لأي ، وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولاً به لننزعن ، وعتياً تمييز محول عن المبتدأ المحذوف الذي هو أشد . أي عتوة أشد من عتو غيره .

وعن ابن مسعود قال : يحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر والأكابر جرماً ، ثم قرأ : فوربك لنحشرنهم إلى قوله عتياً ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ بكسر الصاد وضمها سبعيتان . قال ابن جريج : يعني أيهم أحق وأولى بالخلود في جهنم ، يقال صلى يصلي صلياً ، مثل مضى الشيء يمضي مضياً .

قال الجوهري : يقال صليت الرجل ناراً إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق، قلت أصليته بالنار بالألف ، وصلَّيته تصلية ، ومنه ويصلى سعيراً ، ومن خفف فهو من قولهم : صلى فلان

(١) هذا جزء من الآية رقم ١٥٩ من سورة الأنعام.
(٢) بقية آية مريم رقم ٦٩.

للنار بالكسر يصلى صلياً احترق . قال الله تعالى : ﴿ بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ ، ومعنى الآية أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتياً ، هم أولى بصليها أو صليهم ، أولى بالنار .

﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ الخطاب للناس من غير التفات أو للإنسان المذكور فيكون التفاتاً ، وقيل للكفار ، وقرىء وإن منهم لمناسبة الآيات التي قبل هذه فإنها في الكفار ، وهي قوله : فوربك لنحشرنهم ، الآيات وكذلك قرأ عكرمة وجماعة ، لكن الأكثرون على أن المخاطب العالم كلهم ، والمعنى ما منكم من أحد مسلماً كان أو كافراً إلا واردها أي واصلها وداخلها ، والضمير يرجع الى النار ؛ وقيل الى يوم القيامة والأول أولى .

وقد اختلف الناس في هذا الورود ، فقيل الورود الدخول لقوله : لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، لكنه يختص بالكفار لقراءة وإن منهم ، وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات ويستثنى الأنبياء والمرسلون ، وتكون على المؤمنين برداً وسلاماً ، كما كانت على ابراهيم .

وقالت فرقة : الورود هو المرور على الصراط ، لأن الصراط ممدود عليها ، فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار ، وعلى هذا لا يستثنى الأنبياء والمرسلون، بل يمر عليه جميع الخلق . روي ذلك عن ابن عباس وكعب الأحبار والسدي ورواه السدي عن ابن مسعود عن النبي (ﷺ) والحسن . وعن مجاهد : ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : الحمى حظ كل مؤمن من النار[1] ، وفيه بعد . وقيل ليس الورود الدخول إنما هو كما تقول وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى : ﴿ ان

(١) وتتمته : « وحمى ليلة تكفر خطايا سنة مجرمة » ضعيف الجامع الصغير ٢٧٩٥ سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣٥٣٢ .

الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ قالوا فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها ، وأجابوا عنه بأن معناه أنهم مبعدون عن العذاب فيها والاحتراق بها ، فمن دخلها وهو لا يشعر بها ولا يحس منها وجعاً ولا ألماً فهو مبعد عنها .

وقالت فرقة : الورود هو الإشراف والاطلاع والقرب ، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم فيرونها وينظرون اليها في حالة الحساب ، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا اليه ويصار بهم إلى الجنة كما سيأتي ، ومما يدل على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا ورد ماء مدين﴾ فإن المراد أنه أشرف عليه لا أنه دخل فيه ، ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه ، جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة فينبغي حمل هذه الآية على ذلك لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابها ، أو بحمله على المضي فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضنا يدخلونها جميعاً ثم ننجي الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له فقال ـ وأهوى بأصبعه الى أذنيه ـ صممنا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على ابراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردها ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ الآية[1] . وأسنده أبو عمرو في كتاب التمهيد . وعلى هذا فالورود الدخول ؛ وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم .

---

(١) المستدرك كتاب الأحوال ٥٨٧/٤ .

وفي الحديث فتقول النار للمؤمنين: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي وعن مجاهد قال: خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس فقال: الورود الدخول وقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ وقال أورود أم لا؟ وقرأ ﴿يقـدم قومه يوم القيامة فأوردهم النـار﴾، وورود أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وقرأ ابن مسعود «وإن منكم إلا داخلها» مكان «واردها» وعنه قال ورودها الصراط وقال رجل من الصحابة لآخر: أيقنت بالورود. قال نعم، قال وأيقنت بالصدور قال لا، قال ففيم الضحك وفيم التثاقل.

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي وغيـرهم عن ابن مسعود في الآية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون منها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب المجد في رحله، ثم كشد الرجل في مشية[1] وقد روى نحوه عنه من طريق، وهو في مسند الدارمي أيضاً. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ يقول مجتاز فيها.

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية. قـالت حفصة أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال ألم تسمعيه يقول ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يموت لمسلم ثلاث من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم؛ ثم قرأ سفيان ﴿وان منكم الا واردها﴾[2].

---

(١) المستدرك كتاب الأهوال ٤/٥٨٦.

(٢) مسلم ٢٦٣٢ ـ البخاري ٦٧١.

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى والطبراني عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من جهس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ وان منكم إلا واردها ﴾ والأحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جداً .

وأما فائدة دخول المؤمنين النار ، اذا لم يكن عذاب فَبوُجُوه. أحدها أن ذلك مما يزيدهم سروراً اذا علموا الخلاص منه ؛ وثانيها أنَّ فيه مزيد همّ على أهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها ، وثالثها أنهم اذا شاهدوا ذلك العذاب على الكفار صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة ، ولا نقول صريحاً إن الأنبياء يدخلون النار أدباً معهم ، ولكن نقول إن الخلق جميعاً يردونها كما دلت عليه أحاديث الباب ، فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء يدخلونها لشفاعتهم ، فبين الداخلين بَوْنٌ.

﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ أي كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً لازماً قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة بمقتضى حكمته لا بإيجاب غيره عليه قال مجاهد : مقضياً قضاء من الله . وقال عكرمة : قسماً واجباً . قالت الأشاعرة : إن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف اليه . وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله ، وأن صاحب الكبيرة مخلد ، والفاسق مخلد في النار ، بدليل أن الله بين أن الكل يردونها ، ثم بين صفة من ينجو، وهم المتقون، والفاسق لا يكون متقياً فبقي في النار أبداً .

وأجيب عن ذلك بأن المتقي هو الذي يتقي الشرك ، فصاحب الكبيرة متق ، فوجب أن يخرج من النار بعموم قوله : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ فالآية التي توهموها دليلاً لهم هي من أقوى الدلائل على فساد قولهم ، وهذا من حيث البحث وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على إخراج المؤمن الموحد من النار وهي معروفة .

ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ
قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا
قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ
مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

﴿ ثم ننجي ﴾ أي نخرج ﴿ الذين اتقوا ﴾ ما يوجب النار وهو الكفر بالله ومعاصيه وترك ما شرعه ،وما أوجب العمل به من النار فلا يخلدون بعد أن أدخلوها قرىء ننجي بالتخفيف من أنجى ؛ وقرىء بالتشديد وهما سبعيتان ﴿ ونذر ﴾ أي نترك ﴿ الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار ، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض ﴿ فيها ﴾ أي في النار ﴿ جثياً ﴾ على الركب جمع جاث ، وقد تقدم قريباً . قال ابن عباس جثياً باقين فيها .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ واضحات لا يلتبس معانيها . وقيل ظاهرات الإعجاز، وقيل إنها حجج وبراهين والأول أولى ، وهي حال مؤكدة لأن آيات الله لا تكون إلاَّ واضحة، والضمير في عليهم راجع إلى الكفار الذي سبق ذكرهم في قوله﴿أئذاما مت لسوف أخرج حياً﴾، أي هؤلاء اذا قرىء عليهم القرآن تعذروا بالدنيا وقالوا : «لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أطيب من حالنا ولم يكن بالعكس : لأن الحكيم لا يليق به

أن يبين أولياءه ويعز أعداءه ، وقيل : عليهم أي على المؤمنين والأول أظهر ، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : ﴿ قال الذين كفروا ﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم ، وقيل المراد بهم هنا هم المتمردون المصرون منهم ، والأغنياء المتجملون بالثياب وغيرها .

ومعنى ﴿ للذين آمنوا ﴾ قالوا لأجلهم ، وقيل هي لام التبليغ كما في قوله : ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ أي خاطبوهم وشافهوهم بذلك ، وبلغوا القول إليهم ، يعني فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وفي منزلهم ضيق ، وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم .

﴿ أي الفريقين ﴾ المراد بهما المؤمنون والكافرون، كأنهم قالوا فريقنا ﴿ خير مقاماً ﴾ أم فريقكم ؟ وقرىء بضم الميم ، وهو موضع الإقامة أو مصدر بمعناها ، وبالفتح منزلاً ومسكناً فهو غير النادي إذ هو متحدث القوم ، وقيل هو الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة ، والمعنى أي الفريقين أكبر جاهاً وأكثر أعواناً وأنصاراً .

وعن مجاهد في الآية قال : قريش تقوله لها ولأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقال ابن عباس : مقاماً المنازل ﴿ وأحسن ندياً ﴾ قال ابن عباس : ندياً المجالس . والنَّدِيُّ والنادي مجلس القوم ومتحدثهم ومجتمعهم . ومنه قوله تعالى : ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ وقوله: ﴿ فليدع ناديه ﴾ أي أهل ناديه . وناداه جالسه في النادي ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم . وقيل هو مشتق من الندى وهو الكرم لأن الكرماء يجتمعون فيه .

﴿ وكم ﴾ أي كثيراً ﴿ أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ هي الجماعة والأمة الماضية وهو مفرد لفظاً متعدد معنى ﴿ هم أحسن أثاثاً ﴾ هو المال أجمع الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع .

وقيل هو متاع البيت خاصة ، وقيل هو الجديد من الفرش ، وقيل اللباس خاصة ﴿ رئياً ﴾ بمعنى المرئي ، وهو كالذِّبْح والطِّحْن بمعنى المذبوح والمطحون قرىء بالهمزة ، وقرىء بالياء المشددة من رأيت أي هم أحسن منظراً ، وبه قال جمهور المفسرين : وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس وحسن الأبدان وتنعمها أو مجموع الأمرين .

ومعنى القراءة الأولى معنى الثانية ، قال الجوهري : من همز جعله من المنظر من رأيت وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة، ومن لم يهمز إما أن يكون من تخفيف الهمزة أو يكون من رويت ألوانهم وجلودهم رياً أي امتلأت وحسنت ، وقد ذكر الزجاج معنى هذا ، وقرىء زياً وهو الهيئة والحسن والصورة،ويجوز أن يكون من زويت أي جمعت والزي محاسن مجموعة .

﴿ قل ﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية والكفار القائلين للمؤمنين أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً بقوله : ﴿ من كان ﴾ مستقراً ﴿ في الضلالة ﴾ أي الكفر والجهل والغفلة عن عواقب الأمور ، وهذا شرط وجوابه ﴿فليمدد له الرحمن مدّا ﴾ في الدنيا يستدرجه ، وهذا وإن كان على صيغة الأمر فالمراد به الخبر ، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة ، لينقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة﴿أو لم

نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ أو للاستدراج كقوله سبحانه : ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية ، وذكر لفظ الرحمن في هذه السورة في ستة عشر موضعاً ، وقيل المراد بالآية الدعاء بالمد والتنفيس .

قال الزجاج : تأويله أن الله جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمده فيها لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول أفعل ذلك وآمر به نفسي ، وقال مجاهد : معناه فليدعه الله في طغيانه ، وفي حرف أُبَيّ من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة وطغياناً واستدراجاً بأن يطيل عمره ، ويكثر ماله ويمكنه من التصرف فيه .

﴿ حتى ﴾ حرف ابتداء وليست جارة ولا عاطفة ، قاله الكازروني والشهاب وفي زكريا أنها جارة أي فيستمرون في الطغيان الى أن يشاهدوا الموعود ﴿ إذا رأوا ﴾ يعني الذين مد لهم في الضلالة ﴿ ما يوعدون ﴾ جاء بضمير الجماعة اعتباراً لمعنى ﴿ من ﴾ كما أن قوله : ﴿ من كان في الضلالة فليمدد له ﴾ اعتباراً بلفظها ، وقيل هده غاية للمد لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد والغاية في الحقيقة هي قوله : ﴿ فسيعلمون ﴾ الآن .

﴿ إما العذاب وإما الساعة ﴾ هذا تفصيل لقوله : ﴿ ما يوعدون ﴾ أي هذا الذي يوعدون هو أحد الأمرين إما العذاب في الدنيا بالقتل والأسر كما وقع لهم يوم بدر وإما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الأخروي ، فإما حرف تفصيل وهي مانعة خلو تجوز الجمع ، والعذاب والساعة بدلان من ما .

﴿ فسيعلمون ﴾ جواب إذا أي هؤلاء القائلون أي الفريقين خير مقاماً إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوي بأيدي المؤمنين أو الأخروي

﴿ من هو شر مكاناً ﴾ من الفريقين ﴿ وأضعف جنداً ﴾ قابل به أحسن ندياً من حيث إن حسن النادي يكون باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم والمعنى فسيعلمون أهم خير؟ وهم وجندهم الشياطين في النار أم المؤمنون وهم في الجنة وعندهم ملائكة الرحمن؟ ﴿ ومن ﴾ على هذا استفهامية وهو أحد وجهين، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي ، وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جنداً ضعفاء بل لا جند لهم أصلاً ، كما في قوله سبحانه : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾ ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال :

﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا ﴾ بالإيمان ﴿ هدى ﴾ بما ينزل عليهم من الآيات،وذلك أن بعض الهدى يجر إلى البعض الآخر ، والخير يدعو الى الخير ، وقيل : المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين ، وقيل الواو للعطف على جملة الشرط المحكية بالقول .

قال الزجاج : المعنى أن الله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم في ضلالتهم .

﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية التي تبقى لصاحبها ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية التي افتخروا بها ﴿ وخير مرداً ﴾ هو هنا مصدر كالرد ، والمعنى وخير رداً للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التي خسروا فيها ؛ والمراد المرجع والعاقبة أي ما يرد اليه ويرجع وهو الجنة وأفعل التفضيل للتهكم بهم على سبيل المشاكلة للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلاً ، ثم أردف سبحانه مقالة هؤلاء المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال :

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ
عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾
وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ
عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا
ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾

﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا ﴾ استفهام تعجيب أي أخبرني بقصة هذا الكافر يعني « عاص بن وائل » واذكر حديثه عقب حديث أولئك ، وإنما استعملوا : أرأيت بمعنى أخبر لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه ، والآيات تعم كل آية ، ومن جملتها آية البعث والفاء للعطف على مقدر أي أنظرت فرأيت واللام في ﴿ وقال لأوتين ﴾ هي الموطئة للقسم كأنه قال: والله لأوتين في الآخرة ﴿ مالاً وولداً ﴾ وهذا من شدة تعنته بكفره أي انظر إلى حال هذا الكافر ، وتعجب من كلامه وَتَأَلِّيه على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما في الآية من حديث خباب بن الأرَتّ قال : كنت رجلاً قيناً وكان لي علي العاص بن وائل(١) دين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقلت والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث قال : فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيك فأنزل الله فيه هذه الآية .

وقرىء وُلْداً بضم الواو وبفتحها قيل هما لغتان معناهما واحد يقال ولد وولد كما يقال : عدم وعدم ، وقيل بالضم للجمع وبالفتح للواحد، وقد ذهب

---

(١) هو أبو سيدنا عمرو فهو جد عبد الله بن عمرو أحد العبادلة إهـ منه .

الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله : ﴿ لأوتين مالاً وولداً﴾ أنه يؤتى ذلك في الدنيا ، وقال جماعة في الجنة ، قيل والمعنى ان أقمت على دين آبـائي لأوتين ، وقيل المعنى لو كنت على باطل لما أوتيت مالاً وولداً ، ثم أجاب الله سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله فقال :

﴿ أطلع الغيب ﴾ بفتح الهمزة الاستفهامية وأطلع متعد بنفسه ؛ كقوله : اطلع الجبل ، قال المغرب : وليس متعدياً بعلى كما توهمه بعضهم ، حتى يكون من الحذف والإيصال لكن في القاموس اطلع عليه فكأنه يتعدى ولا يتعدى ، يقال اطلع الجبل اذا أرتقى الى أعلاه ، والمعنى أَعَلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أنه في الجنة .

﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ بذلك أي بأن يؤتى ما قاله فإنه لا يتوصل الى هذا العلم الا بإحدى هاتين الطريقتين ؛ وقيل المعنى أنظر في اللوح المحفوظ ؟ أم اتخذ عند الله عهداً ؟ وقيل المعنى أم قال لا إلّه الا الله فأرحمه بها ويرجو بها ؟ قاله ابن عباس ، وقيل المعنى أم قدم عملاً صالحاً فهو يرجوه ؟ .

﴿ كلا ﴾ حرف ردع وزجر أي ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد ولفظة : (كَلَّا) فيها للنحاة ستة مذاهب:

أحدها : وهو مذهب جمهور البصريين كالخليل وسيبويـه وأبي الحسن والأخفش وأبي العباس المبرد أنها حـرف ردع وزجر وهذا معنى لائق بها حيث وقعت في القرآن وما أحسن ما جاءت في هذه الآية زجرت وردعت ذلك القائل .

والثاني : وهو مذهب النضر بن شميل أنها حـرف تصديق بمعنى نعم فتكون جواباً ولا بد حينئذ من أن يتقدمها شيء لفظاً أو تقديراً وقد تستعمل في القسم .

والثالث : وهو مذهب الكسائي وأبي بكر بن الأنباري ونصر بن يوسف وابن واصل أنها بمعنى حقاً .

والرابع : وهو مذهب أبي عبد الله الباهلي أنها رد لما قبلها ، وهذا قريب من معنى الردع .

الخامس : أنها صلة في الكلام بمعنى أي كذا ، قيل وفيه نظر فإن أي حرف جواب ، ولكنه مختص بالقسم .

السادس : أنها حرف استفتاح ، وهو قول أبي حاتم ، قال السمين : ولتقرير هذه المذاهب موضع هو أليق بها قد حققتها بحمد الله فيه . انتهى . .

وذكرت ﴿ كلا ﴾ في القرآن في النصف الثاني فقط ، وذكرت في خمس عشرة سورة منه كلها مكية ، وجملة ما ذكرت ثلاثة وثلاثون مرة ، ترجع الى أقسام ثلاثة ، قسم يجوز الوقف عليها ، وعلى ما قبلها فيبتدأ بها وهذا باتفاق .

وقسم اختلف فيه هل يجوز الوقف عليها أو يتعين على ما قبلها .

وقسم لا يجوز الوقف عليها باتفاق .

فالقسم الأول : خمسة مواضع **اللتان** في هذه السورة ، **واللتان** في سورة الشعراء **وواحدة** في سورة سبأ .

والقسم الثاني : تسعة ، **واحدة** في سورة المؤمنين **واثنتان** في سورة سأل سائل **واثنتان** في سورة المدثر . الأولى والثالثة **والأولى** في سورة القيامة ؛ **والثانية** في سورة ويل للمطففين ، **والأولى** في سورة الفجر **والتي** في سورة ويل لكل .

والقسم الثالث : هو التسع عشرة الباقية ذكره عز بن جماعة .

﴿ سنكتب ﴾ أي سنحفظ عليه ﴿ ما يقول ﴾ فنجازيه به في الآخرة أو سنظهر له ما يقول ونعلمه أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿ ونمد له من العذاب مداً ﴾ أي نزيده عذاباً فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد،أو نطول له من العذاب ما يستحقه ، وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ أي نميته فنرثه المال والولد الذي

يقول إنه يؤتاه والمعنى مسمى ما يقول ومصداقه ، قاله أبو السعود ، وقيل المعنى نحرمه ما تمناه في الآخرة ونعطيه غيره من المسلمين قاله القرطبي .

﴿ ويأتينا ﴾ يوم القيامة ﴿ فرداً ﴾ لا مال له ولا ولد ولا عشيرة ، بل نسلبه ذلك فكيف يطمع في أن نعطيه ، وقيل المراد بما يقول نفس القول لا مسماه والمعنى انما يقول هذا القول ما دام حياً ، فإذا أَمَتْنَاه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ، ويأتينا رافضاً له ، منفرداً عنه ، والأول أولى .

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾ حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقون وَتَأَلَّوْا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لأجل أن يتعززوا بذلك .

وقال أبو السعود : حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها إثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها . وقال الهروي : معناه ليكونوا لهم أعواناً . وقال الفراء ؛ ليكونوا لهم شفعاء عند الله في الآخرة ، وقيل معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها .

﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ؛ والضمير في الفعل إما للآلهة ، أي ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه لأنها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك ، وإما للمشركين ، أي سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام . ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ وقوله : ﴿ فالقوا اليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ ويدل على الوجه الثاني قوله تعالى : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ .

قرىء كُلًّا بضم الكاف والتنوين ، وهي بمعنى جميعاً ، وبالفتح مصدر أي كل هذا الرأي كلا والأصوب أنها حرف ردع وزجر والمعنى تكون هذه الآلهة التي ظنوها عزاً لهم ضداً عليهم ، أي ضداً للعز،وضد العز الذل ، هذا على الوجه الأول . وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للآلهة ضداً وأعداء

يكفرون بها بعد أن كانوا يعبدونها ويحبونها ويؤمنون بها .

قال ابن عباس : عليهم ضداً أعواناً وحسرة ، وإنما وحد الضد وإن كان خبراً عن جمع لأحد وجهين إما لأنه مصدر في الأصل ، والمصادر موحدة مذكرة ، وإما لأنه مفرد في معنى الجمع .

﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين : أحدهما أن معناه خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعذهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ الوجه الثاني : أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً ﴾ فمعنى الإرسال هنا التسليط ، ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ .

ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية وهو قولـه : ﴿ تؤزهم أزاً ﴾ فإن الأز والأزيز والهز والهزيز والاستفزاز أخوات معنـاها التحـريك والتهييـج وشدة الإزعاج فأخبر الله سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغريهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، وذلك هو التسليط لها عليهم .

وقيل معنى الأز الاستعجال وهو مقارب لما ذكرنا لأن الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وإزعاج ، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حالهم وللتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، والجملة حالية من الشياطين ، أو من الكافرين أو منهما أو مستأنفة ، كأنه قيل ماذا تفعل الشياطين بهم ؟ .

قال ابن عباس : تؤزهم أزاً تغويهم إغواء،وتحرض المشركين على محمد وأصحابه وقال : تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله ، وفي الآية دليل على أن الله مدبر لجميع الكائنات ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ بأن تطلب من الله إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق وتمردهم عن داعي الله سبحانه حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم .

ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله : ﴿ إنما نعد لهم عداً ﴾ يعني نعد الأيام والليالي والشهور والسنين من أعمارهم الى انتهاء آجالهم فلا نهمل ما يقع منهم بل نضبطه عليهم حتى نؤاخذهم به، وقيل نعد أنفاسهم وقيل خطواتهم وقيل لحظاتهم وقيل الساعات.

وقال قطرب : نعد أعمالهم ، وقيل المعنى لا تعجل عليهم إنما نؤخرهم ليزدادوا إثماً . قال الشهاب : إن العد كناية عن القلة ، ولا ينافي هذا ما مر من أنه يمد لمن كان في الضلالة لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم وهو قليل باعتبار عاقبته وعند العد . ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ فقال :

﴿ يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً ﴾ أي اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم يوم إلخ . ومعنى الحشر الى الرحمن حشرهم إلى جنته ودار كرامته ، كقوله : إني ذاهب إلى ربي ، والوفد جمع وافد كالركب جمع راكب والصحب جمع صاحب يقال وفد يفد وفداً إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير . كذا قال الجوهري . وعن ابن عباس قال : وفداً ركباناً .

وعن أبي هريرة قال : على الإبل . وعن علي قال : على نوق . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق ، راغبين وراهبين ، اثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا » والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً[1] .

وقيل يركبون من أول خروجهم من القبور . وهو ظاهر الآية . وقيل من منصرفهم من الموقف ، وعلى كلا القولين فيستمرون راكبين ، حتى يقرعون باب الجنة .

(١) مسلم ٢٨٦١ ـ البخاري ٢٤٥٠ .

وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾

﴿ ونسوق المجرمين ﴾ أي الكافرين بكفرهم كما تساق البهائم ﴿إلى جهنم ورداً ﴾ مشاة عطاشاً ، والسوق الحث على السير، والورد العطاش ، قاله الأخفش وغيره وبه قال ابن عباس وأبو هريرة. وقال الفراء وابن الأعرابي : هم المشاة . وقال الأزهري : هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء . وقيل ورداً أي للورد ، كقولك جئتك إكراماً أي للاكرام . وقيل أفراداً . قيل ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشاً أفراداً . وأصل الورد الجماعة التي ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك ، والورد الماء الذي يورد ، وقيل يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نَعَمٌ عطاش تساق إلى الماء .

﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ جملة مستأنفة لبيان بعض ما يكون في ذلك اليوم من الأمور ؛ والضمير راجع إلى الفريقين . وقيل للمتقين خاصة وقيل للمجرمين خاصة والأول أولى ، والمعنى أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم . وقيل لا يملك غيرهم أن يشفع لهم . والأول أولى .

﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول ، أي لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من تحلى واستأهل واستعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم ، بأن يكون مؤمناً متقياً ، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله .

وقيل معناه أن الله أمره بذلك ، كقولهم : عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا

أمره به وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله . وعنه قال : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » وقيل غير ذلك .

وأما على الوجه الثاني فالاستثناء منقطع لأن التقدير لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهم المسلمون والأول أوجه ، وبه جزم البيضاوي كالكشاف . وقيل متصل على هذا الوجه أيضاً ، والتقدير لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلماً ، ودلت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرني ، ومن سرني فقد اتخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار ، إن الله لا يخلف الميعاد » .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله (ﷺ) « من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً ، جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئاً فليس له عند الله عهد إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ قرىء بفتح الواو وضمها كما تقدم ، والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى . ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ﴿ لقد جئتم شيئاً إدّاً ﴾ فيه التفات من الغيبة الى الخطاب ، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء ، والإد كما قال الجوهري : الداهية والأمر الفظيع ، وكذلك الإدة، وجمع الإدة إدَد؛ يقال أدت فلاناً الداهية تَؤُدُّه بالضم وَتَئِدُّه بالكسر وَتَأَدُّه بالفتح إذا دهته وقرىء بالفتح ، وقرأ الجمهور بالكسر ، وقرىء آداً مثل ماداً ، وهي مأخوذة من الثقل ، يقال آده الحمل يؤوده إذا أثقله .

قال الواحدي : إدّاً أي عظيماً في قول الجميع ، وبه قال ابن عباس . والمعنى قلتم قولاً منكراً عظيماً ، وقيل الإدُّ العجب والإدَّة الشدة والمعنى متقارب . والتركيب يدور على الشدة والثقل .

﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ قرىء بالتحتية وبالفوقية ، وقرىء يتفطرون من الانفطار ، واختاره أبو عبيد لقوله : ﴿إذا السماء انفطرت ﴾ وقوله: ﴿ السماء منفطر به ﴾ وقرأ ابن مسعود يتصدعن ؛ والانفطار والتفطر التشقق .

﴿ وتنشق الأرض ﴾ كرر الفعل للتأكيد لأن يتفطرن وتنشق معناهما واحد أي تخسف بهم .

﴿ وتخر ﴾ أي تسقط وتنهدم ﴿ الجبال هداً ﴾ قال ابن عباس : هداً هدماً . لأن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله سبحانه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين . وانتصاب (هداً) على أنه مصدر مؤكد لأن الخُرُور في معناه ، أو هو مصدر لفعل مقدر ، أي وَتنهدُّ هداً أو على الحال أي مهدودة أو على أنه مفعول له أي لأنها تنهد .

قال الهروي : هدني الأمر وهد ركني أي كسرني وبلغ مني ، قال الجوهري : هد البناء يهده هداً كسره وضعضعه ؛ وَهَدَّته المصيبة أوهنت ركنه ، وانْهَدَّ الجبل أي انكسر ، والْهَدُّ صوت وَقْعِ الحائط كما قال ابن الأعرابي .

﴿ أن ﴾ أي لأن ﴿ دعوا ﴾ أو من أجل أن جعلوا ﴿ للرحمن ولداً ﴾ وقال الكسائي : هو بتقدير الخافض ، وقيل في محل رفع على أنه فاعل هداً ، أي هدها دعاء الولد ، والدعاء بمعنى التسمية ، أي سموا للرحمن ولداً ، أو بمعنى النسبة ، أي نسبوا له ولداً ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ ما ينبغي ﴾ أو لا يصلح ﴿ للرحمن ﴾ ولا يليق به ﴿ أن يتخذ ولداً ﴾ لاستحالة ذلك عليه لأن الولد يقتضي الجنسية والحدوث .

إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ
هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

﴿ إن كل من في السموات والأرض ﴾ أي ما كل من فيهما ﴿ إلا ﴾ وهو ﴿ آتي الرحمن ﴾ وَحَّد آتي وآتيه الآتي حملاً على لفظ ﴿ كل ﴾ وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل ، أي يأتيه يوم القيامة ﴿ عبداً ﴾ مقراً بالعبودية خاضعاً ذليلاً منهم عزير وعيسى ، كما قال ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ أي صاغرين ، والمعنى أن الخلق كلهم عبيده ، فكيف يكون واحد منهم ولداً له ؟ وقرىء آت على الأصل ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أي حصرهم بعلمه، وَعَلِمَ عَدَدَهم وأحاط بهم ﴿ وعدهم عداً ﴾ أي عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأيامهم وآثارهم بعد أن حضرهم ، فلا يخفى عليه أحد منهم ولا شيء من أمورهم .

﴿ وكلهم ﴾ أي كل واحد منهم تحت قهره وقدرته وتدبيره ﴿ آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ أي وحيداً ولا ناصراً له ولا مال معه ، كما قال سبحانه ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ . ثم ذكر الله سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين فقال :

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ الجمهور من السبعة وغيرهم على ضم الواو ، وقرىء بكسرها وفتحها ، أي حباً في قلوب عباده يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التي توجب ذلك ، كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب ، وهذا الجعل في الدنيا، والسين للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية ، لأن المؤمنين كانوا

بمكة حال نزول هذه الآية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم الله تعالى بذلك إذا ظهر الإسلام فألف الله تعالى بين قلوب المؤمنين ، ووضع فيها المحبة، أو في القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل .

وعن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب ، والمعنى محبة في قلوب المؤمنين . وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ : « قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي عندك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة » فأنزل الله الآية في عليّ . أخرجه ابن مردويه والديلمي .

وعن ابن عباس قال : محبة في الناس في الدنيا ، وعن علي قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية ما هو؟ قال : «المحبة الصادقة في صدور المؤمنين» .

وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل أني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادى في السماء ، ثم ينزل المحبة في أهل الأرض ، فذلك قوله : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ واذا أبغض الله عبداً نادى جبريل أني قد أبغضت فلاناً ، فينادي في أهل السماء ثم ينزل البغضاء في الأرض » والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة[1].

ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن ، خصوصاً هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة وبيان حال المعاندين فقال :

﴿ فإنما يسرناه ﴾ أي القرآن بإنزالنا له ﴿ بلسانك ﴾ أي على لغتك

---

(١) مسلم ٢٦٣٧ ـ البخاري ١٥١٥ .

العربية ؛ وفصلناه وسهلناه والباء بمعنى على والفاء لتعليل كلام يساق فإليه النظم الكريم كأنه قيل بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر به فإنما يسرناه ، الآية ، ثم علل ما ذكره من التيسير فقال : ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المتلبسين بالتقوى المتصفين بها ﴿ وتنذر به قوماً لدّاً ﴾ ولو أنزلناه بغيرها لم يتيسر التبشير ولا الإنذار لعدم فهم المخاطبين لغير العربية ، واللُّدّ جمع الألد وهو الشديد الخصومة ، ومنه قوله تعالى (ألد الخصام) وقال أبو عبيدة : الألد الذي لا يقبل الحق ، ويدعي الباطل ، وقيل اللُّدُّ الصُّمُّ وقيل الظَّلَمَة، وقال ابن عباس : لُدّاً فجاراً ، وعن الحسن قال : صماً يعني عن الحق.

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ أي أمة وجماعة من الناس ؛ وفي هذا وعد لرسول الله (ﷺ) بهلاك الكافرين ووعيد لهم وتخويف وإنذار .

﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي هل تشعر بأحد من القرون أو تراه أو تجد أو تعلم،والإحساس الادراك بالحاسة والحواس خمس والحس والحسيس الصوت الخفي ﴿ أو تسمع لهم ركزاً ﴾ الركز : الخفاء والصوت الخفي ومنه ركز الرمح ، إذا غيب طرفه في الأرض وقال اليزيدي وأبو عبيدة : الركز ما لا يفهم من صوت أو حركة ، وقال سعيد ابن جبير : هل ترى منهم من أحد ركزاً صوتاً ، وبه قال ابن عباس .

والمعنى لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرى ولا صوت يسمع ، يعني هلكوا كلهم ، قال الحسن: بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر ، يعني هكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك ، فَلْيَهُنْ عليك أمرهم ، والله أعلم بالصواب .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه

(آياتها مائة وخمس وثلاثون آية أو أربعون واثنتان)

قال القرطبي : مكية في قول الجميع . وبه قال ابن عباس وابن الزبير . وقال السيوطي في الاتقان : استثنى منها (فاصبر على ما يقولون .)

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل القرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرأون منه شيئا الا سورة طه ويس فانهم يقرأون بهما في الجنة » وعن أنس بن مالك فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب . وقراءتهما طه . وكان ذلك سبب أسلام عمر والقصة مشهورة في كتب السير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم
مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

﴿ طه ﴾ قد اختلف أهل العلم في معنى هذه الكلمة على أقوال :

الأول : أنها من المتشابه الذي لا يفهم المراد به .

والثاني : أنها بمعنى يا رجل في لغة عكل ، وفي لغة عك[1] ، قال الكلبي : لو قلت لرجل من عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه ، وقيل إنها في لغة عك بمعنى يا حبيبي. وقال قطرب : هي كذلك في لغة طيء، أي بمعنى يا رجل ، وكذا قال الحسن وعكرمة ، وقيل هي كذلك في اللغة السريانية حكاه المهدوي ، وحكى ابن جرير أنها كذلك في اللغة النبطية ، وبه قال السدي وسعيد بن جبير ، وحكي عن عكرمة أنها كذلك في لغة الحبشة ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى في تلك اللغات كلها إذا صح النقل .

الثالث : أنها اسم من أسماء الله سبحانه .

الرابع : أنها اسم للنبي صلى الله عليه وسلم .

الخامس : أنها اسم للسورة .

---

(١) عك قبيلة من قبائل العرب إ هـ خازن .

السادس : أنها حروف مقطعة كل واحد منها على معنى ، ثم اختلفوا في هذه المعاني التي تدل عليها هذه الحروف ، على أقوال كلها متكلفة متعسفة .

السابع : أن معناها طوبي لمن أهتدى .

الثامن : أن معناها طأ الأرض يا محمد قال ابن الأنباري : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج الى التروح ، فقيل له : طأ الأرض أي لا تتعب حتى تحتاج الى التروح .

وحكى القاضي عياض في الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله طه يعني طأ الأرض يا محمد ، وعن الحسن البصري أنه قرأ : طه ، على وزن دع أمر بالوطء والأصل طأ فقلبت الهمزة هاء .

التاسع : أنه قسم أقسم الله بطوله وهدايته ، وعن أكثر المفسرين أن معناها يا رجل يريد النبي صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ومجاهد وابن عباس غير أن بعضهم يقول : إنها بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ويقول الكلبي . هي بلغة عك كما مر .

قال ابن الأنباري : ولغة قريش وافقت تلك اللغة في هذا المعنى لأن الله سبحانه لم يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بلسان غير قريش انتهى وإذا تقرر أنها لهذا المعنى في لغة من لغات العرب كانت ظاهرة المعنى ، واضحة الدلالة ؛ خارجة عن فواتح السور ، التي قدمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة سورة البقرة وهكذا اذا كانت لهذا المعنى في لغة من لغات العجم ، واستعملتها العرب في كلامها في ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب العزيز ، فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة

العرب ، قال النسفي : وما روي أن معناه يا رجل فإن صح فظاهر وإلا فالحق ما هو المذكور في سورة البقرة ، انتهى ولذا قال المحلى والله أعلم بمراده بذلك .

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، والشقاء يجيء في معنى التعب وشائع فيه .

قال ابن كيسان : وأصل الشقاء في اللغة التعب والعناء، ولعله عدل اليه للإشعار بأنه أنزل عليه ليسعد والمعنى ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا إذ ما عليك إلا أن تبلغ ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ .

قال النحاس : بعض النحاة يقول هـذه اللام في لتشقى لام النفي وبعضهم يقول لام الجحود ، وقال ابن كيسان : هي لام الخفض وهذا التفسير للآية على قول من قال إن طه كسائر فواتح السور التي ذكرت تعديداً لأسماء الحروف، وإن جعلت اسماً للسورة كان قوله ما أنزلنا الخ خبراً عنها .

وأما على أن معناها يا رجل أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون الجملة مستأنفة أيضاً مسوقة لصرفه (ﷺ) عما كان عليه من المبالغة في العبادة .

وعن ابن عباس قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى فأنزل الله طه ، الآية ، وعنه قال: قالوا :لقد شقي هذا الرجل بربه فأنزل الله هذه الآية ، وعنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام فأنزل الله هذه الآية ، وعن علي كان يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت هذه الآية وحسن السيوطي إسناده.

وانتصاب ﴿ إلا تذكرة ﴾ على أنه مفعول له لأنزلنا ، كقولك : ما ضربتك للتأديب إلا اشفاقاً عليك ، وقال الزجاج : هو بدل لتشقى ، أي ما أنزلناه الا تذكرة ، وأنكره أبو علي الفارسي من جهة أن التذكرة ليست الشقاء ، قال : وانما هو منصوب على المصدرية أي أنزلناه لتذكر به تذكرة أو على المفعول من أجله أي ما انزلنا عليك القرآن لتشقى به ما أنزلناه الا للتذكرة ، وقيل الاستثناء منقطع لأن التذكرة ليست من جنس الشقاء المنفي اي لكن أنزلناه عظة .

﴿ لمن يخشى ﴾ أي لمن خاف الله أو لمن يؤول أمره الى الخشية أو لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنزال ،أو لمن علم الله أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع ، وكأنه يشير إلى ان اللام في لمن للعاقبة ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلي ﴾ أي أنزلناه تنزيلاً ، أو بدل من تذكرة ، أو منصوب على المدح أو يخشى تنزيلاً من الله أو على الحال وبالرفع على معنى هذا تنزيل وتخصيص خلق الأرض والسموات لكونهما أعظم ما يشاهده العباد من مخلوقاته عز وجل ، والعلى جمع العليا أي المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كُبَر وصُغَر ، وفي الآية إخبار لعباده عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله .

﴿ الرحمن على العرش ﴾ هو في اللغة السرير ، وقيل هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه ﴿ استوى ﴾ استواء يليق به ، قال ثعلب : الاستواء الإقبال على الشيء . وكذا قال الزجاج والفراء ، وقيل هو كناية عن الملك والعز والسلطان ، وأما استوى بمعنى استقر ، فقد رواه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها .

وعن مالك : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ؛ قال البغوي : أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز

وجل ، وعن الثوري والأوزاعي والليث وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم في أمثال هذه الآيات التي جاءت في الصفات أقروها كما جاءت بلا كيف وفيه مذهبان .

الأول : القطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة وعدم الخوض في تأويلها وبه قال الخازن واختاره .

الثاني : الخوض فيه على التفصيل ، وفيه قولان:

الأول: العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملك ، فإذا استقام له ملكه ، واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه قاله القفال ، قال الخازن : والذي قاله حق وصواب والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة ، ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس . (ثم استوى على العرش يدبر الأمر) فقوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله : ثم استوى على العرش .

الثاني : أن يكون استوى بمعنى استولى ، وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين ، واحتجوا عليه بقول الشاعر .

قد استوى بشر على عراق من غير سيف ودم مهراق

ورد هذا بأن العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى ، وإنما يقال استوى فلان على كذا إذا لم يكن في ملكه ، ثم ملكه واستولى عليه ، والله تعالى لم يزل مالكاً للأشياء كلها ومستولياً عليها ، فأي تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات ؟ وقال أبو الحسن الأشعري : المعنى أن الله مستو على عرشه وأنه فوق الأشياء بائن منها ولا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها .

وعن ابن الأعرابي : جاءه رجل فقال : ما معنى هذه الآية ؟ قال : إنه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل إنما معنى قوله : استوى استولى فقال له

ابن الأعرابي : ما يدريك العرب لا تقول استوى فلان على الشيء ، حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب ؟ قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر ، لا كما يظنه البشر ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة الأعراف وفيه رسائل مستقلة وكتب مفردة للحفاظ والمحدثين ونزاع قديم بين المتقدمين والمتأخرين .

والحق ما ذهب اليه سلف الأمة وأئمتها من إمرار الصفات على ظاهرها من غير تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تأويل ، والذي ذهب اليه أبو الحسن الأشعري أنه سبحانه مستو على عرشه بغير حدّ ولا كيف وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم والمجتهدين الأربعة وأهل الحديث والأثر ، الذين يمرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تعطيل ولا تأويل والبحث في تحقيق هذا يطول جداً وليس هذا موضع بسط ذلك رداً وتعقباً وقد أوضحنا ذلك إيضاحاً شافياً في رسائلنا (الانتقال الرجيح) و (هداية السائل) و (بغية الرائد)[1] وغيرها فليرجع اليها قاله الشوكاني .

﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ﴾ من الموجودات ؛ وقيل يعني الهواء ﴿ وما تحت الثرى ﴾ هو في اللغة التراب الندي فإن لم يكن ندياً فهو تراب ولا يقال له حينئذ ثرى ، أي ما تحت التراب النديّ من شيء ، والمراد الأرضون السبع لأنها تحته .

قال الواحدي : والمفسرون يقولون : إنه سبحانه أراد الثرى الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الأرض ، ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله سبحانه . قال قتادة : الثرى كل شيء مبتل .

---

(١) يسر الله لنا طبعها.

وأخرج أبو يعلى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل ما تحت هذه الأرض ؟ قال : الماء، قيل فما تحت الماء ؟ قال : ظلمة ، قيل فما تحت الظلمة ؟ قال : الهواء قيل فما تحت الهواء ، قال : الثرى ، قيل فما تحت الثرى ، قال : انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه بأطول منه .

﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ الجهر بالقول هو رفع الصوت به،والسر ما حدَّث به الإنسان غيره وأسره إليه ، والأخفى من السر هو ما حدّث به الإنسان نفسه وأخطره بباله ، والمعنى إن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن ذلك فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر فلا حاجة لك الى الجهر بالقول ، وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ وقيل السر ما أسر الإنسان في نفسه ، والأخفى منه هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه . وبه قال ابن عباس ، وزاد فإنه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد ؛ وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة ، وهو كقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

وقيل السر ما أضمره الإنسان في نفسه والأخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد، وقيل السر سر الخلائق ، والأخفى منه سر الله عز وجل ، وأنكر ذلك ابن جرير وقال : إن الأخفى ما ليس في سر الإنسان وسيكون في نفسه . وعن ابن عباس أيضاً قال : السر ما علمته أنت ، وأخفى ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه، وفي لفظ : يعلم ما تسر في نفسك ويعلم ما تعمل غداً .

وفي الآية تنبيه على أن الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله تعالى وإسماعه ، بل لغرض آخر كتصوير النفس بالذكر ورسوخها فيه ودفع الشواغل والوساس، ومنعها عن الاشتغال بغيره ، وهضمها بالتضرع والجؤار

ثم ذكر أن الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المتنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالأسماء الحسنى فقال :

﴿ الله ﴾ أي الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله، وجملة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة لبيان اختصاص الإلهية به سبحانه أي لا إله في الوجود إلا هو وهكذا جملة ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ مبينة لاستحقاقه تعالى لها وهي التسعة والتسعون ، التي بها ورد الحديث الصحيح ، وقد تقدم بيانها في سورة الأعراف ؛ والحسنى تأنيث الأحسن فهي اسم تفضيل يوصف به الواحد من المؤنث والجمع من المذكر ثم قرر سبحانه أمر التوحيد الذي اليه انتهى مساق الحديث ، بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة والخبر الغريب فقال :

﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ الاستفهام للتقرير ؛ ومعناه أليس قد أتاك ؟ وقيل معناه قد أتاك ، وقال الكلبي : لم يكن قد أتاه حديث موسى إذ ذاك ، وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها وأن ذلك شأن الأنبياء قبله ، وأنه أمر مستمر فيها بينهم كابراً عن كابر ، والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى .

﴿إذ رأى ناراً ﴾ أي اذكر وقت رؤيته ناراً ، وقيل أي حين رأى ناراً كان كيت كيت ، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما خرج مسافراً الى أمه بعد استئذانه لشعيب وكانت ليلة الجمعة .

﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ المراد بالأهل هنا امرأته ، وهي بنت شعيب واسمها صفورا ، وقيل صفوريا ، وقيل صفورة واسم أختها ليا ، وقيل شرقا وقيل عبدا واختلف في التي تزوجها هل هي الصغرى أو الكبرى ، والجمع لظاهر لفظ الأهل ، أو للتفخيم ، وقيل المراد بهم المرأة والولد والخادم ،

والمعنى أقيموا مكانكم ، وذلك في مسيرة من مدين طالباً مصر، ولما قضى الأجل الذي جعله عليه شعيب وبينها وبين مصر ثمان مراحل ، وعبر بالمكث دون الإقامة لأنها تقتضي الدوام والمكث ليس كذلك .

﴿إني آنست ناراً﴾ أي أبصرت يقال آنست الصوت سمعته وآنست الرجل أبصرته ، وقيل الإيناس الإبصار البَيِّن، ومنه إنسان العين لأنه يبصر به الأشياء وقيل هو الوجدان وقيل الاحساس فهو أعم من الإبصار وقيل الإيناس مختص بـإبصار ما يؤنس ، والجملة تعليل للأمر بالمكث ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى متوقعين بني الأمر على الرجاء فقال :

﴿ لعلّي ﴾ لعدم الجزم بوفاء الوعد ﴿ آتيكم ﴾ أجيئكم ﴿ منها ﴾ أي من النار ﴿ بقبس ﴾ هو الجذوة والشعلة من النار في رأس عود أو قصبة أو فتيلة ونحوها وهو فَعَل بمعنى مفعول كالقَبَض والنَّقَض بمعنى المقبوض والمنقوض وكذا المقياس يقال قبست منه ناراً أقبس قبساً فأَقْبَسَني أي أعطاني وكذا اقْتَبَسْتُ، قال اليزيدي : أَقْبَسْتُ الرجلَ علما وَقَبَسْتُهُ ناراً ففرقوا بينهما هذا قول المبرد ، فإن كنت طلبتها له قلت : أقبسته ، وقال الكسائي : أقبسته ناراً وعلماً سواء قال : وقبسته أيضاً فيهما .

﴿ أو ﴾ لمنع الخلو وهو الظاهر دون الجمع ﴿ أجد على النار ﴾ وحرف الاستعلاء للدلالة على أن أهل النار مستعلون على أقرب مكان اليها كما قال سيبويه ﴿ هدى ﴾ أي هادياً يهديني الى الطريق ، ويدلني عليها ، قاله ابن عباس وكان أخطأها لظلمة الليل ، قال الفراء : أراد هادياً ، فذكره بلفظ المصدر ، أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف أي ذا هدى ولعله لم يقل قوماً يهدونني كما في الكشاف إذ لا دليل على فوق الواحد .

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ
طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا
تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ
بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي
وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ
تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فلما أتاها﴾ أي النار التي أنسها ﴿نودي﴾ من الشجرة كما هو مصرح بذلك في سورة القصص أي من جهتها وناحيتها .

قيل كانت الشجرة سمرة خضراء وقيل كانت من عوسج وقيل كانت العليق وقيل شجرة من العناب والله أعلم بما كان .

وقيل لم يكن الذي رآه ناراً ، بل كان نوراً وذكر بلفظ النار ، لأن موسى حسبه ناراً ، وقيل هي النار بعينها ، وهي إحدى حجب الرب سبحانه ، ويدل له ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حجابه النار ، لو كشفها لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه »[1] أخرجه مسلم .

﴿يا موسى﴾ أي نودي من الشجرة ، فقيل يا موسى وهذا أول الكلمات بينه وبين الله تعالى ، وسيأتي آخرها وهو قوله : ﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾ ؛ وهذا بالنسبة لهذه الواقعة ، وهذه الحالة وإلا فله مكالمات أخر قاله سليمان الجمل ولما نودي موسى ، قال : من المتكلم فقال الله تعالى :

(١) مسلم ١٧٩ .

﴿ إني أنا ربك ﴾ فعرف أنه كلام الله تعالى وليس هذا النداء والخطاب هو الذي وقع فيه الصعقة ودك الجبل كما تقدم ذكره في سورة الأعراف ، بل هذا غيره ؛ إذ هـذا أول بدء رسالته ، وذاك إنما كان بعد غرق فرعون حين أعطاه الله التوراة.

﴿ فاخلع نعليك ﴾ أمره الله سبحانه بخلع نعليه تعظيماً ، لأن الحفوة أبلغ في التواضع وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب . وقيل معناه انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدس ، والأول أولى ، قيل ومن ثَمَّ طاف السلف بالكعبة حافين .

قال النسفي : والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعـة وتعظيم لهـا ، فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي انتهى ، وقيل لأنهما كانا من جلد حمار ميت أو من جلد مدبوغ ، قاله علي وابن مسعود ، وروي عن السدي وقتادة ، وقيل معنى الخلع لهما تفريغ القلب من الأهل والمال وهو من بدع التفاسير ، ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال :

﴿ إنك بالـواد المقدس ﴾ أي المـطهر ، والمبـارك والقدس الـطهارة ، والأرض المقدسة المطهرة ، سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين ﴿ طوى ﴾ اسم للوادي ، قال الجوهري : هو اسم موضع بالشام يكسر طاؤه ويضم ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه وجعله اسم واد ومكان جعـله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة ، وقيل طوى كثني من الطي مصدر لنودي أو للمقدس ، أي نودي نداءين أو قدس مرة بعد أخرى ، قال ابن عباس : يعني الأرض المقدسة وذلك أنه مر بواديها ليلاً فطوى، يقال طويت وادي كذا وكذا ، وقيل طوى واد مستدير عميق ، مثل المطوي في استدارته .

﴿وأنا اخترتك﴾ بالافراد وقرىء إنَّا اخْتَرْنَاكَ بالجمـع ، قال النحـاس : والأول أولى لأنها أشبه بالخط وأولى بنسق الكلام ، لقوله: ﴿ يا موسى إني أنا ربك ﴾

والمعنى أصطفيتك بالنبوة والرسالة ، فنبأه وأرسله في ذلك الوقت وفي ذلك المكان ، وكان عمره حينئذ أربعين سنة.

﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ إليك مني أو للوحي ، وفيه نهاية الهيبة والجلال له كأنه قال لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له .

﴿ إنني أنا الله لا إلّـه إلا أنا ﴾ ثم أمره بالعبادة فقال: ﴿فاعبدني ﴾ لأن اختصاص الإلّهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبـادة ﴿ وأقم الصلاة ﴾ خصها بالذكر مع كونها داخلة تحت الأمر بالعبادة لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة وعلل الأمر بإقامة الصلاة بقوله : ﴿ لـذكري ﴾ أي لتذكرني، فإن الذكر الكامل لا يتحقق إلا في ضمن العبادة والصلاة ، أو المعنى لتذكرني فيهما لاشتمالها على الأذكار أو لذكري إياك أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري ، أو لأمري بها في الكتاب وذكري إياها ، أو لتكون ذاكراً إلى غير ناس ، وقيل لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة ، أو المعنى أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة وقيل لذكر صلاتي .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾[1] .

وأخرج الترمذي وابن ماجة وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾[2] . وكان ابن شهاب يقرؤها للذكرى ، وقيل المعنى لأذكرك بالمدح في عليين ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول . وقيل لإخلاص ذكري وطلب وجهي ، ولا ترائي فيها ، ولا تقصد بها غرضاً آخر .

(١) مسلم ٦٨٤ ـ البخاري ٣٨٤ .
(٢) الترمذي كتاب الصلاة الباب ١٦ ـ ١٧ ـ ابن ماجة كتاب الصلاة الباب ١٠ .

﴿ إن الساعة ﴾ أي التي هي وقت الحساب والعقاب ﴿ آتية ﴾ أي كائنة وحاصلة لا محالة فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة ، وهذا تعليل لما قبله من الأمر ﴿ أكاد ﴾ أي أريد ، قاله الأخفش . وقيل صلة ﴿ أخفيها ﴾ قال الواحدي : قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسي ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . وقال المبرد وقطرب : هذا على عادة مخاطبة العرب ، يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسي ، أي لم أطلع عليه أحداً .

ومعنى الآية أن الله تعالى بالغ في اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف ؛ وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت على الإنسان ليكون على حذر ، تقديم الْوَجَل في كل وقت.

وقد روي عن سعيد بن جبير أنه قرأ أخفيها بفتح الهمزة ، ومعناه أظهرها ، قال النحاس : وأجود من هذا ما روي عنه أنه قرأها بضم الهمزة ، قال الفراء : معناه على الفتح أكاد أظهرها من خفيت الشيء اذا أظهرته ، أخفيه .

قال القرطبي : قال بعض اللغويين يجوز أن يكون أخفيها بضم الألف معناه أظهرها ، لأنه يقال خفيت الشيء وأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والاظهار ، قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد ، قال النحاس وهذا أحسن ، وليس المعنى على أظهرها ولا سيما وأخفيها قراءة شاذة ، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة ، وقال ابن الانباري : في الآية تفسير آخر ، وهو أن الكلام ينقطع على ﴿ أكاد ﴾ وبعده مضمر ، أي أكاد آتي بها ، ووقع الابتداء بأخفيها الى آخره ، واختار هذا النحاس .

وقال أبو علي الفارسي : هو من باب السلب وليس من الأضداد ، ومعنى أخفيها أزيل عنها خفاءها وهو سترها ، ومن هذا قولهم اشكيته أي أزلت شكواه وعن الأخفش أن كاد زائدة للتأكيد ، قال : ومثله اذا أخرج يده لم يكد يراها ، قال والمعنى أقارب ذلك لأنك اذا قلت كاد زيد يقوم جاز أن

يكون قام : وأن يكون لم يقم ، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا .

﴿لتجزىٰ كل نفس بما تسعى﴾ أي بسعيها ، والسعي وإن كان ظاهراً في الأفعال فهو ههنا يعم الأفعال ، والتُّروك للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخود به .

﴿ فلا يصدنك عنها﴾ أي لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة والتصديق بها أو عن ذكرها ومراقبتها وهذا أولى وأليق بشأن موسى عليه السلام ، وإن كان النهي بطريق التهييج والإلهاب.

وقيل الضمير للصلاة بعيد وهو ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ من الكفرة ، وهذا النهي وإن كان للكافر بحسب الظاهر فهو في الحقيقة نهي له صلى الله عليه وسلم عن الانصداد أو عن إظهار اللين للكافرين ، فهو من باب لا أريتك ههنا ، كما هو معروف .

﴿ واتبع هواه﴾ أي هوى نفسه بالانهماك في اللذات الحسية الفانية ، وفي إنكار الساعة ﴿ فتردى﴾ أي فتهلك لأن انصدادك عنها لصد الكافرين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له .

﴿ وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال الزجاج والفراء : إن تلك اسم ناقص ، وُصِلَتْ بيمينك أي ما التي بيمينك . وروي عن الفراء أنه قال : تلك بمعنى هذه ولو قال ما ذلك لجاز ، أي ما ذلك الشيء ، وبالأول قال الكوفيون . قال الزجاج : ومعنى السؤال عن العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها ، قال الفراء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى هي عصاي لتثبيت الحجة عليه بعدما اعترف ، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل . وقيل السؤال للتوطين لئلا يهول انقلابها حية ، أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة .

﴿ قال هي عصاي ﴾ وقرىء عصي على لغة هذيل قال ابن عباس :

أعطاه ملك من الملائكة إذ توجه إلى مدين فكانت تضيء له بالليل ويضرب بها الأرض فيخرج له النبات ، ويهش بها على غنمه ورق الشجر . وعن قتادة : كانت تضيء له بالليل ، وكانت عصا آدم عليه السلام ورثها شعيب وأعطاها لموسى بعد أن زوَّجه ابنته . قيل وكان لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن واسمها تبعة ﴿ أتوكأ ﴾ أي أتحامل ﴿ عليها ﴾ في المشي وأعتمدها عند الإعياء والوقوف على قطيع الغنم وعند الوثوب والنهوض للقيام ، ومنه الاتكاء .

﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ هش بالعصا يهش هشاً إذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق ، أي أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي ؛ قاله عكرمة. وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف .

وقرأ النخعي أهس بالسين المهملة ، وهو زجر الغنم ، وكذا قرأ عكرمة ، وقيل هما لغتان بمعنى واحد ، ولما ذكر تفصيل منافع العصا عقبه بالإجمال فقال : ﴿ ولي فيها مآرب ﴾ أي حوائج ﴿ أخرى ﴾ قاله مجاهد وقتادة ، واحدها مأرُبة مثلث الراء ، كذا قال ابن الأعرابي وقطرب ، والقياس أُخَر، وإنما قال أخرى رداً إلى الجماعة أو لنسق الأخرى ، ولما ذكر بعضها شكراً أجمل الباقي حياء من التطويل أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد في الإكرام ويتلذذ بالخطاب .

وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصا فذكروا من ذلك أشياء ، منها قول بعض العرب :

عصاي أركزها لصلاتي وأعدها لعداتي وأسوق بها دابتي وأقوى بها على سفري وأعتمد عليها في مشيتي ليتسع خطوي ، وأثب بها النهر وتؤمنني العثر وألقي عليها كسائي فتقيني الحر وتدفيني من القر وتدني إلى ما بعد مني، وهي تحمل سفرتي وعلاقة أدواتي، أعصي[1] بها عند الضراب وأقرع بها الأبواب وأقي بها عقور الكلاب ، وتنوب عن الرمح في الطعان وعن السيف عند منازلة الأقران ورثتها عن أبي وأورثها بعدي بني. أ هـ .

(١) يقال عصى بالسيف يَعْصِي إذا ضرب به، أ.هـ صحاح.

وقال الشوكاني : قد وقفت على مصنف في مجلد لطيف في منافع العصا لبعض المتأخرين . وذكر فيه أخباراً وأشعاراً وفوائد لطيفة ونكتاً رشيقة، وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين ، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته ، وكان ابن مسعود صاحب عصاة النبي صلى الله عليه وسلم وعنزته ؛ وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده ، وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام وفي المحافل والخطب .

وقال بعضهم : إمساك العصا سنة الأنبياء وزينة الصلحاء وسلاح على الأعداء وعون الضعفاء وغم المنافقين وزيادة في الطاعات .

ويقال اذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان ويخشع منه المنافق والفاجر وتكون قبلته اذا صلى وقوته اذا أعيا .

﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ هذه جملة مستأنفة أمره سبحانه بإلقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة ﴿ فألقاها ﴾ أي طرحها موسى على الأرض ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ ولم تكن قبل ذلك حية ، فمرت بشجرة فأكلتها ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها قاله ابن عباس ، وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى ، أي تمشي بسرعة وخفة على بطنها .

قيل كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فماً وباقيها جسم حية تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها ، وقال في موضع آخر كأنها جان . وهي الحية الصغيرة الجسم الخفيفة ، وقال في موضع آخر كأنها ثعبان ، وهو أكبر ما يكون من الحيات ، ووجه الجمع أن الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والأنثى .

وقيل كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان . وقيل سماها جاناً تارة نظراً للمبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى ، وحية تارة أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبراً ولم يعقب فنودي أن يا موسى .

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً
مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ
أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا
بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾

و ﴿ قال ﴾ سبحانه عند ذلك ﴿ خذها ولا تخف ﴾ منها ﴿ سنعيدها سيرتها ﴾ أي حالتها ﴿ الأولى ﴾ قال ابن عباس : فلم يأخذها ، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف فلم يأخذها ، فقيل له في الثالثة إنك من الآمنين فأخذها .

قال الأخفش والزجاج : التقدير إلى سيرتها مثل واختار موسى قومه . قال : ويجوز أن يكون مصدراً لأن معنى سنعيدها سنسيرها ، أو سائرة أو مسيرة ، والمعنى سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي هي العصوية ، والأولى تأنيث الأول ، والسيرة الحالة التي يكون عليها الإنسان غريزية أو مكتسبة ، وهي في الأصل فِعْلة من السير كالرِّكْبَة من الركوب ، ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة والهيئة.

قيل إنه لما قيل له لا تخف طابت نفسه حتى بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحييها، قال المحلي وأرى ذلك موسى لئلا يجزع إذا انقلبت حية لدى فرعون.

﴿ واضمم يدك ﴾ اليمنى بمعنى الكف لا بمعنى حقيقتها ، وهي الأصابع إلى المنكب ﴿ إلى جناحك ﴾ قال الفراء والزجاج : جناح الإنسان عضده .

وبه قال مجاهد وقال إلى بمعنى تحت وقال قطرب : جنبه، وعبر بالجناح عن الجنب لأنه في محل الجناح . وقال مقاتل : إلى بمعنى مع ، أي مع جناحك الأيسر تحت العضد إلى الأبط .

وجواب الأمر ﴿ تخرج ﴾ يدك خلاف ما كانت عليه من الأدمة حال كونها ﴿ بيضاء ﴾ نيرة مشرقة كائنة .

﴿ من غير سوء ﴾ أي عيب كنى به عن البرص ، ويسمى هذا عند أهل البيان الاحتراس ، وهو أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد ، وذلك أن البياض قد يراد به البرص والبهق ، فأتى بقوله : ﴿ من غير سوء ﴾ نفياً لذلك .

والمعنى تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كضوء الشمس ، تغشي البصر من غير برص ، وبه قال ابن عباس .

﴿ آية ﴾ أي معجزة ﴿ أخرى ﴾ غير العصا . وقال الأخفش : انها بدل من بيضاء ، قال النحاس . وهو قول حسن ، وقال الزجاج : المعنى آتيناك أو نؤتيك آية أخرى ، لأنه لما قال : ﴿ تخرج بيضاء ﴾ دل على أنه قد آتاه آية أخرى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله :

﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ قيل والتقدير فعلنا ذلك لنريك ، والكبرى معناها العظمى ، أي لنريك بهاتين الآيتين يعني اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى على رسالتك فلا يلزم أن تكون اليد هي الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا ، فيرد على ذلك أنه لم يكن في اليد إلا تغير اللون فقط بخلاف العصا فإن فيها مع تغير اللون الزيادة في الحجم وخلق الحياة والقدرة على الأمور الخارقة ومن قال هي اليد قال لأنها لم تعارض أصلاً ، وأما العصا فقد عارضها السحرة ، والأول أولى .

ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات فقال : ﴿ اذهب ﴾ رسولاً ﴿إلى فرعون ﴾ ومن معه بهاتين الآيتين : العصا واليد ،

وانظر رسالته لبني إسرائيل من أين تؤخذ ، قال بعضهم : تؤخذ من قوله : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ أي للنبوة والرسالة ، وخصه بالذكر لأن قومه تبع له ، ثم علل ذلك بقوله .

﴿إنه طغى ﴾ أي عصى وتمرد وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد في كفره إلى ادعاء الإلهية .

﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا قال موسى ، ومعنى شرح الصدر توسيعه ، تضرع عليه السلام إلى ربه وأظهر عجزه بقوله : « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني» ﴿ ويسر لي أمري ﴾ أي سهل عليّ ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون ، والتيسير معناه التسهيل .

قال الزمخشري : فإن قلت ﴿ لي ﴾ من قوله : ﴿ اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ ما جدواه ، والكلام منتظم بدونه ؟ قلت قد أبهم الكلام أولاً فقال : اشرح لي ويسر لي ، فعلم أن ثم مشروحاً وميسراً ، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لأمره ، ويقال يسرت له كذا ومنه هذه الآية وتيسرته لكذا ، ومنه فسنيسره لليسرى .

﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ يعني العجمة التي كانت فيه من أثر الجمرة التي ألقاها في فيه وهو طفل ، أي أطلق عن لساني العقدة التي فيه ، قيل أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وقيل لم تذهب كلها لأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية ، بل سأل حل عقدة تمنع الإفهام بدليل قوله من لساني ، أي كائنة من عقد لساني ، ويؤيد ذلك قوله هو أفصح مني لساناً ، وقوله حكاية عن فرعون ولا يكاد يبين .

وجواب الأمر قوله : ﴿ يفقهوا قولي ﴾ أي لكي يفهموا كلامي عند تبليغ الرسالة ، والفقه في كلام العرب الفهم ، ثم خص به علم الشريعة ، والعالم به فقيه . قاله الجوهري .

﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ أي معيناً وظهيراً ، والوزير الموازر

كالأكيل المواكل لأنه يحمل عن السلطان وزره أي ثقله . قال الزجاج : واشتقاقه في اللغة من الوزر وهو الملجأ الذي يعتصم به لينجي من الهلكة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كلا لا وزر ﴾ والوزير الذي يعتمد الملك على رأيه في الأمور ونلتجىء اليه . وقال الأصمعي : هو مشتق من الموازرة وهي المعاونة ، نقله الزمخشري عن الأصمعي ﴿ هارون أخي ﴾ وكان أكبر من موسى وأفصح لساناً وأجمل وأوسم ، وكان موسى آدم أقنى جعداً .

﴿ اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ على صيغة الدعاء أي يا رب أحكم به قوتي واجعله شريكي في أمر الرسالة ، والأزر القوة ، يقال آزره أي قواه ، وقيل الظهر أي اشدد به ظهري ، وقرىء أشدد بهمزة قطع وأشركه بضم الهمزة ، أي أشدد أنا به أزري وأشركه أنا في أمري .

قال ابن عباس : نبىء هرون ساعتئذ حين نبىء موسى.

﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ هذا الذكر والتسبيح هما الغاية من الدعاء المتقدم ، والمراد التسبيح هنا باللسان . وقيل المراد به الصلاة ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ هو المبصر والعالم بخفيات الأمور وهو المراد هنا ، أي إنك كنت بنا عالماً في صغرنا فأحسنت إلينا فأحسن أيضاً كذلك الآن . ثم أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء .

﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ أي أعطيت ما سألته منا عليك ، والسؤل المسؤول ، أي المطلوب ، كقولك خبز بمعنى مخبوز ، ومسؤوله هو قوله رب اشرح لي ؛ وزيادة قوله يا موسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل .

﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه ، والمن الإحسان والإفضال، والمعنى ولقد أحسنا اليك قبل هذه المرة وهي حفظ الله سبحانه له من شر الأعداء كما بينه سبحانه هنا ، وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير ، وحاصل ما ذكره من المنن عليه من غير سؤال ثمانية .

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ
بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾
إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا
وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ
ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى
وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾

الأولى : قوله: ﴿ إذ أوحينا الى أمك ما يوحى ﴾ الى قوله : ﴿ عدو له ﴾ أي مننا ذلك الوقت وقت الإيحاء ، والمراد به إما مجرد الإلهام لأمه واسمها يوحانذ ، قاله السيوطي في شرح النقابة ؛ أو في النوم بأن أراها ذلك ، أو على لسان نبي أو على لسان ملك لا على طريق النبوة ، كالوحي إلى مريم ، أو بإخبار الأنبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر اليها ؛ والمراد بما يوحى ما سيأتي من الأمر لها أبهمه أولاً وفسره ثانياً تفخيماً لشأنه بقوله :

﴿ أن ﴾ مفسرة لأن الوحي فيه معنى القول ، أو بـأن ﴿ اقذفيـه في التابوت فاقذفيه في اليم ﴾ القذف هنا الطرح ، أي اطرحيه في البحر ، واليم البحر والنهر الكبير. قال الفراء : هذا أمر وفيه المجـاراة ، أي اقذفيـه ، والتابوت الصندوق.

﴿ فليلقه اليم بالساحل ﴾ الأمر للبحر مبني على تنزيله منزلة من يفهم ويميز لما كان إلقاؤه بالساحل أمراً واجب الوقوع ، وهذا أمر معناه الخبر وانما

جيء به بصيغة الأمر مبالغة ، إذ الأمر أقطع الأفعال وآكدها، والساحل هو شط البحر ، سمي ساحلاً لأن الماء سحله قال ابن دريد : والمراد هنا ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل ، والضمائر كلها لموسى لا للتابوت ، وإن كان قد ألقي معه ، لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له قال السدي : اليم هو النيل .

﴿ يأخذه عدو لي وعدو له ﴾ جواب الأمر بالإلقاء أو القذف ، والمراد بالعدو فرعون ، فإن أم موسى لما ألقته في البحر ، وهو النيل المعروف : وكان يخرج منه نهر الى دار فرعون ، فساقه الله في ذلك النهر الى داره ؛ فأخذ التابوت فوجد موسى فيه . وقيل إن البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه . وقيل وجدته ابنة فرعون ، والأول أولى ، والمنة الثانية قوله:

﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي ألقى الله على موسى محبة عظيمة كائنة من الله تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد إلا أحبه وقيل جعل عليه سبحة من جمال لا يراه أحد من الناس إلا أحبه وقال ابن جرير : المعنى وألقيت عليك رحمتي وقيل المعنى أحببتك ؛ ومن أحبه الله أحبه الناس ، والقلوبُ لا محالة. قال ابن عباس : كل من رآه ألقيت عليه منه محبة ، وعن سلمة بن كهيل قال : حببتك إلى عبادي ، والمنة الثالثة قوله:

﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أي ولتربّى وتغذّى بمرأى مني ، ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الإنسان الشيء بعينه إذا اعتنى به . قاله الزمخشري والعين هنا بمعنى الرعاية مجاز مرسل من اطلاق السبب على المسبب ، يقال صنع الرجل جاريته اذا رباها ، وصنع فرسه اذا داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير(على عيني)بمرأى مني صحيح . قال النحاس : وذلك معروف في اللغة ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى فإن جميع الأشياء بمرأى من الله . وقال أبو عبيدة : وابن الانباري : إن المعنى لتغذى على محبتي وإرادتي، تقول أتخذ الأشياء على عيني أي على محبتي قال ابن الانباري : العين في هذه الآية يقصد

بها قصد الإرادة والاختيار : من قول العرب : عدا فلان على عيني أي على المحبة مني ، قيل أي فعلت ذلك لتصنع.

وقيل أي ولتصنع على عيني قدرنا مشي أختك ، والعين أيضاً من ألفاظ الصفات فلا تُؤَوَّل وَتُجْزَىٰ على ظاهرها وهو الأولى ، وقرىء ولتصنع بإسكان اللام على الأمر وقرىء بفتح التاء والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتي ، وعلى عين مني ، وقال الزمخشري قريباً منه .

﴿ إذ تمشي أختك ﴾ وكانت شقيقته واسمها مريم وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة لخبره فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة فقالت لهما هذا القول أي هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه ويربيه ويكمل له رضاعه ؟ وكانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر ؛ وقيل أربعة قبل إلقائه في اليم، فقالا لها ومن هو؟ قالت أمي ، فقالا : هل لها لبن ، قالت نعم ابن اخي هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل بأكثر فجاءت الأم فقبل ثديها وكان لا يقبل ثدي مرضعة غيرها وهذا هو معنى: ﴿ فرجعناك الى أمك ﴾ .

وفي مصحف أبيّ فرددناك وهذه هي المنة الرابعة.

﴿ كي تقر عينها ﴾ بلقائك قال الجوهري : قررت به عيناً قرة وقروراً ورجل قرير العين وقد قرت عينه تقر وتقر نقيض سخنت ، والمراد بقرة العين السرور برجوع ولدها اليها بعد أن طرحته في البحر وعظم فراقه عليها ﴿ ولا تحزن ﴾ حيئنذ أي لا يحصل لها ما يكدر ذلك السرور من الحزن بسبب من الأسباب ، ولو أراد الحزن بالسبب الذي قرت عنها بزواله لقدم نفي الحزن على قرة العين فيحمل هذا النفي على ما يحصل بسبب يطرأ بعد ذلك ، ويمكن أن يقال إن الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين ، قال البيضاوي : ولا تحزن أنت يا موسى على فراقها وفقد إشفاقها وهو تعسف .

والمنة الخامسة قوله : ﴿ وقتلت نفساً ﴾ المراد بالنفس هنا نفس القبطي الذي وكزه موسى فقضى عليه واسمه ﴿ قاب قان ﴾ وكان طباخاً لفرعون وكان قتله له خطأ وكان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ، وقيل ثلاثين سنة ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ أي الغم الحاصل معك من قتله خوفاً من العقوبة الأخروية أو الدنيوية أو منهما جميعاً،وقيل من جهة فرعون لا من جهة قتله لأنه كان كافراً وأيضاً قتله له كان خطأ، وقيل الغم هو القتل بلغة قريش وما أبعده هذا .

والمنة السادسة قوله : ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ الفتنة تكون بمعنى المحنة وبمعنى الأمر الشاق ، وكل ما يبتلى به الإنسان، والفتون مصدر كالثبور والسكون والكفور أي اختبرناك اختباراً وابتليناك ابتلاء أو فتوناً من الابتلاء على أنه جمع فَتْن أو فِتْنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز في حجزة ، وبدور في بدرة أي خلصناك مرة بعد مرة مما وقعت فيه من المحن التي سبق ذكرها قبل أن نصطفيك لرسالتنا أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاءه في البحر في التابوت ، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه ، ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ؛ ثم تناوله الجمرة بدل الجوهر ، ثم قتله القبطي وخروجه إلى مدين خائفاً .

وقد أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أثراً طويلاً في تفسير هذه الآية فمن أحب استيفاء ذلك فلينظر في كتاب التفسير من سنن النسائي ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع الله سبحانه وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبني إسرائيل .

والمنة السابعة قوله : ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ﴾ قال الفراء : تقدير الكلام وفتناك فتوناً فخرجت الى أهل مدين فلبثت سنين ومثل هذا الحذف

كثير في التنزيل ، وكذا في كلام العرب ، فانهم يحذفون كثيراً من الكلام إذا كان المعنى معروفاً،ومدين هي بلد شعيب ، وكانت على ثمان مراحل من مصر هرب اليها موسى فأقام بها عشرين سنة وهي أتم الأجلين وقيل أقام عند شعيب ثمانية وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ، ومنها ثماني عشرة سنة بقي فيها عنده حتى ولد له .

﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ أي في وقت سبق في قضائي وعلمي وقدري أن أكلمك وأجعلك نبياً أو على ميقات ومقدار من الزمان يوحي فيه إلى الأنبياء قاله ابن عباس ، وهو رأس أربعين سنة ، أو على موعد قد عرفته بإخبار شعيب لك به قاله مجاهد وقتادة قال الشاعر :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة ثم المفيدة للتراخي للدلالة على أن مجيئه عليه السلام كان بعد مدة وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرق غنمه ونحو ذلك،وعلى بمعنى مع .

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ بالرسالة والاصطناع اتخاذ الصنعة وهو الخير تسديه إلى إنسان ، والمعنى اصطنعتك لوحيي ورسالتي لتتصرف على إرادتي ، قال الزجاج : تأويله اخترتك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي وصرت بالتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتجبت عليهم، قيل وهو تمثيل لما خَوَّله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه وهذه هي المنة الثامنة.

قال أبو السعود : وفي قوله يا موسى تشريف له عليه السلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولاً وقوله ﴿ اصطنعتك لنفسي﴾ تذكير لقوله : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ وتمهيد لإرساله إلى فرعون مؤيداً بأخيه انتهى .

﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ أي وليذهب أخوك حسبما طلبت وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع ، وفيه اختصار لما ذكر المذهوب اليه في قوله اذهبا إلى فرعون وحذفه هنا .

﴿ بآياتي ﴾ أي بمعجزاتي التي جعلتها لك آية وهي اليد والعصا فقط وعليه أكثر المفسرين وقيل هي التسع الآيات وفيه نظر والباء للمصاحبة أي مصحوبين بها متمسكين بها في اجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة وليست المتعدية إذ ليس المراد مجرد ذهابهما وإيصالها إلى فرعون .

﴿ ولا تنيا ﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا يقال ونى ينى وَنْياً إذا ضعف وتوانى في الأمر توانياً لم يبادر إلى ضبطه ولم يهتم به فهو متوان أي غير مهتم ولا محتفل.

﴿ في ذكري ﴾ قال الفراء هذا وعن ذكري سواء ، والمعنى لا تقتصرا عن ذكري بالإحسان إليكما والإنعام عليكما ، ومن ذكر النعمة شكرها ، وقيل المعنى لا تبطيا في تبليغ رسالتي ، وفي قراءة ابن مسعود لا تهنا في ذكري .

﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ هذا أمر لهما جميعاً بالذهاب وموسى حاضر وهرون غائب بل كان في ذلك الوقت بمصر تغليباً لموسى ، لأنه الأصل في أداء الرسالة وكذا الحال في صيغة النهي المذكورة وعلل الأمر بالذهاب بقوله : ﴿ إنه طغى ﴾ أي جاوز الحد في الكفر والتمرد ، بادعائه الربوبية ، وخص موسى وحده بالأمر بالذهاب فيما تقدم وجمعهما هنا تشريفاً لموسى بإفراده ، وقيل الأول أمر لموسى بالذهاب الى كل الناس ، والثاني أمر لهما بالذهاب إلى فرعون .

فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن
يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا
رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ
مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ
فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا
بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

ثم أمرهما سبحانه بالإنة للقول لما في ذلك من التأثير في الإجابة فإن التخشين بادىء بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر فقال: ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ أي دَارِيَاه وارفقا به ، ولا تعنُفا في قولكما في رجوعه عن ذلك ؛ والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه ؛ يقال لأن الشيء يلين ليناً ، والمراد تركهما للتعنيف كقولهما : ﴿ هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى ﴾ فإنه دعوة في صورة عرض ومشاورة ، وقيل: القول اللين هو الكنية له أي : قولا له : يا أبا الوليد ، وقيل يا أبا العباس ، وقيل يا أبا مرة ، وقيل أن يَعِدَاهُ بنعيم الدنيا والآخرة إن أجاب ، وقيل أن يعداه بشباب لا يهرم بعده وملك لا يزول إلا بالموت . قاله البيضاوي .

ثم علل الأمر بالإنة للقول له بقوله : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أي بَاشِرَا ذلك مباشَرَةً من يرجو ويطمع فالرجاء راجع اليهما كما قاله جماعة من النحويين سيبويه وغيره ، وقد تقدم تحقيقه في غير موضع .

قال الزجاج : لعل لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون،وقيل لعل هنا بمعنى الاستفهام ، والمعنى فانظر هل يتذكر أو يخشى ، وقيل بمعنى كي ،والتذكر النظر فيما بلغاه من الذكر وإمعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سبباً في الإجابة

والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما ، وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع ، وفائدة إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علم الله بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في أضاعيف ذلك من الآيات .

﴿ قالا ربنا إننا نخاف ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى تغليباً للإيذان بأصالته في كل قول وفعل ، أو قاله هرون بعد ملاقاتهما ، فحكى ذلك مع قول موسى عند نزول الآية ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ فإن هذا الخطاب قد حكي بصيغة الجمع مع أن كلاً من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم في الوجود ، فكيف باجتماعهم في الخطاب .

﴿ أن يفرط ﴾ فرعون ﴿ علينا ﴾ بفتح الياء وضم الراء أي يَعْجَل ويبادر بعقوبتنا، قاله ابن عباس ، يقال فَرَط منه أمر أي بَدَر، ومنه الفارط وهو الذي يتقدم القوم الى الماء أي يعذبنا عذاب الفارط في الذنب وهو المتقدم فيه ، كذا قال المبرد ، وقال أيضاً : فرط منه أمر وأفرط أسرف وفرط ترك وقرىء يُفْرَط بضم الياء وفتح الراء أي يحمله حامل على التسرع إلينا،وقرأت طائفة من الإفراط أي يشتط في أذيتنا أي فلا يصبر إلى تمام الدعوة واظهار المعجزة .

﴿ أو أن يطغى ﴾ أي يعتدي قاله ابن عباس وإظهار كلمة ﴿ أن ﴾ مع استقامة المعنى بدونها لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقق الخوف من كل منهما ﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ لا تخافا ﴾ ما توهمتماه من الأمرين ثم علل ذلك بقوله : ﴿إنني معكما ﴾ بالنصر لكما والمعونة على فرعون ﴿ أسمع وأرى ﴾ أي أدرك ما يجري بينكما وبينه بحيث لا يخفى علي منه خافية ، ولست بغافل عنكما فأفعل في كل حال ما يليق بكما من دفع ضرر وجلب نفع ، وعن ابن جريج قال : أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به فأوحي إليكما فتُجَاوِبَاه.

وعن ابن مسعود قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : رب أي شيء أقول قال: قل هيا شرا هيا ، قال الأعشى : تفسير ذلك الحي قبل كل شيء ، والحي بعد كل شيء وجود السيوطي اسناده، وسَبَقَه إلى تجويد إسناده ابن كثير في تفسيره ، ثم أمرهما بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد أمرهما بالذهاب إليه فلا تكرار فقال : ﴿ فأتياه فقولا ﴾ أَمَرَهُمَا أن يقولا ست جمل .

الأولى قوله : ﴿ إنّا رسولا ربك ﴾ أرسلنا اليك ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي خل عنهم وأطلقهم من الأسر والقسر ﴿ ولا تعذبهم ﴾ بالبقاء على ما كانوا عليه ، وقد كانوا عند فرعون في عذاب شديد ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم . ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه من الحفر والبناء وحمل الثقيل .

﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ قيل هي العصا واليد . وقيل إن فرعون قال لهما وما هي ؟ فأدخل موسى يده في جيب قميصه ثم أخرجها ولها شعاع كشعاع الشمس ، فعجب فرعون من ذلك ، ولم يره موسى العصا إلا يوم الزينة .

قال الزمخشري : وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى مجرى البيان والتفسير ، لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي مجيء الآية ، وإنما وحد بآية ولم يثن معه آيتان لأن المراد تثبيت الدعوى ببرهانها ، فكأنه قيل قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة .

﴿ والسلام ﴾ أي السلامة من العذاب ﴿ على من اتبع الهدى ﴾ قال الزجاج : أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل ومن عذابه وليس بتحية . قال : والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب ، قال الفراء : السلام على من اتبع ولمن اتبع سواء .

والجملة السادسة قوله : ﴿ إنا قد أوحي إلينا﴾ من جهة الله سبحانه ﴿ أن العذاب على من كذب ﴾ ما جئنا به ﴿ وتولى ﴾ أعرض عنه ، والمراد بالعذاب الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في النار ، والمراد بالتكذيب التكذيب بآيات الله وبرسله والتولي الإعراض عن قبولها والإيمان بها . قال قتادة : كذب كتاب الله وتولى عن طاعته فأتياه وقالا جميع ما ذكر وسارعا الى الامتثال من غير تلعثم .

﴿ قال ﴾ فرعون لهما ﴿ فمن ربكما يا موسى ؟ ﴾ فأضاف الرب إليهما لما أن المُرْسِل لا بد أن يكون رباً للرسول أو لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل ، ولم يضفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجحده للربوبية وغاية عتوه ونهاية طغيانه، وخص موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة . وقيل لمطابقة رؤوس الآي والأول أولى .

﴿ قال ﴾ موسى مجيباً له : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ الذي هو عليه متميز به عن غيره ؛ قرىء بفتح اللام على أنه فعل وبسكون اللام ، والمعنى أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق بالمنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والأذن للسمع ، كذا قال الضحاك وغيره . قال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه وهداه لما يصلحه . وقال مجاهد : المعنى لم يخلق خلق الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً . ومنه قول الشاعر :

وله في كل شيء خلقه وكذلك الله ما شاء فعل

وقال الفراء : المعنى خلق للرجل المرأة ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث أو المعنى أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، ومعنى ﴿ ثم

هدى ﴾ أنه سبحانه هداهم الى طريق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له ، أو المعنى أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه .

قال ابن عباس : خلق لكل شيء زوجة ثم هدى ، قال هداه لَمْنكَحِهِ ومطعمه ومشربه ومسكنه ، ولما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية وشاهَد ما نَظَمَه في سلك الاستدلال من البرهان النير كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ولا بد لهما من خالق وهاد ، وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا رب غيره ، خاف أن يظهر للناس أحقية ما قاله موسى وبطلان خرافاته ، أراد أن يصرف موسى عن سننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات لأجل أن يرى قومه أن عنده معرفة .

﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ كقوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الأوثان فإنها لم تُقِرّ بالرب ، بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات . ومعنى البال الحال والشأن ، أي ما حالهم وما شأنهم وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة . فأجابه موسى و ﴿ قال علمها عند ربي ﴾ أي ان هذا الذي سألت عنه ليس مما نحن بصدده ، بل هو من علم الغيب الذي استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا وإن العلم بأحوالهم لا تعلق له بمنصب الرسالة ﴿ في كتاب ﴾ أي أنها مثبتة في اللوح المحفوظ . قال الزجاج : المعنى أن أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها يوم القيامة والتقدير علم أعمالها عند ربي في كتاب .

وأعلم أن فرعون لما سأل موسى عن الإآله وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجابه موسى بأوجز عبارة وأحسن معنى ، ولما سأله عن القرون الأولى ، وكان ذلك مما سبيله الإخبار ولم يأته خبر في ذلك وكله إلى عالم

الغيوب . قاله الكرخي ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ اختلف في معناه على أقوال :

الأول : انه ابتداء كلام مستأنف تنزيه لله سبحانه عن هاتين الصفتين ، وقد تم الكلام عند قوله في كتاب . قاله الزجاج قال : ومعنى لا يضل لا يهلك ، من قوله تعالى : ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾ ، ولا ينسى شيئاً من الأشياء فقد نزهه عن الهلاك والنسيان .

الثاني: أن معنى لا يضل لا يخطىء . قاله ابن عباس .

الثالث: أن معناه لا يغيب . قال ابن الأعرابي : أصل الضلال الغيبوبة .

الرابع: أن المعنى لا يحتاج إلى كتاب ولا يضل عنه علم شيء من الأشياء ولا ينسى ما علمه منها . حكي هذا عن الزجاج أيضاً . قال النحاس : وهو أشبهها بالمعنى ولا يخفى أنه كقول ابن الأعرابي .

الخامس: أن المعنى لا يذهب شيء عن علمه ولا ينسى ، أي بعدما علم ، وهذا كالرابع .

السادس: أن اللفظ الأول إشارة إلى كونه عالماً بكل المعلومات . والثاني دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد ، وهو إشارة إلى نفي التغير .

السابع: أن هاتين الجملتين صفة للكتاب ، والمعنى أن الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا
بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى
ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ
ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾
فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي مهدها مهداً أو ذات مهد ، وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش ، وقرىء مهاداً . قال النحاس : والجمع أولى من المصدر لأن هذا الموضع ليس موضع مصدر إلا على حذف المضاف . وقيل مهاد مفرد كالفراش أو جمع معناه الفراش ؛ فالمهاد جمع المهد ، أي جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم ، وهذا من جملة كلام موسى في جواب فرعون عن سؤاله الأول فهو مرتبط بقوله ثم هدى ، لكنه ذكر في خلال كلامه على سبيل الاعتراض على سؤال فرعون الثاني وجوابه.

﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ السلك إدخال الشيء في الشيء ، والمعنى أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً تسلكونها وسهلها لكم، وَوَسَّطَها بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها . وفي آية أخرى ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ﴾ .

ثم قال سبحانه تتمياً لما وصفه به موسى ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ هو ماء المطر . قيل الى هنا انتهى كلام موسى، وما بعده وهو ﴿فأخرجنا به ﴾ من كلام الله سبحانه . قاله ابن عطية وتبعه المحلى وفيه بعد . وقيل: هو من

الكلام المحكي عن موسى ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته ، ونوقش بأن هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ، ويجاب عنه بأن الكلام كله محكي عن واحد وهو موسى ، والحاكي للجميع هو الله سبحانه . والمعنى فأخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث ، والمعالجة .

﴿ أزواجاً من نبات شتى ﴾ أي ضروباً وأشباهاً من أصناف النبات المختلفة الألوان والطعوم والروائح والمنافع ، فمنها ما هو للناس ، ومنها ما هو للدواب ، سميت بذلك لازدواجها ، واقتران بعضها ببعض .

والنبات مصدر سمي به النابت ، فاستوى فيه الواحد والجمع ، وشتى جمع شتيت وزنه فَعْلَى وألفه للتأنيث .

وقال الأخفش : التقدير أزواجاً شتى من نبات ، يقال أمر شَتٌّ، أي متفرق وَشَتَّ الأمر شتاً يَشِتُّ شتاً وشتاتاً تفرق واشْتَتَّ مثله ، والشتيت المتفرق ، وشتّان اسم فعل ماض بمعنى افترق ، ولذلك لا يكتفي بواحد ، قاله السمين ، قال ابن عباس : شيء مختلف .

﴿كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي قائلين لهم ذلك والأمر للإباحة وتذكير النعمة والجملة حال ، يقال رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعاية ، أي أسامها وسرحها ، يجيىء لازماً ومتعدياً ، والانعام جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم . والمعنى مُعِدِّيها لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه .

﴿إن في ذلك ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآيات ﴿ لآيات ﴾ أي لعبر ﴿ لأولي النهى ﴾ جمع نُهْيَة وهي العقل ، وسمي به لأنه ينهي صاحبه عن ارتكاب القبائح ، وقيل: إنه اسم مفرد وهو مصدر كالهدى والسرى ، قاله

أبو علي وخص ذوي النهى لأنهم الذين يُنْتَهى إلى رأيهم . وقال ابن عباس : لأولي الحجى والعقل وعنه لأولي التقى ، وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله : فمن ربكما يا موسى ؟ .

﴿ منها ﴾ أي من الأرض المذكورة سابقاً ﴿ خلقناكم ﴾ قال الزجاج وغيره : يعني أن آدم خلق من الأرض وأولاده منه ، فعلى هذا يكون خلق كل إنسان غير آدم من الأرض بوسائط عديدة بقدر ما بينه وبين آدم . وقيل المعنى أن كل نطفة مخلوقة من تراب في ضمن خلق آدم ، لأن كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه وعلى هذا يدل ظاهر القرآن .

﴿ وفيها ﴾ أي في الأرض ﴿ نعيدكم ﴾ بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض ، وجاء بـ ﴿ في ﴾ دون إلى للدلالة على الاستقرار ﴿ ومنها ﴾ أي من الأرض ﴿نخرجكم ﴾ كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم ﴿ تارة ﴾ أي مرة ﴿ أخرى ﴾ بالبعث والنشور وتأليف الأجسام ورد الأرواح اليها على ما كانت عليه قبل الموت .

عن عطاء الخراساني قال : إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة ، وذلك قوله : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ .

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي أمامة قال : لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾، بسم الله ؛ وفي سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله »[1] .

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٧٩ .

وفي حديث في السنن أنه أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال : « منها خلقناكم ـ ثم أخرى ـ وقال : وفيها نعيدكم ـ ثم أخرى ـ وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

﴿ ولقد أريناه ﴾ الرؤية بصرية أي أَبْصَرْنا فرعون وَعَـرَّفْناه ﴿ آيـاتنا كلها ﴾ المراد بها الآيات التسع المذكورة في قوله ولقد آتينا موسى تسع آيات ، على أن الاضافة للعهد ، وهي العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وطمس الأموال والشد على القلوب .

وقال أبو السعود : هي العصا واليد وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون انتهى ، وهذا مبني على أن هذا إخبار عما وقع له مع فرعون في أول دعائه له ، وليس كذلك بل هذا إخبار عن جملة ما وقع له في مدة دعائه له ، وهي عشرون سنة ؛ وأن هذا من جملة الكلام المعْتَرَض به في أثناء القصة ، وقيل: المراد جميع الآيات التي جاء بها موسى والتي جاء بها غيره من الأنبياء وأن موسى قد كان عرفه جميع معجزاته ؛ ومعجزات سائر الأنبياء ، والأول أولى ، وقيل المراد بها حجج الله سبحانه الدالة على توحيده .

﴿ فكذب ﴾ فرعون بها أو بموسى ، وزعم أنها سحر ﴿ وأبى ﴾ عليه أن يجيبه إلى الإيمان وأن يوحد الله ، وهذا يدل على أن كفر فرعون كفر عناد لأنه رأى الآيات وكذب بها كما في قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ .

﴿ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا ؟ ﴾ مستأنفة مرتبة على جواب موسى ؛ والهمزة للإنكار لما جاء به موسى من الآيات أي جئت يا موسى لتوهم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك ، والإيمان بما جئت به حتى تتوصل بذلك الإيهام الذي هو شعبة من السحر الى أن تَغْلِب على أرضنا ، يعني مصر وتخرجنا منها ، ويكون لك الملك فيها وإنما ذكر الملعون الإخراج من الأرض

لتنفير قومه عن إجابة موسى فإنه إذا وقع في أذهانهم وتقرر في أفهامهم أن عاقبة إجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين في معجزاته ولا ملتفتين إلى ما يدعو اليه من الخير .

﴿ بسحرك يا موسى ﴾ فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديداً والا فأي ساحر يقدر أن يخرج ملكاً من أرضه ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾ أي والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر في الغرابة ، حتى يتبين للناس أن الذي جئت به سحر يقدر على مثله ساحر .

﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ هو مصدر أي وعداً ، وقيل اسم مكان أي اجعل لنا يوماً معلوماً أو مكاناً معلوماً أو أجلاً وميقاتاً ، قال الجوهري : الميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك الموعد ، قال القشيري وأبو البقاء ، والأظهر أنه مصدر ولهذا قال .

﴿ لا نخلفه ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ولا نجاوزه ، وقرىء بالرفع على أنه صفة لموعد أي لا نخلف ذلك الموعد ، وقرىء بالجزم على أنه جواب الأمر ، والاخلاف أن تعد شيئاً ولا تنجزه ﴿ نحن ﴾ توكيد مصحح للعطف على الضمير المرفوع المستتر في نخلفه.

﴿ ولا أنت ﴾ فوض تعيين الموعد إلى موسى إظهاراً لكمال اقتداره على الإتيان به بمثل ما أتي به موسى ﴿ مكاناً ﴾ منصوب باجعل على أنه مفعول فيه وأطال الكلام على نصبه السمين ﴿ سوى ﴾ بضم السين وبكسرها وهما قراءتان سبعيتان وكسر السين هي اللغة العالية الفصيحة ، والمراد مكاناً مستوياً ، وقيل مكاناً منصفاً عدلاً بيننا وبينك ، قال سيبويه يقال : سوى وسوى أي عدل يعني عدلاً بين المكانين .

قال أبو عبيدة والقتيبي : معناه مكاناً وسطاً بين الفريقين ، لأن المسافة من الوسط الى الطرفين مستوية ، وقيل معناه سوى هذا المكان وفيه بعد .

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ
ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ
هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ
ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟
يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾

ثم واعده موسى لوقت معلوم و ﴿ قال موعدكم ﴾ أي زمان الوعد ﴿ يوم الزينة ﴾ أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرىء يوم بالنصب أي في يوم الزينة إنجاز موعدنا ، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي : كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه ؛ وقال سعيد بن جبير : كان ذلك يوم عاشوراء ، وبه قال ابن عباس ، وعن ابن عمر نحوه .

وقال الضحاك : يوم السبت ، وقيل يوم النيروز ، وقيل يوم كسر الخليج . وانما جعل الميعاد زماناً بعد أن طلب منه فرعون أن يكون مكاناً سوى ، لأن يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم ، وانما خص عليه السلام ذلك اليوم ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل في يوم مشهور على رؤوس الأشهاد ، ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد ، ولما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم ، ولإظهار كمال قوته، وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم .

﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ يعني وقت الضحى ذلك اليوم الذي هو عبارة من ارتفاع الشمس ، والمراد بالناس أهل مصر ، والمعنى يحشرون الى العيد وقت الضحى نهاراً وينظرون في أمر موسى وفرعون جهاراً ليكون أبعد من الريبة وأبين لكشف الحق وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر .

قال الفراء : اذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى ، فذلك الموعد قال : وجرت عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم ، وقرىء يحشر على البناء للمفعول وللفاعل أي وأن يحشر الله الناس ، وقرىء بالنون ؛ وبالفوقية أي وأن تحشر أنت يا فرعون، والضحى قال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس ، ثم بعده الضحى وهو حين تشرق الشمس،وخص الضحى لأنه أول النهار فإذا امتد الأمر بينهما كان في النهار متسع .

﴿ فتولى فرعون ﴾ أي انصرف من ذلك المقام والمجلس ليهيىء ما يحتاج اليه مما تواعدا عليه ، وقيل معنى تولى أعرض عن الحق ، والأول أولى: ﴿ فجمع كيده ﴾ أي جمع ما يكيد به سحره وحيلته ، والمراد أنه جمع السحرة ، قيل كانوا اثنين من القبط وسبعين من بني إسرائيل، وقيل أربعمائة وقيل اثنى عشر الفاً ، وقيل أربعة عشر ألفاً ، وقال ابن المنذر : كانوا ثمانين ألفاً ، وقيل غير ذلك مع كل واحد حبل وعصا .

﴿ثم أتى ﴾ فرعون الموعد الذي تواعدا اليه مع جمعه الذي جمعه وأتى موسى أيضاً ﴿ قال لهم موسى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر .

﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ دعا عليهم بالويل ونهاهم عن افتراء الكذب بإشراك أحد معه بادعاء كون ما ظهر على يدي سحراً ، قال الزجاج : التقدير ألزمهم الله ويلاً ، أو هو نداء كقوله : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ .

﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ عظيم السحت الاستئصال يقال سحت وأسحت بمعنى وأصله استقصاء الشعر قرىء من السحت ، وهي لغة نجد وبني تميم ، وقرىء من سحت وهي لغة الحجاز ، قال ابن عباس : يسحتكم يهلككم ، وقال قتادة : يستأصلكم ؛ وقال أبو صالح : فيذبحكم .

﴿ وقد خاب من افترى ﴾ أي قد خسر وهلك من كذب على الله أيّ

كذب كان ﴿ فتنازعوا ﴾ أي السحرة ﴿ أمرهم بينهم ﴾ لما سمعوا كلام موسى تناظروا وتشاوروا في أمر موسى وأخيه وتجاذبوا أطراف الكلام في ذلك أي هل هما ساحران أو رسولان ؟ ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أي من موسى وكانت نجواهم هي قولهم الآتي : إن هذان لساحران .

وقيل إنهم تناجوا فيما بينهم ، فقالوا إن كان ما جاء به موسى سحراً فسنغلبه وإن كان من عند الله فسيكون له أمر .

وقيل الذي أسروه أنه إذا غلبهم اتبعوه ، قاله الفراء والزجاج ، وقيل الذي أسروه أنهم لما سمعوا قول موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً قالوا: ما هذا بقول ساحر ، والنجوى المناجاة يكون اسماً ومصدراً .

﴿ قالوا ﴾ لأنفسهم أي قال بعضهم لبعض سراً ، وحاصل ما قالوه ست جمل أولها قولهم : ﴿ ان هذان لساحران ﴾ وآخرها قولهم : ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ وقرىء إن هذين وروي هذا عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة ، وبها قرأ الحسن والنخعي وغيرهما من التابعين وهذه موافقة للإعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فإنه مكتوب بالألف ، وقرىء إن هذان بتخفيف ان على أنها نافية ، وهذه موافقة للرسم وللإعراب.

وقرأ أهل المدينة والكوفة إنَّ هذان بتشديد إن وبالألف فوافقوا الرسم وخالفوا الإعراب الظاهر .

وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه هذه القراءة وقد استوفى ذلك ابن الأنباري والنحاس ، فقيل إنها لغة بني الحرث بن كعب ومراد وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالألف أي في أحواله الثلاث، وبه صرح سيبويه والأخفش وابو زيد والكسائي والفراء .

وقيل: إن بمعنى نعم ههنا قاله عاصم ، قال النحاس : رأيت الزجاج

والأخفش يذهبان إليه، وقال الزجاج المعنى إن هذان لهما ساحران وأنكره أبو علي الفارسي وأبو الفتح وابن جني ، وقيل ان الألف في هذا مشبهة بالألف في يفعلان فلم تغير ، وقيل إنه هذان لساحران ، وبه قال قدماء النحاة ، وقال ابن كيسان : إنه لما كان يقال . هذا بالألف في الرفع والنصب والجر على حال واحدة ، وكانت التثنية لا تغير الواحد أجريت مجرى الواحد ، فثبتت الألف في الرفع والنصب والجر ، وقيل تقديره ما هذان إلا ساحران فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة بوجه تصح به وتخرج به عن الخطأ وبذلك يندفع ما روي عن عثمان وعائشة أنه غلط من الكاتب للمصحف .

وحاصل القرآت السبعية التي في هذا التركيب أربعة واحدة لأبي عمرو ، وهي التي بالياء ، والثانية ألف بعدها نون مشددة ومخففة من ان ، والأخريان تخفيف النون التي في هذان مع تشديد النون من ان وتخفيفها ، وإثبات كل من الياء والألف في النطق وإن كان قراءة سبعية صحيحة متواترة لكنه مشكل من حيث مخالفته لخط المصحف الإمام فإنه ليس فيه ياء ولا ألف فإن رسمه كما في السمين هذن من غير ألف ولا ياء ، ثم قال : وكم جاء في الرسم أشياء خارجة عن القياس ، وقد نصوا على أنه لا نُجَوِّز القراءة بها فليكن هذا الموضع مما خرج عن القياس .

﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾ وهي أرض مصر ﴿ بسحرهما ﴾ الذي أظهراه ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ قال الكسائي : أي بسنتكم، والمثلى نعت ، كقولك : امرأة كبرى تقول العرب فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم ، قال الفراء : العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لأشرافهم ونحوه في القاموس والمثلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل يقال : فلان أمثل قومه أي أفضلهم وهم الأماثل وانما أتت باعتبار التعبير بالطريقة وإلا فباعتبار المعنى كأن يقال أماثل، والمعنى أنهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل المذاهب .

قال ابن عباس : يقول أمثلكم وهم بنو إسرائيل وقال علي : أي يصرف وجوه الناس اليهما .

﴿فأجمعوا كيدكم ﴾ الفاء فصيحة ، أي إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين فأجمعوا ، والإجماع الإحكام والعزم على الشيء . قاله الفراء ، تقول أجمعت على الخروج مثل أزمعت . وقال الزجاج : معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعاً عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم .

﴿ ثم ائتوا صفاً ﴾ أي مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأمرهم وأشهد لهيبتهم وأدخل في استجلاب الخشية ، وهذا قول جمهور المفسرين . وقال أبو عبيدة : الصف المجمع ، ويسمى المصلى الصف . قال الزجاج : وعلى هذا معناه : ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم ، يقال أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى . فعلى التفسير الأول نصب صفاً على الحال ، وعلى الثاني على المفعولية ، قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى « ثم ائتوا والناس مصطفون » فيكون مصدراً في موضع الحال ولذلك لم يجمع .

﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ أي فاز من غلب ، يقال استعلى عليه إذا غلبه ؛ وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض ، وقيل : من قول فرعون لهم ، وهذه جملة معترضة .

﴿ قالوا يا موسى ﴾ اختر أحد الأمرين ، كذا قدره الزمخشري ، وهذا تفسير معنى ﴿ إما أن تلقي ﴾ ما تلقيه أو التقدير الأمر إما إلقاؤك أول أو إلقاؤنا ، كذا قدره الزمخشري ، أو إلقاؤك أول ، ويدل عليه قوله :

﴿ وإما أن نكون ﴾ نحن ﴿ أول من ألقى﴾ ما يلقيه ، واختاره المحلى ، أو أول من يفعل الإلقاء والمراد إلقاء العصا على الأرض ، وكانت السحرة معهم عصيّ ، وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون ، فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول ، وهذا منهم استعمال أدب حسن معه ، وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت اليهم بركته .

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي
نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ
مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا
ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ
ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

وعلم موسى اختيار إلقائهم أولاً حتى (قال) لهم (بل ألقوا) أنتم أولاً ، وانما أمرهم بذلك لتكون معجزته أظهر اذا ألقوا ما معهم فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين ، ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك ويظهر سلطانه . وقيل: إنما بَتَّ عليه السلام لهم القول مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم.

فألقوا ﴿ فإذا حبالهم ﴾ الفاء فصيحة ، يقال إذاً هذه هي المفاجئة ، والتحقيق أنها إذاً الكائنة بمعنى الوقت للطالبة ناصباً لها ، وقد يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة ﴿ وعصيهم ﴾ بكسر العين اتباعاً لكسرة الصاد ، وقرىء بضمها وهي لغة بني تميم .

﴿ يخيل اليه من سحرهم ﴾ بالتحتية على البناء للمفعول ، وقرىء تخيل بالفوقية لأن العصي والحبال مؤنثة ، وقرىء نخيل بالنون على ان الله سبحانه هو المخيل لذلك ، وقرىء بالتحتية مبنياً للفاعل على ان المخيل هو الكيد .

وقيل المخيل هو ﴿أنها تسعى ﴾ أي يخيل إليه سعيها ، ذكر معناه الزجاج ، وقال ومن قرأ بالفوقية جعل أن في موضع نصب ، أي تخيل اليه ذات سعي . يقال خيل إليه إذا شبه له ، وأدخل عليه التهمة والشبهة ، وذلك أنهم لطخوها وطلوها بالزئبق فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت

واضطربت، فخيل إليه أنها تتحرك .

﴿ فأوجس ﴾ أي أحس وقيل وجد وقيل أضمر وقيل خاف ﴿ في نفسه خيفة موسى ﴾ وذلك لما يُعْرَض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه ، وقيل خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه ، أو لعله كان مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي ، فلما تأخر نزول الوحي في ذلك المحفل بقي في الخجل . قاله ابن عادل وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم في العصا ، فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا ، فأذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله :

﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ أي المستعلي عليهم بالظفر والغلبة ، والجملة تعليل للنهي عن الخوف ، وفيه إشارة الى أن لهم علواً وغلبة بالنسبة إلى سائر الناس ، ولذلك أوجس منهم خيفة فرد ذلك بأنواع من المبالغة ، أحدها ذكر كلمة التوكيد وهي ﴿إنَّ﴾ وثانيها تكرير الضمير ، وثالثها لام التعريف ، ورابعها لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة ، وهذا يكفي فيه ظن العلو في أمرهم لا أن الأعلى لمجرد الزيادة ، لأنه لم يكن للسحرة علو حتى يكون هو أعلى منهم كما قيل. قاله الكرخي .

﴿ وألق ما في يمينك ﴾ يعني العصا ، وإنما أبهمها تعظيماً وتفخيماً ، أي لا تحتفل بهذه الأجرام فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شيء عندها ، فألقها ولا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وجاز أنه يكون الإبهام للتصغير أي وألق العُوَيْد الفريد الصغير الجرم ، الذي بيدك فإنه بقدرة الله تعالى : ﴿ تلقف ﴾ على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها .

قرىء تلقف بسكون اللام من لقفه إذا ابتلعه بسرعة ، وقرىء بالرفع على تقدير فإنها تلقف . وقال الزجاج : القراءة بالجزم جواب الأمر ، ويجوز الرفع على معنى الحال كأنه قال ألقها متلقفة ﴿ ما صنعوا ﴾ من الحبال والعصيّ .

﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ أي جنسه ، أي أن الذي صنعوه كيد

ساحر ، أو أن صنعهم كيد ساحر وقرىء سِحْر، وإضافة الكيد إلى السحر على الاتساع من غير تقدير ، أو بتقدير ذي سحر وقيل غير ذلك .

﴿ ولا يفلح ﴾ ولا يسعد ﴿ الساحر ﴾ أي جنس الساحر ﴿ حيث أتى ﴾ أي حيث كان وأين توجه وأقبل ، وهذا من تمام التعليل .

﴿ فألقى السحرة ﴾ أي فألقى ذلك الأمر الذي شاهدوه من موسى والعصى إياهم ﴿ سجداً ﴾ لله تعالى ، وذلك لأنهم كانوا في أعلى طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجاً عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر البتة ، وقد مر تحقيق هذا في سورة الأعراف .

قال صاحب الكشاف : سبحان الله ما أعجب أمرهم، قد أُلقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين؛ وقيل إنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب ﴿ قالوا آمنا برب هرون وموسى ﴾ إنما قدم هرون على موسى هنا في حكاية كلامهم ، وأخر في الشعراء رعاية لفواصل الآي وعناية بتوافق رؤوسها ؛ ولأن الواو لا توجب ترتيباً .

قال عكرمة : إن سحرة فرعون كانوا تسعمائة ، فقالوا لفرعون : إن يكن هذان ساحرين فإنا نغلبهما فإنه لا أسحر منا ، وإن كانا من رب العالمين فإنه لا طاقة لنا برب العالمين ، فلما كان من أمرهم أن خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة ، فعندها قالوا هذا القول ، وقالوا أيضاً : ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ إلى قوله : ﴿ والله خير وأبقى﴾ .

﴿ قال ﴾ فرعون ﴿ آمنتم له ﴾ يقال آمن له وبه ، فمن الأول قوله ﴿فآمن له لوط﴾ ،ومن الثاني قوله في الاعراف :﴿آمنتم به﴾ . قيل :إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع ، وقرىء على الاستفهام التوبيخي أي كيف آمنتم به ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ اي من غير إذن مني لكم بذلك .

﴿إنه﴾ اي أن موسى ﴿لكبيركم﴾ اي أسحركم وأعلاكم درجة في صناعة السحر ، فلا عبرة بما أظهرتموه، أو معلمكم واستاذكم ، كما يدل عليه قوله : ﴿ الذي علمكم السحر﴾ يعني إنكم تلامذته في السحر ، فاصطلحتم وتواطأتم معه على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجاً لأمره وتفخيماً لشأنه .

قال الكسائي : الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال : جئت من عند كبيري . وقال محمد بن اسحاق : إنه لعظيم السحر . قال الواحدي : الكبير في اللغة الرئيس . ولهذا يقال للمعلم الكبير، أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا ، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى ولا كان رئيساً لهم ولا بينه وبينهم مواصلة .

﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم﴾ أي والله لأفعلن بكم ذلك ، والتقطيع للأيدي والأرجل ﴿من خلاف﴾ هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، لأن كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل ، وهذا يمين وذاك شمال ، أي لأقطعنها مختلفات ، ومن لابتداء الغاية ، كأن القطع ابتدىء من مخالفة العضو للعضو .

﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي على جذوعها ؛ كقوله : ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي عليه ، وانما آثر كلمة ﴿ في ﴾ للدلالة على استقرارهم عليها ؛ كاستقرار المظروف في الظرف ، وهذا هو المشهور ، وخص النخل لطول جذوعها ؛ وقيل إنه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعاً وعطشاً ، وهذا على الحقيقة كما أن الأول على المجاز وهو الأولى .

﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ أراد لتعلمن هل أنا أشد عذاباً لكم على إيمانكم به أم موسى ؟ ومعنى أبقى أدوم، وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء ، ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا ، وقيل إشارة الى أن إيمانهم لم يكن ناشئاً عن مشاهدة المعجزة بل كان من خوفهم من موسى حيث رأوا ما وقع من عصاه .

قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا
تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ
السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ
عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)

﴿ قالوا ﴾ غير مكترثين بوعيده لهم ﴿ لن نؤثرك ﴾ أي لن نختارك ﴿ على ما جاءنا ﴾ به موسى أو جاءنا من عند الله على يده ﴿ من البينات ﴾ أي من المعجزات الواضحات من عند الله سبحانه كاليد والعصا ،وقيل: إنهم أرادوا بالبينات ما رأوه في سجودهم من المنازل المعدة في الجنة ، وأنما نسب المجيء إليهم وإن كانت البينات جاءت لهم ولغيرهم ، لأنهم كانوا أعرف بالسحر من غيرهم ، وقد علموا أن ما جاءهم به موسى ليس من السحر ، فكانوا على جلية من العلم بالمعجز وغيره . وغيرهم كالمقلد وأيضاً كانوا هم المنتفعين بها .

﴿ و ﴾ لن نختارك على ﴿ الذي فطرنا ﴾ أي خلقنا والواو للعطف،وإنما أخروا ذكر الباري تعالى لأنه من باب الترقي من الأدنى الى الأعلى ، وقيل إنها واو القسم والموصول مقسم به وجوابه محذوف ، أي وحق الذي ، أو والله الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق ، وهذان الوجهان في تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج والسمين .

﴿ فاقض ما انت قاض ﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم لأقطعن أيديكم الخ . والمعنى فاصنع ما أنت صانعه من القتل والصلب ؛ واحكم ما أنت حاكم به . قال المفسرون : وليس في القرآن أن فرعون فعل بالسحرة ما

هددهم به ، ولم يثبت في الأخبار أيضاً . قاله أبو السعود . وفي بعض التفاسير أنه فعله بهم كما مر .

﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ تعليل لعدم المبالاة المستفادة من قولهم : لن نؤثرك ومن الأمر بالقضاء ، أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا وما لنا من رغبة فيها ولا رهبة من عذابها . والمعنى إنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الحياة الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها فسيزول عن قريب قال الفراء : ما بمعنى الذي ، أي أن الذي تقضيه هو هذه الحياة الدنيا ، فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك .

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ التي سلفت منا من الكفر وغيره ﴿ و ﴾ يغفر لنا ﴿ ما ﴾ أي الذي ﴿ أكرهتنا عليه من ﴾ عمل ﴿ السحر ﴾ في معارضة موسى فـ﴿ ما ﴾ في محل نصب على المفعولية ، وقيل ما نافية ، قال النحاس : والأول أولى ، ويجوز أن تكون في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف ، أي وما أكرهتنا عليه من السحر محطوط وموضوع عنا ، أو لا يؤاخذنا به ربنا . قال ابن عباس : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر فتعلموا ، وقال علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض ، فهم من الذين آمنوا بموسى ، وقالوا هذا القول :

﴿ والله خير ﴾ منك ثواباً ﴿ وأبقى ﴾ منك عذاباً . قال محمد بن كعب القرظي : خير منك إن أطيع وأبقى منك عذاباً إن عصي، وهذا رد لقوله : ﴿ ولتعلمن أينا ﴾ الخ حيث كان مراده نفسه .

﴿ إنه ﴾ أي الشأن ﴿ من يأت ربه مجرماً ﴾ هو المتلبس بالكفر والمعاصي ، المائت عليها ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ﴾ فيستريح ﴿ولا يحيى ﴾ حياة تنفعه قال المبرد : لا يموت ميتة مريحة ولا يحيى حياة ممتعة ، فهو يألم كما يألم الحي ويبلغ به حالة الموت في المكروه ، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم ، والعرب تقول : فلان لا حي ولا ميت ، إذا كان غير منتفع بحياته ، وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى ، وهذه الآية من جملة ما حكاه الله

سبحانه من قول السحرة . وقيل هو ابتداء كلام ، وهذا هو الأظهر . قاله النسفي .

أخرج أحمد ومسلم وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فأتى على هذه الآية فقال : « أما أهلها الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا بأهلها فإن النار تميتهم إماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون ، فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل »(١) .

﴿ ومن يأته ﴾ أي ومن يأت ربه ﴿ مؤمناً ﴾ أي مصدقاً به ﴿ قد عمل الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ أي الطاعات ومات على الإيمان وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل الصالح في استتباع الثواب ، لأن ما نيط من الأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا الثواب مطلقاً ﴿ فأولئك ﴾ الإشارة إلى من باعتبار معناه ﴿ لهم الدرجات العلى ﴾ أي المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات ، والعلى جمع علياء مؤنث أعلى .

﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ﴾ بيان للدرجات ، وعدن علم للإقامة كما سبق ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين دائمين ، فيه مراعاة لمعنى من ﴿ وذلك ﴾ أي ما تقدم لهم من الأجر ﴿ جزاء من تزكى ﴾ أي من تطهر من الكفر والذنوب والمعاصي الموجبة للنار .

وأخرج أبو داود وابن مردويه عن أبي سعيد قال ، قال رسول الله (ﷺ) : « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعِمَا »(٢) ؛ وفي الصحيحين بلفظ « إن أهل عليين ليرون من فوقهم ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء »(٣) .

---

(١) مسلم ١٨٥ ـ وأحمد بن حنبل ١١/٣ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٠٢٦ .

(٣) مسلم ٢٨٣١ ـ البخاري ١٥٤٠ .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى ﴾ هذا شروع في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم ، وقد تقدم في البقرة والأعراف ، وفي يونس، واللام في لقد هي الموطئة للقسم ، وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى ﴿ أن أسر بعبادي ﴾ أي أسر بهم ليلاً من مصر إلى البحر ، وقد تقدم هذا مستوفى .

﴿ فاضرب ﴾ أي اجعل ﴿ لهم طريقاً ﴾ واشرعه ، وقيل طريقاً مفعول به على سبيل المجاز بأن يكون المعنى اضرب البحر لينفلق لهم فيصير طريقاً لهم فعلى هذا تصح نسبة الضرب الى الطريق ؛ والمراد بالطريق جنسه ، فإن الطرق كانت اثنتي عشرة بعدد أسباط بني إسرائيل ﴿ في البحر يبساً ﴾ أي يابساً وصف به الفاعل مبالغة ، وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق ، ومرت عليه الصَّبا فجففته حتى لم يكن فيها ماء ولا طين قاله محمد بن كعب ومجاهد ، وقرىء بسكون الباء مخففاً من يَبْساً المحرك وهو مصدر أو جمع يابس كصحب وصاحب وصف به الواحد مبالغة .

﴿ ولا تخاف دركاً ﴾ أي آمناً من أن يدرككم العدوّ من ورائكم، والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده ، وبه قال ابن عباس قرأ الجمهور لا تخاف وهي أرجح لعدم الجزم في قوله سبحانه : ﴿ ولا تخشى ﴾ أي من فرعون أو من البحر أن يغرقك ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده ﴾ اتبع هنا مطاوع اتبع يقال :

أتبعتهم إذا تبعتهم وذلك إذا سبقوك فلحقته ، فالمعنى تبعهم فرعون ومعه جنوده ، وقيل الباء زائدة والأصل أتبعهم جنوده أي أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه ، وقرىء فاتَّبعهم بالتشديد أي لحقهم بجنوده وهو معهم ، كما يقال ركب الأمير بسيفه أي معه سيفه وقيل سائقاً جنوده معه .

﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ أي علاهم وأصابهم منه ما غمرهم من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، وقال السمين : هذا من باب الاختصار وجوامع الكلم أي ما يقل لفظها ويكثر معناها ، والتكرير للتعظيم والتهويل ؛ كما في قوله : ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ وقيل غشيهم ما سمعت قصته ؛ وقال ابن الأنباري : غشيهم البعض الذي غشيهم لأنه لم يغشهم كل ماء البحر بل الذي غشيهم بعضه ، فهذه العبارة للدلالة على الذي أغرقهم بعض الماء ، والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم .

وقرىء ﴿ فغشاهم من اليم ما غشاهم ﴾ أي غطاهم ما غطاهم من الغرق وسترهم ما لم يعلم كنهه إلا الله سبحانه فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه .

﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ هذا إخبار عن حاله قبل الغرق أي أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى طريق النجاة لأنه قدر أن موسى وقومه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون في طريق يابسة وبين أيديهم البحر وفي قوله : ﴿ وما هدى ﴾ تأكيد وتقرير لإضلاله لأن المضل قد يرشد من يضله في بعض الأمور وفيه تكذيب لفرعون في قوله : وما أهديكم الا سبيل الرشاد .

﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ ذكر سبحانه ما أنعم به على بني إسرائيل بعد إنجائهم، وفي هذا الترتيب غاية الحسن حيث قدم تذكير نعمة الإنجاء ثم النعمة الدينية ثم الدنيوية والتقدير : قلنا لهم بعد إنجائهم يا بني إسرائيل ويجوز أن يكون خطاباً لليهود المعاصرين لنبينا صلى الله عليه وسلم لأن النعمة على الآباء معدودة من النعم على الأبناء، والمراد بعدوهم هنا فرعون وجنوده ، وذلك بإغراقه وإغراق قومه في البحر بمرأى من بني اسرائيل .

﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ انتصاب جانب على أنه مفعول به لا على الظرفية لأنه مكان معين غير مبهم ، وإنما تنتصب الأمكنة على الظرفية اذا كانت مبهمة ، قال مكي : وهذا أصل لا خلاف فيه .

قال النحاس : والمعنى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام ، وقيل وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور فالوعد كان لموسى وإنما خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم فهو من المجاز العقلي .

وقرىء ﴿ ووعدناكم ﴾ لأن الوعد إنما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لا تكون الا من اثنين ، وقد قدمنا في البقرة هـذا المعنى ، والأيمن صفة للجانب،والمراد يمين الشخص لأن الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فإذا قيل خذ عن يمين الجبل فمعناه عن يمينك من الجبل

﴿ ونزلنا عليكم ﴾ أي في التيه ﴿ المن والسلوى ﴾ قد تقدم تفسير المن بالترنجبين والسلوى بالسمان وأوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه ، وقال أبو السعود : المن هو شيء حلو أبيض مثل الثلج كان ينزل من الفجر الى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ويبعث الريح الجنوب عليهم السماني فيذبح الرجل منهم ما يكفيه .

﴿ كلوا ﴾ أي قلنا لهم : كلوا ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي المنعم به عليكم المراد بالطيبات المستلذات ، وقيل الحلال ، على الخلاف المشهور في ذلك ﴿ ولا تطغوا فيه ﴾ الطغيان التجاوز أي لا تتجاوزوا ما هو جائز الى ما لا يجوز كالسرف والبطر والمنع عن المستحق .

وقيل :المعنى لا تجحدوا نبي الله فتكونوا طاغين ، وقيل : لا تكفروا نعمة الله ولا تنسوا شكرها ، وقيل :لا تعصوا المنعم أي لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني ، فإن كل واحد منها يصدق عليه أنه طغيان .

﴿ فيحـل ﴾ بكسر الحـاء أي يجب ﴿ عليكم غضبي ﴾ أي يلزمكم وبضمها بمعنى ينزل بكم وهو مأخوذ من حلول الدين أي حضور وقت أدائه ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ قرىء بكسر اللام الأولى وبضمها وهما لغتان .

قال الفراء : الكسر أحب اليّ من الضم لأن الضم من الحلول بمعنى الوقوع ويحل بالكسر يجب وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره، وَهَوَى بمعنى هلك ، قال الزجاج : فقد هوى أي صار الى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي هوياً : أي سقط من علو الى سفل وهوى فلان أي مات ، وقال ابن عباس : هوى أي شقي .

﴿وإني لغفار لمن تاب ﴾ من الذنوب التي أعظمها الشرك بالله أو من الشرك قاله ابن عباس ﴿ وآمن ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقال ابن عباس : وحد الله ﴿ وعمـل ﴾عملاً ﴿ صالحاً ﴾ مما ندب اليه الشرع وحسنه ، وقال ابن عبـاس : أدى الفرائض وظـاهر اللفظ يشمـل الفرض والنفل .

﴿ ثم اهتدى ﴾ أي استقام واستمر على ذلك حتى يموت ، قاله الزجاج وغيره وقال سعيد بن جبير : لزم السنة والجماعة ، وعن ابن عباس قال : من تاب من الذنب وآمن من الشرك وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه ثم اهتدى أي علم أن لعمله ثواباً وعلى تركه عقاباً يجزى عليـه ، وقيل تعلم العلم ليهتدي به ، وقيل لم يشك في إيمانه والأول أرجح مما بعده،و﴿ثم﴾إما للتراخي باعتبار الانتهاء لبعده عن أول الاهتداء أو الدلالة على بعد ما بين المرتبتين فإن المداومة أعظم وأعلى من الشروع .

والإيضاح أن المراد الاستمرار على تلك الطريقة إذ المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة ، حتى يستمر عليه في المستقبل ويموت عليه ، قاله الكرخي .

۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾

﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ ﴾ هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه ، وبين موسى عند موافاته الميقات. والسؤال وقع من الله لكنه ليس لاستدعاء المعرفة بل إما لتعريف غيره أو لتبكيته أو لتنبيهه كما صرح به الراغب وظاهره أنه ليس بمجاز كما يقول التلميذ سألني الأستاذ عن كذا ليعرف فهمي ونحو ذلك ، قال المفسرون : كانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه فسار موسى بهم ، ثم عجل من بينهم شوقاً الى ربه فقال الله تعالى له : ما الذي حملك على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم ؟ والمراد بهم جملة بني إسرائيل فإن موسى كان قد أمر هرون أن يسير بهم على أثره ويلحقونه في مكان المناجاة ، فأجاب موسى عن ذلك .

و ﴿قال هم أولاء على أثري ﴾ أي بالقرب مني تابعون لأثري واصلون بعدي ليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ، وقيل لم يرد أنهم يسيرون خلفه ؛ بل أراد أنهم بالقرب منه ينتظرون عوده إليهم. بنو تميم يقولون أولى مقصورة وأهل الحجاز أولاء ممدودة ؛ قاله عيسى بن عمرو ، وقرىء إثر بكسر الهمز وإسكان الثاء وبفتحهما وهما لغتان .

ثم قال مصرحاً بسبب ما سأله الله عنه ، فقال : ﴿ وعجلت إليك رب

لترضى ﴾ عني بمسارعتي إلى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عني بذلك،وفيه دليل على جواز الاجتهاد ، والمعنى عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير اليه لترضى عني يقال رجل عجل وعجول بين العجلة والعجلة خلاف البطء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : تعجل موسى إلى ربه فرأى في ظل العرش رجلاً فعجب له فقال : من هذا يا رب ؟ قال لا أحدثك من هو لكن سأخبرك بثلاث فيه كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة .

﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ مستأنفة كأنه قيل فماذا ؟ قال الله أي ابتليناهم واختبرناهم وألقيناهم في فتنة ومحنة ، قال ابن الأنباري : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا غير اثني عشر ألفاً وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ، وهذا الاخبار من الله تعالى عنها قيل إنه كان وقت سؤاله بقوله : وما أعجلك الخ فهو أول حضوره الميقات وفي ذلك الوقت لم تكن الفتنة وقعت لهم كما علمت فيكون هذا الإخبار فيه تجوز من إطلاق الماضي على المستقبل على حد ﴿ أتى أمر الله ﴾ وقيل إنه كان بعد تمام الأربعين أو في العشر الأخير منها .

قال الشهاب: وعليه الجمهور وعليه فيكون الإخبار حقيقاً لا تجوز فيه.

﴿ وأضلهم السامري ﴾ أي دعاهم الى الضلالة وكان من قوم يعبدون البقر فدخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر وكان من قبيلة تعرف بالسامرة ، وقيل كان من القبط ، وقيل كان علجاً من علوج كرمان رفع الى مصر ، وكان جاراً لموسى وآمن به واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً ، فقال لمن معه من بني إسرائيل إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحلي ، وهي حرام عليكم وأمرهم بإلقائها في

النار وكان من أمر العجل ما كان .

﴿ فرجع موسى الى قومه ﴾ قيل وكان الرجوع إلى قومه بعدما استوفى أربعين يوماً ذا القعدة وعشر ذي الحجة وأخذ التوراة ، روي أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل ، فقال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة .

وفي القرطبي : وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يضربون بالقضيب على شيء من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ويحضرون شيئاً يأكلونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟ .

فأجاب : يرحمك الله ، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسداً له خوار ، فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل . وأما الطبل فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى ؛ وإنما كان مجلس النبي مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم . وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين. إ هـ .

﴿ غضبان أسفاً ﴾ الأسَفِ الشديد الغضب ، وقيل الحزين ، وقد مضى في الأعراف بيان هذا مستوفى ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، والوعد الحسن وعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته . وقيل وعدهم أن يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم ، وكانت ألف سورة كل سورة ألف آية ، يحمل أسفارها سبعون جملاً ، ولا وعد أحسن من ذلك . قاله النسفي ، وقيل

وعدهم النصر والظفر . وقيل هو قوله : ﴿ وإني لغفار لمن تاب ﴾ الآية .

﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي أوعدكم ذلك فطال عليكم الزمان فنسيتم ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ أي يلزمكم أو ينزل عليكم ، والغضب العقوبة والنقمة . والمعنى أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون سبب حلول غضب الله عليكم بإرادتكم واختياركم .

﴿ فأخلفتم موعدي ﴾ أي موعدكم إياي ، فالمصدر مضاف إلى المفعول لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع اليهم من الطور . وقيل وعدوه أن يأتوا على أثره إلى الميقات فتوقفوا وتركوا المجيء بعده ، وهذا ترتيب على كل واحد من شقي الترديد على سبيل البدل .

فأجابوه و﴿قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ الذي وعدناك ﴿ بملكنا ﴾ بفتح الميم وقرىء بكسرها ؛ واختار هذه القراءة ابو عبيد وابو حاتم لأنها على اللغة العالية الفصيحة ، وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً ، والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ، أي بملكنا أمورنا، أو بملكنا الصواب ، بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا ، وكنا مضطرين إلى الخطأ ، أي سوَّل لنا السامري ما سوّل . وغلب على عقولنا .

قال ابن عباس : بملكنا أي بأمرنا . وقال قتادة ، بطاقتنا ، وعن السدي مثله ، وقيل باختيارنا ، وذلك أن المرء إذا وقع في الفتنة لم يملك نفسه ، وقرىء بملكنا بضم الميم . والمعنى بسلطاننا ، قاله الحسن ، أي لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك وقيل: إن الفتح والكسر والضم كلها لغات سبعية في مصدر ملكت الشيء .

﴿ ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ قرىء حملنا بضم الحاء وتشديد الميم وقرىء بفتح الحاء والميم مخففة ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لأنهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم وما حملوها كرهاً ، فإنهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة .

وقيل هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل .

وسميت أوزاراً أي آثاماً لأنه لا يحل لهم أخذها ولا تحل لهم الغنائم في شريعتهم ، والأوزار في الأصل الأثقال كما صرح به أهل اللغة ، والمراد بالزينة هنا الحلى ﴿ فقذفناها ﴾ أي طرحناها في النار طلباً للخلاص من إثمها ، وقيل المعنى طرحناها إلى السامري لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه .

﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ أي فمثل ذلك القذف ألقاها السامري ، قيل إنه قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى . إنما احتبس عنكم لأجل ما عندكم من الحلى فجمعوه ودفعوه إليه فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول ، وهو جبريل .

﴿ فأخرج لهم ﴾ السامري من الحفرة ، وهذا من كلامه تعالى : ﴿ عجلاً ﴾ صاغه من الحلى في ثلاثة أيام ﴿ جسداً ﴾ أي حال كونها جسداً أي صائرة جسداً ، أي دماً ولحماً ، والجسد جمعه أجساد .

قال في البارع : لا يقال الجسد إلا للحيوان العاقل ، وهو الانسان والملائكة والجن ، ولا يقال لغيره جسد إلا للزعفران ، وللدم إذا يبس أيضاً جسد وجاسد والمعنى أخرج لهم عجلاً ذا جثة على التشبيه بالعاقل .

﴿ له خوار ﴾ صوت يسمع ، أي يخور كما يخور الحي من العجول ، والخوار صوت البقر ؛ وقيل خواره كان بالريح لأنه كان عمل فيه خروقاً فإذا دخلت الريح في جوفه خار ، ولم تكن فيه حياة .

﴿ فقالوا ﴾ أي السامري ومن وافقه بادىء الرأي ﴿ هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسي ﴾ أي فضل موسى ولم يعلم مكان إلٰهه هذا ، وذهب يطلبه في الطور ، وهذا يقتضي أنهم جعلوا العجل إلٰهاً يعبدونه لذاته ، لا لتقريبه لهم من الله تعالى . وقيل المعنى فنسي موسى أن يذكر لكم أن هذا إلٰهه وإلٰهكم . قاله ابن عباس وقيل الناسي هو السامري ؛ أي ترك السامري ما أمر به موسى من الإيمان وضل كذا قال ابن الاعرابي .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ
مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾
قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ
إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ
أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾

﴿ أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولاً ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أي أفلا يعتبرون ويتفكرون في هذا العجل لا يرد عليهم جواباً ، ولا يكلمهم اذا كلموه ؛ فكيف يتهمون أنه إلَٰه وهو عاجز عن المكالمة ، و﴿أن﴾ مخففة ويرجع بالرفع في قراءة العامة ، وقرىء بالنصب وفيه ضعف ، والرؤية على الأول علمية ، وعلى الثاني بصرية .

﴿ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على أن يدفع عنهم ضراً ، ولا أن يجلب إليهم نفعاً .

﴿ ولقد قال لهم هارون ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، وجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التي قبلها من الإنكار عليهم والتوبيخ لهم ؛ أي والله لقد نصح لهم هرون ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم ﴿ يا قوم إنما فتنتم به ﴾ أي وقعتم في الفتنة بسبب العجل وابتليتم به وضللتم عن طريق

الحق لأجله . قيل ومعنى القصر المستفاد من إنما هو أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم ، وليس معناه أنهم فتنوا بالعجل لا بغيره .

﴿وإن ربكم الرحمن﴾ لا العجل ؛ خص هذا الموضع باسم الرحمن تنبيهاً على أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو الرحمن ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ﴿فاتبعوني﴾ في أمري لكم بعبادة الله ، ولا تتبعوا السامري في أمره لكم بعبادة العجل .

﴿ وأطيعوا أمري ﴾ لا أمره ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين ﴾ اجابوا هارون عن قوله المتقدم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه وعدم قبول ما دعاهم اليه من الخير ، وحذرهم عنه من الشر ؛ أي لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾ فينظر هل يقرنا على عبادته أو ينهانا عنها ؟ فجعلوا هذا غاية لعكوفهم لكن لا على طريق الوعد بل بطريق التعلل والتسويف فعند ذلك اعتزلهم هرون في اثنى عشر الفاً من المنكرين لما فعله السامري .

أخرج الحاكم وصححه عن عليّ قال : لما تعجل موسى إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي بني إسرائيل فضربه عجلاً ، ثم ألقى القبضة في جوفه فإذا هو عجل جسد له خوار ، فقال لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى ، فقال لهم هارون : يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟ فلما أن رجع موسى أخذ برأس أخيه فقال له هارون ما قال ، فقال موسى للسامري ما خطبك ؟ قال قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سوّلت لي نفسي ، فعمد موسى إلى العجل فوضع موسى عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر ، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب ، فقالوا لموسى ما توبتنا ؟ قال يقتل بعضكم بعضاً ، فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى

قتل منهم سبعون ألفاً ، فأوحى الله إلى موسى : مرهم فليرفعوا أيديهم فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي ، والحكايات لهذه القصة كثيرة جداً .

﴿ قال يا هارون ما منعك ﴾ جملة مستأنفة ، والمعنى أن موسى لما وصل اليهم أخذ بشعور رأس أخيه هارون وبلحيته ، وقال ما منعك من اتباعي واللحوق بي عند أن وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة ؟ .

وقيل المعنى ما منعك من اتباعي في الإنكار عليهم ؟ وقيل معناه هلا قاتلتهم إذ قد علمت أني لو كنت بينهم لقاتلتهم ؟ وقيل معناه هلا فارقتهم ؟ .

﴿إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ ﴾ أي أيُّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي ، ومن أن تلحقني وتأتيني في الجبل فتخبرني بما فعلوا ، وهذه الياء من ياءات الزوائد فحقها أن تحذف في الرسم كما هي كذلك في مصحف الامام ولا زائدة للتوكيد .

﴿ أفعصيت ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ ، والمعنى كيف خالفت ﴿ أمري ﴾ لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه ، وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً ؟ وقيل: المراد بقوله : ﴿ أمري ﴾ هو قوله الذي حكى الله عنه . وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، فلما أقام معهم ولم يبالغ في الإنكار عليهم نسبه الى عصيانه ومخالفة أمره ، وبه قال ابن جرير والقرطبي .

﴿ قال ﴾ هارون ﴿ يا ابن أم ﴾ بفتح الميم ويكسرها ، وعلى كل من القراءتين أراد أمي لكن على الأولى حذفت الألف المنقلبة عن الياء اكتفاء عنها بالفتحة ، وعلى الثانية حذفت الياء اكتفاء عنها بالكسرة ، ونسبه الى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعطافاً له وترقيقاً لقلبه ؛ فليس ذكرها لكونه أخاه من أمه فقط كما قيل ، فإن الحق إنه كان شقيقه .

﴿ لا تأخذ بلحيتي ﴾ وكان أخذها بشماله ﴿ ولا برأسي ﴾ وكان أخذ شعره بيمينه غضباً ، والمعنى ولا بشعر رأسي وكان قد أخذ بذؤابتيه، أي لا تفعل هذا بي عقوبة منك لي فإن لي عذراً هو ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ أي خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم إن يتفرقوا فتقول لي إنك فرقت جماعتهم وتغضب عليّ ، وذلك لأن هارون لو خرج لتبعه جماعة ممن لم يعبد العجل وتخلف مع السامري عند العجل آخرون ، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم .

﴿ ولم ترقب قولي ﴾ أي تقول لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها ، ومراده بوصية موسى له قوله هو : اخلفني في قومي وأصلح . قال ابو عبيدة : معناه ولم تنتظر عهدي وقدومي لأنك أمرتني ان اكون معهم . وقال ابن جريج : لم تنتظر قولي ما أنا صانع .

وقال ابن عباس : لم تحفظ قومي ،والياء في﴿قولي﴾واقعة على موسى ، وقيل واقعة على هارون ، لَكِنْ المفسرون على الاحتمال الأول كالسمين والبيضاوي والخازن والخطيب فكلهم اقتصروا على ذلك .

والمعنى على الثاني وخشيت عدم تأملك في القول حتى تفهم عذري ، فاعتذر هارون إلى موسى ههنا بهذا ، واعتذر إليه في الأعراف بما حكاه الله عنه هنالك حيث قال : إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني .

ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامري ﴿ قال فما خطبك ﴾ أي ما شأنك الداعي؟ وما الذي حملك على ما صنعت ﴿ يا سامري ، قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أي رأيت ما لم يروا وعلمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له وأراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة فألقى في ذهنه أن يقبض قبضة من أثره ، وأن ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً .

وقرىء لم تبصروا بالفوقية على الخطاب وبالتحتية وهي أولى لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعي لنفسه أنه علم ما لم يعلم به موسى يقال بَصُر بالشيء أي علمه وأبصره أي نظر اليه . كذا قال الزجاج ، وقيل هما بمعنى علمه والعامة على ضم الصاد ، وقرىء بالكسر وهي لغة .

﴿ فقبضت قبضة ﴾ بالضاد المعجمة فيهما ، وقرىء بالصاد المهملة فيهما ، والفرق بينهما ان ما بالمعجمة هو الأخذ بجميع الكف ، وما بالمهملة بأطراف الأصابع والقبضة بضم القاف القدر المقبوض .

قال الجوهري : هي ما قبضت عليه من شيء. قال وربما جاء بالفتح وقد قرىء قبضة بضم القاف وفتحها ومعنى الفتح المرة من القبض ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف .

﴿ من أثر الرسول ﴾ أي من المحل الذي وقع عليه حافر فرس جبريل أي الملك الذي أرسل اليك ليذهب بك الى الطور للمناجاة وأخذ التوراة ولعل ذكره بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم ، وللتنبيه على وقت أخذ القبضة .

﴿ فنبذتها ﴾ أي فطرحتها في الحلى المذابة المسبوكة على صورة العجل فَخَارَ ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك التسويل ﴿ سوّلت ﴾ أي زينت ﴿ لي نفسي ﴾ قاله الأخفش ، وقيل حدثتني نفسي أن أفعله ففعلته اتباعاً لهواي ، وهو اعتراف بالخطأ واعتذار فلما سمع موسى منه ذلك .

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن
تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي
الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١)
يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾

﴿قال فاذهب﴾ من بيننا ﴿فإن لك في الحياة﴾ أي ما دمت حياً وما عشت ﴿أن تقول﴾ لمن رأيته ﴿لا مساس﴾ أي لا تقربني وهو مأخوذ من المماسة أي لا يَمَسُّك أحد ولا تَمَسُّ أحداً ، لكن لا بحسب الاختيار منك بل بموجب الاضطرار الملجىء إلى ذلك ، لأن الله سبحانه أمر موسى أن ينفي السامري عن قومه وأمر بني اسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له ولا شيء أوحش منها ولا أعظم في الدنيا .

ويقال إن قومه باقية فيهم تلك الحالة إلى اليوم ، قيل إنه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ولا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ، قال الجوهري في الصحاح ، وأما قول العرب : لا مَسَاس مثل قطام فإنما بني على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المس إ هـ .

ولا مساس مصدر ماس[1] كقتال من قاتل فهو يقتضي المشاركة وهو مبني مع لا الجنسية ؛ والمراد به النهي أي لا تمسني ولا أمسك وحاصل ما قيل في معنى لا مساس ثلاثة أوجه .

---

(١) وأصلها قبل الإدغام : ماسس .

الأول: أنه حرم عليه مماسة الناس وكان اذا مسه أحد حم الماس والممسوس فلذلك كان يصيح إذا رأى أحداً : لا مساس .

والثاني: أن المراد منع الناس من مخالطته ، واعترض بأن الرجل إذا صار مهجوراً فلا يقول هو لا مساس ، وانما يقال له ذلك وأجيب بأن المراد الحكاية أي أجعلك يا سامري بحيث اذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس .

الثالث: أن المراد انقطاع نسله وأن يخبر بأنه لا يتمكن من مماسة المرأة قاله أبو مسلم وهو ضعيف جداً ويقال: إن موسى هم بقتل السامري ، فقال الله تعالى لا تقتله فإنه سخي نقله القرطبي ؛ وهذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وان لا يخالطوا قاله الكرخي ، ثم ذكر حاله في الآخرة فقال :

﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ بفتح اللام وبالفوقية مبنياً للمفعول أي لن يخلفك الله ذلك الموعد وهو يوم القيامة والموعد مصدر أي إن لك وعداً لعذابك وهو كائن لا محالة ، قال الزجاج : أي يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد ، وقرىء لن تخلفه بكسر اللام وله معنيان أحدهما ستأتيه ولن تغيب عنه ولا مذهب لك عنه ولن تجده مخلفاً ، كما تقول أحمدته أي وجدته محموداً ، والثاني على التهديد أي لا بد لك أن تصير اليه ، ولن يخلف الله موعده الذي وعدك بل توافيه وسيصل اليك ، ولن تستطيع الروغان ولا الحيدة عنه ، وقرىء لن نخلفه بالنون أي لن يخلفه الله .

﴿ وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ أصله ظللت ، وقرىء بكسر الظاء أي دمت وأقمت على عبادته ، قاله ابن عباس والعاكف الملازم .

﴿ لنحرقنه ﴾ بالنار قرىء بضم النون وتشديد الراء من حرقه يحرقه وقرىء بتخفيف الراء من أحرقه يحرقه ، ومن حرقت الشيء أحرقه حرقاً ، إذا بردته وحككت بعضه ببعض أي لنبردنه بالمبارد ، ويقال للمبرد المحرق والقراءة الأولى أولى ، ومعناها الإحراق بالنار، وكذلك معنى الثانية ، وقد جمع بين هذه

الثلاث القرآت بأنه أحرق؛ ثم برد بالمبرد ، وفي قراءة ابن مسعود لنذبحنه ثم لنحرقنه واللام هي الموطئة للقسم .

﴿ ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ قال ابن عباس . أي لنذرينه في هواء البحر بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهار غباوة المفتنين به لمن له أدنى نظر، والنسف نقض الشيء لتذهب به الريح ، وقرىء بضم السين وبكسرها وهما لغتان ، والمِنْسَف ما ينسف به الطعام وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع والنسافة ما يسقط منه ، والنسف التفرقة والتذرية ، وقيل قلع الشيء من أصله،واليّم البحر قاله ابن عباس ، وقال عليّ : النهر .

﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ﴾ لا هذا العجل الذي فتنكم به السامري استئناف مسوق لتحقيق الحق إثر إبطال الباطل ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ أي وسع علمه كل شيء ، وقرىء وسع مشددة ، قال قتادة : وسع ملأ ، وهذا آخر قصة موسى في هذه السورة المبتدأة بقوله : ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ الخ .

﴿ كذلك ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم تسلية له وتبصرة بأحوال من تقدم وتكثيراً لمعجزاته وتذكيراً للمستبصرين من أمته ؛ أي كما قصصنا عليك خبر موسى :

﴿ نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ أي من أخبار الحوادث الماضية في الأمم الخالية لتكون تسلية لك ، ودلالة على صدقك ومن للتبعيض أي بعض أخبار ذلك .

﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ منطوياً ومشتملاً على هذه القصص والأخبار والمراد بالذكر القرآن قاله ابن زيد ، وسمي ذكراً لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار ، وقيل المراد بالذكر الشرف كقوله : ﴿ وانه لذكر لك ولقومك ﴾ ثم توعد سبحانه المعرضين عن هذا الذكر فقال :

﴿ من أعرض عنه ﴾ فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه ، وقيل عن الله سبحانه ﴿ فإنه ﴾ أي المعرض عنه ﴿ يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي إثماً عظيماً وعقوبة ثقيلة بسبب إعراضه ﴿ خالدين فيه ﴾ أي في عذاب الوزر ، والمعنى أنهم مقيمون في جزائه فأقيم السبب مقام المسبب ﴿ وساء لهم ﴾ اللام للبيان كما في هيت لك ﴿ يوم القيامة حملاً ﴾ أي بئس الحمل ، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء لهم حملاً وزرهم .

﴿ يوم ﴾ أي اذكر يوم ﴿ ينفخ ﴾ قرىء بضم التحتية وبالنون مبنيـاً للفاعل ، وبفتح الياء على أن الفاعل هو الله أو إسرافيل ﴿ في الصـور ﴾ بسكون الواو ، وقرىء بفتحها جمع صورة ، والأول أولى وهو قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للمحشر ، والمراد بهذه النفخة الثانية لأنـه أتبعه بقـوله : ﴿ ونحشر المجرمين ﴾ المراد بهم المشركـون والكافـرون والعصاة المـأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم .

والمراد بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ يوم النفـخ في الصور ﴿ زرقاً ﴾ أي زرق العيون مع سواد الوجوه ، والزرقة الخضرة في العين كعين السنور ، والعرب تتشاءم بزرقة العين لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق ؛ والزراقة أسوأ ألوان العين ، وأبغضها الى العرب ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين .

وقال الفراء : زرقاً أي عمياً ، وقال الأزهري : عطاشاً ، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش الى الزرقة ،وقيل: إنه كناية عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ، وقيل هو كنايـة عن شخوص البصر من شـدة الحرص،والقول الأول أولى ، والجمع بين هذه الآية وبين قوله : ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم ، قال ابن عباس : فيه حالات يكونون في حال زرقاً ، وفي حال عمياً .

يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾
فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ
الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا
تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ أي يتشاورون قاله ابن عباس ، وقيل يتسارون جملة حالية أو مستأنفة لبيان ما هم فيه في ذلك اليوم ، والخَفْتُ في اللغة السكون والمخافتة والتخافت والخَفْت بوزن السبت إسرار المنطق ثم قيل لمن خفض صوته خفته، والمعنى يخفضون أصواتهم ويخفونها ويقول بعضهم لبعض سراً لما لحقهم من هول ذلك اليوم ورعبه .

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ لبثتم ﴾ في الدنيا أو في القبور ، أو ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة ﴿إلا عشراً ﴾ من الليالي بأيامها لأن الشهور غررها بالليالي فتكون الأيام داخلة فيها تبعاً ، قاله في الكشاف ، والمعنى أنهم يستقصرون ويستقلون مدة مقامهم ولبثهم في الدنيا جداً ، وقيل: المراد بالعشر عشر ساعات ، ثم لما قالوا هذا قال الله سبحانه ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ فيما بينهم .

﴿إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ أي أعدلهم قولاً وأكملهم رأياً وأعلمهم عند نفسه وقال سعيد بن جبير أوفاهم عقلا ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ واحداً ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لكونه أدل على شدة الهول لا لكونه أقرب إلى الصدق.

﴿ ويسألونك عن ﴾ حال ﴿ الجبال ﴾ قال ابن جريج : قالت قريش كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة أي على سبيل الاستهزاء فأمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال ﴿ فقل ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف، والتقدير:

إن سألوك فقل، أو للمسارعة الى إلزام السائلين ﴿ ينسفها ربي نسفاً ﴾.

قال ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعاً من أصولها ثم يصيرها رملاً تسيل سيلاً ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا، ثم كالهباء المنثور، يقال: نَسَفَت الريح التراب نسفاً من باب ضَرَب اقتلعته وفرقته واسم الآلة مِنْسَف بكسر الميم.

﴿ فيذرها ﴾ أي يترك الجبال باعتبار مواضعها أي فيذر مواضعها وأجزاءها السافلة الباقية بعد النسف وهي مقارُّها ومراكزُها، أي فيذر ما انبسط منها، وساوى مُسَطَّحه مُسَطَّحَ أجزاء الأرض بعد نسف ما كان عليها من الجبال الشواهق، أو الضمير للأرض المدلول عليها بقرينة الحال أنها الباقية بعد نسف الجبال ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ قال ابن الأعرابي: هو الأرض الملساء بلا نبات ولا بناء وقال الفراء: القاع مستنقع الماء، والصفصف القرعاء الملساء التي لا نبات فيها، كأن أجزاءها صف واحد من كل جهة فـ﴿ صفصفاً ﴾ قريب في المعنى من ﴿ قاعاً ﴾ فهو كالتأكيد له.

قال الجوهري: القاع المستوي الصلب من الأرض والجمع أَقْوُع وَأَقْوَاع وقيعان، والظاهر ـ من لغة العرب ـ أن القاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوى الأملس.

﴿ لا ترى فيها ﴾ الضمير راجع إلى الجبال بذلك الاعتبار، أو إلى الأرض على ما مر ﴿ عوجاً ﴾ أي انخفاضاً وهو بكسر العين التَّعَوُّجُ. قاله ابن الأعرابي ﴿ ولا أمتاً ﴾ هو التلال الصغار، والأَمْت في اللغة المكان المرتفع، وقيل العِوج الميل والأمت الأثر مثل الشراك، وقيل العوج الوادي والأمت الرابية، وقيل الأمت النتوء اليسير، يقال مد حبله حتى ما فيه أَمْت، وقيل هما الانخفاض والارتفاع. وقيل العوج الصدوع والأمت الأكمة، وقيل الأمت الشقوق في الأرض. وقيل الآكام.

وقيل الأمت أن تغلظ في مكان، وتدق في مكان، ووصف مواضع الجبال

بالعوج بكسر العين ههنا يدفع ما يقال إن العوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الأعيان والمحسوسات ؛ إلا أن يقال عبر فيه بمكسور العين لكونه لشدة خفائه، كأنه صار من قبيل المعاني؛ أي لا تدركه فيها، ولو تأملته بالمقاييس الهندسية. قاله أبو السعود.

وقد تكلف لذلك صاحب الكشاف في هذا الموضع بما عنه غِنًى وفي غيره سَعة. وعن ابن عباس قال: هي الأرض الملساء التي ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض. قال البيضاوي: هي ثلاثة أحوال مترتبة فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس، ولذلك ذكر العوج وهو يخص المعاني.

﴿ يومئذ ﴾ أي يوم نسف الجبال ﴿ يتبعون الداعي ﴾ أي يتبع الناس داعي الله إلى المحشر فيقبلون من كل أوب الى صوبه. قال الفراء: يعني بالداعي صوت الحشر، وقيل هو إسرافيل إذا نفخ في الصور، والراجح أن الداعي جبريل والنافخ إسرافيل تأمل.

﴿ لا عوج له ﴾ أي مَعْدِل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه وينحرفوا منه بل يسرعون إليه، كذا قال أكثر المفسرين، وقيل لا عوج لدعائه ولا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً، بل يتبعونه ويأتونه سراعاً ولا يميلون إلى ناس دون ناس، وقيل لا عوج لذلك الاتباع، والأول أظهر.

وعن محمد بن كعب القرظي قال: يحشر الناس يوم القيامة في ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر؛ وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يَؤُمُّونه، فذلك قول الله يومئذ ﴿ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾.

وعن أبي صالح في الآية قيل: يضع إسرافيل الصور في فيه ويقف على صخرة بيت المقدس وينادي: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة والأوصال المتقطعة، هلمي إلى عرض الرحمن فإن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، فيقبلون من كل أوب الى صوبه لا يعدلون عنه ويستوون اليه من غير انحراف، متبعين لصوته.

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ أي خفضت لهيبته وجلاله؛ وقيل ضعفت لعظمته، وقيل ذلت من شدة الفزع، وقيل سكنت، قاله ابن عباس، والمراد أصحاب الاصوات.

﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ هو الصوت الخفي، قاله ابن عباس ومجاهد. وقال أكثر المفسرين: هو صوت نقل الأقدام إلى المحشر ووطئها، ومنه همست الإبل اذا سمع ذلك من وقع أخفافها على الأرض. وعن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله،وعن سعيد أيضاً قال: سر الحديث والظاهر أن المراد هنا كل صوت خفي، سواء كان بالقدم أو من الفم بتحريك الشفاه أو غير ذلك، ويؤيده قراءة أبي: فلا ينطقون الا همساً وهو مصدر همست الكلام، من باب ضرب إذا أخفيته والاستثناء مفرغ. وقال الزمخشري: الهمس الذكر الخفي ومنه الحروف المهموسة.

﴿ يومئذ ﴾ أي يوم يقع ما ذكرنا ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ من شافع كائناً من كان ﴿ إلا ﴾ شفاعة ﴿ من أذن له الرحمن ﴾ في أن يشفع لغيره، وبه بدأ القاضي كالكشاف لما فيه من تعظيم الشافع، واللام للتعليل، أي لأجله.

﴿ ورضي له قولاً ﴾ أي رضي قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع،والمعنى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له وكان له قول يرضى، ومثل هذه الآية قوله :﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾. وقوله .﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾. وقوله :﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾. وفيه دلالة على أنه لا يشفع أحد لأحد إلا لمن يأذن الله له فيها، فلا شفاعة الا بإذن منه سبحانه، وهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمنين؛ وبه صرح البغوي؛ وهذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق، لأن قوله ورضي له قولاً، يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولاً واحداً من أقواله. والفاسق قد رضي الله من أقواله شهادة أن لا إله إلا الله فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له بعد الإذن، لأن الاستثناء من النفي إثبات. والجملة تفسير لمن يؤذن في الشفاعة له.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

وحاصل هذا التفسير أنه كل من قال في الدنيا لا إلـٰـه إلا الله ، أي كان مسلماً ومات على الإسلام وإن عمل السيئآت ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ من أمور الساعة والآخرة ﴿ وما خلفهم ﴾ من أمور الدنيا ، والمراد جميع الخلق . وقيل المراد بهم الذين يتبعون الداعي . وقيل الضمير للشافعين ، وقال ابن جرير : يرجع الى الملائكة أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها ، والعموم أولى ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ أي بالله سبحانه لا تحيط علومهم بذاته ولا بصفاته ولا بمعلوماته .

وقيل الضمير راجع الى ما في الموضعين ، فإنهم لا يعلمون جميع ذلك ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ أي ذلت وخضعت . قاله ابن الأعرابي وعن ابن عباس وقتادة مثله . وقال مجاهد : خشعت . وقال أبو العالية : خضعت ، وعن ابن عباس قال : وعنت الوجوه: الركوع والسجود ، قال الزجاج : معنى عَنَتْ في اللغة خضعت ، يقال عنا يعنو عنواً اذا خضع وذل وأعناه غيره ؛ أي أذله ، ومنه قيل للأسير عانٍ والجمع عُناة ؛ وقيل هو من العناء بمعنى التعب، وذكر الوجوه وأراد بها أصحابها، وخص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يتبين وأول ما يظهر فيها ؛ ثم قسمها الى قسمين بقوله :

﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ أي خسر من حمل شيئاً من الظلم، وقيل هو الشرك، وبه قال ابن جريج وقتادة.

وقوله ﴿ ومن يعمل من ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ الطاعات ﴿ وهو ﴾

أي والحال أنه ﴿ مؤمن ﴾ بالله لأن العمل لا يقبل من غير إيمان، بل هو شرط في القبول ﴿ فلا يخاف ﴾ قرىء برفعه على النفي والاستئناف، أي فهو لا يخاف، وقرىء بجزمه على النهي ﴿ ظلماً ﴾ يصاب به من نقص ثواب في الآخرة ﴿ ولا هضماً ﴾ هو النقص والكسر، يقال هضمت لك من حقي أي حططته وتركته ونقصت منه، وهذا يهضم الطعام، أي ينقص ثقله، وامرأة هضيم الكشح أي ضامرة البطن. ومنه أيضاً طلعها هضيم أي دقيق متراكب كأن بعضه يظلم بعضاً فينقصه حقه، ورجل هضيم ومهتضم أي مظلوم، وهضمته واهتضمته وتهضمته كله بمعنى، قيل الظلم والهضم متقاربان، وفرق القاضي الماوردي بينهما فقال: الظلم منع جميع الحق، والهضم منع بعضه.

قال قتادة: ظلماً أن يزاد في سيئآته ولا هضماً أن ينقص من حسناته، وقيل هضماً أي غضباً، وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل عنه حسنة عملها ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الإنزال.

﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآن كله حال كونه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلغة العرب ليفهموه ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر نازلاً من عند خالق القوى والقدر، وإضمار القرآن من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزاً في العقول حاضراً في الأذهان ﴿ وصرفنا ﴾ أي وبينا ﴿ فيه ﴾ ضروباً ﴿ من الوعيد ﴾ تخويفاً وتهديداً وكررنا فيه بعضاً منه، والمراد الجنس ومن مزيدة على رأي الأخفش.

﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي كي يخافوا الله فيجتنبوا معاصيه ويحذروا عقابه ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ أي اعتباراً واتعاظاً بهلاك من تقدمهم من الأمم فيعتبرون، وقيل ورعاً، وقيل شرفاً وقيل طاعة وعبادة لأن الذكر يطلق عليها، وأضيف الذكر إلى القرآن ولم تضف التقوى إليه، لأن التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الأصلي فلم يحسن إسناده إلى القرآن، وأما حدوث الذكر فأمر يحدث بعد أن لم يكن فجازت إضافته اليه. قاله الكرخي.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ
وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ لما بين سبحانه للعباد عظيم نعمته عليهم بإنزال القرآن نزه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء ، أي جل الله عن إلحاد الملحدين وعما يقول المشركون والمعطلون في صفاته ، فإنه الْمَلِك الذي بيده الثواب والعقاب، نافذ أمره ونهيه وأنه الحق ، أي ذو الحق في ملكوته وألوهيته أو الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده، أو الثابت في ذاته وصفاته. وقيل إنما وصف نفسه بالْمَلِك الحق لأن ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به منه .

﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ أي بقراءته ﴿ من قبل أن يقضى ﴾ أي يتم ﴿ إليك وحيه ﴾ أي يفرغ جبريل من إبلاغه . قال المفسرون : كان النبي صلى الله عليه وسلم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً منه على ما ينزل عليه منه، فنهاه الله عن ذلك، ومثله قوله ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ على ما يأتي إن شاء الله تعالى .

وقيل المعنى ولا تُلْقِه الى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، وقرىء نقضي بالنون . قال ابن عباس : لا تعجل حتى نبينه لك . وقال قتادة : لا تَتْلُه على أحد حتى نتمه لك .

وعن الحسن قال : لطم رجل امرأته فجاءت الى النبي (ﷺ) تطلب قصاصاً فجعل للنبي صلى الله عليه وسلم القصاص ، فأنزل الله : ﴿ ولا تعجل بالقرآن ﴾ ، الآية فوقف النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ ، الآية. أخرجه القربان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ أي سَلْ في نفسك ربك زيادة العلم بكتابه وبمعانيه فإنه الموصل إلى مطلوبك دون الاستعجال فكلما أنزل عليه شيء منه زاد به علمه وما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم ، وفيه التواضع والشكر لله ، والتنبيه على عظم موقع العلم وفضله ، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدني علماً وإيماناً ويقيناً ذكره الخطيب وأقول . رب زدني علماً نافعاً وعملاً صالحاً وإيمانـاً كامـلاً ويقيناً تاماً وعاقبة محمودة .

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تصريف الوعيد أي لقد أمرناه ووصيناه ؛ والمعهود محذوف وهو ما سيأتي من نهيه عن الأكل من الشجرة ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هذا الزمان أو قبل أكله منها .

﴿ فنسي ﴾ المراد بالنسيان هنا ترك العمل بما وقع به العهد إليه فيه ، وبه قال أكثر المفسرين كما في قوله ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي تركناكم في العذاب فلا يشكل بوصفه بالعصيان غياً ، وقيل النسيان على حقيقته وأنه نسى ما عهد الله به اليه وسها عنه وكان آدم مأخوذاً بالنسيان في ذلك الوقت ، وان كان النسيان مرفوعاً عن هذه الأمة ، والمراد من الآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على القول الأول أي أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم ، وأن هؤلاء المعاصرين له إن نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم ، كذا قال ابن جرير والقشيري وما اعترضه ابن عطية قائلاً يكون آدم مماثلاً للكفار الجـاحدين بـالله ، فليس

بشيء ، وقرىء فُنُسِّيَ بضم النون وتشديد السين مكسورة أي فنساه إبليس.

قال ابن عباس : إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي أي لقد عهدنا إلى آدم أن لا يقرب الشجرة فنسي فترك عهدي ﴿ ولم نجد ﴾ من الوجدان بمعنى العلم أو من الوجود ضد العدم ﴿ له عزماً ﴾ أي حزماً وصبراً عما نهيناه عنه أو حفظاً قاله ابن عباس ، والعزم في اللغة توطين النفس على الفعل والتصميم عليه والمضي على المعتقد في أي شيء كان ، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر ، وقيل العزم : الصبر كما مر أي لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة .

قال النحاس : وهو كذلك في اللغة يقال : لفلان عزم أو صبر وثبات على التحفظ عن المعاصي حتى يسلم منها ، ومنه﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾،وقيل المعنى ولم نجد له عزماً على الذنب ، وبه قال ابن كيسان ، وقيل ولم نجد له رأياً معزوماً عليه ، وبه قال ابن قتيبة .

ثم شرع سبحانه في كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه فقال : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ أي اذكر ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة لأنه إذا وقع الأمر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازماً بطريق الأولى كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن لسر يعلمه الله وبعض خلقه .

﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ وهو أبو الجن كان يصحب الملائكة ويعبد الله معهم فالاستثناء منقطع ، وقيل متصل ، والأول أولى ﴿ أبى ﴾ أن يسجد لآدم وقال أنا خير منه ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا ﴾ يعني إبليس ﴿ عدو لك ولزوجك ﴾ أي حواء بالمد حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك،وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدواً له .

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة ﴾ أسند الخروج إليه وان كان الله تعالى هو

المخرج لأنه لما كان يوسوسه وفعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك ﴿ فتشقى ﴾ الشقاء الشدة والعسر ويمد ويقصر يقال : شَقِيَ كرَضي شقاوة ، والمعنى فتتعب في تحصيل ما لا بد منه في المعاش وتنصب ويكونَ عيشك من كدِّ يمينك بعرق جبينك وهو الحرث والزرع والطحن والخبز ولم يقل فتشقيا لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده أو أن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله كما أن في سعادته سعادتهم لأنه القيم عليهم أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لأن الرجل هو الساعي على زوجته ، ثم علل ما يوجبه ذلك النهي بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال :

﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾ المعنى إن لك فيها تمتعاً بأنواع المعاش وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية، فإنه لما نُفي عنه الجوع والعري أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له وهكذا قوله : ﴿وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ فإن نفي الظمأ يستلزم حصول الرِّيِّ ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحو يقال : ضحى الرجل يضحي ضحواً إذا برز للشمس فأصابه حرها وعن ابن عباس قال : لا يصيبك فيها عطش ولا حر إذ ليس فيها شمس وأهلها في ظل ممدود فذكر سبحانه ههنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش ، وتعب الكد في تحصيله .

ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا التي يدور عليها كفاية الإنسان هي تحصيل الشبع والري والكسوة والسكن وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها وهو إعلام من الله سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله وان ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا فيحل به التعب والنصب بما يدفع به الجوع والعري والظمأ والضحو فالمراد على هذا بالشقاء المتقدم شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لا شقاء الأخرى .

قال الفراء : هو أن يأكل من كد يديه ، قال الصفوي : قابل سبحانه وتعالى بين الجوع والعري والظمأ والضحو ؛ وان كان الجوع يقابل العطش ،

والعري يقابل الضحو ، لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن والضحو حر الظاهر ، فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن وحرهما ، ذكره ابن لقيمة .

قال أبو السعود : وفصل الظمأ من الجوع مع تجانسهما وتقارنهما في الذكر عادة وكذا حال العري والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه للإشارة إلى أن نفي كل واحد من تلك الأمور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال في الجمع بين العري والضحو ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفي كل واحد من هذه الأمورمقصود بالذات مذكور بالأصالة لا أن نفي بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لبعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع كل من المتجانسين انتهى .

﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ قد تقدم تفسيره وما بعده في الأعراف في قوله : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ أي ألقى اليه وسوسته ، وأما وسوس له فمعناه وسوس لأجله وقال أبو البقاء : عدي بإلى لأنه بمعنى أسر ، وعدي باللام في موضع آخر لكونه بمعنى ذكر له ويكون بمعنى لأجله .

﴿ قال يا آدم ﴾ بيان لصورة الوسوسة ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ هي الشجرة التي من أكل منها لم يمت أصلاً وبقي مخلداً .

أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، وهي شجرة الخلد»[1] ﴿ وملك لا يبلى ﴾ أي تصرف يدوم ولا يزول ولا ينقضي ولا يَبيد ولا يفنى وهو لازم الخلود .

(١) احمد بن حنبل ٢/٢٥٧ ـ ٤٠٤ ـ ٤١٨ ـ ٤٣٨ ـ ٤٥٢ ـ ٤٥٥ ـ ٣/١١٠ ـ ١٣٥ ـ ١٦٤ ـ ١٨٥ ـ ٢٠٧ ـ ٢٣٤ ـ مسلم ٢٨٢٦ .

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ
وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا
مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

﴿ فأكلا ﴾ أي آدم وحواء ﴿ منها ﴾ أي من الشجرة ﴿ فبدت لهما سوءآتهما ﴾ يعني عَريًا من الثياب التي كانت عليهما بسبب تساقط حلل الجنة عنهما ، لما أكلا من الشجرة حتى ظهر لكل واحد منهما قُبله وقُبل الآخر ودُبُره وسمي كلاً منهما سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه ويحزنه .

﴿ وطفقا ﴾ طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وهو ككاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً إلا أنه للشروع في أول الأمر وكاد للْمُدنِّو منه ، قال الفراء : معنى طفقا في العربية أقبلا، وقيل أخذا وجعلا ﴿ يخصفان ﴾ يلصقان ﴿ عليهما ﴾ ويلزقان لأجل سوءآتهما أي يسترهما ، فَعَلى تعليلية .

﴿ من ورق الجنة ﴾ أي من ورق التين بعضه ببعض حتى يصير طويلاً عريضاً يصلح للاستتار به ﴿ وعصى آدم ربه ﴾ أي خالف نهيه بالأكل من الشجرة فالعصيان هو المخالفة لكنه خالف بتأويل لأنه اعتقد أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً أو لأنه اعتقد أن النهي قد نسخ لما حلف له إبليس أو اعتقد أن النهي عن شجرة معينة وأن غيرها من بقية أفراد الجنس ليس منهياً عنه .

﴿ فغوى ﴾ أي فضلّ عن الصواب أو عن مطلوبه وهو الخلود بالأكل

من تلك الشجرة أي حاد عنه ولم يظفر به هذا هو الحق في تقرير هذا المقام، وقيل فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا، وقيل جهل موضع رشده، وقيل بشم[1] من كثرة الأكل، قال ابن قتيبة: أكل آدم من الشجرة التي نهى عنها باستزلال إبليس وخدعه إياه، والقسم له بالله إنه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور، ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدم ونية صحيحة، فنحن نقول عصى آدم ربه فغوى انتهى.

قال القاضي ابو بكر بن العربي: لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم. قلت لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله سبحانه في كتابه بأنه عصاه، وكما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، قال في المدارك: وفي التصريح بقوله: ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ والعدول عن قوله: وزل آدم، مزجرة عظيمة وموعظة بليغة للمكلفين كافة كأنه قيل له انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم زلته بهذه الغلطة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلاً عن الكبائر، ومما قال الشوكاني في هذا المعنى:

عصى أبو الْعَالَمَ وهو الذي ... من طينة صوره الله
وأسْجَدَ الأمْلَاكَ من أجْله ... وصيَّر الجنةَ مأواه
أغواه إبليسُ فمن ذا أنا الـ ... ـمسكينُ إنْ إبليسُ أغواه

وحديث محاجة آدم وموسى في الصحيحين عن أبي هريرة كما سيأتي، وفيه: أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، وقد أطال الرازي في بيان اختلاف الناس في عصمة الأنبياء في هذا المقام بما عنه غنى وفي تركه سعة وتبعه في ذلك الخازن في تفسيره فلا نطول الكلام بذكره.

﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي اصطفاه وقربه واختاره بالحمل على التوبة

---

(١) البشم: التخمة يقال بشمت من الطعام بالكسر أهـ صحاح.

والتوفيق لها من جَبَى إليّ كذا فاجتبيته ، وأصل الكلمة الجمع ، قال ابن فورك : كانت المعصية هذه من آدم قبل النبوة بدليل ما في هذه الآية فإنه ذكر الاجتباء والهداية بعد أن ذكر المعصية وإذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً ﴿ فتاب عليه ﴾ من معصيته وقبل توبته .

﴿ وهدى ﴾ أي هداه إلى الثبات والمداومة على التوبة ، فلم ينقضها أو إلى الاعتذار والاستغفار ، قيل وكانت توبة الله عليه قبل أن يتوب هو وحواء ، بقولها :﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾، وقد مر وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « حاج آدم موسى ، قال له : أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك . قال آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ، أو قدره عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فحج آدم موسى »[1] ﴿ قال اهبطا منها جميعاً ﴾ أي انزلا بما اشتملتها من ذريتكما من الجنة إلى الأرض والخطاب وإن كان مثنى في اللفظ لكنه في المعنى للجمع ليحصل التوفيق بين هذه الآية وآية الأعراف ، وهي قوله : قال اهبطوا ، وبالجملة خصهما الله سبحانه بالهبوط لأنهما أصل البشر .

ثم عمم الخطاب لهما ولذريتهما فقال : ﴿ بعضكم ﴾ بعض الذرية ﴿ لبعض عدو ﴾ من أجل ظلم بعضهم بعضاً ، والمعنى تَعَادِيهِم في أمر المعاش ونحوه فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام .

﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ فمن اتبع هداي ﴾ أي الكتاب والرسول ، وضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه ﴿ فلا يضل ﴾ في الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ في الآخرة أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن

(١) مسلم ٢٦٥٢ ـ البخاري ١٦٠٤ .

مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله يقول : فمن اتبع . الآية[1] » وعن ابن عباس قال : أجار الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية .

﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ أي الهدى الذاكر لي والداعي إليّ ، أو عن ديني وتلاوة كتابي والعمل بما فيه ، ولم يتبع هداي ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ أي عيشاً ضيقاً في هذه الحياة الدنيا ؛ يقال منزل ضنك وعيش ضنك أي ضيق ، في القاموس الضنك الضيق في كل شيء ، يقال ضَنُك ضَنْكاً وَضَنَاكة وضُنُوكة ضاق . وهو مصدر يستوي فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث ، وقرىء بضم الضاد على فعلي . ومعنى الآية أن الله عز وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش في الدنيا عيشاً هنيئاً غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه ، كما قال سبحانه ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ، ضيقاً ، وفي تعب ونصب ، ومع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب فهو في الآخرة أشد تعباً وأعظم ضيقاً وأكثر نصباً .

وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً معيشة ضنكاً ، قال : عذاب القبر . أخرجه البيهقي والحاكم وصححه ، ومسدد في مسنده ، ولفظ عبد الرزاق : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ولفظ ابن أبي حاتم قال : ضمة القبر ، وفي سنده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وقال ابن كثير : الموقوف أصح .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المعيشة الضنكى أن تسلط عليه تسع وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » وعنه مرفوعاً قال : عذاب القبر . أخرجه البيهقي والبزار وابن المنذر وغيرهم . قال ابن كثير بعد إخراجه بإسناد جيد عن ابن

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٣٣٥ .

مسعود مثله موقوفاً ، ومجموع ما ذكرنا هنا يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر . وعنه قال : بالشقاء . وقيل هو الزقوم والضريع والغسلين في النار . وقيل هو الحرام والكسب الخبيث ؛ والأول أولى .

وقال ابن جبير : يسلبه القناعة حتى لا يشبع ، وقيل الحياة في المعصية وان كان في رخاء ونعمة ، قاله الرازي . أو المراد بها عيشة في جهنم ، وبما تقرر علم أنه لا يرد أن يقال . نحن نرى المعرضين عن الإيمان في خصب معيشة .

﴿ ونحشره ﴾ أي المعرض عن القرآن ﴿ يوم القيامة أعمى ﴾ أي مسلوب البصر ، وهو كقوله : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً ﴾ قال النسفي : وهو الوجه ، وقيل المراد العمى عن الحجة ، وقيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إلى شيء منها .

وقال عكرمة : عمي عليه كل شيء إلا جهنم . وفي لفظ : لا يبصر إلا النار ﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ في الدنيا وعند البعث ﴿ قال كذلك ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت أو الأمر كذلك ، ثم فسره بقوله : ﴿ أتتك آياتنا فنسيتها ﴾ أي أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها ﴿ وكذلك اليوم ﴾ أي مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿ تنسى ﴾ أي تترك في العمى أو النار وقيل نُسُوا من الخير والبركة والرحمة ولم يُنْسَوْا من العذاب في النار .

قال الفراء : يقال إنه يخرج بصيراً من قبره فيعمى في حشره

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ
يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي
النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ
وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نجزي من أسرف ﴾ الإسراف الانهماك في الشهوات ، وقيل الشرك بالله ، قاله سفيان : ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ﴾ بل كذب بها ﴿ ولعذاب الآخرة أشد ﴾ أي أفظع من المعيشة الضنكى ﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم وأثبت لأنه لا ينقطع .

﴿ أفلم يهد لهم ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ وقرىء بالنون ، والمعنى على هذا واضح والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها ﴿ كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ قال القفال : جعل كثرة ما أهلك من القرون مبيناً لهم ، قال النحاس : وهذا خطأ لأن كم استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها .

وقال الزجاج : المعنى أفلم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكناه ، وحقيقته تدل على الهدى فالفاعل هو الهدى ، وقيل الفاعل ضمير الله أو الرسول أو القرآن، والجملة بعده تفسره .

ومعنى الآية على ما هو الظاهر : أفلم يتبين لأهل مكة خبر من أهلكنا قبلهم من القرون حال كون تلك القرون ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ ويتقلبون في ديارهم فيعتبروا بهذا الإهلاك فيرجعوا عن تكذيب الرسول أو حال كون هؤلاء يمشون في مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة ، وطلب المعيشة الى الشام وغيرها ، فيرون بلاد الأمم الماضية والقرون الخالية خاوية

خاربة من أصحاب الحجْر وثمود ، وقرى قوم لوط فإن ذلك مما يوجب اعتبارهم لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك .

﴿إن في ذلك لآيات ﴾ أي لعبراً ﴿ لأولي النُّهى ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية ، والإشارة الى مضمون كم أهلكنا ، والنهى جمع نهية وهي العقل ، أي بذوي العقول التي تنهى أربابها عن القبيح .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ أي الكلمة السابقة وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الأمة الى الدار الآخرة ﴿ لكان ﴾ عقاب ذنوبهم ﴿ لزاماً ﴾ أي لازماً لهم في الدنيا لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر ، كما لزم القرون الماضية واللزام مصدر لازم .

﴿ وأجل مسمى ﴾ معطوف على قوله ﴿ كلمة ﴾ وهو يوم القيامة أو يوم بدر ويجوز عطفه على الضمير المستتر في ﴿ كان ﴾ العائد إلى الأخذ المفهوم من السياق أي لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم ، كما كانا لازمين لعاد وثمود وفيه تعسف ظاهر .

قال ابن عباس : هذا من مقاديم الكلام ؛ يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً أي موتاً . وعن السدي نحوه ، وعن مجاهد قال : الأجل المسمى الكلمة التي سبقت .

ثم لما بين الله سبحانه أنه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ من أنك ساحر كذاب شاعر كاهن ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة ، والمعنى لا تحتفل بهم فإن لعذابهم وقتاً مضروباً بألا يتقدم ولا يتأخر ، وأنهم معذبون لا محالة فَتَسَلَّ واصبر . وقيل هذا منسوخ بآية القتال . وقيل إنها محكمة . قال الشهاب : الفاء سببية ، والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر عنهم لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة .

﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي متلبساً بحمده ، قال أكثر المفسرين : والمراد الصلوات الخمس كما يفيده قوله : ﴿ قبل طلوع الشمس ﴾ فإنه إشارة إلى

صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ فإنه إشارة إلى صلاة العصر . وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي عن عمارة بن رويبة سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها »[١] .

﴿ ومن آناء الليل ﴾ العتمة والمراد بالآناء الساعات ، وهي جمع إناء بالكسر والقصر وهو الساعة ، ومعنى ﴿ فسبح ﴾ فصلّ المغرب والعشاء ، والفاء إما عاطفة على مقدر ، أو واقعة في جواب شرط مقدر أو زائدة . قال ابن عباس : وهي الصلاة المكتوبة .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال : قال رسول الله (ﷺ) « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ، وقرأ هذه الآية[٢] .

﴿ وأطراف النهار ﴾ أي في طرفي نصفيه أي في الوقت الذي يجمع الطرفين وهو وقت الزوال فهو نهاية للنصف الأول وبداية للنصف الثاني ، والمراد صلاة الظهر لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول وأول طرف النهار الآخر . وقيل إن الإشارة إلى صلاة الظهر هي بقوله : ﴿ وقبل غروبها ﴾ لأنها هي وصلاة العصر قبل غروبها . وقيل المراد بالآية صلاة التطوع .

ولو قيل ليس في الآية إشارة الى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الأوقات أي قول القائل سبحان الله لم يكن ذلك بعيداً من الصواب ، والتسبيح وإن كان يطلق على الصلاة لكنه مجاز ، والحقيقة أولى إلا لقرينة تصرف ذلك الى المعنى المجازي ، وجمع الأطراف وهما طرفان لأمن الالتباس .

﴿ لعلك ترضى ﴾ أي سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضي به نفسك من الثواب ، هذا على قراءة الجمهور ، وقرىء تُرْضي بضم التاء أي يرضيك ربك وَتُعْطَى ما يرضيك .

---

(١) مسلم ٦٣٤ .

(٢) مسلم ٦٣٣ ـ البخاري ٣٥٨ .

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ
رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ
وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ
مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

﴿ ولا تمدن ﴾ أي لا تطل نظر ﴿ عينيك ﴾ بطريق الرغبة والميل ﴿ إلى ما متعنا به ﴾ أي لذذنا ، فالإمتاع والتمتيع معناه الإيقاع في اللذة ﴿ أزواجاً منهم ﴾ مدّ النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور اليه وإعجاباً به ، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه ، وذلك أن يبادر الشيء بالنظر ثم يغض الطرف ، ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في ملابسهم ومراكبهم ، حتى قال الحسن : « لا تنظروا إلى دقدقة[1] هماليج[2] الفسقة ، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب » وهذا لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ، فالناظر اليها محصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الحجر .

﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ أي زينتها وبهجتها بالنبات وغيره ، وقرىء زهرة بفتح الهاء وهي نور النبات ، وذكر السمين في نصبه تسعة أوجه . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله « ﷺ » قال : « إن أخوف ما أخاف عليك ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا ، قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : بركات الأرض » .

---

(١) الدقدقة حكاية أصوات حوافر الدواب مثل الطقطقة . إ هـ صحاح .
(٢) الهملاج من البراذين واحد الهماليج ومشيها الهملجة فارسي معرب إ هـ صحاح .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة ابتلاء منا لهم، كقوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ وقيل لنعذبهم في الآخرة ، وقيل لنشدد عليهم في التكليف ، وقيل أزيد لهم النعمة فيزيدوا بذلك كفراً وطغياناً ﴿ ورزق ربك ﴾ أي ثواب الله في الجنة وما ادخر لصالحي عباده في الآخرة ﴿ خير ﴾ مما رزقهم في الدنيا على كل حال ، وأيضاً فإن ذلك لا ينقطع وهذا ينقطع وهو معنى ﴿ وأبقى ﴾ وقيل المراد بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها ، والأول أولى لأن الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع إنما يتحققان في الرزق الأخروي لا الدنيوي وإن كان حلالاً طيباً ، قال تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ .

عن أبي رافع قال : أضاف النبي « ﷺ » ضيفاً ولم يكن عند النبي ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقاً إلى هلال رجب ، فقال : لا إلا برَهْن، فأتيت النبي « ﷺ » فأخبرته ، فقال : « أما والله إني لأمين في السماء أَمين في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لَأديت إليه ، اذهب بدرعي الحديد ، فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ، كأنه يعزيه عن الدنيا . أخرجه البزار وأبو يعلى وابن أبي شيبة وغيرهم[1] .

﴿ وأْمر أهلك ﴾ المراد بهم أهل بيته ، وقيل جميع أمته ولم يذكر ههنا الأمر من الله له ﴿ بالصلاة ﴾ بل قصر الأمر على أهله إما لكون إقامته لها أمراً معلوماً أو لكون أمره بها قد تقدم في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ الخ ، أو لكون أمره بالأمر لأهله أمراً له ؛ ولهذا قال : « واصطبر عليها » أي اصبر على محافظة الصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تشتغل عنها بشيء من أمور الدنيا .

وقيل اصبر عليها فعلاً ، فإن الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان

---

(١) صحيح الجامع الصغير ١٣٤٩ .

القول . أخرج ابن النجار وابن عساكر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيء إلى باب عليّ صلاة الغداة ثمانية أشهر يقول: « الصلاة رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وأخرج أحمد والبيهقي وغيرهما عن ثابت قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلوا صلوا » قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة .

وعن عبدالله بن سلام ، قال السيوطي : بسند صحيح قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وقرأ ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾ الآية : وكان عروة بن الزبير إذا رأى ما عند السلاطين قرأ هذه الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله ، وكان بكر بن عبدالله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا ، بهذا أمر الله رسوله ، وعن مالك بن دينار مثله .

﴿لا نسألك رزقاً ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك وتشتغل بذلك عن الصلاة ﴿ نحن نرزقك ﴾ ونرزقهم ﴿ والعاقبة ﴾ المحمودة وهي الجنة ﴿ للتقوى ﴾ أي لأهل التقوى على حذف المضاف ، كما قال الأخفش وفيه دليل على أن التقوى هي ملاك الأمر وعليها تدور دوائر الخير .

﴿ وقالوا ﴾ أي قال كفار مكة ﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ يأتينا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بآية من ﴾ آيات ﴿ ربه ﴾ كما كان يأتي بها مَنْ قَبْله من الأنبياء ؟ وذلك كالناقة والعصا أو المعنى هلا يأتينا بآية من الآيات التي قد اقترحناها عليه ؟ .

فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ يريد بها التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة وفيها التصريح بنبوته والتبشير به ، وذلك يكفي ، فإن هذه الكتب المنزلة هم

معترفون بصدقها وصحتها وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم ، وقيل المعنى أو لم يأتهم إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم .

وقيل :المراد أو لم تأتهم آية هي من الآيات وأعظمها في باب الإعجاز ؟ يعني القرآن فإنه برهان لما في سائر الكتب المنزلة ، قالوا : وعاطفة على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم تأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما في الصحف الأولى تقريراً لإتيانه وإيذاناً بأنه من الوضوح بحيث لا يأتي معه إنكار أصلاً .

قرىء أو لم يأتهم بالتحتية لأن معنى البينة البيان والبرهان .

﴿ ولو أنا أهلكناهم ﴾ مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها ﴿ بعذاب من قبله ﴾ أي من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أو من قبل إتيان البينة بنزول القرآن ﴿ لقالوا ﴾ يوم القيامة أي لكان لهم أن يحتجوا ويتعللوا بقولهم :

﴿ ربنا لولا ﴾ هلاّ ﴿ أرسلت إلينا رسولاً ﴾ في الدنيا ﴿ فنتبع آياتك ﴾ اللاتي يأتي بها الرسول ﴿ من قبل أن نذل ﴾ بالعذاب والهوان في الدنيا ﴿ ونخزى ﴾ بدخول النار ، وقرىء نُذَلّ وَنُخْزَى على البناء للمفعول وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بإرسال الرسول إليهم قبل إهلاكهم، ولهذا حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ .

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ كلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ متربص ﴾ أي منتظر لما يؤول اليه الأمر ﴿ فتربصوا ﴾ أنتم ﴿ فستعلمون ﴾ عن قريب ﴿ من أصحاب الصراط السوي ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ من الضلالة ، ونزع عن الغواية ، أنحن أم أنتم ؟ قال النحاس والفراء : نذهب الى أن معنى مَنْ أصحاب الصراط السوي من لم يضل ، ومعنى : من اهتدى من ضل ثم اهتدى ، ومن في الموضعين استفهامية أو موصولة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء

(مكية . قال القرطبي في قول الجميع ، وهي مائة وإحدى أو اثنتا عشرة آية)

وسميت بذلك لذكر قصص الأنبياء فيها وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال بنو اسرائيل والكهف ومريم والانبياء من العتاق الاول وهن من تلادي .

عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه الرجل فقال : اني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وادياً ما في ديار العرب واد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع اليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ، فقال عامر : لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا يريد هذه السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن
رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾
قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ
أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ يقال قرُب الشيء واقترب ، قال الزجاج المعنى : اقترب لهم وقت حسابهم أي القيامة ، كما في قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وتقديم ﴿ للناس ﴾ على الحساب لإدخال الروعة ، ومعنى اقتراب الحساب دُنوُّه منهم لأنه في كل ساعة أقرب اليهم من الساعة التي قبلها .

وقيل :لأن كل ما هو آت قريب وإنما البعيد ما انقرض ومضى ، وموت كل إنسان قيام ساعته ، والقيامة أيضاً قريبة بالإضافة الى ما مضى من الزمان فما بقي من الدنيا أقل مما مضى ، والمراد بالناس العموم ، وقيل المشركون مطلقاً ، وقيل: كفار مكة وعلى هذا الوجه قيل المراد بالحساب عذابهم يوم بدر .

﴿ وهم في غفلة ﴾ عن حسابهم وعما يفعل بهم في الدنيا ﴿ معرضون ﴾ عن الآخرة غير متأهبين لما يجب عليهم من الإيمان بالله والقيام بفرائضه والانزجار عن مناهيه ، أخرج النسائي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية « قال في الدنيا » وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أمر الدنيا » .

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ تعليل لما قبله ومن لابتداء الغاية أو زائدة ، وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثاً على أن لفظ القرآن

محدث ، لأن الذكر هنا هوالقـرآن،وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف لأنه متجدد في النزول ، ولا خلاف في حدوثها فالمعنى محدث تنزيله وإنما النزاع في الكلام النفسي .

وهذه المسألة أعني قدم القرآن وحدوثه قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي ، وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده ؛ والقصة أشهر من أن تذكر ، ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الامام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الاسلام الذهبي .

ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الاجابة الى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه صلى الله عليه وسلم عن الابتداع .

ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك الى الجزم بقدمه ، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث بل جاوزوا ذلك الى تكفير من قال لفظي بالقرآن مخلوق بل جاوزوا ذلك الى تكفيـر من وقف،وليتهم لم يجاوزوا حدّ الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام ولا نقل عنهم كلمة في ذلك فكان الامتناع من الإجابة الى ما دعوا اليه والتمسك بأذيال الوقف وإرجاع علم ذلك الى عالمـه هو الطريقة المثلى وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله والأمر لله سبحانه .

وقيل معنى الآية أن الله يحدث الأمر بعد الأمر فينزل الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور والوقائع وهذا القول كالأول ؛ وقيل الذكر المحدث ما قاله رسول الله (ﷺ) وبينه سوى ما في القرآن والأول أولى .

﴿ إلا استمعوه ﴾ من النبي (ﷺ) أو غيره ممن يتلوه استثناء مفرغ

﴿ وهم يلعبون ﴾ جملة حالية أي لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون ، والمعنى يستهزئون به ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ حال أيضاً وهما حالان مترادفان أو متداخلان قاله الزمخشري والمعنى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في حال الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلب .

﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة إثْرَ حكاية جناياتهم المعتادة ، والنجوى اسم من التناجي وهو لا يكون إلا سراً ، فمعناه المبالغة في الإخفاء بحيث لم يفهم أحد تناجيهم ومسارتهم تفصيلاً ولا إجمالاً وإنما قالوا ذلك سراً لأنهم كانوا في مبادي الشر والعناد وتمهيد مقدمات الكيد والفساد، وقد اختلف في محل الموصول على أقوال: قال أبو عبيدة : أسروا هنا من الأضداد أي بمعنى أخفوا كلامهم ؛ أو بمعنى أظهروه وأعلنوه .

﴿ هل هذا ﴾ بدل من النجوى مفسر لها أو مفعول لمضمر وهل بمعنى النفي أي قالوا ما هذا الرسول ﴿إلا بشر مثلكم ﴾ لا يتميز عنكم بشيء وما يأتي به سحر ﴿ أفتأتون السحر ﴾ أي اذا كان بشراً مثلكم ، وكان الذي جاء به سحراً فكيف تجيبونه اليه وتتبعونه .

﴿ وأنتم تبصرون ﴾ حال من فاعل تأتون مقرر لـلإنكار ومؤكد للاستيعاد وقالوا ما ذكر بناء على ما ثبت في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون الا ملكاً وأن كل ما يظهر على يد البشر يكون سحراً فأطلع الله سبحانه نبيه (ﷺ) على ما تناجوا به وأمره أن يجيب عليهم فقال :

﴿قـال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما وفي مصاحف أهل الكوفة ﴿ قال ربي ﴾ أي قال محمد : ربي يعلم فهو عالم بما تناجيتم به قيـل :الأولى أولى لأنهم أسروا هذا القول فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا ، قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة آيتين .

﴿ وهو السميع ﴾ لكل ما يسمع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم فيدخل في ذلك ما أسروا دخولاً أولياً ﴿ بل ﴾ للانتقال من غرض الى غرض آخر في المواضع الثلاثة وهي : ﴿بل قـالوا﴾ و﴿بل افتـراه﴾و﴿بل هوشاعر﴾ ، كما ذكره ابن مالك في شرح كافيته ، من أنها لا تقع في القرآن إلا على هذا الوجه وسبقه إليه صاحب الوسيط ووافقه ابن الحاجب وهو الحق .

﴿ قالوا ﴾ الذي يأتي به من القرآن ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط رآها في النوم . قاله الزجاج . وقال القتيبي : هي الرؤيا الكاذبة ، وقال اليزيدي : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . قال قتادة : أي دقل الأحلام إنما هي رؤيا رآها ، يعني أباطيل وأهاويل رآها في النوم .

﴿ بل افتراه ﴾ حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم أضغاث أحلام ، أي بل قالوا افتراه واختلقه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل . ثم حكى عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا : ﴿ بل هو شاعر ﴾ وما أتى به من جنس الشعر ، أي كلام يخيل للسامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها ، هذا هو المراد بالشعر هنا ، وفي هذا الإضـراب منهم والتلون والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ، أو كانوا قد علموا أنه حق وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان .

ثم بعد هذا كله قالوا : ﴿ فليأتنا بآية ﴾ وهذا جواب شرط محذوف ، أي إن لم يكن كما قلنا بل كان رسولاً من عند الله فليأتنا بآية إتياناً كائناً ﴿ كما أرسل الأولون ﴾ أي مثل ما أرسل موسى بالعصا وغيرها ، وصالح بالناقة ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحونه لأعطاهم ذلك كما قال ،﴿ولـوعلم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾. قال الزجاج : اقترحوا الآيات التي لا يقع معها إمهال فقال الله مجيباً لهم :

مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا
رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ
جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ
فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ
ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾

﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ أي قبل مشركي مكة ﴿ من ﴾ أهل ﴿ قرية أهلكناها ﴾ أي أهلكنا أهلها بتكذيبهم، أو أهلكناها بإهلاك أهلها ، وفيه بيان أن سنة الله في الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ومن مزيدة للتوكيد ، والمعنى ما آمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ؛ فكيف نعطيهم ما اقترحوا وهم أسوة من قبلهم .

﴿ أفهم يؤمنون ﴾ الهمزة للتقريع والتوبيخ ، والمعنى إن لم تؤمن أمة من الأمم الْمُهْلَكة عند إعطاء ما اقترحوا فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا قال قتادة : قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وسلم : إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن نُؤمن فحوّل لنا الصفا ذهباً ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي سألك قومك ولكنه إن كان ثُمَّ لم يؤمنوا لم يُنْظَروا ، وإن شئت استأنيت بقومك قال : « بل أَسْتَأْنِي بقومي » ، فأنزل الله ﴿ ما آمنت قبلهم ﴾ الآية .

ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ بقوله : ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي لم نرسل ﴿ قبلك ﴾ الى الأمم السالفة «إلا رجالاً » من البشر مخصوصين من أفراد جنسك متأهلين للاصطفاء والإرسال، ولم نرسل اليهم ملائكة ، كما قال سبحانه : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ .

﴿ نوحي اليهم ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإرسال أو صفة ﴿ رجالاً ﴾ أي متصفين بصفة الإيحاء اليهم ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ؛ ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال :

﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ هم أهل الكتابين اليهود والنصارى ﴿إن كنتم لا تعلمون ﴾ أن رسل الله من البشر فإنهم لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه وإن أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وتقدير الكلام إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر ، وتوجيه الخطاب الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة التكبر ، وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة ، لا عن الرأي البحت ، وليس التقليد الا قبول قول الغير دون حجته ، والمقلد اذا سأل أهل الذكر عن كتاب الله وسنة رسوله لم يكن مقلداً . قال الرازي ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر اهل القرآن وهو بعيد لأنهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم . فأما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في أن للعاميّ أن يرجع الى فتيا العلماء ، وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لأن هذه الآية خطاب مشافهة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين أ هـ .

وقد قدمنا في سورة النحل أن سياق هذه الآية الكريمة يفيد أن المراد بها السؤال الخاص ، وبه يظهر لك أن هذه الآية دليل الاتباع لا دليل التقليد فارجع اليه . وقد أوضح الشوكاني هذا في رسائل بسيطة ، منها (القول المفيد في حكم التقليد) ، (وأدب الطلب ومنتهى الأرب) وغيره في غيرها . ثم لما فرغ سبحانه عن الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال :

﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي أن الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الإنسان والجنة والملائكة .

قال الزجاج : هو واحد ينبىء عن جماعة ، أي وما جعلناهم ذوي

أجساد غير طاعمين ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر في الدنيا ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا .

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي أوحينا إليهم ما أوحينا ، ثم أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم ، ولذا قال سبحانه : ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ من عبادنا المؤمنين الذين صدقوهم ، والمراد إنجاؤهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوي .

﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المجاوزين للحد في الكفر والمعاصي وهم المشركون ﴿ ولقد أنزلنا إليكم ﴾ يا معشر قريش ﴿ كتاباً ﴾ عظيم الشأن نير البرهان ، يعني القرآن ﴿ فيه ذكركم ﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق أحقية القرآن الذي ذكر في صدر السورة إعراضهم عما يأتيهم منه ، والمراد بالذكر هنا الشرف ، أي فيه شرفكم ، قاله ابن عباس ، كقوله : وانه لذكر لك ولقومك ، أي فيه ما يوجب الثناء عليكم لكونه بلسانكم نازلاً بين أظهركم على لسان رسول منكم ، واشتهاره سبب لاشتهاركم ، وجعل ذلك فيه مبالغة في سببيته له .

وقيل أي ذكر أمر دينكم وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب ، وقيل فيه حديثكم ، قاله مجاهد والحسن .

وقيل مكارم أخلاقكم وقيل صيتكم ، وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا ، فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد ، وقيل فيه موعظتكم ، قال ابو السعود : وهو الأنسب بسياق النظم الكريم ومساقه فإن قوله :

﴿ أفلا تعقلون ﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة ، والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ، أي ألا تتفكرون فلا تعقلون ان الأمر كذلك ، أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر ؟ ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة فقال :

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ
أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾
بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ ﴿ كم ﴾ هي الخبرية المفيدة للتكثير والقصم كسر الشيء ودقه ، يقال قصمت ظهر فلان إذا كسرته ، واقتصمتْ سنُّه إذا انكسرت ، والمعنى هنا الإهلاك والعذاب .

وأما الفصم بالفاء فهو الصدع في الشيء من غير بينونة ، أي وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين ، أي كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر في موضع الإيمان .

قال ابن عباس : بعث الله نبياً من حمير يقال له شعيب ، فوثب اليه عبد فضربه بعصا ، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء ، وفيهم أنزل الله : ﴿ وكم قصمنا ـ الى قوله ـ خامدين ﴾ .

وعن الكلبي في الآية قال : هي « حضور » بني أزد باليمن ، فيكون التكثير باعتبار أفراد تلك القرية .

﴿ وأنشأنا بعدها ﴾ أي أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها ﴿ قوماً آخرين ﴾ ليسوا منهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي أدركوا وشعروا ورأوا عذابنا

بحاسة البصر وقال الأخفش : خافوا وتوقعوا . والبأس العذاب الشديد .

﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يسرعون هاربين ويهربون مسرعين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب،أو من بأسنا لأنه في معنى النقمة والبأساء ، فأنث الضمير حملاً على المعنى ، ومن على الأول لابتداء الغاية وللتعليل على الثاني ، والركض الفرار والهرب والانهزام ، وأصله من ركض الرجل الدابة برجليه ، يقال رَكَضَ الْفَرَس إذا كَدَّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل : ركض الفرس إذا عَدَا ، ومنه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ والمعنى أنهم يهربون منها راكضين دوابهم ، فقيل لهم .

﴿ لا تركضوا ﴾ أي لا تهربوا ، قيل إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم وقيل: إن القائل لهم ذلك من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم ﴾ يعني ما تنعمتم ﴿ فيه ﴾ من الدنيا ولين العيش ، يعني إلى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم ، والمترف المنعم ، يقال أترف فلان أي وسع عليه في معاشه ، وقل فيه همه .

وقال سعيد بن جبير : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم ﴿ ومساكنكم ﴾ التي تسكنونها وتفتخرون بها ﴿ لعلكم تسألون ﴾ أي تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم .

وقيل: المعنى لعلكم تسألون عما نزل بكم وجرى عليكم من العقوبة فتخبرون السائل عن علم ومشاهدة . وقيل:لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسئلون ذلك قبل نزول العذاب بكم ، أو تسئلون شيئاً من دنياكم على العادة فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم ، فإنكم أهل نعمة وثروة ؛ وهذا كله توبيخ وتهكم بهم وقيل غير ذلك .

قال المفسرون وأهل الأخبار : إن المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن وكان أهلها عرباً ، وكان الله سبحانه قد بعث اليهم نبياً اسمه شعيب بن مهدم . وقبره بجبل من جبال اليمن يقال له صنين ، وبينه وبين حضور نحو

بريد ، قالوا وليس هو شعيباً صاحب مدين (قلت) وآثار القبر بجبل صنين موجودة ، والعامة من اهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم ، فلما كذبوه وقتلوه اتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف ونادى مناد من جو السماء يا لثارات الأنبياء ، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم .

و ﴿قالوا﴾ لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يا هلاكنا ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدمنا ، فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم .

﴿ فما زالت تلك ﴾ أي هذه الجملة والكلمة ﴿ دعواهم ﴾ هي قولهم يا ويلنا أي يدعون بها ويرددونها ﴿ حتى جعلناهم حصيداً ﴾ بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود .

ومعنى ﴿ خامدين ﴾ أنهم ميتون من خمدت النار وهمدت إذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات قد طفىء ، والخمود عبارة عن سكون لهبها مع بقاء الحر ، والهمود عبارة عن ذهابها بالكلية حتى تصير رماداً ، فالأحسن أن يكون المراد بالخمود هنا الهمود فإنه أبلغ معنى ، والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصاد والخمود ، كقولك جعلته حلواً حامضاً ؛ أي جعلته جامعاً للطعمين . قال مجاهد : بالسيف ضرب الملائكة وُجُوهَهم حتى رجعوا إلى مساكنهم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال : حدثني رجل من الجزريين قال : كان باليمن قريتان يقال لإحداهما حضور وللأخرى قلابة ، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم فلما أترفوا بعث الله اليهم نبياً فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله في قلب بختنصر أن يغزوهم ؛ فجهز لهم جيشاً فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين ؛ فجهز اليهم جيشاً آخر أكثف من الأول فهزموهم أيضاً ، فلما رأى بختنصر غزاهم هو بنفسه ، فقاتلهم حتى خرجوا منها يركضون ؛ فسمعوا منادياً يقول : لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيا

ومساكنكم ، فرجعوا فسمعوا صوت مناد يقول : يا لثارات النبي فقتلوا بالسيف ، فهي التي قال الله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ـ الى قوله ـ خامدين ﴾ .

قلت : وقرى حضور معروفه الآن ، بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد في جهة الغرب منها .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أي لم نخلقهما عبثاً ولا باطلاً بل للتنبيه على أن لهما خالقاً قادراً يجب امتثال أمره ، واللعب هو محط النفي وفيه إشارة إجمالية الى تكوين العالم ؛ والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها ، والمعنى ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو ، وإنما سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وليستدل بها على قدرة مدبرها ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقتضيه حكمتنا ، واللعبُ فِعْلٌ يروقُ أَوّلُهُ وَلا ثَباتَ له .

ثم نزه ذاته عن سمات النقص فقال : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ اللهو ما يتلهى به ، تقول أهل نجد لهوت عنه ألهو لهياً ، والأصل لُهُوِي من باب قعد على فعول وأهل العالية لَهيت عنه أَلْهَى من باب تعب ومعناه السلوان والترك ، ولهوت به لهواً من باب قتل أولعت به وتلهيت به أيضاً ، قال الطرطوشي : وأصل اللهو ؛ الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة وألهاني الشيء بالألف شغلني .

قيل : اللهو هنا الزوجة والولد ، وقيل : الزوجة فقط ، وقيل : الولد فقط ، قال الجوهري : قد يكنى باللهو عن الجماع ومنه قول الشاعر :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها ، وجواب لو قوله : ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ أي من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم ويستثنى نقيض التالي

لينتج نقيض المقدم .

قال المفسرون : أي من الولدان أو الحور العين أو الملائكة، وفي هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد الى الله ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وقيل :أراد الرد على من قال . الأصنام أو الملائكة بنات الله ؛ وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى .

﴿ ان كنا فاعلين ﴾ قال الفراء والمبرد والزجاج : ويجوز أن تكون ﴿إن﴾ للنفي كما ذكره المفسرون أي ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولداً ويجوز أن تكون للشرط أي إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا ، قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية .

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو أي دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل بل شأننا أن نرمي بالحق على الباطل وبالإيمان على الكفر ، وقيل الحق قول لا إلّه إلا الله ، وانه لا ولد له ، والباطل قولهم : اتخذ الله ولداً .

﴿ فيدمغه ﴾ أي يقهره ويهلكه وأصل الدمغ شق الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة ، قال الزجاج : المعنى نذهبه ذهاب الصغار والإذلال؛ وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب قيل : أراد بالحق الحجة وبالباطل الشبهة وقيل : الحق المواعظ والباطل المعاصي ، وقيل الباطل الشيطان ، وقيل بكذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته .

﴿ فإذا هو زاهق ﴾ أي زائل ذاهب ، وقيل هالك تالف ، والمعنى متقارب ﴿ وإذا ﴾ هي الفجائية ﴿ ولكم الويل ﴾ يا معشر الكفار ﴿ مما تصفون ﴾ أي لكم العذاب في الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه من الصاحبة والولد ، وقيل : الويل واد في جهنم ، وهو وعيد لقريش ؛ بأن لهم من العذاب مثل الذي لأولئك و ﴿ من ﴾ هي التعليلية وهذا وجه وجيه و ﴿ ما ﴾ مصدرية أو موصولة أو نكرة موصوفة .

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا
يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ
ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ
هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم
مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ عبيداً ومِلْكاً، وهو خالقهم ورازقهم ومالكُهم والمنعم عليهم بأصناف النعم ، فكيف يجوز أن يكون بعض مخلوقاته شريكاً له يُعْبَد كما يُعْبد، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ ومن عنده ﴾ يعني الملائكة، وفيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفي التعبير عنهم بكونهم عنده إثْرَ ما عبر عنهم بمن في السموات إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم وأنهم عنده بمنزلة المقربين عند الملوك :

قال أبو السعود : بطريق التمثيل وأقول أنا بل بطريق التحقيق كما هو ظاهر النظم القرآني ، ثم وصفهم بقوله : ﴿لا يستكبرون ﴾ أي لا يتعاظمون ولا يأنفون ﴿ عن عبادته ﴾ سبحانه والتذلل له .

﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يعيون ولا يتعبون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب يقال حسر البعير يحسر حسوراً أعيى وكَلَّ واستحسر ؛ وتحسر مثله وحسرته انا حسراً يتعدى ولا يتعدى ، قال أبو زيد : لا يَكِلُّون ، وقال ابن الأعرابي : لا يفشلون ، وقال ابن عباس : لا يرجعون ، قال الزجاج : معنى الآية أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها ، كقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ وقيل: المعنى لا ينقطعون عن عبادته وهذه المعاني متقاربة .

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أي ينزهون الله سبحانه دائماً لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون ، وقيل يصلون الليل والنهار ، قال الزجاج : مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء فكذلك تسبيحهم دائم أي ضروري فيهم سجية وطبيعة ، وهذه الجملة إما مستأنفة وقعت جواباً عما نشأ مما قبله أو حالية .

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض ﴾ قال المفضل مقصود هذا الاستفهام الجحد أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء والإيجاد من العدم ،وأم هي المنقطعة والهمزة لإنكار الوقوع .

قال المبرد : إن أم هنا بمعنى هل. أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى ؟ ولا يكون ﴿أم ﴾ هنا بمعنى بل لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن يقدر أم مع الاستفهام فتكون أم المنقطعة فيصح المعنى .

﴿ هم ينشرون ﴾ أي يبعثون الموتى ، والجملة مستأنفة أو صفة لآلهة وهذه الجملة هي التي يدور عليها الإنكار،والتجهيل لا نفس الاتخاذ فإنه واقع منهم لا محالة ، والمعنى بل اتخذوا آلهة من الأرض لهم خاصة مع حقارتهم وينشرون الموتى وليس الأمر كذلك فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك وقرىء ينشرون من أنشره أي أحياه ، وقرىء بفتح الياء أي يَحْيَوْن ولا يموتون ثم إن الله سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدد الآلهة فقال :

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴾ أي لو كان في السموات والأرض آلهة معبودون غير الله ، والجمع ليس قيداً وإنما عبر به مشاكلة لقوله ﴿ أم اتخذوا آلهة ﴾ وكذلك قوله فيهما ليس قيداً وإنما عبر به لأن هذا دليل إقناعي بحسب ما يفهمه المخاطب وبحسب ما فرط منهم ، وهم إنما اتخذوا آلهة في الأرض والسماء لا فيها وراءهما كالملائكة الحافين من حول العرش ، قاله الحفناوي، والصحيح : أن الآية حجة قطعية الدلالة والقول بأنها حجة إقناعية قول منكر بشع أي إنكار وإبشاع .

﴿ لفسدتا ﴾ أي لبطلتا يعني : السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات ، وخرجتا عن نظامهما المشاهد وهلك من فيهما لوجود التمانع من الآلهة على العادة عند تعدد الحاكم من التمانع في الشيء وعدم الاتفاق عليه لأن كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام،ويدل العقل على ذلك ، وذلك أنا لو قدرنا إلٰهين لكان أحدهما إذا انفرد صح منه تحريك الجسم واذا انفرد الثاني صح منه تسكينه فإذا اجتمعا وجب أن يبقيا على ما كانا عليه حال الانفراد ، فعند الاجتماع يصح أن يحاول احدهما التحريك ، والآخر التسكين ، فإما أن يحصل المراد وهو محال وإما أن يمتنعا وهو أيضاً محال لأنه يكون كل واحد منهما عاجزاً فثبت أن القول بوجود إلٰهين يوجب الفساد فكان القول به باطلاً ، قاله الكرخي .

أقول الأدلة القرآنية والحجج الفرقانية الدالة على توحيد الله تعالى تغني عن البراهين الكلامية والمسائل العقلية الفلسفية في هذا المرام ، وليس وراء بيان الله بيان ودونه خرط القتاد .

قال الرازي : القول بوجود إلٰهين يفضي الى المحال ثم ذكر دلائل ذلك وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد،والفساد لازم على كل التقديرات التي قدروها،واذا وقفْتَ على هذه عرفت أن جميع ما في العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى .

وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة في القرآن وكل من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والأرض آلهة يقول بإلٰهيتها عبدة الأصنام لزم فساد العالم ، لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فلزم إفساد العالم ، قالوا : وهذا أولى ؛ لأنه تعالى حكى عنهم في قوله : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به .

قال عليّ القاري: وأما قول التفتازاني : الآية حجة إقناعية فالمحققون

كالغزالي وابن الهمام ، ما قنعوا بالإقناعية بل جعلوها من الحقائق القطعية ، بل قيل يكفر قائلها . انتهى .

قال الكسائي وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة إن ﴿إلا﴾ هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة للآلهة ، ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها ، وظهر فيه إعراب غير التي جاءت الا بمعناها ، وقال الفراء : ان ﴿إلا﴾ هنا بمعنى سوى ، ووجه الفساد أن كون إلّه آخر مع الله يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف ؛ فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ، ويحدث بسببه الفساد .

﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أي تنزه عز وجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له وفي إرشاد للعباد أن ينزهوا الرب سبحانه عما لا يليق به ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره من إعزاز وإذلال وإسعاد وإشقاء لأنه الرب المالك للأعناق.

﴿ وهم ﴾ أي العباد ﴿ يسألون ﴾ عما يفعلون سؤال توبيخ وتقريع يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا وكذا ، لأنهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم ، والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشيء فعله لم فعلته ؟.

وقيل: إن المعنى أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون ، قيل والمراد بذلك أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح لأن يكون إلّهاً، قال ابن عباس : ما في الأرض قوم أبغض إليّ من القدرية وما ذاك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله ، قال الله ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ أم بمعنى بل وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق الى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم

بطلب البرهان منهم ولهذا قال : ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على دعوى أنها آلهة أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ولا سبيل لهم الى شيء من ذلك لا من عقل ولا نقل لأن دليل العقل قد مر بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار اليه بقوله : ﴿ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ، ذكر أمتي وذكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم .

وقيل المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبلي ، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه ؟ .

قال الزجاج : قيل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهاً غير الله ، فهل في ذكر من قبلي الا توحيد الله ، وفيه تبكيت لهم متضمن لإثبات نقيض مدعاهم .

وقيل معنى الكلام الوعيد والتهديد ؛ أي افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وقرىء ذكرٌ مِن مَعي بالتنوين وكسر الميم ، أي هذا ذكر مما أنزل إليّ ومما هو معي وذكرٌ مِنْ قبلي ، قاله الزجاج . وقيل ذكر كائن من قبلي ، أي جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلي .

ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ وهذا إضراب من جهة الله سبحانه غير داخل في الكلام الملقن وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان الى بيان أنه لا تؤثر فيهم المحاجة وإقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل ، وقرىء الحق بالرفع على معنى هذا الحق أو هو الحق .

﴿ فهم معرضون ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون . أي فهم لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم معرضون عن قبول الحق وعن النظر الموصل إليه، مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ولا يتدبرون في برهان ولا يتفكرون في دليل .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾
وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ
بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ
إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه﴾ استئناف مقرر لما أجمل قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الآلهية وأجمعت عليه الرسل ، وقرىء نوحي بالنون وبالياء ﴿ أنه لا إلّه إلا أنا ﴾ وفي هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدم من قوله : هذا ذكر من معي .

وختم الآية بالأمر لعباده فقال : ﴿ فاعبدون ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل ودليل النقل ، وقامت عليكم حجة الله .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح ، فإنهم قالوا الملائكة بنات الله ، وقيل: هم اليهود ، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولداً . وقد قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . وقالت طائفة من العرب: الملائكة بنات الله ، ثم نزه الله سبحانه عز وجل نفسه فقال :

﴿ سبحانه ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك ، وهو يقول على ألسنة العباد ؛ ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ قرىء من الإكرام والتكريم ؛ أي ليسوا كما قالوا ، بل عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم مقربون عنده ، والعبودية تنافي الولادة بحسب المعتاد الذي لا يتخلف عند

العرب من كون عبد الانسان لا يكون ولده ، أو بحسب قواعد الشرع من أن الانسان إذ ملك ولده عتق عليه ، والأول في تقرير المنافاة أظهر إذ الكلام مع جهال العرب وهم لا يعرفون قواعد الشرع .

قال قتادة : قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة ، فقال الله تكذيباً لهم : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة أكرمهم بعبادته واصطفاهم ووصفهم بصفات سبعة ؛ الأولى هذه والأخيرة . ومن يقل منهم . فهذه الضمائر كلها للملائكة .

﴿ لا يسبقونه بالقول ﴾ وصفهم بصفة أخرى ، أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله أو يأمرهم به ، كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ أي هم القائمون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم فلا يخالفونه قولاً ولا عملاً .

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما عملوا وما هم عاملون . وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم ، أو يعلم ما بين أيديهم . وهو الآخرة وما خلفهم ، وهو الدنيا ، والجملة تعليل لما قبلها ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدموا وأخروا لم يعملوا عملاً ولا يقولوا قولاً إلا بأمره .

﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ أن يشفع الشافعون له وهو ممن رضى عنه وقيل: هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت في الصحيح . أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة[1] ، قال قتادة : لأهل التوحيد ، وعن مجاهد نحوه ،

---

(١) وردت احاديث كثيرة فيها شفاعة الملائكة منها : البخاري كتاب التوحيد باب ٢٤ ـ الإمام احمد ٤٣/٥ .

وعن الحسن : لمن قال لا إلّه إلا الله ، وقال ابن عباس : الذين ارتضاهم بشهادة أن لا إلّه إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن جابر أن رسول الله (ﷺ) تلا هذه الآية وقال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[1] .

﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ أي من خشيتهم منه، والخشية الخوف مع التعظيم ولهذا خص به العلماء ؛ والإشفاق : الخوف مع التوقع والاعتناء والحذر فإن عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإن عدي بعلى فبالعكس أي لا يأمنون مكر الله ، بل هم خائفون وَجِلُون.

﴿ ومن يقل منهم ﴾ أي من الملائكة على سبيل الفرض، لتحقق عصمتهم ﴿إني الّه من دونه ﴾ قال المفسرون : عني بهذا إبليس لأنه لم يقل أحد من الملائكة إني إلّه إلا إبليس، وذلك على سبيل التسمح ، والتجوز اذ هو معترف بالعبودية وآيس من رحمة الله وكونه من الملائكة باعتبار أنه كان مغموراً فيهم وقيل الضمير للخلائق مطلقاً ، وقيل الإشارة إلى جميع الأنبياء .

﴿ فذلك ﴾ القائل على سبيل الفرض والتقدير ﴿ نجزيه جهنم ﴾ بسبب هذا القول الذي قاله ، كما نجزي غيره من المجرمين ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نجزي الظالمين ﴾ أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الإلّهية والعبادة في غير موضعها ، والمراد بالظالمين المشركون .

---

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/ ٦٩

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ
ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ
وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ
وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى
فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ أو لم ير الذين كفروا ﴾ الهمزة للإنكار بواو، وتركها قراءتان سبعيتان والواو للعطف على مقدر، والرؤية هي القلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا، وحاصل ما ذكر من هنا إلى يسبحون ستة أدلة على التوحيد، وهذا تجهيل لهم بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية وكون جميع ما سواه مقهوراً تحت ملكوته .

﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ قال الأخفش : انما قال كانتا دون كنّ لأنهما صنفان أي جماعتا السموات والأرض ، وبه قال الزمخشري .

وقال أبو البقاء : الضمير يعود على الجنسين ، وقال الحوفي : أراد الصنفين كما قال سبحانه ؛ ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ ، وقال الزجاج : إنما قال كانتا لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد لأنها كانت سماء واحدة وكذلك الأرضون. والرَّتْقُ السد ضد الفتق ، يقال رتقت الفتق أرتقُه فارتتق أي التأم ، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ، يعني أنهما كانا شيئاً واحداً ملتزقين ملتصقين .

وقال : رتقاً ولم يقل رتقين لأنه مصدر والتقدير كانتا ذواتي رتق ، وقيل مرتوقتين مسرودتين .

قال البيضاوي : والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً ،فإن الفتق عارض مفتقر إلى مؤثر واجب ابتداء أو بواسطة أو استفساراً من العلماء ومطالعة الكتب انتهى ، ومنعه الكازروني، وقال فيه نظر وتمكنهم هذا ممنوع ، ويجوز أن يكونا مخلوقين منفصلين ؛ بلا رتق وفتق ؛ فإن استدل عليهما بأن القرآن نص عليهما فنقول هذا كاف في إثباتهما ولا حاجة إلى الدليل العقلي المذكور .

﴿ ففتقناهما ﴾ أي ففصلناهما أي فصلنا بعضهما من بعض بالهواء فرفعنا السماء وأبقينا الأرض مكانها ، والفتق الفصل بين الشيئين وهو من أحسن البديع هنا حيث قابل الرتق بالفتق قيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله وجعلها سبع سموات،وكذلك الأرض كانت طبقة واحدة فجعلها سبع أرضين.وعن ابن عباس قال : فتقت السماء بالغيث وفتقت الأرض بالنبات .

وقد أطال الكلام القرطبي في ذلك ، ولقل عن كعب الأخبار وغيره أحوال خلق الأرض العليا والسفلى ؛ ولا يصار إليهما إلا أن يصح من ذلك شيء من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وجعلنا من الماء ﴾ أي خلقنا وأحيينا أو صيرنا بالماء الذي ننزله من السماء وينبع من الأرض .

﴿ كل شيء حي ﴾ فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى أن الماء سبب حياة كل شيء ، وقيل: المراد بالماء هنا نطفة الرجل وبه قال أبو العالية وأكثر المفسرين وخرج هذا اللفظ مخرج الأغلب والأكثر وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه ، وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية .

﴿أفلا يؤمنون ﴾ الهمزة للإنكار عليهم حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت جمع راسية من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ ،يقال جبال راسية وراسيات ورواس

﴿ أن تميد بهم ﴾ الميد : التحرك والدوران أي لئلا تتحرك وتدور بهم أو كراهة ذلك ، وقد تقدم تفسير ذلك في النحل مستوفى .

﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الرواسي أو في الأرض وهو الظاهر ﴿ فجاجاً ﴾ طرقاً واسعة ، قال أبو عبيدة : هي المسالك ، وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج و ﴿ سبلاً ﴾ تفسير للفجاج ، لأن الفج قد لا يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ الى مصالح معاشهم ومقاصدهم في الأسفار، وما تدعو اليه حاجاتهم ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ عن أن يقع ويسقط على الأرض ، كقوله : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ .

وقال الفـراء : محفوظاً بالنجوم من الشيطان كقوله : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ ، وقيل محفوظاً لا يحتاج إلى عماد ، وقيل المراد بالمحفوظ هنا المرفوع ، وقيل محفوظاً عن الشرك والمعاصي ، وقيل عن الهدم والنقض ، وقيل عن الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم .

﴿ وهم عن آياتها ﴾ أي الآيات الكائنة فيها الدالة على وجود الصانع ووحدته وتناهي قدرته وكمال حكمته وأضاف الآيات الى السماء لأنها مجعولة فيها وذلك كالشمس والقمر والنجوم ، وكيفية حركاتها في أفلاكهـا ومطالعها ومغاربها ﴿ معرضون ﴾ أي لا يعتبرون بها فيها ولا يتفكرون فيما توجبه من الايمان .

﴿ وهو الذي خلق ﴾ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم الله به عليهم وذلك بأنه خلق لهم ﴿ الليل ﴾ ليسكنوا فيه ﴿ والنهار ﴾ ليتصرفوا فيه في معايشهم ﴿ و ﴾ جعل ﴿ الشمس ﴾ آية النهار ﴿ والقمر ﴾ آية الليل ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه في ﴿سبحان﴾ .

﴿ كل في فلك ﴾ أي مستدير كـالـطاحـونـة في السـماء ﴿يسبحـون﴾

في دوران أي يجرون قاله ابن عباس يعني كل واحد من الشمس والقمر والنجوم في وسط الفلك يسيرون بسرعة كالسابح في الماء.

قال ابن عباس : فلك كفلكة المغزل يدورون في أبواب السماء ، كما تدور الفلكة في المغزل ، وعنه قال : هو فلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب ، وكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه ، والجمع في الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : إنه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن في الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهن ضمير العقلاء ، ولم يقل يسبحن أو تسبح ، وكذا قال الفراء ، وقال الكسائي : إنما قال يسبحون لأنه رأس الآية والفلك واحد أفلاك النجوم وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلك المغزل لاستدارتها، والفلك مدار النجوم الذي يضمها وهو في كلام العرب كل شيء مستدير ، وقيل الفلك استدارة السماء ، وقيل الفلك ماء أو موج مكفوف دون السماء تجري فيه الكواكب .

وقال أهل الهيئة : الأفلاك أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول ، وفي الرازي : الفلك في كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك ، واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم : الفلك ليس بجسم ، وإنما هو استدارة هذه النجوم .

وقال الأكثرون : الأفلاك أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، واختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فإنه إما أن يكون الفلك ساكناً ، والكواكب تتحرك فيه ، كحركة السمك في الماء الراكد ، وإما أن يكون الفلك متحركاً والكواكب أيضاً إما مخالفة لجهة حركته أو موافقة لجهتها إما بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة، وإما أن يكون الفلك متحركاً ، والكواكب ساكنة .

والذي يدل عليه لفظ القرآن القسم الأول وهو أن تكون الأفلاك ساكنة والكواكب جارية فيها ، كما تسبح السمكة في الماء الراكد انتهى ، والحق أنه لا

سبيل إلى معرفة صفة السموات ، والأفلاك وما فيها إلا بإخبار الصادق المصدوق .

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ أي دوام البقاء في الدنيا لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية ﴿ أفإن مت ﴾ بأجلك المحتوم ، وقرىء مت بكسر الميم وضمها وهما لغتان .

﴿ فهم الخالدون ﴾ قال الفراء : جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم إن محمداً سيموت قال : ويجوز حذف الفاء وإضمارها ، والمعنى ان مت فهم يموتون أيضاً فلا شماتة في الموت وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم ﴿أم يقولون: شاعر نتربص به ريب المنون﴾.

أخرج البيهقي وغيره عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي (ﷺ) وقد مات فقبله ، وقال وانبياه واخليلاه واصفياه ثم تلا وما جعلنا . الآية .

﴿ كل نفس ﴾ مخلوقة فلا يراد الباري تعالى : ﴿ذائقة الموت ﴾ أي ذائقة مرارة مفارقة جسدها فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائناً ما كان وهذا دليل على ما أنكر من خلودهم ، قيل هذا العموم مخصوص بقوله تعالى : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ فإن الله حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت، والذوق ههنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله .

﴿ ونبلوكم ﴾ أي نختبركم ﴿ بالشر ﴾ أي بالشدة ﴿ والخير ﴾ أي الرخاء ﴿ فتنة ﴾ مصدر لنبلوكم من غير لفظه لأن الابتلاء فتنة فكأنه قال : نفتنكم فتنة أو مفعول له أي لننظر كيف شكركم وصبركم ، والمراد أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم فالله لا يخفى عليه شيء .

﴿وإلينا ترجعون ﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً فنجازيكم بأعمالكم حسبما يظهر منكم إن خيراً فخير وان شراً فشر، وفيه إشارة الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ
ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ
سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا
عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني المستهزئين من المشركين ﴿ إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزوءاً بك ، والهزء السخرية وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿إنا كفيناك المستهزئين ﴾ والمعنى ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزواً ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ؟ ﴾ أي يقولون أهذا الذي ؟ فعلى هذا يكون هو جواباً ويكون قوله : إن يتخذونك اعتراضاً بين الشرط والجزاء ، ومعنى يذكر يعيب ، قال الزجاج : يقال فلان يذكر الناس أي يغتابهم ويذكرهم بالعيوب وفلان يذكر الله يصفه بالتعظيم ويثني عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه ، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر في كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، وقيل يطلق على المدح والذم مع القرينة .

﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي بالقرآن ، أو هم بذكر الرحمن الذي خلقهم كافرون ؛ إذ قالوا ما نعرفه ، والمعنى أنهم يعيبون على النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو بالقرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم .

﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ أي جعل لفرط استعجاله في أحواله كأنه مخلوق من العجل ، وفيه استعارة بالكناية ، والعجل والعجلة ضد البطء ، وقد عَجِل من باب طَـرِب، والمعنى أن الانسان من حيث هو مطبوع على العجلة فيستعجل كثيراً من الأشياء وان كانت تضره ، وقال الفراء : كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة .

وقال الزجاج . خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء خلقت منه ، كما تقول أنت من لعب وخلقت من لعب ، تريد المبالغة في وصفه بذلك ، ويـدل على هذا المعنى قوله : ﴿ وكان الإنســان عجـولاً ﴾ والمراد بالإنسان الجنس ، وقيل آدم ، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه من الروح صار الروح في رأسه ، فذهب ينهض قبل أن يبلغ الروح الى رجليه فوقع ؛ فقيل : ﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدي والكلبي ومجاهد ، ولفظ عكرمة : لمـا نفخ في آدم الـروح صار في رأسـه فعطس ، فقال الحمد لله ، فقالت الملائكة يرحمك الله ؛ فذهب ينهض قبل أن تمور في رجليه فوقع ، فقال الله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ وعن ابن جريج نحوه.

وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني : العجل الطين بلغة حمير ، وقيل إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحرث وهو القائل :﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ إلخ ، وقيل نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب ، وقال الأخفش : معناه أنه قيل له كن فكان ،وقيل: إن هذه الآية من المقلوب ، أي خلق العجل من الإنسان لشدة صدوره منه وملازمته له . وقد حكى هذا عن أبي عبيدة والنحاس وأبي عمرو ، والقول الأول أولى .

﴿سأوريكُم آياتي ﴾ أي نقماتي منكم ومواعيدي في الآخرة بعذاب النار أو في الدنيا كوقعة بدر ﴿ فلا تستعجلون ﴾ بالإتيان فإنه نازل بكم لا محالة .

وقيل المراد بالآيات ما دل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات ، وما جعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأول أولى ويدل عليه قوله :

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أي متى حصول هذا الوعد الذي تعدنا به من العذاب، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية ، وقيل المراد بالوعد هنا القيامة ﴿ إن كنتم ﴾ يا معشر المسلمين ﴿ صادقين ﴾ في وعدكم ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب .

﴿ لو يعلم الذين كفروا حين ﴾ أي لو عرفوا ذلك الوقت ؛ وقال أبو السعود : استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه لجهلهم بشأنه ، وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم انتهى . وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف لأنه أبلغ من الوعيد ، فقدره الزمخشري لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم هو الذي هوّنه عندهم وقدره ابن عطية ، ولو علموا الوقت الذي ﴿ لا يكفون ﴾ يدفعون .

﴿ عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ لما استعجلوا الوعيد ، وقدره الحوفي لسارعوا ، وقال الزجاج : التقدير لعلموا صدق الوعد أي البعث . وقيل لو علموه ما أقاموا على الكفر . وقال الكسائي : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة أي لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ، ويدل عليه قوله الآتي : ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب في استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا يمنعون منها في القيامة ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم ﴿ بل ﴾ إضراب انتقالي من بيان السبب إلى بيان كيفية وقوع الموعود فقال : ﴿ تأتيهم ﴾ أي لا يُكْفَوْنَهَا بل تأتيهم العدة أو النار أو الساعة ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغتاً ، وقال الفراء : أي تحيرهم . وقيل تفجؤهم وقيل تدهشهم .

﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فالضمير راجع الى النار ، وقيل الى الوعد بتأويله بالعدة ، وقيل الى الحين بتأويله بالساعة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار .

﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزيته ، كأنه قال : إن استهزأ بك هؤلاء فقد فُعِلَ ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم ﴿ فحاق ﴾ أي أحاط ودار بسبب ذلك ﴿ بالذين سخروا منهم ﴾ أي من أولئك الرسل وهزؤوا بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ ما مصدرية أو موصولة ، أي فأحاط بهم استهزاؤهم ، أي جزاؤه على وضع السبب موضع المسبب أو نفس الاستهزاء إن أريد به العذاب الأخروي بناء على تجسم الأعمال أو الأمر الذي كانوا يستهزئون به .

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ قل من يكلؤكم ﴾ أي يحرسكم ، قاله ابن عباس ، والمعنى يحفظكم ، والكلاءة الحراسة والحفظ ، يقال كلأه الله كِلأة بالكسر ، أي حفظه وحرسه ، وحكي يكلوْكم بفتح اللام وإسكان الواو ، أي قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ من يحرسكم ويحفظكم ﴿ بالليل ﴾ أي فيه اذا نمتم ﴿ والنهار ﴾ اذا انصرفتم الى معايشكم ، وتقديم الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعاً وأشد وقعاً ﴿ من ﴾ بأس ﴿ الرحمن ﴾ وعذابه الذي تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم . قال الزجاج : معناه من يحفظكم من بأس الرحمن ؟ .

وقال الفراء : المعنى من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة . وفي التعرض لعنوان الرحمة إيذان بأن كالئهم ليس إلا رحمته العامة ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ فلا يذكرونه ولا يخطرونه ببالهم ولا يتفكرون فيه بل يعرضون عنه أو عن القرآن أو عن مواعظ الله أو عن معرفته .

﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ أم بمعنى بل والهمزة للإضراب عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم الى توبيخهم

وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه والدفع عنها ، والمعنى بل لهم آلهة تمنعهم مما يسوءهم من عذابنا ، وفيه تقدير وتأخير ، والتقدير أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم . ثم وصف آلهتهم هذه التي زعموا أنها تنصرهم بما يدل على الضعف والعجز فقال :

﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ، فهو استئناف مقرر لما قبله من الإنكار وموضح لبطلان اعتقادهم ﴿ ولا هم ﴾ أي الكفار ﴿ منا يصحبون ﴾ أي يجارون من عذابنا قال ابن قتيبة : أي لا يجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب الجار . والعرب تقول : صحبك الله أي حفظك وأجارك ، تقول العرب أنا لك جار، وصاحب من فلان أي مجير منه ، وهو اختيار الطبري .

قال المازني : هو من أصحبت الرجل إذا منعته . وقال مجاهد : يحفظون قال ابن عباس : أي لا ينصرون ولا يجارون ولا يمنعون . وقال قتادة : لا يصحبون من الله بخير ولا يجعل الله رحمته صاحباً لهم . ذكره القرطبي .

ولما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله لا من مانع يمنعهم من الهلاك ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال :

﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم ﴾ يعني أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم ﴿ حتى طال عليهم العمر ﴾ وامتد بهم الزمان ، فاغتروا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك ؛ فرد الله سبحانه عليهم قائلاً :

﴿ أفلا يرون ﴾ أي لا ينظرون فيرون ﴿أنّا نأتي الأرض ﴾ أي نقصد أرض الكفر ﴿ ننقصها ﴾ بالظهور عليها ﴿ من أطرافها ﴾ فنفتحها بلداً بلداً وأرضاً بعد أرض بتسليط المسلمين عليها ، وأسنده الى نفسه تعظيماً لهم . وفيه

تعظيم للجهاد والمجاهدين . وقيل نقصها بالقتل والسبي ، وهو تصوير لما يجريه الله على أيدي المسلمين . وقد مضى في الرعد الكلام على هذه مستوفى .

﴿ أفهم الغالبون ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، أي كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ، وفي هذا إشارة الى أن الغالبين هم المسلمون أصحاب النبي .

﴿ قل إنما أنذركم ﴾ أي أخوفكم وأحذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بالوحي ﴾ من الله أي بالقرآن لا من قبل نفسي ، وذلك شأني وما أمرني الله به ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء ﴾ إما من تتمة الكلام الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم أو من جهة الله تعالى .

والمعنى أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء . وقرىء لا يُسْمَع بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله ، وقرىء بالفوقية وكسر الميم ، أي أنك يا محمد لا تُسْمِع هؤلاء و (ال) في الصم للجنس فيدخل المخاطبون فيه دخولاً أولياً أو للعهد .

﴿إذا ما ينذرون ﴾ أي يخوّفون لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار، والأصل ولا يسمعون إذا ما ينذرون ، فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامِّهم وسدهم أسماعهم اذا ما أنذروا ، وللتسجيل عليهم .

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ المراد بالنفحة الدليل ، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ، وقال المبرد : النفحة الدفعة من الشيء التي دون معظمه ، يقال نفحه نفحة بالسيف اذا ضربه ضربة خفيفة . وقيل هي النصيب وقيل هي الطرف وقيل وقعة خفيفة والمعنى متقارب ، أي ولئن مسهم أقل شيء من العذاب ، وفيه مبالغات ثلاث ذكر المس وما في النفحة من معنى القلة ، فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء والبناء الدال على المرة .

﴿ ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ بالإشراك وتكذيب محمد ، أي ليدعون على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم .

﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ العادلة ﴿ ليوم القيامة ﴾ أي لأهلها ، وقيل اللام بمعنى في ، أي في يوم القيامة ، والموازين جمع ميزان ، وهو يدل على ان هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان عبر عنه بلفظ الجمع للتعظيم او باعتبار أجزائه فإن الصحيح أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال .

وقد ورد في السنة في صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى في (الأعراف) ، وفي (الكهف) في هذا ما يغني عن الإعادة ، والقسط صفة للموازين وصف به مبالغة ، قال الزجاج : قسط مصدر يوصف به ، تقول : ميزان قسط ، وموازين قسط ؛ والمعنى ذوات قسط ، والقسط العدل وصف به

الموازين ، لأن الميزان قد يكون مستقياً ، وقد يكون غير مستقيم ، فبين الله أن تلك الموازين تجري على حد العدل .

وقرىء القصط بالصاد والطاء ، وأما ماهية جرمه من أي الجوهر ، وأنه موجود الآن أو سيوجد فنمسك عن تعيينه ولا يكون الوزن في حق كل أحد ، لأن من لا حساب عليه لا يوزن له كالأنبياء والملائكة ، والوزن يكون للمكلفين من الجن والإنس، وقد يوزن العبد نفسه «كما ورد عن النبي (ﷺ) لَرِجْلُ عبد الله بن مسعود في الميزان أثقل من جبل أحد»[1] «ومن مات له ولد يجعل ذلك الولد في الميزان» [2] وكيفيته ثقلاً وخفة مثلها في الدنيا.

﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج .

وقال أبو علي الفارسي : وإن كان الظلامة مثقال حبة ، قال الواحدي : وهذا أحسن لتقدم قوله : فلا تظلم نفس شيئاً ، وقرىء برفع ﴿ مثقال ﴾ على أن كان تامة أي إن وقع أو إن وجد مثقال حبة ، ومثقال الشيء ميزانه أي وإن كان في غاية الخفة والقلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل في الصغر .

﴿ أتينا بها ﴾ أي أحضرناها وجئنا بها اي بموزونها للمجازاة عليها ، وقرىء آتينا بالمد على معنى جازينا بها يقال آتى يؤاتي مؤاتاة جازى ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ أي مُحْصِين في كل شيء ، والحسب في الأصل معناه : الْعَدّ، وقيل عالمين لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه ، وقيل مجازين على ما قدموه من خير وشر والغرض منه التحذير ، فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن

---

(١) الإمام أحمد ١/١١٤ - ١/٤٢١ - ٥/١٣١ .

(٢) البخاري كتاب الجنائز باب ٦ .

أن يشتبه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشد الخوف منه .

وقد أخرج أحمد والترمذي وابن جرير في تهذيبه والبيهقي وغيرهم عن عائشة أن رجلاً قال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا عليك ولا لك ، وان كان عقابك أياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل » فجعل الرجل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله (ﷺ) « أما تقرأ كتاب الله » ﴿ونضع الموازين القسط﴾ الى قوله ﴿ حاسبين ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد لي ولهم خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار .[1] وفي معناه أحاديث ، وروي عن الشبلي أنه رؤى في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال :

حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا
وكذا كل مالك بالمماليك يرفق

ثم شرع الله سبحانه في تفصيل ما أجمله سابقاً بقوله ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ وذكر عشر قصص ، الأولى . قصة موسى ، ثم إبراهيم ثم لوط ثم نوح ثم داود وسليمان ثم أيوب ثم إسماعيل وإدريس وذي الكفل ، ثم يونس ثم زكريا ثم مريم وابنها عيسى فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ﴾ المراد بالفرقان هنا التوراة قاله ابو صالح ، وعن قتادة مثله لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام والحق والباطل .

(١) الترمذي تفسير سورة ٢/٢١ ـ الإمام احمد ٢٨٠/٦ .

وقال ابن زيد الفرقان : الحق ، وقيل الفرقان هنا هو النصر على الأعداء كما في قوله : وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ؛ قال الثعلبي : وهذا القول اشبه بظاهر الآية ، ومعنى ضياء أنهم استضاؤوا بها في ظلمات الجهل والغواية ، ومعنى الذكر الموعظة اي أنهم يتعظون بما فيها .

وخص المتقين لأنهم ينتفعون بذلك ووصفهم بقوله ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى او يخشون عذابه وهو غائب عنهم أو هم غائبون عنه ، لأنهم في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ؛ وقيل يخافونه في الخلوات إذا غابوا عن أعين الناس .

﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي وهم من أهوال القيامة خائفون وَجِلُون،وهذا من ذكر الخاص بعد العام ، لكونها أعظم المخلوقات وللتنصيص على إنصافهم بضد ما أنصف به المستعجلون وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه .

﴿ وهذا ﴾ أي القرآن قاله قتادة ، والإشارة اليه بأداة القرب إيماء الى سهولة تناوله عليهم ﴿ ذكر مبارك ﴾ قال الزجاج : اي ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به والمبارك كثير البركة والخير ﴿أنزلناه﴾ صفة للذكر او خبر بعد خبر .

﴿ أفأنتم له منكرون ﴾؟ الاستفهام للإنكار لما وقع منهم من الإنكار أي كيف تنكرون كونه منزلاً من عند الله ؟ مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده ، أو أنكم من أهل اللسان تدركون مزايا الكلام ولطائفه ، وتفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيركم ؛ مع أن فيه شرفكم وَصِيَتكم. كما يشير اليه لفظ الذكر على ما سبق ، فلو أنكره غيركم لكان ينبغي لكم مناصبته، وتقديم الظرف على المتعلق دال على التخصيص اي أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عنّ لهم من المشكلات .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ
مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ اي الرشد اللائق به ، وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الخالصة بالوحي ، والاقتدار على إصلاح الأمة باستعمال النواميس الإلٓهيـة ، وقال مجاهد : هديناه صغيراً .

﴿ من قبل ﴾ اي قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ، أو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الفراء : اي أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ أي وفقناه للنظر والاستدلال لما جن عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين وبالأول قال اقلهم .

﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي أنه موضع لايتاء الرشد وأنـه يصلح لذلـك ﴿ إذ ﴾ أي اذكر حين ﴿ قال لأبيه ﴾ آزر ﴿ وقومه ﴾ نمروذ ومن اتبعه ﴿ ما هذه التماثيل﴾وهي الصور والأصنام ، قاله مجاهد ، وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها .

وأصـل التمثـال : الشيء المصنـوع المشـابـه لشيء من مخلوقـات الله سبحانه ، يقال مَـثَّلْتُ الشيء بالشيء اذا جعلته مشابهاً له ، واسم ذلك الْمُمَثَّل تمثال ، وهو الصورة المصنوعة من رخام أو نحاس أو خشب شبيهة بخلق

الآدمي أو غيره من الحيوانات وأنكر عليهم عبادتها بقوله :

﴿ التي أنتم لها عاكفون ﴾ العكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض ، واللام في لها للاختصاص ، ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على أي ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟وقيل: إن العكوف مضمن معنى العبادة وكانت تلك الأصنام اثنين وسبعين صنماً ، بعضها من ذهب وبعضها من فضة ، وبعضها من حديد ، وبعضها من رصاص ، وبعضها من نحاس وبعضها من حجر ، وبعضها من خشب ، وكان كبيرها من ذهب مكللاً بالجواهر في عينيه ياقوتتان متقدتان تضيآن في الليل .

﴿ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ فقلدناهم واقتدينا بهم أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز والحبل الذي يتشبث به كل غريق ؛ وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء أي وجدنا آباءنا يعبدونها ، فعبدناها اقتداء بهم ومشياً على طريقتهم .

وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية فإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل ، قالوا : هذا قد قال به إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأيه آخذين ، قال الحفناوي : أي فلم يكن جوابهم إلا التقليد انتهى ، وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ههنا .

﴿قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ، ولا يلتبس على ذي عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوي هذا الخسران خسران ، قال النسفي : أراد أن المقلّدين

والمُقَلَّدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر وأكد بـ ﴿ أنتم ﴾ ليصح العطف لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع . انتهى .

أقول : وهؤلاء المُقَلَّدة من أهل الاسلام استبدلوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كتباً قد دونت فيها اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها إما لقصور منه أو لتقصير في البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار كأنه علم في رأسه نار ، وقال هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمِنٌ في دينه كمُخَاطِرِ

فقالوا كما قال الأول :

وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غوت غَوِيت وإن ترشد غَزِيَّةُ أرشد

وقد أحسن من قال :

يأبي الفتى إلا اتباع الهوى ومنهجُ الحق له واضح

قال البيضاوي : والتقليد إن جاز فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على الحق ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل .

﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ أي أجادّ أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ وليس المراد به حقيقة المجيء إذ لم يكن غائباً عنهم و ﴿ أم ﴾ متصلة وإن كان بعدها جملة لأنها في حكم المفرد ، إذ التقدير اي

الأمرين واقع مجيئك بالحق ؟ أم لعبك ؟ وفي إيراد الشق الثاني بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم ثم ﴿ قال ﴾ مضرباً عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد .

﴿ بل ربكم رب السموات والأرض ﴾ وقيل هو إضراب عن كونه لاعباً ، بإقامة البرهان على ما ادعاه ، والأول أظهر ﴿ الذي فطرهن ﴾ أي خلقهن وأبدعهن والضمير للسموات أو للتماثيل وهو أدخل في تضليلهم وإقامة الحجة عليهم لأن فيه تصريحاً بأن معبوداتهم من جملة مخلوقاته .

﴿ وأنا على ذلكم ﴾ الذي ذكرته لكم من كون ربكم هو رب السموات والأرض فقط دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ من الشاهدين ﴾ أي العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالماً به ، مبرهناً عليه مبيناً له .

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ أخبرهم بأنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه ، وهذه طريقة فعلية دالة على أنه على الحق ، بعد أن أتى بطريقة قولية ، فجمع بين القول والفعل ، والكيد المكر ، يقال كاده يكيده كيداً ومكيدة ، والمراد هنا الاجتهاد في كسر الأصنام . قيل:إنه عليه السلام قال ذلك سراً ، وقيل سمعه رجل منهم فأفشاه .

﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ أي بعد أن تراجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون . كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة .

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا
بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن
كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾
ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي تولوا فجعلهم جذاذاً ؛ أي حطاماً بفأس . قاله ابن عباس وعنه قال : فتاتاً . الجَـذّ القطع والكسر ، يقال جذذت الشيء قطعته وكسرته ، الواحد جذاذة ، والجذاذ ما تكسر منه .

قال الجوهري . قال الكسائي ويقال لحجارة الذهب الجذاذ لأنها تكسر ، وقرىء جذاذاً بكسر الجيم ، أي كِسَـراً وَقِـطَعـاً ، جمع جذيذ وهو الهشيم ، مثل خفيف وخفاف وظريف وظراف ، وقرىء بالضم كالحطام ، والرِّقاق فعال بمعنى مفعول وقرىء بفتحها . قال قطرب : هي في لغاتها كلها مصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، والقراءتان الأوليان سبعيتان ، وهذا هو الكيد الذي وعدهم به . ﴿إلا كبيراً لهم ﴾ أي عظيم آلهتهم . قاله ابن عباس ، يعني تركه ولم يكسره ، والضمير للآلهة أو عائد على عابديها ووضع الفأس في عنقه ثم خرج .

﴿ لعلهم إليه﴾ أي الى ابراهيم ﴿ يرجعون ﴾ فيحـاجهم بما سيـأتي فيحجهم . وقال الرازي : أما اذا قلنا إن الضمير راجع إلى الكبير ، فالمعنى لعلهم يرجعون اليه كما يرجع الى العالم في حل المشكلات فيقولون له ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحاً ؟ وما لهذا الفـأس في عنقـك؟ وقـال ذلـك بنـاء

على كثرة جهالاتهم واستهزاءبهم، وكان من عادتهم إذا رجعوا اليها سجدوا اليها ثم ذهبوا إلى منازلهم .

وقيل المعنى لعلهم الى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر ، لأن من شأن المعبود أن يرجع اليه في المهمات ، فإذا رجعوا اليه لم يجدوا عنده خبراً ، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً ، ولا تعلم بخير ولا شر ، ولا تخبر عن الذي ينوبها من الأمر . وقيل لعلهم الى الله يرجعون ، وهو بعيد جداً ﴿ قالوا ﴾ في الكلام حذف ؛ والتقدير فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم من التكسير قالوا : ﴿ من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتشنيع والإنكار، وقيل ﴿ من ﴾ موصولة مبتدأ ، و﴿إنه لمن ﴾ الخ خبره ، أي فاعل هذا ظالم والأول أولى .

عن ابن مسعود قال : لما خرج قوم ابراهيم الى عيدهم مروا عليه فقالوا يا ابراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ الآية ، فسمعه ناس منهم فلما خرجوا انطلق الى أهله فأخذ طعاماً ، ثم انطلق الى آلهتهم فقربه اليهم فقال ألا تأكلون ؟ فكسرها الا كبيرهم ؛ ثم ربط في يده الذي كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم في يده الذي كسر به الأصنام ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ؟ .

﴿ قالوا ﴾ أي قال الذين سمعوا إبراهيم يقول : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ مجيبين المستفهمين لهم ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أي يعيبهم ويسبهم . وسمع هنا متعدية لاثنين لدخولها على ما لا يسمع ، فالأول فتى والثاني جملة يذكرهم بخلاف ما لو دخلت على ما يسمع ، كأن قلت سمعت كلام زيد فإنها تتعدى لواحد .

﴿ يقال له إبراهيم﴾ قال الزجاج : أي هو إبراهيم، فهو خبر مبتدأ

محذوف ، أو مبتدأ محذوف الخبر ؛ أي يقال له ابراهيم فاعل ذلك ، وقيل ارتفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ، أي يقال له هذا اللفظ ، ولهذا قال أبو البقاء : المراد الاسم لا المسمى . وقيل على النداء أي يا إبراهيم .

ومن غرائب التدقيقات النحوية وعجائب التوجيهات الإعرابية أن الأعلم الشنتمري الأشبيلي قال : انه مرتفع على الإهمال قال ابن عطية : ذهب إلى رفعه بغير شيء .

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتي به ظاهراً بمرأى من الناس قيل إنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به .

﴿ لعلهم يشهدون ﴾ أي يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به في مثل هذا . وقيل: لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر أصنامهم ، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم .

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ مستأنفة وفي الكلام حذف ، أي فجاء إبراهيم حين أتوا به ، فاستفهموه هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم ﴿ قال ﴾ ابراهيم مقيماً للحجة عليهم مبكتاً لهم ، وقال المحلي : قال ساكتاً عن فعله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ مشيراً الى الصنم الذي تركه ولم يكسره .

وقال الشهاب : هذا على طريقة الكناية الفرضية ، فهذا يستلزم نفي فعل الصنم الكبير للكسر وإثباته لنفسه ، وحاصله أنه إشارة لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء والتضليل . انتهى .

أخرج أبو داود والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يكذب ابراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله . قوله اني سقيمٌ ولم يكن سقيماً . وقوله لسارة أختي ، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا »(١) وهذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة بأطول من هذا ، وقد روي نحوه أبو يعلى من حديث أبي سعيد .

وقيل :أراد ابراهيم عليه السلام بنسبة الفعل الى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه ، إرشاداً لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع ، لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم والأول أولى ، وقرىء بل فَعَلَّه بتشديد اللام ، على معنى بل فَلَعَلَّ الفاعل كبيرهم .

﴿ فاسألوهم ﴾ عن فاعله ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ أي إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له فيجيب عنه بما يطابقه ، وفيه تقديم جواب الشرط ، أراد عليه السلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله ، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم اذا قالوا إنهم لا ينطقون ، قال لهم فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه ؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق ، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته . وإنما قال : ينطقون ولم يقل يسمعون أو يعقلون ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، لما أن نتيجة

(١) الترمذي تفسير ٣/٢١ - مسلم ٢٣٧١ - البخاري ١١١٣ .

السؤال الجواب ، وان عدم نطقهم أظهر في تبكيتهم .

﴿ فرجعوا الى أنفسهم ﴾ أي رجع بعضهم الى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين ابراهيم ، أن من لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله ابراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة ولهذا ﴿ فقالوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض .

﴿إنكم أنتم الظالمون ﴾ لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم اليه الظلم بقولكم انه لمن الظالمين ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي رجعوا الى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه . وقيل المعنى أنه طأطأوا رؤوسهم خجلة من ابراهيم ، وهو ضعيف لأنه لم يقل نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف ؛ وإسناد الفعل اليهم حتى يصح هذا التفسير ، بل قال نكسوا على رؤوسهم ، وقرىء نُكِّسوا بالتشديد وأنه لغة من المخفف ، فليس التشديد لتعدية ولا تكثير .

ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ أي لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ وما هذه حجازية أو تميمية .

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ
لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟
ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى
بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا
صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ قال ﴾ ابراهيم مبكتاً لهم ومزرياً عليهم ﴿ أفتعبدون من دون الله ﴾ أي بدله ﴿ ما لا ينفعكم شيئاً ﴾ من النفع إن عبدتموه ﴿ ولا يضركم ﴾ بنوع من أنواع الضرر إذا لم تعبدوه ، ثم تضجر عليه السلام منهم فقال :

﴿ أف ﴾ بكسر الفاء مع التنوين وتركه وفتحها بلا تنوين بمعنى مصدر ، فالقراآت ثلاث وكلها سبعية ، أي نتناً وقبحاً ﴿ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم ، واللام في لكم لبيان المتأفف له ، أي لكم ولآلهتكم والتأفف صوت يدل على التضجر ﴿أفلا تعقلون ﴾ أي أليس لكم عقول تتفكرون بها فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه ، أو أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة ولا تصلح لها وانما يستحقها الله تعالى .

﴿ قالوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة في دفع ابراهيم وعجزوا عن مجادلته وضاقت عليهم مسالك المناظرة .

﴿ حرّقوه ﴾ انصرافاً منهم الى طريق الظلم والغشم وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأي وجه كان وعلى أي أمر اتفق ؛ وهكذا ديدن المبطل المحجوج إذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة ، وافتضح لا يبقى له مفزع إلا المناصبة .

والقائل هو النمروذ بن كنعان بن السحاريب بن نمروذ بن كوش بن حام ابن نوح . وقيل القائل رجل من أكراد فارس اسمه هينون ، خسف الله به الأرض ثم قالوا : ﴿ وانصروا آلهتكم ﴾ أي انصروها بالانتقام من هذا الذي فعل بها ما فعل وبتحريفه .

﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ للنصر ، فجمعوا له الحطب الكثير وأضرموا النار في جميعه وأوثقوا ابراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار . قاله المحلي ، وكانت مدة الجمع شهراً ومدة الإيقاد سبعة أيام ومدة مكث ابراهيم في النار سبعة أيام . وفي الرازي أربعين يوماً أو خمسين ، ومثله في أبي السعود ، وكان وقت إلقائه فيها ابن ست عشرة سنة . وقيل ست وعشرين قاله الماوردي .

﴿ قلنا ﴾ في الكلام حذف تقديره : فأضرموا النار وذهبوا بإبراهيم اليها فعند ذلك قلنا : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً ﴾ أي ذات برد وسلام ؛ أي أبردي برداً غير ضار ، فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه للمبالغة .

قيل وانتصاب ﴿ سلاماً ﴾ على أنه مصدر أي وسلمنا سلاماً .

﴿ على إبراهيم﴾ ولو لم يقل ﴿ على إبراهيم﴾ لما أحرقت نار ولا اتقدت ، قاله أبو حيان في البحر ، عن ابن عباس قال : لما جمع لإبراهيم ما جمع ، وألقي في النار جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر؟ فأرسله فكان أمر الله أسرع ، قال الله : ﴿ كوني برداً وسلاماً ﴾ فلم تبق في الأرض نار الا طفئت .

وأخرج أحمد وابن ماجة وابن حبان وأبو يعلى وابن ابي حاتم والطبراني ، عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن ابراهيم حين ألقي في النار لم تكن دابة الا تطفىء عنه النار غير الوزغ ، فإنه كان ينفخ على ابراهيم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله وهو سام أبرص»[1] ،

(١) الإمام احمد ٦/ ٢٨٠ ـ البخاري كتاب الأنبياء باب ٨ .

وذكر بعض الحكماء أن الوزغ لا يدخل بيتاً فيه زعفران وأنه يبيض قاله ابن لقيمة .

وعن ابن عمر قال : أول كلمة قالها ابراهيم حين ألقي في النار حسبنا الله ونعم الوكيل ، أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر ، وعن السدي قال : كان جبريل هو الذي ناداها أي النار ، وعن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلاماً ، لمات ابراهيم من بردها ، وعن عليّ نحوه .

وعن معتمر بن سليمان التيمي قال : جاء جبريل الى ابراهيم وهو يوثق ليلقى في النار ، فقال : يا ابراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا ، وعن كعب قال : ما أحرقت النار من ابراهيم إلا وثاقه وذهبت حرارتها وبقيت إضاءتها .

وعن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن ابراهيم ألقي في النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، فقال : ما كنت أياماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها .

﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ أي مكراً وهو التحريق ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ اي أخسر من كل خاسر ورددنا مكرهم عليهم فجعلنا لهم عاقبة السوء كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير لأنهم خسروا السعي والنفقة ، فلم يحصل لهم مرادهم ، وصار سعيهم برهاناً على بطلانهم، أو الأخسرين بمعنى الهالكين بإرسال البعوض على نمروذ وقومه فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فأهلكته .

﴿ ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ قد تقدم أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم قاله ابن عباس أي هاران الأصغر ، وكان لهما أخ ثالث اسمه ناخور ، والثلاثة أولاد آزر ، وأما هاران الأكبر فكان عماً لإبراهيم وكانت

سارة بنت عم إبراهيم الذي هو هاران الأكبر وكانت آمنت بإبراهيم فحكى الله سبحانه ههنا أنه نجى إبراهيم ولوطاً عليهما السلام .

قال المفسرون . والأرض هي أرض الشام ؛ قاله أبيٌّ وكانا بالعـراق وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وأشجارها وثمارها وأنهارها ولأنها معادن الأنبياء وأصل البركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح وقيل: الأرض المباركـة مكة ، وقيل: بيت المقدس لأن منهـا بعث الله أكثر الأنبياء : وهي أيضاً كثيرة الخصب ، والأول أولى لأن إبراهيم خرج من كوثى من أرض العراق ؛ ومعه لوط ، وسارة،فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ، ثم خرج من حران حتى قـدم مصر ، ثم ورجـع الى الشـام ، فنـزل السبـع من أرض فلسـطين وتـرك لـوطـاً بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع ، فبعثه الله نبياً إلى أهلها وما قرب منها ، ذكره الخازن.

وقد تقدم تفسير للعالمين ثم قال سبحانه ممتناً علـى إبراهيم ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ وهي الزيادة من غير سؤال ، وكان ابراهيم قد سأل الله أن يهب له ولداً فوهب له إسحاق ، وجملة ما عاشه من السنين مائة وسبع وأربعون ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة .

وقيل المراد بالنافلة هنا العطية ، قاله الزجاج ومجاهد ، وقيل النافلة هنا ولد الولد لأنه زيادة على الولد ، وقال ابن عباس : نافلة ابن الابن ، وعن قتادة والحكم نحوه ، وقال الفراء : النافلة يعقوب خاصة لأنه ولد الولد .

﴿ وكُلًّا جعلنا صالحين ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ابراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله تاركاً لمعاصيه ، وقيل المراد بالصلاح هنا النبوة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا
وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن
قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ
مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾
وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا
لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وجعلناهم أئمة﴾ أي رؤساء يقتدى بهم في الخيرات والأعمال الصالحات.

﴿يهدون﴾ الناس ﴿بأمرنا﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ أي أن يفعلوا الطاعة، وقيل شرائع النبوات ﴿وإقام الصلاة﴾ الأصل الإقامة الا أن المضاف إليه جعل بدلاً من الهاء، والمعنى المحافظة عليها.

﴿وإيتاء الزكاة﴾ الواجبة، وخصهما بالذكر لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله، والزكاة أفضل العبادات المالية، ومجموعهما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿وكانوا لنا﴾ خاصة دون غيرنا من الأصنام قاله العمادي ﴿عابدين﴾ أي مطيعين فاعلين ما نأمرهم به تاركين، لما ننهاهم عنه، وقيل موحدين.

﴿ولوطاً آتيناه حكماً﴾ أي نبوة ﴿وعلماً﴾ أي معرفة بأمر الدين أو فقهاً لائقاً به فيكون من عطف السبب على المسبب وقيل الحكم هو فصل

الخصومات بالحق ، وقيل هو الفهم ﴿ ونجيناه من القرية ﴾ هي سدوم كما تقدم ﴿ التي كانت تعمل ﴾ أي يعمل أهلها ، ففيه مجاز عقلي ﴿ الخبائث ﴾ هي اللواطة والضراط ، وحذف الحصى والرمي بالبندق واللعب بالطيور وغير ذلك كما سيأتي .

ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ﴿وأدخلناه ﴾ بإنجائنا له من القوم المذكورين ﴿ في ﴾ أهل ﴿ رحمتنا ﴾ وقيل في النبوة ، وقيل في الإسلام ، وقيل في الثواب ، وقيل في الجنة ﴿إنه من الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ نوحاً إذ نادى ﴾ ربه ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين وبعث وهو ابن أربعين سنة ، ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة . فتكون مدة عمره ألفاً وخمسين سنة كذا في التحبير ، وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاء .

والمعنى دعا على قومه بقوله رب : لا تذر إلخ ، دعاء تفصيلياً ودعا دعاء آخر إجمالياً، بقوله : إني مغلوب فانتصر ، وإما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فدعا لقومه بالهداية بقوله : رب اهد قومي فإنهم لا يفهمون كما فهمنا ولذلك ورد أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلثا أهل الجنة ولهم ثلاثة أرباع الجنة ، بل تسعة أعشارها وبقية الأمم لهم العشر ، ذكره السنوسي في شرح الصغرى .

﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه ﴿فنجيناه وأهله ﴾ أي المؤمنين منهم ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي من الغرق بالطوفان وتكذيب قومه له ، والكرب الغم الشديد ﴿ ونصرناه ﴾ نصراً مستتبعاً للانتقام ، وقيل منعناه ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على رسالته أي من أن يصلوا اليه بسوء ؛ وقيل من بمعنى على .

ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ أي لم نترك منهم أحداً ، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم بسبب إصرارهم على الذنب ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ داود وسليمان ﴾ أي قصتهما ﴿ إذ يحكمان ﴾ أي وقت حكمهما ، والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما ﴿في ﴾ شأن ﴿ الحرث ﴾ قيل كان زرعاً وهو أشبه بالعرف ، وقيل كرماً وعليه أكثر المفسرين ، وبه قال ابن عباس واسم الحرث يطلق عليهما ، قال مرة : كان الحرث تبناً .

﴿ إذ نفشت ﴾ قال ابن السكيت : النَّفَش بالتحريك أن تنشر الغنم بالليل من غير راع أي تفرقت وانتشرت ، ورعت بأن انفلتت ﴿ فيه غنم القوم ﴾ أي غنم بعض القوم من أمة داوود ﴿وكنا لحكمهم ﴾ أي لحكم الحاكمين ، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضي وتقدمهما الى القول به الفراء ، وانما وقع الجمع موقع التثنية مجازاً أو لأن التثنية جمع وأقل الجمع اثنان وتدل عليه قراءة لحكمهما .

وقيل المراد الحاكمان والمحكوم عليه فهؤلاء جماعة وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فإن الحقيقة إضافة المصدر لفاعله ، والمجاز إضافته لمفعوله ، ومعنى ﴿ شاهدين ﴾ حاضرين ، والجملة اعتراضية .

وقد روى البيهقي في سننه عن ابن مسعود ، ولفظه قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ؛ فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها حتى اذا عاد الكرم كما كان ، دفعت الكرم الى صاحبه والغنم الى صاحبها فذلك قوله .

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وعن مسروق نحوه ، وكذا عن ابن عباس لكنه لم يذكر الكرم ، وعنه بأطول منه ، والضمير المنصوب يعود الى القضية المفهومة من الكلام أو الى الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما فقالت الصغرى : رحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى »[1] وهذا الحديث وان لم يكن داخلاً فيما حكته الآية لكنه من جملة ما وقع لهما .

قال المفسرون : دخل رجلان على داود وعنده ابنه سليمان ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : ان هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي ، فلم تبق منه شيئاً، فقال : لك رقاب الغنم فقال سليمان : أو غير ذلك ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبوا من ألبانها ومنافعها ، ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى اذا كان كليلة نفشت

(١) مسلم ١٧٢٠ ـ البخاري ١٦١١ .

فيه دفع هؤلاء الى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء الى هؤلاء كَرْمهم، فقال داود : القضاء ما قضيت وحكم بذلك .

قال النحاس : انما قضي داود بالغنم لصاحب الحرث ، لأن ثمنها كان قريباً منه ، وأما في حكم سليمان فقد قيل كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء ، قال جماعة من العلماء : ان داود حكم بوحي ، وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحي ، وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الأنبياء معروف وهكذا ما ذكروه في اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ؟ أو الحق مع واحد ؟ .

وقد استدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطىء ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما « أن الحاكم اذا اجتهد فأصاب فله أجران وان اجتهد فأخطأ فله أجر »[1] فسماه النبي صلى الله عليه وسلم فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين ، والا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله .

وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين بالحل والحرمة حلالاً وحراماً في حكم الله سبحانه ، وهذا اللازم باطل بالإجماع فالملزوم مثله ؛ وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد ، له اجتهاده في تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله .

---

(١) مسلم ١٧١٦ ـ البخاري ٢٥٩٣ .

والحاصل أن المجتهدين لا يقدرون على إصابة الحق في كل حادثة ، لكن لا يصرون على الخطأ كما رجع داود هنا الى حكم سليمان لما ظهر له أنه الصواب . وقد أوضح الشوكاني هذه المسألة بما لا مزيد عليه في القول المفيد وأدب الطلب ، فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق فليرجع اليهما والى المؤلف الذي سميناه حصول المأمول من علم الأصول ، والى كتابنا الجنة في الأسوة الحسن بالسنة ، ففيهما ما يغني عن غيرهما .

قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ، ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده . وقال مجاهد : كان هذا صلحاً وما فعله داود كان حكماً والصلح خير، فإن قلت فما حكم هذه الحادثة التي حكم فيها داوود وسليمان في هذه الشريعة المحمدية والملة الاسلامية ؟ .

قلت قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشي بالليل مضمون على أهلها[1] ، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عنها أو قيمته وقد ذهب جمهور العلماء الى العمل بما تضمنه هذا الحديث . وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين الى أن هذا الحكم منسوخ وأن البهائم اذا أفسدت زرعاً في ليل أو نهار لا يلزم صاحبها شيء ، وأدخلوا فسادها في عموم قول النبي : « جرح العجماء جبار »[2] ؛ قياساً لجميع أفعالها على جرحها .

ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار لأنه في مقابلة النص . ومن أهل العلم من ذهب الى أنه يضمن رب الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار ويجاب عنه بحديث البراء ، وقد بسط الشوكاني رحمه الله الكلام

(١) الموطأ كتاب الأقضية ٣٦ ـ الإمام أحمد ٥/٤٣٦ .
(٢) مسلم ١٧١٠ ـ البخاري ٨٠٢ بلفظ : « العجماء وجرحها جبار » .

عليه في شرحه للمنتقى ، ومما يدل على أن هذين الحكمين من داوود وسليمان كانا بوحي من الله سبحانه لا باجتهاد ، قوله : ففهمناها سليمان .

﴿ وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التي حكاها الله سبحانه عنهما مقدم على صدقهما على غيرهما ، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ما وقع من كل واحد منهما في هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه .

ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم من عدم كون حكم داوود حكماً شرعياً ، أي وكل واحد منهما أعطيناه حكماً وعلماً كثيراً ، لا سليمان وحده، ولما مدح داوود وسليمان على سبيل الاشتراك ذكر ما يختص بكل واحد منهما فبدأ بداود فقال :

﴿ وسخرنا ﴾ التسخير التكليف للعمل بلا أجرة ، وسخره تسخيراً كلفه عملاً بلا أجرة ، والمراد هنا التذليل أي ذللنا ﴿ مع داود الجبال يسبحن ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز ، وقد قال بالأول جماعة وهو الظاهر ، وذلك أن داوود كان إذا سبح سبحت الجبال معه .

وقيل إنها كانت تصلي معه إذا صلى . قاله قتادة ، وهو معنى التسبيح . وقال بالمجاز جماعة آخرون ، وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدرة خالقها .

وقيل كانت الجبال تسير مع داوود حيث سار ، وكان من رآها سائرة معه سبح ، والظاهر وقوع التسبيح منها بالنطق ، خلق الله فيها الكلام كما سبح الحصى في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع الناس ذلك ، وكان داوود هو الذي يسمع وحده . قاله أبو حيان .

﴿ و ﴾ كذا سخرنا ﴿ الطير ﴾ للتسبيح معه ﴿ وكنا فاعلين ﴾ ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير ، وقدم الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان ناطق وهو جمع طائر ، وجمع الطير طيور وأطيار ، ويقع الطير على الواحد والجمع .

وقال ابن الأنباري : الطير جماعة وتأنيثها أكثر من التذكير ، ولا يقال للواحد طير بل طائر ، وقلما يقال للأنثى طائرة .

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ اللبوس عند العرب السلاح كله ، درعاً كان أو جوشنا أو سيفاً أو رمحاً ، والمراد في الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس كالركوب والحلوب ، قيل أول من صنع الدروع وسردها واتخذها حلقاً داوود عليه السلام ، وكانت من قبل صفائح ؛ قالوا إن الله ألان الحديد لداود عليه السلام بأن يعمل منه بغير نار كأنه طين ، والدرع يجمع بين الخفة والحصانة ، وهو قوله ﴿ لتحصنكم ﴾ بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الصنعة أو الى اللبوس بتأويل الدرع أي لتمنعكم ، وقرىء بالنون بإرجاع الضمير اليه سبحانه ؛ وقرىء بالياء بإرجاع الضمير الى اللبوس أو الى داوود أو الى الله سبحانه ﴿ من بأسكم ﴾ أي من حربكم مع أعدائكم ، أو من وقع السلاح فيكم .

﴿ فهل أنتم ﴾ يا أهل مكة ﴿ شاكرون ﴾ لهذه النعمة التي أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام في معنى الأمر ، ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان فقال :

﴿ و ﴾ سخرنا ﴿ لسليمان الريح ﴾ عبر هنا باللام الدالة على التمليك ، وفي داوود بـ ﴿ مع ﴾ وذلك أن الجبال والطير لما اشتركا معه في التسبيح ناسب فيه ذكر ﴿ مع ﴾ الدالة على الاصطحاب ، ولما كانت الريح مستخدمة لسليمان

أتى بلام الملك لأنها في طاعته وتحت أمره ، والريح هو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحس بحركته ويخفي عن البصر بلطفه .

﴿ عاصفة ﴾ أي شديدة الهبوب وخفيفته ، يقال عصفت الريح أي اشتدت فهي ريح عاصف وعصوف ﴿ تجري بأمره ﴾ أي إن أراد أن تشتد اشتدت ، وإن أراد أن تلين لانت ، فهي جامعة للوصفين في وقت واحد ، وهذه آية أخرى غير التسخير .

﴿إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ أي تجري منتهية اليها في رواحه من سفره ، أي رجوعه منه وهي أرض الشام . عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي ، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس، ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم تسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة .

﴿ وكنا بكل شيء ﴾ وتدبيره ﴿ عالمين و ﴾ سخرنا له ﴿ من الشياطين ﴾ أي الكافرين من الجن دون المؤمنين ﴿ من يغوصون له ﴾ في البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم ، والغوص النزول تحت الماء ، يقال غاص في الماء ، والغوّاص الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ .

﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ قال الفراء : أي سوى ذلك، ودون بمعنى غير وسوى لا بمعنى أقل وأدون ، أي سوى الغوص كالبناء والنورة والطاحون والقوارير والصابون ، لأن ذلك من استخراجهم ، وقيل يراد بذلك المحاريب والتماثيل ، وغير ذلك مما يسخرهم فيه .

﴿ وكنا لهم ﴾ أي لأعمالهم ﴿ حافظين ﴾ وقال الفراء أي من أن يهربوا ويمتنعوا أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدون ما عملوا ، وإن دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار .

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ أيوبَ إذ نادى ربه ﴾ لما ابتلي بفقد ماله وولده وتمزيق جسده وهجر جميع الناس له الا زوجته ، وضيق عيشه ﴿أني﴾ أي بأني ﴿ مسني الضر ﴾ اختلف في الضر الذي كان نزل به ماذا هو ، فقيل إنه قام ليصلي فلم يقدر على النهوض . وقيل إنه أقر بالعجز فلا يكون ذلك منافياً للصبر . وقيل انقطع الوحي عنه أربعين يوماً .

وقيل:ان دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها في موضعها فأكلت منه فصاح مسني الضر . وقيل:كانت الدود تناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه . وقيل:إنه ضره قول إبليس لزوجته اسجدي لي ، فخاف ذهاب ايمانها ، وقيل :إنها تقذره قومه ؛ وقيل : أراد بالضر الشماتة ، وقيل غير ذلك .

وأخرج ابن عساكر والديلمي وابن النجار عن عقبة بن عامر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله لأيوب : « تدري ما جرمك عليّ حتى ابتليتك ؟ قال لا يا رب ، قال لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين » . وعن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ولم يأمر بالمعروف ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله ، وفي إسناده جُوَيبر، ولما نادى ربه متضرعاً إليه وصفه بغاية الرحمة فقال :

﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وألطف في السؤال ولم يصرح بالمطلوب فكأنه

قال أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر . قيل وإنما شكا إليه تلذذاً بالنجوى منه لا تضرراً بالشكوى ، والشكاية إليه غاية القرب ، كما أن الشكاية منه غاية البعد ، فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه فقال : ﴿ فاستجبنا له ﴾ نداءه الذي في ضمنه الدعاء ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ أي شفاه الله مما كان به وأعاده بما ذهب عليه . وقال له اركض برجلك فركض فنبعت عين ماء ، فأمره أن يغتسل منها ، ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ، ثم مشى أربعين خطوة ، فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد ، فأمره أن يشرب منها ، فشرب فذهب كل داء كان بباطنه ، فصار كأصح ما كان .

عن عبدالله بن عبد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقام من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان علم الله من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان .

ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ، ثم خر ساجداً وقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه ، وقد رواه ابن أبي حاتم مرفوعاً بنحو هذا .

﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قيل تركهم الله عز وجل وأعطاه مثلهم في الدنيا . قال النحاس : والإسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعاً إلا امرأته فأحياهم الله في أقل من طرف البصر وآتاه مثلهم معهم ، وهو ظاهر القرآن ، وبه قال أكثر المفسرين ، وكان له سبعة بنين وسبع بنات . وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ؛ فيكون معنى الآية على هذا آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم . وعن مجاهد قال : قيل له يا أيوب إن

أهلك لك في الجنة فإن شئت أتيناك بهم وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ، قال له بل اتركهم لي في الجنة ، قال فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا ، وقال ابن مسعود : أوتي أهله بأعيانهم ومثلهم معهم .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن ابي حاتم والروياني وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه ، كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد، قال وما ذاك ؟ قال منذ ثماني عشرة سنة ولم يرحمه الله فيكشف عنه ما به .

فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب لا أدري ما نقول غير أن الله يعلم أني أمر بالرجلين يتنازعان يذكر ان الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله إلا في حق »[1] وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيديه حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله الى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ، رأيت نبي الله المبتلى ؟ والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ، قال فإني أنا هو .

قال وكان له اندران ، أندر للقمح واندر للشعير ، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح افرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض .

---

(١) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٨١ .

وأندر هو البيدر بلغة أهل الشام والجمع الأنادر ؛ والبيدر موضع يداس فيه الطعام ، وأندر اسم جنس فيكون مصروفاً ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كثوابه ، واختلف في مدة إقامته على البلاء ، فقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال ؛ وقيل ثلاثين سنة ، وقيل ثماني عشرة سنة .

قال الكرخي : وهذا القول هو الصحيح ، وعاش أيوب ثلاثاً وستين سنة وكان أيوب رجلاً من الروم ، ينتسب للعيص بن إسحاق ، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إسماعيل ﴾ الصابر على الانقياد للذبح وعاش مائة وثلاثين سنة ﴿ وإدريس ﴾ هو أخنوخ جد نوح ولد في حياة آدم قبل موته بمائة سنة ، وبعث بعد موته بمائتي سنة ، وعاش بعد نبوته مائة وخمسين سنة ، فتكون جملة عمره أربعمائة وخمسين سنة ، وكان بينه وبين نوح ألف سنة .

﴿ وذا الكفل ﴾ هو إلياس، وقيل يوشع بن نون ، وقيل زكريا ، والصحيح أنه رجل من بني إسرائيل كان لا يتورع عن شيء من المعاصي فتاب فغفر الله له وقيل إن اليسع لما كبر قال : من يتكفل لي بكذا وكذا من خصال الخير حتى استخلفه فقال رجل : أنا فاستخلفه ، وسمي ذا الكفل ، وقيل كان رجلاً يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع في شيء من المهمات .

وقيل هو ولد أيوب واسمه بشر بعثه الله بعد أبيه ، وسماه ذا الكفل وأمره بالتوحيد ، وكان مقيماً بالشام حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة ، وعن مجاهد قال : رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمي ذا الكفل .

وعن ابن عباس قال : كان في بني إسرائيل قاض فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامي على أن لا يغضب ، فقال رجل أنـا ، فسمي ذا الكفل ، فكان ليله جميعاً يصلي ثم يصبح صائماً فيقضي بين النـاس وذكر قصة .

وعن أبي موسى الأشعري قال : ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتوفي فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل .

وأخـرج أحمـد والترمذي وحسنه وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنـب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبي فهي لك ، وقال والله لا أعصي الله بعدها أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه « ان الله قد غفر لذي الكفل »[1] .

وقد ذهب الجمهور الى أنه ليس بنبي ، وبه قال أبو موسى الأشعري ومجاهد وغيرهما ، وقال جماعة : هو نبي ولعله هو الصحيح ، وبه قال الحسن لأن الله قرن ذكره بإسماعيل وإدريس ؛ ولأن السورة ملقبة بسورة الأنبيـاء ؛ ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال :

﴿ كل من الصابرين ﴾ على القيام بما كلفهم الله به ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾ أي في الجنة أو في النبوة أو في الخير على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿إنهم من الصالحين ﴾ أي الكاملين في الصلاح .

---

(١) الترمذي، كتاب القيامة باب ٤٨ ـ الإمام أحمد ٢ /٢٣ .

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ
إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ
وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ
رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا
لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿ذا النون﴾ هو يونس بن متى على وزن شتى اسم لوالده على ما ذكره صاحب القاموس، أو اسم لأمه على ما قاله ابن الأثير وغيره.

وقال الشهاب: ومتى اسم أبيه على الصحيح، وسمي ذا النون لابتلاع الحوت له، فإن النون اسم للحوت وجمعه أنوان ونينان، والحوت السمكة، وجمعه حيتان، وقيل سمي به لأنه رأى صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته لئلا تصيبه العين وعن ابن الأعرابي أن نونة الصبي هي الثقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير ومعنى دسموا سودوا.

﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي اذكره وقت ذهابه مغاضباً أي مراغماً لقومه لا لربه، وقال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير: مغاضباً لربه، واختاره ابن جرير والقتيبي، وحكى عن ابن مسعود، قال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى مغاضباً لأجل ربه، كما تقول: غضبت لك أي من أجلك، وقال الضحاك، مغاضباً لقومه، وحكى عن ابن عباس.

وقالت فرقة منهم الأخفش إنما خرج مغاضباً للملك الذي كان في وقته واسمه حزقيا، وقيل لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك، ولكنه مأخوذ من

غضب إذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وكانوا يسكنون فلسطين وخرج عنهم ، تابوا وكشف الله عنهم العذاب ، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك وخرج عنهم .

﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ بفتح النون وكسر الدال ؛ واختلف في معنى الآية على هذه القراءة ، فقيل : معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته ، وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ؛ فإن هذا الظن بالله كفر ؛ ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم السلام .

وذهب جمهور العلماء إلى أن معناها فظن أن لن نضيق عليه كقوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يضيق ، ومنه قوله : ﴿ومن قدر عليه رزقه ﴾ ، يقال يقدر وقدر وقتر وقتر أي ضيق ، وقيل هو من القدر الذي هو القضاء والحكم دون القدرة والاستطاعة أي فظن أن لن نقضي عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج .

قال ثعلب : هو من القدير ليس من القدرة يقال منه قدر الله لك الخير يقدره قدراً ؛ ويؤيده قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري ، نُقَدِّر بضم النون وتشديد الدال من التقدير ، وحكى هذا عن ابن عباس ، ويؤيده قراءة قتادة والأعرج يُقَدّرَ مبنياً للمفعول من التقدير ، وقرىء يُقَدّرَ مخففاً مبنياً للمفعول .

وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ؛ ثم قال فوالله لئن قدر الله عليّ ، الحديث[1] كما اختلفوا في تأويل هذه الآية والكلام في هذا يطول ، وقد ذكرنا ههنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره .

---

(١) مسلم ٢٧٥٦ ـ البخاري ١٦٣٥ .

﴿ فنادى في الظلمات ﴾ الفاء فصيحة أي كان ما كان من التقام الحوت له فنادى ، والمراد بالظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، قاله ابن مسعود .

وكان نداؤه هو قوله : ﴿ أن ﴾ أي بأن ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ يعني تنزيهاً من أن يعجزك شيء ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ الذين يظلمون أنفسهم ، وأول هذا الدعاء تهليل وأوسطه تسبيح وآخره إقرار بالذنب .

وقال الحسن وقتادة : هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته قال ذلك وهو في بطن الحوت ، قيل مكث فيه أربعين يوماً وليلة ، وقيل سبعة وقيل ثلاثة كما في الخازن ، وفي البيضاوي أربع ساعات .

ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ أي غم الذلة والوحشة والوحدة بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم ، وما أعددناه لهم من الرحمة إذا دعونا واستغاثوا بنا وهذا هو معنى الآية الأخرى وهي قوله : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قرىء ننجي بنونين وبواحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضي ، وإضمار المصدر أي وكذلك نجى النجاة المؤمنين ؛ كما تقول ضرب زيداً ، أي ضرب الضرب زيداً ، قاله الفراء وأبو عبيد وثعلب .

وخطأها أبو حاتم والزجاج ، وقالا : هي لحن لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ، وانما يقال نجى المؤمنون ، وقيل أدغم النون في الجيم وبه قال القتبي وأبو عبيدة واعترضه النحاس ، فقال : هذا لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج المدغم والمدغم فيه .

قيل كانت هذه الواقعة قبل الرسالة وصححه الخازن ويدل له قوله تعالى بعد ذكر خروجه من بطن الحوت ، في سورة الصافات ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي ، عن سعد ابن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله (ﷺ) قال : « دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلا أنت الخ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له »[1] .

وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطي دعوة يونس بن متى ، قلت : يا رسول الله هل ليونس خاصة ؟ أم لجماعة المسلمين قال : هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به ، ألم تسمع قول الله ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه » .

وأخرج الحاكم من حديثه أيضاً نحوه ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »[1] وروي أيضاً في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود ، وروي أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ زكريا إذ نادى ربه ﴾ أي وقت ندائه لربه قال : ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي منفرداً وحيداً لا ولد لي يرثني ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ أي خير من يبقى بعد

---

(١) المستدرك كتاب الدعاء ١/٥٠٥ .

(١) مسلم ٢٣٧٦ ـ البخاري ١٦٠٨ .

كل من يموت فأنت حسبي إن لم ترزقني ولداً فإني أعلم أنك لا تضيع دينك وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ .

﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ ولداً ، وقد تقدم تفسيره مستوفى في سورة مريم ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً ، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه ، وقيل كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية .

قال ابن عباس : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله ، وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين ، وقال ايضاً : وهبنا له ولدها ، وعن قتادة قال : كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً ووهب له منها يحيى .

﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم السلام ، والمعنى يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير وهو السر في إيثار كلمة في على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجيهن اليها كما في قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقيل الضمير راجع الى زكريا وامرأته ويحيى ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ أي يتضرعون إلينا في حال الرخاء وحال الشدة . وقيل الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء والرهبة رفع ظهورها ، والتقدير يرغبون رغباً ويرهبون رهباً ، أو للرغب والرهب ، أو راغبين وراهبين ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أي متواضعين متضرعين . قال قتادة : أذلاء، وقال ابن جريج : رغباً في رحمة الله ورهباً من عذاب الله .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله رغباً ورهباً ، فقال : رغباً هكذا ورهباً هكذا ، وبسط كفيه يعني جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة » .

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ
ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ
فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ
كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ
ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي
غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ التي أحصنت فرجها ﴾ وهي مريم فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر ؛ وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما في ذكر قصتها من الآية الباهرة ، ومعنى أحصنت عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها .

وقيل المراد بالفرج جيب القميص ، أي أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا في سورة النساء ومريم .

﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ أضاف سبحانه الروح إليه وهو للملك تشريفاً وتعظيماً ، وهو يريد روح عيسى . وقيل المراد بالروح جبريل ؛ أي أمرناه فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى .

﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ قال الزجاج : الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل . وقيل إن التقدير على مذهب سيبويه وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية ، كقوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ والمعنى أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما، وقيل أراد

بالآية الجنس الشامل لكل واحد منها من الآيات . ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال :

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ الأمة الملة وهي الدين كما قال ابن قتيبة ، ومنه ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي على دين وملة ؛ كأنه قال إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك الا الكفرة المشركون بالله . وقيل المعنى إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة ، وقيل المعنى إن هذه ملتكم ملة واحدة وهي ملة الإسلام. والنصب على الحال ، أي أمة متفقة غير مختلفة قال ابن عباس أي أن هذا دينكم ديناً واحداً ، وعن مجاهد مثله وعن قتادة نحوه .

﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ خاصة لا تعبدوا غيري كائناً ما كان .

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي تفرقوا فرقاً في الدين حتى صاروا كالقطع المتفرقة . وقال الأخفش : اختلفوا فيه ، وهو القول الأول . قال الأزهري : أي تفرقوا في أمرهم ، فنصب أمرهم بحذف في والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله . وقيل المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وقسموه بينهم ، فهذا موحد وهذا يهودي ، وهذا نصراني وهذا مجوسي وهذا عابد وثن ، ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع اليه فقال :

﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي كل واحد من هذه الفرق الثابت على دينه الحق ، والزائغ عنه الى غيره راجع الينا بالبعث لا إلى غيرنا ﴿ فمن يعمل من الصالحات ﴾ أي بعض الأعمال الصالحة كالفرائض والنوافل لا كلها ، إذ لا يطيق ذلك أحد وقيل ﴿ من ﴾ زائدة ﴿ وهو مؤمن ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ أي لا جحود لعمله ولا بطلان لثوابه ولا تضييع لجزائه ؛ بل يشكرويثاب عليه .

والمراد نفي الجنس للمبالغة لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها ،

والكفر ضد الإيمان، والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر ، يقال كفر كفوراً ، وكفراناً . وفي قراءة ابن مسعود فلا كفر لسعيه ﴿وإنا له ﴾ أي لسعيه ﴿ كاتبون ﴾ أي حافظون ، بأن نأمر الحفظة بكتبه فنجازيه عليه ، ومثله قوله سبحانه ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ .

﴿ وحرام ﴾ هكذا قرأ أهل المدينة ، وقرأ أهل الكوفة وحِرْم ، وبها قرأ عليّ وابن مسعود وابن عباس وهما لغتان مثل حل وحلال ، وقرىء وحرم ﴿ على قرية أهلكناها﴾ أي قدرنا إهلاكها ﴿أنهم لا يرجعون ﴾ اي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء . وقيل ﴿ لا ﴾ زائدة ، أي أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا ، واختاره ابو عبيدة . وقيل إن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب ؛ أي واجب على قرية . وقيل حرام أي ممتنع رجوعهم إلى التوبة ، على أن ﴿ لا ﴾ زائدة .

قال النحاس : والآية مشكلة . ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما روي عن ابن عباس في معنى الآية قال : واجب أنهم لا يتوبون . قال الزجاج وأبو علي الفارسي : إن في الكلام إضماراً، أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوب أهلها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون .

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ حتى هذه هي التي يحكى بعدها الكلام وقيل حتى للغاية ، والمعنى أن هؤلاء المذكورين سابقاً مستمرون على ما هم عليه الى يوم القيامة ، وهي فتح سد يأجوج ومأجوج ، وأطال سليمان الجمل في بيان ﴿ حتى ﴾ هذه وذكر لها وجوهاً ، ويأجوج ومأجوج بالهمز وتركه اسمان أعجميان وهما قبيلتان من الإنس، يقال إنهما تسعة أعشار بني آدم ، والمراد بالفتح فتح السد الذي عليهم على حذف المضاف .

﴿ وهم ﴾ أي يأجوج ومأجوج أو العالم بأسره والأول أظهر ﴿ من كل حدب ﴾ أي نشز ، وهو كل أكمة وكدية من الأرض مرتفعة ، والجمع أحداب

مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى ﴿ ينسلون ﴾ يسرعون وقيل يخرجون . قال الزجاج : النسلان مشية الذئب اذا أسرع ، يقال نسل فلان في العَدْوِ ينسِلُ بالكسر والضم نسلاً ونسولاً ونسلاناً ، والنسلان مقارنة الخطأ مع الإسـراع. وقال ابن عباس : ينسلون يقبلون ، وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم وبيان حالهم ومآلهم أحاديث وآثار كثيرة لا يتعلق بذكرها هنا كثيـر فائدة ، وكتابنا حجج الكرامة قد اشتمل عليها اشتمالاً تاماً فليرجع اليه .

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ المراد به ما بعد الفتح من الحساب ، وقال الفراء والكسائي وغيرهما : المراد بالوعد الحق القيامة ، والواو زائدة ، والمعنى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة ، فاقترب جواب اذا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ﴾ . وأجاز الفراء أن يكون جوابه فإذا هي شاخصة ، وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير قالوا يا ويلنا وبه قال الزجاج ، وقيل غير ذلك .

﴿ فإذا هي ﴾ يعني القيامة ، بارزة واقعة كأنها آية حاضرة ﴿ شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ يعني أن القيامة اذا قامت شخصت أبصار الكفار من شدة الأهوال ولا تكاد تطرف من هول ذلك اليوم وهول ما هم فيه . ومعنى شاخصة مرتفعة الأجفان ، وانما هو في القيامة بعد النفخة الثانية ، فالتعقيب عرفي أريد به المبالغة هنا .

﴿ يا ويلنا ﴾ على تقدير القول ﴿ قد كنا في غفلة ﴾ في الدنيا ﴿ من هذا ﴾ أي من هذا الذي دهمنا من البعث والحساب ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن غافلين ، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل ، ثم بين سبحانه حال معبوديهم يوم القيامة فقال :

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

﴿إنكم﴾ يا أهل مكة ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام والشمس والقمر وإبليس وأعوانه ﴿حصب﴾ أي وقود ﴿جهنم﴾ وحطبها ، فكل ما أوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب ، كذا قال الجوهري ، وقال أبو عبيدة ؛ كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾ وقرىء حطب جهنم بالطاء وقرىء حضب بالمعجمة . قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب في لغة أهل اليمن الحطب ، ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به التبكيت لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم، وقيل إنها تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم ، وكذلك الشمس والقمر يكونان ثورين عقيرين في النار أيضاً ، كما صح بذلك خبر أبي هريرة ، أخرجه البيهقي وأصله في البخاري .

﴿أنتم لها واردون﴾ الخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً ، واللام في لها للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل . وقيل هي بمعنى على ، والمراد بالورود هنا الدخول . قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ؛ لأن ﴿ما﴾ لما لا يعقل ، ولو أراد العموم لقال ومن تعبدون .

قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم . قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : « فالملائكة وعيسى وعزير

يُعبدون من دون الله » فنزلت ﴿ إن الذين سبقت ﴾ الآية . وفي الباب روايات ﴿ لو كان هؤلاء ﴾ أي هذه الأصنام ﴿ آلهة ﴾ كما تزعمون ﴿ ما وردوها ﴾ أي ما ورد العابدون والمعبودون في النار ، وقيل العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿ وكلٌ فيها ﴾ أي كل العابدين والمعبودين في النار ﴿ خالدين ﴾ لا يخرجون منها .

﴿ لهم ﴾ أي لهؤلاء الذين وردوا النار ﴿ فيها زفير ﴾ وهو صوت نفس المغموم ، والمراد هنا الأنين والبكاء والتنفس الشديد والعويل . وقد تقدم بيان هذا في هود ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول . وقال ابن مسعود في الآية : إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أُخر، ثم تلك التوابيت في توابيت أُخر عليها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره .

وقيل لا يسمعون شيئاً لأنهم يحشرون صماً ، كما قال سبحانه : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ وإنما سلبوا السماع لأن فيه بعض تروّح وتأنس . وقيل لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوءهم ، ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال :

﴿ إن ﴾ هي بمعنى إلا ، أي إلا ﴿ الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أي العدة الجميلة والخصلة الحسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة . وقيل التوفيق أو التبشير بالجنة أو نفس الجنة ﴿ أولئك ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفة ﴿ عنها ﴾ عن جهنم ﴿ مبعدون ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة . وقال الجنيد : المعنى سبقت منا العناية في البداية فظهرت لهم الولاية في النهاية .

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا
يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي
كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي
ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ الحس والحسيس الصوت تسمعه من شيء يمر قريباً منك . والمعنى لا يسمعون حركة النار وصوتها وحركة تلهبها .

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حيات على الصراط تقول حس حس » .

وعن ابن عثمان النهدي قال : حيات على الصراط تلسعهم فإذا لسعتهم قالوا : حس حس ، وقال ابن عباس : لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة .

﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم ﴾ من النعيم والكرامة ﴿ خالدون ﴾ أي دائمون مقيمون، والشهوة طلب النفس اللذة ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين كما قال تعالى :﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾﴿ لا يحزنهم ﴾ بفتح الياء وضم الزاي ، وقرىء بضم الياء وكسر الزاي .

قال اليزيدي : حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم ، بيان لنجاتهم من الفزع بالكلية إثر بيان نجاتهم من النار لأنهم إذا لم يحزنهم ﴿ الفزع الأكبر ﴾ وهو أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ، والأمر بالعبد الى النار ، لا يحزنهم ما عداه بالضرورة .

وقال ابن عباس : هو النفخة الآخرة ، وقيل هو حين يذبح الموت وينادي يا أهل النار خلود ولا موت ، وقيل هو حين يطبق على جهنم ، وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه ، ثم تغلق النار على أهلها .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ رجل أمَّ قوماً وهم له راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة وعبد أدى حق الله وحق مواليه »[1] .

﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ أي تستقبلهم على أبواب الجنة يهنونهم ، وقال المحلي : عند خروجهم من القبور ، ولا مانع أنها تستقبلهم في الحالين ، ويقولون لهم ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ به في الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين : أن المراد بقوله : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ الى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح لا المسيح وعزير والملائكة ، لأن علياً قرأ هذه الآية ، ثم قال : أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف .

وقال أكثر المفسرين : إنه لما نزل ﴿إنكم وما تعبدون ﴾ الآية أتى ابن الزبعري[2] الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ألست تزعم أن عزيراً رجل صالح وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال : بلى ، قال : فإن الملائكة وعيسى وعزيرا ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار ، فأنزل الله هذه الآية الى آخرها أخرجه ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس وأخرجه أبو داود والطبراني من وجه آخر بأطول منه .

---

(١) الترمذي كتاب البر باب ٥٤ ـ كتاب الجنة باب ٢٥ ـ الإمام أحمد ٢/٢٦ .

(٢) الزبعرى معناه السيء الخلق الغليظ وهو لقب والد عبد الله القرشي ولقد أسلم بعد هذه القصة إ هـ منه .

﴿ يوم نطوي ﴾ بنون العظمة اي اذكر يوم نطوي ﴿ السماء كطي السجل للكتب ﴾ وقرىء تطوى بالفوقية ورفع السماء ، وبالتحتية على معنى يطوي الله السماء ، والأولى أظهر وأوضح والطي في هذه الآية يحتمل معنيين :

أحدهما الذي هو ضد النشر ، ومنه قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ .

والثاني الإخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ، ويكدر نجومها ، والمراد بالسماء الجنس والسجل الصحيفة أي طياً كطي الطومار للكتابة ، وقيل السجل الصك وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة وأصلها من السجل وهو الدلو ، يقال ساجلت الرجل ، اذا نزعت دلواً ونزع هو دلواً ؛ ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام ، وقرىء السُّجُلّ بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرىء السَّجْل بفتح السين واسكان الجيم ، وقيل السجل اسم ملك في السماء الثالثة ، وهو الذي يطوي كتب بني آدم .

وقيل هو اسم كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس أخرجه أبو داود والنسائي ، وعن ابن عمر مثله ، قال ابن كثير : هذا منكر جداً ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وان كان في سنن أبي داود منهم الحافظ المزي وقد أفرد الشوكاني لهذا الحديث جزءاً على حدة ، وقد تصدى الإمام ابن جرير للإنكار على هذا الحديث ورده أتم رد ، وقال : ولا نعرف في الصحابة أحداً اسمه سجل ، وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجل انتهى ، وصدق رحمه الله في ذلك ، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم ، قال : والصحيح عن ابن عباس أن السجل هو الصحيفة ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير

واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ، قلت فالأولى التعويل على المعنى اللغوي ؛ والمصير اليه .

وأخرج النسائي عن ابن عباس قال : السجل هو الرجل أي بلغة الحبشة ، والأول أولى ، وقرىء للكتب جمعاً ؛ وللكتاب وهو متعلق بمحذوف حال من السجل أي كطي السجل كائناً للكتب فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة .

وأما على الثانية فالكتاب مصدر ، واللام للتعليل ، أي كما يطوى الطومار للكتابة أي ليكتب فيه أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة والأعمال المنتشرة وهذا على أن معنى الطي ضد النشر .

وعن علي قال : كطي السجل ملك ، وعن عطية وأبي جعفر مثله ، قال ابن عمر : السجل ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نوراً .

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ بعد إعدامه تشبيهاً للإعادة بالابتداء في تناول القدرة لهما على السواء أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم ، وأخرجناهم الى الأرض حفاة عراة غرلاً ، كذلك نعيدهم يوم القيامة ، وإنما خص أول الخلق بالذكر تصويراً للايجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ لشمول الإمكان الذاتي لهما ، وقيل معنى الآية نهلك كل نفس كما كان أول مرة ، قاله ابن عباس ، وقيل المعنى نغير السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأول أولى ؛ وهو مثل قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ ثم قال سبحانه .

﴿ وعداً علينا ﴾ أي وعدنا وعداً علينا إنجازه والوفاء به وهو البعث والإعادة ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال ، قال الزجاج : معناه إنا كنا قادرين على ما نشاءه ، وقيل فاعلين ما وعدناكم ، ومثله قوله : ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ .

﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ هو في الأصل الكتاب ، يقال زبرت أي كتبت وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور ، والمراد جنس الكتب المنزلة ، قاله الزجاج .

وقيل المراد به هنا كتاب داود خاصة ﴿ من بعد الذكر ﴾ أي اللوح المحفوظ كما في البيضاوي والخازن وأبي السعود وأبي حيان .

وقيل هو القرآن قاله ابن عباس ، وعنه قال : والذكر الأصل الذي نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء أي والله لقد كتبنا في كتاب داوود من بعد كتبنا في كتاب داوود من بعد كتبنا في التوراة أو من بعد كتبنا في اللوح المحفوظ .

﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ قد اختلف في معنى هذه الآية فقيل المراد أرض الجنة ، قاله ابن عباس ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه : ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ﴾ ، وقيل هي الأرض المقدسة ، وقيل هي أرض الأمم الكثيرة الكافرة ، يرثها نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته بفتحها ، وقيل المراد بذلك بنو إسرائيل بدليل قوله سبحانه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ .

والظاهر أن هذا تبشير لأمته صلى الله عليه وسلم بوراثة أرض الكافرين ، وعليه أكثر المفسرين .

قال ابن عباس : أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون ، وقيل عام في كل صالح فيتناول أمة محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأمم .

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧
قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ
فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا
تَصِفُونَ ۝١١٢﴾

﴿إن في هذا لبلاغاً﴾ أي فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه لكفاية ووصول الى البغية، قاله الرازي، يقال: في هذا الشيء بلاغ، وبلغة وتبلغ أي كفاية، وقيل الإشارة بهذا إلى القرآن، والقرآن زاد الجنة، كبلاغ المسافر.

﴿لقوم عابدين﴾ أي مشغولين بعبادة الله مهتمين بها، والعبادة هي الخضوع والتذلل، وهم أمة محمد (ﷺ) ورأس العبادة الصلاة قال أبو هريرة: الصلوات الخمس، وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمي، عن أنس قال: قال رسول الله (ﷺ) في الآية قال: «ان في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال: «هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة»، وقيل هم العالمون العاملون الموحدون، وقال الرازي: والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين، لأن العلم كالشجرة، والعمل كالثمرة، والشجر بدون الثمر غير مفيد، والثمر بدون الشجر غير كائن.

﴿وما أرسلناك﴾ يا محمد بالشرائع والأحكام ﴿إلا رحمة للعالمين﴾ أي

الإنس والجن ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ؛ والعلل أي : ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ، وقيل معنى كونه رحمة للكفار أنهم آمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال ، وقيل المراد بالعالمين المؤمنون خاصة ، والأول أولى ، بدليل قوله سبحانه : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم .

وعن ابن عباس في الآية قال : من آمن تمت به الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من المسخ ، والخسف والقذف .

وأخرج مسلم عن ابي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : « اني لم ابعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة »[١] واخرج أحمد والطيالسي والطبراني وأبو نعيم ، عن أبي امامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين »[٢] .

وأخرج أحمد والطبراني عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من بني آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين ، فأجعلها عليه صلاة يوم القيامة »[٣] .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا رحمة مهداة »[٤] وقد روي معنى هذا من طرق ، ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال :

﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد ﴾ إن كانت ﴿ ما ﴾ موصولة

---

(١) مسلم ٢٥٩٩ .
(٢) الإمام احمد ٥/٢٦٥ .
(٣) الإمام احمد ٥/٢٩٤ .
(٤) طبقات ابن سعد ١/١٩٢ ـ الطبراني المعجم الكبير ١/٢/٧٦ .

فالمعنى أن الذي يوحى إليّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها وإن كانت ما كافة فالمعنى أن الوحي اليّ مقصور على استئثار الله بالوحدة ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه ، والمراد بهذا الاستفهام الأمر ، أي أسلموا .

﴿ فإن تولوا ﴾ أي أعرضوا عن الإسلام ﴿ فقل ﴾ لهم ﴿ آذنتكم ﴾ أي أعلمتكم أنَّا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين ﴿ على سواء ﴾ في الإعلام لم أخص به بعضكم دون بعض ، كقوله سبحانه : ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ﴾ أي أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً سويت بينهم فيه.

وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إليّ على استواء في العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئاً كتمته على غيره .

﴿وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي ما أدري أقريب حصوله أم بعيد وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله ، وقيل المراد العذاب أو القيامة المشتملة عليه ولا يعلمها الا الله تعالى ، وقيل آذنتكم بالحرب ولكن لا أدري ما يؤذن لي في محاربتكم .

﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه لا تخفى عليه منه خافية ﴿ وان أدري لعله ﴾ أي ما أدري لعل الإمهال ﴿ فتنة لكم ﴾ واختبار ليرى كيف صنعكم .

عن الربيع بن أنس قال : « لما أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم رأى فلاناً ، وهو بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية يقول هذا الملك . وقال : ابن عباس ، يقول ما أخبركم به من العذاب والساعة لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم .

﴿ ومتاع الى حين ﴾ أي وتمتع الى وقت مقدر تقتضيه حكمته ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ بيني وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوض الأمر اليه سبحانه .

وقال ابن عباس : لا يحكم الله إلا بالحق ، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه ، وقرىء رب بضم الباء قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين .

وقرىء أَحْكَمُ بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم ، أي قال محمد : ربي أحكم بالحق من كل حاكم ، وقرىء أَحْكَمَ بصيغة الماضي ، أي أحكم الأمور بالحق ، وقرىء قُلْ بصيغة الأمر ، أي قل يا محمد .

قال أبو عبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف ، والتقدير رب احكم بحكمك الحق . وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين .

ثم قال سبحانه متمماً لتلك الحكاية ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ من الكفر والتكذيب ، أي هو كثير الرحمة لعباده ، والمستعان به في الأمور التي من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم . ومن قولكم : ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم؟﴾ وقولكم : ﴿ اتخذ الرحمن ولداً ﴾، وكثيراً ما يستعمل الوصف في كتاب الله بمعنى الكذب ، كقوله : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وقوله : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ ، وقرىء بالتحتية وبالفوقية على الخطاب .

تم بعون الله الجزء الثامن من كتاب فتح البيان
في مقاصد القرآن ويليه الجزء التاسع وأوله :

تفسير سورة الحج

فهرس الجزء الثامن

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

الجزء التاسع

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

ويشتمل على :

سورة الحج .

سورة المؤمنون .

سورة النور .

سورة الفرقان .

سورة الشعراء .

سورة الحج

(هي سبع أو ثمان وسبعون آية)

اختلف العلماء هل هي مكية أو مدنية ؟ قال ابن عباس : نزلت بالمدينة ، وعن ابن الزبير ومجاهد مثله . وقال قتادة : الا أربع آيات ،«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي» ـ الى قوله ـ «عذاب يوم مقيم» فهن مكيات . وقال ابن عباس: سوى ثلاث ايات. وقيل: أربع ايات الى قوله «عذاب الحريق» وعن النقاش أنه عد ما نزل منها بالمدينة عشر ايات.

وقال الجمهور: ان السورة مختلطة منها مكي ومنها مدني. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح لأن الايات تقتضي ذلك، لأن «يا أيها الناس» مكي، و «يا أيها الذين آمنوا» مدني.

قال الغزنوي : وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكياً ومدنياً، سلمياً وحربياً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً.

وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : نعم . فمن لم يسجدهما فلا يقرؤها »[1] .

قال الترمذي : هذا حديث حسن ليس اسناده بالقوي ، وقد روي عن كثير من الصحابة أن فيها سجدتين ، وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد واسحاق ، وقال بعضهم : أن فيها سجدة واحدة ، وهو قول سفيان الثوري ، وروي هذا عن ابن عباس وابراهيم النخعي .

---

(١) الإمام أحمد ١٥١/٤ ـ الترمذي كتاب الجمعة باب ٥٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ
تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ
حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ
عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤

لما انجر الكلام في خاتمة السورة المتقدمة الى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها حثاً على التقوى التي هي أنفع زاد فقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ أي احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ؛ ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر في موضعه ، وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة البقرة .

﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ تعليل لما قبله من الأمر بالتقوى ، والزلزلة شدة الحركة والازعاج ، وأصلها من زل عن الموضع ، أي زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه أي حركها ، وتكرير الحرف يدل على تأكيد المعنى ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، ومفعوله محذوف تقديره الأرض، ويكون إسناد الزلزلة إلى الساعة على سبيل المجاز العقلي ، وهي على هذا الزلزلة التي هي إحدى أشراط الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة ، هذا قول الجمهور ، أو إلى الظرف لأنها تكون فيها ، كقوله : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ ، ووقتها يكون يوم القيامة .

وقيل إنها تكون في النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها . ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً ، فإن هذا

اسم لها حال وجودها . وقيل في التعبير عنها بالشيء : إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها .

وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم ، عن عمران بن حصين قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الناس ﴾ - إلى قوله - ﴿ عذاب شديد ﴾ ، أنزلت عليه هذه وهو في سفر فقال : أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار ، قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحداً الى الجنة ، فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاربوا وسددوا وأبشروا فإنها لم تكن نبوة قط الا كان بين يديها جاهلية ، فتؤخذ العدة من الجاهلية ، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين . وما مثلكم والأمم الا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير » .

ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ،فكبّروا . ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ، ثم قال إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة،فكبروا ، قال: ولا أدري ، قال الثلثين أم لا ؟[1] .

وأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر عنه مرفوعاً نحوه ، وقال في آخره « اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء الا كثرتاه، يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم ومن بني إبليس، فسري عن القوم بعض الذي يجدون ، قال:اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس الا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة »[2] .

---

(١) المستدرك كتاب الإيمان ١/ ٢٩ .

(٢) الترمذي تفسير سورة ٢٢/١ - ٢٢ - ٢ .

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فذكر نحوه وفي آخره فقال : من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد وهل أنتم في الأمم الا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ؟»[١] .

﴿ يوم ترونها ﴾ أي وقت رؤيتكم للزلزلة ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أي تغفل كل ذات رضاع عن رضيعها ، قال قطرب: تذهل تشتغل ؛ وقيل تنسى ، وقيل :تلهو؛ وقيل:تسلو ،وهذه معانيها متقاربة .

قال المبرد ﴿ ما ﴾ هنا بمعنى المصدر ، أي تذهل عن الإرضاع، قال: وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ، إذ ليس بعد القيامة حمل وارضاع ، الا أن يقال : إن من ماتت حاملاً فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ويقال هذا مثل ، كما يقال : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ ، وقيل يكون مع النفخة الأولى ، قال ويحتمل أن تكون الزلزلة عبارة عن أهوال يوم القيامة ؛ كما في قوله ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ .

﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي تلقي جنينها بغير تمام من شدة الهول ، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاباً لكل واحد ؛ أي يراهم الرائي كأنهم سكارى ، وقرىء ترى بضم التاء مسنداً الى المخاطب من أرأيتك ، أي تظنهم سكارى ، قال الفراء : ولهذه وجه جيد في العربية .

﴿ وما هم بسكارى ﴾ حقيقة ، وقرىء سكرى بغير ألف ، وهما لغتان يجمع بهما سكران ، مثل كسلى وكسالى ، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال :

(١) مسلم ٢٢٢ ـ البخاري ١٥٨٤ .

﴿ ولكنّ عذاب الله شديد ﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى ، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك وروي أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً فقرأهما النبي (ﷺ) فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة . قاله أبو حيان في البحر ، ثم لما أراد سبحانه أن يحتج على منكري البعث قدم قبل ذلك مقدمة تشمل أهل الجدال كلهم فقال : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾ أي في شأن الله وقدرته وصفاته ، والمعنى أنه يخاصم في ذلك فيزعم أنه غير قادر على البعث ﴿ بغير علم ﴾ يعلمه ولا حجة يدلي بها أو يؤول أو يمثل أو يعطل أو يشبه صفاته بصفات الخلق من دون حجة نيّرة أو يكابر في دين الله ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل وتقليد آراء الرجال ﴿ ويتبع ﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه .

﴿ كل شيطان مريد ﴾ أي متمرد على الله متجرد للفساد ، وهو العاتي ، سمي بذلك لخلوه عن كل خير .

وقال الزجّاج: المريد والمارد المرتفع الأملس ، والمراد إما إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم الى الكفر . قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث؟ وكان كثير الجدال ، وكان ينكر أن الله يقدر على احياء الأموات ، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

﴿ كتب عليه ﴾ أي قضى على الشيطان ، قاله قتادة وعن مجاهد مثله ﴿ أنّه من تولاه ﴾ أي من اتخذه ولياً واتّبعه ﴿أنّه﴾ أي فشأن الشيطان أنه ﴿ يضله ﴾ عن طريق الحق والجنة ، وقد وصف الشيطان بوصفين ، الأول أنه مريد ، والثاني ما أفاده جملة : كتب عليه الخ .

﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي يحمله على مباشرة ما يصير به في العذاب ، وفي الآية زجر عن اتباعه ، ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدمة فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾

﴿ يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث ﴾ قرأ الجمهور بسكون العين وقرىء بفتحها وهي لغة ، وشكّهم يحتمل أن يكون في وقوعه أو في مكانه . والمعنى إن كنتم في شك من الإعادة بعد الموت فانظروا في مبدأ خلقكم أي خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة .

﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم وهذا أول تطور الإنسان في أطوار سبعة وهي التراب والنطفة والعلقة والمضغة والإخراج طفلاً وبلوغ الأشد والتوفي أو الرد الى أرذل العمر كما سيأتي تفصيل ذلك ﴿ ثم ﴾ خلقناكم ﴿ من نطفة ﴾ أي من مني سمي نطفة لقلته والنطفة القليل من الماء ، وقد يقع على الكثير منه والنطفة القطرة ، يقال نطف ينطف أي قطر، وليلة نطوف أي دائمة القطر ﴿ ثم من علقة ﴾ وهي الدم الجامد والعلق الدم العبيط أي الطري أو المتجمد وقيل الشديد الحمرة ، والمراد الدم الجامد المتكون من مني ﴿ ثم من مضغة ﴾ وهي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضغ يتكون من العلقة ﴿مخلّقة﴾ أي مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿ وغير مخلّقة﴾ أي لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها .

قال ابن عباس : المخلّقة ما كان حيّاً تام الخلق وغير المخلقة ما كان

سقطاً ، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وقال ابن الاعرابي : مخلّقة يريد قد بدا خلقه وغير مخلّقة لم تصوّر، قال : الأكثر ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام ، وما سقط كان غير مخلقة أي غير حي بإكمال خلقته بالروح ، قال الفرّاء: مخلّقة تام الخلق وغير مخلقة السقط .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم ، عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : إن احدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إلّه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[1] ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً .

﴿ لنبين لكم ﴾ أي خلقناكم على هذا النمط البديع ، لنبين لكم ، كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم لتستدلوا بها في ابتداء الخلق على إعادته ﴿ ونقر ﴾ مستأنف أي نثبت ﴿ في الأرحام ما نشاء ﴾ فلا يكون سقطاً ، ولم يقل من نشاء لأنه يرجع الى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقرىء ما نشاء بكسر النون ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت الولادة ﴿ثمّ نخرجكم ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿ طفلاً ﴾ أي أطفالاً وانما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد .

قال الزجاج : طفلاً في معنى أطفالاً ، ودل عليه ذكر الجماعة ، يعني في

---

(١) مسلم ٢٦٤٣ ـ البخاري ١٥١٤ .

﴿ نخرجكم ﴾ والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة ، والمعنى نخرج كل واحد منكم نحو القوم يشبعهم رغيف أي كل واحد منهم .

وقال المبرّد: هو اسم يستعمل مصدراً كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد ، والجمع قال الله تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا ﴾ ؛ ثم قيل نصبه على التميز ، قاله ابن جرير وفيه بعد ، والظاهر أنه على الحال والطفل يطلق على الولد الصغير من وقت انفصاله الى البلوغ ، وأما الطفل بالفتح فهو الناعم والمرأة طفلة .

﴿ ثم لتبلغوا أشدّكم﴾ كأنه قيل نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ، ثم لتبلغوا إلى الأشد ، وقيل ان ثم زائدة ، والأشد هو كمال العقل ، وكمال القوة والتمييز ؛ قيل وهو ما بين الثلاثين الى الأربعين ، وهو في الأصل جمع شدة كأنعم جمع نعمة ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى في الأنعام ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي يموت قبل بلوغ الأشد الكبر ، وقرىء مبنياً للفاعل أيضاً .

﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ أي أخسّه وأدونه وهو الهرم والخرف وهو خمس وسبعون سنة قاله علي ، وقيل ثمانون سنة ، وقال قتادة : تسعون سنة حتى لا يعقل ، ولهذا قال سبحانه ﴿ لكيلا يعلم ﴾ أي يعقل ﴿ من بعد علم ﴾ أي بعد عقله الأول ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من العلم ، والمعنى أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها لا علم له ولا فهم كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة الرأي وقلة الفقه والعقل والفهم فينسى ما يعلمه ، وينكر ما يعرفه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ وقوله : ﴿ ومن نعمّره ننكّسه في الخلق ﴾ قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة أي فهذا الرد والنكس خاص بغير قارىء القرآن والعلماء ، وأما هؤلاء فلا يردّون في آخر عمرهم إلى الأرذل بل يزداد عقلهم كلما طال عمرهم .

﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذه حجة أخرى على البعث فإنّه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات ، والهامدة اليابسة التي لا تنبت شيئاً ، قال ابن قتيبة : أي ميتة يابسة كالنار إذا طفئت ، وقيل دارسة ، والهمود السكون والخشوع والدروس ، وقيل هي التي ذهب عنها الندى ؛ وقيل هالكة ، ومعاني هذه الأقوال متقاربة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ أي ماء المطر والأنهار والبحار والعيون والسواقي ﴿ اهتزت ﴾ أي تحركت في رأي العين ، والاهتزاز شدة الحركة ، يقال هززت الشيء فاهتز أي حركته فتحرك ، والمعنى تحركت بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقية ، فسمّاه اهتزازاً مجازاً ، وقال المبرّد المعنى اهتز نباتها ، واهتزازه شدة حركته ، والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض ﴿ وربت ﴾ أي ارتفعت ، وقيل انتفخت وزادت ، والمعنى واحد وأصله الزيادة ؛ يقال : ربا الشيء يربو ربواً إذا زاد ، ومنه الربا والربوة وربأت أي ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية ، وهو الذي يحفظ القوم على مكان مشرف ، ويقال له راب ورابية وربيئة .

﴿ وأنبتت ﴾ أي أخرجت ﴿من كل زوج بهيج ﴾ أي من كل صنف حسن ولون مستحسن سارّ للناظرين اليه والبهجة الحسن ، قاله ابن عباس ، يعني الشيء المشرق الجميل و ﴿من ﴾ زائدة ، والاسناد مجازي ، لان المنبت في الحقيقة هو الله تعالى .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾

﴿ ذلك ﴾ الصنع البديع حاصل ﴿ بـأن ﴾ أي بسبب أن ﴿ الله هو الحق ﴾ وحده في ذاته وصفاته وأفعاله المحقق والموجد لما سواه من الأشياء فهذه الآثار الخاصة من فروع القدرة العامة التامة ، والحق هو الموجود الذي لا يتغير ولا يزول ، وقيل ذو الحق على عباده ، وقيل الحق في أفعاله .

قال الزجاج : ذلك في موضع رفع ، أي الأمر ما وصفه لكم وبين بأن الله هو الحق ؛ والجملة مستأنفة ولما ذكر افتقار الموجودات اليه سبحانـه ، وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره ، قال بعد ذلك هذه المقالات .

﴿ وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء ﴾ من الأشياء ﴿ قدير ﴾ والمعنى أنه المتفرد بهذه الأمور ، وأنها من شأنه لا يدعي غيره أنه يقدر على شيء منها فدل سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقي الغني المطلق ، وأن وجود كل موجود مستفاد منه ﴿ وأن الساعة آتية ﴾ أي في مستقبل الزمان ، قيل لا بد من إضمار فعل أي ولتعلموا أن الساعة آتية .

﴿ لا ريب فيها ﴾ ولا تردد ، ثم أخبر سبحانـه عن البعث فقال : ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ان خيراً فخير ، وان شراً

فشر ، وأن ذلك كائن لا محالة ، والحاصل أنّه تعالى ذكر اسباباً خمسة؛الثلاثة الأول مؤثرة ، والأخيران غير مؤثرين .

﴿ ومن الناس من يجادل في ﴾ شـأن ﴿ الله ﴾ كقول من قـال : إن الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله وعزيراً ابن الله ، قيل نزلت في النضر بن الحرث وقيل في أبي جهل ، وقيل في رجل من بني عبد الدار ، قالـه ابن عباس ، وقيل هي عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم وعلى كل حال فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ وإن كان السبب خاصاً .

والمعنى ومن الناس فريق يجادل في الله فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله أو صفاته أو شرائعه الواضحة ﴿ بغير علم ﴾ أي كائناً بغير علم ، قيل والمراد بالعلم هو العلم الضروري ﴿ولا هدى ﴾ وهـو العلم النظري الاستدلالي ؛ لأن الدليل يهدي الى المعرفة، والأولى حمل العلم على العموم وحمل الهدى على معناه اللغوي وهو الارشاد .

﴿ ولا كتاب ﴾ أي وحي ﴿ منير ﴾ وهو القرآن ، والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة والمنير : النير البيّن الحجة الواضح البرهان ، وهو إن دخل تحت قوله بغير علم فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر بعد ذكر الملائكة وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم ، وأما من حمل العلم على الضروري والهدى على الاستدلالي ، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعي فتكون الآية متضمنة لنفي الدليل العقلي ضرورياً كان أو استدلالياً، ومتضمنة لنفي الدليل النقلي بأقسامه وما ذكرناه أولى . قيل والمراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية الأولى أعني قوله : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ وبذلك قال كثير من المفسرين والتكرير للمبالغة في الذم ، كما تقول لرجل تذمّه وتوبّخه : أنت فعلت هذا ! أنت

فعلت هذا ! ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه في كل آية بزيادة ما وصفه به في الآية الأخرى ، وقيل الآية الأولى واردة في المقلَّدين اسم فاعل ، والثانية في المقلِّدين اسم مفعول ، ذكره الزمخشري وقال وهو أوفق وأظهر بالمقام انتهى .

ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم ، والثانية عامة في كل إضلال وجدال .

﴿ ثاني عطفه ﴾ حال أي لاوي عنقه ، قاله قتادة ، وعن ابن عباس والسدي وابن زيد وابن جريج أنه المعرض والعطف الجانب وعطفا الرجل جانباه من يمين وشمال ، وفي تفسيره وجهان :

الأول: أن المراد به من يلوي عنقه مرحاً وكبراً ذكر معناه الزجاج قال : وهذا يوصف به المتكبر ، قال ابن عباس : أي مستكبراً في نفسه ، وقال المبرّد: العطف من انثنى من العنق .

الوجه الثاني: أنّ المراد بقوله : ﴿ ثاني عطفه ﴾ الاعراض أي معرضاً عن الذكر كذا قال الفرّاء والمفضّل وغيرهما كقوله تعالى : ﴿ولىّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ وقوله : ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ وقوله: ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ وقيل المعنى مانع تعطفه إلى غيره .

﴿ ليضلّ عن سبيل الله ﴾ أي ليستمر أو ليزيد ضلاله ، وإن ضلاله كالغرض له لكونه مآله ، قرىء ليضل بفتح الياء وضمها والسبيل هنا الدين ، يعني أن غرضه هو الاضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك ، وقيل هي لام العاقبة كأنه جعل ضلاله عائداً لجداله ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة والخزي والذل ، وذلك بما يناله من العقوبة

في الدنيا ومن العذاب المعجل ، وسوء الذكر على ألسن الناس ، وقيل الخزي الدنيوي هو القتل كما وقع في يوم بدر .

﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ أي عذاب النار المحرقة ، ثم يقال له ﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿ بما قدمت يداك ﴾ من الكفر والمعاصي والباء للسببية ، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصي تكون بها في الغالب ، وفي غير هذه السورة ﴿ أيديكم ﴾ لأن هذه الآية نزلت في أبي جهل وحده وفي غيرها نزلت في جماعة تقدم ذكرهم .

﴿ وأن الله ليس بظلام ﴾ أي بذي ظلم ﴿ للعبيد ﴾ أي والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب . وقد مر الكلام على هذه الآية في آخر آل عمران فلا نعيده ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق . قال أكثر المفسرين الحرف الشك . وأصله من حرف الشيء أي طرفه . مثل حرف الجبل والحائط فإن القائم عليه غير مستقر . والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه . فقيل للشاك في دينه إنه يعبد الله على حرف . أي متزلزلاً لأنه على غير يقين من وعده ووعيده بخلاف المؤمن لانه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف . ففي الآية استعارة تمثيلية .

وقيل الحرف الشرط . والشرط هو قوله : ﴿ فإن أصابه خير ﴾ دنيوي من رخاء وصحة وعافية وسلامة وخصب وكثرة مال ﴿اطمأنّ به ﴾ أي ثبت على دينه واستمر على عبادته أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه وسكن اليه ﴿وإن أصابته فتنة ﴾ أي شيء يفتتن به من مكروه يصيبه في أهله وماله أو نفسه ومعيشته كالجدب والمرض وسائر المحن .

﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد ورجع الى الوجه الذي كان عليه من

الكفر، ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي ذهبا منه وفقدهما فلا حظّ له في الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن وصون المال والدم ولا في الآخرة من الأجر وما أعده الله للصالحين من عباده وقرىء خاسر الدنيا على اسم الفاعل .

﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله . فإنه اذا لم ينضم اليه الأخروي أو بالعكس لم يتمحض خسراناً فلم يظهر كونه كذلك ظهوراً تاماً ، فانحصر الخسران البين فيه على ما دل عليه الإتيان بضمير الفصل . قاله الكرخي .

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس في الآية قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه بسند صحيح قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم يسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، قالوا إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا ما في ديننا هذا خير فأنزل الله هذه الآية .

وعن أبي سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده . فتشاءم بالاسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني أقلني ، قال : « إن الاسلام لا يقال » ، فقال : لم أصب من ديني هذا خيراً ، ذهب بصري ومالي ومات ولدي ، فقال : « يا يهودي الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة » ، فنزلت هذه الآية . أخرجه ابن مردويه .

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾
يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

﴿ يدعو ﴾ أي يعبد هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر ﴿ من دون الله ﴾ أي متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ﴿ ما لا يضره ﴾ إن ترك عبادته وعصاه ﴿ وما لا ينفعه ﴾ إن عبده وأطاعه ؛ لكون ذلك المعبود جماداً لا يقدر على ضر ولا نفع ، والجمع بين نفي النفع والضر هنا ؛ وإثباتهما في قوله : ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ ، الآية ، كما سيأتي بأن معبوداتهم لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن بسبب عبادتها ، فنسب الضرر اليها كما في قوله تعالى : ﴿ رب إنهنّ أضللن كثيراً من الناس ﴾ ؛ حيث أضاف الإضلال اليها من حيث إنها كانت سبب الضلال .

وقال الشهاب : دفع التنافي بأن النفي باعتبار ما في نفس الأمر والاثبات باعتبار زعمهم الباطل . انتهى .

﴿ ذلك ﴾ أي الدعاء المفهوم من يدعو ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن الحق والرشد مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيداً عنها . قال الفراء : البعيد الطويل .

﴿ يدعو ﴾ أي يقول هذا الكافر يوم القيامة. ﴿لمن ضرّه أكثر من نفعه ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً والاصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال ، بل هي ضرر بحت لمن عبدها ، لأنه دخل النار

بسبب عبادتها ، وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حال ذلك الداعي . أو ذلك من باب وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ، واللام هي الموطئة للقسم و﴿ من ﴾ موصولة أو موصوفة ، وضره مبتدأ خبره أقرب ، والجملة صلة الموصول وجملة ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ جواب القسم .

والمعنى أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة ﴿ لبئس المولى ﴾ أنت ﴿ ولبئس العشير أنت ﴾ ، و﴿المولى ﴾ الناصر ، و﴿العشير﴾ الصاحب .

وقال الزجاج : أي ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، وعلى هذا قوله ؛ من ضره كلام مستأنف مبتدأ ، وخبره لبئس المولى ، قال : وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام .

وقال الزجاج والفراء : يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء ، أي يدعو ما لا يضره ولا ينفعه يدعو . وقال الفراء والكسائي والزجاج : معنى الكلام القسم ، والتقدير يدعو من لَضره أقرب من نفعه . وقال محمد بن يزيد : المعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلهاً ، قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطاً منه .

وقال الفراء والقفال : اللام صلة ، والمعنى يدعو من ضرُّه أقرب من نفعه ، واللام في ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ على هذا موطئة للقسم .

﴿إنّ الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ لما فرغ سبحانه في ذكر حال المشركين ومن يعبد الله على حرف ذكر حال المؤمنين في الآخرة ، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة ، وهذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبده على حرف ، وقد تقدم الكلام في جري الأنهار من تحت الجنات ، وبينا أنه إن أريد بها الاشجار

المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أي من تحت أشجارها .

﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ تعليل لما قبلها ، أي يفعل ما يريده من الأفعال لا يسئل عما يفعل ، فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، ويكرم من يطيعه ، ويهين من يعصيه .

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ﴾ قال النحاس ، ومن أحسن ما قيل في هذه الآية إن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً « ﷺ » وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي فليطلب حيلة يصل بها ﴿ الى السماء ثم ليقطع ﴾ النصر ان تهيأ له ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ وحيلته ﴿ ما يغيظ ﴾ إياه من نصر النبي « ﷺ » وحمل ﴿ من ﴾ على الكفار يوافق كلام الجلال ، ومثله في العمادي .

وقال أبو السعود : المعنى أنه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه ، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في الجدّ كل حد معهود ، فقصارى أثره وعاقبة أمره أن يختنق خنقاً مما يرى من ضلال مساعيه ، وعدم إنتاج مقدمات مبادية .

وقيل المعنى فليشدد حبلاً في سقف بيته ثم ليقطع ، أي ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً ، والمعنى فليختنق غيظاً حتى يموت ، فإن الله ناصره صلى الله عليه وسلم ومظهره ولا ينفعه غيظه . وبه قال ابن عباس . وقيل المعنى من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه ، فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق ؟ .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ
وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الانزال البديع من الآيات السابقة ﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهدياً من قبل ، ويضل من يريد ضلالته معطوف على هاء (أنزلناه ﴾ فـ «إن » وصلتها في محل نصب ، ويصح أن تكون في موضع رفع خبر المبتدأ مضمر ؛ أي والأمر أن الله الخ .

﴿إنّ الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿ والذين هادوا ﴾ هم اليهود المنتسبون الى ملة موسى ﴿والصابئين ﴾ هم قوم يعبدون النجوم ؛ وقيل هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء ﴿ والنصارى ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى ﴿ والمجوس ﴾ هم الذين يعبدون النار ويقولون إن للعالم أصلين النور والظلمة .

وقيل هم قوم يعبدون الشمس والقمر ، وقيل هم يستعملون النجاسات . وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح ، وقيل إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى .

﴿ والذين أشركوا ﴾ هم الذين يعبدون الأصنام ؛ وقد مضى تحقيق هذا في البقرة ، ولكنه سبحانه قدم هنالك النصارى على الصابئين وأخّرهم عنهم هنا ، فقيل وجه التقديم هنالك أنهم أهل كتاب دون الصابئين ، ووجه تقديمهم هنا أن زمنهم متقدم على زمن النصارى .

قال قتادة : الصابئون هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون للقبلة ويقرأون الزبور ، والمجوس عبدة الشمس والقمر والنيران ؛ والذين أشركوا عبدة الأوثان ﴿ إن الله يفصل ﴾ أي يقضي ﴿ بينهم يوم القيامة ﴾ فيُدخل المؤمنين منهم الجنة ، والكافرين منهم النار ، وقيل الفصل هو أن يُميِّز المُحق من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منها.

وقيل يفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ، ولا يجمعهم في موطن واحد قال قتادة : الأديان ستة ؛ فخمسة للشيطان وواحد للرحمن . وعن عكرمة قال : فصل قضاء بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة .

وعن ابن عباس قال : ﴿ والذين هادوا ﴾ اليهود والصابئون ليس لهم كتاب ، والمجوس أصحاب الأصنام ، والمشركون نصارى العرب ﴿إن الله ﴾ تعليل لما قبلها وكأن قائلاً قال : أهذا الفصل عن علم أو لا ؟ فقيل إن الله ﴿ على كل شيء ﴾ من أفعال خلقه وأقوالهم « شهيد » عالم علم مشاهدة لا يعزب عنه شيء منها ، ومن قضيته الاحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة ، والظاهر تعميم الكلام لعبدة الأوثان ولعباد الشمس والقمر والنجوم . قاله الكرخي .

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ الرؤية هنا هي القلبية لا البصرية ، وذلك لأن رؤية سجود هذه الأشياء لله إنما جاءنا من طريق العقل لأنا لا نراه بأبصارنا ، والخطاب لكل من يصلح له ، وهو من تتأتى منه الرؤية ، والمراد بالسجود هنا هو الانقياد الكامل لا سجود الطاعة

الخاصة بالعقلاء ، سواء جعلت كلمة ﴿ مَنْ ﴾ خاصة بالعقلاء أو عامة لهم ولغيرهم ، ولهذا عطف .

﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ على ﴿ من ﴾ فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء ، وإنّما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت ﴿ من ﴾ على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعداً في العادة . وقوله :

﴿ وكثير من الناس ﴾ مرتفع على الابتداء وخبره محذوف ، تقديره وكثير من الناس يستحق الثواب ، وإنما لم يرتفع بالعطف على ﴿ من ﴾ لأن سجود هؤلاء الكثير هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، والمراد بالسجود المتقدم هو الانقياد فلو ارتفع بالعطف لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد ، وأنت خبير بأنه لا ملجيء إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم ، لا نفس السجود الخاص ، فارتفاعه بالعطف لا بأس به ، وإن أبى ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه .

﴿ وكثير ﴾ مرتفع بالابتداء وخبره ﴿ حق عليه العذاب ﴾ قاله الكسائي والفراء وقيل معطوف على كثير ، الأول أي وكثير من الناس يسجد ؛ وكثير منهم يأبى ذلك . وقيل المعنى وكثير من الناس في الجنة ، وكثير حق عليه العذاب . هكذا حكاه ابن الانباري .

﴿ ومن يهن الله ﴾ أي من أهانه الله بأن جعله كافراً شقياً ﴿ فما له من مكرم ﴾ يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً . وحكى الأخفش والكسائي والفراء أي من إكرام ؛ فهو على هذا مكرم بفتح الراء اسم مصدر .

﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما تقدم ذكره من الشقاوة والسعادة والاكرام والاهانة ، وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم لأنهم يقولون : شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء

۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ
يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾
وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا
وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ
صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

وهذه السجدة من عزائم السجود ، فيسنّ للقارىء والمستمع أن يسجدا عند تلاوتها أو سماعها ﴿هذان خصمان﴾ أحدهما أنجس الفرق اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا ، والخصم الآخر المسلمون فهما فريقان يختصمان قاله الفراء وغيره ، وقيل المراد بالخصمين الجنة والنار ، قالت الجنة خلقني لـرحمته ، وقالت النار: خلقني لعقـوبته وهـو ضعيف ، وقيل المـراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر فمن المؤمنين حمزة وعلي وعبيدة ، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وقد كان أبو ذر يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما ، وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة والتابعين وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أيضاً عن علي أنه قال : فينا نزلت هذه الآية ، وأنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة : وقال سبحانه .

﴿ اختصموا ﴾ ولم يقل اختصما لأنهم جمع ، ولو قال اختصما لجاز ، قاله

الفراء ﴿ في ﴾ شأن ﴿ ربهم ﴾ أي في دينه أو في ذاته أو في صفاته أو في شريعته لعباده أو في جميع ذلك .

قال أبو حيان : الظاهر أن الاختصام هو في الآخرة ، بدليل التقسيم بالفاء الدالة على التعقيب في قوله : فالذين كفروا ، وإن قلنا هذا في الدنيا فالجواب أنه لما كان تحقيق مضمونه في ذلك اليوم صح جعل يوم القيامة ظرفاً له بهذا الاعتبار ثم فصّل سبحانه ما أجمله في قوله يفصل بينهم فقال :

﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ أي قدرت لهم على قدر جثثهم لأن الثياب الجدد تقطع على مقدار بدن من يلبسها ، فالتقطيع مجاز عن التقدير بذكر المسبب وهو التقطيع وارادة السبب وهو التقدير والتخمين ، والظاهر أنه بعد ذلك جعل تقطيعها استعارة تمثيلية تهكمية شبه اعداد النار وإحاطتها بهم بتفصيل ثياب لهم وجمع الثياب لأن النار لتراكمها عليهم كالثياب الملبوس بعضها فوق بعض وهذا أبلغ من جعلها من مقابلة الجمع بالجمع .

قال الأزهري : المعنى سوّيت وجعلت لبوساً لهم ، وإنما شبهت النار بالثياب لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه .

وقيل إن هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار وهي السرابيل المذكورة في آية أخرى ، قاله سعيد بن جبير ، وزاد ليس من الآنية شيء اذا حمي أشد حراً منه ، وقيل المعنى في الآية أحاطت النار بهم ، والحق اجراء النظم القرآني على ظاهره ولا نرتضي تأويله بما يخالف لفظه ومعناه ، وقرىء قُطِعَت بالتخفيف .

﴿يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ هو الماء الحار المغلي بنار جهنم انتهت حرارته ، والجملة مستأنفة ، قال النحاس : يذاب على رؤوسهم ﴿ يصهر به ﴾ أي يذاب بالحميم ﴿ ما في بطونهم ﴾ .

قال ابن عباس : تسيل أمعاؤهم ﴿ والجلود ﴾ قال ابن عباس : يتناثر

جلودهم ، وعن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص الى جوفة فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان » أخرجه الترمذي[1] والحاكم وصححاه وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم .

وعن ابن عباس قال : يمشون وأمعاؤهم تتساقط وجلودهم ، وعنه قال : يسقون ماء اذا دخل في بطونهم أذابها والجلود مع البطون ، والصهر الإذابة والصهارة ما ذاب منه ، يقال صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب فهو صهير ، والمعنى أنه يذاب بذلك الحميم ما في بطونهم من الامعاء والاحشاء ويصهر به الجلود .

وقيل إنّ الجلود لا تذاب بل تحرق فيقدر فعل يناسب ذلك . ويقال وتحرق به الجلود ولا يخفى أنه لا ملجىء لهذا ، فإن الحميم اذا كان يذيب ما في البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولى .

﴿ ولهم ﴾ يجوز في الضمير وجهان أظهرهما أنه يعود على الذين كفروا وفي اللام حينئذ قولان :

أحدهما: أنها للاستحقاق .

والثاني: أنها بمعنى على ، كقوله . ولهم اللعنة وليس بشيء . الوجه الثاني : أن الضمير يعود على الزبانية أعوان جهنم ويدل عليه سياق الكلام وفيه بعد .

وقوله ﴿ مقامع ﴾ جمع مقمعة ومقمع ، يقال قمعته ضربته بالمقمعة وهي قطعة من حديد ، يقال : قمعه يقمعه من باب قطع اذا ضربه بشيء يزجره به ويذله والمقمعة المطرقة ، وقيل السوط وسميت المقامع مقامع لأنها تقمع

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٨٧ .

المضروب أي تذلله ، قال ابن السكيت : يقال : أقمعت الرجل عني اقماعاً اذا طلع عليك فرددته عنك ، والمعنى لهم مقامع كائنة .

﴿ من حديد ﴾ يضربون بها، أخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان »[1] .

﴿ كلما أرادوا ﴾ الارادة هنا مجاز عن القرب ﴿ إن يخرجوا منها ﴾ أي من النار ﴿ من ﴾ أجل ﴿ غم ﴾ شديد من غموم النار يأخذ بأنفاسهم وهو بدل اشتمال من منها بإعادة الجار أو الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بمعنى من أجل أي من أجل غم يلحقهم فخرجوا .

﴿ أعيدوا فيها ﴾ أي ردوا اليها بالضرب بالمقامع ، وهي الجرز من الحديد ؛ والمراد إعادتهم الى معظم النار لا أنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون اليها ، عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ . كلما أرادوا الآية ﴿ و ﴾ قيل لهم ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ أي المحرق الغليظ المنتشر العظيم الاهلاك البالغ نهاية الإحراق وأصل الحريق الاسم من الاحتراق تحرق الشيء بالنار واحترق حرقة واحتراقاً ، والذوق مماسة يحصل معها ادراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به ادراك الألم ، قال الزجاج : وهذا لأحد الخصمين ، وقال في الخصم الآخر وهم المؤمنون .

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ثم بين بعض ما أعده لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال : ﴿يُحَلَّوْنَ فيها﴾ بالتشديد والبناء للمفعول ، وقرىء مخففاً أي يحليهم الله أو الملائكة بأمره ﴿من﴾ للتبعيض أي يحلون بعض ﴿ أساور ﴾ للبيان أو زائدة ، وهي جمع أسورة ، والأسورة جمع سوار ، وفيه لغتان كسر السين وضمها ، وفيه لغة ثالثة وهي أسوار .

(١) المستدرك ، كتاب الأهوال ٤/٦٠٨ .

﴿ من ذهب ﴾ من للبيان ﴿ ولؤلؤاً ﴾ بالنصب أي ويحلون لؤلؤاً وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف ، قال القشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما أن فيها أساور من ذهب ، قال القرطبي : يسور المؤمن في الجنة بثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ .

﴿ ولباسهم ﴾ أي جميع ما يلبسونه ﴿ فيها حرير ﴾ كما تفيده هذه الاضافة ، ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذي كان محرماً عليهم في الدنيا حلال لهم في الآخرة ، وأنه من جملة ما يلبسونه فيها ، ففيها ما تشتهيه الأنفس ؛ وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه ، وينال ما يريده .

وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »(١) وفي الباب أحاديث. وغيّر الأسلوب حيث لم يقل : ويلبسون فيها حريراً ، للمحافظة على الفواصل ، وللدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة في الجنة ، فإن العدول إلى الجملة الاسمية يدل على الدوام .

﴿ وهُدوا ﴾ أي : أرشدوا ﴿ إلى الطيب من القول ﴾ قيل هو لا إله إلا الله ، وقيل الحمد لله ، وقيل القرآن ؛ وقيل هو ما يأتيهم من الله سبحانه من البشارات وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه : ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ الحمد لله الذي هدانا لهذا ، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وقل ابن عباس : هدوا أُلهموا ، وعن أبي العالية قال : في الخصومة اذا قالوا : الله مولانا ولا مولى لكم ، وعن ابن زيد قال : لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله الذي صدقنا وعده .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ هدوا الى صراط الحميد ﴾ أنهم أرشدوا الى الصراط المحمود ، وهو الطريق الموصلة الى الجنة أو صراط الله الذي هو دينه القويم وهو الاسلام قاله الضحاك .

---

(١) مسلم ٢٠٧٣ ـ البخاري ٢٢٧٩ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

﴿ إن الذين كفروا ويصدون ﴾ أي يمنعون ﴿ عن سبيل الله ﴾ ودينه من أراد الدخول فيه ، وعطف المضارع على الماضي لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصد ومثل هذا قوله : ﴿إنّ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، والمسجد الحرام﴾ ؛ أو المراد بالصد هنا الاستمرار لا مجرد الاستقبال ؛ فصح عطفه بذلك على الماضي أي كفروا ، والحال أنهم يَصدون، وقيل الواو زائدة ، والمضارع خبر انَّ ، والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله الآتي ﴿ والباد ﴾ وذلك نحو خسروا أو هلكوا والمراد بالصد المنع .

﴿والمسجد الحرام ﴾ قيل:المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني ؛ وقيل:الحرم كله ، لأن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه يوم الحديبية ، وقيل المراد به مكة بدليل قوله :

﴿ الذي جعلناه للناس ﴾ على العموم يصلّون فيه ، ويطوفون به ﴿ سواء ﴾ مستويان ﴿ العاكف ﴾ المقيم ﴿ فيه ﴾ الملازم له ، ويدخل فيه الغريب إذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه ﴿ والباد ﴾ أي الواصل من البادية ، والمراد به الطارىء عليه المنتاب إليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم ، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادين عنه ، وقيل جعلناه للناس قِبلة لصلاتهم ومنسكاً ومتعبداً للعاكف والبادي ، سواء في تعظيم حرمته وقضاء النسك به . واليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة

من أهل العلم . ومعنى التسوية هو التسوية في تعظيم الكعبة وقضاء النسك فيه وفي فضل الصلاة فيه والطواف به. عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار » أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي(١) .

قال القرطبي : وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه ، واختلفوا في مكة فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطارىء وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى .

وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ولأهلها منع الطارىء من النزول فيها .

والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصلين : الأول ما في هذه الآية ، هل المراد بالمسجد الحرام نفسه أو جميع الحرم أو مكة على الخصوص . والثاني هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة . وهل أقرها النبي صلى الله عليه وسلم في أيدي أهلها على الخصوص أو جعلها لمن نزل بها على العموم، وقد أوضح الشوكاني هذا في شرحه على المنتقي بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة . ثم قال فيه بعد ذكر حجج الفريقين .

ومن أوضح الأدلة على أنها فتحت عنوة قوله صلى الله عليه وسلم ، « وإنما أُحلَّت لي ساعة من نهار »(٢) ، فإن هذا تصريح بأنها أحلت له في ذلك بسفك الدماء بها وأن حرمتها ذهبت فيه وعادت بعده ، ولو كانت مفتوحة صلحاً لما كان لذلك معنى ، وقد ذكر المقبلي في الاتحاف أدلة قوية على أن المراد به نفس المسجد . وعن ابن عباس : المسجد الحرام الحرم كله خلق الله فيه سواء . وعن سعيد بن جبير مثله . وأيضاً قال : هم في منازل مكة سواء

(١) النسائي كتاب الحج باب ٤٢ .

(٢) البخاري كتاب العلم باب ٣٧ . ٣٩ ـ ابو داوود كتاب المناسك باب ٨٩ .

فينبغي لأهل مكة أن يتوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم . والبادي وأهل مكة سواء - يعني في المنزل والحرم . وعن ابن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل في بطنه ناراً .

وعن عمر بن الخطاب ان رجلاً قال له عند المروة : أقطعني مكاناً لي ولعقبي فأعرض عنه وقال : هو حرم الله ، سواء العاكف فيه والباد . وكان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاج في عرصات الدور .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله « ﷺ » في الآية :«سواء المقيم والذي يدخل » أخرجه الطبراني وغيره ، قال السيوطي : بإسناد صحيح .

وعن ابن عمر مرفوعاً قال : « مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها » أخرجه ابن مردويه .

وعن علقمة بن نضلة قال : « توفي رسول الله « ﷺ » وأبو بكر وعمر وما يدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ومن استغنى سكن . رواه ابن ماجة . وأخرج الدارقطني عن ابن عمر مرفوعاً « من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً ، وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها لأنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي ، واليه ذهب أبو حنيفة وعلى القول الأول يجوز ذلك ، واليه ذهب الشافعي مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ فنسب الديار اليهم نسبة ملك واشتراء .

وقال رسول الله « ﷺ » يوم الفتح : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »[1] والأول أقوى والله أعلم .

﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ مفعول ﴿ يرد ﴾ محذوف لقصد التعميم ، أي من يرد فيه مراداً ، أي مراداً بعدول عن القصد والاعتدال . والالحاد في اللغة الميل ، إلا أنه سبحانه بين هنا أنه الميل بظلم . وقد اختلف في هذا

---

(١) مسلم ١٧٨٠ .

الظلم ماذا هو، فقيل هو الشرك، وقيل الشرك والقتل، وقيل صيد حيواناته وقطع أشجاره. وقيل هو الحلف فيه بالأيمان الفاجرة.

وقيل المراد المعاصي فيه على العموم حتى شتم الخادم، وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم؛ وقيل احتكار الطعام، لما روى يعلى بن أمية أن رسول الله «ﷺ» قال: «إن احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه» أخرجه أبو داود[1].

وعن ابن عمر «بيع الطعام بمكة الحاد» وعنه سمعت رسول الله «ﷺ» يقول: «احتكار الطعام بمكة إلحاد»[2] أخرجه البيهقي في الشعب، والباء في بإلحاد قيل ليست بزائدة إنْ كان مفعول ﴿يرد﴾ محذوفاً كما ذكرنا. وقيل زائدة، وبه قال الأخفش، والمعنى عنده ومن يرد فيه إلحاداً بظلم، وقال أهل الكوفة: المعنى بأن يلحد، وقيل من يرد الناس بإلحاد، وقيل إن يرد مضمناً معنى يهم، والمعنى من يهم فيه بإلحاد، والباء في بظلم للسببية وقيل غير ذلك.

﴿نذقه من عذاب أليم﴾ في الآخرة الا أن يتوب. قاله السدي، قيل المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك المكان، وقد ذهب الى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا: لو همّ الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن لعذبه الله.

وعن ابن مسعود رفعه قال: لو أن رجلاً همّ بإلحاد بظلم وهو بعدن أبين لأذاقه الله عذاباً أليماً. قال ابن كثير: هذا الاسناد صحيح على شرط البخاري وقفه أشبه من رفعه. وعنه قال: من همّ بخطيئة فلم يعملها في

(١) ابو داوود كتاب المناسك ٨٩.

(٢) مشكاة المصابيح ٢٧٢٣.

سوى البيت لم يكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم .

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أُنَيْس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب ، فغضب ابن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الاسلام وهرب إلى مكة ، فنزلت فيه ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ ؛ يعني من لجأ الى الحرام بإلحاد بميل عن الاسلام .

والحاصل أن هذه الآية دلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذ بمجرد الارادة للظلم فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها الا أن يقال إن الارادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس ، وبالجملة فالبحث عن هذا تقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الاشكال يطول جداً ، ومثل هذه الآية حديث « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » ، قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : انه كان حريصاً على قتل صاحبه »[1] ، فدخل النار هنا بمجرد حرصه على قتل صاحبه ، وقد أفرد الشوكاني هذا البحث برسالة مستقلة .

﴿و﴾ اذكر ﴿ إذ بوأنا لإبراهيم ﴾ يقال بوأته منزلاً وبوأت له ، كما يقال مكنتك ومكنت لك ، قال الزجاج: معناه جعلنا ﴿ مكان البيت ﴾ مبوأ لإبراهيم ، وقيل معنى بوأنا بينا له ، وقيل وطأنا ، وقد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان ، فأعلم الله ابراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم وجعل طوله في السماء سبعة أذرع بذراعهم ، وذرعه في الأرض ثلاثين ذراعاً بذراعهم ؛ وأدخل الحجر في البيت ولم يجعل له سقفاً ، وجعل له باباً وحفر له بئراً يلقى فيها ما يهدى للبيت وبناه قبله شيث وقبل شيث آدم وقبل آدم الملائكة وقد تقدم الكلام عليه في سورة البقرة .

(١) مسلم ٢٨٨٨ ـ البخاري ٢٩ .

﴿ أن لا تشرك بي شيئا ﴾ أي أوحينا إليه أن لا تعبد غيري ، قال المبرد : كأنه قيل له وحّدني في هذا البيت ، لأن معنى لا تشرك بي وحّدني . وقالت فرقة : الخطاب بقوله : ﴿ أن لا تشرك ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا ضعيف جداً .

﴿ وطهر بيتي ﴾ من الشرك والأقذار وعبادة الأوثان ، وفي الآية طعن على أن من أشرك من قطان البيت ، أي هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده ، وأنتم فلم تفوا بل أشركتم . والمعنى تطهيره من الكفر والأوثان والدماء والبدع وسائر النجاسات .

وقيل عنى به التطهير عن الأوثان فقط ، وذلك أن جرهماً والعمالقة كانت لهم أصنام في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم ، وقيل المعنى نزهه أن يعبد فيه صنم ، وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه . وقد مر في سورة براءة ما فيه كفاية في هذا المعنى .

﴿ للطائفين ﴾ الذين يطوفون بالبيت ﴿ والقائمين ﴾ هم المصلون ﴿ و ﴾ ذكر قوله : ﴿ الركع السجود ﴾ بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة لأنها لا يشرعان إلا في البيت ، كالطواف عنده والصلاة اليه .

﴿وأذّن﴾ أي ناد ﴿ في الناس بالحج ﴾ أي بدعوته والأمر به ، وقرىء آذن بالمد والأذان الاعلام . وعن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : قد فرغت ، قال : أذن في الناس بالحج ، قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعليّ البلاغ ، قال : رب كيف أقول ؟ قال : « قل يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق » فسمعه من في السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ، وفي الباب آثار عن جماعة من

الصحابة ؛ وبه قال جماعة من المفسرين ، وزادوا : فعلا على المقام ، فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال .

وقيل:علا على جبل أبي قبيس فلما صعده للنداء خفضت الجبال رؤوسها ورفعت له القرى فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً ، ونادى في الناس بالحج قال : يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتاً وكتب عليكم الحج اليه فأجيبوا ربكم ، فأجابه كل من كتب له أن يحج ممن كان في أصلاب الرجال وأرحام الأمهات ، لبيك اللهم لبيك . قال القسطلاني : فمن لبى مرة حج مرة ، ومن لبى مرتين حج مرتين ، ومن لبى أكثر حج بقدر تلبيته . انتهى ، قيل:أول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجاً .

وقيل إن الخطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أعلمهم يا محمد بوجوب الحج عليهم ، وعلى هذا فالخطاب لابراهيم انتهى عند قوله : ﴿ والركع السجود ﴾ وقيل إن خطابه انتهى عند قوله ﴿ مكان البيت ﴾ ، وما بعده خطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمره أن يقول ذلك في حجة الوداع .

عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله « ﷺ » فقال : « يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » أخرجه مسلم[1] ، قال في المدارك: والأول أظهر وقرأ الجمهور بالحج بفتح الحاء ، وابن إسحاق في كل القرآن بكسرها .

﴿ يأتوك رجالاً ﴾ هذا جواب الأمر وعده الله إجابة الناس له الى حج البيت ما بين راجل وراكب ، فمعنى رجالاً مشاة جمع راجل وقيل:جمع رجل ، وقرىء بضم الراء رُجالاً، وقرىء على وزن كسالى ، وقدم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي ، قال الكرخي : إذ للراكب بكل خطوة سبعون حسنة وللراجل سبعمائة من حسنات الحرم ، كل حسنة مائة

(١) مسلم ١٣٣٧ ـ النسائي كتاب المناسك باب ١ .

ألف حسنة ، وابراهيم واسماعيل عليهما السلام حجا ماشيين ، انتهى .

أقول: المعتمد في الباب أن الركوب أفضل من المشي لأن رسول الله « ﷺ » حج راكباً كما في الروايات الصحيحة المشهورة ، وفضيلة الاتباع تربو على غيره ، وإن كان المشي فضيلة في نفسه سواء قدر على المشي أم لا قبل الاحرام وبعده ، والحديث الذي ذكره الكرخي تبعاً للغزالي ، والرافعي ضعيف على ما فيه ، قاله ابن علان في مثير شوق الانام الى بيت الله الحرام ، وممن ضعّفه ابن حجر المكي في شرح العباب وشرح المنهاج . والجواب عن التقديم أنه قد لا يفيد التفضيل قطعاً أو على الأصح ، وقد يتقدم المفضول ويتأخر الأفضل ، قال تعالى : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ وقال : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ وقال : ﴿إن مع العسر يسراً ﴾ إلى غير ذلك من الآيات فليعلم ، وقال : ﴿ يأتوك ﴾ وان كانوا يأتون البيت لأن من أتى الكعبة حاجاً فقد أتى ابراهيم لأنّه أجاب نداءه .

﴿ وعلى كل ضامر ﴾ أي وركباناً على كل بعير ، والضامر : البعير المهزول ، الذي أتعبه السفر ، يقال ضمر يضمر ضموراً ؛ وضَمَر الفرس من باب دخل وضمُر أيضاً بالضم فهو ضامر فيهما ، وناقة ضامر وضامرة وتضمير الفرس أيضاً أن تعلفه حتى يسمن ، ثم ترده الى القوت وذلك في أربعين يوماً ، ووصف الضامر بقوله : ﴿ يأتين ﴾ باعتبار المعنى لأن ضامر في معنى ضوامر .

﴿ من كل فج عميق ﴾ الفج الطريق الواسع ، الجمع فجاج والعميق البعيد ، قال النسفي : قدم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشاة انتهى ، وليس بشيء لأن الاستطاعة المفسرة بالزاد والراحلة في الحديث الصحيح شرط في فريضة الحج واستدل بذلك بعضهم على أنه لا يجب الحج على راكب البحر ، وهو استدلال ضعيف ، لأن مكة ليست على بحر ، وانما يتوصل اليها على احدى هاتين الحالتين بمشي أو ركوب ، فذكر تعالى ما يتوصل به اليها .

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

﴿ ليشهدوا ﴾ أي ليحضروا ﴿ منافع لهم ﴾ وهي تعمّ منافع الدنيا والآخرة وقيل المراد بها المناسك ، وقيل المغفرة ، وقيل التجارة كما في قوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ .

قال ابن عباس : اسواقاً كانت لهم ما ذكر الله منافع الا الدنيا ، وعنه قال : منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة ، فأما منافع الآخرة فرضوان الله ؛ وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم ، والذبائح والتجارات ، ونكر منافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات ، وللنسفي في هذا المقام كلام حسن من باب الاعتبار تركنا ذكره روما للاختصار فمن شاء ادراكه فليرجع الى المدارك .

﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ عند ذبح الهدايا والضحايا ، وقيل ان هذا الذكر كناية عن الذبح لأنه لا ينفك عنه تنبيهاً على أن المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسمه ﴿ في أيام معلومات ﴾ هي أيام النحر كما يفيد ذلك قوله الآتي ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ وبه قال ابن عمر والصاحبان ، وقيل عشر ذي الحجة وهو قول أكثر المفسرين والشافعي وأبي حنيفة .

قال ابن عباس : الأيام المعلومات أيام العشر ، وعنه قال : يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، وعنه قال : أيام التشريق ؛ وعنه قال : قيل يوم التروية

بيوم ، ويوم التروية، ويوم عرفة ، وقد تقدم الكلام في الأيـام المعلومات والمعدودات في البقرة فلا نعيده ؛ والكلام في وقت ذبح الأضحية معروف في كتب الفقه وشروح الحديث .

﴿ على ﴾ ذبح ﴿ ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ هي الأنعام فالإضافة في هذا كالاضافة في قولهم مسجد الجامع وصلاة الأولى والبهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، فبينت بالأنعام ، وهي الابل والبقر والضأن والمعز التي تنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا ﴿فكلوا منها ﴾ أي من لحومها والأمر هنا للندب عند الجمهور ، وذهبت طائفة الى أن الأمر للوجوب ، وهذا التفات من الغيبة الى الخطاب .

﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ البائس ذو البؤس ، وهو شدة الفقر فذكر الفقير بعده لمزيد من الايضاح ، وقال ابن عباس : البائس ، الزّمِن[1] الذي لا شيء له والأمر هنا للوجوب ؛ وقيل للندب .

﴿ ثم ﴾ أي بعد حلهم خروجهم من الاحرام وبعد الاتيان بما عليهم من النسك ﴿ ليقضوا تفثهم ﴾ المراد بالقضاء هنا هو التأدية أي ليؤدوا إزالة وسخهم لأن التفث هو الوسخ والدرن ، والشعث والقذارة من طول الشعر والأظفار ، وقد أجمع المفسرون كما حكاه النيسابوري على هذا .

قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث ، وقال أبو عبيدة : لم يأت في الشعر ما يحتج به في معنى التفث ، وقال المبرد : أصل التفث في اللغة كل قاذورة تلحق الانسان ، وقيل قضاؤه ادهانه لأن الحاج مغبر شعث لم يدهن ، ولم يستحد فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه فهذا هو قضاء التفث قال الزجاج : كأنه خروج من الاحرام الى الاحلال .

وعن ابن عمر قال : التَفثُ المناسك كلها ، وعن ابن عباس نحوه ،

---

(١) الزّمن بزاي مشددة مفتوحة بعدها ميم مكسورة وهو ذو العاهة .

وعنه قال : التفث حلق الرأس والأخذ من العارضين ونتف الابط وحلق العانة والوقوف بعرفة ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، وقص الأظفار ، وقص الشوارب والذبح .

﴿ وليوفوا ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿ نذورهم ﴾ أي ما ينذرون به من البِر في حجهم ، والأمر للوجوب ، وقيل المراد بالنذر هنا أعمال الحج ، أو الهدايا والضحايا ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ هذا الطواف هو طواف الافاضة الواجب ووقته يوم النحر بعد الرمي والحلق .

قال ابن جرير : لا خلاف في ذلك بين المتأولين والعتيق القديم كما يفيده قوله سبحانه : ﴿ إنّ أول بيت وضع للناس ﴾ الآية ، وقد سمي العتيق لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار ، فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله منه ، وقيل لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب .

وقيل لأنه أعتق من غرق الطوفان فإنه رفع في أيامه ، وقيل لأنه لم يملك قط وقيل العتيق الكريم ، وقد ورد في وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة ، وهو مطاف أهل الغبراء ، كما أن العرش مطاف أهل السماء ، فإن الطالب إذا هاجته معية الطرب ، وجذبته جواذب الطلب ، جعل يقطع مناكب الأرض مراحل ، ويتخذ مسالك المهالك منازل فإذا عاين البيت لم يزده التسلي به إلا اشتياقاً ، ولم يفده باستلام الحجر الا احتراقاً فيرده الأسف لهفان ويردده اللهف حوله في الدوران .

وورد في فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها .

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك ، وهذا وأمثاله يطلق ويذكر للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد كما يقدم الكاتب جملة من كلامه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا ، وقد كان كذا ، قاله أبو حيان في البحر ، أو المعنى . افعلوا ذلك ، والمشار اليه هو ما سبق من اعمال الحج ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ جمع حرمة ، وهي ما لا يحل انتهاكه .

قال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه وهي في هذه الآية ما نهى عنها ، ومنع من الوقوع فيها كالجدال والجماع والصيد ، والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره ، كما يفيده اللفظ ، وان كان السبب خاصاً وتعظيمها ترك ملابستها .

قال مجاهد : الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها ، وقيل هي البيت الحرام ، والمشعر الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، وتعظيمها القيام بمراعاتها وحفظ حرمتها ، وقيل هي مناسك الحج ،وتعظيمها إقامتها وإتمامها .

﴿ فهو ﴾ أي فالتعظيم ﴿ خير له ﴾ من التهاون بشيء منها ﴿ عند ربه ﴾ يعني في الآخرة ، وقيل ان صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقي ، بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به أي قربة وطاعة يثاب عليها عند الله فهو عدة بخير .

﴿وأحلت لكم الأنعام ﴾ أن تأكلوها بعد الذبح وهي الابل والبقر والغنم كما تقدم ﴿إلاّ ما يتلى عليكم ﴾ تحريمه في الكتاب العزيز من المحرمات وهي الميتة وما ذكر معها في آية المائدة فالاستثناء منقطع لما ذكر في آية المائدة بما ليس من جنس الأنعام كالدم ولحم الخنزير ، ويجوز أن يكون متصلاً بأن يصرف إلى ما يحرم من بهيمة الأنعام بسبب عارض كالموت ونحوه ، وقيل وجه الانقطاع أنه ليس في الأنعام محرم ، قاله الشهاب والسمين ، وقيل في قوله : ﴿ إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ .

﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ الرجس : القذر والوسخ وعبادة الأوثان قذر معنوي والوثن التمثال وأصله من وثن الشيء أي أقام في مقامه وسمى الصليب وثناً لأنه ينصب ويركز في مقامه فلا يبرح عنه ، والمراد اجتناب عبادة الأوثان وسماها رجساً لأنها سبب الرجس ، وهو العذاب ، وقيل جعلها سبحانه رجساً حكماً والرجس النجس وليست النجاسة وصفاً ذاتياً لها ، ولكنها

وصف شرعي فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا تزول النجاسة الحسية الا بالماء ، قال الزجاج : ﴿مِن﴾ هنا لتخليص جنس من أجناس أي فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن .

وقال ابن عباس : يقول اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ الذي هو الباطل وسمي زوراً لأنه مائل عن الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تزاور عن كهفهم ﴾ وقوله : ﴿ مدينة زوراء ﴾ أي مائلة ، والمراد هنا قول الزور على العموم فهو تعميم بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، والمشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان .

وقال الزجاج : المراد هنا تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها ، وقولهم : هذا حلال وهذا حرام ، وقيل المراد به شهادة الزور ، وقال ابن عباس : يعني الافتراء على الله والتكذيب به وقيل هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك

أخرج أحمد والترمذي وابن المنذر وغيرهم عن أيمن بن حريم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : « يا أيها الناس عدلت شهادة الزور شركاً بالله ثلاثاً ، ثم قرأ هذه الآية[1] ، قال أحمد : غريب ولا نعرف لأيمن بن حريم سماعاً من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت في الصحيحن وغيرهما من حديث أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ، قال الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس فقال وقول الزور ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[2] .

(١) الترمذي كتاب الشهادات باب ٣ .
(٢) مسلم ٨٧ ـ البخاري ١٢٩١ .

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى
ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ
فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾

﴿ حنفاء لله ﴾ أي مستقيمين على الحق أو مائلين الى الحق مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه، ولفظ حنفاء من الاضداد يقع على الاستقامة ، ويقع على الميل ، وقيل معناه حجاجاً قاله ابن عباس .

وعن أبي بكر الصديق نحوه ولا وجه لهذا ﴿ غير مشركين به ﴾ شيئاً من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم تأكيد لما قبله ، وهما حالان من الواو في اجتنبوا ، والأولى مؤسسة ، والثانية مؤكدة ، قيل ان أهل الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الاسلام قال الله للمسلمين : حجوا الآن غير مشركين به .

﴿ ومن يشرك بالله ﴾ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب ، والغرض بهذا ضرب المثل لمن يشرك بالله ، والمعنى أن بعد من أشرك به عن الحق والايمان ﴿ فكأنما خر ﴾ أي كبعد من سقط ﴿ من السماء ﴾ إلى الأرض ، أي انحط من أوج الايمان إلى حضيض الكفر .

﴿ فتخطفه الطير ﴾ يقال خطفه يخطفه إذا سلبه ، ومنه قوله : ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ أي تخطف لحمه وتسلبه وتقطعه بمخالبها وتذهب به ، وقرىء بتشديد الطاء وفتحها وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما .

﴿ أو تهوي به الريح ﴾ أي تقذفه وترمي به ﴿ في مكان سحيق ﴾ يقال

سحق يسحق سحقاً فهو سحيق إذا بعد ، أي بعيد فلا يصل اليـه أحد بحال ، قاله الزجاج وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء لأنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقطه الريح ، فهو هالك لا محالة ، إما باستلاب الطير لحمه أو بسقوطه في المكان السحيق .

قال الزمخشري : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده هلاك ، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير متفرقاً موزعاً في حواصلها ، وعصفت به الريح حتى هوت به في بعض الأماكن البعيدة وان كان مفرقاً ، فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء المردية بالطير المختطفة ، والشيطان الموقع في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة .

﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ جمع شعيرة أو شِعارة بالكسر بوزن قلادة وهي كل شيء فيه لله شعار ، ومنه شعار القوم في الحرب وهو علامتهم التي يتعارفون بها ، ومنه اشعار البُدُن وهو الطعن في جانبها الأيمن ، فشعائر الله أعلام دينه ، وتدخل فيها الهدايا في الحج دخولاً أولياً .

وعن ابن عباس في الآية قال : الشعار البدن والإستسمان والاستحسان والاستعظام وينبغي للانسان أن يترك المشاحة في ثمنها .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب ، وأن عمر أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار .

﴿ فإنها ﴾ الضمير يرجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف ، أي فإن تعظيم الشعائر ﴿ من تقوى القلوب ﴾ أي مبتدأ وناشيء من أفعال القلوب التي هي من التقوى ، وإنما ذكر القلوب لأنها مراكز التقوى ﴿ لكم فيها ﴾ أي في

الشعائر على العموم أو على الخصوص وهي البدن كما يدل عليه السياق واجبة أو مندوبة .

﴿ منافع ﴾ ومنها الركوب والدر والنسل والصوف والوبر وغير ذلك مما لا يضرها ﴿ الى أجل مسمى ﴾ وهو وقت نحرها ، وقيل إلى أن تسمى بدناً ، قاله ابن عباس، وعن مجاهد نحوه ، وقال : في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها منافع الى أن تسمى هدياً ، فإذا سميت هدياً ذهبت المنافع .

﴿ ثم محِلها ﴾ أي حيث يحل نحرها حين تسمى ﴿ الى البيت العتيق ﴾ المعنى أنها تنتهي الى البيت وما يليْه من الحرم ، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرة الى وقت نحرها ، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية .

وقيل إن محلها ههنا مأخوذ من احلال الحرام ، والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي الى طواف الافاضة بالبيت ، فالبيت على هذا مراد بنفسه . قال عكرمة : اذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها .

﴿ ولكل أمة ﴾ هي الجماعة المجتمعة على مذهب واحد ﴿ جعلنا منسكاً ﴾ مصدر من نسك ينسك اذا ذبح القربان ، والذبيحة نسيكة ، قال الأزهري : إن المراد بالمنسك في الآية موضع النحر ، ويقال منسِك بكسر السين وفتحها لغتان . قال الفراء المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد في خير أو شر ، وقال ابن عرفة : منسكاً أي مذهباً من طاعة الله .

وروي عن الفراء أن المنسك العيد ، وبه قال ابن عباس وقيل هو الحج . وقال مجاهد في الآية: اهراق الدماء ، وعن عكرمة قال : ذبحاً ، وعن

زيد بن أسلم قال : مكة ، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها ، والأول أولى لقوله :

﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ والمعنى جعلنا لكل أهل دين من الأديان أو لجماعة مسلمة سلفت قبلكم ذبحاً يذبحونه ودماً يريقونه أو متعبداً أو طاعة أو عيداً أو حجاً يحجونه ليذكروا اسم الله وحده ويجعلوا نسكهم خاصاً به ﴿على﴾ ذبح ﴿ما رزقهم من بهيمة الانعام﴾ سماها بهيمة لأنها لا تتكلم، وقيد بالأنعام لأن القربان لا يكون الا من الانعام دون غيرها وان أجاز أكله ، وفي القاموس البهيمة كل ذات أربع قوائم ولو في الماء ، أو كل حي لا يميز ، والجمع بهائم ، والأبهم الاعجم ، واستبهم استعجم فلم يقدر على الكلام .

وفي الآية دليل على أن المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم الله عليه ، وقد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع ذكرها . ثم أخبرهم سبحانه بتفرده بالآلهية وأنه لا شريك له فقال :

﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ثم أمرهم بالاسلام والانقياد لطاعته وعبادته فقال : ﴿ فله أسلموا ﴾ أي انقادوا وأخلصوا وأطيعوا وتقديم الظرف على الفعل للقصر ، والفاء كالفاء التي قبلها .

﴿ وبشر المخبتين ﴾ من عباده ، أي المتواضعين الخاشعين المخلصين . وقال مجاهد : أي المطمئنين، وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون الناس ، واذا ظلموا لم ينتصروا ، وهو مأخوذ من الخبت وهو المنخفض من الأرض ، والمعنى بشّرهم يا محمد بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه ، ولا يخفى حسن التعبير بالمخبتين هنا من حيث ان نزول الخبت مناسب للحجاج لما فيهم من صفات المتواضعين ، كالتجرد عن اللباس وكشف الرأس والغربة عن الأوطان ، ولذا وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله :

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ
سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ
ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

﴿ الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت وحذرت مخالفته وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة ايمانهم ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من البلايا والمصائب والمحن في طاعة الله ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ وصفهم بإقامة الصلاة ، أي الاتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال لأن السفر مظنة التقصير فيها ، ثم وصفهم سبحانه بقوله :

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي يتصدقون به وينفقونه في وجوه البر ويضعونه في مواضع الخير ، والمراد صدقة التطوع ، ويعلم منه أنهم كانوا يتصدقون الصدقة الواجبة بالأولى .

﴿والبُدن﴾ قرىء بضم الباء وسكون الدال وبضمهما وهما لغتان ، وهذا الاسم خاص عند الشافعي بالابل ، وسميت بدنة لأنها تبدن ، والبدانة السمن . وقال أبو حنيفة ومالك : إنه يطلق على الإبل والبقر ، والأول أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الابل ، ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالابل .

قال ابن لقيمة : فكلام الشافعية موافق لكلام الأزهري ، وكلام الحنفية موافق لكلام الصحاح . وقال ابن كثير في تفسيره : واختلفوا في صحة اطلاق

البَدَنَةُ على البقرة على قولين:أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً[١] ، كما صح في الحديث قال ابن عمر : لا نعلم البدن إلا من الابل والبقر . وقال أيضاً : البدن ذات الجوف وعن مجاهد قال : ليس البدن الا من الابل وعن عطاء نحو ما قال ابن عمر ، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن . وقيل لا تسمى الغنم بدنة لصغرها .

﴿ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله تعالى وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها ، وقيل لأنها تشعر ، وهو أن تطعن بحديدة في سنامها فيعلم بذلك أنها هديٌ ، وقد تقدم بيانه قريباً .

﴿ لكم فيها خير ﴾ أي منافع دينية ودنيوية كما تقدم ، وهي جملة مستأنفة ، مقررة لما قبلها أو حالية . قاله السمين .

﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ أي على نحرها بأن تقولوا عند ذبحها : الله أكبر لا إله إلا الله ، والله أكبر ، اللهم منك وإليك ﴿ صواف ﴾ أي أنها قائمات قد صفت قوائمها لأنها تنحر قائمة معقولة وقرىء صوافي أي خوالص لله لا يشركون به في التسمية على نحرها أحداً وواحد صواف صافة وهي قراءة الجمهور ، وواحد صوافي صافية . وفي قراءة ابن مسعود صوافن بالنون جمع صافنة ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿الصافنات الجياد﴾ ، وأصل هذا الوصف في الخيل ، يقال صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة .

قال ابن عباس في الآية : إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ثم قل بسم والله أكبر .

وفي الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكون قيامها سنّة انما

---

(١) ابن كثير ٣/٢٢١ .

هو على سبيل الندب ، ويجوز نحرها وذبحها مضجعة على جنبها كالبقر .

﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ الوجوب السقوط ، يقال وجبت الشمس أي سقطت ووجب الجدار سقط ، ومنه الواجب الشرعي كأنه سقط علينا ولزمنا ، أي فإذا سقط جنبها بعد نحرها على الأرض ، وذلك عند خروج روحها فهو كناية عن الموت ، وجمع الجنوب مع أن البعير اذا خر يسقط على أحد جنبيه ، لأن ذلك الجمع في مقابلة جمع البدن .

﴿ فكلوا منها ﴾ إن شئتم ، ذهب الجمهور الى أن هذا الأمر للندب ﴿ وأطعموا القانع والمعتر ﴾ هذا الأمر قيل هو للندب كالأول ، وبه قال مجاهد والنخعي وابن جرير وابن سريج .

وقال الشافعي وجماعة : هو للوجوب ، واختلف في القانع من هو؟ فقيل هو السائل ؛ يقال قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها اذا سأل ، وقيل هو المتعفف عن السؤال المستغنى ببلغة ، ذكر معناه الخليل وبه قال ابن عباس ، قال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهي الرضا والتعفف وترك المسألة، وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن ، وبالثاني قال عكرمة وقتادة .

وقال ابن عمر وابن عباس : القانع الذي يقنع بما آتيته . وأما المعتر فقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد وابراهيم والكلبي والحسن: أنه الذي يتعرض من غير سؤال وقيل هو الذي يعتريك ويسألك ، وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع : الفقير والمعتر الزائر . وروي عن ابن عباس أن كليهما الذي لا يسأل ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل ، والمعتر الذي يتعرض لك ولا يسألك وقرأ الحسن والمعتري ومعناه كمعنى المعتر ، يقال اعتره واعتراه وعره وعراه اذا تعرض لما عنده أو طلبه . ذكره النحاس .

قال ابن عباس : المعتر السائل ، وعنه الذي يعترض ، وعنه القانع الذي يجلس في بيته ، وعنه أنه سئل عن هذه الآية فقال : أما القانع فالقانع

بما أرسلت اليه في بيته ، والمعتر الذي يعتريك . وعنه قال : القانع الذي يسأل والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل .

وقيل القانع المسكين ، والمعتر الذي ليس بمسكين ، وقيل القانع جارك الذي ينظر ما دخل عليك ، والمعتر الذي يعتر ببابك ويريك نفسه ، وقد روي عن التابعين في تفسير هذه الآية أقوال مختلفة ، والمرجع المعنى اللغوي لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم في تفسير ذلك .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله صواف ﴿ سخرناها ﴾ أي ذللنا البدن ﴿ لكم ﴾ فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتنحرونها وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهورها والحلب لها ونحو ذلك ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم .

﴿ لن ينال الله ﴾ أي لن يصعد ولا يرفع اليه ولا يبلغ رضاه لا يقع موقع القبول منه ﴿ لحومها ﴾ التي تتصدقون بها ﴿ ولا دماؤها ﴾ التي تنصب عند نحرها من حيث انها لحوم ودماء .

﴿ ولكن يناله ﴾ أي يبلغ اليه ﴿ التقوى منكم ﴾ أي تقوى قلوبكم ويصل اليه اخلاصكم له في العمل الصالح وارادتكم بذلك وجهه مع الإيمان ، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه .

وقيل المراد أصحاب اللحوم والدماء ، أي لن يرضى المضحون والمتقربون الى ربهم باللحوم والدماء ولكن بالتقوى .

قال الزجاج : أعلم الله أن الذي يصل اليه تقواه وطاعته فيما يأمر به . وحقيقة معنى هذا الكلام تعود الى القبول ، وذلك أن ما يقبله الانسان يقال قد ناله ووصل اليه ، فخاطب الله الخلق كعادتهم في مخاطباتهم .

قال ابن عباس : « كان المشركون اذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ، فينضحون بها نحو الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله ﴿ لن

ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ ، وعن ابن جريج نحوه .

﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ كرر هذا للتذكير ﴿ لتكبروا الله ﴾ هو قول الناحر الله أكبر عند النحر فذكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها ، وذكر هنا للتكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير وقيل المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء .

ومعنى ﴿ على ما هداكم ﴾ على ما أرشدكم اليه من علمكم بكيفية التقرب بها و﴿ما﴾ مصدرية أو موصولة ﴿ وبشر المحسنين ﴾ قيل المراد بهم المخلصون ، وقيل الموحدون ، والظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه .

﴿ ان الله يدافع ﴾ وقرىء يدفع وصيغة المفاعلة هنا مجردة عن معناها الأصلي وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدل عليه القراءة الأخرى وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلي كثيراً مثل عاقبت اللص ونحو ذلك ، وقد قدمنا تحقيقه وقيل إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة ، وقيل للدلالة على تكرر الواقع .

﴿ عن الذين آمنوا ﴾ أي يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين ، وقيل يعلي حجتهم وقيل يوفقهم ، وقال أبو حيان : لم يذكر الله ما يدفعه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم، والجملة مستأنفة لِيُبيِّنَ هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين وأنه المتولي للمدافعة عنهم.

﴿ ان الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ مقررة لمضمون الجملة الأولى ، فإن المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتم إشعار بأنهم مبغضون الى الله غير محبوبين له .

قال الزجاج : من ذكر غير اسم الله وتقرب الى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على أنهم كذلك في الواقع لا لاخراج من خان دون خيانتهم أو كفر دون كفرهم .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ
أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ
وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ قرىء أُذن مبنياً للمفعول وللفاعل وكذلك يقاتلون وعلى كلا القراءتين فالاذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال أو قاتلهم المشركون قاتلوهم ، قال المفسرون : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بألسنتهم وأيديهم فيشكون ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم : « اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال » حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية بالمدينة ، وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية ، وقيل نزلت في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة ، فأذن الله في قتال الذين يمنعونهم من الهجرة .

وهذه الآية مقررة أيضاً لمضمون قوله : ﴿ ان الله يدافع ﴾ فإن اباحة القتال لهم هي من جملة دفع الله عنهم ، والباء في ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ للسببية أي بسبب ما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد ثم وعدهم الله سبحانه النصر على المشركين على طريق الرمز والكناية كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم فقال :

﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وفيه تأكيد لما مر من المدافعة أيضاً ، أخرج أحمد والترمذي وحسّنه والنسائي وابن ماجة ، عن ابن عباس قال : لما أُخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة .

قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا اليه راجعون ؛ ليهلكن القوم فنزلت : ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ الخ ، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ، ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ المراد بالديار مكة ﴿ الا أن يقولوا ﴾ .

قال سيبويه : هو استثناء منقطع أي لكن لقولهم : ﴿ ربنا الله ﴾ أي أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم : ربنا الله وحده ، وقال الفراء والزجاج : هو استثناء متصل والتقدير : الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا ربنا الله فيكون مثل قوله سبحانه : ﴿ وما تنقمون منا إلا أن آمنا بآيات ربنا ﴾ .

﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ وقرىء دفاع ﴿ بعضهم ﴾ بدل بعض من الناس ﴿ ببعض لهدمت ﴾ بالتشديد للتكثير وبالتخفيف أي لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل ؛ وتكرر الهدم لكثرة المواضع ﴿ صوامع ﴾ للرهبان ومعابدهم المتخذة في الصحراء ، وقيل صوامع الصابئين وهي جمع صومعة وهي بناء مرتفع محدب يقال : صمع الثريدة إذا رفع رأسها ورجل أصمع القلب أي حاد الفطنة والاصمع من الرجال الحديد القول ، وقيل الصغير الأذن ثم استعمل في المواضع التي يؤذن عليها في الاسلام .

﴿ وبيع ﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى في البلد ، وقيل مساجد اليهود ﴿وصلوات﴾ هي كنائس اليهود وقيل النصارى ، وقد ذكر ابن عطية في صلوات تسع قراآت وهي جمع صلاة وسميت الكنيسة صلاة لأنها يصلى فيها ، وقيل هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتاً قاله السمين ، ومعناه في لغتهم المصلى فلا يكون مجازاً ، قاله الشهاب .

﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين ، وقدمت الصوامع والبيع والصلوات على المساجد لكونها أقدم بناء وأسبق وجوداً أو ليكون فيه الانتقال من شريف الى أشرف،والظاهر من الهدم معناه الحقيقي كما ذكره الزجاج وغيره .

وقيل المعنى المجازي هو تعطيلها من العبادة ، والمعنى لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء بعضهم ببعض ، وإقامة الحدود لاستولى أهل الشرك وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، وقيل المعنى لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد .

قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل في تأويل هذه الآية فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ ، وقيل المعنى ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة ، وقيل لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار .

وعن علي قال : انما انزلت هذه الآية في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدمت. الآية؟ قال أبو حيان : أجرى الله العادة في الأمم بذلك بأن ينتظم به الأمر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من الهدم وأهلها من القتل والشتات ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ ، ثم قال : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

﴿ يذكر فيها اسم الله ﴾ ذكراً أو وقتاً ﴿ كثيراً ﴾ والجملة صفة للمساجد ، وقيل لجميع المذكورات الأربع لأن كل واحد منها جمع ﴿ ولينصرن الله ﴾ اللام هي جواب لقسم محذوف أي والله لينصرن الله ﴿ من ينصره ﴾ أي دينه وأولياءه ومعنى نصره تعالى هو أن يظفر أولياءه بأعدائهم ويكون النصر بالتجليد في القتال وبإيضاح الأدلة والبينات وبالإعانة على المعارف والطاعات .

﴿ ان الله لقوي ﴾ على نصر أوليائه ﴿عزيز ﴾ على انتقام أعدائه والقوي القادر على الشيء والعزيزالجليل الشريف قاله الزجاج ، وقيل الممتنع الذي لا يرام ولا يدافع ولا يمانع ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض ﴾ بنصرهم على عدوهم ، قيل المراد بهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان، وقيل أهل الصلوات الخمس وقيل ولاة العدل وقيل غير ذلك وهو إخبار من الله بالغيب عما ستكون عليه سيرتهم ان مكن لهم في الأرض.

وعن عثمان : هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أن الله أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا ، فتباً لمن يطعن بهم من أهل البدع والرفض بعد ذلك وتعساً لهم .

﴿أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ هذا جواب الشرط وفيه إيجاب الأمر بالمعروف، على من مكنه الله في الأرض وأقدره على القيام بذلك ، وقد تقدم تفسير الآية ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ أي مرجعها إلى حكمه وتدبيره دون غيره .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض ﴾ قال : أرض المدينة ﴿ أقاموا الصلاة ﴾ قال : المكتوبة ﴿ وآتوا الزكاة) قال : المفروضة ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ قال : بلا إله إلا الله ، ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ قال : عن الشرك بالله ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ قال : وعند الله ثواب ما صنعوا ، وقد أنجز الله تعالى وعده بأن سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم .

وعن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت هذه الآية أُخرجنا من ديارنا بغير حق ثم مُكِّنَّا في الأرض فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهي لي ولأصحابي .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ
لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ
وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

﴿ وان يكذبوك فقد كَذبت قبلهم قوم نوح وعاد ﴾ قوم هود ﴿ وثمود ﴾ قوم صالح ﴿ وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين ﴾ هم قوم شعيب هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له ، كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله وفيه إرشاد له صلى الله عليه وسلم الى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك ، وقد تقدم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم .

والمعنى فأنت يا أشرف الخلق لست بأوحدي في التكذيب ، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك فتسل بهم ، قاله الخطيب ، وتأنيث قوم باعتبار المعنى وهو الأمة أو قبيلة واستغنى في عاد وثمود عن ذكر قوم لاشتهارهم بهذا الاسم الأخصر ، والأصل في التعبير العلم ولا علم لغيرهما فلهذا لم يقل : قوم هود وقوم صالح ولم يقل قوم شعيب لأن قومه يشملون أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، وأصحاب مدين سابقون على أصحاب الأيكة في التكذيب له ، فخصوا في الذكر بسبقهم في التكذيب وإنما غير النظم في قوله :

﴿وكُذِّب موسى﴾ فجاء بالفعل مبنياً للمفعول ، ولم يقل وقوم موسى لأن قوم موسى لم يكذبوه ، وانما كذبه غيرهم من القبط ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم ، والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب وفيه وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التشنيع عليهم ، والنداء عليهم بصفة الكفر .

﴿ ثم أخذتهم ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين السبعة بالعذاب بعد انقضاء مدة الامهال ﴿ فكيف كان نكير ﴾ هذا الاستفهام للتقرير أي فانظر كيف كان إنكاري وتغييري ما كانوا فيه من النعم، وحمل الاستفهام على التعجب أوضح قال أبو حيان : ويصحب هذا الاستفهام معنى التعجب ، فكأنه قيل ما أشد ما كان إنكاري عليهم والنكير اسم من المنكر ومصدر بمعنى الانكار .

قال الزجاج : أي ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار ، قال الجوهري : النكير والانكار تغيير المنكر ، فالمراد بالانكار التغيير للضد بالضد ، كالحياة بالموت ، والعمارة بالخراب وليس بمعنى الانكار اللساني والقلبي وأثبت ياء نكير حيث وقع في القرآن ورش في الوصل ، وحذفها في الوقف ، والباقون بحذفونها وصلاً ووقفاً ، ثم ذكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة فقال :

﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ أي أهلها وقد تقدم الكلام على هذا التركيب في آل عمران ﴿ وهي ظالمة ﴾ المراد بنسبة الظلم اليها نسبته الى أهلها ، أي وأهلها ظالمون ﴿ فهي خاوية ﴾ الخوي بمعنى السقوط ، أي فهي ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ أي سقوفها ، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها ، واسناد السقوط على العروش اليها

لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونهاعمدة فيه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقـرة . قال قتادة : «خربة ليس فيها أحـد » .

﴿ وبئر ﴾ أي ومن أهل بئر ﴿ معطلة ﴾ هكذا قال الزجاج ، يقال بأرت الأرض أي حفرتها ، ومنه التأبير وهو شق كيزان طلع الإناث وذر طلع الذكور فيه ، والبئر فعل بمعنى مفعول ، وهي مؤنثة وقد تذكر عـلى معنى القليب ، والمراد بالمعطلة المتروكة . وقيل الخالية عن أهلها لهلاكهم ؛ وقيل الغائرة ، وقيل معطلة من الـدلاء والأرشية . قـال قتادة : عـطلها أهلهـا وتركوها . وقال ابن عباس : التي تركت لا أهل لها .

﴿ وقصر مشيد ﴾ هو المرفوع البنيان كذا قال قتـادة والضحاك . وعن قتادة أيضاً : شيّدوه وحصّنوه فهلكوا وتركوه ، وقال سعيد بن جبيـر وعطاء وعكـرمـة ومجاهد وابن عباس : المراد بالمشيد المجصص مأخوذ من الشيد وهو الجص ، وقيل المشيد الحصين ، قاله الكلبي .

وقال الجوهري : المشيد المعمول بالشِيد، والشيد بـالكسر كل شيء طليت به الحائط من جص أو بلاط وبالفتح المصدر ، تقول شاده يشيـده جصصه والمشيد بالتشديد المطول. قال الكسائي للواحد من قوله تعالى : ﴿ في بروج مشيدة ﴾ وانما بني هنا من شاده ، وفي النساء من شيَّده لأنه هنا وقع بعد جمع فناسب التكثير ، وهنا وقع بعد مفرد فناسب التخفيف ، ولأنه رأس آية وفـاصلة . والمعنى وكم من قصر مشيد معـطل مثل البئـر المعطلة ، ومعنى التعطيل في القصر هو أنهمعطل من أهل أو من آلاته أو نحو ذلك .

قال القرطبي في تفسيره : ويقال إن هـذه البئر والقصر بحضـرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل[1] لا يرتقي اليه بحال ، والبئر في سفحه لا تقر الريح شيئاً سقط فيها إلا أخرجته . وحكى الثعلبي وغيره أن

(١) قُلة جبل بضم القاف أعلى الجبل .

البئر كان بعدن من اليمن في بلد الحضر ، وأصحاب القصر الحضر وأصحاب البئر ملوك البدو .

وحكى الثعلبي وغيره أيضاً أن البئر كان بعدن من اليمن في بلد يقال له حضور أنزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح ، فمات صالح فسمّي المكان حضرموت ، لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضوراً ؛ وقعدوا على هذه البئر وامّروا عليهم رجلاً منهم ، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا ، فأرسل الله اليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان وكان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق ، فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم ثم ذكر قصة طويلة .

وقال بعد ذلك : وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم لم يبن في الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا ، وحاله أيضاً كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الإنس وإقفاره بعد العمران وأن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالسلك ، فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله سبحانه في هذه الآية موعظة وعبرة .

قال: وقيل إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدم في سورة الأنبياء في قوله : ﴿ وكم قصمنا من قرية ﴾ ، فتعطلت بئرهم وخرت قصورهم . إ هـ .

وقال النسفي :والأظهر أن البئر والقصر على العموم . ثم أنكر الله سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلاً :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ حثاً لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا ، فلهذا أنكر عليهم كما في قوله :﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾؛ وعلى هذا

فالاستفهام ليس على حقيقته ﴿ فتكون لهم قلوب ﴾ تفريع على المنفي فهو منفي أيضاً .

﴿ يعقلون بها ﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ، والعقل هنا بمعنى العلم ، والمعنى أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه ؛ وأسند التعقل الى القلوب لأنها محل العقل كما أن الآذان محل السمع وقيل إن العقل محله الدماغ ، ولا مانع من ذلك فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه . وقد اختلف علماء العقول في محل العقل وماهيته اختلافاً كثيراً لا حاجة الى التطويل بذكره .

﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ ما يجب أن يسمعوه مما تلاه عليهم أنبياؤهم من كلام الله ، وما نقله أهل الأخبار اليهم من أخبار الأمم المهلكة وما نزل بالمكذبين ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ قال الفراء : الهاء عماد ، يجوز أن يقال فإنه وهي قراءة ابن مسعود والمعنى واحد ، التذكير على الخبر والتأنيث على الأبصار ، أو القصة أي فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة لا تعمى الابصار ، أي أبصار العيون ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما أصابت الآفة عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد ، أي لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار .

قال الفراء والزجاج : إن قوله التي في الصدور من التوكيد الذي تزيده العرب في الكلام ، كقوله عشرة كاملة ، ويقولون بأفواههم ويطير بجناحيه ، ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال :

﴿ ويستعجلونك ﴾ أي يطلبون عجلتك ﴿ بالعذاب ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشد انكار ، فاستعجالهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما يقوله الأنبياء عن الله

سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم ، ولهذا قال :

﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ قال الفراء : في هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة . وذكر الزجاج وجهاً آخر فقال : اعلم أن الله لا يفوته شيء ، وان يوماً عنده وألف سنة في قدرته واحد ، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره في القدرة ، الا أن الله تفضل بالامهال انتهى .

والمعنى والحال أنه لا يخلف وعداً أبداً ، وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتماً أو الجملة اعتراضية مبينة لما قبلها . قال المحلي: أنجزه يوم بدر ، أي أنزل العذاب بهم في الدنيا فقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون .

﴿ وإن يوماً ﴾ من أيام عذابهم ﴿ عند ربك ﴾ في الآخرة ﴿ كألف سنة مما تعدون ﴾ أي من سني الدنيا ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال وخطابهم في ذلك لبيان كمال حكمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله : ﴿انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ . قال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة أي يوم من أيام عذابهم في الآخرة في الثقل والاستطالة كألف سنة . وقيل المعنى وإن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا فيها خوف وشدة ، وكذلك يوم النعيم قياساً ، واقتصر في التشبيه على الألف لأن الألف منتهى العدد بلا تكرار .

وقرىء يعدون بالتحتية لقوله ويستعجلونك ، وبالفوقية على الخطاب ، واختار الأولى أبو عبيدة والثانية أبو حاتم .

وعن ابن عباس قال : إن يوماً من الايام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض كألف سنة ، وعن عكرمة قال : هو يوم القيامة ، وعنه قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ، وقد مضى منها ستة آلاف .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ
فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾

وأخرج ابن عدي والديلمي عن أنس مرفوعاً نحوه ، وتمام البحث في مدة الدنيا ماضيها وباقيها في كتابنا لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة الانسان : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها ﴾ أي أهلها ، هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الاملاء والتأخير، قيل وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد وليس بتكرار في الحقيقة ، لأن الأول سيق لبيان الاهلاك مناسباً لقوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ . والثاني سيق لبيان الاملاء مناسباً لقوله : ﴿ ولن يخلف الله وعده وان يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ فكأنه قيل: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب ، والمرجع للكل إلى حكمي . ﴿ و ﴾ جملة ﴿ إليّ المصير ﴾ تذييل لتقرير ما قبلها ﴿ قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ أمره سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل اليهم ، فمن آمن وعمل صالحاً فاز بالمغفرة وستر الذنوب ، ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار . والرزق الكريم الجنة ، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته .

﴿ والذين سعوا في آياتنا ﴾ أي اجتهدوا في إبطالها حيث قالوا القرآن شعر أو سحر أو أساطير الأولين .

﴿ معاجزين ﴾ يقال عاجزه سابقه ، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز

الآخر فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه ، قاله الأخفش. وقيل معناه ظانين ومقدرين أن يعجز الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج . وقيل معاندين قاله الفراء وقال ابن عباس : مراغمين ومشاقين .

﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي النار الموقدة.﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ من لابتداء الغاية ، وهذا شروع في تسلية ثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد التسلية الأولى .

﴿ من رسول ولا نبي ﴾ من زائدة لتأكيد النفي ، وفيه دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء فقال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، فقيل فكم الرسل منهم ؟ فقال : ثلثمائة وثلاثة عشر »[1] ، والفرق بينهما أن الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل اليه عيانا ومحاورته شفاهاً ، والنبي الذي يكون وحيه إلهاماً أو مناماً .

وقيل الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبي من أمر أن يدعو الى شريعة من قبله ولم ينزل عليه كتاب ولا بد لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة ، وقرأ ابن مسعود ولا نبي ولا محدث ، وعن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله ، وزاد فنسخت محدث ، قال : والمحدثون صاحب يس ولقمان ومؤمن آل فرعون وصاحب موسى .

﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ معنى تمنى تشهى وهيأ في نفسه ما يهواه ، قال الواحدي ، قال المفسرون : معنى تمنى تلا ، قال جماعة المفسرين ، في سبب نزول هذه الآية : انه صلى الله عليه وسلم لما شق عليه اعراض قومه عنه تمنى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم ، فكان ذات يوم جالساً في ناد من أنديتهم ، وقد نزل عليه سورة

---

(١) الإمام احمد ٥/٢٦٦ .

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ فأخذها يقرأها عليهم حتى بلغ قوله : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . وكان ذلك التمني في نفسه ، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه : تلك الغرانيق[1] العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين فتفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، فأتاه جبريل فقال ما صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاف خوفاً شديداً فأنزل الله هذه الآية ، هكذا قالوا .

ولم يصح شيء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه ؛ ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، حيث قال الله تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ، وقوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ .

وقوله : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾ فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون .

قال البزار : هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي (ﷺ) بإسناد متصل .

---

(١) هذه الرواية أدخلها على الإسلام يهوديّ تجلى الغموض عنه وإن وثقه بعض الناس ؛ فإن هذه الرواية تشجب هذا التوثيق وتحجبه ؛ ذلك أن ابن سعد في الطبقات يرويها عن رجل يدعى عبد الله بن حنطب ليس له صحبة ، والطبري يرويها عن محمد بن كعب القرظي ، كان أبوه من سبي بني قريظة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أطلقه لأنه رآه دون البلوغ ، فتزوج وخلّف محمداً هذا وقد ولد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن هنا ندرك أن هذه الرواية لم يجرؤ واحد على إسنادها لأحد الصحابة رضوان الله عليهم ، وربما تكون قد دست من طريق بني قريظة وكان إرسالهم إياها عن طريق ابن حنطب وابن كعب . ويأتي بعد هذا ابن السائب الكلبي والواقدي فيرويانها عن ابن عباس ؛ وحسبك فهما كذابان بالإجماع .

وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم .

وقال إمام الأئمة ابن خزيْمة : إن هذه القصة من وضع الزنادقة ، قال القاضي عياض في الشفاء : إن الأمة أجمعت ـ فيما طريقه البلاغ ـ أنه معصوم فيه من الاخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً .

قال الرازي : هذه القصة باطلة موضوعة ، لا يجوز القول بها ، قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى ﴾ وقال تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ ولا شك أن من جوز على الرسول تعظيم الأوثان فقد كفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان ، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع ان يكون كذلك أي مما ألقاه الشيطان على لسانه ، ويبطل قوله تعالى : ﴿ بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ فإنه لا فرق عند العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه .

فبهذه الوجوه النقلية والعقلية عرفنا على سبيل الاجمال أن هذه القصة موضوعة انتهى ملخصاً ، قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين الى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والحاصل ان جميع الروايات في هذا الباب اما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها ، وقد أسلفنا عن الحفاظ في هذا البحث ما فيه كفاية .

وفي الباب روايات من أحب الوقوف على جميعها فلينظرها في الدر المنثور للسيوطي ، ولا يأتي التطويل بذكرها هنا بفائدة فقد عرّفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة ، لأنه لم يروها أحد من أهل الصحة ، ولا أسندها ثقة بسند صحيح ، أو سليم متصل ، وإنما رواها المفسرون ، والمؤرخون المولعون بكل

غريب ؛ الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وقد دل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها .

والذي جاء في الصحيح من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش اخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته ، قال عبدالله : فلقد رأيته بعد قتل كافراً ، أخرجه البخاري ومسلم[1] .

وصح من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس رواه البخاري ، فهذا الذي جاء في الصحيح لم يذكر فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الألفاظ ولا قرأها والذي ذكره المفسرون عن ابن عباس في هذه القصة فقد رواه عنه الكلبي وهو ضعيف جداً ، بل متروك لا يعتمد عليه ، وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدي فهذا توهين هذه القصة .

وقد أجابوا عنه من حيث المعنى بوجوه أخرى يطول ذكرها بلا فائدة زائدة وقد استوفاها الخازن في تفسيره ، والنسفي في المدارك ونبه الحافظ ابن حجر على ثبوت أصلها في الجملة ، وقال إن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح لكنها مراسيل ، وإذا تقرر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى . تمنى قرأ وتلا كما قدمنا من حكاية الواحدي لذلك عن المفسرين .

قال البغوي : إن أكثر المفسرين قالوا معنى تمنى تلا ، وقرأ كتاب الله ومعنى ألقى الشيطان في أمنيته أي في تلاوته وقراءته ، قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، ويؤيد هذا ما تقدم في تفسير قوله : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ وقيل معنى تمنى حدّث ، ومعنى في أمنيته في حديثه ، روي هذا عن ابن عباس ، وقيل معنى تمنى قال ، فحاصل معنى الآية أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا جرى على لسانه فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله (ﷺ) .

(١) مسلم ٥٧٦ ـ البخاري ٥٨٨ .

أي لا يهولك ذلك ولا يحزنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء وعلى تقدير أن معنى تمنى حدّث نفسه كما حكاه الفراء والكسائي فإنهما قالا: يقال تمنى إذا حدث نفسه ، فالمعنى أنه إذا حدث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جرى على لسانه .

قال ابن عطية : لا خلاف أن القاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة ، قال القاضي عياض : وهذا أحسن الوجوه وهو الذي يظهر ترجيحه ، وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل ، وقال في أمنيته في تلاوته ، وقد قيل في تأويل الآية: إن المراد بالغرانيق الملائكة ويرد بقوله الآتي : ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة .

وقيل إن ذلك جرى على لسانه سهواً ونسياناً وهما مجوزان على الأنبياء، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز ، كما هو مقرر في مواطنه ، قال الضحاك : يعني بالتمني التلاوة ، والقراءة فينسخ الله أي جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال مجاهد : إذا تمنى أي تكلم وأمنيته كلامه ، فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي صلى الله عليه وسلم لا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله لأنه معصوم ، وقد سبق الى ذلك الطبري مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر فصوب هذا المعنى قاله الحافظ في الفتح ؛ ثم لما سلاه سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان فقال :

﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يبطله ويجعله ذاهباً غير ثابت ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ أي يثبتها ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله .

لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ
يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة ﴾ تعليل أي ذلك الالقاء الذي يلقيه الشيطان ضلالة ومحنة وبلية ﴿ للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شكل ونفاق ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ هم المشركون فإن قلوبهم لا تلين للحق أبداً ولا ترجع الى الصواب بحال ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين بأنهم ظالمون فقال :

﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي عداوة شديدة ووصف الشقاق بالبعد مبالغة والموصوف به حقيقة من قام به ولما بين سبحانه أن ذلك الالقاء كان فتنة في حق أهل النفاق والشك والشرك بين أنه في حق المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حق وصدق ، فقال :

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ﴾ أي التوحيد والقرآن والتصديق بنسخ الله ما يشاء ﴿أنه الحق من ربك ﴾ أي : الحق النازل من عنده ، وقيل الضمير في ﴿ أنه ﴾ راجع الى تمكين الشيطان من الالقاء لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه ؛ ولكنه يرد هذا قوله : ﴿ فيؤمنوا به ﴾ فإن المراد الايمان بالقرآن أي يثبتوا على الايمان به .

﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تخشع وتسكن وتنقاد ، فإن الايمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا لتمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿وإن

الله لهادي الذين آمنوا ﴾ في أمور دينهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أي طريق صحيح قويم ، لا عوج به وقرىء لهادٍ بالتنوين .

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي في شك من القرآن؛ وقيل من الدين الذي يدل عليه ذكر الصراط المستقيم ، وقيل من الرسول وقيل من القاء الشيطان فيقولون ما باله ذكر الأصنام بخير ، ثم رجع عن ذلك ؛ وقرىء مُرية بضم الميم ، وهما لغتان مشهورتان ؛ وظاهر كلام أبي البقاء أنهما قراءتان ، قال السمين : ولا أحفظ الضم هنا .

﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾ أي القيامة أو الموت ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ وهو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده فكان بهذا الاعتبار عقيماً وهو في اللغة من لا يكون له ولد ، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم ، وقيل يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر ، قاله ابن عباس ، وعن أبيّ بن كعب نحوه ، وعن سعيد بن جبير وعكرمة مثله .

وعن مجاهد قال : يوم القيامة لا ليلة له ، وعن الضحاك وسعيد مثله أيضاً ؛ وقيل إن اليوم وصف بالعقم لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة فكأنه عقيم من الخير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ أي التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر وفيه استعارة بالكناية بأنه شبه اليوم المنفرد عن سائر الأيام ، والزمان الذي لا خير فيه بالنساء العقم تشبيهاً مضمراً في النفس ، وإثبات العقم تخييل ؛ فإن الأيام بعضها نتائج لبعض ، فكل يوم يلد مثله .

ﭐلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ
ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم
مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾

﴿ الملك يومئذ ﴾ أي السلطان الظاهر والاستيلاء التام يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة أي يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم ﴿ لله ﴾ سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه ﴿ يحكم ﴾ أي يفصل ﴿ بينهم ﴾ مستأنفة أو هي حالية ، ثم فسر هذا الحكم بقوله :

﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ كائنون ﴿ في جنات النعيم ﴾ مستقرون في أرضها منغمسون في نعيمها فضلاً من الله ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿ فأولئك لهم عذاب ﴾ متصف بأنه ﴿مُهين﴾ للمعذَبين بالغ منهم المبلغ العظيم بسبب كفرهم .

﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد الشرف وتفخيماً لشأنهم ، قال بعض المفسرين : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وقال بعضهم : الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين ، والكل في سبيل الله وطاعته .

﴿ ثم قتلوا ﴾ وقرىء مشدداً على التكثير ﴿ أو ماتوا ﴾ في حال المهاجرة ﴿ ليرزقنهم الله ﴾ جواب قسم محذوف ﴿ رزقاً ﴾ أي مرزوقاً ﴿ حسناً ﴾ أو مصدر مؤكد وفيه دليل على وقوع الجملة القسمية خبراً للمبتدأ ومن يمنعه ، فقوله مرجوح والرزق الحسن هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، وقيل هو الغنيمة

لأنه حلال ، وقيل هو العلم والفهم كقول شعيب : ورزقني منه رزقاً حسناً ، والتسوية في الوعد بالرزق لا يدل على تفضيل في قدر المعطي ولا تسوية ، فإن يكن تفضيل فمن دليل آخر ، والمقرر في كتب الفروع أن المقتول أفضل لأنه شهيد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن سلمان الفارسي أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين ، اقرأوا إن شئتم والذين هاجروا ـ إلى قوله ـ حليم » .

قلت: ويؤيد هذا قوله سبحانه : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ .

﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ أي أفضلهم فإنه سبحانه يرزق بغير حساب بمحض الإحسان ، وكل رزق يجري على يد العباد بعضهم لبعض فهو منه سبحانه لا رازق سواه ولا معطي غيره ، والجملة تذييل مقررة لما قبلها .

ولما ذكر الرزق أعقبه بذكر المسكن بقوله : ﴿ ليدخلنهم مَدخلاً يرضونه ﴾ مستأنفة أو بدل من جملة ليرزقنهم الله ، قرىء مُدخلاً بفتح الميم وبضمها وهو اسم مكان أريد به الجنة أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور ، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان ، وفي هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره ، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم على أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا .

﴿ وإن الله لعليم ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم . وقيل بأحوال من قضى نحبه مجاهداً ، وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً ﴿ حليم ﴾ عن تفريط المفرطين منهم بإمهال من قاتلهم معانداً لا يعاجلهم بالعقوبة .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم أو الأمر ذلك وما بعده مستأنف . وقال الزجاج : أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قُتلوا أو ماتوا ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف .

﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ أي من جازى الظالم بمثل ماظلمه، والعقاب مأخوذ من التعاقب وهو مجيء الشيء بعد غيره ، وحينئذ يسمى الابتداء عقاباً باسم الجزاء مشاكلة كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وقوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ، أو من قبيل تسمية السبب باسم المسبب ، والعقوبة في الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه ؛ والمراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه .

عن ابن جريج قال : تعاون المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخرجوه فوعده الله أن ينصره ، وهو في القصاص أيضاً ﴿ ثم بغى عليه ﴾ أي أن الظالم له في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى .

وقيل المراد بهذا البغي هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به . وقيل المعنى ثم كان المجازي

مبغياً عليه ، أي مظلوماً ، ومعنى ﴿ ثم ﴾ تفاوت الرتبة ، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم ، كما قيل في أمثال العرب : البادىء أظلم . وقيل إن هذه الآية مدنية ، وهي في القصاص والجراحات .

﴿لينصرنّه الله ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، أي والله لينصرن الله المبغي عليه على الباغي ﴿إنّ الله لعفوّ غفور ﴾ أي لكثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب أو القتال في الشهر الحرام وقيل العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ اشارة الى ما تقدم من نصر الله سبحانه للمبغيِّ عليه والباء للسببية ، أي ذلك النصر بسبب أنه سبحانه قادر ، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل . قاله الرازي . وقال البيضاوي : قادر على تقليب الأمور بعضها على بعض ، جارية عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة ، وعبر عن الزيادة بالإيلاج لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر .

وقيل يجعل ظلمة الليل مكان ضياء النهار ، وذلك بغيبوبة الشمس ، ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس ، فالمراد تحصيل أحد العرضين في محل الآخر ، وقد مضى في آل عمران معنى هذا الإيلاج.

﴿وإن الله سميع ﴾ يسمع كل مسموع لا يشغله سمع عن سمع ﴿ بصير﴾ يبصر كل مبصر ، أو سميع للأقوال وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يفعلون لا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي وإن توالت الظلمات فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ أي هو سبحانه ذو الحق فدينه حق وعبادته حق ونصره لأوليائه على أعدائه حق ووعده حق ،فهو عز وجل في نفسه وأفعاله وصفاته كلها حق .

﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ قرىء بالفوقية على الخطاب

للمشركين وبالتحتية على الخبر وهما سبعيتان ، والمعنى أن الذي يدعونه إلهاً وهي الأصنام هو الباطل الذي لا ثبوت له ولا لكونه إلهاً ، أي المعدوم في حد ذاته والباطل ألوهيته ، والباطل الزائل .

وقال مجاهد : الباطل هنا الشيطان ﴿ وأن الله هو العلي ﴾ أي العالي على كل شيء بقدرته وذاته ، المتقدس عن الأشباه والانداد المتصف بصفات الكمال المتنزه عما يقوله الظالمون والمعطلون ﴿ الكبير ﴾ أي ذو الكبرياء الذي يصغر كل شيء سواه ، هو عبارة عن كمال ذاته وعظيم قدرته وسلطانه وتفرده بالإلهية ، ثم ذكر سبحانه دليلاً بيناً على كمال قدرته فقال :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ الاستفهام للتقرير كما قاله الخليل وسيبويه،قال الخليل : المعنى ألم تعلم أنه أنزل من السماء مطراً فكان كذا وكذا ، ذكر هنا ستة أشياء أولها إنزال الماء الناشيء منه اخضرار الأرض كما قال : ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ قال الفراء : أي ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة ، أي ذات بقل وسباع وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة . وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الاشعار بتجدد الانزال واستمراره . وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل ، والرفع هنا متعين لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفي الاخضرار ، والمقصود إثباته .

قال ابن عطية : هذا لا يكون بعد الاخضرار في صباح ليلة المطر الا بمكة وتهامة ، والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض في نفسها ، لا باعتبار النبات فيها ، كما في قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ ، والمراد بقوله : ﴿ ان الله لطيف ﴾ أي يصل علمه الى كل دقيق وجليل ، وقيل لطيف بأرزاق عباده ، وقيل باستخراج النبات .

﴿ خبير ﴾ أي أنه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم ، وقيل خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر . وقيل خبير بحاجتهم وفاقتهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ
أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ
جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ
هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

والثاني قوله : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً وعبيداً ، وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿ وان الله لهو الغني ﴾ فلا يحتاج إلى شيء ﴿ الحميد ﴾ أي المستوجب للحمد في كل حال .

﴿ألم تـر أن الله سخر لكم مـا في الأرض﴾ هـذه نعمـة أخـرى ثـالثـة ذكـرهـا الله سبحانه فأخبر عباده بأنه سخر لهم وذلل ما يحتاجون اليه من الدواب والشجـر والأنهار والحجر . والحـديد والنـار لما يـراد منها ، والحيوان للأكل والـركوب والحمـل عليه والنـظر اليـه وجعله لمنـافعهم ﴿ و ﴾ سخـر لكم ﴿ الفلك ﴾ أي السفن في حال جريها .

﴿ تجري في البحر بأمره ﴾ أي بتقديره وإذنه ، فلولا أن الله سخرها لكـانت تغوص أو تقف ، وهـذه نعمة رابعـة . والنعمة الخـامسة قـوله : ﴿ ويمسك السماء ﴾ كراهة ﴿ أن تقع على الأرض ﴾ وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك لأن النعم المتقدمة لا تكمل إلا به ، والسماء جرم ثقيل ، وما كان كذلك لا بد له من السقوط لولا مانـع يمنع منـه ، وهو القدرة ؛ فأمسكها الله بقدرته لئلا تسقط فتبطل النعم التي امتن بها علينا .

﴿ إلا بإذنه ﴾ أي بإرادته ومشيئته ، وذلك يوم القيامة ، والظاهر أنه استثناء مفرّغ من أعم الأحوال وهو لا يقع في الكلام الموجب إلا أن قوله :

﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ في قوة النفي ، أي لا يتركها تقع في حالة من الأحوال إلا في حالة كونها ملتبسة بمشيئته تعالى فالباء للملابسة .

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده ، وهيأ لهم أسباب المعاش ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم ، تفضلاً منه على عباده وإنعاماً عليهم ، ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى سادسة فقال : ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ بعد أن كنتم جماداً ، بل لم تكونوا شيئاً ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ ثم يحييكم ﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿ إن الانسان لكفور ﴾ أي لكثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد ، لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة وعن الحسن في قوله ﴿ كفور ﴾ ، قال : يعد المصيبات وينسى النعم . ثم عاد سبحانه الى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الأديان عن منازعته فقال :

﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ أي لكل قرن من القرون الماضية والباقية وضعنا شريعة خاصة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها الى شريعة أخرى ؛ لا استقلالاً ولا اشتراكاً . وقيل عيداً . وقيل موضع قربان يذبحون فيه . وقيل موضع عبادة .

﴿ هم ناسكوه ﴾ الضمير لكل أمة ، أي تلك الأمة هي العاملة به لا غيرها ، فكانت التوراة منسك الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ، والانجيل منسك الأمة التي كانت من مبعث عيسى الى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والقرآن منسك المسلمين الى يوم القيامة ، والمنسك مصدر لا اسم مكان كما يدل عليه هم ناسكوه ، ولم يقل ناسكون فيه . وقيل هو الذبائح ولا وجه للتخصيص ولا اعتبار بخصوص السبب .

﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ الفاء لترتيب النهي على ما قبله والضمير

راجع الى الأمم الباقية آثارهم . يعني قد عينا لكل أمة شريعة ، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية وذلك موجب لعدم منازعة من بقي منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومستلزم لطاعتهم إياه في أمر الدين، والنهي إما على حقيقته أو كناية عن نهيه عن الالتفات إلى نزاعهم له.

قال الزجاج : إنه نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم ، أي لا تنازعهم أنت كما تقول لا يخاصمك فلان ، أي لا تخاصمه ، وكما تقول لا يضاربنك فلان ، أي لا تضاربه ، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً ، ولا يجوز لا يضربنك فلان وأنت تريد لا تضربه .

وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية : فلا ينازعنك ، أي فلا يجادلنك ؛ قال ودل على هذا وإن جادلوك . وقرىء فلا ينزعنك في الأمر أي لا يستخفنك ولا يغلبنك عن دينك . وقرأ الجمهور فلا ينازعنك من المنازعة كما تقدم .

وقال ابن عباس : هم ناسكوه أي ذابحوه فلا ينازعنك في الأمر أي في الذبح ،وعن عكرمة ومجاهد نحوه ، وعن مجاهد قال : قول أهل الشرك ، أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلوه ، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال .

﴿ وادع ﴾ هؤلاء المنازعين أو ادع الناس على العموم ﴿ إلى ﴾ دين ﴿ ربك ﴾ وتوحيده والايمان به ﴿ إنك لعلى هدى ﴾ أي طريق ﴿ مستقيم ﴾ لا اعوجاج فيه ﴿ وإن جادلوك ﴾ أي وان أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم .

﴿ فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ فكل امرهم الى الله ، وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ أي بين المسلمين والكافرين ﴿ يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل ، وفي هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ
أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن
يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ
ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

وقيل إنها منسوخة بآية السيف وهذا إنما يصح اذا كان المراد من قوله : ﴿وإن جادلوك﴾ الكف عن قتالهم وهو غير متعين ؛ بل يصح أن يكون المعنى : فاترك جدالهم وفوض الأمر الى الله فيكون هذا وعيداً لهم على أعمالهم ، وهذا المعنى لا تنسخه آية السيف ، بل هو باق بعد مشروعية القتال لعدم المنافاة .

﴿ ألم تعلم ؟ ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، والاستفهام للتقرير أي قد علمت يا محمد وتيقنت ﴿ أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم عليه من الاختلاف ﴿إن ذلك﴾ الذي في السماء والأرض من معلوماته ﴿ في كتاب ﴾ أي مكتوب عنده في أم الكتاب .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على عرشه : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي الى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله الى يوم القيامة ، فذلك قوله سبحانه

للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ألم تعلم إن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ يعني ما في السموات السبع والأرضين السبع ، إن ذلك العلم في كتاب ، يعني في اللوح المحفوظ ، مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين .

﴿إن ذلك﴾ يعني إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه ﴿على الله يسير﴾ أي هين أو أن إحاطة علمه بما في السماء والأرض جملة وتفصيلاً يسير عليه ، وان تعذر على الخلق .

﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ هذا حكاية لبعض فضائحهم أي أنهم يعبدون أصناماً : لم يتمسكوا في عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه فهو نفي للدليل السمعي ﴿وما ليس لهم به علم﴾ من دليل عقلي يدل على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿وما للظالمين﴾ بالاشراك ﴿من نصير﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران .

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ من القرآن ﴿بينات﴾ أي حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي الأمر الذي ينكر وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها أو المراد بالمنكر الانكار أي تعرف في وجوههم إنكارها والمنكر مصدر ، وقيل هو التجبر والترفع وهذا من إيقاع الظاهر موقع المضمر للشهادة عليهم بوصف الكفر .

﴿يكادون يسطون﴾ السطو : الوثب والبطش ، والسطوة شدة البطش ، يقال سطا به يسطو إذا بطش به بضرب أو شتم أو أخذ باليد ، وأصل السطو : القهر ، وقال ابن عباس : أي يبطشون ﴿بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ هم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ، والجملة مستأنفة ؛ كأنه قيل ما ذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم ؟

فقيل : يكادون يسطون ، وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة ، مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين .

وقد رأينا وسمعنا من ذلك من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف والله ناصر الحق ومظهر الدين ، ومدحض الباطل ، ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل اليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل ؛ ثم أمر رسوله أن يرد عليهم فقال :

﴿ قل أفأنبئكم ﴾ أي أخبركم ﴿ بشرٍّ من ذلكم ﴾ الذي فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب وهو ﴿ النار ﴾ التي ﴿ وعدها الله الذين كفروا ﴾ وقيل المعنى أفأخبركم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والتوثب عليهم ، وقرىء النار بالحركات الثلاث ﴿ وبئس المصير ﴾ أي الموضع الذي يصيرون اليه وهو النار .

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ ، وإنما قال ضرب مثل لأن حجج الله عليهم بضرب الأمثال لهم أقرب الى أفهامهم، قال ابن عباس : نزلت في صنم ، قال الأخفش : ليس ثَمَّ مثل وإنما المعنى ضربوا لي مثلاً ؛ قال النحاس : المعنى ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلاً ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه أي بين الله لكم شبهاً ولمعبودكم ، وقال القتيبي : معنى ضرب مثل أي عبدت آلهة لم تستطع أن تخلق ذباباً ، وأصل المثل جملة من الكلام متلقاة بالرضاء والقبول مسيرة في الناس مستغربة عندهم وجعلوا مضربها مثلاً لموردها ، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة في هذه الآية .

﴿ فاستمعوا له ﴾ أي لضرب هذا المثل وتدبروه حق تدبره ، فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع ، والمعنى أن الكفار جعلوا لله مثلاً لعبادتهم غيره فكأنه قال : جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه ، ثم بين حالها وصفتها فقال :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ المراد بهم الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها ، وقيل المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله ، لكونهم أهل الحل والعقد فيهم؛ وقيل الشياطين الذين حملوهم على معصية الله ، والأول أوفق بالمقام وأظهر في التمثيل .

﴿ لن يخلقوا ذباباً ﴾ واحداً مع ضعفه وصغره وقلته وهو اسم للواحد يطلق على الذكر والانثى وجمع القلة إذبة والكثرة ذِبان بالكسر مثل غراب وأغربة وغربان وبالضم كقضبان .

وقال الجوهري : الذباب معروف، الواحد ذبابة ، وسمي ذباباً لأنه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره و﴿ لن ﴾ لتأكيد النفي المستقبل وتأكيده هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل ، كأنه قال : محال أن يخلقوا .

وتخصيص الذباب لمهانته واستقذاره ، والمعنى لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات وهو أجهل الحيوانات ، لأنه يرمي نفسه في المهلكات ، ومدة عيشه أربعون يوماً ، وأصل خلقته من العفونات ثم يتوالد بعضه من بعض يقع روثه على الشيء الأبيض فيرى أسود ، وعلى الأسود فيرى أبيض .

﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ أي لخلق الذباب ، والتقدير لن يخلقوه على كل حال ، ولو في هذه الحالة المقتضية لجمعهم ، فكأنه تعالى قال : إن هذه الأصنام إنِ اجتمعت لا تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يليق بالعاقل

جعلها معبوداً كما أشار اليه في التقرير ، ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال :

﴿ وإنْ يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي إذا أخذ واختطف منهم هذا الخلق الأقل الأرذل شيئاً من الأشياء بسرعة لا يقدرون على تخليصه منه ؛ لكمال عزهم وفرط ضعفهم ، والاستنقاذ والانقاذ التخليص ، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف ، وعن استنقاذ ما أخذه منهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً وأشد منه قوة وأعجز وأضعف، قال عكرمة : أي لا تستنقذ الاصنام ذلك الشيء ، ثم عجب سبحانه من ضعف الاصنام والذباب فقال :

﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه ، والمطلوب الذباب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ولو حققت وجدت الطالب أضعف فإن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب ، وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم قال ابن عباس : الطالب آلهتهم والمطلوب الذباب ، ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز ما عرفوا الله حق معرفته فقال :

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه ، ولا عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، وقد

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾

تقدم في الأنعام ﴿إن الله لقوي﴾ على خلق كل شيء ﴿عزيز﴾ غالب لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين ، فإنها جماد لا يعقل ولا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شيء،ثم أراد سبحانه أن يرد عليهم ما يعتقدونه في النبوات والآلهيات فقال :

﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً﴾ كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل[1] والحفظة ﴿و﴾ يصطفي أيضاً رسلاً ﴿من الناس﴾ وهم الأنبياء فيرسل الملك إلى النبي والنبي الى الناس أو يرسل الملك بقبض أرواح مخلوقاته أو لتحصيل ما ينفعه أو لانزال العذاب عليهم .

أخرج الحاكم وصححه عن عكرمة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة »[2]؛ وأخرج عن

---

(١) لعل المصنف يريد بعزرائيل ملك الموت،ولم يثبت من طريق صحيح تسمية ملك الموت عزرائيل ـ المطيعي .

(٢) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٧٥ .

أنس ، وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « موسى بن عمران صفي الله »(١) قال المحلي : نزل لما قال المشركون : ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي وليس بأكبرنا ولا أشرفنا ، والقائل هو الوليد بن المغيرة ، ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر ما يتعلق بالآلهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوءات ، وقال الرازي : وجه المناسبة أنه لما أبطل فيما قبلها عبادة الأوثان أبطل ههنا عبادة الملائكة .

﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ بصير ﴾ بمن يختاره من خلقه ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي ما قدموا من الأعمال ، وما يتركونه من الخير والشر ، كقوله تعالى : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارَهم﴾ وقيل ما مضى ولم يأت وقيل ما عملوا وما سيعملونه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة .

﴿وإلى الله ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجع الأمور ﴾ لما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه،الزجر لعباده عن معاصيه ، والحض لهم على طاعاته ، صرح بالمقصود فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ أي صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم ، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ، وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات ، ثم عمم فقال : ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ أي افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها ، وقيل وحّدوه ﴿ وافعلوا الخير ﴾ أي ما هو خير وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة وقيل المراد بالخير هنا المندوبات ثم علل ذلك بقوله :

﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي إذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح ، وفي هذا إشارة إلى أن دخول الجنة ليس مرتباً على هذه الأعمال مثلاً ، بل هذه الأمور كلفنا الله بها شرعاً ، وأما قبولها فشيء آخر يتفضل الله به علينا ، وهذه الآية

(١) المستدرك كتاب التاريخ ٢/٥٧٦ .

من مواطن سجود التلاوة عند الشافعي ومن وافقه ، لا عند أبي حنيفة ومن قال بقوله ، وقد تقدم أن هذه السورة فضلت بسجدتين وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية .

وقد اختلف في عدة سجود التلاوة فذهب أكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة ، لكن الشافعي رحمه الله تعالى قال : في الحج سجدتان ، وأسقط سجدة ص ، وقال أبو حنفية : في الحج سجدة ، وأثبت سجدة ص ، وقيل خمس عشرة سجدة ، وقال قوم : ليس في المفصل سجدة ، فعلى هذا تكون إحدى عشرة سجدة ، وسجود التلاوة سنة عند الشافعي ؛ وواجب عند أبي حنيفة ، ودلائل الأقوال مبسوطة في مواطنها ، ثم أمرهم بما هو سنة الدين وأعظم أعماله فقال :

﴿ وجاهدوا في الله ﴾ أي في ذاته من أجله ، والمراد به الجهاد الأكبر وهو الغزو للكفار ومدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين ، وقيل المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به في الآية المتقدمة ، وامتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم .

ومعنى ﴿حقَّ جهاده﴾ المبالغة في الأمر بهذا الجهاد باستفراغ الطاقة لأنه أضاف الحق الى الجهاد ، والأصل اضافة الجهاد الى الحق أي جهاداً خالصاً لله فعكس ذلك لقصد المبالغة وأضاف الجهاد الى الضمير اتساعاً أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ، ومن أجله ، وقيل المراد بحق جهاده هو أن لا يخافوا في الله لومة لائم ، وقيل المراد به استفراغ ما في وسعهم في احياء دين الله وقال مقاتل والكلبي : ان الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ كما أن قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ منسوخ بذلك ، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة إلى المصير الى النسخ .

عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لي عمر : ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ في آخر الزمان ، كما جاهدتم في أوله ؟ قلت بلى

ومتى هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء .

وأخرج الترمذي وصححه وابن حبان عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»[1] ، ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي اختاركم لدينه وفيه تشريف لهم عظيم ، ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال :

﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي من ضيق وشدة ، وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله فقيل هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين ، وقيل المراد قصر الصلاة والإفطار للمسافر والصلاة بالايماء على من لا يقدر على غيره وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض وأكل الميتة عند الضرورة واغتفار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة وكذا في الفطر والأضحى ، وقيل المعنى أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التي فيها حرج فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بني إسرائيل .

وقيل المراد بذلك أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة ، وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة ، والأرش أو القصاص في الجنايات ورد المال أو مثله ، أو قيمته في الغصب ونحوه ؛ فليس في دين الاسلام ما لا يجد العمد فيه سبيلاً الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب ، وقيل المراد بالدين التوحيد ولا حرج فيه ، بل فيه تخفيف فإنه يكفِّر ما قبله من الشرك وان امتد ولا يتوقف الاتيان به على زمان أو مكان معين .

---

(١) الترمذي كتاب فضائل الجهاد الباب ٢ أحمد بن حنبل ٦/٢٠ ـ ٢٢ .

وفي القرطبي . قال العلماء : رفع الحرج انما هو لمن استقام على منهاج الشرع ؛ وأما السُّرّاق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبات رجل لاثنين في سبيل الله ، لكنه مع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج،انتهى .

والمعنى الأول أولى ، والظاهر أن الآية أعم من هذا كله فقط حط سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم أو بالتخفيف ، وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله،وما أنفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وقوله : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا بـه﴾ وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال : « قد فعلت » كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية والأحاديث في هذا كثيرة .

وعن عائشة أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال : «الضيق». وقال أبو هريرة لابن عباس : أما علينا في الدين من حرج في أن نسرق أو نزني ؟ قال: بلى ؛ قال : فما هذه الآية ؟ قال : الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم،وعن ابن عباس كان يقول : وما جعل عليكم في الدين من حرج، توسعة الاسلام وما جعل الله من التوبة والكفارات ، وعنه قال : هذا في هلال رمضان إذا شك فيه الناس ، وفي الحج اذا شكوا في الأضحى ، وفي الفطر وأشباهه ، وعنه سئل عن الحرج فقال : ادع لي رجلاً من هذيل فجاءه فقال : ما الحرج فيكم ؟ قال : الحرجة من الشجر التي ليس فيها مخرج ، فقال ابن عباس : الذي ليس له مخرج ، وفي لفظ قال الهذيلي : الشيء الضيق قال : هو ذاك ، وعن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ثم قال : ادع لي رجلاً من بني مدلج وقال : ما الحرج فيكم ؟ قال : الضيق .

﴿ ملة أبيكم ابراهيم ﴾ أي وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم قاله الزمخشري وقال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم ، وبه قال الحوفي ، واتّبعه أبو البقاء ، وقال الفراء : كملة أبيكم ، وقيل التقدير وافعلوا الخير كفعل أبيكم ابراهيم فأقام الملة مقام الفعل وقيل النصب على الاغراء وقيل على الاختصاص أي اعني بالدين ملة أبيكم، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة ، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أباً لنبيهم صلى الله عليه وسلم ، قال السديّ : ملة أبيكم أي دين أبيكم .

﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أي قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة ، قال ابن عباس : الله عز وجل سماكم ، وروي نحوه عن جماعة من التابعين ، وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه ، والترمذي وصححه والنسائي والبيهقي وغيرهم ، عن الحرث الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنّه من جثيٍّ جهنم » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : نعم فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله[1] ، وقيل إن الكناية راجعة الى إبراهيم يعني ابراهيم سماكم المسلمين في أيامه من قبل هذا الوقت وهو قوله : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ فاستجاب الله دعاءه فينا .

﴿ وفي هذا ﴾ أي في حكمه أن من اتبع محمداً (ﷺ) فهو مسلم ، قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة ، وقيل أي في القرآن يعني فضلكم على سائر الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله :

﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ يوم القيامة بتبليغه إليكم

---

(١) الترمذي كتاب الأدب الباب ٧٨ .

﴿ وتكونوا ﴾ أنتم ﴿ شهداء على الناس ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم ، فإن تسمية الله أو ابراهيم لهم حكم بإسلامهم وعدالتهم وهو سبب لقبول شهادة الرسول الداخل فيهم دخولاً أولياً وقبول شهادتهم على الأمم ، قاله الشهاب ، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في البقرة ، ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الاسلامية فقال :

﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ بواجباتها وداوموا عليها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ بشرائطها وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون والتجئوا اليه في جميع احوالكم ولا تطلبوا ذلك إلا منه ، وقيل الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة ، وقيل تمسكوا بدين الله ، وقيل ثقوا به تعالى في مجامع أموركم ﴿ هو مولاكم ﴾ أي ناصركم ومتولي أموركم دقيقها وجليلها ﴿ فنعم المولى ﴾ هو ﴿ ونعم النصير ﴾ أي الناصر لكم هو يعني لا مماثل له في الولاية لأموركم ، والنصرة على أعدائكم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون

﴿ وهي مكية وآياتها مائة وثماني عشرة ﴾

قال القرطبي : كلها مكيّة في قول الجميع ، أي بلا خلاف وآياتها مائة وتسع عشرة آية عند البصريين ، ومائة وثماني عشرة آية عند الكوفيين وسبب هذا اختلافهم في قوله : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين ﴾ ، هل هو آية أو بعض آية . وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة الصبح، فاستفتح سورة المؤمنين حتى اذا جاء ذكر موسى وهرون أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع[1] . وأخرج البيهقي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما خلق الجنة قال لها تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » وقد ورد في فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتي قريبا .

---

(١) مسلم ٤٥٥ .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ
مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ
حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾

﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال الفراء : قد لتأكيد فلاحهم ، وإفادة ثبوت ما كان يتوقع الثبوت من قبل ، أو لتقريب الماضي من الحال ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة قبل حال قيامها . والمعنى أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال ، والفلاح الظفر بالمراد ، والفوز بالمرام والنجاة عن المكروه . وقيل البقاء في الخير ، ويقال أفلح إذا دخل في الفلاح ؛ ويقال أفلحه إذا أصاره إلى الفلاح وقد تقدم معنى الفلاح في البقرة .

وقرىء أُفلح بناء للمفعول ، وقرىء أفلحوا على الابهام والتفسير، أو على لغة أكلوني البراغيث.

وقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال : كان اذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل الله عليه يوماً ، فمكثنا ساعة فسرّى عنه فاستقبل القبلة فقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا ، ثم قال : لقد انزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ قد أفلح المؤمنون ، حتى ختم العشر ، وفي اسناده يونس ابن سليم[1] .

---

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٢٣/ ١ .

قال النسائي : لا نعرفه،وعن يزيد بن بابنوسَ قال: قلنا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت كان خلقه القرآن ، ثم قالت تقرأ سورة المؤمنين ، اقرأ قد أفلح المؤمنون ـ حتى بلغ العشر ـ فقالت هكذا كان خلق رسول الله « ﷺ » ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله:

﴿ الـذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ وما عطف عليه ، والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب ، كالخوف والرهبـة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث ، وهو في اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل . وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ؟ على قولين . قيل الصحيح الأول وقيل الثاني ، وادعى عبد الواحد بن يزيد اجماع العلماء على أنه ليس للعبد الا ما عقل من صلاته .

حكاه النيسابوري في تفسيره قال : ومما يدل على صحة القول قـوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قال : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ والغفلة تضاد الذكر ، ولهذا قال : ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ وقوله : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ نهى للسكران والمستغرق في هموم الدنيا بمنزلته .

أخرج البيهقي عن محمد بن سيرين قال : « نبئت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فنزلت ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ وزاد عبد الرزاق عنه فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فنزلت هذه الآية فطأطأ رأسه .

وعن علي قال : الخشوع في القلب وأن تلين كنفك للمرء المسلم وأن لا تلتفت في صلاتك . وقال ابن عباس : خاشعون ، خائفون ساكنون ، وقيل

خاضعون بالقلب ساكنون بالجوارح فلا يلتفون يميناً ولا شمالاً ، وهذا من فروض الصلاة عند الغزالي . وذهب بعضهم الى أنه ليس بواجب لأن اشتراط الخضوع والخشوع مخالف لاجماع الفقهاء فلا يلتفت اليه ، وقد ورد في مشروعية الخشوع في الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر الى السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث .

﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ قال الزجاج : اللغو هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل ، وقد تقدم تفسيره في البقرة . وقال الضحاك : إن اللغو هنا الشرك . وقال الحسن : إنه المعاصي كلها ، وقيل هو معارضة الكفار بالسب والشتم . وقال ابن عباس : اللغو الباطل . وقيل المراد باللغو كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو مباحاً لم تدع اليه ضرورة ولا حاجة .

والمعنى أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل ، وفي وصفهم بالخشوع أولاً وبالاعراض ثانياً جمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف ، ومعنى اعراضهم عنه تجنبهم له وعدم التفاتهم اليه ، وظاهره اتصافهم بصفة الاعراض عن اللغو في كل الأوقات ، فيدخل وقت الصلاة في ذلك دخولاً أولياً ، كما تفيده الجملة الاسمية .

﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي يؤدونها ، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل ، أو المراد بالزكاة هنا المصدر لأنه الصادر عن الفاعل . وقيل يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف ، أي والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون ، أي دائمون .

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة ، فهو اسم سوأتهما ، والمراد بحفظهما لها أنهم ممسكون لها بالعفاف عما

لا يحل لهم، قيل والمراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدليل قوله : ﴿ الا على أزواجهم ﴾ الخ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه .

قال الفراء : (على) بمعنى من، وقيل إن الاستثناء من نفي الارسال المفهوم من الحفظ ، أي لا يرسلونها على أحد الا على أزواجهم ، وقيل يلامون على كل مباشرة الا على ما أحل لهم فإنهم غير ملومين عليه ، ودل على المحذوف ذكر اللوم في آخر الآية .

وقيل المعنى الا والين على أزواجهم وقوامين عليهن ، من قولهم : كان فلان على فلانة فمات عنها فخُلِّف عليها فلان[1] قاله الزمخشري ، والمعنى أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم ، وجملة ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ في محل جر ، والمراد بذلك الإماء ، وعبر عنهن بـ ﴿ ما ﴾ التي لغير العقلاء لأنه اجتمع فيهن الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن كسائر السلع ؛ فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء ، ولهذا تباع كما تباع البهائم ، والمراد الاماء والجواري .

﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ في إتيانهن بجماع أو غيره تعليل للاستثناء مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه .

﴿ فمن ابتغى وراء ﴾ أي سوى ﴿ ذلك ﴾ من الزوجات وملك اليمين وقال الزجاج : ما بعد ذلك ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ أي المجاوزون إلى ما لا يحل لهم فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عادياً . وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة . وعن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال : إني لأرى تحريمها في القرآن ثم تلا هذه الآية واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر ، فهو حرام عند الجمهور ؛ وقد جمع شيخنا الشوكاني في ذلك رسالة سماها بلوغ المنى في حكم الاستمنا ، وذكر فيها أدلة

(١) فلان نائب فاعل لبناء خلف للمجهول .

المنع والجواز وترجيح الراجح منهما ﴿ والذين هم لأماناتهم ﴾ قرىء بالجمع ، وقرأ ابن كثير بالافراد ، والأمانة ما يؤتمنون عليه .

﴿ وعهدهم ﴾ هو ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه ، أو من جهة عباده وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الانسان من أمر الدين والدنيا ، فلا يرد ما يقال : كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبعة بالفلاح مع أنه تعالى لم يتمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج ؛ والأمانة أعم من العهد ، فكل عهد أمانة ﴿ راعون ﴾ أي حافظون ، والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم ﴿ والذين هم على صلواتهم ﴾ قرأ الجمهور بالجمع ، ومن قرأ بالافراد فقد أراد اسم الجنس . وهو في معنى الجمع .

﴿ يحافظون ﴾ المحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أذكارها .

عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن الذين هم على صلاتهم دائمون ؛ والذين هم على صلاتهم يحافظون . قال ذلك على مواقيتها ، قالوا : ما كنا نرى ذلك الا على تركها ؛ قال : تركها كفر ، وقد وصفهم أولاً بالخشوع في الصلاة وآخراً بالمحافظة عليها فليس في الآية تكرار ، والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات لكونها من شرائطها ، ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال :

﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ أي الأحقّاء بأن يسمّوا بهذا الاسم دون غيرهم ، لأن ضمير الفصل يدل على التخصيص ، والحصر اضافي لا حقيقي ، لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور ، ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو ، ولقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ قاله الكرخي ، ثم بين الموروث بقوله :

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ
مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا
ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ
خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ
ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ لغة رومية معربة ، وقيل فارسية ، وقيل حبشية ، وقيل عربية ، وهو أوسط الجنة وأعلى الجنان ، كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أن من عمل بما ذكر في هذه الآيات فهو الوارث الذي يرث من الجنة ذلك المكان ، وهذا بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد اطلاقها وتفسير لها بعد ابهامها ، وتفخيم لها ورفع لمحلها : وهي استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه .

وقيل المعنى أنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فرقوها على أنفسهم ، لأنه سبحانه خلق لكل انسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار .

وعن أبي هريرة قال : يرثون مساكنهم ومساكن اخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله . وعنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما منكم من أحد الا وله منزلان ، منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾»[1] أخرجه ابن ماجة وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي وغيرهم ،

(١) ابن ماجة كتاب الزهد الباب ٣٩ .

وأخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ، وعبد بن حميد عن انس فذكر قصة ، وفيها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها »[١] .

ويدل على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ ، وقوله : ﴿ تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ وشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم : ويضعها على اليهود والنصارى »[٢] ، وفي لفظ له قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هذا فكاكك من النار »[٣] .

﴿ هم فيها خالدون ﴾ حالية أو مستأنفة لا محل لها ، ومعنى الخلود أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها وتأنيث الضمير مع أنه راجع الى الفردوس لأنه بمعنى الجنة ، ولما حث الله سبحانه عباده على العبادة ، ووعدهم الفردوس على فعلها وتضمن ذلك المعاد الأخروي عاد إلى تقرير المبدإ ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين ، فإن الابتداء في العادة أصعب من الإعادة لقوله : وهو أهون عليه ، وجملة ما ذكره من الدلائل أنواع أربعة .

الأول: الاستدلال بتقلب الانسان في أطوار الخلقة وهي تسعة آخرها تبعثون .

الثاني: خلق السموات بقوله : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ .

الثالث: إنزال الماء بقوله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ .

---

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٢٣/٢ ـ احمد بن حنبل ٢٦٠/٣ .
(٢) مسلم ٢٧٦٧ .
(٣) مسلم ٢٧٦٧ .

الرابع: الاستدلال بأحوال الحيوانات بقوله : ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ ، وأحوال الحيوان أربعة مذكورة في الآية فقال .

﴿ ولقد ﴾ أي والله لقد ﴿ خلقنا الانسان ﴾ أي الجنس لأنهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم ، وقيل المراد به آدم ﴿ من سلالة ﴾ فعالة من السل وهو استخراج الشيء من الشيء ، والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر ، وقيل إنما سمي التراب الذي خلق آدم منه سلالة لأنه سلّ من كل تربة ، يقال : سلك الشعرة من العجين ، والسيف من الغمد ، فانسل فالنطفة سلالة ، والولد سليل وسلالة أيضاً .

وقيل السلالة الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعك فالذي يخرج هو السلالة قاله الكلبي ، وعن ابن عباس قال : السلالة صفو الماء الرقيق الذي يكون منه الولد وعن ابن مسعود قال : إنَّ النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في شعر وظفر ، فيمكث أربعين يوماً ثم ينحدر في الرحم فيكون علقة وللتابعين في تفسير السلالة أقوال قد قدمنا الاشارة اليها أي سلالة كائنة .

﴿ من طين ﴾ من للبيان ، والمعنى أنه سبحانه خلق جوهر الانسان اولاً من طين لأن الأصل آدم وهو من طين خالص وأولاده من طين ومني ﴿ ثم جعلناه ﴾ أي الجنس باعتبار أفراده الذين هم بنو آدم ، أو جعلنا نسله على حذف مضاف إن أريد بالانسان آدم ﴿ نطفة ﴾ قد تقدم تفسير النطفة في سورة الحج ، وكذلك تفسير العلقة والمضغة .

﴿ في قرار مكين ﴾ المراد به الرحم وعبر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة واختلاف العواطف بـ﴿ ثم ﴾ والفاء لتفاوت الاستحالات يعني أن بعضها مستبعد حصوله مما قبله وهو المعطوف بـ﴿ ثم ﴾ فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي ، والبعد الحسي لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً وكذا جعل النطفة البيضاء دماً أحمر بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً

له في اللون والصورة وكذا تصليبها حتى تصير عظماً ، لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد ، وكذا مدُّ لحم المضغة عليه ليستره ، فسقط ما قيل : ان الوارد في الحديث أن مدة كل استحالة أربعون يوماً ، وذلك يقتضي عطف الجميع بـ ﴿ ثم ﴾ ان نظر لآخر المدة وأولها أو يقتضي العطف بالفاء إن نظر لآخرها فقط .

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي أنه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أي قطعة لحم غير مخلقة ﴿ فخلقنا المضغة ﴾ أي غالبها أو كلها ، قولان حكاهما أبو السعود ﴿ عظاماً ﴾ أي متصلبة لتكون عموداً للبدن على أشكال مخصوصة .

﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ من بقية المضغة أو مما أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ مبايناً للخلق الأول أي نفخنا فيه الروح بعد أن كان جماداً، قاله ابن عباس، وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والربيع بن أنس والسدي والضحاك وابن زيد واختاره ابن جرير.

وقيل أخرجناه الى الدنيا ، وقيل هو نبات الشعر وقيل خروج الأسنان قاله ابن عباس ، وقيل تكميل القوى المخلوقة فيه ، وقيل كمال بابه ، وقيل إن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الرضاع إلى القعود والقيام إلى المشي الى الفطام الى أن يأكل ويشرب الى أن يبلغ الحلم ، ويتقلب في البلاد الى ما بعدها ، والصحيح أنه عـام في هذا ؛ وفي غيـره من النطق والادراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات الى أن يموت ، قال الكرخي : المعنى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفة لا يحيط بها وصف الواصفين .

﴿ فتبارك الله ﴾ أي استحق التعظيم والثناء ، وقيل مأخوذ من البركة

أي كثر خيره وبركته ﴿ أحسن الخالقين ﴾ أي المصورين والخلق في اللغة التقدير ، يقال خلقت الأديم اذا قسته لتقطع منه شيئاً ؛ فمعناه أتقن الصانعين المقدرين خلقاً في الظاهر ، والا فالله خالق الكل .

عن صالح أبي الخليل : قال لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم الى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ ، قال عمر رضي الله عنه : فتبارك الله أحسن الخالقين قال : « والذي نفسي بيده ختمت بالذي تكلمت به يا عمر » .

وعن أنس قال : قال عمر : وافقت ربي في أربع قلت : يا رسول الله لو صلينا خلف المقام ؟ فأنزل الله : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ ، وقلت : يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجاباً ؟ فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله : ﴿ واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم : لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن فنزلت ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة ﴾ الى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ فقلت : فتبارك الله أحسن الخالقين ، أخرجه الطيالسي وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر .

وعن زيد بن ثابت قال : أملى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ الآية ، فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : « بها ختمت » ، وفي إسناده جعفر الجعفي وهو ضعيف جداً ، قال ابن كثير : وفي خبره هذا نكارة شديدة ، وذلك أن هذه السورة مكية وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة ، وكذلك إسلام معاذ إنما

كان بالمدينة والله تعالى أعلم[١] .

﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أي الأمور المتقدمة ﴿ لميتون ﴾ أي لصائرون إلى الموت لا محالة ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ من قبوركم الى المحشر للحساب والجزاء والعقاب .

﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون اليه ، بعد بيان خلق أنفسهم ، والمراد بالفوق جهة العلو من غير اعتبار فوقية لهم ، لأن تلك النسبة إنما تعرض لهم بعد خلقهم ، ووقت خلق السموات لم نكن مخلوقين ، ولم تكن هي فوقنا ، بل خلقنا بعد ، قاله الحفناوي .

والطرائق هي السموات ، قال الخليل والفراء والزجاج : سميت طرائق لأنها طورق بعضها فوق بعض ، كمطارقة النعل ، وكل ما فوقه مثله ، فهو طريقه ، قاله البيضاوي ، قال أبو عبيدة : طارقت الشيء جعلت بعضه فوق بعض ، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة ، وقيل لأنها طرائق الملائكة في العروج والهبوط والطيران ، قاله الرازي ، وقيل لأنها طرائق الكواكب ومتقلباتها .

﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ المراد بالخلق هنا المخلوق أي : وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن أن تقع على الأرض بغافلين ، وقال أكثر المفسرين : المراد الخلق كلهم بل حفظنا السموات عن أن تسقط وحفظنا من في الأرض أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الأرض أو يهلكون بسبب من الأسباب المستأصلة لهم ، ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشهم ونفي الغفلة عن حفظهم وعن أعمالهم وأقوالهم .

---

(١) ابن كثير ٢٤٢/٣ .

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا
لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً
تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ هذا من جملة ما امتنّ الله سبحانه به على خلقه ، والمراد بالماء ماء المطر ، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان ، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازل من السماء ، والعيون والآبار المستخرجة من الأرض ، فإنّ أصلها من ماء السماء ، وقيل ماء أي عذباً ، والا فالأجاج ثابت في الأرض مع القحط ، والعذب يقل مع القحط ، وفي الأحاديث أن الماء كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، ثم جعل الله منه في السماء ماء وفي الأرض ماء كذا في البحر .

و ﴿ من ﴾ ابتدائية وتقديمها على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والعدول عن الاضمار لأن الإنزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها بصفة العلو .

﴿ بقدر ﴾ أي : بتقدير منّا لاستجلاب منافعهم ، ودفع مضارهم أو بمقدار ما يكون به صلاح الزرائع والثمار والشرب ، فإنه لو كثر لكان به هلاك ذلك ، ومثله قوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي جعلناه ساكناً مستقراً ثابتاً فيها ، بعضه على ظهرها ، وبعضه في بطنها ، ينتفعون به وقت حاجتهم إليه كالماء الذي يبقى في

المستنقعات والغدران ونحوها عند انقطاع المطر ، وأخرج ابن مردويه والخطيب قال السيوطي بسند ضعيف : عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنزل الله من الجنة الى الأرض خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل ، فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعلها منافع للناس في أصناف معايشهم فذلك قوله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم والحجر الأسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء فذلك قوله :

﴿ وإنّا على ذهاب به لقادرون ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة » .

قال البغوي ؛ رواه الحسن بن سفيان بالاجازة عن سعيد بن سابق السكندري عن مسلمة بن علي[1] عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس ، والمعنى كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه ، إما بالإفساد وإما بالتصعيد وإما بالتعميق والتغوير في الأرض ، ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى ، وفي هذا تهديد شديد لما يدل عليه من قدرته سبحانه على إذهابه وتغويره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم .

ومثله قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ ، ثم بين سبحانه ما يتسبب عن إنزال الماء فقال :

---

(١) مسلمة بن عُلَيّ بضم العين وفتح اللام وتشديد الياء شامي واهي الحديث. قال البخاري منكر الحديث ، وقال النسائي متروك ، والحديث ساقه ابن عدي بإسناده في الضعفاء ونبه دحيم بأنه ليس بشيء ، وقال أبو حاتم لا يشتغل به . وقال ابن عدي : عامة أحاديثه غير محفوظة ، أما مقاتل بن حيان وهو من رجال مسلم وان لم يرو له البخاري فقد قال وكيع : ينسب إلى الكذب ، وكان أحمد بن حنبل لا يعبأ بمقاتل بن حيان ولا بمقاتل بن سليمان ، وقال ابن خزيمة : لا أحتج بمقاتل بن حيان. قلت : ومن ثم لا يعتد بهذا الحديث . « المطيعي » .

﴿ فأنشأنا ﴾ أي أوجدنا ﴿ لكم به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جنات من نخيل وأعناب ﴾ إنما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام والادام والفواكه رطباً ويابساً . وقيل اقتصر سبحانه عليهما لأنهما الموجودان في الطائف والمدينة وما يتصل بذلك ، كذا قال ابن جرير . وقيل لأنهما أشرف الاشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعماً ولذة .

﴿ لكم فيها ﴾ أي في هذه الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ تتفكهون بها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ وتطعمون منها شتاء وصيفاً . وقيل : المعنى ومن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم ، كقولهم فلان يأكل من حرفة كذا ، وهو بعيد . وقيل المعنى إن لكم فيها فواكه من غير العنب والنخيل . وقيل المعنى لكم في هذين النوعين خاصة فواكه ، لأن فيهما أنواعاً مختلفة متفاوتة في الطعم واللون .

وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة على ماذا يطلق اختلافاً كثيراً ، وأحسن ما قيل أنها تطلق على الثمرات التي يأكلها الناس ، وليس بقوت لهم ولا طعام ولا إدام واختلف في البقول هل تدخل الفاكهة أم لا ؟ .

﴿ وشجرة ﴾ قال الواحدي : والمفسرون كلهم يقولون : إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون ، وخصت بالذكر لأنها لا يتعاهدها أحد بالسقي ، وهي التي يخرج الدهن منها ، وهي أول شجرة نبتت بعد الطوفان ، تعمر في الأرض كثيراً حتى قال بعضهم انها تعمر ثلاثة آلاف سنة على ما ذكره الخازن ، فذكرها الله سبحانه امتناناً منه على عباده بها ، ولأنها أكرم الشجر واعمها نفعاً وأكثرها بركة ﴿تخرج من طور سيناء ﴾ خصت به مع أنها تخرج من غيره أيضاً لأن أصلها منه ثم نقلت الى غيره ، ذكره زكريا ، وهو جبل ببيت المقدس ، والطور الجبل في كلام العرب ، وقيل هو مما عرب من كلام العجم .

واختلف في معنى سيناء ، فقيل هو الحسن باللغة النبطية ، وقيل

بالحبشيّة ، وقيل بالسريانية ، ومعناه الجبل الملتف بالاشجار ، وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين .

وقيل هو من السنا وهو الارتفاع ، وقيل هو المبارك . وذهب الجمهور الى أنه اسم للجبل ، كما تقول جبل أحد ، وقيل هو جبل فلسطين ، وقيل هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل . وقيل سيناء اسم حجر بعينه ، أضيف الجبل اليه لوجوده عنده . وقيل هو كل جبل يحمل الثمار . وقرىء سيناء بفتح السين وبكسرها ولم يصرف لأنه جعل اسماً للبقعة ، وزعم الأخفش انه أعجمي .

قال ابن عباس : هو الجبل الذي نودي منه موسى .

﴿ تنبت بالدهن ﴾ قال ابن عباس : هو الزيت يؤكل منه ويدهن به ، وقرىء بفتح التاء وضم الباء ، وبضم التاء وكسر الباء من الثلاثي والرباعي ، والمعنى على الأولى أنها تنبت في نفسها متلبسة بالدهن ؛ وعلى الثانية الباء بمعنى مع فهي للمصاحبة قال أبو علي الفارسي : التقدير تنبت جناها ، ومعه الدهن . وقيل الباء زائدة قاله أبو عبيدة .

وقال الفراء والزجاج : إنّ نبت وأنبت بمعنى ؛ والأصمعي ينكر أنبت ، وقرىء تُنبَت بضم التاء وفتح الباء . قال الزجاج؛ وابن جنيّ: أي تنبت ومعها الدهن . وقرأ ابن مسعود : تخرج بالدهن ، وقرىء تنبت الدهن بحذف حرف الجر وقرىء بالدهان ، والدهن عصارة كل شيء ذي دسم ، قاله السمين .

﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به وكونه صبغاً يؤتدم به ، وقرىء صباغ مثل لبس ولباس ، وكل إدام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ ، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب ، وشبّه الإدام به لأن الخبز يكون بالادام كالمصبوغ به ، جعل الله سبحانه في هذه الشجرة المباركة أدماً وهو الزيتون ودهناً وهو الزيت .

﴿ وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة ﴾ هذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم ، وقد تقدم تفسير الأنعام في سورة النحل ، وهي الإبل والبقر والغنم .

قال النيسابوري : ولعل القصد بالأنعام هنا إلى الابل خاصة لأنها هي المحمول عليها في العادة ، ولأنه قرنها بالفلك ، وهي سفائن البر ، كما أن الفلك سفائن البحر . قال ذو الرمة :

سفائن برّ تحت خدّي زمامها

وبين سبحانه أنها عبرة وعظة لأنها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظم القدرة الإلَهية، وخصها بالعبرة دون النبات لأن العبرة فيها أظهر ، ثم فصل سبحانه ما في هذه الأنعام من النعم بعدما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال : ﴿ نسقيكم ﴾ بضم النون وفتحها .

﴿ مما في بطونها ﴾ يعني اللبن المتكوّن في بطونها المنصب إلى ضروعها من بين فرث ودم ، فإن في انعقاد ما تأكله من العلف واستحالته إلى هذا الغذاء اللذيذ والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين وأكبر موعظة للمتعظين ، وقرىء بالفوقية على أن الفاعل هو الأنعـام، وذكره هنا بلفظ الجمع لأنه راجع للأنعام مراداً بها الجمع ، وفي النحل قال : مما في بطونه بالإفراد نظراً إلى أن الأنعام اسم مفرد ، ذكره زكريا في متشابه القرآن .

وقال الكرماني : إن ما في النحل مراد به بعض الأنعام وهو الاناث ، فأتى بالضمير مفرداً مذكراً ، والمراد منه هنا الكل الشامل للاناث والذكور ، بدليل العطف في قولـه الآتي : ﴿ولكم فيها منـافع ﴾ ، فـإن هذا لا يخص الإناث، وهذا العطف لم يذكر في النحل ، ثم ذكر ما فيها من المنافع اجمالاً فقال : ﴿ ولكم فيها ﴾ أي في ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها وهي حية ﴿ منافع كثيرة ﴾ ثم ذكر منفعة خاصة فقال : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ بعد الذبح ، لما في الأكل من عظيم الانتفاع لهم ، وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال : ﴿ وعليها ﴾ أي وعلى الأنعام فإن أريد بها

الابل والبقر والغنم فالمراد وعلى بعض الانعام وهو الابل خاصة ، وان أريد بها الابل خاصة فالمعنى واضح ، ثم لما كانت الأنعام غالب ما يكون الركوب عليها في البر ضم اليها ما يكون الركوب عليه في البحر فقال :

﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ تتمياً للنعمة وتكميلاً للمنّة . ولما ذكر سبحانه الفلك أتبعه بذكر نوح لأنه أول من صنعه ، وذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب اهمالهم للتفكر في مخلوقات الله سبحانه والتذكر لنعمه عليهم فقال :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه ﴾ وفي ذلك تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له ببيان أن قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه ، واللام جواب قسم محذوف والواو للاستئناف ، وهذا شروع في خمس قصص هذا أولها ؛ والثانية قصة هود أولها ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ والثالثة قوله ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ والرابعة قصة موسى وهرون المذكورة بقوله ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه ﴾ والخامسة قصة عيسى وأمه المذكورة بقوله : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمّه آية ﴾ .

ثم ان اسم نوح يشكر ، ونوح لقبه على ما قاله الرازي ، أو عبد الله على ما قاله السيوطي ، وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين كما مرّ مراراً ، وقدمت قصته لتتصل بقصة آدم المذكورة للمناسبة بين نوح وآدم من حيث انه آدم الثاني ، لانحصار النوع الانساني بعده في نسله .

﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده وأطيعوه ولا تشركوا به شيئاً كما يستفاد من الآيات الآخرة ؛ وجملة ﴿ ما لكم من إلّه غيره ﴾ واقعة موقع التعليل لما قبلها ؛ أي ما لكم في الوجود إلّه غيره سبحانه ، ومن زائدة .

﴿ أفلا تتقون ﴾ تخافون أن تتركوا عبادة ربكم الذي لا يستحقها غيره وليس لكم إلّه سواه . وقيل المعنى أفلا تخافون أن يرفع عنكم ما خوّلكم من النعم ويسلبها عنكم ؟ وقيل المعنى أفلا تقون أنفسكم عذابه الذي تقتضيه ذنوبكم بعبادتكم غيره ؟ .

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ
جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى
فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

﴿فقال الملأ﴾ أي الأشراف ﴿الذين كفروا﴾ به ﴿من قومه﴾ لأتباعهم وحاصل ما ذكروه من الشبه خمسة : أولاها قولهم ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي من جنسكم في البشرية لا فرق بينه وبينكم ﴿يريد﴾ أي يطلب ﴿أن يتفضل عليكم﴾ بأن يسودكم ويتشرف حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره ، ثم صرحوا بأن البشر لا يكون رسولاً فقالوا :

﴿ولو شاء الله﴾ إرسال رسول ﴿لأنزل﴾ أي لأرسل ملائكة رسلاً ، وهي الشبهة الثانية ، وإنما عبر بالإنزال عن الإرسال لأن إرسالهم الى العباد يستلزم نزولهم اليهم . وقيل معناه لو شاء أن لا يعبد غيره لأنزل ﴿ملائكة﴾ لا بشراً ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي بمثل دعوى هذا المدعي للنبوة من البشر ، أو بمثل كلامه ، وهو الأمر بعبادة الله وحده ، أو ما سمعنا ببشر يدعي هذه الدعوة ، وقيل الباء زائدة ، وهذه هي الشبهة الثالثة ، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر ﴿في آبائنا الأولين﴾ أي في الأمم الماضية قبل هذا ، قالوا هذا اعتماداً منهم على التقليد واعتصاماً بحبله ، ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا اليه الكذب البحت والبهت الصراح فقالوا :

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي حالة جنون لا يدري ما يقول ، وهي

الشبهة الرابعة ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أي انتظروا به حتى يستبين امره بأن يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى أو حتى يموت فتستريحوا منه ، وهي الشبهة الخامسة ولم يتعرض لردها لظهور فسادها .

قال الفراء : ليس يريد بالحين هنا وقتاً بعينه ، إنما هو كقولهم : دعه إلى يوم ما ، فلما سمع عليه السلام كلامهم وعرف تماديهم على الكفر واصرارهم عليه .

﴿ قال رب انصرني ﴾ عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد ﴿ بما كذبون ﴾ أي بسبب تكذيبهم اياي ﴿ فأوحينا إليه ﴾ أي أرسلنا اليه رسولاً من السماء ﴿ أن اصنع الفلك ﴾ أن مفسرة لما في الوحي من معنى القول ، فلا حاجة الى جعلها مصدرية ، والفلك السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا أو متلبساً بحفظنا وكلاءتنا ، وقيل بعلمنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله ، والأولى أولى ، وجمع الأعين للمبالغة ، وإن كانت العادة أن الرائي له عينان فقط ، وقد تقدم معنى هذا في هود .

﴿ ووحينا ﴾ أي بأمرنا لك وتعليمنا اياك لكيفية صنعها ، قيل وقد صنعها في عامين وجعل طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ، وارتفاعها ثلاثين ، وجعلها ثلاث طبقات السفلى للسباع والهوام ، والوسطى للدواب والانعام ، والعليا للإنس كما مر ﴿ فإذا جاء أمرنا ﴾ الفاء لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك ، والمراد بالأمر الأمر بالعذاب ﴿ وفار التنور ﴾ أي أن مجيء الأمر هو فور التنور ، أي تنور آدم الذي تخبز فيه حواء الصائر الى نوح وكان من حجارة وقيل التنور وجه الأرض ، واختلف في مكانه ، فقيل في مسجد الكوفة ، وقيل بالشام وقيل بالهند ، والمعنى اذا وقع ذلك .

﴿ فاسلك ﴾ أي فادخل ﴿ فيها ﴾ يقال سلك في كذا أي دخله ؛ وأسلكته أدخلته . وقال ابن عباس اجعل معك في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ قرىء كلٍ بالتنوين وبالاضافة ، ومعنى الأولى من كل أمة زوجين ، ومعنى الثانية من كل زوجين وهما أمة الذكر والأنثى اثنين ، أي من غير البشر ، والا فإنه أدخل فيها من البشر سبعين أو ثمانين فأدخل من هذا النوع زيادة على اثنين .

﴿ وأهلك ﴾ أي واسلك فيها أهلك ، أي زوجتك وأولادك ﴿إلا من سبق عليه القول ﴾ أي الوعد الأزليّ بإهلاكه منهم كإبنه كنعان وأمه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ بالدعاء لهم بإنجائهم ﴿إنهم مغرقون ﴾ تعليل للنهي عن المخاطبة أي إنهم مقضيٌّ عليهم بالاغراق لظلمهم ، ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له ﴿ فإذا استويت ﴾ أي علوت ﴿ أنت ﴾ واعتدلت ﴿ ومن معك ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿ على الفلك ﴾ راكبين عليه ﴿ فقل ﴾ وكان الظاهر أن يقال ، فقولوا أي أنت ومن معك ، وانما أفرد نوحاً بالأمر بالدعاء المذكور اظهاراً لفضله واشعاراً في دعائه مندوحة عن دعائهم :

﴿ الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾ أي حال بيننا وبينهم وخلصنا منهم كقوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقد تقدم تفسير هذه القصة في سورة هود على التمام والكمال ، وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزماً لأنه قد سبق في علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظلمة وسلامتهم من أن يصابوا بما أصيبوا به من العذاب ، ثم أمره أن يسأل ربه ما هو أنفع له وأتم فائدة فقال:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾
وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا
لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ
أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ أي أنزلني في السفينة قرىء منزلاً بضم الميم وفتح الزاي على أنه مصدر وبفتح الميم وكسر الزاي على انه اسم مكان فعلى الأولى التقدير أنزلني انزالاً مباركاً وعلى الثانية انزلني مكاناً مباركاً ، قال الجوهري : المنزل بفتح الميم والزاي النزول وهو الحلول تقول : نزلت نزولاً ومنزلاً .

عن مجاهد قال : قال الله تعالى لنوح حين أنزل من السفينة ، وقيل أمره الله سبحانه بأن يقول هذا القول عند دخول السفينة ، وقيل عند خروجه منها وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الإنجاء ، والآية تعليم من الله لعباده إذا ركبوا ثم نزلوا أن يقولوا هذا القول .

قال الواحدي : قال المفسرون: إنه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك الحمد لله وعند نزوله منها : ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ هذا ثناء منه على الله عز وجل اثر دعائه له .

﴿إن في ذلك﴾ أي ما تقدم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام والسفينة وهلاك الكفار ﴿لآيات﴾ أي دلالات على كمال قدرته

سبحانه وعلامات يستدل بها على عظيم شأنه ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين قوم نوح بإرساله اليهم ووعظه أو لمختبرين لهم بإرسال الرسل اليهم ليظهر المطيع والعاصي من الناس أو الملائكة، وقيل المعنى أنه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم تارة بالإرسال وتارة بالعذاب لينظر من يعتبر ويذكر كقوله: ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مذكر﴾.

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿ قرناً ﴾ أي قوماً ﴿ آخرين ﴾ قال اكثر المفسرين : إن هؤلاء هم عاد قوم هود لمجيء قصتهم على أثر قصة نوح في غير هذا الموضع ؛ ولقوله في الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ وقيل هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة ، وقد قال سبحانه في هذه القصة ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ ، وقيل هم أصحاب مدين قوم شعيب ، لأنهم ممن أهلك بالصيحة .

﴿ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم ﴾ عدّي فعل الإرسال بـ ﴿ في ﴾ مع أنه يتعدى بإلى للدلالة على أن الرسول المرسل اليهم نشأ فيهم وبين أظهرهم يعرفون مكانه ومولده ليكون سكونهم إلى قوله أكثر من سكونهم الى من يأتيهم من غير مكانهم،وقيل وجه التعدية بفي أنه ضمن معنى القول ، والأول أولى ، لأن تضمين أرسلنا معنى قلنا : لا يستلزم تعديته بفي .

﴿أن اعبدوا الله ﴾ أن مفسرة لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول هذا القول ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ تعليل للأمر بالعبادة ﴿ أفلا تتقون؟ ﴾ عذابه الذي يقتضيه شرككم .

﴿ وقال الملأ من قومه ﴾ أي قادتهم وأشرافهم ، ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال : ﴿ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ﴾ أي بما في الآخرة من الحساب والعقاب أو بالمصير اليها أو كذبوا بالبعث .

﴿ وأترفناهم في الحياة الدنيا ﴾ أي وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه من كثرة المال ورفاهة العيش حتى وصفوا رسولهم بمساواتهم في البشرية وفي الأكل والشرب فقالوا : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ منه . قاله الفراء .

وقيل ﴿ ما ﴾ مصدرية فلا تحتاج إلى عائد ، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم ، وهذه شبهة أولى تنتهي عند قوله : لخاسرون .

﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿ إنكم إذاً ﴾ أي إذا أطعتموه ﴿ لخاسرون ﴾ أي مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم ومن حمقهم أنهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم .

﴿ أيعدكم أنكم إذا مِتّم ﴾ الهمزة للإنكار ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به واستبعاده ، قرىء بكسر الميم من ﴿ مِتّم ﴾ من مات يمات كخاف يخاف وبضمها من مات يموت كقال يقول ﴿ وكنتم ﴾ أي كان بعض أجزائكم ﴿ تراباً و ﴾ بعضها ﴿ عظاماً ﴾ نخرة لا لحم فيها ، ولا أعصاب عليها ، قيل وتقديم التراب لكونه أبعد في عقولهم ، وقيل المعنى كان متقدموكم تراباً ومتأخروكم عظاماً .

﴿ أنكم مخرجون ﴾ أي مبعوثون من قبوركم أحياء كما كنتم للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثنى أنكم للتأكيد ؛ وحسن ذلك طول الفصل بين الأولى والثاني بالظرف ، وإليه ذهب الجرمي والمبرد والفراء وقيل بدل من الأولى واليه ذهب سيبويه .

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ
رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ
بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا
آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ هيهات هيهات ﴾ أي بعد ، وقال ابن عباس : بعيد بعيد ، قال ابن الأنباري : وفي هيهات عشر لغات ، ثم سردها وهي مبينة في علم النحو ، وقد قرىء ببعضها قال سليمان الجمل : فيه لغات كثيرة تزيد على أربعين ، ثم ذكر منها مشهورها ، وما قرىء به تركناها لقلة الفائدة هنا ، هو اسم فعل ماض بمعنى مصدر والغالب في الاستعمال أن تستعمل هذه الكلمة مكررة ، والثانية توكيد لفظي للأولى وليست المسئلة من التنازع ، واللام في ﴿ لما توعدون ﴾ لبيان المستبعد كما في قوله ﴿ هيت لك ﴾ ، كأنه قيل لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل لما توعدون .

والمعنى بعد إخراجكم للوعد الذي توعدون ، هذا على أن ﴿ هيهات ﴾ اسم فعل وقال الزجاج : هو في تقدير المصدر أي البعد لما توعدون أو بعد لما توعدون على قراءة من نوّن ، ثم بين سبحانه إترافهم بأنهم قالوا :

﴿إنّ هي ﴾ أي ما الحياة ﴿ إلا حياتنا الدنيا ﴾ لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها ، حذراً من التكرار وإشعاراً بإغنائها عن التصريح كما في هي النفس تتحمل ما حملت ، وهي العرب تقول ما شاءت ، وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس كانت ﴿ إن ﴾ النافية بمنزلة لا النافية للجنس ، وجملة :

﴿ نموت ونحيا ﴾ مفسرة لما ادعوه من قصرهم حياتهم على حياة الدنيا ، وقيل يموت الآباء ويحيا الأبناء ، وقيل يموت قوم ويحيا قوم ، أو يموت بعض ، ويولد بعض ، وينقرض قرن ، فيأتي آخر وفيه تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وبه قرأ أبيّ وابن مسعود ، ثم صرحوا بنفي البعث ، وأن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا :

﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعد الموت ﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً ﴾ أي ما هو فيما يدعيه من النبوة والبعث إلا مفترياً يكذب على الله ﴿ وما نحن له بمؤمنين ﴾ أي بمصدقين له فيما يقوله .

﴿ قال ﴾ نبيهم لما علم بأنهم لا يصدقون البته ﴿ رب انصرني ﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿ بما كذبون ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي ﴿ قال ﴾ الله سبحانه مجيباً لدعائه واعداً له بالقبول لما دعا به ﴿ عما قليل ﴾ من الزمان وفي معناه عن قريب و ﴿ عن ﴾ بمعنى بعد و ﴿ ما ﴾ مزيدة بين الظرف للتوكيد لقلة الزمان ، كما في قوله : ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ .

﴿ ليصبحن نادمين ﴾ على ما وقع منهم من التكذيب والعناد ، والإصرار على الكفر ، ثم أخبر سبحانه بأنهم أخذتهم الصيحة ، وحاق بهم عذابه ، ونزل عليهم سخطه فقال : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ .

قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله بها فماتوا جميعاً ، وقيل الصيحة هي نفس العذاب والهلاك الذي نزل بهم ﴿ بالحق ﴾ أي كائنة بالعدل من الله فماتوا ، يقال : فلان يقضي بالحق أي بالعدل ، ثم أخبر سبحانه عما صاروا اليه بعد العذاب النازل بهم فقال :

﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي كغثاء السيل قيل الغثاء الجفاء ، وقال

الزجاج : هو البالي من ورق الشجر إذا جرى السيل فخالط زبده ، وقيل كل ما يلقيه السيل ، والقدر مما لا ينتفع به ، وبه يضرب المثل في ذلك ولامه واو ، لأنه من غثا الوادي يغثوا غثواً ، وكذلك غثت القدر ، وقال المحلي : هو نبت يبس ، وعنه : هو العشب إذا يبس ، والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء ، وقال ابن عباس : جعلوا كالشيء الميت البالي من الشجر .

﴿ فبعداً للقوم الظالمين ﴾ أي بعدوا بعداً ، أو ألزمنا بعداً فهو إخبار أو دعاء واللام لبيان من قيل له ذلك ، كما في . سقياً له وجدعاً له ، قاله الزمخشري ، وقال الحوفي : متعلق ببعداً ، وهذا مردود لأنه لا يحفظ حذف هذه اللام ، ووصول المصدر الى مجرورها البتة ، ولذلك منعوا الاشتغال في قوله : ﴿ فتعساً لهم ﴾ ، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل .

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ أي مع رسلهم بعد إهلاكهم ، قيل هم قوم صالح ولوط وشعيب ويونس وأيوب وغيرهم كما وردت قصتهم على هذا الترتيب في الأعراف وهود ، وقيل هم بنو إسرائيل وكان فيهم الرسل قبل موسى ، والقرون، الأمم ، ولعل وجه الجمع هنا للقرون ، والإفراد فيما سبق قريباً أنه أراد ههنا أمماً متعددة ، وهناك أمة واحدة، ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته في شأن عباده فقال:

﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ أي ما يتقدم كل طائفة مجتمعة في قرن آجالها المكتوبة لها في الهلاك ولا يتأخر عنها ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ، ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية المعنى لأن أمة بمعنى قوم ، ثم بين سبحانه أن رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين وأن شأن أممهم كان واحداً في التكذيب لهم فقال :

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ
مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ
لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ
رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا ﴾ يعني إرسال كل رسول متأخر عن انشاء القرن الذي أرسل اليه لا على معنى أن إرسال الرسل جميعاً متأخر عن انشاء تلك القرون جميعاً ومعنى تترا تتواتر واحداً بعدواحد ويتبع بعضهم بعضاً من الوتر وهو الفرد ، قال الأصمعي : واترت كتبي عليه أتبعت بعضها بعضاً الا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة ، وقال غيره : المتواترة المتتابعة بغير مهلة ؛ والأول أولى لأن ما كان بدونها ، قيل مداركة ومواصلة ، كما في القاموس لا تترا ، وقرىء تتراً بالتنوين على انه مصدر ، قال النحاس : وعلى هذا يجوز تِترا بكسر التاء لأن معنى ثم أرسلنا واترنا ، وقرىء بألف من غير تنوين كشبعى ودعوى فألفه للتأنيث ، أوفي موضع الحال أي متواترين .

قال ابن عباس : بعضهم على اثر بعض ، أي غير متواصلين ، لأن بين كل رسولين زمناً طويلاً .

﴿ كلما جاء أمةً رسولُها كذبوه ﴾ مستأنفة مبينة لمجيء كل رسول لأمته على أن المراد بالمجيء التبليغ ﴿فأتبعنا﴾ الأمم والقرون﴿ بعضهم بعضاً ﴾ أي في الهلاك بما نزل بهم من العذاب ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أي سمراً وقصصاً وأخباراً يسمع بها ويتعجب منها ويتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم ، جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به الناس ، كالأعاجيب جمع أعجوبة ، وهي ما

يتعجب الناس منه ، أو جمع حديث على غير قياس ، وفي السمين ولكنه شاذ .

وقال الأخفش : انما يقال ذلك في الشر ولا يقال في الخير ، كما يقال صار فلان حديثاً ، أي عبرة ، وكما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ .

قلت : وهذه الكلية غير مسلمة ، فقد يقال صار فلان حديثاً حسناً ، وقد شذت العرب في ألفاظ فجمعوها على صيغة أفاعيل كأباطيل وأقاطيع . وقال الزمخشري : الأحاديث تكون اسم جمع للحديث . ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفاعيل ليس من أبنية اسم الجمع ، وانما ذكره أصحابنا فيما شذ من الجموع ، كقطيع وأقاطيع ، واذا كان عباديد قد حكموا عليه بأنه جمع تكسير مع أنهم لم يلفظوا له بواحد فأحرى أحاديث ، وقد لفظ له بواحد وهو حديث ، فاتضح أنه جمع تكسير لا اسم جمع لما ذكرنا .

﴿ فبعداً لقوم ﴾ دعاء عليهم ﴿ لا يؤمنون ﴾ وصفهم هنا بعدم الإيمان، وفيما سبق قريباً بالظلم لكون كل من الوصفين صادراً عن كل طائفة من الطائفتين ، أو لكون هؤلاء لم يقع منهم الا مجرد عدم التصديق ، وأولئك ضموا اليه تلك الأقوال الشنيعة التي هي أشد الظلم وأفظعه ، ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون وقومه عند ارسال موسى وهرون اليهم فقال :

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون ﴾ متلبسين ﴿ بآياتنا ﴾ هي التسع المتقدم ذكرها غير مرة ، ولا يصح عد فلق البحر منها هنا ، لأن المراد الآيات التي كذبوا بها واستكبروا عنها ﴿ وسلطان مبين ﴾ المراد به الحجة الواضحة البينة ، قيل هي الآيات التسع نفسها ، والعطف من باب :

الى الملك القرم وابن الهمام

وقيل أراد العصا لأنها أم الآيات فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة وقيل المراد بالآيات الدلائل التي كانت لهما ، وبالسلطان المبين التسع

الأيات ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي الأشراف منهم كما سبق بيانه غير مرة ﴿ فاستكبروا ﴾ أي طلبوا الكبر وكلفوه ، وتعظموا عن الايمان فلم ينقادوا للحق ﴿ وكانوا قوماً عالين ﴾ قاهرين للناس أو لبني إسرائيل بالبغي والظلم ، مستعلين عليهم متطاولين كبراً وعناداً وتمرداً .

﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين ؟ ﴾ يعنون بهما موسى وهرون ﴿ مثلنا ﴾ الاستفهام للإنكار ، أي كيف نصدق من كان مثلنا في البشرية ، والبشر يطلق على الواحد ، كقوله بشراً سوياً ، كما يطلق على الجمع ، كقوله : ﴿ فإما ترينّ من البشر أحداً ﴾ ، فتثنيته هنا هي باعتبار المعنى الأول ويطلق على المثنى والمذكر والمؤنث ، وأفرد المثل لأنه في حكم المصدر يجري مجراه في الإفراد والتذكير ولا يؤنث أصلاً ، وقد يطابق ما هو له تثنية ، كقوله : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ ، وجمعاً كقوله : ﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

﴿ وقومهما ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ لنا عابدون ﴾ أي أنهم مطيعون لنا ، منقادون لما نأمرهم به كانقياد العبيد . قال المبّرد: العابد المطيع الخاضع . قال أبو عبيدة : العرب تسمي كل من دان[1] الملك عابداً له ، وقيل يحتمل أنه كان يدعي الإلهية فدعا الناس الى عبادته فأطاعوه ، وتقديم الظرف لرعاية الفواصل والجملة حالية ﴿ فكذبوهما ﴾ أي فأصروا على تكذيبهما ﴿ فكانوا من المهلكين ﴾ بالغرق في البحر . ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد إهلاك عدوهم فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ، وخص موسى بالذكر لأن التوراة أنزلت عليه في الطور ، وكان هرون خليفته في قومه ﴿ لعلهم ﴾ أي لعل قوم موسى ﴿ يهتدون ﴾ بها الى الحق ويعملون بما فيها من الشرائع ، فجعل سبحانه إيتاء موسى اياها ايتاء لقومه ، لأنها وان كانت منزلة على موسى فهي لارشاد قومه . وقيل المعنى آتينا قوم موسى الكتاب .

وقيل ضمير ﴿ لعلهم ﴾ يرجع الى فرعون وملئه ، وهو وَهْمٌ، لأن

(١) دانه أطاعه ، فهو يتعدى ويلزم. « المطيعي » .

موسى لم يؤت التوراة الا بعد هلاك فرعون وقومه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ ، ثم أشار سبحانه الى قصة عيسى اجمالاً فقال : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمّه آية ﴾ أي علامة تدل على عظيم قدرتنا وبديع صنعنا وقد تقدم الكلام على هذا في آخر سورة الأنبياء في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .

قال قتادة : ﴿ آية ﴾ أي ولدته من غير أب وفحل ، وخلق من غير نطفة . وعن الربيع بن أنس قال : ﴿ آية ﴾ أي عبرة ، ولم يقل آيتين لأن الاعجوبة فيهما واحدة أو المراد ابن مريم آية وأمه آية ، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها .

﴿ وآويناهما ﴾ أي أسكناهما وأنزلناهما وأوصلناهما وجعلناهما يأويان ﴿الى ربوة ﴾ بفتح الراء وضمها قراءتان سبعيتان ، قيل هي أرض دمشق ، وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل . وقيل بيت المقدس ، قاله قتادة وكعب . وقيل أرض فلسطين ، قاله السدي . قال ابن عباس : الربوة المستوية ، وهي المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، وأنبئنا انه دمشق . وقيل هو أعلى مكان من الأرض فيزيد على غيره في الارتفاع ثمانية عشر ميلاً ، فهو أقرب بقاع الأرض الى السماء . وعن مرة البهزي قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الربوة الرملة » أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال : هي الرملة من فلسطين ، وقيل مصر ، وسبب الايواء أنها فرّت بابنها إليها لأن ملك ذلك الزمان كان أراد أن يقتل عيسى ، فهربت به الى تلك الربوة ومكثت بها اثنتي عشرة سنة ، حتى هلك ذلك الملك .

﴿ ذات قرار ﴾ أي مستوى مستقر ليستقر عليه ساكنوه . وقال ابن عباس : أي ذات خصب . وقيل ذات ثمار ﴿ و﴾ ماء ﴿ معين ﴾ قال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ
وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم
مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

الزجاج والفراء : هو الماء الجاري في العيون ، فالميم على هذا زائدة كزيادتها في منبع . وقيل هو فعيل بمعنى مفعول . قال علي بن سليمان الأخفش : يقال معن الماء إذا جرى ، فهو معين وممعون . وكذا قال ابن الاعرابي . وقيل هو مأخوذ من الماعون وهو النفع .

قال ابن عباس المعين الماء الجاري ، وقيل الذي تراه العيون وهو النهر الذي قال الله ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ .

﴿ يا أيها الرسل كلوا ﴾ قال الزجاج : هذه مخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جرير : إن الخطاب لعيسى . قال الفراء . هو كما تقول للرجل الواحد كفوا عنا ، وقيل إن هذه المقالة خوطب بها كل نبي في زمانه ، لأن هذه طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها . فيكون المعنى : وقلنا يا أيها الرسل خطاباً لكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم . ويدخل تحته عيسى دخولاً أولياً ، فهذه حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الاجمال لما خوطب به كل رسول في عصره جيء بها إثر حكاية إيواء عيسى وأمه ، إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب مبادي التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام ، بل إباحة الطعام شرع قديم جرى عليه جميع الرسل ، ووصّوْا به ، أي وقلنا لكل رسول من الرسل كلوا ﴿ من الطيبات ﴾ وهو ما يستطاب

ويستلذ وقيل هي الحلالات ، وقيل هي ما جمع الوصفين المذكورين . ثم بعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال :

﴿ واعملوا ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ وهو ما كان موافقاً للشرع ، فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالاً للايجاز ، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبان من رفض الطيبات ما لا يخفى ، ثم علل هذا الأمر بقوله :

﴿ إني بما تعملون عليم ﴾ لا يخفى عليّ شيء منه وإني مجازيكم على حسب أعمالكم إن خيراً فخير وان شراً فشر ، وهو تخويف للرسل ، والمقصود أممهم . أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال: يا أيها الرسل كلوا » الآية . وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر؛ ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب، فأنّى يستجاب لذلك[1] » وعن حفص الفزاري قال: ذلك عيسى ابن مريم، كان يأكل من غزل أمه وهو مرسل لأن حفصاً تابعي .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء ، والمعنى واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم - أيها الرسل - ملة واحدة وشريعة متحدة ، يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه ، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له . والمراد بها على هذه

(١) مسلم ١٠١٥ .

العقائد ، إذ هي التي اتحدت في كل الشرائع ، أما الأحكام الفرعية فقد اختلفت باختلاف الشرائع ، وقيل المعنى إن هذا الذي تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه . على أن المراد بالأمة هنا الدين كما في قوله : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ .

وقال الخليل : أي أنا عالم بأن هذا دينكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به . قال الفراء : « واعلموا أن هذه أمتكم » وقال سيبويه « فاتقون لأن أمتكم أمة واحدة » وإنما أشير إليها بـ ﴿ هذه ﴾ للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة ، والفاء في ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾ لترتيب الأمر بالتقوى على ما قبله من كونه ربكم المختص بالربوبية ، أي لا تفعلوا ما يوجب العقوبة عليكم مني بأن تشركوا بي غيري ، أو تخالفوا ما أمرتكم به أو نهيتكم عنه : ثم ذكر سبحانه ما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال :

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ﴾ الفاء لترتيب عصيانهم على ما سبق من الأمر بالتقوى ، والضمير يرجع الى ما يدل عليه لفظ الأمة . والمعنى أنهم جعلوا دينهم مع اتحاده قطعاً متفرقة وأدياناً مختلفة . قال المبرد : زبراً فرقاً وقطعاً مختلفة ، واحدها زبور ؛ وهي الفرقة والطائفة ، ومثله الزبرة وجمعها زبر بالضم والفتح قيل معنى زبراً كتباً ، فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا ، فاتبعت فرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الانجيل ؛ ثم حرفوا وبدلوا ، وفرقة مشركة اتبعوا ما رسمه لهم آباؤهم من الضلال ، قرىء زبراً بضم الباء ؛ وقرىء بفتحها ؛ أي قطعاً كقطع الحديد ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي كل فريق من هؤلاء المختلفين بما عندهم من الدين معجبون مسرورون ، لاعتقادهم أنهم على الحق .

﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي اتركهم في جهلهم فليسوا بأهل للهداية ولا

يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم ، فلكل شيء وقت شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من دخل فيه ، والغمرة في الأصل ما يغمرك ويعلوك ، وأصلها الستر ، والغمر الماء الكثير لأنه يغطي الأرض ، وغمر الرداء هو الذي يشمل الناس بالعطاء ، ويقال للحقد الغمر ، والمراد هنا الحيرة والغفلة والضلالة ، والآية خارجة مخرج التهديد لهم ، والتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا مخرج الأمر له صلى الله عليه وسلم بالكف عنهم ، بل نهى له عن الاستعجال بعذابهم ، والجزع من تأخيره .

ومعنى ﴿ حتى حين ﴾ حتى يحضر وقت عذابهم بالقتل ، أو حتى يموتوا على الكفر فيعذبون بالنار ﴿ **أيحسبون** ﴾ الهمزة للإنكار ، والجواب عنه مقدر ، يدل عليه قوله الآتي : بل لا يشعرون ﴿ أنما نمدهم به من مال وبنين ﴾ أي ما نعطيهم في هذه الدنيا من الأموال والبنين ، ونجعله مدداً لهم .

﴿ نسارع لهم في الخيرات ﴾ أي فيما فيه خيرهم وإكرامهم ، قال الزجاج : المعنى نسارع لهم به في الخيرات فحذفت به و﴿ ما ﴾ في ﴿ أنما ﴾ موصولة والرابط هو هذا المحذوف ، وقال الكسائي : إن ﴿ أنما ﴾ هو حرف واحد فلا تحتاج إلى رابط ؛ وقرىء يسارع بالتحتية على أن فاعله هو الامداد أو يسارع الله لهم ، وقرىء بالنون ، قال الثعلبي : وهذه هي الصواب لقوله : ﴿ نمدهم ﴾ وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسألة الأصلح ، لأنهم يقولون : ان الله لا يفعل بأحد من الخلق الا ما هو أصلح له في الدين ، وقد أخبر أن ذلك ليس بخير لهم في الدين ولا أصلح .

﴿ بل لا يشعرون ﴾ عطف على مقدر ينسحب اليه الكلام أي إضراب انتقالي عن الحسبان المستفهم عنه ، استفهام تقريع ، والمعنى كلا لا نفعل

ذلك ، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل ، فإن ما خوّلناهم من النعم وأمددناهم به من الخيرات ، إنما هـو استدراج لهم واستجرار إلى زيادة الاثم ليزدادوا إثماً ، كما قال سبحانه ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ، ولما نفى سبحانـه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً فوصفهم بصفات أربع .

الأولى قوله : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ الاشفاق الخوف تقول أنا مشفق من هذا الأمر أي خائف ، قيل الاشفاق هو الخشية فظاهر ما في الآية هو التكرار ، وأجيب بحمل الخشية على العذاب أي من عذاب ربهم خائفون ولو من غير فعل خطيئة ، وبه قال الكلبي ومقاتل ، وأجيب أيضاً بحمل الاشفاق على ما هو أثر له وهو الدوام على الطاعة أي دائمون على طاعته وأجيب أيضاً بأن الاشفاق كمال الخوف فلا تكرار ، وقيل هو تكرير للتأكيد كما أشار اليه في التقرير وفيه نظر .

والصفة الثانية قوله : ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ قيل المراد بالآيات هي التنزيلية ، وقيل هي التكوينية ؛ وقيل بمجموعها، قيل وليس المراد بالإيمان بها هو التصديق بوجودها فقط ، فإن ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح ؛ بل المراد التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق .

والصفة الثالثة قوله : ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ معه غيره أي يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً .

والصفة الرابعة قوله : ﴿ والذين يؤتون ﴾ أي يعطون ﴿ ما آتوا ﴾ أي ما أعطوا ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة أشد الخوف من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله ، والجملة حالية .

قال الزجاج : قلوبهم وجلة من ﴿ أنهم الى ربهم راجعون ﴾ وسبب الوجل هو أن يخافوا أن لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب لا مجرد رجوعهم اليه سبحانه ، وقيل المعنى أن من اعتقد الرجوع الى الجزاء والحساب ؛ وعلم أن المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل ، وقرىء ﴿ يأتون ما أتوا ﴾ مقصوراً من الاتيان .

قال الفراء : ولو صحت لم تخالف قراءة الجماعة لأن من العرب من يلزم في الهمز الألف في كل الحالات ، قال النحاس : ومعناها يعملون ما عملوا يفعلون ما فعلوا من الطاعات .

أخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله ، قول الله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ؟ وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : « لا ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه »[1] .

وعن ابن عباس قال : يعطون ما أعطوا ويعملون خائفين ، وعن ابن عمر قال : الزكاة ، وعن عائشة قالت : هم الذين يخشون الله ويطيعونه .

وأخرج البخاري في تاريخه والدارقطني والحاكم وصححه وغيرهم ، عن عبيد بن عمير أنه سأل عائشة كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ، والذين يأتون ما أتوا ﴾ قالت : أيتهما أحب إليك ؟ وقلت والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إليّ من الدنيا وما فيها جميعاً ، قالت أيتهما قلت الذين يأتون ما أتوا ، فقالت أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها كذلك ، وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف ، وفي إسناده اسماعيل بن علي وهو ضعيف .

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٩٤ .

أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾

﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات ﴿ يسارعون في الخيرات ﴾ أي يبادرون بها ويرغبون في الطاعات أشد الرغبة ، قال الفراء والزجاج : ينافسون فيها ، وقيل يسابقون وقرىء يسرعون ﴿ وهم لها سابقون ﴾ اللام للتقوية أي هم سابقون إياها ، وقيل اللام بمعنى إلى كما في قوله : ﴿ إن ربك أوحى لها ﴾ أي اليها وقيل هم سابقون الناس لأجلها ، والأظهر أن الضمير يعود على الخيرات لتقدمها في اللفظ ، وقيل يعود على الجنة ، وقيل على السعادة .

قال ابن عباس : أي سبقت لهم السعادة من الله ، ثم لما انجر الكلام الى ذكر أعمال المكلفين ذكر لها حكمين : الأول قوله : ﴿ ولا نكلف نفساً الا وسعها ﴾ قد تقدم بيان هذا في آخر سورة البقرة ، وفي تفسير الوسع قولان ، الأول : أنه الطاقة ، كما فسره بذلك أهل اللغة الثاني : أنه دون الطاقة ؛ وبه قال مقاتل والضحاك والكلبي والمعتزلة قالوا : إن الوسع إنما سمي وسعاً لأنه يتسع على فاعله فعله ، ولا يضيق عليه ، فمن لم يستطع الجلوس فليومىء ايماء ومن لم يستطع الصوم فليفطر وهذه جملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي الى نيل الكرامات ببيان سهولته ، وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، وأن ذلك عادة الله سبحانه في تكليف عباده ، وهو رد على من جوز تكليف ما لا يطاق .

﴿ و ﴾ جملة ﴿ لدينا كتاب ينطق بالحق ﴾ من تمام ما قبلها من نفي

التكليف بما فوق الوسع ، والمراد بالكتاب صحائف الأعمال أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هي عليه ، يظهر به الحق المطابق للواقع من ذون زيادة ولا نقص ، ومثله قوله سبحانه ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وفي هـذا تهديـد للعصاة ، وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم ، وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، فإنه قد كتب فيه كل شيء ، وقيل المراد القرآن ، والأول أولى،وفي هذه الآية تشبيـه للكتاب ممن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه ، فإن الكتاب يعرب عما فيه ؛ كما يعرب الناطق المحق . .

والمعنى ينطق متلبساً بالحق ، وجملة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ مبينة لما قبلها من تفضله تعالى وعدله في جزاء عباده أي النفوس العاملة لا يظلمون شيئاً منها بنقص ثواب أو بزيادة عقاب ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً ﴾ والجمع باعتبار عموم النفس لوقوعها في سياق النفي ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال :

﴿ بل قلوبهم في غمرة ﴾ أي بل قلوب الكفار في غمرة غامرة لها ﴿ من هذا ﴾ الكتاب الذي ينطق بالحق أو عن الأمر الذي عليه المؤمنون يقال غمره الماء اذا غطاه ، ونهر غمر يغطّي من دخله ، والمراد بها هنا الغطاء والغفلة أو الحيرة والعمى والجهالة ، قال ابن عباس : يعني بالغمرة الكفر والشك .

﴿ ولهم ﴾ أي للكفار ﴿ أعمال من دون ذلك ﴾ قال ابن عباس : يقول أعمال سيئة دون الشرك منها اقامة امائهم في الزنا ، وقال قتادة ومجاهد : أي لهم خطايا لا بد أن يعملوها من دون الحق .

وقال الحسن وابن زيد : لهم أعمال سيئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لا بد أن يعملوها فيدخلون النار ، والمراد بال ﴿ دون ﴾ الغير أي الضد

أي أن لهم أعمالاً مضادة ومخالفة لأوصاف المؤمنين ، وقيل الإشارة بقوله : ذلك إما الى أعمال المؤمنين ، أو الى أعمال الكفار أي لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين ، التي ذكرها الله ، أو من دون أعمال الكفار التي تقدم ذكرها من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما ذكر ، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي من طعنهم في القرآن .

قال الواحدي : اجماع المفسرين وأصحاب المعاني على أن هذا إخبار عما سيعملونها من أعمالهم الخبيثة ؛ التي كتبت عليهم لا بد لهم أن يعملوها وجملة ﴿ هم لها عاملون ﴾ مقررة لما قبلها أي واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة لا محيص لهم عن ذلك أي مستمرون عليها ؛ ثم رجع سبحانه إلى وصف الكفار فقال :

﴿حتى﴾ ابتدائية أو حرف جر أو غائية عاطفة ، أقوال ﴿إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ مبينة لما قبلها ، والضمير راجع الى ما تقدم ذكره من الكفار ، والمراد بالمترفين المتنعمون منهم وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنين او المراد بهم الرؤساء منهم ، والمراد بالعذاب هو عذابهم بالسيف يوم بدر ، أو بالجوع بدعاء النبي (ﷺ) عليهم حيث قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف »[1] .

وقيل المراد عذاب الآخرة ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجؤار انما يكون عند عذاب الآخرة لأنه الاستغاثة بالله ، ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا في سني الجوع ، ويجاب عنه بأن الجؤار في اللغة الصراخ والصياح .

قال الجوهري : الجؤار مثل الخوار ، يقال : جأر الثور يجأر أي صاح وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند أن عذبوا بالسيف يوم بدر ، وبالجوع

(١) مسلم ٦٧٥ ـ البخاري ٤٨٣ .

في سني الجوع،وليس الجؤار هنا مقيداً بالجؤار الذي هو التضرع بالدعاء حتى يتم ما ذكره هذا القائل وجملة ﴿ اذا هم يجأرون ﴾ جواب الشرط واذا هي الفجائية والمعنى حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فأجاءوا الصراخ .

قال ابن عباس : يجأرون يستغيثون أي بربهم ، ويلتجئون اليه في كشف العذاب عنهم ، ومع ذلك لا ينفعهم ، ولذلك أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت ﴿ لا تجأروا اليوم ﴾ فالقول مضمر والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم . وخصص سبحانه المترفين مع أن العذاب لاحق بهم جميعاً واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان أنهم بعد النعمة التي كانوا فيها صاروا إلى حالة تخالفها وتباينها ، فانتقلوا من النعيم التام الى الشقاء الخالص ، وخص اليوم بالذكر للتهويل والمعنى لا تصيحوا ولا تضجوا ولا تضجروا ولا تجزعوا ولا تستغيثوا . والجؤار الصراخ باستغاثة . وفي القاموس جأر كمنع جأراً وجؤاراً رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث ، والبقرة والثور صاحا ، والنبات طال ، والأرض طال نبتها .

﴿ إنكم منا لا تنصرون ﴾ تعليل للنهي عن الجؤار ، والمعنى إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم . وقيل المعنى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم من العذاب ، ثم عدد الله سبحانه عليهم قبائحهم توبيخاً لهم فقال :

﴿ قد كانت آياتي ﴾ أي القرآن ﴿ تتلى عليكم ﴾ في الدنيا ﴿ فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أي ترجعون وراءكم . قال ابن عباس : تدبرون ؛ وأصل النكوص أن يرجع القهقرى ؛ أي الى جهة الخلف ، وهو أقبح المشيات لأنه لا يرى ما وراءه ، وهو هنا استعارة للإعراض عن الحق ، وقرأ علي بن أبي طالب على أدباركم بدل على أعقابكم .

﴿ مستكبرين به ﴾ أي بالبيت العتيق . وقيل بالحرم ، والذي سوغ

الاضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به ، وكانوا يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم وخدامه ، والى هذا ذهب جمهور المفسرين ، وقيل الضمير عائد إلى القرآن ، والمعنى أن سماعه يحدث لهم كبراً وطغياناً فلا يؤمنون به ، قال ابن عطية : وهذا قول جيد ، وقال النحاس : القول الأول أولى ، وبينه بما ذكرناه ، فعلى الأول يكون به متعلقاً بمستكبرين ؛ وعلى الثاني بقوله :

﴿سامراً﴾ لأنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ؛ والسامر كالحاضر ، والحاج والراكب والغائب في الإطلاق على الجمع قال الواحدي : السامر الجماعة يسمرون بالليل ، أي يتحدثون وقيل مأخوذ من السمر ، وهو سهر الليل . وقال الراغب : السامر الليل المظلم ، وقرىء سمراً وسماراً : ورويت هذه عن ابن عباس . قال : الراغب ويقال سامر وسمار وسمر وسامرون . ويجوز أن يتعلق ﴿ به ﴾ بقوله :

﴿ تهجرون ﴾ والهجر ـ بالفتح ـ الهذيان ، أي يهذون في شأن القرآن ؛ أو من الهجر ـ بالضم ـ وهو الفحش ، وقرىء تُهْجِرون من أهجر ، أي افحش في منطقه ، ومن هجّر بالتشديد ، ومن الهجران وهو الترك . ومن الهجر بسكون الجيم وهو القطع والصد ، أي تهجرون آيات الله ورسوله وتزهدون فيهما فلا تصلونهما ، وقرىء بالتحتية وفيه التفات .

قال ابن عباس : تسمرون حول البيت وتقولون هجراً ، وكانت قريشاً يتحلقون حلقاً يتحدثون حول البيت ، وعنه قال : كان المشركون يهجرون برسول الله صلى الله عليه وسلم في القول بسمرهم ، وعنه قال : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية . أخرجه النسائي .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم
بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ أفلم يدبّروا القول ﴾ بين سبحانه أن سبب إقدامهم على الكفر هو أحد هذه الأمور الأربعة :

الأول: عدم التدبر في القرآن ، فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبما فيه ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ، أي فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا ، والمراد بالقول القرآن . ومثله ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾

والثاني قوله : ﴿ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ أم هي المنقطعة ، أي بل أجاءهم من الكتاب فكان ذلك سبباً لاستكبارهم للقرآن ، والمقصود تقرير أنه لم يأت آباءَهم الأولين رسول فلذلك أنكروه ومثله قوله : ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤُهم﴾ . وقيل انه أتى آباءهم الأقدمين رسل ، أرسل الله اليهم كما هي سنة الله سبحانه في إرسال الرسل الى عباده ، فقد عرف هؤلاء ذلك ، فكيف كذبوا هذا القرآن ؟ وقيل المعنى أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الأولين كإسماعيل ومن بعده .

والثالث قوله : ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ وفي هذا إضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدم إلى التوبيخ بوجه آخر ، أي بل ألم يعرفوه، بالأمانة والصدق فأنكروه ، ومعلوم أنهم قد عرفوه بذلك ، عن أبي صالح قال : عرفوه ولكنهم حسدوه .

والرابع قوله : ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ هذا أيضاً انتقال من توبيخ إلى توبيخ أي بل أيقولون به جنون ؟ مع أنهم قد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأثقبهم ذهناً وأوجههم لباً ، ولكنه جاء بما يخالف هواهم ، فدفعوه وجحدوه تعصباً وحمية، وسيأتي خامس في قوله ، ﴿ أم تسألهم خرجاً ﴾ ، ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال : ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول ، بل جاءهم متلبساً بالحق ، والحق هو الدين القويم ، أو القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام ، وعن أبي صالح قال:الحق هو الله عز وجل .

﴿ وأكثرهم للحق كارهون ﴾ لما جبلوا عليه من التعصب والانحراف عن الصواب والبعد عن الحق ، فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر ، والمراد بالحق هنا أعم من الأول ؛ فلذلك أتى به مظهراً في مقام المضمر ، وظاهر النظم القرآني أنّ أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ولكنهم لم يظهروا الايمان خوفاً من الكارهين له أو لقلة فطنتهم وعدم فكرتهم لا لكراهة الحق..

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم ﴾ مستأنفة لبيان أنه لو جاء الحق على ما يهوونه ويريدونه من الشريك والولد لله تعالى لكان ذلك مستلزماً للفساد العظيم وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية ، وهو معنى قوله : ﴿ لفسدت السموات والأرض ﴾ قال ابن جريج ومقاتل والسدي : الحق هو الله ؛ والمعنى لو جعل الله مع نفسه كما تحبون شريكاً لفسدت هي ﴿ ومن فيهن ﴾ وقال الفراء والزجاج : الحق القرآن ، أي لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لفسد نظام العالم ، وقيل المعنى لو كان الحق ما يقولون من اتخاذ الآلهة مع الله لأختلفت الآلهة ، ومثل ذلك قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدد الحاكم وقد ذهب الى القول الأول الأكثرون ، ولكنه يرد عليه أن المراد بالحق هنا هو الحق المذكور قبله ، من قوله : ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ ، ولا يصح أن يكون المراد به هنالك الله

سبحانه ، فالأولى تفسير الحق هنا وهناك بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله ، والمعنى ولو ورد الحق متابعاً لأهوائهم موافقاً لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد ، والمراد بمن في السموات والأرض ما فيهما من المخلوقات وخص العقلاء بالذكر لأن غيرهم تبع .

وقرأ ابن مسعود : وما بينهما ، وسبب فساد المكلفين من بني آدم ظاهر ، وهو ذنوبهم التي من جملتها الهوى المخالف للحق ، وأما فساد ما عداهم فعلى وجه التبع لأنهم مدبرون في الغالب بذوي العقول ، فلما فسدوا فسدوا ، ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال :

﴿ بل أتيناهم بذكرهم ﴾ إضراب وانتقال عن قوله : ﴿ وأكثرهم للحق كارهون ﴾ أي كيف يكرهون الحق مع أن القرآن أتاهم بتشريفهم وتعظيمهم ، فاللائق بهم الانقياد ، فالمراد بالذكر هنا القرآن ، أي أتيناهم بالكتاب الذي هو فخرهم وشرفهم لأن الرسول منهم والقرآن بلغتهم ؛ ومثله قوله : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ وحاصل المعنى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوه ، ويقبلوا عليه وقال قتادة : المعنى بذكرهم الذي ذكر فيه ثوابهم وعقابهم . وقيل المعنى بذكر ما لهم به حاجة من أمر الدين .

وقرىء أتيتهم بتاء التكلم وأتيتهم بتاء الخطاب ، أي أتيتهم يا محمد ، وقرىء بذكراهم ، ونذكرهم بصيغة التكلم من التذكير ، وقيل الذكر هو الوعظ ، وقيل الذي كانوا يتمنونه ، ويقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين وقال ابن عباس : أتيناهم بيّنا لهم .

﴿ فهم ﴾ بما فعلوا من الاستكبار والنكوص ﴿ عن ذكرهم ﴾ المختص بهم ﴿ معرضون ﴾ بسوء اختيارهم لا يلتفتون اليه بحال من الأحوال ، وأتى بذكرهم مظهراً للتوكيد والتشنيع عليهم ، وفي هذا التركيب ما يدل على أن إعراضهم مختص بذلك لا يتجاوزه إلى غيره ؛ ثم بين سبحانه أن دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ليست مشوبة بأطماع الدنيا فقال :

﴿ أم ﴾ منقطعة ، والمعنى لكنهم يزعمون أنك ﴿ تسألهم خرجاً ﴾ تأخذه على الرسالة ، والخرج الأجر والجعل ، فتركوا الإيمان بك وبما جئت به لأجل ذلك مع أنهم يعلمون أنك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم ﴿ فخراج ﴾ أي فرزق ﴿ربّك﴾ الذي يرزقك في الدنيا وأجره الذي يعطيك في الآخرة ﴿ خير ﴾ لك وقرىء خراجاً ، والخرج هو الذي يكون مقابلاً للدخل ، يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك خرجاً ، والخراج غالب في الضريبة على الأرض . قال المبرّد: الخرج المصدر والخراج الاسم .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الخراج ما لزمك والخرج ما تبرعت به ، وروي عنه أيضاً الخرج من الرقاب والخراج من الأرض ، فالخرج أخص من الخراج ، تقول خراج القرية وخرج الكوفة ، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى .

﴿ وهو خير الرازقين ﴾ أي أفضل المعطين ، والجملة مقررة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خيراً ، ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الأدلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفي عنه أضداد ذلك قال :

﴿وإنّك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ أي إلى طريق واضحة تشهد العقول بأنها مستقيمة غير معوجة ، والصراط في اللغة الطريق ، فسمي الدين طريقاً لأنها تؤدى اليه ، ثم وصفهم سبحانه بأنهم على خلاف ذلك فقال :

﴿وإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ يقال نكب عن الطريق ينكب نكوباً إذا عدل عنه ومال إلى غيره ، والنكوب والنكب العدول والميل ، ومنه النكباء للريح بين ريحين ، سميت بذلك لعدولها عن المهاب ، والمعنى أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة ، أي البعث والثواب والعقاب ، لعادلون عن صراط أو عن جنس الصراط ، ثم بين سبحانه أنهم مصرّون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال :

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ
أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا
عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾

﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ﴾ أي من قحط وجدب ﴿ للجوا في طغيانهم ﴾ أي لتمادوا في ضلالهم ، وأصل اللجاج التمادي في العناد ، ومنه اللَّجة بالفتح لتردد الصوت ؛ ولجة البحر تردد أمواجه ، ولجة الليل تردد ظلامه وقيل المعنى لو رددناهم إلى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم للجوا في طغيانهم ﴿ يعمهون ﴾ أي يترددون ويتذبذبون ويخبطون .

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ تأكيد للشرطية مسوق لتقريرها ، والعذاب قيل هو الجوع الذي أصابهم في سني القحط ، وقيل المرض وقيل القتل يوم بدر ، واختاره الزجاج . وقيل الموت ، وقيل المراد من أصابه العذاب من الأمم الخالية .

﴿ فما استكانوا ﴾ أي ما خضعوا ولا تذللوا ﴿ لربهم ﴾ بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله والانهماك في معاصيه ﴿ وما يتضرعون ﴾ أي وما يخشعون لله في الشدائد عند إصابتها لهم ولا يدعونه لرفع ذ لك .

أخرج النسائي والطبراني والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس قال : جاء أبو سفيان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز » يعني الوبر بالدم ، فأنزل الله ﴿ ولقد أخذناهم

بالعذاب ﴾ الى آخر الآية[١] ، وأصل الحديث في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال : « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف » الحديث[٢] ، وأخرج البيهقي وغيره عن ابن عباس أن ابن أثال الحنفي لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أليس تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : بلى قال : فلقد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع » فأنزل الله هذه الآية .

وعن علي بن أبي طالب في الآية قال : « أي لم يتواضعوا في الدنيا ولم يخضعوا ولو خضعوا لله لاستجاب لهم » .

﴿ حتى ﴾ ابتدائية ﴿إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد ﴾ قيل هو عذاب الآخرة ، وقيل قتلهم يوم بدر بالسيف . قاله ابن عباس . وقيل القحط الذي أصابهم . وقيل فتح مكة . وقيل قيام الساعة ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ أي متحيرون لا يدرون ما يصنعون ، والإبلاس التحير والأياس من كل خير . وقرىء مبلَسون بفتح اللام من أبلسه أي أدخله في الإبلاس والبلاس ، مثل سلام المسح وهو فارسي معرب ، وأبلس أيس ، وقد تقدم في الأنعام .

﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والافئدة ﴾ امتنّ الله سبحانه عليهم ببعض النعم التي أعطاهم ، والمقصود به التقريع والتوبيخ بالنسبة للكافرين وتذكير النعم بالنسبة للمؤمنين وهي نعمة السمع والبصر والفؤاد

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣٩٤ .

(٢) البخاري كتاب الدعوات باب ٥٨ ـ الترمذي تفسير سورة ١/٤٤ .

فصارت هذه الأمور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالأفئدة فلم ينتفعوا بشيء من ذلك لاصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال :

﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي شكراً قليلاً حقيراً غير معتدّ به باعتبار تلك النعم الجليلة ، وقيل المعنى انهم لا يشكرونه ألبتّة لا أن لهم شكراً قليلاً ، كما يقال لجاحد النعمة ما أقل شكره أي لا يشكر ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ﴾ وفيه تنبيه على أن من لم يعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها .

﴿ وهو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي بثّكم فيها بالنسل كما تبث الحبوب ، وقد تقدم تحقيقه ﴿وإليه تحشرون ﴾ أي تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ﴿ وهو الذي يحيي ﴾ النسم بالإنشاء ونفخ الروح في المضغة ﴿ ويميت ﴾ النسم بالإفناء على جهة الانفراد والاستقلال ، وفي هذا تذكير بنعمة الحياة وبيان الانتقال منها الى الدار الآخرة .

﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ خلقاً وايجاداً ، قال الفراء : هو الذي جعلهما مختلفين يتعاقبان ، ويختلفان في السواد والبياض ، وقيل اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر ، وقيل تكرارهما يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ كنه قدرته وتتفكرون في ذلك ، ثم بين سبحانه أنه لا شبهة لهم في إنكار البعث إلا التشبث بحبل التقليد المبني على مجرد الاستبعاد فقال :

﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ أي آباؤهم والموافقون لهم في دينهم من قوم نوح ، وهود وصالح وغيرهم ، ثم بين ما قاله الأولون فقال :

قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا
هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿ قالوا : ائذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ ﴾ فهذا مجرد استبعاد لم يتعلقوا فيه بشيء من الشبه ، ثم كملوا ذلك القول بقولهم : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ أي وعدنا هذا البعث الآن ووعده آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدقه كما لم يصدقوه ثم صرحوا بالتكذيب ، وفرّوا الى مجرد الزعم الباطل فقالوا :

﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب الأولين التي سطروها في الكتب جمع أسطورة كأحدوثة ، والأساطير : الأباطيل والترهات والكذب ، وقيل جمع أسطار وهو جمع سطر ، والأول أوفق ، والمعنى لم نر هذا الوعد شيئاً ، وإنا رأيناه أساطير الأولين ، ثم أمر الله سبحانه نبيه (ﷺ) أن يسأل أهل مكة عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها فقال :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ المراد بمن الخلق جميعاً وعبر عنهم بمن تغليباً للعقلاء و ﴿ لمن ﴾ خبر مقدم والأرض مبتدأ مؤخر ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ شيئاً من العلم ، وجواب الشرط محذوف أي فاخبروني ، وفي هـذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم .

﴿ سيقولون لله ﴾ أي لا بد أن يقولوا ذلك لأنه معلوم ببداهة العقل وهذا إخبار من الله بما يقع منهم في الجواب قبل وقوعه ، ثم أمره سبحانه أن

يقول لهم بعد اعترافهم ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ ترغيباً لهم في التدبر وإمعان النظر والفكر فإن ذلك مما يقودهم الى اتباع الحق وترك الباطل ، لأن من قدر على ذلك ابتداء قدر على إحياء الموتى .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ﴾ جاء سبحانه باللام نظراً الى معنى السؤال ، فإن قولك : مَن ربّه؟ ولمن هو؟ في معنى واحد كقولك : مَن رب هذه الدار؟ فيقال : زيد ؛ ويقال لزيد ، وقرىء الله بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال ، وهذا أوضح من الأولى ، ولكنه يؤيدها أنها مكتوبة في جميع المصاحف باللام بدون الألف .

﴿ قل أفلا تتقون ﴾ عبادة غيره أو تحذرون عقابه أو قدرته على البعث ، فلا تشركوا به ، وفيه تنبيه على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل الا بترك عبادة الأوثان ، والاعتراف بجواز الاعادة ، فهذا الختم أبلغ من ختم الآية الأولى لاشتماله على الوعيد الشديد ، ولما ذكر الأرض أولاً والسماء ثانياً ، عمم الحكم ههنا فقال :

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ؟ ﴾ الملكوت الملك وزيادة التاء للمبالغة نحو جبروت ورحموت ورهبوت، وقال مجاهد : يعني خزائن كل شيء ﴿ وهو يجير ﴾ أي أنه يغيث غيره إذا شاء ويمنعه ﴿ ولا يجار عليه ﴾ أي لا يمنع أحد أحداً من عذاب الآخرة ؛ ولا يقدر على نصره وإغاثته ، يقال : أجرت فلاناً إذا استغاث بك فحميته . وأجرت عليه إذا حميت عنه ؛ والمعنى يحمي ولا يحمى عليه ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ فأجيبوا :

﴿ سيقولون لله ﴾ قرىء باللام نظراً إلى معنى السؤال كما سلف ، وقرىء بغير لام نظراً إلى لفظ السؤال ﴿ قل فأنى تسحرون ؟ ﴾ قال الفراء والزجاج : أي تصرفون عن الحق وتخدعون ، والمعنى كيف يخيل اليكم الحق باطلاً ؟ والصحيح فاسداً،والخادع لهم هو الشيطان أو الهوى أو كلاهما ، ثم بين الله سبحانه أنه قد بالغ في الاحتجاج عليهم فقال :

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ
إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا
تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن
نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾

﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ أي بالأمر الواضح الذي يحق اتباعه ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما ينسبونه الى الله تعالى من الولد والشريك ، ثم نفاهما عن نفسه فقال :

﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾ لأنه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه ﴿ وما كان معه من إله ﴾ شريك في الألوهية ، ومن في الموضعين زائدة لتوكيد النفي ، ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدعيه الكفار من إثبات الشريك فقال : ﴿ إذاً لذهب كل إله بما خلق ﴾ وفي الكلام حذف أي لو كان مع الله آلهة أخرى لانفرد كل إله بخلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب .

﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أي ولغلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم ، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق ان يكون إلهاً ، واذا تقرر عدم إمكان المشاركة في ذلك وانه لا يقوم به الا واحد ؛ تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فانه يدل على نفي الولد لأن الولد ينازع أباه في ملكه ، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال :

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ من الشريك والولد ، واثبات ذلك لله عز وجل ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي هو مختص بعلم ما غاب وما شوهد ، وأما غيره سبحانه فهو وإن علم الشهادة لا يعلم الغيب ، وهذا دليل آخر على الوحدانية بواسطة مقدمة أخرى كأنه قيل الله علمهما وغيره لا يعلمهما فغيره ليس بإلّه وهذا من قبيل الشكل الثاني ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الله ، وقرىء بالجر على أنه صفة لله عز وجل أو بدل منه ، وروي عن يعقوب أنه كان يخفض إذا وصل ويرفع إذا ابتدأ .

﴿ فتعالى ﴾ الله ﴿ عما يشركون ﴾ عطف على معنى ما تقدم ؛ كأنه قال : علم الغيب فتعالى ، أو أقول : فتعالى ، والمعنى أنه سبحانه متعال متعال عن أن يكون له شريك في الملك .

﴿ قل رب إمّا تريني ما يوعدون ﴾ أي إن كان ولا بد أن تريني العذاب المستأصل لهم ﴿ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴾ قال الزجاج : أي إن أنزلت بهم النقمة يا رب ، فاجعلني خارجاً عنهم يعني إن النداء معترض ، وذكر الرب مرتين قبل الشرط وبعده مبالغة في التضرع والابتهال ، وأمره الله أن يسأله أن لا يجعله في القوم الظالمين مع أن الأنبياء لا يكونون معهم أبداً تعليماً له صلى الله عليه وسلم من ربه كيف يتواضع ويهضم نفسه أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة﴾ ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب ويسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر لهم ذلك أكد سبحانه وقوعه بقوله :

﴿وإنّا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ يعني أن الله سبحانه قادر على أن يرى رسوله عذابهم ولكنه يؤخره لعلمه بأن بعضهم سيؤمن أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم ، وقيل قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة ثم أمره سبحانه بالصبر الى أن ينقضي الأجل المضروب فقال :

﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ أي ادفع بالخصلة التي هي أحسن من غيرها وهي الصفح والإعراض عما يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهي الشرك،قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل هي في حق هذه الأمة فيما بينهم منسوخة في حق الكفار .

قال مجاهد : أي أعرض عن أذاهم اياك ، وقال عطاء : ادفع بالسلام وعن أنس قال : هو قول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول : إن كنت كاذباً فأنا أسأل الله أن يغفر لك وان كنت صادقاً فأنا أسأل الله أن يغفر لي .

﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ اياك به مما أنت على خلافه أو بما يصفون من الشرك والتكذيب وفي هذا وعيد لهم بالعقوبة ، ثم علمه سبحانه ما يقويه على ما أرشده اليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال :

﴿ وقل رب أعوذ بك ﴾ أي أعتصم ﴿ من همزات الشياطين ﴾ جمع همزة وهي في اللغة الدفعة باليد أو بغيرها ؛ يقال همزة ولمزة ونخسة أي دفعة ، وقيل الهمز كلام من وراء القفا ، واللمز المواجهة ، والمراد بها هنا خطراته التي يخطرها بقلب الانسان ووساوسه ، وقيل نفخهم ونفثهم ، والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس ، أو لتعدد المضاف اليه ، وفي الآية إرشاد لهذه الأمة الى التعوذ من الشيطان ، ومن همزات الشياطين ؛ وهي سورات الغضب التي لا يملك الانسان فيها نفسه .

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ
فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أمره الله سبحانه أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعدما أمره أن يتعوذ من همزاتهم ؛ وأُعيد كل من العامل والنداء مبالغة ولزيادة اعتناء بهذه الاستعاذة ، والمعنى وأعوذ بك ان يكونوا معي في حال من الأحوال فإنهم اذا حضروا الانسان لم يكن عمل الا الوسوسة ، والاغراء على الشر ، والصرف عن الخير ، وفي قراءة أُبيّ « وقل رب عائذاً بك » .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي ،عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : « بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال : فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيراً ـ لا يغفل ان يحفظها كتبها له ، فعلقها في عنقه »[١] وفي اسناده محمد ابن اسحاق وفيه مقال معروف وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : يا رسول الله إني أجد وحشة قال : «إذا اخذت مضجعك فقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ،

(١) ابو داوود كتاب الطب ١٩ ـ الترمذي كتاب الدعوات ٩٠ .

فإنّه لا يحضرك وبالحري لا يضرك »[١] .

﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ﴾ حتى هي الابتدائية دخلت على الشرطية ، وهي مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله لكاذبون . وقيل بيصفون والمراد بمجىء الموت مجيء علاماته ، أي رأس مقعده من النار ومقعده من الجنة لو آمن ﴿ قال ﴾ أي ذلك الأحد الذي حضره الموت تحسراً وتحزناً على ما فرط منه .

﴿ رب ارجعون ﴾ أي ردوني إلى الدنيا ، وإنما قال بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب ، وقيل هو على معنى تكرير الفعل ، أي ارجعني ارجعني ارجعني ، قاله أبو البقاء ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ قال المازني : معناه ألق ألق ، وهكذا قيل في قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ومثله قول الحجاج : يا حرسي اضربا عنقه . وقول الآخر:

ألا فارحمون يا إله محمد

وقيل إنهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم : رب ؛ ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال : ارجعون ﴿ لعلي أعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ في الدنيا إذا رجعت اليها من الإيمان وما يتبعه من أعمال الخير .

أخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : إذا أدخل الكافر في قبره فيرى مقعده من النار ، قال : ﴿ رب ارجعون ﴾ أتوب وأعمل صالحاً ، فيقال له قد عمّرت ما كنت معمِّراً، فيضيق عليه قبره ، فهو فالمنهوش ينازع ويفزع ، تهوي إليه حيات الأرض وعقاربها .

وعن ابن جريج قال : زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : « إن المؤمن إذا عاين الملائكة ، قالوا : نرجعك إلى الدنيا ؟

---

(١) الإمام احمد ٢/١٦١ .

فيقول : الى دار الهموم والأحزان ؟ بل قدما إلى الله ، وأما الكافر فيقولون له : نرجعك ؟ فيقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً ، وهو مرسل .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه ، فعند ذلك يقول رب ارجعون » الآية .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ أعمل صالحاً ﴾ قال : أقول لا إله إلا الله ﴿ فيما تركت ﴾ أي في الموضع الذي ضيعت أو منعت ، وقيل خلفت من التركة وهو الدنيا لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى . قال قتادة : ما تمنى أن يرجع الى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فرحم الله امْرءاً عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب . ولما تمنى أن يرجع ليعمل ، رد الله عليه ذلك بقوله :

﴿كلّا إنها كلمة هو قائلها ﴾ فجاء بكلمة الردع والزجر ، والضمير في ﴿إنها﴾ يرجع إلى قوله : ﴿ رب ارجعون ﴾ أي أن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه ، وليس الأمر كما يظنه من أنه يجاب الى الرجوع الى الدنيا ؛ أو المعنى أنه لو أجيب الى ذلك لما حصل منه الوفاء كما في قوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ وقيل ان الضمير في ﴿ هو ﴾ يرجع الى الله ، أي لا خلف في خبره ، وقد أخبرنا بأنه لا يؤخر نفساً اذا جاء أجلها .

﴿ ومن ورائهم ﴾ أي من أمامهم وبين أيديهم ، والضمير للأحد والجمع باعتبار المعنى لأنه في حكم كلهم ، كما أن الأفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿ برزخ ﴾ هو الحاجز بين الشيئين . قاله الجوهري ، واختلف في معنى الآية فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد : حاجز بين الموت والبعث . وقال

الكلبي : هو الأجل بين النفختين وبينهما أربعون سنة . وقال السدي : هو الأجل ، وقيل : بينهم وبين الرجوع الى الدنيا .

﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يوم القيامة ، وهو اقناط كلي عن الرجوع الى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا ، وانما الرجوع فيه الى حياة تكون في الآخرة . عن عائشة قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور ، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود ، حية عند رأسه وحية عند رجليه ، تقرضانه حتى تلتقيا في وسطه ، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله ﴿ ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ﴾ .

﴿ فإذا نفخ في الصور﴾ قيل هذه هي النفخة الأولى ، قاله ابن عباس . وقيل الثانية قاله ابن مسعود وهذا أولى . وهي النفخة التي بين البعث والنشور . وقيل المعنى فإذا نفخ في الأجساد أرواحها ، على أن الصور جمع صورة لا القرن وقد قرىء بها وبضم الصاد وسكون الواو ، والقرن الذي ينفخ فيه ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ يتفاخرون بها أو تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف ، أي لا يذكرونها لما هم فيه من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة ، وهو جمع نسب وهو القرابة .

﴿ ولا يتساءلون ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عنها ، فإن لهم إذ ذاك شغلاً شاغلاً . ومنه قوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ وقوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ ولا ينافي هذا ما في الآية الأخرى من قوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ فإن ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة فالإثبات باعتبار بعضها والنفي باعتبار بعض آخر ، كما قررناه في نظائر هذا ، مما اثبت تارة ونفي أخرى .

وعن ابن عباس في الآية قال : حين ينفخ في الصور فلا يبقى حي إلا الله . وعنه أنه سئل عن هذه الآية . وقوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ قال : إنها مواقف ، فأما الموقف الذي لا أنساب بينهم ولا

يتساءلون فعند الصعقة الأولى لا أنساب بينهم فيها إذا صعقوا ، فإذا كانت النفخة الآخرة فإذا هم قيام يتساءلون وعنه أنه سئل عن الآيتين فقال : هذا في النفخة الأولى حين لا يبقى على الأرض شيء ، وذاك لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ، وفي لفظ يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم يناد مناد ألا إن هذا فلان بن فلان فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه .

وأخرج أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي في سننه عن المسور بن مخرمة قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الانساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري »[١] .

وأخرج البزار والطبراني وأبو نعيم والحاكم والضياء في المختارة عن عمر ابن الخطاب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي »[٢] .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري »[٣] وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : « ما بال رجال يقولون ان رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفع قومه ، بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة ، وإني أيها الناس فرط لكم »[٤] .

﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أي موزوناته من أعماله الصالحة ، فالموازين

---

(١) الإمام أحمد ٤/٣٢٣ ـ ٤/٣٣٢ .
(٢) صحيح الجامع الصغير ٤٤٠٣ .
(٣) صحيح الجامع الصغير ٤٤٤٠ .
(٤) احمد بن حنبل ٣/١٨ ـ ٣/٣٩ .

جمع موزون ويجوز كونه جمع ميزان ومع وحدته جمعه لتعدد الموزون ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أي الفائزون بمطالبهم المحبوبة الناجون من الأمور التي يخافونها .

﴿ ومن خفت موازينه ﴾ وهي أعماله الصالحة ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي ضيعوها وتركوا ما ينفعها ﴿ في جهنم خالدون ﴾ قد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده .

﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ أي تحرقها مستأنفة أو حالية أو خبر لأولئك . واللفح أشد النفح لأنه الإصابة بشدة ، والنفح الإصابة مطلقاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ ، وقيل اللفح الإحراق ، يقال : لفحته النار اذا أحرقته ، ولفحته بالسيف اذا ضربته ، وخص الوجوه لأنها أشرف الأعضاء وقيل تسفع . قال ابن عباس : تلفح تنفخ .

أخرج ابن مردويه والضياء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله (ﷺ) في الآية : « تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » وعن ابي مسعود قال : لفحتهم لفحة فما أبقت لحماً على عظم الا ألقته على أعقابهم .

﴿ وهم فيها كالحون ﴾ حالية ، والكالح الذي قد شمرت شفتاه وبدت أسنانه قاله الزجاج ، ودهر كالح أي شديد . قال أهل اللغة : الكلوح تكشر في عبوس وبابه خضع ، ومنه كلوح الأسد أي تكشيره عن أنيابه ، وقيل الكلوح تقطب الوجه ، وكلح الرجل يكلح كلوحاً وكلاحاً وعن ابن مسعود قال : كلوح الرأس النضج بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم ، وعن ابن عباس قال : كالحون أي عابسون وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : «تشويهِ النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى ، حتى تضرب سرته » أخرجه الترمذي[1] ، وقال :

---

(١) الترمذي جهنم باب ٥ ـ تفسير سورة ٢٣ ـ ٤ .

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ
عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي
يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا
حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا
أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾

حديث حسن صحيح غريب ، وقد ورد في صفة أهل النار وما يقولونه وما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفة ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم ؟ ﴾ في الدنيا ، يعني قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها ، ويقال لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً ﴿ فكنتم بها تكذبون ﴾ وتزعمون أنها ليست من الله تعالى .

﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ مستأنفة والمعنى غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا فسمي ذلك شقوة لأنه يؤول إلى الشقاء وقرىء شقاوتنا ، وبها قرأ ابن مسعود والحسن ، وهما مصدران بمعنى سوء العاقبة ، والشقاء ضد السعادة والشدة والعسر ﴿ وكنا قوماً ضالين ﴾ بسبب ذلك عن الهدى ، فإنهم ضلوا عن الحق والصواب بتلك الشقوة ، ثم طلبوا ما لا يجابون إليه فقالوا :

﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ أي من النار ﴿ فإن عدنا ﴾ إلى ما كنا عليه من الكفر والتكذيب وعدم الإيمان ﴿فإنّا ظالمون ﴾ لأنفسنا بالعود إلى ذلك .

﴿ قال ﴾ تعالى لهم بلسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين . قيل هو سبعة آلاف سنة بعدد الكواكب السيارة ، وقيل إثنا عشرة ألف سنة بعدد البروج ، وقيل ثلثمائة ألف سنة وستون بعدد أيام السنة . ذكره القرطبي في التذكرة ، والتحقيق فيه ما ذكرناه في لقطة العجلان ﴿ اخسئوا فيها ﴾ أي اسكتوا في جهنم سكوت هوان قال المبرد : الخسء إبعاد بمكروه ، وقال الزجاج : تباعدوا تباعد سخط ، وأبعدوا بُعد الكلب ، فالمعنى أبعدوا في جهنم ، كما

يقال للكب اخسأ ، أي ابعد ، وخسأت الكلب طردته .

﴿ ولا تكلمون ﴾ في إخراجكم من النار ورجوعكم إلى الدنيا ، أو في رفع العذاب عنكم . وقيل المعنى لا تكلمون رأساً قال الحسن : هو آخر كلام يتكلم به أهل النار وما بعد ذلك إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه ﴾ تعليل لما قبلها من الزجر عن دعائهم بالخروج منها ﴿ كان فريق من عبادي ﴾ وهم المؤمنون ، وقيل الصحابة المهاجرون ومنهم بلال وصهيب وعمار وخباب .

﴿ يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ ومحط التعليل قوله : ﴿ فاتخذتموهم سخرياً ﴾ بكسر السين وبضمها سبعيتان وفرق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزء، والضم من جهة السخرية قال النحاس : ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائي ولا الفراء .

وحكي عن الكسائي أن الكسر بمعنى الاستهزاء والسخرية بالقول ، والضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل .

﴿ حتى أنسوكم ذكري ﴾ أي اتخذتموه سخرياً الى هذه الغاية فإنهم نسوا ذكر الله لشدة اشتغالهم بالاستهزاء ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ في الدنيا ، والمعنى حتى نسيتم ذكري باشتغالكم بالسخرية والضحك ، فنسب ذلك الى عباده المؤمنين لكونهم السبب ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ مستأنفة لتقرير ما سبق لبيان حسن حالهم ، والباء للسببية .

﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ بفتح الهمزة مفعول ثان لجزيتهم وقرىء بكسرها على الاستئناف . والمعنى جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة . قال الله عز وجل تذكيراً لهم بأن ما ظنوه طويلاً دائماً فهو قليل بالإضافة الى ما أنكروه ، وقرىء قل على صيغة الأمر ، والمعنى قل يا محمد للكفار ، أو يكون أمراً للملك بسؤالهم ، أو التقدير قولوا ، فاخرج الكلام مخرج الأمر للواحد ، والمراد الجماعة .

قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ
ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿ كم لبثتم في الأرض ﴾ التي طلبتم الرجوع اليها ، والغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ لأنهم كانوا ينكرون اللبث في الآخرة أصلاً ، ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوا في الحياة الدنيا وفي القبور .

وقيل هو سؤال عن مدة لبثهم في القبور لقوله : ﴿ في الأرض ﴾ ولم يقل على الأرض ، ورد بمثل قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ ﴿ عدد سنين ﴾ أي لبثتم كم عدداً من السنين ـ بفتح النون على أنها نون الجمع ـ ومن العرب من يخفضها وينونها .

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ استقصروا مدة لبثهم وشكوا في ذلك لعظم ما هم فيه من العذاب الشديد . وقيل إن العذاب رفع عنهم بين النفختين فنسوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم ، وقيل أنساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى الى النفخة الثانية ، ثم لما عرفوا ما أصابهم من النسيان لشدة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا :

﴿ فاسئل العادّين﴾ جمع عادّ من العدد ، أي المتمكنين من معرفة العدد ، وهم الملائكة لأنهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم ، وقيل

المعنى فاسئل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس .

﴿ قال إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ قرىء على الخبر وقرىء قل كما في الآية الأولى ، وقد تقدم توجيه القراءتين أي ما لبثتم في الأرض إلا زمناً قليلاً أو لبثاً قليلاً ، قال تعالى ذلك بلسان مالك تصديقاً لهم وتقريعاً وتوبيخاً ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ شيئاً من العلم ، والجواب محذوف أي لعلمتم اليوم قلة لبثكم في الأرض ، أو في القبور أو فيهما فكل ذلك قليل بالنسبة الى لبثهم في النار ، ثم زاد في توبيخهم على تماديهم في الغفلة ، وتركهم النظر الصحيح فيما يدل على حقية البعث والقيامة فقال :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ لا لحكمة ، والهمزة للتوبيخ والتقرير والفاء للعطف على مقدر أي ألم تعلموا شيأ فحسبتم أو أغفلتم وتلاهيتم وتعاميتم فحسبتم والمعنى عابثين أو لأجل العبث ، قال بالأول سيبويه وقطرب وبالثاني أبو عبيدة،والعبث في اللغة اللعب وما لا فائدة فيه ، يقال : عبث يعبث عبثاً ، فهو عابث أي لاعب وأصله من قولهم : عبثت الاقط أي خلطته ، والمعنى أفحسبتم أنا خلقناكم للاهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب .

﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ بالبعث والنشور فيجازيكم بأعمالكم ؛ قرىء ترجعون مبنياً للفاعل وللمفعول ، وقدم الينا على الفعل لأجل الفواصل ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

﴿ فتعالى الله ﴾ أي تنزه عن الأولاد والشركاء أو عن أنْ يخلق شيئاً عبثاً أو عن جميع ذلك وهو ﴿ الملك ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة واحياء وإماتة وعقاباً وإثابة، وكل ما سواه مملوك له بالذات مقهور لملكوته مالك بالعرض من وجه دون وجه وفي حال دون حال

﴿ الحق ﴾ في جميع أفعاله وأقواله وهذا استعظام له تعالى ولشؤونه .

﴿ لا إلّه إلا هو رب العرش الكريم ﴾ فكيف لا يكون إلّهاً ورباً لما هو دون العرش الكريم وما تحته من المخلوقات وما أحاط به من الموجودات كائناً ما كان ووصف العرش بالكريم لنزول القرآن أو الرحمة أو الخير منه أو باعتبار من استوى عليه كما يقال بيت كريم إذا كان ساكنوه كراماً ، أو لنسبته الى أكرم الاكرمين من حيث أنه أعظم مخلوقاته وقرىء الكريم بالرفع على أنه نعت لرب .

أخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن السني في عمل اليوم والليلة وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، عن ابن مسعود أنه قرأ في أذن مصاب : أفحسبتم حتى ختم السورة فبرىء فقال رسول الله صلى الله « بماذا قرأت في أذنه ؟ فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأ بها على جبل لزال » .

وأخرج ابن السني وابن منده وأبو نعيم قال السيوطي بسند حسن عن ابراهيم التيمي قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية وأمرنا أن نقول اذا أمسينا وأصبحنا ، أفحسبتم الخ فقرأناها فغنمنا وسلمنا ، ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخاً لهم وتقريعاً فقال :

﴿ ومن يدع مع الله إلّهاً آخر ﴾ يعبده مع الله أو يعبده وحده ﴿ لا برهان له به ﴾ صفة كاشفة لقوله ﴿إلّهاً﴾ لا مفهوم لها أو هي صفة لازمة جيء بها للتأكيد كقوله يطير بجناحيه ، والبرهان الحجة الواضحة والدليل أفلح فيه مراعاة معنى ﴿ من ﴾ وفيه الإظهار في مقام الاضمار للنداء عليهم يستحقه وجملة لا برهان له به معترضة بين الشرط والجزاء ، وقيل إن جواب الشرط قولُهُ لا برهان له به .

﴿إنه﴾ قرىء بالكسر على الاستئناف المفيد للعلة وبالفتح على التعليل ﴿ لا يفلح الكافرون ﴾ قرىء من أفلح ، وقرىء بفتح الياء مضارع فلح بمعنى أفلح فيه مراعاة معنى ﴿ من ﴾ وفيه الإظهار في مقام الإضمار للنداء عليهم بهذا الوصف القبيح جعل فاتحة السورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ وخاتمتها ﴿ انه لا يفلح الكافرون ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ، ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله (ﷺ) أن يدعوه بالمغفرة والرحمة فقال :

﴿ وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين ﴾ أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدي به أمته وقيل أمره بالاستغفار لأمته وقد تقدم بيان كونه ارحم الراحمين وفي الرحمة زيادة على المغفرة ، وهي ايصال الاحسان زيادة على غفر الذنب ، وأيضاً الغفران قد يكون من غير إحسان الذي هو معنى الرحمة ، ووجه اتصال هذا بما قبله أنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته ، لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

﴿ هي مدنية وآياتها أربع وستون آية ﴾

وبه قال ابن عباس وابن الزبير وعن عائشة مرفوعا قال : لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة يعني النساء[1] وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه البيهقي والحاكم وابن مردويه ، وعن مجاهد مرفوعاً قال : علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور رواه البيهقي وابن المنذر وسعيد بن جبير وهو مرسل .

---

(١) لم يصح في خطر تعليم الكتابة للنساء حديث ، ومن الثابت أن بعض نساء السلف كن عالمات فقيهات ، والتاريخ يحفظ لنا أسماء الكثيرات .

« المطيعي »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا
كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا
يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

﴿ سورة ﴾ هي في اللغة اسم للمنزلة الشريفة ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ، ومنه قول زهير :

ألم تـر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي : منزلة وقرىء بالرفع ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير هذه سورة ورجحه الزجاج والفراء والمبرد ، قالوا : لأنها نكرة ولا يبتدأ بها في كل موضع ، والثاني : أن يكون مبتدأ ؛ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله :

﴿ أنزلناها ﴾ والخبر : الزانية والزاني وإلى هذا نحا ابن عطية ، والمعنى السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختتم، وهذا معنى صحيح ولا وجه لما قاله الأولون وقيل التقدير فيما أوحينا إليك سورة وَرُدَّ بأن مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة لا بيان أن في جملة ما أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم سورة شأنها كذا وكذا ، وقرىء بالنصب أي : اتل سورة أو اقرأ أو أنزلنا سـورة أو دونك سـورة ، قالـه الزمخشري ورده أبو حيان وقيل أنزلنا الأحكام حال كونها سـورة من سور القرآن .

﴿ وفرضناها ﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد ، ومعنى المشدد قطعناها في الإنزال نجماً نجماً ، والفرض القطع والتشديد للتكثير أو للمبالغة أو لتأكيد الايجاب أو لكثرة الفرائض فيها كالزنا والقذف اللعان والاستئذان وغض البصر وغير ذلك .

ومعنى المخفف أوحيناها وجعلناها مقطوعة ، وقيل ألزمناكم العمل بها وقيل قدرنا ما فيها من الحدود والفرض التقدير ، ومنه ان الذي فرض عليك القرآن ، وقيل بيناها قاله ابن عباس ، وقيل أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً وفيه من الايذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى .

﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أي أنزلنا في غصونها وتضاعيفها آيات واضحة الدلالة على مدلولها وتكرير ﴿ أنزلنا ﴾ لكمال العناية بإنزال هذه السورة وشأنها لما اشتملت عليه من الأحكام المفروضة .

قال الرازي : ذكر الله في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود ، وفي آخرها دلائل التوحيد فقوله : ﴿ فرضناها ﴾ إشارة الى الأحكام وقوله هذا إلى ما بين فيها من دلائل التوحيد ويؤيده قوله :

﴿ لعلكم تذكرون ﴾ فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى نؤمر بتذكرها ، أما دلائل التوحيد ، فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها ، فأمروا بتذكرها ، قيل والمعنى تتعظون .

وقيل قوله : ﴿ الزانية والزاني ﴾ تفصيل ما أجمل من الآيات البينات ، والزنا هو وطء الرجل للمرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح وقيل هو إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعاً محرم شرعاً و ﴿ الزانية ﴾ هي المرأة المطاوعة للزنا ، الممكنة منه ، كما تنبىء عنه الصيغة المكرهة ، وكذلك ﴿ الزاني ﴾ وتقديم الزانية على الزاني لأنها الأصل في الفعل لكون الداعية فيها أوفر ، ولولا تمكينها منه لم يقع ، قاله أبو السعود؛ إنما قدمت المرأة هنا وأخرت في آية حد السرقة لأن الزنا إنما يتولد بشهوة الوقاع ، وهي في المرأة أقوى وأكثر،

والسرقة إنما تتولد من الجسارة والقوة والجرأة، وهي في الرجل أقوى وأكثر، قاله الكرخي .

وقيل وجه تقديم الزانية على الزاني ههنا أن الزنا في ذلك الزمان كان في النساء أكثر حتى كان لهن رايات تنصب على أبوابهن ليعرفهن من أراد الفاحشة منهن، وقيل لأن العار فيهن أكثر ، إذ موضوعهن الحجبة والصيانة فقدم ذكر الزانية تغليظاً واهتماماً .

﴿ فاجلدوا ﴾ الجلد الضرب ، يقال : جلده إذا ضرب جلده ، مثل بطنه اذا ضرب بطنه ورأسه اذا ضرب رأسه، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش ، وعلى مذهب سيبويه التقدير فيما يتلى عليكم حكم الزانية ؛ ثم بين ذلك بقوله : ﴿ فاجلدوا ﴾ والخطاب في هذه الآية الكريمة للأئمة ومن قام مقامهم ، وقيل للمسلمين أجمعين لأن اقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً ، والامام ينوب عنهم إذ لا يمكنهم الاجتماع على اقامة الحدود .

﴿ كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ هو حد الزاني الحر البالغ البكر ، وكذلك الزانية، وثبت بالسنة زيادة على هذا الجلد وهو تغريب عام وبه قال الشافعي، وقال أبو حنيفة : التغريب إلى رأي الإمام، والحديث يرده ، وقال مالك : يجلد الرجل ويغرب ، وتجلد المرأة ولا تغرب ، وأما المملوك والمملوكة فجلد كل واحد منهما خمسين جلدة لقوله سبحانه : ﴿ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ وهذا نص في الإماء وألحق بهن العبيد لعدم الفارق .

وأما من كان محصناً من الأحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة ؛ وبإجماع اهل العلم ، بل وبالقرآن المنسوخ لفظه، الباقي حكمه وهو الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما ألبتّة، وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة ، وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في ذلك في شرحه للمنتقى ، وقد مضى الكلام في

حد الزنا مستوفى ، وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء،وزاد النسفي والتغريب منسوخ بالآية ، وليس بصحيح فقد أثبتته السنة الصحيحة كما أشرنا اليه .

﴿ ولا تأخذكم ﴾ بالتأنيث مراعاة للفظ ، وبالياء لأنه مجازي ، وللفصل بالمفعول والجار ﴿ بهما رأفة ﴾ يقال رأف يرأف رأفة ، على وزن فعلة ، ورأفة على وزن فعالة ، مثل النشأة والنشاءة ، وكلاهما بمعنى الرقة والرحمة . وقيل هي أرقّ الرحمة وأشدّها .

﴿ في دين الله ﴾ أي في طاعته وحكمه ، كما في قوله : ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، أي لا يأخذكم اللين في استيفاء الحدود فتعطلوها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي . وقيل تخففوا الضرب ، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن .

قال الزهري : يجتهد في حد الزنا والفرية ، أي القذف ، ويخفف في حد الشرب . وقيل يجتهد في حد الزنا ويخفف دون ذلك في حد القذف ودونه في حد الشرب ، ثم قال : مثبتاً للمأمورين ومهيجاً لهم .

﴿ إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخر ﴾ أي إن كنتم تصدقون بالتوحيد والبعث الذي فيه جزاء الأعمال لا تعطلوا الحدود ، وفي إلهاب الغضب لله ولدينه ، وذلك لأن الايمان بهما يقتضي التجلد في طاعة الله وفي إجراء أحكامه ، وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب في مقابلة المسامحة في الحدود وتعطيلها، والحاصل أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الحث والمتانة ولا يأخذهم اللين والهوان في استيفاء حدود الله ، وكفى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة في ذلك حيث قال : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها »[1] .

---

(١) مسلم ١٦٨٨ ـ البخاري ١٢٨٧ .

﴿ وليشهد عذابهما ﴾ أي لتحضر الجلد إذا أقيم عليهما زيادة في التنكيل بهما وشيوع العار عليهما واشتهار فضيحتهما ﴿ طائفة من المؤمنين ﴾ ندباً ، والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف ، وأقلها ثلاثة ، لأنه أقل الجمع ، وقيل اثنان . قاله عكرمة . وقيل واحد . قاله مجاهد . وقيل أربعة لأنهم عدد شهود الزنا . وقيل عشرة .

قال ابن عباس : الطائفة الرجل فما فوقه ، ولا يجب على الإمام حضور رجم ، ولا على الشهود ، لأنه صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمها ، وإنما خص المؤمنين بالحضور لأن ذلك أفضح ، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل، وتسمية الجلد عذاباً دليل على أنه عقوبة ، ثم ذكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني والزانية فقال :

﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ﴾ يعني أن الغالب أن المائل إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح ، والثانية لا يرغب فيها الصلحاء ، فإن المشاكلة علة الألفة والتضامّ، والمخالفة سبب للنفرة والافتراق وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية على أقوال :

الأول: أن المقصود منها تشنيع الزنا وتشنيع أهله ، وأنه محرم على المؤمنين ، ويكون معنى ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ الوطء لا العقد ، أي الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا تزني الا بزان ، وزاد ذكر المشركة والمشرك ، لكون الشرك أعم في المعاصي من الزنا .

وردّ هذا الزجاج وقال : لا يعرف النكاح في كتاب الله الا بمعنى التزويج ، ويردّ هذا الرد بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه . ومنه قول : ﴿ حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ فقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم بأن المراد به الوطء . ومن جملة القائلين بأن معنى الآية الزاني لا يزني إلا بزانية سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة ، كما حكاه ابن جرير عنهم وعن ابن

عباس قال : ليس هذا بالنكاح ولكن الجماع ، لا يزني بها حين تزني الا زانٍ أو مشرك .

الثاني: أن الآية هذه نزلت في امرأة خاصة فتكون خاصة بها ، كما قال الخطابي عن ابن عمرو ، قال : كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح وتشترط أن ينفق عليها ، فأراد رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأنزل الله هذه الآية ، أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم .

الثالث: أنها نزلت في رجل من المسلمين فتكون خاصة به ، قاله مجاهد . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رجل يقال له مرثد يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ؛ وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وذكر قصة فيها فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أنكح عناقاً ؟ فلم يرد عليّ شيئاً . حتى نزلت ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا مرثد ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين فلا تنكحها»[1] ، أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم .

الرابع: أنها نزلت في أهل الصفة فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح .

الخامس: أن المراد بالزاني والزانية المحدودان . حكاه الزجاج وغيره عن الحسن قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة ، وروي نحوه عن إبراهيم النخعي ، وبه قال بعض أصحاب الشافعي . قال ابن العربي : وهذا لا يصح نظراً ، كما لا يثبت نقلاً .

السادس: أن هذه الآية منسوخة بقوله سبحانه : ﴿ وأنكحوا الأيامى

---

(١) ابو داوود كتاب النكاح باب ٤ .

منكم ﴾ قال النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء ، والسابع أن هذا الحكم مؤسس على الغالب العام ، والمعنى ان غالب الزناة لا يرغب إلا في الزواج بزانية مثله ، وغالب الزواني لا يرغبن الا في الزواج بزان مثلهن . قال الكرخي : إن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب في نكاح المرأة الصالحة ، وإنما يرغب في نكاح فاسقة مثله أو في مشركة ؛ والفاسقة لا ترغب في نكاح الرجل الصالح بل تنفر عنه ، وانما ترغب فيمن هو من جنسها من الفسقة والمشركين ، فهذا على الأعم الأغلب ، كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقي ، وقد يفعل الخير من ليس بتقي ، فكذا ههنا والفرق بين قوله : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ﴾ وقوله : ﴿ والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ﴾ أن الكلام يدل على أن الزاني لا يرغب الا في نكاح الزانية بخلاف الزانية فقد ترغب في نكاح غير الزاني ؛ فلا جرم بين ذلك بالكلام الثاني، والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا ، وهذا أرجح الأقوال ، وسبب النزول يشهد له كما تقدم .

وعن شعبة مولى ابن عباس قال : « كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال : اني كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرم الله عليّ ، وقد رزقني الله منها توبة فأردت أن أتزوجها فقال الناس : ﴿ الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ﴾ فقال ابن عباس : ليس هذا موضع هذه الآية ، إنّما كن نساء بغايا متعاليات ، يجعلن على أبوابهن رايات يأتيهن الناس ، يعرفن بذلك ، فأنزل الله هذه الآية . تزوجها فما كان فيها من اثم فعليّ .

وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لا ينكح الزاني المجلود الا مثله » أخرجه أبو داود وابن المنذر والحاكم وابن أبي حاتم وغيرهم(١) . وعن علي أن رجلاً تزوج امرأة ثم إنه زنى

---

(١) ابو داوود كتاب النكاح باب ٤ ـ الإمام احمد ٢/٣٢٤ .

فأقيم عليه الحد ، فجاءوا به الى عليّ ففرق بينه وبين امرأته ، وقال : لا تتزوج الا مجلودة مثلك .

وعن مجاهد قال : « كن نساء في الجاهلية بغيات ، فكانت منهن امرأة جميلة تدعى أم جميل ، فكان الرجل من المسلمين يتزوج إحداهن لتنفق عليه من كسبها فنهى الله سبحانه أن يتزوجهن أحد من المسلمين . وهو مرسل .

وعن ابن عباس أنها نزلت في بغايا معلنات كن في الجاهلية وكن زواني مشركات فحرم الله نكاحهن على المؤمنين . وعنه قال كانت بغايا في الجاهلية ، بغايا آل فلان وبغايا آل فلان فقال الله : ﴿ الزاني لا ينكح الا زانية ﴾ فأحكم الله ذلك في أمر الجاهلية وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وعن الضحاك قال : انما عني بذلك الزنا ولم يعن به التزويج .

وعن ابن عباس في هذه الآية قال : « الزاني من أهل القبلة لا يزني الا بزانية مثله من أهل القبلة ، أو مشركة من غير أهل القبلة ، والزانية من أهل القبلة لا تزني الا بزان مثلها من أهل القبلة ، أو مشرك من غير أهل القبلة ، وحرم الزنا على المؤمنين .

وقد اختلف في جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها ؛ فقال الشافعي وأبو حنيفة بجواز ذلك ، وروي عن ابن عباس وعمر وابن مسعود وجابر أنه لا يجوز ، قال ابن مسعود : « اذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا وبه قال مالك .

﴿ وحرم ذلك ﴾ أي الزنا أو نكاح الزواني لما فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والطعن في النسب والتسبب لسوء المقالة وغير ذلك من المفاسد ، ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة البغايا والقحاب وقيل هو مكروه فقط ؛ وعبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة في الزجر .

﴿ على المؤمنين ﴾ الأخيار الأبرار فعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت

هذه العادة ويتصون عنها ، وقدمت الزانية على الزاني أولاً ثم قدم عليها ثانياً ، لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هي المادة التي منها نشأت تلك الجناية ، لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلاً في ذلك بدىء بذكرها . وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه الخاطب ومنه بدىء الطلب .

﴿ والذين يرمون﴾ استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفاً ، أي يشتمون ﴿ المحصنات ﴾ أي النساء العفيفات بالزنا ، وكذا المحصنين ، وإنما خصهن بالذكر لأن قذفهن أشنع ، والعار فيهن أعظم ، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة ، وقد جمع الشوكاني في ذلك رسالة رد بها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادي عشر لما نازع في ذلك .

وقيل إن الآية تعم الرجال والنساء ، والتقدير الأنفس المحصنات ، ويؤيد هذا قوله في آية أخرى : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ ، فإن البيان بكونهن من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء وإلا لم يكن للبيان كثير معنى ؛ وقيل أراد بالمحصنات الفروج ؛ كما قال : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ ، فتتناول الآية الرجال والنساء؛ وقيل إن لفظ المحصنات وإن كان للنساء لكنه ههنا يشمل النساء والرجال تغليباً ، وفيه أن تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب ، وقد مضى في سورة النساء ذكر الإحصان وما يحتمله من المعاني ؛ وللعلماء في الشروط المعتبرة في المقذوف والقاذف أبحاث مطولة مستوفاة في كتب الفقه ، منها ما هو مأخوذ من دليل ومنها ما هو مجرد رأي بحت .

قرىء المحصنات بفتح الصاد وكسرها ، وذهب الجمهور من العلماء انه لا حد على من قذف كافراً أو كافرة . وقال الزهري وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى: يجب عليه الحد . وذهب الجمهور أيضاً إلى أن العبد يجلد أربعين جلدة .

﴿ وقالوا ﴾ أي قال المؤمنون عند سماع الإفك ﴿ هذا إفك مبين ﴾ أي كذب بين ظاهر مكشوف لا حقيقة له ، وقوله : ﴿ لولا جاءوا عليه ﴾ من تمام ما يقوله المؤمنون ، أي هلا جاء الخائضون في الإفك ﴿ بأربعة شهداء ﴾ يشهدون على ما قالوا .

﴿ فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك ﴾ أي الخائضون في الإفك ﴿ عند الله ﴾ أي في حكمه وقضائه الأزلي ، أو شرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة ﴿ هم الكاذبون ﴾ أي القاذفون الكاملون في الكذب ، وهذا من باب الزواجر ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ﴾ هذا خطاب للسامعين ، وفيه زجر عظيم ﴿ ولولا ﴾ هذه لامتناع الشيء لوجود غيره . والمعنى لولا أني قضيت عليك بالفضل في الدنيا بالنعم التي من جملتها الامهال للتوبة ، والرحمة في الاخرة بالعفو .

﴿ لمسّكم فيما أفضتم ﴾ أي بسبب ما أفضتم ﴿ فيه ﴾ من حديث الإفك ، والابهام لتهويل أمره ، يقال : أفاض في الحديث واندفع ، وخاض بمعنى ﴿ عذاب عظيم ﴾ أي لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك : وقيل المعنى لولا فضل الله عليكم لمسّكم العذاب في الدنيا والآخرة معاً ، ولكن برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً .

﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ من التلقي ، والأصل تتلقونه .

قال مقاتل ومجاهد : المعنى يرويه بعضكم عن بعض . قال الكلبي : وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا ويتلقونه تلقياً .

قال الزجاج : معناه يلقيه بعضكم الى بعض ، وقرىء الالقاء ومعناها واضح ، وقرىء بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ، وهي مأخودة من قول العرب : ألق[١] الرجل يَلَق ولقا إذا كذب ، قال ابن سيده : جاءوا بالمتعدي

(١) الصحيح ولق يلق ولقاً وهي في الصحاح في مادة الواو ، وفي القاموس في باب القاف فصل الواو ففاؤها واو وليس ألفاً . «المطيعي»

شاهداً على غير المتعدي .

قال ابن عطية : وعندي أراد يلقون فيه ، فحذف حرف الجر فاتصل الضمير .

وقال الخليل وأبو عمر : وأصل الولق الإسراع يقال جاءت الإبل تلق أي تسرع ، وعن ابن جرير مثله وزاد الولق هو الاسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في إثر عدد وكلام في إثر كلام ، وقرىء تألقونه من الألق وهو الكذب ؛ وقرىء يلقونه وهو مضارع ولق بكسر اللام والتلقي والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا أن في الأول معنى الاستقبال ، وفي الثاني معنى الخطف ، والأخذ بسرعة ، وفي الثالث معنى الحذق والمهارة ؛ وقال الراغب : في التلقن الحذق في التناول ، وفي التلقف الاحتيال فيه .

﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ معناه أن قولهم هذا مختص بالأفواه من غير أن يكون واقعاً في الخارج معتقداً في القلوب ، وقيل ان ذكر الأفواه للتأكيد كما في قوله . يطير بجناحيه ونحوه .

﴿ وتحسبونه ﴾ أي الحديث الذي وقع الخوض فيه والاذاعة له ﴿ هيناً ﴾ أي شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿ هو عند الله عظيم ﴾ ذنبه وعقابه والجملة في محل الحال ؛ قيل جزع بعضهم عند الموت فقيل له في ذلك فقال أخاف ذنباً لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم .

﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ هذا عتاب لجميع المؤمنين أي هلا اذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيباً للخائضين فيه المفترين له بمجرد أول السماع : ما ينبغي لنا ولا يمكننا ان نتكلم بهذا الحديث ، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ التعجب من أولئك الذين جاؤا بالإفك وأصله التنزيه لله سبحانه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه ، والبهتان هو أن يقال في الانسان ما ليس فيه أي

هذا كذب عظيم لكونه قيل في أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وصدوره مستحيل شرعاً من مثلها ، ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال :

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ﴾ أي ينصحكم أو يحرج الله عليكم ، قاله ابن عباس أو يحرم عليكم أو ينهاكم كراهة أن تعودوا أو من أن تعودوا أو في أن تعودوا لمثل هذا القذف ؛ أو استماع حديثه مدة حياتكم ﴿ ان كنتم مؤمنين ﴾ عائد الى جميع الجمل التي قبله وتارة الى بعضها لا تقوم به حجة ولا يصلح للاستدلال فإنه قد يكون ذلك لدليل ، كما وقع هنا من الاجماع واتفاق الأئمة الأربعة على عدم رجوع هذا الاستثناء الى جملة الجلد ، فالقاذف يجلد عند الجميع سواء تاب أو لم يتب ومما يؤيد ما قررناه ويقويه أن المانع عن قبول الشهادة وهو الفسق المتسبب عن القذف قد زال فلم يبق ما يوجب الرد للشهادة .

واختلف العلماء في صورة توبة القاذف ، فقال عمر بن الخطاب والشعبي والضحاك وأهل المدينة : ان توبته لا تكون الا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه ، وأقيم عليه الحد بسببه ، وقالت فرقة منهم مالك وغيره : إن توبته تكون بأن يحسن حاله ويصلح عمله ويندم على ما فرط منه ويستغفر الله من ذلك ويعزم على ترك العود الى مثله وان لم يكذب نفسه ولا رجع عن قوله،وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب ولو كان كفراً فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى وحكى هذا الاجماع القرطبي .

قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع الى الجمل السابقة وليس من رمي غيره بالزنا بأعظم جرماً من مرتكب الزنا ، والزاني اذا تاب قبلت شهادته لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، واذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن ، منها قوله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ﴾ إلى قوله : ﴿إلا الذين تابوا ﴾ ولا

شك أن هذا الاستثناء يرجع الى الجميع ، قال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرماً من الكافر فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته قال وقوله : ﴿ أبداً ﴾ أي ما دام قاذفاً كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبداً ، فإن معناه ما دام كافراً انتهى .

وعن ابن عباس في الآية قال : تاب الله عليهم من الفسوق ، وأما الشهادة فلا تجوز وعن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكرة : إن تبت قبلت شهادتك وعنه قال : توبتهم إكذابهم أنفسهم ، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم ، وعن ابن عباس أيضاً قال : من تاب وأصلح فشهادته في كتاب الله تقبل .

وفي الباب روايات عن التابعين وقصة المغيرة في خلافة عمر مروية من طرق معروفة ، وأخرج البخاري والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « البينة وإلا حد في ظهرك » ، فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : البينة وإلاحد في ظهرك » ، فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد ونزل جبريل فأنزل عليه ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ حتى بلغ ﴿إن كان من الصادقين﴾ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما فجاء هلال فشهد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الله يعلم أن أحدكما لكاذب فهل منكما تائب ؟ ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا أنها موجبة،فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم ، فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج[1] الساقين فهو لشريك بن سحماء

(١) خدلج : ممتلىء لحماً .

فجاءت به كذلك فقال النبي (ﷺ) « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن »(١).

وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس مطولة وأخرجها البخاري ومسلم وغيرهما ، ولم يسمّوا الرجل ولا المرأة .

وفي آخر القصة أن النبي (ﷺ) قال له : « اذهب فلا سبيل لك عليها » فقال : يا رسول الله مالي ؟ قال : لا مال لك إن كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها وإن كنت كذبت عليها فذاك أبعد لك منها » .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال : سل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أيقتل به ؟ أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل ، فقال : عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأسألنه فوجده قد أنزل عليه فدعا بهما فلاعن بينهما قال عويمر: ان انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها ففارقتها قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فصارت سنة للمتلاعنين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه الا قد صدق ، وان جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أراه إلا كاذباً ، فجاءت به مثل النعت المكروه »(٢) .

وفي الباب أحاديث كثيرة وفيما ذكرنا كفاية ، وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود قالوا : لا يجتمع المتلاعنان أبداً ، ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من انواع القذف وهو قذف الزوج للمرأة التي تحته بعقد النكاح فقال :

(١) البخاري تفسير سورة ٢٤/٣ - الترمذي تفسير سورة ٢٤/٣ .
(٢) ابو داوود كتاب الطلاق باب ٢٧ .

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن
لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ
أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا
ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ جمع زوج بمعنى الزوجة فإن حذف التاء منها أفصح من إثباتها الا في الفرائض ، ولم يقيد هنا بالمحصنات اشارة الى أن اللعان يشرع في قذف المحصنة وغيرها فهو في قذف المحصنة يسقط الحد عن الزوج وفي قذف غيرها يسقط التعزير كأن كانت ذمية أو أمة أو صغيرة تحتمل الوطء بخلاف قذف الصغيرة التي لا تحتمله ، وبخلاف قذف الكبيرة التي ثبت زناها ببينة أو اقرار ، فإن الواجب في قذفهما التعزير لكنه لا يلاعن لدفعه كما في كتب الفروع وقد وقع قذف الزوجة بالزنا لجماعة من الصحابة كهلال بن أمية وعويمر العجلاني وعاصم بن عدي .

﴿ ولم يكن لهم شهداء ﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنا ﴿ الا أنفسهم ﴾ بالرفع على البدل من شهداء ، ولم يذكر الزمخشري غيره ، وقيل إنه نعت له على أن الا بمعنى غير وبالنصب على الاستثناء على الوجه المرجوح ، ولا مفهوم لهذا القيد ، بل يلاعن ولو كان واجداً للشهود الذين يشهدون بزناها لنفي ولد ولدفع العقوبة حداً أو تعزيراً .

﴿ فشهادة أحدهم ﴾ أي الشهادة التي تزيل عنه حد القذف أو فالواجب شهادة أحدهم أو فشهادة أحدهم كائنة أو واجبة ، وقيل فعليهم أن يشهد

أحدهم ﴿ أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا وهي المشهود به .

﴿ و ﴾ الشهادة ﴿ الخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾ فيما رماها به من الزنا . قرأ الجمهور ﴿ ان ﴾ بالتشديد ونافع بتخفيفها .

﴿ ويدرأ ﴾ أي يدفع ﴿ عنها ﴾ أي عن المرأة ﴿ العذاب ﴾ الدنيوي وهو الحد ، والمعنى انه يدفع عن المرأة الحد ﴿ ان تشهد ﴾ أي شهادتها ﴿ أربع شهادات بالله انه ﴾ أي الزوج ﴿ لمن الكاذبين ﴾ فيما رماني به من الزنا ﴿ و ﴾ تشهد الشهادة ﴿ الخامسة ان غضب الله عليها ان كان ﴾ الزوج ﴿ من الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا ، وتخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادته ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة ومع استكثارهن منه لا يكون له في قلوبهن كبير موقع بخلاف الغضب .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ﴾ فيه التفات عن الغيبة ، والخطاب لكل من الفريقين أي القاذفين والمقذوفات ، ففي الكلام تغليب صيغة الذكور على صيغة الأناث ؛ حيث لم يقل عليكم وعليكن ﴿ ورحمته ﴾ لنال الكاذب منهما عذاب عظيم قاله الزجاج أو لعاجلكم بالعقوبة ، ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان أو لفضحكم ، فجواب ﴿ لو ﴾ محذوف ، ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب ، وعظيم حكمته البالغة فقال :

﴿وأنّ الله تواب ﴾ أي يعود على من تاب اليه ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه والمغفرة له في ذلك وغيره ﴿ حكيم ﴾ فيما شرع لعباده من اللعان ، وفرض عليهم من الحدود .

﴿ إن الذين جاؤا بالإفك ﴾ هذا شروع في الآيات المتعلقة بالإفك ، وهي ثمانية عشر تنتهي بقوله : ﴿ اولئك مبرؤن ﴾ والإفك أسوأ الكذب وأفحشه وأقبحه وهو مأخوذ من أفك الشيء اذا قلبه عن وجهه ، فالإفك هو الحديث المقلوب ، لكونه مصروفاً عن الحق ، وقيل هو البهتان .

وأجمع المسلمون على أنّ المراد بما في الآية ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين ، وانما وصفه الله بأنه إفك لأن المعروف من حالها رضي الله عنها خلاف ذلك . قال الواحدي : ومعنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر أن عائشة كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والديانة وعلو النسب والسبب والعفة لا القذف ، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عن وجهه فهو إفك قبيح وكذب ظاهر .

﴿ عصبة منكم ﴾ العصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، والمراد بهم هنا عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم . وقيل العصبة من الثلاثة إلى العشرة . وقيل من عشرة إلى خمسة عشر ، وأصلها في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض .

وقد أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم حديث عائشة الطويل في سبب نزول هذه الآيات بألفاظ متعددة وطرق مختلفة ، حاصله أن سبب النزول هو ما وقع من أهل الإفك الذين تقدم ذكرهم في شأن عائشة ، وذلك أنها خرجت من هودجها تلتمس عقداً لها انقطع من جزع ، فرحلوا وهم يظنون أنها في هودجها فرجعت وقد ارتحل الجيش والهودج معهم ، فأقامت في ذلك المكان ومرّ بها صفوان بن المعطل وكان متأخراً عن الجيش فأناخ راحلته وحملها عليها ، فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا ، فبرأها الله مما قالوا : هذا حاصل القصة مع طولها وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك .

وجملة ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾ إن كانت خبراً لـ ﴿إن﴾ فظاهر، وإن كان الخبر ﴿ عصبة ﴾ فهي مستأنفة خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة وأبو بكر وصفوان بن المعطل الذي قذف مع عائشة أم المؤمنين وتسلية لهم ، والضمير المنصوب للإفك ، والشر ما زاد ضره على نفعه .

﴿ بل هو خير لكم ﴾ الخير ما زاد نفعه على ضره ، وأما الخير الذي لا

شر فيه فهو الجنة ، والشر الذي لا خير فيه فهو النار . ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين عائشة ، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عاماً ، وهذا غاية الشرف والفضل ، وفيه تهويل الوعيد لمن تكلم فيهم ، والثناء على من ظن بهم خيراً .

﴿ لكل امرىء منهم ﴾ أي من العصبة الكاذبة ﴿ ما اكتسب من الاثم ﴾ بسبب تكلمه بالإفك ﴿ والذي تولى ﴾ أي تحمل ﴿ كبره ﴾ أي معظمه ﴿ منهم ﴾ فبدأ بالخوض فيه وأشاعه وهو ابن أبيّ ، قرأ جماعة بضم الكاف . قال الفراء : وهو وجه جيد ، لأن العرب تقول : فلان تولى عظم كذا وكذا ، أي أكبره . وقرىء بكسرها . قيل هما لغتان . وقيل هو بالضم معظم الإفك وبالكسر البداءة به ، وقيل هو بالكسر الاثم .

فالمعنى أن الذي تولى معظم الإفك من العصبة ﴿ له عذاب عظيم ﴾ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ، واختلف في هذا الذي تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم ، فقيل هو عبد الله بن أُبي ، وقيل هو حسان والأول هو الصحيح ، وقد روى محمد بن اسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد في الإفك رجلين وامرأة ، وهم مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، وقيل جلد عبد الله بن أبيّ وحسان وحمنة ولم يجلد مسطحاً لأنه لم يصرح بالقذف ، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح ، وقيل لم يجلد أحداً منهم .

قال القرطبي : المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذين حُدّوا حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحد لعبدالله بن أُبَيّ.

ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة قالت : لما نزل عذرى قام النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم ، وسماهم حسان ومسطح وحمنة ، واختلفوا في وجه تركه صلى الله عليه وسلم لجلد عبد الله بن أبيّ ، فقيل لتوفير العذاب

العظيم له في الآخرة ؛ وحد من عداه ليكون ذلك تكفيراً لذنبهم .

كما ثبت صلى الله عليه وآله وسلم في الحدود انه قال : « إنها كفارة لمن أقيمت عليه » .

وقيل ترك حده تألفاً لقومه واحتراماً لابنه ، فإنه كان من صالحي المؤمنين وإطفاء لثائرة الفتنة ، فقد كان ظهرت مباديها من سعد بن عبادة ومن معه ، كما في صحيح مسلم .

وأخرج البخاري وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال : كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال : الذي تولى كبره منهم عليّ فقلت :لا ، حدثني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كلهم سمع عائشة تقول : الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبيّ قال : فقال لي فما كان جرمه ؟ قلت حدثني شيخان من قومك : أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر ابن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول : كان مسيئاً في أمري .

وقال يعقوب بن شيبة[1] في مسنده : دخل سليمان بن يسار على هشام ابن عبد الملك فقال له : يا سليمان الذي تولى كبره من هو؟ قال ابن أُبَيّ. قال كذبت هو عليّ ، قال : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ، فدخل الزهري فقال : يا ابن شهاب من الذي تولى كبره ؟ فقال : ابن أبيّ ، قال : كذبت ، هو عليّ ، قال : أنا أكذب،لا أبا لك والله لو نادى مناد من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت . حدثني عروة وسعيد وعبد الله وعلقمة عن عائشة :أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : « دخل حسان ابن ثابت على عائشة فشبب . وقال:

---

(١) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة .

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾
لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

حصان رزان ما تزن بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت : لكنك لست كذلك ، قلت : تدعين مثل هذا يدخل عليك ؟ وقد أنزل الله فيه ﴿ والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ فقالت : وأي عذاب أشد من العمى ، ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات فقال :

﴿ لولا ﴾ تحضيضية ، أي هلا ﴿ إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ تأكيداً للتوبيخ والتقريع ومبالغة في معاتبتهم وشروعاً في توبيخهم وتعييرهم وزجرهم بتسعة زواجر . الأول هذا ؛ والثاني ﴿ لولا جاءوا عليه ﴾ ، والثالث ﴿ ولولا فضل الله ﴾ . والرابع ﴿ إذ تلقونه ﴾ ، والخامس ﴿ ولولا إذ سمعتموه ﴾ ، والسادس ﴿ يعظكم الله ﴾ ، والسابع ﴿إن الذين يحبون ﴾ والثامن ﴿ ولولا فضل الله عليكم ﴾ والتاسع ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ـ إلى سميع عليم ـ ﴾ .

ومعنى الآية كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم ، فإن كان ذلك يبعد فيهم فهو في أم المؤمنين أبعد .

وقيل كان ينبغي لكم بمجرد سماعه أن تحسنوا الظن في أم المؤمنين ، فضلاً عن أن تتمادوا في سماعه ؛ فضلاً أن تصرّوا عليه بعد السماع .

قال الحسن : معنى بأنفسهم بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة في اشتراك الكل في الإيمان، ألا ترى إلى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ؟ ﴾ .

قال الزجاج : وكذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضاً أنهم يقتلون أنفسهم . قال المبرد : ومثله قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ قال النحاس : معنى ﴿ بأنفسهم ﴾ بإخوانهم . وقيل بأبناء جنسهم ، فأوجب الله سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر ولم يقل ظننتم بأنفسكم خيراً ، وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن ، وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما يسمعه بإخوانه ، وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع .

قال العلماء : في الآية دليل على أن درجة الايمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وإن شاع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن بعض الأنصار أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا : ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى وذلك الكذب، أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة خير منك وأطيب ، إنما هذا كذب وإفك باطل ، فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك ، ثم قال :﴿لولا إذ سمعتموه ﴾ الآية ، أي كما قال أبو أيوب وصاحبته .

وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة : يجلد ثمانين قال القرطبي : وأجمع العلماء على أن الحر لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما .

وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « أن من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن تكون كما قال »(١) وشرائط الإحصان خمسة : الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا ؛ والمحصن كالمحصنة في وجوب حد القذف؛ وبسط الكلام في هذا في كتب الفروع . ثم ذكر سبحانه شرطاً لإقامة الحد على من قذف المحصنات فقال :

﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ يشهدون عليهن بوقوع الزنا منهن برؤيتهم . ولفظ ﴿ ثم ﴾ يدل على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف . وبه قال الجمهور . وخالف في ذلك مالك . وظاهر الآية أنه يجوز أن تكون الشهود مجتمعين ومفترقين ، وخالف في ذلك الحسن ومالك ، وإذا لم يكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحدون حد القذف .

وقال الحسن والشعبي : إنه لا حد على الشهود ولا على المشهود عليه . وبه قال أحمد وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن ، ويرد ذلك ما وقع في خلافة عمر رضي الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا ، ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة . وقد اختلف في إعراب ﴿ شهداء ﴾ على أقوال ، ثم بين الله سبحانه ما يجب على القاذف فقال :

﴿ فاجلدوهم ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ ثمانين جلدة ﴾ الجلد الضرب كما تقدم والمجالدة المضاربة في الجلود أو بالجلود ، ثم استعير للضرب بالعصا والسيف وغيرهما ، وقد تقدم بيان الجلد قريباً .

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة ﴾ أي فاجمعوا لهم بين الأمرين ، الجلد وترك

(١) مسلم ١٦٦٠ ـ البخاري ٢٥٢٠ .

قبول الشهادة في شيء لأنهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية . ومعنى ﴿ أبداً ﴾ ما داموا في الحياة ، ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم وإصرارهم عليه وعدم رجوعهم الى التوبة فقال :

﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾ لإتيانهم كبيرة ، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، والفسق هو الخروج عن الطاعة ومجاوزة لحد المعصية ، وفيه دليل على أن القذف من الكبائر لأن اسم الفسق لا يقع إلا على صاحب كبيرة ، ثم بين الله سبحانه أن هذا التأبيد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال :

﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك ﴾ أي من بعد اقترافهم لذنب القذف ﴿ وأصلحوا ﴾ أعمالهم التي من جملتها ذنب القذف ومداركة ذلك بالتوبة والانقياد للحد ﴿فإنّ الله غفور رحيم ﴾ يغفر ذنوبهم ويرحمهم ، وقد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله ؟ وهي عدم قبول الشهادة ، والحكم عليهم بالفسق،أم إلى الجملة الأخيرة وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود الى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمصرّ وبعد اجماعهم أيضاً على أن الاستثناء يرجع الى جملة الحكم بالفسق فمحل الخلاف هل يرجع الى جملة عدم قبول الشهادة أم لا؟ فقال الجمهور: إن هذا الاستثناء يرجع الى الجملتين ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته وزال عنه الفسق لأن سبب ردها هو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القذف فإذا زال بالتوبة بالاجماع كانت الشهادة مقبولة .

وقال القاضي شريح وابراهيم النخعي والحسن البصري وسعيد بن جبير ومكحول وابن زيد وسفيان الثوري وأبو حنيفة : إن هذا الاستثناء يعود الى جملة الحكم بالفسق لا الى جملة عدم قبول الشهادة فيرتفع بالتوبة عن القاذف

وصف الفسق ولا تقبل شهادته أصلاً .

وذهب الشافعي والضحاك الى التفصيل فقالا : لا تقبل شهادته وإن تاب . الا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان فحينئذ نقبل شهادته ، وقول الجمهور هو الحق لأن تخصيص التقييد بالجملة الآخرة ، دون ما قبلها مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب،وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيداً لها لا تنفي كونه قيداً لما قبلها،غاية الأمر أن تقييد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به ، ولهذا كان مجمعاً عليه وكونه أظهر لا ينافي كونه فيما قبلها ظاهر .

وقد أطال أهل الأصول الكلام في القيد الواقع بعد جمل ، بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفن ، والحق هو هذا،والاحتجاج بما وقع تارة من القيود فإن الايمان يقتضي عدم الوقوع في مثله ما دمتم أحياء ، وفيه تهييج عظيم وتقريع بالغ .

﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ في الأمر والنهي لتعملوا بذلك وتتأدبوا بآداب الله وتنزجروا عن الوقوع في محارمه ﴿ والله عليم ﴾ بما تبدونه وما تخفونه أو بأمر عائشة وصفوان ﴿ حكيم ﴾ في تدبيراته لخلقه أو في حكمه ببراءتها ثم هدد سبحانه القاذفين ومن أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين وذنوبهم فقال :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ
مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿إنّ الذين يحبون أنْ تشيع الفاحشة﴾ هي فاحشة الزنـا ، والقول السيىء ، أي يحبون أن تفشوا الفاحشة وتنتشر من قولهم شاع الشيء يشيع شيوعاً وشيعاً وشيعاناً إذا ظهر وانتشر ، والمراد بشيوعها شيوع خبرها . قال علي بن أبي طالب : قائل الفاحشة والذي شيع بها في الاثم سواء .

﴿ في الذين آمنوا ﴾ أي المحصنين العفيفين أو كل من اتصف بصفة الايمان ﴿ لهم عذاب أليم في الدنيا ﴾ بإقامة الحد عليهم ﴿ والآخرة ﴾ بعذاب النار ﴿ والله يعلم ﴾ جميع المعلومات ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ الا ما علمكم به وكشفه لكم . ومن جملة ما يعلمه الله عظم ذنب القذف وعقوبة فاعله .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾ لعاجلكم بالعقوبة ومن رأفته لعباده ان لا يعاجلهم بذنوبهم ، ومن رحمته لهم أن يتقدم اليهم بمثل هذا الاعذار والانذار وهو تكرير لما تقدم تذكيراً للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعاجلة لهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ جمع خطوة وهي ما بين القدمين والخَطوة بالفتح المصدر أي لا تتبعُوا مسالك الشيطان ومذاهبه وآثاره ولا تسلكوا طرائفه التي يدعوكم اليها ، قرأ الجمهور : خطوات بفتح الخاء والطاء وقرىء بضم الخاء والطاء وبإسكان الطاء وهما سبعينان .

﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره فقد غوى وقيل جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له أعني قوله : ﴿ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ أي فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنّ دأبه أن يستمر آمراً لغيره بهما أو صار فيه خاصية الشيطان وهي الأمر بهما،والفحشاء ما أفرط قبحه ، والمنكر ما ينكره الشرع،وضمير إنه للشيطان ، وقيل للشأن والأولى أن يكون عائداً الى ﴿ من ﴾ لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً بـه في الأمر بالفحشاء والمنكر والآية عامة في حق كل واحد ، لأن كل مكلف ممنوع من ذلك .

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ قد تقدم بيانه،وجواب لولا هو قوله : ﴿ ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾ أي لولا التفضل والرحمة من الله ما طهر أحد منكم نفسه من دنسها ما دام حياً قرىء زكى مخففاً ومشدداً أي ما طهره الله،وقال مقاتل : ما صلح ، والأولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير وهو الذي ذكره ابن قتيبة ، وعن ابن عباس قال : ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير ، والآية على العموم وقيل خاصة بالذين خاضوا في الإفك وأنهم طهروا وتابوا غير عبد الله فإنه استمر على الشقاوة حتى هلك ، والأول أولى .

﴿ولكنّ الله يزكي من يشاء ﴾ من عباده بالتفضل عليهم والرحمة لهم ﴿ والله سميع ﴾ لما يقولونه ﴿ عليم ﴾ بجميع المعلومات ، وفيه حث بالغ على الإخلاص،وتهييج عظيم لعباده التائبين،ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحب أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين ولا يزجر نفسه بزواجر الله سبحانه .

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ﴾ لا ناهيـة والفعل مجزوم بحذف الياء لأنه معتل بها أي لا يحلف ووزنه يفتعل من الألِيّة كهدية، يقال أليّة وألايا مثل هدية وهدايا،وهي اليمين يقال ائتلى يـأتلي بوزن انتهى ينتهي اذا حلف، ومنه قوله سبحانه : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ وقالت فرقة : هو من ألوت في كذا إذا قصرت ومنه لم آل جهداً أي لم أقصر وكذا منه قوله تعالى : ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ والأول أولى بدليل سبب النزول، قـال ابن عباس : لا تقسموا أن لا تنفعوا أحداً .

أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : كان مسطح بن أثاثة ممن تولى كبره من أهل الإفك، وكان قريباً لأبي بكر،وكان في عياله فحلف أبو بكر ان لا ينيله خيراً أبداً فأنزل الله هذه الآية ، قالت فأعاده أبو بكر الى عياله وقال : لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها الا تحللتها واتيت الذي هو خير ، وقد روي هذا من طرق عن جماعة من التابعين .

وعن ابن عباس في الآية قال : كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلموا فيها ، فأقسم ناس من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يَصِلُوه فقال : لا يقسم أولوا الفضل منكم والسعة أن لا يصلوا أرحامهم،

وأن لا يعطوهم من أموالهم ، كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك ، فأمر الله أن يغفر لهم ويعفي عنهم.

﴿ أن يؤتوا ﴾ قال الزجاج أي على أن لا يؤتوا فحذف ﴿ لا ﴾ وقال أبو عبيدة: لا حاجة الى إضمار لا ، والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للاحسان من ﴿أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ﴾ الجامعين لتلك الأوصاف ، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى : لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لذنب اقترفوه ، وقرى بتاء الخطاب على الالتفات . ثم علمهم سبحانه أدباً آخر فقال :

﴿ وليعفوا ﴾ عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم ، وجناتهم التي اقترفوها ، من عفا الربع أي درس،والمراد محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع ﴿ وليصفحوا ﴾ بإغضاء عن الجاني والإغماض عن جنايته ، والإعراض عن لومه ، فإن العفو أن يتجاوز عن الجاني ، والصفح أن يتناسى جرمه . وقيل : العفو بالفعل والصفح بالقلب ، وقرىء في الفعلين جميعاً بالفوقية ثم ذكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح فقال :

﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للاساءة عليكم ، قال أبو بكر : بلى أنا أحب أن يغفر الله لي ، ورجع إلى مسطح ما كان ينفقه عليه ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم ، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين إليهم ؟ .

﴿ إن الذين يرمون ﴾ بالزنا ﴿ المحصنات ﴾ العفائف قد مر تفسيرها ، وذكرنا أن الإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حد القذف ﴿ الغافلات ﴾ أي اللاتي غفلن عن الفاحشة بحيث لا

تخطر ببالهن ولا يفطن لها ، وفي ذلك من الدلائل على كمال النزاهة ، وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات ، وقيل : هنّ السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر ، لأنهن لم يجربن الأمور ، ولم يرزن الأحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات ، وكذلك البله من الرجال الذين غلبت عليهم سلامة الصدور ، وحسن الظن بالناس، لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها ، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا نفوسهم بها .

﴿ المؤمنات ﴾ بالله ورسوله ، وقد اختلف في هذه الآية هل هي خاصة أو عامة ، فقال سعيد بن جبير : هي خاصة فيمن رمى عائشة ، وقال مقاتل : هي خاصة بعبد الله بن أُبي ، رأس المنافقين وقال الضحاك ، والكلبي : هي في عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ دون سائر المؤمنين والمؤمنات ، فمن قذف إحدى أمهات المؤمنين فهو من أهل هذه الآية . قال الضحاك : ومن أحكام هذه الآية ، أنه لا توبة لمن رمى إحدى أزواجه ﷺ ، ومن قذف غيرهن فقد جعل الله له التوبة ، كما تقدم في قوله ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ ، وقيل إن هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف ، ولم يتب ، وقيل إنها خاصة بمشركي مكة ، لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة إنما خرجت لتفجر .

وقيل إنها تعمّ كل قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين ، واختاره النحاس وهو الموافق لما قرره أهل الأصول ، من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . قال أهل العلم : إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة في قوله : ﴿ لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ الإبعاد عن الثناء الحسن على ألسنة أهل الإيمان ، وضرب الحد ، وهجر سائر المؤمنين لهم ، وزوالهم عن رتبة العدالة ، واستيحاش أهل الإيمان منهم ، وإن كان المراد بها من قذف عائشة خاصة . كانت هذه الأمور في جانب عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، وإن كانت في مشركي مكة ، فإنهم ملعونون في الدنيا والآخرة .

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ على ذنب عظيم، وجملة ﴿يـوم تشهد عليهم ألسنتهم﴾ مقررة لما قبلها، مبينة لحلول وقت ذلك العذاب بهم، وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب، الذي لا يحيط به وصف، قريء تشهد بالفوقية، وبالتحتية، وهما سبعيتان، والمعنى تشهد ألسنة بعضهم على بعض في ذلك اليوم، وقيل تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم بما تكلموا به.

﴿وأيديهم وأرجلهم، بما كانوا يعملون﴾ أي: بما عملوا في الدنيا من قول أو فعل، وأن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم، والمشهود به محذوف. وهو ذنوبهم التي اقترفوها ، أي تشهد هـذه عليهم بذنـوبهم التي اقترفـوها ومعاصيهم التي عملوها .

أخرج الطبراني ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقال احلفوا فيحلفون . ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، ثم يدخلهم النار » ، وقد روى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة.

﴿يـومئذ يـوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي يوم تشهـد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفراً . فالمراد بالدين هنا الجزاء بالحق الثابت الذي لا شك في ثبوته ، قريء يوفيهم من أوفى مخففاً ، ومن وفّى مشدداً ، وقريء الحقُّ بالرفع على أنه نعت لله ، وروي ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وبالنصب على أنه نعت لدينهم ، قال أبوعبيدة : ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ، ليكون نعتاً لله عز وجل ، وليكون موافقاً

لقراءة أُبي ، وذلك أن جرير بن حازم قال : رأيت في مصحف أبيّ: يوفيهم الله الحق دينهم ، قال النحاس : وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي ، لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم ، ولا حجة أيضاً فيه ، لأنه لو صح أنه في مصحف أبيّ كذلك ، لجاز أن يكون دينهم بدلاً من الحق وعن ابن عباس قال : دينهم أي حسابهم ، وكل شيء في القرآن الدين فهو الحساب وأخرج الطبراني وغيره عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قرأ يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم .

﴿ ويعلمون أنّ الله هو الحق المبين ﴾ أي يعلمون عند معاينتهم لذلك ، ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز، أن الله هو الحق الثابت في ذاته وصفاته، وأفعاله ﴿ المبين ﴾ المظهر للأشياء كما هي في أنفسها، وإنما سمي سبحانه الحق لأن عبادته هي الحق دون عبادة غيره؛ وقد سمي بالحق أي الموجود لأن نقيضه الباطل، وهو المعدوم، وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها ، وعدم قدرة ما سواه على الثواب والعقاب ، ليس له كثير مناسبة للمقام ، ولم يغلظ الله سبحانه وتعالى ؛ في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة . فأوجز في ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر ؛ وما ذلك إلا ما روي عن ابن عباس من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة ، وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الإفك .

ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بشاهد من أهلها ، وموسى بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم بإنطاق ولدها ، وعائشة بهذه الآي العظام في كتابه المعجز ؛ المتلو على وجه الدهر ، بهذه المبالغات ؛ فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك حيث لم يرض لها ببراءة صبي ولا نبي . حتى برأها بكلامه من القذف والبهتان ؛ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسوله .والتنبيه على أنافة محله صلى الله عليه وآله وأصحابه أجمعين .

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ
لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ
يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾
لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ
ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الإفك بكلمة جامعة فقال: ﴿ الخبيثات ﴾ من النساء ﴿ للخبيثين ﴾ من الرجال أي مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم إلى غيرهم،كلام مستأنف مؤسس على قاعدة السنة الإلهية الجارية فيما بين الخلق . على موجب أن الله تعالى ملكاً يسوق الأهل إلى أهلها ﴿ و ﴾ كذا ﴿ الخبيثون للخبيثات ﴾ أي مختصون بهن لا يتجاوزنهن لأن المجانسة من دواعي الانضمام .

﴿ و ﴾ هكذا ﴿ الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات ، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات ، وعن ابن عباس مثله ، وزاد نزلت في الذين قالوا في زوجة النبي ﷺ ما قالوا من البهتان ، وعن قتادة نحوه ، وكذا روي عن جماعة من التابعين قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل . قال الزجاج : ومعناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ، ولا يتكلم بالطيبات إلا

الطيب من الرجال والنساء ، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبث ، ومدح للذين برءوها .

وقيل : إن هذه الآية مبنية على قوله : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ فالخبيثات الزواني ، والطيبات العفائف ، وكذا الخبيثون والطيبون ، وعن ابن زيد قال : نزلت في عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان ، والفرية فبرأها الله من ذلك ، وكان ابن أبيّ هو الخبيث ؛ وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ، ويكون هو لها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طيباً فكان أولى أن تكون له الطيبة ، وكانت عائشة الطيبة ، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب .

﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ الإشارة إلى الطيبين والطيبات ، أي هم مبرءون مما يقوله الخبيثون والخبيثات ، وقيل الإشارة إلى أزواج النبي ﷺ وقيل : إلى رسول الله ﷺ ، وعائشة وصفوان بن المعطل ، وقيل إلى عائشة وصفوان فقط ، قال الفراء : وجمع كما قال : فإن كان له إخوة ، والمراد أخوان ، قال ابن زيد : ههنا برئت عائشة .

﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب ﴿ ورزق كريم ﴾ هو رزق الجنة ، روي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء لم تعطها امرأة غيرها،منها أن جبريل أتى بصورتها في خرقة حرير ، وقال هذه زوجتك ، ومنها أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها ، وقبض رسول الله ﷺ في حجرها وفي يومها . ودفن في بيتها ، وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف ، ونزلت براءتها من السماء ، وأنها ابنة الصديق وخليفة رسول الله ﷺ ، وخلقت طيبة ، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة ابنة الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، المبرأة من السماء؛ وقال حسان معتذراً في حقها :

حصان ، رزان ، ما تـزن بريبـة وتصبح غرثى من لحوم الغوافـل
حليلة خير الناس ، دينـاً ومنصباً نبي الهدى ، والمكرمات الفواضل
عقيلة حي مـن لؤي بـن غـالب كـرام المساعي مجـدها غـير زائل
مهـذبـة ، قـد طيب الله خيمهـا وطهـرها من كـل شـين وبـاطـل

ولما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء فربما يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين، وأيضاً فإن الإنسان يكون في بيته ومكان خلوته على حالة قد لا يحب أن يراه عليها غيره، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير فقال:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيـوتكم ﴾ أي التي لستم تملكونها ولا تسكنونها ، وليس لكم عليها يد شرعية أما المكتري . والمستعير ، فكل منهما يدخل بيته ، والمعنى لا تدخلوها إلى غايـة هي قولـه : ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ الاستئناس : الاستعلام ، والاستخبار أي حتى تستعلموا من في البيت والمعنى حتى تعلموا أن صاحب البيت قد علم بكم ، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم فإذا علمتم ذلك دخلتم ، ومنه قوله ﴿ فإن آنستم منها رشداً ﴾ أي علمتم . قال الخليل : الاستئناس الاستكشاف من أنس الشيء إذا أبصره كقوله ﴿ إني آنست ناراً ﴾ أي أبصرت .

وقال ابن جرير : إنه بمعنى تؤنسوا أنفسكم ، قال ابن عطية وتصريف الفعل يأبى أن يكون من أنس ومعنى كلام ابن جرير هذا أنه من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش حتى يؤذن له فإذا أذن له استأنس . فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل وقيل : هو من الأنس وهو أن يتعرف هل ثَمَّ إنسان أم لا ؟ قال الواحدي : قال جماعة المفسرين : حتى تستأذنوا

ويؤيده ما حكاه القرطبي عن ابن عباس وأُبي وسعيد بن جبير أنهم قرءوا حتى تستأذنوا ، قال ما لك فيما حكاه عنه ابن وهب : الاستئناس فيما نرى والله أعلم - الاستئذان ؛ وعن ابن عباس قال : أخطأ الكاتب : حتى تستأذنوا .

﴿ وتسلموا على أهلها ﴾ وفي مصحف عبد الله حتى تسلموا على أهلها ، وتستأذنوا ؛ وعن عكرمة نحوه : أخرج ابن أبي شيبة ؛ والطبراني وغيرهما عن أبي أيوب قال : قلت يا رسول الله أرأيت قول الله حتى تستأنسوا او تسلموا على أهلها ، هذا التسليم قد عرفناه فما الاستئناس . قال : «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ؛ ويتنحنح ؛ فيؤذن أهل البيت» قال ابن كثير : هذا حديث غريب[١] .

وأخرج الطبراني عن أبي أيوب أن النبي ﷺ قال : «الاستئناس أن تدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت ، الذين تسلم عليهم » وفي الصحيحين وغيرهما من حديث سهل بن سعد قال : اطلع رجل من جحر في حجرة النبي ﷺ ومعه مدرى يحك بها رأسه قال : لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها في عينيك ، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر»[٢] وفي لفظ : إنما جعل الإذن من أجل البصر ،وعن أنس قال : قال رجل من المهاجرين : لقد طلبت عمري كله في هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذِنَ على بعض إخواني فيقول : إرجع فأرجع وأنا مغتبط لقوله ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ .

وعن ابن عباس قال : نسخ واستثنى من ذلك. فقال ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ أخرج أحمد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي من طريق كلدة أن صفوان بن

---

(١) ابن كثير ٣/٢٨٠ .

(٢) مسلم ٢١٥٦ - البخاري ٢٣٠٠ .

أمية بعثه في الفتح بِلِبَأ[١] وضَغابيس[٢]. والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال: فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: «أرجع فقل: السلام عليكم أأدخل؟ قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب؛ وأبو داود والبيهقي في السنن من طريق ربعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه أخرج إلى هذا فعلمه الإستئذان. فقل له: قل السلام عليكم أأدخل؟.

وأخرج ابن جرير عن عمر بن سعيد الثقفي نحوه مرفوعاً. ولكنه قال أن النبي ﷺ قال لأمة له يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلميه» واختلفوا هل يقدم الاستئذان على السلام؟ أو العكس؟ فقيل: يقدم الاستئذان فيقول أأدخل سلام عليكم؟ لتقديم الاستئناس في الآية على السلام. وقال الأكثرون: إنه يقدم السلام على الاستئذان فيقول: السلام عليكم أأدخل؟ وهو الحق لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا: وقيل: إن وقع بصره على إنسان قدّم السلام: وإلا قدم الاستئذان.

﴿ ذلكم ﴾ أي الاستئناس والتسليم أي دخولكم مع الاستئذان والسلام ﴿ خير لكم ﴾ من التهجم بغير إذن ومن الدخول بغتة ﴿ لعلكم تذكّرون﴾ أنّ الاستئذان خير لكم، وهذه الجملة متعلقة بمقدر أي: أمرتم بالاستئذان والمراد بالتذكر الاتعاظ، والعمل بما امروا به.

﴿ فإن لم تجدوا فيها ﴾ أي في البيوت التي لغيركم ﴿ أحداً ﴾ ممن يستأذن عليه، ويصلح للإذن، أو كان ولكنه لم يأذن أو لم يكن فيها أحد اصلاً ﴿ فلا

---

(١) اَللِّبَأ: هو أول ما يُحلَب عند الولادة، ولَبَأتِ الشاة ولدَها أرضعته اللِّبَأ (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/٢٢١، تحقيق محمود محمد الطناحي، طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة).

(٢) الضغابيس: صغار القِثّاء، واحدها ضُغبوس، وقيل هي نبتٌ ينبت في أصول الثُمام، يُشبه الهِليون، يُسلَق بالخل والزيت ويؤكل (النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/٨٩).

تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾ بدخولها من جهة من يملك الإذن فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط ، بل وعلى ما يخفيه الناس عادة مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور ، واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوه وعن مجاهد قال : المعنى فإن لم تجدوا فيها أحداً ، أي لم يكن فيها متاع . وضعفه ابن جرير . وهو حقيق بالضعف فإن المراد بالأحد المذكور أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها لامتاع الداخلين إليها .

﴿ وإن قيل لكم ﴾ أي : إن قال لكم أهل البيت : ﴿ أرجعوا فارجعوا ﴾ ولا تعاودوهم بالاستئذان مرة أخرى ولا تنتظروا بعد ذلك أن يؤذن لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع. ولا تقفوا على الباب ملازمين ، ثم بين سبحانه أن الرجوع أفضل من الإلحاح وتكرير الاستئذان ، والقعود على الباب ، والاصرار على الانتظار ، فقال :

﴿ هو ﴾ أي الرجوع ﴿ أزكى لكم ﴾ أي : أفضل واطهر من التدنس بالمشاحة على الدخول ومن اللج والعناد والوقوف على الأبواب ، لما في ذلك من سلامة الصدر ، والبعد من الريبة ، والفرار من الدناءة والرذالة، وإذا حضر أحد إلى الباب فلم يستأذن وقعد على الباب منتظراً جاز وكان ابن عباس يأتي دور الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن حتى يخرج إليه الرجل فيراه ويقول : يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو اخبرتني بمكانك ؟ فيقول هكذا أمرنا ان نطلب العلم ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ، ومنه الدخول بإذن وغير إذن .

﴿ ليس عليكم جُناح﴾ في الدخول بغير استئذان ﴿ أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴾ أي البيوت التي ليست بموضوعة لسكنى طائفة مخصوصة ، بل كانت موضوعة ليدخلها كل من له حاجة تقصد منها ، وقد اختلف الناس في المراد

بهذه البيوت فقال محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد هي الفنادق التي في الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل، يأوي اليها .

وقال ابن زيد، والشعبي : هي حوانيت القيساريات وبيوت التجار، وحوانيتهم في الأسواق والرُبَط، قال الشعبي : لأنهم جاءوا بيوعهم فجعلوها فيها، وقالوا للناس : هلم وقال عطاء : المراد بها الخرب التي يدخلها الناس للبول والغائط ففي هذا أيضاً متاع، وقيل هي بيوت مكة، روي ذلك عن محمد بن الحنفية أيضاً، وهو موافق لقول من قال : إن الناس شركاء فيها ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة .

﴿ فيها متاع لكم ﴾ المتاع : المنفعة عند أهل اللغة فيكون معنى الآية فيها منفعة لكم، كاستكنان من الحر، والبرد، وإيواء الرحال : والسلع، والشراء، والبيع، ومنه قوله : ومتعوهن . وقولهم : أمتع الله بك، وقد فسر الشعبي المتاع في كلامه المتقدم بالأعيان التي تباع، قال جابر ابن زيد : وليس المراد بالمتاع الجهاز، ولكن ما سواه من الحاجة . قال النحاس: وهو حسن موافق للغة .

﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ أي ما تظهرون، وما تخفون، وفيه وعيد لمن لم يتأدب بآداب الله في دخول بيوت الغير، ويدخل الخربات، والدور الخالية من أهل الريبة، ولما ذكر سبحانه حكم الاستئذان أتبعه بذكر حكم النظر على العموم فقال :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ فيندرج تحته غض البصر من المستأذن كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنما جعل الإذن من أجل البصر»[1]، وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم لكون قطع ذرائع الزنا التي

---

(١) مسلم ٢١٥٦ ـ البخاري ٢٣٠٠ .

منها النظر هم أحق بها من غيرهم ، وأولى بذلك ممن سواهم ، وقيل : إن في الآية دليلاً على أن الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : قل للمؤمنين غضوا يغضوا ، ومعنى غض البصر إطباق الجفن على العين بحيث يمنع الرؤية ، و ﴿ من ﴾ هي التبعيضية ، وإليه ذهب الأكثرون وعليه اقتصر القاضي كالكشاف ، وبينوه بأن المعنى غض البصر عما يحرم ، والاقتصار به على ما يحل .

وقيل وجه التبعيض أنه يعفى للناظر ، أول نظرة تقع من غير قصد ، وقال الأخفش : إنها زائدة ، وأنكر ذلك سيبويه . وقيل : إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء ، واعترض عليه بأنه لم يتقدم مبهم حتى يكون مفسراً بـ ﴿ من ﴾ وقيل إنها لابتداء الغاية ، قاله ابن عطية ، وعليه اقتصر أبو حيان في النهر ، وقيل : الغض : النقصان ، يقال . غض فلان من فلان ، أي : وضع منه . فالبصر إذاً لم يمكن من عمله فهو مغضوض منه ، ومنقوص ، فتكون ﴿ من ﴾ صلة للغض ، وليست لمعنى من تلك المعاني الأربعة ، وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير من يحل النظر إليه .

قال ابن عباس : يغضوا أبصارهم يعني . من شهواتهم ، مما يكره الله . وأخرج أبو داود ، والترمذي ،والبيهقي في سننه ، عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك وليست لك الأخرى»[1] .

وفي مسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، عن جرير البجلي قال . سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف[2] . وفي الصحيحين ؛ وغيرهما ؛ من حديث أبي سعيد قال . قال

(١) ابو داوود كتاب النكاح باب ٤٣ ـ الترمذي كتاب الأدب ٢٨ .
(٢) مسلم ٢١٥٩ ـ الترمذي كتاب الأدب باب ٢٨ .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إياكم والجلوس على الطرقات» ! قالوا : يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ! فقال : « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » . قالوا : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « غض البصر ؛ وكف الأذى ؛ ورد السلام ؛ والأمر بالمعروف ؛ والنهي عن المنكر »[1] .

﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ أي يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم ولا يحل لهم . وقيل المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها ، ولا مانع من إرادة المعنيين ، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج ، وقيل وجه المجيء بمن في الأبصار دون الفروج أنه موسع في النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى ، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن ؟ وكذا الإماء المستعرضات للبيع بخلاف حفظ الفرج ، فإنه مضيق فيه . فإنه لا يحل منه إلا ما استثنى .

وقيل الوجه أن غض البصر كلِّه كالمتعذر ، بخلاف حفظ الفرج ، فإنه ممكن على الاطلاق قال أبو العالية : كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا ما في هذا الموضع فإنه أراد به الإستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه .

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الغض والحفظ ﴿ أزكى ﴾ أي أطهر ﴿ لهم ﴾ من دنس الريبة ، وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ لا يخفى عليه شيء من صنعهم ، فيجازيهم عليه ، وفي ذلك وعيد لمن لم يغض بصره ويحفظ فرجه .

(١) مسلم ٢١٢١ ـ البخاري ١٢١٧ .

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ خص سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهن تحت خطاب المؤمنين تغليباً كما في سائر الخطابات القرآنية وظهر التضعيف في يغضضن، ولم يظهر في يغضوا لأن لام الفعل من الأول متحركة ، ومن الثاني ساكنة ، وهما في موضع جزم جواباً للأمر . وبدأ سبحانه بالغض في الموضعين قبل حفظ الفرج . لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج . والوسيلة مقدمة على المتوسل إليه .

وعن مقاتل قال : بلغنا . والله أعلم ، أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها لبني حارثة . فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهن . يعني الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا ! فأنزل الله في ذلك وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية .

وبالجملة أمر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار . فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ، ولا للمرأة أن تنظر إلى الرجل ، فإن علاقتها به كعلاقته بها وقصدها منه كقصده منها ، وقال مجاهد : إذا أقبلت المرأة جلس إبليس على رأسها فزينها لمن ينظر ، وإذا أدبرت جلس على عجيزتها فزينها لمن

ينظر ، وقد أشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة وعشرين ضميراً للإناث ما بين مرفوع ومجرور ولم يوجد لها نظير في القرآن في هذا الشأن .

﴿ و ﴾ كذلك ﴿ يحفظن فروجهن ﴾ أي يجب عليهن حفظ فروجهن على الوجه الذي تقدم في حفظ الرجال لفروجهم ، أخرج البخاري وأهل السنن وغيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » قلت : يا نبي الله إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « ان استطعت ان لا يراها أحد فلا يرينها قلت : إذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : فالله أحق أن يستحيا منه من الناس[1] .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين السماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطو ، والنفس تتمنى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »[2] .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ : «النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه» ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة[3] .

﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ أي ما يتزين به من الحلية وغيرها مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الأذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة إظهارها ولا يجوز للأجنبي النظر إليها ثم استثنى سبحانه من هذا النهي فقال :

---

(١) الترمذي كتاب الأدب باب ٢٢ ، ٣٩ ـ الإمام أحمد ٥/٤ .
(٢) مسلم ٢٦٥٧ ـ البخاري ٢٣٧٢ .
(٣) المستدرك كتاب الرقاق ٣١٤/٤ .

﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ أي ما جرت العادة والجبلة على ظهوره واختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابن مسعود وسعيد بن جبير : هو الثياب وزاد سعيد الوجه وقال عطاء والأوزاعي : الوجه والكفان وقال ابن عباس وقتادة والمسور بن مخرمة : هو الكحل والخاتم والسوار والخضاب في الكف إلى نصف الساق ونحو ذلك فإنه يجوز للمرأة أن تبديه وقال ابن عطية : إن المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة وتخفي كل شيء من زينتها ، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عن إبداء الزينة إلا ما ظهر منها كالجلباب والخمار ونحوهما مما في الكف والقدمين من الحلية ونحوها .

وإن كان المراد بالزينة مواضعها ، كان الاستثناء راجعاً الى ما يشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين ونحو ذلك وهكذا إذا كان النهي عن إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب فإنه يحمل الاستثناءعلى ما ذكرناه في الموضعين وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة وما تتزين به النساء فالأمر واضح والاستثناء يكون من الجميع .

قال القرطبي في تفسيره : الزينة على قسمين خلقية ومكتسبة فالخلقية وجهها فإنه أصل الزينة والمكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها كالثياب والحلي والكحل والخضاب ومنه قوله تعالى : ﴿ خذوا زينتكم ﴾ وعن ابن مسعود قال : الزينة السوار والدملج والخلخال والقرط والقلادة إلا ما ظهر منها قال: الثياب والجلباب وعنه قال : الزينة زينتان زينة ظاهرة وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج فأما الزينة الظاهرة فالثياب وأما الزينة الباطنة فالكحل والسوار والخاتم وفي لفظ فالظاهرة منها الثياب وما خفي الخلخالان والقرطان والسواران .

وعن ابن عباس في الآية قال : الكحل والخاتم والقرط والقلادة وعنه قال : هو خضاب الكف والخاتم وعن ابن عمر قال : الزينة الظاهرة الوجه

والكفان وقال ابن عباس : إلا ما ظهر منها اي وجهها وكفاها والخاتم وعنه قال : رقعة الوجه وباطن الكف وعن عائشة انها سئلت عن الزينة الظاهرة فقالت : القلب والفتخ وضمت طرف كمها .

وأخرج أبو داود والبيهقي وابن مردويه عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبيﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفه »[1] . وهذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة ولم يسمع منها وإنما رخص في هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لأن المرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن قال المحلى : فيجوز نظره أي نظر ما ظهر منها لأجنبي إن لم يخف فتنة في أحد وجهين ، والثاني يحرم لأنه مظنه الفتنة ورجح حسماً للباب انتهى أي باب النظر عن تفاصيل الأحوال كالخلوة بالأجنبية .

﴿ وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ﴾ الخُمُر جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها ومنه اختمرت المرأة وتخمرت والجيوب جمع جيب وهو موضع القطع من الدرع والقميص مأخوذ من الجوب وهو القطع وقيل المراد بالجيب هنا محله وهو العنق وإلا فهو في الأصل طوق القميص وعدي الضرب بـ ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى الالقاء والباء زائدة أو تبعيضية .

وقال المفسرون : إن نساء الجاهلية كن يسدلن خمرهن من خلفهن وكانت جيوبهن من قدام واسعة فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليستر بذلك ما كان يبدو منها، وفي لفظ الضرب مبالغة في الالقاء الذي هو الالصاق وقرىء خمرهن بتحريك الميم وبكسرها وكثير من متقدمي النحويين لا يجوزون الكسر قال الزجاج : يجوز أن تبدل من

---

(١) ابو داوود كتاب اللباس باب ٣١ .

الضمة كسرة وأما ما روي عن حمزة من الجمع بين الضم والكسرة فمحال لا يقدر الإنسان أن يتكلم به إلا على الإيماء .

وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدمنا ، وهو المعنى الحقيقي وقال مقاتل : إن معنى ﴿ على جيوبهن ﴾ على صدورهن ، فالمضاف محذوف ، أي على مواضع جيوبهن ، وقد أخرج البخاري في صحيحه وأبو داود ، والنسائي والبيهقي وغيرهم في سننهم ، عن عائشة قالت : رحم الله النساء المهاجرات الأولات ، لما انزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن به ، واخرج الحاكم وصححه ، وابن جرير وغيرهما عنها بلفظ أخذ النساء أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها .

﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ أي مواضع الزينة الباطنة ، وهي ما عدا الوجه الكفين ، كالصدر والساق والرأس ونحوها، قال الخطيب : أي الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ، ولا للأجانب وقال أبو السعود : كرر النهي لاستثناء بعض مواضع الرخصة باعتبار الناظر ، بعدما استثنى بعض موارد الضرورة باعتبار المنظور فقال :

﴿ إلا لبعولتهن ﴾ أي لا يدعن الجلباب والخمار إلا لأزواجهن ، والبعل هو الزوج والسيد في كلام العرب ، وقدم البعول لأنهم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم ، ومثله قول سبحانه ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فانهم غير ملومين ﴾ ثم لما استثنى الله سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوي المحارم فقال :

﴿ أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو اخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ﴾ فجوز للنساء أن يبدين الزينة الباطنة لهؤلاء لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وعدم خشية الفتنة من قبلهم ، لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وقد روي عن الحسن والحسين رضي الله

عنهما أنهما كانا لا ينظران الى أمهات المؤمنين ، ذهاباً منهما إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي قوله ﴿لا جناح عليهن في آبائهن﴾ ، والمراد بأبناء بعولتهن ذكور أولاد الأزواج ويدخل في قوله ﴿أو أبنائهن﴾ أولاد الأولاد وان سفلوا او أولاد بناتهن وإن سفلوا وكذا آباء البعولة وآباء الآباء ، وآباء الأمهات ، وإن علوا وكذلك أبناء البعولة وإن سفلوا وكذلك أبناء الاخوة والأخوات .

وذهب الجمهور إلى أن العم والخال كسائر المحارم في جواز النظر الى ما يجوز لهم وقال الشعبي وعكرمة : ليس العم والخال من المحارم قال الكرخي : وعدم ذكر الأعمام والأخوال لما أن الأحوط ان يتسترن منهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم والمعنى أن سائر القرابات تشترك مع الأب والابن في المحرمية إلا ابني العم والخال وهذا من الدلالات البليغة في وجوب الاحتياط عليهن في النسب،وليس في الآية ذكر الرضاع وهو كالنسب .

﴿ أو نسائهن ﴾ أي : المختصات بهن من جهة الاشتراك في الايمان ، الملابسات لهن بالخدمة أو الصحبة ، ويخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة وغيرهم ، فلا يحل لهن أن يبدين زينتهن لهن ، لأنهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال ، وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم ، قال ابن عباس : هن المسلمات لا تبديها ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر ، والقرط ، والوشاح وما يحرم أن يراه إلا محرم .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقي ، وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب أنه كتب الى أبي عبيدة : أما بعد فإنه بلغني أن نساء من نساء المؤمنين يدخلن الحمامات ، مع نساء أهل الشرك ،فإنه من قبلك عن ذلك، فإنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر الى عورتها إلا أهل ملتها .

﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ فيجوز لهم نظرهن ، إلا ما بين السرة والركبة ، فيحرم نظره لغير الأزواج ، قاله المحلي : وظاهر الآية يشمل العبيد

والاماء ، من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين ، أو كافرين . وبه قال جماعة من أهل العلم ، وإليه ذهبت عائشة ، وأم سلمة ، وابن عباس ، ومالك . وقال سعيد ابن المسيب : لا تغرنكم هذه الآية إنما عني بها الاماء ، ولم يعن بها العبيد ، وكان الشعبي يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته ، وهو قول عطاء ، ومجاهد ، والحسن ، وابن سيرين وروي عن ابن مسعود ، وبه قال أبو حنيفة ، وابن جريج وقال ابن عباس : لا بأس أن يرى العبد شعر سيدته .

وأخرج البيهقي ، وأبو داود ، وغيرهما ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى فاطمة رضي الله تعالى عنها بعبد قد وهب لها ، وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما تلقى ، قال : « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك ، وغلامك » وهو ظاهر القرآن.[1]

وأخرج عبد الرزاق ، وأحمد ، عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إذا كان لاحداكن مكاتب وكان له ما يؤدي ، فلتحتجب منه[2]» قال سليمان الجمل عن شيخه: فيجوز لهن أن يكشفن لهم ما عدا ما بين السرة والركبة ، ويجوز للعبيد ايضاً ان ينظروا له ، وأن يكشفوا لهن من أبدانهم ، ما عدا مابين السرة والركبة ، لكن بشرط العفة ، وعدم الشهوة من الجانبين .

﴿ او التابعين غير أولى الإربة من الرجال ﴾ أصل الإربة، والإرب ، والمأربة الحاجة ، والجمع مآرب ، أي : حوائج ، ومنه قوله سبحانه :﴿ ولي فيها مآرب أخرى﴾ قيل : المراد بغير أولى الاربة من الرجال الحمقاء الذين لا حاجة لهم في النساء ، وقيل . البله ، وقيل : العنين ، وقيل : الخصي ، وقيل : المخنث ، وقيل : الشيخ الكبير ، وقيل : هو المجبوب ، ولا وجه لهذا

(١) ابو داوود وكتاب اللباس باب ٣٢ .
(٢) ابو داوود كتاب العتق الباب ١ ـ احمد بن حنبل ٢٨٩/٦ ـ ٣٠٨ ـ ٣١١ .

التخصيص ، بل المجبوب الذي بقي أنثياه ، والخصي الذي بقي ذكره ، والعنين والمخنث ، وهو المتشبه بالنساء ، والشيخ الهرم كالفحل . كذا أطلق الأكثرون .

وقال في الشامل : لا يحل للخصي النظر الى أن يكبر ويهرم وتذهب شهوته ، وكذا المخنث ، وبه قال شيخه القاضي أبو الطيب ، وأطلق أبو مخلد البصري في الخصي ، والمخنث ، وجهين ، والمراد بالآية ظاهرها ، وهم من يتبع أهل البيت في فضول الطعام ، ولا حاجة له في النساء ، ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال ، فيدخل في هؤلاء من هو بهذه الصفة ، ويخرج من عداه . قال ابن عباس في الآية : هذا الذي لا تستحي منه النساء ، وعنه قال : هذا الرجل يتبع القوم وهو مغفل في عقله لا يكترث للنساء ، وعنه قال : كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول لا يغار عليه ، ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده ، وهو الأحمق الذي لا حاجة له في النساء ، وعنه قال : هو المخنث الذي لا يقوم زبّه.

وأخرج مسلم وأبو داود ، والنسائي ، والبيهقي ، وغيرهم ، عن عائشة قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخنث ، فكانوا يدعونه من غير أولى الأربة فدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ، وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة ، قال : إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت بثمان . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أرى هذا يعرف ما ههنا لا يدخلَنَّ عليكم » فحجبوه[1] .

﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ الطفل يطلق على المفرد ، والمثنى والمجموع . أو المراد به هنا الجنس ، الموضوع وضع الجمع ، بدلالة وصفه . بوصف الجمع ، وفي مصحف أبي : أو الأطفال . على الجمع قاله ابن قتيبة ، قيل : معناه لم يبلغوا حد الشهوة ، قاله الفراء ، والزجاج ، يقال : ظهرت على كذا إذا غلبته ، وقهرته ، والمعنى : لم يطلعوا

(١) مسلم ٢١٨١ ـ أبو داوود ـ كتاب اللباس باب ٣٣ .

على عـورات النسـاء ، ويكشفـوا عنهـا للجمـاع ، أو لم يبلغـوا حـد الشهـوة للجماع ، وقيل : لم يعرفوا العـورة من غيرهـا من الصغر ، وقيـل : لم يبلغوا، وأن القدرة على الوطء ، من : ظهر على فلان ، إذا قـوي عليه ، وقيـل : لم يحتلم .

قرأ الجمهور : عورات بسكون الـواو ، تخفيفاً لحـرف العلة ، وهي لغة جمهور العرب وعامتها وقرىء بفتحها ، وهي لغة هذيل بن مدركة ، والعورات جمـع عورة ، وهي مـا يريـد الانسان ستـره من بدنـه ، وغلب في السـوأتين . واختلف العلمـاء في وجوب ستـر ما عـدا الوجـه والكفين من الأطفال فقيـل لا يلزم ، لأنه لا تكليف عليه ، وهـو الصحيح ، وقيـل : يلزم ، لأنها قـد تشتهي المرأة ، وهكذا اختلف في عـورة الشيخ الكبيـر ، الذي قـد سقطت شهـوته ، والأولى بقاء الحرمة ، كما كانت ، فلا يحل النظر الى عورته ، ولا يحل له أن يكشفها ، وقد اختلف العلماء في حد العورة .

قـال القرطبي : أجمـع المسلون على أن السوأتين عـورة من الـرجـل ، والمرأة ، وأن المرأة كلهـا عورة إلا وجههـا ويديهـا ، على خلاف في ذلـك . وقال الأكثر : إن عورة الرجل من سرته الى ركبته . قال ابن عباس : الزينة التي تبـديها لهؤلاء قـرطها وقـلادتها ، وسـوارها ، فـأمـا خلخـالهـا ، ومعضـدهـا ، ونحرها ، وشعرها ! ، فإنها لا تبديها إلا لـزوجها ، ومجمـوع هذه المستثنيـات اثنا عشر نوعاً .

﴿ ولا يضربن بأرجلهن ، ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ أي : لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمـون أنها ذات خلخال ، فـإن ذلك ممـا يورث الـرجال ميـلاً إليهن ، ويوهم أن لهن ميلاً الى الرجال وهذا سد لباب المحرمات وتعليم للأحوط وإلا فصوت النساء ليس بعورة عند الشافعي ، فضلاً عن صوت خلخالهن وقـال الزجـاج : وسماع هذه الزينة اشد تحريكاً للشهوة من إبدائهـا قال ابن عبـاس في الآية : وهـو أن

تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال او تكون في رجلها خلاخل ، فتحركهن عند الرجال ، فنهى الله عن ذلك ، لأنه من عمل الشيطان . وسماع صوت الزينة كإظهارها ومنه سمي صوت الحلى وسواساً فنبه به على أن الذي لأجله نهى عنه به ما عليهن من الحلي وغيره .

وفي القرطبي من فعل ذلك منهن فرحاً بحليهن فهو مكروه ، ومن فعل ذلك منهن تبرجاً وتعرضاً للرجال فهو حرام مذموم وكذلك من ضرب بنعله الأرض من الرجال فعل ذلك عجباً حرم فإن العجب كبيرة ، وإن فعل ذلك تبرجاً لم يحرم انتهى .

ثم ارشد سبحانه عباده الى التوبة عن المعاصي فقال :

﴿ وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون ﴾ مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره وفيه الأمر بالتوبة ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها وأنها فرض من فرائض الدين . قيل العبد لا يخلو عن سهو ويقصر في أوامره ونواهيه ، وإن اجتهد فلذا وصاهم جميعاً بالتوبة ، وقد تقدم الكلام على التوبة في سورة النساء .

وقيل إن المراد بالتوبة هنا هي عما كانوا يعملونه في الجاهلية ، والأول أولى لما تقرر في السنة أن الاسلام يجبُّ ما قبله ، وقد ورد أحاديث في الأمر بالتوبة والاستكثار منها قيل وأحوج الناس الى التوبة من توهّم أنه ليس له حاجة إلى التوبة ، وظاهر الآية يدل على أن العصيان لا ينافي الايمان ثم ذكر ما يرغبهم في التوبة فقال ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي تفوزون بسعادة الدنيا والآخرة أو تنجون من ذلك لقبول التوبة منه وفي الآية تغليب الذكور على الاناث .

ولما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك الى ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة وسكون دواعي الزنا ، ويسهل بعده غض البصر عن جميع المحرمات . وحفظ الفرج عما لا يحل فقال :

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ الأيّم بالتشديد التي لا زوج لها ومن ليس له زوجة فيشمل الرجل والمرأة غير المتزوجين والجمع أيامى والأصل أيـايم قال ابو عمرو والكسائي : اتفق أهل اللغة على أن الأيم في الأصل هي المـرأة التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً قال أبو عبيدة : يقال رجل أيم وامرأة أيم وأكثـر ما يكـون في النساء وهـو كالمستعـار في الـرجـال والخـطاب في الآيـة لـلأوليـاء والسادة .

وقيل للأزواج والأول أرجح وفيه دليل على أن المرأة لا تنكح نفسها .

وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قـال : أيما امـرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ثلاثاً »(١) أخرجه ابو داود والترمذي وعندهمـا عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نكاح إلا بولي »(٢) وقد خالف في ذلك أبـو حنيفة فجـوز للمرأة تـزويج نفسهـا واختلف أهل العلم في هذا النكاح هل هو مباح ؟ أو مستحب ؟ أو واجب ؟ فذهب الى الأول الشافعي وغيره والى الثاني مالك وأبو حنيفة وإلى الثالث بعض أهل

---

(١) الترمذي كتاب النكاح باب ١٤ ـ ابن ماجة كتاب النكاح بـاب ١٥ .
(٢) الترمذي كتاب النكاح باب ١٤ ـ أبو داوود كتاب النكاح باب ١٩ .

العلم على تفصيل لهم في ذلك فقالوا : إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية وجب عليه ، وإلا فلا .

والظاهر ان القائلين بالاباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع الخشية وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح بعد ترغيبه في النكاح ومن رغب عن سنتي فليس مني ولكن مع القدرة عليه وعلى مؤنه ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحسن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أخرجه البخاري ومسلم(١) .

قال ابن عباس : أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم ووعدهم في ذلك الغنى كما سيأتي .وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال : أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى ، وعن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال : ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى في الباءة وقد وعد الله فيها ما وعد فقال ﴿إن يكونوا فقراء﴾ الآية وعن ابن مسعود نحوه .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « أنكحوا النساء يأتينكم بالمال » أخرجه البزار والدارقطني وأخرجه أبو داود في مراسيله عن عروة مرفوعاً . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله »(٢). وقد ورد في الترغيب في مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها والمراد بالأيامى ههنا الأحرار والحرائر وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله :

﴿ والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ وقرىء عبيدكم والصلاح هو

---

(١) مسلم ١٤٠٠ ـ البخاري ٩٦٧ .

(٢) الترمذي فضائل الجهاد باب ٢٠ ـ النسائي كتاب النكاح باب ٥ .

الايمان وقيل القيام بحقوق النكاح حتى يقوم العبد بما يلزم بها وتقوم الأمة بما يلزم للزوج،أو المراد بالصلاح أن لا تكون صغيرة لا تحتاج الى النكاح، وخص الصالحين بالذكر ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم،ولأن الصالحين منهم هم الذين مواليهم يشفقون عليهم وينزلونهم منزلة الأولاد في المودة، وكانوا مظنة التوصية والاهتمام بهم، ومن ليس بصالح فحاله على العكس من ذلك، وذكر سبحانه الصلاح في المماليك دون الأحرار لأن الغالب في الأحرار الصلاح بخلاف المماليك .

وفيه دليل على أن المملوك لا يزوج نفسه وإنما يزوجه ويتولى تزويجه مالكه وسيده،وقد ذهب الجمهور الى أنه يجوز للسيد أن يكره عبده وأمته على النكاح وقال مالك لا يجوز، ثم رجع سبحانه الى الكلام في الأحرار فقال :

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ أي لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة أو أحدهما مالاً فإنهم إن يكونوا فقراء يغنهم الله سبحانه ويتفضل عليهم بذلك، فإن في فضل الله غنية عن المال فإنه غاد ورائح ،قال الزجاج : حث الله على النكاح وأعلم أنه سبب لنفي الفقر ولا يلزم أن يكون هذا حاصلاً لكل فقير إذا تزوج فإن ذلك مقيد بالمشيئة،وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوجوا، وقيل المعنى أنه يغنيهم بغنى النفس أي القناعة،وقيل المعنى إن يكونوا فقراء إلى النكاح يغنهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا،والوجه الأول أولى ويدل عليه قوله سبحانه : ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك .

وقيل هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة،وقيل إنَّ الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق وهو قوله : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾ وجملة ﴿ والله واسع عليم ﴾ مقررة لما قبلها ومؤكدة والمراد أنه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده،عليم بمصالح خلقه،يغني من يشاء ويفقر من يشاء ثم

ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم إرشادا لهم إلى ما هو الأولى فقال :

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً ﴾ يقال استعف إذا طلب أن يكون عفيفاً أي ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد سبب نكاح وهو المال، وقيل النكاح هنا ما ينكح به المرأة من المهر والنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به واللباس إسم لما يلبس قال ابن عباس : ليتزوج من لا يجد فإن الله سيغنيه ،وقيد سبحانه هذا النهي بتلك الغاية وهي :

﴿ حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ أي يرزقهم رزقاً يستغنون به ويتمكنون بسببه من النكاح ،وفي هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى وهي ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله ﴾ بالمشيئة كما ذكرنا ،فانه لو كان وعداً - حتماً لا محالة في حصوله - لكان الغنى والزواج متلازمين ، وحينئذ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة فانه يستغني عند تزوجه لا محالة فيكون في تزوجه مع فقره تحصيل للغنى ،إلا أن يقال إن الأمر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادىء النكاح ،ولا ينافي ذلك وقوع الغنى له من بعد أن ينكح ،فانه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحاً إذا كان غير واجد لأسبابه، التي يتحصل بها وأعظمها المال .

وانظر كيف رتب هذه الأوامر فأمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر،ثم بالنكاح المحصن المغني عن الحرام،ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يقدر عليه،ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين من العبيد والاماء أرشد المالكين الى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار فقال :

﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت إيمانكم ﴾ من العبيد والإماء ، والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة ، يقال كاتب يكاتب كتاباً ، ومكاتبة ، كما يقال : قاتل يقاتل قتالاً ، ومقاتلة ، وقيل : الكتاب ههنا اسم عين للكتاب الذي يكتب فيه

الشيء ، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتاباً ، فيكون المعنى : الذين يطلبون كتاب المكاتبة ومعناها في الشرع أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجماً ، فإذا أداه فهو حر . عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال : كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى ، فسألته الكتابة فأبى ، فنزلت هذه الآية،

وظاهر قوله ﴿فكاتبوهم﴾أن العبد إذا طلب المكاتبة من سيده،وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده ، وهو ﴿ إن علمتم فيهم خيراً ﴾ الخير هو القدرة على أداء ما كوتب عليه ، وإن لم يكن له مال،وقيل هو المال فقط كما ذهب إليه مجاهد والحسن ، وعطاء ، والضحاك ، وطاووس ، ومقاتل وروي عن علي ، وابن عباس ، وعنه أيضاً أمانة ووفاء ، وعنه قال : إن علمت مكاتبك يقضيك، وعنه قال : حيلة ولا تلقوا مؤونتهم على المسلمين ، وذهب إلى الأول ابن عمر ، وابن زيد ، واختاره مالك ، والشافعي والفراء والزجاج .

قال الفراء : يقول إن رجوتم عندهم وفاء ، وتأدية للمال وقال الزجاج : لما قال : ﴿ فيهم ﴾ كان الأظهر الاكتساب والوفاء واداء الأمانة وقال النخعي : إن الخير الدين ، والأمانة ، وروي مثل هذا عن الحسن . وقال عبيدة السلماني : إقامة الصلاة قال الطحاوي : وأقول من قال إنه المال لا يصح عندنا ، لأن العبد مال لمولاه ، فكيف يكون له مال ، قال : والمعنى عندنا إن علمتم فيهم الدين والصدق .

قال أبو عمرو بن عبد البر : من لم يقل إن الخير هنا المال أنكر أن يقال إن علمتم فيهم مالاً ، وإنما يقال علمت فيه الخير والصلاح والأمانة ، ولا يقال علمت فيه المال،هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم ، في الخير المذكور في هذه الآية وإذا تقرر لك هذا فاعلم أنه قد ذهب إلى ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور في الآية من الوجوب عكرمة وعطاء ومسروق ، وعمرو

ابن دينار ، والضحاك ، وأهل الظاهر ، فقالوا : يجب على السيد أن يكاتب مملوكه إذا طلب منه ذلك ، وعلم فيه خيراً ، وقال الجمهور من أهل العلم ، لا يجب ذلك ، وتمسكوا بالإجماع على أنه لو سأل العبد سيده أن يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك ، ولم يجبر عليه ، فكذا الكتابة لأنها معاوضة .

ولا يخفاك أنه حجة واهية ، وشبهة داحضة ، والحق ما قاله الأولون وبه قال عمر وابن عباس واختاره ابن جرير عن أنس بن مالك قال : سألني سيرين المكاتبة فأبيت عليه ، فأتى عمر بن الخطاب فأقبل علي بالدرة وقال : كاتبه وتلا ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ فكاتبته قال ابن كثير إن إسناده صحيح .

وعن يحيى بن كثير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن علمتم فيهم حرفة ، ولا ترسلوهم كلاًّ على الناس » . أخرجه أبو داود في المراسيل ، والبيهقي في سننه . ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي ، وجوزها أبو حنيفة إلى نجم واحد ، وقيل : إن الأمر مطلق ، فيجوز حالاً ، ومؤجلاً ، ومنجماً ، وغير منجم . ثم أمر سبحانه الموالي بالإحسان إلى المكاتبين فقال :

﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ ففي هذه الآية الأمر للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة ، إما بأن يعطوهم شيئاً من المال أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه . وظاهر الاية عدم تقدير ذلك بمقدار ، وقيل : الثلث ، وقيل الربع ، وقيل : العشر . ولعل وجه تخصيص الموالي بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم ، وسياق الكلام معهم ، فإنهم هم المأمورون بالكتابة .

وقال الحسن والنخعي وبريدة: إن الخطاب بقوله : ﴿ واتوهم ﴾ لجميع الناس . وقال زيد بن أسلم : إن الخطاب للولاة بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وفي الرقاب ﴾ ، وللمكاتب

أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة . قال ابن عباس : أي : ضعوا عنهم من مكاتبتهم ، وعن نافع قال : كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : تطعمني من أوساخ الناس وعن ابن عباس في الآية قال : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب .

وعن علي ابن أبي طالب : أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه ، وهذا تعليم من الله ليس بفريضة ، ولكن فيه أجراً . وقال صاحب الجمل : إن الأمر للوجوب . وعن بريدة في الآية قال : حث الناس على أن يعطوه ، ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك ، نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا فقال :

﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ المراد بالفتيات هنا الإماء وإن كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في مواضع أخر ، والفتى : الشاب ، والفتاة : الشابة ، والبِغاء بالكسر والمد ، مصدر بغت المرأة تبغي بغاء ، إذا زنت ، وفجرت ، وهذا مختص بزنا النساء ، فلا يقال : للرجل إذا زنى : إنه بغي . قاله الأزهري . والجمع : البغايا ، والبغيّ القينة ، وإن كانت عفيفة ، لثبوت الفجور لها في الأصل ، قاله الجوهري ، ولا يراد به الشتم لأنه اسم جعل كاللقب . والأمة تباغي ، أي : تزاني ، وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله :

﴿ إن أردن تحصناً ﴾ لأن الإكراه لا يتصور ، ولا يكون إلا عند إرادتهن للتحصن ، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها مكرهة على الزنا ، والمراد بالتحصن هنا التعفف والتزوج ، وقيل : إن هذا القيد راجع إلى الأيامى . قال الزجاج ، والحسن بن الفضل : في الكلام تقديم ، وتأخير ، أي : وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن أردن تحصناً . وقيل : إن هذا الشرط ملغى ، وقيل : إن هذا الشرط باعتبار ما

عليه ، فإنهم كانوا يكرهونهن ، وهن يردن التعفف ، وليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا ، وقيل : إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن ، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن ، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه .

فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال ، ولا للحرام ، كما فيمن لا رغبة لها في النكاح ، والصغيرة ، فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن ، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن إلا أن يقال إن المراد بالتحصن هنا مجرد التعفف ، وإنه لا يصدق على من كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن ، وهو بعيد . فقد قال الحبر ابن عباس : إن المراد بالتحصن : التعفف ، والتزوج ، وتابعه على ذلك غيره .

أخرج مسلم ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وغيرهم ، عن جابر بن عبدالله قال : كان عبد الله بن أُبيّ يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئاً ، وكانت كارهة ، فأنزل الله هذه الآية . وذكر مسلم في صحيحه عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها . مسيكة ، وأخرى يقال لها : أميمة ، وكان يريدهما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله هذه الآية .

وأخرج البزار ، وغيره ، عن أنس نحو حديث جابر الأول ، وعن علي ابن أبي طالب قال : كان أهل الجاهلية يبغين[1] إماؤهم فنهوا عن ذلك في الإسلام ،وعن ابن عباس قال : كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن فنزلت الآية ،وقد ورد النهي منه صلى الله عليه وآله وسلم عن مهر البغي ، وكسب الحجام ، وحلوان الكاهن ، ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله :

---

(١) يبغين إماؤهم هو وجه صحيح في جمع الفعل قبل .

﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ وهو ما تكسبه الأمة بفرجها ، وهذا التعليل خارج مخرج الغالب ، والمعنى : أن هذا الغرض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب ، لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء ، لا لفائدة له أصلاً ، لا يصدر مثله عن العقلاء ، فلا يدل هذا التعليل على أنه يجوز له أن يكرهها ، إذا لم يكن مبتغياً بإكراهها عرض الحياة الدنيا، وقيل إن هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أن عادتهم كانت كذلك ، لا أنه مدار للنهي عن الإكراه لهن ، وهذا يلاقي المعنى الأول ، ولا يخالف .

﴿ ومن يكرههن ، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ هذا مقرر لما قبله ، ومؤكد له ، والمعنى أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرِهين لا إلى المكرهات ، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود وغيره ، فإن الله غفور رحيم لهن . قيل وفي هذا التفسير بعد ، لأن المكرهة على الزنا غير آثمة ، وأجيب بأنها وإن كانت مكرهة فربما لا تخلو في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ، إما بحكم الجبلة البشرية ، أو بكون الإكراه قاصراً عن حد الإلجاء المزيل للاختيار بالمرة ، وإما لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه والتشديد في تحذير المكرهين ، ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة ، لولا ان تداركتهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر في حقهن، فما حال من يكرههن في استحقاق العقاب، وقيل : إن المعنى غفور رحيم لهم ، إما مطلقاً أو بشرط التوبة ، ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث فقال :

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ
ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ
وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن
تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين ﴾ فالأولى أنه آيات بينات أي واضحات في أنفسهن تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة ، أو موضحات ومبينات فيدخل فيها الآيات المذكورة في هذه السورة دخولاً أولياً ، والصفة الثانية كونه مثلاً من الذين خلوا من قبل هؤلاء . أي خبراً عجيباً كائناً من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة ، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة .

فإن العجب من قصة عائشة هو كالعجب من قصة يوسف ومريم ، وما اتهما به ثم تبين بطلانه وبراءتهما سلام الله عليهما ، والصفة الثالثة كونه موعظة ينتفع بها المتقون خاصة ، فإن الله قد ختم على قلوب غيرهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ ، والاعتبار بقصص الذين خلوا ، وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات ، ثم أردف الله وصف القرآن بكونه سبحانه في غاية الكمال ونهاية الجمال، فقال :

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، قال البيضاوي : النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاً ، وتدرك بواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية

لها ، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى ، إلا بتقدير مضاف أي ذو نور السموات كقولك زيد عدل .

أو يكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله وظهور عدله وبسطة أحكامه ، كما يقال فلان نور البلد ، وقمر الزمن، وشمس العصر، قيل ومعنى النور في اللغة الضياء . وهو الذي يبين الأشياء ويُري الأبصار حقيقة ما تراه فيجوز إطلاق النور على الله على طريقة المدح . ولكونه أوجد الأشياء المنورة . وأوجد أنوارها . ويدل عليه قراءة زيد بن علي وأبي جعفر وعبد العزيز المكي : الله نَوَّرَ السموات والأرض على صيغة الفعل الماضي . وفاعله ضمير يرجع الى الله والسموات مفعوله فمعنى الله نورهما أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما وكمال تدبيره عز وجل لمن فيهما كما يقال الملك نور البلد، وهكذا قال الحسن ومجاهد والأزهري والضحاك والقرظي وابن عرفة، وابن جرير وغيرهم .

وقال هشام الجواليقي وطائفة من المجسمة : إنه سبحانه نور لا كالأنوار وجسم لا كالأجسام . وقال ابن عباس وأنس في الآية : الله هادي السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون، وقيل نور السماء بالملائكة ونَوَّرَ الأرض بالأنبياء، وقيل مزين السماء والأرض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ويقال زين الأرض بالنبات والأشجار، وقيل معناه أن الأنوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر.

إذا سار عبد الله من مرو ليلة   فقد سار عنها نورها وجمالها

وعن ابن عباس يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما، ﴿ مثل نوره ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ كمشكاة ﴾ أي صفة نوره الفائض عنه الظاهر على الأشياء كمشكاة، وهذه الجملة إيضاح لما قبلها وتفسير فلا محل لها، وثم مضاف محذوف أي كمثل مشكاة وهي الكوة في الحائط التي لا منفذ لها كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين وحكاه القرطبي عن جمهورهم .

قيل هي لغة حبشية ، وقيل عربية ورسمت بالواو كالصلاة والزكاة، وأصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشيء، وقيل هي عمود القنديل الذي يجعل فيه الفتيلة، وقيل هي الانبوبة وسط الفتيل، وقيل هي الحديدة أو الرصاصة التي يوضع فيها الزيت، وقيل هي العمود الذي يوضع على رأسه المصباح ، وقيل ما يعلق فيه القنديل من الحديدة وقال مجاهد : هي القنديل والأول أولى .

ووجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذي يكون من مصباح أو غيره، وعن ابن عباس قال في الآية : مثل نوره أي هداه في قلب المؤمن كمشكاة يقول موضع الفتيلة، وفي إسناده مقال وعن أبيّ بن كعب قال : هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان، والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره ﴾ وبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فصدر المؤمن المشكاة وعن ابن عباس : مثل نوره الذي أعطى المؤمن كمشكاة، وفي قراءة أبيّ مثل نور المؤمن وفي لفظ نور من آمن به كمشكاة، وعن ابن عباس أيضاً : مثل نور من آمن بالله كمشكاة وهي الكوة وعنه قال : هي خطأ من الكاتب هي أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة بل مثل نور المؤمن كالمشكاة وقيل المعنى مثل نور الله عز وجل في قلب المؤمن وهي النور الذي يهتدى به وقيل أراد بالنور القرآن، وقيل أراد محمداً ﷺ، وقيل هو الطاعة سمى الله طاعته نوراً، وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تشريفاً وتفضيلاً، وقيل مثل نوره أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن والدلائل تسمى نوراً قاله القرطبي .

واختلفوا في هذا التشبيه هل هو مركب ؟ أو غير مركب ؟ وقيل ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به بل وقع التشبيه فيه لجملة بجملة .

﴿ فيها مصباح ﴾ هو السراج الضخم ، وأصله من الضوء ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ واحدة الزجاج يعني القنديل قال الزجاج : النور في الزجاج وضوء النار أبينَ منه في كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ، ووجه ذلك أن الزجاج جسم شفاف . يظهر فيه النور أكمل ظهور ثم وصف الزجاجة فقال :

﴿ الزجاجة كأنها ﴾ والنور فيها ﴿ كوكب دري ﴾ منسوب إلى الدر لكون الصفاء والحسن والإشراق فيه ما يشابه الدر، وقال الضحاك : الكوكب الدري الزهرة ،وقرىء دریء بكسر الدال أخذوه من درات النجوم تدرأ إذا اندفعت، قاله أبو عمرو، وقرىء بضم الدال مهموزاً، وأنكره الفراء والزجاج والمبرد . وقال أبو عبيد : إن ضممت الدال وجب أن لا يهمز، لأنه ليس في كلام العرب . والدراري هي المشهورة من الكواكب، كالمشتري والزهرة والمريخ، وما يضاهيها من الثوابت .

وقال أُبيّ: دري أي مضيء من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام . ثم وصف المصباح بقوله : ﴿ يوقد ﴾ وقد قرىء بالتاء على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح . وقرىء بالتحتية وتخفيف القاف . وضم الدال . وقرىء توقد على أنه فعل ماض . من التفعل . والضمير في هاتين راجع إلى المصباح . قال النحاس : وهاتان متقاربتان لأنهما جميعاً للمصباح . وهو أشبه بهذا الوصف لأنه الذي ينير ويضيء وإنما الزجاجة وعاء له وقرىء على أنه فعل مضارع وأصله تتوقد .

﴿ من شجرة ﴾ أي ابتداء إيقاد المصباح منها، وقيل يوقد من زيت شجرة ﴿ مباركة ﴾ أي كثيرة المنافع والبركة، وقيل المنماة . قال أُبَيّ: أصل المبارك الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له ﴿ زيتونة ﴾ الزيتون من أعظم الثمار نماء . قيل ومن بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها . وهي إدام ودهان . ودباغ ووقود وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة . وهي أصفى الأدهان وأضوءها .

وقيل إنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان ونبتت في منازل الأنبياء . ودعا لها سبعون نبياً بالبركة ، منهم إبراهيم ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي شجرة[1] لا يسقط ورقها . وعن اسيد بن ثابت . أو أبي أسيد الأنصاري

(١) قد ورد في البخاري مرفوعاً عن ابن عمر صريحاً أن الشجرة التي لا يسقط ورقها هي النخلة . ولا يمنع هذا من مشاركة شجرة الزيتون لها في هذه الصفة .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كلوا الزيت ، وادهنوا به . فإنه من شجرة مباركة » أخرجه الترمذي[١] .

﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ صفة لشجرة ودخلت ﴿ لا ﴾ لتفيد النفي ، وقرىء بالرفع أي لا هي شرقية ولا هي غربية ، وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف فقال عكرمة ، وقتادة ، وغيرهما : إن الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا شرقت ، ولا تصيبها إذا غربت ، لأن لها ستراً ، والغربية هي التي تصيبها إذا غربت ، ولا تصيبها إذا شرقت ، وهذه الزيتونة هي في صحراء ، أو في منكشف من الأرض بحيث لا يسترها ، ولا يواريها عن الشمس شيء لا في حال شروقها ، ولا في حال غروبها ، وما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود ، وأنضج ، وزيتها أصفى .

وقيل : إن المعنى أنها شجرة في دوحة ، قد أحاطت بها ، فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس قال ابن عطية : وهذا لا يصح عنه ، لأن الشجرة التي بهذه الصفة يفسد جناها ، وذلك مشاهد في الوجود . ورجح القول الأول الفراء ، والزجاج . وقال الحسن : ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره ، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية .

قال الثعلبي : فقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا ، لأن قوله زيتونة بدل من قوله : شجرة . قال ابن زيد : إنها من شجر الشام . فإن الشام لا شرقي . ولا غربي . والشام هي الأرض المباركة ، وشجرها أفضل، وقيل : معناه أنها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس ، ولا في مضحاة لا يصيبها الظل ، فهي لا تضرها شمس ولا ظل، وقيل : معناها أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر ، ولا في غرب يضرها البرد . قال أُبي : فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر ، فهي خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أي حال

---

(١) الترمذي كتاب الأطعمة باب ٤٣ ـ الإمام أحمد ٤٩٧/٣ .

كانت ، لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، فكذلك هذا المؤمن، قد أجير من أن يظله شيء من الفتن ، ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال :

﴿ يكاد ﴾ أي : يقرب ﴿ زيتها يضيء ﴾ من صفائه ﴿ ولو لم تمسسه نار ﴾ قرىء بالفوقية لأن النار مؤنثة ، قال أبو عبيد : إنه لا يعرف إلا هذه القراءة ، وقرأ ابن عباس بالتحتية ، لكون تأنيثها غير حقيقي . والمعنى أن هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلاً .

﴿ نور ﴾ أي هو نور كائن ﴿ على نور ﴾ صفة لنور مؤكدة له ، وقيل نور الله أي هداه للمؤمنين نور على نور الإيمان . وقال مجاهد : والمراد النار على الزيت ، وقال الكلبي : المصباح نور ، والزجاجة نور ، وقيل نور بالزيت مع نور بالنار . وقال السدي : نور الإيمان ، ونور القرآن . وقيل نور متضاعف من غير تحديد ، لتضاعفه بحد معين ، وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر ، لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة .

وعن ابن عباس أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : كيف يخلص نور الله من السماء ، فضرب الله مثل ذلك لنوره ، فقال : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ ، وهي كوة البيت ، ﴿ فيها مصباح ﴾ ، وهو السراج، يكون في الزجاجة وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى طاعته نوراً ، ثم سماها أنواعاً شتى ، ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ . قال : وهي وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت ، ولا إذا غربت ، وذلك أجود الزيت يكاد زيتها يضيء بغير نار ﴿ نور على نور ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعمله، ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ ، وهو مثل المؤمن .

وعن ابن عمر قال : المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والزجاجة قلبه، والمصباح الذي في قلبه ، والشجرة إبراهيم ، لا شرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية ، ثم قرأ ﴿ ما كان ابراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ الآية . وعن شمر بن عطية قال : جاء

ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثني عن قول الله يعني هذه الآية قال : مثل نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم ككوة ضربها الله مثلاً لفمه ، فيها مصباح والمصباح قلبه ، والزجاجة صدره ، كأنها كوكب دري ، شبه صدر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكوكب الدري ، ثم رجع المصباح إلى قلبه ؛ فقال يوقد من شجرة إلى قوله يكاد قال : يكاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد الزيت أن يضيء ولو لم تمسسه نار .

قال ابن العربي : قال ابن عباس : هذا مثل نور الله ، وهداه ، في قلب المؤمن ، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسسه النار ، فإن مسته النار زاد ضوؤه ، كذلك قلب المؤمن ، يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ؛ فإذا جاء العلم زاد هدى على هدى ، ونوراً على نور ، كقلب إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة ، قال : هذا ربي من قبل أن يخبره أحد بأن له رباً ، فلما أخبره الله أنه ربه زاد هدى ، إذ قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين .

وأقول : إن تفسير النظم القرآني بهذا ، ونحوه ، مما تقدم عن أُبيّ ابن كعب ، وابن عباس ، وابن عمر رضي الله تعالى عنهم ليس على ما يقتضيه لغة العرب ، ولا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يجوز العدول عن المعنى العربي إلى هذه المعاني ، التي هي شبيهة بالألغاز والتعمية ، ولكن هؤلاء الصحابة ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة ، ولهذا قال ابن عباس : هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة . كما قدمنا عنه . ولا وجه لهذا الاستبعاد ، فإنا قد قدمنا في أول البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه ، وأبلغ أسلوب ، وعلى ما تقتضيه لغة العرب ، ويفيده كلام الفصحاء ، فلا وجه للعدول عن الظاهر ، لا من كتاب . ولا من سنة ، ولا من لغة .

وأما ما حكي عن كعب الأحبار في هذا كما قدمنا فإن كان هو سبب

عدول أولئك الصحابة الأجلّاء عن الظاهر في تفسير الآية ، فليس مثل كعب رحمه الله ، ممن يقتدي به في مثل ذلك ، وقد نبهناك ـ فيما سبق ـ أن تفسير الصحابي إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب ـ كما يقع ذلك كثيراً ـ فلا تقوم به الحجة ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربي ، نعم ، إن صحت قراءة أُبيّ بن كعب ، كانت هي المستندة لهذه التفاسير المخالفة للظاهر ، وتكون كالزيادة المبينة للمراد ، وإن لم تصح ، فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة ، وغيرهم ، ممن قبلهم ، وممن بعدهم هو المتعين .

﴿ يهدي الله لنوره ﴾ هداية خاصة ، موصلة إلى المطلوب ، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة قال ابن عباس : لنوره لدين الإسلام ، وهو نور البصيرة ﴿ من يشاء ﴾ من عباده لأن الأسباب دون مشيئته لاغية إذ بها تمامها ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ أي يبين الأشياء بأشباهها ونظائرها ، تقريباً لها إلى الأفهام ، وتسهيلاً لإدراكها ، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً .

﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يغيب عنه شيء من الأشياء معقولاً ، كان أو محسوساً ، ظاهراً كان ، أو باطناً . ومنه ضرب الأمثال .

﴿ في بيوت ﴾ أي : ذلك المصباح يوقد في بيوت ، وقيل : متعلق بما قبله ، أي كمشكاة في بعض بيوت الله ، وهي المساجد ، كأنه قيل : مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة من صفتها كيت وكيت ، وقيل : صفة لزجاجة . وقال ابن الأنباري : سمعت أبا العباس يقول : هو حال للمصباح ، والزجاجة ، والكوكب ، كأنه قيل : وهي في بيوت ، وعلى هذه الأقوال لا يوقف على ﴿ عليم ﴾ وقيل : متعلق بما بعده ، وهو يسبح الآتي ، أي : يسبح رجال في بيوت ، وعلى هذا يكون قولها فيها ؛ تكريراً للتوكيد ، والتذكير ، والإيذان بأن التقديم للاهتمام ، لا لقصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط .

وقيل : متعلق بمحذوف ، أي : سبِّحوه في بيوت ، وعلى هذين القولين يوقف على ﴿ عليم ﴾ فهذه ستة أوجه ذكرها السمين ، وغيره . وقيل : إنه منفصل عما قبله ، كأنه قال تعالى : الله في بيوت أذن الله أن ترفع . قال الحكيم الترمذي : وبذلك جاءت الأخبار أنه من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه ، وقد قيل على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح ، أو بيوقد ، ما الوجه في توحيد المصباح ، والمشكاة ، وجمع البيوت ، ولا تكون المشكاة الواحدة ، ولا المصباح الواحد إلا في بيت واحد . وأجيب بأن هذا من الخطاب ، الذي يفتح أوله بالتوحيد . ويختم بالجمع ، كقوله سبحانه : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ ونحوه .

وقيل معنى في بيوت في كل واحد من البيوت فكأنه قال : في كل بيت ، أو في كل واحد من البيوت ، واختلف الناس في البيوت على أقوال الأول أنها جميع المساجد ، وهو قول مجاهد ، والحسن وغيرهما . قال ابن عباس : بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض . الثاني أن المراد بها بيوت بيت المقدس ، روي ذلك عن الحسن،الثالث أنها بيوت النبي ﷺ روي هذا عن مجاهد،الرابع : هي البيوت كلها قاله عكرمة . الخامس . أنها المساجد الأربعة الكعبة ، ومسجد قبا ، ومسجد المدينة ، ومسجد بيت المقدس ، قاله ابن زيد والقول الأول أظهر لقوله : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ والباء من بيوت تضم وتكسر كل ذلك ثابت في اللغة، ومعنى:

﴿ أذن الله ﴾ أمر وقضى ومعنى ﴿ أن ترفع ﴾ تبنى قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما ومنه قوله سبحانه ، ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ . وقال الحسن البصري : وغيره معنى ترفع تعظم فلا يذكر فيها الخنا من القول ، ويرفع شأنها وتطهر من الأنجاس والأقذار ، ورجحه الزجاج ، وقيل المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ يذكر فيها اسمه ﴾ كل ذكر لله عز وجل ، وقيل هو التوحيد،وقيل المراد تلاوة القرآن، والأول أولى ، وفي القرطبي قد كره بعض

أصحابنا تعليم الصبيان في المساجد ، لأنهم لا يتحرزون عن الأقذار والأوساخ فيؤدي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد . وقد ورد في تعظيم المساجد وتنزيهها عن القذر واللغو وتنظيفها وتطييبها أحاديث ليس هذا موضوع ذكرها .

﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ﴾ قرىء يسبح مبنياً للفاعل وللمفعول،فعلى الثانية يكون رجال مرفوعاً بفعل مقدر كأنه قيل من يسبحه ؟ فقيل يسبحه رجال وعلى الأولى يكون رجال فاعل يسبح وقرىء تسبح بالفوقية وكسر الموحدة وعلى هذا يكون الفاعل أيضاً رجال ، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال .

واختلف في هذا التسبيح ما هو؟ فالأكثرون حملوه على الصلاة المفروضة قالوا : الغدوة صلاة الصبح ، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الآصال يشملها ، والمعنى يصلي له فيها بالغداة صلاة الصبح . وبالآصال صلاة الظهر والعصر ، والعشائين ، وإنما وحد الغدو ، لأن صلاته واحدة ، وفي الآصال صلوات ، والآصال جمع أصل جمع أصيل ، وهو العشي ، وقيل صلاة الصبح والعصر .

وقيل المراد صلاة الضحى ، قاله ابن عباس وعنه في الآية قال : هي المساجد تكرم ، وينهى عن اللغو فيها ، ويذكر فيها اسم الله ، يتلى فيها كتابه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، صلاة الغداة ، وصلاة العصر ، وهما أول ما فرض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما ويذكر بهما عباده ، وعنه قال : إن صلاة الضحى لفي القرآن ، وما يغوص عليها إلا غواص في هذه الآية،وقيل المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي ، وهو تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله ، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة ، بعده وهدا أرجح مما قبله ، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل ، يدل على خلاف ما ذهب إليه الأولون وهو ما ذكرناه ، قيل: خص الرجال بالذكر في هذه المساجد لأن النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا لجماعة .

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ
فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ
وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع ﴾ هذه صفة لرجال ، أي لا يشغلهم التجارة في السفر، والبيع في الحضر ، وخص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان ، وقال الفراء ، التجارة لأهل الجلب ، والبيع ما باعه الرجل على يديه ،وخص قوم التجارة ههنا بالشراء لذكر البيع بعدها ، وبمثل قول الفراء ، قال الواقدي فقال التجار هم الجلاب المسافرون ، والباعة هم المقيمون .

ومعنى ﴿ عن ذكر الله ﴾ هو ما تقدم في قوله : ﴿ يذكر فيها اسمه ﴾ ، أي باللسان والقلب ، وقيل المراد الأذان ، وقيل ذكره بأسمائه الحسنى ، أي يوحدونه ويمجدونه ، وقيل المراد الصلاة ، ويرده ذكر الصلاة بعد الذكر هنا .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في الآية قال : « هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله» وأخرج ابن مردويه والديلمي ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الذين يبتغون من فضل الله » .

وعن ابن عباس قال : كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما في أيديهم ، وقاموا إلى المسجد فصلوا ، وعنه في الآية قال : ضرب الله هذا المثل قوله : ﴿ كمشكاة ﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وكانوا أتجر الناس وأبيعهم ولكن لم تكن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعنه قال : عن ذكر الله عن شهود الصلاة ، وعن ابن عمر أنه كان في السوق ، فأقيمت الصلاة

فأغلقوا حوانيتهم ثم دخلوا المسجد فقال ابن عمر : فيهم نزلت ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

وعن ابن مسعود انه رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا أمتعتهم فقال : هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ وأخرج البيهقي ، وابن أبي حاتم وغيرهما ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادي أين الذين كانوا يحمدون الله في السرّاء والضرّاء فيقومون ـ وهم قليل ـ فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون ـ وهم قليل ـ فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يعود فينادي ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون ـ وهم قليل ـ فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون »[1] وأخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه عن عقبة بن عامر مرفوعاً نحوه .

﴿ وإقام الصلاة ﴾ أي إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وأدائها في وقتها جماعة لأن مؤخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة ، وحذفت التاء لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله :

ثـلاثـة تحـذف تـاآتهـا مضافة عنـد جميع النحـاة
وهي إذا شئت أبو عذرها وليت شعري وإقام الصلاة

وقيل الرابع عد الأمر ، أي عدة الأمر ، وقيل في توجيه حذفها غير ذلك وقد احتاج من حمل ذكر الله على الصلاة المفروضة أن يحمل إقام الصلاة على تأديتها في أوقاتها فراراً من التكرار ولا ملجىء إلى ذلك ؛ بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدمنا .

﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ المفروضة ؛ وقيل المراد طاعة الله والإخلاص إذ ليس لكل مؤمن مال ﴿ يخافون يوماً ﴾ أي يوم القيامة والنصب على أنه مفعول

(١) الحاكم ، كتاب التفسير ٢/٣٩٩ .

للفعل لا ظرف له يعني أن هؤلاء الرجال ـ وإن بالغوا في ذكر الله تعالى والطاعات ـ فإنهم مع ذلك وجلون خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته،ثم وصف هذا اليوم بقوله :

﴿ تتقلب فيه القلوب ﴾ أي تضطرب وتتحول من الهول والفزع . وقيل المراد انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها ولا تخرج ﴿ و ﴾ تشخص ﴿ الأبصار ﴾ من هول ذلك اليوم، وقيل المراد بتقلبها هو أن تصير عمياً بعد أن كانت مبصرة، وقيل المراد بتقلب القلوب أنها تكون متقلبة بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ؛ وأما تقلب الأبصار فهو نظرها من أي ناحية يؤخذون والى اي ناحية يصيرون، وقيل المراد تحول قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك إلى اليقين ومثله قوله : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ فما كان يراه في الدنيا غياً يراه في الآخرة رشداً ؛ وقيل المراد التقلب على جمر جهنم وقيل غير ذلك .

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة لا لام العلة الباعثة أي يفعلون ما يفعلون من التسبيح ، والذكر وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعدهم ، من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله وإلى سبعمائة ضعف، وقيل: المراد بما في هذه الآية ما يتفضل به سبحانه عليهم ، زيادة على ما يستحقونه ، والأول أولى لقوله :

﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ فإن المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به ، أي يتفضل بأشياء لم توعد لهم بخصوصياتها أو بمقاديرها ، ولم يخطر ببالهم كيفياتها ، ولا كمياتها ، بل إنما وعدت بطريق الإجمال في مثل قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، وقوله عليه السلام حكاية عنه عز وجل : « أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(١) غير ذلك من المواعيد الكريمة التي من جملتها قوله تعالى :

(١) مسلم ٢٨٢٤ ـ البخاري ١٥٣٤ .

﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فإنه تذييل مقرر للزيادة، ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجور أعمالهم ، من الخيرات بما لا يفي به الحساب والمعنى من غير أن يحاسبه على ما أعطاه ، أو إن إعطاءه سبحانه لا نهاية له . قال الكرخي : وضع الموصول موضع ضمير ﴿ هم ﴾ للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية وذلك تنبيه على كمال قدرته ، وكمال جوده ، وسعة إحسانه ، ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين ، وما يؤول إليه أمرهم ذكر مثلاً للكافرين فقال :

﴿ والذين كفروا أعمالهم ﴾ التي هي من أعمال الخير ، كالصدقة ، والعتق والوقف ، والصلاة ، وفك العاني ، وعمارة البيت ، وسقاية الحاج ﴿ كسراب ﴾ هو ما يرى في المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حر النهار ، على صورة الماء في ظن ما يراه ، وسمي سراباً لأنه يسرب ، أي : يجري كالماء ؛ يقال : سرب الفحل ، أي مضى ، وسار في الأرض ويسمى الآل وقيل الآل هو الذي يكون ضحى ، كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض . حتى يصير كأنه بين السماء والأرض ﴿ بقيعة ﴾ أي فيها فالباء بمعنى في ، وهو جمع قاع وهو الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء مثل جيرة وجار قاله الهروي .

وقال أبو عبيدة : قيعة وقاع واحد، حكاه النحاس قال الجوهري : القاع المستوى من الأرض والجمع أقوع وأقواع وقيعان صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها،والقيعة مثل القاع قال : وبعضهم يقول هو جمع والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت وفيه يكون السراب، وقرىء بقيعاه بهاء مدورة كما يقال رجل عزهاه،وقيعات بتاء مبسوطة وقيل الألف متولدة من إشباع العين على الأول وجمع قيعة على الثاني .

﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾ الظمآن العطشان ، وقرىء الظمآن بغير همز ، والمشهور عنهم الهمز ، وتخصيص الظمآن بالحسبان مع كون الريان يراه كذلك . لتحقيق التشبيه ، المبني على الطمع ، ولأنه أحوج إليه من غيره ، فالتشبيه به أتم .

﴿ حتى إذا جاءه ﴾ أي : إذا جاء العطشان ذلك الذي حسبه ماء ، أو جاء موضعه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ مما قدره ، وحسبه ، وظنه ، ولا من غيره . والمعنى أن الكفار يعولون على أعمالهم ، التي يظنونها من الخير ، ويطمعون في ثوابها ، فإذا قدموا على الله سبحانه ، لم يجدوا منها شيئاً ، لأن الكفر أحبطها ، ومحا أثرها .

عن ابن عباس قال : هو مثل ضربه الله ، كرجل عطش ، فاشتد عطشه ، فرأى سراباً ، فحسبه ماء ، فطلبه ، فظن أنه قدر عليه ، حتى أتى ، فلما أتاه ، لم يجده شيئاً ، وقبض عند ذلك ، يقول الكافر كذلك ، إذا أتاه الموت ، لم يجد عمله ، يغني عنه شيئاً ، ولا ينفعه ، إلا كما نفع السراب العطشان .

﴿ووجد الله عنده﴾ بالمرصاد، وقيل وجد وعد الله بالجزاء، على عمله . وقيل وجد أمر الله عند حشره،وقيل حكمه ، وقضاءه ، عند المجيء . وقيل قدم على الله . وقيل عند العمل ، والمعنى متقارب ﴿ فوفاه حسابه ﴾ أي أعطاه ، وافياً ، كاملاً ، حساب عمله المذكور ، وجزاءه . فإن اعتقاده لنفعه بغير إيمان ، وعمله بموجبه ، كفر على كفر ، موجب للعقاب قطعاً . وإفراد الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا ، إمّا لإرادة الجنس ، كالظمآن الواقع في التمثيل ، وإما للحمل على كل واحد منهم ، وكذا إفراد ما يرجع إلى أعمالهم .

﴿ والله سريع الحساب ﴾ لعباده من آمن منهم ، ومن كفر . عن السدي ، عن أبيه ، عن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً، فيقولون أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب ، فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه فيجدون الله عنده ، فيوفيهم حسابهم ، والله سريع الحساب . أخرجه ابن أبي حاتم ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر . وفي إسناده السدي عن أبيه ، وفيه مقال . معروف .

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (٤٣)﴾

﴿ أو كظلمات ﴾ معطوف على ﴿ كسراب ﴾ ضرب الله سبحانه مثلاً آخر ، لأعمال الكفار أي : كما أنها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات ، فهي أيضاً تشبه الظلمات . قال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد ، فمثلها كمثل السراب ، وإن مثلت بما يرى فهي كهذه الظلمات التي وصفت . وقال أيضاً : إن شئت مثلت بالسراب ، وأن شئت مثلت بهذه الظلمات ، فـ ﴿ أو ﴾ للإباحة والتخيير ، حسبما تقدم من القول في ﴿ أو كصيّب﴾ .

قال الجرجاني : الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار ، والثانية في ذكر كفرهم ، ونسق الكفر على أعمالهم ، لأنه أيضاً من أعمالهم . قال القشيري : فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار ، وعند الجرجاني لكفر الكفار ، وقيل ﴿ أو ﴾ للتقسيم باعتبار وقتين ، فإنها كالسراب في الدنيا ، وكالظلمات في الآخرة . وقيل : أو للتنويع ، يعني أن أعمالهم إن كانت حسنة فهي كسراب ، وإن كانت سيئة فهي كظلمات .

﴿ في بحر لجيّ﴾ معظم الماء ، والجمع : لجج ، وهو الذي لا يدرك

عمقه ، ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال : ﴿ يغشاه ﴾ أي : يعلو هذا البحر ﴿ موج ﴾ فيستره ، ويغطيه بالكلية ، والموج : ما ارتفع من الماء ، ثم وصف هذا الموج بقوله : ﴿ من فوقه ﴾ أي من فوق هذا الموج ﴿ موج ﴾ ثان متراكم فيه إشارة إلى كثرة الأمـواج ، وتراكم بعضهـا فوق بعض ، ثم وصف الموج الثاني فقال :

﴿ من فوقه سحاب ﴾ فيجتمع حينئذ جوف البحر وأمواجه والسحاب المرتفعة فوقه ، وقيل : إن المعنى، يغشاه موج ، من بعده موج ، فيكون الموج يتبع بعضه بعضاً ، حتى كأن بعضه فوق بعض ، والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه ، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه ، زاد الخوف شدة ، لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر ، ثم إذا أمطرت تلك السحاب . وهبت الريح المعتادة ، في الغالب عند نـزول المطر ، تكـاثفت الهموم ، وترادفت الغموم ، وبلغ الأمر إلى الغاية التي ليس وراءها غاية ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ أي هي ظلمات أو هذه ظلمات ، متكاثفة ، مترادفة . ففي هذه الجملة بيان لشدة الأمر ، وتعاظمه ، وبلوغه النهاية القصوى . ووجه الشبه أن الله تعـالى ذكر ثـلاثة أنـواع من الظلمات ؛ ظلمة البحر ، وظلمة الأمواج ، وظلمة السحاب . وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ؛ ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ؛ وظلمة العمل . وقال أبي ابن كعب : الكافر يتقلب في خمس من الظلمات ؛ كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى ظلمات يوم القيامة في النار .

قرىء سحـــابُ ظلمـاتٍ بالإضافة ووجهها أن السحاب ترتفع وقت هذه الظلمات ، فأضيف إليها لهذه الملابسة ،وقرىء بالقطع والتنوين ، ومن غرائب التفاسير أنه سبحانه أراد بالظلمات أعمال الكافر ، وبالبحر اللجي قلبه ، وبـالموج فـوق الموج مـا يغشي قلبـه ، من الجهـل ، والشـك ، والحيـرة ، وبالسحاب الرين ، والختم ، والطبع ، على قلبه . وهذا تفسير هو عن لغة

العرب بمكان بعيد وعن ابن عباس قال : يعني بالظلمات الأعمال . وبالبحر اللجى قلب الإنسان ؛ يغشاه موج ؛ يعني بذلك الغشاوة التي على القلب ؛ والسمع ، والبصر ، ثم بالغ سبحانه في هذه الظلمات المذكورة بقوله :

﴿ إذا أخرج ﴾ أي الناظر ، أو الحاضر في هذه الظلمات ، أو من ابتلى بها ﴿ يده ﴾ مع أنها أقرب شيء إليه ﴿ لم يكد يراها ﴾ أي لم يقرب من رؤيتها ، قال الزجاج ، وأبو عبيدة : المعنى لم يرها ولم يكد . وقال الفراء : إن كاد زائدة ، والمعنى إذا أخرج يده لم يرها ، كما تقول : ما كدت أعرفه . وقال المبرد : يعني لم يرها إلا من بعد الجهد لشدة الظلمة . قال النحاس ؛ أصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها ، فإذن لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة .

﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ مقررة لما قبلها من كون اعمال الكفرة على تلك الصفة . قال الزجاج : ذلك في الدنيا ، والمعنى من لم يهده الله لم يهتد . وقيل : إن المعنى من لم يجعل له نوراً ، يمشي به يوم القيامة ، فما له من نور ، يهتدي به إلى الجنة . وقيل : من لم يجعل له ديناً ، وإيماناً فلا دين له . وقيل : المعنى من لم يقدر له الهداية ، ولم يوفقه لأسبابها فما له من نور ، خلاف الموفق ، الذي له نور على نور . والآية عامة في حق جميع الكفار،وقيل خاصة فيمن نزلت فيه ، وهو عتبة بن ربيعة ، كان يلتمس الدين في الجاهلية ، ويلبس المسوح ، فلما جاء الإسلام كفر ، وعاند والأول أولى .

﴿ ألم تر ان الله يسبح له من في السموات والأرض ؟ ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذه الآية في تفسير سورة سبحان ، والخطاب لكل من له أهلية النظر ، أو للرسول ﷺ ، وقد علمه من جهة الاستدلال ، ومعنى ﴿ ألم تر ﴾ ألم تعلم ؟ والهمزة للتقرير ، أي قد علمت علماً يقيناً ، شبيهاً بالمشاهدة ، والوثاقة بالوحي ، وظاهره أنه استعارة ، ومقتضى كلام النحويين أن رأى العلمية

حقيقة ، قاله الشهاب والتسبيح التنزيه في ذاته ، وأفعاله ، وصفاته ، عن كل ما لا يليق به .

ومعنى ﴿ من في السموات والأرض ﴾ من هو مستقر فيهما من العقلاء وغيرهم ، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها ، ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها، وقيل إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء ، والتنزيه من غيرهم ، وقد قيل إن هذه الآية تشكل الحيوانات ، والجمادات ، وأن آثار الصنعة البديعة الإلهية في الجمادات ناطقة ، ومخبرة باتصافه سبحانه ، بصفات الجلال ، والكمال وتنزهه عن سمات النقص والزوال . وفي ذلك تقريع للكفار وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها ، كعبادته عز وجل ، وبالجملة فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق ، بكل نوع من أنواع المخلوقات ، على طريقة عموم المجاز .

﴿ والطير صافّات﴾ أي باسطات أجنحتها في الهواء ، وخص الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات والأرض ، لعدم استمرار استقرارها في الأرض ، وكثرة لبثها في الهواء ، وهو ليس من السماء ، ولا من الأرض ، ولما فيها من الصنعة البديعة ، التي يقدر بها تارة على الطيران ، وتارة على المشي ، بخلاف غيرها من الحيوانات . وذكر حالة من حالات الطير ، وهي كون صدور التسبيح منها ، حال كونها صافات لأجنحتها ، لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها ، فإن استقرارها في الهواء مسبحة ، من دون تحريك لأجنحتها ، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ثم زاد في البيان فقال :

﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل واحد من هذه المسبحات لله ، قد علم صلاة المصلي ، وتسبيح المسبح . وقيل إن المعنى أن كل مصل ، ومسبح ؛ قد علم صلاة نفسه ، وتسبيح نفسه . قال السمين : وهذا أولى لتوافق الضمائر . قيل والصلاة هنا بمعنى التسبيح ، وكرر للتأكيد ، والصلاة

قد تسمى تسبيحاً . وقيل المراد بها هنا الدعاء ، أي علم دعاءه .

وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علّمها الله ذلك ؛ وألهمها إليه لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية ، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه ؛ وعظم شأنه من كونه جعلها مسبحة له ، عالمة بما يصدر منها ، غير جاهلة له وقال السدي : الصلاة للإنسان ، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه،وقيل إن ضرب أجنحة الطير صلاته ، وصوته تسبيحه ؛ أو المعنى كل واحد من هذه المسبحة ؛ قد علم الله صلاته له ؛ وتسبيحه إياه ؛ والأول أرجح ؛ لاتفاق القراء على رفع ﴿ كل ﴾ ولو كان الضمير لله لكان نصب كل أولى،وقيل المعنى علم كل صلاة الله وتسبيحه ؛ أي اللذين أمر بهما وبأن يفعلا ، كإضافة الخلق إلى الخالق، والأول أولى . وقرىء عُلِم على البناء للمفعول .

﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾ مقررة لما قبلها ، أي لا يخفى عليه طاعتهم ، ولا تسبيحهم ، ولا يعزب عن علمه شيء . ثم بين سبحانه أن المبدأ منه ، والمعاد إليه فقال ﴿ ولله ﴾ لا لغيره ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ أي خزائن المطر ، والرزق ، والنبات ، لأنه خالقها ، ولا يملكها أحد سواه ومن ملك شيئاً فبتمليكه تعالى إياه .

﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى غيره ﴿ المصير ﴾ أي الرجوع بعد الموت ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع ، ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر ، من الآثار العلوية ، فقال :

﴿ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ؟ ﴾ الإزجاء السوق قليلاً ، قليلاً ، والمعنى أنه يسوق السحاب سوقاً رفيقاً إلى حيث يشاء ، يقال زجى الشيء تزجية ، دفعه برفق ، وتزجى بكذا اكتفى به ، وأزجى الإبل ساقها . والمزجى الشيء القليل ، وبضاعة مزجاة ، قليلة ، والريح تزجي السحاب . والبقرة تزجي ولدها ، أي تسوقه .

﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي بين أجزائه فيضم بعضه إلى بعض ويجمعه بعد تفرقه ليقوى ، ويتصل ، ويكثف ، والأصل في التأليف الهمز . وقرىء يؤلف بالواو تخفيفاً والسحاب واحد في اللفظ ولكن معناه جمع ولهذا دخلت ﴿بين﴾ عليه لأن أجزاءه في حكم المفردات له . قال الفراء : إن الضمير في ﴿ بينه ﴾ راجع إلى جملة السحاب كما تقول الشجر قد جلست بينه لأنه جمع وأفرد الضمير باعتبار اللفظ .

﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكماً يركب بعضه بعضاً والركم جمع الشيء ، يقال ركم الشيء يركمه ركماً ، أي جمعه ، وألقى بعضه على بعض ، وبابه نصر ، وارتكم الشيء وتراكم إذا اجتمع والركمة الطين المجموع والركام الرمل المتراكم والسحاب ونحوه ﴿ فترى الودق ﴾ هو المطر عند جمهور المفسرين يقال ودقت السحاب فهي وادقة ، وودق المطر يدق أي قطر يقطر . وقيل إن الودق المطر ، ضعيفاً كان ، أو شديداً ، والرؤية هنا بصرية .

﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من فتوقه وفروجه ، التي هي مخارج القطر منه ، قال كعب[1] : إن السحاب غربال المطر ، لولا السحاب حين ينزل المطر من السماء ، لأفسد ما يقع عليه من الأرض . وقرىء : من خلله على الإفراد ، وقد وقع الخلاف في ﴿ خلال ﴾ هل هو مفرد ؟ كحجاب ، أو جمع كجبال ؟ .

﴿ وينزل من السماء ﴾ أي . من عال لأن السماء قد يطلق على جهة العلو ﴿ من جبال ﴾ أي من قطع عظام تشبه الجبال ﴿ فيها من برد ﴾ من للتبعيض وهو مفعول ينزل قيل : التقدير من برد برداً . وقيل : ينزل من السماء قدر جبال ، أو مثل جبال ، من برد إلى الأرض قال الأخفش : إن ﴿ من ﴾ زائدة في الموضعين ، أي ينزل من السماء برداً ، يكون كالجبال .

والحاصل أن من في ﴿ من السماء ﴾ لابتداء الغاية باتفاق المفسرين ،

---

(١) لقد نبه المؤلف في أكثر من موضع على رفض التلقي عن كعب الأحبار، وهو الحق الذي تجب الصيرورة إليه لأن السحاب هو عين المطر لقوله تعالى: «وهو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيرسله إلى بلد ميت» ولا عبرة بما ذهب إليه المصنف في تفسير البقرة من الرد على من قال بأن المطر أبخرة منعقدة من الماء. لأنه مدفوع بالقرآن الكريم وبالحقائق العلمية وهي معجزات التنزيل، المطيعي.

بلا خلاف ، وفي من جبال ثلاثة أوجه . الأول : أنها لابتداء الغاية ، والثاني : أنها للتبعيض . كأنه قال : وينزل بعض جبال ، الثالث : أنها زائدة ، أي : ينزل من السماء جبالاً ، وأما ﴿ من ﴾ في من برد ففيها أربعة أوجه الثلاثة المتقدمة ، والرابع أنها لبيان الجنس ، قاله الحوفي ، والزمخشري . اي وينزل من السماء بعض جبال . التي هي البرد . فالمنزل برد ، لأن بعض البرد برد .

قال الزجاج : معنى الآية وينزل من السماء من جبال ، برد فيها ، وذكر أبو البقاء أن التقدير شيئاً من جبال . قيل إن في السماء جبالاً من برد ، كما في الأرض جبال من حجر . وقيل : المراد بذكر الجبال الكثرة كما يقال فلان يملك جبالاً من ذهب وفضة .

﴿ فيصيب به ﴾ أي بما ينزل من البرد كما في البيضاوي ، والخازن ﴿ من يشاء ﴾ أن يصيبهم من عباده ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ منهم ، أو يصيب به مال من يشاء ، ويصرفه عن مال من يشاء ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في البقرة ﴿ يكاد سنا برقه ﴾ العامة على قصر سنا ، وهو الضوء ، وهو من ذوات الواو ، يقال سنا يسنو سناً ، أي أضاء يضيء ، وبالمدّ الرفعة ، كذا قال المبرّد ، وغيره . قرىء سناء برقه بالمد على المبالغة ، في شدة الضوء ، والصفاء ، فأطلق عليه اسم الرفعة والشرف وقرىء بضم الباء من بُرَقِه ، وفتح الراء . وهي على هذه جمع برق . وقال النحاس : البرقة المقدار من البرق . والبرقة الواحدة ، والمعنى : يكاد ضوء البرق الذي في السحاب .

﴿ يذهب بالأبصار ﴾ من شدة بريقه ، وزيادة لمعانه . وهو كقوله : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ وقرىء : يذهب ، من الإذهاب ، ويذهب من الذهاب ، والأبصار جمع بصر ، أي الناظرة ، والباء للإلصاق . وقيل : للتعدية وقيل : هي بمعنى : من ، والمفعول محذوف تقديره : يذهب النور من الأبصار ، فسبحان من يخرج الماء ، والنار ، والنور ، والظلمة من شيء واحد وقيل : زائدة .

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ
فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى
مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ
يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أي : يعاقب بينهما ، فيأتي بالليل ، ويذهب بالنهار ، ويأتي بالنهار ، ويذهب بالليل . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : « يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» أخرجه البخاري ومسلم[1] .

وقيل يزيد في أحدهما ، وينقص الآخر . وقيل يقلبهما باختلاف ما يقدره فيهما من خير وشر ، ونفع وضر . وقيل بالحر والبرد، وقيل المراد بذلك تغيير النهار بظلمة السحاب مرة ، وبضوء الشمس أخرى . تغيير الليل بظلمة السحاب تارة ، وبضوء القمر أخرى .

﴿ إن في ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من إزاء السحاب ، وإنزال الودق والبرد ، وتقليب الجديدين ﴿ لعبرة ﴾ أي لدلالة واضحة يكون بها الاعتبار ﴿ لأولي الأبصار ﴾ أي لكل من له بصر يبصر به ، فهي براهين لائحة على جوده ، ودلائل واضحة على صفاته ، لمن نظر وتدبر ، ثم ذكر سبحانه دليلاً ثالثاً من عجائب خلق الحيوان ، وبديع صنعته فقال :

﴿ والله خلق كل دابّة﴾ وقرىء : خالق ، والمعنيان صحيحان ، والدابة كل ما دب على الأرض من الحيوان . يقال دب يدب فهو دابّ، والهاء

(١) مسلم ٣٣٤٦ ـ البخاري ٢٠٤٢ .

للمبالغة، ومعنى ﴿من ماء﴾ من نطفة ، وهي المني ، كذا قال الجمهور ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ، ومنها بهائم ، وقال جماعة : إن المراد الماء المعروف لأن آدم خلق من الماء والطين . قيل وخلق كل دابة من نطفة ، إنما هو بحسب الأغلب في خلق حيوانات الأرض المشاهدة ، وإلا فالملائكة خلقوا من نور ، وهم أكثر المخلوقات عدداً ، والجانّ خلقوا من نار ، وهم بقدر تسعة أعشار الإنس . كما قيل ، وآدم خلق من الطين ، وعيسى من الريح ، التي نفخها جبريل، في جيب مريم ، وخلق الدود من نحو الفاكهة ، والعفونات ، ثم فصل سبحانه أحوال كل دابة فقال :

﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ وهي الحيات ، والهوام ، والحوت والدود ، ونحو ذلك ، وسمي الزحف على البطن مشياً ، استعارة ، كما استعير المشفر للشفة ، وبالعكس . كما يقال في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ، وفلان ما يمشي له أمر ، أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ وهم الإنسان والطير والنعام .

﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالبهائم ، وسائر الحيوانات ، وقدم ما هو أعرف في القدرة ، وهو الماشي بغير آلة المشي من أرجل أو غيرها ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع وقال : ﴿ من ﴾ ولم يقل ﴿ ما ﴾ تغليباً لمن يعقل ، على ما لا يعقل لأن جعل النفيس أصلاً ، والخسيس تبعاً أولى . قال ابن عباس : كل شيء يمشي على أربع إلا الإنسان ، وأقول هذه الطيور على اختلاف أنواعها ، تمشي على رجلين ، وهكذا غيرها ، كالنعامة فإنها تمشي على رجلين ، وليست من الطير ، فهذه الكلية المروية عنه رضي الله تعالى عنه لا تصح ، ولم يتعرض سبحانه لما يمشي على أكثر من أربع لقلته . وقيل : لأن المشي على أربع فقط ، وإن كانت القوائم كثيرة وقيل : لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع ، ولا وجه يكون لهذا ، فإن المراد التنبيه على بديع الصنع ، وكمال القدرة ، فكيف يقال ، لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع .

وقيل : ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على أكثر من أربع لأنه لم ينف ذلك ، ولا جاء بما يقتضي الحصر ، وفي مصحف أبيّ : ومنهم من يمشي على أكثر ، فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع ، كالسرطان ، والعناكب ، والحيوان المعروف بأم أربع وأربعين ، وكثير من خشاش الأرض كالعقارب . وقيل : إنما لم يتعرض لهذا القسم لدخوله في قوله :

﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي : مما ذكر هنا ، ومما لم يذكره ، كالجمادات مركبها وبسيطها ، ناميها وغير ناميها ، على اختلاف الصور والأعضاء ، والهيئآت ، والحركات ، والطبائع ، والقوى ، والأفعال ، مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء ، ولا يمنعه مانع ، بل الكل من مخلوقاته ، داخل تحت قدرته سبحانه .

﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات ﴾ بكسر الياء وفتحها سبعيتان وكذلك في كل ما جاء في هذا الجمع في القرآن ، والمراد بها القرآن ، فإنه قد اشتمل على بيان كل شيء،ما فرطنا في الكتاب من شيء ، وفيه التفات قد تقدم مثل هذا في غير موضع ﴿ والله يهدي من يشاء ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح وإرشاده إلى التأمل الصادق ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أي طريق مستو لا عوج فيه ، فيتوصل بذلك إلى الخير التام ، وهو نعيم الجنة ، ثم شرع سبحانه في بيان أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم فقال:

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ وهؤلاء هم المنافقون ، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فإنهم كما حكى الله عنهم ههنا ، ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله وبالرسول ، والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان لا عن اعتقاد صحيح . وعن قتادة قال : أناس من المنافقين أظهروا الإيمان والطاعة ، وهم في ذلك يصدون عن سبيل الله وطاعته وجهاده مع رسوله .

﴿ ثم يتولى ﴾ أي يعرض ﴿ فريق منهم ﴾ أي من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿ من بعد ذلك ﴾ أي من بعد ما صدر عنهم مما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان والطاعة ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الإيمان فقال ﴿ وما أولئك ﴾ القائلون بهذه المقالة ﴿ بالمؤمنين ﴾ على الحقيقة الموافق قلوبهم لألسنتهم فيشمل الحكم بنفي الإيمان جميع القائلين . ويندرج تحتهم من تولى اندراجاً أولياً .

وقيل إن الإشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ راجع إلى من تولى ، والأول أولى والكلام مشتمل على حكمين ، الحكم الأول على بعضهم بالتولي ، والحكم الثاني على جميعهم بعدم الإيمان، وقيل أراد بمن تولى من تولى عن قبول حكمه صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل أراد بذلك رؤساء المنافقين ، وقيل أراد بتولي هذا الفريق رجوعهم إلى الباقين ، ولا ينافي ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص ، ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يعرضون عن إجابة الدعوة إلى الله وإلى رسوله في خصومتهم فقال:

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ﴾ المبلغ عنه ﴿ ليحكم بينهم ﴾ أي الرسول فالضمير راجع إليه . لأنه المباشر للحكم . وإن كان الحكم في الحقيقة لله سبحانه ومثل ذلك قوله تعالى: والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴿ إذا فريق منهم معرضون ﴾ إذا هي الفجائية ، أي فاجأ فريق منهم الاعراض عن المحاكمة إلى الله والرسول ، أو عن الاجابة ، والمجيء إليه . وهذا هو شأن مقلدة المذاهب بعينه اليوم[1]، يعرضون عن إجابة الداعي إلى الله ورسوله ، وعن التحاكم إليهما ، أي إلى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحق عليهم ، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون لعلمهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحكم إلا بالحق فقال :

(١) قياس مع الفارق ولا يجوز تشبيه المؤمنين بالمنافقين.

وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن
يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ وإن يكن لهم الحق ﴾ أي إذا كان الحكم لهم على غيرهم ﴿ يأتوا إليه مذعنين ﴾ مطيعين منقادين لحكمه طلباً لحقهم ، لا رضاء بحكم رسولهم . قال الزجاج : الإذعان الإسراع مع الطاعة ، يقال : أذعن لي بحقي ، أي طاوعني لما كنت ألتمس منه ، وصار يسرع إليه ، وبه قال مجاهد . وقال الأخفش وابن الأعرابي : مذعنين مقرين وقال النقاش : خاضعين . والمعنى أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر، والعدل البحت ، يمتنعون عن المحاكمة إليك ، إذا ركبهم الحق ، لئلا تنتزعه من أحداقهم ، بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم الحق على خصم أسرعوا إليك ، ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم في ذمة الخصم.

ثم قسّم الأمر في إعراضهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم فقال :

﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ هذه الهمزة للتوبيخ والتقريع لهم ، والمرض النفاق أي أكان هذا الاعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم وقيل مرض أي كفر وميل الى الظلم ﴿ أم ارتابوا ﴾ وشكوا في أمر نبوة محمد ﷺ وعدله في الحكم ، أو رأوا منه تهمة فزال ثقتهم ويقينهم به .

﴿ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴾ في الحكومة ، والحيف الميل

في الحكم يقال حاف في قضيته أي جار فيها حكم به، ثم أضرب عن ضرب هـذه الأمور التي صـدرها بـالاستفهام الإنكـاري فقال ﴿ بـل أولئـك هم الظالمون ﴾ أي ليس ذلك لشيء مما ذكر بل لعنادهم وظلمهم فإنه لو كان الاعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم .

وقيل إضراب عن القسمين الأخيرين ، لتحقق القسم الأول . ووجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثـاني إما أن يكون محققاً عندهم ، أو متوقعاً ، وكلاهما باطل لأن منصب نبوته ، وفرْط أمانته صلى الله عليه وآله وسلم يمنعه ، فتعين الأول. وظلمهم يعم خلل عقيدتهم ، وميل نفوسهم إلى الحيف . وضمير الفصل لنفي ذلك عن غيرهم ، سيما المدعو إلى حكمه. قاله البيضاوي .

وفي هذه الآية دليل على وجوب الاجابة إلى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه لأن العلماء ورثة الأنبياء ، والحكم من قضاة الاسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسنة العادلين في القضاء ، هو حكم بحكم الله ورسوله ، الـداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله وإلى رسوله أي إلى حكمهما.

قال ابن خواز منداد : واجب على كل من دعى إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق قال القرطبي : في هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي الى الحاكم لأن الله سبحانه ذم من دعى إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه ، فأعرض بأقبح ذم ، فقال ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ الآية انتهى فإن كان القاضي مقصراً لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ، ولا يعقل حجج الله ، ومعاني كلامه وكلام رسوله بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً . وهو من لا علم له بشيء من ذلك ، أو جهلاً مركباً ، وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين ، واطلع على شيء من علم الرأي ، فهذا في الحقيقة جاهل، وان اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم فاعتقاده باطل .

فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه ، لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين اليه بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل ، فإن ما عرفه من علم الرأي انما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ، ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده ، وإذا تقدر لديك هذا ، وفهمته حق فهمه ، علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره . . والتعبد بجميع ما جاء به من رواية ورأى وإهمال ما عداه ، من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أوضحت هذا في كتابي الجنة وأوضحه الشوكاني في القول المفيد ، وأدب الطلب وغيره في غيرهما فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت الأقطار الاسلامية فليرجع إليها،وعن الحسن في الآية قال : إن الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة . على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا دعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق . وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي ﷺ أعرض . وقال : انطلق إلى فلان فأنزل الله سبحانه ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ﴾ إلى قوله : ﴿ هم الظالمون ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لا حق له » أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم .

قال ابن كثير :[1] « بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه وهذا حديث غريب وهو مرسل : وقال ابن العربي : هذا حديث باطل فأما قوله فهو ظالم فكلام صحيح وأما قوله فلا حق له فلا يصح ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق انتهى .

وأقول : وأما كون الحديث مرسلاً فظاهر وأما ما دعوى كونه باطلاً فمحتاجة إلى برهان فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث كما ذكرنا ويبعد كل

(١) ابن كثير ٣/٢٩٨ .

البعد أن يتفقوا على ما هو باطل وليس في إسناده عند ابن أبي حاتم كذاب ولا وضاع ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ « فمن دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له انتهى ،ولا يخفاك أن قضاة العدل ، وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قدمنا لك قريباً . هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب والسنة ، المبينون للناس ما نزل اليهم . ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق ، أتبعه بما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله ، فقال :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ﴾ أي : إلى كتاب الله العزيز وسنة رسوله المطهرة ﴿ ليحكم بينهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ﴾ أي هذا القول ، لا قولاً آخر ، وهذا وإن كان على طريقة الخبر ، فليس المراد به ذلك ، بل المراد به تعليم الأدب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر ، والمعنى أنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا هكذا ، إذا سمعوا الدعاء المذكور ، قابلوه بالطاعة والإذعان والإجابة . قال مقاتل وغيره : يقولون : سمعنا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأطعنا أمره ، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرهم .

وقد قدمنا الكلام على الدعوة إلى الله ورسوله للحكم بين المتخاصمين ، وذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة ، ومن لا تجب ، وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه. ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله :

﴿ وأولئك ﴾ المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿ هم المفلحون ﴾ أي : الناجون الفائزون بخيري الدنيا والآخرة ، ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر فقال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله، ويخشى الله ، ويتقه ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها ، من حسن حال المؤمنين ، وترغيب من عداهم إلى الدخول في عدادهم والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله ، في كتابه وسنته والخشية من الله عز وجل فيما مضى والتقوى له فيما يستقبل وفي ﴿ يتقه ﴾ قراآت من الجزم والكسر .

﴿ فأولئك ﴾ أي : الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والتقوى ﴿ هم الفائزون ﴾ بالنعيم الدنيوي ، والأخروي ، لا من عداهم . وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية ، وهي جامعة لأسباب الفوز والفلاح الكاملة الشاملة وبالله التوفيق ، وهو المستعان . ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه ، أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا ، فقال :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ المعنى : يجهدون أيمانهم جهداً ومعناه طاقة ما قدروا أن يحلفوا ، مأخوذ من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ طاقتها ، وأقصى وسعها ، وقيل : التقدير مجتهدين في إيمانهم ، كقولهم : افعل ذلك جهدك وطاقتك وقد خلط الزمخشري الوجهين فجعلهما واحداً . وقيل : جهد اليمين أن يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيئاً .

﴿ لئن أمرتهم ﴾ بالخروج إلى الجهاد ﴿ ليخرجن ﴾ وليغزون ، ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة ، وأيمانهم فاجرة رد الله عليهم زاجراً فقال : ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به . وههنا تمّ الكلام ثم ابتدأ فقال :

﴿ طاعة معروفة ﴾ أي طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد ، وقيل : طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم . وقيل : لتكن منكم طاعة ، أو لتوجد ، وفي هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلا إذا تقدم ما يشعر به ، وقيل : أمركم طاعة ، بل قال الواسطي : إنه الأولى لأن الخبر محط الفائدة ، وعليه فالمعنى : أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة ، لا يشك فيها ولا يرتاب . وقرىء : طاعةً بالنصب أي أطيعوا طاعة .

﴿ إن الله خبير بما تعلمون ﴾ من الطاعة بالقول ، وما تشمرونه من المخالفة بالفعل وهذا تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق . ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله ، فقال :

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ طاعة ظاهرة وباطنة ، بخلوص اعتقاد وصحة نية وهذا التكرير منه سبحانه لتأكيد وجوب الطاعة عليهم ، فإن قوله: ﴿ قل لا تقسموا طاعة معروفة ﴾ في حكم الأمر بالطاعة وقيل : إنهما مختلفان فالأول نهي بطريق الرد والتوبيخ ، والثاني أمر بطريق التكليف لهم والإيجاب عليهم .

﴿ فإن تولوا ﴾ خطاب للمأمورين وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم والمبالغة في العناية بهدايتهم إلى الطاعة والإنقياد .

وجواب الشرط قوله : ﴿ فإنما عليه ﴾ أي : على النبي ﴿ ما حمل ﴾ مما أمر به من التبليغ وقد فعل ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي : ما أمرتم به من الطاعة والإجابة ، وهو وعيد لهم كأنه قال لهم : فإن توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل ، وفيه المشاكلة .

﴿ وإن تطيعوه ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿تهتدوا﴾ إلى الحق وترشدوا إلى الخير وتفوزوا بالأجر . قد أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه قال : قدم زيد بن أسلم على رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم فقال : أرأيت إن كان علينا أمراء يأخذون منا الحق ولا يعطونا ؟ قال : « فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم »[١] . وعن جابر أنه سئل إن كان عليّ إمام فاجر ، فلقيت معه أهل ضلالة ، أقاتل ؟ أم لا ؟ قال : قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم .

وعلى الإمام ما حمل وعليكم ما حملتم ﴿ و ﴾ جملة ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ مقررة لما قبلها واللام إما للعهد فيراد بالرسول نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وإما للجنس فيراد كل رسول والبلاغ المبين : التبليغ الواضح أو الموضح ، والمعنى : أن الرسول قد أدى البلاغ فأدوا أيضاً أنتم ما عليكم من طاعته .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولمن معه و ﴿ من ﴾ للبيان . وقيل : للتبعيض والجملة مقررة لما قبلها ، من أن طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبب لهدايتهم وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم ، كما قال سبحانه .

﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ بدلاً عن الكفار ، وهو وعد يعم جميع الأمة ، وقيل هو خاص بالصحابة ، ولا وجه لذلك فإن الإيمان ، وعمل الصالحات لا يختص بهم . بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة . ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله . واللام في ﴿ ليستخلفنهم ﴾ جواب لقسم محذوف أو جواب للوعد ، وتنزيله منزلة القسم لأنه ناجز لا محالة والمعنى ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم ، وقد أبعد من قال إنها مختصة بالخلفاء الأربعة أو بالمهاجرين أو أن المراد بالأرض أرض مكة . وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال ابن العربي : إنها بلاد العرب والعجم وهو الصحيح لأن أرض مكة

---

(١) مسلم ١٨٤٦ ـ الترمذي كتاب الفتن الباب ٣٠ .

محرمة على المهاجرين ففي الحديث لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن توفي بمكة وقال في الصحيح أيضاً يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثاً،وظاهر قوله ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ كل من استخلفه الله في أرضه فلا يخص ذلك بني إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها قرىء على البناء للفاعل والمفعول .

﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب،والمراد بالتمكين هنا التثبيت والتقرير أي يجعله الله ثابتاً مقرراً ويوسع لهم في البلاد ليملكوها ويظهر دينهم على جميع الأديان،والمراد بالدين هنا الإسلام كما في قوله ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾، ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولاً وهو جعلهم ملوكاً،وذكر التمكين ثانياً فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروّ بل على وجه الاستقرار والثبوت بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم .

﴿وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ معطوفة على التي قبلها وقرىء من أبدل ومن بدل وهما لغتان وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى فقراءة التشديد أرجح من التخفيف،وزعم ثعلب أن بينهما فرقاً، وأنه يقال بدلته أي غيرته وأبدلته أزلته وجعلت غيره مكانه قال النحاس : وهذا القول صحيح والمعنى أنه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمناً ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه ولا يرجون غيره .

وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين،لا يخرجون إلا في السلاح، ولا يمسون ولا يصبحون إلى على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن، والدعة وأذل الله لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد ومهد لهم في الأرض ومكنهم منها فللّه الحمد .

وعن البراء قال: فينا نزلت ونحن في خوف شديد، وعن أبي العالية قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً وهم خائفون، ولا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة فأمرهم الله بالقتال وكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغبروا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لن تغبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة» فأنزل الله وعد الله الذين آمنوا إلى آخر الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح.

ثم إن الله قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين في زمان أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم. حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع عنهم واتخذوا الحجر والشرط وغيروا فغير ما بهم.

وعن أُبيّ بن كعب قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه. فقالوا: أترون انا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت هذه الآية، وأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا.

وفي الآية أوضح دليل على صحة خلافة أبي بكر الصديق، والخلفاء الراشدين بعده لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم وفي أيامهم كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى وغيره من الملوك وحصل الأمن والتمكين وظهور الدين، وعن سفينة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً ثم قال: أمسك خلافة أبي بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنتي

عشرة سنة وعلي ستاً قال علي : قلت لحماد القائل لسعيد : أمسك سفينة قال : نعم . أخرجه[١] أبو داود والترمذي .

قلت وفيه إجمال،تفصيله أن خلافة أبي بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر وعلى هذا تكون مدة خلافة الأئمة الأربعة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن وكانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله أعلم .

وجملة ﴿ يعبدونني ﴾ حالية أو مستأنفة مسوقة للثناء عليهم،وفيه أوجه سبعة ذكرها السمين ﴿ لا يشركون بي شيئاً ﴾ أي يعبدونني غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء . وقيل معناه لا يراؤن بعبادتي أحداً ، وقيل معناه لا يخافون أحداً غيري قاله ابن عباس وقيل معناه لا يحبون غيري .

﴿ ومن كفر ﴾ هذه النعم ﴿ بعد ذلك ﴾ الوعد الصحيح ، أي : من استمر على الكفر أو من كفر بعد الإيمان ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي الكاملون في الفسق وهو الخروج عن الطاعة ، والطغيان في الكفر وعن مجاهد قال : الفاسقون العاصون . وعن أبي العالية قال : الكفر بهذه النعمة ليس الكفر بالله ، ولذلك الفاسقون ولم يقل الكافرون . قال أهل التفسير : أو من كفر بهذه النعمة ، وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله ما بهم من الأمن وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً والقصة معروفة .

﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي فآمنوا واعملوا الصالحات وأقيموا الصلاة ﴿ وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول ﴾ قد تقدم الكلام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وكرر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وخصه بالطاعة لأن طاعته طاعة الله، ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرر في

---

(١) أبو داوود كتاب السنة باب ٨ ـ الترمذي ، كتاب الفتن باب ٤٨ .

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

علم المعاني من أن مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي افعلوا ما ذكر راجين أن يرحمكم الله سبحانه.

﴿لا تحسبن﴾ بالفوقية أي لا تحسبن يا محمد وقرىء بالتحتية ﴿الذين كفروا معجزين﴾ فائتين وقال قتادة: سابقين ﴿في الأرض﴾ وقد تقدم تفسيره وتفسير ما بعده ﴿ومأواهم النار﴾ عطف خبر على إنشاء أو على مقدر أي بل هم مقهورون مدركون، ومأواهم ﴿ولبئس المصير﴾ أي المرجع النار ولما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان فذكره ههنا على وجه أخص فقال.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الخطاب للمؤمنين ويدخل المؤمنات فيه تغليباً كما في غيره من الخطابات، قال العلماء: هذه الآية خاصة ببعض الأوقات واختلفوا في المراد بقوله: ﴿ليستأذنكم﴾ على أقوال أنها منسوخة قاله سعيد بن المسيب وقال سعيد بن جبير: إن الأمر فيها للندب لا للوجوب، وقيل كان ذلك واجباً حيث كانوا لا أبواب لهم، ولو عاد الحال لعاد الوجوب حكاه المهدوي عن ابن عباس، وقيل إن الأمر ههنا للوجوب وإن الآية حكمة غير منسوخة وإن حكمها ثابت على الرجال والنساء، قال القرطبي: وهو قول أكثر العلماء وقال السلمي: إنها خاصة بالنساء وقال ابن عمر: هي خاصة بالرجال دون النساء، والمراد بقوله.

﴿الذين ملكت أيمانكم﴾ العبيد والإماء وعن مقاتل بن حيان قال:

بلغنا أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرشدة صنعا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم طعاماً فقالت أسماء : يا رسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد ـ غلامهما ـ بغير إذن فأنزل الله في ذلك هذه الآية يعني بها العبيد والإماء، وعن السدي قال : كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن، فلا يرد كيف أمرهم الله بالاستئذان ؟ مع أنهم غير مكلفين ولو كان المقصود أمرهم بالذات لما كان لتخصيص النداء والخطاب بالمؤمنين وجه .

﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ أي الصبيان والمراد الأحرار قرىء الحلم بسكون اللام وبضمها قال الأخفش : الحلم من حلم الرجل بفتح اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسرها، واتفقوا على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا فيها إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة : لا يكون بالغاً حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها، والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأحمد في الغلام والجارية بخمس عشرة سنة يصير مكلفاً وتجري عليه الأحكام وإن لم يحتلم.

﴿ ثلاث مرات ﴾ أي ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، وعبر عن الأوقات بالمرات لأن الأصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات، وانتصاب ثلاث مرات على المصدرية أي ثلاث استئذانات، ورجح هذا أبو حيان وقال : لأنك إذا قلت ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات، أو منصوب على الظرفية أي ثلاث أوقات ثم فسر تلك الأوقات بقوله .

﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ وذلك لأنه وقت القيام عن المضاجع وطرح

ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة وربما يبيت عرياناً أو على حالة لا يجب أن يراه غيره فيها ﴿ وحين تضعون ثيابكم ﴾ التي تلبسونها في النهار ﴿ من ﴾ شدة حر ﴿ الظهيرة ﴾ وذلك عند انتصاف النهار فإنهم قد يتجردون عن الثياب لأجل القيلولة ﴿ من ﴾ للبيان أو بمعنى في أو بمعنى اللام ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال :

﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ وذلك لأنه وقت التجرد عن ثياب اليقظة والخلوة بالأهل والالتحاف بثياب النوم، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل بقوله ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ أي أوقات ثلاث عورات وقيل جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة وقيل هو ثلاث .

وقال أبو حاتم : النصب ضعيف مردود، وقال الفراء : الرفع أحب إلي، قال الكسائي : العورات الساعات التي تكون فيها العورة،قال الزجاج : المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات، وعورات جمع عورة وهي في الأصل الخلل . ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهم حفظه ويتعين ستره أي هي ثلاث أوقات ، يختل فيها الستر، وقرىء عَورات بفتح الواو وهي لغة هذيل وتميم . فإنهم يفتحون عين فعلات سواء كان واواً أو ياء . والجملة مستأنفة ، مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان .

عن عبد الله بن سويد قال : سألت رسول الله ﷺ عن العورات الثلاث فقال : « إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج عليَّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ، ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلا بإذن،وإذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء ومن قبل صلاة الصبح » أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن عباس قال : إنه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني آية الإذن . وإني لآمر جاريتي هذه ، الجارية قصيرة قائمة على رأسه أن تستأذن علي، وعنه

قال : ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهن هذه الآية والآية التي في سورة النساء ﴿ وإذا حضر القسمة ﴾ الآية ، والآية التي في الحجرات ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وعنه قال : إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبي ولا خادم إلا بإذنه حتى يصلي الغداة، وإذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك . ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن وهو قوله ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ فأما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال . وهو قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ .

وعنه أن رجلاً سأله عن الاستئذان في الثلاث العورات ، التي أمر الله بها في القرآن فقال : إن الله ستير يحب الستر، وكان النّاس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب في بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمه ، أو ولده أو يتيم في حجره ، وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمي الله، ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم في الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به .

وعن ابن عمر في الآية قال : هي على الذكور دون الإناث . ولا وجه هذا التخصيص ، فالاطلاع على العورات في هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث . وعن السلمي قال : هي في النساء خاصة ، والرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار .

وعن ابن مسعود قال : عليكم إذن على أمهاتكم ، وعنه قال : يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخته ، أخرجه البخاري في الأدب وعن جابر نحوه ،

وسئل الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي ؟ قال : لا والله . قال السائل : إن الناس لا يعلمون بها ، قال : والله المستعان . وقال سعيد بن جبير : إن ناساً يقولون أن هذه الآية نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس وقال سعيد بن المسبب : إنها منسوخة والأول أولى .

﴿ ليس عليكم ، ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ أي ليس على المماليك ولا على الصبيان إثم في الدخول بغير استئذان ، لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر ، والاطلاع على العورات ، بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث ، وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منها ، والجملة مستأنفة مقررة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة . وقال أبو البقاء ﴿ بعدهن ﴾ أي بعد استئذانهم فيهن ،ورُدّ بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير ، الذي ذكره ، بل المعنى ليس عليكم جناح ولا عليهم أي العبيد والإماء والصبيان في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة .

﴿ طوافون ﴾ أي هم طوافون ﴿ عليكم ﴾ والجملة مستأنفة مبينة للعذر رخص في ترك الاستئذان والمعنى يطوفون عليكم ، ومنه الحديث في الهرة إنما هي من الطوافين عليكم أو الطوافات . أي هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن ﴿ بعضكم ﴾ يطوف . أو طائف ﴿ على بعض ﴾ والجملة تدل مما قبلها ، أو مؤكدة لها ، والمعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه، العبيد على الموالي والموالي على العبيد، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات، الثلاثة بغير استئذان لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿ يبين الله لكم الآيات ﴾ الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام ﴿ والله عليم ﴾ أي كثير العلم بالمعلومات ﴿ حكيم ﴾ كثير الحكمة في أفعاله .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ بين سبحانه ههنا حكم الأطفال الأحرار اذا بلغوا الحلم ، بعد ما بين فيما مر حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان ، فيما عدا الأوقات الثلاثة فقال ﴿ فليستأذنوا ﴾ إذا دخلوا عليكم في جميع الأوقات ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ الموصول عبارة عن الذين قيل لهم لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية ، والمعنى استئذاناً كما استأذن الأحرار الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء .

قال عطاء : واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا ، أحراراً كانوا ، أو عبيداً . وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته ؟ قال : نعم . إن لم تفعل رأيت منها ما تكره . وقال الزهري وسعيد بن المسيب : يستأذن الرجل على أمه وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم ﴾ بأمور خلقه فيما يبين من الأحكام ﴿ حكيم ﴾ بما دبر وشرع من مصالح الأنام ﴿ والقواعد من النساء ﴾ المراد بهن العجائز اللاتي قعدن عن الحيض ، أو عن الاستمتاع ، أو عن الولد من الكبر ، فلا يلدن ولا يحضن واحدتها قاعد ، بلا هاء ليدل حذفها على أنه قعود الكبر ، كما قالوا امرأة حامل ليدل حذف الهاء على أنه حمل حبل ويقال قاعدة في بيتها ، وحاملة على ظهرها ، قال الزجاج : هن اللاتي قعدن عن

التزويج وهو معنى قوله :

﴿ اللاتي لا يرجون نكاحا ﴾ أي لا يطمعن فيه لكبرهن ، وقال أبو عبيدة : اللاتي قعدن عن الولد وليس هذا بمستقيم ، لأن المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع . وقيل هن العجائز اللواتي إذا رآهن الرجال استقذروهن . فأما من كانت فيها بقية جمال ، وهي محل الشهوة فلا تدخل في حكم هذه الآية ، ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال :

﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴾ التي تكون على ظاهر البدن كالجلباب ، والرداء الذي فوق الثياب ، والقناع الذي فوق الخمار ، ونحوها ، لا الثياب إلى العورة الخاصة ، والخمار . وإنما جاز لهن ذلك لانصراف الأنفس عنهن ، إذ لا رغبة للرجال فيهن ، فأباح الله سبحانه لهن ما لم يبحه لغيرهن . وعن ابن عباس في الآية قال : هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار ، وتضع عنها الجلباب ، ما لم تتبرج بما كرهه الله . وعنه أنه كان يقرأ أن يضعن من ثيابهن ، ويقول : هو الجلباب ، وعن ابن عمر قال : تضع الجلباب ، وعن ابن مسعود مثله ، وزاد الرداء ، ثم استثنى حالة من حالاتهن فقال :

﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ أي غير مظهرات للزينة التي أمرن باخفائها في قوله ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ لينظر إليهن الوجال، أو زينة خفية كقلادة ، وسوار وخلخال . والتبرج التكشف ، والظهور للعيون والتكلف في إظهار ما يخفي وإظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال ، ومنه بروج مشيدة ، وبروج السماء . ومنه قولهم سفينة بارجة أي لا غطاء عليها.

﴿ وأن يستعففن ﴾ أي وأن يتركن وضع الثياب ، ويطلبن العفة عنه ، وقرىء بغير السين ﴿ خير لهن والله سميع عليم ﴾ أي كثير السماع ، والعلم بليغهما .

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿ ليس على الأعمى جرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الآية ، هل هي محكمة أو منسوخة ، قال بالأول جماعة من العلماء وبالثاني جماعة ، قيل إن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ، ويقولون لهم . قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا،وكانوا يتحرجون من ذلك . وقالوا : لا ندخلها وهم غيب ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم ، فمعنى الآية نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيوت أقاربهم ، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح ، إذا خرج للغزو قال النحاس : وهذا القول من أجل ما روى في الآية لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوقيف ، وقيل : إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرجون من مؤاكلة الاصحاء ، حذاراً من استقذارهم إياهم ، وخوفا من تأذيهم بأفعالهم فنزلت .

وقيل : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي على وجه يتعذر الإتيان به مع العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض في

إسقاطه ، وقيل ؛ المراد بهذا الحرج المدفوع عن هؤلاء ، هو الحرج في الغزو أي لا حرج على هؤلاء في تأخرهم عن الغزو ، وقيل : كان الرجل إذا أدخل أحداً من هؤلاء الزمنى إلى بيته ، فلم يجد شيئا يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته فيتحرج الزمنى من ذلك فنزلت .

وعن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ : قالت الأنصار : ما بالمدينة مال أعز من الطعام ؟ كانوا يتحرجون أن يأكلوا مع الأعمى ، يقولون : إنه لا يبصر موضع الطعام ، وكانوا يتحرجون الأكل مع الأعرج ، يقولون : إن الصحيح يسبقه إلى المكان ، ولا يستطيع أن يزاحم . ويتحرجون الأكل مع المريض ، يقولون لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح ، وكانوا يتحرجون أن يأكلوا في بيوت أقاربهم ، فنزلت ليس على الأعمى ، يعني في الأكل مع الأعمى وعن مقسم نحوه .

وعن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى ، أو الأعرج ، أو المريض إلى بيت أمه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله ، أو بيت خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم،فنزلت هذه الآية رخصة لهم ، وعن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون في النفير مع النبي ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى زمناهم ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس ، وإنما نحن زمنى ، فأنزل الله : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا ﴾ إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ كما سيأتي .

وعن ابن عباس قال ؛ لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا

بالباطل ، والطعام هو أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ ، إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ وهو الرجل يوكل الرجل بضيعته . والذي رخص الله أن يأكل من ذلك الطعام والتمر وشرب اللبن وكانوا أيضاً يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فقال ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً .

وعن الضحاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ، ولا أعرج ، لا يستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة في مؤاكلهم ، وعن الزهري أنه سئل عن قوله ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ ، ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا ؟ فقال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ، يقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا ، وكانوا يتحرجون من ذلك ، يقولون لا ندخلها ، وهم غيّب. فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم .

﴿ ولا على أنفسكم ﴾ أي عليكم ، وعلى من يماثلكم من المؤمنين ، وهذا ابتداء كلام مستأنف ، أي ولا عليكم أيها الناس ، والحاصل أن رفع الحرج عن الأعمى والأعرج ، والمريض . إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء ، أو دخول بيوتهم ، فيكون ولا على أنفسكم متصلا بما قبله ، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التي يشترط فيها وجود البصر ، وعدم العرج ، وعدم المرض ، فقوله ﴿ ولا على أنفسكم ﴾ ، ابتداء كلام غير متصل بما قبله .

﴿ أن تأكلوا ﴾ أنتم ومن معكم ﴿ من بيوتكم ﴾ أي البيوت التي فيها متاعكم ، وأهلكم ، فيدخل بيوت الأولاد ، وكذا قال المفسرون لأنها داخلة في

بيوتهم ، لكون بيت ابن الرجل بيته ، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد وذكر بيوت الآباء ، وبيوت الأمهات ومن بعدهم . قال النحاس ، وعارض بعضهم هذا ، فقال : هذا تحكم على كتاب الله سبحانه ، بل الأولى في الظاهر أن يكون الإبن مخالفاً لهؤلاء ، ويجاب عن هذه المعارضة ، بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء ، لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد ، بل للآباء خصوصية في أموال الأولاد ، لحديث أنت ومالك لأبيك ، وحديث ولد الرجل من كسبه .

وقد ذكر سبحانه بيوت الإخوة والأخوات ، بل بيوت الأعمام والعمات بل بيوت الأخوال والخالات ، فكيف ينفي سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء ، ولا ينفيه عن بيوت الأولاد أو المعنى من بيوت أزواجكم ، لأن بيت المرأة كبيت الزوج ، ولأن الزوجين صارا كنفس واحدة ، وقيل أراد من أموال عيالكم ، والعموم أولى فيشمل الكل .

﴿ أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ﴾ وقد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن منهم ، لأن الإذن ثابت دلالة وقال آخرون : يشترط الإذن قيل هذا إذا كان الطعام مبذولا ، فإن كان محرزاً دونهم ، لم يجزهم كله قال الخطيب : وهؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة ، بل ينبغي أن يشترط فيهم أن لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم من الأجانب ، فلا بد فيهم من صريح الإذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لي ، ولم أر من تعرض لذلك ، ثم قال سبحانه :

﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ أي البيوت التي تملكون التصرف فيها . بإذن أربابها وذلك كالوكلاء ، والخزان فيهم فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته وإعطائهم مفتاحه ، وقيل المراد بها بيوت المماليك ، قرىء

ملكتم بفتح الميم وتخفيف اللام وبضم الميم وكسر اللام مع تشديدها وقرىء مفاتيحه ومفتاحه على الإفراد ، والمفاتح جمع مفتح ، والمفاتيج جمع مفتاح .

﴿ أو صديقكم ﴾ أي لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم ، وإن لم يكن بينكم وبينه قرابة فإن الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك وتطيب به نفسه والصديق يطلق على الواحد ، والجمع ومثله العدو ، والخليط والفطين والعشير قال قتادة : اذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته . ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس . وعن ابن زيد قال : هذا شيء قد انقطع ، انما كان هذا في أوله ، ولم يكن لهم أبواب ، وكانت الستور مرخاة فربما دخل الرجل البيت ، وليس فيه أحد فربما وجد الطعام ، وهو جائع فسوغه الله أن يأكله ، وقال : ذهب ذلك اليوم ؛ البيوت فيها أهلها فإذا خرجوا أغلقوا .

قال النسفي : فأما الآن فقد غلب الشح على الناس . فلا يؤكل إلا بإذن ،انتهى ،قال المحلي: المعنى يجوز الأكل من بيوت من ذكر ؛ وان لم يحضروا أي الاصناف الاحد عشر . اذا علم رضاهم به بصريح اللفظ ، أو بالقرينة وان كانت ضعيفة ، وخصوا هؤلاء بالذكر ، لأن العادة جارية بالتبسط بينهم وقيل ان هذا كان جائزاً في صدر الاسلام ثم نسخ والأول أولى،ثم قال سبحانه

﴿ وليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو اشتاتاً ﴾ أي مجتمعين أو مفترقين جمع شت ، وهو المصدر بمعنى التفرق ، يقال : شت القوم ، أي : تفرقوا ، وهذا كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر ، من جنس ما قبله وقد كان بعض العرب يتحرج أن يأكل وحده ، حتى يجد له أكيلاً يؤاكله فيأكل معه وبعض العرب كان لا يأكل إلا مع ضيف . قال قتادة : كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده ، في

الجاهلية ، حتى إن كان الرجل يسوق الذود الحفل ، وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ، ويشاربه فأنزل الله هذه الآية

وعن عكرمة وأبي صالح قالا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلت رخصة لهم وعن ابن عباس قال : خرج الحرث غازياً مع رسول الله ﷺ وخلف على أهله خالد بن يزيد فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهوداً فنزلت وقد ترجم البخاري في صحيحه باب قوله تعالى هذا،ومقصوده فيها قال أهل العلم في هذا الباب إباحة الأكل جميعاً وإن اختلفت أحوالهم في الأكل فقد سوغ النبي ﷺ ذلك فصار سنة في الجماعات التي تدعى إلى الطعام في النهد والولائم والإملاق في السفر وما ملكت مفاتحه بأمانة أو قرابة أو صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك،والنهد ما يجمعه الرفقاء من مال أو طعام على قدر نفقتهم ينفقونه بينهم .

قال ابن دريد : يقال من ذلك تناهد القوم الشيء بينهم قال المزي وفي حديث الحسن : أخرجوا نهدكم فإنه أعظم للبركة واحسن لأخلاقكم والنهد ما تخرجه الرفقة عند المناهدة وهو استقسام النفقة بالسوية بالسفر وغيره

﴿ فإذا دخلتم بيوتاً ﴾ هذا شروع في بيان أدب آخر أدب به عباده أي إذا دخلتم بيوتا غير البيوت التي تقدم ذكرها ﴿ فسلموا على انفسكم ﴾ أي على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم،وقيل المراد البيوت المذكورة سابقاً وعلى القول الأول فقال الحسن والنخعي : هي المساجد والمراد سلموا على من فيها من صنفكم فإن لم يكن في المساجد فقيل يقول : السلام على رسول الله ﷺ وقيل يقول السلام عليكم مر الملائكة،وقال بالقول الثاني أعني أنها البيوت المذكورة سابقاً جماعة من الصحابة والتابعين، وقيل المراد بالبيوت هنا كل البيوت المسكونة وغيرها فيسلم على أهل المسكونة .

وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، قال ابن العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح ولا دليل على التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه فإذا دخل بيتاً لغيره استأذن ﴿ تحية ﴾ أي فحيوا تحية ثابتة صادرة مشروعة .

﴿ من عند الله ﴾ أي من جهته ومن لدنه يعني أن الله حياكم بها، وقال الفراء : إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له، ثم وصف هذه التحية فقال : ﴿ مباركة ﴾ أي كثيرة البركة والخير دائمتها يثاب عليها ﴿ طيبة ﴾ أي تطيب بها نفس المستمع، وقيل حسنة جميلة، وقال الزجاج : أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب، قال ابن عباس في الآية : وهو السلام لأنه اسم الله وهو تحية أهل الجنة .

وعن جابر بن عبدالله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة، أخرجه البخاري وغيره، وعن ابن عباس قال : هو المسجد إذا دخلته فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وعن ابن عمر قال : إذا دخلت البيت غير المسكون أو المسجد فقل : السلام الخ .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ أي يفصل لكم معالم دينكم تأكيداً لما سبق، وقد قدمنا أن الاشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ تعليل لذلك التبين برجاء يعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟
حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا
ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ
قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدمها من الأحكام،وإنما من صيغ الحصر،والمعنى لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يؤمن بالله ورسوله ﴿وإذا كانوا معه ﴾ أي مع رسول الله ﷺ هو صلة ثانية ومحط الكمال ﴿ على أمر جامع ﴾ أي طاعة يجتمعون عليها نحو الجمعة والجماعة والنحر والفطر والجهاد أو تشاور في أمر وأشباه ذلك .

وسمى الأمر جامعاً مبالغة،وفيه إسناد مجازى لأن الأمر لما كان سبباً في جمعهم نسب الجمع إليه مجازاً،وقرىء على أمر جميع والحاصل أن الأمر الجامع والجميع هو الذي يعم نفعه أو ضرره وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب .

﴿ لم يذهبوا ﴾ أي يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعروض عذر لهم ﴿ حتى يستأذنوه ﴾ واعتبار هذا في كمال إيمانهم لأنه كالمصداق لصحته والمميز المخلص فيه عن المنافق،فإن ديدنه وعادته التسلل والفرار،ولتعظم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير إذنه .

قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو لعذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبي صلى الله عليه واله وسلم حيث يراه فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده،قال الزجاج : أعلم الله أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيهم فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه وكذلك ينبغي ان يكونوا مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلا بإذنه، وللإمام أن يأذن على ما يرى لقوله فأذن لمن شئت منهم قال العلماء : كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن .

ثم قال سبحانه مؤكداً على أسلوب أبلغ ومعظماً لهذا الأمر

﴿ إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾ فبين سبحانه أن المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله، كما حكم أولاً بأن المؤمنين الكاملي الإيمان هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان وأن الذاهب بغير إذن ليس كذلك .

﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم ﴾ أي لاجل بعض الأمور التي يهمهم كما وقع لسيدنا عمر حين خرج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك حيث استأذن الرسول في الرجوع إلى أهله فاذن له النبي ﷺ وقال له : ارجع فلست بمنافق ﴿ فأذن لمن شئت منهم ﴾ فإنه يأذن لمن شاء منهم ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله ﷺ وفيه رفع شأنه ﷺ .

واستدل به على أن بعض الاحكام مفوض إلى رأيه ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن تكون تابعة لعلمه بصدقه،أي فأذن لمن علمت أن له عذراً، ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم فقال :

﴿ واستغفر لهم الله ﴾ بعد الإذن فيه إشارة إلى أن الاستئذان وإن كان لعذر مسوغ فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة، لان اغتنام مجالسه

أولى من الاستئذان ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي كثير المغفرة لفرطات العباد والرحمة بالتيسير عليهم، بالغ فيهما إلى الغاية التي ليس وراءها غاية .

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أي لا تجعلوا دعوته إياكم كالدعاء من بعضكم لبعض في التساهل في بعض الاحوال عن الإجابة بل أجيبوه فوراً وإن كنتم في الصلاة أو الرجوع بعير استئذان أو رفع الصوت وقال سعيد بن جبير ومجاهد : المعنى قولوا يا رسول الله برفق ولين ولا تقولوا يا محمد بتجهم وعلى هذا جماعة كثيرة وقال قتادة : أمرهم أن يشرفوه ويفخموه،وقيل المعنى لا تتعرضوا الدعاء الرسول عليكم بإسخاطه فإن دعوته موجبة .

وقيل : المعنى يجب عليكم المبادرة لأمره، واختاره أبو العباس، ويؤيده قوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ وقيل معناه لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم ، وكبيركم وفقيركم ، وغنيكم ، يسأله حاجة ، فربما تجاب دعوته وربما لا تجاب فإن دعوات الرسول مسموعة مستجابة، وعن سعيد بن جبير في الآية قال : يعني كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه، ولكن وقروه ، وقولوا له : يا رسول الله ؛ يا نبي الله ، قال : لا تصيحوا به من بعيد : يا أبا القاسم !! ولكن كما قال الله في الحجرات : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ ، والأول أولى .

﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ أي : يخرجون وينسلون من المسجد في الخطبة واحداً بعد واحد ، من غير استئذان ، خفية مستترين بشيء ، و﴿ قد ﴾ للتحقيق ، والتسلل : الخروج من البين في خفية . يقال : تسلل فلان من بين أصحابه ، إذا خرج من بينهم ، واللواذ من الملاوذة ، وهو أن تستتر بشيء مخافة من يراك ؛ وأصله أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا واللوذ ما يطيف بالجبل ، وقيل اللواذ الروغان من شيء إلى شيء في خفية ، أي

متلاوذين ، يلوذ بعضهم ببعض ، وينضم إليه ، وقيل : يلوذون لواذاً ، وقرىء : لَـوَاذ بفتح اللام .

وفي الآية بيان ما كان يقع من المنافقين ، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة ، فكانوا يفرون عن الحضور ويتسللون في خفية ، ويستتر بعضهم ببعض ، وينضم إليه وقيل اللواذ الفرار من الجهاد ، وبه قال الحسن عن مقاتل قال : كان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام ، فيأذن له النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشير إليه بيده . وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة ، والجلوس في المسجد فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج ، فأنزل الله هذه الآية ، أخرجه أبو داود في مراسيله .

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي : يخالفون أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بترك العمل بمقتضاه ، ويذهبون سمتاً خلاف سمته ، وعُـدِّيَ فعل المخالفة بعن ، مع كونه متعدياً بنفسه لتضمينه ، معنى الإعراض ، أو الصد . وقيل الضمير لله سبحانه لأنه الأمر بالحقيقة . قال أبو عبيدة والأخفش ﴿ عن ﴾ زائدة هنا ، وقال الخليل وسيبويه : ليست بزائدة ، بل هي بمعنى : بعد كقوله : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ ، أي : بعد أمر ربه ، والأولى ما ذكرناه من التضمين .

﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي : فليحذر المخالفون عن أمر الله ، أو أمر رسوله ، أو أمرهما جميعاً إصابة فتنة لهم ، والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن ، وقيل : هي القتل . وقيل : الزلازل . وقيل : تسلط سلطان جائر . وقيل : الطبع على قلوبهم . وقيل : إسباغ النعم استدراجاً ، أو محنة في الدنيا .

﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أي : في الآخرة ، كما أن الفتنة التي حذرهم من إصابتها لهم هي في الدنيا ، وكلمة ﴿ أو ﴾ لمنع الخلو ، قال القرطبي : احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية ، ووجه ذلك أن الله سبحانه حذرهم من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها ، بقوله : ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ الآية ، فيجب امتثال أمره ، ويحرم مخالفته ، والآية تشمل كل من خالف أمر الله ، وأمر رسوله .

﴿ ألا إن لله ﴾ تنبيه على أن لا يخالفوا أمر من له ﴿ ما في السموات والأرض ﴾ من المخلوقات بأسرها فهي ملكه ، وخلقه وعبيده ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أيها العباد من الأحوال التي أنتم عليها ، فيجازيكم بحسب ذلك ، ويعلم ههنا بمعنى علم ، وأدخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين الحق ، ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد .

﴿ ويوم ﴾ أي ويعلم يوم ﴿ يرجعون إليه ﴾ فيجازيهم فيه بما عملوا ، وفيه التفات عن الخطاب ، وتعليق علمه سبحانه بيوم الرجوع لا بنفس رجوعهم لزيادة تحقق علمه ، لأن العلم بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ من الأعمال التي من جملتها مخالفة الأمر ، والظاهر من السياق أن هذا الوعيد للمنافقين .

﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وغيرها ، عن عقبة بن عامر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور ، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه . يقول : بكل شيء بصير ، أخرجه الطبراني وغيره . قال السيوطي بسند حسن .

سورة الفرقان

﴿ سبع وسبعون آية ﴾

وهي مكية كلها في قول الجمهور، نزلت قبل الهجرة، وبه قال ابن الزبير وقال القرطبي وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها، فإنها نزلت بالمدينة وهي ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ الآيات.

وأخرج البخاري ومسلم ومالك والشافعي وابن حبان والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب، قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستمعت لقراءته. فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئه بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه. فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: كذبت، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت؛ فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر؛ فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا ما تيسر منه»[1].

(١) مسلم ٨١٨ ـ البخاري ١١٩٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ
فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا
وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

﴿ تبارك الذي نزّل لفرقان ﴾ تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد لأنه أقدم وأهم ، ثم في النبوة لأنها الواسطة ثم في المعاد ، لأنه الخاتمة وأصل تبارك مأخوذ من البركة . وهي النماء والزيادة . حسيّـة كانت أو عقلية . قال الزجاج : تبارك تفاعل من البركة ، وبه قال ابن عباس ، قال : ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير ، وقال الفراء : إن تبارك وتقدس في العربية واحد . ومعناهما العظمة . وقيل المعنى تبارك عطاؤه ، أي زاد وكثر ، وقيل دام وثبت .

قال النحاس : وهذا أولاها في اللغة، والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت ، ومنه برك الجمل ، أي دام وثبت ، واعترض ما قاله الفراء بأن التقديس إنما هو من الطهارة ، وليس من ذا في شيء . قال العلماء : هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه ، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي . والمعنى تعالى الله عما سواه في ذاته وصفاته ، وأفعاله التي من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى ، وسمو صفاته ، وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح ، وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية ، والفرقان القرآن وسمي فرقاناً لأنه يفرق بين الحق والباطل بأحكامه أو بين المحقّ والمبطل .

قال قتادة : هو القرآن فيه حلاله وحرامه وشرائعه ودينه وقيل لأنه نزل مفرقاً في أوقات كثيرة ، ولهذا قال : ﴿نــزّل﴾ بالتشديد لتكثير التفريق .

﴿ على عبده ﴾ محمد ﷺ ثم علل التنزيل بقوله ، ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ فإن النذارة هي الغرض المقصود من الإنزال والمراد بالعالمين هنا الإنس والجن لأن النبي ﷺ مرسل إليهما ، قال المحلي : دون الملائكة ، ولم يكن غيره من الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام مرسلاً إلى الثقلين .

والنذير المنذر أي ليكون محمد ﷺ منذراً أي وبشيراً أو ليكون إنزال القرآن منذراً أو ليكون إنزاله انذاراً أو ليكون محمد ﷺ إنذاراً وجعل الضمير للنبي ﷺ أولى ، لأن صدور الإنذار منه حقيقة ومن القرآن مجاز .

والحمل على الحقيقة أولى ، أو لكونه أقرب مذكور قال قتادة : بعث الله محمداً ﷺ نذيراً من الله لينذر الناس بأس الله ، ووقائعه بمن خلا قبلكم .

وقيل إنّ رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى :﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾. ويصح رجوعه للمنزِّل وهو الله وقوله ﴿ للعالمين ﴾ متعلق بـ ﴿نذيراً ﴾ قدم عليه لرعاية الفاصلة . ثم إنه سبحانه وصف ذاته الكريمة بصفات أربع .

الأولى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ دون غيره لا استقلالاً ، ولا تبعاً فهو المتصرف فيهما ، وفيه تنبيه على افتقار الكل إليه في الوجود وتوابعه من البقاء وغيره .

﴿ و ﴾ **الصفة الثانية** : ﴿ لم يتخذ ولداً ﴾ فيه رد على اليهود والنصارى .

﴿ و ﴾ : ﴿ لم يكن له شريك في الملك ﴾ فيه رد على طوائف

المشركين من الثنوية والوثنية وعباد الأصنام ، وأهل الشرك الخفي . فأثبت له الملك بجميع وجهوهه ، ثم نفى ما يقوم مقامه فيه ، ثم نبه على ما يدل عليه فقال .

﴿ وخلق كل شيء ﴾ من الموجودات مما تطلق عليه صفة المخلوق ، وهي **الصفة الرابعة** : ﴿ فقدره تقديراً ﴾ أي قدر كل شيء مما خلق بحكمته ، على ما أراده وهيأه لما يصلح له ، وسواه تسوية لا اعوجاج فيه ، ولا زيادة على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولا نقصاً عن ذلك في بابي الدنيا والدين . وقيل : أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير حسب إرادته ، كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة ، فقدره وهيأه لما أراد منه ، من الخصائص والأفعال أو فقدره للبقاء إلى أجل مسمى .

قال قتادة : بيّن الله لكل شيء من خلقه صلاحه وجعل ذلك بقدر معلوم . قال الواحدي : قال المفسرون : قدر له تقديراً من الأجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق ،وقيل أريد بالخلق هنا مجرد الإحداث والإيجاد مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير ، وإن لم يخل عنه في نفس الأمر ، فيكون المعنى أوجد كل شيء فقدره ، لئلا يلزم التكرار هذا أوضح دليل على المعتزلة في خلق أفعال العباد ، ثم صرح سبحانه في تزييف مذاهب عبدة الأوثان فقال :

﴿ واتخذوا من دونه ﴾ الضمير للكفار ، أو المنذرين أو للمشركين ، وإن لم يتقدم لهم ذكر لدلالة العالمين ، ونفي الشريك ، والنذير عليهم أي اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله ﴿ آلهة ﴾ قال قتادة : هي الأوثان التي تعبد من دون الله ﴿ لا يخلقون شيئاً ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء وغلب العقلاء على غيرهم لأن في معبودات الكفار الملائكة وعزيراً والمسيح .

﴿ وهم يخلقون ﴾ أي يخلقهم الله سبحانه قال قتادة : أي هو الله الخالق

الرازق وهذه الأوثان تُخْلَقَ ولا تَخْلُق شيئاً ولا تضر ولا تنفع، وقيل عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جرياً على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع ، وقيل المعنى عبدتهم يصورونهم وينحتونهم، ثم لما وصف سبحانه نفسه الكريمة بالقدرة الباهرة وصف الآلهة المشركين بالعجز البالغ فقال :

﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً ولا يدفعوا عنها ضرراً ، وقدم ذكر الضر لأن دفعه أهم من جلب النفع ، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم وهذا يدل على غاية عجزهم ، ونهاية ضعفهم ، ثم زاد في بيان عجزهم فنص على هذه الأمور فقال :

﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ أي لا يقدرون على إماتة الأحياء ، ولا إحياء الموتى ، ولا بعثهم من القبور ، لأن النشور هو الإحياء بعد الموت ، يقال : أنشر الله الموتى ، فنشروا . وقدم الموت لمناسبته للضر المتقدم ولما فرغ سبحانه من بيان التوحيد وتزييف مذاهب المشركين ، شرع في ذكر شبه منكري النبوة ، فالشبهة الأولى ما حكاه عنه بقوله :

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي مشركو العرب ﴿ إن هذا ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إلا إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ أي اختلقه محمد ﷺ ﴿ وأعانه عليه ﴾ أي على الاختلاق ﴿ قوم آخرون ﴾ يعنون من اليهود قيل وهم أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي ، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وجبر مولى ابن عامر ، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود ، وقد مر الكلام على مثل هذا في سورة النحل، ثم رد الله سبحانه عليهم فقال :

﴿ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ﴾ أي فقد قالوا ظلماً هائلاً عظيماً وكذباً ظاهراً، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة

بل على أن الثاني هو عين الأول حقيقة ، وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري و﴿ قد ﴾ لتحقيق ما جاؤوا به من الظلم والزور ، وانتصاب ﴿ ظلماً ﴾ جاؤوا فإن ﴿ قد ﴾ لتحقيق ما جاؤوا به من الظلم والزور ، وانتصاب ﴿ ظلماً ﴾ بجاؤوا فإن جاء قد تستعمل استعمال أتى ، وتعدى تعديته ، وقال الزجاج : الأصل جاؤوا بظلـم ، وقيل على الحال ، وإنما كان ذلك منهم ظلماً لأنهم نسبوا القبيح إلى من هو مبرأ منه . فقد وضعوا الشيء في غير موضعه ، وهذا هو الظلم .

وقيل هو جعل الكلام المعجز إفكاً مختلقاً متلفقاً من اليهود ، وأما كون ذلك منهم زوراً فظاهر لأنهم قد كذبوا في هذه المقالة ، ثم ذكر الشبهه الثانية فقال :

﴿وقالوا أساطير الأولين﴾ أي أحاديثهم ، وما سطروه من الأخبار مثل خبر رستم وإسفنديار. قال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة ، مثل أحاديث وأحدوثة ، وقال غيره : جمع أسطار ، مثل أقاويل وأقوال ﴿ اكتتبها ﴾ أي استكتبها أو كتبها لنفسه ، أو المعنى جمعها من الكتب ، وهو الجمع لأمر الكتابة بالقلم ، والأول أولى . ومحل اكتتبها النصب على الحال ، أو الرفع على أنه خبر ثان . وقرىء اكتتبها مبنياً للمفعول والمعنى اكتتبها له كاتب ، لأنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ .

﴿ فهي تملى عليه ﴾ أي تلقى عليه تلك الأساطير بعدما اكتتبها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب . لكونه أمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكنوب بنفسه . أو المعنى أراد اكتتابها فهي تملي عليه لأنه يقال أمليت عليه فهو يكتب ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ أي غدوة وعشياً ، كأنهم قالوا : إن هؤلاء يعلمون محمداً ﷺ، طرفي النهار ، وقيل معنى بكرة وأصيلاً دائماً في جميع الأوقات فأجاب الله سبحانه عن هذه الشبهة بقوله :

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾
وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾
تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ أي ليس ذلك مما يفترى، ويفتعل، بإعانة قوم وكتابة آخرين من الأحاديث الملفقة وأخبار الأولين بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شيء لا يغيب عنه شيء من الأشياء فلهذا عجزتم عن معارضته ولم تأتوا بسورة مثله، وخص السر للاشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة، لا يبلغ إليها عقول البشر، والسر: الغيب، أي يعلم الغيب الكائن فيهما.

﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ تعليل لتأخير العقوبة أي: إنكم، وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسول الله ﷺ، والظلم له فإنه لا يعجل عليكم بذلك لأنه كثير المغفرة والرحمة، ثم لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن، ذكر ما طعنوا به على الرسول ﷺ فقال:

﴿وقالوا: مال هذا الرسول؟﴾ في الاشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه، وهو رسول الله ﷺ وسموه رسولاً استهزاء وسخرية، وحاصل ما ذكر هنا ستة قبائح، والأخيرة هي قوله ﴿إلّا رجلاً مسحوراً﴾ وقد رَدّ الله عليهم هذه الستة إجمالاً في البعض، وتفصيلاً في البعض، والمعنى، أي شيء. وأي سبب حصل، لهذا الذي يدعى الرسالة حال كونه ﴿يأكل الطعام﴾ كما نأكله.

﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ ويتردد فيها لطلب المعاش كما نتردد ، زعموا أنه كان يجب أن يكون الرسول ملكاً مستغنياً عن الطعام ، والكسب،والاستفهام للإنكار ، وهو يرجع إلى السبب مع تحقق المسبب ، وهو الأكل والمشي ، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم ، تهكماً واستهزاء ، والمعنى : أنه إن صح ما يدعيه من النبوة فما باله يخالف حاله حالنا ؟ ﴿ لولا ﴾ للتحضيض ، هذا ما استظهره ابن هشام ، بعد نقله عن الهروي أنها للاستفهام أي : هلا .

﴿ أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ طلبوا أن يكون النبي مصحوباً بملك . يعضده ويساعده ، تنزلوا عن اقتراح كون الرسول ملكاً ، مستغنياً عن الأكل والكسب ، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ، ويشهد له بالرسالة ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه إلى اقتراح أن يكون معه كنز يلقى إليه من السماء ، ليستغني به عن طلب الرزق .

﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية ، وقرىء بالتحتية لأن تأنيث الجنة غير حقيقي ، وقرىء نأكل بالنون ، أي : بستان نأكل نحن من ثماره ، وبالتحتية ، أي : يأكل هو وحده منه ، ليكون له بذلك مزية علينا ، حيث يكون أكله من جنته : قال النحاس : والقراءتان حسنتان ، وإن كانت القراءة بالياء أبين ، لأنه قد تقدم ذكر النبـي ﷺ وحده ، فعود الضمير إليه أبين .

عن ابن عباس قال : إن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب ، والنضر ابن الحرث ، وأبا البختري والأسود بن عبد المطلب ، وزمعـة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبدالله بن أبي أمية ، وأمية بـن خلف ، والعاص بن وائل ، ومنبه بن الحجاج ، اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه ، ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك .

قال : فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، إنا بعثنا إليك لنعذر

منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف . فنحن نسودك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك فقال رسول الله ﷺ : «ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ! ولا الشرف فيكم ! ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك ، أو قالوا : فإذا لم تفعل هذا ، فسل نفسك ، وسل ربك ، أن يبعث معك ملكاً يصدقك ، بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناناً ، وقصوراً ، من ذهب وفضة ، يغنيك عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالاسواق ، وتلتمس المعاش ، كما نلتمسه،حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولاً ، كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً» فأنزل الله في ذلك هذه الآية أخرجه ابن اسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر .

﴿ وقال الظالمون ﴾ المراد بهم هنا هم القائلون بالمقالات الأول ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به : ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ أي مخدوعاً مغلوباً على عقله بالسحر ، وقيل ذا سحر ، وهي الرئة ، أي : بشراً له رئة لا ملكاً ، فالمراد بالسحر هنا لازمه ، وهو اختلال العقل وقد تقدم بيان مثل هذا في سبحان .

﴿ أنظر كيف ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤا على التفوه بها ، وتعجب منها أي : أنظر كيف ﴿ ضربوا لك الأمثال ﴾ وقالوا : في حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول ، الجارية مجرى الأمثال واخترعوا لك تلك الصفات ، والأحوال الشاذة ، البعيدة من الوقوع ، ليتوصلوا بها إلى تكذيبك والأمثال هي الأقوال النادرة ، والاقتراحات الغريبة ، وهي ما ذكروه ههنا من

المفتري ، والمملى عليه ، والمسحور .

﴿ فضلوا ﴾ عن الصواب ، فلا يجدون طريقاً إليه ، ولا وصلوا إلى شيء منه ، بل جاؤوا بهذه المقالات الزائفة ، التي لا تصدر عن أدنى العقلاء ، وأقلهم تمييزاً ، ولهذا قال ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ يعني لا يجدون إلى القدح في نبوة هذا النبي طريقاً من الطرق .

﴿ تبارك ﴾ أي تكاثر خير ﴿ الذي إن شاء جعل لك ﴾ في الدنيا معجلاً ﴿ خيراً من ذلك ﴾ الذي اقترحوه من الكنز والبستان ، ثم فسر الخير فقال ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي في الدنيا لأنه تعالى شاء أن يعطيه إياها في الآخرة ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ قد تقرر في علم الإعراب أن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع فجعل ههنا في محل جزم ورفع فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم كما قرأ الجمهور ، وأن يرفع كما قرأ ابن كثير ، والقصر البيت من الحجارة ، لأن الساكن به مقصور عن ان يوصل إليه . وقيل هو بيت الطين . وبيوت الصوف ، والشعر .

عن خيثمة قال : قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن شئت أعطيناك من خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ، ولا نعطيها أحداً بعدك ، ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً وإن شئت جمعتها لك في الآخرة ، فقال : «اجمعوها لي في الآخرة» فأنزل الله سبحانه هذه الآية أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وغيرهم . ثم أضرب الله سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء فقال :

﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أي : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة ، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ، ولا يتأملون فيها ، ثم ذكر سبحانه ما أعده لمن كذب بالساعة فقال ﴿ وأعتدنا ﴾ أي : والحال إنا أعتدنا ، وهيأنا وخلقنا ﴿ لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ قال أبو مسلم : أي جعلناه عتيداً ، ومعداً لهم ، انتهى . والسعير هي النار المتسعرة المشتعلة ، والنار موجودة اليوم

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا
مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا
كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ
جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا
مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

لهذه الآية ، كما أن الجنة كذلك لقوله تعالى ﴿ أعدت للمتقين ﴾

ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع وإعداد السعير لهم وإن لم يكن لخصوص تكذيبهم بالساعة بل لأي تكذيب بشيء من الشريعة ، لكن الساعة لما كانت هي العلة القريبة لدخولهم السعير ، اقتصر على ترتيب الإعداد على التكذيب بها .

﴿ إذا رأتهم ﴾ قيل : معناها إذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر في البعد ، وقيل : المعنى إذا رأتهم خزنتها وقيل : إن الرؤية هنا حقيقية وكذلك التغيظ والزفير ، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك ، وهو الأرجح ومعنى ﴿ من مكان بعيد ﴾ أنها رأتهم وهي بعيدة عنهم ، قيل : بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام ، وقيل : عام .

وعن ابن عباس قال : من مسيرة مائة عام ، وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام ، يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بر وفاجر ، فترى تزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع إلا بدت ، ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها ، وتبلغ القلوب الحناجر .

وعن رجل من الصحابة قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من يقل عليّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً ، قيل : يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : « نعم أما سمعتم الله يقول : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ؟ ﴾ أخرجه عبد بن حميد

وابن جرير من طريق خالد بن دريك ونحوه عند رزين في كتابه وصححه ابن العربي في قبسه ، وله لفظ بمعناه .

وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران ، وأذنان تسمعان ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بثلاث بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر . وبالمصورين »[1] وفي الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح .

﴿ سمعوا لها تغيظاً ﴾ أي : غلياناً كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب ، يعني : أن لها صوتاً يدل على التغيظ على الكفار أو لغليانها صوتاً يشبه صوت المغتاظ . ﴿وزفيراً ﴾ هو الصوت ، أي سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ وقال قطرب : أراد علموا لها تغيظاً ، وسمعوا لها زفيراً ، وقيل المعنى فيها تغيظاً ، وزفيراً للمعذبين ، كما قال لهم فيها زفير وشهيق ، وفي واللام ، متقاربان بأن تقول هذا الله وفي الله ﴿ وإذا ألقوا منها ﴾ أي طرحوا ﴿ مكاناً ضيقاً ﴾ وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدة ، وتناهي البلاد عليهم .

وعن يحيى بن أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لما سئل عن هذه الآية قال : والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار ، كما يستكره الوتدفي الحائط » وعن ابن عباس « أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح »

﴿ مقرنين ﴾ أي حال كونهم قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد . وقيل : مكتفين . وقيل قرنوا مع الشياطين ، أي قرن كل واحد منهم إلى شيطانه ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة إبراهيم ﴿ دعوا هنالك ﴾ أي في ذلك المكان الضيق ﴿ ثبوراً ﴾ أي هلاكاً ، كما قال الزجاج ، وقال ابن عباس : ثبوراً ، أي ويلاً . وقيل ثبرنا ثبوراً وقيل مفعول

(١) الترمذي كتاب جهنم باب ١ ـ الإمام أحمد ٢ / ٣٣٦ ـ ٣ / ٤٠ .

له ، والمعنى أنهم يتمنون هنالك الهلاك ، وينادونه لما حل بهم من البلاء ، ويقولون يا ثبوراه . أي إحضر ، فهذا أوانك ، لكنهم لا يهلكون . وأجيب عليهم بقوله :

﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ﴾ والقائل لهم هم الملائكة خزنة جهنم ، أي اتركوا دعاء ثبوراً واحداً ﴿ وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير ، فلهذا لم يجمع ، ومثله ضربته ضرباً كثيراً ، وقعد قعوداً طويلاً ، فالكثرة ههنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به ، لا بحسب كثرته في نفسه ، فإنه شيء واحد ، والمعنى لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحداً ، وادعوه أدعية كثيرة . فإن ما أنتم فيه من العذاب أشد من ذلك لطول مدته وعدم تناهيه . وقيل هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول وهو خلاف ظاهر القرآن .

وقيل إن المعنى أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً ، بل هو ثبور كثير لأن العذاب أنواع كثيرة ، كل نوع منها ثبور لشدته أو لأنه يتجدد لقوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ أو لأنه ينقطع فهو في كل وقت ثبور ، والأولى أن المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم وإقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه .

أخرج أحمد ، والبزار والبيهقي ، وغيرهم قال السيوطي بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن أول ما يكسى حلته من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادي يا ثبوراه ، ويقولون : يا ثبورهم . حتى يقف على الناس ، فيقول : يا ثبوراه ويقولون : يا ثبورهم ، فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً[1]» ثم وبخهم الله سبحانه توبيخاً بالغاً ، على لسان رسوله فقال :

---

(١) الإمام احمد ٣/١٥٢ - ٣/١٥٣ - ٣/٢٤٩ .

﴿ قل أذلك ﴾ أي السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة ﴿ خير أم جنة الخلد ﴾ وفي إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها . وعدم انقطاعه . والمجيء بلفظ ﴿ خير ﴾ هنا مع أنه لا خير في النار أصلاً لأن العرب قد تقول ذلك . ومنه ما حكاه سيبويه عنهم ، أنهم يقولون : السعادة أحب إليك أم الشقاوة ؟ وقد علم أن السعادة أحب إليه . وقيل ليس هذا من باب التفضيل ، وإنما هو كقولك عنده خير قال النحاس وهذا قول حسن .

﴿ التي وعد ﴾ أي وعدها ﴿ المتقون ﴾ فالراجع إلى الموصول محذوف ثم قال سبحانه ﴿ كانت ﴾ أي تلك الجنة ﴿ لهم ﴾ أي للمتقين ﴿ جزاء ﴾ على أعمالهم ﴿ ومصيراً ﴾ يصيرون إليه وهذا في علم الله ، أو في اللوح المحفوظ قبل خلقهم بأزمنة متطاولة ، أو قال ذلك لأن ما وعد الله به فهو في تحققه كأنه قد كان

﴿ لهم فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ ما يشاؤون ﴾ أي ما يشاؤونه من النعم ، وضروب الملاذ كما في قوله ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم . ولعله تقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبتها ، لأن الظاهر أن الناقص لا يدرك شيئاً مما هو للكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة ، قال الشهاب : وإنه تعالى لا يلقي في خواطرهم أن ينالوا رتبة من هو أشرف منهم ، ولا يتلفتوا إلى حال غيرهم ﴿ خالدين ﴾ أي في نعيم الجنة ومن تمام النعيم أن يكون دائماً إذ لو انقطع لكان مشوباً بضرب من الغم وقد تقدم تحقيق معنى الخلود .

﴿ كان ﴾ أي ما يشاؤونه ، وقيل كان الخلود وقيل الوعد المدلول عليه وبقوله ﴿ وعد المتقون ﴾ ﴿ على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ أي الوعد الحقيقي بأن يسئل وبطلب كما في قوله ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾، وقيل إن الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله ﴿ وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ وقيل المراد به الوعد الواجب وان لم يسأل، وقال ابن عباس : يقول تعالى سلوا الذي وعدتكم تنجزوه .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن
دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا
بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ
وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي اذكر ، وتعليق التذكير باليوم ، مع أن المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد ، كما مر مراراً ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ غلب غير العقلاء من الأصنام والأوثان ونحوها على العقلاء من الملائكة والجن والمسيح تنبيهاً على أنها جميعاً مشتركة في كونها غير صالحة لكونها آلهة ،أو لأن من يعبد من لا يعقل . أكثر ممن يعبد من يعقل منها . فغلبت اعتباراً بكثرة من يعبدها ، وقال مجاهد ، وابن جريج : المراد الملائكة والإنس والجن ، والمسيح وعزير بدليل خطابهم وجوابهم فيما بعد ، وقال الضحاك وعكرمة والكلبي : المراد الأصنام خاصة ، وأنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم، فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة ، وقيل عام و﴿ ما ﴾ يتناول العقلاء وغيرهم ؛ لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم .

﴿ فيقول ﴾ الله تعالى إثباتاً للحجة على العابدين ؛ وتقريعاً وتبكيتاً لهم ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والمعنى إن كان ضلالهم بسببكم ؛ وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم ﴿ أم هم ضلوا السبيل ﴾ أي طريق الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق والتدبّر فيما يتوصل به إلى الصواب ﴿ قالوا ﴾ أي المعبودون مستأنفة جواب سؤال مقدر، ومعنى

﴿ سبحانك ﴾ التعجب مما قيل لهم ، لكونهم ملائكة . أو أنبياء معصومين ، أو جمادات لا تعقل ، أي تنزيهاً لك .

﴿ ما كان ينبغي ﴾ وقرىء مبنياً للمفعول قال ابن خالويه : زعم سيبويه أنها لغة ، أي ما صح ولا استقام ﴿ لنا أن نتخذ من دونك ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ من أولياء ﴾ فنعبدهم فكيف ندعو عبادك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك ، والولي يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع ، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور ﴿ نتخذ ﴾ مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول . والمعنى أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك ، وقال أبو عبيدة : لا تجوز هذه القراءة وبه قال أبو عمرو بن العلاء ، وعيس بن عمر ؛ لأنه سبحانه ذكر ﴿ من ﴾ مرتين ، ولو كانت صحيحة لقال أن نتخذ من دونك أولياء أي لحذفت من الثانية ، وقيل إنها زائدة ، ثم حكى عنهم سبحانه بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان فقال :

﴿ ولكن متعتهم ، وآباءهم حتى نسوا الذكر ﴾ وفي هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل ، ولم يضلهم غيرهم ، والمعنى ما أضللناهم ؛ ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ، ووسعت عليهم الرزق ، وأطلت لهم العمر ، حتى غفلوا عن ذكرك ، ونسوا موعظتك ، والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك ، وغرائب مخلوقاتك ؛ وجعلوا ذلك ذريعة إلى ضلالهم ؛ عكس القضية ؛ وقيل المراد بنسيان الذكر ههنا ، هو ترك الشكر .

﴿ وكانوا ﴾ هؤلاء الذين أشركوا بك ، وعبدوا غيرك في قضائك الأزلي ﴿ قوماً بوراً ﴾ أي هلكى ، قاله ابن عباس مأخوذ من البوار ، وهو الهلاك يقال رجل بائر . وقوم بور ؛ يستوي فيه الواحد والجماعة . لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير ، أو جمع بائر ، وقيل البوار الفساد ، يقال : بارت بضاعته أي فسدت ، وأمر بائر ، أي فاسد ، وهي لغة الأزد . وقيل المعنى الأخير فيهم مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها من الزرع ، فلا يكون فيها خير ، وقيل إن

البوار الكساد . ومنه بارت السلعة إذا كسدت ، وهذا كله يرجع إلى معنى الهلاك والفساد ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولاً عن الغيبة .

﴿ فقد كذبوكم ﴾ وفي الكلام حذف ، والتقدير فقال الله عند تبري المعبودين مخاطباً للمشركين العابدين لغير الله فقد كذبكم المعبودون ،وقرىء مخففاً أي كذبوكم في قولهم ﴿ بما تقولون ﴾ أي في قولكم أنهم آلهة وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة ، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات ، وحذف القول ، ونظيرها ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ ، إلى قوله ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ وقول القائل :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وقال ابن زيد : المعنى قد كذبوكم أيها المؤمنون ، هـؤلاء الكفار بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هذا فمعنى بما تقولون : بما تقولونه من الحق وقرىء فقد كذبوكم مخففاً ، وبما يقولون بالتحتية أي كذبوكم في قولهم .

﴿ فما تستطيعون ﴾ أيها الكفار ﴿ صرفاً ﴾ أي دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه وقيل حيلة ﴿ ولا نصراً ﴾ أي نصركم،وقرىء بالتحتية فالمعنى فما يستطيع آلهتكم ان يصرفوا عنكم العذاب او ينصروكم ، وقيـل المعنى فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفاً للعذاب الذي عذبهم الله به ولا نصراً من الله وقال أبو عبيد : المعنى فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذي هداكم الله إليه ولا نصراً لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم ﴿ ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴾ هذا وعيد لكل ظالم ويدخل تحتهم الذين فيهم السياق دخولاً أولياً، والعذاب الكبير عذاب النار،وفسر الخلود فيها،وهو يليق بالمشرك دون الفاسق إلا على قول المعتزلة والخوارج .

وقرىء يذقه بالتحتية وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة، وعن الحسن قال : الظلم هو الشرك،وقال ابن جريج : يظلم يشرك ثم يرجع سبحانه إلى

خطاب رسوله موضحاً لبطلان ما تقدم من قولهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فقال :

﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ قال الزجاج : الجملة الواقعة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى ما أرسلنا قبلك أحداً منهم الا آكلين وماشين فأنت مثلهم في ذلك وقد قيل لهم مثل ما قيل لك، وقال الفراء : لا محل لها من الإعراب انما هي صلة لموصول محذوف والتقدير إلا من أنهم كما في قوله ﴿ إلا واردها ﴾ أي إلا من يردها،وبه قال الكسائي وقال الزجاج : هذا خطأ لأن من الموصولة لا يجوز حذفها،وقال ابن الانباري : التقدير إلا وإنهم،وقرىء إنهم بكسر إن لوجود اللام في خبرها وهو مجمع عليه عند النحاة . وقال المبرد : يجوز فيه الفتح،قال النحاس : وأحسبه وهماً. وقرىء يمشون مخففاً ومثقلاً . قال قتادة : يقول إن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون ويمشون .

﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ هذا الخطاب عام للناس ، وفيه تسلية له ﷺ أيضاً ، فإنه أشرف الأشراف ، وقد ابتلى بأخس الأخساء ، وقد جعل سبحانه بعض عبيده فتنة لبعض ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنة للفقير،وقيل المراد بالبعض الأول كفار الأمم ، وبالبعض الثاني الرسل ، ومعنى الفتنة الابتلاء ، والمحنة . والأول أولى ، فإن البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به فالمريض يقول لِمَ لم أجعل كالصحيح ؟ وكذا صاحب كل آفة ، والصحيح مبتلى بالمريض ، فلا يضجر منه ولا يحقره،والغني مبتلى بالفقير يواسيه ، والفقير مبتلى بالغنى يحسده ، ونحوه هذا مثله .

وقيل المراد بالآية أنه كان إذا أراد الشريف أن يسلم ، ورأى الوضيع قد أسلم قبله ، أنف وقال : لا أسلم بعده فيكون له على السابقة والفضل ! فيقيم على كفره . فذلك افتتان بعضهم ببعض،واختار هذا الفراء والزجاج ولا وجه لقصر الآية على هذا ؛ فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول فالاعتبار بعموم

اللفظ لا بخصوص السبب . وقال الحسن : في الآية يقول الفقير لو شاء الله جعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان ويقول الأعمى : لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان .

وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي ﷺ يقول : «ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم ، وويل للمالك من المملوك ، وويل للمملوك من المالك ، وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان بعضكم لبعض فتنة،وهو قوله تعالى ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾»[1] أسنده الثعلبي ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض فتنة للبعض :

﴿ أتصبرون ﴾ هذا الاستفهام للتقرير والتقدير : أتصبرون على ما ترون من هذه الحالة الشديدة والابتلاء العظيم فتؤجروا أم لا تصبرون فيزداد غمكم، وعليه جرى الأكثرون وقيل : معنى أتصبرون اصبروا مثل قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ أي انتهوا،روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال : «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم[2] » ثم وعد الله الصابرين بقوله :

﴿ وكان ربك بصيراً ﴾ أي بكل من يصبر ومن لا يصبر فيجازي كُلًّا منهما بما يستحقه ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قدحوا بها في النبوة أي وقال : المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله وقيل المعنى لا يخافون لقاء ربهم بالشر،وهي لغة تهامة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنها وصول إلى المرئي،والمراد به الوصول إلى جزائه،ويمكن أن يراد به الرؤية على الأول،قال الفراء : وضع الرجاء موضع الخوف . وقيل : لا يأملون لقاءنا بالخير لكفرهم بالبعث والحمل على المعنى الحقيقي أولى

---

(١) الأحاديث الضعيفة ٦١٥٤ ـ ٦١٥٥ ، من حديثين حتى ويل للمملوك من المالك.
(٢) مسلم ٢٩٦٣ ـ البخاري ٢٤٣٤ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً
مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ
تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ
يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ
مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾

فالمعنى لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب .

﴿ لولا ﴾ هَلاّ ﴿ أنزل علينا الملائكة ﴾ فيخبروننا أن محمداً ﷺ صادق، أو هَلاّ أنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله ﴿ أو نرى ربنا ؟ ﴾ عياناً فيخبرنا بأن محمداً ﷺ رسول، ثم أجاب الله سبحانه عن شبهتهم هذه فقال :

﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ أي أضمروا الاستكبار عن الحق والعناد في قلوبهم كما في قوله تعالى ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ والعتو مجاوزة الحد في الطغيان والبلوغ إلى أقصى غاياته قال ابن عباس : عتوا أي شدة الكفر، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه ورؤيته في الدنيا من دون ان يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً، هي أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله أو تعد من المستعدين له، وهكذا من جهل قدر نفسه ولم يقف عند حده ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى.

﴿ يوم ﴾ أي : اذكر يوم ﴿ يرون الملائكة ﴾ أي ملائكة العذاب رؤية

ليست على الوجه الذي طلبوه والصورة التي اقترحوها، بل على وجه آخر وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت أو عند الحشر، قال مجاهد: يوم القيامة، وعن عطية العوفي نحوه.

﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ أي يمنعون البشرى يوم يرون، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فأعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة وهو وقت الموت أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى، بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة، قال الزجاج: المجرمون في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله، وهو ظاهر في موضع مضمر، أو عام يتناولهم بعمومه، وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد: الكفار، لأن مطلق الأسماء يتناول أكمل المسميات.

﴿ويقولون﴾ عند مشاهدتهم للملائكة: ﴿حجراً﴾ حراماً ﴿محجوراً﴾ هذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو، وهجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة يقال للرجل: أتفعل كذا؟ فيقول: حجرا محجوراً أي حراماً عليك التعرض لي.

والمعنى يطلبون من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقهم أي: يسأله أن يمنع ذلك منعاً، ويحجره حجراً. وقيل إن هذا من الملائكة أي يقولون للكفار: حراماً محرماً أن يدخل أحد منكم الجنة. وأن تكون البشرى اليوم إلا للمؤمنين وقال أبو سعيد الخدري: حراماً محرماً أن نبشركم مما نبشر به المتقين، وعن الحسن. وقتادة قالا: هي كلمة كانت العرب تقولها عند الشدائد، وقال مجاهد: أي عوذاً معاذ الملائكة تقوله والحجر مصدر بمعنى الاستعاذة، والكسر والفتح لغتان وقرىء بهما، وقرىء الضم وهو لغة فيه وهو من حجره إذا منعه وقد ذكر سيبويه في باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها، هذه الكلمة، وجعلها من جملتها، وبه قال السمين، والبيضاوي. والحجر: العقل، لأنه يمنع صاحبه، ومحجوراً صفة مؤكدة للمعنى، كقولهم ذيل ذائل وموت مائت.

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ هذا وعيد آخر ، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صور الخير ، من صلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، وإطعام الطعام ، وأمثالها ولم يمنع من الأثابة عليها إلا الكفر ، الذي هم عليه فمثلت حالهم وأعمالهم ، بحال قوم خالفوا سلطانهم ، واستعصوا عليه ، فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده ، ولم يترك منه شيئاً، وإلا فلا قدوم ههنا أو هو من الصفات ، كالمجيء والنزول ، فيجب الإيمان به من غير تأويل ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تشبيه ، ولا تمثيل ، كما هو مذهب السلف الصلحاء ، وهو الحق .

قال الواحدي : معنى قدمنا عمدنا ، وقصدنا ، يقال : قدم فلان إلى امر كذا إذا قصده ، أو عمده، وقيل هو قدوم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى والقصد في حق الله يرجع لمعنى الإرادة .

﴿ فجعلناه هباء منثوراً ﴾ أي باطلاً، لا ثواب له ، لأنهم لم يعملوا لله عز وجل ومنه الحديث الصحيح « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد »[1] والهباء واحده هباءة ، والجمع أهباء . قال النضر بن شميل : الهباء التراب الذي تطيره الريح ، كأنه دخان . وقال الزجاج : هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس شبه الغبار . وكذا قال الخليل ، والأزهري . وقال ابن عرفة : الهباء ، والهبوة التراب الدقيق . وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب ، عند السير من الغبار، وعن علي قال : الهباء شعاع الشمس ، الذي يخرج من الكوة ، وعنه الهباء وهج الغبار ، يسطع ، ثم يذهب ، فلا يبقى منه شيء .

وعن ابن عباس قال : الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً، وعنه قال : هو ما تسفي الريح ، وتبثه من

(١) مسلم ١٧١٨ ـ البخاري ١٣٠٣ .

التراب وحطام الشجر . وعنه هو الماء المهراق . والمعنى الأول هو الذي ثبت في لغة العرب ، ونقله العارفون بها ، والمنثور المفرق،والمعنى أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور ، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد ، وبالجملة هو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع . إذ لا ثواب فيه ، لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا . ثم ميز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار فقال :

﴿ أصحاب الجنة يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ خير مستقراً ﴾ أي أفضل منزلاً في الجنة ، من الكافرين في الدنيا ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ أي موضع قائلة فيها،أو هم خير منهم في الآخرة لو فرض أن يكون لهم ذلك ، أو أفعل لمجرد الوصف من غير مفاضلة . عن ابن عباس قال : في الغرف من الجنة. قال النحاس : والكوفيون يجيزون «العسل أحلى من الخل» .قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار . وقال الأزهري : القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر ، وإن لم يكن مع ذلك نوم لأن الله تعالى قال : ﴿ وأحسن مقيلاً ﴾ والجنة لا نوم فيها.

وقال ابن عباس : الحساب في ذلك اليوم في أوله ، ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى الغروب . والآية أشارت إلى أن كُلًّا من أهل الجنة وأهل النار قد قالوا ، أي : استقروا في وقت القيلولة ، وإن كان استقرار المؤمنين في راحة ، واستقرار الكافرين في عذاب فيكون الحساب لجميع الخلق قد انقضى في هذا الوقت .

﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ وصف سبحانه ههنا بعض حوادث يوم القيامة ، والتشقق التفتح ،قرىء بتخفيف الشين وأصله تشقق ، وقرىء مشدداً على الإدغام ، والمعنى أنها تتشقق عن الغمام لأن الباء وعن ، تتعاقبان كما تقول رميت بالقوس . قال أبو علي الفارسي : تشقق السماء وعليها غمام كما تقول : ركب الأمير بسلاحه . أي : وعليه سلاحه ، وخرج بثيابه ، أي : وعليه ثيابه ، وروي أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق ، أبيض ، مثل

الضبابة . ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم ، وقيل : إن السماء تتشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس ، والمعنى : أنه يتشقق السحاب بتشقق السماء . وقيل : إنها تشقق لنزول الملائكة ، كما قال سبحانه .

﴿ ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ وقيل : الباء للسببية يعني بسبب طلوع الغمام منها ، كأنه الذي يتشقق به السماء ، وقيل : أي متلبسة بالغمام ، وقرىء ننزل مخففاً من الإنزال ، مضارع أنزل، وقرىء نزل مشدداً ماضياً مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل ، وفاعله الله سبحانه ، والملائكة منصوبة على المفعولية . وقرىء أنزل ، وقرىء تنزلت الملائكة ، وتأكيد هذا الفعل بقوله تنزيلاً ، يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب ، ونمط عجيب . قال أهل العلم : هذا تنزيل رضا ورحمة ، لا تنزيل سخط وعذاب .

وعن ابن عباس[1] قال في الآية : يجمع الله الخلق يوم القيامة ، في صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطير ، وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها ، وهم أكثر ممن في الأرض ، من الجن والإنس ، وجميع الخلق ، فيحيطون بالإنس والجن وجميع الخلق . فيقول أهل الأرض أفيكم ربنا ؟ فيقولون لا ، ثم تنشق السماء الثانية ، وذكر مثل ذلك ، ثم كذلك في كل سماء ، إلى السماء السابعة ، وفي كل سماء أكثر من السماء التي قبلها ، ثم ينزل ربنا في ظل من الغمام وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع والأنس والجن ، وجميع الخلق ، لهم قرون ككعوب القثاء ، وهم تحت العرش ، لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ، ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، ومن ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام ، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام . أخرجه الحاكم وابن أبي الدنيا وابن جرير وغيرهم .

---

(١) حديث موقوف على ابن عباس ولا يعد حجة في مشاهد القيامة ، وفي الأسانيد التي رواها ابن جرير وغيره مجاهيل وكذابون « المطيعي » .

﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ أي الملك الثابت الذي لا يزول ولا يشركه فيه أحد ، للرحمن يومئذ ، لأن الملك الذي يزول وينقطع ، ليس بملك في الحقيقة . ولأن السلطان الظاهر والاستيلاء الكلي العام الثابت صورة ومعنى ظاهراً وباطناً بحيث لا زوال له أصلاً ، لا يكون إلا الله تعالى . فالملك مبتدأ ، والحق صفته، وللرحمن خبره ، ويومئذ متعلق بالملك، وفائدة التقييد بالظرف . أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة في هذا اليوم ، وأما فيما عداه من أيام الدنيا فلغيره أيضاً ملك في الصورة ، وإن لم يكن حقيقياً . وقيل إن خبر المبتدأ هو الظرف ، والحق نعت للملك . والمعنى الملك الثابت للرحمن خاصة في هذا اليوم، وقيل الملك مبتدأ ، والحق خبره ، وللرحمن متعلق بالحق .

﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده ، شديداً على الكفار لما يصابون به فيه وينالهم من العقاب ، بعد تحقيق الحساب . وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة . وجاء في الحديث « أنه يهون يوم القيامة على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا » .

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾ الظاهر أن العض هنا حقيقة ولا مانع من ذلك ، ولا موجب لتأويله ، قال عطاء : يأكل الظالم يديه ، حتى يأكل مرفقيه ، ثم ينبتان ، ثم يأكلهما ، وهكذا كلما نبتت يداه أكلهما تحسّراً على ما فعل، ذكره الخازن . وقيل هو كناية عن الغيظ والحسرة والأول أولى . والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل ذلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وعن ابن عباس قال في الآية : هو أبيّ بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط وهما الخليلان في جهنم .

﴿ يقول يا ﴾ قوم ﴿ ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ أي طريقاً . وهو طريق الحق ومشيت فيه ، حتى أخلص من هذه الأمور المضلة . والمراد اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به ، يعني ليتني اتبعت محمداً صلى الله

﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ
وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟
هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ
كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

عليه وآله وسلم واتخذت في الدنيا معه طريقاً. إلى الهداية ﴿ يا ويلتى ﴾ وقرىء يا ويلي ، بالياء الصريحة . وقرىء بالإمالة ، وتركها أحسن .

﴿ ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴾ دعا على نفسه بالويل والثبور وعلى مخاللة الكافر ، الذي أضلّه في الدنيا ، وفلان كناية عن الأعلام . قال النيسابوري : زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصيح إلا حكاية . لا يقال جاءني فلان ، ولكن يقال : قال زيد جاءني فلان ، لأنه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم ، وكذلك جاء في كلام الله وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل ، وفلانة عن علم إناثهم ، وهو منصرف .

وقيل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، وفلانة عمن يعقل من الإناث ، وأما الفلان ، والفلانة بالألف واللام فكناية عن غير العقلاء . و فل يختص بالنداء إلا في ضرورة الشعر ، وليس فل مرخماً من فلان خلافاً للفراء ، وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك ، وهما في جعل فلان كناية علم من يعقل ، وفي لامه وجهان ؛ أحدهما : انها واو . والثاني : أنها ياء ، وحكم الآية عام في كل خليلين ومتحابين ، اجتمعا على معصية الله عز وجل .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يحشر المرء على دين خليله ؛ فلينظر أحدكم من يخالل » أخرجه أبو داود والترمذي[١] ولهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تصاحب إلا مؤمناً . ولا يأكل طعامك إلا تقي » وروى الشيخان عن أبي[٢] موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء ، كحامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة »[٣]

﴿ لقد ﴾ أي : والله لقد ﴿ أضلني ﴾ هذا الذي اتخذته خليلاً ، تعليل لتنمية المذكور ، وتوضيح لتعلله ، وتصديره باللام القسمية للمبالغة في بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته . ﴿ عن الذكر ﴾ أي : القرآن أو كتاب الله ، أو ذكره أو الموعظة أو كلمة الشهادة أو مجموع ذلك .

﴿ بعد إذ جاءني ﴾ وتمكنت منه ، وقدرت عليه بأن ردني عن الإيمان به ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ بأن يتركه ، ويتبرأ منه عند البلاء ، والخذل : ترك الإغاثة ، ومنه خذلان إبليس للمشركين ، حيث يوالونه ، ثم يتركهم عند استغاثتهم به ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، ويحتمل ان تكون من كلام الله تعالى ، أو من تمام كلام الظالم ، وأنه سمى خليله شيطاناً بعد أن جعله مضلاً ، أو أراد بالشيطان إبليس ، لكونه الذي حمله على مخاللة المضلين .

﴿ وقال الرسول ﴾ أي : يقول في يوم القيامة بثاً وشكاية لله مما صنع

(١) الترمذي كتاب الزهد باب ٢٥ .
(٢) الإمام احمد ٣٨/٣ ـ الدارمي كتاب الأطعمة باب ٢٣ .
(٣) مسلم ٢٦٢٨ ـ البخاري ١٠٦٤ .

قومه ، أو هو حكاية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا : ﴿ يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن ﴾ الذي جئت به إليهم وأمرتني بإبلاغه وأرسلتني به ﴿ مهجوراً ﴾ أي : متروكاً ، لم يؤمنوا به ، ولا قبلوه بوجه من الوجوه أو لم يعملوا به . وقيل من هجر إذا هذي ، والمعنى أنهم اتخذوه هجراً وهذياناً . وقيل : المعنى مهجوراً فيه ، وهجرهم فيه قولهم : إنه سحر ، وشعر ، وأساطير الأولين .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : أن الله جعل لكل نبي من الأنبياء الداعين إلى الله عدواً يعاديه من مجرمي قومه فلا تجزع يا محمد ، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك ، واصبر كما صبروا . قال ابن عباس في الآية : كان عدو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبو جهل ، وعدو موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى ﴿ وكفى بربك ﴾ الباء زائدة ﴿ هادياً ﴾ يهدي عباده إلى مصالح الدين والدنيا ﴿ ونصيراً ﴾ ينصرهم على الأعداء .

﴿وقال الذين كفروا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؟﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم، أي: هَلَّا أنزل الله عليه الكتاب دفعة واحدة غير منجم، كما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود عليهم السلام. واختلف في قائل هذه المقالة، فقيل كفار قريش، وقيل اليهود قالوا: هَلَّا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة؟ وهذا زعم باطل،ودعوى داحضة،فإن هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن، ولكنهم معاندون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه،واعتراض منهم لا طائل تحته، لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقاً، مع أن للتفريق فوائد، منها أن نزوله بحسب الوقائع، يوجب مزيد بصيرة وغوص على المعنى ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك في قوة

قلبه، ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية فإنه يعين على البلاغة ثم رد الله سبحانه عليهم فقال:

﴿كذلك﴾ إشارة الى ما يفهم من كلامهم أي مثل ذلك التنزيل المفرّق، الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه ﴿لنثبت﴾ لنقوي ﴿به﴾ أي بهذا التنزيل على هذه الصفة ﴿فؤادك﴾ فإن إنزاله مفرقاً منجماً، على حسب الحوادث، أقرب إلى حفظك له وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت، وقرأ ليثبت بالتحتية أي الله سبحانه.

وقيل قوله: ﴿كذلك﴾ هي من تمام كلام المشركين، والمعنى كذلك أي كالتوراة والإنجيل والزبور فيوقف على قوله: ﴿كذلك﴾ ثم يبتدأ بقوله: ﴿لنثبت به فؤادك﴾ على معنى أنزلناه عليك متفرقاً لهذا الغرض. قال ابن الانباري: وهذا أجود وأحسن قال النحاس: وكان ذلك أي إنزال القرآن منجماً من اعلام النبوة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم. قال ابن عباس: أي لنشدد به فؤادك، ونربط على قلبك، والمعنى أنزلناه مفرقاً لتعيه وتحفظه. فإن الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، وأنزل القرآن على نبي إمي لا يكتب ولا يقرأ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب سؤال عن أمور تحدث في الأوقات المختلفة، ففرقناه ليكون أدعى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأيسر على العامل به.

﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ بديعاً، لا يقادر قدره ومعنى الترتيل أن تكون آية بعد آية، قاله النخعي والحسن وقتادة. وقيل إن المعنى بيناه تبييناً، وقال السدي: فصلناه تفصيلاً، وقال ابن عباس: رسلناه ترسيلاً يقول شيئاً بعد شيء وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض قال ابن الاعرابي: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين، وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل شيئاً بعد شيء في عشرين أو ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل لتيسر فهمه وحفظه، ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون في كل أوان مدفوع قولهم بكل وجه وعلى كل حالة فقال:

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ
أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا
وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾

﴿ولا يأتونك﴾ أي لا يأتيك يا محمد المشركون ﴿بمثل﴾ من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة في إبطال أمرك ﴿إلا جئناك﴾ في مقابلة مثلهم ﴿بالحق﴾ أي بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاؤوا به من المثل، ويدمغه ويدفعه. فالمراد بالمثل هنا السؤال، والاقتراح، وبالحق جوابه الذي يقطع ذريعته، ويبطل شبهيته، ويحسم مادته، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والجملة في محل الحال. أي لا يأتونك بمثل في حال من الأحوال إلا في حال إيتائنا إياك ذلك.

﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ أي جئناك بأحسن تفسير بياناً وتفصيلاً. وبما هو معنى ومؤدى من مثلهم، أي من سؤالهم،وإنما حذف من مثلهم لأن في الكلام دليلاً عليه، ثم أوعد هؤلاء الجهلة وذمهم فقال ﴿الذين يحشرون﴾ كائنين ﴿على وجوههم﴾ ومعنى الحشر على الوجوه أنهم يسحبون عليها ويطؤون الأرض على رؤوسهم، مع ارتفاع اقدامهم، بقدرة الله، ويساقون ويجرون عليها.

﴿إلى جهنم، أولئك شر مكاناً﴾ أي منزلاً، ومصيراً، ومسكناً وهو جهنم ﴿وأضل سبيلاً﴾ وأخطأ طريقاً من غيرهم، وهو كفرهم، وذلك لأنهم قد صلوا في النار. وهو من الإسناد المجازي. وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سوره سبحان، وقد قيل: إن هذا متصل بقوله أصحاب الجنة يومئذ خيراً مستقراً وأحسن مقيلاً.

﴿ولقد﴾ أي والله لقد ﴿آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة كما آتيناك القرآن ذكر سبحانه طرفاً من قصص الأولين تسلية له ﷺ بأن تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله، وليس ذلك بخاص بمحمد ﷺ ﴿وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً﴾ أي عوناً وعضداً في الدعوة، وإعلاء الكلمة قاله قتادة، وقال الزجاج: الوزير في اللغة الذي يرجع إليه، ويعمل برأيه، والوزر ما يعتصم به، ومنه: كلا ولا وزر، وقد تقدم تفسير الوزير في طه، والوزارة لا تنافي النبوة، فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً، وقد كان هرون في أول الأمر وزيراً لموسى عليهما السلام، أو لاشتراكهما في النوبة لأن المتشاركين في الأمر متوازران عليه.

﴿فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا﴾ وهم فرعون وقومه، يعني القبط ﴿بآياتنا﴾ هي التسع المذكورة التي تقدم ذكرها، وإن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر الله لموسى وهرون، بالذهاب فيحمل الماضي على معنى الاستقبال أي سيكذبون بها. وقيل إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلة استحقاقهم للعذاب. وقيل يجوز أن يراد إلى القوم الذين آلـ حالهم إلى أن كذبوا، وقيل إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية، وليس المراد آيات الرسالة. قال القشيري: وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿اذهب الى فرعون إنه طغى﴾. لا ينافي هذا لأنهما إذا كانا مأمورين، فكل واحد مأمور، ويمكن أن يقال: إن تخصيص موسى بالخطاب في بعض المواطن لكونه الأصل في الرسالة، والجمع بينهما في الخطاب لكونهما مرسلين جميعاً.

﴿فدمرناهم تدميراً﴾ في الكلام حذف، أي فذهبا إليهم فكذبوهما فأهلكناهم إثر ذلك التكذيب إهلاكاً عظيماً،فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود منها، وهو إلزام الحجة ببعثة الرسل. واستحقاق التدمير بتكذيبهم، وقيل إن المراد هنا الحكم به، لأنه لم يحصل عقب بعث موسى وهرون إليهم، بل بعده بمدة.

﴿و﴾ اذكر ﴿قوم نوح لما كذبوا الرسل﴾ أي كذبوا نوحاً وإنما جمع لطول لبثه فيهم، فكأنه رسل في المعنى، أو كذبوه. وكذبوا من قبله من رسل الله، لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد: قال الزجاج: من كذب نبياً فقد كذب جميع الأنبياء.

﴿أغرقناهم﴾ بالطوفان، كما تقدم في هود ﴿وجعلناهم﴾ أي جعلنا إغراقهم، أو قصتهم ﴿للناس﴾ كلهم بعدهم ﴿آية﴾ أي عبرة يتعظ بها كل مشاهد لها، وسامع لخبرها ﴿واعتدنا﴾ في الآخرة ﴿للظالمين﴾ الكافرين أي قوم نوح خاصة،فيكون وضعاً للظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بوصف الظلم: ويجوز ان يكون المراد كل من سلك مسلكهم في التكذيب ﴿عذاباً أليماً﴾ هو عذاب الآخرة، سوى ما حل بهم من عاجل العذاب في الدنيا.

﴿و﴾ اذكر ﴿عاداً﴾ قوم هود ﴿وثمود﴾ قوم صالح، وقصتهما قد ذكرت فيما سبق، وثمود بالصرف على معنى الحي، وتركه على تأويله بالقبيلة قراءتان سبعيتان ﴿وأصحاب الرسّ﴾ هو في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية أي لم نبن بالحجارة والجمع رساس، كذا قال أبو عبيدة، وقيدها أهل اللغة، كصاحب القاموس، بأنها التي طويت، اي بنيت بالحجارة، فيؤخذ من مجموع النقلين أن الرسّ ابتداء الشيء، ومنه رسّ الحمى ورسيسها، والبئر المطوية بالحجارة انتهى قال السدي: هي بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار، فنسبوا إليها،وهو صاحب يّس الذي قال ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾، وكذا قال مقاتل وعكرمة وغيرهما وقيل هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياءهم، فجفت أشجارهم، وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً.

وقيل كانوا يعبدون الشجر وقيل كانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه وآذوه، وقيل بئر بفلج اليمامة قرية عظيمة بناحية اليمن. أو موضع باليمن من مساكن عاد، وهم قوم أرسل الله إليهم نبياً فقتلوه وقيل هم أصحاب الأخدود؛ وقيل إن الرس هي البئر المعطلة التي تقدم ذكرها او

صحابها أهلها، وقال في الصحاح: الرس إسم بئر كانت لبقية ثمود، وقيل الرس ماء ونخل لبني أسد وقيل هو الثلج المتراكم في الجبال، أو الرس اسم واد قريب من البصرة قاله ابن كثير والرس ايضاً الاصلاح بين الناس، والإفساد بينهم فهو من الأضداد .

وقيل الرس نهر بالشرق وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورسوه أي دسوه في بئر فبينما هم حول الرس ـ وهي البئر غير المطوية ـ فانهارت فخسف بهم وبمنازلهم وديارهم،وقيل هم اصحاب حنظلة بن صفوان وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف العنقاء قال ابن عباس: الرس قرية من ثمود وعنه بئر بأذربيجان وعنه أنه سأل كعباً عن اصحاب الرس قال: صاحب يٓس،وورد عن محمد بن كعب القرظي في صاحب الرس خبر طويل مرفوع فيه نكارة وغرابة ولعل فيه إدراجاً كما قال ابن كثير في تفسيره والحديث ايضاً مرسل.

﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ القرون جمع قرن اي أهل قرون يعني واذكر أقواماً، والقرن مائة سنة،قاله قتادة وقيل مائة وعشرون سنة قاله زرارة بن اوفى وقيل اربعون سنة وقيل سبعون سنة قاله قتادة ايضاً وقد روي مرفوعاً الى النبي ﷺ أنه قال «القرن مائة سنة» وقال القرن خمسون سنة وقال القرن أربعون سنة، وما أظنه يصح شيء من ذلك وقد سمي الجماعة من الناس قرناً كما في الحديث الصحيح «خير القرون قرني»[1] وأخرج الحاكم في الكني عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا انتهى الى معد بن عدنان أمسك ثم يقول: «كذب النسابون، قال الله وقروناً بين ذلك كثيراً والإشارة بقوله﴿بين ذلك﴾إلى ما تقدم ذكره من الأمم اي بين عاد وأصحاب الرس. وهم جماعات فلذلك حسن دخول ﴿بين﴾ عليه وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليهابذلك،ويحسب الحاسب أعداداً متكاثرة ثم يقول: فذلك كيت وكيت أي ذلك المحسوب، أو المعدود .

---

(١) الترمذي كتاب الفتن باب ٤٥ ـ البخاري كتاب الشهادات باب ٩.

وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا
﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾
إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ
تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ
هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

﴿وكُلاًّ﴾ أي كل الأمم ﴿ضربنا له الأمثال﴾ أي القصص العجيبة من قصص الأولين التي تشبه الأمثال في الغرابة وبينا لهم الحجة فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار،ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة ﴿وكُلًّا تبرنا تتبيراً﴾ التتبير الإهلاك بالعذاب،قال الزجاج؛ كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته،ومنه التبر لفتات الذهب والفضة وقال المؤرج والأخفش: معناه دمرنا تدميراً أبدلت التاء، الباء من الدال والميم.

﴿ولقد أتوا على القرية﴾ مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم، وضمن أتى معنى مر لأنه يستعمل متعدياً بنفسه أو بإلى،والمعنى ولقد أتى مشركو مكة في أسفارهم الى الشام، على قرية قوم لوط، وهي سدوم، وهي أعظم قرى قومه وكانت خمساً. اهلك الله أربعاً مع اهلها، وبقيت واحدة، وهي أصغرها، وكان أهلها لا يعمل الخبائث.

﴿التي أمطرت مطر السوء﴾ وهو الحجارة، قاله ابن عباس، والأمطار معناه الرمي، أي: هلكت بالحجارة، التي أمطروا بها، ورميت رمي الحجارة، والمعنى أعطيتها وأوليتها، مطر السوء، أي أمطاراً مثل مطر السوء وقد تقدم، تفسير السوء في براءة ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي يرون القرية

المذكورة عند سفرهم الى الشام للتجارة. فإنهم يمرون بها مراراً أي: يرون آثارها، وآثار ما حل بأهلها، وقيل: للتقرير، أي: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه، وهو ما بعد النفي، أي: ليقروا بأنهم رأوها حتى يعتبروا بها، والفاء للعطف على مقدر، اي لم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها، أو كانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مرات مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب، فالمنكر في الأول: ترك النظر وعدم الرؤية معاً، والمنكر في الثاني: عدم الرؤية مع تحقق النظر، الموجب لها.

﴿بل كانوا لا يرجون﴾ أي: لا يأملون ﴿نشوراً﴾ أي بعثاً أضرب سبحانه عما سبق، من عدم رؤيتهم لتلك الآثار، الى عدم رجاء البعث منهم، المستلزم لعدم رجائهم للجزاء، أو معنى يرجون يخافون،على اللغة التهامية ﴿وإذا رأوك إن﴾ أي: ما ﴿يتخذونك إلا هزواً﴾ أي مهزواً بك،قصر معاملتهم له على اتخاذهم إياه هزواً، قيل نزلت في أبيّ جهل، كان. إذا مر مع أصحابه قال مستهزياً ﴿أهذا الذي بعث؟﴾ أي بعثه ﴿الله رسولاً﴾ أي مرسلاً في دعواه، وفي اسم الاشارة دلالة على استحقارهم له، وتهكمهم به آ ﴿إن كاد﴾ أي قالوا إنه كاد هذا الرسول ﴿ليضلنا﴾ ليصرفنا ﴿عن آلهتنا﴾ فنترك عبادتها بفرط اجتهاده والدعاء الى التوحيد، وكثرة ما يورده مما يسبق إلى الذهن أنه حجج ومعجزات.

﴿لولا أن صبرنا عليها﴾ اي حبسنا أنفسنا على عبادتها ثم إنه سبحانه أجاب عليهم بقوله: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب﴾ عياناً، أي عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه، ويستوجبونه، لسبب كفرهم ﴿من أضل سبيلاً﴾ أي أبعد طريقاً عن الحق والهدى، أهم؟ أم المؤمنون؟ ثم بين لهم سبحانه أنه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد، واتباع الهوى، فقال معجباً لرسوله:

﴿ارأيت من اتخذ إلٓهه هواه﴾ قدم المفعول الثاني للعناية به كما تقول علمت منطلقاً زيداً قاله الزمخشري، اي أطاع هواه طاعة. كطاعة الإلٓه، أي انظر إليه يا

محمد، وتعجب منه والوجه الآخر أنه لا تقديم، ولا تأخير، لاستوائهما في التعريف، قاله السمين فادعاء القلب ليس بجيد، لأنه من ضرورات الشعر وقال أبو السعود بالوجه الأول، ثـم قال: ومن توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويها في التعريف؛ فقد غاب عنه أن المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة، أي أرأيت من جعل هواه إلهاً لنفسه، من غير أن يلاحظه، وبنى عليه امر دينه، معرضاً عن استماع الحجة الباهرة، والبرهان النير بالكلية عن ابن عباس قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه، رمى به، وعبد الآخر، فأنزل الله الآية، وعنه قال: ذلك الكافر لا يهوى شيئاً إلا اتبعه، وعن الحسن مثله.

﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً ؟﴾ أي حفيظاً، وكفيلاً، حتى ترده الى الايمان وتخرجه من الكفر وتحفظه من اتباع الهوى، وعبادة ما يهواه من دون الله، والاستفهام للإنكار والاستبعاد،فالمعنى لست تقدر على ذلك، ولا تطيقه، فليست الهداية والضلالة موكولتين الى مشيئتك، وإنما عليك البلاغ، وقد قيل إن هذه الآية منسوخة بآية القتال. قاله الكلبي، ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول الى إنكار آخر فقال:

﴿ أم تحسب ان أكثرهم يسمعون ؟ ﴾ « ما تتلو عليهم من آيات القرآن ، ومن المواعظ سماع تفهم ، واعتبار » ﴿ أو يعقلون ﴾ معاني ذلك ويفهمونه ، حتى تعتني بشأنهم ، وتطمع في إيمانهم ، وليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة من لا يسمع ، ولا يعقل . وتخصيص الأكثر بالذكر ، لأنه كان منهم من آمن ، ومنهم من عقل الحق ، وكابر استكباراً وخوفاً على الرياسة ، ثم بين سبحانه حالهم ، وقطع مادة الطمع فيهم فقال:

﴿إن هم﴾ أي ما هم في الانتفاع بما يسمعونه ﴿إلا كالأنعام﴾ التي هي

مسلوبة العقل والفهم، فلا تطمع فيهم فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم، ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك، كانوا كالفاقد له. ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم، بأنهم كالأنعام، إلى ما هو فوق ذلك؛ فقال:

﴿بل هم أضل﴾ من الأنعام ﴿سبيلاً﴾ اي طريقاً قال مقاتل: البهائم تعرف ربها، وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم؛ الذي خلقهم؛ ورزقهم، والمعنى أنها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن إليها ممن يسيء اليها وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي الى تهييج الفتن، وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال، فلا تقصير منها، ولا ذم عليها، وهؤلاء مقصّرون، ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

وقيل إنما كانوا أضل من الأنعام لأنه لا حساب عليها ولا عقاب لها، وقيل إنما كانوا أضل لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة، لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء، فإنهم اعتقدوا البطلان عناداً ومكابرة، وتعصباً. وغمطاً للحق. وقيل إن الأنعام تسجد وتسبح، والكفار لا يفعلون ذلك،وقيل الملائكة روح، وعقل، والبهائم نفس، وهوى، والآدمي مجمع الكل ابتلاء، فإن غلبته النفس والهوى، فضلته الأنعام، وإن غلبته الروح وضلالتهم، أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام، وحاصل ما ذكر منها خمسة، فأولها الاستدلال بأحوال الظل فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ
سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ
أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا ﴿٥٠﴾

﴿ألم تر إلى ربك كيف﴾ أي : على أي وجه ﴿مد الظل ؟﴾ هذه الرؤية إما بصرية ، والمراد بها ألم تبصر الى صنع ربك ؟ أو ألم تبصر إلى الظل ؟ كيف مده ربك ؟ وإما قلبية ، بمعنى العلم ، فإن الظل متغير وكل متغير حادث ولكل حادث موجد . قال الزجاج :﴿ألم تر﴾: ألم تعلم ؟ وهذا من رؤية القلب ، قال : وهذا الكلام على القلب، والتقدير: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك ، يعني الظل من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس ، وهو ظل لا شمس معه ، وبه قال الحسن وقتادة . وقيل : هو من غيبوبة الشمس الى طلوعها ، قال القرطبي : والأول أصح ، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة ، فإن فيها يجد المريض راحة ، والمسافر ، وكل ذي علة ، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد ، وتطيب نفوس الأحياء فيها ، وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب ، وقال أبو العالية : نهار الجنة هكذا ، وأشار الى ساعة المصلين صلاة الفجر.

قال أبو عبيدة : الظل بالغداة ، والفيء بالعشي ، لأنه يرجع بعد زوال الشمس ، سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب ، وقال ابن السكيت : الظل ما نسخته الشمس ، والفيء ما نسخ الشمس ، وعن رؤبة. قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء ، وظل ، وما لم تكن

عليه الشمس فهو ظل ، أنتهى . وحقيقة الظل أنه أمر متوسط بين الضوء الخـالص والظلمة الخالصة،وهذا التوسط هو أعدل من الطرفين ، وأطيب الأحوال ، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع ، وينفر عنها الحس ، والضوء الكامل لقوته يبهر الحس البصري ، ويؤذي بالتسخين ، ولذلك وصفت به الجنة في قوله :

﴿ وظل ممدود ﴾ قال أبو السعود، وأما ما قيل من أن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس فغير سديد ، إذ لا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظم قدرة الله عز وجل ، وبالغ حكمته فيما يشاهدونه ، فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها ، في موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف ، مخالفة لما في جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر ؛ وإن كان في الحقيقة ظلاً للأفق الشرقي ، لكنهم لا يعدونه ظلاً ، ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ، انتهى .

وعن ابن عباس قال : كيف مد الظل أي : بعد الفجر ، قبل أن تطلع الشمس ، وعنه قال : ألم تر أنك إذا صليت الفجر ، كان ما بين مطلع الشمس الى مغربها ظلاً؟ ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً فقبض الظل . وعنه قال : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وبه قال الجمهور ، واعترض عليه بأنه لا يسمى ظلاً لأنه من بقايا الليل واقع في غير النهار ، ومعنى الآية كيف أنشأ ظلاً لأي مظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً ، وأنه تعالى مده ، بعد أن لم يكن كذلك ، كما بعد نصف النهار إلى غروبها ، فإن ذلك مع خلوه عن التصريح يكون نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم .

﴿ ولو شاء ﴾ سكونه ﴿ لجعله ساكناً ﴾ ثابتاً دائماً لا يزول ، ومستقراً لا تنسخه الشمس ، ولا يذهب عن وجه الأرض ، وقيل : المعنى ولو شاء لمنع

الشمس الطلوع ، فلا يزول ، أو جعلها مسلوبة الضوء، والأول أولى ، والتعبير بالسكون عن الإقامة والاستقرار شائع ، ومنه قولهم : سكن فلان بلد كذا إذا أقام به ، واستقر فيه ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه ﴾ أي على الظل بنسخها إياه عند مجيئها ﴿ دليلاً ﴾ أي : حجة وبرهاناً . وعلامة يستدل بأحوالها على أحواله ، وذلك لأن الظل يتبعها ، كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص والمعنى أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة ، فالأشياء تعرف بأضدادها ، ولم يؤنث الدليل ، وهو صفة للشمس لأنه في معنى الاسم ، كما يقال : الشمس برهان ، والشمس حق .

﴿ ثم قبضناه ﴾ أي : ذلك الظل الممدود ، ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس ، موقعه بالتدريج حتى انتهت تلك الأظلال إلى العدم والاضمحلال ، ومعنى ﴿ إلينا ﴾ أن مرجعه إليه سبحانه ، كما أن حدوثه منه ، وجاء بثم استعارة تبعية لتفاضل ما بين الأمور الثلاثة ، مد الظل ، وجعل الشمس عليه دليلاً وقبضه يسيراً، فكان الثاني أعظم من الأول، والثالث أعظم من الثاني، شبه تباعد ما بينها في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت ، أو لتفاضل مبادي أوقات ظهورها، وقيل: المراد في الآية قبضه عند قيام الساعة قبض أسبابه ، وهي الأجرام النيرة ، والأول أولى، وقيل : المعنى ان الظل يبقى في هذا الجو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً جزءاً فجزءاً ، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرقت على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها ، فإذا غربت فليس هناك ظل إنما ذلك بقية نور النهار .

وقال قوم : قبضه بغروب الشمس لأنها إذا لم تغرب فالظل فيه بقية ، وإنما يتم زواله لمجيء الليل ودخول الظلمة عليه وقيل : إن هذا القبض وقع بالشمس لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً قاله مالك وإبراهيم

التيمي . وقيل : المعنى ثم قبضنا ضياء الشمس بالفيء .

﴿ قبضاً يسيراً ﴾ أي : قليلاً قليلاً على تدريج بقدر ارتفاع الشمس، لتنتظم بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق،وقيل : يسيراً أي سريعاً ، قاله الضحاك ، وقيل : المعنى يسيراً علينا ، ليس بعسير . وقال قتادة : أي خفيفاً ، كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة ، وليس يزول دفعة واحدة ، وهو قول مجاهد .

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر . قال ابن جرير : وصف الليل باللباس تشبيها من حيث إنه يستر الأشياء ويغشاها ﴿ و ﴾ جعل ﴿ النوم سباتاً ﴾ أي : راحة لكم لأنكم تنقطعون عن الاشتغال ، وأصل السبات التمدد ، يقال سبتت المرأة شعرها ، أي : نقضته وأرسلته . ورجل مسبوت أي ممدود الخلقة ، وقيل للنوم سبات ، لأنه بالتمدد يكون ، وفي التمدد معنى الراحة ، وقيل السبت القطع ـ فالنوم انقطاع عن الاشتغال ، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال قال الزجاج : السبات النوم الخفيف ، وهو أن ينقطع عن الحركة ، والروح في بدنه ، أو ابتداؤه في الرأس ، حتى يبلغ القلب ، أي : جعلنا نومكم راحة لكم .

وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ، أي جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام ، والراحة، وقيل السبات الموت ، والمسبوت الميت ، لأنه مقطوع الحياة ، هو كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ ويعضده ذكر النشور في مقابلته، ذكره الزمخشري ، والنسفي ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ أي : ذا نشور وانتشار ينتشر فيه الناس للمعاش ، أي جعله زمان بعث من ذلك السبات شبه اليقظة بالحياة، كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات ، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه ، لأن في الاحتجاب بستر

الليل فوائد دينية دنيوية ، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر،قال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر .

﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشراً ﴾ جمع بشور ، وقرىء نشراً بالنون ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي متفرقة قدام المطر لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر ، وهذه استعارة مليحة ،والمراد بالرياح الجنس ، وهي الصبا والجنوب والشمال، بخلاف الدبور ، فإنها ريح العذاب التي أهلكت بها عاد . والشمال تأتي من ناحية الشام والجنوب تقابلها وهي اليمانية ، والصبا تأتي من مطلع الشمس وهي القبول أيضاً ، والدبور تأتي من ناحية المغرب ، والريح مؤنثة على الأكثر فيقال هي الريح . وقد تذكر على معنى الهواء فيقال : هو الريح وهب الريح نقله أبو زيد وقال ابن الأنباري : إنها مؤنثة لا علامة فيها ، وكذلك سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكّر، قد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في الأعراف .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ وصف الماء به إشعاراً بالنعمة وتتميماً للمنة بما بعده . فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته . وفيه تنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها ، فبواطنهم أولى بذلك، قال الأزهري : الطهور في اللغة المطهر ، قال : وفعول في كلام العرب لِمَعانٍ منها فعول لما يفعل به ، مثل الطهور لما يتطهر به ، والوضوء لما يتوضأ به قال ابن الانباري : الطَهور بفتح الطاء الاسم وكذلك الوضوء والوقود ، وبالضم المصدر،هذا هو المعروف في اللغة ، وقد ذهب الجمهور إلى أن الطهور هو الطاهر المطهر،ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة،ويدل له ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » اخرجه أبو داود والترمذي والنسائي .[1]

---

(١) ابو داوود كتاب الطهارة باب ٤١ .
الترمذي كتاب الطهارة ٥٢ .
النسائي كتاب الطهارة باب ٤٦ .

وروي عن أبي حنيفة أنه قال : الطهور هو الطاهر . واستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ يعني طاهراً وعلى كل حال فقد ورد الشرع بأن الماء طاهر في نفسه مطهر لغيره . قال الله تعالى ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ وقال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ خلق الماء طهوراً ﴾ وأخرج أهل السنن وأحمد وغيرهم من حديث أبي سعيد قال : قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر قضاعة ، وهي بئر تلقى فيه الحيض ولحوم الكلاب والنتن ، فقال : «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»[1] وفي إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفاه الحافظ ابن حجر في التلخيص ،، وتبعه الشوكاني في شرحه على المنتقى ، ثم ذكر سبحانه علة الإنزال فقال :

﴿ لنحيي به ﴾ أي الماء المنزل من السماء ﴿ بلدة ميتاً ﴾ وصف البلدة بالميت ، وهي صفة للمذكر ، لأنها بمعنى البلد . وقال الزجاج : أراد بالبلد المكان أو يستوي فيه المذكر والمؤنث والمراد بالإحياء هنا إخراج النبات من المكان الذي لا نبات فيه ﴿ ونسقيه ﴾ بضم النون ، وقرىء بفتحها والضمير المنصوب راجع إلى الماء ﴿ مما خلقنا أنعاماً ﴾ أي بهائم أي إبلاً ، وبقراً وغنماً، وقد تقدم الكلام عليها ، وخصها بالذكر لأنها ذخيرتنا . ومدار معاش أكثر أهل المدر ، ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض فإنها سبب لحياتها وتعيشها فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

﴿ وأناسي كثيراً ﴾ جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه ، وهو الراجح وقال المبرد ، والفراء والزجاج : إنه جمع إنسي أي بياء النسب وفيه أن ما هي فيه لا يجمع على فعاليّ، وللفراء قول آخر ، أنه جمع إنسان والأصل على الأول أناسين مثل سرحان وسراحين ، وبستان وبساتين ، فجعلوا الياء عوضاً من النون .

(١) ابو داوود كتاب الطهارة باب ٣٤ ـ الإمام احمد ٣١/٣ ـ ١٧/٤ .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم
بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ
أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ
وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ أي كررنا أحوال الإظلال . وذكر إنشاء السحاب ، وإنزال المطر في القرآن ، وفي سائر الكتب السماوية ، ليتفكروا او يعتبروا ، وقريء صرفناه مثقلاً ومخففاً ، وكذا ليذكروا مخففة من الذكر ، ومثقلة من التذكر ، وقيل ضمير صرفناه يرجع إلى أقرب المذكورات وهو المطر أي صرفنا المطر بينهم ، في البلدان المختلفة . والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطش وطل وجود ورذاذ . وديمة فنزيد منه في بعض البلدان ، وننقص في بعض آخر منها .

وقيل : الضمير راجع إلى القرآن ، وقد جرى ذكره في أول السورة حيث قال ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾ وقوله ﴿ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ﴾ وقوله : ﴿ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ والمعنى ولقد كررنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس ، ليذكروا به ، ويعتبروا بما فيه ، وقيل هو راجع إلى الريح ، وعلى رجوع الضمير إلى المطر . فقد اختلف في معناه فقيل ما ذكرناه وقيل تصريفه تنويع الانتفاع به ، في الشرب والسقي . والزراعات ، والطهارات عن ابن عباس قال : ما من عام بأقل مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء ثم قرأ هذه الآية .

﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي كفران النعمة وجحودها وقلة

الاكترات لها قال عكرمة : إن المراد هو قولهم في الأفواه : مطرنا بنوء كذا ، قال النحاس : ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هنا قولهم مطرنا بنوء كذا ، والنوء كما في المختار سقوط نجم من المنازل في المغرب ، وطلوع رقيبة من المشرق في ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً ، ماخلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منهما وقيل إلى الطالع لأنه في سلطانه والجمع أنواء .

﴿ ولو شئنا لبعثنا ﴾ أي في زمنك ﴿ في كل قرية نذيراً ﴾ أي رسولاً ينذرهم ليكون الرسل المبعوثون معاونين لك ، فتخف عليك أعباء النبوة . كما قسمنا المطر بينهم ، ولكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيراً واحداً وهو أنت يا محمد،وقصرنا الأمر عليك إجلالاً لك، وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل،وليعظم أجرك،فقابل ذلك بشكر النعمة وبالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق .

﴿ فلا تطع الكافرين ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم ، بل اجتهد في الدعوة واثبت فيها ولا تضجر ﴿ وجاهدهم به ﴾ أي بالقرآن واتل عليهم ما فيه من القوارع ، والنواذر والزواجر والأوامر والنواهي،وقيل الضمير يرجع إلى الله أو الاسلام أو إلى السيف . والأول أولى،وهذه السورة مكية والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة،وقيل راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله فلا تطع الكافرين،وقيل الضمير يرجع إلى ما دل عليه ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً،من كونه نذير كافة القرى لأنه سبحانه لو بعث في كل قرية نذيراً لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التي أرسل إليها،وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات فكبر جهاده وعظم فكأنه قال له : وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهاداً جامعاً-لكل مجاهدة ولا يخفى ما في هذين الوجهين من البعد .

﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي شديداً عظيماً موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيوف وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم،ثم ذكر سبحانه دليلاً رابعاً على التوحيد فقال .

﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ أي أرسلهما متجاورين أو خلاهما متلاصقين بحيث لا يتمازجان،من مرَج أي خلى وخلط وأرسل يقال مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء قال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدهما إلى الآخر،وقال ابن عرفة : خلطهما فهما يلتقيان،يقال مرجته إذا خلطته،ومرج الدين والأمر اختلط واضطرب،ومنه قوله تعالى ﴿ في أمر مريج ﴾ وقال الأزهري : مرج البحرين خلى بينهما لا يلتبس أحدهما بالآخر ، يقال : مرجت الدابة إذا خليتها ترعى ، وقال ثعلب : المرج الإجراء فالمعنى أجراهما،وقال الاخفش : وتقول قوم أمرج مثل مرج فعل وأفعل بمعنى .

﴿ هذا عذب فرات ﴾ هو البليغ العذوبة ، المائلة إلى الحلاوة . والجملة مستأنفة كأنه قيل : كيف مرجهما ؟ فقيل : هذا عذب الخ ، أو حال بتقدير مقولاً فيهما . قيل سمى الماء الحلو فراتاً ، لأنه يفرت العطش ، أي يقطعه ، ويشقه ويكسره ولا يجمع إلا نادراً على فرتان كغربان ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي بليغ الملوحة ، وقيل البليغ في الحرارة وقيل البليغ في المرارة . وقرىء ملح بفتح الميم وكسر اللام . قال ابن عباس : خلع أحدهما على الآخر ، فليس يفسد العذب المالح ، وليس يفسد المالح العذب ، وهذا من أحسن المقابلة ، حيث قال : عذب فرات ، وملح أجاج .

﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ هو الحاجز والحائل ، الذي جعله الله بينهما من قدرته ، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ولا يحس ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ أي ستراً مستوراً ، يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر فلا يبغي أحدهما على الآخر ، ولا

يفسد الملح العذب ، فالبرزخ الحاجز والحجر المانع .

وقيل معناه ما تقدم من أنها كلمة يقولها المتعوذ ، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له هذا القول،وهو استعارة تمثيلية . وقيل حداً محدوداً ؛وقيل المراد من البحر العذب،الأنهار العظام كالنيل والفرات وجيحون، ومن البحر الأجاج، البحار المشهورة، والبرزخ بينهما الحائل من الأرض . وقيل معناه حراماً محرماً أن يعذب هذا المالح بالعذب أو يملح هذا العذب المالح . ومثل هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمن ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ وعن ابن عباس قال : حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه ، ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان من الماء فقال :

﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ﴾ أي خلق من ماء النطفة إنساناً،وقيل المراد بالماء ؛ الماء المطلق الذي يراد في قوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ . وقيل هو الماء الذي خمرت به طينة آدم عليه السلام وجعله جزءاً من مادة البشر ، ليجتمع ، ويتسلسل ، ويستعد لقبول الأشكال والهيئات بسهولة ، قاله أبو السعود .

﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ أي جعله ذا نسب وصهر ، قيل المراد بالنسب هو الذي لا يحل نكاحه،والصهر ما يحل نكاحه قاله الفراء والزجاج . واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته وسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها وقيل الصهر قرابة النكاح فقرابة الزوجة هم الاختان، وقرابة الزوج هم الأحماء،والأصهار تعمهما . قاله الأصمعي .

وفي القاموس الصهر بالكسر ؛ القرابة والختن وجمعه أصهار . وفي المصباح قال الخليل : الصهر أهل بيت المرأة قال : ومن العرب من يجعل الأحماء والأختان جميعاً أصهاراً . وقال الأزهري : الصهر يشتمل على قرابات النساء ، ذوي المحارم وذوات المحارم كالأبوين ، والإخوة وأولادهم والأعمام

والأخوال والخالات فهؤلاء أصهار زوج المرأة ، ومن كان من قبل الزوج من ذوي قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضاً.

وقال ابن السكيت : كل من كان من قبل الزوج من أبيه أو أخيه أو عمه ، فهم الأحماء ومن كان من قبل المرأة فهم الأختان ويجمع الصنفين الأصهار وصاهرت لهم وإليهم وفيهم صهرت لهم صهراً انتهى . وفي القرطبي : النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين، قال الواحدي : قال المفسرون : النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ إلى قوله ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ومن هنا إلى قوله ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ تحريم بالصهر وهو الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرّم للنكاح،وقد حرم الله سبعة أصناف من النسب وسبعة من جهة الصهر أي السبب، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها والسابعة قوله ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ وقد جعل ابن عطية والزجاج وغيرهما الرضاع من جملة النسب ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1].

أراد سبحانه تقسيم البشر قسمين ذوي النسب أي ذكورا ينسب إليهم ، فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن، كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . وسئل عمر بن الخطاب عن نسب وصهر فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب وأما الصهر فالأختان ، والصحابة .

﴿ وكان ربك قديراً ﴾ أي بليغ القدرة عظيمها ، ومن جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان من النطفة الواحدة وتقسيمه إلى القسمين المذكورين . ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى ذكر قبائح الكفار وفضائح سيرتهم فقال :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ﴾ إن عبدوه ﴿ ولا يضرهم ﴾ إن

---

(١) مسلم ١٤٤٥ ـ البخاري ١٢٨٣ .

تركوه ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ هو المظاهر أي المعاون على ربه بالشرك والعداوة، والمظاهرة على الرب هي المظاهرة على رسوله أو على دينه قال الزجاج : لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان . وقال أبو عبيدة : المعنى وكان الكافر على ربه هيناً مهيناً ذليلاً من قول العرب ظهرت به أي جعلته خلف ظهري لم ألتفت إليه . ومنه قوله تعالى ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ وقيل إن المعنى وكان الكافر على ربه الذي يعبده وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع .

ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله : ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ أو المعنى أن بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله ﷺ ، أو دين الله والمراد بالكفر هنا الجنس ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافراً معيناً ، كما قيل إنه أبو جهل . وقال ابن عباس : : يعني أبا الحكم الذي سمّاه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام فالأصح أنه عام في كل كافر .

﴿ وما أرسلناك ﴾ في حال من الأحوال ﴿ إلا ﴾ حال كونك ﴿ مبشراً ﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين بالنار فلا تحزن على عدم إيمانهم، واقتصر على صيغة المبالغة في الانذار لتخصيصه بالكافرين إذ الكلام فيهم والإنذار الكامل لهم، ولو قيل إن المبالغة باعتبارها لكم لشموله للعصاة جاز .

﴿قل﴾ يا محمد ﴿ما أسألكم عليه﴾ أي على القرآن أو على تبليغ الرسالة المدلول عليها بالإرسال أو على ما أدعوكم إليه ﴿ من أجر ﴾ أي عرض من عرض الدنبا قاله ابن عباس، والاستثناء في قوله ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ منقطع أي لكن من شاء فليفعل .

وقيل هو متصل والمعنى إلا من شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة ، وصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الحصول، ولما بين سبحانه أنّ الكفار متظاهرون على رسول الله ﷺ وأمره أنْ لا يطلب منهم أجراً ألبتة، أمره أن يتوكل عليه في دفع المضار وجلب المنافع فقال :

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا
﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ
ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ
فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

﴿ وتوكل ﴾ في استكفاء شرورهم والاستغناء عن أجورهم ﴿ على الحي الذي لا يموت ﴾ فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه، وخص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي الدائم هو الذي يوثق به في المصالح والمنافع ودفع المضار، ولا حياة على الدوام إلا الله سبحانه ، دون الأحياء المنقطعة حياتهم فإنهم إذا ما تواضع من يتوكل عليهم . وقرأها بعض الصالحين فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، والتوكل اعتماد العبد على الله في كل الأمور ، والأسباب وسائط ، أمر بها من غير اعتماد عليها .

﴿وسبِّح﴾ أي نزهه عن صفات النقصان مقترناً ﴿ بحمده ﴾ وقيل معنى سبح صل، والصلاة تسمى تسبيحاً ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي حسبك وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك : كفى بالله رباً والخبير المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء فلا لوم عليك إن آمنوا وكفروا، وقيل معناه أنه لا يحتاج معه إلى غيره لأنه خبير عالم قدير على مكافأتهم،وفيه وعيد شديد ، كأنه قال : اذا قدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة،ثم زاد في المبالغة فقال :

﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ لعل ذكره زيادة تقرير، لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه، من حيث انه الخالق للكل والمتصرف فيه ﴿ وما بينهما ﴾ ولم يقل بينهن ، لأنه أراد النوعين والمعنى خلقهما ﴿ في ستة أيام ﴾ فخلق الأرض

في يومين الأحد والإثنين ، وما بينهما في يومين الثلاثاء والأربعاء، والسموات في يومين الخميس والجمعة ، وفرغ من آخر ساعة من يوم الجمعة، وقيل في مقدار هذه المدة ، لأنه لم يكن حينئذ ليل ولا نهار وإنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة،تعليماً لخلقه الرفق والتثبيت والتأني في الأمر والتؤدة والتدرج .

فإن قيل يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والأرض ، كما يفيده قوله : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فيقال : إن كلمة ﴿ ثم ﴾ تدخل على خلق العرش بل على علوه على السموات والأرض،والعرش في اللغة سرير الملك ، والمراد هنا الجسم العظيم المحيط بالعالم الكائن فوق السموات السبع ، والاستواء صفة لله سبحانه معناها مباينته عن الخلق وكونه على الذات وفوق العالم ، وقد تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف وأخواتها.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى : اعلم أن الكلام في الآيات والأحاديث الواردة في الصفات قد طالت ذيوله وتشعبت أطرافه ، وتباينت فيه المذاهب وتفاوتت فيه الطرائق ، وتخالفت النحل، وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين إلى العلم حيث أوقفهم الله ، ودخولهم في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها ، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر الله بعلمه، حتى تفرقوا فرقاً وتشعبوا شعباً وصاروا أحزاباً كانوا في البداية، ومحاولة الوصول إلى ما يتصورونه من العامة مختلفي المقاصد متبايني المطالب فطائفة ـ وهي أخف هذه الطوائف المتكلفة ، علم ما لم يكلفها الله سبحانه بعلمه اثماً ، وأقلها عقوبة وجرماً ـ وهي التي أرادت الوصول إلى الحق والوقوف على الصواب لكن سلكت في طلبه طريقة متوعرة ، وصعدت في الكشف عنه إلى عقبة كؤود ، لا يرجع من سلكها سالماً فضلاً عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح ، ومع هذا أصّلوا أصولاً ظنوها حقاً ، فدفعوا بها آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة نبوية واعتلوا في ذلك الدفع بشبهة واهية وحالات مختلفة .

وهؤلاء هم طائفتان الطائفة الأولى ، هي الطائفة التي غلت في التنزيه فوصلت إلى حد يقشعر عنده الجلد ويضطرب له القلب ، من تعطيل الصفات الثابتة ، بالكتاب والسنة ، ثبوتاً أوضح من شمس النهار وأظهر من فلق الصباح ، وظنوا هذا ـ من صنيعهم ـ موافقاً للحق . مطابقاً لما يريده الله سبحانه ، فضلوا الطريق المستقيمة ، وأضلوا من رام سلوكها . والطائفة الأخرى : هي الطائفة التي غلت في إثبات القدرة ، غلواً بلغ إلى حد أنه لا تأثير لغيرها ، ولا اعتبار بما سواها ، وأفضى ذلك إلى الجبر المحض ، والقسر الخالص ، فلم يبق لبعثة الرسل ، وإنزال الكتب ، كثير فائدة ، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة ، وجاؤا بتأويلات للآيات البينات ، ومحاولات لحجج الله الواضحات ، فكانوا كالطائفة الأولى في الضلال والإضلال ، مع أن كلا المقصدين صحيح ، ووجه كل منهما صبيح ، لولا ما شانه من الغلو القبيح .

وطائفة توسطت ، ورامت الجمع بين الضب والنون ، وظنت أنها قد وقفت بمكان بين الإفراط والتفريط ، ثم أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل ، وتناضل ، وتحقق ، وتدقق في زعمها ، وتجول عمل الأخرى وتصول ، بما ظفرت به ، مما يوافق ما ذهبت إليه ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وعند الله تلتقي الخصوم ،

ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم ، فكان غاية ما ظفروا به ، من هذه الأعلمية ـ بطريق الخلف ـ أن تمنى محققوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دين العجائز وقالوا: هنيئاً للعامة. فتدبر هذه الأعلمية التي كان حاصلها أن يهنأ من ظفر لأهل الجهل البسيط،ويتمنى انه في عدادهم وممن تدين بدينهم ويمشي على طريقتهم،فإن هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الأعلمية التي طلبوها ؛ الجهل خير منها بكثير، فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه أن الجهل خير منه ويتمنى عند البلوغ إلى غايته والوصول إلى نهايته ؛ أن يكون جاهلاً به عاطلاً عنه ـ ففي هذا عبرة للمعتبرين وآية بينة للناظرين ، فهلاّ

عملوا على جهل هذا المعارف التي دخلوا فيها بادىء بدء ؟ وسلموا من تبعاتها ، وأراحوا أنفسهم من تعبها ، وقالوا كما قال القائل :

أرى الأمر يفضي إلى آخر فصيّر آخره أولاً

وربحوا الخلوص من هذا التمني ، والسلامة من هذه التهنئة للعامة ؛ فإن العاقل لا يتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها ، ولا يهنىء لمن هو مثله أو دونه ، بل لا يكون ذلك إلا لمن رتبته ، أرفع من رتبته ، ومكانه أعلى من مكانه ، فيالله العجب ، من علم يكون الجهل البسيط أعلى رتبة منه ، وأفضل مقداراً بالنسبة إليه .

وهل سمع السامعون بمثل هذه الغريبة ، ونقل الناقلون ما يماثلها أو يشابهها ، وإذا كان هذا حال هذه الطائفة التي قد عرفناك أنها أخف الطوائف تكلفاً ، وأقلها تبعة فما ظنك بما عداها من الطوائف ، التي قد ظهر فساد مقاصدها ، وتبين بطلان مواردها ومصادرها ، كالطوائف التي أرادت بالمظاهر ، التي تظاهرت به ، كيْد الإسلام وأهله ، والسعي في التشكيك فيه بإيراد الشبه ، وتقرير الامور المفضية إلى القدح في الدين ، وتنفير أهله عنه .

وعند هذا تعلم أن :

خير الأمور والسالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

وأن الحق الذي لا شك فيه ، ولا شبهة ، هو ما كان عليه خير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وقد كانوا رحمهم الله تعالى وأرشدنا إلى الإقتداء بهم ، والاهتداء بهديهم ، يمرون آيات الصفات على ظاهرها ، ولا يتكلفون علم ما لا يعلمون ، ولا يحرفون ولا يؤولون، وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم ، والمتقرر من مذهبهم ، لا يشك فيه شاك ولا ينكره منكر ولا يجادل فيه مجادل . وإن نزغ من بينهم نازغ أو نجم في عصرهم ناجم أوضحوا للناس أمره وبينوا لهم أنه على ضلالة،وصرحوا بذلك في المجامع والمحافل : وحذروا الناس من بدعته ، كما كان منهم لما ظهر معبد الجهني

وأصحابه ، وقالوا : إن الأمر أنف ، فتبرؤوا منه وبينوا ضلالته ؛ وبطلان مقالته للناس فحذروه إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

وهكذا كان من بعدهم ، يوضح للناس بطلان أقوال أهل الضلال ، ويحذرهم منها ، كما فعل التابعون رحمهم الله بالجعد بن درهم ، ومن قال بقوله ، وانتحل نحلته الباطلة ، ثم ما زالوا هكذا لا يستطيع المبتدع في الصفات أن يتظاهر ببدعته ، بل يتكتمون بها كما يتكتم الزنادقة بكفرهم ، وهكذا سائر المبتدعين في الدين ، على اختلاف البدع ، وتفاوت المقالات الباطلة .

ولكنا نقتصر ههنا على الكلام في هذه المسألة ، التي ورد السؤال عنها ، وهي مسألة الصفات ، وما كان من المتكلمين فيها بغير الحق المتكلفين علم ما لم يأذن الله ، بأن يعلموه ، وبيان أن إمرار آيات الصفات على ظاهرها ، هو مذهب السلف الصالح ، من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، وأن كل من أراد من نزاغ المتكلفين، وشذاذ المحرفين ، والمتأولين ، أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر ، قاموا عليه ، وحذروا الناس منه ، وبينوا لهم أنه على خلاف ما عليه أهل الإسلام ، فصار المبتدعون في الصفات ، القائلون بأقوال تخالف ما عليه السواد الأعظم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، في خبايا وزوايا لا يتصل بهم إلا مغرور .

ولا ينخدع بزخارف أقوالهم إلامخدوع ،وهم مع ذلك على تخوف من أهل الإسلام وترقب لنزول مكروه بهم من حماة الدين من العلماء الهادين والرؤساء والسلاطين،حتى نجم ناجم المحنة وبرق بارق الشر من جهة الدولة ومن لهم في الأمر والنهي والاصدار والايراد الأعظم صولة، وذلك في الدولة المأمونية بسبب قاضيها أحمد بن أبي دؤاد.

فعند ذلك أطلع المنكمشون في تلك الزوايا رؤوسهم ، وانطلق ما كان قد خرس من ألسنتهم ، وأعلنوا مذاهبهم الزائغة ، وبدعهم المضلة ، ودعوا

الناس إليها ، وجادلوا عنها ، وناضلوا المخالفين ، حتى اختلط المعروف بالمنكر ، واشتبه على العامة الحق بالباطل ، والسنّة بالبدعة .

ولما كان الله سبحانه ، قد تكفل بإظهار دينه على الدين كله ، وحفظه عن التحريف ، والتغيير ، والتبديل ، أوجد من علماء الكتاب والسنّة في كل عصر من العصور . من يبين للناس دينهم ، وينكر على أهل البدع بدعهم ، فكان لهم ـ ولله الحمد ـ المقامات المحمودة ، والمواقف المشهورة في نصر الدين ، وهتك المبتدعين ، وبهذا الكلام القليل الذي ذكرناه ، تعرف أن مذهب السلف من الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، هو إمرار أدلة الصفات على ظاهرها ، من دون تحريف لها ، ولا تأويل متعسف ، لشيء منها ، ولا جبر ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، يفضي إليه كثير من التأويل وكانوا اذا سأل سائل عن شيء من الصفات ؛ تلوا عليه الدليل ، وأمسكوا عن القال والقيل ، وقالوا : قال الله هكذا ولا ندري بما سوى ذلك .

ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاوزته فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه وما حفظوه عن رسول الله ﷺ وحفظه التابعون عن الصحابة ، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين .

وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة والطريقة لهم جميعاً متفقة ،وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به ،وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله ، وإقام الصلاة ،وإيتاء الزكاة ، والصيام ،والحج ، والجهاد ، وإنفاق الأموال،في أنواع البر وطلب العلم النافع وإرشاد الناس إلى الخير على اختلاف أنواعه والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار،والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته .

فكان الدين إذ ذاك صافياً عن كدر البدع، خالصاً عن شوب قذر التمذهب، فعلى هذا النمط كان الصحابة والتابعون وتابعوهم وبهدي رسول الله ﷺ اهتدوا وبأفعاله وأقواله اقتدوا، فمن قال إنهم تلبسوا بشيء من هذه المذاهب الناشئة في الصفات أو غيرها فقد أعظم عليهم الفرية وليس بمقبول في ذلك، فإن تقول الأئمة المطلعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقات الأثبات ترد عليه وعليهم وتدفع في وجهه.

يعلم ذلك كل من له علم، ويعرفه كل عارف، فاشدد يديك على هذا واعلم أنه مذهب خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ودع عنك ما حدث من تلك التمذهبات في الصفات، وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها وجعلوها أصلاً يرد إليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن وافقاها فقد وافقا الأصول المقررة في زعمهم، وإن خالفاها فقد خالفا الأصول المقررة في زعمهم، ويجعلون المرافق لها من قسم المقبول والمحكم، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه، ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح لم يبالوا به ولا رفعوا إليه رؤوسهم ولا عدوه شيئاً.

ومن كان منكراً لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام، فأنه سيقف على الحقيقة، ويسلم هذه الجملة، ولا يتردد فيها، ومن العجب العجيب والنبأ الغريب أن تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام التي جعلها من بعدهم أصولاً لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل والفرية على الفطرة، وكل فرد من أفرادها تنازعت فيه عقولهم وتخالفت فيه إدراكاتهم، فهذا يقول حكم العقل في هذا كذا، وهذا يقول حكم العقل في هذا كذا، ثم يأتي بعدهم من يجعل ذلك الذي يعقله من يقلده ويقتدي به أصلاً يرجع إليه، ومعيار الكلام كلام الله وكلام رسوله يقبل منهما ما وافقه ويرد ما خالفه فيالله! ويا للمسلمين! ويا لعلماء الدين من هذه الفواقر الموحشة التي لم يصب الاسلام وأهله بمثلها!.

وأغرب من هذا ، واعجب ، وأشنع ، وأفظع ، أنهم بعد أن جعلوا هـذه التعقـلات ، التي تعقلوهـا ، عـلى اختـلافهم فيهـا ، وتنـاقضهم في معقولاتها ، أصولاً ترد إليها أدلة الكتـاب والسنة ، جعلوهـا أيضاً معيـاراً لصفات الرب سبحانه ، فما تعقله هذا من صفات الله ، قال به جزماً ، وما تعقله خصمه منها قطع به ، فأثبتوا لله تعالى الشيء ونقيضه ، استدلالاً بما حَكَمَت به في صفات الله عقولهم ، الفاسدة ، وتناقضت في شأنه . ولم يلتفتوا إلى ما وصف الله ، نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، بل إن وجدوا ذلك موافقاً لما تعقلوه ؛ جعلوه مؤيداً له ، ومقوياً . وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقاً لدليل العقل ، وإن وجدوه مخالفاً لما تعقلوه جعلوه وارداً على خلاف الأصل ، ومتشابهاً ، وغير معقول المعنى ، ولا ظاهـر الدلالـة ، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه ، وجعل ذلك أصلاً يرد إليه أدلة الكتاب والسنـة وجعل المتشـابه عنـد أولئك محكماً عنده ، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقاً له عنده،فكان حاصل كلام هؤلاء أنهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه،وكفاك بهذا ـ وليس بعده شي ـ وعنده يتعثر القلم حياء من الله عز وجل وربما استبعد هذا مستبعد واستكبره مستكبر وقال : إن في كلامي هذا مبالغة وتهويلاً وتشنيعاً وتطويلاً وأن الأمر أيسر من أن يكون حاصله هذا الحاصل الذي ذكرت ، وثمرته مثل هذه الثمرة التي أشرت إليها ، فأقول : خذ جملة البلوى ودع تفصيلها واسمع ما يصك سمعك ، ولولا هذا الالحاح منك ما سمعته ، ولا جرى القلم بمثله ، هذا أبو علي وهو رأس من رؤوسهم ، وركن من أركانهم ، وأسطوانة من أساطينهم ، قد حكى عنه الكبار منهم .

وآخر من حكى ذلك عنه صاحب شرح القلائد، يقول : والله لا يعلم الله من نفسه إلا ما يعلم هو . فخذ هذا التصريح ، حيث لم يكتف بذلك التلويح ، وانظر هذه الجرأة على الله التي ليس بعدها جرأة ، فيالأم أبي على الويل ؟ أينهق بمثل هذا النهيق ؟ ويدخل نفسه في هذا المضيق ؟ وهل سمع

السامعون بيمين أفجر من هذه اليمين الملعونة ؟ أو نقل الناقلون كلمة تقارب معنى هذه الكلمة المفتونة ؟ أو بلغ مفتخر إلى ما بلغ إليه هذا المختال الفخور ؟ أو وصل من يفجر في أيمانه إلى ما يقارب هذا الفجور ؟ وكل عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف أن ابنه أو أباه لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو لكان كاذباً في يمينه فاجراً فيها ، لأن كل فرد من أفراد الناس ينطوي على صفات وغرائز ، لا يحب أن يطلع عليها غيره ، ويكره أن يقف على شيء منها سواه ، ومن ذا الذي يدري بما يجول في خاطر غيره ؟ ويستكن في ضميره ؟ ومن ادعى علم ذلك وأنه يعلم من غيره من بني آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه ، ولا يعلم ذلك الغير من نفسه إلا ما يعلمه هذا المدعي ، فهو إما مصاب العقل بهذا ، بما لا يدري ، ويتكلم بما لا يفهم ، أو كاذب شديد الكذب ، عظيم الافتراء ، فإن هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه ، فهو الذي يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وما يسر عباده ، وما يعلنون وما يظهرون وما يكتمون . كما أخبرنا بذلك في كتابه العزيز في غير موضع .

فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه من عباده ، فما ظنك بمن جاوز هذا وتعداه ؟ وأقسم بالله أن الله لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو ؟ ولا يصح لنا أن نحمله على اختلاف العقل ، فلو كان مجنوناً لم يكن رأساً يقتدى بقوله جماعات من أهل عصره ، ومن جاء بعده ، وينقلون كلامه في الدفاتر ، ويحكون عنه في مقامات الاختلاف .

ولعل أتباع هذا ومن يقتدي بمذهبه ، لو قال لهم قائل ، وأورد عليهم مورد ، قول الله عز وجل : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ وقوله : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وقال لهم هذا ، يرد ما قاله صاحبهم ، ويدل على أن يمينه هذه فاجرة مفتراة ، لقالوا هذا ونحوه مما يدل دلالته ويفيد مفاده من المتشابه الوارد على خلاف دليل العقل المدفوع بالأصول المقررة .

وبالجملة فإطالة ذيول الكلام في مثل هذا المقام إضاعة للاوقات ،

واشتغال بحكاية الخرافات المبكيات لا المضحكات ، وليس مقصودنا ههنا إلا إرشاد السائل إلى أن المذهب الحق في الصفات هو إمرارها على ظاهرها من دون تأويل ولا تحريف ولا تكلف ولا تعسف ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل . وإن ذلك هو مذهب السلف الصالح الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فإن قلت : وماذا تريد بالتعطيل في مثل هذه العبارات التي تكررها ؟ فإن أهل المذاهب الاسلامية يتنزهون عن ذلك ويتحاشون عنه ، ولا يصدق معناه ، ويوجد مدلوله إلا في طائفة من طوائف الكفار . وهم المنكرون للصانع .

قلت يا هذا إن كنت ممن له إلمام بعلم الكلام الذي اصطلح عليه طوائف من أهل الاسلام . فإنه لا محالة قد رأيت ما يقوله كثير منهم ، ويذكرونه في مؤلفاتهم ويحكونه عن أكابرهم ، أن الله سبحانه وتعالى وتقدس ، لا هو جسم ولا جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه ، فأنشدك الله ، أي عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي ؟ وأي مبالغة في الدلالة على هذا النفي ، تقوم مقام هذه المبالغة ؟ فكان هؤلاء في فرارهم من شبهة التشبيه إلى هذا التعطيل كما قال القائل :

فكنت كالساعي إلى مثعب موائلا من سبل الراعد

أو كالمستجير من الرمضاء بالنار، والهارب من لسعة الزنبور إلى لدغة الحية ،ومن قرصة النملة إلى قضمة الأسد ، وقد كان يغني هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه وأنزلهما على رسوله ﷺ وهما : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ ، و﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فإن هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب وتضمنتا ما يغني أولي الالباب السالكين في تلك الشعاب والهضاب الصاعدين في متوعرات هاتيك العقاب فالكلمة الأولى منهما دلت دلالة بينة على أن كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ودعاوي التحقيق فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل

مخلوط بخلوط هي منافية للعلم مباينة له فإن الله سبحانه قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علماً .

فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة وقد نفيت عن كل فرد لأن هذه القضية هي في قوة لا يحيط به فرد من الأفراد علماً فكل قول من أقوال المتكلفين صادر عن جهل إما من كل وجه أو من بعض الوجوه وما صدر عن جهل فهو مضاف إلى جهل ولا سيما إذا كان في ذات الله وصفاته فإن ذلك من المخاطرة بالدين ، ما لم يكن في غيره من المسائل . وهذا يعلمه كل ذي علم ويعرفه كل عارف .

ولم يحظ بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويقتطف من ثمراتها إلا الممرون للصفات على ظاهرها المريحون أنفسهم عن التكلفات والتعسفات والتأويلات والتحريفات وهم السلف الصالح كما عرفت فهم الذين اعترفوا بعدم الاحاطة وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله وقالوا : الله أعلم بكيفية ذاته وماهية صفاته بل العلم كله له وقالوا كما قال من قال ممن اشتغل بطلب هذا المحال فلم يظفر بغير القيل والقال :

العلم للرحمن جل جلاله　　وسواه في جهلاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم وإنما　　يسعى ليعلم أنه لا يعلم

بل اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين بأنه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه مما قنع به السلف الصالح إلا بمجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من المتكلفين فقال :

وقد طفت في تلك المعاهد كلها　　وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر　　على ذقن أو قارعا سن نادم

وها أنا أخبرك عن نفسي وأوضح لك ما وقعت فيه في أمسي فإني في أيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام وتارة علم التوحيد وتارة علم أصول الدين وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة

منهم ورمت الرجوع بفائدة والعودة بعائدة فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة .

وكان ذلك من الاسباب التي حببت إلي مذهب السلف على أني كنت من قبل ذلك عليه ولكن أردت أن ازداد منه بصيرة وبه شغفاً وقلت عند النظر في تلك المذاهب :

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير
على أنني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسي بدون التبحر

وأما الكلمة الثانية، وهي : ﴿ليس كمثله شيء﴾ فبها يستفاد نفي المماثلة في كل شيء فيدفع بهذه الآية في وجه المجسمة ويعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع . والبصير، وعند ذكر السمع ، والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه القرآن والسنة فيتقرر بذلك الإثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات ، فيندفع به جانبي الإفراط والتفريط وهما المبالغة في الإثبات ، المفضي إلى التجسيم ، والمبالغة في النفي ، المفضية إلى التعطيل ، فيخرج من بين الجانبين ، وغلو الطرفين ، حقية مذهب السلف الصالح ، وهو قولهم بإثبات ما أثبت لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه إلا هو فإنه القائل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

ومن جملة الصفات التي أمرها السلف على ظاهرها وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة من دون تكلف ولا تأويل ، صفة الاستواء التي ذكرها السائل، فإنهم يقولون نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلا هو ، وفي كيفية لا يدري بها سواء ، ولا نكلف أنفسنا غير هذا فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا يحيط عباده به علماً. وهكذا يقولون في مسألة الجهة التي ذكرها السائل وأشار إلى بعض ما فيه ، دليل عليها . والأدلة في ذلك طويلة كثيرة ، في الكتاب والسنة . وقد جمع أهل

العلم منها لا سيما أهل الحديث مباحث طوّلوها بذكر آيات قرآنية ، وأحاديث صحيحة ، وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط . في مجلد جمعه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي ، استوفى فيه كل ما فيه دلالة على الجهة . من كتاب أو سنة أو قول صاحب .

والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف ، وأبين من أن يحتاج فيها إلى التطويل ، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل ، والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الإسلامية ، كثر الكلام فيها ، وفي مسئلة الاستواء ، وطال خصوصاً بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب ، فلهم في ذلك تلك الفتن الكبرى ، والملاحم العظمى ، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر ، والحق هو ما عرفناك من مذهب السلف الصالح ، فالاستواء على العرش ، والكون في تلك الجهة ، قد صرح به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ، ويطول نشرها ، وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير حديث ، بل هذا مما يجده كل فردٍ من أفراد المسلمين في نفسه ، ويحسه في فطرته ، وتجذبه إليه طبيعته كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه . والتجأ إليه .

ووجه أدعيته إلى جنابه الرفيع وعزه المنيع ، فإنه يشير عند ذلك بكفه أو يرمي إلى السماء بطرفه ، ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء وحدوث بواعث الاستغاثة ووجود مقتضيات الانزعاج ، وظهور دواعي الالتجاء عالم الناس وجاهلهم والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل القائلين بأن الاستواء هو الاستيلاء ، كما قاله جمهور المتأولين أو الإقبال كما قاله أحمد بن يحيى ثعلب ، والزجاج ، والفراء وغيرهم ، أو كناية عن الملك والسلطان كما قاله آخرون . فالسلامة والنجاة في إمرار ذلك على الظاهر ، والإذعان بالاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تكلف ، ولا قيل ولا قال ، ولا فضول في شيء من المقال .

فمن جاوز هذا المقدار بإفراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف ، ولا

واقف في طريق النجاة ، ولا معتصم عن الخطأ . ولا سالك في طريق السلامة والاستقامة . وكما تقول هكذا في الاستواء والكون في تلك الجهة ، فكذا تقول في مثل قوله سبحانه ، ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ وقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ وفي نحو إن الله مع الصابرين ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ إلى ما يشابه ذلك ، ويماثله ويقاربه ويضارعه ، فيقول في مثل هذه الآيات هكذا جاء القرآن أن الله سبحانه مع هؤلاء ولا نتكلف بتأويل ذلك كما يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا الكون وهذه المعية ، هو كون العلم ومعيته فإن هذه شعبة من شعب التأويل ، تخالف مذاهب السلف وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم .

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مداك فلا تجاوز
وهذا الحق ليس به خفاء فدعني من بينات الطريق

وقد هلك المتنطعون .

ولا يهلك على الله إلا هالك وعلى نفسها براقش تجني

وفي هذه الجملة وإن كانت قليلة ما يغني من يشح بدينه ، ويحرص عليه من تطويل المقال ، وتكثير ذيوله ، وتوسيع دائرة فروعه وأصوله والمهدي من هداه الله والله أعلم انتهى .

﴿ الرحمن ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، أو بدل من الضمير في استوى وقرىء بالجر على أنه نعت للحي ، أو للموصول ، وقيل أو مبتدأ وخبره ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ على رأى الأخفش . والضمير المجرور يعود إلى ما ذكر من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش والمعنى فاسأل بتفاصيل ما ذكر إجمالاً من هذه الأمور علياً .

وقال الزجاج والأخفش : الباء بمعنى عن ،أي فاسأل عنه كقوله : ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ والمراد بالخبير الله سبحانه لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلاهو ،وقيل جبريل عليه السلام : والأول أولى وما قيل : إن التقدير إن

شككت فيه فاسأل به خبيراً ، على أن الخطاب له صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد غيره فهو بمعزل من السداد ؛ وقيل فاسأل به من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه ، وقيل إن الضمير للرحمن ؛ اي إن أنكروا إطلاقه عليه سبحانه فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم . وانتصاب خبيراً على المفعولية . أو على الحال المؤكدة واستضعف الحالية أبو البقاء .

وقال ابن جرير : المعنى فاسأله حال كونه خبيراً وعلى هذا الباء في به زائدة وقيل قوله ﴿ به ﴾ يجري مجرى القسم كقولـه : ﴿ واتقوا الله الـذي تساءلون به ﴾ والوجه الأول أقرب هذه الوجوه ، ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمن فقال :

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ ﴾ قال المفسرون : إنهم قالوا : ما نعرف الـرحمن . إلا رحمن اليمامـة ، يعنون مسيلمـة قال الزجاج : الرحمن اسم من اسماء الله فلما سمعوه أنكروا فقالوا : وما الرحمن ؟ ﴿ أنسجد ﴾ الاستفهام للإنكار أي : لا نسجد ﴿ لما تأمرنا ﴾ أي للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له ، ومن قرأ بالتحتية فالمعنى أنسجد لما يأمرنا محمد ، بالسجود له . قيل هذه السجدة من عزائم السجود فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند سماعها وقراءتها .

﴿ وزادهم ﴾ الأمر بالسجود ﴿ نفوراً ﴾ عن الدين وبعداً عنه . وقيل : زادهم ذكر الرحمن تباعداً من الإيمان ، كذا قال مقاتل . والأول أولى، ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن ، فقال :

﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ المراد بها ، بروج النجوم السبعة السيارة ، أي منازلهم ، ومحالها الاثنا عشر ، التي تسير فيها . وقال الحسن ، وقتادة ، ومجاهد : هي النجوم الكبار ، سميت بروجاً لظهورها ، والأول أولى وأصل البروج : القصور العالية . لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها ،

واشتقاق البروج من التبرج ، وهو الظهور . وقال الزجاج : إن البرج كل مرتفع ، فلا حاجة إلى التشبيه ، أو النقل ، قال ابن عباس في الآية : هي هذه الاثنا عشر برجاً ، أولها الحمل ، ويسمى بالكبش ، ثم الثور ، ثم الجوزاء ، ثم السرطان ، ثم الأسد ، ويسمى بالليث ، ثم السنبلة ، ثم الميزان ، ثم العقرب ، ثم القوس ، ثم الجدي ، ثم الدلو ، ويسمى بالدالي ثم الحوت وقد نظمها بعضهم وفي قوله :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

وهي منازل الكواكب السيارة السبعة ، المريخ وله الحمل ، والعقرب ، والزهرة ولها الثور ، والميزان وعطارد ، وله الجوزاء، والسنبلة والقمر ، وله السرطان . والشمس ولها الأسد ، والمشتري وله القوس ، والحوت وزحل وله الجدي والدلو قاله المحلى . وقد نظم بعضهم هذه السبعة بقوله :

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

فزحل نجم في السماء السابعة ، والمشتري نجم في السماء السادسة والمريخ[1] نجم في السماء الخامسة ، والشمس في الرابعة والزهرة في الثالثة ، وعطارد في الثانية والقمر في الأولى والحاصل : أن خمسة من الكواكب السبعة أخذت عشرة بروج كل واحد أخذ اثنين وأن اثنين من السبعة وهما الشمس والقمر كل واحد منها أخذ واحداً من البروج المذكورة .

---

(١) لقد ثبت علمياً بالحس المفيد للقطع بواسطة المجاهر والمقاييس والآلات الرياضية أن المريخ أقرب الكواكب إلى الأرض وهو بنص القرآن في سماء الدنيا وهذه الكواكب التي ذكرها المصنف كلها في سماء الدنيا كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ ولا يعارض القرآن العلم فالعلم مؤيد للقرآن ومثبت لإعجازه والله أعلم . المطيعي .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾
وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟
سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ
قَوَامًا ﴿٦٧﴾

﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ أي شمساً ومثله قوله ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾ وقرىء سُرُجاً بالجمع أي النجوم العظام الوقادة ورجح الأولى أبو عبيدة وقال الزجاج في تأويل الثانية : أراد الشمس والكواكب ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي ينير الأرض إذا طلع ، وقرىء قُمْراً بضم القاف وإسكان الميم ، وهي قراءة ضعيفة شاذة وخص القمر بالذكر لنوع فضيلة عند العرب لأنها تبني السنة على الشهور القمرية .

﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ قال أبو عبيد : الخلفة كل شيء بعد شيء الليل خلفة للنهار ، والنهار خلفة الليل ، لأن أحدهما يخلف الآخر ، ويأتي بعده ، ومنه خلفة النبات ، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف . قال الفراء : يقول: يذهب هذا ، ويجيء هذا ، وقال مجاهد وابن عباس : خلفة من الخلاف ، هذا أبيض وهذا أسود والأول أقوى . وقيل : يتعاقبان في الضياء والظلام ، والزيادة والنقصان . وقيل : هو من باب حذف المضاف أي : جعل الليل والنهار ذوي خلفة أي : اختلاف . قال ابن عباس وعمر والحسن : يقول من فاته شيء من الخير بالليل أن يعمله أدركه بالنهار ومن فاته بالنهار أدركه الليل .

وعن الحسن أن عمر أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقي عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه ، وتلا هذه الآية : ﴿ لمن أراد أن يذكر ﴾ مشدداً من التذكر لله وقرىء مخففاً من الذكر له .

والمعنى أن المتذكر المعتبر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم أنه لا بد في انقالهما من حال إلى حال من ناقل . وقيل : المعنى يتذكر ، فيعلم أن الله لم يجعلهما كذلك عبثا فيعتبر في مصنوعات الله ويشكره سبحانه على نعمه عليه في العقل ، والفكر والفهم . قال الفراء : يذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد قال الله تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ وفي حرف عبدالله : ويذكروا ما فيه ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ أي : أراد أن يشكر الله على ما اودعه في الليل والنهار ، من النعم العظيمة والألطاف الكثيرة و ﴿ أو ﴾ للتقسيم والتنويع وهي مانعة خلو فتجوز الجمع .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف صالحي عباد الله سبحانه وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال المنافقين قيل : هذه الإضافة للتخصيص والتشريف والتفضيل وإلا فالخلق كلهم عباد الله . وهوناً مصدر وهو السكينة والتواضع والوقار . وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الهون متعلق بـ ﴿ يمشون ﴾ أي مشياً هوناً ، قال ابن عطية : ويشبه أن يتأول هدأ على أن يكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه . وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل لأنه رب ماش هوناً رويداً وهو ذئب أطلس .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتكفَّأ في مشيه كأنما يمشي في صبب ، قال ابن عباس في الآية : هم المؤمنون الذين يمشون على الأرض

هوناً . أي بالطاعة والعفاف والتواضع ، وقال أيضاً : هـوناً ، أي : علماً وحلماً ، والمعنى : يمشون بالسكينة والوقار ، متواضعـين غير أشـرين ، ولا مرحين ولا متكبرين ؛ بل علماء حكماء ، أصحاب وقار وعفة ، ولذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ، ولقوله : ويمشي في الأســواق.

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه ، فلا يجهلون من يجهل ، ولا يشافهون أهل السفه . قـال النحاس : ليس هـذا السلام من التسليم إنمـا هو من التسلم ، تقول العرب : سلاماً ، أي تسلماً منك ، أي : براءة منك ، يعني قالوا : سلمنا سلاماً ، وهذا على قول سيبويه ، أو مفعول به ، أي قالوا : هذا اللفظ ورجحه ابن عطية ، وقال مجاهد معنى : سلاماً سداداً ، أي يقولون للجاهل ، كلاماً يدفعه به برفق ولين ، قال سيبويه : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ، لكنه على معنى قوله : تسلماً منكم ومتاركة ، لا خير ولا شر . بيننا وبينكم ، قال المبرد : كان ينبغي أن يقال لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ، ثم أمروا بحربهم .

وقال محمد بن يزيد المبرد : أخطأ سيبويه في هذا ، وأساء العبارة . قال النحاس : ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هـذه الآية ، لأنه قال في آخر كلامه : فنسختها آية السيف : وأقول هكذا يكون كلام الرجل إذا تكلم في غير علمـه ، ومشى في غير طـريقته ، ولم يؤمـر المسلمون بالسلام على المشركين ، ولا نهوا عنه ، بل أمروا بالصفح ، والهجر الجميل ، فلا حاجة إلى دعوى النسخ ،وفي الخطيب عن أبي العالية نسختها آية القتال . ولا حاجة إلى إدعاء النسـخ بها ولا غيـرها ، لأن الإغضـاء عن السفهاء ، وترك المقابلة ، مستحسن في الأدب والمروءة والشـريعة ، وأسلم للعرض والورع .

وقال ابن العربي : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ، ولانهوا عن ذلك بل أمروا بالصفح والهجر الجميل . وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ، ويدانيهم ولا يداهنهم . قال النضر بن شميل : حدثني الخليل قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابي ، وكان من أعلم من رأيت فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال لنا ! استووا فبقينا متحيرين ، ولم ندر ما قال : فقال لنا أعرابي إلى جنبه أمركم ان ترتفعوا . فقال الخليل : هو من قول الله ثم استوى إلى السماء فصعدنا إليه فقال : هل لكم في خبز فطير ، ولبن هجير؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاماً فلم ندر ما قال فقال الأعرابي : إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ، ولا شر . قال الخليل : هو من قول الله عز وجل ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا سلاماً ﴾ . قال الحسن : هذا وصف نهارهم ، ثم وصف ليلهم بقوله :

﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً ﴾ على وجوههم ﴿ وقياماً ﴾ على أقدامهم بيان لحالهم في معاملة الخالق بعد بيان حالهم في معاملة الخلق ، وتخصيص البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمض ، وأبعد عن الرياء ، وتأخير القيام للفاصلة والبيتوتة ، هي ان يدركك الليل ، نمت أم لم تنم قال الزجاج : من أدركه الليل فقد بات ، نام أو لم ينم ، كما يقال بات فلان قلقاً ، قال النسفي : والظاهر أنه وصفهم بإحياء الليل أو أكثره .

﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً ﴾ أي لزوماً كلياً في حق الكفار . ولزوماً بعده إطلاق إلى الجنة في الجنة في حق عصاة المؤمنين ، أي هم مع طاعتهم ، وحسن معاملتهم لخالقهم ، وخلقه ، لا يؤمنون مكر الله ، بل هم مشفقون ، وجلون ، خائفون من عذابه ، والغرام الشر اللازم الدائم قاله ابن زيد كما ورد مرفوعاً إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنه سمي الغريم لملازمته ، ويقال فلان مغرم بكذا ، أي

ملازم له ، مولع به هذا معناه في كلام العرب ، كما ذكره ابن الأعرابي ، وابن عرفة ، وغيرهما . وقال الزجاج : الغرام أشد العذاب ، وقال أبو عبيدة : هو الهلاك الدائم .

﴿ إنها ساءت ﴾ تعليل لما قبلها ، أي بئست جهنم ، أو أحزنت أصحابها وداخلها ﴿ مستقراً ومقاماً ﴾ المراد بهما جهنم ، فلذلك جاز تأنيث فعله قيل هما مترادفان وإنما عطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظهما . وقيل بل هما مختلفان معنى ، فالمستقر للعصاة ؛ فإنهم يخرجون ، والمقام للكفار فإنهم يخلدون ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي هي ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم ، ثم وصفهم سبحانه بالتوسط في الانفاق فقال :

﴿ والذين إذا أنفقوا ﴾ على عيالهم ﴿ لم يسرفوا ، ولم يقتروا ﴾ بفتح التحتية وضم الفوقية من قتر يقتر كقعد يقعد وقرىء بفتح التحتية وكسر التاء ، وهي لغة معروفة حسنة ، وقرىء بضم التحتية وكسر الفوقية ، قال أبو عبيدة : يقال قتر الرجل على عياله ، يقتر ويقتر قتراً ، وأقتر يقتر إقتاراً . ومعنى الجميع التضييف في الانفاق . قال النحاس : من أحسن ما قيل في معنى الآية إن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الاقتار ، ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام ، وقال إبراهيم النخعي : هو الذي لا يجيع ، ولا يعرى ، ولا ينفق نفقة ـ تقول الناس قد أسرف .

وقال يزيد بن حبيب : أولئك أصحاب محمد ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ، ويقويهم على عبادة الله ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد . وقال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف، ولم يبخلوا ،

كقوله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ . قال ابن عباس : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصيه الله ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله قال عمر بن الخطاب : كفى سرفاً أن لا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله . وقيل الإسراف مجاوزة الحد في الانفاق حتى يدخل في حد التبذير، والإقتار التقصير عما لا بد منه .

﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ بفتح القاف وقرىء بكسرها فقيل هما بمعنى ، وقيل القوام بالكسر ما يدوم عليه الشيء ، ويستقر بالفتح العدل والاستقامة ، قاله ثعلب ، قيل بالفتح بين الشيئين ، وبالكسر ما يقال به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص . وقيل : بالكسر السداد ، والمبلغ واسم كان مقدر فيها ، وخبرها قواماً قاله الفراء ، أي كان انفاقهم قصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار ، وحسنة بين السيئتين ، وروي عن الفراء قول آخر ، وهو أن اسم كان ﴿ بين ذلك ﴾ وتبنى ﴿ بين ﴾ على الفتح لأنها من الظروف المفتوحة وقال النحاس : ما أدرى ما وجه هذا لأن ﴿ بين ﴾ إذا كانت في موضع رفع رفعت .

وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ
وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ
بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ﴾ لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي، والمعنى : لا يدعون معه رباً من الأرباب ، ولا يشركون به شيئاً بل يوحدونه ، ويخلصون له العبادة والدعوة .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : سئل رسول صلى الله عليه وآله وسلم أي : الذنب أكبر؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي قال : « أن تزاني بحليلة جارك » فأنزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الآية[1] .

وأخرج الشيخان وغيرهما أيضاً عن ابن عباس ، أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فاكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ ، فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة ، فنزلت : ﴿ والذين لا يدعون ﴾ الآية ونزلت : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية[2] .

(١) مسلم ٨٦ ـ البخاري ١٩٦٢ .
(٢) مسلم ١٢٢ ـ البخاري ٢٠٣٧ .

﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم الله ﴾ قتلها بسبب من الأسباب ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها ، أي بما يحق أن تقتل به النفوس ، من كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس ﴿ ولا يزنون ﴾ أي لا يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح ولا ملك يمين .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي شيئاً مما ذكر ﴿ يلق أثاماً ﴾ هو في كلام العرب العقاب ، قال الفراء : آثمه الله يؤثمه آثاماً وأثاماً ، أي جازاه جزاء الإثم فهو مأثوم ، أي مجزى جزاء الإثم . وقال عبدالله بن عمر وعكرمة ومجاهد : إن أثاماً واد في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة وقال السدي : جبل فيها . وقرىء يلق بضم الياء وتشديد القاف ، قال أبو مسلم : الأثام والإثم واحد . والمراد هنا جزاء الأثام . فأطلق اسم الشيء على جزائه ، وقرأ الحسن أياماً جمع يوم يعني شدائد ، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام ، وما أظن هذه القراءة تصح عنه .

﴿ يضاعف ﴾ وقرىء يضعّف بالتشديد ، وكل من القراءتين يجيء مع جزم الفعل ، ورفعه فالقراآت أربع وكلها سبعية ، وقرىء نُضَعّف بضم النون ، وكسر العين المشددة والجزم .

﴿ له العذاب يوم القيامة ﴾ سبب المضاعفة أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك ، يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته ﴿ ويخلد ﴾ وقرىء بالفوقية ، خطاباً للكافر ، وقرىء يُخَلَّد بضم الياء وفتح اللام ، قال أبو علي الفارسي : وهي غلط من جهة الرواية وضمير ﴿ فيه ﴾ راجع إلى العذاب المضاعف ، وقرىء فيها بالإشباع مبالغة في الوعيد ، والعرب تمد للمبالغة ، مع أن الأصل في هاء الكناية الإشباع ،﴿ مهاناً ﴾ ذليلاً حقيراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني . قال ابن عباس : قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين ثم نزلت .

﴿ إلامن تاب وآمن ، وعمل عملاً صالحاً ﴾ فما رأيت رسول الله ﷺ

فرح بشيء قط فرحه بها ، وفرحه بـ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ . قيل والاستثناء متصل من الضمير المستتر في يلق ، أي إلا من تاب ، فلا يلق أثاماً بل يزاد له في الإكرام بتبديل سيئآته حسنات . وقيل منقطع . قال أبو حيان : لا يظهر الاتصال لأن المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب ، فيصير التقدير إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً . فلا يضاعف له العذاب . ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف ، قال : والأولى عندي أن يكون منقطعاً ، أي لكن من تاب . قال القرطبي : لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر ، والزاني . واختلفوا في القاتل من المسلمين وقد تقدم بيانه في المائدة .

والإشارة بقوله ﴿ فأولئك يبدّل الله سيئآتهم حسنات ﴾ إلى المذكورين سابقاً ، ومعنى تبديلها حسنات أنه يمحو عنهم سوابق المعاصي بالتوبة ، ويثبت لهم مكانها لأحق الطاعات. قال النحاس : من أحسن ما قيل في ذلك أنه يكتب موضع كافر مؤمن وموضع عاص مطيع . قال الحسن : قوم يقولون هذا التبديل في الآخرة وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا ، يبدل الله لهم إيماناً مكان الشرك ، وإخلاصاً مكان الشك ، وإحصاناً مكان الفجور ، وقتل المشرك مكان المؤمن . قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة ، وقيل إن السيئآت تبدل الحسنات ، وبه قال جماعة من الصحابة ، ومن بعدهم .

وقيل تبدل ملكة المعصية ودواعيها في النفس ، بملكة الطاعة بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية مكانها . وقيل التبديل عبارة عن الغفران ، إي يغفر الله لهم تلك السيئآت ، لا أنه يبدلها حسنات . قلت ولا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد ، أن يضع مكان كل سيئة حسنة ، وقد قال ﷺ لمعاذ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[1] وقال ابن

(١) الترمذي كتاب البر باب ٥٥ ـ الإمام أحمد ١٥٣/٥ ـ ١٥٨/٥ .

عباس : ابدلهم الله بالكفر الإسلام ، وبالمعصية الطاعة ، وبالإنكار المعرفة ، وبالجهالة العلم . وعنه قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئآت فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئآت الحسنات .

وأخرج أحمد وهناد والترمذي وابن جرير والبيهقي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيعرض عليه صغارها ، وينحى عنه كبارها ، فيقال : عملت كذا وكذا وهو يقر ليس ينكر ، وهو مشفق من الكبائر أن تجيء فيقال اعطوه بكل سيئة عملها حسنة »[1] والأحاديث في تكفير السيئآت وتبديلها بالحسنات كثيرة . ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ مقررة لما قبلها من التبديل ، وتكفير السيئآت بالحسنات ، أي لم يزل متصفاً بذلك .

﴿ ومن تاب ﴾ عن المعاصي بتركها ، والندم عليها ﴿ وعمل صالحاً ﴾ يلافي به ما فرط ﴿ فإنه يتوب ﴾ يرجع ﴿ إلى الله متاباً ﴾ رجوعاً صحيحاً ، مرضياً ، قوياً عند الله ، ماحياً للعقاب ، محصلا للثواب ، أو متابا إلى الله الذي يحب التائبين ، ويحسن إليهم أو فإنه يرجع إلى الله . وإلى ثوابه مرجعاً حسناً ، وهذا تعميم بعد تخصيص . قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال ﴿ الا من تاب وآمن ﴾ ثم عطف عليه ، ومن تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً فله حكم التائبين أيضاً .

وقيل أي من تاب بلسانه ولم يحقق التوبة بفعله ، فليست تلك التوبة نافعة بل من تاب وعمل صالحاً فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متاباً ، أي تاب حق التوبة ، وهي النصوح ، ولذلك أكد بالمصدر ومعنى الآية من أراد التوبة وعزم عليها فليتب إلى الله فالخبر في معنى الأمركذا ، قيل : لئلا يتحد الشرط والجزاء ، فإنه لا يقال من تاب فإنه يتوب ، وقيل : المعنى من تاب من الشرك وأدى الفرائض ، ممن لم يقتل ولم يزن فإنه يعود إلى

(١) الإمام أحمد ١٥٧/٥ ـ مسلم ١٩٠ بلفظ آخر .

الله بعد الموت حسناً ، يفضل على غيره ، ممن قتل وزنا ، فالتوبة الأولى رجوع عن الشرك ، والثانية رجوع إلى الله ، للجزاء والمكافأة . والأول أولى .

ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات فقال :

﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون الزور ، وهو الكذب والباطل ، ولا يشاهدونه ،وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين قال الزجاج : الزور في اللغة الكذب ، ولا كذب فوق الشرك بالله ، قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الزور ههنا بمعنى الشرك والحاصل أن ﴿ يشهدون ﴾ إن كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف ، أي لا يشهدون شهادة الزور وإن كان من الشهود والحضور - كما ذهب إليه الجمهور- فقد اختلفوا في معناه ، فقال قتادة : لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم وقال محمد بن الحنفية : لا يحضرون اللهو والغناء .

وقال ابن جريج : الكذب ، وعن مجاهد أيضاً . وقيل ينفرون عن محاضر الكذابين ، ومجالس الخطائين ، فلا يقربونها تنزهاً عن مخالطة الشر ، وأهله ، وقيل أعياد المشركين ، وقيل النوح ،والأولى عدم التخصيص بنوع دون نوع من أنواع الزور بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائناً ما كان ، وعن ابن عباس قال : إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام .

﴿ وإذا مروا باللغو ﴾ على سبيل الاتفاق من غير قصد ﴿ مروا كراماً ﴾ أي معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه ، والخوض فيه . ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش ، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به قال ابن عباس : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه آله وسلم إذا مروا به ، يعني الصنم المذكور ، مروا كراماً ، لا ينظرون إليه ، كقوله ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ .

وقال الباقر : إذا ذكروا الفروج كنوا عنها . وقيل الشتم ، والأذى

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ
رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾

واللغو، كل ساقط، من قول أو فعل. قال الحسن: اللغو المعاصي كلها، وقيل المراد مروا بذوي اللغو، يقال فلان يكرم عما يشينه، أي بتنزه، ويكرم نفسه، عن الدخول في اللغو، والاختلاط بأهله.

﴿والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم﴾ أي بالقرآن أو بما فيه من موعظة وعبرة ﴿لم يخروا﴾ أي لم يسقطوا، ولم يقعوا ﴿عليها﴾ حال كونهم ﴿صماً وعمياناً﴾ ولكنهم أكبوا عليها سامعين، مبصرين، بآذان واعية، وعيون راعية، وانتفعوا بها. قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها قال ابن جرير: ليس ثَمَّ خرور، بل كما يقال قعد يبكي، وإن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كأن المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام: قيل المعنى إذا تليت عليهم آيات الله، وجلت قلوبهم، فخرّوا سجداً وبكياً، ولم يخروا عليها صماً وعمياناً. قال الفراء بأي لم يقعدوا على حالهم الأول، كأن لم يسمعوا قال في الكشاف: ليس بنفي للخرور. وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى، وأراد أن النفي متوجه إلى القيد لا إلى المقيد.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ من ابتدائية، أو بيانية، قاله الزمخشري ﴿وذرياتنا﴾ قرىء بالجمع، وبالإفراد، وهما سبعيتان،

والذرية تقع على الجمع ، كما في قوله ﴿ ذرية ضعافاً ﴾ وتقع على الفرد كما في قوله ذرية طيبة .

﴿ قرة أعين ﴾ يقال : قرت عينه قرة . قال الزجاج : يقال أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما تحبه وقال المفضل : في قرة العين ثلاثةأقوال، أحدها برد دمعها لأنه دليل السرور والضحك،كما أن حره دليل الحزن والغم ، والثاني نومها ، لأنه يكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن ، والثالث حصول الرضا قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة فتقر به أعيننا في الدنيا والآخرة فإنه ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل ، فيطمع أن يحلّوامعه في الجنة ، فيتم سروره ، وتقر عينه بذلك .

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي قدوة يقتدي بنا في الخير وإقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل الصالح . وإنما قال إماماً ولم يقل أئمة لأنه أريد الجنس ، كقوله ﴿ ثم يخرجكم طفلاً ﴾ قال الفراء : قال إماماً ، ولم يقل أئمة كما للاثنين ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ يعني أنه من الواحد الذي أريد به الجمع وقال الأخفش : الإمام جمع أم من أم يؤم جمع على فعال نحو صاحب وصحاب وقائم وقيام،وقيل إن إماماً مصدر ، يقال أم فلان فلاناً إماماً مثل الصيام والقيام، وقيل أرادوا اجعل كل واحد منا إماماً، وقيل أرادوا اجعلنا إماماً واحداً ، لاتحاد كلمتنا واتفاق طريقتنا وقيل : إنه من الكلام المقلوب وان المعنى واجعل المتقين لنا إماماً . وبه قال مجاهد .

وقيل : إن هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد وإن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلني للمتقين إماماً ولكنها حكيت عبارات القوم بصيغة المتكلم ، مع الغير لقصد الإيجاز ، كقوله : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ ، وفي هذا إبقاء إماماً على حاله قال القفال : وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين . ومثله البينة ، يقال هؤلاء بينة فلان ، قال الحفناوي : ولفظ إمام يستوي فيه الجمع وغيره ، فالمطابقة حاصلة .

قال النيسابوري : قيل في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب ويرغب فيها والأقرب أنهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدي بهم وقال ابن عباس في الآية : أئمة هدى يهتدي بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالة لأنه قال لأهل السعادة ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ ولأهل الشقاوة ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ .

﴿ أولئك ﴾ إشارة الى المتّصفين بتلك الصفات المفصلة في حيز الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم بها وفيه دليل على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز ومنتظمون في سلك الأمور المشاهدة وهو مبتدأ وخبره ما بعده والجملة مستأنفة وقيل ذلك ﴿ يجزون الغرفة ﴾ أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا،وهي في الأصل كل بناء مرتفع والجمع غرف ؛ وقال الضحاك : الغرفة الجنة أي يجزون الجنة ، ووحد الغرفة لدلالتها على الجنس دليله قوله ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ .

وعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الغرفة من ياقوته حمراء وزبرجدة خضراء ودرة بيضاء ليس فيها فصم ولا وصم[1]» أخرجه الحكيم الترمذي ﴿ بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم على مشاق التكليفات والطاعات ورفض الأهواء والشهوات وتحمل المجاهدات .

﴿ويُلَقَّوْن، فيها تحية وسلاماً ﴾ بضم الياء مشدداً ، واختاره أبو عبيد ، أي : يعطون ، لقوله : ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ وقرىء يَلقَوْن بفتح الياء مخففاً ، واختاره الفراء ، ومعناه يجدون ، ويصادفون ، قال : لأن العرب تقول فلان يلقى بالسلام والتحية ، والخير ، وقلما يقولون يلقي ، والمعنى أنه يحيي بعضهم بعضاً ، ويرسل إليهم الرب سبحانه بالسلام وقيل التحية البقاء الدائم ، والملك العظيم وقيل هي بمعنى السلام ، وقيل إن الملائكة تحييهم ،

(١) ضعيف الجامع الصغير ٣٩٢٩.

وتسلم عليهم،والظاهر أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم ومن ذلك قوله سبحانه تحيتهم يوم يلقونه سلام . وقيل معنى التحية الدعاء لهم بطول الحياة والتعمير ومعنى السلام الدعاء لهم بالسلامة من الآفات وقيل المراد بالتحية إكرام الله تعالى لهم بالهدايا والتحف ، وبالسلام سلامه عليهم بالقول.

﴿ خالدين ﴾ أي مقيمين ﴿ فيها ﴾ من غير موت ولا خروج ﴿ حسنت ﴾ الغرفة ﴿ مستقراً ﴾ أي موضع قرار يستقرون فيه ﴿ ومقاماً ﴾ يقيمون فيه ، وهذا في مقابل ما تقدم من قوله ساءت مستقراً ومقاماً ﴿ قل ما يعبؤ بكم ربي ﴾ بين سبحانه أنه غني عن طاعة الكل ، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف ، يقال ما عبأت بفلان ، أي ما باليت به ولا له عندي قدر وأصل يعبأ من العبء ، وهو الثقل . قال الخليل : ما أعبأ بفلان أي ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ، ويدعي أن وجوده وعدمه سواء ، وكذا قال أبو عبيدة .

قال الزجاج : ما يعبأ بكم ربي، يريد أي وزن يكون لكم عنده ، أو ما يصنع بكم ، أو بعذابكم والعبء الثقل و﴿ ما ﴾ استفهامية أو نافية،وصرح الفراء بإنها استفهامية قال ابن الشجري : وحقيقة القول عندي أن موضع ﴿ ما ﴾ نصب ، والتقدير : أي عبء يعبأ بكم ؟ أي أيُّ مبالاة يبالي بكم ؟ وأيُّ اعتداد يعتد بكم ؟ .

﴿ لولا دعاؤكم ﴾ أي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه،وعلى هذا فالمصدر الذي هو الدعاء مضاف إلى مفعوله، وهو اختيار الفراء، وفاعله محذوف، وجواب لولا محذوف تقديره لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم ويؤيد هذا قوله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ والخطاب لجميع الناس وعن ابن عباس في الآية قال : يقول لولا إيمانكم فأخبر الله سبحانه أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كانت له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين وقيل إن المصدر مضاف إلى الفاعل أي لولا استغاثتكم إليه في الشدائد .

وقيل المعنى ما يعبأ بكم أي بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه، وممن قال إن الدعاء مضاف إلى الفاعل القتيبي والفارسي، قالا والأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه، وجواب لولا محذوف أي لولا دعاؤكم لم يعذبكم، قال أبو السعود: أمر رسوله بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنما نالوها بما عدد من محاسنهم، ولولاها لم يعتد بهم أصلاً، يعني إنما اكترث بأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم لأجل عبادتهم وحدها لا لمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث بهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به قاله الزمخشري.

ثم خصّ الكفار منهم فقال ﴿ فقد كذّبتم﴾ وقرأ ابن الزبير فقد كذب الكافرون وبه قرأ ابن عباس وابن مسعود كما حكاه ابن جني وفي هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب لجميع الناس ويكون معنى فقد كذبتم على الأول فقد كذبتم ما دعيتم إليه وعلى الوجه الثاني فقد كذبتم بالتوحيد، ثم قال سبحانه ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي يكون جزاء التكليف لازماً لكم، وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا ما لزم المشركين يوم بدر، وبه قال ابن مسعود وقالت طائفة هو عذاب الآخرة، قال أبو عبيد: لزاماً فيصلاً بينكم وبين المؤمنين، وقال الزجاج: يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم فلا تعطون التوبة، وجمهور القراء على كسرة اللام من لزاماً قال ابن جرير: لزاماً عذاباً دائماً وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم بعضاً، وقرأ أبو السماك لزاماً بفتح اللام قال أبو جعفر: يكون مصدر لزم والكسر أولى قال ابن عباس: لزاماً موتاً وقيل وبالاً.

وفي الصحيحين عنه قال: «قد مضين» أي خمس علامات دالات[1] على قيام الساعة الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام.

---

(١) مسلم ٢٧٩٨ ـ البخاري ٥٧٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

﴿ مائتان وسبع وعشرون آية ومكّية عند الجمهور ﴾

وبه قال ابن الزبير ، وقال ابن عباس :سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة وهي : والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها .

وأخرج القرطبي في تفسيره عن البراء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الانجيل ، وأعطاني الطواسين مكان الزبور ، وفضلني بالحواميم والمفصل ، ما قرأهن نبي قبلي » .

وأخرج أيضا عن ابن عباس ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ « أعطيت المفصل نافلة » قال ابن كثير: ووقع في تفسير مالك تسميتها بسورة الجمعة .

وهو عرق في القفا ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الكهف وقرىء باخع نفسك بالإضافة ، والمعنى لعلك قاتل نفسك .

﴿أن لا يكونوا﴾ أي أهل مكة ﴿مؤمنين﴾ أي : لعدم إيمانهم بما جئت به ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم .

﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية ، والمعنى ننزل آية تلجئهم الى الإيمان ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك ، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر .

﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي أنهم صاروا منقادين لها أي فتظل اعناقهم ، قيل : وأصله فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت (الاعناق) للتقرير والتصوير ، لأن الأعناق موضع الخضوع . وقيل : إنها لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ، ووصفت بما يوصفون به .

قال عيسى بن عمر : وخاضعين وخاضعة سواء واختاره المبرد ، والمعنى أنها إذا ذلت رقابهم ذلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها ، ويسوغ في كلام العرب أن يترك الخبر عن الأول ويخبر عن الثاني .

وقال أبو عبيد والكسائي : إنّ المعنى خاضعيها هم وضعفه النحاس . وقال مجاهد : أعناقهم كبراؤهم . قال النحاس : وهذا معروف في اللغة ، يقال جاءني عنق من الناس ، أي : رؤساء منهم وقال أبو زيد ، والأخفش : أعناقهم جماعاتهم ، يقال : جاءني عنق منهم أي : جماعة، وقال ابن عباس : خاضعين ذليلين .

﴿وما يأتيهم من﴾ مزيدة لتأكيد المعنى ﴿ذكر من الرحمن﴾ لابتداء الغاية ﴿محدث﴾ إنزاله ، وكلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾
إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ
مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ
وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿طسٓمٓ﴾ محله الرفع على الابتداء إن كان اسماً للسورة كما ذهب اليه الأكثر ، أو على أنه خبر،ويجوز أن يكون في محل نصب ، والتقدير : اذكر أو اقرأ ، وأما إذا كان مسروداً على نمط التعديد كما تقدم مراراً فلا محل له من الإعراب ، وقد قيل : إنه اسم من أسماء الله سبحانه ، وقيل : إنه اسم من أسماء القرآن ، وقيل : اسم السورة ، وقيل : أقسم بطوله وسنائه وملكه .

وقال ابن عباس : طسٓمٓ عجزت العلماء عن علم تفسيرها وهو الحق في المقام ، ولذا قال المحلي : الله أعلم بمراده بذلك .

﴿تلك﴾ أي : السورة أو آيات هذه السورة ﴿آيات الكتاب﴾ أي : القرآن .

﴿المبين﴾ أي : المبين المظهر للحق من الباطل ، أو المبين الظاهر إعجازه إن كان من أبان اللازم بمعنى بان وهذا المعنى أليق بالمقام : وأوفق للمرام ، ولذا اقتصر عليه صاحب الكشاف .

﴿لعلك باخع﴾ أي : قاتل ومهلك ﴿نفسك﴾ لعل هنا للاشفاق أي : أشفق عليها بتخفيف هذا الغم ، والبخع في الأصل أن يبلغ بالذبح البخاع ،

﴿إلاّ كانوا عنه معرضين﴾ أي إنه لا يجدد لهم موعظة وتذكيراً إلا جددوا ما هو نقيض المقصود ، وهو الإعراض والتكذيب والاستهزاء والجملة حالية ، والاستثناء مفرغ من أعم العام . وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنبياء .

﴿فقد كذبوا﴾ بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً ، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض . وقيل : إن الإعراض بمعنى التكذيب لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله فقد كذبه ، وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح ، والأول أولى . فالإعراض عن الشيء عدم الالتفات إليه .

ثم انتقلوا عن هذا الى ما هو أشد منه وهو التصريح بالتكذيب ، ثم انتقلوا عن التكذيب الى ما هو أشد منه وهو الاستهزاء كما يدل عليه قوله : ﴿فسيأتيهم أنباء﴾ وهي ما يستحقونه من العقوبة آجلا وعاجلاً ، وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن وقال :

﴿ماكانوا بهيستهزؤون﴾ ولم يقل : ما كانوا عنه معرضين ، أو : ما كانوا به يكذبون ، لأن الاستهزاء أشد منهما ، ومستلزم لهما ، وفي هذا وعيد شديد ، وقد مرّ تفسير مثل هذا في سورة الأنعام . ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته من الأمور الحسية ، التي يحصل بها للمتأمل فيها ، والناظر اليها ، والمستدل بها أعظم دليل ، وأوضح برهان ، وبيّن انه أظهر لهم أدلة تحدث في الأرض وقتاً بعد وقت تدل على توحيده ، ومع ذلك استمر أكثرهم على الكفر فقال :

﴿أولم يروا﴾ الهمزة للتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر ، كما في نظائره ﴿إلى الارض﴾ أي : الى عجائبها وبيّن بعضها بقوله ﴿كم أنبتنا فيها﴾ أي : كثيراً ﴿من كل زوج كريم﴾ فنبه سبحانه على عظمته وقدرته ، وأن هؤلاء

المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد ، والمراد بالزوج هنا الصنف والنوع ، وقال الفراء : هو اللون . وقال الزجاج : زوج نوع ، وكريم محمود . والمعنى من كل زوج نافع ، لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين ، اذ ما من نبت إلا وله النفع . والكريم في الأصل الحسن الشريف ، يقال : نخلة كريمة ، أي : كثيرة الثمرة ، ورجل كريم ، شريف فاضل ، وكتاب كريم ؛ إذا كان مرضياً في معانيه ، والنبات الكريم هو المرضي في منافعه .

قال الشعبي : الناس مثل نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ، ومن صار منهم الى النار فهو لئيم . وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والإحاطة أن كلمة كل تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و (كم) تدل على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، وبه نبه على كمال قدرته . قاله الزمخشري ، واليه أشار في التقرير .

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي : فيما ذكر من الإنبات ، أو في كل واحد من تلك الأزواج لدلالة بينة وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه ، وبديع صنعته ، واللام زائدة في اسم إن المؤخر . وقد ذكرت هذه الآية في هذه السورة ثمان مرات ، ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمر على ضلالته ، مصمم على جحوده وتكذيبه واستهزائه فقال :

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي : سبق علمي فيهم أنهم سيكونون هكذا ، فلذلك لا تنفعهم أمثال هذه الآيات العظام . قال سيبويه : إن (كان) هنا صلة أي : زائدة .

﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي : الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم ، مع كونه كثير الرحمة ، ولذلك أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى أنه منتقم من اعدائه رحيم بأوليائه .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾
وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ
﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض والتكذيب والاستهزاء وشروع في قصص سبع :

أولها : قصة موسى .
والثانية : قصة ابراهيم .
والثالثة : قصة نوح .
والرابعة : قصة هود .
والخامسة : قصة صالح .
والسادسة : قصة لوط .

والسابعة : قصة شعيب ، والتقدير : واتل إذ نادى أو اذكر يا محمد والنداء الدعاء أي : نادى حين رأى الشجرة والنار وكان النداء بكلام سمعه من كل الجهات من غير واسطة .

﴿أن﴾ مفسرة أو مصدرية ، أي : بأن ﴿ائت القوم الظالمين﴾ . وليس هذا مطلع ما ورد في حيز النداء ، وأنما هو ما فصل في سورة طـه من قوله : إني أنا ربك ـ الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى ، ووصفهم بالظلم لأنهم جمعوا بين الكفر

الذي ظلموا به أنفسهم ، وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم ، كاستعباد بني اسرائيل وذبح أبنـــائهم، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة الف وثلاثين ألفا .

﴿قوم فرعون﴾ يعني القبط ، عطف بيان . كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون ، وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد .

﴿ألا يتقون﴾ أي : ألا يخافون عقاب الله سبحانه ، فيصرفون عن أنفسهم عقوبته بطاعته . وقيل : المعنى قل لهم : ألا تتقون . وجاء بالتحتية لأنهم غيب وقت الخطاب . وقرىء بالفوقية أي قل لهم ذلك ومثله قل للذين كفروا ستغلبون بالتحتية والفوقية أو ائتهم زاجراً فقد آن لهم ان يتقوا ، وهي كلمة حث واغراء . وقيل : يظلمون غير متقين الله وعقابه ، وعلى هذا حال من الضمير في الظالمين .

﴿قال﴾ موسى ، واعتذر بثلاثة أعذار كل منها مرتب على ما قبله ، وليس مراده الامتناع من الرسالة ، بل اظهار العجز عن هذا الأمر الثقيل ، وطلب المعونة عليه من الله .

﴿رب إني أخاف أن يكذبون﴾ في الرسالة ، والخوف غم يلحق الانسان لأمر سيقع .

﴿ويضيق صدري﴾ بتكذيبهم إياي .

﴿ولا ينطلق لساني﴾ أي بتأدية الرسالة لعقدة كانت على لسانه ، قرىء يضيق وينطلق ، بالرفع على العطف ، أو على الاستئناف وبنصبهما . قال الفراء : كلتا القراءتين لها وجه . قال النحاس : الوجه الرفع ، لأن النصف عطف على ﴿يكذبون﴾ وهذا بعيد .

﴿فأرسل﴾ جبريل بالوحي ﴿الى﴾ أخي ﴿هرون﴾ ليكون معي رسولاً موازراً مظاهراً معاوناً ، ولم يذكر الموازرة هنا لأنها معلومة من غير هذا الموضع ، كقوله في طه :﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾.وفي القصص :﴿أرسله معي ردءاً يصدقني﴾.وكان هرون بمصر حين بعث موسى نبياً بالشام ، وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له ، والتماس العون في تبليغ الرسالة بإرسال

أخيه ، لا من باب الاستعفاء من الرسالة ، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال ، وكفى بطلب العون دليـلاً على التقبل لا على التقلل .

﴿ولهم عليَّ ذنب﴾ هو قتله للقبطي ، قال قتادة : وسماه ذنباً بحسب زعمهم ، أو كما سمى جزاء السيئة سيئة .

﴿فأخاف أن يقتلون﴾ به قصاصاً فيفوت المقصود من الرسالة : فهذا هو الخائف عليه ، وليس هذا تعللاً ايضا ، بل استدفاع للبلية المتوقعة ، وفيه دليل على أن الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء ، ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع . وطرف من الزجر .

﴿قال كلا﴾ أي لا يقتلونك كأنه قيل . ارتدع عما تظن ﴿فاذهبا﴾ أي أنت وأخوك ﴿بآياتنا﴾ وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى الى ما طلبه من ضم أخيه إليه كما يدل عليه توجيه الخطاب إليهما ، وفيه تغليب الحاضر على الغائب ، لأنه اذ ذاك كان بمصر . والإرسال والخطاب كان في الطور .

﴿إنّا معكم﴾ وفي هذا تعليل للردع عن الخوف ، وهو كقوله سبحانه : انني معكما أسمع وأرى ، وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما ، وانه متول لحفظهما وكلاءتهما ، وأجراهما مجرى الجمع فقال : (معكم) لكون الاثنين أقل الجمع على ما يذهب اليه بعض الأئمة أو لكونه أراد موسى وهرون ومن ارسلا اليه . ويجوز أن يكون المراد هما مع بني اسرائيل ، أو تعظيماً لهما ، ولا يخفى ما في المعية من المجاز لأن المصاحبة من صفات الأجسام ، فالمراد معية النصرة والمعونة .

﴿مستمعون﴾ أي : سامعون ما تقولون وما يقال لكم ، والاستماع في غير هذا الاصغاء للسماع يقال : استمع فلان حديثه أي : أصغي اليه ، ولا يجوز حمله ههنا على ذلك ، فحمل على السماع ، قاله النسفي .

﴿فأتيا فرعون فقولا ؛ إنا رسول رب العالمين﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . قال القرطبي : فانطلقا الى فرعون فلم يأذن لهما سنة في الدخول عليه ،

ووحّد الرسول هنا ، ولم يثنه كما في قوله إنا رسولا ربك ، لأنه مصدر بمعنى رسالة والمصدر يوحد ، وأما إذا كان بمعنى المرسل فإنه يثنى مع المثنى ويجمع مع الجمع ، قال أبو عبيدة رسول بمعنى رسالة ، والتقدير على هذا إنا ذوو رسالة . وقال أبو عبيدة ايضاً يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع ، تقول العرب هذا رسولي ووكيلي ، وهذان رسولي ووكيلي ، وهؤلاء رسولي ووكيلي ، ومنه قوله تعالى : فإنهم عدو لي . وقيل : إن معناه أن كل واحد منا رسول .

وقيل : إنهما لما كانا متعاضدين متساعدين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد ، وان في قوله ﴿أن أرسل معنا بني اسرائيل﴾ مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ، أي : خلهم ، واطلقهم معنا الى أرض فلسطين ، ولا تستعبدهم ، وكان قد استعبدهم أربعمائة سنة .

﴿قال﴾ فرعون لموسى بعد أن أتياه وقالا له ما أمرهما الله به : ﴿ألم نر بك فينا﴾ أي في حجرنا ومنازلنا أراد بذلك المنّ عليه والاحتقار له أي : ربيناك لدينا ﴿وليداً﴾ أي : صغيراً قريباً من الولادة بعد فطامك ، ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال .

﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه ؟ قيل : لبث فيهم ثماني عشرة سنة ، وقيل : ثلاثين سنة ، وقيل : أربعين سنة ، ثم وبخه بقتل القبطي فقال :

﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ الفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل ، كما قيل[1] الفعلة للمرة ، والفعلة للحالة ، وقرأ الشعبي بكسر الفاء . والفتح أولى ، لأنها للمرة الواحدة لا للنوع ، والمعنى إنه عدد عليه النعم ، وذكر له ذنوبه ، وأراد بالفعلة قتل القبطي ثم قال : ﴿وأنت من الكافرين﴾ للنعمة حيث قتلت رجلاً من أصحابي ، وقيل : من الكافرين بأن فرعون إلـه ، وقيل من الكافرين بالله في زعمه لأنه كان معهم على دينهم .

(١) لعله أراد . كما قيل عن الفعلة للمرة الخ « المطيعي » .

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾

﴿قال﴾ موسى مجيباً لفرعون ﴿فعلتها إذاً﴾ أي فعلت هذه الفعلة التي ذكرت وهي قتل القبطي ﴿وأنا﴾ إذ ذاك ﴿من الضالين﴾ أي : الجاهلين قاله ابن عباس فنفى عليه الصلاة والسلام عن نفسه الكفر ، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله ، وقيل : المعنى من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل ، وقال أبو عبيدة : من الناسين ، وقيل : من المخطئين .قال ابن جرير: العرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال .

﴿ففررت منكم﴾ أي خرجت من بينكم الى مدين كما في سورة القصص ﴿لمّا خفتكم﴾ أن تقتلوني وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج، الآية .

﴿فوهب لي ربي حكماً﴾أي نبوة او علماً وفهماً ، وقال الزجاج : المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله .

﴿وجعلني من المرسلين﴾ أي من جملة رسله رد بذلك ما وبخه به فرعون قدحاً في نبوته وهو القتل بغير حق ووجه الرد أن موهبة الحكم والنبوة كانت بعد تلك الحادثة .

﴿وتلك نعمة تمنها عليَّ﴾ قيل هذا الكلام من موسى على جهة الإقراربالنعمة، كأنه قال نعم تلك التربية نعمة تمن بها عليَّ ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي ، وبهذا

قال الفراء وابن جرير .

وقيل : هو من موسى على جهة الإنكار أي أتمنّ عليَّ بأن ربيتني وليداً ،وأنت قد استعبدت بني اسرائيل وقتلتهم ، وهم قومي قال الزجاج : المفسرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار لأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى ، واللفظ لفظ خبر ، وفيه تبكيت للمخاطب على معنى أنك لو كنت لا تقتل أبناء بني اسرائيل لكانت أمي مستغنية عن قذفي في البحر ، فكأنك تمنّ على ما كان بلاؤك سبباً له ، وذكر نحوه الأزهري بأبسط منه .

وقال المبرد : يقول . التربية كانت بالسبب الذي ذكرت من التعبّد ،أي : تربيتك إياي كانت لأجل التملك والقهر لقومي . وقيل : إن في الكلام تقدير الاستفهام ، أي : أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش وأنكره النحاس قال الفراء : ومن قال : إن الكلام إنكار قال :أو تلك نعمة؟أي ليست هذه نعمة حتى تمنّ بها عليّ .

ومعنى ﴿أن عبدت بني اسرائيل﴾ أن اتخذتهم عبيداً ، يقال عبّدته وأعبدته بمعنى كذا قال الفراء ، ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من نعمة ، والجر بإضمار الباء ، والنصب بحذفها ، وعن مجاهد قال : عبدّت بني اسرائيل وقهرتهم واستعملتهم . وفيه أوجه سبعة ذكرها السمين .

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ أي لما سمع قول موسى وهرون ﴿إنّا رسول رب العالمين﴾قال مستفسراً لهما عن ذلك ، عازماً على الاعتراض لما قالاه ، أي : أي شيء هو؟ وجاء في الاستفهام بـ (ما) التي يستفهم بها عن المجهول ، ويطلب بها تعيين الجنس . وقيل : معناه وما صفته ؟ تقول ما زيد ؟ أي طويل أم قصير ؟ فقيه أم طبيب؟ نص عليه صاحب الكشاف وغيره .

فلما قال فرعون ذلك ﴿قال﴾ موسى : ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي بيّن الجنسين فعيّن له ما أراد بالعالمين ، وترك جواب ما سأل عنه فرعون لأنه سأل عن جنس رب العالمين ، ولا جنس له ، فأجابه موسى بما يدل على عظيم القدرة الآلهية التي تتضح لكل سامع أنه سبحانه الربّ ولا ربّ غيره ، وفيه إبطال

لدعواه أنه إلـه .

﴿إن كنتم موقنين﴾ بشيء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان، لظهوره ، وإنارة دليله ، وهو العلم الذي يستفاد بالاستدلال ، ولذا لا يقال الله موقن .

﴿قال﴾ فرعون ﴿لمن حوله﴾ من أشراف قومه و هم خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ﴿ألا تستمعون﴾ ؟ ما قاله ، يعني موسى معجباً لهم من ضعف المقالة ، كأنه قال : أتسمعون وتعجبون ؟ يعني سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله ، أو يزعم أنه ربّ السموات ، وهي واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية ، أو غير معلوم افتقارها الى مؤثر . والعدول عن الجواب المطابق متعين لاستحالته . فالسؤال عن الحقيقة سفه وعبث وحمق ، وهذا من اللعين مغالطة لما لم يجد جواباً عن الحجة التي أوردها عليه موسى ، فلما سمع موسى ما قاله فرعون أورد عليه حجة أخرى ، هي مندرجة تحت الحجة الأولى ، ولكنها أقرب الى فهم السامعين .

﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ وخص من العام المتقدم أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه . وهي أظهر دلالة على القادر فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا رب كما يدعيه .

والمعنى أن هذا الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلق آباءكم الأولين وخلقكم ،فكيف تعبدون من هو واحد منكم؟ مخلوق كخلقكم، وله آباء قد فنوا كآبائكم ،فلم يجبه فرعون عند ذلك بشيء يعتدّ به ، بل جاء بما يشكك قومه ويخيل اليهم أن هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء .

﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ قاصداً بذلك المغالطة وإيقاعهم في الحيرة، مظهراً أنه مستخفّ بما قاله موسى مستهزىء به، لأني اسأله عن شيء ويجيبني عن آخر ، وأضافه الى مخاطبيه ترفعاً عن أن يكون مـرسلاً إلى نفسه فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأول .

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى
لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾ خصهما لأنهما أوضح دلالة وأظهر ، وذلك أنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وطلوع النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار،ومعلوم أن طلوع الشمس من أحد الخافقين،وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم ، لا يكون إلا بتقدير قادر حكيم،والمعنى ليس ملكه كملكك لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجري أمرك في غيره ، ويموت فيه من لا تحب أن يموت .

والذي أرسلني،يملك المشرق والمغرب ومابينهما،أي فتشاهدون في كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق،ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله ، حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات،ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه من الجنون،بل بيَّن لفرعون شمول ربوبية الله للمشرق والمغرب وما بينهما ، وإن كان ذلك داخلاً تحت ربوبيته سبحانه للسموات والأرض وما بينهما لماتقدم،ولأن فيه تصريحاً باسناد حركات السموات وما فيها وتغيير أحوالها واوضاعها ، تارة بالنور ، وتارة بالظلمة الى الله،وقيل علم موسى أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه

فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب .

﴿إن كنتم تعقلون﴾ شيئاً من الأشياء، أو إن كنتم من أهل العقول أي إن كنت يافرعون ومن معك من العقلاء ، عرفت وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلا ما ذكرت لك ، لاينهم أولاً ، وعاملهم بالرفق ، حيث قال لهم ﴿إن كنتم موقنين﴾ ثم لما رأى شدة شكيمتهم ،خاشنهم واغلظ عليهم في الرد ، وعارضهم بمثل مقالتهم بقوله : ﴿إن كنتم تعقلون﴾ لأنه أبلغ وأوفق بما قبله من رد نسبة الجنون اليه ، ثم إن اللعين لما انقطع عن الحجة رجع الى الاستعلاء والتغلب والتهديد ، وهكذا ديدن المعاند المحجوج .

﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين﴾ أي : من أهل السجن ، واللام للعهد ، أي ممن عرفت حالهم في سجوني . وكان سجن فرعون أشد من القتل ، لانه اذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت ، وكان يطرحه في هوة عميقة في مكان تحت الأرض وحده . ولذلك (أجعل) أبلغ من (لأسجننك) فتوعد موسى بالسجن ، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإلـه أرسلك،لأن فيه الاعتراف بأن ثمة إلهاً غيره ، وفي توعده بالسجن ضعف ،لما يروى أنـه كان يفـزع من موسى فزعاً شديداً ، حتى كان اللعين لا يمسك بوله فلما سمع موسى عليه الصلاة والسلام ذلك لاطفه طمعاً في إجابته، وإرخاء لعنان المناظرة معه ، مريداً لقهره بالحجة المعتبرة في باب النبوة ، وهي إظهار المعجزة ، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة .

﴿قال أو لو جئتك بشيء مبين﴾ أي : اتجعلني من المسجونين ؟ وتفعل ذلك ؟ ولو جئتك بشيء يتبين به صدقي ، وتظهر عنده صحة دعواي ؟ يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته ، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده . والهمزة هنا للاستفهام، والواو للعطف على مقدر كما مر مراراً، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى .

﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك وإنما أمره بذلك لظنه أنه

يقدر على معارضته وهذا الشرط جوابه محذوف ، لأنه قد تقدم ما يدل عليه ، فعند ذلك أبرز موسى المعجزة .

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي : ظاهر ثعبانيته ليس بتمويه وتخييل كما يفعل السحرة .

قيل : إنها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل . ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، فقال بالذي أرسلك إلّا أخذتها، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ، وقد تقدم تفسير هذا وما بعده في سورة الأعراف واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء في الأرض فانثعب ، أي : فجرته فانفجر،وقد عبر سبحانه في موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله : ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ وفي موضع بالجانّ، فقال : ﴿كأنها جانّ﴾ والجانّ هو المائل الى الصغر ، والثعبان هو المائل الى الكبر ، والحية جنس يشمل الكبير والصغير .

﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾خلاف ما كانت عليه من الأدمة[1] فيه دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر اليه لخروجه عن العادة ، وكان بياضها نورياً ، قال ابن عباس يقول : وأخرج موسى يده من جيبه ، فاذا هي بيضاء تلمع للناظرين لمن ينظر اليها ويراها من غير برص ، لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يغشي الأبصار ، ويسد الأفق .

﴿قال للملأ﴾ مستقرّين ﴿حوله . ان هذا لساحر عظيم﴾ فائق في علم السحر ، وكان زمان السحر فلهذا روج فرعون هذا القول على قوله ، ثم قال على سبيل التنفير : ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ لئلا يقبلوا قول موسى عليه الصلاة والسلام .

﴿فماذا تأمرون﴾ أي ما رأيكم فيه ؟ وما مشورتكم في مثله ؟ فأظهر لهم الميل الى ما يقولونه تألّفاً لهم ، واستجلاباً لمودتهم ، لأنه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال ، وقارب ما كان يعزز به عليهم الاضمحلال ، وإلّا

(١) السمرة

فهو أكبر تيهاً، واعظم كبراً من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة ، المشعرة بأنه فرد من أفرادهم ، وواحد منهم ، مع كونه قبل هذا الوقت يدعي انه إلههم، ويذعنون له بذلك ويصدقونه في دعواه .

قال أبو السعود : بهره سلطان المعجزة ، وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه ، والامتثال بأمرهم ، أو الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعدما كان مستقلاً بالرأي والتدبير ، واظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ، ونسبة الإخراج والأرض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام .

﴿قالوا : أرجه وأخاه﴾ أخرّ أمرهما ، من أرجيته إذا أخرته . وقيل المعنى احبسهما ﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ للسحرة ، وهم الشَرِط الذين يحشرون الناس ، أي يجمعونهم ﴿ يأتوك بكل سحار عليم ﴾ هذا ما أشاروا به عليه ، وجاءوا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه . والمراد بالسحار العليم الفائق في معرفة السحر وصنعته ، أي : يفضل موسى ويفوق ويزيد عليه في علم السحر .

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ هو يوم الزينة كما في قوله : قال موعدكم يوم الزينة . وكان يوم عيد لهم أو يوم سوق ، وميقاته وقت الضحى لأنه الوقت الذي وقّته لهم موسى من يوم الزينة حيث قال :﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ والميقات ما وقت ، أي حد من زمان ، أو مكان . ومنه مواقيت الإحرام والصلاة .

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ؟﴾ حثّاً لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة ، ولمن تكون الغلبة ، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ؛ وطلباً أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده، لأنه يعلم أنّ حجة الله هي الغالبة وحجة الكافرين هي الداحضة ، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين ، والانقهار للمبطلين.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿لعلنا نتبع السحرة﴾ في دينهم ﴿إن كانوا هم الغالبين﴾ لا موسى عليه السلام ؛ وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة ؛ وإنما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام ، لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملاً لهم على الاهتمام والجد في المبالغة . قاله ابو السعود . وقيل أراد بالسحرة موسى وهرون على طريقة الاستهزاء .

﴿فلما جاء السحرة﴾ أي فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه ﴿وقالوا لفرعون أئن لنا لأجراً ؟﴾ أي : لجزاء تجزينا به من مال أو جاه وقيل : أرادوا أن لنا ثواباً عظيماً،ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى فقالوا ﴿إن كنا نحن الغالبين﴾ فوافقهم فرعون على ذلك .

و ﴿قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ أي نعم ، لكم ذلك الأجر والجعل عندي ، على عملكم السحر مع زيادة عليه ، وهي كونكم من المقربين لديّ .

﴿قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون﴾ من السحر ، فسوف ترون عاقبته . وفي آية اخرى﴿قالوا إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾، فيحمل ما ههنا على أنه قال لهم ألقوا بعد أن قالوا هذا القول ، ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر والتمويه ، بل أراد أن يقهرهم

بالحجة ، توسلاً الى اظهار الحق ، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به .

﴿فألقوا حبالهم وعصيهم﴾ سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفاً وكذا العصي ، فيخيلون أنها حيات تسعى ﴿وقالوا﴾ عند الإلقاء ﴿بعزة فرعون﴾ أقسموا بعزته وقوته . وهو من أيمان الجاهلية . وقولهم هذا يحتمل وجهين ؛ الأول : أنه قسم،وجوابه ما بعده والثاني : أن يتعلق بمحذوف والباء للسببية والمراد بالعزة العظمة ﴿إنا لنحن الغالبون﴾ أي : نغلب بسبب عزته لفرط اعتقادهم في انفسهم بالغلبة ؛ واتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر .

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ قد تقدم تفسير هذا مستوفى ؛ والمعنى انها تبتلع وتلقف ما صدر منهم من الإفك ؛ بإخراج الشيء عن صورته الحقيقية . قيل إن عصا موسى صارت حية وابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ثم اخذها موسى فاذا هي كما كانت أول مرة .

﴿فألقي السحرة﴾ أي فخروا وسقطوا ﴿ساجدين﴾ أي لما شاهدوا ذلك علموا أنه صنيع صانع حكيم . ليس من صنيع البشر ؛ ولا من تمويه السحرة فآمنوا بالله وسجدوا له . وأجابوا دعوة موسى وقبلوا نبوّته. وعبّر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة لأنه ذكر مع الالقآت ؛ ولأنهم لسرعة ما سجدوا صاروا كأنهم ألقوا وأخذوا فطرحوا على وجوههم،وأنه تعالى القاهم بما خولهم من التوفيق . وقد تقدم بيان معنى ألقى ومن فاعله ، لوقوع التصريح به .

قال الشهاب ففي (فألقى) استعارة تبعية حسنها المشاكلة ، وليس مجازاً مرسلاً وان احتمله النظم ، ووجه الشبه عدم التمالك .

﴿قالوا﴾ عند سجودهم ، بدل اشتمال من ﴿ألقى﴾ أو حال بإضمار قد : ﴿آمنا برب العالمين﴾ قال عكرمة أمسوا سحرة واصبحوا شهداء .

رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾

﴿رب موسى وهرون﴾ بدل للتوضيح والاشعار بأن سبب إيمانهم ما أجراه الله تعالى على يدهما ، لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر ، وأضافوه سبحانه إليهما لأنهما القائمان بالدعوة في تلك الحالة . وفيه تبكيت لفرعون ، فإنه ليس برب وإن الرب في الحقيقة هو هذا . فلما سمع فرعون ذلك منهم ورأى سجودهم لله .

﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟﴾ أي بغير اذن مني، قال ذلك لما خاف على قومه أن يتبعوا السحرة، ثم قال مغالطاً للسحرة الذين آمنوا وموهماً للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر .

﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم ، مع كونه لا يحب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى ، لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة ، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم ، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة فهو فعل كبيرهم ، وهو من استاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة ، فلا

تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر ، وانه من فعل الرب الذي يدعو اليه موسى ، ولا تعتقدوا أنّ السحرة آمنوا على بصيرة ، وظهور حق ، يعني أن غلبته عليكم لم تكن بالعجز الإلهي ، بل بما لم يعلمكم من السحر ، وأنتم لضعف عقولكم حسبتم أنه غلبكم بغير جنس السحر ، فآمنتم .

ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله فقال : ﴿فلسوف تعلمون﴾ وبال ما فعلتم وما ينالكم مني . أجمل التهديد أولا للتهويل ، ثم فصله فقال :

﴿لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي من أجل خلافٍ ظهر منكم . وقيل : أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى ﴿ولأصلبنّكم أجمعين﴾ كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعونهم في الإيمان. قيل : إنه فعل بهم ما توعدهم به من التقطيع والتصليب وقيل : لم يفعله بهم ولم يرد في القرآن ما يدل على أنه فعل بهم ذلك ، فلما سمعوا ذلك من قوله ﴿قالوا : لا ضير﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا ، فإن ذلك يزول ، ولا بد من الانقلاب بعده الى ربنا ، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يُحَدُّ ولا يوصف . قال الهروي : لا ضير ولا ضرر ولا ضر ، بمعنى واحد ، قال الجوهري : ضاره يضوره ويضيره ضيراً وضوراً أي ضره، قال الكسائي سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني، قال أبو زيد: لا يضيرنا الذي تقول وإن صنعت بنا وصلبتنا .

﴿إنا الى ربنا منقلبون﴾ أي راجعون ، وهو مجازينا لصبرنا على عقوبتك إيانا ، وثباتنا على توحيده ، والبراءة من الكفر قاله أبو زيد ، تعليل لعدم الضير أي لا ضير في ذلك ، بل لنا فيه نفع عظيم ، لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم ، أو لا ضير علينا فيما

تتوعدنا به من القتل ؛ إذ لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من أسباب الموت ، والقتل أهونها وأرجاها.

﴿إنّا نطمع﴾ أي نرجو ﴿أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي الكفر والسحر ، ثم علّلوا هذا بقولهم : ﴿أن كنا﴾ أي بسبب أن كنا ﴿أول المؤمنين﴾ أي : أنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية أو من أهل المشهد .

وقال الفـرّاء أول مؤمنـي زمانهم ، وأنكره الزجاج ، وقال : قد روي أنه أمن معهم ستمائة الف وسبعون ألفا ، وهم الذين عناهم فرعون بقوله : إن هؤلاء لشرذمة قليلون قال أبو زيد : كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رأوها .

﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يخرج ببني اسرائيل ليلاً الى البحر ، أي لا الى جهة الشام بالبر ، وهذا بعد سنين من ايمان السحرة ، وسمّاهم عباده لأنهم آمنوا بموسى وبما جاء به . وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الأعراف .

﴿إنكم مُتّبَعون﴾ تعليل للأمر المتقدم ، أي : يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم أي : أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين ، كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر ، بل يكونون على أثركم حيث تلجون البحر ، فيدخلون مداخلكم فأطبقه عليهم واغرقهم .

﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ وذلك حين بلغه خـروجهم ، والمراد بالحاشرين الجامعون للجيش من الأمكنة التي فيها أتباع فرعون ، ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه :

﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ يريد بني اسرائيل والشرذمة الجمع الحقير

القليل والجمع شراذم . قال الجوهري : الشرذمة الطائفة القليلة من الناس والقطعة من الشيء وثوب شراذم أي قطع ،قال الفراء يقال عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون . قال المبرد: الشرذمة القطعة من الناس غير الكثير ، وجمعها الشراذم .

قال الواحدي : قال المفسرون وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف ، وبه قال ابن عباس ولا يحصى عدد أصحاب فرعون وقال ابن مسعود ستمائة الف وسبعون ألفاً،ومقدمة جيشه سبعمائة ألف ، فقللهم بالنظر الى كثرة جيشه ، وجملة جيشه ألف ألف وستمائة ألف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطاً فكان في كل طريق اثنا عشر ألفاً كلهم ولد يعقوب .

وأخرج ابن مردويه عنه ايضاً بسند،قال السيوطي واه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان فرعون عدو الله حيث أغرقه الله سبحانه هو واصحابه في سبعين قائداً ، مع كل قائد سبعون ألفاً ، وكان موسى مع سبعين ألفاً حيث عبروا البحر .

وعنه قال : كان طلائع قوم فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلا على بهيم . واقول هذه الأقوال والروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف ما يماثلها في الاضطراب والاختلاف ، ولا يصح منها شيء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿وإنّهم لنالغائظون﴾يقال غاظني كذا ، والغيظ الغضب ، ومنه التغيظ والاغتياظ ، أي غاظونا بخروجهم من غير إذن مني .

﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أي خائفون من شرّهم،وقرىء (حذرون) قال الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن ، والحذر المخلوق كذلك،أي مجبولاً على الحذر لا تلقاه إلا حذراً وقال الزجاج الحاذر المستعد، والحذر المتيقظ، وبه قال الكسائي ، والمبرد،وذهب أبو عبيدة الى أن معنى (حاذرون) و (حذرون) واحد . وهو قول سيبويه أي وإنا لجمع من عادتنا الحذر ، واستعمال الحزم في الأمور . أشار أولاً الى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ، ثم الى تحقق ما يدعو إليه من فرط عدوانهم ووجوب التيقظ في شأنهم ، حثّاً عليه . او اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كيلا يظن به ما يكسر سلطانه قاله البيضاوي .

﴿فأخرجناهم﴾ أي فرعون وقومه أي خلقنا فيهم داعية الخروج فخرجوا ﴿من جنات وعيون وكنوز﴾ أخرجهم الله من أرض مصر ليلحقوا موسى وقومه . وفيها الجنات والبساتين على جانبي النيل من أسوان الى رشيد وهي جمع جَنة، وعين، وكنز،والمراد بالكنوز الخزائن، وقيل الدفائن وقيل الأنهار، وفيه نظر ؛ لأن العيون المراد بها عند جمهور المفسرين عيون الماء ، فتدخل تحتها الأنهار .

والمراد بالكنوز الأموال الظاهرة من الذهب والفضة ، وسميت كنوزاً لأنه لم يعط حق الله منها ، وفي الشهاب المراد بها إما الأموال التي تحت الأرض ، وخصها لأن ما فوقها انطمس ، أو مطلق المال الذي لم يؤد منه حق الله لأنه يقال له كنز،والاول أوفق باللغة ، والثاني مروي عن السلف فلا وجه للتحكم هنا .

﴿ومقام كريم﴾ أي بهي بهيج واختلف فيه ، فقيل المنازل الحسان،وقيل المنابر،قاله ابن عباس،وقيل مجالس الرؤساء والامراء والوزراء،حكاه ابن عيسى وقيل مرابط الخيل ، الأول أظهر،وقال سعيد بن جبير سمعت أن المقام الكريم الفيوم .

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا
ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾

﴿كذلك﴾ أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا او مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم أو الأمر كذلك ﴿وأورثناها بني اسرائيل﴾ أي جعلناها ملكاً لهم بعد إغراق فرعون وقومه .

قال الحسن : لما عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وجناتهم وأموالهم وعيونهم وقيل أراد بالوراثة هنا ما استعاروا من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى وقيل مساكنهم الحسنة والكنوز (قلت) وكلا الأمرين جعل لهم والحمد لله .

﴿فاتبعوهم﴾ بقطع الهمزة وقرىء بوصلها وتشديد التاء أي فلحقوهم حال كونهم ﴿مشرقين﴾ أي داخلين في وقت الشروق ، يقال شرقت الشمس شروقاً أذا طلعت كأصبح وأمسى ، أي : دخل في هذين الوقتين وقيل داخلين نحو المشرق كأنجد ، واتّهم . وقيل : مضيئين قال الزجاج : يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي : تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ، وهو تفاعل من الرؤية . وقرىء (تراءت الفئتان) والمراد بنو اسرائيل والقبط .

﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ أي سيدركنا جمع فرعون . ولا طاقة لنا بهم،وهذه قراءة الجمهور . يعني اسم مفعول من أدرك ، ومنه ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ وقرىء بفتح الدال المشددة وكسر الراء، قال الفراء هما بمعنى واحد . قال النحاس ليس كذلك يقول النحويون الحذاق إنما يقولون مدركون بالتخفيف ملحقون وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم . قال : وهذا معنى قول سيبويه .

وقال الزمخشري : إن معنى هذه القراءة إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد . قال موسى زجراً لهم وردعاً ﴿كلا﴾ يعني أنهم لا يدركونكم ، وذكرهم وعد الله بالهداية والخلاص ، والظفر بقوله :

﴿إنّ معي ربي﴾ بالنصر ﴿سيهدين﴾ أي سيدلّني على طريق النجاة. عن أبي موسى ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إنّ موسى لما أراد أن يسير ببني اسرائيل أضلّ الطريق فقال لبني اسرائيل ما هذا؟ فقال له علماء بني اسرائيل : إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى أيكم يدري أين قبره ؟ فقالوا ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني اسرائيل ، فأرسل اليها موسى فقال : دلينا على قبر يوسف ، فقالت لا والله ، حتى تعطيني حكمي ، قال : وماحكمك ؟ قالت : أن أكون معك في الجنة فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له : أعطها حكمها فأعطاها حكمها ، فانطلقت بهم الى بحيرة مستنقعة ماء فقالت لهم ؛ انضبوا عنها الماء ففعلوا قالت : احفروا ، فحفروا فاستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه اذا الطريق مثل ضوء النهار ، فلما عظم البلاء على بني اسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم به ، أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه وذلك قوله :

﴿فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ وذلك أن الله عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ، ومتعلقة بفعل يفعله ، والا فضرب العصا ليس بفارق البحر ، ولا معيناً على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله

تعالى واختراعه، وبه نجا موسى وبنو اسرائيل وهلك عدوهم ﴿فانفلق﴾ الفاء فصيحة ، أي : فضرب فصار وانشق اثني عشر فلقاً ، بعدد الأسباط ، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم ، وهو معنى قوله :

﴿فكان كل فرق﴾ هو القطعة من البحر ، وقرىء (فلق) باللام بدل الراء ﴿كالطود﴾ كالجبل او عظيمه والجمع أطواد ، يقال طاد يطود إذا ثبت ﴿العظيم﴾ أي الضخم بينها مسالك سلكوها ، لم يبتل منها سرج الراكب ولا لبده قاله ابن عباس ، وابن مسعود .

﴿وأزلفنا ثَمَّ الآخرين﴾ أي قربناهم الى البحر قاله ابن عباس ، قال أبو عبيدة أزلفنا جمعنا ، ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمع ، وثَمَّ ظرف مكان للبعيد ، وقيل : قربنا من النجاة وقرىء (زلفنا) ثلاثياً ، وقرىء ﴿أزلقنا﴾ أي أزللنا وأهلكنا ، من قولهم ، أزلقت الفرس إذا ألقت ولدها ، ويعني بالآخرين فرعون وقومه وقيل ، المراد بهم موسى وأصحابه والأول أولى .

قيل ؛ كان جبريل بين بني اسرائيل وبين قوم فرعون . يقول لبني اسرائيل ليلحق آخركم أولكم ، ويقول للقبط رويداً ليلحق آخركم أولكم فكان بنو اسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياسة من هذا الرجل ، وكان القبط يقولون ما رأينا أحسن داع من هذا! .

﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾ بمرورهم في البحر بعد أن جعله الله طرقاً يمشون فيها ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ يعني فرعون وقومه ، أغرقهم الله بإطباق البحر عليهم ، بعد أن دخلوا فيه متبعين موسى وقومه ، وخرج بنو اسرائيل منه، وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث ، فإنهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم .

﴿إن في ذلك﴾ أي فيما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية ﴿لآية﴾ عبرة عظيمة وقدرة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه لمن بعدهم .

﴿وما كان أكثرهم﴾ أي أكثر هؤلاء الذين مع فرعون ﴿مؤمنين﴾ بالله فإنه لم يؤمن منهم فيما بعد إلا القليل كحزقيل وابنته ، وآسية امرأة فرعون ، والعجوز التي دلت على قبر يوسف وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنهم هلكوا جميعاً في البحر ، بل المراد من كان معه من الأصل ، ومن كان متابعاً له ، ومنتسباً اليه ، هذا غاية ما يمكن أن يقال . وقال سيبويه وغيره : إنّ (كان) زائدة ، وأنّ المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة .

﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ أي المنتقم من أعدائه بإغراقهم ﴿الرحيم﴾ بأوليائه بإنجائهم .

﴿واتل﴾ أي : أقصص ياحمد ﴿عليهم﴾ أي على كفار مكة ﴿نبأ﴾ خبر ﴿إبراهيم﴾ وحديثه ﴿إذ قال﴾ أي وقت قوله ﴿لأبيه وقومه ما﴾ أي أيُّ شيء ﴿تعبدون﴾ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام ، ولكنه أراد إلزام الحجة وليريهم أنّ ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة ، بل بمعزل عنها بالكلية .

﴿قالوا نعبد أصناماً﴾ افتخاراً ومباهاة بعبادتها ﴿فنظل لها عاكفين﴾ أي فنقيم وندوم على عبادتها ، مستمرين طوال النهار ، لا في وقت معين . يقال ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً ، وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً ، فظاهره أنهم يستمرون على عبادتهم نهاراً لا ليلاً والمراد من العكوف لها الإقامة على عبادتها وإنما قال ﴿لها﴾ لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها .

فلما قالوا هذه المقالة ﴿قال﴾ إبراهيم منبهاً على فساد مذهبهم ﴿هل يسمعونكم اذ تدعون ؟﴾ قال الأخفش المعنى هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؟ وقرأ قتادة هل يُسمعونكم؟ بضم الياء أي هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم ؟ قال الزمخشري إنه على حكاية الحال الماضية ، ومعناه استحضروا الأحوال التي كنتم تدعونها فيها ، هل سمعوكم اذا دعوتم ؟ وهو أبلغ في التبكيت .

أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

﴿أو ينفعونكم ؟﴾ بوجه من وجوه النفع إن عبدتموها ﴿أو يضرون﴾ أي يضرونكم اذا تركتم عبادتها ؟ وهذا الاستفهام للتقرير ، فإنها اذا كانت لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، فلا وجه لعبادتها ، فاذا قالوا نعم هي كذلك أقروا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث والسفه ، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم ، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة ، لم يجدوا لها جواباً إلا رجوعهم الى التقليد البحت وهو أنهم .

﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ هذه العبادة لهذه الأصنام ، فقلدناهم مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضر عنها ، وفي أبي السعود هذا الجواب منهم اعتراف بإنها بمعزل عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة ، واضطروا الى إظهار أن لا مستند لهم سوى التقليد أي ما علمنا ولا رأينا منهم ما ذكر من الأمور ، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فاقتدينا بهم . انتهى .

قال الخازن :وفي الآية دليل على إبطال التقليد في الدين وذمّهِ ، ومدح الأخذ بالاستدلال انتهى . وهذا الجواب هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز ويمشي بها كل اعرج ، ويغتر بها كل مغرور ، وينخدع لها كل مخدوع ؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض ، بطولها والعرض ؛ وقلت لهم : ما الحجة لكم على تقليد فرد من أفراد العلماء ؟ والأخذ بكل ما يقوله في الدين ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل ؟ لم يجدوا غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه ، واخذوا يعدون عليك من سبقهم الى تقليد هذا من سلفهم ، واقتدى بقوله وفعله ، وهم قد ملأوا صدورهم هيبة ، وضاقت آذانهم عن تصورهم وظنوا أنهم خير أهل الأرض ، وأعلمهم وأورعهم فلم

يسمعوا لناصح نصحاً ولا لداع الى الحق دعاء ، ولو فطنوا لرأوا انفسهم في غرور عظيم ،وجهل شنيع وأنهم كالبهيمة[١]العمياء وأولئك الأسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمي كما قال الشاعر :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك ايها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف ؛ ان تورد عليهم حجج الله ، وتقيم عليهم براهينه ، فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه ، وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء العضال فلو أوردت عليه كل حجة ، وأقمت عليه كل برهان ، لما أعارك إلا أذناً صماء وعيناً عمياء ، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن ، والهداية بيد الخلاق العليم ، انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿قال﴾ الخليل عليه السلام : ﴿أفرأيتم ما كنت تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾ أي فهل أبصرتم ؟ او تفكرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة والرؤية هنا مستعملة في معناها الأصلي ، واليه نحا أبو السعود ، وصنيع الكازروني يقتضي أنها بمعنى اخبروني ، أي اخبروني عن حال ما كنتم تعبدون ، هل هو حقيق بالعبادة أولاً ؟ وهذا استهزاء بعبدة الأصنام،والفاء فاء السببية تفيد أن ما بعدها وهو العداوة سبب لطلب الإخبار عن حالهم ؛ فهي بمعنى اللام ، أي : أخبروني عن حالها لأنها عدو لي كما صرح به الرضى في قوله أخرج منها فإنك رجيم ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها فقال :

﴿فإنهم عدو لي﴾ ومعنى كونهم عدواً له مع كونهم جماداً أنه إن عبدهم كانوا له عدواً يوم القيامة ، قال الفراء : هذا من المقلوب ، أي فإني عدو لهم ، لأن من عاديته عاداك . وأسند العداوة الى نفسه تعريضاً بهم ، وهو أنفع في النصيحة من التصريح بأن يقول فإنهم عدو لكم .

(١) هذا كلام لا يليق.

والعدو كالصديق يطلق على الواحـد ، والمثنى ، والجماعـة ، والمذكـر والمؤنث كذا قال الفراء قال علي بن سليمان من قال عدوة الله فأثبت الهاء قال هى بمعنى المعادية . ومن قال عدو للمؤنث ، والجمع ، جعله بمعنى النسب وقيل المراد بقوله ﴿فإنهم عدو لي﴾ آباؤهم الاقدمون لأجل عبادتهم للأصنام . ورد بأن الكلام مسوق فيما عبدوه في العابدين .

﴿ إلا ﴾ أي لكن ﴿ رب العالمين ﴾ ليس كذلك ، بل هو وليِّي في الدنيا والآخرة ، لا يزال متفضلاً عليّ فيهما قال الزجاج قال النحويون هو استثناء ليس من الأول،وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله ، فإني أعبده .

قال الجرجاني تقديره أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ إلا رب العالمين ، فإنهم عدو لي . فجعله من باب التقديم والتأخير ، وجعل ﴿إلا﴾ بمعنى دون وسوى ، كقوله﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى﴾ أي دون الموتة الأولى ، وقال الحسن بن الفضل : إن المعنى إلا من عبد رب العالمين ، ثم وصف رب العالمين بقوله :

﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ أي يرشدني الى مصالح الدين والدنيا ، وطريق النجاة ، وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله ، فإن الخلق والهداية والرزق الذي يدل عليه قوله :

﴿والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين﴾ ودفع المرض وجلب نفع الشفاء ، والإماتة والإحياء والمغفرة للذنب ، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها ، أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها وأولاها العبادة،ودخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره،واسند المرض الى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية واستعمالاً للأدب مع الرب كما قال الخضر .﴿فأردت أن أعيبها﴾ .وقال :﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ وإلا فالمرض والشفاء من الله سبحانه .

وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾
رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ
﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾

﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ المراد بالإحياء البعث، ولهذا عطف هنا بثم خلاف ما قبله لاتساع الأمر بين الإماتة والإحياء، لأن المراد به الإحياء في الآخرة . وحذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي. وقرىء كلها بإثبات الياء ، وإنما قال عليه السلام .

﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي﴾ هضماً لنفسه ، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر . وطلب أن يغفر لهم ما يفـرط منهم ، وتكرير الموصول في المواضع الثلاثة المعطوفـة للإيذان بأن كل واحد من تلك الصلات نعت جليل مستقل في إيجاب الحكم . قيل : إن الطمع هنا بمعنى اليقين في حقه ، وبمعنى الرجاء في حق سواه .

وقرىء ﴿خطاياي﴾ لأنها ليست خطيئة واحدة . قال النحاس خطيئة بمعنى خطايا في كلام العرب ، قال مجاهد يعني بخطيئته قوله :﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾،وقوله :﴿إني سقيم﴾، وقوله إن سارة أخته زاد الحسن وقوله للكوكب : هذا ربي . وحكى الواحدي عن المفسرين أنهم فسروا الخطايا بما فسر بها مجاهد .

قال الزجاج : الأنبياء بشر ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلا انهم لا

تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون ﴿يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء للعباد بأعمالهم،ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد ومن معه ضعيف ، فإن تلك معاريض ، وهي ايضاً إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه .

وعن عائشة قالت : قلت يارسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المساكين أكان ذلك نافعاً له ؟ قال لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين . وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قوله إنه لا يصلح للإلٓهية إلا من يفعل هذه الأفعال ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه ، والاعتراف بنعمه ، وفنون ألطافه ، الفائضة عليه من حضرة الحق ، من مبدأ خلقه الى يوم بعثه ، حمله ذلك على مناجاته تعالى ؛ فعقبه بالدعاء ليقتدي به غيره في ذلك فقال :

﴿رب هب لي حكماً﴾ المراد بالحكم الكمال في العلم والفهم والعمل يستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق . وقيل النبوة والرسالة . وقيل المعرفة بحدود الله وأحكامه.

﴿وألحقني بالصالحين﴾ يعني بالنبيين قبلي في العمل الصالح . وقيل بأهل الجنة ، أي في درجاتهم . قاله ابن عباس : والأول أولى . ولقد أجابه تعالى حيث قال : وإنه في الآخرة لمن الصالحين .

﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي اجعل لي ثناء حسناً وذكراً جميلاً وجاهاً وصيتاً وقبولاً عاماً في الأمم الآخرين ، الذين يأتون بعدي في الدنيا يبقى أثره الى يوم القيامة . قال القتيبي : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، لأن القول يكون بها ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة ، وقد أعطى الله سبحانه ابراهيم ذلك بقوله : وتركنا عليه في الآخرين ، وأجاب دعاءه ، فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه .

وكل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه ، خصوصاً هذه الأمة وخصوصاً

في كل تشهد من تشهدات الصلوات . وقال مكي : قيل معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأجيبت دعوته في محمد ﷺ ، فتكون الآية على تقدير مضاف ، أي صاحب لسان صدق ، أو هو مجاز من اطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان ولا وجه لهذا التخصيص والتكلف .

وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن الى قيام الساعة ولا وجه لهذا أيضاً . فإنّ لسان الصدق أعم من ذلك . وعن ابن عباس في الآية قال اجتماع أهل الملل على ابراهيم فما من أمة إلا وهي تحبه وتثني عليه .

﴿واجعلني﴾ وارثاً ﴿من ورثة جنة النعيم﴾ أي مندرجاً فيهم ومن جملتهم ؛ أي ممن يعطاها بلا تعب ومشقة كالإرث الحاصل للانسان من غير تعب،واضافة الجنة الى النعيم من اضافة المحل للحال فيه .

ولما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا ؛ طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة وهي جنة النعيم ، قيل : وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا . وقد تقدم تفسير معنى الوراثة في سورة مريم .

﴿واغفر لأبي﴾ كان أبوه قد وعده أنه يؤمن به فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة. وسورة مريم ، وعن ابن عباس قال : أمنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ﴿إنه كان من الضالين﴾ أي : من المشركين الضالين عن طريق الهداية وكان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدم في غير موضع .

﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الاشهاد بمعاتبتي او بمعاقبتي على ما فرطت ، أو لا تعذبني يوم القيامة ، وقال ذلك لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً . أو المعنى . لا تخزني بتعذيب أبي او ببعثه في جملة الضالين او بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث . والاخزاء يطلق على الخزي وهو الهوان وعلى الخزاية وهي الحياء ، أي الاستحياء .

أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتني ان لا تخزيني يوم يبعثون ، فأي خزي أُخزى من أبي (الأبعد) فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقول : ما تحت رجليك يا إبراهيم فاذا بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار، والذيخ هو الذكر من الضباع فكأنه حوّل آزر إلى صورة ذيخ وقد اخرجه النسائي بأطول من هذا .

﴿يوم لا ينفع﴾ فيه ﴿مال ولا بنون﴾ أحداً من الناس . والابن هو اخص القرابة وأولاهم بالحماية ، والدفع والنفع ، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة والأعوان بالأولى . وقال ابن عطية ان هذا وما بعده من كلام الله ، وهو ضعيف،والأظهر انه من كلام ابراهيم ﴿إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾ قيل هو استثناء منقطع أي لكن من أتى الله . قال في الكشاف : إلا مال من أتى الله فقدر مضافاً محذوفاً قال ابو حيان: ولا ضرورة تدعو الى ذلك . وقيل : إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف ، أو مستثنى منه إذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحداً من الناس إلا من كانت هذه صفته . ويحتمل أن يكون بدلاً من فاعل ينفع ، فيكون مرفوعاً . قال أبو البقاء:فيكون التقدير إلا مال من ، أو بنو من ، فإنه ينفع وهذا الماضي بمعنى المضارع ، وكذا يقال في قوله : وأزلفت وبرزت ، وقيل وكبكبوا وقالوا .

واختلف في معنى القلب السليم فقيل ؛ السليم من الشرك ، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ، قاله اكثر المفسرين . وقال سعيد بن المسيب : السليم الصحيح ؛ وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال تعالى في قلوبهم مرض . وقيل هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن الى السنة

وقيل سالم من آفة المال والبنين . وقال الضحاك السليم الخالص . وقال الجنيد رحمه الله السليم في اللغة اللديغ ، فمعناه انه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى . وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن .

قال الرازي أصح الأقوال أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة . وقال ابن عباس بشهادة أن لا إله إلا الله . وقد صوب الجليل استثناء الخليل إكراماً له ؛ ثم جعله صفة له في قوله :﴿وإنّ من شيعته لإبراهيم ؛ اذ جاء ربه بقلب سليم﴾ .

قال النسفي : وما أحسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون ، سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ،وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فاخرجه من أن يكون شبهة،فضلاً عن أن يكون حجة ؛ ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله تعالى فعظم شأنه . وعدد نعمه من حين انشائه الى وقت وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته،ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهال الأدب،ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال،وتمنى الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا انتهى .

﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قربت وأدنيت لهم ليدخلوها أو بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشورون إليها. وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها ونظرهم اليها .

﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾ أي جعلت بارزة لهم والمراد بهم الكافرون الضالون عن طريق الحق الذي هو الإيمان والتقوى . والمعنى أنها أظهرت بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفاً. وقيل : أظهرت قبل أن يدخلوها ليشتد حزن الكافرين ويكثر سرور المؤمنين وقرىء ﴿برزت﴾ على البناءين .

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿وقيل لهم﴾ على سبيل التوبيخ ﴿أينما﴾ أيْ في أيِّ مكان ﴿كنتم تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام والأنداد وهذا سؤال تبكيت لا يتوقع له جواب .

﴿هل ينصرونكم ؟﴾ فيدفعون عنكم العذاب ﴿أو ينتصرون ؟﴾ بدفعه عن أنفسهم ، وهذا كله توبيخ وتقريع لهم .

﴿فكبكبوا فيها﴾ أي ألقوا في جهنم على رؤوسهم. وقيل قلبوا على رؤوسهم. قيل ألقى بعضهم على بعض . وقيل جمعوا . قاله ابن عباس مأخوذ من الكبكبة وهي الجماعة قاله الهروي ، وقال النحاس هو مشتق من كوكب الشيء ، وهو معظمه ، والجماعة من الخيل كوكب وكبكبة ، وقيل دهدهوا .

وهذه المعاني متقاربة والكبكبة تكرير الكب ، وهو الإلقاء على الوجه ، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة إثر مرة ، حتى يستقر في قعرها . نعوذ بالله منها وأصله كببوا بباءين الأولى مشددة من حرفين فابدل من الباء الوسطى الكاف،وقد رجح الزجاج ان المعنى طرح بعضهم على بعض ، ورجح ابن قتيبة أن المعنى القوا على رؤوسهم . وقيل انكسوا وقيل الضمير في كبكبوا لقريش.

﴿هم﴾ أي الآلهة المعبودون والأصنام ﴿والغاوون﴾ أي العابدون لهم .

وقيل الجن والكافرون . وقال ابن عباس مشركو العرب والآلهة ﴿وجنود إبليس﴾ أي شياطينه الذين يغوون العباد من الإنس والجن . وقيل ذريته وأتباعه. وقيل كل من يدعو إلى عبادة الأصنام ﴿أجمعون﴾ تأكيد للضمير في كبكبوا وما عطف عليه .

﴿قالوا﴾ أي الغاوون ﴿وهم﴾ أي حال كونهم ﴿فيها يختصمون﴾ مع معبوديهم مستأنفة،كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل ؟ ومقول القول:

﴿تالله إن كنا﴾ أي إن الشأن كوننا ﴿لفي ضلال مبين﴾ واضح ظاهر ، والمراد بالضلال هنا الخسار والتبار ، والحيرة عن الحق ويجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم أو يجري ذلك بين العصاة والشياطين .

﴿إذ نسوّيكم﴾ العامل في الظرف هو كونهم في الضلال . وقيل العامل هو الضلال وفيه ضعف. وقيل ظرف لِـ ﴿مبين﴾ وقيل: ما يدل عليه الكلام كأنه قيل : ضللنا وقت تسويتنا لكم في العبادة ﴿برب العالمين﴾ الذي أنتم أدنى مخلوقاته ، واذلهم واعجزهم . وقال الكوفيون أن ﴿إن﴾ في ﴿إن كنا﴾ نافية واللام بمعنى إلا أي ما كنا إلا في ضلال مبين ، والأول أولى ، وهو مذهب البصريين ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية .

﴿وما أضلنا﴾عن الهدى ﴿إلا المجرمون﴾ يعني من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس والشياطين ، وقيل رؤساؤهم الذين أضلوهم. وقيل إبليس وجنوده . وابن آدم الأول وهو قابيل ، وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصي . وقيل من سن الشرك وقيل الأولون الذين اقتدينا بهم .

﴿فما لنا من شافعين﴾ يشفعون لنا من العذاب ، كما للمؤمنين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ﴿ولا صديق حميم﴾ أي ذي قرابة ، والحميم القريب الذي تودّه ويودّك ، وجمع الشفعاء،ووحّد الصديق ، لما تقدم غير مرة ، أنه يطلق على الواحد ، والاثنين ، والجماعة والمذكر ، والمؤنث أو لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، لأن الصديق الصادق في ودادك الذي يهمه

ما أهمك قليل . وسئل حكيم عن الصديق فقال : اسم لا معنى له . وقيل اسم بلا مسمى . والنفي ههنا يحتمل نفي الصديق من أصله ، أو نفي صفته فقط ، أو لأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ، والحميم مأخوذ من حامّة الرجل أي خاصته واقربائه . ويقال حم الشيء وأحم إذا قرب ومنه الحمى ، لأنه يقرب من الأجل .

وقال علي بن عيسى : إنما سمي القريب حمياً لأنه يحمى لغضب صاحبه فجعله مأخوذاً من الحمية وقيل من الاحتمام بمعنى الاهتمام الذي يهمه ما يهمك قاله الزمخشري .

﴿فلو أن لنا كرة﴾ هذا منهم على طريق التمني الدال على كمال التحسر، كأنهم قالوا فليت لنا كرة أي رجعة الى الدنيا وجواب التمني ﴿فنكون من المؤمنين﴾ أي نصير من جملتهم ، حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء .

﴿إن في ذلك﴾ أي ما تقدم ذكره من نبأ ابراهيم وقصة قومه ﴿لآية﴾ أي عبرة وعلامة وحجة وعظة لمن أراد ان يستبصر بها ويعتبر ؛ فإنها جاءت على أنظم ترتيب ؛ وأحسن تقرير ، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه ، لما فيها من الإشارة الى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلالتها ، وحسن دعوته للقوم ، وحسن مخالفته معهم ، وكمال إشفاقه عليهم ، وتصوير الأمر في نفسه ، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً بهم ، وإيقاظاً لهم ؛ ليكون أدعى الى الاستماع والقبول ، والتنوين في ﴿آية﴾ يدل على التعظيم والتفخيم .

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبأ ابراهيم وهم قريش . ومن دان بدينهم . وقيل : وما كان أكثر قوم ابراهيم بمؤمنين . وهو ضعيف لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ القاهر لاعدائه ﴿الرحيم﴾ بأوليائه أو الرحيم للاعداء بتأخير عقوبتهم وترك معاجلتهم .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ
﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا
عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾

﴿كذّبت قوم نوح المرسلين﴾ أنث الفعل لكونه مسنداً إلى ﴿قوم﴾ وهو في معنى الجماعة او الأمة أو القبيلة ، وفي المصباح : القوم يذكر ويؤنث وكذا كل اسم جمع ، لا واحد له من لفظه ؛ نحو : رهط ، ونفر ، وأوقع التكذيب على المرسلين ، وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل اليهم ، لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل . لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل ، وقيل : كذبوا نوحاً في الرسالة وكذبوه فيما أخبرهم به من نبأ المرسلين بعده ؛ أو لأنه لطول لبثه فيهم كأنه رسل .

﴿إذ قال لهم اخوهم نوح﴾ أي أخوهم من أبيهم ، لا أخوهم في الدين . وقيل : المراد إخوة المجالسة ، وقيل ؛ هو من قول العرب يا أخا بني تميم ؛ يريدون واحداً منهم ؛ ﴿ألا تتقون﴾ الله بترك عبادة الأصنام ؟ وتجيبون رسوله الذي ارسله اليكم ؟ ﴿اني لكم رسول أمين﴾ فيما أبلغكم عن الله وقيل : أمين فيما بينكم ، فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه .

﴿فاتقوا الله﴾ أي اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه ﴿واطيعون﴾ فيما آمركم به عن الله من الإيمان به ، وترك الشرك ، والقيام بفرائض الدين تصدير القصص الخمس بالحث على التقوى ، يدل على أن البعثة مقصورة على

الدعاء الى معرفة الحق ، والطاعة فيما يقرب المدعو الى ثوابه ، ويبعده عن عقابه وكان الأنبياء متفقين على ذلك وان اختلفوا في بعض التفاريع ، مبرئين عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية .

﴿ومـا أسألكم عليـه من أجر﴾ أي مـا اطلب منكم أجراً عـلى تبليغ الـرسالـة ولا أطمع في ذلك منكم و (من) زائدة في المفعول ﴿إن أجري﴾ أي : ما ثوابي الذي أطلبه وأريـده ﴿إلا على رب العالمين﴾ لا على غيره وكرر قوله : ﴿فاتقوا الله واطيعون﴾ للتأكيد ، والتقرير في النفوس ، مع كونه علق كل واحد منهما بسبب ؛ وهو الامانة في الأول وقطع الطمع في الثاني . ونظيره قولك ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً ؟ ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً ؟ وقدّم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوى الله علة لطاعته .

﴿قالوا أنؤمن لك﴾ الاستفهام للإنكار، أي كيف نتبعك ونصدق لك ونؤمن بك ؟ ﴿و﴾ الحال أن قد ﴿اتبعك الأرذلون﴾ جمع أرذ ل وجمع التكسير أرذال ، والأنثى رذلاء وهم الأقلّون جاهاً ومالاً ، والرذالة الخسة والذلة ، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم ، أو لا تّضـــاع أنسـابهم.

قال مجاهد : الأرذلون الحواكون . وقـال قتادة سفلة النـاس وأراذلهم وقال ابن عباس : يعني القافة ، وقيل هم الحاكة والاساكفة ؛ وقيل : كانوا من أهل الصناعات الدنية ، والصناعة لا تزرى بالديانة فالغنى غنى الدين ؛ والنسب نسب التقوى .

ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا . وإن كان أفقر الناس ؛ وأوضعهم نسباً وما زالت اتباع الأنبياء كذلك . وإنما بادروا للاتباع قبل الاغنياء لاستيلاء الرياسة على الاغنياء ، وصعوبة الانفكاك منها ، والأنـفة عن الانقياد للغير . والفقير خلى من تلك الموانع فهو سريع الإجابة والانقياد ، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا ، وهذا من سخافة عقولهم ، وقصر رأيهم على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع المقلّين من الدنيا مانعاً من اتباعهم ، وجعلوا ايمانهم بما يدعوهم اليه دليـلاً على بطلانه .

وقرىء ﴿أتباعك الأرذلون﴾ قال النحاس : وهي قراءة حسنة لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيراً وأتباع جمع تابع .

﴿قال : وما علمي بما كانوا يعملون ؟﴾ كان زائدة والمعنى : وما علمي بعملهم ؟ أي : لم أكلف العلم بأعمالهم ، إنما كلفت أن ادعوهم الى الايمان والاعتبار به لا بالحرف والصنائع ، والفقر والغنى ، وكأنهم اشاروا بقولهم ﴿واتبعك الارذلون﴾ الى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح ، وإنما لتوقع مال ورفعة ، فأجابهم بهذا أي أني لم أقف على باطن أمرهم ، وانما وقفت على ظواهرهم . وقيل المعنى إني لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم ويرشدهم ويغويكم .

﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ أي ما حسابهم والتفتيش عن ضمائرهم واعمالهم إلا على الله ، لو كنتم من أهل الشعور والفهم ما عيرتموهم بصنائعهم . وقرىء ﴿يشعرون﴾ بالتحتية كأنه ترك الخطاب للكفار والتفت الى الأخبار عنهم . قال الزجاج والصناعات لا تضر في باب الديانات ، وما أحسن ما قال :

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي ما أنا إلا نذير موضح لما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إليكم وهذه الجملة كالعلة لما قبلها .

﴿قالوا : لئن لم تنته يانوح﴾ أي إن لم تترك عيب ديننا وسب آلهتنا ﴿لتكونن من المرجومين﴾ بالحجارة ، وقيل من المشتومين . وقيل من المقتولين ، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد .

فلما سمع نوح قولهم هذا ﴿قال رب إنّ قومي كذبون﴾ أي أصروا وصمموا على تكذيبي بعدما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ولم يسمعوا قولي ولا أجابوا دعائي وإنما قال هذا إظهاراً لما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق ، لا تخويفهم له واستخفافهم به .

فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ
ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ
﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ
أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾

﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الفتح الحكم أي احكم بيننا حكماً يستحقه كل واحد منا . أي أنزل العقوبة والهلاك ، وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل في سورة نوح .

﴿ونجنّي ومن معي من المؤمنين﴾ وكانوا ثمانين، أربعون من الرجال وأربعون من النساء .

﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ أي السفينة المملوءة من الناس ، والحيوان ، والطير. والشحن ملء السفينة بالناس والدواب والمتاع . قال ابن عباس : المشحون الممتلىء ، وعنه قال أتدرون ما المشحون ؟ قلنا لا . قال : هو الموقر . وعنه ايضا قال : هو المثقل .

﴿ثم أغرقنا بعد﴾ أي بعد انجائهم ﴿الباقين﴾ من قومه .

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي علامة وعبرة عظيمة .

﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أفهم أنه لو كان نصفهم مؤمنين لما أخذوا

﴿وإنّ ربك لهو العزيز﴾ أي القاهر لأعدائه والمنتقم بإهابة من جحد وأصر ﴿الرحيم﴾ بأوليائه والمنعم بإعـانة من وحّـد وأقرّ.

﴿كذبت عاد المرسلين﴾ أنث الفعل باعتبار اسناده الى القبيلة ، لأن عاداً اسم ابيهم الأعلى ، وكان من نسل سام بن نوح ، ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولاً واحداً قد تقدم وجهه في قصة نوح قريباً .

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ نسباً ﴿هود﴾ وكان تاجراً جميل الصورة يشبه آدم ، وعاش من العمر اربعمائة وأربعاً وستين سنة ﴿ألا تتقون ؟﴾ والكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً وكذا في قوله :

﴿إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما اسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية ؟﴾ الريع المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة . يقال : كم ريع أرضك ؟ أي كم ارتفاعها ؟ قال أبو عبيدة : الريع الارتفاع جمع ريعة . وقال قتادة والضحاك والكلبي الريع : الطريق ، وبه قال مقاتل والسدي وابن عباس ، واطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة . وقيل : الريع الجبل ، واحده ريعة ، والجمع أريـاع، وقال مجاهد هو الفج بين الجبلين . وروي عنه أنه الثنيـة الصغيرة ، وروي عنه ايضاً أنه المنظرة وقيل بروج الحمام . وقال ابن الأعرابي الريع الصومعة ، والريع البرج يكون في الصحراء ، والريع التل العالي وفي الريع لغتان كسر الراء وفتحها،والاستفهام للتقريع والتوبيخ ومعنى الآية انكم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء .

﴿تعبثون﴾ ببنائه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون من يمر بكم وتسخرون منهم ، وقال الكلبي إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم ، حكاه الماوردي .

﴿وتتخذون مصانع﴾ هي الأبنية التي يتخذها الناس منازل ، قال أبـو عبيدة كل بناء مصنعه وبه قال الكلبي وغيره. وقيل هي الحصون المشيدة قاله

مجاهد وغيره ، وقال الزجاج انها مصانع الماء التي تجعل تحت الأرض واحدتها مصنعة ، ومصنع أي حياضاً وبركاً تجمعون فيها الماء فهي من قبيل الصهاريج . قال الجوهري المصنعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر والمصانع الحصون ، وقال عبدالرزاق المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية .

﴿لعلكم تخلدون﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا لإنكاركم البعث، والتوبيخ حينئذ ظاهر ، أو عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تحكمون بنيانها . وقيل إن (لعل) هنا للاستفهام التوبيخي ، قاله زيد بن علي ، وبه قال الكوفيون ، أي هل تخلدون ؟ كقولهم لعلك تشتمني ؟ أي هل تشتمني وقال الفراء : كي تخلدون ، وبه قرأ عبدالله ، أي لا تتفكرون في الموت . وقيل المعنى كأنكم باقون مخلدون . فـ ﴿لعل﴾ معناها التشبيه ، ولم أر من نص على أنها تكون للتشبيه . وقرىء ﴿تخلدون﴾ مخففاً ومشدداً وحكى النحاس أن في بعض القرآت ﴿كأنكم مخلدون﴾ وبه قال ابن عباس .

﴿وإذا بطشتم﴾ بضرب أو قتل ﴿بطشتم جبارين﴾ من غير رأفة ، والبطش السطوة والأخذ بالعنف ، قال مجاهد وغيره إذا أردتم البطش لئلا يتحد الشرط والجزاء . قال الزجاج إنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم ، وأما في الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز .

قال الكرخي : إعلم أن اتخاذ الأبنية العالية تدل على حب الدنيا ، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء ، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو ، وهذه صفات الإلهية وهي ممتنعة الحصول للعبد انتهى . ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم ، والعتو ، والتمرد ، والتجبر ، أمرهم بالتقوى فقال :

﴿فاتقوا الله﴾ في ذلك ﴿واطيعون﴾ فيما أمرتكم به أجمل التقوى ، ثم فصله بقوله :

وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ
﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى
مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ
﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون﴾ من أنواع النعم والخير الحاصلةلكم، ثم فصل هذا الإجمال بقوله :﴿أمـدّكـم بأنعام وبنين﴾ الخ بإعادة الفعل لزيادة التقرير والتأكيد ، لأن التفصيل بعد الإجمال . والتفسير بعد الإبهام أدخل في ذلك ﴿وجنّات وعُيون﴾ أي بساتين وانهار وآبار ، ثم وعظهم وحذرهم فقال :

﴿إني أخاف عليكم﴾ إن كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه ، ولم تشكروا هذه النعم ﴿عذاب يوم عظيم﴾ أي العذاب الدنيوي والأخروي ، فان كفران النعمة مستتبع للعقاب ، كما أن شكرها مستتبع لزيادتها .

﴿قـالوا : سـواء علينا﴾ أي مستـو عندنـا ﴿أوعظت أم لم تكن من الواعظيـن﴾ أصـلاً أي وعظك وعدمه سواء عندنا ، لا نبالي بشيء منه ، ولا نلتفت الى ما تقوله ، ولا نرعوي له والحاصل انهم أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه

واستخفافهم بما أورده من المواعظ ، والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ولم يقل أم لم تعظ لـرؤوس الآي وتواخي القـوافي .

وأبدى له الزمخشري معنى فقال : هو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ . وعن الكسائي : أوعظت بإدغام الظاء في التاء وهو بعيد ، لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيها قرب منه جـداً وقرأ الباقون بإظهار الظاء .

﴿إن هذا﴾ تعليل لما قبله أي ما هذا الذي جئتنا به ودعوتنا اليه من الدين وقيل : المعنى ما هذا الذي نحن عليه ﴿إلا خلق الأولين﴾ أي طبيعتهم وعادتهم التي كانوا عليها ، وهذا بناء على ما قال الفراء وغيره : إن معنى الخلق العادة . قال النحاس : الخلق عند الفراء العادة .

وعن محمد بن يزيد : خلقهم مذهبهم وما جرى عليه أمرهم . والقولان متقاربان،وقال مقاتل : قالوا : ما هذا الذي تدعونا اليه إلا كذب الأولين . قال الواحدي : هو قول ابن مسعود ومجاهد ، قال والخلق والاختلاق الكذب ، ومنه قوله ويخلقون إفكـاً . وقرىء خلق بفتح الخاء وسكون اللام وبضمها . قال الهروي : معناه على الأولى اختلاقهم وكذبهم ، وعلى الثانية عادتهم ، وهذا التفصيل لا بدّ منه . قال ابن الأعرابي : الخلق الدين والطبع والمروءة وقرأ أبو قلابة بضم الخاء وسكون اللام ، وهي تخفيف لقراءة الضم لها . والظاهر أن المراد بالآية هو قول من قال ما هذا الـذي نحن عليه إلا عادة الأولين وفعلهم ، ويؤيده قولهم :

﴿وما نحن بمعذبين﴾ على ما نفعل من البطش ونحـوه. مما نحن عليه الآن في الدنيا من الأعمال ولا بعث ولا حساب ﴿فكذبوه﴾ أي هوداً أي أصرّوا على تكذيبه ﴿فأهلكناهم﴾ في الدنيابالريـح ،كما صرح به القرآن في غير هذا الموضع ، وهي ريح باردة شديدة الصوت لا ماء فيها ، وسلطت عليهم سبع ليال وثمانية ايام ، أولها من صبح يوم الاربعاء لثمان بقين من شوال

وكانت في عجز الشتاء .

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربّك لهو العـزيز الرحيم﴾ تقدم تفسير هذا قريباً في هذه السورة ، ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه ، ذكر قصة صالح وقومه وكانوا يسكنون الحِجر فقال :

﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ المراد بهم صالح ففي التعبير عنه بالجمع ما تقدم ، وثمود اسم قبيلة سميت باسم أبيها ، وهو ثمود جد صالح ، ولذا قال :

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ نسباً ﴿صالح﴾ لاجتماعه معهم في الأب الأعلى وعاش صالح من العمر مائتين وثمانين سنة، وبينه وبين هود مائة سنة : ﴿ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين﴾ قد تقدم تفسيره في قصة هود المذكورة قبل هذه القصة .

﴿أتتركون فيما ههنا آمنين﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، أي لا تظنوا ولا ينبغي لكم ان تعتقدوا أنكم تتركون في الدنيا متقلبين في هذه النعم ، التي أعطاكم الله ، آمنين من الموت أو العذاب ، باقين في الدنيا . ولما أبهم النعم في هذا فسرها بقوله :

﴿في جنات وعيون ، وزروع ونخل﴾ ذكر النخـل مع دخـوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار ، أو لأن المراد بها غيره من الأشجار ، وكثيراً ما يذكرون الشيء الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولا يقصدون إلا الإبل ، وهكذا يذكرون الجنة ولا يريدون إلا النخل . وهو اسم جمع ، الواحدة نخلة ، وكل اسم جمع كذلك يؤنث ويذكر ، وأما النخيل بالياء فمؤنثه اتفاقاً .

﴿طلعها هضيم﴾ أول ما يطلع من الثمر ، وبعده يسمى خلالاً ، ثم

بلحاً ، ثم بسرا ثم رطباً ثم تمراً ، وفي البيضاوي : هو ما يطلع منها كنصل السيف ، في جوفه شماريخ القنو . انتهى .

وهذا التشبيه من حيث الهيئة والشكل والهضيم هو النضيج ، الرخص اللين اللطيف ، أو متدل متكسر من كثرة الحمل وقيل ما لم يخرج من كفراه لدخول بعضه في بعض . وحكى الماوردي في معنى هضيم اثني عشر قولاً أحسنها وأوفقها باللغة ما ذكرناه ، وعن ابن عباس قال هضيم معشب ، وعنه قال أينع وبلغ ، وعنه قال أرطب واسترخى .

﴿وتنحتون في الجبال بيوتاً فارهين﴾ النحت النجر والبري ؛ نحته ينحِته بالكسر ، براه والنحاته البراية ، والمنحت ما ينحت به ؛ وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال ، لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر ، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، وفي الخطيب ، وكان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة ، وكذا كان قوم هود .

وقرىء ﴿فرهين﴾ قال أبو عبيد وغيره وهما بمعنى واحد ، والفره النشاط وشدة الفرح ، وفرق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا فارهين حاذقين بنحتها ، قاله ابن عباس ، وقيل : متجبرين ، وفرهين بطرين اشرين ؛ وبه قال مجاهد وابن عباس ، وغيره وقيل : شرهين . وقال الضحاك : كيسين . وقال قتادة معجبين ناعمين آمنين وبه قال الحسن . وقيل : فرحين قاله الأخفش . وقال ابن زيد أقوياء .

﴿فاتقوا الله واطيعون﴾ فيما أمرتكم به ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ أي المشركين ، وقيل : التسعة الذين عقروا الناقة جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي في النسبة الايقاعية ؛ والمراد الآمر .

ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض ولا يصدر منهم الصلاح بطاعة الله البتة .

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿قالوا : إنما أنت من المسحّرين﴾ أي : الذين أصيبوا بالسحر قاله مجاهد وقتادة ، وقيل : المسحر هو المعلل بالطعام والشراب ، قاله الكلبي وغيره ، فيكون المسحر الذي له سحر وهو الرئة ، فكأنهم قالوا : إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب . قال الفراء أي أنك تأكل الطعام والشراب ، وتسحر به . قال المؤرج المسحر المخلوق بلغة ربيعة ، قال ابن عباس مسحرين مخلوقين .

﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ تدعي أنك رسول الينا ؟ ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ في قولك ودعواك .

﴿قال﴾ صالح : ﴿هذه ناقة﴾ أشار اليها بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها قال أبو موسى الأشعري : رأيت مبركها فإذا هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً ثم وصاهم صالح بأمرين :

الأول : ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ أي لها نصيب من الماء ، ولكم نصيب منه معلوم. ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها ، ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم ، وهذا دليل على جواز المهايأة ، قال الفراء الشرب الحظ من الماء قال النحاس فأما المصدر فيقال فيه شرب شرباً وشرباً ، وأكثرها المضموم ؛ والشرب بفتح الشين جمع شارب ، والمراد هنا

الشرب بالكسر ، وبه قرأ الجمهور فيهما ، وقرىء بالضم فيهما ،

والأمر الثاني : ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أي بعقر أو ضرب أو شيء مما يسوءها وجواب النهي ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ لحلول العذاب فيه ، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد .

﴿فعقروها﴾ يوم الثلاثاء أي عقرها قدار ، وضرب بالسيف في ساقيها وكان ابن زنا قصيراً دمياً ولكنهم راضون به فأضيف اليهم .

﴿فأصبحوا نادمين﴾ على عقرها لما عرفوا أن العذاب نازل وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، لأن ذلك لا يجدي عند معاينة العذاب ، وظهور آثاره ، ولأن مجرد الندم ليس توبة .

﴿فأخذهم العذاب﴾ الذي وعدهم به يوم السبت وهو أنهم في اليوم الأول أي الأربعاء قد اصفرت وجوههم ، ثم احمرت في الخميس ، ثم اسودت في الجمعة وفي قول مقاتل أنه خرج في أبدانهم خراج مثل الحمص ؛ فكان في اليوم الأول أحمر ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار في الثالث أسود ، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء وهلاكهم يوم الأحد ، انفقعت فيه تلك الخراجات وصاح عليهم جبريل صيحة فماتوا بالأمرين وكان ذلك ضحوة . وقد تقدم تفسير قوله :

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وفيه إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب ، وأن قريشاً إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تقدم تفسيرها ايضاً في هذه السورة .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ
أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾
قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ
﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾

﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم وهي قصة لوط ، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط﴾ أي في البلد والسكنى والتجاور في القرية ، لا في الدين ، ولا في النسب ، لأنه ابن أخي إبراهيم، وهما من بلاد المشرق من أرض بابل .

﴿ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ .

﴿أتأتون﴾ أي أتنكحون ﴿الذكران﴾ جمع الذكر ضد الأنثى وهم بنو آدم أو كل حيوان ﴿من العالمين﴾ أي من الناس وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في الأعراف .

﴿وتذرون﴾ تتركون ﴿ما خلق﴾ أي أصلح وأحل وأباح ﴿لكم ربكم﴾ لأجل استمتاعكم به ﴿من أزواجكم﴾ المراد بهن جنس الإناث وقال مجاهد تركتم أقبال النساء الى أدبار الرجال ، وأدبار النساء وعن عكرمة نحوه ، وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات . قال النسفي ومن اجازه فقد

اخطأ خطأً عظيماً ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي مجاوزون للحد في جميع المعاصي ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران .

﴿قالوا لئن لم تنته يالوط﴾ عن الإنكار علينا وتقبيح أمرنا ﴿لتكونن من المخرجين﴾ من بلدنا المنفيين عنها ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال .

﴿قال : إني لعملكم﴾ وهو ما أنتم فيه من إتيان الذكران ﴿من القالين﴾ أي من المبغضين له ، والقلي : البغض الشديد ، كأنه يقلي الفؤاد ، يقال : قليته قلي وقلاء ، وفيه دليل على عظم المعصية لأن قلاه من حيث الدين ، ثم رغب عليه السلام عن مجاورتهم وطلب من الله عز وجل أن ينجيه فقال :

﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي من عملهم الخبيث ، أو من عقوبته التي ستصيبهم ، فأجاب الله سبحانه دعاءه فقال ﴿فنجيناه وأهله﴾ أي أهل بيته ومن تابعه على دينه ﴿أجمعين﴾ .

﴿إلا عجوزاً﴾ هي امرأة لوط ، وكانت راضية بذلك ؛ والراضي بالمعصية في حكم العاصي ، واستثناء الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للإشتراك في هذا الاسم ، وان لم تشاركهم في الإيمان ﴿في الغابرين﴾ أي من الباقين في العذاب ، وقال أبو عبيدة من الباقين في الهرم ، أي بقيت حتى هرمت . قال النحاس يقال للذاهب عابر وللباقي غابر ، والأغبار بقية الألبان : وتقول العرب ما مضى وما غبر ، أي ما بقي . قال قتادة هي امرأة لوط غبرت في عذاب الله .

﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب وبقلب قراهم عليهم ، وجعل عاليها سافلها .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ
أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
(١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)﴾

﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي على من كان منهم ذلك الوقت خارج القرى لسفر أو غيره ﴿مطراً﴾ يعني الحجارة ، وقيل الكبريت والنار .

﴿فساء مطر المنذَرين﴾ المخصوص بالذم محذوف والتقدير مطرهم ، ولم يرد بهم قوماً بأعيانهم ، بل جنس الكافرين ، وقد تقدم تفسير قوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ؛ وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ في هذه السورة .

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ الأيكة الشجر الملتف ، وهي الغيضة وقرىء (ليكة) بلام واحدة وفتح التاء ، وجعلوه اسماً غير معرف بأل مضافاً اليه (أصحاب﴾ و (ليكة) اسم القرية وأنكره الزمخشري ، وهو غير جيد .

وقيل هما بمعنى واحد اسم للغيضة : قال القرطبي فأما ما حكاه أبو عبيدة من أن ليكة اسم القرية التي كانوا فيها ، وأن الأيكة اسم البلد كله،فشيء لم يثبت ولم يعرف من قاله ولو عرف لكان فيه نظر ، لأن أهل العلم جميعاً على خلافه .

قال أبو علي الفارسي الأيكة تعريف أيكة ، فإذا حذفت تخفيفاً القيت حركتها على اللام . قال الخليل الأيكة الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر . قال مجاهد ليكة هي الأيكة ، وقد وقع لفظ الأيكة في القرآن أربع مرات ، في الحجر ، وفي ق ، وما هنا ، وفي ص ، والأولان بأل والجر والآخران يقرآن بأل وبالجر وبحذف الهمزة ، والقاء حركتها على اللام وفتح الهاء مع أن الكل مجرورات بإضافة لفظ أصحاب اليها وقال ابن عباس كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر الى مدين .

﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟﴾ ولم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله ، لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب ؛ فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً لأنه كان منهم ، وقد مضى تحقيق نسبه في الاعراف ، وبعث الله شعيباً الى أمتين ، أصحاب الأيكة وأهل مدين ، فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة ؛ وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين .

﴿إني لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء فيها حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته والاخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة .

﴿أوفوا الكيل﴾ أي أتمّوه لمن أراده وعامل به ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي الناقصين للكيل والوزن يقال أخسرت الكيل والوزن أي نقصته ، ومنه قوله تعالى ﴿وإذ كالوهم او وزنوهم يخسرون﴾ قال النسفي الكيل واف وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهي عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، فتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن ، وإن لم يفعل فلا شيء عليه ثم زاد سبحانه في البيان فقال :

﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي أعطوا الحق بالميزان السوي وقد مر بيان تفسير هذا في سورة سبحان ، وقرىء (القسطاس) مضموم القاف ومكسورها ، وهي الميزان أو القبان ، فإن كان من القسط وهو العدل ، وجعلت العين مكررة ، فوزنه فعلان وإلا فهو رباعي .

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ البخس النقص يقال : بخسه حقه إذا نقصه ، أي : لا تنقصوا حقوقهم التي لهم وهذا تعميم بعد التخصيص . وقيل : دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافها . وقد تقدم تفسيره في سورة هود .

وتقدم أيضاً تفسير : ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فيها وفي غيرها أي لا تبالغوا فيها بالفساد نحو قطع الطريق ، والغارة واهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه ، يقال : عثا في الأرض إذا أفسد ، وبابه سما ، وعثى بالكسر ، وعثى بفتحتين بوزن فتى قال الأزهري : القراء كلهم متفقون على فتح الثاء وقد دل على أن القرآن نزل باللغة الثانية ، وفي القاموس : عثى كسعى ورمى ورضى .

﴿واتقوا﴾ الله ﴿الذي خلقكم﴾ أي من نطفة، وإعدامكم أهون شيء عليه ، واشار الى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله ﴿والجبلّة الأولين﴾ الذين اهلكوا بالمعاصي ، كقوم لوط كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة قرىء الجبلة بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وقرىء بضمهما وتشديد اللام ، وقرىء بفتح الجيم مع سكون الباء والجبلة الخليقة قاله مجاهد وغيره ، يعني الأمم المتقدمة يقال : جبل فلان على كذا أي خلق .

قال النحاس : الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الأولين وبضمهما مع تشديد اللام فيهما ، وبضم الجيم وسكون الباء وضمه وفتحها قال الهروي الجبلة والجبلة والجبل والجبل لغات وهو الجمع والعدد الكثير من الناس . ومنه قوله تعالى ﴿جِبلًّا كثيراً﴾ أي خلقاً كثيراً.

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ
﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ
لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾

﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ أي من المخلوقين ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ إدخال الواو هنا يفيد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم ، التسحير والبشرية ، يعني ان كُلًّا منهما كاف فكيف إذا اجتمعا ، وترك الواو في قصة ثمود ليفيد معنى واحداً ، وهو كونه مسحراً ، وقد تقدم تفسيره في هذه السورة .

﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ فيما تدعيه علينا من الرسالة وقيل ما نظنك إلا من الكاذبين ، والأول أولى .

﴿فأسقط علينا كسفاً﴾ كان شعيب عليه السلام يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فقالوا له هذا القول تعنتاً واستبعاداً وتعجيزاً ، قال أبو عبيد الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدرة ، قال الجوهري الكسفة القطعة من الشيء يقال اعطني كسفة من ثوبك . والجمع كسف وكسف ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان ﴿من السماء﴾ أي السحاب او الظلة ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك .

﴿قال ربي أعلم بما تفعلون﴾ من الشرك والمعاصي فهو مجازيكم على ذلك ان شاء ، وفي هذا تهديد شديد ﴿فكذبوه﴾ فاستمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك .

﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ هي السحاب أقامها الله فوق رؤوسهم، فأمطرت عليهم ناراً فهلكوا ، وقد أصابهم الله بما اقترحوه لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر ، وان أرادوا بها القطعة من السماء فقد نزل عليهم العذاب من جهتها . قال ابن عباس أرسل الله اليهم سموماً من جهنم فأطاف بهم سبعة أيام حتى انضجهم الحر فحميت بيوتهم ، وغلت مياههم في الآبار والعيون ، فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين ، والسموم معهم ، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم ، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ، ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يشتغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعاً أطبقت عليهم فهلكوا ، ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه .

وعنه ايضاً أنه سئل عن قوله فأخذهم عذاب الى آخره فقال فخرجوا من البيوت هرباً الى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً ، فذلك عذاب يوم الظلة ، وعنه قال : من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه ، (أقول) فما نقول له رضي الله عنه فيما حدثنا به من ذلك مما نقلناه عنه ههنا . وقد رواه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر و ابن أبي حاتم وغيرهم . ويمكن أن يقال : انه لما كان هو البحر الذي علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم : كان مختصاً بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم ، فمن حدث بحديث عذاب يوم الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به فقد وصانا بتكذيبه ، لأنه قد علمه ولم يعلمه غيره ، والله أعلم . وأضاف العذاب الى يوم الظلة ، لا الى الظلة تنبيهاً على أن لهم في ذلك اليوم عذاباً غير عذاب يوم الظلة[1] كذا قيل ، ثم وصف

---

(١) قوله غير عذاب يوم الظلة كذا بالأصل الذي بأيدينا وانظره أ هـ مصححه .

سبحانه هذا العذاب الذي أصابهم بقوله :

﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ لما فيه من الشدة عليهم التي لا يقادر قدرها وقد تقدم تفسير قوله : ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ في هذه السورة مستوفى فلا نعيده ، وقد تقدم الكلام على هذه القصص في سورتي الأعراف وهود ، فأغنى عن الاعادة هنا ، وفي هذا التكرير لهذه الكلمات في آخر هذه القصص السبع من التهديد والزجر ، والتقرير والتأكيد ، ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام ، ويعرف أساليبه.

وقال النسفي : قد كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريراً لمعانيها في الصدور ، وليكون أبلغ في الوعظ والزجر ، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت جديرة بأن تفتح بما افتتحت به صاحبتها ، وان تختم بما اختتمت به .

﴿وإنّه﴾ الضمير يرجع الى ما نزله عليه من الأخبار ، أي وإن هذه الأخبار أو وإن القرآن وإن لم يجر له ذكر للعلم به ، وبه قال قتادة ﴿لتنزيل رب العالمين﴾ أي: فليس بشعر ولا سحر، ولا أساطير، ولا غير ذلك مما قالوه فيه.

﴿نزل﴾ قرىء مخففاً ومشدداً ﴿به الروح الأمين﴾ هو جبريل ، كما في قوله قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك وبه قال قتادة وابن عباس ؛ وعنه مرفوعاً قال : الروح الأمين جبريل ، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس !! أخرجه أبو الشيخ ، وسماه روحاً لأنه خلق من الروح ، وسماه أميناً لأنه مؤتمن على وحيه لأنبيائه .

﴿على قلبك﴾ أي : أنه تلاه على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه ، ووجه تخصيص القلب أنه أول مدرك من الحواس الباطنة ، قال الكرخي خصه

بالذكر ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ ، والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير ، ولأن القلب هو المخاطب في الحقيقة ، لأنه موضع التمييز والعقل والاختبار ، وسائر الأعضاء مسخرة له .

ويدل عليه القرآن والحديث والمعقول أما القرآن فقوله تعالى :﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ والحديث قوله ﷺ ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب أخرجاه في الصحيحين . وأما المعقول فإن القلب إذا غشى عليه ، وقطع سائر الأعضاء لم يحصل له شعور ، وأذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات ، وعبارة الخازن، ومن المعقول أن موضع الفرح والسرور ، والغم والحزن ، هو القلب ، فإذا فرح القلب أو حزن يتغير حال سائر الاعضاء ، فكان القلب كالرئيس لها ، ومنه : إن موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين ، فاذا ثبت ذلك كان القلب هو الأمير المطلق ، وهو المكلف لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم انتهى .

﴿لتكون من المنذرين﴾ علة للإنزال أي : أنزله عليك لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات والانذارات والعقوبات ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي : لتكون من المنذرين الذين انذروا بهذا اللسان ، وهم هود وشعيب وصالح واسماعيل عليهم الصلاة والسلام ، أو متعلق بـ (نزل) أي أنزله بلسان عربي لتنذر به .

وقال أبو البقاء : بلسان عربي ، أي برسالة أو لغة . وقال أبو السعود باللغة العربية ، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربياً بلسان الرسول العربي ، لئلا يقول مشركو العرب : لو نزل بالأعجمي لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا فقطع بذلك حجتهم ، وازاح علتهم ودفع معذرتهم . قال ابن عباس : أي بلسان قريش ، ولو كان غير عربي ما فهموه ، وعن بريدة قال بلسان جُرْهُم .

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ
عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ
فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾
أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

﴿وإنه﴾ أي : إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع ، أو ذكره ، وقيل : الضمير لرسول الله ﷺ ﴿لفي زبر الأولين﴾ من الأنبياء كالتوراة والانجيل ، والزبر الكتب ، الواحد زبور ، وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا ، وقيل المراد بكون القرآن فيها أنه مذكور فيها هو نفسه لا ما اشتمل عليه من الأحكام ، وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية كالفارسية وغيرها ، والأول أولى ، وقد قيل إن الصحيح من مذهب أبي حنيفة أن القرآن هو النظم والمعنى معاً قاله الشهاب .

﴿أولم يكن لهم آية ؟﴾ الهمزة للإنكار . والواو للعطف على مقدر ، كما تقدم مراراً ، والآية العلامة والدلالة أي . ألم تكن لهؤلاء أي لكفار مكة علامة دالة على أن القرآن حق ، وانه تنزيل رب العالمين وأنه في زبر الأولين ﴿أن يعلمه علماء بني اسرائيل﴾ على العموم ، أو من آمن منهم كعبدالله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ، وثعلبة ، وابن يامين فهؤلاء الخمسة من علماء اليهود وقد حسن إسلامهم فإنهم يخبرون بذلك ، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين لأنهم كانوا يرجعون اليهم ويصدقونهم . قال الزجاج المعنى أو لم يكن لهم علم علماء بني اسرائيل أن محمداً ﷺ نبي حق ، علامة ودلالة على نبوته ، لأن العلماء الذين آمنوا من بني اسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم .

وكذا قال الفراء عن ابن عباس قال كان عبدالله بن سلام من علماء بني اسرائيل ، وكان من خيارهم ، فآمن بكتاب محمد فقال لهم الله أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل .

﴿ولو نزلناه﴾ أي هذا القرآن على الصفة التي هو عليها ﴿على بعض﴾ رجل من ﴿الاعجمين﴾ جمع أعجمي ، قاله صاحب التحرير ، أو جمع أعجم قاله ابن عطية ، يقال رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح اللسان ، وان كان عربياً ، ورجل عجمي إذا كان أصله من العجم، وإن كان فصيحاً ، إلا أنّ الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي ، بمعنى أعجمي وقرىء (على بعض الأعجميين) على الأصل ، وقال الزمخشري الأعجم الذي لا يفصح ، وفي لسانه عجمة او استعجام ، والأعجمي مثله إلا أن فيه زيادة ياء النسب توكيداً .

﴿فقرأه عليهم﴾ قراءة صحيحة ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ أنفة من اتباعه، مع انضمام اعجاز القراءة من الرجل الأعجمي للكلام العربي ، أي القرآن او المعنى أن الأعجمي لا يتهم باكتسابه اصلاً ، ولا باختراعه ، لفقد الفصاحة فيه ، ولكونه ليس لغته . وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم ، فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به ، وقالوا ما نفقه هذا ولا نفهمه ، ومثل هذا قوله تعالى﴿ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته﴾ وهذه الشرطية لا تستلزم الوقوع .

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك السلك ﴿سلكناه﴾ أي أدخلنا القرآن ﴿في قلوب المجرمين﴾ أي كفار مكة بقراءة النبي ﷺ حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته ، وانه معجز . وقال الحسن وغيره سلكنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين ، وقال عكرمة سلكنا القسوة ، والأول أولى ، لأن السياق في القرآن ، وفيه حجة على المعتزلة ، في خلق أفعال العباد خيرها وشرها .

﴿لا يؤمنون به﴾ أي بالقرآن ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي الى هذه

الغاية ، وهي مشاهدتهم للعذاب الأليم والمراد معاينة الموت عند المـوت ، ويكون ذلك ايمان يأس فلا ينفعهم ، والجملة مستأنفة او حالية .

﴿فيأتيهم﴾ أي العذاب ﴿بغتة﴾ أي فجأة والفاء للترتيب الرتبي دون الزماني كما في الكشاف والمعنى حتى يروا العذاب فما هو أشد من رؤيته ، وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشد منه وهو سؤالهم الإنظار مع القطع بامتناعه كما يأتي ﴿وهـم﴾ أي والحال أنهم ﴿لا يشعرون﴾ بإتيانه وقـرأ الحسن فتأتيهم بالفوقية أي الساعة ، وان لم يتقدم لها ذكر لكنه قد دل العذاب عليها فيرونه .

﴿فيقولوا هل نحن منظرون ؟﴾ أي مؤخرون وممهلون عن الهلاك ولو طرفة عين لنؤمن ، قالوا هذا تحسر على ما فات من الإيمان، وطمعاً في المحال وهو إمهالهم بعد مجيء العذاب ، وتمنياً للرجعة الى الدنيا لاستدراك ما فرط منهم ، فيقال لهم لا تأخير ولا إمهال ، وقيل المراد بقولهم هذا الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله :

﴿أفبعذابنا يستعجلون ؟﴾ ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفـة للمعنى الظاهر فإن معنى ﴿هل نحن منظرون﴾ طلب النظرة والامهال ، وأما قوله (أفبعذابنا الخ) فالمراد به الرد عليهم ، والانكار لما وقع منهم من قولهم ﴿أمـطر علينا حجـارة من السماء، أو ائتنـا بعذاب أليم﴾ وقـولهم : ﴿فائتنـا بما تعـدنا﴾ حيث استعجلوا ما فيه ضررهم ، وحتف أنفسهم ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي أيكون حالهم كما ذكر عند نزول العذاب ؟ فيستعجلون به وبينهما من التنافي ما لا يخفى على أحد ، أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون ، وتقديم الظرف لرعاية الفواصل .

﴿أفرأيت﴾ الاستفهام للانكار ، والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام ومعنى رأيت أخبرني والخطاب لكل من يصلح له ﴿إن متعناهم سنين﴾ في الدنيا متطاولة ، وطولنا لهم الأعمار ﴿ثم جاءهم ما كانـوا يوعـدون﴾ من العذاب والهلاك .

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا
كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾
وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ
عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٢١٨﴾

﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ أي أيُّ شيء أو أيُّ إغناء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل المديد ، والاستفهام للانكار التقريري و (ما) في (ماكانوا) مصدرية او موصولة ، وقيل (ما) الأولى نافية والثانية مصدرية أي لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب، وتخفيفه وقرىء يمتعون من أمتع الله زيداً بكذا .

وعن ميمون بن مهران انه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية ، فقال ميمون قد وعظت فأبلغت وعن عمر بن عبدالعزيز انه كان يقرأها عند جلوسه للحكم .

﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ من مزيدة للتأكيد ، أي وما اهلكنا قرية من القرى إلا بعد الانذار والاعذار بإرسال الرسل اليهم وإنزال الكتب ﴿ذكرى﴾ بمعنى تذكرة أي يذكرون ذكرى ، قال النحاس وهذا قول صحيح لأن معنى إلا لها منذرون إلا لها مذكرون ، او التقدير إنذارنا ذكرى ، أو ذلك ذكرى قال ابن الأنباري هي ذكرى ، أو نذكرهم ذكرى وقيل ينذرونهم ذوي تذكرة أو لأجل التذكرة ، وبه صرح أبو البقاء أي تنذرهم لأجل تذكيرهم بالعواقب ، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية .

﴿وما كنا ظالمين﴾ في تعذيبهم وليس من شأننا الظلم وقد قدمنا الحجة اليهم وانذرناهم واعذرنا اليهم .

﴿وما تنزلت به﴾ أي بالقرآن ﴿الشياطين﴾ وقرىء بالواو والنون اجراء له مجرى جمع السلامة . قال النحاس : وهذا غلط عند جميع النحويين ، قال المبرد وهذا غلط من العلماء ، وبه قال الفراء ، وقال المؤرج : ان كان الشيطان من شاط يشيط كان لهذه القراءة وجه ، وقال يونس بن حبيب سمعت اعرابياً يقول : دخلنا بساتين من ورائها بساتون ، وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن انه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان انه نزل به الروح الأمين ، فلا يكون سحراً أو كهانة أو شعراً أو اضغاث أحلام كما يقولون .

﴿وما ينبغي لهم﴾ ذلك وما يصح منهم ولا يصلح أن ينزلوا به ﴿وما يستطيعون﴾ ما نسبه الكفار اليهم أصلاً ولا يمكنهم ﴿إنهم عن السمع﴾ للقرآن أو لكلام الملائكة ﴿لمعزولون﴾ أي لمحجوبون مرجومون بالشهب ، ثم لما قرر الله سبحانه حقية القرآن ، وانه منزل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده فقال :

﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ إن فعلت ذلك الذي دعوك إليه، وخطاب النبي ﷺ بهذا مع كونه منزهاً عنه معصوماً منه ، لحث العباد على التوحيد ، ونهيهم عن شوائب الشرك ، وكأنه قال : أنت أكرم الخلق عليّ وأعزهم عندي ، ولو اتخذت معي إلٰهاً لعذبتك،فكيف بغيرك من العباد ؟ قال في حاشية الجمل : الخطاب له والمقصود غيره .

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ خصهم لأن الاهتمام بشأنهم أولى وهدايتهم الى الحق أقدم ، قيل هم قريش ، وقيل : بنو عبد مناف ، وقيل : بنو هاشم وقد ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية

دعا رسول الله ﷺ قريشاً وعم وخص ، فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني قصي انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملكم لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فاني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً،ألا إن لكم رحماً وسأبلها ببلالها ، وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فذلك منه ﷺ بيان لعشيرة الأقربين وانذاره لهم جهاراً .

﴿واخفض جناحك﴾ أي جانبك ، يقال : خفض جناحه إذا ألانه ، وفيه استعارة حسنة ، والمعنى ألن جناحك وتواضع ﴿لمن اتبعك من المؤمنين﴾ الموحدين من عشيرتك وغيرهم ، واظهر لهم المحبة والكرامة ، وتجاوز عنهم .

﴿فإن عصوك﴾ أي خالفوا أمرك ولم يتبعوك ﴿فقل :﴾ لهم ﴿إني بريء مما تعملون﴾ أي من عملكم أو من الذي تعملونه من عبادة غير الله،وهذا يدل على أنّ المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان المصدقون باللسان،لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه ولا يخالفونه ، ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال .

﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ أي فوِّض جميع أمورك اليه فإنه القادر على قهر الأعداء وهو الرحيم للأولياء، قرىء فتوكل بالفاء والواو وهما قراءتان سبعيتان فعلى الأولى يكون ما بعدها كالجزاء مما قبلها مترتباً عليه ، وعلى الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ الى الصلاة وحدك منفرداً في قول أكثر المفسرين وقال مجاهد حين تقوم حيثما كنت .

وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ
﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ
يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا
لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

﴿وتقلبك في الساجدين﴾ المصلين، أي ويراك إن صليت في الجماعة راكعاً وقائماً وساجداً ، كذا قال أكثر المفسرين وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رحمهما الله هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن قال لا يحضرني فتلا له هذه الآية ، وقيل : يراك في أصلاب الرجال الموحدين من نبي الى نبي من لدن آدم وحواء الى عبد الله وآمنة ، حتى أخرجك في هذه الأمة ؛ فجميع أصوله رجالاً ونساء مؤمنون .

وأورد على هذا آزر أبو ابراهيم فإنه كافر بمقتضى الآيات واجاب بعضهم بأنه كان عم ابراهيم لا أباه ، وفيه ضعف بين . وأجاب بعضهم أن قولهم أصول محمد ﷺ لم يدخلهم الشرك ، محله ما دام النور المحمدي في الذكر وفي الأنثى ، فإذا انتقل منه لمن بعده أمكن أن يعبد غير الله ، وآزر ما عبد الأصنام إلا بعد انتقال النور منه لابراهيم ، وأما قبل انتقاله فلم يعبد غير الله ، قاله الحفناوي .

وقيل ، المراد بـ (تقوم) قيامه الى التهجد ، وبالتقلب تردده في تفحص أحوال المجتهدين في العبادة وتقلب بصره فيهم ؛ كذا قال مجاهد .

قال ابن عباس : تقلبك أي قيامك وركوعك وسجودك ، وعنه قال يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم ، وعنه قال : كان النبي ﷺ اذا قام

الى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه ، ومنه الحديث في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم ، واني لأراكم من وراء ظهري .

﴿إنه هو السميع﴾ لما تقوله ﴿العليم﴾ به ، ثم أكد سبحانه معنى قوله ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ وبينه فقال : ﴿هل أنبئكم﴾ ياكفار مكة ﴿على من تنزل الشياطين ؟﴾ أي تتنزل فحذف احدى التاءين ، وفيه بيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ ﴿تنزل على كل أفاك أثيم﴾ الأفاك الكثير الإفك ، والأثيم كثير الإثم ، والمراد به كل من كان كاهناً ، فإن الشياطين كانت تسترق السمع ، ثم يأتون اليهم فيلقونه اليهم مثل مسيلمة من المتنبئة ، وكسطيح من الكهنة ، وهو معنى قوله :

﴿يلقون السمع﴾ أي : ما يسمعونه مما يسترقونه ، فالمعنى حال كون الشياطين ملقين السمع ، أي : ما يسمعونه من الملأ الأعلى الى الكهان ، ويجوز أن يكون المعنى أن الشياطين يلقون السمع ، أي : يصغون الى الملأ الأعلى ليسترقوا منهم شيئاً ويكون المراد بالسمع على الوجه الأول المسموع ، وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع .

ويجوز أن تكون جملة يلقون السمع راجعة الى كل أفاك أثيم ، على أنها صفة او مستأنفة ، ومعنى الالقاء أنهم يسمعون ما تلقيه اليهم الشياطين من الكلمات التي تصدق الواحدة منها ، وتكذب المائة الكلمة ، ويلقونها الى عوام الخلق .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : إنهم ليسوا بشيء ، قالوا يارسول الله إنهم يحدثون احياناً بشيء يكون حقاً قال : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة . وفي لفظ البخاري فيزيدون معها

مائة كـــذبـة .

﴿و﴾ جملة ﴿أكثرهم كاذبون﴾ راجعة الى كل أفاك أثيم ، أي وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين ، لأنهم يضمون الى ما يسمعونه كثيراً من أكاذيبهم المختلقة أو أكثرهم كاذبون فيما يلقونـه من السمع اي المسموع من الشياطين،إلى الناس ، أو هذه الجملة راجعة الى الشياطين أي أكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه الى الكهنة مما يسمعونه ، فإنهم يضمون الى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب ، وكان هذا قبل أن حجبت الشياطين عن السماء .

وقد قيل : كيف يصح على الوجه الأول وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون ، بعدما وصفوا جميعاً بـالإفك ؟ واجيب بأن المراد بالأفاك الذي يكثر الكذب ، لا الذي لا ينطق إلا بالكذب ، فالمراد بقوله : (وأكثرهم كاذبون﴾ أنه قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الشياطين،والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي ﷺ من جملة من يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ؛ ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب ، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلا الصدق . فكيف يكون كما زعموا ؟ ثم ان هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين ، وهذا النبي المرسل من عند الله برسالته الى الناس يذمهم ويلعنهم ، ويأمر بالتعوذ منهم .

ثم لما كان قد قال قائل من المشركين : إن النبي ﷺ شاعر ، بـيـَّن سبحانه حال الشعراء ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي ﷺ فقال :

﴿والشعـراء يتبعهم﴾ مشدداً ومخففـاً أي : يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم ﴿الغاوون﴾ أي الضالون عن الحق ، والشعراء جمع شاعر والغاوون جمع غاو ، وهـم ضلال الجن والانس ، قاله ابن عباس . وقيل الزائلون عن الحق ، وقيل : المشركون ، وقيل:الشياطـين ، وقيل : الـذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء وما لا يجوز .

وقيل : المراد شعراء الكفار خاصة منهم عبد الله بن الزبعرى السهمي ، وهبيرة بن ابي وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عزة الجمحي ، وأمية بن أبي الصلت الثقفي ، تكلموا بالكذب والباطل ، وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد ، وقالوا الشعر واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه ويروون عنهم قولهم . فذلك قوله تعالى هذا .

قال الزجاج : إذا مدح أو هجا شاعر بما لا يكون ، وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون، والمعنى لا يتبعهم على كذبهم وباطلهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والطعن في الأحساب ، ومدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستحق الذم . ولا يستحسن ذلك منهم إلا الغاوون . عن ابن عباس قال : تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم أخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء ، فأنزل الله هذه الآية ثم بيّن سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال :

﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟﴾ تقرير لما قبله والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، يقال : هام يهيم هيماً وهيماناً . إذا ذهب على وجهه ، والهيام أن يذهب على وجهه من عشق وغيره ، وهو تمثيل كما في الكشاف، والمعنى ألم تر أنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون ؛ وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون ، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء ، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل ، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة ، ويذمون الحق ويمدحون الباطل ، ويرغبون في فعل المحرمات ويدعون الناس الى فعل المنكرات ، كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة .

كيف وأكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها ، وأغلب كلماتهم في التشبيب بالحرام والغزل والابتهار، والقدح في الأنساب والطعن في الأحساب والوعد الكاذب ، والإفتخار الباطل ، ومدح من لا يستحقه ؛ والإطراء فيه ،

قاله البيضاوي ، وغيره ، وهذا من باب الاستعارة البليغة والتمثيل الرائع شبه جولانهم في أفانين القول بطريق المدح والذم والتشبيب وأنواع الشعر بهيام الهائم في كل وجه وطريق ، والهائم هو الذي يخبط في طريقه ولا يقصد موضعاً معيناً .

والهائم العاشق ، والهيمان العطشان ؛ والهيام داء يأخذ الإبل من العطش ، وجمل أهيم ، وناقة هيماء والجمع فيهما هيم قال تعالى فشاربون شرب الهيم .

قال ابن عباس في الآية : في كل لغو يخوضون ، وقيل : يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل ، وقيل : إنهم يمدحون الشيء ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق ؛ فالوادي مثل لفنون الكلام وطرقه ، والغوص في المعاني والقوافي ثم قال سبحانه :

﴿وانهم يقولون ما لا يفعلون﴾ أي يقولون فعلنا وفعلنا ، وهم كذبة في ذلك ألجأهم اليه الفن الذي سلكوه ، فقد يحثون بكلامهم على الكرم والخير ، ولا يفعلونه وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله ، كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة ، والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات ، وانهم فعلوا بهن كذا وكذا وذلك كذب محض وافتراء بحت ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحرّي الحق والصدق ، وكانوا يجيبون شعراء الكفار ويهجون وينافحون عن النبي ﷺ واصحابه فقال :

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي دخلوا في حزب المؤمنين ، وعملوا بأعمالهم الصالحات ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ في اشعارهم ولم يشغلهم الشعر عن ذكر الله كابن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وكعب ابن زهير رضي الله تعالى عنهم . وعن عروة ، قال : لما نزلت والشعراء الى قوله ما لا يفعلون ، قال عبد الله بن رواحة يارسول الله قد علم الله أني منهم

فانزل الله إلا الذين آمنوا الى قوله ينقلبون وروي نحو هذا من طرق .

﴿وانتصروا من بعدما ظلموا﴾ كمن يهجو منهم من هجاه أو ينتصر لعالم او فاضل ، كما كان يقع من شعراء النبي ﷺ فإنهم كانوا يهجون من يهجوه ، ويحمون عنه ويذبون عن عرضه ، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم .

ويدخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة ، وكافح أهل البدعة وزيف ما يقول شعراؤهم من مدح بدعتهم ، وهجو السنة المطهرة كما يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة ونحوهم ، فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة ، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدين الله القائمين بما أمر الله بالقيام به .

وأعلم أن الشعر في نفسه ينقسم الى اقسام فقد يبلغ ما لا خير فيه منه الى قسم الحرام . وقد يبلغ ما فيه خير منه الى قسم الواجب ، وقد وردت أحاديث في ذمه وذم الاستكثار منه ، ووردت أحاديث أخر في إباحته وتجويزه ، والكلام في تحقيق ذلك يطول .

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه ، وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك انه قال للنبي ﷺ : إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه ؟ فقال : إن المؤمن يجاهد نفسه بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترموهم به نضح النبل .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن ابي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ اذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من ان يمتلىء شعراً .

وأخرج الديلمي مرفوعاً عن ابن مسعود : الشعراء الذين يموتون في الاسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة ، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن من الشعر لحكمة .

قال : وأتاه قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت ، فقالوا : إنا نقول الشعر وقد نزلت هذه الآية فقال رسول الله ﷺ : إقرأوا فقرأوا والشعراء الى قوله : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فقال : أنتم هم وذكروا الله كثيراً ، فقال أنتم هم ، وانتصروا من بعدما ظلموا فقال : أنتم هم .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : أهج المشركين فإن جبريل معك .

وأخرج احمد وابن سعد عن ابي هريرة قال : مر عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ اليه فنظر اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك فسكت ثم التفت حسان الى أبي هريرة فقال : أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول أجب عني اللهم أيده بروح القدس؟ قال : نعم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : ان من الشعر حكماً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً يريه خير من أن يمتلىء شعراً .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً يريه خير من أن يمتلىء شعراً .

وفي الحديث الصحيح عن ابي سعيد الخدري مرفوعاً : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً .

قال في الصحاح ورى القيح جوفه يريه وريا اذا اكله .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حسن الشعر كحسن الكلام وقبيح الشعر كقبيح الكلام » . قال القرطبي : رواه اسماعيل عن

عبد الله بن عوف الشامي ؛ وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره .

وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت ؟ قلت نعم ، قال : هيه ، فأنشدته بيتاً فقال : هيه . ثم انشدته بيتاً ، فقال :هيه ، حتى انشدته مائة بيت .

وقال الشعبي : كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ، وكان عليّ أشعر من الثلاثة . وعن ابن عباس انه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد فروى انه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده قصيدة فأنشده إياها ؛ وهي قريب من تسعين بيتاً، ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها وكان حفظها من مرة واحدة .

وروى البخاري عن أُبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : إن من الشعر حكمة وقالت عائشة : الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح ، فخذ الحسن ودع القبيح ولآزاد البلجرامي رحمه الله في بيان حكم الشعر كلام لطيف في كتابه تسلية الفؤاد ، إن شئت فارجع اليه ، ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال :

﴿وسيعلم﴾ وفيه تهديد شديد ؛ وتهويل عظيم ؛ وكذا في اطلاق ﴿الذين ظلموا﴾ وابهام ﴿أي منقلب ينقلبون ؟﴾ بعد الموت ، وخص بعضهم هذه الآية بالشعراء ؛ ولا وجه لذلك ، فان الاعتبار بعموم اللفظ ، وقد تلاها أبو بكر لعمر حين عهد اليه ، وكان السلف يتواعظون بها . قال ابن عطاء سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا . والمعنى ينقلبون منقلباً أي منقلب ، والمراد جهنم . وقدم (اي) لتضمنه معنى الاستفهام .

قال أبو البقاء : ولا يعمل فيه (سيعلم) لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ،بل هو معلق عن العمل فيه وهذا الذي قاله مردود بأن أيا الواقعة صفة لا

تكون استفهامية ، وكذلك الاستفهامية لا تكون صفة ، بل هما قسمان كل منهما قسم برأسه و (أي) تنقسم الى أقسام كثيرة . قال النحاس وحقيقة القول في ذلك الاستفهام معنى ، وما قبله معنى آخر ، فلو عمل فيه ما قبلها لدخل بعض المعاني في بعض ، والله أعلم .

وقال القرطبي : معناه أي مصير يصيرون ؟ وأي مرجع يرجعون ؟ لأن مصيرهم الى النار وهو أقبح مصير ، ومرجعهم الى العذاب ، وهو شر مرجع . والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال الى ضد ما هو فيه ؛ والمرجع العود من حال هو فيها الى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلباً ، وليس كل منقلب مرجعاً ذكره الماوردي .

والمعنى عند الحسن وابن عباس أنّ الظالمين يطمعون في الانقلاب من عذاب الله ؛ والانفكاك منه ، ولا يقدرون على ذلك . وعن فضالة بن عبيد في الآية قال هؤلاء الذين يخربون البيت . والْحَمدُ لله رَب العَــالَمِينَ

خاتمة الجزء التاسع

تم بعون الله الجزء التاسع من فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء العاشر وأوله تفسير سورة النمل .

فهرس الجزء التاسع

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء العاشر

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ويشتمل على:

- سورة النمل.
- سورة القصص.
- سورة العنكبوت.
- سورة الروم.
- سورة لقمان.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل

﴿هي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية﴾

قال القرطبي: وهي مكية كلها في قول الجميع، وبه قال ابن عباس . وعن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ
زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ
ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

﴿طسٓ﴾ قد مر الكلام مفصلاً في فواتح السور ، وهذه الحروف إن كانت اسماً للسورة فمحلها الرفع على الابتداء، وما بعدها خبرها، ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف أي اسم هذه السورة طسٓ ، وان كانت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها ، والله اعلم بمراده بذلك .

﴿تلك﴾ إشارة إلى نفس السورة لأنها قد ذكرت إجمالاً بذكر اسمها ﴿آيات القرآن وكتاب مبين﴾ عطف بزيادة صفة على مفهوم المعطوف عليه ، وكان مفيدًا بهذا الاعتبار ، والمراد بالكتاب القرآن نفسه أو اللوح المحفوظ ، أو نفس السورة .

وقد وصف الآيات بالوصفين ، القرآنية الدالة على كونها مقروءة مع الإشارة إلى كونها قرآناً عربياً معجزاً ، والكتابية الدالة على كونها مكتوبة ، مع الإشارة إلى كونها متصفة بصفة الكتب المنزلة ثم ضم إلى الوصفين وصفاً ثالثاً، وهي الإبانة لمعانيه لمن يقرأه : وهو من أبان بمعنى بان ، معناه اتضح إعجازه ، بما اشتمل عليه من البلاغة أو مظهر لما في تضاعيفه من الحكم والأحكام ، وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب ؛ أو لسبيل الرشد والغي ، أو فارق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام .

وقدم وصف القرآنية هنا نظرًا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابة ،

وأخره في سورة الحجر فقال: تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ،نظرًا إلى حالته التي قد صار عليها فإنه مكتوب ، والكتابة سبب القراءة ، والله اعلم .

وأما تعريف القرآن هنا وتنكير الكتاب ، وتعريف الكتاب في سورة الحجر وتنكير القرآن ، فلصلاحية كل واحد منهما للتعريف والتنكير ، لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد ﷺ ووصفان له ، لأنه يقرأ ويكتب ، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم ، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف .

﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي : تلك آيات هادية ومبشرة أو هو هدى أو يهدي هدى ويبشر بشرى ، أو هاد من الضلالة ، ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى فقال :

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي الخمس ، ويديمون على شرائطها من الفروض والسنن ، ويأتون بها على وجهها .

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي : يؤدون ويعطون زكاة أموالهم إذا وجبت عليهم، طيبة بها أنفسهم ،ولما كانت إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة مما يتكرر ويتجدد في أوقاتها ، أتى بهما فعلين ، ولما كان الإيقان بالآخرة أمرًا ثابتًا مطلوبًا دوامه ، أتى به جملة اسمية فقال :

﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ يعلمونها بالاستدلال ، وجعل الخبر مضارعًا للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد في كل وقت ، وعدم الانقطاع وكرر الضمير للدلالة على الحصر ، ولما فصل بينه وبين الخبر، أي لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق ، وأنهم الأوحدون فيه ، ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال :

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي : لا يصدقون بالبعث وهم الكفار .

﴿ زينا لهم أعمالهم ﴾ قيل : المراد أن الله زين لهم أعمالهم السيئة

القبيحة بتركيب الشهوة فيهم ، حتى رأوها حسنة، وقيل : المراد أن الله زين لهم الأعمال الحسنة وذكر لهم ما فيها من خيري الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك . قال الزجاج: معنى الآية إنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه بأن جعلناه مشتهى بالطبع محبوبًا للنفس .

﴿فهم يعمهون﴾ أي يترددون فيها متحيرين على الاستمرار ، لا يهتدون الى طريقه ، ولا يقفون على حقيقته ؛ لعدم إداركهم قبحها في الواقع، وقيل: المعنى يتمادون ، قاله أبو العالية وقال قتادة : يلعبون . وعن الحسن : يتحيرون. وقيل : يداومون وينهمكون فيها ، ويستمرون . والمعاني متقاربة .

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي: أشده ، قيل : في الدنيا كالقتل والأسر ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده :

﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي : هم أشد الناس خسرانًا ، وأعظمهم خيبة ، فالمفضل عليه هو أنفسهم من حيث اعتبار اختلاف الزمان والمكان ثم مهد سبحانه مقدمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال مخاطباً للنبي ﷺ :

﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي :يلقى عليك بشدة فتلقاه ، وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم ، ووجه الجمع بينهما ـ مع أن العلم داخل في الحكمة ـ أن العلم الذي يدخل فيها هو العلم العملي ، وهو الذي يتعلق بكيفية عمل ، والعلم أعم منه ، فكأنه قيل : مصيب في أفعاله ، لا يفعل شيئاً إلا على وفق علمه ، عليم بكل شيء ، سواء كان ذلك العلم مؤديًا الى العمل أم لا .

قيل : إن(لدن) ههنا بمعنى عند ، وفيها لغات كما تقدم في سورة الكهف ، وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه ؛ وقد اشتملت هذه السورة على قصص خمس : **الأولى** هذه ، **وتليها** قصة النملة ، **وتليها** قصة بلقيس ، **وتليها** قصةصالح ، **وتليها** قصة لوط .

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ
وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ
حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إذ قال موسى لأهله﴾ قال الزجاج :أي اذكر قصته إذ قال لأهله ،والمراد بأهله امرأته في مسيره من مدين الى مصر ، وكان في ليلة مظلمة باردة مثلجة وقد ضل الطريق ، وأخذ زوجه الطلق ، والحامل له على هذا السفر أن يجتمع بأمه وأخيه بمصر ، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب ، فكنى عنها بلفظ الأهل الدال على الكثرة للتعظيم ، وقيل :كان معه ولده وخادمه أيضاً ومثله قوله : امكثوا ﴿إني آنست ناراً﴾ أي أبصرتها من بعيد.

﴿سآتيكم منها بخبر﴾ عن حال الطريق ، وكان قد ضلها ، والسين تدل على بعد مسافة النار وتأكيد الوعد . والجمع ـ إن صح أنه لم يكن معه عليه السلام إلا امرأته لما كنى عنها بالأهل ، او للتعظيم ـ مبالغة في التسلية .

﴿أو آتيكم بشهاب قبس﴾ بتنوينهما على أن الثاني بدل من الأول أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس ، أي بشعلة نار مقبوسة ، أي مأخوذة من أصلها ، وقرىء بالإضافة على أنها للبيان ، فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبس الجامع لمنفعتي الضياء والاصطلاء ، لأن من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن ، كما يفصح عن ذلك ما في سورة طـه من صيغة الترجي والترديد للإيذان بأنه إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله تعالى فإنه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين ، قاله ابو السعود .

والمعنى على القراءتين آتيكم بشعلة نار مأخوذة من أصلها في رأس فتيلة أو عود . قال الزجاج : من نوّن جعل (قبس) من صفة (شهاب) . وقال الفراء : هذه الإضافة كمسجد الجامع ،وصلاة الأولى ،اضاف الشيء الى نفسه لاختلاف اسمائه . وقال النحاس : هي إضافة النوع الى الجنس ، كما تقول ثوب خز وخاتم حديد وهي بمعنى : من . أي : شهاب من قبس .

قال :ويجوز في غير القرآن بشهاب قبسًا ، على أنه مصدر أو بيان أو حال . قال الزجاج :كل أبيض ذي نور فهو شهاب . وقال أبو عبيدة : الشهاب النار ،وقال ثعلب :أصل الشهاب عود ، في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه ، والشهاب الشعاع المضيء ، وقيل للكوكب : شهاب .

﴿ لعلكم تصطلون﴾ أي : رجاء أن تستدفئوا بها من البرد :أو لكي تستدفئوا بها ، يقال : صلى بالنار واصطلى بها إذا استدفأ بها ، والصلاء النار العظيمة ،واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين ، والقصة واحدة ، دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى ، وجواز النكاح بغير لفظ التزوج .

﴿فلما جاءها﴾ أي النار التي أبصرها ﴿نودي﴾ من جانب الطور ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ (أن) هي المفسرة لما في النداء من معنى القول ،أي قيل له :بورك أو هي المصدرية أي بأن بورك ، أي بارك الله أي ناداه بأنا قدسناك ، وطهرناك ، واخترناك للرسالة . وقيل : هي المخففة من المثقلة ، وتقديره بأنه بورك ، واسمها ضمير الشأن ، وبورك خبرها ، وجاز ذلك من غير عوض ، وإن منعه الزمخشري،أي لم يحتج هنا الى فاصل،لأن قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة . وقرىء أن بوركت النار .

وحكى الكسائي عن العرب باركك الله وبارك فيك وعليك ولك . وكذلك حكى هذا الفراء .قال ابن جرير : قال بورك من في النار ،ولم يقل بورك على من في النار ، على لغة من يقول : باركك الله ، أي بورك ، وقدس ، وطهر من النار ، وهو موسى ، وليس هو فيها حقيقة ؛ بل في المكان القريب

منها وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيَّ ابراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ قاله القرطبي .

وقال السدي : كان في النار ملائكة ، والنار هنا هي مجرد النور ، ولكنه ظن موسى أنها نار ، فلما وصل اليها وجدها نوراً ، وعن الحسن ، وسعيد بن جبير : أن المراد بمن في النار هو الله سبحانه أي نوره أو قدرته وسلطانه . وقيل: بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة .

قال الواحدي : ومذهب المفسرين أن المراد بالنار هنا النور ، وعن ابن عباس قال: يعني تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها يعني الملائكة ؛ وعنه قال : كان الله في النور ، نودي من النور ومن حولها . قال الملائكة ، وعنه قال : ناداه الله وهو في النور وعنه قرىء بوركت النار ، وفي مصحف أُبي بن كعب . بوركت النار أما النار فيزعمون أنها نور رب العالمين .

وعن ابن عباس ، بورك قال : قدس ، وقيل : المراد -(من) غير العقلاء وهو النور والأمكنة التي حولها . واخرج عبد بن حميد ، وابن ماجة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره . ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب العالمين﴾ والحديث أصله مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة .

وفي التوراة : جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير واستعلى من جبال فاران . والمراد بعثة موسى من سيناء ، وبعثة عيسى من ساعير ، وبعثة

محمد ﷺ من فاران ، وهو اسم مكة ، ثم نزه سبحانه نفسه من السوء فقال :

﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ فيه تعجيب لموسى من ذلك هو من جملة ما نودي به ، وإنما وقع التعرض للتنزيه في هذا المقام لدفع ما رُبَّ أن يتوهمه موسى بحسب الطبع البشري ، الجاري على العادة الخلقية أن الكلام الذي يسمعه في ذلك المكان بحرف وصوت حادث ، ككلام الخلق ، أو المتكلم به في مكان أو جهة قاله الحفناوي .

﴿ياموسى إنه﴾ أي الشان ﴿أنا الله العزيز﴾ الغالب القاهر ﴿الحكيم﴾ في أمري وفعلي ،وقيل : إن موسى قال : يارب من الذي ناداني ؟ فأجابه سبحانه بقوله : إنه أنا الله ، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات فأمره سبحانه بأن يلقي عصاه ليعرف ما أجراه على يده من المعجزات الخارقة ، فيأنس بها فقال :

﴿وألق﴾ عطف على بورك منتظم معه في سالك تفسير النداء أي نودي أن بورك وأن ألق ﴿عصاك فلما رآها تهتز﴾ جملة حالية من هاء (رآها) لأن الرؤية بصرية وقوله ﴿كأنها جان﴾ يجوز ان تكون حالاً ثانية وأن تكون حالاً من ضمير (تهتز) فتكون حالاً متداخلة ، قاله السمين .

قال الزجاج : صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان وهو الحية البيضاء ، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها وإلا فجثتها كانت كبيرة جداً : وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها ، وجمع الجان جنان ، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم ،وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة . والفاء فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ، ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كأنه قيل : فألقاها فانقلبت حية تسعى ، فأبصرها .

فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب ﴿ولى مدبراً﴾ من الخوف ﴿ولم يعقب﴾ أي لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر ، يقال : عقب فلان إذا رجع وكل راجع معقب ، وقيل : لم يقف ولم يلتفت ولم

يعطف ، ولم ينظر ، والأول أولى . لأن التعقيب هو الكر بعد الفر ، وإنما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به كما ينبىء عنه قوله :

﴿ياموسى لا تخف﴾ من غيري أي : من الحية وضررها ثقة بي أو لا تخف مطلقاً .

﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي : لا يخاف عندي من أرسلته برسالتي ، من حية وغيرها ، فلا تخف ، أنت عندي . قيل : ونفي الخوف عن المرسلين ليس في جميع الأوقات ، بل في وقت الخطاب لهم ، والإيحاء والإرسال ؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون في مطالعة شؤون الله عز وجل ، لا يخطر ببالهم خوف من شيء وأما في غير هذه الحالة فالمرسلون أخوف الناس منه تعالى . أو المعنى لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه ، ثم استثنى استثناء منقطعاً فقال :

﴿إلا من ظلم﴾ أي لكن من أذنب في ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثم بدل حسناً﴾ أي :توبة وندماً أتاه ﴿بعد سوء﴾ أي بعد عمل سوء ﴿فإني غفور رحيم﴾ أقبل التوبة وأغفر له ؛ وقيل:الاستثناء من مقدر ، أي لا يخاف لدي المرسلون ، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم « إلا من ظلم الخ » ، كذا قال الفراء . وقال النحاس : الاستثناء من محذوف محال ، لأنه استثناء من شيء لم يذكر . وعن الفراء أن (إلا) بمعنى الواو .

وقيل:إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف ،والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد ،واختار هذا النحاس ، وقال: علم من عصاه منهم فاستثناه فقال إلا من ظلم ، وان كنت قد غفرت له كآدم ، وداود . وإخوة يوسف ، وموسى لقتله القبطي . ولا مانع من الخوف بعد المغفرة فإن نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقول: وددت أني شجرة تعضد .

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا
دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)

﴿وادخل يدك في جيبك﴾ المراد بالجيب هو المعروف ، أي طوق القميص سمي جيباً لأنه يجاب ، أي : يقطع ليدخل فيه الرأس . وفي القصص ﴿أسلك يدك في جيبك﴾ وفي (أدخل) من المبالغة ما لم يكن في (أسلك) ولم يأمره بإدخالها في كمه لأنه كان عليه مدرعة صغيرة من صوف لا كم لها.وقيل : كان لها كم قصير ، عن ابن عباس قال : كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه ، فقال له ادخل يدك في جيبك فأدخلها .

﴿تخرج﴾ خلاف لونها من الأدمة ﴿بيضاء من غير سوء﴾ أي من غير برص أو نحوه من الآفات فهو احتراس .وقيل : في الكلام حذف تقديره : أدخل يدك تدخل ، وأخرجها تخرج ، ولا حاجة الى هذا الحذف ، ولا ملجيء اليه .قال المفسرون : وكانت على موسى مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها ، فإذا هي تبرق كالبرق لها شعاع يغشي البصر .

﴿في تسع آيات﴾ قال أبو البقاء :هو في محل نصب على الحال من فاعل (تخرج) وفيه بعد . وقيل : متعلق بمحذوف أي :اذهب في تسع آيات وقيل : متعلق بقوله : ألق عصاك وأدخل يدك ، في جملة تسع آيات : وقيل : المعنى فيهما آيتان من تسع ، يعني العصا واليد فتكون الآيات إحدى عشرة ، هاتان والفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ،

والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم ،قال النحاس :أحسن ما قيل فيه : إن هذه الآية يعني اليد داخلة في تسع آيات ، وكذا قال المهدوي والقشيري .

قال الزجاج والقشيري : تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم أي : خرجت عاشر عشرة فـ (في) بمعنى من ، لقربها منها كما تقول : خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان ، أي منها . وقيل : في بمعنى مع واليد والعصا خارجتان من التسع ، وكذا فعل ابن عطية .
﴿إلى فرعون وقومه﴾ قال الفراء : في الكلام إضمار ، أي : إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه ، وكذا قال الزجاج .

﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ تعليل لما قبله من المقدر ، أي خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان .

﴿فلما جاءتهم آياتنا﴾ التي كانت على يد موسى حال كونها ﴿مبصرة﴾ أي مضيئة واضحة اسم فاعل أطلق على المفعول نحو ماء دافق ، أي مدفوق إشعارًا بأنها لفرط إنارتها ووضوحها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر .كقوله : ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ وقرىء مبصرة بفتح الميم والصاد ، أي مكاناً يكثر فيه التبصر ،كما يقال :الولد مجبنة ومبخلة ، والأول أولى . ونسب الإبصار اليها مجازاً لأن بها يبصر . والمعنى إضاءة معنوية في كلها أو حسية أيضاً في بعضها وهو اليد .

فلما جاءتهم آياتنا ﴿قالوا هذا﴾ الذي نشاهده من الخوارق التي أتى بها موسى ﴿سحر مبين﴾ واضح ظاهر سحريته .

﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ أي قد كذبوا بها ولم يقروا حال كـون أنفسهم مستيقنة لها أنها من عند الله فالواو للحال ، يقال : جحد حقه وبحقه بمعنى ، والاستيقان أبلغ من الإيقان .

﴿ظلماً﴾ أي للآيات كقوله تعالى: بما كانوا بآياتنا يظلمون ، ولقد ظلموا

بها أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية ، وسموها سحراً .

﴿وعلواً﴾ استكباراً عن الإيمان بها كقوله تعالى: والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ؛ وانتصابهما إما على العلة أي الحامل لهم على ذلك الظلم والعلو ، أو على الحالية من فاعل جحدوا،أي جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف ، أي جحدوا بها جحودًا ظلمًا وعلوًا .

قال أبو عبيدة : والباء في ﴿وجحدوا بها﴾ زائدة .وقال الزجاج : التقدير وجحدوا بها ظلمًا وعلوًا أي وتكبروا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ، وهم يعلمون أنها من عند الله .

﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي تفكر يامحمد في ذلك فإن فيه معتبراً للمعتبرين ، وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم هنا في البحر ، على تلك الصفة الهائلة ، والإحراق ثمة ، وإنما لم يذكر تنبيهاً على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر . ولما فرغ سبحانه من قصة موسى ، شرع في قصة داود وابنه سليمان ، وهذه القصة وما قبلها وما بعدها ، هي كالبيان والتقرير لقوله : ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ فقال :

﴿ولقد آتينا﴾ أي أعطينا ﴿داود وسليمان﴾ ابنه ﴿علماً﴾ التنوين إما للنوع أي طائفة من العلم ، أو للتعظيم ، أي علماً كثيراً ، قيل : المراد علم الدين والحكم،وقيل : علم القضاء والسياسة ، وقيل :علم داود تسبيح الطير ، وعلم سليمان منطق الطير والدواب .

وكان لداود تسعة عشر ولداً ، سليمان واحد منهم ، وعاش داود مائة سنة وبينه وبين موسى[١] خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، وعاش سليمان

---

(١) ليس في القرآن ولا في السنة دليل على هذا التحديد التاريخي وبالرجوع إلى التواريخ الإسرائيلية لوحظ أنه ينقصه التحقيق ؛ فهو لا يتفق مع أي حساب . المطيعي .

نيفاً وخمسين سنة ، وبينه وبين محمد ﷺ ألف سنة وسبعمائة سنة ذكره في التحبير .

﴿وقالا﴾ أي كل منهما والواو للعطف على محذوف لأن هذا المقام مقام الفاء ، فالتقدير ولقد آتيناهما علماً فعملا به ، وقالا شكراً لله .

﴿الحمد لله﴾ ويؤيده أن الشكر باللسان وإنما يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب ، وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية ﴿الذي فضلنا﴾ بالعلم والنبوة وتسخير الطير والجن والإنس والشياطين ﴿على كثير﴾ ممن لم يؤت علماً أو مثل علمنا ، وهذه المقالة على سبيل التحدث والشكر ﴿من عباده المؤمنين﴾ ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعاً منهم .

وظاهر النظم أن التسخير كان لكل من داود وسليمان ،ومثله في الخازن ـ ، والخطيب وفي الآية دليل على شرف العلم ، وارتفاع محله ، وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده ، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد ؛ ومنح شرفاً جليلاً ، وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبيـاء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة،لأنهم القوام بما بعثوا من أجله ، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه، وأن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم .

وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : كل الناس أفقه من عمر .

وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كتب : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، فقد قال الله عز وجل :﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً الى قوله : عباده المؤمنين﴾ وأي نعمة أفضل مما أعطي داود وسليمان ؟

أقول : ليس في الآية ما يدل على ما فهمه رحمه الله ، والذي تدل عليه أنهما حمدا الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم فمن أين تدل على أن حمده أفضل من نعمته .

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وورث سليمان داود﴾ أي ورثه العلم والنبوة أو الكتب ، دون باقي أولاده ، قال قتادة والكلبي :كان لداود تسعة عشر ولداً ذكرا ، فورث سليمان من بينهم نبوة ، ولو كان المراد وراثة المال لم يخص سليمان بالذكر ، لأن جميع أولاده في ذلك سواء ، وكذا قال جمهور المفسرين .

فهذه الوراثة هي وراثة مجازية ، كما في قوله ﷺ :العلماء ورثة الأنبياء ، قال قتادة :في الآية ورث نبوته وملكه وعلمه ؛ وأعطى ما أعطي داود وزيد له تسخير الريح ، والجن والشياطين ، وكان أعظم ملكاً منه ، وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبداً من سليمان ، شاكراً لنعم الله تعالى .

﴿وقال﴾ سليمان لبني اسرائيل تحدثا بما أنعم الله به عليه ، وشكر النعمة التي خصه بها ﴿يا أيها الناس علمنا﴾ الضمير فيه وفي أوتينا لكل من داود وسليمان ، قال القرطبي : تفضل الله علينا زيادة على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة ، والخلافة في الأرض أن فهمنا ﴿منطق الطير﴾ أي فهم ما يريده كل طائر إذا صوت ، والمعاني التي في نفوسها ، سمى صوت الطير منطقاً لحصول الفهم منه ، كما يفهم من كلام الناس . وقدم منطق الطير لأنها نعمة خاصة به ، لا يشاركه فيها غيره . قال الفراء : منطق الطير كلام الطير ، فجعل كمنطق الرجل . ومعنى الآية فهمنا ما يقول الطير .

ومقتضى هذا أن كُلًّا منهما كان يعلم أصوات الطير ؛ وما تريده . قال الخطيب : علمنا أي أنا وأبي بأيسر أمر وأسهله . وفي البيضاوي النطق والمنطق في التعارف : كل لفظ يعبر به عما في الضمير ؛ مفرداً كان أو مركباً مفيدًا كان أو غير مفيد . وقد يطلق على كل ما يصوت به على التشبيه أو التبع كقولهم : نطقت الحمامة ، ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد ، فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات نزلت منزلة العبارات ، سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض ، بحيث يفهمها ما هو من جنسه .

ولعل سليمان مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية الغرض الذي صوت لأجله ، والغرض الذي توخاه به انتهى . قال جماعة من المفسرين : إنه علم منطق جميع الحيوانات،وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنوده ، يسير معه لتظليله من الشمس ، فخص بالذكر لكثرة مداخله . وقال قتادة والشعبي : إنما علم منطق الطير خاصة ، ولا يعترض ذلك بالنملة فإنها من جملة الطير ، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة فتطير ، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع سليمان كلامها وفهمه .

أخرج أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أبي الصديق[1] الناجي قال : خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس ، فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها الى السماء ، وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك ، فإما أن تسقينا ، وإما ان تهلكنا ، فقال سليمان : للناس ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وقد ذكر الخازن والنسفي في تفسيريهما منطق بعض الطيور ، وما تقوله القمري وغيرها ، وكذا القرطبي بلا إسناد صحيح متصل يعتمد عليه ، ويصار

---

(١) أبو الصديق الناجي واسمه بكر بن عمرو ، وقال ابن سعد في الطبقات يتكلمون في أحاديثه يستنكرونها وقال غيره : ثقة تابعي ، قال الذهبي يحتج به في الصحاح والكلام هنا عن قصة دعاء النملة موقوف عليه . المطيعي .

اليه فتركنا ذكره ههنا فإنه لا يأتي بكثير فائدة للمنقحين .

﴿وأوتينا من كل شيء﴾ تدعو اليه الحاجة ، كالعلم والنبوة والحكمة والمال وتسخير الجن ، والإنس ، والطير ، والرياح ، والوحش ، والدواب ، وكل ما بين السماء والأرض . وجاء سليمان بنون العظمة ، والمراد نفسه بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف ، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه ، عن جعفر[1] بن محمد قال : أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم ، وأعطي كل شيء .

وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة ، حتى اذا أراد الله أن يقبضه أوحى اليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه ؛ وولد داود كانوا اربعمائة وثمانين رجلاً ، أنبياء بلا رسالة . قال الذهبي : هذا باطل وقد رويت قصص في عظم ملك سليمان عن القرظي وغيره لا تطيب النفس بذكر شيء منها ، فالامساك عن ذكرها أولى .

﴿إن هذا﴾ أي ما تقدم ذكره من التعليم والإيتاء ﴿لهو الفضل المبين﴾ أي الظاهر الواضح ، الذي لا يخفى على أحد . أو المظهر لفضيلتنا وإنما قال ذلك شكراً لا فخراً .

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾ من الأماكن المختلفة في مسير له ، والحشر : الجمع ، أي : جمع له جنوده من هذه الأجناس . وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جنده ؛ وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ، ولا تصح من جهة النقل ، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك واكثر .

﴿فهم يوزعون﴾ أي : لكل طائفة منهم وزعة ترد أولهم على آخرهم

---

(١) يعتبر الشيعة الإمامية والشيعة **الإثنا** عشرية وطائفة الاسماعيلية جعفر بن محمد أحد الأئمة المعصومين ويعدون قوله بمنزلة التنزيل ، ورحم الله جعفراً الصادق وأباه محمداً الباقر ، وأجدادهما الطاهرين لو رأيا كيف اتخذهما بعض الناس أرباباً لالتمسا في يديهما السيوف . المطيعي .

فيقفون على مراتبهم . قيل : كان في جنوده وزراء وهم النقباء ، ترد أول العسكر على آخره ، لئلا يتقدموا في السير . يقال : وزعه يزعه وزعاً : كفه ، فاتزع أي : انكف وأوزعه بالشيء أغراه به ؛ واستوزعت الله شكره فأوزعني ، اي استلهمته فألهمني ، والوازع في الحرب الموكل بالصفوف ، يزع من تقدم منهم أي يرده ، وجمعه وزعة : وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفريق ، يقال : القوم أوزاع ، أي طوائف .

وقال ابن عباس : يوزعون يدفعون . وعنه قال : لكل صف وزعة ، ترد أولاها على أخرها ، لئلا تتقدمها في السير كما يصنع الملوك وفي الآية دليل على اتخاذ الأئمة والحكام وزعة ، يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ، اذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم . قال الحسن : لا بد للناس من وازع أي سلطان يكفهم .

﴿حتى إذا أتوا﴾ حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام ؛ وتكون غاية لما قبلها والمعنى فهم يوزعون الى حضور هذه الغاية ، وهي إتيانهم ﴿على وادي النمل﴾ أي : فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض ، حتى اذا أتوا على مكان فيه نمل كثير ، وعدّى بـ (على) لأنهم كانوا محمولين على الريح ، فهم مستعلون والمعنى أنهم قطعوا الوادي وبلغوا آخره ، قال كعب : وادي النمل بالطائف .

وقال قتادة ومقاتل : هو بالشام ، والنمل حيوان معروف شديد الإحساس والشم ، حتى إنه يشم للشيء من بعيد ، ويدخر قوته ، ومن شدة إدراكه أنه يفلق الحبة فلقتين خوفاً من الإنبات ويفلق حبة الكسبرة أربع فلق ، لأنها اذا فلقت فلقتين نبتت ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي باقيه عدة .

ووقف القراء جميعهم على (واد) بدون ياء اتباعاً للرسم ، حيث لم يحذف لالتقاء الساكنين ، كقوله : الذين جابوا الصخر بالواد ، إلا الكسائي ، فإنه وقف بالياء ، قال : لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل .

﴿قالت نملة﴾[1] ملكة النمل،على وجه النصيحة قولاً مشتملاً على حروف وأصوات ،وكانت عرجاء ذات جناحين ، وهي من الحيوانات التي تدخل الجنة ، قاله سليمان الجمل . قيل : وكانت أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند اليها ، وبه قال أبو حنيفة ، ورد هذا أبو حيان فقال : لحاق التاء في (قالت) لا يدل على أن النملة مؤنثة ، بل يصح أن يقال في المذكر قالت ، لأن نملة وإن كانت بالتاء فإنها مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث ، بتذكير الفعل ولا بتأنيثه ، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر أو أنثى ، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ، ولا بالتعرض لاسم النملة ، ولا بذكر القصص الموضوعة والأحاديث المكذوبة .

وقرىء النمل والنملة بزنة رجل وسمرة ، وقرىء بضمتين فيهما ، ثم قيل : نمل هذا الوادي صغار ، وهو النمل المعروف ، أو كبار كالبخاتي أو كالذئاب ، والأول هو المشهور والجملة جواب (اذا﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادي فرت ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة :

﴿يا أيها النمل﴾ وقد اشتمل هذا القول منها على أحد عشر نوعاً من البلاغة :

أولها : النداء بـ (يا) .

وثانيها : أنها كنت بأي .

وثالثها : نبهت بها التنبيه .

ورابعها : سمعت بقولها النمل .

وخامسها : أمرت بقولها :﴿ادخلوا﴾ .

وسادسها : نصت بقولها ﴿مساكنكم﴾ جعل خطاب النمل كخطاب

---

(١) لا نملك إلا أن نقول كما قال المصنف عن مثل هذا الكلام الذي هو « بلا إسناد صحيح متصل يعتمد عليه ويصار إليه » وسيأتي للمصنف مزيد . المطيعي .

العقلاء ، لفهمها لذلك الخطاب . والمساكن هي الأمكنة التي تسكن النمل فيها وقرأ أُبيّ : أدخلن مساكنكن : وقرىء : مسكنكم .

وسابعها : حذرت بقولها ﴿لا يحطمنكم﴾ أي : لا يكسرنكم ، والحطم الكسر . يقال : حطمته حطماً أي كسرته كسراً فانحطم ، وتحطم تكسر ، والتحطيم التكسير ، والحطام ما تكسر من اليبس ،وهذا النهي هو في الظاهر للنمل ، وفي الحقيقة لسليمان ، فهو من باب لا أرينك ههنا ، أو بدل من الأمر ، أو جواب للأمر ، وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد لأنه من ضرورات الشعر .

وقرىء :لا يحطمنكم بضم الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء .

وثامنها : خصت بقولها : ﴿سليمان﴾ .

وتاسعها : عمت بقولها ﴿وجنوده﴾ وأرادت جنود سليمان فجاءت بما هو أبلغ .

وعاشرها : أشارت بقولها ﴿وهم﴾ .

وحادي عشرها: عذرت بقولها :

﴿لا يشعرون﴾ أي بحطمكم ، ولا يعلمون بمكانكم . أي لو شعروا لم يفعلوا، قالت ذلك على وجه العذر ، واصفة لهم بالعدل ، كأنها عرفت أن النبي معصوم ، وجنده محفوظ ، فلا يقع منهم حطم هذه الحيوانات ، إلا على سبيل السهو،وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء وحفظ أصحابهم،وفيه أن الرافضة الذين ينسبون الظلم وحطم الحقوق الى أصحاب رسول الله ﷺ في أهل بيته وعترته،هم أقل وأضعف رأياً من تلك النملة فإنها اعتقدت في جنود سليمان العدل،وهؤلاء اعتقدوا بأصحابه ﷺ الظلم وشتان بينهما ، وقيل : إن المعنى والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها وهو بعيد جداً .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ
(١٩) وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠)
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾

﴿فتبسم﴾ سليمان ابتداء ﴿ضاحكًا﴾ انتهاء ﴿من قولها﴾ وقرىء : ضحكًا ، وعلى الأول حال مؤكدة ، لأنه قد فهم الضحك من التبسم ، وقيل : حال مقدرة ، لأن التبسم أول الضحك ، وقيل : لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينًا له ، وقيل : إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير ، وعلى الثاني : مصدر منصوب بفعل محذوف .

وكل من التبسم والضحك والقهقهة انفتاح في الفم ، لكن الأول انفتاح بلا صوت أصلاً ، والثاني مع صوت خفيف ، والثالث مع صوت قوي ، وكان ضحك سليمان تعجبًا من قولها وفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل ، أو فرحًا لظهور عدله .

﴿وقال : رب أوزعني﴾ قد تقدم بيان معناه قريباً في قوله : فهم يوزعون ، قال في الكشاف : وحقيقة أوزعني اجعلني أزع شكر نعمتك عندي ، وأكفه وارتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك ، انتهى . قال الواحدي : أوزعني أي : ألهمني ، وبه قال قتادة ، وعن الحسن مثله ، يقال : فلان موزع بكذا ، أي : مولع به . قال القرطبي : وأصله من وزع فكأنه قال : كفني عما يسخطك ، انتهى . وقال الزجاج : معناه امنعني أن أكفر نعمتك ، وهو تفسير باللازم .

﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت﴾ بها ﴿علي﴾ مفعول ثان لأوزعني ، أي : من النبوة والملك والعلم .

﴿وعلى والدي﴾ الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه ، كما أوزعه شكر نعمته عليه ، لأن الإنعام عليهما إنعام عليه ، وذلك يستوجب

الشكر منه لله سبحانه . قال أهل الكتاب : وأمه هي زوجة أوريا بوزن قوتلا ، التي امتحن الله بها داود ، قاله القرطبي ، والله أعلم بصحته ، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه الى سوابقها ، ولا سيما النعم الدينية فقال :

﴿وأن أعمل صالحاً﴾ في بقية عمري ﴿ترضاه﴾ مني ، ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلاً في زمرة الصالحين ، فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق بها الطلب فقال : ﴿وأدخلني﴾ الجنة ﴿برحمتك في عبادك الصالحين﴾ من النبيين او صلحاء العباد ، والمعنى أدخلني في جملتهم ، واثبت اسمي في أسمائهم واحشرني في زمرتهم الى دار الصالحين وهي الجنة ،أوفي بمعنى مع ، والصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله ، ولا يفعل معصية ، ولا يهم بها ، وهذه درجة عالية .

اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبي الكريم . فتقبل ذلك مني وتفضل علي به ، فإني وان كنت مقصراً في العمل ، ففضلك الواسع هو سبب الفوز بالخير ، ورحمتك أرجى عندي من عملي ، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المتقين بالتفضل منك لا بالعمل منهم ، كما قال رسولك الصادق المصدوق ، فيما ثبت عنه في الصحيح : « سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » فاذا لم يكن إلا بفضلك الواسع فترك طلبه منك عجز ، والتفريط في التوسل اليك بالإيصال اليه تضييع .

ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان وذلك بدلالة الهدهد فقال :

﴿وتفقد الطير﴾ التفقد تطلب ما غاب عنك ، وتعرف أحواله . والطير اسم جنس لكل ما يطير ، والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير ، وتعرف حال ما غاب منها ، وكانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها .

﴿فقال : ما لي﴾ وقرىء بسكون الياء ﴿لا أرى الهدهد ؟﴾ أي ما للهدهد لا أراه ؟ فهذا من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيراً . وقيل : لا حاجة الى ادعاء القلب ، إذ المعنى صحيح بدونه ، بل هو استفهام واستخبار عن المانع له من رؤية الهدهد ، كأنه قال : ما لي لا أراه هل ذلك لساتر يستره عنه ؟ أو لشيء آخر؟

قال الكلبي : ولم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد ، والهدهد معروف .

ثم ظهر له أنه غائب فقال : ﴿أم كان من الغائبين ؟﴾ فلم أره لغيبته ، و (أم) هي المنقطعة التي بمعنى الإضراب ، عن ابن عباس أنه سئل : كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ فقال : إن سليمان نزل منزلاً فلم يدر ما بعد الماء ، وكان الهدهد يدل سليمان على الماء ، فأراد أن يسأله عنه ففقده، قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس رضي الله عنه هذا قيل له : كيف ذلك : والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب ويضع له الصبي الحباله فيغيبها فيصيده فقال : إذا جاء القضاء ، ونزل القدر ، ذهب اللب ، وعمي البصر ، فلما تحقق الغيبة قال :

﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾ اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو؟ فقال ابن عباس ومجاهد وابن جريج : هو أن ينتف ريشه جميعاً وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين ؛ وقال يزيد ابن رومان : هو أن ينتف ريش جناحيه وقيل : يحبسه مع أضداده ، وقيل : أن يمنعه من خدمته وقيل : إلقاءه في الشمس وقيل : التفريق بينه وبين إلفه . وقيل : إلزامه خدمة أقرانه . وقيل : إيداعه في القفص . وقيل : طرحه بين يدي النمل ليأكله ، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب ، لا على قدر الجسد . وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة ، كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ، وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة .

وعن الحسن قال : كان اسم هدهد سليمان غبر ، قال الشوكاني : لا

أدري من أين جاء هذا للحسن رحمه الله ، وهكذا ما روي عنه أن اسم النملة حرس ، وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب ، وهو رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ؛ ونحن نعلم أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء . ونعلم انه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان ، أو بأحد من أصحابه فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب .

وقد أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روي : حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، فليس ذلك مما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك ، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم . وقد كررنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة .

﴿أو لأذبحنه﴾ بقطع حلقومه ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ هو الحجة البينة في غيبته . قال ابن عباس : السلطان المبين خبر الحق الصدق البين . وعنه قال : كل سلطان في القرآن حجة ، وذكر هذه الآية ثم قال : وأي سلطان كان للهدهد ؟ يعني أن المراد بالسلطان الحجة ، لا السلطان الذي هو الملك ، والحلف في الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث ، فكلمة (أو) بين الأولين للتخيير ، وفي الثالث للترديد بينه وبينهما .

قال الزمخشري : فإن قلت : قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه على فعله لا كلام فيه ، ولكن كيف يصح حلفه على فعل الهدهد ؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان ؟

قلت : لما نظم الثلاثة بأو في الحكم الذي هو الحلف ، آل كلامه الى قولك : ليكونن أحد الأمور ، يعني إن كان الإتيان بسلطان ، لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وان لم يكن ، كان أحدهما ، وليس في هذا ادعاء دراية انتهى . و (أو) الثانية ترجع في المعنى الى أنها بمعنى إلا وهي قيد في كل من الأمرين قبلها ، فكأنه قال : لأعذبنه إلا أن يأتيني أو لأذبحنه إلا أن يأتيني بسلطان مبين .

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فمكث﴾ بفتح الكاف من باب نصر ، وقرىء بضم الكاف من باب قرب قال سيبويه: مكث يمكث مكوثاً كقعد يقعد قعوداً ، أي مكث الهدهد بعد تفقد سليمان إياه زماناً ﴿غير بعيد﴾ وقيل : إن الضمير في مكث لسليمان ، والمعنى بقي سليمان بعد التفقد والتوعد زماناً غير طويل ، والأول أولى .

﴿فقال : أحطت بما لم تحط به﴾ الإحاطة :العلم بالشيء من جميع جهاته، حتى لا يخفى عليه معلوم ، ولعل في الكلام حذفاً ، والتقدير فمكث الهدهد غير بعيد ، فجاء فعوتب على مغيبه ، فقال معتذراً عن ذلك :أحطت بما لم تحط به . قال الفراء : ويقال: أحت بإدغام الطاء في التاء ، والمعنى علمت ما لم تعلمه من الأمر ، وبلغت ما لم تبلغ أنت ولا جنودك . وقال ابن عباس: اطلعت على ما لم تطلع عليه .

وقد ألهم الله الهدهد هذا الكلام ، فكافح سليمان به مع ما أوتي من فضل النبوة ، والعلوم الجمة:إبتلاء له في علمه ، وتنبيهاً على أن أدنى جنده قد أحاط علماً بما لم يحط به ليكون لطفاً به في ترك الإعجاب وإنما أخفى الله على سليمان مكانها ، وكانت المسافة بينهما قريبة لمصلحة رآها ،كما أخفى مكان يوسف على يعقوب . وفيه دليل على بطلان قول الرافضة : إن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه .

﴿وجئتك من سبأ﴾ قرىء بالصرف على أنه اسم رجل نسب اليه قوم ، وقرىء بفتح الهمزة وترك الصرف على أنه اسم مدينة ، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل ، وقال : سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن . وقيل : هو اسم امرأة سميت بها المدينة .

قال القرطبي : والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي ، من حديث فروة بن مسيك المرادي ، قال ابن عطية : وخفي هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء .

وزعم الفراء أن الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال : ما أدري ما هو؟ قال النحاس : وأبو عمر أجل من أن يقول هذا ، قال : والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل ، فان صرفته فلأنه قد صار اسماً للحي ، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة ، مثل ثمود ، إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف ، انتهى .

وأقول : لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن ، كانت فيها بلقيس ، وهو أيضا اسم رجل من قحطان ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود،ولكنه المراد هنا: ان الهدهد جاء الى سليمان بخبر ما عاينه في مدينة سبأ ، مما وصفه ، وسيأتي في المأثور ما يوضح هذا ويؤيده ،وعن ابن عباس قال :سبأ بأرض اليمن ، يقال لها : مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال والمعنى أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة .

﴿بنبإ يقين﴾ النبأ :هو الخبر الخطير الشأن ؛وهذا من محاسن الكلام ، ويسمى البديع ، وقد حسن وبدع لفظاً ومعنى ههنا ، ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحاً ، وهو كما جاء أصح لما في النبإ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال ، فلما قال الهدهد لسليمان ما قال ، قال له سليمان : وما ذاك ؟ فقال :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ وهي بلقيس بنت شراحيل ، روي ذلك عن الحسن وقتادة وزهير بن محمد ، وعن ابن جريج أنها بنت ذي شرح ، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ ، وكان أبوها ملك أرض اليمن ، ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس . والضمير في تملكهم راجع الى سبأ ، على تأويل القوم ، وأهل المدينة ، والجملة هذه كالبيان والتفسير للجملة التي قبلها ، أي : ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء .

قال ابن عباس : اسمها بلقيس بنت ذي شيرة ، وكانت هلباء شعراء ، قيل : كانت من نسل يعرب بن قحطان ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إحدى[1] أبوي بلقيس كان جنياً » ، أخرجه ابن عساكر ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ وابن جرير .

﴿وأوتيت من كل شيء﴾ فيه مبالغة ، والمراد أنها أوتيت من كل شيء من الأشياء التي تحتاجها الملوك ، من الآلة والعدة ، وكان يخدمها النساء ، وهذا عام أريد به الخصوص ، وقيل : المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً من أسباب الدنيا ، والمال والعدة ما يليق بحالها ، فحذف شيئاً لأن الكلام قد دل عليه .

﴿ولها عرش عظيم﴾ أي : سرير كبير ضخم ، وقيل : المراد بالعرش هنا

---

(١) لم يصح لـه إسناد، ثم إنـه من حيث المعنى لا يقبـل بـالضـرورة ـ إلا في معـارض الفـروض الفقهيـة الوهمية ـ أن يكون إنساناً مهجناً بجن أو جنا مهجنا بإنسان وليس هناك ما يثبت هذا إلا ما حكي من أن بني السعلات من العرب أمهم جنية ولم يرد من طريق معتبر إلا ما روي من سبق الشيطان لمن لم يسم عند الوقاع وهذا من قبيل جريان الشيطان من ابن آدم مجرى الدم وليس من قبيل التذري والتناسل . المطيعي .

الملك ، والأول أولى لقول سليمان : أيكم يأتيني بعرشها ؟ ووصفه بالعظم بالنسبة اليها والى أمثالها من ملوك الدنيا ، لأنه كما قيل : كان مضروباً من الذهب والفضة ، طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً ، وارتفاعه في السماء ثلاثون ذراعاً ، مكللا بالدر والياقوت الأحمر ، والزبرجد الأخضر والزمرد .

وأما وصف عرش الله بالعظيم ، فهو بالنسبة الى جميع المخلوقات من السموات والأرض وما بينهما ، فبينهما بون عظيم ، وفرق بين . قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ، ذات ملك عظيم ، وسرير كبير ، وكانت كافرة من قوم كفار ، وعن ابن عباس قال: سرير كبير من ذهب ، وقوائمه من جو هر ولؤلؤ ، حسن الصنعة غالي الثمن . عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق .

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، قيل: كانوا مجوساً ، وقيل : زنادقة ، و (وجدت) بمعنى لقيت وأصبت ؛ فتتعدى لواحد .

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها وهي عبادة الشمس ، وسائر أعمال الكفر ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح ، وهو الإيمان بالله وتوحيده .

﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى ذلك ، ولا يبعد من الهدهد التهدي الى معرفة الله تعالى ، ووجوب السجود له ، وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الله له ؛ كما ألهمه وغيره من الطيور ، وسائر الحيوان المعارف اللطيفة ، التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها .

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ
﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿ألاّ يسجدون لله﴾ قال ابن الأنباري : الوقف على لا يهتدون غير تام عند من شدد (ألاّ) لأن المعنى وزين لهم الشيطان أن لا يسجدوا .

وقال النحاس : هي (أن) دخلت عليها (لا) قال الأخفش : أي زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا ، فهو على الوجهين مفعول له. وقيل : فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ،و (لا) على هذا زائدة، كقوله : ما منعك أن لا تسجد ، وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة ، لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود ، إما بالتزيين ، أو بالصد ، أو بمنع الاهتداء . وقد رجح كونه علة للصد الزجاج ، ورجح الفراء كونه علة لزين ، قال : زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا .

وقرىء ألا بالتخفيف ، وعلى هذا فهي حرف تنبيه واستفتاح ، وما بعدها حرف نداء ، ألايا اسجدوا ، واسجدوا فعل أمر ، وتقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا ، قال الزجاج ، وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود ، دون قراءة التشديد ، ولقراءة التخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن امر سبأ ، ثم الرجوع بعد ذلك الى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه . وكذا قال النحاس ، وعلى هذه تكون جملة ألا يا اسجدوا معترضة من كلام الهدهد أو من كلام سليمان ، أو من كلام الله سبحانه .

وقرأ ابن مسعود (هلا تسجدوا) بالفوقية . وقرأ أُبيّ (ألا تسجدوا) بالتاء وفيه مناسبة لما قبله ، وهي الرد على من يعبد الشمس وغيرها من دون الله .

﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ يقال : خبأت الشيء أخبأه خبأ ، والخبء ما خبأت ، أي يظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما ، لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من فيهما ، عالم بجميع المعلومات ، وفي إخراج الخبء دليل على القدرة .

قال الزجاج : جاء في التفسير أن الخبء ههنا بمعنى القطر من السماء ، والنبات من الأرض وقيل: خبء الأرض كنوزها ونباتها ، وقال قتادة : الخبء السر . قال النحاس : أي ما غاب فيهما ، وقرىء الخب بفتح الباء من غير همزة ، وقرىء الخبا بالألف . قال أبو حاتم : وهذا لا يجوز في العربية ورد عليه بأن سيبويه حكى عن العرب ، أن الألف تبدل من الهمز إذا كان قبلها ساكن . وقرىء : من السموات ، قال الفراء : من وفي تتعاقبان . عن ابن عباس قال : يعلم كل خبيئة في السماء والأرض .

﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ قرىء بالتحتية في الفعلين ، وبالفوقية للخطاب ، أما الأولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة ، وأما الثانية فلكون القراءة فيها الأمر بالسجود ، والخطاب لهم بذلك ، فهذا من ذلك الخطاب ،

والمعنى أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الانساني من الخفي بعلمه له ، كما يخرج ما خفي في السماء والأرض ، وفيه دليل على إثبات العلم ، والإعلان ذكره لتوسيع دائرة العلم للتنبيه على تساويهما بالنسبة الى علمه تعالى ، ثم بعدما وصف الرب سبحانه بما تقدم ، مما يدل على عظيم قدرته ، وجليل سلطانه ، وسعة علمه ، ووجوب توحيده ، وتخصيصه بالعبادة قال :

﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ بالجر نعتاً للعرش ، وبالرفع نعتاً للرب ، وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات ، كما ثبت ذلك في المرفوع الى رسول الله ﷺ .

وأما عرش بلقيس فتعظيمه بالإضافة الى عروش أبناء جنسها من الملوك ، وهذا بالنسبة الى جميع الموجودات من السماء والأرض ، وبينهما بون عظيم كما تقدم ، والى هنا كلام الهدهد ، لكنه من قوله : الذي يخرج الى هنا ليس داخلاً تحت قوله : أحطت بما لم تحط به يعني ليس مما علمه الهدهد دون سليمان ، بل سليمان يعلمه أيضاً على وجه أتم وأكمل من علم الهدهد ، وإنما ذكره الهدهد بياناً لما هو عليه معتقده ، واظهارًا لتصلبه في الدين .

فلما فرغ الهدهد من كلامه ﴿قال﴾ له سليمان : ﴿سننظر﴾ فيما أخبرتنا به من هذه القصة ، ونتعرف . والنظر والتأمل والتصفح : فيه ارشاد الى البحث عن الأخبار ، والكشف عن الحقائق ، وعدم قبول خبر المخبرين تقليدًا لهم ، واعتماداً عليهم ، إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه .

﴿أصدقت ؟﴾ فيما قلت ، والهمزة استفهامية .

﴿أم كنت من الكاذبين ؟﴾ أم هي المتصلة ، وهذا القول أبلغ من قوله أم كذبت فيه ، مع أنه أخصر وأشهر لأن المعنى من الذين اتصفوا بالكذب ، وصار خلقاً لهم ، فهو يفيد أنه كاذب لا محالة على أتم وجه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

وقال البيضاوي : التغيير للمبالغة ، والمحافظة على الفواصل . ثم بيَّن سليمان هذا النظر الذي وعد به فقال :

﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾ أي : الى أهل سبأ .قال الزجاج : في ألقه خمسة أوجه قرىء بها ، وخص الهدهد بإرساله بالكتاب لأنـه المخبر

بالقصة ، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة .

﴿ثم تول﴾ أي : تنح وانصرف ﴿عنهم﴾ وقف قريباً منهم وإنما أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك ، والمراد التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم ، حتى يخبر سليمان بما سمع . وقيل : معنى التولي الرجوع اليه ، والأول أولى لقوله :

﴿فأنظر ماذا يرجعون﴾ أي تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم الى بعض من القول ، وما يتراجعونه بينهم من الكلام . قال ابن عباس : كن قريباً منهم ، فانظر ما الذي يردونه من الجواب ﴿قالت﴾ بلقيس :

﴿يا أيها الملأ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : فذهب الهدهد فألقاه اليهم ، فسمعها تقول يا أيها الملأ ﴿إني ألقي إليّ كتاب كريم﴾والملأ :هم الأشراف ، سموا ملأً لأنهم يملأون العيون ، وفاعل (ألقي) محذوف ، قيل : لجهلها به إن لم تكن شاهدته : وقيل . لاحتقاره إن كانت رأته ، والكريم ، المكرم المعظم .

ووصفت الكتاب بالكريم ،لكونه من عند عظيم في نفسها ،فعظمته إجلالاً لسليمان . وقيل : لاشتماله على كلام حسن . وقيل : لكونه مصدراً بالبسملة . وقيل : لغرابة شأنه . وقيل : لكونه وصل اليها مختوماً بخاتم سليمان ، وكرامة الكتاب ختمه ، كما روى ذلك مرفوعاً[1] .

قال ابن المقفع[2] من كتب إلى أخيه لم يختمه فقد استخف به .

---

(١) نص الحديث هكذا : كرامة الكتاب ختمه . رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس،والقضاعي يربط بين هذا الحديث والآية ، والحديث يدور بين الضعف والوضع ونص على ضعفه الحافظ السيوطي في الجامع الصغير،فإذا عرفت مبلغ تساهل السيوطي في تصحيح الضعيف ورفع الموضوع إلى مرتبة الضعيف استطعت الحكم والله أعلم . المطيعي .

(٢) ابن المقفع في الأدب الكبير . المطيعي .

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟
قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت :﴿انه من﴾ عبد الله ﴿سليمان﴾ ابن داود الى بلقيس ملكة سبأ .

﴿وانه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أي : وإن ما اشتمل عليه الكتاب من الكلام ،وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية ، وفيه إشارة الى سبب وصفها إياه بالكرم . قال ابن عباس : انطلق بالكتاب حتى اذا توسط عرشها ألقى الكتاب اليها فقرىء عليها فاذا فيه . إنه من سليمان الخ . واخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ،عن النبي ﷺ كان يكتب « باسمك اللهم » حتى نزلت هذه الآية فكان يكتب البسملة وبعدها السلام على من اتبع الهدى .

﴿أن لا تعلوا﴾ أي : أما بعد فلا تتكبروا ﴿عليّ﴾ كما تفعله جبابرة الملوك، و (أن) هي المفسرة ، وقيل : مصدرية و (لا) ناهية ،وقيل نافية ،ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب او خبر مبتدأ محذوف: أي هو أن لا تعلوا وقرىء: لا تغلوا بالغين من الغلو وهو تجاوز الحد في الكبر .

﴿وائتوني مسلمين﴾ أي :طائعين منقادين للدين مؤمنين بما جئت به ، قيل : لم يزد سليمان على ما نص الله في كتابه وكذلك الأنبياء كانوا يكتبون جملاً لا يطيلون ولا يكثرون . قيل : طبعه سليمان بالمسك أي جعل عليه قطعة منه كالشمع ، ثم ختمه بخاتمه .

﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري﴾ أي : أشيروا علي وبينوا لي الصواب في هذا الأمر واجيبوني بما يقتضيه الحزم وعبرت عن المشورة بالفتوى ، لكون ذلك حلاً لما أشكل من الأمر عليها ، وفي الكلام حذف ؛ والتقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب ، جمعت أشراف قومها وكانوا ثلثمائة واثني عشر ، لكل واحد منهم أتباع كثيرة وقالت لهم : يا أيها الملأ إني ألقي الي ، يا أيها الملأ أفتوني وكرر (قالت) لمزيد العناية بما قالته لهم ، ثم زادت في التأدب ، واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ؛ فقالت :

﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي : عادتي وشأني معكم ، أني ما كنت مبرمة وقاضية وفاصلة أمراً من الأمور حتى تحضروا عندي وتشيروا عليَّ ؛ فلما قالت لهم ذلك ﴿قالوا﴾ مجيبين لها :

﴿نحن أولو قوة﴾ في العدد والعدة ﴿وأولو بأس شديد﴾ عند الحرب واللقاء ؛ ولنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا ؛ وبلدنا ،ومملكتنا ،يعني أشاروا عليها بالقتال ، ثم فوضوا الأمر اليها لعلمهم بصحة رأيها ، وقوة عقلها فقالوا :

﴿والأمر﴾ موكول ﴿إليك﴾ أي الى رأيك ونظرك ﴿فانظري﴾ أي : تأملي ﴿ماذا تأمرين﴾ إيانا به ، فنحن سامعون لأمرك مطيعون له .

فلما سمعت تفويضهم الأمر اليها لم ترض بالحرب ، بل مالت للصلح ، وبينت السبب في رغبتها فيه و ﴿قالت : إن الملوك اذا دخلوا قرية﴾ من القرى .

﴿أفسدوها﴾ أي : خربوا مبانيها ، وغيروا مغانيها ، وأتلفوا أموالها وفرقوا شمل أهلها . قال ابن عباس : إذا أخذوها عنوة وقهراً خربوها . وعن الزجاج مثله .

﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي أهانوا أشرافها ؛وحطوا مراتبهم ،فصاروا عند ذلك أذلة ، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتم لهم الملك ، وتستحكم لهم

الوطأة ، وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة . والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان اليهم ، ودخوله بلادهم .

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الفعل ﴿يفعلون﴾ أرادت أن هذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير ، لأنها كانت في بيت الملك القديم ؛ فسمعت نحو ذلك ورأت . قال ابن الأنباري : الوقف على قوله أذلة ، وقف تام ، فقال الله عز وجل تحقيقاً وتصديقاً لقولها : وكذلك يفعلون . وقيل : هذه الجملة من تمام كلامها ، فيكون من جملة مقول قولها أكدت به ما قبله ، وعلى الأول مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

قال النسفي : واحتج الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية ومن استباح حراماً فقد كفر واذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين انتهى . ثم لما قدمت لهم هذه المقدمة وبينت لهم ما في دخول الملوك الى أرضهم من المفسدة أوضحت لهم وجه الرأي عندها وصرحت لهم بصوابه فقالت :

﴿وإني مرسلة اليهم﴾ أي إني أجرب هذا الرجل بإرسال رسلي اليه ﴿بهدية﴾ مشتملة على نفائس الأموال فإن كان ملكاً أرضيناه بذلك وكفينا أمره وإن كان نبياً لم يرضه ذلك لأن غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء الى الدين فلا ينجينا منه إلا إجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته ولهذا قالت :

﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ بالهدية من قبول أو رد ، فعاملة بما يقتضيه ذلك ، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة ، قد ساست الأمور وجربتها وقد طول المفسرون في ذكر هذه الهدية .

قال ابن عباس : ارسلت بِلَبِنَةٍ من ذهب فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب ، فذلك قوله ﴿أتمدونن بمال﴾ الآية . وقال ثابت البناني : أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج . وقال مجاهد : أهدت جواري لباسهن لباس الغلمان ، وغلماناً لباسهم لباس الجواري ، وقال عكرمة :أهدت مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية ، وعلى كل فرس لون ليس على الآخر . وقال سعيد ابن جبير : كانت الهدية جواهر ، وقيل : غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره .

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ
﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

﴿فلما جاء﴾ رسولها المرسل بالهدية وهو منذر بن عمرو ، والمراد بهذا المضمر الجنس فلا ينافي كونهم جماعة كما يدل عليه قولها : بم يرجع المرسلون . وقرىء فلما جاءوا أي : الرسل ﴿سليمان قال : أتمدونن بمال ؟﴾ مستأنفة والاستفهام للإنكار أي : قال منكراً لإمدادهم له بالمال ، مع علو سلطانه ، وكثرة ماله .

﴿فما آتاني الله﴾ من النبوة والعلم والملك العظيم والأموال الكثيرة ﴿خير مما آتاكم﴾ من المال الذي هذه الهدية من جملته ، وهذا تعليل للنفي ، ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدم ، فقال توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء :

﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ وأما أنا فلا أفرح بها وليست في الدنيا من حاجتي لأن الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين ، ومع ذلك أكرمني بالنبوة والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم ، والحط عليهم ، ثم قال سليمان للرسول :

﴿ارجع إليهم﴾ أي الى بلقيس وقومها بما أتيت به من الهدية ، وخاطب المفرد ههنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل إما لأن الذي سيرجع هو الرسول فقط ، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا ، وخاطبهم معه فيما سبق افتناناً في الكلام . وقرىء ارجعوا وقيل : إن الضمير يرجع الى الهدهد .

واللام في ﴿فلنأتينهم﴾ جواب قسم محذوف ، أي : والله إن لم يأتوني مسلمين لنأتينهم قال النحاس : وسمعت ابن كيسان يقول : هي لام توكيد ،

ولام أمر ،ولام خفض . وهذا قول الحذاق من النحويين لأنهم يردون الشيء الى أصله ، وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب في العربية .

﴿بجنود لا قبل﴾ أي : لا طاقة ﴿لهم بها﴾ وحقيقة القبل المقابلة والمقاومة ، أي لا يقدرون أن يقابلوهم .

﴿ولنخرجنهم منها﴾ أي : من بلادهم وأرضهم التي هم فيها ، وهي سبأ حال كونهم ﴿أذلة﴾ بعد أن كانوا أعزة ﴿وهم صاغرون﴾ هي حال ثانية مؤكدة للأولى ، لأن الصغار هو الذلة ، وقيل : إن المراد بالصغار هنا الأسر والاستعباد ، وقيل : إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها الذلة . ولما رجع الرسول الى بلقيس بالهدية تجهزت للمسير الى سليمان لتنظر ما يأمرها به ، واخبر جبريل سليمان بذلك .

﴿قال﴾ سليمان لكل من هو عنده في قبضته من الجن والإنس وغيرهما : ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها﴾ أي عرش بلقيس ، الذي تقدم وصفه بالعظم وكان سليمان إذ ذاك في بيت المقدس ، وعرشها في سبأ بلدة باليمن ، وبينها وبين القدس مسيرة شهرين ﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي قبل أن تأتيني هي وقومها منقادين طائعين .

قيل : إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا اليه ويسلموا لأنهم حينئذ حربيون ، واذا أسلمت وأسلم قومها لم يحل أخذ أموالهم بغير رضائهم لأن الاسلام يعصم مالهم .

قال ابن عطية : وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان بعد مجيء هديتها ورده إياها وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين .

وقيل : استدعى العرش قبل وصولها ليريها القدرة التي هي من عند الله ، ويجعله دليلاً على نبوته . وقيل : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : نكروا لها عرشها كما سيأتي ، وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم والقول الأول هو الذي عليه الأكثر .

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ
ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا
عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾

﴿قال عفريت من الجن﴾ وقرىء ﴿عفريه﴾ بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء ، ورويت هذه عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ؛ وقرأ أبو حيان بفتح العين وهو شاذ ، والعفريت المارد الغليظ الشديد القوي . قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء ، عفر وعفريه وعفريت .

وقال قتادة :هو الداهية ،وقيل :هو رئيس الجن ،وقال ابن عطية :وقرأت فرقة عفر بكسر العين جمعه على عفار . قال وهب : اسمه كوذي . وقال السهيلي : ذكوان ، وقيل : هو صخر المارد ، قاله ابن عباس،وقيل :اسمه دعوان ، وكان مثل الجبل ،يضع قدمه عند منتهى طرفه ، وكان مسخراً لسليمان .

﴿أنا آتيك به﴾ أي أنا سآتي بالعرش اليك مضارع أو اسم فاعل ﴿قبل ان تقوم من مقامك﴾ أي مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة بين الناس وهو من الغداة إلى نصف النهار ﴿وإني عليه﴾ أي على حمله ﴿لقوي أمين﴾ على ما فيه من الجواهر وغيرها ، قال سليمان : أريد أسرع من ذلك .

﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ المنزل على الأنبياء قبل سليمان كالتوراة التي أنزلت على موسى ، قال أكثر المفسرين : اسمه آصف بن برخيا بالمد وبالقصر ، وهو من بني إسرائيل ، وكان وزيرًا لسليمان وصديقًا له ،

وقيل : كاتبه ، وكان من أولياء الله تظهر الخوارق على يديه كثيراً،وقيل كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب،قاله ابن عطية.

وقالت فرقة : هو سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت ، فقال له هذه المقالة تحقيراً له ، وقيل: هو جبريل ، وقيل : ملك آخر . وقيل : الخضر ، وقد قيل غير ذلك مما لا أصل له والأول أولى .

﴿أنا آتيك به﴾ أي بالعرش ، وقال مجاهد في قراءة ابن مسعود : أنا انظر في كتاب ربي الخ ثم آتيك به ﴿قبل ان يرتد اليك طرفك﴾ إذا نظرت به الى شيء ما ، والمراد بالطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر ، وارتداده انضمامها ، ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد آثر الارتداد على الرد ، وفي القاموس إن الطرف كما يطلق على نظر العين يطلق على العين نفسها ، وقيل : هو بمعنى المطروف ، أي الشيء الذي ينظره ، وقيل : هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة ، قاله مجاهد .

وقال سعيد بن جبير : انه قال لسليمان : انظر الى السماء فما طرف حتى جاء به فوضعه بين يديه ، والمعنى حتى يعود اليك طرفك بعد مده الى السماء ، والأول أولى هذه الأقوال ، ثم الثالث .

قال ابن عباس : لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ، ولكن انشقت به الأرض فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان ، وقال مجاهد : لما تكلم العالم بكلام دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج اليهم .

﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾ قيل . في الآية حذف ، والتقدير فأذن له سليمان فدعا الله فأتى به ، فلما رأى سليمان العرش حاضراً لديه ﴿قال هذا﴾

أي حضور العرش وثبوته من غير تحرك وتقلقل ﴿من فضل ربي﴾ وإحسانه .

﴿ليبلوني﴾ أي ليختبرني ، وقيل:ليتعبدني وهو مجاز ،والأصل في الابتلاء : الاختبار ﴿أأشكر ؟﴾ الله بذلك واعترف بأنه من فضله من غير حول مني ولا قوة ، وأقوم بحقه ﴿أم أكفر ؟﴾ بترك الشكر وعدم القيام به ، أو بأن أثبت لنفسي فعلاً وتصرفاً في ذلك ، وقال الأخفش : المعنى لينظر أشكر أم أكفر .

﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها ، فإن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ، والمعنى أنه لا يرجع نفع ذلك وثوابه إلا الى الشاكر .

﴿ومن كفر﴾ النعمة بترك الشكر ﴿فإن ربي غني﴾ عن شكره ﴿كريم﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه وسلبه ما أعطاه منها .

﴿قال : نكروا لها عرشها﴾ قيل : إنما أعيد ذكر القول لكون المتعلق مختلفاً لكونه أولا ثناء على الله ، وثانياً متعلقاً بشأن عرشها ،والتنكير التغيير ، وجعل الشيء بحيث لا يعرف ، ضد التعريف ، ومنه نقل الى مصطلح أهل العربية يقول : غيروا سريرها الى حال تنكره إذا رأته ، قيل : جعل أسفله أعلاه ، وأعلاه أسفله ، وقيل : غير بزيادة ونقصان ، قاله ابن عباس .

قال الفراء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً فأراد ان يمتحنها ،وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له ولد منها ، فيبقون مسخرين لآل سليمان أبداً فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ،ورجلها كرجل الحمار ، وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له .

﴿ننظر﴾ أي نعلم قرىء بالجزم على انه جواب الأمر وبه قرأ الجمهور ، وقرىء بالرفع على الاستئناف ، قال ابن عباس :لننظر الى عقلها فوجدت ثابتة العقل ﴿ أتهتدي ؟ ﴾ الى معرفته أو الى الإيمان بالله ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ الى ذلك .

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا
مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ
حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ
أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾

﴿فلما جاءت﴾ بلقيس الى سليمان ﴿قيل﴾ لها والقائل هو سليمان أو غيره بأمره : ﴿أهكذا عرشك ؟﴾ الذي تركته في قصرك ، وأغلقت عليه الأبواب ، وجعلت عليه حرساً ، والهمزة للاستفهام ، ولم يقل : (هذا عرشك) لئلا يكون ذلك تلقيناً لها فلا يتم الإختبار لعقلها .

﴿قالت كأنه هو﴾ أي : فأجابت أحسن جواب ، فلم تقل : هو هو ، ولا ليس به ، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل للأمرين . قال مجاهد : جعلت تعرف وتنكر ، وتعجب من حضوره عند سليمان فقالت : كأنه هو ، وقال مقاتل : عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها ، ولو قيل لها : أهذا عرشك؟ لقالت نعم . وقال عكرمة : كانت حكيمة ، قال : إن قلت : هو خشيت أن أكذب ، وان قلت : لا خشيت أن أكذب فقالت : كأنه هو .

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ قيل: هو من كلام بلقيس ، أي : وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ، وكنا منقادين لأمره ، وقيل : هو من قول سليمان أي : وأوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : العلم بإسلامها ، ومجيئها طائعة من قبل مجيئها، وقيل : هو من كلام قوم سليمان، والقول الثاني أرجح من سائر الأقوال ، وبه قال مجاهد ، وعن زهير بن محمد نحوه .

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله﴾ من جملة كلام سليمان أو كلامها على الاحتمالين السابقين ، وذكر أبو السعود احتمالاً آخر وهو ؛ أنه من كلام الله سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الاسلام ، أي منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده وهو الشمس ، قال النحاس : أي صدها عبادتها عن التقدم الى الاسلام ، وقيل:منعها الله عما كانت تعبد من دونه ، وقيل : منعها سليمان عما كانت تعبد ، والأول أولى ، والجملة مستأنفة للبيان .

﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ تعليل للجملة الأولى أي سبب تأخرها عن عبادة الله ومنع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر ، راسخين فيه ، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بينهم ، بل حتى دخلت تحت ملك سليمان .

﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ قال أبو عبيدة : الصرح القصر ، وقال الزجاج : الصرح الصحن ، يقال هذه صرحة الدار ، وقامتها ، وقال ابن قتيبة : الصرح بلاط اتخذ لها من قوارير ، وجعل تحته ماء وسمك ، وأصله من التصريح وهو الكشف ، وكذب صراح أي ظاهر مكشوف ، ولوم صراح . وحكى أبو عبيدة في الغريب : أن الصرح كل بناء عال مرتفع .

﴿فلما رأته﴾ أي الصرح بين يديها ﴿حسبته لجة﴾ هي معظم الماء ، وقال ابن عباس : البحر ﴿و﴾ لذلك ﴿كشفت عن ساقيها﴾ لتخوض الماء خوفاً عليها أن تبتل ؛ فإذا هي أحسن النساء ساقاً سليمة مما قالت الجن فيها ، غير أنها كانت كثيرة الشعر ، فلما فعلت ذلك وبلغت الى هذا الحد .

﴿قال﴾ لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها ﴿إنه صرح ممرد﴾ أي مسقف بسطح ﴿من قوارير﴾ فمن أراد مجاوزته لا يحتاج الى تشمير ثيابه . والممرد المحكوك المملس ، ومنه الأمرد لملاسة وجهه ، وتمرد الرجل اذا لم تخرج لحيته .

قال الفراء : ومنه الشجرة المرداء ، التي لا ورق لها . والتمريد في البناء

التمليس والتسوية والممرد أيضاً المطول ،ومنه قيل للحصن :مارد .وقوارير :جمع قارورة أي زجاج وتطلق القارورة على المرأة لأن الولد او المني يقر في رحمها كما يقر الشيء في الإناء أو تشبيهاً بآنية الزجاج لضعفها ، قال الأزهري : والعرب تكنى عن المرأة بالقارورة والقوصرة قال آزاد البلجرامي رحمه الله :

كم من قلوب رقاق إثر عيسهم ياحادي العيس رفقاً بالقوارير

والمراد بها هنا بيت الزجاج فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت .

و ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي﴾ أي بما كنت عليه من عبادة غيرك وهو الشمس وقيل : بالظن الذي توهمته في سليمان لأنها توهمت أنه أراد تغريقها في اللجة . والأول أولى .

﴿وأسلمت مع سليمان﴾ متابعة له داخلة في دينه وهو الاسلام ﴿لله رب العالمين﴾ التفتت من الخطاب الى الغيبة قيل :لإظهار معرفتها بالله ، والأولى أنها التفتت لما في هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ، ولكونه علماً للذات . وأخرج ابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن ابي شيبة وغيرهم عن ابن عباس في أثر طويل « إن سليمان تزوجها بعد ذلك » ، قال أبو بكر بن أبي شيبة : ما أحسنه من حديث .

قال ابن كثير في تفسيره بعد حكاية هذا القول : بل هو منكر جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم.والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما يوجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلا الى هذه الأمة من بني إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان ، ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ، انتهى .

وكلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه في هذا التفسير ونبهنا عليه في عدة

مواضع،وكنت أظن أنه لم ينبه على ذلك غيري ، فالحمد لله على هذه الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف ، وقيل : انتهى أمرها الى قولها : أسلمت ، ولا علم لأحد وراء ذلك لأنه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح .

وأخرج البخاري في تاريخه والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «أول من صنعت له الحمامات سليمان» وروي عنه مرفوعاً من طريق أخرى رواها الطبراني ، وابن عدى في الكامل ، والبيهقي في الشعب بلفظ : أول من دخل الحمام سليمان ، فلما وجد حره قال : أوه من عذاب الله،روى أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة،وانقضى ملك بلقيس بانقضاء ملك سليمان ، فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه .

﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ اللام هي الموطئة للقسم.وهذه القصة من جملة بيان قوله : وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . وثمود هو أبو القبيلة التي منها خرج صالح ، فهو جده . والمراد به هنا نفس القبيلة وتسمى عاداً الثانية،وأما عاد الأولى فهم قوم هود ، وتقدم أن بينهما مائة سنة ، وعاش صالح مائتين وثمانين سنة ﴿أن اعبدوا الله﴾ أن هي المفسرة او المصدرية أي بأن أعبدوا الله ووحدوه .

﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ إذا ، هي الفجائية أي ففاجأ إرساله التفرق والاختصام ، والمراد بالفريقين : المؤمنون منهم والكافرون ، ومعنى الاختصام : أن كل فريق يخاصم على ماهو فيه ،ويزعم أن الحق معه ،وقيل : إن الخصومة بينهم في صالح ، هل هو مرسل ؟ أم لا ؟ وقال أحد الفريقين : صالح ، والآخر : جميع قومه ، وهو ضعيف ، وقد تقدم حكاية اختصام الفريقين في سورة الأعراف ، في قوله : قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم الآية .

قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿قال﴾ صالح للمكذبين : ﴿يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟﴾ قال مجاهد : أي بالعذاب قبل الرحمة . والمعنى لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب اليكم الثواب ؟ وتقدمون الكفر الذي يجلب اليكم العقوبة ؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون : ائتنا ياصالح بالعذاب ، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً ، إما لأن العقاب من لوازمه ، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً .

﴿لولا﴾ هلا ﴿تستغفرون الله﴾ وتتوبون اليه من الشرك ﴿لعلكم ترحمون ؟﴾ أي : رجاء أن ترحموا أو لكي ترحموا فلا تعذبوا ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر ، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم قالوا :﴿اطيرنا بك﴾ أصله تطيرنا، وقد قرىء بذلك ،والتطير التشاؤم ، أي : تشاءمنا بك ، وأُصابنا الشؤم والضيق والشدة بك ﴿وبمن معك﴾ ممن أجابك ، ودخل في دينك ، وذلك لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح ، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة ، وأشقاهم بها ، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً من الأمور نفروا طائراً من وكره ، فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه ، وإن طار يسرة تركوا ذلك .

وفي القرطبي : لا شيء أضر بالرأي ، ولا أفسد للتدبير ، من **اعتقاد**

الطيرة ، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدوراً فقد جهل ؛ فلما قالوا ذلك ﴿قال﴾ لهم صالح :

﴿طائركم عند الله﴾ أي ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله ، وهو مكتوب عليكم، سمي طائراً لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم ، والمعنى ليس ذلك بسبب الطيرة التي تشاءمون بها ، بل سبب ذلك عند الله ، وهو ما يقدره عليكم . وقيل : المعنى أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله لسبب كفركم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله﴾ وقيل : طائركم عملكم ، وسمي طائراً لسرعة صعوده الى السماء ، ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان فقال :

﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي تمتحنون وتختبرون ، وقيل : تعذبون بذنوبكم ، وقيل : يفتنكم غيركم ، وقيل : يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون ، فأضرب عن ذكر الطائر الى ما هو السبب الداعي اليه ، وجاء بالخطاب مراعاة لتقدم الضمير ، ولو روعي ما بعده لقيل : يفتنون ، بياء الغيبة ، وهو جائز ، ولكنه مرجوح ، تقول : أنت رجل تفعل ويفعل ، ونحن قوم نقر ويقرون .

﴿وكان في المدينة﴾ التي كان فيها صالح ، وهي الحجر ، كذا قال المفسرون هنا ، وتقدم في سورة الحجر أنه واد بين المدينة والشام ، وهو ديار ثمود .

﴿تسعة رهط﴾ أي : تسعة رجال أو أشخاص من أبناء الأشراف وبهذا الاعتبار وقع تمييزاً للتسعة لا باعتبار لفظه ، والإضافة بيانية ، أي : تسعة هم رهط ، والرهط اسم جماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة ، وقيل : الرهط ما دون العشرة من الرجال ، ليس فيه امرأة ، وسكون الهاء أفصح من فتحها ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ؛ وقيل : الرهط من سبعة الى عشرة وما دون السبعة الى الثلاثة نفر ، قال ثعلب : الرهط والنفر والقوم والمعشر والعشيرة معناهم الجمع ، لا واحد لها من لفظها وهو للرجال دون

النساء ، وقال ابن السكيت : الرهط والعترة بمعنى ، وقال الأصمعي : الرهط ما فوق العشرة الى الأربعين ، ونقله ابن فارس أيضاً .

والجمع أرهط وأراهط ، وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار ، عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح . وقد اختلف في اسماء هؤلاء التسعة اختلافاً كثيراً لا حاجة الى التطويل بذكره ، ثم وصف هؤلاء بقوله :

﴿يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي شأنهم وعملهم الفساد في الأرض لا في المدينة فقط ، فساداً لا يخالطه شيء من الإصلاح ، قيل : كانوا يتبعون معائب الناس ، ولا يسترون عوراتهم.وقيل : كانوا يظلمون ولا يمنعون الظالمين .

﴿قالوا : تقاسموا﴾ أي قال بعضهم لبعض : حلفوا ﴿بالله﴾ هذا على أن ﴿ تقاسموا﴾ فعل أمر ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً مفسراً لـ (قالوا) كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقال : تقاسموا ، أو قالوا ذلك متقاسمين ، واليه ذهب الزمخشري وقرأ ابن مسعود (تقاسموا بالله) ليس فيها قالوا .

﴿لنبيتنه﴾ اللام جواب قسم ، أي لنأتينه بغتة في وقت البيات ، فنقتله ليلاً ﴿وأهله﴾ أي من آمن به ، وكانوا أربعة الاف ﴿ثم لنقولن لوليه﴾ بالنون للمتكلم وقرىء بالتحتية وبالفوقية على خطاب بعضهم لبعض ، والمراد بـ (ولي) صالح رهطه ، الذين لهم ولاية الدم .

﴿وما شهدنا مهلك أهله﴾ أي : ما حضرنا قتلهم ، ولا ندري من قتله وقتل أهله ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى ، وقيل : إن المهلك بمعنى الإهلاك ،قرىء مهلك بفتح الميم واللام وبكسر اللام .

﴿وإنا لصادقون﴾ فيما قلناه من إنكار لقتلهم ،قال الزجاج : وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله ، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه ، وكان هذا مكراً منهم ، ولهذا قال الله سبحانه :

وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا
ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ
وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ
تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن
قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ
ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ومكروا﴾ بهذه المحالفة ﴿مكراً﴾ وهو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح ﴿ومكرنا مكراً﴾ أي جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم .

﴿وهم لا يشعرون﴾ بمكر الله بهم ، وهذا على سبيل الاستعارة المنضمة الى المشاكلة ، كما في الكشاف وشروحه ، يعني تشبيهاً له بالمكر من حيث كونه إضراراً في خفية ، لأن المكر قصد الإضرار على طريق الغدر والحيلة .

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾ أي انظر ما انتهى اليه أمرهم الذي بنوه على المكر وما أصابهم بسببه . ﴿أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ بفتح همزة (أنا) وقرىء بكسرها وهما سبعيتان ، قال الفراء والزجاج : من كسر استأنف وهو يفسر به ما كان قبله ، كأنه جعله تابعاً للعاقبة كأنه قال : العاقبة إنا دمرناهم وعلى قراءة الفتح التقدير بأنا ، أو لأنا و (كان) تامة ، وعاقبة فاعل لها ، أو يكون بدلاً من عاقبة ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي أنا

دمرناهم . وفي حرف أُبي أن دمرناهم .

والمعنى أن الله دمر التسعة الرهط المذكورين ، بالرمي ، ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك بصيحة جبريل عليه السلام ، وأجمعين : تأكيد لكل من المعطوف والمعطوف عليه ومعناه أنه لم يشذ منهم أحد ، ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم .

وجملة ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ مقررة لما قبلها أي حال كونها خاوية قال الفراء ، والنحاس : أي خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن ، من خوى البطن اذا خلا ، أو ساقطة متهدمة من خوى النجم إذا سقط . وقيل : الأصل تلك بيوتهم الخاوية كقوله : وله الدين واصباً ﴿بما ظلموا﴾ أي بسبب ظلمهم .

﴿إن في ذلك﴾ التدمير والإهلاك ﴿لآية﴾ أي : لعبرة عظيمة ﴿لقوم يعلمون﴾ أي يتصفون بالعلم بالأشياء ﴿وأنجينا الذين أمنوا﴾ وهم صالح ومن آمن به ﴿وكانوا يتقون﴾ الله ويخافون عقابه ، وخرج صالح ومن معه من المؤمنين الى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح فسمى حضرموت ، قال الضحاك : ثم بنى الأربعة آلاف الذين كانوا معه مدينة يقال لها حاضوراء .

﴿و﴾ أرسلنا ﴿لوطاً إذ قال لقومه﴾ هم أهل سدوم : ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي : الفعلة المتناهية في القبح والشناعة ، وهي إتيان الذكور واللواط ﴿وانتم تبصرون﴾ أي وانتم تعلمون علماً يقيناً أنها فاحشة وقبيحة . وذلك أعظم ذنوبكم ، على أن تبصرون من بصر القلب وهو العلم او بمعنى النظر لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة ، عتواً وتمرداً ، والجملة حالية مفيدة لتأكيد الإنكار ، وتشديد التوبيخ ، وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف مستوفى .

﴿ائنكم لتأتون الرجال ؟﴾ فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح،بأن تلك الفاحشة هي اللواطة التي أبهمها أولا ، وفيه إشارة الى أن فعلتهم هذه مما يعي الواصف ، ولا يبلغ كنه قبحها ، ولا يصدق ذو عقل أن أحداً يفعلها ، ثم علل ذلك بقوله :

﴿شهوة﴾ تنزيلاً لهم الى رتبة البهائم التي ليس فيها قصد ولد . ولا عفاف،والتقدير للشهوة أو إتياناً شهوة ؛ أو مشتهين لهم .

﴿من دون النساء﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هن محل لذلك ، وفيه اشارة الى أنهم أساءوا من الطرفين في الفعل والترك .

﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ التحريم ، أو عاقبة فعلكم ، والعقوبة على هذه المعصية ، قيل : أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها ، أو تفعلون فعل الجاهلين بقبحه ، وقد اجتمع الخطاب والغيبة هنا ، وفي قوله : بل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لأنه أقوى وأرسخ إذ الأصل أن يكون الكلام بين الحاضرين .

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ أي : إلا قولهم ﴿أخرجوا آل لوط﴾ أي لوطاً وأهله ، والمراد بهم بنتاه وزوجته المؤمنة ﴿من قريتكم﴾ فيه امتنان عليه بإسكانه عندهم ، والإضافة للجنس لأن قراهم كانت خمساً أعظمها سدوم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي يتنزهون ويتباعدون عن أدبار الرجال ، قالوا ذلك استهزاء منهم بهم .

﴿فأنجيناه وأهله﴾ من العذاب الواقع بالقوم ، فخرج لوط بأهله من أرضهم وطوى الله له الأرض حتى نجا ، ووصل الى ابراهيم ﴿إلا امرأته قدرناها﴾ قرىء مخففاً ومشدداً ، والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى ﴿من الغابرين﴾ أي الباقين في العذاب .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ
الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ
لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن
تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وامطرنا عليهم﴾ أي : على كل من كانَ منهم خارج المدائن ﴿مطراً﴾ أي حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها ، وهو حجارة السجيل أي : الطين المحرق وهذا التأكيد يدل على شدة المطر ، وانه غير معهود .

﴿فساء مطر المنذرين﴾ أي الذين أنذروا فلم يعقلوا ولم يقبلوا الإنذار والمخصوص بالذم محذوف ، أي مطرهم،وقد مضى بيان ذلك كله في الأعراف والشعراء .

﴿قل الحمد لله﴾ قال الفراء:قال أهل المعاني : قيل للوط قل الحمد لله على هلاكهم ، وخالفه جماعة المفسرين فقالوا : إن هذا خطاب لنبينا ﷺ أي قل :الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية ، قال النحاس : وهذا أولى لأن القرآن منزل على النبي ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به ، إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره ، وكان هذا صدر خطبة لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية ، والعلم والقدرة الآتي ذكرها بقوله : أمن خلق الخ قيل : والمراد بقوله :

﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ أمته ﷺ والأولى حمله على العموم ، وهم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين ، فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم،قال ابن عباس : هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه ﷺ ،

وروي مثله عن سفيان الثوري ؛ والأولى ما قدمناه من التعميم ، فيدخل في ذلك أصحابه ﷺ دخولاً أولياً ، وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال ، بأن يتبرك بهما ويستظهر لمكانهما .

﴿آلله ؟﴾ فيه وجهان يجريان في خمسة مواضع في القرآن غير هذا الموضع أحدهما تسهيل الهمزة الثانية مقصورة ، والثاني إبدالها ألفاً ممدودة مداً لازماً والمعنى ألله الذي ذكرت أفعاله ، وصفاته الدالة على عظيم قدرته .

﴿خير أما يشركون ؟﴾ به من الأصنام وفيه تبكيت للمشركين : وإلزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار و (أم) هذه متصلة عاطفة لاستكمال شروطها ، والتقدير أيهما خير ، وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي ، بل هي كقول الشاعر :

أتهجوه ولست له بكفء ؟ فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم ، إذ لا خير فيهم أصلاً ، وقد حكى سيبويه : إن العرب تقول : السعادة أحب إليك أم الشقاوة ولا خير في الشقاوة أصلاً ، وقيل : المعنى أثواب الله خير ؟ أم عقاب ما تشركون به ؟ وقيل: قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً . وقيل : المراد من هذا الاستفهام الخبر ، وقرأ الجمهور تشركون بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية .

﴿أمن خلق السموات والأرض ؟﴾ أم هذه هي المنقطعة ، وقال أبو حاتم : تقديره أآلهتكم خير؟ أم من خلق السموات والأرض ؟ وقدر على خلقهن ،وقيل : المعنى أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير ؟ أم عبادة من خلق العالم الجسماني ؟ فيكون (أم) على هذا متصلة ، وفيها معنى التوبيخ والتهكم ، كما في الجملة الاولى .

﴿وانزل لكم من السماء ماء﴾ أي نوعاً من الماء وهو المطر ﴿فأنبتنا به حدائق﴾ جمع حديقة ،قال الفراء :الحديقة البستان الذي عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان ، وليس بحديقة . وقال قتادة وعكرمة : الحدائق النخل .

﴿ذات بهجة﴾ أي ذات منظر حسن ، ورونق ، والبهجة هي الحسن الذي يبتهج به من رآه ولم يقل ذوات بهجة على الجمع ، لأن المعنى جماعة حدائق ، وصرف الكلام عن الغيبة الى التكلم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته ، وإيذاناً بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والأشكال،مع سقيها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ، ثم رشح معنى الاختصاص بقوله :

﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ فضلاً عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة ، ومعنى هذا النفي الحظر والمنع من فعل هذا أي ما يصح للبشر ، ولا يتهيأ لهم ذلك ، ولا يدخل تحت مقدورهم ، لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم الى الوجود ، وأن تأتي ذلك محال من غيره ، ثم قال سبحانه موبخاً لهم ومقرعاً :

﴿أإله﴾ أي : هل معبود ﴿مع الله ؟﴾ الذي تقدم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ، ويجعل شريكاً له في العبادة ، وقرىء إلهاً أي : أتدعون إلهاً مع الله ؟ والاستفهام للإنكار أي ليس معه إله ، وكذا يقال في المواضع الأربعة الآتية،ثم أضرب عن توبيخهم وتقريعهم بما تقدم ، وانتقل الى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة فقال :

﴿بل هم قوم يعدلون﴾ بالله غيره ، أو يعدلون عن الحق الى الباطل ، و (بل هم) بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم ثم شرع في الاستدلال بأحوال الارض وما عليها فقال :

أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ
ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ
إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ
بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ
ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

﴿أمن جعل الأرض قراراً ؟﴾ القرار هو المستقر أي دحاها وسواها وجعلها بحيث يمكن الاستقرار عليها للإنسان والدواب بإخلاء بعضها من الماء حسبما تدور عليه منافعهم ،وقيل : هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله أمن خلق السموات والأرض ؟ ولا ملجىء لذلك ، بل هي وما بعدها إضراب ، وانتقال من التقريع والتوبيخ بما قبلها الى التوبيخ والتقريع بشيء آخر .

﴿وجعل﴾ أي خلق أو صير ﴿خلالها﴾ أي فيما بينها ﴿أنهاراً﴾ تطرد بالمياه ، والخلال الوسط ، وقد تقدم تحقيقه في قوله :**وفجرنا خلالهما نهراً** .

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة ﴿وجعل بين البحرين﴾ هما العذب والمالح ، أي جعل بينهما من قدرته ﴿حاجزاً﴾ أي مانعاً معنوياً ، وهو المنع الإلهي ، إذ ليس هناك حاجز حسي كما هو مشاهد فلا يختلط أحدهما بالآخر ، فلا هذا يغير ذاك ، ولا ذاك يدخل في هذا وقد مر بيانه في سورة الفرقان .

﴿أإله مع الله﴾ أي : إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلا الله فهل إله في

الوجود يصنع صنعه ، ويخلق خلقه فكيف يشركون به ما لا يضر ولا ينفع .

﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ توحيد ربهم وسلطان قدرته .

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ؟﴾ هذا الاستدلال منه سبحانه بحاجة الانسان اليه على العموم والمضطر اسم مفعول من الاضطرار ، وهو افتعال من الضرورة ، وهي الحاجة المحوجة الى اللجأ ، يقال : اضطره الى كذا ، والمضطر هو المكروب المجهود ، الذي مسه الضر ولا حول له ولا قوة ، وقيل هو المذنب اذا استغفر ، وقيل : هو المظلوم اذا دعا ، أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد ، وهو منه على خطر ، وقيل : هو الذي عراه ضر من فقر ، أو مرض ، أو نازلة من نوازل الدهر ، فالجأه الى التضرع الى الله .

والألف واللام في (المضطر) للجنس لا للاستغراق ، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين ، لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد ، يحول بينه وبين إجابة دعائه ، وإلا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر إذا دعاه وأخبر بذلك عن نفسه ، والوجه في إجابة دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص ، وقطع النظر عما سوى الله .

وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين ، وإن كانوا كافرين ، فقال ﴿حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ وقال: ﴿فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون﴾ فأجابهم عند ضرورتهم واخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون الى شركهم .

﴿ويكشف السوء ؟﴾ الذي يسوء العبد من غير تعيين وقيل : هو الضر وقيل : هو الجور وهذا من عطف العام على الخاص .

﴿ويجعلكم خلفاء الأرض ؟﴾ أي : يخلف كل قرن منكم القرن الذي

قبله بعد انقراضهم والمعنى يهلك قرناً وينشىء آخرين.وقيل: يجعل أولادكم خلفاً منكم ، وقيل: جعلكم خلفاء الجن في الأرض،وقيل : يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم .

﴿أإله مع الله ؟﴾ الذي يوليكم هذه النعم الجسام ﴿قليلاً ما﴾ أي : تذكراً قليلاً ﴿تذكرون﴾ و (ما) زائدة لتقليل القليل هو كناية عن العدم بالكلية فالمراد نفي تذكرهم رأساً ، قال الكرخي : المعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي ، قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية على الخبر رداً على قوله : بل أكثرهم لا يعلمون .

﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي يرشدكم في الليالي المظلمة إذا سافرتم في البر والبحر الى مقاصدكم، وقيل: المراد مفاوز البر التي لا أعلام لها ولجج البحار،وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها،وقيل : يهديكم بالنجوم ليلاً وبعلامات الأرض نهاراً .

﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟﴾ المراد بالرحمة هنا:المطر أي بين يدي المطر وقبل نزوله .

﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ يفعل ذلك ويوجده ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾ أي تنزه وتقدس عن وجود ما يجعلونه له شريكاً .

﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟﴾ كانوا يقرون بأن الله سبحانه هو الخالق فألزمهم الإعادة أي اذا قدر على الابتداء قدر على الاعادة ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟﴾ بالمطر والنبات أي : أهو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك ؟ ﴿أإله مع الله﴾ حتى تجعلوه شريكاً له .

﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم عقلية أو نقلية على أن الله سبحانه شريكاً أو هاتوا حجتكم على أن ثم صانعاً يصنع كصنعه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن مع الله إلهاً فعل شيئاً مما ذكر .وفي هذا تبكيت لهم وتهكم بهم . وسألوه عن وقت قيام الساعة فنزل :

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ
ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا
مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

﴿قل لا يعلم من﴾ أي لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة الثابتة الساكنة المستقرة ﴿في السماوات والأرض﴾ وهم الملائكة والإنس ﴿الغيب﴾ الذي استأثر الله بعلمه ﴿إلا الله﴾ أي : لكن الله يعلم ذلك فالاستثناء منقطع ، ورفع ما بعد (إلا) على اللغة التميمية كما في قوله :

إلا اليعافير وإلا العيس

وقيل : لا يعلم غيب من فيهما ، ولا يعلم الأشياء التي تحدث فيهما إلا الله ، وقيل : هو استثناء متصل من (من) والأول أولى ، لأن الاتصال يقتضي أن الله من جملة من فيهما .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت : « ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، وقالت في آخره : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : قل : ﴿لا يعلم﴾ «الآية» .

﴿وما يشعرون﴾ أي الكفار ﴿أيان يبعثون﴾ أي متى ينشرون من القبور ، وأيان مركبة من أي وأن ، وقد تقدم تحقيقه ، وقرىء إيان بكسر

الهمزة ، وهي لغة بني سليم .

﴿بل ادّارك﴾ أصله تدارك ، وقرىء أدرك من الإدراك ، وقرىء بل أدرك بفتح لام بل ، وتشديد الدال ، وأدرك على الاستفهام ، وقرىء بل تدارك ، بإثبات التاء ، ومعنى الآية بل تكامل .

﴿علمهم في الآخرة﴾ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به وعاينوه ،وقيل : معناه تتابع وتلاحق ، **والقراءة الثانية** معناها كمل علمهم في الآخرة مع المعاينة ، وذلك حين لا ينفعهم العلم لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين ، وقال الزجاج : إنه على معنى الإنكار . واستدل على ذلك بقوله : فيما بعد : بل هم منها عمون ، أي لم يدرك علمهم علم الآخرة؛وقيل: المعنى بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم .

ومعنى **الثالثة** كالأولى،فافتعل وتفاعل، قد يجيئان لمعنى.**والرابعة** هي بمعنى الإنكار . قال الفراء : وهو وجه حسن كأنه وجهه الى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم،وفي الآية قراءات أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها .

وعن ابن عباس قال: بل إدراك علمهم في الآخرة حين لا ينفع الندم وعنه قال :لم يدرك علمهم،وعنه :أنه قرأها بالاستفهام ،وعنه قال :غاب علمهم .

﴿بل هم في شك منها﴾ أي بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة ثم أضرب عن ذلك الى ما هو أشر منه فقال : ﴿بل هم منها عمون﴾ فلا يدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك و(عمون) جمع عم،وهو من كان أعمى القلب،والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون الى شيء مما يوصل الى العلم بها فمن قال : إن معنى الآية الأولى أنه كمل علمهم وتم مع المعاينة،فلا بد من حمل قوله بل هم في شك الخ على ما كانوا عليه في الدنيا،ومن قال: إن معنى الآية الأولى الاستهزاء بهم والتبكيت لهم لم

يحتج الى تقييد قوله بل هم في شك الخ بما كانوا عليه في الدنيا وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ويظهر ظهوراً بيناً،والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم وتكرير لجهلهم .

ولما ذكر سبحانه أن المشركين في شك من البعث وأنهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبيِّنَ غاية شبهتهم وهي مجرد استبعاد إحياء الموتى بعد صيرورتهم تراباً فقال :

﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾ المعنى أنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً .

ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا: ﴿لقد وعدنا هذا﴾ يعنون البعث ﴿نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي من قبل وعد محمد ﷺ لنا وقد مرت الدهور على هذا الوعد ولم يقع منه شيء،فذلك دليل على أنه لا حقيقة له والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدرة بالقسم لزيادة التقرير .

﴿إن هذا﴾ «الوعد بالبعث» ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة التي كتبوها ولا حقيقة لها وقد تقدم تحقيق معنى الأساطير في سورة المؤمنين ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث فأمرهم بالنظر في أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء وما عوقبوا به وكيف كانت عاقبتهم فقال :

﴿قل : سيروا في الأرض ؛ فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ المكذبين بما جاءت به الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، من الإخبار بالبعث ومعنى النظر هو مشاهدة آثارهم بالبصر ، فإن في المشاهدة زيادة اعتبار ، وكفاية لأولي الأبصار . وقيل : المعنى فانظروا بقلوبكم وبصائركم ، كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم ؟ والأول أولى ، لأمرهم بالسير في الأرض ؛ وفيه تهديد لهم على التكذيب ؛ وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم .

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

﴿ولا تحزن عليهم﴾ الحزن سببه إما فوت أمر في الماضي ، أو توقع مكروه في المستقبل ، أي : لا تحزن على عدم إيمان المستهزئين فيما مضى ولا تغتم وتهتم بمكرهم في المستقبل ؛ وهو معنى قوله :

﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ الضيق الحرج ، يقال : ضاق الشيء ضيقاً بالفتح ، وضيقاً بالكسر ، قرىء بهما وهما لغتان ، قال ابن السكيت : يقال : في صدر فلان ضيق ، وضيق ، وهو ما يضيق عنه الصدور ، وقرىء لا تكن بثبوت النون هنا على الأصل .

وقد حذفت من هذا المضارع في القرآن في عشرين موضعاً ، تسعة منها مبدوءة بالتاء ، وثمانية بالياء ، واثنان بالنون ، وواحد بالهمزة ، وهو قوله : ولم أك بغياً ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل .

﴿ويقولون : متى هذا الوعد﴾ بالعذاب الذي تعدنا ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ذلك ، خطاب للنبي ﷺ ومن معه ، من المؤمنين .

﴿قل : عسى أن يكون ردف لكم﴾ يقال ردفت الرجل وأردفته ، اذا ركبت خلفه ، وردفه إذا اتبعه وجاء في إثره ، قال ابن شجرة : معنى ردف لكم تبعكم ، قال : ومنه ردف المرأة ، لانه تبع لها من خلفها . قال

الجوهري : وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه واتبعه . قال الفراء : ردف لكم دنا لكم ، ولهذا قيل : لكم ، وقرىء ردف بفتح الدال ، وهي لغة ، والكسر أشهر .

وقرأ ابن عباس (أزف لكم) وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بمدخولها ، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار ، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم ، وعلى ذلك يجري الله وعيده ، قاله أبو السعود والمعنى قل : يامحمد ﷺ لهؤلاء الكفار : عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعكم ولحقكم ؛ فتكون اللام زائدة للتأكيد ، أو بمعنى اقترب لكم ودنا منكم قاله ابن عباس ، فتكون غير زائدة .

﴿بعض الذي تستعجلون﴾ من العذاب ، أي حلوله ، قيل : هو عذابهم بالقتل يوم بدر ، وقيل : هو عذاب القبر ، ثم ذكر سبحانه فضله فقال : ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ في تأخير العقوبة ، والأولى أن تحمل الآية على العموم ، ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه .

﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فضله وإنعامه ، ولا يعرفون حق إحسانه .

ثم بين سبحانه أنه مطلع على ما في صدورهم فقال : ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم﴾ أي ما تخفيه فليس التأخير لخفاء حالهم عليه ، قرىء بضم التاء من أكن،وبفتحها وضم الكاف يقال كننته بمعنى سترته وأخفيت أثره ﴿وما يعلنون﴾ من أقوالهم وأفعالهم ، ويظهرونها . وقال ابن عباس :يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ أي : في اللوح المحفوظ ، والغائبة :هي من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كراوية وعلامة ، وقيل : هي الداخلة على المصادر نحو العاقبة والعافية . قال الزمخشري : ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات . قال الحسن :

الغائبة هنا هي القيامة .

وقال مقاتل : علم ما يستعلجون من العذاب هو مبين عند الله ، وإن غاب عن الخلق . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه ، وغيبه عنهم ، مبين في أم الكتاب ، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك ، ومن جملة ذلك ما يستعجلون من العذاب . فإنه مؤقت بوقت مؤجل بأجل ، علمه عند الله ، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له ؟ وقال ابن عباس : ما من شيء في السماء والأرض سراً ولا علانية إلا يعلمه .

﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل﴾ الموجودين في زمان نبينا بالتصريح والتنصيص ، ولذا خص الأكثر بالذكر وقال : ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ من التشبيه والتنزيه ، وأحوال الجنة والنار ، وعزير ومسيح ، وذلك لأن أهل الكتاب تفرقوا فرقاً ، وتحزبوا أحزاباً ، يطعن بعضهم على بعض ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق ، فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرقهم .

﴿وإنه لهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ من العذاب ﴿للمؤمنين﴾ أي لمن آمن بالله وتابع رسوله ﷺ ، وخصهم لأنهم هم المنتفعون به ، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل .

﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ كغيرهم يوم القيامة ﴿بحكمه﴾ أي يقضي بالعدل بين المختلفين من بني اسرائيل ، بما يحكم به من الحق ، فيجازي المحق ويعاقب المبطل ، فلا يمكن أحداً مخالفته ؛ كما خالف الكفار في الدنيا أنبياءه ورسله وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرفوه قرىء بحكمه بضم الحاء وسكون الكاف ، وبكسرها وفتح الكاف ؛ جمع حكمة ؛ والحكم بمعنى العدل والحق والمحكوم به .

﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغالب ﴿العليم﴾ بما يحكم به ، أو الكثير العلم ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة فقال :

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ
إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا
فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فتوكل على الله﴾ الفاء لترتيب الأمر على ما تقدم ذكره ، لأن هذه الأوصاف توجب على كل أحد أن يفوض جميع أموره اليه ، والمعنى فوض اليه أمرك ، واعتمد عليه فإنه ناصرك ، ثم علَّل ذلك بعلتين الأولى قوله :

﴿إنك على الحق المبين﴾ أي : الظاهر ، وقيل : المظهر ، وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك ، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله ، وبنصرته وتأييده وحفظه له . والعلة الثانية قوله :

﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أي : موتى القلوب وهم الكفار ، وفيه قطع طمعه عن متابعتهم ، ومعاضدتهم رأسا .

﴿ولا تسمع الصم الدعاء﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع ، أو كحال الصم الذين لا يسمعون ، ولا يفهمون ولا يهتدون ، صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم ، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء الى الله ، وقرىء تسمع بضم الفوقية وكسر الميم من أسمع ؛ وقرىء بالتحتية مفتوحة وفتح الميم وفاعله الصم ؛ ثم ذكر سبحانه جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال :

﴿إذا ولوا مدبرين﴾ أي أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً فإن الأصم لا يسمع الدعاء اذا كان مقبلاً فكيف اذا كان مدبراً ؛ معرضاً عنه مولياً ؛ قال قتادة الأصم : إذا ولى مدبراً ثم ناديته لم يسمع ؛ كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى اليه من الإيمان . وظاهر نفي سماع الموتى العموم ، فلا يخص منه إلا

ما ورد بدليل ؛ كما ثبت في الصحيح «أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب بدر فقيل له : يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها» وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا ، ثم ضرب العمى مثلاً لهم فقال :

﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾ أي ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشاداً يوصله الى المطلوب منه ، وهو الإيمان ، وليس في وسعك ذلك ، ومثله قوله : إنك لا تهدي من أحببت قرأ الجمهور بإضافة هادي الى العمي ، وقرىء بالتنوين ، وقرىء تهدي فعلاً مضارعاً ، وفي حرف عبدالله وما أن تهدي العمي .

﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي من يصدق بالقرآن في علم الله لا من يكفر ﴿فهم مسلمون﴾ تعليل للإيمان أي :فهم منقادون مخلصون بتوحيد الله ، ثم هدد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأهوالها فقال :

﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ اختلف في معنى هذا الوقوع فقال قتادة : وجب الغضب عليهم ، وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقيل :حق العذاب عليهم ،وقيل : وجب السخط ، والمعاني متقاربة ، وقيل المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة،وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها ، وقيل : وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم ، ورفع القرآن ، وذلك اذا لم يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، قاله ابن عمر وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً .

وعن أبي العالية أنه فسر (وقع القول) بما أوحي الى نوع أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، والحاصل أن المراد بـ (وقع) وجب و بـ (القول) مضمونه أو أطلق المصدر على المفعول ، أي المقول وجواب الشرط قوله :

﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾ اختلف في هذه الدابة على أقوال فقيل : إنها فصيل ناقة صالح ، يخرج عند اقتراب الساعة ويكون من اشراطها ، وقيل : هي دابة مزغبة ذات شعر وقوائم طوال ، يقال لها

الجساسة وبه قال ابن عمرو .

وفي التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى ، وقيل : هي دابة على خلقة بني آدم ، رأسها في السحاب وقوائمها في الأرض ، وقيل : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش . وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصل ومفصل إثنا عشر ذراعاً ، ولعل ذلك هو الجساسة ، وقيل : الثعبان ، والمشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة ، والمراد أنها هي التي تخرج في آخر الزمان ، وقيل : هي دابة ما لها ذنب ولها لحية ، وقيل : هي إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار ، وفيه بعد .

وعن ابن عباس قال : الدابة ذات وبر وريش ؛ مؤلفة فيها من كل لون ، لها أربع قوائم ، تخرج بعقب من الحاج . وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره ، وقد رجح القول الأول القرطبي في تفسيره ، وقال : هو أصح الأقوال ، واختلف في تعيينها وصفاتها اختلافاً كثيراً قد ذكرناه في كتاب التذكرة انتهى، واختلف من أي موضع تخرج ، فقيل : من جبل الصفا بمكة ، يتصدع فتخرج منه ، قاله ابن عمرو ، وقيل : تخرج من جبل أبي قبيس ،وقيل :لها ثلاث خرجات ، خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس ؛ وتكثر الدماء ؛ ثم تكمن ، وتخرج في القرى ، ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها ، وقيل : تخرج من بين الركن والمقام ، وقال ابن عباس تخرج من بعض أودية تهامة ، وقيل : من مسجد الكوفة من حيث فار التنور،وقيل : من أرض الطائف ؛ وقيل : من صخرة من شعب أجياد ، قاله ابن عمرو،وقيل : من صدع في الكعبة ، وقيل : من بحر سدوم قاله وهب بن منبه ، واختلف في معنى قوله :

﴿تكلمهم﴾ فقيل : تكلم الموجودين ببطلان الأديان سوى دين الإسلام

وقيل:تكلمهم بما يسوءهم ،وقيل :تكلمهم بالعربية بقوله تعالى الآني أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، قاله ابن عباس ، أي بخروجها لأن خروجها من الآيات ، وقال ابن عباس أيضاً:تكلمهم تحدثهم ، وعنه أنه سئل هو من التكليم باللسان ، أو من الكلم وهو الجرح؟ فقال : كل ذلك والله تفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر ،أي : تجرحه ،قرأ الجمهور تكلمهم من التكليم ؛ وتدل عليه قراءة أبي : تنبئهم . وقرىء بفتح الفوقية وسكون الكاف من الكلم وهو الجرح ، قال عكرمة : أي تسمهم وسماً ،وقيل : تجرحهم ، وقيل :قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم وهو الجرح ، والتشديد للتكثير ، قاله أبو حاتم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس ذلك حديثاً ولا كلاماً ، ولكنها سمة تسم من أمرها الله به ، فيكون خروجها من الصفا ليلة منى ، فيصبحون بين رأسها وذنبها ، لا يدحض داحض ، ولا يجرح جارح حتى اذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك ونجا من نجا ؛ كان أول خطوة تضعها بأنطاكية » .

وأخرج أحمد : وابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة ، فيقال له:ممن اشتريتها فيقول : من الرجل المخطم» .

وعن حذيفة بن أسيد رفعه قال : « تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة » .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه ، وابن ماجة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، والبيهقي ، وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :تخرج دابة الأرض ومعها عصى موسى ، وخاتم سليمان ، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم ، وتحطم أنف الكافر بالعصى ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال :ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال : لها ثلاث خرجات من الدهر الحديث ، أخرجه البيهقي والحاكم وصححه ، وابن

المنذر ، وغيرهم ، وفي صفتها ، ومكان خروجها ، وما تصنعه ، ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح . وبعضها حسن ، وبعضها ضعيف .

وأما كونها تخرج ، وكونها من علامات الساعة ، فالأحاديث الواردة في ذلك صحيحة ، ومنها ما هو ثابت في الصحيح كحديث حذيفة مرفوعاً «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات» وذكر منها الدابة فإنه في صحيح مسلم ، وفي السنن الأربع .

وكحديث « بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدابة » فإنه في صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

وكحديث ابن عمر مرفوعاً أن « أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى » فإنه في صحيح مسلم أيضاً .

ثم قرأ الجمهور : ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ بكسر إن على الاستئناف ، وقرىء بفتحها،قال الأخفش : المعنى على الفتح بأن الناس،وبها قرأ ابن مسعود،وقال أبو عبيدة : أي تخبرهم أن الناس الخ .

وعلى هذه فالذي تكلم الناس به هو قوله : أن الناس الخ كما قدمنا الإشارة الى ذلك ، وأما على الكسر فالجملة مستأنفة كما قدمنا ، ولا يكون من كلام الدابة وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين، وجزم به الكسائي والفراء وقال الأخفش إن كسر (إن) هو على تقدير القول ، أي تقول لهم إن الناس فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا الى معنى الثانية :

والمراد بالناس في الآية هم الناس على العموم ، فيدخل في ذلك كل مكلف وقيل : المراد الكفار خاصة ، وقيل : كفار مكة ، والأول أولى كما صنع جمهور المفسرين ،والمعنى :لا يؤمنون بالقرآن المشتمل على البعث والحساب والعقاب،وبخروجها ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يبقى نائب ولا تائب ولا يؤمن كافر ، كما أوحى الله الى نوح ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدآمن﴾ ثم ذكر سبحانه طرفاً مجملاً من أهوال يوم القيامة بعد بيان مباديها فقال :

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ
أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟
فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ العامل في الظرف فعل محذوف خوطب به النبي ﷺ والحشر الجمع قيل: والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب الخاص بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق، و (من) لابتداء الغاية، والفوج الجماعة كالزمرة والقوم، وقيدهم الراغب فقال: الفوج الجماعة المارة المسرعة، وكان هذا هو الأصل، ثم أطلق، وإن لم يكن مرور ولا إسراع، والجمع أفواج وفوج[1].

﴿ممن يكذب بآياتنا﴾ من بيانية ﴿فهم يوزعون﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم لأجل تلاحقهم، وقيل: معناه يدفعون، وقد تقدم تحقيقه في هذه السورة مستوفى، ومعنى الآية واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكذبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم، أو يدفعون أي اذكر لهم هذا وبينه تحذيراً لهم وترهيباً ﴿حتى إذا جاءوا﴾ الى موقف الحساب.

﴿قال﴾ الله لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أكذبتم بآياتي﴾ التي أنزلتها على رسلي وأمرتهم بإبلاغها اليكم ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿لم تحيطوا بها علماً﴾ بل كذبتم بها بادىء بدىء جاهلين لها غير ناظرين فيها، ولا مستدلين على صحتها، أو بطلانها، تمرداً وعناداً وجرأة على الله وعلى رسله، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ لأن من كذب بشيء ولم يحط به علماً، فقد كذب في تكذيبه ونادى على

(١) بضم الفاء وسكون الواو. المطيعي.

نفسه بالجهل وعدم الانصاف وسوء الفهم ، وقصور الإدراك .

ومن هذا القبيل من تصدى لذم علم من علوم الشريعة ، او لذم علم هو مقدمة من مقدماتها ووسيلة يتوسل بها اليها ، وتفيد زيادة بصيرة في معرفتها ، وتعقل معانيها ، كعلوم اللغة العربية بأسرها ، وهي اثنا عشر علماً ، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به الى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية .

وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله وسنة رسوله ، فإنه قد نادى على نفسه بإنه جاهل ، مجادل بالباطل ، طاعن على العلوم الشرعية ، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله وضلاله ، وطعنه على ما لا يعرفه ، ولا يعلم به ولا يحيط بكنهه ، حتى يصير عبرة لغيره ، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعفاء العقول وركاك الأديان ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً وكذباً .

﴿أم ماذا ؟﴾ أم ، هي المنقطعة بمعنى : بل ، والمعنى أي شيء ﴿كنتم تعملون﴾ حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها والتفكر في معانيها ، وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم .

﴿ووقع القول﴾ أي وجب العذاب ﴿عليهم﴾ وقد تقدم تفسيره قريباً ﴿بما ظلموا﴾ أي بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله ﴿فهم لا ينطقون﴾ عند وقوع القول عليهم ، أي : ليس لهم عذر ينطقون به أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم ، وقال أكثر المفسرين : يختم على أفواههم فلا ينطقون ، ثم بعد أن خوفهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد ، وعلى الحشر ، وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد ، وإبلاء للمعذرة فقال :

﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ؟﴾ أي ألم يعلموا أنا خلقنا الليل للسكون والاستقرار ، والنوم فيه ، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش .

﴿و﴾ خلقنا ﴿النهار مبصراً﴾ ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي

لا بد لهم منه ، ووصف النهار بالإبصار وهو وصف للناس ، مبالغة في اضاءته ، كأنه يبصر ما فيه ، ففي الكلام إسناد عقلي ، من الإسناد الى الزمان قيل : في الكلام حذف ، والتقدير وجعلنا الليل مظلماً ليسكنوا أو حذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه ، وقد تقدم تحقيقه في الإسراء ، وفي يونس .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور ﴿لآيات﴾ أي لعلامات ودلالات ﴿لقوم يؤمنون﴾ بالله سبحانه وفي الآية دليل على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على تقليب الضياء ظلمة والظلمة ضياء ، قادر على الإعادة بعد الموت ، كيف ومن تأمل في تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما ، على وجوه مبنية على حكم تحار في فهمها العقول ، ولا يحيط بها إلا الله ، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة ، وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالتيقظ الذي هو مثل الحياة قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من في القبور ، وجزم بأن الله قد جعل هذا أنموذجاً ودليلاً يستدل به على أن سائر الآيات حق نازل من عند الله ، قاله ابو السعود ، ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال :

﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ وهو معطوف على ﴿ويوم نحشر﴾ منصوب بناصبه المتقدم ، قال الفراء : إن المعنى وذلكم يوم ينفخ في الصور ، والأول أولى ، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدم في الأنعام استيفاء الكلام عليه ، والنفخات في الصور ثلاث :

الأولى : نفخة الفزع .

والثانية : نفخة الصعق .

والثالثة : نفخة البعث . وقيل : إنها نفختان وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة الى نفخة الصعق أو الى نفخة البعث ، واختار هذا القشيري والقرطبي وغيرهما وقال الماوردي : هذه النفخة المذكورة هنا هي يوم النشور من القبور .

﴿ففزع﴾ كل ﴿من﴾ كان ﴿في السموات ومن﴾ كان ﴿في الأرض﴾ حياً

ذلك الوقت لم يسبق له موت أو كان ميتاً لكنه حي في قبره كالأنبياء والشهداء أي خافوا الخوف المفضي بهم الى الموت كما في آية اخرى ﴿فصعق من في السموات﴾ الخ وانزعجوا لشدة ما سمعوا وقيل المراد بالفزع هنا الإسراع والإجابة الى النداء من قولهم فزعت اليك في كذا إذا أسرعت الى اجابته ، والأول أولى بمعنى الآية،وإنما عبر بالماضي مع كونه معطوفاً على المضارع للدلالة على تحقيق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان وقال الفراء : هو محمول على المعنى لأن المعنى إذا نفخ .

﴿إلا من شاء الله﴾ أن لا يفزع عند تلك النفخة فهو لا يفزع واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له ، فقيل: هم الشهداء والأنبياء وقيل: الملائكة وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وقيل : الحور العين وخزنة النار وحملة العرش . وقيل: هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد ، من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك،قال البيضاوي: ولعل المراد ما يعم ذلك لعدم قرينة الخصوص انتهى . فهؤلاء كلهم لا يفضي بهم الفزع الى الغشي والإغماء بل هو أقل من ذلك .

﴿وكل أتوه﴾ قرىء فعلاً ماضياً ، وكذا قرأ ابن مسعود،وقرأ قتادة (كل اتاه) وقرىء (آتوه) على اسم الفاعل مضافاً الى الضمير الراجع الى الله سبحانه؛قال الزجاج: من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل،ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه وهو غلط ظاهر فإنّ كلتا القراءتين لا توحيد فيهما بل التوحيد في قراءة قتادة فقط .

﴿داخرين﴾ أي صاغرين ذليلين قاله ابن عباس . وقرىء (دخرين) بغير الألف والمعنى صغار ذل وهيبة من الجبار فيشمل هذا الطائعين والعاصين وقال الكرخي : المراد به ذل العبودية والرق لا ذل الذنوب والمعاصي وذلك يعم الخلق كلهم كما في قوله تعالى ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾، وفي القاموس : دخر الشخص كمنع وفرح دخراً ودخوراً صغر وذل وادخرته بالألف للتعدية وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل .

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ
بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وترى الجبال تحسبها﴾ بفتح السين وكسرها ﴿جامدة﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح للرؤية ، والرؤية بصرية ، وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة ، والمعنى تظنها واقفة قائمة ساكنة مكانها قاله ابن عباس .

﴿وهي تمر مر السحاب﴾ أي : وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها الرياح ، وذلك أن كل شيء عظيم ، وكل جسم كبير ، وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه ، وبعدما بيَّن أطرافه ، فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر ، كذلك سير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها ، كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه .

وقال القتيبي : وذلك أن الجبال تجمع وتسير ، وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير . قال النسفي : وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت أي : في سمت واحد ، لا تكاد تبين حركتها ، ونحوه قال البيضاوي .

قال القشيري : وهذا يوم القيامة ، ومثله قوله تعالى : وسيرت الجبال فكانت سراباً . وقال أبو السعود : هذا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، يبدل الله الأرض غير الأرض ، ويغير هيئتها ، ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ، ليشاهدها أهل المحشر ، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسيرها إنما يكون بعد النفخة الثانية ، كما نطق به قوله : فقل ينسفها ربي نسفاً الخ وقوله : يوم تبدل الأرض .

وقد قيل :إن المراد بالنفخة هي النفخة الأولى ، والفزع هو الذي يستتبع الموت ، فيختص أثرها بمن كان حياً عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الأمم ، والمراد بالإتيان داخرين رجوعهم الى أمره تعالى ، وانقيادهم له ، ولا ريب في أن ذلك مما ينبغي أن تنزه ساحة التنزيل عن أمثاله وأبعد من هذا ما قيل :إن المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق فإنه مما لا ارتباط له بالمقام قطعاً ، والحق الذي لا محيد عنه ما قدمناه ، ومما هو نص في الباب ،ما سيأتي من قوله تعالى : وهم من فزع يومئذ آمنون .

﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي صنع الله ذلك صنعاً ، وهو مصدر مؤكد لقوله : يوم ينفخ في الصور ، وقيل : انظروا صنع الله الذي أحكم ، يقال: رجل تقن بكسر التاء أي حاذق بالأشياء ، والإتقان الإتيان بالشيء على أكمل حالاته ، وهو مأخوذ من قولهم تقن أرضه إذا ساق اليها الماء الخاثر بالطين لتصلح للزراعة ، وأرض تقنة والتقن فعل ذلك بها ، والتقن أيضاً ما رمي به في الغدير من ذلك ، أو الأرض ، ذكره السمين قال ابن عباس : أتقن أي أحسن كل شيء صنعه وخلقه وأوثقه .

﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ تعليل لما قبله من كونه سبحانه صنع ما صنع وأتقن كل شيء ، والخبير المطلع على الظواهر والضمائر ، قرىء بالفوقية على الخطاب ، وبالتحتية على الخبر، قال المحلى :أي ما يفعلون أعداؤه من المعصية وأولياؤه من الطاعة .

﴿من جاء بالحسنة﴾ أي من جاء بجنس الحسنة يوم القيامة ﴿فله﴾ من الجزاء والثواب عند الله ﴿خير﴾ أي أفضل ﴿منها﴾ وأكثر وقيل :خير حاصل من جهتها ، والأول أولى ، وقيل: الحسنة هي الإخلاص ، وقيل : أداء الفرائض ، والتعميم أولى ، ولا وجه للتخصيص ، وإن قال به بعض السلف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من جاء بالحسنة فله خير منها قال: هي لا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، قال هي الشرك » واذا صح هذا عن رسول الله ﷺ فالمصير اليه في التفسير متعين ، ويحمل على أن المراد قال لا إله إلا الله بحقها ، وما يجب لها ، فيدخل تحت ذلك كل طاعة ، ويشهد له ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال رسول الله ﷺ: « اذا كان يوم القيامة جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله سبحانه فيقول الله للإيمان انطلق أنت وأهلك الى الجنة ، ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك الى النار ، ثم تلا رسول الله ﷺ «من جاء بالحسنة فله خير منها يعني قول لا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار» .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ « من جاء بالحسنة يعني شهادة أن لا إله إلا الله ، فله خير منها ، يعني بالخير الجنة ، ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار ، وقال هذه تنجي وهذه تردي» ، وعن ابن مسعود وابن عباس مثله ، وعنه قال : خير منها أي من جهتها ، وقال أيضاً خير أي ثواب قيل: وهذه الجملة بيان لقوله: إنه بما تعملون خبير ، وقيل بيان لقوله : وكل أتوه داخرين .

﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ قرىء (من فزع) بالتنوين وفتح ميم يومئذ ، وقرىء بفتحها من غير تنوين ، وقرىء بإضافة فزع الى يومئذ،قال أبو عبيدة: وهذا أعجب الي لأنه أعم التأويلين ، لأن معناه الأمن من فزع جميع ذلك اليوم ، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع . وقيل: إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر ، فتكون القراءتان بمعنى واحد وقيل: المراد بالفزع ههنا هو الفزع الأكبر المذكور في قوله: لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وقد تقدم في سورة هود كلام في هذا مستوفى .

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ قال جماعة من الصحابة ، ومن بعدهم حتى قيل إنه مجمع عليه بين أهل التأويل أن المراد بالسيئة هنا الشرك ، ووجه التخصيص قوله ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ فهذا الجزاء لا يكون إلا لمثل سيئة الشرك،والمعنى أنهم كبوا فيها على وجوههم ، وألقوا فيها وطرحوا عليها ، يقال:كببت الرجل اذا ألقيته لوجهه ، فانكب ، راكب ، وذكرت الوجوه لأنها موضع الشرف من الحواس فغيرها أولى .

﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ بتقدير القول ، أي يقال لهم ذلك وقت كبهم ، أو مقولاً لهم ذلك ، وهذا أوضح والقائل لهم خزنة جهنم ، أي ما تجزون إلا جزاء عملكم في الدنيا من الشرك والمعاصي ؟

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد ، أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة تنبيهاً لهم على أنه قد تم أمر الدعوة،بما لا يزيد عليه . ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله ، والاستغراق في مراقبته ، غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا أصلحوا أو أفسدوا ، ليحملهم ذلك على أن يهتموا بأمر أنفسهم ، ويشتغلوا بالتدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة .

والمعنى قل يامحمد: إنما أمرت ان أخصص الله بالعبادة وحده لا شريك له ، والمراد بالبلدة مكة ، قاله ابن عباس ، وإنما خصها من بين سائر البلاد

لكون بيت الله الحرام فيها ، ولكونها أحب البلاد الى رسول الله ﷺ .

﴿الذي﴾ الموصول صفة للرب ، وهكذا قرأ الجمهور،وقرأ ابن عباس وابن مسعود (التي) على أن الموصول صفة للبلدة ، والسياق إنما هو للرب لا للبلدة ، فلذلك كانت قراءة العامة واضحة ، ومعنى ﴿حرمها﴾ جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يعضد شوكها ، ولا يصاد صيدها ، ولا يختلى خلاها ؛ وتخصيص مكة بهذه الإضافة تشريف لها ؛ وتعظيم لشأنها فلا ينافي قوله ﴿وله﴾ أي للرب ﴿كل شيء﴾ من الأشياء خلقاً وملكاً وتصرفاً .

﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي : المنقادين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والمراد بقوله : (أن أكون) اثبت على ما أنا عليه .

﴿وأن أتلو القرآن﴾ أي أداوم تلاوته وأواظب على ذلك لتنكشف لي حقائقه الرائقة ، المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً . قيل : ليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلا تلاوة الدعوة الى الايمان ، والأول أولى . قرأ الجمهور (أن أتلو) بإثبات الواو من التلاوة ، وهي القراءة . أو من التلو وهو الاتباع ، كقوله :واتبع ما أوحي اليك من ربك ، وقرىء (أن أتل) بحذف الواو أمراً له ﷺ كذا وجهه الفراء،قال النحاس : ولا تعرف هذه القراءة وهي مخالفة لجميع المصاحف ، ولقد قام ﷺ بكل ما أمر به أتم قيام على ما أمر به .

﴿فمن اهتدى﴾ أي : على العموم ، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه ، فعمل بما فيه من الإيمان بالله والعمل بشرائعه ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾ لأن نفع ذلك راجع اليه لا الى .

﴿ومن ضل﴾ بالكفر ، وأعرض عن الهداية ﴿فقل﴾ له : ﴿إنما أنا من المنذرين﴾ وقد فعلت الإنذار بإبلاغ ذلك اليكم وليس على غير ذلك . وقيل : الجواب محذوف ، أي : فوبال ضلاله عليه ، وأقيم (إنما أنا من المنذرين)

مقامه لكونه كالعلة له ، والأول أظهر ، قيل : نسختها آية القتال .

﴿وقل الحمد لله﴾ على نعمه التي أنعم بها عليّ من النبوة والعلم وغير ذلك،ووفقني لتحمل أعبائها ؛ وتبليغ أحكامها الى كافة الورى .

وقوله : ﴿سيريكم آياته﴾ هو من جملة ما أمر به النبي ﷺ أن يقوله ، أي سيريكم الله آياته الباهرة التي نطق بها القرآن في أنفسكم وفي غيركم ، قيل : هو يوم بدر وهو ما أراهم من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل : آياته في السموات والأرض ، وقيل : آياته في الآخرة فيستيقنون بها ، وقيل : هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا .

﴿فتعرفونها﴾ أي تعرفون آياته ودلائل قدرته ووحدانيته . وهذه المعرفة لا تنفع الكفار لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان ؛ وذلك عند حضور الموت ، ثم ختم السورة بقوله :

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ قرىء بالفوقية على الخطاب ، وبالتحتية وهو كلام من جهته سبحانه ، غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي ﷺ أن يقوله ، وفيه ترهيب شديد ، وتهديد عظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص

« وتسمى أيضا سورة موسى وأسماء السور توقيفية، وكذا ترتيبها وترتيب الآيات الكريمات ».

وهي ثمان وثمانون آية؛ وهي مكيّة كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء.

قال المحلي: هي مكيّة إلا ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ نزلت بالجحفة وإلا ﴿ الذين آتيناهم الكتاب إلى لا نبتغي الجاهلين ﴾ انتهى. عن ابن عباس نزلت الأولى بالجحفة، فليست مكيّة ولا مدنيّة وقال مقاتل فيها من المدني ﴿ الذين آتيناهم الخ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا
يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم
مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

﴿طسم﴾ الله أعلم بمراده بذلك ، والكلام في فاتحة هذه السورة قد مر في فاتحة الشعراء وغيرها ، فلا نعيده .

وكذلك مر الكلام على قوله : ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ قال الزجاج: مبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وهو من أبان بمعنى أظهر ، ويقال : ابنته فأبان لازم ومتعد ، أي مبين خيره وبركته .

﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ أي : نوحي اليك بواسطة جبريل من أمرهما متلبساً بالحق ، وخص المؤمنين لأن التلاوة انما ينتفع بها المؤمن ، وقيل: نتلو عليك شيئاً من نبئهما . و ﴿من﴾ مزيدة على رأي الأخفش ، والأولى أن تكون للبيان أو للتبعيض ، ولا ملجىء الى الحكم بزيادتها ، والحق : الصدق .

﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ .

قال المفسرون : معنى علا تكبر وتعظم وتجبر بسلطانه ، والمراد بالأرض أرض مصر ، وقيل : معنى ﴿علا﴾ ادعى الربوبية ، وقيل : علا عن عبادة ربه ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي : فرقاً وأصنافاً في خدمته يشايعونه على ما يريد

ويطيعونه ، قال مجاهد : فرق بينهم ، وقال قتادة: يستعبد طائفة منهم ، ويدع طائفة ويقتل طائفة ، ويستحيي طائفة ، أو فرقاً متفرقة ، قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم .

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقاً وأصنافاً ، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل .

(جعل) أي : جعلهم شيعاً ، حال كونه مستضعفاً طائفة منهم ، ويجوز أن تكون صفة لطائفة . والطائفة هم بنو إسرائيل ، فإنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ، وذلك أن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس ، وعملوا المعاصي ، ولم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم ؛ إلى أن أنجاهم الله على يد موسى عليه السلام .

﴿يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم﴾ بدل من الجملة الأولى ، أو مستأنفة للبيان ، أو حال ، أو صفة كالتي قبلها ، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ويستبقيهن لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني اسرائيل .

قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون،فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل ؟ وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل ، وقد قيل : إنه ذبح سبعين ألفاً .

﴿إنه كان من المفسدين﴾ الراسخين في الإفساد في الأرض بالمعاصي والتجبر ، ولذلك اجترأ على مثل تلك الجريمة العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء عليهم السلام،وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الفساد .

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية،واستحضار صورتها ، أي : نريد أن نتفضل عليهم بإنجائهم من بأسه،بعد استضعافهم ، وقال النسفي : وهو دليل لنا على مسألة الأصلح انتهى والمراد بهؤلاء بنو إسرائيل ، والواو للعطف على جملة : إن

فرعون علا . وهذا أولى .

﴿ونجعلهم أئمة﴾ أي : قادة في الخير ، ودعاة اليه ، يقتدى بهم ، وولاة على الناس ، وملوكاً فيهم ، بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين مهانين ، قال علي بن أبي طالب : يعني يوسف وولده ، وقال قتادة : أي ولاة الأمر ، وهم بنو اسرائيل .

﴿ونجعلهم الوارثين﴾ أي الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ، لا الوراثة المعهودة في شرعنا ، قاله قتادة ، أي : نجعلهم الوارثين لملك فرعون ومساكن القبط واملاكهم ، فيكون ملك فرعون فيهم ، ويسكنون مساكن قومه ، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم .

﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ أي نجعلهم مقتدرين عليها ، وعلى أهلها ، مسلطين على ذلك ، يتصرفون فيها كيف شاءوا ، يقال : مكن له اذا جعل له مكاناً يقعد عليه ، ويتمكن فيه ، أو يرقد ، ثم استعير للتسلط وإطلاق الأمر ، و (الأرض) أرض مصر والشام .

﴿ونرى فرعون ، وهامان ، وجنودهما﴾ الفاعل هو الله سبحانه ، وقرىء (يرى﴾ بالتحتية والفاعل فرعون ، والأولى ألصق بالسياق ، لأن قبلها ﴿نريد﴾ و ﴿نمكن﴾ بالنون ، وأجاز الفراء : ويرى فرعون ، أي ويرى الله فرعون ، والرؤية بصرية ، والاضافة اليهما إما للتغليب ، أو أنه كان لهامان جنود مخصوصة به ، وإن كان وزيراً ، أو لأن جند السلطان جند وزيره ، والإبصار لا يتوقف على الحياة عند أهل الحق ، ولذلك قال ﷺ في أهل القليب : ما أنتم بأسمع منهم أو المراد رؤية طلائعه وأسبابه ، وذلك حين أدركهم الغرق .

﴿منهم﴾ أي : من أولئك المستعضفين ﴿ما كانوا يحذرون﴾ والمعنى أن الله يريهم ، أو يرون هم الذي كانوا يخافون منه ، ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم ، وهلاكهم على يد المولود من بني اسرائيل المستضعفين والحذر التوقي من الضرر .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

﴿وأوحينا الى أم موسى﴾ أي : ألهمناها الذي صنعت بموسى ، قاله ابن عباس :وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى الى الرسل ، وقيل : كان ذلك رؤيا في منامها،وقيل : كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام ، وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية وإنما كان إرسال الملك اليها عند من قال به نحو تكلم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما . وقد سلمت على عمران ابن حصين الملائكة ، كما في الحديث الثابت في الصحيح ، فلم يكن بذلك نبياً ، وكان اسمها يوحانذ ، وقيل : لوخا بنت هاند بن لاوي بن **يعقوب،** نقله القرطبي عن الثعلبي .

﴿أن أرضعيه﴾ أن هي المفسرة ، لأن في الوحي معنى القول ، أو بأن أرضعيه قيل : أرضعته ثمانية أشهر ، وقيل : أربعة ، وقيل : ثلاثة ، وكانت ترضعه وهو لا يبكي ولا يتحرك في حجرها ، وكان الوحي برضاعه قبل ولادتها ، وقيل : بعدها ، وأمرها بإرضاعه مع أنها ترضعه طبعاً ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها ، بعد وقوعه في يد فرعون .

﴿فإذا خفت عليه﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره اليه فيذبحه ، قال ابن عباس : أن يسمع جيرانك صوته ﴿فألقيه في اليم﴾ وهو بحر النيل ، وقد تقدم بيان الكيفية التي ألقته في اليم عليها في سورة طه ﴿ولا تخافي﴾ عليه الغرق والضيعة .

﴿ولا تحزني﴾ لفراقه والخوف غم يصيب الانسان لأمر يتوقعه في المستقبل ، والحزن غم يصيبه لأمر وقع ومضى ، فلا يقال ما الفرق بينهما ، حتى عطف أحدهما على الآخر في الآية .

﴿إنا رادوه اليك﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ، وتأمنين عليه ، والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن .

﴿وجاعلوه من المرسلين﴾ الذين نرسلهم الى العباد ، وقد اشتملت هذه الآية على أمرين : **أرضعيه** ، **وألقيه** ، ونهيين : **لا تخافي** ، **ولا تحزني** ، وخبرين : **إنا رادوه** ، **وجاعلوه** ، وبشارتين في ضمن الخبرين ، وهما **الرد** ، **والجعل** المذكوران .

﴿فالتقطه آل فرعون﴾ الفاء هي الفصيحة ، والالتقاط إصابة الشيء من غير طلب ، والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر ، والتقدير فألقته في اليم بعدما جعلته في التابوت ، فالتقطه من وجده من آل فرعون ، أي أعوانه ، قال الزجاج : كان فرعون من أهل فارس من اصطخر .

﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ اللام لام العاقبة ، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولداً وقرة عين ؛ لا ليكون عدواً ، فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدواً يقتل رجالهم، وحزناً يستعبد نساءهم، قاله المحلي وقال صاحب الكشاف : هي لام كي التي معناها التعليل ، ولكن هذا المعنى وارد على طريق المجاز ، لأنه لما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم ، وثمرة له،شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله ، قرىء حزناً بفتح الحاء والزاي ، وحزنا بضم الحاء وسكون الزاي ، وهما لغتان كالعدم والعدم ، والرشد والرشد والسقم والسقم .

﴿إن فرعون وهامان وجنودهما﴾ تعليل لما قبله ، أو اعتراض لقصد التأكيد ﴿كانوا خاطئين﴾ أي : عاصين آثمين في كل أفعالهم ، وأقوالهم

فعوقبوا على يديه مع أنه تربى على أيديهم ، فهذا أبلغ في إذلالهم ، وهو مأخوذ من[1] الخطأ المقابل للصواب لأنهم لم يشعروا أنه الذي يذهب بملكهم ، أو من خطا يخطو أي تجاوز الصواب .

﴿وقالت امرأة فرعون﴾ وقد هم مع أعوانه لقتله . وهي آسية بنت مزاحم ، وكانت من خيار النساء ، وبنات الأنبياء ، وقيل : كانت من بني اسرائيل ، وقيل : كانت عمة موسى ، حكاه السهيلي .

﴿قرة عين لي ولك﴾ وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له ، لما وصل اليها وأخرجته من التابوت ، وخاطبت بقولها : ﴿لا تقتلوه﴾ فرعون ومن عنده من قومه ، أو فرعون وجده على طريقة التعظيم له . وقرأ ابن مسعود ﴿قالت امرأة فرعون : لا تقتلوه ، قرة عين لي ولك﴾ قيل : إنها قالت : هذا الولد أكبر من سنه ، وأنت تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي .

وقد حكى الفراء عن السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : أن قوله لا تقتلوه من كلام فرعون ، واعترضه بكلام يرجع الى اللفظ ، ويكفي في رده ضعف إسناده ، وقيل: إنها قالت لا تقتلوه، فإن الله أتى به من أرض بعيدة وليس من بني اسرائيل ، ثم عللت ما قالته بالترجي منها لحصول النفع منه لهم والتبني له ، فقالت :

﴿عسى أن ينفعنا﴾ فنُصيب منه خيراً لأن فيه مخايل اليمن ، ودلائل النفع لأهله ﴿أو نتخذه ولداً﴾ وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون ، فوهبه لها ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنهم على خطأ في التقاطه ، وأن هلاكهم على يده فيكون حالاً من آل فرعون ، وهي من كلام الله سبحانه ، وقيل: هي من كلام المرأة أي وبنو اسرائيل لا يدرون أنا التقطناه وهم لا يشعرون قاله الكلبي ، وهو بعيد جداً وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان .

(١) لو كان من الخطأ المقابل للصواب لقال « مخطئين » أما الخاطىء فهو من باب خطىء يخطأ خطيئة وليس من باب أخطأ يخطىء خطأ وفي الأول يقول الله تعالى لا يأكله إلا الخاطئون . وفي الثاني يقول الرسول ﷺ رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . المطيعي .

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وأصبح﴾ أي صار ﴿فؤاد أم موسى فارغاً﴾ من كل شيء إلا من أمر موسى ؛ كأنها لم تهتم بشيء سواه ، قاله المفسرون . وقال أبو عبيدة : خالياً من ذكر كل من في الدنيا إلا من ذكر موسى ، وقال الحسن ، وابن اسحق وابن زيد : فارغاً مما أوحى الله اليها من قوله: ولا تخافي ولا تحزني ، وذلك لما سول الشيطان لها من غرقه وهلاكه ، وقال الأخفش : فارغاً من الخوف والغم لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدم من الوحي اليها ، وروي مثله عن أبي عبيدة ايضاً ، وقال الكسائي : ناسياً ذاهلاً ، وقيل صفراً من العقل ، وقال العلاء ابن زياد: نافراً.

وقال سعيد ابن جبير : والهاً ، كادت تقول وإبنـاه من شدة الجزع .

وقال مقاتل : كادت تصيح شفقة عليه من الغرق .

وقيل : المعنى أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش .

قال النحاس : وأصح هذه الأقوال الأول والذين قالوه أعلم بكتاب الله فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى ، فهو فارغ من الوحي . وقول من قال فارغاً من الغم غلط قبيح . لأن بعده إن كادت لتبدي به ، لولا أن ربطنا على قلبها ، وقرىء فزعاً مكان فارغاً ، من الفزع ، أي خائفاً وجلاً وقرأ ابن عباس : قرعاً من قرع رأسه إذا انحسر شعره .

﴿إن كادت لتبدي به﴾ من بدا يبدو إذا ظهر ، وأبدى يبدي أي أظهر والمعنى لتظهر أمر موسى ، وانه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش ، والخوف والحزن وقيل: الضمير في (به) عائد الى الوحي الذي أُوحي إليها ، والأول أولى وقال الفراء : لتبدي باسمه لضيق صدرها ، وقال ابن عباس : تقول يا ابناه وقيل الباء زائدة للتأكيد،والمعنى لتبديه ، كما تقول أخذت الحبل وبالحبل ، وقيل المعنى لتبدي القول به .

﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ بالعصمة والصبر والتثبت ، قال الزجاج : معنى الربط على القلب إلهام الصبر وتقويته ، وجواب لولا محذوف أي لأبدت .

﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله وهو قوله إنا رادوه اليك قال يوسف بن الحسين: أمرت أم موسى بشيئين ، ونهيت عن شيئين وبشرت بشيئين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها .

﴿وقالت﴾ أم موسى ﴿لأخته﴾ وهي مريم ، وقال الضحاك إن اسمها كاتمة وقال السهيلي كلثوم ، ذكره الماوردي ﴿قصيه﴾ أي تتبعي أثره واعرفي خبره وانظري أين وقع ؟ والى من صار ؟ يقال قصصت الشيء إذا اتبعت أثره متعرفاً لحاله .

﴿فبصرت به﴾ أي أبصرته . قال المبرد : أبصرته وبصرت به بمعنى،قرىء (بصرت﴾ بفتح الباء وضم الصاد وقرىء بفتحها وبكسرها ﴿عن جنب﴾ أصله عن مكان جنب ومنه الأجنبي وقيل:المراد بقوله عن جنب عن جانب قاله ابن عباس،والمعنى أنها أبصرت اليه متجانفة مخاتلة ، وقرىء عن جانب أي بصرت به مستخفية ، كائنة عن جنب ، أو بعيداً منها وقرىء بضمتين وبضم الجيم وسكون النون،وقال أبو عمرو بن العلاء : إن معنى عن جنب عن شوق

قال : وهي لغة جذام ، يقولون : جنبت اليك أي اشتقت اليك .

﴿وهم لا يشعرون﴾ أنها أخته ؛ وأنها تقصه ، وتتبع أثره ، أخرج الطبراني ، وابن عساكر عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: أما شعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران ؛ وكلثوم أخت موسى ، وامرأة فرعون ؟ قالت: هنيئاً لك يارسول الله ، واخرجه ابن عساكر عن ابن رداد مرفوعاً بأطول من هذا وفي آخره أنها قالت : بالرفاء والبنين .

﴿وحرمنا عليه المراضع﴾ جمع مرضع ، وقيل : جمع مرضع ، بفتح الضاد: هو الرضاع ، أو موضعه وهو الثدي ، أي : منعناه أن يرضع من المرضعات جعله مجازاً إما استعارة أو مرسلاً ، لأن من حرم عليه شيء فقد منعه لأن الصبي ليس من أهل التكليف .

﴿من قبل﴾ أي : من قبل أن نرده الى أمه أو من قبل أن تأتيه أمه ، أو من قبل قصها لأثره،قال ابن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها ، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه فلم يرضع من واحدة منهن .

﴿فقالت﴾ أخته لما رأت امتناعه من الرضاع وحنوهم عليه ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟﴾ أي يضمنون لكم القيام به وإرضاعه ، وهي امرأة قتل ولدها ، وأحب شيء اليها أن تجد ولداً ترضعه .

﴿وهم له ناصحون﴾ أي مشفقون عليه لايقصرون في إرضاعه وتربيته ، والنصح : إخلاص العمل من شائبة الفساد ، وفي الكلام حذف أي : قالوا لها : من هم ؟ فقالت : أمي فقيل : وهل لأمك ابن ؟ قالت : نعم ابن اخي هارون ، وكان ولد في السنة التي لا يقتل فيها فدلتهم على أم موسى فدفعوه اليها فقبل ثديها ورضع منه ، قيل: كانوا يعطونها كل يوم ديناراً ، وإنما حل لها ما تأخذه لأنه مال حربي لا أنه أجرة على ارضاع ولدها .

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ
يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ
عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ بولدها ﴿ولا تحزن﴾ حينئذ على فراقه ﴿ولتعلم أن وعد الله﴾ أي : جميع وعده ومن جملة ما وعدها بقوله إنا رادوه اليك ﴿حق﴾ لا خلف فيه واقع لا محالة .

﴿ولكن أكثرهم﴾ أي : أكثر آل فرعون ﴿لا يعلمون﴾ بذلك بل كانوا في غفلة عن القدر ، وسر القضاء ، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون أن الله وعدها بأن يرده اليها وهذه أخته وهذه أمه .

﴿ولما بلغ أشده﴾ أي : نهاية القوة ، وتمام العقل ، وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند سيبويه ، وقد قال ربيعة ومالك: هو الحلم لقوله تعالى: حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً الآية وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثوري وغيرهما . وقيل الأشد ما بين الثمانية عشر الى الثلاثين وقال ابن عباس: ثلاثاً وثلاثين سنة ، وقد تقدم الكلام في بلوغ الأشد في الأنعام .

﴿واستوى﴾ أي اعتدل وتم استحكامه ، والاستواء من الثلاثين الى الأربعين ، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان ، قاله ابن عباس وقيل: الاستواء هو بلوغ الأربعين ، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين

سنة ، وقيل : الاستواء إشارة الى كمال الخلقة ، وقيل الأشد والاستواء بمعنى واحد ، وهو ضعيف ، لأن العطف يشعر بالمغايرة .

﴿أتيناه حكماً وعلماً﴾ الحكم الحكمة على العموم ، وقيل : النبوة وقيل: الفقه في الدين ؛ والعلم الفهم قاله السدي .وقال مجاهد :الفقه ، وقال ابن اسحق:العلم بدينه ودين آبائه.وقيل : كان هذا قبل النبوة ، وقد تقدم بيان معنى ذلك في البقرة .

﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الجزاء الذي جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله ؛ وألقت ولدها في البحر ، وصدقت بوعد الله ﴿نجزي المحسنين﴾ على إحسانهم ، والمراد العموم .

﴿ودخل المدينة﴾ أي دخل موسى مدينة مصر الكبرى ،وقيل :مدينة غيرها من مدائن مصر ، وهي منف من أعمال مصر،وقيل :أم خنان أو حابين على رأس فرسخين من مصر ، وقيل مدينة عين شمس .

﴿على حين غفلة من أهلها﴾ أي مستخفياً ،قيل :لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه ، فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلا مستخفياً ، قيل: كان دخوله بين العشاء والعتمة ، قاله ابن عباس ، وقيل : وقت القائلة أي نصف النهار ، قاله ابن عباس أيضاً . وقيل: يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم قال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله :

﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي يختصمان ويتنازعان ﴿هذا من شيعته﴾ أي ممن شايعه على دينه ، وهم بنو اسرائيل ، أي اسرائيلي ، وقيل هو السامري .

﴿وهذا من عدوه﴾ أي من المعادين له على دينه ، وهم قوم فرعون أي قبطي وهو طباخ فرعون ، واسمه فاتون او فليثون ، وكان كافراً اتفاقاً . وأما

الاسرائيلي فقيل : كان مؤمناً ، وقيل : كان كافراً .

﴿فاستغاثه الذي من شيعته﴾ أي طلب منه الإسرائيلي أن ينصره ويعينه على خصمه ، والاستغاثة طلب الغوث ﴿على الذي من عدوه﴾ أي القبطي فأغاثه لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل ، قيل : أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه ، واستغاث موسى .

﴿فوكزه موسى﴾ الوكز الضرب والدفع بجميع الكف ، وهكذا اللكز واللهز ، وقيل اللكز على اللحى والوكز على القلب . وقيل اللكز بأطراف الأصابع ، والوكز بجميع الكف . وقيل بالعكس والنكز كاللكز ، وقيل ضربه بعصاه ، وقرأ ابن مسعود فلكزه ، وحكى الثعلبي أن في مصحف عثمان فنكزه بالنون ، قال الأصمعي : نكزه بالنون ضربه ودفعه . قال الجوهري : اللكز الضرب على الصدر ، وقال أبو زيد : في جميع الجسد يعني أنه يقال له لكز واللهز : الضرب بجميع اليدين في الصدر ومثله عن أبي عبيدة .

﴿فقضى عليه﴾ الضمير المرفوع لله ، أو للوكز أو لموسى ، وهو الظاهر أي قتله وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد قضيت عليه ، قيل لم يقصد موسى قتل القبطي ، وإنما قصد دفعه ، فأتى ذلك على نفسه خطأ ، فندم ودفنه في الرمل ، والوكزة لا تقتل غالباً ، وإنما وافقت ، أجله ، ولهذا :

﴿قال : هذا من عمل الشيطان﴾ وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل لأنه لم يكن إذ ذاك مأموراً بقتل الكفار ، وقيل : إن تلك الحالة حالة كف عن القتال لكونه مأموناً عندهم . فلم يكن له أن يغتالهم فكبر ذلك على موسى ، وقيل إن الاشارة بقوله هذا الى عمل المقتول لكونه كافراً مخالفاً لما يريده الله ، وقيل : إنه اشارة الى المقتول نفسه ، يعني أنه من جند الشيطان وحزبه ، ثم وصف الشيطان بقوله :

﴿إنه عدو مضل مبين﴾ أي : عدو للإنسان يسعى في اضلاله ظاهر العداوة والإضلال ، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه .

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

﴿قال رب إني ظلمت نفسي﴾ بقتل القبطي من غير أمر ﴿فاغفر لي فغفر﴾ الله ﴿له﴾ ذلك ؛ وعلم أنه غفر له بإلهام او بغيره ، ولا يلزم من هذا نبوته في هذا الوقت ﴿إنه هو الغفور﴾ بإقالة الزلل ﴿الرحيم﴾ بإزالة الخلل المتصف بهما في الأبد والأزل .

ووجه استغفاره أنه لم يكن لنبي أن يقتل حتى يؤمر ، وقيل : إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين ، أو أراد أني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر ، لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به ؛ وقيل : معنى فاغفر لي استر ذلك علي لا يطلع عليه فرعون ، وهذا خلاف الظاهر ، فإن موسى عليه السلام ما زال نادماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول : إني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح .

وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوة ، وقيل كان قبل بلوغه سن التكليف ، وأنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة،وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء ولا شك أنهم معصومون عن الكبائر

والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة ، لأن الوكزة في الغالب لا تقتل . وقيل : بل كان من قبيل دفع الصائل . وهو لا إثم فيه وأشار له القرطبي بقوله : وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها وفرض في جميع الشرائع وقيل: هو على سبيل الاتضاع لله تعالى ، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه . وإن لم يكن هناك ذنب فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم لما أجاب الله سؤاله وغفر له ما طلب منه مغفرته .

﴿قال : رب بما أنعمت عليَّ﴾ الباء للقسم وما موصولة أو مصدرية أي : أقسم بإنعامك عليَّ بالمغفرة لأتوبن قاله الزمخشري والمهدوي والماوردي .وقيل : المراد بما أنعم به عليه هو ما آتاه من الحكم والمعرفة والعلم والتوحيد،قاله القرطبي . وقال الثعلبي : أي بالمغفرة فلم تعاقبني .

وجملة ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ كالتفسير للجواب ، وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرماً ، ويجوز أن تكون الباء هي باء السببية ؛ متعلقة بمحذوف أي : اعصمني بسبب ما أنعمت به عليَّ . ويكون قوله : فلن أكون ظهيراً مترتباً عليه ، ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى، وتوصل الى إنعامه بإنعامه وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون والانتظام في جملته في ظاهر الأمر او مظاهرته على ما فيه إثم أو تكثير سواده .

قال الكسائي والفراء : ليس قوله هذا خبراً ، بل هو دعاء ؛ أي : فلا تجعلني يارب ظهيراً لهم ، وبها قرأ عبدالله .وقال الفراء :المعنى اللهم فلن أكون الخ ، وقال النحاس: إن جعله من باب الخبر أوفى ، وأشبه بنسق الكلام وفيه دليل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً ، وقيل : أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أؤمر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين ، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمناً ، ونصرة المؤمنين واجبة في جميع الأديان وقيل: لم يستثن فابتلي في اليوم الثاني ، أي لم يقل فلم أكن ان شاء الله ظهيراً

للمجرمين ، كما قال الله تعالى .

﴿فأصبح في المدينة﴾ أي دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي ﴿خائفاً يترقب﴾ المكروه أو متى يؤخذ به ، أو يترقب الفرج ، أو الخبر هل وصل الى فرعون أم لا قال النسفي : وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله ، بخلاف ما يقوله بعض الناس أنه لا يسوغ الخوف من دون الله سبحانه ، زاد القرطبي وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه .

﴿فإذا الذي استنصره﴾ إذا هي الفجائية أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاثه ﴿بالأمس﴾ يقاتل قبطياً آخر أراد أن يسخره ويظلمه ، كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالأمس ﴿يستصرخه﴾ أي يستغيث به ، والاستصراخ الاستغاثة ، وهو من الصراخ ، وذلك أن المستغيث يصوت ويصرخ في طلب الغوث .

﴿قال له﴾ أي للاسرائيلي ﴿موسى﴾ واليه ذهب الخازن والمحلي ، أو للقبطي ؛ واليه ذهب القرطبي ﴿إنك لغوي مبين﴾ أي بين الغواية ، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته ولا تطيقه ، وقيل إنما قال له هذه المقالة لأنه تسبب بالأمس لمقتل رجل ، ويريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر .

﴿فلما أن أراد﴾ موسى ﴿أن يبطش بالذي﴾ أي القبطي الذي ﴿هو عدو لهما﴾ أي لموسى وللإسرائيلي حيث لم يكن على دينهما .

﴿قال﴾ الإسرائيلي ﴿ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟﴾ قال ذلك، لما سمع موسى يقول له إنك لغوي مبين ، ورآه يريد أن يبطش بالقبطي، ظن أنه يريد أن يبطش به ، فلما سمع القبطي ذلك أفشاه ، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلي هكذا قال جمهور المفسرين وقيل : إن القائل هو القبطي ، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي ، وهذا هو الظاهر ؛ وقد سبق ذكر

القبطي قبل هذا بلا فصل ، لأنه هو المراد بقوله عدو لهما ، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم منه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرة الأولى ، والمرة الأخرى هو الذي أفشى عليه .

وايضاً أن قوله ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾ لا يليق صدور مثله إلا من كافر ، و (إن) هي النافية أي ما تريد ، قال الزجاج: الجبار في اللغة الذي يتعاظم ، ولا يتواضع لأمر الله ، والقاتل بغير حق جبار . وقيل : الجبار الذي يفعل ما يريد ، من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن .وقال عكرمة : لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين . وهو بعيد ، ولا دلالة في الآية على ذلك ، والراجح هو الأول الموافق باللغة .

﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ بين الناس ، فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن .

﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾ قيل : المراد بهذا الرجل حزقيل وهو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم موسى ، وقيل: اسمه شمعون . وقيل طالوت وقيل : سمعان ، والمراد بأقصى المدينة آخرها وأبعدها ، والمعنى يسرع في مشيه وأخذ طريقاً قريباً حتى سبق الى موسى وأخبره وأنذره بما سمع .

﴿قال ياموسى إن الملأ﴾ أي أشراف قوم فرعون ﴿يأتمرون بك ليقتلوك﴾ أي يتشاورون في قتلك ويتآمرون بسببك ، وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كُلًّا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر به ، قال الزجاج : يأمر بعضهم بعضاً بقتلك وهذا أقرب باللفظ والمعنى قاله الحفناوي وقال ابو عبيدة: يتشاورون فيك ، قال الأزهري: ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً ونظيره قوله تعالى : وائتمروا بينكم بمعروف .

﴿فاخرج﴾ من المدينة ﴿إني لك من الناصحين﴾ في الأمر بالخروج واللام للبيان لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ
قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا
لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ
قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

﴿فخرج﴾ موسى ﴿منها﴾ أي من المدينة ﴿خائفاً يترقب﴾ أي حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به ، وإداركهم له أو راجياً غوث الله إياه ، قولان للمفسرين ، وعن ابن عباس قال: خرج موسى من مصر الى مدين وبينه وبينها ثمان ليال ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، وخرج حافياً فما وصل اليها حتى وقع خف قدمه . وعنه قال: خرج موسى خائفاً جائعاً ليس معه زاد ، حتى انتهى الى ماء مدين وهو أول ابتلاء من الله تعالى لموسى ، ثم دعا ربه بأن ينجيه ممن خافه .

و ﴿قال: رب نجني من القوم الظالمين﴾ قوم فرعون ، أي خلصني منهم وادفعهم عني،وحل بيني وبينهم ، واحفظني من لحوقهم .

﴿ولما توجه﴾ أي قصد بوجهه ﴿تلقاء مدين﴾ أي نحوها ، وجهتها قاصداً لها ماضياً اليها . قال الزجاج:أي سلك في الطريق التي تلقاء مدين فيها انتهى والتوجه : الإقبال على الشيء ومدين قرية شعيب ، يقال : داره تلقاء دار فلان ، وأصله من اللقاء ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ،

ولهذا خرج اليها ولكن لم يكن يعرف طريقها .

﴿قال : عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي : يرشدني نحو الطريق المستوية الى مدين وهو من إضافة الصفة للموصوف وكان لها ثلاث طرق،فأخذ موسى الوسطى ، وجاء الطلاب في أثره فساروا في الأخريين ، ذكره أبو السعود .

﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أي : وصل اليه وهو الماء الذي يستقون منه ، والمراد بالماء هنا بئر فيها ، صرح به الخازن والمحلي ، فهو من باب ذكر الحال وإرادة المحل ، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد ، وقد يطلق على البلوغ اليه وإن لم يدخل فيه وهو المراد هنا،وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله : وإن منكم إلا واردها ، وقيل : مدين اسم للقبيلة لا للقرية ، وهي غير منصرفة على كلا التقديرين .

﴿وجد عليه أمة﴾ أي : وجد على الماء جماعة كثيرة لأن التنكير للتكثير ﴿من الناس﴾ أي من أناس مختلفين ﴿يسقون﴾ مواشيهم ﴿ووجد من دونهم﴾ أي:من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها وقيل:معناه في موضع أسفل منهم قاله أبو السعود ، وفي الخازن : في موضع بعيد منهم .

﴿امرأتين تذودان﴾ أي تحبسان أغنامهما من الماء،حتى يفرغ الناس،ويخلو بينهما وبين الماء ، وبه قال ابن عباس ، وورد الذود بمعنى الطرد ، أي تطردان ، وقيل : تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس ، وقيل : تمنعان أغنامهما عن أن تند ، وتذهب ، والأول أولى لقوله :

﴿قال﴾ موسى للمرأتين ﴿ما خطبكما ؟﴾ أي : ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس ؟ والخطب الشأن ، قيل : وإنما يقال ما خطبك لمصاب أو لمضطهد أو لمن يأتي بمنكر .

﴿قالتا﴾ عادتنا التأني ﴿لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ عن الماء ،

وينصرفوا منه حذراً من مخالطتهم ، أو عجزاً عن السقي معهم ، قرىء نسقي بفتح النون ، وبضمها من أسقى ، وقرىء يصدر من أصدر . ومن صدر يصدر لازماً : أي : يرجعون مواشيهم،والرعاء جمع راع على غير قياس ؛ لأن فاعلا الوصف المعتل اللام كقاض قياسه فعله نحو قضاة ورماة خلافاً للزمخشري في أن جمعه على فعال قياس ، كصيام وقيام قاله الكرخي . قرأ الجمهور : الرعاء بكسر الراء وقرىء بفتحها قال أبو الفضل : هو مصدر أقيم مقام الصفة فلذلك استوى فيه الواحد والجمع ، وقرىء الرعاء بالضم اسم جمع .

﴿وأبونا شيخ كبير﴾ عالي السن ، وهذا من تمام كلامهما إبداء منهما للعذر في مباشرة السقي أنفسهما أي : لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر ؛ فلذلك احتجنا ونحن امرأتان ضعيفتان مستورتان ؛ لا نقدر على مزاحمة الرجال وعلى أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك،قيل : أبوهما شعيب وقيل : هو ثيرون ابن أخي شعيب ، وقيل : هو رجل ممن آمن بشعيب ؛ والأول أولى .

وإنما رضي شعيب لابنتيه بسقي الماشية ، لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور ، والدين لا يأباه . وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر ، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة الضرورة ، فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما .

﴿فسقى لهما﴾ أي : سقى أغنامهما لأجلهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف ، قال المحلي : سقى من بئر أخرى ، لقربها ، رفع حجراً عنها لا يرفعه إلا عشرة أنفس انتهى ﴿ثم﴾ لما فرغ من السقي لهما ﴿تولى إلى الظل﴾ أي : انصرف اليه فجلس فيه من شدة الحر وهو جائع . قيل : كان هذا الظل ظل سمرة هنالك ، وهي شجرة من شجر الطلح وفيه دليل على جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة .

﴿فقال﴾ أي ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب منادياً لربه ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير﴾ أي خير كان ﴿فقير﴾ أي محتاج الى ذلك واللام بمعنى الى ، قال الأخفش : يقال هو فقير له واليه ، قال ابن عباس لقد قال موسى رب الخ وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر الى شق تمرة ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .وعنه قال : ما سأل إلا الطعام؛وعنه قال : سأل فلقاً من الخبز يشد بها صلبه من الجوع ، ويحتمل أن يريد أني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين ، لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، قال ذلك رضاء بالبدل السني ، وفرحاً بالعوض الهني ، وشكراً لله الغني . وقال ابن عطاء : نظر من العبودية الى الربوبية ، وتكلم بلسان الافتقار ، لما ورد على سره من الأنوار .

﴿فجاءته إحداهما﴾ في الكلام حذف يدل عليه السياق ،قال الزجاج : تقديره فذهبتا الى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي ، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه وهي صفورا ، وقيل :صفراء وقيل: أمر الصغرى،وهي ليا وقيل : صفيراء أن تدعوه له فجاءته ، وذهب أكثر المفسرين اليه أنهما ابنتا شعيب ،وقيل : هما ابنتا أخي شعيب كان قد مات،والأول أرجح وهو ظاهر القرآن.

﴿تمشي﴾ كائنة ﴿على استحياء﴾ حالتي المشي والمجيء لا عند المجيء فقط وهذا دليل كمال إيمانها ، وشرف عنصرها ، لأنها كانت تدعوه الى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا ؟ فأتته مستحيية . قال عمر بن الخطاب :جاءت مستترة بكم درعها على وجهها من الحياء ، والحياء والاستحياء بالمد الحشمة والانقباض والانزواء ، ويتعدى بنفسه وبالحرف ، يقال: استحييته واستحييت منه .

﴿قالت إن أبي يدعوك﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر،كأنه قيل : ماذا قالت

له لما جاءته فقيل قالت الخ ﴿ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي جزاء سقيك لنا ، فأجابها منكراً في نفسه أخذ الأجرة ، وقيل أجاب لوجه الله ، أو للتبرك برؤية الشيخ ، لما سمع منهما أن أباهما شيخ كبير .

﴿فلما جاءه﴾ أي جاء موسى شعيباً ،عن أبي حازم قال :لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء فقال له شعيب كل قال موسى أعوذ بالله ؛ قال ولم ألست بجائع ؟ قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً عما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، قال: لا والله ولكنها عادتي . وعادة آبائي . نقري الضيف ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل .

﴿وقص عليه القصص﴾ مصدر يسمى به المفعول أي المقصوص ، يعني أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطي الى عند وصوله الى ماء مدين ، وعن مالك ابن أنس :أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه القصص .

﴿قال﴾ شعيب: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي فرعون وأصحابه لأن فرعون لا سلطان له على مدين ، وفيه دليل على جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى ، وعلى المشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع وللرازي في هذا الموضع إشكالات باردة جداً لا تستحق أن تذكر في تفسير كلام الله عز وجل ، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلاً عن الكامل ؛ وأسف ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقي،ويجاب عنه بأنه اتبع سنة الله في إجابة دعوة نبي من أنبياء الله ، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل ، ولهذا ورد أنه لما قدم اليه الطعام قال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً كما مر ، وفي الكشاف: أن طلب الأجرة لشدة الفاقة غير منكر ، ويشهد لصحته لو شئت لاتخذت عليه أجراً .

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

﴿قالت إحداهما﴾ وهي التي جاءته ﴿يا أبت استأجره﴾ ليرعى لنا الغنم وفيه دليل على أن الإجازة كانت عندهم مشروعة ، وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الاسلام إلا الأصم ، فإنه عن سماع أداتها أصم .

﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها الى استئجار موسى ، أي أنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعاً بين خصلتي القوة والأمانة ولم يقل تستأجر مع أنه الظاهر لأنه جعله لتحققه وتجربته منزلاً منزلة ما مضى وعرف قبل .

وقد روى عن ابن عباس ، وعمر: أن أباها سألها عن وصفها له بالقوة والأمانة فأجابته: أما قوته فرفعه الحجر لا يطيقه إلا عشرة رجال ، وأما أمانته فقال امش خلفي وانعتي لي الطريق ، فإني اكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك ، فزاده ذلك رغبة فيه، وعن ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف في قوله عسى أن ينفعنا ، وأبو بكر في أمر عمر .

﴿قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ الكبرى أو الصغرى وفيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة في الإسلام كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، والقصة معروفة وغير

ذلك مما وقع في أيام الصحابة وأيام النبوة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ .

قيل : زوجه الكبرى ، وقال الأكثرون: إنه زوجه الصغرى منهما واسمها صفورا ، وهي التي ذهبت في طلب موسى و (هاتين) يدل على أنه كان له غيرهما وقد قال البقاعي : إن له سبع بنات كما في التوراة ، وهذه مواعدة منه ، ولم يكن ذلك عقد نكاح إذ لو كان عقداً لقال: قد أنكحتك .

﴿على أن تأجرني ثماني حجج﴾ جمع حجة وهي السنة قال الفراء: يقال : على أن تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثماني سنين . قال المبرد : يقال أجرت داري ومملوكي غير ممدود ، وممدوداً والأول أكثر ، والتزوج على رعي الغنم جائز بالاجماع لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة .

﴿فإن أتممت﴾ ما استأجرتك عليه من الرعي ﴿ عشراً﴾ من السنين ﴿فمن عندك﴾ أي تفضلاً منك وتبرعاً ، لا إلزاماً مني لك وليس بواجب عليك ، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام الى تمام عشرة أعوام، موكولاً الى المروءة أي فهي من عندك ، والظاهر أنه استدعاء عقد بالأجل الأول نظراً الى شرعنا ، ويمكن كونه عقداً صحيحاً عندهم قاله الكرخي .

﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ بإلزامك إتمام العشرة الأعوام ، ولا بالمناقشة في مراعاة الأوقات ، واستيفاء الأعمال ، واشتقاق المشقة من الشق أي شق ظنه نصفين ، فتارة يقول : أطيق وتارة يقول : لا أطيق ، ثم رغبة في قبول الإجازة فقال ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ في حسن الصحبة ولطف المعاملة ولين الجانب ، والوفاء بالعهد ، وقيل أراد الصلاح على العموم فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجازة تحت الآية دخولاً أولياً ، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضاً للأمر إلى توفيق الله ومعونته ، وللتبرك به لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى .

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى و ﴿قال ذلك بيني وبينك﴾ والإشارة الى ما تعاقدا عليه ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ شرطية وجوابها :

﴿فلا عدوان عليّ﴾ والمراد بالأجلين الثمانية الأعوام ، والعشرة الأعوام ومعنى قضيت : وفيت به ، وأتممته ، وفرغت منه ، و (الأجلين) مخفوض بإضافة (أي) اليه و (ما) زائدة أو مخفوضة بإضافة أي اليها والأجلين بدل منها ، وقرأ ابن مسعود : أي الأجلين ما قضيت ، والمعنى لا ظلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين ، أي كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، لا أطالب بالنقصان عن العشرة : وقيل : المعنى كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، وهذا أظهر . وأصل العدوان تجاوز الحد في غير ما يجب ، قال المبرد : وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه في أتمهما ، ولكنه جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء ، وقرىء عدوان بضم العين وبكسرها .

﴿والله على ما نقول﴾ من هذه الشروط الجارية بيننا ﴿وكيل﴾ أي شاهد وحفيظ فلا سبيل لأحدنا الى الخروج عن شيء من ذلك ، قيل : هو من قول موسى ، وقيل : من قول شعيب ، والأول أولى لوقوعه في جملة كلام موسى وتم العقد بذلك ولعل هذا كان في شرعهما ، وإلا فهذه الصيغة لا تكفي عندنا في عقد النكاح ، لأن الواقع من شعيب وعد بالإنكاح ، والواقع من موسى ليس

فيه مادة التزويج ، ولا الإنكاح ، وأيضاً الصداق ليس راجعاً للمنكوحة بل لأبيها ، هذا ما جرى عليه المحلي.

وقال غيره : إنهما عقدا عقداً بغير الصورة المذكورة هنا منهما ، قال أبو السعود : ليس ما حكى عنهما في الآية تمام ما جرى بينهما من الكلام في إنشاء عقد النكاح ، وعقد الإجارة وإيقاعهما ، بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة إجمالاً من غير تعرض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلاً .

وأخرج الطبراني وغيره عن عتبة السلمي قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ سورة طسم حتى اذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى آجر نفسه ثماني سنين،أو عشراً على عفة فرجه ، وطعام بطنه ، فلما وفى الأجل قيل يارسول الله أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما،فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاهما ما ولدت غنمه الحديث بطوله وفيه مسلمة الدمشقي ضعفه الأئمة .

﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ الذي هو أكملهما وأوفاهما ، وهو العشرة الأعوام ، والفاء فصيحة؛عن ابن عباس أنه سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل » ، وصححه الحاكم ، أقول: في قوله إذا قال رسول الله فعل نظر ، فإن موسى لم يقل إنه سيقضي أكثر الأجلين ، بل قال: أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ ، وقد روي عن رسول الله ﷺ : أن موسى قضى أتم الأجلين من طرق أخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله ﷺ « إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل: خيرهما وأبرهما : وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما ، وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « قال لي جبريل: يا محمد إن سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما وإن سألوك أيهما تزوج؟ فقل الصغرى منهما » فروايات أنه قضى أتم الأجلين لها طرق يقوي بعضها بعضاً.

﴿و﴾ لما تم الأجل ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة ﴿سار بأهله﴾ زوجته بإذن أبيها الى مصر ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه، وقيل: سار لصلة رحمه وزيارة أمه وأخيه، وهذا أولى؛ وفيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء.

﴿آنس من جانب الطور﴾ أي أبصر من الجهة التي تلي الطور ﴿ناراً﴾ وذلك أنه كان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق، وقد تقدم تفسير هذا في سورة طه مستوفى، قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله فضل الطريق، وكان في الشتاء، فرفعت له نار فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله.

﴿قال لأهله: امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر﴾ أي لعلي أجد من يدلني على الطريق فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس وهو المراد بقوله ﴿أو جذوة من النار﴾ وهذا تقدم تفسيره ايضاً في سورة طه، وفي سورة النمل، وقرىء جذوة بكسر الجيم، وبضمها وبفتحها، وهي لغات في العود الذي في رأسه نار، هذا هو المشهور، وقيده بعضهم فقال: نار من غير لهب وقد ورد ما يقتضي وجود اللهب فيه، قال الجوهري الجذوة والجذوة الجمرة. والجمع جَذى وجَذيّ وجُذيّ، قال مجاهد: إن الجذوة قطعة من الجمر في لغة العرب، وقال أبو عبيدة: هي القطعة الغليظة من الخشب كأن في طرفها ناراً ولم تكن، وليس المراد هنا إلا ما في رأسه نار قاله السمين.

﴿لعلكم تصطلون﴾ من البرد أي تستدفئون بالنار.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿فلما أتاها﴾ أي النار التي أبصرها ، وقيل :أتى الشجرة ، والأول أولى لعدم الذكر للشجرة ﴿نودي من﴾ لابتداء الغاية ﴿شاطىء الوادي الأيمن﴾ صفة للشاطىء أو للوادي ، وهو من اليمن وهو البركة أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة الى موسى ، أي الذي يلي يمينه دون يساره ، وشاطىء الوادي طرفه وحافته وكذا الشط والسيف والساحل كلها بمعنى ، قال الراغب وجمع الشاطىء أشطاء قال ابن عباس : كان النداء من السماء الدنيا ، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضى الله تعالى عنه .

﴿في البقعة﴾ متعلق بنودي أو بمحذوف على انه حال من الشاطىء ﴿المباركة﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿من الشجرة﴾ بدل اشتمال من شاطىء الوادي لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء،وقال الجوهري:شاطىء الأودية ولا يجمع،قرأ الجمهور:البقعة بضم الباء،وقرىء بفتحها،وهي لغة حكاها أبو زيد .

عن ابن مسعود، قال:«ذكرت لي الشجرة التي أوى اليهما موسى فسرت اليها يومي وليلتي حتى صبحتها فإذا هي سمرة خضراء ترف ، فصليت على النبي ﷺ وسلمت فأهوى اليها بعيري ، وهو جائع ، فأخذ منها ملآن فيه ، فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه ، فصليت على النبي ﷺ وسلمت ، ثم انصرفت» أخرجه عبد ابن حميد وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وقيل : الشجرة العناب ؛ أو العوسج ؛ وقيل : كانت من العليق .

﴿أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين﴾ أن هي المفسرة أو هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ؛ وجملة النداء مفسرة له ، والأول أولى قرى : إني بكسر الهمزة على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه ، والفتح قراءة ضعيفة . قال جعفر ، أبصر ناراً دلته على الأنوار لأنه رأى النور في هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس ، وأحاطت به جلابيب الأنس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلماً شريفاً أعطي ما سأل ، وأمن مما خاف .

قيل : إن موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة إلا الله فعلم بذلك أن المتكلم هو الله تعالى وقيل:إن الله خلق في نفس موسى علماً ضرورياً بأن المتكلم هو الله وان ذلك الكلام كلام الله ، وذهب جماعة من المتكلمين منهم الغزالي الى أنه سمع كلامه الأزلي النفسي بلا صوت ولا حرف ، ولا دليل عليه . وقيل : غير ذلك مما لا فائدة في ذكره .

وقال في سورة طه : ﴿إني أنا ربك﴾ وقال في النمل ﴿نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ وهما مخالفان لما هنا من حيث اللفظ إلا أن الجميع متوافق في المقصود وهو فتح باب الاستنباء وسوق الكلام على وجه يؤدي اليه قال الإمام:لا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء انتهى .

﴿وأن ألق عصاك﴾ وقد تقدم تفسير هذا وما بعده في طه والنمل ، وفي الكلام حذف ، أي فألقاها فصارت ثعباناً فاهتزت ﴿فلما رآها تهتز﴾ أي : تتحرك ﴿كأنها جان﴾ في سرعة حركتها ، مع عظم جسمها ﴿ولى مدبراً﴾ أي هارباً منهزماً ﴿ولم يعقب﴾ أي : لم يرجع فنودي :

﴿ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ من أن ينالك مكروه من الحية ؛ وقد تقدم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده وكذلك قوله :

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ
ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى
هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿اسلك يدك في جيبك﴾ والسلك بالفتح ، والسلوك كل منهما مصدر لسلك الشيء في الشيء أنفذه فيه ، فإنه من باب قعد ونصر ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ فأدخلها فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس من غير برص .

﴿واضمم إليك جناحك﴾ جناح الانسان عضده ؛ ويقال لليد كلها جناح أي : اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقي بهما الحية ، كالخائف الفزع ، وقد عبر هذا المعنى بثلاث عبارات :

الأولى : أسلك يدك في جيبك .

والثانية : واضمم إليك جناحك .

والثالثة : وأدخل يدك في جيبك .

قال الزمخشري : جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً ، وفي الآخر مضموماً اليه ، فالمراد بالجناح المضموم اليد اليمنى ، وبالجناح المضموم

اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ، ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً ، وقيل : كل خائف بعد موسى إذا وضع يده على صدره زال خوفه . قال الفراء : أراد بالجناح عصاه .

﴿من الرهب﴾ أي من أجل الخوف ، قرىء بفتح الراء والهاء وبإسكان الهاء،وبضم الراء،واسكان الهاء ؛ وقال بعض أهل المعاني : الرهب الكم بلغة حمير وبني حنيفة ، وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول لآخر : أعطني ما في رهبك ؛ فسألته عن الرهب ؛ فقال : الكم،فعلى هذا يكون معناها اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم .

﴿فذانك﴾ اشارة الى العصا واليد ، قرىء بتخفيف النون ، قيل : والتشديد لغة قريش ، وقرىء بياء تحتية بعد نون مكسورة ؛ وهي لغة هذيل ، وقيل لغة تميم ﴿برهانان﴾ أي حجتان نيرتان ، ودليلان واضحان ؛ وآيتان بينتان ، وسميت الحجة برهاناً لإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء : برهونة .

﴿من ربك﴾ أي:كائنان منه تعالى ، مرسلان أو واصلان .

﴿إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ متجاوزين الحد في الظلم ، خارجين عن الطاعة أبلغ خروج ، والجملة تعليل لما قبلها ، ولما سمع موسى قول الله سبحانه هذا طلب منه سبحانه أن يقوي قلبه و ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾ يعني القبطي الذي وكزه فقضى عليه ﴿فأخاف أن يقتلون﴾ بها .

﴿وأخي هرون ، هو أفصح مني لساناً﴾ أي : كلاماً لأنه كان في لسان موسى حبسة من وضع الجمر في فيه ، كما تقدم بيانه ، والفصاحة لغة الخلوص يقال : فصح اللبن ،وأفصح فهو فصيح ، أي : خلص من الرغوة ، ومنه فصح الرجل جادت لغته ، وأفصح تكلم بالعربية ، وقيل : الفصيح الذي ينطق والأعجم الذي لا ينطق،وأما في اصطلاح أهل البيان ففصاحة الكلمة خلوصها عن تنافر الحروف والغرابة ، ومخالفة القياس . وفصاحة الكلام خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد .

﴿فأرسله معي ردءاً﴾ النصب على الحال أي : عوناً والردء : المعين من أردأته إذا أعنته ، يقال : فلان ردء فلان إذا كان ينصره ، ويشد ظهره . وقيل : من قولهم أردى على المائة إذا زاد عليها فكـأن المعنى : أرسله معي زيادة في تصديقي .

﴿يصدقني﴾ بالرفع على الاستئناف ، وبالجزم على جواب الأمـر وقرأ أبيّ : يصدقوني ، أي فرعون وملؤه ، وقال ابن عباس : كي يصدقني ، أي هرون ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال ، وتقرير الحجة بتوضيحها ، وتزييف الشبهة ، وتلخيص الدلائل بلسانه .

والجواب عن شبهات الكفار ببيانه ليثبت دعواه لا أن يقول له: صدقت ، ألا ترى الى قوله هو أفصح مني ؟ وفضل الفصاحة إنما يحتاج اليه لتقرير البرهان ؛ لا لقوله صدقت ، فسحبان وباقل فيه يستويان ، وهذا هو الجاري مجرى التصديق كما يصدق القول بالبرهان .

﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ إذا لم يكن معي هرون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة .

﴿قال سنشد عضدك بأخيك﴾ هرون ، وكان إذ ذاك بمصر ، أي نقويك به فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ، ولذلك يعبر عنه باليد ، وعن شدتها بشدة العضد ، فهو مجاز مرسل على طريق إطلاق السبب وارادة المسبب بمرتبتين ، فإن شدة العضـد سبب مستلزم لشدة اليـد وشدة اليـد مستلزمة لقوة الشخص في المرتبة الثانية .

قال الشهاب : الشد التقوية فهو إما كناية تلويحية عن تقويته ، لأن اليد تشد بشد العضد ، والجملة تشتد بشد اليد ، ولا مانع من الحقيقة كما توهم ، أو استعارة تمثيلية ، شبه حال موسى في تقويه بأخيه بحال اليد في تقويـها بالعضد ، ويقال في دعاء الخير شد الله عضدك ، وفي ضده فت الله عضدك ، قرأ الجمهور عضدك بفتح العين وضم الضاد وقرىء بضمهما وسكون الضاد ، وبفتحهما .

﴿ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي حجة وبرهاناً أو تسلطاً وغلبة ، وهيبة في قلوب الأعداء ﴿فلا يصلون إليكما﴾ بالأذى والسوء ، ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة ﴿بآياتنا﴾ أي تمنعان منهم بآياتنا أو اذهبا بآياتنا وقيل: الباء للقسم وجوابه ، فلا يصلون ، وما أضعف هذا القول . وقال الأخفش وابن جرير في الكلام تقديم وتأخير ، أي أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ، وأولى هذه الوجوه أولها ، وفي قوله ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ تبشير لهما ؛ وتقوية لقلوبهما .

﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ واضحات الدلالة،وقد تقدم وجه إطلاق الآيات وهي جمع على العصا واليد في سورة طه ، وهو أن في كل منهما آيات عديدة .

﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾ أي مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ثم افتريته على الله ، أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر ، وليس بمعجزة من عند الله ،أو سحر لم يفعل قبل هذا الوقت مثله .

﴿وما سمعنا بهذا﴾ الذي جئت به من دعوى النبوة او ما سمعنا بهذا السحر ﴿في آبائنا الأولين﴾ أي كائناً أو واقعاً فيهم .

﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ يريد نفسه وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة ، والله أعلم قرىء وقال بالواو وبغيرها ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ بالفوقية وهي أوضح من قراءتها بالتحتية ، على أن اسم يكون عاقبة الدار والتذكير لوقوع الفصل ، ولأنه تأنيث مجازي ، والمراد بالدار هنا الدنيا ، وعاقبتها هي الجنة ،وإنما كانت عاقبة لها لأن الدنيا خلقت مجازاً و طريقاً اليها ، او المراد بالدار الدار الآخرة الصادقة على الجنة والنار والإضافة بمعنى في ، والمعنى ومن تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ﴿انه لا يفلح الظالمون﴾ أي إن الشأن أنهم لا يفوزون بمطلب خير .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ
عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وقال فرعون : يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ تمسك اللعين بمجرد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه ، وقد كان يعلم أن ربه الله عز وجل والظاهر أنه لا يريد بإلهية نفسه كونه خالقاً للسموات والأرض وما بينهما ، فإن العلم بامتناع ذلك مما لا يخفى على أحد ، فالشك في ذلك يقتضي زوال العقل بالكلية ، فالمخذول لعنه الله كأنه يظن أن الأفلاك والكواكب كافية في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي ، فلا حاجة الى اثبات صانع .

قال القاضي : نفي علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه . ولذلك أمر ببناء الصرح ، قلت : هو رد على الزمخشري في قوله : إن المقصود بنفي العلم بالإله نفي وجوده ، ويمكن التوجيه بأن يقال : الوجود وجودان ، وجود ذهني ووجود خارجي والمراد في كلامه الأول .

ولا شك أنه إذا انتفى علم الإنسان بشيء انتفى وجوده في ذهنه ، ولكن ربما كان هذا غير مراد للزمخشري ، لأن الظاهر من كلامه الوجود الشائع عند أهل اللغة ،وهو الخارجي .قال سراج الدين: غرض صاحب الكشاف أن عدم الوجود سبب لعدم العلم بالوجود في الجملة ، ولا شك أنه كذلك فأطلق المسبب وأريد السبب ، لا أن بينهما ملازمة كلية على أنه لما كان من أقوى أسباب عدم العلم لأنه المطرد ، جاز أن يطلق ويراد به الوجود ، إذ لا يشترط عند علماء هذا الفن اللزوم العقلي ، بل العادي والعرفي كاف أيضاً .

وقد يقول أحدمنا : لا أعلم ذلك ، أي : لو كان موجوداً لعلمته إذا قامت قرينة ، وهذا استعمال شائع في عرف العرب والعجم ، عند العامة والخاصة ، كيف ! وكان المخذول يدعي الإلهية ! فالظاهر أنه من الكناية لا من المجاز والمصنف إنما ذكر معلومية انتفاء العلم لانتفاء الوجود ليبين أن انتفاء العلم من روادف انتفاء الوجود انتهى . قال الشوكاني : وهو الذي خطر ببالي أنه الجواب ، لكنه عارض ذلك الخاطر إشكالات لا يتسع لها المقام انتهى .

وقد أشار أبو السعود في تفسيره الى الجواب عن هذا الإشكال فقال : وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقق معلوماتها ، فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ، ولا كذلك العلوم الانفعالية انتهى . وقد وافق على هذا القاضي ، ولاح لك عن هذا جوابان[1] :

الأول : أنه ذكر نفي العلم ، وأراد نفي المعلوم بطريق الكناية على الوجه الذي ذكره السراج .

الثاني : تخصيص العلم بالفعلي لا الانفعالي ، كما ذكره أبو السعود والبيضاوي .

والثالث : أن يراد بالوجود الوجود في ذهن المتكلم بتلك الكلمة ، وفي كل جواب من هذه الأجوبة كلام لا يلتبس على العالم بالفن قال الخفاجي وعلى كل حال فكلام القاضي لا يخلو عن ضعف ، والذي غره فيه كلام صاحب الانتصاف انتهى .

قال ابن عباس : لما قال فرعون هذا القول قال جبريل : يارب طغى عبدك فأذن لي في هلكه ، فقال : ياجبريل بل هو عبدي ولن يسبقني ، له أجل يجيء ذلك الأجل ، فلما قال : أنا ربكم الأعلى ! قال الله : ياجبريل سبقت دعوتك في عبدي ، وقد جاء أوان هلاكه .

---

(١) والأصح (ثلاث إجابات) .

وأخرج ابن مردويه عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كلمتان قالهما فرعون **﴿ما علمت لكم من إلٰه غيري﴾، وقوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ قال: كان بينهما أربعون عاماً فأخذه الله نكال الآخرة والأولى»**.

ثم رجع الى تكبره وتجبره وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال:

﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي اطبخ لي الطين حتى يصير آجرا أي بعد اتخاذه لبناً، عن قتادة قال: بلغني أن فرعون أول من طبخ الآجر، وبنى به. وعن ابن جريج نحوه، والنداء بـ(يا) في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر.

﴿فاجعل لي﴾ من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير آجراً ﴿صرحاً﴾ أي قصراً عالياً، وقيل منارة، روي أن هامان بنى صرحاً لم يبلغه بناء أحد من الخلق، وأراد الله أن يفتنهم فيه، فضرب الصرح جبريل بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون، وقطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا هلك.

﴿لعلي أطلع إلى إلٰه موسى﴾ أي أصعد اليه وأنظر وأقف على حاله كأنه توهم أنه لو كان هناك إله كان جسماً في السماء، يمكن الرقي اليه والاطلاع الصعود والطلوع والاطلاع واحد، يقال: طلع الجبل واطلع أي صعد.

﴿وإني لأظنه﴾ أي موسى ﴿من الكاذبين﴾ في دعواه أن للأرض والخلق إلٰهاً سواه، وأنه أرسله.

﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ المراد بها أرض مصر والاستكبار التعاظم بغير استحقاق، بل بالعدوان لأنها لم تكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات (وظنوا) أي فرعون وجنوده.

﴿أنهم إلينا لا يرجعون﴾ قرىء مبنياً للمفعول وللفاعل والمراد بالرجوع البعث والمعاد.

فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ
ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾

﴿فأخذناه وجنوده﴾ بعد أن عتوا في الكفر وجاوزوا الحد فيه ﴿فنبذناهم في اليم﴾ أي طرحناهم في البحر المالح ، وهو القلزم وفي هذا تفخيم وتعظيم لشأن الأخذ واستحقاراً لمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم ، وقد تقدم بيان الكلام في هذا .

﴿فانظر﴾ يامحمد ﷺ ﴿كيف كان عاقبة الظالمين ؟﴾ حين صاروا الى الهلاك ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي صيرناهم رؤساء متبوعين في الكافرين فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادي فيه ودعائهم الى الشرك يدعون اتباعهم الى النار لأنهم اقتدوا بهم ، وسلكوا طريقتهم تقليداً لهم ، وفيه دليل على خلق افعال العباد ،وقيل : المعنى إنه يأتم بهم أي يعتبر بهم من جاء بعدهم ، ويتعظ بما أصيبوا به ، والأول أولى .

﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي لا ينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب الله .

﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي : طرداً وإبعاداً أو أمرنا العباد بلعنهم فكل من ذكرهم لعنهم ، والأول أولى . وفي أبي السعود أي : لا تزال تلعنهم الملائكة ؛ والمؤمنون خلفاً عن سلف .

﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ المبعدين ، والمقبوح : المطرود المبعد وقال أبو عبيدة ، وابن كيسان : معناه من المهلكين المقوتين ،وقال أبو زيد : قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحاً أبعده من كل خير .

قال أبو عمرو : قبحت وجهه فالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد ،وقيل : المقبوح :المشوه الخلقة أي فهم من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجوه ، والقبيح أيضاً عظيم الساعد ، مما يلي النصف منه ، الى المرفق والعامل في يوم محذوف ، يفسره (من المقبوحين) أي وقبحوا يوم القيامة وهو الأظهر ، أو هو معطوف على موضع (في هذه الدنيا) أي : وأتبعناهم لعنة يوم القيامة ، أو معطوف على (لعنة) على حذف مضاف أي : ولعنة يوم القيامة ، والوجه الثاني أظهر .

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ أي قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم . وقيل : من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه ، وخسفنا بقارون . والتعرض لكون إيتاء التوراة بعد إهلاك الأمم الماضية للإشعار بمسيس الحاجة الداعية اليها تمهيداً لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى إنزال القرآن على رسول الله .

فإن إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع ، وانطماس آثارها وأحكامها المؤديين الى اختلال نظام العالم المستدعيين للتشريع الجديد ، بتقرير الأصول الباقية على ممر الدهور ، وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور ، وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة ، كأنه قيل : ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة اليها .

أخرج البزار ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أهلك الله قوماً ؛ ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة » ، ألم تر الى قوله ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما

أهلكنا القرون الأولى﴾ وروي عنه موقوفاً .

﴿بصائر للناس﴾ أي آتينا الكتاب لأجل أن يتبصر الناس به ، أو حال كونه بصائر لهم يبصرون به الحق ، و (البصائر) جمع بصيرة ، وهي نور القلب ، كما أن البصر نور العين ﴿وهدى﴾ يهتدون اليه ، وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به ﴿ورحمة﴾ من الله رحمهم بها ﴿لعلهم يتذكرون﴾ هذه النعم ، فيشكرون الله ويؤمنون بـه ؛ ويجيبون داعيـه الى ما فيـه خير لهم ويتعظون بما فيه من المواعظ .

﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ هذا شروع في بيان أن إنزال القرآن واقع في بيان شدة الحاجة اليه أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، وهو المكان الواقع في شق الغرب،فيكون من باب حذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه واختاره الزجاج ، وقال الكلبي : بجانب الوادي الغربي ، أي حيث ناجى موسى ربه .

﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي عهدنا اليه وكلمناه ، وأحكمنا الأمر معه بالرسالة الى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته ، وتحكيه من جهة نفسك وقيل : معنى إذ قضينا الى موسى الأمر: إذ كلفناه وألزمناه ، وقيل : أخبرناه أن أمة محمد ﷺ خير الأمم .

ولا يستلزم نفي كونه بجانب الغربي نفي كونه من الشاهدين لأنه يجوز أن يحضر ولا يشهد قيل : المراد بالشاهدين السبعون الذين اختـارهم موسى للميقات وإذا تقرر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ ، والمشـاهدة لهـا منه ، وانتفى بـالأدلة الصحيحة أنه لم يتلق ذلك من غيره من البشر ولا علمه معلم منهم كما قدمنا تقريره تبين أنه من عند الله سبحانه بوحي منه الى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك ، فهذا الكلام هو على طريقة ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾.

وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ
نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ
يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ولكنا أنشأنا قروناً﴾ أي خلقنا أمماً بين زمانك يا محمد ﷺ وزمان موسى ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ أي طالت عليهم المهلة ، وتمادى عليهم الأمد ، وفترت النبوة ، وكانت الأخبار تخفى ، فتغيرت الشرائع والأحكام ، وتُنوسيَت الأديان،واندرست العلوم ووقع التحريف في كثير منها . فتركوا أمر الله ونسوا عهده .

فاقتضت الحكمة التشريع الجديد فجئنا بك رسولاً ، وأوحينا اليك خبر موسى وغيره ليكون معجزة لك وتذكيراً لقومك ومثله قوله سبحانه ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾ وقد استدل بهذا الكلام على أن الله سبحانه قد عهد الى موسى عهوداً في محمد ﷺ وفي الايمان به ، فلما طال عليهم العمر ، ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود ، وتركوا الوفاء بها .

﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين﴾ أي مقيماً بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم ، وتقص عليهم من جهة نفسك يقال : ثوى يثوي ثواء وثوياً فهو ثاو ، ومن المعلوم أن واقعة مدين كانت قبل واقعتي الطور ، فمقتضى

الترتيب الوقوعي أن تقدم عليهما وإنما وسطت بينهما للتنبيه على أن كُلاًّ منهما برهان مستقل على أن إخباره ﷺ عن هذه القصص بطريق الوحي الألهي ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل دليل واحد على ما ذكر .

﴿تتلو عليهم﴾ أي : تقرأ على أهل مدين ﴿آيـاتنا﴾ وتتعلم منهم ، وقيل : تذكرهم بالوعد والوعيد ، وقيل : الضمير لأهل مكة ، والمعنى عليه واضح ، وأكثر المفسرين على الوجه الأول والجملة في محل نصب على الحال ، أو خبر ثان ، ويجوز أن تكون هذه الجملة هي الخبر وثاوياً حال ، وجعلها الفراء مستأنفة ، كأنه قيل : وها أنت تتلو على أمتك .

﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي : ارسلناك الى أهل مكة ، وأنزلنا عليك هذه الأخبار ، ولولا ذلك ما علمتها . قال الزجاج : المعنى أنك لم تشاهد قصص الأنبياء ، ولا تليت عليك ، ولكننا أوحيناها اليك وقصصناها عليك .

﴿وما كنت﴾ يامحمد ﴿بجانب الطور﴾ أي : بجانب الجبـل المسمى بالطور ﴿إذ نادينا﴾ موسى لما أتى الى الميقات مع السبعين أن خذ الكتاب بقوة وبين الإرسال وإيتاء التوراة نحو ثلاثين سنة ، وقيل : المنادى هو أمة محمد ﷺ . قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد ﷺ وأمته ؛ قـال : يارب أرنيهم ، فقـال الله : إنك لن تـدركهم ، وإن شئت ناديتهم فـأسمعتك صـوتهم ، قال : بلى يـا رب أرنيـهم فقال يا أمـة محمد ، فـأجـابـوا من أصلاب آبائهم ؛ فيكون معنى الآية على هذا : ما كنت يامحمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك ، وسيأتي ما يدل على هذا ويقويه ويرجحه .

وعن أبي هريرة في الآية قال : نودوا : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، واستجبت لكم قبـل أن تدعـوني ، وروي من وجه آخـر عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، وأبو نصر السجزي في الإبانة والديلمي عن عمرو بن عبسة قال : سألت النبي ﷺ عن قوله : وما

كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ما كان النداء ؟ وما كانت الرحمة ؟ قال : كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى : يا أمة محمد سبقت رحمتي على غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم عن حذيفة في الآية قال : نودوا يا أمة محمد ؛ ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم ، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً :«إن الله نادى يا أمة محمد أجيبوا ربكم ، قال : فأجابوا ، وهم في أصلاب آبائهم ، وأرحام أمهاتهم ؛ الى يوم القيامة . فقالوا : لبيك أنت ربنا حقاً ، ونحن عبيدك حقاً ، قال : صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً ، قد عفوت عنكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

﴿ولكن رحمة من ربك﴾ أي : ولكن فعلنا ذلك رحمة منا لكم ، وقيل : ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم ، وقيل : علمناك وقيل: عرفناك قال الأخفش : ولكن رحمناك رحمة،وقال الزجاج : أي فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة . وقال الكسائي : ولكن كان ذلك رحمة،وقرىء رحمة بالرفع أي ولكن أنت رحمة .

﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ والقوم هم أهل مكة ، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله ﷺ في زمان الفترة ، بينه وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة أو بينه وبين اسماعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني اسرائيل ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي : يتعظون بإنذارك .

﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ (لولا) هذه هي الامتناعية وأن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء ، أي ولولا إصابة المصيبة لهم ، وجوابها محذوف ، قال الزجاج : تقديره ما أرسلنا اليهم رسلاً ، يعني

أن الحامل على إرسال الرسل اليهم هو إزاحة عللهم ،فهو كقوله سبحانه ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ وقدره ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة ووافقه على هذا التقدير الواحدي ، فقال : والمعنى لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال اليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم ، قال السمين ولا معنى لهذا ﴿فيقولوا﴾ الفاء للسببية ﴿ربنا لو أرسلت إلينا رسولاً﴾ (لولا) هذه هي التحضيضية ، أي : هلا أرسلت رسولاً من عندك وجوابها قوله ﴿فنتبع آياتك﴾ فلذلك نصب بإضمار أن.

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « الهالك في الفترة يقول : رب لم يأتني كتاب ولا رسول ثم قرأ هذه الآية والمراد بالآيات : الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة . وانما عطف القول على (تصيبهم) لكونه هو السبب للإرسال ، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول ، وكان وجوده بوجودها ، جعلت العقوبة كأنها هي السبب للإرسال بواسطة القول ، قاله في الكشاف ، وأطال سليمان الجمل في بيان ذلك وذكر عبارة السمين ، والشهاب ، وغيرهما .

وقال أبو السعود : لولا قولهم هذا عند إصابة العقوبة لهم ، بسبب جناياتهم ، ما أرسلناك ، ولكن لما كان قولهم ذلك محققاً لا محيد عنه ، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم بالكلية ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بهذه الآيات ، ومعنى الآية أنا لو عذبناهم لقالوا طال العهد بالرسل ، ولم يرسل الله الينا رسولاً ويظنون أن ذلك عذر لهم ، ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ، ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة ، وأتممنا البيان بإرسالك يامحمد اليهم .

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ أي : فلما جاء أهل مكة الحق من عند

الله ، وهو محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن :

﴿قالوا﴾ تعنتاً منهم وجدالاً بالباطل . ﴿لولا﴾ هلا ﴿أوتي﴾ هذا الرسول ﴿مثل ما أوتي موسى﴾ من الآيات كاليد ، والعصا ، وغيرهما ، أو التوراة المنزلة عليه جملة واحدة ، فأجاب الله عليهم بقوله :

﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ أي من قبل هذا القول ، أو من قبل ظهور محمد ﷺ ، والمعنى أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد حيث ﴿قالوا : ساحران تظاهرا﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم والمراد بهما موسى ومحمد ﷺ ، والتظاهر التعاون ، أي تعاوناً على السحر . والضمير في (أو لم يكفروا) لكفار قريش ، وقيل : هو لليهود ، والأول أولى ، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم ، إلا أن يراد من أنكر نبوة موسى ، كفرعون وقومه فإنهم وصفوا موسى وهرون بالسحر ؛ ولكنهم ليسوا من اليهود ، ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد ﷺ ، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر والذين كفروا بمحمد ﷺ وصفوه أيضا بالسحر ، وقيل المعنى : أو لم يكفر اليهود في عصر محمد ﷺ بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد، قرأ الجمهور : ساحران ، وقرأ الكوفيون سحران ، يعنون التوراة والقرآن وقيل : الإنجيل والقرآن ، قال بالأول : الفراء ، وقال بالثاني : أبو زيد ، وقيل : إن الضمير في (أولم يكفروا) لليهود وأنهم عنوا بقولهم ساحران : عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام ، وقال ابن عباس في الآية هم أهل الكتاب .

﴿وقالوا : إنا بكل كافرون﴾ يعني بكل من موسى ومحمد أو من موسى وهرون ؛ أو من موسى وعيسى ، أو من عيسى ومحمد ، أو بكل من التوراة والانجيل والفرقان على اختلاف الأقوال ، وفي هذه الجملة تقرير لما تقدمها من وصف النبيين بالسحر ، أو من وصف الكتابين به ، وتأكيد لذلك .

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
(٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ
هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ۞ وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ
يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣)
أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ (٥٤)﴾

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولاً يظهر به عجزهم فقال : ﴿قل﴾ لهم يا محمد إذا لم تؤمنوا بهذين الكتابين وقلتم فيهما ما قلتم :

﴿فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما﴾ أي : من التوراة والقرآن وأوضح وأبين في هداية الخلق ﴿أتبعه﴾ جواب الأمر ، وقد جزمه جمهور القراء لذلك . وقرىء بالرفع على الاستئناف . أي : فإن أتيتم به فأنا أتبعه وقال الفراء : إنه على هذه القراءة صفة الكتاب .

وفي هذا الكلام تهكم بهم وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور ، لأنه رجع الكلام الى الكتابين لا الى الرسولين ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما وصفتم به الرسولين او الكتابين .

﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ أي : لم يفعلوا ما كلفوا به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين ، وهذا كقوله فإن لم تفعلوا ، وقيل : المعنى فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به ، وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين ، وجواب الشرط ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي : آراءهم الزائغة ، واستحساناتهم الزائفة، بلا حجة ولا برهان، و(أنما) أداة حصر أي

أنهم ليس لهم مستند في ذلك ، ومتمسك يتمسكون به ، وإنما لهم محض هواهم الفاسد .

﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى ؟﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي ، أي : لا أحد أضل منه ، بل هو الفرد الكامل في الضلال .

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات الله .

﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ قرىء بتشديد الصاد ، وتخفيفها ، ومعنى الآية أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير ، أو في النظم لتتقرر الدعوة بالحجة ، والمواعظ بالمواعيد ، والنصائح بالعبر ، وبعثنا رسولاً بعد رسول ، وقال أبو عبيدة ، والأخفش : معناه أتممنا . وقال ابن عيينة والسدي : بينا وقال ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة ، حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا والأول أولى ، وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض .وقال مجاهد : جعلناه أوصالاً ، أي : أنواعاً من المعاني والضمير في (لهم) عائد إلى قريش ، وقيل : الى اليهود ، وقيل : للجميع ﴿لعلهم يتذكرون﴾ فيكون التذكر سبباً لإيمانهم ، مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم .

﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ أي : من قبل القرآن ، وقيل : من قبل محمد رسول الله ﷺ .

﴿هم به﴾ أي : بالقرآن ، أو بمحمد ﷺ ﴿يؤمنون﴾ أخبر سبحانه أن طائفة من بني اسرائيل آمنوا بالقرآن ، كعبد الله بن سلام ، وسائر من أسلم من أهل الكتاب ، قيل : نزلت في ثمانين ، أربعون ، من نجران ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية من الشام ، وقال ابن عباس يعني من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب ، والأول أولى .

﴿وإذا يتلى﴾ أي : القرآن : ﴿عليهم قالوا آمنا به﴾ أي : صدقنا به ﴿إنه الحق﴾ الذي نعرفه المنزل ﴿من ربنا﴾ استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به .

﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ أي مخلصين لله بالتوحيد ، أو مؤمنين بمحمد ﷺ وبما جاء به لما نعلمه من ذكره في التوراة والانجيل من التبشير به ، وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن .

﴿أولئك﴾ أي : الموصوفون بتلك الصفات ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾ بإيمانهم بالكتابين منصوب على المصدر .

قال ابن عباس : نزلت في عشرة رهط ، أنا أحدهم . أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول والآخر ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده » .

﴿بما صبروا﴾ أي : بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول والكتاب الآخر . وبالنبي الأول والنبي الآخر ، أو بالعمل بهما أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو بصبرهم على أذى المشركين ، وأهل الكتاب ، ومن عاداهم من أهل دينهم .

﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ الدرء الدفع أي : يدفعون بالاحتمال ، والكلام الحسن،ما يلاقونه من الأذى ، وقيل يدفعون بالطاعة،المعصية ، وقيل : بالتوبة والاستغفار،الذنوب ، وقيل : بالحلم،الأذى ، وقيل بشهادة أن لا إله إلا الله،الشرك .

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي : ينفقون أموالهم في الطاعات ، وفيما أمر به الشرع،ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو فقال :

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن
لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ
لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ تكرماً وتنزهاً ؛ وتأدباً بآداب الشرع ومثله قوله سبحان ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، واللغو هنا هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم ، والاستهزاء بهم .

﴿وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء .

﴿سلام عليكم﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ، ولكن المراد به سلام المتاركة والإعراض والفراق ، ومعناه أمنة لكم منا ، وسلامة ، لا نجاوبكم ولا نجاريكم فيما أنتم فيه ، ولا نقابل لغوكم بمثله .قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال .

﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ أي : لا نطلب صحبتهم ومخالطتهم وقال مقاتل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه ، وقال الكلبي : لا نحب دينكم الذي أنتم عليه .

﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ هدايته من الناس ، وليس ذلك اليك ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ هدايته ﴿وهو أعلم﴾ أي عالم ﴿بالمهتدين﴾ أي : القابلين للهداية المستعدين لها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حديث أبي هريرة « أن هذه الآية نزلت في أبي طالب لما امتنع من الاسلام » ، وقد تقدم ذلك في براءة قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب .

وقد تقرر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولاً أولياً ،والآية حجة على المعتزلة لأنهم يقولون : الهدى هو البيان ، وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة .

﴿وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي : قال مشركو قريش ، ومن تابعهم إن ندخل في دينك ، ونعمل به يامحمد يتخطفنا العرب من مكة ، وننتزع منها بسرعة ولا طاقة لنا بهم ، وهذا من جملة أعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة ، والتخطف في الأصل هو الانتزاع بسرعة ، وقرىء نتخطف بالجزم على جواب الأمر ، وبالرفع على الاستئناف ، ثم رد الله ذلك عليهم رداً مصدراً باستفهام التوبيخ والتقريع ، وألقمهم الحجر فقال :

﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً ؟ ﴾ أي ألم نجعل لهم حرماً ذا أمن ؟ أو مؤمناً يؤمن من دخله ؟ قال أبو البقاء : عداه بنفسه لأنه بمعنى جعل ، كما صرح بذلك في قوله أو«لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا » ومكن متعد بنفسه من غير أن يضمن معنى جعل ، كقوله : مكناهم فيما إن مكناكم فيه ؛ وإسناد الأمن الى

أهل الحرم حقيقة ، والى الحرم مجاز عقلي ، ومن المعروف أنه كان تأمن فيه الظباء من الذئاب ، والحمام من الحدأة ، ثم وصف هذا الحرم بصفة أخرى ، دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة بقوله :

﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي : تجمع اليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة ، وتحمل اليه من الشام ، ومصر ، والعراق ، واليمن وتساق اليه ، فمعنى الكلية الكثرة على سبيل المجاز ، كقوله : وأوتيت من كل شيء ، قرىء يجبى بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شيء ، ووجود الحائل بين الفعل وبين (ثمرات) وأيضاً ليس تأنيث ثمرات بحقيقي . وبالفوقية اعتباراً بثمرات وقرىء ثمرات بفتحتين وبضمتين ؛ جمع ثمر بضمتين . وقرىء بفتح الثاء وسكون الميم .

﴿رزقاً من لدنا﴾ أي : نسوقه اليهم رزقاً من عندنا أو رازقين ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ما نقوله حق لفرط جهلهم ، ومزيد غفلتهم ، وعدم تفكرهم في أمر معادهم ، ورشادهم ، لكونهم ممن طبع الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

﴿وكم أهلكنا من قرية﴾ أي : أهل قرية كانوا في خفض عيش ودعة ورخاء ، رد لقولهم : إن نتبع الهدى معك نتخطف الخ بينَّ الله بهذا أن الأمر بالعكس ، وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله ولا يغتروا بالأمن الحاصل لهم فكثير من أهل القرى كان حالهم كحال هؤلاء في الأمن والخصب .

ثم ﴿بطرت﴾ أي : طغت وتمردت وخسرت وأشرت ﴿معيشتها﴾ أي في زمن حياتها ، وقال الكرخي : كفرت نعمة معيشتها ، أي أيام حياتها وهي ما

يعاش به من النبات والحيوان وغيرهما ، يعني وقع منهم البطر فأهلكوا قال الزجاج البطر الطغيان عند النعمة .

وفي القاموس : البطر محركاً النشاط والأشر وقلة احتمال النعمة ، والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة ، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهة ، وفعل الكل كفرح ، وبطر الحق أي : تكبر عنده فلا يقبله .

قال عطاء : عاشوا في البطر ؛ فأكلوا رزق الله ، وعبدوا الأصنام . وقال الزجاج والمازني معناها بطرت في معيشتها فلما حذفت (في) تعدى الفعل كقوله واختار موسى قومه ، وقال الفراء : هو منصوب على التفسير كما تقول بطرك مالك ، وبطرته ، ونظيره قوله تعالى ؛ إلا من سفه نفسه ، ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين ، لأن معنى التفسير أن تكون النكرة دالة على الجنس . وقيل : إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت .

﴿فتلك مساكنهم﴾ أي منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار كبلاد ثمود ، وقوم شعيب وغيرهم ، قد خربت بما ظلموا .

﴿لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي : لم يسكنها أحد بعدهم إلا زمناً قليلاً كالذي يمر بها مسافراً فإنه يلبث فيها يوماً أو بعض يوم أو المعنى : لم يبق من يسكن فيها إلا أياماً قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم ، وقيل : إن الاستثناء يرجع الى المساكن أي : لم تسكن بعد هلاك أهلها إلا قليلة من المساكن ، وأكثرها خراب ، كذا قال الفراء وهو قول ضعيف .

﴿وكنا نحن الوارثين﴾ لها منهم لأنهم لم يتركوا وارثاً يرث منازلهم وأموالهم ، ولم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وغيرها .

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿وما كان ربك﴾ بيان للعادة الربانية أي : ما صح ، ولا استقام ، وما كان ، وما ثبت في حكمه الماضي ، وقضائه السابق أن يكون ﴿مهلك القرى﴾ الكافر أهلها قبل الإنذار ﴿حتى يبعث﴾ ويرسل ﴿في أمها﴾ أي أكبرها وأعظمها ﴿رسولاً﴾ ينذرهم .

و ﴿يتلو عليهم آياتنا﴾ أي تالياً عليهم آيات الله الدالة الناطقة بما اوجبه الله عليهم ، وما أعده من الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصي ، ومخبراً أن العذاب سينزل بهم اذا لم يؤمنوا ، وخص الأعظم منها بالبعثة اليها لأن فيها أشراف القوم وأهل الفهم والرأي ، وفيها الملوك والأكابر فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى وقال الحسن : أم القرى أولها ، وقيل : المراد بأم القرى هنا مكة كما في قوله : ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ الآية ، والالتفات الى نون العظمة لتربية المهابة والروعة ، وقد تقدم بيان ما تضمنته هذه الآية في آخر سورة يوسف .

﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي : وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث الى امها رسولاً يدعوهم الى الحق في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر ، بعد الاعذار اليهم ،

وتأكيد الحجة عليهم ، كقوله سبحانه ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ .

﴿وما أوتيتم﴾ ياكفار مكة ﴿من شيء﴾ من الأشياء ﴿فمتاع﴾ أي فهو متاع ﴿الحياة الدنيا﴾ تتمتعون به مدة حياتكم ، أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه ، أو يزول عنكم ﴿وزينتها﴾ تتزينون به أيام عيشكم ، ثم يفنى وعلى كل حال فذلك الى فناء وانقضاء .

﴿وما عند الله﴾ من ثوابه وجزائه ﴿خير﴾ من ذلك الزائل الفاني لأنه لذة خالصة عن شوب الكدر ﴿وأبقى﴾ لأنه يدوم أبداً ، وذلك ينقضي بسرعة .

﴿أفلا تعقلون﴾ أن الباقي أفضل من الفاني وما فيه لذة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر ، المنغصة بعوارض البدن والقلب قيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل،قال الشافعي رحمه الله : من وصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف الى المشتغلين بطاعة الله ، وقرىء ؛ يعقلون بالياء،والتاء على الخطاب وهي أرجح لقوله وما أوتيتم .

وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني الحديث بطوله » .

وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا ، وأعطش ما كانوا ، وأعرى ما كانوا فمن أطعم لله عز وجل أطعمه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله ، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كان في رضاء الله كان الله في رضاه .

﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً﴾ بالجنة وما فيها (من النعم) التي لا تحصى ﴿فهو لاقيه﴾ أي مدركه ومصيبه لا محالة ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولذلك جيء بالإسمية المفيدة لتحققه ، وعطف بفاء السببية ، والفاء الأول لترتيب

إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاعها وبين ما عند الله عز وجل .

﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ؟﴾ المشوب بالأكدار المستتبع للتحسر على الانقطاع ، فأعطي منه بعض ما أراد مع سرعة زواله . وتنغيصه عن قريب .

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ هذا معطوف على قوله : متعناه داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له ، والمعنى ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النـار ، وتخصيص المحضرين بـالذين أحضروا العذاب اقتضاه المقام . وفيه من التهويل ما لا يخفى أي ليس حالهما سواء فإن الموعود بالجنة لا بد أن يظفر بما وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا ، وهذا حال المؤمن .

وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلا مجرد التمتع بشيء من الدنيا ، يستوي فيه هو والمؤمن ، وينال كل واحد منهما حظه منه ؛ وهو صائر الى النار ، فهل يستويان ؟

و (ثم) للتراخي في الزمان أو في الرتبة قيل : نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل ، أو في علي وحمزة وأبي جهل ؛ أو في المؤمن والكافر ، أو في عمار ابن ياسر والوليد بن المغيرة .

﴿ويوم يناديهم﴾ أي اذكر يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين(الذين عبدوا غير الله والقصد من هذا النداء توبيخهم وتقريعهم ، بأن معبوداتهم لم تنفعهم في هذا الوقت ﴿فيقول﴾ لهم ﴿أين شركائي الذين﴾ عبدتموهم من دوني ، وأثبَتٌم لهم شـركة في استحقـاق العبـادة و ﴿كنتم تـزعمـون﴾ أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم .

قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ
مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ
ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ (٦٤) وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٦٥)
فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ (٦٦)

﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب، بدخول النار، وهم رؤساء الضلال، الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله كذا قال الكلبي وقال قتادة : هم الشياطين .

﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾ أي: دعوناهم إلى الغواية، يعنون الأتباع في الكفر ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ أي: أضللناهم كما ضللنا ، وآثروا الكفر على الإيمان، كما آثرنا نحن ، وكنا السبب في كفرهم ، فقبلوا منا ، فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم ، وان كان تسويلنا لهم داعياً إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء الله تعالى لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل ، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد ، والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر، وداعياً إلى الإيمان .

﴿تبرأنا إليك﴾ ممن أطاعنا ؛ وهذا مقرر لما قبله ، ولذلك لم يعطف، قال الزجاج : بريء بعضهم من بعض وصاروا أعداء ، كما قال تعالى :﴿الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾.

﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ إنما كانوا يعبدون أهواءهم، قيل : ما مصدرية ،

أي تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا والأول أولى .

﴿وقيل﴾ للكفار من بني آدم تهكماً بهم وتبكيتاً لهم ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي : استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم ﴿فدعوهم﴾ عند ذلك ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع .

﴿ورأوا﴾ أي التابع والمتبوع ﴿العذاب﴾ قد غشيهم ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ قال الزجاج جواب لو محذوف أي لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب ، وقيل :المعنى دعوهم ، وقيل :لو كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا ان العذاب حق ، وقيل:لو يهتدون بوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب ، وقيل : قد آن لهم أن يهتدواه لو كانوا يهتدون ، وقيل: غير ذلك .

﴿ويوم يناديهم﴾ عطف على ما قبله فسئلوا أولاً عن إشراكهم ، وثانياً عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك كما قال : ﴿فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ أي ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين لما بلغوا رسالاتي .

﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ﴾ أي خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون ، والأصل فعموا عن الأنباء ، ولكنه عكس الكلام للمبالغة والأنباء الأخبار وأنما سمى حججهم أخباراً لأنها لم تكن من الحجة في شيء وإنما هي أقاصيص وحكايات وقرىء : عميت بضم العين وتشديد الميم .

﴿فهم لا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب النافع وذلك لفرط الدهشة او لعلمهم بأن الكل سواء في الجهل ، وقيل : لا يسأل بعضهم بعضاً عن الأنساب ، قاله مجاهد : ولا ينطقون بحجة ، ولا يدرون بما يجيبون لأن الله قد أعذر اليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة .

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ
إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ
أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

﴿فأما من تاب﴾ من الشرك ﴿وآمن﴾ وصدق بتوحيد الله ﴿وعمل صالحاً﴾ أي أدى الفرائض ﴿فعسى أن يكون من المفلحين﴾ أي الناجين بوعد الله الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين ، وعسى وإن كانت في الأصل للرجاء فهي من الله واجب على ما هو عادة الكرام ، وقيل : إن الترجي هو من قبل التائب المذكور لا من جهة الله سبحانه ، أي فليتوقع الفلاح .

﴿وربك يخلق ما يشاء﴾ أن يخلقه ، وفيه دلالة على خلق الأفعال ﴿ويختار﴾ ما يشاء أن يختار ، لا يسأل عما يفعل ؛ وهم يسألون ؛ وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم ، أي : الاختيار الى الله .

﴿ما كان لهم الخيرة﴾ أي التخير ، وهو كالطيرة فإنها التطير ؛ اسمان يستعملان استعمال المصدر وبمعنى المتخير كقولهم : محمد خيرة الله من خلقه . وقيل : المراد من الآية أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار شيئاً اختياراً حقيقياً بحيث يقدم على تنفيذه بدون اختيار الله ، بل الاختيار هو الى الله عز وجل ، . يختار لطاعته أو لنبوته ، أو المعنى يخلق محمداً ويختار الأنصار لدينه ، وقيل : اختار من النعم ضأناً ، ومن الطير الحمام ، ولا وجه للتخصيص . والعموم أولى .

وظاهر الآية نفي الاختيار عنهم رأساً ، والأمر كذلك ، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله ، منوط بدواع لا اختيار لهم فيها ، وقيل : إن هذه الآية جواب عن قولهم :﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وقيل : جواب عن اليهود حيث قالوا : لو كان الرسول إلى محمد ﷺ غير جبريل لآمنا به .

قال الزجاج : الوقف على (ويختار) تام على أن (ما) نافية قال : ويجوز أن يكون (ما) في موضع نصب بـ (يختار) والمعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة ، والصحيح الأول لإجماعهم على الوقف، وقال ابن جرير : إن تقدير الآية ويختار لولايته الخيرة من خلقه . وهذا في غاية من الضعف ، وجوز ابن عطية أن تكون (كان) تامة ويكون (لهم الخيرة) جملة مستأنفة . وهذا أيضاً بعيد جداً ، ومن قال معناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح ، فهو مائل إلى الاعتزال ، وقيل : إن (ما) مصدرية، أي يختار اختيارهم ، والمصدر واقع موقع المفعول به ، أي ويختار مختارهم ، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير والراجح أول هذه التفاسير ، ومثله قوله سبحانه: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة﴾ وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح تعليم الاستخارة ، وكيفية صلاتها ودعائها ، فلا نطول بذكرها ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

﴿سبحان الله﴾ أي تنزه تنزهاً خاصاً به ، من غير أن ينازعه منازع ، أو يشاركه مشارك ، أو يزاحم اختياره ﴿وتعالى عما يشركون﴾ أي عن الذين يجعلونهم شركاء له ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم﴾ أي تخفيه قلوبهم وتسره من الشرك ، أو من عداوة رسول الله ﷺ وحسده ، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق ﴿وما يعلنون﴾ بألسنتهم من ذلك ويظهرونه ، ثم تمدح نفسه سبحانه بالوحدانية ، والتفرد بالاستحقاق للحمد ، فقال :

﴿وهو الله﴾ أي هو المستأثر بالإلهية المختص بها ، وقوله ﴿لا إله إلا

هو﴾ تقرير لذلك ﴿له الحمد في الأولى﴾ أي في الدنيا ﴿والآخرة﴾ لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها ، يحمده المؤمنون في الآخرة ، كما حمدوه في الدنيا والتحميد سمة على وجه اللذة لا على الكلفة ، وهو قولهم : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وقيل الحمد لله رب العالمين .

﴿وله الحكم﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء ، فيقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿وإليه﴾ لا الى غيره ﴿ترجعون﴾ بالبعث والنشور ، والخروج من القبور فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿قل﴾ لأهل مكة ﴿أرأيتم ؟﴾ أي أخبروني ﴿إن جعل الله عليكم الليل سرمداً﴾ بإسكان الشمس تحت الارض ، أو بتحريكها حول الأفق الغائر ، والسرمد هو الدائم المستمر ، من السرد ، وهو المتابعة والاطراد ، فالميم زائدة كما في دلامص من الدلاص ، ووزنه فعمل ، وقيل : إن ميمه[1] أصلية ، ووزنه فعلل لا فعمل ، وهو الظاهر ، بين لهم سبحانه أنه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة ، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً لا نهار معه ﴿إلى يوم القيامة﴾ لم يتمكنوا من الحركة فيه ، وطلب ما لابد لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم ، والمشارب ، والملابس ، ثم امتن عليهم فقال :

﴿من إله غير الله يأتيكم ؟﴾ أي هل لكم من إله بزعمكم من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم ﴿بضياء﴾ أي بنور تطلبون فيه المعيشة ، وتبصرون فيه ما تحتاجون اليه وتصلح ثماركم ، وتنمو عنده زرائعكم ، وتعيش فيه دوابكم والجملة صفة أخرى لـ (إله) عليها يدور التبكيت والإلزام ﴿أفلا تسمعون ؟﴾ هذا الكلام سماع فهم ، وقبول ، وتدبر وتفكر ، وهذا توبيخ لهم على أبلغ وجه ، ثم لما فرغ الله من الامتنان عليهم بوجود النهار ؛ امتن عليهم بوجود الليل فقال :

---

(١) إذا كانت ميمه أصلية فيكون فعله الماضي على وزن مصدره سرمد يسرمد سرمداً .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً ؟ ﴾أي : جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه نهاراً ﴿إلى يوم القيامة﴾ لا ليل معه بإسكان الشمس في وسط السماء ، أو تحريكها على مدار فوق الأفق .

﴿من إله غير الله ؟﴾ بزعمكم ﴿يأتيكم بليل تسكنون﴾ أي تستقرون ﴿فيه﴾ من النصب والتعب . وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكبت .

﴿أفلا تبصرون ؟﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ ، حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله ، فإذا أقروا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، فقد لزمتهم الحجة ، وبطل ما يتمسكون به من الشبهة الساقطة ، وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله أفلا تسمعون ؟ لأن السمع يدرك مالا يدرك البصر ، ومن درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل قوله أفلا تبصرون ، لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ، ونحوه ، البصر يدرك ما لا يدرك السمع من ذلك .

﴿ومن رحمته﴾ تعالى ﴿جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه﴾ أي في

الليل ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في النهار بالسعي في المكاسب وفيه مدح للسعي في طلب الرزق،وهو لا ينافي التوكل ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا نعمة الله عليكم ، وهذه الآية من باب اللف والنشر ، واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً ، وطلب الرزق في الليل ممكناً ، وذلك عند طلوع القمر على الأرض ، أو عند الاستضاءة بشيء مما له نور كالسراج ، لكن ذلك قليل نادر ، مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به .

﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ كرر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين ، لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام ، وينادون أخرى فيسكتون وفي هذا التكرار أيضاً تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ وإيذان بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده ، أو الأول لتقرير فساد رأيهم ، والثاني لبيان أنه لم يكن عن مستند وإنما هو محض تشبه وهوى .

﴿ونزعنا﴾ جاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق أي أخرجنا ﴿من كل أمة﴾ من الأمم ﴿شهيداً﴾ يشهد عليهم بما قالوا ، قال مجاهد : هم الأنبياء وقيل : عدول كل أمة ، والأول أولى ، ومثله قوله سبحانه : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ ثم بيَّن سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله :

﴿فقلنا﴾ لهم : ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم ودليلكم بأن معي شركاء : فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن إقامة البرهان ولذا قال :

﴿فعلموا أن الحق لله﴾ في الإلهية وأنه وحده لا شريك له ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي غاب عنهم غيبة الشيء الضائع ، وبطل ، وذهب ما كانوا يختلقون من الكذب في الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة ، ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون ، لما اشتملت عليه من بديع القدرة ، وعجيب الصنع فقال :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ
بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ
فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ قارون على وزن فاعول اسم أعجمي ، ممتنع للعجمة والعلمية . وليس بعربي مشتق من قرنت ، قال الزجاج : لو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف ، قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي ابن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث . وقال ابن اسحق : كان عم موسى لأب وأم ، فجعله أخاً لعمران ، وهما ابنا قاهث . وقيل : هو ابن خالة موسى ، وكان يسمى : المنور ، لحسن صورته ، وكان من السبعين الذين اختارهم موسى للمناجاة فسمع كلام الله ، قاله الرازي ، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، فنافق كما نافق السامري ، وخرج عن طاعة موسى وهو معنى قوله :

﴿ فبغى ﴾ أي جاوز الحد في التجبر والتكبر ، وطلب التفضل ﴿ عليهم ﴾ وأن يكونوا تحت أمره وحسد موسى على رسالته ، وهرون على إمامته . وكفر بالله بعدما آمن بهما ، بسبب كثرة ماله، قال الضحاك : بغية على بني إسرائيل :استخفافه بهم لكثرة ماله وولده ، وقال قتادة : بغيه بنسبة ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته . وقيل : كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم . وقيل : كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية .

﴿وآتيناه من الكنوز﴾ جمع كنز وهو المال المدخر ، سميت أمواله كنوزاً لأنه كان ممتنعاً من أداء الزكاة . قال عطاء : أصاب كنزاً من كنوز يوسف ، وقيل : كان يعمل الكيمياء .

﴿ما إن مفاتحه﴾ (ما) موصولة صلتها (إن) وما في حيزها ، ولهذا كسرت ، ونقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة وما في حيزها صلة الذي ، واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا الموضع ، والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وقيل : المراد بالمفاتح الخزائن ، فيكون واحدها مفتحاً بفتح الميم . وقال الواحدي : إن المفاتح الخزائن في قول أكثر المفسرين كقوله : وعنده مفاتح الغيب ، قال : هو اختيار الزجاج قال : الأشبه في التفسير أن مفاتحه خزائن ماله ، وقال آخرون : هي جمع مفتاح ، وهو ما يفتح به الباب ، فهذا قول قتادة ومجاهد .

وعن خيثمة قال : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود الإبل كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجل ، وعنه قال : وجدت في الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة ما يزيد كل مفتاح منها على أصبع لكل مفتاح كنز . قال الشوكاني : لم أجد في الإنجيل هذا الذي ذكره خيثمة .

﴿لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ أي لتثقل بالجماعة الأقوياء يقال نأى[1] بحمله إذا نهض به مثقلاً ، ويقال نأى بي الحمل أي أثقلني ، والمعنى يثقلهم حمل المفاتيح ، فلا يستطيعون حملها . وقال الرازي : فلا يستطيعون ضبطها لكثرتها انتهى .قال أبو عبيدة :هذا من المقلوب ، والمعنى:لتنوء بها العصبة ،أي تنهض بها، قال أبو زيد : نأوت بالحمل إذا نهضت به ، وقال الفراء معنى تنوء بالعصبة تميلهم بثقلها ، كما يقال يذهب بالبؤس ، ويذهب

---

(١) ينظر في هذين المثالين فإنه لا صلة لهما بقوله تعالى لتنوء لأنه من باب ناء ينوء لا من باب نأى ينأى أي : من باب نصر ينصر لا من باب فتح يفتح فليحرر. المطيعي .

البؤس ، وذهبت به ، وأذهبته ، وجئت به ، وأجأته ونؤت به ، وأنأوته ، اختار هذا النحاس ، وبه قال كثير من السلف .

وقيل :هو مأخوذ من النأي ، وهو البعد وهو بعيد . وقرىء لينوء بالتحتية أي لينوء الواحد منها ، أو المذكور فحمل على المعنى أو التقدير حملها ، أو ثقلها ، وقيل الضمير في مفاتحه لقارون ، فاكتسب المضاف من المضاف إليه التذكير ،كقولهم :ذهبت أهل اليمامة قاله الزمخشري ، والمراد بالعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض ، قيل :هي من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل من العشرة إلى الخمسة عشر ،وقيل: ما بين العشرة إلى العشرين وقيل:من الخمسة إلى العشرة وقيل :أربعون ،وقيل :سبعون وقيل :غير ذلك. قال ابن عباس:لا ترفعها العصبة من الرجال أولي القوة ، والعصبة أربعون رجلاً .

﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ أي اذكر ،والمراد بقومه هنا :هم المؤمنون من بني إسرائيل . وقال الفراء : هو موسى ، وهو جمع أريد به الواحد ، والمعنى لا تبطر ، ولا تأشر ، ولا تمرح بكثرة المال .

﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ البطرين الأشرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، قال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه . وقيل : المعنى لا تفسد ، قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواء ، وقال الفراء : معنى الفرحين الذين هم في حال الفرح ، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل ، وقال مجاهد : معنى لا تفرح لا تبغ ، والفرحين الباغين . وقيل : معناه لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين ، وقال ابن عباس الفرحين المرحين ، قيل : إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن ، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله ﴾ أي واطلب فيما أعطاك الله من الأموال والثروة والغنى ﴿الدار الآخرة﴾ هي الجنة فأنفقه فيما يرضاه الله كصدقة وصلة رحم ، وإطعام جائع ، وكسوة عار ، ونفقة على محتاج . لا في التجبر والبغي . وقرىء ، واتبع .

﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل في دنياه لآخرته، ونصيب الإنسان عمره وعمله الصالح، قال الزجاج: معناه لا تنس أن تعمل لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته، وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال، وطلبك إياه، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآني. وقال ابن عباس: أن تعمل فيها لآخرتك، وفسر بعضهم النصيب بالكفن، وعليه قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداءآن تدرج فيهما وحنوط

وفسره البيضاوي بما يحتاج إليه منها، وفي الحديث: «اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» وهو مرسل. وهذا ما جرى عليه مجاهد، وابن زيد. وقيل: معناه خذ ما تحتاجه من الدنيا. وأخرج الباقي، وقيل: أمر أن يعدم الفضل ويمسك ما يغنيه.

﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ الكاف للتشبيه، أي أحسن إحساناً كإحسان الله إليك، أو للتعليل، أي أحسن إلى عباد الله بما أنعم به عليك من نعم الدنيا لما أمره بالإحسان بالمال، أمره ثانياً بالإحسان مطلقاً. ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه، وطلاقة الوجه. وحسن اللقاء. وقيل أطع الله واعبده كما أنعم عليك، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: أن جبريل سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ في الأرض يعني أنه يعاقبهم.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ
مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ
خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

﴿قال إنما أوتيته﴾ أي المال ﴿على علم عندي﴾ قال قارون : هذه المقالة رداً على من نصحه بما تقدم . أي إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي . وليس تفضلاً . وهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله من الدنيا قيل هو علم التوراة وقيل علمه بوجوه المكاسب والزراعات ، وأنواع التجارات ، وقيل معرفة الكنوز والدفائن ، وقيل علم الكيمياء ، وقيل المعنى أن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل علمه مني . واختار هذا الزجاج ، وأنكر ما عداه ، ثم رد الله عليه قوله هذا فقال :

﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟﴾ للمال ولو كان المال ، أو القوة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله . وقيل القوة الآلات ، والجمع الأعوان . وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون ، لأنه قد قرأ التوراة ، وعلم علم القرون الأولى ، وإهلاك الله سبحانه لهم ، أو سمعه من حفاظ التواريخ قاله الكرخي .

﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب كما في قوله : ولا هم يستعتبون ، وما هم من المعتبين ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ويحاسبون ويشدد

عليهم كما في قوله تعالى : فوربك لنسألنهم أجمعين ، وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة عن المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه ، زرق العيون . وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بغير سؤال وحساب . وقيل لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية ، أو المعنى يعترفون بها بغير سؤال وقيل : لا يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها إذا أراد أن يعاقبهم . قال ابن عادل : وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب .

﴿فخرج﴾ قارون وكان خروجه يوم السبت ﴿على قومه في زينته﴾ أي بأتباعه الكثيرين ، ركباناً متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيول وبغال متحلية ، قاله المحلي .

عن أوس بن أوس الثقفي عن النبي ﷺ قال : «خرج على قومه في أربعة آلاف بغل»[1] . أخرجه ابن مردويه . وقد روى عن جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة ، ولا يصح منها شيء مرفوعاً ، بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرة ، ولا أدري كيف إسناد هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه ؟ فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه . وقد ذكر المفسرون أيضاً في هذه الزينة التي خرج فيها روايات مختلفة ، والمراد أنه خرج في زينة ابتهر لها من رآها ، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله :

﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ اختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة فقيل : هم من مؤمني ذلك الوقت ، تمنوا الدنيا ليتقربوا إلى الله تعالى ، ولينفقوه في سبيل الخير ، فتمنوا مثله لا عينه ، حذراً من الحسد ، وقيل : هم قوم من الكفار .

﴿يا﴾ للتنبيه ﴿ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ في الدنيا ﴿إنه لذو حظ عظيم﴾ أي نصيب وبخت ودولة وافرة من الدنيا .

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ بما وعد الله في الآخرة ، وهم أحبار بني إسرائيل ، قالوا

---

(١) لا يصح مرفوعاً .

للذين تمنوا ﴿ويلكم﴾ كلمة زجر منصوبة بمقدر، أي ألزمكم الله ويلكم، قاله الزمخشري، ومثله في التبيان، وأصل ويلك الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضي .

﴿ثواب الله﴾ في الآخرة بالجنة﴿خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ مما أوتي قارون في الدنيا ، لأن الثواب منافعه عظيمة ، خالصة عن شوائب المضار دائمة ، وهذه النعم على الضد في هذه الصفات فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم ، وهذا بيان للمفضل عليه .

﴿ولا يلقاها﴾ أي هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار وقيل : الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة ، وقيل إلى الجنة ، والمعنى لا يفهمها ويوقف عليها ويوفق للعمل لها ﴿إلا الصابرون﴾ على طاعة الله ، والمصبرون أنفسهم عن الشهوات ، الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار .

﴿فخسفنا به﴾ أي بقارون ﴿وبداره الأرض﴾ يقال خسف المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض ، وخسف به الأرض خسفاً أي غاب به فيها والمعنى أن الله غيبه ، وغيب داره في الأرض .

﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي ما له جماعة يدفعون ذلك الخسف عنه ﴿وما كان﴾ هو في نفسه ﴿من المنتصرين﴾ أي من المنتقمين من موسى ، أو من الممتنعين من عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر ، أي منعه منه فامتنع .

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : «كان قارون ابن عم موسى ، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً ، فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده ، فقال له موسى : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى ، فقال إن موسى يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا : لا نحتمل ! فما ترى ؟فقال لهم :أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه

فترميه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك جعلك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك ! قالت : نعم فجاء قارون إلى موسى فقال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ،قال نعم فجمعهم فقالوا له :ما أمرك ربك ؟قال :أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . وأن تصلوا الرحم ، وكذا ، وكذا ، وأمرني إذا زنى الرجل وقد أحصن أن يرجم ،قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : نعم ،قالوا :فإنك قد زنيت ، قال : أنا ؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى : أنشدك بالله إلا ما صدقت ، قالت : أما إذا أنشدتني بالله فإنهم دعوني ، وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي ، وأنا أشهد أنك بريء ، وأنك رسول الله ، فخرَّ موسى ساجداً يبكي ، ويقول : يارب إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله إليه ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : ياموسى ، ياموسى فقال : خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ، فجعلوا يقولون : ياموسى ، يا موسى ، فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم،فجعلوا يقولون : ياموسى ياموسى ، فقال خذيهم فأخذتهم فغشيتهم فأوحى الله إليه : ياموسى سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم ، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم . قال ابن عباس : وذلك قوله : فخسفنا به وبداره الأرض خسف به إلى الأرض السفلى . ذكره الخازن ، والقرطبي ، وغيرهما بألفاظ .

وعن النبي ﷺ : «من لبس ثوباً جديداً فاختال فيه خسف به من شفير جهنم ، فهو يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها ، لأن قارون لبس جبة فاختال فيها فخسف الله به الأرض» رواه الحرث بن إسحق من حديث ابن عباس وأبي هريرة بسند ضعيف جداً ، قال الحافظ في الفتح : إن مقتضى هذا الحديث أن الأرض لا تأكل جسده فيمكن ان يلغز ويقال لنا:كافر لا يبلى جسده بعد الموت وهو قارون ، ذكره ابن لقيمة ، والتجلجل السوخ في الأرض ، والتحرك والتضعضع ، والجلجلة التحريك . قيل : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل في الصور .

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ
﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ
عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ
لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ وأصبح ﴾ أي صار ﴿ الذين تمنوا مكانه ﴾ أي : منزلته ورتبته من الدنيا ﴿ بالأمس ﴾ أي منذ زمان قريب ، ولم يرد خصوص اليوم الذي قبل يومه .

﴿ويقولون : ويكأن الله ﴾ أي : يقول كل واحد منهم متندماً على ما فرط منه من التمني ؛قال النحاس : أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائي : إن القوم تنبهوا فقالوا : وي ، والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه : وي ، قال الجوهري : وي كلمة تعجب ؛ ويقال : ويك ، وقد تدخل وي على كأن المخففة والمشددة ، ويكأن الله . قال الخليل :هي مفصولة تقول وي ، ثم تبتدى فتقول : كأن ، وقال الفراء : هي كلمة تقرير كقولك : أما نرى صنع الله وإحسانه ، وقيل : هي كلمة تنبيه بمنزلة ألا ، وقال قطرب : إنما هو ويلك فأسقطت لامه ، وقال ابن الأعرابي والأخفش : معنى ويك أعلم ؛وقال القتيبي : معناها بلغة حمير رحمة لك ؛ وقيل :

هي بمعنى ألم تر؟ وروي عن الكسائي أنه قال : هي كلمة تفجع ، وقيل: معناها أظن وأقدر .

﴿يبسط﴾ أي : يوسع ﴿الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي ، ويضيق على من يشاء ، والمعنى : ليس الأمر كما زعمنا من أن البسط ينبىء عن الكرامة ، والقبض ينبىء عن الهوان ، بل كل منهما بمقتضى مشيئته .

﴿لولا أن منّ الله علينا﴾ برحمته بعدم إعطاء ما تمنيناه ، وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغي ﴿لخسف بنا﴾ كما خسف به ، قرىء مبنياً للفاعل وللمفعول ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي : لا يفوزون بمطلب من مطالبهم تأكيد لما قبله .

﴿تلك﴾ التي سمعت بخبرها ، وبلغك شأنها ﴿الدار الآخرة﴾ أي : الجنة والاشارة إليها القصد التعظيم لها ، والتفخيم لشأنها ﴿نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض﴾ أي : رفعة وتكبراً على المؤمنين ، وقيل : ظلماً ، وقيل : استطالة على الناس ، وتهاوناً بهم بالبغي .

﴿ولا فساداً﴾ أي عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها ، كقتل النفس ، والزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر أو دعاء إلى عبادة غير الله . ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتها وميل القلوب إليهما ، كما قال : ولا تركنوا إلى الذين ظلموا،فعلق الوعيد بالركون .

وعن عمر بن عبد العزيز:أنه كان يرددها حتى قبض . وقال بعضهم : حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثاً بقوله : إن فرعون علا في الأرض ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، وذِكر الفساد والعلو مُنَكَّرين في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه أنه فساد ، وأنه علو من غير تخصيص بنوع خاص ؛ أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريقة التكبر على الغير والتطاول على الناس ؛ وليس منه طلب العلو في الحق والرياسة في الدين ولا محبة اللباس الحسن ، والمركوب الحسن ، والمنزل الحسن .

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ في الآية قال : «التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق » ، أخرجه المحاملي والديلمي . وروى مثله عن مسلم البطين ، وابن جرير ، وعكرمة . وقال سعيد بن جبير بغياً في الأرض . وعن الحسن قال : هو الشرف والعلو عند ذوي سلطانهم . وأقول : إن كان ذلك للتقوى به على الحق فهو من خصال الخير لا من خصال الشر . وعن علي ابن أبي طالب قال : إن الرجل ليحب أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية .

قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علي : وهذا محمول على من أحب ذلك لا بمجرد التجمل . فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ، **ونعلي** حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ قال : «لا ، إن الله جميل يحب الجمال» .

وعن علي بن أبي طالب قال : نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة، وأهل القدرة من سائر الناس ، وعن ابن عباس مثله .

وعن عدي بن حاتم قال : لما دخل على النبي ﷺ ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض فقال : «أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً فأسلم » أخرجه ابن مردويه .

﴿والعاقبة﴾ المحمودة ﴿للمتقين﴾ أي لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب نواهيه، وقيل : عاقبة المتقين الجنة .

﴿من جاء﴾ يوم القيامة متصفاً ﴿بالحسنة﴾ بأن كان من المؤمنين ، والحسنة ما يحمد فاعلها شرعاً ، وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها في القيامة ، والمراد الحسنة المقبولة الأصلية المعمولة للعبد أو ما في حكمها ، كما لو تصدق عنه غيره ، لا المأخوذة في نظير ظلامتهم ، كما لو ضرب زيد عمراً ضربة ، وكان لزيد حسنات موجودة فيؤخذ منها فيعطى لعمرو ، فهذه الحسنة لا تنسب لعمرو ، لا حقيقة ولا حكماً فلا تضاعف له . وخرج بالمعمولة ما لو هم بحسنة فلم يعملها لمانع، فإنها تكتب له واحدة ،

ويجازى عليها من غير تضعيف .

﴿فله خير منها﴾ وهو أن الله يجازيه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والتضعيف خاص بهذه الأمة ، وأما غير هذه الأمة من بقية الأمم فلا تضعيف لهم،والصواب دخول المضاعفة في حسنات العصاة إن كانت على وجه يتناوله القبول بأن يعملها على وجه لا رياء فيه ولا سمعة ، وعدم دخولها في أعمال الكفار لأنه لا يجتمع مع الكفر طاعة مقبولة ، إن لم يسلم ، وإلا فتكون كالمقبولة في الإسلام ، ولا تضاعف الحسنات الحاصلة بالتضعيف .

﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى﴾ معناه فلا يجزون فوضع ﴿الذين عملوا السيئآت﴾ موضع الضمير لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ، والسيئة هي ما يذم فاعلها شرعاً صغيرة كانت أو كبيرة ، وسميت سيئة لأن فاعلها يساء بها عند المجازاة عليها ﴿إلا﴾ مثل ﴿ما كانوا يعملون﴾ وحذف المثل ، وأقيم مقامه ما كانوا الخ مبالغة في المماثلة ، ومن فضله العظيم أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها ، ويجزي الحسنة بعشرة أمثالها وبسبعمائة ، وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل .

﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ قال المفسرون : أي أنزل عليك ، وقال الزجاج : فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن ، وتقدير الكلام فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه . وقيل : أوجب عليك تلاوته وتبليغه ، والعمل بما فيه ، عن علي بن حسين بن واقد قال : «أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ بالجحفة حين خرج ﷺ مهاجراً إلى المدينة » فليست مكية ولا مدنية ، كما مر في أول السورة ﴿لرادك إلى معاد﴾ قال جمهور المفسرين : أي إلى مكة وهذا أقرب التفاسير ؛ وبه قال ابن عباس كما أخرجه البخاري عنه ، وزاد كما أخرجك منها .

قال القتيبي : معاد الرجل بلده لأنه ينصرف فيعود إلى بلده،وقال مجاهد ، وعكرمة ، والزهري ، والحسن : إن المعنى لرادك إلى يوم القيامة وهو

اختيار الزجاج ، يقال بيني وبينك المعاد : أي يوم القيامة لأن الناس يعودون فيه أحياءوقال أبو مالك ، وأبو صالح : لرادك إلى الجنة وبه قال أبو سعيد الخدري ؛ وروي عن مجاهد . وقيل إلى معاد أي إلى الموت .

﴿قل : ربي أعلم من جاء بالهدى﴾ وهو النبي ﷺ لأنه الجائي به ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾ وهم المشركون ، وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ إنك في ضلال والأولى حمل الآية على العموم ، وأن الله سبحانه يعلم حال كل طائفة من هاتين الطائفتين ، ويجازيها بما تستحقه من خير وشر .

﴿وما كنت﴾ قبل مجيء الرسالة إليك ﴿ترجو﴾ وتؤمل أن نرسلك إلى العباد ، و﴿أن يلقى إليك الكتاب﴾ فإنزاله عليك ليس عن ميعاد، ولا عن طلب سابق منك ، وهذا تذكير له ﷺ بالنعم ، والاستثناء في قوله : إلا رحمة من ربك﴾ منقطع ، أي : لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك ، أو متصل حملاً على المعنى كأنه قيل : وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة من ربك والأول أولى ، وبه جزم الكسائي ؛ والفراء ، ثم أمره الله بخمسة أشياء فقال : ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي :عوناً لهم ،وفيه تعريض بغيره من الأمة ،وقيل : المراد لا تكونن ظهيراً لهم بمداراتهم .

﴿ولا يصدنك﴾ قرىء من[1] صده يصده ، ومن أصده بمعنى صده والمعنى لا يمنعنك يا محمد الكافرون ، وأقوالهم ، وكذبهم ، وأذاهم ﴿عن آيات الله﴾ أي : عن تلاوتها ، والعمل بها وتبليغها ﴿بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي بعد إذ أنزلها الله إليك وفرضت عليك .

﴿وادع﴾ الناس ﴿إلى ربك﴾ أي : إلى الله وإلى توحيده ، والعمل بفرائضه واجتناب معاصيه ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ بإعانتهم ، وفيه تعريض بغيره ، كما تقدم لأنه ﷺ لا يكون منهم بحال من الأحوال وكذلك قوله :

---

(١) القراءة الأولى هي قراءة الجمهور أما القراءة الأخرى فهي بضم المثناة التحتية وكسر الصاد المهملة . المطيعي .

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿ولا تدع مع الله إلَهاً آخر﴾ فإنه تعريض بغيره ، ثم وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال : ﴿لا إله إلا هو كل شيء﴾ من الأشياء كائناً ما كان .

﴿هالك﴾ في حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتياً ، بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالاً ، والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتي ، لأن وجوده كلا وجود ، وأما حمل هالك على المستقبل فكلام ظاهري قاله الشهاب .

﴿إلا وجهه﴾ أي : إلا ذاته . قال الزجاج : وجهه منصوب على الاستثناء ولو كان في غير القرآن كان مرفوعاً ، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك ، وقضية الاستثناء إطلاق الشيء على الله تعالى ، وهو الصحيح ، لأن المستثنى داخل في المستثنى منه ، وإنما جاء على عادة العرب في التعبير بالأشرف على الجملة ومن لم يطلقه عليه جعله متصلاً أيضاً ، وجعل الوجه ما عمل لأجله سبحانه ، فإن ثوابه باق قاله الكرخي .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : «لما نزلت كل من عليها فان قالت الملائكة: هلك أهل الأرض فلما نزلت كل نفس ذائقة الموت، قالت الملائكة : هلك كل نفس ، فلما نزلت كل شي هالك إلا وجهه قالت الملائكة : هلك أهل السماء والأرض» . وعنه قال : إلا ما أريد به وجهه ، والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله :

ثمانية حكم البقاء يعمها   من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش ، والكرسي ونار ، وجنة   وعجب وأرواح ، كذا اللوح والقلم

﴿له الحكم﴾ أي القضاء النافذ يقضي بما شاء ويحكم بما أراد ﴿وإليه﴾ أي إلى جزائه ، أو إليه وحده ﴿ترجعون﴾ في جميع أحوالكم في الدنيا وعند البعث ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء باساءته لا إلى غيره سبحانه وتعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

﴿هي تسع وتسعون آية قيل : مكية كلها﴾

قاله : ابن عباس ، وابن الزبير ، والحسن ، وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقيل : انها مدنية كلها ، وهو أحد قولي ابن عباس ، وقتادة ، وهو قول يحيى بن سلام .

وعن علي بن أبي طالب قال : نزلت بين مكة والمدينة وهذا قول ثابت .

وأخرج الدارقطني في السنن عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجدات يقرأ في الركعة الأولى العنكبوت أو الروم ، وفي الثانية يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

﴿ألم﴾ الله أعلم بمراده به وقد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في أول سورة البقرة .

﴿أحسب الناس﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع . أو للتقرير ، والحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر ، كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما والعلم هو القطع على أحدهما ، ولا يصح تعليقهما بمعاني المفردات ، ولكن بمضامين الجمل ﴿أن يتركوا أن يقولوا﴾ أي لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا ﴿آمنا﴾ أي نطقوا بكلمة الشهادة .

﴿وهم لا يفتنون﴾ أي يتركون بغير اختبار ، ولا ابتلاء وليس الأمر كما حسبوا بل لا بد أن نختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب والثابت في الدين من المضارب فيه فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان واستبعاده ، وبيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها ؛ قال الزجاج : المعنى أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا إنا مؤمنون فقط ؟ ولا يمتحنون بما يتبين به حقيقة إيمانهم ؟ بل يمتحنون لتميز الراسخ في الدين من غيره .

قال السدي ، وقتادة ،ومجاهد :أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرنا قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نازلة في سبب خاص ـ فهي باقية في

آمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو، وغير ذلك. والفتنة الامتحان بشدائد التكليف، من مفارقة الأوطان، والمهاجرة، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم، لينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب.

أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير وغيرهم: أنها أنزلت في ناس كانوا بمكة وقد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار، ولا إسلام حتى تهاجروا، قال: «فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم، فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا إليهم أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا، فأنزل الله فيهم: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا، ثم جاهدوا وصبروا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾، وعن قتادة نحوه بأخصر منه، وقيل: نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله، وعن ابن مسعود قال: أول من أظهر الله إسلامه سبعة، رسول الله، وأبو بكر، وسمية أم عمار، وعمار، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه وأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد[1]

(١) أنظر إلى قصص « ابتلاء الصحابة ومحنهم » في كتب السيرة. سيرة ابن هشام مثلاً.

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ
حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ
ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ
وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ أي هذه سنة الله في عباده قديمة ، جارية في الأمم كلها ، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء في غير موضع من قصص الأنبياء ، وما وقع لهم من قومهم من المحن ، وما اختبر الله به أتباعهم ، ومن آمن بهم ، من تلك الأمور التي نزلت بهم ، فمنهم من نشر بالمنشار ، ومنهم من قتل ، ومنهم من ألقي في النار ومنهم من مشط بأمشاط الحديد ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم العذاب ، والمقصود التنبيه على خطئهم في هذا الحسبان ، والمعنى : أحسبوا ذلك ؟ وقد علموا أنه خلاف سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

﴿فليعلمن الله الذين صدقوا﴾ في قولهم : آمنا ، علم مشاهدة ﴿وليعلمن الكاذبين﴾ منهم في ذلك ، أي ليظهر الله الصادق والكاذب في قولهم ، ويميز بينهم ، وقرىء بضم الياء وكسر اللام ، والمعنى أنه يعلم

الطائفتين في الآخرة بمنازلهم ، أو يعلم الناس بصدق من صدق ، ويفضح الكاذبين بكذبهم ، أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها . وقيل : إن علم صفة يظهر فيها كل ما يقع ، وما هو واقع ، إلا أن قبل التكليف يعلم أن زيداً مثلاً سيطيع وعمراً سيعصي ، ثم بعد التكليف يعلم أنه مطيع ، والآخر عاص ، ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال ، وإنما المتغير هو المعلوم ، وأتى بصيغة الفعل في ﴿صدقوا﴾ وباسم الفاعل في ﴿الكاذبين﴾ لأن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر في الفاعل ، ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدل عليه لأن وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام ، وعن قوم مستمرين على الكفر ، فعبر في حق الأولين بلفظ الفعل ، وفي حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات،قاله زاده .

﴿أم حسب الذين يعملون السيئآت﴾ أي الشرك والمعاصي ﴿أن يسبقونا﴾ أي أن يفوتونا فلا ننتقم منهم ، ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ، و ﴿أم﴾ هي المنقطعة ، ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول ، لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ، وقالوا:الأول في المؤمنين ، وهذا في الكافرين المشركين .

﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا . وقال الزجاج : (ما) في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون ،قال : ويجوز أن تكون (ما) في موضع رفع بمعنى ساء الشيء ، أو الحكم حكمهم . وقال ابن كيسان:ساء حكمهم .

﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ الرجاء بمعنى الطمع ، قاله سعيد بن جبير ، وقيل :الرجاء هنا بمعنى الخوف ،قال القرطبي :وأجمع أهل التفسير على أن المعنى من كان يخاف الموت ، وقيل البعث والحساب قال الزجاج :أي ثواب المصير اليه تعالى ، فالرجاء على هذا معناه الأمل و ﴿من﴾ موصولة ، أو شرطية ، والجزاء

قوله :

﴿فإن أجل الله﴾ والراجح أنه ليس بجزاء ، لأن أجله جاء لا محالة من غير تقييد بشرط ، لأنه لو كان جواب الشرط لزم أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً له ، بل الجواب محذوف ، أي فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، والمعنى من كان يرجو ويطمع لقاء الله فإن أجله المضروب للبعث والثواب والعقاب ؛

﴿لآت﴾ أي لجاء لا محالة .قال مقاتل :يعني يوم القيامة . وفي الآية من الوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب ما لا يخفى ﴿وهو السميع﴾ لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بما يسرونه وما يعلنونه .

﴿ومن جاهد﴾ الكفار ، وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات ، أو جاهد الشيطان بدفع وساوسه ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ أي ثواب ذلك له لا لغيره ، ولا يرجع الى الله سبحانه من نفع ذلك شيء ، وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فإن الكريم اذا وعد وفى ، فالحصر إضافي ، فلا يقال كيف يستقيم الحصر؟ مع أن جهاد الشخص قد ينتفع به غيره ، كما ينتفع الآباء بصلاح الأولاد ، وينتفع من سن سنة حسنة بفعل من استن بها ،وقيل :المعنى ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله فليس لله حاجة بجهاده ، والأول أولى ، وفيه بشارة وتخويف ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ من الإنس ، والجن والملائكة ، فلا يحتاج الى طاعاتهم ، كما لا تضره معاصيهم ، وإنما أمر ونهى رحمة لعباده .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم﴾ أي لنبطلنها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل ؛ والتكفير إذهاب السيئة بالحسنة ، والمراد بالسيئة الشرك والمعاصي وتكفيرها هو الايمان والتوبة والآية تستدعي وجود السيئآت

حتى تكفر والوجه فيه أنه ما من مكلف إلا وله سيئة أما غير الأنبياء فظاهر وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى:﴿عفاالله عنك لم أذنت لهم؟﴾

﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي :بأحسن جزاء أعمالهم ، وقيل: بجزاء أحسن أعمالهم والمراد بأحسن مجرد الوصف لا التفضيل ، لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتاً عنه ، وهذا ليس بشيء لأنه من باب الأولى فإنه إذا جازاهم بالأحسن جازاهم بما دونه فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى ، وقيل : معناه نعطيهم أكثر مما عملوا ، وأحسن منه كما في قوله : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾.

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ أي ايصاء حسناً على المبالغة قاله الكواشي ، أو ذا حسن ، وهذا مذهب البصريين ، أو أن يفعل حسناً قاله الكوفيون قال الزجاج :أن يفعل بوالديه ما يحسن وقيل :وصيناه أمراً ذا حسن ؛ وقيل : ألزمناه حسناً ، وقيل :وصيناه بحسن ، وقيل : يحسن حسناً ومعنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه ؛ بالبر لهما والعطف عليهما والإحسان اليهما بكل ما يمكنه من وجوه الإحسان فيشمل ذلك إعطاء المال والخدمة ولين القول ، وعدم المخالفة لهما وغير ذلك،قرىء حسناً بضم الحاء وإسكان السين ، وبفتحهما ، وقرىء إحساناً وكذا في مصحف أبيّ .

﴿وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم﴾ أي : إن طلبا منك وألزماك أن تشرك بي إلٰهاً ليس لك علم بكونه إلٰهاً ،وفي سورة لقمان ﴿على أن تشرك بي﴾لأن ما هنا وافق ما قبله لفظاً وهو :﴿من جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾وما هناك محمول على المعنى لأن التقدير : وإن حملاك على أن تشرك،قاله الكرماني .

﴿فلا تطعهما﴾ في الإشراك وعبر بنفي العلم عن نفي الإلّه لأن ما لم يعلم صحته لا يجوز اتباعه فكيف بما علم بطلانه ، واذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى ، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه . فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله ، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ .

أخرج ابن المنذر ، وابن ابي حاتم ، وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت أمي : لا آكل طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد ﷺ فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا ، فنزلت هذه الآية الى قوله : فلا تطعهما ، وأخرجه أيضاً الترمذي من حديثه ، وقال نزلت في أربع آيات ، وذكر نحو هذه القصة ، وقال : حسن صحيح ، وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم ، وأبو داود والنسائي أيضاً قال القرطبي : فلم يطعها سعد وقال لها : والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما كفرت بمحمد ﷺ ، فإن شئت فكلي ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت قال الكرخي :هذا وما في لقمان والاحقاف نزل في سعد بن أبي وقاص .

﴿إلي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها ، فأجازي كُلًّا منكم بما يستحقه ، وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك ، وحث على الثبات والاستقامة في الإيمان .

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح ، وهذا أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى الأنبياء عليهم السلام، قال سليمان عليه السلام :﴿ وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ وقال يوسف عليه السلام :﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ وقيل : لندخلنهم في مدخل الصالحين وهو الجنة . كذا قيل والأول أولى ومعنى ادخالهم فيهم كونهم معدودين من جملتهم لا اتصافهم أي نحشرهم معهم اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين وارزقنا لسان صدق في الآخرين .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ
وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم
بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي﴾ أي أصابه بلاء من الناس أو أذى من الكفار ﴿في الله﴾ أي في دين الله وسبيله ولأجله ، كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات وأصحاب البدع مع أصحاب السنة وأهل التقليد مع أهل الاتباع بل كل مبطل مع كل محق من إيقاع أنواع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله والعمل بما أمر به من كتاب وسنة .

﴿جعل فتنة الناس﴾ التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى وجزع من أذاهم فلم يصبر عليه وجعله في الشدة والعظم ﴿كعذاب الله﴾ فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عقابه ، وقيل : وهو المنافق اذا أوذي في الله رجع عن الدين فكفر وكان يمكنه أن يصبر على الأذى الى حد الإكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان ، فجعل المنافقون فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، فعذاب الناس له دافع وعذاب الله ما له من دافع ،

وأيضاً عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عقاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ، ولا تعدها عذاباً.

قال الزجاج : ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذية في الله .

أخرج أحمد والترمذي ، وصححه ، وابن ماجة وأبو يعلى وابن حبان ، والبيهقي وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أوذيت في الله ومايؤذى أحد ، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثالثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال » .

﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ أي فتح من الله للمؤمنين وغلبة على الأعداء وغنيمة يغنمونها منهم ﴿ليقولن﴾ بضم اللام حملاً على المعنى بعد الحمل على اللفظ ، ونقل أبو معاذ النحوي أنه قرىء بالفتح جرياً على مراعاة لفظها أيضاً وقراءة العامة أحسن لقوله :

﴿إنا كنا معكم﴾ في دينكم فأشركونا في الغنيمة،فالمراد المعية في الإيمان دون الصحبة في القتال لأنها غير واقعة ، قاله الشهاب فكذبهم الله فقال :

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟﴾ من الإيمان به أي هو سبحانه أعلم بما فيها من خير وشر فكيف يدعون هذه الدعاوى الكاذبة ،قيل : هم قوم ممن كان في إيمانهم ضعف . كانوا اذا مسهم الأذى من الكفار أو لم يجدوا من قوة الاسلام ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن قالوا: إنا كنا معكم يرضون بهذا وما قبله المنافقون ،قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله او مصيبة في أنفسهم افتتنوا . وقال الضحاك :نزلت في ناس من المنافقين كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك ،وقيل : نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم الى بدر،والظاهر أن هذا النظم من قوله : ومن الناس من يقول ، إلى قوله : وقال الذين كفروا ، نازلٌ في المنافقين لما يظهر من السياق ، ولقوله .

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا﴾ بقلوبهم أي صدقوا فثبتوا على الاسلام عند البلاء ﴿وليعلمن المنافقين﴾ بترك الإيمان عند البلاء فإنه لتقرير ما قبله وتأكيده واللام في الفعلين لام قسم أي والله ليميزن الله بين الطائفتين ويظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين فيجازي الفريقين ، فالمخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى ويصبر في الله حق الصبر ، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله والمنافق الذي يميل هكذا وهكذا فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم ، وكفر بالله عز وجل ؛ وإن خفقت ريح الاسلام ، وطلع نصره ، ولاح فتحه رجع الى الاسلام وزعم انه من المسلمين وتغيير الأسلوب حيث عبر في الأول بالفعل ، وفي الثاني باسم الفاعل تفنن لرعاية الفاصلة . قيل : هذه الآيات العشر من أول السورة الى ههنا مدنية ، وباقي السورة مكي . قاله يحيى بن سلام .

﴿وقال الذين كفروا﴾ من أهل مكة كأبي سفيان وأتباعه ﴿للذين آمنوا﴾ اللام لام التبليغ أي قالوا مخاطبين لهم سبق بيانه في غير موضع ، أي قالوا لهم :

﴿اتبعوا سبيلنا﴾ أي اسلكوا طريقتنا ، أو ادخلوا في ديننا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ أي إن كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم فنؤاخذ بها دونكم ، قال مقاتل : يعني قولهم نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله واللام في لنحمل لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك . وقال الزمخشري : الأمر بمعنى الخبر وقرىء بكسر اللام وهو لغة الحجاز ، ثم رد عليهم بقوله :

﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ (من) الأولى بيانية ، والثانية مزيدة للاستغراق ، أي وما هم بحاملين شيئاً من خطيئاتهم التي التزموا بها ، وضمنوا لهم حملها ، ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل فقال :

﴿إنهم لكاذبون﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم ، قال المهدوي هذا

التكذيب لهم من الله عز وجل حمل على المعنى ، لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم ، فلما كان الأمر يرجع في المعنى الى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر .

﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي : أوزارهم التي عملوها ، والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أي أوزاراً مع أوزارهم وهي أوزار من أضلوهم وأخرجوهم عن الهدى الى الضلالة ، ومثله قوله سبحانه : ﴿**ليحملوا** أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ . ومثله قوله ﷺ : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » كما في حديث أبي هريرة الثابت في صحيح مسلم وغيره .

﴿وليسألن يوم القيامة﴾ سؤال تقريع وتوبيخ ﴿عما كانوا يفترون﴾ أي : يختلقونه من الأكاذيب والأباطيل التي كانوا يأتون بها في الدنيا وأضلوهم بها ، ومن جملتها هذا الوعد .

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ وعمره أربعون سنة أو أكثر ، وبينه وبين آدم(١) ألف سنة، أجمل سبحانه قصة نوح تصديقاً لقوله في أول السورة ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ فيه تثبيت للنبي ﷺ كأنه قيل له : إن نوحاً لبث هذه المدة الكثيرة يدعو قومه ولم يؤمن منهم إلا قليل ، فصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك ، وكثرة عدد أمتك ، قيل: ووقع في النظم :

﴿إلا خمسين عاماً﴾ ولم يقل تسعمائة سنة وخمسين، لأن في الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثاني فقد يطلق على ما يقرب منه وذكر الألف أفخم وأوصل الى الغرض . وجيء بالمميز أولا بالسنة ، ثم بالعام لأن تكرار لفظ واحد في كلام واحد حقيق بالاجتناب في البلاغة ، ثم إنه خص لفظ العام بالخمسين إيذاناً بأن نبي الله لما استراح منهم بقي في زمن حسن ، والعرب

(١) لا دليل على هذا التحديد من كتاب ولا سنة . المطيعي .

تعبر عن الخصب بالعام ، وعن الجدب بالسنة .

وقد اختلف في مقدار عمر نوح عليه السلام ، وليس في الآية إلا انه لبث فيهم هذه المدة ، وهي لا تدل على أنها جميع عمره ، فقد تلبث في غيرهم قبل اللبث فيهم ، وقد تلبث في الأرض من بعد هلاكهم بالطوفان ، فقال ابن عباس: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم الى الله وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس ، وفشوا .

وعن عكرمة قال : كان عمر نوح قبل أن يبعث الى قومه ، وبعد مابعث ألفا وسبعمائة سنة ، وعن عوف بن شداد قال : إن الله أرسل نوحاً الى قومه وهو ابن خمسين سنة وثلثمائة سنة فلبث فيهم ألف إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة ، وقال أبو السعود : عاش نوح بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً ومائتين سنة وأربعين وعن أنس ابن مالك قال: جاء ملك الموت الى نوح فقال : يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال كرجل دخل بيتاً له بابان فقال(١) في وسط البيت هنية ثم خرج من الباب الآخر .

﴿فأخذهم الطوفان﴾ أي الماء الكثير ، طاف بهم وعلاهم فغرقوا ، وارتفع على أعلى جبل أربعين ذراعاً ، وقيل : خمسة عشر حتى غرق كل شيء غير من في السفينة والفاء للتعقيب ، أي أخذهم عقب تمام المدة المذكورة ، والطوفان يقال لكل شيء كثير ، مطيف بجمع : محيط بهم ، من مطر أو قتل أو موت، قاله النحاس . وقال سعيد بن جبير ، وقتادة والسدي : هو المطر ، وقال الضحاك : الغرق ، وقيل : الموت ، قال الشهاب : ولكنه غلب في الماء كما هو المراد هنا .

﴿وهم ظالمون﴾ أي مستمرون على الظلم والشرك ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح وذكرهم هذه المدة بطولها .

(١) قال بمعنى القيلولة ، وهي النوم في الظهيرة ، تقول : قال يقيلُ قيلولةً (معجم الصحاح للجوهري ، باب اللام ، فصل القاف ، ١٨٠٨/٥ ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت .

فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي أنجينا نوحاً ، وأنجينا من معه في السفينة من أولاده وأتباعه ، واختلف في عددهم على أقوال ،قيل : كانوا ثمانية وسبعين نفساً نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح ، سام ، وحام ، ويافث ونساؤهم .

﴿وجعلناها﴾ أي السفينة ﴿آية للعالمين﴾ أي عبرة عظيمة لهم ولمن بعدهم من الناس إن عصوا رسولهم ، وفي كونها آية وجوه :

أحدها : أنها كانت باقية على الجودي مدة مديدة ، كذا قال قتادة .

وثانيها : أن الله سلم السفينة بأن جعلها آية وقيل :إن الضمير راجع في جعلناها الى الواقعة أو القصة أو الحادثة أو الى النجاة أو الى العقوبة بالغرق .

﴿وابراهيم﴾ انتصابه بالعطف على (نوحاً) وقال الكسائي : هو معطوف على الهاء في (جعلناها) وقيل: منصوب بمقدر ، أي واذكر ، وقرأ إبراهيم : النخعي ، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهما (وابراهيم) بالرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم .

﴿إذ قال﴾ منصوب على الظرفية ، أي وأرسلنا إبراهيم وقت قوله أو وجعلنا ابراهيم آية وقت قوله ، أو اذكر ابراهيم وقت قوله ﴿لقومه اعبدوا الله﴾ أي اطيعوه وأفردوه بالعبادة وخصوه بها ووحدوه ، وفيه إشارة إلى إثبات الألّه ﴿واتقوه﴾ أن تشركوا به شيئاً وفيه إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه فقد أتى بأعظم الجرائم ، وقيل : اعبدوا الله اشارة الى الإتيان بالواجبات ، وقوله : اتقوه إشارة الى الامتناع من المحرمات ، ثم يدخل في الأول الاعتراف بالله ، وفي الثاني الامتناع من الشرك .

﴿ذلكم﴾ أي عبادة الله وتقواه ﴿خير لكم﴾ من الشرك ولا خير في الشرك أبداً ، ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم ، وقيل: خير من كل شيء لأن حذف المفضل عليه يقتضي العموم مع عدم احتياجه الى التأويل، إذ المراد بكل شيء كل شيء فيه خيرية ، ويجوز كونه صفة لا اسم تفضيل ﴿إن كنتم تعلمون﴾ شيئاً من العلم او تعلمون علماً تميزون به بين ما هو خير وما هو شر وأن من المرسلين ابراهيم ثم ذكر ابراهيم بطلان مذهبهم بأبلغ وجه بقوله :

﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾ وبيّن لهم أنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يبصر ، والأوثان هي الأصنام ، وقال أبو عبيدة : الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس، والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة، وقال الجوهري : الوثن الصنم والجمع أوثان .

﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي وتكذبون كذباً على أن معنى تخلقون تكذبون قال الحسن : معنى تخلقون تنحتون ، أي إنما تعبدون أوثاناً وانتم تصنعونها وهذا على قراءة الجمهور بفتح الفوقية وسكون الخاء وضم اللام مضارع خلق ؛ وإفكاً بكسر الهمزة وسكون الفاء وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن علي والسلمي وقتادة بفتح الخاء واللام مشددة، والأصل تتخلقون، وروي عن زيد بن علي أنه

قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة،وقرأ ابن الزبير ، وفضيل بن ورقان : أَفِكاً بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر كالكذب ، أو صفة لمصدر محذوف ، أي خلقاً أفكاً .

﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ أي لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم الى الله فهو الذي عنده الرزق كله ، فاسألوه ، واطلبوه من فضله .

﴿واعبدوه﴾ أي وحدوه دون غيره ﴿واشكروا له﴾ على نعمائه ذكرهما بعد طلب الرزق لأن الأول أي العبادة سبب لحدوث الرزق والثاني أي الشكر موجب لبقائه وسبب لمزيد عليه ، يقال شكرته وشكرت له .

﴿إليه﴾ أي الى محل جزائه تعالى ﴿ترجعون﴾ بالموت ثم بالبعث لا الى غيره ، فاستعدوا للقائه بعبادته،والشكر له على أنعمه ، ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد وقال :

﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أي وإن تكذبوني فقد وقع ذلك لغيري ممن قبلكم فهو من قول ابراهيم ، وقيل : هو من قول الله سبحانه ، أي وإن تكذبوا محمد ﷺ فذلك عادة الكفار مع من سلف كقوم شيث وادريس ونوح وغيرهم ،وقيل : هذا اعتراض متصل الى قوله عذاب أليم ، وقع تذكيراً لأهل مكة ، وتحذيراً لهم .

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ لقومه الذين أرسل اليهم وليس عليه هدايتهم ، وليس ذلك في وسعه ، ولما بيّن الله تعالى الأصل الأول،وهو التوحيد وأشار الى الثاني وهو الرسالة بقوله : ما على الرسول الخ شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وهذه الأصول الثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض في الذكر الإلهي فقال :

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ
سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾
وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

﴿أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ؟﴾ قرىء بالتحتية على الخبر قال أبو عبيدة : كأنه قال أولم يَرَ الأمم ، وقرىء بالفوقية على الخطاب من ابراهيم لقومه ، وقيل هو خطاب من الله لقريش،وقرىء يبدِي من أبدىٰ يبدي ومن بدأ يبدىء ، وقرىء (كيف بدأ) والمعنى : ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ثم ينفخ فيهم الروح ، ثم يخرجهم الى الدنيا ثم يتوفاهم بعد ذلك . ثم هو يعيدهم كما بدأهم ، وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات .

فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والايجاد فهو القادر على الإعادة والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم ، والواو للعطف على مقدر ، والمراد بالرؤية العلم الواضح الذي هو كالرؤية ، والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق ، وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول فهو من الله .

﴿إن ذلك﴾ أي الخلق الأول والثاني ﴿على الله يسير﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون ، فكيف ينكرون الثاني ، ثم أمر سبحانه ابراهيم أن يأمر قومه بالمسير في الأرض ليتفكروا ويعتبروا ، فقال :

﴿قل﴾ لمنكري البعث ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ على كثرتهم ؛ واختلاف ألوانهم وطبائعهم ، وألسنتهم ، وانظروا الى مساكن القرون الماضية ، والأمم الخالية ، وآثارهم،لتعلموا بذلك كمال قدرة الله ، فإن من قدر على إنشائها بدءاً يقدر على إعادتهم ، وقيل : إن المعنى قل لهم يامحمد سيروا ومعنى قوله ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ إن الله الذي بدأ النشأة الأولى وخلقها على تلك الكيفية ، ينشئها نشأة ثانية عند البعث ، أي فكما لم يتعذر عليه إحداثهم مبدئاً كذلك لا يتعذر عليه إنشاؤهم معيداً بعد الموت . ثانياً وهذا دليل على أنهما نشأتان وان كل واحد منهما إنشاء أي ابتداء واختراع ، واخراج من العدم الى الوجود ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله ، والأولى ليست كذلك،والجملة عطف على جملة : سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول .

قال ابن عباس : النشأة الآخرة : هي الحياة بعد الموت وهو النشور ، قرىء النشأة بالقصر وسكون الشين ، وبالمد وفتح الشين وهما لغتان كالرأفة والرآفة ، وهي منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد ، والأصل الإنشاءة أو على حذف العامل أي ينشىء فينشئون النشأة ﴿إن الله على كل شيء﴾ من البداءة والإعادة ﴿قدير﴾ والجملة تعليل لما قبلها .

﴿يعذب من يشاء﴾ تعذيبه بعد النشأة الآخرة بالخذلان ، وهم الكفار والعصاة ﴿ويرحم﴾ بالهداية ﴿من يشاء﴾ رحمته وهم المؤمنون به ، المصدقون لرسله ، العاملون بأوامره ونواهيه ، أو المعنى : يعذب بالحرص ، ويرحم بالقناعة ، أو بسوء الخلق وحسنه ، أو بالإعراض عن الله ، وبالإقبال عليه ، أو بمتابعة البدع ، وبملازمة السنة ، وقدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة لأن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب أولا لسبق ذكر مستحقيه ﴿وإليه﴾ لا الى غيره ﴿تقلبون﴾ أي ترجعون وتردون .

﴿وما أنتم﴾ الخطاب لبني آدم وهم من أهل الأرض وليس في وسعهم الهرب في السماء لكن المقصود امتناع الفوات على جميع الأحوال ﴿بمعجزين﴾ ربكم عن إدراككم ﴿في الأرض﴾ الفسيحة ﴿ولا في السماء﴾ التي هي أفسح منها ، قال الفراء : ولا من في السماء بمعجزين الله فيها قال : وهو كما في قول حسان :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أي : ومن يمدحه وينصره سواء ، ومثله قوله تعالى ؛﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ أي إلا من له مقام معلوم ، والمعنى أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض في الأرض ، ولا أهل السماء في السماء ، إن عصوه . وقال قطرب : إن معنى الآية ولا في السماء لو كنتم فيها ، كما تقول : لا يفوتني فلان ههنا ولا بالبصرة ، يعني ولا بالبصرة ولو صار اليها ، وقال المبرد : المعنى ولا من في السماء ، على أن من ليست موصولة بل نكرة ، وفي السماء صفة لها فأقيمت مقام الموصوف ورده الأخفش ورجح ما قاله قطرب .

والمقصود بيان امتناع الفوات على جميع التقادير ، ممكناً كان أو مستحيلاً وهذا إن حملت الأرض والسماء على المشهور من معناهما ، ويجوز أن يراد بهما جهة السفل وجهة العلو ، وقال هنا : ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ ، واقتصر في الشورى على الأرض لأن ما هنا خطاب لقوم فيهم النمروذ الذي حاول الصعود الى السماء ، وقد حذفا معاً للاختصار في قوله في الزمر : ﴿وما هم بمعجزين﴾ ،

﴿ومالكم من دون الله﴾ أي غيره ﴿من ولي ولا نصير﴾ من مزيدة للتأكيد ، أي : ليس له ولي يواليه ، ولا نصير ينصره ، ويدفع عنه عذاب الله .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ
اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ
اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ
﴿٢٥﴾ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ
فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ أي التنزيلية او التكوينية ، او جميعها ﴿ولقائه﴾ أي أنكروا البعث وما بعده ، ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه ، والإشارة بقوله ﴿أولئك﴾ الى الكافرين بالآيات واللقاء .

﴿يئسوا من رحمتي﴾ في الدنيا ، ولم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله ، ولا ما أخبرتهم به رسله ، وقيل : المعنى أنهم ييأسون يوم القيامة من رحمة الله وهي الجنة ، وصيغة الماضي لدلالة علمه على تحقق وقوعه ، وأضاف الرحمة الى نفسه ، ولم يضف العذاب اليها لسبق رحمته ، وإعلاماً لعباده بعمومها لهم .

﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ تكرير الإشارة للتأكيد ، ووُصف العذاب

بكونه أليماً للدلالة على أنه في غاية الشدة وهذا آخر الآيات في تذكير أهل مكة ، وقوله :

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ رجوع الى خطاب ابراهيم بعد الاعتراض بما تقدم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال : إن قوله :﴿**قل** سيروا في **الأرض**﴾ خطاب لمحمد ﷺ ، وأما على قول من قال : إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام ، فالكلام في سياقه سابقاً ولاحقاً : أي قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم : لا تجيبوا عن براهينه الثلاثة الدالة على الأصول وهي التوحيد والنبوة والحشر ، وافعلوا بإبراهيم أحد الأمرين .

﴿اقتلوه﴾ بالسيف او نحوه فتستريحوا منه عاجلاً ﴿أو حرقوه﴾ بالنار فإما أن يرجع الى دينكم إذا أوجعته النار ، وإما أن يموت بها إذا أصر على قوله ودينه وإنما أجابوا بذلك لعدم قدرتهم على الجواب الصحيح ، ثم اتفقوا على تحريقه فقذفوه في النار .

﴿فأنجاه الله من النار﴾ بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، قيل : إن ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار ، وذلك لذهاب حرها ﴿إن في ذلك﴾ أي في إنجاء الله لإبراهيم بعد إلقائه في النار ﴿لآيات﴾ أي : دلالات واضحة وعلامات ظاهرة ، على عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ، حيث أضرموا تلك النار العظيمة ، وألقوه فيها ، ولم تحرقه ، ولا أثرت فيه أثراً ، بل صارت الى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها،من الحرارة والإحراق . قال المحلي:هي عدم تأثيرها فيه ، وإخمادها ، وإنشاء روض مكانها في زمن يسير ، انتهى . أي مقدار طرفة عين بحيث إنها لم تؤذه . ولكن أحرقت وثاقه لينحل .

﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون بتوحيد الله وقدرته ، وإنما خص المؤمنون لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه ، وينتفعون بها ، وأما من عداهم فهم عن ذلك غافلون .

﴿وقال﴾ ابراهيم لقومه بعد الإنجاء من النار ، ولم يحصل له منهم رعب ولا مهابة ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم﴾ أي للتودد بينكم والتواصل لاجتماعكم على عبادتها ، وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها ، قرىء برفع مودة ، وإضافتها الى بينكم ، وبالنصب منونة ، ونصب بينكم على الظرفية ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة .

﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم ، فيتبرأ القادة من الأتباع والأتباع من القادة ،وقيل : المعنى يتبرأ العابدون للأوثان من الأوثان ، والأوثان من العابدين لها ، يقولون ، لا نعرفكم .

﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿ومأواكم النار﴾ أي مأوى الكفار جميعاً ،وقيل : يدخل في ذلك الأوثان ﴿وما لكم من ناصرين﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم .

﴿فآمن له﴾ أي لإبراهيم ﴿لوط﴾ فصدقه في جميع ما جاء به ،وقيل :إنه لم يؤمن به إلا حين رأى النار لا تحرقه ، وكان لوط ابن أخي إبراهيم هاران ، وقيل :ابن أخته ،والأول أولى قال ابن عباس : آمن أي: صدق برسالته .

﴿وقال إني مهاجر الى ربي﴾ قال النخعي ،وقتادة : الذي قال إني مهاجر هو ابراهيم . قيل: هو أول من هاجر الى الله وترك بلده ، وسار الى حيث أمره الله بالمهاجرة اليه ،قيل : هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ،وقال قتادة : هاجر من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة الى حران ، ثم منها الى فلسطين ، وهي برية الشام ، ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط ، وامرأته سارة ، وقد تزوجها ومن ثم قالوا : لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان ،والمعنى إني مهاجر عن دار قومي الى حيث أعبد ربي .

عن أنس قال:أول من هاجر من المسلمين الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان ، فقال النبي ﷺ صحبهما الله ، إن عثمان لأول من هاجر الى الله بأهله بعد لوط أخرجه أبو يعلى ، وابن مردويه ،عن أسماء بنت أبي بكر قالت : هاجر عثمان الى الحبشة فقال النبي ﷺ : « إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط » أخرجه ابن منده ؛ وابن عساكر ، عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كان بين عثمان وبين رقية وبين لوط ، مهاجر » ، أخرجه الطبراني ، والحاكم في الكنى وابن عساكر .

﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي : الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة ، وقيل : إن القائل : إني مهاجر الى ربي هو لوط ، والأول أولى لرجوع الضمير في قوله : ﴿وهبنا له إسحق ويعقوب﴾ الى ابراهيم وكذا الضمير في قوله :

قوله : ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره في الدنيا﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف ، يعني منَّ الله عليه بالأولاد فوهب له بعد إسمعيل بأربع عشرة سنة إسحق ولداً له ، ويعقوب ولداً لولده إسحق ، وقول ابن عباس : هما ولدا ابراهيم لعله يريد ولده وولد ولده ، لأن ولد الولد بمنزلة الولد ، ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس ، وهو حبر الأمة ، وهذه عنه من رواية العوفي .

وفي الصحيحين : «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، وجعل من ذريته النبوة فلم يبعث الله نبياً بعد ابراهيم إلا من صلبه ونسله » .

ووحد الكتاب لأن الألف واللام فيه للجنس الشامل للكتب ، والمراد التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ومعنى إيتاء الأجر في الدنيا أنه أعطي فيها

الأولاد في غير أوانه وأخبر الله باستمرار النبوة فيهم ، وذلك مما تقر به عينه ، ويزداد به سروره . وقيل : أجره في الدنيا : أن أهل الملل كلها تدعيه ، وتقول : هو منهم ، ويثنون عليه الثناء الحسن ، ويذكره أهل الاسلام في آخر كل تشهد الى آخر الدهر ، وقيل : أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً ، وعاقبة حسنة ، وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا . وعن ابن عباس قال : إن الله وصى أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به ، وقال : أجر الدنيا الذكر الحسن ، وقال أيضاً : الولد الصالح والثناء .

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلا من الرب سبحانه ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً﴾ وقال الكسائي : المعنى وانجينا لوطاً ، أو أرسلنا لوطاً ﴿إذ قال لقومه ، إنكم لتأتون الفاحشة﴾ أي الخصلة المتناهية في القبح ، وهي اللواطة قرىء بالاستفهام وبغيره .

﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الإنس والجن ، مستأنفة مقررة لكمال قبح هذه الخصلة ، وأنهم منفردون بذلك لم يسبق الى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم قيل : لم ينز(١) ذكر على ذكر قبل قوم لوط من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع ، وتحاشت عنه النفوس ، حتى قدموا عليها لخبث طينتهم .

وهذه الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة ، لأنها اشتركت مع الزنا في كونها فاحشة ، وقد قال تعالى : ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ هذا وإن كان قياساً إلا أن الجامع مستفاد من الآية،قاله الرازي ، ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال :

---

(١) نزا ينزو نزواً ونزاء أي وثب . المطيعي .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ أي :تلوطون بهم ﴿وتقطعون السبيل﴾قيل :إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين ، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم ، فقطعوا السبيل بهذا السبب ، قال الفراء:كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث . وقيل : كانوا يقطعون الطريق على المارة : بقتلهم ونهبهم ، والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق ، من غير تقييد بسبب خاص ، وقيل : إن معنى قطع الطريق قطع النسل بالعدول عن النساء الى الرجال .

﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ النادي والندى والمنتدى مجلس القوم ومتحدثهم ، ولا يقال للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله ، واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه،فقيل : كانوا يحذفون الناس بالحصباء ويستخفون بالغريب .

وعن أم هاني بنت أبي طالب قالت:سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : « كانوا يجلسون بالطريق ، فيخذفون أبناء السبيل ، ويسخرون منهم ». أخرجه أحمد ، والترمذي وحسنه ،وقال : لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك.

وأخرج ابن مردويه عن جابر أن النبي ﷺ : « نهى عن الخذف » ، وهو قول الله سبحانه ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ وعن ابن عمر قال : في

الآيـة هو الخذف،وعن ابن عباس مثله . وقيل:كانوا يتضارطون في مجالسهم قالته عائشة ،وقيل :كانوا يأتون الرجال في مجالسهم ، وبعضهم يـرى بعضاً ، وقيل : كانوا يلعبون بالحمام، وقيل : كانوا يناقرون بين الديكة ويناطحون بين الكباش وقيل : يبزق بعضهم على بعض ، ويلعبـون بالنـرد والشطرنـج ، ويلبسون المصبغات ، وكان من أخلاقهم مضـغ العلك وتطريف الأصـابع بالحناء ، وحل الإزار ، والصفير ، ولا مانع من أنهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات،قال الزجاج: في هذا إعلام أنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر ، وأن لا يجتمعوا على الهزء والمناهي،ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلون أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله :

﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ؛ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ أي : فما أجابوا بشيء إلا بهذا القول ، رجوعاً منهم الى التكذيب واللجاج والعناد ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية ، وقد تقدم في سورة النمل ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ وتقدم في الأعراف : ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم﴾ وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد ومكرراً للنهي لهم ، والوعيد عليهم ، فقالوا له أولاً ، إئتنـا بعذاب الله ، كما في هذه الآية .

فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا : أخرجوهم كما في الأعـراف والنمـل،وقيل:أنهم قـالوا أولاً أخـرجوهم من قـريتكم ؛ ثم قالوا ثانياً : إئتنا بعذاب الله،ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه .

و ﴿قال : رب انصرني على القوم المفسدين﴾ بإنزال عذابك عليهم، وتحقيق قولي : إن العذاب نازل بهم . وإفسادهم هـو ما سبق من إتيـان الرجال ، وعمل المنكر في ناديهم ، فاستجاب الله سبحانـه دعاءه ، وبعث لعذابهم ملائكة ، وأمرهـم بتبشير ابراهيم قبل عذابهم ولهذا قال :

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾

﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ أي: بالبشارة بالولد وهو إسحق وبولد الولد وهو يعقوب ﴿قالوا﴾ لإبراهيم: ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ وهي سدوم التي كان فيها قوم لوط قيل: كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع ابراهيم عليه السّلام ﴿إن أهلها كانوا ظالمين﴾ تعليل للإهلاك أي: إهلاكنا لهم بهذا السبب.

﴿قال﴾ لهم ابراهيم ﴿إن فيها﴾ أي: في هذه القرية ﴿لوطاً﴾ وهو غير ظالم فكيف تهلكونها؟ ﴿قالوا: نحن أعلم بمن فيها﴾ من الأخيار والأشرار، ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿لننجينه وأهله﴾ من العذاب، قرىء لننجينه بالتخفيف والتشديد، وهما قراءتان سبعيتان.

﴿إلا امرأته كانت﴾ في علم الله وحكمه الأزلي ﴿من الغابرين﴾ أي الباقين في العذاب، المنغمسين فيه، الذين لم يخلصوا منه بسبب أن الدال على الشر له نصيب كفاعله كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على أضياف لوط فصارت واحدة منهم، بسبب الدلالة وقيل: المعنى من الباقين في

القرية التي سينزل بها العذاب فتعذب من جملتهم ، ولا تنجو فيمن نجا ، والغابر لفظ مشترك بين الماضي والباقي وقد تقدم تحقيقه .

﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطاً﴾ بعد مفارقتهم ابراهيم و (أن) زائدة وهو مطرد ﴿سيء بهم﴾ أي : جاءه ما ساءه وأخافه ، لأنه ظنهم من البشر فخاف عليهم من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية .

﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أي : عجز عن تدبيرهم ، وحزن وضاق صدره وضيق الذراع كناية عن العجز وفقد الطاقة ، كما يقال في الكناية عن الفقر : ضاقت يده ، ومقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له ، وذلك لأن طويل الذراع ينال مالا يناله قصير الذراع ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في هود ، ولما شاهدت الملائكة ما حل به من الحزن والتضجر .

﴿قالوا لا تخف﴾ علينا من قومك ﴿ولا تحزن﴾ فإنهم لا يقدرون علينا ﴿إنا منجوك وأهلك﴾ من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم ، قرىء منجوك بالتخفيف والتشديد ، قال المبرد : التقدير وننجي أهلك ﴿إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾ في العذاب .

﴿إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء﴾ مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله ، والرجز العذاب ، أي : عذاباً من السماء ، وهو الرمي بالحجارة ، وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء وقيل: هو الخسف والحصب كما في غير هذا الموضع ، ومعنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء: وسمي العذاب بالرجز لأنه يقلق المعذب من قولهم : ارتجز إذا ارتجس ، أي اضطرب ، قرأ ابن عباس : منزلون بالتشديد وقرىء بالتخفيف ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم .

وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ
﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿ولقد تركنا منها آية بينة﴾ أي أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهي الآثار التي بها من الحجارة التي رجموا بها، حتى أدركها أوائل هذه الأمة وخراب الديار، و آثار منازلهم الخربة: وقال مجاهد: هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر ﴿لقوم﴾ متعلق بتركنا أو بآية أو بينة وهو أظهر ﴿يعقلون﴾ أي: يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول، وخص من يعقل لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها.

﴿وإلى مدين﴾ هو اسم رجل، وقيل: اسم المدينة، فعلى الأول المعنى وأرسلنا إلى مدين وأولاده؛ وعلى الثاني: أرسلنا الى أهل مدين ﴿أخاهم شعيباً﴾ قد تقدم ذكره، وذكر نسبه، وذكر قومه في سورة الأعراف وسورة هود، وأضيف شعيب هنا إليهم بخلافه في قصة نوح وابراهيم ولوط حيث ذكر قوم مؤخراً عنهم، معرفاً بالإضافة الى ضمير كل واحد منهم، لأن الأصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن الله لا يبعث رسولاً الى غير معين.

غير أن قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة

مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالإضافة لنبيهم ، فقيل : قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم ابراهيم ، وأما قوم شعيب ، وهود وصالح ، فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس ، فجرى الكلام على أصله ، فقال : والى مدين أخاهم شعيباً ، والى عاد أخاهم هوداً ذكره الرازي .

﴿فقال : يا قوم اعبدوا الله﴾ أي : أفردوه بالعبادة وخصوه بها ، ولم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن غيره ذلك لأن لوطاً كان في زمن إبراهيم،وإبراهيم سبقه بذلك حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق وانما ذكر عنه ما اختص به من النهي عن الفاحشة وأما غيره فجاءوا في زمن غير مشتهر بالتوحيد ؛ فأمروا به .

﴿ وارجوا اليوم الآخر﴾ أي : توقعوه وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم،قال يونس النحوي : معناه اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال وخافوه ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ حال مؤكدة لعاملها ، والعثو ، والعثي أشد الفساد ، وقد تقدم تفسيره .

﴿فكذبوه﴾ والتكذيب راجع الى الاخبارات الضمنية ، كأنه قال : الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه فلا يقال : إنه لا يكذب الآمر ولا الناهي وإنما يكذب المخبر .

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي : الزلزلة الشديدة وكذا في الأعراف ، وقال في سورة هود : الصيحة ، والقصة واحدة ، قال ابن عباس : أي صيحة جبريل ، وهي سبب الرجفة فرجفت الأرض من صيحته ، والقلوب رجفت بها والاضافة الى السبب لا تنافي الإضافة الى سبب السبب .

﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي في بلدهم وأرضهم أو منازلهم ﴿جاثمين﴾ أي : باركين على الركب ميتين .

﴿وعاداً وثمود﴾ بالصرف وتركه ، بمعنى الحي والقبيلة ، قال الكسائي : قال بعضهم :هو راجع الى أول السورة أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً

وثمود، قال: وأحب إلي أن يكون معطوفاً على: فأخذتهم الرجفة، أي: وأخذت عاداً وثمود، وقال الزجاج التقدير: وأهلكنا عاداً وثمود. وقيل: المعنى اذكر عاداً وثمود إذا ارسلنا اليهم هوداً وصالحاً.

﴿وقد تبين﴾ أي: ظهر ﴿لكم﴾ يامعشر الكفار، ويا أهل مكة ﴿من مساكنهم﴾ أي منازلهم الكائنة بالحجر والاحقاف واليمن آيات بينات تتعظون بها وتتفكرون فيها، وكانوا يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها.

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي يعملونها من الكفر ومعاصي الله ﴿فصدهم﴾ بهذا التنزيين ﴿عن السبيل﴾ أي: الطريق الواضح الموصل الى الحق ﴿وكانوا مستبصرين﴾ بواسطة الرسل؛ يعني لم يكن لهم في ذلك عذر لأن الرسل أوضحوا السبيل قاله الرازي. وقيل: مستبصرين في الضلالة، قاله ابن عباس، أي أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال لكنهم لم يفعلوا. وقال الفراء: كانوا عقلاء ألباء ذوي بصائر في أمور الدنيا، فلم ينفعهم بصائرهم، وقيل: المعنى كانوا مستبصرين في كفرهم وضلالتهم معجبين بها، يحسبون أنهم على هدى، ويرون أن أمرهم حق، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم، أو متبينين أن العذاب لاحق لهم بإخبار الرسل لهم، ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ قال الكسائي: إن شئت كان معطوفاً على عاد، وكان فيه ما فيه؛ وإن شئت كان على: ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي وصد قارون الخ. وقيل: التقدير: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل. وقدم قارون على فرعون، لشرف نسبه بقرابته من موسى، لكونه ابن عمه، وهامان هو وزير فرعون.

﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾ أي بالحجج الظاهرات، والدلالات الواضحات الباهرات ﴿فاستكبروا في الأرض﴾ عن عبادة الله ﴿وما كانوا سابقين﴾ أي فائتين عذابنا، فارين منه، يقال: سبق طالبه إذ فاته، وقيل: سابقين في الكفر، بل قد سبقهم اليه قرون كثيرة.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ
وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ
ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن
شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿فَكُلاًّ﴾ من المذكورين ﴿أخذنا بذنبه﴾ أي عاقبنا بسبب كفره وتكذيبه ، قال الكسائي : أي فأخذنا كُلًّا بذنبه وفيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب .

﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي ريحاً تأتي بالحصباء ، وهي الحصى الصغار فترجمهم بها . وهم قوم لوط ، قاله ابن عباس .

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهو ثمود وأهل مدين ، قاله ابن عباس .

﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارو ن وأصحابه،قاله ابن عباس .

﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهم قوم نوح ؛ وفرعون قاله ابن عباس .

﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ بما فعل بهم فيعذبهم بغير ذنب لأنه قد أرسل اليهم رسله وأنزل اليهم كتبه ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ باستمرارهم على الكفر ، وتكذيبهم للرسل ، وعملهم بمعاصي الله وارتكابهم الذنوب .

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يوالونهم ، ويتكلون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ، ومن الأحياء أو من الأموات ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ لنفسها ، تأوي اليه ، وإن بيتها في

غاية الضعف والوهن ، لا يغني عنها شيئاً لا في حر ، ولا قر ، ولا مطر كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله . فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغني عنهم شيئاً شبه حال من اتخذ الأصنام والأوثان والأحبار والرهبان أولياء وعبدها ، واعتمد عليها ، راجياً لنفعها وشفاعتها ، بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً لا يغني عنها في مطر ولا أذى . قال الفراء : هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً . قال : ولا يحسن الوقف على العنكبوت ، لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء ، شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به ، وقد جوز الوقف على العنكبوت الأخفش وغلطه ابن الأنباري ، قال لأن (اتخذ) صلة للعنكبوت . كأنه قال : كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً ، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول .

والعنكبوت تقع على الواحد والجمع ؛ والمذكر والمؤنث ، ونونه أصلية والواو والتاء مزيدتان ، بدليل قولهم في الجمع عناكيب وفي التصغير عنيكيب ، وهذا مطرد في أسماء الأجناس ؛ ويجمع على عكاب وعكبة وأعكاب وعناكب . وعنكبوتات أيضاً وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً ، وقد يقال لها عنكبات ، والغالب في استعماله التأنيث .

﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ لا بيت أضعف منه ، مما يتخذه الهوام بيتاً ، ولا يدانيه في الوهن ، والوهن شيء من ذلك ، فإن الريح إذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فكما أن أوهن البيوت بيته كذلك أضعف الأديان دين عبدة الأوثان، ومن يعبد غير الله أو يتخذه ولياً وأرباباً من دونه كمقتدي الأحبار والرهبان ومقلديهم .

﴿لو كانوا يعلمون﴾ أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً ، وأن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن ما عبدوها ، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لعلموا بهذا . قال ابن عباس في الآية : ذاك مثل

ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت .

وأخرج أبو داود في مراسيله . عن يزيد بن مرثد قال : قال رسول الله ﷺ : « العنكبوت شيطان مسخه الله ، فمن وجدها فليقتلها »وعن يزيد بن ميسرة قال « العنكبوت شيطان » .

وأخرج الخطيب عن عليّ قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت أنا وأبو بكر الغار ، فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن » .

وروى القرطبي في تفسيره عن عليّ أنه قال : طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر،وعن عطاء الخراساني قال : نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود عليه السلام،ومرة على النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ ما استفهامية ، أو نافية أو موصولة ، ومن للتبيين ، أو مزيدة للتأكيد . وقيل:التقدير قل للكافرين إن الله يعلم أي شيء تدعون من دونه من إنس وجن وملك وحبر ، وراهب وغير ذلك ، وجزم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية ،وعلى تقدير النفي كأنه قيل : يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء يعني ما تدعونه ليس بشيء وهذا تأكيد للمثل وزيادة عليه ، وعلى تقدير الموصولة : إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه ، وهذا أظهر الأوجه فيها ، كما قال الكرخي ويجوز أن تكون (ما) مصدرية و (من شيء) عبارة عن المصدر ، وقرىء يدعون بالتحتية لذكر الأمم قبل هذه الآية وقرىء بالفوقية على الخطاب .

﴿وهو العزيز﴾ الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام والإتقان ، وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جماداً وحيواناً لا علم له ، ولا قدرة ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير .

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ
إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وتلك الأمثال﴾ أي هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن ﴿نضربها للناس﴾ تنبيهاً لهم وتقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿وما يعقلها﴾ أي : ما يفهم صحتها وحسنها وفائدتها ، ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله ﴿إلا العالمون﴾ بالله وبأسمائه وصفاته ، الراسخون في العلم ، المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم ، وما يشاهدونه . لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق الى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام ، كما صور هذا التشبيه بين حال المشرك وحال الموحد ، ودلت الآية على فضل العلم على العقل ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالإيمان ، وأظهر الحق بالبرهان ، ولم يأت الكفار بما أمرهم ، ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل ، وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله :

﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أي :خلقهما متلبساً بالعدل والقسط مراعياً في خلقهما مصالح عباده ، غير قاصد به باطلاً . وقيل: المراد بالحق كلامه وقدرته ، والأول أولى ، لأن المقصود بالذات من خلقهما إفاضة الخير والدلالة على ذاته وصفاته ، كما أشار له بقوله :

﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته ؛ وتفرده بالإلهية وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك بخلاف الكافرين ، أي : فإن لم يؤمنوا فلا يضر ذلك في يقينكم وإيمانكم .

﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب﴾ أي القرآن وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن ، والمحافظة على قراءته تقرباً اليه مع التدبر لآياته ، والتفكر في معانيه من الأوامر والنواهي .

﴿وأقم الصلاة﴾ أي دم على إقامتها وجملة ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ تعليل لما قبلها ، كأنه قيل : صل بهم إن الصلاة الخ والفحشاء ما قبح من العمل ، كالزنا مثلاً ؛ والمنكر ما لا يعرف في الشريعة أي تمنعه عن معاصي الله ، وتبعده منها ، ومعنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سبباً للانتهاء عنها ، والمراد هنا الصلوات المفروضة المكتوبة ، المؤداة بالجماعة قال ابن عباس وابن مسعود:في الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصي .

أخرج ابن مردويه ، وابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله هذا فقال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » .

وأخرج الطبراني ، وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً » .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » . اخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، والبيهقي ، وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعاً نحوه . وأخرج عبد بن حميد ، وغيره عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه . قال السيوطي : وسنده ضعيف . قال ابن كثير في تفسيره : والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وغيرهم .

وقيل : من داوم على الصلاة جره ذلك الى ترك المعاصي والسيئآت كما روي عن أنس قال : كان فتى من الأنصار يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ ، ثم لم يدع من الفواحش شيئاً إلا ركبه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : إن صلاته ستنهاه يوماً ، فلم يلبث أن تاب وحسنت حاله » .

وقيل : معنى الآية أنه ما دام في صلاته فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، ومنه قوله : إن في الصلاة لشغلاً ، وقيل : تنهى عنهما مطلقاً في سائر الأوقات لأن الصلاة تشغل جميع بدن المصلي ، فإذا دخل في المحراب خشع ، وأخبت لربه ، وتذكر أنه واقف بين يدي مولاه ، وأنه تعالى مطلع عليه ، وأنه يراه فصلحت لذلك نفسه ، وتذللت ، و خامرها ارتقاب الله تعالى ، وظهرت على جوارحه هيئتها ، ولو بعد خروجه منها ، ولم يكد يفتر عن ذلك حتى تظله صلاة أخرى ، يرجع بها الى أفضل حاله ، فهذا معنى هذه الآية ، لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون .

لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله ، فهو أبلغ في المقصود ، وأتم في المراد ، فإن الموت ليس له سن محدود ، ولا زمن مخصوص ، ولا مرد معلوم ، وهذا مما لا خلاف فيه . روي عن بعض السلف أنه كان اذا قام الى الصلاة ارتعد واصفر لونه ، فكلم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله ، وحق لي هذا مع ملوك الدنيا ، فكيف مع ملك الملوك ، فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر ، ومن صلاته قاصرة على الإجزاء ، أي إسقاط الطلب عن المكلف ، ولا خشوع فيها ، ولا تذكر ، ولا فضائل كصلاتنا ، فتلك تنزل صاحبها من منزلته حيث كان .

فإن كان مرتكباً للمعاصي قد بعد من الله بسببها ، فتلك الصلاة تتركه يتمادى على بعده . وقيل لابن مسعود: إن فلاناً كثير الصلاة ، فقال : إنها لا تنفع إلا من أطاعها ، ذكره القرطبي . وقيل : أراد بالصلاة القرآن ، وفيه ضعف ، لتقدم ذكر القرآن ، والأول أولى ، وعلى كل حال فإن المراعي للصلاة لا بد وأن يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها .

﴿ولذكر الله﴾ بسائر أنواعه من تحميد ، وتهليل ، وتسبيح ، وغير ذلك ﴿أكبر﴾ من كل شيء أي : أفضل من العبادات كلها بغير ذكر ، وقد نقل القرطبي هذا التقييد عن ابن زيد وقتادة . قال ابن عطية : وعندي أن المعنى

ولذكر الله أكبر على الإطلاق ، أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر ، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك ، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة لأن الانتهاء لا يكون إلا ممن ذكر الله مراقباً له وقيل: ذكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر ، مع المداومة عليه ، قال الفراء وابن قتيبة : المردا بالذكر هنا الصلاة ، والصلاة أكبر من سائر الطاعات وعبر عنها بالذكر كما في قوله فاسعوا الى ذكر الله للدلالة على أن ما فيها من الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات ، وكونها ناهية عن السيئآت وقيل : عبر عنها بالذكر ليستقل بالتعليل كأنه قال : والصلاة أكبر لأنها ذكر الله .

وقيل: المعنى ولذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم ، واختار هذا ابن جرير ، ويؤيده حديث من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم . وقال ابن عباس : يقول ولذكر الله لعباده إذ ذكروه أكبر من ذكرهم إياه .

وعن عبد الله بن ربيعة قال: سألني ابن عباس عن قول الله ولذكر الله أكبر فقلت : ذكر الله بالتسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، قال : ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ، ثم قال اذكروني اذكركم .

وعن ابن مسعود قال :ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله ، وعن ابن عمر نحوه ، وعن ابن عباس أيضاً قال لها وجهان ذكر الله أكبر مما سواه ، (وفي لفظ ذكر الله عندما حرمه) ، وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه .

وعن معاذ بن جبل قال : ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال لا ، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله يقول في كتابه العزيز ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

وعن عنترة قال :قلت لابن عباس أي العمل أفضل ؟ قال ذكر الله .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ؟ وأرفعها في درجاتكم ؟ وخير لكم من إعطاء الذهب

والورق ، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : ذكر الله» أخرجه الترمذي .

وله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً ، قالوا : يارسول الله ومن الغازي في سبيل الله ؟ فقال : لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ، ويختضب دماً لكان الذاكرون الله كثيراً أفضل منه درجة » .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » . وأخرج البخاري عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : «لا يقعد قوم يذكرون الله، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وروي أن أعرابياً قال : يارسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال : « تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله»وفي الباب أحاديث كثيرة لا نطول بذكرها . قال ابن عطاء : أكبر أي أن تبقى معه معصية ،وقيل : ذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته . وقيل : لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني ، ولأن ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى أو ذكره أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم ، والذكر النافع هو الذي يكون مع العلم ، وإقبال القلب وتفرغه مما سوى الله تعالى ، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى .

﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من الذكر ومن سائر الطاعات لا يخفى عليه من ذلك خافية فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً ، ثم شرع سبحانه في بيان إرشاد أهل الكتاب بعد بيان إرشاد أهل الشرك فقال :

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ أي : بالخصلة التي هي أحسن للثواب ، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ، وعن ابن عباس قال : بالتي هي أحسن ، بلا إله إلا الله .

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ بأن أفرطوا في المجادلة ، ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم ، والتخشين في مجادلتهم ، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وقيل : معنى الآية لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن ، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به، من أخبار أهل الكتاب ، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا هم الباقون على كفرهم .

قال مجاهد :هذه الآية محكمة فيجوز مجادلتهم بها ، وقيل : هي منسوخة بآية القتال ، وبذلك قال قتادة ومقاتل ، قال النحاس وغيره : من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ، ولا طلب جزية ولا غير ذلك . وقول مجاهد حسن ، لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة، إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول ، واختار هذا

القول ابن العربي .

قال سعيد بن جبير ومجاهد : المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين ، وآذوا رسول الله ﷺ فجادلهم بالسيف حتى يسلموا او يعطوا الجزية . وقيل : إلا الذين اثبتوا الولد والشريك فيدخل فيه أهل الشرك وعبدة الأوثان ، والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين وعلى جواز تعلم علم الكفار الذي به تتحقق المجادلة الحقة بالتي هي أحسن، قال السمين : الاستثناء متصل وفيه معنيان : أحدهما : إلا الظلمة ، فلا تجادلوهم البتة بل جادلوهم بالسيف والثاني : جادلوهم بغير التي هي أحسن أي : اغلظوا لهم كما اغلظوا عليكم وقرأ ابن عباس (إلا) حرف تنبيه أي : فجادلوهم :

﴿وقولوا﴾ هذا تبيين لمجادلتهم بالتي هي أحسن : ﴿آمنا بالذي أنزل إلينا﴾ من القرآن ﴿وأنزل إليكم﴾ من التوراة والإنجيل ، أي بأنهما منزلان من عند الله وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الاسلامية ، والبعثة المحمدية ، ولا يدخل في ذلك ما حرفوه وبدلوه .

أخرج البخاري والنسائي وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا وإليكم » .

وأخرج البيهقي وأبو نصر السجزي في الإبانة عن جابر ابن عبدالله قال : قال : رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق ، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » .

وعن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب ، وذكر نحو حديث جابر ، ثم قال : فإن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه ،

وما خالف كتاب الله فدعوه وهذه الآية من جنس المجادلة بالأحسن .

﴿وإلهنا وإلهكم واحد﴾ لا شريك له ، ولا ند ، ولا ضد ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي : ونحن معاشر أمة محمد ﷺ مطيعون له خاصة لم نقل عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ، ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أرباباً من دون الله ، ويحتمل أن يراد ونحن جميعاً منقادون له ، ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب ، وطاعتهم أبلغ من طاعتهم .

﴿وكذلك أنزلنا﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ والإشارة الى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة أي ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا ﴿إليك الكتاب﴾ وهو القرآن ، وقيل : المعنى كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن .

﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام وغيره ، وخصهم بإيتائهم الكتاب لكونهم العاملين به ، وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه ، وجحدهم لصفات رسول الله ﷺ المذكورة فيه ، وكان إسلامهم بالمدينة والسورة مكيّة ، فهذا من قبيل الإخبار بالغيب أخبره تعالى بحالهم قبل وقوعه .

﴿ومن هؤلاء﴾ إشارة الى أهل مكة ، والمراد أن منهم وهو من قد أسلم ﴿من يؤمن به﴾ أي بالقرآن ، وقيل : إشارة الى جميع العرب ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ أي القرآن ، والجحود إنما يكون بعد المعرفة ، وعبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها ، وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت الى نون العظمة لمزيد تفخيمها ، وغاية التشنيع على من يجحد بها .

﴿إلا الكافرون﴾ المصممون على كفرهم المتوغلون فيه من المشركين ، ومن أهل الكتاب ككعب بن الأشرف وأضرابه فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم الى معرفة حقيقتها .

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وما كنت﴾ يامحمد ﴿تتلو من قبله من كتاب﴾ أي من قبل القرآن كتاباً ، ولا تقدر على ذلك ، لأنك أميّ لا تقرأ ولا تكتب . و (من) زائدة .

﴿ولا تخطه بيمينك﴾ أي ولا تكتبه لأنك لا تقدر على الكتابة ، وخص اليمين لأن الكتابة ، غالباً تكون باليمين ، أي ولا كنت كاتباً ، قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية قال النحاس : وذلك دليل على نبوته لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب ، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ،

قال ابن عباس :لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب ، وكان أمياً ، قال الحافظ بن حجر في تخريج أحاديث الرافعي : قال البغوي في التهذيب : هل كان النبي ﷺ يحسن الخط ولا يكتب ويحسن الشعر ولا يقوله أو لا ؟ والأصح أنه كان لا يحسنها ولكن كان يميز بين رديء الشعر وجيده ، ذكره الشهاب وما أحسن ما قال آزاد رحمه الله :

ما كان يعرف ألواحاً ولا قلماً وكان يعرف ما في اللوح والقلم

وهذا شروع في الدليل على كون القرآن معجزاً ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة من الكتب المدونة في أخبار الأمم ، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ، ولا محل للشك أبداً ، بل إنكار من أنكر وكفر من كفر ، مجرد عناد وجحود بلا شبهة ، وسماهم المبطلين لأن ارتيابهم

على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته ، ووضوح معجزاته .

﴿بل هو﴾ أي القرآن الذي جئت به ﴿آيات بينات﴾ وقال قتادة ومقاتل : إن الضمير يرجع الى النبي ﷺ أي بل محمد آيات ، أي ذو آيات ،وقرأ ابن مسعود : بل هي آيات بينات ، قال الفراء معنى هذه القراءة بل آيات القرآن آيات بينات،واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل ، وقد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميفع بل هذا آيات بينات ، ولا دليل في هذه على ذلك ، لأن الإشارة يجوز أن تكون الى القرآن كما جاز أن تكون الى النبي ﷺ ، بل رجوعها الى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك الى التأويل ؛ وهو إضراب عن ارتيابهم أي ليس القرآن مما يرتاب فيه لكونه محفوظاً .

﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ يعني العلماء المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده ﷺ ، وحفظوه بعده عن ظهر قلب ، وهذا من خصائص القرآن بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات ، ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ، ولذا جاء في وصف هذه الأمة صدورهم أناجيلهم ،ولذلك لا يقدرون على تحريفه ولا تغييره ، والمراد أنهم يحفظونه تلقيناً منك ، وبعضهم من بعض ، وأنت تلقيته عن جبريل عن اللوح المحفوظ فلم تأخذه من كتاب بطريق تلقيه منه .

﴿وما يجحد بآياتنا﴾ أي القرآن الكريم ﴿إلا الظالمون﴾ أي المجاوزون للحد ، والمتوغلون في الظلم ، ﴿وقالوا﴾ أي المشركون ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ المعنى هـلاّ أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء وذلك كآيات موسى ، وناقة صالح ، وإحياء المسيح للموتى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال :

﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ ينزلها على من يشاء من عباده ، ولا قدرة لأحد على ذلك ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أنذركم بما أمرت وأبين لكم كما ينبغي ليس في قدرتي غير ذلك .

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ مستأنفة للرد على اقتراحهم ، وبيان بطلانه أي أو لم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه فعجزوا ولو أتيتهم بآيات موسى أو بآيات غيره من الأنبياء لقالوا : سحر ، ونحن لا نعرف السحر والكلام مقدور لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة ولما آمنوا كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان ومكان فلا تزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها ، أو تكون في مكان دون مكان ، والمعنى أن القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الأنبياء ، مغنية عن سائر الآيات ، لأن معجزة القرآن تدوم على مر الدهور والزمان ، ثابتة لا تضمحل كغيرها من الآيات .

﴿إن في ذلك﴾ الكتاب الموجود في كل مكان وزمان الى آخر الدهور الموصوف بما ذكر ﴿لرحمة﴾ عظيمة في الدنيا والآخرة ﴿وذكرى﴾ في الدنيا يتذكرون بها وترشدهم الى الحق ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي لقوم يصدقون بما جئت به من عند الله فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك .

أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله وغيرهما عن يحيى بن جعدة قال : جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها ، فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي ﷺ : « كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم اليهم الى ما جاء به غيره الى غيرهم ، فنزلت ، أو لم يكفهم الآية » .

وعن الزهري : أن حفصة جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرؤه ، والنبي ﷺ يتلون وجهه

فقال : والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم » .

وعن عبد الله بن الحرث الأنصاري قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك : فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قط فقال عبد الله بن الحرث لعمر :أما ترى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً ؛ وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فسرى عن رسول الله ﷺ وقال لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظي من الأمم .أخرجه عبدالرازق وابن سعد وابن الضريس .

وأخرج البيهقي وضعفه،عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة فقال : لا تتعلمها وآمن بها ، وتعلموا ما أنزل اليكم وآمنوا به » .

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي قل للمكذبين :كفى الله شهيداً بما وقع بيني وبينكم ،وقال ابن عباس :معناه يشهد لي إني رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب ، وشهادة الله إثبات المعجزّة له بانزال الكتاب عليه والقرآن وحده كاف واف لا حاجة معه الى غيره من الكتب لمن آمن به وعمل صالحاً .

﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله ﷺ ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ أي بما يعبدونه من دون الله ، قال ابن عباس : بالباطل أي بغير الله ، وقيل :بعبادة الشيطان وقيل : بما سوى الله ، والمعاني متقاربة ، ثم ذكر الكفر بعد الباطل لبيان قبح الأول فقال :

﴿وكفروا بالله﴾ وآياته ، والجملة مؤكدة لما قبلها ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ استهزاء وتكذيباً منهم بذلك ، كقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴿ولولا أجل مسمى﴾ قد جعله الله لعذابهم ، وعينه ، وهو القيامة ،وقال الضحاك :الأجل مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا الى العذاب ؛ وقيل :المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى،وقيل : الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل أو الأسر يوم بدر ، والحاصل أن لكل عذاب أجلاً لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه ، كما في قوله سبحانه﴿لكل نبأ مستقر﴾.

﴿لجاءهم العذاب﴾ أي لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم عاجلاً ﴿وليأتينهم بغتة﴾ أي فجأة كوقعة بدر فإنها أتتهم بغتة والجملة مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي حال كونهم لا يعلمون بإتيانه على ما تشهد لهم كتب السير ، ثم ذكر سبحانه أن موعد عذابهم النار فقال :

﴿يستعجلونك بالعذاب﴾ أي يطلبون منك تعجيل عذابهم في الدنيا ، ذكر هذا للتعجب لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة او لكمة ، قد يرى من نفسه الجلد ويقول: باسم الله هات وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد ، فلا يخطر بباله أن يقول هات ما توعدتني به فقوله ويستعجلونك بالعذاب أولا إخبار عنهم ،وقوله ثانياً : يستعجلونك بالعذاب تعجب منهم وقيل : التكرير للتأكيد .

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي : والحال أن مكان العذاب محيط

بهم أي سيحيط بهم عن قرب ، فإن ما هو آت قريب فعبر عن الاستقبال بالحال للدلالة على التحقق والمبالغة أو يراد بجهنم أسبابها الموصلة اليها فلا تأويل في قوله : محيطة ، والأول أظهر ، والمراد بالكافرين جنسهم ، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولاً أولياً ، والمعنى أن جهنم جامعة لهم لا يبقى منهم أحد إلا دخلها .

قال ابن عباس : جهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه ، وتكون فيه الشمس والقمر ، ثم يستوقد فيكون هو جهنم ، وفي هذا نكارة شديدة ! فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأن جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ، ثم ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم فقال :

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي من جميع جهاتهم لقوله تعالى ﴿**من فوقهم** ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل﴾، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة فقد أحاطت بهم جهنم .قيل : خص الجانبين ولم يذكر اليمين ولا الشمال ، ولا الخلف ولا الأمام ، لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ، فنار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فإن من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه وشماله ، وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة ، وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم بل تطفأ ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تطفأ بالدوس عليها بوضع القدم ، ذكره الرازي .

﴿ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ والقائل هو الله سبحانه وتعالى أو بعض ملائكته بأمره في ذلك اليوم ، أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصي ، فلا تفوتوننا قرىء : نقول بالنون وبالتحتية لقوله :قل كفى بالله ، وقرىء : ويقال ذوقوا ، ولما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب ومن المشركين وجمعهم في الإنذار ، وجعلهم من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه فقال الله سبحانه :

﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿ياعبادي الذين آمنوا﴾ أضافهم اليه بعد خطابه لهم تشريفاً وتكريماً، والموصول صفة موضحة أو مميزة ﴿إن أرضي واسعة﴾ قيل: نزلت في ضعفاء مسلمي أهل مكة،يقول الله: إن كنتم في ضيق في مكة من إظهار الإيمان، وفي مكايدة للكفار فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتي وحدي، وتتسهل عليكم.

وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة، وقالوا: نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذر لهم بترك الخروج. قال الزجاج: أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا تمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر الى حيث يتهيأ أن يعبد الله حق عبادته، وقال مطرف بن الشخير: المعنى أن رحمتي واسعة ورزقي لكم واسع، فابتغوه في الأرض. وقيل: البلاد والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كثيراً، قال علي القاري رحمه الله: وأما اليوم فإنا بحمد الله لم نجد أعون على قهر النفس، وأجمع للقلب، وأحث على القناعة، وأطرد للشيطان، وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني، وأظهر له من مكة حرسها الله تعالى[١].

أقول: لولا ما فيها الآن من استطالة أهل البدع على أهل السنة وإيثار التنظيمات السلطانية على الأحكام الرحمانية، وظلم أهل المكس على الحجاج، وعدم الانتصاف من أهل الاعتساف، والحجر على العمل بالسنة، والتمسك بالحق، والله يفعل ما يشاء ويحكم على ما يريد.

(١) من أول (أقول) كلام المصنف الذي ينعي على الحجاز ما كان في عهده من فراهة الشر واستفحال أهل الحرابة وقطاع الطرق. المطيعي.

قال سهل :اذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها الى أرض المطيعين،قلت وأنّى لنا هذا اليوم ؟ ولو علمنا أرضاً طائعة على وجه البسيطة على حسب ما نطق به الكتاب والسنة أو ما ذهب اليه فقهاء الأمة لخرجنا اليها إن شاء الله تعالى ؛ ولكن كم من أمنية ضاعت فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وروي مرفوعاً : من فر بدينه من أرض الى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة ، ولينظر في سنده وتخريجه،وقيل :المعنى : إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة .

﴿فإياي فاعبدون﴾ حتى أورثكموها ، وانتصاب إياي بفعل مضمر ، أي : فاعبدوا إياي ، ثم لما صعب على المؤمنين ترك الأوطان ، ومفارقة الإخوان ، خوفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة ، وشجع المهاجرين لئلا يقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت فقال :

﴿كل نفس﴾ من النفوس ﴿ذائقة الموت﴾ أي : واجدة مرارة الموت وكربه ومشاقه لا محالة كما يجد الذائق طعم المذوق فلا يصعب عليكم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، وهجر الخلان ، بل الأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه ، فلا تخافوا من بعد الشقة ومقاساة المشقة ﴿ثم إلينا﴾ لا الى غيرنا .

﴿ترجعون﴾ بالموت والبعث إلينا فكل حي في سفر الى دار القرار ، وإن طال لبثه في هذه الدار .

عن عليّ قال : قال رسول الله ﷺ لما نزلت :﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ قلت : يارب أيموت الخلائق كلهم ويبقى الأنبياء ؟ فنزلت كل نفس ذائقة الموت،الآية أخرجه ابن مردويه ،وينظر كيف صحته ؟ فإن النبي ﷺ بعد أن يسمع قول الله سبحانه :﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ يعلم أنه ميت ، وقد علم أن من قبله من الأنبياء قد ماتوا ، وأنه خاتم الأنبياء،فكيف ينشأ عن هذه الآية ما نقل عنه علي رضي الله عنه من قوله أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء ؟ فلعل هذه الرواية لا تصح مرفوعة ولا موقوفة .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في هذا ترغيب الى الهجرة، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة كما قال ﴿لنبوئنهم﴾ أي لننزلنهم، وهو مأخوذ من المباءة وهي الإنزال، وقرىء لنثوينهم بالثاء، والمعنى لنعطينهم غرفاً يثوون فيها من الثوى، وهو الإقامة قال الزجاج: يقال: ثوى الرجل إذا أقام وأثويته إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه. قال الأخفش: لا تعجبني هذه القراءة لأنك لا تقول: أثويته الدار، بل تقول: في الدار، وليس في الآية حرف جر في المفعول الثاني.

﴿من الجنة غرفاً﴾ أي: غرف الجنة وهي علاليها جمع علية، ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت الغرف ﴿خالدين فيها﴾ أي مقدرين الخلود في الغرف، لا يموتون أبداً، أو في الجنة، والأول أولى.

﴿نعم أجر العاملين﴾ للأعمال الصالحة أجرهم، بيَّن في هذه الآية: أن للمؤمنين الجنات في مقابلة أن للكافرين النيران، وأن فيها غرفاً تحتها الأنهار: في مقابلة أن تحت الكافرين النار، وبيَّن أن ذلك أجر عملهم بقوله: نعم أجر العاملين في مقابلة ما تقدم للكفار بقوله: ذوقوا ما كنتم تعملون، ولم يذكر

ما فوق المؤمنين لأنهم في أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة الى علو مرتبتهم ، وارتفاع منزلتهم ، .ولم يجعل الماء من تحت أقدامهم ، بل من تحت غرفهم لأن الماء يكون ملتذاً به في أي جهة كان ، وعلى أي بعد كان إذا كان تحت الغرفة ذكره الرازي ، ثم وصف هؤلاء العاملين بقوله :

﴿الذين صبروا﴾ على مشاق التكاليف ، وعلى أذية المشركين لهم ، والهجرة لإظهار الدين وعلى الطاعة ، وعن المعاصي ، ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي : يفوضون أمورهم اليه في كل إقدام وإحجام ، ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر والتوكل ، وهو النظر في حال الدواب فقال :

﴿وكأين﴾ قد تقدم الكلام فيها وأنها أي دخلت عليها كاف التشبيه ، وصار فيها معنى كم كما صرح به الخليل وسيبويه ، وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد ﴿من دابة﴾ وقيل : المعنى وكم من دابة ذات حاجة الى غذاء ﴿لا تحمل رزقها﴾ أي لا تطيق حمله لضعفها ، ولا تدخره لغد ، ولا ترفعه معها مثل البهائم والطير .

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي إنما يرزقها الله من فضله ويرزقكم ، فكيف لا تتوكلون على الله مع قوتكم وقدرتكم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها وعجزها . قال الحسن : تأكل لوقتها لا تدخر شيئاً،وقال مجاهد : يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً .

وعن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ، والمعنى أنها تذهب أول النهار جياعاً ضامرة البطون وتروح آخر النهار الى أوكارها شباعاً ممتلئة البطون ، ولا تدخر شيئاً . قال سفيان بن عيينة : ليس شيء من خلق الله يخبىء إلا الإنسان والفأرة والنملة ، سوّى سبحانه وتعالى في هذه الآية بين الحريص والمتوكل في الرزق ، وبين الراغب والقانع ، وبين الجلد والعاجز يعني أن الجلد لا يتصور

أنه مرزوق بجلده ، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع من الرزق بعجزه .

﴿وهو السميع﴾ الذي يسمع كل مسموع ﴿العليم﴾ بكل معلوم .

أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر ، قال السيوطي : بسند ضعيف عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط التمر ويأكل،فقال لي : مالك لا تأكل ؟قلت :لا أشتهيه يارسول الله،قال : لكني أشتهيه ، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ، ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾، فقال رسول الله ﷺ:إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ؛ ولا أخبىء رزقاً لغد ، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته ما كان عليه النبي ﷺ فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة،وفي إسناده أبو العطوف[1] الجوزي وهو ضعيف . ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم ، وعجب السامع من كونهم يقرون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه ولا يتركون عبادة غيره فقال :

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض﴾ أتى بشيئين،أحدهما يتعلق بالذوات ؛ وهو هذا ، والثاني يتعلق بالصفات ، وهو قوله ﴿وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ ، خلقها ، لا يقدرون على إنكار ذلك ، ولا يتمكنون من جحوده .

﴿فأنى يأفكون ؟﴾ أي : فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده بالإلّهية؟

(١) كذا بالأصل وصوابه : أبو العطوف الجزري وهو الجراح بن منهال روى عن الزهري قال أحمد : كان صاحب غفلة ، وقال ابن المديني : لا يكتب حديثه . وقال البخاري ومسلم : منكر الحديث . وقال النسائي، والدارقطني : متروك. وقال ابن حبان : كان يكذب في الحديث ويشرب الخمر . مات سنة سبع وستين ومائة ؟المطيعي .

وأنه وحده لا شريك له ؟ والاستفهام للإنكار والاستبعاد . ذكر في السموات والأرض الخلق ، وفي الشمس والقمر التسخير ، لأن مجرد خلقهما ليس حكمة ، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ، ولا الصيف ولا الشتاء ، فحينئذ الحكمة إنما هي في تحريكهما وتسخيرهما ، ولما قال المشركون لبعض المؤمنين : لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع الله سبحانه ذلك بقوله :

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له﴾ أي التوسيع في الرزق والتقتير له هو من الله الباسط القابض ، يبسطه لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، على حسب ما تقتضيه حكمته ، وما يليق بأحوال عباده من القبض والبسط ، ولهذا قال : ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده وفسادهم ومنه البسط والتضييق .

﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الأرض من بعد موتها﴾ أي جدبها ، وقحط أهلها ﴿ليقولن : الله﴾ أي يعترفون بذلك لا يجدون الى إنكاره سبيلاً فكيف يشركون به بعد هذا الإقرار ؟ ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف في هذه الآيات ؛ وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك وعدم افراد الله سبحانه بالعبادة أمر الله رسوله ﷺ أن يحمد الله على إقرارهم بذلك وعدم جحودهم ، مع تصلبهم في العناد ، وتشددهم في رد كل ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد ، فقال :

﴿قل : الحمد لله﴾ أي : أحمد الله على أن جعل الحق معك ، وأظهر حجتك عليهم ، وقيل : على إنزال الماء ، وإحياء الأرض بالنبات ، والأول أولى ، ثم ذمهم فقال : ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ الأشياء التي يتعقلها العقلاء فلذلك لا يعلمون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هم عليه عند كل عاقل ، ثم أشار سبحانه الى تحقير الدنيا وتصغيرها ، وأنها من جنس اللعب واللهو ، وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن الدار على الحقيقة هي الدار الآخرة فقال :

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ أي : من جنس ما يلهو به الصبيان ويلعبون به ، وأما القرب ، كالصلاة ، والصوم والحج والاستغفار ، والتسبيح فمن أمور الآخرة لظهور ثمرتها فيها . واللهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا وقيل : هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه ، واللعب هو العبث ، وقيل : اللهو هو الإعراض عن الحق بالكلية ، واللعب : الإقبال على الباطل ، قاله الرازي . وفي هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ، ومعنى الآية أن سرعة زوال الدنيا عن أهلها ، وتقلبهم فيها ، وموتهم عنها ، كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون .

﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها ، قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة : إن الحيوان الحياة ، قال الواحدي وهو قول جميع المفسرين ، ذهبوا الى أن معنى الحيوان ههنا الحياة ، وأنه مصدر ، بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان ، وواو الحيوان مقلوبة عن ياء عند سيبويه وأتباعه ، وقال أبدلت شذوذاً وكذا في حياة علما[1] وقال أبو البقاء : لئلا يلتبس بالتثنية ، وغير سيبويه حمل ذلك على ظاهره ، فالحياة عنده لامها واو ، ولا دليل لسيبويه في حي ، لأن الواو متى انكسر ما قبلها قلبت ياء نحو : عرى ورعى ورضى ، والتقدير لهي دار الحيوان أو ذات الحيوان ، أي : دار الحياة الباقية التي لا تزول ، أولا ينغصها موت ولا مرض ولا هم ولا غم ، وقدر أبو البقاء أن حياة الدار وذلك ليتطابق المبتدأ والخبر والمبالغة أحسن : قال ابن عباس هي الحيوان ؛ أي الباقية .

(١) فعل ماض مبني للمجهول والألف للإطلاق ، ويبدو أنها شطرة من رجز.المطيعي .

وعن أبي جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : « ياعجباً كل العجب من مصدق بدار الحيوان ، وهو ليسعى لدار الغرور » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب وهو مرسل ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أن الحياة هي حياة الآخرة ، أو يعلمون شيئا من العلم لما آثروا الدار الفانية المنغصة على الآخرة الباقية ، ثم بيَّن سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلا مجرد تأثير الحياة فقال :

﴿فإذا ركبوا في الفلك﴾ أي : إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق فقال:رجعوا الى الفطرة ،والركوب هو الاستعلاء وهو متعد بنفسه ،وإنما عدى بكلمة (في) للإشعار بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة ﴿دعوا الله﴾ وحده ﴿مخلصين له الدين﴾ بصدق نياتهم ، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه .

﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ وآمنوا ﴿إذا هم يشركون﴾ أي فاجأوا المعاودة الى الشرك ودعوا غير الله سبحانه ، وعادوا الى ما كانوا عليه من العناد .وقيل : كان أهل الجاهلية اذا ركبوا البحر حملوا الأصنام ، فإذا اشتد الريح ألقوها في البحر ، وقالوا يارب يارب ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الإنجاء .

﴿وليتمتعوا﴾ أي فاجأوا الشرك بالله ليكفروا ويجحدوا بنعمة الله وليتمتعوا بها ،فاللام في الفعلين لام كي ، وفيه شيء لأنه ليس الحامل لهم على الإشراك قصد الكفر ، والظاهر أنها لام العاقبة والمآل ، كما أشار له الشهاب ، وقيل:اللام للتعليل ، والمعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلا التمتع به في العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة .وقيل : هما لاما الأمر تهديداً ووعيداً أي:اكفروا بما أعطيناكم من النعمة ، وتمتعوا . ويدل على هذا المعنى قراءة أبيّ وتمتعوا ، وهذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة أبي عمرو،وورش بكسر اللام،وأما على قراءة الجمهور بسكونها،فلا خلاف أنها لام الأمر .

﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة ذلك الأمر وما فيه من الوبال عليهم ، وفيه تهديد لهم عظيم .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

﴿أولم يروا﴾ أي ألم ينظر كفار قريش ﴿أنا جعلنا﴾ حرمهم أي بلدهم مكة ﴿حرماً آمنا﴾ يأمن فيه ساكنه من الغارة، والقتل، والسبي، والنهب، فصاروا في سلامة وعافية مما صار فيه غيرهم من العرب، فإنهم في كل حين تطرقهم الغارات، ويجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها.

﴿ويتخطف الناس﴾ جملة حالية، أي وهم يتخطف الناس ﴿من حولهم﴾ بالقتل والسبي والنهب والخطف: الأخذ بسرعة، وقد مضى تحقيق معناه في سورة القصص، والجملة حالية ﴿أفبالباطل يؤمنون؟﴾ وهو الشرك والأصنام والشيطان بعد ظهور حجة الله عليهم وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم والإسلام ويجعلون كفرها مكان شكرها وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره.

﴿ومن﴾ أي: لا أحد ﴿أظلم ممن افترى على الله كذباً؟﴾ وهو من زعم أن لله شريكاً ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أي كذب بالرسول الذي أرسل اليه، أو الكتاب الذي أنزله على رسوله. وقال السدي: بالتوحيد والظاهر شموله لما يصدق عليه أنه حق، ثم هدد المكذبين وتوعدهم فقال:

﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين؟﴾ أي مكان يستقرون فيه،

والاستفهام للتقرير، والمعنى أليس يستحقون الاستقرار فيها ؟ وقد فعلوا ما فعلوا لأن همزة الإنكار ، إذا دخلت على النفي صار إيجاباً فيرجع الى معنى التقرير . أو ألم يصح عندهم أن جهنم مثواهم حين اجترأوا مثل هذه الجرأة ؟ ثم لما ذكر حال المشركين الجاحدين التوحيد ، الكافرين بنعم الله ، أردفه بحال عباده الصالحين فقال :

﴿والذين جاهدوا﴾ أي : أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم ، على ما دل عليه بالمفاعلة ﴿فينا﴾ أي : في شأن الله لطلب مرضاته ، ورجاء ما عنده من الخير وقيل: في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا ، ومراقبتنا ، خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار ، وغيرهم من كل ما ينبغي الجهاد فيه ، بالقول والفعل ، في الشدة والرخاء ، ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن ، وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا .

﴿لنهدينهم سبلنا﴾ أي سبل السير والطريق الموصل إلينا وقيل :لنزيدنهم هداية الى سبل الخير ، وتوفيقاً .وعن ابن عطاء :جاهدوا في رضانا لنهدينهم الى الوصول الى محل الرضوان ، وعن الجنيد : جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص او جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا ، والأنس بنا ، قال ابن عطية : هي مكيّة نزلت قبل فرض الجهاد العرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين الله ، وطلب مرضاته .

وقيل : الآية هذه نزلت في العباد ، قال سفيان بن عيينة: اذا اختلف الناس فانظروا ماعليه أهل الثغور ، فإن الله تعالى يقول : والذين جاهدوا فينا الخ وقيل: المجاهدة الصبر على الطاعات ، والمخالفة للهوى . وقال الفضيل بن عياض :والذين جاهدوا فينا أي : في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به . وقال سهل بن عبدالله : الذين جاهدوا بإقامة السنة وإماتة البدعة لنهدينهم سبل الجنة .وقال ابن عباس: الذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وقال أبو سليمان الداراني : الذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا أو عن بعضهم : من عمل بما علم وفق لعلم ما لم يعلم .

وقال ابراهيم بن أدهم :هي في الذين يعملون بما يعلمون،وقال الداراني أيضاً :ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين وأعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله .

قال ابن عيينة : مثل السنة في الدنيا،كمثل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم ، فكذلك من لزم السنة في الدنيا سلم وظاهر الآية العموم فيدخل تحته كل ذلك ، قال النسفي: أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ، ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس ، والشيطان ، وأعداء الدين .

﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ بالنصر والعون في دنياهم والمغفرة في عقباهم ، وثوابهم الجنة في الآخرة ، ومن كان الله معه لا يخذل أبداً ودخلت لام التوكيد على (مع) بتأويل كونها اسماً أو على أنها حرف ودخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار ،كما تقول :إن زيداً لفي الدار والبحث مقرر في علم النحو ، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر إظهاراً لشرفهم بوصف الاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم

﴿هي ستون أو تسع وخمسون آية﴾

قال القرطبي: كلها مكيّة بلا خلاف. قال ابن عباس: نزلت بمكة، وعن ابن الزبير مثله. وقال البيضاوي، الا قوله: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾. والاول أولى.

وأخرج عبد الرزاق، واحمد - قال السيوطي بسند حسن - عن رجل من الصحابة: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها سورة الروم، وأخرج البزار عن اغر المزني مثله. وعن عبد الملك بن عمير أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد بن قانع من طريق ابن عمير مثل حديث الرجل الذي من الصحابة، وزاد فتردد فيها فلما انصرف قال: «انما يلبس علينا في صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة فليحسن الطهور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾

﴿الٓمٓ﴾ قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة في فاتحة سورة البقرة ، والله أعلم بمراده بذلك .

﴿غلبت الروم﴾ قرىء مبنياً للمفعول وللفاعل . قال النحــاس : قراءة الناس بضم الغين وكسر اللام ، قال أهل التفسير : غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة ، وقالوا : الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب ، وافتخروا على المسلمين ، فقالوا : نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، أي : نصارى ، فهم أقرب الى الاسلام ، والفرس مجوس فهم أقرب الى كفار قريش وفارس اسم أعجمي علم على تلك القبيلة ، فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، بل والعجمة ، وعن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت الٓمٓ غلبت الروم ، وقرأها على البناء للفاعل ، ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس ، وعن أبي الدرداء قال : سيجيء أقوام يقرأون الٓمٓ غلبت يعني بالفتـح وإنما هي غلبت يعني بالضم ، والروم اسم قبيلة سميت باسم جدها ، وهو روم[1] بن عيصو بن

(١) لا أصل لكلام ابن جزي من علم التاريخ ولا من علم الأجناس ولا من علوم الدين ، والروم يعدون سلالة إبراهيم وغير الروم على الإطلاق برابرة حتى بعد دخولهم المسيحية ؟ المطيعي .

إسحق ابن ابـراهيم قاله ابن جزي في تفسيره ، وسمي عيصو لأنه كان مع يعقوب في بطن،فعند خروجهما تزاحما ، وأراد كل أن يخرج قبل صاحبه،فقال عيصو ليعقوب : إن لم أخرج قبلك وإلا خرجـت من جنبها ، فتأخر يعقوب شفقة منه فلذا كان أبا الأنبياء ، وعيصو أبا الجبارين،كذا قيل والله أعلم،قيل : وكانت هذه الحروب بين أذرعـات وبصرى ، والملك بفارس يومئـذ كسرى أبرويز .

﴿في أدنى الأرض﴾ متعلق بغلبت أي أقرب أرض من أرض العرب ، أو في أقرب أرض العرب منهم . قيل : هي أرض الجزيرة ، وقيل : أذرعات وقيـل : كسكر ، وقيـل الأردن ، وقيـل فلسـطين[٢] وهـذه المـواضـع هي أقـرب الى بلاد العرب من غيرها ، وإنما حملت الأرض على أرض العرب لأنها المعهودة في ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب ، وقيل : إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والتقدير في أدنى أرضهم فيعود الضمير الى الروم ، ويكون المعنى في أقرب أرض الروم من العرب الى فارس ، والمراد بالجزيرة ما بين دجلة والفرات ، وليس المراد بها جزيرة العرب وحدها على ما روي عن الأصمعي :أنها من أقصى عدن الى ريف العراق طولاً ، ومن جدة وما والاها الى أطراف الشام عرضاً .

وسبب تسميتها جزيرة،إحاطة البحار والأنهار العظيمة بها ، كبحر الحبشة وبحر فارس ، ودجلة والفرات .وقال ابن جزي في تفسيره : الجزيرة بين الشام

---

(٢) الحقيقة التي أجمع المؤرخون لهذه الحرب عليها أن الفرس انتصروا على الروم ودخلوا بيت المقـدس وانتزعوا منه الصليب المقدس الذي يزعم الرومان أنه الذي صلب عليه المسيح . فتأهب الروم للكر على الفرس فانتصروا عليهم بقيا دة ملكهم هرقل واستردوا الصليب وفي أثناء تجول هرقل في بلاد الشام سمع بالبعثة المحمدية فبعـث من يطلب أحداً من مكة يعلم بخبر النبي ﷺ وكان يومئذ بغزة كما في حديث البخاري واستاق له رجاله أبا سفيان بن حرب وجرى بينهما الحوار المعروف الذي استنتج منه الإمبراطور أن صاحب هذه الدعوة سيملك موضع قدميه فالمعركة محددة المعالم معروفة الأماكن ؟ . المطيعي .

والعراق . وهي أول الروم إلى فارس . قال ابن عطية : إن كانت الوقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم .

وعن ابن عباس قال : كان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم لأنهم كانوا أصحاب أوثان ؛ وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «أما إنهم سيّغلبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ؛ وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : ألا جعلته أراه قال دون العشرة ، فظهرت الروم بعد ذلك. فذلك قوله : ألم غلبت الروم ، فغلبت ثم غلبت بعد . قال سفيان : سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر .

وعن البراء بن عازب نحوه ، وزاد أنه لما مضى الأجل ولم تغلب الروم فارس ساء النبي ﷺ ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه ، وقال: ما دعاك الى هذا ؟ قال : تصديقاً لله ولرسوله ، فقال : تعرض لهم وأعظم الخطة ، واجعله الى بضع سنين ، فأتاهم أبو بكر فقال : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد ، قالوا : نعم ، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا رومية فقمر[1] أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هذا السحت تصدق به . ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد: أن العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار ، وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة والقصة حجة عليهما ، لا لهما لأنها كانت قبل تحريم القمار ، وفيه : هذه السحت تصدق به .

---

(١) قمر أبو بكر أي كسب الرهان وهو من القمار الذي حرم بعد ذلك . المطيعي .

﴿وهم من بعد غلبهم﴾ أي : والروم من بعد غلب فارس إياهم ﴿سيغلبون﴾ أهل فارس ، والغلب والغلبة لغتان ﴿في بضع سنين﴾ قد تقدم تفسير البضع واشتقاقه في سورة يوسف ، والمراد هنا : ما بين الثلاثة الى العشرة ،وقيل : إلى التسع ، وقيل :الى السبع ،وقيل : ما دون العشرة ، وإنما أبهم البضع ولم يبينه ، وإن كان معلوماً لنبيه صلى الله عليه وسلم لإدخال الرعب والخوف عليهم في كل وقت ، كما يؤخذ ذلك من تفسير الفخر الرازي .

أخرج الترمذي وصححه ، والدارقطني في الأفراد ، والطبراني ، وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل ، والبيهقي في الشعب،عن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت : الم غلبت الروم الآية،كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل الكتاب، وفي ذلك يقول الله : ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الخ وكانت قريش تحب ظهور فارس، لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة : الٓمٓ غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين فقال ناس من قريش لأبي بكر:ذلك بيننا وبينكم ، يزعم صاحبك ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ فقال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر : لم تجعل البضع ثلاث سنين الى تسع سنين ؟ فسم بيننا وبينك وسطا ننتهي اليه قال فسموا بينهم ست سنين فمضت الست قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم ، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين ، لأن الله قال في بضع سنين،فأسلم عند ذلك ناس كثير .

وأخرج الترمذي وحسنه ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأبي بكر : « ألا احتطت يا أبا بكر؟ فإن البضع ما بين ثلاث الى تسع » . وأخرج

البخاري عنه في تاريخه نحوه ، وفي الباب روايات . وما ذكرنا يغني عما سواه .

﴿لله الأمر﴾ أي هو المتفرد بالقدرة وانفاذ الأحكام ﴿من قبل ومن بعد﴾ أي من وقت المغلوبية ووقت الغالبية . فهو لف ونشر مرتب على الآية وقال أبو السعود : أي في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا ، وحين يغلبون والمعنى أن كُلاًّ من كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ، ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه ، وتلك الايام نداولها بين الناس انتهى . قرىء بضم الظرفين لكونهما مقطوعين عن الإضافة أي من قبل الغلب ، ومن بعده ، أو من قبل كل أمر وبعده . قال الزجاج: معنى الآية من متقدم ومن متأخر ، وحكى الكسائي من قبل ومن بعد ، بكسر الأول منوناً وضم الثاني بلا تنوين . وحكى الفراء بكسرهما من غير تنوين ، وغلطه النحاس ، وقال : إنما يجوز مكسوراً منوناً، تلت وقد قرىء بذلك ، ووجهه أنه لم ينو إضافتهما فأعربهما وقال شهاب الدين : وقد قرىء بكسرهما منونين .

﴿ويومئذ﴾ أي ويوم أن تغلب الروم على فارس ، ويحل ما وعد الله من غلبتهم ﴿يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ للروم على فارس لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب بخلاف فارس فإنهم لا كتاب لهم ، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم ، وقيل : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، والأول أولى، قال : الزجاج هذه الآية من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله ، لأنه أنبأ بما سيكون وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه .

﴿ينصر من يشاء﴾ أن ينصره ﴿وهو العزيز﴾ الغالب القاهر ﴿الرحيم﴾ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين، وقيل المراد بالرحمة هنا الدنيوية وهي شاملة للمسلم والكافر ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ أي وعد الله وعداً لا يخلفه وهو ظهور الروم على فارس ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ بجهلهم وعدم تفكرهم إن الله لا يخلف وعده ؛ وهم الكفار . وقيل : كفار مكة على الخصوص نفى عنهم العلم النافع للآخرة ، وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا فقال :

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿يعلمون﴾ بدل من لا يعلمون ، وهذا أحسن من قول الحوفي : إنها مستأنفة من حيث المعنى،إلا أن الصناعة لا تساعد عليه ، لأن بدل فعل مثبت من فعل منفي لا يصح ، والضمير للأكثر وكذا يقال فيما بعده ، وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل ، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا .

﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ أي ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا وملاذها ، وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين اليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع . وقيل : الظاهر الباطل،وقيل : يعني معايشهم كيف يكسبون ، ويتجرون ، ومتى يغرسون ، ومتى يزرعون ، ومتى يحصدون .

قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطىء وهو لا يحسن يصلي . وقيل : يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها ، وقيل : لا يعلمون الدنيا بحقيقتها إنما يعلمون ظاهرها ، وهو ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها ، وهو مضارها ومتاعبها . وأفادت الآية الكريمة أن للدنيا ظاهراً و باطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، وباطنها أنها مجاز الى الآخرة يتزود منها اليها بالطاعة ، وبالأعمال الصالحة ، وتنكير الظاهر،يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها .

﴿وهم عن الآخرة﴾ التي هي النعمة الدائمة واللذة الخالصة ﴿هم غافلون﴾ لا يلتفتون اليها ولا يعدون لها ما تحتاج اليه ؛ أو غافلون عن الإيمان بها ، والتصديق بمجيئها،وفيه أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ، وإعادة

لفظ (هم) الثانية للتأكيد .

﴿أو لم يتفكروا ؟﴾ الهمزة للإنكار عليهم ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره ﴿في أنفسهم﴾ ظرف للتفكر وليس معفولاً للتفكر ، والمعنى أن أسباب التفكر حاصلة لهم ، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانيته تعالى وصدق أنبيائه ، وقيل إنها مفعول التفكر .

والمعنى أولم يتفكروا في خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئاً . والأول أولى ، لأن المعنى أولم يتفكروا في قلوبهم الفارغة من الفكر التي هي أقرب اليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت يجازى فيه على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها،جار على الحكمة في التدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت .

﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما﴾ متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول . وقيل : معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلاً عليه ، (وما) في (ماخلق) نافية أي لم يخلقها ﴿إلا بالحق﴾ الثابت الذي يحق ثبوته أو هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض ، أي : بما خلق الله ويضعف أن تكون استفهامية ، بمعنى النفي ، والباء للسببية ، أو هي ومجرورها في محل النصب على الحال ، أي متلبسة بالحق . قال الفراء: معناه إلا للحق ، أي للثواب والعقاب ،وقيل : بالحق بالعدل ،وقيل :بالحكمة ، وقيل : إنه هو الحق ، وللحق خلقها .

﴿وأجل مسمى﴾ للسموات والأرض وما بينهما تنتهي اليه ، وهو يوم القيامة ، وفي هذا تنبيه على الفناء وأن لكل مخلوق أجلاً لا يجاوزه ، وقيل: معناه أنه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء ﴿وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿لكافرون﴾ واللام هي المؤكدة والمراد بهؤلاء الكفار على الاطلاق أو كفار مكة .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ
فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ
أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾

﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار، والمعنى أنهم قد ساروا وشاهدوا ﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من طوائف الكفار والأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم بالله، وجحودهم للحق، وتكذيبهم للرسل.

﴿كانوا أشد منهم قوة﴾ كعاد وثمود، والجملة مبينة للكيفية التي كانوا عليها وأنهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الأمور الدنيوية؛ وقال ابن عمر: كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل، أخرجه ابن مردويه ﴿وأثاروا الأرض﴾ أي حرثوها وقلبوها للزراعة، وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل مكة أهل حرث.

﴿وعمروها﴾ عمارة ﴿أكثر مما عمروها﴾ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش، فعمروا الأرض بالأبنية والزراعة والغرس ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: المعجزات والحجج الظاهرات وقيل: بالأحكام الشرعية ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ بتعذيبهم على غير ذنب، وإهلاكهم بغير جرم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالكفر والتكذيب للرسل.

﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا﴾ أي: عملوا السيئات من الشرك والمعاصي ﴿السوآى﴾ هي فعلى من السوء تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح، أي كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات. وقيل: هي اسم لجهنم كما أن الحسنى اسم للجنة، أو مصدر كاليسرى، والذكرى، وصفت به العقوبة مبالغة، وقرىء عاقبة بالرفع على أنها اسم كان، والخبر السوآى، أي الفعلة او الخصلة او العقوبة السوآى، ومن القائلين بأن السوآى جهنم، الفراء والزجاج وابن قتيبة، وأكثر المفسرين. وسميت سوآى لأنها تسوء صاحبها.

﴿أن كذبوا﴾ أي: لأن كذبوا ﴿بآيات الله﴾ التي أنزلها على رسوله، أو بأن كذبوا،قال الزجاج: المعنى ثم كان عاقبة الذين أشركوا تكذيبهم بآيات الله واستهزاؤهم بها ﴿وكانوا بها يستهزئون﴾ عطف على كذبوا، داخل معه في حكم العلية أو في حكم الاسمية لكان أو الخبرية لهما.

﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي الى موقف الحساب؛ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء باساءته، وأفرد الضمير في (يعيده) باعتبار لفظ الخلق وجمعه في (ترجعون) باعتبار معناه وقرىء يرجعون بالتحتية والفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة.

﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ قرىء يبلس على البناء للفاعل يقال؛ أبلس الرجل إذا سكت، وانقطعت حجته؛ فهو قاصر لا يتعدى،قال الفراء والزجاج: المبلس الساكت المنقطع في حجته، الذي أيس أن يهتدي اليها، وقرىء مبنياً للمفعول، وفيه بعد، لأن أبلس لا يتعدى وقال الكلبي: أي يأس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب، وقدمنا تفسير الإبلاس عند قوله: فإذا هم مبلسون، وقال ابن عباس: يبلس يبتئس، وعنه يكتئب وعنه الإبلاس الفضيحة.

وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾
وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾
يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ولم يكن لهم﴾ أي لا يكون للمشركين يوم تقوم الساعة ﴿من شركائهم﴾ الذين عبدوهم من دون الله، واشركوهم، وهم الأصنام ليشفعوا لهم ﴿شفعاء﴾ يجيرونهم من عذاب الله ﴿وكانوا﴾ في ذلك الوقت ﴿بشركائهم﴾ أي بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿كافرين﴾ أي جاحدين لكونهم آلهة لأنهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون ولا يضرون، وقيل: إن معنى الآية كانوا كافرين في الدنيا بسبب عبادتهم، والأول أولى.

﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ أي يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله؛ الله يبدأ الخلق والمراد بالتفرق أن كل طائفة تنفرد، فالمؤمنون يصيرون الى الجنة، والكافرون الى النار، وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر، ومثله قوله فريق في الجنة وفريق في السعير، وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبداً، ثم بيَّن الله سبحانه كيفية تفرقهم فقال:

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال النحاس: سمعت الزجاج يقول معنى (أما) دع ما كنا فيه وخذ في غيره، وكذا قال سيبويه إن معناها مهما يكن من شيء فخذ في غير ما كنا فيه.

﴿فهم في روضة﴾ الروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة ؛ وقيل :البستان الذي هو في غاية النضارة قال المفسرون :والمراد بها هنا الجنة ، والتنكير لإبهام أمرها وتفخيم شأنها قال أبوعبيد : الروضة ما كان في سفل ، فإذا كان مرتفعاً فهو ترعة . وقال غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في مكان مرتفع .

﴿يحبرون﴾ الحبور والحبرة السرور ، أي فهم في رياض الجنة ينعمون وقال ابن عباس : يحبرون يكرمون . وقال النحاس : حكى الكسائي حبرته أي أكرمته ونعمته ، وقيل : يحلون،والأولى تفسير يحبرون بالسرور ، كما هو المعنى العربي ، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام ، والنعيم ، وفي السرور زيادة على ذلك ،وقيل : التحبير التحسين فمعنى يحبرون يحسن اليهم ، وقيل: هو السماع الذي يسمعون في الجنة ،وقيل :غير ذلك والوجه ما ذكرناه .

وأخرج الديلمي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة قال الله :أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم ، فيميزون في كثب المسك والعنبر ، ثم يقول للملائكة اسمعوهم من تسبيحي ، وتحميدي ، وتهليلي ، قال فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط » .

وعن مجاهد قال :ينادي مناد يوم القيامة فذكر نحوه . وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح :في الجنة شجر على ساق ، قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام ، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم ، فيحدثون في ظلها ، فيشتهي بعضهم ، ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا ، وعن أبي هريرة مرفوعاً نحوه ، أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر .

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي القرآن ﴿ولقاء الآخرة﴾ أي البعث ، والجنة والنار ﴿فأولئك﴾ المتصفون بهذه الصفات ﴿في العذاب

محضرون﴾ أي مقيمون فيه لا يغيبون عنه ، ولا يخفف عنهم،كقوله ﴿وماهم بخارجين منها﴾ وقيل : مجموعون . وقيل نازلون . وقيل: معذبون ،والمعاني متقاربة ، والمراد دوام عذابهم ، ثم لمّا بيّن عاقبة طائفة المؤمنين ، وطائفة الكافرين ، أرشد المؤمنين الى ما فيه الأجر الوافر ، والخير العام ؛ فقال :

﴿فسبحانَ الله﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فإذا عملتم ذلك فسبحوا الله ، أي نزهوه عما لا يليق به، وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أولى ،وقيل :صلوا كما سيأتي ﴿حين تمسون ، وحين تصبحون﴾ أي في وقت الصباح والمساء ، وفي العشي ، وفي وقت الظهيرة ، وعلى أن المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس ، فقوله«حين تمسون»صلاة المغرب والعشاء ، وقوله حين تصبحون صلاة الفجر .

﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ معترضة مسوقة للإرشاد الى الحمد والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح ، كما في قوله سبحانه : فسبح بحمد ربك وقوله : ونحن نسبح بحمدك ، وقيل :معنى وله الحمد الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد والأول أولى .

﴿وعشياً﴾ عطف على حين ، وفيه صلاة العصر ، والعشي من صلاة المغرب الى العتمة،قاله الجوهري ، وقال قوم :هو من زوال الشمس الى طلوع الفجر ، أي الحمد له يكون في السموات والأرض ﴿وحين تظهرون﴾ أي تصلون صلاة الظهر ، كذا قال الضحاك ، وسعيد بن جبير، وغيرهما قال الواحدي : قال المفسرون : إن معنى فسبحان الله فصلو الله ،قال النحاس: أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات الخمس،قال :وسمعت محمد بن يزيد يقول:حقيقته عندي فسبحوا الله في الصلوات ، لأن التسبيح يكون في الصلاة وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة ،وعنه قال : جمعت هذه الآية

مواقيت الصلاة ، فسبحان الله حين تمسون المغرب والعشاء ، وحين تصبحون الفجر وعشيا العصر ، وحين تظهرون الظهر .

وقد وردت أحاديث صحاح في فضل التسبيح ، وثواب المسبح ، وأخرج أحمد ، وابن السني والطبراني ، وغيرهم ، عن معاذ بن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذي وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان الله حين تمسون ، وحين تصبحون ، وله الحمد الآية » وفي إسناده ابن لهيعة .

وأخرج أبو داود ، والطبراني ، وابن السني وغيرهم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : «**من قال حين يصبح : سبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون** ، أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته » وإسناده ضعيف .

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كالإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والمؤمن من الكافر ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ كالنطفة والبيضة من الإنسان والطير ، والكافر من المؤمن ، وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران قيل : ووجه تعلق هذه الآية بالتي قبلها أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود ، وهو اليقظة ، وعند العشاء يخرج من اليقظة ، الى النوم .

﴿ويحيي الأرض﴾ بالنبات ﴿بعد موتها﴾ باليباس ، وهو شبيه بإخراج الحي من الميت ﴿وكذلك﴾ الإخراج ﴿تخرجون﴾ من قبوركم قرىء على البناء للمفعول والفاعل فأسند الخروج اليهم كقوله : يخرجون من الأجداث ، والمعنى أن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الميت من الحي وعكسه .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ومن آياته﴾ الباهرة الدالة على البعث ، وذكر لفظ من آياته ست مرات ، تنتهي عند قوله : إذا أنتم تخرجون . ذكر فيها بدء خلق الإنسان آية آية ، الى حين بعثه من القبور ، وختم هذه الآية بقيام السموات والأرض لكونه من العوارض اللازمة ، لأن كُلًّا من السماء والأرض لا يخرج عن مكانه فيتعجب من وقوف الأرض ، وعدم نزولها ، ومن علو السماء وثباتها بغير عمد ، ثم أتبع ذلك بالنشأة الآخرة ، وهي الخروج من الأرض ، وذكر من الأنفس أمرين :خلقكم وخلق لكم من أنفسكم،وذكر من الآفاق السماء والأرض وذكر من لوازم الإنسان اختلاف الألسنة واختلاف اللون،وذكر من عوارضه المنام والابتغاء،ومن عوارض الآفاق البرق والمطر ومن لوازمهما قيام السماء وقيام الأرض كذا في النهر،فجملة ما يتعلق بالنوع الإنساني ستة أشياء : اثنان أصول ، واثنان لوازم ، واثنان عوارض ، وستة متعلقة بالآفاق : اثنان أصول ، واثنان لوازم واثنان عوارض .

﴿أن خلقكم﴾ أي خلق أباكم آدم ﴿من تراب﴾ وخلقكم في ضمن خلقه ، لأن الفرع مستمد من الأصل ، ومأخوذ منه ، وقد مضى تفسير هذا في الأنعام .

﴿ثم إذا انتم بشر﴾ الترتيب والمهلة هنا ظاهران ، فإنهم إنما يصيرون بشراً بعد أطوار كثيرة و (اذا) هي الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة الى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع من كونه نطفة ، ثم علقة ، ثم

مضغة ، ثم عظماً مكسواً لحماً فاجأ البشرية والانتشار ﴿تنتشرون﴾ أي تنصرفون فيما هو قوام معايشكم ، وتنبسطون في الأرض .

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم﴾ أي من جنسكم في البشرية والإنسانية ﴿أزواجاً﴾ وقيل : المراد حواء فإنه خلقها من ضلع آدم ، والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال ونطف النساء ﴿لتسكنوا﴾ أي : تألفوا وتميلوا ﴿اليها﴾ أي الى الأزواج فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر ولا يميل قلبه اليه .

﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي : وداداً وترحماً بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم من قبل ذلك معرفة فضلا عن مودة ورحمة ،وقال مجاهد:المودة الجماع،والرحمة الولد،وبه قال الحسن وابن عباس،وقال السدي:المودة المحبة ،والرحمة: الشفقة وقيل :المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها من أن يصيبها بسوء وقيل: المودة للشابة ، والرحمة: للعجوز وقيل: المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان ، أي بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة .

﴿إن في ذلك﴾ المذكور سابقاً ﴿لآيات﴾ عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة البرهان على قدرته سبحانه على البعث والنشور ﴿لقوم يتفكرون﴾ أن قوام الدنيا بوجود التناسل ، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له ، يتحصل عنه ، أو لأن الفكر يؤدي الى الوقوف على المعاني المطلوبة من التأنس والتجانس بين الأشياء كالزوجين وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام .

﴿ومن آياته﴾ الدالة على أمر البعث ، وما يتلوه من الجزاء ﴿خلق السموات والأرض﴾ فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة بلا مادة مساعدة لها وجعلها باقية ما دامت هذه الدار ، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ، ما هو عبرة للمعتبرين ، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم وينشركم

من قبوركم . وقدم السماء على الأرض لأن السماء كالذكر ، فنزول المطر من السماء على الأرض كنزول المني من الذكر في المرأة ، لأن الأرض تنبت وتخضر بالمطر .

﴿واختلاف ألسنتكم﴾ أي : لغاتكم من عرب ، وعجم ، وترك ، وروم ، وغير ذلك،بأن علم كل صنف لغته ، أو ألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس النطق وأشكاله،فإنك لا تكاد تسمع متكلمين متساويين في الكيفية من كل وجه .

﴿وألوانكم﴾ من البياض ، والسواد، والحمرة ، والصفرة ، والشقرة ، والزرقة ، والخضرة ، مع كونكم أولاد رجل واحد ، وأم واحدة ، يجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية ، وفصل واحد وهو الناطقية ، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم ، لا يلتبس هذا بهذا ، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد ، حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما ، والأمور الملاقية لهما في التخليق ، يختلفان في شيء من ذلك لا محالة ، وإن كانا في غاية التشابه ، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يفهمه إلا المتفكرون ولو اتفقت الأصوات ، والصور ، وتشاكلت،وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ، ولم يعرف العدو من الصديق،ولا القريب من البعيد ؛ فسبحان من خلق الخلق على ما أراد ، وكيف أراد،وإنما نظم هذا في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض ، مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة بالانتظام،في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم ؛ للإيذان باستقلاله ، والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم .

﴿إن في ذلك لآيات﴾ لدلالات على قدرته تعالى ﴿للعالمين﴾ لعموم العلم فيهم ، قرئ بكسر اللام وبفتحها وهما سبعيتان . وقال الفراء للكسرة وجه جيد لأنه قد قال : لآيات لقوم يعقلون ، لآيات لأولي الألباب ، وما يعقلها إلا العالمون .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ
أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ قيل: في الكلام تقديم وتأخير والتقدير: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، وقيل: المعنى الصحيح من دون تقديم وتأخير، أي ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة، كوقت القيلولة، والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله، ولا سيما في البلاد الحارة، وابتغاؤكم من فضله فيهما. فإن كل واحد منهما يقع فيه ذلك، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر، والأول هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ههنا، ووجه ذكر النوم والابتغاء ههنا وجعلهما من جملة الأدلة على البعث أن النوم شبيه بالموت، والتصرف في الحاجات والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت.

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ الآيات والمواعظ سماع متفكر متدبر بآذان واعية فيستدلون بذلك على البعث.

﴿ومن آياته يريكم البرق﴾ المعنى أن يريكم، ومنه المثل المشهور «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» وقيل: ويريكم البرق من آياته، وقيل: من آياته آية يريكم بها وفيها البرق، وقيل: التقدير: ومن آياته سحاب يريكم البرق ﴿خوفا وطمعاً﴾ من آياته قال قتادة: خوفاً للمسافر، وطمعاً

للمقيم . وقال الضحاك : خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث . وقال يحيى ابن سلام : خوفاً أن يكون البرق برقاً خلباً لا يمطر ، وطمعاً أن يكون ممطراً ﴿وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها﴾ باليباس بأن تنبت .

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة ، كيف ؟ والعقل ملاك الأمر . وهو المؤدي الى العلم فيما ذكر وغيره ، وإنما قال هنا : يعقلون ، وفيما تقدم : يتفكرون ، لأنه لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف ؛ كان يتطرق الى الأوهام القاصرة ان ذلك بالطبيعة لأن المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف ، والبرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير مختلف بل يختلف إذ يقع ببلدة دون بلدة ، وفي وقت دون وقت ، وتارة يكون قوياً وتارة يكون ضعيفاً فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار . فقال : هو آية لمن له عقل وإن لم يتفكر تفكراً تاماً،قاله الكرخي .

﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض﴾ هذا شروع في بيان بقائهما وثباتهما بعد بيان إيجادهما في قوله : ومن آياته خلق السموات والأرض ، وأظهر كلمة (أن) هنا التي هي علم الاستقبال لأن القيام هنا يعني البقاء لا الإيجاد ، وهو مستقبل باعتبار أواخره وما بعد نزول هذه الآيات .

﴿بأمره﴾ أي : قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه ، وقدرته بلا عمد يعمدهما ، ولا مستقر يستقران عليه . قال الفراء : يقول أن تدوما قائمتين بأمره ، وإنما ذكر قوله: إن في ذلك لآيات،في أربع مواضع ، ولم يذكره في الأول ، وهوقوله :ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ولا في الأخيرة وهي هذا لأن في الأول خلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد ، وهو الإيجاد فاكتفى فيهما بذكره مرة واحدة . وأما قيام السموات والأرض الذي هو الأخير فلأن في

الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ، ولقوم يسمعون ؛ ولقوم يعقلون ، لظهورها ، فلما كان في أول الأمر ظاهراً ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ؛ فلم يميز أحداً عن أحد وذكر ما هو مدلوله ؛ وهو قدرته على الإعادة قاله الرازي .

﴿ثم﴾ أي بعد موتكم ومصيركم في القبور ﴿إذا دعاكم دعوة﴾ واحدة ﴿من الأرض﴾ التي أنتم فيها كما يقال:دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي وقيل : أي خرجتم من الأرض ولا يجوز أن يتعلق بـ ﴿تخرجون﴾ لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدم بيانه ﴿إذا أنتم تخرجون﴾ أي فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث ولا توقف كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع واذا الفجائية تقوم مقام الفاء في جواب الشرط،وقال هنا : إذا أنتم،وقال في خلق الإنسان:ثم اذا أنتم بشر تنتشرون،لأن هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلاً للحياة فتنفخ فيه الروح فاذا هو بشر وأما في الإعادة فلا يكون تدريج بل يكون بدء وخروج فلم يقل هنا (ثم) ذكره الكرخي،وقد أجمع القراء على فتح التاء في ﴿تخرجون﴾ هنا وإنما قرىء بضمها في الأعراف ﴿وله من في السموات والأرض﴾ من جميع المخلوقات ملكاً وتصرفاً وخلقاً ليس لغيره في ذلك شيء .

﴿كل له قانتون﴾ مطيعون طاعة انقياد قاله النحاس،وقيل : مقرون بالعبودية إما بالمقال وإما بالدلالة قاله عكرمة وأبو مالك والسدي وقيل :مصلون وقيل : قائمون يوم القيامة،كقوله:يوم يقوم الناس لرب العالمين أي للحساب قاله الربيع بن أنس،وقيل:بالشهادة أنهم عباده قال الحسن وقيل مطيعون لأفعاله لا يمتنع عليه شيء يريد فعله بهم،من حياة وموت ومرض وصحة فهي طاعة الإرادة،لا طاعة العبادة،وقيل :مخلصون قاله سعيد بن جبير وقال ابن عباس : مطيعون في الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وهو الذي يبدأ الخلق﴾ للناس ﴿ثم يعيده﴾ بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة ﴿وهو﴾ أي البعث أو الإعادة نظراً الى المعنى دون اللفظ وهو رجعة أو ردة أو تذكيره باعتبار الخبر ﴿أهون عليه﴾ أي هين لا يستصعبه أو أهون عليه بالنسبة الى قدرتكم وعلى ما يقوله بعضكم لبعض والا فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله كن فيكون قال أبو عبيد : من جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ وبقوله ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيراً كما في قول الفرزدق.

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة. وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد، وكقولهم: الله أكبر، أي كبير، وهي رواية العوفي عن ابن عباس، وقرأ ابن مسعود : وهو عليه هين. وقال مجاهد، وعكرمة، والضحاك : إن الإعادة أهون على الله من البداءة أي أيسر وإن كان جميعه هيناً وقيل: المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداءة، وقيل: الضمير في عليه للخلق أي : والعود أهون على الخلق، أي أسرع واقصر عليه وأيسر وأقل انتقالا من طور الى طور لأنه يصاح بهم صيحة واحدة، فيقومون ويقال لهم :

كونوا فيكونون ، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، الى آخر النشأة . وقال ابن عباس : الإعادة أهون على المخلوق لأنه يقول له يوم القيامة كن فيكون ، وابتداء الخلقة من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة .

﴿وله المثل الأعلى﴾ أي : الوصف الأعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال ، والجلال ، والجمال ، التي ليس لغيره ما يدانيها فضلاً عما يساويها ، وقال الخليل : المثل الصفة أي : وله الوصف الأعلى قول : لا إله إلا الله أي الوحدانية ، وبه قال قتادة وقال الزجاج : وله المثل الأعلى .

﴿في السموات والأرض﴾ مرتبط بما قبله ، وهو قوله : وهو أهون عليه ، قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل ، وقيل:مرتبط بما بعده من قوله «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم» وقيل :المثل الأعلى هو أنه ليس كمثله شيء ، قاله ابن عباس . وقيل : هو أن ما أراده كان بقول : كن،والمعنى أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى ووصف به في السموات والأرض،أي في هاتين الجهتين ؛وقيل : غير ذلك ﴿وهو العزيز﴾ في ملكه القادر الذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وأقواله .

﴿ضرب لكم﴾ أيها المشركون ﴿مثلاً﴾ قد تقدم تحقيق معنى المثل ﴿من أنفسكم﴾ من لابتداء الغاية أي مثلاً منتزعاً كائناً ومأخوذاً من أنفسكم ، فإنها أقرب شيء منكم وأبين من غيرها عندكم فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحاً ثم بين المثل المذكور فقال : ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم؟﴾ من للتبعيض أي من مماليككم وفي قوله ﴿من شركاء﴾ زائدة للتأكيد ، والمعنى هل لكم شركاء ؟

﴿فيما رزقناكم﴾ من الأموال وغيرها كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم ، وهم العبيد والإماء ؟ والاستفهام للإنكار . قال ابن عباس في

الآية : كان يلبي أهل الشرك :لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، فأنزل الله هذه الآية .

﴿فأنتم﴾ وهم ﴿فيه سواء﴾ أي مستوون في التصرف فيه على عادة الشركاء ، وهذا جواب للاستفهام الذي بمعنى النفي ، ومحقق لنفي الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم ، والمعنى هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال ؟ ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ؟

﴿تخافونهم﴾ خيفة ﴿كخيفتكم أنفسكم﴾ أي كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الأموال ، وجواز التصرف . والمراد نفي الأشياء الثلاثة ، الشركة بينهم وبين المملوكين ، والاستواء معهم وخوفهم إياهم . وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف كما قيل في قولهم : ما تأتينا فتحدثنا . والمراد إقامة الحجة على المشركين فإنهم لا بد أن يقولوا :لا نرضى بذلك ، فيقال لهم : فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم ؟ وهم أمثالكم في البشرية ، وتجعلون عبيد الله شركاء له ؟ فإذا بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه ، والخلق كلهم عبيد الله تعالى ، لم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له . قرىء أنفسكم بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله ، وبالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله .

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ تفصيلاً واضحاً وبياناً جلياً لأن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها ﴿لقوم يعقلون﴾ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية ،والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها ، ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم الى الحق بما ضرب لهم من المثل فقال :

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ
لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ
ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ بالإشراك ، وفيه الإضراب مع الالتفات وأقيم الظاهر مقام الضمير للتسجيل عليهم بوصف الظلم ﴿أهواءهم بغير علم﴾ أي : لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة ، وآراءهم الفاسدة الزائفة ، والمعنى جاهلين بأنهم على ضلالة .

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي : لا أحد يقدر على هدايته ، لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته ﴿وما لهم﴾ أي : ما لهؤلاء الذين أضلهم الله ، والجمع باعتبار معنى من ﴿من ناصرين﴾ ينصرونهم ، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه ؛ ثم أمر رسول الله ﷺ بتوحيده وعبادته كما أمره فقال :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه اليه ، وإقباله عليه ؛ أي مائلاً اليه مستقيماً عليه غير ملتفت الى غيره من الأديان الباطلة فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره ، وقوم له وجهه مقبلاً عليه .

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ الفطرة في الأصل الخلقة ، والمراد بها هنا الملة وهي الإسلام والتوحيد . قال الواحدي : هذا قول المفسرين في الفطرة وقيل : المراد بها قابلية الدين والتهيوء له ، وترسم الفطرت بالتاء المجرورة .وليس في القرآن غيرها ، والمراد بالناس هنا الذين فطرهم الله على الاسلام ، لأن المشرك لم يفطر على الإسلام ، وهذا الخطاب وإن كان خاصاً برسول الله ﷺ فأمته داخلة معه فيه . قال القرطبي : باتفاق من أهل التأويل ، والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعا مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم ، فيبقون بسببها على الكفر ، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » وفي رواية : على هذه الملة ، ولكن أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه : كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة :واقرأوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وفي رواية:حتى تكونوا أنتم تجدعونها .

أخرج أحمد والنسائي ، والحاكم ، وصححه ، وغيرهم ، عن أسود بن سريع :أن رسول الله ﷺ بعث سرية الى خيبر فقاتلوا المشركين فانتهى القتل الى الذرية . فلما جاءوا قال النبي ﷺ : « ما حملكم على قتل الذرية ؟قالوا : يارسول الله إنما كانوا أولاد المشركين ، قال : وهل خياركم إلا أولاد المشركين ؟ والذي نفسي بيده ، ما من نسمة تولد إلا على الفطرة ، حتى يُعْرِبَ عنها لسانها » .

وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه،فإذا عبر عنه لسانه ، إما شاكراً وإمّا كفوراً»

وروى الإمام أحمد في المسند عن عياش بن حماد أن رسول الله ﷺ

خطب يوماً فقال في خطبته حاكياً عن الله سبحانه وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم الحديث . وهذا معاضد لحديث أبي هريرة المتقدم ، فكل فرد من أفراد الناس مفطور ، أي مخلوق على ملة الاسلام ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين ، وإنما يعتبر الإيمان والاسلام الشرعيان . وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم وقول جماعة من المفسرين ، وهو الحق .

والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف ، قال آخرون : هي البداءة التي ابتدأهم عليها فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة ، والفاطر في كلام العرب :هو المبتدىء ، وهذا مصير من القائلين به الى معنى الفطرة لغة . وإهمال معناها شرعاً،والمعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب او السنة في بعض المواضع مراداً بها اللغوي .كقوله تعالى : (الحمد لله فاطر السموات والأرض) أي خالقهما ومبتديهما ،وكقوله :﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا ، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة ، وهو ما ذكره الأولون كما بيناه . وانتصاب فطرة على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها . وقال الزجاج : منصوب بمعنى اتبع فطرة الله ، قال : لأن معنى فأقم وجهك للدين : اتبع الدين واتبع فطرة الله : وقال ابن جرير : هي مصدر من معنى فأقم وجهك،لأن معنى ذلك فطرة الله الناس على الدين . وقيل : هي منصوبة على الإغراء ، أي الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله ، ورد هذا الوجه أبو حيان ، وقال : إن كلمة الإغراء لا تضمر ، إذ هي عوض عن الفعل ، فلو حذفها لزم حذف العوض والمعوض عنه ، وهو إجحاف ، وأجيب بأن هذا رأي البصريين ، وأما الكسائي وأتباعه فيجيزون ذلك .

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لما جبلكم وطبعكم عليه من قبول الحق،وهذا تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة.أي هذه الفطرة التي فطر الله الناس

عليها . لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه ، أو تعليل لوجوب الامتثال له ، أي لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه ، وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى ، وقبول وسوسة الشياطين .

وقيل :لا يقدر أحد أن يغيره،فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ، ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق ، والتمكن من إدراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الأول مقدور ، بل واقع قطعاً ، فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة في كل أحَد ، فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى ، وخطوات الشيطان ، ذكره ابو السعود .

وقيل : هو نفي ؛ معناه : النهي . أي : لا تبدلوا خلق الله ، قال مجاهد وابراهيم النخعي : معناه لا تبديل لدين الله ، قال قتادة ، وابن جبير ، والضحاك ، وابن زيد :هذا في المعتقدات ، وقال عكرمة : إن المعنى لا تغيير لخلق الله في البهائم ، بأن تخصى فحولها . وقيل :لا تبدلوا التوحيد بالشرك ، والسنة بالبدعة ، وقيل : لا تبديل لما جبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة ، فلا يصير السعيد شقياً ، ولا الشقي سعيداً .

﴿ذلك﴾ الدين المأمور بإقامة الوجه له هو ﴿الدين القيم﴾ أو لزوم الفطرة هو الدين القيم ، أي : المستقيم .وقال ابن عباس : الدين : القضاء ﴿ولكن أكثر الناس﴾أي : كفار مكة ﴿لا يعلمون﴾ ذلك حتى يفعلوه ويعملوا به .

﴿منيبين﴾ أي : راجعين ﴿اليه﴾ بالتوبة والإخلاص ، ومطيعين له في أوامره ونواهيه . قال الجوهري : أناب اليّ أي : أقبل وتاب . قال الفراء:فأقم وجهك . ومن معك ، منيبين ، وكذا قال الزجاج . وقال تقديره : فأقم وجهك وأمتك ، فالحال من الجميع ، وقيل : كونوا منيبين اليه ، لدلالة ولا تكونوا من المشركين ، على ذلك ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم

بالإنابة فقال ﴿واتقوه﴾ أي : خافوه باجتناب معاصيه .

﴿وأقيموا الصلاة﴾ التي أمرتم بها ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ بالله أي ممن يشرك به غيره في العبادة وقوله ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ باختلافهم فيما يعبدونه ، وهو بدل مما قبله بإعادة الجار .

﴿وكانوا شيعاً﴾ الشيع : الفرق ،أي لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقاً في الدين ، يشايع بعضهم بعضاً ، من أهل البدع والأهواء،وقيل المراد بهم اليهود والنصارى ، وقرىء فرقوا دينهم ، أي الذي يجب اتباعه وهو التوحيد ، وهي سبعية ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام .

﴿كل حزب﴾ أي كل فريق منهم ﴿بما لديهم﴾ من الدين المبني على غير الصواب ﴿فرحون﴾ أي مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شيء ، والجملة اعتراض مقرر لما قبله من تفريقهم دينهم ، وكونهم شيعاً .

﴿وإذا مس الناس﴾ أي : كفار مكة وغيرهم ﴿ضر﴾ أي قحط وشدة ، أو هزال ، أو مرض ﴿دعوا ربهم﴾ أن يرفع ذلك عنهم واستعانوا به ﴿منيبين﴾ أي راجعين ملتجئين ﴿إليه﴾ لا يعولون على غيره ، وقيل : مقبلين عليه بكل قلوبهم .

﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمة﴾ بإجابة دعائهم ، ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾إذا :هي الفجائية وقعت جواباً للشرط ؛ كأنها كالفاء في إفادة التعقيب ،أي : فاجأ فريق منهم بالإشراك ، وهم الذين دعوه فخلصهم مما كانوا فيه ، وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم ، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع الى الشرك عند رفع ذلك عنهم ، وفيه مراعاة معنى لفظ الفريق وكذا في قوله .

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ
يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي بنعمة الله عليهم ، واللام لام كي ، وقيل : لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد ، وقيل :هي لام العاقبة التي تقتضي المهلة ، سميت لام المآل ، والشرك والكفران متقارنان ، لا مهلة بينهما ، ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال : ﴿فتمتعوا﴾ أريد به التهديد أيضاً ، وفيه التفات عن الغيبة الى الخطاب لأجل المبالغة في زجرهم ، وقرىء فتمتعوا على الخطاب ، وبالتحتية على البناء للمفعول ؛ وفي مصحف ابن مسعود :فليتمتعوا ﴿فسوف تعلمون﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم .

﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ أم ، هي المنقطعة ، والاستفهام للإنكار ، على مذهب الكوفيين ، ومذهب البصريين أنها بمعنى بل والهمزة . والسلطان : الحجة الظاهرة ، وفيه التفات عن الخطاب الى الغيبة للإيذان بالإعراض عنهم وبعدهم عن ساحة الخطاب ، قال الفراء : إن العرب تؤنث السلطان ؛ يقولون:قضت به عليك السلطان ، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح ، وجاء به القرآن ، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة ، وقيل: المراد بالسلطان هنا : الملك .

﴿فهو يتكلم﴾ أي يدل ،كما في قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ وهو في حيز النفي المستفاد من أم ﴿بما كانوا يشركون﴾ أي ينطق بإشراكهم

بالله سبحانه أو المعنى بالأمر الذي كانوا بسببه يشركون .

﴿وإذا أذقنا الناس﴾ أي كفار مكة وغيرهم ﴿رحمة﴾ أي خصباً ومطراً ؛ ونعمة وسعة وصحة وعافية ﴿فرحوا بها﴾ فرح بطر وأشر،لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها إليهم ، كما دل عليه قوله : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ ثم قال سبحانه :

﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ أي بلاء من جدب ، أو ضيق ، أو مرض أو شدة على أي صفة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي بسبب شؤم ذنوبهم ﴿إذا هم يقنطون﴾ القنوط الإياس من الرحمة ، كذا قال الجمهور ؛ وقال الحسن :القنوط ترك فرائض الله سبحانه ؛ وقرىء يقنطون بفتح النون وبكسرها ؛ وهما سبعيتان ، وبابه ضرب وتعب ؛ والمعنى إذا هم ييأسون ، وهذا خلاف وصف المؤمنين ؛ فإن من شأنهم أن يشكروا عند النعمة ؛ ويرجوا ربهم عند الشدة أو يقال :الدعاء اللساني بناء على مجرد العادة لا ينافي القنوط القلبي،وقد يشاهد مثل ذلك في كثير من الناس ،فلا يخالف هذا قوله: ﴿دعوا ربهم منيبين اليه﴾ أو المراد يفعلون فعل القانطين ،كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء ،قاله الكرخي .

﴿أولم يروا﴾ أي فما بالهم لم يشكروا في السراء والضراء ،كالمؤمنين ولم يعلموا ﴿أن الله يبسط الرزق﴾ أي يوسعه ﴿لمن يشاء﴾ من عباده امتحاناً هل يشكر أم يطغى فيكفر ؟ ﴿ويقدر﴾ أي يضيق على من يشاء ابتلاء هل يصبر أم يضيق ذرعاً فيكفر ﴿إن في ذلك﴾ البسط والقبض ﴿لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيستدلون بها على الحق لدلالتها على كمال القدرة وبديع الصنع وغريب الخلق والحكمة.ولما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار الى ما ينبغي من مواساة القرابة وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه فقال :

﴿فآت ذا القربى حقه﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته أسوته،أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه وقدم الإحسان إلى القرابة لأن خير الصدقة ما كان على قريب فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها،

والمراد الإحسان اليهم بالصدقة والصلة والبر سواء كانوا في مخمصة أو لم يكونوا وقيل :فيه دليل على وجوب النفقة للمحارم (وبه قالت الحنفية ، وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة يدل على أن ذلك في صدقة التطوع)وقاس الشافعي سائر الأقارب ما عدا الفروع والأصول على ابن العم،لأنه لا ولادة بينهم،ولا يصح حمل الصدقة على الواجبة وهي الزكاة لأن السورة مكية ، والزكاة ما فرضت إلا في السنة الثانية من الهجرة بالمدينة وللقريب الفقير في مال قريبه الغني حق واجب،وبه قال مجاهد وقتادة،قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج وقيل : المراد بالقربى : النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال القرطبي: والأول أصح،فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله﴿فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾وقال الحسن : إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب .

﴿والمسكين وابن السبيل﴾ أي آتهما حقهما الذي يستحقانه،ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف،ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول،سواء كان زكوياً أو لم يكن،وسواء كان قبل الحول أو بعده،لأن المقصود هنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان اليهم،وإن لم يكن للإنسان مال زائد،والفقير داخل في المسكين،لأن من أوصى للمساكين بشيء يصرف الى الفقراء أيضاً واذا نظرت الى الباقين من الأصناف،رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم،وأما المسكين فحاجته ليست مختصة بموضع فقدم على من حاجته مختصة بموضع دون موضع قال مقاتل :حق المسكين أن يتصدق عليه،وحق ابن السبيل الضيافة،وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة او منسوخة فقيل : هي منسوخة بآية المواريث،وقيل محكمة .

﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ أي ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب الى الله سبحانه،ويقصد بمعروفه إياه خالصاً ﴿واولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالاً لأمره .

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

﴿وما آتيتم﴾ بالمد بمعنى : أعطيتم ،وقرىء بالقصر بمعنى : ما فعلتم ،وهما سبعيتان،وقيل بالقصر بمعنى :ما جئتم به من إعطاء ربا،وهو يؤول من حيث المعنى الى القراءة المشهورة،لأنه يقال : آتى معروفاً،وأتى قبيحاً إذا فعلهما .

﴿من ربا﴾ وأجمعوا على الأولى فيقوله :وما آتيتم من زكاة ، أصل الربا الزيادة والمعني :ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض بأن تعطوا شيئاً هبة أو هدية .

﴿ليربوا في أموال الناس﴾ أي ليزيد ويزكو في أموالهم ﴿فلا يربو عند الله﴾ قرىء بالتحتية ،على أن الفعل مسند الى ضمير الربا،وقرىء بالفوقية مضمومة خطاباً للجماعة،بمعنى لتكونوا ذوي زيادات،وقرىء لتربوها،ومعنى الآية : أنه لايزكو عند الله ولا يثيب عليه،لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصاً قال السدي: الربا في هذا الموضع: الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة،فإن ذلك لا يربو عند الله ،أي لا يؤجر عليه صاحبه،ولا إثم عليه وهكذا قال قتادة والضحاك قال الواحدي : وهذا قول جماعة المفسرين قال الزجاج : يعني دفع الرجل الشيء ليعوض أكثر منه،وذلك ليس بحرام ولكنه لا ثواب فيه لأن الذي يهبه يستدعي به ما هو أكثر منه .

وقال الشعبي:معنى الآية أن ما خدم به الإنسان أحداً لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجري به الخدمة،لا يربو عند الله وقيل : هذا كان حراماً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الخصوص،لقوله سبحانه﴿ولا تمنن تستكثر﴾ ومعناها: أن تعطي فتأخذ أكثر منه عوضاً عنه وحرم عليه تشريفاً له ، وقيل:إن هذه الآية نزلت في هبة الثواب ، وبه قال ابن عباس وابن جبير ، وطاوس ، ومجاهد ، قال ابن عطية وما يجري مجراه مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره ، وهو وإن كان لا إثم فيه ، فلا أجر ولا زيادة عند الله .

قال عكرمة : الربا ربوان ، فربا حلال ، وربا حرام ، فأما الربا الحلال فهو الذي يهدي يلتمس ما هو أفضل منه ، يعني كما في هذه الآية . وقيل :إن هذا الذي في هذه الآية هو الربا المحرم ، فمعنى لا يربو عند الله على هذا القول :لا يحكم به ،بل هو للمأخوذ منه ، قال المهلب : اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب ، فقال مالك : ينظر فيه ، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله مثل ذلك ، مثل هبة الفقير للغني ، وهبة الخادم للمخدوم ، وهبة الرجل لأميره ، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله . وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا يكون له ثواب إذا لم يشترط ، وهو قول الشافعي رحمه الله الآخر .

وعن عليّ قال : المواهب ثلاثة : موهبة يراد بها وجه الله ، وموهبة يراد بها ثناء الناس ، وموهبة يراد بها الثواب ؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يثب عليها،بخلاف القسمين الآخرين ، فلا يرجع فيهما صاحبهما . قال ابن عباس :في الآية الربا ربوان،ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح ، فأما الربا الذي لا بأس به،فهدية الرجل الى الرجل يريد فضلها وإضعافها ،وعنه قال : هذا هو الربا الحلال أن يهدي يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر ، ونهى النبي ﷺ خاصة فقال : ولا تمنن تستكثر .

﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله﴾ أي : وما أعطيتم من صدقة

تطوع لا تطلبون بها المكافأة،وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي ذوو الأضعاف من الحسنات ، الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف . قال الفراء : هو نحو قولهم : مسمن ، ومعطش ، ومضعف اذا كانت له إبل سمان وعطاش وضعيفة ، وقرىء بفتح العين اسم مفعول وفيه التفات حسن عن الخطاب ، لأنه يفيد التعظيم ، كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم ، فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون أو للتعميم لغير المخاطبين ، كأنه قال : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين ، وكان مقتضى ظاهر المقابلة أن يقال : فيربو عند الله فغير عبارة الربا الى الإضعاف ونظم الفعلية الى الإسمية الدال على الدوام ، المشتملة على ضمير الفصل ، المفيد للحصر ، والمعنى : المضعفون به لأنه لا بد له من ضمير يرجع الى ما الموصولة .

﴿الله الذي خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم﴾ عاد سبحانه الى الاحتجاج على المشركين ، وأنه الخالق الرازق ، المميت المحيي ، أي المختص بالخلق ، والرزق ، والإماتة ، والإحياء ؛ ثم قال على جهة الاستفهام : ﴿هل من شركائكم﴾ أي أصنامكم التي زعمتم أنهم شركاء ، وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم آلهة ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم .

﴿من يفعل من ذلكم ؟﴾ أي : الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿من شيء﴾ أي شيئاً من هذه الأفعال ؟ومعلوم أنهم يقولون :ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك ، فتقوم عليهم الحجة ، و (من) الأولى والثانية لبيان شروع الحكم في جنس الشركاء والأفعال ، والثالثة مزيدة لتعميم النفي ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال : ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي نزهوه تنزيهاً،وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك .

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ظهر الفساد﴾ بيَّن سبحانه أن الشرك والمعاصي سبب لظهور الفساد ﴿في البر والبحر﴾ أي العالم ، والفساد من فسد كنصر وكرم، فساداً ضد صلح فهو فاسد ، والفساد أخذ المال ظلماً والجدب والمفسدة ضد المصلحة ، واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط وعدم النبات ونقصان الرزق، وكثرة الخوف، ونحو ذلك ، وقال مجاهد وعكرمة : فساد البر قتل ابن آدم أخاه . يعني قتل قابيل لهابيل، وفساد البحر الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً وليت شعري أي دليل دلهم على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب؟ فإن الآية نزلت على محمد ﷺ ، والتعريف في الفساد يدل على الجنس ، فيعم كل فساد واقع في حيز البر والبحر .

وقال السدي: الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد، ويمكن أن يقال : إن الشرك وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي ، ولكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه وقيل : **الفساد** كساد الأسعار وقلة المعاش ، **وقيل** : قطع السبل والظلم وقيل :نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا ، **قال النحاس** : وهو أحسن ما قيل في الآية . وعنه أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم . قال ابن عطية :فإذا قل المطر قل الغوص فيه ، وعميت دواب البحر . وقيل غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه، والظاهر من الآية ظهور ما يصح اطلاق اسم الفساد عليه ، سواء كان راجعاً الى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئآت ، وتقاطعهم وتظالمهم ، وتقاتلهم ، أو راجعاً الى ما هو من جهة الله سبحانه ،

بسبب ذنوبهم ، كالقحط وكثرة الخوف ، والموتان ونقصان الزرائع والثمار ، وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شيء ، والبر والبحر هما المعروفان المشهوران .

وقيل : البر الفيافي ، والبحر القرى التي على ماء ، قاله عكرمة ، والعرب تسمي الأمصار البحار . قال مجاهد : البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر ، وعن ابن عباس نحوه ، والأول أولى ، ويكون معنى البر مدن البر ، ومعنى البحر مدن البحر ، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها .

﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ من المعاصي والذنوب ، والباء للسببية وأما (ما) موصولة أو مصدرية ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ اللام للعلة ، أي : ليذيقهم بعض عقوبة عملهم ، أو جزاء بعض عملهم في الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة . وقيل ؛ للصيرورة ءقرىء بالياء وبنون العظمة ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم فيه من المعاصي ، ويتوبون الى الله ، قال ابن عباس : يرجعون من الذنوب . ولما بيّن سبحانه ظهور الفساد فيهما بما كسبت أيدي المشركين والعصاة بيّن لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأول فقال :

﴿قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ أمرهم بأن يسيروا لينظروا آثارهم ، ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم . فإن منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة ، كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي كانوا عليها ، وايضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به الى ما صارت اليه ، وهو فشو الشرك والعصيان فيما بينهم ، أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾
مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ
مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ
الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

﴿فأقم﴾ خطاب للنبي ﷺ ، وأمته أسوته فيه ،كأن المعنى :إذاً قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم فأقم ﴿وجهك﴾ يامحمد ﴿للدين القيم﴾ قال الزجاج : اجعل جهتك اتباع الدين القيم البليغ الاستقامة ، الذي لا يتأتى فيه عوج وهو الإسلام . وقيل :المعنى :أوضح الحق وبالغ في الإعذار ، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم . قاله القرطبي .

﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿لا مرد له من الله﴾ المرد مصدر ، رد ، أي لا يقدر أحد على أن يرده كقوله : لا يستطيعون ردها فلا بد من وقوعه،وقيل : المعنى لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه،قاله أبو السعود ﴿يومئذ﴾ أي : يوم إذ يأتي هذا اليوم .

﴿يصدعون﴾ أصله يتصدعون ، والتصدع : التفرق ، يقال : تصدع القوم ، إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر(١) :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

(١) الشاعر هو متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً الذي قتل في حروب الردة والبيت الذي يليه :
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً . المطيعي

وفي المصباح : صدعته صدعاً من باب نفع ؛ شققته فانصدع . وصدعت القوم صدعاً فتصدعوا . أي : فرقتهم فتفرقوا ، وقوله : فاصدع بما تؤمر ، قيل : مأخوذ من هذا ، أي : شق جماعاتهم بالتوحيد ، وقيل : افرق بذلك بين الحق والباطل . وقيل : أظهر ذلك ، وصدعت بالحق : تكلمت به جهاراً ،وصدعت الفلاة :قطعتها ، والمراد بتفرقهم أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، ثم فصل سبحانه المتصدعين بقوله :

﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ أي :جزاء كفره ووباله وهو النار ﴿ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ أي:يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح والمهاد :الفراش ، وقد تقول مهدت الفراش مهداً إذا بسطته ووطأته ، فجعل الأعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها ، وقيل :المعنى:فعلى أنفسهم يشفقون ، من قولهم في المشفق أم فرشت فأنامت ، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص ،وقال مجاهد : فلأنفسهم يمهدون ، في القبر ، أي يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور .

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ والكافرين بعدله ، متعلق بيصدعون أو يمهدون أي يتفرقون ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه ، على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر ، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه ، أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة ليجزيهم . وقال ابن عطية : تقديره ذلك ليجزي ، وتكون الإشارة إلى ما تقدم من قوله :من كفر ومن عمل .قال ابن عباس :ليثيبهم الله ثواباً أكثر من أعمالهم ، وجعل أبو حيان قسيم قوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات محذوفاً لدلالة قوله :

﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ عليه ، لأنه كناية عن بغضه لهم ، الموجب لغضبه سبحانه ، وغضبه يستتبع عقوبته ؛ وقيل : تقرير بعد تقرير على الطرد

والعكس،وفيه تهديد ووعيد لهم .

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح ﴾ أي : ومن دلالات بديع قدرته تعالى إرسال الرياح ، أي[1] الشمال ، والصبا ، والجنوب ، فإنها رياح الرحمة،وأما الدبور فهي ريح العذاب،ومنه قوله ﷺ : « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» قرىء الرياح بالجمع والإفراد على قصد الجنس لأجل قوله ﴿مبشرات﴾ بالمطر لأنها تتقدمه ؛ كما في قوله سبحانه بشراً بين يدي رحمته .

﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي : يرسلها ليذيقكم بها الغيث والخصب ، أو نعمته من المياه العذبة ، والأشجار الرطبة ؛ وصحة الأبدان ، وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله . وقيل : اللام متعلقة بمحذوف ، أي وأرسلها ليذيقكم ، وقيل : الواو مزيدة على رأي من يجوز ذلك فتتعلق اللام بيرسل و ﴿ من ﴾ تبعيضية .

﴿ و ﴾ يرسل الرياح ﴿ لتجري الفلك ﴾ في البحر عند هبوبها ، ولما أسند الجري إلى الفلك عقبه بقوله:﴿ بأمره ﴾أي :بتدبيره أو بتكوينه ، كقوله : إنما أمره إذا أراد شيئاً الآية ﴿ ولتبتغوا ﴾ الرزق ﴿ من فضله ﴾ بالتجارة التي تحملها السفن ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم فتفردون الله بالعبادة ، وتستكثرون من الطاعة .

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ﴾ كما أرسلناك إلى قومك ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ،وهو اعتراض بين الكلامين المتصلين معنى،أي : قوله : ومن آياته أن يرسل الرياح،وقوله : الله الذي يرسل الرياح،وقال أبو حيان

---

(١) الشمال ريح تخالف الجنوب والجنوب مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، والصبا ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش . المطيعي .

جاء تأنيساً له ﷺ ووعداً بالنصر ووعيداً لأهل الكفر،وحقية نصر المؤمنين على الله لا تختص بالدنيا بل تعم الآخرة أيضاً فما في الآخرة من متناولات الآية .

﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي : بالمعجزات الواضحات،والحجج النيرات،على صدقهم في رسالتهم إليهم،فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ، ويدل على هذا الإضمار قوله : ﴿ فانتقمنا ﴾ بالإهلاك في الدنيا ﴿ من الذين أجرموا ﴾ أي : فعلوا الإجرام وهي الآثام .

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ على الكافرين بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه ، وهو صادق الوعد ، لا يخلف الميعاد،وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين .

أخرج الطبراني ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والترمذي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾، وهو من طريق شهر[1] بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء .

---

(١) روى شهر بن حوشب الأشعري عن أم سلمة وأبي هريرة وجماعة وعنه قتادة وداود بن أبي هند وعبد الحميد بن بهرام وجماعة قال أحمد بن حنبل روى عن أسماء بنت يزيد أحاديث حساناً . وروى ابن خيثمة ومعاوية ابن صالح عن ابن معين أنه ثقة وقال أبو حاتم : ليس هو بدون أبي الزبير- أحد رجال سفيان بن عيينة،ولا يحتج به،وعن ابن عون تركوه : وقال النسائي وابن عدي ليس بالقوي،قال يحيى بن بكير الكرماني : حدثني أبيّ قال كان شهر على بيت المال فأخذ منه دراهم فقال قائل : لقد باع شهر دينه بخريطة .
وقال الفلاس كان يحيى بن سعيد القطان لا يحدث عن شهر فمن يأمن القراء بعدك يا شهر والحديث من مكارم الأخلاق وتظاهره أدلة كثيرة من الكتاب والسنة . المطيعي .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا
فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
(٤٨) وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ
رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ (٥١)

﴿ الله الذي يرسل الرياح ﴾ قرىء بالجمع والإفراد ، قال أبو عمرو : كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع ، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد ، وهي مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح ﴿ فتثير سحاباً ﴾ أي تزعجه وتهيجه وتحركه .

﴿ فيبسطه ﴾ أي ينشره متصلاً بعضه ببعض ، أي ينشره كمال الانتشار وإلا فأصل الانتشار موجود في السحاب دائماً ﴿ في السماء ﴾ أي في سمت السماء ، وجهتها وشقها ، كقوله : وفرعها في السماء ، أي : في جهة العلو، وليس المراد حقيقة السماء المعروفة ﴿ كيف يشاء ﴾ تارة سائراً ، وتارة واقفاً ، وتارة مطبقاً ، وتارة غير مطبق ؛ وتارة إلى مسافة بعيدة وتارة إلى مسافة قريبة، وتارة من ناحية الشمال ، وتارة من ناحية الجنوب أو الدبور أو الصبا وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة وفي سورة النور .

﴿ ويجعله كسفاً ﴾ تارة أخرى ، أو يجعله بعد بسطه قطعاً متفرقة بعضها فوق بعض ،والكسف جمع كسفة بالكسر :وهي القطعة من الشيء أو السحاب وقرىء بفتح السين وسكونها،والمسكن مخفف من المحرك بمعنى ، والقراءتان سبعيتان ، وجمع الجمع : أكساف وكسوف . وكسفه يكسفه: قطعه ﴿ فترى الودق﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾أي :من بينه ووسطه .

﴿ فإذا أصاب به ﴾ أي بالودق ﴿ من يشاء من عباده ﴾ أي : بلادهم

وأرضهم ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾إذا هي الفجائية أي :فاجأوا الاستبشار بمجيء المطر والخصب ، والاستبشار : الفرح .

﴿ وإن ﴾ أي : وإن الشأن ،وفسر المحلي إن بقد ،تبعاً للبغوي ، والأول أولى ، ويدل له اللام في لمبلسين ، فإنها اللام الفارقة ﴿ كانوا من قبل أن ينزل عليهم ﴾ المطر ﴿ من قبله ﴾ تكرير للتأكيد،قاله الأخفش ، وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس ،كقوله : فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها،ومعنى التوكيد فيها على ما قاله الزمخشري :الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك .

قال السمين :وهو كلام حسن وقال ابن عطية :وفائدة هذا التأكيد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار،وذلك أن قوله :من قبل أن ينزل عليهم ، يحتمل الفسحة في الزمان،أي : من قبل أن ينزل بكثير كالأيام ، فجاء قوله :من قبله بمعنى: أن ذلك متصل بالمطر،فهو تأكيد مفيد،وقال قطرب: إن الضمير في قبله راجع إلى المطر . أي:وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر ،قيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم :من قبل الزرع والمطر ، وقيل:من قبل أن ينزل عليهم:من قبل السحاب ، أي من قبل رؤيته ، واختار هذا النحاس . وقيل : الضمير عائد إلى الكسف،وقيل : إلى الإرسال، وقيل : إلى الاستبشار ، والراجح الوجه الأول ، وما بعده من هذه الوجوه كلها ففي غاية التكلف والتعسف .

﴿ لمبلسين ﴾ أي آيسين،يقال : أبلس الرجل إبلاساً : سكت ، وأبلس أيس ، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا .

﴿ فانظر إلى آثار رحمه الله ﴾ الناشئة عن إنزال المطر من النبات والثمار والزرائع[١] التي بها يكون الخصب ورخاء العيش ؛ أي انظر نظر اعتبار

(١) الزرائع جمع زراعة وليس جمع زرع كرسالة ورسائل وسحابة وسحائب . المطيعي .

واستبصار ، لتستدل بذلك على توحيد الله ، وتفرده بهذا الصنع العجيب ؛والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرىء : أثر بالتوحيد ، وآثار بالجمع سبعية .

﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها ؟ ﴾ فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه وقيل : ضمير يعود إلى الأثر ، أي : انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض بعد موتها ، والمراد بالنظر التنبيه على عظيم قدرته ،وسعةرحمته ،مع ما فيه من التمهيد لأمر البعث،وقرىء تحيي بالفوقية على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة،أو إلى الآثار .

﴿ إن ذلك ﴾أي :إن الله العظيم الشأن ، المخترع لهذه الأشياء المذكورة ﴿لمحيي الموتى ﴾أي : القادر على إحيائهم في الآخرة ، وبعثهم ومجازاتهم ، كما أحيا الأرض الميتة بالمطر ، وهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي : عظيم القدرة وكثيرها ، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء .

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ مضرة وهي الريح الدبور التي أهلكت بها عاد ﴿ فرأوه ﴾ أي : الزرع والنبات الذي كان من أثر رحمة الله ﴿ مصفراً ﴾ من البرد الناشيء عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضراره ، وقيل : الضمير راجع إلى الريح ، وهو يجوز تذكيره وتأنيثه ، وقيل : راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار ، وقيل : راجع إلى السحاب،لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر ، والأول أولى واللام هي الموطئة،وجواب القسم قوله تعالى :

﴿ لظلوا من بعده ﴾ وهو يسد مسد جواب الشرط،لأنه اجتمع هنا شرط وقسم ، والشرط مؤخر فيحذف جوابه ، دلالة عليه بجواب القسم على القاعدة والمعنى : وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفرة لظلوا من بعد ذلك .

﴿ يكفرون ﴾ بالله ويجحدون نعمه والمعنى : أنهم يفرحون عند الخصب ، ولو أرسلت عذاباً على زرعهم لجحدوا سالف نعمتي،وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم، وعدم صبرهم ، وضعف قلوبهم ، وليس كذا حال أهل الإيمان ، ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال :

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ
الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا
وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ
مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ
لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ أي موتى القلوب إذا دعوتهم ، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ، ومعرفتهم للصواب ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق ووعظتهم بمواعظ الله ، وذكرتهم الآخرة وما فيها ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صم الآذان .

وقد تقدم تفسير هذا في سورة النمل ،فإن قلت : الأصم لا يسمع مقبلاً أو مدبراً ؛ فما فائدة هذا التخصيص ؟ قلت :هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة ، فإذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في دعاء النبي ﷺ لأهل بدر،والاسناد ضعيف .

والمشهور في الصحيحين وغيرهما أن عائشة استدلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة أن النبي ﷺ نادى أهل قليب بدر،وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص ، فقد قال النبي ﷺ لما قيل له إنك تنادي أجساداً بالية: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وفي مسلم من حديث أنس : أن عمر بن الخطاب لما سمع النبي ﷺ يناديهم فقال : « يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث ؟وهل يسمعون؟ يقول الله : إنك لا تسمع الموتى ،فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم،ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا » ثم وصفهم بالعمي فقال :

﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغي ، أو لفقدهم للبصائر ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ لكونهم أهل التفكر والتدبر ، والاستدلال بالآثار على المؤثر ﴿ فهم مسلمون ﴾ أي منقادون للحق متبعون له،وفيه مراعاة معنى : (من) .

﴿ الله الذي خلقكم ﴾ ذكر سبحانه استدلالاً آخر على كمال قدرته،وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة ، كما قال : ﴿ من ضعف ﴾ أي : بدأكم وأنشأكم على ضعف ، وهو مصدر،ضد القوة ، قال الواحدي : قال المفسرون: من نطفة كقوله : من ماء مهين ، أي : ذي ضعف ، وقيل : المراد حال الطفولية والصغر ، فهذه أحوال غاية الضعف ، قرىء : ضعف بضم الضاد في هذه المواضع، وبفتحها ، وهما سبعيتان . قال الفراء : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم ؛ قال الجوهري : الضعف خلاف القوة والصحة ، وقيل : هو بالفتح في الرأي ، وبالضم في الجسم ، وأجاز الكوفيون ضعف بفتحتين .

﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾ وهي قوة الشباب ، وبلوغ الأشد ، فإنه إذ ذاك تستحكم القوة ، وتشتد الخلقة إلى بلوغ النهاية .

﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ﴾ أي : عند الكبر والهرم ﴿ وشيبة ﴾ هي تمام الضعف ، ونهاية الكبر . وقيل : بياض الشعر الأسود ، ويحصل أوله في الغالب في السنة الثالثة والأربعين ، وهو أول سن[1] الاكتهال ، والأخذ في النقص بالفعل بعد الخمسين إلى أن يزيد النقص في الثالثة والستين،وهو أول

---

(١) الكهولة من الأربعين إلى الستين وبعدها الشيخوخة . المطيعي .

سن الشيخوخة ، ويقوى الضعف إلى ما شاء الله تعالى .

﴿ يخلق ما يشاء ﴾ من جميع الأشياء،ومن جملتها القوة والضعف،والشباب والشيبة،في بني آدم ﴿ وهو العليم ﴾ بتدبيره وأحوالهم ﴿ القدير ﴾ على خلق ما يريده وتغييرهم ، وهذا الترديد في الأحوال أبين دليل على الصانع القادر .

﴿ ويوم تقوم ﴾ أي : توجد وتحصل ﴿ الساعة ﴾ أي : القيامة ، وهي النفخة الثانية ، وسميت ساعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ﴿ يقسم المجرمون ﴾ أي : يحلف المشركون والكافرون المنكرون للبعث بأنهم ﴿ ما لبثوا﴾ في الدنيا،قاله الخطيب ، والكشاف ، والقاضي[1] أو في قبورهم ، قاله مقاتل والكلبي .

﴿ غير ساعة ﴾ فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم،واستقر ذلك في أذهانهم ، فحلفوا عليه ، وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع ، وقال ابن قتيبة : إنهم كذبوا في هذا الوقت،كما كانوا يكذبون من قبل ، وهذا هو الظاهر لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا،فقد علم كل واحد منهم مقداره ، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة أن ؟ كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ .

﴿ كذلك ﴾ الصرف ﴿ كانوا يؤفكون ﴾ أي:يصرفون ويقولون : ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، يقال : أفك الرجل إذا صرف عن الصدق والحق . وقيل : المراد يصرفون عن الحق،وقيل : عن الخير،والأول أولى ، وهو دليل على أن حلفهم كذب .

﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ﴾ اختلف في تعيين هؤلاء،فقيل : الملائكة ، وقيل : الأنبياء ، وقيل :علماء الأمم ، وقيل مؤمنو هذه الأمة ، ولا مانع من الحمل على الجميع . قالوا رداً على هؤلاء الكفرة وتكذيباً لهم :

(١) يعني بالقاضي الإمام الجهبذ أبو بكر بن العربي في كتابه «أحكام القرآن» .

﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ أي : سابق علمه ، وسالف قضائه ﴿ إلى يوم البعث ﴾ قال الزجاج : في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ ، قال الواحدي : المفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير : وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله ، وكان رد الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد ، أو للمقابلة لليمين باليمين ، ردوا ما قالوه ، وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث ، فنبهوهم على طريقة التبكيت بقولهم :

﴿ فهذا ﴾ الوقت الذي صاروا فيه هو ﴿ يوم البعث ﴾ الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ، وقيل : الفاء جواب شرط محذوف تقديره : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه ، أي : فقد تبين بطلان إنكاركم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ أنه حق وقوعه في الدنيا ، بل كنتم تستعجلونه تكذيباً واستهزاء .

﴿ فيومئذ ﴾ الفاء تفصيل لما يفهم مما قبلها من أنه لا يفيدهم تقليل مدة اللبث ، ولا النسيان ، أو هو جواب شرط مقدر أيضاً .

﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أي : لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ، ولا يفيدهم علمهم بالقيامة ، كأنهم توهموا أن التقليل ونحوه عذر في عدم طاعتهم ، كقوله :﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وقيل ؛ لما رد عليهم المؤمنون ، سألوا الرجوع إلى الدنيا ، واعتذروا فلم يعذروا . قرىء لا ينفع بالتحتية وبالفوقية ، وهما سبعيتان .

﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي : لا يطلب منهم العتبى ، وهو الرجوع إلى ما يرضى الله من التوبة ، والعمل الصالح ، وذلك لانقطاع التكليف في ذلك اليوم ، يقال : استعتبته فأعتبني ، أي : استرضيته فأرضاني ، وذلك إذا كنت جانياً عليه ، وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه ، والمعنى : أنهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة ، كما دعوا إلى ذلك في الدنيا .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي : وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وقصتهم وما يقولون ؛ وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ، وكذا ضربنا لهم من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله ، وصدق رسله ، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وفيه إشارة إلى إزالة الأعذار ، والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار .

﴿ ولئن جئتهم بآية ﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك ، أو لئن جئتهم بآية كالعصا ، واليد ، أو جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ﴿ ليقولن الذين كفروا ﴾ منهم ﴿ إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أي : ما أنت يا محمد وأصحابك إلا أصحاب أباطيل ، تتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان ، أو أنكم كلكم أيها الرسل مبطلون ، واللام مؤكدة واقعة في جواب القسم .

﴿ كذلك ﴾ الطبع ﴿ يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ أي : الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق والتوحيد ، وينجون به من الباطل والشرك ، والمصرين على خرافات اعتقدوها ، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب المحق ؛ ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر ، معللاً ذلك بحقية وعده سبحانه ، وعدم الخلف فيه ، فقال : ﴿ فاصبر ﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى ، وتنظره من الأفعال الكفرية ، والفاء فصيحة .

﴿ إن وعد الله حق ﴾ وقد وعدك بالنصر عليهم ، وإعلاء حجتك ،

وإظهار دعوتك ، ووعده حق لا خلف فيه ﴿ ولا يستخفنك ﴾أي :لا يحملنك يا محمد ﷺ على الخفة والجهل والطيش بترك الصبر ، ولا يستفزنك عن دينك وما أنت عليه ، يقال : استخف فلان أي : استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي ، وقرىء من الاستحقاق ، والنهي في الآية من باب لا أرينك ههنا ﴿ الذين لا يوقنون ﴾ بالله ، ولا يصدقون أنبياءه ولا يؤمنون بكتبه ، ولا بالبعث والحساب .

سورة لقمان

﴿ آياتها ثلاث أو أربع وثلاثون آية ﴾

وهي مكية إلا ثلاث آيات ، وهي قوله تعالى : ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، إلى تمام الآيات الثلاث ، قاله ابن عباس ، وعنه أنها مكيّة ، ولم يستثن . وعن قتادة أنها مكيّة إلا آيتين فمدنيتان . وأخرج النسائي ، وابن ماجة عن البراء قال : كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ، وقد تقدم الكلام على مثل فاتحة هذه السورة فلا نعيده ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ وقد تقدم أيضا بيان مرجع الإشارة مراراً في نظائرها ، والحكيم إما أن يكون بمعنى مفعل ، أو بمعنى فاعل أو بمعنى ذي الحكمة ،أو الحكيم قائله ، والإضافة بمعنى من .

﴿هدى ورحمة﴾ قال الزجاج : المعنى تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة ؛ وقرىء بالرفع ، أي هو هدى ورحمة ﴿ للمحسنين ﴾ المحسن العامل للحسنات ، أو من يعبد الله كأنه يراه ؛ كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح ، لما سأله جبريل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] ثم وصفهم بقوله :

﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ وخص هذه العبادات الثلاث لأنها عمدتها ﴿ أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾ قد تقدم تفسير هذا في أوائل سوزة البقرة ، والمعنى هنا : أن أولئك المتصفين بالإحسان ،وفعل تلك الطاعات ، التي هي أمهات العبادات، هم على طريقة الهدى ، هم الفائزون بمطالبهم ، الظافرون بخيري الدارين .

(١) تقدم ذكره .

﴿ ومن الناس من يشتري ﴾ ﴿ من ﴾ إما موصولة أو موصوفة ،ومفرد لفظاً ، جمع معنى،وروعي لفظها أولاً في ثلاثة ضمائر ، يشتري ، ويضل ، ويتخذ . وروعي معناها ثانياً في موضعين،وهما : أولئك لهم ، ثم رجع إلى مراعاة اللفظ في خمسة ضمائر ، وهي وإذا تتلى عليه إلخ .

﴿ لهو الحديث ﴾ وهو كل باطل يلهي ، ويشغل عن الخير ، من الغناء والملاهي ، والأحاديث المكذوبة ،والأضاحيك ،والسمر بالأساطير التي لا أصل لها ، والخرافات ،والقصص المختلفة ، والمعازف والمزامير ، وكل ما هو منكر والإضافة بيانية ، أي : اللهو من الحديث ، لأن اللهو يكون حديثاً وغيره ؛ فهو كثوب خز ، وهذا أبلغ من حذف المضاف . وقيل : المراد شراء القينات المغنيات ، والمغنين . فيكون التقدير من يشتري أهل لهو الحديث ، قال الحسن : لهو الحديث :المعازف والغناء .وروي عنه أنه قال :هو الكفر والشرك . وفيه بعد، والمراد بالحديث :الحديث المنكر ،والمعنى:يختارون حديث الباطل على حديث الحق .

قال القرطبي : إن أولى ما قيل في هذا الباب هو تفسير لهو الحديث بالغناء قال :وهو قول الصحابة والتابعين .قال ابن عباس : لهو الحديث باطله ، وهو في النضر بن الحرث بن علقمة : اشترى أحاديث الأعاجم ، وأخبار الأكاسرة ، وصنيعهم في دهرهم ، وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ، ويحدث بها قريشاً ، ويكذب القرآن . وعنه قال : هو الغناء وأشباهه . أخرجه البخاري في الأدب المفرد،وعنه قال: الجواري الضاربات ، وعن ابن مسعود قال : هو والله الغناء ، وفي لفظ قال : هو الغناء ، والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عباس والحسن وعكرمة ،وسعيد بن جبير :قالوا لهو الحديث هو الغناء ، والآية نزلت فيه .وقيل :هو كل لهو ولعب ؛ والمعنى: يستبدل ويختار الغناء ، والمزامير ؛ والمعازف على القرآن .

وأخرج أحمد والترمذي ، وابن ماجة ، والطبراني ، والبيهقي ، وغيرهم عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ، ولا

خير في تجارة فيهن ؛ وثمنهن حرام » . في مثل هذا أنزلت هذه الآية . وفي إسناده عبيد[١] بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن ،وفيهم ضعف .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « إن الله حرم القينة وبيعها،وثمنها،وتعليمها،والاستماع إليها ثم قرأ : ومن الناس من يشتري لهو الحديث» .

وأخرج البيهقي في السنن ، وابن أبي الدنيا ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « الغناء ينبت النفاق،كما ينبت الماء البقل » . ورووياه عنه موقوفاً . وأخرج ابن أبي الدنيا،وابن مردويه ، عن أبي أمامة : أن رسول الله ﷺ قال : « ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه،يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك » . وأخرج الترمذي عنه مرفوعاً نحو ؛ وفي الباب أحاديث في كل حديث منها منال .

وقال ابن مسعود : لهو الحديث ، الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في لهو الحديث : « إنما ذلك

---

(١) عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد ، والأعمش وكأنه مات شاباً ، وروى عنه الكبار : يحيى ابن سعيد الأنصاري ، ويحيى بن أيوب المصري قال محمد بن يزيد المستعلي : سألت أبا مسهر عنه فقال : صاحب كل معضلة ، وإن ذلك على حديثه لبين . وروى عثمان بن سعيد عن يحيى قال : حديثه عندي ضعيف . وروى عباس عن يحيى : ليس بشيء . وقال ابن المديني . منكر الحديث ، وقال الدارقطني . ليس بالقوي ، وشيخه علي متروك . وقال ابن حبان يروي الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روى عن علي بن يزيد يأتي بالطامات ، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله ، وعلي بن يزيد ، والقاسم أبو عبد الرحمن ـ لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم أ هـ .

قلت : وهذا الخبر اجتمع فيه الثلاثة ، وإن كان قد روي عن أبي زرعة الرازي أنه صدوق . المطيعي .

شراء الرجل اللعب والباطل » ، أخرجه ابن مردويه .

وعن نافع قال : كنت أسير مع عبدالله بن عمر في طريق فسمع زمارة فوضع أصبعيه في أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه . وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع . وعن ابن عوف أن رسول الله ﷺ قال : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نعمة، لهو ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة ، خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان » .

﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ اللام للتعليل ، قرىء بضم الباء ، أي : ليضل غيره عن طريق الهدى ، ومنهج الحق . وقرىء بفتح الياء ، أي : ليضل هو في نفسه ويدوم ، ويستمر ، ويثبت على الضلال ، وهما سبعيتان . قال الزجاج : من قرأ بضم الياء فمعناه ليضل غيره، فإذا أضل غيره فقد ضل هو ، ومن قرأ بالفتح فمعناه ليصير أمره إلى الضلال ، وهو إن لم يكن يشتري الضلالة، فإن أمره إلى ذلك ، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد ، ويؤيد هذا سبب النزول ، قال ابن عباس : سبيل الله :قراءة القرآن ، وذكر الله ، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية . قال الطبري : قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء ، والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم ابن سعد ، وعبدالله العنبري . قال القاضي أبو بكر بن العربي: يجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته ، إذ ليس شيء منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها ؟

وقال في نيل الأوطار بعد ذكر الاختلاف فيه مع الأدلة :لا يخفى على الناظر أن محل النزاع إذا خرج عن دائرة الحرام، لم يخرج عن دائرة الاشتباه والمؤمنون وقافون عند الشبهات ، كما صرح به الحديث الصحيح ، ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ولا سيما إذا كان مشتملاً على ذكر القدود ، والخدود ، والجمال ، والدلال ،

والهجر ، والوصال ومعاقرة العقار ، وخلع العذار ، والوقار ، فإن سامع ما كان كذلك لا يخلو عن بلية ، وإن من التصلب في ذات الله على حد يقصر عنه الوصف،وكم لهذه الوسيلة الشيطانية من قتيل دمه مطلول ، وأسير بهموم غرامه وهيامه مكبول ، نسأل الله السداد والثبات .

قلت:وقد جمع الشوكاني رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء ، وما استدل المحللون له والمحرمون له ، وحقق هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها ، وتدبر معانيها،إلى النظر في غيرها ، وسماها إبطال دعوى الإجماع على تحريم مطلق السماع . ولنا أيضاً بحمد الله عز وجل جواب بسيط في جواز الغناء ، وعدم جوازه بالفارسية،ذكرناه في كتابنا هداية السائل ، فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغي فليرجع إلى ذلك .

﴿ بغير علم ﴾ أي حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه ، أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر ، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض ، أو يفعله عن جهل،أو جهلاً منه بما عليه من الوزر ،ونحوه قوله تعالى : ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أي:لصواب التجارة .

﴿ ويتخذها ﴾ قرأ حمزة والكسائي والأعمش بالنصب ، عطفاً على يضل ، والضمير المنصوب راجع إلى السبيل ؛ فيكون المعنى على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم ؛ والمعنى:أنه يشتري لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله ، واتخاذ السبيل ﴿هزوا﴾ أي : مهزواً به . والسبيل يذكر ويؤنث . وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً على يشتري ، فهو من جملة الصلة ؛ وقيل : الرفع على الاستئناف ، والضمير المنصوب يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها ، والأول أولى ﴿أولئك﴾ إشارة إلى ﴿من﴾ والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها كما تقدم ﴿لهم عذاب مهين﴾ هو الشديد الذي يصير به من وقع عليه مهيناً .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ
فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ
ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

﴿ وإذا تتلى عليه ﴾أي :على هذا المستهزىء﴿ آياتنا ولى مستكبر﴾ أي : أعرض عنها حال كونه مبالغاً في التكبر، رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ﴿كأن لم يسمعها﴾ أي :كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع ﴿ كأن في أذنيه وقراً ﴾ ولا وقر فيهما والوقر:الثقل وهو حال من لم يسمعها،وقد تقدم بيانه،وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض ﴿ فبشره بعذاب أليم﴾ أي :أخبره بأن له العذاب البليغ في الألم، وذكر البشارة تهكم به،ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات،بين حال من يقبل عليها فقال :

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بالله وبآياته،ولم يعرضوا عنها،بل قبلوها ﴿ وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ﴾ أي: نعيم الجنات،فعكسه للمبالغة،جعل لهم جنات النعيم ، كما جعل للفريق الأول العذاب المهين ﴿ خالدين فيها ﴾ حال من الضمير في لهم أي مقدار خلودهم فيها فإذا دخلوها .

﴿ وعد الله حقاً ﴾ هما مصدران الأول مؤكد لنفسه أي: وعد الله وعداً ،

والثاني مؤكد لغيره،وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره حق ذلك حقاً ، والمعنى : أن وعده بأن لهم جنات النعيم كائن لا محالة ولا خلف فيه ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغلبه غالب ﴿ الحكيم ﴾ في كل أفعاله وأقواله ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقـولـه :

﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ جمع عماد كأهب جمع إهاب ، وهو ما يعمد به ، أي : يسند ؛ يقال : عمدت الحائط إذا دعمته ، والدعامة بالكسر ما يسند به الحائط إذا مال ، يمنعه السقوط ، ودعمت الحائط دعماً من باب نفع . وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد ، قيل : إن السماء خلقت مبسوطة كصفحة مستوية ، وهو قول المفسرين ؛ وهي في الفضاء ، والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس ذلك إلا بقدرة قادر مختار ، وإليه الإشارة بقوله بغير عمد .

﴿ ترونها ﴾ أي ليس لها شيء يمنعها الزوال من موضعها،وهي ثابتة لا تزول ، وليس ذلك إلا بقدرة الله تعالى ، وفيه وجهان : أحدهما أنه راجع إلى السموات ، أي ليست هي بعمد ، وأنتم ترونها كذلك بغير عمد ، الوجه الثاني : أنه راجع إلى العمد ، ومعناه بغير عمد مرئية ، فيمكن أن تكون ثم عمد ولكن لا ترى ، وقيل : ولا عمد البتة،قال علي بن سليمـان : الأولى أن يكون مستأنفاً ،أي : ولا عمد ، ثم :

﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ أي :جبالاً مرتفعة ثوابت شوامخ من أوتاد الأرض ، وهي سبعة عشر جبلاً منها قاف ، وأبو قبيس[1] والجودي ولبنان ،

---

(١) أين هذه الجبال القميئة من جبال هملايا القريبة من بلاد المصنف أو من جبال الألب في أوربا أو جبال البرانس في شمال أفريقيا ؟ وأين هو جبل قاف الذي يحكيه الـوضاعـون والقصاصـون والمهرجون بأساطير ألف ليلة وليلة ؟ بصر الله أهل العلم بمناهج العلم . المطيعي .

وطورسينين ، وطور سيناء،أخرجه ابن جرير،ولكن لا وجه للتخصيص،والأولى العموم،والجبال على الأرض أكثر من ذلك ، والكل يصلح للرسو ، يقال : رسا الشيء ثبت،وبابه عدا وسما والرواسي : الرواسخ واحدتها راسية ﴿ أن تميد بكم ﴾ أي :كراهة أن تميد بكم ، وقيل : لئلا تميد،والمعنى أنه خلقها وجعلها مستقرة ثابتة،لا تتحرك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها .

﴿ وبث ﴾ أي نشر وفرق ﴿فيها﴾ أي :في الأرض ﴿ من كل دابة﴾ أي : كل نوع من أنواع الدواب،ومن زائدة ﴿ وأنزلنا ﴾ فيه التفات عن الغيبة ﴿ من السماء ماء ﴾ مطهراً وهو من إنعام الله على عباده وفضله ﴿ فأنبتنا فيها ﴾ أي: في الأرض بسبب إنزال الماء .

﴿ من كل زوج كريم ﴾ أي من كل صنف حسن ، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه ، وكثرة منافعه ، وقيل : إن المراد بذلك الناس ، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة،واللئيم من يصير إلى النار،قاله الشعبي ، وغيره ؛ والأول أولى .

﴿ هذا ﴾ أي :ما ذكر من خلق السموات والأرض وما تعلق بهما من الأمور المعدودة ﴿ خلق الله ﴾ أي : مخلوقه تعالى ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ ﴾ أي : من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله،والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : فأروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله ، أو يقاربه حتى استوجبوا عندكم العبادة ، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت،ثم أضرب عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر ، والإعلام ببطلان ما هم عليه فقال : ﴿ بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ فقرر ظلمهم أولاً وضلالهم ثانياً ؛ ووصفه بالوضوح والظهور ، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة . ولا يهتدي إلى الحق .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ كلام مستأنف لبيان بطلان الشرك، واختلف في لقمان ، هل هو عربي ؟ أم أعجمي؟ مشتق من اللقم ، فمن قال: إنه أعجمي منعه للتعريف والعجمة . ومن قال: إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون .قال الحفناوي : والأول أظهر ، واختلفوا أيضاً هل هو نبي ؟ أم رجل صالح ؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي . وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي ، والشعبي ، أنه كان نبياً،والأول أرجح لما سيأتي،وقيل :لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط،مع أن الراوي لذلك عنه[1] جابر الجعفي،وهو ضعيف جداً وقيل: خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة ، وهو لقمان ، بن باعورا ، ابن ناحور ، بن تارخ وهو آزر أبو إبراهيم .

وقيل : هو لقمان بن عنقا ، بن مرون ، وكان نوبياً من أهل أيلة ذكره السهيلي .

قال وهب : هو ابن أخت أيوب وقال مقاتل : هو ابن خالته ، عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود،فلما بعث داود قطع الفتوى فقيل له ، فقال : ألا أكتفي إذ كفيت . وقيل : كان خياطاً ، وقيل نجاراً ، وقيل : راعياً،وقال الواقدي : كان قاضياً في بني إسرائيل .

(١) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي أحد علماء الشيعة وليس فيه ضعف شديد كما قال المصنف فقد قال سفيان كان جابر الجعفي ورعاً في الحديث ما رأيت أورع منه وقال شعبة : صدوق وقال يحيى ابن أبي بكير عن شعبة : كان جابر اذا قال : اخبرنا وحدثنا ، وسمعت فهو من أوثق الناس . وقال وكيع : ما شككتم في شيء فلا تشكوا أن جابراً الجعفي ثقة وقال ابن عبد الحكم سمعت الشافعي يقول ، قال سفيان الثوري لشعبة لئن تكلمت في جابر الجعفي لأتكلمن فيك . المطيعي .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أتدرون ما كان لقمان» ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ،قال : كان حبشياً »أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن عباس قال : كان عبداً حبشياً نجاراً .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ « اتخذوا السودان ،فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم ، والنجاشي ،وبلال المؤذن » أخرجه الطبراني ، وابن حيان في الضعفاء ، قال الطبراني أراد الحبشة ، والحكمة التي آتاه الله هي الفقه ، والعقل ، والإصابة في القول وفسر الحكمة من قال بنبوته بالنبوة،قال ابن عباس : يعني العقل والفهم ، والفطنة في غير نبوة .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه .

ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء،ولا يثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله،وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع،وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز ؛ وقطيعة للوقت ، ولم يكن نبياً،حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا ، ولا صح إسناد ما روي عنه من الكلمات،حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلام الحكمة التي هي ضالة المؤمن .

﴿ أن آشكر لله ﴾ أن هي المفسرة،لأن في الإيتاء معنى القول ، لأنه تعليم أو وحي ، وقيل : التقدير : قلنا له هذا القول ، وقال الزجاج : التقدير لأن أشكر ، وقيل: بأن أشكر فشكر ، فكان حكيماً بشكره ، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة ، وطاعته فيما أمر به وقيل: الشكر أن لا تعصي الله بنعمه وقيل: أن لا ترى معه شريكاً له في نعمه . وقيل : هو الإقرار بالعجز،ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل ، ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر فقال :

﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ لأن نفع ذلك وثوابه راجع إليه

وفائدته حاصلة له ، إذ به تستبقى النعمة ، وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه،والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، موجبة لامتثال الأمر ﴿ ومن كفر ﴾ أي: من جعل كفر النعمة مكان شكرها ﴿ فإن الله غني ﴾ عن شكره غير محتاج إليه ﴿ حميد ﴾ مستحق للحمد من خلقه،لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها ، ولا يحصر عددها ، وإن لم يحمده أحد ، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال ، قال يحيى بن سلام : غني عن خلقه ، حميد في فعله .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ قال لقمان لابنه ﴾ قال السهيلي : واسم ابنه ثاران في قول ابن جرير ، والقتيبي ، وقال الكلبي : مشكم ، وقال النقاش : أنعم وقيل : ماتان،قال القشيري : كان ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما ودل على هذا قوله : لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، والتقدير آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه،وحين جعلناه واعظاً لغيره .

﴿ وهو يعظه ﴾ أي: والحال أنه يخاطبه بالموعظة التي ترغبه في التوحيد ، وتصده عن الشرك،وذلك لأن أعلى مراتب الإنسان أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، وبدأ بالأقرب إليه وهو ابنه فقال :

﴿ يا بني ﴾ تصغير إشفاق ومحبة ﴿ لا تشرك بالله ﴾ وهذا يدل على أنه كان كافراً كما تقدم . قال الخطيب ، والخازن : فرجع إليه وأسلم .وقيل : كان مسلماً ونهاه أن يقع منه إشراك في المستقبل .

﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا وهي منه ، وبين من لا نعمة له أصلاً . وبدأ في وعظه بنهية عن الشرك،لأنه أهم من غيره وقد اختلف في هذه الجملة ، فقيل : هي من كلام لقمان،فتكون تعليلاً لما قبلها ،وقيل : هي من كلام الله ، فتكون منقطعة عما قبلها،ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح ، أنها لما نزلت: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على الصحابة وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فأنزل الله إن الشرك لظلم عظيم ، فطابت أنفسهم .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ
لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ أي: أمرناه أن يبرهما، وهذه الوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله: ﴿وما كنتم تعلمون﴾ اعتراض بين كلام لقمان على نهج الاستطراد، لقصد التأكيد لما قبلها من النهي عن الشرك بالله وتفسير التوصية هو قوله: أن آشكر لي ولوالديك وما بينهما اعتراض بين المفسر والمفسر، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدها وجوباً.

﴿ حملته أمه وهناً على وهن ﴾ قرىء بسكون الهاء وبفتحها في الموضعين، وهما لغتان، أي: أنها حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعف على ضعف، فإنها لا يزال يتضاعف ضعفها، والوهن الضعف والمشقه، وقد وهن من باب وعد ووهنه غيره توهيناً، والوهن والموهن نحو من نصف الليل. وقال ابن عباس: شدة بعد شدة، وخلقاً بعد خلق، وقيل: المعنى أن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، وقيل: أي: حملته بضعف على ضعف: وقال الزجاج المعنى لزمها بحملها إياه أن تضعف مرة بعد مرة: أي: وهنا كائناً على وهن، لأن الحمل وهن، والطلق وهن، والوضع وهن، والرضاعة وهن، وانتصاب وهناً على المصدر أو الحال.

﴿ وفصاله في عامين ﴾ الفصال: الفطام عن الرضاع، وهو أن يفصل الولد عن الأم، وقرىء وفصله وهما لغتان، يقال: انفصل عن كذا أي: تميز، وبه

سمي الفصيل،والمعنى:فطامه لتمام سنتين عن الرضاع،قال البيضاوي : وفيه دليل على أن مدة الإرضاع حولان .

﴿ أن آشكر لي ولوالديك﴾أي: وصيناه بشكرنا وشكر والديه، قال سفيان ابن عيينه:من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله؛ ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين. و (أن) مفسرة أو مصدرية، وهو قول الزجاج ﴿إلى المصير﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر،أي الرجوع إليّ لا إلى غيري، وقيل : الجزاء عليَّ وقت المصير إليّ .

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم﴾ أي :ما لا علم لك بشركته ، وذكر هذا القيد موافقة للواقع ، ولا مفهوم (مخالفته) له ، إذ ليس لله شريك يعلم لأنه مستحيل ﴿فلا تطعمها﴾ في ذلك لأنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق،وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة،ولا ترك فريضة على الأعيان ؛ وتلزم طاعتهما في المباحات،وقد قدمنا تفسير الآية،وسبب نزولها في سورة العنكبوت ، قال سعد بن أبي وقاص : نزلت فيَّ هذه الآية،وعن أبي هريرة مثله ، وعليه جماعة من المفسرين .

﴿وصاحبهما في الدنيا﴾ أي:في أمورها التي لا تتعلق بالدين،ما دمت حياً صحاباً ﴿معروفاً﴾ ببرهما إن كانا على دين يقران عليه وقيل :صاحبهما بمعروف وهو البر والصلة، والعشرة الجميلة، والخلق الجميل، والحلم والاحتمال، وما يقتضيه مكارم الأخلاق، ومعالي الشيم.

﴿واتبع سبيل من أناب﴾ أي : رجع ﴿إليّ﴾ والخطاب لسائر المكلفين،أي: اتبع أيها المكلف دين من أقبل إلى طاعتي من عبادي الصالحين، بالتوبة والإخلاص، وهو النبي ﷺ وأصحابه، قيل :يعني أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه،قال :ابن عباس وذلك حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير ،وسعد بن أبي وقاص ،وعبدالرحمن بن عوف، وقالوا له: قد صدقت هذا الرجل ،وآمنت به؟ قال : نعم إنه صادق، فآمنوا به ثم حملهم إلى النبي ﷺ حتى أسلموا،فهؤلاء هم سابقة الإسلام أسلموا بإرشاد أبي بكر.

﴿ ثم إليّ ﴾ لا إلى غيري ﴿ مرجعكم ﴾ جميعاً أي : أنت ووالداك ومن أناب إليَّ ﴿ فأنبئكم ﴾ أخبركم عند رجوعكم إليّ ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ من خير أو شر،فأجازي كل عامل بعمله ، ثم شرع سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان في وعظه لابنه فقال :

﴿ يا بنيَّ إنها ﴾ الضمير عائد إلى الخطيئة،لما روي أن ابن لقمان قال لأبيه:يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد هل يعلمها الله ؟ فقال إنها أي الخطيئة ﴿ إن تك ﴾ بالفوقية على معنى إن تك الخطيئة ، أو المسألة أو الخصلة أو القصة ﴿ مثقال ﴾ قرىء بالنصب على أنه خبر كان،واسمها هو أحد تلك المقدرات،وقرىء بالرفع على أنه اسم كان وهي تامة وأنث الفعل في هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث أي :زنة ﴿ حبة من خردل ﴾ والجملة الشرطية مفسرة للضمير،قال الزجاج:التقدير أن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة من جنس الخردل.وعبر بالخردلة لأنها أصغر الحبوب ، ولا يدرك ثقلهابالحس ، ولا ترجح ميزاناً،ثم زاد في بيان خفاء الحبة مع خفتها وصغرها فقال :

﴿ فتكن في صخرة﴾ فإنها عند كونها في الصخرة قد صارت في أخفى مكان وأحرزه ، قرىء فتكن بضم الكاف،ومن الكن الذي هو الشيء المغطى قال السدي :هذه الصخرة هي صخرة ليست في السموات والأرض،وقال ابن عباس:صخرة تحت الأرضين السبع ، وهي التي تكتب فيها أعمال الفجار،وهي السجين وخضرة السماء منها ، وقيل : غير ذلك .

﴿ أو في السموات أو في الأرض ﴾ أي حيث كانت من بقاع السموات أو بقاع الأرض ، أي:في أخفى مكان من ذلك،فالأخفى من الصخرة كأن تكون في صخرة تحت الأرضين السبع،والأخفى من السموات كأن تكون في أعلاها ، والأخفى من الأرض كأن تكون في أسفلها .

﴿ يأت بها الله ﴾ أي : يحضرها يوم القيامة ، ويحاسب فاعلها عليها ﴿ إن الله لطيف ﴾ باستخراجها لا تخفى عليه خافية، بل يصل علمه الى كل خفي ﴿ خبير ﴾ بمكانها ، وبكل شيء لا يغيب عنه شيء ، ومعنى الآية الإحاطة بالأشياء صغيرها وكبيرها .

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿ يا بنيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ من الأذى في ذات الله ، إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر،أو اصبر على ما أصابك من المحن فانها تورث المنح ، حكى سبحانه عن لقمان أنه أمر ابنه بهذه الأمور ، ووجه تخصيص هذه الطاعات،أنها أمهات العبادات وعماد الخير كله .

﴿ إن ذلك ﴾ الطاعات المذكورة التي وصاه بها ﴿ من عزم الأمور﴾ أي : مما جعله الله عزيمة ، وأوجبه على عباده ، وحتمه على المكلفين،ولم يرخص في تركه وقيل :المعنى من حق الأمور التي أمر الله بها ، والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم أي :من معزومات الأمور،أو بمعنى العازم كقوله فاذا عزم الأمر . قال المبرد: إن العين تبدل حاء فيقال :عزم وحزم وقال ابن جريج :ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق ، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة ، وصوب هذا القرطبي ، وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم .

﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ وقرىء تصاعر ، والمعنى متقارب ، وكل منهما في خط المصحف الإمام بلا ألف ، والصعر : الميل ، يقال:صعر خده : وصاعر خده: إذا أمال وجهه ،وأعرض تكبراً ، والمعنى،لا تعرض عن الناس

تكبراً عليهم ، وبه قال الهروي ، يقال : أصاب البعير صعر : إذا أصابه داء يلوي عنقه وقيل : المعنى.ولا تلو شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره ، وقال ابن خواز منداد : كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة ، ولعله فهم من التصعير التذلل .

وعن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله:ولا تصعر خدك،فقال لي : « الشدق » أخرجه الطبراني . وابن عدي وابن مردويه وقال ابن عباس : لا تتكبر فتحتقر عباد الله ، وتعرض عنهم إذا كلموك وعنه قال : هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر،والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعاً،ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المستكبرون،بل يكون الفقير والغني عندك سواء .

﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي:خيلاء وفرحاً ،والمراد : النهي عن التكبر والتجبر ، والمختال يمرح في مشيه ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تعليل للنهي المذكور،لأن الاختيال هو المرح، والفَخور هو الذي يفتخر على الناس بماله من المال والشرف،أو القوة أو يعدد مناقبه تطاولاً،أو غير ذلك ويظن أن إسباغ النعم الدنيوية عليه من محبة الله له وذلك من جهله،فان الله أسبغ نعمه على الكافر الجاحد،فينبغي للعارف أن لا يتكبر على عباده،وليس منه التحديث بنعم الله،فإن الله يقول :﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ .

﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي : توسط فيه،والقصد ما بين الإسراع والبطء ، يقال : قصد فلان في مشيته : إذا مشى مستوياً لا يدب دبيب المتمادين ، ولا يثب وثوب الشياطين . وقد ثبت «أن رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع » ، فلا بد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة ، وقال مقاتل : معناه لا تختل في مشيتك ، وقال ابن مسعود : كانوا ينهون عن خبب اليهود ، ودبيب النصارى ، ولكن مشياً بين ذلك، وقيل : انظر

موضع قدميك تواضعاً،والمعنى أعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين الدبيب والإسراع . وقال عطاء : امش بالسكينة والوقار ، كقوله : يمشون على الأرض هوناً .

﴿ واغضض من صوتك ﴾ أي : أنقص منه واخفضه ، ولا تتكلف رفعه فان الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع ، و (من) تبعيضية ، وعند الأخفش مزيدة ، ويؤيده قوله :﴿إن الذين يغضون أصواتهم﴾ ،والمعنى :شيئاً من صوتك وكانت الجاهلية يتمدحون برفع الصوت .

﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ أي : أوحشها وأقبحها ﴿ لصوت الحمير ﴾ تعليل للأمر بالغض من الصوت على أبلغ وجه وآكده ، قال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير ، أي : صوت قوي وآخره شهيق ،أي : صوت ضعيف ، وهما صوتا أهل النار ، وأنكر ، قيل : مبني من الفعل المبني للمفعول ، نحو أشغل من ذات النحبيين ، وهو مختلف فيه ، قال المبرد : تأويله إن الجهر بالصوت ليس بمحمود ، وانه داخل في باب الصوت المنكر ، واللام للتأكيد ، ووحد الصوت مع كونه مضافاً إلى الجمع لأنه مصدر ، وهو يدل على الكثرة ، وهو مصدر : صات يصوت صوتاً فهو صائت .

وقيل : إنما وحده ولم يجمع لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع ، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت ، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس ؛ فوجب توحيده . وعن الثوري في الآية قال : صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار . وقيل : معنى الآية هو :العطسة القبيحة المنكرة ، والأول أولى ، وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، تنبيه على أن رفع الصوت في غاية الكراهة،ولما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع الى توبيخ المشركين وتبكيتهم ، وإقامة الحجج عليهم ، فقال :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ
إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ
بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ؟ ﴾ قال الزجاج : معنى تسخيرها للآدميين : الانتفاع بها، انتهى ، فمن مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم بأمر الله سبحانه : الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب . وغير ذلك ،ومن مخلوقات الأرض المسخرة : الأحجار ، والمعادن ، والتراب ، والزرع ، والشجر ، والثمر ، والبحار ، والأنهار ، والحيوانات ، والدواب التي ينتفعون بها ، والعشب الذي يرعون فيه دوابهم ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة ، فالمراد بالتسخير : جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له ، سواء كان منقاداً له وداخلاً تحت تصرفه أم لا .

﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ أي : أتم وأكمل عليكم نعمه ، يقال : سبغت النعمة إذا تمت وكملت ، وقرىء أصبغ بابدال السين صاداً وهي لغة كلب ، يفعلون ذلك في كل سين اجتمع مع الغين ، والخاء والقاف ، كصلخ وصقر ، والنعم جمع نعمة ، وقرىء نعمة على الإفراد والتنوين ، اسم جنس يراد به الجمع ، ويدل به على الكثرة ، كقوله تعالى : وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، والنعمة : كل نفع قصد به الإحسان .

والمراد بالنعم الظاهرة : ما يدرك بالعقل أو الحس ، ويعرفه من

يتعرفه . وبالباطنة : ما لا يدرك للناس ، ويخفى عليهم . وقيل : الظاهرة الصحة ، وكمال الخلق ، والبصر ، والسمع ، واللسان ، وسائر الجوارح الظاهرة . والباطنة : المعرفة ، والعقل ، والقلب ، والفهم ، وما أشبه ذلك . وقيل :الظاهرة :ما يرى بالأبصار من المال والجاه ، والجمال ، وفعل الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفعه الله عن العبد من الآفات ، وقد سرد الماوردي في هذا أقوالاً تسعة ، كلها ترجع الى هذا .

وقيل : الظاهرة :نعم الدنيا،والباطنة : نعم الآخرة ،وقيل: الظاهرة :الاسلام والقرآن والجمال ، والباطنة : ما ستره الله عن العبد من الأعمال السيئة ، وقيل : الظاهرة : تسوية الأعضاء ، وحسن الصورة ، والباطنة : الاعتقاد بالقلب .وقيل : الظاهرة : الرزق ، والباطنة : حسن الخلق . وقيل : الظاهرة: تخفيف الشرائع،والباطنة : الشفاعة . وقيل الظاهرة :ظهور الإسلام والنصر على الأعداء . والباطنة الإمداد بالملائكة .وقيل : الظاهرة : اتباع الرسول ﷺ . والباطنة : محبته . واللفظ أعم من ذلك .

وعن عطاء قال: سألت ابن عباس عن هذا ،فقال هذه من كنوز علمي ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: « أما الظاهرة فما سوى من خلقك ، وأما الباطنة فما ستر من عورتك ، ولو أبداها لقلاك أهلك ، فمن سواهم » . أخرجه البيهقي .

وعنه قال :سألت رسول الله ﷺ عن قوله وأسبغ عليكم نعمه الخ ، فقال : أما الظاهرة فالاسلام ، وما سوى من خَلقِك وما أسبغ عليك من رزقه ، وأما الباطنة فما ستر من مساوي عملك » أخرجه ابن النجار والديلمي والبيهقي وعنه قال : النعمة الظاهرة :الإسلام . والنعمة الباطنة : كل ما ستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود ، أخرجه ابن مردويه وعنه أنه قال في تفسير الآية : هي لا إله إلا الله .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾ أي : في شأن الله سبحانه في توحيده وصفاته مكابرة ، وعناداً بعد ظهور الحق له، وقيام الحجة عليه، ولهذا قال ﴿ بغير علم ﴾ مستفاد من عقل ونقل ﴿ ولا هدى ﴾ من جهة رسول يهتدى به إلى طريق الصواب .

﴿ ولا كتاب منير ﴾ نير واضح أنزله الله ؛ بل مجرد تعنت ومحض عناد وتقليد ، وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة . قيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وأبي بن خلف ، وأمية بن خلف، وأشباههم ، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله ، وفي صفاته بغير علم .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين ، والجمع باعتبار معنى ﴿ من ﴾ ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على رسوله من الكتاب، تمسكوا بمجرد التقليد البحت ، و ﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون فيها في دينهم ؛ ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء .

قال ابن القيم: قد احتج العلماء بهذه الآية وأمثالها في إبطال التقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر ، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد ، كما لو قلد رجلاً فكفر ، وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر في مسألة فأخطأ ، وجهها كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة ، لأن كل تقليد يشبه بعضه بعضاً ، وان اختلفت الآثام فيه ، والتقليد أنواع :

أحدها : الإعراض عما أنزل الله ، وعدم الالتفات إليه، اكتفاء بتقليد الآباء .

الثاني : تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله .

الثالث : التقليد بعد قيام الحجة ، وظهور الدليل على خلاف قول المقلد ، والفرق بين هذا وبين النوع الأول أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة ، وهذا قلد بعد ظهور الحجة له فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله ﷺ ، وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه ، والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم ، ولا يكون العبد مهتدياً حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله،فهذا المقلد إن كان يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو مهتد وليس بمقلد ، وإن كان لم يعرف ما أنزل الله فهو جاهل ضال بإقراره على نفسه ، فمن أين يعرف أنه على هدى في تقليده ؟ وهذا جواب كل سؤال يوردونه في هذا الباب .

وكان طريقة الأئمة اتباع الحجة ، والنهي عن تقليدهم فمن ترك الحجة وارتكب ما نهوا عنه ، ونهى الله ورسوله عنه قبلهم فليس على طريقهم ، بل هو من المخالفين لهم ، وإنما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة ، وانقاد للدليل ، ولم يتخذ رجلاً بعينه سوى الرسول ﷺ يجعله مختاراً على الكتاب والسنة ، يعرضهما على قوله ، وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد اتباعاً ، وقد فرق الله ورسوله وأهل العلم بينهما ، كما فرقت الحقائق بينهما،فان الاتباع سلوك المتبع ، والإتيان بمثل ما أتى به ، والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله،وبيان زلة العالم،ليبينوا بذلك فساد التقليد،وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم،فلا يجوز قبول كل ما يقوله،وينزل قوله منزلة المعصوم،فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض،وحرموه وذموا أهله وهو أصلاً بلاء المقلدين وفتنتهم،فانهم يقلدون العالم فيما يزل فيه وفيما لم يزل،وليس لهم تمييز بين ذلك،فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد،فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله،ويشرعون ما لم يشرع ولا بد لهم من ذلك،إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه فالخطأ واقع منه ولا بد . انتهى ، بتصرف في العبارة ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت :

﴿ أو لـو كان الشيـطان يدعـوهم ؟ ﴾ أي :آباءهم الـذين اقتـدوا بهم في دينهم أي : يتبعونهم في الشرك،ولـو كان الشيـطان يدعـوهم فيمـا هم عليـه من الشرك ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع .

﴿ إلى عـذاب السعيرِ ﴾ لأنـه زين لهم اتبـاع آبـائهم،والتـدين بـدينهم ، والأول أولى . لأن مدار إنكار الأتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك ، ويجوز أن يـراد أنه يـدعو جميـع التابعين والمتبـوعين الى العذاب ، فدعاؤه المتبوعين بتزيينه لهم الشـرك ، ودعاؤه للتـابعين بتزيينـه لهم دين آبـائهم ، وجواب ﴿ لـو ﴾ محذوف ، أي : يـدعوهم فيتبعـونه ، ومـا أقبح التقليد وأكثر ضرره على صاحبه ، وأوخم عـاقبته وأشـأم عائـدته على من وقـع فيه ، فـإن الداعي لـه الى ما أنـزل الله على رسولـه كمن يريـد أن يـذود الفـراش عن لهب النار لئـلا تحرق ، فتـأبى ذلك وتتهـافت في نـار الحـريق ، وعذاب السعير .

﴿ ومن يسلم وجهــه إلى الله ﴾ أي : يفـوض أمــره إليــه.ويخلص لـــه عبـادته ، ويقبـل عليه بكليتـه ، وقرىء من يسلم بـالتشديـد . قال النحـاس : التخفيف في هذا أعرف،كما قال عز وجل: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾.

﴿ وهو محسن ﴾ في أعماله،لأن العبادة من غيـر إحسان فيهـا ولا معرفـة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الـذي تقع بـه عبادة المحسنين ، وقـد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال لـه : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي: اعتصم بالعهد الأوثق ،وتعلق به وهو تمثيل لحـال من أسلم وجهه الى الله بحـال من أراد أن يرتقي الى شـاهق جبل فيمسك بأوثق عرى حبل متدل منه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾أي :مصيرها له لا الى غيره فيجازي عليها .

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
(٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ
أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ (٢٧)﴾

﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ أي : لا تحزن لذلك،فان كفره لا يضرك. قرىء بفتح الياء وضم الزاي ، وبضم الياء وكسر الزاي سبعيتان،بين سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين ، ثم توعدهم بقوله ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ أي : نخبرهم بقبائح أعمالهم ، ونجازيهم عليها ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي :بما تسره صدورهم،لا تخفى عليه من ذلك خافية فالسر عنده كالعلانية .

﴿ نمتعهم﴾ تمتيعاً أو زماناً ﴿ قليلاً ﴾ أي : نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها الى انقضاء آجالهم،فإن النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة الى النعيم الدائم ﴿ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ أي نلجئهم ونردهم الى عذاب النار في الآخرة،لا يجدون عنها محيصاً : والمراد :الشدة والثقل على المعذب فانه لا أثقل منه على من وقع فيه ، وأصيب به ، فلهذا استعير له الغلظ .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ أي : يعترفون بأن الله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم ، وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد ، وبطلان الشرك،وإلزام لهم على إقرارهم . ولهذا قال :

﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ الحمد لله ﴾ على اعترافكم ، فكيف تعبدون غيره

وتجعلونه شريكاً له ، أو المعنى :فقل : الحمد على ما هدانا له من دينه ، ولا حمد لغيره ، أو على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون ويجحدها الجاحدون،ثم أضرب عن ذلك فقال ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك يلزمهم ، وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا ، وقيل : لا ينظرون ، ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره .

﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً،فلا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إن الله هو الغني ﴾ عن غيره ﴿ الحميد ﴾أي : المستحق للحمد ، وإن لم يحمدوه،أو المحمود من عاده بلسان المقال ، أو بلسان الحال ، ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السموات والأرض،أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عد ، ولا يحصر بحد ، فقال :

﴿ ولو أن ﴾ جميع ﴿ ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ وحد الشجرة لما تقرر في علم المعاني أن استغراق المفرد أشمل ، قيل : وتوحيد شجرة لأن المراد تفصيل الشجر ، واستقصاؤه ، فكأنه قال : كل شجرة شجرة حتى لا تبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاماً ، ولو لم يفرد لم يفد هذا المعنى إذ الجمع يتحقق بما فوق الثلاثة،إلا أن تدخل عليه لام الاستغراق هكذا قرروه،قال الشهاب : وفيه بحث فان إفادة المفرد التفصيل بدون تكرار أو الاستغراق بدون نفي محل نظر ، لأنه إنما عهد ذلك في نحو جاءوني رجلاً رجلاً وما عندي تمرة . قال أبو حيان :وهو من وقوع المفرد موقع الجمع ، والنكرة موقع المعرفة ،كقوله : ما ننسخ من آية، وجمع الأقلام لقصد التكثير ، أي : ولو أن يعد كل شجرة من الشجر أقلاماً ، ثم قال سبحانه :

﴿ والبحر ﴾ أي المحيط لأنه المتبادر من التعريف ، إذ هو الفرد الكامل قرىء البحر بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره يمده ، وبالنصب عطفاً على اسم أن ، أو بفعل مضمر يفسره ﴿ يمده من بعده ﴾ أي : بعد نفاده ﴿ سبعة أبحر ﴾ أي : والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مداً لا ينقطع ، كذا قال سيبويه . وقال المبرد : إن البحر مرتفع بفعل مقدر ،

تقديره : ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر ، وقرىء. يمده من أمد،وقرىء : والبحر مداده ، وجواب لو :

﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ التي هي عبارة عن معلوماته ، لأنها لا نهاية لها ، قال أبو علي الفارسي : المراد بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور والإمكان ، دون ما خرج منه الى الوجود والزمان ، ووافقه القفال ، فقال : المعنى : أن الأشجار لو كانت أقلاما ، والبحار مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله تعالى ، الدالة على قدرته ووحدانيته ، لم تنفد تلك العجائب . قال القشيري : رد القفال معنى الكلمات الى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى ، والمخلوق لا بد له من نهاية ، واذا نفيت النهاية فهي نفي للنهاية عما يقدر في المستقبل على إيجاده ، فأما ما حصره الوجود وعده فلا بد من تناهيه ، والقديم لا نهاية له على التحقيق .

قال النحاس : قد تبين أن الكلمات ههنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء، لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ، وعلم الأجناس كلها ، وما فيها من شعرة وعضو ، وما في الشجرة من ورق ، وما فيها من ضروب الخلق . وقيل : إن قريشاً قالت : ما أكثر كلام محمد ؟ فنزلت قاله السدي .

وعن ابن مسعود قال : إن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة : « يا محمد أرأيت قولك : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، إيانا تريد ؟ أم قومك ؟ » فقال : كلا،فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ؟ فقال : « إنها في علم الله قليل،وأنزل الله ولو أن ما في الأرض. . . الآية» أخرجه ابن اسحق، وابن جرير، وابن أبي حاتم .
قال أبو عبيدة : المراد بالبحر هنا :الماء العذب الذي ينبت الأقلام ، وأما المالح فلا ينبتها ، قال الشوكاني :ما أسقط هذا الكلام وأقل جدواه ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي : غالب لا يعجزه شيء ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته .

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

و ﴿ مـا خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس ﴾ أي : كخلق نفس ﴿ واحـدة ﴾ وبعثها لأنه بكلمة : كن فيكون ، قال النحاس : هكذا قدره النحويون ، يعني إلا كخلق نفس ، كقوله : واسأل القرية : قال الزجاج : أي قدرة الله على بعث الخلق كلهم ، وعلى خلقهم ، كقدرته على خلق نفس واحدة ، وبعث نفس واحدة ، أي : سواء في قدرته القليل والكثير ، فلا يشغله شأن عن شأن ﴿ إن الله سميع ﴾ لكل ما يسمع ﴿ بصير ﴾ لكل ما يبصر .

﴿ ألم تر ﴾ الخطاب لكل أحد يصلح لذلك ، أو للرسول ﷺ ﴿ أن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ﴾ أي : يدخل كل واحد منهما في الآخر،فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر ، وقد تقدم تفسيره في سورة الحج والأنعام ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ أي : دللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديراً للآجال ، وتتميماً للمنافع ، والاختلاف بينهما في الصيغة ، لما أن إيلاج أحد المولجين في الآخر متجدد في كل حين ، وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ، وإنما التعدد والتجدد في آثاره .

﴿ كل ﴾ منهما ﴿ يجري الى أجل مسمى ﴾ قيل : هو يوم القيامة ، وقيل : وقت الطلوع ووقت الأفول ، وقيل : الشمس الى آخر السنة ، والقمر إلى آخر الشهر ، والأول أولى ، وقال هنا بلفظ : ﴿ إلى ﴾وفي فاطر ، والزمر ، بلفظ اللام ، لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهي إليه الخلق ، وهما قوله ما خلقكم الآية وقوله : اتقوا ربكم واخشوا يوماً الآية فناسب ذكر ﴿ إلى ﴾ الدالة على الانتهاء ، وما في فاطر والزمر خال عن ذلك ، إذ ما في فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ، وما في الزمر ذكر مع ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى : يجري كل كما ذكر لبلوغ أجل . قاله الكرخي .

﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ لا تخفى عليه خافية؛لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما يعملونه بالأولى،وهو عطف على أن الله يولج الخ،داخل معه في حيز الرؤية ﴿ ذلك ﴾ أي : ما تقدم ذكره من الآيات الكريمة المشتملة على سعة العلم ، وشمول القدرة ، وعجائب الصنع واختصاص الباري بها ﴿ بأن الله ﴾ أي : بسبب أنه سبحانه ﴿ هو الحق ﴾ الثابت ألوهيته ، أو فعل ذلك ليعلموا أنه الحق،وهو المستحق للعبادة ﴿ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ لا يستحق العبادة ، قال مجاهد : الذي يدعون من دونه هو الشيطان ،وقيل : ما أشركوا به من صنم أو غيره ، وهذا أولى .

﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾أي :أن ذلك الصنع البديع الذي وصفه في الآيات المتقدمة؛للاستدلال به على حقية الله ، وبطلان ما سواه ، وعلوه وكبريائه على الخلق ، له الصفات العليا ، والأسماء الحسنى ، وهو علي الذات ، سمي الصفات ، كبير الشأن ، جليل القدر ، رفيع الذكر ، مطاع الأمر جلي البرهان ، ثم ذكر من عجيب صنعه ، وبديع قدرته ، وغاية حكمته ، وشمول إنعامه نوعاً آخر فقال :

﴿ ألم تـر أن الفلك ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿ تجـري في البحر بنعمـة الله ﴾ أي بلطفـه بكم ، ورحمته لكم ، أو بـالريـح لأنها من نعم الله تعـالى ، وذلـك من أعظم نعمـه عليكم ، لأنها تخلصكم من الغـرق عنـد أسفـاركم في البحر لطلب الرزق،وقرىء بنعمات الله جمع نعمـة ، والباء للصلة ، أو للحـال ﴿ ليريكم من آياتـه ﴾ من للتبعيض ، أي بعض آياتـه ، قال يحيى بن سـلام ، وهو جري السفن في البحر بالريح ، وقال ابن شجرة :المراد بقوله ؛من آياته ما يشاهدونه من قدرة الله تعالى . قال النقاش : ما يرزقهم الله من البحر .

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكـور ﴾ هذه الجملة تعليـل لما قبلهـا أي : فيما ذكر لآيات عظيمة ،وعبراً فخيمـة لكل من لـه صبر بليـغ ، وشكر كثير ، يصبر عن معاصي الله ، ويشكر نعمه ، وهما صفتـا المؤمن . فالإيمـان نصفان نصفه شكر ، ونصفه صبـر ،فكأنـه قال:إن في ذلـك لآيات لكـل مؤمن حيث يبعث في نفسه التفكر في عدم غرقه ، وفي سيره الى البـلاد الشاسعـة ، والأقطار البعيدة ، وفي كون سيره ذهاباً وإياباً بـريحين . وتارة بـريح واحـدة ، وفي إنجـاء أبيه نـوح عليه السـلام ، ومن أراد الله تعالى من خلقـه ، وإغـراق غيرهم من جميع أهل الأرض،وفي غير ذلك من شؤونه ، وأموره ، وصنائعـه ، وأفعاله .

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ أي : كالجبال التي تظل من تحتها ، شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل ، أو سحاب ، أو غيرهمـا ، وإنما شبـه الموج وهو واحد،بالظلل وهي جمع ، لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء،ويركب بعضه بعضاً .وقيل :إن الموج في معنى الجمع ، لأنه مصـدر ، وأصل المـوج الحركة والازدحام ، ومنه يقـال ماج البحر،ومـاج الناس وقـرىء كالـظلال جمع ظل .

﴿ دعـوا الله ﴾ وحده ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي : لا يعولون على غيـره في خلاصهم ، لأنهم يعلمون أنـه لا يضر ولا ينفـع سواه ، ولكنـه يغلب على

طبائعهم العادات ، وتقليد الأموات ، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله تعالى ، وأخلصوا دينهم له طلباً للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه ، لزوال ما ينازع الفطرة الإيمانية من الهوى والتقليد بما دهاهم من الشدائد .

﴿ فلما نجاهم الى البر ﴾ صاروا قسمين ﴿ فمنهم مقتصد ﴾ أي:فقسم مقتصد ، أي : عدل موف في البر،بما عاهد عليه الله في البحر،من إخلاص الدين له ، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر ، وأخرجه الى البر سالماً . قال الحسن : معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر . وقال الرازي:المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات،والظالم لنفسه،وهو الذي تساوت سيئآته وحسناته،وقيل:متوسط بين الكفر والإيمان،لأنه انزجر بعض الانزجار ، ومنهم باق على كفره لأن بعضهم كان أشد قولاً ، وأعلى افتراء من بعض ، والأولى ما ذكرناه .

قيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل ، وذلك أنه هرب عام الفتح الى البحر ، فجاءهم ريح عاصف ، فقال عكرمة:لئن نجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأضعن يده في يدي ، فسكنت الريح ، ورجع عكرمة إلى مكة ، وحسن إسلامه ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فمنهم مقتصد ، ومنهم كافر لم يوف بما عاهد ، ويدل على هذا المحذوف قوله :

﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ لأنه نقض العهد الفطري ، ورفض ما كان عليه في البحر ، وهذا في مقابلة صبار ، كما أن ﴿ كفور ﴾ في مقابلة ﴿ شكور ﴾والختر :أسوأ الغدر وأقبحه . قال الجوهري :الختر : الغدر ، يقال : ختره فهو ختار ، أي : غدار ؛ قال الماوردي : وهذا قول الجمهور ، وقال ابن عطية : إنه الجاحد ، وجحد الآيات إنكارها ،والكفور عظيم الكفر بنعم الله سبحانه . قال ابن عباس : ختار : جحاد .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

﴿ يـا أيها النـاس اتقوا ربكم واخشـوا يومـاً لا يجـزي ﴾ أي : لا يغني ولا يقضي ﴿ والـد عن ولده ﴾ شيئـاً ولا ينفعه بـوجه من وجـوه النفع ، لاشتغـالـه بنفسه،وقد تقدم بيان معناه في البقرة ﴿ ولا مولود هو ﴾ مبتدأ ثان خبره: ﴿ جاز عن والده شيئاً ﴾ والجملة خبر مولـود ، وجاز الابتـداء به، وهـو نكرة لأنـه في سياق النفي ، ثم الخبر مع المبتدأ كلام وارد على طريق من التوكيد ، لم يـرد عليه ما هـو معطوف عليـه ، لأن الجملة الاسمية،آكـد من الجملة الفعلية،وقـد انضم الى ذلك قوله ﴿ هو ﴾ وقـوله ﴿ مـولود ﴾ والسبب في ذلـك أن الخطاب للمؤمنين ، فـأريد حسم أطمـاعهم أن ينفعوا آبـاءهم بـالشفـاعـة في الآخـرة ، ومعنى التأكيد في لفظ المولود:أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولـد منه لم تقبل شفاعته ، فضلاً أن يشفع لأجداده،إذ الولد يقع على الولد ، وولـد الولد ، بخلاف المولود فانه لمن ولد منك ، كذا في الكشاف .

وبالجملة فقد ذكر سبحانه هنا فردين من القرابات ، وهما الوالد والولد ، وهما الغاية في الحنو والمحبة والشفقة على بعضهم البعض ، فما عداهمـا من القـرابـات لا يجزي بـالأولى ، فكيف بـالأجـانب ، ونبـه أيضـا بـالأعلى على الأدنى ، وبـالأدنى على الأعلى ، فالـوالد يجـزي عن ولده في الـدنيـا لكمـال شفقته عليه ، والولد يجزي عن والده لما له عليه من حق التربية وغيرهـا ، فاذا كان يوم القيامة فكل إنسان يقول : نفسي نفسي ، ولا يهتم بقريب ولا بعيـد .

وقال ابن عباس : كل امرىء تهمه نفسه ، اللهم اجعلنا ممن لا يرجو سواك ، ولا يعول على غيرك .

﴿ إن وعد الله ﴾ بالبعث ﴿ حق ﴾ لا يتخلف ، فما وعد به من الخير ، وأوعد به من الشر ، فهو كائن لا محالة ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ وزخارفها عن الإسلام فإنها زائلة ذاهبة فانية .

﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين أي : الدنيا،أو الأمل بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصي ، وقال ابن عباس : الغرور،هو الشيطان ، وكذا قال مجاهد ، وعكرمة وقتادة لأن من شأنه أن يغر الخلق ، ويمنيهم بالأماني الباطلة ، ويلهيهم عن الآخرة ، ويصدهم عن طريق الحق . وقال سعيد بن جبير : يعمل بالمعاصي ، ويتمنى المغفرة . وقرىء بضم الغين،مصدر غر يغر غروراً ، ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان على المبالغة .

﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أي : علم وقتها الذي تقوم فيه ، قال الفراء:إن معنى هذا الكلام النفي،أي:ما يعلمه إلا الله عز وجل ، قال النحاس : وإنما صار فيه معنى النفي،لما ورد عن النبي ﷺ أنه قال في قوله : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو : إنها هذه .

أخرج البخاري ، ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : مفاتيح الغيب خمس ، لا يعلمهن إلا الله،لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا ما في الأرحام إلا الله . وفي الصحيحين ، وغيرهما،من حديث أبي هريرة ـ في حديث سؤاله عن الساعة ، وجوابه بأشراطها ـ ثم قال : في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا هذه الآية ، أي : لا يدري أحد متى تقوم الساعة في أي سنة ، وأي شهر وأي يوم ، وأي ساعة ليلاً أو نهاراً .

وفي الباب أحاديث ، وعن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتي حبلى فأخبرني ما تلد ؟ وبلادنا مجدبة ، فأخبرني متى ينـزل الغيث، وقد علمت متى ولدت ، وأخبرني متى أموت؟ ، فأنزل الله : إن الله عنـده علم الساعة الآيـة ، وعن عكرمـة نحوه ، وزاد وقـد علمت ما كسبت اليـوم ، فماذا أكسب غـداً ؟ وزاد أيضـاً أنـه سـأل عن قيـام السـاعـة ! وقيـل : نـزلت في الحرث بن عمرو بن حارثة،من أهل البادية .

﴿ وينزل الغيث ﴾ في الأوقات والأمكنة التي جعلها معينـة لإنزالـه ، ولا يعلم ذلـك غيره.قـرىء من التنـزيـل والإنـزال ﴿ ويعلم مـا في الأرحـام ﴾ من الذكور والإناث،والصلاح والفسـاد ﴿ وما تـدري نفس ﴾ من النفوس كـائنة مـا كـانت،من غير فـرق بين المـلائكـة والأنبيـاء ، والجن والإنس ﴿ مـاذا تكسب غداً ﴾ من كسب دين،أو كسب دنيا ، خير أو شر .

﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ وقـرىء بأيـة أرض ، وجوز ذلـك الفراء ، وهي لغة ضعيفـة ، قال الأخفش : يجـوز أن يقال مـررت بجاريـة أي جـارية ، والمعنى : ولا تعلم نفس بـأي مكـان يقضى الله عليهـا بـالمـوت من الأرض في بر أو بحر ، في سهل ، أو جبل ، وربمـا أقامت بـأرض ، وضربت أوتادها،وقالت : لا أبرحها فترمي بها مرامي القـدر حتى تموت مكـان لم يخطر ببالها .

روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسـائه فقال الرجل :من هذا؟ قال ملك الموت ، قال : كأنه يريدني ، وسأل سليمـان عليه السلام أن يحمله على الـريح،ويلقيـه ببلاد الهنـد . ففعل ، ثم قـال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظري إليه تعجباً منه ، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك،ذكـره النسفي في المدارك ، ورأى المنصـور في منامـه صورة ملك الموت،وسألـه عن مدة عمـره فأشـار بأصـابعه الخمس،فعبـرها المعبـرون بخمس سنوات ، وبخمسة أشهر ، وبخمسة أيام ، فقال أبو حنيفة : هـو إشارة الى هذه الآية .

فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله . قال الكرخي : أضاف في الآية العلم الى نفسه في الثلاثة من الخمسة المذكورة،ونفى العلم عن العباد في الأخيرتين منها ، مع أن الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها ، وانتفاء علم العباد بها،لأن الثلاثة الأولى أمرها أعظم وأفخم،فخصت بالإضافة إليه تعالى،والأخيرتان من صفات العباد ، فخصتا بالإضافة إليهم مع أنه إذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الخمس أولى :

﴿ إن الله عليم ﴾ بهذه الأشياء ، وبغيرها من الغيوب ﴿ خبير ﴾ بما كان وبما يكون وببواطن الأشياء كلها ، ليس علمه محيطاً بالظاهر فقط . قال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فإنه كفر بالقرآن . وعن الزهري : أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب ، والله أعلم ، وفيه رد على المنجم والكاهن،اللذين يخبران بوقت الغيث والموت وغيرهما .

تم بعون الله الجزء العاشر من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء الحادي عشر وأوله سورة السجدة.

فهرس الجزء العاشر

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الحادي عشر

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الحادي عشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

ويشتمل على

سورة السجدة.

سورة الأحزاب.

سورة سبأ.

سورة فاطر.

سورة يس.

سورة الصافات.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة السجدة

﴿ آياتها تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية ﴾

بناء على الاختلاف في أن آخر الآية: (لفي خلق جديد).أو هو (كافرون) فعلى الاول :تكون ثلاثين ، وعلى الثاني : تكون تسعا وعشرين ، وهي مكية، قاله: ابن عباس وابن الزبير.

وأخرج البخاري عنه: هي مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ﴿ أفمن كان مؤمنا ﴾الى تمام الآيات الثلاث . وكذا قال الكلبي ومقاتل ، وقيل الا خمس آيات من قوله: (تتجافى جنوبهم) الى قوله: (الذي كنتم به تكذبون). وقد ثبت عند مسلم ؛ وأهل السنن من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بألم تنزيل السجدة، وهل أتى على الانسان.

وأخرج أحمد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم: عن جابر قال كان النبي ﷺ : « لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة، وتبارك الذي بيده الملك » . وقد وردت في فضائل هذه السورة أحاديث .

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ
بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ
مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة في البقرة وفي مواضع كثيرة من فواتح السور والله أعلم بمراده به .

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ فيه أوجه خمسة ذكرها السمين ﴿ لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في أنه ﴿ من رب العالمين ﴾ وأنه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الأولين ﴿ أم يقولون ؟ ﴾ أم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أيقولون؛ فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ .

﴿ افتراه ﴾ أي افتعله واختلقه من تلقاء نفسه ثم أضرب عن معتقدهم هذا إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب فقال :

﴿ بل ﴾ إضراب إبطال لنفس افتراه وحده ، وعلى هذا كل ما في القرآن إضراب فهو انتقال إلا هذا ، فإنه يجوز أن يكون إبطالاً لإنه إبطال لقولهم أي . ليس هو كما قالوا ، بل ﴿ هو الحق من ربك ﴾ فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء ، ثم بين العلة التي كان التنزيل لأجلها فقال :

﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ وهم العرب ؛ وكانوا أمة

أمية لم يأتهم رسول، وقيل قريش خاصة، والتقدير لتنذر قوماً العقاب، وجوز أبو حيان أن تكون ﴿ما﴾ موصولة أي العقاب الذي أتاهم وهو ضعيف جداً، فإن المراد تعليل الإنزال بالانذار لقوم لم يأتهم نذير قبله، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به. وقيل: المراد بالقوم أهل الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي كي يهتدوا أو رجاء أن يهتدوا والترجي معتبر من جهته عليه السلام.

﴿الله الذي خلق﴾ أي أوجد وأبدع ﴿السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ على التوزيع كما يأتي في سورة فصلت، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الأعراف وغيرها، والمراد من ذكرها هنا تعريفهم كمال قدرته، وعظيم صنعه ليسمعوا القرآن ويتأملوه. قال الحسن الأيام هنا هي من أيام الدنيا، وقيل: مقدار اليوم ألف سنة من سني الدنيا، قاله الضحاك، فعلى هذا المراد بالأيام هنا هي من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا، وليست ثم للترتيب في قوله:

﴿ثم استوى على العرش﴾ بل بمعنى الواو، والعرش في اللغة سرير الملك والمراد به هنا الجسم النوراني المحيط بالعالم كله، وهذا الاستواء في سبع مواضع من القرآن الكريم والأصل الراجح أن نعتقد ما ورد به القرآن ولا نؤوله ولا نصرفه عن وجهه وهو نص وظاهر في أن الله تعالى فوق العرش بائن من خلقه بالمعنى الذي يليق بجنابه الأقدس الأعلى وتأويله إخراج النص أو الظاهر عن معناه وهذا لا يجوز قطعاً إلا عند وجود ما يساويه أو يتقدم عليه ويعارضه ودونه خرط القتاد.

وقد اختلف الناس في هذا على أربعة عشر قولاً:، أولاها بالصواب مذهب سلف الأمة وأئمتها، أنه استوى عليه بلا كيف، مع تنزيهه عما لا يجوز عليه، والآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة جداً، وهي تغني عن غيرها. وردَّت الجهمية هذه الصفة الثابتة له سبحانه، وتبعها المعتزلة، ورد عليهم الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين بثمانية عشر وجهاً،

يطول ذكرها ، وقد جمع أهل العلم فيها سيما أهل القرآن وأصحاب الحديث مباحث ، بل رسائل ، بل كتباً ، طولوها بذكر الأدلة النقلية ، بل العقلية ، والمسألة أوضح من أن تلتبس على عارف ، وأبين من أن يحتاج فيها إلى التطويل ، ولكن لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل بين بعض الطوائف الإسلامية الحق الصراح فيها ، وأطال سيما الحنابلة وأهل الحديث ، فلهم في ذلك الفتن الكبرى ، والملاحم العظمى ، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر إلى يومنا هذا ، والحق ما عرفناك من مذهب السلف الصالح ، فالاستواء على العرش ، وكونه تعالى فوق الخلق عاليا عليهم ، قد نطق به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ، ويطول نشرها ، وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير حديث ، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه ، ويحسه في فطرته ، وتجذبه إليه طبيعته ، كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه ، والتجأ إليه ، ووجه دعاءه إلى جنابه الرفيع ، وعزه المنيع ، فإنه يشير عند ذلك بكفه ، أو يرمي بطرفه ، يستوى في ذلك عند عروض أسباب الأدعية ، وحدوث بواعث الاستغاثة ، ووجود مقتضيات الانزعاج ، وظهور دواعي الالتجاء ، عالم الناس وجاهلهم ، وباديهم وحاضرهم ، والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل من الخلف .

فالسلامة والنجاة في إمرار ذلك على الظاهر والإذعان بأن الاستواء والاستقرار[1] والكون في الفوق ثابتة على ما نطق به الكتاب والسنة من دون

---

(١) يذهب أنصار مذهب الخلف إلى التأويل واستهجان مذهب السلف مع التسليم بأنه أسلم فيقولون مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم وناهيك بهذا من شطط،ويقابلهم في الطرف الآخر بعض دعاة مذهب السلف،فتند بهم أحياناً قوة الاندفاع في الدفاع عن مذهب السلف فينحرفون إلى التفسير الذي يقابل التأويل عند خصومهم،ومن هذا تعبير المؤلف بكلمة الاستقرار كعطف تفسيرلكلمة الاستواء وهي كلمة لعمر الحق ليس لها أصل في الروايات القرآنية أو الحديثية في الاستواء ، ومذهب السلف أبلغ ما ورد فيه قول مالك بن أنس : الاستواء معلوم،والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة أهو الاستقرار في كلام المؤلف يوهم بالكيف والتجسيم حاشاه . المطيعي .

تكييف ، ولا تعطيل ، ولا تشبيه ، ولا تمثيل والمؤول غير مقتد بالسلف ، ولا واقف في طريق النجاة ولا معصوم عن الخطأ ، ولا سالك في جادة السلامة والاستقامة . قال في حجة الله البالغة : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة مشبهة ، وقالوا هم المستترون بـالكيفية، وقد وضح عليّ وضوحا بيناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء وأنهم مخطئون في مقالتهم ، رواية ودراية ، وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى انتهى .

﴿ ما لكم من دونه ﴾ أي ليس لكم من دون الله أو من دون عذابه ﴿من ولي﴾ يواليكم، ويرد عنكم عذابه ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم عنده ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ تذكر تدبر وتفكر ، وتسمعون هـذه المواعظ سمـاع من يفهم ويعقل ، حتى تنتفعوا بها وتؤمنوا ، ولما بين سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما؛ بين تدبيره لأمرها فقال:

﴿ يـدبّر ﴾ أي يحكم ﴿ الأمـر ﴾ بقضـائـه وقـدره ﴿ من السـماء إلى الأرض ﴾ إلى أن تقوم الساعة ، والمعنى: ينزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال سبحانه: ﴿**الله** الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر **بينهن**﴾. ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل : المراد بالأمر المأمور به من الأعمال،أي ينزله مدبراً من السماء إلى الارض،وقيل : يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نـازلة أحكامها وآثارها إلى الارض . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل،وقيل العرش موضع التدبير،كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما في قوله : ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات ، وما دون السموات موضع التصرف قال تعالى : ﴿**ولقد** صرفناه بينهم ليذكروا﴾. وقال ابن عباس:يدبر الأمر هذا في الدنيا أي شأنها وحالها ، والأمور التي تقع فيها ، والمراد بتدبير أمرها القضاء

السابق، الذي هو الإرادة الازلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ، ثم لما ذكر سبحانه تدبير الأمر قال :

﴿ ثم يعرج ﴾ قرأ الجمهور على البناء للفاعل، وقرىء على البناء للمفعول والأصل يعرج به أي يرجع ذلك الأمر، ويعود ذلك التدبير والتصرف في المخلوقات بالحشر ، والحساب ، ووزن الاعمال ، والتعذيب ، والتنعيم ، وغير ذلك مما يقع في ذلك اليوم ﴿ إليه ﴾ سبحانه ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب، وقرىء بالتحتية على الغيبة أي تعدونه من أيام الدنيا ، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء ، والطلوع من الأرض كما قدمنا . وقيل : إن المراد يعرج إليه في يوم القيامة الذي مقداره كذا من أيام الدنيا ، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ، ويموت من فيها وقيل هي أخبار أهل الارض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة، والمعنى: أنه يثبت ذلك عنده ، ويكتب في صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض في كل وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها . وقيل : المعنى يثبت في عمله موجوداً بالفعل في برهة من الزمان ، هي مقدار ألف سنة والمراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان .

وقيل : يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة . ثم يعرج إليه في زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا . وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملائكة ، ثم يعرج بعد الألف لألف آخر . وقيل: المراد أن الأعمال التي هي طاعات يدبرها الله سبحانه ، وينزل بها ملائكته ، ثم لا يعرج منها إليه إلا الخالص بعد مدة متطاولة لقلة المخلصين من عباده .

وقيل الضمير في يعرج يعود إلى الملك ، وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق وقد جاء صريحاً في قوله : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ والضمير في (إليه) راجع إلى السماء على لغة من يذكرها ، أو إلى مكان الملك الذي يرجع

إليه ، وهو الذي أقرَّه الله فيه .

وقيل المعنى يدبر أمر الشمس في الطلوع والغروب ، ورجوعها إلى موضعها من الطلوع في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة وقيل المعنى أن الملك يعرج إلى الله في يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة فإن ما بين السماء والارض مسافة خمسمائة[1] عام، فمسافة النزول من السماء إلى الارض والرجوع من الارض إلى السماء ألف عام، وقد رجح هذا جماعة من المفسرين منهم ابن جرير .

وقيل : مسافة النزول ألف سنة ، ومسافة الطلوع ألف سنة ـ روى ذلك عن الضحاك . وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدة النهار بين ليلتين والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر:

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الاعداء تأديب

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبَّر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وعن ابن عباس في الآية قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، وعنه قال : لا يتنصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم ، حتى يقضي بين العباد ، فينزل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ ولو كان إلى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة ، وعنه قال: في يوم من أيامكم هذه ومسيرة ما بين النساء والأرض خمسمائة عام .

وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فقيل في الجواب : إن يوم

(١) ورد في هذا حديث موضوع كتاب «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» صفحة ٤٥٠ برقم ٢٢ ونصه: «بين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام» فلا يعتد به.

القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا ؛ ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة ؛ والعرب تصف كثيراً يوم الكريهة بالطول ، كما تصف يوم السرور بالقصر .

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام؛فمنها ما مقداره ألف سنة ، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : هي أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة ، ثم ينقل إلى نوع آخر فيعذب خمسين ألف سنة . وقيل مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة ، فيكون معنى يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة أنه يعرج إليه في وقت من تلك الأوقات أو موقف من تلك المواقف وعن مجاهد ، وقتادة والضحاك أنه أراد سبحانه في قوله:﴿**تعرج**الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف **سنة**﴾المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى ، التي هي مقام جبريل .

والمراد أنه يسير جبريل ومن معه من الملائكة في ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا ، وأراد بقوله في يوم كان مقداره ألف سنة المسافة التي بين الأرض وبين السماء الدنيا هبوطاً وصعوداً فإنها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل : إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع ، لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة ، فقوله في يوم كان مقداره ألف سنة يعني : يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة؛فكم يكون الشهر منه ، وكم تكون السنة منه،وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة وبين خمسين ألف سنة .

وقيل :غير ذلك،وقد وقف حبر الامة ابن عباس لما سئل عن الآيتين ، وقال هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم . وقال ابن المسيب للسائل هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيهما وهو أعلم مني ، والإشارة بقوله:

ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الله باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف أي : ذلك الخالق المدبر ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم ، وفي هذا معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر ، فهو مجاز لكل عامل بعمله ، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿ العزيز ﴾ القاهر الغالب ﴿ الرحيم ﴾ بعباده ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ قرىء بفتح اللام وبإسكانها فعلى الأولى خلقه فعل ماض نعتاً لشيء ، وعلى الثانية ففي نصبه أوجه :

الأول: أن يكون بدلاً من (كل شيء) بدل اشتمال ، والضمير عائد إلى : كل شيء ، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة .

الثاني: أنه بدل كل من كل ، والضمير راجع إلى الله سبحانه ، ومعنى (أحسن) حسن ؛ لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة فكل المخلوقات حسنة .

الثالث : أن يكون (كل شيء) هو المفعول الأول ، وخَلْقَهُ هو المفعول الثاني ، على تضمين أحسن معنى أعطى ، والمعنى : أعطى كل شيء خلقه الذي خصه به ، وقيل : على تضمينه معنى ألهم . قال الفراء : ألهم خلقه كل شيء يحتاجون إليه .

الرابع : أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي خلقه خلقاً كقوله :صُنْعَ اللهِ،وهذا قول سيبويه ، والضمير يعود إلى الله سبحانه

والخامس : أنه منصوب بنزع الخافض ، والمعنى : أحسن كل شيء في خلقه ، ومعنى الآية أنه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته ، فبعض المخلوقات ـ وإن لم تكن حسنة في نفسها ـ فهي متقنة محكمة ، فيكون هذه الآية معناها معنى أعطى كل شيء خلقه أي : لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ولا خلق البهيمة على خلق الانسان . وقيل هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى ، أي أحسن خلق كل شيء حسن . وقال ابن عباس:أما رأيت القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها . وعنه في الآية قال : أما آنست القردة ليست بحسنة ، ولكنه أحكم خلقها ، وقال : خلقه : صورته . وقال أحسن كل شيء القبيح والحسن ، والعقارب ، والحيات ، وكل شيء مما خلق ، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة قد أسبل ، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه ، فقال يا رسول الله إني أحمش الساقين ؛ فقال رسول الله ﷺ « ياعمرو ابن زرارة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء يا عمرو إن الله لا يحب المسبلين». وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال: «أبصر النبي ﷺ رجلا قد أسبل إزاره فقال ارفع إزارك ، فقال: يا رسول الله إني أحنف تصطك ركبتاي، فقال: ارفع إزارك كل خلق الله حسن».

﴿ وبدأ خلق الإنسان ﴾ يعنى آدم خلقه ﴿ من طين ﴾ فصار على صورة بديعة ، وشكل بديع حسن ﴿ ثم جعل نسله ﴾ أي ذريته ﴿ من سلالة ﴾ أي نطفة؛سميت الذرية سلالة لأنها تنسل من الأصل ، وتنفصل عنه ، وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين، والمذكور هنا صفة آدم، ثم صفة ذرية آدم ﴿ من ماء مهين ﴾ أي ممتهن لا خطر له عند الناس ، وهو المني . وقال الزجاج:من ماء ضعيف .

﴿ ثم سواه ﴾ أي الإنسان الذي بدأ خلقه من طين وهو آدم ، أو جميع النوع ، والمراد انه عدل خلقه وسوى شكله ، وقومه وناسب بين أعضائه على ما ينبغي كقوله في أحسن تقويم .

﴿ ونفخ فيه من روحه ﴾ أي جعله حياً حساساً بعد أن كان جماداً ، وبالإضافة للتشريف والتكريم ، وهذه الاضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في ذريته ، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع ، وقيل للتخصيص ، أي نفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه ، والأول أولى ثم خاطب جميع النوع فقال :

﴿ وجعل لكم ﴾ وفيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب ، ولم يخاطبهم قبل ذلك لأن الخطاب إنما يكون مع الحي فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه بعد ذلك وقال: وجعل لكم :

﴿ السمع ﴾ أي الأسماع ﴿ والأبصار ، والأفئدة ﴾ أي القلوب تكميلاً لنعمته عليكم ، وتتميماً لتسويته لخلقكم، حتى تجتمع لكم هذه النعم ، فتسمعون كل مسموع،وتبصرون كل مبصر ، وتعقلون كل متعقل ، وتفهمون كل ما يفهم ، وأفرد السمع لكونه مصدراً يشمل القليل والكثير ، وخص السمع بذكر المصدر دون البصر والفؤاد ، فذكرهما بالاسم ، ولهذا جمعا لأن السمع قوة واحدة . ولها محل واحد ، وهو الأذن ، ولا اختيار لها فيه ، فإن الصوت يصل إليها ولا يقدر على رده ، ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض ؛ بخلاف الأبصار فمحلها العين ، وله فيه اختيار ، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره ، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء ، وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه فيتعقل هذا دون هذا ، ويفهم هذا دون هذا .

﴿ قليلاً ما ﴾ أي شكراً قليلاً ، أو زماناً قليلاً ﴿ تشكرون ﴾ وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله ، وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وقالوا ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم ، بطريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة ، إيذاناً بأن ما ذكر من عدم شكرهم لتلك النعم موجب للإعراض عنهم ، وتعديد جناياتهم : ﴿ أئـذا ضللنا في الأرض ﴾ الضـلال الغيبوبة يقال ضل الميت في التراب إذا غاب وبطل ، والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره ، حتى خفي أثره : قد ضل . قال قطرب : المعنى غبنا في الأرض ، قرىء ضللنا بفتح ضاد معجمة ، ولام مفتوحة ، بمعنى : ذهبنا ، وضعنا ، وصرنا تراباً ، وغبنا عن الأعين بالدفن فيها . وقرىء : ضللنا بكسر اللام ، وهي لغة العالية من نجد . قال الجوهري : وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر ، قال وأضله أي أضاعه ، وأهلكه ، يقال ضل الميت إذا دفن .

وقرىء صللنا بصاد مهملة ، ولام مفتوحة أي أنتنا ، وبها قرأ عليّ ، والحسن ، والأعمش ، وأبان بن سعيد . قال النحاس : ولا يعرف في اللغة صللنا ، ولكن يقال : صل اللحم إذا أنتن . قال الجوهري : صل اللحم ، يصل بالكسر صلولاً إذا أنتن ، مطبوخاً ، كان أو نيئاً ، والعامل في إذا محذوف تقديره : نبعث ، أو نخرج لدلالة قوله :

﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ عليه أي نبعث ونصير أحياء ، والهمزة للاستنكار ، وهذا قول منكري البعث من الكفار ، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه ، وهو كفرهم بلقاء الله فقال:

﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ أي : جاحدون له مكابرة وعناداً ، فإن اعترافهم بأنه المبدىء للخلق ، يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة ، ثم أمر

الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبين لهم الحق ، ويرد عليهم ما زعموه من الباطل فقال :

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ يقال:توفاه الله واستوفى روحه ، إذا قبضه إليه ، وملك الموت هو عزرائيل[1] وقال ذلك هنا ، وقال في الأنعام : توفته رسلنا ، وفي الزمر : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، ولا منافاة لأن الله تعالى هو المتوفي حقيقة بخلق الموت ، وأمر الوسائط بنزع الروح ، وهم غير ملك الموت أعوان له ينزعونها من الأظافر الى الحلقوم فصحت الإضافات كلها ، والتفعيل والاستفعال يلتقيان في مواضع مثل : تقضيته ، واستقضيته ، وتعجلته ، واستعجلته .

﴿ الذي وكل بكم ﴾ أي : بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ، قيل : إن ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها والله تعالى هو الآمر بذلك، وهذا وجه الجمع بين الآيات كما تقدم ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي : تصيرون إليه تعالى أحياء بالبعث والنشور ، لا إلى غيره فيجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ ولو ترى ﴾ لو امتناعية وجوابه محذوف ، أي لرأيت أمراً فظيعاً ، وهولاً هائلاً ، لا يقدرقدره، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال الزجاج والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبة لأمته ؛ فالمعنى:ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب ، أو الخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائناً من كان،إذ المراد بيان كمال سوء حالهم ، وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستعظامها براء دون راء ، ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة ، والدواهي الفظيعة ، بل كل من تتأتى منه الرؤية

---

(١) لم يثبت أن ملك الموت اسمه هكذا،وملك الموت اسم جنس للملائكة التي تتولى قبض الأرواح بدليل قوله تعالى « توفته رسلنا وهم لا يفرطون » وفي الحديث « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش » ولم يقل وعزرائيل ، ولم يرد اسم عزرائيل في خبر معتبر والله أعلم . المطيعي .

يتعجب من هولها وفظاعتها ، ويجوز أن يكون ﴿ لو ﴾ للتمني ، والمضي فيها وفي ﴿ إذ ﴾ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع .

﴿ إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم﴾ المراد بهم هم القائلون : أئذا ضللنا في الأرض ، ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم ، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولاً أولياً ، والمعنى : مطأطئوها وخافضوها حياء وندماً على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله ، والعصيان له .

﴿ عند ربهم ﴾ أي عند محاسبته لهم ﴿ ربنا ﴾ أي : يقولون ربنا ﴿ أبصرنا ﴾ الآن ما كنا نكذب به ﴿ وسمعنا ﴾ ما كنا ننكره ، وقيل أبصرنا صدق وعيدك ، وسمعنا تصديق رسلك ؛ فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع .

﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ كما أمرتنا ، وحسبما تقضيه تلك الآيات ﴿ إنا موقنون ﴾ أي مصدقون ، وقيل مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعاً فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا وأنى لهم ذلك ؟ فقد حقت عليهم كلمة الله فإنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقيل : هذا ادعاء منهم لصحة الأفئدة ، والاقتدار على فهم معاني الآيات ، والعمل بموجبها ، كما أن قبله ادعاء لصحة صفتي البصر والسمع ، كأنهم قالوا أيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئاً أصلاً ، وإنما عدلوا إلى الجملة الاسمية المؤكدة إظهاراً لثباتهم على الإيقان ، وكمال رغبتهم فيه ، وكل ذلك للجد في الاستدعاء طمعاً في الاجابة إلى ما سألوه من الرجعة ، وقيل معنى إنا موقنون ، أنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا ، لما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا . قيل والمعنى صرنا نسمع ونبصر ، فلا يحتاج الى تقدير مفعول ، ثم رد الله عليهم لما طلبوا الرجعة بقوله :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) ﴾

﴿ ولو شئنا لآتينا ﴾ أعطينا ﴿ كل نفس هداها ﴾ أي رشدها ، وتوفيقها إلى الإيمان يعني ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا جميعاً ، فلم يكفر منهم أحد ؛ ولكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر ، وإيثاره ، وهو حجة على المعتزلة فانهم أولوا الآية بمشيئة الجبر ، وهو تأويل فاسد . قال النحاس : في معنى هذا قولان أحدهما أنه في الدنيا ، والآخر أنه في الآخرة ، أي : لو شئنا لرددنا إلى الدنيا .

﴿ ولكن حق القول مني ﴾ أي نفذ قضائي ، ووجب قدري ، وسبقت كلمتي ، وثبت وعيدي .

﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله ، وحق على عباده ، ونفذ فيه قضاؤه ، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كل نفس هداها ، وإنما قضى عليهم بهذا لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة ، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى ، وقدم الجن لأن المقام مقام تحقير ، ولأن الجهنميين منهم أكثر فيما قيل ، ولا يلزم من قوله : أجمعين دخول جميع الإنس والجن فيها ، لأنها تفيد عموم الأنواع لا الأفراد ، قاله بعض المحققين ، ورد بأنه لو قصد ما ذكر كان المناسب التثنية دون الجمع بأن يقول : كليهما ، فالظاهر أنها لعموم الأفراد ، والتعريف فيهما للعهد،والمراد عصاتهما ، ويؤيده قوله في آية أخرى خطاباً لإبليس : ﴿**لأملأن** جهنم منك ، وممن تبعك منهم أجمعين﴾ ،قاله الشهاب .

وفي تخصيص الانس والجن إشارة الى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم .

﴿ فذوقوا ﴾ أي : العذاب ، والفاء لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله ، أي فإذا دخلوا النار ، قالت لهم الخزنة : ذوقوا ؛ قاله مقاتل واستعار الذوق للإحساس ، وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس،وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساس الذائقة بذوق المطعوم .

﴿ بما نسيتم لقاء يومكم ﴾ الباء للسببية ، وفيه إشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدم ، بل بذاك واختلف في النسيان المذكور ههنا ، فقيل : هو النسيان الحقيقي ، وهو الذي يزول عنده الذكر .

وقيل هو الترك ، قاله الضحاك ، ويحيى بن سلام . والمعنى على الأول أنهم لم يعملوا لذلك اليوم فكانوا كالناسين له ، وعلى الثاني لا بد من تقدير مضاف قبل اللقاء أي : فذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاءيومكم هذا،ورجح الثاني المبرد ، قال الرازي في تفسيره: إن اسم الاشارة في قوله ﴿ هذا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء،وأن يكون إلى اليوم ، وأن يكون إلى العذاب .

﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعل الناس قطعاً لرجائكم قال يحيى : المعنى نسيناكم بما تركتم الايمان بالبعث في هذا اليوم ، تركناكم من الخير ، وكذا قال السدي ، وقال مجاهد : تركناكم في العذاب .

﴿ وذوقوا ﴾ تكرير هذا للتأكيد والتشديد ، ولتبيين المفعول المطوي للذوق وللإشعار بأن سببه ليس مجرد النسيان ، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي ، التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا ﴿ عذاب الخلد ﴾ أي الدائم الذي لا انقطاع له ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي ، والتكذيب .

﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ مستأنفة لبيان من يستحق الهداية إلى الإيمان ومن لا يستحقها ، والمعنى : إنما يصدّق بآياتنا وينتفع بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها ﴾ لا غيرهم ممن يذكر بها أي : يوعظ بها ، ولا يتذكر ، ولا يؤمن بها .

﴿ خروا سجداً ﴾ أي : سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لآيات الله ، وخوفاً من سطوته وعذابه وتواضعاً، وخشوعاً ، وشكراً على ما رزقهم من الاسلام .

﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ أي نزَّهوه عن كل ما لا يليق به متلبسين بحمده على نعمه ، التي أجلُّها وأكملها الهداية الى الايمان بالآيات،قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ، ومعنى الآية قالوا في سجودهم:سبحان الله وبحمده،أو سبحان ربي الأعلى وبحمده .

وقال سفيان : المعنى صلوا حمداً لربهم ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن الايمان به ، والسجود له كما استكبر أهل مكة عن السجود ، أي حال كونهم خاضعين لله متذللين له ، غير مستكبرين عليه .

وقال ابن عباس : لا يستكبرون عن اتيان الصلاة في الجماعات ، قيل : هذه من عزائم سجود القرآن للقارىء والمستمع .

قال سليمان الجمل والمراد بالآيات في هذه الآية إن كان مطلق القرآن ـ وإن لم تكن فيه آية سجدة ـ أشكل قوله خروا سجداً فإن السجود لا يشرع لتلاوة القرآن إلا إذا كان فيه آية سجدة من آيات السجود المعروفة ، وإن كان المراد بها خصوص آيات السجدات أشكل قوله إذا ذكروا بها ، مع تفسير التذكير بالوعظ كما ذكروه ووجه الاشكال أن أكثر آيات السجدات بل كلها ليس فيها وعظ أي تخويف وتذكير بالعواقب ، إذ هذا حقيقة الوعظ بل غالبها لمدح الساجدين تصريحاً وذم غيرهم تلويحاً كهذه الآية،وقد يكون بعكس ذلك أي ذم غير الساجدين تصريحاً ، ومدح الساجدين تلويحاً ، كآية الانشقاق ، فليتأمل فلم نر من المفسرين من بيّن هذا ، ولا من تعرض له انتهى .

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ استئناف ، أو حال ، أي ترتفع وتنبو وتتنحى يقال جفا الشيء عن الشيء وتجافى عنه إذا لم يلزمه ، ونبا عنه وتنحى قال الزجاج ، والرماني،التجافي والتجفي إلى جهة فوق ؛ وكذلك هو في الصفح عن المخطىء في سب ونحوه ، والجنوب جمع جنب ، أي متجافية جنوبهم عن مضاجعهم ، والمضاجع جمع مضجع ، وهو الموضع الذي يضطجع فيه، وهم المتهجدون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش، وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء، والجمهور.

والمراد بالصلاة صلاة التنفل بالليل من غير تقييد،وقال قتادة ، وعكرمة هو النفل ما بين المغرب والعشاء وبه قال أبو حازم ، ومحمد بن المنكدر،وقيل هي صلاة الأوّابين، وقيل صلاة العشاء فقط وهو رواية عن الحسن وعطاء . وقال الضحاك صلاة العشاء والصبح في جماعة ، وقيل هم الذين يقومون لذكر الله ، سواء كان في صلاة أو غيرها .

عن أنس بن مالك أن هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى : العتمة ، وعنه قال : نزلت في صلاة العشاء ، وعنه قال : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء ، وعنه قال : كنا نجتنب الفراش قبل صلاة العشاء .

وعنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قط قبل صلاة العشاء ولا متحدثاً بعدها : فإن هذه الآية نزلت في ذلك .

وعن ابن عباس في الآية أن النبي ﷺ قال : « هم الذين لا ينامون قبل صلاة العشاء » ، فأثنى عليهم ، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه ، فوقتها قبل أن ينام الصغير ، ويكسل الكبير . أخرجه ابن مردويه .

وعن بلال قال : كنا نجلس في المسجد وناس من أصحاب رسول

الله ﷺ يصلون بعد المغرب العشاء ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع .

وعن أنس نحوه وعنه قال : كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون .

وعن معاذ بن جبل قال : قيام العبد من الليل ، وعنه عن النبي ﷺ - وذكر حديثاً ، وأرشد فيه الى أنواع من الطاعات - وقال فيه : وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ هذه الآية أخرجه أحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجة . والحاكم وصححه ، والبيهقي . وغيرهم .

وعن أبي هريرة مرفوعاً في حديث قال فيه : وصلاة المرء في جوف الليل . ثم تلا هذه الآية أخرجه ابن مردويه .

وعن أنس في الآية قال : كان لا تمر عليهم ليلة إلا أخذوا منها . وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل ، وبه قال جماعة من أهل العلم - وقد ورد في فضل قيام الليل - والحث عليه من الأحاديث الصحيحة ما هو مذكور في كتب السنة .

وعن كعب قال :إذا حشر الناس نادى مناد هذا يوم الفصل . أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ الحديث رواه أحمد . وعن ابن عباس يقول: كلما استيقظوا ذكروا الله ، إما في الصلاة ، وإما في القيام ، أو قعوداً أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله .

﴿ يدعون ﴾ أي تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ﴿ ربهم خوفاً ﴾ من عذابه ﴿ وطمعاً ﴾ في رحمته ، قال ابن عباس خوفاً من النار ، وطمعاً في الجنة . وفيه دليل على صحة العبادة ، والدعاء بالخوف والطمع ، وقد حققنا ذلك في هداية السائل ، فليرجع اليها .

﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي من الذي رزقناهم ، أو من رزقهم ﴿ ينفقون ﴾ وذلك الصدقة الواجبة ، وقيل صدقة النفل،والأولى الحمل على العموم .

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي لا تعلم نفس من النفوس أي نفس كانت ما أخفاه الله

سبحانه لأولئك الذين تقدم ذكرهم مما تقر بـه أعينهم ، قال أبـو السعود:أي لا ملك مقـرب ، ولا نبي مـرسـل ، فضـلاً عـما عـداهم ، وقيـل : المـراد لا تعلم نفس مـا أخفى لهم علماً تفصيلياً ، وإلا فنحن نعلم ما أُعدّ للمؤمنين من النعيم إجمالاً من حيث انه غرف في الجنة ، وقصور ، وأشجار ، وأنهار ، وملابس ، ومآكل وغير ذلك - قرىء (قرة) بالافراد، وقرأت بالجمع ، وقرىء ما أخفي بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند الى الله سبحانه ، وقرىء بفتحها فعـلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، وما نخفي بالنون مضمومة ، ويخفي بالتحتية .

قال ابن عباس : كان عرش الله على الماء فاتخذ جنة لنفسـه ، ثم اتخذ دونها أخرى ، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة ، ثم قال ومن دونهما جنتان ، لم يعلم الخلق ما فيهما ، وهي التي قال الله : فلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين تـأتيهم منها كـل يوم تحفـة . وعنه قـال:هذا ممـا لا تفسير لـه،وعن ابن مسعود قال : انه لمكتوب في التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع مـا لم تر عين ، ولم تسمـع أذن ، ولم يخطر على قلب بشـر ، ولا يعلم ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وانه لفي القرآن : فلا تعلـم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين . وأخـرج البخاري ، ومسلـم وغيـرهمـا عن أبي هـريـرة ، عن رسول الله ﷺ : قـال الله : [أعددت لعبـادي الصـالحين مـا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر][1] قال أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم :﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾

وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحـابة ، وهي معـروفة فـلا نطول بذكرها ، وقيل أخفوا أعمالهم فـأخفى الله ثوابهم ، وفيـه دليل على أن المـراد الصلاة في جوف الليل ، ليكون الجزاء وفاقاً ، ثم بين سبحانـه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة ، فقال :

﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا من الطاعات أو جوزوا جزاء بذلك .

---

(١) تقدم ذكره .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ ﴾ الاستفهام للانكار أي ليس المؤمن كالفاسق . فقد ظهر ما بينهما من التفاوت والتباين ، ولهذا قال ﴿ لا يستوون ﴾ ففيه زيادة تصريح لما أفاده الانكار الذي أفاده الاستفهام على أبلغ وجه وآكده ليبني عليه التفصيل الآتي ، قال الزجاج جعل الاثنين جماعة حيث قال لا يستوون ، لأجل معنى ﴿ من ﴾ وقيل لكون الاثنين أقل الجمع . وقيل أراد الجنس منهما ، ولم يرد مؤمناً واحداً ، ولا فاسقاً واحداً ، وهذا أولى ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وفي السمين أنه ﷺ كان يتعمد الوقف على فاسقاً ، ويبتدى بقوله لا يستوون . أي في المآل ، والمستقر ، أو في الشرف والمثوبة ، والضمير فيه لمن الواقعة على الفريقين ، وفيه مراعاة معناها بعد مراعاة لفظها ، والمراد بالفسق الكامل بقرينة المقابلة للمؤمنين ، وإلا فالمؤمن قد يكون فاسقاً ، ونظيره :﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟وقوله :﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئآت﴾ الآية ، إذ ليس كل مجرم ومسيء كافراً .

وعن ابن عباس قال : قال الوليد بن عتبة لعلي بن أبي طالب :أنا أحدُّ منك سناناً ، وأشجع جناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ حشواً للكتيبة منك فقال له علي :اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية ، يعني بالمؤمن علياً ، وبالفاسق الوليد وروى نحو هذا عن عطاء بن يسار، والسدي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين وبدأ بالمؤمنين

فقال :

﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ قرىء بالجمع وبالإفراد ، والمأوى هو الذي يأوون اليه ، وأضاف الجنات اليه لكونه المأوى الحقيقي . وقيل : المأوى جنة من الجنات تأوى إليها أرواح الشهداء ، وقيل : هي عن يمين العرش ، وقد تقدم الكلام على هذا .

﴿ نزلاً ﴾ أي : إنها معدة لهم عند نزولهم ، وهو في الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب ، إكراماً له كما بيناه في آل عمران ، وقرىء نزلاً بسكون الزاي ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي بسبب ما كانوا يعملونه ، وليس المراد السبب الحقيقي ، حتى يخالف حديث (لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله). بل ما يفضي الى الجنة بمقتضى وعد الله تعالى ثم ذكر الفريق الآخر فقال :

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن طاعة الله ؛ وتمردوا عليه وعلى رسله بالكفر والتكذيب ، واعلم أن العمل الصالح له مع الايمان تأثير ، فلذلك قال:آمنوا وعملوا الصالحات ، وأما الكفر فلا التفات الى الأعمال معه ، فلهذا لم يقل وعملوا السيئآت ، لأن المراد من قوله فسقوا كفروا ، ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل ؛ لظُنَّ أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ﴿ فمأواهم النار ﴾ أي منزلهم الذي يصيرون إليه ، ويستقرون فيه هو النار .

﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ أي إذا أرادوا الخروج منها أعيدوا إليها راغمين مكرهين ، وقيل إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها رُدّوا إلى مواضعهم ، وكلمة ﴿ في ﴾ للدلالة على أنهم مستقرون فيها ، وإنما الإعادة من بعض طبقاتها الى بعض .

﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ والقائل لهم هذه المقالة هم خزنة جهنم من الملائكة أو القائل لهم هو الله عز وجل وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الاغاظة لهم ما لا يخفى وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذ التكذيب يقابل الايمان .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ وهو عذاب الدنيا، قال الحسن ، وأبو العالية ، والضحاك ، والنخعي : هو مصائب الدنيا وأسقامها ، وقيل: الحدود ، وقيل: القتل بالسيف يوم بدر ، وقيل: سني الجوع بمكة سبع سنين ، حتى أكلوا فيها الجيف والعظام ، والكلاب . وقيل عذاب القبر . ولا مانع من الحمل على الجميع ، والذوق حسي ومعنوي .

﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب الآخرة ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ مما هم فيه من الشرك والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب ، إلى الايمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه ، وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال: إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر ، قال ابن مسعود: العذاب الأدنى يوم بدر ، والعذاب الأكبر يوم القيامة ، لعل من بقي منهم أن يتوب فيرجع ، وعنه قال: العذاب الأدنى سنون أصابتهم لعلهم يتوبون ، وقال أُبي بن كعب العذاب الأدنى مصائب الدنيا ، والروم والبطشة والدخان، وعنه قال: يوم بدر، وقال ابن عباس: الحدود . قال الكرخي : وفي هذا الترجي وجهان : أحدهما معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين ، كقوله : إنا نسيناكم يعني تركناكم كما يترك الناسي ، حيث لا يلتفت إليه أصلاً فكذلك ههنا . والثاني نذيقهم العذاب إذاقة ـ يقول القائل اذا رآهم ـ لعلهم يرجعون بسببه انتهى .

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي : لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الاقبال على الايمان والطاعة ، فجعل الإعراض مكان ذلك ، والمجيء بثم للدلالة على استبعاد ذلك وأنه مما ينبغي أن لا يكون ، والاستفهام إنكاري .

﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أي : من أهل الاجرام على العموم ، فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولاً أولياً قال أبو السعود : أي كل من اتفق منه إجرام ـ وإن هانت جريمته ـ فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم ؟ وأشد جرماً من كل مجرم ؟ .

أخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وغيرهم ـ قال السيوطي بسند ضعيف ـ عن معاذ بن جبل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء في غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم ، يقول الله : إنا من المجرمين منتقمون » . قال ابن كثير بعد اخراجه : هذا حديث غريب .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أي : التوراة ، وانما ذكر موسى لقربه من النبي ﷺ ووجود من كان على دينه الزاماً لهم : وانما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال ، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام ، فتمسك بالمجمع عليه .

﴿ فلا تكن ﴾ يا محمد ﴿ في مرية ﴾ أي شك، وريبة ﴿ من لقائه ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون وعد رسول الله ﷺ أنه سيلقى موسى قبل أن يموت ثم لقيه في السماء أو في بيت المقدس حين أسري به، وهذا قول مجاهد والكلبي والسدي ، وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب ، قاله الزجاج وقال الحسن : إن معناه ولقد آتينا موسى الكتاب فكذب وأوذي ، فلا تكن في

شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى ، فيكون الضمير في لقائه على هذا الى محذوف والمعنى من لقـائه: ما لاقى موسى ، قال النحاس : وهذا قـول غريب .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى قل : يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، فلا تكن في مرية من لقائه ، فجاء معترضاً بين ولقد آتينا موسى الكتاب ، وبين قوله الآتي ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل .

وقيل الضمير راجع إلى الكتاب الذي هو الفرقان ، كقوله :﴿**وإنـك لتلقى القـرآن**﴾، والمعنى إنا قد آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ونظيره ، وما أبعد هذا ؟ ولعل الحامل لقائله عليه قوله :﴿**وجعلنـاه هدى لبني إسرائيل**﴾ فإن الضمير راجع إلى الكتاب ، وقيل : إن الضمير في لقائه عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله:﴿**ثم إلى ربكم ترجعون**﴾، أي لا تكن في مرية من لقاء الرجوع وهذا بعيد جداً ، قال السمين: وهذه أقوال بعيدة ذكرت للتنبيه على ضعفـها، وأظهرها أن الضمير إما لموسى ، وإما للكتاب ، أي لا تَرْتَبْ في أن موسى لقي الكتاب ، وأنزل عليه .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما من حديث ابن عباس قال قال النبي ﷺ : رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن جهنم ، والدجال في آيات اراهن الله إياه ، قال ﴿**فلا** تكن في مرية من لقائه﴾، فكان قتادة يفسرها أن النبي ﷺ قد لقي موسى .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه والضياء في المختارة بسند ـ قال السيوطي صحيح .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، فلا تكن في مرية من لقائه قال: من لقاء موسى ، قيل أو لقي موسى ؟ قال نعم ألا ترى إلى قوله واسأل من أرسلنا من

قبلك من رسلنا ؟ .

وروى البخاري عن أنس أن النبي ﷺ قال أتيت على موسى ليلة المعراج عند الكثيب الأحمر ، وهو قائم يصلي في قبره .
وصح في حديث المعراج أيضاً أنه رآه في السماء السادسة ، فلعل رؤيته كانت في قبره قبل صعوده إلى السماء ، ثم صعد إليها فوجده هناك قد سبقه لما يريده الله ، وهذا وجه الجمع بين هذين الحديثين ، على ما ذكره الخازن . واختلف في الضمير في قوله :

﴿ وجعلناه ﴾ فقيل راجع إلى الكتاب أي جعلنا التوراة ﴿ هدى لبني إسرائيل ﴾ قاله الحسن وغيره ، وقال قتادة إنه راجع إلى موسى ، أي وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل .
﴿ وجعلنا منهم أئمة ﴾ أي قادة يقتدون بهم في دينهم وهم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل ، وقيل هم أتباع الأنبياء ، وقيل العلماء قاله قتادة وقرىء أأمة .

قال النحاس، وهو لحن عند جميع النحويين ، لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة ﴿ يهدون ﴾ أي يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليهم من أحكام التوراة ومواعظها ﴿ بأمرنا ﴾ لهم بذلك أو لأجل أمرنا .

﴿ لما صبروا ﴾ أي حين صبروا والضمير للأئمة ، وفي ﴿ لما ﴾ معنى الجزاء ، والتقدير لما صبروا جعلناهم أئمة ، أي لصبرهم ، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف والهادية للناس ، وقيل صبروا عن الدنيا ، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس .

﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ التنزيلية التي في تضاعيف الكتاب ﴿ يوقنون ﴾ أي يصدقون بها ، ويعلمون أنها حق ، وأنها من عند الله ، لمزيد تفكرهم ، وكثرة تدبرهم .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ
يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا
ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ أي يقضي بينهم ، ويحكم بين المؤمنين والكفار . وقيل يقضي بين الأنبياء وأممهم ، حكاه النقاش ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيظهر المحق من المبطل .

﴿ أو لم يهد لهم ﴾ أي أو لم يتبين لأهل مكة ؟ والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي أغفلوا ولم يتبين لهم . وقرىء : يهد بالتحتية وبالنون ، وهي واضحة ، والفاعل ما دل عليه قوله ﴿ كم أهلكنا ﴾ أي كثرة إهلاكنا ، وقال المبرد : إن الفاعل الهدى ، المدلول عليه بـ ﴿ يهدي ﴾ أي أو لم يهد لهم الهدى ﴿ من قبلهم ﴾ حال من قوله ﴿ من القرون ﴾ كعاد وثمود ، وقوم لوط ، ونحوهم .

﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي والحال أنهم يمشون في مساكن المهلكين ، ويشاهدونها ، وينظرون ما فيها من العبر ، وآثار العذاب ، ولا يعتبرون بذلك .

وقيل الضمير يعود إلى المهلكين ، والمعنى أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم ، والأول أولى ، وقيل جملة مستأنفة بيان لوجه هدايتهم ، والمعنى يمرون في أسفارهم إلى التجارة على ديارهم وبلادهم ﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور

من كثرة إهلاكنا الأمم الخالية ﴿ لآيات ﴾ عظيمة ﴿ أفلا يسمعون ﴾ ويتعظون بها .

﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ أي : أو لم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها ؟ وقيل هي اليابسة وأصله من الجرز ، وهو القطع ، أي التي قطع نباتها لعدم الماء ، وأزيل بالمرة ، ولا يقال للتي لا تنبت أصلاً كالسباخ جرز لقوله الآتي : ﴿نخرج به زرعاً﴾ قال ابن عباس الجرز التي لا تُمطَر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول وعنه قال هي أرض باليمن .

وقيل : أبين ،قال القرطبي في تفسيره والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه ،وقيل أرض عدن . قال الضحاك هي الأرض العطشاء ، وقال الفراء:هي الأرض التي لا نبات فيها،وقال الأصمعي هي الأرض التي لا تنبت شيئاً . قال المبرد يبعد أن يكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام . وقيل هي مشتقة من قولهم رجل جروز ، إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله،وكذلك ناقة جروز ، إذا كانت تأكل كل شيء تجده،وقال مجاهد إنها أرض النيل لأن الماء إنما يأتيها في كل عام .

﴿ فنخرج به ﴾ أي : بالماء ﴿ زرعاً تأكل منه أنعامهم ﴾ أي من الزرع ، كالتبن والقصل ، والورق ، وبعض الحبوب المخصوصة بها ، ونحوها مما لا يأكله الناس ﴿ وأنفسهم ﴾ أي : يأكلون من الحبوب ، والثمار ، والأقوات الخارجة من الزرع مما يقتاتونه ، وقدم الأنعام لأن انتفاعها مقصور على النبات ، ولأن أكلها منه مقدم ، لأنها تأكله قبل أن يثمر ، ويخرج سنبله .

﴿ أفلا يبصرون ﴾ هذه النعم ويشكرون المنعم ويوحِّدونه، لكونه المتفرد بإيجاد ذلك ، وجعلت الفاصلة : يبصرون لأن الزرع مرئي ، وفيما قبله يسمعون لأن ما قبله مسموع ، أو ترقياً إلى الأعلى في الاتعاظ مبالغة في التذكير ، ودفع العذر .

﴿ ويقولون ﴾ بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء . والقائلون هم الكفار على العموم ، أو كفار مكة على الخصوص ﴿ متى هذا الفتح ﴾ الذي تعدنا به ، يعنون بالفتح القضاء والفصل بين العباد ، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين العباد ، قاله مجاهد وغيره ، قال الفراء ، والقتيبي : هو فتح مكة .

قال قتادة : قال أصحاب النبي ﷺ للكفار . إن لنا يوماً نتنعم فيه ونستريح ، ويحكم الله بيننا وبينكم ، يعنون يوم القيامة ، فقال الكفار : متى هذا الفتح ؟ وقال السدي : هو يوم بدر ، لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون للكفار إن الله ناصرنا ، ومظهرنا عليكم ، وعن ابن عباس قال: يوم بدر فتح للنبي ﷺ فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تدعونه من نصر المؤمنين ، وإظهارهم على الكفار ، ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب عليهم فقال :

﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ وفي هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة ، الذي هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، لأن يوم فتح مكة ؛ ويوم بدر : كليهما مما ينفع الإيمان ، وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح ، وقبل منهم ذلك النبي ﷺ . والمعنى : ولا يقبل منهم الإيمان، والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم ؛ للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه لكونه أمراً بيناً وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع إيمانهم في ذلك اليوم كأنه قيل: لا تستعجلوا فكأني بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظَرتم فلم تُنظَروا، والآية إن عمت غير المستهزئين فهي تعميم بعد تخصيص، وإن خصت بهم فهو إظهار في مقام الإضمار تسجيلاً عليهم بالكفر، وبياناً لعلة عدم النفع وعدم إمهالهم .

﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخرون بتأخير العذاب عنهم ليتوبوا ويعتذروا ، ولما فتحت مكة هرب قوم من بني كنانة فلحقهم خالد بن الوليد ؛ فأظهروا الإسلام فلم يقبله منهم خالد وقتلهم .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي عن سفههم وتكذيبهم ، ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿ وانتظر ﴾ يوم الفتح ، وهو يوم القيامة أو يوم إهلاكهم بالقتل ، وموعدي لك بالنصر عليهم ﴿ إنهم منتظرون ﴾ لإهلاككم ،أو انتظر عذابنا إياهم فهم منتظرون ذلك .

والآية منسوخة بآية السيف، وذلك قوله لاينفع . . الخ قاله ابن عباس ، وقيل غير منسوخة إذ يقع الإعراض مع الأمر بالقتال،وقرىء منتظرون بفتح الظاء ، مبنياً للمفعول . قال الفراء: لا يصح هذا إلا بإضمار أي إنهم منتظر بهم، قال أبو حاتم: الصحيح الكسر، أي انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الاحزاب

(هي ثلاث وسبعون آية)

قال ابن عباس : نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله وعن زر قال : قال لي أبي بن كعب : كأين تقرأ سورة الاحزاب أو كأين تعدها؟ قلت : ثلاثاً وسبعين آية فقال : قط؟ لقد رأيتها وانها لتعادل سورة البقرة ؛ أو أكثر من سورة البقرة . ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم . فرفع فيما رفع . قال ابن كثير : واسناده حسن .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد يا أيها الناس : ان الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها : الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما ألبتة . ورجم رسول الله ﷺ . ورجمنا بعده . فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله » . وقد روي عنه نحو هذا من طرق .

وعن عائشة قالت : كانت سورة الاحزاب تقرأ في زمان النبي ﷺ مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها الا على ما هو الآن .

قال النسفي : وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم
بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

﴿ يا أيها النبي ﴾ أي : يا أيها المخبر عنا ، المأمون على أسرارنا ، المبلغ خطابنا ، وإنما لم يقل : يا محمد كما قال : يا آدم ، يا موسى ، تشريفاً له ، وتنويهاً بفضله ، وتصريحه باسمه في قوله : محمد رسول الله ونحوه ، لتعليم الناس بأنه رسول الله ليلقبوه بذلك ، ويدعوه به .

﴿ اتق الله ﴾ أي : دم على ذلك وازدد منه ، فهو باب واسع ، وعرض عريض ، لا يدرك مداه ، ولا ينال منتهاه.

﴿ ولا تطع الكافرين ﴾ من أهل مكة ، ومن هو على مثل كفرهم ﴿ والمنافقين ﴾ الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر . قال الواحدي : إنه أراد سبحانه بالكافرين : أبا سفيان ، وعكرمة ، وأبا الأعور السلمي ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ أرفض ذكر آلهتنا وقل إن لها شفاعة لمن عبدها قال : والمنافقين عبدالله بن أبي وعبدالله بن سعد بن أبي سرح .

﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أي : كثير العلم والحكمة بليغهما ، قال النحاس : « ودل بقوله هذا على أنه كان يميل إليهم يعني النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الاسلام ، والمعنى أن الله عز وجل لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما

نهاك عنهم ، لأنه حكيم » ولا يخفى بعد هذه الدلالة التي زعمها ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الأمر بالتقوى ، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ، والمعنى :أنه لا يأمرك أو ينهاك إلا بما علم فيه صلاحاً أو فساداً لكثرة علمه ، وسعة حكمته .

﴿واتبع﴾ في جميع أمورك ﴿ ما يوحى إليك من ربك﴾ من القرآن ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين ، ولا من الرأي البحت ، فإن فيما أوحي إليك ما يغنيك عن ذلك .

﴿ إن الله كان بما تعلمون خبيراً﴾ تعليل لأمره باتباع ما أوحي إليه ، وتأكيد لموجبه ، والأمر له ﷺ أمر لأمته ، فهم مأمورون باتباع القرآن ، كما هو مأمور باتباعه ، ولهذا جاء بخطابه وخطابهم في قوله: بما تعلمون على قراءة الجمهور بالفوقية على الخطاب ، وقرىء بالتحتية ، والواو ضمير الكفرة والمنافقين ، أي : إنه خبير بمكايدهم ؛ فيدفعها عنك .

﴿ وتوكل على الله ﴾ أي اعتمد عليه وفوض أمورك إليه ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي حافظاً يحفظ من توكل عليه ، وقيل : كفيلاً برزقك ، وقال الزجاج : لفظه وإن كان لفظ الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلاً ، ثم ذكر سبحانه مثلاً توطئة وتمهيداً لما يتعقبه من الأحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه فقال :

﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ وقيل : هي مثل ضربه الله للمظاهر ، أي : كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمان وكذلك لا يكون الدعي ابن الرجل ، وقيل كان الواحد من المنافقين يقول : لي قلب يأمرني بكذا ، وقلب بكذا فنزلت الآية برد النفاق وبيان أنه لا يجتمع مع الإسلام ؛ كما لا يجتمع قلبان ، والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله وجعلها محلاً للعلم و﴿ من ﴾ زائدة وقال : في جوفه لأنه معدن الروح الحيواني المتعلق للنفس الإنساني ومنبع القوى بأسرها ،فيمتنع

تعدده لأنه يؤدي إلى التناقض وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى وغير أصل لها .

عن ابن عباس قال : قام النبي ﷺ يوماً يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : الا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم، فنزل ﴿ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾.

وعنه بلفظ: صلى النبي ﷺ صلاة، فسها فيها، فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فقالوا : إن له قلبين ، فنزلت. وعنه أيضاً قال : كان رجل من قريش يسمى من دهائه : ذا القلبين فأنزل الله هذا في شأنه .

﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ قرىء اللائي بياء ساكنة بعد همزة وبياء ساكنة بعد ألف محضة قال أبو عمرو بن العلاء: إنها لغة قريش التي أمر الناس أن يقرأوا بها وتظاهرون مضارع ظاهر، وقرىء مضارع تظاهر والأصل تتظاهرون وقرىء تظهرون والأصل تنظهرون ، وأخذ ذلك من لفظ الظهر كأخذ لبى من التلبية ، وإنما عُدّي بمن لأنه ضُمّن معنى التباعد ، كأنه قيل : متباعدين من نسائكم بسبب الظهار ، كما تقدم في تعدية الايلاء بمن في البقرة ـ

والظهار أصله أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي، والمعنى ما جعل الله نساءكم اللاتي تقولون لهن هذا القول كأمهاتكم في التحريم، ولكنه منكر من القول وزور ، وإنما تجب به الكفارة بشرطه ، وهو العود كما ذكر في سورة المجادلة بقوله : والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا أي نفسه بأن يخالفوه بإمساك المظاهر منها زمناً يمكنه أن يفارقها فيه أو لا يفارقها ، لأنه مقصود المظاهر وصف المرأة بالتحريم وإمساكها يخالفه قاله الكرخي .

﴿ وما جعل أدعياءكم ﴾ أي : وكذلك ما جعل الأدعياء الذين تدعون أنهم أبناؤكم ﴿ أبناءكم ﴾ والأدعياء جمع دعي ، وهو الذي يدعى ابناً لغير أبيه

فهو فعيل بمعنى مفعول.ولكن جمعه على أدعياء غير مقيس لأن أفعلاء إنما يكون جمعاً لفعيل،المعتل اللام إذا كان بمعنى فاعل؛ نحـو تقي وأتقيـاء ، وغني وأغنياء ، وهذا وإن كان فعيلاً معتل اللام لأن أصله دعيو فأدغم إلا أنه بمعنى مفعول فكان القياس جمعه على فَعلى كقتيل وقتلى وجريح وجرحى ، ومريض ومرضى ، ونظير هذا في الشذوذ قولهم : أسير وأسارى ، والقياس أسرى ، وقد سمع فيه الأصل قاله السمين .

﴿ ذلكم ﴾ أي ما تقدم من ذكر الظهار والادعاء ﴿ قولكم بأفواهكم ﴾ أي ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه ، ولا تأثير له في الخارج ،فلا تصير المرأة به أمه، ولا ابن الغير به إبناً ، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمومة والبنوة .

وقيل : الإشارة راجعة إلى الادعاء أي : ادعاؤكم أن أبناء الغير أبناؤكم لا حقيقة له بل هو مجرد قول بالفم ؛ إذ الابن لا يكون إلا بالولادة وفيه نسخ التبني ، وذلك أن الرجل كان في الجاهلية يتبنى الرجل ، فيجعله كالابن المولود يدعوه إليه الناس ، ويرث ميراثه ، وكان النبي ﷺ أعتق زيد بن حارثة الكلبي وتبناه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة،فلما تزوج زينب ـ وكانت تحت زيد ـ قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى الناس عن ذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، ونسخ بها التبني .

قال النحاس : وهذا من نسخ السنة بالقرآن . قال القرطبي : أجمع أهل التفسير على أن هذا القول أنزل في زيد بن حارثة .

﴿ والله يقول الحق ﴾ الذي يحق اتباعه لكونه حقاً في نفسه ، لا باطلاً ، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم ﴿ وهو يهدي السبيل ﴾ أي يدل على الطريق الموصلة إلى الحق ، وفي هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق ، وترك قول الباطل والزور ، ثم صرح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الأبناء للآباء فقال:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ للصلب وانسبوهم إليهم ، ولا تدعوهم إلى غيرهم ؛ أخرج البخاري ، ومسلم وغيرهما،عن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : أدعوهم لآبائهم ، فقال رسول الله ﷺ أنت زيد بن حارثة بن شراحيل .

﴿هو أقسط عند الله﴾ تعليل للأمر بدعاء الابناء للآباء، والضمير راجع إلى مصدر : ادعوهم ومعنى أقسط : أعدل ، أي أعدل من كل كلام يتعلق بذلك فترك الإضافة للعموم ، كقوله : الله أكبر ، أو أعدل من قولكم : هو ابن فلان ، ولم يكن ابنه لصلبه ،وأقسط أفعل تفضيل ، قصد به الزيادة مطلقاً ، من القسط بمعنى العدل ، وانظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث وصل الجمل الطلبية . ثم فصل الخبرية عنها ، ووصل بينها ؛ ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها،ثم فصل بالطلبية ثم تمم الإرشاد للعباد فقال :

﴿ فإن لم تعلموا آباءهم ﴾ تنسبونهم إليهم ﴿ فإخوانكم ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ في الدين ومواليكم ﴾ فقولوا : أخي ومولاي ، ولا تقولوا : ابن فلان حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة ، قال الزجاج : مواليكم ، أي أولياؤكم في الدين .

وقيل المعنى : فان كانوا محررين ولم يكونوا أحراراً فقولوا : موالي فلان

﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأً من غير عمد قبل النهي ، فنسبتموه إلى غير أبيه ﴿ ولكن ﴾ الإثم .

﴿ ما تعمدت قلوبكم ﴾ وهو ما قلتموه على طريقة العمد ، من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك ، قال قتادة : لو دعوت رجلاً بغير أبيه وأنت ترى أنه أبوه ، لم يكن عليك بأس بخلاف الحال في زيد فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد ، فإن قاله أحد متعمداً عصى بقوله هذا ، عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي ﷺ قال : « من ادعى إلى غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » أخرجه البخاري ومسلم .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ يغفر للمخطىء ويرحمه ، ويتجاوز عنه . أو غفور للذنوب ، رحيماً بالعباد ، ومن جملة من يغفر له ويرحمه من دعا رجلاً لغير أبيه خطأً ، أو قبل النهي عن ذلك ، أو على سبق اللسان ؛ ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة ، وخصوصية جليلة ؛ لا يشاركه فيها أحد من العباد فقال :

﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ أي هو أحق بهم ، وأرأف ، وأشفق في كل ما دعاهم إليه من أمور الدين والدنيا ، فإن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم ، وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم ، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم ، وإن كانوا محتاجين إليها ، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم ، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم . وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه ، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم .

وقيل : المراد بأنفسهم في الآية بعضهم فيكون المعنى أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض ، وقيل هي خاصة بالقضاء أي هو أولى بهم من

أنفسهم فيما قضى بينهم،وقيل أولى بهم في الجهاد بين يديه وبذل النفس دونه . وقيل:أولى بهم أي أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله بالمؤمنين رؤوف رحيم .

وفي قراءة ابن مسعود: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) وقال مجاهد : كل نبي أبو أمته ولذلك صار المؤمنون إخوة لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين،والأول أولى .

وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم:﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾فأيما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه » .

وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال : غزوت مع عليّ اليمن فرأيت منه جفوة،فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فنقصته فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير وقال ، يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قلت بلى يا رسول الله ﷺ قال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه . »

﴿ وأزواجه ﴾ ﷺ سواء دخل بهن أو لا وسواء مات عنهن أو طلقهن ﴿ أمهاتهم ﴾ أي مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم ومنزّلات منزلتهن في استحقاق التعظيم ، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن ، كما لا يحل له أن يتزوج بأمه،فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن تحريماً مؤبداً ، وبالتعظيم لجنابهن لا في النظر إليهن ، والخلوة بهن فإنه حرام في حقهن ، كما في حق سائر الأجانب،وتخصيص المؤمنين يدل على أنهن لسن أمهات نساء[1] المؤمنين ،

(١) إن أبسط مبادىء اللغة تقتضي شمول الذكران والإناث للتغليب ، وهي قضية من البداهة حيث =

ولا بناتهن أخوات المؤمنين ولا إخوتهن أخوال المؤمنين .

وقال القرطبي : الذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء كما يدل عليه قوله : ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة ، قال : ثم إن في مصحف أبيّ بن كعب وأزواجه أمهاتهم ، وهو أب لهم ، وقرأ ابن عباس بعد لفظ أنفسهم ، وهو أب وأزواجه أمهاتهم .

عن عائشة أن امرأة قالت لها يا أمه ، فقالت: «أنا أم رجالكم ولست أم نسائكم» . وعن أم سلمة قالت أنا: «أم الرجال منكم والنساء» .

وعن بجالة قال: مر عمر بن الخطاب بغلام وهو يقرأ في المصحف : وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ، فقال: يا غلام حكّها، فقال: هذا مصحف أبي فذهب إليه فسأله ، فقال: إنه كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق في الأسواق وهن فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن ثم بين سبحانه أن القرابة أولى ببعضهم البعض فقال :

﴿ وأولو الأرحام ﴾ جمع رحم وهو القرابة ﴿ بعضهم أولى ﴾ أي أحق ﴿ ببعض ﴾ في الميراث ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنفال وهي ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة . قال قتادة: لما نزل قوله سبحانه في سورة الأنفال ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فتوارث المسلمون بالهجرة ثم نسخ ذلك بهذه الآية ، وكذا قال غيره .

ويحتمل أن يكون النسخ بآية الأنفال وهو قوله:﴿وأولو لأرحام بعضهم

= لا تحتاج إلى هذه الفنقيلات اللجوج فإذا قال الله «يا أيها الذين آمنوا» تناول نداؤه اللائي آمن ، وإذا قال : «إنما المؤمنون إخوة» دل على إخوة المؤمنات فأزواجه ﷺ أمهات المؤمنات كما هن أمهات ذكران المؤمنين . المطيعي .

أولى ببعض في كتاب الله﴾ قال الشهاب: وهذا الاحتمال أولى، لأن سورة الأنفال متقدمة نزولاً على هذه السورة فنسبة النسيخ إليها أولى، وتكون هذه الآية مؤكدة لتلك، وقيل إن هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين؛ وقيل معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر.

﴿في كتاب الله﴾ أي هذه الأولوية وهذا الاستحقاق كائن وثابت فيه والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن، أو آية المواريث ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ المعنى إن ذوي القرابات من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض، أو أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين الذين هم أجانب.

وقيل إن معنى الآية: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ إلا ما يجوز لأزواج النبي ﷺ من كونهن كالأمهات في تحريم النكاح، وفي هذا من الضعف ما لا يخفى ﴿إلا﴾ هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام، والتقدير أولى ببعض في كل شيء من الإرث وغيره إلا.

﴿أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ من صدقة أو وصية فإن ذلك جائز، قاله قتادة، والحسن، وعطاء، ومحمد بن الحنفية قال ابن الحنفية نزلت في إجازة الوصية لليهودي والنصراني، فالكافر وليّ في النسب لا في الدين فتجوز الوصية له، قال في الخازن: إن الله لما نسخ التوارث بالحلف، والإخاء، والهجرة، أباح أن يوصي الرجل لمن تولاه بما أحب من ثلث ماله، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به وضمن (تفعلوا) معنى توصلوا أو تسدوا، فعُدّي بإلى. وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة بحق الإيمان والهجرة ﴿كان ذلك﴾ أي نسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة ورده إلى ذوي الأرحام من القرابات ﴿في الكتاب﴾ أي في اللوح المحفوظ، أو في التوراة أو في القرآن ﴿مسطوراً﴾ مكتوباً.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ كأنه قال : يا أيها النبي اتق الله واذكر أن الله أخذ ميثاق الأنبياء أو التقدير كان هذا الحكم مكتوباً في الكتاب ووقت أخذنا،قاله السمين ، قال قتادة أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً على أن يصدق بعضهم بعضاً ويتبع بعضهم بعضاً ، وأن ينصحوا لقومهم وأن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته ، وإلى الدين القيم ، وأن يبلغوا رسالات ربهم ، وذلك حين أخرجوا من صلب آدم كالذر ـ وهو جمع ذرة ـ وهي أصغر النمل وهي صغيرة جداً ، بحيث إن نحو الأربعين منها أصغر من جناح بعوضة ـ والميثاق هو اليمين ، وقيل هو الإقرار بالله والوصية والأمر ، والأول أولى ، وقد سبق تحقيقه ، ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم فقال :

﴿ ومنك ﴾ خصوصاً ﴿ ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم أصحاب الشرائع المشهورة ، والكتب المذكورة ، ومن أولي العزم من الرسل وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى،وتقديم نوح في آية : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، لأنها سيقت لوصف ما بعث به نوح من العهد القديم ، وما بعث به نبينا ﷺ من العهد الحديث وما بعث به من توسطهما من الأنبياء المشاهير ، فكان تقديم نوح فيها أشد مناسبة للمقصود

من بيان أصالة الدين وقدمه ، قاله الكرخي . ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ فقال :

﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ أي عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا أو ما أخذه الله عليهم من عبادته والدعاء إليها ، ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين : فأخذه عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد ، ثم أخذه عليهم ثانية مغلظاً شديداً ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾.

أخرج الطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي مريم الغساني أن اعرابياً قال : يا رسول الله أي شيء كان أول نبوتك قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ، ثم تلا هذه الآية الى قوله : ميثاقاً غليظاً ، ودعوة إبراهيم قال : وابعث فيهم رسولاً منهم ، وبشرى عيسى ابن مريم ، ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام .

وعن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك ؟ قال وآدم بين الروح والجسد،وعنه قال : قيل يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد،أخرجه البزار والطبراني،وفي الباب أحاديث قد صحح بعضها. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في الآية: كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث ، فبدأ بي قبلهم . أخرجه ابن عساكر ، وابن مردويه ، وأبونعيم. وعن ابن عباس قال ميثاقهم عهدهم ، وعنه قال إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

﴿ ليسأل ﴾ أي لكي يسأل ﴿ الصادقين عن صدقهم ﴾ في تبليغ الرسالة الى قومهم تبكيتاً للكافرين بهم ، وفي هذا وعيد لغيرهم لأنهم إذا كانوا يسألون

عن ذلك فكيف غيرهم ؟ وقيل ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم كما في قوله ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ .وقوله ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ . وقيل فعل ذلك ليسأل . وقيل :عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل . وقيل : ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم والكافرين عن تكذيبهم ، فاستغنى عن الثاني بذكر مسببه وهو قوله :

﴿ وأعد للكافرين ﴾ وقيل التقدير أثاب الصادقين ، وأعد للكافرين وقيل : المعنى أكد على الأنبياء الدعوة الى دينه ليثيب المؤمنين ، وأعد للكافرين ﴿ عذاباً أليماً ﴾ قاله السمين ،وقيل :الكلام قد تم عند قوله عن صدقهم وجملة ﴿ وأعد ﴾ مستأنفة لبيان ما أعده للكفار .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله ﴾ الكائنة ﴿ عليكم ﴾ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بالتقوى بحيث لا يبقى معه خوف من أحد ﴿ إذ ﴾ أي حين .

﴿ جاءتكم جنود ﴾ والمراد بها جنود الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وغزوه الى المدينة وهي الغزوة المسماة غزوة الخندق وكانت بعد حرب أحد بسنة[1] وهم أبو سفيان بن حرب بقريش ومن معهم من الألفاف،وعيينة ابن حصن الفزاري ومن معه من قومه غطفان ، وبنو قريظة والنضير فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة كما وصف الله سبحانه في هذه الآيات ، وكانت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة قاله ابن اسحق . وقال ابن وهب ، وابن القاسم ، عن مالك كانت في سنة أربع . وقد بسط أهل السير في هذه الوقعة ما هو معروف فلا نطيل بذكرها .

---

(١) الصحيح أنها وقعت بعد أحد بسنتين أي في السنة الخامسة من الهجرة في شهر شوال على التحديد أما غزوة أحد فكانت في السنة الثالثة من الهجرة وبين الغزوتين حدثت أحداث تتخم هذين العامين كيوم الرجيع ورهط عضل والقارة واستشهاد زيد بن الدثنة وخبيب وأصحابهما بماء هذيل ثم بئر معونة ثم إجلاء بني النضير في السنة الرابعة وغزوة ذات الرقاع وغزوة بدر الآخرة ثم غزوة دومة الجندل ثم الخندق . المطيعي .

أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، وابن عساكر من طرق عن حذيفة قال:لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً ، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا . وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ، ولا أشد ريحاً في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه . فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ويقولون : إن بيوتنا عورة . وما هي بعورة فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، فيتسللون . ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى مر عليّ وما عليّ جنة من العدو ، ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي ، فأتاني وأنا جاث على ركبتي فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة ، قال : حذيفة ؟ فتقاصرت إلى الأرض فقلت : بلى يا رسول الله ـ كراهية أن أقوم ـ قال قم ، فقال : إنه كان في القوم خبر فأتني بخبر القوم،قال : وأنا من أشد القوم فزعاً وأشدهم قراً فخرجت ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم احفظه من بين يديه . ومن خلفه ، وعن يمينه . وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته . قال : فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قراً في جوفي فما أجد منه شيئاً ، فلما وليت قال يا حذيفة ، لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني ، فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل ، الرحيل ، ثم دخلت العسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل ، الرحيل ، لا مقام لكم وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبراً فوالله اني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم ، ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما انتصفت في الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً معتمين فقالوا أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم ، فرجعت الى رسول الله ﷺ فأخبرته ، وهو مشتمل في شملة يصلي ، وكان إذا حز به أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم أني تركتهم يترحلون ، وأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم

جنود الآية﴾ .

وعن ابن عباس في قوله : إذ جاءتكم جنود ، قال : كان يوم أبي سفيان يوم الأحزاب ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً ﴾ قال مجاهد هي ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ، ونزعت فساطيطهم ، وهي ريح تهب من الشرق ، وكانت باردة شديدة جداً ، ومع هذا لم تتجاوزهم . ويدل على هذا ما ثبت عنه (ﷺ) من قوله : « نصرت **بالصبا**، وأهلكت عاد بالدبور» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس .

وعنه قال لما كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال الى الجنوب فقالت انطلقي فانصري الله ورسوله ، فقالت الجنوب إن الحرة لا تسري بالليل فغضب الله عليها وجعلها عقيماً ، فأرسل الله عليهم الصبا فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أطنابهم ، فقال رسول الله ﷺ نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور ، فذلك قوله فأرسلنا عليهم ريحاً الآية ، وقيل الصبا ريح فيها روح ما هبت على محزون إلا ذهب حزنه ، وللشعراء تفنن بها كثير يعرفه كل من له إلمام بدواوينهم .

﴿ وجنوداً لم تروها ﴾ وهي الملائكة ، وكانوا ألفاً ، ولم يقاتلوا ، وإنما ألقوا الرعب في قلوب الأحزاب . قال المفسرون : بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها في بعض ، وأرسل الله عليهم الرعب ، وكثر تكبيرهم في جوانب العسكر ، حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه يا بني فلان هلم إليّ فإذا اجتمعوا قال لهم النجاء النجاء ، فانهزموا من غير قتال ﴿ وكان الله بما تعملون ﴾ أيها المسلمون من ترتيب الحرب ، وحفر الخندق ، واستنصاركم به ، وتوكلكم عليه ﴿ بصيراً ﴾ وقرىء يعملون بالتحتية أي بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله والتحزب على المسلمين واجتماعهم عليهم من كل جهة .

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ
ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا
﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ﴾ أي اذكر إذ جاءوكم من أعلى الوادي ، وهو من جهة المشرق والذين جاءوا من هذه الجهة هم غطفان وسيدهم عيينة بن حصن ، وهوازن وسيدهم عوف ابن مالك ، وأهل نجد وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي ، وانضم اليهم عوف بن مالك ، وبنو النضير . وعن عائشة في الآية قالت كان ذلك يوم الخندق ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ أي من أسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة ، وهم قريش ومن معهم من الأحابيش وسيدهم أبو سفيان بن حرب وجاء أبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق ومعهم عامر بن الطفيل .

﴿ وإذ ﴾ معطوف على ما قبله داخل معه في حكم التذكير ﴿ زاغت الأبصار ﴾ أي مالت وعدلت عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب ، وقيل شخصت دهشاً من فرط الهول والحيرة ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ جمع حنجرة ، وهي جوف الحلقوم ، وقيل رأس الغلصمة ، والغلصمة رأس الحلقوم،وقيل هي منتهى الحلقوم،والحلقوم مجرى الطعام والشراب وقيل مجرى النفس،والمريء مجرى الطعام والشراب ، وهو تحت الحلقوم وقال الراغب رأس الغلصمة من خارج ، والمعنى ارتفعت القلوب عن مكانها ووصلت من الفزع والخوف الى الحناجر ، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها وهو الذي نهايته الحنجرة لخرجت ، كذا قال قتادة ، وقيل هو على طريق المبالغة المعهودة في كلام العرب وإن لم ترتفع القلوب الى ذلك المكان ولا خرجت عن موضعها ، ولكنه مثل في اضطرابها وجبنها، قال الفراء والمعنى

أنهم جبنوا وجزع أكثرهم ، وسبيل الجبان إذا اشتد الخوف أن تنتفخ رئته ، فإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب الى الحنجرة ، ولهذا يقال للجبان:انتفخ سحره .

﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ المختلفة ، فبعضهم ظن النصر ورجا الظفر ، وبعضهم ظن خلاف ذلك . وقال الحسن ظن المنافقون أنه يستأصل محمد وأصحابه وظن المؤمنون أنه ينصر . وقيل : الآية خطاب للمنافقين ، والأولى ما قاله الحسن ، فيكون الخطاب لمن أظهر الاسلام على الاطلاق ، أعم من أن يكون مؤمناً في الواقع أو منافقاً .

واختلف القراء في الألف في الظنونا ، فأثبتها وصلاً ووقفاً جماعة وتمسكوا بخط المصحف العثماني ، وجميع المصاحف في البلدان ، فإن الألف فيها كلها ثابتٌ وتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا . وأيضاً أن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة ، وهاء السكت تثبت وقفاً ، للحاجة اليها ، وقد تثبت وصلاً إجراء للوصل مجرى الوقف ، وقرىء بحذفها في الوصل والوقف معاً لأنها لا أصل لها ، وقالوا هي من زيادات الخط فكتبت كذلك ولا ينبغي النطق بها ، وأما الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره،وقولهم : أجريت الفواصل مجرى القوافي غير معتد به ، لأن القوافي يلزم الوقف عليها غالباً،والفواصل لا يلزم ذلك فيها فلا تشبه بها ، وقرىء باثباتها وقفاً ، وحذفها وصلاً إجراء للفواصل مجرى القوافي في ثبوت ألف الإطلاق ولأنها كهاء السكت ، وهي تثبت وقفاً وتحذف وصلاً ، قاله السمين وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية ، وهذه الألف هي التي تسميها النحاة ألف الاطلاق ، والكلام فيها معروف في علم النحو ، وهكذا اختلف القراء في الألف التي في قوله : الرسولا والسبيلا ، كما يأتي في آخر هذه السورة .

﴿ هنالك ابتلي المؤمنون ﴾ ظرف مكان يقال للمكان البعيد : هنالك كما يقال للقريب هنا ، وللمتوسط : هناك . أي في ذلك المكان الدحض وهو

الخندق ، وقد يكون ظرف زمان ، أي عند ذلك الوقت ابتلوا وهو منصوب بابتلى ، وقيل : بتظنون ، واستضعفه ابن عطية ، والمعنى : إن في ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف والقتال والجوع والحصر وغيرها ليتبين المؤمن من المنافق وامتحنوا بالصبر على الإيمان .

﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ قرأ الجمهور زلزلوا بضم الزاى الأولى؛ وكسر الثانية على ما هو الأصل في المبني للمفعول،وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بكسر الأولى وروى الزمخشري عنه أنه قرأ بإشمامها كسراً ، وقرأ الجمهور زلزالاً بكسر الزاي الأولى وقرأ عاصم ، والجحدري ، وعيسى بن عمر بفتحها ، وهما لغتان .

قال الزجاج :كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح نحو قلقلته قلقالاً وزلزلوا زلزالاً ، والكسر أجود ، وقد يراد بالمفتوح اسم الفاعل نحو صلصال ، بمعنى مصلصل ، وزلزال بمعنى مزلزل قال ابن سلام معنى زلزلوا حركوا بالخوف تحريكاً شديداً بليغاً .

وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم الا موضع الخندق . وقيل : المعنى انهم اضطربوا اضطراباً مختلفاً ، فمنهم من اضطرب في نفسه ، ومنهم من اضطرب في دينه .

﴿ وإذ يقول المنافقون ﴾ يعني : معتب بن قشير ، وقيل عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ هو الشك والريبة أي أهل الشك والاضطراب ، قيل هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله ﴾ من النصر والظفر أو فتح فارس والروم ﴿ إلا غروراً﴾ أي : باطلاً من القول ، وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلاً من أهل النفاق والشك ، وهذا القول المحكي عن هؤلاء كالتفسير للظنون المذكورة ، أي كان ظن هؤلاء هذا الظن كما كان ظن المؤمنين النصر ، وإعلاء كلمة الله .

وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾

﴿ وإذا قالت طائفة منهم ﴾ قال مقاتل : هم بنو سالم من المنافقين وقال السدي هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، وقيل هم أوس بن قيظي وأصحابه . والطائفة تقع على الواحد فما فوقه ، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله :

﴿ يا أهل يثرب لا مقام لكم ﴾ أي لا موضع ، ولا مكانة إقامة لكم ؛ أو لا إقامة لكم ههنا في العسكر . قرىء (مقام) بفتح الميم وبضمها على أنه مصدر من أقام يقيم ، وعلى الأولى هو اسم مكان ، وهما سبعيتان .

قال أبو عبيدة يثرب اسم الأرض ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها ، قال السهيلي وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العمالقة اسمه يثرب بن عميل . وقيل يثرب اسم لنفس المدينة ، ولم تصرف للعلمية ووزن الفعل فإنها على وزن يضرب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ، هي طابة ، هي طابة ، هي طابة » . ولفظ أحمد : إنما هي طابة واسناده ضعيف . وكأنه ﷺ كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع ، والتوبيخ .

﴿ فارجعوا ﴾ أمروهم بالهرب من عسكر النبي ﷺ ، وذلك أن رسول

الله ﷺ والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع[1] والخندق بينهم وبين القوم فقال هؤلاء المنافقون ليس ههنا موضع إقامة وأمروا الناس بالرجوع الى منازلهم بالمدينة ، وسلع جبل خارج المدينة قريب منها بينها وبين الخندق ، وقيل : المعنى ارجعوا عن الإيمان إلى الكفر ، وقيل عن القتال ، والأول أولى ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ في الرجوع إلى منازلهم وهم بنو حارثة ، وبنو سلمة .

﴿ يقولون إن بيوتنا عورة ﴾ أي ضائعة سائبة ، ليست بحصينة ولا ممتنعة من العدو ، وقال ابن عباس مخلية نخشى عليها السرق . وعن جابر نحوه . قال الزجاج يقال : عور المكان يعور عوراً وعورة ، وبيوت عورة وعورة وهي مصدر . قال مجاهد ، ومقاتل ، والحسن قالوا : بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة : قالوا بيوتنا مما يلي العدو ، ولا نأمن على أهلنا . قال الهروي : كل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة ، والعورة في الأصل الخلل في البناء ونحوه ، بحيث يمكن دخول السارق فيها ، فأطلقت على المختل ، والمراد ذوات عورة وقرىء عورة بكسر الواو أي قصيرة الجدران .

قال الجوهري : العورة كل حال يتخوف منه في ثغر أو حرب ، قال النحاس : يقال أعور المكان إذا تبينت فيه عورة ، وأعور الفارس إذا تبين منه موضع الخلل ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ وما هي بعورة ﴾ فكذبهم الله سبحانه فيما ذكروه ، ثم بين سبب استئذانهم وما يريدونه به فقال :

﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ أي ما يريدون إلا الهروب من القتال ، وقيل المراد ما يريدون إلا الفرار من الدين .

---

(١) جبل حول المدينة يلي هضبة بني حرام ، وهضبة بني النجار وفيها منزل حسان بن ثابت الذي لجأ إليه النساء والأطفال من آل البيت وكانوا يشرفون من هذا البيت على منازل بني قريظة . المطيعي .

﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ﴾ يعني بيوتهم ، أو المدينة . والأقطار النواحي ، جمع قطر وهو الجانب والناحية ، والمعنى لو دخلت عليهم بيوتهم أو المدينة من جوانبها جميعاً لا من بعضها هذه العساكر المتحزبة ، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة ، واستبيحت ديارهم . وهتكت حرمهم ومنازلهم .

﴿ ثم سئلوا الفتنة ﴾ من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم ﴿ لآتوها ﴾ أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ، يعنى إدخال بني حارثة أهل الشام[١] على المدينة ، ومعنى الفتنة هنا إما القتال في العصبية كما قال الضحاك ، أو الشرك بالله ، أو الرجعة إلى الكفر الذي يبطنونه ويظهرون خلافه كما قال الحسن قرىء لآتوها بالمد أي لأعطوها من أنفسهم ، وبالقصر أي لجاؤوها وفعلوها ، وهما سبعيتان .

﴿ وما تلبثوا بها ﴾ أي بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة ﴿ إلا ﴾ تلبثاً ﴿ يسيراً ﴾ حتى يهلكوا كذا قال الحسن والسدي والفراء والقتيبي ، وقال أكثر المفسرين : إن المعنى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً ، بل هم مسرعون إليها راغبون فيها لا يقفون عنها إلا مجرد وقوع السؤال لهم ، ولا يتعللون عن الاجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة ، كما تعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة ولم تكن إذ ذاك عورة ، ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ولرسوله بالثبات في الحرب ، وعدم الفرار عنه فقال :

---

(١) عندما دخلت جيوش بني أمية الحجاز ودحرت جيوش عبد الله بن الزبير وقتلته في الكعبة صلبته وحرقته ومثلت به ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء لسبع خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين . المطيعي .

وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل
لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ
مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ
إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ
إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ
حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٩﴾

﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴾ أي حلفوا من قبل غزوة الخندق ، ومن بعد بدر أن لا يولوا ظهورهم فراراً من العدو ، بل يثبتوا على القتال حتى يموتوا شهداء ، وهم قوم لم يحضروا وقعة بدر . قال قتادة وذلك أنهم غابوا عن بدر ، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا : لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن .

﴿ لا يولون الأدبار ﴾ أي لا ينهزمون وجاء على حكاية اللفظ فجاء بلفظ الغيبة ، ولو جاء على حكاية المعنى لقيل: لا نولي ﴿ وكان عهد الله مسؤولاً ﴾ عنه ومطلوباً صاحبه بالوفاء به ، ومجازى على ترك الوفاء به .

﴿ قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ لأنه لا بد لكل انسان من الموت إما حتف نفسه أو بقتل بالسيف في وقت معين ، سبق به القضاء وجرى به القلم ، فمن حضر أجله مات أو قتل ، فرّ أولم يفر .

﴿ وإذاً لا تمتعون ﴾ أي : وإن نفعكم الفرار مثلاً فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع ﴿ إلا ﴾ تمتعاً أو زماناً ﴿ قليلاً ﴾ بعد فراركم إلى أن تنقضي

آجالكم ، وكل آت قريب ، قرىء : تمتعون بالفوقية والتحتية وبحذف النون .

﴿ قل : من ذا الذي يعصمكم ﴾ أي يجيركم ﴿ من الله إن أراد بكم سوءاً ؟ ﴾ أي هلاكاً أو هزيمة أو نقصاً في الأموال وجدباً ومرضاً ﴿ أو ﴾ يصيبكم بسوء إن ﴿ أراد ﴾ الله ﴿ بكم رحمة ﴾ ؟ يرحمكم بها من خصب ونصر وعافية وإطالة عمر ، وهذا على حد قوله : علفتها تبناً وماء بارداً ، وليس معمولاً للسابق ، وهو : يعصمكم ، لعدم صحة المعنى عليه .

وفي السمين قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة إلا من الشر ؟ قلت : معناه أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام ، وأجرى مجرى قوله : متقلداً سيفاً ورمحاً ، وحمل الثاني على الأول لما في ا لعصمة من منع المنع . قال الشيخ : أما الوجه الأول ففيه حذف جملة لا ضرورة تدعو إلى حذفها ، والثاني هو الوجه ، لا سيما إذا قدر مضاف محذوف ، أي يمنعكم من مراد الله ، قلت : وأين الثاني من الأول ولو كان معه حذف جمل ؟ انتهى .

﴿ ولا يجدون لهم من دون الله ﴾ أي غيره ﴿ ولياً ﴾ يواليهم وينفعهم ويدفع الضرر عنهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصرهم من عذاب الله ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ يقال : عاقه واعتاقه وعوقه إذا صرفه عن الوجه الذي يريده .

﴿ والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ ، وذلك أنهم قالوا لهم : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولو كانوا لحماً لالتقمهم أبو سفيان وحزبه ، فخلوهم وتعالوا إلينا ، وقيل : إن القائل لهذه المقالة اليهود ، ومعنى هلم : أقبل وأحضر ، اسم فعل أمر : وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث وعند غيرهم من العرب كبني تميم فعل أمر،يقولون : هلم للواحد المذكر،وهلمي للمؤنث،وهلما للاثنين،وهلموا للجماعة ، وقد مر الكلام على هذا في سورة الأنعام ، والمعنى : ارجعوا إلينا واتركوا محمداً فلا تشهدوا

معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك ، وقيل : تعالوا إلينا لتستريحوا يعني أن يهود المدينة طلبوا المنافقين ليستريحوا ، وخوفوا المؤمنين ليرجعوا ، وهلم هنا لازم ، وفي الأنعام متعد لنصبه مفعوله ، وهو شهداءكم ، بمعنى أحضروهم ، وههنا بمعنى احضروا وتعالوا ، وكلام الزمخشري هنا مؤذن بأنه متعد أيضاً ، وحذف مفعوله فإنه قال : هلموا إلينا أي قربوا أنفسكم إلينا .

﴿ ولا يأتون البأس ﴾ أي الحرب والقتال ﴿ إلا ﴾ إتياناً ﴿ قليلاً ﴾ خوفاً من الموت ويقفون قليلاً مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون ، وقيل : المعنى لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة من غير اكتساب ، ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً .

﴿ أشحة ﴾ أي بخلاء ﴿ عليكم ﴾ لا يعاونونكم بحفر الخندق ولا بالنفقة في سبيل الله قاله مجاهد وقتادة ، وقيل : أشحة بالقتال معكم ، وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم ،وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها، قاله السدي. العامة على نصب: أشحة، وفيه وجهان.

أحدهما : أنه منصوب على الذم .

والثاني : على الحال من ضمير : يأتون قاله الزجاج أو هلم الينا قاله الطبري ، وقرىء بالرفع أي هم أشحة وهو جمع شحيح ، وهو جمع لا يقاس عليه ، إذ قياس فعيل الوصف الذي عينه ولامه من واد واحد أن يجمع على أفعلاء نحو خليل وأخلاء ، وظنين ، وأظناء ، وضنين ، وأضناء ، وقد سمع أشحاء وهو القياس ، والشح ، البخل وتقدم في آل عمران قاله السمين .

﴿ فإذا جاء الخوف ﴾ من قبل العدو قاله السدي أو منه ﷺ قاله ابن شجرة ﴿ رأيتهم ﴾ أي أبصرتهم ﴿ ينظرون إليك ﴾ في تلك الحالة خوفاً من القتال على القول الأول ، ومن النبي ﷺ على الثاني ﴿ تدور أعينهم ﴾ يميناً

وشمالاً لذهول عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة ، وقيل لشدة خوفهم حذراً أن يأتيهم القتل من كل جهة ، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه .

﴿ كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ أي كدوران عين الذي قرب من الموت ، وهو الذي نزل به الموت وغشيته أسبابه ، فيذهل اليه ، ويذهب عقله ويشخص بصره ، فلا يطرف ، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف ، ويقال للميت إذا شخص بصره دارت عيناه ودارت حماليق عينيه .

﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم ﴾ أي استقبلوكم ﴿ بألسنة حداد ﴾ أي ذربة تفعل كفعل الحديد يقال: سلق فلان فلاناً بلسانه إذا أغلظ له في القول مجاهراً ، قال الفراء : أي آذوكم بالكلام في الأمن بألسنة سليطة ذربة ويقال : خطيب مسلاق ومصلاق إذا كان بليغاً ، قال القتيبي : المعنى آذوكم بالكلام الشديد ، والسلق : الأذى قال ابن عباس : معناه عضوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة ، قال قتادة : المعنى بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون .أعطونا فإنا قد شهدنا معكم فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً ، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم ، قال النحاس وهذا قول حسن .

﴿ أشحة على الخير ﴾ أي على الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة ، قاله يحيى بن سلام ، وقيل على المال أن ينفقوه في سبيل الله قاله السدي ، ويمكن أن يقال معناه إنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات .

﴿ لم يؤمنوا ﴾ إيماناً خالصاً بل هم المنافقون يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ﴿ فأحبط الله أعمالهم ﴾ أي أبطلها بمعنى أظهر بطلانها لأنها لم تكن أعمالاً صحيحة تقتضي الثواب حتى يبطلها الله وتحبط ، قال مقاتل أبطل جهادهم لأنه لم يكن في إيمان ، أو المراد أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعاً لمنفعة دنيوية أصلاً ﴿ وكان ذلك ﴾ الاحباط لأعمالهم أو كان نفاقهم ﴿ على الله يسيراً ﴾ هيناً بإرادته .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى
ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ
كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أي يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب أي قريشاً وغطفان واليهود باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم ، ولم ينهزموا ففروا إلى داخل المدينة ، وذلك لما نزل بهم من الفشل والروع والفرق والجبن .

﴿ وإن يأت الأحزاب ﴾ مرة أخرى بعد هذه المرة؛والذهاب ﴿ يودوا لو أنهم بادون في الأعراب ﴾ أي يتمنون لو أنهم كانوا في بادية لما حل بهم من الرهبة ، والبادي خلاف الحاضر ، يقال : بدا يبدو بداوة إذا خرج الى البادية وسكنها .

﴿ يسألون عن أنبائكم ﴾ وأخباركم وما آل إليه أمركم ، وما جرى لكم ، كل قادم عليهم من جهتكم ، أو يسأل بعضهم بعضاً عن الأخبار التي بلغته من أخبار الأحزاب ، ورسول الله ﷺ ، والمعنى أنهم يتمنون أنهم بعيد عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال ، لفرط جبنهم وضعف نياتهم ﴿ ولو كانوا فيكم ﴾ أي معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال ﴿ ما قاتلوا ﴾ معكم ﴿ إلا ﴾ قتالاً ﴿ قليلاً ﴾ خوفاً من العار وحمية على الديار ، أو رياء من غير احتساب .

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ أي قدوة صالحة ، يقال : لي في فلان أسوة أي لي به اقتداء ، والأسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء اسم يوضع موضع المصدر يقال : ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به ، قال الجوهري :الأسوة والإسوة بالضم والكسر والجمع أسى وإسى ، وقد قرىء بهما وهما سبعيتان وهما أيضاً لغتان كما قال الفراء وغيره .

وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله ﷺ أي لقد كان لكم في رسول الله حيث بذل نفسه للقتال ، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة ، والمعنى اقتدوا به اقتداء حسناً ، وهو أن تنصروا دين الله وتوازروا رسوله ، ولا تتخلفوا عنه ، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته ، وجرح وشج وجهه ، وجاع بطنه ، وقتل عمه حمزة ، وأوذي بضروب الأذى فصبر ، وواساكم مع ذلك بنفسه ، فافعلوا أنتم كذلك أيضاً ، واستنوا بسنته ، وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً فهي عامة في كل شيء ؛ ومثلها : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وقوله : ﴿قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

عن ابن عمر قال في الآية : هذا في جوع رسول الله ﷺ وقد استدل بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة ، وهي خارجة عما نحن بصدده ، نعم فيه دلالة على لزوم الاتباع ، وترك التقليد الحادث الذي أصيب به الاسلام ، أي مصيبة وهل هذه الأسوة على الايجاب أو على الاستحباب ، فيه قولان ، قال القرطبي يحتمل أن تحمل على الايجاب في أمور الدين ، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا .

﴿ لمن كان يرجو الله ﴾ أي حسنة كائنة لمن يرجو الله والمراد أنهم الذين يرجون الله ويخافون عذابه ، يعني يرجون ثوابه ولقاءه ﴿ واليوم الآخر ﴾ أي أنهم يرجون رحمة الله فيه أو يصدقون بحصوله ، وأنه كائن لا محالة وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى .

﴿ وذكر الله ﴾ أي ولمن ذكر الله في جميع أحواله ذكراً ﴿ كثيراً ﴾ وجمع بين الرجاء لله والذكر له فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ ، ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب ومشاهدتهم لتلك الجيوش التي أحاطت بهم كالبحر العباب فقال :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ الاشارة بهذا الى ما رأوه من الجيوش أو إلى الخطب الذي نزل ، والبلاء الذي دهم ، وهذا القول منهم قالوه استبشاراً بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه الجنود وأن يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عند الله ، و ﴿ ما ﴾ في ﴿ ما وعدنا ﴾ هي الموصولة أو المصدرية ، ثم أردفوا ما قالوه بقولهم :

﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ أي ظهر صدق خبرهما ووجه إظهار الاسم الشريف والرسول بعد قوله ﴿ما وعدنا الله ورسوله﴾ ، هو قصد التعظيم ، وأيضاً لو أضمرهما لجمع بين ضميري الله ورسوله في لفظ واحد وقال صدقا ، وقد ورد النهي عن جمعهما كما في حديث [بئس خطيب القوم انت]، لمن قال ومن يعصهما فقد غوى ،وأما قوله صلى الله عليه وسلم [من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما]، فالجواب أنه صلى الله عليه وسلم أعرف بقدر الله منا فليس لنا أن نقول كما يقول ،قاله السمين .

﴿ وما زادهم ﴾ ما رأوه من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله ﴿ وتسليماً ﴾ لأمره ، قال الفراء : ما زادهم النظر الى الأحزاب إلا ذلك قال علي بن سليمان رأي يدل على الرؤية ، وتأنيث الرؤية غير حقيقي ؛ والمعنى ما زادهم الرؤية إلا إيماناً بالرب ؛ وتسليماً للقضاء ، ولو قال ما زادتهم لجاز ،وعن ابن عباس قال : في الآية ان الله قال لهم في سورة البقرة ﴿ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء﴾ ، فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله فتأول المؤمنون ذلك فلم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً .

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ
لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

﴿ من المؤمنين ﴾ المخلصين ﴿ رجال صدقوا ﴾ أي أتوا بالصدق من صدقني إذا قال الصدق ﴿ ما عاهدوا الله عليه ﴾ اي وفّوا بما عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة من الثبات معه والمقاتلة لمن قاتله ، بخلاف من كذب في عهده وخان الله ورسوله ، وهم المنافقون،وقيل هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا له ولم يفروا .

اخرج البخاري وغيره عن أنس قال : **[نرى هذه الآية نزلت في أنس ابن النضر]**، وأخرج ابن سعد ، وأحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، والبغوي في معجمه وابن جرير وابن ابي حاتم وأبو نعيم والبيهقي عن أنس قال : « غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ؟ لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع ، فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ قال يا أبا عمرو أين ؟ قال واهاً لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين طعنة وضربة ورمية ، ونزلت هذه الآية ، وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه . وقد روي عنه نحوه من طريق اخرى عند الترمذي وصححه ، والنسائي وغيرهما .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ، ثم قرأ :﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ ثم قال :أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله ، فأتوهم وزوروهم ، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه ، وقد تعقب الحاكم ، في تصحيحه الذهبي ، كما ذكر ذلك السيوطي .

ولكنه قد أخرج الحاكم حديثاً آخر وصححه ، وأخرجه أيضاً البيهقي في الدلائل عن أبي ذر قال لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مر على مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه ، فقرأ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية وأخرج ابن مردويه من حديث خباب مثله ، وهما يشهدان لحديث أبي هريرة ، ثم فصل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا الله ورسوله ، وقسمهم إلى قسمين فقال :

﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي فرغ من نذره ، ووفّى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد،وقال ابن عمر: أي مات على ما هو عليه من التصديق والإيمان . والنحب ما التزمه الإنسان واعتقد الوفاء به وأوجبه على نفسه ، والقتل ، والموت . قال ابن قتيبة قضى نحبه أي : قتل . وأصل النحب : النذر كانوا يوم بدر نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله لهم فقتلوا ، فقيل : فلان قضى نحبه ، أي قتل . والنحب أيضاً الحاجة وإدراك الأمنية يقول قائلهم : مالي عندهم نحب ، والنحب العهد ، ومعنى الآية أن من المؤمنين رجالاً أدركوا أمنيتهم ، وقضوا حاجتهم ، ووفّوا بنذرهم ، فقاتلوا حتى قتلوا ، وذلك يوم أحد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر .

أخرج الترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن مردويه عن طلحة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل : سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لايجترؤون على مسألته يوقرونه ويهابونه ، فسأله الأعرابي ،

فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم إني طلعت من باب المسجد فقال : أين السائل عمن قضى نحبه ؟ قال الاعرابي أنا قال : هذا ممن قضى نحبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من حديثه نحوه .

وأخرج الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « طلحة ممن قضى نحبه » .

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة » . أخرجه سعيد بن منصور ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم ، وابن المنذر وغيرهم .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله ، وأخرج ابن منده وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن عليّ إن هذه الآية نزلت في طلحة .

وأخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب الآن نغزوهم ولا يغزونا .

﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ قضاء نحبه حتى يحضر اجله كعثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وأمثالهم فإنهم مستمرون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله ﷺ ، والقتال لعدوه ، ومنتظرون لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتل ، وإدراك فضل الشهادة .

﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ أي ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم ، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً ، أما الذين قضوا نحبهم فظاهر ، وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولا بدلوا .

﴿ ليجزي الله ﴾ اللام يجوز أن يتعلق بصدقوا أو بزادهم أو بما بدلوا أو بمحذوف كأنه قيل: وقع جميع ما وقع ليجزي الله ﴿الصادقين بصدقهم﴾ بوفائهم بالعهد.

﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ بما صدر عنهم من التغيير والتبديل إن تابوا ، جعل المنافقين كانهم قصدوا عاقبة السوء ، وأرادوها بسبب تبديلهم وتغييرهم ، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم ، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبة من الثواب والعقاب ، فكأنما استويا في طلبها والسعي لتحصيلها،ومفعول إن شاء وجوابها محذوفان أي إن شاء تعذيبهم عذبهم ، وذلك إذا أقاموا على النفاق ، ولم يتركوه ولم يتوبوا عنه .

﴿ إن الله كان غفوراً ﴾ لمن تاب منهم بقبول التوبة ﴿ رحيما ﴾ بمن أقلع عما كان عليه من النفاق بعفو الحوبه ثم رجع سبحانه ، إلى حكاية بقية القصة وما امتن به على رسوله والمؤمنين من النعمة فقال :

﴿وردَّ الله الذين كفروا ﴾ وهم الأحزاب كأنه قيل ؛ وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الذين كفروا ﴿ بغيظهم ﴾ الباء للسببية ﴿ لم ينالوا خيراً ﴾ المعنى أن الله ردهم بغيظهم لم يشف صدورهم ، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم وهو الظفر بالمسلمين ، أو لم ينالوا خيراً أي خير ، بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر ، وغرم النفقة .

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة ﴿ وكان الله قوياً ﴾ على كل ما يريده إذا قال له : كن فيكون ﴿ عزيزاً ﴾ قاهراً غالباً لا يغالبه أحد من خلقه: ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته .

روى البخاري عن سلمان بن صرد قال سمعت رسول الله ﷺ حين انجلى الأحزاب يقول : « الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم » .

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ وهم بنو قريظة فإنهم عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان ، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وصاروا يداً واحدة مع الأحزاب وكانت في آخر ذي[1] القعدة سنة خمس .

وقيل : سنة أربع ﴿ من صياصيهم ﴾ جمع صيصية وهي الحصون ، وكل شيء يتحصن به فهو صيصية ؛ ومنه صيصية الديك ، وهي الشوكة التي في رجله وصياصي البقر والظباء : قرونها لأنها تمنع بها ، ويقال لشوكة الحائك الذي يسوي بها السدي واللحمة : صيصية .

وأخرج احمد ، وابن مردويه ، وابن أبي شيبة عن عائشة خرجت يوم الخندق أقفو الناس فإذا أنا بسعد بن معاذ رماه رجل من قريش يقال له ابن الفرقة بسهم فأصاب أكحله فقطعه، فدعا الله سعد فقال : اللهم لا تمتني حتى

(١) مر لنا في تفسير قوله تعالى : «إذ جاءتكم جنود» تحقيق أن الغزوة وقعت في شوال من السنة الخامسة وكان المصنف قد ذكر أنها في الرابعة وهنا يرجح المصنف أنها في الخامسة في شهر ذي القعدة بل في آخره وقد اتفقنا معه في السنة هنا وخالفناه هناك ويبدو أنه تحقق من التاريخ بعد كتابة ما مر قبل وللمصنف العذر لا سيما وأن من القائلين بوقوعها في السنة الرابعة علماء تتقاصر الأعناق دون مطاولتهم مثل الإمام النووي وغيره ومع هذا أقوال مرجوحة لا تثبت أمام التحقيق . المطيعي .

تقر عيني من قريظة .

فبعث الله الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال ، ولحق أبو سفيان ومن معه بتهامه ؛ ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد .

قالت فجاء جبريل وإن على ثناياه لوقع الغبار ، فقال أو قد وضعت السلاح ؟ لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح .

اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم فلبس رسول الله ﷺ لأُمَته وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة .

فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء عليهم قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ .

قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأتى به على حمار فقال رسول الله ﷺ : احكم فيهم .

قال فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم .

فقال : لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله .

﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أي : الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي ، وهي معنى قوله : ﴿ فريقاً تقتلون ﴾ منهم .

﴿ وتأسرون فريقاً ﴾ قرىء الفعلان بالتحتية وبالفوقية فيهما على الخطاب وبالفوقية في الأول وبالتحتية في الثاني **فالفريق الأول** هم الرجال **والفريق الثاني** هم النساء ، والذرية . والجملة مبينة ومقررة لقذف الرعب في قلوبهم ، ووجه تقديم المفعول في الأول وتأخيره في الثاني . أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة وكان الوارد عليهم أشد الأمرين وهو القتل كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام .

وقد اختلف في عدد المقتولين والمأسورين فقيل : كان المقتـولون من ستمائة إلى سبعمائة ، وقيل سبعمائة ، وقيل ثمانمائة ، وقيل تسعمائة وكان المأسورون سبعمائة وخمسين ، وقيل تسعمائة .

﴿ وأورثكم أرضهم ﴾ أي عقارهم وخيلهم ﴿ وديارهم ﴾ أي منازلهم وحصونهم ﴿ وأموالهم ﴾ أي الحلي والأثاث والمواشي والسلاح والدراهم والدنانير والنقود والأمتعة .

﴿ و ﴾ أورثكم ﴿ أرضاً لم تطؤها ﴾ بعد لقصد القتال ، واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة فقال يزيد بن رومان وابن زيد ، ومقاتل إنها خيبر،ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها فوعدهم الله بها . قال سليمان الجمل: وأخذت بعد قريظة بسنتين أو ثلاث لأن خيبر كانت في السابعة في المحرم وهي مدينة كبيرة ذات حصون ثمانية وذات مزارع ونخل كثير ، بينها وبين المدينة الشريفة أربع مراحل.انتهى ملخصاً وتمام هذه القصة في سيرة الحلبي .

وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة ، وقال الحسن : فارس والروم ، وقال عكرمة هي كل أرض تفتح على المسلمين الى يوم القيامة والمضي[1] لتحقق وقوعه ﴿ وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي هو سبحانه قدير على كل ما أراده من خير وشر ، ونعمة ونقمة ، وعلى إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين .

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ قيل هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قال الواحدي قال المفسرون: إن أزواج النبي صلى الله عليه

---

(١) هكذا في الأصل ويبدو أن بها تصحيفاً فتكون : (والمعنى الخ) والمقصود على هذا أن صيغة الخبر جاءت تشمل الماضي والمستقبل لتحقق وقوع التوريث لأرض الأعداء وديارهم وأخرى لم يطأوها . المطيعي .

وسلم سألنه شيئاً من عرض الدنيا ، وطلبن منه الزيادة في النفقة ، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض ، فآلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن شهراً وأنزل الله آية التخيير هذه، وكن يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة،وام سلمة، وام حبيبة، وسودة؛وهؤلاء من نساء قريش، وصفية الخيبرية، وميمونة الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية.

واختلف في عدة ازواجه صلى الله عليه وسلم وترتيبهن وعدة من مات منهن قبله، ومن مات هو عنهن، ومن دخل بها ومن لم يدخل بها، ومن خطبها ولم ينكحها،ومن عرضت نفسها عليه، والمتفق على دخوله بهن إحدى عشرة امرأة، كذا في المواهب وقد بسط الكلام عليهن في المقصد الثاني منه جداً فارجع اليه إن شئت.

﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي سعتها ونضارتها ورفاهيتها وكثرة الاموال والتنعم فيها ﴿فتعالين﴾ أي أقبلن إليّ بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين.

﴿امتّعْكن﴾ أي أعطيكن المتعة ﴿وأسرحكن﴾ أي أطلقكن قرأ الجمهور في الفعلين بالجزم جوابا للأمر. وقيل ان جزمهما على انها جواب الشرط، وعلى هذا يكون قوله فتعالين اعتراضاً بين الشرط والجزاء، وقرىء بالرفع فيهما على الاستئناف﴿ سراحاً جميلاً ﴾ المراد به هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة.

﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله﴾ أي تردن رسوله، وذكر الله للإيذان بجلالة محمد ﷺ عنده تعالى ﴿والدار الآخرة﴾ اي الجنة ونعيمها ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن﴾ اي اللاتي عملن عملاً صالحاً ﴿اجراً عظيماً ﴾ لا يمكن وصفه، ولا يقادر قدره، وذلك بسبب احسانهن وبمقابلة صالح عملهن.

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ ازواجه على قولين: الاول انه خيرهن بإذن الله في البقاء على الزوجية او الطلاق فاخترن البقاء وبهذا قالت عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي والزهري وربيعة. والثاني: أنه إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وبهذا قال علي والحسن وقتادة، والراجح الاول.

واختلفوا ايضاً في المخيرة اذا اختارت زوجها هل يحسب مجرد ذلك التخيير على الزوج طلقة ام لا؟ فذهب الجمهور من السلف والخلف الى انه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقا، لا واحدة ولا اكثر. وقال علي وزيد بن ثابت: ان اختارت زوجها فواحدة بائنة، وبه قال الحسن والليث وحكاه الخطابي والنقاش عن مالك.

والراجح الاول، لحديث عائشة الثابت في الصحيحين قالت: خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعده طلاقاً، ولا وجه لجعل مجرد التخيير طلاقاً. ودعوى انه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة بمجرد التخيير، بل اراد تفويض المرأة وجعل امرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة. واختلفوا في اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية؟ أو بائنة؟.

فقال بالأول عمر وابن مسعود وابن عباس وابن أبي ليلى والثوري والشافعي.

وقال بالثاني علي وأبو حنيفة وأصحابه، وروي عن مالك، والراجح الأول؛ لأنه يبعد كل البعد أن يطلق رسول الله ﷺ نساءه على خلاف ما أمره الله به. وقد أمره بقوله إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن، وروي عن زيد بن ثابت: أنها إذا اختارت نفسها فثلاث طلقات، وليس لهذا القول وجه.

وقـد روي عن علي أنهـا اذا اختـارت نفسهـا فليس بشيء واذا اختـارت زوجها فواحدة رجعية .

وقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن مردويه عن جابر قـال : أقبل أبـو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببـابه جلوس ، والنبي ﷺ جـالس ، فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا ، والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقـال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يـضحـك فقال عمر . يا رسول الله لو رأيت ابنة زيـد امرأة عمـر سألتني النفقـة آنفاً فوجأت في عنقها ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بـدت نواجـذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة .

فقـام أبو بكـر الى عائشـة ليضـربهـا ، وقـام عمـر الى حفصـة كـلاهمـا يقولان : تسألان رسول الله (ﷺ) ما ليس عنده ؟ فنهاهمـا رسول الله (ﷺ) فقلن نسـاؤه : « والله لا نسأل رسـول الله (ﷺ) بعـد هـذا المجلس مـا ليس عنده »، وأنزل الله الخيار فبدأ بعـائشة فقـال : إني ذاكر لـك امراً مـا أحب ان تعجلي فيه حتى تستأمـري أبويـك قالت مـا هو ؟ فتـلا عليها ﴿يا أيها النبي قـل لأزواجك﴾ الآية فقالت عائشة : أفيك استـأمر أبـوي ؟ بل اختـار الله ورسولـه ، واسألك ان لا تذكر لنسائك ما اخترت فقال إن الله لم يبعثني متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا اخبرتها .

واخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله (ﷺ) جاءها حين أمـره الله ان يخير أزواجـه قالت فبـدأ بي فقال : اني ذاكـر لك امـراً فـلا عليـك أن لا تستعجلي حتى تستأمـري أبويـك ، وقد علم أن أبـوي لم يكونـا يـأمراني بفـراقه ، فقـال : إن الله قال : يـا أيها النبي قـل لأزواجك الى تمـام الآيـة ، فقلت : ففي أي هذا استأمر أبـوي ؟ فإني أريـد الله ورسولـه والـدار الآخرة ، وفعل أزواج النبي (ﷺ) مثل ما فعلت ، ثم لمـا اختار نسـاء رسول الله (ﷺ) إياه أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن وتعظيماً لحقهن فقال :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا
نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ
مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

﴿ يا نساء النبي من يأت منكن ﴾ من بيانية لأنهن كلهن محسنات ﴿ بفاحشة ﴾ أي معصية ﴿ مبينة ﴾ أي ظاهرة القبح ، واضحة الفحش ، وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهن وطهرهن فهو كقوله تعالى : لئن اشركت ليحبطن عملك ، وقيل : المراد بالفاحشة : النشوز وسوء الخلق ، وقال قوم : الفاحشة اذا وردت معرفة فهي الزنا واللواط ، واذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي ، واذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج ، وفساد عشرته . وقالت فرقة : قوله هذا يعم جميع المعاصي ، وكذلك الفاحشة كيف وردت .

﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ أي يعذبهن الله مثلي عذاب غيرهن من النساء اذا أتين بمثل تلك الفاحشة ، وذلك لشرفهن وعلو درجتهن ، وارتفاع منزلتهن ، ولأن ما قبح من سائر النساء كان منهن أقبح ، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي (ﷺ) ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح ، ولذا فضل حد الأحرار على العبيد .

وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع ان تضاعف الشرف وارتفاع

الدرجات يوجب لصاحبه اذا عصى تضاعف العقوبات . وقرىء يضعف على البناء للمفعول ، وفرق أبو عمرو وأبو عبيد بين يضاعف ويضعف فقالا : يكون يضاعف ثلاثة عذابات ويضعف عذابين قال النحاس : هذه التفرقة التي جاء بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة ، والمعنى في : يضاعف ويضعف واحد ، أي يجعل ضعفين ، وهكذا ضعف ما قالاه ابن جرير .

قال قوم : لو قدر الله الزنا من واحدة ـ وقد اعاذهن الله عن ذلك ـ لكانت تحد حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حد الحرة على الأمة ، والعذاب بمعنى الحد قال تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾، وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين او المرتين ، وقال مقاتل: هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة ، كما إن إيتاء الأجر مرتين في الآخرة وهذا حسن لأن نساء النبيﷺ لم يأتين بفاحشة توجب حداً .

وقد قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، وإنما خانتا في الايمان والطاعة . وقال بعض المفسرين : العذاب الذي توعدن به ضعفين هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وكذلك الأجر . قال ابن عطية: وهذا ضعيف ، اللهم إلا ان تكون أزواج النبي (ﷺ) لا ترفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة على ما هو حال الناس عليه بحكم حديث عبادة بن الصامت ، وهذا امر لم يرد في أزواج النبي (ﷺ) ولا حفظ تقريره .

﴿ وكان ذلك ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿ على الله يسيراً ﴾ هيناً لا يتعاظمه ولا يصعب عليه ، فليس كونكن تحت النبي (ﷺ) وكونكن جليلات شريفات مما يدفع العذاب عنكن ، وليس امر الله كأمر الخلق حتى يتعذر عليه تعذيب الأعزة بسبب كثرة اوليائهن وأعوانهن أو شفعائهن وإخوانهن .

﴿ ومن يقنت ﴾ قرىء بالتحتية وكذا يأت منكن حملاً على لفظ من في

الموضعين ، وقرىء بالفوقية حملاً على المعنى ، والقنوت الطاعة أي يطع .

﴿منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين﴾ يعني أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلاً ما يستحقه غيرهن من النساء اذا فعلن تلك الطاعة وفي هذا دليل قوي على أن معنى يضاعف لها العذاب ضعفين أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثاً ، لأن المراد إظهار شرفهن ومرتبتهن في الطاعة والمعصية ، يكون حسنتهن كحسنتين وسيئتهن كسيئتين ولو كانت كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين ، فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن،قيل الحسنة بعشرين حسنة ، وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن ، وفيه إشارة الى أنهن أشرف نساء العالمين .

﴿ وأعتدنا لها ﴾ زيادة على الأجر مرتين ﴿ رزقاً كريماً ﴾ جليل القدر،قال المفسرون: هو نعيم الجنة ، حكى ذلك عنهم النحاس ، ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً فقال :

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء لأن (أحد) لفظ عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة ، وقد يقال على ما ليس بآدمي ، كما يقال : ليس فيها أحد لا شاة ولا بعير ، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف .

قال ابن عباس : يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات ، أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي ، ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال :

﴿ ان اتقيتن ﴾ الله فأطعتنه فان الأكرم عند الله هو الأتقى ، فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهن للتقوى لا لمجرد اتصالهن بالنبيﷺ وقد وقعت منهن ولله الحمد التقوى البينة، والايمان الخالص ، والمشي على طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه اي ان اتقيتن فلستن كأحد من النساء . وقيل ان جوابه قوله :

﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ والأول أولى ،والمعنى: لا تُلِن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء ، لا ترققن الكلام قال ابن عباس يقول:لا ترخصن بالقول ، ولا تخضعن بالكلام . وعنه قال: مقارنة الرجال بالقول فانه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة وهي قوله :

﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي فجور وشهوة أو شك وريبة ، أو نفاق .

والمعنى لا تقلن قولاً يجد المنافق والفاجر به سبيلاً الى الطمع فيكن والمرأة مندوبة الى الغلظة في المقال اذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع فيهن.

﴿ وقلن قولاً معروفاً ﴾ عند الناس أي حسناً مع كونه خشناً بعيداً من الريبة على سنن الشرع لا ينكر منه سامعه شيئاً ، ولا يطمع فيكن أهل الفسق والفجور بسببه ، أو قولاً يوجبه الاسلام والدين عند الحاجة اليه ببيان من غير خضوع . وقيل : القول المعروف ذكر الله تعالى والأول أولى .

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾

﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ قرأ الجمهور بكسر القاف من وقر يقر وقاراً أي سكن والأمر منه قر بكسر القاف وللنساء قرن مثل عدن وزن ، وقال المبرد هو من القرار لا من الوقار ؛ تقول قررت بالمكان ـ بفتح الراء ـ والأصل اقررن بكسر الراء فحذفت الراء الأولى تخفيفاً كما قالوا في ظللت ظلت،ونقلوا حركتها الى القاف واستغني عن الف الوصل بتحريك القاف . وقال أبو علي الفارسي: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف،كما أبدلت في قيراط ودينار وصارت الياء حركة الحرف الذي ابدلت منه ، والتقدير : أقيرن ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر فتسقط الياء لاجتماع الساكنين وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها فيصير قرن،وقرىء بفتح القاف وأصله قررت بالمكان اذا أقمت فيه بكسر الراء أقر بفتح القاف كحمد يحمد،وهي لغة أهل الحجاز ، ذكر ذلك ابو عبيد عن الكسائي ، وذكرها الزجاج وغيره .

قال الفراء : هو كما تقول : هل حسست صاحبك أي هل أحسسته ، قال أبو عبيد : كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف،وذلك لأن قررت بالمكان أقر لا يجوزه كثير من اهل العربية،والصحيح قررت اقر بالكسر ، ومعنى الآية الأمر لهن بالتوقر والسكون في بيوتهن ، وان لا يخرجن .

وهذا يخالف ما ذكرناه هنا عنه عن الكسائي وهو من اجل مشايخه،وقد

وافقه على الانكار لهذه القراءة أبو حاتم فقال:ان قرن بفتح القاف لا مذهب له في كلام العرب قال النحاس،قد خولف أبو حاتم في قوله إنه لا مذهب له في كلام العرب بل فيه مذهبان أحدهما حكاه الكسائي والآخر عن علي بن سليمان،فأما المذهب الذي حكاه الكسائي فهو ما قدمناه من رواية أبي عبيدة عنه وأما المذهب الذي حكاه علي بن سليمان فقال: إنه من قررت به عيناً أقر ، وقيل المعنى واقررن به عيناً في بيوتكن.

قال النحاس: وهو وجه حسن،وأقول ليس بحسن ولا هو معنى الآية،فان المراد بها أمرهن بالسكون والاستقرار في بيوتهن،وليس من قرة العين اي الزمن بيوتكن ، عن محمد بن سيرين قال: نبئت انه قيل لسودة زوج النبي ﷺ «مالك لا تحجّين ولا تعتمرين كما تفعل اخواتك » ؟ فقالت « قد حججت واعتمرت وأمرني الله ان اقر في بيتي ، فوالله لا اخرج من بيتي حتى اموت » قال : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها » .

﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ التبرج ان تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل ، وقد تقدم معنى التبرج في سورة النور ، قال المبرد هو مأخوذ من السعة ؛ يقال في أسنانه برج اذا كانت متفرقة ، والمعنى اظهار الزينة وابراز المحاسن للرجال . وقيل التبرج هو التغنج والتبختر ، والتكسر في المشي ، وهذا ضعيف جداً ، والأول أولى .

وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى فقيل ما بين آدم ونوح أو زمن داود وسليمان . وقيل ما بين نوح وإدريس قاله ابن عباس ، وكانت الف سنة وقيل : ما بين نوح وإبراهيم . وقيل ما بين موسى وعيسى أو ما بين عيسى ومحمد قاله ابن عباس. وقيل ما قبل الاسلام والجاهلية الأخرى قوم يفعلون

مثل فعلهم في آخر الزمان ، أو الأولى جاهلية الكفر والأخرى جاهلية الفسوق ، والفجور في الاسلام وقد بين حكمها في قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الخ

وقيل نذكر الأولى وان لم تكن لها أخرى . وقال المبرد: الجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء،قال: وكان نساء الجاهلية يظهرون ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها فيتفرد خليلها بما فوق الإزار الى أعلى ويتفرد زوجها بما دون الإزار الى أسفل وربما سأل احدهما صاحبه البدل .

قال ابن عطية والذي يظهر لي أنه أشار الى الجاهلية التي لحقنها وأدركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة،لأنهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ؛ وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى كذا قال ، وهو قول حسن ، ويمكن ان يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الاسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها،وكان عليها من قبلكن ، أي لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل . وعن عائشة قالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد ابراهيم كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال ، وكانت عائشة اذا قرأت هذه الآية تبكي حتى يبتل خمارها ، رواه مسروق .

﴿ وأقمن الصلاة ﴾ الواجبة ﴿ وآتين الزكاة ﴾ المفروضة ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ فيما أمر وفيما نهى ، وخص الصلاة والزكاة ثم عمم فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية ، ولأن من واظب عليهما جرتاه الى ما وراءهما .

﴿ إنما يريد الله ﴾ أي إنما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى وأن لا تخضعن بالقول،ومن قول المعروف ، والسكون في البيوت ، وعدم التبرج

واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة .

﴿ ليذهب عنكم الرجس ﴾ والمراد بالرجس الاثم والذنب المدنسان للاعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به ، وفعل ما نهى عنه فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه رضا الله وقيل : الرجس الشك ، وقيل : السوء،وقيل : عمل الشيطان والعموم أولى ﴿ أهل البيت ﴾ نصبه على النداء او المدح .

﴿ ويطهركم ﴾ من الأرجاس والأدناس ﴿ تطهيراً ﴾ كاملاً وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ ، وزجر لفاعلها شديد .

وقد اختلف اهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير : إن أهل البيت المذكورين في الآية هم زوجات النبيﷺ خاصة قالوا : والمراد بالبيت بيت النبيﷺ ومساكن زوجاته ، لقوله : واذكرن ما يتلى في بيوتكن ، وأيضاً السياق في الزوجات من قوله : يا أيها النبي قل لأزواجك الى قوله لطيفاً خبيراً، وقاله ابو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة .

وروي عن الكلبي ان أهل البيت المذكورين في الآية هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة ، ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للاناث ، وهو قوله عنكم ، وليطهركم،ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن ، وليطهركن،وأجاب الأولون عن هذا بأن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه:﴿أتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾،وكما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؟ يريد زوجته أو زوجاته ، فيقول هم بخير.

ولنذكر ههنا ما تمسك به كل فريق : أما الأولون فتمسكوا بالسياق فإنه في الزوجات كما ذكرنا،وبما أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في نساء النبي(ﷺ) خاصة . وقال عكرمة

من شاء باهلته أنها نزلت في ازواج النبي (ﷺ) وروي هذا عنه بطرق، وأمّا ما تمسك به الآخرون فأخرج الترمذي وصححه ، وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في سننه ، من طرق عن أم سلمة قالت في بيتي نزلت إنما يريد الله الآية ، وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله(ﷺ) بكساء كان عليه،ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة أيضاً أن النبي (ﷺ) كان في بيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة فقال رسول الله (ﷺ) ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم ، فبينما هم يأكلون اذ نزلت على النبيﷺ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً فأخذ النبي (ﷺ) بفضلة كسائه فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها الى السماء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً قالها ثلاث مرات ، قالت ام سلمة فأدخلت رأسي في الستر فقلت يا رسول الله وأنا معكم ؟ فقال : إنك الى خير مرتين وأخرجه أحمد أيضاً من حديثها وفي إسناده مجهول وهو شيخ عطاء وبقية رجاله ثقات ، وقد أخرجه الطبراني عنها من طريقين بنحوه .

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لحديث ام سلمة طرقاً كثيرة في مسند أحمد وغيره ، وأخرج ابن مردويه والخطيب من حديث أبي سعيد الخدري نحوه واخرج الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن عمر ابن أبي سلمة ربيب النبي (ﷺ) قال لما نزلت هذه الآية على النبي (ﷺ) وذكر نحو حديث ام سلمة .

وأخرج ابن أبي شيبة واحمد ومسلم وابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم

عن عائشة قالت خرج النبيﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر اسود فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال: إنما يريد الله الآية.

وأخرج ابن ابي شيبة واحمد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن واثلة ابن الأسقع قال : جاء رسول اللهﷺ الى فاطمة ومعه علي وحسن وحسين حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ، وأجلسن حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم ، ثم تلا هذه الآية وقال : اللهم هؤلاء اهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً قلت : يا رسول الله وأنا من أهلك ؟ قال . وانت من أهلي ، قال واثلة : إنه لأرجى ما أرجوه . وله طرق في مسند أحمد .

واخرج ابن أبي شيبه واحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول اللهﷺ كان يمر بباب فاطمة اذا خرج الى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت الصلاة ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ، ويطهركم تطهيراً .

وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم ان رسول اللهﷺ قال أذكركم الله في أهل بيتي فقيل لزيد : ومن أهل بيته ؟ اليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته،ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده ، آل علي وآل عقيل، وآل جعفر ، وآل عباس .

واخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول اللهﷺ ان الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً ، فذلك قوله : وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فأنا من أصحاب اليمين ؛ وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً

فجعلني في خيرها ثلثاً فذلك قوله ﴿وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون السابقون﴾ فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم﴾، وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً فذلك قوله :﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ اذا طلع الفجر جاء الى باب علي وفاطمة فقال : الصلاة الصلاة إنما يريد الله الآية وفي إسناده أبو داود الأعمى وهو وضاع كذاب ، وفي الباب أحاديث وآثار ، وقد ذكرنا ههنا ما يصلح للتمسك دون ما لا يصلح ، وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين ، أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا ، ولكونهنَ الساكنات في بيوته (ﷺ) النازلات في منازله ، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره ، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب ، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول ، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين اعمل بعض ما يجب اعماله وأهمل ما لا يجوز إهماله ، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي وابن كثير وغيرهما .

وقال جماعة : هم بنو هاشم واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس ، ويقول زيد بن أرقم المتقدم حيث قال : ولكن آله من حرم الصدقة بعده : آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ، فهؤلاء ذهبوا الى أن المراد بالبيت بيت النسب .

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ
وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ
وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ أي اذكرن موضع النعمة اذ صيركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة او اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها،أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها ولا تتركن الاستكثار من التلاوة ، قال القرطبي : قال اهل التأويل ؛ آيات الله هي القرآن،والحكمة السنة،وقال مقاتل المراد بالآيات والحكمة أمره ونهيه في القرآن .

وقيل : ان القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد، وصدق النبوة ، وبين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم والشرائع . وقال قتادة في الآية القرآن والسنة يمنن بذلك عليهن .

وأخرج ابن سعد عن ابي أمامة بن سهل في الآية قال كان رسول الله ﷺ يصلي في بيوت أزواجه النوافل بالليل والنهار .

﴿ إن الله كان لطيفاً ﴾ بأوليائه ﴿ خبيراً ﴾ بجميع خلقه وجميع ما يصدر منهم من خير وشر وطاعة ومعصية فهو يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿إن المسلمين والمسلمات ﴾ بدأ سبحانه بذكر الاسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين والانقياد له مع العمل ، كما ثبت في الحديث الصحيح ان النبيﷺ لما سأله جبريل عن الاسلام قال : هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان، ثم عطف على المسلمين المسلمات تشريفاً لهن بالذكر وهكذا فيما بعد إن كن داخلات في لفظ المسلمين والمؤمنين ونحو ذلك ، والتذكير إنما هو لتغليب الذكور على الاناث كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك،ثم ذكر :

﴿ والمؤمنين والمؤمنات ﴾ وهم من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول اللهﷺ ﴿والقانتين والقانتات ﴾ القانت المطيع العابد ، وكذا القانتة،وقيل المداومين على العبادة والطاعة .

﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هما من يتكلم بالصدق ويتجنب الكذب ويفي بما عوهد عليه .

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هما من يصبر عن الشهوات وعلى مشاق التكليف .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ اي المتواضعين لله الخائفين منه الخاضعين في عبادتهم لله .

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ هما من تصدق من ماله بما اوجبه الله عليه ، وقيل ذلك اعم من صدقة الفرض والنفل.

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ قيل : ذلك مختص بالفرض ، وقيل هو أعم .

﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ فروجهن عن الحرام بالتعفف والتنزه والاقتصار على الحلال .

﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ الله كثيراً هما من يذكر الله على جميع احواله،وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان والخبر لجميع ما تقدم هو قوله :

﴿ أعد الله لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم التي اذنبوها ﴿ وأجراً عظيماً ﴾ على طاعاتهم التي فعلوها من الاسلام والايمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم والعفاف والذكر ، ووصف الأجر بالعظيم للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ،ولا شيء اعظم من أجر هو الجنة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع ولا ينفد اللهم اغفر دنوبنا وأعظم أجورنا .

وقد أخرج احمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله فما لنا لا نذكر في القرآن كما تذكر الرجال فلم يرعني منه ذات يوم الا نداؤه على المنبر وهو يقول : « إن الله يقول إن المسلمين والمسلمات الآية واخرج عبد بن حميد والترمذي وحسنه والطبراني عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي (ﷺ) فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت هذه الآية ، وعن ابن عباس قال : قالت النساء يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت هذه الآية أخرجه الطبراني وابن جرير وابن مردويه بإسناد ، قال السيوطي : حسن .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

﴿ وما كان ﴾ أي ما صح وما استقام ﴿لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ قال القرطبي : لفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناها الحظر والمنع من الشيء والإخبار بأنه لا يحل شرعاً ان يكون ، وقد يكون لما يمتنع عقلاً كقوله :﴿ما كان لكم ان تنبتوا شجرها﴾ ،ومعنى الآية : انه لا يحل لمن يؤمن بالله - إذا قضى الله أمـراً - أن يختار من امر نفسه ما شاء ، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه ، واختاره له ، ويجعل رأيه تبعاً لرأيه . وجمع الضمير في قوله لهم ومن أمرهم ؛ لأن مؤمناً ومؤمنة وقعا في سياق النفي ، فهما يعمان كل مؤمن ومؤمنة ، قرىء أن يكون بالتحتية؛لأنه قد فرق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله :لهم مع كون التأنيث غير حقيقي ، وقرىء بالفوقية لكونه مسنداً الى الخيرة وهي مؤنثة لفظاً والخيرة مصدر بمعنى الاختيار ، ودل ذلك عـلى ان الأمر للوجـوب ،وقرىء بسكون التحتية وبتحريكها ، ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره فقال :

﴿ ومن يعص الله ورسـوله ﴾ في أمـر من الأمور ومن ذلـك عدم الـرضاء بـالقضاء ﴿ فقـد ضل ضـلالاً مبيناً ﴾ أي ضـل عن طريق الحق ضـلالاً ظاهـراً واضحاً لا يخفى.فإن كـان العصيان عصيـان رد وامتناع عن القبـول فهو ضـلال كفر ، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمـر واعتقاد الـوجوب فهـو ضلال خـطأ وفسق .

عن ابن عباس قـال : «إن رسول الله ﷺ انطلق ليخـطب على فتاه زيـد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسـدية فخطبها. قـالت : لست بناكحتـه

قال : بلى فانكحيه. قالت: يا رسول الله أؤامر نفسي،فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله. قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً ، قال : نعم قالت : إذن لا أعصي رسول الله (ﷺ) قد انحكته نفسي» أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، وعنه قال : قال رسول الله (ﷺ) لزينب : اني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة فإني قد رضيته لك . قالت : يا رسول الله لكني لا أرضاه لنفسي ، وأنا أيّم قومي ، وبنت عمتك ، فلم أكن لأفعل فنزلت هذه الآية : (وما كان لمؤمن) يعني : زيداً(ولا مؤمنة)يعني زينب (إذا قضى الله ورسوله امراً)يعني النكاح في هذا الموضع (أن تكون لهم الخيرة من أمرهم)،يقول : ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به ، قالت : قد اطعتك فاصنع ما شئت ، فزوجها زيداً ودخل عليها أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت فوهبت نفسها للنبي (ﷺ) فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا :انما أردنا رسول الله (ﷺ) فزوجها عبده ، وكان تزوج زيد بزينب قبل الهجرة بنحو ثمان سنين ، وبعد ما طلق زيد زينب زوجه (ﷺ) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت وهبت نفسها للنبي (ﷺ) فزوجها من زيد، وكان زوجه قبلها أم أيمن وولدت له أسامة ، وكانت ولادته بعد البعثة بثلاث سنين ، وقيل بخمس ، وفي شرح المواهب ان أم أيمن ، هي بركة الحبشية بنت ثعلبة اعتقها عبد الله ابو النبي (ﷺ) ، وقيل بل اعتقها هو (ﷺ) وقيل : كانت لأمه أسلمت قديماً وهاجرت الهجرتين ماتت بعده (ﷺ) بخمسة أشهر ، وقيل بستة ، ودلت الآية على لزوم اتباع قضاء الكتاب والسنة ، وذم التقليد والرأي ، وعدم خيرة الأمر في مقابلة النص من الله ورسوله (ﷺ) وإن كان السبب خاصاً فان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

لما زوج رسول الله ﷺ زيد بن حارثة بزينب بنت جحش كما مر أنزل الله سبحانه :

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي
فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا
وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ
وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ
فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ﴾ هو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالاسلام وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن اعتقه من الرق ، وكان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية وأعتقه وتبناه ، وسيأتي في سبب نزول الآية ما يوضح المراد منها . قال القرطبي :وقد اختلف في تأويل هذه الآية فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير والطبري وغيره: الى ان النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش ، وهي في عصمة زيد وكان حريصاً على أن يطلقها زيد. فيتزوجها هو .

ثم ان زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها وشكا منها غلظة القول وعصيان الأمر والأذى باللسان والتعظم بالشرف قال له : اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك زينب ، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها . وهذا الذي كان يخفي في نفسه ولكنه فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف. قال علماؤنا رحمهم الله : وهذا القول أحسن ما قيل في هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهري والقاضي أبي بكر بن العلاء القشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم، انتهى ما قاله القرطبي ملخصاً .

﴿ واتق الله ﴾ في أمرها ولا تعجل بطلاقها ﴿ وتخفي ﴾ الواو للحال أي والحال أنك تخفي ﴿ في نفسك ما الله مبديه ﴾ هو نكاحها ان طلقها زيد ،

وقيل : حبها .

﴿ وتخشى الناس ﴾ أي تستحييهم أو تخاف من تعييرهم أن يقولوا : أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوجها ﴿ والله أحق أن تخشاه ﴾ في كل حال وتخاف منه وتستحييه ولا تأمر زيداً بإمساكه زوجته بعد أن أعلمك الله أنها تكون زوجتك فعاتبه الله على هذا ، قال بعضهم : وما ذكروه في تفسير هذه الآية من وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ وإرادته طلاق زيد لها فيه أعظم الحرج ، وما لا يليق بمنصبه ﷺ وإقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي (ﷺ) وبفضله، وكيف يقال : رآها فأعجبته وهي بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كانت النساء يحتجبن منه ﷺ وهو زوجها لزيد، فلا يشك في تنزيه النبي (ﷺ) عن أن يأمر زيداً بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها قال : وأصح ما في هذا الباب ما قاله علي ابن الحسين : إن الله قد اعلمه أنها ستكون من أزواجه ، وإن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال : إني أريد أن أطلقها ، قال له : أمسك عليك زوجك، فعاتبه الله تعالى ، وقال : لم قلت أمسك عليك زوجك ؟ وقد أعلمتك أنها ستكون زوجتك .

قال الخطيب : وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة، لأن الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه ، فقال تعالى : زوجناكها . فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها لكان يظهر ذلك ؛ لأنه لا يجوز أن يخبر الله أنه يظهره ، ثم يكتمه فلا يظهره ، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله من أنها ستكون زوجته، وانما ذلك استحياء أن يخبر زيداً ان التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي .

قال الكرخي : وهذا القول هو المنصور المعول عليه عند الجمهور .

وقال البغوي : وهذا هو الأولى ، وإن كان الآخر ـ وهو أنه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها ـ لا يقدح في حال الأنبياء ، لأن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الأشياء ، ما لم يقصد فيه المأثم لأن الود وميل النفس من طبع البشر انتهى . ولهذا قال ابن عباس : كان في قلبه حبها . وقال قتادة : ود أنه لو

طلقها زيد. قال الخازن: وهذا قول حسن مرضي ، وكم من شيء يتحفظ منه الانسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع ، وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلّماً الى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين،وهو إنما جعل طلاق زيد لها وتزويج النبي ﷺ إياها؛لإزالة حرمة التبني وإبطال سنته كما قال تعالى :﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾.

﴿ فلما قضى زيد منها وطراً ﴾ قضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء يقال قضى وطراً منه إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه،والمراد هنا أنه قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة ، وتقاصرت عنه همته وطابت عنها نفسه. وقيل المراد به الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة.وقال المبرد: الوطر الشهوة والمحبة.

وقال ابو عبيدة الوطر الأرب والحاجة. قال الإمام ابو القاسم عبد الرحمن السهيلي :كان يقال زيد بن محمد،حتى نزل«أدعوهم لآبائهم» فقال: أنا زيد بن حارثة وحرم عليه أنا زيد بن محمد،فلما نزع هذا الشرف وهذا الفخر منه ، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يختص بها أحد من أصحاب النبي ﷺ وهو أنه سمّاه في القرآن أي في هذه الآية،فذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم،حتى صار اسمه قرآناً يتلى في المحاريب ، ونوه به غاية التنويه،فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوة محمد ﷺ ، ألا ترى الى قول أُبي بن كعب ؟ حين قال له النبي (ﷺ) « ان الله أمرني أن اقرأ عليك سورة كذا فبكى » وقال: أذكرت هنالك،وكان بكاؤه من الفرح ـ حيث ان الله تعالى ذكره فكيف بمن صار اسمه قرآناً يتلى مخلداً لا يبلى ؟ يتلوه أهل الدنيا اذا قرأوا القرآن،وأهل الجنة كذلك أبداً لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند رب العالمين ، إذ القرآن كلام الله القديم ، وهو باق لا يبيد.فاسم زيد في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة يذكره في تلاوتهم السفرة الكرام البررة،وليس ذلك لاسم من اسماء المؤمنين الا لنبي من

الأنبياء ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله له مما نزع منه ، وزاد في الآية أن قال : ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي بالإيمان فدل على أنه من أهل الجنة علم ذلك قبل ان يموت وهذه فضيلة أخرى رضي الله تعالى عنه انتهى .

﴿ زوجناكها ﴾ وقرىء زوجتكها ،يعني ولم نحوجك إلى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفاً لك ولها ،فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا تقدير صداق ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته ، وهذا من خصوصياته (صلى الله عليه وسلم) التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين ، وكان تزوجه بزينب سنة خمس من الهجرة .

وقيل سنة ثلاث .وهي أول من مات بعده من زوجاته الشريفات المطهرات ماتت بعده بعشر سنين عن ثلاث وخمسين سنة،وقيل المراد به الأمر له بأن يتزوجها والأول أولى وبه جاءت الأخبار الصحيحة .

وقد أخرج أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن أنس قال :«جاء زيد ابن حارثة يشكو زينب الى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:اتق الله وامسك عليك زوجك ، فنزلت : وتخفي في نفسك ما الله مبديه فتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فما أَوْلَم على امرأة من نسائه ما أَوْلَم عليها،ذبح شاة وأطعم الناس خبزاً ولحماً حتى تركوه ، فكانت تفتخر على أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) تقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات ، وكانت تقول لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) جدي وجدك واحد ، وليس من نسائك من هي كذلك غيري ، وقد أنكحنيك الله والسفير في ذلك جبريل» قاله الخازن .

وقال عمر وابن مسعود ما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آية هى أشد عليه من هذه الآية . وقال أنس : فلو كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية ، وكذا روي عن عائشة .

﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج ﴾ أي ضيق ومشقة؛علة للتزويج ، وهو دليل على أن حكمه وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل ﴿ في أزواج أدعيائهم ﴾ أي في التزوج بأزواج من يجعلونه ابناً كما كانت تفعله العرب فإنهم كانوا يتبنون من يريدون ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبنى زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد حتى نزول قوله سبحانه﴿أدعوهم لآبائهم﴾. وكانت العرب تعتقد أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة ، والأدعياء جمع دعي ؛وهو الذي يدعى ابناً من غير أن يكون ابناً على الحقيقة ، فأخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم .

﴿ إذا قضوا منهن وطراً ﴾ بخلاف ابن الصلب فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها .

﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي قضاؤه في أمر زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء ماضياً موجوداً في الخارج لا محالة .

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب قالوا تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله :﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلاً يقال له : زيد بن محمد ؛فأنزل الله ﴿أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ يعني أعدل أخرجه الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وغيرهم.

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أنس قال:لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : اذهب فاذكرها عليّ فانطلق . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري ؛ فقلت : يا زينب أبشري .أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤآمر ربي . فقامت إلى مسجدها،ونزل القران،وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله

صلى الله عليه وسلم ؛ أطعمنا الخبز واللحم،فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام؛فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن،ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر ، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا: ﴿لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾الآية، ثم بيّن سبحانه أنه لم يكن على رسول الله صلى الله عليه وسلم حرج في هذا النكاح فقال : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أي فيما أحل الله له وقدره وقضاه ، يقال : فرض له كذا أي قدر له ﴿ سنة الله ﴾ أي سن الله ذلك سنة ، أو اسم وضع موضع المصدر ؛ قاله الزمخشري أو مصدر كصنع الله ووعد الله .

﴿ في الذين خلوا من قبل ﴾ أي أن هذا هو السنن الأقوم في الأنبياء والأمم الماضية أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره ، توسعة عليهم ، فكان لهم الحرائر والسراري . عن كعب القرظي قال: يعني يتزوج من النساء ما شاء هذا فريضة، وكان من قبل من الأنبياء هذا سنتهم ، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة منها ثلثمائة سرية ، وكان لداود مائة امرأة. وقال ابن جريج:الذين خلوا هم داود والمرأة التي نكح زوجها واسمها: اليسية؛ فذلك سنة في محمد وزينب .

﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾أي قضاء مقضياً ، وحكماً مبتوتاً ، وهو كظل ظليل وليل أليل وروض أريض في قصد التأكيد ، والقضاء : الارادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه ، والقدر عبارة عن إيجاده إياها على تقدير مخصوص معين ، لكن كلاً منهما يستعمل بمعنى الآخر ، فالمراد إيجاد ما تعلقت به الإرادة قاله الشهاب ، ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين وأثنى عليهم فقال :

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ﴾ مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به الى عباده وخشيته في كل فعل وقول ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ أي سواه ولا يبالون بقول الناس ولا بتعييرهم فيما أحل الله لهم ، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه .

﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ حاضراً في كل مكان ، حافظاً لأعمال خلقه يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسباً لهم في كل شيء ، ولما تزوجﷺ زينب قال الناس إمرأة ابنه فأنزل الله :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ أي ليس هوﷺ بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته ، ولا هو اب لأحد لم يلده ، قال الواحدي : قال المفسرون لم يكن أبا أحد لم يلده،وقد ولد له من الذكور إبراهيم ، والقاسم ، والطيب والمطهر . قال القرطبي : ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً ، قال وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له . قال النسفي : وكل رسول أبو أمته فيما يرجع الى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء ، وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه كحكمهم،والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير .

﴿ ولكن رسول الله ﴾ قال الأخفش والفراء: ولكن كان رسول الله ، وأجاز الرفع وكذا قرأ ابن أبي عبلة بالرفع في رسول وفي خاتم على معنى: ولكن هو رسول الله .

﴿ وخاتم النبيين ﴾ وقرأ الجمهور بتخفيف لكن ونصب رسول وخاتم ووجه النصب على خبرية كان المقدرة كما تقدم ، ويجوز أن يكون بالعطف على (أبا أحد) وقرىء بتشديد (لكن)، ونصب رسول ، على أنه اسمها،وخبرها محذوف أي ولكن رسول الله هو ، وقرأ الجمهور: وخاتم بكسر التاء،وقرىء بفتحها ومعنى الأولى أنه ختمهم أي جاء اخرهم ومعنى الثانية أنه صار كالخاتم لهم الذي يختمون به ويتزينون بكونه منهم ، وقيل : كسر التاء وفتحها لغتان ، قال أبو عبيدة: الوجه الكسر لأن التأويل أنه ختمهم ، فهو خاتمهم ، وأنه قال: أنا خاتم النبيين وخاتم الشيء آخره ، ومنه قولهم:خاتمه المسك .

وقال الحسن : الخاتم هو الذي ختم به ، والمعنى: ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده ولا معه. قال ابن عباس : يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابناً يكون بعده نبياً ، وعنه أن الله لما حكم أن لا نبي بعده؛ لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً ، وعيسى ممن نبىء قبله،وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمدﷺ كأنه بعض أمته .

﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ قد أحاط علمه بكل شيء ، ومن جملة معلوماته هذه الأحكام التي ذكرت هنا. أخرج أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل النبيين كمثل رجل بنى داراً فانتهى الى لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة؛فكان من دخلها فنظر اليها قال ما أحسنها إلا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة حتى ختم بي الأنبياء » .

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه، من حديث أبي ابن كعب نحوه أيضاً .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح وكل ما هو ذكر لله تعالى ، قال مجاهد : هو أن لا ينساه أبداً،وقال الكلبي : ويقال ذكراً كثيراً بالصلوات الخمس ، وقال مقاتل : هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال ، وقال ابن عباس في الآية لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها أجلاً معلوماً ، ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي اليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله،فقال: ﴿اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار ، في البر والبحر ، في السفر والحضر ، في الغنى والفقر ، في الصحة والسقم ، في السر والعلانية وعلى كل حال،وقد ورد في فضل الذكر والاستكثار منه أحاديث كثيرة .

وقد صنف في الأذكار المتعلقة بالليل والنهار جماعة من الأئمة كالنسائي والنووي والجزري وغيرهم ، وقد نطقت الآياتِ القرآنية بفضل الذاكرين وفضيلة الذكر ، ولذكر الله أكبر، وقد ورد أنه أفضل من الجهاد كما في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والترمذي والبيهقي : «أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال : الذاكرون الله كثيراً . قلت: يا رسول الله ومن الغازين في سبيل الله ؟ قال : لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى يتكسر ويتخضب دماً لكان الذاكرون أفضل منه درجة ، وأخرج أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم،وأرفعها في درجاتكم،وخير لكم من إعطاء الذهب والورق،وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا وما هو يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل وأخرجه أيضاً الترمذي وابن ماجة .

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة قال : قال رسول

الله ﷺ سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات.

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ﷺ) قال: أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أذكروا الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون.

﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي نزهوه عما لا يليق به في وقت البكرة ووقت الأصيل، وهما أول النهار وآخره، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما، وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله: اذكروا الله تنبيهاً على مزيد شرفه وأنافة ثوابه على غيره من الأذكار، وقيل المراد بالتسبيح بكرة: فصلاة الفجر، وبالتسبيح أصيلاً صلاة المغرب، وقال قتادة وابن جرير: المراد صلاة الغداة وصلاة العصر، وقال الكلبي: أما بكرة فصلاة الفجر، وأما أصيلاً: فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

قال المبرد: والأصيل العشي، وجمعه أصائل، وقد ورد في فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما؛ فمن ذلك حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال في يوم مائة مرة سبحان الله وبحمده حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر».

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال لنا: أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم الف حسنة. فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟. قال: يسبح الله مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، ويحط عنه ألف خطيئة وقيل معنى سبحوه قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. زاد في نسخة: العلي العظيم؛ فعبر بالتسبيح عن أخواته. والمراد بقوله: كثيراً هذه الكلمات يقولها الطاهر، والجنب، والحائض، والمحدث.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا
مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ الصلاة من الله على العباد رحمة لهم وبركةٌ عليهم ، ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : المعنى ويأمر ملائكته بالاستغفار لكم ، والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح .وقيل : الصلاة من الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل في عباده ، وقيل الثناء عليه،وعطف ملائكته على الضمير المستكن في يصلي لوقوع الفصل بقوله (عليكم) فأغنى ذلك عن التأكيد بالضمير المنفصل ، والمراد بالصلاة هنا معنى مجازى يعم صلاة الله بمعنى الرحمة ، وصلاة الملائكة بمعنى الدعاء ، لئلا يجمع بين حقيقة ومجاز في كلمة واحدة ، واللام في قوله :

﴿ ليخرجكم من الظلمات الى النور ﴾ متعلق بيُصلي، أي يعتني بأموركم هو وملائكته ليخرجكم من ظلمات المعاصي الى نور الطاعات ومن ظلمة الضلالة الى نور الهداية ، ومعنى الآية تثبيت المؤمنين على الهداية ، ودوامهم عليها؛لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية ، قال الحفناوي : جمع الأول لتعدد أنواع الكفر،وأفرد الثاني لأن الايمان شيء واحد لا تعدد فيه ،

ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم وتثبيتاً فقال :

﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها، ثم بين سبحانه أن هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب ، بل هي عامة لهم ، ولمن بعدهم ، وفي الدار الآخرة فقال :

﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ أي تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت ، أو عند البعث،وعند دخول الجنة هي التسليم عليهم منه عز وجل،يقول الله تبارك وتعالى : السلام عليكم ، وقيل : المراد تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم : سلام ، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيماً ، فلما شملتهم رحمته وأمنوا من عقابه ، حيا بعضهم بعضاً سروراً واستبشاراً ، والمعنى : سلامة لنا من عذاب النار .

قال الزجاج : المعنى فيسلمهم الله من الآفات ، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه ، وقيل : الضمير في يلقونه راجع الى ملك الموت ، وهو الذي يحييهم كما ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه ، قاله البراء بن عازب،وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام ، وقال مقاتل :هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الرب كما في قوله :﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ .

﴿وأعد لهم أجراً كريماً ﴾ أي في الجنة،أو أعد لهم في الجنة رزقاً حسناً،ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم ، وهذا بيان لآثار رحمته تعالى الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك،ثم ذكر سبحانه صفات رسول الله ﷺ التي أرسله لها فقال:

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ﴾ أي على أمته يشهد لمن صدقه وآمن به،وعلى من كَذَّبه وكفر به ، قال مجاهد شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم .

﴿ ومبشراً ﴾ للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ، وبما أعدَّهُ لهم من جزيل الثواب وعظيم الأجر ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين والعصاة بالنار وبما أعدّه الله لهم من أليم العقاب.

﴿ وداعياً إلى الله ﴾ يدعو عباد الله الى التوحيد والإيمان بما جاء به والعمل بما شرعه لهم. ومعنى ﴿ بإذنه ﴾ بأمره بذلك وتقديره .

وقيل: بتيسيره قاله الكرخي وغيره. ﴿وسراجاً منيراً﴾ يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة. قال الزجاج: (وسراجاً) أي ذا سراج منير أي كتاب نير، وهو القرآن، وإنما شبه الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالسراج دون الشمس مع أنها أتم لأن المراد بالسراج هنا الشمس؛ كما قال تعالى: وجعل الشمس سراجاً، أو شبه بالسراج لأنه تفرع منه بهدايته جميع العلماء؛ كما يتفرع من السراج سرج لا تحصى بخلاف الشمس.

﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام؛كأنه قيل:فراقب أحوال الناس،وبشر المؤمنين من أمتك ﴿ بأن لهم من الله فضلاً كبيرا ﴾ على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف ، وزيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان، وقد بين ذلك سبحانه بقوله :﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾.

عن ابن عباس قال : لما نزلت: (يا أيها النبي) الآية،وقد كان صلى الله عليه وسلم أمر علياً ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن فقال: « انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا » فإنها قد أنزلت عليّ (يا أيها النبي إنا أرسلناك) الآية .

وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما: عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله

ابن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوارة، قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح» وزاد أحمد : ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، وقد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث فقال :

وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ولم يقل : عبد الله بن عمرو ، وهذا أولى فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسأل عن التوراة فيخبر بما فيها ، ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال:

﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ فيما يشيرون به عليك من المداهنة في الدين ، والمداراة في أمر الدعوة ، ومن استعمال لين الجانب في التبليغ. وفي الآية تعريض لغيره من أمته لأنهﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون به عليه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي لا تبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب تصلبك في دين الله وشدتك على أعدائه ، أو دع أن تؤذيهم أنت مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك،فالمصدر على الأول مضاف الى الفاعل،وعلى الثاني مضاف الى المفعول، قيل :هي منسوخة بآية السيف .

﴿ وتوكل على الله ﴾ في كل شؤونك ﴿وكفى بالله وكيلاً ﴾ توكل اليه الأمور وتفوض اليه الشؤون فمن فوض إليه أموره كفاه ، ومن وكل اليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه ، ولما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب وكان قد دخل بها وخطبها النبيﷺ بعد انقضاء عدتها كما تقدم ، خاطب المؤمنين مبيناً لهم حكم الزوجة اذا طلقها زوجها قبل الدخول فقال :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ﴾ أي عقدتم بهن عقد النكاح أو بالكتابيات ، وإنما خص المؤمنات بالذكر للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيراً للنطفة ، وقد اختلف في لفظ النكاح ، هل هو حقيقة في الوطء ؟ أو في العقد ؟ أو فيهما على طريقة الاشتراك ؟ وكلام صاحب الكشاف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء ، فإنه قال : النكاح الوطء وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريق إليه ، ونظيره تسمية الخمر إثماً لأنها سبب في اقتراف الإثم، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد ، كما قاله صاحب الكشاف والقرطبي وغيرهما .

﴿ ثم ﴾ التراخي ليس قيداً ، وفائدة التعبير بثم إزالة ما عسى أن يتوهم من أن تراخي الطلاق بقدر إمكان الإصابة كما يؤثر في النسب يؤثر في العدة ﴿ طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ أي تجامعوهن ، فكنى عن ذلك بلفظ المس ومن آداب القرآن الكناية عن الوطء بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والغشي والإتيان.

وقد استدل بهذه الآية القائلون بأنه لا طلاق قبل النكاح ، وهم الجمهور ، وبه قال علي وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة،وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاووس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم ، وبه قال الشافعي ، وذهب ابن مسعود ومالك وأبو حنيفة الى صحة الطلاق قبل النكاح اذا قال:اذا تزوجت فلانة فهي طالق فتطلق اذا تزوجها ، وبه قال النخعي وأصحاب الرأي،وقال ربيعة والأوزاعي : ان عيّن امرأة وقع وإن عمّم

فلا يقع ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : لا طلاق فيما لا تملك ، ولا عتق فيما لا تملك،ولا بيع فيما لا تملك ، أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه. وعن ابن عباس قال : جعل الله الطلاق بعد النكاح أخرجه البخاري .

﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ أي تحصونها بالاقراء والأشهر ، أجمع العلماء على أنه إذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة فلا عدة ، وذهب أحمد الى أن الخلوة توجب العدة والصداق ، وقد حكى ذلك الإجماع القرطبي وابن كثير،والمعنى : تستوفون عددها؛من عددت الدراهم فأعتدها،وإسناد ذلك الى الرجال للدلالة على أن العدة حق لهم كما يفيده قوله : (فما لكم) وقرئ: تعتدونها بتشديد الدال وبتخفيفها ، وفي هذه وجهان أحدهما:أن يكون بمعنى الأولى مأخوذ من الاعتداد أي تستوفون عددها ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف ، قال الرازي : ولو كان من الاعتداء الذي هو الظلم لضعف؛لأن الاعتداء يتعدى بعلى ، وقيل من الاعتداء بحذف حرف الجر أي تعتدون عليها أي على العدة مجازاً .

والوجه الثاني: أن يكون المعنى تعتدون فيها والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله :﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ فيكون معنى الآية على القراءة الأخرى: فما لكم عليهن من عدة تعتدون عليهن فيها بالمضارة وقد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير ، وقال:ان البزي غلط عليه وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ ولقوله:﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر﴾.

﴿ فمتعوهن ﴾ أي أعطوهن ما يستمتعن به،والمتعة المذكورة هنا قد تقدم الكلام عليها في البقرة . وقال سعيد بن جبير:هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التي في البقرة ، وهي في قوله :﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾، وقيل المتعة هنا:هي أعم من أن تكون نصف الصداق ، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمي لها فمع التسمية

للصداق تستحق نصف المسمى عملاً بقوله (فنصف ما فـرضتم)،ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملاً بهذه الآية ، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ولا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن اوتفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾، وهذا الجمع لا بد منه ، وهو مقدم على الترجيح وعلى دعوى النسخ ، ويخصص من هذه الآية من توفي عنها زوجها ، فإنه اذا مات بعد العقد عليها وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول فتعتدّ اربعة اشهر وعشراً ، قال ابن كثير بالاجماع ، فيكون المخصص هو الاجماع .

﴿ وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ أي أخرجوهن من غير إضرار ولا منع حق من منازلكم ، إذ ليس لكم عليهن عدة ، والسراح الجميل الذي لا ضرار فيه وقيل: هو ان لا يطالبها بما كان قد أعطاها، وقيل هو هنا كناية عن الطلاق وهو بعيد ، لأنه قد تقدم ذكر الطلاق ، ورتب عليه التمتع ، وعطف عليه السراح الجميل ، فلا بد أن يراد به معنى غير الطلاق .

وعـن ابن عباس في الآية قال: هذا في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسها فإذا طلقها واحدة بانت منه ولا عدة عليها تتزوج من شاءت ثم قال: ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميـلاً﴾ ،يقول: إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف وإن لم يكن سمى لها صداقاً متعها على قدر عسره ، ويسره وهو السراح الجميل .

وعن ابن عمـر قال : ﴿إذا نكحتم المؤمنـات ثم طلقتموهن﴾ منسـوخة نسختها التي في البقرة (فنصف ما فرضتم)، وعن سعيد بن المسيب نحوه ، وعن الحسن وأبي العالية قالا: ليست بمنسوخة لها نصف الصداق،ولها المتاع وعن ابن جريج قال بلغ ابن عباس أن ابن مسعود يقول : إن طلق ما لم ينكح فهو جائز فقال ابن عباس: أخطأ في هذا إن الله يقول: إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، ولم يقـل :اذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن . وعن ابن عباس أنه تلا هذه الآية وقال : لا يكون طلاق حتى يكون نكاح،وقد وردت أحاديث فيها: أنه لا طلاق إلا بعد نكاح وهي معروفة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ﴾ ذكر سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهن أجورهن أي مهورهن فإن المهور أجور الإبضاع، ولهذا قال الكرخي: إن النكاح بلفظ الإجارة جائز.

وقال أهل الرأي : التأبيد من شرط النكاح ، والتأقيت من شرط الإجارة وبينهما منافاة ، وإيتاء الأجور إما تسليمها معجلة ، أو فرضها أو تسميتها في العقد ، واختلف في معنى الآية فقال ابن زيد والضحاك: إن الله أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها؛فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم ، وقال الجمهور : المراد أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها ، وهذا هو الظاهر؛لأن قوله : أحللنا وآتيت ماضيان ؛وتقييد الاحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحل عليه؛لأنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل مع الوطء ، والمتعة مع عدمه.فكأنه لقصد الإرشاد الى ما هو أفضل .

﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ أي السراري اللاتي دخلن في ملكك بالغنيمة.والمعنى : مما رده الله عليك من الكفار بالغنيمة من نسائهم

المأخوذات على وجه القهر والغلبة مثل :صفيه وجويرية فاعتقهما وتزوجهما ، وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له إبراهيم ، وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة؛فانها تحل السرية المشتراة والموهوبة ونحوهما ولكنه خرج مخرج الغالب وأشار به الى ما هو الأفضل كالقيد الأول المصرح بإيتاء الأجور ، وهكذا قيد المهاجرة في قوله:

﴿ وبنات عمك وبنات عماتك ﴾ أي نساء قريش ﴿ وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ أي نساء بني زهرة ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ فانه للإشارة الى ما هو الأفضل،وللايذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر ، أي أحللنا لك ذلك زائداً على الأزواج اللاتي آتيت أجورهن على قول الجمهور ، لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها لما قال بعد ذلك : وبنات عمك وبنات عماتك ، لأن ذلك داخل فيما تقدم ، والأول أولى والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها.قال النسفي :ليس(مع) للقران، بل لوجودها فحسب ، كقوله : وأسلمتُ مع سليمان .

وقيل إن هذا القيد أعني المهاجرة معتبر ، وإنها لا تحل له من لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله :﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾،ويؤيد هذا حديث أم هانىء وسيأتي .

ووجه إفراد العم والخال،وجمع العمة والخالة،ما ذكره القرطبي ان العم والخال في الاطلاق اسم جنس،كالشاعر والراجز،وليس كذلك العمة والخالة قال وهذا عرف لغوي ، فجاء الكلام عليه بغاية البيان،وحكاه عن ابن العربي وقال ابن كثير انه وحد لفظ الذكر لشرفه،وجمع الأنثى كقوله: عن اليمين وعن الشمائل ، وقوله يخرجهم:﴿من الظلمات الى النور﴾،وجعل: ﴿الظلمات والنور﴾ وله نظائر كثيرة انتهى .

وقال النيسابوري : وإنما لم يجمع العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد ، ولم يحسن

هذا الاختصار في العمة والخالة لإمكان سبق الوهم الى أن التاء فيهما للوحدة انتهى .وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض والمعارضة ، وأحسنها تعليل جمع العمة والخالة تسبق الوهم الى أن التاء للوحدة وليس في العم والخال ما يسبق الوهم اليه بأنه أريد به الوحدة الا مجرد صيغة الإفراد وهي لا تقتضي ذلك بعد إضافتها لما تقرر من عموم أسماء الأجناس المضافة ؛على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عن شوب المناقشة أيضاً؛قال الشهاب .

وقد سئل كثير عن حكمة إفراد العم والخال دون العمة والخالة حتى أن السبكي صنف جزءاً فيه سماه بذل الهمة في إفراد العم وجمع العمة . وقد رأيت لهم فيه كلمات كلها ضعيفة ، كقول الرازي : إن العم والخال على زنة المصدر ويستوي فيه المفرد والجمع بخلاف العمة والخالة وقيل: إنهما يعمان إذا أضيفا،والعمة والخالة لا يعمان لتاء الوحدة انتهى .

أخرج الترمذي وحسنه ،وابن جرير،والطبراني وغيرهم عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت : (خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني ، فأنزل الله : يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك إلى قوله هاجرن معك) قالت : فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت : نزلت في هذه الآية : ﴿وبنات عماتك اللاتي هاجرن معك﴾ أراد النبي أن يتزوجني فنهي عني إذ لم أهاجر .

وعن ابن عباس في قوله : (إنا أحللنا لك أزواجك) إلى قوله : (خالصة لك) قال فحرم الله عليه سوى ذلك من النساء ، وكان قبل ذلك ينكح في أي النساء شاء لم يحرم ذلك عليه . وكان نساؤه يجدن من ذلك وجداً شديداً أن ينكح في أي النساء أحب ، فلما أنزل : إني حرمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه .

﴿ وامرأة مؤمنة ﴾ أي : وأحللنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد ، وهذا يدل

على أن الكافرة لا تحل له ، قال إمام الحرمين : وقد اختلف في تحريم الحرة الكافرة عليه ، قال ابن العربي : والصحيح عندي تحريمها، وبهذا يتميز علينا ، فإنه ما كان في جانب الفضائل والكرامات فحظه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر فجوز لنا نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصر هو ﷺ على المؤمنات ، ولهذا كان لا تحل له الكتابية الكافرة لنقصانها بالكفر، انتهى . وأما تسرّيه بالأمة الكتابية فالأصح فيه الحل لأنه ﷺ استمتع بأمته ريحانه قبل أن تسلم كذا في المواهب وكانت يهودية من سبي قريظة ، ومما خص به أيضاً أنه يحرم عليه نكاح الأمة ولو مسلمة لأن نكاحها معتبر بخوف العنت ، وهو معصوم ، وبفقدان مهر الحرة ونكاحه غنى عن المهر ابتداء وانتهاء ، وبرق الولد ومنصبه ﷺ ينزه عنه كذا في الروض وشرحه .

﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ أي ملكتك بضعها بأي عبارة كانت بغير صداق ، وأما من لم تكن مؤمنة فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك ، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك ، بل مقيداً بإرادتك فهي جملة شرطية لا تستلزم الوقوع ، ولهذا قال : ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ يقال نكح واستنكح مثل عجل واستعجل ، وعجب واستعجب .

ويجوز أن يراد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح أو طلب الوطء قاله القرطبي، أي يصيرها منكوحة له ، ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر ، وذلك جار منه مجرى القبول. وحيث لم تكن الآية نصاً في كون تمليكها بلفظ الهبة لم تصلح أن تكون مناطاً للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة، وإيراده في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات عن الخطاب للإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم، فيختص به كما ينطق به قوله الآتي : (خالصة لك) وقد قيل إنه لم ينكح النبي من الواهبات أنفسهن أحداً ، ولم يكن عنده منهن شيء ، قال قتادة : كانت عنده ميمونة بنت الحرث ، قال الشعبي : هي زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين، وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر الأسدية ، وقال عروة ابن الزبير وهي أم حكيم بنت الأوقص

السلمية .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن عن عائشة قالت: (التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم). وأخرج البخاري وغيره عن عروة: (أن خولة بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ)، وعن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبدالله ابن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة؛ ستاً من قريش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثاً من بني عامر بن صعصعة، وامرأتين من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحرث ، وهي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وزينب أم المساكين والعامرية وهي التي اختارت الدنيا ، وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بن جحش الأسدية، والسبيَّتين: صفية بنت حيي وجويرية بنت الحرث الخزاعية .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن انس قال جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله هل لك بي حاجة ؟ فقالت ابنة انس ما كان أقل حياءها ؟ فقال: هي خير منك رغبت في النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت نفسها عليه .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدي أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوهبت نفسها له فصمت ، الحديث بطوله وكان من خصائصه صلى الله عيله وسلم أن النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي . ولا شهود ولا مهر، والزيادة على أربع، ووجوب تخيير النساء وعليه جماعة .

واختلفوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة ، فذهب أكثرهم إلى أنه لا ينعقد إلا بلفظ النكاح والتزويج، وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء ، وبه قال ربيعة ومالك والشافعي .وقال ابراهيم النخعي وأهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة، ومن قال بالقول الأول اختلفوا في نكاح النبي ﷺ فذهب قوم إلى أنه كان ينعقد في حقه ﷺ بلفظ الهبة ، وذهب قوم

آخرون إلى أنه لا ينعقد كما في حق سائر الأمة وكان اختصاصه في ترك المهر وعدم لزومه له لا في لفظ النكاح واختلفوا في أن العقد بلفظ الهبة هل وقع له بالفعل أم لا .

فقال ابن عباس ومجاهد : لم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين . وقال آخرون : وقع ، واختلفوا فيها كما تقدم وقال الزمخشري : قيل الموهوبات أربع: ميمونة وزينب وأم شريك وخولة،وفي السمين: هذا من اعتراض الشرط على الشرط . والثاني قيد في الأول ولذلك اعربوه حالاً ،لأن الحال قيد ولهذا اشترط الفقهاء أن يتقدم الثاني على الأول في الوجود .

فلو قال : إن أكلت إن ركبت فأنت طالق فلا بد أن يتقدم الركوب على الأكل، وأنه يشترط أن لا يكون ثمة قرينة تمنع من تقدم الثاني على الأول كقولك : إن تزوجتك إن طلقتك فعبدي حر ، فإنه لا يتصور هنا تقديم الطلاق على التزويج إلا أني قد عرض لي إشكال على ما قاله الفقهاء بهذه الآية .

وذلك أن الشرط الثاني هنا لا يمكن تقدمه في الوجود بالنسبة إلى الحكم الخاص بالنبي ﷺ لا أنه لا يمكن عقلاً ، وذلك أن المفسرين فسروا قوله تعالى إن أراد ، بمعنى قبل الهبة لأنه بالقبول منه يتم نكاحه،وهذا لا يتصور تقدمه على الهبة إذ القبول متأخر،وأيضاً فالقصة كانت على ما ذكرته من تأخر إرادته عن هبتها ، وهو مذكور في التفسير .

وقد عرضت هذا الإشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ، ولم يظهر عنهم جواب،إلا ما قدمته من أن ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلت لك آنفاً انتهى .

وقد بين الله سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله ﷺ ، لا يحل لغيره من أمته فقال .

﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ لفظ : خالصة إما حال من امرأة قاله الزجاج،أو حال من فاعل(وهبت)أي حال كونها خالصة لك دون غيرك ، أو

مصدر مؤكد كوعد الله أي خالص لك خلوصاً،أو نعت مصدر مقدر أي : هبة خالصة ، فنصبها بوهبت ، وقد أجمع العلماء على أن هذا خاص بالنبي ﷺ ، وأنه لا يجوز لغيره ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلاما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت وأشهد هو على نفسه بمهر ، وأما بدون مهر فلا خلاف في أن ذلك خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال .

﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من خلوص الإحلال له،أي ما فرضه الله سبحانه على المؤمنين في حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحل لهم الإخلال به ، ولا الاقتداء برسول الله ﷺ فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريماً له،فلا يتزوجوا إلا أربعاً بمهر وبينة وولي .

وعن ابن عمر في الآية قال: فرض الله عليهم أنه لا نكاح إلا بولي وشاهدين .وعن ابن عباس :مثله وزاد ومهر .

﴿ وما ملكت أيمانهم ﴾ أي وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهم ممن يجوز سبيه وحربه ، لا ممن كان لا يجوز سبيه أو كان له عهد من المسلمين؛أي تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية،وأن تستبرأ قبل الوطء .

﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ قال المفسرون: هذا يرجع إلى أول الآية أي أحللنا لك تزواجك وما ملكت يمينك ، والواهبة نفسها لك لكيلا يكون عليك حرج ؛ فتكون اللام متعلقة بأحللنا ،وقيل هي متعلقة بخالصة قاله البيضاوي وأبو السعود، والتعلق باعتبار ما فيه من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له ﷺ والأول أولى ، والحرج الضيق،أي وسعنا عليك في التحليل لك لئلا يضيق صدرك فتظن أنك قد أثمت في بعض المنكوحات .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ يغفر الذنوب فيما يعسر التحرز عنه،ويرحم العباد بالتوسعة في ذلك،ولذلك وسع الأمر ولم يضيقه .

۞ ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿ترجي من تشاء منهن﴾ قرىء ترجي مهموزاً وغير مهموز ، وهما لغتان والإرجاء التأخير. يقال: أرجأت الأمر وأرجيته إذا أخرته ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي تضم إليك،يقال : آواه إليه بالمد ضمه إليه،وأوى مقصوراً أي ضم إليه،والمعنى: أن الله وسع على رسوله ﷺ وجعل الخيار إليه في نسائه،فيؤخر من شاء منهن ويؤخر نوبتها ويتركها ولا يأتيها من غير طلاق ، ويضم إليه من شاء منهن ويضاجعها ويبيت عندها .

وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية فارتفع الوجوب وصار الخيار إليه ، وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، وممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ، فكان ﷺ يسوي بين من آوى في القسم ، وكان يقسم لمن أرجاه ما شاء ، هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية ، وهو الذي يناسب ما مضى ، وقد دلت عليه الأدلة الثابتة في الصحيح وغيره .

قال ابن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعول عليه لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون فرض عليه تطييباً لنفوسهن ، وصوناً لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي . وقيل : هذه الآية في

الواهبات أنفسهن لا في غيرهن من الزوجات قاله الشعبي وغيره،وقيل: معنى الآية في الطلاق أي:تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء .

وقال الحسن . إن المعنى تنكح من شئت من نساء أمتك وتترك نكاح من شئت منهن ، وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : لا يحل لك النساء من بعد ، وعن ابن عباس : ترجي أي تؤخر ، وعنه قال:من شئت خليت سبيلها منهن ، ومن أحببت أمسكت منهن .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ،وأقول : تهب المرأة نفسها.فلما أنزل الله : ترجي من تشاء منهن الآية قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك .

وعن أبي رزين قال : هَمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلق من نسائه فلما رأين ذلك أتينه فقلن : لا تخل سبيلنا وأنت في حل فيما بيننا وبينك افرض لنا من نفسك ومالك بما شئت فأنزل الله ترجي من تشاء منهن ، يقول:تعزل من تشاء فأرجى منهن نسوة ، وآوى نسوة ، وكان ممن أرجى ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة ، وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء ، وكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب فكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ترجي من تشاء منهن ، فقلت لها ما كنت تقولين ؟ قالت كنت أقول إن كان ذلك إلي فإني أريد أن لا أوثر عليك أحداً .

﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت ﴾ الابتغاء الطلب ، والعزل الإزالة،والمعنى إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن قد عزلتهن من القسمة وتضمها إليك ﴿ فلا جناح عليك ﴾ في ذلك ، والحاصل أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله

يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير وعزل وإمساك ، وضم من أرجى وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه ونفياً للحرج عنه ، وأصل الجناح الميل ، يقال: جنحت السفينة إذا مالت ، والمعنى لا ميل عليك بلوم ولا عتب فيما فعلت .

﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من التفويض إلى مشيئته وهو مبتدأ وخبره قوله ﴿أدنى أن تقر أعينهن﴾ أي ذلك التخيير والتفويض فوضناك أقرب إلى رضائهن وأطيب لأنفسهن إذ كان من عندنا لأنهن إذا علمن أنه من الله قرت أعينهن ، واطمأنت نفوسهن ، وذهب التغاير وحصل الرضاء . قرىء تقر على البناء للفاعل مسنداً إلى أعينهن،وقرىء بضم التاء من أقرر وفاعله ضمير المخاطب وبنصب أعينهن على المفعولية ، وقرىء على البناء للمفعول ، وقد تقدم بيان معنى قرة العين في سورة مريم .

﴿ ولا يحزن ﴾ أي لا يحصل معهن حزن بتأثيرك بعضهن دون بعض ﴿ ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أي بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء وعزل وإيواء وكان يقسم بينهن في القسمة حتى مات ، ولم يستعمل شيئاً مما أتيح له ضبطاً لنفسه ، وأخذاً بالأفضل غير سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها .

﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ من كل ما تضمرونه ومن ذلك ما تضمرونه من أمور النساء والميل إلى بعضهن ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بكل شيء وبما في ضمائركم لا تخفى عليه خافية ﴿ حليماً ﴾ عنكم لا يعاجل العصاة بالعقوبة فينبغي أن تتقى محارمه لأن انتقام الحليم وغضبه أمر عظيم .

﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ أي من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك واجتمعن في عصمتك وهن التسع اللاتي توفي عنهن . وهن عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت

زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية قاله أبو السعود .

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال،الأول: أنها محكمة ، وأنه حرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج على نسائه مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة؛لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله له بذلك،وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والحسن وابن سيرين وابن بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وابن زيد وابن جرير . وقال أبو أمامة بن سهل حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن .

وقال أُبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين أن المعنى لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله قال القرطبي: وهو اختيار ابن جرير وقيل لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات لأنهن لا يصح أن يتصفن بأمهات المؤمنين ، وهذا القول فيه بعد؛لأنه يكون التقدير لا يحل لك النساء من بعد المسلمات ولم يجر للمسلمات ذكر ، وقيل هذه الآية منسوخة بالسنة،وبقوله: ﴿تُرجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾ ،وبهذا قالت أم سلمة وعائشة وعلي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وغيرهم. وهذا هو الراجح وسيأتي ما يدل عليه من الأدلة ، عن زياد رجل من الأنصار قال: قلت لأبي بن كعب أرأيت لو أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مُتْنَ أما كان يحل له أن يتزوج ؟ قال وما يمنعه من ذلك ؟ قلت قوله :لا يحل لك النساء من بعد ، قال إنما أحل له ضرباً من النساء ووصف له صفة فقال: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله (وامرأة مؤمنة)ثم قال: لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة .

وعن ابن عباس قال نُهي رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان

من المؤمنات المهاجرات : ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ الآية،فأحل له الفتيات المؤمنات وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي وحرم كل ذات دين غير الإسلام وقال:﴿ياأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله:﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾؟ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء .

وعنه قال نُهي النبي أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً ، وعنه في الآية قال:حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه ، وعن أنس قال : لما خيرهن فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال:﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾.

وعن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم ، وذلك قول الله :﴿ترجي من تشاء منهن﴾الآية ، وأخرج أحمد وأبو داود في ناسخه ، والترمذي وصححه ، والنسائي والحاكم وصححه .

عن عائشة قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم،لقوله : ﴿ترجي من تشاء منهن﴾الآية، وعن ابن عباس مثله ، وعن أبي رزين : ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ قال : من المشركات إلا ما سبيت فملكت يمينك .

﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ أي ليس لك أن تطلق واحدة منهن أو اكثر وتتزوج بدل من طلقت منهن أي من المسلمات غيرهن من الكتابيات؛لأنه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية و ﴿ من ﴾ مزيدة لتأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم .

وقال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله تقول خذ زوجتي وأعطني زوجتك،وقد أنكر ابن جرير والنحاس ما ذكره ابن زيد؛قال ابن جرير : ما فعلت العرب هذا قط ، ويدفع هذا الإنكار منهما؛ما أخرجه الدارقطني عن أبي

هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي .فأنزل الله عز وجل ولا أن تبدل بهن ، وأخرجه أيضاً عنه البزار وابن مردويه .

وأخرجا عن أبي هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلني امرأتك وأبادلك امرأتي ؛أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي ؛فأنزل الله هذه الآية .قال :فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ وعنده عائشة فدخل بغير إذن ؛فقال له رسول الله ﷺ : أين الاستئذان ؟ قال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من الأنصار منذ أدركت ، ثم قال: من هذه الحميراء إلى جنبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه عائشة أم المؤمنين ، قال أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله ؟ قال : يا عيينة إن الله حرم ذلك ، فلما أن خرج قالت عـائشة : من هذا ؟ قال أحمق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه .

﴿ ولو أعجبك حسنهن ﴾ وهذا كقولك :اعطوا السائل ولو على فرس .أي : في كل حال ،ولو على هذه الحالة المنافية للإعطاء، وقيل : تقديره مفروضاً إعجابك بهن ، أي لا يحل لك التبدل بأزواجك ولو أعجبك حسن غيرهن وجمالها ممن أردت أن تجعلها بدلاً من إحداهن .وهذا التبدل أيضاً من جملة ما نسخه الله في حق رسوله على القول الراجح ونسخها إما بالسنة أو بقوله :(إنا أحللنا لك أزواجك) ،وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف .

قال ابن عباس: يعني أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر ؛أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهي عن ذلك .

﴿ إلا ما ملكت يمينك ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الحرائر والاماء وقيل : منقطع ،والمعنى تحل لك الإماء، وقد ملك صلى الله عليه وسلم

بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس ملك القبط وهم أهل مصر والاسكندرية وولدت له إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان ومات في حياة أبيه، وله سبعون يوماً وقيل: سنة وعشرة أشهر وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل عليه بنفسه بل أمرهم فصلوا قاله ابن حجر في شرح الهمزية، وقد اختلف العلماء في تحليل الامة الكافرة على قولين:

الأول: أنها تحل للنبي صلى الله عليه وسلم لعموم هذه الآية وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن.

والثاني: أنها لا تحل للنبي صلى الله عليه وسلم تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، ويترجح القول الأول بعموم هذه الآية وتعليل المنع بالتنزه ضعيف فلا تنزه عما أحله الله فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح لا باعتبار غير ذلك فالمشركون نجس بنص القرآن، ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿**ولا تمسكوا بعصم الكوافر**﴾ فإنه نهي عام.

﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ أي مراقباً حافظاً وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد نكاحها من النساء، ويدل عليه ما روي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [**إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**]. أخرجه ابو داود وعن أبي هريرة أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [**انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً**].

قال الحميدي: يعني هو الصغر وعن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: هل نظرت إليها؟ قلت لا. قال: فانظر إليها فإنه أحرى أن يُؤْدَم بينكما، أخرجه الترمذي وقال حسن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ (٥٣)

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع في بيان ما تجب رعايته على الناس من حقوق نساء النبي إثر بيان ما تجب مراعاته عليه من حقوقهن ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ هذا نهي عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله ﷺ إلا بإذن منه. وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: (يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب)، وفي لفظ أنه قال عمر: (يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب)، فأنزل الله آية الحجاب.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم احجُب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشياً ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة ، حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب قال :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾الآية وأخرج بن سعد عن أنس قال نزل الحجاب مبتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، وذلك سنة خمس من الهجرة ، وحجب نساءه من يومئذ ، وأنا ابن خمس عشرة سنة ، وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان ، وقال: نزل الحجاب على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة . وبه قال قتادة والواقدي ، وزعم أبو عبيدة وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث .

وفي الآية دليل على أن البيت للرجل ويحكم لـه به فـإن الله أضافـه إليه إضـافة ملك ، وأما إضافته إلى الأزواج في قوله (مـا يتلى في بيوتكن) فهي إضافة محل بدليل أنه جعل فيها الإذن إلى النبي ﷺ ، والإذن إنما يكون من المالك ، واختلف العلماء في بيوت النبي ﷺ التي كان يسكن فيها نساؤه بعد موته هل هي ملك لهن أو لا ؟ على قولين ، فقالت طائفة : كانت ملكاً لهن بدليل أنهن سكن فيها بعد موت النبي ﷺ إلى وفاتهن ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهب لهن ذلك في حياته ، الثاني: أن ذلك كان إسكاناً كما يسكن الرجل أهله ، ولم يكن هبة وامتدت سكنـاهن بها إلى المـوت ، وهذا هـو الصحيح ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربي، وغيرهما . فإن ذلك من مؤونتهن التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثناها لهن كما استثنى لهن نفقاتهن حين قال : [لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤمنة عاملي فهو صدقـه] هكذا قال أهل العلم ، قـالوا: ويدل على ذلك أن مساكنهن لم ترثها عنهن ورثتهن .قـالوا: وفي ترك ورثتهن ذلك دليل على أنها لم تكن لهن ملكاً وإنما كان لهن سكنى حياتهن . فلما توفين جعل ذلك

زيادة في المسجد الحرام الذي يعم المسلمين نفعه ، كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين إلى سبيلهن فزيد إلى أصل المال فصرف لمنافع المسلمين مما يعم نفعه الجميع والله الموفق كذا قاله القرطبي .

وأعلم أن قالون همز النبي حيث وقع إلا في موضعين من هذه السورة أحدهما هذه الآية والثاني قوله : ﴿إن وهبت نفسها للنبي﴾ فأبدلها ياء في الوصل وهمزها في الوقف كما ذكره الشاطبي ، ولم يسهلها كما سهل غيرها لأنه رأى الإبدال هنا جارياً على القياس فيه فرجحه لموافقته لغيره ولأنه أفصح من التسهيل ولذلك أنكر على من قال يا نبيء الله بالهمزة وهذا مما لا غبار عليه فلله در التنزيل ، وما فيه من دقائق التأويل .

﴿ إلا أن يؤذن لكم ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال كونكم مأذوناً لكم ، أي إلا مصحوبين بالإذن أو إلا بأن يؤذن لكم أو الى وقت أن يؤذن لكم وقوله : ﴿ إلى طعام ﴾ متعلق بيؤذن على تضمينه معنى الدعاء أي إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام .
﴿ غير ناظرين إناه ﴾ انتصاب غير على الحال، والعامل فيه يؤذي، أو مقدر . أي : ادخلوا غير ناظرين ، ومعنى ناظرين منتظرين ، وإناه نضجه وإدراكه ، يقال :أنى يأنى إناً إذا حان وأدرك .

قال الرازي : في الآية إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره :ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن ، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه : ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى طعام ، فإن لم يؤذن إلى طعام فلا يجوز الدخول ، فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام فلا يجوز. فنقول :المراد هو الثاني ليعم النهي عن الدخول ، وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى الطعام فلما هو مذكور في سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام ، ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول في وقتهم

بغير إذن وقال ابن عادل:الأولى أن يقال المراد هو الثاني ، لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل ، وقوله:إلى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه لا سيما إذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام انتهى والأولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته (ﷺ) بإذنه لغير الطعام ، وذلك معلوم لا شك فيه فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم ، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزل فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي (ﷺ) فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه وأمثالهم ، فلاتدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك ، والا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام ، واللازم باطل فالملزوم مثله .

قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه ، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي (ﷺ) ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، لا قبله لانتظار نضج الطعام ، ثم بين سبحانه ما ينبغي في ذلك فقال :

﴿ ولكن إذا دعيتم ﴾ وأذن لكم فادخلوا ، وفيه تأكيد بليغ للمنع ، وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول ، وهو عند الإذن ، وقال ابن العربي: وتقدير الكلام ولكن إذا دعيتم وأذن لكم .

﴿ فادخلوا ﴾ وإلا فنفس الدعوة لا يكون إذناً كافياً في الدخول ، وقيل إن فيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه ، قال الرازي: فيه لطيفة وهي أنه في العادة إذا قيل لمن يعتاد دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن ، يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً ، ولا بالدعاء ،فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون ، بل كونوا طائعين إذا قيل لكم لا تدخلوا

فلا تدخلوا ، وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا وقوله : إلا أن يؤذن لكم يفيد الجواز ، وقوله : ولكن إذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب ، فليس تأكيداً بل هو مفيد فائدة جديدة .

﴿ فإذا طعمتم ﴾ أي أكلتم الطعام يقال: طعم بكسر العين يطعم بفتحها طعماً كفهم ، وطعماً كقفل ، وفي الخطيب إذا أكلتم طعاماً أو شربتم شراباً ﴿ فانتشروا ﴾ أي اذهبوا حيث شئتم في الحال ، ولا تمكثوا بعد الأكل والشرب والمراد الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل ، ولا تدخلوا هاجمين .

﴿ ولا ﴾ تمكثوا ﴿مستأنسين لحديث ﴾ يستأنس بعضكم ببعض لأجل حديث يحدث به ، يقال: أنست به أنساً من باب علم ، وفي لغة من باب ضرب ، والأنس بالضم اسم منه واستأنست به وتأنست به إذا سكن القلب ولم ينفر ﴿ إن ذلكم ﴾ أي الانتظار أو المكث والاستئناس للحديث وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما في قوله تعالى : ﴿عوان بين ذلك﴾ ، أي إن ذلك المذكور من الأمرين .

﴿ كان ﴾ في علم الله ﴿ يؤذي النبي ﴾ لأنهم كانوا يضيقون عليه المنزل وعلى أهله ، ويتحدثون بما لا يريده ، قال الزجاج : كان النبي ﷺ يحتمل إطالتهم كرماً منه فيصبر على الأذى في ذلك فعلم الله من يحضره الأدب فصار أدباً لهم ولمن بعدهم .

﴿ فيستحي منكم ﴾ أي يستحيي أن يقول لكم : قوموا أو أخرجوا ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ أي لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق ولا يمتنع من بيانه وإظهاره والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة .

قرأ الجمهور : يستحيي بيائين وروي عن ابن كثير أنه قرأ بياء واحدة ، وهي لغة تميم يقولون استحى يستحي مثل استقى يستقي وهذا أدبٌ أدَّب الله به الثقلاء وعن عائشة قالت: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال: إذا طعمتم فانتشروا ؛ ثم ذكر سبحانه أدباً آخر متعلقاً بنساء النبي ﷺ

فقال :

﴿ وإذا سألتموهن ﴾ أي أزواج النبي (ﷺ) ﴿ متاعاً ﴾ أي شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به فلا وجه لما قيل من أن المراد به العارية أو الفتوى أو المصحف .

﴿ فاسألوهن ﴾ المتاع ﴿ من وراء حجاب ﴾ أي من وراء ستر بينكم وبينهن فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله (ﷺ) ، متنقبة كانت أو غير متنقبة .

﴿ ذلكم ﴾ أي سؤال المتاع من وراء الحجاب ، وقيل الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع ، والأول أولى ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره قوله :

﴿ أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أي أكثر تطهيراً لها من الريبة وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية وفي هذا أدب لكل مؤمن وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه فإن مجانبة ذلك أحسن بحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته .

﴿ وما كان ﴾ أي ما صح ولا استقام ﴿ لكم ان تؤذوا رسول الله ﴾ بشيء من الأشياء كائناً ما كان ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه ، واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده ، وتكليم نسائه من دون حجاب .

﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ أي ولا كان لكم ذلك بعد وفاته أو فراقه لأنهن أمهات المؤمنين ، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات قال ابن عباس في الآية: نزلت في رجل هَمَّ أن يتزوج بعض نساء النبي (ﷺ) بعد موته . قال سفيان : وذكروا أنها عائشة .

وعن السدي قال : بلغنا أن طلحة بن عبيدالله قال : أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ؟ ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده ، فنزلت هذه الآية. وعن قتادة قال: قال طلحة بن عبيد الله : لو قبض

النبي (ﷺ) لتزوجت عائشة ، فنزلت . وعن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة لأنه قال إذا توفي النبي (ﷺ) تزوجت عائشة. قال ابن عطية: وهذا عندي لا يصح على طلحة .

قال القرطبي : قال شيخنا الإمام أبو العباس وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله ، وإنما الكذب في نقله ، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال .

وعن ابن عباس قال : قال رجل من أصحاب النبي (ﷺ) لو قد مات رسول الله (ﷺ) تزوجت عائشة وأم سلمة فأنزل الله :﴿**وما** كان لكم أن تؤذوا رسول **الله**﴾ الآية وعنه أن رجلاً أتى بعض أزواج رسول الله (ﷺ) فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي (ﷺ): **[لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا]** فقال : يا رسول الله إنها ابنة عمي والله ما قلت لها منكراً ، ولا قالت لي . قال النبي (ﷺ): **[قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله وأنه ليس أحد أغير مني]** فمضى ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجنها من بعده . فأنزل الله هذه الآية فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشياً توبة من كلمته .

وعن أسماء بنت عميس قالت : خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة فأتت النبي (ﷺ) فقالت: إن أسماء متزوجة علياً فقال لها النبي (ﷺ) ، ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله ، والذي جرى عليه الرملي في شرح المنهاج أن من عقد عليها النبي (ﷺ) تحرم على غيره سواء دخل بها صلى الله عليه وسلم أو لا ، وأما حكم إمائه فمن دخل بها منهن حرمت على غيره وإلا فلا .

﴿ إن ذلكم ﴾ أي نكاح أزواجه من بعده ﴿ كان عند الله عظيماً ﴾ أي ذنباً عظيماً ، وخطباً هائلاً شديداً وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ، وإعلامه بذلك مما طيب نفسه ، وسر قلبه ، واستفرغ شكره فإن من الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده .

﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿ إن تبدوا شيئاً ﴾ أي تظهروه على ألسنتكم ﴿ أو تخفوه ﴾ في صدوركم ﴿ فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ يعلم كل شيء من الأشياء ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله ، وما تكتمونه في صدوركم ، وفي هذا وعيد شديد لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرها ، قال أبو أمامة بن سهل في الآية : إن تكلموا به فتقولون نتزوج فلانة لبعض أزواج النبي ﷺ أو تخفوا ذلك في أنفسكم فلا تنطقوا به يعلمه الله ، ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه فقال :

﴿ لا جناح عليهن في آبائهن ولا إخوانهن ولا أخواتهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ﴾ فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ ولا على غيرهن من النساء الاحتجاب منهم في رؤية وكلام ، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقال الزجاج : العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية وهذا ضعيف جداً ، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليها لا سيما أبناء الإخوة وأبناء الأخوات ، واللازم باطل فالملزوم مثله وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها لأنهن يصفنها ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي وعكرمة: من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها ، والأولى أن يقال : إنه سبحانه اقتصر ههنا على بعض من

ذكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدم .

﴿ ولا نسائهن ﴾ هذه الاضافة تقتضي أن يكون بالنساء المؤمنات لأن الكافرات غير مأمونات على العورات ، والنساء كلهن عورة ، فيجب على أزواج النبي ﷺ الاحتجاب عنهن كما يجب على سائر المسلمات أي ما عدا ما يبدو عند المهنة أما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات ولهذا قيل : هو خاص ، أي لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله (ﷺ) وقيل عام في المسلمات والكتابيات .

﴿ ولا ما ملكت أيمانهن ﴾ من العبيد والإماء أن يروهن ويكلموهن من غير حجاب وقيل : الإماء خاصة ، ومن لم يبلغ من العبيد والخلاف في ذلك معروف ، وقد تقدم في سورة النور ما فيه كفاية ، ثم أمر سبحانه بالتقوى التي هي ملاك الأمر ونقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ، وفي هذا النقل فضل تشديد كأنه قيل :

﴿ واتقين الله ﴾ في كل الأمور التي من جملتها ما هو مذكور هنا من الاحتجاب أي أن يراكن أحد غير هؤلاء .قال ابن عباس :في الآية أنزلت هذه في نساء النبي ﷺ خاصة .

﴿ إن الله كان على كل شيء ﴾ من أعمال العباد ﴿ شهيداً ﴾ لم يغب عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان فهو مجاز للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته ، والشهيد الذي يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٥٨﴾

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ هذه الآية شرف الله بها رسوله ﷺ في حياته وموته، وأظهر بها منزلته عنده تعالى، والضمير في: يصلون راجع إلى الله وإلى الملائكة، وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم ولله سبحانه واحداً، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع الخطيب يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال: بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله، ووجه ذلك أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد وهذا الحديث ثابت في الصحيح، وثبت أيضاً في الصحيح أن رسول الله ﷺ أم منادياً ينادي يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية ولأهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله والملائكة واحداً، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ، ويحمل الذم لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه (ﷺ) فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه وبين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك، وهذا أحسن ما قيل في الجمع.

وقالت طائفة في هذه الآية حذف، والتقدير: إن الله يصلي وملائكته يصلون، وعلى هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله وذكر غيره

في ضمير واحد ، ولا يرد أيضاً ما قيل إن الصلاة من الله الرحمة ، ومن ملائكته الدعاء ، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ يصلون ، ويقال على القول الأول : إنه أريد بيصلون معنى مجازي يعم المعنيين ، وذلك بأن يراد بقوله يصلون : يهتمون بإظهار شرفه ، أو يعظمون شأنه ، أو يعتنون بأمره وحكى البخاري عن أبي العالية: أن صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة الدعاء ، وروى الترمذي في سننه: عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم أنهم قالوا: صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار .

وقال عطاء بن أبي رباح: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته ، وأن الملائكة تصلي عليه ، وأمر عباده بأن يقتدوا بذلك ويصلوا عليه ، وقد اختلف أهل العلم في الصلاة على النبي (ﷺ) هل هي واجبة ؟ أو مستحبة ؟ بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة . وقد حكى هذا الإجماع القرطبي في تفسيره فقال قوم من أهل العلم : إنها واجبة عند ذكره ، وقال قوم : تجب في كل مجلس مرة ، وقد وردت أحاديث مصرحة بذم من سمع ذكر النبي (ﷺ) فلم يصل عليه .

واختلف العلماء في الصلاة على النبي (ﷺ) في تشهد الصلاة المفروضة هل هي واجبة أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر : يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزئة في مذهب مالك وأهل المدينة ، وسفيان الثوري ، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم ،

وهو قول جمهور أهل العلم ، قال : وشذ الشافعي فأوجب على تاركها الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان ، وهذا القول عن الشافعي لم يروه عنه إلا حرملة ابن يحيى ، ولا يوجد عن الشافعي إلا من روايته ، قال الطحاوي : لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعي ، وقال الخطابي ؛ وهو من الشافعية : إنها ليست بواجبة في الصلاة ، قال:وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي ، ولا أعلم له في ذلك قدوة، انتهى .

وقد قال بقول الشافعي جماعة من أهل العلم منهم الشعبي والباقر ومقاتل ابن حيان وإليه ذهب أحمد بن حنبل أخيراً ، كما حكاه أبو زرعة الدمشقي ، وبه قال ابن راهويه وابن المواز من المالكية وقد جمع الشوكاني رحمه الله في هذه المسألة رسالة مستقلة ذكر فيها ما احتج به الموجبون لها وما أجاب به الجمهور ، وفي شرحه على المنتقى ، ورسالتي : هداية السائل إلى أدلة المسائل ، ما يشفي ويكفي وأشف ما يستدل به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ : إن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك في صلاتنا ؟ قال قولوا : الحديث ، فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب ، وأما على بطلان الصلاة بالترك ووجوب الإعادة لها فلا ، لأن الواجبات لا يستلزم عدمها العدم كما يستلزم ذلك الشروط والأركان .

واعلم أنه قد ورد في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت في مصنف مستقل ، ولو لم يكن منها إلا الأحاديث الثابتة في الصحيح من قوله ﷺ : **[من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً]** فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة ، والمكرمة النبيلة ، وأما صفة الصلاة عليه ﷺ فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما منها:ما هو مقيد بصفة الصلاة عليه في الصلاة ، ومنها ما هو مطلق ، وهي معروفة في كتب الحديث فلا نطيل بذكرها ، والذي يحصل به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو أن يقول القائل : اللهم صل وسلم على رسولك أو على محمد أو على النبي ، أو اللهم صل على محمد وسلم ومن أراد أن يصلي ويسلم عليه بصفة من

الصفات التي ورد التعليم بها والإرشاد إليها فذلك أكمل وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة ، وسيأتي بعضها ، وسيأتي الكلام في الصلاة على الآل .

وكان ظاهر هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل : صليت عليه وسلمت عليه أو الصلاة عليه والسلام عليه ، أو عليه الصلاة والتسليم ، لأن الله سبحانه أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا ، فالامتثال هو ان يكون ذلك على ما ذكرنا فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول : اللهم صلّ عليه وسلم بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن نصلي عليه ونسلم عليه ، وقد أجيب عن هذا بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانتا شعاراً عظيماً للنبي ﷺ وتشريفاً كريماً، وكّلنا ذلكْ إلى الله عز وجل وأرجعناه إليه وهذا الجواب ضعيف جداً .

وأحسن ما يجاب به أن يقال : إن الصلاة والتسليم المأمور بهما في الآية هما أن نقول:اللهم صلّ عليه وسلم أو نحو ذلك مما يؤدي معناه كما بينه رسول الله ﷺ فاقتضى ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة أن هذه هي الصلاة الشرعية .

واعلم أن هذه الصلاة من الله على رسوله وإن كان معناها الرحمة فقد صارت شعاراً له يختص به دون غيره فلا يجوز لنا أن نصلي على غيره من أمته ، كما يجوز لنا أن نقول اللهم ارحم فلاناً أو رحم الله فلاناً ، وبهذا قال الجمهور من العلماء مع اختلافهم ؛ هل هو محرم ؟ أو مكروه كراهة شديدة ؟ أو مكروه كراهة تنزيه؟ على ثلاثة أقوال. وقد قال ابن عباس: كما رواه عنه ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب : لا تصلح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار .

وقال في المواهب: لم ينقل أن الأمم المتقدمة كان يجب عليهم أن يصلوا على أنبيائهم انتهى وقال في الأنموذج ومن خواصه ﷺ أنه ليس في القرآن ولا

غيره صلاة من الله تعالى على غيره ﷺ فهي خصيصة اختصه الله بها دون سائر الأنبياء انتهى . وقال قوم : إن ذلك جائز لقوله تعالى :﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾، ولقوله :﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾، ولقوله :﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾.

ولحديث عبد الله بن أبي أوفى الثابت في الصحيحين وغيرهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صلّ عليهم فأتاه أبيّ بصدقته فقال: اللهم صلّ على آل أبي أوفى ، ويجاب عن هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول الله (ﷺ) له أن يخص به من شاء ، وليس لنا أن نطلقه على غيره ، وأما قوله تعالى : (هو الذي يصلي) إلخ وقوله: (أولئك عليهم صلوات) فهذا ليس فيه إلا إن الله سبحانه يصلي على طوائف من عباده كما يصلي على من صلى على رسوله (ﷺ) مرة واحدة عشر صلوات وليس في ذلك أمر لنا ولا شرعة الله في حقنا . بل لم يشرع لنا إلا الصلاة والتسليم على رسوله ، وكما أن لفظ الصلاة على رسول الله (ﷺ) شعار له فكذا لفظ السلام عليه .

وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة والسواد الأعظم من سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة والترحم على من بعدهم ، والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه:﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل يصلي ربك؟ فناداه ربه يا موسى: سألوك هل يصلي ربك ؟ فقال : نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله على نبيه : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ الآية أي يبركون ، وعنه أن صلاة الله على النبي هي المغفرة إن الله لا يصلي ، ولكن يغفر ، وأما صلاة الناس على النبي فهي الاستغفار له .

﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ أي ادعوا له بالرحمة وقولوا: اللهم

صلّ على محمد أو صلى الله على محمد فإنكم أولى بذلك ، وعن ابن عباس أنه قرأ:صلوا عليه كما صلى الله عليه ﴿ وسلموا تسليماً ﴾ أي حيوه بتحية السلام ، وقولوا اللهم سلم على محمد ، أو انقادوا لأمره انقياداً والأول أولى ، ثم هي واجبة مرة عند الطحاوي ، وكلما ذكر اسمه عند الكرخي ، وهو الاحتياط وعليه الجمهور .

قال أبو السعود : وهذه الآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً أي من غير تعرض لوجوب التكرار ، وقال القسطلاني قيل: هي مستحبة وقيل: واجبة في التشهد الأخير من كل صلاة وعليه الشافعي وهو رواية عن أحمد وقيل: تجب في الصلاة من غير تعيين لمحل منها . وقيل: تجب في خارج الصلاة وقيل: كلما ذكر وقيل: في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره فيه وقيل: تجب في العمر مرة واحدة وقيل: تجب في الجملة من غير حصر وقيل: يجب الإكثار منها من غير تقييد . وتسليماً مصدر مؤكد قال الإمام ولم تؤكد الصلاة لأنها مؤكدة بقوله : إن الله وملائكته الخ وقيل: إنه من الاحتباك فحذف عليه من أحدهما والمصدر من الآخر وقال بعض الفضلاء: إنه سئل في منامه لم خص السلام بالمؤمنين دون الله والملائكة ؟ ولم يذكر له جواباً ؟ .

قلت: وقد لاح لي فيه نكتة سرية أي شريفة ، وهي أن السلام تسليمه عما يؤذيه ، فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبي والأذية إنما هي من البشر فناسب التخصيص بهم ، والتأكيد ، وإليه الإشارة بما ذكر بعده قاله الشهاب .

وأقول : هذه الآية من باب الاكتفاء على حد قوله : سرابيل تقيكم الحر والمعنى : إن الله وملائكته يصلون على النبي ويسلمون ، وقد ثبت بالأدلة الصحيحة القرآنية وغيرها تسليم الله تعالى على غيره ﷺ من الأنبياء والصلحاء ، والنكتة التي ذكرها الشهاب لا تخلو عن تكلف وبعد تأمل . وعن كعب بن عجرة قال : لما نزلت : (إن الله وملائكته) الآية قلنا : يا رسول الله

قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم ، وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه بلفظ : قال رجل : يا رسول الله أما السلام عليك فقد علمناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قل : اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على إبـراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأحمد ، والنسائي من حديث طلحة بن عبيد الله قال : قلت : يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال : قل : اللهم صلّ على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد .

وفي الأحاديث اختلاف ، ففي بعضها على إبراهيم فقط ، وفي بعضها على آل ابراهيم فقط ، وفي بعضها بالجمع بينهما ، كحديث طلحة هذا . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك : فقال رسول الله ﷺ قولوا : اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً ، وفي بعضها التقييد بالصلاة كما في حديث ابن مسعود عند ابن خزيمة والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه أن رجلاً قال : يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا الحديث .

وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله وجميع التعليمات

الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث ، فينبغي للمصلي عليه أن يضم آله إليه في صلاته عليه ، وقد قال بذلك جماعة ، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي ، كما رواه عنهما ابن كثير في تفسيره ، ولا حاجة إلى التمسك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به ، ولا وجه لقول من قال : إن هذه التعليمات الواردة عنه (ﷺ) في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حملاً لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد لما في حديث كعب بن عجرة وغيره أن ذلك السؤال لرسول الله (ﷺ) كان عند نزول الآية ، وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) وآله وسلم قال : صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني ، ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال :

﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ قيل المراد بالأذى هنا هو فعل ما يكرهانه من المعاصي ليعم هذا القدر الإيذاء الحقيقي في حق الرسول ، والمجازي في حقه تعالى ، لاستحالة حقيقة التأذي عليه سبحانه ، قال الواحدي قال المفسرون : هم المشركون واليهود والنصارى وصفوا الله بالولد ، فقالوا عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، والملائكة بنات الله ، وكذبوا رسول الله وشجوا وجهه ، وكسروا رباعيته ، وقالوا : مجنون، شاعر، كذاب، ساحر وبه قال ابن عباس.

قال القرطبي : وبهذا قال جمهور العلماء ، وقال عكرمة الأذية لله سبحانه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقال جماعة: ان الآية على حذف مضاف والتقدير : إن الذين يؤذون أولياء الله ، وقيل : معنى الأذية الإلحاد في أسمائه وصفاته وأما أذية رسوله فهي كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال ، ومنه ترك الاتباع ، وفعل التقليد لآراء الرجال

وإيثاره عليه .

﴿ لعنهم الله ﴾ معنى اللعنة الطرد والابعاد من رحمته ، وجعل ذلك ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم مصاحبة لهم.

﴿ وأعد لهم ﴾ مع ذلك اللعن ﴿ عذاباً مهيناً ﴾ يصيرون به في الاهانة في الدار الآخرة ، لما يفيده معنى الاعداد من كونه في الدار الآخرة ، عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في الذين طعنوا على النبي (ﷺ) حين اتخذ صفية بنت حيي ، وروي عنه : أنها نزلت في الذين قذفوا عائشة ، ثم لما فرغ من الذم لمن آذى الله ورسوله ذكر الأذية لصالحي عباده فقال:

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ بوجه من وجوه الأذى من قول ، أو فعل ومعنى قوله : ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ إنه لم يكن ذلك بسبب فعلوه يوجب عليهم الأذية ويستحقونها به وقيل : يقعون فيه ويرمونهم بغير جرم ، فأما الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبوه مما يوجب عليه حداً أو تعزيراً أو نحوهما فذلك حق أثبته الشرع ، وأمر أمرنا الله به وندبنا إليه وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أي وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقال:

﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ أي ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم ، وقد تقدم بيان حقيقة البهتان وحقيقة الإثم .قيل :إنها نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه . وقيل نزلت في شأن عائشة وقيل نزلت في الزناة كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء وهن كارهات ،وعن الفضيل: لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات ولما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله والمؤمنين والمؤمنات من عباده ، أمر رسول الله (ﷺ) أن يأمر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار ، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، قال الجوهري : الجلباب الملحفة ، وقال الشهاب إزار واسع يلتحف به ، وقيل : القناع وقيل : هو كل ثوب يستر جميع بدن المرأة من كساء وغيره كما ثبت في الصحيح من حديث أم عطية أنها قالت يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ فقال : (لتلبسها أختها من جلبابها) قال الواحدي قال المفسرون : يغطين وجوههن ورؤوسهن إلا عيناً واحدة فيعلم أنهن حرائر فلا يعرض لهن بأذى ، وبه قال ابن عباس ، وقال الحسن : تغطي نصف وجهها ، وقال قتادة : تلويه فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه ، وقال المبرد : يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن ، و(من) للتبعيض أي ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز عن الأمة .

﴿ ذلك ﴾ أي إدناء الجلابيب وهو مبتدأ وخبره ﴿ أدنى ﴾ أقرب ﴿ أن يعرفن ﴾ فيتميزن عن الإماء ويظهر للناس أنهن حرائر ﴿ فلا يؤذين ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن مراقبة لهن ولأهلهن ، وليس المراد بقوله ذلك الخ أن تعرف الواحدة منهن من هي ، بل المراد أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء لأنهن لبسن لبسة تختص بالحرائر .

قال السبكي : في الطبقات الكبرى إن من أئمة الشافعية أحمد بن عيسى

شارح التنبيه استنبط من هذه الآية أن ما يفعله علماء هذا الزمان في ملابسهم من سعة الأكمام والعمة ولبس الطيلسان حسن ، وإن لم يفعله السلف ، لأن فيه تمييزاً لهم ، وبذلك يعرفون فيلتفت إلى فتاواهم وأقوالهم انتهى . ومنه يعلم أن تمييز الأشراف بعلامة أمر مشروع أيضاً انتهى .

أقول ما أبرد هذا الاستنباط وما أقل نفعه ، لا سيما بعد ما ورد في السنة المطهرة من النهي عن الإسراف في اللباس وإطالته ، وقد منع عن ذلك سلف الأمة وأئمتها فأين هذا من ذاك؟ وإنما هو بدعة أحدثها علماء السوء ومشايخ الدنيا ولذا قال علي القاري في معرض الذم : « لهم عمائم كالأبراج ، وكمائم كالأخراج » وأنكر عليهم ذلك أشد الإنكار ، وما ذكره من أن زي العلماء والأشراف سنة رده ابن الحاج في المدخل بأنه مخالف لزيهم في زمن النبي (ﷺ) وزمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خير القرون ، فإن قيل إنهم به يعرفون ، قيل إنهم لو بقوا على الزي الأول عرفوا به أيضاً لمخالفته لما عليه غيرهم الآن وأطال في إنكار ما قالوه ، وقد بسطنا القول على ذلك في حجج الكرامة بالفارسية أيضاً فراجعه .

﴿ وكان الله غفوراً ﴾ لما سلف من ترك إدناء الجلابيب ﴿ رحيماً ﴾ بهن أو غفوراً لذنوب المذنبين رحيماً بهم ، فيدخل في ذلك دخولاً أولياً .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر فقال : يا سودة أما والله ما يخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله (ﷺ) في بيتي ، وإنه ليتعشى ، وفي يده عرق ، فدخلت وقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال عمر : كذا وكذا فأوحي إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن .

وعن أبي مالك قال : كان نساء النبي (ﷺ) يخرجن لحاجتهن بالليل وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فَيَؤْبن فقيل ذلك للمنافقين فقالوا : إنما

نفعله بالإماء فنزلت هذه الآيـة: ﴿يـا أيها النبي قل لأزواجـك﴾ الآية.

وعن محمـد بن كعب القرظي قـال:كـان رجـل من المنـافقـين يتعـرض لنسـاء المؤمنين يؤذيهن فإذا قيل له قال كنت أحسبها أمة ، فأمرهن الله أن يخالفن زي الإماء ويدنين عليهن من جلابيبهن ، تخمر وجهها إلا إحدى عينيها ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، يقول ذلك أحرى أن يعرفن .

وعن ابن عباس في هذه الآية قال:أمـر الله نساء المؤمنـين إذا خرجن من بيـوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجـلابيب ، ويبدين عيناً واحدة ، وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية يدنين عليهن من جلابيبهن خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسنها هكذا في الرواية بلفظ : من السكينة ، وليس لها معنى فإن المراد تشبيه الأكسية السود الغربان لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال : كأن على رؤوسهن الطير .

وعن عائشة قالت : رحم الله نساء الأنصار لمانزلت: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ الآية شققن مروطهن فاعتجرن بها فصلين خلف رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهن الغربان .

وعن ابن عباس في الآية قال: كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيهن وإدناء الجلباب أن تقنع وتشده على جبينها .

قال أنس: مرت بعمر بن الخطاب جارية متنقبة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع تتشبهين بالحرائر ألقي القناع ، قلت: ولكاع كلمة تقال لمن يستحقر به مثل العبد ، والأمة ، والخامل ، والقليل العقل ، مثل قولك: يا خسيس ، وذلك أن النساء في أول الإسلام على هاجراتهن في الجاهلية متبذلات ، تبرز المرأة في درع وخمار لا فصل بين الحرة والأمة .

وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيمان ـ للإمـاء، وربما تعرضوا للحرة لحسبان الأمة فأُمـرن أن يخالفن بزيهن

عن زي الإماء بلبس الملاحف وستر الرؤوس والوجوه ، فلا يطمع فيهن طامع ، ثم توعد سبحانه أهل النفاق والإرجاف فقال :

﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب ﴿والمرجفون في المدينة﴾ عما يصدر منهم من الارجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين وظهور المشركين عليهم .

قال القرطبي :أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد ، والمعنى أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين فهو على هذا من باب قوله :

إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتيبة في المزدحم

والواو مقحمة . وقيل الموصوف متغاير ومتعدد، فكان من المنافقين قوم يرجفون وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقال عكرمة وشهر بن حوشب : الذين في قلوبهم مرض هم الزناة . من قوله :﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾، والمرض هو الزنا والإرجاف في اللغة إشاعة الكذب والباطل ، يقال:أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقته لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت من الرجفة ، وهي الزلزلة ، يقال: رجفت الأرض أي تحركت وتزلزلت ترجف رجفاً ، والرجفان الاضطراب الشديد ، وسمي البحر رجافاً لاضطرابه ، والإرجاف واحد الأراجيف ، وأرجفوا في الشيء خاضوا فيه ، وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا ، وتارة بأنهم قتلوا ، وتارة بأنهم غلبوا ، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار فتوعدهم الله سبحانه بقوله:

﴿ لنغرينك بهم ﴾ أي لنحرشنك ولنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك ، قال المبرد : قد أغراه الله بهم في قوله الآتي: (ملعونين أينما ثقفوا)إلخ فهذا فيه معنى الأمر بقتلهم وأخذهم أي هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والارجاف ؛ قال النحاس : وهذا من أحسن ما

قيل في الآية ، وأقول ليس هذا بحسن ولا أحسن ، فإن قوله ملعونين إلخ ، إنما هو لمجرد الدعاء عليهم لا أنه أمر لرسوله (ﷺ) بقتالهم ولا تسليط له عليهم ، وقد قيل :إنهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الإرجاف فلم يغره الله بهم ، وجملة لنغرينك بهم ، جواب القسم .

﴿ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾ وإنما عطف بثم لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه يعني أنها للتفاوت الرتبي والدلالة على أن ما بعدها أبعد مما قبلها ، وأعظم وأشد عندهم ، والمعنى لا يساكنونك في المدينة إلا جواراً قليلاً حتى يخرجوا أو يهلكوا .

﴿ ملعونين أينما ثقفوا ﴾ أي مطرودين أينما وجدوا وأدركوا ﴿ أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا ، والتشديد يدل على التكثير وقيل:إن هذا هو الحكم فيهم وليس بدعاء عليهم ، والأول أولى ، وقيل معنى الآية:أنهم إن أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون .

وقد فعل بهم ﷺ هذا فإنه لما نزلت سورة براءة جمعوا ، فقال : النبي (ﷺ): « يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا إخراجهم من المسجد » .

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي سن الله ذلك في الأمم الماضية وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم ، وكذا حكم المرجفين وهو منتصب على المصدر قال الزجاج: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا .

﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي تحويلاً وتغييراً ، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف ، يجريها الله مجرى واحداً في الأمم لإثباتها على أساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع ، وقال الخطيب: أي ليست هذه السنة مثل الحكم الذي يتبدل وينسخ ، فإن النسخ يكون في الأقوال أما الأفعال إذا وقعت والأخبار فلا تنسخ .

يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا
﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠
﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ
مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ
فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟
قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾

﴿ يسألك الناس عن الساعة ﴾ أي عن وقت حصولها ووجودها وقيامها ، قيل السائلون عنها هم أولئك المنافقون والمرجفون والمشركون واليهود لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعاداً وتكذيباً ، أو امتحاناً ، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوارة وسائر الكتب ﴿ قل إنما علمها عندالله ﴾ يعني أنه سبحانه قد استأثر به ولم يطلع عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً .

﴿ وما يدريك ﴾ أي ما يعلمك ويخبرك يا محمد ﴿ لعل الساعة تكون قريباً ﴾ أي في زمان قريب وانتصاب قريباً على الظرفية والتذكير لكون الساعة في معنى اليوم ، أو الوقت مع كون التأنيث ليس بحقيقي ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها ـ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فكيف بغيره من الناس وفي هذا تهديد عظيم للمستعجلين وإسكات للممتحنين والمشركين ؛ ولمن يثبت علم المغيبات للأنبياء والصلحاء وغيرهم من الخلق .

﴿ إن الله لعن الكافرين ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ وأعد

لهم ﴾ في الآخرة مع ذلك اللعن منه لهم في الدنيا ﴿ سعيراً ﴾ أي ناراً شديدة التسعّر ﴿ خالدين فيها ﴾ أي في السعير لأنها مؤنثة أو لأنه في معنى جهنم ﴿ أبداً ﴾ بلا انقطاع وهذا تأكيد لما استفيد من خالدين ﴿ لا يجدون ولياً ﴾ يواليهم ويحفظهم من عذابها ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصرهم ويخلصهم منها .

﴿ يوم تقلب وجوههم في النار ﴾ أي اذكر قرىء تقلب بضم التاء وفتح اللام على البناء للمفعول وقرىء بالنون وكسر اللام على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه وبضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم وقرىء بفتح التاء واللام على معنى تتقلّب ، ومعنى هذا التقلب المذكور في الآية هو تقلبها تارة على جهة منها وتارة على جهة أخرى ظهراً لبطن أو تغير ألوانهم بلفح النار فتسود تارة وتخضر أخرى أو تبديل جلودهم بجلود أخرى وخصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده أو يكون الوجه عبارة عن الجملة فحينئذ .

﴿ يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ الجملة مستأنفة كأنه قيل فما حالهم ؟ فقيل يقولون : متحسرين على ما فاتهم أو حال من ضمير وجوههم أو من نفس الوجوه تمنوا أنهم أطاعوا الله والرسول وآمنوا بما جاء به لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون وهذه الألف في(الرسولا)والتي تأتي في (السبيلا)هي الألف التي تقع في الفواصل ، وتسميها النحاة ألف الإطلاق ، لإطلاق الصوت كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقوف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف ، وقد سبق بيان هذا في أول هذه السورة .

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ﴾ وقرىء ساداتنا بكسر التاء جمع سادة فهو جمع الجمع وسادة جمع على غير قياس سواء جعل جمعاً لسيد أو سائد والجملة معطوفة على الجملة الأولى ، والعدول إلى الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق ، بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة ، والمراد بالسادة

والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ، ويقتدون بهم . وقال مقاتل: هم المطعمون في غزوة بدر والأول أولى . ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة ، والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار ، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة .

وفي هذا زجر عن التقليد شديد ، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه والتنفير عنه ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ، ومزيد البلادة ، وشدة التعصب .

﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ أي عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله وبرسله والسبيل هو التوحيد ، ثم دعوا عليهم في ذلك الموقف فقالوا :

﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أي مثل عذابنا مرتين للضلال والإضلال وقال قتادة عذاب الدنيا والآخرة ، وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ﴿ والعنهم لعناً كبيراً ﴾ أي كبيراً في نفسه شديداً عليهم وقرىء بالمثلثة أي كثيراً لعدد عظيم القدر شديد الموقع .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ﴾ بقولهم إن به أدرة أو برصا أو عيبا ، وسيأتي بيان ذلك ، وفيه تأديب للمؤمنين وزجر لهم من أن يدخلوا في شيء من الأمور التي تؤذي رسول الله ﷺ. قال مقاتل: وعظ الله المؤمنين أن لا يؤذوا محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى ، وقد وقع الخلاف فيما أوذي به نبينا ﷺ حتى نزلت هذه الآية فحكى النقاش: أن أذيتهم محمداً صلى الله عليه وسلم قولهم: زيد بن محمد ، وقال أبو وائل : إنه صلى الله عليه وسلم قسم قسماً فقال رجل من الأنصار : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .

وعن ابن مسعود مثله ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه ، ثم قال: [رحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر]. أخرجه

البخاري ومسلم وغيرهما ، وقيل : نزلت في زيد بن ثابت ، وزينب بنت جحش وما سمع فيها من قالة الناس .

﴿ فبرأه ﴾ أي طهره ﴿ الله مما قالوا ﴾ وأظهر براءته لهم وما مصدرية أو موصولة وأيهما كان ، فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤداه ، وهو الأمر المعيب وأذى موسى هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها .

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أُدْرَةٌ، وإما آفة وإن الله عز وجل أراد أن يبرىء موسى مما قالوا فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً].

وأخرج نحوه البزار وابن الأنباري وابن مردويه من حديث أنس وقال ابن عباس : قال له قومه إنه آدر فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه فخرج موسى يتبعها عرياناً حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل فرأوه وليس بآدر فذلك قوله: (فبرأه الله مما قالوا) الآية.

وأخرج الحاكم وصححه ، عن ابن مسعود وناس من الصحابة أن الله أوحى إلى موسى أني متوف هارون فأت به جبل كذا وكذا فانطلقا نحو الجبل فإذا هم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيب، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال موسى: إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال : نم عليه ، قال نم معي فلما ناما أخذ هارون الموت فلما قبض

رفع ذلك البيت وذهبت الشجرة ورفع السرير إلى السماء .

فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: قتل هارون وحسده حب بني إسرائيل ، وكان هارون أألف بهم وألين لهم ، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم ، فلما بلغه ذلك قال: ويحكم إنه كان أخي أفتروني أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أي عظيماً ذا وجاهة ، والوجيه العظيم القدر الرفيع المنزلة ، يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، وقيل: مستجاب الدعوة ، وقيل: الوجاهة أنه كلمه تكليماً ، وقرأ عبدالله بالموحدة من العبودية ، وهي حسنة ، قاله الكرخي .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ في كل أمر من الأمور ﴿ وقولوا قولاً سديداً ﴾ أي صواباً وحقاً قال قتادة ومقاتل: يعني في شأن زيد وزينب ، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل ، وقال عكرمة : إن القول السديد : لا إله إلا الله ، وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه ، وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره ، وقيل : هو الإصلاح بين الناس ، والسديد مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض ، والظاهر من الآية أنه أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه ويذرونه فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع ، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم ، فالمقام يفيد هذا المعنى لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال : [صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ثم قال : على مكانكم اثبتوا ثم أتى الرجال فقال : إن الله أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وأن تقولوا قولاً سديداً ، ثم أتى النساء فقال : إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله ، وأن تقلن قولاً سديداً]، ثم ذكر الله سبحانه ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى والقول السديد من الأجر فقال :

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا
﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿ يصلح لكم أعمالكم ﴾ أي يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديكم إليه ، ويوفقكم فيه ، أو يتقبلها ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي يجعلها مكفرة مغفورة ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ في فعل ما هو طاعة واجتناب ما هو معصية .

﴿ فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ أي ظفر بالخير ظفراً عظيماً ونال خير الدنيا والآخرة وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما هو لأهل الطاعة من الخير بعد بيانٍ ما لأهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها فقال :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ أي خفن من الأمانة أن يؤدينها فيلحقهن العقاب ، أو خفن من الخيانة فيها ، واختلف في تفسير الأمانة المذكورة هنا ، فقال الواحدي :معنى الأمانة ههنا في قول جميع المفسرين : الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب ، قال القرطبي : الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور ، وقد اختلف في تفاصيل بعضها فقال ابن مسعود : هي في أمانة الأموال كالودائع وغيرها ، وروي عنه أنها في كل الفرائض وأشدها أمانة المال .

وقال أبيّ ابن كعب:من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها ، وقال أبو الدرداء:غسل الجنابة أمانة ، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها ، وقال ابن عمر:أول ما خلق الله من الإنسان فرجة ، وقال هذه أمانة أستودعكها فلا تلبسها إلا بحق فإن حفظتها حفظتك فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

وقال السدي : هي ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل وخيانته إياه في قتله وما أبعد هذا القول ، وليت شعري ما هو الذي سوغ للسدي تفسير هذه الآية بهذا ؟ فإن كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل ، وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد حتى يكون له في ذلك متمسك أبعد من كل بعيد ، وأوهن من بيت العنكبوت ، وإن كان تفسير هذا عملاً بما تقتضيه اللغة العربية فليس في لغة العرب ما يقتضي هذا ويوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شيء كان في أول هذا العالم .

وإن كان هذا تفسيراً منه بمحض الرأى فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به ، ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن برأيه فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير ، واشدد يديك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية فهو قرآن عربي كما وصفه الله ، فإن جاءك تفسير عن رسول الله ﷺ فلا تلتفت إلى غيره . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، وكذلك ما جاء عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فإنهم من جملة العرب ومن أهل اللغة وممن جمع إلى اللغة العربيـة العلم بالاصـطلاحات الشرعية ، ولكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به في لغة العرب ، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها ، فخذ هذه كلية تنتفع بها ، وقد ذكرنا في خطبة هذا التفسير ما يرشدك إلى هذا .

قال الحسن:إن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فقالت:

وما فيها ؟ فقال لها إن أحسنت آجرتك ، وإن أسأت عذبتك ، فقالت لا . قال مجاهد فلما خلق الله آدم عرضها عليه ، وقيل له ذلك ، فقال قد تحملتها . وروي نحو هذا عن غير الحسن ومجاهد قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير .

وقيل: هذه الأمانة هي ما أودعه الله في السموات والأرض والجبال وسائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها كذا قال بعض المتكلمين مفسراً للقرآن برأيه الزائف ، فيكون على هذا معنى عرضنا أظهرنا ، قال جماعة من العلماء: ومن المعلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب فلا بد من تقدير الحياة فيها ، وهذا العرض في الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام ، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها ، والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لأمره ساجدة له ، وقيل : المراد بالعرض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها ، وقال القفال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل أي أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب أي أن التكليف أمر عظيم حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل وهذا كقوله ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾ .

وقيل : إنا عرضنا بمعنى عارضنا أي عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ورجحت الأمانة بثقلها عليها ، وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، إنما كان من آدم عليه السلام وإن أمره أن يعرض ذلك عليها وهذا أيضا تحريف لا تفسير ، وقد قيل : إن المراد بالأمانة العقل ، والراجح ما قدمناه عن الجمهور وما عداه فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربي ، ولا انطباقه على ما يقتضيه الشرع ، ولا موافقته لما تقتضيه التعريف بالأمانة .

عن ابن عباس في الآية قال: لأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها.

وعنه في الآية قال: عرضت على آدم فقيل خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك، قال: قبلتها بما فيها فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب، وعنه: هي أمانات الناس، والوفاء بالعهود، فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً، ولا معاهداً في شيء لا في قليل ولا في كثير، فعرض الله هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال، وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف.

وإنما أتى في قوله فأبين إلخ بضمير كضمير الإناث لأن جمع تكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك، وإن كان مذكراً وإنما ذكرنا ذلك لئلا يتوهم أنه قد غلب المؤنث وهو السموات على المذكر وهو الجبال.

﴿ وحملها الإنسان ﴾ أي التزم بحقها وهو آدم بعد عرضها عليه؛ قيل إن ما كلف الإنسان حمله بلغ من عظمه وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الأجرام وأقواه وأشده أن يحتمله ويشتغل به فأبى حمله وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه وضعف قوته.

قال الزجاج: معنى حملها خان فيها وجعل الآية في الكفار والفساق والعصاة. وقيل: معنى حملها كُلِّفَها وأُلْزِمَها أو صار مستعداً لها بالفطرة أو حملها عند عرضها عليه في عالم الذر، عند خروج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق عليهم.

﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ أي وهو في ذلك الحمل ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه، أو جهول لقدر ما دخل فيه كما قال سعيد بن جبير أو جهول بأمر ربه كما قال الحسن، وقيل ظلوماً حين عصى ربه، جهولاً لا يدري ما العقاب

في ترك الأمانة . وقيل: ظلوماً جهولاً حيث حمل الأمانة ولم يف بها ، وضمنها ولم يف بضمانها ، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب ، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم وفي تفسير الآية أقوال أخر والأول أولى وهو قول السلف .

﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ متعلق بحملها أي حملها الإنسان ليعذب الله العاصي ويثيب المطيع وعلى هذا فجملة﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾معترضة بين الجملة ، وغايتها الإيذان بعدم وفائه بما تحمله ، قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : ليعذبهم بما خانوا من الأمانة وكذبوا من الرسل ونقضوا من الميثاق الذي أقروا به حين أخرجوا من ظهور آدم وقال الحسن وقتادة: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها ، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أدوها والالتفات الى الاسم الجليل أولاً لتهويل الخطب وتربية المهابة والإظهار في موضع الاضمار ثانياً في قوله:

﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكلٍ من مقامي الوعيد والوعد حقه والله أعلم. أي يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة . قال ابن قتيبة: أي عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك . فيعذبها الله ويظهر إيمان المؤمن فيعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات ، ولذلك ذكر بلفظ التوبة فدل على أن المؤمن العاصي خارج من العذاب .

﴿ وكان الله غفوراً ﴾ أي كثير المغفرة للمؤمنين التائبين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم من الأمانة وغيرها حيث عفا عن فرطاتهم .

﴿ رحيماً ﴾ بهم حيث أثابهم بالعفو على طاعتهم ، مكرماً لهم بأنواع الكرم وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الأمانة وذكر رفعها عن القلوب عند قرب الساعة فلا نطول بذكرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة سبأ

﴿ هي أربع أو خمس وخمسون آية ، وهي مكية ﴾

قال القرطبي : في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها وهي قوله : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك ﴾ . فقالت فرقة: هي مكيّة . وقالت فرقة : هي مدنية . وسيأتي الخلاف في معنى هذه الآية إن شاء اللّه تعالى ، وفيمن نزلت. وعن ابن عباس قال : نزلت سورة سبأ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى
لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ
أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

﴿ الحمد لله ﴾ التعريف إن أجري على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود ، وإن أجري على الاستغراق فالتعريف مشعر باستحقاق جميع أفراد الحمد لله سبحانه على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب . وقيل : معناه أن كل نعمة من الله فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه واللام لام التمليك لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلاً ، وقيل هي لام التخصيص والمعنى متقارب أي وله بكل المحامد الاختصاص .

﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ معناه أن جميع ما هو فيهما في ملكه وتحت تصرفه يفعل به ما يشاء ويحكم فيه بما يريد ، فكل نعمة واصلة إلى العبد فهي مما خلقه له ومَنّ به عليه ، فحمده على ما في السموات والأرض هو حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم ، ولما بين أن الحمد الدنيوي من عباده الحامدين له مختص به ، بين أن الحمد الأخروي مختص به كذلك أيضاً فقال :

﴿ وله الحمد في الآخرة ﴾ كما له في الدنيا لأن النعم في الدارين كلها منه ، وقيل المعنى أن له على الاختصاص حمد عباده الذي يحمدونه في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة كما في قوله ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ وقوله (الحمد لله الذي هدانا لهذا) وقوله ﴿الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن﴾ وقوله ﴿الحمد لله الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ وقوله ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ فهو سبحانه المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا ، غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار تكليف وثم لا ، لعدم التكليف وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم ، كما ورد : يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس .

﴿ وهو الحكيم ﴾ الذي أحكم أمر الدارين ﴿ الخبير ﴾ بأمر خلقه فيهما ، وبضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض ، ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والأرض التي نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية فقال :

﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي ما يدخل ويوضع فيها من مطر أو كنز أو دفين أو أموات ﴿وما يخرج منها﴾ من زرع ونبات وحيوان وشجر وعيون ومعادن وأموات إذا بعثوا ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من الأمطار والسروج والثلوج والبرد والصواعق وأنواع البركات ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكته وكتبه إلى أنبيائه قُرِىء : ينزِل مسنداً إلى ما وينزّل مشدداً مسنداً إلى الله سبحانه .

﴿وما يعرج فيها﴾ أي في السماء من الملائكة ، وأعمال العباد والدعوات وضمن العروج معنى الاستقرار فعداه بفي دون إلى ، والسماء جهة العلو مطلقاً ﴿ وهو الرحيم ﴾ بعباده ﴿ الغفور ﴾ لذنوبهم وتفريطهم في أداء ما وجب عليهم من شكر نعمه .

﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ المراد بهؤلاء القـائلين جنس الكفرة على الإطلاق أو كفار مكة على الخصوص والأول أولى ، والمعنى لا تأتي بحال من الأحوال إنكار منهم لوجودها بـالكلية لا بمجـرد إتيانها في حـال تكلمهم ، أو في حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد ، وإنما عبروا عنها بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها فرد الله عليهم كلامهم وأثبت ما نفوه وأمر رسوله أن يقول لهم :

﴿ قل : بلى ﴾ على معنى ليس الأمر الا إتيانها ﴿ وربي لتأتينكم ﴾ وهذا القسم لتأكيد الإتيان على أتم الوجوه وأكملها. قـرىء: لتأتينكم بالفـوقية أي الساعة ، وبالتحتية على تأويل الساعة باليوم أو الوقت ، كأنه قال: ليأتينكم البعث أو أمره كما قال ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾.

﴿ عالم الغيب ﴾ تقوية للتأكيد لأن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثبـاتـه وصحته ، لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر ﴿ لا يعزب ﴾ أي لا يغيب ﴿ عنه ﴾ ولا يستر عليه ولا يبعد عنه من عزب يعزب ـ بكسر الزاي ـ إذا غاب وبعد وخفي وقرىء بضم الزاي ، قال الفراء : والكسر أحب إليّ وهما لغتان ﴿ مثقال ذرة ﴾ أي مقدار أصغر نملة ووزن ذرة .

﴿ في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ﴾ أي من مثقال ذرة وفيه إشارة إلى أن مثقال لم يذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً ، ولو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته فقال ﴿ ولا أكبر ﴾ منه ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه ومكتوب فيه فهو مؤكد لنفي العزوب .

لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ
إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ اللام للتعليل لقوله لتأتينكم أي إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب ﴿ أولئك ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ ورزق كريم ﴾ أي حسن وهو الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من الله سبحانه ، ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة فقال:

﴿والذين سعوا في﴾ إبطال ﴿آياتنا﴾ المنزلة على الرسل وقدحوا فيها وصدّوا الناس عنها وجاهدوا في ردها بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك لأن المكذب آت بإخفاء آيات بينات؛ فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به.

﴿ معاجزين ﴾ مقدرين عجزنا أو مسابقين لنا يحسبون أنهم يفوتوننا ولا يدركون ، وذلك باعتقادهم أنهم لا يبعثون ، يقال: أعجزه وعاجزه إذا غالبه وسبقه. قرىء: معاجزين ومعجزين أي مثبطين للناس عن الايمان بالآيات ﴿ أولئك ﴾ الذين سعوا ﴿ لهم عذاب من رجز ﴾ الرجز هو العذاب فمن للبيان وقيل الرِّجز هو أسوأ العذاب وأشده والأول أولى .

ومن ذلك قوله فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴿ أليم ﴾ أي الشديد الألم ، ولما ذكر الذين سعوا في إبطال آيات الله ذكر الذين يؤمنون بها فقال:﴿ ويرى ﴾ أي يعلم ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ وهم الصحابة قاله قتادة وقال مقاتل:هم مؤمنو أهل الكتاب .

وقيل : جميع المسلمين ، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في الآيات، أي أن ذلك السعي منهم يدل على جهلهم ، لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم في شأن الكتاب .

﴿ الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ أي الصدق يعني أنه من عند الله ﴿ ويهدي إلى صراط ﴾ معطوف على الحق عطف فعل على اسم لأنه في تأويله كما في قوله:﴿صافات ويقبضن﴾ أي : وقابضات كأنه قيل وهادياً وقيل إنه مستأنف وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل ، وهو القرآن ، والصراط : الطريق أي :ويهدي إلى طريق .

﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحميد ﴾ عند خلقه والمراد أن يهدي إلى دين الله الاسلام وهو التوحيد ، ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من كلام منكري البعث فقال :

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ بعضهم لبعض : ﴿ هل ندلكم على رجل ؟ ﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل يعنون محمداً ﷺ ، والتعبير برجل المنكر من باب التجاهل ، كأنهم لم يعرفوا منه إلا أنه رجل وهو عندهم أشهر من الشمس قاله الشهاب ، وقال القرطبي : كانوا يقصدون بذلك السخرية والهزأة .

﴿ ينبئكم ﴾ يخبركم بأمر عجيب ونبأ غريب هو أنكم ﴿ إذا مزقتم كل ممزق ﴾ أي فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع وصرتم بعد موتكم رفاتاً وتراباً ، وقال الكرخي : أي كل مكان تمزيق من القبور ، وبطون الوحش والطير .

﴿ إنكم لفي خلق جديد ﴾ أي تخلقون وتنشأون خلقاً جديداً ، وتبعثون

من قبوركم أحياء ، وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها بعد أن تمزقت أجسادكم كل تمزيق ، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث ، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به والتضاحك مما يقوله من ذلك ، قال الزجاج: التقدير إذا مزقتم كل ممزق بعثتم أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم ، وأصل المزق: خرق الأشياء يقال ثوب مزيق وممزق ومتمزق وممزوق .

وعن قتادة في الآية قال : قال ذلك مشركو قريش ، إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتاً وعظاماً وتقطعتكم السباع والطير ، أنكم ستحيون وتبعثون ، قالوا ذلك تكذيباً له ، وجديد عند البصريين بمعنى فاعل ، يقال جد الشيء فهو جاد ، وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جددته أي قطعته ، ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم رددوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين فقالوا :

﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة ؟﴾ أي أهو كاذب فيما قاله ، أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله. قال قتادة: إما أن يكون يكذب على الله وإما أن يكون مجنوناً والهمزة في أفترى همزة الاستفهام وحذفت لأجلها همزة الوصل كما تقدم في قوله﴿أطَّلع الغيب﴾ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله فقال :

﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل هم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق فكفروا بالآخرة ، ولم يؤمنوا بما جاءهم به فصاروا بسبب ذلك ﴿ في العذاب ﴾ الدائم في الآخرة وهم اليوم .

﴿ والضلال البعيد ﴾ عن الحق غاية البعد ، ثم وبخهم سبحانه بما اجترأوا عليه من التكذيب مبيناً لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكر والتدبر في خلق السماء والأرض ، وأن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات فقال :

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ
(٩) ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ
(١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)﴾

﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم ، وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والمعنى أَعَموا فلم يروا ومن المعلوم أن ما بين يدي الإنسان هو كل ما يقع نظره عليه من غير أن يحول وجهه إليه وخلفه هو كل ما لا يقع نظره عليه حتى يحول نظره إليه فيعم الجهات كلها أي أنهم إذا نظروا رأوا السماء قدامهم وخلفهم ، وكذلك إذا نظروا إلى الأرض رأوها خلفهم وقدامهم ، فالسماء والأرض محيطتان بهم فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله . وإنكارهم للبعث .

فهذه الآية اشتملت على أمرين :

أحدهما : أن هذا الخلق الذي خلقه الله من السماء والأرض يدل على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث كما في قوله ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾.

والأمر الآخر : التهديد لهم بأن من خلق السموات والأرض على هذه الهيئة التي قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم كما قال :

﴿ إن نشأ نخسف بهمُ الأرض ﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم كقارون ﴿ أو نسقط عليهم كسفاً ﴾ أي قطعاً ﴿ من السماء ﴾ كما أسقطها على أصحاب الأيكة فكيف يأمنون ذلك ، وقال قتادة : إن يشأ أن يعذب بسمائه فعل ،

وإن يشأ أن يعذب بأرضه فعل ، وكل خلقه له جند ، قرىء بالنون وبالتحتية في الأفعال الثلاثة .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور المرئي من خلق السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظرين من جميع الجوانب ﴿ لآية ﴾ واضحة ودلالة بينة .

﴿ لكل عبد منيب ﴾ أي راجع إلى ربه بالتوبة والإخلاص ، وخص المنيب لأنه المنتفع بالتفكر ، وقال قتادة : منيب أي تائب مقبل إلى الله ، وقال هنا : لآية بالتوحيد ، وفيما بعد ذلك لآيات يجمعهاالأن ـ ما ـ هناإشارة إلى إحياء الموتى فناسب التوحيد . وما بعد إشارة إلى سبأ قبيلة تفرقت في البلاد فصاروا فرقاً فناسب الجمع ، ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود وسليمان كما قال في داود:﴿فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾. وقال في سليمان: ﴿وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ فقال :

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً ﴾ أي آتيناه بسبب إنابته فضلاً منا على سائر الأنبياء ، واختلف في هذا الفضل على أقوال فقيل النبوة وقيل الزبور وقيل العلم ، وقيل القوة كما في قوله﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾وقيل تسخير الجبال كما في قوله ﴿يا جبال أوّبي معه﴾، وقيل التوبة ، وقيل الحكم بالعدل ، كما في قوله ﴿ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بـالحق﴾، وقيل هو إلانة الحديد كما في قوله: ﴿وألنّاله الحديد﴾، وقيل حسن الصوت والأولى أن يقال: إن هذا الفضل المذكور هو ما ذكره الله بعده من قوله .

﴿ يا جبال ﴾ إلى آخر الآية أي قلنا له يا جبال ﴿ أوبي معـه ﴾ التأويب التسبيح كما في قوله: (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن)،قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة ، وقال ابن عباس: أوّبي سبحي .

وروي مثله عن مجاهد وعكرمة وابن زيد وكان إذا سبح داود سبحت

الجبال معه ، ومعنى تسبيحها أن الله يجعلها قادرة على ذلك أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود ، وقيل معنى أوبي سيري معه من التأويب الذي هو سير النهار ، أجمع قراء العامة أوبي على صيغة الأمر من التأويب وهو الترجيع والتسبيح أو السير أو النوح ، وقرىء أوبي بضم الهمزة أمراً من آب يؤوب إذا رجع أي ارجعي معه .

﴿ والطير ﴾ بالنصب عطفاً على(فضلاً)على معنى وسخرنا له الطير ، لأن إيتاءه إياها تسخيرها له أو نادينا الجبال والطير ، وقال سيبويه وأبو عمرو ابن العلاء :انتصابه بفعل مضمر على معنى ؛وسخرنا له الطير وقال الزجاج والنحاس: يجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول:استوى الماء والخشبة ، وقال الكسائي أي آتيناه فضلا وتسبيح الطير ، وفي هذا النظم من الفخامة ما لا يخفى .

﴿ وألنا له الحديد ﴾ أي جعلناه ليناً له ليعمل به ما شاء .

قال ابن عباس: كالعجين وقال الحسن:كالشمع يعمله من غير نار ، وقال السدي :كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة ، وكذا قال مقاتل ، وكان يفرغ من عمل الدرع في بعض يوم .

﴿ أن اعمل سابغات ﴾ أي بأن اعمل أو لأن اعمل أو ﴿ أن ﴾ مفسرة لقوله ألنا قاله الحوفي وفيه نظر ، لأنها لا تكون إلا بعد القول أو ما هو في معناه، وقيل: التقدير أمرناه أن اعمل ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، والمعنى دروعاً سابغات والسوابغ الكوامل الواسعات ، يقال: سبغ الدرع والثوب وغيرهما إذا غطى كل ما هو عليه ، وفضل منه فضلة ، وقرىء صابغات بالصاد لأجل الغين .

﴿ وقدر في السرد ﴾ السرد نسج الدروع ، ويقال: السرد والزرد كما يقال: السراد والزراد لصانع الدروع والسرد أيضاً الخرز ، يقال:سرد يسرد إذا خرز

ومنه سرد الكلام إذا جاء به متوالياً ، ومنه حديث عائشة : [لم يكن النبي ﷺ يسرد الحديث كسردكم] قال سيبويه : ومنه سريد أي جرى ، ومعنى سرْد الدروع إحكامها وأن يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف .

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود ثقالاً .فلذلك أمر هو بالتقدير فيها يجمع الخفة والحصانة ، أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه ، فلا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة . وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به في قدر الحلقة أي لا تعملها صغيرة فتضعف ، ولا يقوى الدرع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها .

وقيل : إن التقدير في المسمار أي لا تجعل مسمار الدرع دقيقاً فيقلق ولا غليظاً فيفصم الحلق ، وقال ابن عباس : قدر في السرد أي في حلق الحديد وعنه لا تدق المسامير وتوسع الحلق فتسلس ، ولا تغلظ المسامير وتضيق الحلق فتفصم ، واجعله قدراً.

وقال البقاعي : إنه لم تكن في حلقها مسامير لعدم الحاجة إليها بسبب إلانة الحديد ، وإلا لم يكن بينه وبين غيره فرق ، ولا كان للإلانة كبير فائدة وقد أخبر بعض من رأى ما نسب إليه بغير مسامير .

وقال الرازي :معناه إنك غير مأمور به أمر إيجاب وإنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة . وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل فيه القوت فحسب ، ثم خاطب داود وأهله فقال :

﴿ واعملوا ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ كما في قوله ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى على شيء من ذلك فأجازيكم به .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (١٤) ﴾

﴿ ولسليمان الريح ﴾ أي سخرنا له الريح كما قال الزجاج قرأ عاصم بالرفع على الابتداء والخبر أي ولسليمان الريح ثابتة أو مسخرة وقرىء :الريح والرياح بالإفراد والجمع .

﴿ غدوها ﴾ أي سيرها من الغدوة بمعنى الصباح إلى الزوال أي جريها من أول النهار إلى الزوال ﴿ شهر ورواحها ﴾ أي سيرها من الزوال إلى الغروب ﴿ شهر ﴾ والجملة مستأنفة لبيان تسخير الريح أو حالية من الريح والمعنى :أنها كانت تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين قال الحسن : كان يغدو من دمشق فيقبل باصطخر وبينهما مسيرة شهر للمسرع ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل أو ببابل وبينهما مسيرة شهر . وقيل : إنه كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند .

﴿ وأسلنا ﴾ أي أذبنا ﴿ له عين القطر ﴾ أي النحاس الذائب قال الواحدي قال المفسرون :أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء وكان بأرض اليمن ، وإنما يعمل الناس اليوم بما أعطى سليمان ولولاها ما لان النحاس أصلاً ، لأنه قبل سليمان لم يكن يلين أصلاً لا بنار ولا بغيرها والمعنى أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود .

وقال قتادة أسال الله له عيناً يستعملها فيما يريد . قال ابن عباس :

القطر النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان ، وإنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطي :سليمان ، وقال مجاهد القطر الصفر والمعنى : جعلنا النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته أي كالعين النابعة من الأرض .

﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ الإذن مصدر مضاف إلى فاعله أي مسخراً أو ميسراً بأمر ربه ﴿ ومن يزغ منهم ﴾ أي ومن يعدل من الجن ﴿ عن أمرنا ﴾ الذي أمرناه به وهو طاعة سليمان .

﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ قال أكثر المفسرين : وذلك في الآخرة ، وقيل في الدنيا قال السدي ، وكل الله بالجن ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه ، ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجن لسليمان فقال :

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾ من للبيان والمحاريب كل موضع مرتفع وهي الأبنية الرفيعة، والقصور العالية، والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال والمساكن .

قال المبرد : لا يكون المحراب إلا ان يرتقي اليه بدرج ومنه قيل للذي يصلي فيه محراب لأنه يرفع ويعظم ، وقال مجاهد: المحاريب دون القصور ، وقال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار وقال الضحاك وقتادة: المراد بالمحاريب هنا المساجد وكان مما عملوا له بيت المقدس .

﴿ وتماثيل ﴾ جمع تمثال وهو كل شيء مثلته بشيء أي صورته بصورته من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك قيل : كانت هذه التماثيل صور الأنبياء والملائكة والعلماء والصلحاء كانوا يصورونها في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً ، وفي الحديث «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة ليذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة» وقيل : هي تماثيل أشياء ليست من الحيوان ، وقيل : صور السباع والطيور .

وقد استدل بهذا على ان التصوير كان مباحاً في شرع سليمان ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ ، وعن ابن عباس قال :اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال : يا رب انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة فنفخ الله فيها الروح فكانت تخدمه ؛ وكان أسفنديار من بقاياهم فقيل لداود وسليمان﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾!!

﴿ وجفان ﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ﴿ كالجواب ﴾ جمع جابية وهي حفيرة كالحوض ، وقيل : هي الحوض الكبير يجبي الماء أي يجمعه. قال الواحدي : قال المفسرون يعني قصاعاً في العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها .

قال النحاس : الأولى إثبات الياء في الجوابي ومن حذف الياء قال : سبيل الألف واللام أن يدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها فلما كان يقال : جواب ،ودخلت الألف واللام أقر على حاله فحذف الياء ، قال الكسائي يقال جبوت الماء وجبيته في الحوض أي جمعته ، والجابية الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل وقال النحاس : والجابية القدر العظيمة ، والحوض العظيم الكبير الذي يجبى فيه الشيء أي يجمع ، ومنه جبيت الخراج وجبيت الجراد جمعته في الكساء ، وقال ابن عباس كالجوبة من الأرض .

﴿ وقدور راسيات ﴾ قال ابن عباس : اثافيها منها ، وقال قتادة :هي قدور النحاس تكون بفارس ، وقال النحاس : هي قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين ، ومعنى راسيات ثابتات لا تحمل ولا تحرك لعظمها ، وكان يصعد إليها بالسلالم ، وكانت باليمن قيل :إنها باقية بها إلى الآن ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم سليمان وأهله فقال .

﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ أي : وقلنا لهم : اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم واعملوا عملاً شكراً على أنه صفة مصدر

محذوف ، او اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو حال أي شاكرين أو مفعول به وسميت الطاعة شكراً لأنها من جملة أنواعه ، أو منصوب على المصدرية بفعل مقدر من جنسه ، أي اشكروا شكراً قيل : المراد بآل داود نفسه ، وقيل :داود وسليمان وأهل بيته ، وقيل .المعنى ارحموا أهل البلاء واسألوا ربكم العافية وسئل الجنيد عن الشكر فقال : بذل المجهود بين يدي المعبود ، ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده ليسوا بكثير فقال :

﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ أي العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي قليل وقال ابن عباس : يقول قليل من عبادي الموحدين توحيدهم والشكور المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه ، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً وكدحاً .

وعن ابن عباس : من يشكر على أحواله كلها ، وقيل من يشكر على الشكر ومن يرى عجزه عن الشكر وعن داود عليه السلام أنه جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات الا وإنسان من آل داود قائم يصلي .

﴿ فلما قضينا عليه الموت ﴾ أي حكمنا على سليمان به وألزمناه إياه ﴿ ما دلهم ﴾ أي الجن ﴿ على موته إلا دابة الأرض ﴾ يعني حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً ، وهي دويبة يقال لها:سرفة وقرىء : الأرض بفتح الراء أي الأكل يقال : أرضة الخشبة أرضاً إذا أكلتها الأرض .

﴿ تأكل منسأته ﴾ قال البخاري : يعني عصاه أي عصاته التي كان متكأ عليها والمنسأة العصا بلغة الحبشة أو هي مأخوذة من نسأت الغنم أي زجرتها .

قال الزجاج : المنسأة التي ينسأ بها أي يطرد ، قرأ الجمهور منسأته بهمزة مفتوحة وقرىء بهمزة ساكنة وبألف محضة قال المبرد : بعض العرب تبدل من همزتها ألفاً فلما أكلتها الأرضة شكرتها الجن وأحبوها فهم يأتونها بالماء

والـطين في خروق الخشب وزادالسـدي، وقـالـوا لها: لـو كنت تأكلين الـطعـام والشراب لأتيناك بهما .

﴿ فلما خر ﴾ أي سقط سليمان ﴿ تبينت الجن ﴾ أي ظهر لهم وانكشف من تبينت الشيء اذا علمتـه أي علمت الجن ﴿ أن لو كـانوا يعلمـون الغيب ما لبثـوا في العذاب المهين ﴾ أي لـو صح مـا يزعمـونه من أنهم يعلمـون الغيب

لعلموا بموته ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العذاب ، أي العمل الذي أمرهم به والطاعة له ، وهو إذ ذاك ميت .

قال مقاتل العذاب المهين : الشقاء والنصب في العمل.قال الواحدي قال المفسرون : كانت الناس في زمان سليمان يقولون: ان الجن تعلم الغيب فلما مكث سليمان قائماً على عصاه حولاً ميتاً والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة التي كانت تعمل في حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً ، فعلموا بموته علم الناس أن الجن لا تعلم الغيب.ويجوز أن يكون تبينت من تبين الشيء لا من تبينت الشيء أي ظهر وتجلى وان وما في حيزها بدل اشتمال مع تقدير محذوف أي ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب.ما لبثوا في العذاب المهين قرأ الجمهور: تبينت على البناء للفاعل مسنداً إلى الجن وقرأ ابن‌عباس وغيره: على البناء للمفعول ومعنى القراءتين يعرف مما قدمنا .

قال ابن عباس: لبث سليمان على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خر على رأس الحول فأخذت الجن عصى مثل عصاه ودابة مثل دابته . فأرسلوها عليهـا فأكلتها في سنة، وكان ابن عباس يقرأ:فلما خر تبينت الإنس، قال سفيان: وفي قـراءة ابن مسعود : وهم يـدأبون لـه حولاً ، وأخـرج البزار وابن جـريـر وابن المنذر والطبـراني وابن السني وغيرهـم عن ابن عبـاس عن النبيﷺ قال: «كـان سليمان إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فتقول:لها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لم أنت ؟ فتقول لكذا وكذا ، فإن كانت لغرس غرست وإن كـانت لدواء

كتبت فصلى ذات يوم فاذا شجرة نابتة بين يديه فقال لها ما اسمك؟ قالت: الخروب. قال: لأي شيء انت ؟ قالت لخراب هذا البيت. قال لها سليمان: ما كان الله ليخربه ، وأنا حي ، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ثم نزعها وغرسها في حائط له ، ثم قال سليمان اللهم عمِّ عن الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فهيأ عصى فتوكأ عليها وقبضه الله وهو متكىء عليها ، فمكث حولاً ميتاً والجن تعمل فأكلتها الأرضة فسقطت فعلموا عند ذلك بموته فتبينت الانس ان الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

وكان ابن عباس يقرأها كذلك فشكرت الجن للأرضة فأينما كانت يأتونها بالماء ، وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفاً .

وأخرج الديلمي عن زيد بن أرقم مرفوعاً يقول الله : اني تفضلت على عبادي بثلاث: القيت الدابة على الحبة ، ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب والفضة ، وألقيت النتن على الجسد ولولا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه واستلبت الحزن ولولا ذلك لذهب النسل .

ذكر اهل التاريخ ان سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وبقي في الملك مدة اربعين سنة وشرع في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه وتوفي وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وقيل: ان داود أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى فمات قبل أن يتمه فوصّى به الى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل ربه أن يعمّيَ عليهم موته حتى يفرغوا عنه ولتبطل دعواهم على الغيب ، روي أن افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها ، فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه .

ولما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقّبه بحال بعض الجاحدين لها ، والمقصود من ذكر هذه القصة ان النبيﷺ يذكرها لقومه لعلهم يتعظون وينزجرون ويعتبرون بها فقال:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾

﴿ لقد كان لسبأ ﴾ المراد بها القبيلة التي هي من أولاد سبأ هو سبأ ابن يشجب بضم الجيم بن يعرب بن قحطان بن هود ، قرأ الجمهور: لسبأ بالتنوين على أنه اسم حي أي الحي الذين هم أولاد سبأوقرىء: لسبأ ممنوع الصرف بتأويل القبيلة ويقوي القراءة الأولى قوله في مسكنهم ولو كان على تأويل القبيلة لقال في مسكنها ، وقرأ الجمهور على الجمع واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم ، ووجه الاختيار أنها كانت لهم منازل كثيرة ومساكن متعددة ، وقرىء بالإفراد ووجه الافراد أنه مصدر يشمل القليل والكثير ، أو اسم مكان وأريد به معنى الجمع ، وهذه المساكن التي كانت لهم هي التي يقال لها الآن مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ، وكانت أخصب البلاد .

وقد أخرج احمد والبخاري والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم عن فروة بن مسيك المرادي قال : أتيت النبيﷺ فقلت: يا رسول الله ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم ، فأذن لي في قتالهم ، وأمرني ، فلما خرجت من عنده أرسل في إثري فردني فقال · ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك ، وأنزل في سبأ ما انزل فقال رجل : يا رسول الله وما سبأ أرض أم امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة . وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وغسان وعاملة ، وأما الذين تيامنوا فالأزد

والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، فقال رجل : يا رسول الله وما أنمار؟ قال : الذي منهم خثعم وبجيلة.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والطبراني وابن عدي والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه .

﴿ آية ﴾ أي علامة دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه بملاحظة أحوالها السابقة وهي نضارتها وخصبها وثمارها، واللاحقة كتبديلها وعدم ثمرها ثم بين هذه الآية فقال : ﴿ جنتان ﴾ أي جماعتان من البساتين .

﴿ عن يمين وشمال ﴾ أي وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطتا به من جهتيه وقيل: عن يمين من أتاهما وشماله ، وكانت مساكنهم في الوادي ، وكل طائفة من تلك الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة ، والآية هي الجنتان كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها المكتل فيمتلىء من أنواع الفواكه التي يتساقط من غير أن تمسها بيدها .

وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا قملة ولا عقرباً ولا حية ولا غير ذلك من الهوام ، واذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم ، قال القشيري : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل جهة بساتين كثيرة وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها .

﴿ كلوا من رزق ربكم ﴾ أي قيل لهم ذلك وهذا الأمر للإذن والإباحة، وقيل : لم يكن ثم أمر ولكن المراد تمكينهم من تلك النعم والأول أظهر ، وقيل : إنها قالت لهم الملائكة ، وقيل : إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم ، والمراد بالرزق هو ثمار الجنتين .

﴿ واشكروا له ﴾ على ما رزقكم من هذه النعم واعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه .

﴿ بلدة طيبة ﴾ مستأنفة لبيان موجب الشكر والمعنى: هذه بلدة طيبة فكثيرة أشجارها وطيبة ثمارها وقيل :معنى كونها طيبة أنها غير سبخة وقيل : ليس فيها هوام لطيب هوائها ، قال مجاهد : هي صنعاء ، وقيل:كانت على ثلاثة فراسخ من صنعاء وفي المصباح :يطلق البلد والبلدة على كل موضع من الأرض عامراً كان أو خلاء .

﴿ ورب غفور ﴾ أي المنعم بها عليهم رب غفور لذنوبهم ، فجمع لهم بين المغفرة وطيب البلدة ، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه ، وقال مقاتل : المعنى: وربكم ان شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب ، وقيل:إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة الى أن الرزق قد يكون فيه حرام ، قرىء بنصب بلدة ورباً على تقدير اسكنوا بلدة واشكروا رباً ، ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التي أنعم بها عليهم فقال :

﴿فأعرضوا﴾ عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا أنبياءهم قال السدي: بعث الله الى أهل سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم وكذا قال وهب وزادوقالوا:ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا إن استطاع فذلك إعراضهم ؛ ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل الله عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم كما قال:

﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن فردموا ردماً بين جبلين وحبسوا الماء وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض وكانوا يسقون من الباب الأعلى ، ثم من الثاني ، ثم من الثالث فأخصبوا وكثرت أموالهم فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً ففتقت ذلك الردم حتى انتقض ، فدخل الماء جنتهم فغرقها ودفن السيل بيوتهم ،

فهذا هو سيل العرم ، وهو جمع عـرمة وهي السكـر التي تحبس الماء ، وكـذا قال قتادة وغيره .

وقـال السـدي : العـرم اسم للسـد والمعنى أرسلنـا عليهم سيـل السـد العرم ، وقال عـطاء : العرم اسم الـوادي ، وقال الـزجاج : العـرم اسم الجرذ الـذي نقب السد عليهم ، وهـو الذي يقـال له :الخلد فنسب السيـل اليه لكـونه سبب جريانه . قال ابن الاعرابي :العرم من اسماء الفار ، وقال مجاهد وابن نجيح العرم: ماء أحمرأرسله الله في السد فشقه وهدمـه ، وقيل: إن العرم اسم المطر الشـديد ، وقيـل : اسم للسيل الشـديد والعـرامة في الأصـل الشدة والشـراسة والصعوبة ، ويقـال : عرم فـلان اذا تشدد وتصعب ، وروي عن ابن الاعـرابي انه قال : العرم السيل الذي لا يطاق . وقـال المبرد : العـرم كل شيء حـاجز بين شيئين وعن ابن عباس قال : العرم الشديـد ، وعنه قـال : وادٍ كان بـاليمن كان يسيل الى مكة .

﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ أي أهلكنـا جنتيهم اللتين كانتـا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة ، والأنواع الحسنة ، وأعطيناهم بدلهما جنتين لا خيـر فيهما ، ولا فائـدة لهم فيما هـو نابت فيهمـا ، وتسميتهما جنتين تهكم بهم على طريق المشاكلة ، ولهذا قال :

﴿ ذواتي ﴾ تثنيـة ذوات مفرد على الأصـل لأن أصله ذويه قـالوا : وعين الكلمـة والياء لامهـا لأنه مؤنث ذو ، وذو أصله ذوي فتحـركت الياء وانفتـح ما قبلها فقلبت الياء فصار ذوات ثم حذفت الواو تخفيفاً وفي تثنيته وجهان تارة ينـظر للفظه الآن ، فيقـال : ذاتان ، وتـارة ينظر لـه قبل حـذف الواو فيقـال : ذواتان وقـال السمين في تثنية ذات لغتان :أحدهما الرد الى الأصل فـإن اصله ذوية فالعين واو واللام ياء لأنها مؤنثة ذو ، والثانية تثنيته على اللفظ فيقال ذاتان .

﴿ أكـل خمط ﴾ قريء: بتنـوين أكـل وعـدم إضافته إلى خمط وقـريء:

بالاضافة والأولى أولى ، قال الخليل : الخمط ضرب من الأراك وله حمل يؤكل، وبه قال ابن عباس وكذا قال كثير من المفسرين وقال أبو عبيدة : الخمط كل شجرة مرة ذات شوك ، وقيل هو ثمر شجر يقال له : فسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به ، وقال الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله، وقال المبرد: كل شيء يغير الى ما لا يشتهى يقال له : خمط ،

ومنه اللبن إذا تغير والخمط:اسم للمر والحامض من كل شيء والخمط:نعت لأكل أو بدل منه ، لأن الأكل هو الخمط بعينه ، وقال الأخفش :الإضافة أحسن في كلام العرب مثل ثوب خز ودار آجر والأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ، ومن معه . قال الجوهري : الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل .

﴿ وأثل ﴾ هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره ، قال : إلا انه أعظم من الطرفاء طولاً وورقه كورق الطرفاء ، ومنه اتخذ منبر رسول اللهﷺ ، الواحدة أثلة ، والجمع أثلاث، وقال الحسن : الأثل الخشب ، وقال أبوعبيدة: هو شجر النظار والأول أولى ولا ثمر للأثل .

﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ السدر شجر معروف ، قال الفراء هو السمر وقال الأزهري السدر من الشجر سدران :بري لا ينتفع به ولا يصلح للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل ، وهو الذي يسمى الضال ، والثاني سدر ينبت على الماء وثمرة النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب ، قيل ووُصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله وهو النوع الثاني الذي ذكره الأزهري ، ولذا يغرس في البساتين ، قال قتادة بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره الله من شرّ الشجر بأعمالهم فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر ويحتمل أن يرجع قوله (قليل) الى جميع ما ذكر من الخمط والأثل والسدر والاشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ الى ما تقدم من التبديل أو الى المصدر .

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى
بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿ جزيناهم بما كفروا ﴾ أي ذلك التبديل أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها .

﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ أي وما نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة الا الشديد الكفر المتبالغ ، قرأ الجمهور: بضم التحتية وفتح الزاي على البناء للمفعول وقرىء: بالنون وكسر الزاي مبنياً للفاعل ، وهو الله سبحانه ، والكفور على الأولى مرفوع وعلى الثانية منصوب وظاهر الآية أنه لا يجازي الا الكفور ، مع كون أهل المعاصي يجازون ، وقد قال قوم إن معنى الآية أنها لا يجازي هذا الجزاء وهو الاصطلام والإهلاك الا من كفر وقال مجاهد:ان المؤمن تكفَّر عنه سيآته والكافر يجازى بكل عمل عمله ، وقال طاووس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش. وقال الحسن: إن المعنى أنه يجازي الكافر مثلاً بمثل ورجح هذا الجواب النحاس .

﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أي وكان من قصتهم أنا جعلنا بين مساكنهم قبل ارسال السيل عليهم ﴿ وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ بالماء والشجر وهي قرى الشام يعني الأرض المقدسة قاله ابن عباس .

﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي متواصلة عامرة مخصبة وكان مُتَّجرهم من أرضهم التي هي مأرب الى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا ، وكانوا لا يحتاجون الى زاد يحملونه من أرضهم الى الشام فهذا من جملة الحكاية لما أنعم الله به عليهم، قال الحسن: إن هذه القرى هي بين اليمن

والشام قيل: إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ الى الشام وقيل هي بين المدينة والشام قال المبرد القرى الظاهرة هي المعروفة وإنما قيل لها ظاهرة لظهورها إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى فكانت قرى ظاهرة ، أي معروفة يقال: هذا امر ظاهر أي معروف وقيل ظاهرة لأعين الناظرين أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم .

﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلنا السير من القرية الى القرية ومن المنزل الى المنزل مقدراً معيناً واحداً ، وذلك نصف يوم في الغدو والرواح ، فإذا صاروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه وأشجار فكان ما بين اليمن والشام كذلك كما قال المفسرون ، قال الفراء: أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في أخرى الى أن يصل الى الشام وانما يبالغ الانسان في السير لعدم الزاد والماء ، ولخوف الطريق فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل نفسه المشقة ، بل ينزل أينما أراد ، والحاصل أن الله سبحانه عدد عليهم النعم ثم ذكر ما نزل بهم من النقم ، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم وبين ما يريدون السفر إليه ، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز والبراري كما سيأتي .

﴿ سيروا فيها ﴾ أي قلنا لهم سيروا في تلك القرى المتصلة فهو أمر تمكين أي ومكناهم من السير فيها متى شاءوا وفي لفظ:(في) إشعار بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى قال ابن عباس: أي اذا ظعنوا من منازلهم الى ارض الشام المقدسة .

﴿ ليالي وأياماً آمنين ﴾ مما تخافونه ، وقال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه ، قيل: وأتى بلفظ النكرة تنبيهاً على قصر أسفارهم أي كانوا لا يحتاجون الى طول السفر لوجود ما يحتاجون اليه . ثم ذكر سبحانه أنهم لم يشكروا النعمة بل طلبوا التعب والكد .

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾ وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سئموا النعمة ولم يصبروا على العاقبة فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن من المفاوز والقفار، والبراري المتباعدة الأقطار، فأجابهم الله إلى ذلك وخرب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر.

فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني اسرائيل حيث قالوا: ﴿ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها﴾ الآية مكان المن والسلوى وكقول النضر ابن الحرث: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية قرأ الجمهور: ربنا بالنصب على أنه منادى مضاف وقرأوا أيضاً باعد وقرىء: بعد بتشديد العين، وقرأ ابن السميفع بضم العين فعلاً ماضياً فيكون معنى هذه القراءة الشكوى من بعد الأسفار، وقرىء: ربنا بالرفع وباعد بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء والخبر، والمعنى: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، واختارها أبو حاتم، وقال: لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطراً وأشراً، وكفراً للنعمة، وقرىء: ربنا بالرفع وبعد بفتح العين مشدّدة والمعنى على هذه القراءة الشكوى بأن ربهم بعّد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء.

فيكون هذا من جملة بطرهم وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميفع السابقة مع رفع بين على أنه الفاعل كما قيل في قوله: لقد تقطع بينكم

وروى الفراء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين على أنه ظرف ، والتقدير بعد سيرنا بين أسفارنا ، قال النحاس : وهذه القراءات اذا اختلفت معانيها لم يجز ان يقال إحداهما أجود من الأخرى كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد اذا اختلفت معانيها ، ولكن أخبر عنهم بأنهم : دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم فلما فعل ذلك شكوا وتضرروا ولهذا قال سبحانه :

﴿ وظلموا أنفسهم ﴾ حيث كفروا بالله وطغوا وبطروا نعمته وتعرضوا لنقمته ﴿ فجعلناهم أحاديث ﴾ يتحدث الناس بأخبارهم وعبرة لمن بعدهم ، والأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر كما في القاموس . والمعنى جعلناهم ذوي أحاديث يتحدث بها من بعدهم تعجباً من فعلهم ، وأمرهم وشأنهم واعتباراً بحالهم وعاقبتهم .

﴿ ومزقناهم كل ممزق ﴾ أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق بحيث لا يتوقع بعده عود اتصال ، وهذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث وذلك ان الله سبحانه لما أغرق مكانهم وأذهب جنتهم تفرقوا في البلاد فصارت العرب تضرب بهم الأمثال فتقول: تفرقوا أيدي سبأ ، وذهبوا أيادي سبأ ، والأيدي ههنا بمعنى الأولاد لأنهم يعتضد بهم ، وفي المفصل الأيدي الأنفس كناية أو مجاز ، قال في الكشف:وهو أحسن.قال الشعبي :فلحقت الأنصار يعني الأوس والخزرج بيثرب ، وغسان بالشام ، والأزد بعمان ، وخراعة بتهامة ، وكان الذي قدم منهم المدينة عمر بن عامر وهو جد الأنصار ، ولحق آل خزيمة بالعراق .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي فيما ذكر من قصتهم وما فعل الله بهم ﴿ لآيات ﴾ بينات وعبراً ظاهرات ودلالات واضحات ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أي لكل من هو كثير الصبر عن المعاصي ، والشكر لله على نعمه وخص الصبار والشكور لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ
عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ
﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا
قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ﴾ قرىء بتخفيف صدق ونصب ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر أي صدق وظن ظنه أو صدق في ظنه أو على الظرفية، والمعنى أنه ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك، وقرىء: صدّق بالتشديد وظنه بالنصب على أنه مفعول به، وقال أبو علي الفارسي: أي صدق الظن الذي ظنه قال مجاهد: ظن ظناً فصدق ظنه فكان كما ظن وقرىء صدق بالتخفيف، وإبليس بالنصب وظنه بالرفع وقد أجاز هذه القراءة الفراء، وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل صدق وإبليس مفعوله، والمعنى أن إبليس سوّل له ظنه شيئاً فيهم فصدق ظنه فكأنه قال: ولقد صدق عليهم ظن إبليس، قيل: وهذه الآية خاصة بأهل سبأ والمعنى أنهم غيروا وبدلوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلهم.

وقيل هي عامة أي صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله قاله مجاهد والحسن. قال الكلبي: إنه ظن انه إن أغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه فصدق ظنه فاتبعوه. قال الحسن: ما ضربهم بسوط ولا بعصى وإنما ظن ظناً فكان كمن ظن بوسوسته، وعن ابن عباس في الآية قال: قال إبليس: إن آدم خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقاً ضعيفاً وإني خلقت من

نار ، والنار تحرق كل شيء لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ، قال : فصدق ظنه عليهم .

وانتصاب ﴿ إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ على الاستثناء ، وفيه وجهان أحدهما أن يراد به بعض المؤمنين لأن كثيراً من المؤمنين يذنب وينقاد لابليس في بعض المعاصي ولم يسلم منه إلا فريق وهم الذين قال الله فيهم :﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾،وقيل : المراد به المؤمنون كلهم لأنهم لم يتبعوه في أصل الدين على أن تكون من بيانية .

﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي من تسلط عليهم أي لم يكرههم على الكفر وإنما كان منه الدعاء والوسوسة والتزيين ، وقيل : الضمير في عليهم يعود على من صدق عليهم ظن إبليس وعلى الفريق المؤمنين ، وقيل السلطان القوة ، وقيل الحجة ، والاستثناء في قوله :

﴿ إلا لنعلم ﴾ منقطع والمعنى لا سلطان له عليهم ، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم ، وقال الفراء : المعنى الا لنعلم ذلك عندكم ، وقيل : إلا لتعلموا أنتم ، وقيل :ليعلم أولياؤنا والملائكة وقرىء، ليعلم على البناء للمفعول والأولى حمل العلم هنا على التمييز والاظهار كما ذكرنا ، وقيل: إلا لنعلم موجوداً ما علمناه معدوماً ، والتغير على المعلوم لا على العلم ، وقيل: هو متصل مفرغ من أعم الأحوال أي ما كان له تسلط عليهم بحال من الأحوال ولا لعلة من العلل إلا ليتميز .

﴿ من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ لأنه سبحانه قد علم ذلك علماً أزلياً ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ أي محافظ عليه فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز ، قال مقاتل : علم كل شيء من الايمان والشك .

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾قرىء: قلِ بكسر اللام على أصل التخلص من التقاء الساكنين وبضمها اتباعاً لضمة العين ، والدال بينهما

حاجز غير حصين لسكونها ، وهما قراءتان سبعيتان وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لكفار قريش أو للكفار على الاطلاق هذا القول ، ومفعولا زعمتم محذوفان . أي : زعمتوهم آلهة لدلالة السياق عليهما ، قال مقاتل يقول : ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سِني الجوع ، ثم أجاب سبحانه عنهم فقال : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ أي ليس لهم قدرة على خير ولا شر ، ولا على جلب نفع ولا دفع ضر في أمر من الأمور ، وذكر السموات والأرض لقصد التعميم لكونهما ظرف الموجودات الخارجية .

﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أي ليس للآلهة في السموات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمور السموات والأرض ومن فيهما ، بل هو المتفرد بالإيجاد فهو الذي يعبد ، وعبادة غيره محال .

﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين ، ويجوز أن يكون المعنى : لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أي لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم لا من عداهم من غير المستحقين لها .

قيل : والمراد بقوله لا تنفع الشفاعة أنها لا توجد أصلاً إلا لمن أذن له ، وإنما علق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها ، قرأ الجمهور : أذن بفتح الهمزة أي اذن له الله سبحانه لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا ، وقرىء على البناء للمفعول ، والآذن هو الله سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ ، وهذا تكذيب لقولهم ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ ، ثم أخبر الله سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء والمشفوع لهم فقال :

﴿ حتى اذا فزّع عن قلوبهم ﴾ قرىء مبنياً للمفعول ، والفاعل هو الله سبحانه ، وقرىء مبنياً للفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى الله سبحانه ، وكلتا القراءتين بتشديد ، الزاي ، وفعل معناه السلب ، فالتفريغ إزالة الفزع وقرىء مخففاً وقرىء : فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة من الفراغ ، والمعنى فزع الله قلوبكم أي كشف عنها الخوف ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه افر نقع من الأفر نقاع وهو التفرق قال قطرب معنى فزع أخرج ما فيها من الفزع وهو الخوف وقال مجاهد كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة وقال ابن عباس فزع جلى وهو التفرق والمعنى أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام كائناً من كان إلا أن يأذن الله سبحانه للملائكة والأنبياء ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى : وهم من خشيته مشفقون ، فإذا أذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل والخوف الشديد من أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصيراً ويحدث شيء من أقدار الله فإذا سرى عنهم .

﴿ قالوا ﴾ للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن ﴿ ماذا قال ربكم ﴾ أي ماذا أمر الله به ﴿ قالوا ﴾ أي ليقولون لهم قال القول ﴿ الحق ﴾ وهو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ فله أن يحكم في عباده بما يشاء ، ويفعل ما يريد ، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه ، وأن يشفع إلا لمن ارتضى ، وقيل : هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب والمعنى لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون لله دون الجمادات والشياطين ، وقيل إن الذين يقولون ماذا قال ربكم هم المشفوع لهم والذين أجابوهم هم الشفعاء من الملائكة والأنبياء وقال الحسن وابن زيد ومجاهد معنى الآية حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة قالت لهم الملائكة : ماذا قال ربكم في الدنيا ؟ قالوا الحق فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار ؛ وقيل إنما يفزعون حذراً من قيام الساعة ، وقيل : كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت ، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه

عن ابن عباس قال : لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ، فقالوا الحق ، وقد علموا أن الله لا يقول إلا حقاً . قال ابن عباس : وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا ، فلما سمعوا خروا سجداً ، فلما رفعوا رؤوسهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم أيضاً عنه قال: ينزل الأمر الى السماء الدنيا له وقعه كوقعة السلسلة على الصخرة فيفزع له جميع أهل السموات ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ ثم يرجعون الى أنفسهم ، فيقولون : الحق وهو العلي الكبير .

وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبيﷺ قال: [إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق ، وهو العلي الكبير ، الحديث]، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وعن أبن مسعود قال: [إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجرس السلسلة على الصفاة فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق] أخرجه أبو داود ، والصلصلة صوت الأجراس الصلبة بعضها على بعض وفي معناه أحاديث ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكت المشركين ويوبخهم فقال :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ قل : من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ أي من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التي تتمتعون بها فان آلهتكم لا يملكون مثقال ذرة ، والرزق من السماء هو المطر وما ينتفع به من الشمس والقمر والنجوم ، والرزق من الأرض هو النبات والمعادن ونحو ذلك ، ولما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام ، ولا تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق الى آلهتهم وربما يتوقفون في نسبته الى الله مخافة أن تقوم عليهم الحجة أمر الله رسوله بأن يجيب عن ذلك فقال :

﴿ قل الله ﴾ أي هو الذي يرزقكم من السموات والأرض ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة لكن على وجه الانصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى ومن هو على الضلالة فقال :

﴿ وإنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ والمعنى أن أحد الفريقين من الذين يوحدون الله الخالق الرازق ويخصونه بالعبادة والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضرر لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أن من عبد الذي يخلق ويرزق وينفع ويضر هو الذي على الهدى ، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر هو الذي على الضلالة ، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى وهم المسلمون وفريق الضلالة وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب

به: قد أنصفك صاحبك .

قال المبرد : ومعنى هذا الكلام معنى قول المتبصر في الحجة لصاحبه : أحدنا كاذب وقد عرف أنه الصادق المصيب ، وصاحبه الكاذب المخطىء انتهى . وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ، والضال كأنه ينغمس في ظلام لا يرى أين يتوجه .

قال المبرد : ﴿أو﴾ عند البصريين على بابها وليست للشك لكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى وقال أبو عبيدة والفراء: هي بمعنى الواو ، وتقديره وإنا على هدى وإياكم لفى ضلال مبين. قيل: أو إياكم معطوف على اسم إن وخبرها هو المذكور وحذف خبر الثاني للدلالة عليه أي إنا لعلى هدى أو في ضلال مبين ، أو أنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ، ويجوز العكس ، وهو كون المذكور خبر الثاني ، وخبر الأول محذوفاً كما في قوله :﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾، ثم أردف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه في الإنصاف وأدخل فيه وأبعد من الجدل والمشاغبة فقال :

﴿ قل : لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ أي : إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم ونفع ، ولا ينالني من كفركم وترككم لإجابتي ضرر ، وهذا كقوله سبحه:﴿لكم دينكم ولي دين﴾، وفي إسناد الجرم إلى المسلمين ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص والطاعة المحضة وأعمال الكفار من المعصية البينة والإثم الواضح ، من الإنصاف ما لا يقادر قدره ، والمقصود المهادنة والمتاركة ، وقد قيل : نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف ، ثم أمره سبحانه بأن يهددهم بعذاب الآخرة لكن على وجه لا تصريح فيه فقال :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ قل : يجمع بيننا ربنا ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ أي يحكم ويقضي بيننا فيثيب المطيع ويعاقب العاصي ﴿ وهو الفتاح ﴾ أي الحاكم بالحق القاضي بالصواب ﴿ العليم ﴾ بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح . قيل وهذه أيضاً منسوخة بآية السيف ، ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى ليظهر بها ما هم عليه من الخطأ فقال :

﴿ قل : أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي ألحقتموهم بالله شركاء له ، وهذه الرؤية هي القلبية فيكون شركاء هو المفعول الثالث ، ويجوز أن تكون هي البصرية ويكون شركاء منتصباً على الحال ، وأريد بأمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه ﷺ إظهار خطأهم وإطلاعهم على بطلان رأيهم ، أي أرونيها لأنظر أي صفة فيها اقتضت إلحاقها بالله تعالى في استحقاق العبادة ، وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزامهم الحجة ، ثم رد عليهم ما يدعونه من الشركاء وأبطل ذلك فقال :

﴿ كلا بل ﴾ أي ارتدعوا عن دعوى المشاركة بل المنفرد بالإلهية ﴿ هو الله العزيز ﴾ بالقهر والغلبة ﴿ الحكيم ﴾ بالحكمة الباهرة .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ في انتصاب كافة وجوه : فقيل : إنه منتصب على الحال من الكاف في أرسلناك قال الزجاج : أي وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ والكافة بمعنى الجامع ، والهاء فيه للمبالغة ،

كعلامة. قال أبو حيان: إن اللغة لا تساعد عليه لأن كف ليس معناه جمع بل معناه منع، يقال كف يكف أي منع يمنع والمعنى إلا مانعاً لهم من الكفر، ومنه الكف لأنه يمنع من خروج ما فيه، وقيل إنه منتصب على المصدرية، والهاء للمبالغة كالعاقبة والعافية، والمراد أنها صفة مصدر محذوف أي إلا رسالة كافة، وقيل إنه حال من الناس، والتقدير: ﴿وما أرسلناك إلا للناس كافة﴾، ورد بأنه لا يتقدم الحال من المجرور عليه كما هو مقرر في علم الإعراب، ويجاب عنه بأنه قد جوز ذلك أبو علي الفارسي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون، وممن رجح كونها حالاً من المجرور بعدها ابن عطية وقال: قدمت للاهتمام والتقوى ورده الزمخشري وقال خطأ، وقال المحلي: بل هو الصحيح، وقيل المعنى إلا ذا كافة أي ذا منع فحذف المضاف، قيل: اللام في للناس بمعنى الى أي ما أرسلناك إلى الناس إلا جامعاً لهم بالإنذار والإبلاغ أو مانعاً لهم من الكفر والمعاصي.

عن قتادة قال: أرسل الله محمداً إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له وعن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» أخرجه البخاري ومسلم. وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الإنس والجن وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ حال أي مبشراً لهم بالجنة أو بالفضل لمن أقر ومنذراً لهم من النار أو بالعدل لمن أصر ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ما عند الله وما لهم من النفع في إرسال الرسل فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا
تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ
بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ
يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ
صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ ويقولون متى ﴾ يكون ﴿ هذا الوعد ﴾ الذي تعدوننا به وهو قيام الساعة اخبرونا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ قالوا: هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله ﷺ، ومن معه من المؤمنين فأمر الله رسوله ﷺ أن يجيب عنهم فقال:

﴿ قل لكم ميعاد يوم ﴾ أي ميقات يوم، وهو يوم البعث، وقيل وقت حضور الموت وقيل: أراد يوم بدر لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا وعلى كل تقدير فهذه الإضافة للبيان، وميعاد مصدر بمعنى الوعد، أو اسم زمان قال أبو عبيدة: الوعد والوعيد والميعاد بمعنى.

﴿ لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ أي هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه بالاستمهال ولا تتقدمون عليه بالاستعجال، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قد قدر الله وقوعه فيه، وهذا جواب تهديد جاء مطابقاً

لما قصدوا بسؤالهم من التعنت والإنكار، ثم ذكر سبحانه طرفاً من قبائح الكفار ونوعاً من أنواع كفرهم فقال:

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني مشركي العرب ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذي بين يديه ﴾ أي بما أنزل قبل القرآن من كتب الله تعالى كالتوراة والإنجيل أو القيامة أو الجنة والنار ، يعني أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله ، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ، ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة فقال :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ أو لكل من يصلح له ، والمعنى محبوسون في موقف الحساب ، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً عجيباً وحالاً فظيعاً ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ أي فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا متعاضدين متناصرين متحابين ، ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال :

﴿ يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم الرؤساء المتبوعون ﴿ لولا أنتم ﴾ صددتمونا عن الإيمان بالله والاتباع لرسوله ﴿ لكنا مؤمنين ﴾ بالله مصدقين لرسوله وكتابه .

﴿ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا ﴾ مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى ؟ ﴾ أي أمنعناكم عن الإيمان ﴿ بعد إذ جاءكم ﴾ الهدى قالوا: هذا منكرين لما ادعوه عليهم من الصدّ لهم ، وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك ، ثم بينوا لهم أنهم الصادون لأنفسهم الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم فقالوا :

﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ أي مصرين على الكفر كثيري الإجرام عظيمي الآثام .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا﴾ رداً لما أجابوا به عليهم، ودفعاً لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ أي أبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: بل من جهة مكركم بنا ليلاً ونهاراً، وأصل المكر في كلام العرب الخديعة والحيلة، يقال: مكر به إذا خدعه واحتال عليه. قيل: هو طول السلامة في الدنيا وطول الأمل فيها، وقال الأخفش: هذا مكر الليل والنهار.

قال النحاس: والمعنى والله أعلم: بل مكركم في الليل والنهار ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذي حملنا على هذا، وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار ويجوز أن يجعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازي كما تقرر في علم المعاني، قال المبرد: كما تقول العرب: نهاره صائم وليله قائم.

وفي السمين: وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازي كقولهم: ليل ماكر فيكون مصدراً مضافاً لمرفوعه. وإما على الاتساع في الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مضافاً لمنصوبه، وهذان أحسن من قول من قال: إن الإضافة بمعنى في أي في الليل؛ لأن ذلك لم يثبت في غير محل النزاع وقرىء: برفع مكر ونصب الليل، والتقدير: بل مكر كائن في الليل والنهار، وقرىء: مكر بفتح الكاف وتشديد الراء مضافاً بمعنى الكرور من كَرَّيكرُّ إذا جاء وذهب أي مكر الليل والنهار صدنا أو صدنا مكرهما، وقرىء: مكر بفتح

الكاف وتشديد الراء لكنه ينصب على المصدرية أي بل يكون الإغواء مكراً دائماً لا يفترون عنه .

﴿ إذ تأمروننا ﴾ أي بل مكركم بنا وقت أمركم لنا ﴿ أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ أي أشباهاً وأمثالاً ، قال المبرد يقال : ند فلان فلان أي مثله ، وهذا قول القادة للأتباع :إن ديننا الحق ، وإن محمداً كذاب ساحر ، وهذا تنبيه للكفار أن تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة .

﴿ وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ الضمير راجع إلى الفريقين أي أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر وأخفوها عن غيرهم ، وأخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة ، وقيل . المراد بأسرّوا هنا أظهروا لأنه من الأضداد يكون تارة بمعنى الإخفاء وتارة بمعنى الإظهار ، وقيل: المعنى تبينت الندامة في أسرة وجوههم ، والجملة مستأنفة أو حال من الذين استضعفوا والذين استكبروا .

﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ الأغلال جمع غل يقال في رقبته غل من حديد أي جعلت الأغلال من الحديد في أعناق هؤلاء في النار والمراد بالذين كفروا هم المذكورون سابقاً ، والإظهار لمزيد الذم ، أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً .

﴿ هل ﴾ أي ما ﴿ يجزون إلا ﴾ جزاء ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا من الشرك والكفر بالله والمعاصي ، أو إلا بما كانوا يعملون على حذف الخافض ، ولما قصّ سبحانه حال من تقدم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر في الأعصر الأول فقال :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿ وما أرسلنا في قرية ﴾ من القرى ﴿ من نذير ﴾ ينذرهم ويحذرهم عقاب الله ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ حال من قرية وإن كانت نكرة لوقوعها في سياق النفي ، والمعنى: قال متنعموها ورؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشر لرسلهم .

﴿ إنا بما ﴾ إي بالذي ﴿ أرسلتم به ﴾ من الإيمان والتوحيد ﴿ كافرون ﴾ .

عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكين خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل،فكتب إليه إنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه ، فقال : دلني عليه وكان يقرأ الكتب فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال إلى كذا وكذا قال: أشهد أنك رسول الله . قال: وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآية فأرسل إليه النبي ﷺ . أن الله قد أنزل تصديق ما قلت ، ثم ذكر سبحانه ما افتخروا به من الأموال والأولاد وما قاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل ، فقال :

﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ » والمعنى أن الله فضلنا عليكم

بالأموال والأولاد في الدنيا وذلك يدل على أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا ورضاه عنا أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظراً إلى أحوالهم في الدنيا، وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ، فأبطل الله ظنهم وأمر نبيه ﷺ بأن يجيب عنهم رداً عليهم ، وحسماً لمادة طمعهم وتحقيقاً للحق الذي عليه يدور أمر التكوين ، وقال :

﴿ قل : إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أن يبسطه له ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق على من يشاء أن يضيقه عليه ، فهو سبحانه قد يرزق الكافر والعاصي استدراجاً له ، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيراً لأجره ، وليس مجرد بسط الرزق لمن يبسط له يدل على أنه قد رضي عنه ورضي عمله ، ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه ، ولا رضي عمله ، بل كل ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة الواضحة .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك ومن جملة هذا الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى .

﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ كلام مستأنف من جهته تعالى خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق، والمعنى: ليسوا بالخصلة التي تقربكم عندنا قربى قال مجاهد : الزلفى : القربى ، والزلفة القربة ، قال الأخفش: زلفى اسم مصدر كأنه قال : بالتي تقربكم عندنا تقريباً ، قال الفراء : إن التي تكون للأموال والأولاد جميعاً وهو الصحيح ، وقيل : المعنى وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي الخ وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث ، وقال الزجاج : إن المعنى وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، ثم حذف الخبر الأول لدلالة الثاني عليه ، ويجوز في غير

القرآن باللتين وباللاتي وباللواتي وبالذي للأولاد خاصة أي لا تزيدكم الأموال والأولاد عندنا درجة ورفعة ، ولا تقربكم تقريباً .

﴿ إلا من آمن ﴾ هو استثناء منقطع أي لكن من آمن ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ وقيل : إنه متصل على أن يجعل الخطاب عاما للكفرة والمؤمنين على أنه ابتداء كلام لا مقول لهم .

﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد في الفعلين باعتبار لفظها ﴿ لهم جزاء الضعف ﴾ أي جزاء الزيادة وهي المرادة بقوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ ،وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أي جزاء التضعيف للحسنات ، وقيل: لهم جزاء الأضعاف لأن الضعف في معنى الجمع أو من إضافة الموصوف إلى صفته . أي لهم الجزاء المضاعف قال مجاهد : أي تضعيف الحسنة ، وعن محمد بن كعب قال: إذا كان الرجل غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين وتلا هذه الآية إلى قوله ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف﴾، وقال تضعيف الحسنة .

﴿ بما عملوا ﴾ الباء للسببية ﴿ وهم في الغرفات ﴾ أي غرفات الجنة ، قرىء : بالجمع لقوله : ﴿لنبوئنهم من الجنة غرفاً﴾ وفي قراءة سبعية بالإفراد ، بمعنى الجمع حملاً لأل على أنها جنسية لقوله : ﴿أولئك يجزون الغرفة﴾ .

﴿ آمنون ﴾ من كل هائل وشاغل وسائر المكاره ، ومن جميع ما يكرهون ، ثم لما ذكر سبحانه حال المؤمنين ذكر حال الكافرين فقال :

﴿ والذين يسعون في آياتنا ﴾ بالرد لها وإبطالها والطعن فيها حال كونهم ﴿ معاجزين ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم أو معاندين لنا بكفرهم .

﴿ أولئك في العذاب ﴾ أي عذاب جهنم ﴿ محضرون ﴾ تحضرهم الزبانية إليها لا يجدون عنها محيصاً ، ثم كرر سبحانه ما تقدم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة فقال :

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾

﴿قل: إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي يوسعه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ليس في ذلك دلالة على سعادة ولا شقاوة، وفي القاري: هذا في شخص واحد باعتبار وقتين أو في المؤمن، وما سبق في شخصين أو في الكافر فلا تكرار ونحوه في البيضاوي، قال الشهاب: بل فيه تقرير لأن التوسيع والتقتير ليسا لكرامة ولا هوان فإنه لو كان كذلك لم يتصف بهما شخص واحد.

﴿وما أنفقتم من شيء﴾ على أنفسكم وعيالكم وقيل: ما تصدقتم ﴿فهو يخلفه﴾ عليكم أي يعطي خلفه إذا كان في غير إسراف. يقال: أخلف له وأخلف عليه إذا أعطاه عوضه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة أو فيهما معاً إما عاجلاً بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد، وإما آجلاً بالثواب في الآخرة الذي كل خلف دونه، وقال مجاهد: هذا في الآخرة.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»، أخرجه مسلم، وقال ابن عباس في الآية: يعني في غير إسراف ولا تقتير.

وعن مجاهد والحسن مثله ، وعن جابر عن النبي ﷺ قال : « كلما أنفق العبد من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلا نفقة في بنيان أو معصية » أخرجه الدارقطني والبيهقي . وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعاً بأطول منه .

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : «أنفق يا ابن آدم أنفق عليك» ، وثبت في الصحيح من حديثه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

وعن على ابن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لكل يوم نحساً فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة» ، ثم قال : اقرأوا مواضع الخلف فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، إذا لم ينفقوا كيف يخلف» . أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤنة» .

﴿ وهو خير الرازقين ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير الله وتقديره وليسوا برازقين على الحقيقة ، بل على طريق المجاز كما يقال في الرجل : إنه يرزق عياله وفي الأمير إنه يرزق جنده والرازق للأمير والمأمور والكبير والصغير هو الخالق لهم ، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً فهو مما رزقه الله وأجراه على يده ، قال بعضهم : الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي ، فكم من مشته لا يجد ، وكم من واجد لا يشتهي .

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ﴾ هو متصل بقوله : ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون﴾ أي ولو تراهم أيضاً يوم يحشرهم الله جميعاً للحساب العابد والمعبود والمستكبر والمستضعف .

﴿ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي يقول تقريعاً للمشركين وتوبيخاً لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى :﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟﴾ وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام لأنهم أشرف معبودات المشركين ، قال النحاس : والمعنى .أن الملائكة إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت للمشركين وتقريع للكافرين وارداً على المثل السائر إياك أعني فاسمعي يا جارة .

﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ مستأنفة أي تنزيهاً لك أنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ما اتخذناهم عابدين ، ولا توليناهم ، وليس لنا غيرك ولياً ، ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه فقالوا : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ أي الشياطين وهم إبليس وجنوده ويزعمون أنهم يرونهم وأنهم ملائكة وأنهم بنات الله . وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام ويخاطبونهم منها .

﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ أي أكثر المشركين بالجن مؤمنون مصدقون لهم فيما يقولون لهم ، قيل :والأكثر في معنى الكل .

﴿ فاليوم لا يملك بعضكم ﴾ وهم المعبودون ﴿ لبعض ﴾ وهم العابدون ﴿ نفعاً ﴾ أي شفاعة ونجاة ﴿ ولا ضراً ﴾ أي عذاباً وهلاكاً وإنما قيل لهم هذا القول إظهاراً لعجزهم وقصورهم وتبكيتاً لعابديهم ، وقوله :ولا ضراً هو على حذف مضاف أي لا يملكون لهم دفع ضر والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فإنه محقق أجابوا بذلك أم لا ، بل لترتيب الإخبار به عليه .

﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ أنفسهم بعبادة غير الله ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ في الدنيا ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من أنواع كفرهم فقال :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ
وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾
وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ
﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ
مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا
سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى
يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ القرآنية حال كونها ﴿ بينات ﴾ واضحات الدلالات ظاهرات المعاني على التوحيد ﴿ قالوا : ما هذا ﴾ يعنون التالي لها وهو النبي ﷺ ﴿ إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ أى أسلافكم من الأصنام التي كانوا يعبدونها.

﴿ وقالوا ﴾ ثانياً : ﴿ ما هذا ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿ إلا إفك مفترى ﴾ أى كذب في حد ذاته غير مطابق للواقع مختلق على الله من حيث نسبته إليه فمفترى تأسيس لا تأكيد .

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ ثالثاً : ﴿ للحق لما جاءهم ﴾ أى لأمر الدين الذى جاءهم به رسول الله ﷺ ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وفي تكرير الفعل والتصريح بالفاعل إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه ، وهذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد ، وأما إنكار القرآن والمعجزة فكان متفقاً عليه بين أهل الكتاب والمشركين ، وقيل : أريد بالأول وهو قولهم ﴿ إلا إفك مفترى ﴾ معناه وبالثاني وهو قولهم ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ نظمه المعجز . وقيل : إن طائفة منهم قالوا: إنه

إفك وطائفة قالوا إنه سحر، وقيل: إنهم جميعاً قالوا: تارة إنه إفك وتارة إنه سحر والأول أولى.

﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴾ أي ما أنزلنا على العرب كتباً سماويه[2] نة على صحة الإشراك يدرسون فيها ويقرأونها .

﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ يدعوهم إلى الإشراك أو إلى الحق وينذرهم بالعذاب فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبهة يتشبثون بها ، قال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الفراء: أي من أين كذبوك؟ ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه ، ثم خوفهم سبحانه وأخبر عن عاقبتهم وعاقبة من كان قبلهم ، فقال :

﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من كفار القرون الخالية ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أي ما بلغ أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوة والنعمة وكثرة المال والأولاد وطول الأعمار فأهلكهم الله كعاد وثمود وأمثالهم ، ولم تنفعهم قوتهم شيئاً في دفع الهلاك عنهم حين كذّبوا رسلهم فهؤلاء أولى بأن يحل بهم العذاب لتكذيبهم رسولهم والمعشار لغة في العشر قال الجوهري:معشار الشيء عشره وفي البحر المعشار:مفعال من العشر ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع .

ومعناهما العشر والربع وقيل : المعشار عشر العشر والأول أولى . وقيل : إن المعنى:ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى .

وقيل : ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ، وقيل : ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان ، والأول أولى ، وقيل : المعشار عشر العشير ، والعشير هو عشر العشر ، فيكون جزءاً من ألف جزء ، قال الماوردي: وهو الأظهر لأن المراد به المبالغة في التقليل . قلت : مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي

وقال ابن عباس في الآية : يقول من القوة في الدنيا ، وعن ابن جريج نحوه .

﴿ فكذبوا رسلي ﴾ عطف على :﴿كذب الذين من قبلهم﴾على طريقة التفسير كقوله:﴿كذبت قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾الآية والأولى أن يكون من عطف الخاص على العام لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة والرسل المرسلة والمعجزات الواضحة وتكذيب الرسل أخص منه وإن كان مستلزماً له فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية ، وما بينهما حال أو اعتراض ، وقال البيضاوي : لا تكرير لأن الأول للتكثير ، والثاني للتكذيب ، ونحوه في الكشاف ، وبمثله قال الكرخي .

﴿ فكيف كان نكير؟ ﴾ أي فكيف كان إنكاري لهم بالعذاب والعقوبة ؟ فليحذر هؤلاء من مثل ذلك ، قيل والتقدير فأهلكناهم فكيف نكيري ، والنكير اسم بمعنى الإنكار ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها فقال :

﴿ قل : إنما أعظكم بواحدة ﴾ أي أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه وأوصيكم بخصلة واحدة وهي :

﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ﴾ فهذا تفسير للخصلة الواحدة أو بدل منها أي هي قيامكم وتشميركم في طلب الحق بالفكرة الصادقة ، متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً لأن الاجتماع يشوش الفكر ويعمي البصر ، ويمنع من الرؤية ويقل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب ، وليس المراد القيام على الرجلين والنهوض والانتصاب على القدمين ، بل المراد القيام بطلب الحق والاعتناء والاشتغال بالتدبر ، وإصداق الفكر فيه كما يقال : قام فلان بأمر كذا ، وقيل : المراد بواحدة هي لا إله إلا الله ، كذا قال مجاهد ، والسدي . وقيل : القرآن لأنه يجمع المواعظ كلها والأولى ما ذكرناه ، وقال الزجاج: المعنى لأن تقوموا ، وقال السدي : معنى مثنى وفرادى منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره .

وقال القتيبي : مناظراً مع عشيرته ، ومتفكراً في نفسه ، وقيل : المثنى عمل النهار ، والفرادى عمل الليل ، قاله الماوردي . وما أبرد هذا القول ، واقل جداوه ونصبهما على الحال ، وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة ، فإن انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزداد بصيرة قال الشاعر :

إذا اجتمعوا جاءوا بكل غريبة   فيزداد بعض القوم من بعضهم علماً

﴿ ثم تتفكروا ﴾ في أمر النبي ﷺ وما جاء به من الكتاب فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً مجنون فقال الله سبحانه : قل لهم : اعتبروا أمري بواحدة وهي أن تقوموا لله ، وفي ذاته مجتمعين ، فيقول الرجل لصاحبه : هلم فلنصادق هل رأينا بهذا الرجل من جنة ؟ أي جنون وجربنا عليه كذباً ، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر ، وينظر فإن في ذلك ما يدل على أن محمداً ﷺ صادق وأنه رسول من عند الله ، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون .

قال محمد بن كعب في الآية : يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيفكر ما بصاحبه من جنة ، وقال قتادة : يقول : إنه ليس مجنون ، وقيل مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر عظيم والدعوى الكبيرة لا يعرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه وما ينسب إليه من الكذب ، وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً ، وأوزنهم حلماً وأحدّهم ذهناً ، وأرضاهم رأياً وأصدقهم قولاً ، وأزكاهم نفساً ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ، ويمدحون به فوجب أن يصدقوه في دعواه ، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة ، وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفتري الكذب ، ولا قد جربوا عليه كذباً مدة عمره ، وعمرهم . وقيل : ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون واختار أبو حاتم وابن الأنباري الوقف على قوله (ثم تتفكروا) وعلى هذا تكون جملة ما بصاحبكم من جنة مستأنفة كما قدمنا . وقيل ليس بوقف لأن المعنى ثم تتفكروا

هل جربتم عليه كذباً ؟ أو رأيتم منه جنة ؟ أو في أحواله من فساد .

﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ أي ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة أي قدامها وهو عذاب الآخرة وهو كقوله ﷺ بعثت بين يدي الساعة ثم أمره سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض في الدنيا ولا رغبة فيها ، حتى تنقطع عندهم الشكوك ويرتفع الريب فقال .

﴿ قل ما سألتكم من أجر ﴾ أي من جعل ﴿ فهو لكم ﴾ يقول لم أسألكم على الإسلام جعلاً أي ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي إلى مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه ، والمراد نفي السؤال بالكلية كما يقول القائل ما أملكه في هذا فقد وهبته لك يريد أنه لا ملك له فيه أصلاً ، ومثل هذه الآية قوله قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ، وقوله ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ثم بين لهم أن أجره عند الله سبحانه فقال ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ لا على غيره ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي مطلع لا يغيب عنه منه شيء فيعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه .

﴿ قل إن ربي يقذف ﴾ القذف في الأصل الرمي بالسهم والحصى والكلام .

قال الكلبي : يرمي على معنى يأتي به ، وقال مقاتل : يتكلم ﴿ بالحق ﴾ وهو القرآن والوحي أي يلقيه إلى أنبيائه ، وقال قتادة : بالحق أي بالوحي والمعنى أنه يبين الحجة ويظهرها للناس على ألسن رسله وقيل : يرمي الباطل بالحق فيدمغه

﴿ علام الغيوب ﴾ قرىء برفع علام وبنصبه قال الفراء : والرفع في مثل هذا أكثر كقوله : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ ، وقرىء : الغيوب بالحركات الثلاث في الغين وهو جمع غيب ، والغيب هو الأمر الذي غاب وخفي جداً

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ
ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ
وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ
﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

﴿ قل جاء الحق ﴾ أي الإسلام والتوحيد ، وقال قتادة القرآن وقال النحاس التقدير صاحب الحق أي الكتاب الذي فيه البراهين والحجج ،وأقول لا وجه لتقدير المضاف فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه.

﴿ وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي ذهب الباطل ذهاباً لم يبق له إقبال ولا إدبار ولا إبداء ولا إعادة فجعل مثلاً في الهلاك بالمرة والإبداء فعل الشيء ابتداء والإعادة فعله على طريق الإعادة ، ولما كان الإنسان ما دام حياً لا يخلو عن ذلك كنى به عن حياته وبنفيه عن هلاكه ، ثم شاع ذلك في كل مذهب، ولم يبق له أثر ، وإن لم يكن ذا روح فهو كناية أيضاً أو مجاز متفرع على الكناية ، وقيل: يجوز أن تكون ما استفهامية أي: أيُّ شيء يبدئه وأي شيء يعيده ، وعن قتادة قال : الشيطان لا يبدىء ولا يعيد إذا هلك ، وعنه قال: ما يخلق إبليس شيئاً ابتداء ولا يبعثه وبه قال مقاتل والكلبي . وقيل: الباطل الأصنام والأول أولى .

﴿ قل إن ضللت ﴾ عن الطريق الحقة الواضحة وقرىء بفتح اللام وهذه لغة نجد ، وهي الفصيحة وبكسرها وهي لغة أهل العالية ﴿ فإنما أضل﴾ أي إثم ضلالتي يكون ﴿ على نفسي ﴾ وقال عمر بن سعد: أي إنما أوخذ بجنايتي وذلك أن الكفار قالوا له: تركت دين آبائك فضللت ، فأمره الله أن يقول لهم

هذا القول.

﴿ وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي ﴾ من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن و﴿ ما ﴾ مصدرية أو موصولة والتقابل هنا من جهة المعنى دون اللفظ ﴿ إنه سميع قريب ﴾ مني ومنكم يعلم الهدى والضلالة وإن بولغ في إخفائها ، وهذا حكم عام لكل مكلف وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ، ثم ذكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار فقال :

﴿ ولو ترى إذ فزعوا ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، قيل : المراد فزعهم عند نزول الموت بهم أو غيره من بأس الله تعالى وقال الحسن : هو فزعهم في القبور من الصيحة ، وقال قتادة: هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم .

وقال السدي : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة ، وقال ابن معقل: هو فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة ، وقال سعيد بن جبير: هو الخسف الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى رجل منهم فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون ، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً عظيماً وحالاً هائلة ﴿ فلا فوت ﴾ أي فلا يفوتني أحد منهم ولا ينجو منهم ناج ، قال مجاهد: فلا مهرب وقال ابن عباس: فلا نجاة .

﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ من ظهر الأرض أو من القبور وهي قريبة من مساكنهم في الدنيا كما قاله أبو حيان ، أو قريب من موقف الحساب ،وقيل: أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ، وهذا على قول من يقول: هذا الفزع عند النزع ، وقيل: أخذوا من جهنم فألقوا فيها . وقيل: من حيث كانوا فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ولا يفوتونه .

وقال ابن عباس من تحت أقدامهم، وعنه قال: نزلت في ثمانين ألفاً

يغزون في آخر الزمان الكعبة ليخربوها فلما يدخلون البيداء يخسف بهم ، فهو الأخذ من مكان قريب ، ذكره القرطبي .

وقد ثبت في الصحيح أنه يخسف بجيش في البيداء من حديث حفصة وعائشة ، وخارج الصحيح من حديث أم سلمة وصفية وأبي هريرة وابن مسعود ، وليس في شيء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية ، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة ، وقال في آخرها : فذلك قوله عز وجل في سورة سبأ : ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت﴾ الآية ، وقيل : يجوز أن يكون هذا الفزع هو الفرع الذي بمعنى الإجابة . يقال فزع الرجل : إذا أجاب الصارخ الذي يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر .

﴿ وقالوا ﴾ وقت النزع وهو وقت نزول العذاب بهم عند الموت كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده ﴾ ، أو عند البعث فان الكفار كلهم يؤمنون حينئذ ﴿ آمنا به ﴾ أي بمحمد ﷺ قاله قتادة أو بالقرآن ، وقال مجاهد : بالله عز وجل ، وقال الحسن : بالبعث ثم نفى الله عنهم نفع الايمان بقوله :

﴿وأنى﴾ أي من أين ﴿ لهم التناوش ﴾ أي التناول ، وهو تقابل من النوش الذي هو التناول ، والمعنى : كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد يعني في الآخرة ، وقد تركوه في الدنيا وهو معنى قوله :

﴿ من مكان بعيد ﴾ وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة ، قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه أو بلحيته ناشه ينوشه نوشاً ، ومنه المناوشة في القتال ، وذلك إذا تدانى الفريقان . وقيل التناوش : الرجعة أي وأنى لهم الرجعة الى الدنيا ليؤمنوا ، وقال ابن عباس : قال يسألون الرد إلى الدنيا وليس بحين رد ، وقال التناوش : تناول الشيء وليس بحين ذلك وقال السدي : هو التوبة أي طلبوها ، وقد بعدت لأنها إنما تقبل

في الدنيا وقرى: التناوش بالواو وبالهمز واستبعد الثانية أبو عبيد والنحاس ولا وجه للاستبعاد فقد ثبت ذلك في لغة العرب وأشعارها، قال الفراء:الهمزة وتركها متقارب .

﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي والحال أن قد كفروا بما آمنوا به من قبل هذا الوقت وذلك حال كونهم في الدنيا . قيل : بالقرآن ، وقيل : بمحمد ﷺ من قبل أن يعاينوا العذاب وأهوال القيامة .

﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ أي يؤمنون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم في الرسول من المطاعن أو في العذاب من البت على نفيه، فيقولون:لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ﴿ من مكان بعيد ﴾ أي من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل ، وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الآخرة كما حكاه من قبل . وقيل: المعنى يقولون في القرآن أقوالاً باطلة : إنه سحر وشعر وأساطير الأولين ، وقيل : يقولون في محمد ﷺ : إنه ساحر شاعر كاهن مجنون ، قرىء : يقذفون مبنياً للمفعول أي يرجمون بما يسوؤهم من جزاء أعمالهم من حيث لا يحتسبون ، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه وهذا استعارة تمثيلية والجملة إما معطوفة على ﴿وقد كفروا به﴾ على أنها حكاية للحال الماضية ، واستحضار لصورتها ، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم .

﴿ وحيل بينهم ﴾ فعل مبني للمفعول وإذا بني للفاعل يقال فيه:حال وهو فعل لا يتعدى ونائب الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل كأنه قيل : وحيل هو أي الحول ، وجعل بعضهم نائب الفاعل الظرف ، وهو بينهم ، واعترض بأنه ينبغي حينئذ أن يرفع .

﴿ وبين ما يشتهون ﴾ من النجاة من العذاب ومنعوا من ذلك ، وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم ، أو حيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا .

﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أي بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية الذين كانوا قبلهم في الدنيا سابقين عليهم في الزمان ، والأشياع جمع شيع ، وشيع : جمع شيعة ، وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض ، فهم شيع فالأشياع جمع الجمع .

﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ تعليل لما قبله أي في شك موقع في الريبة أو ذي ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار ، أو في التوحيد وما جاءتهم به الرسل من الدين ، يقال : أراب الرجل إذا صار ذا ريبة فهو مريب ، وقيل هو من الريب الذي هو الشك والتهمة ، فهو كما يقال:عجب عجيب وشعر شاعر وهذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر

﴿ وتسمى سورة الملائكة . وهي خمس أو ست وأربعون آية وهي مكية ﴾ .

قال القرطبي : في قول الجميع، وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس: أنزلت سورة فاطر بمكة، وهذه السورة ختام السور المفتتحة بالحمد التي فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة . وهي الإيجاد الأول، ثم الابقاء الاول، ثم الايجاد الثاني المشار اليه بسورة سبأ، ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها . وهو الختام المشار اليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء . قاله الخطيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ، وعلى غير مادة كذا قال المفسرون ، والظاهر أن هذا ليس من معنى الفطر لغة ، وإنما أخذوه من المعنى وسياق الكلام ، وأصل الفطر في اللغة الشق عن الشيء مطلقاً ، يقال : فطرته فانفطر ومنه فطر ناب البعير إذا طلع فهو بعير فاطر ، وتفطر الشيء تشقق ، وقيل : الشق طولاً فكأنه شق العدم بإخراجهما منه ، وبابه نصر كما في المختار ، والفطر أيضاً الابتداء والاختراع ، وهو المراد هنا .

عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، يقول ابتدأتها وعنه الفاطر البديع ، والمعنى : الحمد لله مبدع السموات والأرض ومخترعهما ، والمقصود من هذا إن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة وإنما حمد سبحانه وتعالى نفسه بذلك تعظيماً له وتعليماً لعباده كيفية الثناء عليه تعالى ، قرىء فاطر على صيغة اسم الفاعل ، وفطر على صيغة الفعل الماضي .

﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ إلى عبادة يجوز فيه الوجهان كما تقدم والرسل من الملائكة هم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل[١] فالمراد

---

(١) سبق الاشارة انه لم يرو في الأحاديث تسمية عزرائيل .

بالملائكة بعضهم إذ ليس كلهم رسلاً كما هو معلوم ، صرح الطيبي بأن جاعل هنا للاستمرار فباعتبار أنه يدل على المضي يصلح كونه صفة للمعرفة ، وباعتبار أنه يدل على الحال والاستقبال يصلح للعمل . وقرىء: رسْلاً بسكون السين ، هي لغة تميم ، قال يحيى بن سلام : يرسلهم الله إلى الأنبياء يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والالهام والرؤيا الصادقة ، وقال السدي : إلى العباد بنعمة أو نقمة أو يوصلون إليهم آثار صنعته .

﴿ أولي ﴾ أي ذوي اسم جمع لذو ﴿ أجنحة ﴾ جمع جناح نعت لرسلاً وهو جيد لفظاً لتوافقهما تنكيراً ، أو للملائكة وهو جيد معنى إذ كل الملائكة لها أجنحة ، فهي صفة كاشفة ، والمسوغ للتخلف في التعريف جعل أل جنسية .

﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ صفات لأجنحة والقصد بها التكثير واختلافهم في عدد الأجنحة لا الحصر ، وإلا فبعضهم له ستمائة وغير ذلك ، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها ، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أُخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير الى غير تكرير ، وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه ، وقد تقدم الكلام عليها في النساء. قال قتادة: بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة ، ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة وبعضهم له أربعة ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء . أقول: الأصل جناحان لأنهما بمنزلة اليدين ، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل ، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه[1] .

﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة والمعنى أنه يزيد في خلق الملائكة والأجنحة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج قال ابن مسعود : رأى النبي ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح ، وقيل إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهري وابن جريج : إنها حسن الصوت ، وقال قتادة :

(١) لا نملك إلا الوقوف عند وصف القرآن الكريم للملائكة دون تصور معين له، فكل تصور قد يخطىء، والاجتهاد في هذا نوع من الرجم بالغيب بدون دليل.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ ليتأسّى بمن قبله من الأنبياء ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ، ولهذا نكّر «رسلاً» أي: رسل ذوو عدد كثير ، وأولو آيات ونذر ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم ، لأنه أسلى له ، وجواب الشرط محذوف أي فاصبر كما صبر وأدل عليه قوله: فقد كذبت الخ .

﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجع الأمور ﴾ فيجازي كُلًّا بما يستحقه قرىء :ترجع بفتح التاء على البناء للفاعل وبضمها على البناء للمفعول .

﴿ يا أيها الناس إن وعد الله ﴾ بالبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار ﴿ حق ﴾ كما أشير إليه بقوله : وإلى الله ترجع الأمور ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ بزخرفها ونعيمها ، والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهي صورة اليها كما في قولهم: بعين ما لا أرينك ههنا. قال سعيد بن جبير: غرورالحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول :يا ليتني قدمت لحياتي والمعنى لا تخدعنكم الدنيا ، ولا يذهلنكم التمتع بها ، والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة ، وطلب ما عند الله تعالى .

﴿ ولا يغرنكم بالله ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين أي المبالغ في الغرور وهو الشيطان قاله ابن السكيت وأبو حاتم .

ويجوز أن يكون مصدراً واستبعده الزجاج لأن غررته متعد ومصدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضرباً ، إلا في أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها ، ومعنى الآية : لا يغرنكم الشيطان بالله فيقول لكم إن الله يتجاوز عنكم ويغفر لكم بفضله عليكم ، أو لسعة رحمته لكم ، وقرىء بضم الغين وهو الباطل ، قال ابن السكيت :والغروربالضم ما يغر من متاع الدنيا وقال الزجاج:يجوز أن يكون الغرور بالضم جمع غار مثل قاعد وقعود ، قيل : ويجوز أن يكون مصدر غره كاللزوم والنهوك ، وفيه ما تقدم عن الزجاج من الاستبعاد ، ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان فقال :

﴿ إن الشيطان لكم عدو ﴾ ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل ، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله والتنكير للتعظيم أي عدو عظيم لأن عداوته عامة قديمة ، والعموم يفهم من قوله : لكم حيث لم يخص ببعض دون بعض ، والقدم من الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار .

﴿ فاتخذوه عدواً ﴾ أي فعادوه بطاعة الله ولا تطيعوه في معاصي الله ، وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم وأفعالكم وعقائدكم عن صميم قلوبكم وإذا فعلتم فعلاً فتفطنوا له فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبائح قال القشيري : ولا يتعزى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بالرب ، فإنه لا يغفل عن عداوتكم فلا تغفلوا أنتم عن مولاكم لحظة. ذكره الخطيب ، ثم بين الله سبحانه لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم وحذرهم عن طاعته فقال :

﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ أي إنما يدعو أشياعه وأتباعه والمطيعين له إلى معاصي الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار

الملاحة في العينين ، والحسن في الأنف والحلاوة في الفم ، وقيل الوجه الحسن وقيل الخط الحسن ، وقيل الشعر الجعد ، وقيل العقل والتمييز ، وقيل العلوم والصنائع ، وقيل الصوت الحسن وجودة العقل ومتانته .

ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص ، بل يتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وجراءة في القلب ، وسماحة في النفس ، ولباقة في التكلم وحسن تأن في مزاولة الأمور ، وذلاقة في اللسان ، ومحبة في قلوب المؤمنين وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف ، وبه قال الزمخشري ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تعليل لما قبله من أنه يزيد في الخلق ما يشاء .

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ أي ليس لك من الأمر شيء فما يأتيهم الله به من مطر ورزق ونعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به لا يقدر أحد أن يمسكه .

قال ابن عباس : ما يفتح الله للناس من باب توبة فلا ممسك لها ، هم يتوبون إن شاءوا وإن أبوا ، وما أمسك من باب توبة فلا مرسل له من بعده ، وهم لا يتوبون ، واستعير الفتح للإطلاق والإرسال إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون ، وأعزها منالاً ، وتنكير الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قيل : أي رحمة كانت سماوية أو أرضية والعموم مفهوم من اسم الشرط ومن رحمة بيان لذلك العام من أي صنف هو وهو مما اجتزي فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرف المطابق في العموم لاسم الشرط وتقديره من الرحمات ، ومن في موضع الحال ، وقيل: المعنى إن الرسل بعثوا رحمة للناس ، فلا يقدر على إرسالهم غير الله ، وقيل: هو الدعاء وقيل التوبة وقيل التوفيق والهداية ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه .

﴿ وما يمسك ﴾ من ذلك ﴿ فلا مرسل له من بعده ﴾ أي لا يقدر أحد

أن يرسله من بعد إمساكه والإمساك يتناول كل شيء يمنعه الله من نعمه فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط لا معطي سواه ، ولا منعم غيره ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ فيما أمسك وفيما أرسل على مقتضى حكمته ، ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى ، كما قال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فقال:

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ﴾قيل:الخطاب لأهل مكة ونعمة الله عليهم إسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم ، وقيل:لجميع الناس ، ونعمة الله عليهم هي التي تقدمت من بسط الأرض كالمهاد ، ورفع السماء بلا عماد ، وإرسال الرسل لبيان السبيل دعوة إليه ، وزلفة لديه ، والزيادة في الخلق ، وفتح أبواب الرزق ، ومعنى هذا الذكر هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها ، ليس المراد ذكرها باللسان فقط ، ولكن المراد ذكرها به وبالقلب ، أي لا تنسوها ، والنعمة هنا بمعنى الإنعام، وعليه درج الجلال . وقيل : إنها بمعنى المنعم به ، ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله :

﴿ هل من خالق غير الله ﴾ من زائدة مؤكدة أي لا خالق إلا الله سبحانه وهو استفهام تقرير وإنكار وتوبيخ ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ خبر المبتدأ أو جملة مستأنفة أو صفة أخرى لخالق وخبره محذوف ، والرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات وغير ذلك .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون وهو مأخوذ من الإفك بالفتح وهو الصرف يقال : ما أفكك عن كذا أي ما صرفك عنه .

وقيل : هو مأخوذ من الإفك بالكسر وهو الكذب ، لأنه مصروف عن الصدق ، قال الزجاج: أي من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله والبعث وأنتم مقرون بأن الله خلقكم ورزقكم ؟ ثم عزى الله نبيه ﷺ فقال :

واللام للتعليل ومحل الموصول في قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ الرفع على الابتداء وقوله:

﴿ لهم عذاب شديد ﴾ خبره أو الرفع على البدل من فاعل يكونوا أو النصب على البدل من حزبه أو الجر على البدل من أصحاب ، والرفع على الابتداء أقوى الوجوه لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان ودعائه لحزبه ذكر حال الفريقين من المطيعين له والعاصين عليه ، فالفريق الأول قال: لهم عذاب شديد ، والفريق الثاني قال فيه :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ويعطيهم أجراً كبيراً وهو الجنة ، قال ابن جريج :كل شيء في القرآن لهم مغفرة وأجر كبير ورزق كريم فهو الجنة .

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين عاقبتي الفريقين ومن في موضع رفع بالابتداء وخبره محذوف. قال الكسائي : والتقدير ذهبت نفسك عليهم حسرات. قال: ويدل عليه قوله فلا تذهب الخ . قال: وهذا كلام عربي ظريف لا يعرفه إلا القليل وقال الزجاج: تقديره كمن هداه ، وقدره غيرهما كمن لم يزين له ، وهذا أولى لموافقته لفظاً ومعنى ، وقد وهم صاحب الكشاف فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائي . قال النحاس: والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله عز وجل نهى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم كما قال : فلعلك باخع نفسك قبل التقدير : أفمن زين الخ تريد أن تهديه إنما ذلك إلى الله لا إليك والذي إليك هو التبليغ .

وقال قتادة والحسن : الشيطان زين لهم هي والله الضلالات وقيل نفسه الأمارة وهواه القبيح ، وهو من إضافة الصفة للموصوف أي عمله السيء قال

ابن عباس: نزلت في أبي جهل ومشركي مكة ، وقيل : نزلت في أصحاب الأهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ، وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لأنهم يعتقدون تحريمها مع ارتكابهم إياها.

﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ مقررة لما قبلها ومحققة للحق ببيان أن الكل بمشيئته أي يضل من يشاء أن يضله ويهدي من يشاء أن يهديه وهذه الآية ترد على القدرية قولهم .

﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ أي لا تحزن عليهم. قرىء: بفتح الفوقية والهاء مسنداً إلى النفس فيكون من باب لا أرينك ههنا أي لا تتعاط أسباب ذلك ، وقرىء بضم التاء وكسر الهاء ونصب نفسك أي فلا تهلكها عليهم أي على عدم إيمانهم .

وقوله حسرات مفعول لأجله والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه على كثرة قبائحهم الموجبة للتأسف والتحسر عليهم ، ويجوز أن ينتصب حسرات على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر ، كما روي عن سيبويه ، وقال المبرد : إنها تمييز ، وعليهم صلة لتذهب كما يقال : هلك عليه حباً ، ومات عليه حزناً والحسرة شدة الحزن وهمّ النفس على ما فات مّن الأمر وأشد التلهف على الشيء الفائت ، تقول : حسر على الشيء من باب طرب وحسره أيضاً فهو حسير .

﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ لا تخفى عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية ؛ والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد ، ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه وعظيم قدرته ليتفكروا في ذلك وليعتبروا به فقال:

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ
وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

﴿والله الذي أرسل الرياح﴾ قرأ الجمهور بالجمع وقرىء :الريح بالأفراد وهي سبعية عن ابن مسعود قال : يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى خلق الله في السموات والأرض إلا من شاء الله إلا مات ثم يرسل الله من تحت العرش منياً كمني الرجال فتنبت أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ هذه الآية :

﴿ فتثير سحاباً[1] ﴾ جاء بالمضارع بعد الماضي استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة لأن ذلك أدخل في اعتبار المعتبرين. والمعنى: أنها تزعجه وتحركه من حيث هو.

﴿ فسقناه ﴾ فيه التفات عن الغيبة ، وقال أبوعبيدة: سبيله فتسوقه لأنه قال: فتثيرسحاباً. قيل:النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع الدلالة على التحقق

(١) هذه الآية قطعية في أن المطر من السحاب وأن الرياح هي التي تسوقه بأمره تعالى إلى إحياء الموات من الأرض والآية معجزة كونية لأن ما ثبت بها في عصر كان أهله يظنون المطر ينزل من سقف السماء من غرابيل إلى غير ذلك من خرافات وأساطير أدخلها وهب بن منبه وكعب الأحبار ومن إليهما فبيانها الواضح يرد خبث المفترين . المطيعي .

﴿ إلى بلد ﴾ هو يذكر ويؤنث والبلدة البلد ﴿ ميت ﴾ أي أرض ليس بها نبات ولا مرعى.قال المبرد : ميت وميت واحد ، وقال : هذا قول البصريين .

﴿ فأحيينا به الأرض ﴾ أي أحيينا بالمطر النازل منه الأرض بإنبات النبات فيها ، وإن لم يتقدم ذكر المطر فالسحاب يدل عليه ، أو أحيينا بالسحاب لأنه سبب المطر ﴿ بعد موتها ﴾ أي بعد يبسها استعار الاحياء للنبات والموت لليبس

﴿ كذلك النشور ﴾ أي كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها والنشور والبعث من نشر الانسان نشوراً أي مثل إحياء موات الأرض في صحة المقدور به وسهولة التأتي إحياء الأموات إذ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه ، وذلك لا مدخل له فيها فكيف تنكرونه؟ ، وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيه به .

عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : «يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء ؟ قلت : بلى ، قال : كذلك يحيي الله الموتى ، وكذلك النشور». أخرجه أحمد والبيهقي والطيالسي وغيرهم .

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ فليطلبها منه لا من غيره قال الفراء: معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فإنها لله جميعاً ، وقال قتادة : من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله ، فجعل معنى لله العزة الدعاء الى طاعة من له العزة كما يقال: من أراد المال فالمال لفلان ، أي فليطلبه من عنده ، وقال الزجاج: تقديره من كان يريد بعبادة الله العزة فالعزة له سبحانه ، فإن الله عز وجل يعزه في الدنيا والآخرة .

وقيل . المراد به المشركون فانهم كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله: «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً»، وقيل: المراد الذين كانوا

يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة ؟ والظاهر في معنى الآية : أن من كان يريد العزة ويطلبها فليطلبها من الله عز وجل فلله العزة جميعاً ليس لغيره منها شيء ، فتشمل الآية كل من طلب العزة ، ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة وتستحق ، ومن أي جهة تطلب فتكون الألف واللام للاستغراق ، وهو المفهوم من آيات هذه السورة .

﴿ إليه ﴾ تعالى لا الى غيره ﴿ يصعد الكلم الطيب ﴾ الصعود هو الحركة الى فوق وهو العروج أيضاً وموضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل ، ومعنى صعوده إليه قبوله له ، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف ، وخص الكلم الطيب بالذكر لبناء الثواب عليه ، وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر الله وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتلاوة وغير ذلك ، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد أو بالتحميد والتمجيد ، وقيل : المراد بصعوده صعوده الى سماء الدنيا ، وقيل : يصعد الى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم ، وفيه دليل على علوّه تعالى فوق الخلق وكونه بائناً عنه بذاته الكريمة ، كما تدل له الآيات الأخرى الصريحة والأحاديث المستفيضة الصحيحة ، وقيل : المراد بصعوده علم الله به والأولى ما ذكرناه آنفاً .

﴿والعمل الصالح يرفعه ﴾ أي يرفع الكلم الطيب كما قال الحسن وشهر ابن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبو العالية والضحاك ، ووجهه : أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح . وقيل : ان فاعل يرفعه هو الكلم الطيب ، ومفعوله العمل الصالح ، ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والايمان ، وقيل : إن فاعل يرفعه ضمير يعود الى الله عز وجل ، والمعنى أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ، لأن العمل

يحقق الكلام ، وقيل : العمل الصالح يرفع صاحبه وهو الذي أراد العزة ، وقال قتادة : المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه أي يقبله فيكون قوله والعمل الصالح مبتدأ وخبره يرفع ، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه ، قرأ الجمهور يصعد من صعد الثلاثي ، والكلم بالرفع على الفاعلية ، وقرأ علي وابن مسعود يصعد بضم حرف المضارعة من أصعد ، والكلم بالنصب على المفعولية ، وقرأ الضحاك على البناء للمفعول وقرأ الجمهور الكلم وقرأ أبو عبد الرحمن الكلام وقرأوا العمل بالرفع على العطف أو على الابتداء وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال .

وعن ابن مسعود في الآية قال : «إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله سبحانه ان العبد المسلم اذا قال: سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر وتبارك الله قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ، ثم يصعد بهن الى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفر لقائلهن حتى يحيي بهن وجه الرحمن ، ثم قرأ: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، قال : أداء الفرائض فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله فصعد به الى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله، وكان عمله أولى به». أخرجه الطبراني والبيهقي والحاكم وصححه وغيرهم.

﴿ والذين يمكرون السيئآت ﴾ليس مفعولاً به لأن مكر لازم فانتصابه على أنه صفة لمصدر محذوف أي يمكرون المكرات السيئآت ويجوز أن يضمن يمكرون معنى يكسبون فيكون السيئآت مفعولاً به. قال مجاهد وقتادة : هم أهل الربا .

وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبيﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال الكلبي : هم الذين يعملون السيئات في الدنيا . وقال مقاتل : هم المشركون ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي بالغ الغاية في الشدة .

﴿ ومكر اولئك هو يبور ﴾ أي يهلك ويفسد ويبطل ومنه : وكنتم قوماً بوراً ، وقد أبارهم الله إبارة بسبب مكرانهم ، حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب ، فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه بواحدة منها ، والمكر في الأصل الخديعة والاحتيال والإشارة بقوله «اولئك» الى الذين مكروا السيآت على اختلاف الأقوال في تفسير مكرهم وجملة هو يبور خبر مكر اولئك ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين . واشتهارهم بذلك ، ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على صحة البعث والنشور فقال :

﴿ والله خلقكم ﴾ ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿ من تراب ﴾ وقال قتادة : يعني آدم والتقدير على هذا خلق أباكم الأول وأصلكم الذي ترجعون اليه من تراب .

﴿ ثم من نطفة ﴾ أخرجها من ظهر أبيكم ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ أي زوج بعضكم ببعض فالذكر زوج الأنثى أو جعلكم أصنافاً ذكراناً وإناثاً ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي لا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به فلا يخرج شيء من علمه وتدبيره، ومن زائدة .

﴿ وما يعمّر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ قرىء ينقص مبنياً للمفعول وللفاعل ومن عمره بضم الميم وبسكونها والمعى ما يطول عمر أحد ولا ينقص من عمره إلا في اللوح المحفوظ ، قال الفراء : يريد آخر غير الأول فكنى عنه بالضمير ، كأنه الأول لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر فالكناية في عمره ترجع الى آخر غير الأول ، ومثله قولك : عندي درهم ونصفه ، أي نصف آخر ، قيل : إنما سمى معمراً باعتبار مصيره اليه والمعنى ما يمد في عمر أحد ولا ينقص من عمر أحد لكن لا على معنى : ولا ينقص من عمره بعد كونه زائداً ، بل على معنى أنه لا يجعل من الابتداء ناقصاً إلا وهو في كتاب . قال سعيد بن

جبير وما يعمر من معمر إلا كتب عمره كم هو سنة؟ كم هو شهراً؟ كم هو يوماً ؟ كم هو ساعة ؟ ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر ، نقص من عمره سنة ، حتى يستوفي أجله فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل فهو الذي يعمره .

قال النسفي : هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم ، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد ، وعليه كلام الناس يقولون : لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق،أو تأويل الآية أنه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة ، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتي على آخره ، فذلك نقصان عمره انتهى.وقال قتادة : المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين ، وقيل المعنى:أن الله كتب عمر الانسان كذا ان أطاع ودونه إن عصى ، فأيهما بلغ فهو في كتاب ، والضمير على هذا يرجع الى معمر ، وقيل المعنى: وما يعمر من معمر الى الهرم ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب الله ، أي بقضاء الله قاله الضحاك ، واختاره النحاس قال وهو أشبهها بظاهر التنزل ، والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني ان تطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره لأسباب تقتضي التطويل ، وأسباب تقتضي التقصير فمن أسباب التطويل ما ورد في صلة الرحم عن النبي ﷺ مثل قوله «من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، أي يؤخر في عمره فليصل رحمه». ونحو ذلك .

ومن أسباب التقصير: الاستكثار من معاصي الله سبحانه فاذا كان العمر المضروب للرجل مثلاً سبعين سنة فقد يزيد الله له عليها اذا فعل أسباب الزيادة وقد ينقصه منها اذا فعل أسباب النقصان والكل في كتاب مبين ، فلا تخالف بين هذه الآية وبين قوله سبحانه : ﴿فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون

ساعة ولا يستقدمون﴾ ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ ،وقد قدمنا في تفسيرها ما يزيد ما ذكرنا هنا وضوحاً وبياناً .

قال ابن عباس في الآية يقول:ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت له ذلك فإنما ينتهي الى الكتاب الذي قدرت له لا يزاد عليه ، وليس أحد قضيت عليه أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي الى الكتاب الذي كتب له فذلك قوله :ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ،يقول:كل ذلك في كتاب عنده .

وأخرج احمد ومسلم وأبو عوانة وابن حبان والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال:«قال رسول الله ﷺ يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة ،فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان ، ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها».

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال قالت أم حبيبة:اللهم امتعني بزوجي النبي ، وبأبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال النبي ﷺ«إنك سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، ولن يعجل الله شيئاً قبل حله أو يؤخر شيئاً ولو كنت سألت الله ان يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل». وهذه الأحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء ، وانه يعتلج هو والقضاء ، وبما ورد في صلة الرحم أنها تزيد في العمر فلا معارضة بين الأدلة كما قدمنا .

﴿ إن ذلك ﴾ أي ما سبق من الخلق وما بعده ﴿ على الله يسير ﴾ لا يصعب عليه منه شيء ، ولا يعزب عنه كثير ولا قليل ، ولا كبير ولا صغير ، ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من بديع صنعه ، وعجيب قدرته ، فقال :

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ
لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ
فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

﴿ وما يستوي البحران هذا ﴾ أي أحدهما ﴿ عذب فرات ﴾ شديد العذوبة ﴿ سائغ شرابه ﴾ مريء يسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ شديد الملوحة ، وقيل هو الذي يحرق الحلق بملوحته فالمراد بالبحرين : العذب والمالح ، فالعذب الفرات : الحلو ، والأجاج : المر ، وقرىء سيغ مشدداً وقرىء ملح بفتح الميم ، وقيل : المقصود من الآية ضرب مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر .

﴿ومن كل ﴾ منهما ﴿ تأكلون لحماً طرياً ﴾ وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل ، وهذا وما بعد ذلك إما استطراداً في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع ، وإما تكملة للتمثيل ، والمعنى كما أنهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء ، لما خالط أحدهما ما أفسده ، وغيره عن كمال فطرته ، كذلك لا يساوي الكافر المؤمن ، وإن شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصيلة وحيازته لكماله اللائق دون الآخر ، أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث إنه يشارك العذب في منافع كثيرة ، والكافر

خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى :(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة)الخ . قاله أبو السعود .

﴿ وتستخرجون حلية ﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ، وهو صغار اللؤلؤ ، وقال الطرطوشي : هو عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف وهكذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيراً انتهى . والظاهر أن المعنى وتستخرجون منهما حلية ، وقال المبرد : إنما تستخرج الحلية من المالح ، وروي عن الزجاج أنه قال : إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده ورجح النحاس قول المبرد ، ومعنى .

﴿ تلبسونها ﴾ تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في الأصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق والخلخال في الرجل ، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما .

﴿ وترى الفلك فيه ﴾ أي في كل واحد من البحرين ، وقال النحاس : الضمير يعود الى المالح خاصة ولولا ذلك لقال : فيهما ﴿مواخر﴾ يقال : مخرت السفينة تمخر إذا شقت الماء بجريها فيه فالمعنى: وترى السفن في البحرين شواق للماء . بعضها مقبلة وبعضها مدبرة ، بريح واحدة ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة النحل ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي فعل ذلك لتبتغوا ، قال مجاهد ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر الى البلدان البعيدة في المدة القريبة كما تقدم في البقرة .

﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله على ما أنعم به عليكم من ذلك .

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي يضيف بعض أجزائهما الى الآخر فيزيد في أحدهما بالنقص في الآخر وقد تقدم تفسيره في آل عمران وفي مواضع من الكتاب العزيز .

﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ عطف على يولج واختلاف الصيغة لما أن إيلاج احد الملوين في الأخر متجدد حيناً فحيناً وأما تسخير النيرين فأمر لا تجدد ولا تعدد فيه ، وإنما المتعدد المتجدد آثاره .

﴿كل﴾منهما ﴿ يجري ﴾ في فلكه ﴿ لأجل مسمى ﴾ قدره الله لجريانهما وهو يوم القيامة ، وقيل : هو المدة التي يقطعان في مثلها الفلك وهو سنة للشمس وشهر للقمر ، وقيل : المراد به جري الشمس في اليوم والقمر في الليلة ، وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان .

﴿ ذلكم ﴾ أي الفاعل لهذه الأفعال المتقدمة من أول السورة الى هنا وهو مبتدأ وخبره .

﴿ الله ربكم له الملك ﴾ أي هذا الذي من صنعته ما تقدم هو الخالق المقدر والقادر والمقتدر المالك للعالم والمتصرف فيه ، ويجوز ان يكون قوله : له الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله :

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه ، والقطمير : القشرة الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة ، وتصير على النواة كاللفافة لها ، وقال المبرد : هو شق النواة ، وقال قتادة هو القمع الذي على رأس النواة . قال الجوهري : ويقال هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة ، وقال ابن عباس : القطمير القشر . وفي لفظ الجلد الذي يكون على ظهر النواة ومعلوم أن في النواة أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة :الفتيل وهو ما في شق النواة ، والقطمير:وهو اللفافة ،والثفروق: وهو ما بين القمع والنواة ، والنقير:وهو ما في ظهرها . ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرون فقال:

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

﴿ إن تدعوهم ﴾ أي إن تستغيثوا بهم في النوائب ﴿ لا يسمعوا دعاءكم ﴾ لكونها جمادات لا تدرك شيئاً من المدركات .

﴿ ولو سمعوا ﴾ فرضاً وتقديراً ﴿ ما استجابوا لكم ﴾ لعجزهم عن ذلك. قال قتادة: المعنى ولو سمعوا لم ينفعوكم ، وقيل المعنى لو جعلنا لهم سماعاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتهم إليه من الكفر .

﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي يتبرأون من عبادتكم لهم ، ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، ويجوز أن يرجع : والذين تدعون من دونه وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار ، وهم الملائكة والجن والشياطين والمعنى: أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم كما أخبر الله عن عيسى بقوله: (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق)، قال القرطبي: ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً أي: يحييها الله حتى تخبر بأنها ليست أهلاً للعبادة .

﴿ ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي لا يخبرك أيها المفتون بأسباب الغرور مثل

من هو خبير بالأشياء ، عالم بخبايا الأمور ، وهو الله سبحانه فإنه لا أحد أخبر بخلقه وأقوالهم وأفعالهم منه سبحانه ، وهو الخبير بكنه الأمور وحقائقها ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله فقال :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء ﴾ المحتاجون ﴿إلى الله ﴾ في جميع أمور الدين والدنيا فهم الفقراء اليه على الاطلاق في أنفسهم وفيما يعرض لهم من سائر الأمور وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم ، كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء ، وأن افتقار سائر الخلائق بالاضافة الى فقرهم غير معتدّ به ولذلك قال : (وخلق الانسان ضعيفاً)، ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ، ولهذا وصف نفسه بالغنى الذي هو مطمع الأغنياء فقال :

﴿ والله هو الغني ﴾ على الإطلاق ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد من عباده بإحسانه اليهم ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من الأنواع التي يتحقق عندها افتقارهم إليه واستغناؤهم عنهم فقال :

﴿إن يشأ يذهبكم ﴾ كلكم الى العدم ويفنيكم وفيه بلاغة كاملة أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته ثم زاد على بيان الاستغناء بقوله : ﴿ ويأت ﴾ بدلكم ﴿ بخلق جديد﴾ يطيعونه ولا يعصونه أو يأت بنوع من أنواع الخلق، وعالم من العوالم غير ما تعرفون .

﴿ وما ذلك ﴾ الإذهاب بكم والإتيان بآخرين ﴿ على الله بعزيز ﴾ أي بممتنع ولا متعسر ، وقد مضى تفسير هذا في سورة إبراهيم .

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ ولا تزر ﴾ أي ولا تحمل نفس ﴿ وازرة ﴾ آثمة ﴿ وزر ﴾ إثم نفس ﴿ أخرى ﴾ فحذف الموصوف للعلم به بل كل نفس تحمل وزرها ولا تخالف هذه الآية قوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، لأنهم إنما حملوا أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، والكل من أوزارهم لا من أوزار غيرهم، ومثل هذا: حديث «من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»، فإن الذي سن السنة السيئة إنما حمل وزر سنته السيئة، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في حجة الوداع: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، لا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده».

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم عن أبي رمثة قال: «انطلقت مع أبي نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأيته قال لأبي: ابنك هذا؟ قال أي ورب الكعبة. قال: أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه». ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية. قال ابن عباس: يلقى الأب والأم الابن فيقولان له: يا بني احمل عنا بعض ذنوبنا فيقول: لا أستطيع حسبي ما علي.

﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ قال الفراء: أي نفس مثقلة بالذنوب

قال : وهذا يقع للمذكر والمؤنث. قال الأخفش : أي وإن تدع مثقلة إنساناً الى حملها وهو ذنوبها . والحمل بالكسر ما يحمل على الظهر ونحوه ، والجمع أحمال وحمول وحملت المتاع حملاً من باب ضرب فأنا حامل والأنثى حاملة بالتاء لأنها صفة مشتركة. قال ابن السكيت: الحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس شجرة ، والحمل بالكسر ما كان على ظهر أو رأس ، قال الأزهري : وهذا هو الصواب وهو قول الأصمعي . وقال : امرأة حامل وحاملة اذا كانت حبلى .

﴿ لا يحمل منه ﴾ أي من حملها ﴿ شيء ﴾ قال ابن عباس: لكونه عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي ، ولو كان الذي تدعوه ذا قرابة لها لم يحمل من حملها شيئاً ، ومعنى الآية وان تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى الى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً ، ولو كانت قريبة لها من النسب كالأب والأم والابن والأخ فكيف بغيرها ممن لا قرابة بينها وبين الداعية لها .

وقرىء:ذو قربى على أن كان تامة. كقوله: (وإن كان ذو عسرة)، قال الزمخشري : ونظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إذا دعت أحداً الى حملها لا يحمل منه ولو كان مدعوها ذا قربى ، وهو ملتئم. ولو قلت : ولو وجد ذو قربى لخرج عن التئامه اهـ.

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالإنذار، أي أنهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه ، أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، ويخشونه في الخلوات عن الناس . قال الزجاج : تأويله أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار كقوله: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾،وقوله :﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾.

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي احتفلوا بأمرها ، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما

يلهيهم وأداموها ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ وقرىء من أزكى فإنما يزكى لنفسه ، والتزكي : التطهر من أدناس الشرك والفواحش والمعنى أن من تطهر بترك المعاصي واستكثر من العمل الصالح فإنما يتطهر لنفسه لأن نفع ذلك مختص به كما أن وزر من تدنس لا يكون إلا عليه لا على غيره .

﴿ وإلى الله المصير ﴾ لا إلى غيره ، ذكر سبحانه أولاً : أنه لا يحمل أحد ذنب أحد ، ثم ذكر ثانياً : أن المذنب إن دعا غيره وإن كان من قرابته الى حمل شيء من ذنوبه لا يحمله ، ثم ذكر ثالثاً : أن ثواب الطاعة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شيء ، ثم ضرب مثلاً للمؤمن والكافر وقد قرر ببيان التنامي أولاً بين ذاتيهما ، وثانياً بين وصفيهما ، وثالثاً بين مستقريهما ، ودار بهما في الآخرة فقال :

﴿ وما يستوي الأعمى ﴾ أي المسلوب حاسة البصر واستوى من الأفعال التي لا يكفي فيها واحد ، فلو قلت استوى زيد لم يصح ، فمن ثم لزم العطف على الفاعل ، أو تعدده ﴿ والبصير ﴾ الذي له ملكة البصر فشبه الكافر بالأعمى وشبه المؤمن بالبصير ، وقيل : مثل للجاهل والعالم .

﴿ولا ﴾ تستوي ﴿ الظلمات ولا النور ﴾ فشبه الباطل بالظلمات وشبه الحق بالنور ، وقيل : إنما جمع الظلمات وأفرد النور لتعدد فنون الباطل ، واتحاد الحق .

﴿ ولا الظل ولا الحرور ﴾ بالفتح شدة حر الشمس وهو خلاف البرد يقال: حر اليوم والطعام يحر من باب تعب وحر حراً وحروراً من بابي ضرب وقعد لغة ، والاسم : الحرارة ، فهو حار وحرت النار تحر من باب تعب توقّدت واستعرت ، والحرة بالفتح : أرض ذات حجارة سود والجمع حرار مثل كلبة وكلاب ، والحرور على وزن رسول : الريح الحارة . قال الأخفش : لا يكون الحرور إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل ، وقيل : عكسه . وقال رؤبة بن العجاج : الحرور يكون بالليل خاصة والسموم يكون بالنهار خاصة

وقال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار والحرور يكون فيهما . قال النحاس ؛ وهذا أصح ، وقال قطرب : الحرور: الحر ، والظل : البرد ، والمعنى أنه لا يستوي الظل الذي لا حر فيه ولا أذى ، والحر الذي يؤذي قيل :أراد الثواب والعقاب ، وسمي الحر حروراً مبالغة في شدة الحر ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى . وقال الكلبي: أراد بالظل الجنة ، وبالحرور النار. وقال عطاء: يعني ظل الليل وشمس النهار ثم ذكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمن والكافر ، وهو أبلغ من الأول فقال :

﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ فشبه المؤمنين بالأحياء وشبه الكافرين بالأموات وهو أبلغ من الأول لكمال التنافي بين الحي والميت ، ولذلك أعيد الفعل ، وأما التنافي بين الأعمى والبصير فليس تاماً لإمكان اشتراكهما في كثير من الإدراكات.

وقال ابن قتيبة : الأحياء العقلاء والأموات الجهال . قال قتادة هذه كلها أمثال أي:كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ، وقد زيدت (لا) في المواضع الثلاثة خمس مرات اثنتين في الأولى واثنتين في الثانية وواحدة في الثالثة . والكل لتأكيد نفي الاستواء فالزيادة شاملة لأصل زيادتهما كالأولى من الجملة الأولى ولتكريرها كالثانية منها .

﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته ، ووفقهم لطاعته ، وهذا شروع في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم. وتنتهي بقوله : فكيف كان نكير . والمراد من قوله:يسمع بها ويوصل من شاء وصوله وهدايته فيحييه بالإيمان.

﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ يعني الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، أي كما لا يسمع من مات كذلك لا يسمع من مات قلبه. قرىء: بتنوين مسمع وقطعه عن الإضافة وبإضافته.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ
﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر ليس عليك الا الإنذار والتبليغ وليس لك من الهدى شيء إنما الهدى والضلالة بيد الله عز وجل .

﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أي محقين أو محقاً أو إرسالاً متلبساً بالحق أي بالهدى ﴿ بشيراً ﴾ بالوعد الحق ﴿ ونذيراً ﴾ بالوعيد الحق أو بشيراً لأهل الطاعة ونذيراً لأهل المعصية .

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ أي ما من أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير من الأنبياء ينذرها ، والأمة الجماعة الكثيرة ، وتقال لكل أهل عصر ، والمراد هنا أهل العصر ، واقتصر على ذكر النذير دون البشير لأنه ألصق بالمقام .

فإن قلت : كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمدﷺ لم يخل فيها نذير ؟ قلت : اذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير الا أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله محمداًﷺ ، وآثار نذارته باقية الى يوم القيامة لأنه لا نبي بعده ، فهل من مدّكر ، وهذا يقتضي أن أهل الفترة مكلفون لبقاء آثار الرسل المتقدمة فيهم ، وهو خلاف ما في شرح ابن حجر على الهمزية أن أهل الفترة من أهل الجنة وان غيروا وبدلوا وعبدوا غير الله ، لأنه لم يرسل إليهم رسولاً لأن من قبلهم من الرسل انتهت رسالته بموته اذ لم يعلم لأحد من الرسل استمرار رسالته بعد الموت إلا نبيناﷺ ، فهم غير مكلفين بما يفعلونه ولو كان صورة معصية .

لكن ورد النص بتعذيب بعض أهل الفترة كعمرو ابن لحي فيتلقى ، ويعتقد فيمن ورد فيهم بخصوصهم ، لا لأن ما فعلوه كفر بل لحكمة يعلمها الله تعالى لم نطلع عليها. انتهى ملخصاً. وحينئذ فالظاهر أنه لا يحصل الاتصال بين الآية وبين ما تقرر إلا بأن يلزم أن جملة العرب أمة ويصدق تقدم النذير فيها بتقدم اسماعيل وان بني إسرائيل أمة، ويصدق تقدم النذير فيهم بتقدم عيسى ومن قبله فتأمل ثم سلى سبحانه نبيه ﷺ وعزاه فقال :

﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ من الأمم الماضية أنبياءهم ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحة والدلالات الظاهرة ﴿وبالزبر﴾ أي الكتب المكتوبة كصحف ابراهيم وهي ثلاثون ، وكصحف موسى قبل التوراة وهي عشرة . وكصحف شيت وهي ستون فجملة الصحف مائة تضم لها الكتب الأربعة فجملة الكتب المنزلة على الأنبياء مائة وأربعة.قاله الحفناوي .

﴿ وبالكتاب المنير ﴾ كالتوراة والانجيل ، قيل : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ، والعطف لتغاير المفهومات وإن كانت متحدة في الصدق ، والأولى تخصيص البينات بالمعجزات ، والزبر بالكتب التي فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام ، وجواب الشرط محذوف ، أي فاصبر كما صبروا ، وأن المذكور دليل له .

﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر يفيد التصريح بذمهم بما في حيز الصلة ويشعر بعلة الأخذ ﴿ فكيف كان نكير ﴾ الاستفهام تقريري كما قاله الكرخي ، وينبغي ان يتأمل فيه ، أي فكيف كان نكيري عليهم ؟ وعقوبتي لهم ؟ والنكير بمعنى الإنكار، وهو تغيير المنكر وقد مضى بيان هذا قريباً ، ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة وخلقاً من مخلوقاته البديعة فقال ·

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ الم تر ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له ، وهذه الرؤية هي القلبية أي : ألم تعلم ﴿ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ﴾ أي بالماء يعني المطر ، والنكتة في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل ، لما فيه من الصنع البديع ، ولأن المنة بالاخراج أبلغ من إنزال الماء .

﴿ ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ المراد بالألوان الأجناس والأصناف من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر ، أو هيئاتها أي بعضها أبيض ، وبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر وبعضها أسود ، قال ابن عباس : أي الأبيض والأحمر والأسود .

﴿ ومن الجبال جدد ﴾ الجدد جمع جدة بالضم وهي الطريق. قال: الأخفش ولو كان جمع جديد لقال : جدد بضم الجيم والدال نحو : سرير وسرر ، وقرأ الزهري : جدد بضم الجيم والدال: جمع جديدة يقال جديدة وجدد وجدائد ، وقال أبو الفضل : معناها آثار جديدة واضحة الألوان ، وقرىء بفتحهما .

وقد رد أبو حاتم هذه القراءة من حيث النقل والمعنى وقد صححها غيره وقال الجدد: الطريق الواضح البين ، وقيل الجدد: القطع مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته ، حكاه ابن بحر . قال الجوهري : الجدة الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدة الطريق ، والجمع جدد وجدائد . قال

المبرد : جدد طرائق وخطوط ، قال الواحدي : ونحو هذا قال المفسرون في تفسير الجدد . وقال الفراء : هي الطرق تكون في الجبال كالعروق بيض وسود وحمر واحدها جدة .

﴿ بيض وحمر ﴾ وصفر ﴿ مختلف ألوانها ﴾ بالشدة والضعف ، والمعنى أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال وهي طرائقها أو الخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض ولون بعضها الحمرة .

﴿ وغرابيب سود ﴾ الغربيب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب : قال الجوهري : تقول هذا أسود غربيب ، أي شديد السواد ، وإذا قلت : غرابيب سود جعلت السود بدلاً من غرابيب ، قال الفراء : في الكلام تقديم وتأخير، تقديره : وسود غرابيب لأنه يقال أسود غربيب، وقلما يقال : غربيب أسود ، وقيل الغربيب تأكيد للأسود كالقاني للأحمر ، ومن حق التوكيد أن يتبع المؤكد وانما قدم للمبالغة والمعنى من الجبال جدد بيض وحمر ومن الجبال غرابيب على لون واحد وهو السواد ، أو من الجبال جدد بيض وحمر وسود وقيل التقدير : ومن الجبال ذو جدد لأن الجدد إنما هي في ألوان بعضها .

﴿ ومن الناس والدواب ﴾ وقرىء بتخفيف الباء ﴿ والأنعام ﴾ أي ومنهم صنف أو نوع أو بعض .

﴿ مختلف ألوانه﴾ بالحمرة والسواد والبياض والخضرة والصفرة قال الفراء أي : خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات والجبال ، وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه .

﴿ كذلك ﴾ أي مختلفاً مثل ذلك الاختلاف ، والتقدير مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك أي كاختلاف الجبال والثمار ، وقال ابن عطية : متعلق بما بعده أي مثل ذلك النظر والاعتبار في مخلوقات الله ، واختلاف ألوانها ﴿إنما يخشى

الله من عباده العلماء﴾، وهو مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها ، والراجح الوجه الأول والوقف على كذلك تام ، ثم استأنف الكلام واخبر سبحانه بقوله :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وهو من تتمة قوله: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته ، وهم العلماء به ، وبعظيم قدرته قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل ، ومثله عن الشعبي .

وقال مسروق : كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار جهلاً ، وعن ابن مسعود نحوه فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له. قال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم ، ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية ولو أخر لانعكس الأمر ، وقرىء: برفع الاسم الشريف ونصب العلماء ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة. قال في الكشاف: الخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى أنه يجلهم ويعظهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس .

قال ابن عباس : العلماء بالله الذين يخافونه ، وعنه قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير ، وعن ابن مسعود قال : ليس العلم من كثرة الحديث ، لكن العلم من الخشية ، وفي لفظ بكثرة الرواية وعن حذيفة بحسب المؤمن من العلم أن يخشى الله .

وعن عائشة قالت : صنع رسول الله ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ، ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » أخرجه البخاري ومسلم .

﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾ أي يستمرون على تلاوته ويداومونها ، والكتاب هو القرآن العظيم ولا وجه لما قيل : ان المراد به جنس كتب الله .

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ أي فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها ، وأذكارها ، عن ابن عباس قال : نزلت في حصين بن الحرث بن عبد المطلب بن عبد مناف .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ فيه حث على الإنفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سراً فهو أفضل ، وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فإن ترك الخير مخافة ذلك هو عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بالسر الصدقة المطلقة . وبالعلانية الزكاة ، واليه أشار في التقرير قاله الكرخي . وقيل : السر في المسنونة والعلانية في المفروضة .

﴿ يرجون تجارة ﴾ أي ثواب الطاعة ﴿ لن تبور ﴾ أي لن تكسد ولن تهلك والأخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم واللام في قوله :

﴿ليوفيهم أجورهم ﴾ متعلقة بلن تبور على معنى أنها لن تكسد لأجل أن نوفيهم أجور أعمالهم الصالحة ومثل هذه الآية قوله سبحانه :﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ وقيل إن اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق أي فعلوا ذلك ليوفيهم ومعنى :

﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أنه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزاء أعمالهم ، قيل بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم ، أو بتضعيف حسناتهم ، أو بتحقيق وعد لقائه ﴿ إنه غفور شكور ﴾ تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة ، أي غفور لذنوبهم شكور لطاعاتهم .

وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ
بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ
وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ يعني القرآن وقيل اللوح المحفوظ على أن من تبعيضية أو ابتدائية ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي موافقاً لما تقدمه من الكتب ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي محيط بجميع أمورهم الباطنة والظاهرة .

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ إنما قدم المفعول الثاني لقصد التشريف والتعظيم للكتاب والمعنى ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب ، وهو القرآن ، أي قضينا وقدرنا أن نورث العلماء من أمتك يا محمد هذا الكتاب الذي نزلناه عليك ، فأورثنا استعارة تبعية سمى إعطاء الكتاب إياهم من غير كد وتعب في وصوله إليهم بتوريث الوارث .

و﴿ من ﴾ للبيان أو للتبعيض ، والمراد بعبادنا أمة الإجابة سواء حفظوه أو لا فهو عطية لجميعهم حتى من لم يحفظه لأنه قدوته، وفيه هدايته وبركته ، ومعنى اصطفائهم: اختيارهم واستخلاصهم . ولا شك أن علماء هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة قد شرفهم الله على سائر العباد ، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وخصهم بحمل أفضل الكتب ، قال مقاتل : يعني قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفيناهم من عبادنا ، وقيل : إن المعنى أورثناه من الأمم السالفة أي أخرناه عنهم ، وأعطيناه الذين اصطفينا ، والأول أولى .

ثم قسم سبحانه هؤلاء الذين أورثهم كتابه واصطفاهم من عباده إلى ثلاثة أقسام فقال :

﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ وفي قوله : ﴿ بإذن الله ﴾ تنبيه على عزة منال هذه الرتبة ، وصعوبة مأخذها أي بأمره أو بعلمه ، أو بتوفيقه ﴿ ذلك ﴾ أي توريث الكتاب والاصطفاء وقيل السبق إلى الخيرات ، والأول أولى ، وهو مبتدأ وخبره .

﴿ هو الفضل الكبير ﴾ أي الفضل الذي لا يقادر قدره ، وقد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية لأنه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم ، وهو من اصطفاهم من العباد فكيف يكون من اصطفاه الله ظالماً لنفسه ، فقيل : إن التقسيم هو راجع إلى العباد أي فمن عبادنا ظالم لنفسه ، وهو الكافر ويكون ضمير يدخلونها عائداً إلى المقتصد والسابق ، وقيل : المراد بالظالم لنفسه هو المقصر في العمل به ، وهو المرجى لأمر الله ، وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله : فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب وهذا فيه نظر ، لأن ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء .

وقيل الظالم لنفسه هو الذي عمل الصغائر ، وقد روي هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعائشة ، وهذا هو الراجح لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظ عظيم وقيل الظالم هو صاحب الكبائر ، قلت : ومنشأ الإشكال هو من جعل الوارثين هم العلماء من أمة محمد ﷺ ، إذ لو جعلت الوراثة لجميع الأمة زال الإشكال للقطع بأن منهم ظالماً لنفسه ، ولا ينافي الاصطفاء لكونهم فضلوا الأمم الآخرة ، وقد ورد في ذلك شيء كثير كما لا يخفى ويؤيده ما سيأتي آخر البحث والله أعلم .

وقد اختلف السلف في تفسير السابق والمقتصد فقال عكرمة وقتادة والضحاك : إن المقتصد المؤمن العاصي ، والسابق التقي على الإطلاق وبه قال الفراء . وقال مجاهد في تفسير الآية : فمنهم ظالم لنفسه أصحاب المشأمة ومنهم مقتصد أصحاب الميمنة ومنهم سابق بالخيرات السابقون من الناس كلهم ، وقال المبرد : إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها .

وقال الحسن الظالم الذي ترجح سيئآته على حسناته ، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئآته والسابق من رجحت حسناته على سيئآته ، وقال مقاتل : الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة والسابق الذي سبق إلى الأعمال الصالحة . وحكى النحاس : أن الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئآته فيكون قوله الآتي : ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ للذين سبقوا بالخيرات لا غير . قال : وهذا قول جماعة من أهل النظر لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى .

وقال الضحاك : فمنهم ظالم لنفسه أي من ذريتهم ظالم لنفسه وقال سهل بن عبد الله : السابق العالم والمقتصد المتعلم ، والظالم لنفسه الجاهل.وقال ذو النون المصري : الظالم لنفسه الذاكر لله بلسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه والسابق الذي لا ينساه . وقال الأنطاكي : الظالم صاحب الأقوال والمقتصد صاحب الأفعال والسابق صاحب الأحوال .وقال ابن عطاء :الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبى والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق .

وقيل : الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار والمقتصد الذي يعبده طمعاً في الجنة والسابق الذي يعبده لا لسبب . وقيل :الظالم الذي يحب نفسه ، والمقتصد الذي يحب دينه ، والسابق : الذي يحب ربه ، وقيل : الظالم الذي ينتصف ولا ينصف ، والمقتصد : الذي ينصف وينتصف ، والسابق : الذي ينصف ولا ينتصف وقيل :الظالم هو المرجىء لأمر الله ، والمقتصد هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر

سيئاً .

قال النسفي : وهنا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال:﴿والسابقون لأولون من المهاجرين﴾ الآية،وقال بعده : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ الآية وقال بعده: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ انتهى.

وقال الربيع بن أنس: الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد صاحب الصغائر ، والسابق المجتنب لهما ، وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا.وهو قوله : (والذين كفروا لهم نار جهنم)، وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور ، وقيل الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه والمقتصد الذي استوى ظاهره وباطنه ، والسابق الذي باطنه خير من ظاهره . وقيل:الظالم التالي للقرآن ولم يعمل به ، والمقتصد:التالي له العالم به والسابق القارىء له العالم به العامل بما فيه .

وقد ذكر الثعلبي وغيره أقوالاً كثيرة ولا شك أن المعاني اللغوية للظالم والمقتصد والسابق معروفة ، وهو يصدق الظلم للنفس بمجرد إحرامها للحظ وتفويت ما هو خير لها ، فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوقها من الثواب وإن كان قائماً بما أوجب الله عليه تاركاً لما نهاه عنه .

فهو من هذه الحيثية ممن اصطفاه الله ومن أهل الجنة فلا إشكال في الآية ، ومن هذا قول آدم عليه السلام ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ وقول يونس ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ ومعنى المقتصد:هو من يتوسط في أمر الدين ، ولا يميل إلى جانب الإفراط ولا إلى جانب التفريط ، وهذا من أهل الجنة ، وأما السابق:فهو الذي سبق غيره في أمور الدين وهو خير الثلاثة ، وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه ، والسابق أفضل منهما فقيل : إن التقديم لا يقتضي التشريف كما في قوله :(لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة)، ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشر على أهل الخير وتقديم المفضولين على الفاضلين .

وقيل : وجه التقديم هنا أن الظالمين كثير وأن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل والسابقين بالنسبة الى الفريقين أقل قليل ، فقدم الأكثر على الأقل والأول أولى ، فإن الكثرة بمجردها لا تقتضي تقديم الذكر .

وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله ، وقيل : إنما قدمه ليعرفه أن ذنبه لا يبعده من ربه ، وقيل : إن أول الأحوال معصية ثم توبة ثم استقامة . وقال جعفر الصادق : بدأ بالظالمين إخبار بأنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ، ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة ، وقد قيل في وجه التقديم غير ما ذكرناه مما لا حاجة إلى التطويل به .

وعن ابن عباس في الآية قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله كل كتاب أنزل ، فظالمهم مغفور له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم يدخلون الجنة»، وفي إسناده رجلان مجهولان .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وغيرهم عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله :﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ الآية فأما الذين سبقوا وأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون :﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ . الآية . قال البيهقي : إذا كثرت روايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً انتهى. وفي إسناد أحمد : محمد بن

اسحق وفي إسناد ابن أبي حاتم رجل مجهول .

وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ «قال: أمتي ثلاثة أثلاث فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحصون ويكشفون ، ثم تأتي الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : لا إله إلا الله وحده فيقول الله : أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده ، واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب وهي التي قال الله :﴿وليحملن أثقالهم ،وأثقالاً مع أثقالهم﴾وتصديقها في التي ذكر في الملائكة قال الله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) فجعلهم ثلاثة أفواج فمنهم ظالم لنفسه فهذا الذي يكشف ويمحص ومنهم مقتصد وهو الذي يحاسب حساباً يسيراً ومنهم سابق بالخيرات فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب بإذن الله يدخلون الجنة جميعاً». قال ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث: غريب جداً انتهى .

وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضاً ، ويجب المصير إليها ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر .

ويؤيدها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن أسامة بن زيد: فمنهم ظالم لنفسه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : «كلهم من هذه الأمة وكلهم في الجنة». وما أخرجه الطيالسي وعبد ابن حميد والطبراني وغيرهم عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة أرأيت قول الله : ثم أورثنا الكتاب الآية ؟ قالت : أما السابق فمن مضى في حياة رسول الله ﷺ فشهد له بالجنة ، أما المقتصد فمن تبع أثارهم ، فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك ، ومن اتبعنا ، وكل في الجنة. وعن ابن مسعود قال : هذه ثلاثة أثلاث يوم القيامة . ثلث يدخلون الجنة جميعاً بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يجيئون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي. ثم قرأ: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ الآية .

وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في البعث عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا مر بهذه الآية ﴿ثم اورثنا الكتاب﴾ قال : ألا . إن سابقنا سابق . ومقتصدنا ، ناج وظالمنا مغفور له ، وأخرجه البيهقي وغيره عنه من وجه آخر مرفوعاً ، وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعاً .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله . والظالم لنفسه أصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ .

وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن عثمان بن عفان أنه نزع بهذه الآية ثم قال : ألا إن سابقنا أهل جهادنا . ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا . ألا وإن ظالمنا أهل بدونا .

وأخرج البيهقي في البعث عن البراء بن عازب قال : أشهد على الله أنه يدخلهم الجنة جميعاً ، وأخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عنه قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية قال : [كلهم ناج وهي هذه الأمة] .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال هي مثل التي في الواقعة أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة والسابقون ، صنفان ناجيان ، وصنف هالك ، وعنه قال : هو الكافر ، والمقتصد أصحاب اليمين ، وهذا المروى عنه رضي الله عنه لا يطابق ما هو الظاهر من النظم القرآني ، ولا يوافق ما قدمنا من الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن جماعة من الصحابة ، وعن عبدالله بن الحارث أن ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية فقال : نجوا كلهم ، ثم قال تحاكت مناكبهم ورب الكعبة ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم . أخرجه ابن أبي شيبة وغيره وقد قدمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين فتعارضت الأقوال عنه .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ
(٣٣) وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِىٓ
أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ (٣٦)

وقوله ﴿ جنات عدن ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ يدخلونها ﴾ والضمير يعود إلى الأصناف الثلاثة فلا وجه لقصره على الصنف الأخير وقرىء: جنة بالإفراد وقرىء: جنات بالنصب على الاشتغال ، وقرىء: يدخلونها على البناء للمفعول ﴿ يحلون فيها ﴾ هو من حليت المرأة فهي حال ، وفيه إشارة إلى سرعة الدخول فإن في تحليتهم خارج الجنة تأخيراً للدخول ، فلما قال: يحلون فيها أشار إلى أن دخولهم على وجه السرعة .

﴿ من أساور من ذهب ﴾ من الأولى تبعيضية ، والثانية بيانية أي يحلون بعض أساور كائنة من ذهب . والأساور جمع أسورة جمع سوار ﴿ ولؤلؤاً ﴾ منصوب بالعطف على محل من أساور ، وقرىء: بالجر عطفاً على ذهب أي مرصعاً بلؤلؤ أو يحلون أساوراً ولؤلؤاً وهو الأولى .

أخرج الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله :(جنات عدن يدخلونها) الآية فقال: «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة لتضيء ما بين المشرق والمغرب». ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ لما فيه من اللذة والزينة ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ بفتحتين وقرىء بضم الحاء وسكون الزاي والمعنى أنهم يقولون هذه المقالة إذا دخلوا الجنة ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق . قال قتادة : حزن الموت ، وقال عكرمة : حزن السيئآت والذنوب وخوف رد الطاعات ، وقال ابن عباس : حزن النار وقال القاسم حزن زوال النعم وخوف العاقبة . وقيل : حزن أهوال يوم القيامة . وقال الكلبي : ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة ، وقال سعيد بن جبير : همّ الخبز في الدنيا ، وقيل : همّ المعيشة . وقال الزجاج : أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو لمعاد وهذا أرجح الأقوال فإن الدنيا وإن بلغ نعيمها أي مبلغ لا يخلو من شوائب ونوائب تكثر لأجلها الأحزان وخصوصاً أهل الإيمان فإنهم لا يزالون وجلين من عذاب الله خائفين من عقابه مضطربين القلوب في كل حين ، هل تقبل أعمالهم ؟ أو ترد ؟ حذرين من عاقبة السوء وخاتمة الشر ، ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة ، وأما أهل العصيان فهم وإن نفس عن خناقهم قليلاً في الحياة الدنيا التي هي دار الغرور ، وتناسوا دار القرار يوماً من دهرهم ، فلا بد أن يشتد وجلهم وتعظم مصيبتهم ، وتغلي مراجل أحزانهم إذا شارفوا الموت ، وقربوا من منازل الآخرة ، ثم إذا قبضت أرواحهم ولاح لهم ما يسوؤهم من جزاء أعمالهم ازدادوا غماً وحزناً . فإن تفضل الله عليهم بالمغفرة وأدخلهم الجنة فقد أذهب عنهم أحزانهم وأزال غمومهم وهمومهم .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : هم قوم في الدنيا يخافون الله ويجتهدون له في العبادة سراً وعلانية وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت فعندها قالوا : ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾

وروى البغوي بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في قبورهم ، ولا في نشورهم ، وكأني بأهل لا إلّه إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون(الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن).

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ غفر لنا العظيم وشكر لنا القليل من أعمالنا أو يغفر الجنايات ويقبل الطاعات ، وقيل :غفور لمن عصاه شكور لمن أطاعه ﴿ الذي أحلنا ﴾ أي أنزلنا ﴿ دار المقامة ﴾ أي التي يقام فيها أبداً ولا ينتقل عنها ﴿ من فضله ﴾ أي تفضلاً منه ورحمة .

﴿ لا يمسنا فيها نصب ﴾ أي لا يصيبنا في الجنة عناء ولا تعب ولا مشقة ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أي إعياء من التعب ، وكلال من النصب ، ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين ذكر جزاء عباده الظالمين فقال :

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم ﴾ بالموت ﴿ فيموتوا ﴾ ويستريحوا من العذاب. قرىء: فيموتوا بالنصب جوابا للنفي وقرىء: بإثبات النون . قال ابن عطية: هي ضعيفة ولا وجه لهذا التضعيف ، بل هي كقوله: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.

﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ بل كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب وكلما خبت النار زيد إسعارها وهذه الآية هي مثل قوله سبحانه: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾.

﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل من هو مبالغ في الكفر لا جزاء أخف وأدنى منه ، وقرىء: يجزي على البناء للمفعول .

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ من الصراخ وهو الصياح ، أي وهم يستغيثون في النار رافعين أصواتهم والصارخ المستغيث : ﴿ ربنا ﴾ أي يقولون ربنا ، أو قائلين ربنا وقال مقاتل: إنهم ينادون ربنا .

﴿ أخرجنا نعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ من الشرك والمعاصي فنجعل الإيمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر ، والطاعة بدل المعصية ، قيل وزيادة قوله غير الذي كنا نعمل للتحسر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة فأجاب الله عليهم بقوله:

﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره وما نكرة موصوفه أي أو لم نعمركم عمراً يتمكن من التذكر فيه من تذكر ، فقيل : هو ستون سنة وقيل : أربعون وقيل : ثماني عشرة سنة ، قال بالأول: جماعة من الصحابة . ومنهم ابن عباس وبالثاني :الحسن ومسروق وغيرهما ، وبالثالث: عطاء وقتادة .

أخرج ابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذي قال الله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومي . وفيه مقال .

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أعذر الله إلى امرىء أخّر عمره حتى بلغ ستين سنة»، وعن سهل بن سعيد مرفوعاً نحوه أخرجه عبد بن حميد والطبراني والحاكم ، وعن علي بن أبي طالب قال : العمر الذي غيرهم الله به ستون سنة .

وأخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم وابن المنذر والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوزذلك» .قال الترمذي بعد إخراجه : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعن ابن عباس في هذه الآية : هو ست وأربعون سنة ، وعنه قال : العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم فيه بقوله: أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ؟ أربعون سنة .

﴿وجاءكم النذير﴾ قال الواحدي قال جمهور المفسرين : هو النبي ﷺ ، وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسن بن الفضل والفراء وابن جرير: هو الشيب ويكون معناه على هذا القول: أو لم نعمركم حتى شبتم وقيل هو القرآن ، وقيل الحمى قال الأزهري معناه أن الحمى رسول الموت أي كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه والشيب نذير أيضاً ، لأنه يأتي في سن الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب ، وقيل :هو موت الأهل والاقارب ، وقيل :هو كمال العقل ، وقيل : البلوغ .

﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ الفاء لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ، ومجيء النذير ، وفي «فما» للتعليل أي فذوقوا عذاب جهنم لأنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ، ويحول بينكم وبينه قال مقاتل: فذوقوا فما للمشركين من مانع يمنعهم.

﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة وقرىء بالتنوين ونصب غيب والمعنى : أنه عالم بكل شيء . ومن ذلك أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال:﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالأولى ، وقيل :هذه الجملة مفسرة للجملة الأولى ، (وذات) تأنيث(ذو) بمعنى صاحب أي بالأمور صاحبة الصدور ، ومصاحبتها لها من حيث اختباؤها فيها .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ جمع خليفة ، ويقال للمستخلف: خليفة وخليف ، ويجمع الأول على خلائف والثاني على خلفاء أي جعلكم أمة خالفة لمن قبلها . قال قتادة: خلفاً بعد خلف وقرناً بعد قرن ، والخلف هو التالي للمتقدم ، وقيل: جعلكم خلفاء في أرضه .

﴿ فمن كفر ﴾ منكم هذه النعمة ﴿ فعليه كفره ﴾ أي عليه ضرر كفره لا يتعداه إلى غيره ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ أي غضباً وبغضاً .

﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ أي نقصاً وهلاكاً ، والمعنى أن الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم إلا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا خساراً والتكرير لزيادة التكرير ، والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة . ثم أمره سبحانه أن يوبخهم ويبكتهم فقال :

﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون ﴾ أي أخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة وعبدتموهم ﴿ من دون الله ﴾ أي غيره وهم الأصنام وغيرها

﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ بدل اشتمال من أرأيتم والمعنى: أخبروني عن شركائكم أروني أي شيء خلقوا من الأرض ، وقيل : إن الفعلين وهما أرأيتم وأروني من باب التنازع ، وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين

﴿ أم لهم شرك في السموات ﴾ أي أم لهم شركة مع الله في خلقها أو ملكها أو التصرف فيها ؟ حتى يستحقوا بذلك الشركة في الإلهية .

﴿ أم آتيناهم ﴾ الضمير فيه وفي قوله لهم : الأحسن أن يعود إلى الشركاء لتناسق الضمائر ، وقيل : يعود على المشركين فيكون التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة أي: أم أنزلنا عليهم

﴿ كتاباً ﴾ بالشركة وأم في الموضعين منقطعة بمعنى : بل والهمزة فيكون قد أضرب عن الاستفهام الأول ، وشرع في استفهام آخر ، والاستفهام إنكاري .

﴿ فهم على بينة منه ﴾ أي على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب قرىء: بينة بالتوحيد وبالجمع ، قال مقاتل : يقول هل أعطينا كفار مكة كتاباً فهم على بيان بأن مع الله شريكاً ، ثم أضرب سبحانه عن هذا إلى غيره فقال :

﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ أي ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً ـ كما يفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لأتباعهم ـ إلا غروراً يغرونهم به ، ويزينونه لهم ، وهو الأباطيل التي تغر ولا حقيقة لها ، وذلك قولهم : إن هذه الآلهة تنفعهم وتقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده ، وقيل : إن الشياطين تعد المشركين بذلك : وقيل : المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا (٤١) وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا (٤٣)﴾

﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ أي يمنعهما من الزوال قاله الزجاج أو كراهة أن تزولا وقيل لئلا تزولا ، والجملة مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه وبديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام وعدم قدرتها على شيء ، وقيل : المعنى أن شركهم يقتضي زوال السموات والأرض كقوله :﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً﴾.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «قال وقع في قلب موسى هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرّقه ثلاثاً وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما فجعل ينام وتكاد يداه تلقيان ، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان. قال ضرب الله له مثلاً؛ إن الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض» أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني والبيهقي في الأسماء والصفات وغيرهم وروي من طرق عن ابن سلام وابن أبي بردة .

﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ أي ما أمسكهما أحد من

بعد إمساكه أو من بعد زوالها ، والجملة سادة مسد جواب القسم والشرط ومن الأولى زائدة والثانية ابتدائية. قال الفراء أي ولو زالتا ما أمسكهما من أحد ، قال وهو مثل قوله: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾، وقيل : المراد زوالهما يوم القيامة ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ تعليل لما قبله من إمساكه تعالى السموات والأرض .

﴿ وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ المراد قريش أقسموا قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القسم حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى ديناً منهم فلما بعث محمد ﷺ كذبوه فأنزل الله هذه الآية والمعنى من إحدى الأمم المكذبة للرسل ، والنذير: النبي . والهدى: الاستقامة ، وكانت تتمنى أن يكون منهم رسول كما كان الرسل في بني إسرائيل ، وأنث إحدى لكون أمة مؤنثة كما قال الأخفش ، وقيل: المعنى من إحدى الأمم على العموم ، وقيل: من الأمة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها .

﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ أي ما تمنوه وهو رسول الله ﷺ الذي هو أشرف نذير وأكرم رسول وكان من أنفسهم ﴿ ما زادهم ﴾ مجيئه ﴿ إلا نفوراً ﴾ منهم عنه وتباعداً عن إجابته.

﴿ استكباراً في الأرض ﴾ أي لأجل الاستكبار والعتو ، أو بدل من نفور أو حال ، قاله الأخفش ، وهذا جواب لما ، وفيه دليل على أنها حرف لا ظرف ، إذ لا يعمل ما بعد ﴿ ما ﴾ النافية فيما قبلها وتقدمت له نظائر ، وإسناد الزيادة إلى النذير مجاز لأنه سبب في ذلك كقوله: ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ .

﴿ ومكر السيء ﴾ أي ولأجل مكر العمل السيء ، أومنكروا المكر السيىء والمكرُهو الحيلة والخداع والعمل القبيح ، وأضيف إلى صفته كقولهم : مسجد الجامع وصلاة الأولى قرأ الجمهور: ومكر السيء بخفض همزة السيء ،وقرأ الأعمش وحمزة: بسكونها وصلاً ، وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة ونزهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها. قالوا : وإنما كان يقف بالسكون فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلاً ، وتوجيه هذه القراءة ممكن بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف ، ومثله قراءة من قرأ: (ما يشعرْكم) بسكون الراء ومثل ذلك قراءة أبي عمر: (وإلى بارئْكم) بسكون الهمزة. وغير ذلك كثير قال أبو علي الفارسي : هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف وقرأ ابن مسعود ومكراً سيئاً .

﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي لا تنزل عاقبة السوء إلا بمن أساء. قال الكلبي : يحيق بمعنى يحيط ، والحوق الإحاطة. يقال: حاق به كذا أي أحاط به ، وهذا هو الظاهر من معنى يحيق في لغة العرب ولكن قطرب فسره هنا بينزل.

﴿ فهل ينظرون ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إلا سنة الأولين ﴾ أي سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم ، بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه ، والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب .

﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ بأن يحول أحد ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم ونفي وجدان التبديل والتحويل كناية عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني ، وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ هذه الجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وتأكيده أي : ألم يسيروا في أرض الشام واليمن والعراق فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل ولا تحول وآثار عذابهم وما أنزل الله بهم موجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم ، والهمزة للإنكار أو النفي ، والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام.

﴿ وكانوا ﴾ أي والحال أنهم كانوا ﴿ أشد منهم قوة ﴾ وأطول أعماراً وأكثر أموالاً وأقوى أبداناً فما نفعهم طول المدى ، وما أغنت عنهم شدة القوة .

﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ﴾ أي ما كان ليسبقه ويفوته شيء من الأشياء كائناً ما كان فيهما ، وهذا تقرير لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السابقة.

﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي كثير العلم كثير القدرة لا يخفى عليه شيء ولا يصعب عليه أمر ، وهذا تعليل لذلك التقرير .

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ من الذنوب وعملوا من الخطايا ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ أي الأرض ﴿ من دابة ﴾ من الدواب التي تدب كائنة ما كانت ، أما بنو آدم فلذنوبهم ، وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم وقيل المراد:ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب من بني آدم ، والجن . وقال

بالأول ابن مسعود وقتادة ، وقال بالثاني الكلبي ، وقال ابن جريج والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا: الناس وحدهم دون غيرهم .

أخرج الفريابي وغيره عن ابن مسعود قال : إنه كاد الجعل ليعذب في حجره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ هذه الآية قيل : وجه الملاءمة بين الشرط والجزاء أنه تعالى إذا كان يؤاخذ الناس بما كسبوا كان ينقطع عنهم النعم التي من جملتها المطر، فإذا انقطع عنهم المطر انقطع النبات فيموت جميع الحيوانات فهذا كناية أريد بها الملزوم وقوله: على ظهرها فيه استعارة مكنية قال قتادة: وقد فعل ذلك في زمن نوح ، وقال يحيى بن سلام . يحبس الله المطر فيهلك كل شيء ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة .

﴿ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ أي بمن يستحق منهم الثواب ومن يستحق منهم العقاب وفي هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين والعامل في (إذا) هو : جاء لا (بصيراً) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

﴿هي ثلاث أو ثنتان وثمانون آية﴾

والأول أولى :

وهي مكيّة . قال القرطبي بالإجماع إلا أن فرقة قالت : ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ وسيأتي بيان ذلك[1] .

وعن ابن عباس قال : نزلت بمكة وعن عائشة مثله .

وأخرج الدارمي والترمذي ومحمد بن نصر والبيهقي في الشعب عن أنس قال: «قال رسول اللّه ﷺ ، ان لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، من قرأ يس كتب له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات »[2] قال

---

(١) قد ذكر ابو سليمان الدمشقي انها مدنية وقال : ليس بالمشهور.

(٢) اتفق المحدثون على أن من علامات وضع الحديث أن يكون فيه أجر كبير جداً على عمل قليل ، فكيف يصح أن من قرأ يس كان له أجر من قرأ القرآن عشر مرات . وهو حديث موضوع اخرجه الترمذي ٤٦/٤ والدارمي ٤٥٦/٢ وابن كثير في تفسير ٥٦٣/٣ .

الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، وفي إسناده هرون أبو محمد، وهو شيخ مجهول.

وفي الباب عن أبي بكر، ولا يصح لضعف إسناده، وأخرج الدارمي وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ يٓس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له في تلك الليلة»(١) قال ابن كثير اسناده جيد.

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «يٓس قلب القران لا يقرؤها عبد يريد الله والدار الآخرة الا غفر له ما تقدم من ذنبه، فاقرؤوها على موتاكم»(٢). وقد ذكر له أحمد اسنادين أحدهما فيه مجهول والآخر ذكر فيه عن أبي عثمان، وقال ليس بالنهدي عن أبيه عن معقل.

وأخرج الطبراني وابن مردويه قال السيوطي: بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من داوم على قراءة يٓس كل ليلة ثم مات مات شهيداً».

---

(١) ضعيف الجامع ٥٧٩٧ و٥٧٩٨و٥٧٦٦ و٥٨٠٠ و٥٨٠١ .

(٢) قال العلماء: معنى (على موتاكم) أي من حضره الموت، وذلك لكي يسمع ما فيها من آيات التوحيد والبعث والجزاء - عند مفارقته للدنيا.
أما من مات فعلاً فلا يقرأ عليه يس ولا غيرها.
وفي النية أن ننشر في آخر تفسير هذه السورة ملحق به أبحاث طويلة للمنار وغيره يظهر به الحق في هذه المسألة وموقف ابن تيمية وابن القيم منها فليراجع. وقد نقل عن أحمد قوله: «كانت المشيخة يقولون: اذا قرئت عند الميت خفف الله عنه بها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾

﴿ يس ﴾ قرأ الجمهور بسكون النون وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وخفص وقالون وورش بإدغام النون في الواو التي بعدها ، وقرىء بفتح النون وبكسرها ، فالفتح على البناء أو على أنه مفعول فعل مقدر تقديره : اتل يس والكسر على البناء أيضاً كجير ، وقيل الفتح والكسر للفرار من التقاء الساكنين ، وأما وجه قراءة الجمهور فلكونها مسرودة على نمط التعديد فلا حظ لها من الإعراب ، وقرىء بضم النون على البناء كمذ وحيث ، وقط .

وقيل على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هذه يس ، ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث ، واختلف في معنى هذه اللفظة فقيل : معناها يا رجل ، أو يا إنسان. قال ابن الأنباري : الوقف على يس حسن لمن قال: هو افتتاح السورة .

ومن قال: معناه يا رجل لم يقف عليه ، وقال سعيد بن جبير وغيره: هو اسم من أسماء محمد صلى الله عليه وسلم دليله إنك لمن المرسلين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ أي آل محمد ومنه قول الشاعر:

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاحدة عـلى المودة إلا آل يـاسينـا

وسيأتي في الصافات ما المراد بآل ياسين ، قال الواحدي قال ابن عباس والمفسرون : يريد يا إنسان يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو بكر الوراق : معناه يا سيد البشر ، وقال مالك: هو اسم من أسماء الله تعالى. روي ذلك عنه أشهب ، وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق أن معناه يا سيد وقال كعب: هو قسم أقسم الله به ورجح الزجاج أن معناه يا محمد .

واختلفوا هل هو عربي أو غير عربي ؟ فقال سعيد بن جبير وعكرمة حبشي ، وقال الكلبي : سرياني ، تكلمت به العرب فصار من لغتهم ، وقال الشعبي :هو بلغة طي ، وقال الحسن :هو بلغة كلب وقد تقدم في طه وفي مفتتح سورة البقرة ما يغني عن التطويل ههنا ، والأولى أن يقال :الله أعلم بمراده به .

﴿ والقرآن الحكيم ﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء ، وقيل هو معطوف على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار القسم ، قال النقاش لم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم تعظيماً له وتمجيداً. والحكيم المحكم الذي لا يتناقض ولا يتخالف، أو الحكيم قائله أو ذي الحكمة ، أو لأنه دليل ناطق بالحكمة بطريق الاستعارة أو متصف بها ، والمتصف على الإسناد المجازي ، وجواب القسم .

﴿إنك لمن المرسلين﴾ الذين أرسلوا على طريقه مستقيمة، وهذا رد على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم: (لست مرسلاً)، وقوله:

﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر آخر لإن، أي: إنك على الطريق القيم الموصل إلى المطلوب. قال الزجاج: على طريقة الأنبياء الذين تقدموك ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال .

﴿تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرأ نافع وغيره برفع تنزيل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو تنزيل ، ويجوز أن يكون خبراً لقوله «يس» إن جعل اسماً للسورة ، وقرىء بالنصب على المصدرية أي نزل الله ذلك تنزيل العزيز ، والمعنى : أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم ، وقيل :المعنى إنك يا محمد تنزيل العزيز والأول أولى ، وقيل : هو منصوب على المدح على قراءة النصب ، وعبر سبحانه عن المنزل بالمصدر مبالغة ، حتى كأنه نفس التنزيل ، وقرىء بالجر على النعت للقرآن أو البدل منه واللام في قوله :

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿ لتنذر ﴾ يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفعل مضمر يدل عليه لمن المرسلين أي أرسلناك لتنذر ﴿ قوماً ﴾ أي العرب وغيرهم .

﴿ ما أنذر ﴾ ما:هي النافية أي لم تنذر ﴿ آباؤهم ﴾ ويجوز أن تكون ما موصولة أو موصوفة أي:لتنذر قوماً الذي أنذر آباؤهم ، أو لتنذرهم عذاباً أنذره آباؤهم ، أو مصدرية أي إنذار آبائهم ، وعلى القول بأنها نافية المعنى ما أنذر آباؤهم برسول من أنفسهم ، ويجوز أن يراد ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة ، وإلا فآباؤهم الأبعدون قد أنذروا بإسماعيل وبعيسى ومن قبلهما .

﴿ فهم غافلون ﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون أو فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم، قال أبو السعود : الضمير للفريقين أي فهم جميعاً غافلون وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي ، وهو الظاهر من النظم القرآني لترتيب فهم غافلون على ما قبله .

﴿لقد حق القول﴾ اللام هي الموطئة للقسم، أي والله لقد ثبت وتحقق ووجب القول أي: الحكم والقضاء الأزلي أو العذاب ﴿على أكثرهم﴾ أي أكثر أهل مكة أو أكثر الكفار على الإطلاق أو أكثر كفار العرب، وهم من مات على الكفر وأصر عليه طول حياته، فيتفرع قوله:

﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ على ما قبله بهذا الاعتبار ، أي لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه ، وقيل : المراد

بالقول المذكور هنا قوله سبحانه : ﴿فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك ﴾ ، وقيل نزلت هذه الآية في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين وجملة ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ تقرير لما قبلها مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم .

﴿ فهي ﴾ أي الأغلال منتهية ﴿ إلى الأذقان ﴾ جمع ذقن . وهو أسفل اللحيين لأن الغل يجمع اليد إلى العنق فلا يقدرون عند ذلك على الالتفات ، ولا يتمكنون من عطفها لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن ، حلقة فيها رأس العمود ، خارجاً من الحلقة إلى الذقن ، فلا يخليه يطأطىء رأسه فلا يزال مقمحاً وهو معنى قوله :

﴿ فهم مقمحون ﴾ أي رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم ، قال الفراء والزجاج :المقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه ومعنى الإقماح :رفع الرأس وغض البصر ، يقال : أقمح البعير رأسه وقمح : إذا رفع رأسه ولم يشرب الماء .

قال الأزهري :أراد الله أن أيديهم لما غلت عند أعناقهم رفعت الأغلال إلى أذقانهم ورؤوسهم صعداء فهم مرفوعو الرؤوس برفع الأغلال إياها ، وقال قتادة : معنى مقمحون مغلولون والأول أولى .

وقال أبو عبيدة :قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب ، وعنه أيضاً :هو مثل ضربه الله لهم في امتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول ، كما يقال : فلان حمار أي لا يبصر الهدى ، قال الفراء : هذا ضرب مثل أي حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله ، وهو كقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ وبه قال الضحاك .

وقيل : الآية إشارة إلى ما يفعل بقوم في النار من وضع الأغلال في أعناقهم كما قال تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ وقرأ ابن عباس : ﴿ إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً ﴾ قال الزجاج أي في أيديهم ، قال النحاس : وهذه القراءة تفسير ، ولا يقرأ بما خالف المصحف ، قال : وفي الكلام حذف على

قراءة الجماعة أي: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان .

فلفظ ﴿ هي ﴾ كناية عن الأيدي لا عن الأعناق والعرب تحذف مثل هـذا ونظير ﴿ سـرابيـل تقيكم الحـر ﴾ أي وسـرابيـل تقيكم البـرد لأن مـا وقى من الحر وقى من البرد لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد أن يكون في اليد ، ولا سيما وقد قال الله: ﴿فهي إلى الأذقان﴾ فقد علم أنه يراد به الأيدي فهم مقمحون ، أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق لأن من غلت يداه إلى ذقنه ارتفع رأسه .

وروي عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ إنا جعلنا في أيديهم أغلالاً ﴾ وعن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً ﴾ كما روي سـابقاً عن ابن عباس ، وعنه قال : الأغلال ما بين الصدر إلى الذقن فهم مقمحون كما تقمح الدابة باللجام[1].

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ أي منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد ، والسد: بضم السين وفتحها لغتان. قال الضحاك : سداً أي الدنيا وسداً أي الآخرة ، قيل : بالعكس ﴿ فأغشيناهم ﴾ بالغين المعجمة أي غطينا أبصارهم على حذف مضاف ، وقرىء: بالعين المهملة من العشا ، وهو ضعف البصر ، ومنه : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن ﴾ فهم بسبب ذلك .

﴿ لا يبصرون ﴾ أي لا يقدرون على إبصار شيء ، قال الفراء: فألبسنا أبصارهم غشاوة أي عمى ، فهم لا يبصرون سبيل الهدى ، وكذا قال قتادة إن المعنى لا يبصرون الهدى ، وقال السدي : لا يبصرون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حين ائتمروا على قتله .

وعن ابن عباس قال : في السد كانوا يمرون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا يرونه ، وعنه أيضاً قال : « اجتمعت قريش بباب النبي صلى

(١) زاد المسير ٧/٦ .

الله عليه وسلم ينتظرون خروجه ليؤذوه فشق ذلك عليه ، فأتاه جبريل بسورة يس وأمره بالخروج عليهم ، فأخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها ويذر التراب على رؤوسهم ، فما رأوه حتى جاز فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب ، وجاء بعضهم فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا ننتظر محمداً فقال : لقد رأيته داخل المسجد ، قال : قوموا فقد سحركم »[١] .

قال الضحاك في الآية أي عموا عن البعث ، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ ، قال البيضاوي ، هذا تمثيل آخر بمن أحاط بهم سدان فغطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ، ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل .

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ أي إنذارك إياهم وعدمه سواء ، وهذا بيان لشأنهم بطريق التوبيخ بعد بيانه بطريق التمثيل ، وجملة : ﴿لا يؤمنون ﴾ مستأنفة مبينة لما قبلها من الاستواء أو حال مؤكدة أو بدل منه .

وروي أن عمر بن عبد العزيز قرأ هذه الآية على غيلان القدري . فقال: كأني لم أقرأها أشهدك أني تائب عن قولي في القدر. فقال عمر: « اللهم إن صدق فتب عليه ، وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه » ، فأخذه هشام ابن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب دمشق .

وعن ابن عباس في الآية قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المسجد فجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة بأعناقهم ، وإذا هم عمي لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد ، قال: ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم حتى ذهب ذلك عنهم ، فنزلت: «يس إلى قوله : لا يؤمنون » ، قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد وفي الباب روايات في سبب نزول ذلك هذه الرواية أحسنها وأقربها إلى الصحة .

(١) وتمام القصة في سيرة ابن هشام ١/٤٨٤

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

وقال الزجاج في الآية : أي من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار ، وإنما ينفع الإنذار من ذكر في قوله : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ أي القرآن ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي في الدنيا .

﴿ فبشره ﴾ الفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية أي بشر هذا الذي اتبع الذكر ﴿ بمغفرة ﴾ عظيمة ﴿ وأجر كريم﴾ أي حسن ، وهو الجنة ، ثم أخبر سبحانه بإحيائه الموتى فقال :

﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ أي نبعثهم بعد الموت ، وقال الحسن والضحاك : أي نحييهم بالإيمان بعد الجهل، والأول أولى ، وهو بيان لشأن عظيم ، ينطوي على الإنذار والتبشير انطواء إجمالياً ثم توعدهم بكتب آثارهم فقال : ﴿ ونكتب ﴾ في صحف الملائكة .

﴿ ما قدموا ﴾ أي أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿ وآثارهم ﴾ أي ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت كمن سن سنة حسنة كعلم علموه أو كتاب صنفوه ، أو حبس حبسوه ، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط ، أو قنطرة ، أو نحو ذلك ، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها ، كمن سن سُنة سيئة كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم ، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ ونحو ذلك(١) . قال مجاهد وابن

(١) من قال معنى آثارهم «خطاهم بأرجلهم استدلوا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم منازلكم فانما تكتب اثاركم» رواه الترمذي ٢ / ١٥٥ ومن قال انه الخطا الى الجمعة ومن قال:انه من سنه سنة حسنة أو سيئة .

زيد : نظيره قوله :﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾، وقوله﴿ينبؤالإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾،وقيل: المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد ، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين ، قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية لأنها نزلت في ذلـك ، ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها ، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير والشر ، والإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الإحياء .

وقرئ: نكتب على البناء للفاعل وللمفعول .

عن أبي سعيد الخدري قال : « كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثـارهم﴾ فدعـاهم رسول الله صـلى الله عليه وسلم فقـال: «إنه يكتب آثـارهم ثم قرأ عليهم الآية فتركوا » أخرجه الترمذي وحسنه ، والبزار والحاكم وصححه ، وغيرهم .

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث جابر قال : «إن بني سلمة أرادوا أن يبيعوا ديارهم ويتحولوا قريباً من المسجد فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم »[1] .

﴿ وكل شيء ﴾ من أعمال العباد وغيرها كائناً ما كان ، وقرأ الجمهور بنصب كل على الاشتغال ، وقرئ بالرفع على الابتداء ﴿أحصيناه في إمام ﴾ أي كتاب مقتدى به ﴿ مبين ﴾ موضح لكل شيء ، قال مجاهد وقتادة وابن زيد:أراد اللوح المحفوظ ، وقالت فرقه: أراد صحائف الأعمال .

﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ قد تقدم الكلام على نظير هذا في البقرة والنمل ، والمعنى اضرب لأجلهم مثلاً أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلاً ، أي مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية ؛ فعلى الأول: لما قال

---

(١) رواه الطبري ٢٢/١٥٤ والحاكم ٢/٤٢٨ والواحدي/ ٢٠٩ ومسلم ١/٤٦٢ .

تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ وقال : ﴿ لتنذر قوماً ﴾ قال قل لهم : ما أنا بدعاً من الرسل ، فإن قبلي بقليل جاء أصحاب القرية المرسلون وأنـذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار المقامة ، وعلى الثاني لما قال: إن الإنذار لا ينفع من أضله الله : وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي صلى الله عليه وسلم: اضرب لنفسك ولقومك مثلاً ، أي مثل لهم عند نفسك مثلاً بأصحاب القرية ، حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على الإيذاء وأنت جئت إليهم واحداً ، وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤوا إلى أهل قرية وأنت بعثتك إلى الناس كافة :

والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية ، أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية فترك المثل وأقيم أصحاب القـرية مقـامه في الإعراب . وقيل لا حاجة إلى الإضمار ، بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً على أن يكون مثلاً .

وأصحاب القرية مفعولين لـ (اضرب) أو يكون أصحاب القرية بدلاً من ﴿مثلاً ﴾ وقد قدمنا الكلام على المفعول الأول من هذين المفعولين ؛ هل هو ﴿مثلاً ﴾ و ﴿ أصحاب القرية ﴾ وقد قيل: إن ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها ، كما في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ ويستعمل أخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله : ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ أي بينا لكم أحوالاً بديعة غريبة هي في الغرابة كالأمثال .

فقوله سبحانه هنا ﴿ واضرب لهم مثلاً ﴾ يصح اعتبار الأمرين فيه. قال القرطبي : هذه القرية هي انطاكية في قول جميع المفسرين ، وبه قال ابن عباس وبريدة ، وهي ذات أعين وسور عظيم من صخر داخله خمسـة أجبل ، دورها اثني عشر ميلاً ، والعواصم بلاد قصبتها انطاكية ، وهي بأرض الروم .

﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية ، والمرسلون

هم أصحاب عيسى بعثهم إلى أهل انطاكية للدعاء إلى الله وكانوا عبدة أوثان ، وإنما أضاف سبحانه الإرسال إلى نفسه في قوله :

﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ لأن عيسى أرسلهم بأمر الله سبحانه ويجوز أن يكون أرسلهم الله بعد رفع عيسى إلى السماء من غير واسطة ﴿ فكذبوهما ﴾ في الرسالة ، وقيل ضربوهما وسجنوهما ، وقيل : واسم الاثنين : يوحنا وشمعون ، وقيل : اسماء الثلاثة صادق ومصدوق وشلوم ، قاله ابن جرير وغيره . وقيل : شمعان ويوحنا وبولس ، وقال وهب : اسمهما يحيى وبولس ، وقال كعب : صادق وصدوق .

﴿ فعززنا بثالث ﴾ قرىء بتشديد الزاي وتخفيفها . قال الجوهري : فعززنا يخفف ويشدد أي قوينا وشددنا فالقراءتان على هذا بمعنى ، وقيل : التخفيف بمعنى غلبنا وقهرنا ، ومنه ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ ، والتشديد بمعنى قوّينا وكثرنا ، قيل : وهذا الثالث هو شمعون ، وقيل غيره ـ وعن ابن عباس قال : « كان بين موسى بن عمران وبين عيسى بن مريم ألف سنة وتسعمائة سنة ، ولم تكن بينهما فترة وإنه أرسل بينهما ألف نبي من بني إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى والنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أولها ثلاثة أنبياء .

وهو قوله : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ والذي عزز به شمعون ، وكان من الحواريين وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة سنة وأربعاً وثلاثين سنة[1] أخرجه ابن سعد وابن عساكر .

﴿ فقالوا : إنا إليكم مرسلون ﴾ أي قال الثلاثة جميعاً ؛ وجاؤوا بكلامهم هذا مؤكداً لسبق التكذيب للاثنين والتكذيب بهما تكذيب للثالث لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد وهو الدعاء إلى الله عز وجل ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ما قال هؤلاء الرسل بعد التعزيز لهم بثالث ؟ وكذلك جملة :

(١) زاد المسير ٧/١١ .

﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟
رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا
تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم
مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ فإنها مستأنفة ، كأنه قيل : فما قال لهم أهل أنطاكية ؟ فقيل : ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي مشاركون لنا في البشرية فليس لكم مزية علينا تختصون بها ، والخطاب للثلاثة ، ثم صرحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ مما تدعونه أنتم ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ في دعوى ما تدعون من ذلك .

﴿ قالوا ﴾ أي فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكد تأكيداً بليغاً لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية ، وهو قولهم : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ فأكدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم ربنا يعلم وبإن وباللام .

قال الزمخشري : ووجه التكرار أن الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن إنكار انتهى ، وهذا مخالف لما في المفتاح من أنهم أكدوا في المرة الأولى لأن تكذيب الاثنين تكذيب للثالث لاتحاد المقالة ، فلما بالغوا في تكذيبهم زادوا التأكيد ، وما ذهب إليه الزمخشري نظراً إلى أن مجموع الثلاثة لم يسبق منهم إخبار ولا تكذيب لهم في المرة الأولى ، فالتأكيد فيها للاعتناء والاهتمام بالخبر . انتهى ، قاله الشهاب .

﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ أي ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور والوضوح بالأدلة الواضحة . وهي إبراء الأكمه والأبرص والمريض ، وإحياء الميت ، وليس علينا غير ذلك ، وهذه جملة

مستأنفة كالتي قبلها ، وكذلك جملة :

﴿ قالوا : إنا تطيرنا بكم ﴾ فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر ، أي إنا تشاءمنا بكم لانقطاع المطر عنا بسببكم . لم يجدوا جواباً يجيبون به على الرسل إلا هذا الجواب ، المبني على الجهل ، المنبىء عن الغباوة العظيمة وعدم وجود حجة يدفعون الرسل بها ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة هذا .

قال مقاتل : حبس عنهم المطر ثلاث سنين فقالوا : هذا بشؤمكم . قيل : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين ، وقيل : إنما تطيروا لما بلغهم من أن كل نبي إذا دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك ، وأصل التطير التفاؤل بالطير ، فإنهم كانوا يزعمون أن الطائر السانح سبب للخير ، والبارح سبب للشر ، ثم استعمل في كل ما يتشاءم به .

وفي المختار : وطائر الإنسان عمله الذي قلده ، والطير أيضاً الاسم من التطير ومنه قولهم : لا طير إلا طير الله وتطير من الشيء وبالشيء والاسم الطيرة بوزن عنبة ، وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء .

وفي الحديث: « أنه كان يحب الفأل ويكره الطيرة » ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا : اطيرنا بك ﴾ أصله تطيرنا فأدغم ، ثم رجعوا إلى التجبر والتكبر لما ضاقت صدورهم ، وأعيتهم العلل فقالوا :

﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ اللام للقسم ، أي والله لئن لم تتركوا هذه الدعوى وتعرضوا عن هذه المقالة : ﴿ لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ، قال الفراء : عامة ما في القرآن من الرجم المراد به القتل ، وقال قتادة: هو على بابه من الرجم بالحجارة .

﴿وليمسّنكم منا عذاب أليم ﴾ أي شديد فظيع ، وقيل : معناه التحريق بالنار أو القتل ، وقيل : الشتم ، وقيل : هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع

خاص ، وهذا هو الظاهر لكنهم حنثوا في هذا القسم لأنهم لم يتمكنوا من بره لإهلاك الله لهم .

ثم أجاب عليهم الرسل دفعاً لما زعموه من التطير بهم و﴿ قالوا : طائركم معكم ﴾ أي شؤمكم معكم من جهة أنفسكم لازم في أعناقكم ، وليس هو من شؤمنا. قال الفراء :طائركم أي رزقكم وقدركم وعملكم ، وبه قال قتادة ، وقرأ الجمهور : طائركم اسم فاعل . أي ما طار لكم من الخير والشر ، وقرأ الحسن : اطيركم أي تطيركم .

﴿ أئن ذكرتم ﴾ قرىء بهمزة استفهام بعدها إن الشرطية على الخلاف بينهم في التسهيل والتخفيف وإدخال ألف بين الهمزتين وعدمه ، وقرىء بهمزتين مفتوحتين وقرىء أين على صيغة الظرف .

واختلف سيبويه ويونس إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب ؟ فذهب سيبويه إلى أنه يجاب بالاستفهام ، وذهب يونس إلى أنه يجاب بالشرط ، وعلى القولين فالجواب هنا محذوف ، أي أئن ذكرتم ووعظتم وخوفتم فتطيرتم لدلالة ما تقدم عليه وقرىء :أن ذكرتم بهمزة مفتوحة أي لأن ذكرتم ، والقراآت كلها سبعية ، ثم أضربوا عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سبباً للشؤم أو مصححاً للتوعد فقالوا :

﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في المعصية ، فمن ثم أتاكم الشؤم من قبلكم . لا من قبل رسل الله وتذكيرهم ، أو بل أنتم مسرفون في تطيركم ، قاله قتادة . وقال يحيى بن سلام مسرفون في كفركم ، وقال ابن بحر : السرف هنا الفساد ، والإسراف في الأصل مجاوزة الحد في مخالفة الحق ، أي متجاوزون الحد بشرككم ، وهذا لا ينافي كون أهل أنطاكية أول المؤمنين برسل عيسى ، فإن الملك وقومه آمنوا وهلاك قاتلي حبيب لا يستلزم هلاك أهل أنطاكية .

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟
مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

﴿ وجاء من أقصى المدينة ﴾ وهي القرية السابق ذكرها وعبر عنها هنا بالمدينة إشارة لكبرها واتساعها ﴿ رجل يسعى ﴾ هو حبيب بن مري وكان نجاراً ، وقيل : إسكافاً ، وقيل قصاراً ، وقال مجاهد ومقاتل : هو حبيب بن اسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، وقال وهب : كان يعمل الحرير .

وقال قتادة : كان يعبد الله في غار فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى ، أي يشتد عدواً .

وقال ابن عباس : اسم صاحب يس حبيب وكان الجذام قد أسرع فيه قال القرطبي :وهو ممن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ، ولم يؤمن أحد بنبي غير نبينا ، صلى الله عليه وسلم إلا بعد ظهوره وأما نبينا فآمن به قبل ظهوره كثير ، انتهى .وفيه من البعد والضعف ما لا يخفى ويدفعه قوله سبحانه :

﴿ قال : يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ أي رسل عيسى عليه السلام ، ولم يذكر نبينا صلى الله عليه وسلم ولا دلت الآية عليه. والجملة مستأنفة كأنه قيل فماذا قال لهم عند مجيئه ؟ فقيل: قال إلخ ، أي اتبعوا هؤلاء الذين أرسلوا إليكم فإنهم جاؤوا بحق ، ثم أكد ذلك وكرره فقال :

﴿ اتبعوا من لا يسألكم ﴾ بدل من المرسلين بإعادة العامل أو تابع له ﴿ أجراً ﴾ على ما جاؤوكم به من الهدى ﴿ وهم ﴾ أي الرسل ﴿ مهتدون ﴾ ولو

كانوا متهمين بعدم الصدق لسألوكم المال ، فاهتدوا أنتم أيضاً تبعاً لهم ، ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال :

﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني ، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه بل أرادهم بكلامه فقال :

﴿ وإليه ترجعون ﴾ أضاف الفطرة إلى نفسه ، والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكانت عليه أظهر والرجوع فيه معنى الزجر ، فكان بهم أليق ، ولذلك لم يقل : إليه أرجع ، وفيه مبالغة في التهديد وهذه الطريقة أحسن من ادعاء الالتفات ثم عاد إلى المساق الأول وهو التلطف في الإرشاد والنصيحة لقصد التأكيد ومزيد الإيضاح فقال :

﴿ أأتخذ من دونه ﴾ أي غيره ﴿ آلهة ﴾ فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه ، وهم المرادون به أي لا أتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحقها وهو الذي فطرني . ثم بين حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم وبياناً لضلال عقولهم وقصور إدراكهم فقال :

﴿ إن يردن الرحمن بضر ﴾ أي بسوء ومكروه شرط وجوابه ﴿ لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ﴾ من النفع كائناً ما كان أي لا شفاعة لها فتغني عني ﴿ ولا ينقذون ﴾ من ذلك الضر الذي أرادني الرحمن به وهذه الجملة صفة لآلهة أو مستأنفة لبيان حالها في عدم النفع والدفع .

﴿ إني إذاً ﴾ أي إني إذاً اتخذت من دونه آلهة وعبدت غير الله ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ ظاهر واضح لأن إيثار ما لا ينفع ولا يدفع ضراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضر وإشراكه به ضلال بيِّن لا يخفى على عاقل ، وهذا تعريض بهم كما سبق ، والضلال الخسران .

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾

ثم صرح بإيمانه تصريحاً لا يبقى بعده شك فقال: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ بكسر النون، وهي نون الوقاية، وهي اللغة العالية وقرىء بفتحها، وهي غلط. قال المفسرون: أراد القوم قتله فأقبل هو على المرسلين فقال: إني آمنت بربكم أيها الرسل فاسمعوا إيماني، واشهدوا لي به.

وقيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلباً في الدين، وتشدداً في الحق وعدم المبالاة بالقتل، فلما قال هذا القول وصرح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه، وقيل وطؤوه بأرجلهم

وقال الحسن: حرقوه حرقاً وعلقوه في سور المدينة، وقبره في سور أنطاكية حكاه الثعلبي. وقيل: حفروا له حفيرة وألقوه فيها، وقيل: إنهم لم يقتلوه بل رفعه الله إلى السماء وهو في الجنة، وبه قال الحسن. وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهد قومي، حتى قتلوه. وقيل نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا في الجنة فدخلها فذلك قوله تعالى:

﴿قيل ادخل الجنة﴾ أي قيل له ذلك عند موته تكريماً له بدخولها بعد قتله كما هي سنة الله في شهداء عباده ولم يذكر لفظ ﴿له﴾ في نظم الآية لأن الغرض بيان القول دون المقول له فإنه معلوم، وعلى قول من قال إنه رفع إلى السماء ولم يقتل يكون المعنى: إنهم أرادوا قتله فنجاه الله من القتل وقيل له: ادخل الجنة وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن، وعليه فالأمر أمر تكوين لا أمر امتثال على حد قوله: أن يقول له كن فيكون، فالمعنى أدخله الله الجنة سريعاً

فلما دخلها ورأى نعيمها وشاهدها .

﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أي فماذا قال بعد أن قيل له : ادخل الجنة فدخلها ؟ فقال ياليت قومي . .الخ .وهم الذين قتلوه فنصحهم حياً وميتاً .

قال ابن أبي ليلى : سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين علي بن أبي طالب ، وهو أفضلهم ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب يس وهم الصديقون . ذكره الزمخشري و﴿ما﴾ في ﴿ بما ﴾ هي المصدرية ، وقيل موصولة أي بالذي غفر لي ربي ، والباء صلة يعلمون ، والعائد محذوف ، أي غفره لي ربي ، واستضعف هذا لأنه لا معنى لتمنيه أن يعلم قومه بذنوبه المغفورة وليس المراد إلا التمني منه بأن يعلم قومه بغفران ربه له ، وإليه أشار في التقرير ، وقال الفراء : إنها استفهامية جاءت على الأصل بمعنى التعجب .

والباء صلة غفر كأنه قال بأي شيء غفر لي ربي يريد به المهاجرة عن دينهم ، والمصابرة على أذيتهم ، قال الكسائي : لو صح هذا لقال : بم من غير ألف ، ويجاب عنه بأنه قد ورد في لغة العرب إثباتها وإن كان مكثوراً بالنسبة إلى حذفها وفي معنى تمنيه قولان : أحدهما أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته إرغاماً لهم ، وقيل : إنه تمنى أن يعلموا بذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله ، ولما وقع ما وقع منهم مع حبيب النجار غضب الله له وعجل لهم النقمة ، وأهلكهم بالصيحة فقال :

﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾ أي على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له أو من بعد رفع الله له إلى السموات على الاختلاف السابق .

﴿ من جند من السماء ﴾ لإهلاكهم وللانتقام منهم ، أي لم نحتج إلى إرسال جنود من السماء لإهلاكهم كما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم : « يوم بدر من إرسال الملائكة لنصرته وحرب أعدائه »[1] ، وذلك لأن الله

(١) راجع ما ذكرناه في سورة الأنفال حول نزول الملائكة .

أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك ، وعن ابن مسعود في الآية قال : يقول ما كابدناهم بالجموع ، أي الأمر أيسر علينا من ذلك .

﴿ وما كنا منزلين ﴾ أي وما صح في قضائنا وحكمتنا أن ننزل لإهلاكهم جنداً لسبق قضائنا وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند ، وقال قتادة ومجاهد والحسن: أي ما أنزلنا عليهم من رسالة من السماء ولا نبي بعد قتله ، وروي عن الحسن أنه قال: هم الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء والظاهر أن معنى النظم القرآني تحقير شأنهم ، وتصغير أمرهم ، أي ليسوا بأحقاء بأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحدة كما يفيده قوله : ﴿ إن كانت ﴾ أي العقوبة أو النقمة أو الأخذة .

﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ صاح بها جبريل فأهلكهم قرىء: صيحة بالنصب على أن كان ناقصة ، واسمها ضمير يعود إلى ما يفهم من السياق كما قدمنا ، وقرىء برفعها على أن كان تامة ، أي وقع وحدث ، وأنكرها أبو حاتم وكثير من النحويين بسبب التأنيث في قوله: إن كانت ، وقيل: غيرذلك.

وقرأ ابن مسعود إن كانت إلا زقية واحدة والزقية الصيحة ، قال النحاس: وهذا مخالف للمصحف ، وأيضاً فإن اللغة المعروفة زقا يزقو إذا صاح ومنه المثل: أثقل من الزواقي فكان يجب على هذا أن يكون زقوة ، ويجاب عنه بما ذكره الجوهري. قال: الزقو والزقى مصدر ، وقد زقا الصدى يزق زقاً أي صاح ، وكل صائح زاق ، والزقية الصيحة .

قال المفسرون: أخذ جبريل بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا طفئت ، وهو معنى قوله : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ ميتون شبههم بالنار إذا طفئت لأن الحياة كالنار الساطعة في الحركة ، والالتهاب . والموت: كخمودها .

يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ
﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾

﴿ يا حسرة على العباد ﴾ النصب على أنها منادى منكر ، كأنه نادى الحسرة وقال لها: هذا أوانك فاحضري ، وقيل : إنها منصوبة على المصدرية ، والمنادى محذوف والتقدير : يا هؤلاء تحسروا حسرة ، وقرىء: بالضم على النداء ، قال الفراء في توجيه هذه القراءة : إن الاختيار النصب ، وأنها لو رفعت النكرة لكان صواباً . واستشهد بأشياء نقلها عن العرب منها أنه سمع منهم : يا مهتم ، بأمرنا لا تهتم .

قال النحاس : وفي هذا إبطال باب النداء أو أكثره ، قال : وتقدير ما ذكره: ياأيها المهتم لا تهتم بأمرنا وحقيقة الحسرة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً ، قال ابن جرير : المعنى يا حسرة من العباد على أنفسهم وتندماً وتلهفاً في استهزائهم برسل الله ، وقرىء: يا حسرة العباد على الإضافة ، ورويت هذه القراءة عن أبيّ . وقال الضحاك : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل ، وقيل : هي من قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة .

وقيل : إن القائل يا ﴿ حسرة على العباد ﴾ هم الكفار المكذبون ، والعباد الرسل ، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تحسروا على قتلهم وتمنوا الإيمان قاله أبو العالية ومجاهد . وقيل : إن التحسر عليهم هو من الله عز وجل بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه ، وقرىء: يا حسره بسكون الهاء إجراء للوصل مجرى الوقف ، وقرىء يا حسرتا كما قرىء بذلك في سورة الزمر ، قال

ابن عباس: أي يا ويلاً للعباد، وعنه قال: الندامة على العباد يوم القيامة وأل في العباد للجنس.

﴿ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما كانوا عليه من تكذيب الرسل والاستهزاء بهم، وأن ذلك هو سبب التحسر عليهم، ثم عجب سبحانه من حالهم حيث لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية فقال: ﴿ألم يروا كم أهلكنا﴾ أي ألم يعلموا كثرة من **أهلكنا** ﴿**قبلهم من القرون**﴾ التي أهلكناها من الأمم الخالية، والاستفهام للتقرير على حد قوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾.

﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ بدل من أهلكنا على المعنى، قال سيبويه: إنه بدل من كم وهي الخبرية فلذلك جاز أن يبدل منها ما ليس باستفهام، والمعنى: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم أنهم إليهم لا يرجعون.

وقال الفراء: كم في موضع نصب من وجهين أحدهما بـ﴿يروا﴾ والوجه الآخر ﴿بأهلكنا﴾ قال النحاس: القول الأول محال لأن كم لا يعمل فيها ما قبلها لأنها استفهام ومحال أن يدخل الاستفهام في حيز ما قبله، وكذا حكمها إذا كانت خبراً وإن كان سيبويه قد أومأ إلى بعض هذا فجعل أنهم بدلاً من كم، وقد رد ذلك المبرّد أشد رد، ثم بين سبحانه رجوع الكل إلى الحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا فقال:

﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾ قرىء لما مشدداً ومخففاً، قال: الفراء من شدد جعل لما بمعنى إلا وإن بمعنى ما أي ما كل إلا جميع، ومعنى جميع مجموعون، فهو فعيل بمعنى مفعول، ولدينا ظرف له وأما على قراءة التخفيف فإن هي المخففة من الثقيلة، وما بعدها مرفوع بالابتداء، واللام هي الفارقة بين المخففة والنافية.

قال أبو عبيدة: وما على هذه القراءة زائدة، والتقدير عنده: وإن كل لجميع، والحاصل أن (كل) أشير بها لاستغراق الأفراد وشمولهم، (وجميع) أشير

بها لاجتماع الكل في مكان واحد وهو المحشر[١]، وقيل : معنى محضرون معذبون ، والأولى أنه على معناه الحقيقي من الإحضار للحساب والجزاء ثم ذكر سبحانه البرهان على التوحيد والحشر مع تعداد النعم وتذكيرها فقال .

﴿ وآية لهم ﴾ على البعث والتوحيد ﴿ الأرض الميتة ﴾ فآية خبر مقدم وتنكيرها للتفخيم ، ولهم صفتها أو متعلقة بآية ، لأنها بمعنى علامة ، والأرض مبتدأ ويجوز أن يكون آية مبتدأ لكونها قد تخصصت بالصفة ، وما بعدها الخبر . قرىء ميتة بالتشديد والتخفيف .

﴿ أحييناها ﴾ مستأنفة مبينة لكيفية كونها آية ، وقيل : هي صفة للأرض فنبههم الله بهذا على إحياء الموتى ، وذكرهم نعمه ، وكمال قدرته فإنه سبحانه أحيى الأرض بالنبات ، وأخرج منها الحبوب التي يأكلونها ويتغذون بها ، وهو معنى قوله :

﴿ وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ وهو ما يقتاتونه من الحبوب وتقديم منه للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل وأكثر ما يقوم به المعاش .

﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ﴾ أي جعلنا في الأرض جنات من أنواع النخل والعنب وخصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار وأنفعهما للعباد والنخل والنخيل بمعنى ، والواحدة نخلة ، وفي المصباح : النخل اسم جمع ، والواحدة نخلة وكل جمع يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، فأهل الحجاز يؤنثونه وأهل نجد وتميم يذكرونه ، وأما النخيل بالياء فمؤنثة . قال ابن أبي حاتم : لا اختلاف في ذلك ، والأعناب جمع عنب . والعنبة الواحدة من العنب .

﴿ وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي فجرنا في الأرض بعضاً من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، أو المفعول العيون ، ومن مزيدة على رأي من جوز زيادتها في الإثبات والمراد بالعيون عيون الماء وقرأ الجمهور بالتشديد ، وقرىء : بالتخفيف ، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى واللام في قوله :

---

(١) قال ابن كثير : وان جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله عز وجل فيجازيهم باعمالهم كلها خيرها وشرها .

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ متعلقة بجعلنا والضمير المجرور يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل ، وقيل هو راجع إلى ماء العيون لأن الثمر منه ، قاله الجرجاني ، وقرىء ثمره بضمتين وبفتحتين وهما سبعيتان وقرأ الأعمش بضم الثاء وإسكان الميم ، وقد تقدم الكلام على هذا في الأنعام .

﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي ليأكلوا من ثمره ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما وكذلك ما غرسوه وحفروه وعالجوه على أن (ما) موصولة . وفيه تجوز على هذا .وقيـل :هي نافية ، والمعنى لم يعملوه بل العامل له هو الله عز وجل أي وجدوها معمولة ولا صنع لهم فيها وهو قول الضحاك ومقاتل .وقيل :إنها نكرة موصوفة والكلام فيها كالذي في الموصولة ، وقيل إنها مصدرية أي ومن عمل أيديهم والمصدر واقع موقع المفعول به فيعود المعنى إلى معنى الموصولة أو الموصوفة .

وعن ابن عباس في الآية قال : « وجدوها معمولة لم تعملها أيديهم » يعني الفرات ودجلة ونهر بلخ وأشباهها ﴿ أفلا يشكرون ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لهم بعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي :أيرون هذه النعم ؟ أو أيتنعمون بها فلا يشكرونها ؟ .

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ مستأنفة مسوقة لتنزيه سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمه المذكورة والتعجب من إخلالهم بذلك وقد تقدم الكلام مستوفى في معنى سبحان ؛ وهو في تقدير الأمر للعباد بأن ينزهوه عما لا يليق به ؛ والأزواج الأنواع والأصناف فكل زوج صنف لأنه مختلف في

الألوان والطعوم والاشكال والصغر والكبر فاختلافها هو ازدواجها قال قتادة يعني الذكر والأنثى ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ بيان للأزواج والمراد كل ما نبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها لأنه أصناف .

﴿ ومن أنفسهم ﴾ أي خلق الأزواج من أنفسهم وهم الذكور والإناث ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ من أصناف خلقه في البر والبحر والسماء والأرض ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس ؛ ولم يطلعهم الله عليها ، ولا توصلوا إلى معرفتها ووجه الاستدلال في هذه الآية أنه إذا انفرد بالخلق فلا ينبغي أن يشرك به .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ الكلام في هذا كما قدمنا في قوله ﴿ وآية لهم الأرض ﴾ الخ والمعنى أن ذلك علامة دالة على توحيد الله وقدرته ، ووجوب إلهيته. والسلخ الكشط والنزع ، يقال : سلخه الله من بدنه ، ثم يستعمل بمعنى الإخراج فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء وهو استعارة بليغة .

﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ أي داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة. يقال: أظلمنا أي دخلنا في ظلام الليل ، وأظهرنا دخلنا في وقت الظهر ، وكذلك أصبحنا وأمسينا ، وقيل منه بمعنى عنه . والمعنى نسلخ عنه ضوء النهار فإذا هم في ظلمة لأن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء ، فإذا خرج منه أظلم .

قال الفراء : يرمي بالنهار على الليل فيأتي بالظلمة ، وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليه ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل أي كشط وأزيل فتظهر الظلمة ، وظاهره يشعر بأن النهار طارىء على الليل ،قال المرزوقي في الآية: دلت على أن الليل قبل النهار لأن المسلوخ منه يكون قبل المسلوخ كما أن المغطى قبل الغطاء ، لكن كلامه في سورة الرعد مؤذن بأن بين الليل والنهار توالجاً وتداخلاً ، قال تعالى : ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ .

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ يحتمل أن تكون الواو للعطف على الليل والتقدير: وآية لهم الشمس ، ويجوز أن تكون ابتدائية ، والشمس مبتدأ وما بعدها الخبر ، ويكون الكلام مستأنفاً مشتملاً على ذكر آية مستقلة. قيل: وفي الكلام حذف ، والتقدير تجري لمجرى مستقرٍ لها أي تنتهي في سيرها لأجل مستقر لها .

وقيل : اللام بمعنى إلى ، قيل : والمراد بالمستقر يوم القيامة فعنده تستقر فلا تبقى لها حركة ، وقيل : مستقرها هو أبعد ما تنتهي إليه ولا تجاوزه ، وقيل : نهاية ارتفاعها في الصيف ، ونهاية هبوطها في الشتاء ، وقيل : مستقرها تحت العرش لأنها تذهب إلى هنالك فتسجد فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها ، وهذا هو الراجح .

وقال الحسن : إن للشمس في السنة ثلثمائة وستين مطلعاً تنزل في كل يوم مطلعاً ، ثم لا تنزل إلى الحول ، فهي تجري في تلك المنازل وهو مستقرها .

وقيل : إن الشمس في الليل تسير وتشرق على عالم آخر من أهل الأرض ، وإن كنا لا نعرفه[1] ، ويؤيد هذا القول ما قاله الفقهاء في باب المواقيت . كالشمس الرملي من أن الأوقات الخمسة تختلف باختلاف الجهات والنواحي فقد يكون المغرب عندنا عصراً عند آخرين ، ويكون الظهر صبحاً عند آخرين ، وهكذا ، وقيل غير ذلك ، وقرىء لا مستقر لها بلا التي لنفي الجنس ، وبناء مستقر على الفتح وقرىء لا مستقر ، بلا التي بمعنى ليس ،

(١) ينبغي التعليق على قوله : وقيل : إن الشمس في الليل تسير وتشرق على عالم آخر من أهل الأرض وان كنا لا نعرفه . . الخ . . بالقول: إن الشمس تشرق على عالم آخر حينما تغيب عنا ، ولكن لا تسير الشمس بل بسير ودوران الأرض نفسها ، كما أثبت العلم حديثاً .

ومستقر اسمها ولها خبرها .

﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الجري على ذلك الحساب الذي يكلّ النظر عن استخراجه وتتحير الأفهام عن استنباطه ﴿ تقدير العزيز ﴾ أي الغالب القاهر بقدرته على كل مقدور ﴿ العليم ﴾ أي المحيط علمه بكل شيء ، ويحتمل أن تكون الإشارة راجعة إلى المستقر أي ذلك المستقر تقدير الله .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ قال : مستقرها تحت العرش[1] .

وفي لفظ للبخاري وغيره من حديثه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال : يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال : إنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله : والشمس تجري لمستقر لها .

وفي لفظ من حديثه أيضاً عند أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم ، قال : «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها فتستأذن في الرجوع فيأذن لها ، وكأنها قد قيل لها : اطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها ، ثم قرأ ذلك مستقرلها، وذلك قراءة عبد الله وأخرج الترمذي والنسائي وغيرهما من قول ابن عمر نحوه .

قال النووي : اختلف المفسرون فيه ، فقال جماعة بظاهر الحديث ، قال الواحدي : فعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع ، وقيل : تجري إلى مستقر لها وأصل لا تتعداه وعلى هذا فمستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا ، وأما سجود الشمس فهو تمييز

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٦/٢١٤ و٨/٤١٦ و١٣/٣٥٠ ومسلم ١/١٣٩ والترمذي ٢/١٥٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح والسيوطي في الدر ٥/٢٦٣ وللنووي في شرح مسلم ٢/١٩٥ كلام فليراجع هناك .

وإدراك يخلقه الله تعالى فيها والله أعلم[1].

﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو برفع القمر على الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب على الاشتغال، وانتصاب منازل على أنه مفعول لأن قدرنا بمعنى صيرنا، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال. أي قدرنا سيره حال كونه ذا منازل، ويجوز أن يكون منتصباً على الظرفية أي في منازل، واختار أبو عبيد النصب في القمر، قال: لأن قبله فعلاً وهو، نسلخ وبعده فعلاً وهو: قدرنا.

قال النحاس: أهل العربية جميعاً فيها علمت على خلاف ما قال، منهم الفراء قال الرفع أعجب إليّ.قال: وإنما كان الرفع عندهم أولى لأنه معطوف على ما قبله، ومعناه: وآية لهم القمر، قال أبوحاتم: الرفع أولى لأنك شغلت الفعل عنه بالضمير فرفعته بالابتداء.

والمنازل هي الثمانية والعشرون التي ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر وهي معروفة، وسيأتي ذكرها، فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ثم يطلع هلالاً فيعود في قطع تلك المنازل في الفلك كالعرجون.

أخرج الخطيب عن ابن عباس في الآية قال: «هي ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها القمر في كل شهر، أربعة عشر منها شامية وأربعة عشر منها يمانية، فأولها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك. وهو آخر الشامية،

---

(١) زاد المسير ١٨/٧.

والغفر والزباني والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية ومقدم الدلو ومؤخر الدلو والحوت وهو آخر اليمانية » .

سئل الرملي: هل القمر الموجود في كل شهر هو الموجود في الآخر أو غيره ؟ فأجاب بأن في كل شهر قمراً جديداً(١) انتهى ، وهذا يدل على صحة تجدد الأمثال إن ثبت بالنص من الشارع . ويمكن بمثله القول في الشمس لكن لا دليل على ذلك كله .

﴿ حتى عاد ﴾ في آخر منازله في رأى العين ﴿ كالعرجون القديم ﴾ هو عود الشمراخ بالضم إذا يبس واعوج والقديم الذي أتى عليه الحول فإذا قدم عتق ويبس وتقوس واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه . فإذا سار هذه الثمانية وعشرين منزلاً عاد كالعرجون القديم كما كان في أول الشهر ، وهذا يدفع ما ذكره الرملي فليتأمل .

وقال ابن عباس : العرجون القديم أصل العذق العتيق ، قال الزجاج العرجون هو عود العذق الذي فيه الشماريخ ، وهو فعلون من الانعراج وهو الانعطاف ، أي سار في منازله حتى إذا كان في آخرها دق واستقوس وصغر حتى صار كالعرجون القديم ، وعلى هذا فالنون زائدة .

قال قتادة : هو العذق اليابس المنحني من النخلة ، قال ثعلب : العرجون الذي يبقى في النخلة إذا قطعت ، والقديم البالي . وقال الخليل : العرجون أصل العذق ، وهو أصفر عريض يشبه به الهلال إذا انحنى ، وكذا قال الجوهري: إنه أصل العذق الذي يعوج ويقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً ، وعرجنه ضربه بالعرجون وعلى هذا فالنون أصلية قرأ الجمهور: بضم العين والجيم وقرىء: بكسر العين وفتح الجيم وهما لغتان .

---

(١) لا صحة لما قاله الرملي. فقد ثبت بالدليل العلمي أن القمر واحد.

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ
﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ
مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

﴿ لا الشمس ينبغي لها ﴾ مرفوعة بالابتداء أي لا يصح ولا يمكن للشمس ولا يستقيم ولا يتسهل ﴿ ان تدرك القمر ﴾ في سرعة السير وتنزل في المنزل الذي فيه القمر وتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره لأن ذلك يخل بتكوين النبات وتعييش الحيوان ، ولأن لكل واحد منهما سلطاناً على انفراده فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر فيذهب سلطانه إلى أن يأذن الله بالقيامة فتطلع الشمس من مغربها ، ويفهم من الآية أن حركتها بالتسخير لا بإرادتها .

ونفى الله تعالى الإدراك عن الشمس دون عكسه ، لأن مسير القمر أسرع ، لأنه يقطع فلكه في شهر ، والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة ، فكانت جديرة بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها ، وكان القمر خليقاً بأن يوصف بنفي السبق لسرعة سيره كما سيأتي(١)، وقال الضحاك : معناه إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء ، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء ، وقال مجاهد :أي لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر ، وقال الحسن إنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة ، وكذا قال يحيى بن سلام .

وقيل :معناه إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منزل لا يشتركان فيه ، وقيل : القمر في سماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة ذكره النحاس والمهدوي ، قال النحاس وأحسن ما قيل في معناه وأبينه أن سير القمر سريع والشمس لا تدركه في السير(١)، وأما قوله تعالى : وجمع الشمس والقمر

(١) (٢)للقمر مداره، كما أن للأرض مدارها، والقمر كما هو معروف يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس، والقمر يتبع الأرض بدورانها أيضاً، كما ثبت علمياً. فالكلام المذكور غير صحيح .

فذلك حين حبس الشمس عن الطلوع على ما تقدم بيانه في الأنعام ، ويأتي في سورة القيامة أيضاً ، وجمعهما علامة لانقضاء الدنيا وقيام الساعة .

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا يسبقه فيفوته ، ولكن يعاقبه ويجيء كل واحد منهما في وقته ، ولا يسبق صاحبه . وقيل : المراد من الليل والنهار آيتاهما وهما الشمس والقمر ، فيكون عكس قوله :لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر أي ولا القمر سابق الشمس ، وإيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر وهما نيران لا يزال أمرهما على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة ، فيجمع الله بين الشمس والقمر ، وتطلع الشمس من مغربها . وهذا لا ينافي أن الليل برمته سابق في الوجود على النهار برمته ، وهو أحد قولين .

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن النهار مخلوق قبل الليل وأن الليل لم يسبقه بالخلق ووجه الاستدلال :أن المعنى ليس الليل سابق النهار ، يعني بل النهار هو السابق وهذا ينظر إلى مقابلة جملة الليل بجملة النهار ، والآية محتملة لكل من القولين .

﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ التنوين في كل عوض من المضاف إليه أي وكل واحد منهما والفلك هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة ، قال العماد بن كثير في البداية والنهاية : حكى ابن حزم وابن الجوزي وغير واحد الإجماع على أن السموات كرية مستديرة واستدل عليه بهذه الآية . قال الحسن : يدورون .

وقال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل قالوا : ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ثم تطلع في آخرها من المشرق. قال: ابن حجر حكي الإجماع على أن السموات مستديرة جمع وأقاموا عليه الأدلة وخالف في ذلك فرق يسيرة من أهل الجدل وقال ابن العربي : السموات

ساكنة لا حركة فيها جعلها الله ثابتة مستقرة هي لنا كالسقف للبيت ، ولهذا سماها السقف المرفوع .

واستخرج أهل البديع من لفظ كل في فلك صنعة القلب ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وربك فكبر ﴾ والسبح السير بانبساط وسهولة ، والجمع باعتبار اختلاف مطالعهما فكأنهما متعددان بتعددهما أو المراد الشمس والقمر والكواكب ، ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخر مما امتن به على عباده من النعم فقال :

﴿ وآية لهم ﴾ ارتفاع آية على أنها خبر مقدم والمبتدأ أنا حملنا أو العكس ، أي علامة ودلالة، وقيل: معنى آية هنا العبرة ، وقيل: النعمة ، وقيل: النذارة ، وقد اختلف في معنى .

﴿ أنا حملنا ذريتهم ﴾ وإلى من يرجع الضمير لأن الضمير الأول وهو قوله:وآية لهم لأهل مكة أو لكفار العرب أو للكفار على الإطلاق الكائنين في عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، فقيل: الضمير يرجع إلى القرون الماضية ، والمعنى:أن الله حمل ذرية القرون الماضية .

﴿ في الفلك المشحون ﴾ فالضميران مختلفان ، وهذا حكاه النحاس عن الأخفش ، وقيل:الضميران لكفار مكة ونحوهم ، والمعنى: أن الله حمل ذرياتهم من أولادهم وضعفائهم على الفلك فامتن الله عليهم بذلك ، أي أنهم يحملونهم معهم في السفن إذا سافروا أو يبعثون أولادهم للتجارة لهم فيها ، وإنما ذكر ذريتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليه ، وأبلغ في التعجب من قدرته ، وقيل:الذرية الآباء والأجداد ، والفلك: هو سفينة نوح أي أن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح .

قال الواحدي: والذرية تقع على الآباء كما تقع على الأولاد ، قال أبو

عثمان:وسمى الآباء ذرية لأن منهم ذرء الأبناء وقيل الذرية النطف الكائنة في بطون النساء ، وشبه البطون بالفلك المشحون. قاله علي بن أبي طالب ذكره الماوردي والراجح القول الثاني ثم الأول ثم الثالث ، وأما الرابع: ففي غاية البعد والنكارة وقد تقدم الكلام في الذرية واشتقاقها في سورة البقرة مستوفى .

وقيل:إن الضمير في قوله(لهم)يرجع إلى العباد المذكورين في قوله يا حسرة على العباد، لأنه قال بعد ذلك: (وآية لهم الأرض الميتة)، وقال: (وآية لهم الليل)، ثم قال: (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم)، فكأنه قال:وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ، ولا يلزم أن يكون المراد بأحد الضميرين البعض منهم ، وبالضمير الآخر البعض الآخر وهذا قول حسن . والمشحون: المملوء الموقر ، والفلك يطلق على الواحد والجمع كما تقدم في يونس .

عن أبي مالك في الآية قال في سفينة نوح:حمل فيها من كل زوجين اثنين ، وعن أبي صالح نحوه ، وعنه في الآية قال:يعني الإبل خلقها الله كما رأيت فهي سفن البر يحملون عليها ويركبونها ، ومثله عن الحسن وعكرمة وعبد الله بن شداد ومجاهد .

﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ أي وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ﴿ ما ﴾ هي الموصولة ومن زائدة وقال مجاهد وقتادة وجماعة من أهل العلم من المفسرين وهي الإبل خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر ، والعرب تسمي الإبل سفائن البر ،وقيل:المعنى وخلقنا لهم سفناً أمثال تلك السفن يركبونها ، قاله الحسن والضحاك وأبو مالك ، وقال النحاس:وهذا أصح لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس،وقيل:هي السفن المتخذة بعد سفينة نوح . قلت:والعموم أولى ولا وجه للتخصيص ، فيشمل كل ما يركب حيواناً كان أو جماداً دخاناً كان أو ريحاً ، كالعجلات الحادثة في هذا الزمان ، وما سيحدث في المستقبل بتلاحق الأفكار وتعامل الأيدي والأنظار .

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ
مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ هذا من تمام الآية التي امتن الله بها عليهم ووجه الامتنان أنه لم يغرقهم في لجج البحار مع قدرته على ذلك ، أو لم يحرقهم بنار العجلات الدخانية الحادثة الآن ، والضمير يرجع إلى أصحاب الذرية أو إلى الذرية أو إلى الجميع على اختلاف الأقوال .

﴿فلا صريخ لهم﴾ الصريخ : بمعنى المصرخ والمصرخ هو المغيث أي فلا مغيث لهم يغيثهم إن شئنا إغراقهم أو إحراقهم ، وقيل هو المنعة وكما يطلق الصريخ على المغيث يطلق على الصارخ وهو المستغيث ، فهو من الأضداد كما صرح به أهل اللغة ، ويكون مصدراً بمعنى الإغاثة لأنه في الأصل بمعنى الصراخ ، وهو صوت مخصوص وكل منهما صحيح هنا قاله الشهاب .

﴿ولا هم ينقذون﴾ أي لا يخلصون ولا ينجون . يقال : أنقذه واستنقذه إذا خلصه من مكروه ﴿إلا رحمة منا﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل ، أي لا صريخ لهم ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة منا ، كذا قال الكسائي والزجاج وغيرهما ، وقيل : هو استثناء منقطع أي لكن لرحمة منا .

﴿ومتاعاً﴾ أي نمتعهم بالحياة الدنيا ﴿إلى حين﴾ وهو الموت ، قاله قتادة ، وقال يحيى بن سلام إلى القيامة .

﴿وإذا قيل لهم﴾ بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التي كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها ﴿اتقوا ما بين أيديكم﴾ من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم .

﴿ وما خلفكم ﴾ منها قال قتادة: أي اتقوا ما بين أيديكم من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم ، وما خلفكم في الآخرة . وقال سعيد بن جبير ومجاهد :ما بين أيديكم ما مضى من الذنوب وما خلفكم ما بقي منها ، وقيل : ما بين أيديكم الدنيا وما خلفكم الآخرة ، قاله سفيان وحكى عكس هذا القول الثعلبي عن ابن عباس ، وقيل :ما بين ايديكم ما ظهر لكم وما خلفكم ما خفي عنكم وجواب إذا محذوف ، والتقدير إذا قيل لهم ذلك أعرضوا كما يدل عليه إلا كانوا عنها معرضين .

﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي رجاء أن ترحموا أو كي ترحموا أو راجين أن ترحموا .

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ ما هي النافية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد ومن الأولى مزيدة للتوكيد والثانية للتبعيض والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال .

﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والتكوينية ، والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها وترك النظر الصحيح فيها ، وهذه الآية متعلقة بقوله : يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون إذا جاءتهم الرسل كذبوا ، وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف لأن جملتها ترجع إلى أمرين :التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله .

﴿ انفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي تصدقوا على الفقراء مما أعطاكم الله وأنعم به عليكم من الأموال ، قال الحسن : يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء ، وقال مقاتل : إن المؤمنين قالوا لكفار قريش : أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم من الحرث والأنعام كما في قوله سبحانه : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ فكان جوابهم ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ استهزاء بهم وتهكماً بقولهم .

﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ ﴾ أي من لو يشاء الله رزقه ؟ وقد كانوا سمعوا المسلمين يقولون : إن الرازق هو الله ، وإنه يغني من يشاء ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمسلمين ، وقالوا: نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه وأفقر بعضاً ابتلاء ، فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً ، وأعطى الدنيا للغني لا استحقاقاً وأمر الغني أن يطعم الفقير وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة ولا اعتراض لأحد في مشيئة الله وحكمته في خلقه . والمؤمن يوافق أمر الله .

وقولهم : من لو يشاء الله أطعمه هو وإن كان كلاماً صحيحاً في نفسه ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله وإنكار جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً .

﴿ إن أنتم ﴾ في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا ﴿ إلا في ضلال مبين ﴾ أي بين وهذا من تمام كلام الكفار ، والمعنى أنكم أيها المسلمون في سؤال المال وأمرنا بإطعام الفقراء لفي ضلال في غاية الوضوح والظهور ، وقيل: هو من كلام الله سبحانه جواباً على هذه المقالة التي قالها الكفار ، وقيل: هو من قول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم :

وقال القشيري والماوردي : إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة وقد كان في كفار قريش وغيرهم من سائر العرب قوم يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع فقالوا هذه المقالة استهزاء بالمسلمين ومناقضة لهم ، وحكى نحو هذا القرطبي عن ابن عباس ولهذا أظهر في مقام الإضمار قيل : كان العاص بن وائل السهمي إذا سأله المسكين قال له: اذهب إلى ربك فهو أولى مني بك ، ويقول : قد منعه الله أفأطعمه أنا[1] .

---

(١) ذكر هذا المعنى الخازن في تفسيره .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ
وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ
فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن
مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ الذي تعدوننا بـه من البعث والعذاب والقيامة والمصير إلى الجنة والنار ، وهذا رجوع للكلام مع الكفار من قريش المعترفين بوجود الله تعالى .

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولونه وتعدوننا به . قالوا ذلك استهزاء منهم ، وسخرية بالمؤمنين ، ومقصودهم إنكار ذلك بالمرة ونفي تحققه وجحد وقوعه ، فأجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿ما ينظرون ﴾ أي ما ينتظرون .

﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي نفخة إسرافيل في الصور ، وهذه النفخة هي الأولى وهي نفخة الصعق التي يموت بها من كان موجوداً على وجه الأرض ، وجعلوا منتظرين نظراً إلى قولهم متى تقع لأن من قال: متى يقع الشيء الفلاني يفهم من كلامه أنه ينتظر وقوعه .

﴿ تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أي يختصمون في ذات بينهم في البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا ، ويتكلمون في الأسواق والمجالس وفي متصرفاتهم فتأتيهم الساعة أغفل ما كانوا عنها ، وقد صح هذا في الأحاديث الصحيحة وهي معروفة في كتب السنة[1] ، وقرىء يخصمون بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصم يخصم والمعنى يخصم بعضهم بعضاً وقرىء بإخفاء فتحة

(١) مسلم/ ٢٩٥٤ .

الخاء وتشديد الصاد وبإظهار فتحة الخاء وتشديد الصاد وبكسر الخاء وتشديد الصاد والأصل في القرآت الثلاث يختصمون وقرأ أبي على الأصل والقرآت كلها سبعية .

﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له وما عليه ، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة والإقلاع عن المعاصي ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم. قال أبو هريرة : « تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح ، وفي حوائجهم فلا يستطيعون توصية » الآية .

وعن الزبير بن العوام قال : «إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب ، والرجل يحلب الناقة » ثم قرأ الآية .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ولا يطعمه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » .

﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ أي إلى منازلهم التي ماتوا خارجين عنها بل يموتون حيث يسمعون الصيحة لأن الساعة لا تمهلهم بشيء ، وقيل : المعنى لا يرجعون إلى أهلهم قولاً ، وهذا إخبار عما ينزل بهم عند النفخة الأولى ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال :

﴿ ونفخ في الصور ﴾ وهي النفخة التي يبعثون بها من قبورهم وما بين النفختين أربعون سنة .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعين يوماً قال أبيت قالوا : أربعين شهراً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعين سنة. قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا

عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »[١] . وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي حيث قال :

﴿ ونفخ ﴾ تنبيهاً على تحقق وقوعه كما ذكره أهل البيان ، وجعلوا هذه الآية مثالاً له ، والصور بإسكان الواو: هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل كما وردت بذلك السنة وإطلاق هذه الاسم على القرن معروف في لغة العرب وقد مضى هذا مستوفى في سورة الأنعام ، وقال قتادة: الصور جمع صورة أي نفخ في الصور الأرواح .

﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ أي القبور جمع جدث وهو القبر وقرىء الأجداف بالفاء وهي لغة واللغة الفصيحة بالثاء المثلثة .

﴿ إلى ربهم ينسلونْ ﴾ أي يسرعون ويعدون ويخرجون منها أحياء بسرعة بطريق الجبر والقهر ، لا بطريق الاختيار ، فالنسل والنسلان الإسراع في السير يقال: نسل الذئب ينسل كضرب يضرب ، ويقال: ينسل بالضم أيضاً وهو الإسراع في المشي .

﴿ قالوا ﴾ عند بعثهم من القبور بالنفخة .

﴿يا ويلنا ﴾ نادوا ويلهم كأنهم قالوا له: احضر فهذا أوان حضورك ، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، بل من معناه وهو هلك ، وهؤلاء القائلون هم الكفار . قال ابن الانباري: الوقف على يا ويلنا وقف حسن ، ثم يبتدىء الكلام بقوله :

﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ أي مضجعنا ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول وما داخلهم من الفزع أنهم كانوا نياماً. قرىء: من بعثنا على الاستفهام وبكسر الميم على أنها حرف جر وفي قراءة أبيّ: من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه ، وقيل : إنهم يقولون ذلك إذا عاينوا جهنم .

وقال أبو صالح : إذا نفخ النفخة الأولى رفع العذاب عن أهل القبور وهجعوا هجعة إلى النفخة الثانية وعن أبيّ بن كعب في الآية قال : « ينامون

(١) وهذا اللفظ لمسلم .

قبل البعث نومة » ، وعن مجاهد: أنهم يستريحون من العذاب قبيل النفخة الثانية ويـذوقون طعم النـوم ، انتهى . فعليه يكـون قولهم من مـرقدنـا حقيقة لأن المـرقـد حقيقة هو مكان النوم وقيـل : إن الله يرفـع عنهم العذاب بـين النفختين فيرقدون . فإذا بعثوا في الثانية عاينوا أهوال القيامة ودعوا بالويل .

﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ جواب عليهم من جهة الملائكة أو من جهة المؤمنين المتقين وقيل : هو من كلام الكفرة يجيب به بعضهم على بعض. قال بالأول الفراء وبالثاني مجاهد ، وقال قتادة: هي من قول الله سبحانه و (ما) في ﴿ ما وعد﴾ موصولة وعائدها محذوف ، أي هذا الذي وعده الرحمن .

﴿ وصدق ﴾ فيه ﴿ المرسلون ﴾ قد حق عليكم ونزل بكم ، ومفعولا الوعد والصدق محذوفـان ، أي وعدكمـوه الرحمن وصـدقكموه المـرسلون ، والأصل وعدكم به وصدقكم فيه أو وعدناه الرحمن وصدقناه المرسلون ، على أن هذا من قول المؤمنين أو من قول الكفار أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ كانت ﴾ تلك النفخة الثانية التي حكيت عنهم آنفاً ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ صاحـها إسرافيل بنفخه في الصور ﴿ فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ أي فإذا هم مجموعون محضـرون لدينـا بسرعـة للحساب والعقاب .

﴿ فاليوم لا تظلم نفس ﴾ من النفوس ﴿شيئاً﴾ مما تستحقه أي لا ينقص من ثواب عملها شيئاً من النقص ، ولا تظلم فيه بنوع من أنواع الظلم ، وهذا حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقاً للحق وتقريعاً لهم .

﴿ ولا تجزون إلا ﴾ جزاء ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا أو إلا بما كنتم تعملونه أي بسببه أو في مقابلته ، ولمـا ذكر الله سبحانه حال الكافرين أتبعه بحكاية حال عباده الصالحين ، وجعله من جملة ما يقال للكفار يومئذ زيادة لحسرتهم ، وتكميلاً لجزعهم ، وتتميماً لما نزل بهم من البلاء . وما شاهدوه من الشقاء ، فإذا رأوا ما أعد الله لهم من العـذاب وما أعـده لأوليائه من أنواع النعيم بلغ ذلك من قلوبهم مبلغاً عظيماً ، وزاد في ضيق صدورهم زيادة لا يقادر قدرها فقال:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾

﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل ﴾ لما هم فيه من اللذات التي هي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، عن الاهتمام بأمر الكفار ومصيرهم إلى النار ، وإن كانوا من قراباتهم ، والأولى عدم تخصيص الشغل بشيء معين والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه ، لكونه أهم عنده من الكل ، إما لإيجابه كمال المسرة والبهجة ، أو كمال المساءة والغم ، والمراد هنا هو الأول وما فيه من التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان .

وقال قتادة ومجاهد : شغلهم ذلك اليوم بافتضاض العذارى وبه قال ابن عباس وابن مسعود وعكرمة ، وعن ابن عمر: «أن المؤمن كلما أراد زوجة وجدها عذراء» وقد روي نحوه مرفوعاً[1] ، وعن ابن عباس أيضاً قال في ضرب الأوتار ، وقال أبو حاتم : هذا لعله خطأ من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار على شط الأنهار تحت الأشجار .

وقال وكيع : شغلهم بالسماع ، وقال ابن كيسان بزيارة بعضهم بعضاً ، وقيل: شغلهم كونهم ذلك اليوم في ضيافة الله الجبار ، وقيل: شغلهم عما فيه أهل النار على الإطلاق أو عن أهاليهم في النار ، لا يهمهم أمرهم ، ولا يبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم ، والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ التي تلهيهم عما عداها بالكلية .

وأما أن المراد به افتضاض الأبكار أو السماع أو ضرب الأوتار أو

(١) رواه ابن الجوزي في تفسيره ٧/٢٧ .

التـزاور أو ضيافة الجبار كما روي كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط ، بل بيان أنه من جملة أشغالهم وتخصيص كل منهم من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إياه. قرىء: شغل بضمتين وبضم الشين وسكون الغين وهما لغتان كما قال الفراء ؛ وقرىء: بفتحتين وبفتح الشين وسكون الغين .

﴿ فاكهون ﴾ وقرىء فاكهين وفكهون قال الفراء : هما لغتان كالفارة والفرة والحاذر والحذر ، وقال الكسائي وابو عبيدة: الفاكه والفاكهة مثل تامر ، ولابن ، والفكه والمتفكه المتنعم .

وقال قتادة : الفكهون المعجبون ، وقال أبو زيد : يقال : رجل فكه إذا كان طيب النفـس ضحوكـاً ، وقـال مجاهد والضحاك كما قال قتادة ، وقال السدي كما قال الكسائي ، وقال ابن عباس : فاكهون فرحـون . وقيـل : ناعمون متلذذون في النعمة من الفكاهة وهي التمتع والتلذذ مأخوذ من الفاكهة وفسرها زاده بطيب العيش والنشاط .

﴿ هم وأزواجهم في ظـلال على الأرائك متكئون ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم سروراً وبهجة من كون أزواجهم معهم على هذه الصفة من الاتكاء على الأرائك تحت تلك الظلال والظلال جمع ظل وقرىء ظلل بضم الظاء جمع ظلة والظل هو الموضع الذي لا تقع عليه الشمس ، والظلـة ما سترك عن الشمس ، وعلى القراءتين: فالمراد الفرش والستور التي تـظللهم كالخيـام والحجال ، والأرائـك جمع أريكـة ، كسفائن جمع سفينة ، والمراد بها السرر التي في الحجال . قال أحمد بن يحيى : ثعلب الأريكة لا تكون إلا سريراً في قبة ، وقال مقاتل : إن المراد بالظلال أكنان القصور. وجملة:

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ مبينة لما يتمتعون به في الجنة من المآكل والمشارب ونحوها ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس ومحافل القدس . أي ولهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه .

﴿ ولهم ما يدعون ﴾ ما هذه هي الموصولة ، والعائد محذوف أو موصوفة أو مصدرية ، ويدعون مضارع ادعى . قال أبو عبيد : يدعون يتمنون والعرب تقول ادع على ما شئت أي تمن وفلان في خير ما يدعى أي يتمنى . قال الزجاج : هو من الدعاء أي ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم من دعوت غلامي فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل ، والارتحال بمعنى الرحل . قيل : افتعل بمعنى تفاعل أي ما يتداعونه كقولهم : ارتموا وتراموا .

وقيل : المعنى أن من ادعى منهم شيئاً فهو له لأن الله قد طبعهم على أن لا يدعي أحدمنهم شيئاً إلا وهو يحسن ويجمل به أن يدعيه ، وقرىء يدعون بالتخفيف ومعناه واضح ، قال ابن الأنباري : والوقف على ﴿ يدعون ﴾ وقف حسن ، ثم يبتدىء .

﴿ سلام ﴾ على معنى لهم سلام : وقيل :ان سلام هو خبر(ما)أي :مسلم خالص أو ذو سلامة ، وقال الزجاج : سلام بدل من(ما) أي:ولهم أن يسلم الله عليهم وهذا مُنى أهل الجنة ، والأولى أن يحمل قوله : ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ على العموم وهذا السلام يدخل تحته دخولاً أولياً ، ولا وجه لقصره على نوع خاص ، وان كان أشرف أنواعه تحقيقاً لمعنى العموم ، ورعاية لما يقتضيه النظم

القرآني .

وقيل : إن سلام مبتدأ وخبره الناصب لـ ﴿ قولاً ﴾ أي سلام يقال لهم ﴿ قولاً ﴾ وقيل : التقدير سلام عليكم ، وقرىء سلاماً على المصدرية أو على الحالية بمعنى خالصاً ، والسلام إما من التحيـة أو من السلامة ، وقرى: يسلم كأنه قال : يسلم لهم لا يتنازعون فيه وانتصاب (قولاً) على أنه مصدر لفعل محذوف أي قال الله لهم ذلك قولاً أو يقوله لهم قولاً .

﴿ من رب رحيم ﴾ أي من جهته قيل : يـرسل الله سبحـانه إليهم بالسلام وقال مقاتل : إن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون : سلام عليكم يا أهل الجنة من رب رحيم .

وأخرج ابن ماجة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، والبزار وابن أبي حاتم والآجري في الرؤية ، وابن مردويه عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قول الله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم » . قال ابن كثير في إسناده نظر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال:إن الله هو يسلم عليهم .

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ هو على إضمار القول مقابل ما قيل للمؤمنين ، أي ويقال للمجرمين: امتازوا أي اعتزلوا من مازه يميزه ، يقال مزت الشيء من الشيء إذا عزلته عنه ونحيته ، قال مقاتل: معناه اعتزلوا اليوم يعني في الآخرة من الصالحين ، وقال السدي: كونوا على حدة ، وقال الزجاج: انفردوا عن المؤمنين ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ، وقيل: إن لكل كافر في النار بيتاً فيدخل ذلك البيت ويردم بابه فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى

ولا يرى ، فعلى هذا القول يمتاز بعضهم عن بعض . وقال قتادة:عزلوا عن كل خير .

وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة . والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة . وقال داود بن الجراح: يمتاز المسلمون من المجرمين إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين . ثم وبخهم سبحانه وقرعهم بقوله :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ؟ ﴾ وهذا من جملة ما يقال لهم ، والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد هنا:ما كلفهم الله به على ألسنة الرسل من الأوامر والنواهي ، أي ألم أوصكم وأبلغكم على ألسن رسلي أن لا تطيعوا الشيطان .

قال الزجاج : المعنى ألم أتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم ، وقال مقاتل:يعني الذين أمروا بالاعتزال ، وقيل:المراد بالعهد هنا الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم ، وقيل : هو ما نصبه الله لهم وركزه فيهم من الدلائل العقلية التي في سمواته وأرضه وما أنزل عليهم من أدلة السمع .

وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم وإنما عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادة الله .

وجملة: ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل لما قبلها من النهي عن طاعة الشيطان وقبول وسوسته ﴿ وأن اعبدوني ﴾ أن في الموضعين هي المفسرة للعهد ، الذي فيه معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما أي:ألم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا الشيطان وبأن اعبدوني ، أو ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي ؟ وتقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقديم على التحلية كما في كلمة التوحيد وليتصف به قوله :

﴿ هذا ﴾ أي عبادة الله وتوحيده أو دين الإسلام ﴿ صراط مستقيم ﴾ بليغ في الاستقامة ولا صراط أقوم منه .

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ
تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا
عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ثم ذكر سبحانه عداوة الشيطان لبني آدم فقال: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ اللام هي الموطئة للقسم، والجملة مستأنفة لتشديد التقريع وتأكيد التوبيخ، أي والله لقد أضل، قرىء: جبلاً بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وبضم الجيم وسكون الباء وبضمتين مع تخفيف اللام، وبضمتين مع تشديد اللام، وقرىء بكسر الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام.

قال النحاس: وأبينها القراءة الأولى، والدليل على ذلك أنهم قد قرأوا جميعاً: والجبلة الأولين بكسر الجيم والباء وتشديد اللام فيكون جبلاً جمع جبلة واشتقاق الكل من جبل الله الخلق أي خلقهم ومعنى الآية: أن الشيطان قد أغوى خلقاً كثيراً، كما قال مجاهد، وقال قتادة جموعاً كثيرة وقال الكلبي أمماً كثيرة، قال الثعلبي: والقراآت كلها بمعنى الخلق، وقرىء جيلاً بالجيم والياء التحتية، وقال الضحاك: الجيل الواحد عشرة آلاف، والكثير ما يحصيه إلا الله عز وجل.

﴿أفلم تكونوا تعقلون؟﴾ الهمزة للتوبيخ والتقريع والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام كما تقدم في نظائره، أي أتشاهدون آثار العقوبات؟ فلم تكونوا تعقلون أو أفلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم؟ أو أفلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً؟ قرىء الفعلان بالخطاب وبالغيبة.

﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ بها في الدنيا على ألسنة الرسل،

والقائل لهم الملائكة ، وهو استئناف خوطبوا به بعد تمام التوبيخ عند إشرافهم على شفير جهنم ، ثم يقولون لهم :

﴿ اصلوها ﴾ أمر تبكيت وإهانة كقوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي قاسوا حرها وادخلوها ﴿ اليوم ﴾ وذوقوا أنواع العذاب فيها ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أي بسبب كفركم بالله في الدنيا وطاعتكم للشيطان وعبادتكم للأوثان .

﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ قال المفسرون إنهم ينكرون الشرك وتكذيب الرسل كما في قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فيختم الله على أفواههم ختماً لا يقدرون معه على الكلام وفي هذا آلتفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم ثم قال :

﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي تكلمت أيديهم بما كانوا يفعلونه وشهدت أرجلهم عليهم بما كانوا يعملون باختيارها بعد إقدار الله تعالى لها على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم. وقرى: لتكلمنا ولتشهد بلام .

كما قيل: سبب الختم على أفواههم ليعرفهم أهل الموقف ، وقيل : ختم على أفواههم لأجل أن يكون الاقرار من جوارحهم لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق لخروجه مخرج الإعجاز ، وقيل : ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في معاصي الله صارت شهوداً عليهم .

وجعل ما تنطق به الأيدي كلاماً وإقراراً لأنها كانت المباشرة لغالب المعاصي وجعل نطق الأرجل شهادة لأنها حاضرة عند كل معصية ، وكلام الفاعل إقرار وكلام الحاضر شهادة ، وهذا اعتبار الغالب وإلا فالأرجل قد تكون مباشرة للمعصية كما تكون الأيدي مباشرة لها .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والبزار وغيرهم عن أنس في الآية قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه قال: « أتدرون مم ضحكت؟ قلنا لا يا رسول الله قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم. فيقول: بلى. فيقول: إني لا أجيز عليّ إلا شاهداً مني فيقول: ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ﴾ بالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل »[1].

وأخرج مسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يلقى العبد ربه فيقول الله له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول مثل ذلك، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه. ويقال لفخذه: انطقي فتنطق فخذه وفمه وعظامه بعمله ما كان، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط عليه »، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي موسى نحوه[2].

﴿ ولو نشاء ﴾ أن نطمس ﴿ لطمسنا على أعينهم ﴾ أي أذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن، قال الكسائي: طمس يطمس ويطمس والطميس والمطموس عند أهل اللغة الذي ليس في عينيه شق كما في

---

(١) احمد ٢/٤٨.

(٢) اخرجه ابن ابي حاتم ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

قوله:(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)، قال السدي والحسن : المعنى لتركناهم عمياً يترددون لا يبصرون طريق الهدى ، واختار هذا ابن جرير ، قال ابن عباس في الآية : أعميناهم وأضللناهم عن الهدى ، وقال عطاء ومقاتل وقتادة : المعنى لو نشاء لفقأنا أعينهم وأعميناهم عن غيهم ، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم واهتدوا ، وتبادروا إلى طريق الآخرة .

﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على لطمسنا أي تبادروا إلى الطريق ليجوزوه ويمضوا فيه والصراط منصوب بنزع الخافض أي فاستبقوا إليه وقرىء: فاستبقوا على صيغة الأمر . أي فيقال لهم : استبقوا وفي هذا تهديد لهم .

﴿ فأنى ﴾ أي فكيف ﴿ يبصرون ﴾ الطريق ويحسنون سلوكه ولا أبصار لهم ثم كرر التهديد لهم فقال :

﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ المسخ تبديل الخلقة أي تغيير الصورة وإبطال القوى إلى حجر أو غيره من الجماد أو بهيمة والمكانة المكان أي: لو شئنا لبدلنا خلقهم على المكان الذي هم فيه ،قيل: والمكانة أخص من المكان كالمقامة والمقام ، قال الحسن: أي لأقعدناهم ، وقيل : لمسخناهم في المكان الذي فعلوا فيه المعصية ، وقيل : المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم قاله ابن عباس ، وقال يحيى بن سلام : هذا كله يوم القيامة قرأ الجمهور: على مكانتهم بالإفراد وقرىء:على مكاناتهم بالجمع .

﴿ فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾ أي لا يقدرون على ذهاب ولا مجيء.قال الحسن : فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم ، وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر ، وقرىء: مضياً بضم الميم وبفتحها وبكسرها ، قيل: والمعنى لا يستطيعون رجوعا ، يقال: مضى يمضي مضياً إذا ذهب في الأرض ورجع يرجع رجوعاً إذا عاد من حيث جاء .

﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾

﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ قرأ الجمهور: ننكسه بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففة، وقرىء: بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة والتنكيس جعل الشيء أعلاه أسفله، والمعنى: من نطل عمره نغير خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً من القوة والطراوة قال الزجاج المعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه فصار بدل القوة الضعف، وبدل الشباب الهرم، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾. وقوله: ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾.

﴿ أفلا يعقلون ﴾؟ قرأ الجمهور بالتحتية وقرىء بالفوقية على الخطاب أي أفلا يعلمون بعقولهم أن من قدر على ذلك قدر على البعث والنشور؟ ولما قال كفار مكة إن القرآن شعر، وإن محمداً شاعر، رد الله عليهم بقوله:

﴿ وما علمناه الشعر ﴾ والمعنى نفي كون القرآن شعراً، لأن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع، منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل المنزه عن مماثلة كلام البشر؟ المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة. الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ثم نفى أن يكون النبي شاعراً فقال:

﴿ وما ينبغي له ﴾ أي لا يصح له الشعر ولا يتأتى منه، ولا يتسهل عليه لو طلبه، وأراد أن يقوله بالطبع والسجية، كما جعلناه أمياً لا يهتدي إلى الخط لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض، بل كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينشد بيتاً قد قاله شاعر متمثلاً به كسر وزنه، فإنه لما أنشد بيت طرفة بن العبد المشهور وهو قوله.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قال ويأتيك من لم تزود بالأخبار ، وأنشد مرة أخرى قول العباس ابن مرداس السلمي :

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فقال : بين الأقرع وعيينة ، وأنشد أيضاً :

كفى بالإسلام والشيب ناهياً

فقال أبو بكر : يا رسول الله إنما قال الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال:أشهد أنك رسول الله ، يقول الله عزوجل:﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾

وقد وقع منه صلى الله عليه وسلم كثير من مثل هذا ، قال الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ، ولكن لا يتأتى منه. انتهى ووجه عدم تعليمه الشعر وعدم قدرته عليه التكميل للحجة ، والدحض للشبهة كما جعله الله أمياً لا يقرأ ، ولا يكتب وأما ما روي عنه من قوله صلى الله عليه وسلم .

« هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت »

وقوله :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »[1]

ونحو ذلك فمن الاتفاق الوارد من غير قصد كما يأتي ذلك في بعض آيات القرآن وليس بشعر ولا مراد به الشعر ، بل اتفق ذلك اتفاقاً كما يقع في كثير من كلام الناس فإنهم قد يتكلمون بما لو اعتبره معتبر لكان على وزن الشعر ، ولا يعدونه شعراً ، وذلك كقوله تعالى:﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ على أنه قد قال الأخفش : إن قوله: أنا النبي لا كذب ليس بشعر .

(١) ولابن كثير كلام طويل حول هذه النقطة فليراجع هناك .

وقال الخليل في كتاب العين : إن ما جاء من السجع على جزأين لا يكون شعراً ، قال ابن العربي : والأظهر من حاله أنه قال : لا كذب برفع الباء من كذب وبخفضها من عبدالمطلب ، قال النحاس قال بعضهم : إنما الرواية بالاعراب وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً لأنه إذا فتح الباء من الأول أو ضمها أو نونها وكسر الباء من الثاني خرج عن وزن الشعر ، وقيل : إن الضمير في (له) عائد إلى القرآن أي :وما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً .

أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قال : « بلغني أنه قيل لعائشة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل أوله آخره ، يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار ، فقال أبو بكر ليس هكذا.فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي »[1] ، وهذا يرد ما نقلناه عن الخليل سابقاً أن الشعر كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة.

ويأتيك بالأخبار من لم تزود[1]

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال:« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل من الأشعار . ويأتيك الخ » ، وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة :« قالت ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً .

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحقق

قالت عائشة:ولم يقل تحققا لئلا يعربه فيصير شعراً ، وإسناده هكذا.قال أخبرنا أبو عبدالله الحافظ يعني الحاكم حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم

---

(١) رواه احمد في المسند وذكره السيوطي في الدر ٥/٢٦٨ والطبري في التفسير ٢٣/٢٧ .

حدثنا أبو محمد عبدالله بن هلال النحوي الضرير حدثنا علي بن عمرو الأنصاري حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن عائشة فذكره وقد سئل المزي عن هذا الحديث فقال: هو منكر ولم يعرف شيخ الحاكم ولا الضرير في إسناده .

قال البيضاوي والخازن قال العلماء: ما كان يتزن له بيت شعر وإن تمثل ببيت شعر جرى على لسانه الشريف مكسراً ، ولو كان ممن يقول الشعر لتطرقت التهمة عقلاً في أن ما جاء به من عند نفسه ، ولهذا قال: ويحق القول الخ كما يأتي لأنه لم يبق إلا العناد الموجب للهلاك وقال القرطبي: إصابة الوزن منه صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان لا توجب أنه يعلم الشعر كقوله: أنا النبي لا كذب الخ والمعول عليه في الانفصال على تسليم أن هذا شعر ، إذ التمثل بالبيت لا يوجب أن يكون قائله عالماً بالشعر ولا أن يسمى شاعراً باتفاق العلماء كما أن من خاط خيطاً على سبيل الاتفاق لا يكون خياطاً .

قال الزجاج: أي ما جعلناه شاعراً وهذا لا ينافي أن ينشيء شيئاً من الشعر من غير قصد كونه شعراً. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في هذا ، وقد قيل: إنما أخبر الله عز وجل أنه ما علمه الشعر ، وإن لم يخبر أنه لا ينشيء الشعر ، وقد قالوا: كل من قال قولاً موزوناً لا يقصد به إلى شعر فليس بشاعر ، وإنما وافق الشعر ، فما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعد شعراً وإنما يعد منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه ، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال .

﴿ إن هو ﴾ أي ما القرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ من الأذكار وموعظة من المواعظ يوعظ بها الإنس والجن .

﴿ وقرآن مبين ﴾ أي كتاب من كتب الله السماوية مشتمل على الأحكام الشرعية يقرأ في المحاريب ، ويتلى في المتعبدات ، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين والدرجات ، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين ، وأقاويل الشعراء الكاذبين .

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا
عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ
﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا
يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

﴿ لينذر ﴾ قرىء بالتحتية وبالفوقية وعلى الأولى: المراد القرآن وعلى الثانية: المراد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ من كان حياً ﴾ يعقل ما يخاطب به أي مؤمناً قلبه صحيح يقبل الحق ويأبى الباطل لأن الكافر كالميت لا يتدبر ولا يتفكر .

﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على المصرين على الكفر ، الممتنعين من الإيمان بالله وبرسوله ، وإيرادهم في مقابلة من كان حياً فيه إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة التي هي المعرفة أموات في الحقيقة ثم ذكر سبحانه قدرته العظيمة وإنعامه على عبيده . وجحْدَ الكفار لنعمة فقال :

﴿ أولم يروا ﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب من حالهم ، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، والرؤية هي القلبية أي :أولم يعلموا بالتفكر والاعتبار ﴿ أنا خلقنا لهم ﴾ أي لأجلهم. انتفاعهم ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة .

وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص والتفرد بالخلق ، كما يقول الواحد منا: عملته بيدي للدلالة على تفرده بعمله ، وما: بمعنى الذي وحذف العائد لطول الصلة ويجوز أن تكون مصدرية وأتى بهذه الجملة بعد

قوله : خلقنا للاشارة إلى حصر الخلق لهذه النعم فيه تعالى ، واستقلاله بها ، فهو كناية عرفية ، وقيل : تمثيلية ، أي مما تولينا إحداثه ، ولم يقدر على إحداثه غيرنا وقـولـه :

﴿أنعـامـاً﴾ مفعول خلقنا ، وهي جمع نعم ، وهي : البقر والغنم والإبل وإنما خصها بالذكر ـ وإن كانت الأشياء كلها من خلق الله وإيجاده ـ لأن النعم أكثر أموال العرب والنفع بها أعم ، وقد سبق تحقيق الكلام فيها ، ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال :

﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي ضابطون قاهرون ، يتصرفـون بها كيف شاؤوا ، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ولم يقدروا على ضبطها ، أو المراد أنها صارت في أملاكهم ومعدودة في جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك ، وهذا أظهر ليكون قوله :

﴿ وذللناها لهم ﴾ تأسيساً لنعمه على حيالها لا تتمة لما قبلها. أي :جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح ، ويقودها الصبي فتنقاد له ، ويزجرها فتنزجر .

﴿ فمنها ركوبهم ﴾ الفاء لتفريع أحكام التذليل عليه . أي : فمنها مركوبهم الذي يركبونه كما يقال : ناقة حلوب أي محلوبة يعني : معظم منافعها الركوب ، وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمة الركوب. قرأ الجمهور: ركوبهم بفتح الراء وقرىء: بضمها على المصدر ، وقرأ أبي وعائشة: ركوبتهم. والركوب والركوبـة واحد مثل الحلوب والحلوبة والحمول والحمولة. وقال أبو عبيدة: الركوبة تكون للواحدة والجماعة ، والركوب لا يكون إلا للجماعة ، وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز فمنها ركوبهم بضم الراء لأنه مصدر ، والركوب ما يركب وأجاز ذلك الفراء. كما يقال: فمنها أكلهم ومنها شربهم .

﴿ ومنها يأكلون ﴾ أي يأكلونه من لحمها ومن للتبعيض ، وإنما غـير الأسلوب هنا لأن الأكل يعم الأنعام كلها بخلاف الركوب فهو خاص بالإبل

منها .

﴿ ولهم فيها ﴾ أي لهم في الأنعام بقسميها ﴿ منافع ﴾ غير الركوب لها والأكل منها ، وهي ما ينتفعون به من أصوافها وأوبارها وأشعارها وما يتخذونه من الأدهان من شحومها ، وكذلك الحمل عليها والحراثة بها وجلودها ونسلها .

﴿ و ﴾ لهم فيها ﴿ مشارب ﴾ مما يحصل من ألبانها جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشراب والظاهر أن المراد به ضروعها .

﴿ أفلا يشكرون ﴾ الله على هذه النعم ويوحدونه ويخصونه بالعبادة ، ثم ذكر سبحانه: جهلهم واغترارهم ووضعهم كفران النعم موضع شكرها فقال:

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ من الأصنام ونحوها يعبدونها ولا قدرة لها على شيء ، ولم يحصل لهم منها فائدة ، ولا عاد عليهم من عبادتها عائدة .

﴿ لعلهم ينصرون ﴾ أي رجاء أن ينصروا من جهتهم إن نزل بهم عذاب ، أو دهمهم أمر من الأمور .

﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ مستأنفة لبيان بطلان ما رجوه منها وأملوه من نفعها ، وانعكاس تدبيرهم وجمعهم بالواو والنون جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أنهم ينفعون ويضرون ويعقلون .

﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ أي والكفار جند للأصنام يحضرونهم في الدنيا ، قال الحسن : يمنعون منهم ، ويدفعون عنهم ، وقال قتادة : أي يغضبون لهم في الدنيا ، قال الزجاج : ينتصرون للأصنام وهي لا تستطيع نصرهم ، وقيل : المعنى يعبدون الآلهة ويقومون بها فهم لهم بمنزلة الجند ، هذه الأقوال على جعل ضمير (هم) للمشركين وضمير (لهم) للآلهة .

وقيل : (وهم) أي الآلهة (لهم) أي للمشركين جند معدون ومحضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض ، وقيل : معناه ، وهذه الأصنام لهؤلاء

الكفار جند الله عليهم في جهنم ، لأنهم يلعنونهم ويتبرأون منهم ، وقيل : المعنى إن الكفار يعتقدون أن الأصنام جند لهم يحضرون يوم القيامة لإعانتهم ، ثم سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ الفاء لترتيب النهي على ما قبله فلا بد أن يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة ، وانعكاس الأمر عليهم بترتيب الشر على ما رتبوه لرجاء الخير ، فإن ذلك مما يهون الخطر ، ويورث السلوة ، والنهي وإن توجه بحسب الظاهر إلى قولهم لكنه في الحقيقة متوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول هو ما يفيده قوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ فإنهم لا بد أن يقولوا : هؤلاء آلهتنا وإنها شركاء لله في المعبودية ، ونحو ذلك .

وهو نهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن التأثر لذلك بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده ، وقيل : إنه نهي لهم عن الأسباب التي تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن النهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن التأثر لما يصدر منهم هو من باب : لا أرينك ههنا ، فإنه يراد به نهي من خاطبه عن الحضور لديه لا نهي نفسه عن الرؤية ، وهذا بعيد ، والأول أولى ، والكلام من باب التسلية كما ذكرنا ، ويجوز أن يكون المراد بالقول المذكور هو قولهم : إنه ساحر وشاعر ومجنون .

﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ تعليل لما تقدم من النهي ، فإن علمه سبحانه بما يظهرون وما يضمرون مستلزم للمجازاة لهم بذلك ، وإن جميع ما صدر منهم لا يعزب عنه سواء كان خافياً أو بادياً سراً أو جهراً مظهراً أو مضمراً ، وتقديم السر على الجهر للمبالغة في شمول علمه بجميع المعلومات ،وقرىء:إنا بالكسر وبالفتح على حذف لام التعليل وهو كثير في القرآن والشعر ، وفي كل كلام ؛ وكسرها أبو حنيفة وفتح الشافعي وكلاهما تعليل كما تقدم .

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ
مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿ أولم ير الإنسان ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم ، على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها ، كما كانت ، والإنسان المذكور في الآية المراد به جنس الإنسان كما في قوله ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾

ولا وجه لتخصيصه بإنسان معين ؛ كما قيل : إنه عبدالله بن أبيّ وإنه قيل له ذلك لما أنكر البعث. وقال الحسن: هو أمية بن خلف ، وقال سعيد بن جبير: هو العاص بن وائل السهمي ، وقال قتادة ومجاهد: هو أبيّ بن خلف الجمحي ، فإن أحد هؤلاء وإن كان سبباً للنزول فمعنى الآية خطاب للإنسان من حيث هو ، لا إنسان معين ، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أولياً .

﴿ إنا خلقناه من نطفة ﴾ قذرة خسيسة مدرة خارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ، والنطفة هي اليسير من الماء ، وقد تقدم تحقيق معناها .

﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة المنفية قبلها داخلة معها في حيز الإنكار، المفهوم من الاستفهام ؛ وإذا هي الفجائية أي . ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء وأخسها وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه ؛ وشهدت بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة. والمعنى: العجب من جهل هذا المخاصم - مع مهانة أصله ودناءة أوله - كيف يتصدى لمخاصمة الجبار؟ ويبرز لمجادلته في إنكار البعث؟ ولا يتفكر في بدء خلقه وأنه من نطفة قذرة وهو غاية المكابرة، والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدال، ومعنى المبين: المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه .

قال ابن عباس: « جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففتّه بيده فقال: يا محمد أيحيى الله هذا بعد ما أرى؟ قال: نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات من آخر يس: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة الخ[1] » أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في معجمه

وعنه قال : جاء عبدالله بن أبيّ في يده عظم حائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر مثل ما تقدم. قال ابن كثير: وهذا منكر لأن السورة مكية وابن أبيّ إنما كان بالمدينة، وعنه قال: جاء أبيّ بن خلف الجمحي وذكر نحو ما تقدم ؛ وعنه أيضاً قال : نزلت في أبي جهل وذكر نحو ما تقدم .

﴿ وضرب لنا مثلاً ﴾ بفته العظم والجملة معطوفة على الجملة المنفية داخلة في حيز الإنكار المفهوم من الاستفهام، فهي تكميل للتعجيب من حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، وإهماله للتفكر في نفسه فضلاً عن التفكر في سائر مخلوقات الله .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ معطوفة على خلقنا،

(١) رواه الطبري ٢٣/٣٠ والسيوطي في الدر ر٥/٢٦٩ .

وهذه معطوفة عليها ، أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر كالمثل في الغرابة ، وهي إنكاره إحياءنا للعظام ، أو قصة عجيبة في زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل ، وأنكرها أشد الإنكار ، وهي إحياؤنا إياها ، أو جعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق ، وقاس قدرتنا على قدرتهم ، ونفى الكل على العموم فالمثل على الأول هو إنكار إحيائه للعظام ، وعلى الثاني هو إحياؤه لها ، وأما على الثالث فلا فرق بين أن يكون المثل هو الإنكار أو المنكر .

﴿ونسي خلقه﴾ أي خلقنا إياه من المني الدال على بطلان ما ضربه من المثل وذهل عنه ، وترك ذكره على طريقة اللداد والمكابرة ، فهو أغرب من إحياء العظم .

﴿ قال : من يحيي العظام وهي رميم ﴾ بالية استئناف جواباً عن سؤال مقدر كأنه قيل : ما هذا المثل الذي ضربه ؟ فقيل: قال من يحيي العظام وهي رميم؟ وهذا الاستفهام للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد فأنكر أن الله يحيي العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقدورالبشر. يقال: رم العظم يرم رماً إذا بلي ، فهو رميم ورمام ، وإنما قال : رميم ولم يقل : رميمة مع كونه خبراً للمؤنث لأنه اسم لما بلي من العظام غير صفة ، كالرمة والرفات ، وقيل: لكونه معدولاً عن فاعله ، وكل معدول عن وجهه يكون مصروفاً عن إعرابه كما في قوله: ﴿ وما كانت أمك بغياً ﴾ لأنه مصروف عن باغية. كذا قال البغوي والقرطبي ، وقال بالأول صاحب الكشاف .

والأولى أن يقال: إنه فعيل بمعنى فاعل . من رم الشيء صار اسماً بالغلبة أو مفعول ، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث كما قيل في جريح وصبور .

ومن يثبت الحياة في العظام ويقول: إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها يتشبث بهذه الآية ، وهي عند الحنفية طاهرة ، وكذا الشعر والعصب لأن الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت .

والمراد باحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس ، وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعي بهذه الآية على أن العظام مما تحله الحياة ، وقال الشافعي : لا تحلها الحياة ، وأن المراد بقوله : من يحيي العظام؟من يحيي أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف ، ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ، ثم أجاب سبحانه عن الضارب لهذا المثل فقال ﴿ قل ﴾ أي على سبيل تبكيته وتذكيره بما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال .

﴿ يحييها الذي أنشأها ﴾ أي ابتدأها وخلقها ﴿ أول مرة ﴾ من غير شيء ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية .

﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ لا تخفى عليه خافية ولا يخرج عن علمه خارج كائناً ما كان ، أي يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ، ومواقعها وطريق تمييزها ، وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها .

وقال الكرخي : يعلمه مجملاً ومفصلاً ، أي قبل خلقه وبعد خلقه ، والآية حجة على من ينكر علمه سبحانه بالجزئيات ونظيره قوله سبحانه : ﴿ إن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم فنبه سبحانه على وحدانيته ، ودل على قدرته على إحياء الموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب .

وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان مثل السِواكين وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران ، قيل المرخ هو الذكر والعفار هو الأنثى ويسمى الأول الزند والثاني

الزندة ، تقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أي استكثر منها وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً ، وقال الحكماء:في كل شجر نار إلا العناب لمصلحة الدق للثياب ، ولذلك تتخذ منه مطارق القصارين .

وبالجملة فمن بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به ، فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر ، وإجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب ، وقال الأخضر ، ولم يقل الخضر اعتباراً باللفظ ، وقرىء الخضر اعتباراً بالمعنى .

وقد تقرر: أنه يجوز تذكير اسم الجنس وتأنيثه ، كما في قوله: ﴿ نخل منقعر ﴾ وقوله: ﴿ نخل خاوية ﴾ فبنو تميم ونجد يذكرونه ، وأهل الحجاز يؤنثونه إلا نادراً ، والموصول بدل من الموصول الأول .

﴿ فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي تقدحون منه النار وتوقدونها من ذلك الشجر الأخضر ثم ذكر سبحانه ما هو أعظم من الإنسان خلقاً فقال :

﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ ﴾ والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر كنظائره ، ومعنى الآية: أن من قدر على خلق السموات والأرض وهما في غاية العظم وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة ، كما قال سبحانه: ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ قال الشهاب: أي مثل هؤلاء الأناس الذين ماتوا ، والمراد هم وأمثالهم على سبيل التقديم والتأخير ، أو المراد هم على طريق الكناية في نحو مثلك يفعل كذا ، قرأ الجمهور: بقادر بصيغة اسم الفاعل ، وقرىء: يقدر بصيغة المضارع ، ثم أجاب سبحانه عما أفاده الاستفهام من الإنكار التقريري بقوله :

﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ أي بلى هو قادر على ذلك ، وهو المبالغ في الخلق والعلم على أكمل وجه وأتمه ، وقرى: وهو الخالق ، ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته وتيسير المبدأ والإعادة عليها فقال :

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أي إنما شأنه سبحانه إذا تعلقت إرادته بشيء من الأشياء أن يقول له: احدث فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النحل ، وفي البقرة ، قرأ الجمهور: فيكون بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الكسائي : بالنصب عطفاً على يقول ، ثم نزه سبحانه نفسه عن أن يوصف بغير القدرة فقال :

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ هذا تنزيه له تعالى عما وصفوه به وتعجيب مما قالوا في شأنه ، والملكوت في كلام العرب لفظ مبالغة في الملك كالجبروت والرحموت كأنه قال: فسبحان من بيده مالكية الأشياء الكلية .قال قتادة: ملكوت كل شيء مفاتح كل شيء . وقرىء: ملكة بزنة شجرة ، وقرىء: مملكة بزنة مفعلة . والملك والملكوت أبلغ من الجميع .

﴿ وإليه ترجعون ﴾ قرأ الجهور بالفوقية على الخطاب مبنياً للمفعول وقرىء: بالتحتية على الغيبة مبنياً للمفعول أيضاً، وقرأ زيد بن علي: على البناء للفاعل أي ترجعون إليه لا إلى غيره ، وتردون وتعادون بعد الموت بلا فوت . وذلك في الدار الآخرة بعد البعث .

ملحق لتفسير سورة يس

ذكر المؤلف في صدر تفسيره لهذه السورة حديث: «اقرأوا يس عند موتاكم» وقلنا: في التعليق على ذلك إننا سننشر في آخر تفسير السورة ملحق يفصل موضوع القراءة على الأموات ننقله من المنار وغيره، وبناء عليه نقول: قال ابن القيم: وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله: لقنوا موتاكم لا إلّه إلا الله ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر، والأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنه نظير قوله: لقنوا موتاكم لا إلّه إلا الله.

الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله: ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ فيستبشر الروح بذلك فيحب لقاء الله فيحب الله لقاءه.

الثالث: إن هذا عمل الناس وعادتهم قديماً وحديثاً يقرأون يس عند المحتضر.

الرابع: أن الصحابة لم يكونوا يقرأونها عند القبور ولو فهموا من قوله صلى الله عليه وسلم اقرأوا يس عند موتاكم قراءتها عند القبر لما أخلوا به، وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم.

الخامس: ان انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود، وأما قراءتها عند قبره لا يثاب على ذلك لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو عمل، وقد انقطع عمل الميت.. أهـ.

وكتب صاحب المنار رحمه الله في آخر سورة الأنعام استدراكاً على تفسير قوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ بدأه بتمهيد مهم ثم قال:

أقول هذا تمهيداً لتذكيرك بعدم الاغترار بما لعلك اطلعت أو تطلع عليه من الوجوه التي حمل عليها بعض المتفقهة والمصنفين في تفسير قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فحرفوا الكلم عن مواضعه تارة بالتأويلات السخيفة ، وتارة بدعوى النسخ الباطلة ، وتارة بدعوى أن هاتين الآيتين من شريعة إبراهيم وموسى لا من شرعنا ، وتارة بتخصيصها بالكفار دون المسلمين .

وقد غفل هؤلاء عن كون مضمون الآيتين من قواعد الدين وأصول الإسلام ، الثابتة على ألسنة جميع الرسل ومؤيداً بآيات كثيرة بلفظها ومعناها كآية : ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ وغيرها مما يعلق الفلاح والخسر بالأعمال .

أما هؤلاء المقلدون من المتأخرين فسبب غفلهم وتأويلهم أنهم يحاولون تصحيح كل ما فشا من البدع بين أقوالهم والمنسوبين إلى مذاهبهم وليسوا من أهل الدليل ، ولكنهم لا يتركون ضلالة التأويل ، وأما أهل النظر في أدلة المذاهب منهم فلا هم من النظر في الكتاب والسنة إلا أخذ ما يرونه مؤيداً لمذاهبهم وترك ما سواه بضرب من التأويل ، أو دعوى النسخ أو احتماله بغير دليل .

ولو كان هؤلاء المقلدون العميان هم الذين جوزوا وحدهم للناس إهداء عباداتهم للموتى لهان الخطب ولكن تابعهم على ذلك بعض علماء السنة من أهل الأثر والنظر (كابن تيمية وابن القيم) إذ ظنوا أن الأحاديث الواردة في الدعاء للموتى والإذن للأولاد بأن يقضوا ما على والديهم من صيام أو صدقة أو حج ، تدل على انتفاع الموتى بعبادات الأحياء مطلقاً ، غافلين عن حصر ما صح من ذلك في الأولاد فقط ، وحديث « صام عنه وليه » يتعين أن يراد بالولي هنا الولد ليوافق سائر النصوص ، وولد المرء من عمله ، فانتفاع الميت بعمل ولده الحي يدخل في القاعدة ولا يناقضها .

كلام ابن القيم ورد المنار عليه

قال ابن القيم فإن قيل : فهذا لم يكن معروفاً في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا ارشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إليه وقد ارشدهم إلى الدعاء والاستغفار بالصدقة والحج والصيام ، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم ولكانوا يفعلونه :

وأجاب ابن القيم عن هذا الاعتراض فقال:

إن مورد هذا السؤال إن كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام و . . و . . قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات ، وان لم يعترف بوصول تلك الأعمال الى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع .

رد المنار على ابن القيم

أقول وبالله التوفيق : عفا الله عن شيخنا وأستاذنا أما قوله لمورد السؤال إذا كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام : ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن . . الخ فنجيب عنه بأن المانع لذلك نصوص القرآن التي جاءت في أن عمل كل عامل له دون غيره والسائل يعترف بأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن للأولاد أن يقضوا عن والديهم حقوقاً ثبتت عليهم كما يقضون ديون الناس عنهم ، فهي ليست كقراءة القرآن التي ليست مفروضة على الأعيان في غير الصلاة .

وبهذا كان أداء الحقوق غير معارض للآيات الواردة ، وبهذا بطل قوله وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات .

كلام ابن القيم

فإن قيل : فرسول الله صلى الله عليه وسلم أرشدهم إلى الصوم و . .

و . . دون القراءة .

ثم أجاب ابن القيم : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له ، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك .

رد المنار عليه

إن عدم ابتداء الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم بذلك على إطلاقه دليل على أنه ليس من دينه ، وإلا لم يكن مبينا لما أُنزل إليه كما أمر به وهذا محال .

وسؤال أولئك الأفراد إياه دليل على أنهم لم يكونوا يعلمون من نصوص الدين ولا من السنة العملية ما يدل على شرعيته ، فلذلك استفتوه فيه ، ولم يستفتوه في العمل عن غير الوالدين لنص القرآن في منعه . ، اهـ .

* * *

وقد يستدل بعضهم على انتفاع الموتى بعمل الأحياء بحديث: «وضع النبي صلى الله عليه وسلم الجريدتين على القبرين » ،[1] والجواب على ذلك أن هذا واقعة حال في أمر غيبي غير معقول المعنى والظاهر أنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم .

وكذلك حديث شبرمة وفيه أنه أخ لي أو قريب أحج عنه ،والجـواب: أنه حديث موقوف كما هو الراجح عند احمد ، وقال ابن المنذر لا يثبت رفعه .

* * *

وجاء في كتابنا مشكلات القرآن ما نصـه:

(١) انظر مسند أحمد ١٧٢/٤ وقد روي نحوه .

المشكلة العاشرة

هل ينتفع الأموات بعمل الأحياء ؟

قال الله تعالى ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ وقال ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ .

القرآن الكريم مملوء بالآيات في هذا المعنى ، وتقرير هذه القاعدة ، وهي أن الإنسان في الآخرة مجزى بعمله لا بعمل غيره ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾

غير أن المسلمين اليوم وقبل اليوم درجوا على الانصراف عن هذه القاعدة فتراهم يقرأون القرآن على الموتى ويتصدقون عنهم ويدعون لهم سواء في ذلك الولد على الوالد أو الوالد على الولد ، أو الزوجة على زوجها : أو الزوج على زوجته أو الأقارب والأصهار . وإذا صارحناهم بأن هذا خطأ لا يقره دين ولا شريعة قالوا :كيف هذا والناس عليه من قديم ، والشيوخ في هذا العصر لا ينكرون .

فإذا قلنا لهم إن الحجة في كلام الله ورسوله فقط لا في عمل الجماهير وسكوت الشيوخ قالوا :إن شيخ الإسلام ابن تيمية قد جوز هذا في بعض كتبه وهو عالم كبير وله شهرة واسعة في الدفاع عن السنة ومحاربة البدع .

ونحن نورد هنا ما قاله ابن تيمية وما رد به عليه أستاذ جليل محقق يحب ابن تيمية ولكن حبه للحق أكبر ، قال الاستاذ[1] :

قال ابن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بما عمله فقوله باطل من وجوه :

أحدها أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

---

(١) هو الأستاذ الكبير الشيخ أبو الوفا محمد درويش رحمه الله .

والجواب إن الداعي للإنسان إما أن يكون ولده وإما أن يكون غير ولده أما الولد فقد بينت السنة أن عمله استمرار لعمل الوالد: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث.. أو ولد صالح يدعو له » فدعوة الولدمن سعي الوالد وعمله .

وأما اذا كان الداعي غير ولده فقد أثبت الواقع المشاهد الذي لا ينكره إلا معاند أن أحداً لا يدعو لأحد إلا لإحسان أو بر نال الداعي من المدعو له وما رأينا أحداً يدعو لأحد اعتباطاً أو مجاناً .

ولا شك أن البر والإحسان إلى المسلمين من الطاعات . وهي من كسب الشخص وسعيه وعمله ، فإذا استجاب الله دعاء الداعي للبار المحسن ، كان ذلك ثواباً لإحسانه وبره ، وبذلك يكون الشخص قد انتفع بكسبه وسعيه وعمله ، إذ لولا الإحسان والبر ما دعا الداعي .

فقد انتفع الشخص بكسبه وسعيه وعمله لا بعمل غيره .

وإذا فرضنا أن الداعي لم ينله من المدعو له إحسان ولا بر ، أفلا يدعو له بالخير لأنه من إخوانه المسلمين المؤمنين ، والإيمان رحم بين المؤمنين ؛ ولولا إسلامه وإيمانه ما دعا له ، لأن المسلم يعتبر المسلمين إخوة ويعتبر الدعاء لهم من البر بهم ، والإسلام والإيمان من كسب العبد وسعيه وعمله ، فإذا انتفع المسلم باستجابة الله تعالى لدعاء مسلم من إخوانه ، كان انتفاعه بسبب إسلامه وإيمانه ، أي بسبب كسبه وعمله قبل كل شيء .

والله تعالى جعل الدعاء للمؤمن من ثواب إيمانه ، قال تعالى: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار ﴾ .

فلولا صبرهم ما سلمت عليهم الملائكة ، وتسليم الملائكة دعاء بالسلامة وهو ثواب صبرهم ، وصبرهم من كسبهم وسعيهم وعملهم ، وهذا شيء من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى إقامة دليل ولا برهان ، فهو في حكم البدهيات التي لا تفتقر إلى نظر ولا استدلال .

فثبت بذلك أن انتفاع المؤمن بدعاء المؤمنين ، سواء عليه ، أكانوا من ولده أم من غيرهم : إنما هو انتفاع بكسبه وسعيه وعمله لا بكسب غيره ولا بسعي سواه ولا بعمل الناس .

قال ابن تيمية :

ثانيها : أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الموقف في الحساب ، ثم لأهل الجنة في دخولها ، ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

ونقول وبالله نعتصم وبقوله الحق نتأيد : أما في الموقف فالشفاعة لا تنفع الكفار ، ولا هي بمغنية عنهم شيئاً ، فهم منتقلون من كربة إلى كربات ، ومن شدة إلى شدات وحسبنا دليل على ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ ٤٨ .

والآيات في معناها كثير.

فكيف يقال مع هذه النصوص الصريحة : إنهم انتفعوا بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أو إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟ وهم أعداء الله وأعداء رسوله الذين حبطت أعمالهم ، وضل سعيهم ، ولا يقام لهم يوم القيامة وزن ، ولا تنالهم من الرسول صلى الله عليه وسلم شفاعة ولا من الله تعالى رحمة .

وأما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر فتكون شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ثواباً لإيمانهم . ولولا إيمانهم لم ينالوا هذه الشفاعة ، فهم في واقع الأمر وحقيقته قد انتفعوا بكسبهم واستفادوا بسعيهم ، وقطفوا ثمرة عملهم فكيف يقال إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ، وما انتفاعهم بعد فضل الله ورحمته إلا بمحض عملهم .

وأما شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الجنة في دخولها فهي كذلك ثواب أعمالهم لقوله تعالى ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ فلولا إنهم آمنوا

وعملوا الصالحات ما دخلوا الجنة ولا وجدوا ريحها ولا نالتهم شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهم في حقيقة الأمر وواقعه ينتفعون بسعيهم وكسبهم وعملهم ، ولولا أعمالهم ما استحقوا شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فكيف يقال إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟

وأما شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر في الخروج من النار ؛ فإنها لن تكون إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم ويصيروا حمماً أو فحماً كما جاء في حديث مسلم ولولا أنهم مؤمنون ما أذن الله في الشفاعة لهم ، فالشفاعة لهم وخروجهم من النار من ثواب إيمانهم ، وإيمانهم من كسبهم وسعيهم وعملهم فكيف يقال : إنهم انتفعوا بعمل غيرهم .

ثم قال ابن تيمية :

ثالثها : إن كل نبي وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير .

ونقول : إن هذه الشفاعات لا تنفع ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ لقوله تعالى ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ٢٦ النجم . والآيات في معناها كثيرة .

فالشفاعة مشروط فيها بحسب نصوص القرآن الكريم الإذن والرضا ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأذن في الشفاعة لهم ، ولا يأذن للنبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة لأهل الكبائر لخروجهم من النار إلا بعد أن تمسهم النار بذنوبهم وتطهرهم من أوزارهم ويبقى إيمانهم وهو موضع رضا الكريم سبحانه .

فشفاعة الأنبياء والصالحين لا تكون إلا بعد الإذن والرضا وإذاً فتكون للمؤمنين لا لغيرهم ، والله تعالى قد جعل هذه الشفاعات ثواباً للإيمان وصالح العمل فهؤلاء الذين يشفع لهم الأنبياء والصالحون في حقيقة الأمر وواقعه منتفعون بإيمانهم وأعمالهم وسعيهم وكسبهم ، ولولا ذلك ما شفع لهم شافع

ولا نفعتهم شفاعة الشافعين .

فكيف يقال : إنهم انتفعوا بعمل غيرهم ؟

ثم قال ابن تيمية:

رابعها : إن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض وذلك منفعة بعمل الغير .

ونقول : إن الله تعالى بين لنا في كتابه العزيز دعاء الملائكة واستغفارهم وبين لنا كذلك من مِن أهل الأرض تستغفر لهم الملائكة ، فقال تعالى في سورة غافر:﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم(٧)ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيزالحكيم (٨)وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم (٩)﴾.

ألم تر كيف وقف الملائكة عند حدهم ولم يطلبوا من ربهم إلا ما يقتضيه عدله وحكمته ؟

ليس هذا الدعاء والاستغفار إلا تسبيحاً لله وتنزيهاً له بذكر صفات فضله وعدله ورحمته، فحين أخبر الله تعالى عن ملائكته الكرام أنهم يستغفرون لم يذكر أنهم يستغفرون لكل من دب ودرج على وجه الأرض ولكن ذكر أنهم يستغفرون للذين آمنوا؛ فدل على أن استغفار الملائكة للمؤمنين من ثواب إيمانهم.

وحين حكى سبحانه قوله بين أنهم لم يقولوا : اغفر لكل مصر على ذنبه ، أو مجاهر بمعصية ربه . بل بين أنهم يقولون:﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ .

فقد أثنوا على الله تعالى بسعة الرحمة والعلم ، وسألوه أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله : أي سلكوا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين :

ولا جرم أن الله تعالى وعد أن يغفر لهؤلاء جميعاً .

فالملائكة الكرام لا يسألون ربهم إلا تصديق وعده ، بدليل قوله تعالى: ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾

وحين طلبوا ذلك لمن يتصل بهم من أولي قرباهم ، لم يطلبوه لكل قريب ولو خب في الإثم ووضع ، ولو تمرغ في حمأة الفساد بل طلبوه لمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . فهم لم يطلبوا المغفرة إلا لأهل الصلاح .

فلولا أنهم مؤمنون ، وأنهم تابوا واتبعوا سبيل الله ، ولولا أن آباءهم وأزواجهم وذرياتهم صالحون ما استغفرت لهم الملائكة .

إذاً لا يكون استغفار الملائكة إلا ثواباً لإيمانهم وتوبتهم واتباعهم سبيل الله .

وإذاً فهم ينتفعون بإيمانهم وتوبتهم واتباعهم سبيل الله أي أنهم منتفعون بسعيهم وكسبهم وعملهم .

فكيف يقال : ان هؤلاء منتفعون بعمل غيرهم ؟

ثم قال رحمه الله:

ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه والحج والصوم وبالعتق بنص السنة والإجماع، وهو من عمل الغير .

ونقول : ان الصدقة التي وردت السنة بانتفاع الميت بها هي ما يقوم بأدائها ولده من بعده ومثلها العتق والحج والصوم ، وقد أسلفنا أن ولد الميت من كسبه بنص الحديث الشريف وقد بينا أن كل ما يعمله الولد نيابة عن والديه من الصدقة والحج فإنه لهما وينتفعان به ، وذلك من فضل الله ورحمته فليس للوالدين إلا ما سعيا بنفسهما أو بولدهما الذي ينوب عنهما وهو كسبهما .

قال ابن تيمية : إن المدين الذي امتنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة وقضى دين الآخر علي بن أبي طالب ، وانتفع بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير.

ونقول : إن المدين الذي مات وعليه دين يقضي دينه مما ترك ، إذ لا تركة إلا بعد وفاء الديون ، فإن لم يكن له مال أصبح دينه في ذمة ورثته يجب عليهم أداؤه وهذا المدين إن كان قد استدان وفي نيته أداء الدين ولكن الموت أعجله عن الوفاء فلم يتح له الوفاء حتى مات ، فلا إثم عليه . إذ لم يكن عدم الوفاء بتقصير منه ، ولا بسبق نية وإصرار .

وإن كان قد استدان وهو عازم على ألا يوفي ، فإن نية السوء هذه تلازمه منذ وصل مال الدائن إلى يده حتى لقي حتفه ، وهو مؤاخذ بها ومسؤول عنها ولا يخليه من تبعتها أن الدين قد أداه عنه غيره ، لأنه ليس مسؤولاً عن الدين فقط ، بل عن نية الغدر والإتلاف أيضاً ، فلا يغني عنه أن غيره أدى عنه الدين .

ولكن الله تعالى لا يرضى أن تضيع الحقوق ، فجعل الدين في ذمة الورثة يدفعونها إلى الدائن إن كانوا موسرين ، فإن كانوا معسرين ﴿ فنظرة إلى ميسرة ﴾ وقد شدد الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم في أداء الدين ، حتى لقد كان لا يصلي على المدين إذا مات ولم يخلف ما يقضي به دينه ليحمل جماعة المسلمين على أن يتضامنوا في أداء دينه حتى يظفر بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم على جنازته .

والشريعة الإسلامية سنت مبدأ التضامن الاجتماعي ، والتكافل القومي وجعلت مال الشخص في يده يتصرف فيه بالمعروف كيف يشاء ، مالم تكن بجماعة المسلمين حاجة ماسة إليه فإذا مست إليه حاجتهم فهو مالهم جميعاً قال تعالى :﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض

بالباطل .

ولكنه أضاف الأموال إليهم جميعاً ليعلم كل فرد أن المال الذي في يده هو مال الأمة ، وأن أموال الأفراد تكون الثروة العامة للأمة ، فأبو قتادة حين دفع دين الميت المدين لم يزد على أن تصدق على ورثته بما يؤدي دينه ، فإن كان هناك ثواب يرجى ، وأجر يمنح ، فهو لهذا المتصدق ولا شيء منه للميت إذ لا سعي له ولا عمل ، وإن كان الميت سيء القصد ، فاسد النية مات وهو مصر على عدم الوفاء ، فإنّ وفاء أبي قتادة لا يغني عنه شيئاً .

فبطل القول بأن في هذا انتفاع الميت بعمل غيره وثبت أن ليس للإنسان إلا ما سعى ولا يظلم ربك أحداً .

قال ابن تيمية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده ؛ ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه ؟ قد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير .

نقول : بل حصل له فضل الجماعة بنيته إذ لو بقي على نية الصلاة فذاً لم يحصل له فضل الجماعة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى» ولو خرج من بيته يريد أن يصلي في المسجد في جماعة ، فلم يجد أحداً واضطر أن يصلي منفرداً لكان له أجر نيته ، ولو اكتظ المسجد بالمسلمين وصلوا كلهم أفذاذاً لم يكن لأحد منهم فضل الجماعة .

وإذاً لا يكسب فضل الجماعة إلا بالنية ، ونية الرجل من كسبه وسعيه وعمله فلا يصح أن يقال : أن هذا حصل له فضل الجماعة بعمل غيره ﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ .

ثم قال ابن تيمية : الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحي عليه ، وهو عمل غيره .

ونقول : كلا بل انتفاعه بعمل نفسه ، فلولا أنه من زمرة المسلمين ما

فرض الله على المسلمين الصلاة عليه ، فصلاة المسلمين عليه ودعاؤهم له من ثواب إيمانه ، وإيمانه من كسبه كما تقدم ، فلو لم يكن مؤمناً ما صلى عليه المؤمنون ، ولا دعوا له .

* * *

ويظهر أن الإمام ابن تيمية قد رجع عن كل ما قاله هنا ، فقد قال في بعض فتاويه (فلم يكن من عادة السلف إذا صلوا أو صاموا أو حجوا تطوعاً أو قرأوا القرآن أن يهدوا ثواب ذلك للموتى) انظر مختصر الفتاوى لابن تيمية ص (١٧١)

ويقول : لم يكن من عادة السلف إهداء ذلك الى موتى المسلمين بل كانوا يدعون لهم فلا ينبغي الخروج عنهم - انظر تفسير المنار (ص ٢٦ جـ ٨) .

فصل

في قراءة القرآن على الموتى

إذا كان العلامة (أبو الوفاء محمد درويش) قد قوم الخطأ الذي سقط فيه الإمام ابن تيمية في البحث السابق فقد سبقه المرحوم صاحب المنار الى تقويم الخطأ الذي تورط فيه العلامة ابن القيم ، فقد أطال ابن القيم في جواز قراءة القرآن للموتى قياساً على الصدقة والدعاء . . الخ .

وكان هذا التقويم من هذين الشيخين آية جديدة على ما أوتيا من شجاعة أدبية ؛ وأن حبهما للإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لم يمنعهما من الرد عليهما وآية جديدة على أن العصمة لله وحده .

وقد أطال صاحب المنار في تفنيد أدلة جواز قراءة القرآن للموتى (وقد تقدم هنا) وختم هذا البحث القيم بقوله :

وإذ قد علمت أن حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح وإن أريد به من حضرهم الموت ، وانه لم يصح في هذا الباب حديث قط ، كما قال المحقق الدارقطني فاعلم أن ما اشتهر وعم البدو والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف فهو من البدع المخالفة لما تقدم من النصوص القطعية ، ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء وبإقرارهم له ثم بمجاراة العامة عليه من قبيل السنن المؤكدة أو الفرائض المحتمة .

وخلاصة القول: أن المسألة من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح ؛ وقد علمنا أن القاعدة المقررة في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة أن الناس لا يجزون في الآخرة إلا بأعمالهم (٨٢ : ١٩) ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ (٣١ ـ ٢٢) ﴿ واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ وأن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ أقرب أهل

عشيرته إليه بأمر ربه أن: « اعملوا لا أغنى عنكم من الله شيئاً » فقال ذلك لعمه وعمته ولابنته سيدة النساء وأن مدار النجاة في الآخرة على تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح .

والثواب ما يثوب ويرجع إلى العامل من تأثير عمله في نفسه ـ الخ ما تقدم شرحه مع التذكير بالآيات الكثيرة والأحاديث فيه ، وكل ذلك من الأخبار وقواعد العقائد فلا يدخلها النسخ .

وورد مع ذلك الأمر بالدعاء لأحياء المؤمنين وأمواتهم في صلاة الجنازة وفي غيرها ، فالدعاء عبادة ثوابها لفاعلها سواء استجيب أم لا ، ويستحيل شرعاً وعقلاً استجابة كل دعاء لتناقض الأدعية ولاقتضاء الاستجابة ألا يعاقب فاسق ولا مجرم إلا إذا اتفق وجود أحد لا يدعو له أحد برحمة ولا مغفرة في صلاة ولا غيرها ، ولما يترتب على ذلك من تعطيل كثير من النصوص أو عدم صدقها .

وورد في الأخبار جواز صدقة الأولاد عن الوالدين ودعائهم لهما وقضاء ما وجب عليهما من صيام أو صدقة أو نسك ، وقد بينا حكمته مع النصوص فيه ، والظاهر من هذا أن الوالدين ينتفعان ببعض عمل أولادهما لأن الشارع ألحقهم بهما ، فيسقط عنهما ما ينوبان عنهما فيه من أداء دين الله تعالى كديون الناس .

فمن أراد أن يتبع الهدى ، ويتقي جعل الدين تابعاً للهوى ، فليقف عند النصوص الصحيحة ؛ ويتبع فيها سيرة السلف الصالح ويعرض عن أقيسة بعض الخلف المروجة للبدع ؛ وإذا زين لك الشيطان أنه يمكنك أن تكون أهدى وأكمل عملاً بالدين من الصحابة والتابعين فحاسب نفسك على الفرائض والفضائل المجمع عليها والصحيحة التي يضعف الخلاف فيها .

وانظر أين مكانك منها فإن رأيت ولو بعين العجب والغرور أنك بلغت مد أحدهم أو نصيفه من الكمال فيها ، فعند ذلك تعذر في الزيادة عليها ،

وهيهات هيهات لا يدعي ذلك إلا جهول مفتون ، أو من به مس من الجنون وأن أكثر المتعبدين بالبدع ؛ مقصرون في أداء الفرائض أو في المواظبة على السنن ، ومنهم المصرون على الفواحش والمنكرات ؛ كإصرارهم على ما التزموا في المقابر من العادات ، كاتخاذها أعياداً تشد إليها الرحال ، ويجتمع لديها النساء والرجال والأطفال ؛ ولا سيما في ليلتي العيدين وأول جمعة من رجب ، وتذبح عندها الذبائح ؛ وتطبخ أنواع المآكل ؛ فيأكلون ثم يشربون ، ويبولون ويغوطون ويلغون ويصخبون ويقرأ لهم القرآن من يستأجرون لذلك من العميان ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .[1]

(١) والحمد لله فقد تم بفضل الله ثم بجهود المخلصين بمنع بعض البدع في بعض الأقطار الاسلامية ونسأل الله سبحانه وتعالى ان يكلل هذه الخطوات لإنهاء هذه الشواذات انه سميع مجيب .

فصل

هل يتأذى الأموات بعمل الأحياء

قدمنا لك الأدلة الكافية في عدم انتفاع الأموات بعمل الخير من الأحياء، فما القول في الموضوع إذا انعكس الأمر؟ هل يتأذى الميت إذا صدر من الحي ما حرمه الله ورسوله؟ ليس في هذا إلا قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه» رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر والمراد به النياحة كما صرح به في بعض الروايات عنه وعن أبيه وورد التصريح بعدم المؤاخذة بالبكاء المجرد وقد أوله بعضهم بأنه يعذب بما نيح عليه إذا أوصى أهله به وكان ممن يرْضى به، ويحتمل أن يكون المراد بتعذيب الميت بنواح الحي عليه أنه يشعر ببكائه فيؤلمه ذلك لا أن الله تعالى يعذبه به ويؤاخذه عليه والله أعلم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال: توفيت أم عمرو بنت أبان بن عثمان فحضرت الجنازة فسمع ابن عمر بكاء فقال: ألا تنهى هؤلاء عن البكاء فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الميت يعذب ببكاء الحي عليه» فأتيت عائشة فذكرت لها ذلك. فقالت: «والله إنك لتخبرني عن غير كاذب ولا متهم ولكن السمع يخطىء وفي القرآن ما يكفيكم: (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

وقال الشيخ محمد عبدالسلام في رسالته: (القراءة للأموات) ما نصه:

وبعد فقد سألنا أخ لنا في الله تعالى عن قراءة القرآن: هل يصل ثوابها للموتى؟ فأجبناه بما يأتي:

أخرج أبو داود في سننه: «أنه صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت فإنه الآن

يسأل»[١] حديث حسن وأخرج أيضاً أبو داود وغيره باسناد حسن: أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع الميت في لحده قال: «بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله».

فليس في هذه الأحاديث أنه قرأ سورة لا هو ولا أحد أصحابه على القبر كما يفعل ذلك القراء الآن .

وكذا رواية مسلم عن أبي هريرة قال زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور ، فانها تذكر الموت ـ وفي رواية ـ فان فيها عبرة ، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة »[٢] .

فظهر أن المعروف عنه صلى الله عليه وسلم إنما هو الاستغفار لا تلاوة القرآن . وهذا هو المنقول والمعقول أما تلاوة القرآن التي هي أحكام الدين وآدابه وحلاله وحرامه ، فلا يمكن أن يفيد الميت شيئاً قط . والقرآن والسنة الثابتة معنا على ذلك .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي أن بريدة الأسلمي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم فرطنا[٣] ونحن لكم تبع ، ونسأل الله لنا ولكم العافية »[٤] وليس في هذا الحديث أيضاً سوى التسليم على أهل المقابر وطلب العافية لهم من الله ، وليس فيه ما يشم منه رائحة إباحة تلاوة القرآن للأموات .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله

(١) صحيح الجامع/ ٩٥٦ .
(٢) احمد ٤٤١/٢ .
(٣) فرطنا أي سبقتمونا .
(٤) صحيح الجامع/ ٣٥٩٢ بطولة .

عليه وسلم كلما كانت ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقع فيقـول: « السلام عليكم دار قـوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد »[1] وهذا ليس فيه سوى طلب المغفرة لأهل الجبانة فلم يقرأ قرآنا .

(١) مقبرة بالمدينة .

فصل

(فيما ينتفع به الإنسان بعد موته)

نعم ينتفع الميت بكل ما قررته شريعة الاسلام في كتاب الله وهدي رسوله فقد ورد في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذ مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له[1]».

وينتفع الميت بما ورد في حديث: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علماً نشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومصحفاً ورثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه بعد موته » رواه ابن ماجة وابن خزيمة .

وينتفع الميت بعد موته بسنة حسنة سنها فعمل بها من بعده كما روى مسلم في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء - وفي رواية - من سن سنة حسنة فله أجرها ما عمل بها في حياته وبعد مماته حتى تترك »[2] .

وينتفع الميت بالصدقة عنه كما روى البخاري: «أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أمي توفيت أينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال نعم »[3]

وفي المسند والسنن عن سعد بن عبادة (رض) أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأي الصدقة أفضل ؟ قال « الماء » فحفر بئرا وقال: هذا لأم سعد، فسقي الماء من الصدقات التي ينتفع بها الميت من ولده».

---

(١) صحيح الجامع/ ٦١٨١ و٦١٨٢ .

(٢) صحيح الجامع/ ٨٠٥ .

(٣) صحيح الجامع/ ٦٨٢ .

وأخرج مسلم أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن أبي ترك مالاً ولم يوص فهل يكفي أن أتصدق عنه؟ قال نعم».

وينتفع الميت بدعاء المسلمين واستغفارهم له لقوله تعالى: ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ وفي السنن مرفوعاً: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

هذا هو الوارد في هذا الباب مما ينفع الأموات بسعي الأحياء وليس فيها دليل واحد يستأنس به أو يشم منه رائحة جواز قراءة القرآن للموتى أو سورة مخصوصة كسورة (يس) أو غيرها أو عمل عتاقة بسورة الإخلاص مائة ألف مرة أو سبحه بلا إله إلا الله ألف مرة وسنسرد عليك هنا إن شاء الله أقوال المفسرين والمحدثين والأصوليين وأئمة المذاهب المعروفة مما يدلك دلالة واضحة على أن كل ما عليه الناس في مآتمهم وعلى قبورهم لا يتفق وشرائع الإسلام وهدي الرسول عليه السلام .

أقوال المفسرين

تفسير الامام ابن كثير :

قال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فانما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد كما قال: ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه .

قال : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم اليه بنص ولا إيماء ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولو كان خيراً لسبقوا إليه وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء : فأما الدعاء والصدقة فذلك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به». فهذه الثلاثة في الحقيقة من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث: « أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وأن ولده من كسبه »[1] والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس هو أيضاً من سعيه

(١) احمد ٣٦/١ .

وعمله . وثبت في الصحيح :« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»[١]. أ هـ .

تفسير الإمام الشوكاني :

قال رحمه الله عند قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ والمعنى ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله ولا ينفع أحداً عمل أحد وهذا العموم مخصص بمثل قوله سبحانه ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ونحو ذلك .

ولم يصب من قال : أن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لا ينسخ العام بل يخصصه فكل ما قام الدليل على أن الانسان ينتفع به وهو من غير سعيه كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم أ هـ .

تفسير الإمام الخازن .

قال رحمه الله عند هذه الآية :﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ بعد أن قدم النصوص الدالة على جواز الدعاء والصدقة والحج عن الميت : والمشهور من مذهب الشافعي أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها ، وقال جماعة من أصحابه: يصله ثوابها ، وبه قال أحمد . وأما الصلوات فلا يصله عند الشافعي والجمهور أ هـ .

تفسير المنار :

قال رحمه الله في تفسيره عند آية :﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ في آخر سورة الأنعام بعد بحث طويل قال ما حاصله: إن كل ما جرت به العادة من قراءة القرآن والأذكار وإهداء ثوابها إلى الأموات واستئجار القُراء وحبس الأوقاف على ذلك بدعٌ غير مشروعة ، ومثلها ما يسمونه إسقاط الصلاة ولو كان لها أصل في الدين لما جهلها السلف ولو

---

(١) صحيح الجامع/ ٦١١٠ .

علموها لما أهملوا العمل بها .

وقال أيضاً : وإن حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح وإن أريد به من حضرهم الموت . وأنه لم يصح في هذا الباب حديث قط كما قال بذلك المحدث الدارقطني .

واعلم أن ما اشتهر وعم البدو والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف ، فهو من البدع المخالفة لما تقدم من النصوص القطعية ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء وباقرارهم له ، ثم بمجاراة العامة عليه من قبيل السنن المؤكدة أو الفرائض المحتمة .

قال : وخلاصة القول أن المسألة من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح .

قد علمنا أن القاعدة المقررة في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة أن الناس لا يجزون في الآخرة إلا بأعمالهم:﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ وقال تعالى:﴿ واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ وإن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ أقرب أهل عشيرته إليه بأمر ربه:« أن اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئاً » وإن مدار النجاة في الآخرة على تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح أ هـ .

ونقل السيد رشيد رضا عن الحافظ بن حجر أنه سئل عمن قرأ شيئاً من القرآن وقال في دعائه : اللهم اجعل ثواب ما قرأته زيادة في شرف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فأجاب بقوله : هذا مخترع من متأخري القراء لا أعرف لهم سلفاً أ هـ .

« نقول » إن كثيراً من المتمشيخين الذين لم يفهموا معنى آية من الكتاب العزيز ولم يفهموا معنى الآية ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ ولا معنى الحديث

الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1] وحديث: «وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[2] هؤلاء هم الذين يتـأكلون بالقرآن فحسابهم على الله .

(١) أحمد ٦/١٤٦ .
(٢) أحمد ٤/١٢٦ .

أقوال أئمة الحديث

قال الإمام النووي في شرح مسلم في باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه : عند حديث عائشة أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال نعـم » وفي هذا الحديث أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصل ثوابها . وهو كذلك بإجماع العلماء وكذا أجمعوا على وصول الدعاء وقضاء الدين بالنصوص الواردة في الجميع ، ويصح الحج عن الميت والصوم للأحاديث الصحيحة فيه والمشهور من مذهبنا أن قراءة القرآن لا يصله ثوابها أ هـ .

وقال الإمام الصنعاني في كتاب سبل السلام عند حديث ابن عباس قال : « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: « السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر »[1] رواه الترمذي بإسناد حسن .

قال : في الحديث دليل على أن الإنسان إذا دعا لأحد أو استغفر يبدأ بالدعاء لنفسه والاستغفار لها ، وعليه وردت الأدعية القرآنية ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ ﴿ فاستغفر لذنبك وللمؤمنين ﴾ وفيه أن هذه الأدعية ونحوها نافعة للميت بلا خلاف . وأما غيرها من قراءة القرآن له : فالشافعي يقول : لا يصل ذلك إليه .

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله في شرح المنتقى :

والمشهور من مذهب الشافعي وجماعة من أصحابه أنه لا يصل إلى الميت ثواب قراءة القرآن .

ونقول: أن مما يدل دلالة واضحة على أن القرآن لا ينفع الموتى ولا يتلى

(١) ضعيف الجامع/ ١١٦٧ .

على قبورهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البيهقي بلفظ: « اقرؤا سورة البقرة في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً » وأيضاً « صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً »[1] رواه الترمذي والنسائي وأبو يعلي والضياء المقدسي ، وصححه السيوطي في الصغير فلو كان القرآن يتلى لنفع الأموات ويقرأ على قبورهم لما قال النبي ـ الذي هو ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ـ اقرأوا وصلوا في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً . وإنما قال هذا لأن القبور ليست محلاً لقراءة القرآن ولا للصلاة ، ولهذا لم يرد حديث واحد بسند صحيح ولا ضعيف مقبول أنه صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن ولا شيئاً منه مرة واحدة في حياته كلها مع كثرة زيارته للقبور وتعليمه للناس كيفية زيارتها .

(١) صحيح الجامع/ ٣٦٧٨ . .

أقوال أئمة المذاهب الأربعة

مذهب أبي حنيفة :

قال في كتاب الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان للإمام ملا على القارىء الحنفي (ص ١١٠): ثم القراءة عند القبور مكروهة عند أبي حنيفة ومالك وأحمد رحمهم الله في رواية لأنه محدث لم ترد به السنة .أ هـ . وكذلك قال شارح الإحياء (ج ٣ ص ٢٨٠) .

مذهب الشافعي :

استدل الإمام الشافعي على عدم وصول ثواب القراءة بآية: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وبحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله ، الخ» وقال النووي في شرح هذا الحديث : وأما قراءة القرآن وجعل ثوابها للميت والصلاة عنه ونحوها فذهب الشافعي والجمهور أنها لا تلحق الميت. أ هـ، وكرر ذلك في عدة مواضع من شرح مسلم .

وقال : وفي شرح المنهاج لابن النحوي: لا يصل إلى الميت عندنا ثواب القراءة على المشهور أ هـ .

وسئل العز بن عبدالسلام عن ثواب القراءة المهدى للميت هل يصل أو لا؟ فأجاب بقوله: ثواب القراءة مقصور على القارىء ولا يصل إلى غيره قال : والعجب من الناس من يثبت ذلك بالمنامات وليست المنامات من الحجج .

مذهب المالكية :

قال الشيخ ابن أبي جمرة : إن القراءة عند المقابر بدعة وليست بسنة . كذا في المدخل وقال الشيخ الدردير في كتابه الشرح الصغير (ج ١ ص ١٨٠) وكره قراءة شيء من القرآن عند الموت وبعده وعلى القبور لأنه ليس من عمل

السلف وإنما كان من شأنهم الدعاء بالمغفرة والرحمة والاتعاظ أ هـ .وكذلك في حاشية العلامة العدوي على شرح أبي الحسن .

مذهب الحنابلة .

قال الإمام أحمد لمن يراه يقرأ على القبر : يا هذا إن قراءة القرآن على القبر بدعة . وقال الإمام ابن تيمية . ونقل الجماعة عن أحمد كراهة القرآن على القبور ، وهو قول جمهور السلف وعليه قدماء أصحابه وقال أيضاً : والقراءة على الميت بعد موته بدعة بخلاف قراءة (يس) على المحتضر فإنها تستحب .

وقال : ولم يكن من عادة السلف إذا صلوا تطوعاً أو صاموا تطوعاً أو حجوا تطوعاً أو قرأوا القرآن يهدون ثواب ذلك إلى موتى المسلمين ، فلا ينبغي العدول عن طريق السلف .

وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (ج١ ص١٤٦): ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم أن يجتمع للعزاء ويقرأ له القرآن لا عند قبره ولا غيره . وكل هذا بدعة حادثة مكروهة .

وأما حديث: ﴿اقرأوا على موتاكم يس﴾ فهو حديث معلول مضطرب الإسناد مجهول السند . وعلى فرض صحته فلا دلالة فيه قطعاً ، فإن المراد من قوله (موتاكم) أي من حضره مقدمات الموت حيث يكون ضعيف البنية ساقط الأعضاء ، قد أقبل على الله بكلية فيقرأ عليه ما يزداد به قوة قلب ، فهذا قطعاً من عمله في حياته . وخصت (يس) بهذه الحالة لما فيها من ذكر الله وتوحيده وتبشيره بما أعده لعباده الصالحين . فهذه المعاني كلها تجدها في سورة يس . وهذا ملخص ما قاله الفخر الرازي . والعلامة العزيزي على الجامع الصغير في شرحه لهذا الحديث .

وقال الفيروزبادي : قراءة القرآن بدعة ومكروه .

كلام علماء الأصول :

قال صاحب كتاب طريق الوصول إلى إبطال البدع بعلم الأصول بعد ما ذكر قاعدة أصولية نفيسة ما نصه : من هذه القاعدة الجليلة تعلم أن أكثر ما تفعله العامة من البدع المذمومة ولنذكر لك أمثلة :

الأول : قراءة القرآن على القبور رحمة بالميت ، تركه النبي صلى الله عليه وسلم وتركه الصحابة مع قيام المقتضى للفعل ، والشفقة للميت وعدم المانع منه ، فبمقتضى القاعدة المذكورة يكون تركه هو السنة وفعله بدعة مذمومة ، وكيف يعقل أن يترك الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً نافعاً لأمته يعود عليها بالرحمة ويتركه الرسول صلى الله عليه وسلم طول حياته ولا يقرأه على ميت مرة واحدة ؟

الثاني : قراءة الصمدية بعدد معلوم أو الجلالة بعدد معلوم . القرآن في ذاته عبادة لقارئه يتقرب بقراءته وبسماعه إلى الله تعالى ولا ينازع في ذلك أحد ، إنما النزاع في قراءته للميت ليكون عتقاً لرقبته من النار .

مع العلم بأن القرآن ما نزل للأموات وإنما نزل للأحياء نزل ليكون تبشيراً للمطيع وإنذاراً للعاصي ، نزل لنهذب به نفوسنا ونصلح به شؤوننا ، أنزل الله القرآن كغيره من الكتب السماوية ليعمل على طريقه العاملون ، ويهتدي بهديه المهتدون ، قال جل شأنه:﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ .

فهل سمعتم أن كتاباً من الكتب السماوية قرىء على الأموات أو أخذت عليه الأجور والصدقات ؟ ويقول الله خطابا لنبيه ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

أكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على أصحابه عدداً معلوماً من

الصمدية أو عدداً معلوماً من الجلالة ليكون ذلك عتقاً لرقبتهم ، وإنقاذاً لهم من النار ؟ مع العلم بأن من ليس بمعصوم في حاجة إلى تكفير السيئآت ورفع الدرجات ، أم كانت سنته أن يدفن الرجل من أصحابه ويذهب كل إلى عمله ليس له إلا ما قدم ؟ هذه كانت سنته وهذه طريقته والله تعالى يقول:﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ فلنتأس به في الفعل ، كما نتأسى به في الترك أ هـ. كلام صاحب طريق الوصول .

فصل في أشياء تتعلق بذلك

وأما ما يروى عن ابن عمر أنه أوصى بقراءة الفاتحة وخواتيم البقرة على قبره ، فهو أثر شاذ لم يصح سنده ، ولم يوافقه عليه أحد من الصحابة ، وكذلك ما يروى من قراءة الفاتحة والصمدية والمعوذتين وألهاكم والكافرون وإهدائها لأهل المقابر فباطل لمخالفتها لأقوال النبي وأفعاله وأقوال وأفعال أصحابه .

- **ومن البدع** : قراءة القرآن في الشوارع والطرقات وعلى أبواب الأضرحة للتعيش والارتزاق ، إذ في ذلك تسول فاحش بالقرآن فهو امتهان للقرآن ، والتسول يحرمه الدين الإسلامي تحريماً باتاً ، وهو بالقرآن أشد تحريماً ولكن يجب على العلماء أن يفهموا الحكومة والأغنياء أنه فرض عليهم أن ينفقوا على هؤلاء العميان وأن يستخدموهم في أي عمل كصناعة الزنابيل وخيزران الكراسي وما يليق بهم من الصناعات .

- **ومن البدع** : نصب السرادقات (الصواوين) يوم وفاة الميت وعمل السبحة التي هي عبارة عن التهليل ألف مرة من المعزين ، ويهبون ثوابها للميت وأصلها منام رآه بعض المتمشيخين فأذاعه بين إخوانه الجهلاء فاتخذوها سنة ثم حديث من قرأ: قل هو الله أحد ألف مرة فقد اشترى نفسه من النار ، موضوع وفيه مجاشع الكذاب .

- **ومن البدع** : والمنكر أنهم يجددون الحزن كل خميس بعد وفاة الميت إلى يوم الأربعين أو إلى أول عيد له ، ويعملون السرادقات ويحضرون القراء وينتظرون مجيء الناس إليهم للتعزية ، وقد روى الإمام أحمد وابن ماجة بإسناد صحيح عن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : « كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة » وقال الشافعي : يكره الجلوس للتعزية . وقال الأوزاعي مثله . وقال الإمام أحمد: وهو من فعل الجاهلية وأنكره .

- **ومن البدع** : ذهاب النساء والرجال إلى المقابر في الأعياد والجمع ومعهم القرص والبلح لتوزيعها على القراء وغيرهم ، ومن عيوب القراء أنهم يقولون للجالسات على القبر : أقرأ سورة هنا يا ست ثم يتشاجر معها بعد القراءة لقلة ما تعطيه ، وهذا قبيح جداً يحط من كرامة القراء ورجولتهم . وعلاج ذلك أن تمنع الحكومة في شدة وحزم هذه المهازل قبل وقوعها فلا تسمح للنساء بالخروج إلى المقابر وتجري على هؤلاء القـراء ما يغنيهم عن ذلك ، كما يجب على العلماء أن يذكروا وينكروا ذلك العمل عند كل مناسبة .

- **ومن البدع** : تسهير القراء في شهر رمضان إذ لم يكن هذا من فعل السلف الصالح ولا هو من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وليس في الكتب الصحيحة بل ولا غيرها ما يدل على جواز ذلك . وإنما المطلوب شرعاً أن نتدارس القرآن كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم: «كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله»[1] رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

- **ومن البدع** : قراءة سورة ياسين ٤٠ مرة بقصد إهلاك شخص أو إضرار طائفة وغاب عن هؤلاء أن الله أنزل القرآن شفاء ورحمة وأرسل الرسول رحمة للعالمين ، وما أنزل الله علينا القرآن لنشقى ، وهذا من الجهلاء شنيع ، لكنه من أهل العلم أشنع وأفظع ، ولكن ضللهم هؤلاء بقولهم خذ من القرآن ما شئت لما شئت « ويس » لما قرأت له . وكلاهما باطل لا أصل له .

- **ومن البدع** : قراءة سورة الكهف بالمساجد عـلى الهيئة المعـروفة ، والسنة أن يقرأها يوم الجمعة كل مسلم ومسلمة لحديث: «من قـرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتيـن » وفـي رواية: « أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق » وهذان الحديثان ضعيفان وهما يفيدان أن الكل مطلوب منه قراءة سورة الكهف ولكن التشويش بها من

---

(١) صحيح الجامع ٦٣٤٦ و٦٣٤٧ .

قارىء واحد ممنوع شرعاً وعقلاً وفي الحديث: «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن» رواه مالك في الموطأ وأبو داود في سننه .

وروى الإمام أحمد ومسلم والنسائي مرفوعاً: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» .

- **ومن البدع** : قراءة سورة تبارك جماعة على صوت واحد كما يفعل ذلك جماعة الخلوتية وغيرهم ، أما السورة نفسها فقراءتها سنة: «إن سورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهي تبارك الذي بيده الملك»[1] رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان .

- **ومن البدع** : قراءة سورة الفاتحة لروح النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الظهر وقراءتها بعد صلاة العصر لروح عمر وبعد صلاة المغرب لروح عثمان وبعد صلاة العشاء لروح علي ويعتقدون أنهم بهذا يحضرونهم عند تغسيلهم بعد الموت أو عند سؤال القبر ، وتلك بدع وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان .

- **ومن البدع** : قول بعض المصلين عقب التسليم من صلاة الجمعة فوراً (الفاتحة لسيدي الحسين) أو يقول: «للسيد البدوي) أو(الفاتحة على هذه النية) وهذا جهل قبيح ، ولكن لماذا يقره العلماء ويسكتون عليه ؟ الحق أن الكل أجمع على ترك أوامر الدين ولا قوة إلا بالله .

- **ومن البدع** : تعليق المصحف على الصغير أو الكبير كحجاب أو للنظرة . وكذا من البدع كتابة شيء من القرآن لهذا الغرض والمشروع قراءة آية الكرسي عند النوم أو المعوذتين أو قراءة الأدعية الواردة في السنة لهذا فليعلم .

- **ومن البدع** : تعليق سورة (ألم نشرح) في ورقة على الدكاكين لجلب

---

(١) صحيح الجامع ٦٢٧٧ .

الزبون ، والمطلوب حسن المعاملة وحسن الخلق والصدق وعدم رفع الأسعار فإن هذا حقاً يجلب الزبون ، وقد نهى الاسلام عن التعليق حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من علق فقد أشرك»[1]

- ومن البدع : أنهم عندما يمرون بقبر أو تابوت أو قبة يتجهون إلى القبلة رافعين أيديهم إلى السماء قائلين: الفاتحة لصاحب هذا المقام ويكثرون من الدعاء ثم يمسحون وجوههم بأيديهم قائلين: راعنا يا سيدي راعنا سقت عليك النبي ، وهذا منهم بدعة وجهل وضلال ، وهذه كبدعة زائري القبور فإنهم أيضاً يقولون: الفاتحة لروح أمواتنا وأموات المسلمين كافة عامة ، ثم يقول يا حي يا قيوم ويقرأ الفاتحة .

(تم الملحق)

---

(١) روى بمعناه ضعيف الجامع ٥٧١٥ وصحيح الجامع ٦٥٧٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصافات

﴿ هي مائة واثنتان وثمانون آية وهي مكية ﴾

قال القرطبي: في قول الجميع. قال ابن عباس: نزلت بمكة وعن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات» أخرجه النسائي والبيهقي في سننه.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ يس والصافات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤله» أخرجه ابن أبي داود في فضائل القرآن وابن النجار في تاريخه.

وعنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله ملوك حضرموت عند قدومهم عليه أن يقرأ عليهم شيئاً مما أنزل إليه قرأ: والصافات صفاً، حتى بلغ رب المشارق والمغارب» الحديث أخرجه أبو نعيم في الدلائل والسلفي في الطيوريات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ ﴾

﴿ والصافات صفاً ﴾ الواو للقسم ، والمقسم به الملائكة ، والمراد بالصافات التي تصف في السماء من الملائكة كصفوف الخلق في الدنيا قاله ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قالوا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف[1] » ، أخرجه أبو داود .

وقيل : إنها تصف أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله بما يريد ، وقال الحسن: صفاً كصفوفهم عند ربهم في صلاتهم ، وقيل: المراد بالصافات هنا الطير كما في قوله : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ والأولى ، هو الأول والصف ترتيب الجمع على خط كما يصف في الصلاة ، وقيل : الصافات جماعة الناس المؤمنين إذا قاموا صفاً في الصلاة وفي الجهاد ذكره القشيري :

﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ أي الفاعلات للزجر من الملائكة إما لأنها تزجر السحاب كما قال السدي ، وإما لأنها تزجر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح ، وقال قتادة : المراد بالزاجرات الزواجر من القرآن ، وهي كل ما ينهي ويزجر

(١) صحيح الجامع/ ٢٦٤٥ .

عن القبيح والأول أولى ، وانتصاب صفاً وزجراً على المصدرية لتأكيد ما قبلهما وقيل: المراد بالزاجرات العلماء لأنهم هم الذين يزجرون أهل المعاصي عن المعاصي والزجر في الأصل الدفع بقوة ، وهو هنا قوة التصويت ومنه زجرت الإبل والغنم إذا أفزعتها بصوتك .

﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ أي الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدي ، وقيل: المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع تعظيماً له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة ، وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله وكتبه ، وقيل: المراد آيات القرآن ووصفها بالتلاوة وإن كانت متلوة ، كما في قوله : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل ﴾ وقيل: لأن بعضها يتلو بعضاً ويتبعه .

وذكر الماوردي: أن التاليات هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم ؛ وانتصاب ذكراً على أنه مفعول به ، ويجوز أن يكون مصدراً كما قبله ،قيل: وهذه الفاء في قوله: فالزاجرات فالتاليات إما لترتيب الصفات أنفسها في الوجود ، أو لترتيب موصوفاتها في الفضل ؛ وفي الكل نظر .

﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ جواب القسم أي: أقسم الله بهذه الأقسام أنه واحد ليس له شريك وأجاز الكسائي فتح إن الواقعة في جواب القسم وإنما أقسم بهذه الأشياء للتنبيه على شرف ذواتها وكمال مراتبها ، والرد على عبدة الأصنام في قولهم ، وللتأكيد لما تقدم لا سيما والقرآن أنزل بلغة العرب ، وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عندهم ، قال ابن الأنباري : الوقف على (لواحد) وقف حسن ثم يبتدىء .

﴿رب السموات والأرض﴾ على معنى هو ربهما، وقيل: غير ذلك، والمعنى في الآية: إن وجود هذه المخلوقات على هذا الشكل البديع من أوضح الدلائل على وجود الصانع وقدرته وأنه رب ذلك كله ، أي خالقه ومالكه ﴿ وما بينهما ﴾ أي من المخلوقات والكائنات .

﴿ ورب المشارق ﴾ أعاد الرب فيها لما فيها من غاية ظهور آثار الربوبية وتجددها كل يوم ، قيل: أراد مشارق الكواكب ، والظاهر أنها مشارق الشمس ، قيل : إن الله خلق للشمس كل يوم مشرقاً ومغرباً بعدد أيام السنة تطلع كل يوم من واحد منها ، وتغرب في واحد ، كذا قال ابن الأنباري وابن عبد البر ، وأما قوله في سورة الرحمن ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ فالمراد بالمشرقين أقصى مطلع تطلع منه الشمس في الأيام الطوال ، وأقصر يوم في الأيام القصار ، وكذلك في المغربين .

وأما ذكر المشرق والمغرب بالإفراد فالمراد بهما الجهة التي تشرق منها الشمس والجهة التي تغرب فيها ، واقتصر على المشارق اكتفاء على حد: ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ أي والمغارب للشمس ، ولم يعكس لأن شروق الشمس سابق على غروبها ، وأيضاً فالشروق أبلغ في النعمة وأكثر نفعاً من الغروب ، فذكر المشرق تنبيها على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال : ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق ﴾ .

قال الكرخي : وجمع هنا المشرق وحذف مقابله وثناه في الرحمن وجمعه في المعارج وأفرده في المزمل مع ذكر مقابله في الثلاثة لأن القرآن نزل على المعهود من أساليب كلام العرب وفنونه ، ومنها الإجمال والتفصيل والذكر والحذف والتثنية والجمع ، والإفراد باعتبارات مختلفة ، فأفرد وأجمل في المزمل أراد مشرق الصيف والشتاء ومغربهما ، وجمع وفصل في المعارج ، أراد جميع مشارق السنة ومغاربها، وهي تزيد على سبعمائة ، وثنى وفصل في الرحمن أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ، وجمع وحذف هنا أراد جميع مشارق السنة ، واقتصر عليه لدلالته على المحذوف كما مرت الإشارة إليه ، وخص ما هنا بالجمع موافقة للجموع أول السورة ، وبالحذف مناسبة للزينة إذ هي إنما تكون غالباً بالضياء والنور ، وهما ينشآن من المشرق لا من المغرب وما في الرحمن بالتثنيه موافقة للتثنيه في ﴿ يسجدان ﴾ وفي :﴿ فبأي آلاء ربكما

تكذبان ﴾ .

وبذكر المقابلين موافقة لبسط صفاته تعالى وإنعاماته ثم ، وما في المعارج بالجمع موافقة للجمع قبله وبعده ، وبذكر المقابلين موافقة لكثرة التأكيد في القسم وجوابه ، وما في المزمل بالإفراد موافقة لما قبله من إفراد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وما بعده ، من إفراد ذكر الله تعالى ، وبذكر المقابلين موافقة للحصر في قوله:لا إله إلا هو ، ولبسط أوامر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ثمة .

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ المراد بالسماء الدنيا التي تلي الأرض من الدنو وهو القرب ، فهي أقرب السموات إلى الأرض ، قرأ الجمهور بإضافة زينة إلى الكواكب والمعنى زيناها بتزيين الكواكب ، أي بحسنها وقرىء:بتنوين زينة وخفض الكواكب على أنها بدل من الزينة على أن المراد بالزينة الاسم لا المصدر ، والتقدير بعد طرح المبدل منه : إنا زينا السماء بالكواكب فإن الكواكب في أنفسها زينة عظيمة فإنها في الليلة المظلمة في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة على سطح أزرق .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بتنوين زينة ونصب الكواكب ، على أن الزينة مصدر ، وفاعله محذوف ، والتقدير بأن الله زين الكواكب بكونها مضيئة حسنة في أنفسها ، أو تكون الكواكب منصوبة بإضمار أعني ، أو بدلاً من السماء بدل اشتمال ، وقيل : المعنى بضوء الكواكب لأن الضوء والنور من أحسن الصفات وأكملها ، ولو لم تحصل هذه الكواكب في السماء لكانت شديدة الظلمة عند غروب الشمس ؛ وقيل : زينتها أشكالها المتناسبة والمختلفة في الشكل ، كشكل الجوزاء وبنات نعش ، وغيرها وقيل: غيرذلك.

﴿ وحفظاً ﴾ أي حفظناها حفظاً ، وقيل : زيناها بالكواكب للحفظ، وقيل: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً ﴿ من كل شيطان مارد ﴾ أي عات متمرد خارج عن الطاعة ، يرمي بالكواكب والشهب ، كقوله: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾

﴿ لا يسَّمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ مستأنفة لبيان حالهم بعد حفظ السماء منهم ، وقال أبو حاتم: أي لئلا يسمعوا ثم حذف أن فرفع الفعل وكذا قال الكلبي ، قال النسفي: وفيه تعسف يجب صون القرآن عن مثله ، فإن كل واحد من الحرفين غير مردود على انفراده ، ولكن اجتماعهما منكر ، والفرق بين سمعت فلاناً يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ، أن المعدى بنفسه يفيد الإدراك والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك انتهى. والملأ الأعلى أهل السماء الدنيا فما فوقها ، وسمى الكل منهم أعلى بإضافته إلى ملأ الأرض لأنهم سكان السماء ، والضمير في يسمعون للشياطين ، وقيل: إن جملة (لا يسمعون) صفة لكل شيطان .

وقيل: جواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما حالهم بعد حفظ السماء عنهم ؟ فقال : ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ قرأ الجمهور: بسكون السين وتخفيف الميم ، وقرىء بتشديدهما والأصل يتسمعون فالأولى تدل على انتفاء سماعهم دون استماعهم ، والثانية تدل على انتفائهما وفي معنى الأولى قوله تعالى : ﴿ انهم عن السمع لمعزولون ﴾ قال مجاهد: كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون ، واختار الثانية أبو عبيدة قال لأن العرب لا تكاد تقول سمعت إليه ، وتقول تسمعت إليه ، وكان ابن عباس يقرأ مخففة وقال: إنهم كانوا يتسمعون ولكن لا يسمعون .

﴿ ويقذفون من كل جانب دحوراً ﴾ أي يرمون من كل جانب من جوانب السماء ونواحيها وجهاتها بالشهب إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع ،

والدحور الطرد ، تقول : دحرته دحراً ودحوراً طردته ، قرىء يقذفون مبنياً للمفعول وللفاعل ، وهي غير مطابقة لما هو المراد من النظم القرآني ، وقيل : دحوراً أي مدحورين ، وقيل : هو جمع داحر نحو قاعد وقعود فيكون حالاً ، وقيل : إنه مصدر لمقدر أي يدحرون دحوراً .

وقال الفراء : إن المعنى يقذفون بما يدحرهم أي بدحور ثم حذفت الباء فانتصب بنزع الخافض ، قرأ الجمهور دحوراً بضم الدال ، وقرىء بفتحها ، واختلف هل كان هذا الرمي لهم بالشهب قبل المبعث أو بعده ، فقال بالأول طائفة وبالآخر آخرون ، وقالت طائفة بالجمع بين القولين إن الشياطين لم تكن ترمى قبل المبعث رمياً يقطعها عن السمع ، ولكن كانت ترمى وقتاً ولا ترمى وقتاً آخر وترمى من جانب ولا ترمى من جانب آخر ثم بعد المبعث رميت في كل وقت ومن كل جانب حتى صارت لا تقدر على استماع شيء .

﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ أي دائم لا ينقطع والمراد به العذاب في الآخرة غير العذاب الذي لهم في الدنيا من الرمي بالشهب ، وقال مقاتل : يعني دائماً إلى النفخة الأولى ، والأول أولى .

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب الدائم وقال السدي وأبو صالح والكلبي هو الموجع الذي يصل وجعه إلى القلب ، مأخوذ من الوصب أو الوصوب وهو المرض ، وقيل هو الشديد .

﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ الاستثناء هو من قوله ﴿ لا يسمعون ﴾ أو من قوله ﴿ ويقذفون ﴾ وقيل الاستثناء راجع إلى غير الوحي لقوله :﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ بل يخطف الواحد منهم خطفة مما يتفاوض فيه الملائكة ، ويدور بينهم مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض ، والخطف الاختلاس مسارقة وأخذ الشيء بسرعة ، قرأ الجمهور :خطف بفتح الخاء وكسر الطاء مخففة وقرىء بكسرهما وتشديد الطاء وهي لغة تميم بن مر وبكر بن وائل وقرىء بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة : وقرأ ابن عباس بكسرهما مع تخفيف

الطاء ، وقيل إن الاستثناء منقطع .

﴿ فأتبعه ﴾ أي لحقه وتبعه ﴿ شهاب ثاقب ﴾ أي نجم مضيء أو مستوقد فيحرقه أو يقتله ويخبله ، وربما لا يحرقه ، فيلقي إلى إخوانه ما خطفه وليست الشهب التي ترجم بها هي من الكواكب الثوابت ، بل من غير الثوابت وأصل الثقوب الإضاءة. قال الكسائي : ثقبت النار تثقب ثقابة إذا اتقدت وهذه الآية هي كقوله :

﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ ، قال ابن عباس: إذا رمى الشهاب لم يخطىء ، من رمي به ، وتلا: فأتبعه شهاب ثاقب وقال: لا يقتلون بالشهاب ولا يموتون ، ولكنها تحرق وتخبل وتجرح في غير قتل .

قال سليمان الجمل قالوا: إنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب بل يجوز أن تنفصل منها شعلة يرمي بها الشيطان والكواكب باقية بحالها ، وهذا كمثل القبس الذي يؤخذ من النار وهي على حالها ويعود الشيطان مرة أخرى مع أنه يعلم أنه يصاب ولا يصل إلى مقصوده رجاء نيل المطلوب . وطمعاً في السلامة ، كراكب البحر فإنه يشاهد الغرق أحياناً لكن يعود إلى ركوبه رجاء السلامة ونيل المقصود .

﴿ فاستفتهم ﴾ أي اسأل الكفار المنكرين للبعث ﴿ أهم أشد خلقاً ﴾ ؟ وأقوى أجساماً وأعظم أعضاء وأمتن بنية وأشق إيجاداً وأصعب خلقاً ﴿ أم من خلقنا ﴾ من السموات والأرض والجبال والملائكة ؟ قال الزجاج : المعنى فاسألهم سؤال تقرير أهم أحكم صنعة ؟ أم من خلقنا قبلهم ممن قبلهم من الأمم السالفة؟ يريد أنهم ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم وقد أهلكناهم بالتكذيب فما الذي يؤمنهم من العذاب . قرىء : أم من خلقنا بتشديد الميم وهي أم المتصلة عطفت من على هم وقرىء بتخفيفها وهو استفهام ثان فالهمزة للاستفهام أيضاً ، ومن مبتدأ وخبره محذوف أي الذين خلقناهم أشد فهما جملتان مستقلتان ، وغلب من يعقل على غيره فلذلك أتى بـ (من) قاله

السمين وتكتب (أم) مفصولة عن (من) في هذا الموضع ثم ذكر خلق الإنسان فقال :

﴿ إنا خلقناهم ﴾ أي في ضمن خلق أبيهم آدم ﴿ من طين لازب ﴾ أي لاصق. يقال: لزب يلزب لزوبا إذا لصق من باب دخل ، وقال قتادة وابن زيد: اللازب اللاصق ، وقال عكرمة : اللازب اللزج ، وقال سعيد ابن جبير: اللازب الجيد الذي يلصق باليد ، وقال مجاهد : هو اللازم والعرب تقول: طين لازب ولازم تبدل الباء من الميم واللازم الثابت كما يقال: صار الشيء ضربة لازب ومنه قول النابغة :

لا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وحكى الفراء عن العرب طين لاتب بمعنى لازم ؛ واللاتب الثابت ، قال الأصمعي: واللاتب اللاصق مثل اللازب ، والمعنى في الآية أن هؤلاء كيف يستبعدون المعاد وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف ، ولم ينكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم وأعظم وأكمل وأتم ، وقيل: إن اللازب هو المنتن قاله مجاهد والضحاك .

قيل وقد قرىء لازم ولاتب ولا أدري من قرأ بذلك ، قال ابن عباس : لازب ملتصق ، وقال : اللزج الجيد ، وقال اللازب والحمأ والطين واحد ، كان أوله تراباً، ثم صار حمأ منتناً، ثم صار طيناً لازباً فخلق الله منه آدم .

وعن ابن مسعود : اللازب الذي يلصق بعضه إلى بعض . والآية تشهد عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة ، أو احتجاج عليهم بأن الطين اللازب ـ الذي خلقوا منه ـ تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله؟ حيث قالوا : أئذا كنا تراباً ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث ، والغرض من هذا السياق إثبات المعاد والرد عليهم في دعوى استحالته ، ثم أضرب سبحانه عن الكلام السابق فقال :

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ
(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا
يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ
مَسْئُولُونَ (٢٤)

﴿ بل عجبت ﴾ يا محمد من قدرة الله سبحانه أو من تكذيبهم إياك ، قرأ الجمهور بفتح التاء من عجبت على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقرىء بضمها ، وقال الفراء: قرأها الناس بنصب التاء ورفعها والرفع أحب إليّ لأنها عن علي وعبدالله وابن عباس ، قال : والعجب إن أسند إلى الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد .

قال الهروي : قال بعض الأئمة معنى بل عجبت بل جازيتهم على عجبهم لأن الله أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الخلق ، كما قال : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ وقالوا:﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ؟ ﴾ وقال علي بن سليمان : معنى القراءتين واحد ، والتقدير : قل يا محمد : بل عجبت لأن النبي صلى الله عليه وسلم مخاطب بالقرآن ، قال النحاس : وهذا قول حسن ، وإضمار القول كثير ، وقيل : إن معنى الإخبار من الله سبحانه عن نفسه بالعجب أنه ظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العجب من المخلوقين ، قال الهروي : ويقال معنى عجب ربكم أي رضى ربكم وأثاب ، فسماه عجباً ، وليس بعجب في الحقيقة فيكون معنى عجبت هنا عظم فعلهم عندي . وحكى النقاش:أن معنى بل عجبت بل أنكرت .

قال الحسن بن الفضل : التعجب من الله إنكار الشيء وتعظيمه ، وهو لغة العرب ، وقيل: معناه الإنكار والذم ، وسئل الجنيد رحمه الله عن هذه الآية فقال : إن الله لا يعجب من شيء ولكن وافق رسوله ولما عجب رسوله قال : ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ ، أي هو كما تقوله ، وقيل : معناه أنه بلغ في كمال قدرته وكثرة مخلوقاته إلى حيث عجب منها[1] .

﴿ و ﴾ هؤلاء لجهلهم ﴿ يسخرون ﴾ منها والواو للحال ، أي والحال ، أنهم يسخرون أو للاستئناف والمعنى: ويسخرون منك بسبب تعجبك ؛ أو بما تقوله من إثبات المعاد ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴾ أي واذ وعظوا بموعظة من مواعظ الله أو مواعظ رسوله لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيها. قال سعيد ابن المسيب : أي إذا ذكر لهم ما حل بالمكذبين ممن كان قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبروا .

﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أي معجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم كانشقاق القمر ﴿ يستسخرون ﴾ أي يبالغون في السخرية. قال قتادة : يسخرون ويقولون : إنها سخرية ، يقال : سخر واستسخر بمعنى مثل : قر واستقر ، وعجب واستعجب ، والأول أولى ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، وقيل :المعنى يستدعون السخرى من غيرهم ، وقال مجاهد: يستهزئون ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي ما هذا الذي تأتينا به إلا سحر واضح ظاهر .

﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾ الاستفهام للإنكار أي أنبعث إذا متنا ، فالعامل في إذا هو ما دل عليه أئنا لمبعوثون ، وهو أنبعث ؟ لا نفس مبعوثون لتوسط ما يمنع من عمله فيه ، فبدلوا الفعلية بالاسمية ، وقدموا الظرف وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار ، وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه ، وفي هذه الحالة أشد استنكاراً وهذا الإنكار للبعث منهم هو السبب

(١) روى أحمد في مسنده ١٥١/٤ : ان الله عز وجل ليعجب من الشاب ليس له صبوه .

الذي لأجله كذبوا الرسل وما نزل عليهم ، واستهزأوا بما جاؤوا به من المعجزات ، وقد تقدم تفسير معنى هذه الآية في مواضع .

﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾ هو مبتدأ وخبره محذوف أي آباؤنا الأولون مبعوثون يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل ، وقيل : معطوف على إن واسمها ، وقيل : على الضمير في مبعوثون لوقوع الفصل بينهما والهمزة للإنكار داخلة على حرف العطف ولهذا قرأ الجمهور بفتح الواو وقرىء :بسكونها على أن أو هي العاطفة ، وليست الهمزة للاستفهام ، ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عنهم تبكيتاً لهم فقال:

﴿ قل نعم ﴾ كلكم مبعوثون ﴿ وأنتم داخرون ﴾ أي صاغرون ذليلون والخطاب لهم ولآبائهم بطريق التغليب ، والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم ، قال الواحدي : والدخور أشد الصغار ، ثم ذكر سبحانه أن بعثهم يقع بزجرة واحدة فقال : ﴿ فإنما ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فإنما .

﴿ هي زجرة واحدة ﴾ أو لا تستصعبوه ، فإنما هي زجرة واحدة ، والضمير للقصة أو البعثة المفهومة مما قبلها أي إنما قصة البعث أو البعثة صيحة واحدة من إسرافيل بنفخة في الصور عند البعث ، وقال الحسن : هي النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة لأن المقصود منها الزجر من قولك : زجر الراعي الإبل أو الغنم إذا صاح عليها .

﴿ فإذا هم ﴾ أحياء بصراء ﴿ ينظرون ﴾ أي يبصرون سوء أعمالهم أو ينتظرون ما يفعل الله بهم من العذاب والأول أولى .

﴿ وقالوا : ﴾ أي قال أولئك المبعوثون لما عاينوا البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ﴿ يا ويلنا ﴾ دعوا بالوَيل على أنفسهم ، قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، وقال الفراء : إن أصله يا وي لنا ووي بمعنى الحزن ، كأنه قال : يا حزن لنا ، قال النحاس : ولو كان كما قال لكان منفصلاً ، وهو في المصحف متصل ، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا متصلاً والوقف هنا تام لأن ما بعده كلام مستقل وجملة .

﴿ هذا يوم الدين ﴾ تعليل لدعائهم بالويل على أنفسهم ، والدين الجزاء ، فكأنهم قالوا : هذا اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا من الكفر والتكذيب للرسل فأجابتهم الملائكة بقولهم : ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ ويجوز أن يكون هذا من قول بعضهم لبعض ، والفصل الحكم والقضاء لأنه يفصل فيه بين المحسن والمسيء .

﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ هو أمر من الله سبحانه للملائكة بأن يحشروا المشركين ﴿ وأزواجهم ﴾ وهم أشباههم في الشرك والتابعون لهم في الكفر والمشايعون لهم في تكذيب الرسل ، كذا قال قتادة وأبو العالية ، وقال الحسن ومجاهد : والمراد بأزواجهم نساؤهم المشركات الموافقات لهم على الكفر والظلم ، وقال الضحاك أزواجهم قرناؤهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه ، وبه قال مقاتل .

قال ابن عباس : تقول الملائكة للزبانية هذا القول أو خطاب من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف ، وقيل : من الموقف إلى الجحيم ، وعن عمر بن الخطاب قال : أمثالهم الذين هم مثلهم يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، أزواج في الجنة وأزواج في النار ، وعن ابن عباس أيضاً قال : أشباههم ، وفي لفظ نظراؤهم ، أي من العصاة عابد الصنم مع عبدة الأصنام وعابد الكوكب مع عبدة الكواكب ، كقوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ ولا مانع من حمل الآية على الجميع .

﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ من الأصنام والشياطين ونحوها ، وهذا العموم المستفاد من ما الموصولة ، فإنها عبارة عن المعبودين لا عن العابدين كما قيل : مخصوص ، لأن من طوائف الكفار من عبد المسيح ، ومنهم من عبد الملائكة ، فيخرجون بقوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ووجه حشر الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل هو زيادة التبكيت لعابديها ، وتخجيلهم وإظهار أنها لا تنفع ولا تضر ، وقيل : الموصول عبارة عن المشركين خاصة جيء به لتعليل الحكم بما في حيز صلته ، فلا عموم

ولا تخصيص .

﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي عرفوا هؤلاء المحشورين طريق النار وسوقوهم إليها ، يقال : هديته الطريق وهديته إليها أي دللته عليها ، وفي هذا تهكم بهم وقال ابن عباس : وجهوهم ودلوهم إلى طريق النار .

﴿ وقفوهم ﴾ أي احبسوهم في الموقف ، يقال : وقفت الدابة أقفهاوقفاً فوقفت هي وقوفاً يتعدى ولا يتعدى ، وهذا الحبس لهم يكون قبل السوق إلى جهنم أي وقفوهم للحساب ، ثم سوقوهم إلى النار بعد ذلك ، كأن الملائكة سارعوا إلى ما أمروا به من حشرهم إلى الجحيم فأمروا بذلك .

﴿ إنهم مسؤولـون ﴾ تعليل للجملة الأولى أي ذلك ليس للعفو عنهم ، ولا ليستريحوا بتأخير العذاب في الجملة ، بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم ، وأعمالهم ، كما قيل ، فإن ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم ، بل عما ينطق به قوله الآتي : مالكم بطريق التهكم والتوبيخ . قال الكلبي : أي مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم أي جميعها ، وقال الضحاك : عن خطاياهم ، وقيل : عن لا إله إلا الله . وقيل : عن ظلم العباد ، وقال ابن عباس : احبسوهم إنهم محبوسون .

وأخرج البخاري في تاريخه والدارمي والترمـذي وابن جريـر والحاكم وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً معه يوم القيامة لازماً به لا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلاً ، ثم قرأ:وقفوهم إنهم مسؤولون[1] » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :عن عمره فيم أفناه وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه وفي رواية عن شبابه فيم أبلاه » ،[2] وأخرجه الترمذي .

(١) رواه ابن ابي حاتم وابن جرير والترمذي عن انس بن مالك مرفوعاً .
(٢) صحيح الجامع ٧١٧٦/٧١٧٧ .

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾
قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا
كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾
إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ أي أيُّ شيء لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ، وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة ، وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية ، فالتوبيخ حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً وأصل تناصرون تتناصرون فطرحت إحدى التاءين تخفيفاً ، وقيل : الإشارة بقوله : (مالكم) إلى قول أبي جهل يوم بدر نحن جميع منتصر ، ثم أضرب سبحانه عما تقدم إلى بيان الحالة التي هم عليها هنالك فقال:

﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ أي منقادون لعجزهم عن الحيلة ، قال قتادة :مستسلمون خاضعون في عذاب الله ، وقال الأخفش : ملقون بأيديهم ، يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع .

﴿ وأقبل بعضهم ﴾ أي بعض الكفار ﴿ على بعض يتساءلون ﴾ أي يتلاومون ويتخاصمون ، قيل : هم الأتباع والرؤساء يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة ، قال ابن عباس : ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية وقال مجاهد : هو قول الكفار للشياطين ، وقال قتادة : هو قول الإنس للجن ، والأول أولى لقوله : ﴿ قالوا إنكم تأتوننا ﴾ في الدنيا .

﴿ عن اليمين ﴾ أي من جهة الحق والدين والطاعة وتصدوننا عنها قال

الزجاج :كنتم تأتوننا من قبل الدين فتروننا أن الدين والحق ما تضلوننا به ، واليمين عبارة عن الحق ، وهذا كقوله تعالى إخبارا عن إبليس:

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم ﴾ .

قال الواحدي : قال أهل المعاني: إن الرؤساء كانوا قد حلفوا لهؤلاء الاتباع أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بإيمانهم فمعنى تأتوننا عن اليمين أي من ناحية الأيمان التي كنتم تحلفونها فوثقنا بها ، قال : والمفسرون على القول الأول . وقيل : المعنى تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك عن جهة النصح ، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح ، وقيل : اليمين بمعنى القوة أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ، كما في قوله : ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ أي بالقوة ، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر وكذلك جملة :

﴿ قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي قال الرؤساء أو الشياطين لهؤلاء القائلين : كنتم تأتوننا عن اليمين ، بل لم تكونوا مؤمنين ولم نمنعكم من الإيمان والمعنى أنكم لم تكونوا مؤمنين قط حتى ننقلكم عن الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم من الأصل على الكفر فأقمتم عليه ، أجابوا بأجوبة خمسة الأول ﴿ بل لم تكونوا ﴾ الخ .

والثاني قوله : ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي قوة وقدرة وتسلط بقهر وغلبة حتى ندخلكم في الكفر ونخرجكم من الإيمان .

والثالث قوله : ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي متجاوزين الحد في الكفر والضلال .

والرابع قوله : ﴿ فحق علينا ﴾ أي وجب علينا وعليكم ولزمنا ﴿ قول ربنا ﴾ يعنون قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ﴿ إنا ﴾ جميعاً ﴿ لذائقون ﴾ العذاب الذي ورد به الوعيد ، قال الزجاج : أي إن المضل والضال في النار.

الخامس: ﴿ فأغويناكم ﴾ أي أضللناكم عن الهدى ودعوناكم إلى ما كنا فيه من الغي وزينا لكم ما كنتم عليه من الكفر، فاستجبتم لنا باختياركم، واستحبابكم الغي على الرشد.

﴿ إنا كنا غاوين ﴾ فلا عتب علينا في تعرضنا لإغوائكم بتلك الدعوة لأنا أردنا أن تكونوا أمثالنا في الغواية، ومعنى الآية: أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية، فأقروا ههنا بأنهم تسببوا لإغوائهم لكن لا بطريق القهر والغلبة، ونفوا عن أنفسهم فيما سبق أنهم قهروهم وغلبوهم فقالوا: ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ ثم أخبر الله سبحانه عن الاتباع والمتبوعين بقوله:

﴿ فإنهم يومئذ ﴾ أي يوم إذ يتساءلون ويتحاورون ويتخاصمون بما سبق ﴿ في العذاب مشتركون ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي بأهل الإجرام، وهم المشركون كما يفيده قوله سبحانه: ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم ﴾ قولوا ﴿ لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ عن القبول.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»[1].

وأنزل الله في كتابه.

وذكر قوماً استكبروا فقال: ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ وقال: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله استكبر عنها المشركون يوم الحديبية يوم كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قضية المدة، وعن ابن عباس قال: كانوا إذا لم يشرك بالله يستنكفون.

---

(١) اخرجه ابن ابي حاتم عن ابي هريرة مرفوعاً.

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾
إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾
لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر ﴾ أي لقول شاعر ﴿ مجنون ﴾ لا يعقل : يعنون النبي صلى الله عليه وسلم ، فحكى الله سبحانه صدقه ورد عليهم بقوله : ﴿ بل جاء بالحق ﴾ يعني القرآن المشتمل على التوحيد والوعد والوعيد ﴿ وصدق المرسلين ﴾ أي صدقهم فيما جاؤوا به من التوحيد والوعيد وإثبات الدار الآخرة ، ولم يخالفهم ولا جاء بشيء لم تأت به الرسل قبله .

﴿ انكم ﴾ بسبب شرككم وتكذيبكم ﴿ لذائقو العذاب الأليم ﴾ أي الشديد ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم ، قرأ الجمهور: لذائقو بحذف النون وخفض العذاب ، وقرىء بحذفها ونصب العذاب ، وأجاز سيبويه أيضاً ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ بنصب الصلاة على هذا التوجيه ، وقد قرىء بإثبات النون ونصب العذاب على الأصل ، ثم بين سبحانه إن ما ذاقوه من العذاب ليس إلا بسبب أعمالهم فقال :

﴿ وما تجزونْ إلاّ ﴾ جزاء ﴿ ما ﴾ أو بما ﴿ كنتم تعملون ﴾ من الكفر والمعاصي، ثم استثنى المؤمنين فقال: ﴿إلاّ عباد الله المخلصين ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة بفتح اللام ، أي الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده وقرىء بكسرها أي الذين أخلصوا لله العبادة والتوحيد ، والاستثناء إما متصل على تقدير تعميم الخطاب في تجزون لجميع المكلفين ؛ أو منقطع ، أي لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب .

﴿ أولئك ﴾ المخلصون ﴿ لهم رزق ﴾ يرزقهم الله إياه ﴿ معلوم ﴾ في

حسن منظره وطيبه ولذته ورائحته وطعمه وعدم انقطاعه ، قال قتادة: يعني الجنة وقيل: معلوم الوقت وهو أن يعطوا منه بكرة وعشياً كما في قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ والنفس إليه أسكن.

وقيل: معلوم خصائصه من الدوام ، وتمحض اللذة ، وقيل: معلوم القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله تعالى ، وقيل: هو المذكور في قوله بعده ﴿ فواكه ﴾ فإنه بدل من رزق أو هو فواكه ، وهذا هو الظاهر ؛ والفواكه جمع فاكهة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها وخصص الفواكه بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه كذا قيل والأولى أن يقال: إن تخصيصها بالذكر لأنها أطيب ما يأكلونه وألذ ما تشتهيه أنفسهم ، وقيل: إن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة فذكرها يغني عن ذكر غيرها.

﴿ وهم مكرمون ﴾ في محل نصب على الحال أي: ولهم من الله عز وجل إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده وسماع كلامه ولقائه في الجنة أو مكرمون في نيل ثواب يصل إليهم من غير تعب وسؤال ، كما عليه رزق الدنيا. قرىء: مكرمون بتخفيف الراء وبتشديدها .

﴿ في جنات النعيم على سرر متقابلين ﴾ قال عكرمة ومجاهد معنى التقابل أنه لا ينظر بعضهم في قفا بعضهم تواصلاً وتحاباً ، وقيل: إنها تدور بهم الأسرة كيف شاءوا فلا يرى بعضهم قفا بعض ، قرأ الجمهور: سرر بضم الراء وقرىء بفتحها ، وهي لغة بعض تميم قيل: على سرر مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، والسرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة وقيل : تدور بأهل المنزل الواحد والله أعلم. ذكره القرطبي .

ثم ذكر سبحانه صفة أخرى لهم فقال : ﴿ يطاف عليهم بكأس ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، أو في محل نصب على الحال ، والكأس عند أهل اللغة ما كان من الزجاج ، وهو اسم شامل لكل إناء فيه الشراب ، فإن كان فارغاً فليس بكأس ، وقد تسمى الخمر كأساً تسمية للشيء باسم محله ، قال الشاعر :

وكأساً شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال الضحاك والسدي : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، قال النحاس وحكى من يوثق به من أهل اللغة : أن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأساً ، فإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان فيه طعام مائدة فإذا لم يكن عليه طعام لم يقل له مائدة .

﴿ من معين ﴾ صفة لكأس ، قال الزجاج: أي من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض ظاهرة تراها العيون ، والمعين: الماء الجاري وقوله ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ صفتان لكأس قال الزجاج: أي ذات لذة ، فحذف المضاف ويجوز أن يكون الوصف بالمصدر لقصد المبالغة في كونها لذة ، ولا يحتاج إلى تقدير المضاف ، قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، له لذة لذيذة. يقال : شراب لذ ولذيذ ، كما يقال : نبات غض وغضيض ، واللذيذ كل شيء مستطاب ، وقيل : البيضاء هي التي لم تعتصرها الرجال ثم وصف هذه الكأس من الخمر بغير ما يتصف به خمر الدنيا فقال :

﴿ لا فيها غول ﴾ أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع ، قال الفراء : العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء ، وقال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولهم ، وقال الواحدي: الغول حقيقته الإهلاك ، يقال: غاله غولاً واغتاله أي أهلكه ،. والغول: كل ما اغتالك أي أهلكك ، ومنه الغول بالضم شيء توهمته العرب ، ولها فيه أشعار كالعنقاء .

﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ أي يسكرون. يقال: نزف الشارب فهو منزوف ونزيف إذا سكر قرأ الجمهور: ينزفون مبنيا للمفعول . وقرىء: بضم الياء وكسر الزاي من أنزف الرجل إذا ذهب عقله من السكر فهو نزيف ومنزوف ومنزف ، يقال: أحصد الزرع إذا آن حصاده وأقطف الكرم إذا حان قطافه.

قال الفراء: من كسر الزاي فله معنيان يقال: أنزف الرجل إذا فنيت خمره ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ، وتحمل هذه القراءة على معنى لا ينفد شرابهم لزيادة الفائدة ، قال النحاس: والقراءة الأولى أبين وأصح في المعنى

لأن معنى ينزفون عند جمهور المفسرين لا تذهب عقولهم فنفى الله سبحانه عن خمر الجنة الآفات التي تلحق في الدنيا من خمرها ، من الصداع والسكر .

وقال الزجاج وأبو علي الفارسي معنى لا ينـزفون بكسر الـزاي : لا يسكرون ، قال المهدوي: لا يكون معنى ينزفون يسكرون. لأن قبله لا فيها غول أي لا تغتال عقولهم ، فيكون تكريراً ، وهذا يقوي ما قاله قتادة: إن الغول وجع البطن وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وقال الحسن: إن الغول الصداع ، وبه قال ابن عباس .

وقال ابن كيسان هو المغص فيكون معنى الآية لا يكون فيها نوع من أنواع الفساد المصاحبة لشرب الخمر في الدنيا من مغص أو وجع بطن أو صداع أو عربدة أو لغو أو تأثيم ، ولا هم يسكرون منها ، ويؤيد هذا أن أصل الغول الفساد الذي يلحق في خفاء يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسد عليه أمره في خفية ، ومنه الغول والغيلة: القتل خفية ، وقرىء: ينزفون بفتح الياء وكسر الزاي ، وقرىء: بفتح الياء وضم الزاي .

عن ابن عباس قال : في الخمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول فنزه الله خمر الجنة عنها ، فقال : ﴿ لا فيها غول ﴾ أي لا تغول عقلهم من السكر ، ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ قال: لا يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها .

وعنه قال: هي الخمر ليس فيها وجع بطن ، قال في النهر: ذكر أولاً الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام ، وثانياً الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس ، ثم ذكر المحل الذي هم فيه وهو جنات النعيم ، ثم أشرف المحل وهو السرر . ثم لذة التأنس بأن بعضهم مقابل بعضاً وهو أتم السرور وآنسه ثم المشروب وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم بل يطاف عليهم بالكؤوس ، ثم وصف ما يطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد ، ثم ذكر تمام النعمة الجسمانية وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق وهي أبلغ الملاذ وهي التأنس بالنساء فقال:

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي نساء حابسات الأعين غاضات العيون قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ، والقصر: معناه الحبس ، وقيل: القاصرات المحبوسات على أزواجهن والأول أولى ، لأنه قال قاصرات الطرف ولم يقل مقصورات.

﴿ عين ﴾ أي عظام العيون جمع عيناء وهي الواسعة العين ، والذكر أعين قال الزجاج: معنى عين كبار الأعين حسانها ، وقال مجاهد العين حسان العيون عظام المقلة ، وقيل: نجل العيون بضم النون جمع نجلاء وهي التي اتسع شقها سعة غير مفرطة ، وقال الحسن: هن الشديدات بياض العين الشديدات سوادها والأول أولى .

﴿ كأنهن بيض ﴾ جمع بيضة وهو معروف ﴿ مكنون ﴾ أي مصون مستور من كننته إذا جعلته في كن ، قال الحسن وابن زيد: شبهن ببيض النعام تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونه أبيض في صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء عند العرب ، وإلا فأحسنها عند العجم والروم: الأبيض المشرب بحمرة وقال سعيد بن جبير والسدي: شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي ، وبه قال ابن جرير قال المبرد: وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحسن والنظافة : كأنه بيض النعام المغطى بالريش .

وقيل: المكنون المصون عن الكسر أي إنهن عذارى وقيل: المراد بالبيض اللؤلؤ كما في قوله وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون والأول أولى ، وإنما قال مكنون ولم يقل مكنونات لأنه وصف البيض باعتبار اللفظ ، وعن ابن عباس في قوله: ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال اللؤلؤ المكنون : وعنه قال بياض البيضة

ينزع عنها فوفها وغشاؤها .

﴿ فأقبل بعضهم على بعض ﴾ يعني أهل الجنة في الجنة ﴿ يتساءلون ﴾ أي يسأل هذا ذاك ، وذاك هذا حال شربهم عن أحوالهم التي كانت في الدنيا ، وما جرى لهم ، وما عملوه ، وذلك من تمام نعيم الجنة ، والتقدير فيقبل بعضهم على بعض وإنما عبر عنهم بالماضي للتأكيد والدلالة على تحقق وقوعه ، قيل: المعنى يشربون ويتحادثون على الشراب كعادة الشراب ، قال الشاعر:

فما بقيت من اللذات إلا   أحاديث الكرام على المدام

﴿ قال قائل منهم ﴾ أي من أهل الجنة في حال إقبال بعضهم على بعض بالحديث وسؤال بعضهم لبعض: ﴿إني كان لي قرين ﴾ أي صاحب ملازم لي في الدنيا كافر بالبعث منكر له. قيل: كان قرينه شيطاناً ، وقيل: كان من الإنس وقيل : كانا أخوين ، وقيل : كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وهما اللذان قص الله خبرهما في سورة الكهف في قوله: واضرب لهم مثلاً رجلين ، والأول أولى.

﴿ يقول ﴾ لي ﴿ أئنك لمن المصدقين ﴾ بالبعث والجزاء وهذا الاستفهام من القرين لتوبيخ ذلك المؤمن وتبكيته بإيمانه ، وتصديقه بما وعد الله به من البعث، وكان هذا القول منه في الدنيا، قرأ الجمهور: مصدقين بتخفيف الصاد من التصديق أي لمن المصدقين بالبعث وقرىء: بتشديدها ولا أدري من قرأ بها ومعناها بعيد لأنها من التصدق لا من التصديق ، ويمكن تأويلها بأنه أنكر عليه التصدق بماله لطلب الثواب ، وعلل ذلك باستبعاد البعث ثم ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده وفي زعمه فقال :

﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون؟ ﴾ أي لمجزيون بأعمالها ومحاسبون بها بعد أن صرنا تراباً وعظاماً ، وقيل : معنى مدينون مسوسون يقال : دانه إذا ساسه ، وقد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة فقرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة والثالثة بكسر الألف من غير الاستفهام ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وابن عامر الأولى والثالثة

بهمزتين ، والثانية بكسر الألف من غير استفهام والباقون بالاستفهام في جميعها ثم اختلفوا ، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعده ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين .

﴿ قال : هل أنتم مطلعون ؟ ﴾ القائل هو المؤمن الذي في الجنة بعد ما حكى لجلسائه فيها ما قاله له قرينه في الدنيا ، أي هل أنتم يا إخواني مطلعون إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة ؟ كيف منزلته في النار فيقول أهل الجنة أنت أعرف به منا.

قال ابن الأعرابي : والاستفهام هو بمعنى الأمر ، أي اطلعوا ، وقيل القائل هو الله سبحانه ، وقيل:الملائكة والأول أولى ، قرأ الجمهور: مطلعون بتشديد الطاء مفتوحة ، وبفتح النون فاطلع ماضياً مبنياً للفاعل من الطلوع ، وقرأ ابن عباس ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو: بسكون الطاء وفتح النون فاطلع بقطع الهمزة مضمومة وكسر اللام ماضياً مبنياً للمفعول ، وقرىء: مطلعون بتخفيف الطاء وكسر النون : فاطلع مبنياً للمفعول ، وأنكرها أبو حاتم وغيره ، قال النحاس: هي لحن ، لأنه لا يجوز الجمع بين النون والإضافة ، ولو كان مضافاً لقال:هل أنتم مطلعي ، وإن كان سيبويه والفراء قد حكيا مثله ، ولكنه شاذ خارج عن كلام العرب .

﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ أي فاطلع ذلك المؤمن على النار ؛ الذي صار يحدث أصحابه في الجنة بما قال له قرينه في الدنيا ، فرأى قرينه في وسط الجحيم ، وقال الزجاج :سواء كل شيء وسطه ، قال النحاس: فاطلع فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً أي فاطلع أي أنا ، والثاني أن يكون فعلاً ماضياً أي المؤمن ، قال ابن مسعود في الآية :اطلع ثم التفت إلى أصحابه فقال:لقد رأيت جماجم القوم تغلي ، قال ابن عباس: «إن في الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى النار» ، جمع كوة وهي الثقب في الحائط وهي بفتح الكاف وضمها وفي الجمع وجهان كسرها وضمها لكن مع الكسر يصبح المد والقصر ، ومع الضم يتعين القصر .

قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ قال ﴾ ذلك الذي من أهل الجنة لما اطلع على قرينه ورآه في النار ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ أي لتهلكني بالإغواء ، وفيه معنى التعجب ، قال الكسائي :الردى الهلاك .قال المبرد : لو قيل(لتردين) لتوقعني في النار لكان جائزاً قال مقاتل :المعنى والله لقد كدت أن تغويني ، فأنزل منزلتك والمعنى متقارب فمن أغوى إنساناً فقد أهلكه.

﴿ ولولا نعمة ربي ﴾ أي رحمته وإنعامه علي بالإسلام وهدايتي إلى الحق وعصمتي عن الضلال ﴿ لكنت ﴾ معك في النار ﴿ من المحضرين ﴾ قال الماوردي :ولا يستعمل أحضر إلا في الشر . ولما تم كلامه مع ذلك القرين الذي هو في النار عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة فقال:﴿ أفما نحن بميتين ﴾ الهمزة للاستفهام التقريري وفيها معنى التعجب ، والفاء للعطف على محذوف كما في نظائره أي :أنحن مخلدون منعمون ؟ فما نحن بميتين ، وقرأ زيد بن علي بمائتين .

قال ابن عباس :في الآية قول الله لأهل الجنة ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ قال:هنيئاً أي لا تموتون فيها ، فعند ذلك قالوا :أفما نحن بميتين إلى قوله الفوز العظيم ، وقيل :هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت ، وقيل :من قولهم توبيخاً للكفار لما كانوا ينكرونه من البعث وإنه ليس

إلا الموت في الدنيا والأول أولى .

﴿ إلا موتتنا الأولى ﴾ التي كانت في الدنيا ، وقوله: هذا كان على طريقة الابتهاج والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، وأنهم مخلدون لا يموتون أبداً ، والاستثناء مفرغ ، وقيل:منقطع بمعنى لكن ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ كما يعذب الكفار ثم قال:مشيراً إلى ما هم فيه من النعيم ﴿ إن هذا ﴾ الأمر العظيم والنعيم المقيم والخلود الدائم الذي نحن فيه ﴿ لهو الفوز العظيم ﴾ الذي لا يقادر قدره ، ولا يمكن الإحاطة بوصفه .

﴿ لمثل ﴾ أي لنيل مثل ﴿ هذا ﴾ العطاء والفضل العظيم ﴿ فليعمل العاملون﴾ فإن هذه هي التجارة الرابحة لا العمل للدنيا الزائلة ، وحظوظها المشوبة بالآلام السريعة الانصرام ، فإنها صفقة خاسرة ، نعيمها منقطع ، وخيرها زائل ، وصاحبها عن قريب منها راحل ، وهذا من تمام كلامهوقيل: إن هذا من قول الله سبحانه قاله ابن عباس وقيل من قول الملائكة والأول أولى .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: «كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده في يدي ، فرأى جنازة فأسرع المشي حتى أتى القبر ، ثم جثا على ركبتيه فجعل يبكي حتى بل الثرى ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون » وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: «دخلت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مريض يجود بنفسه فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون» .

﴿ أذلك ؟ ﴾ الذي ذكره من نعيم الجنة وهو مبتدأ وخبره ﴿ خير ﴾ و ﴿ نزلاً ﴾ تمييز والنزل في أصل اللغة الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشيء والرزق الذي يصلح أن ينزلوا معه ويقيموا فيه ، والخيرية بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره ، والمعنى: قل يا محمد لقومك على سبيل التوبيخ والتبكيت والتهكم: أذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذة والسرور خير نزلاً .

﴿ أم شجرة الزقوم؟ ﴾ أي التي حاصلها الألم والغم ، قال الزجاج:المعنى أذلك خير في باب الإنزال التي يبقون بها نزلاً أم نزل أهل النار؟ وهو الزقوم وهو ما يكره تناوله ، قال الواحدي : وهو شيء مر كريه يكره أهل النار على تناوله فهم يتزقمونه فهي على هذا مشتقة من التزقم ؛ وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها ؛ واختلف فيها :هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب ؟ أم لا ؟ على قولين أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا ، فقال قطرب : إنها شجرة مرة كريهة الرائحة تكون بتهامة من أخبث الشجر ، وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل ، وقيل : شجرة مسمومة متى مست جسد أحد تورم فمات والإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم.

القول الثاني : أنها غير معروفة في شجر الدنيا؛ وقيل :إنه قال ابن الزبعري لصناديد قريش : إن محمداً يخوفنا بالزقوم وهي بلسان بربر الزبد والتمر، وقيل :هي بلغة أهل اليمن؛ قال قتادة : لما ذكر الله هذه الشجرة افتتن بها الظلمة فقالوا كيف تكون في النار شجرة ؟ فأنزل الله تعالى:

﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال الزجاج: أي حين افتتنوا بها وكذبوا بوجودها ، ولم يعلموا أن من يقدر على خلق حيوان وهو السمندل يعيش في النار ؛ ويتلذذ بها يقدر على خلق الشجر في النار وحفظه منها ، وقيل: معنى جعلها فتنة لهم أنها محنة لهم لكونهم يعذبون بها ؛ والمراد بالظالمين هنا الكفار أو أهل المعاصي الموجبة للنار ، ثم بين سبحانه أوصاف هذه الشجرة رداً على منكريها فقال:

﴿ إنها شجرة تخرج ﴾ أي تنبت ﴿ في أصل الجحيم ﴾ أي في قعرها وأسفلها قال الحسن:أصلها في قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركاتها .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس فلما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ ؛ فلما سمع أبو جهل قال: من

توعد يا محمد ؟ قال إياك ، قال بم توعدني ؛ قال أوعدك بالعزيز الكريم فقال: أبو جهل أليس أنا العزيز الكريم ؟ فأنزل الله :﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم إلى قوله ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه فأخرج إليهم زبداً وتمراً فقال:تزقموا من هذا فوالله ما يتوعدكم محمد إلّا بهذا فأنزل الله :﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ الآية ؛ وعنه قال:لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم ، ثم قال الله تعالى:

﴿ طلعها ﴾ الطلع حقيقة اسم لثمر النخل أول بروزه ، فإطلاقه على ثمر هذه الشجرة مجاز بالاستعارة ، والمعنى ثمرها وما تحمله ﴿ كأنه ﴾ في تناهي قبحه وهوله وشناعة منظره ﴿ رؤوس الشياطين ﴾ فشبه المحسوس بالمتخيل ؛ وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما يقولون في تشبيه من يستقبحونه كأنه شيطان ، وفي تشبيه من يستحسنونه كأنه ملك كما في قوله تعالى:﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

قال الزجاج والفراء:الشياطين حيات هائلة لها رؤوس وأطراف ، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها جسماً ، وقيل: إن رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح معروف باليمن يقال له الأستن ، ويقال له الشيطان ، قال النحاس: وليس ذلك معروفاً عند العرب ، وقيل:هو شجر خشن منتن مر منكر الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين ، وقيل:هو شجر يقال له الصرم فعلى هذا قد خوطب العرب بما تعرفه وهذه الشجرة موجودة ، فالكلام حقيقة وقيل: إنه خاطبهم بما ألفوه من الاستعارات .

﴿ فإنهم لآكلون ﴾ لشدة جوعهم أو لقهرهم على الأكل ﴿ منها ﴾ أي من الشجرة أو من طلعها ، والتأنيث لاكتساب الطلع والتأنيث من إضافته إلى الشجرة ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ وذلك أنهم يكرهون على أكلها حتى تمتلىء بطونهم فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة .

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا
ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ
٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ٧٢ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ٧٣
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ٧٤﴾

﴿ثم إن لهم عليها﴾ أي على الشجرة بعد الأكل منها ﴿لشوباً من حميم﴾ الشوب الخلط، قال الفراء: يقال شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبهما شوباً وشيابة، وقال ابن عباس: شوباً مزجاً أي يخالط طعامهم ويشاب بالحميم وهو الماء الحار، فأخبر الله سبحانه أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار ليكون أفظع لعذابهم وأشنع لحالهم كما في قوله: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾[1] قرأ الجمهور: بفتح الشين وهو مصدر وقرأ شيبان النحوي بالضم، قال الزجاج: المفتوح مصدر والمضموم اسم بمعنى المشوب كالنقض بمعنى المنقوض.

﴿ثم إن مرجعهم﴾ بعد شرب الحميم وأكل الزقوم ﴿لإلى الجحيم﴾ وذلك أنهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج الجحيم كما تورد الإبل ثم يردون إلى الجحيم كما في قوله سبحانه: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ وهذا قول الأقل والجمهور على أنه داخلها وأنهم لا يخرجون أصلاً، وقيل: إن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها. قال أبو عبيدة: ثم بمعنى الواو، وقرأ ابن مسعود: ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم وعنه قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء أهل الجنة وأهل النار، وقرأ: أن مقيلهم لإلى الجحيم.

---

(١) عن ابي امامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول: « يقرب ـ إلى اهل النار ـ ماء فيتكرهه فإذا ادني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه فيه، فإذا شربه قطع امعاءه حتى تخرج من دبره (رواه ابن ابي حاتم).

﴿ إنهم ألفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ آباءهم ضالين ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما تقدم ذكره ، أي صادفوهم كذلك فاقتدوا بهم تقليداً وضلالة ، لا لحجة أصلاً قال أبو السعود : أي بتقليد آبائهم في الدين من غير أن يكون لهم أو لآبائهم شيء يتمسك به أصلاً .

﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ أي من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أو لا ، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والإهراع الإسراع الشديد ، وقال الفراء: الإسراع برعدة ، وقال أبو عبيدة: يهرعون يستحثون من خلفهم ، يقال : جاء فلان يهرع إلى النار إذا استحثه البرد إليها ، وقال المفضل: يزعجون من شدة الإسراع ، قال الزجاج : هرع وأهرع إذا استحث وأزعج ، والمعنى يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم وذلك في الدنيا .

﴿ ولقد ضل قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء المذكورين ﴿ أكثر الأولين ﴾ من الأمم الماضية بالتقليد ، ورفض الدليل وترك النظر وإيثار التأويل ﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أي أرسلنا في هؤلاء الأولين رسلاً أنذروهم العذاب وحذروهم عواقب التقليد ، وبينوا لهم الحق فلم ينجع ذلك فيهم ، وكذلك لا ينجع في مقلدة هذا الزمان فما أشبه الليلة بالبارحة .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي الذين أنذرتهم الرسل فإنهم صاروا إلى النار ، قال مقاتل: يقول كان عاقبتهم العذاب ، يحذر كفار مكة ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يتأتى منه التمكن من مشاهدة آثارهم ، ثم استثنى عباده المؤمنين فقال :

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي إلا من أخلصهم الله بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد ، وإيثار الدليل ، وترك التقليد ، وقرىء: المخلصين بكسر اللام أي الذين أخلصوا لله طاعتهم ولم يشوبوها بشيء بغيرها .

ولما ذكر سبحانه أنه أرسل في الأمم الماضية منذرين ذكر تفصيل بعض ما أجمله فيما سبق فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞
وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والمراد أن نوحاً دعا ربه على قومه لما عصوه فأجاب الله دعاءه وأهلك قومه بالطوفان ، فالنداء هنا هو نداء الدعاء لله ، والاستغاثة به ، كقوله: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ وقوله: ﴿إني مغلوب فانتصر ﴾ ،وحاصل ما يأتي من القصص سبع :قصة نوح ، وقصة إبراهيم ، وقصة إسماعيل ، وقصة موسى وهارون ، وقصة إلياس ، ولوط ويونس ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ له نحن أي دعانا فأجبناه وأهلكنا قومه ، والواو للتعظيم .

﴿ ونجيناه وأهله ﴾ المراد بأهله أهل دينه ، وهم من آمن معه وكانوا ثمانين أو زوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث ﴿ من الكرب العظيم ﴾ هو الغرق وقيل تكذيب قومه له وما يصدر إليه منهم من أنواع الأذى.

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ وحدهم دون غيرهم كما يشعر به ضمير الفصل وذلك لأن الله أهلك الكفرة بدعائه ، ولم يبق منهم باقية ، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل ولم يبق إلا أولاده قال سعيد بن المسيب :كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب السند

والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ويافث أبو الصقالب والترك والخزر ويأجوج ومأجوج وغيرهم وقيل: إنه كان لمن مع نوح ذرية كما يدل عليه قوله: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ وقوله: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ فيكون على هذا معنى الآية: ذريته وذرية من معه دون ذرية من كفر، فإن الله أغرقهم فلم يبق لهم ذرية والأول أولى .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال: « حام وسام ويافث »[1] وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم» والحديثان هما من سماع الحسن عن سمرة، وفي سماعه منه مقال معروف وقد قيل: إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة فقط، وما عداه فبواسطة قال ابن عبد البر .

وقد روي عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد حام القبط والبربر والسودان» وهو من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب عنه .

قلت: في الآية دليل على أن الطوفان عم كل البلاد، وشمل جميع العباد، ولم يبق أحد من الناس سوى من كان معه في السفينة، والفرس

---

(١) اخرجه احمد والترمذي وصحيح الجامع/ ٦١٤٥ .

وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان ، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا لم يسكن الطوفان بسوى الشّام والمغرب ، ولم يعم العمران كله ، ولا أغرق إلا بعض الناس ، ولم يتجاوز عقبة حلوان ، ولا بلغ إلى ممالك المشرق ، قالوا: ووقع في زمان طهمورث ، وأن أهل المغرب لما أنذر حكماؤهم بالطوفان اتخذوا المباني العظيمة كالهرمين بمصر ونحوهما ليدخلوا فيها عند حدوثه ، ولما بلغ طهمورث الإنذار بالطوفان قبل كونه بمائة واحدى وثلاثين سنة أمر باختيار مواضع في مملكته صحيحة الهواء والتربة ، فوجد ذلك بأصبهان فأمر بتجليد العلوم ودفنها فيها في أسلم المواضع، ويشهد لهذا ما وجد بعد الثلثمائة من سني الهجرة في حي من مدينة أصفهان من التلال التي انشقت عن بيوت مملوءة أعدالاً عدة كثيرة قد ملئت من لحاء الشجر التي تلبس بها القسي، وتسمى التور مكتوبة بكتابة لم يدر أحد ما هي ، ذكره المقريزي في الخطط ، وقال بعض محققي الهنود : إن سري كشن الهندي قد أخبر قبل وفاته بسبعة أيام أن بلدة دواركا ستغرق عن قريب وأشار إلى حصول الطوفان بأرض الهند ، والحق ما دلت عليه هذه الآية وغيرها من عموم الغرق للعمران ، وشمول الطوفان لجميع الأرض ونوع الإنسان ، ولا يلتفت إلى قول من أنكره أو أوله أو خصه ببعض الأمكنة دون بعضها فإنه إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ يعني في الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من أمم وقال ابن عباس : يقول ، يذكر بخير ، والمتروك هذا هو قوله : ﴿ سلام على نوح ﴾ أي تركنا هذا الكلام بعينه ، والسلام هو الثناء الحسن ، أي يثنون عليه ثناء حسناً ، ويدعون له ويترحمون عليه . قال الزجاج: تركنا عليه الذكر الجميل إلى يوم القيامة ، وذلك الذكر هو قوله: ﴿سلام على نوح ﴾ قال الكسائي في ارتفاع سلام وجهان : أحدهما : وتركنا عليه في الآخرين يقال سلام .

والثاني : أن يكون المعنى وأبقينا عليه ، وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال:

سلام على نوح أي سلامة له من أن يذكر بسوء في الآخرين ، قال المبرد: أي تركنا عليه هذه الكلمة باقية يعني يسلمون عليه تسليماً ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكي كقوله ﴿سورة أنزلناها ﴾ ، وقيل :إنه ضمن تركنا معنى قلنا. قال الكسائي : وفي قراءة ابن مسعود سلاماً منصوب بتركنا أي تركنا عليه ثناء حسنا وقيل :المراد بالآخرين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿ في العالمين ﴾ أي سلام ثابت أو مستمر أو مستقر على نوح في العالمين من الملائكة ، والجن والإنس ، وهذا يدل على عدم اختصاص ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قيل:

﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها من التكرمة لنوح بإجابة دعائه وبقاء الثناء من الله عليه ، وبقاء ذريته أي إنا كذلك نجزي من كان محسناً في أقواله وأفعاله ، راسخاً في الإحسان معروفاً به ، والكاف في كذلك نعت مصدر محذوف أي جزاء كذلك الجزاء .

﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ هذا بيان لكونه من المحسنين وتعليل له بأنه كان عبداً مؤمناً مخلصاً لله وذلك إجلال لشأن الإيمان وشرفه وترغيب في تحصيله والثبات عليه ، والازدياد منه . كما قال في مدح إبراهيم:﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى ، فلا يقال:كيف مدح الرسول بذلك ؟ مع أن مرتبتهم فوق مرتبة المؤمنين .

﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله ولا صدقوا نوحاً معطوف على نجيناه ، والترتيب حقيقي لأن نجاتهم بركوب السفينة حصلت قبل غرق الباقين ، والشهاب فهم أنه معطوف على قوله:﴿ وجعلنا ذريته ﴾ فجعل الترتيب إخبارياً لأن إغراق الآخرين كان قبل جعل ذريته باقين ، ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم وبين أنه ممن شايع نوحاً فقال .

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ أي من أهل دينه وممن شايعه ووافقه على الدعاء إلى الله ، وإلى توحيده والإيمان به ، قال مجاهد وابن عباس أي على

منهاجه وسنته ، قال الأصمعي : الشيعة الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار التي توقد مع الكبار حتى تستوقد ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وما كان بينهما إلا نبيان هود وصالح والذين قبل نوح ثلاثة إدريس وشيث وآدم ، فجملة من قبل إبراهيم من الأنبياء ستة ، والمعنى كان من أتباعه في أصل الدين وإن اختلفت فروع شرائعهما أو كان بين شريعتهما اتفاق كلي أو أكثري ، وإن طال الزمان ، وقال الفراء: المعنى وإن من شيعة محمد لإبراهيم ، فالهاء على هذا في شيعته لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وكذا قال الكلبي ، ولا يخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق .

﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ أي مخلص من الشرك والشك أو من آفات القلوب وقيل: هو الناصح لله في خلقه ، وقيل: الذي يعلم أن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من في القبور ، ومعنى مجيئه إلى ربه يحتمل وجهين أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته ، والثاني عند إلقائه في النار ، وجاء استعارة تصريحية تبعية. شبه إخلاصه قلبه بمجيئه بتحفة كأنه جاء به تحفة من عنده في أنه فاز بما يستجلب به رضاه ، والظرف في قوله إذا جاء منصوب بفعل محذوف ، أي أذكر ، وقيل: بما في الشيعة من معنى المتابعة ، قال أبو حيان: لا يجوز لأن فيه الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو إبراهيم ، والأولى أن يقال إن لام الابتداء تمنع ما قبلها عن العمل فيما بعدها .

﴿ إذ ﴾ أو وقت إذ ﴿ قال لأبيه ﴾ آزر ﴿ وقومه ﴾ من الكفار ﴿ ماذا ﴾ أي أيُّ شيء ﴿تعبدون .أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾ انتصاب(إفكاً)على أنه مفعول لأجله أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك ، وتقديم هذه المعمولات للفعل عليه للاهتمام ، وقيل: انتصاب(إفكاً) على أنه مفعول به لتريدون والآلهة بدل منه جعلها نفس الإفك مبالغة ، وهذا أولى من الوجه الأول ، وقيل . أتريدون آلهة آفكين أو ذوي إفك.قال المبرد: الإفك أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبت ويضطرب ، ومنه ائتفكت بهم الأرض .

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وما ترونه يصنع بكم وهو تحذير مثل قوله : ﴿ ما غرك بربك الكريم ؟ ﴾ وقيل : المعنى أي شيء توهمتموه بالله حتى أشركتم به غيره ؟ .

﴿ فنظر نظرة في النجوم ﴾ أي إليها ﴿ فقال إني سقيم ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم لتلزمهم الحجة في أنها غير معبودة ، وكان لهم في الغد يوم عيد يخرجون إليه ، وأراد أن يتخلف عنهم فاعتل بالسقم ، وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم فنظر إلى النجوم أي في علمها أو في كتبها يريهم أنه مستدل بها على حاله : فلما نظر إليها قال : إني سقيم أي مشارف للسقم .

وقال الحسن : إنهم لما كلفوه أن يخرج معهم تفكر فيما يعمل فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأي أي فيما طلع له منه فعلم أن كل شيء يسقم فقال : إني سقيم ، قال الخليل والمبرد : يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره نظر في النجوم ، وقيل: كانت الساعة التي دعوه إلى الخروج معهم فيها ساعة تعتاده فيها الحمى ، وقال الضحاك : معنى إني سقيم سأسقم سقم الموت لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ، ثم يموت ، وهذا تورية وتعريض كما قال للملك لما سأله عن سارة : هي أختي يعني أخوة الدين .

وقال سعيد بن جبير : أشار لهم إلى مرض يسقم ويعدي وهو الطاعون ، وكانوا يهربون من ذلك .

قال ابن عباس : سقيم أي مريض ، وقال أيضاً : مطعمون ولهذا قال : ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ أي تركوه وذهبوا مخافة العدوى .

﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ يقال: راغ يروغ روغاً وروغاناً إذا مال، ومنه طريق رائغ أي مائل ، وقال السدي : ذهب إليهم ، وقال أبو مالك : جاء إليهم ، وقال الكلبي: أقبل عليهم ، والمعنى متقارب . وكانت اثنين وسبعين صنماً من حجر وخشب وذهب وفضة ونحاس وحديد ورصاص ، وكان كبيرها من ذهب مكللاً بالجواهر ﴿ فقال ﴾ إبراهيم للأصنام التي راغ إليها استهزاء وسخرية ﴿ ألا تأكلون ؟ ﴾ من الطعام الذي كانوا يصنعونه لها وخاطبها كما يخاطب من يعقل لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة وكذا قوله :

﴿ ما لكم لا تنطقون ؟ ﴾ فإنه خاطبهم خطاب من يعقل والاستفهام للتهكم بهم ، لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق ، قيل: إنهم تركوا عند أصنامهم طعامهم للتبرك بها وليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم ، وقيل: تركوه للسدنة ، وقيل : إن إبراهيم هو الذي قرب إليها الطعام مستهزئاً بها .

﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ أي فمال عليهم ضربهم ضرباً ، مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أو هو مصدر لراغ لأنه بمعنى ضرب ، قال الواحدي : قال المفسرون يعني بيده اليمنى يضربهم بها : وقال السدي : بالقوة والقدرة لأن اليمين أقوى اليدين ، قال الفراء وثعلب : ضرباً بالقوة واليمين القوة ، وقال الضحاك والربيع ابن أنس : المراد باليمين اليمين التي حلفها حين قال : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ وقيل: المراد باليمين هنا العدل كما في قوله: ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بالعدل ، واليمين كناية عن العدل كما أن الشمال كناية عن الجور وأولى هذه الأقوال أُولاها .

﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ أي أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون لما

علموا بما صنعه بها فقالوا نحن نعبدها وأنت تكسرها ، ويزفون في محل نصب على الحال حال من فاعل أقبلوا ، قرأ الجمهور بفتح الياء من زف الظليم يزف إذا عدا بسرعة ، وقرئ: بضم الياء من أزف يزف أي دخل في الزفيف ، أو يحملون غيرهم على الزفيف .

قال الأصمعي : أزففت الإبل أي حملتها على أن تزف ، وقيل :هما لغتان يقال : زف القوم وأزفوا وزفت العروس وأزففتها حكي ذلك عن الخليل ، قال النحاس :زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة ، يعني يزفون بضم الياء ، وقد عرفها جماعة من العلماء منهم الفراء وشبهها بقولهم: اطردت الرجل أي صيرته إلى ذلك ، وقال المبرد: الزفيف الإسراع .

قال الزجاج: الزفيف أول عدو النعام وقال قتادة والسدي معنى يزفون يمشون وقال الضحاك يسعون ، وقال يحيى بن سلام: يرعدون غضباً ، وقال مجاهد :يختالون أي يمشون مشي الخيلاء ، وقيل :يتسللون تسللاً بين المشي والعدو والأولى تفسيره بيسرعون ، وقال ابن عباس :يزفون يخرجون وقرىء :يزفون على البناء للمفعول ؛ وقرىء :على زنة يرمون ، وحكى الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السميفع أنهم قرأوا يرفون بالراء المهملة وهي ركض بين المشي والعدو ولما أنكروا على إبراهيم ما فعله بالأصنام ذكر لهم الدليل الدال على فساد عبادتها و ﴿ قال ﴾ مبكتا لهم ومنكراً عليهم:

﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها ، والنحت النجر والبري؛ نحته ينحته بالكسر نحتاً أي براه والنحاتة البراية ، ووجه التوبيخ ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبوداً البتة فإذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه عن هيئته ، فلو صار معبوداً لهم عند ذلك لزم أن الشيء الذي لم يكن معبوداً إذا حصل فيه آثار صار معبوداً وفساده واضح .

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾

﴿ والله خلقكم وما تعلمون ﴾ أي وخلق الذي تصنعونه على العموم ويدخل فيها الأصنام التي تنحتونها دخولاً أولياً ويكون معنى العمل هنا التصوير والنحت ونحوهما نحو عمل الصائغ السوار ، أي صاغه ويرجحه ما قبله ، أي أتعبدون الذي تنحتون ، أو خلقكم وخلق عملكم ، وجعلها الأشعرية دليلاً على خلق أفعال العباد لله تعالى وهو الحق ، فإن فعلهم كان بخلق الله فيهم فكان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك ، ويرجح على الأول بعدم الحذف ، ويجوز أن تكون (ما) استفهامية أي أيُّ شيء تعملون ، ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقريع ، ويجوز أن تكون نافية ، أي أن العمل في الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئاً وقد طول صاحب الكشاف الكلام في رد قول من قال إنها مصدرية ، ولكن بما لا طائل تحته ، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام ، والجملة إما حالية أو مستأنفة .

﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كالجملة التي قبلها ، قالوا هذه المقالة لما عجزوا عن جواب ما أورده عليهم من الحجة الواضحة فتشاوروا فيما بينهم أن يبنوا له حائطاً من حجارة ويملأوه حطباً ويضرموه ، ثم يلقوه فيه ، والجحيم النار الشديد الاتقاد. قال الزجاج: وكل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم ، والألف واللام في جحيم عوض عن المضاف إليه أي في جحيم ذلك البنيان ، ثم لما ألقوه فيها نجاه الله منها وجعلها عليه برداً وسلاماً وهو معنى قوله : ﴿ فأرادوا به كيداً ﴾ مكراً وحيلة أي احتالوا لإهلاكه .

﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ أي المقهورين المغلوبين بإبطال كيدهم وجعله

برهاناً نيراً على علو شأنه ، لأنها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرون على دفعها ولا يمكنهم جحدها ، فإن النار الشديدة الاتقاد ، العظيمة الاضطرام ، المتراكمة الجمار ، إذا صارت بعد إلقائه فيها برداً وسلاماً ولم تؤثر فيه أقل تأثير كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل . وصار المنكر له سافلاً ساقط الحجة ، ظاهر التعصب ، واضح التعسف ، وسبحان من يجعل المحن لمن يدعو إلى دينه منحاً ، ويسوق إليهم الخير بما هو من صور الضير .

﴿ و ﴾ لما انقضت هذه الواقعة وأسفر الصبح لذي عينين ، وظهرت حجة الله لإبراهيم ، وقامت براهين نبوته وسطعت أنوار معجزته .

﴿ قال : إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي مهاجر من مولدي وبلد قومي الذين فعلوا ما فعلوا تعصباً للأصنام وكفراً بالله وتكذيباً لرسله إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه أو إلى حيث أتمكن من عبادته ، وهذه الآية أصل في الهجرة والعزلة وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام وذلك حين خلصه الله من النار .

﴿سيهدين﴾ فيما نويت إلى المكان الذي أمرني بالذهاب إليه أو إلى مقصدي ، وقيل : ذاهب بعملي وعبادتي وقلبي ونيتي ، فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن والأول أظهر ، قيل : إن الله سبحانه أمره بالمصير إلى الشام وقد سبق بيان هذا في سورة الكهف مستوفى قال ابن عباس : قال هذا حين هاجر قال مقاتل فلما قدم الأرض المقدسة سأل ربه الولد فقال:

﴿ رب هب لي﴾ ولداً صالحاً ﴿ من الصالحين ﴾ يعينني على طاعتك ويؤنسني في الغربة . هكذا قال المفسرون ، وعللوا ذلك بأن الهبة قد غلب معناها في الولد ، فتحمل عند الإطلاق عليه ، وإذا وردت مقيدة حملت على ما قيدت به ، كما في قوله:﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ وعلى فرض أنها لم تغلب في طلب الولد فقوله :

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي
أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ يدل على أنه ما أراد بقوله : ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ إلا الولد ، والمعنى: بشرناه به على لسان الملائكة الذين جاؤوا له في صورة الأضياف ، ثم انتقلوا من قريته إلى قرية لوط كما تقدم في هود ، ويأتي في الذاريات ، ومعنى حليم أن يكون حليماً عند كبره فكأنه بشر ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر ويصير حليماً لأن الصغير لا يوصف بالحلم ، قال الزجاج : هذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر وأنه يبقى حتى ينتهي في السن ويوصف بالحلم .

﴿فلما بلغ معه السعي﴾ في الكلام حذف كما تشعر به هذه الفاء الفصيحة النقد فوهبنا له الغلام فنشأ حتى صار إلى السن التي يسعى فيها مع أبيه في أمور دنياه معيناً له على أعماله. قال مجاهد: أي لما شب وأدرك سعيه سعي إبراهيم ، قال ابن عباس : شب حتى بلغ سعيه سعي أبيه في العمل ، وقال مقاتل: لما مشى معه ، قال الفراء: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة ، وقال الحسن: هو سعي العقل الذي تقوم به الحجة ، وقال ابن زيد: هو السعي في العبادة ، وقيل: هو الاحتلام .

﴿قال﴾ إبراهيم لابنه لما بلغ ذلك المبلغ : ﴿يا بني﴾ بفتح الياء وكسرها سبعيتان ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ أي أفعل الذبح ، أو أومر به فهما احتمالان ويشير للثاني قوله : افعل ما تؤمر ، ويشير للأول : قد صدقت الرؤيا ، والمعنى إني رأيت في المنام هذه الرؤيا .

قال مقاتل : رأى إبراهيم ذلك ثلاث ليال متتابعات ، قال قتادة : رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا شيئاً فعلوه وقد اختلف أهل العلم في الذبيح هل هو إسحق أو إسماعيل عليهما السلام ، قال القرطبي : فقال أكثرهم : الذبيح إسحق وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب ، وابنه عبد الله وهو الصحيح عن ابن مسعود ورواه أيضاً عن جابر وعلي وابن عمر وعمر بن الخطاب قال : فهؤلاء سبعة من الصحابة. قال : ومن التابعين وغيرهم علقمة والشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير وكعب الأحبار ، وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي برزة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهري والسدي وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس كلهم قالوا : الذبيح إسحق ، وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى ، واختاره غير واحد منهم النحاس وابن جرير الطبري وغيرهما .

قال: وقال آخرون هو إسماعيل وممن قال بذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً كما سيجيء ومن التابعين سعيد بن المسيب والشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وعلقمة .

وعن الأصمعي قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحق بمكة ، وإنما كان إسماعيل بمكة ، قال ابن كثير في تفسيره : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحق وحكي ذلك عن طائفة من السلف حتى يقال: عن بعض الصحابة وليس في ذلك كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وأخذ مسلماً من غير حجة ، وكتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، وقال بعد ذلك ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾ انتهى .

واحتج القائلون بأنه إسحق بأن الله عز وجل قد أخبرهم عن إبراهيم حين فارق قومه وهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال : ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ أنه دعا فقال : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ وقال تعالى :﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ ولأن الله قال : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ فذكر أنه في الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم ، وإنما بشر بإسحق لأنه قال: وبشرناه بإسحق وقال هنا : بغلام حليم ، وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن يصير له إسماعيل ، وليس في القرآن أنه بشر بولد إلا إسحق ، قال الزجاج :الله أعلم أيهما الذبيح انتهى ، وهذا مذهب ثالث وهو الوقف عن الجزم بأحد القولين وتفويض علم ذلك إلى الله تعالى ، وما استدل به الفريقان يمكن الجواب عنه ، والمناقشة له .

ومن جملة ما احتج به القائلون بأنه إسماعيل أن الله وصفه بالصبر دون إسحاق ، كما في قوله:﴿ واسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ وهو صبره على الذبح ووصفه بصدق الوعد في قوله:﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به ، ولأن الله سبحانه قال: ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً ﴾ فكيف يأمره بذبحه ، وقد وعده أن يكون نبياً ، وأيضاً فإن الله قال :﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ فكيف يؤمر بذبح إسحق قبل إنجاز الوعد في يعقوب . وأيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة فدل على أن الذبيح إسماعيل .

ولو كان إسحق لكان الذبح واقعاً ببيت المقدس وكل هذا إيضاً يحتمل المناقشة والمسألة ليست من العقائد التي كلفنا بمعرفتها فلا نسأل عنها في القيامة فهي مما لا ينفع علمه ، ولا يضر جهله . وزعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل، وعنه قال: المفدي إسماعيل وهو الأظهر ، وعنه قال : فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين ، وعن ابن عمر قال: «إسماعيل ذبح عنه

إبراهيم الكبش » .

وعن الفرزدق الشاعر قال: « رأيت أبا هريرة يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: إن الذي أمر بذبحه إسماعيل » ، وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال نبي الله داود يا رب أسمع الناس يقولون رب إبراهيم وإسحق ويعقوب فاجعلني رابعاً ، قال: إن ابراهيم ألقي في النار فصبر من أجلي ، وإن إسحق جاد لي بنفسه ، وإن يعقوب غاب عنه يوسف ، وتلك بلية لم تنلك » .

أخرجه البزار وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه وفي إسناده الحسن بن دينار البصري وهو متروك . .

عن علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ، وأخرج الديلمي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه ، وعن ابن مسعود قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذبيح إسحق »[1] أخرجه الدارقطني في الأفراد والديلمي .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً مثله ، وعن ابن مسعود قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم « من أكرم الناس ؟ قال يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله » ، أخرجه الطبراني وابن مردويه .

وعن ابن مسعود موقوفاً مثله وعن العباس مثله أخرجه البخاري في تاريخه وغيره في غيره ، وعن علي قال كبش أعين أبيض أقرن قد ربط بسمرة في أصل ثبير ، وعن ابن عباس قال فدي إسماعيل بكبشين أملحين أقرنين أعينين .

وبما سقناه من الاختلاف في الذبيح هل هو إسحق أو إسماعيل ؟ وما استدل به المختلفون في ذلك تعلم أنه لم يكن في المقام ما يوجب القطع أو يتعين رجحانه تعيناً ظاهراً وقد رجح كل قول طائفة من المحققين المنصفين

(١) وانظر ما كتبه ابن الجوزي في زاد المسير ص ٧٢/٧ .

كابن جرير فإنه رجح أنه إسحق ، ولكنه لم يستدل على ذلك إلا ببعض ما سقناه ههنا وكابن كثير فإنه رجح أنه إسماعيل وجعل الأدلة على ذلك أقوى وأصح وليس الأمر كما ذكره فإنها إن لم تكن دون أدلة القائلين بأن الذبيح إسحق لم تكن فوقها ولا أرجح منها ، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك شيء ، وما روي عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جداً ولم يبق إلا مجرد استنباطات من القرآن كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، وهي محتملة ولا تقوم حجة بمحتمل ، فالوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته ، وفيه السلامة من الترجيح بلا مرجح ومن الاستدلال بالمحتمل .

﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ قرىء: بضم التاء الفوقية وكسر الراء والمفعولان محذوفان أي انظر ماذا تريني إياه من صبرك واحتمالك ، وقرىء: بفتح التاء والراء من الرأي ، وهو مضارع رأيت وقرىء ترى بضم التاء وفتح الراء مبنياً للمفعول ، أي ماذا يخيل إليك ويسنح لخاطرك ؟ قال الفراء: في بيان معنى القراءة : الأولى انظر ماذا ترى من صبرك وجزعك .

وقال الزجاج : لم يقل هذا أحد غيره وإنما قال العلماء : ماذا تشير أي ما تريك نفسك من الرأي ؟ وقال أبو عبيد : إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة ، وكذا قال أبو حاتم ، وغلطهما النحاس . وقال : هذا يكون من رؤية العين وغيرها ، ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله وإلا فرؤيا الأنبياء وحي وامتثالها لازم لهم متحتم عليهم .

﴿ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ به مما أوحي إليك من ذبحي و(ما) موصولة . وقيل : مصدرية على معنى افعل أمرك ، والمصدر مضاف إلى المفعول وتسمية المأمور بـه أمراً والأول أولى ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ على ما ابتلاني به من الذبح ، والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبرك بها منه .

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿فلما أسلما﴾ أي استسلما لأمر الله وأطاعاه، وانقادا له وخضعا، قرأ الجمهور: أسلما، وقرأ علي وابن مسعود وابن عباس: فلما سلما أي فوضا أمرهما إلى أمر الله، وروي عن ابن عباس أنه قرأ: استسلما، قال قتادة: أسلم أحدهما نفسه لله، وأسلم الآخر ابنه، يقال: سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد، وقد اختلف في جواب (لما) ماذا هو؟ فقيل محذوف تقديره: ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما، أو فديناه بكبش، هكذا قال البصريون، وقال الكوفيون: الجواب هو ناديناه، والواو زائدة مقحمة، واعترض عليهم النحاس بأن الواو من حروف المعاني ولا يجوز أن تزاد، وقال الأخفش: الجواب وتله للجبين والواو زائدة، وروي هذا أيضاً عن الكوفيين، ويرد عليه اعتراض النحاس كما ورد على الأول.

﴿وتله للجبين﴾ أي صرعه وأسقطه على شقه، وقيل: هو الرمي بقوة وأصله من رماه على التل، وهو المكان المرتفع، أو من التليل وهو العنق، أي رماه على عنقه، ثم قيل: لكل إسقاط وإن لم يكن على تل ولا على عنق، وفي القاموس: تله تلا من باب قتل فهو متلول وتليل صرعه وألقاه على عنقه وخده، يقال: تللت الرجل إذا ألقيته، والتل الصرع والدفع، والمراد أنه أضجعه على جبينه على الأرض، والجبين ما انكشف من الجبهة قاله السمين.

وفي المصباح: الجبين ناحية الجبهة من محاذاة النزعة إلى الصدغ، وهما جبينان عن يمين الجهة وشمالها، قاله الأزهري وابن فارس وغيرهما فتكون الجبهة بين جبينين، وجمعه جبن بضمتين مثل بريد وبرد، وأجبنة مثل أسلمة، وقيل: المعنى كبه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه، واختلف في

الموضع الذي أراد ذبحه فيه فقيل: هو مكة في المقام ، وقيل في المنحر بمنى عند الجمار ، وقيل : على الصخرة التي بأصل جبل ثبير ، وقيل بالشام .

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أي عزمت على الإتيان بما رأيته ، قال المفسرون: لما أضجعه للذبح نودي من الجبل يا إبراهيم الخ وجعله مصدقاً بمجرد العزم ، وإن لم يذبحه لأنه قد أتى بما أمكنه ، والمطلوب استسلامهما لأمر الله ، وقد فعلا. قال القرطبي: قال أهل السنة: إن نفس الذبح لم يقع ولو وقع لم يتصور رفعه ، فكان هذا من باب النسخ قبل الفعل ، لأنه لو حصل الفراغ من امتثال الأمر بالذبح ما تحقق الفداء ، قال: ومعنى صدقت الرؤيا فعلت ما أمكنك ، ثم امتنعت لما منعناك ، هذا أصح ما قيل في هذا الباب ، وقالت طائفة: ليس هذا مما ينسخ بوجه لأن معنى ذبحت الشيء قطعته ، وقد كان إبراهيم يأخذ السكين فيمر بها على حلقه فتنقلب كما قال مجاهد .

وقال بعضهم: كان كلما قطع جزءاً التأم وقالت طائفة منهم السدي: ضرب الله على عنقه صفحة نحاس فجعل إبراهيم يحز ولا يقطع شيئاً وهذا كله جائز في القدرة الإلهية ، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح فإنه أمر لا يدرك بالنظر وإنما طريقه الخبر ، ولو كان قد جرى ذلك لبينه الله تعظيماً لرتبة اسماعيل وإبراهيم وكان أولى بالبيان من الفداء .

وقال بعضهم: إن إبراهيم ما أمر بالذبح الحقيقي الذي هو فري الأوداج وإنهار الدم ، وإنما رأى أنه أضجعه للذبح فتوهم أنه أمر بالذبح الحقيقي فلما أتى بما أمر به من الاضجاع قيل له: قد صدقت الرؤيا وهذا كله خارج عن المفهوم . ولا يظن بالخليل والذبيح أن يفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة ، حتى يكون منهما التوهم ، وأيضاً لو صحت هذه الأشياء لما احتيج الى الفداء .

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : « لما أراد إبراهيم أن يذبح إسحق

قال لأبيه : إذا ذبحتني فاعتزل لا أضطرب فينتضخ عليك دمي ، فشده فلما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودي من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » ، واخرج أحمد عنه مرفوعاً مثله مع زيادة ، وأخرجه عنه موقوفاً .

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه قال : « فلما أسلما سلما ما أمرا به وتله وضع وجهه إلى الأرض فقال: لا تذبحني وأنت تنظر ، عسى أن ترحمني فلا تجهز علي ، وأن أجزع فأنكص فأمتنع منك ، ولكن اربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي إلى الأرض فلما أدخل يده ليذبحه فلم تحل المدية حتى نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رؤيا الأنبياء وحي»، أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه البخاري وغيره من قول عبيد بن عمير ، واستدل بهذه الآية .[1]

﴿إنا كذلك﴾ أي كما جزيناك ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي نجزيهم بامتثال الأمر بالخلاص من الشدائد والسلامة من المحن . فالجملة كالتعليل لما قبلها قال مقاتل: جزاه الله سبحانه بإحسانه في طاعته العفو عن ذبح ابنه .

﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ الابتلاء والبلاء الاختبار والمعنى إن هذا هو الاختبار الظاهر حيث اختبره الله في طاعته بذبح ابنه وقيل: إن هذا لهو النعمة الظاهرة حيث سلم الله ولده من الذبح وفداه بالكبش. يقال: أبلاه الله إبلاء وبلاء إذا أنعم عليه والأول أولى وإن كان الابتلاء يستعمل في الاختبار بالخير والشر ومنه: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ ولكن المناسب للمقام المعنى الأول قال أبو زيد : هذا في البلاء الذي نزل به في أن يذبح ولده ، قال: وهذا من البلاء المكروه .

(١) زاد المسير ٧/٧٣ .

وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ
نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ
مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾

﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ الذبح اسم المذبوح ، وجمعه ذبوح كالطحن اسم للمطحون ، وبالفتح المصدر ، ومعنى عظيم عظيم القدر ، ولم يرد عظيم الجثة وإنما عظم قدره لأنه فدى به الذبيح أو لأنه متقبل ، قال النحاس : العظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف ، وأهل التفسير على أنه ههنا للشريف ، أي المتقبل ، قال الواحدي: قال أكثر المفسرين ومنهم ابن عباس: « أنزل عليه كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً » ، وقال الحسن ما فدي إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه ، قال الزجاج: قد قيل إنه فدي بوعل والوعل التيس الجبلي ، ومعنى الآية جعلنا الذبح فداء له وخلصناه به من الذبح ، قال ابن عباس : بكبش عظيم متقبل ، قيل: قد بقي قرناه معلقين على الكعبة إلى أن احترق البيت في زمن ابن الزبير ، قال الشعبي :رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة .

وقال ابن عباس : والذي نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد يبس. انتهى . ومن المعلوم المقرر أن كل ما هو من الجنة لا تؤثر فيه النار فلم يطبخ لحم الكبش بل أكلته السباع والطيور تأمل .

قال أبو السعود : لما ذبحه السيد إبراهيم قال جبريل : الله أكبر الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح : لا اله إلا الله والله أكبر ، فقال إبراهيم :الله أكبر ولله الحمد ، فبقي هذا سنة انتهى . عن ابن عباس:«أن رجلاً قال : نذرت لأذبح نفسي فقال ابن عباس : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ثم

تلا : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ فأمره بكبش فذبحه » وقد استشهد أبو حنيفة بهذه الآية فيمن نذر بذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة .

﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي في الأمم الآخرة التي تأتي بعده ولا وقف عليه لأن قوله : ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ مفعول وتركنا ، والسلام الثناء الجميل وقال عكرمة : سلام منا ، وقيل : سلامة من الآفات ، والكلام في هذا كالكلام في قوله : سلام على نوح في العالمين وقد تقدم في هذه السورة بيان معناه .

﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله ، ولم يقل : إنا كذلك هنا ، كما في غيره لأنه قد سبق في هذه القصة فاستخف بتركه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أي الذين أعطوا العبودية حقها ورسخوا في الإيمان بالله وتوحيده .

﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾ أي بشرنا إبراهيم بولد يولد له ويصير نبياً بعد أن يبلغ السن التي يتأهل فيها لذلك ، ونبياً منصوب على الحال ، وهي حال مقدرة . وقال ابن عباس : إنما بشر نبياً حين فداه الله من الذبح ، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده .

قال الزجاج : إن كان الذبيح إسحق فيظهر كونها مقدرة والأولى أن يقال : إن من فسر الذبيح بإسحق جعل البشارة هنا خاصة بنبوته . وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه ، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة ، فإن وجود ذي الحال ليس بشرط وإنما الشرط المقارنة للفعل وقوله : ﴿ من الصالحين ﴾ كما يجوز أن يكون صفة (لنبياً) يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه فتكون أحوالاً متداخلة .

﴿ وباركنا عليه ﴾ أي على إبراهيم ﴿ وعلى إسحق ﴾ بمرادفة نعم الله عليهما وقيل : كثرنا أولادهما وقيل : إن الضمير في عليه يعود إلى اسماعيل وهو بعيد . وقيل : المراد بالمباركة هنا هي الثناء الحسن عليهما إلى يوم القيامة . وقيل : أخرجنا من صلبه ألف نبي أولهم يعقوب وآخرهم عيسى .

﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ أي محسن في عمله بالإيمان والتوحيد، وظالم لها بالكفر والمعاصي، لما ذكر الله سبحانه البركة في الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف والمحتد المبارك، ليس بنافع لهم ولا يجري أمر الخبث والطيب على العرق والعنصر.

فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر، بل انما ينتفعون بأعمالهم لا بآبائهم فإن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال المبين، وإن العرب وإن كانوا من ولد إسماعيل فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام، وفيه تنبيه على أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه، ولما فرغ سبحانه من ذكر إنجاء الذبيح من الذبح وما منّ عليه بعد ذلك من النبوة ذكر ما منّ به على موسى وهرون فقال:

﴿ ولقد مننّا على موسى وهرون ﴾ يعني بالنبوة وغيرها من النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهما ﴿ ونجيناهما وقومهما ﴾ المراد بقومهما هم المؤمنون من بني إسرائيل ﴿ من الكرب العظيم ﴾ هو ما كانوا فيه من استعباد فرعون اياهم، وما كان يصيبهم من جهته من البلاء، وقيل: هو الغرق الذي أهلك فرعون وقومه، والأول أولى.

﴿ ونصرناهم ﴾ جاء بضمير الجمع. قال الفراء: الضمير لموسى وهرون وقومهما لأن قبله: ﴿ونجيناهما وقومهما﴾ وقيل: الضمير عائد على الاثنين موسى وهارون تعظيماً لهما. والأول أولى ﴿ فكانوا ﴾ بسبب نصرنا وتأييدنا ﴿ هم الغالبين ﴾ على عدوهم من القبط بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم وهم تأكيد أو بدل أو فصل وهو الأظهر.

﴿ وآتيناهما الكتاب ﴾ أي التوراة ﴿ المستبين ﴾ البين الظاهر فيما أتى به من الحدود. والأحكام. يقال: استبان كذا أي صار بيناً.

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾

﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي القيم الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام فإنه الطريق الموصلة إلى الحق والصواب عقلاً وسمعاً أو إلى المطلوب وهو الجنة ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين سلام ﴾ منا ﴿ على موسى وهرون ﴾ أي أبقينا عليهما في الأمم المتأخرة الثناء الجميل وقد قدمنا الكلام في السلام وكذلك تقدم في هذه السورة تفسير قوله ﴿ إنا كذلك ﴾ أي كما جزيناهما ﴿ نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لإحسانهما بالإيمان وإظهار لجلالة قدره وأصالة أمره .

﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ قال المفسرون هو نبي من أنبياء بني إسرائيل وقصته مشهورة مع قومه ، قيل : وهو إلياس بن ياسين من سبط هرون أخي موسى ، قال ابن إسحق وغيره : كان إلياس هو القيم بأمر بني إسرائيل بعد يوشع ، وقال قتادة : هو إدريس ، وقيل: هو ابن عم اليسع والأول أولى .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الخضر هو الياس »[1]

(١) ضعيف الجامع ٢٩٤٠ .

أخرجه ابن مردويه ، قرىء: إلياس بهمزة مكسورة مقطوعة ويـوصلها وهمـا سبعيتان وتوجيههما أنه اسم أعجمي تلاعبت به العرب فقطعوا همزته تارة ووصلوها أخرى . وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب : وإن إدريس لمن المرسلين ، وقرىء:إبليس وقالوا فيه : إلياسين كإسرافيل قيل: في الإلياس والخضر : إنهما حيان وقيل : إلياس وكّل بالفيافي كما وكّل الخضر بالبحار ، قال السيوطي في الاتقان قال وهب : إن إلياس عمر كما عمر الخضر وأنه يبقى إلى آخر الدنيا أ هـ .

وقال الحسن البصري: قد هلكا ولا نقول كما يقول الناس إنهما حيان وهو الراجح نظراً في الأدلة والله أعلم ، وعلمه أتم وأحكم .

ثم اختلف في كون الخضر نبياً مرسلاً أو نبياً فقط أو هو من الأولياء ، وأما إلياس فهو نبي مرسل باتفاق ، وذكر الثعلبي أنه كان إلياس على صفة موسى في الغضب والقوة ، نشأ نشأة حسنة يعبد الله ، جعله الله نبياً رسولاً وآتاه آيات وسخر له الجبال والأسود وغيرهما ، وتوهم قوم أن اليسع هو إلياس وليس كذلك لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذكر وقال وهب:اليسع صاحب إلياس وكانا قبل زكريا ويحيى وعيسى وقيل: إلياس هو إدريس وهذا غير صحيح لأن إدريس جد نوح وإلياس من ذريته ، وقيل: إلياس هو الخضر وقيل:لا بل الخضر هو اليسع .

﴿ إذ ﴾ ظرف لقوله لمن المرسلين أو متعلق بمحذوف أي:اذكر يا محمد إذ ﴿ قال لقومه ألا تتقون ﴾ عذاب الله ، ثم أنكر عليهم بقوله : ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ هو اسم لصنم كانوا يعبدونه أي: أتعبدون صنماً وتطلبون الخير منه ؟ قال ثعلب:اختلف الناس في قوله سبحانه(بعلاً)فقالت طائفة:البعل هنا الصنم وكان الشيطان يدخل في جوفه ويتكلم بالضلال والخدمة يحفظونه ويعلمونه الناس ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه فاعتنوا به وعظموه حتى أخدموه بأربعمائة خادم ، وجعلوهم أبناءه .

وقالت طائفة:البعل هناك ملك ، وقال اسحق امرأة كانوا يعبدونها ، قال الواحدي والمفسرون يقولون: رباً وهو بلغة اليمن يقولون للسيد والرب البعل قال النحاس: القولان صحيحان أي أتدعون صنماً عملتموه رباً.وكان موضعه يقال له:بك فركب وصار:بعلبك وهو من بلاد الشام .

﴿ وتذرون أحسن الخالقين ﴾ أي تتركون عبادة أحسن من يقال له : خالق بأي معنى كان كما قاله الآمدي،وانتصاب الاسم الشريف في قوله : ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ على أنه بدل من أحسن هذا على قراءة حمزة والكسائي والربيع بن خيثم وابن أبي إسحق وغيرهم منهم قرأوا بنصب الثلاثة الأسماء ، وقيل: النصب على المدح . وقيل : على عطف البيان ، وحكى أبو عبيد:أن النصب على النعت.قال النحاس : وهو غلط ، وإنما هو بدل ولا يجوز النعت لأنه ليس بتحلية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وغيرهما بالرفع . قال أبو حاتم:بمعنى هو الله ربكم ، قال النحاس وأولى ما قيل أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف ، وحكي عن الأخفش: أن الرفع أولى وأحسن. قال ابن الأنباري:من رفع او نصب لم يقف على أحسن الخالقين على جهة التمام لأن الله مترجم عن أحسن الخالقين على الوجهين جميعاً ، والمعنى أنه خالقكم وخالق من قبلكم فهو الذي تحق له العبادة .

﴿ فكذبوه فإنهم ﴾ بسبب تكذيبه ﴿ لمحضرون ﴾ في العذاب أو في النار ، وقد تقدم أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي من كان مؤمناً به من قومه ، قرىء بكسر اللام وفتحها كما تقدم ، والمعنى:على الكسر أنهم أخلصوا لله وعلى الفتح أن الله استخلصهم من عباده ، والاستثناء متصل ، وفيه دلالة على أن في قومه من لم يكذبه فلذلك استثنوا ، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين ﴾ قرأ نافع وابن عامر: بإضافة آل بمعنى آل ياسين ، وقرأ الباقون

بكسر الهمزة وسكون اللام موصولة بياسين إلا الحسن فإنه قرأ: الياسين بإدخال آلة التعريف على ياسين ، قيل : المراد على هذه القراءة كلها الياس ، وعليه وقع التسليم ، ولكنه اسم أعجمي ، والعرب تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويكثر تغييرهم لها .

قال ابن جني: العرب تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً ؛ فياسين وإلياس وإلياسين شيء واحد ، قال الأخفش : العرب تسمي قوم الرجل باسم الرجل الجليل منهم ، فيقولون المهالبة على أنهم سموا كل رجل منهم بالمهلب ، قال : فعلى هذا أنه سمي كل رجل منهم بالياسين . قال الفراء : نذهب بالياسين إلى أن نجعله جمعاً فنجعل أصحابه داخلين معه في اسمه ، قال أبو علي الفارسي : تقديره الياسيين إلا أن اليائين للنسبة حذفتا كما حذفتا في الأشعرين والأعجمين ورجح الفراء وأبو عبيدة قراءة الجمهور ، قالا: لأنه لم يقل في شيء من السور على آل فلان ، إنما جاء بالاسم كذلك الياسين ، لأنه إنما هو بمعنى الياس أو بمعنى الياس وأتباعه .

وقال الكلبي : المراد بآل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الواحدي : وهذا بعيد لأن ما بعده من الكلام وما قبله لا يدل عليه ، قال ابن عباس : نحن آل محمد آل ياسين . وقيل : آل القرآن لأن ياسين من أسماء القرآن ، وفيه بعد بعيد .

وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي كما جزيناه ببقاء سيرته الحسنة في الآخرين وتقدم أيضاً تفسير قوله : ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ مستوفى .

﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين ﴾ قد تقدم ذكر قصة لوط عليه السلام مستوفى ﴿ إذ نجيناه وأهله أجمعين ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو اذكر ، ولا يصح تعلقه بالمرسلين لأنه لم يرسل وقت تنجيته .

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾
وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ
﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ قد تقدم أن الغابر يكون بمعنى الماضي ويكون بمعنى الباقي . فالمعنى: إلا عجوزاً في الباقين في العذاب أو الماضين الذين قد هلكوا ﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم بالعقوبة والمعنى :أن في نجاته وأهله جميعاً إلا العجوز وتدمير الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا به دلالة بينة على ثبوت كونه من المرسلين .

﴿ وإنكم لتمرون عليهم ﴾ خاطب بهذا العرب أو كفار مكة على الخصوص أي تمرون على منازلهم التي فيها آثار العذاب ﴿ مصبحين ﴾ أي داخلين في وقت الصباح وهو من أصبح التامة ﴿ وبالليل ﴾ المعنى تمرون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام ورجوعكم منه نهاراً وليلاً ، والوقف عليه مطلق والباء للملابسة .

﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم ، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين وموعظة للمتدبرين . وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام كما ختم قصة من قبلهما لأن الله تعالى قد سلم على جميع المرسلين في آخر السورة فاكتفى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام .

﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ يونس هو ذو النون وهو ابن متى ، قال

المفسرون : وكان يونس قد وعد قومه العذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج عنهم وقصد البحر وركب السفينة ، فكان بذهابه إلى البحر كالفار من مولاه فوصف بالإباق وهو معنى قوله : ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ أي المملوء وأصل الإباق الهرب من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به فهو استعارة تصريحية أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق وقال المبـــرد: تأويل ابق تباعد أي ذهب إليه . ومن ذلك قولهم عبد أبق . وقد اختلف أهل الـعلم: هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه أو بعده ؟ .

﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ المساهمة: أصلها المغالبة وهي الاقتراع ، وهو أن يخرج السهم على من غلب ، قال المبرد : أي فقارع أهل السفينة ، قال: وأصله من السهام التي تجال ، والمعنى: فصار من المغلوبين. قال : يقال دحضت حجته وأدحضها الله وأصله من الزلق عن مقام الظفر ، قال ابن عباس اقترع فكان من المقروعين .

وعنه قال بعث الله يونس إلى أهل قريته فردوا عليه ما جاءهم بـه فامتنعوا منه ، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه أني مرسل إليهم العذاب في يوم كذا وكذا فاخرج من بين أظهرهم فأعلم قومه الذي وعد الله من عذابه إياهم فقالوا : ارمقوه فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم ، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبيحتها أدلج فرآه القوم فحذروا فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله وانتظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مر به مار ، فقال : ما فعل أهل القرية ؟ قال : إن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب فخرجوا من القرية إلى براز من الأرض ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها ، ثم عجوا إلى الله وتابوا فتقبل منهم ، وأخر عنهم العذاب ، فقال يونس عند ذلك: لا أرجع إليهم كذاباً

ابداً ، ومضى على وجهه.أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .

ومعنى هذه المساهمة أن يونس لما ركب السفينة احتبست. فقال الملاحون

ههنا عبد أبق من سيده وهذا رسم السفينة إذا كان فيه آبق لا تجري ، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس. فقال : أنا الآبق وزج نفسه في الماء وقد قدمنا الكلام على قصته وما روي فيها في سورة يونس فلا نكرره .

﴿ فالتقمه الحوت ﴾ يقال: لقمت اللقمة والتقمتها إذا ابتلعتها أي فابتلعه الحوت ومعنى ﴿ وهو مليم ﴾ هو مستحق للوم ، يقال رجل مليم إذا أتى بما يلام عليه . وأما الملـوم فهو الذي يلام سواء أتى بما يستحق أن يلام عليه أم لا ، وقيل: المليم المعيب يقال : ألام الرجل إذا عمل شيئاً صار به معيباً ، وقيل :داخل في الملامة ، وقال ابن عباس :المليم المسيىء ، قال سعيد بن جبير لما استهموا جاء حوت إلى السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربه حتى إذا ألقى نفسه في الماء أخذه الحوت .

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ أي الذاكرين لله أو المصلين له أو من القائلين ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ الآية ، وقيل: من العابدين ، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة ، وقال الحسن: ما كانت له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملاً صالحاً فشكر الله تعالى له طاعته القديمة .

﴿ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أي لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث وقيل للبث في بطنه حياً ، واختلف المفسرون كم أقام في بطن الحوت ؟ فقال السدي والكلبي ومقاتل بن سليمان :أربعين يوماً ، وقال الضحاك :عشرين يوماً ، وقال عـطاء: سبعة أيام ، وقال مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام ، وقيـل: ساعة واحدة ؛ وقيـل: التقمة ضحى ولفظه عشية وفي هذه الآية ترغيب في ذكر الله وتنشيط للذاكرين له .

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ
إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ
ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ
﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿فنبذناه بالعراء﴾ النبذ الطرح ، والعراء قال ابن الاعرابي هو الصحراء وقال الأخفش: الفضاء وقال أبو عبيدة: الواسع من الأرض ، وقال الفراء: المكان الخالي وروي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال: هو وجه الأرض ، وقيل: الأرض الخالية عن الشجر والنبات ، وقيل: بالساحل ، قاله ابن عباس ؛ والمعنى أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها ، أو أمرنا الحوت بنبذه وإنما أضاف النبذ إلى نفسه وإن كان الحوت هو النابذ لأن أعمال العباد مخلوقة لله .

﴿وهو﴾ عند إلقائه ﴿سقيم﴾ لما ناله في بطن الحوت من الضرر ، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد ، وقيل: كالفرخ الممعط أي المنتوف شعره وقيل كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم تبق له قوة ، وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله ﴿فنبذناه بالعراء﴾ وقوله في موضع آخر ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾ فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء ، وأجاب النحاس وغيره بأن الله سبحانه أخبر ههنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم ، ولولا رحمته عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم .

﴿وأنبتنا عليه شجرة﴾ فوقه تظلل عليه ، وقيل: معنى عليه عنده ، وقيل:

معنى عليه له أي مظلة له ﴿ من يقطين ﴾ هو شجرة الدباء وقال المبرد:اليقطين يقال لكل شجرة ليس لها ساق ، بل يمتد على وجه الأرض نحو الدباء والبطيخ والحنظل ، فإن كان لها ساق تقلها فيقال لها شجرة فقط ، وهذا قول الحسن ومقاتل وغيرهما ، وقال سعيد بن جبير: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه قال الجوهري: اليقطين ما لا ساق له من الشجر كشجر القرع ونحوه. قال الزجاج: اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان أي أقام به؛ فهو يفعيل. وقيل: هو اسم أعجمي.

قال المفسرون: كان يستظل بظلها من الشمس وقيض الله له أروية من الوحش تروح عليه بكرة وعشية فكان يشرب من لبنها حتى اشتد لحمه ونبت شعره ثم أرسله الله بعد ذلك ، قال ابن عباس:يقطين القرع . وعليه الجمهور وفائدته أن الذباب لا يجتمع عنده . وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً .

قال ابن جزي: وخص الله القرع لأنه يجمع برد الظل ، ولين الملمس ، وكبر الورق ، وأن الذباب لا يقربه فإن جسد يونس حين ألقي لم يكن يتحمل الذباب ، وقيل : اليقطين شجرة التين ، وقيل: الموز ، وقال سعيد بن جبير : اليقطين كل شيء يذهب على وجه الأرض ، وعنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت وهو معنى قوله : ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر وجرى له ما جرى بعد هربه ، كما قصه الله علينا في هذه السورة : وهم أهل نينوى .

قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل قبل أن يصيبه ما أصابه و﴿ أو﴾ في قوله أو يزيدون ، قيل بمعنى الواو ، والمعنى ويزيدون ، وقال الفراء:أو ههنا بمعنى بل وهو قول مقاتل والكلبي وأبي عبيدة ، وقال المبرد والزجاج والأخفش:أو ههنا على أصله والمعنى أو يزيدون في تقديركم إذا رآهم الرائي ، قال هؤلاء:مائة ألف أو يزيدون ، فالشك إنما دخل على حكاية قول المخلوقين وقرأ جعفر بن محمد:ويزيدون بدون ألف الشك .

قال السمين الشك بالنسبة إلى المخاطبين ، والإبهام بالنسبة إلى أن الله أبهم أمرهم . والإباحة بالنسبة إلى الناظر ، وكذلك التخيير أي هو مخير بين أن يحزرهم كذا أو كذا .

وقد وقع الخلاف بين المفسرين هل هذا الإرسال هو الذي كان قبل التقام الحوت له وتكون الواو وأرسلناه لمجرد الجمع بين ما وقع له مع الحوت وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق ، وتأخير ما تأخر ، أو هو إرسال له بعدما وقع له من الحوت ما وقع ، على قولين وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم: هل كان قد أرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر ؟ أو لم يرسل إلا بعد ذلك ؟ .

والراجح أنه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس ، وبقي مستمراً على الرسالة .

وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ورسالته. قال سعيد ابن جبير: انما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت ، ثم تلا: (فنبذناه بالعراء) الى قوله (إلى مائة ألف أو يزيدون)، وقد تقدم ما يدل على أن رسالته كانت من قبل ذلك ، وليس في الآية ما يدل على ما ذكره كما قدمنا .

وقيل: يجوز أن يكون إرساله إلى قوم آخرين غير القوم الأولين وفيه بعد وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله هذا قال : « يزيدون عشرين ألفاً » قال الترمذي غريب .

وكذا روي عن الكلبي ومقاتل وعن ابن عباس قال: يزيدون ثلاثين ألفاً ، وروي عنه أنهم يزيدون بضعة وثلاثين ألفاً ، وكذا روي عن الحسن وروي عن ابن عباس: أنهم يزيدون بضعة وأربعين ألفاً وقال سعيد بن جبير : سبعين ألفاً ولا يتعلق بالخلاف في هذا كثير فائدة .

﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ أي وقع منهم الإيمان بعدما شاهدوا أعلام نبوته فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ، ومنتهى أعمارهم . ولما كانت قريش وقبائل من العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتائهم على طريقة التقريع والتوبيخ فقال : ﴿ فاستفتهم ﴾ أي استخبرهم يا محمد .

﴿ ألربك البنات ولهم البنون ؟ ﴾ أي كيف يجعلون لله على تقدير صدق ما زعموه من الكذب أدنى الجنسين ؟ وأوضعهما وهو الإناث ولهم أعلاهما وأرفعهما وهم الذكور ، وهل هذا إلا حيف في القسمة لضعف عقولهم وسوء إدراكهم ؟ ومثله قوله : ﴿ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم فقال :

﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه في التبكيت والتهكم بهم ، أي كيف جعلوهم إناثاً وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم ، وهذا كقوله : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ؟ ﴾ فبين سبحانه أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ، ولم يشهدوا ولا دل دليل على قولهم من السمع ، ولا هو مما يدرك بالعقل حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم ثم أخبر سبحانه عن كذبهم فقال :

﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الأمر بالاستفتاء مسوق لإبطال مذهبهم الفاسد ببيان أنه ليس مبناه إلا الإفك الصريح ، والافتراء القبيح من دون دليل ولا شبهة دليل ؛ فإنه لم يلد ولم يولد ، قرأ الجمهور:ولد الله فعلاً ماضياً مسنداً إلى الله وقرىء:بإضافة ولد إلى الله على أنه خبر مبتدأ محذوف ؛ أي يقولون:الملائكة ولد الله ، والولد بمعنى مفعول يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ، ثم كرر سبحانه تقريعهم وتوبيخهم فقال :

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ
ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾
فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ
مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾

﴿ أصطفى البنات على البنين ؟ ﴾ قرأ الجمهور: بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري وقد حذف معها همزة الوصل استغناء بها عنها ، وقرىء بهمزة وصل تثبت ابتداء وتسقط درجاً ، ويكون الاستفهام منوياً قاله الفراء وحذف حرفه للعلم به من المقام ، أو على أن اصطفى وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول ، وعلى تقدير عدم الاستفهام والبدل فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام كما في قوله : ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ وقيل : هو على إضمار القول والاصطفاء أخذ صفوة الشيء.

﴿ ما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ جملتان استفهاميتان ليس لإحداهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب استفهمهم أولاً عما استقر لهم ، وثبت استفهام إنكار ، وثانياً استفهام تعجب من هذا الحكم الذي حكموا به ، والمعنى أي شيء ثبت لكم كيف تحكمون لله بالبنات ؟ وهو القسم الذي تكرهونه ولكم بالبنين وهو القسم الذي تحبونه ﴿ أفلا تذكرون ؟ ﴾ أي تتذكرون والمعنى ألا تعتبرون وتتفكرون فتتذكرون بطلان قولكم .

﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ أي حجة واضحة ظاهرة على هذا الذي تقولونه ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من مسند حسي أو عقلي ، وحيث انتفى كلاهما فلا بد من مستند نقلي ، وهو إضراب عن توبيخ إلى توبيخ ،

وانتقال من تقريع إلى تقريع ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ أي فأتوا بحجتكم الواضحة على هذا أو فأتوا بالكتاب الذي ينطق لكم بالحجة ويشتمل عليها ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولونه .

﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ التفات للغيبة للإيذان بانقاطعهم عن درجة الخطاب ، واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ، وتحكى جناياتهم للآخرين قال أكثر المفسرين : إن المراد بالجنة هنا الملائكة ، قيل لهم : جنة لأنهم لا يرون ، وقال مجاهد : هم بطن من بطون الملائكة يقال لهم : الجنة ، وقال أبو مالك: إنما قيل لهم الجنة لأنهم خزان على الجنان ، والنسب الصهر قال قتادة والكلبي :قالوا لعنهم الله إن الله صاهر الجن . فكانت الملائكة من أولادهم قالا : والقائل بهذه المقالة اليهود ، وقال مجاهد والسدي ومقاتل: إن القائل بذلك كنانة وخزاعة ، قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن ، وقال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه . وقال ابن عباس: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ أي علموا أن هؤلاء الكفار الذين قالوا هذا القول يحضرون النار . ويعذبون فيها لكذبهم في قولهم ذلك ، والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان أن الذين ادعى هؤلاء لهم تلك النسبة ، ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم في ذلك ، ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكماً مؤبداً وقيل : علمت الجنة أنهم أنفسهم يحضرون للحساب والأول أولى لأن الإحضار إذا أطلق فالمراد به العذاب ، وقيل: المعنى ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون إلى الجنة ، ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه الكريمة فقال :

﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أو هو حكاية لتنزيه الملك لله عز وجل عما وصفه به المشركون ذكره العمادي ، وأشار له أبو السعود . والاستثناء في قوله ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ منقطع ، والتقدير: لكن عباد الله المخلصين بريئون

عن أن يصفوا الله بشيء من ذلك ، وقد قرىء:بفتح اللام وكسرها ومعناهما ما بيناه قريباً ، وقيل هو استثناء من المحضرين أي إنهم يحضرون النار إلا من أخلص فيكون متصلاً لا منقطعاً ، قاله أبو البقاء . وعلى هذا تكون جملة التسبيح معترضة ، ثم خاطب الكفار على العموم أو كفار مكة على الخصوص فقال :

﴿ فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ أي فإنكم وآلهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بفاتنين على الله بإفساد عباده ، وإضلالهم ، وعلى متعلقة بفاتنين والواو في وما تعبدون إما للعطف على اسم إن أو هو بمعنى مع وما موصولة أو مصدرية أي فإنكم والذي تعبدون أو وعبادتكم ومعنى فاتنين مضلين ، يقال: فتنت الرجل وأفتنته ويقال فتنه على الشيء وبالشيء كما يقال : أضله على الشيء ، وأضله به ، قال الفراء: أهل الحجاز يقولون فتنته ، وأهل نجد يقولون: أفتنته ، ويقال:فتن فلان على فلان امرأته ، أي أفسدها عليه ، فالفتنة هنا بمعنى الإضلال والإفساد ، قال مقاتل: يقول ما أنتم بمضلين أحداً بآلهتكم إلا من قدر الله له أن يصلى الجحيم .

و(ما) في (ما أنتم) نافية . (وأنتم) خطاب لهم ولمن يعبدونه على التغليب ، قال الزجاج: أهل التفسير مجمعون فيما علمت أن المعنى ما أنتم بمضلين أحداً إلا من قدر الله عز وجل عليه أن يضل ، والجملة تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين ببيان عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام .

﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي إلا من سبق له في علم الله الشقاوة وأنه سيدخل النار ، والاستثناء مفرغ قاله السمين . وهذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فهو استثناء من المفعول المقدر ، وقال ابن عباس:في الآية إنكم يا معشر المشركين وما تعبدون يعني الآلهة ما أنتم عليه بمضلين إلا من سبق في علمه أنه سيصلى الجحيم ، وعنه قال:يقول إنكم لا تضلون أنتم ولا أضل منكم إلا من قضيت عليه أنه صال الجحيم وعنه قال:لا تفتنون إلا من

هو صال الجحيم ، قرأ الجمهور:صال بكسر اللام لأنه منقوص مضاف حذفت الياء لالتقاء الساكنين وحمل على لفظ من فأفرد كما أفرد هو .

وقرأ الحسن وابن أبي عبلة:بضم اللام مع واو بعدها ، وروي عنهما أنهما قرآ:بضم اللام بدون الواو ، فأما مع الواو فعلى أنه جمع سلامة بالواو حملاً على معنى من ، وحذفت نون الجمع للاضافة ، وأما بدون الواو فيحتمل أن يكون جمعاً ، وإنما حذفت الواو خطأ كما حذفت لفظاً ، ويحتمل أن يكون مفرداً وحقه على هذا كسر اللام .

قال النحاس وجماعة أهل التفسير يقولون:إنه لحن لأنه لا يجوز هذا قاضي المدينة ، والمعنى أن الكفار وما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحد من عباد الله إلا من هو من أهل النار وهم المصرون وإنما يصر على الكفر من سبق القضاء عليه بالشقاوة ، وأنه ممن يصلى النار أي يدخلها . ثم قال الملائكة مخبرين للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله سبحانه عنهم ﴿ وما منا ﴾ في الكلام حذف والتقدير وما منا أحد أو وما منا ملك .

﴿ إلا له مقام معلوم ﴾ في عبادة الله ، وقيل:التقدير وما منا إلا من له مقام معلوم ، رجح البصريون التقدير الأول ، ورجح الكوفيون الثاني . قال الزجاج هذا قول الملائكة وفيه مضمر ، والمعنى وما منا ملك إلا له مقام معلوم يعبد ربه فيه لا يتجاوزه ، وقيل: مقام معلوم في القربة والمشاهدة ، وقيل: يعبد الله على مقامات مختلفة كالخوف والرجاء والمحبة والرضاء ، والأول أولى ، وقيل: هو من كلام النبي والمؤمنين ، أي وما منا إلا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله في القيامة ، وفيه بعد ثم قالوا:

﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ أي في مواقف الطاعة أو حول العرش ، داعين للمؤمنين ، قال قتادة: هم الملائكة صفوا أقدامهم ، وقال الكلبي: صفوف الملائكة في السماء كصفوف أهل الدنيا في الأرض ، أو نحن الصافون له في الصلاة ، وهذا على القول الثاني أنهم المؤمنون ، والأول أظهر .

وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ أي المنزهون لله المقدسون له عما أضافه إليه المشركون ، وقيل: المصلون ، وقيل: المراد بقولهم (المسبحون) مجموع التسبيح باللسان وبالصلاة ، والمقصود: أن هذه الصفات هي صفات الملائكة ، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله .

وعن ابن عباس قال: هذه الملائكة وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم » وذلك قول الملائكة ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ﴾ اخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وغيرهم .

وعن العلاء ابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد ، ثم قرأ: وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون » أخرجه محمد بن نصر وابن عساكر .

وعن ابن مسعود قال : « إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائماً أو ساجداً ، ثم قرأ : وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، إن السماء أطت وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله » ،[1] قيل : الأطيط أصوات الأقتاب ، وقيل :

---

(١) روى مسلم في صحيحه ٣٧١/١ عن حذيفة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا بصفوف الملائكة . . . .

أصوات الإبل وحنينها .

وقد ثبت في الصحيح وغيره: «أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بأن يصفوا كما تصف الملائكة عند ربهم ، فقالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : يقيمون الصفوف المقدمة ويتراصون في الصف». قال القرطبي : قال مقاتل : هذه الآيات الثلاث نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أهنا تفارقني ؟ فقال جبريل : ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني هذا . وأنزل الله حكاية عن قول الملائكة :﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ إلى آخرها».

﴿ وإن كانوا ليقولون ﴾ إن مخففة من الثقيلة ، وفيها ضمير شأن محذوف ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، أي وإن الشأن كان كفار العرب ليقولون الخ ، وهذا رجوع إلى الإخبار عن المشركين . أي كانوا قبل المبعث المحمدي إذا عيروا بالجهل قالوا :

﴿ لو أن عندنا ذكراً من الأولين ﴾ أي كتاباً من كتبهم كالتوراة والإنجيل ﴿ لكنا عباد الله المخلصين ﴾ أي لأخلصنا العبادة له ، ولم نكفر به كما كفروا فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب .

﴿ فكفروا به ﴾ قال ابن عباس : لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأولين ، وعلم الآخرين ؛ كفروا بالكتاب والفاء هي الفصيحة الدالة على محذوف مقدر في الكلام ، قال الفراء : تقديره فجاءهم محمد بالذكر ، فكفروا به ، وهذا على طريق التعجب منهم ، ونظير ذلك قوله : في سورة فاطر : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾ والمراد بالنذير الرسول ، وقد قيل هنا : إن الذكر هو الرسول ﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة كفرهم ومغبة تكذيبهم ، وما يحل بهم من الانتقام ، وفي هذا تهديد لهم شديد .

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ
﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا
نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ مستأنفة مقررة للوعيد وتصديرها بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونها أي وبالله والمراد بالكلمة ما وعدهم الله به من النصر والغلبة والظفر على الكفار. قال مقاتل: عنى بالكلمة قوله سبحانه: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وقال الفراء: سبقت كلمتنا بالسعادة لهم، والأولى تفسير هذه الكلمة بما هو مذكور هنا فإنه قال: ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ فهذه هي الكلمة المذكورة سابقاً وهذا تفسير لها وإنما سماها كلمة وهي كلمات لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة فهو مجاز من إطلاق الجزء على الكل.

﴿ وإن جندنا ﴾ المراد بجند الله حزبه وهم الرسل وأتباعهم، والجند الأنصار والأعوان والجمع أجناد وجنود، والواحد جندي، فالياء للوحدة مثل روم ورومي وجند بفتحتين بلد باليمن. قال الشيباني: جاء هنا على الجمع يعني قوله:

﴿ لهم الغالبون ﴾ من أجل أنه رأس آية، وهذا الوعد لهم بالنصر والغلبة لا ينافيه انهزامهم في بعض المواطن، وغلبة الكفار لهم، فإن الغالب في كل موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبتهم لهم فخرج الكلام مخرج الغالب على أن العاقبة المحمودة لهم على كل حال، وفي كل موطن كما قال سبحانه: ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ والمراد الوعد بعلوهم على عدوهم، في مقادم

الحجاج وملاحم القتال في الدنيا . وعلوهم عليهم في الآخرة ، وعن ابن عباس :إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى ، والحاصل أن قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة ، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة فالعبرة للغالب ، ويعطي الأكثر حكم الكل ويلحق القليل بالعدم أو الغلبة باعتبار عاقبة الحال ، وملاحظة المآل ، ثم أمر سبحانه رسوله بالإعراض عنهم والإغماض عما يصدر منهم من الجهالات والضلالات فقال :

﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ أي أعرض عنهم إلى مدة معلومة عند الله سبحانه وهي مدة الكف عن القتال ، قال السدي ومجاهد : حتى نأمرك بالقتال وقال قتادة : إلى الموت . وقيل : إلى يوم بدر ، وقيل : إلى يوم فتح مكة.قيل هذه الآية منسوخة بآية السيف والأول أولى ؛ وكان صلى الله عليه وسلم أول الأمر مأموراً بالتبليغ والإنذار والصبر على أذى الكفار تأليفاً لهم . ثم أمر بالجهاد في السنة الثانية من الهجرة . قال ابن حجر رحمه الله :وغزواته صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة ، قاتل في ثمان منها بنفسه: بدر وأحد والمصطلق والخندق وقريظة ؛ وخيبر ، وحنين ، والطائف أهـ.

﴿ وأبصرهم ﴾ إذا نزل بهم العذاب بالقتل والأسر ؛ وما هيأنا لهم ﴿ فسوف يبصرون ﴾ ذلك عن قريب حين لا ينفعهم الإبصار ؛ وسوف هنا للوعيد لا للتبعيد ؛ إذ ليس المقام مقامه ، كما تقول : سوف أنتقم منك ؛ وأنت متهيء للانتقام ؛ قاله الكرخي ولذا عبر بالإبصار عن قرب الأمر كأنه حاضر قدامه . مشاهد له . خصوصاً إذا قيل : إن الأمر للفور ، وقيل : يبصرون العذاب يوم القيامة ؛ ثم هددهم سبحانه بقوله : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ؟ ﴾ كانوا يقولون من فرط تكذيبهم: متى هذا العذاب؟.

﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ إذا نزل عذاب الله لهم بفنائهم والساحة في اللغة فناء الدار الواسع الخالي من الأبنية وجمعها سوح ، قال الفراء:نزل بهم ، نزل بساحتهم سواء ؛ قال الزجاج: وكان عذاب هؤلاء بالقتل ، قيل: المراد به

نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم يوم فتح مكة شبه العذاب بجيش هجم عليهم ؛ فأناخ بفنائهم بغتة وهم في ديارهم . ففي الضمير المستتر في نزل استعارة بالكناية والنزول تخييل.قرأ الجمهور:نزل مبنياً للفاعل . وقرىء:مبنياً للمفعول والجار والمجرور قائم مقام الفاعل .

﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ أي بئس صباح الذين أنذروا بالعذاب ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي صباحهم وخص الصباح بالذكر لأن العذاب كان يأتيهم فيه وإن وقع في وقت آخر ، وفي التعبير بالمنذرين إقامة الظاهر مقام المضمر واللام للجنس لا للعهد فإن افعال الذم والمدح تقتضي الشيوع للإبهام والتفصيل فلا يجوز أن تقول:بئس الرجل هذا ونعم الرجل هذا إذا أردت رجلاً بعينه .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : « صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وقد خرجوا بالمساحي فلما نظروا إليه قالوا : محمد والخميس ، فقال : الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » الحديث .

ثم كرر سبحانه ما سبق تأكيداً للوعد بالعذاب وتسلية على تسلية : فقال :

﴿ وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون ﴾ حذف مفعول أبصر هنا وذكره أولاً إما لدلالة الأول عليه . فتركه هنا اختصاراً أو قصداً إلى التعميم للإيذان بأن ما يبصره من أنواع عذابهم لا يحيط به الوصف ،وقيل: هذه الجملة المراد بها أحوال القيامة والجملة الأولى: المراد بها عذابهم في الدنيا وعلى هذا فلا يكون من باب التأكيد ، بل من باب التأسيس ، ثم نزه سبحانه نفسه عن قبيح ما يصدر منهم فقال :

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ العزة الغلبة والقوة والمراد تنزيهه عن كل ما يصفونه ، مما لا يليق بجنابه الشريف ورب العزة بدل من

ربك ، وأضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل : ذي العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه به، وقيل: المراد العزة المخلوقة الكائنة بين خلقه ويترتب على القولين مسألة اليمين، فعلى الأول ينعقد بها اليمين لأنها صفة من صفاته بخلاف الثاني، فإنه لا ينعقد بها اليمين قاله السمين، ثم ذكر ما يدل على تشريف رسله وتكريمهم فقال .

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي الذين أرسلهم إلى عباده ، وبلغوا رسالاته وهو من السلام الذي هو التحية ، وقيل معناه : أمن لهم وسلامة من المكاره .

أخرج ابن سعد وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سلمتم على المرسلين فسلموا عليّ فإنما أنا بشر من المرسلين » .

وعن أنس مرفوعاً نحوه بأطول منه عند ابن مردويه وعمم الرسل بالسلام بعدما خص البعض في السورة لأن في تخصيص كل بالذكر تطويلاً .

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ إرشاد لعباده إلى حمده على إرسال رسله إليهم مبشرين ومنذرين ، وتعليم لهم كيف يصنعون عند إنعامه عليهم وما يثنون به عليه ، وقيل: إنه الحمد على هلاك المشركين ، ونصر الرسل عليهم ، والأولى: أنه حمد لله سبحانه على كل ما أنعم به على خلقه أجمعين ، كما يفيده حذف المحمود عليه ، فإن حذفه مشعر بالتعميم كما تقرر في علم المعاني، والحمد هو الثناء الجميل لقصد التعظيم .

عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أراد أن يسلم من صلاته قال: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى وابن مردويه .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: كنا نعرف انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة بقوله: سبحان ربك إلى آخرها .

وأخرج الخطيب نحوه من حديث أبي سعيد ، وأخرج الطبراني عن زيد ابن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قال : «دبر كل صلاة سبحان ربك الآيات ثلاث مرات فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر» ، وأخرج حميد بن زنجويه في ترغيبه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه نحوه .

وعن علي رضي الله تعالى عنه : «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك إلى آخرها» ذكره النسفي والخازن، قال النسفي اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوه إليه مما هو منزه عنه وما عاناه المرسلون من جهتهم وما خولوه في العاقبة من النصرة عليهم ، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون والتسليم على المرسلين والحمد لله رب العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب.

خاتمة الجزء
الحادي عشر
تم بعون الله الجزء الحادي عشر من كتاب فتح البيان في
مقاصد القرآن ويليه الجزء الثاني عشر وأوله تفسيرة سورة ص.

فهرس الجزء الحادي عشر

فتح البيان
في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الثاني عشر

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص. ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص. ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ويشتمل على:

- سورة ص.
- سورة الزمر.
- سورة غافر.
- سورة فصلت.
- سورة الشورى
- سورة الزخرف
- سورة الدخان.
- سورة الجاثية.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

وهي مكيّة . قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بمكة وعنه قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقال : « ان ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول . فلو بعثت اليه فنهيته فبعث اليه » فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت . وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل . فخشي أبو جهل أن يجلس الى أبي طالب ويكون أرق عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس . فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب « أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول » قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عم اني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم بها العجم الجزية » . ففزعوا لكلمته ولقوله . فقال القوم « كلمة واحدة نعم وأبيك عشرا » قالوا « فما هي ؟ قال : « لا اله الا الله » فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون « ﴿ اجعل الآلهة آلها واحدا ان هذا لشيء عجاب ﴾[1] فنزل فيهم ص والقرآن ذي الذكر الى قوله بل لما يذوقوا عذاب » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن جرير وابن المنذر .

---

(١) رواه احمد والترمذي ٢/١٥٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ورواه الحاكم ٢/٤٣٢ . الطبري ٢٣/١٢٥ والواحدي ٢٠٩ والسيوطي ٥/٢٩٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن
قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ
كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

﴿ صٓ ﴾ قرأ الجمهور صاد بسكون الدال كسائر حروف التهجي في أوائل السور فإنها ساكنة الأواخر على الوقف ، وقرىء بكسرها من غير تنوين لالتقاء الساكنين ، وهذا أقرب وقيل وجه الكسر أنه من صادى يصادي إذا عارض ، والمعنى صاد القرآن بعملك أي عارضه وقابله ، فاعمل به وهذا حكاه النحاس عن الحسن البصري ، وقال انه فسر قراءته هذه بهذا ، وعنه أن المعنى اتله وتعرض لقراءته ، وقرىء صاد بفتح الدال والفتح لالتقاء الساكنين وقيل نصب على الإغراء وقيل معناه صاد محمد صلى الله عليه وسلم قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو وروي عن أبي إسحق أيضاً أنه قرىء ، صاد بالكسر والتنوين تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات وقرىء صاد بالضم من غير تنوين على البناء نحو منذ وحيث ، كما قرىء به في ق و ن .

وقد بسط السمين الكلام على توجيهه الكل وقال الحفناوي يجوز السكون على الحكاية والفتح لمنع الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار أن هذا الأسم علم على السورة ، والجر مع التنوين نظراً إلى كون السورة قرآنا ويقال لها سورة داود وقد اختلف في معنى صٓ فقال الضحاك معناه صدق الله وقال عطاء صدق محمد صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هو بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين وقال محمد بن كعب هو مفتاح اسم الله وقال قتادة هو اسم من أسماء الله وعنه هو اسم من أسماء الرحمن وقال محمد هو فاتحة السورة

وقال ابن عباس ص محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو مما استأثر الله بعلمه وهو أعلم بمراده به وهذا هو الحق كما قدمنا في فاتحة سورة البقرة قيل وهو اسم للحروف مسروداً على نمط التعديد أو اسم للسورة أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب بإضمار أذكر أو إقرأ .

﴿ والقرآن ﴾ هي واو القسم ، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره وعلو محله ، ومعنى ﴿ ذي الذكر ﴾ أنه مشتمل على الذكر الذي فيه بيان كل شي ، وقال مقاتل ؛ معنى ذي الذكر ذي البيان ، وقال الضحاك وابن عباس ذي الشرف والعظمة ، كما في قوله ﴿ لقد انزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ أي شرفكم أو الشهرة ، وقيل ذي الموعظة ، وقيل فيه ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين ، وقيل فيه ذكر أسماء الله تعالى وتمجيده ، وقيل فيه ذكر العقائد والشرائع والمواعيد ، وجواب القسم قوله ﴿ إن ذلك لحق ﴾ قاله الزجاج والكسائي والكوفيون . وقال الفراء لا نجده مستقيماً لتأخره جداً عن قوله والقرآن . ورجح هو وثعلب أن الجواب قوله ﴿ كم أهلكنا ﴾ وقال الأخفش الجواب هو ﴿ إن كلٌ إلا كذَّب الرسل ﴾ وقيل هو صاد لأن معناه حق فهو جواب لقوله والقرآن كما تقول حقاً والله وجب والله ذكره ابن الأنباري وروي أيضاً عن ثعلب والفراء ، وهو مبني على أن جواب القسم يجوز تقدمه وهو ضعيف ، وقيل الجواب محذوف والتقدير لتبعثن ونحو ذلك ، وقال الحوفي تقديره لقد جاءكم الحق ونحوه ، وقال الزمخشري إنه لمعجز والمحلي ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾[1]

وقال ابن عطية تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار من تعدد الآلهة ، والقول بالحذف أولى ، وقيل إن قوله ص مقسم به وعلى هذا القول تكون الواو في والقرآن للعطف عليه ، ولما كان الإقسام بالقرآن دالا على صدقه ،

(١) وقد رجح الطبري في تفسيره : قول قتادة وجماعة من المفسرين : ان الجواب محذوف تقديره او القرآن ذي الذكر لا كما يقول الكفار ـ والله أعلم :

وأنه حق وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ فأضرب عن ذلك وكأنه قال لا ريب فيه قطعاً ، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه ، بل هم في عـزة عن قبول الحق أي تكبـر وتجبر وشقاق ، أي امتناع عن قبول الحق ، يعني ليس الحامل لهم عليه الدليل ، بل مجرد الحمية والخصام ، والتقليد ، والعزة عند العرب الغلبة والقهر ، يـقال : من عَـزَّ بَزَّ أي من غلب أخذ السلب،ومنه ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ ، أي غلبني ، والشقاق مأخوذ من الشق وهو الخلاف والعداوة ، وقد تقدم بيانه ، والتنكير فيهما للدلالة على شدتها وتفاقمها ، وقرىء في غرة أي في غفله عما يجب عليهم من النظر ، واتباع الحق ، والأول أولى ، ثم خوفهم سبحانه وهددهم بما فعله من قبلهم من الكفار فقال :

﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ يعني الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل ، أي كم أهلكنا الذين كانوا أمنع من هؤلاء ، وأشد قوة ، وأكثر اموالاً و﴿ كم ﴾ هي الخبرية الدالة على التكثير ، وهي في محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به ، ومن قرن تمييز ، و(من) في (من قبلهم) هي لابتـداء الغاية .

﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ النداء هنا هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب بهم ، وليس الحين حين مناص ، قال الحسن نادوا بالتوبة ، وليس حين التوبة ، ولا حين ينفع العمل ، والمناص مصدر ناص ينوص ، وهو الفوت والتأخر ، ولات بمعنى ليس ، بلغة أهل اليمن ، وقال النحاة هي لا التي بمعنى ليس زيدت عليها التاء كما في قولهم رب وربت وثم وثمت قال الفراء النوص التأخر ، وأنشد قول امرىء القيس:

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خـطوة وتبـوص[1]

---

(١) غريب القرآن ٣٧٦ والطبري ٢٣/ ١٢٠ ومختار الشعر الجاهلي ١/ ١٢٧ وديوان امرؤ القيس ١٧٧

قال يقال ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً أي فر وراغ قال الفراء ويقال ناص ينوص إذا تقدم ، وقيل المعنى أنه قال بعضهم لبعض مناص أي عليكم بالفرار والهزيمة ، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص فقال الله ولات حين مناص قال سيبويه والخليل لات مشبهة بليس ، والاسم فيها مضمر ، أي ليس حيننا حين مناص ، وقال الزجاج التقدير وليس أواننا ، قال ابن كيسان والقول قول سيبويه ، والوقف عليها عند الكسائي بالهاء ، وبه قال المبرد والأخفش . وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان وقال الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش التاء تكتب منقطعة عن حين ، وكذلك هي في المصاحف ، وقال أبو عبيدة: تكتب متصلة بحين فقال : ولا تحين ، وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه ، قال أبو عبيدة: لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان ، الآن .

قلت قد يزيدونها في غير ذلك أيضاً ، وقال ابن عباس ليس بحين نزو ولا فرار ، وأخرج ابن أبيّ من طريق عكرمة عنه قال : نادوا النداء حين لا ينفعهم وأنشد :

تذكرت ليلى حين لات تذكر وقد بنت منها والمناص بعيد

وعنه قال : ليس هذا حين زوال ، وعنه قال : لا حين فرار وقرأ الجمهور لات بفتح التاء وقرىء بكسرها كجير وجملة لات حين مناص في محل نصب على الحال من ضمير نادوا .

﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أي عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عزة وشقاق أن جاءهم رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر وأن وما في حيزها محل نصب بنزع الخافض ، أي من أن جاءهم ، وهو كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم.

﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، أي هذا المدعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات ، كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله ، قيل ووضع الظاهر موضع المضمر لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر ، المنهمكون في الغي ، إذ لا كفر أغلظ من أن يسموا من صدقه الله : كاذبا ساحراً ، ويتعجبوا من التوحيد ، وهو الحق الأبلج ، ولا يتعجبوا من الشرك ، وهو باطل لجلج ، ثم أنكروا ما جاء به صلى الله عليه وسلم من التوحيد وما نفاه من الشركاء لله فقالوا :

﴿ أجعل الآلهة ﴾ أي صيرها ﴿ إلهاً واحداً ﴾ وقصرها على الله سبحانه ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ أي الأمر بالغ في العجب إلى الغاية تعجبوا من هذا القصر والحصر وقالوا : كيف يسع الخلق كلهم إله واحد، ومنشؤه أن القوم ما كانوا أصحاب نظر واستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلائق قاسوا الغائب على الشاهد ، وأن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك توهموا أن كونهم على هذه الحال محال أن يكونوا مبطلين فيه ، ويكون الإنسان الواحد محقاً ، فلعمري لو كان التقليد حقاً كانت هذه الشبهة لازمة ، قاله الكرخي .

قال الجوهري : العجيب الأمر الذي يتعجب منه وكذلك العجاب بالضم ، والعجاب بالتشديد أكثر منه ، قرأ الجمهور عجاب بالتخفيف وقرىء بتشديد الجيم ، قال مقاتل : بالتخفيف لغة أزد شنوءة ، قيل : والعجاب بالتخفيف والتشديد يدل على أنه قد يجاوز الحد في العجب كما يقال : الطويل للذي فيه طول والطوال للذي قد تجاوز حد الطول وكلام الجوهري يفيد اختصاص المبالغة بعجاب مشدد الجيم لا بالمخفف وقد قدمنا في صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات .

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾

﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ المراد بالملأ الأشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز ، عن ابن عباس قال : نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب فكلموه في النبي صلى الله عليه وسلم قائلين ، بعضهم للبعض : ﴿ أن امشوا﴾أي امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه .

﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ أي اثبتوا على عبادتها وقيل : المعنى وانطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : امشوا واصبروا على آلهتكم ، وان هي المفسرة للقول المقدر ، أو لقوله :(وانطلق) لأنه مضمن معنى القول ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر ، أو للمذكور ، أي بأن امشوا وقيل : المراد بالانطلاق الاندفاع في القول ، وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها أي اجتمعوا وأكثروا وهو بعيد جداً ، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق والمشي بحقيقتها ، وخلاف ما تقدم في سبب النزول .

وجملة ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر ، أي يريده محمد بنا وآلهتنا ويود تمامه من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه ليعلو علينا ، ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج التحذير منه والتنفير عنه .

وقيل : إن هذا الأمر يريده الله سبحانه ، وما أراده ويحكم بإمضائه فهو كائن لا محالة ، ولا ينفع فيه إلا الصبر فاصبروا على عبادة آلهتكم . وقيل المعنى إن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم ، وتغلبوا عليه أو أن هذا

الأمر شيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه ، أو أمر يراد بأهل الأرض والأول أولى .

﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ الذي يقوله محمد من التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ وهي ملة النصرانية فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام كذا قال محمد بن كعب القرظي وقتادة ومقاتل والكلبي والسدي ، وبه قال ابن عباس ، وقال مجاهد : يعنون به ملة قريش ، أي التي أدركنا عليها آباءنا وعن قتادة مثله وقال الحسن المعنى ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان ، وقيل إن المعنى ما سمعنا من اليهود والنصارى أن محمداً رسول الله .

﴿ إن هذا الا اختلاق ﴾ أي ما هذا إلا كذب اختلقه محمد وافتراه من تلقاء نفسه وافتعله ، ثم استنكروا أن يخص الله رسوله بمزية النبوة دونهم فقالوا : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ والاستفهام للانكار ، أي كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف ، قال الزجاج : قالوا : كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا ؟ ونحن أكبر سناً وأعظم شرفاً منه ، وهذا مثل قولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ فأنكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء . ولما ذكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم دونهم ، بين السبب الذي لأجله تركوا التصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به فقال :

﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ أي من القرآن أو الوحي ، لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه ، وإهمالهم للأدلة الدالة على أنه حق منزل من عند الله ﴿ بل لمّا يذوقوا عذاب ﴾ أي بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابي فاغتروا بطول المهلة . ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك والشك لصدقوا ما جئت به من القرآن ، ولم يشكوا فيه ، وذوقهم له متوقع فإذا ذاقوه زال عنهم الشك ، وصدقوا ، وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ لأنهم صدقوا مضطرين فقوله : بل لما يذوقوا إضراب عن الإضراب الأول خلاف ما يفهم من

الكشاف من تعلقه بالكلامين قبله .

﴿ أم ﴾ أي بل أ ﴿ عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ ﴾ أي مفاتيح نعم ربك وهي النبوة وما هو دونها من النعم ، حتى يعطوها من شاءوا فيها لهم ولإنكار ما تفضل الله به على هذا النبي واختاره له واصطفاه لرسالته والمعنى أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده لا مانع له فإنه العزيز الغالب القاهر الذي لا يغلب الوهاب المعطي بغير حساب ، الذي له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء ثم رشح ذلك فقال :

﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي : بل ألهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاءوا المعنى أنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه ، فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها .

وقوله ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب أي المعارج والمناهج ، والطرق التي توصلهم إلى السماء أو إلى العرش حتى يستووا عليه ويحكموا بما يريدون من عطاء ومنع ويدبروا أمر العالم بما يشتهون أو فليصعدوا وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد صلى الله عليه وسلم .

والأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها ، قاله مجاهد وقتادة ، قال الربيع بن أنس : الأسباب أدق من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا ترى ، وقال السدي في الأسباب في الفضل والدين ، وقيل : فليعملوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة ، وهو قول أبي عبيدة وقيل : الأسباب الحبال أي إن وجدوا حبالا يصعدون فيها إلى السماء فعلوا والأسباب عند أهل اللغة كل شيء يتوصل به إلى المطلوب كائناً ما كان وفي هذا الكلام تهكم بهم وتعجيز لهم ، قال ابن عباس الأسباب السماء أي لأنها أسباب الحوادث السفلية

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو
ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ
رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر عليهم ، والظفر ، و﴿ جند ﴾ مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هم جند حقير ، يعني الكفار مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بهم ، ولا تظن أنهم يصلون إلى شيء مما يضمرونه بك من الكيد ، و(ما) في قوله : ما هنالك هي صفة لجند ، لإفادة التعظيم أو التحقير ، أي جند أي جند ، وقيل هي زائدة ، يقال : هزمت الجيش كسرته ، وتهزمت القرية إذا تكسرت ، وهذا الكلام متصل بما تقدم ، وهو قوله : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون فلا تحزن لعزتهم وشقاقهم ، فإني أسلب عزهم وأهزم جمعهم ، وقد وقع ذلك ولله الحمد في يوم بدر ، وفيما بعده من مواطن الله ، وهو إخبار بالغيب ، وقيل : مشار به إلى نصرة الإسلام ، وقيل : إلى حفر الخندق ، يعني إلى مكان ذلك ، قال الرازي : والأصح عندي حمله على يوم فتح مكة ، لأن المعنى انهم جند سيصيرون مهزومين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات ، وذلك الموضع هو مكة وما ذاك إلا في يوم الفتح .

﴿ كذبت قبلهم ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند من جنسهم بما فعلوا من الكفر والتكذيب ، وفعل بهم من العقاب والعذاب ﴿ قوم نوح ﴾ أي كذبوا رسولهم نوحاً ، وكذا يقدر

فيها بعده ، وتأنيث قوم باعتبار المعنى . وهو أنهم أمة وطائفة وجماعة .

﴿ وعاد وفرعون ذو الأوتاد ﴾ قال المفسرون كانت له أوتاد يعذب بها الناس وذلك أنه كان إذا غضب على أحد وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض ، وقيل : كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ، وما أبرد هذا القول ، وقيل ذو القوة والبطش ، وقيل : المراد بالأوتاد الجموع والجنود الكثيرة ، يعني أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه ، كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا قال ابن قتيبة ، العرب تقول : هم في عز أو في ملك ثابت الأوتاد ويريدون ملكاً دائماً شديداً ، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد ، وقيل : المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم ، أي وفرعون ذو الأبنية المحكمة ، قال الضحاك : والبنيان يسمى أوتاداً والأوتاد جمع وتد ، وفيه لغات أفصحها فتح الواو وكسر التاء ويقال : وتد بفتحهما . وود بإدغام التاء في الدال بوزن وج ، وودت وهي لغة أهل نجد قال الأصمعي : ويقال وتد واتد مثل شغل شاغل .

﴿ وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ﴾ أي الغيضة ، وهي الأشجار الملتفة المجتمعة ، وقد تقدم تفسيرها في سورة الشعراء ومعنى : ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أنهم الموصوفون بالقوة والكثرة كقولهم فلان هو الرجل ، وقريش - وإن كانوا حزباً كما قال الله تعالى فيما تقدم : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عدداً ، وأقوى أبداناً ، وأوسع أموالاً وأعماراً . وقيل ، إن المعنى أن مشركي قريش من أولئك الأحزاب ، وهم هم ، ومنهم وجد التكذيب ، وهذه الجملة مستأنفة أو خبر ، والمبتدأ قوله . وعاد كذا قال أبو البقاء وهو ضعيف ، بل الظاهر أن (عاد) وما بعده معطوفات على قوم نوح ، والأولى أن تكون هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف أو بدلاً من الأمم المذكورة .

﴿ إن كل ﴾ أي ما كل حزب من هذه الأحزاب ﴿ إلا كذب الرسل ﴾

لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل لأن دعوتهم واحدة ، وهي التوحيد ، أو هو من مقابلة الجمع بالجمع ، والمراد تكذيب كل حزب لرسوله ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي ما كان أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ، وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية ، أولا ، وبالاستثنائية ثانياً ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد ، أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ؛ ثم قال :

﴿ فحق عقاب ﴾ أي فحق عليهم عقابي بتكذيبهم . ومعنى حق ثبت ووجب وإن تأخر فكأنه واقع بهم . وكل ما هو آت قريب . وقرىء عقاب بإثبات الياء وحذفها مطابقة لرؤوس الآي . وفي الآية زجر وتخويف للسامعين .

﴿ وما ينظر ﴾ أي ما ينتظر ﴿ هؤلاء ﴾ أي كفار مكة ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي النفخة الكائنة عند قيام الساعة[١] . وقيل : هي النفخة الثانية . وعلى الأول المراد من عاصر نبينا صلى الله عليه وسلم من الكفار . وعلى الثاني المراد كفار الأمم المذكورة أي ليس بينهم وبين ما أعد الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية . وقيل : المراد بالصيحة عذاب يفجأهم في الدنيا وجملة :

﴿ ما لها من فواق ﴾ في محل نصب صفة لصيحة ، قال الزجاج . فواق بفتح الفاء وضمها لغتان بمعنى واحد[٢] ، وهو الزمان الذي بين حلبتي الحالب ، ورضعتي الراضع ، وهو مشتق من الرجوع أيضاً ، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين ، ويقال . أفاق من مرضه أي رجع إلى الصحة ، ولهذا قال مجاهد ومقاتل . إن الفواق الرجوع ، وقال قتادة : ما لها من مثنوية

---

(١) قال ابن كثير : وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى اسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد .

(٢) عن أنس بن مالك قال رسول الله عليه وسلم : العيادة فواق الناقة «رواه السيوطي في الجامع الصغير» .

وقال السدي : ما لها من إفاقة ، وقيل : ما لها من مرد قال الجوهري : ما لها من نظرة وراحة وإفاقة.

وقال ابن عباس : ما لها من رجعة . والفيقة اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين وجمعها فيق وفواق وأما أفاويق فجمع الجمع قال الفراء والسدوسي وأبو عبيدة وابن زيد والسدي الفواق بفتح الفاء الراحة والافاقة أي لا يفيقون فيها كما يفيق المريض والمغشى عليه . وبالضم الانتظار ، ومعنى الآية أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم . فإذا جاءت لم ترجع ولا ترد عنهم ، ولا تصرف منهم ، ولا تتوقف مقدار فواق ناقة ، وهي ما بين حلبتي الحالب لها ، وهذا في المعنى كقوله تعالى ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

﴿ و ﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب ﴿ قالوا ﴾ استهزاء وسخرية ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ والقط في اللغة النصيب من القط ، وهو القطع ؛ وبهذا قال قتادة وسعيد بن جبير ، قال الفراء : القط في كلام العرب الحظ والنصيب ، ومنه قيل للصك قط . قال أبو عبيدة والكسائي . القط الكتاب بالجوائز ، والجمع القطوط ، وأصله من قط الشيء أي قطعه ، ومنه قط القلم ومعنى الآية سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم وحظهم من العذاب ، وهو مثل قوله ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ وقال السدي : سألوا ربهم أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به .

وقال اسمعيل بن أبي خالد : المعنى عجل لنا أرزاقنا ، وبه قال سعيد بن جبير والسدي . وقال أبو العالية والكلبي ومقاتل لما نزل قوله : ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ قالت قريش : زعمت يا محمد أنا نؤتي كتابنا بشمالنا فعجل لنا قطنا يوم الحساب ، قال ابن عباس : سألوا الله أن يجعل لهم ، وقال : قطنا نصيبنا من الجنة ، ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال :

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ من أقوالهم الباطلة التي هذا القول المحكي عنهم من جملتها ، وصن نفسك أن تزل فيها كلفت من مصابرتهم ، وتحمل أذاهم ، قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل محكمة وهو الصحيح . ولما فرغ من ذكر قرون الضلالة وأمم الكفر والتكذيب وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يسمعه ، زاد في تسليته وتأسيته بذكر قصة داود وما بعدها فقال :

﴿ واذكر عبدنا داود الأيد ﴾ أي أذكر قصته فإنك تجد فيها ما تتسلى به ، والأيد : القوة ، قاله ابن عباس ، ومنه رجل أيد أي قوي ، وتأيد الشيء تقوى ، والأيد مفرد بوزن البيع ، وهو مصدر ، وليس جمع يد ، يقال : آد الرجل يئيد أيداً وإياداً بالكسر إذا قوي واشتد ، فهو أيد مثل سيد وهين ، ومنه قولهم : أيدك الله تأييداً والمراد ما كان فيه عليه السلام من القوة على العبادة ، قال الزجاج وكانت قوة داود على العبادة أتم قوة .

ومن قوته ما أخبرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم « أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يصلي نصف الليل ، وكان لا يفر إذا لاقى العدو »[1] .

(١) روى بمعناه البخاري ٣/١٤ ومسلم ٢/٨١٦ باختلاف يسير في ألفاظه وابو داوذ والنسائي وابن ماجة وغيرهم .

وجملة ﴿ إنه أواب ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد ، والأواب الرجاع عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه ، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قوياً في دينه وقيل : معناه كلما ذكر ذنبه استغفر منه وتاب عنه ،. وهذا داخل تحت المعنى الأول ، يقال آب يؤوب إذا رجع . وقال ابن عباس الأواب المسبح بلغة الحبشة .

وأخرج الديلمي عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأواب فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال « هو الذي يذكر ذنوبه في الخلا فيستغفر الله» وعن ابن عباس قال الأواب الموقن .

﴿ إنا سخرنا الجبال معه ﴾ استئناف مسوق لتعليل قوته في الدين ، وكونه رجاعاً إلى مرضاته تعالى ، وإيثار مع على اللام لما أشير إليه في سورة الأنبياء من أن تسخير الجبال لم يكن بطريق التصرف الكلي فيها إليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان بل بطريق التبعية له والاقتداء به ، قيل كان تسخيرها أنها تسير معه إذا أراد سيرها إلى حيث يريد .

﴿ يسبحن ﴾ ولم يقل مسبحات ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً فشيئاً ، وحالاً بعد حال ، أي يقدسن الله سبحانه وينزهنه ، عما لا يليق به . ويسبحن في محل نصب على الحال ، وفي هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان والمعجزة ، وهو تسبيح الجبال معه ، قال مقاتل كان داود إذا ذكر الله ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال ، وقال محمد بن إسحق أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن ، فهذا معنى تسبيح الجبال ، والأول أولى ، ومعنى يسبحن يصلين ، ومعه متعلق بسخرنا .

﴿ بالعشي ﴾ أي وقت صلاة العشاء ﴿ والاشراق ﴾ أي وقت صلاة الضحى وهو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوؤها ، والمعنى كان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وغروبها ، وقال الكلبي أي غدوة وعشية ، يقال أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وذلك وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ،

قال الزجاج شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

عن عطاء الخراساني عن ابن عباس قال لم يزل في نفسي من صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية وعنه قال لقد اتى عليّ زمان وما أدري وجه هذه الآية حتى رأيت الناس يصلون الضحى ، أخرجه ابن المنذر وابن مردويه .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه قال كنت أمر بهذه الآية فما أدري ما هي ، حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب « أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم الفتح فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى ، ثم قال يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق »[1] . والأحاديث في صلاة الضحى كثيرة جداً ، قد ذكرها الشوكاني في شرحه للمنتقى .

﴿ والطير محشورة ﴾ أي وسخرنا له الطير حال كونها محشورة أي مجموعة إليه من كل ناحية ، تسبح الله معه ، قيل كانت تجمعها إليه الملائكة ، وقيل كانت تجمعها الريح ﴿ كل له أواب ﴾ أي كل واحد من داود والجبال والطير رجاع إلى طاعة الله وأمره والضمير في له راجع إلى الله عز وجل ، وقيل إلى داود أي لأجل تسبيح داود مسبح ، فوضع أواب موضع مسبح ، والأول أولى ، وقد قدمنا أن الأواب الكثير الرجوع إلى الله سبحانه .

﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي قويناه وثبتناه بالنصر في المواطن على أعدائه ، وإلقاء الرعب منه في قلوبهم ؛ وقيل بكثرة الجنود ، كان يبيت حول محرابه كل ليلة ستة أو ثلاثة وثلاثون ألف رجل يحرسونه ، وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس « قال استعدى رجل من بني إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم فقال إن هذا غصبني بقراً لي ، فسأل داود الرجل عن ذلك ، فجحده ، فسأل الآخر البينة فلم تكن له بينة فقال لهما

---

(١) راجع ما ذكرناه في سورة النور آية ٣٦ .

داود قوما حتى أنظر في أمركما ، فقاما من عنده ؛ فأتى داود في منامه فقيل له اقتل الرجل الذي استعدى ، فقال إن هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت : فأتى الليلة الثانية في منامه فأمر أن يقتل الرجل فلم يفعل ثم اتى الليلة الثالثة ؛ فقيل له اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله فأرسل داود إلى الرجل فقال إن الله أمرني أن أقتلك قال تقتلني بغير بينة ولا تثبت قال نعم والله لأنفذن أمر الله فيك فقال الرجل لا تعجل عليّ حتى أخبرك أني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت ؛ فأمر به داود فقتل ، فاشتدت هيبته في بني إسرائيل وشدد به ملكه فهو قول الله وشددنا ملكه » .

﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ المراد بها النبوة والمعرفة بكل ما يحكم به ، وقال مقاتل : الفهم والعلم ، وقيل الزبور وعلم الشرائع ، وقيل الإصابة في الأمور وقيل كل كلام وافق الحق فهو الحكمة ، وقال مجاهد : العدل وقال أبو العالية العلم بكتاب الله ، وقال شريح : السنة ، ولا مانع من حمل الآية على الكل .

﴿ وفصل الخطاب ﴾ المراد به الفصل في القضاء ، وبه قال الحسن والكلبي ومقاتل وحكى الواحدي عن الأكثر أن فصل الخطاب الشهود والأيمان لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذه وبه قال أُبي ابن كعب ، وقال علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه البينة على المدعي واليمين على من أنكر . وقيل : الفصل بين الحق والباطل ، وقاله شريح والشعبي وقتادة أيضاً ، وقيل : هو الإيجاز يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وقيل : بيان الكلام ، وقيل علم الحكم والتبصر بالقضاء والمعاني متقاربة .

وعن أبي موسى الأشعري قال : « أول من قال : أما بعد ، داود عليه السلام ، وهو فصل الخطاب » ، أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي ، وعن الشعبي أنه سمع زياد بن أبيه يقول : فصل الخطاب الذي أوتيه داود : أما بعد أخرجه سعيد بن منصور ، ولما مدحه الله سبحانه بما تقدم ذكره أردف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له ، لما فيها من الأخبار العجيبة وقال :

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ
سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا
وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ
لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ
أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾

﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ ومعنى الاستفهام هنا التعجب ، والتشويق إلى استماع ما بعده لكونه أمراً غريباً ، كما تقول لمخاطبك هل تعلم ما وقع اليوم ؟ ثم تذكر له ما وقع قال مقاتل : بعث الله إلى داود ملكين جبريل وميكائيل لينبهه على التوبة فأتياه وهو في محرابه قال النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم هنا الملكان ، والخصم مصدر يقع على الواحد والإثنين والجماعة ، ومعنى قوله :

﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ أتوه من أعلى سوره ، ونزلوا إليه ، والسور الحائط المرتفع ، وجاء بلفظ الجمع في تسوروا مع كونهما اثنين نظراً إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع ، والمحراب الغرفة لأنهم تسوروا عليه وهو فيها ، كذا قال يحيى بن سلام .

وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد ، وقيل : إنهما كان إنسيين ولم يكونا ملكين ، والعامل في إذ النبأ أي هل أتاك الخبر الواقع في وقت تسورهم ؟ وبهذا قال ابن عطية ومكي وأبو البقاء ، وقيل :

العامل فيه . أتاك ، وقيل : معمول للخصم ، وقيل : معمول لمحذوف ، أي وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم .

عن ابن عباس أن داود حدث نفسه إذا ابتلى أنه يعتصم ، فقيل له . إنك ستبتلى وستعلم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك ، فقيل له . هذا اليوم الذي تبتلى فيه فأخذ الزبور ودخل المحراب ، وأغلق باب المحراب ، واخذ الزبور في حجره وأقعد منصفاً يعني خادماً على الباب ، وقال : لا تأذن لأحد عليَّ اليوم فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون للطير فيه من كل لون فجعل يدور بين يديه فدنا منه فأمكن أن يأخذه فتناوله بيده ليأخذه فاستوفز من خلفه فأطبق الزبور ، وقام إليه ليأخذه فطار فوقع على كوة المحراب ، فدنا منه ليأخذه فأفضى فوقع على خص فأشرف عليه لينظر أين وقع ؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت جسدها أجمع بشعرها وكان زوجها غازياً في سبيل الله فكتب داود إلى رأس الغزاة انظر أوريا فاجعله في حملة التابوت ، وكان حملة التابوت ، إما أن يفتح عليهم ، وإما أن يقتلوا ، فقدمه في حملة التابوت فقتل ، فلما انقضت عدتها خطبها داود ، فاشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده ، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل ، وكتبت عليه بذلك كتاباً فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان ، وشب فتسور عليه الملكان المحراب وكان شأنهما ما قص الله في كتابه ، وخر داود ساجداً فغفر الله له ، وتاب عليه . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم[1] .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب قال ، ما أصاب داود ما

---

(١) رواه الطبري من رواية الصوفي عن ابن عباس ٢٣ / ١٤٦ والصوفي ضعيف ورواه عن السدي ٢٣ / ١٤٧ وقال ابن كثير : ولم يثبت عن المعصوم فيها حديث يجب اتباعه واكثرها مأخوذ من الاسرائيليات . وقال عياض في الشفا : فلا يجب ان يلتفت إلى ما سطره الاخباريون عن أهل الكتاب الذين بدّلوا وغيّروا . والله أعلم .

أصابه بعد القدر إلا من عجب بنفسه وذلك أنه قال ، يا رب ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك أو يسبح أو يكبر ، وذكر أشياء فكره الله ذلك فقال ، يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي فلولا عوني ما قويت عليه ، وعزتي وجلالي لأكلنك إلى نفسك يوماً ، قال يا رب فأخبرني به فأخبر به فأصابته الفتنة ذلك اليوم .

وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً بإسناد ضعيف .

وأخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطولة وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين .

قال صاحب الكشاف بعد ذكر هذه القصة هذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء اهـ . . .

وقال القاضي عياض ، لا يجوز أن يلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا نقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح ، والذي نص عليه الله في قصة داود ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه من أمر داود .

قال الرازي : حاصل القصة يرجع إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته وكلاهما منكر عظيم ، فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه السلام هذا ، وقال غيره : إن الله أثنى على داود قبل هذه القصة وبعدها وذلك يدل على استحالة ما نقلوه من القصة فكيف يتوهم عاقل أن يقع بين مدحين ذم ولو جرى ذلك من بعض الناس لاستهجنه العقلاء ، ولقالوا أنت في مدح شخص كيف تجري ذمه أثناء مدحك والله تعالى منزه عن مثل هذا في كتابه القديم .

وروى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علـيّ بن أبي طالب أنه قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء وروى أنه حُدِّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به ، وقال إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك وإن كان على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه فقال عمر سماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس .

قال النسفي : والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصتـه عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب ، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح ، لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل ان التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، مع مراعاة حسن الادب بترك المجاهرة انتهى قال أبو السعود : وأما ما يذكر من أنه عليه السلام تزوج امرأة أوريا فهو إفك مبتدع مكروه ، ومكر مخترع تمجه الأسماع ، وتنفر عنه الطباع ، ويل لمن ابتدعه وأشاعه ، وتباً لمن اخترعه وأذاعه ، وسيأتي الكلام على ذنب داود عليه السلام في آخر هذه القصة .

﴿ إذ ﴾ بدل من الأولى ، وقيل هو معمول لتسوروا ، وقال الفراء إن أحد الظرفين المذكورين بمعنى لما ﴿ دخلوا على داود ففزع منهم ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم ، ودخلوا عليه بغير إذنه ، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس ، قال ابن الأعرابي : وكان محراب داود من الامتناع بالإرتفاع بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة .

﴿ قالـوا لا تخـف ﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل :فماذا قالوا لداود لما فزع منهم ﴿ خصمان ﴾ أي نحن خصمان وجاء فيما سبق بلفظ الجمع ، وهنا

بلفظ التثنية لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد والمثنى والمجموع ، فالكل جائز قال الخليل : هو كما تقول : نحن فعلنا كذا إذا كنتما اثنين : وقال الكسائي جمع لما كان خبراً فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة أخبر الإثنان عن أنفسهما فقالا : خصمان وقوله .

﴿ بغى بعضنا على بعض ﴾ هو على سبيل الفرض والتقدير أو على سبيل التعريض ، لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان ؛ ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق ونهياه عن الجور فقالا :﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ أي لا تجر في حكمك يقال : شط الرجل وأشط شططاً وإشطاطاً إذا جار في حكمه وتجاوز الحد قال أبو عبيدة شططت عليه وأشططت فيه أي جرت فهو مما اتفق فيه فعل وأفعل وقال الأخفش معناه لا تسرف وقيل لا تفرط وقيل لا تمل والمعنى متقارب والأصل فيه البعد من شطت الدار إذا بعدت قال أبو عمر : والشطط مجاوزة القدر في كل شيء .

﴿ وآهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أي وسطه ومحجته أي العدل والصواب ، والمعنى أرشدنا إلى الحق واحملنا عليه ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالاً شرعا في تفصيلها وشرحها فقال : ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة﴾ المراد بالأخوة هنا أخوة الدين ، قاله ابن مسعود، أو الصحبة أو الالفة أو أخوة الشركة والخلطة ، والنعجة هي الأنثى من الضأن ، وقد يقال لبقر الوحش : نعجة ويعبر بها عن المرأة لما هي عليه من السكون والعجز وضعف الجانب وقد يكنّى عنها بالبقرة والحجر والناقة لأن الكل مركوب قال الواحدي النعجة البقرة الوحشية والعرب تكني عن المرأة بها وتشبه النساء بالنعاج من البقر ، قرأ الجمهور تسع وتسعون بكسر التاء ، وقرىء بفتحها ، قال النحاس وهي لغة شاذة ، وإنما عنى بهذا داود لأنه كان له تسع وتسعون امرأة وعنى بقوله :

﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ أوريا زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود[1] كما تقدم بيان ذلك ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ أي ضمها اليّ وانزل لي عنها حتى أكفلها

(١) راجع تعليقات المطيعي رقم ١ في الاستدراك آخر الكتاب .

وأصير بعلاً لها قال ابن كيسان اجعلها كفلي ونصيبي قال ابن مسعود ما زاد داود على أن قال اكفلنيها وعن ابن عباس قال ما زاد داود على أن قال تحول لي عنها وهذا يخالف ما سبق عنه[١] .

﴿ وعزني في الخطاب ﴾ أي غلبني يقال عزه يعزه عزاً إذا غلبه ، وفي المثل من عزّبزّ أي من غلب أخذ السلب ، والإسم العزة ، وهي القوة قال عطاء المعنى إن تكلم كان أفصح مني ، وإن حارب كان أبطش مني لقوة ملكه فالغلبة كانت له عليّ لضعفي في يده ، وإن كـان الحق معي ، وهذا كله تمثيل ، وقرىء وعازني أي غالبني من المعازة وهي المغالبة .

﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ أي بسؤالـه نعجتك ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين إن كان الامر على ما تقول واللام هي الموطئة للقسم ، وهي وما بعدها جواب القسم المقدر ، وجاء بالقسم في كلامه مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه ولم يكن معه غيرها ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الإعتراف من الآخر قال النحاس ويقال إن خطيئة داود هي قوله لقد ظلمك لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت .

﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ وهم الشركاء واحدهم خليط ، وهو المخالط في المال ﴿ ليبغي ﴾ اللام لام التوكيد وقعت في خبر إنْ أي يتعدى ﴿ بعضهم على بعض ﴾ ويظلمه غير مراع لحقه ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم يتحامون ذلك ، ولا يظلمون خليطاً ولا غيره والإستثناء متصل ﴿ وقليل ما هم ﴾ أي وقليل هم ، وما زائدة لتوكيد القلة والتعجيب وقيل هي موصولة وهم مبتدأ وقليل خبره ، عن ابن عباس قال يقول قليل الذي هم فيه .

(١) قال المفسر (ص ١٦٠) «ولي نعجة واحدة» أوريا . . الخ . وجاء التعليق هكذا : كان على المصنف ان لا يقحم قصة اوريا الاسرائيلية في مفهوم الآيات ، لا سيما وقد سبق له انه نقل ان الصحابة رفضوا هذه القصة .

﴿ وظن داود انما فتناه ﴾ قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن ، ومعنى فتناه إبتليناه ، وقال ابن عباس . اختبرناه ، والمعنى أنه عند أن تخاصما إليه ، وقال ما قال ، علم عند ذلك أنه المراد وأن مقصودهما التعريض به وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته ، قال الواحدي قال المفسرون ، فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك فعند ذلك علم داود بما أراداه قرأ الجمهور فتناه بالتخفيف للتاء وتشديد النون وقرىء بالتشديد للتاء والنون وهي مبالغة في الفتنة ، وقرأ الضحاك أفتناه ، وقرىء فتناه بتخفيفهما وإسناد الفعل إلى الملكين .

﴿ فاستغفر ربه ﴾ لذنبه ﴿ وخر راكعاً ﴾ أي ساجداً ، وعبر بالركوع عن السجود لأن كل واحد منهما فيه انحناء ، وقيل : خر ساجداً بعد ما كان راكعاً ، قال ابن العربي لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا السجود فإن السجود هو الميل والركوع هو الإنحناء وأحدهما يدخل في الآخر ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئته ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر وقيل المعنى للسجود راكعاً أي مصلياً وقيل : بل كان ركوعهم سجوداً ، وقيل : بل كان سجودهم ركوعاً .

﴿ وأناب ﴾ أي رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه ، قال المفسرون : سجد داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً إلى تمام أربعين لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه عز وجل ويسأله التوبة ثم أنزل الله له التوبة والمغفرة وقد اختلف المفسرون في ذنب داود الذي استغفر له وتاب عنه على أقوال .

الأول : أنه نظر إلى امرأة الرجل الذي أراد أن تكون زوجة له كذا قال سعيد بن جبير وغيره قال الزجاج ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود

النظر إليها وصارت الأولى له والثانية عليه .

الثاني : أنه أرسل زوجها في جملة الغزاة .

الثالث : أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها .

الرابع : أن أوريا بن حنان كان خطب تلك المرأة فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا فعتب الله عليه حيث لم يتركها لخاطبها .

الخامس : أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة .

السادس : أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا ، وأقول الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود عليه السلام أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها ويضمها إلى نسائه ، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء فقد نبهه الله على ذلك وعرض له بإرسال ملائكته إليه ليتخاصموا في مثل قصته حتى يستغفر لذنبه ويتوب منه ، فاستغفر وتاب عنه .

وقد قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ وهو أبو البشر ، وأول الأنبياء ووقع لغيره من الأنبياء ما قصه الله علينا في كتابه ، وفي الآية ما يدل على صدور الذنب منه ، وهو قوله ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ وقوله ﴿ فاستغفر ربه ﴾ وقوله ﴿ وأناب ﴾ وقوله : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ والجواب عن هذا بأن حسنات الأبرار سيئآت المقربين ليس كما ينبغي ، والأولى ما ذكرناه ، ثم أخبر سبحانه أنه قبل استغفاره وتوبته فقال :

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ الذنب الذي استغفر منه قال عطاء الخراساني وغيره إن داود بقي ساجداً أربعين يوماً حتى نبت الرعي حول وجهه ، وغمر رأسه قال ابن الأنباري : الوقف على قوله : ذلك تام . ثم يبتدأ الكلام بقوله .

﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ والزلفى القربة والكرامة بعد المغفرة لذنبه ، قال مجاهد الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة والمراد بحسن المآب حسن المرجع وهو الجنة .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه ذكر يوم القيامة فعظم شأنه وشدته قال : ويقول الرحمن عز وجل لداود عليه السلام : مر بين يدي ، فيقول داود : يا رب أخاف أن تدحضني خطيئتي ، خذ بقدمي ، فيأخذ بقدمه عز وجل فيمر قال فتلك الزلفى التي قال الله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ » .

وأخرج أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه قال في السجود في ﴿ صٓ ﴾ ليست من عزائم السجود وقد « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » واخرج النسائي وابن مردويه بسند جيد عنه أيضاً « أن النبي صلى الله عليه

وسلم سجد في ﴿ صٓ ﴾ وقال : سجدها داود توبة ونسجدها شكراً »[1] .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ صٓ ﴾ وعن أنس مثله مرفوعاً ، أخرجه ابن مردويه وأخرج الدارمي وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ﴿ صٓ ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ؛ فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود فقال إنما هي توبة ولكني رأيتكم تهيأتم للسجود فنزل فسجد » .

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ لما تمم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه ، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا أي وقلنا له : يا داود إنا استخلفناك على الأرض ، أو جعلناك خليفة لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدبر أمر الناس ، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير قط .

﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ أي بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده لأن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الحقة الإلٓهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات ، وإذا كانت الأحكام على وفق الأهوية وتحصيل مقاصد الأنفس أفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج فيه ؛ والمرج في الخلق وذلك يفضي إلى هلاك ذلك الحاكم .

﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ أي هوى النفس في الحكم بين العباد وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل ، وان فيه شائبة من اتباع هوى النفس .

﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ بالنصب على أنه جواب النهي ، والفاعل

---

(١) النسائي ٢/٣١٩ السنن الكبرى .

هو الهوى ، ويجوز أن يكون الفعل مجزوماً بالعطف على النهي ، وإنما حرك لالتقاء الساكنين ، فعلى الوجه الأول يكون المنهي عنه الجمع بينهما وعلى الثاني يكون النهي عن كل واحد منهما على حدة ، وسبيل الله هو طريق الجنة أو دلائله التي نصبها على الحق تشريعاً وتكويناً .

﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ تعليل للنهي عن اتباع الهوى ، والوقوع في الضلال ﴿ بما نسوا يوم الحساب ﴾ الباء للسببية ، ومعنى النسيان الترك ، قال الزجاج : أي بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين ، وإن كانوا ينظرون ويذكرون ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا .

وقال عكرمة والسدي : في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير ، ولهم عذاب يوم الحساب بما نسوا أي تركوا القضاء بالعدل والأول أولى .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلاً ﴾ مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها من أمر البعث والحساب أي ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً عن الحكمة الباهرة ، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا . فانتصاب باطلاً على المصدرية أو على الحالية أو على أنه مفعول لأجله ، والإشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ إلى المنفي قبله وهو مبتدأ وخبره : ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ أي مظنونهم فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض ويقولون : إنه لا قيامة ولا بعث ولا حساب ، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً .

﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ الفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل أي فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم ، كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بعلية للصلة ، لاستحقاقهم الويل ، ثم وبخهم وبكتهم فقال :

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ
كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾
وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ
ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾ قال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنا نعطي في الآخرة كما تعطون فنزلت وأم هي المنقطعة المقدرة ببل ، والهمزة للإضراب الانتقالي عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء ، بما مر من نفي خلق العالم خالياً عن الحكم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما في الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين ، ونفيها على أبلغ وجه وآكده ؛ أي بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا بفرائضه كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض بالمعاصي .

قال ابن عباس في الآية الذين آمنوا عليّ وحمزة وعبيدة بن الحارث والمفسدون في الأرض عتبة وشيبة والوليد ثم أضرب سبحانه إضراباً آخر وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه فقال :

﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أي بل أنجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين ؟ وحمل الفجار على المنهمكين في معاصي الله سبحانه من المسلمين ، مما لا يساعده المقام ، وقيل المراد بالمتقين الصحابة ولا وجه للتخصيص بغير مخصص والإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في إنكار التسوية من الوصفين الأولين .

﴿ كتاب ﴾ أي القرآن كتاب ﴿ أنزلناه إليك ﴾ يا محمد ﴿ مبارك ﴾ أي

كثير الخير والبركة ﴿ ليدبروا آياته ﴾ أي التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع ، وهو متعلق بأنزلناه ؛ وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه لا لمجرد التلاوة بدون تدبر ، قال الحسن قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ، قرأ الجمهور ليدبروا بالادغام ، وقرىء لتدبروا بالتاء الفوقية على الخطاب وهي قراءة عليّ رضي الله تعالى عنه والأصل لتتدبروا .

﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ أي ليتعظ أهل العقول والبصائر والألباب جمع لب وهو العقل .

﴿ ووهبنا لداود سليمان ﴾ أخبر سبحانه بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولداً ثم مدح سليمان فقال ﴿ نعم العبد ﴾ أي سليمان فالمخصوص بالمدح محذوف ، وقيل : إن المدح هنا بقوله نعم العبد هو لداود ، والأول أولى وجملة ﴿ إنه أواب ﴾ تعليل لما قبلها من المدح والأواب الرجاع إلى الله بالتوبة ، كما تقدم بيانه .

﴿ إذ عرض عليه بالعشي ﴾ أي اذكر ما صدر عنه وقت أن عرض عليه ﴿ الصافنات الجياد ﴾ وقيل : هو متعلق بنعم ، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت ، قيل : متعلق بأواب ، ولا وجه لتقييد كونه أواباً بذلك الوقت ، والعشي من الظهر أو العصر إلى آخر النهار . والصافنات جمع صافن .

وقد اختلف أهل اللغة في معناه ، فقال القتيبي والفراء الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غير هاو به قال قتادة ومنه الحديث « من أحب أن يتمثل له الناس صفونا فليتبوأ مقعده من النار[1] » ، أي يديمون القيام له وقال

---

(١) لم نره بهذا اللفظ ورواه الترمذي ٢/ ١٠٠ من حديث معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه قال : من سره أن يتمثل به الرجال قياماًفليتبؤوا مقعده من النار » ورواه ابو داود ٥٢٢٩ . واحمد ٤/ ٩١ باختلاف في الرواية .

الزجاج هو الذي يقف على إحدى اليدين ويرفع الأخرى ، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها ، حتى كأنه يقوم على ثلاث وهي الرجلان وإحدى اليدين وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه ، وهي علامة الفراهة .

وقال أبو عبيدة الصافن الذي يجمع يديه ويسويهما وأما الذي يقف على سنبكه فاسمه المتخيم ، والجياد جمع جواد يقال للفرس ذكراً كان أو أنثى إذا كان شديد العدو ، وقيل : إنها الطوال الأعناق ، مأخوذ من الجيد وهو العنق وقيل الذي يجود في الركض ، قيل كانت مائة فرس .وقيل كانت عشرين ألفا قيل كانت عشرين فرساً ، وعن إبراهيم التيمي قال كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة فعقرها ، وقيل إنها خرجت له من البحر وكانت لها أجنحة[1]

وعن أبي هريرة قال الصافنات الجياد خيل خلقت على ما شاء وعن مجاهد قال صفون الفرس رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر والجياد السراع لأنه يجود بالركض وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجان ، وإنما هو في العراب ، وقيل : وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين ، واقفة وجارية يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها ، قيل إن سليمان غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس ، وقيل ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة .

﴿ فقال ﴾ اعترافاً بما صدر منه وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار آخر العرض الممتد دون ابتدائه ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ انتصاب حب على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى آثرت ، قال الفراء يقول آثرت حب الخير ، وكل من أحب شيئاً فقد آثره وقيل انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد ، والناصب له أحببت ، وقيل هو مصدر تشبيهي أي حباً مثل حب الخير ، والأول أولى ، والمراد بالخير هنا

(١) قد يكون في هذا القول غرابة لأننا لم نسمع بخيل لها أجنحة إلا أنه ليس بمستبعد لأن الله وهب لسليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعد.

الخيل ، قاله الزجاج ، وقال الفراء الخير والخيل في كلام العرب واحد ، وأنها تعاقب بين الراء واللام فتقول انهملت العين وانهمرت وختلت وخترت ، قال النحاس وفي الحديث ، الخيل معقود بنواصيها الخير فكأنها سميت خيراً لهذا وقيل لما فيها من المنافع وعن بمعنى على ، أي آثرت حب الخيل على ذكر ربي يعني صلاة العصر ، وبه قال علي ، وقال ابن عباس الخير المال ، وقيل أحببت بمعنى لزمت ، وقيل بمعنى قعدت من أحب البعير إذا سقط وبرك من الإعياء ، وقيل بمعنى أردت .

﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشمس ولم يتقدم لها ذكر ولكن المقام يدل على ذلك ، قال الزجاج إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر ، وقد جرى هنا الدليل . وهو قوله بالعشي ، والتواري الاستتار عن الأبصار والحجاب ما يحجبها عن الأبصار ، قال قتادة وكعب الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق وهو جبل قاف ، وسمي الليل حجاباً لأنه يستر ما فيه ويقال إن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه وفيه بعد وبرودة[1] ، وعن ابن مسعود قال توارت من وراء ياقوتة خضراء فخضرة السماء منها ، وعن ابن عباس قال كان سليمان لا يكلم إعظاماً له فلقد فاتته صلاة العصر وما استطاع أحد أن يكلمه ، وقيل الضمير للخيل أي حتى توارت في المسابقة عن الأعين ، والأول أولى .

وقوله ﴿ ردوها عليّ ﴾ من تمام كلام سليمان أي أعيدوا عرضها عليّ مرة أخرى ، قال الحسن إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر

---

(١) قال المفسر (ص ١٦٨) «حتى توارت بالحجاب» قال قتادة وكعب : الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ، وهو جبل قاف الخ . وكان تعليق الأستاذ طويلاً وخلاصته أنه لا يوجد في الدنيا جبل اسمه جبل قاف ، وقد حصرت جبال الدنيا الآن وعرف الإنسان جميع الجبال وأسماءها وأماكنها .

غضب لله ، وقال ردوها عليّ ، أي أعيدوها ، وقال ابن عباس ردوها أي الخيل وقيل الضمير يعود إلى الشمس ، ويكون ذلك معجزة له ، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلي العصر ، والأول أولى .

﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تدل على محذوف في الكلام والتقدير هنا فردوها عليه قال أبو عبيدة طفق يفعل مثل ما زال يفعل ، وهو مثل ظل وبات وانتصاب مسحاً على المصدرية بفعل مقدر ، أي يمسح مسحاً لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلاً مضارعاً ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال والاول أولى والسوق جمع ساق والاعناق جمع عنق والمراد أنه طفق يضرب أعناقها وسوقها بالسيف ، يقال مسح علاوته أي ضرب عنقه قال الفراء المسح هنا القطع قال : والمعنى أنه أقبل يضرب سوقها وأعناقها لأنها كانت سبب فوت صلاته ، وكذا قال أبو عبيدة قال الزجاج ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له ، وجاز أن يباح ذلك لسليمان .ويحظر في هذا الوقت .

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية فقال قوم المراد بالمسح ما تقدم وقال آخرون منهم الزهري وقتادة أن المراد به المسح على سوقها واعناقها لكشف الغبار عنها حيالها ، والقول الأول أولى بسياق الكلام فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر ، ثم أمرهم بردها عليه ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك . وما صده عن عبادة ربه ، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه ، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردها عليه هو كشف الغبار عن سوقها وأعناقها بالمسح عليها بيده ، أو بثوبه ، ولا متمسك لمن قال إن إفساد المال لا يصدر عن نبي فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرر في شرعنا مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح .

على أن إفساد المال المنهي عنه في شرعنا إنما هو مجرد إضاعته لغير غرض صحيح وأما لغرض صحيح فقد جاز مثله في شرعنا ، كما وقع منه صلى الله عليه وسلم من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة ، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة ، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر ، قال ابن عباس مسحاً عقراً بالسيف ، أي قطع سوقها وأعناقها بالسيف .

قال الرازي : التفسير الحق المطابق لألفاظ القرآن أن تقول : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا . ثم إن سليمان احتاج إلى غزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله تعالى ، وتقوية دينه ، وهو المراد بقوله عن ذكر ربي ، ثم إنه أمر بإعدائها وإجرائها حتى توارت بالحجاب ثم أمر برد الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح والغرض من ذلك المسح أمور :

الأول : تشريفها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

الثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة يبلغ إلى أنه يباشر الأمور بنفسه .

الثالث: أنه أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها من غيره فكان يمسح حتى يعلم ما فيها مما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزمنا شيء من تلك المنكرات والمحظورات انتهى وما أبرد هذا التفسير من الرازي ، وأبعده عن النظم القرآني والحق ما ذكرناه فإن اللغة تشهد بضرب السوق والأعناق ، ولا وجه للعدول عنه إلى تأويل ركيك ، وتوجيه بعيد ، بناء على عصمة الأنبياء عليهم السلام .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾

﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ أي ابتليناه واختبرناه بسلب ملكه قال الواحدي قال أكثر المفسرين : تزوج سليمان امرأة من بنات الملوك فعبدت الصنم في داره ، ولم يعلم بذلك سليمان ، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك وقيل : إن سبب الفتنة أنه تزوج سليمان امرأة يقال لها جرادة وكان يحبها حباً شديداً فاختصم إليه فريقان أحدهما من أهل جرادة فأحب أن يكون القضاء لهم ، ثم قضى بينهم بالحق .

وقيل السبب أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد ، وقيل إنه تزوج جرادة هذه وهي مشركة لأنه عرض عليها الإسلام فقالت : اقتلني ولا أسلم .

وقال كعب الأحبار : إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه ، وقال الحسن إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره .

وقيل إنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل فتزوج امرأة من غيرهم .

وقيل إن سبب فتنته ما ثبت في الحديث الصحيح « أنه قال : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يقاتل في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله » وقيل غير ذلك والمصير إلى الحديث متعين .

قال النسفي وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فمن أباطيل اليهود انتهى ، أقول حديث الخاتم أخرجه النسائي وغيره وقواه السيوطي كما سيأتي فكونه من أباطيل اليهود ليس على ما ينبغي[١] ثم بين سبحانه ما عاقبه به فقال :

﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال أكثر المفسرين هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان هو شيطان اسمه صخر ، وكان متمرداً عليه غير داخل في طاعته . ألقى الله شبه سليمان عليه ، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان وذلك عند دخول سليمان الكنيف لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف فجاء صخر في صورة سليمان فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان فقعد على سرير سليمان ، وأقام أربعين يوماً على ملكه ، وسليمان هارب كان ملكه مرتباً على لبسه ، فإذا لبسه سخرت له الجن والإنس والرياح وغيرها وإذا نزعه زال عنه الملك .

قيل وكان خاتمه من الجنة نزل به آدم كما نزل بعصا موسى والحجر الأسود وبعود البخور وبأوراق التين وقد نظم الخمسة بعضهم في قوله :

وآدم معه أنزل العود والعصا لموسى من الآس النبات المكرم
وأوراق تين واليمين بمكة وختم سليمان النبي المعظم

لكن يفتقر ذلك إلى دليل يدل له من الأخبار المرفوعة الصحيحة .

وقال مجاهد إن شيطاناً قال له سليمان كيف تفتنون الناس ؟ قال أرني خاتمك أخبرك ، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد الشيطان على

(١) حاول المفسر (١٧٠) ان يصحح حديث خاتم سليمان، وقد قال عنه النسفي انه من أباطيل اليهود ، والمفسر في محاولته احتج بتقوية السيوطي له ، فجاء التعليق هكذا : لا يبعد ان يدس اليهود بعض الأباطيل على المسلمين ليفسدوا هذا الدين الذي قوض ملكهم ، وأما تقوية السيوطي فلا وزن لها لما عرف عنه من تصحيح الضعيف . وأما ما نقله عن كعب الأخبار قبل ذلك بسطرين من ظلم سليمان فأرجو ان لا يقيم له القارىء وزناً .

كرسيه ومنعه الله نساء سليمان ، فلم يقربهن ، وكان سليمان يستطعم فيقول أتعرفونني ؟ أطعموني ، فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوما حوتاً فشق بطنه فوجد خاتمه في بطنه فرجع إليه ملكه وهو معنى قوله[١] :

﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى ملكه بعد أربعين ، وقيل معنى أناب رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه ، وهذا هو الصواب ، قيل فتن سليمان بعدما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة أخرج الحاكم وصححه والفريابي والحكيم الترمذي عن ابن عباس ، قال الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً ، وكان لسليمان امرأة يقال لها جرادة وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء فكان لا يدري أيأتيه من السماء ؟ أم من الأرض ؟ .

وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم بسند قال السيوطي قوي عن ابن عباس « قال أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى جرادة خاتمه وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي فأعطته فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين ، فلما خرج سليمان من الخلاء قال هاتي خاتمي قالت قد أعطيته سليمان قال أنا سليمان قالت كذبت لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحداً يقول أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله وقام الشيطان يحكم بين الناس ؛ فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس انكار ذلك الشيطان فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن تنكرن

---

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧١) عن مجاهد بضعة أسطر فجاء تعليق الأستاذ هكذا : هذا الكلام بأقاصيص الف ليلة وليلة اشبه، وأبعد ما يكون عن سير المرسلين .

من أمر سليمان شيئاً ؟ قلن نعم إنه يأتينا ونحن نحيض وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها وقرأوها على الناس ، وقالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم . فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذته وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فدعا سليمان فقال : تحمل لي هذا السمك ؟ قال نعم بكم ؟ قال بسمكة من هذا السمك فحمل سليمان السمك ثم أنطلق به إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فأخذها سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها فأخذه فلبسه فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر فأرسل سليمان في طلبه وكان شيطاناً مريداً فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوماً نائماً فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص فاستيقظ فوثب ، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انباط معه الرصاص فأخذوه فأوثقوه وجاؤا به إلى سليمان فأمر به فنقر له تخت من رخام ، ثم أدخله في جوفه ثم شد بالنحاس ، ثم أمر به فطرح في البحر فذلك قوله ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ يعني الشيطان الذي كان سلط عليه[١] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال صخر الجني تمثل على كرسيه على صورته .

---

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧١) عن النسائي وابن جرير قصة طويلة عن خاتم سليمان ، وهي قصة موضوعة ؛ ومما يدل على وضعها ان الشيطان جاء في صورة سليمان ، والشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء و وغيرهم .

﴿ قال ﴾ سليمان ﴿ رب اغفر لي ﴾ ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله وطلب المغفرة دأب الأنبياء والصلحاء ، هضما للنفس وإظهاراً للذل والخشوع ، وطلباً للترقي في المقامات ثم لما قدم التوبة والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته فقال :

﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ قال أبو عبيدة معناه لا يكون لأحد من بعدي ، وقيل لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته ، وليس هذا من سؤال نبي الله سليمان عليه السلام للدنيا وملكها ، والشرف بين أهلها بل المراد بسؤاله الملك أن يتمكن به من إنقاذ حكم الله سبحانه والأخذ على يد المتمردين من عباده من الجن والإنس ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله لكفى .

وجملة ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، لا بالأخيرة فقط ، فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعاً قاله أبو السعود .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن عفريتاً من الجن جعل يتفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي ، وإن الله أمكنني منه فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرده الله خاسئاً »[1] ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته وإعطاءه لمسألته فقال :

﴿ فسخرنا له الريح ﴾ أي ذللناها له ، وجعلناها منقادة لأمره ثم بين

---

(١) رواه البخاري ٦/٣٢٩ و٨/٤٢٠ ومسلم ١/٣٨٤ والسيوطي في الدر ٥/٣١٣ .

كيفية التسخير لها بقوله : ﴿ تجري بأمره رخاء ﴾ أي لينة الهبوب ليست بالعاصف مأخوذ من الرخاوة والمعنى أنها ريح لينة لا تزعزع ولا تعصف مع قوة هبوبها وسرعة جريها ولا ينافي هذا قوله في آية أُخرى ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره ، لان المراد أنها في قوة العاصفة ولا تعصف وقيل إنها كانت تارة رخاء وتارة عاصفة ، على ما يريده سليمان ويشتهيه ، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين .

﴿ حيث أصاب ﴾ قال الزجاج إجماع أهل اللغة والمفسرين على أن معنى حيث أصاب حيث أراد ، وحقيقته حيث قصد ، وقال الأصمعي وابن الأعرابي العرب تقول أصاب الصواب ، وأخطأ الجواب . وقيل معنى أصاب بلغة حمير أراد ، وليس من لغة العرب ، وقيل هو بلسان هجر والأول أولى وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض .

﴿ و ﴾ سخرنا له ﴿ الشياطين ﴾ وقوله : ﴿ كل بناء وغواص ﴾ بدل من الشياطين أي كل بناء منهم ، وغواص منهم ، يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر فيستخرجون له الدّر منه . وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر .

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ معطوف على كل داخل في حكم البدل ، وهم مردة الجن والشياطين ، سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد يقال : قرنهم في الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة ، والأصفاد الأغلال واحدها صفد ، قال الزجاج : هي السلاسل فكل ما شددته شداً وثيقاً بالحديد وغيره فقد صفدته قال أبو عبيدة : صفدت الرجل فهو مصفود ، وصفدته فهو مصفد ، قال يحيى ابن سلام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم .

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ هذا ﴾ أي ما تقدم من تسخير الريح والشياطين له أو من الملك والمال والبسطة ، وهو بتقدير القول ، أي وقلنا له : هذا ﴿ عطاؤنا ﴾ الذي أعطيناكه من الملك العظيم الذي طلبته .

﴿ فامنن أو أمسك ﴾ أي فأعط من شئت وامنع من شئت ، قاله الحسن والضحاك وغيرهما ، وقال ابن عباس : أعتق من الجن من شئت ، وأمسك منهم من شئت ﴿ بغير حساب ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء والإمساك ، أو عطاؤنا لك بغير حساب ، لكثرته وعظمته ، وقال قتادة : إن قوله هذا عطاؤنا إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع ، وهذا لا وجه لقصر الآية عليه ، لو قدرنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات فكيف يدعي اختصاص الآية مع عدم ذكره ؟

﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أي قربة في الآخرة ﴿ وحسن مآب ﴾ أي حسن مرجع وهو الجنة .

﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾ أيوب عطف بيان ، وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام حتى كأن قصتيهما قصة واحدة ﴿ وأيوب ﴾ هو ابن عيصو بن إسحق.

﴿ إذ نادى ربه ﴾ بدل اشتمال من عبدنا ﴿ أني مسني الشيطان ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى به ربه ، ولو لم يحكه لقال : إنه مسه ، وقرىء بكسرها على إضمار القول وفي ذكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء به في الصبر على المكاره .

﴿ بنصب ﴾ قرأ الجمهور بضم النون وسكون الصاد فقيل : هو جمع نصب بفتحتين نحو أسد وأسد ، وقيل هو لغة في النصب نحو رشد ورشد وقرىء بضمتين ، وبفتحتين وبفتح وسكون وهذه القراءات باختلاف اللغات . وقال أبو عبيدة : إن النصب بفتحتين التعب والإعياء ، وعلى بقية القراءات الشر والبلاء .

﴿ وعذاب ﴾ أي ألم ، قال قتادة ومقاتل : النصب في الجسد والعذاب في المال ، قال النحاس : وفيه بعد ، كذا قال ، والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي وهو التعب والإعياء وتفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب ، وهو الألم وكلاهما راجع إلى البدن .

وقد أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن عباس خبراً طويلاً في قصة أيوب «أوله أن الشيطان عرج إلى السماء فقال : يا رب سلطني على أيوب ، قال الله تعالى : لقد سلطتك على ماله وولده ولم أسلطك على جسده الحديث بطوله »[1] ، وفيه نكارة شديدة فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبي من أنبيائه ويسلطه عليه ، هذا التسليط العظيم ، وأسند المس إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذي مسه بذلك إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب والعذاب ، فقد قيل إنه أعجب بكثرة ماله ، وقيل استغاثه مظلوم فلم يغثه ، وقيل إنه قال ذلك على طريقة الأدب وقيل إنه قال ذلك لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه فرفضوه وأخرجوه من ديارهم وقيل المراد به ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه وابتلائه من

(١) ذكر المؤلف (ص ١٧٥) بضعة تفاسير لقول أيوب (اني مسني الشيطان) فجاء التعليق هكذا : لماذا لا يكون مس الشيطان متصلاً بعمل أيوب كنبي ورسول الى قومه حيث كان يوسوس لقومه فيكابرون وينقضون ما عقدوه مع أيوب من المواثيق، فكان عمل الشيطان له صلة مباشرة بإرهاق أيوب ومسه بالتعب.

تحسين الجزع ، وعدم الصبر على المصيبة ، وقيل غير ذلك .

﴿ اركض برجلك ﴾ أي قلنا له اركض كذا قال الكسائي والركض الدفع بالرجل ، يقال : ركض الدابة إذا ضربها بها وقال المبرد الركض التحريك ، قال الأصمعي يقال ركضت الدابة ، ولا يقال ركضت هي لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ، ولا فعل لها في ذلك ، وحكى سيبويه ركضت الدابة فركضت مثل جبرت العظم فجبر .

﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ هذا أيضاً من مقول القول المقدر ، وفي الكلام حذف والتقدير فركض برجله فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل الخ وظاهر النظم الكريم أن الاغتسال والشرب كانا من عين واحدة والمغتسل هو الماء الذي نغتسل به والشراب الذي يشرب منه ، وقيل إن المغتسل هو المكان الذي يغتسل فيه ، قال قتادة : هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية فاغتسل من إحداهما فأذهب الله ظاهر دائه وشرب من الأخرى فأذهب الله باطن دائه ، وكذا قال الحسن ، وقال مقاتل نبعت عين جارية فاغتسل فيها فخرج صحيحا ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذباً بارداً .

﴿ ووهبنا له أهله ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا عنه بذلك ما به من ضر ووهبنا له أهله قيل أحياهم الله بعد أن أماتهم وقيل جمعهم بعد تفرقهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، ثم زاده مثلهم معهم ، وهو معنى قوله :

﴿ ومثلهم معهم ﴾ فكانوا مثلى ما كانوا من قبل ابتلائه ﴿ رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه وليتذكر بحاله أولو الألباب ، فيصبروا على الشدائد كما صبر ، ويلجأوا إلى الله كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة : وقد تقدم في سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى فلا نعيده .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾

﴿ وخذ ﴾ معطوف على اركض ، أو على وهبنا ، أو التقدير وقلنا له خذ ﴿ بيدك ضغثاً ﴾ هو عثكال النخل بشماريخه ، وقيل هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها ، وقيل الحزمة الكبيرة من القضبان ، وأصل المادة تدل على جمع المختلطات ، قال الواحدي الضغث ملء الكف من الشجر والحشيش والشماريخ ، وعن ابن عباس قال : الضغث هو الأسل ، وقال أيضاً الضغث القبضة من المرعى الرطب ، وقال أيضاً الحزمة .

﴿ فاضرب به ﴾ أي بذلك الضغث ﴿ ولا تحنث ﴾ في يمينك والحنث الإثم ويطلق على فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، لأنهما سببان فيه ، وكان أيوب قد حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ، واختلف في سبب ذلك فقال سعيد بن المسيب إنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فحلف ليضربها .

وقال يحيى بن سلام وغيره ، إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلةً تقرباً إليه فإنه إذا فعل ذلك بريء . فحلف ليضربنها إذا عوفي مائة جلدة ، وقيل باعت ذؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئاً وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها وأخرج أحمد في الزهد عن ابن عباس قال : إن ابليس قعد على الطريق وأخذ تابوتاً يداوي الناس فقالت امرأة أيوب : يا عبدالله إن ههنا مبتلى من أمره كذا وكذا فهل لك أن تداويه ،

قال : نعم بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره فأتت أيوب فذكرت له ذلك ، فقال : ويحك ذاك الشيطان ، لله عليَّ إن شفاني الله أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً فيضربها به ، فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ فضربها به ضربة واحدة[1] .

وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال « حملت وليدة في بني ساعدة من زنا فقيل لها : ممن حملك ؟ قالت من فلان المقعد ، فسئل المقعد فقال : صدقت فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خذوا عثكولاً فيه مائة شمراخ فاضربوه ضربة واحدة . وله طرق أخرى .

وقد اختلف العلماء هل هذا خاص بأيوب أو عام للناس كلهم ؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك ؟ قال الشافعي : إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة أو ضرباً ولم يقل ضرباً شديداً ولم ينو بقلبه فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية حكاه ابن المنذر عنه ، وعن أبي ثور وأصحاب الرأي ، وقال عطاء هو خاص بأيوب ، ورواه ابن القاسم عن مالك ، ثم أثنى الله سبحانه على أيوب فقال :

﴿ إنا وجدناه ﴾ أي علمناه ﴿ صابراً ﴾ على البلاء الذي ابتليناه به فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده وذهاب ماله وولده وأهله فصبر وليس في شكواه إلى الله إخلال بذلك فإنه ليس جزعاً تمني العافية وطلب الشفاء ، والشكاية المذمومة إنما هي إذا كانت للمخلوقين ، قال ابن مسعود أيوب رأس الصابرين يوم القيامة .

﴿ نعم العبد ﴾ أي أيوب ﴿ إنه أواب ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة .

---

(١) انظر ما كتبه ابن الجوزي في كتابه زاد السير ١٤٣/٧ .

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ أي أذكر صبرهم على ما أصابهم تتأس بهم ، قرأ الجمهور عبـادنا بالجمع ، وقرىء بالإفراد ؛ فعلى قراءة الجمهور يكون إسحق وإبراهيم ويعقوب عطف بيان ، وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان ، وما بعده عطف عـلى عبدنـا لا على إبراهيم ، وقد يقال لما كان المراد بعبدنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه ، وقيل إن إبراهيم وما بعده بدل ، أو النصب بإضمار أعني ، وعطف البيان أظهر وقراءة الجمهور أبين ، وقد اختارها أبو حاتم وأبو عبيدة .

﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ الأيدي جمع اليد أي الجارحة فكني بذلك عن الأعمال لأن أكثر الأعمال إنما يزاول باليد ، وقيل جمع اليد التي بمعنى القوة والقدرة ، قال قتادة أعطوا قوة في العباد ونصراً في الدين قال الواحدي وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير والمفسرون قال النحاس أما الأبصار فمتفق على أنها البصائر في الدين والعلم وأما الأيدي فمختلف في تأويلها فأهل التفسير يقولون إنها القوة في الدين ، وقوم يقولون الأيدي جمع يد ، وهي النعمة أي هم أصحاب النعم الذين أنعم الله عز وجل عليهم وقيل هم أصحاب النعم على الناس والإحسان إليهم لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيراً واختار هذا ابن جرير ، قرأ الجمهور الأيدي بإثبات الياء وقرىء بغير ياء فقيل معناها معنى الأولى وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها وقيل الأيد القوة إلا أن الزمخشري قال وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن انتهى وكأنه إنما قلق عنده لعطف الابصار عليه . فهو غير مناسب للأيد من التأييد وقد يقال إنه لا يراد حقيقة الجوارح إذ كل أحد كذلك إنما المراد الكناية عن العمل الصالح والتفكر ببصيرته فلم يقلق حينئذ إذ لم يرد حقيقة الابصار وكأنه قيل أولي القوة والتفكر بالبصيرة ، وقد نحا الزمخشري إلى شيء من هذا قبل ذلك ، قاله السمين ، قال ابن عباس القوة في العبادة والأبصار ،الفقه في الدين ؛ وعنه قال الأيدي النعمة وقيل أولى الاعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة فعبر بالايدي عن الاعمال وبالابصار عن المعارف لانها أقوى مباديها .

إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾
وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ
وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية ، وعلو الرتبة في العلم والعمل ، قرأ الجمهور بخالصة بالتنوين وعدم الإضافة على أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون ذكرى منصوباً به أو بمعنى الخلوص ، فيكون ذكرى مرفوعاً به أو يكون خالصة اسم فاعل على بابه ، وذكرى بدل منها ، أو بيان لها أو منصوبة بإضمار أعني أو مرفوعة على إضمار مبتدأ ، والدار مفعول به بذكرى أو ظرف إما على الاتساع أو على إسقاط الخافض ، وعلى كل تقدير فخالصة صفة لموصوف محذوف ، والباء للسببية ، أي بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها ، وقرىء باضافة خالصة إلى ذكرى ، على أن الإضافة للبيان ، لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى ، كما في قوله ﴿ شهاب قبس ﴾ لأن الشهاب يكون قبساً وغيره ، أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله ، والفاعل محذوف ، أي بأن أخلصوا ذكر الدار وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا ، أو مصدر بمعنى الخلوص مضاف إلى فاعله ، قال مجاهد معنى الآية استصفيناهم بذكر الآخرة فأخلصناهم بذكرها ، وقال قتادة كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله ، وقال السدي : أخلصوا بخوف الآخرة .

قال الواحدي : فمن قرأ بالتنوين في خالصة كان المعنى جعلناهم لنا

خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ، والذكرى بمعنى التذكر ، أي خلص لهم تذكر الدار ، وهو أنهم يذكرون التأهب لها ويزهدون في الدنيا ، وذلك من شأن الأنبياء وأما من أضاف فالمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل والذكرى على هذا المعنى الذكر .

قال ابن عباس أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعلموا لها وقيل : ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا . وهذا شيء قد أخلصهم به ، فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به يقويه قوله ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ قاله النسفي ، وفيه بعد . وقال ابن جزي : معناه إنا جعلناهم خالصين لنا أو خصصناهم دون غيرهم ، وأما الباء على الأول فهي للتعليل . وعلى الثاني هي لتعدية الفعل انتهى .

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ الاصطفاء الاختيار ، والأخيار ، جمع خير بالتشديد والتخفيف كأموات في جمع ميت مشدداً ومخففاً ، والمعنى إنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار .

﴿ واذكر إسمعيل ﴾ قيل وجه ذكره مفردا بعد ذكر أبيه وأخيه وابن أخيه للإشعار بأنه عريق في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير هنا .

﴿ واليسع ﴾ هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء .

﴿ وذا الكفل ﴾ اختلف في نبوته ولقبه ، وهو ابن عم اليسع أو هو بشر بن أيوب بعثه الله بعد أبيه ، وسماه ذا الكفل وكان مقيماً بالشام حتى مات ، وعمره خمس وسبعون سنة ، وقد تقدم ذكر اليسع . والكلام فيه في الأنعام ، وتقدم ذكر ذي الكفل والكلام فيه في سورة الأنبياء ، والمراد من ذكر هؤلاء أنهم من جملة من صبر من الأنبياء وتحمل الشدائد في دين الله ، أمر الله

رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يذكرهم ليسلك مسلكهم في الصبر .

﴿ وكل ﴾ أي كل المتقدمين من داود إلى هنا ﴿ من الأخيار ﴾ الذين اختارهم الله سبحانه لنبوته واصطفاهم من خلقه ﴿ هذا ذكر ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر أوصافهم الناطقة بمحاسنهم ، أي هذا ذكر جميل في الدنيا ، وشرف يذكرون به أبداً ، جملة جيء بها إيذاناً بأن القصة قد تمت ، وأخذ في أخرى .

﴿ وإن للمتقين ﴾ مع هذا الذكر الجميل ﴿ لحسن مآب ﴾ في الآخرة والمآب المرجع ، وهذا شروع في بيان أجرهم الجزيل الآجل ، بعد بيان ذكرهم الجميل في العاجل وهو باب آخر من أبواب التنزيل ، والمعنى إنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ، ونعيم جنته . ثم بين حسن المرجع فقال :

﴿جنات عدن﴾ قرىء بالنصب بدلاً أو عطف بيان لحسن مآب وعدن وهو في الأصل الإقامة ، يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه ، وقيل هو اسم لقصر في الجنة ، وقرىء برفع جنات على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي هي جنات عدن .

﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ حال من جنات ، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل ، والأبواب مرتفعة باسم المفعول ، كقوله : وفتحت أبوابها ، والرابط بين الحال وصاحبها ضمير مقدر ، أي منها أو الألف واللام لقيامه مقام الضمير ، إذ الأصل أبوابها ، وقيل ارتفاع الأبواب على البدل من الضمير في مفتحة العائد على جنات ، وبه قال أبو علي الفارسي ، أي مفتحة هي الأبواب ، قال الفراء : المعنى مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، وقال الزجاج المعنى مفتحة لهم الأبواب منها ، قال الحسن إن الأبواب يقال لها : انفتحي فتنفتح انغلقي فتنغلق ، وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب حال كونهم ﴿ متكئين فيها ﴾ أي في الجنات .

﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة ﴾ أي بألوان متنوعة متكثرة من الفواكه ﴿ وشراب ﴾ كثير فحذف كثير لدلالة الأول عليه ، والاقتصار على دعاء الفاكهة للايذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي ، قيل : الجملة مستأنفة لبيان حالهم فيها أو حال مما ذكر .

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وحابسات العين لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد مضى بيانه في سورة الصافات .

﴿ أتراب ﴾ أي متحدات في السن والشباب ، أو متساويات في الحسن والجمال وقال مجاهد المعنى أنهن متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن ولا يتحاسدن ، بنات ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل لدات أي متقاربات في الولادة ، لأن التحاب بين الأقران أثبت أو بعضهن لبعض أو نصف لا عجوز فيهن ولا صبية ، قال الشهاب : لدات جمع لدة كعدة أصلها ولد ، وهو كالترب من يولد معك في وقت واحد ، كأنهما وقعا على التراب في زمن واحد ، والأتراب جمع ترب ، واشتقاقه من التراب ، لأنه يمسهن في وقت واحد ، لاتحاد مولدهن والمعاني متقاربة .

﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به لأجل يوم الحساب ، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء ، والمعنى في يوم الحساب ، قرأ الجمهور توعدون على الخطاب التفاتاً ، وقرىء بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم لقوله : وإن للمتقين ، فإنه خبر .

﴿ إن هذا ﴾ المذكور من النعم والكرامات والجنات وأوصافها ﴿ لرزقنا ﴾ الذي أنعمنا به عليكم وأعطيناكموه ﴿ ما له من نفاد ﴾ أي لا ينقطع ولا يفنى أبداً ، ومثله قوله ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها .

هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ
حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا
بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

﴿ هذا ﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر فيوقف على هذا ، قال ابن الأنباري : وهذا وقف حسن ، قال ابن الأثير هذا في هذا المقام من الفصل الذي هو خير من الوصل وهي علاقة وكيدة بين الخروج من الكلام إلى كلام آخر ، أي خذ هذا كيت وكيت ، وفيه بحث إذ يلزم حينئذ عطف الإخبار على الإنشاء ، ولذا لم يذكر الزمخشري هذا التقدير ثم ذكر سبحانه ما لأهل الشر بعد أن ذكر ما لأهل الخير فقال :

﴿ وإن للطاغين ﴾ الذين طغوا على الله وكذبوا رسله ﴿ لشر مآب ﴾ أي لشر منقلب ينقلبون إليه ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ جهنم ﴾ بدل أو عطف بيان .

﴿ يصلونها ﴾ أي يصلون جهنم ، ويدخلونها ﴿ فبئس المهاد ﴾ أي بئس ما مهدوا لأنفسهم وهو الفراش ، مأخوذ من مهد الصبي ، او المراد بالمهد الموضع : والمخصوص بالذم محذوف ، أي بئس المهاد هي كما في قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ شبه الله سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد .

﴿ وهذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ أي هذا حميم وغساق ليذوقوه ، قاله الفراء والزجاج ، أي يقال لهم في ذلك اليوم هذه المقالة ، والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره ، والغساق ما سال من جلود أهل النار من القيح ، ومن الصديد ، من قولهم : غسقت عينه إذا انصبت ، والغسقان الانصباب ، قال

النحاس : ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا ، وارتفاع حميم وغساق على أنهما خبران لمبتدأ محذوف ، أي هو حميم وغساق ، ويجوز أن يكون هذا في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أي ليذوقوا هـذا فليذوقوه ويجوز أن يكون حميم مرتفعاً على الابتداء ، وخبره مقدر قبله أي منه حميم ومنه غساق ، وقيل : الغساق ما قتل برده ، ومنه قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار ؛ وقيل : هو الزمهرير وقيل الغساق المنتن ، وقيل هو عين في جهنم يسيل إليها كل ذوب حية وعقرب وقال قتادة هو ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم .

وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار ، وقال السدي : الغساق الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم ، وكذا قال ابن زيد ، وقال مجاهد ومقاتل . هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده ، وتفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم ، قرأ أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين من غساق ، وقرىء بالتشديد وهما لغتان بمعنى واحد ، كما قال الأخفش ، وقيل معناهما مختلف فمن خفف فهو اسم مثل عذاب وجواب وصواب ، ومن شدد قال هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضراب وقتال .

وقال ابن عباس غساق الزمهرير وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن دلوا من غساق يهرق في الدنيا لأنتن أهل الدنيـا» قال الترمذي بعد إخراجه لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد ، قلت ورشدين فيه مقال معروف .

﴿ وآخر من شكله ﴾ قرأ الجمهور وآخر مفرداً مذكراً ، وقرىء آخر بضم الهمزة على أنـه جمع وأنكـر الأولى لقولـه ﴿ أزواج ﴾ وأنكر عـاصم

والجحدري الثانية ، وقال لو كانت أخر لقال من شكلها ، وارتفاع آخر على أنه مبتدأ ، وخبره أزواج ، ويجوز أن يكون من شكله خبراً مقدماً ، وأزواج مبتدأ مؤخراً ، والجملة خبر آخر ، ويجوز أن يكون خبر آخر مقدراً أي ولهم آخر ومن شكله أزواج جملة مستقلة ، ومعنى الآية على الأولى وعذاب آخر ، أو مذوق آخر أو نوع آخر من شكل ذلك العذاب ، أو المذوق أو النوع الأول ، والشكل المثل وعلى الثانية ومذوقات أخر وأنواع أخر من شكل ذلك المذوق أو النوع المتقدم ، وإفراد الضمير في شكله على تأويل المذكور أي من شكل المذكور ، ومعنى أزواج أجناس وأنواع وأشباه وحاصل معنى الآية أن لأهل النار حميماً وغساقاً وأنواعاً من العذاب من مثل الحميم والغساق ، قال الواحدي : قال المفسرون : هو الزمهرير ، ولا يتم هذا الذي حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة ، وأجناس متفاوتة ليطابق معنى أزواج أو على تقدير أن لكل فرد من أهل النار زمهريراً .

وجملة ﴿ هذا فوج ﴾ حكاية لقول الملائكة ، هم خزنة النار ، وذلك أن القادة والرؤساء إذا دخلوا النار ودخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة : هذا فوج يعنون الأتباع ﴿ مقتحم معكم ﴾ أي داخل معكم إلى النار بشدة ، والاقتحام الإلقاء في الشيء بشدة فإنهم يضربون بمقامع من حديد حتى يقتحموها بأنفسهم خوفاً من تلك المقامع ، وقيل : الاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، وفي المختار قحم في الأمر رمى بنفسه فيه من غير روية ، وبابه خضع ، وأقحم فرسه النهر فانقحم ، أي أدخله فدخل واقتحم الفرس النهر دخله .

وقوله ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ من قول القادة والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا لا مرحباً بهم أي لا اتسعت منازلهم في النار ، والرحب السعة ، والمعنى لا كرامة لهم ، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار ، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة . وجملة لا مرحباً بهم دعائية لا محل لها من الإعراب ، وقال السمين في مرحباً وجهان أظهرهما أنه مفعول بفعل مقدر

أي لا أتيتم مرحباً أو لا سمعتم مرحباً ، والثاني أنه منصوب على المصدر ، قال أبو البقاء أي لا رحبتكم داركم مرحباً . بل ضيقاً ، والجملة المنفية إما مستأنفة سيقت للدعاء عليهم بضيق المكان ، وقوله : بهم بيان للمدعو عليهم ، وإما حالية ، وقد يعترض عليه بأنه دعاء ، والدعاء لا يقع حالاً ، والجواب أنه على إضمار القول أي مقولاً في حقهم لا مرحباً بهم ، وقيل إنها من تمام قوله الخزنة ، والأول أولى ، كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي :

﴿ إنهم صالوا النار ﴾ تعليل من جهة القائلين لا مرحباً بهم ، أي إنهم صالوا النار كما صليناها ومستحقون لها كما استحققناها .

﴿ قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر أي قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم : بل أنتم أحق بما قلتم لنا ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ أي العذاب أو الصلي لنا وأوقعتمونا فيه ، ودعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحق ما أنتم عليه ، وأن الأنبياء غير صادقين فيما جاءوا به .

﴿ فبئس القرار ﴾ أي بئس المقر جهنم لنا ولكم ، ثم حكى عن الأتباع أيضاً أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر وهو :

﴿ قالوا ربنا منَ قدم لنا هذا ﴾ أي من دعانا إليه وسوغه لنا ، قال الفراء المعنى من سوغ لنا هذا وسنه ، وقيل معناه من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر .

﴿ فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ أي عذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً ، ومثله قوله سبحانه ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ وقوله : ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ ، والضعف أن يزيد عليه مثله ، وقيل المراد بالضعف هنا الحيات والعقارب ، قال ابن مسعود : أي أفاعي وحيات .

وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي كفار مكة كأبي جهل وأمية بن خلف وأصحاب القليب وهم في النار . ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ أي الأراذل الذين لا خير لهم ولا جدوى ، وقيل : إنما سموهم أشراراً لأنهم كانوا على خلاف دينهم ، قيل : هو من قول الرؤساء ، وقيل من قول الطاغين المذكورين سابقاً قال الكلبي : ينظرون في النار فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها ، فعند ذلك قالوا هذا القول ، وقيل يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب وبلال وسالم وسلمان ، وقيل أرادوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على العموم .

﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ في الدنيا فأخطأنا ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ فلم نعلم مكانهم ، قاله مجاهد والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى كل واحد من الأمرين ، قال الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم ، قال الفراء والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب ، قرىء بحذف همزة اتخذناهم في الوصل ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الكلام خبراً محضاً ، وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية لرجالاً ، وأن يكون المراد الاستفهام وحذفت أداته لدلالة أم عليها ، فتكون أم على الوجه الأول منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل أزاغت عنهم الأبصار ؟ على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير ،

وعلى الثاني أم هي المتصلة ، وقرىء بهمزة استفهام سقطت لاجلها همزة الوصل ولا محل للجملة حينئذ ، وفيه التوبيخ لانفسهم على الامرين جميعاً لان أم على هذه القراءة هي للتسوية ، وقرىء سخرياً بضم السين وبكسرها ، قال أبو عبيدة من كسر جعله من الهزء ، ومن ضم جعله من التسخر .

﴿ إن ذلك ﴾ أي ما تقدم من حكاية حالهم ﴿ لحق ﴾ أي لواقع ثابت في الدار الآخرة لا يتخلف البتة ﴿ تخاصم أهل النار ﴾ خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، وهذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم والمعنى أن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بد أن يتكلموا به . وهو تخاصم أهل النار فيها ، وما قالته الرؤساء للأتباع . وما قالته الاتباع لهم والجملة بيان لاسم الإشارة وفي الإبهام أولاً والتبيين ثانيا مزيد تقرير له قرأ ابن أبيّ بنصب تخاصم على أنه بدل من ذلك أو بإضمار أعني وقرىء تخاصم بصيغة الماضي فتكون جملة مستأنفة وإنما سماه تخاصماً لان قول القادة للاتباع : لا مرحباً بكم وقول الاتباع للقادة بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة ثم أمر الله سبحانه رسوله الله صلى الله عليه وسلم أن يقول قولاً جامعاً بين التخويف والإرشاد إلى التوحيد فقال :

﴿ قل إنما أنا منذر ﴾ أي مخوف لكم من عذاب الله وعقابه لا ساحر ولا شاعر كما ادعيتم وإنما اقتصر على الإنذار لأنه إنما يناسبهم الإنذار ﴿ وما من إله ﴾ يستحق العبادة ﴿ إلا الله الواحد ﴾ الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ لكل شيء سواه ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ من المخلوقات ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿ الغفار ﴾ لمن أطاعه ، وقيل معنى العزيز المنيع الذي لا مثل له ، ومعنى الغفار الستار لذنوب خلقه ، ثم أمره الله سبحانه أن يبالغ في إنذارهم ، ويبين لهم عظم الأمر وجلالته فقال :

﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أي ما أنذرتكم به من العقاب ، وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم ونبأ جليل ، من شأنه العناية به والتعظيم له

والاعتناء به أمراً وائتماراً ، وعدم الاستخفاف به ومثل هذه الآية قوله ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ ؟ وقال مجاهد وقتادة ومقاتل هو القرآن . فإنه نبأ عظيم لأنه كلام الله ، قال الزجاج قل النبأ الذي انبأتكم به عن الله نبأ عظيم ، يعني ما أنبأهم به من قصص الأولين ، وذلك دليل على صدقه ونبوته ، لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله .

﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ صفة ثانية للنبأ أو جملة مستأنفة ، وهذا توبيخ لهم وتقريع لكونهم أعرضوا عنه ، ولم يتفكروا فيه ، فيعلموا صدقه ، ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث .

﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى ﴾ استئناف مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم ، وارد من جهته تعالى ، يذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ، ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة ، فإن ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحي من عند الله تعالى ، وان سائر أنبائه أيضاً كذلك ، وأن الأنبياء لا يعلمون الغيب أصلاً ، إلا ما يوحى إليهم من جهته سبحانه وتعالى ، والملأ الأعلى هم الملائكة وزاد أبو السعود وآدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة .

﴿ إذ يختصمون ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى ، وقت اختصامهم والضمير راجع إلى الملإ الأعلى والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم ، قال ابن عباس : قال الملائكة حين شوروا في خلق آدم فاختصموا فيه ، وقالوا : لا تجعل في الأرض خليفة ، وعنه قال هي الخصومة في شأن آدم حيث قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ؟

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن نصر في كتاب الصلاة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتاني الليلة ربي في أحسن صورة أحسبه قال : في المنام .

قال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت لا ، فوضع يده

بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ، أو في نحري ، فعلمت ما في السموات والأرض ، ثم قال لي : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت نعم في الكفارات والكفارات المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره »[1] الحديث .

وأخرج الترمذي وصححه ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه وقال « وإسباغ الوضوء في السبرات »[2] وأخرج الطبراني وابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه ، وأخرجا أيضا من حديث أبي هريرة نحوه ، وفي الباب أحاديث ، وقيل : الضمير لقريش أي يختصمون فيهم بعضهم يقول : بنات الله ، وبعضهم يقول غير ذلك والأول أولى .

﴿ إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ جملة معترضة بين اختصامهم المجمل ، وبين تفصيله بقوله ﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ ، والمعنى ما يوحى إليّ إلا أنني نذير أبين لكم ما تأتون من الفرائض والسنن وما تدعون من الحرام والمعصية ، قاله الفراء وقال : كأنك قلت ما أوحى إليّ إلا الإنذار قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها وما في حيزها في محل رفع ، لقيامها مقام الفاعل أي ما يوحى إليّ إلا الإنذار ، أو إلا كوني نذيراً مبيناً ،أو في محل نصب أوحى بعد إسقاط لام العلة ، والقائم مقام الفاعل على هذا الجار والمجرور ، وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة لأن في الوحي معنى القول وهي القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية كأنه قيل ما يوحي إليّ هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين والقصر هنا إضافي أي لا ساحر ولا كذاب كما زعتم ، وخصه بالذكر لأن الكلام مع المشركين وحاله معهم مقصور على الإنذار ولما ذكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالاً فيما تقدم ذكر ههنا تفصيلاً فقال :

---

(١) وتمام الحديث : راجع زاد المسير ١٥٥/١

(٢) السَّبَرَات جمع سَبْرة، وهي الغداة الباردة.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟
لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ
﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿ إذ قال ربك للملائكة ﴾ إذ هذه بدل من ﴿ إذ يختصمون ﴾ لاشتمال ما في حيز هذه على الخصومة ، وقيل هي منصوبة بإضمار اذكر ، والأول أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الارض .

وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدم ذكره فالثاني أولى ﴿ إني خالق ﴾ أي فيما سيأتي من الزمن ﴿ بشراً ﴾ أي جسماً من جنس البشر وهو آدم عليه السلام مأخوذ من مباشرته للأرض أو من كونه بادي البشرة أي ظاهر الجلد ليس على جلده صوف ولا شعر ولا وبر ولا ريش ولا قشر .

وقوله ﴿ من طين ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لـ ﴿ بشراً ﴾ أو بـ﴿ خالق ﴾ ومعنى ﴿ فإذا سويته ﴾ صورته على صورة البشر وصارت أجزاؤه مستوية وأتممته .

﴿ ونفخت ﴾ أي أجريت ﴿ فيه من روحي ﴾ أي من الروح الذي أملكه ، ولا يملكه غيري وقيل هو تمثيل ولا نفخ ولا منفوخ فيه ، والمراد جعله حياً بعد أن كان جماداً لا حياة فيه ، ويأباه ظاهر النظم الكريم فالأول أولى ، وقد مر الكلام عليه في سورة النساء والنفخ إجراء الروح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها وإضافة الروح إليه تشريف لآدم عليه السلام والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه وبه قال جمهور المتكلمين قاله الكرخي ؛ وقال النووي في شرح مسلم إنه الأصح عند أصحابنا ، وهو مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر ، وقال كثير منهم إنها عرض وهي الحياة التي صار البدن بوجودها حياً ، وقال الفلاسفة وكثير من الصوفية إنها ليست بجسم ولا

عرض ، بل جوهر مجرد قائم بنفسه غير متحيز ، متعلق للبدن للتدبير والتحريك غير داخل فيه ولا خارج عنه ووافقهم على ذلك الغزالي والراغب .

واحتج للأول بوصفها في الأخبار بالهبوط والعروج والتردد في البرزخ أ هـ .

وقيل جوهر شريف قدسي يسري في بدن الإنسان سريان الضوء في الفضاء أو كسريان النار في الفحم ، ذكره الخازن ، وأقول علم الروح مما آستأثر الله تعالى بعلمه ، ولا يعلمه أحد من خلقه كائناً من كان ، والخوض في معرفته من فضول الأعمال ولغو الكلام ، وقد قال الله عز وجل ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾

﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ هو أمر من وقع يقع ، والسجود هنا هو سجود التحية لا سجود العبادة ، وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل ، أي اسقطوا له ساجدين ، وقد مضى تحقيقه في سورة البقرة .

﴿ فسجد الملائكة ﴾ في الكلام حذف تدل عليه الفاء والتقدير : فخلقه فسواه ونفخ فيه من روحه فسجد له الملائكة ﴿ كلهم ﴾ يفيد أنهم سجدوا جميعاً ولم يبق منهم أحد وقوله ﴿ أجمعون ﴾ يفيد أنهم أجتمعوا على السجود في وقت واحد فالأول لقصد الإحاطة والثاني لقصد الاجتماع ، قال في الكشاف فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد ، أنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد ، غير متفرقين في أوقات وقيل إنه أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ، وكان هذا السجود قبل دخول آدم الجنة أو بعده قولان .

﴿ إلا إبليس ﴾ الاستثناء متصل على تقدير أنه كان متصفاً بصفات الملائكة داخلاً في عدادهم فغلبوا عليه ، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم، أي لكن إبليس ﴿ استكبر ﴾ أي أنف من السجود جهلاً منه بأنه طاعة لله ﴿ و ﴾ كان استكباره استكبار كفر فلذلك ﴿ كان من الكافرين ﴾ أي

صار منهم لمخالفته لأمر الله ، واستكباره عن طاعته ، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى في سورة البقرة والأعراف وبني إسرائيل والكهف وطه .

ثم إن الله سبحانه سأله عن سبب تركه للسجود الذي أمره به فـ ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ وقرىء بالإفراد أي ما صرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة أب وأم وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له وتشريفاً ، مع أنه سبحانه خالق كل شيء ، كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد.

قال مجاهد : اليد هنا لمعنى التأكيد والصلة مجازاً ، كقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ وقيل أراد باليد القدرة ، يقال : مالي بهذا الأمر يد ، ومالي به يدان ، أي قدرة ، وقيل : التثنية في اليد للدلالة على أنها ليست بمعنى القوة والقدرة ، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه ، وهو الأولى ، وقيل : التثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام المستدعي لاجلاله وتعظيمه قصداً إلى تأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ ، ما في قوله ﴿ لما خلقت ﴾ هي المصدرية أو الموصولة ، وقرىء لما بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى حين ، كما قال أبو علي الفارسي .

وعن عبد الله بن عمر قال : « خلق الله أربعاً بيده العرش وجنة عدن والقلم وآدم » أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي ، وعن عبدالله بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده » ، أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات .

﴿ أستكبرت ﴾ قرىء بهمزة الاستفهام وهو استفهام توبيخ وتقريع فتكون أم في قوله : ﴿ أم كنت ﴾ متصلة أي أتركت السجود لاستكبارك الحادث أم لاستكبارك القديم المستمر ؟ وقرىء بألف الوصل فتكون أم منقطعة

والمعنى أستكبرت عن السجود الذي أمرت به ؟ بل أكنت ﴿ من العالين ﴾ أي المستحقين للترفع عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك ، وجملة : ﴿ قال أنا خير منه ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ادعى اللعين لنفسه أنه خير من آدم ، أي ولو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أن أسجد له ، فكيف وأنا خير منه ، وفي ضمن كلامه هذا أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن ، ثم علل ما ادعاه من كونه خيراً منه بقوله :

﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين وأفضل منه ، لأن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية ، والنار أقرب العناصر من الفلك ، والأرض أبعدها منه ، وأيضاً النار لطيفة نورانية والأرض كثيفة ظلمانية ، وهما خير منها ، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعى الخادم ، وإن استغنى عنها طردت ، وأيضاً فالطين يستولي على النار فيطفيها وأيضا فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض وأن مآل النار إلى الرماد الذي لا ينتفع به ، والطين أصل كل ما هو نام نابت كالإنسان والشجرة . ومعلوم أن الإنسان والشجرة المثمرة خير من الرماد وأفضل ، وعلى كل حال فقد شرف آدم بشرف وكرم بكرامة لا يوازيها شيء من شرف العناصر ، وذلك أن الله تعالى خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأمر بالسجود له والجواهر في أنفسها متجانسة ، وإنما تشرف بعارض من عوارضها .

﴿ قال فاخرج منها ﴾ مستأنفة كالتي قبلها أي فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة ، وقيل من الخلقة التي كنت عليها لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته واسود بعد ما كان أبيض ، وقبح بعدما كان حسناً ، وأظلم بعد ما كان نورانياً ، وهذا يدل على أنه لم يكن كافراً حين كان بين الملائكة ، ولأن الله تعالى لم يحك عنه إلا الاستكبار عن السجود ، فهذا دليل على أنه صار كافراً حين لم يسجد ، ذكره الطيبي ، ثم علل أمره بالخروج بقوله .

﴿ فإنك رجيم ﴾ أي مرجوم بالكواكب ، مطرود من كل خير ، ملعون بترك أمره .

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ أي طردي لك عن الرحمة وإبعادي لك منها إلى يوم الجزاء فأخبر الله سبحانه وتعالى أن تلك اللعنة مستمرة له دائمة عليه ما دامت الدنيا ، ثم في الآخرة يلقى من أنواع عذاب الله وعقوبته وسخطه ما هو به حقيق ، وليس المراد أن اللعنة تزول عنه في الآخرة ، بل هو ملعون أبداً ولكن لما كان له في الآخرة ما ينسى عنده اللعنة ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه .

﴿ قال رب فانظرني ﴾ مستأنفة كما تقدم فيما قبلها أي أمهلني وأخرني ولا تعاجلني ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ يعني آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم ، وأراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ أي المهلين .

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ الذي قدره الله لفناء الخلائق وهو عند النفخة الآخرة ، وقيل : هو النفخة الأولى قيل إنما طلب إبليس الإنظار إلى يوم البعث ليتخلص من الموت لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث وعند مجيء البعث لا يموت فحينئذ يتخلص من الموت ، فأجيب بما يبطل مراده وينقض عليه مقصده وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو الذي يعلمه الله ولا يعلمه غيره ، فلما سمع اللعين إنظار الله له إلى ذلك الوقت .

﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ فأقسم بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات والمعاصي لهم ، وإدخال الشُّبهَ عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً ، ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ فبما أغويتني ﴾ فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته ، وحكم من أحكام قهره وسلطنته ، فمآل الإقسام بهما واحد ، ولعل اللعين أقسم بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بإحداهما وأخرى بأخرى .

ثم لما علم أن كيده لا ينجع إلا في أتباعه وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي استثنى من لا يقدر على إضلاله ولا يجد السبيل إلى إغوائه فقال ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ أي الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم مني ، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في سورة الحجر وغيرها .

﴿ قال فالحق والحق أقول ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها قرأ الجمهور بنصب الحق في الموضعين ، على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم ، فانتصب ، أو هما منصوبان على الإغراء أي الزموا الحق أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله :

﴿ لأملأن جهنم ﴾ وقرىء برفع الأول ونصب الثاني ، فرفع الأول على أنه مبتدأ وخبره مقدر ، أي فالحق مني أو فالحق أنا أو خبره لأملأن أو هو خبر مبتدأ محذوف ، وأما نصب الثاني فبالفعل المذكور بعده ، أي وأنا أقول الحق ، وأجاز الفراء وأبو عبيدة أن يكون منصوباً بمعنى حقاً لأملأن جهنم واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها ، وروي عن الفراء وسيبويه أيضاً أن المعنى فالحق أن أملأ جهنم وروي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قرأ برفعهما فرفع الأول على ما تقدم ؛ ورفع الثاني بالابتداء ؛ وخبره الجملة المذكورة بعده والعائد محذوف .

وقرىء بخفضهما على تقدير حرف القسم ، قال الفراء : كما يقول الله عز وجل لأفعلن كذا ، وغلطه أبو العباس ثعلب ، وقال : لا يجوز الخفض

بحذف مضمر ، وقيل : جملة لأملأن جواب القسم على قراءة الجمهور ، وجملة والحق أقول معترضة بين القسم وجوابه .

﴿ منك ﴾ أي من جنسك من الشياطين ﴿ وممن تبعك منهم ﴾ أي من ذرية آدم ، فأطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلالة والغواية ، و﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للمعطوف والمعطوف عليه ، وجوز الزمخشري أن يكون تأكيداً للضمير في منهم خاصة ، أي لأملأن جهنم من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره ، لا عرض الدنيا الزائل فقال :

﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ الضمير في عليه راجع إلى تبليغ الوحي ولم يتقدم له ذكر ولكنه مفهوم من السياق ، وقيل هو عائد إلى ما تقدم من قوله ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ وقيل : الضمير راجع إلى القرآن ، وقيل إلى الدعاء إلى الله على العموم ، فيشمل القرآن وغيره من الوحي ، ومن قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ما أطلب منكم من جعل تعطونيه عليه قال ابن عباس قل يا محمد : ما أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر عرض دنيا .

﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن من تلقاء نفسي وأقول ما لا أعلم أو أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه ، والتكلف التصنع .

وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : بينما رجل يحدث في المسجد فقال فيما يقول ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قال : دخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ، قال قمنا حتى دخلنا على عبدالله وهو في بيته وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال يا أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم : الله أعلم قال الله تعالى لرسوله صلى الله

عليه وسلم : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾

وأخرج البخاري عن عمر قال : « نهينا عن التكلف » ، وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي عن سلمان قال : « نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضَيف »[1] .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما هذا القرآن أو الوحي أو ما أدعوكم إليه إلاّ ذكر من الله عز وجل للجن والإنس العقلاء دون الملائكة ، لأن المراد بالذكر الموعظة والتخويف ، وتذكير العواقب ، وهذا إنما يناسب المكلفين ، وهم الثقلان فقط ، تأمل .

﴿ ولتعلمن ﴾ أيها الكفار ﴿ نبأه ﴾ أي ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو ما أخبر به من الدعاء إلى الله وتوحيده ، والترغيب إلى الجنة ، والتحذير من النار .

﴿ بعد حين ﴾ قال قتادة والزجاج والفراء بعد الموت ، وقال عكرمة وابن زَيد : يوم القيامة ، وقال الكلبي من بقي علم ذلك لما ظهر أمره وعلا ، ومن مات علمه بعد الموت ، وقال السدي وذلك يوم بدر وقيل عند ظهور الإسلام وفشوه ، وكان الحسن يقول يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين ، وفيه من التهديد ما لا يخفى .

---

(١) اخرجاه في الصحيحين الأعمش وانظر صحيح الجامع الصغير ٦٧٤٨ برواية نهى عن التكلف للضَّيْف» .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزمر

ويقال لها سورة الغرف

﴿ وهي إثنتان وسبعون آية ، وقيل خمس وسبعون آية وهي مكية ﴾

في قول الحسن وعكرمة وجابر بن زيد. وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس قال: نزلت بمكة، سوى ثلاث آيات نزلن بالمدينة في وحشي، قاتل حمزة: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الثلاث الآيات. وقال آخرون إلا سبع آيات: من قوله: ﴿ قل يا عبادي الذين ﴾ الى آخر السبع. وأخرج النسائي عن عائشة قالت: «كان يصوم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني اسرائيل والزمر»[1]. وأخرجه الترمذي عنها بلفظ «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل».

---

(١) السنن الكبرى للنسائي ٤/٢٩٢ و ٤/٢٩٩ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ
ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم اشارة أي هذا تنزيل ، وقال أبو حيان إن المبتدأ المقدر لفظ هو ليعود على قوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ كأنه قيل وهذا الذكر ما هو ؟ فقيل هو تنزيل الخ ، وقيل ارتفاعه على أنه مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، أي تنزيل كائن من الله العزيز ، وإلى هذا ذهب الزجاج والفراء ، وأجاز الفراء والكسائي النصب على أنه مفعول به لفعل مقدر ، أي اتبعوا أو اقرأوا تنزيل الكتاب، وقال الفراء يجوز نصبه على الاغراء أي الزموا والكتاب هو القرآن .

﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾ صلة للتنزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدر .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي أنزلناه بسبب الحق ، وإثباته وإظهاره ، أو متلبسين بالحق ، أو متلبساً أو بداعية الحق واقتضائه للإنزال ، والمراد كل ما فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف .

قال مقاتل يقول لم ننزله باطلاً لغير شيء ، وهذا ليس بتكرار ، لأن

الأول كالعنوان للكتاب ، والثاني لبيان ما في الكتاب ، أو المراد بالثاني هو الأول وإظهار لتعظيمه ومزيد الإعتناء بشأنه .

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد ، وتصفية السر . والإخلاص أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه ، والدين العبادة والطاعة ، ورأسها توحيد الله ، وأنه لا شريك له .

وفي الآية دليل على وجوب النية وإخلاصها عن الشوائب لأن الاخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب وقدجاء في السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية كما في حديث « إنما الأعمال بالنيات »[١] وحديث « لا قول ولا عمل إلا بالنية » .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإخلاص ، أي إن الدين الخالص من شوائب الشرك وغيره هو لله وما سواه من الأديان فليس بدين الله الخالص ، الذي أمر به . قال قتادة الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله .

وقد أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال « يا رسول الله إنا نعطي أموالنا إلتماس الذكر فهل لنا في ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، قال يا رسول الله إنما نعطي إلتماس الأجر والذكر فهل لنا أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله لا يقبل إلا ما أخلص له »[٢] ثم تلا هذه الآية ، وقال الحسن الدين الاسلام .

ولما أمر سبحانه بعبادته على وجه الاخلاص ، وأن الدين الخالص له لا لغيره ، بين بطلان الشرك الذي هو مخالف للاخلاص فقال :

---

(١) سبق ذكره .

(٢) رواه النسائي (٢/٥٩) واسناده حسن كما قال الحافظ الواقي في تخريج الاحياء ٤/٣٢٨ .

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ الموصول عبارة من المشركين ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ وجملة ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، والمعنى والذين لم يخلصوا العبادة لله بل شابوها بعبادة غيره قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تقريباً ، فالزلفى اسم أقيم مقام المصدر ، والضمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام ، وهم المرادون بالأولياء ، والمراد بالزلفى الشفاعة كما حكاه الواحدي عن المفسرين .

قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض ؟ ومن أنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله . فيقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ قالوا ﴿ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ويشفعوا لنا عنده . قال الكلبي : جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ .

﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كُلًّا بما يستحقه ، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار وقيل بين المخلصين للدين وبين الذين لم يخلصوا وحذف الأول لدلالة الحال عليه ، وقيل : بين المتنازعين من الفريقين ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾ أي في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد والشرك ، فإن كل طائفة تدّعي أن الحق معها .

﴿ إن الله لا يهدي ﴾ أي لا يرشد لدينه ولا يوفق للاهتداء إلى الحق ﴿ من هو كاذب ﴾ في زعمه أن الآلهة تقربه إلى الله ﴿ كفار ﴾ أي كفر باتخاذها آلهة ، وجعلها شركاء لله لأنه فاقد للبصيرة غير قابل للاهتداء ، لتغييره الفطرة بالتمرن في الضلال ، والتمادي في الغي ، والجملة تعليل لما ذكر من حكمه ، والكفار صيغة المبالغة تدل على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية ، وقرأ الحسن والأعرج كذاب على صيغة المبالغة ككفار ، ورويت هذه عن أنس .

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ
ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى﴾ هذا مقرر لما سبق من إبطال قول المشركين بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ، فلو أراد أن يتخذ ولداً لامتنع اتخاذ الولد حقيقة ، ولم يتأت ذلك إلا بأن يصطفي ﴿مما يخلق﴾ أي يختار من جملة خلقه .

﴿ما يشاء﴾ أن يصطفيه إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق لعدم المجانسة بينهما ، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً ، كما يفيده التعبير بالاصطفاء ، مكان الاتخاذ ، فمعنى الآية لو أراد أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد ، بل إنما هو الاصطفاء لبعض مخلوقاته ، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق فقال : ﴿سبحانه﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك وجملة ﴿هو الله الواحد﴾ مبينة لتنزهه بحسب الصفات بعد تنزهه بحسب الذات ، أي هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته فلا مماثل له .

﴿القهار﴾ لكل مخلوقاته ، ومن كان متصفاً بهذه الصفات استحال

وجود الولد في حقه ، لأن الولد مماثل لوالده ، ولا مماثل له سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ والآية إشارة إلى قياس استثنائي حذفت صغراه ، ونتيجته تقريرهما ، لكنه لم يصطف أي لم يتخذ ولداً ، وهذا النفي باعترافهم شامل لسائر الخلائق ، فلم يرد اتخاذ الولد ، تأمل.

ثم لما ذكر سبحانه كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً ذكر ما يدل على ذلك من صفاته فقال : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي لم يخلقهما باطلاً لغير شيء ومن كان هذا الخلق العظيم خلقه استحال أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد ، ثم بين كيفية تصرفه في السموات والأرض فقال :

﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ التكوير في اللغة طرح الشيء بعضه على بعض ، يقال كور المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة ، فمعنى تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه ، ومعنى تكوير النهار على الليل تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ هكذا قال قتادة وغيره قال الضحاك : أي يلقي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، وهو مقارب للقول الأول .

وقيل معنى الآية أن ما نقص من الليل دخل في النهار ، وما نقص من النهار دخل في الليل ، وهو معنى قوله ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ ومنتهى النقصان تسع ساعات ، ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة ، وقيل : المعنى أن هذا يكر على هذا ، وهذا يكر على هذا كروراً متتابعاً ، قال الراغب تكوير الشيء إدارته ، وضم بعضه على بعض ، ككور العمامة أهـ .

وقيل التكوير اللف واللي ، وقال ابن عباس : يكور يحمل ، والإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها ، وانتقاص الليل والنهار ، وازديادهما . قال الرازي : إن النور والظلمة عسكران عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا .

ثم ذكر تسخيره لسلطان النهار وسلطان الليل وهما الشمس والقمر فقال : ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي جعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد ثم بين كيفية هذا التسخير فقال : ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي يجري في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا وذلك يوم القيامة : وقد تقدم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفى في سورة يس .

﴿ألا هو العزيز الغفار﴾ ألا حرف تنبيه ، وتصدير الجملة بها لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها . والمعنى تنبهوا أيها العباد فالله هو الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة ، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته وبديع صنعته فقال :

﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وهي نفس آدم ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ جاء بثم للدلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم وتراخيه عنه لأنها خلقت منه ، والعطف إما على مقدر وهو صفة لنفس قال الفراء والزجاج : التقدير خلقكم من نفس خلقها واحدة ، ثم جعل منها زوجها ، ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة . أي من نفس انفردت بالأيجاد ثم جعل الخ ، والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم أدخل في كونه آية باهرة ، دالة على كمال القدرة ، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة[1] في خلقه ،وخلقها على الصفة المذكورة لم يجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الأعراف . ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته الباهرة وأفعاله الدالة على ما ذكر فقال: ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾ عبر بالإنزال لما يروي أنه خلقها في الجنة ، ثم أنزلها فيكون الإنزال حقيقة كما قيل في قوله ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ فإن آدم لما أهبط إلى الأرض أنزل معه

---

(١) إن خلق آدم لم يكن على عادة الله المستمرة في خلقه ، لأنه خلق من تراب وعلى غير مثال سابق ، فخلقه ربما يكون أدخل في كمال القدرة من خلق حواء .
أما بنوه فقد خلقوا على عادة الله المستمرة في خلقه ، وهي التناسل . ولعل هذا ما قصد إليه المؤلف من التعبير بكاف المخاطبين وميم الجمع في قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة » .

الحديد ، ويحتمل أن يكون مجازاً ؛ لأنها لما لم تعش إلا بالنبات والنبات إنما يعيش بالماء ، والماء منزل من السماء ، كانت الأنعام كأنها منزلة لأن سبب سببها منزل . وهذا يسمى التدريج ، ومنه قوله تعالى ﴿ قد أنزلنا عليكم لباساً ﴾ وقيل : إن أنزل بمعنى أنشأ وجعل ، أو بمعنى أعطى ، وقيل : جعل الخلق إنزالاً لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء.

﴿ ثمانية أزواج ﴾ هي ما في قوله ﴿ من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ﴾ ويعني بالاثنين في الأربع المواضع الذكر والأنثى ، والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه ، ويحصل منهما النسل ، فيطلق لفظ الزوج على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه ، ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الإثنين فهو مشترك ، والمراد هنا الإطلاق الأول ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأنعام ، ثم بين سبحانه نوعاً آخر من قدرته البديعة فقال :

﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم ، وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم ، وإنما قال ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ مع أن الإنسان والحيوان مشترك في هذا الخلق لتغليب من يعقل ، ولشرف الانسان على سائر الخلق ﴿ خلقاً ﴾ كائناً ﴿ من بعد خلق ﴾ الجملة استئنافية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة في خلقهم ، وخلقاً مصدر مؤكد للفعل المذكور ، ومن بعد خلق صفة له . قال قتادة والسدي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً . وقال ابن زيد خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم .

﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ هي ظلمة البطن وظلمة الرحم ؛ وظلمة المشيمة ؛ قاله مجاهد وقتادة والضحاك ، وقال سعيد بن جبير ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم وظلمة الليل وقال أبو عبيدة ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ؛ وظلمة الرحم والرحم داخل البدن والمشيمة داخل الرحم قال ابن الأعرابي يقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والغلاف ؛ والجمع مشيم بحذف الهاء ، ومشايم ، ويقال لها من غيره السلى ، والاشارة بقوله ﴿ ذلكم

الله ربكم ﴾ إليه سبحانه باعتبار افعاله السابقة والاسم الشريف خبره وربكم خبر آخر .

﴿ له الملك ﴾ الحقيقي في الدنيا والآخرة لا شراكة لغيره فيه ، وهو خبر ثالث وقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ خبر رابع ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي فكيف تنصرفون عن عبادته ؟ وتتقلبون عنها إلى عبادة غيره ؟ أو تصرفون عن طريق الحق بعد هذا البيان ، ولما ذكر سبحانه النعم التي أنعم بها على عباده ، وبين لهم من بديع صنعه ، وعجيب فعله ، ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ أي غير محتاج إليكم ولا إلى إيمانكم ولا عبادتكم له ، فإنه الغني المطلق .

﴿ و ﴾ مع كون كفر الكافر لا يضره كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن ، فهو أيضاً ﴿ لا يرضى لعباده الكفر ﴾ أي لا يرضى لأحد من عباده الكفر ، ولا يحبه ، ولا يأمر به ، ولا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه ، ويثيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهي عنه ويذم عليه ، ويعاقب مرتكبه ، وإن كان بإرادته إذ لا يخرج شيء عنها .

قال أبو السعود : عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم ، رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به انتهى . ومثل هذه الآية قوله ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ ومثلها ما ثبت في صحيح مسلم من قوله صلى الله عليه وسلم : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً »[1] .

وقد اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي على عمومها ؟ وأن الكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر ، أو هي خاصة ، والمعنى لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، وتابعه على ذلك عكرمة والسدي وغيرهما، ثم اختلفوا في الآية اختلافاً آخر ، فقال قوم : إنه يريد كفر الكافر ولا يرضاه

(١) وتمام الحديث في مسلم ١٧/٨ .

وقال الآخرون: إنه لا يريده ولا يرضاه ،والكلام في تحقيق مثل هذا يطول جداً.

وقد استدل القائلون بتخصيص هذه الآية والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت في آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ ونحو هذا مما يؤدي معناه كثير في الكتاب العزيز .

قال ابن عباس في قوله :(إن تكفروا)إلخ يعني الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فيقولوا لا إله إلا الله، ثم قال : ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وهم عباده المخلصون ، الذين قال فيهم ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وحببها إليهم أخرجه ابن جرير فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى ، كقوله ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ يريد بعض العباد وقال عكرمة لا يرضى لعباده المسلمين الكفر ، وعن قتادة قال ، والله ما رضي الله لعبد صلاته ، ولا أمره بها ، ولا دعاه إليها ، ولكن رضي لكم طاعته ، وأمركم بها ، ونهاكم عن معصيته ، ثم لما ذكر سبحانه أنه لا يرضى لعباده الكفر بين أنه يرضى لهم الشكر فقال :

﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ أي يرضى لكم الشكر ، المدلول عليه بقوله . وإن تشكروا أي يثبكم عليه ، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة . كما قال سبحانه ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ لا لانتفاعه به ، قرىء بإسكان الهاء من يرضه ، وبإشباع الضمة على الهاء . واختلف الباقون والقراءات كلها سبعية .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر لغيره أصلاً ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ من خير وشر ، وفيه تهديد شديد ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تضمره القلوب وتستره ، فكيف بما تظهره وتبديه ، وهذا تعليل بالتنبيه بالأعمال .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

﴿ وإذا مس الإنسان ضر ﴾ أي ضر كان في جسمه أو ماله أو أهله أو ولده من بلاء ومرض أو فقر أو خوف أو شدة لأن اللفظ مطلق فلا معنى لتقييده ، والمس في الأعراض مجاز . وجواب إذا قوله ﴿ دعا ربه منيباً إليه ﴾ أي راجعاً إليه مستغيثاً به في دفع ما نزل به تاركاً لما كان يدعوه ويستغيث به من ميت أو حي ، أو صنم أو غير ذلك في حال الرخاء لعلمه أنها بمعزل عن القدرة على كشف ضره .

﴿ ثم إذا خوله نعمة منه ﴾ أي أعطاه وملكه ، ويقال خوله الشيء أي ملكه إياه ولا يستعمل في الجزاء ، بل في ابتداء العطية ﴿ نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله وقيل نسي الدعاء الذي كان يتضرع به وتركه أو نسي ربه الذي كان يدعوه ، ويتضرع إليه ، ثم جاوز ذلك إلى الشرك بالله وهو معنى قوله :

﴿ وجعل لله أنداداً ﴾ أي شركاء من الأصنام أو غيرها ، يستغيث بها ويعبدها ؛ وقال السدي : يعني أنداداً من الرجال يعتمد عليهم في جميع أموره ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ أي ليضل الناس عن طريق الله التي هي الإسلام والتوحيد قرأ الجمهور بضم الياء ، وقرىء بفتحها ، وهما سبعيتان ، واللام للعاقبة ، ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يهدد من كان متصفاً بتلك الصفة فقال :

﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً ﴾ أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً فمتاع الدنيا قليل قال الزجاج لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد والوعيد وفيه إشعار بأن الكفر

نوع تشه لا سند له ، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ، ولذلك علله بقوله :

﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة أي مصيرك إليها عن قريب ، وإنك ملازمها ومعدود من أهلها على الدوام ، وهو تعليل لقلة التمتع ، وفيه من التهديد أمر عظيم ، قيل : نزلت في عتبة بن ربيعة ، وقيل : في أبي حذيفة المخزومي ، وقيل : هو عام في كل كافر ، وهو الأوفق بقواعد الشريعة .

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين وتمسكهم بغير الله عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين فقال :

﴿ أمن هو قانت ﴾ هذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أذلك الكافر أحسن حالاً ومآلاً أمن هو قائم بطاعات الله في السراء والضراء ، في ساعات الليل ، مستمر على ذلك ، غير مقتصر على دعاء الله سبحانه عند نزول الضرر به ؟ قرىء : أمن بالتشديد وبالتخفيف ، فعلى القراءة الأولى (أ) داخلة على (من) الموصولة ، وأدغمت الميم في الميم وأم هي المتصلة ، ومعادلها محذوف ، أي الكافر خير ؟ أم الذي هو قانت ؟ وقيل ، هي المنقطعة مقدرة ببل والهمزة ، أي بل أمن هو قانت كالكافر؟ وعلى الثانية الهمزة للإستفهام ، والاستفهام للتقرير ، ومقابله محذوف ، أي أمن هو قانت كمن كفر ؟ وقال الفراء إن الهمزة في هذه القراءة للنداء ، ومن منادى ، وهي عبارة عن النبي صلى الله عليه وسلم المأمور بقوله :

﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً ﴾ والتقدير : يا من هو قانت قل : كيت وكيت ، وقيل : التقدير يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة ، ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفراء ، وضعف ذلك أبو حيان وقال هوأجنبي عما قبله وعما بعده ، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو علي الفارسي ، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم والأخفش ولا وجه لذلك ، فإنها إذا ثبتت

الرواية بطلت الدراية .

وقد اختلف في تفسير القانت هنا فقيل المطيع ، وقيل : الخاشع أو القائم في صلاته ، وقيل : الداعي لربه ، قال النحاس : أصل القنوت الطاعة فكل ما قيل فيه فهو داخل في الطاعة .

﴿ آناء الليل ﴾ جمع إِنى بكسر الهمزة والقصر كمعي وأمعاء ، وقيل : واحدها أنو ، يقال : مضى من الليل أنيان وأنوان والمراد بآناء الليل ساعاته وأوقاته ، وقيل : جوفه ، وقيل : ما بين المغرب والعشاء ، وقيل : أوله وأوسطه وآخره .

﴿ ساجداً وقائماً ﴾ منصوبان على الحال ، أي جامعاً بين السجود والقيام في الصلاة ، وقدم السجود على القيام لكونه أدخل في العبادة ، والآية دلت على ترجيح قيام الليل على النهار ، وأنه أفضل منه وذلك لأن الليل استر فيكون أبعد عن الرياء ، ولأن ظلمة الليل تجمع الهم وتمنع البصر عن النظر إلى الأشياء ، وإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية رجع إلى المطلوب الأصلي ، وهو الخشوع في الصلاة ، ومعرفة من يصلي له .

وقيل لأن الليل وقت النوم ومظنة الراحة فيكون قيامه أشق على النفس ، فيكون الثواب فيه أكثر قال ابن عباس : من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة فليره الله في ظلمة الليل ، ذكره القرطبي .

﴿ يحذر الآخرة ﴾ أي يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير ومقاتل ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ فيجمع بين الرجاء والخوف وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز قيل : وفي الكلام حذف تقديره كمن لا يفعل شيئاً من ذلك ، كما يدل عليه السياق ، قيل : الرحمة هنا المغفرة ، وقيل : الجنة ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل ، وأولى أن ينسب إلى الله تعالى .

وعن ابن عمر أنه تلا هذه الآية وقال « ذاك عثمان بن عفان »[1] . وفي

(١) قاله السيوطي في الدر (٣٢٣/٥) .

لفظ نزلت في عثمان بن عفان وعن ابن عباس قال : نزلت في عمار بن ياسر .

وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الموت فقال كيف تجدك ؟ قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو ، وأمنه الذي يخاف » أخرجوه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال الترمذي : غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم قولاً آخر ، يتبين به الحق من الباطل فقال :

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون ﴾ إن ما وعد الله به من البعث والثواب والعقاب حق ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ ذلك أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله والذين لا يعلمون ذلك أو المراد العلماء والجهال ، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل ، ولا بين العالم والجاهل . قال الزجاج أي كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والعاصي .

وقيل المراد بالذين يعلمون هم العاملون بعلمهم ، فإنهم المنتفعون به لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ، وقيل : افتتح الله الآية بالعمل وختمها بالعلم ، لأن العمل من باب المجاهدات والعلم من باب المكاشفات ، وهو النهاية فإذا حصل للانسان دل ذلك على كماله وفضله .

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يتعظ بوعظ الله ويتدبر ويتفكر فيه أصحاب العقول الصافية ، والقلوب النيرة ، وهم المؤمنون لا الكفار ، فإنهم وإن زعموا أن لهم عقولاً فهي كالعدم ، وهذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به ، بل من جهة الله سبحانه بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي ، لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم .

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾

﴿ قل يا يَٰعِبَادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم من لا يعلم ، وبين أنه ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه والإيمان به ، والمعنى يـأيـها الذين صدقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه ، وامتثال أوامره وإخلاص الإيمان له ، ونفي الشركاء عنه ، والمراد : قل لهم قولي هذا بعينه ، ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى ، بين لهم ما في هذه التقوى من الفوائد فقال :

﴿ للذين أحسنوا ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة ﴿ في هذه الدنيا ﴾ على وجه الاخلاص ﴿ حسنة ﴾ عظيمة وهي الجنة ، وقوله ﴿ في هذه الدنيا ﴾ متعلق بأحسنوا وقيل بحسنة على أنه بيان لمكانها ، فيكون المعنى للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة والعافية ، والظفر والغنمية ، والأول أولى ، ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات ، والإحسان في وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة فقال :

﴿ وأرض الله واسعة ﴾ وبلاده كثيرة ، فليهاجر إلى حيث تمكنه طاعة الله والعمل بما أمر به ، والترك لما نهى عنه ، كما هو سنة الأنبياء والصالحين ، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً ؛ ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ وقد مضى الكلام في الهجره مستوفى في سورة النساء .

وقيل المراد بالأرض الواسعة هنا أرض الجنة ، رغبهم في سعتها وسعة نعيمها كما في قوله ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ والجنة قد تسمى أرضاً . قال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ والأول أولى .

وقيل ارتحلوا من مكة وتحولوا إلى بلاد أخر ؛ واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم ؛ وفيه حث على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي وقيل من أمر بالمعاصي في بلد فليهرب منه ثم لما بين سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا ؛ وكان لا بد في ذلك من الصبر على فعل الطاعة ؛ وعلى كف النفس عن الشهوات ، أشار إلى فضيلة الصبر وعظيم مقداره فقال :

﴿ إنما يوفي الصابرون ﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى غيرها من تجرع الغصص ، واحتمال البلايا في طاعة الله : بزيادة ﴿ أجرهم ﴾ في مقابلة صبرهم وما كابدوه من العسر ﴿ بغير حساب ﴾ أي بما لا يقدر على حصره حاصر ولا يستطيع حسبانه حاسب وإن كان معلوماً محصياً عند الله . قال عطاء : بما لا يهتدي إليه عقل ولا وصف . وقال مقاتل أجرهم الجنة وأرزاقهم فيها بغير حساب .

وقيل قوله إنما يوفي الصابرون ترغيب في التقوى المأمور بها . وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر ، كحيازتهم لفضيلة الإحسان لما أشير إليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة في تحمل مشاق الهجرة .

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له لأن كل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو

غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ، ومثوبة جليلة ، تقتضي من كل راغب في ثواب الله ، وطامع فيما عنده من الخير أن يتوفر على الصبر ويزم نفسه بزمامه ، ويقيدها بقيده ، فان الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيراً قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع ، وإذا تصور العاقل هذا حق تصور ، وتعقله حق تعقله ، علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم ، وظفر بهذا الخير الخطير ، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى . ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره ، ولا يبلغ مداه ، فضم إلى مصيبته مصيبة أخرى ولم يظفر بغير الجزع ، وما أحسن قول من قال :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه للضرورة أوجب

قال علي بن أبي طالب : كل مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلا الصابرين ، فإنه يحثى لهم حثياً ، وروي أنه يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ، لما يذهب به أهل البلاء من الفضل ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أولاً بما أمر به من التوحيد والإخلاص فقال :

﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي أعبده عبادة خالصة من الشرك والرياء وغير ذلك ، قال مقاتل : « إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما يحملك على الذي أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك ؟ وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فتأخذ بها » ،[1] فأنزل الله الآية ، وقد تقدم بيان معنى الآية في أول هذه السورة ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم ثانياً بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم فقال :

---

(١) ذكره الخازن في تفسيره دون مسنده .

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾

﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ من هذه الأمة وكذلك كان صلى الله عليه وسلم فإنه أول من خالف دين آبائه ودعا إلى التوحيد ، ومعنى الأولية السبق بحسب الزمان ، فالمراد بالسبق السبق بحسب الدعوة ، فإن الأفضل أن من يدعو الغير إلى خلق كريم أن يدعو نفسه إليه أولاً ، ويتخلق به حتى يؤثر في الغير كسنة الأنبياء والصالحين ، لا الملوك والمتجبرين ، واللام للتعليل ، أي وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون ، وقيل : أنها مزيدة للتوكيد ، والأول أولى ، ثم أمره ثالثاً أن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان فقال :

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ بترك إخلاص العبادة له ، وتوحيده والدعاء الى ترك الشرك ، وتضليل أهله ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وهو يوم القيامة قال أكثر المفسرين : المعنى اني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله .

قال أبو حمزة اليماني وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب لأن قبله ﴿إنما أمرت أن أعبد الله﴾، فالمراد عصيان هذا الأمر ، وفيه زجر الغير عن المعاصي ، لأنه مع جلالة قدره وشرف طهارته ونزاهته ، ومنصب نبوته إذا كان خائفاً حذراً من المعاصي فغيره أولى بذلك ، ثم أمره رابعاً أن

يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد ، وعبد الله وأخلص له الدين على أبلغ وجه ، وآكده ، إظهاراً لتصلبه في الدين ، وحسماً لأطماعهم الفارغة ، وتمهيداً لتهديدهم فقال :

﴿ قل الله أعبد ﴾ التقديم مشعر بالاختصاص ، أي لا أعبد غيره لا استقلالاً ولا على جهة الشركة ، ومعنى ﴿ **مخلصاً** له ديني ﴾ أنه خالص لله غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما ، **وقد تقدّم** تحقيقه في أول السورة ، قال الرازي : فإن قيل ما معنى التكرير في قوله ﴿ إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ، وقوله ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ قلنا ليس هذا بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالايمان والعبادة والثاني إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله .

﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ أن تعبدوه ﴿ من دونه ﴾ هذا الأمر للتهديد والتقريع والتوبيخ ، كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وفيه إيذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى ، وقيل إن الأمر على حقيقته ، وهو منسوخ بآية السيف ، والأول أولى .

﴿ قل إن الخاسرين ﴾ الكاملين في الخسران هم ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ بتخليد الأنفس في النار وبعدم وصولهم الى الحور المعدة لهم في الجنة لو آمنوا لأن من دخل النار فقد خسر نفسه وأهله ، وأهلي جمع أهل وأصله أهلون أو أهلين والمراد بأهليهم أهل الآخرة ، وقيل أزواجهم وخدمهم وقيل أهلهم في الدنيا لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم ، كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده .

قال الزجاج وهذا يعني به الكفار ، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار ، وخسروا أهليهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة ، قال ابن عباس في الآية هم الكفار الذين خلقهم للنار ، زالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة ، وعنه قال أهليهم من أهل الجنة ، كانوا أعدوا

لهم لو أطاعوا الله فغيبوهم .

﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه للاشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلغ من العظم الى غاية ليس فوقها غاية ، وكذلك تعريف الخسران ووصفه بكونه مبيناً ، فإنه يدل على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران وأنه لا خسران يساويه ولا عقوبة تدانيه ثم بين سبحانه هذا الخسران الذي حل بهم والبلاء النازل عليهم بعد تهويله بطريق الابهام فقال :

﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار أي لهم من فوقهم أطباق وسرادقات وقطع كبار من النار تلتهب عليهم وإطلاق الظلل عليها تهكم وإلا فهي محرقة والظلة تقي من الحر .

﴿ ومن تحتهم ظلل ﴾ أي أطباق من النار وفراش ومهاد وسمي ما تحتهم ظلالاً لأنها من إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر ، أو أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الايذاء والحرارة سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة أو لأنها تظل من تحتها من أهل النار لأن طبقات النار صارت في كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ لهم في جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ وقوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من وصف عذابهم في النار وهو مبتدأ وخبره قوله ﴿ يخوف الله به عباده ﴾ المؤمنين أي يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب ليخافوه فيتقوه وهو معنى ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار ، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم وقيل هو للكفار ، وأهل المعاصي وقيل هو عام للمسلمين والكفار .

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ
يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ هو بناء مبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت وهو الأوثان والشيطان ، وقال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان وقال الضحاك والسدي : هو الأوثان وقيل : انه الكاهن ، وقيل : هو اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت ، وقيل : انه اسم عربي مشتق من الطغيان إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفيها مبالغات ، وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان ، وإن البناء بناء مبالغة وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشيطان قال الأخفش : الطاغوت جمع ، ويجوز أن يكون واحده مؤنثاً ، والمعنى أعرضوا عن عبادته وخصوا عبادتهم بالله عز وجل ، وقوله :

﴿ أن يعبدوها ﴾ في محل نصب على البدل من الطاغوت ، بدل اشتمال كأنه قال اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وقد تقدم الكلام على تفسير الطاغوت مستوفى في سورة البقرة .

﴿ وأنابوا الى الله ﴾ معطوف على اجتنبوا ، والمعنى رجعوا إليه بالكلية ، وأقبلوا على عبادته ، معرضين عما سواه ﴿ لهم البشرى ﴾ بالثواب الجزيل وهو الجنة ، وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل ، أو على ألسنة الملائكة عند حضور الموت أو عند البعث أو من الله تعالى لقوله ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ ولا مانع أن يكون من الله ومن الملائكة ، فان فضل الله واسع .

وقيل : لهم البشرى في الدنيا بالثناء عليهم بصالح أعمالهم ، وعند الوضع في القبر ، وفي الآخرة عند الخروج من القبر وعند الوقوف للحساب ، وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة ، وفي الجنة ، ففي كل موقف من هذه

المواقف تحصل لهم البشارة ، بنوع من الخير والراحة والروح والريحان .

﴿ فبشر عباد ﴾ المراد بالعباد هنا العموم فيدخل الموصوفون بالاجتناب والانابة إليه دخولاً أولياً وقيل : المراد بهم هم الموصوفون باجتناب الأوثان والإنابة إلى الله فالمقام للضمير ، وإنما أتى به ظاهراً توصلاً لوصفهم بما ذكر .

﴿ الذين يستمعون القول ﴾ الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ أي محكمه ، ويعملون به قال السدي : يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه ، وقيل : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن .

وقيل : يستمعون الرخص والعزائم فيتبعون العزائم ويتركون الرخص ، وقيل : يأخذون بالعفو ويتركون العقوبة ، وعن ابن عمر قال . كان سعيد بن زيد وأبو ذر وسلمان يتبعون في الجاهلية أحسن القول والكلام لا إله إلا الله قالوا بها ، فأنزل الله على نبيه ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ الآية ثم أثنى الله سبحانه على هؤلاء المذكورين فقال :

﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ أي هم الذين أوصلهم إلى الحق ، وهم أصحاب العقول الصحيحة ، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ، ولم ينتفع من عداهم بعقولهم ، وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : « لما نزلت فبشر عبادي الذين الآية أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً فنادى من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة فاستقبل عمر الرسول فرده ، فقال يا رسول الله خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس قدر رحمة ربي لاتكلوا ، ولو يعلمون قدر سخط ربي وعقابه لاستصغروا أعمالهم » . وهذا الحديث أصله في الصحيح من حديث أبي هريرة .

وفي الآية إشارة إلى إيثار الاتباع ، وترك التقليد ، لأن الله قد أثنى على المتبعين بكونهم مهديين ، وسماهم أولي الألباب ، ولم يثن على التقليد ولا على أهله في موضع من القرآن الكريم ، بل ذمه وذمهم في غير موضع كما تقدم مراراً ثم ذكر سبحانه من سبقت له الشقاوة وحرم السعادة فقال :

﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ من هذه موصولة في محل رفع على الابتداء ، وخبرها محذوف ، أي كمن يخاف ، أو فأنت تخلصه أو تتأسف عليه أو شرطية وجوابه قوله ﴿ أفأنت تنقذ من في النار ﴾ فالفاء فاء الجواب ، دخلت على جملة الجزاء وأعيدت الهمزة الانكارية لتأكيد معنى الانكار ، وقال سيبويه إنه كرر الاستفهام لطول الكلام ، وقال الفراء المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ؟ والمراد بها قوله تعالى لابليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ وقوله ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ وقيل قوله هؤلاء في النار ولا أبالي .

ومعنى الآية التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان حريصاً على إيمان قومه فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقذه من النار ، بأن يجعله مؤمناً ، قال عطاء يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان .

وفي الآية مجاز بإطلاق المسبب وإرادة السبب ، وتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع في النار ، وأن اجتهاده في دعائهم الى الايمان سعي في إنقاذهم من النار ، وأصل الكلام : أفأنت تهدي من هو منغمس في الضلال ؟ فوضع النار موضع الضلال ، وضعاً للمسبب موضع السبب لقوة أمره ، ثم عقب المجاز بما يناسبه من قوله تنقذ بدل تهدي فهو ترشيح ، ولما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظللاً من فوقهم من النار ومن تحتهم ظللاً استدرك عنهم من كان من أهل السعادة فقال :

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

﴿ لكن الـذين اتقوا ربهم ﴾ وهـم الـذين خوطبوا بقولـه ﴿ يعْباد فاتقون ﴾ ووصفـوا بما عـدد من الصفات الفـاضلة ، وهـم المخـاطبـون أيضـا فيمـا سبق بقوله . ﴿ يَعْبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ الآية ، وقيـل لكن ليست للاستـدراك لأنه لم يأت قبله نفي ، بل هو إضراب عن قصة الى قصة مخالفة للأولى .

﴿ لهم غرف من فوقها غرف ﴾ أي منازل في الجنة رفيعة ، فوقهـا منازل هي أرفع منها ، وذلك لأن الجنة درجـات بعضها فـوق بعض وقولـه لهم غرف في معنى وعدهم الله بذلك ، وعداً لا يخلفه وأنها ﴿ مبنيـة ﴾ بناء المنـازل في إحكام أساسها وقوة بنائها ، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة اليها .

﴿ تجـري من تحتهـا الأنهـار ﴾ أي من تحت تلك الغـرف الفـوقـانيـة والتحتانية وفي ذلـك كمال لبهجتهـا ، وزيادة لـرونقها وانتصـاب ﴿ وعد الله ﴾ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة لأن قوله لهم غرف في معنى وعدهم الله ذلك ، وجملة :

﴿ لا يخلف الله الميعاد ﴾ مقررة للوعد ، أي لا يخلف الله ما وعد به الفريقين من الخير والشر ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة يتـراؤون أهل الغرف من فوقهم كما يتراؤون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق ، أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، فقالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ،

قال بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنـوا بالله وصدقوا المرسلين »[1] ، متفق عليه .

ولما ذكر سبحانه الجنة ووصفها بوصف يوجب الرغبة والشوق اليها أتبعه بذكر الدنيا ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها ، والنفرة منها ، فذكر تمثيلاً لها في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة ، وصنعه البديع فقال :

﴿ ألم تـر أن الله أنـزل من السمـاء مـاءً ﴾ أي من السحـاب مـطراً ﴿ فسلكه ﴾ أي فأدخله وأسكنه ﴿ ينابيع ﴾ أي عيونا ومسالك ومجاري وركايا ﴿ في الأرض ﴾ كالعروق في الجسد ، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع ، والينبوع عين الماء والأمكنة التي ينبع منها الماء من خلال الأرض أو نفس الماء الجاري والمعنى :

أدخل الماء النازل من السماء في الأرض ، وجعله فيها عيوناً جارية أو جعله في ينابيع أي في أمكنة ينبع منها الماء فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض ، قال مقاتل : فجعله ركايا وعيوناً في الأرض ، وقال ابن عباس ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق في الأرض تغيره ، فذلك قوله ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ فمن سره أن يعوده الملح عذباً فليصعده .

﴿ ثم يخرج به ﴾ أي بذلك الماء من الأرض ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ﴿ زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر ؛ أو من بر وشعير وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ، وشمل لفظ الزرع جميع ما يستنبت حتى المقات .

﴿ ثم يهيج ﴾ أي يجف وييبس يقال : هاج النبت يهيج هيجاً إذا تم جفافه وحان له أن ينتشر عن منبته ، قال الجوهري : يقال : هاج النبت هياجاً

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٠٢٢ و٢٠٢٣.

إذا يبس ، وأرض هايجة يبس بقلها ، أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته ، قال المبرد قال الأصمعي يقال : هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولى قال وكذلك هاج النبت ﴿ فتراه ﴾ بعد خضرته ونضارته ، وحسن رونقه ﴿ مصفراً ﴾ قد ذهبت خضرته وزالت نضارته .

﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي متفتتاً متكسراً ، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس ، ويقال للدابة إذا أسنت حطمة ، ويتعدى بالحركة فيقال : حطمته حطماً من باب ضرب فانحطم ، وحطمته بالتشديد مبالغة ، قرأ الجمهور : ثم يجعله بالرفع عطفاً على ما قبله ، وقرىء بالنصب بإضمار أن ولا وجه لذلك .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من الأفعال الخمسة التي أولها أنزل ﴿ لذكرى لأولي الألباب ﴾ أي لتذكيراً لأهل العقول الصحيحة ، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها ، فيتفكرون ويعتبرون ، ويعلمون بأن الحياة الدنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم ، وقرب التقضي ، وذهاب بهجتها ، وزوال رونقها ونضارتها ، فإذا أنتج لهم التفكر والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها ، والميل اليها ، وإيثارها على دار النعيم الدائم والحياة المستمرة ، واللذة الخالصة ، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث والحشر ، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك .

وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ، والمعنى أنزل من السماء قرآنا فسلكه في قلوب المؤمنين ، ثم يخرج به ديناً بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً ، وأما الذي في قلبه مرض فانه يهيج كما يهيج الزرع ، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير ، ثم لما ذكر سبحانه ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ ذكر شرح الصدر للاسلام لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به فقال :

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام ﴾ أي وسعه لقبول الحق وفتحه للاهتداء الى سبيل الخير ، قال السدي : وسع صدره للاسلام للفرح به ، والطمأنينة إليه . وشرح الصدر للإسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له ، فإنه محل للقلب الذي هو منبع الروح التي تتعلق بها النفس القابلة للإسلام ، فانشراحه مستدع لانشراح القلب ، والكلام في الهمزة والفاء كما تقدم في ﴿ أفمن حق ﴾ ومن الخ مبتدأ وخبرها محذوف تقديره كمن قسا قلبه ، وطبع الله عليه ، وحرج صدره فلم يهتد .

ودل على هذا الخبر المحذوف قوله : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾ والمعنى أفمن وسع الله صدره للاسلام فقبله واهتدى بهديه ﴿ فهو ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿ على نور ﴾ أي على بيان وبصيرة ويقين وهداية ﴿ من ربه ﴾ يفيض عليه كمن قسى قلبه لسوء اختياره ؟ فصار في ظلمات الضلالة وبليات الجهالة .

قال قتادة : النور كتاب الله به يؤخذ وإليه ينتهي . قال الزجاج تقدير الآية أفمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ؟ قال ابن عباس

من شرح الله صدره للاسلام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : « تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية قلنا : يا نبي الله كيف انشراح صدره ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، قلنا : فما علاقة ذلك يا رسول الله ؟ قال الإنابة إلى دارالخلود ، والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت » .

وأخرج ابن مردويه عن محمد بن كعب القرظي مرفوعاً مرسلاً .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر أن رجلاً قال : « يا نبي الله أي المؤمنين أكيس ؟ قال أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع ، فقالوا ما آية ذلك يا نبي الله ؟ قال الانابة الى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » ، وأخرجه عن أبي جعفر عبد الله بن المسور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه ، وزاد فيه ثم قرأ ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام ﴾ .

﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ قال الفراء والزجاج أي عن ذكر الله كما تقول اتخمت عن طعام أكلته ومن طعام أكلته والمعنى أنه غلظ قلبه وجفا عن قبول ذكر الله والقسوة جمود وصلابة تحصل في القلب ، يقال قسى القلب إذا صلب ، وقلب قاسٍ أي صلب لا يرق ولا يلين ، وقيل المعنى من أجل ذكره الذي من حقه أن تنشرح له الصدور ، وتطمئن به القلوب ، والمعنى أنه إذا ذكر الله اشمأزوا ، والأول أولى ، ويؤيده قراءة من قرأ عن ذكر الله ، أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته ازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله : ﴿ فزادتهم رجساً الى رجسهم ﴾ .

وقيل إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن قبول

الحق فإن سماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة وكدورة كحر الشمس يلين الشمع ويعقد الملح ، فكذلك القرآن يلين قلوب المؤمنين عند سماعه ، ولا يزيد الكافرين إلا قسوة .

قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة ، وأخرج الترمذي ، وابن مردويه وابن شاهين في الترغيب في الذكر ، والبيهقي في الشعب ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي »[(١)].

والاشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ الى القاسية قلوبهم ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي غواية ظاهرة واضحة ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز فقال :

﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يعني القرآن الذي فيه مندوحة عن سائر الأحاديث ، وسماه حديثاً لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما ينزل عليه منه ، وفيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقاً هو القرآن ، وفي إيقاع الاسم الشريف مبتدأ ؛ وبناء نزل عليه تفخيم لشأن أحسن الحديث والوصف بهذا لوجهين .

أحدهما من جهة اللفظ ، لأن القرآن من أفصح الكلام وأجزله وأبلغه ، وليس هو من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب والرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل في أسلوبه ، والثاني من جهة المعنى لأنه كتاب منزه عن التناقض والاختلاف ، مشتمل على أخبار الماضين وقصص الأولين ، وعلى أخبار الغيوب الكثيرة ، وعلى الوعد والوعيد ، والجنة والنار وغير ذلك .

---

(١) روى ابن ماجة (٤١٩٣) لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب. وروى البوصيري في الزوائد (ق ٢٥٨/١) والترمذي (٢/٥٠) .

﴿ كتاباً ﴾ بدل من أحسن الحديث أو حال منه ﴿ متشابهاً ﴾ صفة لكتاب أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والاحكام ، وصحة المعاني وقوة المباني ، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة ، والدلالة على المنافع العامة ، وقال قتادة يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف ، وقيل يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله لو حدثتنا فنزل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية .

﴿ مثاني ﴾ صفة أخرى لكتاب وهو جمع مثنى أو مثنى وانه من التثنية بمعنى التكرير أي تثنى فيه القصص وتتكرر فيه المواعظ والأحكام وقيل يثني في التلاوة فلا يمل سماعه ولا يسأم قارئه قرأ الجمهور مثاني بفتح الياء وقرىء بسكونها تخفيفاً واستثقالاً لتحريكها أو على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هو مثاني .

قال ابن عباس القرآن كله مثاني وعنه قال القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه الى بعض ، وعنه قال كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر مراراً وصح وصف الواحد بالجمع لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أحكام وأقاصيص ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك الانسان عروق وعظام وأعصاب . أو منصوب على التميز من (متشابهاً) كما تقول رأيت رجلاً حسناً شمائل ، والمعنى متشابهة مثانية .

قال الرازي في تبيين معنى مثاني إن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكررة زوجين زوجين ، مثل الأمر والنهي والعام والخاص والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض والجنة والنار ، والنور والظلمة ، واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسي والوعد والوعيد والرجاء ، والخوف ، والمقصود في ذلك البيان أن كل شيء ما سوى الحق زوج ، وأن الفرد الأحد الحق هو الله ولا يخفى ما في كلامه هذا من التكلف والبعد عن

مقصود التنزيه .

﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ أي تضطرب وتتحرك وتشمئز صفة الكتاب أو حال منه ، لأنه وإن كان نكرة فقد تخصص بالصفة ، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه ، والاقشعرار التقبض . يقال اقشعر جلده إذا تقبض ، وتجمع من الخوف ، ووقف شعره ومنه القشعريرة ، والمعنى أنها تأخذهم منه قشعريرة .

قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله ، وهي تغير يحدث في جلد الانسان عند ذكر الوعيد ، والوجل والخوف . وقيل المراد بالجلود القلوب والأول أولى لذكرها فيما بعد . قال الواحدي : وهذا قول جميع المفسرين .

وقيل : المعنى إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاماً له ، وتعجباً من حسنه وبلاغته . عن عبد الله بن عبد الله بن الزبير قال : قلت لجدتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأوا القرآن ؟ قالت : « كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قلت : فإن ناساً ههنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ﴾ عدى تلين بإلى لتضمينه فعلاً يتعدى بها ، كأنه قيل : سكنت واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة ، ومفعول ذكر الله محذوف ، والتقدير الى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته وحذف للعلم به .

قال بعض العارفين : إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإذا لاح لهم

عـالـم الجمال عـاشوا . قـال قتادة : هـذا نعت أولياء الله نعتهم بـأنهم تقشعـر جلودهم وتطمئن قلوبهم الى ذكر الله ، ولـم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان .

وروي أن ابن عمر مر برجل من أهل العراق ساقط فقال : ما بال هـذا . قالوا : انه إذا قرىء عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط ، فقـال ابن عمر : إنـا لنخشى الله وما نسقط ، وعنه قال : إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ، مـا كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ، ثم يقرأ عليه القـرآن من أوله إلى آخره . فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت بهـا القلوب ثانيـاً لأن محل الخشية القلب فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب ، وقيل : إن المكاشفة في مقام الرجاء أكمـل منها في مقـام الخوف ، لأن الخيـر مـطلوب بـالـذات ، والخـوف ليس بمطلوب ، وإذا حصل الخوف اقشعر منـه الجلد ، وإذا حصل الـرجاء اطمـأن اليه القلب ، ولان الجلد .

﴿ ذلـك ﴾ الكتاب المـوصوف بتلك الصفـات ﴿ هدى الله يهـدي به من يشاء ﴾ أن يهديـه من عباده ، وقيـل الاشارة إلى مـا وهبه الله لهؤلاء من خشيـة عذابه ورجاء ثوابه ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي يجعل قلبه مظلمـاً قاسيـاً غير قـابل للحق ﴿ فمـا له من هـاد ﴾ يهـديـه الى الحق ، ويخلصـه من الضـلال ، قـرأ الجمهـور من هاد بغيـر ياء وقـرىء باليـاء ، ثم لما حكم على القـاسية قلوبهم بحكم في الـدنيـا وهـو الضـلال ، حكم عليهم في الآخـرة بحكم آخـر وهـو العذاب فقال :

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ
ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ
فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ أفمن يتقي بوجهه ﴾ الاستفهام للانكار وقد تقدم الكلام فيه ، وهذه الفاء الداخلة على من في قوله : أفمن حق عليه عاطفه ومن مبتدأ والخبر محذوف لدلالة المقام عليه ، والمعنى أفمن شأنه أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ﴿ سوء العذاب يوم القيامة ﴾ لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شيء من ذلك ، ولا يحتاج إلى الاتقاء ؟ قال الزجاج المعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة ؟ .

قال عطاء وابن زيد يرمي به مكتوفاً في النار ، فأول شيء تمس النار منه وجهه . وقال ابن عباس : ينطلق به الى النار مكتوفاً ثم يرمي به فيها ، فأول ما يمس وجهه النار . وقال مجاهد يجر على وجهه في النار . قال الأخفش المعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل ؟ أم من سعد ؟ مثل قوله تعالى ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ ثم أخبر سبحانه عما يقوله الخزنة للكفار فقال :

﴿ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ وهو معطوف على يتقي أي ويقال لهم ، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم ، والإشعار بعلة الأمر في قوله . ذوقوا قال عطاء أي جزاء ما كنتم تعلمون ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ هذا ما كنزتم

لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ وقد تقدم الكلام على معنى الذوق في غير موضع ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار فقال :

﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى أنهم كذبوا رسلهم ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أي من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها ، وذلك عند أمنهم وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿ فأذاقهم الله الخزي ﴾ أي الذل والهوان ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بالمسخ والخسف ، والقتل والأسر والجلاء ، وغير ذلك .

﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ لكونه في غاية الشدة مع دوامه ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كانوا ممن يعلم الأشياء ويتفكر فيها ويعمل بمقتضى علمه لآمنوا وما كذبوا ، قال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته أي وصل اليها كما تصل الحلاوة والمرارة الى الذائق لهما ، قال : والخزي المكروه .

﴿ ولقد ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿ ضربنا للناس في هذا القرآن ﴾ أي جعلنا وأوجدنا وبينا ﴿ من كل مثل ﴾ قد قدمنا تحقيق المثل وكيفية ضربه في غير موضع ، ومعنى من كل مثل ما يحتاجون اليه في أمر دينهم ، وليس المراد ما هو أعم من ذلك ، فهو هنا كما في قوله ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي من شيء يحتاجون اليه في أمر دينهم ، وقيل : المعنى ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يتعظون فيعتبرون .

﴿ قرآناً عربياً ﴾ حال مؤكدة من هذا ، وتسمى هذه حالاً موطئة لأن الحال في الحقيقة هو عربياً وقرآناً توطئة له ، نحو جاءني زيد رجلاً صالحاً ، كذا قال الأخفش ، ويجوز أن ينتصب على المدح ، قال الزجاج . عربياً منتصب على الحال ، وقرآناً توكيد .

﴿ غير ذي عوج ﴾ أي لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال الضحاك :

أي غير مختلف ، قال النحاس : أحسن ما قيل في معناه قول الضحاك ، وقيل : غير متضاد ، وقيل : غير ذي لبس ، وقيل غير ذي لحن ، وقيل : غير ذي شك ؛ كما قال الشاعر :

وقد أتاك يمين غير ذي عوج   من الإله وقول غير مكذوب

وقال ابن عباس : غير مخلوق ، وقيل : معناه صحيح مستقيم يفهم ولا يلتبس بخلافه من الباطل ﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى بعد العلة الأولى وهي لعلهم يتذكرون ، أي لكي يتقوا الكفر والكذب ، وقيل : علة لقوله : لعلهم يتذكرون فالأول سبب في الثاني ، ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمثال القرآنية للتذكير والايقاظ فقال :

﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ أي تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها ، ثم بين المثل فقال : ﴿ رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال الكسائي : نصب رجلاً لأنه تفسير للمثل ، وقيل منصوب بنزع الخافض ، أي ضرب الله مثلاً برجل ، وقيل إن رجلاً هو المفعول الأول ، ومثلاً هو المفعول الثاني ، وأُخر المفعول الأول ليتصل بما هو من تمامه ، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة يس ، وجملة . فيه شركاء في محل نصب صفة لرجل ، والتشاكس التخالف ، وأصله سوء الخلق وعسره ، وهو سبب التخالف والتشاجر ، ويقال التشاخس بالخاء المعجمة ، قال الفراء ؛ أي مختلفون ، وقيل : متنازعون ، وقال المبرد متعاسرون من شكس يشكس شكساً فهو شكس ، مثل عسر يعسر عسراً فهو عسر ، وشكس بكسر الكاف هو القياس قال الجوهري التشاكس الاختلاف ، قال : ويقال رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق ، وهذا مثل من أشرك بالله وعبد آلهة كثيرة ، ثم قال :

﴿ ورجلاً سلماً لرجل ﴾ أي خالصاً له . وهذا مثل من يعبد الله وحده ، قرأ الجمهور . سلماً بفتح السين واللام ، وقرىء بكسر السين وسكون اللام ، وقرأ ابن عباس ومجاهد والجحدري وابن كثير ويعقوب سالماً اسم فاعل من سلم له فهو

سالم ، واختارها أبو عبيد ، قال لأن السالم الخالص ضد المشترك والسلم ضد الحرب ، ولا موضع للحرب ههنا ، وأجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولالهما ، فالسلم وإن كان ضد الحرب فله معنى آخر بمعنى سالم من سلم له كذا إذا خلص له ، وأيضا يلزمه في سالم ما ألزم به لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى ، والحاصل أن قراءة الجمهور هي على الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف ، أي ذا سلم ، ومثلها قراءة سعيد بن جبير ومن معه ، قال ابن عباس ، رجلاً سلماً أي ليس لأحد فيه شيء ، ثم جاء سبحانه بما يدل على التفاوت بين الرجلين فقال :

﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ وهذا الاستفهام للانكار والاستبعاد، والمعنى هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء ؟ أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، يستخدمه كل واحد منهم فيتعب وينصب ، مع كون كل واحد منهم غير راض بخدمته ، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه ، وإذا عصاه عفا عنه ؟ فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوه باستوائهما لأن أحدهما في أعلى المنازل ، والآخر في أدناها ، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل لأن الأصل هل يستوي مثلهما ؟ أي حالهما وصفتهما ؟ وأفرد التمييز ولم يثنه لأن الأصل في التمييز الافراد لكونه مبنياً للجنس ، وقال السمين وأفرد التمييز لأنه مقتصر عليه أولاً في قوله ضرب الله مثلاً ، وقرىء مثلين فطابق حالي الرجلين .

وجملة ﴿ الحمد لله ﴾ مقررة لما قبلها من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وللايذان للموحدين بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به ، أي الحمد لله على عدم استواء هذين الرجلين ، وقيل : الجملة اعتراضية فإن قوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب انتقالي من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، فإنهم لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره ووضوحه ،

فيقعون في ورطة الشرك والضلال .

قال الواحدي والبغوي والمراد بالأكثر الكل ، والظاهر خلاف ما قالاه ، فإن المؤمنين بالله يعلمون ما في التوحيد من رفعة شأنه ، وعلو مكانه ، وأن الشرك لا يماثله بوجه من الوجوه ، ولا يساويه في وصف من الأوصاف ، ويعلمون أن الله سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة ، وأن الحمد مختص به .

ثم أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الموت يدركه ويدركهم لا محالة ، فقال :

﴿ إنك ميت وأنهم ميتون ﴾ وذلك إنهم كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، ، فأخبر أن الموت يعمهم جميعاً ، فلا معنى للتربص ، وشماتة الفاني بالفاني وهذا تمهيد لما يعقبه من الخصام يوم القيامة ، قرأ الجمهور ميت وميتون بالتشديد ، وقرىء مائت ومائتون ، وبها قرأ عبد الله بن الزبير ، وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته وموتهم مستقبلاً ، ولا وجه للاستحسان فان قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى ، قال الفراء والكسائي : الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والميت بالتخفيف من قد مات وفارقته الروح قال الخليل : أنشد أبو عمرو :

وتسألني تفسير ميت وميت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك ميت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

وقال السمين : ولا خلاف بين القراء في تثقيل مثل هذا ؟ قال قتادة : نعيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، نفسه ونعيت إليهم أنفسهم ، ووجه هذا الاخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت ، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت مع كونه توطئة وتمهيداً لما بعده أخرج النسائي وغيره عن ابن عمر قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبلنا ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾

﴿ ثم إنكم ﴾ أيها الناس جميعاً مؤمنكم وكافركم ﴿ يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فيما بينكم من المظالم ، قيل : يعني المحق والمبطل ، وقيل : تخاصمهم يا محمد وتحتج عليهم بأنك قد بلغتهم وأنذرتهم ، وهم يخاصمونك ، أو يخاصم المؤمن الكافر ، والظالم المظلوم ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئآت صاحبه فحملت عليه » . رواه البخاري .

وعنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم ولا متاع له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار »[1] ، أخرجه

(١) مسلم ١٨/٨ والترمذي ٢٩١/٣ وأحمد ٣٠٣/٢ والبخاري ٣٥/٨ (معلق).

مسلم .

وعن ابن عمر قال : نزلت علينا هـذه الآية ومـا ندري مـا تفسيرهـا حتى وقعت الفتنة ، فقلنا هذا الذي وعدنا ربنـا أن نختصم فيه ، أخـرجه ابن جـرير وأخرج النسائي وغيره عنه قال : لقد لبثنـا برهـة من دهرنـا ونحن نرى أن هـذه الآية نزلت فينا ، وفي أهل الكتابين من قبلنا ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجـوه بعض بالسيف، فعرفت أنها نزلت فينا .

وعن الزبير بن العوام قال : لما نزلت : إنك ميت إلى قوله : تختصمون قلت : « يا رسول الله أيكرر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قـال : نعم ليكـررن عليكم ذلـك حتى يؤدى إلى كـل ذي حق حقـه ، قـال الـزبير : فـوالله إن الأمر لشـديـد» ، أخـرجـه التـرمـذي ، وقـال : حـديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيـد الخدري قـال : لما نـزلت هذه الآيـة كنا نقـول : ربنـا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الخصومـة ؟ فلما كـان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا وعن ابراهيم لما نزلت هذه الآية قالوا : كيف نختصم ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان قالـوا هذه خصـومتنا ثم بين سبحانه حال كل فريق من المختصمين فقال :

﴿ فمن ﴾ أي لا أحد ﴿ أظلم ممن كذب عـلى الله ﴾ فزعم أن له ولداً أو شريكاً أو صاحبة ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ وهو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ، ونهيهم عـن محـرمـاتـه ، وإخبـارهـم بـالبعـث والـنـشـور ، ومـا أعد الله للمطيع والعاصي ، وقوله : (إذ جاءه) ظرف لكذب بالصدق أي كذب بالقرآن في وقت مجيئه . أي فاجأه بالتكذيب لما سمعه من غير وقفة ، ولا إعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النَّصَفَة فيما يسمعون ، ثم استفهم سبحانه استفهاماً تقريرياً فقال :

﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ آي أليس لهؤلاء المفترين المكذبين بالصدق ؟ والمثوى المقام وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به ، يثوى ثواء وثوياً ، مثل مضى مضاء ومضياً ، وحكى أبو عبيدة أنه يقال : أثوى ، وأنكر ذلك الأصمعي وقال : لا نعرف أثوى ثم ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصدقين فقال :

﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ الموصول في موضع رفع بالابتداء وهو عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تابعه . وقيل الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به أبو بكر ، قاله علي بن أبي طالب ، وعن أبي هريرة مثله ، وقال مجاهد الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به علي بن أبي طالب .

وقال السدي الذي جاء بالصدق جبريل ، والذي صدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة ومقاتل وابن زيد الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وسلم والذي صدق به المؤمنون . وقال النخعي الذي جاء بالصدق وصدق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة .

وقيل إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله وأرشد إلى ما شرعه لعباده ، واختار هذا ابن جرير وهو الذي اختاره من هذه الأقوال ، ويؤيده قراءة ابن مسعود ، والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به ، وقرىء صدق به بالتخفيف ، أي صدق به الناس ، قال ابن عباس الذي جاء بالصدق يعني بلا إله إلا الله وصدق به يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل الذي جاء بالصدق هو جبريل جاء بالقرآن وصدق به محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقيل الذي جاء بالصدق الأنبياء وصدق به الأتباع والكل صحيح .

قالوا والوجه في العربية أن يكون جاء وصدق لفاعل واحد ، لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وذا غير جائز وإضمار الفاعل من غير تقدم الذكر وذا بعيد . ولفظ الذي كما وقع في قراءة الجمهور وإن كان مفرداً فمعناه الجمع

لأنه يراد به الجنس كما يفيده قوله ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ أي المتصفون بالتقوى التي هي عنوان النجاة ، قال ابن عباس : يعني اتقوا الشرك : ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدقين في الآخرة فقال :

﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ أي لهم كل ما يشاؤونه من رفع الدرجات ، ودفع المضرات ، وتكفير السيئآت ، وجلب المنافع ، وفي هذا ترغيب عظيم وتشويق بالغ ﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من جزائهم ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ جزاء المحسنين ﴾ أي الذين أحسنوا في أعمالهم ، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك »[١] ، ثم بين سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم فقال :

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ﴾ فان ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم ، لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى ، واللام متعلقة بيشاؤون أو بالمحسنين أو بمحذوف قرأ الجمهور أسوأ على أنه أفعل تفضيل وقيل : ليست للتفضيل بل بمعنى سيىء الذي عملوا أو بهذا الاعتبار عم الأسوأ جميع معاصيهم وقرىء أسواء بألف بين الهمزة والواو بزنة أحمال جمع سوء .

ولما ذكر الله سبحانه ما يدل على دفع المضار عنهم ، ذكر ما يدل على جلب أعظم المنافع اليهم فقال :

﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل ، قال مقاتل : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء ، وعم الأحسن جميع حسناتهم ، ولولا هذا التأويل لاقتضى النظم أنه يكفر عنهم أقبح السيئآت فقط ويجزيهم على أفضل الحسنات فقط .

---

(١) سبق ذكره .

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ قرأ الجمهور بالافراد ، وقرىء بالجمع فعلى الأولى المراد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الجنس ويدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخولاً أولياً وعلى الثانية المراد الأنبياء ، أو المؤمنون أو الجميع ، واختار أبو عبيدة الأولى لقوله عقبه : ﴿ ويخوفونك ﴾ والاستفهام للانكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه ، كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره ، وقيل المراد بالعبد والعباد ما يعم المسلم والكافر قال الجرجاني : إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب . وقرىء بكافي عباده بالاضافة ويكافي بصيغة المضارع .

وقوله ﴿ ويخوفونك ﴾ يجوز أن يكون في محل نصب على الحال إذ المعنى أليس كافيك حال تخويفهم إياك ﴿ بالذين من دونه ﴾ هي المعبودات التي يعبدونها ، قالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كأن المعنى أنه كافيك في كل حال حتى في هذه الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي من حق عليه القضاء بضلاله حتى غفل عن كفاية الله لعبده محمد ، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى الرشد ويخلصه من الضلالة .

﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ يخرجه من الهداية ويوقعه في الضلالة ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ أي غالب لكل شيء قاهر له ﴿ ذي انتقام ﴾ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه ، وما ينزله بهم من سوط عقابه ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ذكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأنه الله سبحانه لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية ، مع عبادتهم للأصنام والأوثان ، واتخاذهم الآلهة من دون الله وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة ، وجهالة عظيمة لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم ولما يعبدون من دون الله هو الله سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل ، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الادراك والفطنة التامة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم وأحسنوا الظن بهم هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف ويوبخهم فقال :

﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ أي أخبروني عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الضر ؟ والضر هو الشدة والبلاء ﴿ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ عنّي بحيث لا تصل إليّ والرحمة النعمة والرخاء قرأ الجمهور : كاشفات وممسكات في الموضعين بالإضافة ، وقرأهما أبو عمرو بالتنوين ،

واختار أبو عبيدة وأبو حاتم قراءة أبي عمرو لأن كاشفات اسم فاعل في معنى الاستقبال ، وما كان كذلك فتنوينه أجود وبها قرأ الحسن وعاصم ، قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية سألهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكتوا وقال غيره قالوا لا تدفع شيئاً من قدر الله ، ولكنها تشفع فنزل :

﴿ قل حسبي الله ﴾ في جميع أموري في جلب النفع ودفع الضر ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ أي عليه لا على غيره يعتمد المعتمدون ، ثم أمره الله سبحانه أن يهددهم ويتوعدهم فقال ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها وتمكنتم منها ، والمكانة بمعنى المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا ، وحيث للزمان وهما للمكان ﴿ إني عامل ﴾ على حالتي التي أنا عليها ، وتمكنت منها ، وحذف ذلك للعلم به مما قبله .

﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهينه ويذله في الدنيا ، فيظهر عند ذلك أنه المبطل وخصمه المحق ، والمراد بهذا العذاب عذاب الدنيا وما حل بهم من القتل والأسر والقهر والذلة ، ثم ذكر عذاب الآخرة فقال :

﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر في الدار الآخرة ، وهو عذاب النار ، وهو مجاز في الطرف أو في الإسناد ، وأصله مقيم فيه صاحبه ، ثم لما كان يعظم على رسول الله صلى الله عليه وسلم اصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان ، لا بأن يهدي من ضل فقال :

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ
فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا
وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس ﴾ أي لأجلهم ، ولبيان ما كلفوا به فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم ، فهو للناس كافة ، لأن رسالتك كذلك ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل أو المفعول ، أي محقين أو متلبساً بالحق ﴿ فمن اهتدى ﴾ طريق الحق وسلكها ﴿ فلنفسه ومن ضل ﴾ عنها ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أي على نفسه فضرر ذلك عليه لا يتعدى الى غيره .

﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي مكلف بهدايتهم مخاطب بها ، بل ليس عليك إلا البلاغ وقد فعلت ، وهذه الآيات منسوخة بآية السيف فقد أمر الله سبحانه رسوله بعد هذه أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا بأحكام الإسلام ، ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة وصنعته العجيبة فقال :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ أي يقبض الأرواح عند حضور آجالها ويخرجها من الأبدان ﴿ و ﴾ يتوفى الأنفس ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ أي لم يحضر أجلها في منامها ، وقد اختلف في هذا فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقاء الروح في الجسد ، وقال الفراء : المعنى ويقبض التي لم تمت ، عند انقضاء أجلها قال وقد يكون توفيها نومها فيكون التقدير على هذا ، والتي لم تمت وفاتها نومها ، قال الزجاج لكل إنسان نفسان إحداهما نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل ، والأخرى نفس الحياة إذا زالت زال معها

النفس ، والنائم يتنفس قال القشيري في هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد ولهذا قال : ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ فلا يردها الى البدن .

قرأ الجمهور قضى مبنياً للفاعل أي قضى الله عليها الموت ، وقرىء على البناء للمفعول ، واختار أبو عبيدة وأبو حاتم الأولى لموافقتها لقوله ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ .

﴿ ويرسل الأخرى ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند اليقظة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو الوقت المضروب لموته ، وهو غاية جنس الإرسال ، وقد قال بمثل قول الزجاج ابن الأنباري ، وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ، فيمسك التي قضي عليها الموت ، ويرسل الأخرى فيعيدها ، والأولى أن يقال : أن توفى الأنفس حال النوم بإزالة الاحساس ، وحصول الآفة به في محل الحس ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ولا يردها الى الجسد الذي كانت فيه ، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها .

قيل : ومعنى يتوفى الأنفس عند موتها هو على حذف مضاف ، أي عند موت أجسادها ، وعن ابن عباس قال : نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فيتوفى الله النفس في منامه ، ويدع الروح في جوفه يتقلب ويعيش ، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح فمات ، وإن أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه ، أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وعنه قال : تلتقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام ، فيتساءلون بينهم ما شاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها إلى أجل مسمى ، لا يغلط بشيء منها أخرجه عبد بن حميد وغيره ، وعنه أيضا في الآية قال : كل نفس لها سبب تجري فيه ، فاذا قضى عليه الموت نامت حتى ينقطع السبب ، والتي لم تمت في منامها تترك .

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[1] .

وقد اختلف العقلاء في النفس والروح هل هما شيء واحد ؟ أو شيئان والكلام في ذلك يطول جداً ، وهو معروف في الكتب الموضوعة لهذا الشأن[2] والأظهر أنهما شيء واحد ، وهو الذي تدل عليه الآثار الصحاح .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي فيما تقدم من التوفي والامساك والارسال للنفوس ﴿ لآيات ﴾ عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة ، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهمه كل أحد بل ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ في ذلك ويتدبرونه ويستدلون به على توحيد الله ، وكمال قدرته ، فان في هذا التوفي والإمساك والإرسال موعظة للمتعظين وتذكرة للمتذكرين .

﴿ أم ﴾ هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة أي بل أ ﴿ أتخذوا من دون الله ﴾ آلهة ﴿ شفعاء ﴾ تشفع لهم عند الله ؟ ﴿ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ﴾ الهمزة للانكار والتوبيخ ، والواو للعطف على محذوف مقدر ، أي أيشفعون ؟ ولو كانوا الخ جواب لو محذوف ، أي وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم والمعنى أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء ، وتدخل الشفاعة في ذلك دخولاً أولياً ﴿ ولا يعقلون ﴾ شيئاً من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها ، وجمعهم بالواو والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون ، ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده فقال :

---

(١) صحيح الجامع/ ٤٠٠ .

(٢) أهم هذه الكتب وأجمعها كتاب الروح لابن القيم طبعة مطبعة الامام بتحقيق وتعليق المطيعي

قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ
ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ فليس لأحد منها شيء إلا أن تكون بإذنه لمن ارتضى ، كما في قوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، وقوله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وانتصاب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال ، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان فصاعداً لأنها مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، ثم وصف نفسه بسعة الملك فقال ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي يملكهما ويملك ما فيهما ، ويتصرف في ذلك كيف يشاء ، ويفعل ما يريد ، فهو مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم دون إذنه ورضاه ﴿ ثم إليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ بعد البعث .

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ انتصاب وحده على الحال عند يونس ، وعلى المصدر عند الخليل وسيبويه ، والاشمئزاز في اللغة النفور ، قال أبو عبيدة : اشمأزت نفرت ، وقال المبرد : انقبضت ، وبالأول قال قتادة ، وبالثاني قال مجاهد ، والمعنى متقارب ، وقال

المؤرج : أنكرت ، وقال أبو زيد : اشمأز الرجل ذعر من الفزع . والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت ، وهو في الأصل الازورار ، وكان المشركون إذا قيل لهم : لا إلّه إلا الله انقبضوا ، كما حكاه الله عنهم في قوله :

﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ قال ابن عباس في الآية : اشمأزت قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة أبو جهل ابن هشام ، والوليد بن عقبة ، وصفوان ، وأبي بن خلف .

﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ اللات والعزى وغيرهما من الأصنام ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون بذلك ، ويبتهجون به ، والعامل في ﴿ إذا ﴾ في قوله ﴿ وإذا ذكر الله ﴾ الفعل الذي بعدها وهو اشمأزت ، والعامل في إذا في قوله ﴿ وإذا ذكر الذين ﴾ الخ الفعل العامل في إذا الفجائية ، والتقدير فاجأوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه ، وذلك لفرط افتتانهم بها ، ونسيانهم حق الله .

ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما ، فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ، والاشمئزاز أن يمتلىء غضباً وغماً حتى ينقبض أديم وجهه ، ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء إلى الخير ، وصمموا على كفرهم أمره الله سبحانه ، أن يرد الأمر إلى الله سبحانه ، ويلتجىء إليه تعالى بالدعاء لما تحير في أمرهم ، وعجز في عنادهم وشدة شكيمتهم ، فإنه القادر على الأشياء ، العالم بالأحوال كلها فقال :

﴿ قل اللهم ﴾ أصله يا الله عوض عنها الميم لقربها من حروف العلة ، وشددت لتكون على حرفين كالمعوض عنه ، ولذا لم يجمع بينهما ،

فلا يقال : يا اللهم في فصيح الكلام ، وما سمع من قوله :

إني إذا مـا حـدثٌ ألمَّـا   أقـول : يا اللهم يـا اللهما

فضرورة قاله الرخي ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي ما غاب وشوهد ، وهما منصوبان على النداء :

﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من الهدى والضلالة ، والمعنى تجازي المحسن بإحسانه ، وتعاقب المسيء بإساءته ، فإنه بذلك يظهر من هو المحق ، ومن هو المبطل ، ويرتفع عنده خلاف المختلفين ، وتخاصم المتخاصمين .

وقيل : هذه محاكمة من النبي للمشركين إلى الله تعالى .

وعن ابن المسيب لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب سواها ، وعن الربيع ابن خيثم ـ وكان قليل الكلام ـ أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه ، وقالوا الآن يتكلم فما زاد أن قال آه أو قد فعلوا ، وقرأ هذه الآية ، وروي أنه قال على إثره . قتل من كان صلى الله عليه وآله وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه .

وأخرج مسلم وأبو داود والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته :

«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١) . ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر

(١) الجزء الأول منه اخرجه النسائي ٢/٣٢٠ والحاكم ٣/٦٢٢ .

الله ، والاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدل على شدة عذابهم وعظم عقوبتهم فقال :

﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ﴾ أي جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ ومثله معه ﴾ أي منضماً إليه ﴿ لافتدوا به ﴾ أي بالمذكور من الأمرين أي لجعلوه فدية لأنفسهم ﴿ من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم ، وقد مضى تفسير هذا في آل عمران .

﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي ظهر لهم من فنون عقوبات الله وسخطه ، وشدة عذابه ، ما لم يكن في حسابهم ولا يحدثون به في نفوسهم وفي هذا وعيد لهم عظيم ، وتهديد بالغ غاية لا غاية وراءها وقال مجاهد عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئآت وكذا قال السدي .

وقال سفيان الثوري : ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء ، وهذه آيتهم وقصتهم . وقال عكرمة بن عمار ، جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً فقيل له ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ، ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب .

﴿ وبدا لهم سيئآت ما كسبوا ﴾ أي مساوىء أعمالهم من الشرك ، وظلم أولياء الله ، و ﴿ ما ﴾ تحتمل أن تكون مصدرية أي سيئآت كسبهم ، وأن تكون موصولة أي سيئآت الذي كسبوه ، حين تعرض صحائف أعمالهم ، وكانت خافية عليهم ، أو عقاب ذلك ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ونزل بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ
فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ
سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

﴿ فإذا مس الانسان ﴾ المراد هنا بالانسان الجنس باعتبار بعض أفراده أو غالبها ، وقيل : المراد به الكفار فقط ، والأول أولى ،ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ وفاء بحق النظم القرآني ، ووفاء بمدلوله ، والمعنى أن شأن غالب نوع الانسان أنه إذا مسه ﴿ ضر ﴾ من مرض أو فقر أو غيرهما ﴿ دعانا ﴾ وتضرع إلينا في رفعه ودفعه .

﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا ﴾ أي أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿ قال إنما أوتيته على علم ﴾ مني بوجوه المكاسب ، أو على خير عندي ، أو على علم من الله بفضلي ، وقيل إن كان ذلك سعادة في المال أو عافية في النفس يقول: إنما حصل ذلك بجدي واجتهادي ، وإن كان صحة قال : إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني ، وإن حصل مالاً ، يقول : حصل بكسبي ، وهذا تناقض أيضاً لأنه لما كان عاجزاً محتاجاً أضاف الكل إلى الله تعالى ، وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله تعالى وأسنده الى كسب نفسه . وهذا تناقض قبيح .

وقال الحسن :على علم علمني الله إياه . وقيل : قد علمت أني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة ، وجاء في أوتيته بالضمير مذكراً مع كونه

راجعاً الى النعمة لأنها بمعنى الإنعام ، وقيل : إن الضمير عائد إلى ﴿ ما ﴾ وهي موصولة والأول أولى .

﴿ بل هي فتنة ﴾ هذا رد لما قاله ، أي ليس ذلك الذي أعطيناك لما ذكرت بل هو محنة لك واختبار لحالك ، أتشكر أم تكفر ؟ قال الفراء : أنث الضمير في قوله :(هي)لتأنيث الفتنة ، ولو قال : بل هو فتنة لجاز ، وقيل : تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة ، وتذكير الأول في قوله : أوتيته باعتبار معناها وقال النحاس : بل عطية فتنة ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله ، وامتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر .

﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أي قال هذه الكلمة التي قالوها ، وهي قوله ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ الذين من قبلهم كقارون وقومه ، فإن قارون قال ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ وإنما نسب إليهم قوله باعتبار رضاهم به ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ ما نافية أي لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً أو استفهامية أي أيُّ شيء أغنى عنهم ذلك .

﴿ فأصابهم سيئآت ما كسبوا ﴾ أي جزاء سيئآت كسبهم أو أصابهم سيئآت هي جزاء كسبهم ، وسمي الجزاء سيئآت لوقوعه في مقابلة سيئآتهم ، فيكون ذلك من باب الازدواج والمشاكلة . كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ وفيه رمز إلى أن جميع أعمالهم كذلك ، ثم أوعد سبحانه الكفار في عصره فقال :

﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ الموجودين من الكفار ﴿ سيصيبهم سيئآت ما كسبوا ﴾ كما أصاب من قبلهم ، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط والقتل والأسر والقهر ، والسين للتأكيد ﴿ وماهم بمعجزين ﴾ أي بفائتين على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة .

﴿ أولم يعلموا ﴾ الضمير للقائلين ﴿إنما أوتيته على علم ﴾ فالمعنى أقالوها ولم يعلموا؟أو أغفلوا ولم يعلموا ؟ ﴿ إن الله يبسط ﴾ أي يوسع

﴿ الـرزق لمن يشاء ﴾ أن يـوسعه لـه ، وإن كان لا حيلة لـه ولا قـوة امتحانـاً ﴿ ويقدر ﴾ أي يقبضه على من يشاء أن يقبضه ، ويضيقه عليه ، وإن كان قوياً شديد الحيلة ابتـلاه ، وقيل : يجعله على قدر قوت ، قال مقاتـل : وعظهم الله ليعتبروا في توحيده ، وذلك حين مطروا بعد سبـع سنين ، فقال : أولم يعلمـوا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء ؟ ويقتر على من يشاء ؟ فلا قابض ولا بـاسط إلا الله تعالى ، ويدل على ذلك أنا نرى الناس مختلفين في سعـة الرزق وضيقـه ، فلا بد لذلك من حكمة وسبب ، وذلك السبب ليس هـو عقل الـرجل وجهله ، فإنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ، والجاهل الضعيف في أعظم السعة .

﴿ إن في ذلـك ﴾ المـذكـور من التـوسيـع والتضييق ﴿ لآيـات ﴾ أي لدلالات عظيمة وعلامات جليلة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بالله ، وإنـما خص المؤمنين لأنهم المنتفعون بالآيات ، المتفكرون فيها ، ثم لما ذكـر سبحانـه ما ذكـره من الوعيد عقبة بذكر سعة رحمتـه ، وعظيم معـرفته ، وأمـر رسولـه صلى الله عليه وسلم أن يبشرهم بذلك فقال :

﴿ قل : يا عبادي ﴾ قرىء بإثبات الياء وصلاً ووقفاً . وبغير الياء . وهما سبعيتـان ﴿ الـذين أسـرفـوا ﴾ أي أفـرطـوا ﴿ على أنفسهم ﴾ في الكفـر أو المعـاصي واستكثروا منهـا ﴿ لا تقنطوا ﴾ بفتـح النون وبكسـرها أي لا تيـأسوا ﴿ من رحمة الله ﴾ أي من مغفرتـه ، وفي هذه الآيـة من أنواع المعـاني والبيان أشياء حسنة : منها إقباله تعالى عليهم ، ونـداؤهم ومنها إضـافتهم إليه إضـافة تشريف ومنها الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿ من رحمة الله ﴾ ومنها إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنها إعادة الظاهر بلفظه في قوله الآتي : ﴿ إنَّ الله ﴾، قاله السمين .

وقـال عبـد الله وغيـره : هـذه الآيـة أرجى آيـة في كتـاب الله سبحـانـه لاشتمالها على أعظم بشارة فإنه أولاً أضـاف العباد إلى نفسـه لقصد تشـريفهم ومـزيـد تبشيـرهـم ، ثم وصفهم بـالإسـراف في المعـاصي والاستكثـار من

الذنوب ، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى ، وبفحوى الخطاب قيل : وهذه عامة في كل كافر يتوب ، ومؤمن عاص يتوب ، فتمحو توبته ذنبه ، والمراد منها التنبيه على أنه لا ينبغي للعاصي أن يظن أنه لا مخلص له من العذاب ، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله تعالى إذ لا أحد من العصاة إلا وإنه متى تاب زال عقابه ، وصار من أهل المغفرة والرحمة والحق أن الآية غير مقيدة بالتوبة بل هي على إطلاقها .

ولما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ، ويجعل الرجاء مكان القنوط ، وجاء بما لا يبقى بعده شك ، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن ، فقال :

﴿ إن الله يغفر الذنوب ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس ، الذي يستلزم استغراق أفراده فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآني ، وهو الشرك ، ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله ﴿ جميعاً ﴾ فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين في رجائه الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب ، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده ، المتوجهين إليه في طلب العفو ، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم ، وما أحسن ما علل به سبحانه هذا الكلام قائلاً :

﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما فأبرز الجملة مؤكدة بإن والفصل ، وباعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الآية السابقة ، فمن أبى هذا التفضل العظيم ، والعطاء الجسيم ، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به فقد ركب أعظم الشطط وغلط أقبح الغلط ، فإن التبشير وعدم التقنيط هو الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز والمسلك الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه

وسلم كما صح عنه من قوله : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا »[١] .

وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ هو أن كل ذنب كائناً ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له ، على أنه يمكن أن يقال إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً يدل على أنه يشاء غفرانهما جميعاً ، وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية .

وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين ، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات فهو جمع بين الضب والنون وبين الملاح والحادي ، وعلى نفسها براقش تجني .

ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك باجماع المسلمين ، ولذا قال ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة ، وقد قال سبحانه ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال الواقدي المفسرون كلهم قالوا إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام كالشرك وقتل النفس ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت : هب أنها في هؤلاء القوم فكان ماذا ؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم ، لا بخصوص السبب ، كما هو متفق عليه بين أهل العلم ، ولو كانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لهالارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة ، إن لم ترتفع كلها واللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما في هذا الباب ما لو عرفه المطلع عليه حق معرفته وقدره حق قدره علم صحة

---

(١) البخاري ٢٦/٤ ـ ١٠٨/٥ ـ ١٠١/٧ ـ ١١٤/٨ مسلم ١٤١/٥ ـ احمد ٤١٢/٤ ـ ٤١٧/٤ .

ما ذكرناه ، وعرف حقيقة ما حررناه ، قاله الشوكاني .

وعن ابن عمر قال: « كنا نقول ليس لمفتتن توبة وما الله بقابل منه شيئاً عرفوا الله وآمنوا به وصدقوا رسوله ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولونه لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله فيهم .﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾الآيات ، قال ابن عمر فكتبتها بيدي ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي » .

وعن أبي سعيد قال : « لما أسلم وحشي أنزل الله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ ، قال وحشي وأصحابه قد ارتكبنا هذا كله ، فأنزل الله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ » الآية .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال: « خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه وهم يضحكون ويتحدثون ، فقال : والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ثم انصرف وأبكى القوم ، وأوحى الله إليه يا محمد لم تقنط عبادي فرجع النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبشروا وسددوا وقاربوا »(١) .

وعن عمر بن الخطاب أنها نزلت فيمن افتتن وعن ابن عباس أنها نزلت في مشركي مكة لما قالوا إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك ، وقتل النفس وغير ذلك وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية ، فقال رجل : ومن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : ألا ومن أشرك ، ثلاث مرات »

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنة وابن المنذر والحاكم وغيرهم

(١) حديث قاربوا وسددوا وأبشروا صحيح الجامع الصغير ٤١٧٣ .

عن أسماء بنت يزيد : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ يا عبادي الـذين أسـرفـوا على أنفسهم لا تقنـطوا من رحمـة الله إن الله يغفـر الـذنـوب جميعـاً ـ ولا يبالي ـ انه هو الغفور الرحيم » وعن ابن مسعود أنه مـر على قاص يذكر الناس فقال : يا مذكر الناس لا تقنط الناس ، ثم قرأ يا عبادي الآية .

وعن ابن سيرين قال : قال علي : أي آية أوسع ؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن : ﴿ من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ الآية ونحوها ، فقال علي : ما في القرآن أوسع من ﴿ يا عبادي ﴾ الآية ، وأخرج ابن جـرير وابن المنـذر عن ابن عبـاس في الآية قـال : قد دعـا الله إلى مغفـرتـه من زعم أن المسيـح ابن الله ، ومن زعم أن عـزير ابن الله ومن زعم أن الله فقيـر ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ومن زعم أنَ الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفـور رحيم ؟ ثم دعا الى تـوبته من هـو أعظم قـولاً من هؤلاء ، من قـال ﴿ أنـا ربكم الأعلى ﴾ وقـال : ﴿ مـا علمت لكم من إلـه غيـري ﴾ قـال ابن عباس : ومن آيس العباد من التـوبة بعـد هذا فقـد جحد كتـاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وحديث أبي سعيد الخـدري « في رجل قتـل تسعة وتسعين إنسـاناً » في الصحيحين بـطوله ، وكـذا حديث رجـل قـال « وذرُّوني في الـريـح ؟ » فيهمـا بطوله ، عن أبي هريرة ، وعنه في سنن أبي داود حديث رجلين متحابين .

وعن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : « قـال الله عـز وجل يـا ابن آدم إنك مـا دعوتني ورجـوتني غفـرت لـك على مـا كـان منـك ، ولا أبالي ، يـا ابن آدم لو بلغت ذنـوبك عنـان السمـاء ثم استغفـرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم لو انك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[١] أخـرجه التـرمذي والعنـان السحاب ، والقراب بضم القاف هو ما يقارب ملؤها .

---

(١) رواه الترمذي ٢٧٠/٢ والدارمي ٣٢٢/٢ وأحمد ١٧٢/٥ و ١٥٤/٥ .

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾
وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ
وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

﴿ وأنيبوا الى ربكم ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً أمرهم بالرجوع إليه ، بفعل الطاعات ، واجتناب المعاصي وليس في هذا ما يدل على تقييد الآية الأولى بالتوبة ، لا بمطابقة ، ولا تضمن ، ولا التزام ، بل غاية ما فيها أنه بشرهم بتلك البشارة العظمى . ثم دعاهم إلى الخير وخوفهم من الشر على أنه يمكن أن يقال إن هذه الجملة مستأنفة خطاباً للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله :

﴿ وأسلموا له ﴾ جاء بها لتحذير الكفار وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى ، وتبشيرهم ، وهذا وإن كان بعيداً ولكنه يمكن أن يقال به ، والمعنى على ما هو الظاهر أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم ، والأمر بالإنابة اليه ، والإخلاص له ، والاستسلام لأمره ، والخضوع لحكمه .

وقوله ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ﴾ أي عذاب الدنيا كما يفيده النظم ، فليس في ذلك ما يدل على ما زعمه الزاعمون ، وتمسك به القانطون المقنطون والحمد لله رب العالمين ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ أي لا تمنعون من العذاب إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب .

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ يعني القرآن ، يقول : أحلوا

حلاله ، وحرموا حرامه والقرآن كله حسن . قال الحسن : التزموا طاعته ، واجتنبوا معاصيه . وقال السدي الأحسن ما أمر الله به في كتابه .

وقال ابن زيد : يعني المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه . وقيل : الناسخ دون المنسوخ . وقيل العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام . وقيل أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ، ومثله قوله تعالى : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وقيل القرآن أو المأمور به دون المنهي عنه أو العزائم دون الرخص ، ولعله ما هو أنجى وأسلم ، كالإنابة والمواظبة على الطاعة .

﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أي من قبل أن يفاجئكم العذاب وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به ، وقيل : أراد أنهم يموتون بغتة فيقعون في العذاب ، والأول أولى ، لأن الذي يأتيهم بغتة هو العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ، والخوف والقهر ، والجدب لا عذاب الأخرة ولا الموت لأنه لم يسند الإتيان إليه .

﴿ أن تقول نفس ﴾ قال البصريون : أي حذر أن تقول : وقال الكوفيون أي لئلا تقول ، قال المبرد : بادروا خوف أن تقول أوحذراً من أن تقول ، وقدره الزمخشري كراهة أن تقول ، وابن عطية : وأنيبوا من أجل أن تقول وأبو البقاء والحوفي : أنذرناكم مخافة أن تقول قال الحلبي : عقب نقل بعض هذه التقادير : ولا حاجة إلى إضمار هذا العامل مع وجود أنيبوا ونكر (نفس) لأن المراد بها بعض الأنفس وهي النفس الكافرة المتميزة باللجاج الشديد في الكفر ، أو بالعذاب الأليم .

وقيل : المراد به التكثير كما في قوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ أي نفوس كثيرة ، وهم الكفار والعصاة المؤمنون . وقال الزجاج خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها : ﴿ يا حسرتي ﴾ قرأ الجمهور يا حسرتا بالألف بدلاً من الياء المضاف إليها ، وقرأ ابن كثير يا حسرتاه بهاء السكت . وقفاً ، وقرأ أبو

جعفر : يا حسرتي بالياء على الأصل ، والحسرة الندامة ، والاغتمام والحزن على ما فات ﴿ على ما فرطت ﴾ أي على تفريطي وتقصيري فما مصدرية ﴿ في جنب الله ﴾ أي طاعته قاله الحسن .

والجنب والجانب كلاهما بمعنى جهة الشيء المحسوسة ، وإطلاق الجنب على الطاعة مجاز بالاستعارة حيث شبهت بالجهة بجامع تعلق كل بصاحبه ، فالطاعة لها تعلق بالله ، كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها ، وقال الضحاك : في ذكر الله ويعنى به القرآن والعمل به وقال أبو عبيدة ، في ثواب الله ، وقيل : في حق الله أو في أمر الله أو في ذات الله .

وقال الفراء : الجنب القرب والجوار أي في قرب الله وجواره ، ومنه قوله ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ والمعنى على هذا القول على ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة ، وبه قال ابن الاعرابي .

وقال الزجاج : أي في الطريق الذي هو طريق الله من توحيده والإقرار بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالجنب بمعنى الجانب ، أي قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله ، يقال أنا في جنب فلان وفلان لين الجانب والجنب ثم قالوا : فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه ، وهذا من باب الكناية قال ابن عباس في الآية أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا وعلمهم قبل أن يعلموا .

﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا ، وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين قال قتادة : « لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، والجملة حالية ، أي فرطت وأنا ساخر .

﴿ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ أي لو أن الله أرشدني الى دينه لكنت ممن يتقي الشرك والمعاصي وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة ، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ فهي كلمة حق

يريدون بها باطلاً .

قال أبو المنصور : هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة ، وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا ، والمعتزلة يقولون : بل هداهم وأعطاهم التوفيق ، لكنهم لم يهتدوا ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوه فقال :

﴿ أو تقول حين ترى العذاب ﴾ والتعبير بأو للدلالة على أن النفس لا تخلو عن هذه الأقوال تحسراً وتحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته ، فأو للتنويع لما تقوله النفس في ذلك اليوم ، ويصح أن تكون مانعة خلو فتجوز الجمع ﴿ لو أن لي كرة ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فأكون من المحسنين ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له ، المحسنين في أعمالهم ، ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة فقال :

﴿ بلى ﴾ أي فيقال له من قبل الله : بلى الخ كأنه قال : ما هداني الله فيقال بلى ﴿ قد جاءتك آياتي ﴾ مرشدة لك ، والمراد بالآيات هي الآيات التنزيلية وهو القرآن ﴿ فكذبت بها ﴾ وهو قوله : إنها ليست من عند الله ﴿ واستكبرت ﴾ أي تكبرت عن الإيمان بها ﴿ وكنت ﴾ مع ذلك التكذيب والاستكبار ﴿ من الكافرين ﴾ بالله .

وجاء سبحانه بخطاب المذكر في قوله جاءتك وكذبت ، واستكبرت ، وكنت لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد ، أو التذكير باعتبار كونها شخصاً كافراً قرأ الجمهور بفتح التاء في هذه المواضع ، وقرىء بكسرها في جميعها وهي قراءة أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وبنته عائشة ، وأم سلمة ، ورويت عن ابن كثير .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾

﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾ بأن له شريكاً ، وصاحبة ، وولداً ﴿ وجوههم مسودة ﴾ لما أحاط بهم من العذاب ، ولما شاهدوه من غضب الله ونقمته ، والجملة في محل النصب على الحال ، قال الأخفش ﴿ ترى ﴾ غير عامل في ﴿ وجوههم مسودة ﴾ إنما هو مبتدأ وخبره ، والأولى أن ﴿ ترى ﴾ إن كانت من الرؤية البصرية فجملة ﴿ وجوههم مسودة ﴾ حالية وإن كانت قلبية فهي مفعول ثان لترى .

﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ الاستفهام لتقرير اسوداد وجههم ، وتعليل له ، كأنه قال : لأن لهم في جهنم مقراً ومقاماً ، والكبر هو «بطر الحق وغمط الناس »[1] ، كما ثبت في الحديث الصحيح .

﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ الشرك ومعاصي الله من جهنم متلبسين ﴿ بمفازتهم ﴾ أي بمكان فوزهم من الجنة بأن يجعلوا فيه ، قرأ الجمهور بالإفراد على أنه مصدر ميمي والفوز الظفر بالخير ، والنجاة من الشر ، قال المبرد المفازة مفعلة من الفوز وهي السعادة ، وإن جمع فحسن كقولك :

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري ٥٤٨ وأحمد ١٦٩/٢ والبيهقي في الاسماء بقوله :«ان نبي الله نوحاً لما حضرته الوفاة . . . .» وبطر الحق : إنكاره ، وغمط الناس : ظلمهم

السعادة والسعادات .

والمعنى ينجيهم الله بفوزهم ، أي بنجاتهم من النار ، وفوزهم بالجنة ، وقرىء بمفازاتهم جمع مفازة وجمعها مع كونها مصدراً لاختلاف الأنواع وقيل ثَمَّ مضاف محذوف ، والتقدير بدواعي مفازتهم أو أسبابها ، والمفازة المنجاة ، وقيل لا حاجة لذلك إذ المراد بالمفازة الفلاح .

وجملة ﴿ لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ مفسرة لمفازتهم كأنه قيل : وما مفازتهم ؟ فقيل لا يمسهم الخ أو منصوبة رد على الحال من الذين اتقوا ، وقيل الباء للسببية أي بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم ، وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم ، لأنهم رضوا بثواب الله وأمنوا من عقابه .

﴿ الله خالق كل شيء ﴾ من الأشياء الموجودة في الدنيا والآخرة ، كائناً ما كان ، من غير فرق بين شيء وشيء وفيه رد على المعتزلة والثنوية ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها ، من غير مشارك له .

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ جملة مستأنفة والمقاليد واحدها مقليد ومقلاد ، أو لا واحد له من لفظه كأساطير ، ويقال أيضا أقليد وأقاليد أو الكلمة أصلها فارسية على ما قيل إنه جمع إقليد معرب إكليد والكلام من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبرها هو الذي يملك مفاتيحها ، فهو كناية عن شدة التمكن والتصرف في كل شيء مخزون في السموات أو في الأرض ، والحمل على الظاهر أولى ، وهي هنا مفاتيح الرزق والرحمة . قاله مقاتل وقتادة وغيرهما ، قال ابن عباس أي مفاتيحها ، وقال الليث المقلاد الخزانة .

ومعنى الآية له خزائن السموات والأرض ، وبه قال الضحاك والسدي ، وقيل : خزائن السموات المطر ، وخزائن الأرض النبات وقيل : هي عبارة عن قدرته سبحانه وحفظه لها ، والأول أولى : قال الجوهري : الإقليد المفتاح ثم قال : والجمع المقاليد ، وقيل هي لا إلَـه إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله

وبحمده ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأخرج أبو يعلى ويوسف القاضي في سننه وأبو الحسن القطان وابن السني وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان ابن عفان قال :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال لي: يا عثمان لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ، مقاليد السموات والأرض لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » ، ثم ذكر فضل هذه الكلمات وله طرق عن عثمان . وقيل غير ذلك ، والمعنى على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد ، وهي مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه .

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي بالقرآن وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه وتوحيده ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار متصل بقوله :﴿وينجي الله ﴾الخ أي معطوف عليه وما بينهما اعتراض ، وإن كان المعطوف جملة اسمية ، والمعطوف عليه جملة فعلية فهذا لا يمنع صحة العطف ، غايته أنه خال عن حسنه .

﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، والأصل أفتأمروني ؟ أي بعد مشاهدة الآيات الدالة على انفراده وتوحيده أن أعبد غير الله ، قاله الكسائي وغيره ، وقيل : أفتلزموني عبادة غير الله ؟ أو أعبد غير الله ؟ أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لمّا دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا : هو دين آبائك .

وعن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، ويطأون

عقبه فقالوا له : هذا لك يا محمد وتكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فجاء بالوحي :﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾الى آخر السورة ، وأنزل الله عليه﴿ قل أفغير الله تأمروني ﴾الى قوله : ﴿ من الخاسرين ﴾[١] .

﴿ ولقد ﴾ هذه اللام دالة على قسم مقدر أي والله لقد ﴿ أوحي اليك وإلى الذين من قبلك ﴾ من الرسل ﴿ لئن ﴾ جواب القسم وهذه اللام أيضاً دالة على قسم مقدر أي والله لئن ﴿ أشركت ﴾ يا محمد فرضاً ﴿ ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ وكل من هاتين اللامين واقعة في جواب القسم الثاني ، والثاني وجوابه جواب الأول ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، وهذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل ، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والانذار للعباد من الشرك ، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير ، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى .

قيل وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير ولقد أوحي اليك لئن أشركت الخ وأوحى الى الذين من قبلك كذلك ، قال مقاتل أي أوحي اليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد ، والتوحيد محذوف ، ثم قال : لئن اشركت يا محمد ليحبطن عملك ، وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقيل إفراد الخطاب في لئن أشركت ، باعتبار كل واحد من الأنبياء كأنه قيل أوحي إليك وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام ، لئن أشركت ، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى .

﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ وقيل هذا خاص بالأنبياء لأن الشرك منهم أعظم ذنباً من الشرك من غيرهم والأول أولى ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بتوحيده فقال :

---

(١) سيأتي الكلام عنه عند تفسيرنا لسورة الكافرون .

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٧﴾

﴿ بل الله فأعبد ﴾ وفي هذا رد على المشركين حيث أمروه بعبادة الأصنام ووجه الرد ما يفيده التقديم من القصر ، قال الزجاج ، لفظ اسم الله منصوب بأعبد قال ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين ، وقال الفراء هو منصوب بإضمار فعل ، وعن الكسائي مثله ، والأول أولى .

قال الزجاج : والفاء في فاعبد للمجازاة ، وقال الأخفش زائدة قال عطاء ومقاتل . معنى فاعبد وَحِّد لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والدعاء الى دينه ، واختصك به من الرسالة .

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ، وقال المبرد أي ما عظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره ، من قولك فلان عظيم القدر . وانما وصفهم بهذا لأنهم عبدوا غير الله ، وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم في الشرك ، وقرىء قدروا بالتشديد .

﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ القبضة في اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمتها وكثافتها في مقدوره ، كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون هو في يد فلان وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه ، وإن لم يقبض عليه .

والمراد بالأرض الأرضون السبع ، يشهد لذلك قوله ﴿ جميعاً ﴾ وقوله الآتي ﴿ والسموات ﴾ لأن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع ، ولأن الموضع موضع تعظيم ، فهو مقتض للمبالغة ، والمعنى الأرضون جميعاً ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة ، وقدم الأرض على السموات لمباشرتهم بها ومعرفتهم بحقيقتها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « جاء حبر من الأحبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ » وانما خص يوم القيامة بالذكر ـ وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا أيضا ـ لأن الدعاوي تنقطع في ذلك اليوم ، كما قال . ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وقال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ولذلك قال في الحديث « ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟» .

﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ ذكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه ، والطي ضد النشر واليمين في كلام العرب قد يكون بمعنى القدرة والملك . قال الأخفش بيمينه يقول في قدرته نحو قوله ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أي ما كانت لكم قدرة عليه ، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر الجسد ، ومنه قوله سبحانه ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بالقوة والقدرة ، وليس يريد به طياً بعلاج وانتصاب ، وانما المراد بذلك الفناء والذهاب ، يقال قد انطوى عنا ما كنا فيه ، وجاءنا غيره ،

وانطوى عنا ، وهو بمعنى المضي والذهاب قال الخازن اليمين ليس عندنا بمعنى الجارحة ، وإنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها ، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب ؛ والأخبار المأثورة الصحيحة ؛ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، قال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه ا هـ .

ومعنى الآية ما عظموه حق تعظيمه ، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة ، والمقصود الاشارة إلى أن المتولي لإبقاء السموات والأرض في هذه الدار هو المتولي لتخريبهما يوم القيامة ، وذلك يدل على قدرته التامة على الإيجاد والإعدام ، وأنه غني على الإطلاق فإنه إذا حاول تخريب الأرض يقبضها ويزيلها وتخريب السموات يجمعها كالسجل المطوي .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض »[(١)] ؟

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك اين الجبارون أين المتكبرون أين ملوك الأرض » ، أخرجه الشيخان وفي الباب أحاديث وآثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من دون تكلف لتأويل ، ولا تعسف بقال وقيل ، ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة ـ والحكمة الباهرة .

---

(١) صحيح الجامع/ ٧٩٨١ .

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ هذه هي النفخة الأولى ، والصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وقد تقدم غير مرة ، وقد قيل : إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن صاحبي الصور بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر حتى يؤمران » أخرجه ابن ماجة ، وفي أبي داود عنه قال : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصور وقال : عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل ، ذكره القرطبي .

ومعنى صعق زالت عقولهم ، فخروا مغشياً عليهم ، وقيل : ماتوا : قال الواحدي : قال المفسرون : مات من الفزع وشدة الصوت أهل السموات والأرض ، قرأ الجمهور الصور بسكون الواو وقرىء بفتحها جمع صورة :

﴿إلا من شاء الله﴾ والاستثناء متصل والمستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وقيل : رضوان وحملة العرش وخزنة الجنة والحور العين والنار ، وقيل : الباري تعالى وحده قاله الحسن وفيه نظر من حيث قوله من في السموات ومن في الأرض . فإنه لا يتحيزه فعلى هذا يتعين أن يكون منقطعاً وقيل الزبانية وقيل عقارب أهل النار وحياتها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : « قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر ، فرفع رجل من

الأنصار يده فلطمه وقال أتقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « قال الله ونفخ في الصور إلى قوله : ينظرون فأكون أول من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي ! أو كان ممن استثنى الله »

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « إلا من شاء الله » قال : « هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة » الحديث أخرجه أبو يعلى والدارقطني في الأفراد وابن المنذر والحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في البعث وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد من قول أبي هريرة .

وعن أنس أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿إلا من شاء الله﴾ «فقال جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل وحملة العرش » أخرجه الفريابي وابن جرير وأبو نصر السجزي في الابانة ، وابن مردويه .

وأخرج ابن المنذر عن جابر قال هو موسى لأنه كان صعق قبل ، وههنا إشكال أورده بعض السلف وهو أن نص القرآن يدل على أن هذا الاستثناء بعد نفخة الصعق وهي النفخة الأولى التي مات فيها من بقي على وجه الأرض والحديث المتقدم يدل على أنها نفخة البعث . وما قيل إنه يحتمل أن موسى ممن لم يمت من الأنبياء باطل لصحة موته ، وقال القاضي عياض يحتمل أن تكون هذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق الأرض والسموات فتتوافق الآيات والأحاديث .

قال القرطبي : ويرده ما مر في الحديث من أخذ موسى بقائمة العرش ، فإنه إنما هو عند نفخة البعث ، وأيضا تكون النفخات أربعاً ولم ينقله الثقات قال الشهاب : فمن حمل الصعق على غشى يكون من نفخة بعد نفخة البعث للإرهاب والارعاب فكلامه مردود بما عرفت ، ومن الغريب أن بعضهم جعلها

بحديث أبي هريرة خمساً ، وقد سمعنا بمن زاد في الطنبور نغمة ، ولم نسمع بمن زاد في الصور نفخة .

قال القرطبي : والذي يزيح الإشكال ما قاله بعض مشايخنا أن الموت ليس بعدم محض بالنسبة إلى الانبياء والشهداء فانهم موجودون أحياء ، وإن لم نرهم ، فإذا نفخت نفخة الصعق صعق كل من في السموات والأرض وصعق غير الأنبياء موت وصعقهم غشي ، فإذا كانت نفخة البعث حيى من مات ، وأفاق من غشي عليه ، ولذا وقع في الصحيحين فأكون أول من يفيق ، والأحاديث الواردة في كيفية نفخ الصور كثيرة ، وقد ذكر سليمان الجمل في هذا المقام عن ابن الوردي وغيره ما جاء في صورة الصور وهيئته وتعداد نفخاته ، ولا تعلق له بالتفسير .

﴿ ثم نفخ فيه ﴾ نفخة ﴿ أخرى فاذا هم ﴾ يعني الخلق كلهم ﴿ قيام ﴾ على أرجلهم ﴿ ينظرون ﴾ ما يقال لهم ، أو ينتظرون ذلك ، والاستثناء ملاحظ في هذا أيضاً لأن من لم يمت كالحور فلا يقال له ذلك ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بين النفختين أربعون : قالوا أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة أبيت ، قالوا أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل الله عز وجل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »(١) أخرجه الشيخان .

ودلت الآية على أن النفخة اثنتان الأولى للموت ، والثانية للبعث ، والجمهور على أنها ثلاث ، الأولى للفزع كما قال : ونفخ في الصور ففزع ، والثانية للموت ، والثالثة للإعادة .

(١) سبق ذكره

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ
بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ
﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ
ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

﴿ وأشرقت الأرض ﴾ الاشراق الإضاءة ، يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشرقت إذا طلعت ، وأراد بالأرض عرصات القيامة ، أي الأرض الجديدة التي يوجدها الله في ذلك الوقت ، ليحشر الناس عليها ، وليس المراد بها أرض الدنيا .

﴿ بنور ربها ﴾ أي بعدل ربها قاله الحسن وغيره ، وقال الضحاك : بحكم ربها . والمعنى أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها ، وما قضى به من الحق فيهم ، فالعدل نور ، والظلم ظلمات . وقيل : ذلك حين يتجلى الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء بين خلقه ، فما يضارون في نوره كما لا يضارون في الشمس في يوم الصحو .

وقيل : إن الله سبحانه يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر ، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي ، فإن الله سبحانه هو ﴿ نور السموات والأرض ﴾ قرأ الجمهور : أشرقت مبنياً للفاعل ، وقرئ على البناء للمفعول .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقال قتادة يعني الكتب والصحف التي فيها أعمال بني آدم ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ، وكذا قال مقاتل : وقيل هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أي وضع الكتاب للحساب ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ إلى الموقف فسئلوا عما أجابتهم به أممهم .

﴿ والشهداء ﴾ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما في قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقيل المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذب عن دين الله . قاله السدي وقيل هم الحفظة كما قال تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ قاله ابن زيد قال ابن عباس النبيون الرسل والشهداء الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان ولا لعان يشهدون بتبليغ الرسالة وتكذيب الأمم إياهم .

ولما بين سبحانه أنه يوصل لكل ذي حق حقه عبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولاها قوله ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أي قضى بين العباد بالعدل والصدق ، والثانية ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي والحال أنهم لا ينقصون من ثوابهم ولا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم ختم الآية بنفي الظلم كما افتتحها باثبات العدل ، والثالثة ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ من خير وشر أي جزاءه والرابعة ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ في الدنيا لا يحتاج إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد ، لأنه عالم بمقادير أفعالهم وبكيفياتها . فامتنع دخول الخطأ عليه ، قاله الكرخي ، وقال القرطبي ومع ذلك فتشهد الكتب والشهود وإلزاماً للحجة انتهى . يعني إنما وضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة .

ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت فقال: ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ أي سيق الكافرون سوقاً عنيفاً إلى النار

حال كونهم جماعات متفرقة بعضها يتلو بعضاً ، قال أبو عبيدة والأخفش زمراً جماعات متفرقة بعضها إثر بعض ، واحدتها زمرة واشتقاقه من الزمر ، وهو الصوت ، إذ الجماعة لا تخلو عنه غالباً ﴿ حتى ﴾ هي التي تحكى الجمل بعدها ﴿ إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ أي أبواب النار ليدخلوها ، وهي سبعة أبواب . وكانت قبل ذلك مغلقة . وقد مضى بيان ذلك في سورة الحجر .

﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ جمع خازن نحو سدنة وسادن : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من أنفسكم ومن جنسكم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ التي أنزلها عليكم ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ﴾ أي يخوفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه ، والمراد به وقت الشدة لا يوم القيامة جميعه ، قال الزمخشري : وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضا في أوقات الشدة ، قالوا لهم هذا القول تقريعاً وتوبيخاً ، فأجابوا بالاعتراف ، ولم يقدروا على الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا ، لانكشاف الأمر وظهوره ولهذا ﴿ قالوا بلى ﴾ أي قد أتتنا الرسل بآيات الله وأنذرونا بما سنلقاه .

﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وهي ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جيء بالظاهر مقام المضمر لبيان سبب استحقاقهم العذاب وهو كفرهم ، فلما اعترفوا هذا الاعتراف ﴿ قيل ﴾ لهم من قبل الملائكة الموكلين لعذابهم .

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ التي قد فتحت لكم لتدخلوها ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود ﴿ فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ جهنم ، واللام فيه للجنس ، وجيء بالظاهر لبيان سبب كفرهم الذي استحقوا به العذاب ، وقد تقدم تحقيق المثوى في غير موضع ، ولما ذكر فيما تقدم حال الذين كفروا وسوقهم إلى جهنم زمراً ذكر هنا حال المتقين ، وسوقهم الى الجنة فقال :

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ
ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ
وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ أي ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم ، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان ، كما يفعل بمن يكرم من الوافدين على بعض الملوك والمراد بالسوق المتقدم طردهم إلى العذاب بالهوان كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل ، فشتان ما بين السوقين .

وهذا من بدائع أنواع البديع ، وهو أن يأتي سبحانه وتعالى بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم وعقابهم ، ويأتى بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ، فسبحان من أنزله معجز المباني ، متمكن المعاني ، عذب الموارد والمثاني قيل الكلام على حذف مضاف ، أي : سيقت مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين وقد سبق معنى الزمر أي جماعات أهل الصلاة على حدة ، وأهل الصوم كذلك إلى غير ذلك .

﴿ حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها ﴾ جواب إذا محذوف ، قال المبرد : تقديره سعدوا وفتحت ، وقال الزجاج : القول عندي أن الجواب محذوف على تقدير حتى إذا جاؤها كانت هذه الأشياء التي ذكرت دخلوها فالجواب دخلوها وحذف لأن في الكلام دليلاً عليه . وقال الأخفش والكوفيون : الجواب فتحت والواو زائدة وهو خطأ عند البصريين لأن الواو من حروف المعاني فلا تزاد .

وقيل إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ وحذفت الواو في قصة أهل النار لأنهم وقفوا على النار ، وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً . ذكر معناه النحاس منسوباً الى بعض أهل العلم قال : ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد ، وعلى هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد ، أي : جاؤوهاوقد فتحت لهم الأبواب . وقيل : إنها واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد خمسة ستة سبعة وثمانية ، وقد مضى القول في هذا في سورة براءة مستوفى ، وفي سورة الكهف أيضاً .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة »[١] وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « في الجنة ثمانيةأبواب منها باب يسمى باب الريان ، لا يدخله إلا الصائمون » ، وقد ورد في كون أبواب الجنة ثمانية أحاديث في الصحيحين وغيرهما ، وكتابنا (مثير ساكن الغرام ، إلى روضات دار السلام) هو أحسن ما جمع في أحوال الجنة فليرجع إليه وليعول عليه ، ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال :

﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ أي سلامة لكم من كل آفة ، لا يعتريكم بعده مكروه ﴿ طبتم ﴾ وطهرتم في الدنيا ، فلم تتدنسوا بالشرك والمعاصي . قال مجاهد طبتم بطاعة الله ، وقيل بالعمل الصالح ، والمعنى واحد وقيل طاب لكم المقام وقيل طابت حالكم وحسنت وجعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة لأنها دار الطيبين ، ومثوى الطاهرين ، وقد طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قذر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها ، موصوف

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٢٥٦٢ .

بصفتها .

قال مقاتل إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فتقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم ، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه سلام عليكم الآية ، وقد أخرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري وهو طويل جدا ﴿ فادخلوها ﴾ أي الجنة ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود .

﴿ وقالوا ﴾ أي فعند ذلك قال أهل الجنة ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ بالبعث والثواب بالجنة في قوله : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أي أرض الجنة قاله قتادة وأبو العالية ، كأنها صارت من غيرهم إليهم ، فملكوها وتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما يرثه ، ففي الكلام تجوز . وقيل : إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين ، قاله أكثر المفسرين ، وقيل : إنها أرض الدنيا وفي الكلام تقديم وتأخير .

﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أي نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء فلا يختار أحد مكان غيره ، وقيل : يتخير كل واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأين ينزل تكرمة له ، وإن كان لا يختار إلا ما قسم له ، وأما بقية الأمم فيدخلون بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فينزلون فيما فضل عنهم ، وفي الكرخي الجنة نوعان : الجنات الجسمانية ، وهي لا تحتمل المشاركة ، والجنات الروحانية ، وحصولها لواحد لا يمنع من حصولها لآخرين ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ في الدنيا أي الجنة وهذا من تمام قول أهل الجنة ، وقيل هو من قول الله سبحانه .

﴿ وترى ﴾ يا محمد ﴿ الملائكة حافين ﴾ أي محيطين ومحدقين قائمين بجميع ما عليهم من الحقوق ﴿ من حول العرش ﴾ أي جوانبه التي يمكن الحفوف بها فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتمجيد والتقديس ، وإدخال

﴿ من ﴾ يفهم أنهم مع كثرتهم إلى حد لا يحصيه إلا الله لا يملأون حوله ، وهذا أولى من قول البيضاوي : إن (من) مزيدة ، وبه قال الأخفش : أو للابتداء أي ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله .

والمعنى أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم ، والحافين جمع حاف قاله الأخفش ، وهو المحدق بالشيء من حففت بالشيء إذا أحطت به ، وهو مأخوذ من الحفاف وهو الجانب ، وقال الفراء وتبعه الزمخشري لا واحد له من لفظه إذ لا يقع لهم هذا الاسم الا مجتمعين .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي حال كونهم مسبحين لله متلبسين بحمده أي يقولون سبحان الله وبحمده وقيل معنى يسبحون يصلون حول العرش شكراً لربهم ، وهذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد ، لأن التكليف يزول في ذلك اليوم وذلك يشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التسبيح ، وأفهم أن منتهى درجات العليين ولذاتهم الاستغراق في صفاته تعالى ، اللهم أرزقنا .

﴿ وقضي بينهم ﴾ أي بين جميع العباد والخلائق ﴿ بالحق ﴾ أي بالعدل بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار ، وقيل بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء ، وبين أممهم ، وقيل بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم والأول أولى .

﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ القائلون هم المؤمنون ، حمدوا الله على قضائه بينهم وبين أهل النار بالحق كما قال : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ ، وقيل القائلون هم الملائكة حمدوا الله تعالى على عدله في الحكم وقضائه بين عباده بالحق ، وبدأ سبحانه هذه الآية بالحمد ، وختمها بالحمد ، للتنبيه على تحميده في بداية كل أمر ونهايته ، والحمد الأول على صدق الوعد وإيراث الجنة ، وهذا على القضاء بالحق ، فلا تكرار فيه ، وروي من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر آخر الزمر فتحرك المنبر مرتين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة غافر

وهي سورة المؤمن وتسمى سورة الطول
وهي خمس وثمانون آية

وقيل اثنتان وثمانون آية قاله القرطبي . وهي مكيّة في قول عطاء وجابر وعكرمة . قال الحسن الا قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ لان الصلوات نزلت بالمدينة وقال ابن عباس وقتادة الا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿ ان الذين يجادلون في آيات الله ﴾ والتي بعدها . وكذا نص عليه السيوطي في الاتقان . وفي لب الاصول في أسباب النزول . قال ابن عباس أنزلت حم المؤمن بمكة . وعن سمرة بن جندب قال نزلت الحواميم جميعاً بمكة .

وأخرج محمد بن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله أعطاني السبع الحواميم مكان التوراة . واعطاني الرآت الى الطواسين مكان الانجيل . وأعطاني ما بين الطواسين الى الحواميم مكان الزبور . وفضلني بالحواميم والمفصل . ما قرأهن نبي قبلي . وقال ابن عباس ان لكل شيء لبابا . وان لباب القرآن حم » . وقال ابن مسعود الحواميم ديباج القرآن . وعنه قال : « اذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن »[1] .

وعن سعد بن ابراهيم الحواميم تسمى العرائس . رواه الدارمي في مسنده . وقال الجوهري آل حم سور في القرآن . فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب . وبه قال الحريري في درة الغواص وقال أبو عبيدة الحواميم على غير قياس . والاولى أن تجمع بذوات حم انتهى . فتلخص من مجموع هذه الاخبار أن هذه السور السبع تسمى الحواميم . وتسمى ال حم . وتسمى ذوات حم فلها جموع ثلاثة خلافا لمن أنكر الاول منها .

وأخرج البيهقي في الشعب عن خليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحواميم سبع وأبواب النار سبع يجيء كل حم منا يقف على باب من هذه الابواب . يقول اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني .

---

(١) السيوطي في الدر ٥/٣٤٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حٓم ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعاً [١]، وقرىء بإمالته إمالة محضة ، وبإمالته بين بين وقرأ الجمهور بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة وقرأ الزهري بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ والخبر ما بعده وقرأ عيسى بن عمر الثقفي بفتحها ، وهي تحتمل وجهين أحدهما أنها منصوبة بفعل مقدر ، أي اقرأ حٓم ، وانما منعت من الصرف للعلمية والتأنيث ، أو للعلمية وشبه العجمة وذلك انه ليس في الأوزان العربية وزن فاعيل بخلاف الأعجمية ، نحو قابيل وهابيل والثاني أنها حركة بناء تخفيفاً كأين وكيف ، وقرأ ابن أبي إسحق وأبو السماك بكسرها لالتقاء الساكنين . أو بتقدير القسم وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم ، وقرأ ابو جعفر بقطعها .

وقد اختلف في معناه فقيل : هو اسم من اسماء الله قاله أبو أمامة ، وقيل اسم من أسماء القرآن قاله قتادة ، وقال الضحاك والكسائي : معناه قضى ، وجعلاه بمعنى حٓم أي وقع وقضى ، وقيل : مفاتيح خزائنه ، وقيل : اسم الله الأعظم ، وقيل بدء أسماء الله تعالى كحميد وحليم وحكيم وحنان ، وكمالك ومجيد ومنان ومتكبر ومصور ومؤمن ومهيمن ، وقيل معناه حٓم أمر الله أي قرب نصره لأوليائه ، وانتقامه من أعدائه ؛ وهذا كله تكلف لا موجب له ؛ وتعسف لا ملجىء اليه ، والحق ان هذه الفاتحة لهذه السورة وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه ، كما قدمنا تحقيقه في فاتحة سورة البقرة .

(١) الحاء من حروف (حس طهر) وكلها تمد مداً طبيعياً .

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه ، وأبو داود وغيرهم ، عن المهلب ابن أبي صفرة قال : حدثني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليلة الخندق « إن أتيتم الليلة فقولوا حم لا ينصرون » ، وعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم تلقون عدوكم فليكن شعاركم حم لا ينصرون » أخرجه النسائي والحاكم وابن أبي شيبة .

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ هو خبر لِحم على تقدير انه مبتدأ أو خبر لمبتدأ مضمر أي هذا تنزيل أو هو مبتدأ وخبره ﴿ من الله ﴾ قال الرازي : المراد بالتنزيل المنزل ، والمعنى أن القرآن منزل من عند الله ليس بكذب عليه ﴿ العزيز ﴾ المنيع بسلطانه الغالب ، القاهر في ملكه ﴿العليم ﴾ الكثير العلم بخلقه ، وما يقولونه ويفعلونه ، فهو تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين .

﴿ غافر الذنب ﴾ أي ذنب المؤمنين ، وعن ابن عمر قال : ساتر الذنب لمن يقول : لا إله إلا الله ﴿ وقابل التوب ﴾ أي توبة الراجعين أو عمن يقول : لا إله إلا الله . والتوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع مصادر ، وقال الأخفش : التوب جمع توبة ، كدوم ودومة ، وإدخال الواو في هذا الوصف لإفادة الجمع للمذنب التائب بين قبول توبته ومحو حوبته قاله العمادي او لتغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد قاله البيضاوي .

﴿ شديد العقاب ﴾ أي مشدودة لمن لا يقول : لا إله إلا الله ، أو على المخالفين والكافرين ، وقيل : قابل التوب لأوليائه ، وشديد العقاب لأعدائه وقيل قابل التوب من الشرك وشديد العقاب لمن لا يوحده ﴿ ذي الطول ﴾ أي ذي الفضل على العارفين ، أو الغني عن كل العالمين وأصل الطول الانعام والتفضل أي ذي الانعام على عباده والتفضل عليهم ، وقال مجاهد وابن عباس : ذي الغنى والسعة ، ومنه قوله :

﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً ﴾ أي غنى وسعة ، وقال عكرمة : ذي المن قال الجوهري والطول بالفتح لمن يقال : منه طال عليه ويطول عليه اذا امتن عليه . وقال محمد بن كعب : ذي التفضل قال الماوردي والفرق بين المن والتفضل أن المن عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحق ، والله سبحانه موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات ، فإضافة المشتق منها للتعريف كالأخيرة ، وقال السمين : فيها ثلاثة أوجه أحدها أنها كلها صفات للجلالة ، الثاني أن الكل أبدال ، لأن اضافتها غير محضة الثالث أن غافر وقابل نعتان ، وشديد العقاب بدل انتهى .

ثم ذكر ما يدل على توحيده ، وأنه الحقيق بالعبادة فقال :

﴿ لا إلَـه إلا هو ﴾ استئناف أو حال لازمة ، وقال ابو البقاء : صفة قال ابن عادل : وهذا على ظاهره فاسد ، لأن الجملة لا تكون صفة للمعارف ، ويمكن ان يريد أنه صفة لشديد العقاب لأنه لم يتعرف عنده بالاضافة ﴿ إليه ﴾ لا إلى غير ﴿ المصير ﴾ أي مصير من يقول لا إلَـه إلا الله فيدخل الجنة ومصير من لا يقول لا إلَـه إلا الله فيدخل النار ، وذلك في اليوم الآخر ، قال الكرخي حال من الجملة قبله .

أخرج أبوعبيدة وابن سعد ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم المؤمن إلى : إليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح »(١)

ثم لما ذكر الله سبحانه أن القرآن كتاب الله أنزله ليهتدى به في الدين . ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله فقال :

---

(١) ضعيف الجامع الصغير ٥٧٨١/ مشكاة المصابيح ٢١٤٤ .

مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها بالطعن فيها إلا الكفار ، والمراد الجدال بالباطل ، القصد إلى دحض الحق ، كما في قوله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأما الجدال لاستيضاح الحق وإيضاح الملتبس ، وحل المشكل وتكذيبها ، وكشف المعضل ، واستنباط المعاني ، ورد أهل الزيغ بها ، ورفع اللبس ، والبحث عن الراجح والمرجوح ، وعن المحكم والمتشابه ، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن ، وردهم بالجدال الى المحكم ، فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون ، وأفضل ما يجاهد في سبيله المجاهدون ، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ وقال : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ وقال . ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ .

فتلخص أن الجدال نوعان ، جدال في تقرير الحق ؛ وجدال في تقرير الباطل ؛ أما الأول فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام ، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم نوح ﴿ يا نوح قد جادلتنا ﴾ وأما الثاني فهو مذموم ، وهو المراد بهذه الآية ، فجدالهم في آيات الله هو قولهم مرة هذا سحر ، ومرة شعر ، ومرة هو قول الكهنة ، ومرة ﴿ أساطير الأولين ﴾ ومرة ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ وأشباه هذا قاله الكرخي . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود عن أبي

هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جدالاً في القرآن كفر » ، وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المراء في القرآن كفر »[١] ، أخرجه أبو داود وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج يعرف في وجهه الغضب فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب »[٢] ، أخرجه مسلم ، قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن هذه الآية ، وقوله ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ .

ولما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية فقال :

﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ أي فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافقة في البلاد ، كالشام واليمن ، وما يحصلونه من المكاسب والأرباح ، وما يجمعونه من الأموال سالمين غانمين ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وإن أمهلوا لا يهملون ، قال الزجاج : لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك وهذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم ، والفاء لترتيب النهي ، أو وجوب الانتهاء على ما قبلها ، من التسجيل عليهم بالكفر ، الذي لا شيء أمقت منه عند الله ، ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة قرأ الجمهور : لا يغررك بفك الادغام وقرىء بالادغام ، وهو جواب لشرط مقدر ، أي اذا تقرر عندك أن المجادلين في آيات الله كفار فلا يغررك الخ ، ثم بين حال من كان قبلهم ، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك في التكذيب فقال :

﴿ كذبت قبلهم ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿ قوم نوح والأحزاب من

---

(١) صحيح الجامع ٦٥٦٣ ـ المشكاة/ ٢٣٦ .

(٢) صحيح الجامع ٢٣٧٠ .

بعدهم ﴾ أي وكذبت الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح ، كعاد وثمود وغيرهما ﴿ وهمت كل أمة ﴾ من تلك الأمم المكذبة ﴿ برسولهم ﴾ الذي أرسل إليهم ﴿ ليأخذوه ﴾ أي ليتمكنوا منه فيحبسوه ويعذبوه ، ويصيبوا منه ما أرادوا . وقال قتادة والسدي ليقتلوه ، والأخذ قد يرد بمعنى الاهلاك كقوله : ﴿ فأخذتهم فكيف كان نكير ﴾ والعرب تسمي الأسير الأخيذ والأخذ بمعنى الأسر .

﴿ وجادلوا ﴾ أي خاصموا رسولهم ﴿ بالباطل ﴾ من القول ﴿ ليدحضوا ﴾ أي ليزيلوا ﴿ به الحق ﴾ ومنه مكان دحض أي مزلقة ، ومزلة أقدام ، والباطل داحض لأنه يزلق ويزول فلا يستقر ، قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان ﴿ فأخذتهم ﴾ أي فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ الذي عاقبتهم به وحذف ياء المتكلم اجتزاء بالكسرة عنها وصلاً ووقفاً لأنها رأس آية .

﴿ وكذلك حقت كلمة ربك ﴾ أي وجبت وثبتت ولزمت ، يقال : حق الشيء اذا لزم وثبت ، والمعنى وكما حقت على الأمم المكذبة لرسلهم كلمة العذاب حقت كلمة ربك أي وعيده ﴿ على الذين كفروا ﴾ بك ، وجادلوك بالباطل ، وتحزبوا عليك ، وهموا بما لم ينالوا ، كما ينبىء عنه إضافة اسم الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فإن ذلك للاشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من إحكام تربيته التي من جملتها نصرته على أعدائه وتعذيبهم ، قاله ابو السعود ، وقرأ الجمهور كلمة بالتوحيد ، وقرىء كلمات بالجمع وجملة

﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ للتعليل أي لأجل أنهم مستحقون للنار ، قال الأخفش : أي لأنهم ، أو بأنهم وقال المحلي بدل من كلمة أي بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى ثم ذكر أحوال حملة العرش ومن حوله فقال :

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ
وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ
ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ
ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ
٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ
إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠﴾

﴿ الـذين يحملون العرش ومن حـوله ﴾ المـوصول مبتدأ وخبره قـولـه : ﴿ يسبحـون بحمـد ربهم ويؤمنـون بـه ، ويستغفـرون للذين آمنـوا ﴾ والجملة مستأنفـة مسـوقـة لتسلية رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، ببيـان أن هـذا الجنس من المـلائكة الـذين هم أعلى طبقاتهم ، وأولهم وجـوداً يضمـون إلى تسبيحهم لله ، والإيمـان به الاستغفـار للذين آمنـوا بـالله ورسـولـه وصـدقـوا . وفيـه دليـل على أن الاشتـراك في الإيمان يجب أن يكـون أدعى شيء الى النصيحـة والشفقة ، وإن تبـاعدت الأجنـاس وشـطت الأمـاكن ، والمـراد بمن حـول العـرش هم المـلائكـة الـذين يـطوفـون بـه مهللين مكبـرين ، وهم الكروبيون ، وهـو في محل رفـع عطفـاً على الذين الـخ وهذا هـو الـظاهـر ، وقيل : يجوز أن يكون في محل نصب عطفاً على العرش والأول أولى .

والمعنى ان المـلائكة الـذين يحملون العرش وكـذلك المـلائكـة الـذين هم حـول العـرش ينـزهـون الله متلبسين بحمـده على نعمـه ، ويؤمنـــون بـالله ببصـائـرهم ، ويستغفـرون الله لعبـاده المؤمنين بـــه ، وأخبـر عنهم بـــالإيمـان

اظهاراً لفضله ، وتعظيماً لأهله ، ومساق الآية لذلك وهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أردفهم الله تعالى بأربعة أخر ، كما قال تعالى :

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وهم أشرف الملائكة وأفضلهم ، لقربهم من الله عز وجل ، « وهم على صورة الأوعال ، والعرش فوق ظهورهم » ، ذكره القشيري وأخرجه الترمذي من حديث ابن عباس ، واستفيد منه أن حمل الملائكة للعرش على ظهورها .

وقد وردت في بيان مسافة أظلافهم الى ركبهم وأرجلهم وأقدامهم وما بين شحمة أذنهم إلى عاتقهم وألفاظ تسبيحهم أخبار وآثار ، وكذا في صفة العرش وبعد ما بين السماء السابعة وبين العرش ، والمعول عليه منها ما ورد في الصحيح ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال حاكياً عنهم .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي وسع رحمتك كل شيء ، وعلمك كل شيء ، وتقديم الرحمة على العلم لأنها المقصودة بالذات ههنا ، قاله البيضاوي وأبو السعود ، لأن المقام مقام الاستغفار ، وإلا فالعلم متقدم ذاتاً ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ أي أوقعوا التوبة عن الذنوب ، أو عن الشرك وإن كان عليهم ذنوب .

﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ وهو دين الاسلام ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي احفظهم منه واجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة ، وتتم نعمتك فإنك وعدت من كان كذلك بذلك ، ولا يبدل القول لديك ، وإن كان يجوز ان تفعل ما تشاء ، وأن الخلق عبيدك .

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن ﴾ أي إقامة ، معطوف على قوله قهم ووسط الجملة الندائية لقصد المبالغة بالتكرير ، ووصف جنات عدن بأنها هي ﴿ التي وعدتهم ﴾ إياها ﴿ و ﴾ أدخل ﴿ من صلح من آبائهم

وأزواجهم وذرياتهم ﴾ المراد بالصلاح هنا الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله ، فمن فعل ذلك فقد صلح لدخول الجنة ، ويجوز عطف ومن صلح على الضمير في وعدتهم ، أي ووعدت من صلح والأولى عطفه على الضمير الأول في وأدخلهم ، لأن الدعاء لهم بالادخال عليه صريح وعلى الثاني ضمني .

والمعنى ساو بينهم ليتم سرورهم ، قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح ، وذرياتهم على الجمع ، وقرأ ابن أبي عبلة بضم اللام ، وقرأ عيسى بن عمر على الافراد ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي الغالب القاهر الكثير الحكمة الباهرة .

﴿ وقهم السيئآت﴾ يقال : وقاه يقيه وقاية أي حفظه والمعنى احفظهم عن العقوبات أو جزاء السيئآت على تقدير مضاف محذوف ، قال قتادة : وقهم ما يسوؤهم من العذاب ، وهذا دعاء يتناول عذاب الجحيم ، وعذاب موقف القيامة ، والحساب والسؤال ، وقوله﴿ وقهم عذاب الجحيم﴾ مقصور على إزالة عذاب النار فيكون تعميماً بعد تخصيص ، او الأول دعاء للأصول ، والثاني للفروع ، والضمير راجع للمعطوف وهو الآباء والأزواج والذرية ، أفاده أبو السعود .

﴿ ومن تق السيئآت يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ، والتنوين عوض عن جملة غير موجودة في الكلام ، بل متصيدة من السياق ، وتقديرها يوم إذ تدخل من تشاء الجنة ومن تشاء النار ، والمسببة عن السيئآت ، وهو يوم القيامة ، وقيل : التقدير يوم إذ تؤاخذ بها ، وجواب من ﴿ فقد رحمته ﴾ من عذابك وأدخلته جنتك ﴿ وذلك ﴾ أي ما تقدم من إدخالهم الجنات ، ووقايتهم السيئآت .

﴿ هو الفوز العظيم ﴾ أي الظفر الذي لا ظفر مثله ، والنجاة التي لا

تساويها نجاة ، حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيماً لا ينقطع ، وبأفعال حقيرة ملكاً لا تصل العقول الى كنه جلالته . قال مطرف أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق لهم هم الشياطين .

ثم لما ذكر سبحانه أصحاب النار وأنهم حقت عليهم كلمة العذاب ، ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال :

﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ قال الواحدي . قال المفسرون إنهم لما رأوا أعمالهم ونظروا في كتابهم ، وأدخلوا النار ، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ، ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد : ﴿ لمقت الله ﴾ إياكم في الدنيا ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ اليوم ، أو من مقت بعضكم بعضاً اليوم قال الأخفش : هذه اللام هي لام الابتداء وقعت بعد ينادون ، لأن معناه يقال لهم ، والنداء قول ، قال الكلبي : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفسي ، فتقول الملائكة لهم وهم في النار : لمقت الله إياكم إذ أنتم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم . وقال الحسن يعطون كتابهم فإذا نظروا الى سيئآتهم مقتوا أنفسهم فينادون لمقت الله إياكم في الدنيا،

﴿ إذ تدعون الى الايمان ﴾ فتكفرون أكبر من مقتكم اذ عاينتم النار والظرف منصوب بمقدر محذوف دل عليه المذكور ، أي مقته تعالى إياكم وقت دعائكم ، وقيل هو اذكروا ، وقيل بالمقت المذكور أولاً ، والمقت أشد البغض ، والمراد به هنا لازمه وهو الغضب عليهم ، وتعذيبهم ، قاله أبو السعود وقال الكرخي المراد منه هنا أشد الانكار والزجر ﴿ فتكفرون ﴾ أي فتصرون على الكفر اتباعاً لأنفكسم الأمارة ، ومسارعة الى هواها ، واقتداء بأخلائكم المضلين ، وتقليداً لأسلافكم المتقدمين ، واستحباباً لآرائهم . ثم أخبر سبحانه عما يقولونه في النار فقال :

قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ نعتان لمصدر محذوف ، أي امتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، والمراد بالاماتتين أنهم كانوا نطفاً لا حياة لها في أصلاب آبائهم ، ثم أماتهم بعد أن صاروا احياء في الدنيا والمراد بالاحياءتين أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا ، ثم أحياهم عند البعث ، ومثل هذه الآية قوله :

﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ﴾ قاله ابن مسعود ، أي كانوا أمواتاً في صلب آبائهم ، ثم أخرجهم فأحياهم ، ثم أماتهم ، ثم يحييهم بعد الموت . وقيل : معنى الآية انهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال ، ثم أميتوا ثم أحياهم الله في الآخرة .

ووجه هذا القول أن الموت سلب الحياة ، ولا حياة للنطفة ، ووجه القول الأول أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل ، وقد ذهب الى التفسير الأول جمهور السلف ، وقال ابن زيد : المراد بالآية أنه خلقهم في ظهر آدم واستخرجهم ، وأحياهم ، وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم في الدنيا ، ثم أماتهم .

وقال ابن عباس : قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم

أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون الى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى ، فهما موتتان وحياتان ، كقوله ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ الآية .

ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا فقال حاكياً عنهم : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ التي أسلفناها في الدنيا ، من تكذيب الرسل ، والاشراك بالله ، وترك توحيده ، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم ، والمعنى لما رأوا الاماتة والإحياء قد تكررا عليهم ، علموا أن الله قادر على الإعادة كما هو قادر على الانشاء ، فاعترفوا ، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدمة لقولهم : ﴿ فهل الى خروج ﴾ لنا عن النار ورجوع لنا الى الدنيا لنطيع ربنا .

﴿ من سبيل ﴾ أي من طريق لنتخلص منها أم اليأس واقع دون ذلك ؟ فلا خروج ولا سبيل اليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس ، وإنما يقولون ذلك تحيراً ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، ومثل هذا قولهم الذي حكاه الله عنهم ﴿ فهل الى مرد من سبيل ﴾ وقوله ﴿ فأرجعنا نعمل صالحاً ﴾ وقوله ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ الآية ؟ ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله :

﴿ ذلكم ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلكم ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أي ذلكم العذاب الذي أنتم فيه ﴿ بأنه ﴾ أي بسبب أنه ﴿ إذا دعى الله ﴾ في الدنيا ﴿ وحده ﴾ دون غيره ﴿كفرتم به ﴾ وتركتم توحيده ﴿ وإن يشرك به ﴾ غيره من الأصنام أو غيرها ﴿ تؤمنوا ﴾ بالاشراك وتصدقوا به ، وتجيبوا الداعي اليه فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم الى الخروج من النار ، وهو ما كانوا فيه من إشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء ، وترك توحيد الله .

﴿ فالحكم لله ﴾ وحده دون غيره وهو الذي حكم عليكم بالخلود في

النـار ، وعـدم الخـروج منهـا فتعـذيبـه لكم عـدل نـافـذ ﴿ العلي ﴾ المتعـالي سلطانـه عن أن يكون لـه مماثـل في ذاته وصفـاته فـلا يرد قضـاؤه ﴿ الكبير ﴾ الـذي كبـر عن أن يكـون لـه مثـل أو صـاحبـة أو ولـد أو شــريـك فــلا يحـد جـزاؤه ، وقيل : كـأن الحـرورية أخـذوا قـولهم : لا حكم إلا الله من هـذا . وقــال قتـادة : لمـــا خـرج أهــل حــروراء قــال علي : من هؤلاء ؟ قيــل : المحكمـون أي يقـولـون : لا حكم إلا الله ، فقـال علي كلمـة حق أريـد بهـا الباطل .

﴿ وهـو الذي يـريكم آياتـه ﴾ أي دلائل تـوحيده ، وعـلامات قـدرتـه ، من الـريـح والسحـاب والـرعـد والبـرق ونحــوهـا ﴿ ويـنــزل لكم من السمـاء رزقـاً ﴾ يعني مطراً فـإنه سبب الأرزاق ، جمـع سبحانـه بين إظهـار الآيـات ، وإنـزال الأرزاق لأن بإظهـار الآيات قـوام الأديان ، وبـالأرزاق قـوام الأبـدان ، وهـذه الآيـات هي التكـوينيـة التي جعلهـا الله سبحـانـه في سمـاواتـه وأرضـه ، ومـا فيهما وما بينهما قرأ الجمهـور : ينزل بـالتشديـد ، وقرىء بـالتخفيف ، وصيغة المضارعة في الفعلين للدلالة على تجدد الارادة والتنزيل واستمرارهما .

﴿ ومـا يتذكـر الا من ينيب ﴾ أي ما يتعظ بتلك الآيـات الباهـرة فيستدل بهـا على التوحيـد وصدق الـوعد والـوعيـد إلا من يـرجـع الى طـاعـة الله بمـا يستفيـده من النظر في آيـات الله ويتوب من الشـرك ، ويرجـع اليـه في جميـع أمـوره ، فإن المعـاند لا يتـذكر ولا يتعظ ، ثم لمـا ذكر سبحـانه مـا نصبـه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال :

﴿ فـادعـوا الله مخلصين لـه الـدين ﴾ أي اذا كـان الأمـر كمــا ذكـر من اختصاص التذكيـر بمن ينيب فادعـوا الله وحده مخلصين لـه العبادة التي أمركم بهـا ﴿ ولو كـره الكافـرون ﴾ ذلك فـلا تلتفتوا الى كـراهتهم ، ودعوهم يمـوتوا بغيظهم ، ويهلكوا بحسرتهم .

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ
ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ
ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾

﴿ رفيع الدرجات ﴾ مرفوع على أنه خبر آخر عن المبتدأ المقدم ، أي هو الذي يريكم آياته وهو رفيع الدرجات ، وكذلك ﴿ ذو العرش ﴾ خبر ثالث ويجوز أن يكون رفيع مبتدأ ، وخبره ذو العرش ، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف ورفيع صفة مشبهة ، والمعنى رفيع الصفات عظيمها أو رفيع درجات ملائكته ، أي معارجهم ، أو رفيع درجات أنبيائه وأوليائه في الجنة ، وقال الكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع ، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى رافع ، وقيل : هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته ، المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه ومعنى ذو العرش مالكه وخالقه ، والمتصرف فيه ، خلقه مطافاً للملائكة ، وجعله فوق سمواته وذلك يقتضي علو شأنه وعظم سلطانه ، ومن كان كذلك فهو الذي تحق له العبادة ، ويجب له الإخلاص .

وجملة ﴿ يلقي الروح ﴾ في محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدم أو للمقدر أي ينزل الوحي وسمي الوحي روحاً لأن الناس يحيون به من موت الكفر ، كما تحيا الأبدان بالأرواح ، ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ وقيل الروح جبريل كما في

قوله﴿ نزل بـه الـروح الأمين على قلبك ﴾وقوله ﴿ نزله روح القـدس من ربـك بالحق ﴾،وقولـه ﴿ من أمره ﴾ متعلق بيلقي ، ومن لابتـداء الغـايـة ويجـوز أن يكـون متعلقاً بمحـذوف على أنه حـال من الـروح أو المعنى من أجـل أمـره ، أو بأمره أو من قضائه .

﴿ على من يشـاء من عباده ﴾ وهم الأنبيـاء ﴿ لينـذر يـوم التـلاق ﴾ قـرأ الجمهـور مبنياً للفـاعل ونصب اليـوم والفاعـل هو الله سبحـانـه او الـرسـول أو من يشـاء والمنذر بـه محذوف أي لينـذر العذاب يـوم التـلاق ، وقـرىء لتنـذر بـالفوقيـة على أن الفاعـل ضمير المخـاطب وهو الـرسـول ، أو ضميـر يـرجـع الى الروح لأنه يجـوز تأنيثهـا ، وقرىء على البنـاء للمفعول ، ورفـع يوم على النيـابة ، والتـلاق بحذف اليـاء وإثبـاتهـا وقفـاً ووصـلاً ، وتـوجيـه ذلـك ذكـره الفاسي في شرح الشاطبية فليراجع .

والمعنى يـوم يلتقي أهـل السمـوات والأرض في المحشـر ، وبـه قـال قتـادة ، وقال أبـو العاليـة ومقاتـل : يوم يلتقي العـابـدون والمعبـدون ، وقيـل الـظالم والمظلوم ، وقيـل يلتقي الخلق والخالق ، وقيـل الأولون والآخـرون ، وقيل جزاء الأعمال والعاملون .

قـال ابن عبـاس : يوم التـلاق يوم القيـامة يلتقي فيـه آدم وآخـر ولـده ، وعنه قال : هـو يوم الآزفـة ونحو هـذا من أسماء يـوم القيامـة عظمـه الله وحذر عباده منه .

﴿ يـوم هـم بـارزون ﴾ أي خـارجـون من قبـورهـم لا يستـرهـم شيء من جبـل أو أكمة أو بنـاء ، لكون الأرض يـومئذ قـاعاً صفصفـا ، ولا ثياب عليهم وانمـا هـم عـراة مكشـوفـون ، كمـا في الحـديث : « يحشـرون عـراة حفـاة غـرلاً » ، وهو بـدل من يوم التـلاق ، بدل كـل من كل ، ويـوم ظرف مستقبـل كـإذا مضاف الى الجملة الاسميـة على طريقـة الأخفش ، وحركـة يوم حـركـة إعـراب على المشهور وقيـل حركـة بنـاء كمـا ذهب اليـه الكـوفيـون ، ويكتب

هنا وفي الذاريات في قوله تعالى « يوم هم على النار يفتنون » منفصلاً وهو الأصل أفاده السمين ، ونحوه في شرح الجزرية لشيخ الإسلام ، لأن (هم) مرفوع بالابتداء فالمناسب القطع ، وما عداهما نحو « من يومهم الذي يوعدون » ، « حتى يلاقوا يومهم » ، موصول لأن هم فيهما ضمير مبني في محل جر ، فالمناسب الوصل .

وجملة : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ مستأنفة مبينة لبروزهم ، أي لا يخفى عليه سبحانه شيء من ذواتهم وأحوالهم وأعمالهم التي عملوها في الدنيا أو حال من ضمير بارزون ، أو خبر ثان للمبتدأ وقوله ﴿ لمن ﴾ خبر مقدم ، وقوله : ﴿ الملك اليوم ﴾ مبتدأ مؤخر ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فماذا يقال عند بروز الخلائق في ذلك اليوم ؟ فقيل يقال لمن الملك اليوم .

قال المفسرون إذا هلك كل من في السموات والأرض ، فيقول الرب تبارك وتعالى هذا القول ، فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ خبر مبتدأ محذوف قال الحسن : هو السائل وهو المجيب ، حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه . وقيل : إنه سبحانه يأمر منادياً بذلك فيقول أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

قال النحاس : وهذا أصح ما قيل فيه وقيل : الأول ظاهر جداً ، وقيل إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار إفاده الزمخشري . وقيل : هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين ، كما في قوله : ﴿ وما ادراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وقال القرطبي : وذلك عند فناء الخلق ، وقيل : بقوله تعالى بين النفختين ، ويجيب نفسه بعد أربعين سنة .

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ هذا من تمام الجواب على

القول بأن المجيب هو الله سبحانه ، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم ، أو بعضهم ، فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم ، أي اليوم تجزى كل نفس بما عملت في الدنيا من خير وشر ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ على أحد منهم بنقص من ثوابه ، أو بزيادة في عقابه .

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي سريع حسابه ، لأنه سبحانه لا يحتاج الى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء ﴿ فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ قيل : يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لأنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب ، يحاسب الخلق في وقت واحد ، الحديث ورد بذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : « يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء ، كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد : لمن الملك اليوم الى قوله . «الحساب» أخرجه عبد بن حميد ، قال : ما يبدأ به من الخصومات الدماء ، وقال ابن عباس ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات وينزل الله الى السماء الدنيا فيقول : لمن الملك اليوم لله الواحد القهار الآية .

وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث والديلمي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ثم أمر الله سبحانه رسول بإنذار عباده فقال :

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ أي يوم القيامة ، سميت بذلك لقربها ، يقال : أزف فلان أو الرحيل أي قرب ، يأزف أزفاً من باب تعب ، وأزوفاً دنا وقرب ، ومنه قوله تعالى ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي قربت الساعة ودنت القيامة ، وقيل : إن يوم الآزفة هو يوم حضور الموت ، والأول أولى . قال

الزجاج : وقيل لها آزفة لأنها قريبة ، وان استبعد الناس أمرها ، وما هو كائن فهو قريب .

﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها ، وترتفع عن أماكنها من الخوف ، حتى تصير الى الحنجرة وتلصق بحلوقهم ، فلا تعود فيستريحوا بالنفس ولا تخرج فيستريحوا بالموت كقوله ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ وهي جمع حنجور كحلقوم وزناً ومعنى ، أو جمع حنجرة وهي الحلقوم و ﴿ كاظمين ﴾ بمعنى مغمومين مكروبين ممتلئين غماً ، قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم ، قال قتادة وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها .

وقيل : هو إخبار عن نهاية الجزع ، وإنما قال : كاظمين باعتبار أهل القلوب ، لأن المعنى اذ قلوب الناس لدى حناجرهم ، فيكون حالاً منهم . وقيل : حالاً من القلوب ، وجمع الحال منها جمع العقلاء ، لأنه اسند إليها ما يسند الى العقلاء ، فجمعت جمعه .

ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد فقال :

﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ أي قريب ومحب ينفعهم وحميمك قريبك الذي تهتم لأمره ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ في شفاعته لهم ، قال الكرخي : حقيقة الإطاعة لا تتأتى هنا لأن المطاع يكون فوق المطيع رتبة ، فمقتضاه أن الشافع يكون فوق المشفوع عنده ، وهذا محال هنا لأن الله تعالى لا شيء فوقه ، فحينئذ هو مجاز ، ومعناه ولا شفيع يشفع ، أي يؤذن له في الشفاعة ، أو تقبل شفاعته . وقال المحلي : لا مفهوم للوصف اذ لا شفيع لهم أصلاً ، أي لا مطاع ولا غيره ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال :

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٢٠ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢٢﴾

﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهي مسارقة النظر الى ما لا يحل له النظر إليه ، والخائنة مصدر كالعافية والكاذبة ، أي يعلم خيانة الأعين ، والجملة خبر آخر لقوله : هو الذي يريكم ، أو خبر رابع عن المبتدأ الذي أخبر برفيع وما بعده عنه ، والأول هو الظاهر ، وقيل غير ذلك ، قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير اي يعلم الأعين الخائنة . وقيل : الاضافة على معنى من ، أي : الخائنة من الأعين ، قال قتادة : خائنة الأعين الهمز بالعين فيما لا يحب الله ، وقال الضحاك : هو قول الإنسان : ما رأيت ، وقد رأى ، ورأيت ، وما رأى . وقال السدي : إنه الرمز بالعين ، وقال سفيان : هي النظرة بعد النظرة ، وبه قال الفراء والأول أولى ، وبه قال مجاهد قال ابن عباس في الآية : « الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، واذا غضوا نظر إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم .

وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال : « إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ؟ وما تخفي

الصدور ، قال : إذا قدر عليها أيزني لها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتي تليها ؟ والله يقضي بالحق ، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلا اربعة نفر وامرأتين وقال : اقتلوهم ، وان وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فاختبأ عند عثمان بن عفان ، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى البيعة جاء به فقال : « يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى بيعته ثم بايعه ، ثم أقبل على أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ، فقالوا ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ؟ هلا أومأت الينا بعينك فقال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين »

﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي القلوب من الضمائر ، وتستره وتكنه ، وتضمره عن معاصي الله أو من أمانة وخيانة أو النظرة الأولى ، أو هل يزني بها لو خلا بها أو لا ؟ ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر .

﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي يعبدونهم من دون الله ، قرأ الجمهور بالتحتية يعني الظالمين ، وقرىء بالفوقية على الخطاب لهم ، وهما سبعيتان ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يقدرون على شيء . فكيف يكونون شركاء لله ، وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة كالجماد لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي .

﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية ؛ تقرير لقوله . ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ولقضائه بالحق ، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه . وتعريض بما يدعون من دونه وأنها لا تسمع

ولا تبصر .

ولما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال :

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ لأن العاقل من اعتبر بحال غيره ، أي اغفلوا ولم يسيروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم ، كعاد وثمود وأضرابهم ، أو العاقبة بمعنى الصفة أو بمعنى المآل أرشدهم الله سبحانه الى الاعتبار بغيرهم ، فإن الذين مضوا من الكفار ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ أي من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وهذا بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك ، وفي قراءة منكم أي التفاتاً من الغيبة الى الخطاب ، وقع ضمير الفصل هنا بين معرفة ونكرة ، مع أنه لا يقع إلا بين معرفتين لكون النكرة هنا مشابهة للمعرفة من حيث امتناع دخول أل عليها ، لأن افعل التفضيل المقرون بمن لا تدخل عليه أل .

﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ بما عمروا فيها من الحصون المتينة ، والمصانع الحصينة ، والقصور المشيدة وبما لهم من العدد والعدة ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي عاقبهم ، وأهلكهم بسبب ذنوبهم ، وتكذيبهم رسلهم ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي دافع يدفع عنهم العذاب ويقيهم ، وقد مر تفسير هذه الآية في مواضع .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من الأخذ ﴿ بأنهم ﴾ اي بسبب أنهم ﴿ كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج الواضحة والمعجزات الظاهرة ﴿ فكفروا ﴾ بماجاؤوهم به ﴿ فأخذهم الله إنه قوي ﴾ يفعل كل ما يريده لا يعجزه شيء ﴿شديد العقاب ﴾ لمن عصاه ولم يرجع إليه ، ثم ذكر سبحانه قصة موسى ليعتبروا فقال :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ
وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ أي متلبساً بها وهي التسع التي تقدم ذكرها في غير موضع ﴿ وسلطان مبين ﴾ أي حجة بينة واضحة وهي التوراة ، وقيل المراد به إما الآيات نفسها والعطف لتغاير العنوانين ، وإما بعضها أي المشهورة منها كاليد والعصا . وأفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات اعتناء بها .

﴿ إلى فرعون وهامان وقارون ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم لأنهم رؤساء المكذبين بموسى ، ففرعون الملك وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ فيما جاءهم به ، والقائل فرعون وقومه ، وأما قارون فلم يقل ذلك ففي الكلام تغليب ، وكذا يقال في قوله قالوا اقتلوا ، وقال الخطيب كان هذا قول قارون وان لم يقل بالفعل . فإنه طبع على الكفر ففعله آخراً .

﴿ فلما جاءهم ﴾ موسى ﴿ بالحق من عندنا ﴾ وهي معجزاته الظاهرة

الواضحة ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾ قال قتادة هذا قتل غير القتل الأول لأن فرعون قد كان أمسك وكف عن قتل الولدان وقت ولادة موسى فلما بعث الله موسى وأحس بأنه قد وقع ما وقع ، أعاد القتل على بني اسرائيل غيظاً وحنقاً فكان يأمر بقتل الذكور وترك الإناث ، ومثل هذا قول فرعون .

﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ والمعنى أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه أولاً ، زعماً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ، ظناً منهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان الى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى .

﴿ واستحيوا ﴾ أي استبقوا ﴿ نساءهم ﴾ للخدمة ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي في خسران وضياع ووبال ، لأنه يذهب باطلاً ولا يغني عنهم شيئاً ، ويحيق بهم ما يريده الله عز وجل وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا ، بل ينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور ، والقضاء المحتم واللام إما للعهد والإظهار في موضع الاضمار لذمهم بالكفر والاشعار بعلة الحكم ، أو للجنس وهم داخلون فيه دخولاً اولياً ، والجملة اعتراض جيء بها في تضاعيف ما حكي عنهم من الأباطيل ، للمسارعة الى بيان بطلان ما أظهروه ، واضمحلالاً بالمرة .

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى ﴾ أي اتركوني أن أقتله ، والظاهر من حال اللعين أنه قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به حق ، ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك ، وإنما قال ذلك تمويهاً وإيهاماً

أنهم هم المانعون له من قتله ، ولولاهم لقتله ، مع أنه ما منعه إلا ما في نفسه من الفزع الهائل .

وقوله ﴿ وليدع ربه ﴾ تجلد منه ، وإظهار لعدم المبالاة ولكنه أخوف الناس منه ، وفي منعه من قتله وجوه ذكرها الخطيب ، أي ليدع الذي يزعم أنه أرسله إلينا ، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك ، أي لا يهولنكم ذلك فإنه لا رب له حقيقة ، بل أنا ربكم الأعلى ، ثم ذكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله فقال :

﴿ إني أخاف ﴾ إن لم أقتله ﴿ أن يبدل دينكم ﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ أي يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، جعل اللعين ظهور ما دعا اليه موسى وانتشاره في الأرض واهتداء الناس اليه فساد ، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه ، والمعنى أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين أو وقوع الأمرين جميعاً .

﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ لما هدده فرعون بالقتل لم يأت في دفع شدة اللعين إلا بأن استعاذ بالله عز وجل من كل متعظم عن الإيمان بالله ، غير مؤمن بالبعث والنشور ، واعتمد عليه فلا جرم صانه الله من كل بلية ويدخل فرعون في هذا العموم دخولاً أولياً ، ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة ، والاشعار بعلة القساوة والجرأة على الله تعالى .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ قال الحسن ومقاتل والسدي : كان قبطياً وهو ابن عم فرعون ، وهو الذي نجا مع موسى ، وهو المراد بقوله ﴿ وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ﴾ وقيل : كان من بني إسرائيل ولم يكن من آل فرعون وهو خلاف ما في الآية وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديماً وتأخيراً ، والتقدير وقال رجل من بني اسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون ، قال القشيري : ومن جعله اسرائيلياً ففيه بعد لأنه يقال : كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه كما قال سبحانه :

﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول وقد اختلف في اسم هذا الرجل فقيل : حبيب ، وقيل : شمعون ، وهو الأصح كما في مبهمات القرآن وقيل : حزقيل وبه قال ابن عباس وأكثر العلماء ، وقال وهب كان اسمه جبريل ، وقيل غير ذلك قال ابن عباس : لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون ، وغير المؤمن الذي أنذر موسى ، الذي قال : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ قال ابن المنذر : أخبرت أنه حزقيل ، وعن أبي

إسحق قال : اسمه حبيب ، قرأ الجمهور رجل بضم الجيم وقرىء بسكونها وهي لغة تميم ونجد ، والأولى هي الفصيحة ، وقرىء بكسر الجيم .

﴿ أتقتلون رجلاً ﴾ الاستفهام للإنكار ﴿ أن يقول ﴾ أي لأن يقول او كراهة ان يقول ، وقال الزمخشري : أي وقت أن يقول ، ورد ذلك لنص النحاة على خلافه ، وقال الامام تاج الدين ابن مكتوم : أجاز ابن جني ذلك والأول أولى ﴿ ربي الله ﴾ وهو ربكم أيضاً لا ربه وحده ، وهو إشارة الى التوحيد ، وهذا إنكار منه عظيم ، كأنه قيل : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة من غير روية وتأمل في أمره واطلاع على سبب يوجب قتله ؟ ومالكم علة في ارتكابه إلا كلمة الحق وهو قوله ربي الله .

﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي والحال أن قد جاءكم بالمعجزات الواضحات . والدلالات الظاهرات على نبوته ، وصحة رسالته ، والمعنى أنه لم يحضر لتصحيح قوله ببينة واحدة ولكن ببينات من عند من نسبت اليه الربوبية، وهو استدراج لهم الى الاعتراف به .

أخرج البخاري وغيره من طريق عروة قال : قيل لعبد الله بن عمرو ابن العاص « أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ ﴾

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي ابن أبي طالب أنه قال : يا أيها الناس أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت ، قال : أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبروني عن أشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فمن؟قال : أبو بكر ، رأيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأخذته قريش فهذا يجنبه وهذا يتلتله وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، يجيء هذا ويتلتل هذا ، وهو يقول ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم دفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير ؟ أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال ألا تجيبون ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن من آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه » .

ثم تلطف الرجل المؤمن لهم في الدفع عن موسى واحتج عليهم بطريق التقسيم فقال .

﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ أي ضرر كذبه ﴿ وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ هذا كلام صادر عن غاية الانصاف ، وعدم التعصب ولذلك قدم من شقي الترديد كونه كاذباً ، وإنما خوفهم به اقتصاراً على ما هو أظهر احتمالاً عندهم ، ولم يكن قوله هذا لشك منه فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله ، ولا يشك المؤمن .

والمعنى إذا لم يصبكم كله فلا أقل من أن يصيبكم بعضه ، لا سيما إن تعرضتم له بسوء . وقال أبو عبيدة وأبو الهيثم . بعض هنا بمعنى كل ، أي يصيبكم كل الذي يعدكم ، والبعض قد يستعمل في لغة العرب بمعنى الكل ، قال النسفي : وتفسير البعض بالكل مزيف انتهى نعم ولا ضرورة تلجىء الى حمل ما في الآية على ذلك لأنه أراد التنزل معهم وإيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوته كما يفيده قوله ﴿ يكتم إيمانه ﴾ .

قال أهل المعاني وهذا على المظاهرة في الحجاج ، كأنه قال لهم : أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وفي بعض ذلك هلاككم ، فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل . وقال الليث : بعض ههنا صلة يريد بصيبكم الذي يعدكم ، وقيل يصيبكم هذا العذاب

الذي يقوله في الدنيا ، وهو بعض ما يتوعدكم به من العذاب . وقيل إنه وعدهم بالثواب والعقاب فإذا كفروا أصابهم العذاب ، وهو بعض ما وعدهم به وحذفت النون من يكن في الموضعين تخفيفاً لكثرة الاستعمال كما قال سيبويه .

﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن ، وهو احتجاج آخر ذو وجهين ، أحدهما أنه لو كان موسى مسرفاً كذاباً لما هداه الله الى البينات ، ولا أيده بالمعجزات ، وثانيهما أنه اذا كان كذلك خذله الله وأهلكه ، فلا حاجة لكم الى قتله ، والمسرف المقيم على المعاصي المستكثر منها ، والكذاب المفتري .

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليشكروا الله ولا يتمادوا في كفرهم ، ومعنى ﴿ ظاهرين ﴾ الظهور على الناس ، والغلبة لهم ، والاستعلاء عليهم ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر .

﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي من يمنعنا من عذابه ويحول بيننا وبينه عند مجيئه ، وفي هذا تحذير منه لهم من نقمة الله بهم ، وإنزال عذابه عليهم ، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض لهم خاصة ، ونظم نفسه في سلكهم فيما يهمهم من مجيء بأس الله تطييباً لقلوبهم ، وإيذاناً بأنه مناصح ساع في تحصيل ما يجديهم ، ودفع ما يرديهم ، ليتأثروا بنصحه ؛ فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكاً يكون فيه جلب النفع لهم ، ودفع الضر عنهم ولهذا :

﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي ، قاله ابن زيد ، وهذا تفسير لمآل المعنى ، والتفسير المطابق

لجوهر اللفظ ما قال الضحاك ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، وهو قتل موسى والرؤية هنا هي القلبية الاعتقادية ، لا البصرية العينية ، فتعدى لمفعولين ثانيهما إلا ما أرى .

﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أي ما أهديكم ولا أدعوكم بهذا الرأي الا إلى طريق الحق والهدى ، قرأ الجمهور بتخفيف الشين ، وقرأ معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه - بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضراب ، قال النحاس : هي لحن ولا وجه لذلك . ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم ، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم فقال الله حاكياً عنه :

﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي مثل يوم عذاب الأمم الماضية الذين تحزبوا على أنبيائهم ، وأفرد اليوم لأن جمع الأحزاب قد أغنى عن جمعه ، والأحزاب لم ينزل بها العذاب في يوم واحد ، بل نزل بها في الدنيا في أيام مختلفة مترتبة ثم فسر الأحزاب فقال :

﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ أي مثل حالهم في العذاب ، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب ، أو مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب .

﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي لا يعذبهم ولا يعاقبهم بغير ذنب ، ولا يترك الظالم منهم بغير انتقام ، أو لا يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب أو لا يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، ونفي الارادة للظلم يستلزم نفي الظلم بفحوى الخطاب وتفسير المعتزلة بأنه لا يريد لهم أن يظلموا بعبد ، لأن أهل اللغة قالوا إذا قال الرجل لآخر لا أريد ظلماً لك ، معناه لا أريد أن أظلمك ثم زاد الرجل المؤمن في الوعظ والتذكير فقال :

وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ
فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ
ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ قرأ الجمهور بتخفيف الدال وحذف الياء ، والأصل التنادي ، وهو التفاعل من النداء ، يقال تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضاً وقرىء باثبات الياء على الأصل وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة بتشديد الدال ، قال بعض أهل اللغة : هو لحن لأنه من ند يند اذا مر على وجهه هارباً ، قال النحاس : وهذا غلط والقراءة حسنة على معنى التنافي قال الضحاك : في معناه أنهم اذا سمعوا بزفير جهنم ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة ، فيرجعون الى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله يوم التناد وعلى قراءة الجمهور المعنى يوم ينادي بعضهم بعضاً ، أو ينادي أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار أو يوم ينادي فيه ﴿ كل أناس بإمامهم ﴾ ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني ، وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ ، ﴿ ونادى أصحاب النار

أصحاب الجنة ﴾ ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ وقيل : ينادي مناد ألا إن فلاناً سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وألا إن فلاناً شقي شقاوة فلا يسعد بعدها أبداً وينادي حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . وقيل ينادي المؤمن ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ وينادي الكافر : ﴿ يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ .

﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي منصرفين عن الموقف الى النار أو فارين عنها غير معجزين ، قال قتادة ومقاتل : المعنى الى النار بعد الحساب ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ يعصمكم من عذاب الله ويمنعكم منه ﴿ ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ يهديه الى طريق الرشاد ، قرىء هاد باثبات الياء وحذفها في الوقف ، وبحذفها في الوصل مع حذفها خطاً .

﴿ ولقد جاءكم يوسف ﴾ هذا من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ، ذكرهم قديم عتوهم على الأنبياء وقيل : إن هذا من قول موسى عليه السلام والأول أولى ﴿ من قبل ﴾ أي قبل موسى وهو يوسف بن يعقوب ، في قول عمر الى زمن موسى ، قاله المحلي ، أي عاش واستمر يوسف ابن يعقوب الى زمن موسى الكليم ، قال سليمان الجمل : وهذا القول لم يقله غيره من المفسرين وإنما غاية ما وجد بعد التفتيش ما نقله الشهاب بقوله وفي بعض التواريخ أن وفاة يوسف قبل مولد موسى بأربع وستين سنة ، قال القاري : والصحيح ان المعمر هو فرعون موسى : أدرك يوسف وعاش الى أن أرسل اليه موسى ، وعمره أربعمائة سنة وأربعين سنة انتهى . وقال السيوطي في التحبير : وعاش يوسف بن يعقوب مائة وعشرين سنة ، وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة انتهى وقيل : هو فرعون آخر .

﴿ بالبينات ﴾ أي أنه جاءهم بالمعجزات الظاهرات ، والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى اليهم ، أي جاء إلى آبائكم ، فجعل

المجيء الى الآباء مجيئاً الى الأبناء ، وقال ابن جريج : المراد بالبينات رؤيا يوسف ، وقيل : المراد بها قوله : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ ؟ وقيل : المراد بيوسف يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، وكان أقام فيهم أي في القبط نبياً عشرين سنة ، وحكى النقاش عن الضحاك أن الله بعثه اليهم رسولاً من الجن يقال له : يوسف قال الشوكاني رحمه الله : والأول أولى ﴿ فما زلتم ﴾ أي ما زال أسلافكم ﴿ في شك مما جاءكم به ﴾ من البينات ولم تؤمنوا به .

﴿ حتى إذا هلك ﴾ يوسف ﴿ قلتم ﴾ أي قال أسلافكم : ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ فكفروا به في حياته وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، وظنوا أن الله لا يجدد عليهم الحجة ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان ، ليكون لهم أساس في تكذيب الرسل الذين يأتون بعده ، وهذا ليس إقراراً منهم برسالته ، بل هو ضم منهم الى الشك في رسالته ، والتكذيب برسالة من بعده ، أفاده الخطيب والخازن .

﴿ كذلك ﴾ الضلال الواضح ﴿ يضل الله من هو مسرف ﴾ في معاصي الله مستكثر منها أو مشرك ﴿ مرتاب ﴾ في دين الله شاك في وحدانيته ووعده ووعيده ، وقوله :

﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾بدل (مَنْ) ، والجمع باعتبار معناها ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ، أو بيان لها ، أو صفة ، أو في محل نصب بإضمار أعني ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هم الذين ، أو مبتدأ وخبره يطبع ، والأول أولى . قال ابن جريج : الذين يجادلون يهود ، قيل : هذا من كلام الرجل المؤمن أيضاً ، وقيل : إنه ابتداء كلام من الله سبحانه .

﴿ بغير سلطان ﴾ أي بغير حجة واضحة ، وبرهان ساطع ﴿أتاهم ﴾ صفة لسلطان ﴿ كبر مقتاً عند الله ، وعند الذين آمنوا ﴾ يحتمل أن يراد به

التعجب والاستعظام وأن يراد بـه الذم كبئس ، وفاعل كبر ضمير يعود الى الجدال المفهوم من : يجادلون ، قال المحلي : كبر خبر المبتدأ انتهى ، وهذا أولى وأحسن الأعاريب العشرة التي ذكرها السمين . واليه نحا أبو حيان .

﴿ كذلك ﴾ الطبع المحكم البليغ ﴿ يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ مستأنف قرأ الجمهور بإضافة قلب الى متكبر واختارها أبو حاتم وأبو عبيدة وفي الكلام حذف والتقدير كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر ، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها ، والمعنى أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين .

وقرىء بتنوين قلب على أن متكبراً صفة له فيكون القلب مراداً به الجملة ، لأن القلب هو محل التكبر ، وسائر الأعضاء تبع له في ذلك ، وهما سبعيتان ، وقرأ ابن مسعود على قلب كل متكبر ، وتقديره عند الزمخشري على كل ذي قلب متكبر ، قال الشيخ ولا ضرورة تدعو الى اعتبار الحذف ، قلت بل ثم ضرورة الى ذلك ، وهي توافق القراءتين .

ثم لما سمع فرعون هذا رجع الى تكبُّره وتجبره ، معرضاً عن الموعظة نافراً عن قبولها .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ أي قصراً مشيداً كما تقدم بيان تفسيره في سورة القصص ، وقيل صرحاً أي بناء ظاهراً لا يخفى على الناظرين وإن بعد ، ومنه يقال صرح الشيء اذا ظهر ، وفي المصباح الصرح بيت واحد يبنى مفرداً طولاً ضخماً ، وفي السمين الصرح القصر ، أو صحن الدار ، أو بلاط يتخذ من زجاج ، وأصله من التصريح وهو الكشف ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ﴾ اي الطرق من السماء الى السماء ، قال قتادة والزهري والسدي والأخفش هي الأبواب أي أبوابها الموصلة اليها .

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أسباب السموات﴾ بيان للأسباب لأن الشيء إذا أبهم ثم فسر كان أوقع في النفوس، وأفخم للشأن، أو بدل منها، وأنشد الأخفش عند تفسير الآية بيت زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل أسباب السموات الأمور التي يستمسك بها وكل ما أواك الى شيء فهو سبب اليه كالرشاء ونحوه ﴿فأطلع الى إله موسى﴾ أي انظر اليه، وأطلع على حاله، قرأ الأعرج السلمي وعيسى بن عمر وحفص بالنصب على جواب الأمر في قوله ابن لي، وهذا رأى البصريين. أو على جواب الترجي كما قال ابو عبيدة وغيره وهذا رأى الكوفيين.

قال النحاس معنى النصب خلاف معنى الرفع لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب اطلعت، وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أبلغ فهو على هذا داخل في حيز الترجي، ومعناه لعلي أبلغ، ولعلي أطلع بعد ذلك، وقيل غير ذلك، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً.

﴿وإني لأظنه﴾ أي موسى ﴿كاذباً﴾ في ادعائه بأن له إلهاً غيري، مستوياً على العرش فوق السموات أو فيما يدعيه من الرسالة قيل: قال

فرعون ذلك تمويهاً وتلبيساً ، وتخليطاً على قومه ، وإلا فهو يعرف ويعتقد حقيقة الإلَه ، وأنه ليس في جهة العلو ، ولكنه أراد التلبيس على قومه توصلاً لبقائهم على الكفر ، فكأنه يقول . لو كان إلَه موسى موجوداً لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره في الأرض فيبقى أن يكون في السماء ، والسماء لا توصل إليها إلا بسلم قاله الحفناوي .

﴿ وكذلك ﴾ التزيين ﴿ زين لفرعون سوء عمله ﴾ من الشرك والتكذيب فتمادى في الغي واستمر على الطغيان ، والمزين هو الشيطان ﴿ وصد عن السبيل ﴾ أي سبيل الرشاد والهدى ، قرأ الجمهور وصد بفتح الصاد والدال ، أي صد فرعون الناس عن السبيل ، وقرأ الكوفيون وصد بضم الصاد مبنياً للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم .

ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في زين ، من البناء للمفعول والقراءتان سبعيتان وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة . صد بكسر الصاد وضم الدال منوناً وقرأ ابن أبي إسحق وعبد الرحمن بن أبي بكر بفتح الصاد وضم الدال منوناً ، وكل من هاتين القراءتين على أنه مصدر معطوف على : (سوء عمله) ، أي زين له الشيطان سوء العمل والصد .

﴿ وما كيد فرعون ﴾ في إبطال آيات موسى ﴿ إلا في تباب ﴾ أي خسار وهلاك ، قال ابن عباس : التباب الخسران ، ومنه ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير والتحذير كما حكى عنه بقوله :

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا
هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى
ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾

﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون ﴾ بإثبات الياء وحذفها في الوصل والوقف ، والقراءتان سبعيتان ، وهذا بالنظر للفظ وأما في الرسم فهي محذوفة لا غير لأنها من ياآت الزوائد ، أي اقتدوا بي في الدين ، واعملوا بنصيحتي ﴿ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أي طريق الهدى والصواب ، وهو الجنة ، وهو ضد الغي ، وفيه تعريض شبيه بالتصريح ، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي ، وقيل . هذا من قول موسى والأول أولى .

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع بها أياماً ثم تنقطع وتزول ، لأن التنوين للتقليل ، فالإخلاد اليها أصل الشر ومنبع الفتن ، ورأس كل بلاء وآفة ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الاستقرار والثبات ، فلا انتقال ولا تحول عنها ، لكونها دائمة لا تنقطع ومستمرة لا تزول ، والباقي خير من الفاني . قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً ، والآخرة خزفاً باقياً لكانت الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خزف فان ، والآخرة ذهب باق !

قال ابن عباس : « الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة » ، وأخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحياة الدنيا متاع وليس من متاعها شيء أفضل من

المرأة الصالحة التي اذا نظرت اليها سرتك ، واذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالها » .

﴿ من عمل سيئة ﴾ من كلام الرجل المؤمن ، والمعنى من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت ﴿ فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ولا يعذب إلا بقدرها والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة ، وقيل : هي خاصة بالشرك ، ولا وجه لذلك .

﴿ ومن عمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ قيل : هو لا إلّه إلا الله ﴿ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ أي مع كونه مؤمناً بما جاءت به رسله ﴿ فأولئك ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ يدخلون الجنة ﴾ بفتح الياء وضم الخاء . وبالعكس سبعيتان ﴿ يرزقون فيها ﴾ رزقاً واسعاً ﴿ بغير حساب ﴾ أي بغير تقدير ومحاسبة قال مقاتل : يقول لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير ثم كرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم الى الله . صرح بإيمانه ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقول الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه ، فقال : ﴿ و ﴾ ترك العطف في النداء الثاني لأنه تفصيل لإجمال الأول ، وهنا عطف لأنه ليس بتلك المثابة لأنه كلام مباين للأول والثاني ، فحسن إيراد الواو العاطفة فيه ونحوه .

قال الزمخشري : ﴿ يا قوم ما لي ﴾ تكرير النداء لزيادة التنبيه لهم ، والإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وأنه من آل فرعون . والمعنى : أخبروني عنكم كيف هذه الحال ؟ ﴿ أدعوكم الى النجاة ﴾ من النار ودخول الجنة بالايمان بالله وإجابة رسله ﴿ وتدعونني الى النار ﴾ بما تريدونه مني من الشرك ، وقيل : المعنى ما لَـم أدعوكم ؟ كما تقول ما لي أراك حزيناً ؟ أي مالك ؟ ثم فسر الدعوتين فقال :

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ
ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ
مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ
مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أي ما لا علم لي بكونه شريكاً لله ، والمراد بنفي العلم نفي المعلوم بدل من تدعونني الأولى على جهة البيان لها ، وأتى بجملة فعلية لتدل على أن دعوتهم باطلة لا ثبوت لها ، وفي قوله ﴿ وأنا أدعوكم ﴾ بجملة اسمية لتدل على ثبوت دعوته وتقويتها ﴿ الى العزيز ﴾ الغالب على أمره ، وفي انتقامه ممن كفر ﴿ الغفار ﴾ لذنب من آمن به وتاب .

﴿ لا جرم ﴾ قد تقدم تفسير هذا في سورة هود وجرم فعل ماض بمعنى حق ، ولا الداخلة عليه لنفي ما ادعوه ، ورد مازعموه ، وفاعل هذا الفعل هو قوله : ﴿ أن ما تدعونني إليه ﴾ أي حق ووجب بطلان دعوته ، وما بمعنى الذي ؛ فكان حقها أن تكتب مفصولة من النون كما هو القاعدة ، لكنها رسمت في المصحف الإمام موصولة بالنون كما اشار له ابن الجزري ﴿ ليس له دعوة ﴾ قال الزجاج : معناه ليس له استجابة دعوة تنفع ؛ وقيل : ليس له دعوة توجب الألوهية ﴿ في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ وقال الكلبي ليس له شفاعة ﴿ وأن مردنا الى الله ﴾ أي مرجعنا ومصيرنا اليه بالموت أولاً وبالبعث آخراً فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير

وشر .

﴿ وأن المسرفين ﴾ أي المستكثرين من معاصي الله : قال قتادة وابن سيرين : يعني المشركين ، وقال مجاهد والشعبي هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها ؛ وبه قال ابن مسعود ، وقال عكرمة الجبارون المتكبرون، وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله ، والمعنى حق أن المسرفين ﴿ هم أصحاب النار ﴾ أي أهل جهنم ولما بلغ ذلك المؤمن في باب النصيحة الى هذا الكلام ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ اذا نزل بكم العذاب وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم ، وهو كلام مجمل مبهم ، وفي هذا الإبهام والإجمال من التخويف والتهديد ما لا يخفى .

﴿ وأفوض أمري الى الله ﴾ مستأنف ، أي أتوكل عليه وأسلم أمري اليه قيل : إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به ، قال مقاتل : هرب هذا المؤمن الى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه وقيل : القائل هو موسى والأول أولى ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ يعلم المحق من المبطل .

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أي ما أرادوا به من المكر السيء وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم ، قال قتادة نجاه الله مع بني إسرائيل من الغرق ﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ أي أحاط بهم ونزل عليهم ﴿ سوء العذاب ﴾ قال الكسائي : يقال حاق يحيق حيقاً وحيوقاً إذا نزل ولزم قال الكلبي غرقوا في البحر ودخلوا النار ، والمراد بآل فرعون فرعون وقومه ، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ، لكونه أولى بذلك منهم ، او المراد بآل فرعون فرعون نفسه ، والأول أولى لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق وسيعذبون في الآخرة بالنار ، ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب فقال :

ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى
ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

﴿ النار يعرضون ﴾ أي تعرض أرواحهم من حين موتهم الى قيام الساعة ﴿عليها غدواً وعشياً ﴾ أي صباحاً ومساء ، فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره يعرضون والأول أولى ورجحه الزجاج ، وعلى الوجهين الأخيرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر وقرىء بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى ، أي يصلون النار يعرضون عليها أو على الاختصاص وأجاز الفراء الخفض على البدل من العذاب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حين يبعثك الله اليه يوم القيامة » زاد ابن مردويه ثم قرأ ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ ، وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأساري على السيف اذا قتلهم به ، أي في هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يكون غدواً وعشياً عبارة عن الدوام(١) .

(١) البخاري ١٩٣/٣/ مسلم ٢١٩٩/٤ .

واحتج بعض أهل العلم على اثبات عذاب القبر بهذه الآية أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه ، وبه قال مجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب كلهم ، قال القرطبي : إن أرواحهم في جوف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين ، فذلك عرضها انتهى . وقد حققنا ذلك في كتابنا ثمار التنكيت في شرح أبيات التثبيت ، بالفارسية فليعلم ، ثم ذهب الجمهور الى أن هذا العرض هو في البرزخ وقيل هو في الآخرة . قال الفراء : ويكون في الآية تقديم وتأخير ، أي : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، ولا ملجىء الى هذا التكلف فإن قوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ الخ يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ .

﴿ أدخلوا ﴾ أي يقال للملائكة : أدخلوا ﴿ آل فرعون أشد العذاب ﴾ هو عذاب النار فإنه أشد مما كانوا فيه ، وقيل : أنواع من العذاب بعضها أشد من بعض غير التي كانوا يعذبون بها منذ أغرقوا ، قرأ حمزة والكسائي ونافع وحفص : أدخلوا بقطع الهمزة وكسر الخاء ، وهو على تقدير القول كما ذكر وقرأ الباقون ادخلوا بهمزة وصل من دخل يدخل أمراً لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء أي ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب ، عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله ، قلنا يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا وما إثابته في الآخرة ؟ قال عذاباً دون العذاب ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أخرجه البزار وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان .

﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم في النار ، ثم بين سبحانه هذا التخاصم فقال : ﴿ فيقول الضعفاء للذين

استكبروا ﴾ عن الانقياد للأنبياء والاتباع لهم ، وهم رؤساء الكفر ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ فتكبرتم على الناس بنا ، والتبع جمع تابع كخدم وخادم أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل ، أي تابعين أو ذوي تبع ، قال البصريون التبع يكون واحداً ويكون جمعاً ، وقال الكوفيون هو جمع لا واحد له .

﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي هل تدفعون عنا نصيباً منها ؟ أو تحملونه معنا ، وجملة ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر قرأ الجمهور (كل) بالرفع على الابتداء ، وخبره (فيها) والجملة خبر إن قاله الأخفش ، وقرأ ابن السميفع وعيسى ابن عمر (كُلًّا) بالنصب ، قال الكسائي والفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا ، وتنوينه عوض عن المضاف اليه ؛ وقيل على الحال ، ورجحه ابن مالك ، والمعنى إنا نحن وأنتم جميعاً في جهنم ، فكيف نغني عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا .

﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ، فلا يغني أحد عن أحد شيئاً فعند ذلك يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين ، فيرجعون كلهم الى خزنة جهنم يسألونهم ، كما قال :

﴿ وقال الذين في النار ﴾ من الأمم الكافرة ، مستكبرهم وضعيفهم جميعاً ﴿ لخزنة جهنم ﴾ جمع خازن ، وهم القوام بتعذيب أهل النار ، وإنما لم يقل لخزنتها لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً ، أو لبيان محلهم فيها فإن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم بئر جهنام ، بعيدة القعر . وفيها أعتى الكفار وأطغاهم ، فلعل الملائكة الموكلين لعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله ، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم .

﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ أي شيئاً منه مقدار يوم من أيام الدنيا لأنه ليس في الآخرة ليل ولا نهار .

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾

﴿ قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر والاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿ قالوا بلى ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم ، ولم نؤمن بهم ، ولا بما جاءوا به من الحجج الواضحة ، فلما اعترفوا ﴿ قالوا ﴾ أي قال لهم الملائكة الذين هم خزنة جهنم تهكماً بهم : ﴿ فادعوا ﴾ أي اذا كان الأمر كذلك ، فادعوا أنتم فإنا لا ندعو لمن كفر بالله وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة ، ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً فقالوا :

﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي في ضياع وبطلان ، وخسار وتبار وانعدام ، وفيه إقناط لهم عن الإجابة ، وقيل : هو من قول الله تعالى إخباراً لنبيه وهو أنسب بما بعده وعليه جرى المحلي والشهاب :

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه ، أي نجعلهم الغالبين لأعدائهم ، القاهرين لهم ، والموصول في محل نصب عطفاً على رسلنا أي لننصر رسلنا وننصر الذين آمنوا معهم ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بما عودهم الله من الانتقام لهم بالقتل والسلب والأسر ، وقيل بالغلبة والقهر ، وقيل بالحجة ، وقيل بالانتقام لهم من الأعداء بالاستئصال ، وان غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله عز

وجل ، والعاقبة لهم ، كما نصر يحيى ابن زكريا لما قتل ، فإنه قتل به سبعين ألفاً ، وكما نصر الحسين بن علي الشهيد فإنه قتل به سبعين ألفاً أيضاً .

أخرج أحمد والترمذي وحسنه ، وابن أبي الدنيا والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال« من ردّ . . . عن عرض أخيه رد الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة » ، ثم تلا ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة مثله .

﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ هو يوم القيامة قال زيد بن أسلم الأشهاد هم الملائكة والنبيون والمؤمنون . وقال مجاهد والسدي الأشهاد الملائكة ، يشهدون للأنبياء بالإبلاغ ، وعلى الأمم بالتكذيب . وقيل الحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال ، وكذا الجوارح تشهد عليهم بما فعلوا ، قال الزجاج الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب واصحاب ، قال النحاس ليس لباب فاعل أن يجمع على أفعال ، ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعاً أدى على ما سمع فهو على هذا جمع شهيد ، مثل شريف وأشراف ، ومعنى نصرهم يوم القيامة أن الله يجازيهم بأعمالهم فيدخلهم الجنة ، ويكرمهم بكراماته ، ويجازي الكفار بأعمالهم ، فيلعنهم ويدخلهم النار وهو معنى قوله :

﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ قرأ نافع والكوفيون بالتحتية وقرأ الجمهور تنفع بالفوقية ، والكل جائز في اللغة ، وإنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة ، وعلة داحضة . وشبهة زائغة ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي النار .

﴿ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره لرسله ، أي آتيناه التوراة والنبوة ، كما في قوله سبحانه ﴿ إنا

أنـزلنـا التـوراة فيهـا هـدى ونـور ﴾ قـال مقـاتـل : الهـدى من الضـلالـة يعني التوراة ﴿ وأورثنا بني إسرائيل ﴾ أي بعـد ما كـانوا فيـه من الذل ﴿ الكتـاب ﴾ أي التـوراة والمعنى أن الله سبحانـه لما أنـزل التوراة على مـوسى بقيت بعـده فيهم وتـوارثوهـا خلفاً عن سلف وقيـل المراد بـالكتاب سـائـر الكتب المنـزلـة على أنبيـاء بني اسرائيـل بعد مـوت موسى ﴿ هـدى وذكرى ﴾ أي لأجلهمـا أو هادياً ومذكراً ومرشداً ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي لأهل العقول السليمة .

ثم أمـر الله سبحـانـه رسـولـه صلى الله عليـه وسلم بـالصبـر على الأذى فقال :

﴿ فـاصبـر ﴾ أي اصبــر على أذى المشـركين كمــا صبـر من قبلك من الـرسـل ، قــال الكلبي : فنسخت آيـة القتــال آيـة الصبــر ﴿ إن وعـد الله ﴾ الـذي وعد رسله بـه ﴿حق ﴾ لا خلف فيه ، ولا شـك في وقـوعـه ، كمـا في قوله ﴿ إنا لننصر رسلنـا ﴾ وقولـه ﴿ ولقد سبقت كلمتنـا لعبادنـا المرسلين انهم لهم المـنصــورون وإن جنـدنــا لهم الغــالبــون ﴾ ثم أمــره الله سبحــانــه بالاستغفار لذنبه فقال :

﴿ واستغفر لذنبـك ﴾ قيل : المـراد ذنب أمتك فهـو على حذف مضـاف وقيـل المراد الصغـائر عنـد من يجوزهـا على الأنبيـاء ، وقيـل : هـو مجـرد تعبـد له صلى الله عليـه وسلم بالاستغفـار لزيـادة الثـواب ،وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

﴿ وسبح بحمد ربـك بالعشي والإبتكار ﴾ أي دم على تنزيـه الله متلبساً بحمـده وقيل المـراد الصلوات الخمس ، والعشي هو من بعـد الـزوال ، وفيـه اربــع صلوات ، والابكـار من الفجــر الى الـزوال ، وفيــه صـلاة واحــدة . وقيـل : المراد صـل في الوقتين صـلاة العصر وصـلاة الفجـر ، قـالـه الحسن وقتـادة ، وقيل همــا صلاتـان : ركعتان غـدوة ، وركعتان عشيـة ، وذلـك قبـل أن تفرض الصلوات الخمس .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ
إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ
(٥٦) لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعۡلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾

﴿إن الذين يجادلون﴾ عام في كل مجادل وإن نزل في مشركي مكة، قاله أبو السعود ﴿في آيات الله﴾ أي القرآن ﴿بغير سلطان أتاهم﴾ أي بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه تقييداً لمجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأن المتكلم في أمر الدين لا بد من استناده الى سلطان مبين.

﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق يحملهم على تكذيبك ﴿ما هم ببالغيه﴾ صفة لكبر: قال الزجاج: بالغي إرادتهم فيه فجعله على حذف المضاف، وقال غيره بالغي كبرهم. وقال ابن قتيبة: كبر أي تكبر على محمد صلى الله عليه وسلم وطمع أن يبلغوه وما هم ببالغي ذلك، وقيل: المراد بالكبر الأمر الكبير، أي يطلبون النبوة ويطلبون أمراً كبيراً يصلون به اليك من القتل ونحوه، ولا يبلغون ذلك. وقال مجاهد معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها، والمراد بهذه الآية المشركون، وقيل اليهود.

عن أبي العالية قال: «إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الدجال يكون منا في آخر الزمان، ويكون من أمره فعظموا

أمره ، وقالوا يصنع كذا ويصنع كذا ، فأنزل الله هذه الآية . قال : لا يبلغ الذي يقول ، فاستعذ بالله ، فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال ، لخلق السموات والأرض اكبر من خلق الدجال ، أخرجه عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، قال السيوطي : بسند صحيح ، وعن كعب الأحبار قال : هم اليهود نزلت فيهم ، فيما ينتظرونه من أمر الدجال . وقال مجاهد ﴿إلا كبر﴾ أي عظمة قريش ، ثم أمره الله سبحانه بأن يستعيذ بالله من شرورهم فقال :

﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي فالتجىء اليه من شرهم ، وكيدهم ، وبغيهم عليك ﴿ انه هو السميع ﴾ لأقوالهم ﴿ البصير ﴾ بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية ثم بين سبحانه عظيم قدرته فقال ﴿ لخلق السموات والأرض ﴾ ابتداء من غير سبق مادة ﴿ أكبر من خلق الناس ﴾ أي أعظم في النفوس ، وأجل في الصدور ، لعظم إجرامهما واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب ، وأشق بحسب عادة الناس في مزاولة الأفعال من أن علاج الشيء الكبير أشق من علاج الصغير ، وإن كان بالنسبة الى الله لا تفاوت بين الصغير والكبير ، فكيف ينكرون البعث وإحياء ما هو دونهما من كل وجه ؟ كما في قوله .

﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ قال ابو العالية المعنى لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود ، وقال يحيى بن سلام هو احتجاج على منكري البعث أي هما أكبر من إعادة خلق الناس .

﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي كفار مكة ﴿ لا يعلمون ﴾ بعظم قدرة الله ، وأنه لا يعجزه شيء فهم كالأعمى ، ومن يعلمه كالبصير وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذكر الدجال وصفته ، وإنذار الرسل منه لأمتهم وخروجه في آخر الزمان ، وما يقع منه ، ومن يتبعه من اليهود ، كما

حققناه في حجج الكرامة في آثار القيامة ، وليس هذا موضع ذكرها وبسطها ، وإليه ذهب جميع أهل السنة والمحدثين والفقهاء خلافاً لمن أنكره ، وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافاً للجبائي وموافقيه في أنه صحيح الوجود : ولكن الأشياء التي يأتي بها زعموا أنها مخاريف وخيالات لا حقائق لها والأخبار الصحيحة المتواترة تدفعه وترده رداً مشبعاً .

ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالاً للباطل والحق ، وأنهما لا يستويان فقال :

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي الذي يجادل بالباطل الذي يجادل بالحق ، أو الغافل والمستبصر ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي ولا يستوي المحسن بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ ولا المسيء ﴾ بالكفر والمعاصي ، وزيادة (لا) للتأكيد ، والتقابل يجيء على ثلاث طرق إحداها أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية ، والثانية أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ ، والثالثة أن يقدم مقابل الأول ويؤخر مقابل الآخر ، كقوله تعالى ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ﴾ وكل ذلك تفنن في البلاغة ، وقدم الأعمى في نفي التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ قليلاً ما يتذكرون ﴾ بالتحتية على الغيبة لأن قبلها وبعدها على الغيبة لا على الخطاب ، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم ، وبالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفاف وفائدته في مقام التوبيخ هي إظهار العنف الشديد ، والإنكار البليغ أفاده الكرخي .

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ
رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ
مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في مجيئها وحصولها وقيامها لوضوح شواهدها ، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ، ولأنه لا بد من جزاء لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ بتلك ولا يصدقونه لقصور أفهامهم ، وضعف عقولهم ، عن إدراك الحجة ، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث ، ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق وليس بمرتاب فيها . ولا شبهة في مجيئها ، أرشد عباده الى ما هو الوسيلة الى السعادة في دار الخلود فأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه وهو :

﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ قال اكثر المفسرين : المعنى وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم ، وأغفر لكم ، وأجبكم وأثبكم . وقيل : هذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة ، أي استجب لكم إن شئت ، كقوله ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء الله ﴾ وقيل : المراد بالدعاء السؤال بجلب النفع ودفع الضر ، قيل : الأول أولى لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة .

قلت : بل الثاني أولى ، لأن معنى الدعاء حقيقة وشرعاً هو الطلب ، فإن استعمل في غير ذلك فهو مجاز ، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو عبادة ، بل مخ العبادة ، كما ورد بذلك الحديث الصحيح ، فالله سبحانه قد أمر عباده بدعائه ، ووعدهم بالإجابة ، ووعده

الحق ، وما يبدل القول لديه ، ولا يخلف الميعاد .

وعن ابن عباس قال : وحدوني أغفر لكم ، وقال جرير بن عبد الله اعبدوني ، وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء الاستغفار » أخرجه ابن مردويه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يدع الله يغضب عليه ، أخرجه أحمد والحاكم وابن أبي شيبة . وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا ينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء » ، أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة »[1] أخرجه الترمذي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وعن ابن عباس قال أفضل العبادة الدعاء ، وقرأ هذه الآية ، وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت : سئل النبي صلى الله عليه وسلم « أي العبادة أفضل ؟ فقال دعاء المرء لنفسه » . ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي وهو الطلب هو من عبادته فقال :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادي سيدخلون جهنم ﴾ قرأ الجمهور بفتح الياء وضم الخاء وقرىء بالعكس مبيناً للمفعول ﴿ داخرين ﴾ أي ذليلين صاغرين ، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان اليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم ، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها اليه ، وأرشدكم الى التعويل عليه ، وكفل لكم الإجابة بإعطاء الطلبة فهو الكريم المطلق ، الذي يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا

(١) الدعاء وهو العبادة اخرجه أحمد ٢٧١/٤ وغيره .

والدين .

وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ: وقال ربكم أدعوني الى قوله داخرين ، أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب ، وأحمد وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وسعيد بن منصور والطبراني .

ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلماً بارداً تناسبه الراحة الظاهرية ، بالسكون والنوم الذي هو الموت الأصغر ، والراحة الحقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة ﴿والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم ، وتنصرفوا في طلب معايشكم ، وهو من الإسناد المجازي ، أي مبصراً فيه لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار .

﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ يتفضل عليهم بنعمه التي لا تحصى ، ولم يقل لمفضل أو لمتفضل لأن المراد تنكير الفضل ، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل ، وذلك إنما يكون بالإضافة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ النعم ولا يعترفون بها إما لجحودهم لها ولكفرهم بها ، كما هو شأن الكفار ، أو لإغفالهم للنظر وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم وهم الجاهلون ، ولم يقل : ولكن أكثرهم حتى لا يتكرر ذكر الناس ، لأن في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله ﴿ إن الانسان لكفور ﴾ وقوله : ﴿ إن الانسان لظلوم كفار ﴾ .

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ
يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ
إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ
أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿ ذلكم ﴾ أي الفاعل المخصوص بالأفعال المقتضبة للألوهية والربوبية ﴿ الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ بيّن سبحانه في هذا كمال قدرته ، المقتضية لوجوب توحيده ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تنقلبون عن عبادته وتنصرفون عن توحيده ؟ وتصرفون عن الايمان مع قيام البرهان .

﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي مثل ذلك الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله ، المنكرون لتوحيده ، ثم ذكر لهم سبحانه نوعاً آخر من نعمه التي أنعم بها عليهم ، مع ما في ذلك من الدلالة على كمال قدرته ، وتفرده بالآلهية فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الارض قراراً ﴾ أي موضع قرار مع كونها في غاية الثقل ولا ممسك لها سوى قدرة الله وفيها تحيون وفيها تموتون ﴿ والسماء بناء﴾ اي سقفاً قائماً ثابتاً مع كونها أفلاكاً دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ينشأ عنها الليل والنهار ، والإظلام والإضاءة ، ثم بين بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد فقال :

﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة لم

يخلق حيواناً أحسن منكم ، وقيل : لم يخلقكم منكوسين كالبهائم قيل خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده ،وغيره يتناول بفيه ، وقال الزجاج خلقكم أحسن الحيوان كله ، قرأ الجمهور صوركم بضم الصاد ، وقرأ الأعمش وأبو رزين بكسرها قال الجوهري : والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي المستلذات من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب .

﴿ ذلكم ﴾ المنعوت بهذه النعوت الجليلة ﴿ الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أي كثر خيره وبركته ﴿ هو الحي لا إلـه إلا هو ﴾ أي الباقي الذي لا يفنى ، المتفرد بالألوهية ، وهذا التركيب يفيد الحصر ، وفيه إشارة الى العلم التام والقدرة التامة الكاملة ﴿ فادعوه ﴾ أي اعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي الطاعة والعبادة من الشرك .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الفراء هو خبر وفيه إضمار أمر ، أي احمدوه عن ابن عباس قال : من قال لا إلـه إلا الله فليقل إثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ وعلى هذا هو من كلام المأمورين بالعبادة ، ويجوز ان يكون من كلامه تعالى على أنه استئناف لحمد ذاته بذاته .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن الله نهاه عن عبادة غيره ، وأمره بالتوحيد فقال :

﴿قل﴾ لهم رداً عليهم فيما طلبوه منك وهو عبادة آلهتهم : ﴿ إني نهيت﴾ نهياً عاماً ببراهين العقول ونهياً خاصاً بأدلة النقول ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ أي تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ وهي الأصنام ثم بين وجه النهي فقال ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ وهي الأدلة العقلية والنقلية فإنها توجب التوحيد ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ أي استسلم له بالانقياد والخضوع ، أو الإخلاص ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة الدالة على التوحيد فقال :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ هو الذي خلقكم ﴾ أي خلق أباكم الأول وهو آدم ، وخلقه ﴿ من تراب ﴾ يستلزم خلق ذريته منه ﴿ ثم من نطفة ثم من علقة ﴾ قد تقدم تفسير هذا في غير موضع ﴿ثم يخرجكم طفلاً ﴾ أي أطفالاً ، وأفرده لكونه اسم جنس ، أو على معنى : ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً .

﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ وهي الحالة التي تجتمع فيها القوة والعقل من الثلاثين سنة الى الأربعين ، وقد سبق بيان الأشد مستوفي في الأنعام والتقدير لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا غاية الكمال ﴿ ثم ﴾ يبقيكم .

﴿ لتكونوا شيوخاً ﴾ بضم الشين وبكسرها سبعيتان وقرىء شيخاً على الإفراد كقوله طفلاً والشيخ من جاوز أربعين سنة ، يعني أن مراتب الإنسان بعد خروجه من بطن أمه ثلاث : الطفولية ، وهي حالة النمو والزيادة الى أن يبلغ كمال الأشد من غير ضعف ، ثم يتناقص بعد ذلك وهي الشيخوخة .

﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أي من قبل الأشد ، ومن قبل الشيخوخة ﴿ ولتبلغوا ﴾ جميعاً ﴿ أجلاً مسمى ﴾ أي وقت الموت أو يوم القيامة ، واللام هي لام التعليل او العاقبة ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته البالغة في خلقكم على هذه الأطوار المختلفة الى الأجل المذكور .

﴿ هو الذي يحيي ويميت ﴾ أي يقدر على الإحياء والإماتة ﴿ فإذا قضى أمراً ﴾ من الأمور التي يريدها ﴿ فإنما يقول له . كن فيكون ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً وهذا تمثيل لتأثير قدرته في المقدورات عند تعلق إرادته بها ، وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه ، من غير أن يكون هناك آمر ومأمور ، والفاء الأولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه وتعالى ، قاله أبو السعود وقد تقدم تحقيق معناه في البقرة وفيما بعدها .

﴿ ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن ، وبسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك ، كما أن ما سبق من قوله تعالى ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله ﴾ إلخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمنية الفارغة ، فلا تكرار فيه أي انظر الى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة ، الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي الى الإقبال عليها ؟ وانتفاء الصوارف عنها بالكلية ، وقيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها في أنفسها موجبة للتوحيد قاله أبو السعود .

وقال النسفي ذكر الجدال في هذه السورة في ثلاثة مواضع ، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام ، أو ثلاثة أصناف ، وللتأكيد انتهى . قال ابن زيد هم المشركون بدليل قوله الآتي ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ قال القرطبي ، وقال اكثر المفسرين نزلت في القدرية ، قال ابن سيرين إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية فلا أدري فيمن نزلت ، ويجاب عن هذا بأن الله سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدل على غير ما قالوه فقال :

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ
ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ
﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن
نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾

﴿ الذين كذبوا بالكتاب ﴾ وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الاسلام ، والمراد بالكتاب إما القرآن ، أو جنس الكتب المنزلة من عند الله ، والموصول إما في محل جر على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه ، ويجوز ان يكون في محل نصب على الذم .

﴿ وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ معطوف على قوله (بالكتاب) ويراد به ما يوحى الى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام في الكتاب للجنس ، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ عاقبة أمرهم ، ووبال كفرهم ، وفي هذا وعيد شديد والظرف في قوله ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ متعلق بـ (يعلمون) أي فسوف يعلمون . وقت كون الأغلال في أعناقهم ، أو اذكر لهم وقت الأغلال ليخافوا وينزجروا ﴿ والسلاسل ﴾ جمع سلسلة معروفة قال الراغب تسلسل الشيء اضطرب ، كأنه تصور منه تسلسل متردد فتردد لفظه ، تنبيه على تردد معناه ، وماء سلسل متردد في مقره ، معطوف على الأغلال ، والتقدير إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم .

ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ ، وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ يسحبون في الحميم ﴾ بحذف العائد أي يسحبون بها في الحميم ، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل ، وقرىء بنصبها ، وقرأوا يسحبون بفتح الياء مبنياً للفاعل ، فتكون السلاسل مفعولاً مقدماً ، وقرىء بجر السلاسل ، قال الفراء وهذه القراءة محمولة على المعنى ، إذ المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل وقال الزجاج المعنى على هذه القراءة وفي السلاسل يسحبون ، واعترضه ابن الانباري بأن ذلك لا يجوز في العربية والسحب الجر بعنف ، والسحاب من ذلك لأن الريح تجره أو لأنه يجر الماء ، والحميم هو المتناهي في الحر ، وقيل الصديد ، وقيل جهنم . وقيل الماء الحار الذي يكسب الوجوه سواداً والأعراض عاراً ، والأرواح عذاباً ، والأجسام ناراً ، وقد تقدم تفسيره قال ابن عباس يسحبون في الحميم فينسلخ كل شيء عليهم ، من جلد ولحم وعرق ، حتى يصير في عقبه ، حتى إن لحمه قدر طوله ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم يكسى جلداً آخر ثم يسجر في الحميم .

﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ يقال سجرت التنور ، أي أوقدته ، وسجرته ملأته بالوقود ، ومنه ﴿ البحر المسجور ﴾ أي المملوء ، فالمعنى توقد بهم النار أو تملأ بهم ، والمراد أنهم يعذبون بألوان العذاب ، وينقلون من باب الى باب قال مجاهد ومقاتل : توقد بهم النار فصاروا وقودها ، عن عبد الله بن عمرو قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذ الأغلال الى قوله : يسجرون ، فقال : لو أن رصاصة مثل هذه ـ وأشار الى جمجمة ـ أرسلت من السماء الى الأرض ، وهي مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن يبلغ أصلها . أو قال :

قعرها» ، أخرجه أحمد والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور .

﴿ ثم قيل لهم ﴾ أي يقال لهم ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ أين ما كنتم تشركون ﴾ من دون الله هذا توبيخ وتقريع لهم ، أي أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ؟ وهي الأصنام وغيرها ، وترسم أين مفصولة من ما كما أشار اليه ابن الجزري ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي يقولون : ذهبوا وغابوا ، وفقدناهم فلا نراهم ، ثم أضربوا عن ذلك وانتقلوا الى الاخبار بعدمهم ، وأنه لا وجود لهم فقالوا :

﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ أي لم نكن نعبد شيئاً ، قالوا هذا بعد ما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة ، وأنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها ، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ، كقولك : حسبته شيئاً فلم يكن كذلك ، وقال المحلي : أنكروا عبادتهم إياها انتهى . وهذا المعنى بعيد في مقام الحساب والعرض على رب العالمين ﴿ كذلك ﴾ الضلال الفظيع ﴿ يضل الله الكافرين ﴾ حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم الى النار .

﴿ ذلكم ﴾ أي ذلك الإضلال المدلول عليه بالفعل او العذاب ﴿ بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ﴾ أي تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله ، والسرور بمخالفة رسله وكتبه ، وقيل : بما كنتم تفرحون به من المال والأتباع والصحة ، وقيل : من إنكار البعث والعذاب ، وقيل : المراد بالفرح هنا البطر والتكبر ﴿ وبما كنتم تمرحون ﴾ المراد بالمرح الزيادة في البطر ، وقال مجاهد وغيره : تبطرون وتأشرون ، وقال الضحاك : الفرح السرور . والمرح العدوان وقال مقاتل : المرح البطر والخيلاء وقيل المرح أشد من الفرح .

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ
وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا
وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ السبعة المقسومة لكم ، قال تعالى : لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، حال كونكم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿ فبئس مثوى ﴾ أي مأوى ﴿ المتكبرين ﴾ عن قبول الحق جهنم وكان الظاهر أن يقال : مدخل ، وعبر عنه بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود قاله أبو السعود ، وقال السمين لم يقل مدخل لأن الدخول لا يدوم ، وانما يدوم الثواء فلذلك خصه بالذم ، وإن كان الدخول أيضاً مذموماً ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر تسلية له فقال :

﴿فاصبر إن وعد الله ﴾ أي وعده بالانتقام منهم ﴿ حق ﴾ كائن لا محالة ، إما في الدنيا أو في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ من العذاب في الدنيا ، بالقتل والأسر والقهر ، وما زائدة عند المبرد والزجاج ، والأصل ترك ، ولحقت بالفعل نون التأكيد ﴿ أو نتوفينك ﴾ معطوف على نرينك أي قبل إنزال العذاب بهم ﴿ فإلينا

يرجعون ﴾ يوم القيامة فنعذبهم أشد العذاب .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً ﴾ وأنبياء ﴿ من قبلك ﴾ الى أممهم ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ أي أنبأناك بأخبارهم في القرآن ، وما لقوه من قومهم ، وهم خمسة وعشرون ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ فيه خبره ولا أوصلنا اليك علم ما كان بينه وبين قومه ، وعن علي بن أبي طالب في الآية قال : بعث الله عبداً حبشياً فهو ممن لم يقصص على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، عن أبي ذر قال : قلت : « يا رسول الله كم عدة الأنبياء ؟ قال : مائة الف وأربعة وعشرون الفاً . الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً ، » أخرجه أحمد ، وعبر عنه في الكشاف بقيل .

﴿ وما كان ﴾ أي ما صح وما استقام ﴿ لرسول ﴾ منهم ﴿ أن يأتي بآية ﴾ أي معجزة دالة على نبوته ﴿ إلا بإذن الله ﴾ لا من قبل نفسه ، فان المعجزات عطايا قسمها الله تعالى بينهم ، على ما اقتضته حكمته ، كسائر القسم ، ليس لهم اختيار في إيثار بعضها ، والاستبداد بإتيان المقترح بها لأنهم عبيد مربوبون ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أي الوقت المعين لعذابهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿ قضى بالحق ﴾ فيما بين الرسل ومكذبيها ، فينجي الله بقضائه الحق عباده المحقين .

﴿ وخسر هنالك ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ المبطلون ﴾ الذين يتبعون الباطل ويعملون به ، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك ، وختمه بقوله : (المبطلون) ،وختم السورة بقوله :(الكافرون) ،لأن الأول متصل بقوله : قضى بالحق ، ونقيض الحق هو الباطل ، والثاني متصل بإيمان غير نافع ونقيض الإيمان الكفر أفاده الكرخي ، ثم امتن الله سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى فقال :

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام ﴾ أي خلقها لأجلكم ، قال الزجاج : الأنعام هنا الإبل خاصة ، وقيل : الأزواج الثمانية ، والأول هو الظاهر لأنها

هي التي توجد فيها المنافع الآتية كلها ، وقوله : ﴿ لتركبوا منها ﴾ تفصيل لهذا الاجمال ، ومن للتبعيض ، وكذلك في قوله :

﴿ ومنها تأكلون ﴾ أو لابتداء الغاية في الموضعين ومعناها ابتداء الركوب ، وابتداء الأكل ، والأول أولى . والمعنى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها .

﴿ ولكم فيها منافع ﴾ أخر غير الركوب والأكل من الوبر والصوف والشعر ، والزبد والسمن والجبن ، والدر والنسل ، وغير ذلك ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة : تحمل أثقالكم من بلد الى بلد ، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في سورة النحل :

﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أي على الإبل في البر ، وعلى السفن في البحر ، وقيل : المراد بالحمل على الأنعام هنا حمل الولدان والنساء في الهوادج ، وهو السر في فصله عن الركوب ، وفي الجمع بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة النحل ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ﴾ الآية ، لكن هذه أجمع منها .

﴿ ويريكم آياته ﴾ أي دلالاته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ﴿ فأي ﴾ آية من ﴿ آيات الله تنكرون ﴾ فإنها كلها من الظهور ، وعدم الخفاء ، بحيث لا ينكرها منكر ، ولا يجحدها جاحد ، وفيه تقريع لهم وتوبيخ عظيم وتذكيرُ أيّ أشهر من تأنيثه ، فلذلك لم يقل فأية آيات الله لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء الجامدة نحو حمار وحمارة غريب ، وهي في أي أغرب لابهامها ، ونصب أي بـ ﴿ تنكرون ﴾ وانما قدم على العامل فيه لأن له صدر الكلام ، ثم أرشدهم سبحانه الى الاعتبار والتفكر في آيات الله فقال :

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا أَكْثَرَ
مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي في أطرافها ونواحيها ﴿ فينظروا ﴾ بأبصارهم وبصائرهم ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ من الأمم التي عصت الله وكذبت رسلها ، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدل على ما نزل بهم من العقوبة ، وما صاروا اليه من سوء العاقبة ، ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة والقوة فقال :

﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ عددا ﴿ وأشد قوة ﴾ أي أقوى منهم أجساداً وأوسع منهم أموالاً ﴿ و ﴾ أظهر منهم ﴿ آثاراً في الأرض ﴾ بالعمائر والمصانع والحصون والصهاريج والحرث ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ يجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى ، والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به ، أي لم يغن عنهم أو أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم .

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج الواضحات ، والمعجزات الظاهرات ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ أي أظهر الكفار الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم ، من الشبه الداحضة ، والدعاوى الزائغة ، والفنون الفاسدة ، والعلوم الكاسدة ، وسماه علماً تهكماً بهم ، أو

على ما يعتقدونه ، وقال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث ، وقيل المراد من العلم علم أحوال الدنيا لا الدين كما في قوله :

﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ قال النسفي : أو علم الفلاسفة والدهريين ، فانهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء الى علمهم ، وعن سقراط أنه سمع بموسى وقيل له لو هاجرت اليه ؟ فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا الى من يهذبنا ، أو المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء به ، كأنه قال : استهزأوا بالبينات وبما جاؤوا به من علم الوحي ، فرحين مرحين ، انتهى : وقيل : الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم الرسل ، وذلك أنهم لما كذبهم قومهم وأعلمهم الله بأنه مهلك الكافرين ومنجي المؤمنين ، ففرحوا بذلك .

﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أي أحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عاينوا عذابنا النازل بهم في الدنيا ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها .

﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ أي عند معاينة عذابنا لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه ، فانه إنما ينفع الإيمان الاختياري لا الإيمان الاضطراري ، والفاآت من قوله : فما أغنى إلى هنا أربع : الأولى لبيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم ، أي أن عاقبتها خلاف وضد ما كانوا يؤملونه منها ، وهو نفعها ، فلم يترتب عليها ، بل ترتب عدمه ، كقولك : وعظته فلم يتعظ ، والثانية تشير لتفصيل ما أبهم وأجمل من عدم الإغناء ، والثالثة لمجرد التعقيب ، وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها واقعاً عقيبه ، لأن مضمون قوله : فلما جاءتهم الخ انهم كفروا فكأنه قيل • فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا ، كأنه قيل : فآمنوا فلم ينفعهم ، لأن النافع هو الايمان الاختياري[1] .

﴿ سنة الله التي قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ في عباده ﴾ المعنى أن الله

(١) زاد المسير/٢٣٨ .

سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان اذا رأوا العذاب ، وقد مضى بيان هذا مستوفى في سورة النساء وسورة التوبة ، وانتصاب سنة على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد الله ، وما أشبهه من المصادر المؤكدة ، وقيل منصوب على التحذير أي احذروا يـأهل مكة سنة الله في الأمم الماضية ، والأول أولى .

﴿ و ﴾ قد ﴿ خسر هنالك الكافرون ﴾ أي وقت رؤيتهم بأس الله ، ومعاينتهم لعذابه على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا قاله أبو السعود وقال السمين : لا يحتاج لهذا ، بل يصح إبقاؤه على أصله ، قال الزجاج : الكافر خاسر في كل وقت ، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة حم السجدة

وتسمى سورة فصلت وسورة المصابيح وهي أربع وخمسون آية

وقيل : ثلاث وخمسون . قال القرطبي : وهي مكيّة في قول الجميع . قال ابن عباس : انها نزلت بمكة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : اجتمع قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلمه ، ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : أنت يا أبا الوليد . فأتاه فقال يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك . أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا ، وأن في قريش كاهنا . والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى ، أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف . يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا . وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرغت ؟ قال نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته حتى بلغ : فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ؛ فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا ؟ قال لا . فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته . قالوا فهل أجابك ؟ قال : والذي نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

قالوا ويلك . يكلمك الرجل بالعربية ، وما تدري ما قال . قال : لا واللّه ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة .

وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عمر قال : « لما قرأ النبي صلى اللّه عليه وسلم ، على عتبة بن ربيعة حم أتى أصحابه فقال : يا قوم أطيعوني في هذا اليوم واعصوني بعده . فواللّه لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ما سمعت أذني قط كلاما مثله ؛ وما دريت ما أرد عليه » . وفي هذا الباب روايات تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة . وتلاوته صلى اللّه عليه وسلم ، أول هذه السورة عليه ؛

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا
فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا
عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟
إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم ﴾ قد تقدم الكلام على إعرابه ومعناه في السورة التي قبل هذه السورة . فلا نعيده والله أعلم بمراده به ، وكذلك تقدم الكلام على معنى قوله : ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ وإعرابه ، وإنما خص هذين الوصفين بالذكر لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى المحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الأدوية ، وعلى ما يحتاج اليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشىء عن رحمته ولطفه بخلقه .

﴿ كتاب فصلت ﴾ أي بينت وميزت باعتبار اللفظ والمعنى ، أو جعلت ﴿ آياته ﴾ أساليب وتفاصيل مختلفة ، من أحكام وأمثال ومواعظ وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وتهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس وتواريخ الماضين ، وصفات التنزيه والتقديس ، وشرح غرائب الملكوت والملك ، وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق وغايته كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل ما في القرآن ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾ وأحسن الخالقين .

قال قتادة : فصلت ببيان حلاله من حرامه ، وطاعته من معصيته وقال الحسن بالوعد والوعيد ، وقال سفيان : بالثواب والعقاب ، ولا مانع من الحمل على الكل ، وقرىء فصلت بالتخفيف أي فرقت بين الحق والباطل ، والجملة في محل رفع صفة للكتاب .

وانتصاب : ﴿ قرآنا عربياً ﴾ على الاختصاص أو على المدح قاله الأخفش أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت أو على الحال أي فصلت آياته حال كونه قرآناً وقيل على المصدرية أي يقرؤه قرآناً وقيل مفعول ثان لفصلت ، وقيل : على إضمار فعل يدل عليه فصلت أي فصلناه قرآناً عربياً .

﴿ لقوم يعلمون ﴾ معانيه ويفهمونها ، وهم أهل اللسان العربي ، وانما خصوا بالذكر لأنهم يفهمونها بلا واسطة ، لكون القرآن بلغتهم ، وغيرهم لا يفهمها إلا بواسطتهم . قال الضحاك : أي يعلمون أن القرآن منزل من عند الله ، وقال مجاهد أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والانجيل واللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآناً ، أو متعلقة بفصلت ، والأول أولى ، وكذلك :

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ صفتان أخريان لقرآن ، أو حالان من كتاب ، والمعنى بشيراً لأولياء الله ونذيراً لأعدائه وقرئا بالرفع على أنهما صفة لكتاب أو خبر عن محذوف .

﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ أي الكفار عما اشتمل عليه من النذارة ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ سماعاً ينتفعون به لإعراضهم عنه ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ﴾ الأكنة جمع كنان ، وهو الغطاء أي في أغطية مثل الكنانة التي فيها السهام ، فهي لا تفقه ما تقول من التوحيد ، ولا يصل اليها قولك ، قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل ، وقد تقدم بيان هذا في البقرة ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم ، يمنع من استماع قولك ، وأصل الوقر الثقل ، قرىء بكسر الواو وقرىء بفتح الواو والقاف .

﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ أي ستر ﴿ ومن ﴾ لابتداء الغاية ، والمعنى أن الحجاب ابتدىء منا وابتدىء منك ، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب ، لا فراغ فيها ، ولو قيل : بيننا وبينك حجاب ولم تأت لفظة من لكان المعنى أن الحجاب حاصل وسط الجهتين ، والمقصود المبالغة بالتباين المفرط ، فلذلك جيء بمن وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وتقبله واعتقاده ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه ، ولتباعد المذهبين والدينين ، وامتناع المواصلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن بينهم وما هم عليه ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه حجاباً ساتراً ، وحاجزاً منيعاً ، من جبل أو نحوه . فلا تلاقي ولا ترائي .

﴿ فاعمل ﴾ أي استمر على دينك وهو التوحيد ﴿ إننا عاملون ﴾ أي مستمرون على ديننا ، وهو الإشراك ، وقال الكلبي : اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك ، وقال مقاتل : إعمل لإلهك الذي أرسلك فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها ، وقيل : فاعمل لآخرتك فإنا عاملون لدنيانا ، أو فاعمل في إبطال أمرنا فإنا نعمل في إبطال أمرك ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا فقال :

﴿ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ أي إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي ، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم اليه ، وفي آذانكم وقر ، ومن بيني وبينكم حجاب ، ولم أدعكم الى ما يخالف العقل ، وانما أدعوكم الى التوحيد .

قرأ الجمهور يوحي مبنياً للمفعول وقرأ الأعمش والنخعي مبنياً للفاعل ، أي يوحي الله إليّ ، قيل : ومعنى الآية أني لا أقدر على أن أحملكم على الايمان قسراً فإني بشر مثلكم ، ولا امتياز لي عنكم إلا أني أوحي إلي التوحيد ، والأمر به ، فعلى البلاغ وحده ، فان قبلتم رشدتم ؛ وإن أبيتم

هلكتم ، وقيل ؛ المعنى أني لست بملك لا يرى ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحي إلي دونكم فصرت بالوحي نبياً ، ووجب عليكم اتباعي ، وقال الحسن في معنى الآية إن الله سبحانه علم رسوله صلى الله عليه وسلم كيف يتواضع .

﴿ فاستقيموا اليه ﴾ عداه بإلى لتضمنه معنى : توجهوا والمعنى وجهوا استقامتكم إليه بالطاعة ، ولا تميلوا عن سبيله ﴿ واستغفروه ﴾ لما فرط منكم من الذنوب والشرك ، وما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل ثم هدد المشركين وتوعدهم فقال :

﴿ وويل للمشركين ﴾ ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ أي يمنعونها ولا يخرجونها الى الفقراء ؛ وقال الحسن وقتادة : لا يقرون بوجوبها ، وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة وقيل معنى الآية لا يشهدون أن لا إله إلا الله لأنها زكاة الأنفس وتطهيرها ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد : لا يزكون أعمالهم ، وكان يقال : الزكاة قنطرة الاسلام فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وقال الفراء : كان المشركون ينفقون النفقات ويسقون الحجيج ويطعمونهم فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت فيهم هذه الآية ، وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة لأن أحب الشيء الى الانسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته ، وثباته وصدق نيته ، ونصوح طويته ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ففرت عصبيتهم ، ولانت شكيمتهم ، وما ارتدت بنو حنيفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا بمنع الزكاة[1] ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن الكفر بالآخرة .

﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ معطوف على : لا يؤتون الزكاة ، داخل معه في حيز الصلة ؛ أي منكرون للآخرة جاحدون لها ، والمجيء بضمير

(١) سقط من الأصل: فتعصبت لهم الحروب وجوهدوا ، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ
بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ
ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

الفصل لقصد الحصر .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع عنهم ، يقال : مننت الحبل إذا قطعته ، وقيل : الممنون المنقوص قاله ابن عباس وقطرب ، قال الجوهري : المن القطع ، ويقال النقص ومنه قوله تعالى ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ وقيل غير محسوب ، وقيل معنى الآية لا يمن عليهم به لأنه إنما يمن بالتفضل ، فأما الأجر فحق أداؤه ، وقال السدي نزلت في المرضى والزمنى والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة ، كتب لهم من الأجر مثل ما كانوا يعملون فى الصحة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يوبخهم ويقرعهم فقال : ﴿ قل أئنكم ﴾ قرأ الجمهور بهمزتين الثانية بين بين ، وقرىء بهمزة بعدها ياء خفيفة ، وإن واللام إما لتأكيد الانكار ، وقدمت الهمزة لاقتضائها الصدارة وإما للاشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج الى التأكيد .

﴿ لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ والمعنى لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم وقدرته هذه القدرة الباهرة ، قيل : اليومان هما يوم الأحد ويوم الاثنين ، وقيل : خلقهن في نوبتين كل نوبة أسرع مما يكون في يوم ، وقيل : المراد مقدار يومين لأن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض والسماء ذكرهما تعليماً للأناة ، ولو أراد أن يخلقهما في لحظة لفعل .

﴿ وتجعلون له انداداً ﴾ أي أضداد وشركاء والجملة معطوفة على تكفرون داخلة تحت الاستفهام ، ذكر عنهم شيئين منكرين ، أحدهما الكفر بالله ، والثاني إثبات الشركاء له ﴿ ذلك ﴾ المتصف بما ذكر ﴿ رب العالمين ﴾ جمع عالم ، وهو ما سوى الله وجمع لاختلاف أنواعه بالياء والنون تغليباً للعقلاء من جملة العالمين ما تجعلونها أنداداً لله ، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته ؟

﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت ، معطوف على خلق وقيل مستأنفة لوقوع الفصل بينهما بالأجنبي ، والأول أولى ، لأن الجملة الفاصلة هي مقررة لمضمون ما قبلها ، فكانت بمنزلة التأكيد ، ومعنى : ﴿ من فوقها ﴾ أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض ، وإنما خالفتها باعتبار الارتفاع فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها وإنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة الى ممسك ، وهو الله العزيز المتعال ، القادر المختار .

﴿ وبارك فيها ﴾ أي جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد قال السدي : أنبت فيها شجرها ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ قال الحسن وعكرمة والضحاك : قدر فيها أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع ، جعل في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد الى بلد وقيل قدر البُرَّ لأهل قطر من الأرض والتمر لأهل قطر آخر ، وكذلك سائر الأقوات .

قيل : إن الزرع أكثر الحرف بركة لأن الله وضع الأوقات في الأرض ، وقال ابن عباس أي شق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ووضع الجبال ، وأجرى البحار ، وجعل في هذه ما ليس في هذه وفي هذه ما ليس في هذه ، وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها .

﴿ في ﴾ تتمة ﴿ أربعة أيام ﴾ أي في يوم الثلاثاء والأربعاء باليومين

المتقدمين، قاله الزجاج وغيره ، قال ابن الأنباري : ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ، أي في تتمة خمسة عشر يوماً ، فيكون المعنى : إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وما بعدها في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان ولولا هذا التقدير لكانت الأيام ثمانية يومان في الأول وهو قوله ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ ويومان في الأخير وهو قوله الآتي : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ وأربعة في الوسط .

وقال أبو البقاء : ولعل زيادة مدة الأرض على مدة السماء جرياً على ما يتعارف من أن بناء السقف أخف من بناء البيت ، وقيل : للتنبيه على أن الأرض هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين وكثرة المنافع ، وقيل : لما فيها من الابتلاء بالمعاصي ، والمجاهدات والمجادلات والمعالجات .

عن ابن عباس أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن خلق السموات والأرض ، فقال «خلق الله الأرض في يومين الأحد والاثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والحجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة أيام فقال تعالى : قل أئنكم لتكفرون إلى قوله للسائلين ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم ، والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه ، فخلق من أول ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات ، وفي الثانية ألقى فيها من كل شي مما ينتفع به ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا قد أصبت لو أتممت . قالوا ثم استراح ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، غضباً شديداً فنزل : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون ﴾ أخرجه ابن جرير والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ في العظمة

والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

ولكن في حديث مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيدي فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر الخلق فيما بين العصر الى الليل » . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً قال : « إن الله خلق يوماً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ثم خلق خامساً فسماه الخميس ، وذكر نحو ما تقدم » . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله فرغ من خلقه في ستة أيام » وذكر نحو ما تقدم .

وانتصاب ﴿ سواء ﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام ، أي استوت الأربعة سواء ، بمعنى استواء ، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من الأرض أو من الضمائر الراجعة اليها قرأ الجمهور بنصب سواء ، وقرأ زيد بن علي والحسن وغيرهما بخفضه على أنه صفة للأيام وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قال الحسن : المعنى في أربعة أيام مستوية تامة لا تزيد ولا تنقص ، وقوله :

﴿ للسائلين ﴾ متعلق بسواء أي مستويان للسائلين أو بمحذوف كأنه قيل هذا الحصر للسائلين في كم يوم خلقت الأرض وما فيها ؟ أو متعلق بقدر أي قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين اليها قال الفراء : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام ، واختار هذا ابن جرير .

ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض وما فيها ذكر كيفية خلقه للسموات فقال ﴿ ثم استوى الى السماء ﴾ أي عمد وقصد نحوها قصداً سوياً ، وتعلقت إرادته

بخلقها ، قال الرازي : هو من قولهم ، استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ، ونظيره قولهم : استقام اليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض وما فيها قال الحسن : المعنى صعد أمره إلى السماء ، ويفهم من هذه الآية أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض وبه قال ابن عباس ، وقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ مشعر بأن خلق الأرض بعد خلق السماء .

والجواب أن الخلق ليس عبارة عن الإيجاد والتكوين فقط ، بل هو عبارة عن التقدير أيضاً ، فالمعنى قضى أن يحدث الأرض في يومين بعد إحداث السماء وعلى هذا يزول الاشكال ، وقال الشوكاني بعد ذكر هذا الاستشكال . إن ثم ليست للتراخي الزماني[1] فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدم على خلق السماء ، ودحوها بمعنى بسطها هو أمر زائد على مجرد خلقها ، فهي متقدمة خلقاً متأخرة دحواً ، وهذا ظاهر انتهى .

ولعله يأتي عند تفسيرنا لقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ زيادة ايضاح للمقام إن شاء الله تعالى ، وقد تقدم هذا الجمع في سورة البقرة ولكن خلق ما في الأرض لا يكون إلا بعد دحوها فالاشكال باق ، وعلى هذا لا يتفصى عن الاشكال إلا بما ذكر في ثم ؛ أو أن بعد بمعنى قبل أو بمعنى مع .

﴿ وهي دخان ﴾ هو ما ارتفع من لهب النار ويستعار لما يرى من بخار الأرض ، قال المفسرون هذا الدخان هو بخار الماء ، وقياس جمعه في القلة أدخنة ، وفي الكثرة دخيان ، وهي من باب التشبيه الصوري لأن صورتها صورة الدخان في رأى العين ، وخص سبحانه الاستواء الى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك متوجهاً إليها وإلى الأرض ، كما يفيده قوله : ﴿ فقال لها

(١) سقط من الأصل: بل للتراخي الرتبى فيندفع الإشكال من أصله ، وعلى تقدير ينها للتراخي الزماني

وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ استغناء بما تقدم من ذكر تقديرها وتقدير ما فيها ، ومعنى ائتيا إفعلا ما آمركما به ، وجيئا به ، كما يقال : ائت ما هو الأحسن أي افعله ، وقيل : المعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، ائتي يا أرض مدحورة قراراً ومهاداً لأهلك ، وائتي يا سماء مقببة سقفاً لهم .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه قال : أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وأما أنت يا أرض فشققي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك ، قاله ابن عباس ، قرأ الجمهور ائتيا أمراً من الاتيان وقرىء آتيا قالتا آتينا ، بالمد فيهما ، وهو من المؤاتاة وهي الموافقة أي لتوافق كل منكما الأخرى لما يليق بها ، واليه ذهب الرازي والزمخشري ، أو من الإيتاء وهو الإعطاء قاله ابن عباس ، فوزنه على الأول فاعلا كقاتلا ، وعلى الثاني أفعلا كأكرما ، وطوعاً وكرهاً مصدران في موضع الحال ، أي طائعتين أو مكرهتين ، وقرىء كرهاً بالضم .

قال الزجاج : أطيعا طاعة أو تكرهان كرهاً ، قيل : ومعنى هذا الأمر لهما التسخير والحصول والوقوع أي كونا فكانتا ، كما قال تعالى : ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾ فالكلام من باب التمثيل لتأثير قدرته واستحالة امتناعهما أو من باب الاستعارة التخييلية .

﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ أي أتينا أمرك منقادين وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء ، وجمع الأمر لهما في الاخبار عنه لا يدل على جمعه في الزمان ، بل قد يكون القول لهما متعاقباً ، قال القرطبي : قال أكثر أهل العلم إن الله سبحانه خلق فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد سبحانه ، وقيل هو تمثيل لظهور الطاعة منهما وتأثير القدرة الربانية فيهما ، والأول أولى ، قال أبو نصر السكسي فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء بحيالها ، فوضع الله فيه حرمة .

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل ، المعبر عنه بالأمر ، وجوابه ، لا أنه فعل مرتب على تكوينهما أي خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة ، وأتمهن وفرغ منهن ، والضمير إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، أو مبهم مفسر بسبع سموات ، وانتصاب سبع على التفسير أو على البدل من الضمير ، وقيل على أنه مفعول ثان لقضاهن لأنه مضمن معنى صيرهن ، وقيل على الحال أي قضاهن حال كونهن معدودات بسبع ، ويكون قضى بمعنى صنع ، وقيل على التمييز .

﴿ في يومين ﴾ الخميس والجمعة ، وفرغ منها في آخر ساعة منه ، وفيها خلق آدم . قال المحلي ولذلك لم يقل هنا سواء ، ووافق ما هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والمعنى أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدراً بيومين ، والمشهور أن الأيام الستة بقدر أيام الدنيا ، وقيل بقدر ستة آلاف سنة حكاه القرطبي ، قال مجاهد ويوم من الستة الأيام ﴿ كألف سنة مما تعدون ﴾ .

﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال قتادة والسدي أي خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلج . وقيل المعنى أوحى فيها ما أراده وما أمر به ، والايحاء قد يكون بمعنى الأمر كما في قوله ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ وقوله ﴿ وإذ أوحيت الى الحواريين ﴾ أي أمرتهم ، وهو أمر تكوين ، قال ابن عباس « ولله على كل سماء بيت نحج اليه

وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور .

﴿ وزينا السماء الدنيا ﴾ أي التي تلي الأرض ﴿ بمصابيح ﴾ أي بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وفيه التفات الى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالتزيين المذكور .

﴿ وحفظاً ﴾ أي وحفظناها حفظاً أو خلقنا المصابيح زينة وحفظاً والأول أولى . قال أبو حيان في الوجه الثاني هو تكلف عدول عن السهل البين ، والمراد بالحفظ حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿ ذلك ﴾ أي ما وقع وتقدم ذكره ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ أي البليغ القدرة الكثير العلم .

﴿ فإن أعرضوا ﴾ عن التدبر والتفكر في هذه المخلوقات ، وعن الإيمان بعد هذا البيان ـ وفيه التفات من خطابهم بقوله أئنكم الى الغيبة لفعلهم الإعراض ـ فأعرض عن خطابهم ، وهو تناسب حسن .

﴿ فقل أنذرتكم ﴾ أي خوفتكم ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر به ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي عذاباً مثل عذابهم ، والمراد بالصاعقة العذاب المهلك من كل شيء ، قال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأي شيء كان ، والصاعقة في الأصل هي الصيحة التي يحصل بها الهلاك أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، والمراد بها هنا مطلق العذاب . لكن بالنظر إلى الصاعقة الأولى ، وأما الثانية فالمراد بها حقيقتها ، قرأ الجمهور صاعقة بالألف في الموضعين ، وقرىء صعقة فيهما ، وقد تقدم بيان معنى الصاعقة والصعقة في البقرة .

﴿ إذ جاءتهم ﴾ أي إلى عاد وثمود ، وإنما خص هاتين القبيلتين لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم ﴿ الرسل ﴾ أي هود وصالح ومن قبلهما وكان هود وصالح بين نوح وابراهيم ، وليس بينهما غيرهما من الرسل ، وأن الذين تقدموا عليهما من الرسل أربعة : نوح وادريس وشيث وآدم .

﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي أتوهم من كل جانب ، وعملوا

فيهم كل حيلة . فلم يروا منهم إلا الإعراض ، وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة والظرف متعلق بأنذرتكم أو بالصاعقة لأنها بمعنى العذاب أو حال من صاعقة عاد ، وهذا أولى من الوجهين الأولين لأن الإنذار لم يقع وقت مجيء الرسل فلا يصح أن يكون ظرفاً له ، وكذلك الصاعقة لا يصح أن يكون الوقت ظرفاً لها، ومن في الموضعين متعلقة بجاءتهم أي من جميع جوانبهم أو من جهة الزمان الماضي بالانذار عما جرى على الكفار أو من جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

وقيل : المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم ، فكأن الرسل قد جاؤوهم وخاطبوهم بقولهم :

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي بأن لا تعبدوا على أنها مصدرية أو تفسيرية أو مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به الرسل فقال : ﴿ قالوا ﴾ أي عاد وثمود مخاطبين لهود وصالح : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ﴾ أي لأرسل إلينا ﴿ ملائكة ﴾ ولم يرسل الينا بشراً من جنسنا ، ثم صرحوا بالكفر ولم يتلعثموا فقالوا : ﴿ فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي كافرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم الينا لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ، فكيف اختصكم برسالته دوننا .

وقد تقدم دفع هذه الشبهة الدحضة التي جاؤوا بها في غير موضع ، وفيه تغليب المخاطب على الغائب ، فغلبوا هوداً وصالحاً على من قبلهما من الرسل ، فكأنهم قالوا : فإنا كافرون بكما وَبِمَنْ دعوتمونا إلى الإيمان به ممن قبلكما من الرسل .

ولما ذكر عاد وثمود إجمالاً ذكر ما يختص بكل طائفة من الطائفتين تفصيلاً فقال :

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ
صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾
وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ أي بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من التكبر والتجبر ، ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الأقوال الدالة على الاستكبار فقال : ﴿ وقالوا : من أشد منا قوة ﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وقوة شديدة ، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب ، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما نزل بهم من العذاب ، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ، ويجعلها حيث يشاء ، فرد الله عليهم بقوله :

﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ الاستفهام للاستنكار عليهم والتوبيخ ، أي أو لم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة وأوسع منهم قوة؟ فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء ، يقول كن فيكون ، وقال(خلقهم)،ولم يقل خلق السموات، والأرض ، لأن هذا أبلغ في تكذيبهم في ادعاء انفرادهم بالقوة ، فإنهم حيث كانوا مخلوقين فبالضرورة أن خالقهم أشد قوة منهم .

﴿ وكانوا بآياتنا ﴾ أي بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها وجعلها دليلاً على نبوتهم ، أو بآياتنا التي أنزلناها على رسلنا أو بآياتنا التكوينية التي نصبناها لهم وجعلناها حجة عليهم ، أو بجميع ذلك ﴿ يجحدون ﴾ ثم ذكر الله سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه فقال :

﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ الصرصر الريح الشديدة الصوت من الصرة وهي الصيحة ، قال أبو عبيدة : معنى صرصر شديدة عاصفة ، وقال الفراء : هي الباردة تحرق كما تحرق النار ، وقال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة : هي الباردة ، وقال مجاهد : هي الشديدة السموم ، والأولى تفسيرها بالبرد لأن الصر في كلام العرب البرد ، قال ابن السكيت : صرصر يجوز أن يكون من الصر وهو البرد ، ومن صرصر الباب ، ومن الصرة وهي الصيحة ، ومنه ﴿ وأقبلت امرأته في صرة ﴾ .

ثم بين سبحانه وقت نزول ذلك العذاب عليهم فقال :

﴿ في أيام نحسات ﴾ أي نكدات مشئومات ذوات نحوس عليهم ، قال مجاهد وقتادة : كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء ، وذلك ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ قيل : وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء ، وقيل : نحسات باردات ، حكاه الثعلبي ، وقيل : متتابعات ، وقيل : شداد ، وقيل : ذوات غبار وتراب ثائر ، لا يكاد يبصر فيه . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو نحسات بإسكان الحاء على أنه جمع نحس ، وقرأ الباقون بكسرها ، واختار أبو حاتم الأولى لقوله ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ ، واختار أبو عبيد الثانية ﴿ لنذيقهم ﴾ أي لكي نذيقهم .

﴿ عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ والخزي هو الذل والهوان بسبب ذلك الاستكبار ، وهو في الأصل صفة المعذب ، وانما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة ، فهو من إضافة الموصوف الى صفته أي العذاب الخزي ، ولهذا جاء :

﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أي أشد إهانة وذلاً ، فلو لم يكن من إضافة الموصوف إلى صفته لم يأت بلفظ أخزى الذي يقتضي المشاركة ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أي لا يمنعون من العذاب النازل بهم ولا يدفعه عنهم دافع ، ثم ذكر حال الطائفة الأخرى فقال :

﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ أي بينا لهم سبيل النجاة ، ودللناهم على طريق الحق بارسال الرسل اليهم ، ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله ، وإنزال الآيات التشريعية ، فانها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ويصدق رسله .

قال الفراء معنى الآية دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل . قال الشيخ أبو منصور يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين ، وخلق الاهتداء فيهم ، فصاروا مهتدين ، ثم كفروا بعد ذلك وعقروا الناقة لأن الهدي المضاف الى الخلق يكون بمعنى البيان والتوفيق ، وخلق فعل الاهتداء ، فأما الهدي المضاف إلى الخلق فيكون بمعنى البيان لا غير .

وقال صاحب الكشاف فيه فإن قلت أليس معنى قولك هديته جعلت فيه الهدي ؟ والدليل عليه قولك هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية وحصولها ، كما تقول ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ قلت للدلالة على أنه مكنهم فأزاح عللهم ، ولم يبق لهم عذر فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها ا هـ وإنما تمحل بهذا لأنه لا يتمكن من أن يفسره بخلق الاهتداء لأنه يخالف مذهبه الفاسد .

قرأ الجمهور ثمود بالرفع ، ومنع الصرف ، وقرىء بالرفع والصرف ، وقرىء بالنصب والصرف ، وقرىء بالنصب والمنع ، فأما الرفع فعلى الابتداء وهو الفصيح وأما النصب فعلى الاشتغال ، وأما الصرف فعلى تفسير الاسم بالأب أو الحي ، وأما المنع فعلى تأويله بالقبيلة .

﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان قال أبو العالية اختاروا العمى على البيان ، وقال السدي اختاروا المعصية على الطاعة

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ قد تقدم أن الصاعقة اسم للشيء المهلك لأي شيء كان ، والهون الهوان والإهانة ، فكأنه قال أصابهم مهلك العذاب ذي الهوان أو الإهانة ، ويقال عذاب هون أي مهين كقوله ﴿ ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ الباء للسببية أي بسبب الذي كانوا يكسبونه ، أو بسبب كسبهم وهو شركهم وتكذيبهم صالحاً .

﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وهم صالح ومن معه من المؤمنين فإن الله نجاهم من ذلك العذاب وكانوا أربعة آلاف . ثم لما ذكر سبحانه ما عاقبهم به في الدنيا ذكر ما عاقبهم به في الآخرة فقال :

﴿ ويوم يحشر أعداء الله الى النار ﴾ وصفهم بكونهم أعداء الله مبالغة في ذمهم ، وقيل المراد بهم الكفار مطلقاً الأولين والآخرين ، أي أذكر لقريش المعاندين لك حال الكفار يوم القيامة ، لعلهم يرتدعوا وينزجروا ، ومعنى حشرهم الى النار سوقهم إليها أو إلى موقف الحساب ، لأنه يتبين عنده فريق الجنة وفريق النار ، قرأ الجمهور يحشر بالتحتية مضمومة ورفع أعداء على النيابة ، وقرأ نافع بالنون ونصب أعداء .

﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا ، كذا قال قتادة والسدي وغيرهما ، وبه قال ابن عباس أي يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار ، وأصله من وزعته أي كففته ، وقد سبق تحقيق معناه في سورة النمل مستوفى ، وعن ابن عباس قال : يدفعون ، وقيل يساقون .

﴿ حتى إذا ماجاؤوها ﴾ أي النار التي حشروا إليها وصاروا بحضرتها أو موقف الحساب و ﴿ ما ﴾ مزيدة للتوكيد ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا من المعاصي ، وفي كيفية هذه الشهادة ثلاثة أقوال ، أولها أن الله تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه ، ثانيها أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات

والحروف الدالة على تلك المعاني ، ثالثها أن يظهر في تلك الأعضاء أحوال تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ،. وتلك الأمارات تسمى شهادات ، كما يقال : العالم يشهد بتغيرات أحواله على حدوثه .

وقال الكرخي : ينطقها الله تعالى كإنطاق اللسان فتشهد . وليس نطقها بأغرب من نطق اللسان عقلاً ، وإيضاحه أن البنية ليست شرطاً للحياة والعلم والقدرة فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء .

قال مقاتل تنطق جوارحهم بما كتمت ألسنهم من عملهم بالشرك. والمراد بالجلود هي جلودهم المعروفة في قول أكثر المفسرين . وقيل : المراد بها الجوارح مطلقاً، فالعطف من قبيل عطف العام على الخاص . وقال السدي وعبيد الله بن أبي جعفر والفراء : أراد بالجلود الفروج وهو من باب الكنايات كما قال تعالى : ﴿ لا تواعدوهن سراً ﴾ أراد النكاح ، وقال تعالى : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ والمراد قضاء الحاجة ، وفي الحديث : « أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه » ، وعلى هذا التقدير تكون الآية وعيداً شديداً في إتيان الزنا لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالفخذ والأول أولى .

ووجه تخصيص الثلاثة بالشهادة دون غيرها مع أن الحواس خمسة ، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وآلة اللمس هي الجلد ، ما ذكره الرازي أن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم الطعام ، وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الأنف مماسة لجرم المشموم فكانا داخلين في حس اللمس انتهى .

واذا عرفت من كلامه هذا وجه تخصيص الثلاثة بالذكر عرفت منه وجه تخصيص الجلود بالسؤال كما قال :

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ
خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ
ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ وقالوا لجلودهم ﴾ لأنها قد اشتملت على ثلاث حواس فكان تأتي المعصية من جهتها أكثر ، وأما على قول من قال بالفروج فوجه تخصيصها بالسؤال ظاهر ، لأن ما يشهد به الفرج من الزنا أعظم قبحاً وأجلب للخزي والعقوبة ، قيل : والمراد بالجلود هنا المعنى الأعم ، فليس في سؤالهم ترك سؤال السمع والبصر ، بل هما داخلان في الجلود بالمعنى الذي علمته ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ سؤال توبيخ وتعجب من هذا الأمر الغريب لكونها ليست مما ينطق ولكونها كانت في الدنيا مساعدة لهم على المعاصي فكيف تشهد الآن عليهم فلذلك استغربوا شهادتها وخاطبوها بصيغة خطاب العقلاء ، لصدور ما يصدر من العقلاء عنها وهو الشهادة .

﴿ قالوا ﴾ مجيبين لهم معتذرين : ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ مما ينطق من مخلوقاته ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ، وقيل : المعنى ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله والأول أولى ، والمعنى أن نطقنا ليس بعجيب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان .

﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ قيل : هذا من تمام كلام الجلود ، وقيل إنه من كلام الملائكة ، وقيل : مستأنف من كلام الله ، والمعنى أن من قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم اليه ، ولعل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجوع لما أن

المراد بالرجوع ليس مجرد الرد الى الحياة بالبعث بل ما يعمه ويعم ما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند المخاطبة ، فغلب المتوقع على الواقع .

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ هذا تقريع لهم ، وتوبيخ من جهة الله سبحانه أو من كلام الجلود ، أي ما كنتم تستخفون عند الأعمال القبيحة وارتكاب الفواحش بالحيطان والحجب ، حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً وهو قول أكثر العلماء . ولما كان الانسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية ، وقيل : معنى الاستتار الاتقاء أي ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة ، فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة ، ومعنى أن تشهد لأجل أن تشهد ، أو مخافة أن تشهد ، وقيل إن الاستتار مضمن معنى الظن ، أي وما كنتم تظنون أن تشهد وهو بعيد .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن معاوية ابن حيدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحشرون ههنا وأومأ بيده الى الشام مشاة وركباناً وعلى وجوهكم ، وتعرضون على الله وعلى أفواهكم الفدام وأول ما يعرب عن أحدكم فخذه وكفه وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كنتم تستترون » الخ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : « كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان أو ثقفي وقرشيان ، كثير لحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إن لنا آنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإنا إذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر انه إن سمع منه شيئاً سمعه كله ، قال : فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : وما كنتم تستترون أن

يشهد عليكم سمعكم إلى قوله من الخاسرين» .

﴿ ولكن ظننتم ﴾ عند استتاركم من الناس مع عدم استتاركم من أعضائكم ﴿ أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ من المعاصي فاجترأتم على فعلها قيل : كان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نسر ، قال قتادة : الظن هنا بمعنى العلم ، وقيل : أريد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي ، وما هو فوقه من العلم .

﴿ وذلكم ﴾ أي ما ذكر من ظنكم مبتدأ ﴿ ظنكم ﴾ بدل منه ﴿ الذي ظننتم بربكم ﴾ نعت والخبر ﴿ أرداكم ﴾ أي أهلككم وطرحكم في النار ، وقيل : ظنكم الخبر والموصول بدل أو بيان ، وأرداكم حال ، وقد مقدرة أو غير مقدرة ، أي ذلكم ظنكم مردياً إياكم .

﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي الكاملين في الخسران ، قال المحققون الظن قسمان أحدهما حسن والآخر قبيح ، فالحسن أن يظن بالله عز وجل : الرحمة والفضل والاحسان ، قال صلى الله عليه وسلم ، حكاية عن الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي »[1] .

وأخرج أحمد وأبو داود والطيالسي وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله وذلكم ظنكم »[2] الآية ، والظن القبيح أن يظن أنه تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الأفعال ، وقال قتادة الظن نوعان مرد ومنج ، فالمنجي قوله : ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ ، وقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾ ، والمردي هو قوله : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ ثم أخبر عن حالهم فقال :

---

(١) البخاري ٨/٤٣١ ـ أحمد ٣٨٧٥/٣٦١٤ والترمذي ١٥٢/٢ والطبري ١٠٩/٢٤ .
(٢) مسلم ٢٢٠٦/٤ .

فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞
وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ
أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمْ فِيهَا
دَارُ ٱلْخُلْدِۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ فإن يصبروا ﴾ على النار ﴿ فالنار مثوى لهم ﴾ أي محل استقرارهم وإقامتهم ، لا خلاص ولا خروج لهم منها ، صبروا أو لم يصبروا على كل حال ؛ وقيل : المعنى فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوى لهم ﴿ وان يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ يقال أعتبني فلان أي أرضاني بعد إسخاطه إياي واستعتبته طلبت منه أن يرضى .

والمعنى أنهم إن يسألوا أن يرجع بهم إلى ما يحبون لم يرجع لأنهم لا يستحقون ذلك قال الخليل تقول استعتبته فاعتبني أي استرضيته فأرضاني ومعنى الآية إن يطلبوا الرضا لم يقع الرضا عنهم بل لا بد لهم من النار قرأ الجمهور يستعتبوا بفتح التحتية وكسر التاء الفوقية الثانية مبنياً للفاعل ومن المعتبين بفتح الفوقية اسم مفعول وقرىء يُسْتَعْتَبُوا مبنياً للمفعول وقرىء من المُعْتِبين اسم فاعل أي أنهم إن أقالهم الله وردهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته كما في قوله سبحانه ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ .

﴿ وقيضنا ﴾ أصل التقييض التيسير والتهيئة أي هيأنا ﴿ لهم ﴾ أي لكفار قريش وغيرهم ﴿ قرناء ﴾ من الشياطين بمنزلة الإخلاء لهم جمع قرين بمعنى نظير كقوله ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال

الزجاج سببنا لهم قرناء حتى أضلوهم وقيل سلطنا عليهم قرناء وقيل قدرنا والمعاني متقاربة أي يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض والقيض قشر البيض الأعلى وقيل إن الله قيض لهم قرناء في النار والأولى أن ذلك في الدنيا لقوله :

﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ فان المعنى زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها وحملوهم على الوقوع في معاصي الله بانهماكهم فيها وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة فقالوا لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار وقال الزجاج ما بين أيديهم ما عملوه وما خلفهم ما عزموا على أن يعملوه وروي عنه أيضاً أنه قال ما بين ايديهم من أمر الأخرة وما خلفهم من أمر الدنيا بأن الدنيا قديمة ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك .

﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي وجب وثبت عليهم العذاب وتحقق مقتضاه وهو قوله سبحانه ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ﴿ في أمم﴾ أي كائنين في جملة أمم وقيل في بمعنى مع أي مع أمم من الأمم الكافرة ولا حاجة الى بدل حرف من حرف مع إمكان بقائه على بابه والمعنى الأمم التي ﴿ قد خلت ﴾ ومضت ﴿ من قبلهم من الجن والإنس ﴾ على الكفر ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب قاله الكرخي .

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي قال بعضهم لبعض لا تسمعوه ولا تنصتوا له وقيل المعنى لا تطيعوا يقال سمعت لك أي أطعتك ﴿ والغوا فيه ﴾ أي عارضوه باللغو والباطل أو ارفعوا أصواتكم ليتشوش القارىء له وقال مجاهد الغوا فيه بالمكاء والتصدية والتصفيق والتخليط في الكلام حتى يصير لغواً وقال الضحاك أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول وقال أبو العالية قعوا فيه وعيبوه قرأ الجمهور ألغوا بفتح الغين من لغا اذا تكلم باللغو وهو ما لا فائدة فيه أو من لغى بالفتح يلغي بالفتح أيضاً كما حكاه الأخفش وكان قياسه الضم كغزا يغزو ولكنه فتح لأجل حرف الحلق أو من لغا بكذا إذا رمى به فتكون في بمعنى الباء أي ارموا به وقرىء بضم الغين من لغا بالفتح يلغو كدعا

يدعو وفي الحديث « فقد لغوت » وهذا موافق لقراءة غير الجمهور .

وقد تقدم الكلام في اللغو في سورة البقرة ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ أي لكي تغلبوا فيسكتوا ، عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ وكان إذا أخفى قراءته لم يسمع من يحب أن يسمع القرآن فأنزل الله ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ » أخرجه ابن أبي حاتم .

ثم توعدهم سبحانه على ذلك فقال : ﴿ فلنذيقهن الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾ هذا وعيد لجميع الكفار ويدخل فيهم الذين السياق معهم دخولاً أولياً ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ أي ولنجزينهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا قال مقاتل وهو الشرك وقيل المعنى أنه يجازيهم بمساوىء أعمالهم لا بمحاسنها كما يقع منهم من صلة الأرحام وإكرام الضيف لأن ذلك باطل لا أجر له مع كفرهم .

وفي هذا تعريض بمن لا يكون عند كلام الله المجيد خاضعاً خاشعاً متفكرا متدبراً وتهديد ووعيد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارىء ويخلط عليه القراءة فانظر الى عظمة القرآن وتأمل في هذا التغليظ والتشديد وأشهد لمن عظمه وأجل قدره وألقى إليه السمع وهو شهيد بالفوز العظيم والأجر الكبير .

﴿ ذلك ﴾ أي العذاب الشديد وأسوأ الجزاء ﴿ جزاء أعداء الله النار ﴾ بدل أو عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك أو خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ خبره ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ أي دار الاقامة المستمرة التي لا انقطاع لها ولا انتقال عنها ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أي يجزون جزاء بسبب جحدهم بآيات الله .

قال مقاتل يعني القرآن يجحدون أنه من عند الله وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجحود لكونه سبباً له إقامة للسبب مقام المسبب .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا
لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس ﴾ قالوا هذا وهم في النار وذكره بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه والمراد أنهم طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريقي الجن والإنس من الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر ومن الشياطين الذين كانوا يسولون لهم ويحملونهم على المعاصي لأن الشيطان على ضربين جني وإنسي .

قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ وقال ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ هو ابن آدم الذي قتل أخاه وإبليس أي لأنهما سنا المعصية لبني آدم ، قرأ الجمهور : أرنا بكسر الراء وقرىء : بسكونها وهما لغتان بمعنى واحد .

وقال الخليل إذا قلت أرني ثوبك بالكسر فمعناه بصرنيه وبالسكون أعطنيه ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ في النار أي ندوسهما بأقدامنا لنشتفي منهما وليكونا وقاية بيننا وبينها فتخف عنا حرارتها نوع خفة و ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ فيها مكاناً أو ليكونا من الأذلين المهانين وقيل ليكونا أشد عذاباً منا قال الزجاج ليكونا في الدرك الأسفل وممن هو دوننا ثم لما ذكر سوء عقاب الكافرين وما أعده لهم ذكر حسن حال المؤمنين وما أنعم به عليهم فقال :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ﴾ وحده لا شريك له .

﴿ ثم استقاموا ﴾ أي داموا وثبتوا على التوحيد ولم يلتفتوا الى إله غير الله وثم للتراخي في الزمان من حيث أن الاستقامة أمر يمتد زمانه أفاده أبو السعود وقال الخطيب ثم لتراخي الرتبة في الفضيلة فإن الثبات على التوحيد ومصححاته إلى الممات في علو رتبته أمر لا يرام إلا بتوفيق ذي الجلال والاكرام قال جماعة من الصحابة والتابعين معنى الاستقامة إخلاص العمل لله تعالى .

وقال قتادة وابن زيد ثم استقاموا على طاعة الله وقال الحسن استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا وقال الثوري عملوا على وفاق ما قالوا وقال الربيع أعرضوا عما سوى الله وقال الفضيل بن عياض زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية .

عن أنس قال : « قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قال: قد قالها ناس من الناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حين يموت فهو ممن استقام عليها » أخرجه الترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلى وغيرهم وقال أبو بكر الصديق الاستقامة أن لا يشركوا بالله شيئاً وعنه قال لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان قال أبو حيان قال ابن عباس نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وعن بعض الصحابة قال ثم استقاموا على فرائض الله .

وعن عمر بن الخطاب قال : استقاموا بطاعة الله لم يروغوا روغان الثعلب وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي والبخاري في تاريخه ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن سفيان بن عبدالله الثقفي أن رجلاً قال : « يا رسول الله مرني بأمر في الاسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : قل

آمنت بالله ثم استقم . قلت : فما أتقي ؟ فأومأ إلى لسانه[١]» قال الترمذي : حسن صحيح .

﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ من عند الله بالبشرى التي يريدونها من جلب نفع أو دفع ضر أو رفع حزن قال ابن زيد ومجاهد تتنزل عليهم عند الموت وقال مقاتل وقتادة إذا قاموا من قبورهم للبعث وقال وكيع البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث قال البيضاوي أو في حياتهم فيما يعرض لهم من الأحوال تأتيهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن .

﴿ أن لا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ أن هي المخففة أو المفسرة أو الناصبة ولا على الوجهين الأولين ناهية وعلى الثالث نافية والمعنى لا تخافون مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال .

قال مجاهد لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم فإن الله خليفتكم عليهم وقال عطاء لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين وعدم تقييد نفي الخوف والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع والخوف غم يلحق النفس لتوقع مكروه في المستقبل والحزن غم يلحقها لفوات نفع في الماضي .

﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ بها على ألسنة الرسل في الدنيا فإنكم واصلون اليها مستقرون بها خالدون في نعيمها ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من ذلك كله فقال ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب ونجا من كل مخافة وقيل إن هذا من قول الملائكة .

---

(١) مسلم ١/٦٥ - السيوطي في الدر ٥/٣٦٣ .

قال مجاهد يقولون لهم نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة.

وقال السدي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأنصاركم وأحباؤكم وأولياؤكم في الآخرة وقيل أنهم يشفعون لهم في الآخرة ويتلقونهم بالكرامة وقال النسفي رحمه الله كما أن الشياطين قرناء العصاة والكافرين فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ من صنوف الكرامات واللذات وانواع النعم ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي تتمنون افتعال من الدعاء بمعنى الطلب.

وقد تقدم بيان معنى هذا في قوله ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ مستوفى ، والفرق بين الجملتين أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم، والثانية باعتبار ما يطلبونه ، أعم من أن يكون مما تشتهيه أنفسهم أولاً ، إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى ، كالفضائل العلمية ، وإن كان الأول أعم أيضاً من وجه بحسب حال الدنيا فالمريض لا يريد ما يشتهيه ويضر مرضه إلا أن يقال التمني أعم من الارادة ، وقال الرازي : الأقرب عندي أن قوله : ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ إشارة الى الجنة الروحانية المذكورة في قوله ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ الآية .

وانتصاب﴿ نزلاًمن غفور رحيم ﴾ على الحال من الموصول ، أو من عائده أو من فاعل تدعون أو هو مصدر مؤكد لفعل محذوف أي أنزلنا نزلاً والنزل ما يعد لهم حال نزولهم من الرزق والضيافة ، قال النسفي : هو رزق النزيل وهو الضيف ، وقد تقدم تحقيقه في سورة آل عمران قال أهل المعاني كل هذه الأشياء المذكورة في هذه الآية جارية مجرى النزل ، والكريم إذا أعطى هذا النزل ، فما ظنك بما بعده من الألطاف والكرامة .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله ﴾ أي الى توحيده وطاعته قال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس الى ما أجاب الله فيه من طاعته ﴿ وعمل صالحاً ﴾ في إجابته ﴿ وقال إنني من المسلمين ﴾ لربي ، وليس الغرض منه القول فقط بل يضم إليه إعتقاد القلب فيعتقد بقلبه دين الإسلام مع التلفظ ، أي قال ذلك ابتهاجاً بالإسلام وفرحاً به واتخاذاً له ديناً ومذهباً وتفاخراً به ، قال ابن سيرين والسدي وابن زيد : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروي هذا أيضاً عن الحسن .

وقال عكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد : نزلت في المؤذنين قالت عائشة الداعي الى الله المؤذن والعمل الصالح ركعتان فيما بين الأذان والإقامة وعنها قالت : ما أرى هذه الآية نزلت إلا في المؤذنين ، ويجاب عن هذا بأن الآية مكية والأذان إنما شرع بالمدينة والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ، ويدخل فيها من كان سبباً لنزولها دخولاً أولياً ، فكل من جمع بين دعاء العباد الى ما شرعه الله وعمل عملاً صالحاً ، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه .

وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم ، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله ، قيل : وللدعوة الى الله مراتب الأولى

دعوةالأنبياء الى الله بالمعجزات ، وبالحجج والبراهين ، وبالسيف ، وهذه المرتبة لم تتفق لغير الأنبياء . المرتبة الثانية : دعوة العلماء الى الله بالحجج والبراهين فقط ، والعلماء أقسام علماء بالله وعلماء بصفات الله وعلماء بأحكام الله . المرتبة الثالثة دعوة المجاهدين الى الله بالسيف والسنان ، فهم يجاهدون الكفار حتى يدخلوا في دين الله وطاعته . المرتبة الرابعة دعوة المؤذنين الى الصلاة فهم أيضاً دعاة الى الله والى طاعته .

ثم بين سبحانه الفرق بين محاسن الأعمال ومساويها فقال :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أي لا تستوي الحسنة التي يرضى بها الله ويثيب عليها ، ولا السيئة التي كرهها الله ويعاقب عليها ، ولا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي ، فإن اللفظ أوسع من ذلك ، وقيل الحسنة التوحيد والسيئة الشرك وقيل الحسنة المدارة، والسيئة الغلظة وقيل الحسنة العفو والسيئة الانتصار وقيل الحسنة العلم ، والسيئة الفحش ، وقيل غير ذلك . قال الفراء (لا) في (ولا السيئة) زائدة ، والجملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب ، ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصبر على أذية المشركين ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان .

﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة ، أي ادفع السيئة اذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، ومنه مقابلة الاساءة بالإحسان ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ، والاحتمال للمكروهات ، قال ابن عباس أمر المسلمين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل : والعفو عند الاساءة ؛ فاذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم وقال ابن عباس القه بالسلام وقال مجاهد وعطاء : بالتي هي أحسن يعني بالسلام إذا لقي من

يعاديه ، وقيل بالمصافحة عند التلاقي .

والمعنى أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما ، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها اذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك ، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ، ووضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة ، لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها .

﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن ، والمعنى أنك اذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق ، والبعيد عنك كالقريب منك ، وقال مقاتل : نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان معادياً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فصار له ولياً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه ، ثم أسلم فصار ولياً في الإسلام ، حميماً بالصهارة ، وقيل غير ذلك ، والأولى حمل الآية على العموم .

﴿ وما يلقاها ﴾ قال الزجاج : أي ما يلقى هذه الفعلة وهذه الحالة وهي دفع السيئة بالحسنة ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ على كظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، وتجرع الشدائد ، وترك الانتقام . وقال أنس : الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت صادقاً غفر الله لي ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك .

﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ في الثواب والخير ، أو من الخلق الحسن وكمال النسب ، وهذا أنسب . وقال قتادة : الحظ العظيم الجنة أي ما يلقاها إلا من وجبت له الجنة ، وقيل الضمير في يلقاها عائد الى الجنة ، وقيل راجعة الى كلمة التوحيد ، قرأ الجمهور ؛ يلقاها من التلقية ، وقرىء تلاقاها من الملاقاة ثم أمر سبحانه بالاستعاذة من الشيطان فقال :

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ
آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا
فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي
الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ
فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزع ﴾ النزغ شبيه النخس ، شبه به الوسوسة لأنها تبعث على الشر ، وجعل النزغ نازغاً على سبيل المجاز العقلي ، كقولهم جد جده ، أو أريد : وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر ، أو لتسويله ، والمعنى : وإن صرفك الشيطان عن شيء مما شرعه الله لك أو عن الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شره وامض على حلمك ولا تطعه .

وجملة . ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تعليل لما قبلها ، أي السميع لكل ما يسمع ، ومنه استعاذتك ، والعليم بكل ما يعلم ومنه فعلك وأحوالك ، ومن كان كذلك فهو يعيذ من استعاذ به ، وقال هنا بزيادة هو وأل ، وفي الأعراف بدونهما ، لأن ما هنا متصل بمؤكد بالتكرار وبالحصر ، فناسب التأكيد بما ذكر ، وما في الأعراف خلي عن ذلك ، فجرى على القياس من كون المسند اليه معرفة والمسند نكرة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سليمان بن صرد قال : استب

رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد غضب أحدهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقال الرجل : أمجنون تراني فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ باللهإنه هو السميع العليم ﴾ » .

ثم شرع سبحانه في بيان بعض آياته البديعة ، الدالة على كمال قدرته وقوة تصرفه للاستدلال بها على توحيده فقال :

﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ في تعاقبهما على حد معلوم ، وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿ والشمس والقمر ﴾ في اختصاصهما بسير مقدر ونور مقرر ، هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر ، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار للإيذان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لهما ، بنظمهما في المخلوقية في سلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها ، وهذا هو السر في نظم الكل في سلك آياته ، ثم لما بين أن ذلك من آياته نهاهم عن عبادة الشمس والقمر ، وأمرهم أن يسجدوا لله عز وجل فقال : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ لأنهما مخلوقان من مخلوقاته وإن كثرت منافعهما فلا يصح أن يكونا شريكين له في ربوبيته .

﴿ واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ أي هذه الأربعة المذكورة ، لأن جمع ما لا يعقل حكمه حكم جمع الاناث ، أو الآيات ، أو الشمس والقمر ، لأن الاثنين جمع عند جماعة من الأئمة . قال السمين : وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث مع أن فيها ثلاثة مذكرة والعادة تغليب المذكر على المؤنث ، لأنه لما قال : ومن آياته فنظم الأربعة في سلك الآيات صار كل واحد منها آية فعبر عنها بضمير الاناث في قوله : خلقهن .

﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ قيل : كان ناس يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله ، فنهوا عن ذلك ، فهذا وجه تخصيص ذكر السجود بالنهي عنه ،

وقيل : وجه تخصيصه أنه أقصى مراتب العبادة .

وهـذه الآية من آيـات السجود بـلا خلاف ، وإنمـا اختلفـوا في مـوضـع السجـدة فقيل : مـوضعها عنـد قولـه ﴿ إن كنتم إياه تعبـدون ﴾ ، لأنه متصـل بالأمر ، وقيل عند قوله ﴿ وهم لا يسأمون ﴾ لأنه تمام الكلام ، وعن ابن عباس أنه كان يسجد بآخر الايتين من حَم السجدة ، وكان ابن مسعود يسجـد بالأولى منهما ، وعن ابن عمر انه كان يسجد بالأولى ويسجد بالآية الأخيرة .

﴿ فـإن استكبروا فـالذين عنـد ربك يسبحـون له بـالليل والنهـار وهم لا يسـأمون ﴾ أي إن استكبـر هؤلاء عن الامتثال فـدعهم وشأنهـم ، فـإن لله عباداً يعبدونه كالملائكة يديمـون التسبيح لله سبحـانه بـالليل والنهـار ، أو يصلون له وهم لا يملون ولا يفترون ، يعني أن الله لا يعدم عابداً أبداً ، بل من خلقه من يعبده على الدوام ، والعندية عندية مكانـة وتشريف ، وفي الحـديث « أنا عنـد ظن عبدي بي »و « أنا عند المنكسرة قلوبهم » .

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته ووحدانيته ﴿ أنك ﴾ الخطاب لكـل من يصلح لـه ، أو لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ تـرى الأرض ﴾ أي بعضها بحاسة البصر ، وبعضها بعين البصيرة ، قياساً على ما أبصرت ﴿ خاشعة ﴾ يابسة لا نبات فيها ، متطامنة ، وهي أنسب بلفظ خاشعة ، والخاشعة اليابسة الجـدبة الجـامدة ، وقيـل : الغبراء التي لاتنبت ، قـال الأزهـري . اذا يبست الأرض ولم تمطر ، قيل : قـد خشعت والخشوع التـذلل والتقـاصر ، فـاستعير لحال الأرض اذا كانت قحطة لا نبات فيها ، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو كما قال : ﴿ فـإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ أي ماء المطر أو غيره ﴿ اهتزت ﴾ تحركت بالنبـات حركـة عـظيمة كثيـرة سريعـة فكان كمن يعـالج ذلـك بنفسه ، يقـال اهتز الانسـان إذا تحرك .

﴿وربت﴾ انتفخت وعلت قبـل أن تنبت ، قـالـه مجـاهـد وغيـره أي تصـدعت عن النبـات بعـد مـوتهـا ، وعلى هـذا ففي الكـلام تقـديم وتـأخيـر

وتقديره : ربت واهتزت وقيل : الاهتزاز والربو قد يكونان قبل خروج النبات من الأرض وقد يكونان بعده ، ومعنى الربو لغة الارتفاع . كما يقال للموضع المرتفع : ربوة ورابية فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً .

وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج ، وقيل اهتزت استبشرت بالمطر وربت انتفخت بالنبات ، وقيل تشققت فارتفع ترابها . وخرج منها النبات وسما في الجو مغطياً لوجهها ، وتشعبت عروقه وغلظت سوقه ، فصار يمنع سلوكها على ما كانت فيه من السهولة ، وتزخرفت بذلك النبات كأنها بمنزلة المختال في زيه . لما كانت قبل ذلك كالذليل ، وقرأ أبو جعفر وخالد ربأت ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى ﴾ بالبعث والنشور ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان .

﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا ﴾ أي يمليون عن الحق والاستقامة في آياتنا بالطعن والتحريف ، والتأويل الباطل ، واللغو فيها ، والإلحاد الميل والعدول ومنه اللحد في القبر ، لأنه أميل الى ناحية منه ، يقال : الحد في دين الله أي مال عنه وعدل ، ويقال لحد وهو لغة فيه ، وقد تقدم تفسير الإلحاد ، ويقال : ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ، فاستعير لحال الأرض اذا كانت ملحودة ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة ، قال مجاهد : معنى الآية يميلون عن الايمان بالقرآن ، وقال أيضاً : يميلون عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية ، واللغو والغناء ، وقال قتادة يكذبون في آياتنا ، وقال السدي : يعاندون ويشاقون ، وقال ابن زيد : يشركون ، والمعاني متقاربة ، وقال ابن عباس في الآية ؛ هو أن يضع الكلام في غير موضعه .

﴿ لا يخفون علينا ﴾ بل نحن نعلمهم فنجازيهم بما يعملون ، قيل : نزلت في أبي جهل ، ثم بيّن كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال : ﴿ أفمن يلقى في النار خير . أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ الاستفهام

للتقرير ، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار ، وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة .

وظاهر الآية العموم اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهو تمثيل للكافر والمؤمن ، وقيل : المراد بمن يلقى في النار أبو جهل ، ومن يأتي آمناً النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل حمزة وقيل عمر بن الخطاب وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسود المخزومي ، وقال ابن عباس : أبو جهل ابن هشام ومن يأتي آمناً يوم القيامة أبو بكر الصديق . وعن بشير بن تميم قال : نزلت في أبي جهل وعمار بن ياسر ، وعن عكرمة مثله ، وكان الظاهر أن يقال أم من يدخل الجنة ؟ وعدل عنه للتصريح بأمنهم ، وانتفاء الخوف عنهم ، قاله الكرخي . وترسم (أم) مفصولة من (من) اتباعاً للمصحف الامام .

﴿ اعملوا ﴾ هذا أمر تهديد ، أي اعملوا من أعمالكم التي تلقيكم في النار ﴿ ما شئتم ﴾ فهو مجازيكم على كل ما تعملون ، قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه الوعيد ، وقال ابن عباس : هذا لأهل بدر خاصة ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ لا تخفى عليه منه خافية فيجازيكم عليه .

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وخبر إن محذوف أي إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم يجازون بكفرهم ، أو هالكون . أو يعذبون . وقيل هو قوله : ﴿ ينادون من مكان بعيد ﴾ وهذا بعيد وإن رجحه أبو عمرو بن العلاء ، وذكر السمين في خبر إن أعاريب ووجوهاً لا نطول بذكرها ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن الذي كانوا يلحدون فيه ﴿ لكتاب عزيز ﴾ عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون منيع عن كل عيب محمي بحماية الله وقيل : عديم نظيره ، وذلك أن الخلق عجزوا عن معارضته ، وقيل : أعزه الله بمعنى منعه أي ممتنع عن قبول الابطال والتحريف .

ثم وصفه بأنه حق لا سبيل للباطل إليه بوجه من الوجوه فقال :

لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ قال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه . وبه قال قتادة والسدي ومعنى الباطل على هذه الزيادة والنقصان ، وقال مقاتل لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ، ولا يجيء من بعده كتاب فيبطله ، وبه قال الكلبي وسعيد بن جبير ، وقيل : الباطل هو الشيطان أي لا يستطيع أن يزيد فيه ولا ينقص منه . وقيل : لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، لا من جبريل ولا من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لا يأتيه التبديل والتناقض بوجه من الوجوه ، وقيل : لا يأتيه الباطل عما أخبر فيما تقدم من الزمان ، ولا فيما تأخر ، وقيل : إن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات ، حتى يصل إليه والمعنى كل ما فيه حق وصدق ، ليس فيه ما لا يطابق الواقع ، والعموم أولى .

﴿ تنزيل من جكيم حميد ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أو صفة أخرى لكتاب ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يتأثر له من أذية الكفار فقال ﴿ ما يقال لك ﴾ من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر والكذب والجنون ﴿ إلا ﴾ مثل ﴿ ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل

ما يقول لك هؤلاء ، وقيل : المعنى ما يقال لك من التوحيد وإخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك وقيل هو استفهام أي أيُّ شيء يقال لك .

﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ لمن يستحق مغفرته من الموحدين الذين تابعوك وتابعوا من قبلك من الأنبياء ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ للكفار المكذبين المعادين لرسل الله ، وقيل : لذو مغفرة للأنبياء وذو عقاب لأعدائهم .

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً ﴾ أي لو جعلنا هذا القرآن الذي تقرأه على الناس بغير لغة العرب ، ولا حجة فيه لأبي حنيفة رحمه الله في جواز الصلاة اذا قرأ بالفارسية كما زعمه النسفي وغيره لأن التركيب خارج مخرج الفرض والتقدير دون الوقوع والتحقيق ﴿ لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ أي بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم لغة العجم والاستفهام في قوله ﴿ أأعجمي وعربي ﴾ للإنكار وهو من جملة قول المشركين ، أي لقالوا : كلام أعجمي ورسول عربي ، والأعجمي الذي لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم ، والياء للمبالغة في الوصف كأحمري ، وليس النسب فيه حقيقياً .

وقال الرازي في لوامحه : هي كياء كرسي وبختي ، وفرق بينهما الشيخ ، والأعجم ضد الفصيح وهو الذي لا يبين كلامه ، ويقال للحيوان غير الناطق أعجم ، وقيل المراد هلا فصلت آياته فجعل أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب ، قال ابن عباس : يقول لو جعلنا القرآن أعجمياً ولسانك يا محمد عربي لقالوا أعجمي وعربي تأتينا به مختلفاً أو مختلطاً هَلاَّ بينت آياته فكان القرآن مثل اللسان يقول ، فلم نفعل لئلا يقولوا فكانت حجة عليهم قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي أأعجمي بهمزتين مخففتين وقرىء بهمزة واحدة وقرىء بتسهيل الثانية بين بين :

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم فقال :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أي يهتدون به الى الحق ويستشفون

به من كل شك وشبهة ، ومن الأسقام والآلام ، قال الشهاب : رد عليهم بأنه هاد لهم ، شاف لما في صدورهم ، كاف في دفع الشبهة فلذا ورد بلسانهم معجزاً بيناً في نفسه مبيناً لغيره .

﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي صمم عن سماعه ، وفهم معانيه ولهذا تواصوا باللغو فيه والموصول مبتدأ خبره في آذانهم وقر ، والموصول الثاني عطف على الأول ، ووقر عطف على هدى ، عند من جوز العطف على معمولي عاملين مختلفين والتقدير هو للأولين هدى وشفاء وللآخرين وقر في آذانهم .

﴿ وهو عليهم عمى ﴾ وذلك لتصامهم عن سماعه ، وتعاميهم عما يريهم من الآيات ، قال قتادة : عموا عن القرآن وصموا عنه . وقال السدي عميت قلوبهم عنه والمعنى وهم عليه ذو عمى ، ووصف بالمصدر للمبالغة ، وقيل : المعنى والوقر عليهم عمى ، أي ظلمة وشبهة ، قرأ الجمهور عمى بفتح الميم منونة على أنه مصدر .

وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص وابن عمر بكسر الميم منونة على أنه إسم منقوص على أنه وصف به مجازاً . وقرىء بكسر الميم وفتح الياء على أنه فعل ماض ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى .

﴿ أولئك ﴾ أي الذين لا يؤمنون ﴿ ينادون من مكان بعيد ﴾ مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم للقرآن بحال من ينادي من مسافة بعيدة لا يسمع من يناديه منها ، قال الفراء : تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك أنت تنادي من مكان بعيد ، ففيه استعارة تمثيلية ، وقال الضحاك ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد وقال مجاهد من مكان بعيد من قلوبهم .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ كلام مستأنف يتضمن تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يحصل له من الاغتمام بكفر قومه

وطعنهم في القرآن فأخبره أن هذه عادة قديمة في أمم الرسل ، غير مختصة بقومك ، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة اليهم ، والمراد بالكتاب التوراة وضمير فيه راجع اليه وقيل يرجع الىموسى والأول أولى ، يعني قال بعضهم هو حق ، وقال بعضهم هو باطل ، كما اختلف قومك في كتابك فمصدق به ومكذب .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن من أمتك وإمهالهم كما في قوله : ﴿ ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ﴾ ﴿ لقضى بينهم ﴾ بتعجيل العذاب لمن كذب منهم قال قتادة أي سبق لهم من الله حين وأجل هم بالغوه .

﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ أي من كتابك المنزل عليك وهو القرآن ومعنى الشك المريب الموقع في الريبة والشديد الريبة ، وقيل : إن المراد اليهود ، وأنهم في شك من التوراة مريب ، والأولى أولى .

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي من أطاع الله وآمن برسله ولم يكذبهم فثواب ذلك راجع إليه ، ونفعه خاص به ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ أي عقاب إساءته عليه لا على غيره ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ فلا يعذب أحداً إلا بذنبه ، ولا يقع منه الظلم لأحد ، كما في قوله سبحانه ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ وظلام صيغة نسب كتمّار ، وبقال ، وخباز ، لا صيغة مبالغة ، وهذا التقرير أحسن من غيره .

وقال الكرخي : ليس بذي ظلم أشار به الى أن ظلام ليس على بابه ، وقد تقدم الكلام على معنى هذه الآية في سورة آل عمران عند قوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ وفي سورة الأنفال أيضاً ثم أخبر سبحانه أن علم القيامة ووقت قيامها لا يعلمه غيره فقال :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أي علم سؤال الساعة ، أي السؤال عنها أي علم جواب هذا السؤال ، فإذا وقع السؤال عنها وجب على المسؤول أن يرد علمها إليه لا إلى غيره ، وأخذ الحصر من تقديم المعمول ، وقد روي أن المشركين قالوا : يا محمد إن كنت نبياً فخبرنا متى تقوم الساعة ، فنزلت هذه الآية ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها ﴾ ما نافية ومن الأولى للاستغراق ؛ والثانية لابتداء الغاية وقيل ما موصولة في محل جر عطفاً على الساعة أي علم الساعة وعلم التي تخرج ، والأولى أولى .

والأكمام جمع كم بكسر الكاف ، وهو روي الثمرة ، ويطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها ، وهي ما كانت فيه الثمرة واحدها : كم وكمة ، قال الراغب : الكم ما يغطي اليد من القميص وما يغطي الثمرة وجمعه أكمام ، وهذا يدل على أن الكم بضم الكاف لأنه جعله مشتركاً بين كم القميص وكم الثمرة ، ولا خلاف في كم القميص أنه بالضم ، ويمكن أن يقال : إن في الكم الذي هو وعاء الثمر لغتين ، قرأ الجمهور من ثمرة بالافراد على إرادة الجنس ، وقرىء بالجمع للاختلاف في أنواع الثمار ، قال قتادة من أكمامها حين تطلع .

﴿ وما تحمل من أنثى ﴾ حملاً في بطنها ﴿ ولا تضع ﴾ ذلك الحمل ﴿ إلا بعلمه ﴾ أي علم الله سبحانه والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أي ما

يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع في حال من الأحوال ملابساً لشيء من الأشياء إلا كائناً بعلم الله ، فإليه يرد علم الساعة كما يرد إليه علم هذه الأمور الحادثة ، وفيه دليل على أن أصحاب الكشف والكهان وأهل النجوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء مما يقولونه البتة ، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف ، أو وهم خفيف ، قد لا يصيب ، وعلم الله هو العلم اليقين المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد .

﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي ينادي الله سبحانه المشركين ، وذلك يوم القيامة فيقول لهم : ﴿ أين شركائي ﴾ الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الدنيا ، من الأصنام وغيرها ، فادعوهم الآن فليشفعوا لكم ، أو يدفعوا عنكم العذاب وهذا على طريقة التهكم بهم والتقريع لهم ، وأضافهم الى نفسه على زعمهم الباطل ، والعامل في يوم محذوف أي اذكر .

﴿ قالوا ﴾ أي يقولون ، فالماضي بمعنى المضارع ﴿ آذناك ﴾ أي اعلمناك قال ابن عباس يقال : آذن يؤذن إذا أعلم أي أعلمناك وقيل : أخبرناك ، قال النسفي : وهو الأظهر إذ الله تعالى كان عالماً بذلك ، وإعلام العالم محال إنما الاخبار للعالم بالشيء يتحقق بما علم به إلا أن يكون المعنى إنك علمت من قلوبنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه اذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه انتهى .

﴿ ما منا من شهيد ﴾ يشهد بأن لك شريكاً ، وذلك أنهم لما عاينوا القيامة تبرأوا من الشركاء ، وتبرأت منهم تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وقيل : لهم بأنهم كانوا محقين ، والأول أولى .

﴿ وضل عنهم ﴾ أي غاب وزال وبطل في الآخرة ﴿ ما كانوا يدعون من قبل ﴾ في الدنيا من الأصنام ونحوها ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي أيقنوا وعلموا أنه لا مهرب لهم من العذاب ، يقال : حاص يحيص حيصاً إذا هرب وقيل ، الظن على معناه الحقيقي لأنه بقي لهم في تلك الحال ظن ورجاء ، والأول أولى ، ثم ذكر سبحانه بعض أحوال الانسان فقال :

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ
رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ
إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ
عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ
رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ أي لا يمل من دعاء الخير لنفسه وجلبه اليه ، ولا يزال يسأل ربه المال والخير هنا المال والصحة والسلطان والرفعة . قال السدي : والإنسان هنا يراد به الكافر ، وقيل الوليد بن المغيرة ، وقيل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف والأولى حمل الآية على العموم باعتبار الغالب ، فلا ينافيه خروج خلص العباد ، وقرأ ابن مسعود من دعاء المال.

﴿ وإن مسه الشر ﴾ أي البلاء والشدة والفقر والمرض ﴿ فيئوس ﴾ من روح الله ﴿ قنوط ﴾ من رحمته ، واليأس من صفة القلب وهو قطع الرجاء ، والقنوط إظهار آثاره على ظاهر البدن ، والحال المحلي يقتضي ترادفهما ، وبه قال بعضهم فالجمع بينهما للتأكيد ، وقيل يؤوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظن بربه ، وقيل يؤوس من زوال ما به من المكروه ، قنوط بما يحصل له من ظن دوامه وهما صيغتا مبالغة تدلان على أنه شديد اليأس، عظيم القنوط وبولغ فيه من طريقين من طريق بناء فعول كما أشرنا ومن طريق التكرير مع ما في القنوط

من ظهور أثر اليأس لأن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أي يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذا صفة الكافر بدليل قوله تعالى ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ﴾ أي ولئن آتيناه خيراً وعافية وغنى من بعد شدة ومرض وفقر ﴿ ليقولن ﴾ جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده ﴿ هذا لي ﴾ أي هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي ، فظن أن تلك النعمة التي صار فيها وصلت إليه باستحقاقه لها ، ولم يعلم أن الله يبتلي عباده بالخير والشر ليتبين له الشاكر من الجاحد ، والصابر من الجزع .

قال مجاهد : معناه هذا بعملي وأنا محقوق به ، أو هذا لي دائماً لا يزول ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي ما أظنها تقوم كما يخبرنا بها الأنبياء أو لست على يقين من البعث ، وهذا خاص بالكافرين والمنافقين ، فيكون المراد بالإنسان المذكور في صدر الآية الجنس باعتبار غالب أفراده ، لأن اليأس من رحمة الله والقنوط من خيره والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين او المتزلزلين في الدين المتظهرين بالاسلام المبطنين للكفر .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ رجعت الى ربي ﴾ على تقدير صدق ما يخبرنا به الأنبياء من قيام الساعة وحصول البعث والنشور ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ جواب القسم لسبقه الشرط ، أي للحالة الحسنى من النعمة والكرامة ، فظن أنه استحق خير الدنيا بما فيه من الخير واستحق خير الآخرة بذلك الذي اعتقده في نفسه ، وأثبته لها ، وهو اعتقاد باطل ، وظن فاسد ، وقد تضمن الكلام مبالغات حيث أكد بالقسم ، وإن ، وتقديم الظرفين ، والعدول الى صيغة التفضيل اذ الحسنى تأنيث الأحسن .

﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ﴾ أي لنخبرنهم به يوم القيامة وهذا جواب لقول الكافر ولئن رجعت الى آخره ، أي ليس الأمر كما يزعم وإنما له

العقاب الشديد كما قال ﴿ ولنقذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ بسبب ذنوبهم ، واللام هذه والتي قبلها هي الموطئة للقسم .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ أي على هذا الجنس من حيث هو ، باعتبار غالب أفراده ﴿ أعرض ﴾ عن الشكر ﴿ ونأى بجانبه ﴾ أي ترفع عن الانقياد للحق، وتكبر وتجبر ، وثنى عطفه متبختراً ، كناية عن الإعراض . وقيل : انحرف عنه أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكليته تكبراً والجانب هنا مجاز عن النفس ، ونأى بمعنى بعد ، يقال : نأيت وتناءيت أي بعدت وتباعدت والمنتأى الموضع البعيد ، وقرىء ناء بالألف قبل الهمزة .

﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي البلاء والجهد والفقر والمرض ﴿ فذو ﴾ أي فهو ذو ﴿ دعاء عريض ﴾ أي كثير ، والعرب تستعمل العرض والطول في الكثرة مجازاً يقال : أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء اذا أكثر ، فهو مستعار مما له عرض متسع ، للإشعار بكثرته ، فإن العريض يكون ذا أجزاء كثيرة ، والاستعارة تخييلية ، شبه الدعاء بأمر يوصف بالامتداد ، ثم ثبت له العرض قاله الكرخي والطول أطول الامتدادين ، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ، أفاده أبو السعود .

والمعنى أنه إذا مسه الشر تضرع الى الله واستغاث به أن يكشف عنه ما نزل به ، واستكثر من ذلك فذكره في الشدة ونسيه في الرخاء ، واستغاث به عند نزول النقمة ، وتركه عند حصول النعمة وهذا صنيع الكافرين ، ومن كان غير ثابت القدم من المسلمين قال الشهاب فإن قلت : كونه يدعو دعاء طويلاً عريضاً ينافي وصفه قبل هذا بأنه يؤوس قنوط ، لأن الدعاء فرع الطمع والرجاء ، وقد اعتبر في القنوط ظهور أثر اليأس ، فظهور ما يدل على الرجاء يأباه ، قلت: يمكن دفع المنافاة بحمله على عدم اتحاد الأوقات والأحوال انتهى ، أو لعل هذا شأن بعض غير البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط ، أو شأن الكل في بعض الأوقات ، ذكره أبو السعود .

ثم رجع سبحانه الى مخاطبة الكفار ومحاجتهم فقال : ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني عن حالتكم العجيبة ، واستعمال أرأيتم بمعنى الاخبار مجاز ، ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سبباً للإخبار عنه أو الإبصار به طريقاً الى الإحاطة به علماً ، والى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم او لطلب الإبصار في طلب الخير لاشتراكهما في الطلب ، ففيه مجازان : استعمال رأى التي بمعنى علم أو أبصر في الإخبار ، واستعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار قاله الشهاب .

﴿ إن كان ﴾ القرآن ﴿ من عند الله ﴾ كما قلت ﴿ ثم كفرتم به ﴾ أي كذبتم به ، ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه ﴿ من أضل ممن هو في شقاق ﴾ خلاف ﴿ بعيد ﴾ عن الحق أي لا أحد أضل منكم لفرط شقاوتكم ، وشدة عداوتكم والأصل أي شيء أضل منكم فوضع من هو في شقاق موضع الضمير لبيان حالهم في المشاقة ، وأنها السبب الأعظم في ضلالهم .

﴿ سنريهم آياتنا ﴾ أي دلالات صدق القرآن وعلامات كونه من عند الله ﴿ في الآفاق ﴾ جمع أفق بضم الهمزة والفاء ، كذا قال أهل اللغة ، كأعناق وعنق ، وهو الناحية ، ونقل الراغب أنه يقال . أفق بفتحهما كجبل وأجبال ، والمعنى سنريهم آياتنا في النواحي على ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية ، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة ، وقال القرطبي أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا في الآفاق ، يعني خراب منازل الأمم الماضية وربوع القرون الخالية .

﴿ وفي أنفسهم ﴾ قال ابن زيد : في الآفاق آيات السماء وفي أنفسهم حوادث الأرض وقال مجاهد في الآفاق فتح القرى التي يسر الله فتحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا ، وبلاد المشرق والمغرب عموماً ، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم

يتيسر مثلها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، أو من الظهور على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود ، خارقة للعادات ، وفي أنفسهم فتح مكة ورجح هذا ابن جرير ، واختاره المنهال بن عمرو والسدي .

وقال قتادة والضحاك في الآفاق يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغير ذلك وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، حتى في سبيل الغائط والبول فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويتميز ذلك خارجاً من مكانين ، وحتى في عينيه اللتين ينظر بهما من الأرض الى السماء مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة وغير ذلك من بديع حكمة الله تعالى فيه .

فإن قيل : قوله سنريهم الخ يقتضي أنه الى الآن ما أطلعهم على تلك الآيات وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، مع أن الآيات المذكورة قد اطلعوا عليها وهي منهم نصب العين ، والجواب أن المراد على هذا سنريهم أسرار آياتنا الخ فالآيات وان اطلعوا عليها بالفعل لكن سرها وحكمها لم يطلعوا عليه قاله الكرخي .

وعن ابن جريج في الآية قال أمسك المطر عن الأرض كلها . وفي أنفسهم قال البلايا التي تكون في أجسامهم وقال ابن عباس كانوا يسافرون فيرون آثار عاد وثمود فيقولون والله لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أراهم في أنفسهم قال الأمراض وقيل في كونهم نطفاً الى غير ذلك من انتقال أحوالهم ، كما تقدم في سورة المؤمنين بيانه .

﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ الضمير راجع الى القرآن وقيل الى الإسلام الذي جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الى ما يريهم الله

ويفعل من ذلك وقيل الى محمد صلى الله عليه وسلم أنه الرسول الحق من عند الله ، والأول أولى .

وقد حرف الوجودية هذه الآية الكريمة بحملها على اتحاد الخلق والخالق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ الجملة مستأنفة لتوبيخهم وتقريعهم على ترددهم في شأن القرآن ، وعنادهم المحوج إلى إيراد وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى ، والمعنى أولم يغنهم ، ولم يكفهم عن الآيات الموعودة ، المبينة لحقية القرآن أنه سبحانه شهيد على جميع الأشياء وقيل المعنى أولم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار ، والباء زائدة، وهذا هو الراجح وقيل : أولم يكف بربك شاهداً على أن القرآن منزل من عنده ؟ والشهيد بمعنى العالم أو هو بمعنى الشهادة التي هي الحضور ، قال الزجاج : ومعنى الكفاية ههنا أن الله عز وجل قد بين لهم ما فيه كفاية في الدلالة والمعنى أولم يكف ربك أنه على كل شيء شهيد شاهد للأشياء لا يغيب عنه شيء ما .

﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي في شك من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿ ألا إنه ﴾ تعالى ﴿ بكل شيء محيط ﴾ أحاط علمه بجميع المعلومات وأحاطت قدرته بجميع المقدورات يقال أحاط يحيط إحاطة وحيطة ، وفي هذا وعيد شديد ، لأن من أحاط بكل شيء لا يخفى عليه شيء جازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته[1].

---

(١) زاد المسير ٢٦٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

وتسمى سورة حم عسق وسورة شورى من غير الف ولام وسورة حم عسق وهي ثلاثة وخمسون آية.

وهي مكية كلها، قاله ابن عباس وابن الزبير، وكذا قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وروي عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة﴿قل لا أسالكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾الى آخرها. وقد أخرج ابن جرير وابن ابي حاتم ونعيم ابن حماد والخطيب عن ارطاة ابن المنذر حديثا طويلا في تفسير حم عسق وهو حديث لا يصح ولا يثبت وما اظنه الا من الموضوعات المكذوبات. والحامل لواضعه عليه ما يقع لكثير من الناس من عداوة الدول والحط من شانهم والازراء عليهم وكذا ما اخرجه ابو يعلى وابن عساكر عن ابي معاوية قال السيوطي بسند ضعيف وقلت بل بسند موضوع ومتن مكذوب.

وقد قال ابن كثير في الحديث الأول: إنه غريب عجيب منكر وفي الثاني إنه اغرب من الأول وعندي أنهما موضوعان مكذوبان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام في أمثال هذه الفواتح قال عبدالمؤمن : سألت الحسن ابن الفضل لم قطع حمٓ من عٓسٓقٓ ؟ ولم يقطع كٓهيعٓصٓ ؟ فقال : لأنها بين سور أولها حمٓ ، فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ، فكان حمٓ مبتدأ وعٓسٓقٓ خبره ولأنهما عدتا آيتين وعدت أخواتها مثل كٓهيعٓصٓ ، وآلمر وآلمص آية واحدة وقيل : إن الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد من حيث إنها أس البيان وقاعدة الكلام ، ذكره الجرجاني .

وقيل : لأن أهل التأويل لم يختلفوا في كٓهيعٓصٓ وأخواتها أنها حروف التهجي لا غير ، واختلفوا في حمٓ فقيل : معناها حمٓ أي قضى ما هو كائن ففصلوا بين ما يقدر فيه فعل وبين ما لا يقدر ، وقيل إن ح حلمه ، وم مجده وع علمه ، وس سناؤه وق قدرته ، أقسم الله بها ، وقيل : هما اسمان للسورة وقيل : اسم واحد لها ، وقيل غير ذلك مما هو متكلف ومتعسف لم يدل عليه دليل ، ولا جاءت به حجة ولا شبهة ، وقد ذكرنا قبل هذا ما روى في ذلك مما لا أصل له ، والحق ما قدمناه لك في فاتحة سورة البقرة .

﴿ كذلك ﴾ كلام ، مستأنف غير متعلق بما قبله ، أي مثل ذلك الإيحاء الذي أوحى إلى سائر الرسل من كتب الله المنزلة عليهم المشتملة على الدعوة إلى التوحيد ، والنبوة والبعث ، وهذا هو وجه المشابهة ﴿ يوحى إليك ﴾ يا محمد في هذه السورة وقيل : إن حمٓ عٓسٓقٓ أوحيت إلى من قبله من الأنبياء فتكون الإشارة بقوله : كذلك إليها والأول أولى .

﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ أي إلى الرسل ﴿ الله ﴾ كأنه قيل من يوحى فقال الله ﴿ العزيز ﴾ في ملكه الغالب بقهره ﴿ الحكيم ﴾ بصنعه المصيب في قوله وفعله .

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ذكر سبحانه لنفسه هذا الوصف وهو ملك جميع ما فيهما لدلالته على كمال قدرته ، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته ﴿ وهو العلي ﴾ ذاته وشأنه على خلقه ﴿ العظيم ﴾ الكبير مكانه وبرهانه .

﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ قرأ الجمهور تكاد بالفوقية وكذلك تتفطرن قرؤوه بالفوقية مع تشديد الطاء وقرأ نافع والكسائي وابن وثاب يكاد يتفطرن بالتحتية فيهما ، وقرأ أبو عمرو والمفضل وأبو بكر وأبو عبيد ينفطرن بالنون من الانفطار كقوله تعالى ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ والتفطر التشقق ، قال الضحاك والسدي : يتفطرن يتشققن من عظمة الله وجلاله ، وقيل : المعنى يكاد كل واحدة منها ينفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولداً ، وقيل : معنى من فوقهن من فوق الأرضين والأول أولى .

وقيل : يتشققن لكثرة ما على السموات من الملائكة ، وقيل : يكدن يتفطرن من علو شأن الله وعظمته ، ويدل عليه مجيئه بعد قوله ﴿ العلي العظيم ﴾ ومن لابتداء الغاية يبتدىء التفطر من جهة الفوق ، وقال الأخفش الصغير إن

الضمير يعود إلى جماعات الكفار ، أي من فوقهم وهو بعيد جداً ووجه تخصيص جهة الفوق أنها أقرب إلى الآيات العظيمة ، والمصنوعات الباهرة أو على طريق المبالغة كأن كلمة الكفار مع كونها جاءت من جهة التحت أثرت في جهة الفوق ، فتأثيرها في جهة التحت بالأولى .

﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ كلام مستأنف أي ينزهونه عما لا يليق به ولا يجوز عليه متلبسين بحمده وقيل : إن التسبيح موضوع موضع التعجب ، أي يتعجبون من جرأة المشركين على الله ، وقيل ؛ المعنى يصلون بأمر ربهم قاله السدي .

﴿ ويستغفرون ﴾ أي يشفعون ﴿ لمن في الأرض ﴾ من عباد الله المؤمنين ، كما في قوله : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ويطلبون هدايتهم ، وقيل الاستغفار منهم بمعنى السعي فيما يستدعي المغفرة لهم وتأخير عقوبتهم طمعاً في إيمان الكافر ، وتوبة الفاسق ، فتكون الآية عامة كما هو ظاهر اللفظ غير خاصة بالمؤمنين ، وإن كانوا داخلين فيها دخولاً أولياً ، وإليه ذهب البيضاوي بل ولو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع لعم الحيوان بل الجماد .

قال الضحاك لمن في الأرض من المؤمنين . وقال السدي : بيانه في سورة المؤمن ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وعلى هذا يكون المراد بالملائكة هنا حملة العرش ، وقيل جميع الملائكة وهو الظاهر من قول الكلبي وقيل هو منسوخ بقوله ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ وقال المهدوي والصحيح أنه ليس بمنسوخ لأنه خبر وهو خاص بالمؤمنين .

وقال أبو الحسن بن الحصار إن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين ولله ملائكة أخر يستغفرون لمن في الأرض قال الماوردي وفي استغفارهم لهم قولان أحدهما من الذنوب والخطايا ، وهو ظاهر قول مقاتل ، والثاني أنه طلب الرزق لهم والسعة عليهم ، قاله الكلبي وهو الأظهر ، لأن

من في الأرض يعم الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل الكافر وقال مطرف وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الشياطين .

﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة لأهل طاعته وأوليائه أو الجميع عباده ، فإن تأخير عقوبة الكفار والعصاة نوع من أنواع مغفرته ورحمته ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أي أصناماً يعبدونها وجعلوا له شركاء وأنداداً .

﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي يحفظ أعمالهم لا يغيب عنه منها شيء ليجازيهم بها ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي لم يوكلك بهم حتى تؤاخذ بهم ، ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ وكذلك ﴾ الإيحاء البديع المبين المفهم ﴿ أوحينا إليك ﴾ أي أنزلنا عليك ﴿ قرآناً عربياً ﴾ بلسان قومك لا لبس فيه عليك ولا على قومك ، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ أي مكة والمراد أهلها ﴿ ومن حولها ﴾ من الناس والمفعول الثاني محذوف ، أي لتنذرهم العذاب .

﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ أي بيوم الجمع وهو يوم القيامة لأنه مجمع الخلائق ، وقيل : المراد جمع الأرواح بالأجساد ، وقيل : جمع الظالم والمظلوم ، وقيل جمع العامل والعمل .

﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه والجملة معترضة مقررة لما قبلها ، أو حال من يوم الجمع ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ قرأ الجمهور برفع فريق في الموضعين إما على أنه مبتدأ وخبره الجار المجرور ، وساغ الابتداء بالنكرة لأن المقام مقام تفضيل أو على أن الخبر مقدر قبله ، أي منهم فريق في الجنة ومنهم فريق في السعير ، أو أنه خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير عائد إلى المجموعين ، المدلول عليهم بذكر الجمع ، أي هم فريق في الجنة وفريق في

السعير وقرىء فريقاً بالنصب في الموضعين على الحال من جملة محذوفة ، أى افترقوا حال كونهم كذلك ، وأجاز الفراء والكسائي النصب على تقدير لتنذر فريقاً .

وقد أخرج الترمذي وصححه ، وأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبدالله بن عمرو قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا لا إلا أن تخبرنا يا رسول الله قال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ، ثم قال للذي في شماله هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً فقال أصحابه ففيم العمل يا رسول الله ؟ إن كان أمر قد فرغ منه ، فقال سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار ، وإن عمل أي عمل . قال رسول الله صلى عليه وآله وسلم بيديه فنبذهما ، ثم قال : فرغ ربكم من العباد ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

قال الترمذي بعد إخراجه : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وروى ابن جرير طرفاً منه عن ابن عمرو « موقوفاً عليه » ، قال ابن جرير وهذا الموقوف أشبه بالصواب ، قلت بل المرفوع أشبه بالصواب ، فقد رفعه الثقة ورفعه زيادة ثابتة من وجه صحيح ، ويقوي الرفع ما أخرجه ابن مردويه عن البراء قال . « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتاب ينظر فيه قالوا انظروا إليه كيف هو أمي لا يقرأ ؟ قال فعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة ، وأسماء قبائلهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ، وقال ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ فرغ ربكم من أعمال العباد » .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾
لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ قال الضحاك أهل دين واحد إما على هدى وإما على ضلالة، ولكنهم افترقوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وهو معنى قوله ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ أي في الدين الحق وهو الإسلام ﴿والظالمون﴾ أي المشركون ﴿مالهم من ولي﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ولا نصير﴾ ينصرهم في ذلك المقام.

ومثل هذا قوله ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ وقوله ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ وهذا مقابل لقوله ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾، فكان مقتضى الظاهر أن يقال ويدخل من يشاء في غضبه لكن عدل عنه إلى ما ذكر للمبالغة في الوعيد، فإن نفي من يتولاهم وينصرهم أدل على أن كونهم في العذاب أمر معلوم مفروغ منه، أفاده الكرخي.

وقال الشوكاني رحمه الله: وههنا مخاصمات بين المتمذهبين المحامين على

ما درج عليه أسلافهم ، فذبوا عليه من بعدهم . وليس بنا إلى ذكر شيء من ذلك فائدة ، كما هو عادتنا في تفسيرنا هذا فهو تفسير سلفي يمشي مع الحق ويدور مع مدلولات النظم الشريف ، وإنما يعرف ذلك من رسخ قدمه ، وتبرأ من التعصب قلبه ولحمه ودمه .

﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولياً ونصيراً ، وأم هذه هي المنقطعة المقدرة ببل المفيدة للانتقال وبالهمزة المفيدة للإنكار ، أي بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها ﴿ فالله هو الولي ﴾ أي هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً فإنه الخالق الرازق الضار النافع ، والفاء لمجرد العطف ، قاله الكرخي . وغرضه بهذا الرد على الزمخشري في قوله . إنها جواب شرط مقدر أي إن أرادوا أن يتخذوا ولياً في الحقيقة فالله هو الولي الحق ، قال أبو حيان لا حاجة إلى هذا التقدير لتمام الكلام بدونه .

﴿ وهو ﴾ أي ومن شأنه أنه ﴿ يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ أي يقدر على كل مقدور فهو الحقيق بتخصيصه بالألوهية وإفراده بالعبادة .

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدين ، فإن حكمه ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بحكمه ، ويفصل خصومة المختصمين فيه ، وعند ذلك يظهر المحق من المبطل ، ويتميز فريق الجنة وفريق النار ، قال الكلبي وما اختلفتم فيه من شيء أي من أمر الدين فحكمه إلى الله يقضي فيه ، وزاد البيضاوي أو أمر الدنيا ، ولم يذكر الدنيا في الكشاف وذكره المحلي ، وقال من الدين وغيره ، والغير كالخصومات في الدنيا ، والأول أولى إذ لا يلزم أن تكون بينهم وبين الكفرة ، ولا يقال في مثله التحاكم إلى الله أفاده الشهاب .

وقال مقاتل إن أهل مكة كفر بعضهم بالقرآن وآمن به بعضهم ، فنزلت

هذه الآية ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويمكن أن يقال إن معنى حكمه إلى الله أنه مردود إلى كتابه ، فإنه قد اشتمل على الحكم بين عباده فيما يختلفون فيه ، فتكون الآية عامة في كل اختلاف يتعلق بأمر الدين أنه مردود إلى كتاب الله ، ومثله قوله :

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ وقد حكم سبحانه بأن الدين هو الإسلام ، وأن القرآن حق ، وأن المؤمنين في الجنة والكافرين في النار ولكن لما كان الكفار لا يذعنون لكون ذلك حقاً إلا في الدار الآخرة وعدهم الله بذلك يوم القيامة ، وقيل : تحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن حكمه حكم الله ، ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته .

﴿ ذلكم ﴾ مبتدأ أي الحاكم العظيم الشأن بهذا الحكم ﴿ الله ﴾ خبر أول ﴿ ربي ﴾ خبر ثان ﴿ عليه توكلت ﴾ خبر ثالث ، أي اعتمدت عليه في جميع أموري لا على غيره ، وفوضته في كل شؤوني ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ أنيب ﴾ أي أرجع في كل شيء يعرض لي ، وهذا خبر رابع .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ الفاطر الخالق المبدع ، وقد تقدم تحقيقه وهذا خبر خامس أو مبتدأ وخبره ما بعده ، أو نعت لربي لأن الإضافة محضة ويكون عليه توكلت وإليه أنيب معترضاً بين الصفة والموصوف ، وقرأ زيد بن علي فاطر بالجر على أنه نعت للإسم الشريف في قوله إلى الله وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء في عليه أو إليه وأجاز الكسائي النصب على النداء وأجازه غيره على المدح .

﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ خبر سادس أي خلق لكم من جنسكم نساء ، أو المراد حواء لكونها خلقت من ضلع ادم ، وقال مجاهد نسلاً بعد نسل ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أي خلق لها من جنسها إناثاً أو وخلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث ، وهي الثمانية التي ذكرها في الأنعام .

﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يبثكم من الذرء وهو البث أو يخلقكم وينشئكم

والضمير في يذرؤكم للمخاطبين والأنعام إلا أنه غلب عليه العقلاء ، قال الزمخشري وهي من الأحكام ذات العلتين ، قال الشيخ وهو اصطلاح غريب ، والمعنى أن الخطاب يغلب على الغيبة إذا اجتمعا ، وضمير فيه راجع إلى الجعل المدلول عليه بالفعل ، أو للمخلوق ، وقيل راجع إلى ما ذكر من التدبير ، وقال الفراء والزجاج وابن كيسان معنى يذرؤكم فيه يكثركم به أي يكثركم بجعلكم أزواجاً لأن ذلك سبب النسل ، وقال ابن قتيبة : يذرؤكم فيه أي في الزوج وقيل في البطن وقيل في الرحم .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ خبر سابع والمراد بذكر المثل هنا المبالغة في النفي بطريق الكناية فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ، كقولهم : مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود ، وقيل : إن الكاف زائدة للتوكيد لأنه تعالى لا مثل له ، وهو المشهور عند المعربين ، وقيل : إن مثل زائدة قاله ثعلب وغيره ، كما في قوله ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ أي بما آمنتم به ، وهذا ليس بجيد ، بل الأول أولى .

فإن الكناية باب مسلوك للعرب ومهيع مألوف لهم قال ابن قتيبة العرب تقيم المثل مقام النفس ، فتقول : مثلي لا يقال له هذا ، أي أنا لا يقال لي ، وقيل : المراد بالمثل الصفة وذلك أن المثل بمعنى المثل والمثل الصفة كقوله مثل الجنة ، فيكون المعنى ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وهو محمل سهل .

قال الراغب : المثل أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال لما يشارك في الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والمساوي يقال فيما يشاركه في الكمية فقط والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط ، ولهذا لما أراد الله نفي الشبه من كل وجه خصه بالذكر قال تعالى .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقال أبو البقاء مرجحاً لزيادة الكاف إنها لو لم

تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال ، إذ يكون المعنى أن له مثلاً وليس لمثله مثل ، وفي ذلك تناقض ، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل ، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال ، وهذا تقرير حسن ، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرناه من كون الكلام خارجاً مخرج الكناية .

ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها ، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة ، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمثل ، قد اشتمل على برد اليقين ، وشفاء الصدور ، وانثلاج القلوب فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة ، والبرهان القوي ، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع ، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة ، وترغم بها آناف طوائف من القاصرين المتكلفين ، والمتكلمين المتأولين ، ولا سيما إذا ضممت إليه قول الله سبحانه ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ فإنك حينئذ قد أخذت بطرفي حبل ما يسمونه علم الكلام وعلم أصول الدين.

ودع عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديث ما حديث الرواحل

وهو السميع الخ خبر ثامن وقوله : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ خبر تاسع جمع مقلاد أو مقليد أو قليد ، وهو المفتاح جمع على خلاف القياس أي مفاتيحهما أو خزائنهما ، والمراد المطر والنبات وغيرهما كالجواهر المستخرجة من الأرض ، قال النحاس : والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن وقد تقدم تحقيقه في سورة الزمر .

ثم لما ذكر سبحانه أن بيده مقاليدهما ذكر بعده البسط والقبض فقال ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ خبر عاشر أي يوسعه لمن يشاء كالروم والفرس ويضيقه على من يشاء كالعرب ﴿ إنه بكل شيء ﴾ من الأشياء ﴿ عليم ﴾ فلا تخفي عليه خافية ، وإحاطة علمه بكل شيء يندرج تحتها علمه بطاعة المطيع ومعصية العاصي فهو يجازي كُلًّا بما يستحقه من خير وشر .

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ
يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ
كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿ شرع لكم ﴾ أي بين وأوضح وسن وأظهر طريقاً واضحاً ، وهو خبر حادي عشر ﴿ من الدين ﴾ أي ديناً تطابقت على صحته الأنبياء ، والخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما وصى به نوحاً ﴾ من التوحيد ودين الإسلام ، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل ، وتوافقت عليها الكتب ، وإنما خص نوحاً لأنه أول الأنبياء أصحاب الشرائع ، والمعنى قد وصيناه وإياك يا محمد ديناً واحداً ، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة المشهور الكبير:

« ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » وهذا صحيح لا إشكال فيه كما أن آدم أول رسول نبيء بغير إشكال إلا أن آدم لم يكن معه إلا نبوة ، ولم تفرض له الفرائض ، ولا شرعت له المحارم ، وإنما كان شرعه تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش ، وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء واستمر إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الآداب والديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء عليهم السلام واحداً بعد واحد وشريعة

اثر شريعة حتى ختمها بخير الملل ملتنا على لسان اكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ من القرآن وشرائع الإسلام والبراءة من الشرك والتعبير عنه عند نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالذي هو أصل الموصلات لتفخيم شأنه من تلك الحيثية ، وخص ما شرعه لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالإيحاء مع كون ما قبله وما بعده مذكوراً بالتوصية ، للتصريح برسالته ، القامع لإنكار الكفرة ، وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة لكمال الاعتناء بالإيحاء إليه ، وهو السر في تقدمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً وتقديم توصية نوح للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً وتوجبه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين للتشريف والتنبيه ، على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام .

﴿ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ مما تطابقت عليه الشرائع وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع المعظمة والأتباع الكثيرة ؛ وأولو العزم ، ولميل قلوب الكفرة إليهم لاتفاق الكل على نبوة بعضهم ، وتفرد اليهود في موسى ، والنصارى في عيسى ، وكل من هؤلاء المذكورين له شرع جديد ، ومن عداهم من الرسل إنما كان يبعث بتبليغ شرع من قبله فشيث وإدريس بعثا بتبليغ شرع آدم ، ومن بين نوح وإبراهيم وهما هود وصالح بعثا بتبليغ شرع نوح ، ومن بين إبراهيم وموسى بعثوا بتبليغ شرع ابراهيم وكذا من بين موسى وعيسى بعثوا بتبليغ شرع موسى فليتأمل ، ثم بين ما وصى به هؤلاء فقال .

﴿ أن أقيموا الدين ﴾ أي توحيد الله ، والإيمان به وطاعة رسله ، وقبول شرائعه والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه ، والتشمير له ، وقال السدي : أي اعملوا به وقيل : المراد سائر ما يكون المرء بإقامته مسلماً ولم ترد به الشرائع فإنها مختلفة ، قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ قال مجاهد : لم يبعث الله نبياً إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة فذلك دينه الذي شرع لهم ، وقال

قتادة : يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام .

قال القرطبي : الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع هي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنا والإذاية للخلق ، كيفما تصورت ، والإعتداء على الحيوان كيفما دار ، واقتحام الدناءات ، ومايعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع ديناً واحداً ، وملة واحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعذارهم ، وذلك قوله تعالى : أن أقيموا الدين الخ .

ثم لما أمرهم سبحانه بإقامة الدين نهاهم عن الإختلاف فيه فقال :

﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله ، وطاعة رسوله ، وقبول شرائعه فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع وتوافقت فيها الأديان ، فلا ينبغي الخلاف في مثلها ، وليس هذا من فروع المسائل التي تختلف فيها الأدلة وتتعارض فيها الامارات ، وتتباين فيها الأفهام ، فإنها من مطارح الاجتهاد ، ومواطن الخلاف .

قال القرطبي في الآية أي اجعلوه دائماً قائماً مستمراً محفوظاً مستقراً ، من غير خلاف فيه ولا اضطراب ، فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث ، ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ .

واختلفت الشرائع وراء هذه في أحكامه حسبما أراد الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم والله أعلم .

قال قتادة في الآية : ألا تعلموا أن الفرقة هلكة ، وأن الجماعة ثقة وقال على الجماعة رحمة والفرقة عذاب . ثم ذكر سبحانه أن ما شرعه من الدين شق على المشركين فقال :

﴿ كبر ﴾ أي عظم وشق ﴿ على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان ، قال قتادة اشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وحده ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها ، ويظفرها على من ناوأها ، والأولى التعميم لدلالة السياق ولا يمنعه تخصيص

المشركين بالذكر كما لا يخفي ثم خص أولياءه فقال :

﴿ الله يجتبي إليه ﴾ استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه إشعار بأن منهم من يجيب إلى الدعوة ، والاجتباء الاختيار ، والمعنى يختار لتوحيده والدخول في دينه ، افتعال من الجباية وهي الجمع على طريق الاصطفاء ، واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي لتحصل له أنواع النعم بلا سعي منه ﴿ من يشاء ﴾ من عباده ، قال قتادة : يخلص لنفسه من يشاء .

﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته ، ويقبل إلى عبادته ثم لما ذكر سبحانه ما شرعه لهم من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ذكر ما وقع من التفرق والاختلاف فقال :

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي ما تفرقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة متوعد عليها ، أو العلم بمبعث الرسول أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما ، فلم يلتفتوا إليها ، وفعلوا ذلك التفرق ، قيل : المراد قريش وهم الذين تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم بغياً منهم عليه .

وقد كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾ الآية ، وبقوله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وقيل المراد أمم الأنبياء المتقدمين ، وأنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المدى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقيل : اليهود والنصارى خاصة كما في قوله ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

﴿ بغياً بينهم ﴾ أي بغياً من بعضهم على بعض ، طلباً للرياسة فليس تفرقهم لقصور في البيان والحجج ، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا والجاه والحمية ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهي تأخير العقوبة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو يوم القيامة كما في قوله ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ وقيل : إلى الأجل الذي قضاه الله لعذابهم في الدنيا بالقتل والأسر والذل والقهر ﴿ لقضي

بينهم ﴾ أي لوقع القضاء بينهم بإنزال العقوبة بهم معجلة ، وقيل يقضي بين من آمن منهم ومن كفر بنزول العذاب بالكافرين ونجاة المؤمنين .

﴿ وإن الـذين أورثوا الكتـاب ﴾ أي التوراة والإنجيـل وهـم اليهـود والنصارى الذي كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم ﴿ من بعدهم ﴾ أي من بعد من قبلهم من اليهود والنصارى المختلفين في الحق .

وقال مجاهد : معنى من بعدهم من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود والنصارى وقيل ، المراد كفار المشركين من العرب الـذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتابهم ووصفهم بأنهم ﴿ لفي شك منه ﴾ أي من القرآن أو من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى كلا الوجهين فالشك هنا ليس على معناه المشهور من اعتدال النقيضين وتساويهما في الذهن ، بل المراد به ما هو أعم أي مطلق التردد .

وقال القرطبي : لفي شك من الذي أوصى به الأنبياء ﴿ مريب ﴾ موقع في الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ولذلك لم يؤمنوا .

﴿ فلذلك ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك أو الكتاب ، أو العلم الذي أوتيته ، أو فلأجل أنه شرع من الدين ما شرع ﴿ فادع ﴾ إلى الله وإلى توحيده وإلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القوية أو الإتباع لما أوتيته ، وعلى هذا اللام في موضع إلى لإفادة الصلة والتعليل ، قال الفراء والزجاج : المعنى فإلى ذلك فادع ، كما تقول : دعوت إلى فلان ولفلان وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير والمعنى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ ﴿ فلذلك فادع ﴾ .

﴿ واستقم ﴾ على ما دعوت إليه فسر الراغب الإستقامة بلزوم المنهج المستقيم ، فلا حاجة إلى تأويلها بالدوام على الإستقامة ، قال قتادة : استقم على أمر الله ، وقال سفيان : استقم على القرآن ، وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة ﴿ كما أمرت ﴾ بذلك من جهة الله تعالى .

﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ الباطلة وتعصباتهم الزائفة في ترك التوحيد ، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك في دين الله ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب في أصول الدين ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض لهم .

﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ في أحكام الله إذا ترافعتم إلي ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله ، أو بنقصان منه ، وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه كما هو واللام لام كي ، أي أمرت بذلك الذي أمرت به لكي أعدل بينكم ، وقيل : هي زائدة ، والمعنى أمرت أن أعدل وقيل : بمعنى الباء وأن المصدرية مقدرة أي بأن أعدل والأول أولى .

قال أبو العالية : أمرت لأسوي بينكم في الدين فأومن بكل كتاب وبكل رسول ، والظاهر أن الآية عامة في كل شيء ، والمعنى أمرت لأعدل بينكم في كل شيء .

﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي إلهنا وإلهكم ، وخالقنا وخالقكم ﴿ لنا أعمالنا ﴾ أي ثوابها وعقابها خاص بنا ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ أي ثوابها وعقابها خاص بكم ، فكل يجازى بعمله ﴿ لا حجة ﴾ أي لا خصومة ﴿ بيننا وبينكم ﴾ لأن الحق قد ظهر ووضح ، ولم يبق للمحاجة مجال ، وليس في الآية إلا ما يدل على المتاركة في المقاولة ، والمحاجة لا مطلقاً حتى تكون منسوخة ، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة لهم على زعمهم الباطل ، قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود وقيل للكفار على العموم .

﴿ الله يجمع بيننا ﴾ في المحشر لفصل القضاء ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع يوم القيامة ، فيجازي كُلًّا بعمله ، وهذا منسوخ بآية السيف وقيل ليست بمنسوخة لأن البراهين قد ظهرت والحجج قد قامت فلم يبق الا العناد وبعد العناد لا حجة ولا جدال .

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ
غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ
﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

﴿ والذين يحاجون في الله ﴾ أو يخاصمون في دين الله ﴿ من بعد ما استجيب ﴾ أي استجاب الناس ﴿ له ﴾ أي لدين الله ودخلوا فيه ، وقيل : الضمير راجع إلى الله ، وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم المعلوم من السياق الدال عليه الفعل ، والأول أولى .

قال مجاهد ؛ من بعد ما أسلم الناس ، قال : وهؤلاء قوم توهموا أن الجاهلية تعود ، وقال قتادة هم اليهود والنصارى ، ومحاجتهم قولهم نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء ، وكان المشركون يقولون ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ فنزلت هذه الآية .

وقال ابن عباس : هم أهل الكتاب كانوا يجادلون المسلمين ويصدونهم عن الهدى ، من بعد ما استجابوا لله ، وقال : هم قوم من أهل الضلالة وكانوا يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية ، وعن عكرمة قال لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال المشركون لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا فنزلت هذه الآية .

والموصول مبتدأ وخبره الجملة بعده وهي ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي لاثبات لها كالشيء الذي يزول عن موضعه يقال دحضت حجته دحوضاً بطلت ، وبابه خضع ، والإدحاض الإزلاق ، ومكان دحض أي زلق ، ودحضت رجله أي زلقت وبابه قطع وسماها حجة وإن كانت شبهة لزعمهم أنها حجة .

﴿ وعليهم غضب ﴾ عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ في الآخرة .

﴿ الله الذي أنزل الكتاب ﴾ المراد به الجنس فيشمل جميع الكتب المنزلة على الرسل ، وقيل المراد به القرآن خاصة ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف أي متلبساً بالحق وهو الصدق ﴿ والميزان ﴾ أي العدل كذا قال اكثر المفسرين قالوا وسمى العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق ، فالميزان متجوز به عنه إستعمالاً للسبب في المسبب وقيل الميزان ما بين في الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به ، وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه وإنزال العدل هو الأمر والتكليف به ، وقيل : إنه الميزان على نفسه أنزله الله من السماء في زمن نوح عليه السلام ، وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس ، كما في قوله ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم يقضي بينكم بكتاب الله وقال مجاهد : هو الذي يوزن به .

﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ أي أَيُّ شيء يجعلك دارياً بها ، عالماً بوقتها ، لعلها شيء قريب ، أو قريب مجيئها ، أو ذات قرب أو إتيانها قريب وقال ﴿ قريب ﴾ ولم يقل قريبة لأن تأنيثها غير حقيقي .

قال الزجاج : المعنى لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب وقال

الكسائي قريب نعت ينعت به المؤنث والمذكر كما في قوله : إن رحمة الله قريب من المحسنين ، وقال الكرخي : ولا يقال : إن (قريب) يستوي فيه المؤنث والمذكر لأن فعيلاً هنا بمعنى فاعل ، ولا يستوي فيه ما ذكر والاستفهام إنكاري أي لاسبب يوصلك للعمل بقربها إلا الوحي الذي ينزل عليك قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم « ذكر الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا متى تقوم تكذيباً لها فأنزل الله هذه الآية ، » ويدل على هذا قوله :

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون ﴾ استعجال استهزاء منهم بها وتكذيباً بمجيئها ، فلا يشفقون منها ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من مجيئها ، أي فلا يستعجلونها ، ففي الآية احتباك حيث ذكر الاستعجال أولاً ، وحذف الإشفاق ، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال . قال مقاتل لأنهم لا يدرون ما يهجمون عليه وقال الزجاج لأنهم يعلمون أنهم محاسبون ومجزيون .

﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي أنها آتية لا ريب فيها ، وكائنة لا محالة ومثل هذا قوله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ ثم بين ضلال الممارين فيها فقال :

﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة من المماراة ، وهي المخاصمة والمجادلة أو من المرية وهي الشك والريبة ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ عن الحق لأنهم لم يتفكروا في الموجبات للإيمان بها من الدلائل التي هي مشاهدة لهم ، منصوبة لأعينهم ، مفهومة لعقولهم ولو تفكروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداء قادر على الإعادة ، وقد دل الكتاب والسنة على وقوعها ، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء والبعث أشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه .

﴿ الله لطيف بعباده ﴾ أي كثير اللطف بهم ، بالغ الرأفة لهم ، قال مقاتل لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم ، قال عكرمة :

بارىهم وقال السدي : رفيق بهم وقيل : حفى بهم . وقال القرطبي : لطيف بهم في العرض والمحاسبة ، وقيل : في إيصال المنافع وصرف البلاء ، وقيل لطف بالغوامض علمه ، وعظم عن الجرائم حلمه ، وقيل اللطيف من ينشر المناقب ويستر المثالب ، أو يعفو عمن يهفو ، أو يعطي العبد فوق الكفاية ، ويكلفه الطاعة دون الطاقة .

وقال الجنيد : لطف بأوليائه فعرفوه ولولا لطفه بأعدائه ما جحدوه وقال جعفر الصادق : يلطف بهم في الرزق من وجهين ، أحدهما أنه جعل رزقك من الطيبات ، الثاني أنه لم يدفع إليك مرة واحدة فتبذره.

وقال الحسين بن الفضل : لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره . وقيل : اللطيف الذي لا يخاف إلا عدله ولا يرجى إلا فضله[1] ،وقيل هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه ، وقيل هو الذي أوقد للعلماء من الكتاب والسنة سراجاً ، وجعل لهم الصراط المستقيم والدين القيم منهاجاً، وأنزل لهم من سحائب بره ومَنِّهِ ولطفه وكرمه وإحسانه ماء ثجاجاً وقيل غير ذلك .

وحاصل المعنى انه يجري لطفه على عباده في كل أمورهم ومن جملة ذلك الرزق الذي يعيشون به في الدنيا وهو معنى قوله ﴿ يرزق من يشاء ﴾ منهم كيف يشاء فيوسع على هذا ويضيق على هذا ، وفي تفضيل قوم بالمال حكمة ليحتاج البعض الى البعض ، كما قال ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، وكان هذا لطفاً بالعباد ليمتحن الغني بالفقير ، والفقير بالغني . وقيل ما يشاء من أنواع الرزق فهو ـ وإن كان يرزق كل ذي روح ـ لكنه فاوت بين المرزوقين في الرزق ، قلة وكثرة وجنساً ونوعاً لحكمة يعلمها هو.

﴿ وهو القوي ﴾ العظيم القوة الباهر القدرة ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء.

(١) سقط من الأصل : وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المدحة ، وقيل : هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه ، وقيل : هو الذي لا يرد سائله ولا يؤيس آمله .

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ الحرث في اللغة الكسب يقال : هو يحرث لعياله ويحترث ، اي يكتسب ، ومنه سمي الرجل حارثاً ومعنى أصل الحرث إلقاء البذر في الأرض ، فأطلق على ثمرات الأعمال وفوائدها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذر ، المتضمن لتشبيه الأعمال بالبذور ، والمعنى من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة يضاعف الله له تلك الحسنة بعشرة أمثالها ، الى سبعمائة ضعف ، وقيل : معناه يزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخير له .

﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ اي من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الدنيا وهو متاعها ، وما يرزق الله به عباده منها ، مؤثراً لها على الآخرة ﴿ نؤته منها ﴾ ما قضت به مشيئتنا ، وقسم له في قضائنا ، ولو تهاون به ولم يطلبه لأتاه .

قال قتادة : المعنى نقدر له ما قسم له كما قال ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ وقال أيضاً : إن الله يعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا . قال القشيري والظاهر ان الآية في الكافر ، وهو تخصيص بغير مخصص ، ثم بين سبحانه أن هذا الذي يريد بعمله الدنيا لا نصيب له في الآخرة فقال :

﴿ وما له في الآخرة من نصيب ﴾ لأنه لم يعمل للآخرة فلا نصيب له فيها وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الإسراء وقال وابن عباس في الآية حرث الآخرة عيش الآخرة ، وقال من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه وقسم له وأخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبان عن أبيّ بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب » ، وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يريد حرث الآخرة الآية ثم قال : يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك » . وعن علي قال : الحرث حرثان : فحرث الدنيا المال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات .

ولما بين سبحانه القانون في امر الدنيا والآخرة ، أردفه ببيان ما هو الذنب العظيم الموجب للنار فقال :

﴿ أم لهم شركاء ﴾ أم منقطعة وتقديره بل ألهم شركاء ؟ وقيل هي المعادلة لألف الاستفهام وفي الكلام إضمار تقديره . أيقبلون ما شرع الله من الدين ؟ أم لهم آلهة ﴿ شرعوا لهم من الدين ﴾ وقيل أم بمعنى بل التي للانتقال والهمزة التي للتوبيخ والتقريع ، وضمير شرعوا عائد الى الشركاء وضمير لهم

الى الكفار وقيل العكس والأول اولى .

﴿ ما لم يأذن به الله ﴾ من الشرك والمعاصي والشرائع المضلة ، وإنكار البعث ، والعمل للدنيا ، والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه او رسوله ، فيدخل فيه التقليد لأنه مما لم يأذن به الله بل ذمه في كتابه في غير موضع ، ولم يأذن به رسوله ، ولا إمام من أئمة الدين ، ولا أَحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها ، بل نهى عنه المجتهدون الأربعة ، ومن كان بعدهم من أهل الحق ، رَكْب الإيمان وأتباع السنة المطهرة ، وإنما أحدثه من أحدث من الجهال والعوام ، بعد القرون المشهود لها بالخير فرحم الله امرءاً سمع الحق فاتبعه وسمع الباطل فتركه وأدمغه وبالله التوفيق .

﴿ ولولا كلمة الفصل ﴾ وهي تأخير عذابهم حيث قال : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ ﴿ لقضي بينهم ﴾ في الدنيا فعوجلوا بالعقوبة ، والضمير في بينهم راجع الى المؤمنين والمشركين او الى المشركين وشركائهم ﴿ وإن الظالمين ﴾ أي المشركين الكافرين والمكذبين ﴿ لهم عذاب اليم ﴾ مؤلم في الدنيا والآخرة قرأ الجمهور بكسر إن على الإستئناف وقرىء بفتحها عطفاً على كلمة الفصل .

﴿ ترى الظالمين ﴾ خطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ﴿ مشفقين ﴾ اي خائفين وجلين ﴿ مما كسبوا ﴾ من السيئآت وذلك الخوف والوجل يوم القيامة ﴿ وهو ﴾ الضمير راجع الى ما كسبوا بتقدير مضاف ، قاله الزجاج ، أي وجزاء ما كسبوا ﴿ واقع بهم ﴾ نازل عليهم لا محالة أشفقوا أولم يشفقوا ، والجملة حالية ، ولما ذكر الله سبحانه حال الظالمين ذكر حال المؤمنين فقال :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ في روضات الجنات ﴾ جمع روضة قال أبو حيان : اللغة الكثيرة تسكين الواو ، ولغة هذيل فتحها والروضة الموضع النزه الكثير الخضرة ، وقد مضى بيان هذا في سورة الروم وروضة الجنة أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا أحسن أمكنتها ، وفيه تنبيه على أن عصاة المسلمين من أهل الجنة لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات الجنات وهي البقاع الشريفة من الجنة ، والبقاع

التي دون تلك الأوصاف لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿ لهم ما يشاؤون﴾[1] أو للاستقرار العامل في لهم ، والعندية مجاز او حقيقة ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر للمؤمنين ﴿ هو الفضل الكبير﴾ الذي لا يوصف ولا تهتدي العقول الى كنه صفته ، ومعرفة حقيقته ، لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره .

﴿ ذلك ﴾ أي الفضل الكبير ﴿ الذي يبشر الله عباده ﴾ قرىء يبشر مخففاً ومثقلاً ، وهما سبعيتان ، ثم وصف العباد بقوله : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه ، هم المبشرون بتلك البشارة ، ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه أُمره بأن يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم فقال :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ اي قل يا محمد : لا أطلب منكم الآن ولا في مستقبل الزمان على تبليغ الرسالة بشارة أُو نذارة جعلاً ولا نفعاً وإن قَلَّ والخطاب إما لقريش وللأنصار لأنهم أخواله ، أو لجميع العرب لأنهم أقاربه في الجملة ﴿ إلا المودة ﴾ العظيمة الواسعة ﴿ في القربى ﴾ اي مظروفة فيها ، بحيث تكون القربى موضعاً للمودة وظرفاً لها ، لا يخرج شيء من محبتكم عنها والاستثناء متصل . ، اي إلا أن تودوني لقرابتي بينكم او تودوا أُهل قرابتي ، ويجوز ان يكون منقطعاً .

قال الزجاج : الا المودة استثناء ليس من الأول أي إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني ، والخطاب لقريش وهذا قول عكرمة ومجاهد وابي مالك والشعبي فيكون المعنى على الانقطاع : لا أسألكم أجراً قط ، ولكن أسألكم المودة في القربى التي بيني وبينكم ارقبوني فيها ولا تعجلوا إليّ ، ودعوني والناس وبه قال

---

(١) سقط من الأصل ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ من صنوف النعيم وأنواع المستلذات ، وعند ، ظرف ليشاؤون .

قتادة ومقاتل والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم ، وهو الثابت عن ابن عباس كما سيأتي وقال سعيد بن جبير وغيره هم آل محمد ، وسيأتي ما استدل به القائلون بهذا.

وقال الحسن وغيره: معنى الآية إلا التودد إلى الله عز وجل والتقرب بطاعته، وقال الحسين بن الفضل، ورواه ابن جرير عن الضحاك أن هذه الآية منسوخة، قال البغوي: وهذا قول غير مرضي، لأن مودة النبي صلى الله عليه وسلم وكف الأذى عنه، ومودة أقاربه والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، من فرائض الدين.

أقول: في الآية ثلاثة أقوال، الأول أن القربى بمعنى القرابة أي الرحم، والثاني بمعنى الأقارب، والثالث بمعنى القرب والتقرب والزلفى، وسيأتي ما يتضح به الصواب ، ويظهر به معنى الآية . قال سعيد بن جبير قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم. عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿إلا المودة في القربى﴾ قال ابن عباس : «عجلت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة» ، وعنه قال : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم»[١] ، وعن الشعبي قال : أَكْثَرَ الناس علينا في هذه الآية ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فقال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب في قريش ، ليس بطن من بطونهم إلا وله فيه قرابة ، فقال الله: قل الخ أن تؤدوني لقرابتي منكم ، وتحفظوني بها» .

وعن ابن عباس قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابه من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال : « يا قوم إذا أبيتم أن

---

(١) السيوطي في الدر ٦/٦ .

تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم»، وعنه قال: «قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا فقال العباس: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله قالوا بلى يا رسول الله قال أفلا تجيبون؟ قالوا ما نقول يا رسول الله؟ قال ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك؟ ألم يكذبوك فصدقناك؟ ألم يخذلوك فنصرناك؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله، فنزلت هذه الآية»[١] وفي إسناده يزيد ابن أبي زياد وهو ضعيف والأولى أن الآية مكية لا مدنية. وقد أشرنا فيما سبق أن هذه الآية مدنية وهذا متمسكهم.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية «تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي» أخرجه الديلمي وأبو نعيم، وعنه قال لما نزلت هذه الآية قالوا: «يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال علي وفاطمة وولداهما» أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف.

وعنه قال نزلت هذه الآية بمكة وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله قل لهم يا محمد لا أسألكم عليه - أي على ما أدعوكم إليه - أجراً عرضاً من الدنيا إلى المودة في القربى، إلا الحفظ في قرابتي فيكم، فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يلحقه بإخوته من الأنبياء فقال ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾ يعني ثوابه وكرامته في الآخرة، كما قال نوح ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ وكما قال هود وصالح وشعيب لم يستثنوا أجراً كما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم فرده عليهم، وهي منسوخة، وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية «قل لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجراً إلا أن تودوا الله وأن تتقربوا إليه بطاعته هذا حاصل ما روي عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تفسير هذه الآية والمعنى الأول هو الذي صح

(٢) السيوطي في الدر ٦/٧.

عنه ورواه عنه الجمع الجم من تلامذته فمن بعدهم ولا ينافيه ما روي عنه من النسخ فلا مانع من أن يكون قد نزل القرآن في مكة بأن يوده كفار قريش لما بينه وبين قريش من القربى ويحفظوه بها ثم ينسخ ذلك ويذهب هذا الاستثناء من أصله كما يدل عليه ما ذكرنا مما يدل على أنه لم يسأل على التبليغ أجراً على الإطلاق.

ولا يقوي ما روي من حملها على آل محمد صلى الله عليه وسلم على معارضته ما صح عن ابن عباس من تلك الطرق الكثيرة، وقد أغنى الله آل محمد عن هذا بما لهم من الفضائل الجليلة والمزايا الجميلة، وقد بينا ذلك عند تفسيرنا لقوله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ وكما لا يقوى هذا على المعارضة فكذلك لا يقوي ما روي عنه أن المراد بالمودة أن يودوا الله، وأن يتقربوا إليه بطاعته، ولكنه يشد من عضد هذا انه تفسير مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ومن يقترف﴾ أي يكتسب وأصل القرف الكسب يقال فلان يقرف لعياله من باب ضرب أي يكسب والاقتراف الاكتساب مأخوذ من قولهم رجل قرفة إذا كان محتالا ﴿حسنة﴾ أي طاعة (نزد له فيها﴾ أي في هذه الحسنة أو في الجنة ﴿حسناً﴾ بمضاعفة ثوابها، قال مقاتل المعنى من يكتسب حسنة واحدة نزد له فيها حسناً نضاعفها بالواحدة عشراً فصاعداً. وقيل المراد بهذه الحسنة هي المودة في القربى، والحمل على العموم أولى، ويدخل تحته المودة في القربى دخولاً أولياً لذكرها عقيب ذكر المودة في القربى وقال ابن عباس إنها المودة في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال السدي إنها نزلت في أبي بكر ومودته فيهم والظاهر العموم.

﴿إن الله غفـور شكور﴾ أي كثير المغفرة للمذنبين كثير الشكر للمطيعين قال قتادة : غفور للذنوب شكور للحسنات . وقال السدي : غفور لذنوب آل محمد صلى الله عليه وسلم شكور للقليل فيضاعفه .

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أم﴾ منقطعة أي بل أ ﴿يقولون افترى﴾ أي اختلق ﴿على الله كذباً﴾ بدعوى النبوة ونسبة القرآن إلى الله تعالى، والإنكار للتوبيخ، ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا فقال: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي لو افترى على الله الكذب لشاء عدم صدوره منه، وختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله شيئاً مما كذب فيه كما تزعمون، قال قتادة يختم على قلبك فينسيك القرآن فأخبرهم أنه لو افترى عليه لفعل به ما أخبرهم به في هذه الآية.

وقال مجاهد ومقاتل: إن يشأ يربط على قلبك بالصبر على أذيتهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم وقيل: الخطاب له والمراد الكفار، أي إن يشأ يختم على قلوب الكفار ويعاجلهم بالعقوبة، ذكره القشيري وقيل: المعنى لو حدثتك نفسك أن تفتري على الله كذباً لطبع على قلبك: فإنه لا يجترىء على الكذب إلا من كان مطبوعاً على قلبه، والأول أولى، والمقصود، من هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد.

﴿ويمحو الله الباطل﴾ استئناف مقرر لما قبله من نفي الافتراء غير داخل في جزاء الشرط، قال ابن الأنباري: يختم على قلبك تام وما بعده مستأنف ،

وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير، أي والله يمحو الباطل، وقال الزجاج: ويمحو الله الباطل احتجاج على من أنكر ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، أي لو كان ما أتى به باطلا لمحاه كما جرت به عادته في المفترين؛ وسقطت الواو من يمحو في بعض المصاحف كما حكاه الكسائي.

﴿ويحق الحق﴾ أي الإسلام فيبينه ﴿بكلماته﴾ أي بما أنزله من القرآن وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم. وأعلى كلمة الإسلام ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي عالم بما في قلوب العباد.

﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ المذنبين أي يقبل توبتهم إليه مما عملوا من المعاصي، واقترفوا من السيئآت والتوبة الندم على المعصية والقلع عنها والعزم على عدم المعاودة لها، وهذه ثلاثة شروط فيما بينه وبين الله تعالى فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة، وإن فقد أحد الثلاثة لم تصح، وأما فيما يتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة، والرابع أن يبرأ من حق صاحبها، وقيل: يقبل التوبة عن أوليائه وأهل طاعته، والأول أولى، فإن التوبة مقبولة من جميع العباد مسلمهم وكافرهم إذا كانت صحيحة صادرة عن خلوص نية وعزيمة صحيحة والأحاديث في ذكر التوبة وحكمها كثيرة في الصحيحين وغيرها.

﴿ويعفو عن السيئآت﴾ على العموم لمن تاب عن سيئة، ويعفو لمن يشاء بلا توبة أيضاً إذا كان ما دون الشرك ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ من خير وشر فيجازي كُلًّا بما يستحقه قرأ حمزة وغيره تفعلون بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية على الخبر، وهما سبعيتان، واختار الثانية أبو عبيد وأبو حاتم لأن هذا الفعل وقع بين خبرين.

﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي يعطيهم ما طلبوه منه يقال أجاب واستجاب بمعنى وقيل المعنى تقبل عبادة المخلصين وقيل التقدير يستجيب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله: ﴿وإذا كالوهم﴾ أي كالوا لهم وقيل إن

الموصول في محل رفع أي يجيبون ربهم إذا دعاهم، كقوله ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ واستظهره السفاقسي ، قال المبرد المعنى يستدعي الذين آمنوا الإجابة هكذا حقيقة معنى استفعل، فالذين في موضع رفع والأول أولى ﴿ويزيدهم﴾ على ما طلبوه ﴿ من فضله ﴾ او على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه ، وقيل يشفعهم في إخوانهم ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ هذا للكافرين مقابلاً لما ذكره للمؤمنين فيما قبله .

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده ﴾ جميعهم ، أي لو وسع الله لهم رزقهم ﴿ لبغوا ﴾ أي لعصوا وطغوا جميعهم ﴿ في الأرض ﴾ وبطروا النعمة وتكبروا وطلبوا ما ليس لهم طلبه ، لأن الغنى مبطرة مأشرة ، وكفى بحال قارون وفرعون عبرة وقيل المعنى لو جعلهم سواء في الرزق لما انقاد بعضهم لبعض ولتعطلت الصنائع ، والأول أولى ، والظاهر عموم أنواع الرزق وقيل هو المطر خاصة وذكروا في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوهاً لا نطول بذكرها ؛ وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية ، وفي القرطبي بغيهم طلبهم منزلة بعد منزلة ، ودابة بعد دابة ، ومركباً بعد مركب ، وملبساً بعد ملبس .

﴿ ولكن ينزل ﴾ بالتشديد وضده سبعيتان ﴿ بقدر ما يشاء ﴾ أي ينزل من الرزق لعباده بتقدير على حسب مشيئته ، وما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ إنه بعباده ﴾ أي بأحوالهم ﴿ خبير بصير ﴾ بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه فيقدر لكل أحد منهم ما يصلحه ويكفيه عن الفساد بالبغي في الأرض ويقدر لهم ما تقتضيه حكمته ، فيفقر ويغني ، ويمنع ويعطي ، ويبسط ويقبض ، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا ، وما ترى من البسط على من يبغي ، ومن البغي بدون البسط فهو قليل ، ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب ، عن أبي هانىء الخولاني قال : سمعت عمرو بن خريت وغيره يقولون : « إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الدنيا » قال السيوطي سنده صحيح وعن علي « مثله » .

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ
قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ
﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

﴿ وهو الذي ينزل ﴾ بالتشديد والتخفيف سبعيتان ﴿ الغيث ﴾ أي المطر الذي هو أرفع أنواع الرزق وأعمها فائدة ، .وأكثرها منفعة ومصلحة ﴿ من بعدما قنطوا ﴾ أي أيسوا عن ذلك ، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم ويشكرون له ما يجب الشكر عليه ، والعامة على فتح النون ، وقرىء بكسرها وهي لغة ، وعليها قرىء لا تقنطوا بفتح النون في المتواتر ولم يقرأ بالكسر في الماضي إلا شاذاً وما مصدرية أي من بعد قنوطهم .

﴿ وينشر رحمته ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء من السهل والجبل ، والنبات والحيوان ، وما يحصل به من الخصب أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاماً أولياً ، والمراد بالرحمة المطر ، فذكر المطر بإسمين الغيث لأنه يغيث من الشدائد ، والرحمة لأنه رأفة وإحسان .

﴿ وهو الولي ﴾ للصالحين من عباده بالإحسان وجلب المنافع لهم ودفع الشرور عنهم ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد منهم على إنعامه خصوصاً وعموماً ، ثم ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث فقال :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ أي خلقهما على هذه الكيفية العجيبة ، والصنعة الغريبة ، الدالة على وجود صانع حكيم قادر ، وفيه إشارة إلى ما قرر في الكلام من المسالك الأربعة في الإستدلال على وجود الصانع تعالى ، وهي حدوث الجواهر ، وإمكانها ، وحدوث الأعراض القائمة بها ،

وإمكانها أيضاً ، وفيه اشارة أيضاً إلى أن خلق السموات والأرض من إضافة الصفة للموصوف ، أي السموات المخلوقة والأرض المخلوقة .

﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ يجوز عطفه على خلق بتقدير مضاف ، ويجوز عطفه على السموات ، وقدمه القاضي على الأول والدابة اسم لكل ما دبّ ، قال الفراء أراد ما بث في الأرض دون السماء كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من الملح دون العذب وقال أبو علي الفارسي : تقديره وما بث في أحدهما فحذف المضاف ، قال مجاهد : يدخل في هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ قال الكرخي وما جَوَّزه الزمخشري من أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالدبيب كما وصف به الأناسي أو يخلق الله تعالى في السموات حيوانات يمشون فيها مشي الأناسي على الأرض بعيد من الأفهام لكونه على خلاف العرف العام ولأن الشيء إنما يكون آية إذا كان معلوماً ظاهراً مكشوفاً ومن ثم أهمل القاضي ذكره .

﴿ وهو على جمعهم ﴾ أي حشرهم يوم القيامة، في الضمير تغليب العاقل على غيره، لأنه راجع إلى الدابة ، ولولاه لكان يقال : على جمعها ﴿ إذا ﴾ أي في وقت ﴿ يشاء قدير ﴾ والظرف متعلق بجمعهم لا بقدير ، فإن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته ؛ قال أبو البقاء . لأن ذلك يؤدي إلى أن يصير المعنى : وهو على جمعهم قدير إذا يشاء فتتعلق القدرة بالمشيئة وهو محال ، قال شهاب الدين والسمين ولا أدري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنة فإن كان يقول بقول المعتزلة وهو أن القدرة تتعلق بما لم يشأ الله تمشي كلامه ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده .

﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ من المصائب كائنة ما كانت ﴿ فيما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كسبت أيديكم ﴾ من المعاصي ، وما هي الشرطية ، ولذا دخلت الفاء في جوابها على قراءة الجمهور ، ولا يجوز حذفها عند سيبويه ، وجوز الأخفش وبعض البغداديين الحذف كما في قوله ﴿ وإن أطعتموهم إنكم

لمشركون ﴾ وبه قال أبو البقاء ، وقيل : هي الموصولة فيكون الحذف والإثبات جائزين ، والأول أولى .

قال الزجاج : إثبات الفاء أجود لأن الفاء مجازات جواب الشرط ومن حذف الفاء فعلى أن ما في معنى الذي ، والمعنى الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ، وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاول بها وتعالج وتحصل .

قال الحسن : المصيبة هنا الحدود على المعاصي ، والأولى الحمل على العموم كما يفيده وقوع النكرة في سياق النفي ، ودخول من الاستغراقية عليها قال الضحاك : ما تعلم الرجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ هذه الآية وقال أي مصيبة أعظم من نسيان القرآن . قلت ويلحق بالقرآن نسيان السنة المطهرة . وترك العمل بها وإيثار الرأي عليها أيضاً ، عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « وما أصابكم من مصيبة الآية وسأفسرها لك يا علي ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه » .

أخرجه أحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ، قيل : المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة ، نحو الأوجاع والأسقام والقحط والبلاء والغرق والصواعق وغير ذلك ، من الذنوب والمعاصي وتعلق بهذه الآية من يقول بالتناسخ ، وقال : لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألموا ، والحق أن الآية مخصوصة بالمكلفين بالسياق والسباق .

﴿ و ﴾ هو ﴿ يعفو عن كثير ﴾ أي من المعاصي التي يفعلها العباد ، فلا يعاقب عليها أو عن كثير من الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة فمعنى الآية أنه يكفر عن العبد بما يصيبه من المصائب ويعفو عن كثير من الذنوب وقد أثبت بالأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان في الدنيا يؤجر عليه أو يكفر عنه من

ذنوبه وقيل هذه آية مختصة بالكافرين على معنى أن ما يصابون به بسبب ذنوبهم من غير أن يكون ذلك مكفراً عنهم لذنب ولا محصلاً لثواب ويترك عقوبتهم عن كثير من ذنوبهم فلا يعاجلهم في الدنيا بل يمهلهم إلى الدار الآخرة والأولى حمل الآية على العموم ، والعفو يصدق على تأخير العقوبة ، كما يصدق على محو الذنب ورفع الخطأ به .

وقال الواحدي وهذه أرجى آية في كتاب الله لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين ، صنف كفره عنهم بالمصائب ، وصنف عفا عنه في الدنيا وهو كريم لا يرجع في عفوه ، فهذه سنة الله مع المؤمنين ، وأما الكافر فإنه لا يعجل له في الدنيا عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة ، وعن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ، وقرأ وما أصابكم الآية » أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وعن عمران ابن حصين أنه دخل عليه بعض أصحابه وكان قد ابتلي في جسده فقال إنا لنبتئس لك لما نرى فيك ، قال فلا تبتئس لما ترى ، فإن ما ترى بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية إلى آخرها وعن معاوية بن أبي سفيان سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله به عنه من سيئآته » ، أخرجه أحمد وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق . ولا خدش عود . إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر أخرجه ابن مردويه .

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أي بفائتين ما قضاه عليهم هربا في الأرض ولا في السماء لو كانوا فيها ، بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم نازل بهم ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ﴾ يواليكم فيمنع عنكم ما قضاه الله ﴿ ولا نصير ﴾ بنصركم من عذاب الله في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آياته العظيمة الدالة على توحيده وصدق ما وعد به فقال :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ ومن آياته الجوار ﴾ بحذف الياء من الخط لأنها من يا آت الزوائد وبإثباتها وحذفها في اللفظ في كل من الوصل والوقف قراءات سبعية ؛ وهي السفن ، واحدتها جارية أي سائرة ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي الجبال جمع علم ؛ وهو الجبل ؛ قال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم وقال مجاهد : الأعلام القصور واحدها علم .

﴿ إن يشأ ﴾ قرأ الجمهور بالهمز وقرىء بلا همز ﴿ يسكن الريح ﴾ قرأ الجمهور بالافراد وقرىء بالجمع والمعنى يسكن الريح التي تجري بها السفن ﴿ فيظللن ﴾ أي السفن الجواري . العامة على فتح اللام التي هي عين الفعل ؛ وهو القياس لأن الماضي بكسرها ؛ وقرىء بكسرها ؛ وهو شاذ ، وقال الزمخشري : من ظل يظل ويظل نحو ضل يضل ويضل ؛ قال الشيخ : وليس كما ذكر ؛ لأن يضل بفتح العين من ضللت بكسرها في الماضي ، ويضل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس يعني أن كلاً منهما له أصل يرجع إليه ، بخلاف ظل فان ماضيه مكسور العين فقط ، وظل هنا بمعنى صار ، لان المعنى ليس على وقت الظلول وهو النهار فقط ، أفاده السمين .

﴿ رواكد ﴾ أي سواكن ثوابت وقوفاً يقال ركد الماء ركوداً سكن وكذلك ركدت الريح وركدت السفينة وكل ثابت في مكان فهو راكد وركد الميزان استوى ، وركد القوم هدأوا والمراكد المواضع التي يركد فيها الإنسان وغيره ﴿ على ظهره ﴾ أي ظهر البحر لا تجري ، قال ابن عباس : يتحركن ولا

يجرين في البحر ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي ذكر من أمر السفينة ﴿ لآيات ﴾ دلالات عظيمة ﴿ لكل صبار شكور ﴾ أي لكل من كان كثير الصبر على البلوى كثير الشكر على النعماء ، قيل الإيمان نصفان نصف صبر عن المعاصي ونصف شكر وهو الإتيان بالواجبات ، وقال قطرب : الصبار الشكور الذي إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر ، قال عون ابن عبد الله فكم من منعم عليه غير شاكر وكم من مبتلي غير صابر .

﴿ أو يوبقهن ﴾ أي يهلكهن بالغرق قاله ابن عباس والمراد أهلكهن يقال أوبقه أي أهلكه ﴿ بما كسبوا ﴾ من الذنوب ، وقيل بما أشركوا والأول أولى ، فإنه يهلك في البحر المشرك وغير المشرك ﴿ ويعف عن كثير ﴾ من أهلها بالتجاوز عن ذنوبهم ؛ فينجيهم من الغرق ، قرأ الجمهور يعف بالجزم عطفاً على جواب الشرط ، قال القشيري ، وفي هذه القراءة إشكال لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكد ، أو يهلكها بذنوب أهلها ، فلا يحسن عطف ﴿ ويعف ﴾ على هذا لأنه يصير المعنى إن يشأ يعف ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذن عطف على المجزوم من حيث اللفظ ، لا من حيث المعنى ، وقد قرأ قوم يعفو بالرفع وهي جيدة في المعنى ، قال أبو حيان : وما قاله ليس بجيد إذ لم يفهم مدلول التركيب ، والمعنى ألا إنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم ، وقرىء بالنصب بإضمار إن بعد الواو .

﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ﴾ قرأ الجمهور بنصب يعلم ، قال الزجاج على الصرف ، قال : ومعنى الصرف صرف العطف على اللفظ إلى العطف على المعنى ، قال : وذلك أنه لما لم يحسن عطف ويعلم مجزوماً على ما قبله إذ يكون المعنى إن يشأ يعلم ، عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله ، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار إن ، ليكون مع الفعل في تأويل اسم ، وكما قال الزجاج : قال المبرد وأبو علي الفارسي : واعترض على هذا الوجه بما لا طائل تحته ، وقيل النصب على العطف على تعليل محذوف ، والتقدير لينتقم

منهم ويعلم واعترضه الحفناوي بأنه ترتب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم ، فلا يحسن تقدير لينتقم منهم .

وقرأ نافع وابن عامر برفع يعلم على الاستئناف ، أي على أنه جملة إسمية أو فعلية ، فعلى كونها فعلية يكون الموصول فاعلاً ، وعلى كونها إسمية بكون مفعولاً والفاعل ضمير مستتر يعود على مبتدأ مقدر ، أي وهو يعلم الذين ، وهي قراءة ظاهرة واضحة اللفظ ، وقرىء بالجزم عطفاً على المجزوم قبله على معنى : وإن يشأ يجمع بين الإهلاك والنجاة والتحذير .

ومعنى قوله : ﴿ ما لهم من محيص ﴾ ما لهم من فرار ولا مهرب من العذاب قاله قطرب وقال السدي : ما لهم من ملجأ وهو مأخوذ من قولهم : حاص به البعير حيصة إذا رمى به ، ومنه قولهم ، فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه ثم لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد ذكر التنفير عن الدنيا فقال :

﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي ما أعطيتم أيها الناس من الغنى والسعة في الرزق وأثاث الدنيا فإنما هو متاع قليل يتمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب وتزول .

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت

ثم رغبهم في ثواب الآخرة وما عند الله من النعيم المقيم فقال : ﴿ وما عند الله ﴾ من ثواب الطاعات والجزاء عليها بالجنات هو ﴿ خير ﴾ من متاع الدنيا ﴿ وأبقى ﴾ لأنه دائم لا ينقطع ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة ، ثم بين سبحانه لمن هذا فقال .

﴿ للذين آمنوا ﴾ أي صدقوا وعملوا على ما يوجبه الايمان ﴿ وعلى ربهم ﴾ لا على غيره ﴿ يتوكلون ﴾ أي يفوضون إليه أمورهم ويعتمدون عليه في كل شؤونهم ، قيل : « نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه حين تصدق بجميع ماله ، ولامه الناس » .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ
لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ
يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ الموصول في محل جر معطوف على الذين آمنوا ، أو بدل منه ، أو في محل نصب على إضمار أعني ، والأول أولى ، والمراد الكبائر من الذنوب وقد قدمنا تحقيقها في سورة النساء ، قرأ الجمهور كبائر بالجمع وقرىء كبير بالإفراد وهو يفيد مفاد كبائر لأن الإضافة للجنس كاللام ، والرسم الكريم يحتمل القراءتين ؛ والفواحش هي من الكبائر ، ولكنها مع وصف كونها فاحشة كأنها فوقها ، وذلك كالقتل والزنا ونحو ذلك ، وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود ؛ وقال السدي هي الزنا فعطفها من عطف الخاص على العام ، والبعض على الكل إذ الكبائر قد لا توجب الحد كالغيبة والنميمة .

﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ أي يتجاوزون عن الذنب الذي أغضبهم ويكظمون الغيظ ويحلمون على من ظلمهم وخص الغضب بالغفران ، لأن استيلاءه على طبع الإنسان وغلبته عليه شديدة فلا يغفره عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره ، وخصه بمزيد الحلم ، ولهذا أثنى الله سبحانه عليهم بقوله في آل عمران ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ قال ابن زيد : جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عن ظالمهم فبدأ بذكرهم : وصنفاً ينتصرون من ظالمهم وهم الذين سيأتي ذكرهم .

﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ﴾ أي أجابوه إلى ما دعاهم

إليه وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة ، قال ابن زيد هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها وهيئاتها قاله القرطبي ، ونحوه البيضاوي .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون ولا ينفردون بالرأي ، والشورى مصدر شاورته مثل البشرى والقربى ، قال الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد النقباء إليهم حين اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به ، والنصرة له ، وقيل : المراد تشاورهم في كل أمر يعرض لهم فلا يستأثر بعضهم على بعض برأي ، قال ابن العربي : الشورى ألفة للجماعة ، وسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هدوا ، فمدح الله تعالى المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك وما أحسن ما قاله بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي قوة للقادم

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في أموره ، وأمره الله سبحانه بذلك فقال : ﴿وشاورهم في الأمر ﴾ وذلك في الآراء كثير ، ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض ، والندب والمكروه والمباح والحرام ، فأما الصحابة بعده صلى الله عليه وسلم فكانوا يتشاورون في الأحكام ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة ، وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها وتشاوروا في أهل الردة ، فاستقر رأي أبي بكر على القتال ، وشاور عمر رضي الله عنه الهرمزان حين وفد عليه مسلماً ، وقد قدمنا في آل عمران كلاماً في الشورى .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في سبيل الخير ، ويتصدقون به على المحاويج ، ثم ذكر سبحانه الطائفة التي تنتصر ممن ظلمها فقال : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي ﴾ أي بغي من بغى عليهم بغير الحق ﴿ هم ينتصرون ﴾ أي ينتقمون من ظالمهم من غير تعد ، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض المدح كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح ، لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة ، حيث قال ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فالانتصار عند البغي فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .

قال ابن العربي ذكر الله الانتصار في البغي في معرض المدح وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر ، في معرض المدح ، فاحتمل أن يكون أحدهما رافعاً للآخر ، أو يكون ذلك راجعاً إلى حالتين إحداهما أن يكون الباغي معلناً بالفجور مؤذياً للصغير والكبير ، فيكون الانتقام منه أفضل ، الثانية أن يقع ذلك ممن لم يعرف بالزلة ويسأل المغفرة فالعفو ههنا أفضل ، وهكذا ذكر الكيا الطبري في أحكامه .

وقال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء والفساق ، لكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله له وعدم مجاوزته كما بينه سبحانه عقب هذا بقوله :

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة وظاهر هذا العموم ، وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان إن هذا خاص بالمجروح ، ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره وقال مجاهد والسدي هو جواب القبيح إذا قال شخص أخزاك الله يقول : أخزاك الله من غير أن يعتدي ، وإذا انتصر فقد استوفى ظلامته وبرىء الأول من حقه ، وبقي عليه إثم الابتداء ، والإثم لحق الله تعالى ، وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه أو على طريق المشاكلة لتشابهها في الصورة .

أخرج النسائي وابن ماجة وابن مردويه عن عائشة قالت : « دخلت عليّ

زينب وعندي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلت عليّ فسبتني فردعها النبي صلى الله عليه وسلم فلم تنته ، فقال لي سبيها فسببتها حتى جف ريقها في فمها ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل سروراً » ، وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم«المستبّان ما قالا من شيء فعلى البادىء حتى يعتدي المظلوم ثم قرأ ﴿ وجزاء سيئة مثلها ﴾ » .

﴿ فمن عفا ﴾ الفاء للتفريع أي إذا كان الواجب في الجزاء رعاية المماثلة من غير زيادة ، وهي عسرة جداً ، فالأولى العفو والإصلاح إذا كان قابلاً للاصلاح ، فلا يرد أنه يخالف قولهم الحلم على العاجز محمود ، وعلى المتغلب مذموم ، والمعنى من عفا عمن ظلمه .

﴿ وأصلح ﴾ بالعفو بينه وبين ظالمه ﴿ فأجره على الله ﴾ أي يأجره على ذلك لا محالة ، وأبهم الأجر تعظيماً لشأنه ، وتنبيهاً على جلالته ، قال مقاتل فكان العفو من الأعمال الصالحة ، وقد بينا هذا في سورة آل عمران ، والمقصود من الآية التحريض على العفو ، وقد عرفت التوفيق بينه وبين الانتصار .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا ليقم من كان له على الله أجر ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا ، وذلك قوله فمن عفا الآية .

وأخرج البيهقي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ينادي منادمن كان له أجر على الله فليدخل الجنه مرتين فيقوم من عفا عن أخيه قال الله تعالى : فمن عفى الآية ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التي هي سبب الفوز والنجاة فقال ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ يعني من يبدأ بالظلم قاله مقاتل وبه قال سعيد بن جبير وقيل:لا يحب من يتعدى في الاقتصاص . ويجاوز الحد فيه لأن المجاوزة ظلم .

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ
وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ
لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، أي بعد أن ظلمه الظالم واللام هي لام الابتداء وقال الحوفي وابن عطية هي لام القسم وليس بجيد بل الأول أولى ، ومن هي الشرطية وجوابه ﴿ فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ بمؤاخذة وعقوبة لأنهم فعلوا ما هو جائز لهم ، وقيل من موصولة ، والأول أولى . وفي القرطبي :الآية دليل على أن له يستوفي ذلك بنفسه ، وهذا ينقسم ثلاثة أقسام وذكرها في حاشية الجمل لا نطول ببسطها فمحلها كتب الفقه دون التفاسير ، ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال :

﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ﴾ أي يتعدون عليهم ابتداء كذا قال الأكثر ، وقال ابن جريج : أي يظلمونهم بالشرك المخالف لدينهم ﴿ ويبغون في الأرض ﴾ أي يعملون في النفوس والأموال ﴿ بغير الحق ﴾ كذا قال الأكثر قيد به لأن البغي قد يكون مصحوباً بحق كالانتصار المقترن بالتعدي فيه ، وقال مقاتل : بغيهم عملهم بالمعاصي ، وقيل : يتكبرون ويتجبرون ؛ وقال أبو مالك : هو ما يرجوه أهل مكة أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً .

﴿ أولئك ﴾ أي الذين يظلمون الناس ﴿ لهم ﴾ بهذا السبب ﴿ عذاب أليم ﴾ شديد الألم ثم رغب سبحانه في الصبر والعفو فقال : ﴿ ولمن صبر

وغفر﴾ كرره اهتماماً بالصبر وترغيباً فيه ، والصبر هنا هو الإصلاح المتقدم . فأعيد هنا وعبر عنه بالصبر ، لأنه من شأن أولي العزم وإشارة إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل ، لا عن العجز ، والمعنى ومن صبر على الأذى وغفر لمن ظلمه لوجه الله ولم ينتصر ، وهذا فيمن ظلمه مسلم .

ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون ، وبالجملة العفو مندوب إليه ثم قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه كما تقدم ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي ، وقطع مادة الأذى .

﴿إن ذلك﴾ الصبر والمغفرة منه وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ﴿لمن عزم الأمور﴾ قال مقاتل: أي من الأمور التي أمر الله بها ، وندب إليها ، أو مما ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه قال أبو سعيد القرشي الصبر على المكاره من علامات الانتباه فمن صبر على مكروه يصيبه ولم يجزع أورثه الله تعالى حال الرضاء ، وهو أجل الأحوال ومن جزع من المصيبات وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه ، ثم لم تنفعه شكواه .

وقال الزجاج الصابر يؤتى بصبره ثواباً فالرغبة في الثواب أتم عزماً قال ابن زيد إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وأنه خاص بالمشركين ، وقال قتادة إنه عام ، وهو ظاهر النظم القرآني ، وقال هنا بلام التوكيد ، وفي لقمان بدونها لأن الصبر على مكروه حدث بظلم كقتل ولد أشد من الصبر على مكروه حدث بلا ظلم كموت ولد ، كما أن العزم على الأول آكد منه على الثاني ، وما هنا من القبيل الأول فكان أنسب بالتوكيد ، وما في لقمان القبيل الثاني فكان أنسب بعدمه ، أفاده الكرخي .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ
هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ
مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ
يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ
﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي يخذله ﴿ فما له من ولي من بعده ﴾ أي فما له من أحد يلي هدايته وينصره ، وظاهر الآية العموم ، وقيل هي خاصة بمن أعرض عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعمل بما دعاه إليه من الإيمان بالله والعمل بما شرعه الله والمودة في القربى ، أي فمن أضله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هاد ، قاله القرطبي والأول أولى .

﴿ وترى ﴾ الخطاب في الموضعين لكل من تتأتى منه الرؤية والرؤية فيهما بصرية ، والجملة الواقعة بعد كل منهما حالية ﴿ الظالمين ﴾ أي المشركين المكذبين بالبعث ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي حين نظروا النار ، وقيل نظروا ما أعده الله لهم عند الموت ، واختير لفظ الماضي للتحقيق ﴿ يقولون : هل إلى مرد من سبيل ﴾ أي هل إلى الرجعة إلى الدنيا من طريق ؟

﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي على النار ﴿ خاشعين من الذل ﴾ أي ساكنين متواضعين من أجله ﴿ ينظرون ﴾ إليها ﴿ من طرف خفي ﴾ أي ذليل ، قاله ابن عباس ، ومن هي لابتداء الغاية ، أي يبتدىء نظرهم إلى النار ، ويجوز أن تكون تبعيضية ، وقال يونس : من بمعنى الباء ، أي ينظرون بطرف ضعيف من الذل والخوف ، وبه قال الأخفش ، والطرف الخفي الذي يخفي نظره كالمصبور ينظر إلى السيف لما لحقهم من الذل والخوف والوجل قال مجاهد : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً وعين القلب طرف خفي وقال قتادة وسعيد بن جبير والسدي ومحمد بن كعب القرظي : يسارقون النظر إلى النار من شدة الخوف .

﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ أي إن الكاملين في الخسران هم هؤلاء الذين جمعوا بين خسران الأنفس والأهلين بتخليدهم في النار ﴿ يوم القيامة ﴾ إما ظرف لخسروا فالقول في الدنيا أو لقال فالقول في القيامة ، ويكون التعبير عنه بالماضي للدلالة على تحقق وقوعه قاله أبو السعود وأما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها ، وأما خسرانهم لأهليهم فلأنهم إن كانوا معهم في النار فلا ينتفعون بهم وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينهم وبينهم ، وقيل خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين .

﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين ، أو من كلام الله سبحانه أي هم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ﴾ أي لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب ، وأنصار ينصرونهم في ذلك الموطن من دون الله ، بل هو المتصرف سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ أي من طريق

يسلكها إلى النجاة ، ثم أمر سبحانه عباده بالإستجابة وحذرهم فقال :

﴿ استجيبوا لربكم ﴾ أي استجيبوا دعوته لكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ أي لا يقدر أحد على رده ودفعه على معنى من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد ، ولا يرده الله بعد[1] كالأليم بمعنى المؤلم ، أي لا تجدون يومئذ منكراً لما ينزل بكم من العذاب حكاه ابن أبي حاتم ، وقاله الكلبي وغيره : والأول أولى قال الزجاج . معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها .

﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي حافظاً تحفظ أعمالهم الصادرة عنهم حتى تحاسبهم عليها ولا موكلاً بهم رقيباً عليهم ، لتقهرهم على امتثال ما أرسلناك به .

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ عليك إلا البلاغ ﴾ لما أمرت بإبلاغه وليس عليك غير ذلك ، وهذا منسوخ بآية السيف ، لأنه قبل الأمر بالجهاد ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أي إذا أعطيناه رخاء وصحة وغنى ﴿ فرح بها ﴾ بطراً ونعم الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر ، فلهذا سمى الإنعام إذاقة ، والمراد بالإنسان الجنس ولهذا قال :

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي بلاء وشدة ومرض وفقر ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ من الذنوب وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاول بها ﴿ فإن الانسان كفور ﴾ أي كثير الكفر بما أنعم به عليه من نعمه غير شكور له عليها ، وهذا باعتبار غالب جنس الإنسان ، ولم يقل : فإنه كفور ، بل وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ، كما قال ﴿ إن

(١) سقط من الأصل : أن حكم به على عباده ووعدهم به ، والمراد به يوم القيامة ، أي يوم الموت ﴿ما لكم من ملجأ يومئذ﴾ تلجأون إليه ﴿وما لكم من نكير﴾ أي إنكار ، يعني بل تعترفون بذنوبكم لأنها مدونة في صحائفكم وتشهد بها عليكم جوارحكم ، وقال مجاهد : ما لكم من ناصر ينصركم ، وقيل : النكير بمعنى المنكر .

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

الإنسان لظلوم كفار﴾ والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغطيها ، ثم ذكر سبحانه سعة ملكه ونفاذ تصرفه فقال :

﴿لله ملك السموات والأرض﴾ أي له التصرف فيهما بما يريد لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، والملك بالضم الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه ، وفي المصباح وملك على الناس أمرهم ملكاً من باب ضرب إذا تولى السلطنة فهو ملك والاسم الملك بضم الميم .

﴿يخلق ما يشاء﴾ من الخلق ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ بدل مفصل من مجمل أي لا ذكور معهن ، قاله مجاهد والحسن والضحاك وأبو مالك وأبو عبيدة وقال ابن عباس يريد لوطاً وشعيباً لأنهما لم يكن لهما إلا البنات .

﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ أي لا إناث معهم ، يريد إبراهيم لأنه لم يكن له إلا الذكور ، قاله ابن عباس ، قيل : وتعريف الذكور بالألف واللام للدلالة على شرفهم على الإناث ، ويمكن أن يقال إن التقديم للإناث قد عارض ذلك فلا دلالة في الآية على المفاضلة ، بل هي مسوقة لمعنى آخر ، وقد دل على شرف الذكور قوله سبحانه :

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله﴾ وغير ذلك من الأدلة الدالة على شرف الذكور على الإناث ، وقيل : تقديم الإناث لكثرتهن بالنسبة إلى الذكور . وقيل : لتطييب قلوب آبائهن ، وقيل لغير ذلك مما لا حاجة إلى

التطويل بذكره ، أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن واثلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من بركة المرأة ابتكارها بالأنثى لأن الله قال : يهب لمن يشاء إناثاً » إلخ .

﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي يقرن بين الإناث والذكور ، ويجعلهم أزواجاً فيهبهما جميعاً لبعض خلقه يريد محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه كان له من البنين ثلاثة على الصحيح ، القاسم وعبدالله وإبراهيم ، ومن البنات أربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، قاله ابن عباس قال مجاهد . هو أن تلد المرأة غلاماً ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاماً ، ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد توأماً غلاماً وجارية ، وقال القتيبي التزويج هنا هو الجمع بين البنين والبنات ، تقول العرب : زوجت إبلي إذا جمعت بين الصغار والكبار ، ومعنى الآية أوضح من أن يختلف في مثله ، فإنه سبحانه أخبر أنه يهب لبعض خلقه إناثاً ويهب لبعض خلقه ذكوراً ويجمع لبعض بين الذكور والإناث .

﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى ، والعقيم الذي لا يولد له يريد يحيى وعيسى ، قاله ابن عباس ، وقال أكثر المفسرين : هذا على وجه التمثيل ، وإنما الحكم عام في كل الناس ، لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى في تكوين الأشياء كيف يشاء ، فلا معنى للتخصيص ، يقال رجل عقيم ، وامرأة عقيم ، وعقمت المرأة تعقم عقماً ، وأصله القطع ، ويقال : نساء عقّم وعقماء ﴿ إنه عليم قدير ﴾ أي بليغ العلم عظيم القدرة .

﴿ وما كان لبشر ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أن يكلمه الله ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إلا وحياً ﴾ بأن يوحي إليه فيلهمه في المنام ، ويقذف في قلبه ذلك ، قال مجاهد : نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً منه كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم في ذبح ولده ، والوحي الإشارة والرسالة والكتابة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه وحي ، كيف كان ، قاله ابن فارس ، وهو مصدر وحى إليه

يحي من باب وعي ، وأوحى إليه بالألف مثله ، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقى الى الأنبياء من عند الله تعالى ، ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف .

﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى يريد أن كلامه يسمع من حيث لا يرى ، وهو تمثيل بحال الملك المحتجب الذي يكلم خواصه من وراء حجاب قال ابن عباس في الآية إلا أن يبعث ملكاً يوحي إليه من عنده ، أو يلهمه فيقذف في قلبه . أو يكلمه من وراء حجاب ، وقيل : المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا .

﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ أي ملكاً ﴿ فيوحي ﴾ ذلك الملك إلى الرسول من البشر ﴿ بإذنه ﴾ أي بأمر الله وتيسيره ﴿ ما يشاء ﴾ أن يوحي إليه ، قال الزجاج : المعنى أن كلام الله للبشر إما أن يكون بإلهام يلهمهم أو يكلمهم من وراء حجاب كما كلم موسى ، أو برسالة ملك إليهم ، وتقدير الكلام ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحي وحياً أو يكلمه من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً ، ومن قرأ يرسل رفعاً أراد وهو يرسل فهو ابتداء واستئناف لها .

وقرأ الجمهور بنصب يرسل وبنصب فيوحي على تقدير أن ، وتكون أن وما دخلت عليه معطوفين على ﴿ وحياً ﴾ وحياً في محل الحال ، والتقدير : إلا موحياً أو مرسلاً ولايصح عطف أو ﴿يرسل﴾ على أن ﴿يكلمه﴾ لأنه يصير التقدير : وما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً ، وهو فاسد لفظاً ومعنى . وقد قيل في توجيه قراءة الجمهور غير هذا مما لا يخلو عن ضعف ، وقرىء بالرفع وكذلك فيوحي باسكان الياء على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير أو هو يرسل ، كما قال الزجاج وغيره .

وجملة ﴿ إنه عليّ حكيم ﴾ تعليل لما قبلها أي متعال عن صفات النقص ، حكيم في كل أحكامه ، قال المفسرون سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى فنزلت .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)﴾

﴿ وكذلك ﴾ أي كالوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ المراد به القرآن قاله ابن عباس ، وقيل النبوة ، قال مقاتل يعني الوحي بأمرنا ومعناه القرآن لأنه يهتدي به ففيه حياة من موت الكفر ، وقيل : من تبعيضية لأن الموحى إليه لا ينحصر في القرآن ، وقيل : المراد به الرحمة ، وقيل جبريل ، ثم ذكر سبحانه صفة رسوله قبل أن يوحي إليه فقال :

﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ أي : أيُّ شيء هو لأنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك أدخل في الإعجاز ، وأدل على صحة نبوته ، ومعنى ﴿ ولا الإيمان ﴾ أنه كان صلى الله عليه وسلم لا يعرف تفاصيل الشرائع ومعالمها ، ولا يهتدي إلى معانيها ، كالصلاة والصوم والزكاة والختان وإيقاع الطلاق والغسل من الجنابة ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر ، وهذا هو الحق وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها ، وقيل أراد بالإيمان هنا الصلاة ، قال بهذا جماعة من أهل العلم ، منهم إمام الأئمة محمد بن إسحق بن خزيمة واحتج بقوله تعالى :

﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ يعني الصلاة ، فسماها إيماناً ، وذهب جماعة إلى أن الله لم يبعث نبياً إلا وقد كان مؤمناً به ، وقالوا معنى الآية ما كنت تدري قبل الوحي كيف تقرأ القرآن ؟ ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ؟ وقيل كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً وفي المهد .

وقال الحسين بن الفضل إنه على حذف المضاف ، أي ولا أهل الإيمان ، وقيل المراد بالإيمان ، دين الاسلام ، وقيل الايمان هنا عبارة عن الاقرار بكل

ما كلف الله به العباد ، وقال الكواشي ويجوز أن يراد بالإيمان نفس الكتاب وهو القرآن وعطف عليه لاختلاف لفظيهما أي ما كنت تعرف القرآن وما فيه من الأحكام ، ويدل على هذا التأويل توحيد الضمير في جعلناه ، وقيل المراد بالإيمان الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد ، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحي لا بالعقل ، قاله الكرخي .

وعن علي قال : « قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا قالوا فهل شربت خمراً قط ؟ قال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان ؟ وبذلك نزل القرآن » . ﴿ وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾[1]

﴿ ولكن جعلناه نوراً ﴾ أي جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياء ودليلاً على التوحيد والإيمان ﴿ نهدي به ﴾ المراد به الهداية الموصلة بدليل قوله ﴿ من نشاء ﴾ هدايته ﴿ من عبادنا ﴾ ونرشده إلى الدين الحق ﴿ وإنك لتهدي ﴾ أي كل مكلف فالهداية فيه أعم من التي قبلها قرأ الجمهور لتهدي على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول ، وقرىء بضم التاء وكسر الدال من أهدى ، وفي قراءة أبيّ وإنك لتدعو ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ قال قتادة والسدي ومقاتل : وإنك لتدعو إلى الإسلام فهو الصراط المستقيم .

ثم بين الصراط المستقيم بقوله :

﴿ صراط الله ﴾ بدل من الأول بدل المعرفة من النكرة وفي هذه الإضافة للصراط إلى الإسم الشريف من التعظيم له والتفخيم لشأنه مالا يخفى ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً والمعنى أنه المالك لذلك ، والمتصرف فيه .

﴿ ألا إلى الله تصير ﴾ أي ترجع ﴿ الامور ﴾ يوم القيامة لا إلى غيره ، أي جميع أمور الخلائق بارتفاع الوسائط والتعلقات وعلى هذا المضارع على

(١) زاد المسير ٢٩٩ .

ظاهره ، وقيل : المراد بهذا المضارع الديمومة كقولك زيد يعطي ويمنع أي من شأنه ذلك وليس المراد حقيقة المستقبل لأن الأمور منوطة به تعالى كل وقت وفيه وعيد بالبعث المستلزم للمجازاة ووعد بنعيم الجنات فيثيب المحسن ويعاقب المسيء .

قال سهيل بن أبي الجعد : أحترق مصحف ولم يبق منه إلا قوله ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ وغرق مصحف فانمحى كله إلا قوله ذلك والله أعلم القرطبي .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزخرف

﴿ وهي تسع وثمانون آية ﴾

قال القرطبي : هي مكيّة بالاجماع وبه قال ابن عباس . قال مقاتل إلا قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ يعني فانها نزلت بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾
وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا
أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم
مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

﴿ حٓم ﴾ الكلام ههنا كالكلام الذي قدمناه والله أعلم بمراده به ﴿ والكتاب المبين ﴾ أقسم بالقرآن الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، وأبان ما تحتاج اليه الأمة من الشريعة ، وقيل المبين الواضح للمتدبرين وهو من الايمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه ولعل أقسام الله بالأشياء استشهاده بما فيها من الدلالة على المقسم عليه ، وجواب القسم .

﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ وهذا عندهم من البلاغة وهو كون القسم والمقسم عليه من واد واحد إن أريد بالكتاب القرآن وإن أريد به جنس الكتب المنزلة لم يكن من ذلك والضمير في جعلناه على الأول ، يعود على الكتاب ، وعلى الثاني يعود على القرآن وإن لم يصرح بذكره ، والجعل هنا تصيير ولا يلتفت لخطأ الزمخشري في تجويزه أن يكون بمعنى خلقناه قاله السمين .

والمعنى سميناه وصيرناه ووصفناه ولذلك تعدى الى مفعولين ، وقال السدي : أي أنزلناه قرآناً ، وقال مجاهد قلناه وقال سفيان الثوري : بيناه ، وكذا قال الزجاج أي أنزل بلسان العرب لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ، وقال مقاتل لأن لسان أهل الجنة عربي .

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تفهموه وتتعقلوا معانيه وتحيطوا بما فيه ، قال ابن زيد لعلكم تتفكرون ﴿ وإنه﴾ أي وإن القرآن ﴿ في أم الكتاب لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلي حكيم ﴾ أخبر عن منزلته وشرفه وفضله أي ان كذبتم به يا أهل مكة فانه عندنا شريف رفيع القدر محكم النظم في أعلى طبقات البلاغة ، ودرجات الفصاحة ، لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ، والجملة عطف على الجملة المقسم بها داخلة تحت معنى القسم أو مستأنفة مقررة لما قبلها ، قال الزجاج : أم الكتاب أصل الكتاب ، وأصل كل شيء أمه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ، كما قال ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

قال ابن جريج : المراد بقوله وانه الخ أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية ، عن ابن عباس قال : « إن أول ما خلق الله من شيء القلم ، وأمره أن يكتب ما هو كائن الى يوم القيامة عنده »[1] ، ثم قرأ هذه الآية وأخرج ابن مردويه نحوه عن أنس مرفوعاً .

﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ يقال : ضربت عنه وأضربت عنه إذا تركته وأمسكت عنه ، كذا قال الفراء والزجاج وغيرهما ، وانتصاب صفحاً على المصدرية أو على الحال أي صافحين ، والصفح مصدر قولهم : صفحت عنه إذا أعرضت عنه ، وذلك أنك توليه صفحة وجهك وعنقك ، والمراد بالذكر هنا القرآن ، والاستفهام للانكار والتوبيخ قال الكسائي :

المعنى أفنضرب عنكم الذكر طياً فلا توعظون ولا تؤمرون . وقال مجاهد وأبو صالح والسدي أفنضرب عنكم العذاب ولا نعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؟ وقال قتادة المعنى أفنهلككم ولا نأمركم ولا ننهاكم ، وروي عنه انه قال : المعنى أفنمسك عن إنزال القرآن من قبل ، أنكم لا تؤمنون به ، وقيل : الذكر التذكير كأنه قال أنترك تذكيركم .

﴿ أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ قرىء إن بالكسر على أنها الشرطية والجزاء

(١) سبق ذكره .

محذوف لدلالة ما قبله عليه وبفتحها على التعليل ، أي لأن كنتم قوماً منهمكين في الإسراف مصرين عليه مفرطين في الجهالة مجاوزين الحد في الضلالة ، قال ابن عباس في الآية أحببتم أن نصفح عنكم ولم تفعلوا ما أمرتم به ، ثم سلى سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ كم هي الخبرية التي معناها التكثير والمعنى : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة .

﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾ كاستهزاء قومك بك ﴿ فأهلكنا ﴾ قوماً ﴿ أشد منهم ﴾ أي من هؤلاء القوم ﴿ بطشاً ﴾ أي قوة تمييز أو حال ، أو باطشين والأول أحسن ، والبطش شدة الأخذ ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل لشهرتها ، وقال قتادة : عقوبتهم ، وقيل : صفتهم في الاهلاك والمثل الوصف والخبر ، وفي هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتهديد شديد لهم لأنه يتضمن أن الأولين أهلكوا بتكذيب الرسل ، وهؤلاء إن استمروا على تكذيبك والكفر بما جئت به هلكوا مثلهم .

﴿ ولئن ﴾ لام قسم ﴿ سألتهم ﴾ أي هؤلاء الكفار من قومك ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾ أي هذه الأجرام العلوية والسفلية ﴿ ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ جواب القسم لا جواب الشرط ، وهذا على القاعدة في اجتماع الشرط والقسم ، من حذف جواب المتأخر منهما وحذف منه نون الرفع لتوالي النونات وواو الضمير لالتقاء الساكنين ، وكرر الفعل للتوكيد إذ لو جاء﴿العزيز﴾ بغير﴿ خلقهن ﴾لكان كافياً ،والمعنى أقروا بأن الله خالقهن ولم ينكروا ذلك وهذا أسوأ لحالهم وأشد لعقوبتهم ، لأنهم عبدوا بعض مخلوقات الله وجعلوه شريكاً له ، بل عمدوا الى ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر من المخلوقات ، وهي الأصنام فجعلوها شركاء لله ، ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم نعمته على عباده ، وكمال قدرته في مخلوقاته فقال :

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾
وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾
وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ
ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا
هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً كالمهد للصبي ، ولو شاء لجعلها مزلة لا يثبت فيها شيء كما ترون من بعض الجبال ، ولو شاء لجعلها متحركة فلا يمكن الانتفاع بها في الزراعة والأبنية ، فالانتفاع بها إنما حصل لكونها مسطحة قارة ساكنة وقد تقدم بيانه ، قرأ الجمهور مهاداً وقرأ الكوفيون مهداً وهذا كلام مبتدأ غير متصل بما قبله ، ولو كان متصلاً بما قبله من جملة مقول الكفار لقالوا : الذي جعل لنا الأرض مهاداً .

﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً تسلكونها إلى حيث تريدون ولو شاء لجعلها بحيث لا يسلك في مكان منها كما جعل بعض الجبال كذلك وقيل معايش تعيشون بها ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم في أسفاركم .

﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ أي بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة[1] بالغرق ولا دونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة وعلى حسب ما تقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتوسيع تارة والتقتير أخرى .

﴿ فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ أي أحيينا بذلك الماء بلدة مقفرة من النبات

(١) سقط من الأصل : ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم حتى يهلك زرعكم ويهدم منازلكم ويهلككم . . . . .

وفيه التفات قرأ الجمهور ميتاً بالتخفيف وقرىء بالتشديد ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بعد أن كانت لا نبات بها ﴿ تخرجون ﴾ أي تبعثون من قبوركم أحياء فإن من قدر على هذا قدر على ذلك ، وقد مضى بيان هذا في آل عمران والأعراف ، قرأ الجمهور : تخرجون مبنياً للمفعول وقرىء مبنياً للفاعل .

﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود ، قال سعيد بن جبير الأصناف كلها وقال الحسن الأزواج الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والسموات والأرض والجنة والنار . وقيل أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ، وقيل أزواج النبات كقوله :

﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ و ﴿من كل زوج كريم ﴾ وقيل : ما يتقلب فيه الانسان من خير وشر وإيمان وكفر ، ونفع وضر وفقر وغنى ، وصحة وسقم وهذا القول يعم الأقوال ويجمعها بعمومه ، وقيل : الأول أولى ، قال بعض المحققين : كل ما سوى الله فهو زوج كالفوق والتحت ، والربيع والخريف ، واليمين واليسار ، والقدام والخلف ، والماضي والمستقبل والذوات والصفات ، وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود ، محدثة مسبوقة بالعدم ، فأما الحق تعالى فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد .

﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ما تركبونه في البحر والبر وأريد بالأنعام هنا ما يركب من الحيوان ، وهو الابل والخيل والبغال والحمير ، وقرينة هذا قوله في سورة النحل ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ فحينئذ في الأنعام هنا تغليب إذ الأنعام هي الابل والبقر والغنم وقال

الشوكاني : المراد بالأنعام ههنا الابل خاصة ، وقيل : الابل والبقر والأول أولى انتهى .

﴿ لتستووا ﴾ اللام لام العلة ، وهو الظاهر ، أو للصيرورة وجوز ابن عطية أن تكون لام الأمر ، وفيه بعد لقلة دخولها على أمر المخاطب ﴿ على ظهوره ﴾ الضمير راجع الى ما قاله أبو عبيد ، وقال الفراء أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بمنزلة الجنس فلذلك ذكر وجمع الظهر لأن المراد ظهور هذا الجنس ، والاستواء الاستعلاء أي لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام .

﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ أي التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر ﴿ إذا استويتم عليه ﴾ أي على ما تركبون ففيه مراعاة لفظ﴿ ما﴾أيضا قال مقاتل والكلبي هو أن تقول الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه :

﴿ وتقولوا ﴾ أي بألسنتكم جمعاً بين القلب واللسان : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه سبحان من سخر لنا هذا ، وقال قتادة قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتم والمعنى ذلل لنا هذا المركب الذي ركبناه سفينة كان أو دابة قاله الخطيب وصرح غيره بأنه خاص بالدابة ، وأما السفينة فيقول فيها ﴿ بسم الله مجريها ومرساها ﴾ ويؤيده :

﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ فان الامتناع والتعاصي والتوحش لولا تسخير الله وإذلاله إنما يتأتى في الدواب . وأما السفن فهي من عمل ابن آدم فليس لها امتناع بقوتها كامتناع الدابة . قال ابن عباس والكلبي : مقرنين مطيقين يقال أقرن هذا البعير اذا أطاقه . وقال الأخفش وأبو عبيدة : مقرنين ضابطين ، يقال فلان مقرن لفلان أي ضابط له ، وقيل مماثلين له في القوة من قولهم : هو قرن فلان اذا كان مثله في القوة .

وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ
﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا
ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ
وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ
أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا
عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي راجعون اليه وهذا تمام ما يقال عند ركوب الدابة أو السفينة ، وفيه إشارة الى الرد عليهم في إنكار البعث أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

روي أن قوماً ركبوا ، وقالوا سبحان الذي سخر لنا هذا الخ وفيهم رجل على ناقة لا تتحرك هزالاً فقال : إني مقرن لهذه فسقط لوثبتها واندقت عنقه ، وينبغي أن لا يكون ركوب العاقل للتنزه والتلذذ ، بل للاعتبار ، ويتأمل عنده أنه هالك لا محالة ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه .

قال القرطبي علمنا سبحانه وتعالى ما نقول إذا ركبنا الدواب وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق فلما كان الركوب مباشرة أمر مخوف واتصالاً بسبب من أسباب التلف أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته ولا يدع ذكر ذلك بقلبه

ولسانه ، حتى يكون مستعداً لقضاء الله بإصلاحه من نفسه ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله ، وهو غافل عنه . وقال ابن العربي : ليس بواجب ذكره باللسان بل يستحب وإنما الواجب اعتقاده بالقلب والأول أولى والجمع أفضل .

ثم رجع سبحانه الى ذكر الكفار الذين تقدم ذكرهم فقال :

﴿ وجعلوا له ﴾ أي بعد ذلك الاعتراف كما قاله القاضي أو معه كذا في الكشاف ، والجملة حالية والجعل تصيير قولي أي حكموا وأثبتوا له أو بمعنى سموا واعتقدوا ﴿ من عباده جزءاً ﴾ أي ولداً وسماه جزءاً دلالة على استحالته على الواحد في ذاته ، لأن المركب لا يكون واحد الذات ، قال قتادة جزءاً أي عدلاً يعني ما عبد من دون الله ، وقال الزجاج والمبرد الجزء هنا البنات ، والجزء عند أهل العربية البنات ، يقال : قد أجزأت المرأة إذا ولدت البنات .

وقد جعل صاحب الكشاف تفسير الجزء بالبنات من بدع التفسير ، وصرح بأنه مكذوب على العرب ويجاب عنه بأنه قد رواه الزجاج والمبرد وهما إماما اللغة العربية وحافظاها ومن إليهما المنتهى في معرفتها ، ويؤيد تفسير الجزء بالبنات ما سيأتي من قوله ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ وقوله ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ وقوله ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ وقيل : المراد بالجزء هنا الملائكة فانهم جعلوهم أولاداً لله سبحانه قاله مجاهد والحسن قال الأزهري ، ومعنى الآية أنهم جعلوا لله من عباده نصيباً على معنى أنهم جعلوا نصيب الله من الولدان .

﴿ إن الانسان ﴾ القائل ما تقدم ﴿ لكفور مبين ﴾ أي ظاهر الكفران مبالغ فيه قيل المراد بالانسان هنا الكافر فإنه الذي يجحد نعم الله عليه جحوداً بيناً ثم أنكر عليهم هذا فقال : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ هذا استفهام تقريع وتوبيخ وأم هي المنقطعة بمعنى همزة الإنكار وقدرها بعضهم ببل التي للانتقال وبعضهم بهما وكل صحيح لأن فيها مذاهب ثلاثة كما نقله أبو حيان والمعنى أتقولون اتخذ ربكم لنفسه البنات .

﴿ وأصفاكم ﴾ أخلصكم وخصكم ﴿ بالبنين ﴾ فجعل لنفسه المفضول من الصنفين ، ولكم الفاضل منهما يقال أصفيته بكذا أي آثرته به وأصفيته الود أخلصته له ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وهذه الجملة معطوفة على اتخذ داخلة معها تحت الانكار ، ثم زاد في تقريعهم وتوبيخهم فقال :

﴿ وإذا بشر أحدهم ﴾ استئناف أو حال ﴿ بما ضرب للرحمن مثلاً ﴾ أي بما جعله للرحمن سبحانه من كونه جعل لنفسه البنات ، والالتفات الى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت أن يعرض عنهم ، وتحكى لغيرهم ليتعجب منها والمثل بمعنى الشبه أي المشابه لا بمعنى الصفة الغريبة العجيبة ، والمعنى إذا بشر أحدهم بأنها ولدت له بنت اغتم لذلك وظهر عليه أثره ، وهو معنى قوله :

﴿ ظل ﴾ أي صار ﴿ وجهه مسوداً ﴾ بسبب حدوث الأنثى له حيث لم يكن الحادث له ذكراً مكانها ﴿ وهو كظيم ﴾ أي والحال انه شديد الحزن كثير الكرب مملوء منه قال قتادة : حزين وقال عكرمة : مكروب ، وقيل ساكت ثم زاد في توبيخهم وتقريعهم فقال :

﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ النشوء التربية والحلية الزينة و﴿من﴾ عبارة عن الأنثى أي يجعلون لله الأنثى التي تتربى قي الزينة لنقصها إذ لو كملت في نفسها لما تكملت بالزينة قرأ الجمهور ينشأ بفتح الياء واسكان النون وقرأ ابن عباس والضحاك وحفص بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم واختار الثانية أبو عبيدة ، وقال الهروي : الفعل على القراءة الأولى لازم ، وعلى الثانية متعد ، والمعنى يربى ويكبر في الحلية .

﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي عاجز عن أن يقوم بأمر نفسه واذا خوصم لا يقدر على إقامة حجته وتقرير دعواه ، ودفع ما يجادله به خصمه لنقصان عقله ، وضعف رأيه، وإضافة﴿غير﴾لا يمنع عمل ما بعدها في الجار المتقدم عليها . لأنها بمعنى النفي قال المبرد : تقدير الآية ويجعلون له من

ينبت في الزينة ، وإذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان .

وفيه أنه جعل النشأة في الزينة من المعايب فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى . قال قتادة : قلما تتكلم امراة بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها ، وقال ابن زيد والضحاك : الذي ينشأ في الحلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة ، قال ابن عباس في الآية هو النساء فرق بين زيهن وزي الرجال ونقصهن من الميراث ومن الشهادة ، وأمرهن بالقعدة وسماهن الخوالف .

﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ الجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء كما تقول : جعلت زيداً أفضل الناس أي قلت بذلك وحكمت له به أي سموهم وحكموا ، وقالوا : انهم إناث وجمعوا في كفرهم ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ونسبوا اليه أخس النوعين وجعلوا ملائكته المكرمين إناثاً فاستخفوا بهم قرأ الجمهور : عباد بالجمع ، وبها قرأ ابن عباس وقرأ الباقون عند بنون ساكنة ، واختار الأولى أبو عبيد لأن الاسناد فيها على ، ولأن الله إنما كذبهم في قولهم إنهم بنات الله فأخبرهم بأنهم عباده .

قال النسفي : وهو ألزم في الحجاج مع أهل العناد لتضاد بين العبودية والولادة انتهى ، ويؤيد هذه القراءة قوله ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ واختار أبو حاتم الثانية قال : وتصديق هذه القراءة قوله : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ عن سعيد بن جبير قال كنت أقرأ هذا الحرف الذين هم عند الرحمن إناثاً فسألت ابن عباس فقال عباد الرحمن ، قلت فإنها في مصحفي قال فامحها واكتبها عباد الرحمن ثم وبخهم وقرعهم فقال :

﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي أحضروا خلق الله إياهم فهو من الشهادة التي هي الحضور وفي هذا تهكم بهم ، وتجهيل لهم ، قرأ الجمهور : ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ بضم الفوقية وبناء الفعل للمفعول ورفع شهادتهم ، وقرىء بالنون

وبناء الفعل للفاعل ، ونصب شهادتهم ، وقرىء شهاداتهم بالجمع ، والمعنى سنكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في ديوان أعمالهم ، لنجازيهم على ذلك ، قال البقاعي يجوز أن يكون في السين استعطاف الى التوبة قبل كتابة ما قالوا ولا علم لهم به ﴿ ويسألون ﴾ عنها يوم القيامة في الآخرة ، وهذا وعيد . قال سليمان الجمل وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر ، وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم انتهى .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاؤوا به للاستهزاء والسخرية ، ومعناه لو شاء الرحمن في زعمكم عدم عبادة الملائكة ما عبدنا هذه الملائكة ، فاستدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها ، أو على حسنها ، وذلك باطل لأن المشيئة ترجيح بعض الممكنات على بعض ، مأموراً كان أو منهياً ، حسناً كان أو غيره ، وبالجملة هذا كلام حق يراد به باطل ، وقد مضى بيانه في الأنعام ، وتعلقت المعتزلة بظاهر هذه الآية في أن الله لم يشأ الكفر من الكافر ، وإنما شاء الإيمان ، فإن الكفار ادعوا أن الله شاء منهم الكفر ، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام فرد الله عليهم قولهم واعتقادهم ، وبين جهلهم بقوله :

﴿ ما لهم بذلك ﴾ أي بما قالوه من أن الله لو شاء عدم عبادتهم للملائكة ما عبدوهم ﴿ من علم ﴾ بل تكلموا بذلك جهلاً ، وأرادوا بما صورته صورة الحق باطلاً ، وزعموا انه إذا شاء فقد رضي . وقيل : الاشارة بذلك إلى قوله ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ قاله قتادة ومقاتل والكلبي ، وقال مجاهد وابن جريج أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم ثم بين انتفاء علمهم بقوله :

﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ أي ما هم إلا يكذبون فيما قالوا ويتمحلون تمحلاً باطلاً ، قال هنا ﴿يخرصون﴾ وفي الجاثية ﴿يظنون﴾ ،هذا كذب فناسبه الخرص وما هناك صدق مخلوط بالكذب فناسبه الظن .

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ
إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ أم هي المنقطعة بمعنى همزة الاستفهام الإنكاري أي أأعطيناهم كتاباً من قبل القرآن ، بما ادعوه بأن يعبدوا غير الله وقيل إن الضمير في﴿من قبله﴾يعود إلى ادعائهم ، أي أم آتيناهم كتاباً من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه ؟ والأول أولى أو أم معادلة لقوله أشهدوا فتكون متصلة ، والمعنى أحضروا أم آتيناهم كتاباً الخ والأول أرجح وأولى ، كما أفاده الشهاب ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ يأخذون بما فيه ويحتجون به ويجعلونه لهم دليلاً .

ثم بيّن سبحانه أنه لا حجة بأيديهم ولا شبهة ولكنهم اتبعوا آباءهم في الضلالة فقال :

﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ أي على طريقة ومذهب ، قال أبو عبيدة هي الطريقة والدين ، وبه قال ابن عباس وقتادة وغيره قال الجوهري والأمة الطريقة والدين يقال فلان لا أمة له ولا نحلة أي لا دين له وقال الفراء وقطرب على قبلة . وقال الأخفش على استقامة قرأ الجمهور أمة بالضم ، وقرىء بكسرها قال الجوهري والإمة بالكسر النعمة والإمة أيضاً لغة في الأمة .

﴿ وإنا ﴾ ماشون ﴿ على آثارهم مهتدون ﴾ بهم وكانوا يعبدون غير الله اعترفوا بأنه لا مستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع والبيان سوى تقليد آبائهم قال الخازن جعلوا أنفسهم مهتدين باتباع

آبائهم وتقليدهم من غير حجة انتهى ؛ وعبارة أبي السعود لم يأتوا بحجة عقلية ولا نقلية ، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم اهـ .

وقال هنا : مهتدون ، وفيما بعده : مقتدون ، لأن الأول وقع في محاجتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين ، وأنهم مهتدون كآبائهم ، فناسبه مهتدون والثاني وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء ، فناسبه مقتدون ، أفاده الكرخي . ثم أخبر سبحانه أن غير هؤلاء من الكفار قد سبقهم الى هذه المقالة ، وقال بها فقال :

﴿ وكذلك ﴾ أي الأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتمسكهم بالتقليد ، وقوله ﴿ ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ استئناف مبين لذلك ، دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم ، ليس لأسلافهم أيضا مستند غيره ، قاله أبو السعود ، والمترفون الأغنياء والرؤساء والمتنعمون جمع مترف . اسم مفعول من اترف ، وأترفته النعمة أطغته .

قال الكرخي : هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ،وأن من تقدمهم أيضاً لم يكن لهم مستند منظور إليه ، وتخصيص المترفين للإشعار بأن التنعم هو الذي أوجب البطر ، وصرفهم عن النظر الى التقليد انتهى . والأمة هي من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد ، ومقتدون أي متبعون ، قاله قتادة ، قال النسفي : وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن تقليد الآباء داء قديم اهـ .

قال الرازي في تفسيره : لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد ، وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في اثبات ما ذهبوا اليه لا بطريق عقلي ، ولا بدليل نقلي ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في

معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل .

ومما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق ، وذلك لأنه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة ، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة ، فلو كان التقليد ، طريقاً إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقاً ، ومعلوم أن ذلك باطل ، وأنه تعالى بين أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا ، وحب الكسل والبطالة ، وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال ، لقوله : ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة ، أي أبطرتهم ، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ، ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق أ هـ .

أقول وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية ، منها ما ذكره ابن القيم ، وأنا أورده ههنا قال : يقال لمن حكم بالتقليد : هل لك من حجة فيما حكمت به ؟ فإن قال : نعم بطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد ، وإن قال : حكمت به بغير حجة ، قيل له : فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج وأتلفت الأموال وقد حرم الله ذلك إلا بحجة قال الله عز وجل .

﴿ هل عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي من حجة بهذا ، فإذا قال أنا أعلم أني قد أصبت ، وإن لم أعرف الحجة لأني قلدت كثيراً من العلماء ، وهو لا يقول إلا بحجة خفيت على قيل له : إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك فتقليد معلم معلمك أولى ، لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك ، كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك . فإن قال نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه ، وكذلك من هو أعلى حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أبى ذلك نقض قوله ، وقيل له كيف يجوز تقليد من هو أصغر وأقل علماً ؟ ولا

يجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً ؟ وهذا تناقض ، فإن قال لأن معلمي - وإن كان أصغر - فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه ، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك ، قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه فليلزمه تقليده ، وترك تقليد معلمك وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك ؛ فإن قلد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله ، والأعلى للأدنى أبداً ، وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً .

قال أبو عمرو قال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين ، وادراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشيء فقد علمه ، قالوا والمقلد لا علم له ، لم يختلفوا في ذلك ، ومن ههنا والله أعلم قال البحتري :

عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهال بالتقليد
وأرى الناس مجمعين على فضـ ـلك من بين سيد ومسود

وقال أبو عبد الله بن خواز منداد البصري المالكي : التقليد معناه في الشرع الرجوع الى قول لا حجة لقائله ، وذلك ممنوع منه في الشريعة ، والاتباع ما ثبت عليه حجة . وقال في موضع آخر من كتابه كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله بدليل يوجب ذلك فأنت مقلده ، والتقليد في دين الله غير صحيح وكل من أوجب الدليل عليك اتباع قوله فأنت متبعه ، والاتباع في الدين مسوغ ، والتقليد ممنوع ا هـ .

قال ابن حارث : هذا والله الدين الكامل والعقل الراجح . لا كمن يأتي بالهذيان ويريد أن ينزل قوله من القلوب منزلة القرآن ا هـ . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يرد عليهم فقال :

﴿ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ أي أتتبعون آباءكم وتقلدونهم ؟ ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ قال الزجاج المعنى قل لهم أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء وإن جئتكم بأهدى منه ؟ قرأ الجمهور قل وقرىء قال : وهو حكاية لما جرى بين المنذرين وقومهم ، أي قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته ، وقيل إن كلتا القراءتين حكاية لما جرى بين المنذرين وقومهم أي قال كل منذر من أولئك المنذرين لأمته المقلدين ، كأنه قال لكل نبي قل بدليل قوله :

﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ قال الشوكاني وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه ، فان هؤلاء المقلدة في الاسلام إنما يعملون بقول أسلافهم ، ويتبعون آثارهم ، ويقتدون بهم فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها ، وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير ، ولا حجة واضحة ، بل لمجرد قيل وقال ، لشبهة داحضة ، وحجة زائفة ، ومقالة باطلة ، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ أو بما يلاقي معناه معنى ذلك .

فإن قال لهم الداعي إلى الحق قد جمعتنا الملة الاسلامية وشملنا هذا الدين المحمدي ، ولم يتعبدنا الله ولا تعبدكم ولا آباءكم من قبلكم إلا بكتابة الذي أنزله على رسوله ، وبما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه

المبين لكتاب الله ، الموضح لمعانيه ، الفارق بين محكمه ومتشابهه ، فتعالوا نرد ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، كما أمرنا الله بذلك في كتابه بقوله :

﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ فإن الرد إليهما أهدى لنا ولكم من الرد إلى ما قاله أسلافكم ودرج عليه آباؤكم ،نفروا نفور الوحش ، ورموا الداعي لهم إلى ذلك بكل حجر ومدر ، كأنهم لم يسمعوا قول الله سبحانه ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ ولا قوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

فإن قال لهم القائل : هذا العالم الذي تقتدون به وتتبعون أقواله هو مثلكم في كونه متعبداً بكتاب الله وسنة رسوله ، مطلوباً منه ما هو مطلوب منكم ، واذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل ، فذلك رخصة له ، لا يحل أن يتبعه غيره عليها ، ولا يجوز له العمل بها ، وقد وجد الدليل الذي لم يجده ، وها أنا أوجدكموه في كتاب الله ، أو فيما صح من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : لا نعمل بهذا ، ولا سمع لك ولا طاعة ، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب والسنة ، ولم يسلموا لذلك ولا أذعنوا له .

وقد وهب لهم الشيطان عصا يتوكأون عليها عند أن يستمعوا من يدعوهم الى الكتاب والسنة ، وهي أنهم يقولون : إن إمامنا الذي قلدناه واقتدينا به أعلم منك بكتاب الله وسنة رسوله ، وذلك لأن أذهانهم قد تصورت من يقتدون به تصوراً عظيماً بسبب تقدم العصر وكثرة الأتباع ، وما علموا أن هذا منقوض عليهم مدفوع به في وجوههم .

فإنه لو قيل لهم : إن في التابعين من هو أعظم قدراً وأقدم عصراً من صاحبكم ، فإن كان لتقدم العصر وجلالة القدر مزية توجب الاقتداء فتعالوا

حتى أريكم من هو أقدم عصراً وأجل قدراً ، فإن أبيتم ذلك ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً من صاحبكم علماً وفضلاً وجلالة قدر ، فإن أبيتم ذلك فها أنا أدلكم على من هو أعظم قدراً وأجل خطراً ، وأكثر أتباعاً ، وأقدم عصراً ، وهو محمد بن عبد الله نبينا ونبيكم صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله إلينا وإليكم ، فتعالوا فهذه سنته موجودة في دفاتر الاسلام ودواوينه التي تلقتها جميع هذه الأمة قرناً بعد قرن ، وعصراً بعد عصر ، وهذا كتاب ربنا خالق الكل ، ورازق الكل ، وموجد الكل ، بين أظهرنا ، موجود في كل بيت ، وبيد كل مسلم ، لم يلحقه تغيير ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا تحريف ولا تصحيف ، ونحن وأنتم ممن يفهم ألفاظه ، ويتعقل معانيه ، فتعالوا لنأخذ الحق من معدنه ، ونشرب صفو الماء من منبعه ، فهو مما وجدتم عليه آباءكم .

قالوا : لا سمع ولا طاعة ، إما بلسان القال أو بلسان الحال ، فتدبر هذا وتأمله إن بقي فيك بقية من إنصاف وشعبة من خير ، ومزعة من حياء ، وحصة من دين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد أوضحت هذا غاية الايضاح في كتابي الذي سميته أدب الطلب ومنتهى الأرب انتهى . وقد أوضحه الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين فأرجع إليهما إن رمت أن تنجلي عنك ظلمات التعصب ، وتنقشع لك سحائب التقليد .

﴿ فانتقمنا منهم ﴾ وذلك الانتقام ما أوقعه الله بقوم نوح وعاد وثمود بما استحقوه على اصرارهم على التقليد ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للأنبياء من تلك الأمم . فإن آثارهم موجودة ، ولا تكترث بتكذيب قومك لك ، ثم لما بيّن في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، وبين أنه طريق باطل ، ومنهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد ، أردفه بهذه الآية :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

﴿ وإذا قال ابراهيم ﴾ الذي هو أعظم آبائهم ، ومحط فخرهم ، والمجمع على محبته وحقية دينه منهم ومن غيرهم ﴿ لأبيه ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله لأبيه من غير أن يقلده ، كما قلدتم أنتم آباءكم ﴿ وقومه ﴾ أي الذين قلدوا آباءهم ، وعبدوا الأصنام .

﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ تبرأ مما هم عليه وتمسك بالبرهان ، ليسلكوا مسلكه في الاستدلال ، والبراء مصدر نعت به للمبالغة ، وهو يستعمل للواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ، وقال الجوهري : وتبرأت من كذا وأنا منه براء وخلاء لا يثنى ولا يجمع ، لأنه مصدر في الأصل وبه قال الكسائي والمبرد والزجاج ، ثم استثنى خالقه من البراءة فقال :

﴿ إلا الذي فطرني ﴾ أي خلقني ، والاستثناء منقطع أي لكن الذي فطرني أو متصل من عموم ﴿ما﴾ لأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام ، أو إلا صفة بمعنى غير ، وما نكرة موصوفة ، قاله الزمخشري ﴿ فانه سيهدين ﴾ أي سيرشدني لدينه ، ويوفقني لطاعته ، ويثبتني على الحق ، وإخباره بأنه سيهديه جزماً لثقته بالله سبحانه ، وقوة يقينه ، والأوجه أن السين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .

﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ الضمير في جعلها عائد الى قوله إلا الذي فطرني ، وهي بمعنى التوحيد كأنه قال : وجعل كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم ، وهم ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد الله ، وفاعل جعلها

ابـراهيم ، وذلك حيث وصـاهم بالتـوحيد ، وأمـرهم أن يدينـوا بـه ، كمـا في قوله :

﴿ ووصى بهـا ابراهيم بنيـه ويعقوب ﴾ الآيـة ، وقيل : الفـاعـل هـو الله عـز وجل ، أي وجعل الله سبحانه كلمة التوحيـد باقيـة في عقب إبراهيم ، والعقب من بعـد ، قال مجـاهد وقتـادة . الكلمة لا إلّـه إلا الله ، لا يزال من عقبـه من يعبـد الله إلى يوم القيـامة ، ويـوحده ويـدعو الى تـوحيده وقـال عكرمـة : هي الإسلام ، قال ابن زيد : الكلمة هي قوله ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ قال ابن عباس : كلمة باقية لا إلّه إلا الله وعقب ابراهيم ولده .

﴿ لعلهم يرجعون ﴾ تعليل للجعل أي جعلها باقية رجاء أن يـرجع إليهـا من يشرك منهم بدعـاء من يوحـد ، وقيل : الضميـر في لعلهم يرجـع الى أهل مكـة أي لعل أهلهـا يرجعـون إلى دينك الـذي هو دين ابـراهيم ، وقيـل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها الخ ، قال السدي : لعلهم يتوبون فيرجعون عما هم عليه الى عبادة الله ، قال الرازي في تفسيره .

والمقصود من هذه الآية ذكر وجه آخر يـدل على فساد القـول بالتقليـد ، وتقريره من وجهين ، الأول انه تعالى حكى عن ابـراهيم عليه السـلام أنه تبـرأ عن دين آبائه بناء على الدليل ، فنقول : إما أن يكون تقليـد الآباء في الأديـان محرماً أو جائزاً فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جـائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو ابـراهيم عليه السـلام ، وذلك لأنـه ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده ، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول : إنه ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء ، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ، ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد

وإذا ثبت هذا فنقول : فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد ، وما أفضى ثبوته إلى نقله كان باطلاً ، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلاً ، فهذا طريق دقيق في ابطال التقليد ، وهو المراد من هذه الآية ، الوجه الثاني في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا والدين ، انه تعالى بين أن ابراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل ، لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً في عقبه الى يوم القيامة ، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت ، فثبت أن الرجوع الى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة ، وأن التقليد والاصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خبر ، ولا أثر ، فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل ، وترك التقليد أولى ، فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية انتهى .

ثم ذكر سبحانه نعمته على قريش ، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم فقال :

﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ أي أهل مكة عقب إبراهيم ﴿ وآباءهم ﴾ أضرب سبحانه عن الكلام الأول الى ذكر ما متعهم به من الأنفس والأهل والأموال ، والمد في الأعمار ، وأنواع النعم ، وسلامة الأبدان من البلايا والنقم ، وما متع به آباءهم ولم يعاجلهم بالعقوبة فاغتروا بالمهلة ، وأنكبواعلى الشهوات ، وشغلوا بالتنعم عن كلمة التوحيد ، وبطروا وتمادوا على الباطل .

﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ يعني القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، ظاهر الرسالة واضحها ، أو مبين لهم ما يحتاجون اليه من أمر الدين ، فلم يجيبوه ولم يعملوا بما أنزل عليه ، وفي هذه الغاية خفاء بيّنة في الكشاف وشروحه ، وهو أن ما ذكر ليس غاية للتمتيع ، إذ لا مناسبة بينهما مع أن مخالفة ما بعدها لما قبلها غير مرعي فيها .

والجواب أن المراد بالتمتيع ما هو سببه من اشتغالهم به عن شكر

المنعم ، فكأنه قال : اشتغلوا به حتى ﴿ جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ وهو غاية في نفس الأمر لأنه مما ينبههم ويزجرهم ، لكنهم لطغيانهم عكسوا، فهو كقوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ أفاده الشهاب ثم بين سبحانه ما صنعوه عند مجيء الحق فقال :

﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ أي جاحدون فسموا القرآن سحراً وجحدوه واستحقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء والأسلاف لم يتفكروا في الدليل واغتروا بطول الامهال ، وامتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق والغرض بهذا الكلام توبيخ المقلد المسيء .

﴿ وقالوا ﴾ متحكمين بالباطل ﴿ لو لا ﴾ هلا ﴿ نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ أي رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من أحدهما ، والمراد بهما مكة والطائف ، قاله ابن عباس ، وبالرجلين الوليد بن المغيرة من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف ، كذا قال قتادة وغيره : وقال مجاهد وغيره عتبة بن ربيعة من مكة وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف ، وقال ابن عباس ، عمير بن مسعود وخيار قريش ، وقال أيضا العظيم الوليد بن المغيرة القرشي وحبيب بن عمير الثقفي ، وعنه قال : يعنون أشرف من محمد الوليد بن المغيرة من أهل مكة ومسعود الثقفي من أهل الطائف ، وقيل غير ذلك ، وظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه ، واسع المال ، مسود في قومه ، والمعنى أنه لو كان قرآنا لنزل على رجل من عظماء القريتين ، فهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف ، فلا يليق إلا برجل شريف ، وقد صدقوا في ذلك إلا أنهم ضموا اليه مقدمة فاسدة ، وهي أن الرجل الشريف عندهم هو الذي يكون كثير المال والجاه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ليس كذلك ، فأجاب الله سبحانه عليهم بقوله :

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ يعني النبوة أو ما هو أعم منها والاستفهام للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من تحكمهم في اختيار من يصلح للنبوة وترسم هذه التاء مجرورة اتباعا لرسم المصحف الامام كما نص عليه ابن الجزري ثم بين أنه سبحانه هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا فقال :

﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ أي نحن أوقعنا هذا التفاوت بين العباد ، فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ، وهذا مالكاً ، وهذا مملوكاً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، ولم نفوض ذلك إليهم ، وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده ، وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر النبوة ؟ وتفويضها الى من يشاء من خلقه ؟ قال مقاتل : يقول بأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ، قرأ الجمهور معيشتهم الافراد ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن معايشهم بالجمع .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ أنه فاضل بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم ، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض فقال :

﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ أي ليستخدم بعضهم بعضاً فيستخدم الغني الفقير ، والرئيس المرؤوس والقوي الضعيف ، والحر العبد ، والعاقل من دونه في العقل والعالم الجاهل وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا ، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ، ويصل كل واحد منهم الى مطلوبه ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين فجعل البعض محتاجاً الى البعض لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا ويحتاج هذا إلى هذا ويصنع هذا لهذا ويعطي هذا هذا .

وقال السدي وابن زيد سخرياً خولاً وخدماً ، يسخر الأغنياء الفقراء ، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض ، وقال قتادة والضحاك : ليملك بعضهم بعضاً ، وقيل هو من السخرية التي بمعنى الاستهزاء ، قال الأخفش سخرت به ، وسخرت منه ، وضحكت به ، وضحكت منه ، وهزأت به ، وهزأت منه ، وهذا وإن كان مطابقاً للمعنى اللغوي لكنه بعيد من معنى القرآن ، ومناف لما هو مقصود السياق ، وعلى هذا القول تكون اللام للصيرورة والعاقبة ، لا للعلة والسببية .

﴿ ورحمة ربك ﴾ يعني بالرحمة ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة . وقيل هي النبوة لأنها المرادة بالرحمة المتقدمة في قوله ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ولا مانع من أن يراد كل ما يطلق عليه اسم الرحمة إما شمولاً أو بدلاً ﴿ خير مما يجمعون ﴾ أي مما يجمعونه من الأموال وسائر متاع الدنيا لأن الدنيا على شرف الزوال والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآبدين ، ثم بين سبحانه حقارة الدنيا عنده فقال :

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا أن يجتمعوا على الكفر ميلاً الى الدنيا وزخرفها أو يرغبوا فيه إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ جمع الضمير في بيوتهم وأفرده في ﴿ يكفر ﴾ باعتبار معنى من ولفظها ولبيوتهم بدل اشتمال من

الموصول واللام للاختصاص ، والسقف جمع سقف قرأ الجمهور بضم السين والقاف كرهن ورهن ، قال أبو عبيدة ولا ثالث لهما ، وقال الفراء . هو جمع سقيف نحو كثيب وكثب ورغيف ورغف وقيل : هو جمع سقوف ، فيكون جمعاً للجمع ، وقرىء بفتح السين وإسكان القاف على الافراد ، ومعناه الجمع لكونه الجنس قال الحسن : معنى الآية لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم الى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عندنا وقال بهذا أكثر المفسرين .

وقال ابن زيد لولا أن يكون الناس أمة واحدة في طلب الدنيا واختيارهم لها على الآخرة ، وقال الكسائي المعنى لولا ان يكون في الكفار غني وفقير وفي المسلمين مثل ذلك لأعطينا الكفار من الدنيا لهوانها.

﴿ ومعارج ﴾ كالدرج من فضة ، جمع معرج بفتح الميم وكسرها ، وسميت المصاعد من الدرج المعارج ، لأن المشي عليها مثل مشي الأعرج ومعاريج جمع معراج ، والمعراج السلم ، وهي لغة بعض تميم وهذا كمفاتح جمع مفتح ، ومفاتيح جمع مفتاح قال الأخفش إن شئت جعلت الواحدة معرج ومعرج مثل مرقا ومرقا والمعنى جعلنا لهم معارج من فضة .

﴿ عليها ﴾ أي على المعارج ﴿ يظهرون ﴾ يرتقون ويصعدون يقال : ظهرت على البيت أي علوت سطحه ﴿ ولبيوتهم أبواباً وسرراً ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة وتكرير لفظ البيوت لزيادة التقرير ﴿ عليها ﴾ أي على السرر ، وهو جمع سرير ، وقيل جمع أسرة فيكون جمعاً للجمع ﴿ يتكئون ﴾ الاتكاء والتوكؤ التحامل على الشيء ومنه ﴿أتوكأ عليها ﴾ واتكأ على الشيء فهو متكىء والموضع متكأ .

وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾
وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ
ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

﴿ وزخرفاً ﴾ أي وجعلنا لهم زخرفاً ليجعلوه في السقف والمعارج والأبواب والسرر ، ليكون بعض كل منها من فضة ، وبعضه من ذهب ، لأنه أبلغ في الزينة ، وقيل : النصب بنزع الخافض أي أبواباً وسرراً من فضة ومن ذهب فلما حذف الخافض انتصب ، والزخرف الذهب ، وقيل : الزينة أعم من أن يكون ذهباً أو غيره ، قال ابن زيدهو ما يتخذه الناس في منازلهم من الأمتعة والأثاث ، وقال الحسن: النقوش ، وأصله الزينة ، يقال : زخرفت الدار زينتها ، وتزخرف فلان أي تزين ، قال ابن عباس في الآية : يقول لولا أن نفعل الناس كلهم كفاراً لجعلنا لبيوت الكفار سقفاً من فضة ، ومعارج من فضة ، وهي درج عليها يصعدون الى الغرف وسرر فضة وزخرفاً وهو الذهب .

وأخرج الترمذي وصححه ، وابن ماجة عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » وعن المسور بن شداد قال : كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله ، قال : فإن

الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها » أخرجه الترمذي وحسنه، وعن قتادة بن النعمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا أحب الله عبداً حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم ، قال البقاعي : ولا يبعد أن يكون ما صار اليه الفسقة والجبابرة من زخرفة الأبنية وتذهيب السقوف وغيرها من مبادىء الفتنة بأن يكون الناس أمة واحدة في الكفر قرب الساعة ، حتى لا تقوم الساعة على من يقول : الله ، أو في زمن الدجال ، لأن من يبقى إذ ذاك على الحق في غاية القلة بحيث إنه لا عداد له في جانب الكفرة لأن كلام الملوك لا يخلو عن حقيقة ، وإن خرج مخرج الشرط فكيف بملك الملوك سبحانه ثم أخبر سبحانه أن جميع ذلك إنما يتمتع به في الدنيا فقال :

﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ قرأ الجمهور لما بالتخفيف ، وقرىء بالتشديد ، فعلى الأولى إن هي المخففة من الثقيلة ، وعلى الثانية هي النافية ، ولما بمعنى إلا ما كل ذلك إلا ما يتمتع به في الدنيا ، وقرىء بكسر اللام من لما على أن اللام للعلة ، وما موصولة ، والعائد محذوف ، أي للذي هو متاع ﴿ والآخرة ﴾ أي الجنة ﴿ عند ربك للمتقين ﴾ أي لمن اتقى الشرك والمعاصي وآمن بالله وحده ، وعمل بطاعته ، وترك الدنيا وآثر الآخرة فإنها الباقية التي لا تفنى ، ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع .

﴿ ومن يعش ﴾ يقال عشوت الى النار قصدتها وعشوت عنها أي أعرضت عنها ، كما تقول : عدت الى فلان وعدلت عنه ، أي ملت اليه

وملت عنه كذا قال الفراء والزجاج وأبو الهيثم والأزهري ، وقال الخليل : العشو النظر الضعيف ، وقال ابو عبيدة والأخفش . ان معنى (ومن يعش) ومن تظلم عينه وهو نحو قول الخليل ، وهذا على قراءة الجمهور من يعش بضم الشين من عشا يعشو ، وقرىء بفتح الشين يقال : عشى الرجل يعشى عشا إذا عمى ، وقال الجوهري : العشا مقصور مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار ، والمرأة عشوى ، وقرىء يعشو بالواو على أن من موصولة غير متضمنة معنى الشرط .

والمعنى ومن يعرض ويتعامى ويتجاهل ويتغافل ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ ولم يخف عقابه ولم يرد ثوابه ، وقيل : يول ظهره عن القرآن ﴿ نقيض له شيطاناً ﴾ قرأ الجمهور بالنون ، وقرى بالتحتية مبنياً للفاعل ، وقرأ ابن عباس بالتحتية مبنياً للمفعول ، ورفع شيطان على النيابة والمعنى نسبب له جزاء على كفره شيطاناً .

﴿ فهو له قرين ﴾ أي ملازم له في الدنيا ، يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ولا يفارقه . وقيل في الآخرة إذا قام من قبره قاله سعيد الجريري وقيل : فيهما قال القشيري : وهو الصحيح أو هو ملازم للشيطان لا يفارقه بل يتبعه في جميع أموره ويطيعه في كل ما يوسوس به إليه وقال الزجاج معنى الآية أن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكم الى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتي يضله ويلازمه قريناً فلا يهتدي مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي « أن قريشاً قالت قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً يأخذه فقيضوا لأبي بكر طلحة ابن عبيد الله فأتاه وهو في القوم فقال أبو

بكر : إلام تدعوني ؟ قال أدعوك الى عبادة اللات والعزى ، قال أبو بكر وما اللات ؟ قال أولاد الله قال وما العزى ؟ قال بنات الله قال أبو بكر فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه فقال لأصحابه أجيبوا الرجل فسكت القوم فقال طلحة قم يا أبا بكر أشهد أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله فأنزل الله هذه الآية » وثبت في صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قرين من الجن .

﴿ وإنهم ﴾ أي وإن الشياطين الذين يقيضهم الله لكل أحد ممن يعشو عن ذكر الرحمن كما هو معنى من ﴿ ليصدونهم عن السبيل ﴾ أي يحولون بينهم وبين سبيل الحق ويمنعونهم منه ويوسوسون لهم أنهم على الهدى حتى يظنوا اصدق ما يوسوسون به ، وهو معنى قوله :

﴿ ويحسبون أنهم ﴾ أي يحسب الكفار أن الشياطين ﴿ مهتدون ﴾ فيطيعونهم أو يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم في أنفسهم مهتدون ، وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددي لقوله :

﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ فإن حتى وإن كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتماً أن تكون غاية لأمر ممتد، كما مر مراراً ، قاله ابو السعود قرأ الجمهور بالتثنية أي الكافر والشيطان المقارن له ، وقرىء بالإفراد أي الكافر أو كل واحد منهما.

﴿ قال ﴾ الكافر مخاطباً للشيطان : ﴿ يا ليت ﴾ كان في الدنيا ﴿ بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب ، فغلب المشرق على المغرب ، قال مقاتل : يتمنى الكافر أن بينهما بعد مشرق أطول يوم في السنة من مشرق أقصر يوم في السنة والأول أولى وبه قال الفراء ﴿ فبئس القرين ﴾ أي أنت أيها الشيطان .

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم
مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ
بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ
تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً
يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿ ولن ينفعكم اليوم ﴾ هذا حكاية لما سيقال لهم يوم القيامة ﴿ إذ ظلمتم ﴾ أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا ، وقيل : إن إذ بدل من اليوم لأنه تبين ذلك في اليوم أنهم ظلموا أنفسهم في الدنيا ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾ قرأ الجمهور بفتح إن على أنها وما بعدها في محل رفع على الفاعلية ، أي لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب ، قال المفسرون لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب ، لأن لكل أحد من الكفاروالشياطين الحظ الأوفر منه وقيل إنها للتعليل لنفي النفع ، أي لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ، فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ويقوي هذا المعنى قراءة إن بالكسر .

ثم ذكر سبحانه أنها لا تنفع الدعوة والوعظ من سبقت له الشقاوة فقال ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العُمي ﴾ الهمزة لانكار التعجب أي ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك ان كفروا ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإخبار له بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل .

﴿ ومن كان في ضلال مبين ﴾ عطف على العمي للتغاير العنواني ، وإلا فالمصداق واحد ، أي إنك لا تهدي من كان كذلك ، ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار بمنزلة الصم الذين لا يعقلون ما جئت به ، وبمنزلة العمي

الذين لا يبصرون لافراطهم في الضلالة وتمكنهم من الجهالة .

﴿ فإما نذهبن بك ﴾ بالموت قبل أن ننزل بهم العذاب ، وقيل : المعنى نخرجنك من مكة ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ إما في الدنيا أو في الآخرة ، قال علي كرم الله وجهه : ذهب الله بنبيه صلى الله عليه وسلم وبقيت نقمته في عدوه ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ من العذاب قبل موتك ﴿ فإنا عليكم مقتدرون ﴾ متى شئنا عذبناهم .

قال كثير من المفسرين قد أراه ذلك يوم بدر وبه قال ابن عباس وقال الحسن وقتادة : هي في أهل الاسلام يريد ما كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن ، وقد كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم فتنة شديدة فأكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم وذهب به فلم يره في أمته شيئاً من ذلك والأول أولى .

﴿ فاستمسك بالذي أوحي اليك ﴾ من القرآن وإن كذب به من كذب ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ أي طريق واضح تعليل للإستمساك أو للأمر به ﴿ وأنه ﴾ أي وإن القرآن ﴿ لذكر لك ولقومك ﴾ أي شرف لك ولقريش إذ نزل عليك وأنت منهم بلغتك ولغتهم ، ومثله قوله :

﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ وقيل بيان لك ولأمتك فيما لكم حاجة ، وقيل تذكره تذكرون بها أمر الدين وتعملون به ؛ وعن علي وابن عباس قالا : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعدهم الظهور ، فاذا قالوا لمن الملك بعدك أمسك فلم يجبهم بشيء لأنه لا يؤمر في ذلك بشيء حتى نزلت ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ فكان إذا سئل بعد قال لقريش فلا يجيبوه حتى قبلته الأنصار على ذلك » .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان » أخرجه الشيخان ، وعن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذا الأمر في

قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ، ما أقاموا الدين » أخرجه البخاري .

﴿ وسوف تسألون ﴾ عما جعله الله لكم من الشرف ، كذا قال الزجاج والكلبي وغيرهما ، وقيل يسألون عما يلزمهم من القيام بما فيه والعمل به وعن تعظيمهم له ، وشكرهم لهذه النعمة يوم القيامة .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن ﴾ أي غيره ﴿ آلهة يعبدون ﴾ قال الزهري وسعيد بن جبير وابن زيد أن جبريل قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لما أسرى به فالمراد سؤال الأنبياء في ذلك الوقت عند ملاقاته لهم ، وبه قال جماعة من السلف . وقال المبرد والزجاج وجماعة من العلماء إن المعنى واسأل أمم من قد أرسلنا وبه قال ابن عباس ومجاهد والسدي والضحاك وقتادة وعطاء والحسن ، وفائدة إيقاع السؤال على الرسل مع أن المراد أممهم التنبيه على أن المسؤول عنه عين ما نطقت به ألسنة الرسل ، لا ما تقوله علماؤهم من تلقاء أنفسهم ، وعلى الأول هي مكية ، وعلى الثاني مدنية .

ومعنى الآية على القولين سؤالهم هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل؟وهل سوغ ذلك لأحد منهم ؟ والمقصود تقريع مشركي قريش بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع . وقيل ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم ، والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ؟ وكفاه فحصاً ونظره في كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة الى غيرها ـ

ولما أعلم الله سبحانه نبيه بأنه منتقم له من عدوه وذكر اتفاق الأنبياء على التوحيد ، أتبعه بذكر قصة موسى وفرعون ، وبيان ما نزل بفرعون وقومه من النقمة فقال .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ
مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ
ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ التسع التي تقدم بيانها ﴿ الى فرعون وَمَلإِيْهِ ﴾ أي القبط ﴿ فقال إني رسول رب العالمين ﴾ أرسلني اليكم ما أجابوه به عند قوله هذا محذوف دل عليه قوله ﴿ فلما جاءهم بآياتنا ﴾ وهو مطالبتهم إياه باحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿ إذا هم منها يضحكون ﴾ استهزاء وسخرية وجواب لما هو اذا الفجائية لأن التقدير فاجأوا وقت ضحكهم .

﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أي كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها وأعظم قدراً مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها وقيل المراد بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر ولا يكدن يتفاوتن فيه وعليه كلام الناس هما أخوان كل واحد منهما أكبر من الآخر وقيل المعنى إن الأولى تقتضي علماً والثانية تقتضي علماً فإذا ضمت الثانية الى الأولى ازداد الوضوح ومعنى الأخوة بين الآيات أنها متشاكلة متناسبة في دلالتها

على صحة نبوة موسى كما يقال هذه صاحبة هذه أي هما قرينتان في المعنى وقيل المعنى أن كل واحدة من الآيات اذا انفردت ظن الظان أنها أكبر من سائر الآيات .

﴿ وأخذناهم ﴾ بسبب تكذيبهم بتلك الآيات ﴿ بالعذاب ﴾ أي بالسنين والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ، كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ الآية ، ثم بين سبحانه أن العلة في أخذه لهم بالعذاب هو رجاء رجوعهم ، فقال : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لكي يرجعوا عن الكفر الى الإيمان ، ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ، ظنوا ان ذلك من قبيل السحر .

﴿ وقالوا يا أيها الساحر ﴾ وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويوقرون السحرة ويعظمونهم ، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم ، قال الزجاج : خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر ، أو نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيمتهم ، وفرط حماقتهم ، والأظهر أن النداء كان باسمه العلم ، كما في الأعراف في قوله : قالوا : يا موسى .

﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ لكن حكى الله سبحانه هنا كلامهم لا بعبارتهم ، بل على وفق ما أضمرته قلوبهم من اعتقادهم أنه ساحر ، لاقتضاء مقام التسلية ذلك فإن قريشاً سموه ساحراً ، وسموا ما أتى به سحراً ، أفاده الكرخي ، والمعنى : ادع الله بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا ﴿ إننا لمهتدون ﴾ أي فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان ومؤمنون بما جئت به .

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم العذاب ، فلما كشف عنهم العذاب ﴿ اذا هم ينكثون ﴾ فاجأوا نكثهم للعهد الذي جعلوه على أنفسهم من الاهتداء ، والنكث النقض وكانوا ينقضونه في كل مرة من مرات العذاب .

﴿ ونادى فرعون ﴾ افتخاراً ﴿ في قومه ﴾ قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم الى موسى فجمعهم ونادى بصوته فيما بينهم ، أو أمر منادياً ينادي بقوله : ﴿قال: يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾ لا ينازعني فيه أحد ، ولا يخالفني فيه مخالف .

﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ أي والحال أن الأنهار تجري من تحت قصري ، والمراد هنا أنهار النيل ، وقال قتادة : المعنى تجري بين يدي وفي بساتيني ، قال الحسن : تجري بأمري أي تجري تحت أمري وقال الضحاك : أراد بالأنهار القواد والرؤساء والجبابرة ، وأنهم يسيرون تحت لوائه ، وقيل : أراد بالأنهار الأموال ، والأول أولى .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ ذلك وتستدلون به على قوة ملكي وعظم قدري ، وضعف موسى عن مقاومتي ، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال : لأولينها أخس عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان خادمه على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها قال : أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه .

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن
ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا
إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ
بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿أم أنا خير﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل ، التي للاضراب دون الهمزة التي للانكار أي بل أنا خير ، قال أبو عبيدة أم بمعنى : بل ، والمعنى قال فرعون لقومه بل أنا خير ، وقال الفراء : إن شئت جعلتها من الإستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله - وقيل : هي زائدة ، وحكى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون أم زائدة ، والمعنى أنا خير من هذا ، وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون ؟ ثم ابتدأ فقال : أنا خير ، وروي عن الخليل وسيبويه نحو قول الأخفش ، ويؤيد هذا أن عيسى الثقفي ويعقوب الحضرمي وقفا على أم على تقدير أم تبصرون فحذف لدلالة الأول عليه ، وعلى هذا فتكون أم متصلة لا منقطعة والأول أولى ، وحكى الفراء أن بعض القراء قرأ أما أنا خير ؟ أي ألست خيراً ؟

﴿من هذا الذي هو مهين﴾ أي ضعيف حقير ممتهن في نفسه ، لا عز له لأنه يتعاطى أموره بنفسه وليس له ملك ولا قوة يجري بها نهراً وينفذ بها أمراً ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما في لسانه من العقدة ، وقد تقدم بيانه في سورة طة ، قال ابن عباس في الآية : كانت بموسى لثغة في

لسانه ، واللثغة بالضم ان تصير الراء غيناً أو لاماً أو السين ثاء ، وقد لثغ من باب طرب فهو ألثغ ، وقيل المعنى لا يكاد يبين حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ، ولم يرد به أنه لا قدرة له على الكلام ، والأول أولى .

﴿ فلولا ألقي عليه ﴾ من عند مرسله الذي يدعي أنه الملك بالحقيقة ﴿ أسورة ﴾ جمع سوار ، وبها قرأ حفص ، وقرأ الجمهور أساور جمع أسورة ، وقال أبو عمرو بن العلاء واحد الأساورة والأساور والأساوير أسوار ، وهي لغة في سوار ، وقرأ أبيّ أساور ، وابن مسعود أساوير ، قال مجاهد : كانوا اذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين ، وطوقوه بطوق ذهب ، علامة لسيادته ، أرادوا بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه ، أي فهلا حلي بأسورة ﴿ من ذهب ﴾ إن كان عظيماً مقدماً سيداً .

﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقاً يعينونه على أمره ، ويشهدون له بالنبوة ، ويمشون معه ، فأوهم اللعين قومه أن الرسل لا بد أن يكونوا على هيئة الجبابرة ، ومحفوفين بالملائكة ﴿ فاستخف قومه ﴾ أي حملهم على خفة الجهل والسفه ، بقوله وكيده ، واستفزهم بالقول ، واستزلهم وعمل فيهم كلامه ، وقيل : طلب منهم الخفة في الطاعة وهي الاسراع ، قال ابن الأعرابي المعنى فاستجهل قومه فأطاعوه لخفة أحلامهم ، وقلة عقولهم ، فقال استخفه الفرح ، أي أزعجه ، استخفه أي حمله ، ومنه ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ ، وقد استخف بقومه وقهرهم حتى اتبعوه وعزروه وقيل استخف قومه أي وجدهم خفاف العقول ، فصيغة الاستفعال للوجدان ، وفي نسبته الى القوم تجوز .

﴿ فأطاعوه ﴾ فيما أمرهم به وقبلوا قوله وكذبوا موسى ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله .

﴿ فلما آسفونا ﴾ أي اغضبونا قاله المفسرون ، والأسف الغضب وقيل أشد الغضب ، وقيل السخط ، وقيل ، المعنى أغضبوا رسلنا قال ابن عباس فلما أسخطونا وأغضبونا أي بالافراط في الفساد والعصيان ﴿ انتقمنا منهم ﴾ ثم بين العذاب الذي وقع به الانتقام فقال ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ في البحر وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به وهو الماء في قوله ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ ففيه إشارة الى أن من تعزز بشيء دون الله أهلكه الله به وقد استضعف اللعين موسى وعابه بالفقر والضعف ، فسلطه الله تعالى عليه إشارة الى أنه ما استضعف أحد شيئاً إلا غلبه ، أفاده القشيري .

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم عن عقبة ابن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إذا رأيت الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له وقرأ ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وعن طاوس بن شهاب قال كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجاءة فقال تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ .

﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾ أي قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار ، في استحقاق العذاب ، لأجل الاعتبار بهم ، قرأ الجمهور سلفاً بفتح السين واللام جمع سالف كخدم وخادم ، ورصد وراصد ، وحرس وحارس ، يقال سلف يسلف إذا تقدم ومضى ، قال الفراء والزجاج جعلناهم متقدمين سابقين ، ليتعظ بهم الآخرون اللاحقون ، وقرىء سلفاً بضم السين واللام ، قال الفراء هو جمع سليف نحو سرر وسرير ، وقال أبو حاتم هو جمع سلف نحو خشب وخشب ، وقرىء بضم السين وفتح اللام جمع سلفة ، وهم الفرقة المتقدمة نحو غرف وغرفة ، كذا قال النضر بن شميل ، وقال ابن عباس سلفاً أهواء مختلفة .

﴿ ومثلاً للآخرين ﴾ أي عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم ، أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال ، وتسير سير الأقوال ، ولما قال سبحانه ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا ما يريد محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن نتخذه إلٰهاً ، كما اتخذ النصارى عيسى بن مريم فأنزل الله ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴾ كذا قال قتادة ومجاهد .

وقال الواحدي : أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبعرى مع النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ قال ابن الزبعرى : خصمتك ورب الكعبة اليست النصارى يعبدون المسيح ؟ واليهود عزيراً ؟ وبنو مليح الملائكة ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا به ، وضحكوا وارتفعت أصواتهم ، فأنزل الله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ونزلت هذه الآية المذكورة هنا ، وقد مضى هذا في سورة الأنبياء ، ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعري مندفع من أصله ، وباطل برمته فإن الله سبحانه قال : ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ ولم يقل : ومن تعبدون ، حتى يدخل في ذلك العقلاء كالمسيح وعزير والملائكة ، قال الشهاب : ابن الزبعرى هو عبد الله الصحابي المشهور ، وهذه القصة على تقدير صحتها كانت قبل إسلامه .

﴿ إذا قومك ﴾ يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ منه ﴾ أي من ذلك المثل المضروب ﴿ يصدون ﴾ أي يضجون ويصيحون ، فرحاً بذلك المثل المضروب ، والمراد بقومه هنا كفار قريش ، إذ ظنوا أنه ألزم وأفحم النبي صلى الله عليه وسلم به ، وهو إنما سكت انتظاراً للوحي .

قرأ الجمهور : يصدون بكسر الصاد ، وقرىء بضمها ، وهما سبعيتان قال الكسائي والفراء والزجاج والأخفش : هما لغتان ومعناهما يضجون ،

قال الجوهري : صد يصد صديداً أي ضج ، وقيل : إنه بالضم للإعراض ، وبالكسر من الضجيج ، قاله قطرب ، قال أبو عبيدة: لو كانت من الصدود عن الحق يقال : اذا قومك عنه يصدون ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : « إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير ، قالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبياً ؟ وعبداً من عباد الله صالحاً ؟ وقد عبدته النصارى ، فإن كنت صادقاً فإنه كآلهتهم ، فأنزل الله : ولما ضرب ابن مريم مثلاً » الآية ، قلت : وما يصدون ؟ قال : يضجون .

﴿ وقالوا أآلهتنا خير ﴾ عندك ﴿ أم هو ﴾ أي المسيح ، قال السدي وابن زيد : خاصموه وقالوا إن كان كل من عبد غير الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة ، وقال قتادة يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ، أي أآلهتنا خير أم محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ويقوي هذا قراءة ابن مسعود أآلهتنا خير أم هذا .

﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك لا لطلب الحق حتى يرجعوا له عند ظهوره وبيانه ، على أن جدلاً منتصب على العلة ، أو مجادلين على أنه مصدر في موضع الحال وقرىء جدالاً .

﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ أي شديدو الخصومة ، كثيرو اللدد ، عظيمو الجدل ، وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا هذه الآية ، وقد ورد في ذم الجدل بالباطل أحاديث كثيرة ، ثم بيّن سبحانه أن عيسى ليس برب ، وإنما هو عبد من عباده اختصه بنبوته فقال :

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا
مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا
وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ بما أكرمناه به من النبوة ، وأنعمنا عليه برفعة المنزلة والذكر ﴿ وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل ﴾ أي آية وعبرة لهم ، يعرفون به قدرة الله سبحانه ، فإنه كان من غير أب ، وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ، وكل مريض بإذن الله ، فمن أين يدخل في قوله ﴿ إنكم وما تعبدون ﴾ ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال إن المشركين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أرأيت من يعبد من دون الله أين هم ؟ قال في النار ، قالوا الشمس والقمر قال والشمس والقمر قالوا فعيسى ابن مريم ؟ قال: قال الله ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل ﴾ .

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ الخطاب لقريش ، أي لو نشاء لأهلكناكم ، وجعلنا بدلكم في الأرض ملائكة مكرمين يعمرونها ، ويعبدوننا ، فهذا تهديد وتخويف لقريش ، قال السمين في ﴿ من ﴾ هذه أقوال أحدها أنها بمعنى بدل أي لجعلنا بدلكم ، ومنه قوله تعالى ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ أي بدلها ، والثاني وهو المشهور أنها ابتدائية وتأويل الآية عليه لولدنا منكم يا رجال ملائكة في الأرض يخلفونكم كما تخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى دون ذكر ، ذكره الزمخشري ، والثالث أنها تبعيضية قال أبو البقاء وقيل المعنى لحولنا بعضكم ملائكة ، وقال ابن عطية لجعلنا بدلاً منكم ، ومقصود الآية

أنا لو نشاء لأسكنّا الملائكة الأرض ، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدوا .

﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ قال مجاهد والضحاك والسدي وقتادة إن المراد المسيح ، وأن خروجه أي نزوله مما يعلم به قيام الساعة ، أي قربها لكونه شرطاً من أشراطها لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة ، وقال الحسن وسعيد بن جبير المراد القرآن لأنه يدل على قرب مجيء الساعة ، وبه يعلم وقتها وأهوالها وأحوالها ، وقيل المعنى أن حدوث المسيح من غير أب وإحياءه للموتى دليل على صحة البعث ، وقيل الضمير لمحمد صلى الله عليه وسلم والأول أولى .

قال ابن عباس « أي خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة »[1] ، وأخرجه الحاكم وابن مردويه عنه مرفوعاً ، وعن أبي هريرة نحوه أخرجه عبد بن حميد قرأ الجمهور لعلم بصيغة المصدر ، جعل المسيح علماً للساعة مبالغة ، لما يحصل من العلم بحصولها عند نزوله ، وقرأ جماعة من الصحابة بفتح العين واللام ، أي خروجه علم من أعلامها ، وشرط من شروطها ، وقرىء للعلم بلامين مع فتح العين واللام أي للعلامة التي يعرف بها قيام الساعة .

﴿ فلا تمترن بها ﴾ أي فلا تشكن في وقوعها ، ولا تكذبن بها ، فإنها كائنة لا محالة ﴿ واتبعون ﴾ قرأ الجمهور بحذف الياء وصلاً ووقفاً ، وقرىء بإثباتها وصلاً ووقفاً وقرىء بحذفها في الوصل دون الوقف أي اتبعوني فيما آمركم به من التوحيد وبطلان الشرك ، وفرائض الله التي فرضها عليكم ﴿ هذا ﴾ أي الذي آمركم به وأدعوكم إليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ أي طريق قيم ، موصل الى الحق .

---

(١) وقد قال به ابن كثير في تفسيره .

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ
جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ
بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا
ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي لا تغتروا بوساوسه وشبهه التي يوقعها في قلوبكم فيمنعكم ذلك من اتباعي أو من الايمان بالساعة ، فإن الذي دعوتكم إليه هو دين الله الذي اتفق عليه رسله وكتبه ، ثم علل نهيهم عن أن يصدهم الشيطان ببيان عداوته لهم فقال : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أي مظهر لعدواته لكم غير متحاش عن ذلك ولا متكتم به كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين آدم ، وما ألزم به نفسه من إغراء جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين .

﴿ ولما جاء عيسى ﴾ الى بني إسرائيل ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحة ، والشرائع النيرة ، قال قتادة البينات ههنا الانجيل ﴿ قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أي النبوة وقيل : الانجيل ، وقيل ما يرغب في الجميل ويكف عن القبيح .

﴿ و ﴾ جئتكم ﴿ لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ من أحكام التوارة ، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلة حتى جعلت كأنها كلام برأسه والبعض هو أمر الدين قال قتادة يعني اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى ، قال الزجاج : الذي جاء به عيسى

في الانجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا اليه .

وقيل : إن بني اسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وقال أبو عبيدة ان بعض هنا بمعنى كل كما في قوله ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ وقال مقاتل هو كقوله ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ يعني ما أحل في الانجيل مما كان محرماً في التوراة كلحم الابل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت ثم أمرهم بالتقوى والطاعة فقال :

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي اتقوا معاصيه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والشرائع وأبلغه عنه ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ﴾ هذا بيان لما أمرهم بأن يطيعوه فيه ﴿ هذا ﴾ أي عبادة الله وحده والعمل بشرائعه ﴿ صراط مستقيم ﴾ وهذا تمام كلام عيسى عليه السلام أو استئناف من الله يدل على ما هو المقتضى للطاعة في ذلك .

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال مجاهد والسدي الأحزاب هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وقال الكلبي ومقاتل هم فرق النصارى اختلفوا في أمر عيسى ، قال قتادة المعنى أنهم اختلفوا فيما بينهم ، وقيل اختلفوا من بين من بعث إليهم من اليهود والنصارى والأحزاب هي الفرق المتحزبة قيل هم اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية ، وهذا مبني على أنه بعث لجميع بني اسرائيل فتحزبوا في أمره ، وقيل المراد بالأحزاب الذين تحزبوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه وهم المرادون بقوله : ﴿ هل ينظرون إلا الساعة ﴾ والأول أولى .

﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ من هؤلاء المختلفين وهم الذين أشركوا بالله ولم يعملوا بشرائعه ، وقالوا في عيسى ما كفروا به ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ أي أليم عذابه وهو يوم القيامة .

﴿ هل ينظرون ﴾ أي هل يترقب وينتظر هؤلاء الأحزاب أو الكفار ﴿ إلا الساعة ان تأتيهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يفطنون بذلك لاشتغالهم بأمر دنياهم وإنكارهم لها ، كقوله تأخذهم وهم يخصمون .

﴿ الأخلّاء ﴾ في الدنيا أي المتحابون فيها ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم تأتيهم الساعة ﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ أي يعادي بعضهم بعضاً لأنه ، قد انقطعت بينهم العلائق واشتغل كل واحد منهم بنفسه ووجدوا تلك الأمور التي كانوا فيها أخلاء أسباباً للعذاب ، فصاروا أعداء ثم استثنى المتقين فقال ﴿ إلا المتقين ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ، لأنهم وجدوا تلك الخلة التي كانت بينهم من أسباب الخير والثواب فبقيت خلتهم على حالها .

عن علي بن أبي طالب في الآية « قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران توفي أحد المؤمنين فبشر بالجنة فذكر خليله فقال : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملاقيك ، اللهم لا تضله بعدي حتى تريه ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني فيقال له : اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً ، ثم يموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل ، واذا مات أحد الكافرين بشر بالنار ، فيذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، وينبئني أني غير ملاقيك اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي فيموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل لصاحبه . بئس الأخ وبئس الصاحب ، وبئس الخليل » ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه وابن جرير والبيهقي وابن مردويه وابن أبي حاتم .

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ
مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ أي يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله بهذه المقالة تشريفاً لهم وتطييباً لقلوبهم، فيذهب عند ذلك خوفهم، ويرتفع حزنهم ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ لله منقادين له مخلصين في أمر الدين.

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي يقال لهم ذلك، قال مقاتل، إذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد يا عبادي لا خوف عليكم، فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم فيقال: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، فينكس أهل الأوثان رؤوسهم غير المسلمين.

﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ المراد بها نساؤهم المؤمنات وقيل قرناؤهم من المؤمنين وقيل زوجاتهم من الحور العين ﴿ تحبرون ﴾ تكرمون أو تنعمون أو تفرحون أو تسرون أو تعجبون أو تلذذون بالسماع، والأولى تفسير ذلك بالفرح والسرور الناشئين عن الكرامة والنعمة، ناداهم بأربعة أمور الأول نفي الخوف، والثاني نفي الحزن، والثالث الأمر بدخول الجنة، والرابع البشارة بالسرور.

﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ جمع صحفة وهي القصعة الواسعة العريضة، قال الكسائي أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة، وهي تشبع عشرة ثم الصحفة، وهي تشبع الخمسة، ثم الميكلة، وهي تشبع الرجلين أو الثلاثة، والمعنى أن لهم في الجنة أطعمة يطاف عليهم بها في

صحاف الذهب

﴿ وأكواب ﴾ أي ولهم فيها أشربة يطاف عليهم بها في الأكواب ، وهي جمع كوب قال الجوهري الكوب كوز لا عروة له والجمع أكواب ، قال قتادة الكوب المدور القصير العنق ، القصير العروة ، والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة ، وقال الأخفش الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها ، وقال قطرب هي الأباريق التي ليست لها عرى ، والعروة ما يمسك منه ويسمى أذناً ، قال ابن عباس الأكواب الجرار من الفضة .

﴿ وفيها ﴾ أي في الجنة ﴿ ما تشتهيه الأنفس ﴾ أي أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ، والأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة ونحوها . مما تتطلبه النفس وتهواه كائناً ما كان ، جزاء لهم بما منعوا أنفسهم من الشهوات في الدنيا قرأ الجمهور تشتهي وفي مصحف عبد الله ابن مسعود تشتهيه بإثبات الضمير العائد الى الموصول .

﴿ وتلذ الأعين ﴾ من كل المستلذات التي يستلذ بها ويطلب مشاهدتها ، وأعلاها النظر الى وجهه الكريم ، جزاء ما تحملوه من مشاق الاشتياق ، تقول لذ الشيء يلذ لذاذاً ولذاذة إذا وجده لذيذاً أو التذ به ، وهذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهيات في القلوب أو مستلذات في العيون .

عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رجل « يا رسول الله ، هل في الجنة خيل ؟ فإني أحب الخيل ، قال إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل؟ فإني أحب الابل قال فلم يقل له ما قال لصاحبه فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك» أخرجه الترمذي ﴿ وأنتم فيها خالدون ﴾ لا تموتون ولا تخرجون منها .

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ
مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا
رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ
أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها ﴾ أي يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة أي صارت اليكم كما يصير الميراث الى الوارث ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة ، وتلك مبتدأ والجنة صفته والموصول مع صلته صفة للجنة ، والخبر بما كنتم الخ ، وقيل الخبر الموصول مع صلته ، والأول أولى وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب للتشريف ، والمخاطب كل واحد من أهل الجنة ، فلذلك أفرد الكاف ، ولم يقل وتلكم الذي هو مقتضى أورثتموها إيذاناً بأن كل واحد مقصود بذاته .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله وتلك الجنة التي أورثتموها » .

﴿ لكم فيها ﴾ سوى الطعام والشراب ﴿ فاكهة كثيرة ﴾ أي كثيرة الأنواع والأصناف والفاكهة معروفة وهي الثمار كلها رطبها ويابسها ﴿ منها تأكلون ﴾

وكل ما يؤكل يخلف بدله ومن تبعيضيه أو ابتدائية ، وقدم الجار لأجل الفاصلة ، ثم شرع سبحانه في الوعيد بعد ذكر الوعد كما هو دأب القرآن الكريم فقال :

﴿ إن المجرمين ﴾ أي أهل الاجرام الكفرية ، كما يدل عليه إيرادهم في مقابلة المؤمنين الذين لهم ما ذكره الله سبحانه قبل هذا ﴿ في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبداً ﴿ لا يفتر عنهم ﴾ أي لا يخفف عنهم ذلك العذاب جملة حالية وكذلك .

﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي آيسون من النجاة وقيل ساكتون سكوت يأس ، وقد مضى تحقيق معناه في الأنعام ، ولا يشكل على هذا قوله الآتي ؛ ﴿ ونادوا ﴾ الخ لأن تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم ، وعلمهم أنه لا فرج ويشتد عليهم العذاب تارة فيستغيثون ، وقرأ عبد الله : هم فيها أي في النار لدلالة العذاب عليها .

﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي ما عذبناهم بغير ذنب ، ولا بزيادة على ما يستحقونه ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ لأنفسهم بما فعلوا من الذنوب ، قرأ الجمهور الظالمين ، بالنصب على أنه خبر كان والضمير ضمير فصل ، وقرىء الظالمون بالرفع على أن الضمير مبتدأ ، وما بعده خبره ، والجملة خبر كان .

﴿ ونادوا يا مالك ﴾ أي نادى المجرمون هذا النداء ، والإتيان بالماضي على حد ﴿ أتى أمر الله ﴾ ومالك هو خازن النار ، قرأ الجمهور بغير الترخيم ، وقرىء يا مال بالترخيم ، قيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ يا مال ، فقال ما أشغل أهل النار عن الترخيم ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ بالموت من قضى عليه اذا أماته قال تعالى : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ توسلوا بمالك خازن النار الى الله سبحانه ليسأله لهم أن يقضي عليهم

بـالموت ليستـريحوا من العـذاب ، وقال البيضـاوي : هـو لا ينـافي إبـلاسهم فإنه جؤار وتمن للموت من فرط الشدة .

﴿ قـــال إنكم مـاكثـون ﴾ أي مقيمـون في العـذاب ، هـــانت والله دعـوتهم على مـالـك وعلى رب مـالـك قيـل سكت عن إجـابتهم أربعين سنـة قاله الخـازن والسنة ثلثمـائـة وستـون يومـاً واليوم كـألف سنة ممـا تعدون قـاله القـرطبي وقيل : ثمـانين سنة ، وقيـل مائـة سنة وقـال ابن عباس يمكث عنهم ألف سنة ثم يجيبهم بهذا الجواب .

﴿ لقـد جئناكم بـالحق ﴾ يحتمل أن يكـون هـذا من كـلام الله سبحـانـه أو من كـلام مالـك والأول أظهر ، والمعنى : إنـا أرسلنا إليكم الـرسل وأنـزلنا عليهم الكتب فدعوكم فلم تقبلوا ولم تصدقوا وهو معنى قوله .

﴿ ولكن أكثـركم للحق كـارهـون ﴾ أي لا تقبلونـه وتنفـرون منـه ، لأن مـع البـاطـل الـدعـة ومـع الحق التعب ، قيـل معنى أكثـركم كلكم وقيـل أراد الـرؤسـاء والقـادة ومن عـداهم أتبـاع لهم والمـراد بـالحق كـل مـا أمـر الله بـه على ألسن رسله وأنزله في كتبه وقيل هو خاص بالقرآن :

﴿ أم أبرموا امـراً فـإنـا مبرمـون ﴾ كلام مستأنف ناع على المشـركين ما فعلوا من الكيـد بـرسـول الله صلى الله وسلم . وأم هي المنـقـطعـة التي بمعنى بـل والهمزة أي بـل أبرمـوا أمراً وفي ذلـك انتقال من تـوبيخ أهـل النـار وحكـاية حـالهم الى حكايـة مـا يقـع من هؤلاء والابـرام الاتقـان والإحكـام ، يقال برمت الشيء أحكمته واتقنته وأبرم الحبل اذا أحكم فتله .

والمعنى بل أحكموا كيداً للنبي صلى الله عليه وسلم فإنا محكمون لهم كيداً قالـه مجاهـد وقتادة وابن زيـد ومثل هـذا قولـه تعالى : ﴿ أم يـريدون كيـداً فـالـذين كفـروا هم المكيـدون ﴾ وقيـل المعنى أم قضـوا أمـراً فـإنـا قـاضـون عليهم أمرنا بالعذاب قاله الكلبي .

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي بل أيحسبون أنا لا نسمع ما يسرون في أنفسهم أو ما يتحادثون به سراً في مكان خال ، وما يتناجون به فيما بينهم ﴿ بلى ﴾ نسمع ذلك ونعلم به ﴿ ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أي الحفظة عندهم يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل . عن يحيى بن معاذ قال من ستر من الناس ذنوبه وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من أمارات النفاق .

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : « بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقرشي ، فقال واحد منهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد : إذا جهرتم يسمع ، وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت هذه الآية » .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار قولاً يلزمهم به الحجة ، ويقطع ما يوردونه من الشبهة فقال :

﴿ قل إن كان للرحمن ولد ﴾ وصح ذلك ببرهان صحيح ، أو إن كان له ولد في قولكم ، وعلى زعمكم ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أي أول من عبدالله وحده لأن من عبدالله وحده فقد دفع أن يكون له ولد ، قاله ابن قتيبة وقال الحسن والسدي . إن المعنى ما كان للرحمن ولد ، ويكون قوله : فأنا أول العابدين ابتداء كلام .

قال ابن عباس في الآية يقول إن يكن للرحمن ولد ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أي الشاهدين ، وعن زيد بن أسلم قال هذا معروف من كلام العرب إن كان هذا الأمر قط ، أي ما كان ، وعن قتادة نحوه وقيل : المعنى قل يا محمد : إن ثبت لله ولد ، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته ، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد . وفيه نفي للولد على أبلغ وجه ، واتم عبارة ، وأحسن أسلوب ، وهذا هو الظاهر من النظم القرآني ، لأن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض والمراد نفي الولد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها ، ومن هذا القبيل قوله تعالى :

﴿ وإنا و إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ ومثل هذا قول الرجل لمن يناظره إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به فتكون إن في ﴿ إن كان ﴾ شرطية ورجح هذا ابن جرير وغيره .

وقيل : معنى العابدين الآنفين من العبادة وهو تكلف لا ملجىء إليه ولكنه قرىء العبدين : بغير ألف ؛ من عبد يعبد عبداً بالتحريك إذا أنف وغضب ، فهو عبد ، والإسم العبدة مثل الأنفة ولعل الحامل على هذه القراءة الشاذة البعيدة لمن قرأها هو استبعاد معنى ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ وليس بمستبعد ولا مستنكر وقد حكى الجوهري عن أبي عمرو في قوله : ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ أنه من الأنف أو الغضب ؛ وحكاه الماوردي عن الكسائي والقتيبي

وبه قال الفراء ، وكذا قال ابن الأعرابي إن معنى العابدين الغضاب الآنفين .

وقال أبو عبيدة : معناه الجاحدين ، وحكى عبدني حقي أي جحدني ولا شك أن عبد وأعبد بمعنى أنف أو غضب ثابت في لغة العرب ، وكفى بنقل هؤلاء الأئمة حجة ولكن جعل ما في القرآن من هذا من التكلف الذي لا ملجىء إليه ومن التعسف الواضح ، وقد رد ابن عرفة ما قالوه فقال : إنما يقال : عبد يعبد فهو عبد ، وقل ما يقال : عابد والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، قرأ الجمهور ولد بالإفراد وقرىء بضم الواو وسكون اللام .

﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ أي تنزيهاً له وتقديساً عما يقولون من الكذب ، بأن له ولداً ويفترون عليه سبحانه ما لا يليق بجنابه ، وهذا إن كان من كلام الله سبحانه فقد نزه نفسه الكريمة عما قالوه وإن كان من تمام كلام رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أمره بأن يقوله فقد أمره بأن يضم إلى ما حكاه عنهم بزعمهم الباطل تنزيه ربه وتقديسه .

﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا ﴾ أي اترك الكفار حيث لم يهتدوا لما هديتهم به ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم ؛ ويلهوا في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، وقيل العذاب في الدنيا : وقيل يوم الموت وهو الأظهر فإن خوضهم ولعبهم إنما ينتهي بيوم الموت ، قيل : وهذا منسوخ بآية السيف وقيل : هو غير منسوخ وإنما أخرج مخرج التهديد ، وفيه دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب ، قرأ الجمهور يلاقوا وقرىء يلقوا .

﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ الجار والمجرور في الموضعين متعلق بإله لأنه بمعنى معبود ، أو مستحق للعبادة والمعنى وهو الذي معبود في السماء ومعبود في الأرض ، أو مستحق للعبادة في السماء والعبادة في الأرض وبما تقرر من أن المراد بإله معبود اندفع ما قيل هذا يقتضي تعدد الآلهة

لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت ؛ كقولك : أنت طالق وطالق وإيضاح الاندفاع أن الإله هنا بمعنى المعبود ؛ وهو تعالى معبود فيهما والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض ، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين ؛ فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض ، مع أن المعبود واحد ، وفيه دلالة على اختصاصه باستحقاق الألوهية ، فإن التقديم يدل على الإختصاص أفاده الكرخي .(١)

قال أبو علي الفارسي وإله في الموضعين مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي في السماء هو إله وفي الأرض هو إله وحسن حذفه لطول الكلام قال والمعنى على الإخبار بالإلهية لا على الكون فيهما ، قال قتادة يعبد في السماء والأرض وقيل في بمعنى على أي هو القادر على السماء والأرض ، كما في قوله ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾

وقرأ عمر وعلي وابن مسعود : وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله على تضمين العلم معنى المشتق فيتعلق به الجار والمجرور من هذه الحيثية ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ أي البليغ الحكمة الكثير العلم .

﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ تبارك تفاعل من البركة ؛ وهي كثرة الخيرات والمراد بما بينهما الهواء وما فيه من الحيوانات ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي علم الوقت الذي يكون فيه قيامها ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر ، وفيه وعيد شديد ، قرأ الجمهور بالفوقية على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقرىء بالتحتية .

﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾ أي لا يملك من يدعونه

---

(١) زاد المسير ٢٣٣ .

من دون الله من الأصنام ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم قرأ الجمهور يدعون بالتحتية وقرىء بالفوقية ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ أي التوحيد .

﴿ وهم يعلمون ﴾ أي هم على علم وبصيرة بما شهدوا به ، والإستثناء متصل والمعنى إلا من شهد بالحق وهم المسيح وعزير والملائكة فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها ، وقيل هو منقطع .

والمعنى ليكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء ، وقيل المستثنى منه محذوف ، أي لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق قال سعيد بن جبير وغيره : معنى الآية أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة قال قتادة : لا يشفعون لعابديها بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية ، وقيل : مدار الاتصال في هذا الاستثناء على جعل الذين يدعون عاماً لكل ما يعبد من دون الله ومدار الانقطاع على جعله خاصاً بالأصنام .

﴿ ولئن سألتهم ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، والمعنى : لئن سألت هؤلاء المشركين العابدين للأصنام ﴿ من خلقهم ليقولن الله ﴾ جواب القسم وجواب الشرط محذوف على القاعدة أي أقروا واعترفوا بأن خالقهم الله ولا يقدرون على الإنكار ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه .

﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أي فيكف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم أو حيوان ، وعبده مع الله ، أو عبده وحده ، فقد عبد بعض مخلوقات الله ، وفي هذا من الجهل ما لا يقادر قدره يقال : أفكه يأفكه إفكاً إذا قلبه وصرفه عن الشيء ، وقيل : المعنى ولئن سألت المسيح وعزيراً والملائكة من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفك هؤلاء الكفار في اتخاذهم لهم آلهة ، وقيل المعنى ولئن سألت العابدين والمعبودين جميعاً .

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿ وقيله ﴾ قرأ الجمهور بالنصب عطفاً على محل الساعة ، كأنه قيل إنه يعلم الساعة ويعلم قيله ، أو عطفاً على سرهم ونجواهم ، أي يعلم سرهم ونجواهم ؛ ويعلم قيله أو عطفاً على مفعول يكتبون المحذوف ، أي يكتبون ذلك ويكتبون قيله ، أو عطفاً على مفعول يعلمون المحذوف ، أي يعلمون ذلك ويعلمون قيله ، أو هو مصدر أي قال قيله ، أو منصوب بإضمار فعل أي الله بعلم قيل رسوله ، أو هو معطوف على محل بالحق أي شهد بالحق وبقيله ، أو منصوب على حذف حرف القسم ، ومن المجوزين للأول المبرد وإبن الأنباري ، وللثاني الفراء والأخفش ، وللنصب على المصدرية أيضاً الفراء والأخفش .

وقرىء قيله بالجر عطفاً على لفظ الساعة أي ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ وعلم ﴿ قيله ﴾ والقول والقال والقيل والمقال كلها مصادر بمعنى واحد ، جاءت على هذه الأوزان ، وقال أبو عبيدة : يقال قلت قولاً وقالاً وقيلاً أو على أن الواو للقسم .

وقرأ قتادة ومجاهد والحسن وأبو قلابة والأعرج بن هرمز ومسلم بن جندب قيله بالرفع عطفاً على علم ، أي ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ وعنده ﴿ قيله ﴾ أو على الابتداء وخبره الجملة المذكورة بعده أو خبره محذوف تقديره وقيله كيت وكيت ، أو وقيله مسموع ، والضمير في وقيله راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال قتادة : هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه وقيل عائد إلى المسيح وعلى الوجهين فالمعنى أنه قال منادياً لربه :

﴿ يا رب إن هؤلاء ﴾ الذين أرسلتني إليهم ﴿ قوم لا يؤمنون ﴾ ثم لما

نادى ربه بهذا ، أجابه بقوله : ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي أعرض عن دعوتهم .

﴿ وقل سلام ﴾ أي أمري تسليم منكم ، ومتاركة لكم ، وقال الفراء إن سلام مرفوع بإضمار عليكم ، قال عطاء : يريد مداراة حتى ينزل حكمي ، ومعناه المتاركة كقوله ﴿ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ فليس في الآية مشروعية السلام على الكفار كما قيل ، وقال قتادة أمره بالصفح عنهم ، ثم أمره بقتالهم ، فصار الصفح منسوخاً بالسيف ، وقيل هي محكمة لم تنسخ ﴿ فسوف يعلمون ﴾ قرأ الجمهور بالتحتية ، وقرىء بالفوقية ، وفيه تهديد شديد لهم ووعيد عظيم من الله عز وجل وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

سورة الدخان

﴿ هي ست أو سبع أو تسع وخمسون آية ﴾

قال القرطبي : هي مكيّة بالاتفاق الا قوله : ﴿ انا كاشفوا العذاب قليلاً ﴾ وبه قال ابن عباس وابن الزبير ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من قرأ حمّ الدخان في ليلة الجمعة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » أخرجه البيهقي في الشعب . ورفعه الثعلبي أيضاً والترمذي . وقال : غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه . وعمرو بن أبي خثعم ضعيف . قال البخاري : منكر الحديث . وعنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من قرأ حمّ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له » أخرجه البيهقي وابن مردويه ومحمد بن نصر والترمذي وقال غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه . وهشام بن مقدام يضعف . والحسن لم يسمع من أبي هريرة . كذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعليّ بن زيد .

ويشهد له طرق أخرى منها ما أخرجه الدارمي ومحمد بن نصر عن أبي رافع قال : « من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له . وزوج من الحور العين » . وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من قرأ سورة حمّ الدخان في ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى اللّه له بيتاً في الجنة » . قال الشهاب : في سورة الواقعة ، ولم يذكر البيضاوي في فضائل السور حديثاً غير موضوع من أول القرآن الى هنا غير ما هنا . وما مر في سورة يٓس والدخان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن
رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦) رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ (٧) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، حمٓ ﴾ قد تقدم قبل هذه السورة الكلام على هذا والله أعلم بمراده به ﴿ والكتاب ﴾ الواو للقسم والكتاب القرآن ﴿ المبين ﴾ أي المشتمل على بيان ما للناس حاجة إليه في دينهم ودنياهم .

﴿ إنا أنزلناه ﴾ جواب القسم ، وقد أنكر بعض النحاة أن تكون هذه الجملة جواباً للقسم ، لأنها صفة للمقسم به ، ولا تكون صفة المقسم به جواباً للقسم ، وقال : الجواب :

﴿ إنا كنا منذرين ﴾ واختاره ابن عطية ، وقال أيضاً وجملة إنا أنزلناه اعتراض متضمن لتفخيم الكتاب ، ورجح الأول بالسبق ، وبكونه من البدائع ، وبسلامته من الفك اللازم لما اختاره ابن عطية ، وقيل : إن قوله إنا كنا الخ جواب ثان أو جملة مستأنفة مقررة للإنزال ، وفي حكم العلة له كأنه قال : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار . والضمير في أنزلناه راجع إلى الكتاب وهو القرآن ، واقتصر على ذلك البيضاوي ، وتبعه الجلال المحلي .

وعلى هذا فقد أقسم بالقرآن أنه أنزل القرآن ، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن ، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم الرجل له إليه حاجة : أتشفع بك إليك ، وأقسم بحقك عليك .

وجاء في الحديث : « أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصي ثناء عليك » . وقيل : المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة ، والضمير راجع إلى القرآن على معنى أنه سبحانه أقسم بسائر الكتب المنزلة أنه أنزل القرآن والأول أولى ، واستدلوا بهذه الآية على حدوث القرآن بوجوه لا دلالة لها عليه .

﴿ في ليلة مباركة ﴾ أي ليلة القدر ، كما في قوله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ولها أربعة أسماء هي ، وليلة البراءة ، وليلة الصك ، وليلة الرحمة . قال عكرمة وطائفة الليلة المباركة هنا ليلة النصف من شعبان ، وقال النووي في باب صوم التطوع من شرح مسلم إنه خطأ ، والصواب وبه قال العلماء إنها ليلة القدر ، وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة .

والجمهور وأكثر المفسرين على الأول وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان ، وقال قتادة أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم أنزل الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة في أنواع الوقائع حالاً فحالاً ، وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا في سورة البقرة ، عند قوله :

﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وذكر سليمان الجمل أدلة القولين ، وبسط فيها لا نطول بذكرها هنا .

وقال مقاتل كان ينزل من اللوح المحفوظ كل ليلة قدر من الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثلها من العام ، وقيل ابتداء نزوله في ليلة القدر ، ووصف الله سبحانه هذه الليلة بأنها مباركة لنزول القرآن فيها

وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا ، ولكونها تتنزل فيها الملائكة والروح كما سيأتي في سورة القدر إن شاء الله تعالى .

قال ابن عباس « أنزل القرآن في ليلة القدر ، ونزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً لجواب الناس » ، وقيل المباركة الكثيرة الخير ، لما ينزل فيها من الخير والبركة ، ويستجاب من الدعاء ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة .

﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي مخوفين عقابنا مستأنف أو جواب ثان بغير عاطف ، ومن جملة بركتها ما ذكره الله سبحانه ههنا بقوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي يفصل ويبين من قولهم فرقت الشيء أفرقه فرقاً ، والأمر الحكيم المحكم المبرم الذي لا يحصل فيه تغيير ولا نقض ، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت ، وبسط وقبض ، وخير وشر ، ورزق وأجل ، ونصر وهزيمة ، وخصب وقحط ، وغير ذلك من أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها ، ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء ، فيزدادون بذلك إيماناً ، كذا قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم .

وقيل : معنى حكيم أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازي ، لأن الحكيم صاحب الأمر على الحقيقة ، ووصف به الأمر مجازاً ، وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض أو مستأنفة لتقرير ما قبلها ، قرأ الجمهور يفرق بضم الياء وفتح الراء مخففاً ، وقرىء بفتح الياء وضم الراء ، ونصب كل أمر ورفع حكيم على أنه الفاعل .

والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر لا ليلة النصف من شعبان لأن الله سبحانه أجملها هنا وبينها في سورة البقرة بقوله : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وبقوله في سورة القدر ﴿ إنا

أنزلناه في ليلة القدر﴾ فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف ، ولا ما يقتضي الاشتباه .

قال ابن عباس في الآية « يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت وحياة ومطر ، حتى يكتب الحاج يحج فلان ويحج فلان » وقال ابن عمر : « أمر السنة إلى السنة إلا الشقاوة والسعادة ، فإنه في كتاب الله لا يبدل ولا يغير » أخرجه ابن أبي حاتم ، وأخرج عبد بن حميد وغيره عنه أنه قال : « إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل من موت أو حياة أو رزق كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها » ، وأخرج ابن زنجويه والديلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له قد خرج اسمه في الموتى » وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير عن عثمان بن محمد ، وهذا مرسل لا تقوم به الحجة ، ولا يعارض بمثله صرائح القرآن ، وما روي في هذا فهو إما مرسل أو غير صحيح ، وقد أورد ذلك صاحب الدر المنثور ، وأورد ما ورد في فضل ليلة النصف من شعبان ، وذلك لا يستلزم أنها المراد بقوله في ليلة مباركة[1] .

وانتصاب قوله ﴿ أمراً من عندنا ﴾ بيفرق أي يفرق فرقاً لأن أمراً بمعنى فرقاً ، قاله الزجاج والفراء ، والمعنى أنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ ، فهو على هذا منتصب على المصدرية ، مثل قولك يضرب ضرباً ، قال المبرد أمراً في موضع المصدر ، والتقدير أنزلناه إنزالاً ، وقال الأخفش انتصابه على الحال ، أي آمرين ، وقيل على الاختصاص أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا ، وفيه تفخيم لشأن القرآن وتعظيم له . وقد ذكر بعض أهل العلم في انتصاب أمراً أثني عشر وجهاً أظهرها ما ذكرناه ، وقرأ زيد بن عليّ بالرفع أي هو أمر .

---

(١) زاد المسير ٣٣٧ .

﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ الرسل محمداً ومن قبله قال الرازي المعنى إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين للأنبياء ، ومثله قال ابن الخطيب ، وانتصاب ﴿ رحمة ﴾ على العلة أي أنزلناه للرحمة ، قاله الزجاج وقال المبرد : إنها منتصبة على أنها مفعول لمرسلين ، أي إنا كنا مرسلين رحمة ، وقيل : هي مصدر في موضع الحال أي راحمين قاله الأخفش وقيل : إنها مصدر منصوب بفعل مقدر ، أي رحمنا رحمة ، وقيل : إنها حال من ضمير مرسلين أي ذوي رحمة ، وقرأ الحسن بالرفع أي هي رحمة ورأفة بالمرسل إليهم .

﴿ من ربك ﴾ متعلق بالرحمة أو صفة لمحذوف ، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة ، ولو جرى على منوال ما تقدم لقال : من ربنا ، والمعنى رأفة مني بخلقي ونعمة عليهم بما بعثت إليهم من الرسل ﴿ إنه هو السميع ﴾ لمن دعاه ﴿ العليم ﴾ بكل شيء ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على عظيم قدرته الباهرة فقال :

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ قرأ الجمهور رب بالرفع على أنه عطف بيان على السميع العليم أو على أنه مبتدأ وخبره قوله الآتي ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو رب وقرأ الكوفيون بالجر على أنه بدل من ربك أو بيان له أو نعت ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ بأنه رب السموات والأرض وما بينهما ، وقد أقروا بذلك كما حكاه الله عنهم في غير موضع فأيقنوا بأن محمداً رسوله .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أو خبر رب السموات كما مر وكذلك جملة ﴿ يحيي ويميت ﴾ فانها مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الاستئناف بتقدير مبتدأ أي هو ربكم أو على أنه بدل من رب السموات أو بيان أو نعت له وقرأ الكسائي في رواية الشيرازي عنه وغيره بالجر ووجه الجر ما ذكرناه في قراءة من قرأ بالجر في رب السموات ، وقرأ الأنطاكي بالنصب على المدح .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ
الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا
الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ أضرب عن كونهم موقنين إلى كونهم في شك من التوحيد والبعث وفي إقرارهم بأن الله خالقهم وخالق سائر المخلوقات ، وإنما يقولونه تقليداً لآبائهم من غير علم وأن ذلك منهم على طريقة اللعب والهزء في دينهم بما يعن لهم من غير حجة ، ومحل يلعبون الرفع على أنه خبر ثان أو النصب على الحال ﴿ فارتقب ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لأن كونهم في شك ولعب ، يقتضي ذلك والمعنى فانتظر لهم يا محمد .

﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ وقيل المعنى احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء الخ وقد اختلف في هذا الدخان المذكور في الآية متى يأتي فقيل إنه من أشراط الساعة ، وإنه يمكث في الأرض أربعين يوماً .

وقد ثبت في الصحيح أنه من جملة العشر الآيات التي تكون قبل قيام الساعة وقيل إنه أمر قد مضى ، « وهو ما أصاب قريشاً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً » وهذا ثابت في الصحيحين وغيرهما وبه قال الفراء والزجاج ، وقيل انه يوم فتح مكة .

وقال ابن قتيبة : فيه وجهان ، الأول : أنه في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ، ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ، ويقولون كان بيننا أمر ارتفع له دخان ، ولهذا يقال للسنة المجدبة : الغبراء (الثاني) : أن العرب يسمون الشيء الغالب بالدخان ، والسبب فيه ان الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه اظلمت عيناه ، ويرى الدنيا كالمملوءة من الدخان .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود « أن قريشاً لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأوا عن الإسلام قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع فأنزل الله هذه الآية فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقيل يا رسول الله استسق الله المطر فاستسقى لهم فسقوا فأنزل الله ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر فقد مضى البطشة والدخان واللزام » ، وقد روي عن ابن مسعود نحو هذا من غير وجه وروي نحوه عن جماعة من التابعين كمقاتل ومجاهد وعن أبي مليكة قال دخلت على ابن عباس فقال : « لم أنم هذه الليلة فقلت لم؟قال طلع الكوكب فخشيت أن يطرق الدخان »[1] قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح وكذا صححه السيوطي ولكن ليس فيه أنه سبب نزول الآية[1] .

وقد عرفناك أنه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدخان الذي كان يتراءى لقريش من الجوع ، وبين كون الدخان من آيات الساعة وعلاماتها

---

(١) الطبري ١١٣/٢٥ .

(٢) ذكره البخاري بألفاظ مختلفة ٣٩٤/٨ ـ ٤٢٠ ـ ٤٤٠ ورواه مسلم أيضاً .

وأشراطها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف بذلك . وليس فيها أنه سبب نزول الآية فلا حاجة بنا إلى التطويل بذكرها .

والواجب التمسك بما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن دخان قريش عند الجهد والجوع هو سبب النزول ، وبهذا تعرف اندفاع ترجيح من رجح أنه الدخان الذي من أشراط الساعة كابن كثير في تفسيره وغيره في غيره ، وهكذا يندفع قول من قال : إنه الدخان الكائن يوم فتح مكة متمسكاً بما أخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال : « كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله فارتقب الخ » فإن هذا لا يعارض ما في الصحيحين على تقدير صحة إسناده مع احتمال أن يكون أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ظن من وقوع ذلك الدخان يوم الفتح أنه المراد بالآية ، ولهذا لم يصرح بأنه سبب نزولها .

﴿ يغشى الناس ﴾ صفة ثانية للدخان أي يشملهم ويحيط بهم ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي يقولون هذا أو قائلين ذلك أو يقول الله لهم ذلك ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أي يقولون ذلك « وقد روي أنهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا العذاب أسلمنا » والمراد بالعذاب الجوع الذي كان بسببه ما يرونه من الدخان أو يقولونه إذا رأوا الدخان الذي هو من آيات الساعة أو إذا رأوه يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال .

والراجح منها أنه الدخان الذي كانوا يتخيلونه مما نزل بهم من الجوع وشد الجهد ، ولا ينافي ترجيح هذا ما ورد أن الدخان من آيات الساعة ، فإن ذلك دخان آخر ، ولا ينافيه أيضاً ما قيل إنه الذي كان يوم فتح مكة ، فإنه دخان آخر على فرض صحة وقوعه .

﴿ أنّى لهم الذكرى ﴾ أي كيف يتذكرون ويتعظون بما نزل بهم ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ قد جاءهم رسول مبين ﴾ يبين لهم كل شيء يحتاجون إليه من أمر

الدنيا والدين ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي أعرضوا عن ذلك الرسول الذي جاءهم ولم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه بل جاوزوه .

﴿ وقالوا معلم مجنون ﴾ أي قالوا في حقه تارة إنما يعلمه القرآن بشر ، وتارة أخرى إنه مجنون ، أو قال بعضهم هذا وبعضهم ذلك فيكف يتذكر هؤلاء وأنّى لهم الذكرى ؟ ثم لما دعوا الله بأن يكشف عنهم العذاب ، وأنه إذا كشفه عنهم آمنوا أجاب الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً ﴾ أي إنا نكشفه عنهم كشفاً قليلاً أوزماناً قليلاً وهذا جواب بطريق الالتفات لمزيد التهديد والتوبيخ ، وما بينهما اعتراض أي إلى يوم بدر أو إلى ما بقي من أعمارهم ، ثم أخبر سبحانه عنهم أنهم لا ينزجرون عما كانوا عليه من الشرك ولا يفون بما وعدوا به من الإيمان فقال :

﴿ إنكم عائدون ﴾ إلى ما كنتم عليه من الشرك ، وقد كان الأمر هكذا فإن الله سبحانه لما كشف عنهم العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعناد ، وقيل المعنى إنكم عائدون إلينا بالبعث والنشور والأول أولى .

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ قرأ الجمهور نبطش بفتح النون وكسر الطاء أي نبطش بهم وقرىء بضم الطاء وهي لغة وقرىء بضم النون وكسر الطاء والظرف منصوب بإضمار اذكر ، وقيل بدل من ﴿ يوم تأتي السماء ﴾ وقيل هو متعلق بـ ﴿ منتقمون ﴾ ، وقيل بما دل عليه منتقمون ، وهو منتقم والبطشة الكبرى هي يوم بدر ، قاله الأكثر .

والمعنى أنهم لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم انتقم الله منهم بوقعة بدر . وقال الحسن وعكرمة والمراد بها عذاب النار يوم القيامة ، واختار هذا الزجاج ، والأول أولى .

وعن ابن عباس أنه قال : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر

وأنا أقول هي يوم القيامة ، قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح ، وقال ابن الخطيب هذا القول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ، وأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، لقوله تعالى :

﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ وقال ابن كثير قبل هذا فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم ، وروي أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه ، وعن أبيّ بن كعب وجماعة وهو محتمل والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة كبرى أيضاً انتهى .

قال الشوكاني : بل الظاهر أنه يوم بدر ، وإن كان يوم القيامة بطشة أكبر من كل بطشة ، فإن السياق مع قريش ، فتفسيره بالبطشة الخاصة لهم أولى من تفسيره بالبطشة التي تكون يوم القيامة لكل عاص من الإنس والجن انتهى .

﴿ ولقد فتنا ﴾ وقرىء فتنا بالتشديد على المبالغة أو التكثير لكثرة متعلقة أي ابتلينا ﴿ قبلهم ﴾ أي قبل هؤلاء العرب ، ليكون ما مضى من خبرهم عبرة لهم ﴿ قوم فرعون ﴾ معه ومعنى الفتنة هنا أن الله سبحانه أرسل إليهم رسله وأمرهم بما شرعه لهم ، فكذبوهم ، أو وسع عليهم الأرزاق فطغوا وبغوا ، قال الزجاج : بلوناهم أي امتحناهم ، وفعلنا بهم فعل الممتحن ، والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسل إليهم ، والتمكين في الأرض .

﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ على الله ، كريم في قومه أي كريم في نفسه حسيب نسيب ، لأن الله لم يبعث نبياً إلاّ من سراة قومه وكرامهم ، وقال مقاتل : حسن الخلق بالتجاوز والصفح ، وقال الفراء كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة وإسماع الكلام ، قال ابن عباس : هو موسى .

أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٖ
مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٞ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ
رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٞ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾

﴿ أن أدوا ﴾ أن هذه هي المفسرة لتقدم ما هو بمعنى القول ، أو مخففة من الثقيلة ، والمعنى أن الشأن والحديث أدوا ﴿ إليَّ عباد الله ﴾ أو مصدرية أي بأن أدوا ، والمعنى أنه طلب منهم أن يسلموا إليه بني إسرائيل الذين كان فرعون استعبدهم ، فأداؤهم استعارة بمعنى إطلاقهم وإرسالهم معه .

قال مجاهد : المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب ، فعباد الله على هذا مفعول به ، كقوله في سورة طٰه : ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ وقيل : المعنى أدوا إلى عباد الله ما وجب عليكم من حقوق الله فيكون منصوباً على أنه منادى مضاف ، وقيل : أدوا إلى سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربي وقال ابن عباس : اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق ﴿ إني لكم رسول ﴾ من الله ﴿ أمين ﴾ على الرسالة غير متهم وهذا تعليل للأمر .

﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تتجبروا ولا تتكبروا عليه بترفعكم عن طاعته ومتابعة رسله وإهانة وحيه وهذا أوضح ، وقيل : لا تبغوا على الله وقيل : لا تفتروا عليه ، قاله ابن عباس ، والأول أولى ، والفرق بين البغي والافتراء أن البغي بالفعل والافتراء بالقول ، وقال ابن عباس أيضاً لا تعثوا ، وقال ابن جريج لا تتعظموا ، وقال يحيى بن سلام لا تستكبروا والفرق بينهما

أن التعاظم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر، أفاده الماوردي.

وجملة ﴿ إني آتيكم ﴾ تعليل لما قبلها من النهي قرأ الجمهور بكسر همزة إني وقرىء بالفتح بتقدير اللام ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي بحجة بينة واضحة يعترف بصحتها كل عاقل، ولا سبيل إلى إنكارها، وقال قتادة وابن عباس بعذر بين، والأول أولى، وبه قال يحيى بن سلام.

﴿ وإني عذت بربي وربكم ﴾ من ﴿ أن ترجمون ﴾ استعاذ بالله سبحانه لما توعدوه بالقتل، قال قتادة ترجموني بالحجارة، وبه قال ابن عباس، وقيل تشتموني، كذا قال ابن عباس أيضاً، وقيل تقتلوني ﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ أي إن لم تصدقوا لي وتقروا بنبوتي، ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني، فاللام في لي لام الأجل، وقيل أي وإن لم تؤمنوا بي. كقوله ﴿ فآمن له لوط ﴾ أي به.

﴿ فاعتزلون ﴾ أي فاتركوني ولا تتعرضوا لي بأذى، قال مقاتل دعوني كفافاً لا علي ولا لي وقيل كونوا بمعزل عني، وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا وقيل فخلوا سبيلي قاله ابن عباس، والمعنى متقارب، ثم لما لم يصدقوه ولم يجيبوا دعوته رجع إلى ربه بالدعاء كما حكى الله عنه بقوله:

﴿ فدعا ربه إن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ أي كافرون قرأ الجمهور بفتح الهمزة على إضمار حرف الجر أي دعاه بأن هؤلاء وقرىء بكسرها على إضمار القول، وفي الكلام حذف أي لكفروا فدعا ربه، وسماه دعاء مع أنه لم يذكر إلا مجرد كونهم مجرمين لأنهم قد استحقوا بذلك الدعاء عليهم، وقيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم ما يستحقونه باجرامهم، وقيل: هو قوله ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ والأول أولى.

﴿ فأسر بعبادي ليلاً ﴾ أجاب الله سبحانه دعاءه، فأمره أن يسري ببني اسرائيل ليلاً، يقال: سرى وأسرى لغتان جيدتان، قرأ الجمهور فأسر بالقطع من أسرى، وقرأ أهل الحجاز بالوصل من سرى، وهما سبعيتان، والجملة بتقدير القول أي فقال الله لموسى أسر بعبادي ليلا ﴿ إنكم متبعون ﴾

أي يتبعكم فرعون وجنوده ، وقد تقدم في غير موضع خروج فرعون بعدهم .

﴿ واترك البحر رهواً ﴾ أي ساكناً ، يقال : رها يرهو رهواً إذا سكن لا يتحرك قال الجوهري : يقال افعل ذلك رهواً أي ساكناً على هيئتك وعيش راه أي ساكن ، ورها البحر سكن ، وقال الهروي وغيره : وهو المعروف في اللغة ، والمعنى اترك البحر ساكناً على صفته بعد أن ضربته بعصاك ، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك وبعد بني إسرائيل ،فينطبق عليهم فيغرقون .

وقال أبو عبيدة : رها بين رجليه يرهو رهواً أي فتح ، قال : ومنه قوله ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ والمعنى اتركه منفرجاً ، كما كان بعد دخولكم فيه ، وكذا قال أبو عبيدة، وبه قال مجاهد وغيره قال ابن عرفة وهما يرجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف لفظاهما لأن البحر إذا سكن جريه انفرج قال الهروي ويجوز أن يكون رهواً نعتاً لموسى ، أي سر ساكناً على هيئتك ، وقال كعب والحسن : رهواً طريقاً ، وقال الضحاك والربيع : سهلاً ، وقال عكرمة يبساً كقوله ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ وعلى كل تقدير فالمعنى اتركه ذا رهو أو اتركه رهواً على المبالغة في الوصف بالمصدر وقال ابن عباس : رهواً سمتاً وعنه قال كهيئة وأمضِ وعنه أيضاً قال الرهو أن يترك كما كان .

﴿ إنهم ﴾ أي إن فرعون وجنده بعد خروجكم ﴿ جند مغرقون ﴾ أي متمكنون في هذا الوصف ، وإن كان لهم وصف القوة والتجمع الذي شأنه النجدة الموجبة للعلو في الأمور أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه ويطمئن جأشه ، قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف لقصد الإخبار بذلك وقرىء بالفتح على تقدير لأنهم .

﴿ كم تركوا ﴾ كم هي الخبرية المفيدة للتكثير ، وقد مضى الكلام في معنى الآية في سورة الشعراء ، والتقدير فأغرقوا ، وكم مفعول به أي تركوا أموراً كثيرة وقد بينها بقوله : ﴿ من جنات ﴾ أي بساتين ﴿ وعيون ﴾ تجري

﴿ وزروع ومقام كريم ﴾ قرأ الجمهور مقام بفتح الميم على أنه اسم مكان للقيام وقرىء بضمها اسم مكان الإقامة قال ابن عباس ومَقام كريم المنابر ، وعن جابر مثله ، وقيل : هو ما كان لهم من المنازل الحسنة ، والمجالس الشريفة والمحافل المزينة .

﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ النعمة بالفتح التنعم ونضارة العيش ولذاذته يقال نعمه الله وناعمه فتنعم ، وبالكسر المنة وما أنعم به عليك وفلان واسع النعمة أي واسع المال ، ذكر معنى هذا الجوهري ، وقال المحلي : نعمة أي متعة أي أمور يتمتعون وينتفعون بها ، كالملابس والمراكب قرأ الجمهور فاكهين بالألف ، وقرىء بغير ألف والمعنى على الأولى متنعمين طيبة أنفسهم وعلى الثانية أشرين بطرين . قال الجوهري : فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحاً ، والفكه أيضاً الأشر البطر ، قال وفاكهين أي ناعمين وقال الثعلبي هما لغتان كالحاذر والحذر ، والفاره والفره وقيل : إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر كذلك يجوز أن تكون في محل نصب ، والإشارة إلى مصدر فعل يدل عليه تركوا ، أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ، وقيل مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها . وقيل مثل ذلك الإهلاك أهلكناهم ، فعلى الوجه الأول يكون قوله ﴿ وأورثناها ﴾ معطوفاً على تركوا وعلى الوجوه الآخرة يكون معطوفاً على الفعل المقدر ﴿ قوماً آخرين ﴾ المراد بهم بنو إسرائيل ، فإن الله سبحانه ملكهم مصر ، بعد أن كانوا مستعبدين فصاروا لها وارثين أي أنها وصلت إليهم كما يصل الميراث إلى الوارث ، ومثل هذا قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ وهذا قول الحسن ، وقيل : إنهم لم يرجعوا إلى مصر ، والقوم الآخرون غير بني إسرائيل وهو قول ضعيف جداً قاله الكرخي .

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ هذا بيان لعدم الأكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم ، كقولك : بكت عليهم السماء وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك فالبكاء مجاز مرسل ومع ذلك لا بد من جعل الآية استعارة بالكناية ، والمعنى أنه لم يصب بفقدهم وهلاكهم أحد من أهل السماء ولا من أهل الأرض ، وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ، أي عمت مصيبته ، وقال الحسن في الكلام مضاف محذوف أي فما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة والناس ، وقال الزمخشري ذكر هذا على سبيل السخرية بهم يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ويعتقدون أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض ، ولم يكونوا بهذا الحد بل كانوا دون ذلك فذكر هذا تهكماً بهم .

وقال مجاهد إن السماء والأرض تبكيان على المؤمن أربعين صباحاً ، وقيل تبكي على المؤمن مواضع صلاته ومصاعد عمله ، وعلى هذا إنه بكاء كالمعروف من بكاء الحيوان ، وفي معنى الآية وجهان ، والثاني أظهر وأوفق بالأحاديث ونظم القرآن قال السدي : لما قتل الحسين رضي الله عنه بكت عليه السماء وبكاؤها حمرتها .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد إلا

وله بابان باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه ، وتلا هذه الآية فما بكت »[١] الخ وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ، ولا من عملهم ، كلام صالح فيفتقدهم ، فيبكي عليهم ، »[٢] أخرجه الترمذي وابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب .

وأخرج ابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الشعب نحوه من قول ابن عباس ، وعنه قال : « يقال : الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً » وعن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال إنهما لا تبكيان على كافر » أخرجه ابن جرير وابن ابي الدنيا .

وعن علي رضي الله تعالى عنه « إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه ومصعد عمله من السماء ، ثم تلا هذه الآية » ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي مؤخرين للتوبة وممهلين إلى وقت آخر . بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم وشدة عنادهم .

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ﴾ أي خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد ، وقتل الأبناء واستيحاء النساء وتكليفهم

---

(١) الترمذي ٢/١٥٨ .

(٢) السيوطي في الدر ٦/٣١ .

للأعمال الشاقة ﴿ من فرعون ﴾ بدل من العذاب إما على حذف مضاف أي من عذابه ، وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب ، فأبدل منه أو على أنه حال من العذاب ، أي صادراً من فرعون ، وقرأ ابن عباس من فرعون ؟ بفتح الميم على الاستفهام التحقيري ، كما يقال لمن افتخر بحسبه أو نسبه : من أنت ؟ والأول أولى .

ثم بين سبحانه فقال ﴿ إنه كان عالياً ﴾ في التكبر والتجبر ﴿ من المسرفين ﴾ في الكفر بالله ، وارتكاب معاصيه ، كما في قوله ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ ومن إسرافه أنه كان على حقارته وخسته ادعى الإلّهية ، ولما بين سبحانه كيفية دفعه للضرر عن بني إسرائيل بين ما أكرمهم به فقال :

﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي مؤمني بني إسرائيل ﴿ على ﴾ أي مع ﴿ علم ﴾ منا بحالهم ، وهي كونهم أحقاء بأن يختاروا ، أو كونهم يزيغون وتحصل منهم الفرطات في بعض الأحوال ﴿ على العالمين ﴾ أي على عالمي زمانهم على علم منه سبحانه باستحقاقهم لذلك ، وليس المراد أنه اختارهم على جميع العالمين ، بدليل قوله في هذه الأمة ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وقيل على كل العالمين لكثرة الأنبياء فيهم ، وهذا خاصة لهم ، وليس لغيرهم ، حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهما والأول أولى ، وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخلصيهم من الغرق ، وإيراثهم الأرض بعد فرعون .

﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ أي معجزات موسى ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ أي اختبار ظاهر ، وامتحان واضح لننظر كيف يعلمون ؟ وقال قتادة : الآيات إنجاؤهم من الغرق ، وفلق البحر لهم ، وتظليل الغمام عليهم ، وإنزال المن والسلوى لهم ، وقال ابن زيد الآيات هي الشر الذي كفهم عنه ، والخير الذي أمرهم به ، وقال الحسن وقتادة البلاء المبين النعمة الظاهرة ، كما في قوله ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾
يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾

﴿ إن هؤلاء ﴾ أي كفار قريش ، لأن الكلام فيهم ، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على استوائهم في الإصرار على الكفر ، ﴿ ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ التي نموتها في الدنيا ، ولا حياة بعدها ولا بعث ، وهو معنى قوله ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أي بمبعوثين ، يقال أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم ، وليس في الكلام قصد إلى إثبات موتة أخرى ، بل المراد ما العاقبة ونهاية الأمر ، إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية .

قال الرازي وابن الخطيب المعنى أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى ، وهذا الكلام يدل على أنه لا تأتيهم الحياة الثانية البتة ، فلا حاجة إلى التكلف الذي ذكره الزمخشري في هذا المقام ، ثم أوردوا على من وعدهم بالبعث ما ظنوه دليلاً ، وهو حجة داحضة فقالوا :

﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ أي ارجعوهم بعد موتهم إلى الدنيا ، قال الفراء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، كقوله ﴿ رب ارجعونِ ﴾

والأولى أنه خطاب له صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من المسلمين ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولونه وتخبروننا به من البعث ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله ﴿ أهم خير ﴾ في القوة والمنعة .

﴿ أم قوم تبع ﴾ الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه ، وغلب أهلها وقهرهم ، وحير الحيرة وبني سمرقند ، وقيل هدمها وكان مؤمناً ، وكان قومه كافرين ، وكان من ملوك اليمن ، سمي تبعاً لكثرة أتباعه ، وقيل كل واحد من ملوك اليمن يسمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه الذي قبله ، كما سمي في الإسلام خليفة ، وفيه وعيد شديد ، وقيل المراد بقوم تبع جميع أتباعه لا واحد بعينه ، وكان تبع هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم » رواه البيهقي والحاكم وصححه ، وابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا ، وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فذكر نحوه »[1] أخرجه أحمد والطبراني وابن ماجة وابن مردويه وروي نحو هذا عن غيرهما من الصحابة والتابعين ، قال الرياشي كان أبو كرب أسعد الحميري من التابعة ممن آمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وإليه تنسب الأنصار وهو أول من كسى البيت بعدما أراد غزوه وبعدما غزا المدينة وأراد خرابها ثم انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجر نبي اسمه أحمد وقال شعراً أودعه عند أهلها وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فدفعوه إليه وقال « كعب ذم الله قومه ولم يذمه » .

والمراد بقوله ﴿ والذين من قبلهم ﴾ عاد وثمود ونحوهم من الأمم الكافرة ﴿ أهلكناهم ﴾ مستأنفة لبيان حالهم وعاقبة أمرهم ﴿ إنهم كانوا

---

(١) رواه الحاكم ٢/٤٥٠ مثله .

مجرمين ﴾ أي كافرين منكرين للبعث ، تعليل لإهلاكهم ، يعني أن الله سبحانه قد أهلكهم بسبب كونهم مجرمين ، فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً ، مع ضعفه وقصور قدرته بالأولى .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي ما بين جنسي السماء والأرض ﴿ لاعبين ﴾ أي بغير غرض صحيح ، قال مقاتل لم نخلقهما عابثين لغير شيء ، وقال الكلبي لاهين ، وقيل غافلين قرأ الجمهور ما بينهما ، وقرىء وما بينهن لأن السموات والأرض جمع .

﴿ ما خلقناهما ﴾ وما بينهما ﴿ إلا بالحق ﴾ أي بالأمر الحق ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وقال الكلبي إلا للحق وكذا قال الحسن ، وقيل إلا لإقامة الحق وإظهاره ، وقيل بالعدل ، وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وقيل بالجد ضد اللعب .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ لقلة نظرهم أن الأمر كذلك ، وهم المشركون ، وفيه تجهيل عظيم لمنكري البعث والحشر ، وتوكيد لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، وفي هذه الآية دليل على صحة الحشر ووقوعه .

ووجه الدلالة أنه لو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق عبثاً ، لأنه تعالى خلق نوع الإنسان ، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم من السقف المرفوع ، والمهاد المفروش ، وما فيهما وما بينهما من عجائب المصنوعات وبدائع الأحوال ثم كلفهم بالإيمان والطاعة فاقتضى ذلك أن يتميز المطيع من المعاصي ، بأن يكون المطيع متعلق فضله وإحسانه ، والعاصي متعلق عدله وعقابه ، وذلك لا يكون في الدنيا لقصر زمانها ، وعدم الاعتداد بمنافعها ، لكونها مشوبة بأنواع الآفات والمحن ، فلا بد من البعث ﴿ لتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ فظهر بهذا وجه اتصال الآية بما قبلها ، وهو أنه لما حكى مقالة

منكري البعث والجزاء ، وهددهم ببيان مآل المجرمين الذين مضـوا ، ذكر الدليل القاطع ، الدال على صحة البعث والجزاء فقال: وما خلقنا الخ .

﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ، والإضافة على معنى في ، والظاهر أنها بمعنى اللام ﴿ ميقاتهم ﴾ أي الوقت المجعول لتميز المحسن من المسيء ، والمحق من المبطل ﴿ أجمعين ﴾ لا يخرج عنهم أحد من ذلك ، وقد اتفق القراء على رفع ميقاتهم على أنه خبر إن ، واسمها يوم الفصل ، وأجاز الكسائي والفراء نصبه على أنه اسمها ، ويوم الفصل خبرها ، ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال :

﴿ يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ﴾ بدل من يوم الفصل أو منتصب بفعل يدل عليه الفصل ، أي يفصل بينهم يوم لا يغني ، والمعنى أنه لا ينفع قريب قريباً ، ولا يدفع عنه شيئاً .

ويطلق المولى على الولي ، وهو القريب والناصر ، وفي المختار المـولى المعتق والمعتق وابن العم والناصر والجار ، والحليف ، أي لا يدفع ابن عم عن ابن عمه ولا صديق عن صديقه شيئاً ، ومولى الأول مرفوع بالفاعلية ، والثاني مجرور بعن ، وإعرابهما إعراب المقصور كفتى وعصا ورحى ، والمراد بالمولى الثاني الكافر ، وبالأول المؤمن ، أي لا يغني مولىً مؤمن عن مولىً كافر شيئاً فهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ الآية .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ الضمير راجـع إلى المولى وإن كـان مفرداً في اللفظ ، لأنه في المعنى جمع لأنه نكرة في سياق النفي ، وهو من صيغ العموم ، أي ولا هم يمنعون من عذاب الله ، والجملة توكيد لما قبلها ، فالمعنى لا ينصر المؤمن الكافر ، ولو كان بينهما في الدنيا علقة من قرابة أو صداقة أو غيرهما ، كما أشار له القرطبي .

إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ
ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ
إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ
أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ
مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ إلا من رحم الله ﴾ قال الكسائي الاستثناء منقطع أي لكن من رحم الله ، وكذا قال الفراء ، وقيل هو متصل ، والمعنى لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنه يؤذن لهم في الشفاعة فيشفعون في بعضهم أو مرفوع على البدلية من مولىً الأول ، ويغني بمعنى ينفع ، قال الحوفي أو مرفوع المحل أيضاً على البدلية من واو ينصرون ، أي لا يمنع من عذاب الله إلا من رحمه الله ذكره السمين .

﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ أي الغالب الذي لا ينصر من أراد عذابه ، الرحيم بعباده المؤمنين ، ثم لما وصف اليوم ذكر بعده وعيد الكفار فقال :

﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم على صورة شجر الدنيا ، وسماها الشجرة الملعونة ، والزقوم ثمرها ، وهو كل طعام ثقيل ، فإذا جاء أهل النار التجأوا إليها فأكلوا منها ، وقد مضى الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات ، وشجرت ترسم بالتاء

المفتوحة ، ووقف عليها بالهاء أبو عمرو وابن كثير والكسائي ، ووقف الباقون بالتاء على الرسم قاله الخطيب .

وفي القرطبي : كل ما في كتاب الله من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان :﴿إن شجرة الزقوم﴾انتهى أي فيجوز الوقف عليها بالتاء والهاء ، وفي القاموس كلام مبسوط على الزقم والزقوم فليرجع إليه ، والأثيم الكثير الإثم ، قال في الصحاح : أثم الرجل بالكسر إثماً ومأثماً إذا وقع في الإثم فهو آثم وأثيم وأثوم فمعنى طعام الأثيم طعام ذي الإثم ، قيل هو أبو جهل ولا وجه للتخصيص .

﴿ كالمهل ﴾ وهو دردي الزيت وعكر القطران وقيل : هو النحاس المذاب وقيل كل ما يذوب في النار من ذهب أو فضة وكل منطبع سواء كان من صفر أو حديد أو رصاص وقيل الصديد والقيح .

﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ قرأ الجمهور تغلي بالتاء على أن الفاعل ضمير يعود على الشجرة والجملة خبر ثالث أو حال أو خبر مبتدأ محذوف أي تغلي غلياً مثل غلي الحميم وهو الماء الشديد الحرارة وقرىء بالتحتية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام ، وهو في معنى الشجرة ولا يصح عوده إلى المهل لأنه مشبه به وإنما يغلي ما يشبه بالمهل .

﴿ خذوه ﴾ أي يقال للملائكة الذين هم خزنة النار : خذوه أي الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ العتل القود بالعنف ، يقال عتله يعتله إذا جره وذهب به إلى مكروه ، وقيل : العتل أن تأخذ بتلابيب الرجل ومجامعه فتجره ، قرأ الجمهور فاعتلوه بكسر التاء ، وقرىء بضمها وهما لغتان وقراءتان سبعيتان ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي إلى وسطه ومعظمه كقوله ﴿ فرآه في سواء الجحيم ﴾ ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ من هي التبعيضية أي صبوا فوق رأسه بعض

هذا النوع ، وإضافة العذاب إلى الحميم للبيان أي عذاب هو الحميم وهو الماء الحار كما تقدم أو من إضافة الصفة للموصوف أو المسبب للسبب فالمصبوب هو الحميم لا عذابه وصب العذاب استعارة ، كقوله ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ فقد شبه العذاب بالمائع ثم خيل له بالصب .

﴿ ذق ﴾ الأمر للإهانة به أي قولوا له تهكماً وتقريعاً وتوبيخاً ذق العذاب ﴿ إنك ﴾ قرأ الجمهور بكسر الهمزة وقرأ الكسائي بفتحها ، وروي ذلك عن عليّ أي لأنك ﴿ أنت العزيز الكريم ﴾ قيل إن أبا جهل كان يزعم أنه أعز أهل الوادي وأكرمهم فيقولون له : ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم على زعمك ، وفيما كنت تقوله قال الفراء أي لهذا القول الذي قلته في الدنيا ـ عن ابن عباس في الآية قال : « يقول لست بعزيز ولا كريم » أخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل فقال : « إن الله أمرني أن أقول لك ﴿ أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ﴾ قال فنزع يده من يده وقال ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته ، وأنزل ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ » .

﴿ إن هذا ﴾ العذاب أو هذا الأمر ﴿ ما كنتم به تمترون ﴾ أي تشكون فيه حين كنتم في الدنيا والجمع باعتبار جنس الأثيم ، ثم ذكر سبحانه مستقر المتقين فقال :

﴿ إن المتقين ﴾ الذين اتقوا الكفر والمعاصي ﴿ في مقام ﴾ قرأ الجمهور مقام بفتح الميم وهو موضع القيام ، وقرىء بضمها وهو موضع الإقامة قاله الكسائي وغيره وهما سبعيتان وقال الجوهري قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي وقع

مستعملاً في معنى العموم ، ثم وصف المقام بقوله :

﴿ أمين ﴾ يأ من فيه صاحبه من جميع المخاوف . قال النسفي : هو من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكاره انتهى .

وأصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف والأمن والأمان والأمانة في الأصل مصادر ويستعمل الأمان تارة اسماً للحالة التي عليها الإنسان في الأمن ، وتارة لما يؤمن عليه الإنسان كقوله : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ أي ما ائتمنتم عليه .

﴿ في جنات وعيون ﴾ بدل من مقام أمين ، جيء به للدلالة على نزاهته واشتماله على ما يستلذ به من المآكل والمشارب ، أو بيان له أو خبر ثان .

﴿ يلبسون من سندس وإستبرق ﴾ خبر ثان أو ثالث أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور ، والسندس مارق من الديباج ، وفي المصباح الديباج ثوب سداه ولحمته إبريسم ويقال إنه معرب انتهى والاستبرق ما غلظ منه وهو تعريب استبر واللفظ اذا عرب خرج من أن يكون عجمياً لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه ، وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الاعراب فساغ أن يقع في القرآن العربي ، وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف .

﴿ متقابلين ﴾ أي في مجالسهم ينظر بعضهم الى بعض وهو أتم للأنس فلا يرد ما قيل من أن الجلوس على هذه الصفة موحش ، لأن قليل الثواب اذا اطلع على حال كثير الثواب يتنغص ، لأن أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا وقال المحلي : لا ينظر بعضهم الى قفا بعض لدوران الأسرة بهم .

كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ كذلك ﴾ أي نفعل بالمتقين فعلاً كذلك أو الأمر كذلك ﴿وزوجناهم ﴾ أي أكرمناهم بأن زوجناهم ﴿ بحور عين ﴾ الحور جمع حوراء وهي البيضاء والعين جمع عيناء ، وهي الواسعة العين ، وقال مجاهد إنما سميت الحوراء حوراء لأنه يحار الطرف في حسنها ، وقيل هو من حور العين وهو شدة بياض العين في شدة سوادها ، كذا قال أبو عبيدة ، وقال الأصمعي : ما أدري ما الحور في العين ، قال أبو عمرو : الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر قال وليس في بني آدم حور ، وإنما قيل للنساء : حور لأنهن شبهن بالظباء والبقر .

وقيل المراد بقوله ﴿ زوجناهم ﴾ قرناهم ، وليس من عقد التزويج لأنه لا يقال زوجته بامرأة ، وقال أبو عبيدة وجعلناهم أزواجاً لهن كما يزوج البعل بالبعل ، أي جعلناهم اثنين اثنين ، وكذا قال الأخفش ، واختلف أيهما أفضل في الجنة النساء الآدميات ام الحور ذكر ابن المبارك ان نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فضلن على الحور العين بما عملن في الدنيا ، وروي مرفوعاً « أن الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين الف ضعف » ، وقيل إن الحور العين أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام « فأبدله زوجاً خيراً من زوجه » والله أعلم .

﴿ يدعون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ بكل فاكهة ﴾ أي يأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه حال كونهم ﴿ آمنين ﴾ من التخم والأسقام والآلام قال قتادة آمنين من الموت والوصب والشيطان وقيل من انقطاع ما هم فيه من النعيم .

﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أي لا يموتون فيها أبداً إلا الموتة التي ذاقوها في الدنيا والإستثناء منقطع اي لكن الموتة كذا قال الزجاج والفراء وغيرهما ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ وقيل إن إلا بمعنى بعد واختاره الطبري كقولك ما كلمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك ، أي بعد رجل عندك وأباه الجمهور لأن مجيء إلا بمعنى بعد لم يثبت .

وقيل هي بمعنى سوى أي سوى الموتة الأولى نقله الطبري وضعفه . قال ابن عطية وليس تضعيفه بصحيح بل كونها بمعنى سوى مستقيم متسق ، قال ابن قتيبة إنما استثنى الموتة الأولى ، وهي في الدنيا لأن السعداء حين يموتون يصيرون بلطف الله وقدرته الى أسباب من الجنة يلقون الروح والريحان ويرون منازلهم من الجنة ويفتح لهم أبوابها فاذا ماتوا في الدنيا فكأنهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها فيكون الاستثناء على هذا متصلاً

قال الزمخشري فإن قلت كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها قلت أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله : إلا الموتة الأولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ؛ فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها في الجنة انتهى . قلت وهذا عند علماء البيان يسمى نفي الشيء بدليله .

﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ قرأ الجمهور وقاهم بالتخفيف وقرىء

بالتشديد على المبالغة ﴿ فضلاً من ربك ﴾ أي لأجل الفضل منه ، أو اعطاهم ذلك عطاء فضلاً منه .

﴿ ذلك ﴾ الذي تقدم ذكره من صرف العذاب ودخول الجنة ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز بعده ، المتناهي في العظم ، لأنه خلاص عن المكاره ، وظفر بالمطالب ثم لما بين سبحانه الدلائل ، وذكر الوعد والوعيد قال .

﴿ فإنما يسرناه بلسانك ﴾ أي إنما أنزلنا القرآن بلغتك كي يفهمه قومك فيتذكروا ويعتبروا ويعملوا بما فيه ، أو سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرأه وهذا فذلكة للسورة وإجمال لما فيها من التفصيل ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتعظون فيؤمنون ، لكنهم لا يؤمنون .

﴿ فارتقب ﴾ أي فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم وإهلاكهم على يدك ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت أو غيره ، وقيل انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم منتظرون بك نوائب الدهر والمعنى متقارب قال المحلي وهذا قبل الأمر بجهادهم أي فهو منسوخ وليس بصحيح لأن رفع الاباحة الأصلية ليس نسخاً إنما النسخ رفع حكم ثبت في الشرع بحكم آخر .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

وتسمى الشريعة قاله الخازن هي ست أو سبع وثلاثون آية

وهي مكّية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة، وقال ابن عباس وقتادة إلا آية منها. وهي قوله: ﴿قل للذين آمنوا الى أيام الله﴾ فانها نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب، ذكره الماوردي، وقال المهدوي والنحاس: «إنها نزلت في عمر شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة فأراد أن يبطش به. فأنزل الله: قل للذين آمنوا» الآية ثم نسخت بآية القتال فالسورة كلها مكّية على هذا من غير استثناء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ
ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ
﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا
عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حمٓ ﴾ قد تقدم الكلام على هذا في فاتحة سورة غافر ، وما بعدها والله أعلم بمراده به ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي القرآن مبتدأ ﴿من الله﴾ خبره ﴿العزيز﴾ في ملكه ﴿الحكيم﴾ في صنعه ، ثم أخبر سبحانه بما يدل على قدرته الباهرة فقال: ﴿إن في السموات والأرض﴾ أي في خلقهما ﴿ لآيات ﴾ دالة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ للمؤمنين ﴾ قال الزجاج : ويدل على أن المعنى في خلقهما قوله :

﴿ وفي خلقكم ﴾ أنفسكم على أطوار مختلفة ، قال مقاتل : من تراب ، ثم من نطفة الى أن يصير إنساناً ، وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة على ثلاث فواصل ، الأولى للمؤمنين الثانية يوقنون ، الثالثة يعقلون ، ووجه التغاير بينها أن المنصف من نفسه اذا نظر في السموات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها إزداد إيماناً فأيقن ، واذا

نظر في سائر الحوادث عقل واستحكم علمه .

﴿ و ﴾ في خلق ﴿ ما يبث ﴾ أي ما يفرقه وينشره ﴿ من دابة آيات ﴾ وللنحاة في هذا الموضع كلام طويل في رفع آيات ونصبها ، والبحث في مسألة العطف على معمولي عاملين مختلفين ، وحجج المجوزين له ، وجوابات المانعين منه مقرر في علم النحو ، مبسوط في مطولاته ﴿ لقوم يوقنون ﴾ يعني أنه لا إله إلا هو .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي في تعاقبهما أو تفاوتهما في الطول والقصر والظلام والضياء وذهابهما ومجيئهما ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق ﴾ معطوف على اختلاف والرزق المطر لأنه سبب لكل ما يرزق الله العباد به ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ إيحاء الأرض إخراج نباتها ، وموتها خلوها عن النبات ويبسها .

﴿ وتصريف الرياح ﴾ في مهابها أي أنها تهب تارة من جهة وتارة من أخرى ، وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة ، وتارة نافعة وتارة ضارة ، والرياح أربعة بحسب جهات الأفق ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ مراد الله سبحانه في كتابه ، ويفهمون الدليل فيؤمنون .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾ أي هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه ﴿ بالحق ﴾ أي محقين أو متلبسة بالحق ، أو الباء للسببية فتتعلق بنفس الفعل ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته ﴾ أي حججه ، قيل : إن المقصود فبأي حديث بعد آيات الله ، وذكر الاسم الشريف ليس إلا لقصد تعظيم الآيات فيكون من باب أعجبني زيد وكرمه ، وقيل المراد بعد حديث الله ، هو القرآن كما في قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ وهو المراد بالآيات ، والعطف لمجرد التغاير العنواني ﴿ يؤمنون ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية وقرىء بالتحتية والمعنى يؤمنون بأي حديث ، وإنما قدم عليه لأن الاستفهام له صدر الكلام .

﴿ ويـل ﴾ واد في جهنم أو كلمة عـذاب ﴿ لكـل أفـاك أثيم ﴾ أي لكـل كذاب كثير الاثم مرتكب لما يـوجبه ثم وصف هـذا الأفاك بصفـة أخرى فقـال ﴿ يسمـع آيات الله ﴾ أي القـرآن ﴿ تتلى عليه ثم يصـر ﴾ على كفـره ، ويقيم على ما كان عليه ، حال كونه

﴿ مستكبـراً ﴾ أي متمادياً على كفره ، متكبـراً على الإيمان ، ومتعـظماً في نفسه عن الانقياد للحق ، والاصرار مأخوذ من إصرار الحمار على العانـة ، وهـو أن ينحى عليها ، صـاراً أذنيـه ، وثم للتـراخي الـرتبي عنـد العقـل ، أي اصـراره على الكفر بعـد ما قـررت له الأدلـة المـذكـورة وسمعهـا مستبعـد في العقول ، قال مقاتل : إذا سمع من آيات القـرآن شيئاً اتخـذها هـزواً ، وجملة ﴿ كـأن لم يسمعهـا ﴾ في محـل نصب على الحـال ، أو مستـأنفـة ، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف .

﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ هـذا من باب التهكم ، أي فبشـره على إصراره واستكباره وعدم استماعه الى الآيات بعذاب شديد الألم قيل : نزلت في النضر ابن الحـرث ، وما كـان يشتري من أحـاديث العجم ، ويشغل بهـا النـاس عن استماع القرآن ، والآية عامة في كل من كان مضاداً لدين الله .

﴿ وإذا علـم من آياتنا شيئاً ﴾ قرأ الجمهور بفتح العين وكسر اللام مخففة على البنـاء للفاعـل وقرىء على البنـاء للمفعول ، والمعنى أنـه اذا وصل اليـه وبلغـه شيء وعلم انه من آيـات الله ﴿ اتخذهـا ﴾ أي الآيات ﴿هـزواً ﴾ وقيـل الضمير في اتخذها عائد الى شيء لأنه عبارة عن الآيات ، والأول أولى .

﴿ أولئك ﴾ أي كل أفـاك متصف بتلك الصفات ﴿ لهم عـذاب مهين ﴾ بسبب ما فعلوا من الاصرار والاستكبار عن سماع آيات الله ، واتخاذها هزواً ، والعذاب المهين هو المشتمل على الاذلال والفضيحة .

مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

﴿ من ورائهم ﴾ أي من وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر عن الحق ﴿ جهنم ﴾ فإنها من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها ، وعبر عن القدام بالوراء كقوله : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ والوراء مستعمل بمعنى الأمام كما يستعمل بمعنى الخلف ، وهو مشترك بين المعنيين ، فيستعمل في الشيء وضده ، كالجون يستعمل في الأبيض والأسود على سبيل الاشتراك ، وقيل : جعلها باعتبار إعراضهم عنها ، كأنها خلفهم ، وقيل الوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام .

﴿ ولا يغني ﴾ أي لا يدفع ﴿ عنهم ما كسبوا ﴾ من أموالهم وأولادهم ﴿ شيئاً ﴾ من عذاب الله ، ولا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ ولا ﴾ يغني عنهم ﴿ ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ من الأصنام ، وما في الموضعين إما مصدرية أو موصولة ، وزيادة لا في الجملة الثانية للتأكيد ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ في جهنم التي هي من ورائهم .

﴿ هذا ﴾ أي القرآن ﴿ هدى ﴾ للمهتدين به ﴿ والذين كفروا بآيات

ربهم ﴾ القرآنية ﴿ لهم عذاب من رجز أليم ﴾ الرجز أشد العذاب ، قرأ الجمهور أليم بالجر صفة للرجز ، وقرى بالرفع صفة لعذاب .

﴿ الله الذي سخر لكم البحر ﴾ أي جعله على صفة تتمكنون بها من الركوب عليه بأن جعله أملس السطح ، يطفو عليه ما يتخلله كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿ لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ أي بإذنه وإقداره لكم ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ بالتجارة تارة والغوص للدر والمعالجة للصيد وغير ذلك ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي ولكي تشكروا النعم التي تحصل لكم بسبب هذا التسخير للبحر .

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي سخر لعباده جميع ما خلقه في سمواته وأرضه، مما يتعلق به مصالحهم ويقوم به معايشهم ومما سخره لهم من مخلوقات السموات الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، وجميعاً حال من ما في السموات أو تأكيد له ،وقوله ﴿منه﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لجميعاً أي كائناً منه ، أو متعلق بسخر ، أو حال من ما في السموات ، أو خبر لمبتدأ محذوف والمعنى أن كل ذلك رحمة منه لعباده ، وقال ابن عباس ﴿جميعاً منه﴾ أي منه النور والشمس والقمر وكل شيء هو من الله ، وعن طاوس قال : «جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق ؟ قال من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء ؟ قال لا أدري ، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله فقال : مثل قول عبد الله بن عمرو فأتى ابن عباس فسأله مم خلق الخلق ؟ فقال من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء فقرأ ابن عباس وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، فقال الرجل ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم » .

﴿ إن في ذلك ﴾ المذكور من التسخير ﴿ لآيات لقوم يتفكرون ﴾ خص

المتفكرين لأنه لا ينتفع بها إلا من تفكر فيها ، فإنه ينتقل من التفكير الى الاستدلال بها على التوحيد ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ أي قل لهم اغفروا يغفروا أي يعفوا ويصفحوا ، قاله علي بن عيسى واختاره ابن العربي . وقيل التقدير قل لهم ليغفروا ، والمعنى قل لهم ليتجاوزوا .

﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي عن الذين لا يرجون وقائع الله بأعدائه أي لا يتوقعونها، ومعنى الرجاء هنا الخوف، وقيل هو على معناه الحقيقي ، والمعنى لا يرجون ثوابه في الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ، والأول أولى ، والأيام يعبر بها عن الوقائع كما تقدم في تفسير قوله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال مقاتل لا يخشون مثل عذاب الله للأمم الخالية ، وذلك أنهم لا يؤمنون به ، فلا يخافون عقابه وقيل المعنى لا يأملون نصر الله لأوليائه وإيقاعه بأعدائه ، وقيل : لا يخافون البعث .

قيل والآية منسوخة بآية السيف والأقرب أن يقال : إنه محمول على ترك المنازعة ، وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية وعن ابن عباس في الآية قال «كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يعرض عن المشركين إذا آذوه وكانوا يستهزئون به ويكذبونه فأمره الله أن يقاتل المشركين كافة » ، فكان هذا من المنسوخ والأولى القول بعدم النسخ .

﴿ ليجزي ﴾ الله ﴿ قوماً ﴾ قرىء بالتحتية وقرىء بالنون أي لنجزي نحن ، والجملة لتعليل الأمر بالمغفرة ، والمراد بالقوم المؤمنون ، أمروا بالمغفرة ليجزيهم الله يوم القيامة ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على أذية الكفار ، والإغضاء عنهم ، بكظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، وقيل المعنى ليجزي الكفار بما عملوا من السيئآت كأنه قال لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن ، قيل المراد بالقوم كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو التنويع والأول أولى ، ثم ذكر المؤمنين وأعمالهم والمشركين وأعمالهم فقال :

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ أي إن عمل كل طائفة من إحسان وإساءة لعامله لا يتجاوزه الى غيره ، وفيه ترغيب وترهيب ، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء ﴿ ثم الى ربكم ترجعون ﴾ أي تصيرون فيجازي كلاً بعمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر .

﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ المراد بالكتاب التوراة كذا في الكشاف وتبعه القاضي ، ولعل الأولى أن يحمل الكتاب على الجنس حتى يشمل الانجيل والزبور أيضاً لكن جمهور المفسرين على تفسيره هنا بالتوراة لأنه ذكر بعدها الحكم ونحوه وما ذكر لا حكم فيه إذ الزبور أدعية ومناجاة ، والإنجيل أحكامه قليلة جداً ، وعيسى مأمور بالعمل بالتوراة والمراد بالحكم الفهم والفقه الذي يكون بهما الحكم بين الناس ، وفصل خصوماتهم ، وبالنبوة من بعثه الله من الأنبياء فيهم .

﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي المستلذات التي أحلها الله لهم ، ومن ذلك المن والسلوى ، وهذه نعم دنيوية وما قبله من الكتاب والنبوة نعم دينية .

﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ من أهل زمانهم حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من كثرة الأنبياء فيهم ، وفلق البحر ، وغرق العدو ، ونحوها ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الدخان ، قال ابن عباس : لم يكن أحد من العاملين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب اليه منهم .

﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ أي شرائع واضحات في الحلال والحرام ، أو معجزات ظاهرات ، وقيل : العلم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته ، وتعيين مهاجره ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي فما وقع الاختلاف بينهم في ذلك الأمر إلا بعد مجيء العلم إليهم ببيانه ، وإيضاح معناه ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لثبوته ، وقيل المراد بالعلم يوشع بن نون فإنه آمن به بعضهم ، وكفر بعضهم وقيل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها حسداً و :

﴿ بغياً بينهم ﴾ قيل بغياً من بعضهم على بعض يطلب الرياسة ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ ثم للاستئناف والشريعة في اللغة المذهب والملة والمنهاج ويقال لمشرعة الماء وهي مورد شاربيه شريعة ، والجمع شرائع ، فاستعير ذلك للدين لأن العباد يردون ما تحيا به نفوسهم ، ومنه الشارع لأنه طريق الى المقصد ، فالمراد بالشريعة هنا ما شرعه الله لعباده من الدين ، أي جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين يوصلك الى الحق وقال ابن عباس : على هدى من أمر دينه ، قال قتادة الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض البينة ، لأنها طريق الى الحق ، وقال الكلبي السنة ، لأنه يستن بطريقة من قبله من الأنبياء ، وقال ابن زيد : الدين لأنه

طريق الى النجاة وقال ابن العربي : الأمر يرد في اللغة بمعنيين أحدهما بمعنى الشأن كقوله :

﴿ واتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ والثاني ما يقابله النهي وكلاهما يصح أن يكون مراداً هنا وتقديره ثم جعلناك على طريقة من الدين ، وهي ملة الاسلام ، كما قال تعالى ﴿ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح ، وإنما خالف بينها في الفروع حسب ما علمه سبحانه وتعالى .

﴿ فاتبعها ﴾ أي فاعمل بأحكامها في أمتك ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ توحيد الله وشرائعه لعباده ، وهم كفار قريش ومن وافقهم ، ثم علل النهي عن اتباع أهوائهم فقال : ﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ﴾ أي لا يدفعون عنك شيئاً مما أراده الله بك ان اتبعت أهوائهم .

﴿ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي أنصار ينصر بعضهم بعضاً لأن الجنسية علة الانضمام قال ابن زيد إن المنافقين أولياء اليهود ﴿ والله ولي المتقين ﴾ أي ناصرهم ، والمراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي والاشارة بقول ﴿ هذا ﴾ الى القرآن او الى اتباع الشريعة .

﴿ بصائر للناس ﴾ أي براهين ، ودلائل لهم فيما يحتاجون اليه من أحكام الدين وبينات تبصرهم وجه الفلاح ، ومعالم يتبصرون بها في الأحكام والحدود جعل ذلك بمنزلة البصائر في القلوب ليتوصل بكل واحد منها الى تحصيل العرفان واليقين ، وجمع الخبر باعتبار ما في المبتدأ من تعدد الآيات. والبراهين ، وقرىء هذه بصائر أي هذه الآيات لأن القرآن بمعناها .

﴿ وهدى ﴾ أي رشد وطريق يؤدي الى الجنة لمن عمل به ﴿ ورحمة ﴾ من الله في الآخرة ﴿ لقوم يوقنون ﴾ أي من شأنهم الإيقان وعدم الشك والتزلزل بالشبهة .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ
إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن
يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئآت ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل ، والهمزة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحسبان بطريق إنكار الواقع واستقباحه ، والتوبيخ عليه ، والاجتراح الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وقد تقدم في المائدة ، والجملة مستأنفة سيقت لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين إثر بيان حالي الظالمين والمتقين ، وهو معنى قوله :

﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ؟ أي نسوي بينهم مع اجتراحهم السيئآت وبين أهل الحسنات ، قيل نزلت في قوم من المشركين ، وقيل المسيئون عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، والمحسنون علي وحمزة وعبيدة بن الحرث حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم والعموم أولى .

﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ في دار الدنيا ، وفي الآخرة ؟ كلا لا يستوون في شيء منهما ، فإن حال أهل السعادة فيهما غير حال أهل الشقاوة ، فهؤلاء في عز الإيمان والطاعة وشرفهما في المحيا ، وفي رحمة الله تعالى ورضوانه في الممات ، وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهو انهما في المحيا ، وفي لعنة الله

والعذاب الخالد في الممات ، وشتان بينهما ، وقيل المراد إنكار أن يستووا في الممات ، كما استووا في الحياة .

قرأ الجمهور سواء بالرفع على أنه خبر مقدم ، والمبتدأ محياهم ومماتهم والمعنى إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء ، وقرىء بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور ، في قوله : كالذين آمنوا ، أو على أنه مفعول ثان لحسب ، واختار قراءة النصب أبو عبيدة، وقال : معناه نجعلهم سواء ، وقرىء محياهم ومماتهم بالنصب على معنى سواء في محياهم ومماتهم . ولما سقط الخافض انتصب .

﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء حكمهم هذا الذي حكموا به وقال مجاهد في الآية المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن ، والكافر في الدنيا والآخرة كافر ، وقال مسروق : قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري ، ولقد رأيته قام ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد ، ويبكي ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئآت ﴾ الآية ، وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقول يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت ؟ .

﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ المقتضي للعدل بين العباد وهذا كالدليل لما قبله من نفي الاستواء ، ومحل بالحق النصب على الحال من الفاعل ، أو المفعول ، أو الباء للسببية ﴿ ولتجزى كل نفس ما كسبت ﴾ أي خلق الله إياهما ليدل بهما على قدرته ولتجزى ، أو اللام للصيرورة قاله ابن عطية أي صار الأمر من حيث اهتدى بها قوم وضل بها قوم آخرون ﴿ وهم ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس .

﴿ لا يظلمون ﴾ بنقص ثواب ، أو زيادة عقاب وتسميته ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر ، بتنزيله منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه ، أو سماه ظلماً

نظراً إلى صدوره منا كما في الابتلاء والاختبار، ثم عجب سبحانه من حال الكفار فقال:

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال الحسن وقتادة: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه وقال عكرمة يعبد ما يهواه أو يستحسنه فإذا استحسن شيئاً وهواه، اتخذه إلهاً، قال سعيد بن جبير؛ كان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر.

وقال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان، والمعنى هو مطواع لهوى النفس، يتبع ما يدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

﴿ وأضله الله على علم ﴾ قد علمه، قال ابن عباس: يقول أضله في سابق علمه تعالى، وقيل المعنى أضله عن الثواب على علم منه بأنه لا يستحقه، وقال مقاتل على علم منه أنه ضال لأنه يعلم أن الصنم لا ينفع ولا يضر، قال الزجاج: على سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وقال الكرخي: أضله وهو عالم بالحق، وهذا أشد تشنيعاً عليه.

﴿ وختم ﴾ أي طبع ﴿ على سمعه ﴾ حتى لا يسمع الوعظ ﴿ و ﴾ طبع على ﴿ قلبه ﴾ حتى لا يفقه الهدى ولا يعقله ﴿ وجعل على بصره غشاوة ﴾ أي ظلمة وغطاء حتى لا يبصر الرشد، قرأ الجمهور غشاوة بالألف مع كسر الغين وقرىء بغير ألف مع فتح الغين. وقرأ ابن مسعود والأعمش كقراءة الجمهور مع فتح الغين، وهي لغة ربيعة، وقرىء بضمها وهي لغة عكل.

﴿ فمن يهديه من بعد الله ﴾ أي بعد إضلال الله له أي لا يهتدي ﴿ أفلا تذكرون ﴾ تذكر اعتبار، حتى تعلموا حقيقة الحال؛ قال الواحدي: ليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة، لأن الله صرح بمنعه إياه عن الهدى حتى أخبر أنه ختم على سمعه وقلبه وبصره، ثم بين سبحانه بعض جهالاتهم وضلالاتهم فقال:

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي منكرو البعث ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ أي ما الحياة إلا الحياة التي نحن فيها ﴿ نموت ونحيا ﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة ، وقيل نموت نحن ويحيا فيها أولادنا ، وقيل نكون نطفاً ميتة ثم نصير أحياء ، وقيل في الآية تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وكذا قرأ ابن مسعود وعلى كل تقدير فمرادهم بهذه المقالة إنكار البعث وتكذيب الآخرة وقيل : هذا من كلام من يقول بالتناسخ أي بموت الرجل ثم تجعل روحه في موات فيحيا به .

﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ أي مرور الليالي والأيام ، والدهر في الأصل مدة بقاء العالم ، من دهره إذا غلبه . وفي القاموس : دهرهم أمر كمنع نزل بهم مكروه ، فهم مدهور بهم ، ومدهورون ، وقرىء إلا دهر يمر قال مجاهد يعني السنين والأيام انتهى .

كانوا يزعمون أن مرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس وينكرون ملك الموت وقبض الأرواح بإذن الله ، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، ألا ترى أن أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان ؟ وقال قتادة : إلا العمر ؛ والمعنى واحد ؛ وقال قطرب المعنى وما يهلكنا إلا الموت وقال عكرمة : وما يهلكنا إلا الله .

عن أبي هريرة قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يحيينا ويميتنا ، فيسبون الدهر ، فقال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديثه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم الحديث » ، وفي الموطأ عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر » ، وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله تعالى ، ومرادهم بهذا الحصر إنكار أن يكون الموت بواسطة ملك الموت وإضافة الحوادث إلى الدهر والزمان ، وأن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي[1] .

﴿ وما لهم بذلك ﴾ أي بنسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الإستقلال ﴿ من علم ﴾ ثم بين كون ذلك صادراً منهم لا عن علم فقال : ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أي ما هم إلا قوم غاية ما عندهم الظن ، فما يتكلمون إلا به ، ولا يستندون إلا إليه .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا تليت آيات القرآن على المشركين حال كونها واضحات ظاهرة المعنى والدلالة على البعث أو مبينات لما يخالف معتقدهم قاله الكرخي .

﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا ﴾ أحياء ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنا نبعث بعد الموت أي ما كان لهم حجة ولا متمسك ولا متشبث يتعلقون ويعارضون به إلا هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء وإنما سماه حجة مع أنه ليس بحجة لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته ، وساقوه مساقها فسمي حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فقال :

(١) روى مسلم ١٧٦٣/٤ لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله .

﴿ قل الله يحييكم ﴾ في الدنيا ﴿ ثم يميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثم يجمعكم إلى ﴾ أي في ﴿ يوم القيامة ﴾ بالبعث والنشور ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي في جمعكم لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته ، وفي هذا رد لقولهم ، ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ بذلك لإعراضهم عن التفكر بالدلائل ، فلهذا حصل معهم الشك في البعث وجاءوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت ، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين ، واندفع عنهم الريب ، وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة ، ثم لما ذكر سبحانه ما احتج به المشركون وما أجاب به عليهم ذكر اختصاصه بالملك فقال :

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ اي هو المتصرف فيهما وحده كما أراد لا يشاركه أحد من عباده ، وهو شامل للإحياء والإماتة المذكورين قبله ، وللجمع والبعث ، وللمخاطبين غيرهم ، ثم توعد أهل الباطل فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ أي المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر في ذلك اليوم خسرانهم ، لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل في يوم هو يخسر ، ويومئذ بدل منه ، والتنوين عوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه فيكون التقدير : ويوم تقوم الساعة يوم تقوم الساعة فيكون بدلاً توكيدياً ، والأولى أن يكون العامل في يوم هو ملك أي ولله ملك يوم تقوم الساعة ، ويكون يومئذ معمولاً ليخسر ، والجملة مستأنفة من حيث اللفظ ، وإن كان لها تعلق بما قبلها من حيث المعنى أفاده السمين ، وقال التفتازاني وهذا بالتأكيد أشبه ، وأنّى يتأتى أن هذا مقصود بالنسبة دون الأول ؟ وقال الحفناوي : اليوم في البدل بمعنى الوقت ، والمعنى وقت أن تقوم الساعة ، وتحشر الموتى فيه ، وهو جزء من يوم تقوم الساعة فإنه يوم متسع مبدؤه من النفخة الأولى ، فهو بدل البعض . والعائد مقدر ولما كان خسرانهم وقت حشرهم كان هو المقصود بالنسبة .

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ
عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ وترى كل أمة ﴾ الخطاب لكل من يصلح له أو للنبي صلى الله عليه وسلم ، والأمة الملة والرؤية بصرية أو علمية ، وفيه بعد ومعنى قوله : ﴿ جاثية ﴾ مستوفزة والمستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه ، وأطراف أنامله قال الضحاك : وذلك عند الحساب ، وقيل معنى جاثية مجتمعة ، قال ابن عباس ، وقال الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين ، وقال عكرمة متميزة عن غيرها ، وقال مؤرج : معناه بلغة قريش خاضعة ، وقال الحسن باركة على الركب والجثو الجلوس على الركب تقول : جثا يجثو ويجثي جثواً . وجثياً إذا جلس على ركبتيه ، والأول أولى ، ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر في لسان العرب ، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء في لغة العرب .

وعن عبد الله بن بأباه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين » ، ثم قرأ سفيان هذه الآية أخرجه البيهقي في البعث ، وعبد الله ابن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم وسعيد بن منصور .

وعن ابن عمر في الآية قال : « كل أمة مع نبيها حتى يجيء رسول الله

صلى الله عليه وسلم على كوم قد علا الخلائق ، فذلـك المقام المحمـود » ، وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسل وغيرهم من أهل الشرك ، وقال يحيى بن سلام : هو خاص بالكفار ، والأول أولى ويؤيده قوله :

﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ وقوله فيما سيأتي ، فأما الذين آمنوا الخ ، ومعنى إلى كتابها إلى الكتاب المنزل عليها ؛ وقيل إلى صحيفة أعمالها وقيل : إلى حسابها ، وقيل اللوح المحفوظ ؛ والأول أولى قرأ الجمهور كل أمة بالرفع على الابتداء ، وخبره تدعى ، وقرىء بالنصب على البدل من كل أمة .

﴿ اليوم ﴾ أي يقال لهم اليوم ﴿ تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من خير وشر ﴿ هذا كتابنا ﴾ لا منافاة بين هذا وقوله كتابها لأنه كتابهم بمعنى أنه مشتمل على أعمالهم ، وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكتبه وإليه أشار في التقرير قاله الكرخي .

﴿ ينطق عليكم ﴾ بما عملتم ﴿ بالحق ﴾ بلا زيادة ونقصان وهذا من تمام ما يقال لهم ، والقائل بهذا هم الملائكة ، وقيل : هو من قول الله سبحانه أي يشهد عليهم ؛ وهو استعارة ، يقال : نطق الكتاب بكذا أي بيّن وقيل : إنهم يقرأونه فيذكرهم ما عملوا فكأنه ينطق عليهم دليله قوله تعالى :

﴿ ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيـرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ قال ابن عباس هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم ، وقيل هو ديوان الحفظة ، ومحل ﴿ ينطق ﴾ النصب على الحال أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة .

وجملة ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للنطق بالحق أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم أي بكتبها وتثبيتها عليكم ، وليس المراد بالنسخ إبطال

ما في اللوح قال الواحدي : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه ؛ قالوا لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل وقيل إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمله العبد فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئآت وتركوا المباحات ، وقيل إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب .

وقال ابن عباس « الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم ، فقام رجل فقال يا ابن عباس ما كنا نرى هذا تكتبه الملائكة في كل يوم وليلة ، فقال إنكم لستم قوماً عرباً هل يستنسخ الشيء إلا من كتاب » ؟ .

وعن علي بن أبي طالب « إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم » ، وعن ابن عمر نحو ما روي عن ابن عباس ، وعن ابن عباس أيضاً في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان ما استنسخ الملك من أم الكتاب ، وأخرج نحوه الحاكم عنه ، وصححه .

وأخرج الطبراني عنه أيضاً في الآية قال : « إن الله وكل ملائكة ينسخون من ذلك العام في رمضان ليلة القدر ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة ، فيتعارضون به حفظة الله على العباد عشية كل خميس ، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك ، ليس فيه زيادة ولا نقصان » .

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ﴾ التي من جملتها الجنة قاله البيضاوي ، وهذا تفصيل لحال الفريقين ، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة ، وفسر المحلي كالزمخشري الرحمة بنفس الجنة ، وهو

أظهر ﴿ ذلك ﴾ الإدخال في رحمته ﴿ هو الفوز المبين ﴾ أي الظاهر الواضح لخلوصه عن الأكدار والشوائب التي تخالطه .

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيقال لهم : ﴿ أفلم تكن آياتي ﴾ أي القرآن ﴿تتلى عليكم ﴾ الاستفهام للتوبيخ لأن الرسل قد أتتهم وتلت عليهم آيات الله فكذبوا أو لم يعملوا بها ﴿ فاستكبرتم ﴾ أي تكبرتم عن قبولهاوعن الإيمان بها

﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ أي من أهل الاجرام وهي الآثام والاجترام الاكتساب يقال فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم فالمجرم من كسب الآثام بفعل المعاصي .

﴿ و ﴾ كنتم ﴿ إذا قيل ﴾ لكم أيها الكفار : ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أي وعده بالبعث والحساب ، والجزاء ، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة واقع لا محالة ، والعامة على كسر الهمزة لأنها محكية بالقول وقرىء بفتحها وذلك مخرج على لغة سليم يجرون القول مجرى الظن مطلقاً قاله السمين .

﴿ والساعة ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الابتداء أو العطف على موضع اسم إن وقرىء بالنصب على اسم إن أي القيامة ﴿ لا ريب فيها ﴾ أي في وقوعها ﴿ قلتم ﴾ استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها :

﴿ ما ندري ما الساعة ﴾ أي أيُّ شيء هي ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أي نحدس حدساً ، ونتوهم توهماً ، قال المبرد : تقديره إن نحن إلا نظن ظناً وقيل التقدير إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً ، وقيل : إن نظن مضمن معنى نعتقد أي ما نعتقد إلا ظناً لا علماً ، وقيل : إن ظناً له صفة مقدرة أي إلا ظناً بيناً وقيل إن الظن يكون بمعنى العلم والشك ، فكأنهم قالوا ما لنا اعتقاد إلا الشك ، ولعل ذلك قول بعضهم ، تحيروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تلي عليهم في أمر الساعة ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أي لم يكن لنا يقين بذلك ولم يكن معنا إلا مجرد الظن أن الساعة آتية .

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا
وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ
السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿ وبدا لهم سيئات ما عملوا ﴾ أي ظهر لهم سيئآت أعمالهم على الصورة التي هي عليها أي جزاؤها ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أحاط بهم ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي نترككم في النار كما تركتم العمل لهذا اليوم والنسيان أريد به الترك مجازاً إما بعلاقة السببية أو لتشبهه في عدم المبالاة، وأضاف اللقاء إلى اليوم توسعاً لأنه أضاف إلى الشيء ما هو واقع فيه كمكر الليل ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي مسكنكم ومستقركم الذي تأوون إليه ﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب.

﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ﴾ أي ذلك العذاب العظيم، بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتكم بزخارفها وأباطيلها فظننتم أنه لا دار غيرها ولا بعث ولا نشور.

﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أي من النار، قرأ الجمهور بضم الياء، وفتح الراء مبنياً للمفعول وقرىء بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل وهما سبعيتان والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتحقيرهم، وللإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يسترضون ولا يطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله لأنه يوم لا تقبل فيه توبة ولا تنفع فيه معذرة.

﴿ فللّه الحمد ﴾ أي الوصف بالجميل ، على وفاء وعده في المكذبين ﴿ رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾ أي خالق ما ذكر لا يستحق الحمد سواه ، والعالم ما سوى الله وجمع لاختلاف أنواعه ، قرأ الجمهور رب في المواضع الثلاثة بالجر على الصفة للاسم الشريف ، أو البيان أو البدل وقرىء بالرفع في الثلاثة على تقدير مبتدأ أي هو رب السموات الخ .

﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ أي الجلال والعظمة والسلطان ، وخص السموات والأرض لظهور آثار ذلك فيهما ، وهو القهر والتصرف لأنفسها لأنها صفة ذاتية للرب تعالى ، وإظهارهما في موضع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء .

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي العزيز في سلطانه فلا يغالبه مغالب والحكيم في كل أفعاله وأقواله ، وجميع أقضيته ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار » أخرجه ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود وابن ماجة والبيهقي .

خاتمة الجزء الثاني عشر

تم بعون الله تعالى الجزء الثاني عشر ويليه الجزء الثالث عشر وأوله :
سورة الأحقاف .

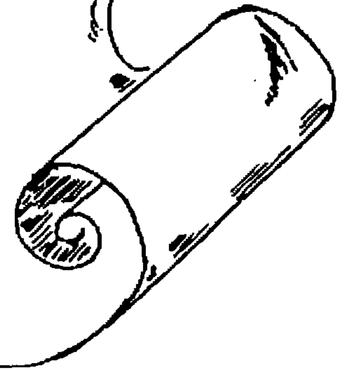

فهرس الجزء الثاني عشر

فتح البيان
في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف
السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الثالث عشر

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

ويشتمل على:

- سورة الأحقاف.
- سورة محمد.
- سورة الفتح.
- سورة الحجرات.
- سورة ق.
- سورة الذاريات.
- سورة الطور.
- سورة النجم.
- سورة القمر.
- سورة الرحمن.
- سورة الواقعة.
- سورة الحديد.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف

﴿ هي أربع أو خمس وثلاثون آية ﴾

وهذا الاختلاف مبني على أن حم آية أو لا وهي مكية، قال القرطبي: في قول جميعهم. قال ابن عباس وابن الزبير: نزلت بمكة. وقال المحلي: الا ﴿ قل أرأيتم ان كان من عند الله ﴾ الآية والا ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم ﴾ والا ﴿ ووصينا الانسان بوالديه ﴾ الثلاث آيات. يعني آخرها قوله ﴿ الا أساطير الاولين ﴾ وعن ابن مسعود قال: «أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الاحقاف وأقرأها آخر فخالف قراءته. فقلت من أقرأكها؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت والله لقد أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ذا فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله ألم تقرئني كذا وكذا؟ قال بلى. وقال الآخر ألم تقرئني كذا وكذا قال بلى فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ليقرأ كل واحد منكما ما سمع فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف» والاحقاف واد باليمن كانت فيه منازل عاد وقيل جمع حقف وهو التل من الرمل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ
هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟
لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ (٦)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ حمٓ ﴾ الله أعلم بمراده به ، وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى ، وبيان ما هو الحق من أن فواتح السور من المتشابه الذي يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ من المخلوقات بأسرها ﴿ إلا بالحق ﴾ ليدل على قدرتنا ووحدانيتنا هو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي إلا خلقاً متلبساً بالحق الذي تقتضيه المشيئة الإلٰهية .

﴿ وأجل ﴾ أي وبتقدير أجل ﴿ مسمى ﴾ وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنها تنتهي فيه السموات والأرض وما بينهما ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وقيل المراد به هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات ، والأول أولى ، وهذا إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا ، وأن الله لم يخلق خلقه باطلاً وعبثاً لغير الله ، بل خلقه للثواب والعقاب .

﴿ والذين كفروا عما أنذروا ﴾ وخوفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء والعذاب ﴿ معرضون ﴾ والجملة في محل نصب على الحال،أي:والحال أنهم مولّون غير مستعدين له ولا مؤمنين به ﴿ قل أرأيتم ﴾ أُخبروني ﴿ ما تدعون ﴾ وتعبدون ﴿ من دون الله ﴾ من الأصنام وغيرها .

﴿ أروني ﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله : قل أرأيتم أي أخبروني أروني والمفعول الثاني لأرأيتم قوله : ﴿ ماذا ﴾ أي أيُّ شيء ﴿ خلقوا من الأرض ؟ ﴾ ويحتمل أن لا يكون تأكيداً بل يكون هذا من باب التنازع،لأنّ أرأيتم يطلب مفعولاً ثانياً وأروني كذلك .

﴿ أم لهم شرك في السموات ﴾ أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة والمعنى بل ألهم شركة مع الله فيها ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع وتخصيص الشرك بالسموات دون أن يعمم بالأرض أيضاً احتراز عما يتوهم أن للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفلية .

﴿ إيتوني بكتاب ﴾ منزل ، هذا من جملة المقول والأمر تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك ، وإشارة إلى نفي الدليل المنقول بعد الإشارة إلى نفي الدليل المعقول ﴿ من قبل هذا ﴾ أي القرآن فإنه صرح ببطلان الشرك ، وأن الله واحد لا شريك له ، وأن الساعة حق لا ريب فيها ، فهل للمشركين كتاب يخالف هذا الكتاب ؟ أو حجة تنافي هذه الحجة ؟ .

﴿ أو أثارة من علم ﴾ قال في الصحاح أي بقية منه وكذا الأثَـرَة بالتحريك قال ابن قتيبة : أي بقية من علم الأولين،وقال الفراء والمبرد،يعني:ما يؤثر عن كتب الأولين قال الواحدي : وهو معنى قول المفسرين . قال عطاء،أو

شيء تأثرونه عن نبي كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، قال مقاتل أو رواية من علم عن الأنبياء، وقال الزجاج :أو أثارة أي علامة والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر، وهي الرواية يقال : أثرت الحديث أثره أثرة وأثاره وأثراً إذا ذكرتّه عن غيرك ، قرأ الجمهور «آثارة» على المصدر كالسماحة والغواية .

وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وغيرهما بفتح الهمزة والثاء أَثَرة من غير ألف وقرىء أثْرة بضم الهمزة وسكون الثاء ، قال ابن عباس : « أو أثارة من علم أي خط » وأُخرجه أحمد وابن المنذر وابن ابي حاتم وغيرهم قال سفيان لا أعلم إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم يعني أن هذا الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان نبي من الأنبياء يخط فمن صادف مثل خطه علم » أخرجه عبد بن حميد، وابن مردويه، ومعنى هذا ثابت في الصحيح، ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة ، ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط؟ وأين السند، الصحيح الى ذلك النبي؟ أو إلى نبينا صلى الله عليه وسلم إن هذا الخط هو على صورة كذا فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات .

وعن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أو أثارة من علم قال : حسن الخط » أخرجه ابن مردويه ، وعن ابن عباس قال : « خط كان تخطه العرب في الأرض » وعنه قال بينة من العلم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم التي تدعونها وهي قولكم : إن لله شريكاً ، أو إن الله أمركم بعبادة الأوثان ولم يأتوا بشيء من ذلك فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلي والنقلي على خلافه .

﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له ؟ ﴾ أي لا أحد

أضل منه ولا أجهل ، فإنه دعا من لا يسمع فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضر ، فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين . وأضل الضالين والإستفهام للتوبيخ والتقريع .

﴿ إلى يوم القيامة ﴾ غاية لعدم الإستجابة والمراد بها التأييد كقوله تعالى : ﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ قاله الشهاب ، وقال في الانتصاف في هذه الغاية نكتة ، وهي أنه تعالى جعل عدم الاستجابة مُغياً بيوم القيامة ،فأشعرت الغاية بانتفاء الاستجابة في يوم القيامة على وجه أبلغ وأتم وأوضح وضوحاً ألحقه بالبين الذي لا يتعرض لذكره،إذ هناك تتجدد العداوة والمباينة بينها وبين عابديها .

﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾ الضمير الأول للأصنام،والثاني لعابديها ، والمعنى، الأصنام التي يدعونها غافلون عن ذلك لا يسمعون ولا يعقلون ، لكونهم جمادات،فالغفلة مجاز عن عدم الفهم فيهم والجمع في الضميرين باعتبار معنى من،وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء،لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل .

﴿ وإذا حشر الناس ﴾ العابدون للأصنام ﴿ كانوا ﴾ أي كان الأصنام ﴿ لهم ﴾ أي لعابديهم ﴿ أعداء ﴾ يتبرأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وقد قيل : إن الله يخلق الحياة في الأصنام فتكذبهم ، وقيل : المراد إنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال ، وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فإنهم يتبرأون ممن عبدهم يوم القيامة ، كما في قوله تعالى : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ .

﴿ وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ أي كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم جاحدين مكذبين ، وقيل : الضمير في كانوا للعابدين ، كما في قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ والأول أولى .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ
يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ
بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى
مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ أي آيات القرآن حال كونها ﴿ بينات ﴾ واضحات المعاني ظاهرات الدلالات ﴿ وقال الذين كفروا للحق ﴾ أي لأجله وفي شأنه ، وهو عبارة عن الآيات كما قاله القاضي في الكشاف ، وإليه أشار في التقرير ، ووضعه موضع ضميرها ، ووضع الذين كفروا موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق ، وعليهم بالكفر ، والانهماك في الضلالة كما يؤخذ ذلك من تقريره .

وإيضاحه : أنه هنا اقام ظاهرين مقام مضمرين إذ الأصل قالوا لها أي للآيات ولكنه أبرزهما ظاهرين لأجل الوصفين المذكورين أفاده الكرخي ﴿ لما جاءهم ﴾ أي وقت أن جاءهم قالوا من غير نظر وتأمل ﴿ هذا سحر مبين ﴾ أي ظاهر السحرية بين البطلان .

﴿ أم يقولون افتراه ؟ ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، أي بل أيقولون ؟ والإستفهام للإنكار ، والتعجب من صنيعهم وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم : إن رسول الله افترى ما جاء به ، والظاهر أن الافتراء على الله أشنع من السحر ، لا يحتاج إلى البيان ، وإن كان كلاهما

كفراً ، وفي ذلك من التوبيخ والتقريع ما لا يخفى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال :

﴿ قل إن افتريته ﴾ على سبيل الفرض والتقدير كما تدعون ﴿ فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ أي فلا تقدرون على أن تردوا عني عقاب الله فكيف أفترى على الله لأجلكم وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عني .

﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ أي تخوضون فيه من التكذيب ، والإفاضة في الشيء الخوض والاندفاع فيه ، يقال : أفاضوا في الحديث أي اندفعوا فيه ، وأفاض البعير إذا دفع جرته من كرشه ، والمعنى الله أعلم بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من التكذيب له والقول بأنه سحر وكهانة .

﴿ كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ فإنه يشهد لي بأن القرآن من عنده ، وأني قد بلغتكم ، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود ، وفي هذا وعيد شديد بجزاء إفاضتهم ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ لمن تاب وآمن وصدق بالقرآن ، وعمل بما فيه ، أي كثير الرحمة والمغفرة بليغهما ، وفيه إشعار بحلم الله عنهم ، مع عظيم جرمهم .

﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ البدع من كل شيء المبدأ أي ما انا بأول رسول كذا قال ابن عباس يعني قد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل ، وقيل البدع بمعنى البديع كالخف والخفيف ، والبديع ما لم ير له مثل من الابتداع وهو الاختراع ، وشيء بدع بالكسر أي مبتدع . وفلان بدع في هذا الأمر أي بديع كذا قال الأخفش ، وقرىء بدعاً بفتح الدال مصدراً على تقدير حذف مضاف ، أي ما كنت ذا بدع قاله أبو البقاء . وقرىء بفتح الباء وكسر الدال على الوصف كحذر .

﴿ وما أدري ما يفعل بي ﴾ فيما يستقبل من الزمان ، هل أبقى في مكة ؟

أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل كما فعل بالأنبياء قبلي ؟ قرىء يفعل مبنياً للمفعول وللفاعل وما استفهامية كما جرى عليه المحلّي، أو موصولة كما قال الزمخشري .

﴿ ولا ﴾ أدري ما يفعل ﴿ بكم ﴾ يعني هل تعجل لكم العقوبة كالمكذبين قبلكم ؟ أم تمهلون وهذا إنما هو في الدنيا وأما في الآخرة فقد علم أنه وأمته في الجنة ، وأن الكافرين في النار ، وقيل إن المعنى ما أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة وأنها لما نزلت قدح المشركون ، وقالوا : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا ؟ وأنه لا فضل له علينا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ ، والأول أولى .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « فأنزل الله تعالى بعد هذا ﴿ ليغفر لك الله ﴾ الخ ، وقوله : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية فأعلم الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبالمؤمنين جميعاً وارغم الله أنف الكفار وأخرج أبو داود في ناسخه أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ﴾ وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أم العلاء قالت : « لما مات عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه قلت رحمك الله يا أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، وما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم . قالت أم العلاء:فوالله لا أزكّي بعده أحداً » .

﴿ إن أتبع إلا ما يوحى اليّ ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للمفعول أي ما أتبع إلا القرآن ولا أُبتدع من عندي شيئاً والمعنى قصر أفعاله صلى الله عليه وسلم على الوحي ، لاقصر اتباعه على الوحي ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ أي أنذركم عقاب الله وأخوفكم عذابه على وجه الإيضاح .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ
فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾

﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني ماذا حالكم ﴿ إن كان ﴾ ما يوحى إليّ من القرآن ﴿ من عند الله ﴾ وقيل المراد محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى إن كان مرسلاً من عند الله في الحقيقة .

﴿و﴾ الحال أنكم قد ﴿ كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ العالمين بما أنزل الله في التوراة ﴿ على مثله فآمن ﴾ أي على مثل القرآن من المعاني الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث والنشور وغير ذلك ، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني ، وإن اختلفت الألفاظ ، قال الجرجاني : مثل صلة ، والمعنى وشهد شاهد عليه أنه من عند الله ، وكذا قال الواحدي : فآمن الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ، ومن جنس ما ينزله على رسله .

وهذا الشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام ، كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ، وفي هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة ، فيكون المراد بالشاهد رجلاً من

أهل الكتاب قد آمن بالقرآن في مكة ، وصدقه واختار هذا ابن جرير والراجح أنه عبد الله بن سلام وأن هذه الآية مدنية لا مكية ، وروي عن مسروق أن المراد بالرجل موسى عليه السلام وشهادته ما في التوراة من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : «ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » .

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : « نزل فيّ آيات من كتاب الله نزلت في ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل ﴾ ونزل فيّ ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

وعن ابن عباس قال هو عبد الله بن سلام وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين . وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية ، وإياه ذكر الكواشي وكونه إخباراً قبل الوقوع خلاف الظاهر ، ولذا قيل لم يذهب أحد إلى أن الآية مكية إذا فسر الشاهد بابن سلام ، وفيه بحث لأن قوله وشهد شاهد معطوف على الشرط الذي يصير به الماضي مستقبلاً فلا ضرر في شهادة الشاهد بعد نزولها وادعاء أنه لم يقل به أحد من السلف مع ذكره في شروح الكشاف لا وجه له إلا أن يراد من السلف المفسرون ، قاله الشهاب .

﴿ واستكبرتم ﴾ أي آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان ، وقد اختلف في جواب الشرط ما هو؟ فقال الزجاج محذوف تقديره أتؤمنون ؟ وقيل تقديره فقد ظلمتم لدلالة أن الله لا يهدي الخ عليه ، وقيل تقديره فمن أضل منكم ؟ وقيل :قوله فآمن واستكبرتم ، وقال أبو علي الفارسي تقديره أتأمنون

عقوبة الله ؟ وقيل التقدير ألستم ظالمين .

﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية بظلمهم لأنفسهم بالكفر ، بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان ومن فقد هداية الله له ضل ، عن عوف بن مالك الأشجعي قال « انطلق النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً ، فقال أبيتم فوالله لأنا الحاشر ، وأنا العاقب ، وأنا المقفى ، آمنتم أو كذبتم ، ثم انصرف ، وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه ، فقال : كما أنت يا محمد ، فأقبل فقال ذلك الرجل أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ؟ فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ، ولا من أبيك ، ولا من جدك ، فقال : فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه ، وقالوا شراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم لن يقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة رسول الله وأنا وابن سلام ، فأنزل الله :﴿قل أرأيتم إن كان من عندالله﴾ إلى قوله :﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أخرجه أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه، وصححه السيوطي .

ثم ذكر الله سبحانه نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة في حق القرآن العظيم والمؤمنين به فقال :

﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي كفار مكة ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي لأجلهم ، وفي حقهم ، وقيل : هي لام التبليغ : ﴿ لو كان ﴾ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن والنبوة ﴿ خيراً ما سبقونا إليه ﴾ فإن معالي الأمور لا تنالها أيدي الأراذل وهم سقاط ، عامتهم فقراء وموال ورعاة ، قالوه زعماً منهم

أنهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، وأن الرياسة الدينية مما ينال بأسباب دنيوية ، وزل عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية ، وملكات روحانية ، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة بالكلية ، وأن من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ومن حرمها فما له منها من خلاق ولم يعلموا أن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويصطفي لدينه من يشاء عن قتادة قال : قال ناس من المشركين : نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزلت هذه الآية .

وعن عون بن أبي شداد : « كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها زنيرة . وكان عمر يضربها على الإسلام وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة فأنزل الله في شأنها هذه الآية » وعن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة يقولون لو كان خيراً ما جعلهم الله أول الناس فيه » .

﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ أي بالقرآن وقيل : بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل بالإيمان ﴿ فسيقولون ﴾ غير مكتفين بنفي خيريته : ﴿ هذا إفك قديم ﴾ فجاوزوا نفي خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم كما قالوا أساطير الأولين .

﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من ﴿ من ﴾ على أنها حرف جر وهي مع مجرورها خبر مقدم ، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة ، والكلام مسوق لرد قولهم : ﴿ هذا إفك قديم ﴾ فإن كونه قد تقدم القرآن كتاب موسى وهو التوراة ، وتوافقا في أصول الشرائع يدل على أنه حق ، ويقتضي بطلان قولهم . وقرىء بفتح الميم على أنها موصولة ونصب كتاب أي وآتينا من قبله كتاب موسى .

﴿ إماماً ﴾ أي يقتدى به في الدين ﴿ ورحمة ﴾ من الله لمن آمن به وهما منتصبان على الحال ، قاله الزجاج وغيره ، وقال الأخفش على القطع وقال أبو عبيدة أي جعلناه إماماً ورحمة .

﴿ وهذا كتاب مصدق ﴾ يعني القرآن فإنه مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة ولغيره من كتب الله ، وقيل : مصدق للنبي صلى الله عليه وسلم وانتصاب ﴿ لساناً عربياً ﴾ على الحال الموطئة ، وصاحبها الضمير في مصدق العائدة إلى كتاب الله وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً لمصدق ، والأول أولى وقيل : على حذف مضاف أي ذا لسان عربي ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل بلسان على إسقاط حرف الجر وهو ضعيف ﴿ لينذر الذين ظلموا ﴾ أي لينذر الكتاب أو لينذر الله وقيل الرسول والأول أولى قرأ الجمهور بالتحتية وقرىء «لتنذر» بالفوقية على أن فاعله النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وبشرى ﴾ في محل نصب عطفاً على محل لتنذر ، لأنه مفعول به ، قاله الزمخشري وتبعه أبو البقاء وتقديره للإنذار والبشرى ، وقيل منصوب على المصدرية لفعل محذوف أي وبشر بشرى ، وقال الزجاج الأجود أن يكون في محل رفع أي وهو بشرى وقيل : إنه معطوف على مصدق فهو في محل رفع وقوله : ﴿ للمحسنين ﴾ متعلق ببشرى .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة على الشريعة التي هي منتهى العلم، وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد وقد تقدم تفسير هذا في سورة السجدة .

﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي من لحوق مكروه في الآخرة والفاء زائدة في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط ولم تمنع أن من ذلك لبقاء معنى الابتداء بخلاف ليت ولعل وكان ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على فوات محبوب في الدنيا وان ذلك دائم مستمر .

أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ أصحاب الجنة ﴾ التي هي دار المؤمنين حال كونهم ﴿ خالدين فيها ﴾ وفي هذه الآية من الترغيب أمر عظيم ، فإن نفي الخوف والحزن على الدوام والاستقرار في الجنة على الأبد مما لا تطلب الأنفس سواه ، ولا تتشوق الأرواح إلى ما عداه .

﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي يجزون جزاء بسبب أعمالهم التي عملوها من الطاعات لله ، وترك معاصيه في الدنيا ولما كان رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما كما ورد به الحديث حث الله تعالى عليه بقوله :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ قرأ الجمهور بضم الحاء وسكون السين وقرىء بفتحهما ، وقرىء إحساناً . وقد تقدم في سورة العنكبوت ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ من غير اختلاف بين القراء ، وقد تقدم في سورة الأنعام وسورة بني إسرائيل ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء هنا ، وعلى جميعها فانتصابه على المصدرية ، أي وصيناه أن يحسن إليهما حسناً أو إحساناً ، وقيل يتضمن وصينا معنى ألزمنا ، وقيل على أنه مفعول له والحسن خلاف القبح ، والاحسان خلاف الاساءة والتوصية الأمر .

﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ تعليل للتوصية المذكورة، واقتصر في التعليل على الأم لأن حقها أعظم ولذلك كان لها ثلثا البر قاله الخطيب ، قرأ الجمهور كرهاً بضم الكاف في الموضعين ، وقرىء بفتحها ، قال الكسائي وهما لغتان بمعنى واحد ، قال أبو حاتم الكره بالفتح لا يحسن لأنه الغضب والغلبة ، واختار أبو عبيدة الفتح ، وقال لأن لفظ الكره في القرآن كله بالفتح إلا التي في سورة البقرة . ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ وقيل : إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره ، وإنما ذكر سبحانه حمل الأم ووضعها تأكيداً لوجوب الاحسان إليها الذي وصى الله به ، والمعنى أنها حملته ذات كره ووضعته ذات كره ، ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال :

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ أي عدتها هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع أي يفطم عنه ؛ وقد استدل بهذه الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع سنتان أي مدة الرضاع الكامل في قوله : ﴿ حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ ، فذكر سبحانه في هذه الآية أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع ، وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب ، لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب . ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك .

قرأ الجمهور فصاله بالألف ، وقرىء فصله بفتح الفاء وسكون الصاد والفصل والفصال بمعنى كالفطم والفطام والقطف والقطاف ، عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال : « إني لصاحب المرأة التي اتى بها عمر وضعت لستة أشهر ، فأنكر الناس ذلك فقلت لعمر لم تظلم؟ قال كيف؟ قلت اقرأ ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ كم الحول؟قال:سنة،قلت:كم السنة؟ قال اثنا عشر شهراً،قلت:فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملان ، ويؤخر الله من الحمل ما شاء ، ويقدم ما شاء فاستراح عمر إلى قوله » ، وعنه أنه كان يقول إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من

الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً واذا وضعت لستة أشهر فحولان كاملان لأن الله يقول وحمله وفصاله ثلاثون شهراً .

﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ أي بلغ استحكام قوته وعقله ، وغاية شبابه واستوائه ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ، وكان سيبويه يقول : واحده شدة ، وبلوغ الأشد أن يكتهل ، ويستوفي السن التي تستحكم فيها قوته ولبه ، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين ، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى ، ولا بد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها ، أي عاش واستمرت حياته ، وقيل : بلغ عمره ثماني عشرة سنة . وقيل : الأشد الحلم ، قاله الشعبي وابن زيد ، وقال الحسن : وهو بلوغ الأربعين والأول أولى لقوله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شيء وراء بلوغ الأشد ، قال المفسرون : لم يبعث الله نبياً قط إلا بعد أربعين سنة إلا ابني الخالة .

﴿ قال : رب أوزعني ﴾ أي ألهمني ورغبني ووفقني ، قال الجوهري : استوزعت الله فأوزعني أي استلهمته فألهمني ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ﴾ أي ألهمني شكر ما انعمت علي من الهداية ﴿ وعلى والدي ﴾ من التحنن عليّ منهما حين ربياني صغيراً وقيل أنعمت عليَّ بالصحة والعافية وعلى والدي بالغنى والثروة ﴿ وأن أعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحا ترضاه ﴾ مني .

﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ أي اجعل ذريتي صالحين راسخين في الصلاح ، متمكنين منه ، وعدي بفي لتضمنه معنى اللطف أو هو نزل منزلة اللازم ، ثم عدي ليفيد سريان الصلاح فيم ، وإلا فالإصلاح متعد كما في قوله تعالى : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي لمن بلغ عمره أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات ﴿ إني تبت إليك ﴾ من ذنوبي ﴿ وإني من المسلمين ﴾ أي المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ
ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ
أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ
فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ
خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الإنسان المذكور والجمع لأنه يراد به الجنس ﴿ الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾ من أعمال الخير في الدنيا . والمراد بالأحسن الحسن كقوله : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ﴾ فالقبول ليس قصراً على أفضل عباداتهم وأحسنها ، بل يعم كل طاعاتهم فاضلها ومفضولها ، والقبول هو الرضا بالعمل والإثابة عليه ، وقيل : إن اسم التفضيل على معناه ، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال ، لا ما لا يثاب عليه ، كالمباح فإنه حسن ، وليس بأحسن .

﴿ ونتجاوز عن سيئآتهم ﴾ فلا نعاقبهم عليها ، قرأ الجمهور : يتقبل ويتجاوز على بناء الفعلين للمفعول ، وقرىء بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه ، والتجاوز الغفران ، وأصله من جزت الشيء إذا لم تقف عليه .

﴿ في أصحاب الجنة ﴾ أي أنهم كائنون في عدادهم ، منتظمون في سلكهم ، فالجار والمجرور في مجال النصب على الحال ، كقولك أكرمني الأمير في أصحابه أي كائناً في جملتهم ، وقيل : إن في بمعنى مع ،أي :مع أصحاب

الجنة ، وقيل : إنها خبر مبتدأ محذوف أي هم في أصحاب الجنة .

﴿ وعد الصدق ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، لأن قوله ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم ﴾ في معنى الوعد بالتقبل ، والتجاوز ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف ، أي ووعدهم الله وعد الصدق .

﴿ الذي كانوا يوعدون ﴾ به على ألسن الرسل في الدنيا ، عن ابن عباس قال : « أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، فاستجاب الله له ، فأسلم والداه جميعاً وإخوانه وولده كلهم » ، ونزلت فيه أيضاً : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ إلى آخر السورة » .

وقال النسفي : قيل : نزلت في أبي بكر الصديق في أبيه أبي قحافة ، وأمه أم الخير ، وفي أولاده واستجابة دعائه فيهم ، فإنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، ودعا لهما وهو ابن اربعين سنة ، ولم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار ، أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

ولما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، ذكر من قال لهما قولاً يدل على التضجر منهما ، عند دعوتهما له إلى الإيمان فقال :

﴿ والذي قال لوالديه أفٍ لكما ﴾ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ، ولهذا أخبر عنه بالجمع ، وأف كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه ، قرىء أف بكسر الفاء مع التنوين ، وقرىء بفتحها من غير تنوين وقرىء بكسرها من غير تنوين فالقراآت ثلاثة سبعية والهمزة في الكل مضمومة وقد مضى بيان الكلام على هذا في سورة بني إسرائيل واللام في لكما لبيان المؤفف له كما في قوله : ﴿ هيت لك ﴾ .

وقد أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال :كان مروان على الحجاز

استعمله معاوية بن أبي سفيان فخطب فجعل يذكر يزيد ابن معاوية عليه ما عليه لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً ، فقال : خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه . فقال مروان إن هذا أنزل فيه ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ ، فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري » .

وعن محمد بن زياد قال لما بايع معاوية لابنه قال مروان سنة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فقال عبد الرحمن سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان هذا الذي قال الله فيه والذي قال لوالديه أف لكما الآية فبلغ ذلك عائشة كذب مروان والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمي الذي نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه ، فمروان من لعنه الله » أخرجه النسائي ، وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه .

وعن ابن عباس في الآية قال هذا ابن لأبي بكر ، ونحوه عن السدي ، ولا يصح هذا ، ويرده ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم ﴾ ، والصحيح أنه ليس المراد من الآية شخصاً معيناً ، بل المراد كل شخص كان موصوفاً بهذه الصفة ، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الصحيح والإيمان بالبعث ، فأبى وأنكر وقيل نزلت في كل كافر عاق لوالديه .

﴿ أتعدانني ﴾ ؟ بنونين مخففتين وفتح ياءه أهل المدينة ومكة ، وأسكنها الباقون ، وقرىء بإدغام إحدى النونين في الأخرى . وقرىء بفتح النون الأولى فراراً من توالي مثلين مكسورين ﴿ أن أخرج ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل ، والمعنى أتعدانني أن أبعث بعد الموت ، وهذا هو الموعود به .

﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ أي والحال أن قد مضت القرون فماتوا

ولم يبعث منهم أحد ﴿ وهما يستغيثان الله ﴾ له ، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان واستغاث يتعدى بنفسه تارة وبالباء أخرى ، يقال استغاث الله واستغاث به .

وقال الرازي معناه يستغيثان بالله من كفره فلما حذف الجار وصل الفعل وقيل الاستغاثة الدعاء فلا حاجة إلى الباء ، وزعم ابن مالك انه يتعدى بنفسه فقط ، وعاب قول النحاة مستغاث به ، قلت لكنه لم يرد في القرآن إلا متعدياً بنفسه ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته ﴾ ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا ﴾ قال الفراء يقال أجاب اللّه دعاءه وغواثه .

﴿ ويلك ﴾ أي:يقولان له ويلك . وليس المراد به الدعاء عليه بل الحث له على الإيمان ولهذا قالا له ﴿ آمن ﴾ بالبعث واعترف وصدق ﴿ إن وعد الله حق ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على الاستئناف أو التعليل ، وقرىء بفتحها أي آمن بأن وعد الله حق لا خلف فيه ، وهو من جملة مقولهما .

﴿ فيقول ﴾ عند ذلك مكذباً لما قالاه ﴿ ما هذا ﴾ الذي تقولانه من البعث ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أي :أحاديثهم وأباطيلهم التي يسطرونها في الكتب من غير أن تكون لها حقيقة .

﴿ أولئك ﴾ القائلون هذه المقالات هم ﴿ الذين حق عليهم القول ﴾ أي وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ كما يفيده قوله .

﴿ في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ وجملة ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لما قبلها ، وهذا يدفع كون سبب النزول عبد الرحمن إبن أبي بكر ، وأنه الذي قال لوالديه ما قال . فانه من أفاضل المؤمنين ، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب .

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿ ولكل ﴾ أي لكل فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين والأبرار والفجار من الجن والإنس ﴿ درجات مما عملوا ﴾ أي مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم قال ابن زيد درجات أهل النار تذهب سفلاً ، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً،ومراتب أهل النار يقال لها دركات بالكاف ، كما في الحديث لا درجات ، والجواب أن ذلك على جهة التغليب أو المراد المراتب مطلقاً .

﴿ وليوفيهم أعمالهم ﴾ أي جزاء أعمالهم ، ولا يظلمهم حقوقهم ، قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم ، فجعل الثواب درجات ، والعقاب دركات ، قرأ الجمهور بالنون ، وقرىء بالتحتية ، واختار أبو عبيدة الأولى،وأبو حاتم الثانية ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يزاد مسيء ولا ينقص محسن،بل يوفي كل فريق ما يستحقه من خير وشر والجملة حالية مؤكدة،أو مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ أي اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار ويقربون منها ، وقيل معنى يعرضون يعذبون من قولهم عرضه على السيف وعرض الشخص على النار أشد في إهانته من عرض النار عليه إذ عرضه عليها يفيد أنه كالحطب المخلوق للاحتراق ، وقيل : في الكلام قلب والمعنى تعرض النار عليهم .

﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ أي يقال لهم ذلك ، قرأ الجمهور : أذهبتم بهمزة واحدة ، وقرىء بهمزتين محققتين ، ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ ، قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بالإستفهام وبغيره ، فالتوبيخ كائن على القراءتين ، قال الكلبي : المراد بالطيبات اللذات وما كانوا فيه من المعايش والمعنى ان كل ما قدر لكم من اللذات والطيبات فقد ذهبتم به واخذتموه وتمتعتم به فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم منها شيء ، وقيل : المعنى أفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي ، قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوة ، مأخوذة من قولهم : ذهب أطيباه أي شبابه وقوته ، قال الماوردي : ووجدت الضحاك قاله أيضاً ، قلت : القول الأول اظهر ، والثاني فيه بعد .

﴿ واستمتعتم بها ﴾ أي بالطيبات،والمعنى:أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التي في معاصي الله سبحانه ، ولم يبالوا بالذنب تكذيباً منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب .

﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أي العذاب الذي فيه ذلكم ، وخزي عليكم ، قال مجاهد وقتادة الهون الهوان بلغة قريش ﴿ بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي بسبب تكبركم عن عبادة الله ، والإيمان به وتوحيده .

﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ أي تخرجون عن طاعة الله وتعملون بمعاصيه ، فجعل السبب في عذابهم أمرين:التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصي الله سبحانه ، وهذا شأن الكفرة فإنهم جمعوا بينهما ، قيل لما وبخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات آثر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة وفي الباب أخبار وآثار تدل على ذم التمتع .

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)﴾

﴿ واذكر ﴾ يا محمد لقومك ﴿ أخا عاد ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح كان أخاهم في النسب لا في الدين ﴿ إذ أنذر قومه ﴾ أي وقت إنذاره إياهم ﴿ بالأحقاف ﴾ هي ديار عاد جمع حقف وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره ، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم والمعنى أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا ويخافوا ويعتبروا بها ، وقيل أمره أن يتذكر في نفسه قصتهم مع هود ليقتدى به ويهون عليه تكذيب قومه له .

قال عطاء الأحقاف رمال بلاد الشحر والشحر قريب من عدن وفي القاموس الشحر كمنع فتح الفم وساحل البحر بين عمان وعدن ، وقال مقاتل : هي باليمن في حضرموت . وقال ابن زيد : هي رمال مبسوطة مستطيلة مشرفة على البحر كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالاً ؛ وقيل : الأحقاف ما استدار من الرمل . وقال ابن عباس : الأحقاف جبل بالشام ، وقيل : واد بين عمان ومهرة وإليه تنسب الإبل المهرية وقيل : كانوا من قبيلة إرم .

﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ أي وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده ، كذا قال الفراء وغيره والمعنى أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذورون نحو إنذاره ، فالذين قبله أربعة آدم وشيث وإدريس ونوح ، والذين بعده كصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق وكذا سائر أنبياء بني إسرائيل ﴿ أن ﴾ أي بأن قال : ﴿ لا تعبدوا إلا الله ﴾ وحده ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ تعليل لما قبله ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ أي هائل بسبب شرككم ، قاله القاضي ، وفيه إشارة إلى أن عظيم مجاز عن هائل لأنه يلزم العظم .

قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا
مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا
وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟
يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ قالوا ﴾ أي جواباً لإنذاره ﴿ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ أي لتصرفنا عن عبادتها ، وقيل : لتزيلنا ، وقيل لتمنعنا،والمعنى متقارب ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من عذاب يوم عظيم ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في وعدك لنا به ﴿ قال : إنما العلم ﴾ بوقت مجيئه ﴿ عند الله ﴾ لا عندي ولا مدخل لي فيه فاستعجل به

﴿ وأبلغكم ﴾ أي وأما أنا فإنما وظيفتي التبليغ ﴿ ما أرسلت به ﴾ اليكم من ربكم من الانذار والإعذار لا الإتيان بالعذاب اذ ليس من مقدوري بل هو من مقدورات الله تعالى : ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ حيث بقيتم مصرين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئتكم به بل اقترحتم عليّ ما ليس من وظائف الرسل .

﴿ فلما رأوه ﴾ الضمير يرجع إلى ما في قوله : ﴿ بما تعدنا ﴾ وقال المبرد

والزجاج يعود إلى غير مذكور وبينه قوله ﴿ عارضاً ﴾ فيعود إلى السحاب أي فلما رأوا السحاب عارضاً ، فعارضاً نصب على التكرير بمعنى التفسير وسمي السحاب عارضاً لأنه يبدو في عرض السماء ، قال ابن عباس : العارض السحاب وبه قال الجوهري ، وزاد يعترض في الأفق ومنه قوله : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ ، وانتصاب عارضاً على الحال أو التمييز .

﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أي متوجهاً نحوها سائراً إليها ، قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد لهم يقال له المعتب فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا .

و ﴿قالوا : هذا عارض ممطرنا ﴾ أي غيم فيه مطر وقوله مستقبل أوديتهم صفة لعارض لأن إضافته لفظية لا معنوية فصح وصف النكرة به وهكذا ممطرنا ، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هوداً القائل هو الله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ من العذاب حيث قلتم : فائتنا بما تعدنا .

﴿ ريح فيها عذاب أليم ﴾ الريح التي عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ صفة ثانية لريح أي تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها ، والتدمير الإهلاك وكذا الدماء ، وقرىء يدمر بالتحتية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم ورفع كل على الفاعلية من دمر دماراً ومعنى بأمر ربها أن ذلك بقضائه وقدره .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم ، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية ، قال : يا عائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا » .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عائشة قالت : « كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، فإذا تخيلت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه فسألته فقال: لا أدري لعله كما قال قوم عاد هذا عارض ممطرنا » .

﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ بعد خراب أموالهم وذهاب أنفسهم قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للرؤية ، ونصف مساكنهم وقرىء بالتحتية مبنياً للمفعول ورفع مساكنهم ، قال سيبويه معناه لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم وقال الكسائي والزجاج معناها لا يرى شيء إلا مساكنهم فهي محمولة على المعنى ، كما تقول ما قام إلا هند أي ما قام أحد إلا هند ، وفي الكلام حذف ، والتقدير فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا الخ .

قال ابن عباس في الآية : «أول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من رحالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثل الريش ، دخلوا بيوتهم واغلقوا أبوابهم فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوماً لهم أنين ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم في البحر فهو قوله فأصبحوا الآية » وعنه قال ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمي هذا ﴿ كذلك ﴾ الجزاء ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ قد تقدم تفسير هذه القصة في سورة الأعراف .

﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ﴾ قال المبرد ﴿ ما ﴾ في قوله : فيما بمنزلة الذي ، وإن بمنزلة ما النافية وتقديره ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من كثرة المال وطول العمر وقوة الأبدان ، وقيل إن زائدة أي ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه ، وبه قال القتيبي ، والأول أولى ، لأنه أبلغ في التوبيخ لكفار قريش وأمثالهم ، قال ابن عباس يقول لم نمكنكم ، وعنه قال: عاد

مكنوا في الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة وكانوا أشد قوة وأكثر اموالاً ، وأطول أعماراً .

﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ أي أنهم أعرضوا عن قبول الحجة والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواس وآلات الفهم التي بها تدرك الأدلة ولهذا قال :

﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ﴾ أي فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك ، حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد واعتقاد صحة الوعد والوعيد ، ووحد السمع لأنه لا يدرك به إلا الصوت وما يتبعه بخلاف البصر حيث يدرك به أشياء كثيرة بعضها بالذات وبعضها بالواسطة ، والفؤاد يعم إدراكه كل شيء قاله الكرخي ، وقد قدمنا من الكلام على إفراد السمع وجمع البصر ما يغني عن الاعادة و﴿ من ﴾ في من شيء زائدة والتقدير فما أغنى عنهم شيئاً من الاغناء ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع .

﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ أي لأنهم كانوا جاحدين ﴿ وحاق بهم ما كانو به يستهزئون ﴾ أي أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ، حيث قالوا فائتنا بما تعدنا ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بالقرى قرى قوم ثمود، وهي الحجر وسدوم قرى قوم لوط بالشام ونحوهما مما كان مجاوراً لبلاد الحجاز وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿ وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ أي بينا الحجج ونوعناها لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال :

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ أي فهلا نصرهم آلهتهم التي تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم .

قال الكسائي : القربان كل ما يتقرب به إلى الله من طاعة ونسيكة ، والجمع قرابين كالرهبان والرهابين ، وأحد مفعولي اتخذوا ضمير محذوف راجع إلى الموصول ، والثاني آلهة وقرباناً حال ، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه الفاسد المعنى ، وقيل يصح ذلك ولا يفسد المعنى ورجحه ابن عطية وأبو البقاء وأبو حيان ، وأنكر أن يكون في المعنى فساد على هذا الوجه .

﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أي غابوا عن نصرهم ولم يحضروا عند الحاجة إليهم بالكلية ، وقيل: بل هلكوا وقيل الضمير في ضلوا راجع إلى الكفار أي تركوا الأصنام وتبرؤا منها والأول أولى.

﴿ وذلك إفكهم ﴾ أي ذلك الضلال والضياع أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ، وزعمهم أنها تقربهم إلى الله قرأ الجمهور إفكهم بكسر الهمزة وسكون الفاء مصدر أفك يأفك إفكا أي كذبهم ، وقرىء أفك بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل أي ذلك القول صرفهم عن التوحيد وقرىء بفتح الهمزة وتشديد الفاء أي صيرهم آفكين ، قال أبو حاتم يعني قلبهم عما كانوا عليه من النعيم ، وقرىء بالمد وكسر الفاء بمعنى صارفهم .

﴿ وما كانوا يفترون ﴾ معطوف على إفكهم أي وأثر إفترائهم أو أثر

الذي كانوا يفترونه والمعنى وذلك إفكهم أي كذبهم الذي يقولون : أنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم وما كانوا يكذبون أنها آلهة ولما بين سبحانه أن في الإنس من آمن ، وفيهم من كفر بين أيضاً أن في الجن كذلك فقال :

﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ أي اذكر إذ وجهنا إليك نفراً منهم وبعثناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك والنفر دون العشرة ﴿ يستمعون القرآن ﴾ صفة ثانية لنفر أو حال ، لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى .

عن ابن مسعود قال : هبطوا يعني الجن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا : أنصتوا قالوا صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة فأنزل الله : وإذ صرفنا إلى قوله ضلال مبين » .

وعن الزبير قال : إذ صرفنا إليك نفراً من الجن بنخلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي العشاء الآخرة كادوا يكونون عليه لبداً وكانوا تسعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم » وعنه قال « أتوه ببطن نخلة » ، وعنه قال : « صرفت الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين وكانوا أشراف الجن بنصيبين ، وهي قرية من اليمن وجنها أشرف الجن وسادتهم » ، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن قال آذنته بهم الشجرة[١] .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن علقمة قال قلت لابن مسعود هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم أحد ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه منا أحد ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل استطير ما فعل ؟ قال فبتنا

(١) روي بالفاظ كثيرة ـ البخاري ٢/٢١٠ ـ ٨/٥١٣ ومسلم ١/٣٣١ السيوطي في الدر ٦/٢٧٠ أحمد/ ٤١٤٩ .

بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فأخبرناه فقال إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرات عليهم القرآن فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » .

وأخرج أحمد عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن وقد روي نحو هذا من طرق والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعتا منه صلى الله عليه وسلم مع الجن حضر إحداهما ابن مسعود ولم يحضر في الأخرى وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة وأخذوا عنه الشرائع وذكر سليمان الجمل في سبب هذه الواقعة قولين من الخطيب والخازن لا حاجة بنا إلى ذكرهما فإنهما ليسا من التفسير في شيء .

﴿ فلما حضروه ﴾ أي حضروا القرآن عند تلاوته وقيل حضروا النبي صلى الله عليه وسلم ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة والأول أولى ﴿ قالوا أنصتوا ﴾ أي اسكتوا أمر بعضهم بعضاً لأجل أن يسمعوا.

﴿ فلما قُضِيَ ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للمفعول أي فرغ من تلاوته وقرىء مبنياً لفاعل أي فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من تلاوته والأولى تؤيد أن الضمير في حضروه القرآن والثانية تؤيد أنه للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ ولّوا إلى قومهم منذرين ﴾ أي انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ، ومحذرين لهم وانتصاب منذرين على الحال المقدرة أي مقدرين الإنذار وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يهوداً وقد أسلموا والجن لهم ملل مثل الإنس ففيهم اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام ، وفي مسلميهم مبتدعة ، ومن يقول بالقدر وخلق القرآن ونحو ذلك من المذاهب والبدع قاله الخازن .

قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

﴿ قالوا يا قومنا ﴾ في الكلام حذف والتقدير فوصلوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا ﴿ إنا سمعنا كتاباً ﴾ أي قرآناً ﴿ أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي لما قبله من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والـزبور وصحف إبراهيم وغيرها .

﴿ يهدي إلى الحق ﴾ أي :إلى الدين الحق أي العقائد الصحيحة ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ أي إلى طريق الله القويم أي الشرائع الفرعية والأحكام الدينية ، قال مقاتل لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم أو القرآن ﴿ يغفر لكم ﴾ جواب الأمر ﴿ من ذنوبكم ﴾ أي بعضها ، وهو ما عدا حق العباد لأنه لا يغفر إلا برضاء أصحابه ، وقيل : إن من هنا لابتداء الغاية والمعنى أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهي الى غفران ترك ما هو الأولى وقيل هي زائدة والأول أولى .

﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ وهو عذاب النار،وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهي ، وقال الحسن : ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، وبه قال أبو حنيفة والأول أولى ، وبه قال مالك والشافعي وابن أبي ليلى ، وعلى القول الثاني فقال القائلون به إنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم كونوا تراباً كما يقال للبهائم ، والأول أرجح ، وقد قال الله تعالى في مخاطبة الجن والإنس :

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فامتن الله سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ولا ينافي هذا الاقتصار ههنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم ، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، ومما يؤيد هذا أيضاً ما في القرآن الكريم في غير موضع أن جزاء المؤمنين الجنة وجزاء من عمل الصالحات الجنة وجزاء من قال لا إلّه إلا الله الجنة وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنة .

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسولاً منهم ؟ أم لا ؟ وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس كما في قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ وقال ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ وقال سبحانه في إبراهيم الخليل ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريته وأما قوله سبحانه في سورة الأنعام ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ فقيل المراد من مجموع الجنسين ما صدق عليه أحدهما وهم الإنس كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من أحدهما .

﴿ ومن ﴾ شرطية ﴿ لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾ أي :لا يفوت الله ولا يسبقه ولا يقدر على الهرب منه لأنه وإن هرب كل مهرب فهو في الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها وفي هذا ترهيب شديد .

﴿ وليس له من دونه أولياء ﴾ أي أنصار يمنعونه من عذاب الله بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه استحالة نجاته بواسطة غيره ﴿ أولئك ﴾ أي: من لا يجب داعي الله .

﴿ في ضلال مبين ﴾ أي ظاهر واضح ، وهذا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن .وقد اجتمع ههنا همزتان مضمومتان من كلمتين وليس لهما نظير في القرآن غير هذا ، ثم ذكر سبحانه دليلاً على البعث فقال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ؟ ﴾ الرؤية هنا هي القلبية التي بمعنى العلم والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر ، أي ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذي خلق هذه الاجرام العظام من السموات والأرض ابتداء ﴿ ولم يعي ﴾ مجزوم بحذف الألف ، قرأ الجمهور بسكون العين وفتح الياء مضارع عي ، وقرىء بكسر العين وسكون الباء .

﴿ بخلقهن ﴾ أي : لم يتعب ولم ينصب ولم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه ، يقال عي بالأمر وعيي إذا لم يهتد لوجهه ، قال الشهاب : عدم العي مجاز عن عدم الانقطاع والنقص ، يعني : أن قدرته واجبة لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الآباد .

﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كما في قوله ﴿ وكفى الله شهيداً ﴾ قال الكسائي والفراء والزجاج : العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام فتقول : ما أظنك بقائم ، والجار والمجرور في محل رفع على أنها خبر لأن ، وقرأ جماعة يقدر على صيغة المضارع ، واختار أبو عبيدة الاولى وأبو حاتم الثانية .

﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء تعليل لما أفادته بلى من تعاليل الخاص بالعام ، ولما أثبت البعث ذكر بعض ما يحصل في يومه من الاهوال فقال ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ أي يقال ذلك اليوم للذين كفروا .

﴿ أليس هذا بالحق ﴾ وهذه الجملة هي المحكية بالقول والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار ، وفي الاكتفاء بمجرد الإشارة من التهويل للمشار إليه والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدل عليه .

﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم لأن المشاهدة هي حق اليقين الذي لا يمكن جحده ولا إنكاره ولأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقية ما هم فيه ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بسبب كفركم بهذا في الدنيا وإنكاركم له ، وفي هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ وتهكم عظيم ، ولما قرر سبحانه الأدلة على النبوة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال :

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ إصبر او ثق بحكم الله ، والثبات من غير بث ولا استكراه قاله القشيري ، والفاء جواب شرط محذوف أي إذا عرفت ذلك وقامت عليه البراهين ولم ينجح في الكافرين فاصبر كما صبر أرباب الثبات والحزم وأولو الجد والصبر فإنك منهم .

قال مجاهد : أولو العزم من الرسل خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، وهم أصحاب الشرائع ، وبه قال ابن عباس . وقال أبو العالية : هم نوح وهود وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم . وقال السدي هم ستة : ابراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وقيل نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى . وقال ابن جريج : إن منهم اسماعيل ويعقوب وأيوب وليس منهم يونس .

وقال الشعبي والكلبي : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة ؛ وقيل هم نجباء الرسل المذكورين في سورة الأنعام وهم ثمانية عشر : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى واسماعيل وإلياس واليسع ويونس

ولوط ، واختار هذا الحسين بن الفضل لقوله بعد ذكرهم .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وقيل ان الرسل كلهم أولو عزم ولم يبعث الله عز وجل نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل . وقيل هم أثنا عشر نبياً أرسلوا إلى بني إسرائيل ، وقال الحسن هم أربعة إبراهيم وموسى وداود وعيسى وعن ابن عباس قال هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان .

وعن جابر بن عبدالله قال: «بلغني أن أولي العزم من الرسل كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر » ، وعن عائشة قالت:« ظل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صائماً ثم طوى ثم ظل صائماً ثم طوى ثم ظل صائماً ، قال:يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل الا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال:إصبر كما صبر أولو العزم من الرسل،وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة الّا بالله » ، أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي . قيل:هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل:محكمة،قال القرطبي:والأظهر أنها منسوخة لأن السورة مكية ، وذكر مقاتل أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فأمره الله أن يصبر على ما أصابه أولو العزم تسهيلاً عليه وتثبيتاً له .

﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار ، فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، واللام للتعليل ، ولما أمره سبحانه بالصبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون ﴾ من العذاب في الآخرة لطوله ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ أي إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم .

﴿ بلاغ ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا الذي وعظتهم به بلاغ ؛ أو تلك الساعة بلاغ ، أو هذا القرآن بلاغ ، أو هو

مبتد والخبر لهم الواقع بعد قوله ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي:لهم بلاغ ، وقرىء بالنصب على المصدر ، أي بلغ بلاغاً ، وقرىء بلغ بصيغة الامر ، وبلغ بصيغة الماضي .

﴿ فهل يهلك الا القوم الفاسقون ﴾ قرأ الجمهور يهلك على البناء للمفعول وقرىء على البناء للفاعل ، وقرىء بالنون ونصب القوم ، والمعنى أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون في معاصي الله .

قال قتادة « لا يهلك على الله الا هالك مشرك » قيل وهذه الآية أقوى آية في الرجاء ، وقال الزجاج تأويله لا يهلك مع رحمة الله تعالى وفضله الا القوم الفاسقون وهذا تطميع في سعة فضل الله سبحانه وتعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمد ﷺ

﴿ وتسمى سورة القتال ، وسورة الذين كفروا ﴾

وهي ثمان أو تسع وثلاثون آية . وقيل : هي أربعون آية . والخلاف في قوله : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ . وقوله : ﴿ لذة للشاربين ﴾ . وهي مدنية قال الماوردي : في قول الجميع الا ابن عباس وقتادة فانهما قالا : الا آية منها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة . وجعل ينظر الى البيت وهو يبكي حزنا عليه . فنزل قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك ﴾ . وهذا مبني على أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة . والمشهور أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها . ولو في مكة . فعليه تكون هذه الآية مدنية وهذا كله مبني على هذا النقل الذي نقله الماوردي هنا . ونقله القرطبي أيضا هنا .

والذي نقله الخازن والخطيب وغيرهما بل والقرطبي أنها نزلت لما خرج من مكة الى الغار مهاجراً . والنقل الثاني هو الصحيح لانه هو الذي يناسبه التوعد بقوله : ﴿ وكأين من قرية ﴾ وأما على النقل الاول فلا يظهر هذا الوعيد لانه في حجة الوداع فارقها مختاراً بعدما

صارت دار اسلام وأسلم جميع أهلها، وبدء فتحها في السنة الثامنة، وقال الثعلبي: انها مكيّة، وحكاه ابن هبة اللّه عن الضحاك وسعيد بن جبير، وهو غلط من القول فالسورة مدنية كما لا يخفى.

قال ابن عباس: نزلت سورة القتال بالمدينة وعن ابن الزبير نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا.

وعن ابن عمر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يقرأ بهم في المغرب الذين كفروا وصدوا عن سبيل اللّه أخرجه الطبراني في الاوسط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ
أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ
ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

﴿ الـذين كفـروا ﴾ هم كفـار قـريش كفـروا بـالله ﴿ وصـدوا ﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ وهو دين الاسلام بنهيهم عن الدخول فيه ، كذا قال مجاهد والسدي وابن عباس ، وقـال الضحاك : معنى سبيـل الله بيت الله بمنع قـاصديـه ، وقيل : هم أهـل الكتاب أو عـام في كـل من كفـر وصـد ﴿ أضـل أعمالهم ﴾ أي أبطلها الله وأحبطها ، وجعلها ضائعة .

قـال الضحاك : المعنى أبـطل كيـدهم ومكـرهم بـالنبي صلى الله عليـه وسلم ، وجعل الدائـرة عليهم في كفرهم ، وقيـل : أبطل مـا عملوه في الكفر مما كانـوا يسمونـه مكارم الأخـلاق من صلة الأرحام وفـك الأسارى ، وإطعـام الطعام ، وعمارة المسجد الحرام وإجارة المستجيـر ، وقرى الأضيـاف ، ونحو ذلـك، وهذه ـ وإن كـانت باطلة من أصلهـا ـ لكن المعنى أنـه سبحـانـه حكم ببـطلانها فـلا يرون لهـا في الآخرة ثـواباً ، ويجـزون بها في الـدنيـا من فضله تعـالى ، وقال ابن عبـاس : كانت لهم أعمـال فـاضلة لا يقبـل الله مـع الكفـر عمـلاً ،ولما ذكر سبحانه فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين فقال :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنـوا بما نـزل على محمد ﴾ ظـاهر

هذا العموم ، فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ولا يمنع من ذلك خصوص سببها ، فقد قيل : إنها نزلت في الأنصار قاله ابن عباس ، وقيل : في ناس من قريش ، وقيل في مؤمني أهل الكتاب ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . العامة على بناء نزل للمفعول مشدداً ، وقرىء مبنياً للفاعل ، وهو الله وقرىء أنزل بالهمزة ونزل ثلاثياً ، والمراد به القرآن ، وهذا من عطف الخاص على العام .

ولا شك أن الايمان بالقرآن المنزل على محمد من جملة أفراد ما يجب الايمان به ، وخص سبحانه وتعالى الايمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، بالذكر مع الدراجة تحت مطلق الايمان المذكور قبله تنبيهاً على شرفه ، وعلو مكانه ، وإشعاراً بأن الايمان لا يتم دونه ، وأنه الأصل فيه ، ولذا أكده بقوله :

﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ ومعنى كونه الحق أنه الناسخ لما قبله ، ولا ينسخ والجملة اعتراضية ﴿ كفر عنهم سيئآتهم ﴾ التي عملوها فيما مضى فانه غفرها لهم بالايمان والعمل الصالح ﴿ وأصلح بالهم ﴾ أي شأنهم قاله مجاهد ، وقال قتادة : حالهم وقيل : أمرهم ، والمعاني متقاربة،قال المبرد : البال الحال ههنا ، وقيل : القلب وهو كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ولا تجمعه العرب الا في ضرورة الشعر ، قال الجوهري : والبال أيضاً رخاء العيش ، يقال فلان رخيّ البال ؛ والبال الحوت العظيم من حيتان البحر وليس بعربي والبالة القارورة والجراب ووعاء الطيب وموضع بالحجاز، وقيل والمعنى أنه عصمهم عن المعاصي في حياتهم ، وأرشدهم إلى أعمال الخير وليس المراد إصلاح حال دنياهم من إعطائهم المال ونحو ذلك ، وقال النقاش : إن المعنى أصلح نياتهم .

﴿ ذلك ﴾ أي ما مر مما أوعد به الكفار ، ووعد به المؤمنين ، أو الأمر

ذلك ﴿ بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ﴾ فالباطل الشرك والكفر ، والحق التوحيد والايمان،والمعنى أن ذلك الاضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه ، وذلك التكفير لسيئآت المؤمنين واصلاح بالهم ، بسبب اتباعهم للحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك البيان ﴿ يضرب ﴾ يبين ﴿ الله للناس أمثالهم ﴾ أي أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة ، قال الزجاج : كذلك يضرب لهم أمثال حسنات المؤمنين وإضلال أعمال الكافرين ، يعني أن من كان كافراً أضل الله عمله ، ومن كان مؤمناً كفر الله سيئآته أو جعل الإضلال،مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئآت مثلا لفوز الأبرار ولما بين سبحانه حال الفريقين أمر بجهاد الكفار فقال :

﴿ فإذا لقيتم ﴾ الفاء لترتيب ما في حيزها من الأمر على ما قبلها فإن ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يترتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام ، أي فإذا كان الأمر كما ذكر فإذا لقيتم في المحاربة ﴿ الذين كفروا ﴾ أي المشركين . ومن لم يكن صاحب عهد من أهل الكتاب ﴿ فضرب الرقاب ﴾ قال الزجاج : أي فاضربوا الرقاب ضرباً ، وقيل : هو منصوب على الاغراء ، قال أبو عبيدة : هو كقولهم يا نفس صبراً ،وقيل : التقدير أقصدوا ضرب الرقاب وخص الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بقطعها ، لا أن الواجب ضرب الرقبة خاصة لأن هذا لا يكاد يتأتى حالة الحرب ، وإنما يتأتى القتل في أي موضع كان من الأعضاء ، وقيل : لأن في التعبير عنه من الغلظة والشدة ما ليس في نفس القتل ، وهي حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه ، وأحسن أعضائه .

﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ غاية للأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل

وهو مأخوذ من الشيء الثخين أي الغليظ ، وفي المصباح أثخن في الأرض إثخاناً سار الى العدو وأوسعهم قتلاً ، وأثخنته أوهنته بالجراحة ، وأضعفته وقد مضى تحقيق معناه في الأنفال ، والمعنى إذا أثقلتموهم وقهرتموهم بالقتل والجراح ومنعتموهم النهوض والحركة .

﴿ فشدوا الوثاق ﴾ بالفتح القيد والحبل ، ويجيء بالكسر اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط ، قال الجوهري وأوثقه في الوثاق بكسر الواو لغة فيه والجمع وثق مثل رباط وربط وعناق وعنق ، قرأ الجمهور فشدوا بضم الشين ؛ وقرىء بكسرها ، وانما أمر سبحانه بشد الوثاق لئلا يفوتوا و ينفلتوا أو المعنى إذا بالغتم في قتلهم وأكثرتم القتل فيهم فأمسكوا عنهم وأسروهم وآحفظوهم بالوثاق .

﴿ فإما مناً بعد ، وإما فداء ﴾ قرأ الجمهور بالمد ، وقرىء بالقصر أي فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر وشد الوثاق مناً أو تفدوا فداء ، والمن الاطلاق بغير عوض والفداء ما يفدى به الأسير نفسه من الأسر ، ولم يذكر القتل هنا اكتفاء بما تقدم ، وانما قدم المن على الفداء لأنه من مكارم الأخلاق ولهذا كانت العرب تفتخر به كما قال شاعرهم :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

قال ابن عباس في الآية : جعل الله النبي والمؤمنين بالخيار في الأسارى إن شاؤوا قتلوهم ، وإن شاؤوا استعبدوهم ، وإن شاؤوا فادوهم ، وعنه أيضاً قال : هذا منسوخ نسختها :﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾وعن الحسن قال : أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله فقال ابن عمر ليس بهذا أمرنا إنما قال الله :﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء ﴾ .

وعن ليث قال : قلت لمجاهد بلغني أن ابن عباس قال لا يحل قتل الأسارى لأن الله قال : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ ، فقال مجاهد : لا تعبأ بهذا شيئاً أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلهم ينكر هذا ويقول هذه منسوخة ، إنما كانت في الهدنة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين المشركين ، فأما اليوم فلا ، يقول الله : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أو يقول : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ فإن كان مشركو العرب لم يقبل منهم إلا الاسلام فإن لم يسلموا فالقتل ، وأما من سواهم فإنهم إذا أسروا فالمسلمون فيهم بالخيار ، إن شا ؤا قتلوهم وإن شا ؤا استحيوهم ، وإن شاؤوا فادوهم إذا لم يتحولوا عن دينهم فإن أظهروا الاسلام لم يفادوا .

« ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن قتل الصغير والمرأة والشيخ الفاني » ، ثم ذكر سبحانه الغاية لذلك فقال :

﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع ، أسند الوضع إليها وهو لأهلها على طريق المجاز والمعنى أن المسلمين مخيرون بين تلك الأمور الأربعة إلى غاية هي أن لا تكون حرب مع الكفار بأن لا تبقى لهم شوكة ، قال مجاهد : المعنى حتى لا يكون دين غير دين الاسلام ، وبه قال الحسن والكلبي ،قال الكسائي : حتى يسلم الخلق ، وقال الفراء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر ، أي:لا يبقى إلا مسلم أو مسالم ، وقيل : المعنى حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة .

وروي عن الحسن وعطاء أنهما قالا : في الآية تقديم وتأخير ، والمعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها ، فإذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة؟فقيل : انها

منسوخة في أهل الأوثان ، وأنه لا يجوز أن يفادوا ، ولا يمن عليهم ، والناسخ لها قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، وقوله : ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ وقوله : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ وبهذا قال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وكثير من الكوفيين قالوا : والمائدة آخر ما نزل فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه ، كالنساء والصبيان ، ومن تؤخذ منه الجزية ، وهذا هو المشهور من مذهب أبي حنيفة .

وقيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، روي ذلك عن عطاء وغيره ، وقال كثير من العلماء : إن الآية محكمة وإن الإمام مخير بين القتل والأسر ، وبعد الأسر مخير بين المن والفداء ، وبه قال مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبو عبيدة وغيرهم ، وهذا هو الراجح لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين من بعده فعلوا ذلك ، وقال سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الاثخان والقتل بالسيف ، لقوله : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ ، فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً ، وحكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها » ، رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وعن سلمة بن نفيل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من حديث قال : « ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج[1] » ، رواه ابن مردويه وابن سعد وأحمد والنسائي والبغوي والطبراني .

والحاصل أن حتى غاية لأحد الأمور الأربعة أو للمجموع عند الشافعي وأما عند أبي حنيفة فإن حمل الحرب على حرب بدر فهي غاية للمن والفداء

---

(١) وذلك من علامات الساعة .

وإن حملت على الجنس فهي غاية للضرب والشد والمراد بالوضع ترك القتال ، ولو كان الشخص متقلداً بآلته .

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك ، وقيل : ذلك حكم الكفار ، وقيل : افعلوا ذلك ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ يعني أن الله قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم واهلاكهم ، وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ، كالخسف أو الرجفة أو غير ذلك بغير قتال ﴿ ولكن ﴾ أمركم بحربهم ﴿ ليبلو بعضكم ببعض ﴾ أي ليختبر فيعلم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على ابتلائه ويجزل ثوابهم ، ويعذب الكفار بأيديهم ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ قرأ الجمهور : قاتلوا مبنياً للفاعل ، وقرىء قتلوا مخففاً ومشدداً مبنياً للمفعول ، وقرىء قتلوا على البناء للفاعل مع التخفيف من غير ألف ، والمعنى على الأولى والرابعة أن المجاهدين في سبيل الله ثوابهم غير ضائع وعلى الثانية والثالثة أن المقتولين في سبيل الله كذلك لا يضيع الله سبحانه أجرهم قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في يوم أحد ، وقد فشت في المسلمين الجراحات والقتل ، ثم ذكر سبحانه ما لهم من جزيل الثواب عنده فقال :

﴿ سيهديهم ﴾ الله سبحانه إلى الرشد في الدنيا ، وهو العمل الصالح والاخلاص فيه ، ويعطيهم الثواب في الآخرة قال أبو العالية : قد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان ، والطرق المفضية إليها ، وقال ابن زياد : يهديهم إلى محاجة منكر ونكير في القبر ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي حالهم وشأنهم وأمرهم ، وقيل : يرضي خصماءهم ويقبل أعمالهم .

﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ الجملة مستأنفة أو حالية بتقدير قد أو بدون تقديرها ، قاله السمين ، أي بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، وذلك أنهم إذا دخلوا الجنة تفرقوا إلى منازلهم ، قال الواحدي : هذا قول

عامة المفسرين ، وقال الحسن وصف الله لهم الجنة في الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها ، وقيل : فيه حذف أي عرف طرقها ومساكنها وبيوتها ، وقيل هذا التعريف بدليل يدلهم عليها ، وهو الملك الموكل بالعبد يسير بين يديه ، حتى يدخله منزله ، كذا قال مقاتل .

ويرده حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا »[1] . رواه البخاري وهذا يدل على صحة القول الأول ، وقيل : ﴿ عرفها لهم ﴾ أي طيبها بأنواع الملاذ مأخوذ من العرّف وهو الرائحة أو المعنى:حددها لهم بحيث يكون لكل واحد جنة مفرزة،وقيل : عرف أهل السماء أنها لهم ، وقيل : ﴿ عرفها لهم ﴾ إظهاراً لكرامتهم فيها ، وقيل : عرف المطيعين أعمالهم ، والأول أولى ، ثم وعدهم سبحانه على نصر دينه بقوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ﴾ أي دينه ﴿ ينصركم ﴾ على الكفار وعلى عدوكم ويفتح لكم ، ومثله قوله ولينصرن الله من ينصره قال قطرب : إن تنصروا نبي الله ينصركم ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ أي يثبتكم في المعترك عند القتال . فالمراد بالأقدام الذوات بتمامها . وعبر بالقدم لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها ، وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في مواطن الحرب وقيل على الاسلام وقيل على الصراط .

(١) كذلك رواه الطبراني.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن
قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ
لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾

﴿ والذين كفروا ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿ فتعساً لهم ﴾ منتصب على المصدر للفعل المقدر قال الفراء : مثل سقياً لهم ورعياً،وأصل التعس الانحطاط والعثار ، قال ابن السكيت : التعس أن يجر على وجهه والنكس أن يجر على رأسه ، قال : والتعس أيضاً الهلاك ، قال الجوهري:وأصله الكب وهو ضد الانتعاش قال المبرد : أي فمكروهاً لهم ، وقال ابن جريج : بعداً لهم وقال السدي : خزياً لهم ، وقال ابن زيد : شقاءً لهم ، وقال الحسن شتماً لهم وقال ثعلب : هلاكاً لهم، وقال الضحاك وابن زياد : خيبة لهم ، وقيل : قبحاً لهم حكاه النقاش وقال الضحاك أيضاً : رغماً لهم وقال ثعلب أيضاً : شراً لهم وقال أبو العالية : شقوة لهم وعنه سقوطاً لهم .

قيل : والتعس في الدنيا العثرة،وفي الآخرة التردي في النار يقال للعاثر تعساً إذا دعوا عليه ، ولم يريدوا قيامه وضده لعاً إذا دعوا له وأرادوا قيامه ، واللام في لهم للبيان كما في قوله هيت لك .

﴿ وأضل أعمالهم ﴾ معطوف على ما قبله ، داخل معه في خبرية

الموصول أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان والاشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم مما ذكره الله من التعس والاضلال أي الأمر ذلك أو ذلك الأمر ﴿ بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ على رسوله من القرآن المشتمل على التكاليف ، وذلك لأنهم قد ألفوا الاهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ ، فلما جاء القرآن بترك ذلك كرهوه ، أو ما أنزل على رسله من كتبه لاشتمالها على ما في القرآن من التوحيد والبعث ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ بذلك السبب ، والمراد بالأعمال ما كانوا عملوا من أعمال الخير في الصورة ، وإن كانت باطلة من الأصل ، لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه ، ثم خوف سبحانه الكفار وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم فقال :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ؟ ﴾ أي في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أي:آخر أمر الكافرين قبلهم ، فإن آثار العذاب في ديارهم باقية ، ثم بين سبحانه ما صنع بمن قبلهم فقال ﴿ دمر الله عليهم ﴾ التدمير الإهلاك ، أي:أهلكهم واستأصلهم يقال دمره ودمر عليه بمعنى ، والثاني أبلغ لما فيه من العموم ، أي أهلك ما يختص به من المال والنفس ونحوها والاتيان بعلى لتضمينه معنى أطبق عليهم أي أوقعه عليهم محيطاً بهم ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ثم توعد مشركي مكة فقال : ﴿ وللكافرين ﴾ أي السائرين بسيرة من قبلهم من الكفار ﴿ أمثالها ﴾ قال ابن عباس:يعني لكفار قومك يا محمد صلى الله عليه وسلم ، مثل ما دمرت به القرى فأهلكوا بالسيف ، قال الزجاج وابن جرير : الضمير راجع الى عاقبة الذين من قبلهم من الأمم الكافرة ، وانما جمع لأن العواقب متعددة بحسب تعدد الأمم المعذبة ، وقيل أمثال العقوبة أو الهلكة أو التدميرة والأول أولى ؛ لرجوع الضمير إلى ما هو مذكور قبله مع صحة معناه .

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من أن للكافرين أمثالها ﴿ بأن ﴾ أي بسبب أن

قلوبهم ثم دل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بعد المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من اهل النفاق .

﴿ ولـو نشاء لأرينـاكم ﴾ أي لأعلمناكهم وعـرفناكهم بـأعيانهم معـرفة تقـوم مقام الرؤية تقول العرب : سأريك ما أصنع أي سأعلمك والالتفات الى نون العظمة لإبراز العنايـة بالإراءة ﴿ فلعـرفتهم بسيماهم ﴾ أي بعـلامتهم الخاصـة بهم التي يتميزون بها قال الزجاج : المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة وهي السيما فلعرفتهم بتلك العلامة قال أنس : ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية احد من المنافقين وكان يعرفهم بسيماهم ، وتكرير اللام للمبالغة أو للتأكيد .

﴿ ولتعـرفنهم في لحن القول ﴾ قـال المفسرون : لحن القـول فحـواه ومقصده ومغزاه ، وما يعرضون به من تهجين امرك ، وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لا يتكلم منافق عنده إلا عرفه ، قال ابو زيد : لحنت له اللحن اذا قلت له قولاً بفقهه عنك ، ويخفى على غيره ، وأصل اللحن إمالة الكلام وصرفه الى نحو من الأنحاء لغرض من الأغراض بإزالة الإعراب أو التصحيف والأول محمود ، والثاني مذموم ، قال ابو سعيد الخدري في الآية : لحن القول ببغضهم علي بن أبي طالب .

﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها ، وفيه وعيـد شديـد ووعد للمؤمنـين وإيذان بـأن حالهم بخـلاف حال المنـافقـين ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ أي :لنعاملنكم معاملة المختبر ، وذلك بأن نأمركم بالجهاد حتى نعلم علم ظهور من امتثل الأمر بالجهاد ، وصبر على دينه ومشاق ما كلف به ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ أي نظهرها ونكشفها إمتحاناً لكم ، ليظهر للناس من أطاع الله فيما أمره ، ومن عصى ولم يمتثل ، وقرىء بالياء والنون في الأفعال الثلاثة ، وعن الفضيل رحمه الله انه كان اذا قرأها بكى وقال : اللهم لا تبتلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا .

هم أهل قرية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي مكة ، فالكلام على حذف المضاف كما في قوله ﴿ واسأل القرية ﴾ ، والجملة بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الأعوان والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم ، والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على عدم ما بالذات ، وهو حكاية حال ماضية اذ كان الظاهر أن يقال فلم ينصرهم ناصر لأن هذا إخبار عما مضى .

عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما خرج من مكة الى الغار التفت إلى مكة وقال أنت أحب بلاد الله إلي ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله أو قتل بدخول الجاهلية »[1] فأنزل الله : ﴿ وكأين من قرية ﴾ الآية ، ثم ذكر سبحانه الفرق بين حال المؤمنين وحال الكافرين فقال :

﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ؟ ﴾ الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، والمعنى أنه لا يستوي من كان على يقين من ربه ، وحجة وبرهان من عنده ، ولا يكون كمن زين له سوء عمله وهو عبادة الأوثان ، والاشراك بالله ، والعمل بمعاصي الله ، أي لا مماثلة بينهما ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ في عبادتها ، وانهمكوا في أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك ، فضلا عن حجة نيرة ، روعي في هذين الضميرين معنى من ، كما روعي فيما قبلهما لفظها ، ثم لما بيّن سبحانه الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بيّن الفرق بين مرجعهما ومآلهما فقال :

---

(١) رواه أحمد .

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

﴿ مثل ﴾ أي صفة ﴿ الجنة التي وعد المتقون ﴾ مستأنفة لشرح محاسن الجنة الموعود بها المؤمنين ، وبيان ما فيها وفيه أوجه :

أحدها : انه مبتدأ وخبره مقدر ، فقدره النضر بن شميل :ما تسمعون، وقوله : ﴿ فيها أنهار ﴾ مفسر له ، وقدره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، والجملة بعدها أيضاً مفسرة للمثل .

الثاني : أن مثل زائدة تقديره الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار .

الثالث : أن مثل الجنة مبتدأ ، والخبر قوله . فيها أنهار ، وفيه نظر .

الرابع : أن مثل الجنة مبتدأ خبره كمن هو خالد في النار فقدره ابن عطية أمثل أهل الجنة ؟ كمن هو خالد ، فقدر حرف الانكار ومضافاً ليصح ، وقدره الزمخشري : كمثل جزاء من هو خالد والجملة من قوله : فيها أنهار على هذا فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : هي حال من الجنة ، أي مستقرة فيها أنهار .

الثاني : انها خبر لمبتدأ مضمر ، أي هي فيها أنهار كأن قائلاً قال : ما مثلها فقيل : فيها أنهار .

الثالث : أن يكون تكريراً للصلة لأنها في حكمها ألا ترى أنه يصح قولك : التي فيها أنهار وإنما عُرِّيَ من حرف الانكار وحذف ما حذف استغناء ، يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة ، والتابع للهوى بمكابرة من سوى بين الجنة والنار ، أفاده السمين .

﴿ من ماء غير آسن ﴾ بالمد والقصر سبعيتان ولغتان ، وقال الأخفش : إن الممدود يراد به الاستقبال ، والمقصور يراد به الحال ، يقال : أسن الماء يأسن أسوناً إذا تغيرت رائحته ، ومثله الآجن وزناً ومعنى ، قال ابن عباس : غير متغير ، يعني بخلاف ماء الدنيا فيتغير بعارض .

﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أي لم يحمض ، كما تتغير ألبان الدنيا ، لأنها لم تخرج من ضروع الابل والغنم والبقر فلا يعود حامضاً ولا قارصاً ولا ما يكره من الطعوم ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي لذيذة لهم ، طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون بخلاف خمر الديا فانها كريهة عند الشرب ، يقال : شراب لذ ولذيذ ، وفيه لذة بمعنى ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ ، والمعنى ليس فيها حموضة ولا عفوصة ولا مرارة ولا غضاضة ولم تدنسها الأرجل بالدوس : ولا الأيدي بالعصر ، وليس في شربها ذهاب عقل ولا صداع ولا خمار ولا آفة من آفات الخمر ، بل هي لمجرد الالتذاذ وتفريح الطبع فقط ، تعويضاً بخمور الدنيا كقوله تعالى : ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ .

﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ مما يخالطه من الشمع والقذاء والعكر والكدر نقلوا في العسل التذكير والتأنيث ، وجاء القرآن على التذكير ، وفي المصباح يذكر ويؤنث وهو الأكثر ويصغر على عسيلة على لغة التأنيث ذهاباً الى

أنها قطعة من الجنس وطائفة منه ونحوه في المختار ، وزاد والعاسل الذي يأخذ العسل من بيت النحل ، والنحلة عسالة .

عن معاوية بن حيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد » ، أخرجه أحمد والترمذي وصححه ، وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في البعث .

وعن كعب قال : نهر النيل نهر العسل في الجنة ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة ونهر سيحان نهر الماء في الجنة .

وعن «أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة »[1] أخرجه مسلم .

قال النووي : هما غير سيحون وجيحون واللذان هما من الجنة فهما في بلاد الأرمن فسيحان نهر أردنه وجيحان نهر المصيصة وهما نهران عظيمان جداً أكبرهما جيحان هذا هو الصواب في موضعهما ، ثم ذكر بعد هذا كلاماً طويلاً ثم قال : فأما كون هذه الأنهار من ماء الجنة ففيه تأويلان،الثاني :وهو الصحيح أنها على ظاهرها ، وأن لها مادة من الجنة مخلوقة موجودة اليوم هذا مذهب أهل السنة .

﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ أي لأهل الجنة في الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل صنف من أصناف الثمرات ، ومن زائدة للتوكيد ، وفي ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة الى أن مأكول أهل الجنة للذة لا لحاجة فلهذا ذكر الثمار بعد المشروب لأنها للتفكه واللذة .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ لذنوبهم قبل دخولهم إليها والواو لمطلق الجمع ، وتنكير مغفرة للتعظيم ، أي ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم ، برفع التكاليف عنهم ﴿ كمن هو خالد في النار ؟ ﴾ هو خبر لمبتدأ محذوف ، أي أمن هو في نعيم الجنة على هذه الصفة خالداً فيها؟كمن هو خالد في النار ؟ أو خبر لقوله مثل الجنة ، ورجح الأول الفراء فقال : أراد أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار ، وقدره الكواشي أمثل هذا الجزاء الموصوف ؟ كمثل جزاء من هو خالد ؟ وهو مأخوذ من اللفظ فهو أحسن .

وقال الزجاج : أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطي هذه الأشياء ؟ كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار ؟ وقال ابن كيسان : ليس مثل الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم ، وليس مثل أهل الجنة في النعيم كمثل أهل النار في العذاب الأليم وقيل: غير ذلك .

﴿ وسقوا ماء حميماً ﴾ الحميم الماء الحار الشديد الحرارة والغليان ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وهو معنى قوله ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ أي مصارينهم فخرجت من أدبارهم لفرط حرارته ، والأمعاء جمع معى بالقصر ، وألفه مبدل عن ياء لقولهم معيان ، وهو ما في البطون من الحوايا ﴿ ومنهم ﴾ أي من هؤلاء الكفار الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴿ من يستمع اليك ﴾ وهم المنافقون ، أفرد الضمير باعتبار لفظة ﴿ من ﴾ وجمع في قوله : ﴿ حتى إذا خرجوا من عندك ﴾ باعتبار معناها ، والمعنى أن المنافقين كانوا يحضرون مواقف وعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومواطن خطبه التي يمليها على المسلمين يوم الجمعة ، وحينئذ تكون هذه الآية مدنية ، بل وكذا ما بعدها من الآيات الآتية فتكون مستثناة من القول بأن السورة مكية ، والمعنى : حتى إذا خرجوا من عنده .

﴿ قالوا للذين أوتوا العلم ﴾ وهم علماء الصحابة ، وقيل : عبد الله بن

عباس وقيل عبد الله بن مسعود ، وقيل : أبو الدرداء والأول أولى ، أي سألوا أهل العلم فقالوا لهم على طريقة الاستهزاء : ﴿ ماذا ﴾ أي أَيُّ شيء ﴿ قال ﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ آنفاً ؟ ﴾ بالمد والقصر أي الساعة ، وبها فسره الزمخشري وقال : انه ظرف حالي كالآن ، وقال ابن عطية والمفسرون : معناه الساعة الماضية القريبة منا ، وهذا تفسير بالمعنى ، والمعنى أنا لم نلتفت الى قوله ولم نرجع إليه ، ومنه أمر أنف أي مستأنف ، وروضة أنف ، أي لم يرعها أحد ، وانتصابه على الظرفية أي وقتاً مؤتنفاً أو حال من الضمير في قال ، قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته .

وأصله مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة قال ابن عباس : كنت فيمن يسأل ، وعنه قال : أنا منهم ، وفي هذا منقبة لابن عباس جليلة لأنه كان إذ ذاك صبياً فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، مات وهو في سن البلوغ ، فسؤال الناس له عن معاني القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم[1] ، ووصف الله سبحانه للمسؤولين بأنهم الذين أوتوا العلم وهو منهم من أعظم الأدلة على سعة علمه ، ومزيد فقهه في كتاب الله وسنة رسوله ، مع كون أترابه وأهل سنه إذ ذاك يلعبون مع الصبيان .

وعن عكرمة قال : «كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس : ماذا قال آنفاً فيقول كذا وكذا وكان ابن عباس أصغر القوم فأنزل الله الآية » . فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم ، وعن ابن بريده قال : هو ابن مسعود ، وعن ابن عباس قال : هو ابن مسعود والاشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المذكورين من المنافقين ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ الذين طبع الله على قلوبهم ﴾ أي بالكفر فلم يؤمنوا ، ولا توجهت قلوبهم إلى شيء من الخير .

---

(١) وهو ترجمان هذه الأمة .

﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ في الكفر والعناد ، ثم ذكر حال أضدادهم فقال : ﴿ والذين اهتدوا ﴾ إلى طريق الخير فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به ﴿ زادهم هدى ﴾ بالتوفيق ، وقيل : زادهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : زادهم القرآن ، وقال الفراء : زادهم اعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى ، وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى ، وعلى كل تقدير فالمراد انه زادهم ايماناً وعلماً وبصيرة في الدين ، قال ابن عباس في الآية : لما أنزل القرآن آمنوا به ، وكان هدى ، فلما تبين الناسخ من المنسوخ زادهم هدى .

﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي ألهمهم إياها ، وأعانهم عليها بمعنى خلق التقوى فيهم أو أعطاهم ثواب تقواهم وجزاءها ، والأول أولى وأوفق لتأليف النظم لما سبق أن أغلب آيات هذه السورة الكريمة روعي فيه التقابل ، فقوبل الطبع بزيادة الهدى ، لأن الطبع يحصل من تزايد الرَّين وترادف ما يزيد في الكفر ، وقوبل اتباع الهوى بإيتاء التقوى فيحمل على كمال التقوى ، وهو أن يتنزه العارف عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشر أشره ، وهو التقي الحقيقي المعني بقوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ، فإن المزيد على مزيد الهدى،مزيد،لا مزيد عليه ، وقال الربيع : التقوى هي الخشية ، وقال السدي : هي ثواب الآخرة ، وقال مقاتل : هي التوفيق للعمل بما يرضاه ، وقيل : العمل بالناسخ وترك المنسوخ ، وقيل : ترك الرخص والأخذ بالعزائم .

﴿ فهل ينظرون ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة ﴿ الا الساعة ﴾ أي القيامة ﴿ أن تأتيهم ﴾ بدل اشتمال من الساعة أي ليس الأمر إلا أن تأتيهم ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ، وفي هذا وعيد للكفار شديد .

وعن أبي هريرة قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بادروا بالأعمال سبعاً فهل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً ؛ أو مرضاً مفسداً ،

أو هرماً مقعداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر »[١] أخرجه الترمذي وحسنه ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ تعليل لمفاجأتها أو لإتيانها من حيث هو ، أو هذا كالعلة للفعل باعتبار تعلقه بالبدل ، لأن ظهور أشراط الشيء موجب لانتظاره ، ومعنى أشراطها أماراتها وعلاماتها ، وكانوا قد قرأوا في كتبهم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، آخر الأنبياء فبعثته من أشراطها قاله الحسن والضحاك ، والأشراط جمع شرط بسكون الراء وفتحها ، وهو العلامة ، وقيل : المراد بأشراطها هنا أسبابها التي هي دون معظمها ، وقيل : أراد بعلامات الساعة انشقاق القمر والدخان كذا قال الحسن ، وقال الكلبي : كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام ، قلت : كما يشاهد الآن في هذا الزمان والله المستعان .

قال ابن عباس في الآية : أول الساعات . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما «من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالوسطى والسبابة »[٢] ، ومثله عند البخاري من حديث سهل بن سعد ، وفي الباب أحاديث كثيرة فيها بيان أشراط الساعة وبيان ما قد وقع منها ، وما لم يكن قد وقع وهي تأتي في مصنف مستقل فلا نطيل بذكرها ، وفي هذا الباب كتاب الاشاعة لأشراط الساعة ، وهو نفيس جداً .

﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ؟ ﴾ الساعة بغتة ﴿ ذكراهم ﴾ أي:فمن أين لهم التذكر والأتعاظ والتوبة والخلاص ، كقوله : ﴿ يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى ؟ ﴾ .

﴿ فاعلم أنه لا إلَـه إلا الله ﴾ أي إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة ، ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله ، فاعلم انه لا إلَـه غيره ، ولا رب سواه والمعنى أثبت على ذلك واستمر عليه ودم على ما أنت

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) البخاري ومسلم .

عليه من العلم بالوحدانية ، فإنه النافع يوم القيامة ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، قد كان عالماً بأنه لا إلّه إلا الله قبل هذا .

ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أن لا إلّه إلا الله دخل الجنة »[١] رواه مسلم ، وقيل : ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقينياً ، وقيل : المعنى : فاذكر أنه لا إلّه إلا الله فعبر عن الذكر بالعلم ، وقيل : الفاآت في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتصال .

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ أي :استغفر الله أن يقع منك ذنب أو استغفر الله ليعصمك ، أو استغفره مما ربما يصدر منك من ترك الأولى ، قال القاضي عياض : إن المراد به الفترات والغفلات من الذكر الذي كان شأنه صلى الله عليه وسلم الدوام عليه ، فإذا فتر وغفل عد ذلك ذنباً واستغفر منه ، وقيل : يحتمل أن يكون استغفاره شكراً ويأباه قوله لذنبك ، وقيل : استغفر لذنوب أهل بيتك ، وهذا تكلف بلا موجب ، وقيل : لتستن به أمته وليقتدوا به في ذلك ، وقيل : الخطاب له والمراد الأمة ويأبى هذا قوله ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فإن المراد به استغفاره لذنوب أمته ، بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم ، وهذا إكرام من الله عز وجل لهذه الأمة ، حيث أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم ، وهو الشفيع المجاب فيهم إن شاء الله تعالى .

«عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الذكر لا إلّه إلا الله وأفضل الدعاء الاستغفار ، ثم قرأ فآعلم أنه لا إلّه إلا الله الآية »[٢] رواه الطبراني وابن مردويه والديلمي .

« وعن أبي هريرة في قوله ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[٣] ، رواه عبد الرزاق

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .
(٢) صحيح الجامع الصغير .
(٣) ضعيف الجامع الصغير .

وعبد بن حميد والترمذي وصححه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، وأصله في البخاري وفي رواية أكثر من سبعين .

« وعن عبد الله بن سرجس قال : أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأكلت معه من طعام فقلت : غفر الله لك يا رسول الله قال ولك ، فقيل استغفر لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ولكم ، وقرأ: واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات[1] أخرجه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، وروى مسلم عن الأغر المزني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم مائة مرة »[2] وللعلماء في هذا الغين كلام طويل لا يسعه هذا الموضع ،وقد وردت أحاديث في استغفاره صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأمته وترغيبه في الاستغفار .

﴿ والله يعلم متقلبكم ﴾ في الدنيا في أعمالكم ومعايشكم ومتاجركم ﴿ ومثواكم ﴾ في الدار الآخرة ، قاله ابن عباس ، وقيل : متقلبكم في أعمالكم نهاراً ، ومثواكم في ليلكم نياماً ، وقيل : متقلبكم في أصلاب آبائكم إلى أرحام أمهاتكم ، ومثواكم في الأرض أي:مقامكم فيها ، قال ابن كيسان : متقلبكم من ظهر الى بطن في الدنيا ، ومثواكم في القبور ، وقيل : منصرفكم في أعمالكم ، ومثواكم أي مصيركم إلى الجنة أو النار ، والمعنى أنه عالم بجميع أحوالكم ، لا يخفى عليه شيء منها ، وان دق وخفي ، ومثله حقيق بأن يتقي ويخشى ، وأن يستغفر ، وسأل المؤمنون ربهم عز وجل أن ينزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم سورة يأمرهم فيها بقتال الكفار ، حرصاً منهم على الجهاد ، ونيل ما أعده الله للمجاهدين من جزيل الثواب فحكى الله عنهم ذلك بقوله :

---

(١) مسلم واحمد .

(٢) مسلم والبخاري .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ
رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾
فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ
ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ من هنا إلى آخر السورة لا يظهر إلا كونه مدنياً إذ القتال لم يشرع إلا بالمدينة ، وكذلك النفاق لم يظهر إلا بها فيحمل القول فيما تقدم بأنها مكية على أغلبها ، وأكثرها ، وكذا يحمل القول بأنها مدنية على البعض منها ﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ نزلت سورة ﴾ فيها ذكر القتال ، والأمر بالجهاد ، والتحريض عليه ﴿ فإذا أنزلت سورة ﴾ في معنى الجهاد ﴿ محكمة ﴾ أي غير منسوخة ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ أي فرض الجهاد وطلبه ، قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال نسخ ما كان من الصفح والمهادنة ، وهو غير منسوخ الى يوم القيامة ، وقرأ ابن مسعود : فإذا نزلت سورة محدثة ، أي محدثة النزول وقرأ الجمهور أنزلت وذكر على بناء الفعلين للمفعول وقرىء نزلت ، وذكر على بنائهما للفاعل ، ونصب القتال .

﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك ، وهم المنافقون ، أو ضعف في الدين ، وأصل المرض الفتور ، فمرض القلوب فتورها عن قبول الحق ، والأول هو الأظهر الموافق لسياق النظم الكريم ﴿ ينظرون إليك ﴾ يعني

شزراً وكراهية منهم ﴿ نظر المغشي عليه من الموت ﴾ أي نظراً مثل نظر من شخص نظره وبصره عند الموت ، لجبنهم عن القتال ، وميلهم الى الكفار ، كدأب من أصابته غشية الموت ، وقال ابن قتيبة والزجاج : يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون اليك نظراً شديداً كما ينظر الشاخص بصره عند الموت .

﴿ فأولى لهم ﴾ قال الجوهري : أولى لك تهديد ووعيد ، وكذا قال مقاتل والكلبي وقتادة ، قال الأصمعي : معنى قولهم في التهديد : أولى لك أي وليك وقاربك ما تكره . وهو فعل ماض ، قال ثعلب : ولم يقل في أولى أحسن مما قاله الأصمعي ،وقال المبرد : يقال لمن همّ بالغضب ثم أفلت أولى لك أي قاربت الغضب ، وقال الجرجاني : هو مأخوذ من الويل ، أي :فويل لهم وكذا قال في الكشاف . قال قتادة ايضاً : كأنه قال العقاب أولى لهم ، وعلى هذا يكون إسماً لا فعلاً وعليه الأكثر ، وفي إعرابه أوجه ذكرها السمين .

﴿ طاعة وقول معروف ﴾ كلام مستأنف أي أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لكم ، قال الخليل وسيبويه إن التقدير طاعة وقول معروف أحسن وأمثل بكم من غيرهما ، وقدره مكي منا طاعة فقدره مقدماً ، وقيل : إن طاعة خبر اولى أي :الأولى بهم أن يطيعوك ويخاطبوك بالقول الحسن الخالي عن الأذية ، وقيل : إن طاعة صفة لسورة ، اي فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أي ذات طاعة أو مطاعة ، ذكره مكي وأبو البقاء ، وفيه بعد لكثرة الفواصل ، وقيل إن ﴿ لهم ﴾ خبر مقدم ، وطاعة مبتدأ مؤخر ، والأول أولى .

﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ عزم الأمر ، جد الأمر ، أي جد القتال ووجب وفرض ، وأسند الأمر الى العزم ـ وهو لأصحابه ـ مجازاً ، وجواب اذا قيل هو قوله الآتي : ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ ، وقيل : محذوف تقديره كرهوه ، قال المفسرون : معناه إذا جد الأمر ولزم فرض القتال ، خالفوا وتخلفوا ، فلو

صدقوا الله في إظهار الإيمان والطاعة ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ من المعصية والمخالفة .

﴿ فهل عسيتم ﴾ يقال عسيت أن أفعل كذا ، وعسيت بالفتح والكسر لغتان ، ذكره الجوهري وهما سبعيتان ، وفيه التفات عن الغيبة الى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع أي فهل يتوقع منكم ﴿ إن توليتم ﴾ أي أعرضتم عن الايمان الذي تلبستم به ظاهراً .

﴿ أن تفسدوا في الأرض ﴾ بأنواع الفساد ، قال الكلبي : فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا فيها بالظلم ، وقال كعب : أن يقتل بعضكم بعضاً وقال قتادة : إن توليتم عن طاعة كتاب الله عز وجل أن تفسدوا فيها بسفك الدماء وقال ابن جريج : إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي ، وقبل أعرضتم عن القتال وفارقتم أحكامه ، فتعودوا الى جاهليتكم ، أو توليتم الحكم فجعلتم حكاماً أن تفسدوا في الأرض ، بأخذ الرشا ، قرأ الجمهور : توليتم مبنياً للفاعل ، وقرىء مبنياً للمفعول فهل عسيتم إن ولي عليكم ولاة جائرون أن يخرجوا عليكم في الفتنة وتحاربوهم .

﴿ وتقطعوا أرحامكم ﴾ بالبغي والظلم والقتل ، قرأ الجمهور تقطعوا بالتشديد على التكثير ، وقرىء بالتخفيف من القطع .

«عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بِحِقْوِ الرحمن فقال : مه؟ قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك ؟ وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إقرأوا إن شئتم فهل عسيتم الآية »[1] أخرجه

(١) البخاري ومسلم .

البخاري ومسلم وغيرهما ، والأحاديث في صلة الرحم كثيرة .

﴿ أولئك ﴾ المُفسدون يدل عليه ما تقدم وفي الاشارة التفات للايذان بأن ذكر جناياتهم أوجب اسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم ﴿ الذين لعنهم الله ﴾ أي أبعدهم من رحمته ، وطردهم عنها ، ﴿ فأصمهم ﴾ عن استماع الحق ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ أي عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد والبعث وحقية سائر ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل فأصم آذانهم ، كما قال ﴿ وأعمى أبصارهم ﴾ ولم يقل وأعماهم لأنه لا يلزم من ذهاب الأذن ذهاب السماع ، فلم يتعرض لها ، والأعين يلزم من ذهابها ذهاب الإبصار .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أصل التدبر التفكر في عاقبة الشيء وما يؤول اليه أمره وتدبر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب وجمع الهم ، وقت تلاوته ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف ، وخلوص النية ، قاله الخازن ، والاستفهام للإنكار ، والمعنى أفلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة ؟ والحجج الظاهرة ؟ والبراهين القاطعة الباهرة ؟ التي تكفي من له فهم وعقل ، وتزجره عن الكفر بالله والاشراك به والعمل بمعاصيه ؟ وقيل : المراد به التأسي ، وقيل : هذه الآية محققة للآية المتقدمة ، ومهيجة لهم على ترك ما هم فيه من الكفر ، الذي استحقوا بسببه اللعنة ، أو كالتبكيت لهم على إصرارهم على الكفر .

﴿ أم ﴾ هي المنقطعة بمعنى بل،والهمزة التي للانتقال من توبيخ الى توبيخ أي بل أ ﴿ على قلوب أقفالها ﴾ فهم لا يفهمون ولا يعقلون قال مقاتل : يعني الطبع على القلوب ، والتنكير إما لتهويل حالها أو تفظيع شأنها . كأنه قيل على قلوب منكرة لا يعرف حالها . وإما لأن المراد بها قلوب بعضهم وهم المنافقون

والأقفال إستعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق ، وإضافة الأقفال الى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، أو أنها أقفال مخصوصة بها ، مناسبة لها .

ومعنى الآية أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر والشرك ، لأن الله سبحانه قد طبع عليها قرىء أقفالها بالجمع ، وإقفالها بكسر الهمزة على أنه مصدر ، كالاقبال ، والآية بعمومها تشمل كل من لا يتدبر القرآن ، ولا يتأسى به ، ويدخل فيه من نزلت فيه دخولاً أولياً ، وأما المقلدة التاركة للتدبر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء هم الذين على قلوبهم أقفالها .

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم ﴾ أي رجعوا كفاراً كما كانوا ، قال قتادة : هم كفار أهل الكتاب كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ما عرفوا نعته عندهم وبه قال ابن جريج وقال ابن عباس : هم أهل النفاق وقال الضحاك والسدي : هم المنافقون قعدوا عن القتال وهذا أولى لأن السياق في المنافقين .

﴿ من بعد ما تبيّن لهم الهدى ﴾ بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات الظاهرة والآيات القاهرة والدلائل الواضحة ، والبراهين الباهرة ﴿ الشيطان سول لهم ﴾ أي زين لهم خطاياهم ، وسهل لهم الوقوع فيها ، وإقتراف الكبائر ، والجملة خبر إن .

﴿ وأملى لهم ﴾ أي مد لهم في الآمال والأماني ووعدهم طول العمر وقيل : إن الذي أملى لهم هو الله عز وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة ، قرأ الجمهور أملى على البناء للفاعل ، وقرىء على البناء للمفعول ، أي أمهلوا ومد في عمرهم ، واختار القول بأن الفاعل هو الله الفراء والمفضل والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدم ذكره قريباً .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من ارتدادهم أو التسويل والاملاء والأول أولى ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أن هؤلاء المنافقين الذين ارتدوا على أدبارهم ﴿ قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ﴾وهم المشركون ﴿ سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ وهذا البعض هو عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة ما جاء به ، وقيل المعنى أن المنافقين قالوا لليهود سنطيعكم في بعض الأمر كالقعود عن الجهاد ، والموافقة في الخروج معهم إن خرجوا والتظافر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل: إن القائلين اليهود والذين كرهوا المنافقون ويؤيد كون القائلين المنافقين والكارهين اليهود قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السر بينهم قال الله سبحانه :

﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ بكسر الهمزة على المصدر ، أي إخفاءهم ، وبها قرأ الكوفيون وقرأ الجمهور بفتحها على أنه جمع سر ﴿ فكيف اذا توفتهم الملائكة﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها وكيف في محل رفع على أنها خبر مقدم ، والتقدير فكيف علمه بأسرارهم اذا توفتهم الملائكة ، أو في محل نصب

بفعل محذوف ، أي فكيف يصنعـون ؟ أو خبر لكـان مقدرة ، أي فكيف يكونون والظرف معمول للمقدر ، قرأ الجمهور : توفتهم ، وقرىء توفاهم وقوله :

﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل توفتهم، أو من مفعولـه أي ضاربـين وجوههم ، وضاربـين أدبـارهم وفي الكلام تخويف وتشديد ، والمعنى أنه إذا تأخر عنهم العذاب فسيكون حالهم هذا وهو تصوير لتوفيهم على أقبح حال وأشنعه ، قيل : لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب الملائكة في وجهه ودبره ، وقيل : ذلك عند القتال نصرة من الملائكة لرسول الله ، وقيل ذلك يوم القيامة والأول أولى .

﴿ ذلك ﴾ أي التوفي المذكور على الصفة المذكورة ﴿ بأنهم اتبعوا مـا أسخط الله ﴾ أي بسبب اتبـاعهم مـا بسخط الله من الكفـر والمعـاصي ، وقيـل : كتمانهم ما في التوراة من نعت نبينا صلى الله عليه وسلم ، والأول أولى ، لما في الصيغة من العموم ﴿ وكرهوا رضوانه ﴾ أي ما يرضاه الله من الايمان والتوحيد والطاعة ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ بهذا السبب والمراد الأعمال التي صورتها صورة الطاعة ، وإلا فلا عمل لكافر أو ما كانوا قد عملوا قبل الردة من الخير .

﴿ أم ﴾أي :بل أ ﴿ حسب الذين في قلوبهم مرض ﴾ يعني المنافقين الذين فصلت أحوالهم الشنيعة ، ووصفوا بوصفهم السابق ، بكونه المدار في النعي عليهم بقوله ﴿ أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ والمعنى :أن ذلك مما لا يكاد أن يدخل تحت الاحتمال ، والاخراج بمعنى الإظهار ، والأضغان جمع ضغن ، وهو ما يضمر من المكروه ، واختلف في معناه فقيل : هو الغش ، وقيل : الحسـد ، وقيل : الحقـد ، قال الجـوهري : الضغن والضغينـة الحقد قـال قطرب : هو في الآية العداوة ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، وإسمها ضمير شان مقدر ، قال ابن عباس : أضغانهم أعمالهم ، خبثهم والحسد الذي في

﴿ الله مولى الذين آمنوا ﴾ أي ناصرهم ووليهم ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ أي لا ناصر يدفع عنهم كما يؤخذ من مقابله ، وهذا لا يخالف قوله ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ ، فإن المولى فيه بمعنى المالك لا بمعنى الناصر ، قال قتادة : نزلت يوم أحد ، وقرأ ابن مسعود ﴿ ولي الذين ﴾ .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ قد تقدم تفسير الآية في غير موضع ، وتقدم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات ، والجملة مسوقة لبيان ولاية الله للمؤمنين وثمرتها الأخروية ﴿ والذين كفروا يتمتعون ﴾ بمتاع الدنيا أياماً قلائل ، وينتفعون به غير متفكرين في العاقبة .

﴿ ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ في معالفها ومسارحها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ، والمعنى كأنهم أنعام ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عن العاقبة لا هون بما هم فيه ، لا يلتفتون إلى الآخرة ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي مقام يقيمون به ، ومنزل ينزلونه ويستقرون فيه ، ومصير يصيرون اليه ، والجملة في محل نصب على الحال أو مستأنفة .

ثم خوف الله سبحانه الكفار بأنه قد أهلك من هو أشد منهم فقال :

﴿ وكأين من قرية ﴾ قد قدمنا أن كأين مركبة من الكاف وأي ، وأنها بمعنى كم الخبرية أي وكم من قرية ، والمعنى كم من أهل قرية كذبت رسلها ﴿ هي ﴾ أي هم ﴿ أشد قوة من ﴾ أهل ﴿ قريتك التي أخرجتك ﴾ أي أخرجوك منها ﴿ أهلكناهم ﴾ فكذلك نفعل بأهل قريتك فاصبر كما صبر رسل أهل هؤلاء القرى قال مقاتل : أي أهلكناهم بالعذاب حين كذبوا رسلهم .

﴿ فلا ناصر لهم ﴾ فبالأولى من هو أضعف منهم ، وهم قريش الذين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن
يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ
وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ
وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ
أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ
أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن
يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ
يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴾ المراد بهؤلاء المنافقون ، وقيل : أهل الكتاب ، وقيل : هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، وقيل : نزلت في قريظة والنضير ، ومعنى صدهم منعهم للناس عن الاسلام ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وشاقوا الرسول ﴾ أي عادوه وخالفوه ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ أي علموا أنه صلى الله عليه وسلم نبي من عند الله سبحانه وتعالى ، بما شاهدوا من المعجزات الواضحة ، والحجج القاطعة ﴿ لن يضروا الله ﴾ ورسوله ﴿ شيئاً ﴾ بتركهم الإيمان ، وإصرارهم على الكفر ، وما ضروا إلا أنفسهم .

﴿ وسيحبط أعمالهم ﴾ أي يبطلها ، والمراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير ، كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير ، وإن كانت باطلة من الأصل ، لأن الكفر مانع ، وقيل : المراد بالأعمال المكايد التي نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التي كانوا يبغونها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته

وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ فيما أمرتم به من الشرائع المذكورة في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالهم بالإصرار على الكفر ، فقال :

﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ قال الحسن : أي لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي ، وقال الزهري : بالكبائر وهو الأولى ، وقال الكلبي وابن جريج : بالرياء والسمعة ، وقال مقاتل : بالمن ، وقال عطاء : بالنفاق والشرك ، قلت : والظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل الى بطلان الأعمال ، كائناً ما كان ، من غير تخصيص بنوع معين ، عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، حتى نزلت هذه الآية ، فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، وفي لفظ فخافوا الكبائر ان تحبط أعمالهم .

« وعن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول ، حتى نزلت هذه الآية فلما نزلت قلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات ، والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا قد هلك حتى نزلت هذه الآية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئاً رجوناه[1] .

واستدل بهذه الآية من لا يرى إبطال النوافل ، حتى لو دخل في صلاة تطوع ، أو صوم تطوع ، لا يجوز له إبطال ذلك العمل والخروج منه ، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله ، وقال الشافعي بخلافه ، ولا دليل لهم في الآية ، ولا حجة ، لأن السنة مبينة للكتاب .

---

(١) انظر زاد المسير .

وقد ثبت في الصحيحين : « أن النبي صلى الله عليه وسلم أصبح صائماً فلما رجع الى البيت وجد حيساً ، فقال لعائشة : قـربيه فلقد أصبحت صائماً ، فأكل ، »[1] وهذا معنى الحديث ، وليس بلفظه ، فليس في هذه الآية دليل كما ظنه الزمخشري على إحباط الطاعات بالكبائر على ما زعمت المعتزلة والخوارج ، فجمهورهم على أن كبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات ، حتى إن من عبد الله طول عمره ، ثم شرب جرعة خمر فهو كمن لم يعبده قط ، ثم بـيّن سبحانه أنه لا يغفر للمصرين على الكفر والصد عن سبيل الله فقال :

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ فقيّد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حياً ، وظاهر الآية العموم ، وإن كان السبب خاصاً ، نزلت في أصحاب القليب ، قاله المحلي ، لكن حكمها عام في كل كافر مات على كفره ، ثم نهى سبحانه المؤمنـين عن الوهن والضعف فقال :

﴿ فلا تهنوا ﴾ أي فلا تضعفوا عن القتال ، والوهن الضعف ، والخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والحكم عام لجميع المسلمين ﴿ وتدعوا الى السلم ﴾ أي ولا تدعوا الكفار الى الصلح ابتداء منكم ، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف. قال الزجاج : منع الله المسلمين أن يدعوا الكفار الى الصلح وأمـرهم بحربهم حتى يسلمـوا ، وقـرىء تـدعـوا من ادعى القـوم وتداعوا ، والسلم بفتح السين وكسرها سبعيتان ، قال قتادة : معنى الآية لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت الى صاحبتها .

واختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة ؟ فقيل : إنها محكمة ، وأنها ناسخة لقوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ وقيل :

(١) صحيح البخاري .

منسوخة بهذه الآية ، ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعو الى السلم ابتداء ولم ينه عن قبول السلم اذا جنح إليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ، ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج الى دعوى النسخ أو التخصيص ، بل نـزلتا في وقتـين مختلفي الأحوال ، وجملة ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ حالية أو مستأنفة مقررة لما قبلها من النهي ، أي وأنتم القاهرون الغالبون بالسيف والحجة ، قال الكلبي : أي آخر الأمر لكم وان غلبوكم في بعض الأوقات .

﴿ والله معكم ﴾ بالنصر والمعونة عليهم ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم ، يقال : وتره يتره وتراً إذا أنقصه حقه ، وأصله من وترت الرجل اذا قتلت له قريباً او نهبت له مالاً ، ويقال : فلان مأتور إذا قتل له قتيل ، ولم يؤخذ بدمه ، قال الجوهري : أي لن ينقصكم في أعمالكم ، كما تقول : دخلت البيت وأنت تريد في البيت ، قال الفراء: هو مشتق من الوتر وهو الذحل وقيل : مشتق من الوتر وهو الفرد ، فكأن المعنى ولن يفردكم بغير ثواب قال ابن عباس: يتركم يظلمكم .

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ أي باطل وغرور ، لا أصل لشيء منها ، ولا ثبات له ، ولا اعتداد به ، تنقطع في أسرع مدة فكيف تمنعكم عن طلب الآخرة ؟ واللعب ما يشغل الانسان ، وليس فيه منفعة في الحال ولا في المآل ثم إذا استعمله الانسان ولم يشغله عن غيره ولم ينسه أشغاله المهمة فهـو اللعب ، وإن أشغله عن مهمـات نفسه فهـو اللهو ﴿ وإن تؤمنـوا ﴾ بالله ﴿ وتتقوا ﴾ الكفر والمعاصي ﴿ يؤتكم أجوركم ﴾ أي جزاء ذلك في الآخرة والأجر الثواب على الطاعة .

﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ أي :لا يأمركم بإخراجها جميعها في الـزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل أمركم بإخراج القليل منها غيضاً من فيض ، أي ربع العشر وهو الزكاة ، وبه قال ابن عيينة وغيره ، وقيل : المعنى ولا يسألكم

اموالكم ، إنما يسألكم أمواله لأنه أملك لها ، وهو المنعم عليكم بإعطائها وقيل : لا يسألكم محمد صلى الله عليه وسلم أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة ، كما في قوله : ﴿ ما أسألكم عليه من أجر ﴾ والأول أولى .

﴿ إن يسألكموها ﴾ أي أموالكم كلها ﴿ فيحفكم ﴾ أي يبالغ في طلبها ، قال المفسرون : يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها ؛ يقال : أحفى بالمسألة ، وألحف وألح ، بمعنى واحد والمحفي المستقصي في السؤال والإحفاء والإستقصاء في الكلام ، ومنه إحفاء الشارب أي استئصاله ، وجواب الشرط قوله : ﴿ تبخلوا ﴾ أي إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها ، وتمتنعوا من الإمتثال .

﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ الأضغان الأحقاد ، والمعنى أنها تظهر عند ذلك قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان لدين الإسلام من حيث محبة المال بالجبلة والطبيعة ، ومن نوزع في حبيبه ظهرت طويته التي كان يسرها .

﴿ ها أنتم ﴾ يا مخاطبون ﴿ هؤلاء ﴾ الموصوفون وجملة ﴿ تدعون ﴾ مستأنفة مقررة ومؤكدة لما قبلها لاتحاد محصل معناهما ﴿ لتنفقوا في سبيل الله ﴾ أي في الجهاد ، وفي طرق الخير ﴿ فمنكم من يبخل ﴾ بما يطلب منه ويدعى إليه من الإنفاق في سبيل الله ، واذا كان منكم من يبخل باليسير من المال ، فكيف لا يبخلون بالكثير ، وهو جميع الأموال ، ومقابله ومنكم من يجود وحذف ، لأن المراد الإستدلال على البخل ثم بين سبحانه أن ضرر البخل عائد على النفس فقال :

﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي : يمنعها الأجر والثواب ، وبخل وضن يتعديان تارة بعلى ، وبعن أخرى ، لتضمينهما معنى الإمساك ، والتعدي قال السمين : والأجود أن يكونا حال تعديهما بعن مضمنين معنى الإمساك وقيل : المعنى يبخل عن داعي نفسه ، لا عن داعي ربه ﴿ والله الغني ﴾

« وحكي عن ابي موسى الأشعري : أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هي أحب إلي من الدنيا » والله اعلم ولينظر في سنده .

﴿ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ في التولي عن الايمان والتقوى ، بل مطيعين له عز وجل ، قال ابن جرير في البخل بالانفاق في سبيل الله ، وكلمة ثم للدلالة على أن مدخولها مما يستبعده المخاطبون لتقارب الناس في الأحوال واشتراكهم في الميل الى المال .

المطلق المتنزه عن الحاجة الى أموالكم ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ الى الله وإلى ما عنده من الخير والرحمة .

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ معطوف على الشرطية المتقدمة وهي وإن تؤمنوا ، والمعنى إن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ، يستبدل قوماً آخرين يكونوا مكانكم ، هم أطوع لله منكم .

« عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قالوا : من هؤلاء ؟ وسلمان الى جانب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: هم الفرس هذا وقومه » ، وفي إسناده مسلم الزنجي ، قد تفرد به ، وفيه مقال معروف ، ولهذا الحديث طرق في الصحيح[1] ،

« وعن أبي هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ، ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ، ثم قال: هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس » أخرجه الترمذي وابن مردويه من حديث جابر والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل ، وعبد بن حميد وعبد الرزاق وفي إسناده أيضاً مسلم ابن خالد الزنجي نحوه .

وقال عكرمة : هم فارس والروم ، وقال الحسن : هم العجم ، وقال شريح بن عبيد : هم أهل اليمن وقيل الأنصار وقيل : الملائكة ، وقيل : التابعون وقال مجاهد : هم من شاء الله من سائر الناس ، وقال الكلبي : هم كندة والنخعي عن عرب اليمن ، وقال المحاسبي : فلا أحد يعد من جميع أجناس الأعاجم أحسن ديناً ، ولا كانت منهم العلماء إلا الفرس .

---

(١) الطبراني ٢٦/٦٦ .

سورة الفتح

﴿ هي تسع وعشرون آية ، وهي مدنية ﴾

قال القرطبي : بالاجماع ، وبه قال ابن عباس وابن الزبير ، وعن المسور بن مخرمة ومروان قالا نزلت بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها الى آخرها ، وهذا لا ينافي الاجماع على كونها مدنية ، لان المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما ، عن عبد الله ابن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحلته فرجع فيها » .

وفي الصحيحين ، عن زيد بن أسلم عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه فقال عمر بن الخطاب هلكت أم عمر نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيب فقال عمر فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت ان ينزل فيّ قرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، فقلت لقد خشيت ان

يكون قد نزل في قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال لقد أنزلت عليّ سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ: انا فتحنا لك فتحاً مبيناً» .

وفي صحيح مسلم : « عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت انا فتحنا لك فتحاً مبيناً الى قوله فوزاً عظيماً مرجعه من الحديبية ، وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحروا الهدي بالحديبية فقال لقد أنزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعها »[1] .

(١) مسلم في صحيحه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ
السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ
دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده قيل المراد الحكم والقضاء كما في قوله ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ ، فكأنه قال إنا قضينا وحكمنا لك فتحاً ظاهراً واضحاً مكشوفاً بغير قتال ولا تعب ، والفتح الظفر بالبلدة ، عنوة او صلحاً بحرب او غير حرب ، وبخراج أو بدونه لأنه مغلق . ما لم يظفر بـه فإذا ظفـر به فقـد فتح ، مـأخوذ من فتـح باب الدار، وجيء به بلفظ الماضي لأن عادة الله في تحققها بمنزلة الكائنة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر عنه ، وهو الفتح ما لا يخفى ، وإسناده الى نون العظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقاً وإيجاداً ، واختلف في تعيين هذا الفتح فقال الأكثر على ما في البخاري : هو صلح الحديبية ، والصلح قد يسمى فتحاً قال الفراء : والفتح قد يكون صلحاً ، وقال قوم : إنه فتح مكة ، وقال آخرون : إنه فتح خيبر ، والأول أرجح ، ويؤيده ما ذكرناه قبل هذا من أن السورة نزلت في شأن الحديبية .

وقيل : هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح ، وقيل : هو ما فتح له من النبوة ، والدعوة الى الإسلام ، وقيل : فتح الروم ، ومعنى الفتح في اللغة

فتح المنغلق ، والصلح الذي كان مع المشركين بالحديبية كان مشدوداً متعذراً ، حتى فتحه الله ، قـال الزهـري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك ان المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم ، فتمكن الاسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الاسلام .

قال الشعبي : لقد اصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية ما لم يصب في غزوة :غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخـر ، وبويـع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدىُ محله ، وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وقال الزجاج : كان في فتح الحديبية آية عظيمة ، وذلك انه نزح ماؤها ولم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه في البئر فدرت بالماء حتى شرب جميع الناس .

« وعن مجمع بن جارية الأنصاري قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها حتى بلغنا كراع الغميم إذ الناس يوجفون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ فقالوا : أوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس إليه فقرأ عليهم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، فقال رجل :أي رسول الله أو فتح هو ؟ فقال: إي والذي نفس محمد بيده ، إنه لفتح ، فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر سهماً وكان الجيش الفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهماً(١)» أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل وغيرهم .

وعن ابن مسعود قال : « أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي وكان إذا أتاه اشتد عليه فسرى عنه ، وبه

(١) رواه أحمد .

من السرور ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً »[١] أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه وأبو داود والنسائي وغيرهم وعن أنس في الآية قال الحديبية أخرجه البخاري وغيره .

وعن البراء قال : «تعدون انتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية »[٢] اخرجه البخاري وغيره .

وعن عائشة قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا فتحنا الخ فتح مكة أخرجه ابن مردويه وعن أنس نحوه ومذهب أبي حنيفة أن مكة فتحت عنوة ومذهب الشافعي أنها فتحت صلحاً وفي البويطي ان اسفلها فتحه خالد عنوة وأعلاها فتحه الزبير صلحاً ودخل صلى الله عليه وسلم من جهته فصار الحكم له وبهذا تجتمع الأخبار التي ظاهرها التعارض .

﴿ ليغفر لك الله ﴾ اللام هي لام العلة قال ابن الأنباري : سألت أبا العباس يعني المبرد عن اللام هذه فقال : هي لام كي معناها إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح فلما انضم الى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي وغلط من قال ليس الفتح سبب المغفرة وقال الزمخشري : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة قلت لم يجعل علة للمغفرة ولكنه علة لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة : وهي المغفرة ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قيل يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض الآجل والعاجل قال ابن عادل وغيره : وهذا كلام غير جيد مخالف لظاهر الآية ، فإن اللام داخلة على المغفرة ، فهي علة للفتح ، والفتح معلل بها ، وقيل غير ذلك ، والأسلم ما اقتصر عليه المحلي كما يأتي .

وقال الرازي في توجيه التعليل : إن المراد بقوله : ليغفر لك الله

(١) رواه أحمد .

(٢) البخاري في صحيحه .

التعريف بالمغفرة تقديره إنا فتحنا لك لتعرف أنك مغفور لك معصوم ، فإن الناس علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله ، وإنما يأخذها حبيب الله ، وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة ، وقال أبو حاتم : هي لام القسم والأصل ليغفرن فكسرت اللام تشبيهاً بلام كي ، وحذفت النون ، وهو خطأ فإن لام القسم لا تكسر ولا تنصب المضارع .

قال ابن عادل : وقد يقال : إن هذا ليس بنصب ، وإنما هو بقاء للفتح الذي كان قبل نون التوكيد بقي ليدل عليها ، ولكن هذا قول مردود ، وقال البيضاوي اللام علة للفتح ، من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار ، والسعي في إعلاء الدين وإزاحة الشرك وتكميل النفوس الناقصة ، وقال الجلال المحلي : اللام : للعلة الغائبة فمدخولها مسبب لا سبب .

واختلف في معنى قوله : ﴿ ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ فقيل : ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة وما تأخر بعدها ، قاله مجاهد وسفيان الثوري وابن جرير والواحدي وغيرهم ، وقال عطاء : ﴿ ما تقدم من ذنبك ﴾ يعني ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر من ذنوب أمتك ، وما أبعد هذا عن معنى القرآن ، وقيل : ما تقدم من ذنب أبيك إبراهيم ، وما تأخر من ذنوب النبيين من بعده ، وهذا كالذي قبله ، وقيل : ما تقدم من ذنب يوم بدر وما تأخر من ذنب يوم حنين ، وهذا كالقولين الأولين في البعد وقيل : لو كان ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك ، وقيل غير ذلك مما لا وجه له والأول اولى ، ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة ترك ما هو الأولى وسمي ذنباً في حقه لجلالة قدره وإن لم يكن ذنباً في حق غيره فهو من باب حسنات الأبرار سيئآت المقربين .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما ، عن المغيرة بن شعبة قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : اليس قد غفر لك الله **ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً** » وفي الباب أحاديث .

﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بإظهار دينك على الدين كله وقيل بالجنة وقيل بالنبوة والحكمة ، وقيل بفتح مكة والطائف وخيبر ، والأولى أن يكون المعنى ليجتمع لك مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة والهداية الى صراط مستقيم ، وهو دين الإسلام ﴿ ويهديك ﴾ به ﴿ صراطاً ﴾ طريقاً ﴿ مستقيماً ﴾ اي يثبتك عليه وهو دين الإسلام ، وقيل : على الهدى الى ان يقبضك إليه ، وقال البيضاوي : في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة ، فالهداية على حقيقتها ، فلا حاجة الى ما قيل من أن المراد زيادة الاهتداء او الثبات عليه ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ أي غالباً قوياً ، ذا عز ،لا يتبعه ذل .

﴿ هو الذي أنزل السكينة ﴾ أي السكون والطمأنينة والوقار ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾ وهم أهل الحديبية بما يسره لهم من الفتح لئلا تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم قال ابن عباس : السكينة هي الرحمة قيل : كل سكينة في القرآن طمأنينة إلا التي في سورة البقرة ، وقد تقدم تفسيرها في موضعها ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ أي:ليزدادوا بسبب تلك السكينة إيماناً منضماً الى إيمانهم الحاصل لهم من قبل ، قال ابن مسعود : تصديقاً مع تصديقهم ، وقال الكلبي : كلما نزلت آية من السماء فصدقوا بها ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم ، وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم ، وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم .

قال ابن عباس في الآية إن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله،فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة،فلما صدقوا بها زادهم الصيام،فلما صدقوا به زادهم الزكاة،فلما صدقوا بها زادهم الحج،فلما صدقوا به زادهم الجهاد،ثم أكمل لهم دينهم فقال﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾،وعنه أيضاً قال فأوثق إيمان أهل السماء وأهل الأرض وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إلّه إلا الله .

﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ يعني:الملائكة والإنس والجن والشياطين ، يدبر أمرهم كيف يشاء ، ويسلط بعضهم على بعض ، ويحفظ

بعضهم ببعض، ﴿ وكان الله عليماً ﴾ كثير العلم بخلقه بليغه ﴿ حكيماً ﴾ في صنعه وأقواله وأفعاله ﴿ ليدخل ﴾ أي أمر بالجهاد ليدخل ﴿ المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ وقيل : هذه اللام متعلقة بمحذوف يدل على ما قبله ؛ تقديره يبتلي بتلك الجنود من شاء فيقبل الخير من أهله ، والشر ممن قضى له به ، ليدخل ؛ ويعذب ، وقيل : متعلقة بقوله إنا فتحنا لك ليدخل ويعذب ، وهذا لا يصح ، وقيل : متعلقة بينصرك أي نصرك الله بالمؤمنين ، ليدخل ، ويعذب ، وقيل : متعلقة بـ (يزدادوا) وهذا لا يصح أيضاً ؛ فالأول أولى .

﴿ ويكفر عنهم سيئآتهم ﴾ أي يغطيها ولا يظهرها ، ولا يعذبهم بها ، وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير ، مع أن الترتيب في الوجود على العكس ، للمسارعة الى بيان ما هو المطلب الأعلى والمقصد الأسنى ﴿ وكان ذلك ﴾ أي المذكور من الإدخال والتكفير ﴿ عند الله ﴾ اي :في علمه وقضائه وحكمه ﴿ فوزاً عظيماً ﴾ اي :ظفراً بكل مطلوب ، ونجاة من كل غم وجلباً لكل نفع ودفعاً لكل ضر والظرف متعلق بمحذوف على أنه حال من (فوزاً) لأنه صفة له في الأصل فلما قدم صار حالاً اي كائناً من عند الله ، والجملة إعتراض مقرر لما قبله بين المعطوف ـ وهو يعذب ـ والمعطوف عليه ـ وهو يدخل .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهم ، عن أنس رضي الله عنه قال : « لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله الآية مرجعه من الحديبية قال : لقد نزلت عليّ آية هي أحب إليّ مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم فقالوا هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بيّن الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا فنزلت عليه ليدخل المؤمنين ، حتى بلغ فوزاً عظيماً »[1] .

ثم لما فرغ الله سبحانه مما وعد به صالحي عباده ذكر ما يستحقه غيرهم فقال :

---

(١) البخاري ومسلم .

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ معطوف على يدخل أي يعذبهم في الدنيا بإيصال الهموم والغموم إليهم ، بسبب علو كلمة المسلمين ، وما يشاهدونه من ظهور الإسلام ، وبأن يسلط النبي صلى الله عليه وسلم عليهم قتلاً وأسراً واسترقاقاً في الدنيا ، وفي الآخرة بعذاب جهنم وقدم المنافقين على المشركين لأنهم كانوا أشد على المؤمنين ضرراً من الكفار المجاهرين ، لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ؛ ويخالط المنافق لظنه إيمانه وكان يفشي إليه سره ، وفيه دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً ، وأحق منهم مما وعدهم الله به ، ثم وصف الفريقين فقال :

﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾ وهو ظنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يغلب ، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله ، ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً ﴾ والسوء صفة لموصوف محذوف أي ظن الأمر السوء .

﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي ما يظنونه ويتربصون بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم ؛ الدائرة مصدر بزنة اسم الفاعل أو اسم فاعل من دار يدور ، سمى به عاقبة الزمان أي حادثته ، وهي في الأصل عبارة عن الخط المحيط بالمركز ثم استعملت في الحادثة المحيط بمن وقعت عليه ، إلا أن اكثر استعمالها في المكروه ، والسوء بالضم معناه العذاب ، والهزيمة والشر ، وبالفتح معناه الذم وقد قرىء بهما ، وهما لغتان ، وفي الأصل مصدران وهذا إخبار عن وقوع السوء بهم ، أو دعاء عليهم ، والإضافة من باب إضافة العام للخاص ، فهي للبيان وقال سيبويه : السوء هنا الفساد .

ولما بين الله سبحانه أن دائرة السوء عليهم في الدنيا بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم فقال :

﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ أي مرجعاً .

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا
فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ من الملائكة والإنس والجن والشياطين والصيحة ، والرجفة والحجارة ، والزلازل ، والخسف ، والغرق ، ونحو ذلك وكرر هذه الآية لقصد التأكيد ، او المراد جنود العذاب كما يفيده التعبير بالعزة هنا مكان العلم هناك أو التهديد بأنهم في قبضة قدرة المنتقم فلا تكرار ﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ غالباً فلا يرد بأسه ﴿ حكيماً ﴾ فيما دبره أي لم يزل متصفاً بذلك .

﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم ﴿ ومبشراً ﴾ بالجنة للمطيعين ﴿ ونذيراً ﴾ لأهل المعصية من النار ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية وقرىء بالتحتية ، فعلى الأولى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته ، وعلى الثانية المراد المبشرون والمنذرون وهما سبعيتان ، وفيه امتنان منه تعالى عليه صلى الله عليه وسلم حيث شرفه بالرسالة وبعثه الى الكافة شاهداً على أعمال أمته .

﴿ وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ أي غدوة وعشية ، والخلاف بين القراء في هذه الأفعال الثلاثة ، كالخلاف في لتؤمنوا كما سلف ومعنى تعزروه تعظموه أو تفخموه قاله الحسن ، والتعزيز التوقير والتعظيم وقال

قتادة : تنصروه وتمنعوا منه ، وقال عكرمة : تقاتلوا معه بالسيف ، وقال ابن عباس : يعني الإجلال ؛ وعنه قال : تضربوا بين يديه بالسيف .

وعن جابر بن عبد الله قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية وتعزروه قال لأصحابه : ما ذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : لتنصروه »[1] ، رواه ابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه ، ومعنى توقروه تعظموه ، وقال السدي : تسودوه ، وقال ابن عباس : يعني التعظيم قيل : والضميران في الفعلين للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهنا وقف تام ، ثم يبتدىء وتسبحوه ، أي تسبحوا الله عز وجل وهو من التسبيح الذي هو التنزيه من جميع النقائض ، أو من السبحة وهي الصلاة وقيل : الضمائر كلها في الأفعال الثلاثة لله عز وجل فيكون المعنى تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء وقيل تنصروا دينه وتجاهدوا مع رسوله وزاد الزمخشري ومن فرق الضمائر فقد أبعد ، ومثله في المدارك قال الحفناوي : وهذا أظهر لتكون الضمائر على وتيرة واحدة .

﴿ إن الذين يبايعونك ﴾ أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذي التزمه له وهي بيعة الرضوان بالحديبية ، فإنهم بايعوه تحت الشجرة على قتال قريش فبايعه جماعة على الموت منهم سلمة بن الأكوع وبايعه جماعة على أن لا يفروا منهم معقل بن يسار والحديبية قرية ليست كبيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة أو مرحلة سميت ببئر هناك ، وقد جاء في الحديث ان الحديبية بئر ، قال مالك : هي من الحرم وقال ابن القصار : بعضها من الحل ويجوز في الحديبية التخفيف والتشديد ، والأول أفصح وعامة المحدثين يشددونها .

﴿ إنما يبايعون الله ﴾ أخبر سبحانه أن هذه البيعة لرسوله صلى الله عليه

---

(١) مسلم

وسلم هي بيعة له ، كما قال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ، وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، وجملة : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل ، أو في محل نصب على الحال وفي هذا التركيب إستعارة تصريحية تبعية في الفعل ، ومكنية في الإسم الكريم ، وتخييلية في إثبات اليد له ، وفيه مشاكلة في مقابلة يده بأيديهم ، والمعنى أن عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كعقدة مع الله سبحانه من غير تفاوت بينهما ، قاله الزمخشري والكرخي ، وقيل : يد الله بالوفاء بما وعدهم من الخير فوق أيديهم ، وقال السدي : كانوا يأخذون بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبايعونه ، ويد الله فوق أيديهم في المبايعة .

قال الرازي : وذلك يحتمل وجوهاً ، لأن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ، وإما أن تكون بمعنيين ، فإن قلنا : إنها بمعنى واحد ففيه وجهان .

أحدهما يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق أجسامهم ، كما قال : ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ .

وثانيهما نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه ، يقال اليد لفلان أي الغلبة والنصرة والقوة ، وإن قلنا إنها بمعنيين فنقول : اليد في حق الله تعالى بمعنى الحفظ ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة ، فيكون المعنى يد الله فوق أيديهم بالحفظ انتهى .

قلت : وهذا هو مذهب أهل التأويل والكلام ، ومذهب السلف في هذه الآية وأمثالها السكوت عن التأويل ، وإمرار آيات الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالصفات كما جاءت مع الإيمان بها . من غير تشبيه ، ولا تكييف ، ولا تعطيل ، ولا تحريف ، ولا صرف عن الظاهر ، ولا تأويل وهو الحق .

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ أي فمن نقض ما عقد من البيعة فإنما ينقض على نفسه ، لأن ضرر ذلك راجع إليه لا يجاوزه الى غيره .

عن عبادة بن الصامت قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب ، فنمنعه مما نمنع منه نفوسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة ، فمن وفّى وفى الله له ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[1] ، أخرجه أحمد وابن مردويه .

وفي الصحيحين من حديث جابر « أنهم كانوا في بيعة الرضوان خمس عشرة مائة » ، و « فيهما عنه أنهم كانوا أربع عشرة مائة »[2] .

وفي البخاري من حديث قتادة . عن سعيد بن المسيب : « أنه سأله كم كانوا في بيعة الرضوان ؟ قال خمس عشرة مائة ، فقال له : إن جابراً قال : كانوا أربع عشرة مائة ، قال رحمه الله وهم هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة » .

﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله ﴾ أي ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه في البيعة لرسوله ، يقال وفيت بالعهد وأوفيت به ، ومنه قوله : ﴿ أوفوا بعهد الله ﴾ ﴿ والموفون بعهدهم ﴾ ، قرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء وقرىء بضمها ﴿ فسيؤتيه ﴾ بالياء والنون سبعيتان ﴿ أجراً عظيماً ﴾ وهو الجنة وهذه الآية فيها دلالة على مشروعية البيعة ، وقد صدرت منه صلى الله عليه وسلم مبايعات كثيرة اشتملت عليها الأحاديث الواردة في الصحيحين وغيرهما من

(١) رواه أحمد .
(٢) رواه البخاري .

دواوين الإسلام ، وفيها أن الناس كانوا يبايعونه تارة على الهجرة والجهاد ، وتارة على إقامة أركان الإسلام وتارة على الثبات والقرار في معارك الكفار ، وتارة على هجر الفواحش والمنكرات ، وتارة على التمسك بالسنة ، والاجتناب عن البدعة ، والحرص على الطاعات ، كما بايع نسوة من الأنصار على أن لا يخن .

« وبايع ناساً من فقراء المهاجرين على أن لا يسألوا الناس شيئاً فكان أحدهم يسقط سوطه فينزل عن فرسه فيأخذه ، ولا يسأل أحداً » رواه ابن ماجة في سننه .

وقد نطق به الكتاب العزيز كما في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ الآية ، ومما لا شك فيه ولا شبهة أنه إذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل على سبيل العبادة والاهتمام بشأنه ، فإنه لا ينزل عن كونه سنة في الدين ، بقي أنه صلى الله عليه وسلم كان خليفة الله في أرضه ، وعالماً بما أنزله الله تعالى من القرآن والحكمة ، معلماً للكتاب والسنة ، مزكياً للأمة فما فعله على جهة الخلافة كان سنة للخلفاء ؛ وما فعله على جهة كونه معلماً للكتاب والحكمة ومزكياً للأمة كان سنة للعلماء الراسخين ؛ وهذا صحيح البخاري شاهد على أنه :

« صلى الله عليه وسلم اشترط على جرير عند مبايعته : والنصح لكل مسلم » .

وأنه « بايع قوماً من الأنصار فاشترط ان لا يخافوا في الله لومة لائم ويقولوا بالحق حيث كانوا فكان أحدهم يجاهر الأمراء والملوك بالرد والإنكار » الى غير ذلك وكل ذلك من باب التزكية : والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالبيعة على أقسام منها بيعة الخلافة ومنها بيعة الاسلام ومنها بيعة التمسك

بحبل التقوى ومنها بيعة الهجرة والجهاد ومنها بيعة التوثق في الجهاد وكان بيعة الإسلام متروكة في زمن الخلفاء .

أما في زمن الراشدين منهم فلأن دخول الناس في الإسلام في أيامهم كان غالباً بالقهر والسيف لا بالتأليف ، وإظهار البرهان ، ولا طوعاً ولا رغبة ، وأما في غيرهم ، فلأنهم كانوا في الأكثر ظلمة فسقة لا يهتمون ، وكذلك بيعة التمسك بحبل التقوى كانت متروكة ، أما في زمن الخلفاء الراشدين فلكثرة الصحابة الذين استناروا بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم وتأدبوا في حضرته فكانوا لا يحتاجون الى بيعة الخلفاء ، وأما في زمن غيرهم فخوفاً من افتراق الكلمة ، وأن يظن بهم مبايعة الخلافة فتهيج الفتن ، ثم لما اندرس هذا في الخلفاء انتهز أكابر العلماء والمشايخ الفرصة وتمسكوا بسنة البيعة ، وأن الذي اعتاده الصوفية رحمهم الله من مبايعة المتصوفين ، ففيه ما يقبل وما يرد ، ويظهر ذلك بعرضها على الكتاب والسنة ، فما وافقهما فهو السنة والصواب ، وما خالفهما فهو الخطأ والتباب ، وإنما هذه البيعة سنة وليست بواجبه ، لأن الناس بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقربوا بها الى الله تعالى ، ولم يدل دليل على تأثيم تاركها ، ولم ينكر أحد من الأئمة على من تركها ، فكان كالاتفاق على أنها ليست بواجبة .

وشرط من يأخذ البيعة أمور :

أحدها علم الكتاب والسنة ، وإنما شرطنا ذلك لأن الغرض من البيعة أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وإرشاده إلى تحصيل السكينة الباطنة ، وإزالة الرذائل ، وإكتساب الحمائد ، متقيداً بظاهر القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ومن لم يكن عالماً بهما ، وعاملاً بموجبهما لا يتصور منه ذلك أبداً وقد اتفقت كلمة المشايخ على ان لا يتكلم على الناس إلا من كتب الحديث ، وقرأ القرآن .

وثانيها ، العدالة والتقوى والصدق والضبط ، فيجب ان يكون مجتنباً

عن الكبائر ، غير مصر على الصغائر .

ثالثها : أن يكون زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة مواظباً على الطاعات المؤكدة والأذكار المأثورة في صحاح الأحاديث مواظباً على تعلق القلب بالله سبحانه

رابعها : أن يكون آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، مستبداً برأيه ، لا إمعة ليس له رأي ، ولا أمر،ذا مروءة وعقل تام يعتمد عليه في كل ما يأمر به ، وينهي عنه ، قال تعالى ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ ، فما ظنك بصاحب البيعة ؟

خامسها : أن يكون صحب العلماء بالكتاب والسنة ، وتأدب بهم دهراً طويلاً ، وأخذ منهم العلم للظاهر ، والنور الباطن والسكينة ، وهذا لأن سنة الله جرت بأن الرجل لا يفلح إلا إذا رأى المفلحين،ولا يشترط في ذلك ظهور الكرامات وخوارق العادات ولا ترك الإكتساب؛لأن الأول ثمرة المجاهدات ، لا شرط الكمال ، والثاني مخالف للشرع المطهر ولا تغتر بما فعله المغلوبون في أحوالهم ، إنما المأثور القناعة بالقليل ، والورع من الشبهات .

واذا تقرر لك هذا عرفت ما هو صاف عما هو كدر ، فاشدد يديك عليه ولا تلتفت الى غير ما ذكرنا،وبالله التوفيق. ولما ذكر تعالى أهل بيعة الرضوان وأضافهم الى حضرة الرحمن ، ذكر من غاب عن ذلك الجناب ، وأبطأ عن حضرة تلك العمرة بقوله :

﴿سيقول﴾ أي بوعده لا خلف فيه ﴿لك﴾ لأنهم يعلمون شدة رحتمك ورفقك وشفقتك على عباد الله فهم يطمعون في قبولك عذرهم الفاسد ما لا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين ﴿المخلفون من الأعراب﴾ هم الذين خلفهم الله عن صحبة رسوله حين خرج عام الحديبية معتمراً قال مجاهد وغيره يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدئل ، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، وقيل تخلفوا عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم حين سافر الى مكة عـام الفتح ، بعـد أن كان قـد استنفرهم ليخرجوا معه وخافوا ان يكون قتال وقالوا : يذهب الى قوم قد غزوه في قعر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه يعنون بأحد ﴿ شغلتنـا اموالنـا وأهلونا ﴾ أي منعنا من الخروج معك ما لنا من الأموال والنساء والذراري وليس لنا من يقوم بهم ، ويخلفنا عليهم وإنا لو تركناهم لضاعوا .

﴿ فاستغفر لنا ﴾ ليغفر الله لنا ما وقع منا من التخلف عنك لهذا السبب ولما كان طلب الاستغفار منهم ليس عن اعتقاد بل على طريقة الاستهزاء وكانت بواطنهم مخالفة لظواهرهم فضحهم الله بقوله:﴿ يقولون بألسنتهم ﴾ من طلب الاستغفار وما قبله ﴿ ما ليس في قلوبهم ﴾ فهم كاذبون في إعتذارهم وفي طلب الإستغفار لهم وهذا هو صنيع المنافقين،والجملة مستأنفة لبيان ما تنطوي عليه بواطنهم أو بدل من الجملة الأولى ثم امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عنهم فقال :

﴿ قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً ؟ ﴾ أي فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير وشر ونفع وضر والاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد يقدر لأجلكم من مشيئته وقضائه فما في النظم مجاز عن هذا ثم بين ذلك فقال : ﴿ إن أراد بكم ضراً ﴾ أي إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل والقتل والهزيمة والعقوبة على التخلف قرأ الجمهور ضراً بفتح الضاد ، وهو مصدر ضررته ضراً وقرىء بضمها وهو اسم ما يضر وقيل لغتان وسبعيتان .

﴿ أو أراد بكم نفعاً ﴾ أي نصراً وغنيمة ، وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عنهم الضر ، ويجلب لهم النفع ، ثم أضرب سبحانه عن ذلك فقال:﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ أي إن تخلفكم ليس لما زعمتم ، بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم ، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك ، بل للشك والنفاق وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله ، ولهذا قال :

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ
وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ
أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ
مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ
إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن
تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا
يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن
قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً ﴾ وهذه الجملة مفسرة لما قبلها لما فيها من الإبهام ، أي بل ظننتم أن العدو يستأصل المؤمنين بالمرة ، فلن يرجع منهم أحد الى أهله لما في قلوبكم من عظمة المشركين ، وحقارة المؤمنين ، فلأجل ذلك تخلفتم،لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة .

﴿ وزين ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل ، وهو الشيطان ﴿ ذلك في قلوبكم ﴾ فقبلتموه ﴿ وظننتم ظن السوء ﴾ هو ان الله سبحانه لا ينصر رسوله ، وهذا الظن إما هو الظن الأول والتكرير للتأكيد والتوبيخ أو المراد به ما هو أعم من الأول فيدخل الظن الأول تحته دخولاً اولياً ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ قال الزجاج : هالكين عند الله وكذا قال مجاهد ، قال الجوهري : البور الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه ، قال ابو عبيدة: بوراً هلكى ، وهو جمع بائر مثل حائل وحول في المعتل وبازل وبزل في الصحيح وقد بار فلان اي: هلك ، وأباره الله أي أهلكه ، قيل : والبور الهلاك ، وهو مصدر أخبر به عن الجمع .

﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ هذا كلام مستأنف من جهة الله سبحانه ، غير داخل تحت ما أمر الله سبحانه رسوله أن يقوله أي:ومن لم يؤمن بهما كما صنع هؤلاء المخلفون فجزاؤهم ما أعده الله لهم من عذاب السعير ، والنار الشديدة ، وأقيم الظاهر مقام المضمر للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر مستوجب للسعير ، ونكر سعيراً لأنها نار مخصوصة ، كما نكر ناراً تلظى ، أو للتهويل .

﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء ، لا يحتاج الى أحد من خلقه ، وإنما تعبدهم ليثبت من أحسن ، ويعاقب من أساء ، ولهذا قال : ﴿ يغفر لمن يشاء ﴾ أن يغفر له ﴿ ويعذب من يشاء ﴾ أن يعذبه لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، وهذا حسم لأطماعهم الفارغة في إستغفاره صلى الله عليه وسلم لهم ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة ، بليغهما ، يختص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده وتقتضي الحكمة مغفرته من المؤمنين دون من عداهم من الكافرين فهم بمعزل عن ذلك قطعاً .

﴿ سيقول المخلفون ﴾ المذكورون ﴿ إذا انطلقتم ﴾ أي عند انطلاقكم أيها المسلمون ﴿ إلى مغانم ﴾ أي مغانم خيبر ﴿ لتأخذوها ﴾ أي لتحوزوها ﴿ ذرونا ﴾ أي :اتركونا ودعونا ﴿ نتبعكم ﴾ ونشهد معكم غزوة خيبر ، وأصل القصة أنه لما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست ، أقام بالمدينة بقيته وأوائل المحرم من سنة سبع ،وعدهم الله فتح خيبر وخص لغنائمها من شهد الحديبية ، فلما انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلفون : ذرونا نتبعكم ، فقال سبحانه : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ أي :يغيروه ، والمراد بهذا الكلام هو مواعيد الله لأهل الحديبية خاصة ، بغنيمة خيبر .

وقال مقاتل : يعني أمر الله لرسوله ألا يسير معه أحد منهم ، وقال ابن زيد هو قوله تعالى : ﴿ فإن رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معي ابداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ واعترض هذا

ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة ، والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة . ورجحه ابن جرير وغيره ، وعليه عامة أهل التأويل ، قرأ الجمهور كلام الله ، وقرىء كلم الله ، قال الجوهري : الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات ، لأنه جمع كلمة مثل نبق ونبقة ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يمنعهم من الخروج معه فقال :

﴿ قل : لن تتبعونا ﴾ هذا النفي هو بمعنى النهي للمبالغة ، والمعنى لا تتبعونا ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ أي :من قبل رجوعنا من الحديبية ان غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة ، ليس لغيرهم فيها نصيب ﴿ فسيقولون ﴾ يعني المنافقين عند سماع هذا القول ، وهو قوله : ﴿ قل لن ﴾ الخ ﴿ بل ﴾ إضراب عن محذوف هو مقول القول كما علمت ﴿ تحسدوننا ﴾ اي بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم في الغنيمة ، وليس ذلك حكماً من الله كما تزعمون ، ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ بل كانوا لا يفقهون الا قليلاً ﴾ أي :لا يعلمون إلا علماً قليلاً ، وهو علمهم بأمر الدنيا وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلا فقهاً قليلاً ، وهو ما يصنعونه نفاقاً بظواهرهم دون بواطنهم ، والفرق بين الإضرابين أن :

الأول : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم ، وإثبات الحسد .

والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد الى المؤمنين الى وصفهم بما هو أعم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه ، وفيه ان الجهل غاية في الذم ، وحب الدنيا ليس من شيمة العالم العاقل .

﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾ كرر ذكرهم بهذا الإسم مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف أي فذمهم مرة بعد أخرى كما أشار إليه في التقرير ﴿ ستدعون الى قوم أولي بأس شديد ﴾ قال عطاء بن ابي رباح ومجاهد وابن ابي ليلى وعطاء الخراساني : هم فارس وقال كعب والحسن وابن أبي ليلى : هم

الروم ، وروي عن الحسن ايضاً أنه قال : هم فارس والروم وقال سعيد بن جبير : هم هوازن وثقيف ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين .

وقال الزهري ومقاتل : هم بنو حنيفة اهل اليمامة أصحاب مسيلمة ، وحكى هذا القول الواحدي عن أكثر المفسرين ، وعن ابي هريرة : أنهم الأكراد وقال ابن عباس : هم فارس والروم وعنه قال : هوازن وبنو حنيفة ، يعني أهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف .

وقال ابو هريرة: لم يأت تأويل هذه الآية بعد وظاهر الآية يرده ، وفي هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر الصديق وعمر رضي الله تعالى عنهما لأن أبا بكر دعاهم الى قتال بني خنيفة وعمر دعاهم الى قتال فارس والروم ، قال الخازن : وأقوى هذه الأقوال أنهم هوازن وثقيف ، لأن الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبعدها أنهم بنو حنيفة ثم ذكر الدليل على صحة القول الأول ، وأطال فيه ولا يصح ؛ لأنه قال : ﴿ لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ فدل على أن المراد بالداعي غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ فلا تقاتلون اي يكون احد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام ، ولا ثالث لهما ، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية قال الزجاج : التقدير أو هم يسلمون ، وقرىء أو يسلموا أي حتى يسلموا ﴿ فإن تطيعوا ﴾ الى قتالهم ﴿ يؤتكم الله أجراً حسناً ﴾ وهو الغنيمة في الدنيا ، والجنة في الآخرة ﴿ وإن تتولوا ﴾ اي تعرضوا ﴿ كما توليتم من قبل ﴾ وذلك عام الحديبية ﴿ يعذبكم عذاباً اليماً ﴾ بالقتل والأسر والقهر في الدنيا ، وبعذاب النار في الآخرة لتضاعف جرمكم .

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ
رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ
ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ
تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

﴿ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ﴾ اي ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج في التخلف عن الغزو وترك الجهاد لعدم استطاعتهم ، قال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير الى الحديبية بهذه الآية ، والحرج الاثم .

وعن زيد بن ثابت قال : « كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإني لواضع القلم على أذني إذا أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال : كيف لي وأنا ذاهب البصر ؟ فنزلت ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الآية[1] ، قال : هذا في الجهاد وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا » ، أخرجه الطبراني ، قال السيوطي بسند حسن : وهذه أعذار صحيحة ظاهرة ، لأن أصحابهالا يقدرون على الكر والفر ، وهناك أعذار أخر ذكرها الخازن وغيره ، وموضعها كتب الفقه دون التفسير .

﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما أمراه به ونهياه عنه ، ومنه الجهاد ﴿ يدخله ﴾ بالياء وقرىء بالنون وهما سبعيتان ﴿ جنات تجري من تحتها

(١) صحيح الجامع الصغير .

الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذاباً اليماً ﴾ أي ومن يعرض عن الطاعة ، ويستمر على الكفر والنفاق يعذبه الله عذاباً شديد الألم ، كرر الوعيد لأن المقام أدعى للترهيب وفصل الوعد وأجمل الوعيد مبالغة في الوعد ، لكون الغفران والرحمة من دأبه بخلاف التعذيب ، ثم ذكر سبحانه الذين أخلصوا نياتهم وشهدوا بيعة الرضوان فقال :

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ أي رضي الله عنهم وقت تلك البيعة ، وهي بيعة الرضوان وكانت بالحديبية ، وهذه الشجرة هي سمرة كانت بها ، وقيل : سدرة ، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا وروي انه بايعهم على الموت واتى بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة والسمرة من شجر الطلح ، وجمهور المفسرين على ان المراد بالطلح في القرآن الموز ، وفي الصحيح عن ابن عمر ان الشجرة أخفيت ، والحكمة في ذلك أن لا يحصل الافتتان بها لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم الجهال لها ، حتى ربما اعتقدوا ان لها قوة نفع او ضر ، كما نشاهده الآن فيما دونها ، ولذلك اشار ابن عمر بقوله : كان خفاؤها رحمة من الله ، كذا في الفتح وشرح المواهب .

وعن نافع قال : « بلغ عمر بن الخطاب ان ناساً يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت » أخرجه ابن ابي شيبة في المصنف ، وقد تقدم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريباً ، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير ، وفي الباب احاديث ذكرها الخازن وغيره[1] ، والمعنى فعل بالراسخين في الايمان فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح ، وما قدر لهم من الثواب ، وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين فخذلهم في الدنيا ، مع ما أعد لهم في الآخرة ، فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور شاهدة ، ولأجل هذا الرضا سميت بيعة الرضوان .

---

(١) ابن حجر في الفتح ٣٤٥/٧ .

﴿ فعلم ﴾ الله ﴿ ما في قلوبهم ﴾ أي علم ما فيها من الصدق والوفاء ، قاله الفراء ، وقال قتادة وابن جريج : من الرضا بأمر البيعة على ان لا يفروا ، وقال مقاتل : من كراهة البيعة على الموت ﴿ فأنزل السكينة ﴾ اي الطمأنينة وسكون النفس والأمن كما تقدم ، وقيل : الصبر ﴿ عليهم ﴾ اي على المؤمنين المخلصين ، حتى ثبتوا وبايعوا على الموت . وعلى ان لا يفروا ، والآية تشير الى ان أهل بيعة الرضوان من اهل الجنة ، لأن رضوان الله موجب لدخولها والأحاديث الصحيحة تدل لذلك ، قال ابن عباس : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء .

﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ هو فتح خيبر عند انصرافهم من الحديبية ، قاله قتادة وابن ابي ليلى وغيرهما ، وقيل : فتح مكة والأول اولى .

﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها ﴾ اي وأثابهم مغانم كثيرة ، او أتاهم وهي غنائم خيبر وكانت ذات نخل وعقار واموال فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وقرىء بالتاء والالتفات لتشريفهم بالخطاب ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ أي غالباً مصدراً افعاله وأقواله على اسلوب الحكمة .

عن سلمة بن الأكوع قال : « بينا نحن قائلون اذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فثرنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة ، فبايعناه ، فذلك قوله تعالى : لقد رضي الله عن المؤمنين الآية فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف »[١] أخرجه ابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه .

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله صلى

---

(١) رواه البخاري .

الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قيل : على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال: على الموت »[1]وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال : « بايعناه على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت »

« وعن جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي .

وعنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة ، إلا صاحب الجمل الأحمر » أخرجه الترمذي واستغربه .

﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ في هذا وعد منه سبحانه لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم الى يوم القيامة يأخذونها في أوقاتها التي قدر وقوعها فيها . وقيل : الإلتفات الى الخطاب لتشريفهم في مقام الامتنان ، والخطاب لأهل الحديبية ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ أي غنائم خيبر قاله مجاهد وغيره ، وقيل : صلح الحديبية ، وهي في جنب ما وعدهم الله به من الفتوحات ، كالقليل من الكثير .

﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ أي أيدي قريش يوم الحديبية بالصلح وقيل : أيدي أهل خيبر وأبصارهم عن قتالكم وقذف في قلوبهم الرعب ، وقال ابن عباس : يعني أهل مكة أن يستحلوا حرم الله ، ويستحل بكم وانتم حرم وقال قتادة : كف ايدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم الى الحديبية وخيبر ورجح هذا ابن جرير ، قال : لأن كف أيدي الناس بالحديبية مذكور في قوله : وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وقيل : الناس يعني عيينة بن حصن الفزاري ، وعوف بن مالك النضري ، ومن كان معهما إذ جاؤوا لينصروا اهل خيبر عند حصار النبي صلى الله عليه وسلم لهم .

(١) رواه البخاري .

﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ أي فعل ما فعل من التعجيل والكف لتكون آية لهم ، أو وعد ، فعجل وكف لتنتفعوا بذلك ، ولتكون آية . وقيل : إن الواو مزيدة واللام للتعليل لما قبلها اي: وكف لتكون والمعنى: ذلك الكف آية يعلم بها صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع ما يعدكم به ، وقال ابن عباس : اي: سنة لمن بعدكم ، وقيل : عبرة يعرفون بها أنهم من الله عز وجل بمكان ، وأنه ضامن نصرتهم ، والفتح عليهم ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ اي: يزيدكم بتلك الآية هدى وبصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله تعالى ، ويثبتكم على الهداية الى طريق الحق بصلح الحديبية ، وفتح خيبر ، وقيل : طريق التوكل عليه ، وتفويض الأمر اليه تعالى ، لأن الحاصل من الكف ليس إلا ذلك ، ولأن أصل الهدى حاصل قبله .

﴿ وأخرى ﴾ اي :فعجل لكم هذه المغانم ، ومغانم اخرى ، ويجوز فيها أوجه ذكرها السمين وغيره ﴿ لم تقدروا عليها ﴾ وهي الفتوح التي فتحها الله على المسلمين من بعد ، كفارس والروم ونحوهما ، كذا قال الحسن ومقاتل وابن ابي ليلى ، وقال الضحاك وابن زيد وابن إسحق : هي خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها ، وقال قتادة : فتح مكة ، وقال عكرمة : حنين ، والأول أولى ، وقال ابن عباس : هذه الفتوح التي تفتح الى اليوم ، وعنه قال : هي خيبر ، وقيل : فتح بلدة أخرى مطلقاً ، وقيل : مغانم هوازن في غزوة حنين .

﴿ قد أحاط الله بها ﴾ صفة ثانية لأخرى قال الفراء : أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها ، والمعنى أنه أعدها لهم وجعلها كالشيء الذي قد أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لا يفوت منه شيء فهم وإن لم يقدروا عليها في الحال فهي محبوسة لهم ، لا تفوتهم وقيل:المعنى إنه أحاط علمه بأنها ستكون لهم ﴿ وكان الله على كل شيء ﴾ من فتح القرى والبلدان ﴿ قديراً ﴾ لا يعجزه شيء ولا تختص قدرته ببعض المقدورات دون بعض .

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن
يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم
مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ قال قتادة : يعني كفار قريش بالحديبية وأهل مكة وقيل : اسد وغطفان الذين ارادوا نصر اهل خيبر والأول أولى ﴿ ثم لا يجدون ولياً ﴾ يواليهم على قتالكم ويحرسهم ﴿ ولا نصيراً ﴾ ينصرهم عليكم ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ﴾ اي طريقته وعادته التي قد مضت في الأمم من نصر اوليائه على أعدائه ، وهو قوله : ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ، وانتصاب سنة على المصدرية بفعل محذوف أي سن الله سنة أو هو مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة من هزيمة الكفار ونصر المؤمنين ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ اي تغييراً بل هي مستمرة ثابتة .

﴿ وهـو الذي كف أيـديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ أي كف أيـدي المشركين عن المسلمين وأيدي المسلمين عن المشركين لما جاؤوا يصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه عن البيت عام الحديبية ، وهي المـراد بقوله : ببطن مكة ، لأن أكثرها من الحرم ﴿ من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ أي أقدركم وسلطكم .

لما روي . «أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من هزمه وأدخله حيطان مكة»، وعن ابن عباس أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت، وقيل: المعنى هو الذي قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك يوم الفتح ، وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً ، والمراد على هذا ببطن : مكة.

﴿ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء ، قرىء بالتاء وبالياء وهما سبعيتان .

عن أنس قال : « لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية » أخرجه ابن شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وغيرهم .

وفي صحيح مسلم وغيره « أنها نزلت في نفر أسرهم سلمة بن الأكوع يوم الحديبية »

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه ، وغيرهم في سبب نزول الآية : « أن ثلاثين شاباً من المشركين خرجوا يوم الحديبية على المسلمين في السلاح ، فثاروا في وجوههم ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأسماعهم ، ولفظ الحاكم: بأبصارهم ، فقام إليهم المسلمون فأخذوهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل جئتم في عهد أحد؟أو هل جعل لكم أحد أماناً ؟ فقالوا :لا،فخلى سبيلهم ، فنزلت هذه الآية » .

﴿ هم الـذين كفروا ﴾ يعني: كفـار قريش ﴿ وصـدوكم عن المسجـد الحرام ﴾ أي عن الوصول إليه ، ومعنى الصد أنهم منعوهم أن يطوفوا بالمسجد الحرام ، ويحلوا عن عمرتهم ﴿ والهدي معكوفاً ﴾ أي محبوساً ، قرأ الجمهور بنصب الهدي عطفًا على الضمير المنصوب في صـدوكم ، وقرىء عطفاً على المسجد ، ولا بد من تقدير مضاف ، أي عن نحر الهدي ، وقرىء بالرفع على تقدير وصد الهدي ، وقرأ الجمهور بفتح الهاء من الهدي وسكون الدال ، وقرىء بكسرها وتشديد الياء ، وانتصاب معكوفاً على الحال من الهدي ، قال الجوهري: عكفه أي حبسه ووقفه ، ومنه و﴿ الهدي معكوفاً ﴾ ومنه الاعتكاف في المسجد . وهو الاحتباس ، وعكف على الشيء أقبل عليه مواظباً ، وقال أبو عمرو بن العلاء ؛ معكوفاً مجموعاً . وأنكر الفارسي تعدية عكف بنفسه ، وأثبتها ابن سيده والأزهري وغيرهما ، وهو ظاهر القرآن لبناء اسم المفعول منه .

﴿ أن يبلغ محله ﴾ أي عن أن يبلغ محله ، أو مفعول لأجله ، والمعنى صدوا الهدي كراهة أن يبلغ محله ، ومحله منحره ، وهو حيث يحل نحره من الحرم ، أو هو بدل اشتمال من الهدي ، وكان الهدي سبعين بدنة ، وقال ابن عباس : نحروا يوم الحديبية سبعين بدنة ، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها ، ورخص الله سبحانه لهم بجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه وهو الحديبية محلاً للنحر ، فلا ينتهض حجة للحنفية على أن مذبح هدي المحصر هو الحرم ، وللعلماء في هذا الكلام معروف في كتب الفروع .

﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة ﴿ لم تعلموهم ﴾ أي لم تعرفوهم ، وقيل : لم تعلموا أنهم مؤمنون ﴿ أن تطأوهم ﴾ أي بالقتل ، والإيقاع بهم يقال : وطأت القوم أي أوقعت بهم ، وذلك أنهم لو كبسوا مكة وأخذوها عنوة بالسيف لم يتميز المؤمنون الذين هم

فيها من الكفار ، وعند ذلك لا يأمنون أن يقتلوا المؤمنين فتلزمهم الكفارة وتلحقهم سبة ، وهو معنى قوله : ﴿ فتصيبكم منهم ﴾ أي من جهتهم ﴿ معرة ﴾ أي مشقة ، بما يلزمكم في قتلهم من كفارة وعيب ، وأصل المعرة العيب ، مأخوذ من العر وهو الجرب .

وذلك أن المشركين سيقولون : إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم ، قال الزجاج : معرة أي إثم ، وكذا قال الجوهري ، وبه قال ابن زيد ، وقال الكلبي ومقاتل وغيرهما : المعرة كفارة قتل الخطأ ، كما في قوله ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ ، لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة ، دون الدية ، وقال ابن إسحق : المعرة غرم الدية ، وقال قطرب : المعرة الشدة وقيل الغم ، وقيل : هي مفعلة من عره بمعنى عراه إذا دهاه ما يكرهه ويشق عليه .

﴿ بغير علم ﴾ متعلق بأن تطأوهم أي غير عالمين ، وجواب لولا محذوف والتقدير : لأذن الله لكم ، أو لما كف أيديكم عنهم ﴿ ليدخل الله ﴾ اللام متعلقة بما يدل عليه الجواب المقدر ، أي ولكن لم يأذن لكم ، أو كف أيديكم عنهم ، ليدخل الله ﴿ في رحمته ﴾ بذلك أي في توفيقه لزيادة الخير في الإسلام ﴿ من يشاء ﴾ من عباده وهم المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا في مكة ، فيتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار ، ويفك أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب ، وقيل اللام متعلقة بمحذوف غير ما ذكر ، والتقدير لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته والأول أولى .

وقيل إن : (من يشاء) عبارة عمن رغب في الإسلام من المشركين .

عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال : « قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار كافراً وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وفينا نزلت ولولا رجال

إلخ وكنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتان »

وفي رواية ابن أبي حاتم « كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة » ، أخرجه الطبراني وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن قانع والبارودي والطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي . بسند جيد ، وعن ابن عباس في الآية قال : حين ردوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تطأوهم بقتلكم إياهم .

﴿ لو تزيلوا ﴾ التزيل التميز أي لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا منهم ، قاله العتبي ، وقال الكلبي لو تفرقوا ، وقيل لو زال الذين آمنوا من بين أظهرهم والمعاني متقاربة،قرأ الجمهور لو تزيلوا،وقرىء لو تزايلوا والتزايل التباين ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم ﴾ أي من أهل مكة حينئذ بأن نأذن لكم في فتحها ﴿ عذاباً أليماً ﴾ قال القاضي بالقتل والسبي ، وهو الظاهر ، لأن المراد من تعذيبهم التعذيب الدنيوي الذي هو تسليط المؤمنين عليهم وقتالهم ، فإن عدم التمييز لا يوجب عدم عذاب الآخرة ، أفاده على القاري ، قال ابن عباس : لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلكم إياهم ، قال قتادة : إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار ، كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة .

﴿ إذ جعل ﴾ أي : اذكر وقت أن جعل ﴿ الذين كفروا في قلوبهم الحمية ﴾ أي:اضمروها وأصروا عليها ، والحمية الأنفة يقال فلان ذو حمية أي: ذو أنفة وغضب وتكبر وتعاظم ، أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ، والجعل بمعنى الإلقاء ﴿ حمية الجاهلية ﴾ بدل من الحمية ، قال مقاتل بن سليمان ، ومقاتل بن حيان : قال أهل مكة :قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا في منازلنا فتتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفسنا ، واللات والعزى لا يدخلونها علينا فهذه الحمية هي حمية الجاهلية ، التي دخلت في قلوبهم .

وقال الزهري : حميتهم أنفتهم من الاقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة وقال الخطيب : حمية الجاهلية هي التي مدارها مطلق المنع ، سواء كان بحق أو باطل ، فتمنع من الإذعان للحق ، ومبناها على التشفي على مقتضى الغضب لغير الله ، فتوجب تخطي حدود الشرع ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء .

﴿ فأنزل الله سكينته ﴾ أي الطمأنينة والوقار ﴿ على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية ، وقيل : ثبتهم على الرضا والتسليم .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : « اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ وهم على الباطل؟أليس قتلانا في الجنة ؟ وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى ، قال ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال:يا ابن الخطاب إني رسول الله ولم يضيعني الله أبداً ، فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال:يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال:بلى،قال:أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار،قال:بلى.قال : ففيم نعطي الدنية في ديننا؟ قال:يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولم يضيعه الله ابداً فنزلت سورة الفتح ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمر فأقرأه إياها ، قال: يا رسول الله أفتح هو؟قال: نعم » .

﴿ وألزمهم ﴾ أي أختار لهم ، فهو إلزام تشريف وإكرام ﴿ كلمة التقوى ﴾ من الشرك وهي لا إله إلا الله ، كذا قال الجمهور ؛ وزاد بعضهم

محمد رسول الله وزاد بعضهم وحده لا شريك له ، وقال الزهري : هي بسم الله الرحمن الرحيم،وذلك أن الكفار لم يقروا بها ، وامتنعوا من كتابتها في كتاب الصلح الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت ذلك في كتب الحديث والسير ، فخص الله بهذه الكلمة المؤمنين وألزمهم بها والأول أولى ، لأن كلمة التوحيد هي التي يتقى بها الشرك بالله،وقيل : كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد والثبات عليه .

عن أُبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وألزمهم كلمة التقوى قال لا إله إلا الله » أخرجه أحمد وابن جرير والدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، والترمذي وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه أي:الحسن بن قزعة ، وكذا قال أبو زرعة ، وأخرج ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع مرفوعاً مثله ، وعن علي بن أبي طالب مثله من قوله ، ومن قول عمر ابن الخطاب نحوه ، وعن ابن عباس نحوه ، وعن مسور بن مخرمة ومروان نحوه ، وروي عن جماعة من التابعين نحو ذلك .

﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ عطف تفسيري ، أي وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار ، والمستأهلين لها دونهم في علم الله تعالى ، لأن الله سبحانه أهلهم لدينه ، وأختارهم لصحبه رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ أي من أمر الكفار وما كانوا يستحقونه من العقوبة وأمر المؤمنين وما كانوا يستحقونه من الخير .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن
دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ
عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى
وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ
شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا ﴾ أي: جعل رؤياه صادقة محققة ولم يجعلها أضغاث أحلام وإن كان تفسيرها لم يقع إلا بعد ذلك في عمرة القضاء قال الواحدي ، قال المفسرون : إن الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه وسلم في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية كانه هو وأصحابه حلقوا وقصروا ، فأخبر بذلك أصحابه ، ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك ، فلما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام فأنزل الله هذه الآية ، وقيل إن الرؤيا كانت بالحديبية[1] .

﴿ بالحق ﴾ متعلق بصدق أي صدقة فيما رأى وفي كونه وحصر له صدقاً متلبساً بالحق ، أي بالحكمة البالغة وذلك ما فيه من الإبتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص وبين من في قلبه مرض ، ويجوز أن يكون بالحق قسماً إما بالحق الذي هو نقيض الباطل ، أو بالحق الذي هو من أسمائه سبحانه وجوابه ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ﴾ في العام القابل ، وعلى الأول هو جواب قسم

(١) زاد المسير ٤٤٣ .

محذوف ﴿ إن شاء الله ﴾ تعليق للعـدة بالمشيئـة لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه ، كما في قوله: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ قال ثعلب : إن الله استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون ، وقيل : كأن الله سبحانه علم أنه يموت بعض هؤلاء الذين كانوا معه في الحديبية ، فوقع الإستثناء لهذا المعنى ، قاله الحسن بن الفضل ، وقيل : معنى إن شاء الله كما شاء الله وقال أبو عبيدة : إن بمعنى إذ يعني إذ شاء الله حيث أرى رسوله ذلك .

﴿ آمنين ﴾ حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض ، والمعنى : آمنين في حال الدخول ، لا تخافون عدوكم أن يخـرجكم في المستقبل ﴿ محلقـين رؤوسكم ومقصرين ﴾ أي محلقاً بعضكم جميع الشعور ، ومقصراً بعضكم ، والحلق والتقصير خاص بالرجال ، والحلق أفضل من التقصير ، كما يدل على ذلك الحديث الصحيح في استغفاره صلى الله عليه وسلم للمحلقين في المرة الأولى والثـانية ، والقـائل يقـول لـه : وللمقصـرين ، فقـال في الثـالثـة : وللمقصرين ، وقد ورد في الدعاء للمحلقين والمقصرين في البخاري ومسلم وغيرهما أحاديث منها ما قدمنا الإشارة إليه وهو من حديث ابن عمر ، وفيهما من حديث أبي هريرة أيضاً[1] .

﴿ لا تخافون ﴾ مستأنف ، وفيه زيادة تأكيد لما قد فهم من قوله آمنين فلا تكرار .

﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ معطوف على صدق ، أي صدق رسوله الرؤيا ، فعلم ما لم تعلموا من المصلحة في الصلح ، لما في دخـولكم في عام الحديبية من الضـرر على المستضعفـين من المؤمنين ﴿ فجعـل من دون ذلك ﴾ أي دخولكم مكة كما أرى رسوله ﴿ فتحاً قريباً ﴾ ليقويكم به ، فإنه كان موجباً

---

(١) زاد المسير/ ٤٤٤ .

لإسلام كثير،قال اكثر المفسرين : هو صلح الحديبية ، وقال ابن زيد والضحاك : فتح خيبر ، وتحققت الرؤيا في العام القابل ، وقال الزهري : لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ، ولقد دخل في تلك السنين في الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك ، بل أكثر ، فإن المسلمين كانوا في سنة ست وهي سنة الحديبية ألفاً وأربعمائة وكانوا في سنة ثمان عشرة آلاف وقيل : هو فتح مكة .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ﴾ أي إرسالاً متلبساً بالهدى ﴿ ودين الحق ﴾ وهو الإسلام ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي :يغلبه ويعليه على كل الأديان ، بنسخ ما كان حقاً ، وإظهار فساد ما كان باطلاً ، كما يفيده تأكيد الجنس ، وقيل : ليظهر رسوله ، والأول أولى ، وقد كان ذلك بحمد الله ، فإن دين الإسلام قد ظهر على جميع الأديان ، وانقهر له كل أهل الملل ، ولا ترى ديناً قط إلا وللاسلام دونه العز والغلبة ، وقيل : هو عند نزول عيسى عليه السلام حين لا يبقى على وجه الأرض كافر ، وقيل هو إظهاره بالحجج والآيات والأول أولى ، وفي هذا تأكيد لما وعده من الفتح ﴿ وكفى بالله ﴾ الباء زائدة ﴿ شهيداً ﴾ على الإظهار الذي وعد المسلمين به ، وعلى صحة نبوة نبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ محمد رسول الله ﴾ الجملة مبينة لما هو من جملة المشهود به ﴿ والذين معه ﴾ من المؤمنين ، وقيل : هم أصحاب الحديبية ، والأولى الحمل على العموم ﴿ أشداء على الكفار ﴾ أي غلاظ عليهم ، كما يغلظ الأسد على فريسته ، وهو جمع شديد لا تأخذهم بهم رأفة ، لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ، فلا يرحمونهم ﴿ رحماء بينهم ﴾ أي متوادون متعاطفون ، كالوالد مع الولد ، وهو جمع رحيم والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ، ولمن وافقهم الرحمة والرأفة ، ونحوه قوله : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ .

قال الحسن : بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم وتمسها،ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وتلزق بها،وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه ، ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التذلل ، وهذا التعطف ، فيشددوا على من ليس من دينهم ، ويعاشروا إخوانهم المؤمنين في الإسلام ، متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى والاحتمال منهم ، قرأ الجمهور برفع أشداء ورحماء على أنه خبر للموصول ، وقرىء بنصبهما على الحال ، أو على المدح ، ويكون الخبر على هده القراءة قوله : ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ أي تشاهدهم وتبصرهم حال كونهم راكعين ساجدين ، أخبر عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها .

﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ أي:يطلبون ثواب الله لهم ، ورضاه عنهم ، وفيه لطيفة ان المخلص بعمله لله يطلب أجره من الله ، والمرائي بعمله لا ينبغي له أجر ، وذكر بعضهم في الآية والذين معه أبا بكر الصديق أشداء على الكفار عمر بن الخطاب ، رحماء بينهم عثمان بن عفان ، تراهم ركعاً سجداً علي بن أبي طالب ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً بقية الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ السيما:العلامة ، وفيها لغتان المد والقصر ، أي:يظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة لكثرة التعبد بالليل والنهار ، وقال الضحاك : إذا سهر الرجل أصبح مصفرا فجعل هذا هو السيما ، وقال الزهري : مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً ، وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع وبالأول ـ أعني كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود ـ قال سعيد بن جبير ومالك ، وقال ابن جريج : هو الوقار وقال الحسن : إذا رأيتهم رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل : هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار عليه ، وبه قال سفيان الثوري ، قال ابن عباس : أما إنه ليس الذي ترونه ، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه ، وعنه قال : هو السمت الحسن .

وعن أبي بن كعب قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : سيماهم الخ النور يوم القيامة » أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير ، وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند حسن .

وعن ابن عباس قال : « بياض يغشى وجوههم يوم القيامة » ، قال عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس ، قال البقاعي ولا يظن أن من السيما ما يصنعه بعض المرائين من أثر هيئة السجود في جبهته فإن ذلك من سيماء الخوارج .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إني لأبغض الرجل وأكرهه إذا رأيت بين عينيه أثر السجود » ، ذكره الخطيب ولينظر في سنده .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من هذه الصفات الجليلة ﴿ مثلهم ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن الذي وصفوا به ﴿ في التوراة ﴾ ﴿ ومثلهم ﴾ أي وصفهم الذي وصفوا به ﴿ في الإنجيل ﴾ تكرير ذكر المثل لزيادة تقريره ، وللتنبيه على غرابته ، وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة ، قال ابن عباس : أي نعتهم مكتوب في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق الله السموات والأرض .

﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾ كلام مستأنف ، أي هم كزرع ، وقيل : هو تفسير لذلك على أنه إشارة مبهمة لم يرد به ما تقدم من الأوصاف ، وقيل هو خبر لقوله مثلهم في الإنجيل ، أي:ومثلهم في الإنجيل كزرع قال الفراء : فيه وجهان .

إن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ، يعني كمثلهم في القرآن فيكون الوقف على الإنجيل .

وإن شئت قلت ذلك مثلهم في التوراة ثم تبتدي ومثلهم في الإنجيل كزرع،قرأ الجمهور شطأه بسكون الطاء وقرىء بفتحها وهم سبعيتان وقرىء شطاه كعصاه.وقرىء شطه بغير همز،وكلها لغات قال الأخفش والكسائي :

شطأه أي طرفه قال الفراء : شطأ الزرع فهو مشطىء إذا خرج قال الزجاج : أخرج شطأه أي نباته وقال قطرب : الشطء سوي السنبل ، وعن الفراء : هو السنبل وقال الجوهري : شطء الزرع والنبات فراخه والجمع أشطاء ، وقد أشطأ الزرع خرج شطؤه وقال أنس : نباته فروخه .

﴿ فآزره ﴾ أي قواه وشده وأعانه وقيل إن المعنى أن الشطء قوى الزرع قاله السمين وقيل : إن الزرع قوى الشطء وبه قال النسفي وهو أنسب فإن العادة أن الأصل يتقوى بفروعه فهي تعينه وتقويه قرأ الجمهور فآزره بالمد وقرىء بالقصر وهما سبعيتان قال الفراء : أزرت فلاناً أزره أزراً إذا قويته ﴿ فاستغلظ ﴾ أي صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان دقيقاً فهو من باب استحجر الطين،أو المراد المبالغة في الغلظة كما في استعصم ونحوه وإيثار الأول لأن بناء الساق على التدرج .

﴿ فاستوى على سوقه ﴾ أي فاستقام على أعواده والسوق جمع ساق وقرىء سؤقه بالهمزة الساكنة ﴿ يعجب الزراع ﴾ أي يعجب هذا الزرع زراعه لقوته وحسن منظره وهنا تم المثل قاله السمين (قلت) وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع فإنه يكون في الابتداء ضعفياً ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه قال قتادة مثل اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب فيه؛أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وعن عكرمة : أخرج شطأه بأبي بكر ، فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان ، فاستوى على سوقه بعلي ، وهذا ونحوه ما تقدم ليس بتفسير للقرآن بل من لطائف الكلام .

وعن بعض الصحابة أنه لما قرأ هذه الآية قال : تم الزرع وقد دنا حصاده ، قلت : وهذا المثل الذي أشار إليه القرآن موجود في إنجيل متى ولوقا وترجمته بالعربية انظروا إلى زارع خرج للزرع ، وبينما هو يزرع سقط بعض

البذر في الطريق فجاءت الطيور ولقطته وسقط بعضه على الصخر حيث لم يكن التراب كثيراً ، وفي ساعته نبت لأنه لم يكن له في الأرض عمق ، ولما طلعت الشمس احترق ويبس لأنه لم يكن له أصل وسقط بعضه في الشوك فنما الشوك وخنقه وسقط بعضه في الأرض الطيبة وأثمر بعضه مائة ضعف وبعضه ستين وبعضه ثلاثين ، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع انتهى .

وهذا هو معنى الآية الكريمة بعينه وهذا في بعض أمثالهم في الإنجيل وقد غفل عنه النصارى وأولوه بتأويل ضعيف وقالوا : إن هذا المثل فيمن يعمل الخير ويسمع المواعظ وجعلوه من التهذيب ، ولم يفكروا في قوله : فمن كانت له أذن سامعة فليستمع فإن فيه من الكناية ما لا يوجد في غيره ، وذلك أن الذين أصفهم لكم في مثل هذا ليسوا بحاضرين حتى تستطيعوا أن تروهم . لكنكم اسمعوا كلامي هذا إن كانت لكم أذن واعية ، وحدثوا به وأودعوه صفحات الكتب حتى يبلغ الكلام أجله .

وقوله سقط بعضه على الطريق الخ إشارة إلى النواميس التي وقعت في أيدي الفلاسفة اليونانيين الذين قلوبهم لا قابلية لها ، أن تكون ظرفاً لمفهوم النواميس ، لأن النواميس لم تصدر عن المبدىء جل اسمه إلا على سبيل السذاجة ، فلا تؤثر في قلوبهم ، لأنها لا تستقيم فيها ، فيأتي الشيطان ويخطفها من قلوبهم بشبهاته السفسطية ، وقوله سقط بعضه على الصخرة الخ إشارة إلى النواميس التي وقعت في أيدي اليهود ، لأن قلوبهم كانت أقسى من الصخرة في قبولها ، فلم تكن قابلة لأخذها ، بل كانوا يتفوهون بها إلى مدة يسيرة ، وهي تحولها من أيديهم إلى أيدي النصارى ، وذلك هو طلوع الشمس فلما لم يذعنوا لما آتاهم به عيسى زال ما كان قد ألقى إليهم من ذلك من قلوبهم ، واضمحل ، كما يزول النبت المزروع على الصخرة بحرارة الشمس .

وقوله وبعضه وقع في الشوك الخ إشارة إلى النواميس التي وقعت في أيدي النصارى ، والشوك عبارة عن مشتبهات الأمور التي كانت تصدر عن

عيسى عليه السلام ، كإحياء الميت وإشفاء المريض وإعادة بصر الأكمه وسمع الأصم ونطق الأبكم التي هي من خوارق العادة ، ونمو الشوك إزدياد هذه الأمور واختناقها زوال الإعتقاد بموضوعاتها ، قوله : وسقط بعضه في الأرض الطيبة الخ برهان قاطع ، ودليل لامع ساطع على النواميس التي وقعت في أيدي العرب على معرفة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، لأن قلوبهم كانت ساذجة لائقة أن تكون لها ظرفاً .

قوله : وأثمر ، المراد بمطلق الإثمار أبو بكر، بعضه مائة ضعف عمر ، وبعضه ستون عثمان، وبعضه ثلاثون علي، ونسبة الإثمار إلى أبي بكر لاستقلال الخلافة في أيامه، ونسبة مائة إلى عمر لنمو الإسلام في عهده، ونسبة ستين إلى عثمان لإنخفاض ضعف ذلك النمو ، الذي حصل في أيام عمر ، ونسبة ثلاثين إلى علي لأنه هو آخر الخلفاء وخاتمهم .

ومصداق لقوله صلى الله عليه وسلم : « الخلافة بعدي ثلاثون عاماً »[1] ، وفيه مطابقة مع ما روي عن عكرمة في قوله : أخرج زرعه بأبي بكر فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي ، وقد تقدم .

وتكرره في لوقا ضرب من لطيف التأكيد ، فإن قيل : لم لا يحمل على ما حمله عليه النصارى ، فيكون المراد بالزراع عمل الخير ، وبالإثمار مطلق الجزاء ، قلت إنه لا يجوز الحمل على هذا المعنى لوجوه:

الأول: أنا قد وجدنا ذلك في القرآن والمطابقة لازمة .

والثاني: أن التعريف يفيد العهد ، والعهد يفيد التخصيص والتخصيص

(١) مسلم

يباين العموم فيفيد ما ذكرته فلا يفيد ذلك وهذا برهان مقنع لمن كانت له أذن واعية من النصارى والمسلمين . ويجوز أن يراد بالزراع الشارع صلى الله عليه وسلم ، وبالأرض الأمة،وبالبذر الإيمان،على حسب مراتب المؤمنين ، وبالنوع الأخير خيار الأمة على حسب مراتبهم ثم ذكر سبحانه علة تكثيره لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ، وتقويته لهم وتشبيههم بالزرع فقال :

﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ أي إنما كثرهم وقواهم ليكونوا غيظاً للكفار واللام متعلقة بمحذوف ، أي فعل ذلك ليغيظ قيل : هو قول عمر بن الخطاب لأهل مكة بعدما أسلم : لا يعبد الله سراً بعد اليوم ، وقال مالك بن أنس : من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخصوص والعموم ، ليس هذا محل بسطها .

﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ أي وعد سبحانه هؤلاء الذين مع محمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم ، ويجزل أجرهم ، بإدخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة ، وأعظم منة ، ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض وهذه الآية ترد قول الروافض أنهم كفروا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون لو أن ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته صلى الله عليه وسلم ، قال الجلال المحلي : وهما أي المغفرة والأجر لمن بعدهم أيضاً في آيات أي بعد الصحابة من التابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، كقوله تعالى : سابقوا إلى مغفرة من ربكم إلى قوله أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ونحو ذلك من الآيات .

﴿ خاتمة ﴾ قد جمعت هذه الآية وهي : ﴿ محمد رسول الله ﴾ إلى آخر السورة جميع حروف المعجم ، وفي ذلك بشارة تلويحية مع ما فيها من البشارة التصريحية باجتماع أمرهم ، وعلو نصرهم ، رضي الله تعالى عنهم وحشرنا

معهم وهذا من لطائف النظم القرآني ، وهذا آخر القسم الأول من القرآن وهو المطول وقد ختم كما ترى بسورتين هما في الحقيقة للنبي صلى الله عليه وسلم وحاصلهما الفتح بالسيف والنصر على من قاتله ظاهراً ، كما ختم القسم الثاني المفصل بسورتين هما نصرة له صلى الله عليه وسلم بالحال على من قصده بالضر باطناً .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجرات

﴿ ثماني عشرة آية وهي مدنية ﴾

قال القرطبي: بالاجماع قال ابن عباس وابن الزبير: انها نزلت بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ
أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ذكر هذا اللفظ في هذه السورة خمس مرات ، والمخاطب فيه المؤمنون ، والمخاطب به أمر أو نهي ، وذكر فيها يا أيها الناس مرة والخطاب فيها يعم المؤمنين والكافرين ، كما أن المخاطب به وهو قوله إنا خلقناكم من ذكر وأنثى يعمهما ، فناسب فيها ذكر الناس ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الدال مكسورة وفيه وجهان :

أحدهما: أنه متعد ، وحذف مفعوله لقصد التعميم ، أو ترك المفعول للقصد الى نفس الفعل كقولهم : هو يعطي ويمنع .

والثاني: أنه لازم ، نحو وجه وتوجه ، ويعضده قراءة تقدموا بفتح التاء والقاف والدال ، قال الواحدي : قدم ههنا بمعنى تقدم وهو لازم ، قال ابو عبيدة العرب تقول : لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب ، اي :لا تعجل بالأمر دونه ، والنهي لأن المعنى لا تقدموا قبل أمرهما ونهيهما ، وبين يدي الإمام عبارة عن الأمام لا بين يدي الإنسان،وقرىء بضم التاء وكسر الدال من أقدم اي لا تقدموا على شيء ومعنى الآية لا تقطعوا امراً دون الله ورسوله ولا تعجلوا به .

وقيل : معنى بين يدي فلان بحضرته ، لأن ما يحضره الانسان فهو بين

يديه وقيل : لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، وهو الأظهر والأشمل وجرت هذه العبارة اي بين يدي الله ورسوله هنا على سنن من المجاز وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً اي استعارة تمثيلية ، والغرض تصوير كمال الهجنة وتقبيح قطع الحكم بغير إذن الله ورسوله أو المراد بين يدي رسول الله وذكر لفظاً لله تعظيماً للرسول وإشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله وعلى هذا فلا استعارة ، واليه يميل كلام المحلي .

وقال الشهاب : في هذا الكلام تجوزان ، أحدهما في : بين اليدين ، فإن حقيقته ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال القريبتين منه ، بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما ، فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة وهي التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن تلزمه متابعته ، والمعنى كما قال الخازن : لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله ، أو قبل ان يفعل ، وفي البيضاوي ، المعنى : لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم الله ورسوله به انتهى ؛ وقطع الأمر الجزم به ، والجرأة على ارتكابه من غير إذن من له الإذن .

﴿ واتقوا الله ﴾ في كل أموركم ويدخل تحتها الترك للتقدم بين يدي الله ورسوله دخولاً أولياً ، ثم علل ما أمر به من التقوى بقوله: ﴿ إن الله سميع ﴾ لكل مسموع ﴿ عليم ﴾ بكل معلوم .

عن عبد الله بن الزبير قال : قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي فقال عمر: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ ، حتى انقضت الآية »[١] ، أخرجه البخاري وغيره قال ابن عباس نهوا ان يتكلموا بين يدي كلامه ، وهذا يشمل معارضة السنة والكتاب بالرأي ، والتقليد ايضاً .

(١) البخاري ٨/٤٥٤ .

وعن عائشة قالت : « لا تصوموا قبل ان يصوم نبيكم[٢] .

وأخرج البخاري في تاريخه عنها قالت : « كان أناس يتقدمون بين يدي رمضان بصيام يعني يوماً أو يومين فأنزل الله هذه الآية ﴾ . .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ في إعادة النداء فوائد ، منها أن في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كقول لقمان لابنه : ﴿ يا بني لا تشرك بالله ﴾ ، لأن النداء تنبيه للمنادى ، ليقبل على استماع الكلام ، ويجعل باله منه ، فإعادته تفيد تجدد ذلك ، ومنها ان لا يتوهم أن المخاطب ثانياً غير المخاطب اولاً ، ومنها ان يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود ، وليس الثاني تأكيداً للأول .

﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت ، لأن ذلك يدل على قلة الإحتشام ، وترك الاحترام ، لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير ، ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام ، ومزيد اللغط ، والأول اولى ، والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم إلى حد يكون فوق ما يبلغه صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، قال المفسرون : المراد من الآية تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وأن لا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً وهذا نهي عن قول ، كما أن قوله : ﴿ لا تقدموا ﴾ نهي عن فعل .

عن أبي بكر الصديق قال : « لما أنزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك الا كأخي السرار » وفي سنده حصين بن عمر وهو ضعيف ، ولكنه يؤيده .

ما روي عن ابي هريرة قال : « لما انزلت : ﴿ إن الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله ﴾ قال أبو بكر : والذي انزل عليك الكتاب يا رسول الله لا اكلمك إلا كأخي السرار حتى القى الله » .

(٢) السيوطي في الدر ٦/٨٤ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما . عن أنس قال : « لما نزلت هذه الآية الى قوله : ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حبط عملي انا من أهل النار وجلس في بيته حزيناً ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا : فقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لك ؟ فقال : انا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ، وأجهر له بالقول ، حبط عملي انا من أهل النار ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك ، فقال : لا بل هو من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة قتل » ، وفي الباب أحاديث بمعناه وعن ابن مسعود قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس(١) .

﴿ ولا تجهروا له بالقول ﴾ إذا كلمتموه ﴿ كجهر بعضكم لبعض ﴾ اي كما تعتادونه من الجهر بالقول اذا كلم بعضكم بعضاً ، قال الزجاج : امرهم الله سبحانه بتجليل نبيه صلى الله عليه وسلم . وأن يغضوا أصواتهم ويخاطبوه بالسكينة والوقار . وقيل : المراد بقوله : ولا تجهروا له بالقول لا تقولوا : يا محمد ، يا أحمد ، ولكن يا نبي الله ، ويا رسول الله ، توقيراً له ، وليس المراد برفع الصوت وبالجهر بالقول هو ما يقع على طريقة الإستخفاف ، فإن ذلك كفر ، وإنما المراد أن يكون الصوت في نفسه غير مناسب لما يقع في مواقف من يجب تعظيمه وتوقيره ، والحاصل أن النهي هنا وقع عن أمور :

الأول: عن التقديم بين يديه ، بما لم يأذن به من الكلام .

والثاني: عن رفع الصوت البالغ الى حد يكون فوق صوته سواء كان في خطابه أو خطاب غيره .

والثالث : ترك الجفا في مخاطبته ، ولزوم الأدب في محاورته ، لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء ، الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب إحترامه وتوقيره .

---

(٢) البخاري ٤٥٢/٨ .

ثم علل سبحانه ما ذكره بقوله : ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ قال الزجاج : أي لأن تحبط يعني فتحبط ، فاللام المقدرة لام الصيرورة ، وهذه العلة تصح ان تكون علة للنهي ، اي :نهاكم الله عن الجهر خشية او كراهة أن تحبط ، أو علة للمنهي أي :لا تفعلوا الجهر ، فإنه يؤدي الى الحبوط ، فكلام الزجاج ينظر الى الوجه الثاني لا الى الأول .وجملة :

﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ في محل نصب على الحال ، وفيه تحذير شديد . ووعيد عظيم ، قال الزجاج : وليس المراد قوله : وأنتم لا تشعرون يوجب ان يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلمه .

ثم رغب الله سبحانه في امتثال أمره فقال :

﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ إجلالاً له وتعظيماً ، وأصل الغض النقص من كل شيء ، ومنه نقص الصوت ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم ﴾ قال الفراء : أخلص قلوبهم ﴿ للتقوى ﴾ كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخرج جيده من رديئه ، ويسقط خبيثه ، وبه قال مقاتل ومجاهد وقتادة ، وقال الأخفش : اختصها للتقوى ، وقال الواحدي : تقدير الكلام امتحن الله قلوبهم فأخلصها للتقوى ، فحذف الإخلاص لدلالة الامتحان عليه ، وهذا الوجه انسب لأن الكلام وارد في مدح اولئك السادة ، الكرام ، أو في التعريض بمن ليسوا على وصفهم ، ومن ثم قال في فاصلة الآية السابقة : ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ وفي فاصلة اللاحقة : ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ ، وقيل : طهرها من كل قبيح ، وقيل وسعها وشرحها من محنت الأديم اذا وسعته وقال ابو عمر : وكل شيء جهدته فقد محنته ، واللام متعلقة بمحذوف اي :صالحة للتقوى ، كقولك : انت صالح لكذا ، او للتعليل كقولك : جئت لأداء الواجب اي :ليكون مجيئي سبباً لأدائه .

﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ خبر آخر لأولئك او مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم في الآخرة ، وهو الظاهر .

﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ هم جفاة بني تميم ، كما سيأتي بيانه ، ووراء الحجرات خارجها وخلفها ، او قدامها ، والحجرات جمع حجرة كالغرفات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة ، وقيل جمع حجر والحجر جمع حجرة فهو جمع الجمع ، والحجرة الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها ، وهي فعلة بمعنى مفعولة ، قرأ الجمهور الحجرات بضم الجيم ، وقرىء بفتحها تخفيفاً وقرىء بإسكانها ، وهي لغات ومناداتهم من وراء الحجرات إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها ، أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ، فنادى كل واحد على حجرة و (من) في (من وراء) لابتداء الغاية ، ولا وجه للمنع من جعلها لهذا المعنى .

﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ لغلبة الجهل عليهم ، وكثرة الجفاء في طباعهم ، والمراد بالأكثر الكل ، لأن العرب قد تفعل هكذا .

عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد اخرج الينا فلم يجبه فقال: يا محمد إن حمدي زين ، وإن ذمي شين ، فقال: ذلك الله ، فأنزل الله ﴿ إن الذين ﴾ الخ »[1] أخرجه أحمد وابن جرير والبغوي والطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي بسند صحيح ، قال ابن منيع : لا اعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا .

وعن البراء بن عازب في الآية ، قال : جاء رجل فقال يا محمد ان حمدي زين وإن ذمي شين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذاك الله اخرجه الترمذي وحسنه .

وعن زيد بن أرقم قال : « اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا الى هذا الرجل ، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا فجاؤوا الى حجرته فجعلوا ينادونه: يا محمد فأنزل الله هذه الآية فأخذ رسول الله صلى

---

(١) رواه أحمد .

الله عليه وسلم بأذني وجعل يقول لقد صدق الله قولك يا زيد » أخرجه ابن راهويه ؛ ومسدد وأبو يعلى والطبراني وابن مردويه قال السيوطي : بإسناد حسن ، وفي الباب أحاديث .

قال النسفي : وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى من إجلال محل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها التسجيل على الصائحين به السفه والجهل ومنها إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ، ومقيله مع بعض نسائه ومنها التعريف باللام دون الاضافة .

ولو تأمل متأمل من أول هذه السورة الى آخر هذه الآية لوجدها كذلك ، فتأمل كيف ابتدأ بإيجاب ان تكون الأمور التي تنتمي الى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير تقييد ، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر . كأن الأول بساط للثاني ، ثم أثنى على الغاضين أصواتهم ليدل على عظم موقعه عند الله ، ثم عقبه بما هو أطم ، وهجنته اتم ، من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة ما جسروا عليه لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً انتهى .

﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم ﴾ أي :لو انتظروا خروجك ، ولم يعجلوا بالمناداة لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم ، لما في ذلك من رعاية حسن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية جانبه الشريف والعمل بما يستحقه من التعظيم والتبجيل ، وقيل : إنهم جاؤوا شفعاء في أسارى فأعتق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم ، وفادى نصفهم ، ولو صبروا لأعتق الجميع ذكر معناه مقاتل. وقيل: يفيد أنه لو خرج ولم يكن خروجه اليهم ولا لأجلهم للزمهم أن يصبروا الى أن يعلموا أن خروجه إليهم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ كثير المغفرة والرحمة بليغهما ، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب إن تابوا وأنابوا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ
وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾
وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ
فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ قرأ الجمهور من التبين وقرىء فتثبتوا من التثبت ، والمراد من التبين التعرف والتفحص ومن التثبت الإفادة وعدم العجلة ، والتبصر بالأمر الواقع ، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر ، وفي تنكير الفاسق والنبأ شياع في الفساق والأنباء كأنه قال : اي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا على قول الفساق لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه والفسوق الخروج من الشيء يقال فسقت الرطبة عن قشرها ، ومن مقلوبه فقست البيضة إذا كسرتها ، وأخرجت ما فيها من بياضها وصفرتها ؛ ومن مقلوبه أيضاً فقست الشيء إذا أخرجته من يد مالكه مغتصباً له ، عليه ، ثم استعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبائر قال المفسرون إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط كما سيأتي بيانه .

﴿ أن ﴾ أي كراهة ان أو لئلا ﴿ تصيبوا ﴾ بالقتل والأسر ﴿ قوماً بجهالة ﴾ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب ، وهو جهالة ،

لأنه لم يصدر عن علم والمعنى متلبسين بجهالة بحالهم ﴿ فتصبحوا على ما فعلتم ﴾ بهم من إصابتهم بالخطأ ﴿ نادمين ﴾ على ذلك مغتمين له ، مهتمين به ، وفي الآية دليل على قبول خبر الواحد العدل ، لأنا لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ، ولخلا التخصيص به عن الفائدة .

عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : « قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني الى الإسلام فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعاني الى الزكاة فأقررت بها وقلت: يا رسول الله أرجع الى قومي فأدعوهم الى الإسلام ، وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته ، وترسل إلي يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث اليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أن قد حدث فيه سخط من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ، ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم البعث الى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم : الى من بعثتم ؟ قالوا: اليك قال: ولم؟ قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ، ولا أتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: منعت

الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ، ولا رآني وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت ان تكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الى قوله: ﴿ حكيم ﴾ »[1] أخرجه احمد وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن منده وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند جيد قال ابن كثير هذا من أحسن ما روي في سبب نزول الآية .

وقد رويت روايات كثيرة متفقة على أنه سبب نزول الآية ، وأنه المراد بها وإن اختلفت القصص ثم وعظهم الله سبحانه فقال :

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ فلا تقولوا قولاً باطلاً ولا تتسرعوا عند وصول الخبر اليكم من غير تبين ، فإن الله يخبره فينهتك ستر الكاذب ، أو فارجعوا اليه واطلبوا رأيه ، ثم قال مستأنفاً : ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر ﴾ اي:مما تخبرونه به من الأخبار الباطلة ، وتشيرون به عليه من الآراء التي ليست بصواب ﴿ لعنتم ﴾ اي:لوقعتم في العنت وهو التعب والجهد والإثم والهلاك ، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع الى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه .

عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية وقال : « هذا نبيكم يُوحى اليه ، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ؟ » أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح غريب .

﴿ ولكن الله حبب اليكم الإيمان ﴾ أي جعله أحب الأشياء إليكم أو محبوباً لديكم ، فلا يقع منكم إلا ما يوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة ،

---

(١) رواه أحمد .

وترك التسرع في الأخبار وعدم التثبت فيها قيل : والمراد بهؤلاء من عدا الأولين لبيان براءتهم عن أوصاف الأولين ، والظاهر انه تذكير للكل بما يقتضيه الإيمان ، وتوجيه محبته التي جعلها الله في قلوبهم .

﴿ وزينّه ﴾ أي حسنه بتوفيقه وقربه منكم وأدخله ﴿ في قلوبكم ﴾ حتى جريتم على ما يقتضيه في الأقوال والأفعال ﴿ وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ أي :جعل كل ما هو من جنس هذه الثلاثة مكروهاً عندكم وأصل الفسق الخروج عن الطاعة ، والعصيان جنس ما يعصى الله به ، وقيل : أراد بذلك الكذب خاصة والأول أولى وفي هذه الآية لطيفة وهو أن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الثلاثة الأشياء في مقابلة الإيمان الكامل وهو ما اجتمع فيه ثلاثة أمور ، إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان .وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان ، والفسوق وهو الكذب ، في مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ هم الراشدون ﴾ يعني أصابوا طرق الحق ، ولم يميلوا عن الاستقامة ، والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب ، من الرشادة وهي الصخرة وفيه التفات عن الخطاب ﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ اي لأجل فضله وإنعامه والمعنى انه حبب اليكم ما حبب وكره اليكم ما كره لأجل فضله وإنعامه أو جعلكم راشدين لأجل ذلك ، وقيل التقدير تبتغون فضلاً ونعمة ﴿ والله عليم ﴾ بكل معلوم ﴿ حكيم ﴾ في صنعه وفي كل ما يقضي به بين عباده ويقدره لهم .

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ قرأ الجمهور بالجمع باعتبار كل فرد من أفراد الطائفتين كقوله: ﴿ هذان خصمان اختصموا ﴾ وقال النسفي : حملاً على المعنى ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس وثنى في قوله: ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ نظراً الى اللفظ .

عن أنس قال : « قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيت عبد الله ابن أبيّ فانطلق اليه وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة ، فلما انطلق اليه قال: إليك عني ، فوالله لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فنزلت ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ » الآية[1] أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

وقد روي نحو هذا من وجوه أخر ، قال ابن عباس كان قتال بالنعال والعصي ، فأمرهم أن يصلحوا بينهما وعن عائشة قالت: ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة في هذه الآية ، وقيل المراد من الطائفتين الأوس والخزرج .

﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ﴾ البغي التعدي بغير حق ، والامتناع من الصلح الموافق للصواب ، والاستطالة والظلم ، والفيء الرجوع ، وقد سمي به الظل والغنيمة ، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس ، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار الى المسلمين ، والمعنى أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم الى حكم الله . فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، ولم تتأثر بالنصيحة وأبت الاجابة الى حكم الله تعالى ، كان على المسلمين ان يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع الى أمر الله وحكمه وكتابه ، وقيل : الى طاعته في الصلح الذي أمر به ، وحتى للغاية ، وقيل بمعنى كي ،فتكون للتعليل ، والأول كما قال بعضهم هو الظاهر المناسب لسياق الآية .

---

(١) رواه البخاري .

عن ابن عباس في الآية قال : « ان الله امر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اذا اقتتلت طائفة من المؤمنين أن يدعوهم الى حكم الله ، وينصف بعضهم عن بعض ، فإذا أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم ، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ ، وحق على الإمام أن يقاتلهم حتى يفيئوا الى أمر الله ، ويقروا بحكم الله » ، وعن ابن عمر قال ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية أني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله . والحاصل أن حكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت ، فإذا كفت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ، والمراد بأمر الله الصلح وزوال الشحناء .

﴿ فإن فاءت ﴾ أي فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها الى الحق ، وأجابت الدعوات الى كتاب الله وحكمه والرضا بما فيه ﴿ فأصلحوا بينهما بالعدل ﴾ أي بالنصح والدعاء الى حكم الله ، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى ان يكون بينهما قتال في وقت آخر ، يعني فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله . ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم . وتؤدي ما يجب عليها للأخرى . ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المتقاتلين فقال :

﴿ وأقسطوا ﴾ أي: اعدلوا . وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين والقسط الجور ، والقسط العدل ، والفعل منه أقسط الرباعي وهمزته للسلب أي أزال القسط ، وهو الجور بخلاف قسط الثلاثي فمعناه الجور ، يقال : قسط الرجل إذا جار ، وأقسط اذا عدل ، وهذا هو المشهور خلافاً للزجاج في جعلهما سواء ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أي: العادلين ، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء .

وجملة ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى: أنهم راجعون الى أصل واحد ، وهو الايمان ، قال

الزجاج : الدين يجمعهم فهم إخوة اذا كانوا متفقين في دينهم فرجعوا بالاتفاق في الدين الى أصل النسب ، لأنهم لآدم وحواء ، قال بعضهم :

أبي الاسـلام لا أب لي سـواه   إذا افـتخـروا بـقيس أو تمـيـم

ولنعم ما قيل :

القـوم اخـوان صدق بينهم سبب   من المـودة لم يعـدل بـه نسب

وذلك أن الايمان قـد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوة لم ينقص عنها ثم قد جرت العادة على أنه إذا نشأ مثل ذلك بين الأخوين ولاداً لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما ، فالأخوة في الدين أحق بذلك .

﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يعني بين كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وفيه وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً الى المأمورين بالاصلاح ، للمبالغة في التقرير والفاء للإيذان بأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح أو تخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الاصلاح فيما فرقهما بطريق الأولى لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم لأن الفساد في شقاق الجمع اكثر منه في شقاق الاثنين ، قرأ الجمهور على التثنية ، قال ابو علي الفارسي في توجيهها : أراد بالأخوين الطائفتين ، لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة ، وقال أبو عبيدة : أي أصلحوا بين كل أخوين ، وقرىء إخوانكم بالجمع وقرىء أخوتكم بالفوقية على الجمع ايضاً .

﴿ واتقوا الله ﴾ في كل أموركم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ بسبب التقوى ، والترجي باعتبار المخاطبين أي :راجين ان يرحموا ، أو لعل من الله في هذا المقام

إطماع من الكريم الرحيم إذ لإطماع فعل ما يطمع فيه لا محالة وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرر بغيها على الامام أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلاً بقوله صلى الله عليه وسلم « قتال المسلم كفر » فإن المراد بهذا الحديث وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبغ ، قال ابن جرير ، لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل ، لما أقيم حق ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً الى استحلال كل ما حرم الله من أموال المسلمين ، وسبي نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم وذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم « خذوا على ايدي سفهائكم »[١].

قال ابن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين وعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عول الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « تقتل عمار الفئة الباغية» وقوله صلى الله عليه وسلم في شأن الخوارج « يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » والآية تدل أيضا على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي .

وعن علي وقد سئل عن أهل الجمل، وصفين، أمشركون؟ قال: لا، إنهم من الشرك فروا ، فقيل : أمنافقون هم ؟ قال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً قيل : فما حالهم ؟ قال إخواننا بغوا علينا ، وهو رضي الله تعالى عنه قدوة في قتال أهل البغي ، وعنه أنه سمع رجلاً يقول في ناحية المسجد : لاحكم إلا لله فقال: كلمة حق أراد بها باطل لكم، علينا ثلاثة: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نبدأكم بقتال .

---

(١) رواه مسلم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ
عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ
بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا
خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ
أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا
وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم ﴾ أي: رجال منكم ﴿ من قوم ﴾ تنكير القوم للتبعيض، وأن المعنى على الافراد، وإن جاء النظم على الجمع لأن السخرية تقع في المجامع، قال الكرخي: إنه من نسبة فعل البعض الى الجميع، لرضاهم به في الأغلب ولوجوده فيما بينهم، والسخرية الاستهزاء وحكى أبو زيد: سخرت به وضحكت به وهزأت بـه، وقال الأخفش: سخرت به وسخرت منه، وضحكت به ومنه وهزأت منه وبه كل ذلك يقال: والاسم السخرية والسخري بالكسر وبالضم لغة فيه، وقرىء بهما في قوله ﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ ومعنى الآية النهي للمؤمنين عن أن يستهزىء بعضهم ببعض.

﴿ عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ علل النهي بأن يكون المسخور بهم عند الله خيراً من الساخرين بهم، فينبغي أن لا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهـة في بدنه؛ أو غير لبـق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم

نفسه بتحقير من وقره الله تعالى ، قال ابن مسعود : إن البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً ، ولما كان لفظ قوم مختصاً بالرجال لأنهم القوام على النساء أفرد النساء بالذكر فقال :

﴿ ولا ﴾ يسخر ﴿ نساء من نساء عسى ان يكن ﴾ المسخور بهن ﴿ خيراً منهن ﴾ يعني من الساخرات منهن وقيل أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر ، عن مقاتل قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزأوا من فقراء المسلمين كبلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة ، وعن أنس نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم عيرن ام سلمة بالقصر ، وعن ابن عباس نزلت في صفية بنت حيي ، قال لها بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم : يهودية بنت يهودي .

﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أي : لا تطعنوا أهل دينكم . واللمز العيب والطعن وقد مضى تحقيقه في سورة براءة عند قوله ومنهم من يلمزك في الصدقات قال ابن جرير : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان ، والمعنى : لا يلمز بعضكم بعضاً ، كما في قوله ؛ ﴿ولا تقتلوا انفسكم﴾ وقوله ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ ، والمؤمنون كنفس واحدة ، فإذا عاب المؤمنُ المؤمنَ فكأنما عاب نفسه ، وقيل : لا تفعلوا ما تلمزون به ، لأن فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة ، قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير : لا يطعن بعضكم على بعض ، وبه قال ابن عباس ، وقال الضحاك : لا يلعن بعضكم بعضاً .

﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أي لا تدعوا الانسان بغير ما سمي به والتنابز التفاعل من النبز بالتسكين ، وهو المصدر والنبز بالتحريك اللعب مطلقاً ، اي حسناً كان او قبيحاً ، خص في العرف بالقبيح ، والجمع أنباز ، والألقاب جمع لقب ، وهو اسم غير الذي سمي به الانسان ، والمراد هنا لقب السوء والتنابز بالألقاب أن يلقب بعضهم بعضاً ، والتداعي بها قال الواحدي : قال

المفسرون : هو أن يقول لأخيه المسلم يا فاسق يا منافق،أو يقول لمن أسلم يا يهودي يا نصراني،قال عطاء : هو كل شيء اخرجت به أخاك من الإسلام كقولك يا كلب يا حمار يا خنزير قال الحسن ومجاهد كان الرجل يعير بكفره فيقال له يا يهودي يا نصراني فنزلت ، وبه قال قتادة وأبو العالية وعكرمة .

عن أبي جبيرة بن الضحاك قال:فينا نزلت في بني سلمة ، « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله إنه يكرهه ، فنزلت ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ »(١) اخرجه البخاري في الأدب ، واهل السنن الأربع ، وغيرهم ، وعن ابن عباس نحوه ، وعنه قال التنابز أن يكون الرجل عمل السيئآت ثم تاب منها وراجع الحق ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله .

وعن ابن مسعود في الآية قال : اذا كان الرجل يهودياً فأسلم فيقول : يا يهودي يا مجوسي ، ويقول للرجل المسلم يا فاسق ، قيل والتلقيب المنهي عنه هو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به ، فأما ما يحبه فلا بأس به ، ومنه الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها نحو الأخفش والأعمش وما أشبه ذلك قال القرطبي : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال ، كالأعرج والأحدب ؛ ولم يكن له سبب يجد في نفسه منه عليه فجوزته الائمة واتفق اهل اللغة على قوله انتهى ، وأما الألقاب التي تكسب حمداً أو مدحاً وتكون حقاً وصدقاً فلا تكره ، كما قيل لأبي بكر عتيق ولعمر الفاروق ولعثمان ذو النورين ولعلي ابو تراب ، ولخالد سيف الله .

﴿ بئس الاسم الفسوق ﴾ أي بئس الاسم أن يذكر بالفسق ، والإسم هنا ليس المراد به ما يقابل اللقب والكنية ، ولا ما يقابل الفعل والحرف ، بل

---

(١) رواه البخاري .

المراد به الذكر المرتفع لأنه من السمو من قولهم : طار اسمه في الناس بالمكرم أو باللؤم ، وحقيقة ما سما من ذكره وارتفع بين الناس ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يذكروا بالفسق ﴿ بعد ﴾ دخولهم في ﴿ الإيمان ﴾ استقباح للجمع بين الايمان والفسق الذي يحظره الإيمان ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة ، قال ابن زيد : اي لفسق أن يسمى الرجل كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته ، وقيل ان من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق .

﴿ ومن لم يتب ﴾ عما نهى الله عنه ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لارتكابهم ما نهى الله عنه ، وامتناعهم من التوبة ، وظلموا من لقبوه ، وظلموا أنفسهم بما لزمها من الإثم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ يقال : جنبه الشر إذا أبعده عنه ، وحقيقته جعله في جانب ، فيعدى الى مفعولين ، قال تعالى : ﴿واجنُبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ ومطاوعه اجتنب الشر فنقص مفعولاً ، والظن هنا مجرد التهمة التي لا سبب لها كمن يتهم غيره بشيء من الفواحش ، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك ، وأمر سبحانه باجتناب الكثير وأبهم ، ليفحص المؤمن عن كل ظن بظنه حتى يعلم وجهه ، لأن من الظن ما يجب اتباعه ، فإن اكثر الأحكام الشرعية مبنية على الظن ،كالقياس،وخبر الواحد،ودلالة العموم ولكن هذا الظن الذي يجب العمل به قد قوي بوجه من الوجوه الموجبة للعمل به ، فارتفع عن الشك والتهمة .

قال الزجاج : وهو أن يظن بأهل الخير سوءاً فأما أهل السوء والفسوق فلنا ان نظن بهم مثل الذي ظهر منهم ، قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان : هو أن يظن بأخيه المسلم سوءاً،ولا بأس به ما لم يتكلم به ، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه إثم ، وحكى القرطبي عن أكثر العلماء أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبيح .

وجملة : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر باجتناب كثير من الظن ، وهذا البعض هو ظن السوء بأهل الخير ، والإثم هو مايستحقه الظان من العقوبة ، ومما يدل على تقييد هذا الظن المأمور باجتنابه بظن السوء قوله تعالى : ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ فلا يدخل في الظن المأمور باجتنابه شيء من الظن المأمور باتباعه من مسائل الدين ، فإن الله قد تعبد عباده باتباعه ، وأوجب العمل به جمهور أهل العلم ، ولم ينكر ذلك إلا بعض طوائف المبتدعة ، كياداً للدين ، وشذوذاً عن جمهور المسلمين ، وقد جاء التعبد بالظن في كثير من الشريعة المطهرة ، بل في اكثرها ، قال ابو السعود : من الظن ما يجب اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ، ومنه ما حرم كالظن في الإلهيات والنبوات ، وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه ما يباح كالظن في الأمور المعاشية أ هـ . وقيل : الظن أنواع فمنه واجب ومأمور به ، وهو الظن الحسن بالله عز وجل ، ومنه مندوب إليه ، وهو الظن الحسن بالأخ المسلم الظاهر العدالة ، ومنه حرام محظور ، وهو سوء الظن بالله عز وجل ، وسوء الظن بالأخ المسلم ، قال ابن عباس في الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءاً .

وعن ابي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخواناً »[1] الحديث أخرجه الشيخان .

ثم لما أمرهم الله سبحانه باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال :

﴿ ولا تجسسوا ﴾ التجسس البحث عما ينكتم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم ، نهاهم الله سبحانه عن البحث عن معائب الناس ومثالبهم ، حتى يطلع عليها بعد أن سترها الله تعالى ، وقرأ الجمهور بالجيم ، ومعناه ما ذكرنا

(١) رواه مسلم .

وقرىء بالحاء قال الأخفش : ليس يبعد احدهما عن الآخر ، لأن التجسس بالجيم هو البحث عما ينكتم عنك ، والتحسس بالحاء طلب الإخبار والبحث عنها ، وقيل ؛ إن التجسس بالجيم هو البحث ، ومنه قيل: رجل جاسوس اذا كان يبحث عن الأمور ، وبالحاء ما أدركه الإنسان ببعض حواسه ، وقيل : إنه بالحاء فيما يطلبه الإنسان لنفسه ، وبالجيم ان يكون رسولاً لغيره ، قاله ثعلب والأول أعرف . يقال : تحسست الأخبار وتجسستها أي : تفحصت عنها .

قال ابن عباس : نهى الله المؤمنين عن تتبع عورات المؤمن وعن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود فقيل هذا فلان يقطر لحيته خمراً ، فقال ابن مسعود إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذه قال مجاهد : خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله .

وعن عقبة بن عامر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موؤودة » أخرجه أبو داود .

وعن ابي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة »[1] رواه مسلم .

وفي كتاب ابي داود عن معاوية قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم » ، فقال أبو الدرداء كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنفعه الله بها . وقد وردت أحاديث في النهي عن تتبع عورات المسلمين والتجسس عن عيوبهم .

﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ أي لا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوءه ، يقال اغتابه اغتياباً إذا وقع فيه والاسم الغيبة ، وهي ذكر العيب بظهر الغيب يعني: أن تذكر الرجل بما يكرهه .

---

(١) رواه مسلم .

كما في حديث ابي هريرة الثابت في الصحيح لمسلم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، فقيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه »[١] قال: ابن عباس: حرم الله أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرم الميتة والأحاديث في تحريم الغيبة كثيرة جداً معروفة في كتب الحديث، قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى، الغيبة، والافك، والبهتان، فأما الغيبة: فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه، وأما الإفك: فهو ان تقول فيه ما بلغك عنه، وأما البهتان: فهو أن تقول ما ليس فيه، ولا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن على من اغتاب أحداً التوبة الى الله أو الاستغفار لمن اغتابه أو الإستحلال منه، وللشوكاني رسالة في ذلك، سماها: رفع الريبة عن مسألة الغيبة، وهي نفيسة جداً.

﴿ أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً؟ ﴾ مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، ذكر معناه الزجاج، وفيه إشارة الى أن عرض الانسان كلحمه وأنه كما يحرم أكل لحمه تحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة والتقبيح لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الانسان مما تنفر عنه الطباع الإنسانية، وتستكرهه الجبلة البشرية فضلاً عن كونه محرماً شرعاً، وفيه مبالغات، منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل الى أحدكم للتعميم، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها انه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الانسان حتى جعل الانسان أخاً، ومنها أنه لم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتاً، فهذا تمثيل على أفحش وجه.

﴿ فكرهتموه ﴾ أي فاغتيابه في حياته كأكل لحمه بعد مماته، فالكلام من

---

(١) رواه مسلم.

باب الاستعارة التمثيلية ، وفي هذا التمثيل والتشبيه إشارة الى أن عرض الانسان كدمه ولحمه ، لأن الانسان يتألم قلبه من قرض العرض ، كما يتألم جسمه من قطع اللحم وهذا من باب القياس الظاهر ، لأن عرض الانسان أشرف من لحمه ودمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الانسان ، لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ، لأن ذلك اشد ألماً قال الفراء : تقديره فقد كرهتموه فلا تفعلوا ، والمعنى فلما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء ، او المعنى فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً ،قال الرازي : الفاء في تقديره جواب كلام كأنه قال : لا يحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه إذن، وقال أبو البقاء : هو معطوف على محذوف تقديره عليكم ذلك فكرهتموه ، ولا يمكنكم انكار كراهته،وبه قال البيضاوي،وقيل : إن صح ذلك عندكم فأنتم تكرهونه،وقيل هو خبر بمعنى الأمر .

﴿ واتقوا الله ﴾ بترك ما أمركم باجتنابه ﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ لمن اتقاه وتاب عما فرط منه من الذنب ، ومخالفة الأمر ، والمبالغة في (التواب) للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو لأنه ما من ذنب يقترفه العبد إلا كان معفواً عنه بالتوبة ، أو لأنه لما بولغ في قبول التوبة نزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه .

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ﴾ هما آدم وحواء ، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد ، وكونهم يجمعهم أب واحد وأم واحدة،وأنه لا موضع للتفاخر بينم بالأنساب ، وقيل:المعنى أن كل واحد منكم من أب وأم ، فالكل سواء .

عن ابن أبي مليكة قال : « لما كان يوم الفتح رقى بلال فأذن على الكعبة ، فقال بعض الناس : أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ؟ وقال بعضهم : إن سخط الله هذا يغيره ، فنزلت هذه الآية »أخرجه ابن المنذروابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل .

وعن الزهري قال : « امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة ان يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا : يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت

هذه الآية » أخرجه ابو داود في مراسيله وابن مردويه والبيهقي في سننه ، وقال الزهري : نزلت في ابي هند خاصة ، وعن عمر بن الخطاب أن هذه الآية هي مكية ، وهي للعرب خاصة الموالي أي قبيلة لهم وأي شعاب .

﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل ﴾ الشعوب جمع شعب بفتح الشين ، وهو الحي العظيم مثل مضر وربيعة ، والقبائل دونها كبني بكر من ربيعة ، وبني تميم من مضر ، قال الواحدي : هذا قول جماعة من المفسرين سموا شعباً لتشعبهم واجتماعهم ، كشعب أغصان الشجرة ، والشعب من أسماء الأضداد يقال شعبته إذا جمعته ، وشعبته اذا فرقته ومنه سميت المنية شعوباً لأنها مفرقة فأما الشعب بالكسر فهو الطريق في الجبل ، قال الجوهري : الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجمع الشعوب وقال مجاهد : الشعوب البعيد من النسب والقبائل دون ذلك وقال قتادة : الشعوب النسب الأقرب وقيل : أعلى طبقات النسب ، وقيل : إن الشعوب عرب اليمن من قحطان والقبائل من ربيعة ومضر ،وسائر عدنان وقيل : الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب .

وحكى أبو عبيدة أن الشعب أكثر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ثم البطن . ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، وكل واحدة تدخل فيما قبلها فالقبائل تحت الشعوب، والعمائر تحت القبائل ، والبطون تحت العمائر، والأفخاذ تحت البطون، والفصائل تحت الأفخاذ، والعشائر تحت الفصائل ، فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة، وقصي بطن ، وعبد مناف فخذ، وبنو هاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وليس بعد العشيرة حي يوصف ، ومما يؤيد ما قاله الجمهور من أن الشعب أكثر من القبيلة قول الشاعر :

قبائل من شعوب ليس فيهم كريم قد يعد ولا نجيب

قال ابن عباس : الشعوب القبائل العظام ، والقبائل البطون ، وعنه قال : الشعوب الجماع ، والقبائل الأفخاذ التي يتعارفون بها ، وعنه قال : القبائل الافخاذ ، والشعوب الجمهور مثل مضر .

﴿ لتعارفوا ﴾ أي : خلقناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً . والفائدة في

التعارف أن ينتسب كل واحد منهم إلى نسبه ولا يعتزي إلى غيره ، ويصل رحمه والمقصود من هذا أن الله سبحانه خلقهم كذلك لهذه الفائدة لا للتفاخر بأنسابهم ، ودعوى أن هذا الشعب أفضل من هذا الشعب وهذه القبيلة أكرم من هذه القبيلة ، وهذا البطن أشرف من هذا البطن ، وإنما الفخر بالتقوى ، قرأ الجمهور لتعارفوا بتخفيف التاء ، وأصله لتتعارفوا ، وقرىء بتشديدها على الادغام ، وقرىء بتاءين ثم علل سبحانه ما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر فقال :

﴿ إن أكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ اي ان التفاضل بينكم انما هو بالتقوى فمن تلبس بها فهو المستحق لأن يكون أكرم ممن لم يتلبس بها ، وأشرف وأفضل فدعوا ما أنتم فيه من التفاخر بالأنساب فإن ذلك لا يوجب كرماً ، ولا يثبت شرفاً ، ولا يقتضي فضلاً ، قرأ الجمهور بكسر إن وقرىء بفتحها أي لأن أكرمكم .

عن ابي هريرة قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أكرم ؟ قال: أكرمهم عند الله اتقاهم ، قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا[1] » أخرجه البخاري وغيره ، وقال عمر بن الخطاب : أتقاكم للشرك ، وقد وردت أحاديث في الصحيح وغيره أن التقوى هي التي تتفاضل بها العباد .

﴿ إن الله عليم ﴾ بكل معلوم ، ومن ذلك أعمالكم ﴿ خبير ﴾ بما تسرون وما تعلنون ، ولا تخفى عليه من ذلك خافية ، ولما ذكر سبحانه أن اكرم الناس عند الله أتقاهم له وكان أصل التقوى الإيمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوى الإيمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال :

﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ وهم بنو اسد ، قاله مجاهد ، وقيل هم جهينة

---

(١) رواه مسلم.

ومزينة وأسلم وأشجع وغفار ، والأول أولى ، وهم الذين اظهروا الإسلام في سنة مجدبة يريدون الصدقة ، فأمر اللهسبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ان يرد عليهم فقال : ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ أي لم تصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب ، وخلوص نية ، وطمأنينة ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ اي استسلمنا خوف القتل والسبي ، أو للطمع في الصدقة ، وهذه صفة المنافقين لأنهم اسلموا في ظاهر الأمر ، ولم تؤمن قلوبهم ، ولهذا قال سبحانه :

﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ أي لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم ، بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ، ولا نية خالصة ، وفي لما معنى التوقع ، وهذا تكرار ، لكنه مستقل بفائدة زائدة ، لأنه علم من الأول نفي الإيمان عنهم ، ومن الثاني نفيه مع توقع حصوله ، قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أُتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان وصاحبه المؤمن ، وقد أخرج هؤلاء من الايمان بقوله : ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، أي لم تصدقوا ، وإنما أسلمتم تعوذاً من القتل ، وهذه الآية تنقض على الكرامية مذهبهم أن الإيمان لا يكون بالقلب ولكن باللسان .

﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله ﴾ طاعة صحيحة ، صادرة عن نيات خالصة وقلوب مصدقة غير منافقة ﴿ لا يلتكم ﴾ اي لا ينقصكم ﴿ من اعمالكم شيئاً ﴾ يقال : لات يليت اذا نقص ، ولأنه يليته ويلوته اذا نقصه ، قرأ الجمهور يلتكم من لاته يليته كباعه يبيعه ، وقرىء لا يألتكم بالهمز من ألته يألته بالفتح في الماضي والكسر في المضارع ، واختار الثانية أبو حاتم لقوله ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ وهما لغتان فصيحتان ﴿ إن الله غفور ﴾ أي بليغ المغفرة لمن فرط منه ذنب ﴿ رحيم ﴾ بليغ الرحمة لهم .

ثم لما ذكر سبحانه ان أولئك الذين قالوا آمنا لم يؤمنوا ، ولا دخل الايمان في قلوبهم ، بيّن المؤمنين المستحقين لاطلاق اسم الايمان عليهم فقال :

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ
بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً عن مواطأة القلب واللسان ﴿ ثم لم يرتابوا ﴾ أي لم يدخل في قلوبهم شيء من الريب ، ولا خالطهم شك من الشكوك ، اتى بثم للتراخي للإشارة الى أن نفى الريب عنهم ليس في وقت حصول الايمان فيهم ، وإنشائه فقط ، بل هو مستمر بعد ذلك فيما يتطاول من الأزمنة فكأنه قال : ثم داموا على ذلك ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ أي، في طاعته وابتغاء مرضاته ويدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها ، فإنها من جملة ما يجاهد المرء نفسه حتى يقوم به ويؤديه ، كما أمر الله سبحانه ، والطاعات كلها في سبيل الله وجهته ، والمجاهدة بالأموال عبارة عن العبادات المالية كالزكاة ، وقدم الأموال لحرص الانسان عليها ، فإن ماله شقيق روحه ، وجاهدوا بمعنى بذل الجهد . أو مفعوله مقدر، أي: العدو أو النفس والهوى .

﴿ أولئك ﴾ أي: الجامعون بين الأمور المذكورة ﴿ هم الصادقون ﴾ في الاتصاف بصفة الايمان والدخول في عداد أهله ، لا من عداهم ممن أظهر الاسلام بلسانه ، وادّعى أنه مؤمن ولم يطمئن بالإيمان قلبه ، ولا وصل إليه معناه ، ولا عمل بأعمال أهله ، وهم الأعراب الذين تقدم ذكرهم وسائر أهل النفاق ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولاً آخر لما ادعوا أنهم مؤمنون فقال :

﴿ قل : أتعلمون الله ؟ ﴾ التعليم ههنا بمعنى الاعلام ، ولهذا أدخلت الباء في ﴿ بدينكم ﴾ أي أتخبرونه بذلك حيث قلتم آمنا ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ فكيف يخفى عليه بطلان ما تدعونه من الإيمان ؟ ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه من ذلك خافية ، وقد علم ما تبطنونه من الكفر ، وتظهرونه من الاسلام لخوف الضر ، أو رجاء النفع .

﴿ يمنون عليك أن أسلموا ﴾ أي يعدون إسلامهم منة عليك حيث قالوا جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، قاله عبد الله بن أبي أوفى، أخرجه ابن مردويه وغيره ، قال السيوطي بسند حسن وعن ابن عباس نحوه ، وذكر أنهم بنو أسد كما تقدم ، والمن:تعداد النعم على المنعم عليه ، وهو مذموم من الخلق ، ممدوح من الله تعالى ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عند المن عليه بما يدعونه من الاسلام فقال :

﴿ قل لا تمنوا عليّ إسلامكم ﴾ أي لا تعدوه منة علي ، فإن الاسلام هو المنة التي لا يطلب موليها ثواباً لمن أنعم بها عليه ، ولهذا قال ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ أي:أرشدكم إليه وأراكم طريقه سواء وصلتم إلى المطلوب أم لم تصلوا إليه ، قرأ الجمهور بفتح أن وقرىء بكسرها ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تدعونه ، والجواب محذوف يدل عليه ما قبله أي إن كنتم صادقين فلله المنة عليكم .

﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ﴾ أي:ما غاب فيهما ، لا يخفى عليه شيء فيهما فكيف يخفى عليه حالكم ، بل يعلم سركم وعلانيتكم ﴿ والله بصير بما تعملون ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء ، فهو مجازيكم بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، وفي هذا بيان لكونهم غير صادقين ، قرأ الجمهور على الخطاب وقرىء على الغيبة .

سورة قٓ

﴿ هي خمس وأربعون آية ، وهي مكية كلها ﴾

في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وعن ابن عباس وقتادة أنها مكيّة إلا آية ، وهي قوله : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لغوب ﴾ وهي أول المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحجرات .

وقد أخرج مسلم وغيره عن قطبة بن مالك قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الفجر في الركعة الأولى قٓ والقرآن المجيد » .

وعن أبي واقد الليثي قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيد بقاف واقتربت »[1] أخرجه أحمد ومسلم وأهل السنن .

وعن أم هشام ابنة حارثة قالت : « ما أخذت قٓ والقرآن المجيد إلا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس »[2] أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة والبيهقي . وهو في صحيح مسلم .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ
عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ
وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ
يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ
مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾

﴿ قٓ ﴾ الكلام في إعراب هذا ، كالكلام الذي قدمناه في ﴿ صٓ ﴾ سواء بسواء ، لالتقائهما في أسلوب واحد ، قرأ العامة بالجزم ، وقرىء بكسر الفاء لأن الكسر أخو الجزم ،وقرىء بفتحها لأن الفتح أخف الحركات قرىء بضمها لأنه في غالب الأمر حركة البناء ، نحو منذ ، وقط ، وقبل ، وبعد واختلف في معنى قٓ فقال الواحدي قال المفسرون : هو اسم جبل يحيط بالدنيا من زبرجد وقيل من زمردة خضراء ،واخضرت السماء منه والسماء مقببة عليه وهو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنة قال الفراء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في قٓ لأنه اسم وليس بهجاء ، قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كقول القائل : قلت لها قفي ، فقالت: قاف ، أي : أنا واقفة ، وحكى الفراء والزجاج أن قوماً قالوا : معنى قٓ قضي الأمر وقضي ما هو كائن كما قيل في حمٓ : حم الأمر ، وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ،قاله ابن عباس وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن .

وقال الشعبي : فاتحة السورة ، وقال أبو بكر الوراق :| معناه قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما . وقال الانطاكي : هو قرب الله من عباده ، بيانه ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ وقال القرطبي : افتتاح اسم الله عز وجل

قادر وقاهر وقريب وقابض ، وقاض ، وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه وأبطل والحق أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، كما حققنا ذلك في فاتحة سورة البقرة ، فالله أعلم بمراده به وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أثراً طويلاً في بيان جبل قاف قال ابن كثير : لا يصح سنده عنه وفيه أيضاً انقطاع .

﴿ والقرآن المجيد ﴾ أي :أنه ذو مجد وشرف على سائر الكتب المنزلة وقال الحسن الكريم ، وبه قال ابن عباس ، وقيل : الرفيع القدر ، وقيل الكبير القدر ، وعن ابن عباس قال : ليس شيء أحسن منه ولا أفضل ، وجواب القسم قال الكوفيون : هو قوله : ﴿ بل عجبوا ﴾ وقال الأخفش محذوف أي لتبعثن ، يدل عليه ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ ؟ وقال ابن كيسان : جوابه ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ ، لأن ما قبلها عوض منها ، وقيل : هو ﴿ قد علمنا ﴾ بتقدير اللام ، أي لقد علمنا ، وقيل : محذوف تقديره أنزلناه إليك لتنذر ، كأنه قيل : قٓ والقرآن المجيد أنزلناه إليك لتنذر به الناس .

﴿ بل عجبوا ﴾ بل للإضراب عن الجواب على اختلاف الأقوال لبيان حالهم الزائدة في الشناعة على عدم الإيمان،والمعنى بل عجب الكفار ﴿ أن ﴾ أي لأن ﴿ جاءهم منذر منهم ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكتفوا بمجرد الشك والرد بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة ، وقيل : هو إضراب عن وصف القرآن بكونه مجيداً ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة صٓ ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله :

﴿ فقال الكافرن هذا شيء عجيب ﴾ وفيه زيادة تصريح وإيضاح وإضمار ذكرهم ، ثم إظهاره للإشعار بتعنتهم في هذا المقال . ثم التسجيل على كفرهم بهذا المقال ، قال قتادة : عجبهم أن دعوا إلى إلّه واحد ، وقيل تعجبهم من البعث والنشور . والذي نص عليه القرآن أولى ، فيكون لفظ هذا إشارة الى مبهم مفسر بما بعده من قوله : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ وقال الشوكاني : الأول أولى قال الرازي : الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر ثم قالوا

﴿أئـذا متنا وكُنّـا تُرابـاً﴾ وأيضـاً قـد وجـد ههنـا بعـد الإستبعـاد بـالاستفهـام أمـر يؤدي معنى التعجب وهـو قـولهم : ﴿ذلـك رجـع بعيـد﴾ فـإنــه استبعـاد ، وهـــو كـالتعجب ، فلو كان التعجب بقولهم : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ عائداً إلى قولهم ﴿ أئذا ﴾ لكان كالتكرار . فإن قيل التكرار الصريح يلزم من قولك هذا شيء عجيب أنه يعود إلى مجيىء المنذر ، فـإن تعجبهم منه علم من قـوله : ﴿ عجبـوا أن جاءهم ﴾ ، فقوله : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ يكون تكراراً ، فنقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير ، لأنه لما قال : ﴿ بل عجبوا ﴾ بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجباً ، كقوله : ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ ؟ ويقال في العرف لا وجه لتعجبك مما ليس بعجيب ، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم لا معنى لتعجبكم ، فقالوا : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ فكيف لا نعجب منه ويدل على ذلك قوله ههنا : ﴿ فقال الكافرون ﴾ بالفاء فإنها تدل على أنه مترتب على ما تقدم .

قرأ الجمهور بالاستفهام وقرىء بهمزة واحدة فيحتمل الإستفهام كقراءة الجمهور ، والهمزة مقدرة ، ويحتمل أن يكون معناه الإخبار والمعنى استنكارهم للبعث بعد موتهم ومصيرهم تراباً . ثم جزموا باستبعادهم للبعث فقالوا :

﴿ ذلك ﴾ أي البعث ﴿ رجع بعيد ﴾ أي بعيد عن الافهام أو العقول أو العادة أو الامكان يقال رجعته أرجعه رجعاً ، ورجع هو يرجع رجوعاً ثم رد الله سبحانه ما قالوه فقال : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم ، فلا يضل عنا شيء من ذلك ، ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور لا يصعب عليه البعث ، ولا يستبعد منه وقال السدي : النقص هنا الموت ، يقول قد علمنا من يموت منهم ومن يبقى لأن من مات دفن ، فكـأن الأرض تنقص من الأموات ، وقيل المعنى من يدخل في الاسلام من المشركين والأول أولى ، قال ابن عباس في الآية : أجسادهم وما يذهب منها وما تأكل من لحومهم وعظامهم

وأشعارهم ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أي حافظ لعدتهم وأسمائهم ولكل شيء من الأشياء وهو اللوح المحفوظ وقيل : المراد بالكتاب هنا العلم والاحصاء والأول أولى،وقيل : حفيظ بمعنى محفوظ أي محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء ثم أضرب سبحانه من الكلام الأول وانتقل إلى ما هو أشنع منه وأقبح فقال :

﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ فإنه تصريح بالتكذيب منهم بعدما تقدم عنهم من الاستبعاد والمراد بالحق هنا القرآن قال الماوردي : في قول الجميع ، وقيل : هو الاسلام وقيل : محمد وقيل : النبوة الثابتة بالمعجزات ﴿ لما جاءهم ﴾ أي وقت مجيئه إليهم ، من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر ﴿ فهم في أمر مريج ﴾ أي مختلط ومضطرب ، يقولون تارة ساحر ومرة شاعر ، ومرة كاهن ، قاله الزجاج وغيره ، وقال قتادة : مختلف،وقال الحسن : ملتبس،وقيل : فاسد،والمعاني متقاربة ومنه قولهم مرجت أمانات الناس أي فسدت ومرج الدين والأمر اختلط، وقال ابن عباس : المريج الشيء المتغير .

﴿ أفلم ينظروا ؟ ﴾ شروع في بيان الدليل الذي يدفع قولهم ذلك رجع بعيد والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف غفلوا عن النظر ﴿ إلى السماء ﴾ كائنة ﴿ فوقهم ﴾ يشاهدونها كل وقت ﴿ كيف بنيناها ؟ ﴾ أي أوجدناها وجعلناها على هذه الصفة ، مرفوعة كالخيمة ، إلا انها بغير عماد تعتمد عليه ﴿ وزيناها ﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح والنيرات والكواكب ﴿ وما لها من فروج ﴾ أي فتوق وشقوق وصدوع تعيبها ، وهو جمع فرج ، قال الكسائي : ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق ولا صداع ولا خلل والواو للحال .

﴿ والأرض مددناها ﴾ أي دحوناها وبسطناها على وجه الماء ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت تثبتها وقد تقدم تفسير هذا في سورة الرعد ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أي من كل صنف حسن كريم يسر به ، وقد تقدم تفسير هذا أيضاً في سورة الحج ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ هما علتان لما

تقدم أي فعلنا ما فعلنا للتبصير والتذكير ، قاله الزجاج ، وقال المحلي : تبصيراً منا أي تعليماً وتفهيماً واستدلالاً ، وقيل منصوبان بفعل مقدر من لفظهما ، أي بصرناهم تبصرة ، وذكرناهم ذكرى أو تذكرة ، وقيل : حالان ، أي : مبصرين ومذكرين ، وقيل حال من المفعول ، أي ذات تبصرة وتذكير لمن يراها ، وقال أبو حاتم ، أي : جعلنا ذلك تبصرة وذكرى .

قال الرازي : يحتمل أن يكون المصدران عائدين إلى السماء والأرض ، أي خلقنا السماء تبصرة ، وخلقنا الأرض ذكرى ، ويدل على ذلك أن السماء وزينتها غير متجددة في كل عام فهي كالشيء المرئي على ممر الزمان ، وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زينتها وزخرفتها ، فتذكر ، فالسماء تبصرة والأرض تذكرة ، ويحتمل أن يكون كل واحد من المصدرين موجوداً من الأمرين ، فالسماء تبصرة وتذكرة ، والأرض كذلك ، والفرق بين التذكرة والتبصرة هو أن فيهما آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر ، وآيات متجددة مذكرة عند التناسي ﴿ لكل عبد منيب ﴾ المنيب الراجع إلى الله بالتوبة المتدبر في بديع صنعه ، وعجائب مخلوقاته ، وفي سياق هذه الآيات تذكير لمنكري البعث ، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة ، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه ، فإن القادر على هذه الأمور يقدر عليه ، وهكذا قوله :

﴿ ونزلنا من السماء ﴾ أي السحاب ﴿ ماء مباركاً ﴾ أي كثير البركة لانتفاع الناس به في غالب أمورهم ﴿ فأنبتنا به ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ جنات ﴾ أي بساتين كثيرة ﴿ وحب الحصيد ﴾ أي : ما يقتات ويحصد من الحبوب ، والمعنى وحب الزرع الحصيد . وخص الحب لأنه المقصود ، كذا قال البصريون ، وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، كمسجد الجامع حكاه الفراء ، وأنها جائزة إذا اختلف اللفظان كحق اليقين ، وحبل الوريد ، ودار الآخرة ، قاله الكرخي قال الضحاك : حب الحصيد البر والشعير وقيل : كل حب يحصد ويدخر ويقتات .

وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

﴿ و ﴾ أنبتنا به ﴿ النخل ﴾ تخصيصها بالذكر مع دخولها في الجنات للدلالة على فضلها على سائر الاشجار ، أو لفرط ارتفاعها وكثرة منافعها ، ولذلك شبه صلى الله عليه وسلم المسلم بها ﴿ باسقات ﴾ حال مقدرة لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة ، قال مجاهد وعكرمة وقتادة : الباسقات الطوال ، وقال سعيد بن جبير : مستويات ، وقال الحسن وعكرمة والفراء : مواقير حوامل ، يقال للشاة : بسقت إذا ولدت ، والأشهر في لغة العرب الأول ، يقال بسقت النخلة بسوقاً إذا طالت ، وبسقت الشاة ولدت ، وأبسقت الناقة وقع في ضرعها اللبأ قبل النتاج ، وبسق الرجل مهر في علمه ، وبسق فلان على أصحابه من باب دخل أي طال عليهم في الفضل .

عن قطبة قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصبح قٓ ، فلما أتى على هذه الآية : والنخل باسقات فجعلت أقول :ما بسوقها؟ قال: طولها[1] أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه ، وقال ابن عباس: الطول.

---

(١) اخرجه الحاكم .

﴿ لها طلع نضيد ﴾ الطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل ، يقال : طلع الطلع طلوعاً ، والنضيد المتراكب الذي نضد بعضه على بعض ، وذلك قبل أن يتفتح فهو نضيد في أكمامه فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد قال ابن عباس : متراكم بعضه على بعض ﴿ رزقاً للعباد ﴾ أي رزقناهم رزقاً ،أو أنبتنا هذه الأشياء للرزق ، لم يقيد هنا العباد بالإنابة كما قيد به في قوله : ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ لأن التذكرة لا تكون إلا لمنيب ، والرزق يعم كل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للأنعام ، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام ، فلم يخصص الرزق بقيد ، قاله الخطيب .

﴿ وأحيينا به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ بلدة ميتا ﴾ قرىء بالتخفيف والتثقيل أي مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع ، والتذكير باعتبار كون البلدة بلداً أو مكاناً ، كما في عبارة أبي السعود ﴿ كذلك الخروج ﴾ مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة ، وقدم فيها الخبر للقصد إلى الحصر ، ثم ذكر سبحانه الأمم المكذبة فقال :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس ﴾ هم قوم شعيب ، وقيل : حنظلة بن صفوان أو نبي آخر ارسل بعد صالح لبقية من ثمود ، وتقدم لهذا مزيد كلام في سورة الفرقان ، وقيل : هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى ، وهم من قوم عيسى ، وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرس : إما موضع نسبوا إليه ، أو بئر كانوا مقيمين عليها بمواشيهم يعبدون الأصنام ، فخسفت تلك البئر مع ما حولها فذهبت بهم ، وبكل ما لهم كما ذكرت قصتهم في سورة الفرقان ، أو فعل وهو حفر البئر ، يقال : رس إذا حفر بئراً وتأنيث الفعل لمعنى قوم ، والجملة إستئناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان إتفاق كافة الرسل عليها ، وتعذيب منكريها ﴿ وثمود وعاد وفرعون ﴾ وقومه ؛ ذكرت ثمود بعد أصحاب الرس ، لأن الرجفة التي أخذتهم مبدؤها الخسف بأصحاب الرس ، ثم أتبع ثمود بعاد ، لأن الريح التي أهلكتهم إثر صيحة ثمود .

﴿ وإخوان لوط ﴾ جعلهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره وقيل : هم من قوم إبراهيم وكانوا من معارف لوط ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ تقدم الكلام على الأيكة في سورة الشعراء ، وقرىء هنا ليكة ، وهي الغيضة أي الشجر الملتف بعضه على بعض ، ونبيهم الذي بعثه الله إليهم شعيب عليه السلام ﴿ وقوم تبع ﴾ هو تبع الحميري ، الذي تقدم ذكره في قوله : أهم خير أم قوم تبع ، واسمه سعد ، وقيل : أسعد ، وكنيته أبو كرب ، قال قتادة : ذم الله سبحانه قوم تبع ، ولم يذمه .

﴿ كلٌّ كذب الرسل ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أي كل واحد من هؤلاء المذكورين كذب رسوله الذي أرسله الله إليه . وكذلك ما جاء به من الشرع . وكان بعض النحاة يجيز حذف تنوينها ، وبناءها على الضم كالغايات ، كقبل وبعد ، فاللام في الرسل يكون للعهد كما سبق أو للجنس ، أي كل طائفة من هذه الطوائف كذبت جميع الرسل ، لأن من كذب رسولاً فكأنه كذب جميعهم ، وإفراد الضمير في كذب باعتبار لفظ كل ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل له : لا تحزن ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك ، فهذا شأن من تقدمك من الأنبياء ، فإن قومهم كذبوهم ولم يصدقهم إلا القليل منهم ، والمراد بالكلية هنا التكثير ، كما في قوله تعالى . ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ فهي باعتبار الأغلب .

﴿ فحق وعيد ﴾ حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلاً عليها أي: وجب عليهم وعيدي ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وحل بهم ما قدره الله عليهم من الخسف والمسخ ، والإهلاك بالأنواع التي أنزلها الله بهم من عذابه .

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ؟ ﴾ الإستفهام للتقريع والتوبيخ ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذي أنكرته الأمم ، أي: أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيئاً ؟ فكيف نعجز عن بعثهم ؟ يقال : عييت بالأمر إذا عجزت عنه ، ولم تعرف وجهه ، قال ابن عباس : يقول لم يعينا الخلق

الأول ، قال الكازروني: معناه لم نعجز عن الإبداء فلا نعجز عن الإعادة،قرأ الجمهور بكسر الياء الأولى بعدها ياء ساكنة وقرىء بتشديد الياء من غير إشباع ، ثم ذكر سبحانه أنهم في شك من البعث فقال : ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ أي في شك وشبهة وحيرة واختلاط من خلق مستأنف ، وهو بعث الأموات ، لما فيه من مخالفة العادة ، وتنكير خلق لتفخيم شأنه والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ، ويهتم بمعرفته ، ومعنى الإضراب أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق الأول ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله لهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك الإستدلال الصحيح وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية ، والمراد بالإنسان الجنس ، وقيل : آدم ، ونعلم حال بتقدير نحن ، والجملة إسمية ولا يصح أن يكون ونعلم حالاً بنفسه لأنه مضارع مثبت باشرته الواو وما مصدرية أو موصولة كما في البيضاوي ، والباء زائدة كقولك : صوت بكذا وهمس به أو للتعدية ، أي نعلم وسوسة نفسه له ، أو نعلم الأمر الذي تحدثه نفسه به ، فالنفس تجعل الانسان قائماً به الوسوسة ، والوسوسة هي في الأصل الصوت الخفي ، والمراد بها هنا ما يختلج في سره وقلبه وضميره . أي حديث النفس ، وهو ما ليس فيه صوت كالكلية لكن مناسبته للمعنى الأصلي الخفاء في كل،أي:نعلم ما يخفي ويكن في نفسه ، ومن استعمال الوسوسة في الصوت الخفي قول الأعشى : تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت .

فاستعمل لما خفي من حديث النفس .

﴿ ونحن أقرب إليه ﴾ أي إلى الإنسان ، لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب على الله شيء ﴿ من حبل الوريد ﴾ هو حبل

العاتق ، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه وهما وريدان،أي:عرقان عن يمين وشمال ، وقال الحسن : الوريد الوتين ، وهو عرق معلق بالقلب ، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان ، أي نحن أقرب إليه بالعلم من حبل وريده ، لا يخفى علينا شيء من خفيانه ، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال : الله في كل مكان ، أي:بعلمه ، فإنه سبحانه منزه عن الأمكنة ، وحاصله أنه تجوز بقرب الذات عن قرب العلم ، قاله الكرخي والاضافة بيانية ، أي حبل من الوريد ، وقيل : الحبل هو نفس الوريد ، فهو من باب مسجد الجامع ، سمي وريداً لأن الروح ترد إليه وهو في العنق الوريد ، وفي القلب الوتين ، وفي الظهر الأبهر . وفي الذراع والفخذ الأكحل والنسا ، وفي الخنصر الأسيلم .

وفي الخازن:الوريد الذي يجري فيه الدم ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن ، وهو بين الحلق والعلباوين،وقال الزمخشري : إنهما وريدان يكتنفان بصفحتي العنق في مقدمها ، متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه ، قال أبو السعود : وهو عرق متصل بالقلب ، إذا قطع مات صاحبه ، وقيل : المعنى نحن أقرب إليه بنفوذ قدرتنا فيه ، ويجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «نزل الله من ابن آدم أربع منازل ، هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا» . وقال أبو سعيد في حبل الوريد : هو عروق العنق ، وعنه هو نياط القلب ، قال القشيري : في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم ، ذكره الخطيب .

ثم ذكر الله سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة فقال :

﴿ إذ ﴾ أي أذكر إذ ﴿ يتلقى المتلقيان ﴾ ويجوز أن يكون الظرف منتصباً

بما في أقرب من معنى الفعل ، والمعنى أنه أقرب إليه من حبل وريده ، حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ، وبما يلفظ به ، وبما يعمل به ، أي يأخذان ذلك ويثبتانه والتلقي الأخذ ، وقيل : التلقي التلقن بالحفظ والكتابة ، والمعنى نحن أعلم بأحواله غير محتاجين إلى الحفظة الموكلين به . وإنما جعلنا ذلك إلزاماً للحجة وتوكيداً للأمر .

﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ قال الحسن وقتادة : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك ، أحدهما عن يمينك ويكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . وقال مجاهد أيضاً : وكل الله بالانسان ملكين بالليل ، وملكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره ، روي أنهما قاعدان على ثنيتيه ، لسانه قلمهما وريقة مدادهما ذكره أبو السعود وإنما قال قعيد ولم يقل قعيدان وهما اثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد . وعن الشمال قعيد . فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ؛ كذا قال سيبويه . وقال الأخفش والفراء : إن لفظ قعيد يصلح للواحد والإثنين والجمع . ولا يحتاج إلى تقدير في الأول . قال الجوهري وغيره من أئمة اللغة والنحو : فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والإثنان والجمع ، والقعيد المقاعد ، كالجليس بمعنى المجالس لفظاً ومعنى .

﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أي ما يتكلم من كلام فيلفظه ويرميه من فيه إلا لدى ذلك اللافظ ملك يرقب قوله ويكتب ، والرقيب الحافظ المتتبع لأمور الانسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر ، فكاتب الخير هو ملك اليمين . وكاتب الشر ملك الشمال . والعتيد الحاضر المهيأ . قال الجوهري : العتيد المهيأ . يقال : عتده تعتيداً وأعتده إعتاداً . أي أعده . ومنه : ﴿ وأعتدت لهن متكأً ﴾ والمراد ههنا أنه معد للكتابة مهيأ لها . والافراد في رقيب عتيد مع إطلاعهما معاً على ما صدر منه لما أن كل منهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض لصاحبه كما ينبىء عنه قوله : عتيد . وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص . فعلم أن كلاً منهما يقال له :

﴿ رقيب عتيد ﴾ . ويعلم من هذه الآية أن الملكين معدان لذلك بخلاف الأولى فإنه لا يعلم منها ذلك،وأيضاً يعلم من هذه صريحاً أن الملك يضبط كل لفظ ولا يعلم ذلك من الأولى،قال أبو سعيد في الآية : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان من خير أو شر وألقى سائره فذلك قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ وقال ابن عباس : إنما يكتب الخير والشر،لا يكتب يا غلام أسرج الفرس يا غلام أسقني الماء .

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم[1] » .

وعن عمرو بن ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله عبد ولينظر ما يقول » أخرجه أحمد وأبو نعيم والبيهقي في الشعب وابن أبي شيبة وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً مثله .

﴿ وجاءت سكرة الموت ﴾ لما بين سبحانه أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة ذكر بعده ما ينزل بهم من الموت والبعث ، وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال ، وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضي إيذاناً بتحققها ، وغاية اقترابها ، والمراد بسكرة الموت شدته وغمرته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، ومعنى ﴿ بالحق ﴾ أنه عند الموت يتضح له الحق ، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد ، وقيل : الحق هو الموت نفسه ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، أي وجاءت سكرة الحق بالموت ، وكذا قرأ أبو بكر الصديق وابن مسعود .

والسكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين ، وقيل الباء

---

(١) مسلم .

للملابسة كالتي في قوله : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ أي متلبسة بالحق أي بحقيقة الحال وقيل بالحق من امر الآخرة حتى يراه المنكر لها عياناً وهو نفس الشدة قاله الجلال المحلي وقال القاري : لم يظهر لي معنى هذه العبارة ، ويمكن أن يقال الضمير في قوله هو راجع لأمر الآخـرة ، والمراد بالشدة الأمر الشديد ، وهو أهوال الآخرة فعلى هذا تكون هذه الجملة تفسيراً لقوله من أمر الآخرة ،وقيل بالحكمة وقيل بما يؤول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة .

﴿ ذلك ﴾ أي الموت ﴿ ما كنت منه تحيد ﴾ أي الذي كنت تميل عنه وتفر منه في حياتك ، فلم ينفعك الهرب والفرار ، يقال : حاد عن الشيء يحيد حيوداً وحيدة وحيدودة مال عنه وعدل . وقال الحسن : تحيد تهرب ، وقيل تفزع ، وقيل : تكره ، وقيل تنفر ﴿ ونفخ في الصور ﴾ عبر عنه بالمـاضي لتحقق وقوعه ، وهذه هي النفخة الآخرة للبعث عطف على جاءت سكرة الموت والصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسـرافيـل عليه السـلام ، وهو من العـظمـة بحيث لا يعلم قـدره إلا الله ، وقـد التقمـه إسـرافيـل من حـين بعث محمـد صلى الله عليه وسلم منتظراً للإذن بالنفخ ذكره الخطيب ﴿ ذلك ﴾ أي الوقت الذي يكون فيه النفخ في الصور ، والفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان أيضاً ﴿ يوم الوعيد ﴾ الذي أوعد الله به الكفار ، قال مقاتل : يعني بالوعيد العذاب في الآخرة وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعاً لتهويله والمعنى يوم تحقق الوعيد وانجازه .

﴿ وجاءت ﴾ فيه ﴿ كل نفس ﴾ من النفوس ﴿ معها سائق وشهيد ﴾ أي من يسوقها ، ومن يشهد لها وعليها ، واختلف في السائق والشهيد ، فقال الضحاك : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم:يعني الأيدي والأرجل وقال الحسن وقتادة : سائق يسوقها ؛ وشاهد يشهد عليها بعملها أي همـا ملكان،وقيل : ملك جامع بين الوصفين ، وقال ابن مسلم : السائق قرينها من الشياطين سمي سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها ، والشهيد جوارحه وأعماله ، وقال مجاهـد : السائق والشهيـد ملكان ، وقيـل : السائق كـاتب السيئآت

والشهيد كاتب الحسنات،قال عثمان بن عفان : سائق ملك يسوقها إلى أمر الله وشهيد ملك يشهد عليها بما عملت،قال القرطبي : قلت هذا أصح .

وعن أبي هريرة قال : السائق الملك،والشهيد العمل ، وقال ابن عباس : السائق الملك والشهيد شاهد عليه من نفسه ، ثم في الآية قولان .

أحدهما : أنها عامة في المسلم والكافر ، وهو قول الجمهور .

الثاني : انها خاصة بالكافر ، قاله الضحاك ويقال للكافر : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ وبه قال ابن عباس.وقال الضحاك : المراد بهذا المشركون ، لأنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم.وقال ابن زيد : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة،وقال أكثر المفسرين المراد به جميع الخلق برهم وفاجرهم،واختار هذا ابن جرير لأنه ما من أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة ، قرأ الجمهور بفتح التاء من كنت وفتح الكاف في غطاءك وبصرك حملاً على ما في لفظ كل من التذكير وقرىء بالكسر في الجميع على أن المراد النفس .

﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ الذي كان في الدنيا،يعني رفعنا الحجاب الذي كان بينك وبين أمور الآخرة،ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك،وقال ابن عباس : الحياة بعد الموت ، قال البيضاوي : الغطاء الحاجب لأمور المعاد وهو الغفلة والإنهماك في المحسوسات ، والإلف بها وقصور النظر عليها،قال السدي : المراد بالغطاء أنه كان في بطن أمه فولد ، وقيل إنه كان في القبر فنشر ، والأول أولى .

﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ أي:نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في الدنيا ، وتدرك به ما أنكرته فيها والبصر،قيل : هو بصر القلب ، وقيل : بصر العين ، وقال مجاهد : بصرك أي لسان ميزانك ، حين توزن حسناتك وسيئآتك ، وبه قال الضحاك .

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ
أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾
مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن
مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾
مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

﴿ وقال قرينه ﴾ أي قال الملك الموكل به وهو الرقيب السابق ذكره قد تقدم أنه كاتب الحسنات وكاتب السيئآت ،وأن للإنسان رقيبين وهما العتيدان فإفراده لتأويله كما مر في الرقيب وفي الشهاب وزاده أن المراد بالقرين الجنس ولو جعلت الخطابات السابقة للكافر لكان وجه إفراد القرين ظاهراً .

﴿ هذا ما لدي ﴾ أي عندي من كتاب عملك ، وما موصولة أو نكرة موصوفة ﴿ عتيد ﴾ حاضر قد هيأته ، كذا قال الحسن وقتادة والضحاك ، وقال ابن عباس : قرينه شيطانه ، وقال مجاهد : إن الملك يقول للرب سبحانه هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته ، وأحضرت ديوان عمله . وروي عنه أنه قال : إن قرينه من الشيطان يقول ذلك أي :هذا ما قد هيأته لك بإغوائي وإضلالي وقال ابن زيد : إن المراد هنا قرينه من الإنس،وعتيد مرفوع على أنه صفة ﴿ ما ﴾ إن كانت موصوفة،وان كانت موصولة فهو خبر .

﴿ ألقيا في جهنم ﴾ هذا خطاب من الله عز وجل للسائق والشهيد،قال الزجاج : هذا أمر للملكين الموكلين به،وقيل : هو خطاب للملكين من خزنة النار وقيل هو خطاب لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل

وتكريره . وقال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الصحيح أن يخاطب الواحد بلفظ الاثنين يقولون أرحلاها وازجراها وخذاها وأطلقاه للواحد،قال الفراء : العرب تقول للواحد قوما عنا،وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان . فجرى كلام الرجل للواحد على ذلك ومنه قولهم في الشعر خليلي،قال المازني : قوله ﴿ ألقيا ﴾ يدل على ألق ألق ، قال المبرد : هي تثنية على التوكيد ، فناب ألقيا مناب ألق ألق،أو الألف ليست للتثنية لا حقيقة ولا صورة بل هي منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة على حد قوله :

وابدلها بعد فتح ألفا وقفا كما تقول في قفن قفا

وأجرى الوصل مجرى الوقف كنسفعاً ، ويؤيده قراءة الحسن في الشواذ ألقين بنون التوكيد الخفيفة ، ولم يقرأ بهذه القراءة أحد من السبعة وقال الكرخي : الخطاب للملكين السائق والشهيد ، على ما عليه الأكثر وهو الظاهر .

﴿ كل كفار ﴾ للنعم ﴿ عنيد ﴾ مجانب للايمان ؛ معاند لأهله : قال مجاهد وعكرمة : العنيد المعاند للحق ، وقيل : المعرض عن الحق يقال عند يعند بالكسر عنود إذا خالف الحق ورده ، وهو يعرفه ﴿ مناع للخير ﴾ لا يبذل خيراً ، ولا يؤدي زكاة مفروضة ، أو كل حق وجب عليه في ماله ﴿ معتد ﴾ ظالم لا يقر بتوحيد الله ﴿ مريب ﴾ شك في الحق،من قولهم أراب الرجل إذا صار ذا ريب﴿ الذي جعل مع الله إلهاً آخر ﴾ بدل من كل ، أو منصوب على الذم أو بدل من كفار ، أو مرفوع بالابتداء ، والخبر : ﴿ فألقياه في العذاب الشديد ﴾ أي النار ، تأكيد للأمر الأول أو بدل منه .

﴿ قال قرينه : ربنا ما أطغيته ﴾ مستأنفة لبيان ما يقوله القرين ، والمراد به هنا الشيطان الذي قيض لهذا الكافر ، أنكر أن يكون أطغاه ثم قال :

﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ عن الحق ، فدعوته فاستجاب لي ، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه وقيل : إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئآته وإن الكافر يقول رب إنه أعجلني فيجيبه بهذا كذا،قال مقاتل وسعيد ابن جبير والأول أولى،وبه قال الجمهور .

﴿ قال ﴾ تعالى : ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ مستأنفة كأنه قيل : فماذا قال الله ؟ فقيل قال : لا تختصموا لدي ، يعني الكافرين وقرناءهم ، نهاهم سبحانه عن الاختصام في مواقف الحساب ، قال ابن عباس : إنهم اعتذروا بغير عذر فأبطل الله حجتهم ورد عليهم قولهم ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، والباء مزيدة للتأكيد ، أو على تضمين قدم معنى تقدم قيل : إن مفعول قدمت إليكم هو قوله: ما يبدل أي وقد قدمت إليكم هذا القول متلبساً بالوعيد وهذا بعيد جداً .

﴿ ما يبدل ﴾ أي ما يغير ﴿ القول لدي ﴾ في ذلك أي لا خلف لوعيدي ، بل هو كائن لا محالة ؛ وقد قضيت عليك بالعذاب فلا تبديل له وقيل : هذا القول هو قوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ، وقيل : هو قوله : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ، وقيل : المراد بالقول هو الوعيد بتخليد الكافر في النار ومجازاة العصاة على حسب استحقاقهم،وقال الفراء وابن قتيبة : معنى الآية أنه ما يكذب عندي بزيادة في القول ولا ينقص منه لعلمي بالغيب ، وهو قول الكلبي ، واختاره الواحدي لأنه قال : ﴿ لدي ﴾ ولم يقل : ما يبدل قولي قيل والمعنى لا تطمعوا أني أبدل وعيدي،والعفو عن بعض المذنبين لبعض الأسباب ليس من التبديل فإن دلائل العفو في حق عصاة المذنبين تدل على تخصيص الوعيد ، ولا تخصيص في حق الكافر فالوعيد على عمومه في حقهم والأول أولى .

﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي لا أعذبهم ظلماً بغير جرم اجترموه ولا

ذنب أذنبوه ، وقال ابن عباس في الآية : ما أنا بمعذب من لم يجترم ولما كان نفي الظلام لا يستلزم نفي مجرد الظلم،قيل : إنه هنا بمعنى الظالم ، كالتمّار بمعنى التامر ، وقيل إن صيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب ، في معرض المبالغة في الظلم ، وقيل : صيغة المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده ، وظالم لعبيده،وقيل ظلام بمعنى ذي ظلم لقوله: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ وإذا لم يظلم في هذا اليوم فنفي الظلم عنه في غيره أحرى فلا مفهوم له ، وقيل غير ذلك،وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران وفي سورة الحج .

﴿ يوم نقول ﴾ قرأ الجمهور بالنون،وقرىء بالياء،وقرىء أقول ويقال ، والعامل في الظرف ما يدل القول،أو محذوف،أي :اذكر يوم أو أنذرهم يوم نقول ﴿ لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ ﴾ قيل هذا الكلام على طريقة التمثيل والتخييل،ولا سؤال ولا جواب ؛ وبه قال الزمخشري ، والأولى أنه على طريقة التحقيق ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع، قال الكرخي : جعل الزمخشري هذا من باب المجاز مردود ، لما ورد : تحاجت النار والجنة ، واشتكت النار إلى ربها ، ولا مانع من ذلك فقد سبح الحصى ، وسلم الحجر على النبي صلى الله عليه وسلم،ولو فتح باب المجاز فيه لاتسع الخرق . قال النسفي : هذا على تحقيق القول من جهنم ، وهو غير مستنكر ، كإنطاق الجوارح والسؤال لتوبيخ الكفار ، لعلمه تعالى أنها قد امتلأت أم لا ، وقال الواحدي : قال المفسرون : أراها الله تصديق قوله: ﴿لأملأن جهنم﴾ فلما امتلأت قال لها : هل امتلأت ؟ وتقول هل من مزيد ؟ أي قد امتلأت ولم يبق فيّ موضع لم يمتلىء،وبهذا قال عطاء ومجاهد ومقاتل بن سليمان .

وقيل : إن هذا الإستفهام بمعنى الاستزادة ، أي :أنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها ، وقيل إن المعنى أنها طلبت أن يزاد في سعتها لتضايقها

بأهلها. والمزيد؛إما مصدر كالمجيد،أو إسم مفعول كالمبيع ، فالأول بمعنى هل من زيادة والثاني؛بمعنى هل من شيء تزيد فيه ؟ قال ابن عباس : وهل في من مكان يزاد فيّ ؟ .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، وعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشيء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في فضول الجنة[1] هذا لفظ مسلم ، وأخرجاه أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه ، وفيه: فأما النار فلا تمتليء حتى يضع الله عليها رجله يقول لها قط قط ، قيل معنى القدم هنا القوم المتقدم إلى النار ، ومعنى الرجل العدد الكثير من الناس وغيرهم ، وفي الباب أحاديث ، ومذهب جمهور السلف فيها الإيمان بها من غير تأويل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تمثيل ، وإمرارها على ظاهرها ، وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، قال القرطبي في تذكرته : باب ما جاء أن جهنم في الأرض وأن البحر طبقها .

روي عن عبدالله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يركب البحر رجل إلا غاز أو حاج معتمر ، فإن تحت البحر ناراً » ذكره أبو عمرو وضعفه ، قال ابن عمر : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم وضعفه أبو عمرو أيضاً .

ثم لما فرغ الله سبحانه من بيان حال الكافرين شرع في بيان حال المؤمنين فقال :

(١) رواه البخاري ومسلم .

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي: قربت وأدنيت ﴿ للمتقين ﴾ الذين اتقوا الشرك تقريباً ﴿ غير بعيد ﴾ أو مكاناً غير بعيد منهم ، بحيث يشاهدونها ويرونها في الموقف ، وينظرون ما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقيل : المعنى أنها زينت لقلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب فصارت قريبة من قلوبهم ، والأول أولى ، وقيل : يطوي الله المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب ، وذلك إكراماً للمؤمن وبياناً لشرفه وأنه ممن تمشي إليه وقيل : المراد قرب الدخول فيها لا بمعنى القرب المكاني ، وقيل : معنى أزلفت جمعت محاسنها لأنها مخلوقة ، أو أن المعنى قرب حصولها لأنها تنال بكلمة طيبة ، وخص المتقين بذلك لأنهم أحق بها .

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى الجنة التي أزلفت لهم على معنى هذا الذي ترونه من فنون نعيمها ﴿ ما توعدون ﴾ والجملة بتقدير القول أي يقال لهم : هذا ما توعدون قرأ الجمهور بالفوقية ، وقرىء بالتحتية ﴿ لكل أواب حفيظ ﴾ هو بدل من المتقين بأعادة الخافض ، أو متعلق بقول محذوف هو حال ، أي مقولاً لهم : لكل أواب ، والأواب الرجاع إلى طاعة الله تعالى بالتوبة عن المعاصي ، وقيل : هو المسبح ، وقيل : هو الذاكر لله في الخلوة. قال الشعبي ومجاهد : هو الـذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها ، وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله فيه ، والحفيظ هو الحافظ حتى يثوب منها ، وقال قتادة : هو الحافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته قال مجاهد وقيل : هو الحافظ لأمر الله ، وقال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله لـه بالقبول ، قال ابن عباس : حفيظ ذنوبه حتى رجع عنها ، وقيـل : حافظ لحدود الله .

﴿ من خشي الرحمن بالغيب ﴾ بدل أو بيان لكل أواب،أو بدل بعد بدل من المتقين ، وفيه نظر،لأنه لا يتكرر البدل والمبدل منه واحد ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على الاستئناف ، والخبر : ادخلوها،بتقدير يقال لهم : ادخلوها والخشية

انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة ، والخشية بالغيب أن يخاف الله ، ولم يكن رآه ، وقال الضحاك والسدي : يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد ، قال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الأبواب ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أي راجع إلى الله مخلص لطاعته ، وقيل : بسريرة مرضية ، وعقيدة صحيحة ، وقيل : المنيب المقبل على الطاعة ، وقيل السليم .

﴿ أدخلوها ﴾ الجمع باعتبار معنى من أي ادخلوا الجنة ﴿ بسلام ﴾ أي بسلامة من العذاب ، وكل مخوف ، وقيل : بسلام من الله أو من ملائكته ، وقيل بسلامة من زوال النعم وحلول النقم ، أي متلبسين به أو مع سلام،أي: ليسلم بعضكم على بعض ، فالمراد السلام فيما بينهم ، ولا مانع من حمل الآية الكريمة على كل ﴿ذلك﴾ إشارة إلى زمن ذلك اليوم الذي حصل فيه الدخول ، كما قال أبو البقاء ، وخبره : ﴿ يوم الخلود ﴾ وسماه يوم الخلود ، لأنه لا انتهاء له بل هو دائم أبداً ، وهذا القول في الدنيا إعلام وإخبار ، وليس ذلك قولاً يقوله عند قوله : ادخلوها ، أو أن اطمئنان القلب بالقول أكثر .

﴿ لهم ما يشاؤون فيها ﴾ أي في الجنة ما تشتهي أنفسهم ، وتلذ أعينهم من فنون النعم ، وأنواع الخير ﴿ ولدينا مزيد ﴾ من النعم التي لم تخطر لهم على بال ولا مرت لهم في خيال قيل : هو النظر إلى وجهه الكريم ، قاله جابر وقال أنس : يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى في كل ليلة جمعة في دار كرامته ، فهذا هو المزيد ، وعن علي قال : يتجلى لهم الرب عز وجل ، وقيل : إن السحابة تمر بأهل الجنة فتمطرهم الحور ، فيقلن : نحن المزيد الذي قال تعالى : ولدينا مزيد ، وفي الباب روايات وأحاديث ، ثم خوف سبحانه أهل مكة بما اتفق للقرون الماضية قبلهم ، فقال :

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾
فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا
ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ أي قبل قريش ومن وافقهم ﴿ من قرن ﴾ أي أمة كثيرة من الكفار ﴿ هم أشد منهم بطشاً ﴾ أي: قوة كعاد وثمود وغيرهم ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ قرىء بتشديد القاف على الماضي، والتنقيب التنقير عن الأمر والبحث والطلب، أي ساروا وتقلبوا فيها، وطافوا بقاعها طلباً للهرب، وأصله من النقب وهو الطريق، قال مجاهد: ضربوا وطافوا، وقال النضر بن شميل: دوروا، وقال المؤرج: تباعدوا، والأول أولى؛ وقرأ ابن عباس وغيره نقبوا بفتح القاف مخففة والنقب هو الخرق والطريق في الجبل وكذا المنقب والمنقبة؛ كذا قال ابن السكيت: وجمع النقب نقوب؛ وقرىء بكسر القاف مشددة على الأمر للتهديد، أي طوفوا فيها وسيروا في جوانبها.

ولما كان التقدير ولم يسلموا مع كثرة تنقيبهم وتفتيشهم توجه سؤال فيه تنبيه الغافل وتقريع وتبكيت للمعاند الجاهل بقوله ﴿ هل من محيص؟ ﴾ لهم أو لغيرهم: أي من معدل ومحيد، ومهرب يهربون إليه من الموت أو مخلص يتخلصون به من العذاب؛ ليكون لهؤلاء وجه ما في رد أمرنا؛ وهل حرف استفهام، ومن زائدة، قال الزجاج: لم يروا محيصاً من الموت؛ والمحيص

مصدر حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاناً أي عدل وحاد ، والجملة مستأنفة لبيان أنه لا مهرب لهم ولا مفر ، وهي من كلام الله تعالى ، إذ لو كانت من كلامهم لكان التقدير هل من محيص لنا ؟ فليتأمل وفي هذا إنذار لأهل مكة أنهم مثل من قبلهم من القرون لا يجدون من الموت والعذاب مفراً .

﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ أي فيما ذكر من قصتهم في هذه السورة من أولها إلى آخرها تذكرة وموعظة ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أي عقل ، قال الفراء : وهذا جائز في العربية تقول مالك قلب . وما قلبك معك أي مالك عقل وما عقلك معك ، وقيل : المراد القلب نفسه؛لأنه إذا كان سليماً أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغي ، وقيل لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن ذلك بالقلب ، لأنه وطنها ومعدن حياتها ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أي استمع ما يقال له من الوعظ وغيره يقال : ألق سمعك إليّ أي استمع مني،والمعنى:أنه ألقى السمع إلى ما يتلى عليه من الوحي الحاكي لما جرى على تلك الأمم .

قرأ الجمهور ألقى مبنياً للفاعل ، وقرىء على البناء للمفعول ورفع السمع وأو مانعة الخلو ، لا مانعة الجمع ، فإن إلقاء السمع لا يجدي بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله ﴿ وهو شهيد ﴾ أي حاضر الفهم أو حاضر القلب لأن من لا يفهم،في حكم الغائب وإن حضر بجسمه فهو لم يحضر بفهمه ، قال الزجاج : أي وقلبه حاضر فيما يسمع ؛ قال سفيان : أي لا يكون حاضراً وقلبه غائب قال مجاهد وقتادة : هذه الآية في أهل الكتاب ، وكذا قال الحسن ، وقال محمد بن كعب وأبو صالح : إنها في أهل القرآن خاصة .

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة،فخلق الأرض في يومين ومنافعها في يومين والسموات في يومين ولو شاء لخلق الكل في أقل من لمح البصر ، ولكنه تعالى من فضله علمنا

بذلك التأني في الأمور،واليوم قد يطلق ويراد به الوقت والحين ، وقد يعبر به عن مدة الزمان،أي مدة كانت وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف وغيرها مراراً .

﴿ وما مسنا من ﴾ زائدة ﴿ لغوب ﴾ أي تعب وإعياء ، يقال : لغب يلغب بالضم لغوباً وقال ابن عباس : لغوب نصب ، قال الواحدي : قال جماعة المفسرين : نزلت رداً على اليهود في قولهم : إن الله استراح يوم السبت واستلقى على العرش ، فلذلك تركوا العمل فيه ، فأكذبهم الله بقوله : وما مسنا من لغوب ، وانتفاء التعب عنه لتنزهه تعالى عن صفات المخلوقين ، ولعدم المماسة بينه وبين غيره إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون قال الرازي : والظاهر أن المراد الرد على المشركين ، والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما في أمر البعث وأما ما قاله اليهود ونقلوه فهو ما تحرف منهم ، أو لم يعلموا تأويله .

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأمر له بالصبر على ما يقوله المشركون ، أي هون عليك ولا تحزن لقولهم ، وتلق ما يرد عليك منهم بالصبر ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ أي نزه الله عما لا يليق بجنابه العالي ، متلبساً بحمده وقت الفجر ووقت العصر ، وقيل : المراد صلاة الفجر وصلاة العصر ، قاله ابن عباس ، وقيل الصلوات الخمس ، وقيل : صلِّ ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها،والأول أولى ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ من للتبعيض أي سبحه بعض الليل ، وقيل : هي صلاة الليل ، وقيل ركعتا الفجر ، وقيل صلاة العشاء والأول أولى .

﴿ وإدبار السجود ﴾ أي وسبحه أعقاب الصلوات ، قرء الجمهور بفتح الهمزة جمع دبر ، وقرىء بكسرها على المصدر من أدبر الشيء إدباراً إذا ولّى وقال جماعة من الصحابة والتابعين : إدبار السجود الركعتان بعد المغرب ،

وإدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ، وقد اتفق القراء السبعة في إدبار النجوم أنه بكسر الهمزة .

وعن ابن عباس قال : « بت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين خفيفتين قبل صلاة الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : يـآبـن عباس ركعتان قبل صلاة الفجر إدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب إدبار السجود »(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه وابن مردويه وابن أبي حاتم .

وعن علي بن أبي طالب قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إدبار النجوم وإدبار السجود فقال : إدبار السجود ركعتان بعد المغرب ، وإدبار النجوم ركعتان قبل الغداة» أخرجه مسدد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إدبار السجود ركعتان بعد المغرب وإدبار النجوم ركعتان قبل الفجر ، وعن أبي هريرة مثله ، وقال ابن عباس أمره أن يسبح في إدبار الصلوات كلها ، وبه قال مجاهد ، قال الكرخي :

لخبر أبي هريرة في الصحيح مرفوعاً «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين فذلك تسعة وتسعون وتمام المائة لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(٢) .

﴿ واستمع ﴾ ما يوحى إليك من أحوال القيامة ، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وقيل : الاستماع بمعنى الانتظار وهو بعيد ، وقيل

---

(١) رواه الحاكم .
(٢) رواه مسلم .

استمع النداء والصوت أو الصيحة،قاله ابن عباس ﴿ يوم يناد المناد ﴾ هو إسرافيل أو جبرائيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي بالحشر ، وهي صيحة القيامة ، أعني النفخة الثانية في الصور من إسرافيل ، وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي أهل المحشر ويقول هلموا للحساب ، فالنداء على هذا في المحشر ، قال الشهاب : وهو الأصح ، كما دلت عليه الآثار .

قال مقاتل : هو إسرافيل ينادي في المحشر فيقول : يا أيها الناس هلموا للحساب ، وقيل ينادي أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

﴿ من مكان قريب ﴾ من السماء حيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد المحشر ، قال قتادة : كنا نتحدث أنه ينادي من صخرة بيت المقدس ، وبه قال ابن عباس ، قال الكلبي : وهي أقرب موضع من الأرض إلى السماء بإثني عشر ميلاً ، وهي وسط الأرض ، وقال[1] كعب بثمانية عشر ميلاً ﴿ يوم يسمعون ﴾ أي الخلق كلهم ﴿ الصيحة بالحق ﴾ يعني صيحة البعث ، وهي النفخة الثانية من إسرافيل ، ويحتمل أن تكون قبل ندائه وبعده قاله الجلال المحلي ، وهذا غير مستقيم لأن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة كما في قوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ قال الكلبي : معنى بالحق بالبعث ، وهو حال من الواو أي يسمعون متلبسين بالحق ، أو من الصيحة أي متلبسة بالحق ، وقال مقاتل : يعني أنها كائنة حقاً .

﴿ ذلك ﴾ أي يوم النداء والسماع ﴿ يوم الخروج ﴾ من القبور ، قال ابن عباس : أي يوم يخرجون إلى البعث من القبور ، يعني يعلمون عاقبة تكذيبهم ﴿ إنا نحن نحيي ﴾ في الآخرة ﴿ ونميت ﴾ في الدنيا ، لا يشاركنا في

---

(١) كلا ، لا صحة لكلام كعب ولا صاحبه الكلبي فإن المسافة بين أعلى بقعة في الأرض وأقرب كوكب في سماء الدنيا مئات الألوف من الأميال .

ذلك مشارك ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث ﴿ وإلينا المصير ﴾ فنجازي كل عامل بعمله .

﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ أي حال كونهم مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم ﴿ ذلك حشر ﴾ أي بعث وجمع ﴿ علينا يسير ﴾﴾ هين ، وتقديم الظرف يدل على الاختصاص ، أي لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن ، ثم عزى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ من تكذيبك فيما جئت به ، ومن إنكار البعث والتوحيد .

﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي بمسلط ، تجبرهم وتقهرهم على الايمان والآية منسوخة بآية السيف ، وجبار صيغة مبالغة من جبر الثلاثي ، فإن فعالاً إنما يبنى من الثلاثي وفي المصباح أجبرته على كذا بالألف حملته عليه قهراً وغلبة . فهو مجبر ، هذه لغة عامة العرب وفي لغة لبني تميم وكثير من أهل الحجاز جبرته جبراً من باب قتل ، حكاه الأزهري ، ثم قال جبرته لغتان جيدتان ، وقال الخطابي : الجبار الذي جبر خلقه على ما أراد من أمره ونهيه ، يقال جبره السلطان وأجبره بمعنى ورأيت في بعض التفاسير عند قوله تعالى : وما أنت عليهم بجبار، أن الثلاثي لغة حكاها الفراء وغيره واستشهد لصحتها بما معناه أنه لا يبنى فعال إلا من فعل ثلاثي نحو الفتاح والعلام ولم يجيء من أفعل بالألف الإدراك ،فإن حمل جبار على هذا المعنى فهو وجيه ، قال الفراء : وقد سمعت العرب تقول جبرته على الأمر وأجبرته وإذا ثبت ذلك فلا يعول على قول من ضعفها .

﴿ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أي وعيدي لعصاتي بالعذاب وأما من عداهم فلا تشتغل بهم،ثم أمره الله سبحانه بعد ذلك بالقتال قال ابن عباس قالوا : يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ وهم المؤمنون .

سورة الذاريات

﴿ هي ستون آية وهي مكية ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾
يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ
يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾
كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾

قال القرطبي : في قول الجميع : وبه قال ابن عباس وابن الزبير ، وفي بعض النسخ والذاريات بالواو ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذرواً ﴾ يقال ذرت الريح التراب تذروه ذرواً ، وأذرته تذريه ذرياً ، أقسم الله سبحانه بالرياح التي تذر والتراب وغيره ، وقيل : المقسم به مقدر ، وهو رب الذاريات وما بعدها ، والأول أولى ، عن علي قال : الذاريات الرياح ، وقال غيره النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد .

﴿ فالحاملات وقراً ﴾ قال علي : هي السحاب ، أي تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ، وانتصاب وقراً على أنه مفعول به كما يقال : حمل فلان عدلاً ثقيلاً ، قرأ الجمهور بكسر الواو اسم ما يوقر ، أي يحمل وقرىء بفتحها على أنه مصدر ، وقيل : الرياح الحاملات للسحاب ، أو النساء الحوامل ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ قال علي : هي السفن أي الجارية في البحر بالرياح جرياً سهلاً أي جرياً ذا يسر ، وقيل : هي الرياح الجارية في مهابها أو الكواكب التي تجري في منازلها ، وقيل : السحاب والأول أولى واليسر السهل في كل شيء .

﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ قال علي : الملائكة ، وعن عمر بن الخطاب مثله ، ورفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده أبو بكر بن سبرة وهو ضعيف لين الحديث وسعيد بن سلام وليس من أصحاب الحديث كذا قال البزار ، قال ابن كثير : فهذا الحديث ضعيف رفعه وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر،وعن ابن عباس مثل قول علي ، يعني الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرهما ، أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة أو الرياح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب .

قال الفراء : تأتي الملائكة بأمر مختلف ، جبريل بالغلظة والوحي إلى الأنبياء وميكائيل صاحب الرحمة والرزق ، وملك الموت يأتي بالموت وإسرافيل صاحب الصور واللوح ، وقيل تأتي بأمر مختلف بالجدب والخصب والمطر والموت والحوادث ، وقيل هي السحب التي يقسم الله بها أمر العباد ، وقيل : إن المراد بهذه الأوصاف الأربعة الرياح كما تقدم ، فإنها توصف بجميع ذلك لأنها تذرو التراب ، وتحمل الأثقال وتجري في الهواء وتقسم الأمطار وهو ضعيف جداً . والترتيب في هذه الأقسام ترتيب ذكرى ورتبى باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على قدرته تعالى ، أقسم الله بهذه الأشياء لشرف ذواتها ، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته وقدرته لكونها أموراً بديعة مخالفة لمقتضى العادة ، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به .

﴿ إنما توعدون لصادق ﴾ هذا جواب القسم وما مصدرية أو موصولة أي إن ما توعدون من الثواب والعقاب لكائن لا محالة ﴿ وإن الدين ﴾ أي الحساب والجزاء على الأعمال ﴿ لواقع ﴾ أي حاصل وكائن لا محالة ، ثم ابتدأ قسماً آخر فقال : ﴿ والسماء ﴾ المراد بها هنا هي المعروفة ، وقيل المراد بها السحاب والأول أولى .

﴿ ذات الحبك ﴾ قرأ الجمهور بضم الحاء والباء ، وقرىء بضمها وسكون الباء وقرىء بكسر الحاء وفتح الباء وبكسر الحاء وضم الباء قال

ابن عطية : هي لغات قال الجلال المحلي : جمع حبيكة كطريقة وطرق ، أي صاحبة الطرق في الخلقة ،كالطرق في الرمل ، واختلف المفسرون في تفسير الحبك فقال مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم : المعنى ذات الخلق المستوي الحسن ، قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته واحتبكته ، وقال الحسن وسعيد ابن جبير : ذات الزينة ،وروي عن الحسن أيضاً إنه قال : ذات النجوم وقيل : ذات البنيان المتقن ، وقال الضحاك : ذات الطرائق ، وبه قال الفراء : يقال لما تراه من الماء والرمل إذا أصابته الريح حبك ، قال الفراء الحبك تكسر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة ، والماء إذا مرت به الريح ، ويقال لدرع الحديد حبك وقيل : الحبك الشدة أي والسماء ذات الشدة ، والمحبوك الشديد الخلق من فرس أو غيره .

قال الواحدي بعد حكاية القول الأول : هذا قول الأكثرين ، قال ابن عباس : والسماء ذات الحبك أي حسنها واستوائها ، وعنه قال : ذات البهاء والجمال ، وإن بنيانها كالبرد المسلسل ، وعنه قال : ذات الخلق الحسن : وعن ابن عمر مثله ، وعن علي قال : هي السماء السابعة ، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة ، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه ، على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا ، وذلك بأن يقال إن ما في السماء من الطرائق يصح أن يكون سبباً لمزيد حسنها ، واستواء خلقها ، وحصول الزينة فيها ، ومزيد القوة لها ، وفي البيضاوي ذات الحبك ذات الطرائق ، والمراد إما الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي تسلكها البطار ونتوصل بها إلى المعارف أو النجوم فإنها لها طرائق ، أو منها تزينها كما يزين الموشي طرائق الوشي .

﴿ إنكم ﴾ هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك أي إنكم يا أهل مكة ﴿ لفي قول مختلف ﴾ متناقض في شأن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، بعضكم يقول : إنه شاعر وبعضكم يقول إنه ساحر ، وبعضكم يقول : إنه

مجنون ، والقرآن شعر سحر كهانه ووجه تخصيص القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء ، وقيل : المراد بكونهم في قول مختلف أن بعضهم ينفي الحشر ، وبعضهم يشك فيه ، وقيل كونهم يقرون أن الله خالقهم ويعبدون الأصنام ، وقيل : ﴿ قول مختلف ﴾ مصدق مكذب .

﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ أي يصرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به أو عن الحق وهو البعث والتوحيد من صرف عن الهداية في علم الله تعالى يقال أفكه يأفكه إفكاً أي قلبه عن الشيء وصرفه عنه ، ومنه قوله تعالى : قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ، وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، والأفن فساد العقل ، وقيل يحرم منه من حرم ، وقال قطرب : يخدع عنه من خدع ،وقال اليزيدي : يدفع عنه من دفع ، وقال ابن عباس : يضل عنه من ضل ، وفي الخطيب قيل : إن هذا القول مدح للمؤمنين ، ومعناه يصرف عن القول المختلف من صرف عن ذلك القول ورشد إلى المستوى .

﴿ قتل الخراصون ﴾ هذا دعاء عليهم ، وحكى الواحدي عن المفسرين جميعاً : أن المعنى لعن الكذابون ، والمراد بالكذابين أصحاب القول المختلف ، وأصل هذا التركيب الوعد بالقتل : أجري مجرى اللعن ، واستعمل بمعناه تشبيهاً للملعون . الذي يفوته كل خير وسعادة بالمقتول الذي تفوته الحياة ، وكل نعمة ، وقال ابن الأنباري : والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعنة لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك قال الفراء معنى قتل لعن،وفي القاموس ما يقتضي أن قتل يأتي بمعنى لعن ، ونصه : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ أي: لعن ﴿ وقاتلهم الله ﴾ أي لعنهم ، والخراصون الكذابون ، الذين يتخرصون فيما لا يعلمون ، فيقولون إن محمداً مجنون كذاب شاعر ساحر . قال الزجاج : الخراصون هم الكذابون ،والخرص حزر ما على النخل من الرطب تمراً

والخراص الذي يخرصها ، وليس هو المراد هنا ، قال ابن عباس في الآية : لعن المرتابون ، وعنه قال : هم الكهنة وقيل : هم المقتسمون الذين اقتسموا أعقاب مكة ليصرفوا الناس عن الإسلام .

﴿ الذين هم في غمرة ﴾ أي في غفلة وعمى وجهالة عن أمور الآخرة وأصل الغمرة ما ستر الشيء وغطاه ومها غمرات الموت ، قال ابن عباس : الغمرة الكفر والشرك ﴿ ساهون ﴾ أي لاهون غافلون ، والسهو الغفلة عن الشيء ، وذهابه عن القلب ، وقال ابن عباس : في غفلة لاهون وعنه قال : في ضلالتهم يتمادون .

﴿ يسألون أيان يوم الدين ؟ ﴾ أي يقولون متى يجيء يوم الجزاء ، تكذيباً منهم واستهزاء ، ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم فقال : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي يحرقون ويعذبون فيها يقال فتنت الذهب اذا أحرقته لتختبره وأصل الفتنة الإختبار ، قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل فتن ،قال ابن عباس: يفتنون يعذبون قال الشهاب : أصلها إذابة الجوهر ليظهر غشه ، ثم استعمل في التعذيب والإحراق وعدى يفتنون بعلى لتضمنه معنى يعرضون .

﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ أي يقال لهم حين التعذيب : ذوقوا عذابكم ، قاله ابن زيد ، وقال مجاهد : حريقكم ، ورجح الأول الفراء،وجملة ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ من جملة ما هو محكي بالقول ، أي:هذا ما كنتم تطلبون تعجيله في الدنيا استهزاء منكم ، وقيل هي بدل من فتنتكم ؛ ولما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة فقال :

﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ أي:هم كائنون في بساتين فيها عيون جارية في جهاتهم ، وأمكنتهم ، لا يبلغ وصفها الواصفون حال كونهم ﴿ آخذين ﴾ أي قابضين ﴿ ما آتاهم ربهم ﴾ شيئاً فشيئاً من الخير والثواب

والكرامة ، راضين به ومسرورين ، ومتلقين له بالقبول : لا يستوفونه بكماله ، لإمتناع استيفاء ما لا نهاية له ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ الجملة تعليل لما قبلها أي لأنهم كانوا في الدنيا قبل دخولهم الجنة محسنين في أعمالهم الصالحة ، من فعل ما أمروا به ، وترك ما نهوا عنه ، قال ابن عباس: أي قبل أن تنزل الفرائض يعملون ، ثم ذكر إحسانهم الذي وصفهم به فقال :

﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ الهجوع النوم بالليل دون النهار ، وبابه خضع والهجعة النومة الخفيفة ، والمعنى كانوا قليلاً ما ينامون من الليل ويصلون أكثره ، وكذا قال المحلي ، وما زائدة أو مصدرية أو موصولة ، أي كانوا قليلاً من الليل هجوعهم أو ما يهجعون فيه ، والتهجاع القليل من النوم وقيل : ما نافية أي ما كانوا ينامون قليلاً من الليل ، فكيف بالكثير منه وهذا ضعيف جداً ، وهكذا قول من قال : إن المعنى كان عددهم قليلاً ، ثم ابتدأ فقال : من الليل ما يهجعون ، وبه قال ابن الأنباري ، وهو أضعف مما قبله وقال قتادة في تفسير هذه الآية : كانوا يصلون بين العشاءين وبه قال أبو العالية وابن وهب ، قال ابن عباس : ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا ، إلا يصلون فيها ، وعنه قال : يقول : قليلاً ما كانوا ينامون ، وعن أنس قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ أي يطلبون في أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم ، قال الحسن : مدوا الصلاة إلى الأسحار ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار ، وقال الكلبي ومقاتل ومجاهد : هم بالأسحار يصلون ، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة ، وقال الضحاك : هي صلاة الفجر ، قال ابن عمر : يستغفرون يصلون ، قال ابن زيد : السحر السدس الأخير من الليل والمعنى يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسهم مذنبين ، ويسألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله تعالى ، وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره ، وإن اجتهدوا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : لا أحصي ثناء عليك ،

وقيل : يستغفرون من تقصيرهم في العبادة ، وقيل : من ذلك القدر القليل الذي كانوا ينامونه من الليل ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال :

﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ أي يجعلون في أموالهم ويوجبون على أنفسهم ، حقاً للسائل والمحروم ، تقرباً إلى الله عز وجل بمقتضى الكرم يصلون بها الأرحام والفقراء والمساكين ، وقال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا الزكاة المفروضة والأول أولى ، فتحمل على صدقة النفل وصلة الرحم وقِرى الضيف لأن السورة مكية والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة وسيأتي في سورة ﴿ سأل سائل ﴾ ﴿ وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ﴾ بزيادة معلوم والسائل هو الذي يسأل الناس لفاقته ، واختلف في تفسير المحروم فقيل هو الذي يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنياً ، فلا يتصدقون عليه ، وبه قال قتادة والزهري ، وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : هو الذي لا سهم له في الغنيمة ، ولا يجري عليه من الفيء شيء ، وقال زيد بن أسلم : هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو ماشيته .

وقال القرظي : هو الذي أصيب بجائحة ، وقيل : الذي لا يتكسب ، وقيل : هو الذي لا يجد غني يغنيه ، وقيل : هو المملوك ، وقيل : الكلب ، وقيل غير ذلك ، قال الشعبي : لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم ، فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ ، والذي ينبغي التعويل عليه ما يدل عليه المعنى اللغوي . والمحروم في اللغة الممنوع من الحرمان وهو المنع ، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل ومن أصيب ماله بجائحة أذهبته ، ومن حرم العطاء ، ومن حرم الصدقة لتعففه ، وأظهر هذه الأقوال أنه المتعفف لأنه قرنه بالسائل ، والمتعفف لا يسأل ، ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل ، وإنما يفطن له متيقظ ، قال ابن عباس : في أموالهم حق سوى الزكاة ، يصل بها رحماً ويقري بها ضيفاً ، أو يعين بها محروماً ، وعنه قال : السائل الذي يسأل الناس ، والمحروم الذي ليس لـه سهم في المسلمين ، وعنـه قال :

المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه ، ولا يسأل الناس ، فأمر الله المؤمنين برفده .

وعن عائشة في الآية قالت : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه .

وأخرج الترمذي والبيهقي في سننه ، «عن فاطمة بنت قيس أنها سألت النبي عن هذه الآية قال : إن في المال حقاً سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ﴾ » .

ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيده ، ووعده ووعيده ، فقال :

﴿ وفي الأرض آيات ﴾ أي دلائل واضحة ، وعلامات ظاهرة ، من الجبال والبر والبحر والأشجار والأنهار والثمار ، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة ، المكذبة لما جاءت به رسل الله ، ودعتهم إليه ، وهي مدحوة كالبساط لما فوقها ، وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها ، وهي مجزأة فمن سهل ومن جبل صلبة ورخوة وعذبة وسبخة ، وفيها معادن مفتتة ، ودواب منبثة ، مختلفة الصور والأشكال متباينة الهيئآت والأفعال إلى غير ذلك من بدائع صنعه وصنائع قدرته وحكمته وتدبيره .

﴿ للموقنين ﴾ أي للموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني ، الموصل إلى المعرفة ، فهم نظارون ، بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأويلها ، فازدادوا إيقاناً على إيقانهم ، وخص الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه فينتفعون به .

وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ
دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾
فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ
عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟
إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾

﴿ وفي أنفسكم ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، آيات تدل على توحيد الله وصدق ما جاءت به الرسل ، فإنه خلقهم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ،ثم عظماً،إلى أن ينفخ فيهم الروح ، ثم تختلف بعد ذلك صورهم ، وألوانهم ، وطبائعهم ، وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصورة العجيبة الشأن من لحم ودم وعظم وأعضاء وحواس ومجاري ومنافس ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطرة وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها ، دع الأسماع والأبصار ، والأطراف ، وسائر الجوارح ، وتأتيها لما خلقت له ، وما سوى ذلك في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني ، فإنه إذا جسا منها شيء جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وقيل يريد اختلاف الألسن والصور والألوان والطبائع ، وقيل يريد سبيلي الغائط والبول ، يأكل ويشرب ، من مدخل واحد ، ويخرج من سبيلين ، وقيل

المراد بالأنفس الأرواح ، أي وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات ، ولا وجه لتخصيص شيء دون شيء ، بل اللفظ أوسع من ذلك .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي :تنظرون بعين البصيرة والعبرة الأرض وما فيها ، والأنفس وما فيها ، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المنفرد بالألوهية ، وأنه لا شريك له ولا ضد ، ولا ند ، وأن وعده الحق ،وقوله الحق ،وأن ما جاءت اليكم به رسله هو الحق الذي لا شك فيه ، ولا شبهة تعتريه

﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ أي سبب رزقكم وهو المطر فإنه سبب الأرزاق قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج وقيل : المراد بالسماء السحاب أي وفي السحاب رزقكم وقيل :المراد بالسماء ألمطر وسماه سماء لأنه ينزل من جهتها وقال ابن كيسان : يعني وعلى رب السماء رزقكم قال : ونظيره ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وهو بعيد وقال سفيان الثوري : أي عند الله في السماء رزقكم وقيل المعنى وفي السماء تقدير رزقكم قرأ الجمهور بالإفراد،وقرىء أرزاقكم بالجمع .

﴿ وما توعدون ﴾ من الجنة والنار قاله مجاهد،وقال عطاء : من الثواب والعقاب وقال الكلبي : من الخير والشر،وقال ابن سيرين : ما توعدون من أمر الساعة وبه قال الربيع،والأولى الحمل على ما هو الأعم من هذه الأقوال فإن جزاء الأعمال مكتوب في السماء والقضاء والقدر ينزل منها والجنة والنار فيها ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال :

﴿ فورب السماء والأرض إنه ﴾ أي إن ما أخبركم به في هذه الآيات ﴿ لحق ﴾ وقال الزجاج : هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات ،قال الكلبي : يعني ما قص في الكتاب،وقال مقاتل :يعني من أمر الساعة وقيل إن ﴿ ما ﴾ في قوله: وما توعدون مبتدأ وخبره فورب السماء الخ ،فيكون الضمير لما ثم قال سبحانه : ﴿ مثل ما إنكم تنطقون ﴾ أي كمثل نطقكم وما زائدة كذا قال

بعض الكوفيين وقال الزجاج والفراء : أي لحق حقاً مثل نطقكم وقال المازني إن مثل مع ما بمنزلة شيء واحد فبنى على الفتح وقال سيبويه : هو مبني لإضافته الى غير متمكن قرأ الجمهور بنصب مثل على تقدير كمثل نطقكم وقرىء بالرفع على أنه صفة لحق لأن مثل نكرة وإن أضيفت فهي لا تتعرف بالإضافة كغير،ورجح قول المازني أبو علي الفارسي .

ومعنى الآية تشبيه تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمي ووجوده وهذا كما تقول إنه لحق كما إنك ههنا وإنه لحق كما أنت تتكلم والمعنى أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة .

عن أبي سعيد الخدري قال : « قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لو أن أحدكم فر من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت » أسنده الثعلبي وذكره القرطبي وقال بعض الحكماء،معناه كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له لا يقدر أن يأكل رزق غيره .

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم ؟ ﴾ ذكر سبحانه قصة إبراهيم ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك وفي الإستفهام تفخيم للحديث وشأنه وتنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه إنما علم طريق الوحي وقيل إن ﴿ هل ﴾ بمعنى قد كما في قوله : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم في سورة هود،وسورة الحجر ﴿ المكرمين ﴾ أي:إنهم مكرمون عند الله سبحانه لأنهم ملائكة جاؤوا إليه في صورة بني آدم كما قال تعالى في وصفهم في آية أخرى ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ وقيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وقال مجاهد ومقاتل : أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقام على رؤوسهم وكان لا يقوم على رؤوس الضيف

وأمر امرأته أن تخدمهم،وقال الكلبي : أكرمهم بالعجل أي عجل لهم القرى وقيل لأنهم كانوا ضيف إبراهيم ، وهو أكرم الخلق على الله يومئذ وضيف الكريم مكرمون،وقيل : لأنهم كانوا غير مدعوين والأول أولى .

﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ العامل في الظرف الحديث،أي :هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه،أو ضيف لأنه مصدر،أو المكرمين،أو محذوف،أي: أذكر كذا ذكر السمين ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ أي نسلم عليك سلاماً،ويحتمل أن يكون المعنى فقالوا كلاماً حسناً لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو فيكون على هذا مفعولاً به .

﴿ قال سلام ﴾ أي قال إبراهيم سلام ، والمراد به التحية ، قرأ الجمهور بنصب سلام الأول ورفع الثاني على أنه مبتدأ محذوف الخبر،أي:عليكم سلام والعدول إلى الرفع لقصد إفادة، الجملة الاسمية للدوام والثبات ، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدد والحدوث ، ولهذا قال أهل المعاني : إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة ، وقرىء بالرفع في الموضعين ، وقرىء بالنصب فيهما وقرىء سلم بكسر السين وقرىء سلم فيهما .

﴿ قوم ﴾ أي أنتم قوم ﴿ منكرون ﴾ قيل:إنه قال هذا في نفسه ولم يخاطبهم به لأن ذلك يخالف الإكرام ، قيل : إنه أنكرهم لكونهم ابتدأوا بالسلام ، ولم يكن ذلك معهوداً عند قومه ، وقيل : إنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية ، وقيل : لأنه رآهم على غير صور الملائكة الذين يعرفهم وقيل لأنهم دخلوا بغير استئذان ، وقيل : المعنى أنتم غرباء ولا نعرفكم ، فعرفوني من أنتم وقيل غير ذلك .

﴿ فراغ ﴾ أي عدل ﴿ إلى أهله ﴾ قاله الزجاج : أي الذين كان عندهم بقرة ، وكان عامة ماله البقر قاله الخطيب ، فالمراد بأهله خدمه كالرعاء ، وقيل ؛ ذهب إليهم في خفية من ضيوفه ، والمعنى متقارب ، وقد تقدم تفسيره

في سـورة الصـافـات . يقـال : راغ وارتـاغ أي:طلب ومـاذا تـريـغ ، أي تـريـد وتطلب وراغ إلى كذا مال إليه سراً وجاد ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ أي:فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم ، كما في سورة هود ﴿ بعجل حنيذ ﴾ ، وفي الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة أي:فذبح عجلاً فحنذه ، فجاء به ، قال في الصحاح : العجل ولد البقر ، والعجول مثله ، والجمع العجاجل والأنثى عجلة ، وقيل : العجل في بعض اللغات الشاة .

﴿ فقربه ﴾ أي قرب العجل ﴿ إليهم ﴾ ووضعه بين أيديهم وعرض عليهم الأكل و﴿ قال : ألا تأكلون ﴾ الإستفهام للإنكار ، وذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه ، أو للعرض ، أو للتحضيض ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ أي أحس في نفسه خوفاً منهم لما لم يأكلوا مما قربه إليهم ، وقيل . معنى أوجس أضمر ، وإنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه ، ومن أخلاق الناس أن من أكل من طعام إنسان صار آمناً منه ، فظن إبراهيم أنهم جاؤوا للشر، ولم يأتوا للخير ، وفي زاده أن الإنكار الحاصل قبل تقريب العجل كما مر في هود بمعنى عدم العلم بأنهم من أي بلدة ، والانكار الحاصل بعده بمعنى عدم العلم بأنهم دخلوا عليه لقصد الخير أو الشر ، فإن من امتنع من تناول الطعام يخاف من شره ، وقيل : إنه وقع في قلبه أنهم ملائكة ، فلما رأوا ما ظهر عليه من امارات الخوف ﴿ قالوا : لا تخف ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله سبحانه .

﴿ ويشروه بغلام عليم ﴾ أي ذي علم كثير عند أن يبلغ مبالغ الرجال والمبشر به عند الجمهور هو اسحق وقال مجاهد وحده : إنه إسماعيل وهو مردود بقوله : ﴿ ويشرناه بإسحق ﴾ وقد قدمنا تحقيق هذا الكلام في هود بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره ﴿ فأقبلت امرأته ﴾ أي سارة ﴿ في صرة ﴾ لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان ، وإنما هو كقولك : أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي كذا قال الفراء وغيره ، والصرة الصيحة والضجة . أي:جاءت صائحة لأنها لما بشرت بالولد وجدت حرارة الدم ، أي دم الحيض ، وقيل الصرة:

الجماعة من الناس ، قال الجوهري : الضجة والصيحة والصرة الجماعة، والصرة الشدة من حرب أو غيره ، وقال عكرمة وقتادة : إنها الرنة والتأوه ، والمعنى أنها كانت في زاوية من زوايا البيت تنظر إليهم فأقبلت في صيحة أو ضجة أو في جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة .

﴿ فصكت وجهها ﴾ أي ضربت بيدها مبسوطة على وجهها كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب ، قال مقاتل والكلبي : جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجباً ، ومعنى الصك ضرب الشيء بالشيء العريض يقال : صكه أي ضربه ، وقال ابن عباس : في صرة في صيحة،فصكت لطمت ﴿ وقالت ﴾ كيف ألد ﴿ وأنا عجوز عقيم ﴾ استبعدت ذلك لكبر سنها ، ولكونها عقيماً لا تلد .

﴿ قالوا كذلك ﴾ أي : كما قلنا لك وأخبرناك ﴿ قال ربك ﴾ فلا تشكي في ذلك ولا تعجبي منه ، فإن ما أراد الله كائن لا محالة ، ولم نقل ذلك من جهة أنفسنا وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة،ذكره القرطبي ، وقد سبق بيان هذا مستوفى وجملة ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾ تعليل لما قبلها أي حكيم في أفعاله وأقواله عليم بكل شيء .

﴿ قال فما خطبكم ؟ ﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر،كأنه قيل فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة ؟ والخطب الشأن والقصة ، والمعنى فما شأنكم وقصتكم ؟ ﴿ أيها المرسلون ﴾ من جهة الله ، وما ذاك الأمر الذي لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة ؟ .

﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ أي كافرين يريدون قوم لوط ﴿ لنرسل ﴾ أي لننزل ﴿ عليهم ﴾ من السماء ﴿ حجارة ﴾ أي: لنرجمهم بحجارة ﴿ من طين ﴾ متحجرة مطبوخ بالنار ، واستدل به على وجوب الرجم بالحجارة على اللائط .

مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ
بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ
أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ
مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾
فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا
كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ مسومة ﴾ صفة لحجارة أو حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور ، أو من الحجارة لكونها وصفت بالجار والمجرور،أي :معلمة بعلامات تعرف به ، قيل : كانت مخططة بسواد وبياض ، وقيل : بسواد وحمرة ، وقيل : معروفة بأنها حجارة العذاب ، وقيل : مكتوب على كل حجر من يهلك بها ﴿ عند ربك ﴾ ظرف لمسومة أي :معلمة عنده ﴿ للمسرفين ﴾ المتمادين في الضلال المجاوزين الحد في الفجور بإتيانهم الذكور ، وقال مقاتل : المشركين والشرك أسرف الذنوب وأعظمها ، قال السدي ومقاتل : كانوا ستمائة ألف فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم وكانت أربعة ، ورفع حتى سمع أهل السماء أصواتهم ، ثم قلبها ، ثم أرسل عليهم الحجارة فتتبعت الحجارة شذاذهم ومسافريهم ، أفاده زاده ، وهو جمع شاذ أي الخارجين منهم عن أرضهم .

﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ هذا كلام من جهة الله سبحانه أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به ، والفاء مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها في مواضع أخر ، كأنه

قيل فباشروا ما أمروا به فأخرجنا من كان فيها بقولنا ﴿ فأسر بأهلك ﴾ ﴿ فما وجدنا فيها ﴾ أي في قرى قوم لوط ، وهي وإن لم تذكر لكن دل عليها السياق .

﴿ غير بيت من المسلمين ﴾ أي غير أهل بيت ، يقال بيت شريف ويراد به أهله ، قيل : وهم أهل بيت لوط ، وقال مجاهد : لوط وابنتاه ، وعن سعيد بن جبير قال كانوا ثلاثة عشر ونحوه قال الأصفهاني والإسلام الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ﴾ وقد أوضح الفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الاسلام والإيمان في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق أنه سئل عن الإسلام فقال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان، وسئل عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره »[1] فالمرجع في الفرق بينهما هو الذي قاله الصادق المصدوق ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلة متناقضة .

وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعاني اللغوية ، والاستعمالات العربية ، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية ، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها ، قال الكرخي : فيه إشارة إلى ما قاله الخطابي وغيره،أن المسلم قد يكون مؤمناً، وقد لا يكون والمؤمن مسلم دائماً فهو أخص،وبهذا يستقيم تأويل الآيات والأحاديث ﴿ وتركنا فيها ﴾ أي في تلك القرى بعد إهلاك الكافرين ﴿ آية ﴾ أي:علامة ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب . وهي تلك الأحجار أو صخر منضود أو ماء أسود منتن خرج من أرضهم أو آثار العذاب في تلك القرى فإنها ظاهرة

---

(١) رواه مسلم .

بينة ، وقيل هذه الآية المتروكة نفس القرى الخربة .

﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي كل من يخاف عذاب الله ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم ، فلا يفعل مثل فعلهم وإنما خص هؤلاء لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ ، ويتفكرون في الآيات دون غيرهم ، ممن لا يخاف ذلك ، وهم المشركون المكذبون بالبعث ، والوعد والوعيد ﴿ و ﴾ تركنا ﴿ في ﴾ قصة ﴿ موسى ﴾ آية وهذا معنى واضح قاله السمين ، أو في الأرض ، وفي موسى آيات ، قاله الفراء وابن عطية والزمخشري ، قال أبو حيان : وهو بعيد جداً ينزه القرآن عن مثله ، وقيل : وتركنا فيها آية وجعلنا في موسى آية ، قال أبو حيان : ولا حاجة إلى إضمار : وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور وتركنا،والوجه الأول هو الأولى ، وما عداه متكلف متعسف لم تلجىء إليه حاجة ولا دعت إليه ضرورة .

﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون ﴾ الظرف متعلق بمحذوف و هو نعت لآية أي كائنة وقت أرسلناه ، وبآية نفسها أو منصوب بتركنا والأول أولى ﴿ بسلطان مبين ﴾ وهو الحجة الظاهرة الواضحة ، وهي العصا وما معها من الآيات الثمان ﴿ فتولى بركنه ﴾ التولي الإعراض ، والركن الجانب ، قاله الأخفش والمعنى أعرض عن الإيمان بجانبه أي مع جنوده لأنهم له كالركن كما في قوله ؛ ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ . قال الجوهري : ركن الشيء جانبه الأقوى ، ويأوي إلى ركن شديد أي عز ومنعة ، وقال ابن عباس : بركنه بقومه ، وقال ابن زيد ومجاهد وغيرهما : الركن جمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ ، أي عشيرة ومنعة ، وقيل ؛ الركن نفس القوة ، وبه قال قتادة وغيره .

﴿ وقال ﴾ فرعون في حق موسى ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ فردد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحراً أو مجنوناً فـ (أو) هنا على بابها من الإبهام على السامع،أو للشك ، نزل نفسه منزلة الشاك في أمره ، تمويهاً على قومه ، وهذا

من اللعين مغالطة وإيهام لقومه ، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر ولا يفعله من به جنون ، وقال أبو عبيدة : إن أو بمعنى الواو ، لأنه قد قال ذلك جميعاً ولم يتردد ، وبه قال المؤرج كقوله : ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ ، قال تعالى : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ . وتجيء أو بمعنى الواو ورد الناس عليه وقالوا لا ضرورة تدعو إلى ذلك ؛ وأما الآيتان فلا تدلان على أنه قالهما معاً وإنما يفيدان أنه قالهما أعم من أن يكونا معاً ، أو هذه في وقت وهذه في وقت آخر ذكره السمين .

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي طرحناهم في البحر فغرقوا ﴿ وهو ﴾ أي فرعون ﴿ مليم ﴾ أي :آت بما يلام عليه حين ادعى الربوبية وكذب الرسل وكفر بالله وطغى في عصيانه ، وفي الإسناد تجوز على حد عيشة راضية ؛ يقال : ألام الرجل فعل ما يستحق عليه اللوم ، واللوم العذل ، تقول لامه على كذا،من باب قال ؛ ولومه أيضاً فهو ملوم ، واللائمة الملامة .

﴿ و ﴾ تركنا ﴿ في ﴾ قصة إهلاك ﴿ عاد ﴾ آية ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً إنما هي ريح العذاب والإهلاك ، قال علي : هي النكباء وهي كل ريح هبت بين ريحين لتنكبها وانحرافها عن مهاب الرياح المعروفة،وهي رياح متعددة لا ريح واحدة ، قال ابن عباس : الريح العقيم الشديدة التي لا تلقح شيئاً،وعنه قال : لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب ، واختلف فيها فقيل . الجنوب ، والاظهر أنها الدبور .

« لقوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا : وأهلكت عاد بالدبور » ؛
العقم ههنا مستعار للمعنى المذكور على سبيل التبعية ، شبه ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر أو إلقاح شجر بما في المرأة من الصفة المذكورة التي تمنع من الحمل ، ثم قيل العقيم وأريد به ذلك المعنى بقرينة وصف الريح

به ، أو سماها عقيماً ،لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، أفـاده الكرخي ،وفي الشهاب أصل العقم اليبس المانع من قبول الأثر،كما قاله الراغب ، وهـو فعيل ، بمعنى فاعل أو مفعول ، فلما أهلكتهم وقـطعت نسلهم شبه ذلـك الإهلاك بعدم الحمل لما فيه من إذهاب النسل ، وهذا هو المراد هنا ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال :

﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾ أي :مرت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ أي :كالشيء الهالك البالي المتفتت ، وقال قتادة : هو الذي ديس من يابس النبات ، وقال السدي وأبو العالية : أنه التراب المدقوق ، وقال قطرب : إنه الرماد ، وقيل : ما رمته الماشية من الكلأ وأصل الكلمة من رم العظم إذا بلى فهو رميم ، والرمـة العظام البـالية ، والجمع رمم ورمام،قال ابن عباس : كالرميم كالشيء الهالـك البالي ، وفي القرطبي كالشيء الهشيم يقال للنبت إذا يبس وتفتت رميم وهشيم ، والتقدير ما تترك من شيء إلا مجعولاً كالرميم فالجملة في موضع المفعول الثاني ؛ لتذر وأعربها أبو حيان حالاً ، وليس بظاهر .

﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم ﴾ أي وتركنا في قصة ثمود آية وقت أن قلنا لهم بعد عقر الناقة : ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ أي عيشوا متمتعين بالدنيا إلى حين وقت الهلاك وإنقضاء الأجل . وهو ثلاثة أيام كما في قوله تعالى : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ أي تكبروا عن امتثال أمر الله . وهذا ترتيب إخباري وإلا ففي الحقيقة عتوهم إنما كان قبل وعدهم بالهلاك الذي هو المراد من قوله : تمتعوا حتى حين على تفسيره،إذ المراد به ما بقي من آجالهم،والمراد بأمر ربهم ، هو المذكور في سورة هود : ﴿ يا قوم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ .

﴿ فأخذتهم ﴾ بعد مضي ثلاثة أيام ﴿ الصـاعقة ﴾ وهي كـل عذاب

مهلك وقرىء الصعقة وهي المرة من مصدر صعقتهم الصاعقة وأخذتهم من بعد عقر الناقة، والصاعقة هي نار تنزل من السماء فيها رعد شديد وقد مر الكلام على الصاعقة في البقرة وفي مواضع ﴿ وهم ينظرون ﴾ أي: يرونها عياناً ، لأنها كانت نهاراً ، وقيل : إن المعنى ينتظرون ما وعدوه من العذاب والأول أولى .

﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أي لم يقدروا على القيام حين نزول العذاب ، قال قتادة : من نهوض : يعني لم ينهضوا من تلك الصرعة ، والمعنى أنهم عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أي ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ممن أهلكهم الله أو لم تمكنهم مقابلتها بالعذاب ، لأن معنى الإنتصار المقابلة .

﴿ و ﴾ أهلكنا أو نبذنا أو اذكر ﴿ قوم نوح ﴾ وثلاثة أوجه أخر في النصب ذكرها السمين ، وفي قراءة الجر أربعة أوجه ذكرها السمين أيضاً لا نطول بذكرها ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ، فإن زمانهم متقدم على زمن فرعون وعاد وثمود ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ أي بقوة وقدرة قاله ابن عباس ، قيل : التقدير وبنينا السماء بنيناها ، وقرىء برفع السماء على الابتداء .

﴿ وإنا لموسعون ﴾ الموسع ذو الوسع والسعة ، والمعنى إنا لذو سعة بخلقها وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك ، وقيل: لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة ، وقيل : إنا لموسعون الرزق بالمطر ، قال الجوهري : أوسع الرجل صار ذا سعة وغنى ، وقيل : جاعلوها واسعة ، وعليه تكون الحال مؤسسة أخبر أولاً أنه بناها بقوته وقدرته ، وثانياً بأنه وسعها أي جعلها واسعة ، فالأرض بالنسبة إليها كحلقة في فلاة .

وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾
فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾
أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ
تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ
وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا
مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ والأرض فرشناها ﴾ قرىء بنصب الأرض على الاشتغال ؛ وبرفعها على الإبتداء والأول أولى لعطف جملة الإشتغال على جملة فعلية قبلها،والمعنى بسطناها ومهدناها ومددناها ، فالفراش كناية عن البسط والتسوية ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أي نحن ، يقال : مهدت الفراش بسطته ووطأته وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها .

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أي :صنفين،أو أمرين متقابلين أو نوعين من ذكر وأنثى ، وبر وبحر ، وشمس وقمر ، وحلو ومر ، وسماء وأرض وليل ونهار ، ونور وظلمة ، وجن وإنس ، وخير وشر ، وموت وحياة ، وسهل وحزن ، وصيف وشتاء ، وإيمان وكفر ، وسعادة وشقاوة ، وحق وباطل وحلو وحامض ؛ وسرور وغم ، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ، فكل اثنين منها زوج ؛ والله تعالى فرد لا مثل له ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي:خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا فتعرفوا أنه خالق كل شيء ، وتستدلوا بذلك على توحيد الله وصدق وعده ووعيده .

﴿ ففروا إلى الله ﴾ أي قل لهم يا محمد : إذا كان الأمر كذلك ففروا واهربوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصي ، أي إلى ثوابه من

عقابه ، بأن تطيعوه ولا تعصوه ؛ وقيل : المعنى اخرجوا من مكة ، وقال الحسن ابن الفضل : احترزوا عن كل شيء غير الله ، فمن فر إلى غيره لم يمتنع منه ، وقيل : فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن ؛ وقيل : فروا من الجهل إلى العلم . والمعاني متقاربة أي إذا علمتم أن الله تعالى فرد لا نظير له ففروا إليه ، ووحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿ إني لكم منه ﴾ أي:من الله أي من جهته ﴿ نذير ﴾ منذر ﴿ مبين ﴾ بين الإنذار ، والجملة تعليل للأمر بالفرار .

﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ تنصيص على أعظم ما يجب أن يفر منه وهو الشرك ، فنهاهم عن الشرك بالله بعد أن أمرهم بالفرار إلى الله ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ تعليل للنهي ؛ وتكرير للتوكيد ، والاطالة في الوعيد أبلغ،أو الأول مرتب على ترك الايمان والطاعة ، والثاني مرتب على الاشراك وقيل إنما كرر ليعلم أن الايمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز ولا ينجو عند الله إلا الجامع بينهما .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر والشأن والقصة كذلك ، والكاف بمعنى مثل ، ثم فصل ما أجمله بقوله : ﴿ ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون ﴾ في هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة،وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه بالسحر والجنون قد كان ممن قبلهم لرسلهم ﴿ أتواصوا به ﴾ الإستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم أي:هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطؤوا عليه حتى قالوه جميعاً متفقين عليه؟أو الاستفهام للنفي ، أي: ما وقع منهم وصية بذلك لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ إضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان ، أي لم يتواصوا بذلك بل جمعهم الطغيان ، وهو مجاوزة الحد في الكفر ، فهو إضراب إنتقالي . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم فقال :

﴿ فتول عنهم ﴾ أي:أعرض عنهم وكف عن جدالهم ودعائهم إلى الحق،

فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته ، وكررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإصرار والعناد ﴿ فما أنت بملوم ﴾ عند الله على الإعراض بعد هذا الإنـذار لأنك قد أديت ما عليك وما قصرت فيما أمرت به ، وبذلت المجهود في البلاغ ، وهذا منسوخ بآية السيف ،أو بقوله الآتي وذكر الآية قال ابن عباس : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم وعذر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير والموعظة بالتي هي أحسن فقال :

﴿وذكّر﴾ أي جميعهم ﴿ فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أي من قدر الله إيمانه أو من آمن فإنه يزداد بها بصيرة ، قال الكلبي : المعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك ، فإن الذكرى تنفعهم ، وقال مقاتل : عظ كفار مكة ، فإن الذكرى تنفع من كان في علم الله أنه يؤمن ، وقيل ذكرهم بالعقوبة وأيام الله وخص المؤمنين بالتذكير لأنهم المنتفعون به .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها لأن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله صلى الله عليه وسلم للتذكير ، وينشطهم للإجابة ، قيل : هذا خاص فيمن سبق بعلم الله أنه يعبده ، فهو عموم مراد به الخصوص ، قال الواحدي : قال المفسرون هذا خاص لأهل طاعته ، يعني من أهل من الفريقين ، قال : وهذا قول الكلبي والضحاك ، واختيار الفراء وابن قتيبة .

قال القشيري : والآية دخلها التخصيص بالقطع ، لأن المجانين والصبيان لم يؤمروا بالعبادة ، ولا أرادها منهم ، وقد قال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ ، ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، قاله شيخ الإسلام زكريا نقلاً عن الرازي ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم ، ويدل عليه قراءة أُبيّ بن كعب وابن مسعود ، وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون ، وقال مجاهد : إن المعنى إلا ليعرفوني قال الكلبي : وهذا قول حسن ، لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده ، وروي عن مجاهد أنه قال

المعنى إلا لآمرهم ، وأنهاهم ، ويدل عليه قوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ واختار هذا الزجاج .

وقال زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من السعاده والشقاوة ، فخلق السعداء من الجن والانس للعبادة ، وخلق الأشقياء للمعصية،وقال الكلبي : المعنى إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدة دون النعمة ، كما في قوله : ﴿ وإذ غشيهم قوْج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ ، وقال جماعة : إلا ليخضعوا لي ويتذللوا ، ومعنى العبادة في اللغة الذل والخضوع والإنقياد، وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته ، منقاد لما قدره عليه ، خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى لا يملك أحد منهم لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ووجه تقديم الجن على الإنس ههنا تقدم وجودهم ، قال ابن عباس في الآية : ليقروا بالعبودية طوعاً أو كرهاً ، وعنه قال : على ما خلقتهم عليه من طاعتي ومعصيتي ، وشقوتي وسعادتي ، وقيل : معنى ﴿ إلا ليعبدون ﴾ إلا مستعدين لأن يعبدوا بأن خلقت فيهم العقل والحواس والقدرة التي تتحصل بها العبادة ، وهذا لا ينافي تخلف العبادة بالفعل من بعضهم ؛ لأن هذا البعض ، وإن لم يعبد الله ، لكن فيه التهيؤ والاستعداد الذي هو الغاية بالحقيقة وهذا أحسن .

﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده وأنه لا يريد منهم منفعة ، كما يريده السادة من عبيدهم ، بل هو الغني المطلق الرازق المعطي ، وقيل : المعنى ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من عبادي ، ولا أن يرزقوا أنفسهم ، ولا يطعموا أحداً من خلقي . ولا يطعموا أنفسهم ، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله فمن أطعم عيال الله فهو كمن أطعمه .

وهذا كما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عبدي استطعمتك فلم تطعمنِ » أي لم تطعم عبادي ، ومن زائدة لتوكيد العموم،ثم

بيّن سبحانه أنه هو الرازق لا غيره فقال :

﴿ إن الله هو الرزاق ﴾ لا رازق سواه ؛ ولا معطي غيره ، فهو الذي يرزق مخلوقاته ، ويقوم بما يصلحهم ، فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة هذا تعليل لعدم إرادة الرزق منهم ﴿ ذو القوة المتين ﴾ تعليل لعدم إحتياجه إلى استخدامهم في تمامه ، من إصلاح طعامه وشرابه ، ونحو ذلك ، قرأ الجمهور برفع المتين على أنه وصف لرزاق،أو لذو،أو خبر بعد خبر،أو خبر مبتدأ مضمر، وعلى كل تقدير فهو تأكيد،لأن ذو القوة يفيد فائدته ، وقرىء بالجر صفة للقوة والتذكير لكون تأنيثها غير حقيقي ، قال الفراء : كان حقه المتينة فذكرها لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل ، يقال : حبل متين ، أي محكم الفتل ومعنى المتين هنا الشديد القوة ، قال ابن عباس : المتين الشديد :

﴿ فإن للذين ظلموا ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ، من أهل مكة وغيرهم ﴿ ذنوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أي:نصيب الكفار من الأمم السالفة ، قال ابن الأعرابي : يقال : يوم ذنوب أي:طويل الشر ، لا ينقضي . وأصل الذنوب في اللغة الدلو العظيمة ، ومن استعمال الذنوب في النصيب من الشيء قول الشاعر :

لعمـرك والمنايـا طـارقـات   لكـل بني أب منها ذنـوب

وما في الآية مأخوذ من مقاسمـة السقـاة الماء بالدلو الكبيرة ، فيكون لهذا ذنوب ، ولهذا ذنوب فهو تمثيل جعل الذنوب مكـان الحظ والنصيب،قالـه ابن قتيبة ، وقيل : عبر عن النصيب بالذنوب لشبهه به في أنه يصب عليهم العـذاب كما يصب الـذنوب ، قـال تعـالى : ﴿ يصب من فـوق رؤوسهم الحميم ﴾ ، قال ابن عباس : ذنوباً دلواً ، قال الراغب : الذنوب الدلو الذي له ذنب .

﴿ فلا يستعجلون ﴾ أي فلا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب ، كما في قوله : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، كما أن الفاء الأولى لترتيب النهي عن الإستعجال على ذلك ، ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالكفر وإشعاراً بعلة الحكم ﴿ من يومهم الذي يوعدون ﴾ العذاب فيه ، قيل : هو يوم القيامة ، وقيل يوم بدر والأول أولى .

سورة الطور

﴿ وفي نسخة والطور بالواو وهي تسع أو ثمان وأربعون آية ﴾

وهي مكيّة قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت الطور بمكة . وعن ابن الزبير مثله .

« وعن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور » . أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

« وعن أم سلمة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور » أخرجه البخاري وغيره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ
فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم
بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا
تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿ والطور ﴾ قال الجوهري والقرطبي : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام . قال مجاهد والسدي : الطور بالسريانية الجبل . والمراد به طور سيناء ، قال مقاتل بن حيان : هما طوران ، يقال لأحدهما : طور سيناء وللآخر طور زيتا،لأنهما ينبتان التين والزيتون،وقيل هو جبل مدين واسمه زبير ، قلت : ومدين بالأرض المقدسة وهي قرية شعيب عليه السلام ، وقيل : إن الطور كل جبل ينبت الشجر المثمر وما لا ينبت فليس بطور فأقسم الله سبحانه بهذا الجبل تشريفاً له وتكريماً ، وتذكيراً بما فيه من الآيات ، قال ابن عباس : الطور جبل .

« عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطور جبل من جبال الجنة » أخرجه ابن مردويه ، وكثير ضعيف جداً .

﴿ وكتاب مسطور ﴾ أي:مكتوب متفق الكتابة بسطور مصفوفة في حروف مرتبة ، جامعة لكلمات متفقة ، والسطر الصف من الشيء يقال : بنى سطراً

والسطر أيضاً الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر بابه نصر،وسطر أيضاً بفتحتين والجمع أسطار،كسبب وأسباب،وجمع الجمع أساطير،وجمع السطر أسطر وسطور كأفلس وفلوس، والمراد بالكتاب القرآن،ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب،أو للإشعار بأنه ليس مما يتعارفه الناس، وقيل: هو اللوح المحفوظ؛ وقيل جميع الكتب المنزلة وقيل ما تكتبه الحفظة قاله الفراء وغيره ومثله: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ وقوله ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم، وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء يقرأون فيه ما كان وما يكون، وقيل: المراد ما كتبه الله في قلوب الأولياء من المؤمنين بيانه ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ وفيه بعد ﴿ وفي رق ﴾ متعلق بمسطور أي مكتوب في رق، وهو الصحيفة قال الجوهري: « الرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق ومنه قوله تعالى في ﴿ رق منشور ﴾ قال المبرد: « الرق مارق من الجلد ليكتب فيه قال أبو عبيدة وجمعه رقوق قال الراغب: الرق كل ما يكتب فيه جلداً كان أو غيره،قرىء بفتح الراء ويجوز كسرها، كما قرىء به شاذاً، وأما الرق الذي هو ملك الأرقاء فهو بالكسر لا غير، يقال عبد رق وعبد مرقوق ﴿ منشور ﴾ مبسوط مفتوح غير مطوي،لا ختم عليه،أو لائح. وهو بالنسبة للتوارة الألواح التي أنزلت على موسى، وبالنسبة للقرآن المصحف.

﴿ والبيت المعمور ﴾ بكثرة الغاشية والأهل والزوار من الملائكة قيل: هو في السماء السابعة، وقيل: في سماء الدنيا وقيل: هو الكعبة فعلى القولين الأولين يكون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة، ويعبد الله فيه، وعلى القول الثالث يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازاً باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بني آدم، وقيل: هو في السماء الثالثة أو السادسة أو الرابعة، فهذه أقوال ستة في محل البيت المعمور.

« وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: البيت المعمور

في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة[١]» أخرجه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وفي الصحيحين وغيرهما: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : ثم رفع إليَّ البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه » .

وعن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً عن البيت المعمور فقال: ذلك الضراح بيت فوق سبع سموات تحت العرش ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه أبداً إلى يوم القيامة ، ونحوه عن ابن عباس .

« وعن ابن عمر رفعه: أن البيت المعمور لبحيال الكعبة لو سقط منه شيء لسقط عليها ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون إليه » ، وعن ابن عباس نحوه وضعف إسناده السيوطي .

﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني السماء سماها سقفاً لكونها كالسقف للأرض ومنه قوله تعالى﴿وجعلنا السماء سقفاً محظوظاً﴾، وقيل هو العرش وهو سقف الجنة وقال علي السماء ﴿ والبحر المسجور ﴾ أي:الموقد المحمى من السجر وهو إيقاد النار في التنور ومنه قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ وقد ورد أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون ناراً فيزاد بها في نار جهنم وقيل المسجور المملوء بالماء وهو البحر المحيط كما ذكره العمادي قيل : إنه من أسماء الأضداد ، يقال بحر مسجور أي مملوء وبحر مسجور أي فارغ خال وقيل : المسجور الممسوك ومنه ساجور الكلب لأنه يمسكه وقال أبو العالية : المسجور الذي ذهب ماؤه ونضب، وقيل : المسجور المفجور ومنه قوله ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ .

وقال الربيع بن أنس : هو الذي يختلط فيه العذب بالمالح ، والأول أولى، وبه قال مجاهد،والضحاك،ومحمد بن كعب،والأخفش وغيرهم ، وعن علي في

---

(١) رواه الحاكم .

الآية قال : بحر في السماء تحت العرش ، وعن ابن عمر مثله ، وقال ابن عباس : المسجور المحبوس . وعنه المرسل ، والواو الأولى للقسم ، والبواقي للعطف وجواب القسم قوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ أي كائن لا محالة لمن يستحقه ﴿ما له من دافع﴾ يدفعه ويرده عن أهل النار خبر ثان ، لأن ، أو صفة لواقع ومن مزيدة للتأكيد ، ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على كمال القدرة الربانية .

﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ أي إنه لواقع في هذا اليوم ، والمور الاضطراب والحركة ، قال أهل اللغة . مار الشيء يمور موراً إذا تحرك ودار ، وجاء وذهب ، قاله الأخفش وأبو عبيدة ، وقال ابن عباس : تحرك ، وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض ، وقال مجاهد : تدور دوراً وقيل : تجري جرياً ، وقيل : تتكفأ قاله الأخفش ، قال البغوي : والمور يجمع هذه المعاني ، إذ هو في اللغة الذهاب والمجيء ، والتردد والدوران ، والاضطراب ،ويطلق المور على الموج ، ومنه ناقة موارة اليد ، أي سريعة تموج في مشيها موجاً ، ومعنى الآية أن العذاب يقع بالعصاة ، ولا يدفعه عنهم دافع في هذا اليوم الذي تكون فيه السماء هكذا ، وهو يوم القيامة ، وقيل : إن السماء ههنا الفلك ، وموره آضطراب نظمه ، وآختلاف سيره .

﴿ وتسير الجبال سيراً ﴾ أي تزول عن أماكنها ، وتسير عن مواضعها كسير السحاب ، وتطير في الهواء ، ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل ثم تصير كالعهن أي الصوف المندوف ، ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منبثاً ، كما دل عليه كلامه في سورة النمل ، قيل : ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدلالة على غرابتهما وخروجهما عن المعهود ، والحكمة في مور السماء ، وسير الجبال الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة ، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف

﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ ويل كلمة عذاب ، يقال للهالك ، واسم واد في جهنم ، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة أي:إذا وقع ما

ذكر من مور السماء وسير الجبال فويل لهم أي شدة عـذاب ، ثم وصف المكذبين بقوله : ﴿ الذين هم في خوض يلعبون ﴾ أي : في تردد في الباطل واندفاع فيه يلهون ، لا يذكرون حساباً ، ولا يخافون عقاباً ، والمعنى أنهم يخوضون في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والاستهـزاء ، وقيل يخوضون في أسباب الدنيا ، ويعرضون عن الآخرة ، والخـوض من المعاني الغـالبة ، فإنه يصلح للخوص في كل شيء إلا أنه غلب في الخوض في الباطل ، كالإحضار فإنه عام في كل شيء ، ثم غلب آستعماله في الإحضار للعذاب ، قال تعالى : ﴿ لكنت من المحضرين ﴾ ، ونظيره في الأسماء الغالبة ، دابة فإنها غلبت في ذوات الأربع ، والقوم غلب في الرجال أفاده الكرخي ، أخذاً عن حواشي الكشاف .

﴿ يوم يدعّون إلى نار جهنم دعاً ﴾ الدع الدفع بعنف وجفوة ، يقال ؛ دععته أدعه دعاً أي : دفعته ؛ قال الراغب : أصله أن يقال للعاثر : دع دع ، وهذا بعيد من هذه اللفظة ، والمعنى : أنهم يدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً ، قال مقاتل : تغل أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم ، وقرىء يدعون مخففاً من الدعاء ، أي يدعون إلى النار ، قال ابن عباس : يدعون يدفعون أي يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار ، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها : ﴿ هذه النار التي ﴾ تشاهدونها هي النار التي ﴿ كنتم بها تكذبون ﴾ في الدنيا .

ثم وبخهم سبحانه . أو أمر ملائكته بتوبيخهم فقال :

﴿ أفسحر هذا ؟ ﴾ الذي تشاهدون وترون ، كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة ، ولكتبه المنزلة هذا سحر ، وقدم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الذي وقع الاستفهام عنه ، وتوجه التوبيخ إليه ﴿ أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴾ أي : أم أنتم عمي عن هذا كما كنتم عمياً عن الحق في الدنيا ، وهذا بـإزاء قولهم في الدنيا :

﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾ وظاهر كلام الكشاف أن أم منقطعة ، حيث قال : أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر ، وهذا تقريع وتهكم ، وفي التفسير الكبير : هل في أمرنا سحر ؟ أم هل في بصركم خلل ؟

أي لا واحد منهما ثابت فجعلها معادلة .

﴿ اصلوهـا ﴾ أي إذا لم يمكنكم إنكارهـا ، وتحققتم أن ذلـك ليس بسحر ، ولم يكن في أبصاركم خلل فالآن أدخلوها وقاسوا شدتها ﴿ فاصبروا ﴾ على العذاب ﴿ أو لا تصبروا ﴾ وافعلوا ما شئم فالأمران ﴿ سواء عليكم ﴾ في عدم النفع قاله أبو حيان وبه قال أبو البقاء وقيل : سواء عليكم الصبر وعدمه وإليه نحا الزمخشري والأول أحسن لأن جعل النكرة خبراً أولى من جعلها مبتدأ وجعل المعرفة خبراً.

﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للاستواء فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعاً حتماً كان الصبر وعدمه سواء .

﴿ إن المتقين في جنات ونعيم ﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين والجملة مستأنفة أو من جملة ما يقال للكفار زيادة في غمهم وحسرتهم والتنوين في جنات ونعيم للتفخيم ﴿ فاكهـين بما آتـاهم ربهم ﴾ يقال : رجل فاكه أي ذو فاكهة كما قيل لابن وتامر والمعنى أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة وقيل ذو نعمة وتلذذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عز وجل مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر،وقد تقدم بيان معنى هذا. قرأ الجمهور فاكهين بالألف والنصب على الحال،وقرىء بالواو على أنه خبر بعد خبر وقرىء فكهين،والفكهة طيب النفس كما تقدم في الدخان،ويقال للأشر والبطر ولا يناسب التفسير به هنا،والمفاكهة الممازجة وتفكه تعجب وقيل : تندم قال تعالى ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ أي: تندمون وتفكه بالشيء تمتع به قيـل ما مصدرية وفيه بعد من حيث المعنى إذ التفكه ليس بإعطاء الرب بل بالمعطى، وقيل موصولة والباء على أصلها أو بمعنى في .

﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ معطوف على الصلة أو حال بتقدير قد أو معطوف على في جنات والأول أظهر ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً ﴾ أي يقال لهم ذلك والهني ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر قال الزجاج : أي ليهنـئكم ما صرتم اليه هنا والمعنى كلوا طعاماً هنيئاً وقد تقدم تفسير هنيئاً في سورة النساء وقال ابن عباس ﴿ هنيئاً ﴾ أي لا تموتون فيها فعندها قالوا أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كنتم تعلمون ﴾ في الدنيا للآخرة .

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا
تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا
عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾
فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾

﴿ متكئين ﴾ على نمارق ﴿ على سرر ﴾ بضم الراء الأولى جمع سرير وقرىء بفتحها ﴿ مصفوفة ﴾ قال ابن الأعرابي : المصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفاً أي موضوعة بعضها إلى بعض قيل : سرر من ذهب مكللة بالدر والزبرجد والياقوت والسرير كما بين مكة وايلة ﴿ وزوجناهم ﴾ قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت بامرأة وليس من كلام العرب زوجته بامرأة قال : وقول الله تعالى ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أي قرناهم وقال الفراء : زوجته بامرأة لغة أزد شنوءة .

وإنما قلنا قرناهم لأن الحور العين في الجنات مملوكات بملك اليمين لا بملك النكاح يقال : زوجت إبلي أي قرنت بعضها إلى بعض ،وليس من التزويج الذي هو عقد النكاح،قرأ الجمهور بحور العين من غير إضافة وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين وهن عظام الأعين حسانها شداد بياض الأعين وقد تقدم تفسيرها في سورة الدخان .

ولما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم

على الخصوص فقال ﴿ والذين آمنوا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها: أنه منصوب بفعل مقدر أي وأكرمنا الذين آمنوا .

والثاني:أنه مجرور على ما قاله الزمخشري والذين آمنوا معطوف على حور عين أي قرناهم بحور عين،وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور العين،وتارة بمؤانسة الإخوان قال أبو حيان : ولا يتخيل أحد أن قوله والذين آمنوا معطوف على حور عين غير هذا الرجل وهو تخييل أعجمي مخالف لفهم العربي ابن عباس وغيره .

قلت:أما ما ذكره الزمخشري من المعنى فلا شك في حسنه ونضارته وليس في الكلام العربي ما يدفعه ، بل لو عرض على ابن عباس وغيره لأعجبهم،وأي مانع معنوي أو صناعي يمنعه .

والثالث:أنه مرفوع على أنه مبتدأ والخبر الجملة من قوله : ألحقنا بهم والأول أولى ، وقيل : المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار ، وظاهر الآية العموم ولا يوجب تخصيصها بهم كونهم السبب في نزولها ، إن صح ذلك ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ واتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾ أي حال كون الذرية متلبسة بإيمان استقلالي أو تبعي ، أما الذرية الكافرة فلا تتبع آباءها ، وهذا على أن الباء للملابسة لكن جمهور المفسرين على أنها للسببية ، أو بمعنى في ، وبهذا الإعتبار لا يظهر دخول الأولاد الكبار ، فإن إيمانهم إستقلالي لا تبعي كالصغار ، وقال أبو السعود : أي اتبعتهم ذريتهم بإيمان قاصر عن رتبة إيمان الآباء ، واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقاً ، وقرأ أبو عمرو ، اتبعناهم بإسناد الفعل إلى المتكلم المعظم نفسه ، كقوله : ألحقنا وقرأ الباقون : اتبعتهم بإسناد الفعل إلى الذرية ، وقرىء ذريتهم بالإفراد والجمع .

ومعنى الآية :أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه وإن كانوا دونه في العمل ، لتقر عينه ، وتطيب نفسه ، بشرط أن يكونوا مؤمنين فيختص ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرية وهم البالغون دون الصغار فإنهم وإن كانوا لاحقين بآبائهم ، فبدليل آخر غير هذه الآية ، وقيل : إن الذرية تطلق على الكبار والصغار ، كما هو المعنى اللغوي ، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذريتهم وكبارهم .

﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ الذرية هنا تصدق على الآباء وعلى الأبناء فإن المؤمن إذا كان عمله أكثر ألحق به من دونه في العمل ، ابناً كان أو أباً ، وهو منقول عن ابن عباس وغيره ، ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب ، وهو المحبة ، فإن كان معها أخذ علم أو عمل ، كانت أجدر ، فتكون ذرية الإفادة كذرية الولادة ، قاله الخطيب ، ولعل الأول أولى،وقيل : إن الضمير في بهم راجع إلى الذرية المذكورة أولاً ، أي ألحقنا بالذرية المتبعة لآبائهم بإيمان ذريتهم ، وإلحاق الذرية بهم بمحض الفضل والكرم ، وهذا هو الأليق بكمال لطفه ، قال ابن عباس أيضاً في الآية : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة ، وإن كانوا دونه في العمل ، لتقر به عينه ، ثم قرأ هذه الآية ، وأخرجه البزار وابن مردويه عنه مرفوعاً .

« وعنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » أخرجه الطبراني وابن مردويه .

« وعن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار ، ثم قرأ

رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين آمنوا ﴾ الآية » أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب من أين لي هذا ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك »[1] ، أخرجه أحمد وإسناده صحيح .

﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ قرىء بفتح اللام من ألتنا وبكسرها ، وهما سبعيتان ، أي وما نقصنا الآباء بإلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئاً ،وقيل : المعنى وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئاً لقصر أعمارهم ، والأول أولى ، وقد قدمنا تحقيق معنى لاته وآلته في سورة الحجرات ، وقرىء وآلتناهم بالمد ، وهو لغة قال في الصحاح : يقال ما آلته من عمله شيئاً أي ما نقصه ، قال ابن عباس :ما ألتناهم ما نقصناهم ،ومن زائدة .

﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ يعني مرهون ، والظاهر أنه عام ، وأن كل إنسان مرتهن بعمله ، فإن قام به على الوجه الذي أمر الله به فكّه، وإلا أهلكه ، وقيل : هو بمعنى راهن ، والمعنى كل امرىء بما كسب ثابت دائم وقيل : هذا خاص بالكفار لقوله : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ ثم ذكر سبحانه ما أمدهم به من الخير فقال : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من مبادىء التنعم ، وقتاً فوقتاً ، بفاكهة متنوعة ، ولحم من أنواع اللحمان ، مما تشتهيه أنفسهم ، ويستطيبونه من فنون النعماء وأنواع الآلاء ، وإن لم يقترحوا ولم يصرحوا بطلبه ، بل بمجرد ما يخطر على قلوبهم يقدم إليهم .

---

(١) رواه أحمد .

«﴿ يتنازعون فيها ﴾» أي يتعاطون ويتنازلون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم « ﴿كأساً﴾ » أي يتجاذب بعضهم الكأس من بعض ، هذا من يد هذا ، وهذا من يد هذا ، تلذذاً وتأنساً ، والكأس إناء الخمر ، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر أوغيره فإذا فرغ لم يسم ﴿ كأساً ﴾ ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ قال الزجاج : لا يجري بينهم ما يلغي به ، ولا ما فيه إثم ، كما يجري بين من يشرب الخمر في الدنيا ، واللغو من الكلام هو الذي لا نفع فيه ولا مضرة ، والتأثيم تفعيل من الإثم ، والضمير في (فيها) راجع إلى الكأس وقيل : إلى الجنة ، ولا يجري فيها ما فيه إثم ، والأول أولى ، قال ابن قتيبة : لا تذهب بعقولهم فيلغوا ، كما يكون من خمر الدنيا ، ولا يكون منهم ما يؤثمهم ، وقال الضحاك : لا تأثيم أي لا كذب ، قال قتادة : اللغو الباطل ، وقال مقاتل بن حيان : لا فضول فيها ، وقال سعيد بن المسيب : لا رفث فيها ، وقال ابن زيد لاسباب ولا تخاصم فيها ، قال ابن عباس : لا باطل ولا كذب فيها .

﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم ﴾ أي يطوف عليهم بالكأس والفواكه والطعام والنحف وغير ذلك ، مماليك لهم ، وقيل : أولادهم ، قال الكرخي : لم يضيفهم لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا ان يكون خادماً له في الجنة ، فيحزن بكونه لا يزال تابعاً ، وقيل : إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم ، وقيل : هم غلمان خلقوا في الجنة قال الكلبي : لا يكبرون أبداً ، وقيل هم اولاد المشركين ، وهم خدم أهل الجنة ، وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية التنعم .

﴿ كأنهم ﴾ في الحسن واللطافة والبهاء من بياضهم وصفائهم ﴿ لؤلؤ مكنون ﴾ أي مستور مصون في الصدف ، لم تمسه الأيدي ، لأنه ما دام رطباً أحسن وأصفى ، أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة ، قال الكسائي : كننت الشيء سترته وصنته من الشمس ، وأكننته جعلته في

الكن ، ومنه كننت الجارية وأكننتها فهي مكنونة .

﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله ، وما كان فيه من تعب الدنيا ، وخوف العاقبة ، فيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن والخوف والهم ، وما كانوا فيه من الكد والنكد ، بطلب المعاش وتحصيل ما لا بد منه من الرزق ، وما وصلوا اليه تلذذاً واعترافاً بالنعمة وقيل : يقول بعضهم لبعض : بم صرتم في هذه المنزلة الرفيعة ؟ وقيل : إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور ، والأول أولى ، لدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة .

أخرج البزار ، عن « أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا الى الإخوان ، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان فيتكىء ذا ويتكىء ذا فيتحدثان بما كانوا في الدنيا ، فيقول احدهما : يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا ، يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله فغفر لنا »[1] .

﴿ قالوا : ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل ؟ فقيل : قالوا إيماء الى علة الوصول لما هم فيه من النعيم ومحط العلة قوله الآتي : ﴿ فمنّ الله علينا ﴾ ﴿ إنا كنا قبل ﴾ أي: من قبل الآخرة ، وذلك في الدنيا ﴿ في أهلنا مشفقين ﴾ اي خائفين وجلين من عذاب الله ، أو كنا خائفين من عصيان الله او من نزع الايمان وفوت الأمان ، أو من رد الحسنات والأخذ بالسيئآت ، والمقصود إثبات خوفهم في سائر الأوقات ، والأحوال بطريق الأولى ، فإن كونهم بين أهليهم مظنة الأمن ، فإذا خافوا في تلك الحال ، فلأن يخافوا دونها أولى ، ولعل الأولى أن يجعل اشارة الى معنى الشفقة على خلق الله ، كما أن قوله الآتي ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ ، إشارة الى التعظيم لأمر الله .

---

(١) مسلم .

﴿ فمن الله علينا ﴾ بالمغفرة والرحمة وبالتوفيق لطاعته ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ يعني عذاب جهنم والسموم من اسماء جهنم كذا قال الحسن ومقاتل وقال الكلبي وأبو عبيدة: هو عذاب النار ، وقال الزجاج : سموم جهنم ما يوجد من حرها ، قال ابو عبيدة : السموم بالنهار ، وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل ، وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم في لفح البرد ، وهو في لفح الشمس والحر أكثر ، وقيل : سميت الريح سموماً لأنها تدخل المسام وهي في الأصل الريح الحارة التي تتخلل المسام ، والجمع سمائم ، وقيل : سم يومنا أي :اشتد حره ، قالت عائشة : لو فتح الله على اهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها ، وقالوا إيماء أيضاً الى علة الوصول :

﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ أي نوحد الله ونعبده او نسأله ان يمن علينا بالمغفرة والرحمة، ومحط العلة قوله: ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ قرىء إنه بكسر الهمزة على الاستئناف ، وبفتحها أي :لأنه ـ والبر كثير الإحسان ، وقيل : اللطيف ، قاله ابن عباس ، والرحيم كثير الرحمة لعباده .

﴿ فذكر ﴾ أي اثبت ودم على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير ﴿ فما انت بنعمة ربك ﴾ التي انعم بها عليك من رجاحة العقل ، وعلو الهمة ، والنبوة وكرم الفعال ، وطهارة الأخلاق ، أو ما انت في حال اذكارك بنعمة ربك ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ وقيل : المعنى انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك ، كما تقول : ما أنا بمعسر بحمد الله وغناه ، وقيل : الباء للقسم والتقدير ما أنت ونعمة الله بكاهن ولا مجنون ، والكاهن هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحي ، أي : ليس ما تقوله كهانة ، فإنك إنما تنطق بالوحي الذي أمرك الله بإبلاغه ، والمقصود في الآية رد ما كان يقوله المشركون انه كاهن أو مجنون .

﴿ أم يقولون شاعر ؟ ﴾ أم هي المنقطعة وقد تقدم الخلاف ، هل هي مقدرة ببل والهمزة أو ببل وحدها ، قال الخليل : هي هنا للاستفهام ، وقال

سيبويه : خوطب العباد بما جرى في كلامهم ، قال النحاس : يريد سيبويه ان ام في كلام العرب للخروج من حديث الى حديث ، أي لا ينبغي منهم هذا القول ولا يليق ، قال الكواشي : وإنما قدرت ببل لأن ما بعدها متيقن ، وما بعد أم مشكوك فيه ، مسؤول عنه ، وذكرت ام هنا خمس عشرة مرة ، وكلها إلـزامات ليس للمخـاطبين بهـا عنها جـواب ، لكن قال الثعلبي نقـلاً عن الخليـل : إن كل ما في سورة الطور من أم فهو استفهام ، وليس بعطف ، وإنما استفهم تعالى مع علمه بهم تقبيحاً عليهم ، وتوبيخاً لهم ، كقول الشخص لغيره : أجاهل أنت ؟ مع علمه بجهله .

﴿ نتربص به ﴾ بإسناد الفعل الى جماعة المتكلمين ، وقرىء على البناء للمفعول نعت لشاعر ، وقد كانت العرب تتحرز عن أذية الشاعر ، فقالوا : لا نعارضه في الحال مخافة ان يغلبنا بقوة شعره ، وإنما نتربص موته وهلاكه كما هلك من قبله من الشعراء ﴿ ريب المنون ﴾ أي صروف الدهر وحوادثه ، والمعنى ننتظر به حوادث الأيام ، فيموت كما مات غيره ، أو يهلك كما هلك من قبله ، والمنون يكون بمعنى الدهر ، ويكون بمعنى المنية لأنها تنقص العدد ، وتقطع المدد ، وسمي الدهر منوناً لأنه يقطع الأجل ، وإطلاق الريب على الحوادث استعارة تصريحية شبهت بالريب ، اي الشك ، لأنها لا تدوم ولا تبق على حال ، كما أنه كذلك ، قال الأخفش : المعنى نتربص الى ريب المنون ، فحذف حرف الجر ، كما تقول : قصدت زيداً أي إلى زيد ، قال الأصمعي : المنون واحد لا جمع له ، قال الفراء: يكون واحداً وجمعاً ، وقال الأخفش : جمع لا واحد له .

قال ابن عباس : إن قريشاً لما اجتمعوا الى دار الندوة في امر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل : منهم : احبسوه في وثاق ، وتربصوا به المنون حتى يهلك ، كما هلك من قبله من الشعراء ، زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية . وقال ابن عباس : ريب المنون الموت ، ثم امره الله سبحانه ان يجيب عنهم فقال :

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا
يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ
فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم
مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾

﴿ قل تربصوا ﴾ اي انتظروا موتي او هلاكي ، امر تهديد لا إيجاب ، أو ندب أو اباحة لأن تربصهم هلاكه حرام لا محالة ﴿ فإني معكم من المتربصين ﴾ لموتكم أو هلاككم .

﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ ﴾ أي بل أتأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض ؟ فإن الكاهن هو المفرط في الفطنة والذكاء ، ودقة النظر . والمجنون هو ذاهب العقل ، مغطى على فهمه ، فضلاً عن ان تكون له فطنة وذكاء ، والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق مخيل ، ولا يتأتى ذلك من المجنون قال الواحدي : قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول فأزرى الله بحلومهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل ، وفي القاموس : الحلم بالكسر الأناة والعقل ، والجمع أحلام وحلوم ، فأمر الأحلام به مجاز عن أدائها إليه .

﴿ أم هم قوم طاغون ؟ ﴾ أي بل طغوا وجاوزوا الحد في العناد فقالوا ما قالوا ، وهذه الإضرابات من شيء الى شيء مع الاستفهام ، كما هو مدلول ام المنقطعة ، تدل على أن ما تعقبها أشنع مما تقدمها ، وأكثر جرأة وعناداً .

﴿ أم يقولون تقوله ؟ ﴾ أي اختلق القرآن من جهة نفسه وافتعله

والتقول لا يستعمل إلا في الكذب في الغالب ، وإن كان أصله تكلف القول ، ومنه اقتال عليه . ويقال : اقتال عليه بمعنى تحكم عليه ، ثم أضرب سبحانه عن قوله تقـوله وانتقل الى ما هو اشد شناعة عليهم فقال : ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ أي سبب صدور هذه الأقوال المتناقضة عنهم كونهم كفـاراً لا يؤمنون ولا يصدقون ما جاء به رسوله استكباراً ، ثم تحداهم سبحانه وألزمهم الحجة فقال :

﴿ فليأتوا بحديث ﴾ مختلق مفتعل ﴿ مثله ﴾ أي مثل القرآن في نظمه ، وحسن بيانه ، وبديع اسلوبه ، قال الرازي : والظاهر ان الأمر ههنا على حقيقته ، لأنه لم يقل فليأتوا مطلقاً بل قال ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ فيما زعموا من قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم تقوَّله من عند نفسه ، وجاء به من جهته ، فهو امر معلق على شرط ، إذا وجد ذلك الشرط يجب الإتيان به ، مع أنه كلام عربي وهم رؤوس العرب وفصحاؤهم ، والممارسون بجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر .

﴿ أم خلقوا من غير شيء ؟﴾ أم هي المنقطعة كما تقدم فيما قبلها، وكما سيأتي فيما بعدها ، أي بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة : والصنعة العجيبة من غير خالق لهم ؟ قال الزجاج : اي اخلقوا باطلاً لغير شيء ؟ لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ؟ وجعل من بمعنى اللام . قال ابن كيسان : ام خلقوا عبثاً وتركوا سدى ؟ لا يؤمرون ولا ينهون ؟ وقيل : المعنى أم خلقوا من غير أب ولا أم ؟ فهم كالجماد لا يفهمون ولا تقوم عليهم حجة ؟ ﴿ أم ﴾ أي بل أيقولون : ﴿ هم الخالقون ﴾ لأنفسهم فلا يؤمرون ولا ينهون ، مع أنهم يقرون ان الله خالقهم ، وإذا أقروا لزمتهم الحجة ، قال الجلال المحلي : ولا يعقل مخلوق بغير خالق ولا معدوم يخلق فلا بد لهم من خالق هو الله الواحد ، فلم لا يوحدونه ويؤمنون برسوله وكتابه .

﴿ أم خلقوا السموات والأرض ؟ ﴾ وهم لا يدعون ذلك فلزمتهم الحجة

ولهذا أضرب عن هذا وقال : ﴿ بل لا يوقنون ﴾ أي ليسوا على يقين من الأمر ، بل يخبطون في ظلمات الشك في وعد الله ووعيده ، وإلا لآمنوا بنبيه وهذا فيه مزيد تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، يعني انهم كما طعنوا فيك طعنوا في خالقهم ﴿ أم عندهم خزائن ربك ؟ ﴾ أي خزائن أرزاق العباد وقيل : مفاتيح الرحمة قال مقاتل : يقول بأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة ، فيضعونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقال الكلبي : خزائن المطر والرزق ، وقيل : مقدوراته وضرب المثل بالخزائن لأن الخزانة بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر ومقدورات الرب كالخزائن التي فيها من كل الأجناس ، فلا نهاية لها .

﴿ أم هم المسيطرون ؟ ﴾ أي المسلطون الغالبون القاهرون الجبارون وقيل : الأرباب القاهرون فلا يكونون تحت امر ولا نهي ويفعلون ما يشاؤون وقرىء بالسين من سيطر عليه اذا راقبه وحفظه وقهره ، ولم يأت على مفيعل إلا خمسة ألفاظ ، أربعة صفة اسم فاعل مهيمن ومبيقر ومسيطر ومبيطر ، وواحد اسم جبل ، وهو المحيمر ، قال في الصحاح : المصيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه . وبتعهد أحواله ويكتب عمله . وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر . أي أهم الحفظة ؟ قال ابو عبيدة : سطرت على أي اتخذتني خولاً لك قرىء المصيطرون بالصاد الخالصة ، وبصاد مشمَّة زاياً .

﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ ﴾ أي بل أيقولون : أن لهم سلماً ومرقى منصوباً الى السماء يصعدون به ، ويستمعون فيه كلام الملائكة ، وما يوحى إليهم ، ويصلون به الى علم الغيب كما يصل اليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي ؟ حتى تمكنهم منازعة النبي صلى الله عليه وسلم بزعمهم ، وهذا الزعم منهم على سبيل الفرض والتقدير ، ولم يقع منهم بالفعل لأنهم لما كانوا على حالة المعاندة والمعارضة كأنهم ادعوا ذلك ؛ وقيل في بمعنى على أي يستمعون عليه كقوله ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ قاله الأخفش ، وقال

أبو عبيدة: يستمعون به وقال الزجاج : المعنى أنهم كجبريل الذي يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي ، وقيل : أي صاعدين فيه .

﴿ فليأت مستمعهم ﴾ إن ادعى ذلك ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة بينة ﴿ أم له البنات ؟ ﴾ أي بل أتقولون : لله البنات ؟ ﴿ ولكم البنون ؟ ﴾ سفه سبحانه أحلامهم ، وضلل عقولهم ، ووبخهم ، أي أيضيفون الى الله البنات ؟ وهي أضعف الصنفين ، ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما وفيه إشعار بأن من كان هذا رأيه فهو بمحل سافل في الفهم والعقل ، فلا يستبعد منه إنكار البعث ، وجحد التوحيد ، ثم رجع سبحانه الى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

﴿ أم تسألهم أجراً ؟ ﴾ أي بل أتسألهم أجراً يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة ؟ ﴿ فهم من مغرم ﴾ أي من التزام غرامة تطلبها منهم ﴿ مثقلون ﴾ أي مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل ومتعبون ومغتمون ، من أثقله الحمل أتعبه لكن هذا الثقل معنوي لأن العادة أن من غرم إنساناً ما لا يصير الغارم مغتماً منه وكارهاً له فلا يسمع قوله ، ولا يمتثله ، قال قتادة : يقول هل سألت هؤلاء القوم أجراً فجهدهم فلا يستطيعون الإسلام .

﴿ أم عندهم الغيب ؟ ﴾ أي بل أيدعون أن عندهم الغيب وهو ما في اللوح المحفوظ ، المثبت فيه المغيبات ، فالغيب بمعنى الغائب ، والألف واللام في الغيب بمعنى النوع لا للعهد : ولا لتعريف الجنس ، فالمراد نوع الغيب ، وهذا الزعم فرضي إذ لم يقع منهم بالفعل ، لكنهم على حالة من المكابرة والمعارضة بحيث ينسب اليهم هذا الزعم ، قال قتادة : هذا جواب لقولهم : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ يقول الله : ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ حتى علموا ان محمداً صلى الله عليه وسلم يموت قبلهم ﴿ فهم يكتبون ﴾ ذلك بعدما وقفوا عليه ، وقيل : هو رد لقولهم ، إنا لا نبعث ، ولو بعثنا لم نعذب ، قال ابن قتيبة : معنى يكتبون يحكمون بما يقولون .

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿ أم يريدون كيداً ﴾ أي مكراً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فيهلكونه بذلك المكر ﴿ فالذين كفروا ﴾ هذا من وقوع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على اتصافهم بهذه الصفة القبيحة والأصل : أم يريدون كيداً فهم ﴿ هم المكيدون ﴾ أي الممكور بهم، المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم، ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾، أو حكم على جنس هم نوع منه فيندرجون فيه اندراجاً أولياً لتوغلهم في هذه الصفة، وكان هذا المكر والتحيل والكيد في دار الندوة، وهي دار من دور أهل مكة، والظاهر أنه من الإخبار بالغيب، فإن السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة ثم أهلكهم الله تعالى ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ما هنا من كلمة أم، وهي خمس عشرة، فإن بدراً كانت في الثانية من الهجرة وهي الخامسة عشر من النبوة، وأذلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ أي بل أيدعون أن لهم إلهاً غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم، وهذا استفهام إنكاري، على معنى نفي الحصول من أصله أي ليس لهم في الواقع إله غير الله، وعلى معنى نفي الانبغاء واللياقة بالنظر لاعتقادهم أن هناك آلهة غيره، ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ ما يحتمل وجهين : أحدهما : أن

تكون مصدرية معناه سبحانه عن إشراكهم ، ثانيهما خبرية معناه عن الذين يشركون وعلى هذا فيحتمل أن يكون التنزيه عن الولد لأنهم كانوا يقولون : البنات لله فقال سبحان الله عن البنات والبنين ، وأن يكون عن مثل الآلهة لأنهم كانوا يقولون : هو مثل ما يعبدونه ، فقال : سبحان الله عن مثل ما يعبدونه ، ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم فقال :

﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : سحاب مركوم ﴾ الكسف جمع كسفة ، وهي القطعة من الشيء ، والمركوم المجعول بعضه على بعض ، قال الفراء : من قرأ كسفاً بكسر الكاف وسكون السين جعله واحداً ، ومن قرأ كسفاً بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعاً ، وهذا الكلام على سبيل الفرض والتقدير ، فمن المعلوم أن قريشاً لم ينزل عليهم قطع من السماء تعذيباً لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ ، كأنه يقول : لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا ويقولون في هذا النازل عناداً واستهزاء وإغاظة لمحمد : إنه سحاب مركوم ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم فقال :

﴿ فذرهم ﴾ أي: اتركهم وخل عنهم ، جواب شرط مقدر ، أي: إذا بلغوا في الكفر والعناد إلى هذا الحد ، وتبين أنهم لا يرجعون عن الكفر فدعهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ أي يوم موتهم ، أو يوم قتلهم ببدر ، وهو الظاهر قاله البقاعي ، أو يوم القيامة قرىء يلاقوا ويلقوا ويصعقون على البناء للمفعول وللفاعل عند السبعة فالأولى يحتمل أن تكون من صعق فهو مصعوق وأن تكون من أصعق رباعياً . يقال : أصعق فهو مصعق ، والمعنى أن غيرهم أصعقهم ، وقراءة السلمي بضم الياء وكسر العين ، تؤذن بأن أفعل بمعنى فعل ، والصعقة الهلاك على ما تقدم بيانه .

﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ﴾ أي لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذي كادوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ﴿ ولا هم ينصرون ﴾

أي :ولا يمنع عنهم العذاب النـازل بهم مانع ، بل هو واقع بهم لا محالة .

﴿ وإن للذين ظلموا ﴾ أي لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ عذاباً ﴾ في الدنيا ﴿ دون ذلك ﴾ أي غير عذاب يوم القيامة ، أي قبله ، وهو قتلهم يوم بدر وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا ، وذهاب الأموال والأولاد ، وقال مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين ، وقيل :عذاب القبـر قبل يـوم القيامـة ، قالـه ابن عباس ، وقيـل : المراد بالعذاب هو القحط والجوع قبل يوم بدر ، لأنه كان في ثانية الهجرة ، والقحط وقع لهم قبلها ، وبالذي يأتي بعده هو قتلهم يوم بدر ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ما يصيرون إليه من عذاب الله وما أعده لهم في الدنيا والآخرة .

﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ إلى أن يقع لهم العذاب الذي وعدناهم به ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ أي بمرأى ومنظر منا ، أو في حفظنا وحمايتنا ، فلا تبال بهم ، قال الزجاج : إنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك ، فلا يصلون إليك ، وإنما جمع لفظ الأعين مع ان مدلوله واحد ، وهو المصدر لمناسبـة نون العـظمة ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي نزه ربك عما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إنعامه عليك أي قل سبحان الله وبحمده ﴿ حين تقوم ﴾ من مجلسك قال عطاء وسعيد وسفيان الثوري وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده أو سبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يجلسه .

وقـال محمد بن كعب والضحـاك والربيـع بن أنس : حـين تقـوم إلى الصلاة ، قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، وفيه نظر لأن التكبير يكون بعـد القيام ، لا حال القيام ، ويكون التسبيح بعد التكبير ، وهذا غير معنى الآية ، فالأول أولى ، وقيل : المعنى صل لله حين تقوم من مقامك . وبه قال أبو الجوزاء ، وحسان بن

عطية ، وقال الكلبي وابن عباس : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة ، وهي صلاة الفجر .

وعن « أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بآخرةٍ إذا قام من المجلس يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل : يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ، قال : كفارة لما يكون في المجلس »(١) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه وابن أبي شيبة وأخرجه النسائي والحاكم عن رافع بن خديج عن النبي صلى الله عليه وسلم .

« وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » ، أخرجه ابن جرير والترمذي ، وقال حسن صحيح ، وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة وقيل حين تقوم من منامك .

« عن عاصم بن حميد قال : سألت عائشة بأي شيء كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من نومه ؟ فقالت : سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك كان إذا قام كبر عشراً ، وحمد الله عشراً ، وسبح عشراً ، وهلل عشراً ، واستغفر عشراً ، وقال: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني . وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة » أخرجه أبو داود والنسائي .

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أمره الله سبحانه أن يسبحه في بعض الليل حقيقة أيضاً ، قال مقاتل : أي صلِّ المغرب والعشاء ، وقيل : ركعتي الفجر ، و «عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال: الركعتان قبل

---

(١) صحيح الجامع الصغير .

صلاة الصبح » أخرجه ابن مردويه .

﴿ وإدبار النجوم ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل وقبل صلاة الفجر واختاره ابن جرير وقيل هو التسبيح في أدبار الصلوات وقال ابن عباس : ركعتا الفجر ، وقيل : سنة الصبح ، قرىء إدبار بكسر الهمزة على أنه مصدر وبفتحها على الجمع ، أي عقاب النجوم ، وأدبارها إذا غربت ، ودُبر الأمر آخره وقد تقدم الكلام على هذا في سورة قٓ .

سورة النجم

﴿ إحدى أو اثنتان وستون آية ﴾

وهي مكية جميعها في قول الجمهور. وعن ابن عباس وعكرمة الا آية منها وهي قوله: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ﴾ الآية وقيل: ان السورة كلها مدنية. والصحيح هو الاول.

واخرج البخاري ومسلم وغيرهما «عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة والنجم فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم الا رجلا رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف»[1]. وعنه قال: أول سورة استعلن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها والنجم.

«وعن ابن عمر قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ والنجم، فسجد بنا وأطال السجود».

«وعن زيد بن ثابت قال: قرأت والنجم عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد فيها» أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والطبراني والطيالسي وابن ابي شيبة وابن مردويه.

«وعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد في النجم بمكة، فلما هاجر الى المدينة تركها» وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول الى المدينة.

(١) رواه مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا
فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ
مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ
الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾

﴿ والنجم ﴾ هو الكوكب ، وسمي به لطلوعه ، وكل طالع نجم ، يقال : نجم السن والنبت والقرن إذا طلع ، والتعريف للجنس ، والمراد به جنس النجوم ، يعني نجوم السماء كلها حين تغرب أقسم الله بالنجوم اذا غابت وليس يمتنع ان يعبر عنها بلفظ واحد ، ومعناه جمع ، وبه قال جماعة من المفسرين ، وقيل : المراد به الثريا ، وهو اسم غلب عليها ، تقول العرب : النجم وتريد به الثريا ، وبه قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وإن كانت في العدد نحو ما يقال : إنها سبعة أنجم ، ستة ظاهرة ، وواحدة خفية ، يمتحن الناس بها أبصارهم ، وفي الشفاء للقاضي عياض أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى في الثريا أحد عشر نجماً ، وقيل : المراد بالنجم الشعرى ، لذكرها في قوله تعالى : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ .

وقال السدي : النجم هنا هو الزهرة لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها وقيل : النجم هنا النبت الذي لا ساق له ، كما في قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قاله الأخفش ، وقيل : النجم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : النجم القرآن ، وسمي نجماً لأنه نزل منجماً مفرقاً ، والعرب تسمي

التفريق تنجيماً والمفرق المنجم وبه قال مجاهد والفراء وغيرهما ، والأول أولى ، قال الحسن : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة ، وقيل : المراد بها النجوم التي ترجم بها الشياطين .

﴿ اذا هوى ﴾ أي إذا انصب ، أخرجه ابن جرير عن ابن عباس او انتثر ومعنى هويه سقوطه من علو ، يقال : هوى النجم يهوي هوياً إذا سقط من علو الى سفل ، وقيل : غروبه ، وقيل طلوعه والأول أولى ،وبه قال الأصمعي وغيره ، ويقال هوى في السير اذا مضى قال الراغب : الهوي ذهاب في انحدار وفي ارتفاع ، وقيل هوى في اللغة خرق الهواء ، ومقصده السفل ، او مصيره اليه ، وإن لم يقصده ومعنى هوى ، على قول من فسر النجم بالقرآن أنه نزل من أعلى الى أسفل ، وأما على قول من قال إنه الشجر الذي لا ساق له أو أنه محمد صلى الله عليه وسلم فلا يظهر لهوى معنى صحيح ، وفي العامل في هذا الظرف أوجه ،وعلى كل منها إشكال ذكرها السمين لا نطول الكلام بذكرها هنا .

وجواب القسم قوله ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ أي ما ضل محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق ، والهدى ،ولا عدل منه ، والغي ضد الرشد ، أي ما صار غاوياً ، ولا تكلم بالباطل ، وقيل ما خاب فيما طلب ، والغي الخيبة ، وبين الضلال ، والغي التباين الكلي ، فإن الضلال فعل المعاصي ، والغي هو الجهل المركب وبتقدير اتحادهما يكون ذلك من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنى ،والأول أولى قيل وهو من عطف الخاص على العام للإهتمام بشأن الإعتقاد وإيضاحه أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد لا صالحاً ولا فاسداً وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، وهذا الثاني يقال له غي وفي قوله صاحبكم إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله ، وعبر بالصحبة لأنها مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيه ، ومقبلة بهم ومقبحة عليهم اتهامه في إنذاره ، وهم يعرفون طهارة شمائله ، والخطاب لقريش قال

ابن عباس : أقسم الله أنّ ما ضل محمد صلى الله عليه وسلم ولا غوى .

﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أي ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره فـ (عن) على بابها ، ومثل النطق الفعل ، وقال أبو عبيدة : إن عن بمعنى الباء أي بالهوى ، وقال قتادة : أي ما ينطق بالقرآن عن هواه ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ أي ما هذا الذي ينطق به من القرآن وكل أحواله وأقواله وأفعاله إلا وحي من الله يوحيه إليه ، ويوحى صفة لوحي تفيد الإستمرار التجددي وتفيد نفي المجاز ، أي هو وحي حقيقة لا لمجرد التسمية ، كما تقول : هذا قول يقال ، وقيل : تقديره يوحى إليه ففيه ، مزيد فائدة ، والآية دليل على كون السنة المطهرة وحياً يوحى .

﴿ علمه شديد القوى ﴾ جمع قوة ، والمعنى أنه علمه جبريل الذي هو شديد قواه . هكذا قال اكثر المفسرين ، وقال الحسن : هو الله عز وجل ، والأول أولى ، وهو من باب إضافة الصفة الى الموصوف ، ومن شدة قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط ورفعها الى السماء ، ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من رجعة الطرف ، وهذه القوة ثابتة له ، ولو كان على صورة الآدميين .

﴿ ذو مرة ﴾ أي قوة وشدة في الخلق ، وقيل ذو صحة جسم ، وسلامة من الآفات .

« ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مرة سوي »[1] وقيل ذو حصافة عقل ومتانة رأي قال قطرب : العرب تقول لكل من هو جزل الرأي ، حصيف العقل : ذو مرة ، والتفسير للمرة بهذا أولى ، لأن القوة والشدة قد أفادها قوله : شديد القوى ، قال الجوهري : المرة إحدى الطبائع الأربع ، والمرة القوة وشدة العقل ، وقال ابن عباس : ذو

---

(١) رواه مسلم .

خلق حسن ، وقيل منظر حسن ، وقيل : قوة في العقل وحدة ، بحيث لا يدفعه عما يزاوله دافع ، ولا يسأم من شيء يزاوله ، فحصل الفرق بين القوة والمرة ، ومن جملة شدته وقوته قدرته على التشكل فلذلك قال :

﴿ فاستوى ﴾ أي ارتفع جبريل وعلا الى مكانه في السماء ، بعد ان علم محمداً صلى الله عليه وسلم ، قاله سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وقيل : معناه قام في صورته التي خلقه الله عليها ، لأنه كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين ، كما يأتي الى الأنبياء ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه التي جبله الله عليها ، فأراه نفسه مرتين ، مرة في الأرض ومرة في السماء ، ولم يره أحد من الأنبياء على صورته التي خلق عليها إلا نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المعنى فاستوى القرآن في صدره صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه ، أو صدر جبريل حين نزل به ، وقيل : المعنى اعتدل محمد في قوته أو في رسالته ، ذكره الماوردي، وقيل: المعنى ارتفع النبي صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، وقال الحسن: فاستوى يعني الله عز وجل على العرش ، والأول أولى ، وقيل : المعنى فاستوى جبريل عالياً على صورته ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك رآه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا .

﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ أي فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى ، والمراد بالأفق الأعلى جانب المشرق ، وهو فوق جانب المغرب ، والأفق ناحية السماء ، وجمعه آفاق . قال قتادة ومجاهد : هو الموضع الذي تطلع منه الشمس ، وكذا قال سفيان ، وقيل : هو يعني جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم بالأفق الأعلى ليلة المعراج ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة .

« عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله : ﴿ وهو بالأفق

الأعلى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال : خلق جبريل »[1] ، رواه أحمد والطبراني وغيرهما .

« وعنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح » أخرجه أبو الشيخ وابن جرير وأحمد ، وعن ابن عباس قال : الأفق الأعلى مطلع الشمس .

﴿ ثم دنا ﴾ جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى ، أي قرب من الأرض ﴿ فتدلى ﴾ أي فنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير . ثم تدلى فدنا ، قاله ابن الأنباري وغيره قال الزجاج : معنى دنا فتدلى واحد أي قرب وزاد في القرب ، كما تقول دنا مني فلان ، وقرب ولو قلت : قرب مني ودنا جاز قال الفراء الفاء في فتدلى بمعنى الواو ، والتقدير تدلى جبريل ودنا ، ولكنه جائز اذا كان معنى الفعلين واحداً ، أن تقدم أيهما شئت قال الجمهور : والذي دنا فتدلى هو جبريل ، وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس : هو محمد صلى الله عليه وسلم دنا فتدلى الى ربه والمعنى دنا منه أمره وحكمه ، والأول أولى قيل : ومن قال إن الذي استوى هو جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى عنده . ثم دنا محمد صلى الله عليه وسلم من ربه دنو كرامة ، فتدلى اي هوى للسجود ، وبه قال الضحاك ، وعن ابن عباس قال : دنا ربه فتدلى ، والتدلي هو النزول بقرب الشيء .

﴿ فكان ﴾ مقدار ما بين جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم ، أو ما بين محمد صلى الله عليه وربه تعالى ﴿ قاب ﴾ أي قدر ﴿ قوسين ﴾ عربيين ، والقاب والقيب ، والقاد والقيد ، والقيس المقدار ذكر معناه في الصحاح ، قال الزمخشري : وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والأصبع والقاب ما بين المقبض والسِّيَّة، ولكل قوس قابان ،

(١) مسلم .

قال بعضهم أراد قابي قوس فقلبه ، وقال سعيد بن المسيب : القاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه . ولكل قوس قاب واحد . فأخبر ان جبريل قرب من محمد كقرب قاب قوسين . قال الزجاج : اي فيما تقدرون أنتم والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا .

وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحق الهمداني وأبو وائل شقيق بن سلمة : فكان قدر ذراعين والقوس ذراع . يقاس بها كل شيء . وهي لغة بعض الحجازيين . وقيل : هي لغة أزد شنوءة . والقوس يذكر ويؤنث . فمن أنث قال في تصغيرها : قويسة ومن ذكر قال : قويس والجمع قسي وأقواس . والقوس أيضاً بقية التمر في الجلة . أي الوعاء والقوس برج في السماء وقال الكسائي : أراد قوساً واحدة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن « ابن مسعود في هذه الآية قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل له ستمائة جناح » وعنه قال : في الآية : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين وبه قال ابن عباس والحسن وعائشة وقتادة وقال ابن عباس : القاب القيد والقوسين الذراعين وعن ابي سعيد قال لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى . ألم تر الى القوس ما أقربها من الوتر وعن انس ودنا الجبار رب العزة حتى كان منه قاب قوسين او أدنى وهذه رواية عن سلمة عن ابن عباس وفيه جهالة وقال الضحاك نحو ما قال أنس .

﴿ أو أدنى ﴾ أو بمعنى الواو . وقيل بمعنى بل والأول أولى . كقوله ﴿ أو يزيدون ﴾ لأن المعنى فكان بأحد هذين المقدارين في رأي الرائي أي لتقارب ما بينهما يشك الرائي في ذلك ؛ وأدنى أفعل تفضيل ؛ والمفضل عليه محذوف أي أو أدنى من قاب قوسين، أو أدنى من ذلك ، وروي لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورة الآدمي ، سأله عند الأفق الأعلى أن يراه

على صورته التي خلق عليها فأراه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم وكان بحراء قد سد الأفق الى المغرب فخر مغشياً عليه ، فدنا منه قرباً زائداً ؛ وضمه الى نفسه حتى أفاق وسكن روعه وجعل يمسح التراب عن وجهه .

﴿ فأوحى الى عبده ﴾ أي فأوحى جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم بتعليم من الله لا من نفسه ﴿ ما أوحى ﴾ فيه تفخيم للوحي الذي أوحي إليه والوحي إلقاء الشيء بسرعة ؛ ومنه الوحا ؛ وهو السرعة ، والضمير في عبده يرجع الى الله ، كما في قوله : ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ وقيل المعنى فأوحى الله الى عبده جبريل ، وبالأول قال الربيع والحسن وابن زيد وقتادة ؛ وقيل : فأوحى الله الى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم أو ما أوحاه الله الى عبده جبريل أو الى محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبينه لنا فليس لنا أن نتعرض لتفسيره .

وقال سعيد بن جبير : الذي أوحاه الله إليه هو : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ إلخ و ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ؟ إلخ وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك ، وقيل : إن ما للعموم لا للإبهام والمراد كل ما يوحي به إليه ؛ والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم .

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بصره ليلة المعراج رؤية حقيقية ، يقال كذبه إذا قال له الكذب ولم يصدقه ، قال المبرد ؛ معنى الآية أنه رأى شيئاً فصدق به قرىء ما كذب مخففاً ، وبالتشديد وهما سبعيتان ، وما في ما رأى موصولة أو مصدرية قال ابن مسعود في الآية : « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه حلتا رفرف أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض »[1] أخرجه الترمذي والحاكم

(١) رواه الحاكم .

وصححاه ؛ والبيهقي وغيرهم ، وبه قالت عائشة ؛ وقيل : هو الله عز وجل رآه بعين رأسه وقيل بقلبه وقيل جعل بصره في فؤاده ، والكلام على هذه المسألة مستوفى في موطنه .

وقد تكلم عليه القاضي عياض في الشفاء ، والخفاجي في شرحه والقسطلاني في شرح المواهب اللدنية ، والنووي ، وقال : والحاصل ان الراجح عند اكثر العلماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل بعيني رأسه ليلة الإسراء وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا مما لا ينبغي ان يتشكك فيه انتهى .

قال سليمان الجمل : وحاصل المسألة ان الصحيح ثبوت الرؤية وهو ما جرى عليه ابن عباس حبر الأمة ، وهو الذي يرجع اليه في المعضلات ، وقد راجعه ابن عمر فأخبره بأنه رآه ، ولا يقدح في ذلك حديث عائشة لأنها لم تخبر أنها سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لم أر ، وإنما اعتمدت على الاستنباط مما تقدم ، وجوابه ظاهر ؛ فإن الإدراك هو الإحاطة والله تبارك وتعالى لا يحاط به وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة ، وأجيب عن احتجاجها بقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ بأنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام ، وبأنه عام مخصوص .

﴿ أفتمارونه على ما يرى ؟ ﴾ قرىء من المماراة وهي المجادلة والملاحاة ، وقرىء أفتمرونه ، أي أفتجحدونه ، واختار أبو عبيد الثانية قال : لأنهم لم يماروه ، وإنما جحدوه ، يقال : مراه حقه أي جحده ومريته أنا أي جحدته قال المبرد : يقال : أمراه عن حقه وعلى حقه ، إذا منعه منه ودفعه ، وقيل على بمعنى عن ، وقرىء أفتمرونه بضم التاء من أمريت أي أتريبونه وتشكون فيه ، قال جماعة من المفسرين : المعنى على الأول أفتجادلونه ؟ وذلك أنهم جادلوه حين أسري به ، فقالوا : صف لنا بيت المقدس ، أي فتجادلونه جدالاً

ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه ، وقال : ما يرى ، ولم يقل ما رأى على حكاية الحال الماضية استحضاراً للحالة البعيدة في ذهن المخاطبين .

﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، أي والله لقد رآه ، والنزلة المرة من النزول ، أي رأى جبريل نازلاً نزلة أخرى ، أو رآه رؤية أخرى ، ونصب نزلة على الظرف او المصدرية أو الحالية ، وبالأول قال الزمخشري وهو مذهب الفراء ، نقله عنه مكي ، وبالثاني قدر أبو البقاء ، وبالثالث قال الحوفي وابن عطية ، قال جمهور المفسرين : المعنى أنه رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرة أخرى في صورة نفسه ، وذلك ليلة المعراج ، وقيل : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بفؤاده وقيل : بعينه .

أخرج مسلم والطبراني وغيرهما .

« عن ابن عباس في الآية قال : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه بقلبه مرتين » ، وأخرج نحوه عنه الترمذي وحسنه ، وعن أنس قال : رأى محمد ربه ، وعن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه مرتين ، مرة ببصره ومرة بفؤاده ، وعنه لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ، وعنه قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ؟ والكلام لموسى ؟ والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد روي نحو هذا عنه من طرق .

وأخرج مسلم والترمذي وابن مردويه .

« عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنّىٰ أراه » .

« وعنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال رأيت نوراً » أخرجه مسلم وابن مردويه .

« وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بقلبه ، ولم يره ببصره ، أخرجه النسائي وابن المنذر وغيرهما ، قال صاحب التحرير :

والحجج في المسألة وإن كانت كثيرة لكن لا نتمسك إلا بالأقوى منها ، وهو حديث ابن عباس : أتعجبون الخ .

« وعن عكرمة سئل ابن عباس هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه قال : نعم » ، وقد روي بإسناد لا بأس به ، وعن أنس نحوه .

وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ، والأصل في المسألة حديث ابن عباس حبر هذه الأمة وعالمها ، والمرجوع إليه في المعضلات ، وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة فأخبره أنه رآه ، ولا يقدح في هذا حديث عائشة ، لأنها لم تخبر أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لم أر ربي وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ الآية ، وقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ، وإذ قد صحت الروايات عن ابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بإثبات لرؤية وجب المصير الى إثباتها لأنها ليس مما يدرك بالعقل ، ويؤخذ بالظن ، وإنما يتلقى بالسمع ، ولا يستجيز لأحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد ، وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس ثم ابن عباس أثبت ما نفاه غيره والمثبت مقدم على النافي انتهى .

﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ لما أسري به في السموات ، قاله الجلال المحلي ، ومن المعلوم أن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة وأربعة أشهر ، أو بثلاث سنين على الخلاف ، والرؤية الأولى كانت في بدء البعثة ، فبين الرؤيتين نحو عشر سنين ، والسدرة هي شجرة النبق ، قال مقاتل : تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان لو وضعت ورقة منها في الأرض لأضاءت لأهلها ، وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد والنبق بكسر الموحدة ثم السدرة الواحدة نبقة ويقال فيه نبق بفتح النون وسكون الباء ذكرها يعقوب في

الإصلاح وهي لغة البصريين والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذه السدرة هي في السماء السادسة كما في الصحيح وروي انها في السماء السابعة عن يمين العرش .

والمنتهى مكان الانتهاء،أو مصدر ميمي والمراد به الإنتهاء نفسه قيل : اليه ينتهي علم الخلائق ولا يعلم احد منهم ما وراءها وقيل : ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض وقيل : تنتهي إليها أرواح الشهداء وقيل غير ذلك وإضافة الشجرة الى المنتهى من إضافة الشيء الى مكانه كقولك أشجار البستان،أو من إضافة المحل الى الحال،كقولك كتاب الفقه والتقدير عند سدرة عندها منتهى العلوم،أو من إضافة الملك الى المالك على حذف الجار والمجرور أي: سدرة المنتهي إليه وهو الله عز وجل قال تعالى : ﴿ وأن الى ربك المنتهى ﴾ واختلف لم سميت سدرة المنتهى على ثمانية أقوال ذكرها القرطبي وغيره .

« وعن ابن مسعود قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى الى سدرة المنتهى وهو في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج من الأرواح فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها ويقبض منها »[1] » أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم .

﴿ عندها جنة المأوى ﴾ أي عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى ، وهي عن يمين العرش ، وسميت بها لأنه أوى إليها آدم ، وقيل ، إن أرواح المؤمنين تأوي إليها ، وقيل : يأوي إليها جبريل والملائكة ، وقيل : يصير إليها المتقون قرىء جنة بالرفع على الابتداء ، وقرىء جنة فعلاً ماضياً من جن يجن ، أي ضمه المبيت أو ستره إيواء الله له ، قال الأخفش : أدركه كما تقول ؛ جنة الليل ، أي ستره وأدركه ، قال ابن مسعود : الجنة في السماء السابعة العليا ، والنار في الأرض السابعة السفلى .

﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ الغشيان بمعنى التغطية والستر ، وبمعنى

(١) رواه أحمد ومسلم .

الإتيان ، يقال : فلان يغشاني كل حين أن يأتيني ، وفي إبهام الموصول وصلته من التفخيم والتكثير للغواشي ما لا يخفى ، فقد علم بهذه العبارة ان ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلالته ، أشياء لا يحيط بها الوصف ، ولا يكتنهها نعت ولا يحصيها عدد ، وقيل : يغشاها جراد من ذهب ، وقال ابن مسعود : فراش من ذهب ، قال الرازي : وهذا ضعيف ، لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي ، فإن صح فيه خبر وإلا فلا وجه له ، وقيل : طوائف من الملائكة ، وقال مجاهد : رفرف أخضر ، وقيل : رفرف من طيور خضر ، وقيل غشيها أمر الله ، وقيل نور الخلائق ، وقيل نور رب العزة ، والمجيء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً للصورة البديعة أو للدلالة على الإستمرار التجددي .

﴿ ما زاغ البصر ﴾ أي ما مال بصر النبي صلى الله عليه وسلم عما رآه ، ولم يتلفت الى ما غشى السدرة من فراش الذهب وغيره ، هذا بالنظر لكون الذي غشيها هو فراش من الذهب ، وبالنظر لكونه أنوار الله لم يلتفت يمنة ولا يسرة ، بل اشتغل بمطالعتها ، مع أن ذلك العالم غريب عن بني آدم ، وفيه من العجائب ما يحير الناظر ﴿ وما طغى ﴾ أي ما جاوز ما رأى ، وفي هذا وصف أدب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام ، حيث لم يلتفت ، ولم يمل بصره ، ولم يمده الى غير ما رأى ، وقيل : ما جاوز ما أمر به .

﴿ لقد رأى ﴾ أي والله لقد رأى تلك الليلة ﴿ من آيات ربه الكبرى ﴾ أي العظام ما لا يحيط به الوصف ، قيل : رأى رفرفاً سد الأفق ، وقيل : رأى جبريل في حلة خضراء كما تقدم ، وقيل : عجائب الملكوت ، وقال الضحاك : رأى سدرة المنتهى ، وقيل : هو كل ما رآه في مسراه تلك الليلة وعوده ، ومن للتبعيض ، ومفعول رأى : الكبرى ، أو رأى شيئاً عظيماً من آيات ربه ، أو من زائدة ولما قص الله سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين موبخاً لهم ومقرعاً :

﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ أي أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها ، وهل أوحت إليكم شيئاً كما أوحى الله الى محمد صلى الله عليه وسلم أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع ، وقال ابو السعود : الهمزة للإنكار ، والفاء لتوجيهه الى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شؤونه تعالى المنافية لها غاية المنافاة ، والمعنى أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمته ، وإحكام قدرته ، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى ، وما تحت الثرى ، وما بينهما ، رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وذلتها شركاء لله ؟ على ما تقدم من عظمته .

﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ذكر هذه الأصنام الثلاثة التي اشتهرت في العرب وعظم اعتقادهم فيها قال الواحدي وغيره : وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز ؛ العزى ، وهي تأنيث الأعز بمعنى العزيزة ، ومناة من منى الله الشيء إذا قدره ، قرىء اللات بتخفيف التاء وهي مأخوذة من اسم الله ، وقيل : أصله لات يليت فالتاء أصلية ، وقيل : هي زائدة ، وأصله لوى يلوي ، لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها ، أو يلتوون ويعتكفون عليها ، ويطوفون بها ، وقرىء اللات بتشديد التاء ، فقيل : هو اسم رجل كان يلت السويق ويطعمه الحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، فهو اسم فاعل في الأصل غلب على هذا الرجل .

وقال مجاهد : كان رجلاً في رأس جبل له غنيمة يتخذ من لبنها وسمنها حيساً ، ويطعم الحاج ، وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه . وقال الكلبي : كان رجلاً من ثقيف له صرمة غنم ، وقيل : إنه عامر بن الظرب العدواني ، قال في الصحاح : واللات اسم صنم لثقيف ، وكان بالطائف ، وقيل : بعكاظ ، وقيل : بنخلة ، ورجح ابن عطية الأول ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء وبعضهم بالهاء ، « قال ابن عباس : كان اللات رجلاً يلت

السويق للحاج أخرجه البخاري وغيره ، والألف واللام في اللات زائدة لازمة ، وقال ابو البقاء : ليست بزائدة وهو غلط ، والعزى من العز وهي تأنيث الأعز ، وهي اسم صنم لقريش وبني كنانة ، قال مجاهد : هي شجرة كانت لغطفان وكانوا يعبدونها ، فبعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد فقطعها .

وقيل : كانت شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة ، وقال سعيد بن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه ، وقال قتادة : هي بيت كان ببطن نخلة ، وعن ابن عباس : ان العزى ببطن نخلة ، وان اللات كانت بالطائف وأن مناة كانت بقديد ، ومناة صنم بني هلال ، وقال ابن هشام : صنم هذيل وخزاعةوقال قتادة : كانت للأنصار وقرىء مناة بألف من دون همزة ، وبالمد والهمزة فالأولى اشتقاقها من منى يمني أي صب لأن دماء النسائك كانت تصب عندها ، يتقربون بذلك إليها وعلى الثانية فاشتقاقها من النوء وهو المطر ، لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء ، وقيل : هما لغتان للعرب ووقف عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف وبالهاء .

قال في الصحاح : ومناة اسم صنم كان بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ، ويسكت عليها بالتاء ، وهي لغة ، والثالثة الأخرى وصف لمناة وصفها بأنها ثالثة ، وبأنها أخرى ، والثالثة لا تكون إلا أخرى ، قال ابو البقاء : فالوصف بالأخرى للتأكيد ، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى ، والعرب إنما تصف به الثانية فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي ، كقوله : ﴿ مآرب أخرى ﴾ وقال حسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة ، وقيل : إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم ، لأنها كانت عند المشركين عظيمة ، وقيل : إن ذلك للتحقير والذم ، وإن المراد : المتأخرة الوضيعة المقدار ، كما في قوله : ﴿ وقالت

أخراهم لأولاهم ﴾ ، أي وضعاءهم لرؤسائهم ، وهذا للزمخشري ، وقال ابن عادل : وفيه نظر لأن الأخرى إنما تدل على الغيرية ، وليس فيها تعرض لمدح ولا ذم ، فإن جاء شيء من ذلك فلقرينة خارجية ، ثم كرر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شنعاء قالوها فقال :

﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ﴾ أي كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث وتجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور ، قيل وذلك قولهم : إن الملائكة بنات الله ، وقيل المراد كيف تجعلون اللات والعزى ومناة وهي إناث في زعمكم شركاء لله ومن شأنهم ان يحتقروا الإناث ، ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية والقسمة المفهومة من الاستفهام ، قسمة جائرة ، فقال :

﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ قرىء بياء ساكنة بغير همزة ، وبهمزة ساكنة والمعنى أنها قسمة خارجة عن الصواب ، جائرة عن العدل ، مائلة عن الحق ، قال الأخفش : يقال : ضاز في الحكم أي جار وضازه حقه يضيزه ضيزاً أي نقصه وبخسه ، قال ؛ وقد يهمز ، وقال الكسائي : ضاز يضيز ضيزى ، وضاز يضوز ضوزاً إذا تعدى وظلم وبخس وانتقص . قال الفراء : وبعض العرب يقول ضئزاً بالهمز ، وعن ابي زيد أنه سمع العرب تهمز ضيزي ، قال البغوي : ليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت ، إنما تكون في الأسماء مثل ذكرى وشعرى ، قال المؤرج : كرهوا ضم الضاد في ضيزى ، وخافوا انقلاب الياء واواً ، وهي من بنات الواو ، فكسروا الضاد لهذه العلة ، كما قالوا في جمع الأبيض بيض ، وكذا قال الزجاج ، وقيل : هي مصدر كذكرى فيكون المعنى قسمة ذات جور وظلم ، قال ابن عباس : ضيزى جائرة لا حق فيها وقيل : عوجاء غير معتدلة ثم رد سبحانه عليهم بقوله :

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ
أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ
ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾
فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

﴿ إن هي إلا أسماء ﴾أي ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها لأنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل ولا تفهم ولا تضر ولا تنفع فليست إلا مجرد أسماء، وقيل إن قوله: ﴿ هي ﴾ راجع الى الأسماء الثلاثة المذكورة والأول أولى .

﴿ سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ قلد فيها الآخر الأول وتبع في ذلك الأبناء الآباء، وفي هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى كما تقول في تحقير رجل ما هو إلا إسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة معتبرة ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ يقال سميته زيداً وسميته يزيد فقوله ﴿ سميتموها ﴾ صفة لأسماء والضمير يرجع الى الأسماء لا الى الأصنام اي جعلتموها أسماء لا جعلتم لها اسماء ليشير الكلام أن هناك أسماء مجردة لا مسميات لها قطعاً ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ولا برهان، قال مقاتل: لم ينزل لنا كتاباً لكم فيه حجة كما تقولون إنها آلهة ثم أخبر عنهم بقوله :

﴿ إن يتبعون ﴾ بالتحتية وقرىء بالفوقية أي ما تتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها وفيه التفات الى الغيبة للايذان بأن تعداد قبائحهم إقتضى الأعراض عنهم وحكاية جناياتهم الى غيرهم ﴿ إلا الظن الذي ﴾ لا

يغني من الحق شيئاً وهو ظن أنها تستحق العبادة وبهذا تبين ان العطف في قوله ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ للمغايرة أي ما تميل اليه وتشتهيه من غير التفات الى ما هو الحق الذي يجب اتباعه ومن اتبع ظنه وما تشتهيه نفسه ، بعد ما جاءه الهدى والبيان الشافي لا يعد انساناً ولا يعتد به .

﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أي البيان الواضح الظاهر بالكتاب المنزل ، والنبي المرسل ، بأنها ليست بآلهة ، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار ، والجملة اعتراض أو حال من فاعل يتبعون ، وأياً ما كان ففيها تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم فإن اتباعهما من أي شخص كان ـ قبيح ، وممن هداه الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب أقبح .

﴿ أم للانسان ما تمنى ﴾ أم هي المنقطعة المقدرة ببل والهمزة التي للانكار ، فأضرب عن اتباعهم الظن الذي هو مجرد التوهم ، وعن آتباعهم هوى النفس وما تميل إليه ، وانتقل الى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم وتشفع لهم ، وقيل : هو تمني بعضهم أن يكون هو النبي ، وقيل قوله : ﴿ ولئن رجعت الى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ ثم علل انتفاء ان يكون للانسان ما تمنى بقوله : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أي إن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله عز وجل ، فليس لهم معه أمر من الأمور ، ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة وأطماعهم الفارغة ، ثم أكد ذلك وزاد في إبطال ما يتمنونه فقال :

﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً ﴾ كم هنا هي الخبرية المفيدة للتكثير ، ولهذا جمع الضمير في شفاعتهم مع إفراد الملك ، فلفظها مفرد ، ومعناها جمع ، والمعنى الإقناط مما علقوا به والتوبيخ لهم بما يتمنونه . ويطمعون فيه من شفاعة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله ، لا تشفع إلا لمن اذن أن يشفع له فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم ، وهو معنى قوله :

﴿ إلا من بعد أن يأذن الله ﴾ لهم بالشفاعة ﴿ لمن يشاء ﴾ ان يشفعوا له ﴿ ويرضى ﴾ بالشفاعة لكونه من أهل التوحيد وليس للمشركين في ذلك حظ

ولا يأذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاها لكونهم ليسوا من المستحقين لها ﴿ ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي:هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث وما بعده من الدار الآخرة ، على الوجه الذي بينته الرسل وهم الكفار يضمون الى كفرهم مقالة شنعاء ، وجهالة جهلاء ، وهي أنهم ﴿ ليسمون الملائكة ﴾ المنزهين عن كل نقص ﴿ تسمية الأنثى ﴾ وذلك أنهم رأوا في الملائكة تاء التأنيث ، وصح عندهم ان يقال : سجدت الملائكة فزعموا أنها بنات الله ، فجعلوهم إناثاً وسموهم بنات .

﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي والحال أنهم غير عالمين بما يقولون ، فإنهم لم يعرفوهم ولا شاهدوهم ، ولا بلغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التي يخبر المخبرون عنها بل قالوا ذلك جهلاً وضلالة وجرأة ، وقرىء وما لهم بها أي بالملائكة أو التسمية ، ومن زائدة في المبتدأ المؤخر ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ أي ما يتبعون في هذه المقالة إلا مجرد الظن والتوهم ، وقال النسفي : هو تقليد الآباء ، ثم أخبر سبحانه عن الظن وحكمه فقال :

﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي:إن جنس الظن لا يغني عن العلم شيئاً من الإغناء ، ومن بمعنى عن ، والحق هنا العلم ، وفيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم مقام العلم ، وإن الظان غير عالم ، وهذا في الأمور التي يحتاج فيها الى العلم ، وهي المسائل العلمية لا فيما يكتفي فيه بالظن ، وهي المسائل العملية ، وقد قدمنا تحقيق هذا ، ولا بد من هذا التخصيص ، فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد ونحو ذلك ظنية ، فالعمل بها عمل بالظن وقد وجب علينا العمل في هذه الأمور ، فكانت أدلة وجوب العمل به فيها مخصصة لهذا العموم ، وما ورد في معناه من الذم لمن عمل بالظن والنهي عن اتباعه . وفي الكرخي الظن لا اعتبار له في المعارف الحقيقية ، وإنما العبرة به في العمليات وما يكون وصلة اليها كمسائل علم الفقه ، وقال ابن الخطيب : المراد منه أن الظن لا يغني في الاعتقادات شيئاً وأما في الأفعال العرفية

أو الشرعية فإن الظن فيها يتبع عند عدم الوصول الى اليقين .

﴿ فأعرض عمن تولى ﴾ أي أعرض ﴿ عن ذكرنا ﴾ المراد بالذكر هنا القرآن ، أو ذكر الآخرة أو ذكر الله على العموم ، وقيل : المراد به هنا الايمان والمعنى اترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أمرت به ، وليس عليك إلا البلاغ وهذا منسوخ بآية السيف، قال الرازي : وأكثر المفسرين يقولون : إن كل ما في القرآن من قوله فأعرض منسوخ بآية القتال وهو باطل لأن الأمر بالاعراض موافق لآية القتال ، فكيف ينسخ بها والإعراض عن المناظرة شرط لجواز المقاتلة ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ أي لم يرد سواها ولا طلب غيرها ، بل قصر نظره عليها فإنه غير متأهل للخير ، ولا مستحق للإعتناء بشأنه ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر امرهم فقال :

﴿ ذلك ﴾ أي التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿ هو مبلغهم من العلم ﴾ ليس لهم علم غيره ، ولا يلتفتون الى سواه من أمر الدين ، قال الفراء : أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ؛ وقيل : الإشارة بقوله ذلك الى جعلهم الملائكة بنات الله وتسميتهم لهم تسمية الأنثى والأول أولى والمراد بالعلم هنا مطلق الإدراك الذي يندرج تحته الظن الفاسد والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم واتباعهم مجرد الظن ؛ وقيل معترضة بين المعلل والعلة وهي قوله :

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض ، والمعنى انه سبحانه وتعالى أعلم بمن حاد عن الحق وأعرض عنه ولم يهتد إليه وأعلم بمن اهتدى فقبل الحق ، وأقبل إليه وعمل به فهو مجاز كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه في دعوة من أصر على الضلالة وسبقت له الشقاوة ، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال ، كما علم حال الفريق الراشد وتكرير قوله هو اعلم لزيادة التقرير وللإيذان بكمال تباين المعلومين ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته وعظيم ملكه فقال :

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ
بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ
أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ
يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي هو المالك لذلك والمتصرف فيه لا يشاركه فيه أحد ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ﴾ من الشرك وغيره اللام متعلقة بما دل عليه الكلام ، كأنه قال : هو مالك ذلك يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، ليجزي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه ، وقيل : إن قوله ولله ما في السموات الخ جملة معترضة ، والمعنى :هو أعلم بمن ضل ، وهو أعلم بمن اهتدى ، ليجزي ، وقيل : هي لام العاقبة لا التعليل ، أي :وعاقبة امر الخلق الذين فيهم المحسن والمسيء أن يجزي الله كلاً منهما بعمله ، وبه صرح الواحدي والزمخشري ، وقال مكي : إن اللام متعلقة بقوله لا تغني شفاعتهم وهو بعيد من حيث اللفظ ومن حيث المعنى قرىء ليجزي بالتحتية وبالنون .

﴿ ويجزي الذين أحسنوا ﴾ بالتوحيد وغيره من الطاعات ﴿ بالحسنى ﴾ أي :بالمثوبة الحسنى وهي الجنة أو بسبب أعمالهم الحسنى ، وتكرير الفعل لإبراز كمال الإعتناء بأمر الجزاء ، وللتنبيه على تباين الجزائين ، ثم وصف هؤلاء

المحسنين فقال : ﴿ الذين ﴾ أي :هم الذين ﴿ يجتنبون كبائر الإثم ﴾ قرأ الكبائر على الجمع وكبير على الافراد ، والكبائر كل ذنب توعد الله عليه بالنار او ما عين له حداً أو ذم فاعله ذماً شديداً ، ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طَويل ، وكما اختلفوا في تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا في عددها :

﴿ والفواحش ﴾ جمع فاحشة ، وهي ما فحش من كبائر الذنوب ، كالزنا ونحوه ، وهو من عطف الخاص على العام ، قال مقاتل : كبائر الاثم كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش كل ذنب فيه الحد وقيل : الكبائر الشرك والفواحش الزنا ، وقد قدمنا في سورة النساء ما هو أبسط من هذا وأكثر فائدة ، وقال ابن عباس : الكبائر ما سمى الله فيه النار ، والفواحش ما كان فيه حد الدنيا ﴿ إلاّ اللمم ﴾ أي إلا ما قل وصغر من الذنوب والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر والفواحش ، قال السمين : وهذا هو المشهور ، ويجوز أن يكون متصلاً عند من يفسر اللمم بغير الصغائر ، وأصل اللمم في اللغة ما قل وصغر،ومنه ألم بالمكان قل لبثه فيه ؛ وألم بالطعام قل أكله منه .

قال المبرد : أصل اللمم أن يلم بالشيء من غير أن يرتكبه يقال : ألم بكذا إذا قاربه ، ولم يخالطه ، قال الأزهري : العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنو والقرب ، قال الزجاج : أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ، ولا يقيم عليه،يقال : ألممت به إذا زرته وانصرفت عنه ويقال ما فعلته إلا لماماً وإلماماً؛أي:الحين بعد الحين ومنه إلمام الخيال قال في الصحاح الم الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواقعة .

وقد اختلف اقوال اهل العلم في تفسير هذا المذكور في الآية فالجمهور على أنه صغائر الذنوب،وقيل : هو ما كان دون الزنا من القبلة والغمزة والنظرة

وكالكذب الذي لا حد فيه ولا ضرر والاشراف على بيوت الناس وهجر المسلم فوق ثلاث والضحك في الصلاة المفروضة والنياحة وشق الجيب في المصيبة ، والتبختر في المشي،والجلوس بين الفساق إيناساً بهم ،وإدخال مجانين وصبيان ونجاسة المسجد إذا كان يغلب تنجيسهم له واستعمال نجاسة في بدن أو ثوب لغير حاجة ونحو ذلك ذكره الخطيب وغيره،وقيل : هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب أو يقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة وابن عباس وبه قال مجاهد والحسن والزهري ومنه :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

واختار هذا القول الزجاج والنحاس وقيل : هو ذنوب الجاهلية فإن الله لا يؤاخذ بها في الاسلام،وبه قال زيد بن ثابت،وزيد بن اسلم وقال نفطويه : هو ان يأتي بذنب لم يكن له به عادة،قال والعرب تقول : ما تأتينا إلا إلماماً أي في الحين قال : ولا يكون أن يهم ولا يفعل لأن العرب لا تقول : ألم بنا إلا إذا فعل لا اذاهم ولم يفعل الراجح الأول .

أخرج البخاري ومسلم . «عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم»(١) مما قاله أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة،فزنا العين النظر،وزنا اللسان النطق،والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» .

وعن ابن مسعود في قوله إلا اللمم قال : زنا العين النظر وزنا الشفتين التقبيل وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين المشي ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم .

وعن ابي هريرة انه سئل عن قوله : إلا اللمم قال هي النظرة ،

(١) رواه البخاري ومسلم .

والغمزة ، والقبلة ، والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وهو قول ابن مسعود ومسروق والشعبي . وعن ابن عباس فيه قال : إلا اللمم إلا ما قد سلف ، وعنه قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها ، وعن أبي هريرة قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ، ولا يعود ، فذلك الإلمام ، وعن ابن عباس أيضاً قال : اللمم كل شيء بين الحدين ، حد الدنيا وحد الآخرة ، تكفره الصلاة ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار ، وأخر عقوبته الى الآخرة ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم دون الشرك .

﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، قال الكرخي : عقب به ما سبق لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ، ولئلا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى ، وقال غيره : الجملة تعليل لما تضمنه الاستثناء ، أي إن ذلك وإن خرج عن حكم المؤاخذة فليس لخلوه عن كونه ذنباً يفتقر إلى مغفرة الله ، ويحتاج إلى رحمته ، بل لسعة المغفرة الربانية ، وقيل : إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه وأناب ، وعن عمر وابن عباس قالا لا كبيرة في الإسلام ، يعني مع التوبة ، ولا صغيرة مع الإصرار ، قلت : وفي كون الإصرار على الصغيرة كبيرة اختلاف بين أهل العلم ، قال النووي في المنهاج : وشرط العدالة اجتناب الكبائر ، والإصرار على صغيرة قال في تحفة المحتاج : قيل : عطف الإصرار من عطف الخاص على العام . وفيه نظر ، لأن الإصرار لا يصير الصغيرة كبيرة حقيقة : وإنما يلحقها في الحكم ولا ينافي هذا قول كثيرين كابن عباس ،ونسب للمحققين كالأشعري . وابن فورك ، والأسناد أبي إسحاق أ هـ .

وفي الزواجر عن اقتراف الكبائر نقلاً عن الرافعي : أما الصغائر فلا يشترط تجنبها بالكلية ، لكن الشرط أن لا يصر عليها ، فإن أصر كان الإصرار

كارتكاب الكبيرة انتهى ، والحاصل أن المعتمد وفاقاً لكثير من المتأخرين كالأذرعي والبلقيني والزركشي وابن العماد وغيرهم أنهم لا تضر المداومة على نوع من الصغائر . ولا على أنواع ، سواء كان مقيماً على الصغيرة أو الصغائر أو مكثراً من فعل ذلك ، حيث غلب الطاعات المعاصي ، وإلا ضر ، ثم رأيت ابن العماد قال ما نقله الإسنوي عن الرافعي : من أن الإصرار على الصغيرة يصيرها كبيرة ليس كذلك ، ولم يذكر الرافعي هذه العبارة ، قال البلقيني : المراد عدم غلبة الصغائر على الطاعة ، وفسر القاضيان الماوردي والطبري الإصرار في قوله تعالى : ﴿ ولم يصروا ﴾ بأن لم يعزموا على أن لا يعودوا إليه ، وقضيته حصول الإصرار بالعزم على العود ، بترك العزم على عدم العود ، ويوافقه قول ابن الصلاح : الإصرار التلبس بضد التوبة ، باستمرار العزم على المعاودة ، واستدامة الفعل بحيث يدخل به في حيز ما يطلق عليه الوصف بصيرورته كبيرة ، وليس لزمن ذلك وعدده حصر .

وقال ابن عبد السلام : الإصرار أن تتكرر منه الصغيرة تكراراً يشعر بقلة مبالاته بدينه ، إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك ، وكذلك إذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع بحيث يشعر مجموعها بما يشعر به أصغر الكبائر انتهى .

والصواب في هذا الباب ما ذكره القاضي محمد بن علي الشوكاني رحمه الله في إرشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول ، ونصه : قد قيل : إن الإصرار على الصغيرة حكمه حكم مرتكب الكبيرة ، وليس على هذا دليل يصلح للتمسك به ، وإنما هي مقالة لبعض الصوفية ، فإنه قال : لا صغيرة مع الإصرار ، وقد روى بعض من لا يعرف علم الرواية هذا اللفظ ، وجعله حديثاً ، ولا يصح ذلك ، بل الحق أن الإصرار حكمه حكم ما أصر عليه ، والإصرار على الصغيرة صغيرة ، والإصرار على الكبيرة كبيرة انتهى .

ويفهم من ذلك أيضاً ان الإصرار على الكبيرة ليس كفراً ، ثم التوبة عن الكبيرة وإن كانت واجبة عيناً فوراً بنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، لكن قد يغفرها الله تعالى من غير توبة أيضاً ، كما دلت عليه السنة المطهرة

واختاره محققو أهل الحديث ، ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده فقال :

﴿ هو أعلم بكم ﴾ أي: بأحوالكم ، وتفاصيل أموركم ﴿ إذ ﴾ حين ﴿ أنشأكم من الأرض ﴾ أي:خلقكم منها في ضمن خلق أبيكم آدم ، وحين ما صوركم في الأرحام ، وقيل : المراد آدم فإنه خلقه من طين ﴿ وإذا أنتم أجنة ﴾ أي هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنة ، وهي جمع جنين ، وهو الولد ما دام في البطن ، سمي ذلك لاجتنابه ، أي لاستتاره في بطن أمه ، ولهذا قال : ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ فلا يسمى من خرج عن البطن جنيناً ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها .

« عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا : هو صديق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد ، فأنزل الله عند ذلك هذه الآية » أخرجه الطبراني وغيره .

﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ أي لا تمدحوها ، ولا تثنوا عليها خيراً ، ولا تنسبوها الى زكاء العمل ، وزيادة الخير والطاعات ، وحسن الأعمال ، واهضموها فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء ، وأقرب الى الخشوع ، قال ابن عباس : لا تمدحوها ، وقال الحسن : علم الله من كل نفس ما هي صانعة والى ما هي صائرة فلاتبرؤوها من الآثام ، ولا تمدحوها بحسن الأعمال ، وقيل لا تزكوها رياء ، وخيلاء ، ولا تقولوا لمن لم تعرفوا حقيقته أنا خير منك ، وأنا أزكى منك ، أو أتقى منك ، فإن العلم عند الله ، وفيه اشارة الى وجوب خوف العاقبة فإن الله يعلم عاقبة من هو على التقوى .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود . « عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزكوا انفسكم ، الله أعلم

بأهل البر منكم سموها زينب»[1] . وقال المحلي في الآية : وهذا النهي على سبيل الإعجاب ، وأما على سبيل الإعتراف بالنعمة فحسن ، ولذا قيل : المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر ، لقوله تعالى:﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾

﴿ هو أعلم بمن اتقى ﴾ مستأنفة مقررة للنهي ، أي فإنه يعلم المتقي منكم وغيره قبل أن يخرجكم من صلب أبيكم آدم ، فمن جاهد نفسه ، وخلصت منه التقوى فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب في الدارين ، فكيف بمن صارت له التقوى وصفاً ثابتاً ، وهو الذي ينتفع بها ويثاب عليها ، وقيل : نزلت في ناس كانوا يعملون أعمالاً حسنة ؛ ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجنا وجهادنا ثم لما بين الله سبحانه وتعالى جهالة المشركين على العموم ، خص بالذم بعضهم فقال : ﴿ أفرأيت الذي تولى ؟ ﴾ عن الخير وأعرض عن آتباع الحق ﴿ وأعطى قليلاً ﴾ أي أعطى عطاء قليلاً ؛ أو شيئاً قليلاً من المال المسمى .

﴿ وأكدى ﴾ منع الباقي وقطع ذلك ، وأمسك عنه ، مأخوذ من الكدية وهي الصلابة، يقال لمن حفر بئراً بلغ فيها الى حجر لا يتهيأ له فيه حفر : قد أكدى ، ثم استعملته العرب : لمن أعطى فلم يتم ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره قال الكسائي وأبو زيد ويقال : كديت أصابعه إذا محلت من الحفر ، وكدت يده إذا كلت ، ولم تعمل شيئاً،وكدت الأرض اذا قل نباتها ، وأكديت الرجل عن الشيء رددته،وأكدى الرجل إذا قل خيره،قال الفراء : معنى الآية أمسك عن العطية وقطع،وقال المبرد : منع منعاً شديداً .

وقال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين فترك ورجع الى شركه قال مقاتل : كان الوليد يمدح القرآن ، ثم أمسك عنه فأعطى قليلاً من

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

لسانه من الخير ثم قطعه وقال الضحاك : نزلت في النضر بن الحرث وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في أبي جهل ،قال ابن عباس : أكدى قطع نزلت في العاص بن وائل،وعنه قال : أطاع قليلاً انقطع .

﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب فهو يعلم ذلك قال مقاتل : وهو الوليد بن المغيرة وعليه الأكثر وقال السدي : إنه العاص بن وائل السهمي أو أبو جهل،كما قاله محمد بن كعب وهذا الخلاف فيمن تولى وأعطى واكدى وأما الذي عيره وضمن له أن يحمل عنه العذاب فلم يذكروا هنا تعيينه .

﴿ أم لم ينبأ ﴾ أي:ألم يخبر ولم يحدث ﴿ بما صحف موسى ﴾ .يعني أسفاره وهي التوراة .أو صحف قبلها ﴿ و ﴾ بما في صحف ﴿ إبراهيم الذي وفى ﴾ اي:تمم وأكمل ما أمر به قال المفسرون : أي بلغ قومه ما أمر به وأداه وقيل : بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه .

« عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما قوله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قالوا الله ورسوله اعلم.قال وفي عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهن وزعم انها صلاة الضحى » أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وغيرهم : قال السيوطي : ضعيف : وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو ضعيف .

« وعن سهل بن معاذ ابن أنس عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم لم سمى الله خليله الذي وفّى :أنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى آخر الآية » ، أخرجه ابن أبي حاتم وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف ، وعن ابن عباس قال : سهام الإسلام ثلاثون سهماً لم يتممها أحد قبل إبراهيم ؛ قال الله : وإبراهيم الذي وفّى ، وعنه قال : يقول : إبراهيم الذي استكمل الطاعة فيما

فعل بابنه ؛ حين رأى الرؤيا ؛ وإنما خص هذين النبيين بالذكر ؛ لأنه كان قبل إبراهيم وموسى يؤخذ الرجل بجريرة غيره ، فأول من خالفهم إبراهيم ثم بين سبحانه ما في صحفهما فقال :

﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى ، ومعناه لا تؤخذ نفس بذنب غيرها . قال ابن عباس : كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره ، كان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده ، حتى كان إبراهيم ، فنهاهم عن ذلك ، وبلغهم عن الله تعالى ألا تزر الخ ، وقد مضى تفسير هذه الآية في سورة الأنعام .

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وهذا أيضاً من جملة ما في صحف موسى وإبراهيم ، والمعنى ليس له إلا أجر سعيه ، وجزاء عمله ، ولا ينفع أحداً عمل أحد ، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه : ﴿ وألحقنا بهم ذريتهم ﴾ ، وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد ، ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ، ونحو ذلك ، ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاص لا ينسخ العام ، بل يخصصه ، فكل ما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه ، كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم ، وتعقب أيضاً بأنها خبر ، ولا نسخ في الأخبار ، وبأنها على ظاهرها والدعاء من الولد دعاء من الوالد من حيث اكتسابه للولد ، وبأنها مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى ، لأنها حكاية لما في صحفهم ، وأما هذه الأمة فلها ما سعت هي وما سعى لها غيرها ، لما صح أن لكل نبي وصالح شفاعة ، وهو انتفاع بعمل الغير ، ولغير ذلك .

ومن تأمل النصوص وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى فلا يجوز أن تؤول الآية على خلاف الكتاب والسنة وإجماع الأمة . وحينئذ فالظاهر ما قلنا أن الآية عامة قد خصصت بأمور كثيرة ، قال ابن عباس في الآية : فأنزل الله بعد ذلك : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم ﴾ الآية ،

فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء ، وكان ابن عباس إذا قرأ هذه الآية إسترجع واستكان ، وقيل : أراد بالإنسان الكافر ، والمعنى ليس له من الخير إلا ما عمل هو ، فيثاب عليه في الدنيا ، بأن يوسع عليه في رزقه ، ويعافى في بدنه . حتى لا يبقى له في الآخرة خير ، وقيل : هو من باب العدل ، وأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما يشاء من فضله وكرمه ، وقيل : هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة ، وإنما هو في صحف موسى وإبراهيم .

قال شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية(١) رحمه الله : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع ، وذلك باطل من وجوه كثيرة :

أحدها : أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .

ثانيها : أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الموقف في الحساب ، ثم لأهل الجنة في دخولها .

ثالثها : لأهل الكبائر في الخروج من النار ، وهذا انتفاع بسعي الغير .

رابعها : أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض ، وذلك منفعة بعمل الغير .

خامسها : أن الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم .

سادسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ، وذلك انتفاع بمحض عمل الغير .

سابعها : قال تعالى في قصة الغلامين اليتيمين ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ فانتفعا بصلاح أبيهما وليس من سعيهما .

---

(١) غفر الله لشيخ الاسلام ، فقد خالف الآية على خلاف عادته ، وعلى القارىء أن يراجع الملحق الذي نشرناه في آخر سورة يس (ج ٨ ص ٥٧) ففيه رد صاحب المنار على كل ما سيذكره ابن تيمية وابن القيم .

ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعتق بنص السنة والاجماع ، وهو من عمل الغير .

تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه بنص السنة ، وهو انتفاع بعمل الغير .

عاشرها : أن الحج المنذور أو الصوم المنذور ، يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة ، وهو انتفاع بعمل الغير .

حادي عشرها : المدين قد امتنع صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر علي بن أبي طالب ، وانتفع بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو من عمل الغير .

ثاني عشرها : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده : ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه ؟ » فقد حصل له فضل الجماعة بعمل الغير .

ثالث عشرها : أن الانسان تبرأ ذمته من ديون الخلق إذا قضاها قاض عنه ، وذلك انتفاع بعمل الغير .

رابع عشرها : أن من عليه تبعات ومظالم إذا حلل منها سقطت عنه وهذا انتفاع بعمل الغير .

خامس عشرها : أن الجار الصالح ينفع في المحيا والممات ، كما جاء في الأثر وهذا انتفاع بعمل الغير .

سادس عشرها : أن جليس أهل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن منهم ، ولم يجلس لذلك لحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد انتفع بعمل غيره .

سابع عشرها : الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحي عليه وهو عمل غيره .

ثامن عشرها : ان الجمعة تحصل باجتماع العدد ، وكذلك الجماعة بكثرة العدد ، وهو انتفاع للبعض بالبعض .

تاسع عشرها : أن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ الخ . وقال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ الخ فقد رفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض ، وذلك انتفاع بعمل الغير .

عشروها : أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ، ممن يمونه الرجل فإنه ينتفع بذلك من يخرج عنه ولا سعي له فيها .

حادي عشريها : أن الزكاة تجب في مال الصبي والمجنون ويثاب على ذلك ، ولا سعي له ، ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى ، فكيف يجوز أن تتأول الآية الكريمة على خلاف صريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة ؟ انتهى كلامه رحمه الله .

﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أي يعرض عليه ، ويكشف له يوم القيامة ، ويبصره في الآخرة في ميزانه من غير شك ﴿ ثم يجزاه ﴾ أي يجزي الإنسان سعيه ، يقال : جزاه الله بعمله ، وجزاه على عمله ، فالضمير المرفوع عائد على الإنسان ، والمنصوب على سعيه ، وقيل : على الجزاء المتأخر ، وهو قوله : ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ فيكون هو مفسراً له ، ويجوز أن يرجع إلى الجزاء الذي هو مصدر يجزاه ، وقواه السفاقسي ، ويجعل الجزاء الأوفى تفسيراً للجزاء المدلول عليه بالفعل ، كما في قوله : ﴿ إعدلوا هو اقرب للتقوى ﴾ ، قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء ، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما .

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أي المرجع ، والمصير إليه سبحانه، .لا إلى غيره ، فيجازيهم بأعمالهم ، هذا كله في الصحف الأولى ، والمخاطب عام ، أو النبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ
وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا
مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ
سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

عن «أبيّ بن كعب في هذه الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا فكرة في الرب» ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أي هو الخالق لذلك ، والقاضي بسببه : قال الحسن والكلبي : أضحك أهل الجنة في الجنة ، وأبكى أهل النار في النار ، وقال الضحاك : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر ، وقيل أضحك من شاء في الدنيا بأن سره ، وأبكى من شاء بأن غمه . وهذا على أن كُلًّا من الفعلين حذف مفعوله ، وقال سهل بن عبد الله : أضحك المطيعين بالرحمة ، وأبكى العاصين بالسخط ، وقيل : أضحك المؤمنين في العقبى بالمواهب ، وأبكاهم في الدنيا بالنوائب ، وقيل : خلق الفرح والحزن ، وقيل : إن الفعلين من الأفعال اللازمة كقوله : الله يحيي ويميت ، وهذا يدل على أن ما يعمل الإنسان فبقضائه وخلقه ، حتى الضحك والبكاء .

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ أي : قضى أسباب الموت والحياة ، ولا يقدر على ذلك غيره ، وقيل : خلق نفس الموت والحياة ، كما في قوله : ﴿ خلق الموت والحياة ﴾ ، وقيل أمات الآباء وأحيا الأبناء ، وقيل : أمات في الدنيا وأحيا للبعث ، وقيل : المراد بهما النوم واليقظة ، وقال عطاء : أمات بعدله ،

وأحيا بفضله ، وقيل : أمات الكافر ، وأحيا المؤمن ، كما في قوله : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ .

﴿ وأنه خلق الزوجين ﴾ الصنفين ﴿ الذكر والأنثى ﴾ من كل حيوان وهذا أيضاً من جملة المتضادات الواردة على النطفة ، فبعضها يخلق ذكراً وبعضها يخلق أنثى ، ولا يصل إليه فهم العقلاء ، ولا يعلمونه ، وإنما هو بقدرة الله لا بفعل الطبيعة ، وفيه رد على الطبائعيين القائلين بالبرد والرطوبة في الأنثى قرب امرأة أحر وأيبس مزاجاً من الرجل ﴿ من نطفة ﴾ مني،ولا يدخل في ذلك آدم وحواء ، فإنهما لم يخلقا من النطفة،والنطفة الماء القليل ﴿ إذا تمنى ﴾ أي:تصب في الرحم ، وتدفق فيه ، كذا قال الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح وغيرهم يقال : منى الرجل يمني،وأمنى أي:صب المني ، وقال أبو عبيدة : إذا تمنى إذا تقدر ، يقال : منيت الشيء إذا قدرته ومنى له إذا قدر له .

﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أي إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث ، وفاء بوعده . فإنه قال : إنا نحن نحيي ونميت لا بحكم العقل ولا الشرع قرىء النشأة بالقصر بوزن الضربة ، وبالمد بوزن الكفالة ، سبعيتان وهما على القراءتين مصدران ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أي أغنى من شاء ، وأفقر من شاء ، ومثله قوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ ، وقوله : ﴿ يقبض ويبسط ﴾ قاله ابن زيد ، واختاره ابن جرير وقال مجاهد وقتادة والحسن : أغنى مول ، وأقنى أخدم وقيل معنى أقنى : أعطى القنية وهي ما يتأثل من الأموال،أي:أصول الأموال ، وما يدخرونه بعد الكفاية .

وقيل : معنى أقنى أرضى بما أعطى أي أغناه . ثم أرضاه بما أعطاه ، قال الجوهري : قنى الرجل يقني مثل غنى يغني ، ثم يتعدى بتغيير الحركة فيقال : قنيت له مالاً كسبته ، وهو نظير شترت عينه بالكسر ، وشترها الله بالفتح ، فإذا دخلت عليه الهمزة والتضعيف اكتسب مفعولاً ثانياً فيقال : أقناه

الله مالاً ، وقناه إياه أي أكسبه إياه وأقناه أرضاه ، والقناء الرضا ، قال أبو زيد : تقول العرب : من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى،ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى، وقال الأخفش وابن كيسان : أقنى أفقر، وهو يؤيد القول الأول،وقال ابن عباس : أغنى وأقنى أعطى وأرضى ، وقيل : أقنى زاد فوق الغنى ، وحذف مفعول أغنى وأقنى لأن المراد نسبة هذين الفعلين إليه وحده ، وكذلك باقيها .

﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ هي كوكب يطلع خلف الجوزاء في شدة الحر والمراد به هنا الشعرى التي يقال لها العبور ، وهي أشد ضياء من الشعرى التي يقال لها الغميصاء ، وإنما ذكر سبحانه أنه هو رب الشعرى ، مع كونه رباً لكل الأشياء ، للرد على من كان يعبدها . وأول من عبدها أو سن عبادتها أبو كبشة ،وكان من أشراف العرب ، وذلك لأن النجوم تقطع السماء عرضاً ، والشعرى تقطعها طولاً ، فهي مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة وحمير ، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة تشبيهاً له به ، لمخالفته دينهم ، كما خالفهم أبو كبشة ، وكان من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمه،ومن ذلك قول أبي سفيان عند دخوله على هرقل : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة،قال ابن عباس في الآية : هو الكوكب الذي يدعى الشعرى ، وعنه قال : نزلت هذه الآية في خزاعة وكانوا يعبدون الشعرى ، وهو الكوكب الذي يتبع الجوزاء ، ويسمى كلب الجبار أيضاً .

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وصف عاداً بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود، قال ابن زيد: قيل لها عاد الأولى لأنهم أول أمة أهلكت بعد نوح، وقال ابن إسحق : هما عادان فالأولى أهلكت بالصرصر ، والأخرى بالصيحة ، وقيل : عاد الأولى قوم هود ، أهلكوا بريح صرصر ، وعاد الأخرى إرم بن عوص بن سام بن نوح ﴿ و ﴾ أهلك ﴿ ثمود ﴾ كما أهلك عاداً ﴿ فما أبقى ﴾ أحداً من الفريقين ، وثمود هم قوم صالح عليه السلام ؛ أهلكوا بالصيحة وقد تقدم الكلام على عاد وثمود في غير موضع .

﴿ و ﴾ أهلك ﴿ قوم نوح ﴾ بالغرق ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل إهلاك عاد وثمود ﴿ إنهم كانوا هم أظلم ﴾ من عاد وثمود ﴿ وأطغى ﴾ منهم أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية أو أظلم وأطغى من مشركي العرب وإنما كانوا كذلك لأنهم عتوا على الله بالمعاصي مع طول مدة دعوة نوح لهم كما في قوله : ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ وقيل : لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حراك ويغشى عليه فإذا أفاق قال : رب أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه .

﴿ والمؤتفكة ﴾ الإئتفاك الإنقلاب ، والمؤتفكة مدائن قوم لوط عليه السلام وسميت المؤتفكة لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها،تقول أفكته إذا قلبته ومعنى ﴿ أهوى ﴾ أي أسقط أي أهواها جبريل إلى الأرض بعد أن رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض قال المبرد : جعلها تهوي .

﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة المنضودة المسومة التي وقعت عليها كما في قوله : ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ وفي هذه العبارة تهويل للأمر الذي غشاها به وتعظيم له وقيل : إن الضمير راجع إلى جميع الأمم المذكورة أي فغشاها من العذاب ما غشى على اختلاف أنواعه .

﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ هذا خطاب للانسان المكذب أي فبأي نعم ربك الدالة على وحدانيته وقدرته أيها الإنسان المكذب تتشكك وتمتري وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضاً لغيره فهو من باب الإلهاب والتهييج والتعريض بالغير،وعن ابن عباس : أنه للوليد بن المغيرة،وقيل:لكل من يصلح له،قال ابن عادل : الصحيح العموم لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ وقوله : ﴿ وكان الانسان أكثر شيء جدلاً ﴾ قلت : ولقوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قيل : إسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه وهو الآلاء المتماري فيها قلت لا حاجة إلى

هذا التكلف لأن التفاعل مجرد عن التعدد في الفاعل والفعل ، للمبالغة في الفعل ، وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء أي :نعماً مع كون بعضها نقماً لا نعماً، لأنها مشتملة على العبر والمواعظ ، ويكون فيها إنتقام من العصاة ، وفي ذلك نصرة للأنبياء والصالحين،وقرىء تتمارى من غير إدغام وبإدغام إحدى التاءين في الأخرى .

﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ أي هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدمين قبله ، فإنه أنذركم كما أنذروا قومهم ، كذا قال ابن جرير ومحمد ابن كعب وغيرهما ، وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى ، وقيل : هذا الذي أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك ، كذا قال أبو مالك ، وقال أبو صالح : إن الإشارة بقوله هذا إلى ما في صحف موسى وإبراهيم ، والأول أولى ، قال ابن عباس : هذا نذير أي محمد صلى الله عليه وسلم والأولى على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل ، والتنوين للتفخيم على جميع التقارير المتقدمة .

﴿أزفت الآزفة﴾ أي:قربت الساعة ودنت، سماها آزفة لقرب قيامها وقيل : لدنوها من الناس ، كما في قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ، أخبرهم بذلك ليستعدوا لها قال في الصحاح : أزفت الآزفة يعني القيامة ، وأزف الرجل عجل ، قال ابن عباس : الآزفة من أسماء القيامة والالم فيه للعهد لا للجنس لئلا يخلو الكلام عن الفائدة إذ لا معنى لوصف القريب بالقرب ، كما قيل ، ولذا قيل إن الآزفة علم بالغلبة للساعة هنا وفيه نظر لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة في قربه ، كما يدل عليه الافتعال في ﴿ اقتربت الساعة ﴾ فتأمل .

﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أي ليس لها نفس أو حال قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه ، وقيل : كاشفة بمعنى انكشاف والهاء فيها كالهاء في العاقبة والداهية ، وقيل : كاشفة بمعنى كاشف والهاء للمبالغة كراوية

وعلامة ونسابة ، والأول أولى ، والمعنى أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها وأهوالها أحد غير الله ، كذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم ، وقيل : ليس لها نفس مبينة متى تقوم ، كقوله : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ ثم وبخهم سبحانه فقال : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ المراد بالحديث القرآن،أي:كيف تعجبون منه تكذيباً .

﴿ وتضحكون ﴾ منه استهزاء مع كونه غير محل للتكذيب ، ولا موضع للاستهزاء ﴿ ولا تبكون ﴾ خوفاً وآنزجاراً لما فيه من الوعيد الشديد .

عن صالح أبي الخليل قال : لما نزلت هذه الآية فما ضحك النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلا أن يتبسم ، وفي لفظ فما رئي النبي صلى الله عليه وسلم ضاحكاً ولا متبسماً حتى ذهب من الدنيا » ﴿ وأنتم سامدون ﴾ لاهون غافلون عما يطلب منكم مستأنفة لتقرير ما قبلها أو حالية ، والسمود الغفلة والسهو عن الشيء ، والإعراض واللهو وقيل : الخمود ، وقيل : الإستكبار ، وقال في الصحاح : سمد سموداً رفع رأسه تكبراً ، فهو سامد ، وقال ابن الاعرابي : السمود اللهو والسامد اللاهي يقال للقينة : أسمدينا أي الهينا بالغناء ، وقال المبرد : سامدون خامدون ، وقال مجاهد : غضاب مبرطمون ، والبرطمة الاعراض ، وقيل : أشرون بطرون وقيل : ساهون لاهون غافلون لاعبون .

وقال ابن عباس : لاهون معرضون عنه ، وعنه قال : هو الغناء باليمانية وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا ، وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير يقولون : يا جارية أسمدي لنا أي غني ، وقال : كانوا يمرون على النبي صلى الله عليه وسلم شامخين،ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخاً ، وعن أبي خالد الوالبي قال : خرج علي بن أبي طالب علينا ، وقد أقيمت الصلاة ونحن قيام ننتظره ليتقدم فقال : مالكم سامدون ؟ لا أنتم في صلاة ولا أنتم في جلوس تنظرون .

﴿ فاسجدوا لله ﴾ لما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن والضحك منه والسخرية ، وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره ، أمر عباده المؤمنين بالسجود لله ، والعبادة له ، أي إذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله ﴿ واعبدوا ﴾ فإنه المستحق لذلك منكم ، وهو من عطف العام على الخاص ، أي ولا تسجدوا للأصنام ، ولا تعبدوها ، وهذا مأخوذ من لام الاختصاص ، ومن السياق ، وقد تقدم في فاتحة السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد عند تلاوته هذه الآية ، وسجد معه الكفار فيكون المراد بها سجود التلاوة، وقيل سجود الفرض .

سورة القمر

ويقال سورة اقتربت

وقد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر وقال ابن عباس : اقتربت تدعى في التوراة المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيض الوجوه . قال البيهقي : منكر .

و عن اسحق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه من قرأ اقتربت الساعة في كل ليلة بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، أخرجه ابن الضريس وهي خمس وخمسون آية وهي مكية كلها في قول الجمهور وقال مقاتل : الا ثلاث آيات من قوله : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ الى قوله : ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ قال القرطبي : ولا يصح وقيل : الا ﴿ سيهزم الجمع ﴾ الآية وعن ابن عباس : انها نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله . وجميع آيات السورة فواصلها على الراء الساكنة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ
﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ
عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ
ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾
۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ
فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾

﴿ اقتربت الساعة ﴾ أي قربت ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقي بعد قيام النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة، ويمكن أن يقال أنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة، فكل آت قريب ﴿ وانشق القمر ﴾ أي: وقد انشق القمر وانفلق، وكذا قرأ حذيفة بزيادة قد والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوة معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف، قال الواحدي: وجماعة المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: المعنى سينشق القمر، والعلماء كلهم على خلافه.

قال: وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وزمانه من اشراط اقتراب الساعة، قال ابن كيسان: في الكلام تقديم وتأخير، أي: انشق القمر واقتربت الساعة، وحكى القرطبي عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة، وهذا قول باطل لا يصح وشاذ لا يثبت لإجماع المفسرين على خلافه، ولأن الله سبحانه ذكره بلفظ الماضي وحمل الماضي على المستقبل بعيد يفتقر إلى

قرينة تنقله أو دليل يدل عليه ، وأنى ذلك .

قال الرازي : قال بعض المفسرين : المراد سينشق،وهذا بعيد لا معنى له لأن من منع ذلك وهو الفلسفي خذله الله يمنعه في الماضي والمستقبل ومن يجوزه لا يحتاج إلى التأويل ، ثم رد على المانع وقال : والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له وامكانه لا يشك فيه ، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه وحديث امتناع الخرق والإلتئام حديث اللئام ، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات وذكرناه مراراً ، وقيل : معنى انشق وضح الأمر وظهر والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح ،وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه وطلوعه في اثنائها كما يسمى الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه .

قال ابن كثير : قد كان الإنشقاق في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان احدى المعجزات الباهرات .

قال الزجاج : زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة والأمر بين في اللفظ،واجماع أهل العلم،لأن قوله الآتي : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ يدل على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة انتهى ، ولم يأت من خالف الجمهور وقال ان الانشقاق سيكون يوم القيامة إلا بمجرد استبعاد فقال : إنه لو انشق في زمن النبوة لم يبق أحد إلا رآه لأنه آية والناس في الآيات سواء ، ويجاب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلاً ولا شرعاً ولا عادة،وان هذا الانشقاق حصل في الليل ومعظم الناس نيام غافلون ، والأبواب مغلقة وهم مغطون بثيابهم فَقَلَّ من يتفكر في السماء أو ينظر اليها .

ومما هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر وغيره مما يحدث في السماء ، في الليل من العجائب والأنوار الطوالع والشهب العظام ونحو ذلك يقع ولا

يتحدث به إلا أحاد الناس،ولا علم عند غيرهم بذلك لما ذكرنا من غفلة الناس عنه وكان هذا الانشقاق آية عظيمة حصلت في الليل لقوم سألوها واقترحوا رؤيتها فلم يتأهب غيرهم لها .

قال بعض أهل العلم : وقد يكون القمر حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عن قوم وكما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد والله أعلم .

ومع هذا فقد نقل إلينا بطريق التواتر ، وهذا بمجرده يدفع الاستبعاد ويضرب به في وجه قائله،والحاصل إنا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد اخبرنا بانه انشق ولم يخبرنا بأنه سينشق،وإن نظرنا إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ ، واستبعاد من استبعد ، وفي الباب رسائل شتى للشيخ رفيع الدين الدهلوي رحمه الله وغيره .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما . عن « أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما »[1] ، وروي عنه من طرق أخرى عند مسلم والترمذي وغيرهما وقال فنزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما . عن « ابن مسعود قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا »[2] .

---

(١) مسلم والبخاري .

(٢) مسلم والبخاري .

وعنه قال رأيت القمر منشقاً شقتين مرتين،مرة بمكة قبل أن يخرج النبي صلى الله عليه وسلم،شقة على أبي قبيس،وشقة على السويدا ، وذكر أن هذا سبب نزول الآية أخرجه عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل .

وعنه أيضاً قال : « رأيت القمر وقد انشق وأبصرت الجبل بين فرجتي القمر » ، أخرجه أحمد وأبو نعيم وابن جرير وغيرهم ، وله طرق عنه .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما. عن « ابن عباس قال انشق القمر في زمن النبي صلى الله عليه وسلم » وله طرق عنه ، وأخرج مسلم والترمذي وغيرهما .

« عن ابن عمر في الآية قال كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق القمر فرقتين فرقة من دون الجبل،وفرقة خلفه،فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم أشهد » .

« وعن جبير بن مطعم عن أبيه في الآية قال : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صار فرقة على هذا الجبل،وفرقة على هذا الجبل ، فقال الناس : سحرنا محمد فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم » ، أخرجه احمد والترمذي والحاكم وصححه وعبد بن حميد وغيرهم .

وعن عبد الرحمن السلمي قال : خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق،اليوم المضمار،وغدا السباق » ، أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم ، ونقل في المواهب عن الحافظ ابن حجر أن الانشقاق لم يقع إلا مرة

واحدة وأن رواية مرتين مؤولة مصروفة عن ظاهرها وكان أي الانشقاق قبل الهجرة بنحو خمس سنين .

﴿ وإن يروا ﴾ أي كفار قريش ﴿ آية ﴾ تدل على صدق الرسول والمراد بها هنا انشقاق القمر ﴿ يعرضوا ﴾ عن تأملها والإيمان بها ﴿ ويقولوا ﴾ هذا ﴿ سحر مستمر ﴾ أي :دائم مطرد قوي،وكل شيء دام حاله قيل فيه مستمر وذلك لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات أعرضوا عن التصديق بها وقالوا هذا سحر مستمر .

قال الواحدي : قال المفسرون : لما انشق القمر قال المشركون : سحرنا محمد فقال الله ﴿ وإن يروا ﴾ آية يعني: انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق بها والإيمان بها،ويقولوا سحر قوي شديد يعلو كل سحر ، من قولهم استمر الشيء إذا قوي واستحكم ،وقد قال بأن معنى مستمر قوي شديد جماعة من أهل العلم ، قال الأخفش : هو مأخوذ من امرار الحبل وهو شدة فتله وبه قال أبو العالية والضحاك واختاره النحاس .

وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة ﴿ سحر مستمر ﴾ أي ذاهب مار سوف يذهب ولا يبقى ، من قولهم مر الشيء واستمر أي ذهب وبطل وبه قال قتادة ومجاهد وغيرهما واختاره النحاس ، وقيل : يشبه بعضه بعضاً وقيل : قد مر من الأرض إلى السماء،وقيل : هو من المرارة،يقال مر الشيء صار مراً أي مستبشع عندهم مر على أهوائهم لا يقدرون أن يسيغوه كما لا يساغ المر ، وبه قال الزمخشري .

وفي هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قررناه سابقاً ، وفي التفهيمات للشيخ ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله : وأما شق القمر فعندنا ليس من المعجزات ، إنما هو من آيات القيامة كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ولكنه صلى الله

عليه وسلم اخبر عنه قبل وجوده فكان معجزة من هذا السبيل انتهى.واعترضه بعض من لا يسمن قوله ولا يغني من جوع ، ودفعه جماعة من علماء الهند وغيرهم ، وليس في هذه العبارة انكار تلك المعجزة كما فهمه بعض القاصرين عن بلوغ رتبة الكمال بل هي أدل دليل على اثباتها عند من يفهم كلام العلماء بالله تعالى ، تأمل .

ثم ذكر سبحانه تكذيبهم فقال : ﴿ وكذبوا ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عاينوا من قدرة الله ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ ما زينه لهم الشيطان الرجيم من دفع الحق بعد ظهوره ذكر هذين بصيغة الماضي ، للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة،مع أن الظاهر المضارع لكونهما معطوفين على يعرضوا ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب واتباع الهوى ولإقناطهم مما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره صلى الله عليه وسلم حيث قالوا سحر مستمر ، ببيان ثباته ورسوخه أي وكل أمر من الأمور منتهي إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، فالخير يستقر بأهل الخير ، والشر يستقر بأهل الشر .

قال الفراء : تقول يستقر قرار تكذيبهم وقرار قول المصدقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب ، وقيل : كل ما قدر فهو كائن لا محالة وقال الكلبي : المعنى لكل أمر حقيقة ، ما كان منه في الدنيا فسيظهر ، وما كان منه في الآخرة فسيعرف ، وقيل : هو جواب قولهم : ﴿ سحر مستمر ﴾ ، أي ليس أمره بذاهب كما زعمتم ، بل أمر محمد صلى الله عليه وسلم سيظهر إلى غاية يتبين فيها أنه حق ، وقيل : كل أمر من أمرهم،وأمره صلى الله عليه وسلم مستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا أو شقاوة أو سعادة في الآخرة ، ذكره أبو السعود والظاهر هو الأول .

وإبهام المستقر عليه ، للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به . قرأ الجمهور مستقر بكسر القاف ، وهو مرتفع على أنه خبر

والمبتدأ وهو كل وقرىء بالجر على أنه صفة لأمر،وقرىء بفتح القاف قال أبو حاتم : ولا وجه لها ، وقيل : وجهه كل أمر ذو استقرار ، أو زمان استقرار ، أو مكانه على أنه مصدر أو ظرف زمان أو ظرف مكان .

﴿ ولقد جاءهم ﴾ أي كفار مكة أو الكفار على العموم ﴿ من الأنباء ﴾ أي من بعض أخبار الأمم المكذبة المقصوصة علينا في القرآن ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أي: ازدجار عن الكفر على أنه مصدر ميمي ، يقال : إزدجرته وزجرته إذا نهيته عن السوء ووعظته بغلظة،أو إسم مكان والمعنى جاءهم ما فيه موضع ازدجار ، أي:أنه في نفسه موضع لذلك وأصله مزتجر . وتاء الافتعال تقلب دالاً بعد الزاي والدال والذال ، كما تقرر في موضعه وهذا في آخر كتاب سيبويه ، وقرىء مزجر بإبدال التاء زاياً وإدغامها ، وقرىء مزجر إسم فاعل من أزجر أي صار ذا زجر ، وما موصولة أو موصوفة .

﴿ حكمة ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من ﴿ ما ﴾ بدل كل من كل ، أو بدل اشتمال،أو من مزدجر ﴿ بالغة ﴾ تامة أي إن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ، ليس فيها نقص ، ولا خلل ، وقرىء حكمة بالنصب على أنها حال من ما،أي :حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة نهاية الصواب ﴿ فما تغن النذر ﴾ ما استفهامية أي أيُّ شيء أو أيُّ إغناء تغني النذر ؟ وتحصله وتكسبه ؟ أو نافية،أي :لم تغن النذر شيئاً ولم تنفع فيهم والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة ، ولا ترسم الياء هنا بعد النون اتباعاً لرسم المصحف ، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر ، أي الأمور المنذرة لهم كأحوال الأمم السابقة وما بلغ إليهم من العذاب الذي بلغ قريشاً وتسامعوا به أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر .

ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم فقال : ﴿ فتول عنهم ﴾ أي أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار ، وهي منسوخة بآية السيف ، قاله

أكثر المفسرين وقال الرازي : إن قولهم بالنسخ ليس بشيء بل المراد منها لا تناظرهم بالكلام ، ذكره الخطيب .

﴿ يوم ﴾ اذكر يوم ﴿ يدع الداع ﴾ وإليه ذهب الرماني والزمخشري وفيه وجوه هذا أقربها،وسقطت الواو من يدع إتباعاً للفظ ، وقد وقعت في الرسم هكذا وحذفت الياء من الداع مبالغة في التخفيف واكتفاء بالكسرة،والداعي هو إسرافيل ، وقيل : جبريل والأول أولى ﴿ إلى شيء نكر ﴾ أي: أمر فظيع ينكرونه استعظاماً له ، لعدم تقدم العهد لهم بمثله وهو هول يوم القيامة ، وقيل : هو الحساب ، قرأ الجمهور نكر بضم الكاف ، وقرىء بسكونها تخفيفاً ، وقرىء بكسر الكاف ، وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول .

﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ قرأ الجمهور : خشعاً ، جمع خاشع ، وقرىء خاشعاً على الإفراد ، وقرأ ابن مسعود : خاشعة ، قال الفراء : الصفة إذا تقدمت على الجماعة جاز فيها التذكير والتأنيث ، والجمع ، يعني جمع التكسير لا جمع السلامة لأنه يكون من الجمع بين الفاعلين ، والخشوع في البصر الخضوع والذلة وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن العز والذل يتبين فيها ، ويظهر أكثر من ظهوره على بقية البدن .

﴿ يخرجون ﴾ أي الناس مطلقاً مؤمنهم وكافرهم ﴿ من الأجداث ﴾ واحدها جدث وهو القبر ﴿ كأنهم ﴾ لكثرتهم وتموجهم واختلاط بعضهم ببعض ﴿ جراد منتشر ﴾ أي منبث : في الأقطار ، مختلط بعضه ببعض في الأماكن لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ الإهطاع الإسراع في المشي ، أي حال كونهم مسرعين إلى الداعي ، وهو إسرافيل وقال الضحاك : مقبلين ، وقال قتادة : عامدين ، وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة وغيره ، وقال ابن عباس : ناظرين إليه بأبصارهم لا يقلعون ، وقيل : مادي أعناقهم إليه .

﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ أي صعب شديد على الكافرين كما

في المدثر : ﴿ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ وفي إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين ، ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدم من الأنباء المجملة فقال : ﴿ كذبت قبلهم ﴾ أي: قبل قريش ﴿ قوم نوح ﴾ أي كذبوا نبيهم وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ تفصيل بعد إجمال ، وتفسير لما قبله من التكذيب المبهم ، وفيه مزيد تقرير وتأكيد أي فكذبوا نوحاً والفاء على هذا تفصيلية فإن التفصيل يكون عقب الإجمال ، وقيل معناه كذبوه تكذيباً بعد تكذيب كلما مضى منهم قرن مكذب ، تبعه قرن مكذب والفاء حينئذ للتعقيب ، والمكذب الثاني غير الأول ، وإن اتحد المكذب أو كذبوه بعدما كذبوا جميع الرسل والفاء على هذا للتسبب،وإنما لم يرتض القاضي هذين الوجهين ، وإن جرى في الكشاف عليهما ، لأن الظاهر هو الاتحاد في كليهما .

ثم بين سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرد التكذيب فقال : ﴿ وقالوا مجنون ﴾ أي نسبوا نوحاً إلى الجنون ﴿ وازدجر ﴾ معطوف على قالوا ، أي وزجر عن دعوى النبوة ، وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر ، وقيل : إنه معطوف على مجنون ، أي: وقالوا : إنه ازدجرته الجن وتخبطته ، وذهبت بلبه ، والأول أولى ، قال مجاهد : هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر وزجر بالسب ، وأنواع الأذى ، قال الرازي : وهذا أصح لأن المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه .

﴿ فدعا ﴾ نوح ﴿ ربه ﴾ على قومه : ﴿ أني ﴾ أي بأني ، وقرىء بكسر الهمزة إما على إضمار القول ، أي فقال : إني ، وإما إجراء للدعاء مجرى القول ، وهو مذهب الكوفيين ﴿ مغلوب ﴾ من جهة قومي ، لتمردهم عن الطاعة ، وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة ، وذلك بعد صبره عليهم غاية الصبر حيث مكث ألف سنة إلا خمسين عاماً يعالجهم ، فلم يفد فيهم شيئاً ولما يئس

عن إجابتهم وعلم تمردهم وعتوهم ، وإصرارهم على ضلالتهم ، طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم فقال : ﴿ فانتصر ﴾ أي: انتقم لي منهم ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال :

﴿ ففتحنا ﴾ مخففاً ومشدذاً ، وهما سبعيتان ﴿ أبواب السماء ﴾ أي كلها في جميع الأقطار ، وهو على ظاهره ، وللسماء أبواب تفتح وتغلق ، ولا يستبعد ذلك لأنه قد صح في الحديث أن للسماء أبواباً،وقيل هو على الاستعارة فإن الظاهر أن يكون المطر من السحاب ، والأول أولى ﴿ بماء ﴾ الباء للتعدية على المبالغة ، حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها ، كما تقول : فتحت بالمفتاح ﴿ منهمر ﴾ غزير ، نازل بقوة ، أي منصباً انصباباً شديداً في كثرة وتتابع ، لم ينقطع أربعين يوماً ، والهمر : الصب بكثرة يقال : همر الماء والدمع يهمر همراً وهموراً إذا كثر .

﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيونـاً متفجرة . وهو أبلغ من قولك : فجرنا عيون الأرض ، قرأ الجمهور : فجرنا بالتشديد ، وقرىء بالتخفيف ، قال عبيد بن عمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون وسالت بالمياه ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ وقرىء الماءآن وقرأ علي ومحمد بن كعب : الماوان أي التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم ، أي كائناً على حال قدرها الله ، وقضى بها في اللوح المحفوظ أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ، قيل : كان ماء السماء أكثر وقيل : بالعكس .

وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء ، قال قتادة : قدر لهم إذ كفروا أن يغرقوا قال ابن عباس : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ، ولا بعده إلا من السحاب ، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماءآن .

وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا
نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ
﴿٢٧﴾

﴿ وحملناه ﴾ أي:نوحاً ﴿ على ﴾ سفينة ﴿ ذات ألواح ﴾ وهي الأخشاب العريضة ﴿ ودسر ﴾ قال الزجاج : هي المسامير التي تشد بها الألواح واحدها دسار ، وكل شيء أدخل في شيء يشده فهو دسر ، وكذا قال قتادة ومحمد ابن كعب وابن زيد وسعيد بن جبير وغيرهم ، وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : الدسر ظهر السفينة التي يضربها الموج ، سميت بذلك لأنها تدسر الماء ، أي تدفعه ، والدسر الدفع ، وقال الليث : الدسار خيط يشد به ألواح السفينة .

قال في الصحاح : الدسار واحد الدسر ، وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة ويقال : هي المسامير وقيل : صدر السفينة وقيل : عوارضها وأضلاعها وقيل : الألواح جانبا السفينة ، والدسر أصلها ، وقيل أصلها وطرفاها قال ابن عباس : الألواح ألواح السفينة ، والدسر معاريضها التي تشد بها السفينة وقال أيضاً : المسامير وقال أيضاً : « الدسر كلكل السفينة ، وقال مجاهد : نطق السفينة وعنه أيضاً أضلاع السفينة .

﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بمنظر ومرأى منا ، وحفظ مالها ، كما في قوله :

واصنع الفلك بأعيننا ، وقيل : بأمرنا ، وقيل : بوحينا ، وقيل : بالأعين النابعة من الأرض ، وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها والأول أولى ﴿ جزاء ﴾ قال الفراء : فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم : ثواباً ، فالنصب على العلة ، وقيل : أي أغرقوا انتصاراً ، وهو تفسير للمعنى ، وقيل : جازيناهم جزاء .

﴿ لمن كان كفر ﴾ به ، وجحد أمره ، وهو نوح عليه السلام ، فإنه كان لهم نعمة كفروها ، إذ كل نبي نعمة على أمته ، قرأ الجمهور كفر مبنياً للمفعول والمراد به نوح ، وقيل : هو الله سبحانه ، فإنهم كفروا به ، وجحدوا نعمته وقرىء كفر بفتح الكاف والفاء مبنياً للفاعل ، أي جزاء وعقاباً لمن كفر بالله .

﴿ ولقد تركناها ﴾ أي السفينة ﴿ آية ﴾ عبرة للمعتبرين قال قتادة : أبقاها الله بأرض الجزيرة ، وقيل على الجودي زماناً مديداً ، ودهراً طويلاً حتى نظر إليها ورآها أوائل هذه الأمة ، أو أبقينا خبرها ، أو أبقينا جنس السفن أو تركنا بمعنى جعلنا ، وقيل : المعنى تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة وموعظة لمن يعتبر ويتعظ بها .

﴿ فهل من مدكر ؟ ﴾ أصله مذتكر ، فأبدلت التاء ذالاً ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربها ، وأدغمت الدال في الدال ، والمعنى هل من متعظ ومعتبر ؟ يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها ؟ فيترك المعصية ، ويختار الطاعة ، ثم إنه تعالى لما أجاب دعوة نوح بأن أغرقهم أجمعين ، قال : استعظاماً لذلك العقاب وإبعاداً لمشركي مكة : ﴿ فكيف كان عذابي ؟ ﴾ الذي عذبتهم به ﴿ و ﴾ كيف كان عاقبة ﴿ نذر ؟ ﴾ أي: إنذاري قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران ، والإستفهام للتهويل والتعجيب ، أي كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف ، وقيل : نذر جمع نذير ونذير بمعنى الانذار كنكير بمعنى الانكار .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ أي سهلناه للإدكار والإتعاظ ، بأن وشحناه بأنواع المواعظ والعبر الشافية ، وصرفنا فيه من الوعد والوعيد ، يحفظه الصغير والكبير ، والعربي والعجمي وغيرهم ، قال ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله .

وأخرج الديلمي . عن أنس مرفوعاً مثله ، وقال سعيد بن جبير : يسرناه للحفظ والقراءة ، وليس شيء من كتب الله يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ، والجملة قسمية وردت في آخر القصص الأربع ، تقريراً لمضمون ما سبق ، وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار فيها ، كافية في الازدجار ، ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار ، أي : وتالله لقد سهلنا القرآن لقومك ، بأن أنزلناه على لغتهم .

﴿ فهل من مذكر ؟ ﴾ أي متعظ بمواعظه ، ومعتبر لعبره ، وطالب لحفظه ، فيعان عليه ، وقارىء يقرأه ، وطالب علم وخير ، وقال ابن عباس : هل من متذكر ؟ كرر هذا في هذه السورة للتنبيه والإفهام ، وقيل : إن الله تعالى اقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم ، وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين ، فكان في كل قصة ونبأ ذكر للمستمع أن لو تذكر ، وإنما كرر هذه الآية عند كل قصة بقوله : فهل من مذكر ؟ لأن هل كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم ، وجعلها حجة عليهم ، فاللام من هل للإستعراض ، والهاء للإستخراج ، وفي الآية الحث على درس القرآن ، والإستكثار من تلاوته ، والمسارعة في تعلمه .

﴿ كذبت عاد ﴾ هم قوم هود ، ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له مسارعة إلى بيان ما نزل بهم من العذاب ، ولم يقل : فكذبوا هوداً كما قال في قصة نوح ، فكذبوا عبدنا ، لأن تكذيب قوم نوح أبلغ لطول مقامه فيهم ، وكثرة

عنادهم ، وإما لأن قصة عاد ذكرت مختصرة ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ أي فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابي لهم ؟ وإنذاري إياهم ؟ ونذر مصدر بمعنى إنذار كما تقدم ، والاستفهام للتهويل والتعظيم ، والغرض بهذا توجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره .

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة لما أجمله سابقاً من العذاب ، والصرصر شدة البرد ، أي:ريح شديدة البرد ، وقيل : الصرصر شدة الصوت ، وقد تقدم بيانه في حـمٓ السجدة . قال ابن عباس : ريحاً صرصراً أي باردة ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ أي:دائم الشؤم إلى الأبد ، استمر عليهم بنحوسة ، واستمر فيه العذاب إلى الهلاك ، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم ، قال الزجاج : أي بيوم الأربعاء في آخر الشهر ، أي شهر شوال لثمان بقين منه ، واستمر إلى غروب الشمس ، قال الخطيب : وقد قال في سورة الحاقة : سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، وفي حمٓ السجـدة في أيام نحسات ، فالمراد باليوم هنا الوقت والزمان انتهى .

قال الضحاك : كان ذلك اليوم مراً عليهم ، وكذا حكى الكسائي عن قوم أنهم قالوا : هو من المرارة كالشيء المر ، تكرهه النفوس ، وقيل : هو من المرة بمعنى القوة ، أي في يوم قوي الشؤم مستحكمه . كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه ، والظاهر أنه من الاستمرار لا من المرارة،ولا من المرة أي دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم ، وشمل إهلاكه كبيرهم وصغيرهم ، وقيل : استمر بهم إلى نار جهنم ، قال ابن عباس : في أيام شداد ، « عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » ، أخرجه ابن المنذر وابن مردويه ، وأخرجه هو عنه من وجه آخر[1] مرفوعاً .

---

(١) قلت : قال شيخ الإسلام الشوكاني : قال الصنعاني : موضـوع ، وكذا قـال ابن الجوزي ، ورواه الخطيب وفي اسناده كذاب ، ورواه ابن مردويه ، وفي اسناده متروك وأما حديث ابن عباس فقد قال الحافظ ابن حجر : هذا كذب على ابن عباس ، لا تحل روايته ؟. المطيعي .

« وعن علي أيضاً مرفوعاً وعن أنس أيضاً مرفوعاً وفيه قيل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : أغرق الله فيه فرعون وقومه ، وأهلك فيه عاداً وثمود » ، وأخرج ابن مردويه والخطيب بسند قال السيوطي : ضعيف .

« عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر » . قرأ الجمهور بإضافة بوم إلى نحس مع سكون الحاء وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة أو على تقدير مضاف ، أي في يوم عذاب نحس ، وقرىء بتنوين يوم على أن نحس صفة له ، وقرىء بكسر الحاء .

﴿ تنزع الناس ﴾ أوقع الظاهر موضع المضمر ليعم ذكورهم وإناثهم وإلا فالأصل : تنزعهم أي تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها . قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض فترمي بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم ، وتبين رؤوسهم من أجسادهم ، وقيل : تنزع الناس من البيوت ، وقيل : من قبورهم ، لأنهم حفروا حفائر ، ودخلوها . روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر ، وتمسك بعضهم ببعض ، فنزعتهم الريح منها ، وصرعتهم موتى .

﴿ كأنهم ﴾ وحالهم ما ذكر ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ الأعجاز جمع عجز ، وهو مؤخر كل شيء ، وعن ابن عباس قال : أصول النخل ، وعنه أعجاز سواد النخل ، والمنقعر المنقطع المنقلع من أصله ، يقال : قعرت النخلة إذا قطعتها من أصلها حتى تسقط ، شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليس لها رؤوس وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً ثم كبتهم على وجوههم ، وهذا ما جرى عليه الزجاج وغيره ، وفيه إشارة إلى قوتهم وثباتهم في الأرض بأجسامهم ، فكأنهم لعظم أجسامهم وكمال قوتهم ، يقصدون مقاومة الريح لما صرعتهم وألقتهم على الأرض ، فكأنها أقلعت أعجاز نخل منقعر ، وتذكير منقعر مع

أنه صفة لأعجاز نخل وهي مؤنثة اعتباراً باللفظ ، ويجوز تأنيثه اعتباراً بالمعنى ، كما قال : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ قال المبرد : كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً أو إلى المعنى تأنيثاً ، وقيل : إن النخل والنخيل يذكر ويؤنث .

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ أي إنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله ، أو إنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدهم ، كرر للتهويل ، وقال أبو السعود : تهويل لهما وتعجيب من أمرهما ، بعد بيانهما ، فليس فيه شائبة تكرار كما قيل : وما قيل من أن الأول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة يرده ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه وآكده ، حيث يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم ، لما ذكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه ببيان تكذيب ثمود فقال : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ جمع نذير ، أي كذبت بالرسل المرسلين ، أو مصدر بمعنى الإنذار أي كذبت بالإنذار الذي أنذروا به ، وإنما كان تكذيبهم لرسولهم وهو صالح تكذيباً للرسل ، لأن من كذب واحداً من الأنبياء فقد كذب سائرهم لاتفاقهم في الدعوة إلى كليات الشرائع .

﴿ فقالوا : أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ ﴾ الإستفهام للإنكار ، أي كيف نتبع بشراً كائناً من جنسنا منفرداً وحده ؟ لا متابع له على ما يدعو إليه ؟ قرأ الجمهور بنصب بشراً على الاشتغال ، أي أنتبع بشراً واحداً منا ؟ وهو الراجح لنقدم أداة ، هي بالفعل أولى ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، وواحد صفته ، ونتبعه خبره ؛ وقرىء برفع بشر ، ونصب واحد على الحال ﴿ إنا إذاً لفي ضلال ﴾ أي إنا إذا اتبعناه لفي خطأ وذهاب عن الحق والصواب ﴿ وسعر ﴾ أي عذاب وعناء وشدة ، كذا قال الفراء وغيره ، وقال أبو عبيدة : وهو جمع

سعير ، وهو لهب النار ، والسعر الجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدة ، وقال مجاهد : سعر بعد عن الحق ، وقال السدي في احتراق ، وقيل : المراد به هنا الجنون من قولهم : ناقة مسعورة أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، وقال ابن عباس : في شقاء ثم كرروا الإنكار والاستبعاد فقالوا :

﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا ؟ ﴾ أي كيف خص من بيننا بالوحي والنبوة ؟ وفينا من هو أحق بذلك منه ، ثم اضربوا عن الانكار ، وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذاباً أشراً فقالوا : ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ الأشر المرح والنشاط ، أو البطر والتكبر،وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام ، قرأ الجمهور أشر كفرح ، صفة مشبهة وعلى أنه أفعل التفضيل ، وقرىء بضم الشين وفتح الهمزة ، ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله :

﴿ سيعلمون غداً ﴾ السين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده ، والمراد بقوله غداً وقت نزول العذاب الذي حل بهم في الدنيا ، أو في يوم القيامة ، جرياً على عادة الناس في التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر ، وإن بعدكما في قولهم إن مع اليوم غداً ، والأول أولى ، قرأ الجمهور بالتحتية على أنه إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة على سبيل الالتفات ، وقرىء بالتاء على أنه خطاب من صالح لقومه .

﴿ من الكذاب الأشر ؟ ﴾ من استفهامية أي أيّ فريق هو الكذاب الأشر المتكبر البطر ، أهو هم ؟ أم صالح عليه السلام .

﴿ إنا مرسلو الناقة ﴾ مستأنفة لبيان ما تقدم إجماله من الوعيد ، ومبادي الموعود به حتماً أي إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه ، وموجدوها لهم ﴿ فتنة لهم ﴾ أي ابتلاء وامتحاناً واختباراً ﴿ فارتقبهم ﴾ أي انتظر ما يصنعون ، وما يصنع بهم ﴿ واصطبر ﴾ أي اصبر على ما يصيبك من الأذى منهم ، ولا تعجل حتى يأتيك أمرنا .

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا
إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ
أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

﴿ ونبئهم ﴾ أي أخبرهم إخباراً عظيماً عن أمر عظيم وهو ﴿ أن الماء قسمة بينهم ﴾ أي بين ثمود وبين الناقة لها يوم لا تدع في البئر قطرة يأخذها أحد منهم ، ولهم يوم لا تشاركهم فيه ، كما في قوله : ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ ، وقال بينهم بضمير العقلاء تغليباً ، قرأ الجمهور قسمة بكسر القاف بمعنى مقسوم ، وقرىء بفتحها .

﴿ كل شرب ﴾ هو بكسر الشين؛ الحظ من الماء والنصيب ﴿ محتضر ﴾ أي أنه يحضره من هو له، فالناقة تحضره يوماً ، وهم يحضرونه يوماً ، قال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون ، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ أي: فتمادوا على ذلك أو فبقوا على ذلك مدة ثم ملوا من ضيق الماء والمرعى عليهم وعلى مواشيهم ، فاجمعوا على قتلها ، والفاء فصيحة تفصح أن في الكلام محذوفاً وهو ما تقدم،والمعنى نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها .

﴿ فتعاطى ﴾ التعاطي تناول الشيء بتكلف ، أي: تناول الناقة بسيفه ﴿ فعقر ﴾ أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقرها غير مكترث ، قال محمد

ابن اسحق : كمن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها ، ثم نحرها موافقة لهم ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ أي: إنـذاري لهم بالعذاب قبل نزوله ، أي:وقع موقعه وبينه بقوله : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ قال عطاء : يريد صيحة جبريل صاح بهم في اليوم الرابع من عقر الناقة ، لأنه كان في يوم الثلاثاء ونزول العذاب بهم كان في يوم السبت وقد مضى بيان هذا في سورة هود والأعراف .

﴿ فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ قرأ الجمهور بكسر الظاء ، والهشيم حطام الشجر ويابسه ، والمحتظر صاحب الحظيرة ، وهو الذي يتخذ لغنمـه حظيرة تمنعها عن برد الريح ، يقال : إحتظر على غنمه إذا جمع الشجر وووضع بعضه فوق بعض وقال في الصحاح : المحتظر الذي يعمل الحظيرة،أي: من يابس الشجر والشوك ، يحفظ الغنم من السباع والذئاب ، والحظيرة زريبة الغنم ونحوها ، قاله الشهاب ، وقرىء بفتح الظاء أي: كهشيم الحظيرة فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار ، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة،ومعنى الآية: أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة ، وداسته الغنم بعد سقوطه .

وقال قتادة : هو العظام النخرة المحترقة ، وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح ، وقال سفيان الثوري : هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصى ، قال ابن زيد : العرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً ، والمتهشم المتكسر ، والمحتظر الذي يعمل الحظيـرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمـان ، وتتوطأه البهـائم فيحتطم وينهشم ، وقـال ابن عباس : كحظائر من الشجر محترقة ، وكالعظام المحترقة ، وكـالحشيش تأكله الغنم .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مذكر ﴾ فائدة تكرير هذه الآية أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إذكاراً واتعاظاً وأن يستأنفوا تيقظاً وانتباهاً ، إذا سمعوا ، والحث على ذلك والبعث إليه ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان ، ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله كما كذبهم غيرهم فقال : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ أي بالأمور المنذرة لهم على لسانه ، ثم بين سبحانه ما عذبهم به فقال :

﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء ، بالمد وهي الحصى ومنه المحصب وهو موضع بالحجاز ، قال أبو عبيدة : والنضر بن شميل : الحاصب الحجارة في الريح ، قال في الصحاح : الحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء والحصب بفتحتين ما تحصب به النار ، أي ترمي، وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به ، وبابه ضرب ، وتذكيره مع كونه مسنداً إلى ضمير الريح ـ وهي مؤنث ـ سماعي ، لكونها في تأويل العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة ﴾ ، وكذا قوله : ﴿ لنرسل عليهم حجارة ﴾ ، يدلان على أن الذي أرسل عليهم نفس الحجارة لا الريح التي تحصبها إلا أنه قيل ههنا : ﴿ أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ للدلالة على أن إمطار الحجارة وإرسالها عليهم كان بواسطة إرسال الريح لها .

﴿ إلا آل لوط ﴾ يعني لوطاً وابنتيه ومن تبعه ، وفي الإستثناء وجهان :

أحدهما : أنه متصل ، أي أرسل الحاصب على الجميع، إلا أهله فإنه لم يرسل عليهم .

والثاني : أنه منقطع ، وبه قال أبو البقاء ، ولا أدري ما وجهه ، فإن الانقطاع وعدمه عبارة عن عدم دخول المستثنى في المستثنى منه ، ودخوله فيه ،

وهذا داخل ليس إلا ، وهو كلام مشكل .

﴿ نجيناهم بسحر ﴾ أي آخر الليل ، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار ، فيكون فيه مخائل الليل ومخائل النهار ، وقيل : هما سحران الأعلى قبل انصداع الفجر ، والآخر عند انصداعه ، وانصرف سحر لأنه نكرة لم يقصد به سحر ليلة معينة ، ويوم معين ، ولو قصد معيناً لامتنع كذا قال الزجاج والأخفش وغيرهما ، والباء بمعنى في ، أو هي للملابسة أي حال كونهم متلبسين بسحر .

﴿ نعمة من عندنا ﴾ النصب على العلة،أو على المصدرية،أي:إنعاماً منا على لوط ومن تبعه ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نجزي من شكر ﴾ نعمتنا ولم يكفرها مع أصل الإيمان ، أو من ضم إلى الإيمان عمل الطاعات .

﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا ﴾ أي:أنذر لوط قومه بطشة الله بهم ، وهي عذابه الشديد وعقوبته البالغة ﴿ فتماروا بالنذر ﴾ أي شكوا في الإنذار ، ولم يصدقوه ، وهو تفاعلوا من المرية وهي الشك ، أو تجادلوا وكذبوا بإنذاره .

﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ أي أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ، ليفجروا بهم ، كما هو دأبهم ، يقال : راودته عن كذا مراودة ، ورواداً أي:أردته ، وراد الكلام يروده رواداً أي:طلبه المرة بعد المرة ، فالمعنى طلبوه المرة بعد المرة أن يخلي بينهم وبينهم ، وقد تقدم تفسير المراودة في سورة هود ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ الطموس الدرس والانمحاء ، قاله في المختار : أي صيرناها ممسوحة ، لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب ، وقيل : أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها ، قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل فرجعوا .

﴿ فذوقوا ﴾ أي فقلنا لهم : ذوقوا على ألسنة الملائكة ، أو ظاهر الحال والمراد بهذا الأمر الخبر ، أي أذقتهم ﴿ عذابي ونذر ﴾ يعني ما أنذركم به لوط من العذاب ﴿ لقد صبحهم بكرة ﴾ أي أتاهم صباحاً من يوم غير معين ﴿ عذاب ﴾ نازل عليهم ﴿ مستقر ﴾ دائم لا يفارقهم ، ولا ينفك عنهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة .

﴿ فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ ﴾ ولعل وجه تكرير تيسير القرآن بالذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منّة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها ، ولأن في كل قصة إشهاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب ، وآستماع كل قصة مستدع للإدكار والإتعاظ ، وهذا حكم التكرير في قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ عند كل نعمة عدها ، وقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ عند كل آية أوردها ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان .

﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ جمع نذير أو مصدر بمعنى الإنذار كما تقدم ، وهي الآيات التسع التي أنذرهم بها موسى ، وهذا أولى ، لقوله : ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ فإنه بيان لذلك ، والمراد بها الآيات التسع التي تقدم ذكرها ، وقيل : النذر موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء ﴿ فأخذناهم ﴾ بالعذاب ﴿ أخذ عزيز مقتدر ﴾ أي أخذ غالب في آنتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه شيء،ثم خوف سبحانه كفار مكة فقال :

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

﴿ أكفاركم خير من أولئكم ؟ ﴾ الإستفهام للإنكار ، والمعنى النفي ، أي ليس كفاركم يا أهل مكة ، أو يا معشر العرب ، خير من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب الكفر ، فكيف تطمعون في السلامة من العذاب ، وأنتم شر منهم ؟ قال ابن عباس : يقول : ليس كفاركم خيراً من قوم نوح ، وقوم لوط ، وقيل : من قوم عاد وثمود ، وفرعون وقومه ، ثم أضرب سبحانه عن ذلك ، وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر ، هو أشد من التبكيت بالوجه الأول فقال :

﴿ أم لكم براءة في الزبر ؟ ﴾ هي الكتب المنزلة على الأنبياء ، والمعنى إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله ، في شيء من كتب الأنبياء ، ثم أضرب عن هذا التبكيت ، وانتقل إلى التبكيت لهم بوجه آخر فقال : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ ﴾ أي جماعة لا نطاق لكثرة عددنا وقوتنا ، أو أمرنا مجتمع لا نغلب ، وأفرد منتصر اعتباراً بلفظ جميع وموافقة لرؤوس الآي ، أو المعنى نحن كل واحد منا منتصر قال الكلبي : المعنى نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا ، ولا نرام ولا نضام ، فرد الله سبحانه عليهم بقوله :

﴿ سيهزم الجمع ﴾ أي جمع كفار مكة أو كفار العرب على العموم ؛ قرأ

الجمهور بالتحتية مبنياً للمفعول ؛ وقرىء بالنون وكسر الزاي ونصب الجمع ، وقرىء بالتحتية مبنياً للفاعل ، وبالفوقية على الخطاب مبنياً للفاعل ﴿ ويولون الدبر ﴾ قرأ الجمهور بالتحتية ، وقرىء بالفوقية على الخطاب ، والمراد بالدبر الجنس ، وهو في معنى الإدبار ، وقيل : وحد لأجل رؤوس الآي ، وقيل : في الإفراد إشارة إلى أنهم في التولية والهزيمة كنفس واحدة فلا يتخلف أحد عن الهزيمة ، ولا يثبت أحد للزحف ، فهم في ذلك كرجل واحد وقد هزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار وقتل رؤوساء الشرك ، وأساطين الكفر فلله الحمد وهذه من علامات النبوة ، قال ابن عباس : كان ذلك يوم بدر ، قالوا : نحن جميع منتصر ، فنزلت هذه الآية .

﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ أي موعد عذابهم الأخروي بعد بدر ، وليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر هو تمام ما وعدوا به من العذاب وإنما هو مقدمة من مقدماته ، وطليعة من طلائعه . ولهذا قال :

﴿ والساعة أدهى ﴾ أي وعذاب الساعة أعظم في الضر ، وأفظع وأشد من موقف بدر ، يقال : دهاه أمر كذا أي أصابه دهواً ودهياً ؛ والداهية الأمر المنكر الذي لا يهتدي لدوائه،مأخوذ من الدهاء وهو النكر والفظاعة وإظهار الساعة في مقام إضمارها لزيادة تهويلها .

﴿ وأمر ﴾ أي أشد مرارة من عذاب الدنيا .

في البخاري وغيره . عن « ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : وهو في قبة له يوم بدر : أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ؛ فخرج وهو يثب في الدرع ويقول : ﴿ سيهزم ﴾ إلى قوله : ﴿ أدهى وأمر ﴾ » .

﴿ إن المجرمين ﴾ أي المشركين ﴿ في ضلال وسعر ﴾ أي في ذهاب عن الحق وبعد عنه ، وفي نار تسعر عليهم ، وقيل ؛ في ضلال في الدنيا ، وفي نار مسعرة في الآخرة ، وقيل : في ضلال عن طريق الجنة ، وسعر أي عذاب

الآخرة ، أو في هلاك ونيران في الآخرة ، وقد تقدم في هذه السورة تفسير سعر فلا نعيده .

﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ أي كائنون في ضلال وسعر يـوم يسحبون أو يوم يسحبون يقال لهم : ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ أي :قاسوا حرّها ، وشدة عذابها كقولهم : وجد مس الحمى ، وذاق طعم الضرب ، قال الكرخي : إن مس سقر مجاز عن إصابتها بعلاقة السببية والظاهر من تقرير **الكشاف** أنه من الاستعارة بالكناية ، وسقر علم لجهنم غير منصرف للتأنيث والتعريف من سقرته النار إذا لوحته ، أخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن ماجة وغيرهم .

عن « أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر فنزلت ﴿ يوم يسحبون ﴾ الخ » .

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ أي :كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبساً بقدر قدره ، وقضاء قضاه ، سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، والقدر التقدير ، والعامة على نصب كل بـالاشتغال، وقرىء بالرفع وقد رجح الناس النصب بل أوجبه بعضهم ، قال : لأن الرفع يوهم ما لا يجوز على قواعد أهل السنة،وقال أبو البقاء : وإنما كان النصب أولى لدلالته على عموم الخلق،والرفع لا يدل على عمومه . بل يفيد أن كل شيء مخلوق فهو بقدر،وإنما دل نصب كل على العموم ، لأن التقدير : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، فخلقناه تأكيد،وتفسير لخلقنا المضمر الناصب لكل شيء فهذا لفظ عام يعم جميع المخلوقات ، وللسمين هنا كلام مبسوط لا نطول بذكره .

أخرج مسلم :

عن « ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » ، وعن « عبد الله بن عمرو بن العـاص قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة »[١] . أخرجه مسلم .

وعن « جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمر أحدكم حتى يؤمن بالقدر » ، أخرجه الترمذي واستغربه وفي الباب أحاديث بين صحيح منها وضعيف ، قال الخطابي : وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله العبد ، وقهره على ما قدره وقضاه،وليس الأمر كما يتوهمونه وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أكساب العباد ، وصدورها عن تقدير منه ، وخلق لها خيرها وشرها ؛ والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر ، يقال قدرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيل بمعنى واحد والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ أي خلقهن .

قال النووي : إن مذهب أهل الحق إثبات القدر ، ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم،وعلم سبحانه أنهاستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه على صفات مخصوصة،فهي تقع على حسب ما قدرها الله ، وأنكرت القدرية هذا ، وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها ، ولم يتقدم علمه بها ، وأنها مستأنفة العلم ، أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها ، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً انتهى .

وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، وأهل العقد والحل من السلف والخلف ، على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى ، وقد قرر ذلك أئمة السنة أحسن تقرير ، بدلائله القطعية ، السمعية والعقلية ، ليس هذا موضع بسطه ، والله تعالى أعلم .

﴿ وما أمرنا ﴾ لشيء نريد وجوده ﴿ إلا واحدة ﴾ أي إلا مرة واحدة ،

---

(١) رواه مسلم .

أو فعلة واحدة ، وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة ، أو كلمة واحدة ، وهي قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ ، فهنا بان الفرق بين الإرادة والقول ، فالإرادة قدر والقول قضاء ، وقيل : المراد بالأمر القيامة ﴿ كلمح بالبصر ﴾ في سرعته ، واللمح النظر على العجلة والسرعة،وفي الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والإسم اللمحة ، أي فكما أن لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه ، فكذلك الأفعال كلها عندنا ، بل أيسر،قال الكلبي : وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر .

﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم ، وقيل أتباعكم وأعوانكم ، والقدرة عليكم كالقدرة عليهم ، فأحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، ولذلك تسبب عنه قوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ يتذكر ويتعظ بالمواعظ ويعلم أن ذلك حق فيخاف العقوبة ، وأن يحل به ما حل بالأمم السالفة .

﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ أي جميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ ، وقيل : في كتب الحفظة ودواوينهم ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ يقال : سطر يسطر سطراً كتب ، وأسطر مثله ، أي كل شيء من أعمال الخلق ، أقوالهم وأفعالهم وما هو كائن ، مسطور في اللوح المحفوظ صغيره وكبيره ، وجليله وحقيره ، قال ابن عمر ؛ مسطور في الكتاب ، ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ، ذكر حال السعداء فقال :

﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ أريد به الجنس ، لمناسبة جمع الجنات ، وإنما أفرد في اللفظ لموافقة رؤوس الآي ، وبه قرأ الجمهور ، وهو يشمل أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل . وقرىء بسكون الهاء ، وهما لغتان وقرىء بضم النون والهاء على الجمع شاذاً والمعنى أنهم في بساتين مختلفة وجنان متنوعة ، وأنهار متدفقة ، وقيل : النهر السعة والضياء ، ومنه النهار . والمعنى لا ليل عندهم ، والأول أولى .

﴿ في مقعد صدق ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي في مجلس حق ، ومكان مرضى لا لغو فيه ولا كذب ولا تأثيم وهو الجنة ، وأريد به الجنس ، وقرىء مقاعد شاذاً ﴿ عند مليك ﴾ أي عزيز الملك واسعه ﴿ مقتدر ﴾ أي قادر على ما يشاء لا يعجزه شيء ، وعند ههنا كناية عن الكرامة ، وشرف المنزلة ، وتقريب الرتبة ، بحيث أبهم على ذوي الأفهام ، وفائدة التنكير فيهما أن يعلم أن لا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته ، وهو على كل شيء قدير .

سورة الرحمن

هي ست أو ثمان وسبعون آية وهي مكية

قال القرطبي: كلها في قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر. قال ابن عباس: الا آية منها. وهي قوله: ﴿ يسأله من في السموات والارض ﴾ الآية وصوابه الا آيتين كما صرح به الكازروني .والآيتان هما: ﴿ يسأله ﴾ الى قوله: ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾. هذه واحدة. ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ هذه أخرى. وقال ابن مسعود ومقاتل: هي مدنية كلها. والاول اصح. قال ابن الزبير: أنزلت بمكة. وعن عائشة نزلت بمكة وعن ابن عباس مثله. «وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو يصلي نحو الركن، قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يسمعون: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾[1]. أخرجه أحمد وابن مردويه .قال السيوطي: بسند حسن. وعن ابن عباس: نزلت سورة الرحمن بالمدينة. ويمكن الجمع بين القولين بأنه نزل بعضها بمكة، وبعضها بالمدينة.

«وعن جابر بن عبدالله قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها الى آخرها فسكتوا، فقال: مالي أراكم سكوتا؟ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن،

---

(١) رواه أحمد.

فكانوا أحسن مردودا منكم، كلما أتيت على قوله: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾؟ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»، رواه الترمذي وابن المنذر والحاكم، وصححه والبيهقي، قال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد وحكي عن الإمام أحمد أنه كان يستنكر روايته عن زهير، وقال البزار: لا نعرفه يروي إلا من هذا الوجه، أخرجه البزار وابن جرير والدارقطني في الأفراد وغيرهم من حديث ابن عمر، وصحح السيوطي اسناده، وقال البزار: لا نعلمه يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

«وعن علي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل شيء عروس وعروس القرآن الرحمن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾
ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا
تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ
ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾
خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن
نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾

﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ وما بعده من الأفعال خبر له، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ؛ أي : الله الرحمن، أو مبتدأ : خبره محذوف ، أي : الرحمن ربنا : وهذان الوجهان عند من يرى أن الرحمن آية مع هذا المضمر وعلى الوجه الأول ليس بآية :

﴿ علم القرآن ﴾ أي : يسره للذكر ، ليحفظ ويتلى ، قاله الزجاج قال الكلبي : علم القرآن محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلمه محمد صلى الله عليه وسلم أمته ، وقيل : علم جبريل القرآن ، وقيل : علم الانسان ، وهذا أولى لعمومه ، ولأن قوله : خلق الإنسان دال عليه، وقيل : جعله علامة لما يعبد الناس به ، وآية يعتبر بها ، قيل : نزلت هذه الآية جواباً لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلمه بشر . وقيل : جواباً لقولهم ، وما الرحمن ؟ ولما كانت هذه السورة لتعديد نعمه التي أنعم بها على عباده ، قدم النعمة التي هي أجلها قدراً ، وأكثرها نفعاً ، وأعلاها رتبة ، وأتمها فائدة وأعظمها عائدة ، وهي نعمة تعليم القرآن العزيز ، فإنها مدار سعادة الدارين ، وقطب رحى الخيرين ، وعماد الأمرين ، وسنام الكتب السماوية . المنزل على أفضل البرية .

ثم امتن بعد هذه النعمة ، بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور ، ومرجع جميع الأشياء فقال :

﴿ خلق الإنسان ﴾ أي آدم قاله قتادة والحسن ، وقال ابن كيسان : المراد هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والأولى حمل الإنسان على الجنس ، وقدم تعليم القرآن للإنسان على خلقه ، وهو متأخر عنه في الوجود ، لأن التعليم هو السبب في إيجاده وخلقه . أفاده السمين ، ثم امتن ثالثاً بتعليمه البيان الذي يكون به التفاهم ، ويدور عليه التخاطب ، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد ، لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر ، ولا إظهار ما يدور في الخلد إلا به ، فقال :

﴿ علمه البيان ﴾ قال قتادة والحسن : المراد بالبيان أسماء كل شيء ، وقيل المراد به اللغات كلها،فكان آدم يتكلم بسبعمائة لغة أفضلها العربية ، وقيل : الانسان اسم جنس ، وأراد به جميع الناس ، أي:علمه النطق الذي يتميز به عن سائر الحيوان ، وقيل : أراد بالانسان محمداً صلى الله عليه وسلم ، علمه بيان ما يكون وما كان لأنه صلى الله عليه وسلم ينبىء عن خير الأولين والآخرين ، وعن يوم الدين ، وقال ابن كيسان : المراد به بيان الحلال من الحرام والهدى من الضلال وهو بعيد ، وقال الضحاك : البيان الخير والشر والحدود والأحكام ، وقال الربيع ابن أنس : هو ما ينفعه مما يضره ، وقيل : البيان الكتابة بالقلم ، والأولى حمل البيان على تعليم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به :

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أي يجزيان بحساب معلوم ، مقدر في بروج ومنازل ، لا يعدوانها ولا يحيدان عنها ، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين ويتسق بذلك أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، وقال ابن زيد وابن كيسان : يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب لأن الدهر يكون كله ليلاً أو نهاراً ، قال الضحاك : معنى بحسبان بقدر ، وقال مجاهد :

بحسبان كحسبان الرحى يعني قطبهما الذي يدوران عليه قال الأخفش : ألحسبان جماعة الحساب ، مثل شهب وشهبان ، أو مصدر مفرد بمعنى الحساب كالغفران والكفران ، وأما الحسبان بالضم في سورة الكهف فهو العذاب كما مضى ، وقال ابن عباس : بحساب ومنازل يرسلان :

﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ النجم ما لا ساق له من النبات ، والشجر ما له ساق ، والمراد بسجودهما انقيادهما لأمر الله تعالى إنقياد الساجدين من المكلفين طوعاً ، وقال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء ، وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما كما في قوله : يتفيأ ظلاله ، وقال الحسن ومجاهد : المراد بالنجم نجم السماء ، وسجوده طلوعه ، ورجح هذا ابن جرير وقيل : سجوده أفوله وسجود الشجر تمكينه من الاجتناء لثماره ، قال النحاس : أصل السجود الاستسلام والانقياد لله ، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران للرحمن وترك الرابط فيهما لظهوره ، كأنه قيل : والشمس والقمر بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له .

﴿ والسماء رفعها ﴾ أي جعلها مرفوعة مسموكة فوق الأرض ﴿ ووضع الميزان ﴾ المراد به العدل . أي وضع وأثبت في الأرض العدل الذي شرعه وأمر به ، كذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم ، قال الزجاج : المعنى أنه أمرنا بالعدل ، ويدل عليه قوله : ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ أي لا تجاوزوا العدل وقال الحسن والضحاك : المراد به آلة الوزن ليتوصل بها إلى الانصاف والإنتصاف : أي لا تجوروا فيما يوزن به ، وقيل : الميزان القرآن ، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وبه قال الحسين ابن الفضل والأول أولى ، ومعنى ﴿ أن لا تطغوا ﴾ لئلا تطغوا فلا نافية ، وتطغوا منصوب بأن وقبلها لام العلة مقدرة ، وهذا أولى .

وقيل : أن هي مفسرة ، لأن في الوضع معنى القول ، ولا للنهي والطغيان مجاوزة الحد ، فمن قال : الميزان العدل قال : طغيانه الجور ، ومن قال الميزان الآلة التي يوزن بها قال : طغيانه البخس ، وقيل : الميزان كل ما

توزن به الأشياء ، وتعرف مقاديرها ؛ من ميزان وقرسطون ومكيال ومقياس ، أي خلقه موضوعاً على الأرض ، حيث علق به أحكام عباده من التسوية والتعديل ، في أخذهم وإعطائهم ، وقيل : المعنى أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال .

ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم فقال :

﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ أي قوموا وزنكم بالعدل ، وقيل : المعنى أقيموا لسان الميزان بالعدل ، وقيل : الاقامة باليد : والقسط بالقلب ، وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية،قلت : ومنه القسطاس بمعنى الميزان . وقيل : معناه لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل .

﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أي لا تنقصوه . ولا تبخسوا الكيل والوزن وهذا كقوله : ولا تنقصوا المكيال والميزان ، وقيل : معناه لا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة ، فيكون ذلك حسرة عليكم ، والأول أولى ، وقال قتادة في هذه الآية : أعدل ابن آدم كما تحب أن يعدل لك ، وأوف كما تحب أن يوفى لك ، فإن العدل صلاح الناس ، أمر سبحانه أولاً بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة ، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس ، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله ، والحث عليه ، قرأ الجمهور : تخسروا من أخسر وقرىء بفتح التاء والسين من خسر ، وهما لغتان ، ويقال : أخسرت الميزان وخسرته . ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض فقال :

﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ أي: خفضها مدحوة ، وبسطها على الماء لجميع الخلق ، مما له روح وحياة ، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجن ، قال ابن عباس : للأنام للناس ، أي لأجل انتفاعهم بها ، وعنه قال : كل شيء فيه روح .

﴿ فيها فاكهة ﴾ أي :كل ما يتفكه به الإنسان من أنواع الثمار والجملة

حال مقدرة ، والأحسن أن يكون الجار والمجرور هو الحال ، وفاكهة رفعت بالفاعلية ، ونكرت ، لأن الإنتفاع بها دون الإنتفاع بما ذكر بعدها ، فهو من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ثم أفرد النخل بالذكر لشرفه ، ومزيد فائدته على سائر الفواكه ، فقال :

﴿ والنخل ﴾ المعهود ﴿ ذات الأكمام ﴾ جمع كم بالكسر ، وهو وعاء الثمر قال الجوهري : والكم بالكسر والكمامة وعاء الطلع ، وغطاء النور والجمع كمام ، وأكمة وأكمام وأكاميم ، والكم ما ستر شيئاً ، ومنه كم القميص بالضم والجمع كمام وكمة والكمة القلنسوة المدورة لأنها تغطي الرأس ، قال الحسن : ذات الأكمام أي : ذات الليف ، فإن النخلة تكم بالليف ، وكمامها ليفها الذي في أعناقها وسعفها وكفرها ، وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه ، وقال ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق ، وقال عكرمة : ذات الأحمال ، وقال ابن عباس : أوعية الطلع .

﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ ألحب هو جميع ما يقتات من الحبوب ، كالحنطة والشعير والذرة والأرز والعصف . قال السدي والفراء : هو بقل الزرع ، وهو أول ما ينبت منه . قال ابن كيسان : يبدو أولاً ورقاً ، وهو العصف ، ثم يبدو له ساق ، ثم يحدث الله فيه أكماماً ، ثم يحدث في الأكمام الحب ، قال الفراء : والعرب تقول : خرجنا نعصف الزرع ، إذا قطعوا منه قبل أن يدرك ، وكذا قال في الصحاح ، وقال الحسن : العصف التبن ، وقال مجاهد : هو ورق الشجر والزرع . وقيل هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه وييبس ، ومنه قوله : كعصف مأكول ، وقيل : هو الزرع الكثير ، يقال : قد أعصف الزرع ، ومكان معصف ، أي كثير الزرع . قال ابن عباس : العصف التبن ، والريحان خضرة الزرع ، وقال : العصف ورق الزرع إذا يبس والريحان ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يشم ، وعنه قال : ألعصف الزرع أول ما يخرج بقلاً ، والريحان حين يستوي على سوقه ولم يسنبل والريحان الرزق في قول الأكثر وفي لغة حمير .

وقال الحسن وقتادة والضحاك وابن زيد : إنه الريحان الذي يشم وقال سعيد بن جبير ، هو ما قام على ساق ، وقال الكلبي : إن العصف هو الورق الذي لا يؤكل ، والريحان هو الحب المأكول . وقال الفراء أيضاً : العصف المأكول من الزرع ، والريحان ما لا يؤكل ، وقيل : الريحان كل بقلة طيبة الريح ، قال ابن الأعرابي : يقال شيء ريحاني وروحاني أي له روح وقال في الصحاح الريحان نبت معروف ، والريحان الرزق ، تقول : خرجت أبتغي ريحان الله ، وقيل : العصف رزق البهائم ، والريحان رزق الناس . قال ابن عباس : كل ريحان في القرآن فهو رزق ، قرأ الجمهور : والحب ذو العصف والريحان برفع الثلاثة عطفاً على فاكهة ، وقرىء بالنصب عطفاً على الأرض ، أو على إضمار فعل ، أي وخلق الحب ذا العصف وقرىء الريحان بالجر عطفاً على العصف .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي فبأي فرد من أفراد نعم ﴿ ربكما تكذبان ؟ ﴾ أبتلك النعم المذكورة هنا ؟ أم بغيرها ؟ والمراد بالتكذيب الإنكار والخطاب للجن والإنس ، لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما ، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل ، وبهذا قال الجمهور من المفسرين ، ويدل عليه قوله فيما سيأتي : ﴿ سنفرغ لكم أيُّه الثقلان ﴾ ، ويدل على هذا ما قدمناه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها على الجن والإنس ، وقيل : الخطاب للإنس ، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية ، كما قدمنا في قوله : ألقيا في جهنم ، والآلاء النعم . قال القرطبي : وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إلى وألى مثل معى وعصا وإلى « وألى » أربع لغات حكاها النحاس ، وزاد في القاموس ألو ، وقال ابن زيد : إنها القدرة ، أي : فبأي قدرة ، وبه قال الكلبي ، وقال ابن عباس : فبأي نعمة الله وقال : يعني الجن والإنس .

وكرر سبحانه هذه الآية في هذه السورة في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة وتأكيداً للتذكير بها ، على عادة العرب في الإتساع ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق

ومعادهم ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها لأن من جملة الآلاء رفع البلاء ، وتأخير العقاب ، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما بعدد أبواب الجنة وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأولين ، أخذاً من قوله : ومن دونهما جنتان ، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها إستحق هاتين الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة ، أفاده شيخ الإسلام في متشابه القرآن .

قال القتيبي : إن الله عدد في هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، لينبههم على النعم ، ويقررهم بها ، كما تقول لمن تتابع له إحسانك وهو يكفره : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلاً فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرير حسن في مثل هذا ومنه قول الشاعر :

لا تقتلي رجلاً إن كنت مسلمة إيــاك مــن دمــه إيــاك إيــاك

ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب ، وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته من خلق الانسان وتعليمه البيان وخلق الشمس والقمر ، والسماء والأرض ، إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه ، وخاطب الجن والانس بالأشياء المذكورة ، لأنها كلها منعم بها عليهم ، قال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة ، وتأكيد للحجة ، وذهب جماعة منهم ابن قتيبة إلى أن التكرير لإختلاف النعم ، فلذلك كرر التـوقيف مع كـل واحدة .

وقال الرازي : وذكره بلفظ الخطاب على سبيل الإلتفات والمراد بـه التقرير والزجر ، وذكر لفظ الرب لأنه يشعر بالرحمـة . وكررت هذه اللفظة في هذه السورة إما للتأكيد،ولا يعقل لخصوص العدد معنى ، قـال الجلال المحلي : والإستفهام فيها للتقرير ، لما روي الحاكم . عن جابر قال : قرأ علينا

رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : ما لي أراكم سكوتاً،للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد »[1] ، قلت : ويؤخذ من هذا أنه يسن لسامع القارىء لهذه السورة أن يجيبه بالجواب المذكور ؛ كلما قرأ الآية المذكورة ، كما فعلت الجن وأقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، ولام على الصحابة في سكوتهم ، وصرح بالسنية الكازروني في تفسيره ، وصنيع أبي السعود يقتضي أن الإستفهام للتوبيخ والإنكار ، ولفظه الفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصل من فنون النعم ، وصنوف الآلاء الموجبة للشكر والإيمان حتماً والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية ، والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ ، وقرىء آلاء على أصله بالمد والتوسط والقصر في جميع هذه السورة .

ولما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير ، وهو السماء والأرض وما فيهما ، ذكر خلق العالم الصغير وقال :

﴿ خلق الإنسان ﴾ وهذا تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بواجب شكر النعم ، المتعلقة بذات كل واحد من الثقلين ، والمراد بالانسان هنا آدم . قال القرطبي بالاتفاق من أهل التأويل ، ولا يبعد أن يراد به الجنس لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم ﴿ من صلصال ﴾ أي:من طين يابس يسمع له صلصلة أي: صوت إذا نقر أي ليختبر هل فيه عيب أو لا ؟ وقيل هو طين خلط برمل وقيل : هو الطين المنتن يقال : صل اللحم وأصل ، إذا أنتن ، وقد تقدم بيانه في سورة الحجر .

﴿ كالفخار ﴾ أي الخزف الذي طبخ بالنار ، والمعنى:أنه خلق الانسان من طين يشبه من يبسه الخزف ، فإن قلت : قد اختلفت العبارات في صفة خلق الإنسان الذي هو آدم ، فقال تعالى في آل عمران : ﴿ من تراب ﴾ وقال في الحجر : ﴿ من حمإ مسنون ﴾ ، وقال في الصافات : ﴿ من طين لازب ﴾ ،

(١) رواه الحاكم .

وزاد الخازن : ﴿من ماء مهين﴾، وقال : هنا ﴿من صلصال كالفخار﴾، قلت : ليس فيها اختلاف بل المعنى متفق ، وذلك أن الله تعالى خلقه أولاً من تراب ثم جعله طيناً لازباً لما اختلط بالماء ، ثم حمأً مسنوناً ، وهو الطين الأسود المنتن ، فلما يبس صار صلصالاً كالفخار ، قال الخطيب : المذكور هنا آخر تخليقه وهو أنسب بالرحمانية وفي غيرها تارة مبدأه ، وتارة إثناؤه ، فالأرض أمه والماء أبوه ممزوجان بالهواء الحامل للحر ، الذي هو من فيح جهنم فمن التراب جسده ونفسه ومن الماء روحه وعقله،ومن النار مطلب غوايته وحدته ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه .

والغالب في جبلته التراب فلذا نسب إليه وإن كان خلقه من العناصر الأربع كما أن الجان من العناصر الأربع ، لكن الغالب في جبلته النار فنسب إليها كما قال تعالى : ﴿ وخلق الجان من مارج ﴾ يعني خلق أبا الجن وقيل : هو إبليس أو جنس الجن،ومن لإبتداء الغاية والمارج اللهب الصافي من النار وقيل : الخالص منها وقيل لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت،وقال الليث : المارج الشعلة الصادعة ذات اللهب الشديد قال المبرد : المارج النار المرسلة التي لا تمنع،وقال أبو عبادة : المارج خلط النار من مرج إذا اختلط واضطرب،قال الجوهري : مارج من نار ، نار لا دخان لها ، خلق منها الجان ، وقال ابن عباس : من لهب النار وخالصها ، وقيل : هو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت .

﴿ من نار ﴾ هو بيان للمارج،أو من للتبعيض ، أو أراد من نار مخصوصة كقوله : ﴿ فانذرتكم ناراً تلظى ﴾ ، أو من صاف من نار ، أو مختلط من النار كما تقدم ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإنه أنعم عليكما في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى ، فهلا اعتبرتم بهذه الأصول ؟ فصدقتم بالآخرة ، لعلكم تنجون من عذاب الله تعالى .

﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا
فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ
مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ
لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ
أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾

محذوف ، أي : هو ربهما ، وقيل : مبتدأ ، وخبره مرج البحرين ، بينهما اعتراض ، والأول أولى ، والمراد بالمشرقين مشرق الشتاء والصيف ، وبالمغربين مغرباهما ، قال ابن عباس : للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء ، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف ، غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء ، وعنه قال مشرق الفجر ومشرق الشفق ، ومغرب الشمس ومغرب الشفق ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى ، كاعتدال الهواء واختلاف الفصول ، وحدوث ما يناسب كل فصل فيه ، أو بغير ذلك ، ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده .

﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ المرج التخلية والإرسال ، يقال : مرجت الدابة إذا أرسلتها ، وأصله الإهمال كما تمرج الدابة في المرعى ، قال الحسن وقتادة : هما بحرا فارس والروم ، وقال ابن جريج : هما البحر المالح والأنهار العذبة ، وقيل : بحر المشرق والمغرب ، وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان ، وقيل بحر السماء وبحر الأرض ، وقيل : بحر الروم وبحر الهند ، وأنتم الحاجر بينهما والمعنى خلى وأهمل وأنه أرسل كل واحد منهما يتجاوران ويتماسان على وجه

الأرض ، لا فصل بينهما في مرأى العين ، قال سعيد بن جبير : يلتقيان في كل عام وقيل يلتقي طرفاهما ومع ذلك فلم يختلطا فلهذا قال : ﴿ بينهما برزخ ﴾ أي حاجز يحجز بينهما وقيل البرزخ الجزائر .

﴿ لا يبغيان ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر ، بأن يدخل فيه ويختلط به ، وقيل : لا يتغيران ، وقيل : لا يطغيان على الناس بالغرق قال ابن عباس : أرسل البحرين بينهما حاجز لا يختلطان بينهما من البعد ما لا يبغي كل واحد منهما على صاحبه ، وفي الخطيب لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده له خالقه ، لا في الظاهر ولا في الباطن حتى إن العذب الداخل في الملح باق على حاله ، لم يمتزج بالملح فمتى حفرت في جنب الملح في بعض الأماكن وجدت الماء العذب،قال البقاعي : بل كلما قربت الحفرة من الملح كان الماء الخارج منها أحلى ، فخلطهما الله تعالى في رأي العين وحجز بينهما في غيب القدرة ، هذا وهما جمادان لا نطق لهما ولا ادراك فكيف يبغي بعضكم على بعض أيها العقلاء ؟ ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن هذه الآية وأمثالها لا يتيسر تكذيبها بحال .

﴿ يخرج ﴾ قرأ الجمهور على البناء للفاعل ، وقرىء على البناء للمفعول ، وهما سبعيتان ﴿ منهما اللؤلؤ ﴾ أي :الدر ﴿ والمرجان ﴾ الخرز الأحمر المعروف ، وقال الفراء : اللؤلؤ العظام والمرجان ما صغر ، قال الواحدي : وهو قول جميع أهل اللغة ، وقال مقاتل والسدي ومجاهد : اللؤلؤ صغار الدر والمرجان كباره،وقال ابن عباس : إذا مطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ،وعن علي قال : المرجان عظام اللؤلؤ،وقال ابن عباس:اللؤلؤ ما عظم منه ، والمرجان:اللؤلؤ الصغار قال ابن مسعود : المرجان الخرز الأحمر .

وقال : منهما وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب ، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، كذا قال الزجاج وغيره وقال أبو علي الفارسي : هو من باب حذف المضاف أي من أحدهما كقوله : على رجل من القريتين

عظيم ، وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محله ، وقال الأخفش : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ ، من العذب وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان ، وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ، وقيل : هما بحر السماء وبحر الأرض ، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤ فصار خارجاً عنهما ، وقال بعضهم : كلام الله أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس ، فمن الجائز ان يسوقهما من البحر العذب إلى الملح ، واتفق أنهم لم يخرجوهما إلا من الملح ، وإذا كان في البر أشياء تخفى على التجار المترددين القاطعين المفاوز فكيف بما في قعر البحر ؟ .

وأجاب عنه ابن عادل بأن الله لا يخاطب الناس ولا يمتن عليهم إلا بما يألفون ويشاهدون ، ولا يخلو هذا الجواب عن التعسف ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ فإن في ذلك الخروج من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه ولا يقدر على إنكاره .

﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ المراد بالجوار السفن الجارية في البحر ، وسميت السفينة جارية لأن شأنها ذلك وإن كانت واقفة في الساحل كما سماها في موضع آخر بالجارية ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ ، وسماها بالفلك قبل أن لم تكن كذلك ، فقال تعالى لنوح ؛ ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ ، ثم بعدما عملها سماها سفينة فقال تعالى : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ ، قال الرازي : الفلك أولاً ، ثم السفينة ، ثم الجارية ، والمرأة المملوكة تسمى أيضاً جارية ، لأن شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها ، بخلاف الزوجة ، فهي من الصفات الغالبة .

والعامة على كسر الراء من الجوار ، لأنه منقوص على فواعل ، والياء محذوفة لفظاً ، وقرىء برفع الراء تناسباً للمحذوف ، وقرىء بإثبات الياء في الوقف ، ولا تثبت في الرسم ، لأنها من يا آت الزوائد ، والمنشئآت المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض ، وركب حتى ارتفعت وطالت حتى صارت في البحر كالأعلام ، وهي الجبال ، والعلم الجبل الطويل ، شبه السفن في

البحر بالجبل في البر ، وقال قتادة : المنشئآت المخلوقات للجري ، وقال الأخفش : المنشئآت المجريات ، وقيل : المحدثات المسخرات ، وقيل : الرافعات الشرع ، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ، وقد مضى الكلام على هذا في سورة الشورى،وإفراد البحر وجمع الأعلام إشارة إلى عظمة البحر ، قرأ الجمهور المنشئآت بفتح الشين،وقرىء بكسرها .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه ولا إنكاره .

﴿ كل من عليها فان ﴾ أي كل من على الأرض من الحيوانات هالك ، وعلى هذا لا يحتاج لتخصيص الآية بغير الجنة والنار ، والحور والولدان ، والحجب والعرش والأرواح ، وغلب العقلاء على غيرهم فعبر عن الجميع بلفظ (من) وقيل : أراد من عليها من الجن والإنس ، ولا يقال : إن هذه الآية إلى قوله : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ ، ليست نعماً فكيف قال عقب كل منها ﴿ فبأي آلاء ﴾ ، الآية ؟ والجواب أن ما وصف من هول يوم القيامة وعقاب المجرمين فيه زجر عن المعاصي . وترغيب في الطاعات ، وهذا من أعظم المنن ، وقيل : وجه النعمة في فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب ، قال يحيى بن معاذ : حبذا الموت ، فهو الذي يقرب الحبيب إلى الحبيب ، وقيل : جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب ، وقال مقاتل : وجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوي الأقدام .

﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ، وقد تقدم في سورة البقرة بيان معنى هذا ، وقيل : المعنى وتبقى حجته التي يتقرب بها إليه والأول أولى ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ، وخاطب الاثنين في قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما ﴾ ، وخاطب هنا الواحد لأن الاشارة ههنا وقعت إلى كل أحد ، فقال : ويبقى وجه ربك أيها السامع ، ليعلم كل أحد أن غيره فان ، فلو قال : ويبقى وجه ربكما لكان كل

أحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب عن الفناء ، ولم يقل ويبقى وجه الرب من غير خطاب مع أنه أدل على فناء الكل ، لأن كاف الخطاب في الرب إشارة إلى اللطف ، والإبقاء إشارة إلى القهر ، والموضوع موضع بيان اللطف وتعديد النعم ، فلهذا قال : بلفظ الرب وكاف الخطاب .

﴿ ذو الجلال ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء ، واستحقاق صفات المدح ، يقال : جل الشيء أي عظم ، وأجللته أي أعظمته وهو اسم من جل ، قرأ الجمهور ذو على أنه صفة لوجه وقرىء ذي على أنه صفة لرب .

﴿ والإكرام ﴾ معناه أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به وقيل : إنه ذو الإكرام لأوليائه ، ففي وصفه بذلك بعد ذكر فناء الخلق ، وبقائه تعالى إيذان بأنه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم آثار لطفه وكرمه حسبما ينبىء عنه قوله : ﴿ فبأي آلاء ﴾ ، فإن إحياءهم بالحياة الأبدية وإثابتهم بالنعيم المقيم من أجل النعم وأعظم الآلاء .

وعن « أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألظوا بياذا الجلال والاكرام » أخرجه الترمذي، وقال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ومعنى ألظوا ألزموا هذه الدعوة وأكثروا منها .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أبتلك النعم ؟ من بقاء الرب . وفناء الكل والحياة الدائمة ؛ والنعيم المقيم أم بغيرها ؟ ومما قلت في معنى الآية :

تفنى السقاة وتفنى الكأس والنادي ومن تلاقيه من خل ومن عادي
لا تركنن إلى الدنيا وزهرتها يفنى الجميع . ويبقى ربنا الهادي

﴿ يسأله من في السموات والأرض ﴾ مستأنف ، أو حال من وجه، والعامل فيه يبقى أي يبقى مسؤولاً ممن فيهما أي يسألونه جميعاً لأنهم محتاجون إليه . قال أبو صالح : يسأله أهل السموات المغفرة . ولا يسألونه الرزق وأهل

الأرض يسألونه الأمرين جميعاً وقال مقاتل : يسأله أهل الأرض المغفرة والرزق وتسأل لهم الملائكة أيضاً الرزق والمغفرة فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض . وكذا قال ابن جريج وقيل : يسألونه الرحمة قال قتادة : لا يستغني عنه أهل السماء ولا أهل الأرض أي في ذواتهم وصفاتهم وسائر ما يهمهم ويعن لهم والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال ، أو لسان الحال ، ما يطلبونه من خيري الدارين ، أو من خير أحدهما ، وقال ابن عباس : مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة .

﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ أي: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات واليوم عبارة عن الوقت والشأن هو الأمر ، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه ، على اختلاف حاجاتهم ، وتباين أغراضهم ، قال المفسرون : من شأنه أنه يحيي ويميت ، ويرزق ويفقر ويعز ويذل ، ويمرض ويشفي ، ويعطي ويمنع ، ويغفر ويعاقب ، ويرحم ويغضب إلى غير ذلك مما لا يحصى ، وقيل : كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدد أحوالاً ، وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شأناً وشيئاً وقيل : المراد سوق المقادير إلى المواقيت ، وقال الحسين ابن الفضل : أنها شؤون له يبديها لا شؤون يبتديها ، وقال أبو سليمان الداراني : في كل يوم إلى العبيد بر جديد وقيل : يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا وعسكراً من الدنيا إلى القبور ؛ ثم يرتحلون جميعاً إلى الله تعالى .

ولا وجه لتخصيص شأن دون شأن ، بل الآية تدل على أنه سبحانه كل يوم في شأن من الشؤون له،أي شأن كان من غير تعيين وشؤونه سبحانه لا تحصى ، ولا يعلمها إلا هو،فالعموم أولى وأنسب بمقام القدرة وكمالها ، وقيل : المراد باليوم المذكور هو يوم الدنيا ويوم الآخرة . وشأنه في الدنيا الإختبار بالأمر والنهي ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع ، وغير ذلك ، وشأنه في الآخرة

الجزاء والحساب والثواب والعقاب وغير ذلك ، قال ابن بحر وسفيان ابن عيينة : الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة وقيل : المراد كل يوم من أيام الدنيا .

« عن عبد الله بن منيب قال : تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا : يا رسول الله وما ذلك الشأن ؟ قال : أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين » ، أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده والبزار وابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن منده وابن مردويه وأبو نعيم وابن عساكر .

« وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية مثله » أخرجه البخاري في تاريخه وابن ماجة وابن أبي عاصم وغيرهم ، وزاد البزار : ويجيب داعياً ، وقد رواه البخاري تعليقاً وجعله من كلام أبي الدرداء .

« وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يغفر ذنباً ويفرج كرباً » أخرجه البزار ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن اختلاف شؤونه سبحانه في تدبير أمر عباده نعمة لا يمكن جحدها ، ولا يتيسر لمكذب تكذيبها .

﴿ سنفرغ لكم أيُّه الثقلان ﴾ هذا وعيد شديد من الله سبحانه ، للجن والإنس ، قال القرطبي : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغاً وتفرغت لكذا ، واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته ، قال الزجاج والكسائي وابن الأعرابي وأبو علي الفارسي : إن الفراغ ههنا ليس هو الفراغ من شغل ، لأن الله تعالى ليس له شغل يفرغ منه ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولكن تأويله القصد ، أي سنقصد لحسابكم أو مجازاتكم أو محاسبتكم .

قال الواحدي حاكياً عن المفسرين ومنهم ابن عباس : إن هذا تهديد من الله سبحانه لعباده ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده : إذن أتفرغ لك ،

أي أقصد قصدك ، وفرغ يجيء بمعنى قصد ، قال الزجاج : إن الفراغ في اللغة على ضربين أحدهما الفراغ من الشغل والآخر القصد للشيء والإقبال عليه كما هنا ، ويكون الكلام على طريق التمثيل والاستعارة وقد ألم به صاحب المفتاح ونحا إليه الزمخشري وقيل : إن الله سبحانه وعد على التقوى ، وأوعد على المعصية ، ثم قال : سنفرغ لكم مما وعدناكم ، ونوصل كُلًّا إلى ما وعدناه ، وبه قال الحسن ومقاتل وابن زيد .

قرأ الجمهور : سنفرغ بالنون وضم الراء وقرىء بالنون مع فتح الراء ، قال الكسائي : هي لغة تميم ، وقرىء بكسر النون وفتح الراء ، وقرىء بالياء التحتية مفتوحة مع ضم الراء ، أي سيفرغ الله ، وقرىء بضم الياء ؛ وفتح الراء ، وترسم أيُّه بغير ألف ، وأما في النطق فقرأ أبو عمرو والكسائي أيها بالألف في الوقف،ووقف الباقون على الرسم أيه بتسكين الهاء ، وفي الوصل قرأ ابن عامر أيه بضم الهاء ، والباقون بفتحها ، وسمي الجن والإنس الثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض ، وقيل : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتاً كما في قوله: ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب ، وقيل : لأنهما أثقلا وأتعبا بالتكاليف ، وجمع في قوله : ﴿ لكم ﴾ ، ثم قال : ﴿ أيُّهَ الثقلان ﴾ لأنهما فريقان ، وكل فريق جمع .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ومن جملتها ما في هذا التهديد من النعم ، فمن ذلك أنه ينزجر به المسيء عن اساءته ، ويزداد به المحسن إحساناً فيكون ذلك سبباً للفوز بنعيم الدار الآخرة ، الذي هو النعيم في الحقيقة .

﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ هو كالترجمة لقوله : ﴿ أيها الثقلان ﴾ ، قدم الجن هنا لكون خلق أبيهم متقدماً على خلق آدم ، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنس ، وهذا الخطاب يقال لهما في الآخرة ، وقيل : في الدنيا ، ويرجح كونه

في الآخرة قوله : ﴿ يرسل عليكما ﴾ الخ فإن هذا الإرسال إنما هو في القيامة ، كما سيأتي ، وكذا قوله : فإذا انشقت السماء .

﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانبهما ونواحيهما وأطرافهما هرباً من قضاء الله وقدره ﴿ فانفذوا ﴾ منها وخلصوا أنفسكم واهربوا واخرجوا ، فحيثما كنتم يدرككم الموت ، يقال : نفذ الشيء من الشيء إذا خلص منه كما يخلص السهم ، والأمر بالنفوذ أمر تعجيز .

﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر ، ولا قهر ولا قوة لكم على ذلك ولا قدرة ، والسلطان القوة التي يتسلط بها صاحبها على الأمر ، قال الضحاك : بينما الناس في أسواقهم إذا انفتحت السماء ونزلت الملائكة ، فهرب الجن والأنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله ﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ ذكره النحاس وعلى هذا يكون في الدنيا قال ابن المبارك : إن ذلك يكون في الآخرة وقال الضحاك أيضاً : معنى الآية إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا ، وقيل : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله وقال قتادة : معناها لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك وقيل : الباء بمعنى إلى أيء لا تنفذون إلا إلى سلطان ، وقال ابن عباس : لا تخرجون من سلطاني .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ
﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ
﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد فإنها تزيد المحسن إحساناً وتكف المسيىء عن اساءته مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ وقرأ الجمهور يرسل بضم التحتية مبنياً للمفعول ، وقرىء بالنون ، ونصب شواظ ، وقرأ الجمهور شواظ بضم الشين وقرىء بكسرها وهما لغتان بمعنى واحد والشواظ اللهب الذي لا دخان معه قال مجاهد : الشواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار ، وقال الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ، ليس بدخان الحطب ، وقال الأخفش وأبو عمرو : هو النار ، والدخان جميعاً وقال ابن عباس : هو لهب النار وقيل هو اللهب الخالص .

﴿ ونحاس ﴾ قرأ الجمهور بضم النون ، وقرىء بكسرها ، وقرىء نحس والنحاس الصفر المذاب ، يصب على رؤوسهم ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما وقال سعيد بن جبير : وهو الدخان الذي لا لهب له ، وبه قال الخليل .

وقال الضحاك : هو دردي الزيت المغلي ، وقال الكسائي : هو النار التي

لها ريح شديدة ، وقال ابن عباس : هو دخان النار ، وعنه قال : الصفر يعذبون به ، قيل : يرسل عليهما هذا مرة وهذا مرة ، ويجوز أن يرسلا معا من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر ، قرىء نحاس بالرفع عطفاً على شواظ وبالجر عطفاً على نار سبعيتان ، لكن قراءة الجر لا بد فيها من كسر شين شواظ . أو إمالة نار ، فمن قرأ بالجر بدون أحد الأمرين فقد وقع في التلفيق ، لأن هذا الوجه لم يقرأ به أحد ، قال المهدوي : من قال إن الشواظ النار والدخان جميعاً فالجر في نحاس على هذا بين ، فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف فكأنه قال : يرسل عليكما شواظ من نار وشيء من نحاس .

﴿ فلا تنتصران ﴾ أي لا تقدران على الإمتناع من عذاب الله بل يسوقكم إلى المحشر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الذي يكون به الانزجار عن الشر ، والرغب في الخير .

﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أي انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة ، أو انفك بعضها من بعض لقيام الساعة ، وقيل : انفجرت فصارت أبواباً لنزول الملائكة لتحيط بالعالم من سائر جهات الأرض لئلا يهرب بعضهم من المحشر وقيل : المراد منه خراب السماء وفيه تهويل وتعظيم للأمر .

﴿ فكانت وردة ﴾ أي كوردة حمراء أو محمرة مثلها ، قال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء وقيل : فكانت كلون الفرس الورد،قاله ابن عباس وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة والصفرة ﴿ كالدهان ﴾ قال الفراء وأبو عبيدة : تصير السماء كالأديم لشدة حر النار ، وقال ابن عباس : كالأديم الأحمر ، أي على خلاف العهد بها وهو الزرقة ، وقال الفراء أيضاً : شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه والدهان جمع دهن ، نحو قرط وقراط ، ورمح ورماح ، وقيل : إنه إسم مفرد

أي اسم لما يدهن بـه ، كالحزام والادام ، قاله الزمخشري ، وقيل المعنى تصير السماء مثل الدهن لذوبانها .

وقال الحسن : ﴿ كالدهان ﴾ أي كصبيب الدهن فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً ، وقال زيد بن أسلم : إنها تصير كعصير الزيت ، قال الزجاج وقتادة : إنها اليوم خضراء ، وسيكون لها لون أحمر ، حكاه الثعلبي قال الماوردي : زعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة وأنها لكثرة الحوائل والحواجز وبعد المسافة واعتراض الهواء بيننا وبينها ترى بهذا اللون الأزرق ، كما يرى الدم في العروق ازرق ، ولا هواء هناك يمنع من اللون الأصلي ذكره الكرخي والعمادي والكازروني ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن من جملتها ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالاقبال على الخير والإعراض عن الشر .

﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ أي يوم تنشق السماء لا يسأل أحد من الانس ولا من الجن عن ذنبه لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم ، فالتنوين عوض عن الجملة ، والفاء جواب الشرط ، وقيل هو محذوف ، أي فإذا انشقت السماء رأيت أمراً مهولاً ، والهاء في ذنبه تعود على أحد المذكورين ، وضمير الآخر مقدر ، أي ولا يسأل عن ذنبه جان أيضاً ، وناصب الظرف لا يسأل ، و﴿ لا ﴾ غير مانعة ، والجمع بين مثل هذه الآية وبين مثل قوله : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ أن ما هنا يكون في موقف والسؤال في موقف آخر من مواقف القيامة ، وقيل : قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم . وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . وقيل : إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال وحفظها على العباد ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ .

قال أبو العالية : المعنى لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ، وقيل إن

عدم السؤال هو عند البعث ، والسؤال هو في موقف الحساب ، وقال ابن عباس : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ؛ ولكن يقول لهم : لم عملتم كذا وكذا ؟ والجان والانس كل منهما إسم جنس ، يفرق بينه وبين واحده بالياء كزنج وزنجي ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فان من جملتها هذا الوعيد الشديد ، لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد .

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال والسيما العلامة ، قال الحسن : سيماهم سواد الوجوه ، وزرقة الأعين ، كما في قوله : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ ، وقال : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ وقيل سيماهم ما يعلوهم من الحزن والكآبة .

﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ قال أبو حيان : يؤخذ متعد ومع ذلك تعدى بالباء لأنه ضمن معنى يسحب ، قلت : يسحب إنما يتعدى بعلى قال تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ فكان ينبغي أن يقال ضمن معنى يدفع أي يدفعون ، وقال مكي : إنما يقال ؛ أخذت الناصية وأخذت بها ولو قلت أخذت الدابة بالناصية لم يجز ، وحكي عن العرب أخذت الخطام ، وأخذت بالخطام بمعنى قاله الكرخي ، والنواصي شعور مقدم الرأس والمعنى أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي وتلقيهم الملائكة في النار ، وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بنواصيهم ، وتجرهم على وجوههم ، وتارة تأخذ بأقدامهم وتجرهم على رؤوسهم .

قال ابن عباس : تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ، ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب في التنور ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد ، والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب ، وتضطرب لهوله الأحشاء .

﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام ؟ فقيل : يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً هذه جهنم التي تشاهدونها ، وتنظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لا تكون .

﴿ يطوفون ﴾ أي يترددون ويسعون ﴿ بينها ﴾ أي بين جهنم فتحرقهم ﴿ وبين حميم آن ﴾ فيصيب وجوههم فيحرقون بها ، فيستغيثون منها فيسعى بهم إلى الحميم والحميم الماء الحار ، والآن الذي قد انتهى حره ، وبلغ غايته ، كذا قال الفراء وقال الزجاج : أنى يأنى أنى فهو آن إذا انتهى في النضج والحرارة وقال ابن عباس : هو الذي انتهى حره وقيل : هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فيغمسون فيه بأغلالهم حتى تنخلع أوصالهم قال قتادة : يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين الجحيم .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف وما يحصل به من الترغيب في الخير ، والترهيب عن الشر ، ولما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ، ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم فقال :

﴿ ولمن خاف ﴾ أي لكل فرد من أفراد الخائفين أو لمجموعهم والأول هو المعتمد ﴿ مقام ربه ﴾ مقامه سبحانه هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب كما في قوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وقيل : المعنى خاف قيام ربه عليه وهو إشرافه على أحواله واطلاعه على أفعاله وأقواله ، كما في قوله : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، أو قيام الخائف عند ربه للحساب ، ومحصله احتمالات ثلاثة في تفسير المقام ، أولها أنه أسم مكان ، والثاني أنه مصدر تحته احتمالان ، إما بمعنى قيام الله على الخلائق ، أو بمعنى قيام الخلائق بين يديه ،قال مجاهد والنخعي : هو الرجل الذي يهم بالمعصية فيذكر الله

فيدعها من خوفه وفيه إشارة إلى سبب استحقاق الجنتين في نفس الأمر وهو أنه ليس مجرد الخوف بل الخوف الناشيء عنه ترك المعاصي .

﴿ جنتان ﴾ إختلف فيهما فقال مقاتل : يعني جنة عدن وجنة النعيم ، وقيل : إحداهما التي خلقت له ، والأخرى ورثها ، وقيل : إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه ، وقيل : إحداهما أسافل القصور . والأخرى أعاليها ، وقيل : جنة لفعل الطاعة ، وأخرى لترك المعصية ، وقيل : جنة للعقيدة التي يعتقدها وجنة للعمل الذي يعمله ، وقيل : جنة بالعمل وجنة بالتفضل ، وقيل : جنة روحانية ، وجنة جسمانية . وقيل : جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته وقال الفراء : إنما هي جنة واحدة والتثنية لأجل موافقة رؤوس الآي ، قال النحاس : وهذا من أعظم الغلط على كتاب الله ، فإن الله يقول جنتان ويصفهما بقوله فيهما فيهما إلخ وقيل إنما كانتا اثنتين ليتضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة .

قال ابن عباس : وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنتين ، وعنه أيضاً يقول : خاف ثم اتقى ، والخائف من ركب طاعة الله وترك معصيته ، وعن عطاء أنها نزلت في أبي بكر ، وعن ابن شوذب مثله وقال ابن مسعود في الآية : لمن خافه في الدنيا .

« وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم الثانية : ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال الثالثة : ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم وإن، رغم أنف أبي الدرداء (١) » أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والبزار وأبو يعلي والطبراني وغيرهما .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولمن

(١) رواه أحمد .

خاف مقام ربه جنتان فقال أبو الدرداء : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن رغم أنف أبي الدرداء » أخرجه ابن مردويه وعن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء في الآية قال : قيل لأبي الدرداء : وإن زنى وإن سرق ، قال : من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق .

« وعن ابن شهاب قال : كنت عند هشام بن عبدالملك فقال : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولمن خاف مقام ربه جنتان ، قال أبو هريرة : وإن زنى وإن سرق ؟ فقلت : إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا » ، أخرجه ابن مردويه .

« وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جنان الفردوس أربع جنات،جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما. وجنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن[1] » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما ، وعنه في الآية قال : جنتان من ذهب للسابقين،وجنتان من فضة للتابعين،قال القرطبي : في هذه الآية دليل على أن من قال لزوجته : إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هم بالمعصية وتركها خوفاً من الله ، وحياء منه وهو قول سفيان الثوري وبه أفتى ، ومذهب الشافعي أنه لا يحنث إذا كان مسلماً ومات على الاسلام ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة العظيمة وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجميلة العظيمة .

﴿ ذواتا أفنان ﴾ أي،صاحبتا أفنان هذه صفة للجنتين وما بينهما اعتراض أو خبر مبتدأ محذوف ، أي،هما ذواتا قال الخطيب : وفي تثنية ذات لغتان الأولى الرد إلى الأصل فإن أصلها ذوية فالعين واو واللام ياء ، لأنها مؤنثة ذوي ، والثانية التثنيه على اللفظ ، فيقال : ذاتان انتهى ، ومثله قال السمين وعبارة

(٢) رواه البخاري ومسلم .

الجلال المحلي : تثنية ذوات على الأصل ولامها ياء انتهى . والأفنان الأغصان وهي الدقيقة التي تتفرع من فروع الشجر ، واحدها فنن كطلل ، وهو الغصن المستقيم طولاً ، وبهذا قال مجاهد وعكرمة وعطية وغيرهم .

وخص الأفنان لأنها هي التي تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجتنى الأثمار ، وقال الزجاج : الأفنان الألوان واحدها فن ، كـدن ، وهو الضرب ، والنوع مس كل شيء ، وبه قال عطاء وسعيد بن جبير وجمع عطاء بين القولين فقال : في كل غصن فنون من الفاكهة وقيل : معناها ذواتا فضل وسعة على ما سواهما قاله قتادة وقيل : ذواتا أنواع وأشكال من الثمار وقيل : الأفنان ظل الاغصان على الحيطان .

روي عن مجاهد وعكرمة قال ابن عباس : ذواتا ألوان وقـال : فن غصونها يمس بعضها بعضاً وقال : الفن الغصن والمعنى: أن له فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين قال قائلهم :

ومن كـل أفنان اللذاذة والصبـا لهـوت به والعيش أخضر نـاضر

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب ولا بموضع للإنكار ﴿ فيهما ﴾ أي في كل واحدة منهما ﴿ عينان تجريان ﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل،وهذا أيضاً صفـة أخرى للجنتـين قال الحسن : إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم ، وقال عطية : إحداهما من ماء غـير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، قيل : كل واحدة منهما مثل الدنيا أضعافًا مضاعفة ، حصاهما الياقوت الأحمر ، والزبرجد الأخضر ، وترابهما الكافور وحمأتهما المسك الأذفر وحافتاهما الزعفران .

وقال أبو بكر الوراق : تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل ، فتجريان في كل مكان شاء صاحبهما ، وإن علا مكانه ، كما تصعد المياه في الأشجار في كل غصن منها ، وإن زاد علوها ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة في الجنة لأهل السعادة .

فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾

﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ هذا صفة ثالثة لـ (جنتان) والزوجان الصنفان والنوعان ، والمعنى أن في الجنتين من كل نوع يتفكه به في الدنيا ضربين ، يستلذ بكل نوع من أنواعه ، قيل : أحد الصنفين رطب ، والآخر يابس ، لا يقصر أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب ، وقيل : صنفان صنف معروف ، وصنف غريب ، قيل : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو.

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ فإن في مجرد تعداد هذه النعم ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير ، والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم ، وذلك نعمة عظمى ، ومنه كبرى ، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه ؟

﴿ متكئين ﴾ قال في القاموس . توكأ عليه تحامل واعتمد ، واتكأ جعل له متكأ .

« وقوله صلى الله عليه وسلم : أما أنا فلا آكل متكأ » ، أي جالساً جلوس المتمكن المتربع ونحوه من الهيئات المستدعية لكثرة الأكل، بل كان جلوسه للأكل مستوفزاً مقعياً غير متربع ، ولا متمكن ، وليس المراد الميل على شق كما

يظنه عوام الطلبة ، وذكر الاتكاء لأنه حال الصحيح الفارغ القلب ، المتنعم البدن ، بخلاف المريض والمهموم ، وانتصابه على الحال من فاعل قوله : ﴿ ولمن خاف ﴾ ، وإنما جمع حملاً على معنى من ، وقيل : منصوب على المدح ، وقيل : عاملها محذوف والتقدير يتنعمون متكئين أي مضطجعين أو متربعين .

﴿ على فرش بطائنها من استبرق ﴾ والفرش جمع فراش ، والبطائن هي التي تحت الظهائر ، وهي جمع بطانة ، قال الزجاج : هي ما يلي الأرض ، والإستبرق ما غلظ من الديباج ، وإذا كانت البطائن من إستبرق فكيف تكون الظهائر ؟ قيل لسعيد بن جبير البطائن من استبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله فيه فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وبه قال ابن عباس قيل : إنما اقتصر على ذكر البطائن لأنه لم يكن أحد في الأرض يعرف ما في الظهائر ، وقال الحسن : بطائنها من استبرق ، وظواهرها من نور جامد وقال الحسن أيضاً البطائن هي الظهائر ، وبه قال الفراء ؛ وقال : قد تكون البطانة الظهارة ، والظهارة البطانة ، لأن كل واحد منهما يكون وجهاً،والعرب تقول : هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء لظاهرها الذي نراه،وأنكر ابن قتيبة هذا وقال : لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في الآية : أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر ؟ وقيل : ظهائرها من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم وهذا يدل على نهاية شرف هذه الفرش لأنه ذكر أن بطائنها من الإستبرق ، ولا بد أن تكون الظهائر خيراً من البطائن فهو مما لا يعلمه البشر .

﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ مبتدأ وخبر و﴿ دان ﴾ أصله دانو،مثل غاز فأعل إعلاله وجنى فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض،والجني ما يجتنى من الثمار،قيل : إن الشجرة تدنو حتى يجتنيها من يريد جناها،قال ابن عباس : جناها ثمرها،والداني القريب منك أي يناله القائم والقاعد والمتكىء والنائم

وهذا بخلاف ثمر الدنيا ، فإنها لا تنال إلا بكد وتعب ، وقيل : لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ،قال الرازي : جنة الآخرة مخالفة لجنة الدنيا من ثلاثة أوجه :

أحدها:أن الثمرة على رؤوس الشجر في الدنيا بعيدة عن الانسان المتكىء : وفي الجنة يتكىء والثمرة تتدلى إليه .

وثانيهما:أن الانسان في الدنيا يسعى إلى الثمرة ويتحرك إليها ، وفي الآخرة تدنو منه ؛ وتدور عليه .

وثالثها:أن الانسان في الدنيا إذا قرب من ثمرة شجرة بعد عن غيرها ، وثمار الجنة كلها تدنو إليه في وقت واحد ، ومكان واحد .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب ؛ أن يكذب بشيء منها ، لما يشتمل عليه من الفوائد العاجلة والآجلة .

﴿ فيهن ﴾ أي في الجنتين المذكورتين ، لأن أقل الجمع اثنان أو لاشتمالهما على أماكن وعلالي وقصور ومجالس،قال الزجاج : وإنما قال ﴿ فيهن ﴾ لأنه عنى الجنتين وما أعد لصاحبهما فيهما من النعيم،أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجني وقيل : ﴿فيهن ﴾ أي في الفراش التي بطائنها من إستبرق قال أبو حيان : وفيه بعد،لأن الاستعمال أن يقال على الفراش كذا ولا يقال في الفراش كذا إلا بتكلف . ولذلك جمع الزمخشري مع الفرش غيرها حتى صح له أن يقول ذلك،وقال الفراء : كل موضع في الجنة جنة فلذلك صح أن يقال فيهن .

﴿ قاصرات الطرف ﴾ من إضافة اسم الفاعل لمنصوبه تخفيفاً إذ يقال قصر طرفه على كذا،وحذف متعلق القصر للعلم به،أي:إنهن يقصرن أبصارهن على أزواجهن المتكئين من الانس والجن لا ينظرن إلى غيرهم ولا يرين سواهم

والآية دلت على الحياء لأن الطرف حركة الجفن، والحبيبة لاتحرك جفنها ولا ترفع رأسها وقد تقدم هذا في سورة الصافات قال ابن عباس : قاصرات الطرف عن غير أزواجهن قال الرازي : وانظر إلى حسن هذا الترتيب فإنه بين أولاً المسكن وهو الجنة، ثم بين ما يتنزه به وهو البستان والعيون الجارية، ثم ذكر المأكول، ثم ذكر موضع الراحة بعد الأكل ، وهو الفراش ، ثم ذكر ما يكون في الفراش معه ، ولما كان الإختصاص بالشيء من أعظم الملذذات قال :

﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ الضمير راجع إلى الأزواج المدلول عليهم بقاصرات الطرف ، وقيل : يعود إلى المتكئين ، والجملة نعت لقاصرات لأن إضافتها لفظية ، كقوله : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ أو حال لتخصص النكرة بالإضافة قال الفراء : الطمث الإفتضاض ، وهو النكاح بالتدمية ، يقال : طمث الجارية إذا افترعها ، وقيل : الطمث المس، أي: لم يمسسهن ، قاله أبو عمرو وقال المبرد : أي لم يذللهن ، والطمث التدليل ، ومن آستعمال الطمث فيما ذكره الفراء قول الفرزدق :

دفعن إليّ ولم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام

وفي السمين : أصل الطمث الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر ، ثم أطلق على كل جماع طمث وإن لم يكن معه دم ، وقيل : الطمث دم الحيض ، أو دم الجماع ، قال الواحدي : قال المفسرون : لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعهن قبلهم أحد ، ولم يتسلط عليهن ، قال مقاتل : لأنهن خلقن في الجنة ، وقيل : إنهن من نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر ، أبكاراً ، وقيل : هن الآدميات اللاتي متن أبكاراً ، والأول أولى . قرأ الجمهور : يطمثهن بكسر الميم ، وقرىء بضمها وبفتحها ، وفي هذه الآية ، بل في كثير من آيات هذه السورة ، دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه ، وعملوا بفرائضه ، وانتهوا عن مناهيه .

قال ابن عباس في الآية : لم يطمثهن لم يدن منهن ، أو لم يدمهن ، وفي الآية دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس ، فإن مقام الامتنان يقتضي ذلك إذ لو يطمثوا لم يحصل لهم الامتنان ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن في مجرد هذا الترغيب في هذه النعم نعمة جليلة ، ومنة عظيمة ، لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة ، والفرار من الأعمال الطالحة ، فكيف بالوصول إلى هذه النعم والتنعم بها ؟ في جنات النعيم بلا انقطاع ولا زوال .

﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ هذا صفة لقاصرات ، أو حال منهن ، ولم يذكر مكي غيره ، والياقوت جوهر نفيس ، يقال إن النار لا تؤثر فيه ، ومن المعلوم أن الياقوت أحمر اللون ، فهذا التشبيه يقتضي أن لون أهل الجنة البياض المشرب بحمرة ، فينافي المقرر المعلوم من أنه البياض المشرب بصفرة،فالجواب أن التشبيه بالياقوت من حيث الصفاء لا من حيث الحمرة ، وهذا لا ينافي أن البياض مشرب بصفرة كما قال الحسن : هن في صفاء الياقوت وبياض المرجان، وإنما خص المرجان على القول بأنه صغار الدر لأن صفاءها أشد من صفاء كبار الدر .

« عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً وينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك[1] » ، أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث « وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة ، حتى يرى مخها ، وذلك أن الله يقول : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ ، فأما الياقوت فحجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه » ، أخرجه ابن أبي شيبة ، وهناد بن السرى ، وابن أبي الدنيا،وابن جرير،وابن أبي حاتم ، وابن

---

(١) رواه أحمد .

حبان، وأبو الشيخ وغيرهم، وقد رواه الترمذي موقوفاً وقال: هو أصح ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن نعمة كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنة ما كانت، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن الجزيلة؟

﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟﴾ هل ترد في الكلام على أربعة أوجه تكون بمعنى قد كقوله: ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر﴾؟ وبمعنى الاستفهام كقوله: ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً﴾؟ وبمعنى الأمر كقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ وبمعنى الجحد كقوله: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ﴾؛ وكما في هذه الآية، والجملة مقررة لمضمون ما قبلها، والمعنى ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الاحسان إليه في الآخرة، كذا قال ابن زيد وغيره، وقال الصادق: هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد،قال الرازي: في هذه الآية وجوه كثيرة،حتى قيل إن في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول، إحداها قوله تعالى فاذكروني أذكركم، وثانيها وإن عدتم عدنا، وثالثها هل جزاء الإحسان إلا الاحسان.

قال محمد بن الحنفية هي للبر والفاجر، البر في الآخرة، والفاجر في الدنيا.

«عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» أخرجه إبن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وضعفه وأخرج البغوي في تفسيره وغيره في غيره عن أنس مرفوعاً مثله، وعن جابر مرفوعاً في الآية قال: هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام، إلا أن أدخله الجنة وأخرج إبن النجار عن علي مرفوعاً مثل حديث ابن عمر.

وقال ابن عباس: هل جزاء من قال لا إلّه إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة «وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل الله على هذه الآية في سورة الرحمن للكافر والمسلم، ﴿هل جزاء الاحسان إلا الإحسان﴾

أخرجه إبن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي والبيهقي ، وأخرجه ابن مردويه موقوفاً على ابن عباس ، وقال إبراهيم الخواص في الآية : هل جزاء الإسلام إلا دار الإسلام ؟ وفي الآية إشارة إلى رفع التكليف في الآخرة لأن الله وعد المؤمن بالإحسان وهو الجنة،فلو بقي التكليف في الآخرة وتركه العبد لاستحق العقاب على ترك العمل ، والعقاب ترك الإحسان إليه ، فلا تكليف .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ فإن من جملتها الاحسان إليكم في الدنيا والآخرة ، بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح ، والزجر عن العمل الذي لا يرضاه .

﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ أي من دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدمة ، جنتان أخريان لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة ، ومعنى من دونهما أي أمامهما،ومن قبلهما أي هما أقرب منهما وأدنى إلى . العرش فهما أفضل من الأوليين،وإلى هذا ذهب الحكيم الترمذي في نوادر الأصول،وقيل: دونهما في الدرج،وقيل : بالفضل وقيل الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى،قال ابن جريج : هي أربع جنات جنتان منها للسابقين المقربين فيهما من كل فاكهة زوجان وعينان تجريان؛ وجنتان لأصحاب اليمين فيهما فاكهة ونخل ورمان وفيهما عينان نضاختان .

قال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقربين ، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين .

وأخرج ابن جرير وابن حاتم وابن مردويه . « عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين » ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ فإن كلها حق ونعم لا يمكن جحدها ، ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين فقال .

مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ
﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿ مدهامتان ﴾ وما بينهما اعتراض قال أبو عبيد والزجاج : من خضرتهما قد اسودتا من الري ،وكل ما علاه السواد رياً فهو مدهم عند العرب،قال مجاهد : مسودتان ، والدهمة في اللغة السواد ، يقال : فرس أدهم وبعير أدهم إذا اشتدت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه ، وناقة دهماء وادهام أدهيماماً أي اسواد وسميت قرى العراق سواداً لكثرة خضرتها ، والشاة الدهماء:الحمراء الخالصة الحمرة : ويقال للقيد : أدهم ، وفي المختار : دهمهم الأمر غشيهم ، وبابه فهم ، وكذا دهمتهم الخيل ودهمهم بفتح الهاء لغة وقال ابن عباس : هما خضراوان قد اسودتا من الخضرة من الري من الماء وعن ابن الزبير نحوه .

« وعن أبي أيوب الانصاري قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ مدهامتان ﴾ قال خضروان » أخرجه الطبراني وابن مردويه ﴿ فبأي آلاء ربكما تتكذبان ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر .

﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ ألنضخ فوران الماء من العين ، والمعنى أن في الجنتين المذكورتين عينين فوارتين،قال أهل اللغة : والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة ، لأن بالحاء الرش ، وبالخاء المعجمة فوران الماء ، قاله السمين ، قال الحسن ومجاهد : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة ، كما ينضخ رش المطر ، وقال سعيد بن جبير :

تنضخ بأنواع الفواكه والماء ، قال ابن عباس : فائضتان تنضخان بالماء ، وقيل : بالخير والبركة على أهل الجنة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب ولا بمكان للجحد .

﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريباً والنخل والرمان ـ وإن كانا من الفاكهة ـ لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما ، وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه كما حكاه الزجاج والأزهري وغيرهما ، وقيل : إنما خصهما لكثرتهما في أرض العرب ، قال الخطيب ، كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا،لأن النخل عامة قوتهم،والرمان كالشراب،فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما،وكانت الفواكه عندهم الثمار التي يعجبون بها وقيل : خصهما لأن النخل فاكهة وطعام،والرمان فاكهة ودواء،وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم،وبه قال الشافعي فيحنث بأكل أحدهما من حلف لا يأكل فاكهة،وحينئذ فعطفهما عليها من عطف الخاص على العام تفصيلاً ولم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة رحمه الله وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد،وهو قول خلاف قول أهل اللغة ولا حجة له في الآية .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن من جملها هذه النعم التي في جنات النعيم ومجرد الحكاية لها تؤثر في نفوس السامعين وتجذبهم إلى طاعة رب العالمين .

﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قرأ الجمهور خيرات بالتخفيف وقرىء بالتشديد،فعلى الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين يقال : امرأة خيرة وأخرى شرة،أو جمع خيرة مخفف خيرة ، وعلى الثانية جمع بالتشديد . قال الواحدي قال المفسرون : الخيرات النساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه قيل : وهذه الصفة عائدة إلى الجهات الأربع، ولا وجه لهذا ، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهن قاصرات الطرف ، كأنهن الياقوت والمرجان وبين الصفتين بون بعيد .

« عن ابن مسعود في الآية قال : لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية ، لم يكن قبل ذلك لا مراحات ولا طماحات ، ولا بخرات ولا دفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون ، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً .

واختلف أيهما أكثر حسناً ؟ وأبهى جمالاً ؟ هل الحور أو الآدميات ؟ فقيل : الحور ، لما ذكر من وصفهن في القرآن والسنة .

« كقوله عليه السلام في دعائه على الميت في الجنازة : وأبدله زوجاً خيراً من زوجه » وقيل الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف وروي مرفوعاً وقيل : إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج الأنبياء والمؤمنين يخلقن في الآخرة على أحسن صورة ، قاله الحسن ، وفيه بعد بعيد ، والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا ، وإنما هن مخلوقات في الجنة ، لأن الله قال : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ ، وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات « ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أقل ساكني الجنة النساء فلا يصيب كل واحد منهم امرأة » ، ووعد الحور العين لجماعتهم ، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا ذكره القرطبي .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن شيئاً منها كائناً ما كان لا يقبل التكذيب .

﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ أي محبوسات فيها ، ومنه القصر ، لأنه يحبس من فيه ، وقيل : مخدرات مستورات لا يخرجن ، لكرامتهن وشرفهن، يقال : امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة ، أي: مخدرة،والحور جمع حوراء وهي شديدة بياض العين شديدة سوادها،وقد تقدم بيان معنى الحوراء والخلاف فيه وقيل:معنى مقصورات أنهن قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، وحكاه الواحدي عن المفسرين ، والأول أولى ، وبه قال أبو عبيدة ومقاتل وغيرهما قال في الصحاح : قصرت الشيء أقصره قصراً حبسته،والمعنى أنهن خدرن في الخيام

والخيام جمع خيمة ، وقيل . جمع خيم والخيم جمع خيمة ، وهي أعواد تنصب وتظلل بالثياب فتكون أبرد من الأخبية،قيل الخيمة من خيام الجنة درة مجوفة ، فرسخ في فرسخ .

قال ابن عباس : مقصورات محبوسات في الخيام ، قال : في بيوت اللؤلؤ ، وقال : الحور سود الحدق .

« وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال الخيام در مجوف » ، أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما . « عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الأخرون يطوف عليهم المؤمن » .

﴿ فبأي آلاء ربكما ﴾ الذي صوركم فأحسن صوركم ، وجعل لكم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ تكذبان ؟ ﴾ أبهذه النعم ؟ أم بغيرها .

﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ﴾ أي قبل أصحاب الجنتين ، ودل عليهم ذكر الجنتين ﴿ ولا جان ﴾ وقد تقدم تفسيره في صفة الجنتين الأوليين ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإنها كلها نعم لا تكفر ومنن لا تجحد .

﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ قرأ الجمهور رفرف على الإفراد ، وقرىء رفارف على الجمع ، وقرىء خضر بضم الخاء وسكون الضاد المعجمة وبضمها وهي لغة قليلة ، قال أبو عبيدة : الرفارف البسط ، وبه قال الحسن ومقاتل والضحاك وغيرهم . وقال ابن عيينة : هي الزرابي . وقال ابن كيسان : هي المرافق ، وروي عن أبي عبيدة أنه قال : هي حاشية الثوب ، وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر ، وقيل : الفرش المرتفعة ، وقيل : كل ثوب عريض قال في الصحاح : والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة

اسم جمع ، أو اسم جنس جمعي ، نقلهما مكي . وقال الزجاج : قالوا : الرفرف هنا رياض الجنة ، وقالوا الرفرف : الوسائد ، وقيل : المحابس انتهى . وقيل : الطنافس ، ومن القائلين بأنها رياض الجنة خضر مخصبة سعيد بن جبير ، واشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر ، وهي تحريك جناحيه في الهواء ، وقال ابن عباس : رفرف فضول المحابس والفرش والبسط ، وعن علي قال : هي فضول المحابس .

﴿ وعبقري حسان ﴾ أي الزرابي والطنافس الموشية ، قال ابن عباس العبقري الزرابي ، والرفرف الرياض ، قال أبو عبيدة : كل وشي من البسط عبقري ، وهو منسوب الى أرض يعمل فيها الوشي ،قال الفراء : العبقري الطنافس الثخان وقيل : الرقيق،وقيل : البسط،وقيل : الديباج،قال ابن الأنباري : الأصل فيه أن عبقر قرية تسكن فيها الجن ينسب اليها كل فائق ، قال الخليل : العبقري عند العرب كل جليل فاضل ، فاخر من الرجال والنساء . قال الجوهري : العبقري موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته ، فقالوا عبقري وهو واحد وجمع ، قرأ الجمهور عبقري وقرىء عباقري وعباقر ، وهما نسبة الى عباقر اسم بلد ، وقال قطرب : ليس بمنسوب ، وهو مثل كرسي وكراسي وبختي وبخاتي .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ فإن كل واحد منها أجل من أن يتطرق إليه التكذيب ، وأعظم من أن يجحده جاحد ، أو ينكره منكر ، وقد قدمنا في أوائل هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده .

﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ﴾ قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة للرب سبحانه ، وقرىء بالرفع على أنه صفة للاسم ، وتبارك تفاعل من البركة ، قال الرازي : وأصل التبارك من التبرك ، وهو الدوام والثبات ومنه برك البعير وبركة الماء ، فإن الماء يكون دائماً ، والمعنى دام اسمه ، وثبت أو دام

الخير عنده ، لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير ، أو يكون معناه علا ، وارتفع شأنه ، وقيل : معناه تنزيه الله سبحانه وتقديسه .

وإذا كان هذا التبارك منسوباً إلى اسمه عز وجل فما ظنك بذاته سبحانه .

وقيل : الاسم بمعنى الصفة ، وقيل : هو مقحم .

« عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »[١] ، أخرجه أبو داود والنسائي غير قولها : إلا مقدار ما يقول .

« وعن ثوبان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام » أخرجه مسلم وقد تقدم تفسير ذي الجلال والإكرام في هذه السورة ، وذكر سليمان الجمل هنا كلاماً طويلاً يتعلق بشرح هذه الآيات من تذكرة القرطبي وغالبه في تفسيره لا نطول بذكره لقلة الفائدة .

---

(١) رواه النسائي .

﴿ هي ست أو سبع أو تسع وتسعون آية ﴾

وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء ، وقال ابن عباس وقتادة : الا آية منها نزلت بالمدينة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ وقال الكلبي : انها مكّية الا أربع آيات منها ، وهي : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ؟ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ ، نزلتا في سفره الى مكة ، وقوله : ﴿ ثلة من الاولين ، وقليل من الآخرين ﴾ نزلتا في سفره الى المدينة قال ابن عباس : نزلت الواقعة بمكة ، عن ابن الزبير مثله .

« وعن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه الفاقة أبداً »[1] . أخرجه البيهقي في الشعب ، والحرث بن أبي أسامة ، وأبو يعلى ، وابن مردويه و « عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : سورة الواقعة سورة الغنى فاقرأوها وعلموا أولادكم » أخرجه ابن عساكر .

« وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال علموا نساءكم سورة الواقعة فانها سورة الغنى » أخرجه الديلمي .

وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : شيبتني هود والواقعة قال مسروق من أراد أن يعلم نبأ الاولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار ، ونبأ أهل الدنيا ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة .

---

(١) هذا الحديث والذي بعده غير صحيح . المطيعي .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا
﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾
فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾
وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا
يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم اذا وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ، وقيل : إذا نزلت صيحة القيامة ، قال المفسرون : وهي النفخة الأخيرة الثانية وقيل : هي اسم للقيامة كالآزفة وغيرها ، وسميت الواقعة لأنها كائنة لا محالة أو لقرب وقوعها أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، أي اذكر وقت وقوع الواقعة أو إذا وقعت كان كيت وكيت قاله مكي، وقيل : غير ذلك .

﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ الكاذبة مصدر كالعاقبة أي ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً ، والمعنى أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب لها أصلاً أو لا تكون هناك نفس تكذب على الله وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة ، ووقوع القيامة لأن كل نفس تكذب حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات واللام كقوله تعالى ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ ، وقال الزجاج : معناه لا يردها شيء ، وبه قال الحسن وقتادة وقال الثوري : ليس لوقعتها أحد يكذب بها ، وقال الكسائي : ليس لها تكذيب ، أي لا ينبغي أن يكذب بها أحد وقال ابن عباس : ليس لها مرد يرد .

﴿ خافضة رافعة ﴾ قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ أي هي خافضة ، وقرىء بنصبهما على الحال ، والجملة تقرير لعظمتها ، وتهويل لأمرها ، فإن الوقائع العظام شأنها كذلك ، أو بيان لما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ورفع السعداء الى الدرجات ، ومن زلزلة الأشياء وإزالة الأجرام عن مقارها لنثر الكواكب وإسقاط السماء كسفاً ، وغير ذلك ، قال عكرمة والسدي ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا،ورفعت الصوت فأسمعت من نأى وقال قتادة : خفضت أقواماً في عذاب الله،ورفعت أقواماً إلى طاعة الله .

وقال محمد بن كعب : خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين ، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة ، والعز والاهانة ، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز ، والخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه،قال ابن عباس : ﴿ خافضة رافعة ﴾ تخفض ناساً وترفع آخرين ، وعنه قال : أسمعت القريب والبعيد،وعن عمر بن الخطاب قال : الساعة خفضت أعداء الله الى النار،ورفعت أولياء الله إلى الجنة .

﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أي إذا حركت حركة شديدة ، يقال : رجه يرجه رجاً إذا حركه،والرجة الاضطراب . وارتج البحر وغيره اضطرب ، قال المفسرون : ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ البس الفت ، يقال : بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتاً،ويقال : بس السويق إذا لَتَّهُ بالسمن أو بالزيت ، قال مجاهد ومقاتل : المعنى أن الجبال فتت فتاً،وبه قال ابن عباس ، وقال السدي : كسرت كسراً ، وقال الحسن : قلعت من أصلها ، وقال مجاهد أيضا : بست كما يبس الدقيق بالسمن أو بالزيت،والمعنى أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت .

وقال أبو زيد : البس السوق ، والمعنى على هذا سيقت «جبال سوقاً قال أبو عبيد : بس الابل وابتسها لغتان إذا زجرها،وقال عكرمة : المعنى هدت هداً، وقيل : صارت كثيباً مهيلاً بعد أن كانت شامخة ، وقال قتادة ومقاتل وابن عباس ومجاهد : معنى رجت زلزلت ، أي تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض وينخفض ما هو مرتفع وقيل المعنى وقوع الواقعة هو رج الأرض وبس الجبال .

﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ أي غباراً متفرقاً منتشراً بنفسه ، من غير حاجة إلى هواء يفرقه ، وقال مجاهد : الهباء الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار ، وقيل : هو الرهج الذي يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، وقيل ما تطاير من النار إذا اضطرمت يطير منها على صورة الشرر ، فاذا وقع لم يكن شيئاً،قاله ابن عباس وعطية ، وقد تقدم بيانه في الفرقان عند تفسير قوله : ﴿ فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ، قرأ الجمهور منبثاً بالمثلثة،وقرىء بالمثناة الفوقية،أي :منقطعاً من قولهم : بته الله أي قطعه .

وقال ابن عباس : شعاع الشمس ، وعنه الهباء ما يثور مع شعاع الشمس وانبثاثه تفرقه ، وقال علي : الهباء المنبث رهج الدواب والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوة ، ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال :

﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ الخطاب للأمة الحاضرة والأمم السالفة تغليباً أو للحاضرة فقط ، والمعنى وكنتم في ذلك اليوم أصنافاً ثلاثة،اثنان في الجنة واحد في النار،صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر فهو زوج،قال ابن عباس : الأزواج الأصناف وهي التي في سورة الملائكة ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾ ، ثم فسر سبحانه هذه الأصناف فقال :

﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ وهي ناحية اليمين،أي أصحاب اليمين وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم أو الذين تؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة ، وأصحاب الميمنة مبتدأ خبره ﴿ ما أصحاب الميمنة ؟ ﴾ أي أيُّ شيء هم في حالهم وصفتهم وسعادتهم ؟ وتكرير المبتدأ هنا بلفظة مغن عن الضمير الرابط كما في قوله ﴿ الحاقّة ما الحاقّة ﴾ ، ﴿ والقارعة ما القارعة ﴾ ولا يجوز مثل هذا إلا في مواضع التعظيم والتفخيم .

والكلام في قوله : ﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ؟ ﴾ كالكلام فيما تقدم ، والمراد بهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار ، أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمائلهم ، والمراد تعجيب السامع من حال الفريقين في الفخامة والفظاعة ، كأنه قيل فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة وغاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة في نهاية الشقاوة وغاية سوء الحال ، فالاستفهام في كلا الموضعين للتعجيب ، وقال السدي : أصحاب المشأمة هم الذين كانوا عن شماله ، وقال زيد بن اسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ، وأصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر ، وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئآت .

وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الحسنة ، وأصحاب المشأمة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة ، وقال المبرد : أصحاب الميمنة أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر،والعرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك ، أي اجعلني من المتقدمين ولا تجعلني من المتأخرين ، وقيل : المراد أصحاب المنزلة السنية الرفيعة ، وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة ، أخذاً من تيامنهم بالميامن ، وتشاؤمهم بالشمائل .

أخرج أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلا

هذه الآية : ﴿ وأصحاب اليمين﴾﴿وأصحاب الشمال﴾ ، فقبض بيديه قبضتين فقال : هذه في الجنة ولا أبالي ، وهذه في النار ولا أبالي .

﴿ والسابقون ﴾ مبتدأ وخبره قوله : ﴿ السابقون ﴾ والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم كما مر في القسمين الأولين ، كما نقول : أنت أنت وزيد زيد ، وفيه تأويلان .

أحدهما بمعنى السابقون ، هم الذين اشتهرت حالهم بذلك ، وعرفت محاسنهم .

والثاني أن متعلق السبقيْن مختلف ، والتقدير : السابقون الى الإيمان السابقون إلى الجنة ، والأول أولى ، لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم ، وقال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الايمان من كل أمة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان ، وقال محمد بن كعب : انهم الأنبياء وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا الى القبلتين ، وقيل : هم الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات ، وقيل : هم السابقون إلى الصلوات الخمس ، وقيل : المسارعون في الخيرات ، وقال مجاهد : هم الذين سبقوا إلى الجهاد وبه قال الضحاك .

وقال سعيد بن جبير : هم السابقون الى التوبة وأعمال البر ، وقال الزجاج : المعنى والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ، قال ابن عباس : السابقون يوشع بن نون سبق إلى موسى ، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى ، وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه سبق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنه قال : نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار الذي ذكر في يسٓ ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكل رجل منهم سابق أمة ، وعلي أفضلهم سبقاً .

« وعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : أتدرون من السابقون الى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم

قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوا ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم »[١] أخرجه أحمد قيل ووجه تأخير هذا الصنف الثالث ، مع كونه أشرف من الصنفين الأولين ، وأسبق الأقسام وأقدمهم في الفضل ، هو أن يقترن به ما بعده وهو قوله : ﴿ أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾ فالاشارة هي اليهم،أي:المقربون الى جزيل ثواب الله ، وعظيم كرامته ، أو الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم ، وأعليت مراتبهم ، ورقت الى حظائر القدس نفوسهم الزكية .

وما في أولئك من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للايذان ببعد منزلتهم في الفضل ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره ما بعده ، هذا أظهر ما ذكر في إعراب هذه الجملة ، وأشهره وهو الذي يقتضيه جزالة التنزيل ، وجنات النعيم ، خبر ثان،أو حال من الضمير في المقربون ، أو متعلق به ؛ أي: قربوا الى رحمة الله فيها،قرأ الجمهور جنات بالجمع ، وقرىء جنة بالافراد وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه ، كما يقال : دار الضيافة ، ودار الدعوة ، ودار العدل .

﴿ ثلة من الأولين ﴾ أي هم ثلة ، وهي الجماعة التي لا يحصر عددها ، قال الزجاج : معنى ثلة فرقة من ثللت الشيء إذا قطعته ، والمراد بالأولين هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم ، من بينهما من الأنبياء العظام ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أي من هذه الأمة وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم ، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم ، وكثرة من أجابهم قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا ، قال الزجاج : الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح .

« من قوله صلى الله عليه وسلم ، اني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ،

---

(١) رواه أحمد .

ثم قال : ثلث أهل الجنة ، ثم قال : نصف أهل الجنة »(١) ، لأن قوله ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ انما هو تفصيل للسابقين فقط كما سيأتي في ذكر أصحاب اليمين انهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم فيجتمع من قليل سابقي هذه الأمة ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة .

والمقابلة بين الثلتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما ، لجواز أن يقال : هذه الثلة أكثر من هذه الثلة . كما يقال ؛ هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة وبهذا تعرف انه لم يصب منْ قال : ان هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور « عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :«إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة،ثلث أهل الجنة،بل أنتم نصف أهل الجنة،أو شطر أهل الجنة،وتقاسمونهم النصف الثاني » أخرجه أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين.فقال :

﴿ على سرر موضونة ﴾ قرأ الجمهور بضم السين والراء الأولى ، وقرىء بفتح الراء ، وهي لغة كما تقدم ، جمع سرير ، وهو ما يجعل للانسان من المقاعد العليا ، الموضوعة للراحة والكرامة ، والموضونة المنسوجة ، والوضن النسج المضاعف ، يقال : وضن الشيء يضنه فهو موضون ووضين ، ثنى بعضه على بعض وضاعفه ، والغزل نسجه ، والموضونة الدرع المنسوجة أو المتقاربة النسج ، أو المنسوجة حلقتين حلقتين ، أو بالجواهر ، كذا في القاموس . قال الواحدي : قال المفسرون : منسوجة بقضبان الذهب ، وقيل :

(٢) رواه مسلم .

مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد ، وقيل : إن الموضـونة المصفـوفة ، قـاله ابن عباس ، وقال مجاهد : هي المرمولة بالذهب ، والمعنى مستقرين على سرر .

﴿ متكئين عليهـا ﴾ أي على السـرر على الجنب أو غيـره ، كحـال من يكون على كرسي فيوضع تحته شيء آخر لـلاتكاء عليـه ، قال الكلبي : طـول كل سرير ثلثمائة ذراع فإذا أراد العبد ، أن يجلس عليه تـواضع وانخفض لـه ، فإذا جلس ارتفع ﴿ متقابلين ﴾ لا ينظر بعضهم الى قفـا بعض ، وصفوا بحسن العشرة ، وتهذيب الأخـلاق ، وصفاء المـودة ، وقال مجـاهد وغيـره : هذا في المؤمن وزوجته وأهله .

﴿ يـطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي يـدور حـولهم للخـدمـة غلمـان شكلهم شكل الولدان دائماً ، والجملة حالية أو مستأنفة لبيان بعض ما أعد الله لهم من النعيم ، قال مجاهد : المعنى لا يموتون ، وقال الحسن والكلبي : لا يهرمون ولا يتغيرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة ، مبقون أبداً ، قال الفراء : والعـرب تقول للرجـل إذا كبر ولم يشمط : انـه لمخلد،وقال سعيـد بن جبير : مخلدون مقرطون ، قال الفراء : يقال : خلد جاريته إذا حلاها بالخلدة ، وهي القرطة ، وهي الحلقة تعلق في الأذن . وقال عكرمة : مخلدون منعـمون ، وقيل : مستورون بالحلية ، وروي نحوه عن الفراء ، وقيل : مخلدون ممنطقون قيل : وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً لا حسنة لهم ولا سيئة ، وهو ضعيف ، وقيل : هم أطفال المشركين ماتوا قبل التكليف ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة ابتداء ، كالحور العين من غير ولادة ، للقيام بهذه الخدمة ، ليسوا من أولاد الدنيا وهذا هو الصحيح . وأطلق عليهم اسم الولدان لأن العرب تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم ، والأمة وليدة وإن أسنت .

﴿ بأكواب وأبـاريق ﴾ الأكواب هي الأقـداح المستديـرة الأفواه ، التي لا آذان لها ولا عرى ، وقد مضى بيان معناها في سـورة الزخـرف ، والأباريق هي ذوات العرى والخراطيم ، واحـدها ابـريق وهو الـذي يبرق لـونه من صفـائه ، ويرى باطنها كما يرى ظاهرها .

﴿وكــأس﴾ إنـاء ﴿من معــين﴾ أي من خمـر جــاريـة ، أو من مــاء جـار ، والمراد به هنـا الخمر الجـارية من منبـع لا ينقطع أبـداً ، وقد تقـدم بيان معنى الكأس في سورة الصافات .

﴿ لا يصدعون عنها ﴾ أي لا تتصدع رؤوسهم من شربها كما تتصدع من شرب خمر الـدنيا ، وعنهـا كنايـة عن الكأس أي بسببهـا ، والصداع هـو الداء المعروف الذي يلحق الانسان في رأسه ، والخمر تؤثر فيه ، وقيل : المعنى لا يتفرقون كمـا يتفرق الشـراب ، ويقوي هـذا المعنى قراءة مجـاهد : يصـدعون بفتح الياء وتشديد الصاد ، والأصل يتصدعون أي يتفرقون ، والجملة مستـأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم .

﴿ ولا ينـزفون ﴾ اي لا يسكـرون فتذهب عقـولهم ، قرىء بكسـر الزاي وبفتحها ، وهما سبعيتان ، من أنزف الشـارب ونزف إذا نفـد عقله أو شرابـه ، أي لا يحصـل لهم منها ذهـاب عقل ، بخـلاف خمـر الـدنيـا ﴿ وفـاكهـة ممـا يتخيرون ﴾ أي يختارونه ، يقال : تخيرت الشيء إذا أخذت خيره .

﴿ ولحم طير مما يشتهـون ﴾ أي ما يتمنـونه وتشتهيـه أنفسهم ، والمعنى يطوفون عليهم بهذه الأشياء المـأكول والمشـروب والمنفكه بـه ، قرأ الجمهـور فاكهة ولحم طير بالجر ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، والخبر مقدر ، أي ولهم فاكهة ولحم طير ، وفي تخصيص الفاكهـة بالتخيـر واللحم بالاشتهـاء بلاغـة ، لأن الجائع مشته والشبعان غير مشته ، بل هو مختار ، ولذا قـدم الفاكهـة على اللحم .

« عن ابن مسعود قال : قـال لي رسول الله صلى الله عليـه وسلم : انك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه ، فيخر بين يـديك مشـوياً » أخـرجه ابن أبي الدنيا والبزار والبيهقي .

وأخرج أحمد والترمذي والضيـاء « عن أنس قال : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه الطير لناعمة . قال : آكلها أنعم منها ، واني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » ، وفي الباب أحاديث .

وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ
مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾
لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا
﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ
﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾

﴿ وحور عين ﴾ قرأ الجمهور برفعهما عطفاً على الولدان،أو على تقدير مبتدأ أي ونساؤهم حور عين،أو على تقدير خبر ، أي:ولهم حور عين ، وقرىء بجرهما عطفاً على أكواب ، قال الزجاج : وجائز أن يكون معطوفاً على جنات ، أي هم في جنات وفي حور ، على تقدير مضاف ، أي وفي معاشره حور ، قال قطرب : هو معطوف على الأكواب من غير حمل على المعنى ، قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ، وتكون لهم في ذلك لذة وقرىء بنصبهما على تقدير اضمار فعل ، كأنه قيل ويزوجون حوراً عيناً أو ويعطون ، والحور شديدات بياض أجسادهن ، قال أبو عمرو : ليس في بني آدم حور ، وانما قيل للنساء حور العيون تشبيها بالظباء والبقر،والعين شديدات سواد العيون مع سعتها ، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيرها .

﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ المصون في الصفاء والنقاء ، شبهن باللؤلؤ المكنون وهو الذي لم تمسه الأيدي ، ولا وقع عليه الغبار ، والشمس والهواء فهو أشد ما يكون صفاء ، قال ابن عباس : المكنون المخزون الذي في الصدف قال الزجاج : كأمثال الدرحين يخرج من صدفه لم يغيره الزمان ، واختلاف أحوال الاستعمال ، روي أن نوراً سطع في الجنة فقيل : ما هذا ؟

قيل ثغر حوراء ضحكت ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم أي يجزون جزاء .

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ﴾ اللغو الباطل من الكلام ، والتأثيم النسبة الى الاثم ، قال محمد بن كعب : لا يؤثم بعضهم بعضاً ، وقال مجاهد : لا يسمعون شتماً ولا مأثماً ، والمعنى: انه لا يقول بعضهم لبعض ، أثمت ، لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم ، قال ابن عباس : لغواً باطلاً ، ولا تأثيماً كذباً .

﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ القيل القول ، والاستثناء منقطع ، لأن السلام لم يندرج تحت اللغو التأثيم ، أي لكن يقولون قيلاً ، أو يسمعون قيلاً ، أو إلا أن يقولوا : سلاماً سلاماً ، واختار هذا الزجاج ، أو إلا قيلاً سلموا سلاماً سلاماً ، والمعنى:انهم لا يسمعون الا تحية بعضهم البعض ، قال عطاء : يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، وقيل : انهم يفشون سلاماً بينهم فيسلمون سلاماً بعد سلام ، وقيل : تسلم الملائكة عليهم ، أو يرسل الرب بالسلام اليهم،وقيل إن قولهم يسلم من اللغو والأول أولى ، وقيل : إن الاستثناء متصل ، وهو بعيد جداً ، وقرىء سلام سلام بالرفع،وقيل : يجوز الرفع على معنى سلام عليكم،ولما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين وما أعده لهم من النعيم المقيم ذكر أحوال أصحاب اليمين فقال :

﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ؟ ﴾ قد قدمنا ما في هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم والتعظيم ﴿ في سدر مخضود ﴾ أي هم في سدر ، والظرفية للمبالغة في التنعم ، والانتفاع به ، والسدر نوع من الشجر ، قيل : ثمرها أعظم من القلال ، وهو النبق ، والمخضود الذي خضد شوكه ، أي قطع فلا شوك فيه ، وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : إن السدر المخضود الموقر حملاً .

وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي . « عن أبي أمامة قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، قال وما هي ؟ قال السدر : فإن لها شوكاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس الله يقول في سدر مخضود ؟ يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمراً يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر » . قال ابن عباس : خضده وقره من الحمل ، وعنه قال المخضود الذي لا شوك فيه ، وقال أيضاً الموقر الذي لا شوك فيه .

﴿ وطلح منضود ﴾ قال أكثر المفسرين : إن الطلح في الآية هو شجر الموز ، وقال جماعة ليس هو شجر الموز ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم أشجار العرب . وقال الفراء وأبو عبيدة : هو شجر عظام لها شوك ، وقيل : هو شجر له ظل بارد طيب ، قال الزجاج : الطلح هو أم غيلان ولها نور طيب، فخوطبوا ووعدوا بمثل ما يحبون ، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا ، قال : ويجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه،قال السدي : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا ، لكن له ثمر أحلى من العسل ، والمنضود المتراكب الذي قد نضد أوله وآخره وأسفله وأعلاه بالحمل ليس له سوق بارزة،قال مسروق : أشجار الجنة من عروقها الى أفنانها نضيد ثمر كله كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها،وليس شيء من ثمر الجنة في غلاف كثمر الدنيا،مثل الباقلاء والجوز ونحوهما بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور اليه .

« عن عتبة بن عبد السلمي قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء أعرابي فقال : يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر منها شوكاً يعني الطلح ، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ان الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود ، يعني الخصي منها ، فيها سبعون لوناً من الطعام ، لا يشبه لون آخر » أخرجه ابن أبي داود والطبراني وأبو نعيم وابن مردويه ، وعن علي في قوله طلح قال : هو الموز ، وعن ابن عباس مثله ؛ وعن أبي هريرة مثله ، وعن أبي سعيد الخدري مثله،وقرأ علي طلع ، وقال ابن عباس : منضود بعضه على بعض .

﴿ وظل ممدود ﴾ أي دائم باق لا يزول ، ولا تنسخه الشمس كظل أهل الدنيا ، ممتد منبسط ، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس،قال أبو عبيدة والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع ممدود ، ومنه قوله ﴿ ألم تر الى ربك كيف مد الظل ﴾ ، والجنة كلها ظل لا شمس معه ، قال الربيع بن أنس يعني ظل العرش .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما « من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ ، وأخرج البخاري وغيره نحوه من حديث أنس وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما نحوه من حديث أبي سعيد .

﴿ وماء مسكوب ﴾ أي،منصب جار يجري بالليل والنهار أينما شاؤوا ، لا ينقطع عنهم ، فهو مسكوب ، يسكبه الله في مجاريه ، وأصل السكب الصب يقال : سكبه سكباً أي: صبه ، والمعنى جار بلا حد ولا خد،أي في غير أخدود .

﴿ وفاكهة كثيرة ﴾ أي ألوان متنوعة ، وأجناس متكثرة ﴿ لا مقطوعة ﴾ في وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات ، وهذا نعت لفاكهة ، ولا للنفي كقولك : مررت برجل لا طويل ولا قصير ، ولذلك لزم تكرارها ﴿ ولا ممنوعة ﴾ أي لا تمتنع على من أرادها في أي وقت ، على أي صفة شاء ، بل هي معدة لمن أرادها ، لا يحول بينه وبينها حائل من ثمن أو حائط أو باب أو سلم أو بعد ، قال تعالى :﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ قال ابن قتيبة : يعني انها غير محظورة عليها ، كما يحظر على البساتين في الدنيا .

﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أي مرفوع بعضها فوق بعض ، أو مرفوعة على الأسرة ، وقيل : ان الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة وارتفاعها كونها على الأرائك ، أو كونها مرتفعات الأقدار في الحسن والكمال ، قال تعالى : ﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴾ .

« عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام » ، أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وحسنه،وغيرهم ، وقال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد،انتهى.وهو ضعيف .

﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ قيل : هن الحور العين ، أنشأهن الله لم تقع عليهن الولادة ، ولم يسبقن بخلق ، وإنهن لسن من نسل آدم عليه السلام ، بل مخترعات : وهو ما جرى عليه أبو عبيدة وغيره ، وقيل : المراد نساء بني آدم والمعنى أن الله سبحانه أعادهن بعد الموت الى حال الشباب ، والنساء ـ وإن لم يتقدم لهن ذكر ـ لكنهن قد دخلن في أصحاب اليمين فتلخص أن نساء الدنيا يخلقهن الله في القيامة خلقاً جديداً ، من غير توسط ولادة ، خلقاً يناسب البقاء والدوام ، وذلك يستلزم كمال الخلق ، وتوفر القوى الجسمية ، وانتفاء سمات النقص ، كما أنه خلق الحور العين على ذلك الوجه ، وأما على قول من قال : إن الفرش المرفوعة كناية عن النساء فمرجع الضمير ظاهر .

« عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الآية : إن المنشآت التي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصا » أخرجه ابن جرير وابن المنذر والبيهقي والترمذي وعبد بن حميد،قال الترمذي : غريب وموسى ويزيد ضعيفان .

« وعن سلمة ابن مريد الجعفي قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا » أخرجه الطبراني وابن قانع والبيهقي وابن أبي حاتم . قال ابن عباس : خلقهن غير خلقهن الأول ، وقيل : انهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا .

﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ أي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان قال ابن عباس : أبكاراً عذارى ، أي كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ، ولا يحصل لهن وجع في إزالة البكارة ﴿ عرباً أتراباً ﴾ العرب جمع عروب وهي المتحببة الى زوجها الحسنة البعل ، قال المبرد : هي العاشقة لزوجها ، وقال زيد بن أسلم : هي الحسنة الكلام ، قرأ الجمهور بضم العين والراءوقرىء بإسكان الراء وهما لغتان في جمع فعول ، وقراءتان سبعيتان ، قال ابن عباس : عرباً عواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون ، أتراباً في سن واحد ثلاثاً وثلاثين سنة .

وعنه قال : العروب الملقة لزوجها ، وقال مجاهد : أتراباً أمثالاً وأشكالاً ، وقال السدي : أتراباً في الأخلاق لا تباغض بينهن ، ولا تحاسد .

« وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو قيل : ثلاث وثلاثين سنة » ، أخرجه الترمذي،وقال : حديث حسن غريب ، والأتراب جمع ترب وهو المساوي لك في سنك ، لأنه يمس جلدهما التراب في وقت واحد ، وهو آكد في الائتلاف ، وهو من الأسماء التي لا تتعرف بالاضافة لأنه في معنى الصفة ، اذ معناه مساويك ، ومثله خدنك لأنه في معنى صاحبك ، يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران .

﴿ لأصحاب اليمين ﴾ يعني أن الله أنشأهن لأجلهم،أو خلقهن لأجلهم أو هن مساويات لأصحاب اليمين في السن،أو هن لأصحاب اليمين،أو هذا الذي ذكرنا لهم ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ هذا راجع الى قوله ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ أي هم ثلة الخ ، وقد تقدم تفسير الثلة عند ذكر السابقين ، والمعنى انهم جماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الأولين ، وهم من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم وجماعة أو أمة أو فرقة أو قطعة من الآخرين ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك : ﴿ ثلة من الأولين ﴾ بمعنى من سابقي هذه

الأمة ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ من هذه الأمة من آخرها .

أخرج مسدد وابن المنذر والطبراني بسند حسن . « عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في الآية قال : جميعها من هذه الأمة » وعنه قال : هما جميعاً من هذه الأمة «وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : هما جميعاً من أمتي » ، أخرجه عبد بن حميد وابن عدي والفريابي وغيرهم ، قال السيوطي : بسند ضعيف ، وعنه قال الثلتان جميعاً من هذه الأمة ، وبه قال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك ، وهو اختيار الزجاج ، فان قلت : كيف قال قبل هذا وقليل من الآخرين ؟ ثم قال هنا وثلة من الآخرين ؟ قلت ذاك في السابقين الأولين ، وقليل من يلحق بهم من الآخرين ، وهذا في أصحاب اليمين ، وانهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً .

ثم لما فرغ سبحانه مما أعده لأصحاب اليمين شرع في ذكر أصحاب الشمال وما أعده لهم فقال :

﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ ﴾ الكلام في هذا وما فيه من التفخيم كما سبق في أصحاب اليمين . والشمال والمشأمة واحدة ﴿ في سموم وحميم ﴾ السموم حر النار ، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة ، وقيل السموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن ، وقد سبق بيان معناهما .

﴿ وظل من يحموم ﴾ اليحموم يفعول من الأحم،أو الحميم وهو الأسود تقول أسود يحموم إذا كان شديد السواد ، والمعنى:انهم يفزعون الى الظل فيجدونه ظلاً من دخان جهنم ، شديد السواد ، وقيل هو مأخوذ من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار ، وقيل مأخوذ من الحمم وهو الفحم والرماد ، وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود ، قال ابن عباس : يحموم دخان أسود ، وفي لفظ دخان جهنم ، وقيل : واد في جهنم ، وقيل : اسم من أسمائها،والأول أظهر ، ثم وصف الله سبحانه هذا الظل بقوله :

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ
﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا
الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ
إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ
خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿ لا بارد ﴾ أي ليس كغيره من الظلال التي تكون باردة بل هو حار ضار لأنه من دخان نار جهنم ﴿ ولا كريم ﴾ قال سعيد ابن المسيب : أي ليس فيه حسن منظر ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم ، وقال الضحاك : ولا كريم ولا عذب ، قال الفراء : العرب يجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الدم ، تقول ما هو بسمين ولا كريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة ، والنعتان المذكوران لقوله : ظل،لا ليحموم وما قيل من أنه يلزم على ذلك تقديم غير الصريحة على الصريحة فلا يرد ، لأن الترتيب غير واجب نص عليه الرضى مع أنه هنا يفضي إلى عدم توازن الفاصلتين ، وجعلهما نعتين ليحموم لا يلائم البلاغة القرآنية ، وكان من حق الظاهر أن يقال : وظل حار ضار ، فعدل إلى قوله ﴿ وظل من يحموم ﴾ ليتبادر منه إلى الذهن أولاً الظل المتعارف ، فيطمع السامع ، فإذا نفى عنه ما هو المطلوب من الظل ، وهو البرد والاسترواح جاءت السخرية والتهكم والتعريض بأن الذين يستأهلون الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء ، فيكون أشجى لحلوقهم ، وأشد لتحسرهم .

قال الرازي : وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى كونهم في العذاب دائماً ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب فقال : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ أي قبل هذا العذاب النازل بهم ﴿ مترفين ﴾ في الدنيا أي منعمين بما لا يحل لهم

فمنعهم ذلك من الإنزجار ، وشغلهم عن الإعتبار ، وإنما كان الترفة هنا ذماً من حيث إنهم جعلوا من جملته القعود عن الطاعات وتركها ، فصح ذمهم بهذا الإعتبار مع أنه في الواقع ليس ذماً في حد ذاته،والمترف المتنعم،وقال السدي : مشركين ، وقيل : متكبرين والأول أولى والجملة تعليل لإستحقاقهم هذه العقوبة .

قال الرازي : والحكمة في ذكره سبب عذابهم ولم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم ، فلم يقل : إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين ، وذلك للتنبيه على أن الثواب منه تعالى فضل والعقاب منه عدل والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يوهم بالمتفضل نقصاً ولا ظلماً،وأما العدل فإنه إن لم يذكر سبب العقاب يظن أنه ظالم،ويدل على ذلك أنه تعالى لم يقل في حق أصحاب اليمين ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كما قال في السابقين ، لأن أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل بخلاف من كثرت حسناته فإنه يحسن إطلاق الجزاء في حقه .

﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ الحنث الذنب،أي:يصرون على الذنب العظيم ، قال الواحدي : قال أهل التفسير : عنى به الشرك لأنه نقض عهد الميثاق ، والحنث نقض العهد المؤكد باليمين . أي كانوا لا يتوبون عن الشرك ، وبه قال الحسن والضحاك وابن زيد ، وقال قتادة ومجاهد : هو الذنب العظيم الذي لا يتوبون عنه ، وقال الشعبي : هو اليمين الغموس ، وذلك أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون ، وكذبوا في ذلك ، يدل عليه قوله : ﴿ وكانوا يقولون : أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾ الإستفهام في الموضعين للإنكار ، والإستبعاد وقد تقدم الكلام على هذا في الصافات وفي سورة الرعد .

والمعنى أنهم أنكروا واستبعدوا ان يبعثوا بعد الموت وقد صاروا عظاماً وتراباً ، والمراد أنه صار لحمهم وجلودهم تراباً . وصارت عظامهم نخرة بالية والعامل في الظرف ما يدل عليه : مبعوثون ، لأن ما بعد الإستفهام لا يعمل فيما قبله ، أي انبعث إذا متنا ؟

﴿ أو آباؤنا الأولون ؟ ﴾ معطوف على الضمير في ﴿ لمبعوثون ﴾ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة ، والمعنى أن بعث آبائهم الأولين أبعد لتقدم موتهم ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عليهم ويرد استبعادهم فقال : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم رداً لانكارهم ، وتحقيقاً للحق :

﴿ إن الأولين ﴾ من الأمم ﴿ والآخرين ﴾ منهم الذين أنتم من جملتهم ﴿ لمجموعون ﴾ بعد الموت ﴿ إلى ميقات ﴾ أي لوقت ﴿ يوم معلوم ﴾ معين عندالله ، وهو يوم القيامة ، والميقات ما وقت به الشيء،أي:حد ، ومنه مواقيت الإحرام ، والإضافة بمعنى من كخاتم فضة ، والمعنى أنهم يحشرون إلى ما وقِّتَ به الدنيا من يوم الحساب .

﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ﴾ هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول ، وهو معطوف على : ﴿إن الأولين﴾ والمراد أهل مكة ومن في مثل حالهم ، ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين . وهما الضلال عن الحق والتكذيب للبعث وثم للتراخي زماناً أورتبة .

﴿ لآكلون ﴾ في الآخرة ﴿ من شجر من زقوم ﴾ أي من شجر كريه المنظر كريه الطعم ، وهو من أخبث الشجر المر ، ينبت في الدنيا بتهامة ، وفي الآخرة ينبته الله في الجحيم ، وهو في غاية الكراهة وبشاعة المنظر ونتن الريح وقد تقدم تفسيره في سورة الصافات،ومن الأولى لابتداء الغاية ، والثانية:بيانية،أو الأولى مزيدة والثانية بيانية ، أو الثانية:مزيدة،والأولى للإبتداء ﴿ فمالئون منها ﴾ أي:من شجر الزقوم ، وتأنيث الضمير لكون الشجر أسم جنس ، وإسم الجنس يجوز تذكيره وتأنيثه لغتان ﴿ البطون ﴾ أي:بطونكم لما يلحقكم من شدة الجوع .
﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾ الضمير عائد إلى الزقوم المأكول ، والحميم الماء الحار الذي قد بلغ حره إلى الغاية ، والمعنى فشاربون عقب أكله من الماء الحار،أو يعود الضمير إلى شجر ، لأنه يذكر ويؤنث ، أو يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله : ﴿ لآكلون ﴾ وقرىء من شجرة بالافراد ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ قرأ

الجمهور ﴿ شرب الهيم ﴾ بفتح الشين وقرىء بضمها وبكسرها وهي لغات . قال : أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها ، قال المبرد : الفتح أصل المصدر ، والضم إسم المصدر ، والهيم الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها وهذه الجملة بيان لما قبلها ، أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً ، بل يكون مثل شرب الهيم ، التي تعطش ولا تروى بشرب الماء ، ومفرد الهيم أهيم والأنثى هيماء .

وقال الضحاك وابن عيينة والأخفش وابن كيسان : الهيم الأرض السهلة ذات الرمل . والمعنى أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء ، ولا يظهر له فيها أثر . قال في الصحاح : ألهيام بالضم أشد العطش . والهيام كالجنون من العشق ، والهيام داء يأخذ الابل فتهيم في الأرض لا ترعى ، يقال : ناقة هيماء،والهيماء أيضاً المفازة لا ماء بها ، والهيام بالفتح الرمل الذي لا يتماسك في اليد للينه ، والجمع هيم مثل قذال وقذل ، والهيام بالكسر الابل العطاش ، قال النسفي : وإنما صح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة ، وصفتين متفقتين لأن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة ، وقطع الأمعاء أمر عجيب . وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً فكانتا صفتين مختلفتين .

﴿ هذا ﴾ أي ما ذكر من الزقوم المأكول ، والحميم المشروب ﴿ نزلهم ﴾ أي رزقهم وغذاؤهم ، قرأ الجمهور ﴿ نزل ﴾ بضمتين ، وقرىء بضمة وسكون ﴿ يوم الدين ﴾ أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، والمعنى.أن ما ذكر من شجر الزقوم وشراب الحميم هو الذي يعد لهم ويأكلونه يوم القيامة ، وفي هذا تهكم بهم ، لأن النزل هو ما يعد للأضياف تكرمة لهم ، ومثل هذا قوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ، والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام غير داخلة تحت القول ، ثم التفت سبحانه إلى خطاب الكفر تبكيتاً لهم وإلزاماًللحجة فقال :

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾

﴿ نحن خلقناكم فلولاً ﴾ فهلا ﴿ تصدقون ؟ ﴾ بالخلق أو بالبعث إذ القادر على الإنشاء قادر على الاعادة ، قاله المحلي ، وقال مقاتل : خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك فهلا تصدقون بالبعث ؟ ﴿ أفرأيتم ﴾ أي: أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ﴿ ما تمنون ﴾ أي ما تقذفون وتصبون في أرحام النساء من النطف ، قرأ الجمهور تمنون بضم الفوقية من أمنى يمني ، وقرىء ، بفتحها من منى يمني وهما لغتان ، وقيل : معناهما مختلف يقال : أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومنى إذا أنزل من احتلام ، وسمي المني منياً لأنه يمني أي يراق .

﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ أي أتقدرون المني وتصورونه أنتم بشراً سوياً ، وهذا من باب الإشتغال ، أو أنتم مبتدأ والجملة بعده خبره ، والأول أرجح لأجل أداة الاستفهام ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ أي المقدرون المصورون له ، وأم هي المتصلة وقيل : هي المنقطعة والأول أولى .

﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ قرأ الجمهور ﴿ قدرنا ﴾ بالتشديد ، وقرىء بالتخفيف ، وهما لغتان وقراءتان سبعيتان ، يقال : قدرت الشيء وقدرته أي قسمناه عليكم ووقتناه لكل فرد من أفرادكم ، وقيل : قضينا ، وقيل : كتبنا ، وقيل : أوجبنا ، والمعنى متقارب ، قال مقاتل : فمنكم من يموت كبيراً ومنكم من

يموت صغيراً . وقال الضحاك : معناه أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء .

﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي بمغلوبين وعاجزين بل قادرين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أي نأتي بخلق مثلكم ، قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا وقال السمين : الأمثال جمع مثل بكسر الميم وسكون الثاء ، أي نحن قادرون على أن نعدمكم ونخلق قوماً آخرين أمثالكم ، ويؤيده : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ﴾ ، أو جمع مثل بفتحتين وهو الصفة ، أي نغير صفاتكم التي أنتم عليها خلقاً وخلقاً ، قلت : والأول اولى ، وقال ابن جرير : المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم ، بآخرين من جنسكم ، وما نحن بمسبوقين في آجالكم ، أي لا يتقدم متأخر ، ولا يتأخر متقدم .

﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ من الصور والهيئآت ، قال الحسن أي نجعلكم قردة وخنازير ، كما فعلنا بأقوام قبلكم ، وقيل : المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا ، وقال سعيد بن المسيب : يعني في حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف وبرهوت واد باليمن،وقال مجاهد : يعني في أي خلق شئنا ، ومن كان قادراً على هذا فهو قادر على البعث .

﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ وهي ابتداء الخلق من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ولم تكونوا قبل ذلك شيئاً،أو الترابية لأبيكم آدم ، واللحمية لأمكم حواء،والنطفية لكم ، وكل منها تحويل من شيء إلى غيره ، وقال قتادة والضحاك : يعني خلق آدم من تراب ﴿ فلولا تذكرون ﴾ أي فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخرى وتقيسونها على النشأة الأولى ؟ فإن من قدر على الأولى يقدر على الثانية ، فإنها أقل كلفة من الأولى في العادة ، قرأ الجمهور النشأة بالقصر وقرىء بالمد ، وقد مضى تفسير هذا في سورة العنكبوت ، وفيه دليل

على صحة القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى .

﴿ أفرأيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ ما تحرثون ﴾ من أرضكم وتثيرون فتطرحون ، وتلقون فيها البذر ، والمعنى أفرأيتم البذر الذي تلقونه في الطين ﴿ أأنتم تزرعونه ؟ ﴾ أي تنبتونه وتجعلونه زرعاً ، فيكون فيه السنبل والحب والزرع طرح البذر ، والزرع أيضاً الإنبات ، يقال : زرعه الله أي أنبته .

﴿ أم نحن الزارعون ؟ ﴾ أي المنبتون له الجاعلون له زرعاً لا أنتم ، قال المبرد : زرعه الله أي أنماه ، فإذا أقررتـم بهذا فكيف تنكرون البعث ؟ « عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يقولن أحدكم زرعت ولكن يقول حرثت ، قال أبو هريرة : ألم تسمعوا الله يقول : أفرأيتم ما تحرثون ؟ » الآية أخرجه البزار وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الشعب وضعفه ﴿ لـو نشاء لجعلنـاه ﴾ أي:لجعلنا مـا تحرثـون ﴿ حطامـاً ﴾ أي متحطماً مفتتـاً متكسراً أي نباتاً يابساً لا حب فيه ، والحطام الهشيم الذي لا ينتفع به ولا يحصل منه حب ولا شيء مما يطلب من الحرث ، وقيل : تبناً لا قمح فيه .

﴿ فظللتم تفكهون ﴾ أي فصرتم تعجبون،قاله ابن عباس ، قال الفراء : تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم في زرعكم ، قال في الصحاح : وتفكه تعجب ويقال تندم ، وقال الحسن وقتادة وغيرهما : معنى الآية تعجبون من ذهابه وتندمون مما حل بكم ، وقال عكرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله ، وقال أبو عمرو والكسائي : هو التلهف على ما فات ، قرأ الجمهور : ﴿ فظلتم ﴾ بفتح الظاء مع لام واحدة ، وقرىء بكسرها معها ، وقرىء ظللتم بلامين أولاهما مكسورة على الأصل ، وروي فتحها وهي لغة ، وقرأ الجمهور ﴿ تفكهون ﴾ بالهاء،وقرىء تفكنون بالنون مكان الهاء أي تندمون ، قال ابن خالويه : تفكه تعجب ، وتفكن تندم ، وفي الصحاح : التفكن التندم ، والتفكه التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل في الحديث .

﴿ إنا لمغرمون ﴾ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر ، وقرىء بهمزتين على الاستفهام ، أي أتقولون : إنا لملزمون غرماً بما هلك من زرعنا ؟ والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض ، قاله الضحاك وابن كيسان والكرخي ، وقال الزمخشري : أي لملزمون غرامة ما أنفقنا ، وقيل : المعنى إنا لمعذبون،قاله قتادة وغيره،وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا يقال : أغرم فلان لفلان أي أولع به ، وقال مقاتل : مهلكون أي لهلاك رزقنا ، قال النحاس : مأخوذ من الغرام وهو الهلاك ؛ والظاهر من السياق المعنى الأول أي إنا لمغرمون بذهاب ما حرثنا ومصيره حطاماً ، ثم أضربوا عن قولهم هذا وانتقلوا فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا ، والمحروم الممنوع من الرزق الذي لاحظ له فيه ، وهو المحارف ، وقيل : محارفون محدودون لا مجدودون .

﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴾ فتسكنون به ما يلحقكم من العطش وتدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ ، واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثر فوائد الماء ومنافعه ، لأنه أعظم فوائده وأجل منافعه ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ؟ ﴾ أي السحاب قاله ابن عباس ، وقال أبو زيد : المزنة السحاب البيضاء،والجمع مزن والمزنة المطر قاله في الصحاح ﴿ أم نحن المنزلون ﴾ دون غيرنا ، فإذا عرفتم ذلك فكيف لا تقرون بالتوحيد وتصدقون بالبعث ثم بين لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ الأجاج الماء الشديد الملوحة ، الذي لا يمكن شربه ، وقال الحسن هو الماء المر الذي لا ينتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما .

﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ تشكرون ﴾ نعمة الله الذي خلق لكم ماء عذباً تشربون منه وتنتفعون به ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ أي أخبروني عنها،ومعنى تورون تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال : أوريت النار إذا قدحتها ، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ، ويسمون الأعلى الزند والسفلى الزندة شبهوهما بالفحل والطروقة .

ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ
لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾
لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم
مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾

﴿أأنتم أنشأتم شجرتها؟﴾ التي تكون منها الزنود وهي المرخ والعفار، تقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، وزاد الجلال المحلي الكلخ ، نقل سليمان الجمل عن شيخه أنه قال : ولم نجده في القاموس ولا في المختار ، غير أنه أخبر بعض أهل المغرب والشام بأنه موجود معروف عندهم شبيه بالقصب تؤخذ منه قطعتان وتضرب إحداهما بالأخرى فتخرج النار ﴿ أم نحن المنشئون ﴾ لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الإنشاء الخلق ، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة وعجيب القدرة.

﴿ نحن جعلناها ﴾ أي النار التي في الدنيا ﴿ تذكرة ﴾ لنار جهنم الكبرى حيث علقنا بها أسباب المعاش ، وعممنا بالحاجة إليها البلوى ، لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به ، قال مجاهد وقتادة : تبصرة للناس في الظلام ، وقال عطاء : موعظة ليتعظ بها المؤمن وقال ابن عباس : تذكرة للنار الكبرى .

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله ؛ قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها » [1] أخرجه البخاري ومسلم .

(١) رواه البخاري ومسلم .

﴿ ومتاعا للمقوين ﴾ أي للمسافرين ، قاله ابن عباس ، يعني منفعة للذين ينزلون بالقواء وهي الأرض القفر ، كالمسافرين وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة ، يقال أرض قراء بالمد والقصر ؛ أي مقفرة ، ويقال أقوى إذا سافر أي نزل القوى ، وخصوا بالذكر لأن منفعتهم بها أكثر من المقيمين ، فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدي الضال إلى غير ذلك من المنافع ، وقال مجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والإصطلاء والإستضاءة ، وتذكر نار جهنم ، وقال ابن زيد : للجائعين في إصلاح طعامهم ، يقال : أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئاً وبات فلان القوى أي جائعاً .

وقال قطرب : القوى من الأضداد ، يكون بمعنى الفقر ويكون بمعنى الغنى يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله والمعنى جعلناها متاعاً ومنفعة للأغنياء والفقراء لا غنى لأحد عنها ، وقال المهدوي : الآية تصلح للجميع ؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير وحكى الثعلبي عن أكثر المفسرين القول الأول وهو الظاهر .

﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر الله سبحانه وتنزيهه على ما قبلها مما عدده من النعم التي أنعم بها على عباده ، وجحود المشركين لها ، وتكذيبهم بها ، وقيل : قل سبحان ربي العظيم .

« وجاء مرفوعاً أنه لما نزلت هذه الآية قال اجعلوها في ركوعكم » ، وسبح متعدّي بنفسه وبحرف الجر ، فالباء زائد والإسم باق على معناه ، أو بمعنى الذات أو بمعنى الذكر ، قال الكرخي قالوا : كما يجب تنزيه ذاته وصفاته عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب ، وقيل : لفظة باسم زائدة ، والمعنى : فسبح ربك وهذا أبلغ لما يلزم ذلك بالطريق الأولى على سبيل الكناية الرمزية ، وأثبتوا ألف الوصل هنا في إسم ربك لأنه لم يكثر دوره كثرته في البسملة .

﴿ فلا أقسم ﴾ ذهب الجمهور إلى أن ﴿ لا ﴾ مزيدة للتوكيد ، والمعنى فأقسم ويؤيد هذا قوله بعد : ﴿ وأنه لقسم ﴾ ، وقال جماعة من أهل التفسير : إنها للنفي والمنفي بها محذوف ، وهو كلام الكفار الجاحدين ، قال الفراء هي نفي والمعنى ليس الأمر كذلك ، ثم قال مستأنفا : قسم وضعف هذا بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز ، كما قال أبو حيان وغيره ، وقيل : إنها لام الإبتداء ، والأصل فلأقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها الألف . وقد قرىء هكذا بدون ألف ، وعلى هذا التقدير : فلا ، أنا أقسم بذلك ، وقيل : إن لا ههنا بمعنى ألا التي للتنبيه ، وهو بعيد ، وقيل : إن لا هنا على ظاهرها ، وأنها لنفي القسم أي فلا أقسم على هذا لأن الأمر أوضح من ذلك ، وهذا مدفوع بقوله : ﴿ وإنه لقسم ﴾ مع تعيين المقسم والمقسم عليه .

﴿ بمواقع النجوم ﴾ أي مساقطها وهي مغاربها ، كذا قال قتادة وغيره : ولعل لله في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات موصوفة ، أو لأنه وقت قيام المتهجدين ونزول الرحمة والرضوان عليهم ، فلذلك أقسم بمواقعها ، وقال عطاء بن أبي رباح : منازلها وقال الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة، وقال الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون ؛ مطرنا بنوء كذا وكذا ،قال الماوردي : ويكون قوله : ﴿ فلا أقسم ﴾ مستعملاً في حقيقته من نفي القسم، وقال القشيري : هو قسم ولله أن يقسم بما يريد وليس لنا أن نقسم بغير الله وصفاته القديمة، وقيل المراد نزول القرآن نجوماً من اللوح المحفوظ وبه قال السدي وغيره .

وحكى الفراء عن ابن مسعود بأن مواقع النجوم هو محكم القرآن ، قال ابن عباس : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق بين السنين ، وفي لفظ نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ثم قرأ هذه الآية ، وعنه قال نجوم القرآن حين ينزل ، قرأ الجمهور ﴿ مواقع ﴾ على الجمع وقرىء موقع على الإفراد : قال المبرد موقع ههنا مصدر

فهو يصلح للواحد والجمع ثم أخبر الله سبحـانه عن تعـظيم هذا القسم وتفخيمه فقال :

﴿ وإنه لقسم ﴾ هذه الجملة معتـرضة بـين المقسم به والمقسم عليـه وقوله : ﴿ لو تعلمون ﴾ جملة معترضة بين جزئي الجملة المعتـرضة ، فهـو إعتراض في اعتراض ،قال الفراء والزجاج : هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن،والضمير في أنه يعود على القسم الذي يدل عليه قسم والمعنى ان القسم بمواقع النجوم لقسم ﴿ عظيم ﴾ لو تعلمون لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة ، وكمال الحكمة ، وفرط الرحمة ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال :

﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي كرمه الله وأعزه ، ورفع قدره على جميع الكتب وكرمه عن أن يكون سحراً وكهانة أو كذباً ، وقيل : إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ، ومعالي الأمور وقيل لأنه يكرم حافظه ، ويعظم قارئه ، وحكى الواحدي عن أهل المعاني : أنه وصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين ، قال الإزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى ، والبيان والعلم والحكمة ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم يستمـد منه ويحتـج به، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، فكل عالم يطلب أصل علمه منه ، وقيل : حسن مرضي أو نفاع جم المنافع ، أو عزيز مكرم ، لا يهون بكثرة التلاوة ، ولا يخلق بكثرة الرد ، ولا يمله السامعون ، ولا يثقل على الألسنة ، بل غض طري يبقى أبد الدهر .

﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي مستور مصون من التغيير والتبديل ، على حد قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقيل : محفوظ عن الباطل وهو اللوح المحفوظ ، قاله جماعة ، وقيل : هو كتاب مصون من غير المقربين

من الملائكة ، لا يطلع عليه من سواهم وقال عكرمة : هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه ، وقال السدي : هو الزبور ، وقال مجاهد وقتادة هو المصحف الذي في أيدينا .

﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ من جميع الأدناس ، قال المحلي خبر بمعنى النهي أي لا يمسوه،أي:يحرم عليهم مسه بدون الطهارة ولم يبق صريحاً على خبريته لئلا يلزم الخلف في خبره تعالى ، لأنه كثيراً ما يمس بدون طهارة ، والخلف في خبره تعالى محال ، وقيل إن لا ناهية والفعل بعدها مجزوم لأنه لو فك عن الإدغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى ﴿ لم يمسسهم سوء ﴾ ولكنه أدغم ولما أدغم حرك آخره بالضم لأجل هاء ضمير المذكر الغائب ، وضعف ابن عطية النهي ، قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون ، أي لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون وهم الملائكة ، وقيل هم الملائكة والرسل من بني آدم ، والمعنى لا يمسه المس الحقيقي ، وقيل : المعنى لا ينزل به إلا المطهرون .

وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن ، فقيل : لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والأنجاس ، كذا قال قتادة وغيره .

وقال الكلبي : المطهرون من الشرك ، وقال الربيع بن أنس : المطهرون من الذنوب والخطايا،وقال محمد بن الفضل وغيره : المعنى لا يقرأه إلا الموحدون وقال الفراء : لا يجد نفعه وبركته إلا المؤمنون،وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق ، وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مس المصحف،وبه قال علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد ، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي ، وروي عن ابن عباس والشعبي وجماعة منهم أبو حنيفة أنه يجوز للمحدث مسه ، وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في هذا في شرحه للمنتقى فليرجع إليه قرأ الجمهور المطهرون

اسم مفعول من التطهير ، وقرىء بكسر الهاء على أنه اسم فاعل أي المطهرون أنفسهم وقرىء على أنه اسم مفعول من أطهر ، وقرىء بتشديد الطاء وكسر الهاء أصله المتطهرون،قال ابن عباس في الآية الكتاب المنزل من السماء لا يمسه إلا الملائكة .

وعن أنس قال : المطهرون الملائكة .

وعن « علقمة قال : أتينا سلمان الفارسي فخرج علينامن كنيف فقلنا له : لو توضأت يا أبا عبدالله ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا قال : إنما قال الله ﴿ في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وهو الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة ، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا » ، أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر .

« وعن عبدالله ابن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم: لا يمس القرآن إلا على طهر » أخرجه مالك في الموطأ عن عبدالله بن أبي بكر . وأخرجه أبو داود في المراسيل .

من حديث الزهري قال : قرأت في صحيفة عبدالله المذكور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ولا يمس القرآن إلا طاهر » ، وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وغيره ، وفي أسانيده نظر ، وعن ابن عمر انه كان لا يمس المصحف إلا متوضئاً و« عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجته فتوارى عنا ثم خرج علينا فقلنا : لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ؟ فقال سلوني فإني لست أمسه إنما يمسه المطهرون،ثم تلا هذه الآية » أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر وغيرهم .

و« عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمس

القرآن إلا طاهر » ، أخرجه الطبراني وابن مردويه .

و« عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده أن لا يمس القرآن إلا طاهر » ، أخرجه ابن مردويه .

﴿ تنزيل ﴾ أي منزل وسمي المنزل تنزيلاً على اتساع اللغة ، يقال للمقدور : قدر ، وللمخلوق خلق ، قرأ الجمهور بالرفع ، وقرىء بالنصب على الحال ﴿ من رب العالمين ﴾ صفة رابعة لقرآن ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وفيه رد على من قال ؛ إن القرآن شعر أو سحر أو كهانة .

﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ؟ ﴾ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة ، والمدهن والمداهن المنافق ، كذا قال الزجاج وغيره وقال عطاء وغيره : هو الكذاب ، وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مدهنون كافرون كما في قوله ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ وقال ابن عباس : مدهنون مكذبون ، وقال الضحاك : مدهنون معرضون وقال مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر وقال ابن كيسان : المدهن الذي لا يعقل حق الله عليه ، ويدفعه بالعلل والأول أولى ، لأن أصل المدهن الذي ظاهره خلاف باطنه ، كأنه يشبه الدهن في سهولته ، قال المؤرج : المدهن المنافق الذي يلين جانبه ليخفي كفره ، والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللين ، وأن يسر خلاف ما يظهر وقال في الكشاف : مدهنون متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه ، تهاوناً به انتهى .

قال الراغب : والادهان في الأصل مثل التدهين ، لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة وترك الجد كما جعل التقريد ، وهو نزع القراد عبارة عن ذلك ، قلت : سميت المداراة والملاينة مداهنة، وهذا استعارة ومجاز معروف ولشهرته صار حقيقة عرفية لذاجُوِّزَ به هنا من التهاون أيضا لأن المتهاون بالأمر لا يتصلب فيه ، وقال بعض اللغويين تاركون للحزم في قبول القرآن .

﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ في الكلام مضاف محذوف ، كما

حكاه الواحدي عن المفسرين ، أي تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله فتضعون التكذيب موضع الشكر ، وقال الهيثم : إن أزدشنوءة يقولون : ما رزق فلان ، أي ما شكر وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر ووجه التعبير بالرزق عن الشكر، أن الشكر يقتضي زيادة الرزق فكون الشكر رزقاً تعبيراً بالسبب عن المسبب، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله وأنزل عليهم المطر : سقينا بنوء كذا، ومطرنا بنوء كذا قال الأزهري : معنى الآية وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله التكذيب بأنه من عند الله الرزاق قرأ علي بن أبي طالب وابن عباس تجعلون شكركم وقرأ الجمهور تكذبون بالتشديد من التكذيب وقرأ بالتخفيف من الكذب .

أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه . « عن ابن عباس قال مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا هذه رحمة وضعها الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا، فنزلت هذه الآية ﴿ فلا أقسم إلى قوله تكذبون ﴾، وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني .

« ومن حديث أبي سعيد الخدري ، وعن علي عنه صلى الله عليه وسلم في الآية قال : شكركم تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا » ، أخرجه أحمد والترمذي والضياء في المختارة، وغيرهم وفي الباب أحاديث .

« وعن عائشة قالت : ما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن إلا آيات يسيرة تجعلون رزقكم قال : شكركم » رواه ابن عساكر .

«وعن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ وتجعلون شكركم » أخرجه ابن مردويه .

وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ
غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ
﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أي فهلا إذا بلغت الروح أو النفس الحلقوم عند الموت ، ولم يتقدم لها ذكر لأن المعنى عندهم إذا جاؤوا بمثل هذه العبارة والحلقوم ممر الطعام والشراب ﴿ وأنتم حينئذ ﴾ التنوين عوض من الجملة المضافة إليها إذ أي إذ بلغت الحلقوم،خلافاً للأخفش حيث زعم أن التنوين للصرف والكسر للإعراب ﴿ تنظرون ﴾ أي إلى ما هو فيه ذلك الذي بلغت نفسه أو روحه الحلقوم ، قال الزجاج : وأنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه ، والمعنى أنهم في تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه ، ولا يستطيعون شيئاً ينفعه ، أو يخفف عنه ما هو فيه .

﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أي بالعلم والقدرة والرؤية ، وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أي لا تدركون ذلك لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه أو لا تعلمون ما هو فيه من المشقة والكرب .

﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ يقال دان السلطان رعيته ، إذا ساسهم واستعبدهم ، قال الفراء : دنته ملكته ، ويقال : دانه إذا أذله واستعبده. وقيل : معنى مدينين محاسبين قاله ابن عباس ، وقيل : مجزيين والمعنى الأول

ألصق بمعنى الآية،أي:فهلا إن كنتم غير مربوبين ومملوكين ؟ ﴿ ترجعونها ﴾ أي النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مقرها الذي كانت فيه والعامل في إذا بلغت قوله ترجعونها ﴿ ولولا ﴾ الثانية تأكيد لفظي للأولى ، وقال الفراء : وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد .

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ ولن ترجعوها ، فبطل زعمكم أنكم غير مربوبين ولا مملوكين ، وقيل : معناه إن صدقتم في نفي البعث فردوا روح المحتضر إلى جسده ، لينتفي عنه الموت فينتفي البعث ، ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال :

﴿ فأما إن كان ﴾ الذي بين حاله ﴿ من المقربين ﴾ أي:السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدم تفصيل حالهم ﴿ فروح وريحان ﴾ قرأ الجمهور ﴿ روح ﴾ بفتح الراء ومعناه الراحة من الدنيا والإستراحة من أحوالها ، وقال مجاهد : الروح الفرح،وقرىء بضم الراء ومعناه الرحمة،لأنها كالحياة للمرحوم وبه قال الحسن،وفي القاموس : الروح بالفتح الراحة والرحمة ونسيم الريح ، والريحان الرزق في الجنة،قاله مجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل ، وقال : هو الرزق بلغة حمير،يقال : خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه ، وقال قتادة : إنه الجنة . وقال الضحاك : هو الرحمة ، وقال الحسن : هو الريحان المعروف الذي يشم قال قتادة والربيع ابن خيثم : هذا عند الموت ، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث ، وكذا قال أبو الجوزاء وأبو العالية .

﴿ وجنت نعيم ﴾ يعني:أنها ذات تنعم ، قال ابن عباس : أي مغفرة ورحمة وترسم جنة هنا مجرورة التاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير والكسائي وغيرهما،والباقون بالتاء على الرسم وهل الجواب لـ ﴿ أما ﴾ أو لـ ﴿ إن ﴾ أو لهما أقوال ومعنى ﴿ أما ﴾ عند أبي إسحق الخروج من شيء إلى شيء،أي:دع ما كنا فيه وخذ في غيره ، وعلى هذا الجواب لإن فقط،لأن أما ليست شرطاً ، ورجح بعضهم أن جواب لأما،لأن ﴿ إن ﴾ كثر حذف جوابها منفردة ، فادعاء

ذلك مع شرط الجر أولى .

﴿ وأما إن كان ﴾ ذلك المتوفى ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، وقد تقدم ذكرهم ، وتفصيل أحوالهم ، وما أعده الله لهم من الجزاء ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ أي لست ترى فيهم إلا ما تحب من السلامة فلا تهتم بذلك فإنهم يسلمون من عذاب الله ، وقيل : المعنى سلام لك منهم أي أنت سالم من الإغتمام بهم ، وقيل المعنى أنهم يدعون لك ويسلمون عليك .

وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم يحيي بالسلام إكراماً ، وقيل : هو اخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض ، وقيل : المعنى وسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، يعني:أنه إلتفات بتقدير القول و ﴿من ﴾ للإبتداء،كما يقال سلام من فلان على فلان ، وفسر المحلي السلام بمعنى السلامة،قال القاري : وهذا تفسير غريب ، قال ابن عباس : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله يسلم عليه ويخبره أنه من أصحاب اليمين .

﴿ وأما إن كان من المكذبين ﴾ بالبعث ﴿ الضالين ﴾ عن الهدى وهم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم وتفصيل أحوالهم ، وإنما وصفهم بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً بما أوجب لهم هذا العذاب ، وإلا فمقتضى الظاهر أن يقال . وأما إن كان من أصحاب الشمال لكن عدل عنه لما ذكر،تأمل .

﴿ فنزل ﴾ أي:فله نزل يعد لنزوله ﴿ من حميم ﴾ وهو الماء الذي قد تناهت حرارته وذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه،قال الربيع ابن خيثم : هذا عند الموت وهذا تهكم بهم ﴿ وتصلية جحيم ﴾ يقال أصلاه النار وصلاه إذا جعله في النار،وهو من إضافة المصدر إلى المفعول،أو إلى المكان، قال المبرد : وجواب الشرط في هذه الثلاثة المواضع محذوف ، والتقدير مهما يكن من شيء فروح الخ وفي هذه الآيات إشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين لأنهم غير مكذبين .

﴿ إنَّ هذا ﴾ أي إن ما ذكر في هذه السورة من أولها إلى آخرها ، أو إن المذكور قريباً من أحوال المحتضرين وقصتهم ﴿ لهو حق اليقين ﴾ أي : محضه وخالصه ، وإضافة حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، قال المبرد : هو كقولك عين اليقين ، ومحض اليقين ، هذا عند الكوفيين وجوزوا ذلك ، أي : إضافة الموصوف إلى الصفة لاختلاف اللفظ ، وأما البصريون فيجعلون المضاف إليه محذوفاً والتقدير حق الأمر اليقين ، أو الخبر اليقين ، قال ابن عباس : لهو حق اليقين ما قصصنا عليك في هذه السورة .

﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي نزهه عما لا يليق بشأنه فسبح متلبساً باسم ربك للتبرك به ، وقيل : المعنى فصل بذكر ربك . وقيل : الباء زائدة ، وادعاء زيادتها خلاف الأصل ، والإسم بمعنى الذات ، وقيل : هي للتعدية لأن سبح يتعدى بنفسه تارة ويتعدى بالحرف أخرى ، والأول أولى .

« عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبح باسم ربك العظيم قال : اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت : سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها في سجودكم » ، أخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم ، وصححه البيهقي .

سورة الحديد

هي تسع وعشرون آية ، وهي مدنية

قال القرطبي : في قول الجميع قال ابن عباس : نزلت بالمدينة ، وعن ابن الزبير مثله ، وعليه الجمهور ، وقال الزمخشري : إنها مكية ، ويؤيده ما نقل في سبب اسلام عمر بن الخطاب أنه لما قرأ هذه الآيات الى قوله : ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ وكانت مكتوبة في صحيفة عند أخته أسلم ، فهذا يقتضي أن هذه الآيات مكّية ، فعلى هذا تستثنى على القول بأن السورة مدنية ، تأمل .

« وعن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء وخلق الحديد يوم الثلاثاء ، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء ، ونهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الحجامة يوم الثلاثاء . أخرجه الطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف .

« وعن جابر مرفوعاً لا تحتجموا يوم الثلاثاء فان سورة الحديد أنزلت عليّ يوم الثلاثاء أخرجه الديلمي .

« وعن العرباض بن سارية أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : ان فيهن آية أفضل من ألف آية » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم . وفي اسناده بقية بن الوليد وفيه مقال معروف .

وأخرجه النسائي عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذكر العرباض بن سارية فهو مرسل وأخرجه ابن الضريس .

« عن يحيى بن أبي كثير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ المسبحات وكان يقول : إن فيهن آية أفضل من ألف آية » قال يحيى فنراها الآية التي في آخر الحشر » وقال ابن كثير في تفسيره والآية المشار اليها والله أعلم هي قوله : ﴿ هو الاول والآخر والظاهر والباطن ﴾ الآية والمسبحات هي الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ
مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا
كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ
﴿٧﴾

﴿ سبح لله ما في السموات والأرض ﴾ أي نزهه ومجده قال المقاتلان : يعني كل شيء من ذي روح وغيره ، وقد تقدم الكلام في تسبيح الجمادات ، عند تفسير قوله : وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم . والمراد بالتسبيح المسند إلى ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم ، والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال ، كتسبيح الملائكة والإنس والجن ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإن كل موجود يدل على الصانع ، وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال : ولكن لا تفقهون تسبيحهم ؟ وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله : وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ، فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم تكن لتخصيص داود فائدة .

وفعل التسبيح قد يتعدى بنفسه تارة كما في قوله : وسبحوه ، وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله أن يكون متعدياً بنفسه ، لأن معنى سبحته بعدته عن السوء فإذا استعمل باللام فهي إما زائدة للتأكيد كما في شكرته وشكرت

له ، أو هي للتعليل ، أي أفعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصاً له .

وجاء هذا الفعل في بعض هذه الفواتح ،كالحشر والصف ماضياً كهذه الفاتحة . وفي بعضها كالجمعة والتغابن مضارعاً ، وفي بعضها كالأعلى أمراً ، وفي بني إسرائيل بلفظ المصدر ، استيعاباً واستيفاءً لهذه الكلمة من جميع جهاتها المشهورة ، وللإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات ، لا يختص تسبيحها بوقت دون وقت بل هي مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة في المستقبل أبداً ، وبدأ بالمصدر في الإسراء لأنه الأصل ، وأبلغ من حيث إنه مشعر بإطلاقه عن التعرض للفاعل والزمان ، ثم بالماضي لسبق زمنه . ثم بالمضارع لشموله الحال والإستقبال ، ثم بالأمر لخصوصه بالإستقبال مع تأخره في النطق به في قولهم : فعل يفعل أفعل .

﴿ وهو العزيز ﴾ أي القادر الغالب الذي لا ينازعه منازع ولا يمانعه ممانع كائناً ما كان ، قرأ قالون وأبو عمرو بسكون الهاء والباقون بضمها ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب .

﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ يتصرف فيه وحده ولا ينفذ فيهما غير تصرفه وأمره ، وقيل : المراد خزائن المطر والنبات وسائر الأرزاق ذكره مرتين ، وليس بتكرار ، لأن الأول في الدنيا كما أشار له في التقرير ، والثاني في العقبى لقوله عقبة : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ﴿ يحيي ويميت ﴾ الفعلان في محل رفع على أنهما خبران لمبتدأ محذوف ، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك ، أو حال من الضمير في له والعامل الاستقرار ، والمعنى أنه يحيي بالإنشاء في الدنيا ويميت بعده ، وقيل : يحيي النطف وهي أموات ويميت الأحياء،وقيل : يحيي الأموات للبعث ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان .

﴿ هو الأول ﴾ قبل كل شيء بلا بداية ، أو السابق على جميع الموجودات

من حيث إنه موجدها ومحدثها ﴿ والآخر ﴾ بعد كل شيء بلا نهاية،أو الباقي بعد فنائها ، ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها،أو الأول خارجاً والآخر ذهناً،أو الأول الذي تبتدأ منه الأسباب وتنتهي إليه المسببات ﴿ والظاهر ﴾ العالي الغالب على كل شيء ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة .

﴿ والباطن ﴾ أي العالم بما بطن ، من قولهم : فلان يبطن أمر فلان ، أي يعلم داخلة أمره ، أو المعنى المحتجب حقيقة ذاته عن إدراك الأبصار والحواس والعقول ، فلا تكتنهها الألباب والأحلام لا في الدنيا ولا في الآخرة فاضمحل ما في الكشاف من أن فيه حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة ، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعين المصير إلى ذلك كما أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والترمذي والبيهقي .

« عن أبي هريرة قال : جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله خادماً ، فقال : قولي اللهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، وربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين واغننا من الفقر » .

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً مثل هذا في الأربعة الأسماء المذكورة ، وتفسيرها ، وأخرج أبو الشيخ في العظمة .

« عن عمر وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شيء ،

فماذا كان قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأول قبل كل شيء ، والآخر فليس بعده شيء ، وهو الظاهر فوق كل شيء ، وهو الباطن دون كل شيء ، وهو بكل شي عليم » .

وأخرج أبو داود .

« عن أبي زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدري ؟ قال : ما هو؟ قلت : والله لا أتكلم به ، قال : فقال لي : أشيء من شك قال : وضحك قال : ما نَجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ الآية قال : وقال لي : إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ . لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات » .

« عن أبي هريرة قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما هذا قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذه العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه ثم قال : هل تدرون ما فوقكم قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الرقيع سقف محفوظ ، وموج مكفوف ، ثم قال : هل تدرون كم بينكم وبينها قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : بينكم وبينها خمسمائة سنة ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال سماآن بعد ما بينهما خمسمائة سنة ، حتى عد سبع سموات ما بين كل سماء كما بين السماء والأرض ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ثم قال هل تدرون ما تحتكم قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الأرض ، ثم قال : هل تدرون ما الذي تحت ذلك قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإن تحتها أرض أخرى،بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، حتى عد سبع أرضين

بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السابعة السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » أخرجه[1] الترمذي وقال حديث غريب .

وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث : إنما أراد لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه ، وعلم الله في كل مكان ، وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه ، والعنان اسم للسحاب ، ومعنى روايا الأرض الحوافل ، والرقيع اسم لسماء الدنيا .

﴿ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ من أيام الدنيا أولها الأحد وآخرها الجمعة،ولو أراد أن يجعلها في طرفة عين لفعل ، ولكن جعل الستة أصلاً ليكون عليها المدار ، وهذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض وقد تقدم تفسيره في سورة الأعراف وفي غيرها مستوفى .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي:الكرسي استواء يليق به ، قاله المحلي ، « وعن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال : كنت جالساً في البطحاء في عصابة ورسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مرت سحابة فنظروا إليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما اسم هذه؟قلنا:نعم،هذا السحاب،قال:والمزن،قالوا:والمزن،قال:والعنان،قالوا:والعنان ، ثم قال لهم : هل تدرون كم ما بين السماء والأرض،قالوا لا والله ما ندري،قال فإن بعد ما بينهما إما قال واحدة وإما قال اثنتان، وإما ثلاث وسبعون سنة،وبعد التي فوقها كذلك ، وكذلك حتى عدهن سبع سموات كذلك ، ثم فوق السماء السابعة بحر أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء،وفوق ذلك ثمانية أوعال بين

(١) رواه الترمذي .

أظلافهن وركبهن كما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء والله عز وجل فوق ذلك » أخرجه الترمذي وأبو داود وزاد في رواية ، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء وقد تقدم الكلام على الاستواء مراراً في غير موضع وفي هذا الباب كتب ورسائل مستقلة وهي معروفة عند أهل العلم .

﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي يدخل فيها من المطر والقطر والبذر والكنوز والموتى وغيرها ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات ومعادن وغيرها ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من الملائكة والرحمة والعذاب والمطر وغيرها ﴿ وما يعرج فيها ﴾ أي يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد والدعوات ، وقال المحلي كالأعمال الصالحة والسيئة،واعترضه القاري بأن الذي يرفع من الأعمال هو الصالح كما في قوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وقد تقدم تفسير هذا في سورة سبأ .

﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ بقدرته وسلطانه وعلمه عموماً ، وبفضله ورحمته خصوصاً ، فليس ينفك أحد من تعليق علم الله تعالى وقدرته به أينما كان من أرض أو سماء ، بر أو بحر ، وقيل هو معكم بالحفظ والحراسة،قال ابن عباس : عالم بكم ، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم ، أينما داروا في الأرض من بر وبحر ﴿ والله بما تعلمون بصير ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء .

﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ هذا التكرير للتأكيد ، وذكره مع الإعادة كما ذكره مع الإبداء،لأنه كالمقدمة لهما ﴿ وإلى الله ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجع الأمور ﴾ الأخوان وابن عامر يقرأون بفتح التاء وكسر الجيم مبنياً للفاعل ؟ والباقون مبنياً للمفعول في جميع القرآن ذكره السمين .

﴿ يولج الليل ﴾ أي يدخله ﴿ في النهار ﴾ بأن ينقص من الليل ويزيد في النهار ﴿ ويولج النهار في الليل ﴾ بعكس ذلك وقد تقدم تفسير هذا في سورة

آل عمران،وفي مواضع ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أي:بضمائرها ومعتقداتها ومكنوناتها ، لا تخفى عليه من ذلك خافية .

﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ أي صدقوا بالتوحيد ، وصحة الرسالة ، وهذا خطاب لكفار العرب أو للجميع ، ويكون المراد بالأمر بالإيمان في حق المسلمين الإستمرار عليه أو الإزدياد عليه ، ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق في سبيل الله فقال : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه ، من غير أن تملكوه حقيقة ، فإن المال مال الله ، والعباد خلفاء الله في أمواله ، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه ، وقيل : جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه ، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم ، فلا تبخلوا به ، كذا قال الحسن وغيره ، وفيه الترغيب إلى الإنفاق في سبل الخير وتهوين له على النفس قبل أن ينتقل عنهم ، ويصير إلى غيرهم .

والظاهر أن معنى الآية الترغيب في الإنفاق في الخير وما يرضاه الله على العموم ، وقيل هو خاص بالزكاة المفروضة ، ولا وجه لهذا التخصيص ، قال المحلي : نزل في غزوة العسرة ، وهي غزوة تبوك ، ويشكل هذا على القول بأن السورة مكية ، وكذا على القول بأنها مدنية على استثناء هذه الآيات ، وكانت في السنة التاسعة بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف ، وهي آخر غزواته ، ولم يقع فيها قتال ، بل وقع الصلح على دفع الجزية ، وإيضاح هذه القصة مذكور في سورة براءة فراجعها إن شئت .

ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق في سبيل الله فقال : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا ﴾ أي:الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، وبين الإنفاق في سبيل الله ، وفيه إشارة إلى عثمان رضي الله تعالى عنه ، فإنه جهز في غزوة العسرة ثلثمائة بعير ، بأقتابها وأحلاسها وأحمالها ، وجاء بألف دينار ووضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لهم أجر كبير ﴾ وهو الجنة .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ
بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا
يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن
بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

﴿وما لكم لا تؤمنون بالله﴾ هذا الإستفهام للتوبيخ والتقريع ، والخطاب للكفار،أي : أيُّ عذر لكم ؟ وأي مانع من الإيمان ؟ وقد أزيحت عنكم العلل وقيل : المعنى : أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا ﴿ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ أي : يدعوكم للإيمان ، والمعنى أي عذر لكم في ترك الإيمان ، والحال أن الرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبرهان والحجج ﴿ و ﴾ الحال أن ﴿ قد أخذ ﴾ الله ﴿ ميثاقكم ﴾ حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم في عالم الذر ، حين أشهدكم على أنفسكم كما في قوله تعالى : ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ﴾ أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ووجوب الإيمان ، وركب فيكم من العقول ، ومكنكم من النظر في الأدلة ، فاذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول ، وتنبيه الرسول ، فما لكم لا تؤمنون ؟ وهو اختيار القاضي،كالكشاف والأول أولى .

قرأ الجمهور قد أخذ مبنياً للفاعل ، وهو الله سبحانه ، لتقدم ذكره وقرىء على البناء للمفعول وهما سبعيتان ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ بما أخذ عليكم من الميثاق أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب ، فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته ، لا مزيد عليه ، وقيل : إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى ، فإن شريعتهما تقتضي الإيمان بمحمد صلى الله عليه

وسلم :، وقيل : مريدين للإيمان به ، فبادروا إليه ، وقيل : إن بمعنى إذ .

﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ﴾ أي واضحات ظاهرات ، وهي الآيات القرآنية . وقيل : المعجزات ، والقرآن أعظمها ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات أو بالدعوة منها إليه ﴿ وإن الله بكم ﴾ في إخراجكم من الكفر إلى الإيمان ﴿ لرؤوف رحيم ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة بليغهما ، حيث أنزل كتبه ، وبعث رسله ، لهداية عباده ، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ، فلا رأفة ولا رحمة أبلغ من هذه .

﴿ وما لكم أن لا ﴾ والأصل في أن لا ﴿ تنفقوا ؟ ﴾ فموضعه نصب أو جر ، وليست أن زائدة كما يرى أبو الحسن زيادتها ، بل هي مصدرية ، والمعنى في عدم الإنفاق ﴿ في سبيل الله ﴾ أي : في طاعته وما يكون قربة إليه فسبيله كل خير يوصلهم إليه فهو استعارة تصريحية ، والإستفهام للتوبيخ والتقريع ، وفي هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به في قوله :﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾هو الإنفاق في سبيل الله ، كما بينا ذلك ، والمعنى أي عذر لكم ؟ وأي شيء يمنعكم من ذلك ؟ .

﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أي والحال أن كل ما فيهما راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوارث ، ولا يبقى لهم منه شيء ، وهذا أدخل في التوبيخ ، وأكمل في التقريع ، فإن كون تلك الأمور تخرج عن أهلها وتصير لله سبحانه ، ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله في الحقيقة ، وهم خلفاؤه في التصرف فيها .

ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله ، وتفاوت درجات المنفقين فقال :

﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أي فتح مكة ، وبه قال أكثر المفسرين ،قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك ، وكذا قال مقاتل وغيره ، وقال الشعبي والزهري : فتح الحديبية ، وهو الراجح قاله الكرخي ، وذكر القتال للإستطراد ، وفي

الكلام حذف ، والتقدير : لا يستوي من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لظهوره ، ولدلالة ما سيأتي عليه ، فإن الاستواء يكون بين الشيئين ولا يتم إلا بذكر اثنين ، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعده ، لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر ، وهم أقل وأضعف .

وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة ، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ولا يجدون ما يجودون به من الأموال. وعطف القتال على الإنفاق للإيذان بأنه أهم مواد الإنفاق ، مع كونه في نفسه من أفضل العبادات .

والجـود بالنفس أقصى غاية الجود .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى (من) باعتبار معناه ، وهو مبتدأ وخبره قوله : ﴿ أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ أي أرفع منزلة ، وأعلى رتبة ، من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله من بعد الفتح ، وقاتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها ، قال الزجاج : لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ .

« وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه : لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » وهذا خطاب منه صلى الله عليه وسلم للمتأخرين صحبة ، كما يرشد إلى ذلك السبب الذي ورد فيه هذا الحديث .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم .

« عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم ، قلنا : من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : لا، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوباً ، فقلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه ، ألا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس ، ﴿ لا

يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ الآية وهذا الحديث قال ابن كثير : غريب بهذا الاسناد ، وقد رواه ابن جرير ولم يذكر فيه الحديبية .

وأخرج أحمد .

« عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبدالرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم » والذي في الصحيح « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ : لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفس محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه[1] » وفي لفظ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري .

« وعن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره » ، أخرجه ابن أبي شيبة .

﴿ وكُلاًّ ﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿ وعد الله ﴾ المثوبة ﴿ الحسنى ﴾ وهي الجنة ، مع تفاوت درجاتهم فيها ، قرأ الجمهور كُلاًّ على أنه مفعول مقدم وقرىء بالرفع على الابتداء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ومثل هذا قول الشاعر :

قد أصبحت أم الخيار تدعى ... علـى ذنبـاً كله لم أصنـع

قيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق في سبيل الله وفيه دليل على فضله وتقدمه ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء ثم رغب سبحانه في الصدقة فقال :

﴿ من ذا الذي يقرض الله ﴾ أي ينفق ماله في سبيل الله فإنه كمن يقرضه والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً قد أقرض ، من إستفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبرة ، والموصول صفة له ، أو بدل منه ، ويصح أن يكون من ذا مبتدأ ، والموصل خبره ، وهذا منه تعالى في غاية اللطف بنا

(١) رواه مسلم والبخاري .

والإحسان الينا ، حيث أعطانا الأموال من عنده وجعل رجوعها إليه منا قرضاً ، مع أنه المالك الحقيقي ، قال الكلبي : ﴿ قرضاً ﴾ أي صدقة ﴿ حسناً ﴾ أي محتسباً من قلبه بلا مَنٍّ ولا أذى وقال مقاتل : حسناً طيبة به نفسه .

واستعير لفظ القرض ليدل على التزام الجزاء ، وفيه استعارة تصريحية تبعية حيث شبه الإنفاق بالإقراض ، والجامع إعطاء شيء بعوض ، من حيث إن الله وعد به الجنة تشبيها بالقرض،لأن القرض إخراج المال لاسترداد البدل . وقيل : القرض الحسن هو النفقة على الأهل . قاله زيد بن اسلم ، وقال الحسن : هو التطوع بالعبادات وقيل : أنه العمل الخير ، والعرب تقول : لي عند فلان قرض صدق وقرض سوء ، والأول أولى .

وقال بعض العلماء : القرض لا يكون حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة ، وهي أن يكون المال من الحلال ، وأن يكون من أجود المال ، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه ، وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها ، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك ، وأن تتبعها بالمن والأذى ، وأن تقصد بها وجه الله ولا ترائي به الناس ، وأن تستحقر ما تعطي وإن كان كثيراً ، وأن يكون من أحب أموالك اليك ، وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير فهذه عشرة خصال إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضاً حسناً وقد تقدم تفسير الآية في سورة البقرة .

﴿ فيضاعفه له ﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه أضعافاً مضاعفة من فضله ، قرأ اهل الكوفة والبصرة بالألف وتخفيف العين ، وقرىء فيضعفه وعلى كل من القراءتين فالفعل إما مرفوع أو منصوب فالقراآت أربعة وكلها سبعية قال ابن عطية : الرفع هنا على العطف او الإستئناف والنصب بالفاء على جواب الإستفهام (وله) مع المضاعفة ﴿ اجر كريم ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا هي كون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، على اختلاف الأحوال والاشخاص والاوقات .

يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾

﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي: اذكر، أو يؤجرون يوم ترى، أو يسعى نور المؤمنين والمؤمنات يوم تراهم هذا أصله والعامل فيه فيضاعفه، قاله أبو البقاء والخطاب لكل من يصلح له ﴿ يسعى نورهم ﴾ أي نور التوحيد والطاعات، والنور هو الضياء الذي يرى، وقيل: هو القرآن ﴿ بين أيديهم ﴾ ظرف ليسعى، أو حال من نورهم ﴿ وبأيمانهم ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة وهو دليلهم إلى الجنة، قال قتادة: إن المؤمن يضيء له نور كما بين عدن الى صنعاء، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه وقال الضحاك ومقاتل: ﴿ وبأيمانهم ﴾ كتبهم التي أعطوها فكتبهم بأيمانهم ونورهم بين أيديهم وقال الضحاك أيضاً: نورهم هداهم، وبأيمانهم كتبهم واختار هذا ابن جرير الطبري أي: ليسعى إيمانهم بين أيديهم وفي أيمانهم كتب أعمالهم.

قال ابن مسعود في الآية: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً

من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد أخرى ، قال الفراء : الباء بمعنى في ، أي في جهة أيمانهم ، وهذا على قراءة العامة أعني بفتح الهمزة جمع يمين ، وقيل : الباء بمعنى عن،أي:عن جميع جهاتهم ، وإنما خص الأيمان لأنها أشرف الجهات وقرىء بكسرها على أن المراد بالإيمان ضد الكفر ، وهذا المصدر معطوف على الظرف قبله ، والباء سببية ، أي يسعى كائناً بين أيديهم وكائناً بإيمانهم ، وقال أبو البقاء : تقديره وبإيمانهم استحقوه أو وبإيمانهم ، يقال لهم ، أي تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم ، ﴿ بشراكم اليوم ﴾ أي بشارتكم العظيمة في جميع ما يستقبلكم من الزمان .

﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي دخول جنات ، لأن البشارة تقع بالإحداث دون الجثث ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ لا يقادر قدره ، حتى كأنه لا فوز غيره ، ولا اعتداد بما سواه والإشارة إلى ما تقدم من النور والبشرى بالجنات المخلدة ، هذا إذا كان قوله : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ قول الله تعالى ، لا من جملة مقول الملائكة ، وإلا فالإشارة حينئذ إلى الجنة بتأويل ما ذكر ، أو لكونها فوزاً ذكره الكرخي .

﴿ يوم ﴾ أي اذكر يوم ﴿ يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴾ واللام للتبليغ كنظائرها : ﴿ انظرونا ﴾ أي : انتظرونا يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة ، قرأ الجمهور انظرونا أمراً بوصل الهمزة وضم الظاء ، مشتق من النظر ، بمعنى الإنتظار وقرىء من الإنظار بقطع الهمزة أي : أمهولنا وأخرونا يقال : أنظرته واستنظرته أي : امهلته واستمهلته قال الفراء : تقول العرب انظرني أي: انتظرني .

وقيل : معناه انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم ، فيستضيؤا بنورهم ، وهذا أليق بقوله : ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ أي نستضيء منه إلا أن الشيخ أبا حيان قال : إن النظر بمعنى الإبصار لا يتعدى بنفسه إلا

في الشعر وإنما يتعدى بإلى ، والقبس :الشعلة من النار ، والسراج فلما قالوا ذلك ﴿ قيل ﴾ أي قال لهم المؤمنون أو الملائكة الموكلون بهم زجراً وتهكماً بهم ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ أي إلى الموضع الذي أخذنا منه النور .

﴿ فالتمسوا ﴾ أي اطلبوا هنالك ﴿ نوراً ﴾ لأنفسكم فإنه من هنالك يقتبس وقيل : المعنى إرجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة ، وقيل : أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكماً بهم وعن ابن عباس قال : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلهم من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ انظرونا نقتبس من نوركم ، فإنا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون ارجعوا وراءكم من حيث جئتم من الظملة فالتمسوا هنالك النور .

وأخرج الطبراني وابن مردويه .

« عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده وأما عند الصراط فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً،وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات،فقال المنافقون : ﴿انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وقال المؤمنون : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » ، وفي الباب أحاديث وآثار .

﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ معطوف على ما قبله متفرع عليه . فان المؤمنين أو الملائكة لما منعوا المنافقين عن اللحوق بهم والإستضاءة بأنوار معارفهم وأعمالهم ، بقي المنافقون في ظلمة نفاقهم ، فصاروا بذلك كأنه ضرب بينهم وبين النور الذي يؤديهم إلى الجنة سور ، فعلى هذا يكون قوله ﴿ فضرب ﴾ الخ من قبيل الإستعارة التمثيلية ، والسور هو الحاجز بين الشيئين والمراد به هنا الحاجز بين الجنة والنار ، أو بين أهل الجنة وأهل النار وقيل : هو الحائط بينهما

وقيل : هو الاعراف قال الكسائي : الباء في ﴿ســور﴾ زائدة ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال :

﴿ له ﴾ أي :لذلك السور ﴿ باب باطنه ﴾ أي باطن ذلك السور وهو الجانب الذي يلي أهل الجنة ﴿ فيه الرحمة ﴾ وهي الجنة أو النور ﴿ وظاهره ﴾ وهو الجانب الذي يلي أهل النار ﴿ من قبله ﴾ أي من قبل ذلك الظاهر ومن عنده ومن جهته ﴿ العذاب ﴾ أي الظلمة أو نار جهنم : وقيل إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقون يحصلون في العذاب وبينهم الســور . وقيل : إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين .

عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس،فبكى فقيل ما يبكيك؟فقال : ههنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم ، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذي ذكره الله في القرآن ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ هو الذي ببيت المقدس الشرقي باطنه فيه الرحمة المسجد وظاهره من قبله العذاب يعني وادي جهنم وما يليه ولا يخفاك أن تفسير السور المذكور في هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الأشكال ما لا يدفعه مقال ، ولا سيما بعد زيادة قوله ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ المسجد ، فإن هذا غير ما سيقت له الآية وغير ما دلـت عليـه ، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقي المؤمنين والمنافقين ، وأي معنى لذكر مسجد بيت المقدس ههنا ؟ فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس ويجعله في الدار الآخرة سوراً مضروباً بين المؤمنين والمنافقين فما معنى تفسير باطن السور وما فيه من الرحمة بالمسجد ؟ وأن كان المراد أن الله يسوق فريقي المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور في المسجد ويجعل المنافقين خارجه فهم إذ ذاك على الصراط وفي طريق الجنة وليسوا ببيت المقدس .

فـإن كان مثـل هذا التفسيـر ثابتـاً عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قبلنـاه وآمنا به وإلا فلا كرامة ولا قبول ، ولعله أخذ ذلك من الإسرائيليات فقد قال شريح : كان كعب يقول : في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله تعالى ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ وكعب وكذا وهب كثير الرواية عن بني إسرائيل ، وليس عند أهل السنة إلى قبوله سبيل .

ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانـه عما قـاله المنافقون إذ ذاك فقال :

﴿ ينادونهم ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم ، وبقوا في الظلمة ، والجملة حـالية من الضمـير في بينهم أو إستئناف وهو الظاهر ﴿ ألم نكن معكم ؟ ﴾ أي موافقين لكم في الظاهر ، نصلي بصلاتكم في مساجدكم ، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم ، ثم أخبر الله سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال ﴿ قالوا بلى ﴾ أي كنتـم معنا في الظاهر ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ بالنفاق وإبطان الكفر قال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق ، وقيل : بالشهوات واللذات ، قاله ابن عباس ، وقيل : استعملتموها في الفتنة وقيل : بالمعاصي قاله أبو سنان .

﴿ وتـربصتم ﴾ بمحمد صـلى الله عليه وسلم وبمن معـه من المؤمنين حوادث الدهر والدوائر وقيل : تربصتم بالتوبة قاله ابن عباس والأول أولى ﴿ وارتبتم ﴾ أي : شككتم في أمر الدين ، ولم تصدقوا ما أنزل الله من القرآن في التوحيد ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ الباطلة التي من جملتها ما كنتم فيه من التربص وقيل : هي طول الأمل ، والطمع في امتداد الأعمار وقيل : ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ، وقال قتادة : الأماني هنا غرور الشيطان وقيل : الدنيا وقيل : هو طمعهم في المغفرة وكل هذه الأشياء تدخل في مسمى الأماني .

﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ وهو الموت قاله ابن عباس ، وقيل : نصره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة : هو إلقاؤهم في النار ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ بفتح الغين وهو صفة على فعول ، والمراد به الشيطان ، قاله ابن عباس . أي خدعكم بحكم الله وإمهاله الشيطان ، وقرىء بضمها ، وهو مصدر ، وقيل . غركم بأن الله عفو كريم لا يعذبكم ، وماذا عسى أن تكون ذنوبكم عنده ؟ وهو عظيم ومحسن وحليم ، وغفور رحيم ، فلا يزال بالإنسان حتى يوقعه، أو بأنه لا بعث ولا حساب ، قال قتادة : ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله النار .

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم ﴾ أيها المنافقون ﴿ فدية ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار ، وقيل : عوض وبدل ، وقيل : إيمان وتوبة والأول أولى ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ بالله ظاهراً وباطناً ، وإنما عطف الكافر على المنافق وإن كان المنافق كافراً في الحقيقة لأن المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره فصار غير المنافق بهذا الإعتبار فحسن عطفه على المنافق ﴿ مأواكم ﴾ أي منزلكم الذي تأوون إليه .

﴿ النار هي مولاكم ﴾ أي هي أولى بكم ، والمولى في الأصل من يتولى مصالح الإنسان ، ثم استعمل فيمن يلازمه ، وقيل : مولاكم مكانكم عن قرب من الولاء ، وهو القرب، أو المعنى ذات ولايتكم ، وهذا على أن المولى مصدر ، قيل إن الله يركب في النار الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار، وقيل : المعنى هي ناصركم، على طريقة قول الشاعر .

تحية بينهم ضرب وجيع

والمعنى لا ناصر لكم إلا النار كما أن معنى البيت لا تحية لهم إلا الضرب ، على التهكم والمراد نفي الناصر ونفي التحية ﴿ وبئس المصير ﴾ الذي تصيرون إليه النار .

﴿ ألم يأن للذين آمنوا ؟ ﴾ يقال أنى لك يأنى إذا حان ، أي: جاء أناه أي:

وقته ، قرأ الجمهور : ألم يأن ، وقرىء ألما يأن ﴿ أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ أي ألم يحضر خشوع قلوبهم ؟ ولم يجيء وقته ؟ هذه الآية نـزلـت في المؤمنين،قال الحسن : يستبطئهم وهم أحب خلقه إليه ، وقيل : إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام دون محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الزجاج : نزلت في طائفة من المؤمنين حثوا على الرقة والخشوع ، فأما من وصفهم الله بالرقة والخشوع فطبقة فوق هؤلاء ، وقال السدي وغيره : المعنى:ألم يأن للذين آمنوا في الظاهر ، وأسروا الكفر ، أن تخشع وتلين وتسكن وتخضـع وتذل وتطمئن قلوبهم لذكر الله ، وسيأتي ما يقوي قول من قال : إنها نزلت في المسلمين ، والخشوع لين القلب ورقته .

والمعنى أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة ، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ، ولا يخشع له .

« عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن ، فأنزل الله : ﴿ ألم يأن ﴾ الآية » أخرجه ابن مردويه ، وأخرج أيضاً « عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : أتضحكون ولم يـأتـكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ؟ ولقد أنزل عليّ في ضحككم آية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ ؟ قالوا يا رسول الله فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون بقدر ما ضحكتم » .

وأخرج مسلم والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وغيرهم .

« عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ ألم يأن ﴾ الخ إلا أربع سنين » .

« وعنه قال : لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض،أي شيء أحدثنا أي شيء صنعنا » .

« وعن ابن عباس قال إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . ﴿ ألم يأن ﴾ الآية » .

« وعن عبدالعزيز ابن أبي دواد أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت هذه الآية ﴿ ألم يأن ﴾ الخ » .

﴿ وما نزل من الحق ﴾ والمراد به القرآن فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان أو خطور بالقلب وقيل : المراد بالذكر هو القرآن فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير أو باعتبار تغاير المفهومين قرأ الجمهور نزل مشدداً مبنياً للفاعل،وقرىء على البناء للمفعول وقرىء مخففاً مبنياً للفاعل وقرىء أنزل مبنياً للفاعل ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ قرأ الجمهور بالتحتية على الغيبة جرياً على ما تقدم ، وقرىء على الخطاب التفاتاً ، والمعنى النهي لهم أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى ، الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن .

﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ أي طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم ، قرأ الجمهور الأمد بتخفيف الدال ، وقرىء بتشديدها ، أي الزمن الطويل ، وقيل : المراد به على الأولى الأجل والغاية ، يقال أمد فلان كذا أي غايته ﴿ فقست قلوبهم ﴾ بذلك السبب فلذلك حرفوا وبدلوا فنهى الله سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يكونوا مثلهم ، وعن أبي بكر أن هذه الآية قرئت بين يديه ، وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب .

﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن الطاعة الله ، لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم ، وحرفوا وبدلوا ، ولم يؤمنوا بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم،وقيل : هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وقيل : هم الذين ابتدعوا الرهبانية وهم أصحاب الصوامع .

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ
ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ
كَرِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ
لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ
﴿١٩﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ
وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾

﴿ اعلموا ﴾ خطاب للمؤمنين المذكورين ، وهم الصحابة الذين أكثروا المزاح فيكون في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ أن الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ وهذا تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة ، أو لإحياء الأموات ترغيباً في الخشوع وزجراً عن القساوة ، وهذه إستعارة تمثيلية والمعنى من قدر على ذلك فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها ، ويلين القلوب بعد قسوتها ، وإنما حمل على التمثيل لترتبط هذه الآية بما قبلها ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي كي تعقلوا ما تضمنته من المواعظ ، وتعملوا بموجب ذلك ، أو لكي تكمل عقولكم .

﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد في الموضعين من الصدقة ، والأصل المتصدقين والمتصدقات ، وقرىء على الأصل وقرىء بتخفيف الصاد في الموضعين من التصديق ، أي صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ معطوف على اسم الفاعل في المصدقين والمصدقات ، لأنه لما وقع صلة للألف واللام الموصولة حل محل

الفعل ، فكأنه قال : إن الذين تصدقوا وأقرضوا ، كذا قال أبو علي الفارسي وغيره ، وقيل : صلة الموصول محذوف أي والذين أقرضوا ، وقيل : جملة معترضة بين أسم إن وخبرها ، والقرض الحسن عبارة عن التصدق والانفاق في سبيل الله مع خلوص نية ، وصحة قصد ، واحتساب أجر .

﴿ يضاعف لهم ﴾ قرأ الجمهور بفتح العين على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور ، أو ضمير يرجع إلى المصدقين على حذف مضاف ، أي ثوابهم ، وقرىء يضاعفه بكسر العين وزيادة الهاء ، وقرىء يضعف بتشديد العين وفتحها ، والمضاعفة هنا إن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ وهو الجنة .

﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ جميعاً ﴿ أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صديق ، قال المقاتلان . هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم ولم يكذبوهم ، وقال مجاهد : هذه الآية للشهداء خاصة وهم الأنبياء الذين يشهدون للأمم وعليهم ، واختار هذا الفراء والزجاج ، وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا في سبيل الله ، وكذا قال ابن جرير ، وقيل : هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ،والظاهر أن معنى الآية إن ﴿ الذين آمنوا بالله ورسله ﴾ جميعاً بمنزلة الصديقين ، والشهداء المشهورين بعلو الدرجة عند الله وقيل : إن الصديقين هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا بالله وصدقوا جميع رسله ، والقائمون للهسبحانه بالتوحيد .

أخرج ابن جرير .

« عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مؤمنو أمتي شهداء ، ثم تلا هذه الآية » ، وقال ابن مسعود : كل مؤمن صديق وشهيد ، وعنه قال : إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد ، ثم تلا هذه الآية ، وعن أبي هريرة نحوه ، وقال ابن عباس في الآية . هذه مفصولة ،

والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، وأخرج ابن حبان :

« عن عمرو بن مرة الجهني قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وأديت الزكاة ، وصمت رمضان وقمته ، فمن أنا ؟ قال : من الصديقين والشهداء » .

ثم بين سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال :

﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ الضمير الأول راجع إلى الموصول ، والضميران الآخران راجعان إلى الصديقين والشهداء ، أي لهم مثل أجرهم ونورهم ، وأما على قول من قال إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء ،فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد ، والمعنى لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم ذكر حال الكافرين وعقابهم فقال :

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي جمعوا بين الكفر والتكذيب ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ يعذبون بها ، ولا أجر لهم ولا نور ، بل عذاب مقيم ، وظلمة دائمة ، ولما ذكر سبحانه حال الفريق الثاني وما وقع منهم من الكفر والتكذيب ، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرهم بيّن لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة فقال :

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ كلعب الصبيان ﴿ ولهو ﴾ كلهو الفتيان واللعب هو الباطل واللهو كل شيء يتلهى به ثم يذهب ، قال قتادة : لعب ولهو أكل وشرب . قال مجاهد : كل لعب لهو ، وقيل : اللعب ما رغب في الدنيا واللهو ما ألهى عن الآخرة وشغل عنها ، وقيل : اللعب الإقتناء ، واللهو النساء ، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة الأنعام ﴿ وزينة ﴾ كزينة النسوان ، والزينة التزين بمتاع الدنيا من اللباس والحلي ونحوهما ، من دون

عمل للآخرة ﴿ وتفاخر بينكم ﴾ كتفاخر الأقران قرأ الجمهور بتنوين تفاخر، وقرىء بالإضافة أي يفتخر به بعضكم على بعض،وقيل: يتفاخرون بالخلقة والقوة، وقيل: بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب.

﴿ وتكاثر ﴾ كتكاثر الدهقان، والتكاثر إدعاء الاستكثار ﴿ في الأموال والأولاد ﴾ أي يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتطاولون بذلك على الفقراء، والمعنى أن التشاغل، وشغل البال بالحياة الدنيا، دائر بين هذه الأمور الخمسة اجتمعت أم لا، قال القشيري: وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشغل العبد عن الآخرة فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا، وأما الطاعات وما يعين عليها فمن أمور الآخرة.

وقال علي كرم الله وجهه لعمار بن ياسر: لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح، فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء وهو يستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسيج دودة، وأفضل مشمومها المسك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس، وعليها تقتل الرجال، وأما المنكوح فهو النساء وهن مبال في مبال.

ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبهاً، وضرب لها مثلاً، فقال:

﴿ كمثل غيث ﴾ أي مطر ﴿ أعجب الكفار ﴾ أي الزراع، لأنهم يكفرون البذر، أي يغطونه بالتراب كما يستر الكافر حقيقة أنوار الإيمان بما يحصل منه من الجحد والطغيان ﴿ نباته ﴾ الحاصل به ﴿ ثم يهيج ﴾ أي يجف بعد نضارته وخضرته، قاله أبو السعود، وقيل: ييبس وفيه تسامح فإن حقيقته أن يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له، فالمعنى يطول جداً ﴿ فتراه مصفراً ﴾ أي متغيراً عما كان عليه من الخضرة والرونق إلى لون الصفرة والذبول، وقرىء مصفاراً.

﴿ ثم يكون حطاماً ﴾ أي متفتتاً هشيماً متكسراً متحطماً بعد يبسه، شبه

حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى وقوي ، وأعجب به الناظرون إليه لخضرته ، وكثرة نضارته ، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً تبناً كائن لم يكن ، وقيل : المعنى إن الحياة الدنيا كزرع أنبته الغيث وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث الله عليه العاهة فهاج واصفر ، وصار حطاماً ، عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة . وصاحب الجنتين وقد تقدم تفسير هذا المثل في سورة يونس والكهف . ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها ذكر ما أعده للعصاة في الدار الآخرة وما أعده لأهل الطاعة فقال

﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ﴾ أخبر بأن في الآخرة عذاباً شديداً ، ومغفرة منه ورضواناً ، وهذا معنى حسن ، وهو أنه قابل العذاب بشيئين ، بالمغفرة والرضوان ، فهو من باب : لن يغلب عسر يسرين ، والتنكير فيهما للتعظيم . قال قتادة : عذاب شديد لأعداء الله ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته ، قال الفراء : التقدير في الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على شديد،ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا فقال :

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ لمن اغتربها وركن إليها ، واعتمد عليها ، وعمل لها ، ولم يعمل للآخرة ، أي هي في نفسها غرور لا حقيقة له ، وهذا يقتضي أن الإضافة بيانية ، والمعنى وما التمتع بالدنيا إلا متاع أي تمتع هو الغرور ، أي الإغترار ، قال سعيد بن جبير : متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ومن اشتغل بطلبها فله متاع ، بلاغ إلى ما هو خير منه ، وهذه الجملة مقررة للمثل المقدم ، ومؤكدة له ، قال ذو النون : يا معشر المريدين لا تطلبوا الدنيا وإن طلبتموها فلا تحبوها ، فإن الزاد منها ، والمعيل في غيرها ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح ، فإن ذلك سبب إلى الجنة فقال :

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن
نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ
ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ أي سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب لكم المغفرة من ربكم ، وتوبوا مما وقع منكم من المعاصي وقيل : المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام ، قاله مكحول ، وقيل : المراد الصف الأول ، ولا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا بل هو من جملة ما تصدق عليه صدقاً شمولياً أو بدلياً ، وحاصل المعنى لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه من أمور الدنيا ، بل احرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة .

﴿ وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ أي كعرضهما وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها،قال الحسن يعني جميع السموات السبع والأرضين السبع مبسوطات ، كل واحدة إلى صاحبتها ، وقيل : المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة ، وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله ، وقيل : المراد بالعرض السعة لا ضد الطول كما في قوله تعالى : ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ وقيل : إن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ، ويقع في نفوسهم وأفكارهم ، والأول أولى ، وقد مضى تفسير هذا في سورة آل عمران . ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة اخرى فقال :

﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ هذه الجملة مستأنفة ، وفي هذا دليل على أنها مخلوقة ، وعلى أن استحقاق الجنة يكون بمجرد الإيمان بالله ورسله ولكن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه ، واجتنب ما نهاه الله عنه ، وهي أدلة كثيرة في الكتاب والسنة .

﴿ ذلك ﴾ أي ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة ﴿ فضل الله يؤتيه ﴾ أي يعطيه ﴿ من يشاء ﴾ إعطاءه إياه تفضلاً وإحساناً ، وفيه دليل على أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله لا بعمله ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ؛ والخير كله بيده ، وهو الكريم المطلق ، والجواد الذي لا يبخل ، فلا يبعد منه التفضل بذلك ، وإن عظم قدره ، ثم بين سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره ، وثبت في أم الكتاب ، فقال :

﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ﴾ من زلزلة ، وقحط مطر وجدب ، وضعف نبات وقلته . ونقص ثمار وعاهة زرع ، والمصيبة غلبت في الشر وقيل : المراد بها جميع الحوادث من خير وشر ، وعلى الأول إنما خصت بالذكر دون الخير ، لأنها أهم على البشر ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ قال قتادة : بالأوصاب والأسقام ، وقال مقاتل : إقامة الحدود ، وقال ابن جريج : ضيق المعاش . وقيل : موت الأولاد ، واللفظ أوسع من ذلك ﴿ إلا في كتاب ﴾ أي إلا حال كونها مكتوبة في كتاب ، وهو اللوح المحفوظ .

﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ أي نخلقها ، والضمير عائد إلى المصيبة أو إلى الأنفس أو إلى الأرض أو إلى جميع ذلك ، قاله المهدوي : وهو حسن ، قال ابن عباس في الآية : هو شيء قد فرغ منه قبل أن تبرأ الأنفس ﴿ إن ذلك ﴾ أي إن إثباتها في الكتاب على كثرتها ﴿ على الله يسير ﴾ غير عسير .

﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أي أخبرناكم بأنا قد فرغنا من التقدير لكيلا تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ﴾ من الدنيا وسعتها أو من العافية وصحتها ﴿ ولا تفرحوا ﴾ أي لا تبطروا بطر المختال الفخور ﴿ بما آتاكم ﴾ منها أي أعطاكم ، قرأ الجمهور بالمد . وقرىء بالقصر ، أي جاءكم فإن ذلك يزول عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله ، ولا للحزن على فوته .

قيل : والفرح والحزن المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز ، وإلا

فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً ، والحزن صبراً ، وإنما يلزم من الحزن الجزع المنافي للصبر،ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر،كما قال ابن عباس : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً ، ومن أصابه خير جعله شكراً ، وعنه قال : يريد مصائب المعاش ، ولا يريد مصائب الدين ، أمرهم أن يأسوا على السيئة ويفرحوا بالحسنة،قال جعفر بن الصادق رضي الله تعالى عنه : يا ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يردُّ إليك الفوت ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت .

﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين وهما الاختيال والافتخار ، قيل : هو ذم للفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر ، وقيل : إن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها ، وقيل : المختال الذي ينظر إلى نفسه ، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الإستحقار ، والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعي ثم اللغوي فمن حصلتا فيه فهو الذي لا يحبه الله .

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ قرأ الجمهور بضم الباء وسكون الخاء وقرىء بفتحتين وهي لغة الأنصار ، وقرىء بفتح الباء وإسكان الخاء وضمهما ، كلها لغات وهو كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله ، والخبر مقدر أي الذين يبخلون بما يجب عليهم من المال كزكاة وكفارة ، ومن تعليم العلم ونشره وإذاعة أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ، فالله غني عنهم ، وقيل : الموصول في محل جر بدل من مختال ، وهو بعيد ، فإن هذا البخل بما في اليد وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور ، لا لغة ولا شرعاً ، وقيل : نعت له ، وهو أيضاً بعيد .

ويدل على الأول قوله : ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني عنه ، محمود عند خلقه ، لا يضره ذلك ، قرأ الجمهور بإثبات ضمير الفصل وقرىء بحذفه قال سعيد بن جبير الذين يبخلون بالعلم ويأمرون الناس بالبخل لئلا يعلموا الناس شيئاً وقال زيد بن أسلم إنه البخل بأداء حق الله ،وقيل :إنه البخل بالصدقة ، وقال طاوس : إنه البخل بما في يديه ، وقيل : أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم ، لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم ، قاله السدي والكلبي .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ لقد ﴾لام قسم﴿ أرسلنا رسلنا ﴾ أي الملائكة ، قاله الزمخشري والمحلي ، وفيه بعد ، وجمهور المفسرين على حمل الرسل على البشر ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات البينة ، والشرائع الظاهرة ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ المراد الجنس ، فيدخل فيه كتاب كل رسول ﴿ والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ قال قتادة ومقاتل بن حيان : الميزان العدل ، والمعنى أمرناكم بالعدل كما في قوله : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ ، وقوله : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ وقال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل به ، والمعنى ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة ، والقسط العدل ، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله إنزال أسبابه وموجباته ، وعلى القول بأن المراد به الآلة التي يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى إرشاد الناس إليه ، وإلهامهم الوزن به ، ويكون الكلام من باب : (علفتها تبناً وماءاً بارداً) .

﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ أي خلقناه كما في قوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ وهذا قول الحسن ، والمعنى أنه خلقه وأخرجه من المعادن ، وعلم الناس صنعته ، وقيل : إنه نزل مع آدم ﴿ فيه بأس شديد ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب ، قال الزجاج : يمتنع به ويحارب ، والمعنى أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب ، قال مجاهد : فيه جنة وسلاح وقوة وشدة ﴿ ومنافع للناس ﴾ أي أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه ، مثل السكين والفأس والإبرة وآلات الزراعة والتجارة والعمارة ، قال البيضاوي : ما من صنعة إلا والحديد آلتها أي له دخل في آلتها ، وهذا الحصر كلي كما هو مشاهد .

﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله ﴾ معطوف على قوله . ليقوم أي لقد أرسلنا رسلنا ، وفعلنا كيت وكيت ، ليقوم الناس ، وليعلم الله علم مشاهدة

أو معطوف على علة مقدرة كأنه قيل : ليستعملوه وليعلم الله ، والأول أولى ، والمعنى أن الله أمر في الكتاب الذي أنزل بنصرة دينه ورسله فمن نصر دينه ورسله علمه ناصراً،ومن عصى علمه بخلاف ذلك ، ومعنى ﴿ بالغيب ﴾ غائباً عنهم أو غائبين عنه .

﴿ إن الله قوى عزيز ﴾ أي قادر على كل شيء غالب لكل شيء ، وليس له حاجة في أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا،ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين ، قال أبو نصر العتبي : وقد كان يختلج في صدري معنى هذه الآية لجمعها بين الكتاب والميزان والحديد على تنافر ظاهرها في المناسبة ، وبعدها قبل الروية والإستنباط ، وسألت عدة من أعيان العلماء المذكورين بالتفسير ، والمشهورين من بينهم بالتذكير فلم أحصل منهم على جواب ، حتى أعملت التفكر ، وأمعنت التدبر ، فوجدت الكتاب قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية يبين سبل المراشد،ويفصل جمل الفرائض،فيرتهن مصالح الأبدان والنفوس،ويتضمن جوامع الأحكام والحدود ، قد حظر فيه التعادي والتظالم،ورفض التباغي والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل في أقسام الأرزاق المخرجة لهم ، بين رجع السماء وصدع الأرض ، ليكون ما يصل منها إلى أهل الخطاب بحسب الاستحقاق بالتكسب ، دون التغلب والتوثب ، واحتاجوا في استدامة حياتهم بأقواتهم مع الصفة المندوب إليها إلى استعمال آلة للعدل ، يقع بها التعامل ، ويعم معها التساوي والتعادل فألهمهم الله تعالى اتخاذ الآلة التي هي الميزان ، فيما يأخذونه ويعطونه ، لئلا يتظالموا بمخالفته،فيهلكوا به إذ لم يكن ينتظم لهم العيش مع سوغ ظلم البعض منهم على البعض .

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ وذلك أنه تعالى جعل السماء علة للأرزاق والأقوات من أنواع الحبوب والنبات ، فكان ما يخرج منها من أغذية العباد ، ومرافق حياتهم ، مضطراً إلى أن يكون اقتسامه بينهم على الإنصاف دون الجزاف ، ولم يكن يتم ذلك إلا بهذه الآلة المذكورة ، فنبه

الله تعالى على موقع الفائدة والعائدة بها ، بتكرير ذكره ، فكان ما تقدم ذكره معنى الكتاب والميزان .

ثم إنه من المعلوم أن الكتاب الجامع للأوامر الإلّهية ، والآلة الموضوعة للعامل بالسوية إنما يحفظ على إتباعهما ويضطر العالم إلى التزام أحكامهما بالسيف ، الذي هو حجة الله تعالى على من جحد وعند ، ونزع من صفة الجماعة اليد ، وهو بارق سطوته ، وشهاب نقمته ، وجذوة عقابه ، وعذبة عذابه ، فهذا السيف هو الحديد ، الذي وصفه الله تعالى بالبأس الشديد ، فجمع بالقول الوجيز معاني كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادىء والمقاطع ، فظهر بهذا التأويل معنى الآية ، وبان أن السلطان خليفة الله على خلقه ، وأمينه على رعاية حقه ، بما قلده من سيفه ، ومكن له في أرضه . انتهى المقصود منه .

ولما ذكر إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل ، فذكر رسالته لنوح وإبراهيم فقال :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم ﴾ كرر القسم للتوكيد ، ولإظهار مزيد الإعتناء بالأمر ، ونوح هو الأب الثاني لجميع البشر ، وإبراهيم أبو العرب والروم وبني إسرائيل ﴿ وجعلنا في ذريتهما ﴾ أي نوح وإبراهيم ﴿ النبوة والكتاب ﴾ أي الكتب الأربعة المنزلة على الأنبياء منهم ، وقيل : جعل بعضهم أنبياء وبعضهم يتلون الكتاب ، وقيل : الكتاب الخط بالقلم ، يقال كتب كتابة وكتاباً .

﴿ فمنهم مهتد ﴾ أي : فمن الذرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم وقيل : المعنى فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى ، والأول أولى ، لتقدم ذكرهم لفظاً وأما الثاني فلدلالة أرسلنا والمرسلين عليه ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي : خارجون عن الطاعة وقيل : المراد بالفاسق هنا الذي ارتكب الكبيرة سواء كان كافراً أو لم يكن لإطلاق هذا الإسم وهو يشمل الكافر وغيره ، وقيل : المراد به هنا الكافر لأنه جعل الفساق ضد المهتدين .

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ثم قفينا على آثارهم﴾ أي أتبعنا على آثار الذرية،أو على آثار نوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم،أو من عاصرهما من الرسل ﴿برسلنا﴾ الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى وإلياس وداود وسليمان وغيرهم ﴿وقفينا بعيسى ابن مريم﴾ أي أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم ، وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه .

﴿وآتيناه الإنجيل﴾ وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه وقد تقدم ذكر إشتقاقه في سورة آل عمران قرأ الجمهور إنجيل بكسر الهمزة وقرىء بفتحها

﴿وجعلنا في قلوب الذين أتبعوه﴾ على دينه ، وهم الحواريون وأتباعهم ﴿رأفة﴾ أي مودة ، فكان يود بعضهم بعضاً ﴿ورحمة﴾ يتراحمون بها ، وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس ، فألان الله قلوبهم لذلك،بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وأصل الرأفة اللين ، والرحمة الشفقة ، وقيل : الرأفة أشد الرحمة .

﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها فالنصب على الاشغال وليس بمعطوفة على ما قبلها وقيل : معطوفة على ما قبلها أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم ، والأول أولى ورجحه أبو علي الفارسي والزمخشري وأبو البقاء وجماعة إلا أن هؤلاء يقولون : إنه إعراب المعتزلة وذلك أنهم يقولون : ما كان من فعل الإنسان فهو مخلوق له فالرأفة والرحمة لما كانتا من فعل الله نسب خلقهما إليه ، والرهبانية لما لم تكن من فعل الله تعالى ، بل من فعل العبد يستقل بفعلها نسب ابتداعها إليه والرهبانية بفتح الراء وضمها وقد قرىء بهما وهي بالفتح الخوف من الرهب وبالضم منسوبة إلى الرهبان، وذلك لأنهم غلوا في العبادة وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح والملبس وتعلقوا بالكهوف والصوامع والغيران والديرة، لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي منهم نفر قليل فترهبوا وتبتلوا، ذكر معناه الضحاك وقتادة وغيرهما وإنما خصت بذكر الابتداع لأن الرأفة والرحمة في القلب أمر غريزي لا تكسب للإنسان فيه بخلاف الرهبانية فإنها من أفعال البدن وللإنسان فيها تكسب .

﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ صفة ثانية لرهبانية أو مستأنفة مقررة ، لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم ، والمعنى: ما فرضناها عليهم ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ الإستثناء منقطع ، أي ما كتبناها نحن عليهم رأساً ، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، وإلى هذا ذهب قتادة وجماعة ، وقيل : متصل ، أي ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لابتغاء مرضاة الله ، ويكون كتب بمعنى قضى ، وهذا قول مجاهد ، وقال الزجاج : معناه لم نكتب عليهم شيئاً البتة ، قال : ويكون إلا ابتغاء رضوان الله بدلاً من الهاء والألف في كتبناها ، والمعنى ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله .

﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أي لم يرعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم ، وما قاموا بها حق القيام ، بل ضيعوها ، وكفروا بدين عيسى ،

وضموا إليها التثليث ، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا ، وتركوا الترهب ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم ، وهم المرادون بقوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ الذي يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما بعثه الله .

﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي :خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به ، ووجه الذم لهم على تقدير أن الإستثناء منقطع ،أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة ، وأن الله يرضاها ، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه ديناً ، وأما على القول بأن الإستثناء متصل ، وأن التقدير : ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله ، بعد أن وفقناهم لإبتداعها ، فوجه الذم ظاهر .

عن « ابن مسعود في الآية قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله قلت لبيك يا رسول الله ثلاث مرات ، قال : هل تدري أي عرى الإسلام أوثق ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا في دينهم يا عبد الله هل تدري أي الناس أعلم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس ، وإن كان مقصراً بالعمل ، وإن كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة ، نجا منها ثلاث ، وهلك سائرها ، فرقة وازرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة على موازرة الملوك فأقاموا بين ظهراني قومهم ، فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ، فقتلهم الملوك ونشرتهم المناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولا بالمقام معهم ، فساحوا في الجبال وترهبوا فيها ، وهم الذين قال الله :

﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ إلى قوله : ﴿ فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ ، وهم الذين آمنوا بي وصدقوني ، ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ ، هم الذين

جحدوني وكفروا بي ، أخرجه عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب وغيرهم .

« وعن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل ، فقيل لملوكهم : ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمنا هؤلاء إنهم يقرأون : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم ، فادعوهم فليقرأوا كما نقرأ ، وليؤمنوا كما آمنا فدعاهم فجمعهم ، وعرض عليهم القتل أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك دعونا نحن نكفيكم أنفسنا ، فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم اعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا . ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة : دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونأكل مما تأكل الوحوش ، ونشرب مما تشرب ، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا ، وقالت طائفة منهم : ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ، ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ، ففعلوا ذلك فأنزل الله ﴿ رهبانية ابتدعوها ﴾ الآية .

وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك ، وفني من فني منهم ، قالوا : نتعبد كما تعبد فلان » ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا قليل،انحط صاحب الصومعة من صومعته ، وجاء السياح من سياحته وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه ، فقال الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ الآية » أخرجه النسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وغيرهم .

« وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن لكل أمة رهبانية ،

ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » أخرجه أحمد وأبو يعلى والبيهقي في الشعب ، ثم أمر الله سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدمين ، بالتقوى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ بترك ما نهاكم عنه ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أي نصيبين ضخمين بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ، قال ابن عباس : أي أجرين بإيمانهم بعيسى عليه السلام ، ونصب أنفسهم والتوراة والإنجيل وبإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديقهم ، ولا يبعد أن يثابوا على دينهم السابق ، وإن كان منسوخاً ببركة الاسلام ، وقيل : الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وسلم ، وأصل الكفل الحظ والنصيب ؛ وقد تقدم الكلام على تفسيره في سورة النساء .

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : كفلين ضعفين ؛ وهي بلسان الحبشة ؛ وقال ابن عمر : الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءاً من رحمة الله ، « وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لهم أجران ؛ رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم والعبد المملوك الذي أدى حق مواليه وحق الله ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها،وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » أخرجه الشيخان .

﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني على الصراط ، كما قال : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾ ، وقيل : النور هو القرآن ، وقيل : هو الهدى والبيان ، أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿ ويغفر لكم ﴾ ما سلف من ذنوبكم قبل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي بليغ المغفرة والرحمة .

﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أي التوراة ، واللام متعلقة بما تقدم من الأمر بالإيمان والتقوى ، أي اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ، ولا في لئلا زائدة قاله الفراء والأخفش وغيرهما ﴿ ألا يقدرون على شيء ﴾ أي ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً ﴿ من فضل الله ﴾ الذي تفضل به على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذي تفضل الله بـه على المستحقين له ، ولا يتمكنون من نيله لأنهم لم يؤمنوا برسوله ، وهو مشروط بالإيمان به ، وقيل : الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ؛ ولا غير مزيدة ، والمعنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه والأول أولى .

﴿ و ﴾ جملة ﴿ أن الفضل بيد الله ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها أي ليعلموا أنهم لا يقدرون ، وليعلموا أن الفضل الخ ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ من عباده والظاهر أنه مستأنف ، وقيل : هو خبر ثان عن الفضل ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها ، والمراد بالفضل هنا ما تفضل به على الذين اتقوا وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف ، وقال الكلبي : هو رزق الله وقيل : نعم الله التي لا تحصى ، وقيل هو الإسلام .

تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر ويليه الجزء الرابع عشر وأوله سورة المجادلة .

فهرس الجزء الثالث عشر

فتح البيان
في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خال من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الرابع عشر

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٣٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

الجزء الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ويحتوي على:

- سورة المجادلة
- سورة الحشر
- سورة الممتحنة
- سورة الصف
- سورة الجمعة
- سورة المنافقون
- سورة التغابن
- سورة الطلاق
- سورة التحريم
- سورة الملك
- سورة القلم
- سورة الحاقة
- سورة المعارج
- سورة نوح
- سورة الجن
- سورة المزمل
- سورة المدثر
- سورة القيامة
- سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة

﴿ اثنتان وعشرون آية وهي مدنية ﴾

قال القرطبي: في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكي. وقال الكلبي: نزلت جميعها بالمدينة غير قوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ نزلت بمكة، وقال ابن عباس: نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله والمجادلة بكسر الدال كما ذكره السعد في حواشي الكشاف وفي الشهاب بفتح الدال وكسرها والثاني هو المعروف كما في الكشاف وهذه السورة أول النصف الثاني من القرآن، باعتبار عدد السور، فهي الثامنة والخمسون منها، وهي أول العشر الأخير من القرآن باعتبار عدد أجزائه، وليس فيها آية إلا وفيها ذكر الجلالة مرة أو مرتين أو ثلاثاً وجملة ما فيها من الجلالات خمس وثلاثون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ
إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ
﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا
ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ أي تراجعك الكلام في شأنه أي أجاب قولها ومطلوبها بأن أنزل حكم الظهار على ما يوافق مطلوبها ، وعلى هذا فقد للتحقيق ، ومن قال إنها للتقريب والتوقع فلم يلاق المعنى ، وقد سمع بإظهار الدال وإدغامها في السين قراءتان سبعيتان .

﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ أي تظهر ما بها من المكروه والفاقة والوحدة ، والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه كان كلما قال لها قد حرمت عليه ، قالت والله ما ذكر طلاقاً ، ثم تقول : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وأن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلي جاعوا وجعلت ترفع رأسها الى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك ، فهذا معنى قوله : ﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة ، وزوجها أوس بن الصامت ، وكان به لمم فاشتد به لممه ذات يوم فظاهر منها ، ثم ندم على ذلك ، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية ، وقيل : هي خولة بنت حكيم ، وقيل : اسمها جميلة ، والأول أصح . وقيل : هي بنت خويلد قال الماوردي : إنها نسبت تارة إلى

أبيها وتارة إلى جدها وأحدهما أبوها والآخر جدها فهي خولة بنت ثعلبة بن خويلد .

روي أن عمر بن الخطاب مر بها في زمن خلافته وهو على حمار والناس حوله فاستوقفته ووعظته ، فقيل له : أتقف لهذه العجوز هذا الموقف ؟ فقال أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟

﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها ، أي والله يعلم تراجعكما في الكلام من حاور إذا راجع ، أو حور إذا رجع ، أو جملة حالية وهو بعيد . وقد أخرج ابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم .

« عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ وهو أوس بن الصامت » .

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ يسمع كل مسموع ، ويبصر كل مبصر ، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة ، أخرج أحمد وأبو داود وابن المنذر والطبراني والبيهقي .

« من طريق يوسف بن عبد الله قال : حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، ثم رجع فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي ، قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل

إلي ، وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فما برحت حتى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كان يتغشاه ثم سرّي عنه ، فقال لي : يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك ، ثم قرأ عليّ ﴿ قد سمع ﴾ إلى قوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مريه فليعتق رقبة ، قلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق ، قال : فليصم شهرين متتابعين ، قلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ، قال : فليطعم ستين مسكيناً وسقا من تمر ، قلت : والله ما ذاك عنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا سأعينه بعذق من تمر فقلت : وأنا يا رسول الله سأعينه بوسق آخر فقال قد أصبت وأحسنت فاذهبي وتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً قالت : ففعلت » ، وفي الباب أحاديث .

ثم بين سبحانه شأن الظهار في نفسه وذكر حكمه بطريق الاستئناف فقال : ﴿ الذين يظاهرون ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء وكسر الهاء ، وقرأ الجمهور يظهرون بالتشديد مع فتح حرف المضارعة ، وقرىء يظاهرون بفتح الياء وتشديد الظاء وزيادة ألف ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الأحزاب وقرىء يتظاهرون وكلها سبعيات ومعنى الظهار شرعاً أن يقول لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ، أنت منّي أو معي أو عندي كظهر أمي ولا خلاف في كون هذا ظهاراً ، واختلفوا إذا قال أنت علي كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم ، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك الى أنه ظهار وبه قال الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري ، وقال جماعة منهم قتادة والشعبي : إنه لا يكون ظهاراً بل يختص الظهار بالأم وحدها واختلفت الرواية عن الشافعي فروي عنه كالقول الأول وكالقول الثاني .

وأصل الظهار مشتق من الظهر وهو لغة العلو وليس هو من ظهر الإنسان واختلفوا إذا قال لامرأته : أنت عليّ كرأس أمي أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك ، هل يكون ظهاراً أم لا ؟ وهكذا إذا قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر

الظهر ، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهاراً ، ورويَ عن أبي حنيفة انه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهاراً ، وروي عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلا في الظهر وحده ، واختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية فقيل : يكون ظهاراً ، وقيل : لا ، والكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع .

﴿ منكم ﴾ أي حال كونهم منكم أيها العرب ، وهذا توبيخ لهم ، وتهجين لعادتهم ، لأن الظهار كان خاصاً بالعرب ومن أيمان جاهليتهم دون سائر الأمم ﴿ من نسائهم ﴾ يعني يحرمون زوجاتهم كتحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم ، يقولون لهن : أنتن كظهور أمهاتنا ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم فذلك كذب بحت منهم ، وإنه منكر وزور ، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم قرأ الجمهور أمهاتهم بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال ﴿ ما ﴾ عمل ليس ، وقرىء بالرفع على عدم الإعمال ، وهي لغة نجد وبني أسد . ثم بيّن لهم سبحانه أمهاتهم على الحقيقة فقال :

﴿ إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ أي ما أمهاتهم إلا النساء اللاتي ولدنهم ،يريد أن الأمهات على الحقيقة الوالدات ، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع ، وكذا أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لزيادة حرمتهن وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة فلذا زاد سبحانه في توبيخهم وتقريعهم فقال :

﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ أي وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا فظيعاً من القول ، ينكره الشرع ، والزور:الكذب الباطل ، المنحرف عن الحق ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ أي بليغ العفو والمغفرة إذ جعل الكفارة عليهم ، مخلصة لهم عن هذا القول المنكر ولما ذكر سبحانه الظهار إجمالاً ، ووبخ فاعليه ، شرع في تفصيل أحكامه فقال :

﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ أي والذين يقولون ذلك القول المنكر

الزور ، ويمتنعون بهذا اللفظ من جماعهن ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ أي إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي ، كما في قوله ﴿ أن تعودوا لمثله ﴾ ، أي إلى مثله ، قال الأخفش : ﴿ لما قالوا ﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان ، قال : ﴿ والحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ وقال : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وقال : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ وقال ﴿ وأوحى إلى نوح ﴾ وقال الفراء : اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء ، وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون الى إرادة الجماع من أجل ما قالوا .

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال ، الأول أنه العزم على الوطء ، وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه . وروي عن مالك : وقيل هو الوطء نفسه ، وبه قال الحسن ، وروي أيضاً عن مالك ، وقيل : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق ، وبه قال الشافعي ، وقيل : هو الكفارة ، والمعنى أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة ، وبه قال الليث بن سعد ، وروي عن أبي حنيفة ، وقيل : هو تكرير الظهار بلفظه وبه قال أهل الظاهر وروي عن بكير بن الأشج وأبي العالية والفراء والمعنى ثم يعودون إلى قول ما قالوا وقيل : المعنى يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة وإلى هذا الاحتمال ذهب أكثر المجتهدين وقيل : معنى العود السكوت عن الطلاق بعد الظهار وقيل : العود الندم أي يندمون فيرجعون إلى الألفة .

قال ابن عباس في الآية : هو الرجل يقول لامرأته : أنت علي كظهر أمي فإذا قال ذلك فليس يحل له أن يقربها بنكاح ولا غيره ، حتى يكفر بعتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا والمس النكاح فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً وإن هو قال لها أنت علي كظهر أمي إن فعلت كذا فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث فإن حنث فلا يقربها حتى يكفر : ولا يقع في الظهار طلاق .

﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فالواجب عليهم إعتاق رقبة يقال : حررته أي

جعلته حراً والظاهر أنها تجزىء أي رقبة كانت وقيل : يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة في كفارة القتل وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه وبالثاني قال مالك والشافعي واشترطا أيضاً سلامتها من كل عيب ولم يجز المدبر وأم الولد والمكاتب الذي أدى شيئاً ، قال الأخفش : الآية فيها تقديم وتأخير والمعنى والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع ، فتحرير رقبة لما قالوا أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا ، فالجار في قوله : ﴿ لما قالوا ﴾ متعلق بالمحذوف الذي هو خبر المبتدأ وهو فعليهم .

﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ المراد بالتماس هنا الجماع وبه قال الجمهور فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفر ، وقيل : إن المراد به الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة ، وبه قال مالك ، وهو أحد قولي الشافعي ﴿ ذلكم ﴾ أي الحكم المذكور ﴿ توعظون به ﴾ أي تؤمرون أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار ، فإن الغرامات مزاجر عن تعاطي الجنايات وفيه بيان ما هو المقصود من شرع الكفارة ، قال الزجاج : معنى الآية ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به أي إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ، لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم ، حتى لا تعودوا الى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه .

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، فهو مجازيكم عليها .

« قال ابن عباس : أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : إني ظاهرت من امرأتي فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فوقعت عليها قبل أن أكفِّر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يقل الله ﴿من قبل أن يتماسا﴾ قال: قد فعلت يا رسول الله ، قال : أمسك عنها حتى تُكفّر »(١) ، وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي .

« عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي

(١) رواه الحاكم.

فوقعت عليها من قبل أن أكفِّر ، فقال : وما حملك على ذلك ؟ قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله » ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة فقال :

﴿ فمن لم يجد ﴾ لرقبة في ملكة ، ولا تمكن من قيمتها ﴿ فصيام ﴾ أي فعليه صيام ﴿ شهرين متتابعين ﴾ متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف إن كان الافطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من مرض أو سفر فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي والشافعي ومالك : إنه يبني ولا يستأنف ، وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروي عن الشافعي ومعنى ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ ما تقدم قريباً فلو وطىء ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأً استأنف ، وبه قال أبو حنيفة ومالك ، وقال الشافعي : لا يستأنف إذا وطىء ليلاً ، لأنه ليس محلاً للصوم والأول أولى .

﴿ فمن لم يستطع ﴾ صيام شهرين متتابعين ﴿ فإطعام ستين مسكيناً ﴾ أي فعليه أن يطعم ستين مسكيناً لكل مسكين مدان ، وهما نصف صاع ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وقال الشافعي وغيره لكل مسكين مد واحد من غالب قوت البلد ، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحد أو يدفع اليهم ما يشبعهم ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم ، وبعضهم في يوم آخر عن أبي هريرة ثلاث فيه مد ، كفارة اليمين ، وكفارة الظهار ، وكفارة الصيام .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من البيان وتعليم الأحكام والتنبيه عليها واقع أو فعلنا ذلك ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم وتصدقوا أن الله أمر بها ، أو لتطيعوا الله ورسوله في الأوامر والنواهي ، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدوها ، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة والحاكم وصححه غيرهم « عن سلمة بن صخر الأنصاري فقال :

كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان ، فرقاً من أن أصيب منها في ليلي ، فأتتابع في ذلك ، ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح ، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء فوثبت عليها ، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري ، فقلت : انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بأمري فقالوا : لا والله ، لا تفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن ، أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك ، قال : فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته خبري ، فقال أنت بذاك ، قلت : أنا بذاك . قال : أنت بذاك ، قلت : أنا بذاك . قال أنت بذاك ، قلت: أنا بذاك . وها أنا ذا فامض في حكم الله ، فاني صابر لذلك ،قال :أعتق رقبة ، فضربت عنقي بيدي فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : فصم شهرين متتابعين ، فقلت : هل أصابني ما أصابني إلا في الصيام قال : فأطعم ستين مسكيناً ، قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء ، قال : اذهب الى صاحب صدقة بني زريق ، فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقا ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك ، فرجعت الى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السعة والبركة أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليّ فدفعوها إليه » .

﴿ وتلك ﴾ أي الأحكام المذكورة في الظهار والكفارة ﴿ حدود الله ﴾ فلا تجاوزوا حدوده التي حدها لكم ، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية ، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يقفون عند حدود الله ، ولا يعلمون بما حده الله لعباده ، وسماه كفراً تغليظاً وتشديداً ﴿ عذاب أليم ﴾ وهو عذاب جهنم يوم القيامة ، ولما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين فقال :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ المحادة المشاقة والمعاداة والمخالفة ومثل قوله ﴿ إن الذين يشاقون الله ورسوله ﴾ قال الزجاج : المحادة أن تكون في حد يخالف صاحبك ، فهي كناية عن المعاداة لكونها لازمة لها ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب ، والمحادون هم أهل مكة ، فإن هذه الآية وردت في غزوة الأحزاب وهي في السنة الرابعة وقيل : في الخامسة والمقصود منها البشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين القادمين عليهم .

﴿ كبتوا ﴾ أي يكبتوا ويذلوا ويتفرق جمعهم ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي ، تنبيهاً على تحقيق وقوعه ، وقيل : المعنى على الماضي وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر ، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر ﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ أي أذلوا وأخزوا ، يقال : كبت الله فلاناً إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له : مكبوت ، قال المقاتلان : أخزوا كما أخزي الذين من قبلهم من أهل الشرك ، وكذا قال قتادة وقال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا ، وقال ابن زيد : عذبوا ، وقال السدي : لعنوا وقال الفراء : أغيظوا يوم الخندق ، والمراد بمن قبلهم كفار الأمم الماضية المعادين لرسل الله .

﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسله من الأمم المتقدمة وقيل المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه

وقيل هي المعجزات الدالة على صدق الرسول ﴿ وللكافرين ﴾ بكل ما يجب الإيمان فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولاً أولياً ﴿ عذاب مهين ﴾ يهين صاحبه ويذله ويذهب بعزه .

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يذكر يوم يبعثهم مجتمعين في حالة واحدة أو يبعثهم كلهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث ﴿ فينبئهم ﴾ أي فيخبرهم ﴿ بما عملوا ﴾ في الدنيا من الأعمال القبيحة إما ببيان صدورها عنهم توبيخاً لهم وتكميلاً للحجة عليهم أو بتصويرها في صورة قبيحة هائلة على رؤوس الأشهاد . تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم وتشديداً لعذابهم .

﴿ أحصاه الله ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : كيف ينبئهم بذلك مع كثرته واختلاف أنواعه ؟ فقيل : أحصاه الله جميعاً ، ولم يفته منه شيء ﴿ و ﴾ الحال أنهم قد ﴿ نسوه ﴾ ولم يحفظوه ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ تذييل مقرر لإحصائه تعالى ، أي لا يخفى عليه شيء من الأشياء ، بل هو مطلع وناظر ، ثم أكد سبحانه بيان كونه عالماً بكل شيء فقال :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ؟ ﴾ أي ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما ، بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ مستأنفة لتقرير شمول علمه ، وسعته وإحاطته بكل المعلومات ، قرأ الجمهور يكون بالتحية ، وقرىء بالفوقية ، وكان على القراءتين تامة ، ومن مزيدة للتأكيد ، والنجوى السرار ، يقال : قوم نجوى أي ذوو نجوى ، وهي مصدر ، والمعنى ما يوجد من تناجي ثلاثة أو من ذوي نجوى ، ويجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين ، قال الفراء : ثلاثة نعت للنجوى ، فانخفضت ، وإن شئت أضفت نجوى إليها ، ولو نصبت على إضمار فعل جاز .

﴿ إلا هو رابعهم ﴾ أي بالعلم يعني يعلم نجواهم : كأنه حاضر معهم ومشاهدهم ، كما تكون نجواهم معلومة عند الرابع الذي يكون معهم كذا في

الخـازن وأبي السعود . والجمـل التي بعـد إلا في مـوضـع نصب على الحـال يعني مـا يوجـد شيء من هذه الأشيـاء إلا في حال من هـذه الأحوال فـالاستثاء مفرغ من أعم الأحوال .

﴿ ولا ﴾ نجوى ﴿ خمسة إلا هو سادسهم ﴾ أي جـاعلهم ستة من حيث إنـه يشاركهم في الاطـلاع على تلك النجوى وتخصيص العـددين بالـذكـر لأن أغلب عـادات المتناجين أن يكونوا ثـلاثة أو خمسـة أو كانت الـواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثـلاثة في مـوضع وخمسـة في موضـع . أو لأن العدد الفرد أشرف من الزوج لأن الله تعـالى وتر يحب الـوتر فخصهمـا بالـذكر تنبيهاً على أنه لا بد من رعاية الأمور الآلهية في جميع الأمـور . قال الفـراء : والعدد غير مقصود لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثـر ، يعلم السر والجهـر لا تخفى عليه خافية .

﴿ ولا أدنى من ذلك ﴾ أي ولا أقل من العدد المذكور كالـواحد والاثنين ﴿ ولا أكثر ﴾ منه كالستة والسبعة ﴿ إلا هو معهم ﴾ أي مصـاحب لهم بعلمه ، يعلم ما يتناجون به ، لا يخفى عليه شيء منه ، قرأ الجمهور أكثر بالثاء وبالجر بالفتحة عطفاً على لفظ نجوى ، وقرىء بالياء الموحدة وبالرفع عطفاً على محل نجوى ، قال الواحدي : قال المفسرون : إن المنافقين واليهود كـانوا يتنـاجون فيما بينهم ، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنـون لذلـك ، فلما طال ذلك وكثر ، شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمـرهـم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا وعادوا إلى منـاجاتهم ، فـأنزل الله هـذه الآيات :

﴿ أين كانوا ﴾ معناه إحاطة علمه بكل تناج يكون معهم في أي مكان من الأمكنة ، ولو كانوا تحت الأرض ، فإن علمه بـالأشياء ليس لقـرب مكان حتى يتفاوت بقرب الأمكنـة وبعدهـا ، ﴿ ثم ينبئهم ﴾ أي يخبرهـم ﴿ بمـا عملوا يوم القيـامة ﴾ تـوبيخاً لهم وتبكيتـاً وإلزامـاً للحجة ﴿ إن الله بكـل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ
وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا
ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا
تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ
بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ، ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ هؤلاء هم من تقدم ذكرهم من المنافقين واليهود ، وصيغة المضارع للدلالة على تمكن عودهم وتجدده ، واستحضار صورته العجيبة ، قال مقاتل : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين اليهود مواعدة ، فإذا مر بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شراً فنهاهم الله فلم ينتهوا ، فنزلت وقال ابن زيد : كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسأله الحاجة ويناجيه ، والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم ، فيفزعون لذلك .

﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ﴾ قرأ الجمهور يتناجون بوزن يتفاعلون لقوله فيما بعد ﴿ إذا تناجيتم فلا تتناجوا ﴾ ، وقرىء ينتجيون بوزن يفتعلون ، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا واختصموا وتقاتلوا واقتتلوا ، ومعنى الإثم ما هو إثم في نفسه ، كالكذب والظلم ، والعدوان ما فيه عدوان على المؤمنين .

﴿ ومعصيت الرسول ﴾ أي مخالفته ، وقرىء معصيات بالجمع ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نهاهم عن النجوى فعصوه وعادوا إليها ،

وقيل : المعنى يوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول ، رسمت معصية هذه والتي بعدها بالتاء المجرورة وإذا وقف عليها فأبو عمرو وابن كثير والكسائي يقفون بالهاء ، غير أن الكسائي يقف بالإمالة على أصله ، والباقون يقفون بالتاء على الرسم ، واتفقوا في الوصل على التاء .

﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ قال القرطبي : إن المراد بها اليهود ، كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون : السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهراً . وهم يعنون الموت باطناً ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم ، وفي رواية وعليكم قال ابن عمر في الآية : يريدون بذلك شتمه فنزلت هذه الآية أخرج أحمد والبخاري والترمذي وصححه .

« عن أنس أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال : السام عليكم فرد عليه القوم ، فقال : هل تدرون ما قال هذا ؟ قالوا : الله أعلم ، سلم يا نبي الله ، قال : لا ولكنه قال : كذا وكذا ، ردوه علي فردوه ، قال : قلت السام عليكم ؟ قال : نعم قال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك ، قال عليك ما قلت » ، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن عائشة قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : عليكم السام واللعنة ، فقال : يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا المفحش ، قلت : ألا تسمعهم يقولون السام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما سمعتني أقول : وعليكم ، فأنزل الله هذه الآية »[١] وعن ابن عباس قال : كان المنافقون

---

(١) رواه مسلم .

يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حيوه سام عليك فنزلت .

﴿ ويقولون في أنفسهم ﴾ أي فيما بينهم إذا خرجوا من عنده ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أي هلا يعذبنا بذلك ؟ ولو كان محمد نبياً لعذبنا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به . وقيل : المعنى لو كان نبياً لاستجيب له فينا ، حيث يقول : وعليكم ، ووقع علينا الموت عند ذلك ﴿ حسبهم جهنم ﴾ عذاباً ﴿ يصلونها ﴾ يدخلونها ﴿ فبئس المصير ﴾ أي المرجع وهو جهنم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول ﴾ لما فرغ سبحانه عن نهي اليهود والمنافقين عن النجوى ، أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله ، كما يفعله اليهود والمنافقون ، وقيل : الخطاب للمنافقين ، والمعنى يا أيها الذين آمنوا ظاهراً أو بزعمهم واختار هذا الزجاج وقيل : الخطاب لليهود والمعنى يا أيها الذين آمنوا ظاهرا أو بزعمهم واختار هذا الزجاج وقيل : الخطاب لليهود والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى ، والأول أولى ، قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا بعث سرية وأغزاها التقى المنافقون فأنغضوا رؤوسهم الى المسلمين ويقولون قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تناجوا وأظهروا الحزن ، فبلغ ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم ومن المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية : وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه »[١] ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه :

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

« عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطرقه أمر أو يأمر بشيء ، فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة ، حتى إذا كنا أنداء نتحدث ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الليل فقال : ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ قلنا : إنا كنا يا رسول الله في ذكر المسيح ، فرقاً منه ، فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه ؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » . قال ابن كثير : هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء ، ثم بين لهم ما يتناجون به في أنديتهم وخلواتهم فقال :

﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أي بالطاعة وترك المعصية ، ثم خوفهم سبحانه فقال ﴿ واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ فيجزيكم بأعمالكم ثم بين سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجي ، هو من جهة الشيطان فقال : ﴿ إنما النجوى ﴾ يعني الإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ﴿ من الشيطان ﴾ لا من غيره أي من تزيينه وتسويله .

﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ أي لأجل أن يوقعهم في الحزن ، بما يحصل لهم من التوهم أنها في مكيدة يكادون بها قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من أحزانه والباقون بفتح الياء وضم الزاي من حزن يقال حزنه وأحزنه بمعنى ، قال في القاموس : وأحزنه جعله حزيناً ، والقراءة الأولى أشد في المعنى ﴿ وليس بضارهم شيئاً ﴾ أي وليس الشيطان أو التناجي الذي يزينه الشيطان أو الحزن بضار المؤمنين شيئاً من الضرر ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بمشيئته وقيل : بعلمه .

﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ أي يكلون أمرهم اليه ويفوضونه في جميع شئونهم ويستعيذون بالله من الشيطان ، ولا يبالون بما يزينه من النجوى .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ
وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ
صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ
يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم : تفسحوا ﴾ وقرىء تفاسحوا ﴿ في المجالس ﴾ قرىء على الجمع لأن لكل واحد منهم مجلساً ، وقرىء على الإفراد ، قال الواحدي : والوجه التوحيد في المجلس ، لأنه يعني به مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والتفسح التوسع ، يقال : فسح له يفسح فسحاً أي وسع له ومنه قولهم : بلد فسيح أمر الله سبحانه المؤمنين بحسن الأدب بعضهم مع بعض بالتوسعة في المجلس ، وعدم التضايق فيه قال قتادة ومجاهد والضحاك : كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض ، وقال ابن عباس والحسن ويزيد بن أبي حبيب : هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب ، كانوا يتشاحنون على الصف الأول ، ولا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال ، لتحصيل الشهادة .

وقال القرطبي : الصحيح في الآية انها عامة في كل مجلس ، اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو يوم جمعة وأن

كل واحد أحق بمكانه الذي يسبق اليه ، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه .

ويؤيد هذا حديث « ابن عمر عند مسلم والبخاري وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ أي فوسعوا يوسع الله لكم في الجنة أو في كل ما تريدون التفسيح فيه من المكان والرزق وغيرهما .

« عن مقاتل بن حيان قال أنزلت هذه الآية يوم جمعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم . فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر قم أنت يا فلان وأنت فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية .

﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيهما ، وقرىء بضمها فيهما ، وهما لغتان بمعنى واحد ، وقراءتان سبعيتان ، يقال : نشز أي ارتفع ينشز وينشز كعكف يعكف ويعكف قال جمهور المفسرين : أي انهضوا الى الصلاة والجهاد وعمل الخير ، وبه قال ابن عباس ، وقال عكرمة ومجاهد والضحاك : كان رجال يتثاقلون عن الصلاة فقيل لهم إذا نودي للصلاة فانهضوا وقال الحسن : انهضوا الى الحرب ، وقال ابن زيد : هذا في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي صلى

الله عليه وسلم ، فأمر الله تعالى أنه إذا قيل : انشزوا عن النبي فانشزوا ، فان له حوائج فلا تمكثوا، قال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف ، والظاهر حمل الآية على العموم ، والمعنى إذا قيل لكم انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا ولا تتثاقلوا ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق ، ويندرج ما هو سبب النزول فيها إندراجاً أولياً وهكذا يندرج ما فيه السياق وهو التفسيح في المجلس اندراجاً أولياً .

وقد قدمنا أن معنى نشز ينشز ارتفع ، وهكذا نشز ينشز إذا تنحى عن موضعه ، ومنه امرأة ناشزة أي متنحية عن زوجها ، وأصله مأخوذ من النشز وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى ، ذكر معناه النحاس .

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ بطاعتهم لله ولرسوله وامتثال أوامره في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ أي ويرفع العالمين منهم خاصة ﴿ درجات ﴾ عالية في الكرامة في الدنيا والثواب في الآخرة ، ومعنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات ، وقيل : المراد بالذين آمنوا من الصحابة وكذلك بالذين أوتوا العلم ، وقيل : المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرأوا القرآن ، والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن ، وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة ، ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض .

وقال ابن عباس في الآية : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا ، درجات وقال ابن مسعود : على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات وعنه قال : ما خص الله العلماء في شيء من القرآن كما خصهم

في هـذه الآية ، وعنـه أنّه كـان إذا قرأهـا قال يـا أيها النـاس افهموا هـذه الآية لتـرغبكم في العلم ، والأحاديث والأخبـار والآيـات في فضيلة العلم والعلمـاء كثيرة جداً قد ذكرنا طرفاً منها في كتابنا الحطة في ذكر الصحاح الستة .

﴿ والله بمـا تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليـه شيء من أعمـالكم من خيـر وشر فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ المناجـاة المساررة ، والمعنى إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم ﴾ أي مسـاررتكم له ﴿ صـدقة ﴾ في هـذا الأمر تعـظيم لـرسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، وانتفاع الفقراء والنهي عن الإفـراط في السؤال ، والميز بين المخلص والمنـافق ومحب الدنيـا والآخرة ، واختلف في أنـه للندب أو للوجـوب ، قـال الحسن : نـزلت بسبب أن قومـاً من المسلمين كانـوا يستخلون النبي صلى الله عليه وسلم ، ينـاجـونـه فـظن بهم قـوم من المسلمين أنهم ينتقصـونهم في النجـوى ، فشق عليهم ذلك فـأمرهم الله بـالصدقـة عند النجـوى ليقطعهم عن استخلائه .

وقـال زيد بن أسلم : نـزلت بسبب أن المنافقين واليهـود كانـوا يناجـون النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحداً من منـاجاتـه ، وكان ذلـك يشق على المؤمنين ، لأن الشيطان كـان يلقي في أنفسهم أنهم نـاجوه بـأن جموعـاً اجتمعت لقتالـه ، فـأنـزل الله الآيـة الأولى فلم ينتهوا ، فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل ، لأنهم لم يقدمـوا بين يدي نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان ، وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة ، فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه .

وقـال ابن عباس : إن المسلمين أكثـروا المسائـل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه

وسلم ، فلما قال ذلك : ضن كثير من الناس وكفوا عن المسألة . فأنزل الله بعد هذا ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية فوسع الله عليهم ولم يضيق .

« وعن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه الآية قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : ما ترى ديناراً ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : فنصف دينار قلت : لا يطيقونه ، قال : فكم ؟ قلت : شعيرة قال إنك لزهيد ، قال : فنزلت ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية في خفف الله عن هذه الأمة » والمراد بالشعيرة هنا وزن شعيرة من ذهب ، وليس المراد الواحدة من حب الشعير ، أخرجه الترمذي وحسنه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم .

وعنه رضي الله تعالى عنه قال ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت ، وما كانت إلا ساعة يعنى آية النجوى ، وعنه رضي الله عنه قال : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، آية النجوى كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية ، وعن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت آية النجوى فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنك لزهيد ، فنزلت الآية الأخرى ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم من تقديم الصدقة بين يدي النجوى ﴿ خير لكم ﴾ لما فيه من طاعة الله ، وتقييد الأمر بكون امتثاله خيراً لهم من عدم الامتثال ﴿ وأطهر ﴾ لنفوسهم ، يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب قوله : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ يعني من كان منكم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدي النجوى ، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة.

﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ أي أخفتم الفقر

والعيلة لأن تقدموا ذلك ؟ والإشفاق الخوف من المكروه ، والاستفهام للتقرير .

وقيل : المعنى أبخلتم ، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين ، قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ ، وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة وقيل إنه لم يبق إلا يوماً واحداً وقال قتادة : ما كان إلا ساعة من نهار .

﴿ فإذا لم تفعلوا ﴾ ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى ، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به ولم يفعل ، وأما من لم يجد فقد تقدم الترخيص له بقوله : ﴿ فإن لم تجدوا فان الله غفور رحيم ﴾ وإذ على بابها في الدلالة على المضي وقيل : هي بمعنى إذا وقيل : بمعنى إن ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ رجع بكم عنها بأن رخص لكم في الترك ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ﴾ المعنى إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة المفروضة وإيتاء الزكاة الواجبة وطاعة الله ورسوله فيما تؤمرون به وتنهون عنه .

﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء ، فهو مجازيكم وليس في الآية ما يدل على تقصير المؤمنين في الامتثال أما الفقراء منهم فالأمر واضح ، وأما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلموا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة ، بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة ، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصراً في امتثال الأمر بالصدقة على أن الآية ما يدل على أن الأمر للندب كما قدمنا ، وقد استدل بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل وليس هذا الاستدلال بصحيح ، فإن النسخ لم يقع إلا بعد إمكان الفعل ، وأيضاً قد فعل ذلك البعض فتصدق بين يدي نجواه كما تقدم .

﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً ﴾ أي والوهم ، قال قتادة : هم المنافقون

تولوا اليهود ، وقال السدي ومقاتل : هم اليهود تولوا المنافقين ، ويدل على الأول قوله ﴿ غضب الله عليهم ﴾ فإن المغضوب عليهم هم اليهود ويدل على الثاني قوله ﴿ ما هو منكم ولا منهم ﴾ فإن هذا صفة المنافقين كما قال الله فيهم : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ أي أنهم مسلمون أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود ، والجملة عطف على تولوا ، داخلة في حكم التعجيب من فعلهم ﴿ و ﴾ الحال أن ﴿ هم يعلمون ﴾ بطلان ما حلفوا عليه ، وأنه كذب لا حقيقة له فيمينهم يمين غموس ، لا عذر لهم فيها .

﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ بسبب هذا التولي ، والحلف على الباطل ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ من الأعمال القبيحة في الزمان الماضي أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ قرأ الجمهور أيمانهم جمع يمين وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين ، توقياً من القتل ، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم ، كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسهم أو رمح ، وقرىء إيمانهم بكسر الهمزة أي جعلوا تصديقهم جنة من القتل ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ولم تؤمن قلوبهم .

﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط ، وتهوين أمر المسلمين ، وتضعيف شوكتهم ، وقيل المعنى فصدوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم الإسلام ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ أي يهينهم ويخزيهم ، قيل هو تكرير لقوله ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ للتأكيد ، وقيل الأول عذاب القبر ، وهذا عذاب الآخرة ، ولا وجه للقول بالتكرير فإن العذاب الموصوف بالشدة غير العذاب الموصوف بالإهانة .

لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠)
كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ
أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله ﴾ أي من عذابه ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء ، قال مقاتل : قال المنافقون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذاً فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا إن كانت قيامة ، فنزلت الآية ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر أصحاب النار ﴾ لا يفارقونها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ لا يخرجون منها .

﴿ يوم ﴾ أي اذكر يوم ﴿ يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له ﴾ أي لله يوم القيامة على أنهم مؤمنون ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ في الدنيا ، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم ، فإن يوم القيامة قد انكشفت فيه الحقائق ، وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة فكيف يجترئون ، على أن يكذبوا في ذلك الموقف ، ويحلفون على الكذب .

« عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جالساً في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر

إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق ، فقال حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فقال : ذرني آتيك بهم ، فحلفوا واعتذروا » ، فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها .

﴿ ويحسبون ﴾ في الآخرة ﴿ أنهم ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿ على شيء ﴾ مما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً ، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ أي الكاملون في الكذب المتهالكون عليه ، البالغون إلى حد لم يبلغ اليه غيرهم بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة ، في موقف القيامة بين يدي الرحمن .

﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ أي غلب عليهم واستعلى واستولى ، قال المبرد : استحوذ على الشيء حواه وأحاط به ، وقيل : قوي عليهم ، وقيل : جمعهم ، يقال : أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض ، والمعاني متقاربة لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم ، واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم ﴿ فأنساهم ذكر الله ﴾ أي أوامره والعمل بطاعاته ، فلم يذكروا شيئاً من ذلك وقيل : زواجره في النهي عن معاصيه ، وقيل : لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم والإشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ الى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات ﴿ حزب الشيطان ﴾ أي جنوده وأتباعه ورهطه .

﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ أي الكاملون في الخسران ، حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران ، لأنهم باعوا الجنة بالنار ، والهدى بالضلال وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة ، وفوتوا على أنفسهم النعيم المؤبد ، وعرضوها للعذاب المخلد .

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ قد تقدم معنى المحادة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، في أول هذه السورة والجملة تعليل لما قبلها ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي أولئك المحادون لله ولرسوله المتصفون بتلك الصفات

المتقدمة من جملة من أذله الله من الأمم السابقة واللاحقة ، لا ترى أحداً أذل منهم لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذل بهذا المكان ، قال عطاء : يريد الذل في الدنيا والخزي في الآخرة .

﴿ كتب الله ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها من كونهم في الأذلين ، أي كتب في اللوح المحفوظ ، وقضى في سابق علمه ، وقال الفراء : كتب بمعنى قال ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما ، قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين ، من بعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة ﴿ إن الله قوي ﴾ على نصر أوليائه ﴿ عزيز ﴾ غالب لأعدائه لا يغلبه أحد .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ إيماناً صحيحاً ، بحيث يتوافق فيه الظاهر مع الباطن ﴿ يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ، أي يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما ، أي من الممتنع أن تجد قوماً من المؤمنين يوالون المشركين ، والمراد أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في التوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم « عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتقصد لأبي عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله ، فنزلت هذه الآية » ، أخرجه البيهقي في سننه والحاكم والطبراني وغيرهم ثم زاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله :

﴿ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ أي ولو كان المحادون لله ورسوله آباء الموادين الخ ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه ورعايته أقوى من رعاية الأبوة والنبوة والأخوة والعشيرة ، وقدم أولاً الآباء لأنهم يجب طاعتهم ، ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلب ، ثم ثلث بالإخوان لأنهم الناصرون بمنزلة العضد من الذراع ، ثم ربّع بالعشيرة لأن بها يستغاث وعليها يعتمد أفاده السمين ، روي عن ابن مسعود في هذه الآية قال : ولو كانوا

آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه الجراح ، أو أبناءهم يعني أبا بكر الصديق دعا ابنه يوم بدر للبراز ، وقال : يا رسول الله دعني أكن في الرعلة الأولى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : متعنا بنفسك يا أبا بكر أو إخوانهم يعني مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ، أو عشيرتهم يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر وعلي بن أبي طالب وحمزة وأبو عبيدة قتلوا بني عمهم عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر .

﴿ أولئك ﴾ يعني الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ﴿ كتب ﴾ أي خلق ، وقيل : أثبت وقيل : جعل ، وقيل : حكم والمعاني متقاربة ﴿ في قلوبهم الإيمان ﴾ وإنما ذكر القلوب لأنها موضعه ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أي قواهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا ، وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيي أمرهم ، وقيل : هو نور القلب ، وقال الربيع بن أنس : بالقرآن والحجة ، وقيل : بجبريل ، وقيل : بالإيمان ، وقيل : برحمة ، وقيل : بكتاب أنزله فيه حياة لهم ، وقيل : بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب ، وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان ، وعن عبد العزيز بن رواد أنه لقيه المنصور فلما عرفه هرب منه وتلاها ، وقيل : هي في أهل البدع والأهواء .

﴿ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ على الأبد ﴿ رضي الله عنهم ﴾ أي قبل أعمالهم ، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة ﴿ ورضوا عنه ﴾ أي فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وآجلاً ﴿ أولئك حزب الله ﴾ أي جنده الذين يمتثلون أوامره ، ويقاتلون أعداءه ، وينصرون أولياءه ، وفي إضافتهم الى الله سبحانه تشريف لهم وتعظيم ، وتكريم فخيم ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ أي الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل حتى كأن فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كَلا فلاح .

سورة الحشر

أربع وعشرون آية

وهي مدنية. قال القرطبي: في قول الجميع. قال ابن عباس: نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله. وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما.

« عن سعد بن جبير قال قلت لابن عباس: سورة الحشر قال: سورة النضير، يعني أنها نزلت في بني النضير». كما صرح بذلك في بعض الروايات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾

﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي نزهه ، فاللام مزيدة ، وفي الإتيان بـ ﴿ ما ﴾ تغليب للأكثر ﴿ وهو العزيز الحكم ﴾ في ملكه وصنعه ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ اللام متعلقة بأخرج ، وهي لام التوقيت ، كقوله ﴿ لدلوك الشمس ﴾ ، أي عند أول الحشر ، قال الزمخشري : وهي كاللام في قوله تعالى ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ وقولك جئت لوقت كذا ، والمراد من أهل الكتاب هم بنو النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هرون نزلوا المدينة في فتن بني أسرائيل انتظاراً منهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فغدروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، بعد أن عاهدوه وصاروا عليه مع المشركين ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى رضوا بالجلاء قال الكلبي : كانوا أول من أجلي من أهل الذمة من جزيرة العرب ، ثم أجلى آخرهم في زمن عمر بن الخطاب ، وكان جلاؤهم أول حشر من المدينة ، وآخر حشر إجلاء عمر لهم .

وقيل : إن أول الحشر إخراجهم من حصونهم الى خيبر ، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام ، وقيل : آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر وهي الشام ، قال عكرمة : من شك أن الحشر يوم القيامة في

الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر ، وعن ابن عباس مثله ، قال ابن العربي : للحشر أول وأوسط وآخر ، فالأول إجلاء بني النضير ، والأوسط إجلاء أهل خيبر ، والآخر حشر يوم القيامة . وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير ، ولم يخالف في ذلك إلا الحسن البصري فقال : هم بنو قريظة وهو غلط ، فإن بني قريظة ما حشروا ، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه ، فحكم عليهم بأن يقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل :

« عن عائشة قالت كانت غزوة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة ، يعني السلاح ، فأنزل الله فيهم : ﴿ سبح لله ﴾ الى قوله ﴿ لأول الحشر ﴾ ، فقاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى صالحهم على الإجلاء وأجلاهم الى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي »[1] ، وأما قوله ﴿ لأول الحشر ﴾ فكان إجلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا الى الشام .

وعن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم

(١) رواه الحاكم .

دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيروا الى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ هذا خطاب للمسلمين أي ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من ديارهم لعزتهم ومنعتهم ، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار ونخيل واسعة ، وأهل عدد وعدة .

﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، والفرق بين هذا التركيب ، وبين النظم الذي جاء عليه ، أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وثوقهم بحصانتها ، ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في مغارتهم ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم .

﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ أي أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة ، وهو أنه سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، بقتالهم وإجلائهم ، وكانوا لا يظنون ذلك وقيل : هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف قاله ابن جريج والسدي وأبو صالح ، فإن قتله أضعف شوكتهم ، وقيل : إن الضمير في أتاهم ولم يحتسبوا للمؤمنين أي فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا والأول أولى لقوله ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير ، لا في قلوب المسلمين ، قال أهل اللغة : الرعب الخوف الذي يرعب الصدر ، أي يملأه ، وقذفه إثباته فيه ، قيل : وكان قذف الرعب في قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف والأولى عدم تقييده بذلك وتفسيره به ، بل المراد بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو الذي ثبت في الصحيح .

« من قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب مسيرة شهر » .

﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج ، قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم ، قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك ، قرأ الجمهور يخربون بالتخفيف ، وقرىء بالتشديد ، قال أبو عمرو : وإنما اخترت القراءة بالتشديد لأن الإخراب ترك الشيء خراباً ، وإنما خربوها بالهدم ، وليس ما قاله بمسلم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد ، قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته ، وأفرحته وفرحته ، واختار الأولى أبو عبيد وأبو حاتم .

قال الزهري وابن زيد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبي صلى الله عليه وسلم على أن لهم ما أقلت الإبل ، كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود ، فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ، ويخرب المؤمنون بالمقاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم في تركهم لها وبأيدي المؤمنين في إجلائهم عنها ، والجملة مستأنفة لبيان ما فعلوه ، أو في محل نصب على الحال .

﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ أي اتعظوا وتدبروا ، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر ، قال الواحدي : ومعنى الاعتبار النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها ، قال النسفي : وهو دليل على جواز القياس انتهى . والاعتبار مأخوذ من العبور ، والمجاوزة من شيء الى شيء ، ولهذا سميت العبرة عبرة لأنها تنتقل من العين إلى الخد ، وسمي علم التعبير لأن صاحبه ينقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات لأنها تنقل المعاني من لسان القائل الى عقل المستمع ، ويقال : السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه ومن لم يعتبر بغيره

اعتبر به غيره ، ولهذا قال القشيري : الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر .

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ أي الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه مع الأهل والولد، وقضى به عليهم ﴿ لعذبهم ﴾ بالقتل والسبي ﴿ في الدنيا ﴾ كما فعل ببني قريظة ، والجلاء مفارقة الوطن ، يقال : جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء ، والفرق بين الجلاء والإخراج - وإن كان معناهما في الابعاد واحداً - من جهتين إحداهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد ، الثاني أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة والإخراج يكون لجماعة ولواحد كذا قال الماوردي .

﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ مستأنفة غير متعلقة بجواب لولا ، متضمنة لبيان ما يحصل لهم في الآخرة من العذاب ، وإن نجوا من عذاب الدنيا .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من الجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله لعدم الطاعة والميل مع الكفار ونقض العهد ﴿ ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ اقتصر ههنا على مشاقة الله لأن مشاقته شاقة لرسوله قرأ الجمهور يشاق بالإدغام وقرىء يشاقق بالفك .

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ
كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ
فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل ، فنهاهم بعضهم وقالوا إنما هي مغانم المسلمين ، وقال الذين قطعوا بل هو غيظ للعدو فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل وتحليل من قطعه من الإثم فقال ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ قال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات ، وقال محمد بن اسحق إنهم أحرقوا نخلة وقطعوا نخلة فقال بنو النضير وهم أهل الكتاب يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح ؟ أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض ؟ فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجد المسلمون في أنفسهم فنزلت الآية ومعنى الآية أي شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله ، والضمير في تركتموها عائد الى (ما) لتفسيرها باللينة وكذا في قوله ﴿ قائمة على أصولها ﴾ ومعنى على أصولها أنها باقية على ما هي عليه .

واختلف المفسرون في تفسير اللينة فقال الزهري ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل : إنها النخل كله ، إلا العجوة ، وقال مجاهد : إنها النخل كله ولم يستثن عجوة ولا غيرها ، وقال الثوري : هي كرام العجل وقال أبو

عبيدة ؛ إنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبرني وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة ، وقيل : هي ضرب من النخل يقال لثمره : اللون ، تمره أجود التمر ، وقال الأصمعي : هي الدقل وأصل اللينة لونه فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة لين ، وقيل : ليان ، وقرأ ابن مسعود : ولا تركتم قوماً على أصولها ، أي قائمة على سوقها ، وقرىء على أصلها ، وقائماً على أصوله ، وفي البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حرق نخل بني النضير ، وقطع وهي البويرة » ، ولها يقول حسان رضي الله تعالى عنه :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

فأنزل الله ما قطعتم الآية ، وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه :

« عن ابن عباس في الآية قال : اللينة النخلة ، قال : استنزلوهم من حصونهم ، وأمروا بقطع النخل فحك في صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً ، فلنسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ الآية » ، وفي الباب أحاديث ، والكلام في صلح بني النضير مبسوط في كتب السير .

﴿وليخزي الفاسقين ﴾ أي ليذل الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ، ويغيظهم ، في قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاؤوا ، من القطع والترك ازدادوا غيظاً ، قال الزجاج : وليخزي الفاسقين بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير وليخزي الفاسقين ، أذن في ذلك ، يدل على المحذوف قوله : ﴿ فبإذن الله ﴾ ، وقد استدل بهذه الآية على أن حصون الكفار وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك قطع أشجارهم ونحوها ، وعلى

جواز الاجتهاد ، وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى في كتب الأصول .

﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ أي ما رده عليه من أموال الكفار ، يقال : فاء يفيء إذا رجع ، والضمير في منهم راجع الى بني النضير ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفاً وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ، و ﴿ما﴾ في ﴿ما أوجفتم﴾ نافية ، والفاء جواب الشرط إن كانت ﴿ما﴾ في ﴿ما أفاء الله﴾ شرطية ، وإن كانت موصولة فالفاء زائدة و ﴿من﴾ في ﴿من خيل﴾ زائدة للتأكيد ، والركاب ما يركب من الابل خاصة ، قال الرازي : العرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، والمعنى أن ما رد الله على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً ، ولم تقطعوا اليها مسافة ، ولا تجشمتم لها شقة ، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، قاله الفراء ، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وسلم ، خاصة لهذا السبب فإنه افتتحها صلحاً ، وأخذ أموالها ، وقد كان يسأله المسلمون أن يقسم لهم فنزلت الآية .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله » .

« وعن ابن عباس قال : جعل ما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحكم فيه ما أراد ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها ، قال : والإيجاف أن يوضعوا السير وهي لرسول الله فكان من ذلك خيبر وفدك ، وقرى عرينة ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعمد لينبع فأتاها

رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتواها كلها ، فقال ناس : هلا قسمها الله ؟ فأنزل الله عذره ، فقال : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ الآية » وفي الكرخي : وهذا وإن كان كالغنيمة لأنهم خرجوا أياماً وقاتلوا وصالحوا ، لكن لقلة تعبهم أجراه الله تعالى مجرى الفيء .

﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ أي سنته تعالى جارية على أن يسلطهم على من يشاء من أعدائه تسلطاً غير معتاد ، من غير أن يقتحموا مضايق الخطوب ، ويقاسوا شدائد الحروب ، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون أصحابه ، لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، بل مشوا اليها مشياً ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ يسلط من يشاء على من أراد . ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ، فلا حق لكم فيه ويختص به النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن ذكر معه في الآية الثانية من الأصناف الأربعة على ما كان يقسمه .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع أهل القرى موضع منهم أي من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلحاً ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب قيل : والمراد بالقرى بنو النضير وقريظة وهما بالمدينة وفدك وهي على ثلاثة أميال من المدينة وخيبر وقرى عرينة وينبع وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها هل معناهما متفق أو مختلف ؟ فقيل : متفق ، كما ذكرنا وقيل : مختلف ، وفي ذلك كلام طويل لأهل العلم .

قال ابن العربي : لا إشكال أنها ثلاثة معان في ثلاث آيات ، أما الآية الأولى وهي قوله : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ فهي خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالصة له وهي أموال بني النضير ، وما كان مثلها وأما

الآية الثانية وهي ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الأول وإن اشتركت هي والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً أفاءه الله على رسوله واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية وهي ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من ههنا ، فطائفة قالت : هي ملحقة بالأولى وهي مال الصلح ، وطائفة قالت : هي ملحقة بالثالثة وهي آية الأنفال ، والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة أو محكمة ؟ هذا حاصل كلامه .

وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآية الثانية هي في بني قريظة ، ويعني أن معناها يعود إلى آية الأنفال ، ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهي بعده لمصالح المسلمين .

﴿ فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ المراد بقوله : ﴿ لله ﴾ أنه يحكم فيه بما يشاء للرسول يكون ملكاً له ، ﴿ ولذي القربى ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، لأنهم قد منعوا من الصدقة ، فجعل لهم حقاً في الفيء قيل : تكون القسمة في هذا المال على أن تكون أربعة أخماسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخمسه يقسم أخماساً للرسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس ، وقيل : يقسم أسداساً ، السادس سهم الله سبحانه ، ويصرف إلى وجه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك .

وعن ابن عباس قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف لله ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين فكان الذي لله ورسوله من ذلك الكثبة والوطيح والسلالم ووحدوه وكان الذي للمسلمين الشق ، والشق ثلاثة عشر سهماً ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ولم يأذن رسول الله صلى الله

عليه وسلم لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري .

وأخرج أبو داود عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، صفايا في النضير وخيبر وفدك ، فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوائبه ، وأما فدك فكان لابن السبيل . وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء ، قسم منها جزءين بين المسلمين ، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله رده على فقراء المهاجرين » ، قال البقاعي : ومن زعم أن شيئاً مما في هذه السورة نسخ بشيء مما في سورة الأنفال فقد أخطأ ، لأن الأنفال نزلت في بدر ، وهي قبل هذه بمدة .

﴿ كيلا يكون ﴾ الفيء ﴿ دولة بين الأغنياء منكم ﴾ دون الفقراء ، والدولة اسم لشيء يتداوله القوم بينهم ، يكون لهذا مرة ، ولهذا مرة ، قال مقاتل : المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم ، قرأ الجمهور يكون بالتحتية ، ودولة بالنصب ، وقرىء بالفوقية ودولة بالرفع ، أي كيلا تقع أو توجد دولة ، وكان تامة ، وقرأ الجمهور دولة بضم الدال ، وقرىء بفتحها ، قال عيسى بن عمر ، ويونس ، والأصمعي : هما لغتان بمعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاء : الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل وكذا قال أبو عبيدة وجمع المفتوح دول مثل قطعة وقصع ، وجمع المضموم دول مثل غرفة وغرف ، وقيل : بالضم في المال ، وبالفتح في الحرب ، ودالت الأيام تدول مثل دارت الأيام تدور وزناً ومعنى ، وقيل : بالفتح من الملك بضم الميم ، وبالضم من الملك بكسر الميم ، قال عمر بن الخطاب ما على وجه الأرض مسلم إلا وله حق في هذا الفيء ، إلا ما ملكت أيمانكم .

ثم لما بين سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ أي ما أعطاكم من مال الغنيمة والفيء ﴿ فخذوه وما نهاكم عنه ﴾ أي عن أخذه ﴿ فانتهوا ﴾ عنه ولا تأخذوه ، قال الحسن والسدي : ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه ، وقال

ابن جريج : ما أعطاكم من طاعتي فافعلوه ، وما نهاكم من معصيتي فاجتنبوه والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أمر أو نهي ، أو قول أوفعل ، وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكل شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا ، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها ، قال الماوردي : إنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه ، لا يأمر إلا بإصلاح ، ولا ينهي إلا عن فساد قال المهدوي : هذا يوجب أن كل ما أمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى ، وإن كانت الآية خاصة بالغنائم : فجميع أوامره ونواهيه داخلة فيها ، ذكره القرطبي .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

عن « ابن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله ، فبلغ ذلك امرأة من بني أُسد يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، قال :وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئاً من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه » . ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم بأخذه الرسول ، وترك ما نهاهم عنه ، أمرهم بتقواه ، وخوفهم شدة عقوبته ، فقال :

﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ فهو معاقب من لم يأخذ ما أتاه الرسول ، ولم يترك ما نهاه عنه .

« عن أبي رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به ، أو نهيت عنه فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » ، أخرجه ابو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن ، والأريكة كل ما اتكىء عليه من سرير او فراش او منصة او نحو ذلك ، وفي الباب أحاديث ، ثم بين من له الحق في الفيء فقال :

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ للفقراء ﴾ قيل : بدل من لذي القربى وما عطف عليه ، قاله أبو البقاء ، ومقتضاه اشتراط الفقر فيه ، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة ، ومن ثم جعله الزمخشري كذلك ، وأطال الكلام فيه ولا يصح أن يكون بدلاً من الرسول وما بعده ، لئلا يستلزم وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالفقر ، وقيل : التقدير لكيلا يكون دولة ، ولكن يكون للفقراء وقيل : التقدير اعجبوا للفقراء ، وبه فسر المحلي ، وهو موافق لمذهب إمامه الشافعي وأصحابه من الاستحقاق بالقرابة ، ولم يشترط الحاجة ، فاشتراطها وعدم اعتبار القرابة يضاده ويخالفه ، ولأن الآية نص في ثبوت الاستحقاق تشريفاً لهم ، فمن علله بالحاجة فوت هذا المعنى والذي يؤيد تقدير فعل التعجب كما ذكره أبو البقاء وتبعه الكواشي مجيء قوله : ﴿ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون ﴾ الآيات مصدراً بألم تر ، وهي كلمة تعجب ، لكون ذكرهم جاء مقابلاً لذكر أضدادهم ، وقيل : التقدير : والله شديد العقاب للفقراء ، أي للكفار بسبب الفقراء ، وقيل : هو عطف ما مضى بتقدير الواو كما تقول : المال لزيد لعمرو لبكر .

﴿ المهاجرين ﴾ أي الذين هاجروا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في الدين ونصرة له ، قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار والأموال والأهلين كما قال تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ أي حيث أخرجهم كفار مكة منها ، واضطروهم الى الخروج وكانوا مائة رجل ، قال النسفي : وفيه دليل على أن الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين ، لأن الله سمى المهاجرين فقراء مع أنه كانت لهم ديار وأموال .

﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ أي حال كونهم يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا وبالرضوان في الآخرة ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ بالجهاد للكفار بأنفسهم وأموالهم ، والمراد نصر دينه وإعلاء كلمته ، وهذا حال مقدرة أي ناوين نصرتها إذ وقت خروجهم لم تكن نصرة بالفعل .

﴿ أولئك ﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿ هم الصادقون ﴾ أي الكاملون في الصدق ، الراسخون فيه ، قال قتادة : هم المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر ، وخرجوا حباً لله ولرسوله ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة ، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها « وعن سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، يدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » أخرجه أبو داود ثم لما فرغ من مدحهم مدح الأنصار بخصال حميدة فقال :

﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان ﴾ وهو كلام مستأنف ، والمراد بالدار المدينة ، وهي دار الهجرة ومعنى تبوّئهم أنهم اتخذوهما مباءة أي تمكنوا منهما تمكناً شديداً والتبوؤ في الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله

لتمكنهم فيه تنزيلاً للحال منزلة المحل ، وقيل : التقدير واعتقدوا الإيمان أو أخلصوا الإيمان كذا قال أبو علي الفارسي أو تبوأوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون تبوّأوا مضمناً معنى لزموا ، أي لزموا الدار والإيمان ومعنى ﴿ من قبلهم ﴾ أسلموا في ديارهم ، وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل هجرة المهاجرين ، وقبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، فلا بد من تقدير مضاف ، لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، وقيل : من قبل المهاجرين لأنهم سبقوهم في تبوّىء الدار .

وقد أخرج البخاري .

« عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم »[1] .

﴿ يحبون من هاجر اليهم ﴾ وذلك أنهم أحسنوا الى المهاجرين ، وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم ﴿ ولا يجدون ﴾ أي لا يجد الأنصار ﴿ في صدورهم حاجة ﴾ أي حسداً وغيظاً وحزازة فالمراد بالحاجة هذه المعاني ، وإطلاق لفظ الحاجة عليها من إطلاق الملزوم على اللازم على سبيل الكناية ، لأن هذه المعاني لا تنفك عن الحاجة غالباً ، وفي الكلام مضاف محذوف ، أي لا يجدون في صدورهم من حاجة أو أثر حاجة ، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج اليه فهو حاجة .

﴿ مما أوتوا ﴾ أي مما أوتي المهاجرون دونهم من الفيء بل طابت أنفسهم

(١) رواه البخاري .

بذلك ، وكان المهاجرون في دور الأنصار ، فلما غنم النبي صلى الله عليه وسلم بني النضير دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين ، من إنزالهم إياهم في منازلهم ، وإشراكهم في أموالهم ، ثم قال : إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبين المهاجرين ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم ، والمشاركة لكم في أموالكم ، وإن أحببتهم أعطيتهم ذلك ، وخرجوا من دياركم ، فرضوا بقسمة ذلك في المهاجرين ، وطابت أنفسهم .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ أي في كل شيء من أسباب المعاش ، والإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا ، رغبة في حظوظ الآخرة ، وذلك ينشأ عن قوة اليقين ، ووكيد المحبة ، والصبر على المشقة ، يقال : آثرته بكذا أي خصصته به وفضلته ، والمعنى ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ أي حاجة وفقر ، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت وهي الفروج التي تكون فيه وقيل : مأخوذة من الاختصاص وهو الانفراد بالأمر ، فالخصاصة الإنفراد بالحاجة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله ؟ فقال رجل من الأنصار ، وفي رواية : فقال أبو طلحة الأنصاري : أنا يا رسول الله ، فذهب به الى أهله فقال لامرأته أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليل لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت ، ثم غدا الضيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل الله فيها « هذه الآية »[1] .

(١) رواه البخاري .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب :

عن « ابن عمر قال أُهدي الى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخي فلاناً وعياله أحوج الى هذا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت الى الأول فنزلت فيهم هذه الآية .

﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ قرأ الجمهور يوق بسكون الواو وتخفيف القاف من الوقاية ، وقرىء بفتح الواو وتشديد القاف ، وقرأوا شح بضم الشين ، وقرىء بكسرها ، وهذا كلام عام ، (ومن) شرطية ، ويوق فعل الشرط ، والشح البخل مع الحرص كذا في الصحاح ، وقيل : الشح أشد من البخل ، قال مقاتل : شح نفسه حرص نفسه . قال سعيد بن جبير : شح النفس هو أخذ الحرام ومنع الزكاة ، قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه ولم يمنع شيئاً أمره الله بأدائه فقد وقى شح نفسه ، قال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده والشح أن يشح بما في أيدي الناس يُحبُّ أن يكون له ما في أيديهم بالحلال والحرام ؛ لا يقنع . وقال ابن عيينة : الشح الظلم وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم .

﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ جزاء الشرط المتقدم ، وفيه رعاية معنى من بعد رعاية لفظها ، والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب ، أي الفائزون بما أرادوا والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شح النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعاً ، من زكاة أو صدقة أو صلة رحم أو نحو ذلك ، كما تفيده إضافة الشح الى النفس ، عن ابن مسعود أن رجلاً قال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إني سمعت الله يقول ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذلك بالشح ، ولكنه البخل ،

ولا خير في البخل ، وإن الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً .

وعن ابن عمر في الآية قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل وإنه لشر ، إنما الشح أن تطمح عين الرجل الى ما ليس له ، وعن علي ابن ابي طالب قال : من أدى زكاة ماله فقد وقي شح نفسه .

« وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما محق الإسلام محق الشح شيء قط » أخرجه أبو يعلى وابن مردويه ، وأخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي :

« عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم »(١) .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً » . رواه النسائي ، وفي الجامع الصغير :

« الشحيح لا يدخل الجنة » رواه الخطيب في كتاب البخلاء عن ابن عمر ، وقد وردت أحاديث في ذم الشح كثيرة .

ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار ، ذكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم فقال :

﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ وهم التابعون بإحسان الى يوم القيامة ، وقيل : هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة ، المتأخر إسلامهم في عصر النبوة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة الى يوم القيامة ، لأنه يصدق على الكل أنهم جاؤوا

(١) مسلم .

بعد المهاجرين الأولين والأنصار ، عن سعد بن ابي وقاص قال : الناس على ثلاث منازل ، قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ، ثم قرأ : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية .

﴿ يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ المراد بالأُخوّة هنا أخوة الدين ، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ، ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار ، قال في المصباح : الأخ لامه محذوفة ، وهي واو ، وترد في التثنية على الأشهر ، فيقال : أخوان ، وفي لغة يستعمل منقوصاً فيقال : أخان وجمعه إخوة وإخوان بكسر الهمزة فيهما ، وضمها لغة ، وقيل : جمعه بالواو والنون ، وعلى آخاء وزن آباء أقل : والأنثى أخت ، وجمعها أخوات ، وهو جمع مؤنث سالم .

﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاً ﴾ أي غشاً وحقداً وبغضاً وحسداً ﴿ للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ أي كثير الرأفة والرحمة ، بليغهما لمن يستحق ذلك من عبادك ، أمر الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أولياً ، لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية ، فإن وجد في قلبه غلاً لهم فقد أصابه نزغ الشيطان ، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه ، وخير أمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم ، إن لم يتدارك نفسه بالالتجاء أو باللجإ[1] إلى الله سبحانه ، والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طوّقه من الغل لخير القرون ، وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز

(١) لجأ من باب منع وفرح ؟ .

ما يجده من الغل الى شتم أحد منهم فقد انقاد للشيطان بزمام ، ووقع في غضب الله وسخطه .

وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلم من الرافضة ، أو صاحب من أعداء خير الأمة ، الذين تلاعب بهم الشيطان ، وزين لهم الأكاذيب المختلفة ، والأقاصيص المفتراة ، والخرافات الموضوعة ، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور ، فاشتروا الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الخسران العظيم ، بالربح الوافر ، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة الى منزلة ، ومن رتبة الى رتبة ، حتى صاروا أعداء كتاب الله وسنة رسوله ، وخير أمته وصالحي عباده ، وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض الله ، وهجروا شعائر الدين ، وسعوا في كيد الإسلام وأهله كل السعي ، ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر ، والله من ورائهم محيط .

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها في الآية : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية ، وقيل لسعيد بن المسيب : ما تقول في عثمان وطلحة والزبير ؟ قال : أقول ما قولنيه الله ، وتلا هذه الآية ، وأخرج ابن مردويه ؛

« عن ابن عمر أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه : ﴿ للفقراء والمهاجرين ﴾ ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت ؟ قال : لا ثم قرأ عليه ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ الآية ثم قال : هؤلاء الأنصار أفأنت منهم ؟ قال : لا . ثم قرأ عليه : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت؟قال : أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سبب هؤلاء .

ولما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) ﴾

﴿ ألم تر الى الذين نافقوا ؟ ﴾ هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه وقال ابن عباس : ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظي وإخوانهم بنو النضير ، والخطاب لرسول الله صلى عليه وسلم أو لكل من يصلح له ﴿ يقولون لإخوانهم ﴾ اللام لام التبليغ ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ مستأنفة لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة ، أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخواناً لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان في الكفر ، وقيل : هو من قول بني النضير لبني قريظة ، والأول أولى لأن بني النضير وبني قريظة هم يهود ، والمنافقون غيرهم .

﴿ لئن أخرجتم ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، وتسمى المؤذنة أيضاً ، أي والله لئن أخرجتم من دياركم ﴿ لنخرجن معكم ﴾ من ديارنا في صحبتكم وهذا جواب القسم ﴿ ولا نطيع فيكم ﴾ أي في شأنكم ومن أجلكم ﴿ أحداً ﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله : ﴿ أبداً ﴾ وهو ظرف للنفي لا للمنفي ، ثم لما وعدوهم بالخروج معهم

وعدوهم بالنصرة لهم ، فقالوا : ﴿ وإن قوتلتم ﴾ حذف منه اللام الموطئة ، وهو قليل في كلام العرب ، والكثير إثباتها ﴿ لننصرنكم ﴾ على عدوكم ثم كذبهم الله سبحانه فقال :

﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ فيما وعدهم به من الخروج معهم ، والنصر لهم ، وفيه دليل على صحة النبوة ، ولأنه إخبار بالغيب ، ووقع كما أخبر وهذا مبني على تقدم نزول الآية على الواقعة ، وعليه يدل النظم ، فإن كلمة إن للاستقبال وإعجاز القرآن من حيث الإخبار عن الغيب ، عن ابن عباس قال : إن رهطاً من بني عوف بن الحرث منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد ، وداعس ، بعثوا الى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لا نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل الى الحلقة ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا الى خيبر ، ومنهم من سار الى الشام .

ثم لما أجمل سبحانه كذبهم فيما وعدوا به ، فصل ما كذبوا فيه فقال :

﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ﴾ هذا تكذيب للمقالة الأولى وقوله : ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ تكذيب للمقالة الثالثة ، وأما الثانية فلم يذكر لها تكذيب في التفصيل ، وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود ، وهم بنو النضير ، ومن معهم ، ولم ينصروا من قوتل من اليهود وهم بنو قريظة وأهل خيبر ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي جاؤوا لنصرهم قاله المحلي او لو قدر وجود نصرهم إياهم ، لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده ، قال الزجاج : معناه لو قصدوا نصر اليهود وهذا من تمام تكذيبهم في المقالة الثالثة ﴿ ليولن الأدبار ﴾ منهزمين .

﴿ ثم لا ينصرون ﴾ يعني اليهود ، ولا يصيرون منصورين إذا انهزم

ناصرهم وهم المنافقون ، وقيل : يعني لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم الله ولا ينفعهم نفاقهم ، وقيل : معنى الآية لا ينصرونهم طائعين ، ولئن نصروهم مكرهين ليولن الأدبار ، وقيل : معنى لا ينصرونهم لا يدومون على نصرهم ، والأول أولى ، ويكون من باب قوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ .

﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم ﴾ أي لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور المنافقين أو صدور اليهود ، او صدور الجميع ﴿ من الله ﴾ أي من رهبة الله ، والرهبة هنا بمعنى المرهوبية ، لأنها مصدر من المبني للمفعول وفيه دلالة على نفاقهم ، يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله ، وأنتم أهيب في صدورهم منه ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم بشيء من الأشياء ، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم ، فهو أحق بالرهبة منه دونكم ، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم فقال :

﴿ لا يقاتلونكم جميعاً ﴾ يعني لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ، ولا يقدرون على ذلك ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ بالدروب والدور والخنادق ﴿ أو من وراء جدر ﴾ أي من خلف الحيطان التي يستترون بها لجبنهم ورهبتهم قرأ الجمهور جدر بالجمع ، وقرىء جدار بالإفراد ، واختار الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، لأنها موافقة لقوله : ﴿ قرى محصنة ﴾ ، وهما سبعيتان وقرىء جدر بفتح الجيم وإسكان الدال ، وهي لغة في الجدار .

﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي بعضهم فظ غليظ على بعض ، وقلوبهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، قال السدي : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد ، وقال مجاهد : ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ بالكلام والوعيد ، لنفعلن كذا ، والمعنى أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم الى الشدة والبأس ، وإذا لاقوا عدواً ذلوا وخضعوا وانهزموا ، وقيل : المعنى أن بأسهم بالنسبة الى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من

الرعب ، والأول أولى لقوله : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ فإنه يدل على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم ، الموصوف بالشدة ، والجملة حالية أو مستأنفة للإخبار بذلك .

والعامة على أن شتى بلا تنوين لأنها ألف تأنيث ، ومعنى شتى متفرقة ، قال مجاهد : يعني اليهود والمنافقين ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، أي لافتراق عقائدهم ، واختلاف مقاصدهم ، وروي عنه أيضاً أنه قال : المراد المنافقون ، وقال الثوري : هم المشركون وأهل الكتاب ، قال قتادة : ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ أي مجتمعين على أمر ، ورأي ، وقلوبهم متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ، وهم يجتمعون في عداوة أهل الحق ، وقرأ ابن مسعود وقلوبهم أشت أي أشد اختلافاً ، قال ابن عباس في الآية : هم المشركون ، وهذا تجسير للمؤمنين ، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم .

﴿ ذلك بأنهم ﴾ أي ذلك الاختلاف والتشتت بسب أنهم ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ شيئاً مما فيه صلاحهم ، فإن تشتيت القلوب يوهن قواهم ، ولو عقلوا لعرفوا الحق واتبعوه ﴿ كمثل ﴾ أي أن مثل المنافقين واليهود أي بني النضير كمثل ﴿ الذين من قبلهم ﴾ من كفار المشركين وأهل مكة ﴿ قريباً ﴾ يعني في زمان قريب وقيل . يشبهونهم في زمن قريب ، وقيل العامل فيه : ﴿ ذاقوا ﴾ أي ذاقوا في زمن قريب ، أي بين وقعة بدر ووقعة بني النضير نحو سنة ونصف ، لأنها كانت في ربيع الأول من الرابعة ، وبدر كانت في رمضان من الثانية .

﴿ وبال أمرهم ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ، بقتلهم يوم بدر . وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد وغيره ، وقيل : المراد بنو النضير حيث أُمكن الله منهم ، قاله قتادة : وقيل : قتل بني قريظة ، قاله الضحاك ، وقيل : هو عام في كل من انتقم الله منه بسبب كفره ، والأول أولى (ولهم) مع ذلك ﴿ عذاب أليم ﴾ في الآخرة ، ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً آخر فقال :

كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ كمثل الشيطان ﴾ وقيل : المثل الأول خاص باليهود ، والثاني بالمنافقين أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال ، أو تخاذلهم وعدم تناصرهم ، كمثل الشيطان ، والمراد به حقيقته لا شيطان الإنس ، وقيل : الثاني بيان للأول ، ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال : ﴿ إذ قال للإنسان اكفر ﴾ اي أغراه بالكفر : وزينه له وحمله عليه ، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان ، كما قال مجاهد : المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : هو عابد كان في بني اسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه وهو برصيصاً والأول أولى .

« عن علي بن أبي طالب أن رجلاً كان يتعبد في صومعة ، وأن امرأة كان لها إخوة فعرض لها شيء فأتوه بها ، فزينت له نفسه فوقع عليها ، فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت ، فقتلها ودفنها ، فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إني أنا الذي زينت لك فاسجد لي سجدة أنجيك فسجد له ، فذلك قوله : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر ﴾ الآية أخرجه أحمد في الزهد ، والبخاري في تاريخه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي وغيرهم ، قلت : وهذا لا يدل على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدل على أنه من جملة من

تصدق عليه ، وقد اخرجه ابن ابي حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا ، وليس فيه ما يدل على أنه المقصود بالآية ، وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود ، وعنه قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر . ﴾

﴿ فلما كفر ﴾ أي الانسان مطاوعة للشيطان وقبولاً لتزيينه ﴿ قال ﴾ الشيطان ﴿ إني بريء منك ﴾ إن أريد بالإنسان الجنس فهذا التبرؤ من الشيطان يكون يوم القيامة ، يتبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب كما ينبىء عنه قوله : ﴿ إني اخاف الله رب العالمين ﴾ وإن أريد به أبو جهل فقوله : اكفر عبارة عن قول إبليس يوم بدر : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ وتبرؤه قوله : يومئذ ﴿ إني بريء منكم ، إني أرى ما لا ترون إني اخاف الله ﴾ الآية وهذا تعليل لبراءته من الانسان بعد كفره ، قيل : وليس قول الشيطان : إني أخاف الله على حقيقته ، إنما هو على وجه التبرؤ من الإنسان كذباً ورياءً ، وإلا فهو لا يخاف الله ، فهو تأكيد لقوله : ﴿ إني بريء منك ﴾ قرىء إني بإسكان الياء وبفتحها .

﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار ﴾ أي فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران الى النار ﴿ خالدين فيها ﴾ وقرىء خالدان على أنه خبر أن ﴿ وذلك ﴾ أي الخلود في النار ﴿ جزاء الظالمين ﴾ ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً ، ثم رجع سبحانه الى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة لأن الموعظة بعد المصيبة أوقع في النفس ، لرقة القلوب والحذر مما يوجب العقاب ، فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي لتنظر أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكني عن الزمان المستقبل بالغد ، وهو في الأصل عبارة عن يوم بينك وبينه ليلة ، وإنما أطلق اسم الغد على يوم القيامة تقريباً له ، كقوله تعالى : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ﴾ فكأنه لقربه

شبه بما ليس بينك وبينه إلا ليلة واحدة ، أو لأن الدنيا أي زمانها كيوم والآخرة كغده ، لاختصاص كل منهما بأحكام وأحوال متشابهة ، وتعقيب الثاني للأول ، فلفظ الغد حينئذ استعارة ، وفائدة تنكير النفس بيان ، ان الأنفس الناظرة في معادها قليلة جداً ، كأنه قيل : ولتنظر نفس واحدة في ذلك ، واين تلك النفس ؟ وفائدة تنكير الغد تعظيمه ، وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا تعرف النفس كنه عظمته ، وهوله . فالتنكير فيه للتعظيم ، وفي النفس للتقليل أو للتعريض بغفلة كلهم عن هذا النظر الواجب أفاده الكرخي .

﴿ واتقوا الله ﴾ كرر الأمر بالتقوى للتأكيد او الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالعمل ، فإن ما قدمت لغد عبارة عن أعمال الخير ، والثاني في ترك المحارم ، لاقترانه بقوله : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ ورجح هذا الوجه بفضل التأسيس على التأكيد ، وأنت خبير بأن التقوى تشمل كليهما فإنها على ما مر في أول البقرة هي التجنب عن كل ما يؤثم من فعل او ترك ، ولا وجه للتوزيع ، بل المقام مقام الاهتمام بأمر التقوى ، فالتأكيد أولى وأقوى ، ذكره الكرخي ، والمعنى لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أي تركوا أمره وطاعته ، أو ما قدروه حق قدره أو لم يخافوه او جميع ذلك ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ أي جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من عذاب الله ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه ، ففي الكلام مضاف محذوف ، أي أنساهم حظوظ أنفسهم أو تقديم خير لأنفسهم قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم وقيل : نسوا الله في الرخاء فأنساهم في الشدائد وقيل نسوا الله بترك شكره وتعظيمه فأنساهم أنفسهم أن يذكر بعضهم بعضاً حكاه ابن عيسى وقال سهل ابن عبد الله : نسوا الله عند الذنوب فأنساهم أنفسهم

عند التوبة ونسب الله تعالى الفعل الى نفسه في أنساهم إيذاناً بأن ذلك بسبب أمره ونهيه كقوله : أحمدت الرجل اذا وجدته محموداً وأصل نسوا نسيوا يقال نسي ينسى كرضي يرضى ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أي الكاملون في الخروج عن طاعة الله .

﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ في الفضل والرتبة والمراد الفريقان على العموم فيدخل في فريق اهل النار من نسي الله منهم دخولاً اولياً ويدخل في فريق اهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أولياً لأن السياق فيهم ، وقد تقدم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة وفي سورة السجدة وفي سورة صٓ وفيه مزيد الترغيب فيما يزلفهم الى الله ويدخلهم دار كرامته ويجعلهم من أصحابها ومن ثم دق ولطف استدلال الشافعية بهذه الآية على ان المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء ، وحسن كلام القاضي حيث قال : لا يستوي الذين استكملوا نفوسهم فاستأهلوا الجنة ، والذين استمهنوا نفوسهم اي استعملوها في المهنة والشهوات ، فاستحقوا النار ، قاله الكرخي .

ثم اخبر سبحانه وتعالى عن اصحاب الجنة ، بعد نفي التساوي بينهم وبين اهل النار ، فقال :

﴿ اصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ اي الظافرون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، وفي الآية تنبيه للناس وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم ، وقلة فكرهم في العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباع الشهوات ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما ، وأن الفوز العظيم مع اصحاب الجنة ، والعذاب الأليم مع اصحاب النار فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، ولما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبين عدم التساوي بينهم في شيء من الأشياء ، ذكر تعظيم كتابه الكريم وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب ، وترق له الأفئدة فقال :

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ
ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ
يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ أي من شأنه وعظمته ، وجودة الفاظه ، وقوة مبانيه وبلاغته ، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب ، أنه لو أُنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض ، وجعل فيه تمييز كالإنسان على قساوته ، ثم أنزلنا عليه القرآن ﴿ لرأيته ﴾ مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة ، وضخامة الجرم ﴿ خاشعاً متصدعاً ﴾ أي متشققاً .

﴿ من خشية الله ﴾ سبحانه حذراً من عقابه ، وخوفاً من أن يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله ، وهذا تمثيل وتخييل ، يقتضي علو شأن القرآن ، وقوة تأثيره في القلوب ، قال ابن عباس قي الآية : يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل وحملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله ، فأمر الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديد ، والتخشع والخاشع الذليل المتواضع .

« وعن علي وابن مسعود مرفوعاً في الآية قال : هي رقية الصداع » ورواه الديلمي بإسنادين لا ندري كيف رجالهما ، وأخرج الخطيب في تاريخه بإسناده الى إدريس بن عبد الكريم الحداد مسلسلاً الى ابن مسعود مرفوعاً ، قاله الذهبي : هو باطل ، قيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ، ولتصدع من نزوله عليه وقد

أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت لـه الجبال الرواسي ، وقيل الخطاب للأمة .

﴿ وتلك الأمثال نضربهـا للناس لعلهم يتفكـرون ﴾ فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ ، وينزجروا بالزواجر ،. وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ، ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ، ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته فقال :

﴿ هو ﴾ اي الذي وجوده من ذاته فلا عدم له بوجه من الوجوه ، فلا شيء يستحق الوصف بِهُوَ غيره ، لأنه الموجود دائماً أزلاً وأبداً ، فهو حاضر في كل ضمير ، غائب بعظمته عن كل حس ، فلذلك تصدع الجبل من خشيته ، ولما عبر عنه بأخص أسمائه أخبر عنه لطفاً بنا ، وتنزيلاً لنا بأشهرها الذي هو مسمي الأسماء كلها بقـوله : ﴿ الله ﴾ أي المعبـود الذي لا تنبغي العبـادة والألوهية إلا له ﴿ الذي لا إلّه إلا هو ﴾ فإنه لا مجانس له ولا يليق ولا يصح ولا يتصور ان يكافئه او يدانيه شيء .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر ، وقيل : عالم السر والعلانية وقيل : ما كـان وما يكـون ، وقيل : الآخـرة والدنيا ، وقيل : المعدوم والموجود ، وقدم الغيب على الشهادة لكونه متقدماً وجوداً ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ قد تقدم تفسير هذين الإسمين .

﴿ هو الله الذي لا إلّه إلا هو ﴾ كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقاً بذلك ﴿ الملك ﴾ الذي لا يزول ملكه المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه ، المالك لهم فهم تحت ملكه وقهره وإرادته ﴿ القدوس ﴾ اي الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص ، وقيل : هو الذي كثرت بركته ، والقدس بالتحريك في لغة اهل الحجاز السطل لأنه ينطهر به ، ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء ، قرأ الجمهور القدوس بضم القاف ، وقرىء

بفتحها ، وكان سيبويه يقول : سبوح قدوس بفتح أولهما ، وحكى ابو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ القدوس بفتح القاف قال ثعلب : كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول إلا السبوح والقدوس ، فإن الضم فيهما أكثر وقد يفتحان .

﴿ السلام ﴾ قال ابن العربي . إتفق العلماء على ان معنى قولنا في الله السلام النسبة ، تقديره : ذو السلامة ، ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال :

الأول : معناه الذي سلم من كل عيب وبرىء من كل نقص .

الثاني : معناه ذو السلام اي المسلم على عباده في الجنة ، كما قال : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ .

الثالث : أن معناه الذي سلم الخلق من ظلمه ، وهذا قول الخطابي ، وبه قال الأكثر وعليه والذي قبله يكون صفة فعل وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات وقيل : السلام معناه المسلم لعباده وهو مصدر وصف به للمبالغة .

﴿ المؤمن ﴾ أي الذي وهب لعباده الأمن من عذابه وقيل : المصدق لرسوله بإظهار المعجزات وقيل : المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب والمصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب وقيل : المؤمن الذي يأمن أولياؤه من عذابه ويأمن عباده من ظلمه يقال آمنه من الأمان الذي هو ضد الخوف كما قال تعالى : ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ فهو مؤمن وقال مجاهد : المؤمن الذي وجد نفسه بقوله : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ قرأ الجمهور المؤمن بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى أمن ، وقرىء بفتحها بمعنى المؤمن به على الحذف كقوله : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ ، وقال ابو حاتم : لا تجوز هذه القراءة لأن معناه أنه كان خائفاً فأمنه غيره .

﴿ المهيمن ﴾ من هيمن يهيمن إذا كان رقيباً على الشيء ، اي الشهيد

على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم ، كذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ، قال الواحدي : وذهب كثير من المفسرين الى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن فيكون بمعنى المؤمن ، والأول أولى ، وقيل : القائم على خلقه برزقه ، وقيل : هو الرقيب الحافظ ، وقيل : هو المصدق ، وقيل : هو القاضي ، وقيل : هو الأمين والمؤيمن ، وقيل . هو العلي ، وقيل : اسم من أسماء الله وهو أعلم بتأويله ، وقد قدمنا الكلام على المهيمن في سورة المائدة .

﴿ العزيز ﴾ الذي لا يوجد له نظير ، وقيل : القاهر . وقيل : الغالب غير المغلوب ، وقيل : القوي .

﴿ الجبار ﴾ جبروت الله عظمته ، فعلى هذا هو صفة ذات ، والعرب تسمي الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر اذا اغنى الفقير ، وأصلح الكسير ، وعلى هذا هو صفة فعل او من جبره على كذا اذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذي جبر خلقه على ما اراد منهم ، وبه قال السدي ومقاتل واختاره الزجاج والفراء قال : هو من أجبره على الأمر أي قهره ، قال : ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار من اجبر ، ودراك من أدرك ، قلت : وإنه يستعمل ثلاثياً أيضاً ، وقيل : الجبار الذي لا تطاق سطوته ، وقيل : هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز ، وقيل : الجبار هو الذي لا ينال ولا يدانى ، والجبر في صفة الله مدح ، وفي صفة الناس ذم .

﴿ المتكبر ﴾ اي الذي تكبر عن كل نقص ، وتعظم عما لا يليق به وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد والكبر في صفات الله مدح لأن له جميع صفات العلو والعظمة والعز والكبرياء فإن أظهر ذلك كان ذلك ضم كمال الى كمال وفي صفات العلو والعظمة والعز والكبرياء فإن أظهر ذلك كان ذلك ضم كمال الى كمال وصفات المخلوقين ذم لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر وذلك نقص في حقه لأنه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فإذا أظهر الكذب كان كاذباً في فعله فكان مذموماً في حق الناس قال قتادة : هو الذي تكبر عن كل سوء قال ابن الأنباري : المتكبر ذو الكبرياء وهو الملك .

وقيل : هو الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله وقيل هو المتعظم عما لا يليق بجلاله وجماله وقيل : هو المتكبر عن ظلم عباده .

ثم نزه سبحانه نفسه الكريمة عن شرك المشركين فقال ﴿ سبحانه الله عما يشركون ﴾ اي عما يشركونه او عن إشراكهم به .

﴿ هو الله الخالق ﴾ أصل الخلق التقدير يقال : خلقت الأديم للسقاء اذا قدرته له اي المقدر للأشياء ولما يوجده على مقتضى إرادته ومشيئته وهذا يرجع الى صفة الإرادة وتعلقها التنجيزي القديم ﴿ البارىء ﴾ اي المنشيء المبدع المخترع للأشياء والأعيان الموجد لها والمبرز من العدم الى الوجود فيرجع لتأثير القدرة الحادث لكن في خصوص الأعيان ، وقيل : المميز لبعضها من بعض .

﴿ المصور ﴾ أي الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة فالتصوير آخراً والتقدير والبرء بينهما او تابع لهما ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل وقرأ حاطب بن ابي بلتعة الصحابي ﴿ المصور ﴾ بفتح الواو ونصب الراء على انه مفعول به للبارىء ، اي الذي برأ المصور اي ميزه ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ قد تقدم بيانها والكلام فيها عند تفسير قوله ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها والحسنى مؤنث الأحسن الذي هو افعل تفضيل لا مؤنث أُحسن المقابل لامرأة حسناء ففي القاموس ولا تقل رجل أحسن في مقابلة امرأة حسناء وعكسه غلام أمرد ولا يقال جارية مرداء وإنما يقال هو الأحسن على إرادة أفعل التفضيل وجمعه أحاسن والحسنى بالضم ضد السوأى .

قال الزمخشري : ولله الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة من تحميد وتقديس وغير ذلك ووصف الجمع الذي لا يعقل بما توصف به الواحدة كقوله : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ وهو فصيح ولو جاء على المطابقة للجميع لكان التركيب الحسن على وزن الآخر كقوله : ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ لأن جمع ما لا يعقل يخبر عنه ويوصف بجمع المؤنثات وإن كان المفرد مذكراً .

﴿ يسبح له ما في السموات والأرض ﴾ اي ينطق بتنزيهه بلسان الحال او المقال كل ما فيهما ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ اي الغالب لغيره ، الذي لا يغالبه مغالب الحكيم في كل الأمور التي يقضي بها .

« عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً اذا أوى الى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر، وقال: إن مت مت شهيداً » أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة، وابن مردويه[١] .

« وعن ابي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكاً يطردون عنه شياطين الإنس والجن إن كان ليلاً حتى يصبح ، وإن كان نهاراً حتى يمسي » ، أخرجه ابن مردويه .

« وعن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة » أخرجه البيهقي والدارمي وأحمد والطبراني وابن الضريس والترمذي وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

« وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ خواتيم الحشر في ليل او نهار فمات من يومه او ليلته أوجب الله له الجنة » أخرجه البيهقي في الشعب وابن عدي وابن مردويه والخطيب .

---

(١) رواه أحمد .

سورة الممتحنة

﴿ هي ثلاث عشرة آية وهي مدنية ﴾

قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بالمدينة ، وعن ابن الزبير مثله . والممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل أي المختبرة أضيف الفعل اليها مجازاً كما سميت سورة براءة المبعثرة والفاضحة ، لكشفها عن عيوب المنافقين وعلى هذا فالإضافة بيانية أي السورة الممتحنة ، وقيل : بفتح الحاء اسم مفعول إضافة الى المرأة التي فيها ، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، لقوله سبحانه : ﴿فامتحنوهن ، اللّه أعلم بإيمانهن ﴾ . وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف والدة إبراهيم بن عبد الرحمن . وعلى هذا فليست الإضافة بيانية . والمعنى سورة المرأة المهاجرة التي نزلت فيها آية الامتحان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ
بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا
فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن
يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذواعدوي وعدوكم أولياء ﴾ قال المفسرون : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ، وسيأتي ذكر القصة ، وأضاف سبحانه العدو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم وتغليظاً فيه ، والعدو وصف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والآية تدل على النهي عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه ، وفيه دليل على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان .

﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ أي توصلون إليهم المودة على أن الباء زائدة أو هي سببية ، والمعنى تلقون إليهم أخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) بسبب المودة التي بينكم وبينهم ، وقال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) وسره بالمودة التي بينكم وبينهم ، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لقصد الإخبار بما تضمنته ، أو لتفسير موالاتهم إياهم ، او في محل نصب صفة لأولياء وجملة : ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون ، أو من فاعل لا تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان حال الكفار .

قرأ الجمهور بما جاءكم بالموحدة ، وقرىء لما جاءكم باللام أي لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به ، أي كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق ، أي دين الإسلام ، والقرآن ، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ مستأنفة لبيان كفرهم أو حالية وقدم الرسول عليهم تشريفاً له ، وقد استدل به من يجوز انفصال الضمير مع القدرة على اتصاله ، إذ كان يجوز أن يقال : يخرجونكم والرسول .

﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ تعليل للإخراج ، أي يخرجونكم لأجل إيمانكم أو كراهة أن تؤمنوا ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ من مكة ﴿ جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ جواب الشرط محذوف ، أي إن كنتم كذلك فلا تلقوا إليهم بالمودة ، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، وانتصاب جهاداً وابتغاء على العلة أي إن كنتم خرجتم للجهاد في سبيلي ، ولأجل ابتغاء مرضاتي ، أو حال كونكم مجاهدين ومبتغين .

﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ ، أي تسرون إليهم الأخبار بسبب المودة ، وقيل : هي بدل من قوله : ﴿ تلقون ﴾ ، ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء فقال : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتمْ وما أعلنتم ﴾ أي بما أضمرتم في صدوركم ، وما أظهرتم وأعلنتم بألسنتكم ، والجملة في محل نصب على الحال ؛ والباء في بما زائدة يقال : علمت كذا وعلمت بكذا هذا على أن أعلم مضارع ، وقيل : هو أفعل تفضيل ، أي أعلم من كل واحد بما تخفون وما تعلنون .

﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوي وعدوكم أولياء ، ويلقي إليهم بالمودة فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضل عن قصد السبيل .

﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ﴾ أي إن يلقوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ومنه المثاقفة وهي طلب مصادفة العزة في المسابقة ، يقال : ثقفت الشيء ثقفاً من باب تعب أخذته ، وثقفت الرجل في الحرب أدركته ، وثقفته ظفرت به ، وثقفت الحديث فهمته بسرعة ، والفاعل ثقيف ، وقيل : المعنى إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، والمعنيان متقاربان ﴿ ويبسطوا إليكم أيديهم ﴾ بالضرب ونحوه ﴿ وألسنتهم بالسوء ﴾ أي بالسب والشتم ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ معطوف على جواب الشرط ، أو على جملة الشرط والجزاء ، ورجحه أبو حيان على غيره من الاحتمالات ، والمعنى أنهم تمنوا ارتدادكم وودوا رجوعكم إلى الكفر .

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ﴾ أي لا ينفعكم القرابات على عمومها ولا الأولاد ، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم والحنو عليهم ، والمعنى أن هؤلاء لا ينفعونكم شيئاً يوم القيامة حتى توالوا الكفار لأجلهم كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة ، بل الذي ينفعكم ما أمركم الله به من معاداة الكفار ، وترك موالاتهم ، وجملة : ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم ، والمعنى يفرق بينكم فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار ، وقيل : المراد بالفصل بينهم أنه يفر كل واحد منهم من الآخر من شدة الهول كما في قوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ الآية .

ويجوز أن يتعلق يوم القيامة ، أي لن ينفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ، ويبتدأ بقوله : يفصل بينكم ، والأولى أن يتعلق يوم القيامة بما بعده ، كما ذكرنا قرأ الجمهور يفصل بالتخفيف وبضم الياء وفتح الصاد مبنياً للمفعول واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرىء بفتح الياء وكسر الصاد مبنياً للفاعل . وقرىء بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة من التفصيل ، وقرىء بضم الياء وكسر الصاد مخففة ، وقرىء بالنون وكلها سبعية .

﴿ والله بما تعلمون بصير﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك ، وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن علي بن أبي طالب قال : بعثني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنا والزبير والمقداد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي من كتاب ، فقلنا ، لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها ، فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا حاطب ؟ قال لا تعجل عليّ يا رسول الله إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ، فقال عمر : دعني أضرب عنقه ، فقال : إنه شهد بدراً وما يدريك ؟ لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، ونزلت هذه الآية[1] .

وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة ، متضمنة لبيان هذه القصة ، وأن هذه الآيات إلى قوله ، ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ ، نازلة في ذلك ولما فرغ سبحانه من النهي عن موالاة المشركين ، والذم لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلاً حين تبرأ من قومه فقال :

(١) رواه مسلم .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ
أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن
يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم
مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ أي خصلة حميدة تقتدون بها ، يقال : لي به أسوة في هذا الأمر . أي اقتداء ، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء بإبراهيم في ذلك إلا في استغفاره لأبيه ، قرأ الجمهور أسوة بكسر الهمزة ، وقرأ بضمها وهما لغتان ، وقراءاتان سبعيتان ، وأصل الأسوة بالضم والكسر القدوة ، ويقال : هو أسوتك أي مثلك وأنت مثله ﴿ في إبراهيم ﴾ أي في أفعاله وأقواله ، وفي متعلقة بأسوة ، ومنعه أبو البقاء ، أو بحسنة أو نعت ثان لأسوة أو حال من الضمير المستتر في حسنة أو خبر لكان ، ولكم تبيين ﴿ والذين معه ﴾ هم أصحابه المؤمنون ، وقال ابن زيد : هم الأنبياء قال الفراء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم ؟ فتتبرأ من أهلك كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ؟

﴿ إذا قالوا لقومهم ﴾ خبر كان أو متعلق بخبرها قالهما أبو البقاء ، ومن جوز في كان أن تعمل في الظرف علقه بها ، هذا ما في السمين ، وقال الحفناوي : الظرف بدل اشتمال من إبراهيم والذين معه وهذا أحسن الأعاريب المذكورة هنا ، والمعنى وقت قولهم لقومهم الكفار وقد كانوا أكثر من عدوكم وأقوى ولهم فيهم أرحام وقرابات ، ومع ذلك لم يبالوا بهم ، بل قالوا :

﴿ إنا برآء منكم ﴾ أي من دينكم جمع بريء مثل شركاء جمع شريك ، وظرفاء جمع ظريف ، قرأ الجمهور بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ككرماء في كريم وقرىء بكسر الباء وفتح الراء ككرام في كريم وبضم الباء وهمزة بعد ألف .

﴿ ومما تعبدون من دون الله ﴾ وهي الأصنام ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم أي لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة ﴾ بالأفعال ﴿ والبغضاء ﴾ بالقلوب ﴿ أبداً ﴾ أي هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة والبغضاء محبة ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ هو الاستثناء متصل من قوله في إبراهيم بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء أي قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم كلها ، إلا قوله لأبيه إلخ أو من أسوة حسنة ، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، كأنه قيل : قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله وأفعاله ، إلا قوله لأبيه ، وهذا عندي واضح غير محوج إلى تقدير مضاف ، وغير مخرج للاستثناء من الاتصال الذي هو أصله ، إلى الانقطاع ، ولذلك لم يذكر الزمخشري غيره ، أو من التبري والقطيعة التي ذكرت أي لم يواصله إلا قوله ، ذكر هذا ابن عطية أو هو منقطع أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن فلا تتأسوا به فتستغفرون للمشركين فإنه كان عن موعدة وعدها إياه أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظن أنه قد أسلم ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وقد تقدم تحقيق هذا في سورة براءة . قال ابن عباس في الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك .

﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ هذا من تمام القول المستثنى يعني ما أغني عنك وما أدفع عنك من عذاب الله وثوابه شيئاً والجملة في محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرن ، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا

القيد ، فإنه إظهار للعجز ، وتفويض للأمر إلى الله ، وذلك من خصال الخير ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه ، ومما فيه أسوة حسنة يقتدي به فيها ، وقيل : هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله والإنابة الرجوع ، والمصير المرجع . وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ الظاهر أنه دعاء متعدد لا ارتباط لِكُلٍّ بسابقة كالجمل المعدودة ، وليس هو وما بعده بدلاً مما قبله كما قيل ، لعدم اتحاد المعنيين لا كُلًّا ولا جزءاً ، ولا ملابسة بينهما سوى الدعاء قال الزجاج : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك ، وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم ذلك ، وبه قال ابن عباس : وقال أيضاً : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة البالغة في ملكه وصنعه .

﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾ أي في إبراهيم والذين معه في التبري من الكفار ﴿ أسوة ﴾ أي قدوة ﴿ حسنة ﴾ كرر هذا للمبالغة في التحريض على الحكم والتأكيد على الائتساء بإبراهيم وقومه ، ولهذا جاء به مصدّراً بالقسم لأنه الغاية في التأكيد . وقيل : إن هذا نزل بعد الأولى بمدة ، قال ابن عباس : أي في صنيع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه وهو مشرك .

﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ أي إن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله ويخاف عقاب الآخرة ، أو يطمع في الخير من الله في الدنيا والآخرة بدل اشتمال من كم ،بإعادة الجار ، قال المحلي : تبعاً للكواشي وقال أبو حيان وغيره : بدل بعض من كل ﴿ ومن يتول ﴾ أي يعرض عن التأسي بإبراهيم

وأمته ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ عن خلقه ﴿ الحميد ﴾ إلى أوليائه لم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به ولما نزلت هذه الآية وتشدد المؤمنون في عـداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين أطمعهم في تحـول الحال إلى خـلافة فقال :

﴿ عسى الله ﴾ وعسى وعد من الله على عادات الملوك ، حيث يقولون في بعض الحوائج : عسى أو لعل ، فلا تبقى شبهة المحتاج في تمام ذلك أو أريد به إطماع المؤمنين ﴿ أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسـلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقـدمهم في الإسـلام مـودة ، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقربة إلى الله ، وقيل : المراد بالمودة هنا تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبي سفيان ، فصار معاوية خال المؤمنين ، قاله ابن عباس ، ولا وجه لهذا التخصيص ، وإن كان من جملة ما صار سبباً إلى المودة فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح ومـا بعده .

وعن أبي هريرة قال : أول من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان ابن حرب ، وفيه نزلت هذه الآية ، وعن الزهري أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين ، قال : وهو فيمن قال الله فيه ﴿عسى الله أن يجعل ﴾ الآية .

وفي صحيح مسلم .

« عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ثلاث أعطنيهن

قال : نعم قال : تُؤَمِّرُني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين قال : نعم ، قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك قال نعم ، قال : وعندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها » الحديث[١] قال محمد بن إبراهيم الوزير في التنقيح ما لفظه : قال ابن حزم هذا موضوع لا شك في وضعه ، والآفة فيه عن عكرمة بن عمار ، قلت : قد رد الحفاظ على ابن حزم ما ذكره وجمع ابن كثير الحافظ جزءاً مفرداً في بيان ضعف كلامه ، وفي الحديث غلط ووهم في اسم المخطوب لها النبي صلى الله عليه وسلم : وهي عزة أخت أم حبيبة خطب أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبته لها أختها أم حبيبة كما ثبت في الصحيحين فأخبرهما النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم الجمع بين الأختين ، وقد ذكر له تأويلات كثيرة هذا أقربها والموجب للتأويل ما علم من تزويج النبي صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة قبل إسلام أبي سفيان .

﴿ والله قدير ﴾ أي بليغ القدرة كثيرها على تقليب القلوب ، وتحويل الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي بليغهما كثيرهما لمن أسلم من المشركين ، ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكافرين وترك موادتهم فصل القول فيمن يجوز بره منهم ، ومن لا يجوز فقال .

---

(١) رواه مسلم .

لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟
إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟
مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أي لا ينهاكم عن هؤلاء ﴿ أن تبروهم ﴾ وتكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً ، وهذا بدل من الموصول بدل اشتمال .

« عن عبدالله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبدالعزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وأقط وسمن وهي مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها ، حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته ، فأنزل الله هذه الآية فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ، » ، أخرجه(١) أحمد والبزار وأبو يعلى وغيرهم وزاد ابن أبي حاتم في المدة التي كانت بين قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن أسماء بنت أبي بكر قالت : أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألت النبي صلى الله عليه

---

(٢) رواه أحمد .

وسلم أأصلها ؟ فأنزل الله : ﴿ لا ينهاكم ﴾ الآية فقال : نعم صلي أمك » .

﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أي تفضوا إليهم بالقسط وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم ، والبر . يقال : أقسطت إلى الرجل إذا عاملته بالعدل ، قال الزجاج : المعنى وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد ولا تظلموهم ، وإذا نهى من الظلم في حق المشرك فكيف في حق المسلم ؟

﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أي العادلين ، ومعنى الآية أن الله سبحانه لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل ، قال ابن زيد كان هذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ ، قال قتادة : نسخ بقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، وقيل : هذا الحكم كان ثابتاً في الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم ، وقيل : هي خاصة في حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ من بينه وبينه عهد ، قاله الحسن وقال الكلبي : هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف ، وقال مجاهد : هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وقيل : هي خاصة بالنساء والصبيان ، وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة ، وهو الأولى لحديث أسماء المتقدم المتفق عليه .

ثم بيّن سبحانه من لا يحل بره ولا العدل في معاملته ، فقال :

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ﴾ وهم صناديد الكفار من قريش وعتاة أهل مكة ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ أي عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم ﴿ أَنْ تولوهم ﴾ بدل اشتمال من الموصول كما سلف .

﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ أي الكاملون في الظلم ، لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدواً لله ولرسوله ولكتابه ، وجعلوهم أولياء لهم ، وفيه مراعاة معنى من بعد مراعاة لفظها ، ولما ذكر سبحانه حكم فريقي

الكافرين في جواز البر والإقساط للفريق الأول دون الثاني ، ذكر حكم من يظهر الإيمان فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات ﴾ سماهن مؤمنات لنطقهن بكلمة الشهادة أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿ مهاجرات ﴾ من بين الكفار ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين ، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهن فقال : ﴿ فامتحنوهن ﴾ أي فاختبروهن بالحلف أي هل هن مسلمات حقيقة أو لا .

وقد أخرج البخاري .

عن « المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ حتى بلغ ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ فطلق عُمَر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك » وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا وعنه : وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي عاتق فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجعها إليهم حتى أنزل بالله في المؤمنات ما أنزل وقد اختلف فيما كان يمتحنهن به فقيل : كان يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا بل حباً لله ولرسوله ورغبة في دينه فإذا حلفت كذلك أعطى النبي صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها إليه .

« قال ابن عباس : كان إذا جاءت المرأة النبي صلى الله عليه وسلم حلفها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله » أخرجه الطبراني وغيره بسند حسن ، وقيل : الامتحان هو

أن تشهد أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا علموا أن ذلك حق منهن لم يرجعن إلى الكفار ، وأعطى بعلها في الكفار الذين عقد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صداقها الذي أصدقها وأحلهن للمؤمنين إذا آتوهن أجورهن ، قاله ابن عباس ، وقيل : ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ، وهي : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ﴾ إلى آخرها .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا على قولين ، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر ، وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص .

﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ معترضة لبيان أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ولم يتعبدكم بذلك ، وإنما تعبدكم بامتحانهن ، حتى يظهر لكم ما يدل على صدق دعوتهن في الرغب في الإسلام ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات ﴾ أي علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به ، وهو الظن الغالب بظهور الأمارات ، وتسمية الظن علماً يؤذن بأن الظن الغالب ، وما يفضي إليه القياس ، جار مجرى العلم ، وصاحبه غير داخل في قوله : ﴿ لا تقف ما ليس لك به علم ﴾ ، وقال الكرخي : المراد بالعلم الظن ، وسمي علماً إيذاناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به ، ففي الكلام استعارة تبعية .

﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ أي إلى أزواجهن الكافرين هذا ناسخ لشرط الرد بالنسبة للنساء ، على مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن ، وقال بعضهم : ليس من قبيل النسخ ، وإنما هو من قبيل التخصيص ، أو تقييد المطلق ، لأن العقد أطلق في رد من أسلم فكان ظاهراً في عموم الرجال مع النساء ، فبين الله خروجهن عن عمومه ، ويفرق بين الرجال والنساء بأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها ، وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت وأكرهت لضعف قلبها ، وقلة

هدايتها إلى الخروج منه بإظهار كلمة الكفر ، مع التورية ، وإضمار كلمة الإيمان طمأنينة القلب عليه ، ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته وهدايته ، كذا في الخطيب .

﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ تعليل للنهي عن إرجاعهن ، والتكرير لتأكيد الحرمة ، والجملة الأولى لنفي الحل حالاً ، والثانية لنفيه فيما يستقبل من الزمان ، وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحل لكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا مجرد هجرتها ﴿ وآتوهم ﴾ خطاب لولاة الأمور ، والأمر للوجوب ، فيكون منسوخاً ، أو للندب كما هو مذهب الشافعي فليس منسوخاً ، أي وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن :

﴿ ما أنفقوا ﴾ أي مثل ما أنفقوا عليهن من المهور ، قال الشافعي : وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع بلا عوض ، عن ابن عباس قال : نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح ، فكان من أسلم من نسائهم تسأل . ما أخرجك ؟ فان كانت خرجت فراراً من زوجها ، ورغبة عنه ، ردت وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت ، ورد على زوجها مثل ما أنفق ، ووجوب الإيتاء أو ندبه إنما هو في نساء أهل الذمة ، كما هو مورد الآية ، فإنها وردت في شأن أهل مكة الذين هادنهم صلى الله عليه وسلم ، وأما نساء الحربيين الذين لم يعقد لهم عهد فلا يجب ولا يسن رد مهورهن اتفاقاً ، وبه قال قتادة ، والأمر كما قال ، ثم نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات فقال :

﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ بشرطه ، وهو انقضاء العدة فيما إذا كانت المسلمة مدخولاً بها ، والولي والشاهدان وبقية شروط الصحة في المدخول بها وغيرها ، لأنهن قد صرن من أهل دينكم ، وإن كان أزواجهن الكفار لم يطلقوهن لانفساخ العقد بالإسلام ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي

مهورهن ، لأن المهر أجر البضع ، وذلك بعد انقضاء عدتهن كما تدل عليه أدلة وجوب العدة ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا عدة على المهاجرة ، واستدل بهذه الآية ، والأول أولى ، وبه قال الأوزاعي والليث والشافعي وأحمد ، والآية رد لما يتوهم من أن رد المهر إلى أزواجهن الكفار مغن عن تجديد مهر لهن إذا تزوجهن المسلمون ، فالمهر المدفوع للكفار لا يقوم مقام المهر الذي يجب على المسلم إذا تزوجهن ، والمراد بإيتاء المهر التزامه ، وإن لم يدفع بالفعل .

﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف من الإمساك ، واختارها أبو عبيد لقوله : ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ وقرىء بالتشديد من التمسك وهما سبعيتان ، والعصم جمع عصمة وهي ما يعتصم به من عقد وسبب ، والمراد هنا عصمة عقد النكاح ، والكوافر جمع كافرة وهي التي بقيت في دار الحرب ، أو لحقت بدار الحرب مرتدة ، أي لا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية ، والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين ، قال النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يزوجون المسلمات ، والمسلمون يزوجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية ، وهذه خاصة بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب ، وقيل : عامة في جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها .

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثني أو كتابي لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدّة، وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولاً بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام ، إذ لا عدة عليها ، عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين ، فأنزل اللهُ : ولا تمسكوا بعصم الكوافر .

﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ أي اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها وليسألوا ﴿ما انفقوا ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجها منا ، قال الفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد ، يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين : إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت : ردوا مهرها على زوجها الكافر ، قال الخطيب : وكان ذلك نصفاً وعدلاً بين الحالين وأطال سلمان الجمل في بيان ذلك .

﴿ ذلكم ﴾ المذكور من إرجاع المهور من الجهتين ﴿ حكم الله ﴾ وقوله : ﴿ يحكم بينكم ﴾ مستأنفة أو حالية ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي بليغ العلم ، لا تخفى عليه خافية ، بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله ، قال القرطبي : وكان هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين ، ولما نزلت الآية المتقدمة قال المسلمون : رضينا بحكم الله ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزل قوله ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات ، وقيل : المعنى وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار ، فارتدت المسلمة ، وإليه نحا الزمخشري .

﴿ فعاقبتم ﴾ أي فأصبتموهم في القتال بعقوبة قال الواحدي : قال المفسرون أي فغنمتم قال الزجاج : تأويله : وكانت العقبى لكم أي كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم ، وقيل : معناه ظهرتم ، وكانت العاقبة لكم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ من مهر المهاجرة التي تزوجتموها ، ولا تؤتوه زوجها الكافر سواء كانت الردة قبل الدخول أو بعده ، فكان الحكم أنه يجب للزوج من الغنمية جميع المهر ، قال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة ، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها ، وارتفع بعد الفتح بشقيه ، فلا يجب دفع مهر من جاءت مسلمة للكفار ، ولا مهر من ارتدت لزوجها ، وبه قال عطاء ومجاهد وقتادة .

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا
أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ
عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ
يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ
لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

وقال قوم : الآية غير منسوخة ، ويرد عليهم ما أنفقوا ، وحاصل معناها أن من أزواجكم يجوز أن يتعلق بـ ﴿ فاتكم ﴾ أي من جهة أزواجكم ، ويراد بالشيء المهر الذي غرمه الزوج لأن التفسير ورد أن الرجل المسلم إذا فرت زوجته إلى الكفار ، أمر الله المؤمنين أن يعطوا ما غرمه ، وفعله النبي صلى الله عليه وسلم مع جمع من الصحابة المذكورين في التفاسير ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء ، ثم يجوز في شيء أن يراد به المهر ، ولكن لا بد على هذا من مضاف محذوف ، أي من مهر أزواجكم ليتطابق الموصوف وصفته ، ويجوز أن يراد بشيء النساء أي نوع وصنف منهن ، وهو ظاهر قوله : ﴿ من أزواجكم ﴾ ، وقوله : ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ﴾ ، والمعنى أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين فكفرت ، ولم يرد عليه المشركون مهرها ، كما حكم الله مثل ذلك المهر الذي أنفقه عليها من الغنيمة .

﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ أي احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم فإن الإيمان الذي أنتم متصفون به ، يوجب على صاحبه ذلك .

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ أي قاصدات لمبايعتك على

الإسلام ، أخرج البخاري والترمذي وغيرهما .

« عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ ، فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك ـ كلاماً ـ والله ما مست يده يد امرأة قط من المبايعات ، ما بايعهن إلا بقوله قد بايعتك على ذلك » ، وظاهر هذا التركيب أن النساء طلبن المبايعة مع أن المقرر في السير أنه صلى الله عليه وسلم ابتدأهن بالمبايعة شارطاً عليهن الشروط الآتية ، وبعد أن بايعهن التزمنها ، ويمكن على بعد أن يقال : التقدير في الآية : إذا جاءك المؤمنات يبايعنك فبايعهن .

﴿ على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ من الأشياء كائناً ما كان ، وهذا كان يوم فتح مكة ، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعنه فأمره الله تعالى أن يأخذ عليهن أن لا يشركن به ﴿ ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ﴾ هو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات أي دفنهن أحياء لخوف العار والفقر .

﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ أي لا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم ، قال الفراء كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها . هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفتري بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها ، لأن ذلك قد دخل تحت النهي عن الزنا ، قال ابن عباس : كانت الحرة تولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاماً وعنه قال في الآية لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم .

﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ أي في كل أمر هو طاعة لله ، وإحسان إلى الناس ، وكل ما أمر به الشرع ونهى عنه ، والمعروف ما عرف حسنه من قبل الشرع ، قال عطاء : في كل بر وتقوى ، قال ابن عباس : إنما هو شرط

شرطه الله النساء ، وقال المقاتلان : عنى بالمعروف النهي على النوح ، وتمزيق الثياب ، وجز الشعر ، وشق الجيوب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بالويل ، وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم ، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه مع دخول النوح فيه ، قيل : ووجه التقييد بالمعروف مع كونه صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق .

أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة .

« عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً ، حتى بلغ ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ ، فقال فيما استطعتن وأطقتن ، فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال : إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة »، وفي الباب أحاديث ، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا وقرأ آية النساء ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وغيرهم :

« عن أم سلمة الأنصارية قالت : قالت امرأة من النسوة : ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ قال : لا تنحن ، قلت : يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمي لا بد لي من قضائهن ، فأبى عليّ ، فعاودته مراراً فأذن لي بقضائهن ، فلم أنح بعد ، ولم يبق من النسوة امرأة إلا وقد ناحت غيري » .

وأخرج البخاري ومسلم وعيرهما :

« عن أم عطية قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا أن لا نشرك بالله شيئاً ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها فقالت : يا رسول الله إن فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها ، فلم يقل لها شيئاً . فذهبت ثم رجعت ، فقالت : ما وفت منا امرأة إلا أم سليم وأم العلاء وبنت أبي سبرة امرأة معاذ أو بنت أبي سبرة وامرأة معاذ » ، وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن النوح .

﴿ فبايعهن ﴾ هذا جواب إدا ، والمعنى إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهن أي التزم لهن ما وعدناهن على ذلك من إعطاء الثواب في مقابلة ما ألزمن أنفسهن به من الطاعات ، فهو بيع لغوي ، والبيع في اللغة مقابلة شيء بشيء على وجه العوضية ، وسميت المعاهدة مبايعة تشبيهاً لها بها ، كأن كل واحد منهم باع ما عنده بما عند الآخر ، ذكر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم في صفة البيعة خصالاً ستاً صرح فيهن بأركان النهي في الدين ، ولم يذكر في بيعتهن أركان الأمر وهي ستة أيضاً : الشهادتان والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والاغتسال من الجنابة لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام ولأن النهي دائم في كل الأزمان وكل الأحوال ، فكان الاشتراط للتنبيه على الدائم آكد .

وقيل : إنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء ، ولا يحجزهن عنها شرف النسب ، قال ابن الجوزي : وجملة من أحصى من المبايعات إذ ذاك أربعمائة وسبعة وخمسون امرأة ، ولم يصافح في البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام بهذه الآية انتهى .

« وعن أسماء بنت يزيد بن السكن أنها قالت : كنت في النسوة المبايعات فقلت : يا رسول الله أبسط يدك نبايعك ، فقال : إني لا أصافح النساء ،

ولكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن » ، رواه البخاري وقيل : صافحهن بحائل أي ثوب .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء ، ثم غمس يده فيه فغمسن أيديهن فيه ، والأول أولى وأصح ، وهذا هو البيعة الثانية بالسنة في دين الإسلام ، والتي أحدثها الصوفية والمشايخ وجهلة المتصوفة ، فلا تثبت بدليل شرعي ، ولا اعتداد بها ، بل هي مصادمة لما ثبت بالكتاب والسنة كما ترى .

﴿ واستغفر لهن الله ﴾ أي اطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعة لهن منك مما سلف ، ومما يقع منهن ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي بليغ المغفرة بتمحيق ما سلف ، وكثير الرحمة لعباده بتوفيق ما ائتنف .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لما افتتح السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ، ختمها بمثل ذلك تأكيداً لعدم موالاتهم ، وتنفيراً للمسلمين عنها ، قاله أبو حيان وهذا على منوال رد العجز على الصدر من حيث المعنى ﴿ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ هم جميع طوائف الكفر ، وقيل : اليهود خاصة وقيل : المنافقون خاصة ، وقال الحسن : اليهود والنصارى ، والأول أولى ، لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها ، قال ابن عباس في الآية : كان عبدالله بن عمر وزيد بن الحرث يوادان رجلاً من اليهود فأنزل الله هذه الآية .

﴿ قد يئسوا من الآخرة ﴾ يرد على هذا أنهم طامعون في ثواب الآخرة ، لأنهم يعتقدون أنهم على حق وأن تمسكهم بشريعة موسى ينفعهم فلا يكونوا آيسين ، ويمكن أن يقال : المراد باليأس الحرمان أي قد حرموا من ثواب الآخرة و﴿من﴾ لابتداء الغاية أي أنهم لا يوقنون بالآخرة البتة بسبب كفرهم ، قال ابن مسعود : أي لا يؤمنون بها ولا يرجونها ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ أي كيأسهم من بعث موتاهم ، لاعتقادهم عدم البعث .

وقيل : كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من خير الآخرة لأنهم قد وقفوا على الحقيقة ، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة ، فيكون (من) على الوجه الأول ابتدائية ، وعلى الثاني بيانية ، والأول أولى ، وقيل : تبعيضية أي حال كونهم بعض أصحاب القبور ، إذ المقبورون فيهم المؤمن والكافر ، قال ابن مسعود : كما يئس الكافر إذا مات وعاين ثوابه ، واطلع عليه ، وقال ابن عباس : هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة ، وعنه قال : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله تعالى .

سورة الصف

﴿ هي أربع عشرة آية وهي مدنية ﴾

وهو المختار، ونسب إلى الجمهور. قال ابن عباس: نزلت بالمدينة، وعن ابن الزبير مثله. وعن ابن عباس أيضاً نزلت بمكة. ولعل هذا لا يصح عنه. وبه قال عكرمة والحسن وقتادة. وجزم به الزمخشري ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد:

«عن عبد اللّه بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيسأله: أي الأعمال أحب إلى اللّه؟ فلم يقم أحد منا فأرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلينا رجلاً، فجمعنا وقرأ علينا هذه السورة يعني سورة الصف كلها» وأخرجه[1] ابن أبي حاتم، وقال في آخره فنزلت فيهم هذه السورة، وأخرجه أيضاً الترمذي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في الشعب والسنن.

(١) رواه الحاكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ
﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ
﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾

﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ قد تقدم الكلام على هذا ، ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة ، وفي بعضها بالمضارع ، وفي بعضها بلفظ الأمر ، الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ، وقد قدمنا نحو هذا في أول سورة الحديد ، وأعاد الموصول هنا وفي الحشر والجمعة والتغابن جرياً على الأصل ، وأسقطه في الحديد موافقة لقوله فيها : له ملك السموات والأرض .

وقوله : هو الذي خلق السموات والارض ، ولم يقل : سبح لله السموات والأرض وما فيهما ، فيكون أكثر مبالغة لأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها ، وبالأرض جهة السفل فيشمل الأرض وما فيها ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلونَ ؟ ﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ على جهة الإنكار ، أي لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه ؟ ولم مركبة من اللام الجارة وما الاستفهامية . وحذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها ، كما

في نظائرها قال النسفي : وهي لام الاضافة داخلة على ما الاستفهامية ، كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك فيم وفيم ومم وعم وإلام وعلام ، وإنما حذفت الألف لأن ما وحرف الجر كشيء واحد ، ووقع استعمالهما كثيراً في كلام المستفهم محذوفة الألف ، وقد جاء استعمال الأصل قليلاً كقول الشاعر :

على ما قام يشتمني جرير

عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون وددنا لو أن الله أخبرنا بأحب الأعمال فنعمل به فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل معصية الذين خالفوا الإيمان . ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ ؟ قال النخعي : ثلاث آيات في كتاب الله منعتني أن أقضي على الناس ، ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ ، وهذه الآية ، ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال :

﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ أي عظم ذلك في المقت ، وهو أشد البغض ، والمقت ، والمقاية مصدران يقال : مقيت ومقوت إذا لم يحبه الناس ، قال الكسائي : أن تقولوا في موضع رفع لأن كبر فعل بمعنى بئس ، ومقتاً منتصب على التمييز ، وعلى هذا فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالنكرة . وأن تقولوا هو المخصوص بالذم ، وقيل : إنه قصد بقوله كبر التعجب ، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب المبوب لها في النحو وإليه نحا الزمخشري . وقال : هذا من أفصح الكلام وأبلغه ، ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله ، قال السمين : وهذه قاعدة مطردة ، وهي أن كل فعل يجوز التعجب منه ، يجوز أن يبنى على فعل بضم العين ويجري مجرى نعم وبئس في جميع الأحكام . وقيل : إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال

التعجب ، بل هو مسند إلى ﴿ أن تقولوا ﴾ ومقتاً تمييز محول عن الفاعل .

قال ابن عباس : هذه الآية في القتال وحده ، وهم قوم كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول الرجل : قاتلت وضربت بسيفي ولم يفعل فنزلت :

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا : وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال اليه ، حتى نعمله ، ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله هذه الآية ، وانتصاب صفاً على المصدرية والمفعول محذوف أي يصفون أنفسهم صفاً ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال أي صافين أو مصفوفين قرأ الجمهور يقاتلون على البناء للفاعل ، وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول ، وقرىء يقتلون بالتشديد .

وجملة : ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون أو من الضمير في صفاً على تقدير أنُه مؤول بصافين أو مصفوفين ، ومعنى مرصوص ملتزق بعضه ببعض ، يقال : رصصت البناء أرصه رصاً إذا ضممت بعضه إلى بعض ، وقال الفراء : مرصوص بالرصاص ، قال المبرد : هو مأخوذ من رصصت البناء إذا لا يمت بينه ، وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة ، وقيل : هو من الرصيص وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض ، والتراص التلاصق ، وقيل : المتلائم الأجزاء المستويها ، وقال ابن عباس في الآية : مثبت لا يزول ، ملصق بعضه على بعض ، وقيل : أريد استواء نياتهم في حرب عدوهم ، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رص بعضه إلى بعض ، والأول أولى .

ولما ذكر تعالى الجهاد المشتمل على المشاق وأُنه يحب المقاتلين في سبيله ، ذكر قصتي موسى وعيسى تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ليصبر على أذى قومه ، وبين أنهما أمرا بالتوحيد ، وجاهدا في سبيل الله ، وجعل العقاب لمن خالفهما مبتدئاً بقصة موسى لتقدمه في الزمان فقال :

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ أي أذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى ، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿ يا قوم لم تؤذونني ﴾ هذا مقول القول ، أي لم تؤذونني بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم ، أو بالشتم والانتقاص ومن ذلك رميه بالأدرة ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب .

وجملة : ﴿ وقد تعلمون أني رسول الله اليكم ﴾ في محل نصب على الحال ، وقد لتحقق العلم أو لتأكيده لا للتقريب ولا للتقليل ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ، والمعنى كيف تؤذونني مع علمكم بذلك ؟ والرسول يحترم ويعظم ، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي ، وتفيدكم العلم بها علماً يقينياً .

﴿ فلما زاغوا ﴾ عن الإيمان وأصروا على الزيغ واستمروا عليه ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ عن الهدى وصرفها عن قبول الحق ، وقيل : صرفها عن الثواب قال مقاتل : لما عدلوا عن الحق أي بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عنه ، جزاء بما ارتكبوا ، أو المعنى لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم ، أو فلما اختاروا الزيغ أزاغ الله قلوبهم ، أي خذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق .

﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، قال الزجاج : لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق ، والمعنى أنه لا يهدي كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم وإن من أسلم منهم لم يكن كافراً في علمه ، أي محتوماً عليه بالكفر بحيث يموت عليه .

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم ﴾ معطوف على وإذ قال موسى ، معمول لعامله ، أو معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول ﴿ يا بني اسرائيل ﴾ ولم يقل : يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب ولا أب له فيهم

فيكونوا قومه ، وأمه مريم من أشرفهم نسباً ﴿ إني رسول الله اليكم ﴾ أي أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به التوراة حال كوني ﴿ مصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ لأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة ، بل هي مشتملة على التبشير بي فكيف تنفرون عني وتخالفونني ؟ وذكر أشهر الكتب الذي حكم به النبيون ، وأشهر الرسل الذي هو خاتم المرسلين .

﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي ﴾ وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبي ، وقرىء بعدي بفتح الياء وبإسكانها ﴿ اسمه أحمد ﴾ هو نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو علم منقول من الصفة وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها أنه أكثر حمد من غيره ، أو من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره وبالاعتبار الأول قدم عيسى هذا الاسم على محمد ، لأن كونه حامداً لله سابق على حمد الخلق له لأنهم لم يحمدوه إلا بعد وجوده في الخارج ، وحمده لربه كان قبل حمد الناس له وقال الكرخي : إنه إنما خصه بالذكر لأنه في الإنجيل مسمى بهذا الاسم ولأنه في السماء أحمد فذكر باسمه السماوي لأنه أحمد الناس لربه ، لأن حمده لربه بما يفتحه الله عليه يوم القيامة من المحامد قبل شفاعته لأمته سابق على حمدهم له تعالى .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما :

« عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي » ، وفي بعض حواشي البيضاوي أن له أربعة آلاف اسم ، وأن نحو سبعين منها من أسمائه تعالى انتهى ، والحق أن أسماء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، توقيفية لا يزاد عليها ، ولا يدعى ولا يسمى بغيرها ، وفي الخازن تحت هذه الآية :

« عن أبي موسى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصحابه أن يأتوا النجاشي ، وذكر الحديث ، وفيه قال : سمعت النجاشي يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس ، لأتيته حتى أحمل نعليه » ، أخرجه أبو داود .

« وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه ، قال أبو داود المدني : قد بقي في البيت موضع قبر » أخرجه الترمذي ، وعن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى : يا رسول الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم في الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل انتهى . ومثله في الخطيب ، وقال مكان قوله : يأتي بعدكم أمة لفظ : أمة أحمد .

وقال : « روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار ، واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان ، واسمي في الإنجيل أحمد ، وفي القرآن محمد ، لأني محمود في أهل السماء والأرض » انتهى ، ولينظر في سند هذا الحديث ، قال القرطبي : واسم محمد مطابق لمعناه ، والله سبحانه وتعالى سماه قبل أن يسمي به نفسه ، فهذا علم من أعلام نبوته انتهى ، وذكره عيسى عليه السلام وقال : اسمه أحمد وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك أمة أحمد فقال : اللهم اجعلني من أمة محمد فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد ، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له ، فلما وجد وبعث كان محمداً بالفعل انتهى من الخطيب .

﴿ تنبيه ﴾ قدْ راجعنا من التفاسير الموجودة عندنا الآن جلها كتفسير أبي السعود والمدارك للنسفي والبيضاوي وحاشيته من الخفاجي والجلالين وحاشية

سليمان الجمل عليه والخطيب والخازن وأمثال ذلك في هذا المقام تحت هذه الآية فلم نجد أحداً من هؤلاء الأعلام ذكر هذه البشارة نقلاً عن الإنجيل ، ولعل السبب في ذلك عدم رجوعهم الى الكتب العتيقة والجديدة وتراجمها بالألسنة المختلفة ، أو عدم وجودها في تلك الأزمنة أو لعدم الاعتماد عليها لما تطرق من التحريف اليها ، ولكنا أحببنا أن نذكر في هذا المقام من النصوص الإنجيلية وغيرها بعضاً من الأدلة الدالة على بشارة عيسى عليه السلام بإتيان رسول من بعده اسمه أحمد ، فإن من منن الله سبحانه على عباده المؤمنين ومن تمام حجته على أهل الكتاب أن الإخبارات والأمثلة والبشارات الواردة في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، الناصة على ثبوت نبوته العامة ، ورسالته الشاملة للخليقة ، كلها توجد كثيراً في تلك الكتب إلى هذا الآن ، مع ما وقع فيها من التحريفات اللفظية والمعنوية ، كما نطق به الأحاديث والقرآن .

ومن عرف طريق إخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر ، ونظر بعين الإنصاف إلى هذه البشارات ، وقابلها بالإخبارات التي نقلتها النصارى في عيسى ابن مريم عليهما السلام ، جزم بأن هذه الإخبارات عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، في غاية من القوة ، ونهاية من الصحة والشهرة والقبول ، وهذه جملة صالحة منها تذكر هنا ونتكلم عليها بما يكشف عن حالها ، والدلالة منها على هذا المقصود فأقول وبالله أجول وأصول : فمن تلك البشارات ما في الباب السابع عشر من سفر التكوين :

وعلى إسماعيل أستجيب لك هو ذا أباركه وأكبره ، وأكثره جداً ، فسيلد اثني عشر رئيساً ، وأجعله لشعب كبير انتهى ، فقوله : أجعله لشعب كبير مشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره وقد قال تعالى ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في كلامه المجيد : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

قال الرازي : وفي الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم الى الأبد والفارقليط هو روح الحق اليقين : هذا لفظ الإنجيل المنقول الى العربي .

وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ : وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء ، وهو يذكركم ما قلت لكم ، ثم ذكر بعد ذلك بقليل ، وإني قد أخبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون ، وذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا ، ولكن أقول لكم الآن حقاً يقيناً انطلاقي عنكم خير لكم ، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط وإن انطلقت أرسلته اليكم ، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم ، ويدنيهم ويمنحهم ، ويوقفهم على الخطبة والبر والدين ، وذكر بعد ذلك بقليل هكذا فإن لي كلاما كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ له ، ولكن إذا جاء روح الحق اليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق ، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه ، هذا ما في الإنجيل انتهى كلام الرازي .

وفي الزبور المائة والتاسع والأربعين : سبحوا الرب تسبيحاً جديداً سبحوه في مجمع الأبرار ، فليفرح إسرائيل بخالقه ، وبنو صهيون يبتهجون بملكهم ، فليسبحوا اسمه بالمصياف بالطبل والمزمار ، يرتلوا له لأن الرب يسر بشعبه ويشرف المتواضعين ، بالخلاص تفتخر الأبرار بالمجد ، ويبتهجون على مضاجعهم ترفيع الله في حلوقهم ، وسيوف ذات فمين في أياديهم ، ليضعوا انتقاما في الأمم وتوبيخات في الشعوب ، ليقيدوا ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال من حديد ، ليضعوا بهم حكماً مكتوباً ، هذا المجد يكون لجميع الأبرار ا هـ .

وهذا الزبور عبر عن المبشر به بالملك ، وعن مطيعيه بالأبرار ، وصدق

جميع هذه الصفات على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضي الله عنهم ، ولا ينكر ذلك إلا من عمى الله عين بصيرته : وخذله عن سبيل هدايته ، ومنها ما في إنجيل يوحنا وترجمته بالعربية : إن كنتم تحبوني فحافظوا على كلامي وأنا ألتمس الآب فيرسل إليكم فارقليطاء آخر ليمكث معكم إلى أبد الآبدين إنتهى ، وهذا من أعظم الدلائل الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، وقد أعرض عنه النصارى إعراضاً كلياً .

والفارقليطاء، عجمية يونانية معناه الشافع والواسطة والمسلي والممجد وهذه المعاني تدل على الممدوح ، بعضها بالمطابقة وبعضها بالتضمن وبعضها بالالتزام فإن التمجيد مرادف للحمد ، والثلاثة الأخر مما توجب الحمد . فهذا هو معنى قوله سبحانه ﴿ مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ ، والدليل على ذلك وصفه بالمكث إلى الأبد والدوام ، فإنه لم يأت بعد عيسى عليه السلام أحد يتصف بهذه الصفة غيره ، وفي التنكير دلالة على أن هذا الفارقليطاء ، الذي هو الآن معكم أي المسيح زمني ولا يبقى إلى الأبد والذي يأتي بعده أبدي .

وإن فسره النصارى بالروح القدس فهذا خطأ لأن الروح القدس لم يبق معهم بعد يوم الدار ولا يوجد معهم في زماننا هذا غير روح إبليس شيء فيكون عدولهم عن اتباع أمره هو محافظتهم عليه ، وإلا فإن كان الفارقليطاء عبارة عن الروح القدس الذي نزل على الحواريين يوم الدار لاستطاع أساقفة النصارى وقسوسهم أن يفعلوا الخوارق التي فعل المسيح ، لكنهم لا يستطيعون على شيء من ذلك ، فالفارقليطاء ليس بعبارة عن الروح القدس الذي نزل عليهم يوم الدار ، أما المقدم فلأن الحواريين كانوا يعملون الخوارق التي كان يفعلها المسيح ، وأما التالي فلأنه لم ينقل عنهم لا في الغابر ولا في الحال .

وأما قولنا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، هو المتصف بالمكث إلى

الأبد فلأنه لم يأت بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، من يدعي النبوة ، ويظهر المعجزة ، فانحصرت فيه حتى يأتي غيره ، ومعنى الدوام هو بقاء ملته على دعائهما الأصلية ، وعدم تحريف كتابه العزيز ، بل وسنته المطهرة ، وعدم اختلال شريعته الحقة الصادقة ، ولا ينقض ذلك باختلاف المذاهب ، لأن هذا الاختلاف مما يتعلق بالفروع ، وفي رومية وأشعياء:ها أنا واضع في صهيون حجرة عثرة ، وصخرة شك ، وكل من يؤمن بها لا يخجل إنتهى . وتقييد عدم الخجالة بالإيمان بها فيه دلالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، وأخذه النصارى وأولوه على عادتهم ، واستدلوا به على ربوبية المسيح ، وليس بشيء وصهيون جبل في أورشليم ، وقيل : بل عقبة أسست عليها أورشليم ، والحجرة والصخرة والعثرة والشك من المترادفات .

وسياق الكلام في رومية أن بولوس كان يعظ بعيسى ، ويوبخ اليهود على عدم إيمانهم به وهو كلام طويل آخره قوله : وأما إسرائيل فإنه قد طلب شريعة العدل ، ولم يظفر بها ، ولم لم يظفر بها ؟ لأنهم لم يطلبوها بالإيمان ، بل بأعمال الشريعة ، وذلك لأنهم عثروا بحجرة كما حررها آنذا واضع حجرة تمعثر ، وصخرة شك ، وكل من يؤمن بها لا يخجل . يريد بذلك أن بني إسرائيل كانوا يطلبون الهدى فلم يصيبوه ، لأنهم كانوا يطلبونه بمحض الأعمال لا بالإيمان ، وهذا يدل على أن غاية شريعة عيسى لم تكن إلا بالقوة النظرية ، وسبب عدم صلبهم إياه بالإيمان لأنهم عثروا بعيسى لأنهم لم يعرفوه ، واستدل على عدم إيمانهم به بقول أشعياء ، وهذا لا يدل على ربوبيته ، بل ولا على نبوته .

وسياقه في أشعياء هو قوله : ألا لا تتكلموا على من تتكلم عليه هذه الأمة ، ولا تخشوا ما يخشونه ، ولا تخافوا ، وقدّسوا رب الجنود وحده ، واخشوه وخافوا منه ، لأنه هو المقدس ، وهو حجرة العثرة ، وصخرة الشك ، وهو لأهل بيت اسرائيل فخ ، ولكنه أورشليم مصيدة ، وسيعثرون ويسقطون وينكسرون ويقيدون ويؤسرون ، فاطووا الشهادة واختموا الصحف التي عند

تلاميذي ، وأنا سأنتظر الرب الذي يغطي وجهه عن أهل بيت اسرائيل وأترقبه ، وها أنا والأولاد الذين وهب لي ربي علامة عجيبة في إسرائيل لرب الجنود الذي يسكن في صهيون انتهى .

وهذا لا دلالة فيه على عيسى عليه السلام ، لأن أول صفاته رب الجنود ولم يكن المسيح كذلك ، والصفة الثانية كونه حجرة عثرة ولا تقل انهم قد عثروا بالمسيح أي شكوا فيه لأن مطلق الشك لا يكفي في صدقه عليه لقوله : يعثرون ويسقطون الخ والصفة الثالثة كونه يغطي وجهه عن إسرائيل وابن مريم كان مختصاً بدعوتهم ، كما صرح به في متى ، فلا يصدق عليه ، والصفة الرابعة كونه ناسخاً لما قبله من الشرائع كلها لقوله : اطووا الشهادة واختموا الصحف وعيسى بن مريم يقول كما في متّى : وهؤلاء الاثنا عشر أرسلهم عيسى وأمرهم وهو يقول : لا تنطلقوا الى طريق العوام ولا تدخلوا في أحد أمصار السامريين بل اذهبوا إلى غنم بيت إسرائيل الضالة ، ويقول كما في متى أيضاً ، لكنك إن أردت أن تلج الحياة فحافظ على الأحكام الخ ، وهذه كلها صريحة في خصوصية نبوته ، وعدم نسخ ناموس موسى ، فلا يصدق عليه ، فلا دلالة له عليه .

وإذا فهمت هذا فقد علمت أن غاية هذا الفصل التبشير ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقدير كلام أشعياء لا تكلموا علي ، أي تسبوا وترفضوا من تتكلم عليه ، أي من تسبه وترفضه هذه الأمة أي اليهود ، ولا تخشوا من يخشوه ، أي لا تتولوا من يتولوه ولا تعادوا من يعادوه ، بل قدسوا استثناء منقطع من لا تتكلموا واخشوا رب الجنود وحده ، واخشوه وخافوا منه ، أي لا تحذروا سلاطين اليونانيين والفلسطينيين والرومانيين والمدينيين ولا تقدسوهم ، بل اجعلوا جميع اتكالكم على رب الجنود ، أي الملك العادل ، والنبي الأمي الكامل لأنه أي ربِ الجنود ، والرب بمعنى المربي والمولى ، يقال : هو رب النعمة أي مفيضها ، ورب البيت أي مولاه ، وإذا أضيف إلى الضمير المتصل لا يكون إلا بمعنى المعبود على الأصح هو المقدس فقط لا غيره ، لأن تعريف

الخير يفيد الحصر . وهو حجرة العثرة ، عطف على هو المقدس وخبر لأن وصخرة الشك خبر ثالث لأن أي رب الجنود هذا هو المنحصرة فيه هذه الصفات ولجميع الناس .

أما التقديس فلأنه لم يرتكب قبل نبوته ما يوجب الثلب ، وأما العثرة والشك فلأنه من أولاد هاجر ، ولم يبعث منهم قبله نبي ، وأما أيوب فمن أعراب مدين وأما خالد بن سنان عند من يقول بنبوته فمن أعراب سامرة ، وهو لأهل بيت إسرائيل فخ هذه صفة أخرى له صلى الله عليه وسلم ، وهي أنه فخ يصيدهم ويأسرهم ، فكما فعل بهم الفلسطينيون هكذا يفعل بهم هو أيضاً ، ولسكنة أورشليم مصيدة المصيدة هي الشبكة التي تصيد كل ما يوكر عليها مرة واحدة بخلاف الفخ فإنه لا يصيد مما يوكر عليه إلا ما ينقر العتلة ولا يكون إلا واحداً فكان مراد أشعياء عليه السلام أنه يتسلط على اليهود ويقهرهم واحداً بعد واحد ، لأنهم مشتتون .

وأما البلد فإنه يتسلط عليها مرة واحدة ، وسيعثرون أي يشكون فيه ويسقطون إذا شكوا وينكسرون إذا سقطوا ، ويقيدون إذا انكسروا إلا أنهم لا يستطيعون الفرار ويؤسرون إذا قيدوا فاطووا الشهادة التي عندكم أيها الأنبياء ، واختموا الصحف أي أسفار التوراة ، ونبوات الأنبياء التي عند تلاميذي أي بني إسرائيل لأنها ستنسخ وتترك إذا ظهر رب الجنود صلى الله عليه وسلم ، ولا يحتاج إليها بعد ، وأنا سأنتظر الرب الذي يغطي وجهه عن إسرائيل ، وأترقبه ، يعني به محمداً صلى الله عليه وسلم ، يقول : إني لا أنتظر من يأتي قبله يعني عيسى الذي أشار إليه في غير هذا المكان لأنه نبي لبني إسرائيل ، لكني أُنتظر الذي يغطي وجهه عنهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يقال : إن نبوته صلى الله عليه وسلم ، عامة ، والعامة تلزم منها دعوة الكل ، فكيف يغطي وجهه عنهم ؟

لأن المراد بتغطية الوجه عدم ظهوره منهم واستقامته في ملكهم ، ثم

قال : وها أنا والأولاد يعني الأتقياء من بني إسرائيل ، وإضافة الرب إلى الضمير المتصل إشارة الى المعبود جل اسمه الذين وهبهم لي ربي ، أي أعطاني إياهم ووفقهم لاتباع دعوتي علامة عجيبة في إسرائيل ، أي نكون نحن علامة لهم حتى يعرفوا ما ضلوا عنه ، ويندموا على ما فعلوه ، ولرب الجنود الذي يسكن في صهيون إشارة إلى المهدي لأنه وصف محمداً صلى الله عليه وسلم ، برب الجنود الذي يغطي وجهه عن إسرائيل فإذا كان كذلك لا يمكن أن يسكن في صهيون ، وإلى هذا ذهب أكثر العلماء وصرحوا بأن المهدي يستقر في أورشليم ويعمرها بأموال الهند وفي هذا البرهان إقناع كامل لليهود والنصارى والمسلمين جميعاً .

أو المراد بالسكون في صهيون سكون دينه واستقرار أهل ملته فيه ، وهذا أوضح مما قبله ، وفي سفر التكوين : وأما أنت يا يهوذا فإنك أنت الذي تمدحه إخوته وستكون يدك في عنق أعدائك وستجثو لك أولاد أبيك ألا فإن القضيب لن ينصرف عن يهوذا ، ولا واضعي الناموس من تحت قدميه حتى يأتي شيلو ، وتصير إليه عوام الناس ، وأبطأ إلى الجفن جحشه ، وإلى منتخب الكروم أتانه غاسلاً بالخمر قميصه ، وبدم الكرم لباسه ، وسوف تكون عيناه أحمر من الخمر وأسنانه أبيض من اللبن.ا هـ .

وهذا نص على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأوله النصارى وقالوا : إن شيلو هو المسيح ابن مريم ، وقال اليهود : بل هو في شأن المسيح المزمع بالإتيان ، وسياق دعوى النصارى هو أن هذا الفصل في سفر التكوين يتضمن دعاء يعقوب لبنيه ، وأنه تنبأ لكل واحد منهم بما يناسب شأنه ، وتنبأ ليهوذا بأن السلطنة ستستقر في أولاده حتى يخرج شيلو ، ووصفه بهذه الصفات التي أشار إليها في غير هذا المكان ، والحق أنه يجيز صحة النهوض ، وليس فيه ريبة إلا أن غايته ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه قيد زوال الملك والنبوة من بني إسرائيل بظهور عيسى ، ومن بعد ظهوره إلى هذا الآن لم

يستقــل منهم ملك ، ولم يـظهـر فيهم نبي ، وانتقلت السلطنــة والنبــوة إلى إسماعيل .

وقال اليهود : إن شيلو الذي هو عبارة عن المسيح المزمع بالإتيان ، وأنه لم يأت بعد لعدم وقوع الشرط لأن شرط ظهوره زوال السلطنة والنبوة منهم وقد زالت النبوة ، لكن السلطنة لم تزل لأن بعض الممالك البعيدة عنـا يوجـد فيها منهم ملوك لم تبلغ إلينـا أخبـارهم ، وأجيب بـأن الـواو في قـولـه : لا تــزول السلطنة ولا واضعي الناموس للجمعية ، فلا يمكن زوال أحدهمـا وبقاء الثـاني وأن الأرض كلها محددة من مجاري ٦٥ درجة من الجنوب إلى جزيرة مندوسـة ومن ٨١ درجة من الشمال من جزيرة سلامة إلى آخـر ممالـك الفرنـج ، وليس فيها بقعة مجهولة ، وكذا الجزائر فالاعتـراف بأن فيهـا مملكة تكـون فيها ملوك وأمم مجهولة محمولة على الجهالة وهو ممنوع .

فمن أين حصـل لكم العلم بهذا المجهـول ؟ فينتقض اعتراضهم ، وإذا تحقق لك ذلك ، فاعلم أنه عليه السلام قيد زوال السلطنة والنبوة لظهـور شيلو وصيـرورة عوام النـاس إليه وقـوله حتى يـأتي شيلو يدل على أنـه لا بد للملك والنبوة بعد ظهوره أن تزولا من اليهـود وتنتقلا إلى غيـرهم وهم العرب ، وقـال اليهود : إن كان صحة ظهور شيلو التجاء عوام الناس إليه فـلا يمكن أن يظهـر شيلو ، ولا تلجىء عـوام النـاس إليـه ، لكن عيسى ابن مـريم قــد خـرج ولم تلتجىء عوام الناس إليه ، فعيسى ابن مريم ليس بشيلو .

وأجيب عن ذلك بمنع الصغرى ، لأن قوله : وتصير عوام الناس إليه أي إلى أمره وكلامه ، وقد اتبع عوام الناس أمره في تبشيره بمحمد صلى الله عليـه وسلم ، وفيه إشارة إلى أن الذين ينقادون إلى شـريعته صلى الله عليـه وسلم ، هم عـوام الناس ، أي ليسـوا بيهود كـالعرب والفـرس والروم والهـنـود والسنـود وحبشـة وبعض أهـل الصين ، وأمـا اليهـود فمنهم من يؤمن بـه ، ويصيـر إلى كـلامـه ، ويتبـع محمداً صلى الله عليـه وسلم ، ومنهم من يمكث راكسـاً في

بحيرة جهله وهواه ، لأن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه ، فخلاصة هذا أن موسى عليه السلام قد نقل عن يعقوب أنه قال : لا تزول السلطنة والنبوة عن أولاد يهودا حتى يخرج شيلو ويبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤمن به عوام الناس ، ويستعبروا كلامه ، وبعد ذلك تستقر المملكة والنبوة المتباينتان في قبيلة أخرى ، وهي العرب ، لما مر في هذا البرهان ، وفي اجتماع كلتا الصفتين في ذاته صلى الله عليه وسلم إشارة إلى تبجيله .

وفي نشيد الإنشاد : هذا صوت محبوبي فإنه أتى يقفز على الجبال ويظفر على الأتلال ، إن محبوبي كالغزال ، أو كخشف الأوعال ، هذا هو واقف خلف جدارنا يطل من الكوة ، ويظهر نفسه من الشباك ، فكلمتني محبوبتي وقالت لي : قم يا محبوبي وجميلي ، وتعال ، فإن الشتاء قد مضى ، والمطر قد انقضى ، وظهر الزهر على الأرض ، وقرب زمان الترنم ، وقد سمع صوت اليمامة في أرضنا ، وأبدت الظمخة تبنها ، والكرمة عنبها الغض ، فقم يا محبوبي وجميلي وتعال . انتهى .

وهذا من عمدة الأمثال التي تخص محمداً صلى الله عليه وسلم ، وتبشر به ، وقد غفل عنه اليهود والنصارى ولم يتوجهوا له ولا لما قبله وبعده من هذا السفر ، والحق أحق أن يعترف به ، فإن جميع آياته تتعلق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولكني اكتفيت منه بهذا المثال ونقلت لفظة محبوبي من الأصل الانكتاري على ما كانت عليه ، وهو لفظ لو بفتح اللام وسكون الواو الانكتارية الساكنة وهي تارة تطلق على العشق وتارة على المعشوق ، وكان الكاتودكيون قد ترجموها بابن أخي وأجمعوا على ذلك امتثالاً لأمر البابا سركيس ، وهي في الأصل العبراني دوو كفلس بإمالة الواو ، ومعناها العم أخو الأب كما ورد في أشمويل ، وبنو العم كما ورد في الخروج ، وابن العم ، كما ورد في أرميا ، ولم يفسرها أحد من اليهود بابن الأخ فعلى ترجمة الانكتاريين يكون محبوب سليمان عليه السلام محمداً صلى الله عليه وسلم ، لأنه تنبىء عليه ولأنه خاتم الرسل ، وعلى ترجمة الباب سركيس يكون ابن أخيه لأن محمداً صلى الله

عليه وسلم من أولاد إسماعيل ، وسليمان من أولاد إسحاق وهما ابنا إبراهيم عليهم السلام ، فيكون كل واحد من محمد وسليمان عليهما السلام ابن أخ لصاحبه ، وعلى لغة اليهود فعلى الأول فيكون سليمان قد عبر بنفسه عن بني إسرائيل وعن محمد صلى الله عليه وسلم بنفس إسماعيل فيكون عمه ، وعلى الثاني يكون قد عبر عن نفسه ببني إسرائيل وعن محمد صلى الله عليه وسلم ببني إسماعيل فيكون قد عبر عنه بأولاد عمه ، وعلى الثالث يكون قد عبر عن نفسه ببني إسرائيل ، وعن محمد صلى الله عليه وسلم بابن إسماعيل فيكون ابن عمه ، وتأنيث الضمير لأنه عبر عن نفسه بالقبيلة .

والمعنى أن هذا صوت محبوبي يسمع فاسمعوه ، فإنه أتى يقفز على الجبال لأنه تولد في الحجاز ، وهي أرض وعرة كثيرة الجبال ، ويظفر على الأتلال لأنه ربي في البر مع بني تميم ، إن محبوبي كالغزال ، جملة استئنافية تتضمن بعض صفاته صلى الله عليه وسلم ، وذلك إشارة إلى أنه كان طويل العنق أسمر العينين ، أو كخشف الأوعال عطف على كالغزال وتأكيد لها ، هذا هو واقف خلف جدارنا ، هذا للتحضيض في الاصطفاء لكلامه ، وخلف جدارنا إشارة إلى قرب زمانه أو إلى ضرورة إتيانه ، يطل من الكوة ويظهر نفسه من الشباك ، إشارة إلى علو مكانه وسمو مقامه ، وإلى أنه يأتي إلى بلدهم لكن لا يتوقف فيها ، بل يكون فيها كالذي ينظر من الشباك ، وفيه إشارة إلى المعراج الجسماني لأن قوله : يطل وينظر فيهما إشارة إلى غاية انتهاء النظر ، وهو يدل على التحدُّد الجسماني وعلى ارتفاع مكان الناظر ، وفيه رد على من ينكر معراجه بالجسم .

فتكلمت محبوبتي وقالت ، اطراد من المتكلم إلى المخاطب ، والتأنيث باعتبار القبيلة أو البلد ، قم يا محبوبي وجميلي وتعال ، إظهار للرغبة في ظهوره صلى الله عليه وسلم ، فإن الشتاء قد مضى ، يريد بالشتاء مدة ما بينهما من الزمان ، أو زمان الفترة بينه وبين عيسى عليه السلام ، والمطر قد انقضى ،

يريد به الحاجب عن الظهور إما ما هو من جهة غلبة الجهل والفساد ، أو ما هو من جهة تغير أحوال الخلق وانتقالهم من العيافة إلى السذاجة ، وذلك لأن المطر يمنع الرجل من الخروج من كنه ، وظهر الزهر على الربى ، ترغيب له في الإتيان ، وبيان نهي القوم لقبول دعوته ، وقرب زمان الترنم ، تأكيد لقوله : ظهر الزهر إلخ ، وفيه إشارة إلى بيان رغبة الناس في تلاوة المصحف ، وذلك مما لم يتفق لأحد من الأنبياء ، فإني لم أر أمة من الأمم يتعاطون حفظ ناموسهم على الخاطر كما يفعل المسلمون من حفظ القرآن ، وقد سمع صوت اليمامة في أرضنا الخ ، هذا كله ماض بمعنى المستقبل الضروري الوقوع ، فقم يا محبوبي وجميلي وتعال .

هذا كله ظاهر الدلالة على الطلب ، فإن قلت : يمكن أن لا يكون مطلب سليمان من هذا التنبيء محمداً صلى الله عليه وسلم ، قلت : فحينئذ إما أن يكون كلامه يخص نبياً آخر أو معشوقا مجازياً أو يكون مهملاً ، ولا سبيل إلى كل واحد منها أما إلى الشق الأخير فلأنه كلام الله أو كلام النبي ، والإهمال ممتنع عليهما أما على الأول فظاهر ، وأما على الثاني فلأن النبي رجل يختصه الله بتبليغ كلامه من بين أهل عصره ، فيجب أن يكون عاقلاً ، والعاقل لا يتكلم بالمهمل ، وإلا فإذا حصل الشك في صحة بعض أنبائه يفسد اليقين بها في الكل ، ولأن أكثر القوم ذهبوا إلى عصمة الأنبياء مما هو يخل بالعصمة ، وأما أنه لا سبيل إلى كونه معشوقاً مجازيا ، فلأنه لا يجوز للنبي أن يدخل سائر كلامه في الوحي ، وإن فعله فقد عصى ، ولأنه إما أن يكون ذكراً أو أنثى وعلى كلا الوجهين يلزم منه تفسيق النبي وهو باطل .

وأما أنه لا سبيل إلى كونه نبياً آخر فلوجوه :

الأول أن النصوص المشتبهة قد أخذها القوم من اليهود والنصارى ، ولم يبق إلا ما شبهة فيه .

والثاني أنه لم يتنبأ إلا على اثنين فقط ، وهما يحيى بن زكريا وعيسى ابن

مريم ، والمثال لا يصدق على كل واحد منهما ، لأن صفاته لا توجد فيهما ، فلا يكون إلا محمداً صلى الله عليه وسلم ، جعلني الله وإياك ممن يقتص آثاره ، ويتمسك بأخباره .

وفي سفر الرؤيا ما ترجمته : من كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس ، إني سأطعم المظفر من شجرة الحياة التي هي في جنة الله ، وفيه : من كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس ، فإن المظفر لا تظهره الموتة الثانية.١ هـ .

وفيه أيضاً : من كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس إني سأطعم المظفر من المن المكنون ، وأعطيه حجرة بيضاء مكتوباً عليها اسم مرتجل لا يفهمه إلا من يناله ، وفيه أيضاً : وسأعطي المظفر الذي يحفظ جميع أفعالي سلطاناً على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد ،ويسحقهم كآنية الفخار كما أخذت أنا من أبي وأعطيه أيضاً نجمة الصبح ، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس . وفيه : المظفر يلبس ثياباً بيضاء ، ولا أمحو اسمه من سفر الحياة ، وأعترف باسمه أمام أبي وأمام ملائكته ، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس . وفيه : المظفر أجعله عموداً في هيكل الإلهي ، ولا يخرج خارجاً ، وأكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة التي نزلت من السماء من عند إلهي ، وأكتب عليه اسمي الجديد فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس . وفيه : المظفر أهب له الجلوس معي على كرسي كما ظفرت أنا أيضاً ، وجلست مع أبي على كرسيه ، فمن كانت له أذن سامعة فليستمع ما تقول الروح للكنائس.أ هـ .

وهذه سبعة بشارات متواترة مترادفة في الاصحاح الأولى والثانية من رؤيا يوحنا بن زبدي تدل دلالة صريحة على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى

نبوته العامة وقبلته الجديدة وعلو درجته ، تغافل النصارى عنها وأولوها تأويلات سخيفة ، وتسويلات واهية ، لا تستقيم على شيء منها حجة ولا يثبت برهان ، وكان الأحرى بها أن يكتب كل واحد منها على حدة . لكني أعرضت عن ذلك وكتبتها في موضع واحد ، روماً للاختصار ، وأحلت تفصيلها على الكتب الكبار .

وقوله : فمن كانت له أذن سامعة الخ مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة المرسلات : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث تكررت مرات ، وكان يوحنا في جزيرة أطموس في يوم الأحد فأتاه الوحي وحل عليه روح القدس ، وسمع صوتاً عظيماً يقول له : إني أنا الألف والياء الأول والآخر ، فاكتب ما تراه وأرسله إلى الكنائس السبع المشهورة . أعني كنيسة أفسيس وكنيسة سيمرنا وبيرغاموس وشاتيرا وسارديس دفيلا ولفية ولاذقية ، وفي آخر كل كتاب كتب إلى الكنائس السبع قوله : فمن كانت له أذن سامعة الخ ، وهذا ملخص الفصول المشتملة على الحجج ، وإن أردت الاطلاع على العبارة جميعها فارجع الى سفر الرؤيا وهذه الرؤيا هي ما يعتقده النصارى رؤيا رآها يوحنا تشتمل على الأخبار التي حدثت في العالم من ارتفاع المسيح إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل من وفاته إلى ظهور المهدي ، ومن وفاة المهدي إلى قيام الساعة ، ولا شك أنها تدل على ذلك وأنها كلام الله لكني لست بمطمئن من تحريفها ، ومع ذلك لا شك أن أماكن الاستدلال فيها قائمة على دعائمها الأصلية .

فمن جملة ذلك هذه الآيات الشريفة ولفظ المظفر في الأصل اليوناني يدل على الغالب والغازي والقاهر في الحرب ، والموتة الثانية عبارة عند النصارى عن موت الإنسان في الذنب ، أي انهماكه فيه لا غير ، وأما البعث فانهم يعترفون بقيام جميع الناس عند ظهور المسيح ، وبخلود أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ولم يتعرضوا للبحث في هذا المقام ، وعند اليهود

عبارة عن الموتة التي لا تكون بعدها موتة ، وأورشليم الجديدة عبارة عن مكة المعظمة على بادىء الرأي ، لقوله : النازلة من السماء لأن أهل الإسلام قد ذهبوا إلى أن قوله أم القرى ومن حولها يفيد العموم ، وقالوا : إن الحجر الأسود كان قد نزل من السماء أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم ، وقد رواه الترمذي وصححه ، فيكون قوله : أورشليم الجديدة النازلة من السماء كناية عن مكة ، وهذا من قبيل إقامة الظرف مقام المظروف ، وهي في جزيرة العرب قريبة من ساحل البحر الأحمر في مجاري طول ٤٠ درجة من الطول الجديد وعرض ٢٠ درجة من الشمال .

وفي سفر الرؤيا : ورأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد جازتا ، والبحر لن يوجد بعد ، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة ، نازلة من السماء ، مهيأة كعروس مزينة لزوجها انتهى .

وهذا من أجل البشارات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، لأن جدة الأرض والسماء تدل على تحول الأحوال ، وتبدل الأمثال ، وإلا فلا معنى لزوالهما قبل يوم القيامة ، ولا معنى لوجود غيرهما وأما البحر فانه قد كنى به عن الضلال الذي كان يعرض في ذلك الزمان من بعض كهنة اليهود ، فإنهم لم يزالوا يدعون النبوة بالكذب وهم أول من خاض في ذلك البحر . وقوله : كالعروس الخ بيان لحسن انتظام مكة شرفها الله وزوجها هو رب الجنود صلى الله عليه وسلم .

وفي أشعيا : وستخرج من قنس الأسى عصى ، وينبت من عروقه غصن وستستقر عليه روح الرب أعني روح الحكمة والمعرفة والروح الشورى والعدل وروح العلم وخشية الله وتجعله ذا فكرة وقادة مستقياً في خشية الرب فلا يقضي بمحاباة الوجوه ولا يدين بمجرد السمع انتهى. وهذه صفات رب

الجنود صلى الله عليه وسلم ، بأبي هو وأمي .

وفي سفر الرؤيا : فأخذتني الروح الى جبل عظيم شامخ وأرتني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله وفيها مجد الله وضوؤها كالحجر الكريم كحجر اليشم والبلور وكان لها سور عظيم عال واثنا عشر باباً وعلى الأبواب اثنا عشر ملكاً وكان قد كتب عليها أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر انتهى .

ولا تأويل لهذا النص بحيث أن يدل على غير مكة شرفها الله تعالى ، والمراد بمجد الله بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه أيضاً : ولسور المدينة اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الحمل الاثني عشر انتهى . وهذا تأكيد صريح لما قبله والاثنا عشر الأساس لعلهم الخلفاء الاثنا عشر من قريش ، وفيه إشارة إلى انقياد جميع المذاهب العيسوية لشريعة خير البرية صلى الله عليهم وسلم ، ولو بعد حين ، وبعد ظهور المهدي ، ونزول عيسى عليه السلام ، وهذه الرؤية طويلة جداً وفيها دلائل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأحوال أمته المرحومة ، ولكل جملة منها تأويل حسن ، ومحمل صريح ، ومعنى صحيح ، بحيث لا تدل إلا على هذه الأمة ونبيها صلى الله عليه وسلم .

وقد أنزل بعضهم هذه الرؤيا على ما يوافق مذاهب الإمامية ولا عبرة به ، لأن التبشير إنما وقع في الكتب القديمة ببعثة محمد النذير البشير صلى الله عليه وسلم ، لا بغيره من عترته صلى الله عليه وسلم الكائنة إلى يوم القيامة إلا ما ورد في القرآن الكريم من كون مثل أصحابه عموماً في التوراة والإنجيل ، لا على الخصوص ، فلا دلالة لها على شيء من ذلك في تلك النصوص ، وقد بلغ بعض الناس هذه البشارات إلى ثلاث وعشرين بشارة ، وفي بعضها نظر واضح ، وبعضهم الى ثمان عشرة بشارة منها ما تقدم في هذا المقام ، وفي

غيره من هذا التفسير ، وجلها صحيحة ، ويظهر من الرجوع إلى أصول الكتب نقادة ألفاظ تراجمها نقادة عظيمة لا ينبغي مثلها في الكتب الإلّهية المقدسة ، ولذلك لا ترى نسخة من نسخ التوراة والإنجيل المطبوعة لهذا العهد أو لما قبله من الزمان الكثير إلا وهي مختلفة العبارة عربية كانت أو افرنجية أو فارسية أو هندية أو تركية وهذا التفاوت والاختلاف يقضي بالتحريف والتصحيف ، ويقضي منه العجب ، ولا عجب على الحقيقة فإن الله سبحانه ، وتعالى قد أخبرنا بذلك من قبل أن نقف عليه وننظر فيه بعين الإمعان .

وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى في هذا الزمان على عباده المؤمنين حيث انتهض عصابة منهم للرد على النصارى باللسان والبيان ،والعمل بالأركان ،وأفحموهم إفحاماً يبقى عاراً عليهم إلى آخر الدهر إن شاء الله تعالى ، ومن البشارات أيضاً ما في ترجمة القرآن المجيد للقسيس سيل نقله من إنجيل برنابا ولفظه : اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزي الله عليه ، لأن الله غير راض عن الذنب ، ولما حبتني أمي وتلاميذي لأجل الدنيا أسخط الله لأجل هذا الأمر ، وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة ، ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ، ولا يكون لهم أذية هناك . وإني وإن كنت بريئاً لكن بعض الناس لما قالوا في حقي : إنه الله وابن الله هذا القول ، واقتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة علي ، ولا يستهزئون بي ، فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص أني صلبت لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله ، فإذا جاء في الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط ، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس انتهى .

وهذه بشارة صريحة عظيمة ، وإن قال النصارى : إن هذا الإنجيل رده مجالس علمائنا المتقدمين ، وفي ترجمة كتاب أشعياء باللسان الأرمني :

سبحـوا الله تسبيحاً جـديداً وأثـر سلطنته على ظهـره واسمه أحمـد ، وفي سفر الاستثنـاء قال : جـاء الرب من سينـاء ، وأشرق لنـا من ساعيـر ، واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار ا هـ .

وفاران جبل بمكة وبحيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى ، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى ، واستعلانه من جبـل فاران إنـزاله القـرآن على محمـد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيـده ما في سفـر التكوين في حـال إسماعيل عليه السلام : وسكن برية فاران وأخذت لـه أمه امـرأة من أرض مصر انتهى . ولا شك أن إسماعيل كان ساكنا بمكة المكرمة ، زاد الله شرفها ، الى غير ذلك من الأدلة الصريحة التي ينكرها النصارى ،ويؤولونها على غير محاملهـا ، وكل من أسلم من علماء أهل الكتاب اليهود والنصارى في القرون الأولى ، بـل إلى الآن شهد بوجود البشارات المحمدية على صاحبها أفضـل الصلاة والتحيـة في كتب العهدين العتيق والجديد .

وهكذا اعترف بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته من حمله الشقاء على عدم الإسلام ، وقبول الإيمان ، كهرقل عظيم الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن صوريا ، وحُيَيٌّ بن أخطب ، وأبو ياسر بن أخطب ، وأضرابهم ، والله سبحانه وتعالى يتم نوره ولو كـره الكافرون وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية .

﴿ فلما جاءهم ﴾ عيسى ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات والآيات ﴿ قالوا : هذا ﴾ الذي جاءنا به ﴿ سحر مبين ﴾ أي واضح ظاهر ، وقيل : المراد محمد صلى الله عليه وسلم لما جاءهم بذلك ، قالوا هذه المقالة والأول أولى ، بل هو المتبادر من السياق ، وهما قولان حكاهما المفسرون قرأ الجمهـور : سحر ، وقرىء ساحر ، وهما سبعيتان .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ
نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ﴾ أي لا أحد أكثر ظلماً منه حيث يفتري على الله الكذب بنسبة الشريك والولد إليه ووصف آياته بالسحر ﴿ وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ أي والحال أنه يدعى أي يدعوه ربه على لسان نبيه إلى دين الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها ، وفيه سعادة الدارين ، لأن من كان كذلك فحقه أن لا يفتري على غيره الكذب ، فكيف يفتريه على ربه ؟ قرأ الجمهور يدعى من الدعاء مبنياً للمفعول ، وقرىء يدعى من الادعاء مبنياً للفاعل ، وإنما عدي بإلى لأنه ضمن معنى الانتهاء والإنتساب ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى لا يهدي من اتصف بالظلم ، والمذكورون من جملتهم .

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ الإطفاء الإخماد ، وأصله في النار . واستعير لما يجري مجراها من الظهور ، والمراد بالنور القرآن أي يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ، قاله ابن زيد ، أو المراد الإسلام قاله السدي أو محمد صلى الله عليه وسلم ، يريدون هلاكه بالأراجيف قاله الضحاك ، أو الحجج والدلائل قاله ابن بحر ، فنور الله استعارة تصريحية والإطفاء ترشيح ،

وقوله : ﴿ بأفواههم ﴾ فيه تورية وكذا قوله : ﴿ نوره ﴾ ، ولكن قوله : ﴿ متم ﴾ تجريد لا ترشيح ، أو المراد بالنور جميع ما ذكره ، ومعنى بأفواههم بأقوالهم الخارجة من أفواههم التي لا منشأ لها غير الأفواه ، دون الاعتقاد في القلوب ، المتضمنة للطعن ، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكماً بهم وسخرية .

قال ابن عطية : اللام في ﴿ ليطفئوا ﴾ لام مؤكدة مزيدة دخلت على المفعول ، لأن التقدير يريدون أن يطفئوا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم كقولك : لزيد ضربت ولرؤيتك قصدت ، وقيل : هي لام العلة ، والمفعول محذوف ، أي يريدون إبطال القرآن ، أو دفع الإسلام ، أو هلاك الرسول ليطفئوا ، وقيل إنها بمعنى أن الناصبة ، وأنها ناصبة بنفسها ، قال الفراء : العرب تجعل لام كي في موضع أن في أراد وأمر ، وإليه ذهب الكسائي ، ومثل هذا قوله : يريد الله ليبين لكم .

﴿ والله متم نوره ﴾ بإظهاره في الآفاق وسائر في البلاد من المشارق إلى المغارب ، وإعلائه على غيره ، ومتم الحق ، ومبلغه غايته ، قرىء متم نوره بالإضافة سبعية وبتنوين ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك فإنه كائن لا محالة .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ﴾ أي البيان الشافي بالقرآن أو المعجزات ﴿ ودين الحق ﴾ أي الملة الحقة ، وهي ملة الإسلام ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي ليجعله ظاهراً على جميع الأديان المخالفة لها ، عالياً عليها ، غالباً لها ، قال الخطيب : فإن قيل : قال أولاً : ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ، وقال ثانيا : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ، فما الحكمة في ذلك ؟ أيقول بأنه تعالى أرسل رسوله ، وهو من نعم الله تعالى ، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء ، فلهذا قال : ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ، لأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك ، فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون ، فلفظ الكافر

أليق به ، وأما قوله ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ، فذلك عند إنكارهم التوحيد ، وإصرارهم عليه ، لأنه صلى الله عليه وسلم في ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا إله إلا الله فلم يقولوا فلهذا قال :

﴿ ولو كره المشركون ﴾ ذلك فإنه كائن لا محالة ، ولعمري لقد فعل فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ، وقال مجاهد : ذلك إذا نزل عيسى ، لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام ، والدين مصدر يعبر به عن الأديان المتعددة ، وجواب لو في الموضعين محذوف ، أي أتمه وأظهره ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم ؟ ﴾ الاستفهام إيجاب وإخبار في المعنى وذكر بلفظه تشريفاً لكونه أوقع في النفس ، وقيل : المعنى سأدلكم ، وهذا خطاب لجميع المؤمنين ، وقيل لأهل الكتاب ﴿ على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار ، قرأ الجمهور تنجيكم من الإنجاء ، وقرىء من التنجية ، وهما سبعيتان .

« عن أبي هريرة قال : قالوا لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله ؟ فنزلت هذه الآية فكرهوا فنزلت : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إلى قوله ﴿ بنيان مرصوص ﴾ أخرجه ابن مردويه ، قال مقاتل : نزلت في عثمان بن مظعون قال : وددت يا نبي الله أعلم أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها ؟ ثم بين سبحانه هذه التجارة التي دل عليها فقال :

﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ أي تدومون على الايمان لأن الخطاب مع المؤمنين ، وتؤمنون خبر بمعنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال ، فكأنه قد وقع ، فأخبر بوقوعه ، وقرأ ابن مسعود آمنوا وجاهدوا على الأمر ، وقرىء تؤمنوا وتجاهدوا على إضمار لام الأمر ، قال الأخفش تؤمنون عطف بيان لتجارة ، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها .

﴿ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ قدم ذكر الأموال على الأنفس لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد ، أو لعزتها في ذلك الوقت ، أو لأنها قوام النفس ، وهذا بمنزلة الثمن الذي يدفعه المشتري ﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿ خير لكم ﴾ أي هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ، أو من كل شيء ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن كنتم ممن يعلم ، فإنكم تعلمون أنه خير لكم إلا إذا كنتم من أهل الجهل فإنكم لا تعلمون ذلك .

﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ هذا بمنزلة المبيع الذي يأخذه المشتري من البائع في مقابلة الثمن المدفوع له ، وهذا جواب الأمر المدلول بلفظ الخبر ، ولهذا جزم . وقال الزجاج والمبرد : ﴿ تؤمنون ﴾ في معنى آمنوا ، ولذلك جاء ﴿ يغفر لكم ﴾ مجزوماً ، وقال الفراء ؛ هذا جواب الاستفهام فجعله مجزوماً لكونه جوابه ، وقد غلطه بعض أهل العلم ، قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم ، إذا آمنوا وجاهدوا ، وقال الرازي في توجيه قول الفراء : إن ﴿ هل أدلكم ﴾ في معنى الأمر عنده ، يقال : هل أنت ساكت؟أي: أسكت؟وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام ، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاًوحثاً ، والحث كالإغراء ، والإغراء أمر ، وقيل : ﴿ يغفر لكم ﴾ مجزوم بشرط مقدر أي إن تؤمنوا يغفر لكم ، وقرىء بالإدغام في يغفر لكم ، والأولى تركه لأن الراء حرف متكرر فلا يحسن إدغامه في اللام .

﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ قد تقدم بيان كيفية جري الأنهار من تحت الجنات مراراً ، والمعنى :

من تحت أشجارها وغرفها ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي قصوراً من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوته حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زبرجدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً في كل سرير سبعون فراشاً ، من

كل لون ، على كل فراش سبعون إمرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً أو وصيفة ، فيعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدة يأتي على ذلك كله » رواه الحسن عن عمران بن حصين وأبي هريرة مرفوعاً ذكره الخطيب ولينظر في سنده وصحته .

﴿ في جنات عدن ﴾ أي في جنات إقامة وخلود ﴿ ذلك ﴾ المذكور من المغفرة وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز بعده والظفر الذي لا ظفر يماثله .

﴿ و ﴾ يؤتكم نعمة ﴿ أخرى تحبونها ﴾ وقال الأخفش والفراء : معطوفة على تجارة فهي في محل خفض ، أي وهل أدلكم على خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة ؟ وقيل : هي في محل رفع أي ولكم خصلة أخرى وقيل : في محل نصب أي ويعطيكم خصلة أخرى وفي ﴿ تحبونها ﴾ شيء من التعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل ، ففيه شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، ثم بين سبحانه هذه الأخرى فقال :

﴿ نصر ﴾ أي هي نصر ﴿ من الله ﴾ لكم ﴿ وفتح قريب ﴾ يفتحه عليكم وقيل : نصر بدل من أخرى ، على تقدير كونها في محل رفع ، وقيل : التقدير ولكم نصر وفتح قريب ، قال الكلبي : يعني النصر على قريش وفتح مكة ، وقال عطاء : يريد فتح فارس والروم ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ معطوف على محذوف ، أي قل يا أيها الذين آمنوا وبشر ، أو على تؤمنون لأنه في معنى الأمر ، والمعنى آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون ، وبشرهم يا محمد بالنصر والفتح وهذا ما جرى عليه في الكشاف ، أو وبشرهم بالنصر في الدنيا والفتح وبالجنة في الآخرة ، أو وبشرهم بالجنة في الآخرة ، ووضع الإظهار موضع الإضمار للإشعار بأن صفة الإيمان هي التي تقتضي هذه البشارة ، ثم حض سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿ يا أيها آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ أي دوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين ، قرىء أنصاراً لله بالتنوين ، وبالإضافة ، والرسم يحتمل القراءتين معاً ، واختار أبو عبيدة الإضافة لقوله : ﴿ نحن أنصار الله ﴾ بالإضافة وهي سبعية ، واللام يحتمل أن تكون مزيد في المفعول لزيادة التقوية ، أو غير مزيدة والأول أظهر قال قتادة قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه .

﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ ﴾ أي انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين ، لما قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله ؟ فقالوا نحن أنصار الله والكاف في كما نعت مصدر محذوف ، أي كونوا كوناً كما قال ، قاله مكي ، وفيه نظر ، إذ لا يؤمرون بأن يكونوا كوناً ، وقيل : الكاف في محل نصب على إضمار القول أي قلنا لهم ذلك كما قال عيسى ، وقيل : هو كلام محمول على معناه دون لفظة وإليه نحا الزمخشري والمعنى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله وإلى بمعنى مع أي مع الله وقيل : التقدير من أنصاري فيما يقرب إلى الله ؟ قيل التقدير من أنصاري متوجهاً إلى نصرة الله وقد تقدم الكلام على هذا في سورة آل عمران .

﴿ قال الحواريون ﴾ هم أنصار المسيح وخلص أصحابه وأول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً ، وحواري الرجل صفيه وخالصه من الحور وهو البياض الخالص وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب أي يبيضونها وفي المختار التحوير تبييض الثياب .

﴿ نحن أنصار الله ﴾ من إضافة الوصف إلى مفعوله أي نحن الذين ننصر الله أي ننصر دينه .

« عن عبدالله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفر الذين لقوه بالعقبة : أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون بعيسى بن مريم » أخرجه ابن سعد وابن إسحاق و« عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء : إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل قومي قالوا : نعم » أخرجه ابن سعد .

﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل ﴾ بعيسى عليه السلام ﴿ وكفرت طائفة ﴾ به وذلك لأنهم لما أختلفوا بعد رفعه تفرقوا وتقاتلوا فرقة قالت : كان الله فارتفع وفرقة قالت : كان ابن الله فرفعه إليه وفرقة قالت : كان عبدالله ورسوله فرفعه إليه وهم المؤمنون واتبع كل فرقة طائفة من الناس فاقتتلوا ، وظهرت الفرقتان الكافرتان حتى بعث الله محمّداً صلى الله عليه وسلم فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي قوينا المحقين منهم على المبطلين وقال ابن عباس : أي أيدنا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته على عدوهم وقيل : المعنى فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعاً .

﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي صاروا بعدما كانوا فيه من الذل غالبين قاهرين في أقوالهم وأفعالهم لا يخافون أحداً ولا يستخفون منه .

سورة الجمعة

﴿ إحدى عشرة آية بلا خلاف ، وهي مدنية ﴾

قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بالمدينة ، وعن ابن الزبير مثله . وأخرج مسلم وأهل السنن .

« عن أبي هريرة : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقرأ في الجمعة سورة الجمعة . و ﴿إذا جاءك المنافقون ﴾ » . وأخرجوا عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن حبان والبيهقي في سننه .

« عن جابر بن سمرة قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة : ﴿قل يا أيها الكافرون ﴾ . و ﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ . وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة سورة الجمعة والمنافقون » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ
فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ
ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ينزهه فاللام زائدة ، وفي ذكر ﴿ ما ﴾ تغليب للأكثر وهو ما لا يعقل، وقال النسفي رحمه الله : التسبيح إما أن يكون تسبيح خلقه ، يعني إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقته على وحدانية الله وتنزيهه عن الأشياء ، أو تسبيح معرفة بأن يجعل الله بلطفه في كل شيء ما يعرف به الله تعالى وينزهه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ؟ أو تسبيح ضرورة بأن يجري الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفة له بذلك .

﴿ الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات الأربع على أنها نعت لله ، وقيل : على البدل ، والأول أولى ، وقرىء بالرفع على إضمار مبتدأ ، وقرأوا القدوس بضم القاف وقرىء بفتحها ، وقد تقدم تفسيره عن ميسرة أن هذه الآية يعني أول سورة الجمعة مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية .

﴿ هو الذي بعث ﴾ أرسل ﴿ في الأميين ﴾ أي إليهم والمراد بهم العرب من كان يحسن الكتابة منهم ، ومن لا يحسنها لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، والأمي في الأصل الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وكان غالب العرب

كذلك ، وقال النسفي : الأمي منسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرأون من بين الأمم ، وقيل : بدأت الكتابة بالطائف وهم أخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار انتهى .

و «عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

﴿ رسولاً منهم ﴾ أي من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم ، كما قوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ وما كان حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم قرابة ، وقد والوه ، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك اقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه ، وقيل : أمياً مثلهم وإنما كان أمياً لأن نعته في كتب الأنبياء النبي الأمي وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من الوحي ، والحكمة ، ولكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بحث فيهم ، وذلك أقرب إلى صدقه ، والاقتصار هنا في المبعوث إليهم على الأميين لا ينافي أنه مرسل إلى غيرهم لأن ذلك مستفاد من دليل آخر كقوله : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ .

﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب . ولا تعلم ذلك من أحد والجملة حال أو نعت لـ﴿رسولاً﴾ وكذا قوله: ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يطهرهم من دنس الكفر والذنوب قاله ابن جريج ومقاتل ، وقيل : من الشرك وخبائث الجاهلية ، وقال السدي : يأخذ زكاة أموالهم ، وقيل : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ، وقال الكرخي : يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من حيث العقائد .

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ الجملة صفة ثالثة لـ﴿رسولاً﴾، والمراد

بالكتاب القرآن وبالحكمة السنة كذا قال الحسن وقيل : الكتاب الخط بالقلم والحكمة الفقه في الدين ، كذا قال مالك بن أنس ، وقيل : المراد بالكتاب الفرائض ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل بعثته فيهم ، ومجيئه إليهم ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي في شرك وذهاب عن الحق وكفر وجهالة ، وإن مخففة من الثقيلة واللام دليل عليها أي كانوا في ضلال واضح لا ترى ضلالاً أعظم منه .

﴿ وآخرين منهم ﴾ مجرور عطفاً على الأميين ، أي بعثه في الأميين الذين على عهده ، وبعثه في آخرين منهم ، أو منصوب عطفاً على الضمير المنصوب في يعلمهم ، أي ويعلم آخرين ، وكل من يعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم معلمه بالقوة لأنه أصل ذلك الخير العظيم ، والفضل الجسيم ، أو عطفا على مفعول يزكيهم أي يزكيهم ويزكي آخرين والمراد بالآخرين من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وقيل : المراد بهم من أسلم من غير العرب ، وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : الناس كلهم وكذا قال ابن زيد والسدي .

﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ ذلك الوقت وسيلحقون بهم من بعد ، وقيل : في السبق إلى الإسلام والشرف والدرجة وهذا النفي مستمر دائماً لأن الصحابة لا يلحقهم ولا يساويهم في شأنهم أحد من التابعين ، ولا ممن بعدهم ، فالمنفي هنا غير متوقع الحصول ، ولذلك لما ورد عليه أن لما تنفي ما هو متوقع الحصول ، والمنفي هنا ليس كذلك ، فسرها المحلي بلم التي منفيها أعم من أن يكون متوقع الحصول أولاً فـ﴿ لما ﴾ هنا ليست على بابها ، والضمير في بهم ومنهم راجع إلى الأميين ، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان مرسلاً إلى جميع الثقلين فتخصيص العرب هنا لقصد الامتنان عليهم ، وذلك لا ينافي عموم الرسالة ويجوز أن يراد بالآخرين العجم لأنهم

وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام مثلهم ، والمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم .

و « عن أبي هريرة قال كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال له رجل : يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسي وقال : والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء » أخرجه البخاري وغيره ، وأخرجه أيضاً مسلم من حديثه مرفوعاً بلفظ : لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس أو قال من أبناء فارس .

وعن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس» ، أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه .

و« عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم قرأ ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ » .

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي بليغ العزة والحكمة ، في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده عليه ، واختياره إياه من بين كافة البشر .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره أو الإسلام قاله الكلبي أو الوحي والنبوة قاله قتادة أو إلحاق العجم بالعرب أو الدين قاله ابن عباس ، والفضل الذي أعطاه محمداً صلى الله عليه وسلم وهو أن يكون نبي أبناء عصره ، ونبي أبناء العصور الغوابر قاله النسفي ﴿ فضل الله يؤتيه ﴾ أي يعطيه ﴿ من يشاء ﴾ إعطاءه ، وتقتضيه حكمته ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه ، ولما ترك اليهود العمل بالتوراة ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ضرب الله لهم مثلاً فقال :

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ أي كلفوا القيام بها والعمل بما فيها ، وقال الجرجاني : حملوا من الحملة بمعنى الكفالة ، لا من الحمل على الظهر ، والحميل هو الكفيل أي ضمنوا أحكام التوراة ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ أي لم يعملوا بموجبها ، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها ، ولم يؤدوا حقها ﴿ كمثل الحمار ﴾ الذي هو أبلد الحيوان فخص بالذكر ، لأنه في غاية الغباوة .

﴿ يحمل أسفاراً ﴾ حال أو صفة للحمار ، إذ ليس المراد به حماراً معيناً ، فهو حكم النكرة ، إذ المراد به الجنس ، وقرأ المأمون بن هرون الرشيد يحمل مشدداً مبنياً للمفعول ، والأسفار جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء قال ابن عباس : أسفاراً كتباً أي كباراً من كتب العلم ، قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل ، فهكذا اليهود ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ، وهذا المثل يلحق من لم يفهم معاني القرآن ولم يعمل بما فيه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ، ولهذا قال ميمون بن مهران : يا أهل القرون اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ، ثم تلا هذه الآية ثم ذم هذا المثل ، والمراد منه ذمهم فقال :

﴿ بئس ﴾ مثلاً ﴿ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ على أن التمييز محذوف والفاعل المفسر به مضمر ، ومثل القوم هو المخصوص بالذم، أو مثل القوم فاعل بئس ، والمخصوص بالذم الموصول بعده على حذف المضاف ، أي مثل الذين كذبوا ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم ، فيكون في محل جر ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير بئس مثل القوم المكذبين ، مثل هؤلاء والمراد بالآيات محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أتى به من آيات القرآن وقيل : المراد آيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يعني الكافرين على العموم ، فيدخل فيهم اليهود دخولاً أولياً والمراد بهم الذين سبق في علمه أنهم لا يؤمنون ، وإلا فقد هدى كثيراً من الكفار .

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ
إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾
قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن
يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ
مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

﴿ قل يا أيها الذين هادوا ﴾ المراد بهم الذين تهودوا وتدينوا باليهودية ، وهي ملة موسى عليه السلام ، وذلك أن اليهود ادعوا الفضيلة على الناس ، وقالوا : إنهم أولياء الله من دونهم ، كما في قولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وقولهم : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴾ ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لما ادعوا هذه الدعوى الباطلة ؛ ﴿ إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ﴾ والولي يؤثر الآخرة ومبدأها وطريقها الموت .

﴿ فتمنوا الموت ﴾ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من الكرامة في زعمكم ، قرأ الجمهور بضم الواو وقرىء بفتحها تخفيفاً ، وحكى الكسائي : إبدال الواو همزة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في هذا الزعم فإن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار ثم أخبر سبحانه بما سيكون منهم في المستقبل من أنهم لا يفعلون ذلك أبداً بسبب ذنوبهم ، فقال :

﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أي بسبب ما عملوا من الكفر

والمعاصي ، الموجبة لدخول النار والتحريف والتبديل ، قال الزمخشري : ولا فرق بين لا ولن في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا فأتى مرة بلفظ التأكيد في ﴿ ولن يتمنوه ﴾ ، ومرة بغير لفظه في ﴿ ولا يتمنونه ﴾ قال أبو حيان : وهذا رجوع منه عن مذهبه وهو أن لن تقتضي النفي على التأبيد إلى مذهب الجماعة ، وهو أنها لا تقتضيه ، قلت : ليس فيه رجوع ، غاية ما فيه أنه سكت عنه ، وتشريكه بين لا ولن في نفي المستقبل لا ينفي اختصاص لن بمعنى آخر .

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ يعني على العموم ، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولا أولياً ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم : إن الفرار من الموت لا ينجيهم ، وأنه نازل بهم فقال :

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ لا محالة ، ونازل بكم بلا شك ، والفاء في فإنه داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط ، قال الزجاج : لا يقال إن زيداً فمنطلق ، وههنا قال : فإنه ملاقيكم لما في معنى الذي من الشرط والجزاء ، أي إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه ، وقيل : إنها مزيدة محضة لا للتضمن المذكور ، وقيل : إن الكلام قد تم عند قوله : ﴿ تفرون منه ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ ، ولما كان المقام في البرزخ أمراً مهولاً لا بد منه نبه عليه وعلى طوله ، بأداة التراخي فقال :

﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب ﴾ السر ﴿ والشهادة ﴾ العلانية وذلك يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ من الأعمال القبيحة ويجازيكم عليها ، وفيه وعيد وتهديد .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة ﴾ أي وقع النداء لها ، والمراد به الأذان إذا جلس الخطيب على المنبر يوم الجمعة ، لأنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه ، ثم كان أبو بكر وعمر وعلي بالكوفة على

ذلك حتى كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد أذانا آخر ، فأمر بالتأذين أولا على داره التي تسمى الزوراء ، فإذا سمعوا أقبلوا حتى إذا جلس على المنبر أذن المؤذن ثانياً ، ولم يخالفه أحد في ذلك الوقت .

« لقوله صلى الله عليه وسلم : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .

﴿ من يوم الجمعة ﴾ بيان لإذا وتفسير لها قاله الزمخشري ، وقال أبو البقاء إن من بمعنى في كما في قوله : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ أي في الأرض وجمع الكواشي بينهما ، وقرأ الجمهور الجمعة بضم الميم وقرىء بإسكانها تخفيفاً ، وهما لغتان ، وجمعها جمع وجمعات قال الفراء : يقال الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها ، وهي صفة لليوم ، أي يوم يجمع الناس وقال الفراء أيضاً وأبو عبيدة: التخفيف أخف وأقيس ، نحو غرفة وغرف ؛ وطرفة وطرف ، وحجرة وحجر وفتح الميم لغة عقيل ، وقيل : إنما سميت جمعة لأن الله سبحانه جمع فيها خلق آدم ، وقيل : لأن الله تعالى فرغ فيها من خلق كل شيء ، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة .

« وعن أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله لأي شيء سمي يوم الجمعة ؟ قال لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيه الصعقة والبعثة ، وفي آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له » ، أخرجه سعيد بن منصور ، وابن مردويه .

و« عن سلمان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدري ما يوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قالها ثلاث مرات ، ثم قال في الثالثة : هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم آدم ، أفلا أحدثكم عن يوم الجمعة » ؟ الحديث رواه أحمد والنسائي وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه .

و« عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير يوم

طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وابن مردويه وفي الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم ، وورد في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة ، وكذلك في فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها ، وفي الساعة التي فيها وأنه يستجاب الدعاء فيها .

وقد أوضح شيخنا الشوكاني في شرحه المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

وأول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار لبني سالم بن عوف وذلك أنه لما قدم المدينة نزل بقباء ، وأنام بها إلى الجمعة ، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في تلك الدار ، والجمعة فريضة من فرائض الله بهذا النص من كتاب الله ، وبما صح في السنة المطهرة ، وهي الكثير الطيب ، وقد واظب عليها النبي صلى الله عليه وسلم من الوقت الذي شرعه الله تعالى فيه إلى أن قبضه ، وحكى ابن المنذر الإجماع على أنها فرض عين ، وزاد ابن العربي : ومن نازع في فرضية الجمعة فقد أخطأ ولم يصب ، وهي كسائر الصلوات لا يخالفها إلا في مشروعية الخطبتين قبلها ، ومن تأمل فيما وقع في هذه العبادة الفاضلة من الأقوال الساقطة ، والمذاهب الزائغة ، والاجتهادات الداحضة ، قضى من ذلك العجب .

ولا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله حرف واحد يدل على ما ادعوه من كون تلك الأمور كالمصر الجامع ، والعدد المخصوص ، والإمام الأعظم ، والحمام ونحوها ، شروطاً لصحة الجمعة أو فرضاً من فرائضها ، أو ركناً من أركانها فيالله العجب ما يفعل الرأي بأهله ، ومن يخرج من رؤوسهم هذه الخزعبيلات الشبيهة بالقصص ، والأحاديث الملفقة ، وهي عن الشريعة المطهرة بمعزل ، وكل من ثبت قدمه ولم يتزلزل عن طريق الحق بالقيل والقال يعرف هذا أحسن المعرفة ، ومن جاء بالغلط فغلطه رد عليه ، مضروب به في

وجهه ، وتفصيل ذلك في النيل والسيل للشوكاني .

هذا وقد قال الشيخ الرحماني في حاشيته على التحرير : إن أفضل الليالي ليلة المولد ، ثم ليلة القدر ثم ليلة الإسراء فعرفة ، فالجمعة ، فنصف شعبان ، فالعيد ، وأفضل الأيام يوم عرفة ، ثم يوم نصف شعبان ، ثم يوم الجمعة ، والليل أفضل من النهار.

﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال عطاء : يعني الذهاب والمشي إلى الصلاة ،، وقال الفراء · المضي والسعي والذهاب في معنى واحد ، ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما : فامضوا إلى ذكر الله ، كما سيجيء وقيل : المراد القصد ، قال الحسن : والله ما هو سعي على الأقدام ، ولكنه قصد بالقلوب والنيات . وقيل : المراد به السعي على الأقدام ، وذلك فضيلة وليس بشرط ، والأول أولى ، وقيل : هو العمل قال ابن عباس : يعني ليس المراد به السرعة في المشي ، كقوله : ﴿ من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ وقوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ وقوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ، وقول الداعي : وإليك نسعى ونحفد .

قال القرطبي : وهذا قول الجمهور ، أي فاعملوا على المضي إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه ، وعن خرشة بن الحر قال رأى معي عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه : ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾ فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت : أبيّ بن كعب قال : إن أبياً أقرأنا المنسوخ أقرأها فامضوا إلى ذكر الله؟رواه ابن المنذر وابن الأنباري وابن أبي شيبة وأبو عبيدة في فضائله وسعيد بن منصور .

وروى هؤلاء غير أبي عبيد .

« عن ابن عمر قال . لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نقرأ هذه الآية التي هي في سورة الجمعة إلا : فامضوا إلى ذكر الله » ، وأخرجه عنه أيضاً الشافعي في الأم ، وعبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم ،

وأخرجوا كلهم أيضاً عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : فامضوا إلى ذكر الله . قال : ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي ، وعن أبيّ أنه قرأ كذلك ، والمراد من ذكر الله هنا صلاة الجمعة ، وقيل : موعظة الإمام، والأول أولى ، وقال الجمهور : الخطبة . وبه استدل أبو حنيفة على أن الخطيب إذا اقتصر على الحمد لله جاز .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » أخرجه البخاري ومسلم ، وهذا الحديث يعم كل صلاة ويدخل فيه صلاة الجمعة ، فهو كالتفسير للآية .

﴿ وذروا البيع ﴾ أي اتركوا المعاملة به ويلحق به سائر المعاملات أو اتركوا عقده بتمامه ، فالخطاب لكل من البائع والمشتري ، قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع .

« عن محمد بن كعب أن رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانا يختلفان في تجارتهما إلى الشام ، فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فيدعونه ويقومون ، فنزلت الآية : ﴿ وذروا البيع ﴾ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك » ، أخرجه عبد بن حميد ، والمراد بالآية ترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال فقيل لهم : بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح وذروا البيع الذي نفعه يسير .

﴿ ذلكم ﴾ أي السعي إلى ذكر الله وترك البيع ﴿ خير لكم ﴾ من البيع والتكسب في ذلك الوقت لما في الامتثال من الأجر والجزاء وفي عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجباً للعقوبة وتمسك بهذا الشافعية في أن البيع وقت أذان الخطبة إلى انقضاء الصلاة صحيح مع الحرمة ، قال في الكشاف : عامة العلماء

على أن ذلك لا يوجب الفساد ، لأن البيع لم يحرم لعينه بل لما فيه من التشاغل عن الصلاة ، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة ، وقال مالك : ما وقع في الوقت المذكور يفسخ ، وكذا سائر العقود ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم ، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم من مصالح أنفسكم .

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي إذا فعلتم الصلاة وأديتموها ، وفرغتم منها ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ للتجارة فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ، والأمر للإباحة ﴿ وابتغوا ﴾ أي اطلبوا ﴿ من فضل الله ﴾ أن من رزقه الذي يتفضل به على عباده ، بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب وقيل : المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر ، بعمل الطاعات ، واجتناب ما لا يحل ، وقيل : هو طلب العلم .

« عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية ليس بطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ في الله أخرجه ابن جرير .

وعن ابن عباس قال : لم يؤمروا بشيء من طلب الدنيا ، إنما هو عيادة مريض ، وحضور جنازة وزيارة أخ في الله ، وعن عراك بن مالك : أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف ، فوقف على باب المسجد وقال : أللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك ، وأنت خير الرازقين .

﴿ واذكروا الله ﴾ ذكراً ﴿ كثيراً ﴾ بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي ، وكذا اذكروه بما يقربكم إليه من الأذكار ، كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك ، ولا تقصروا ذكره على حالة الصلاة ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي لكي تفوزوا بخيري الدارين وتظفروا بهما .

﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان

بأهل المدينة فاقة وحاجة ، فأقبلت عير الشام ، وضرب لقدومها الطبل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً في المسجد كما سيجيء ، قال قتادة : بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ، كل مرة تقدم العير من الشام ، ويوافق قدومها يوم الجمعة وقت الخطبة ، وقيل ضربه أهل المدينة على العادة في أنهم كانوا يستقبلونها بالطبل والتصفيق ، أو ضربه أهل القادم بها أقوال ثلاثة حكاها الخطيب .

ومعنى انفضوا تفرقوا خارجين إليها ، وقال المبرد : مالوا إليها والضمير للتجارة وخصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو ، لأنها كانت أهم عندهم ، وقيل : التقدير وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه ، وقيل : إنه اقتصر على ضمير التجارة لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموماً مع الحاجة إليها فكيف بالانفضاض إلى اللهو ؟ وقيل غير ذلك .

﴿ وتركوك ﴾ في الخطبة ﴿ قائماً ﴾ على المنبر ، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم ، يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله : ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ إلى آخر السورة » ، « وعن ابن عباس في الآية قال جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية بن خليفة الكلبي ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً ، وسبع نسوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو خرج كلهم لاضطرم عليهم المسجد ناراً » أخرجه عبد بن حميد .

وفي الباب روايات متضمنة لهذا المعنى ، عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، والذي سوغ لهم الخروج وترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز لانقضاء المقصود وهو

الصلاة ، لأنه كان صلى الله عليه وسلم أول الإسلام يصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين ، فلما وقعت هذه الوقعة ، ونزلت الآية قدم الخطبة وأخر الصلاة .

« وعن ابن عمر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب خطبتين يقعد بينهما » أخرجه الشيخان ، وفيه دليل على أن الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً ، واتفقوا على أن هذا القيام كان في الخطبة للجمعة .

ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا ، فقال : قل لهم تأديباً وزجراً لهم عن العود لمثل هذا الفعل : ﴿ ما عندالله ﴾ من الجزاء العظيم على الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الجنة ﴿ خير من اللهو ومن التجارة ﴾ اللذين ذهبتم إليهما ، وتركتم البقاء في المسجد ، وسماع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم لأجلها ، وإنما كان خيراً لأنه محقق مخلد ، بخلاف ما يتوهمونه من نفع التجارة واللهو ، إذ نفع اللهو ليس بمحقق ونفع التجارة ليس بمخلد ، ومنه يعلم وجه تقديم اللهو ، فإن الأعدام تقدم على الملكات .

﴿ والله خير الرازقين ﴾ فمنه اطلبوا الرزق ، وإليه توسلوا بعمل الطاعة فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق ، وأعظم ما يجلبه . وتعددهم إنما هو على سبيل المجاز ، من حيث إنه يقال : كل إنسان يرزق عائلته ، أي من رزق الله تعالى ، وإلا فالرازق بالحقيقة هو الله وحده .

سورة المنافقون

﴿ هي إحدى عشرة آية بلا خلاف ، وهي مدنية ﴾

قال القرطبي : في قول الجميع . قال ابن عباس : نزلت بالمدينة . وعن ابن الزبير مثله .

« وعن أبي هريرة قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين ، وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين . » أخرجه سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط قال السيوطي : بسند حسن . وأخرج البزار والطبراني عن أبي عتبة الخولاني مرفوعاً نحوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾
۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ
يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ اي اذا وصلوا اليك وحضروا مجلسك ، قال ابن عباس : إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك ، وأظهروا الإيمان ، والمراد بهم عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿ قالوا ﴾ هذا جواب الشرط ، وقيل محذوف ، وقالوا : حال أي جاؤوك قائلين كيت وكيت ، فلا تقبل منهم وقيل : الجواب اتخذوا أيمانهم جنة ، وهو بعيد جداً كما لا يخفى ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ أكدوا شهادتهم بإن واللام للإشعار لأنها صادرة من صميم قلوبهم ، مع خلوص اعتقادهم ، ومعنى نشهد نحلف ، فهو يجري مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم ، وإنما عبر عن الحلف بالشهادة لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر معين ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره نفياً للنفاق عن أنفسهم ، وهو الأشبه ، ومثل نشهد نعلم فإنه ايضاً يجري مجرى القسم ، كما في قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتين منيتي ... إن المنايا لا تطيش سهامها

﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، وهو ما أظهروه من الشهادة، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿ والله يشهد

إن المنافقين لكاذبون ﴾ أي في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب ، وخلوص الاعتقاد ، لا في منطوق كلامهم ، وهو الشهادة بالرسالة ، فإنه حق يعني أنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم ، من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد ، وطمأنينة قلب ، وموافقة باطن لظاهر ، أو إنهم كاذبون عند أنفسهم ، لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم : إنك لرسول الله كذب ، وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه .

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ أي جعلوا حلفهم الذي حلفوا لكم به إنهم لمنكم ، وإن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاية تقيهم منكم ، وسترة يستترون بها من القتل والأسر ، قال النسفي : وفيه دليل على أن أشهد يمين ، قال ابن عباس : اجتنبوا بأيمانهم من القتل والحرب ، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه ، قرأ الجمهور أيمانهم بفتح الهمزة وقرىء بكسرها ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة المجادلة ، والجنة الترس ونحوه ، وكل ما يقيك سوءاً ومن كلام الفصحاء جبة البرد جنة البرد .

﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ اي منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة ، بسبب ما يصدر منهم من التشكيك ، والقدح في النبوة ، وهذا معنى الصد الذي بمعنى الصرف ، ويجوز ان يكون بمعنى الصدود ، اي أعرضوا عن الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ من النفاق والصد ،و﴿ساء﴾ هذه هي الجارية مجرى بئس ، في إفادة الذم ، ومع ذلك ففيها معنى التعجيب ، وتعظيم أمرهم عند السامعين .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره من الكذب والصد وقبح الأعمال ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ آمنوا ﴾ باللسان في الظاهر نفاقاً ﴿ ثم كفروا ﴾ بالقلب في الباطن ، فثم للترتيب الإخباري لا الإيجادي ، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر للكافرين ، وهذا صريح في كفر المنافقين ، وقيل : نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا ، والأول أولى كما يفيده السياق .

﴿ فطبع على قلوبهم ﴾ اي ختم عليها بسبب كفرهم ، قرأ الجمهور طبع مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل ، والفاعل ضمير يعود الى الله سبحانه ،

ويدل عليه قراءة الأعمش فطبع الله على قلوبهم ﴿ فهم لا يفقهـون ﴾ ما فيه صلاحهم ورشادهم ، وهو حقيقة الإيمان ، ولا يعرفون صحته .

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ اي هيئاتهم ومناظرهم ، يعني أن لهم أجساماً يعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ، قال ابن عباس : كان ابن أبيّ جسيماً صحيحاً فصيحاً ذلق اللسان ، وكان قوم من المنافقين مثله وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، ويستندون فيه الى الجدر وكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهياكلهم .

﴿ وإن يقولوا ﴾ اي يتكلموا في مجلسك ﴿ تسمع لقولهم ﴾ اي تستمع وتصغي وتميل ، فلذلك عُدي باللام ، والمعنى لتحسب أن قولهم حق وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، قال الكلبي : المراد عبد الله بن أبي وجد بن قيس ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لكل من يصلح له ، ويدل عليه قراءة يسمع على البناء للمفعول .

وجملة ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ خبر مبتدأ مضمر ، أي هم كأنهم ، أو مستأنفة لتقرير ما تقدم من أن أجسامهم تعجب الرائي وتروق الناظر ، قالها الزمخشري أو في محل نصب على الحال ، وصاحب الحال الضمير في قولهم ، قاله أبو البقاء شبهوا في جلوسهم في مجالس النبي صلى الله عليه وسلم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة الى الحائط ، التي لا تفهم ولا تعلم ، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع ، والعلم الذي ينتفع به صاحبه ، قال الزجاج : وصفهم بتمام الصور ، ثم أعلم أنهم في ترك الفهم والاستبصار ، وعظم الأجسام ، بمنزلة الخشب قرأ الجمهور خشب بضمتين ، وقرىء بإسكان الشين لأن واحدتها خشبة كبدنة وبدن ، وهما سبعيتان ، وقرىء بفتحتين .

ومعنى مسندة أنها أسندت الى غيرها ، من قولهم : أسندت كذا الى كذا والتشديد للتكثير ، قال ابن عباس في الآية : كأنهم نخل قيام ، وقيل : إنهم أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما

« عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر

فأصاب الناس شدة ، فقال عبد الله بن أبيّ لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فأرسل الى عبد الله بن أبيّ فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا : كذب زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، حتى أنزل الله تصديقي في : إذا جاءك المنافقون ، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم ، وهو قوله: ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ قال : كانوا رجالاً أجمل شيء »(١) .

وأخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي ، ثم عابهم الله سبحانه بالجبن فقال :

﴿ يحسبون كل صيحة ﴾ يسمعونها واقعة ﴿ عليهم ﴾ نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم ، وفي المفعول الثاني للحسبان وجهان :

أولهما أنه عليهم ، ويكون جملة : ﴿ هم العدو ﴾ مستأنفة لبيان أنهم الكاملون في العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون .

والوجه الثاني أن المفعول الثاني للحسبان هو قوله : ﴿ هم العدو ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ عليهم ﴾ متعلقاً بصيحة وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر ، وكان حقه أن يقال : هو العدو ، والوجه الأول أولى قال مقاتل والسدي : أي نادى مناد في العسكر ، أو انفلتت دابة ، أو أنشدت ضالة ، ظنوا أنهم المرادون لما في قلوبهم من الرعب ، وقيل : كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ حذره منهم فقال : ﴿ فاحذرهم ﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك ، أو يطلعوا على شيء من أسرارك ، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ، قال أبو السعود : الفاء لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء ، وعلى هذا جعل قوله : ﴿ هم العدو ﴾ مفعولاً ثانياً مما لا يساعده النظم الكريم أصلاً ، ثم دعا عليهم بقوله :

(١) رواه البخاري.

﴿ قاتلهم الله ﴾ أي لعنهم الله ، وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريق التعجب ، كقولهم : قاتله الله من شاعر ، أو ما أشعره ، وليس بمراد هنا ، بل المراد ذمهم وتوبيخهم ، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته عز وجل أن يلعنهم ويخزيهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك ، وقيل : معناه أهلكهم وهذا ما جرى عليه أبو عيسى ومعنى ﴿ أنىَّ يؤفكون ؟ ﴾ كيف يصرفون عن الحق ؟ ويميلون عنه الى الكفر بعد قيام البرهان على حقية الإيمان؟ قال قتادة: يعدلون عن الحق ،وقال الحسن : معناه يصرفون عن الرشد .

﴿ واذا قيل لهم : تعالوا ﴾ أي إذا قال لهم القائل من المؤمنين : قد نزل فيكم ما نزل من القرآن فتوبوا الى الله ورسوله وتعالوا ﴿ يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ أي حركوها استهزاء بذلك ، قال مقاتل :عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار ، وقيل : إعراضاً عنه واستكباراً ، قرأ الجمهور : لووا بالتشديد وقرىء بالتخفيف ، واختار الأولى أبو عبيد وهما سبعيتان .

﴿ ورأيتهم يصدون ﴾ أي يعرضون عن قول من قال لهم تعالوا إلخ ، أو يعرضون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجملة : ﴿ وهم مستكبرون ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى ، وهي يصدون لأن الرؤية بصرية ، فيصدون في محل نصب على الحال ، والمعنى رأيتهم صادين مستكبرين عن الإعتذار والإستغفار ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب صلاحهم ، وأن يستغفر لهم ، وربما ندبه إلى ذلك بعض أقاربهم ، قال تعالى منبهاً له على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لأنهم لا يؤمنون : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ أي الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق ، واستمرارهم على الكفر ، وهذا تيؤس له من إيمانهم .

﴿ ولن يغفر الله لهم ﴾ أي ما داموا على النفاق ﴿ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي الكاملين في الخروج عن الطاعة ، والانهماك في معاصي الله . ويدخل فيهم المنافقون دخولاً أولياً ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال :

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿ هم الذين يقولون ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لفسقهم او لعدم هداية الله لهم والمعنى يقولون لأصحابهم من الأنصار المخلصين في الإيمان وصحبتهم للمنافقين بحسب ظاهر الحال .

﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ الظاهر أنه حكاية ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ؛ ولا حاجة الى أنهم قالوه تهكماً او لغلبته عليه حتى صار كالعلم كما قيل ، ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة فغيرها الله إجلالاً لنبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ حتى ينفضوا ﴾ أي لأجل أن يتفرقوا عنه بأن يذهب كل واحد منهم الى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك ، يعنون بذلك فقراء المهاجرين ، قرأ الجمهور ينفضوا من الانفضاض وهو التفرق ، وقرىء ينفضوا من انفض القوم اذا فنيت أزوادهم ، يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عسيف لعمر بن الخطاب ، وقرأ زيد بن أرقم

وابن مسعود : حتى ينفضوا من حوله ، ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال :

﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ اي أنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين وغيرهم ، لأن خزائن الرزق له ، فيعطي من شاء ما شاء ، ويمنع من شاء ما شاء ، لا بأيديهم ، وهذا رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي الى انفضاض الفقراء من حوله ، والجملة حالية ، أي قالوا ما ذكر ، والحال أن الرزق بيده تعالى ، لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك ، لا مما في يده ، ولا مما في يد غيره ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ذلك ، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عز وجل ، وأنه الباسط القابض ، المعطي المانع .

ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال : ﴿ يقولون : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، وعنى بالأعز نفسه ومن معه ، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، والمراد بالرجوع رجوعهم من تلك الغزوة ، وإنما أسند القول الى المنافقين مع كون القائل فرداً من افرادهم وهو ابن أبيّ لكونه رئيسهم ، وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله السامعون له مطيعون .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما .

« عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة ، قال سفيان : يرون أنها غزوة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال المهاجري : يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري : يا للأنصار ، فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوة الجاهلية ؟ قالوا : رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار ، فقال النبي

صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها منتنة ، فسمع ذلك عبد الله بن أبيّ فقال : أوقد فعلوها ؟ والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، زاد الترمذي فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله : والله لا تنقلب حتى تقرَّ أنك الذليل ورسول الله العزيز ففعل »[1]

وكانت تلك الغزوة في السنة الرابعة ، وقيل في السادسة ، ثم رد الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ الجملة حالية اي قالوا ما ذكر ، والحال أن كل من له نوع بصيرة يعلم ان القوة والغلبة لله وحده ، ولمن أفاضها عليه من رسله ، وصالحي عباده ، وعزة الله قهره وغلبته لأعدائه ، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها ، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم ، عن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه ، والغنى الذي لا فقر معه ؟ وعن الحسن بن علي أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً ، قال : ليس بتيه ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية اللهم كما جعلت العزة للمؤمنين على المنافقين ، فاجعل العزة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين .

﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضر فيجتنبونه ، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ، ومزيد حيرتهم ، والطبع على قلوبهم ، ختم هذه الآية بلا يعلمون ، وما قبلها بلا يفقهون . لأن الأول متصل بقوله : ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ ، وفي معرفتها غموض يحتاج الى فطنة وفقه ، فناسب نفي الفقه عنهم ، والثاني متصل بقوله : ﴿ ولله العزة ﴾ الخ وفي معرفتها غموض زائد يحتاج الى علم فناسب نفي العلم عنهم ، فالمعنى لا يعلمون ان الله معز أولياءه ومذل أعداءه ، قال الكرخي : والحاصل أنه لما أثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة أثبت الله

(١) رواخ البخاري ومسلم.

تعالى في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، وهو الله ورسوله والمؤمنون .

وفي شرح جمع الجوامع : ومن قوادح العلة القول بالموجب بفتح الجيم ، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع بأن يظهر المعترض عدم استلزام الدليل لمحل النزاع ، وشاهده : ﴿ ولله العزة ولرسوله ﴾ في جواب ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ ولما ذكر سبحانه قبائح المنافقين ، رجع الى خطاب المؤمنين مرغباً لهم في ذكره فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم ﴾ أي لا تشغلكم ﴿ أموالكم ﴾ بالتصرف فيها ، والسعي في تدبير أمرها بالنماء ، وطلب النتاج ، والاهتمام بها ﴿ ولا أولادكم ﴾ وسروركم بهم وشفقتكم عليهم ، والقيام بمؤنتهم ، حذرهم عن التشبه بالمنافقين في الاغترار عن أخلاق الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم ﴿ عن ذكر الله ﴾ والمراد بالذكر فرائض الإسلام قاله الحسن ، وقال الضحاك : الصلوات الخمس ، وقيل : قراءة القرآن ، وقيل : الحج والزكاة ، وقيل : إدامة الذكر ، وقيل : هو خطاب للمنافقين ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا ظاهراً ، والأول أولى .

« وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : هم عباد من أمتي الصالحون منهم ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وعن الصلوات الخمس المفروضة » أخرجه ابن مردويه .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي يَلْتَهِ بالدنيا عن الدين ، ويشتغل بها عما ذكر ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ اي الكاملو الخسران في تجارتهم ، حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني .

« وهو عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة : وملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم ومتعلم » ، أخرجه الترمذي .

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومه ، وقيل : المراد الزكاة المفروضة ، ومن للتبعيض اي أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير ، وفي التبعيض بإسناد الرزق منه تعالى الى نفسه زيادة ترغيب في الامتثال ، حيث كان الرزق له تعالى بالحقيقة ، ومع ذلك اكتفى منهم ببعضه .

﴿ من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴾ بأن تنزل عليه مقدماته وأسبابه وأماراته ، ويشاهد حضور علاماته ودلائله ، ويتعذر عليه الإنفاق ، وقدم المفعول على الفاعل للإهتمام ﴿ فيقول رب لولا أخرتني ﴾ أي يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه : هلاّ أمهلتني وأخرت موتي ، فلولا بمعنى هلا التي معناها التحضيض وتختص بما لفظه ماض ، وهو في تأويل المضارع كما هنا ، إذ لا معنى لطلب التأخير في الزمن الماضي ، أو لا زائدة ، ولولا للتمني ، وقضية كلام الكشاف أن لولا بمعنى هل الاستفهامية والأولى أولى .

﴿ إلى أجل ﴾ أي زمن واحد ﴿ قريب ﴾ قصير قليل بقدر ما أستدرك فيه ما فاتني ﴿فأصدق﴾ أي فأتصدق بمالي، أو بالزكاة، قرأ الجمهور بإدغام التاء في الصاد ، وانتصابه على أنه جواب التمني ، وقيل : إن لا في لولا زائدة ، والأصل لو أخرتني ، وقرىء فأتصدق بدون إدغام على الأصل ﴿ وأكن ﴾ قرأ الجمهور بالجزم على محل فأصدق ، كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن ، قال الزجاج : معناه هلا اخرتني ؟ وجزم أكن على موضع فأصدق ، لأنه على معنى إن أخرتني أُصدق وأكن ، وكذا قال أبو علي الفارسي وابن عطية وغيرهم ، وقال سيبويه حاكياً عن الخليل : إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني ، وجعل سيبويه هذا نظير قول زهير :

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

فخفض ولا ﴿ سابق ﴾ عطفاً على ﴿مدرك ﴾ هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه ، وقرىء وأكون بالنصب عطفاً على فأصدق ، ووجهها واضح ، ولكن

قال ابو عبيدة: رأيت في مصحف عثمان وأكن بغير واو ، وقرىء بالرفع على الاستئناف أي وأنا أكون .

﴿ من الصالحين ﴾ أي من المؤمنين ، قال ابن عباس : أحج ، وقال الضحاك : لا ينزل الموت بأحد لم يحج ولم يؤد زكاة إلا سأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية .

« وقال ابن عباس . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان له مال يبلغه حج بيت الله ، أو تجب عليه فيه الزكاة ، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت فقال له رجل : يا ابن عباس اتق الله فإنما يسأل الكافر فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآناً : يا أيها الذين آمنوا الى آخر السورة » أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه والحسن ابن ابي الحسن في كتاب منهاج الدين الى قوله الموت مرفوعاً ثم أجاب الله عن هذا المتمني فقال :

﴿ ولن يؤخر الله نفساً ﴾ أية نفس كانت عن الموت ﴿ إذا جاء أجلها ﴾ أي آخر عمرها المكتوب في اللوح المحفوظ ومن جملة النفوس التي شملها النفي نفس هذا القائل فلا يؤخر ايضاً ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ قرىء بالتاء والياء ولكل وجه يعني أنه لو رد الى الدنيا وأجيب الى ما يسأل ما حج ، وما زكّى وقيل : هو خطاب شائع لكل عامل عملاً من خير أو شر ، وهو الأولى .

واعلم أنه قد وقع الخلاف بين أهل العلم وطالت ذيوله وتشعبت أبحاثه في التعارض بين ما ورد من أن القضاء الأزلي من الله عز وجل لا يتغير ولا يتبدل ، وهو المعبر عنه بأم الكتاب ، وبقوله : تعالى : ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ وقوله : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ وبين ما ورد من الإرشاد الى الأدعية وطلب الخير من الله عز وجل وسؤاله أن يدفع الشر ويرفع الضر ، وسائر المطالب التي يطلبها العباد من ربهم سبحانه .

« كقوله صلى الله عليه وسلم : لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في

العمر إلا البر » أخرجه الترمذي من حديث سلمان وحسنه ، وأبو حيان وصححه ، والحاكم وصححه ، والطبراني في الكبير ، والضياء في المختارة .

ومثله حديث ثوبان مرفوعاً بلفظ : لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

« وكقوله صلى الله عليه وسلم لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان الى يوم القيامة » أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار والطبراني في الأوسط والخطيب قال الحاكم : صحيح الإسناد من حديث عائشة مرفوعاً وقال في مجمع الزوائد : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة وقد ضعف هذا الحديث بزكريا بن منصور كما ذكره الشوكاني في شرحه للعدة .

ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان وصححه « عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً » وأخرجه أيضاً الحاكم وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وله شاهد صحيح ثم رواه من « حديث أنس مرفوعاً : إن ربكم رحيم حي كريم يستحي من عبده أن يرفع اليه يديه ثم لا يضع فيهما خيراً » وأخرجه الطبراني وأبو يعلى ومن ذلك :

« قوله صلى الله عليه وسلم : لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » أخرجه ابن حبان من حديث أنس والحاكم في المستدرك وقال : صحيح الإسناد والضياء في المختارة وقد رد الشوكاني في شرحه للعمدة على من ضعفه .

ومن ذلك ما أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة والحاكم في المستدرك

وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي وأخرجه ايضاً من حديث سلمان وقال : صحيح الإسناد ومن ذلك ما أخرجه الحاكم في المستدرك .

« من حديث ابي هريرة وقال صحيح الإسناد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض »[١] وأخرجه ابو يعلى .

« من حديث علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على ما ينجيكم من عدوكم ويدر لكم أرزاقكم ؟ تدعون الله في ليلكم ونهاركم فإن الدعاء سلاح المؤمن »[٢] .

وأخرج احمد في المسند من « حديث ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم ينصب وجهه لله في مسألة إلا أعطاه إياها إما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له »[٣] قال المنذري في الترغيب والترهيب : لا بأس بإسناده وأخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم وشهد لمعناه ما أخرجه احمد والبزار وابو يعلى قال المنذري : بأسانيد جيدة .

« من حديث ابي سعيد الخدري أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها »[٤] .

وأخرج ابن ابي شيبة في مصنفه وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان « قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الدعاء هو العبادة ثم تلا : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ « الآية وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم في المستدرك .

---

(١) رواه الحاكم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أحمد .

« من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدعاء مخ العبادة »[١] وأخرج الترمذي والحاكم في المستدرك :

« من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لم يسأل الله يغضب عليه »[٢] وفي لفظ : من لم يدع الله يغضب عليه أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والحاكم في المستدرك وصححه . ومن ذلك .

« استعاذته صلى الله عليه وسلم من سوء القضاء » كما في صحيح مسلم وغيره .

« ومن ذلك ما ثبت في قنوت الوتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال فيه : وقني شر ما قضيت » ، وهو حديث صحيح ، وإن لم يخرجه الشيخان ، وفيهما الاستعاذة من القضاء المشتمل على الشر والسؤ ومن ذلك الأحاديث الواردة في صلة الرحم وأنها تزيد في العمر وهي أحاديث صحيحة ومن ذلك الأحاديث الواردة في إجابة دعاء المظلوم على ظالمه والأحاديث الواردة في دعاء الوالدين لولدهما والأحاديث الواردة في دعوة الإمام العادل والأحاديث الواردة في إجابة دعوة من دعا ربه باسمه الأعظم وغير ذلك كثير .

وجميع ذلك على اختلاف دلالته متواتر فليت شعري كيف ذهب جماعة من أهل العلم الى مخالفة ذلك كله ، وقالوا : إن أحكام الله وقضاءه في سابق علمه لا تغير أصلاً فإن استدلوا بمثل قوله تعالى : ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ ، وما ورد في اللوح المحفوظ ، وما كتب فيه ، وأنه قد جف القضاء ، ونحو ذلك ، فأي فائدة في مثل قوله عز وجل : ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾ ؟ فإن هذا أمر منه عز وجل لعباده بدعائه ، وأي فائدة في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عباده أنه قريب مجيب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ؟ وأي فائدة في قوله عز وجل ، مخبراً لعباده ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام

---

(٥) رواه الحاكم .
(٦) رواه الحاكم .

الكتاب ﴾ وعلمنا سبحانه كيف ندعو في نحو قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ الى آخر الآية .

« وحكى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيح أن الله عز وجل قال عند هذه الدعوات : قد فعلت » ، وكذلك سائر ما قصه الله علينا في كتابه من إجابته لدعوة أنبيائه كما في قوله : ﴿ حتى اذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ﴾ ، وفي مثل : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم ﴾ وما شابه ذلك من الآيات ، وما شوهد من نبينا صلى الله عليه وسلم من إجابة دعواته في مواطن يتعسر إحصاؤها ، وما شوهد من صالحي هذه الأمة في كل قرن من القرون من إجابة دعواتهم في الحال .

ومن جهل هذا أو بعضه نظر في مثل حلية الأولياء ، ومثل رسالة القشيري ، ومثل صفوة الصفوة لابن الجوزي ، وغير ذلك مما يكثر تعداده ، بل ينظر في الدعوات المجابة من الصحابة رضي الله عنهم ، وكما وقع من جماعة كثيرة من السلف رحمهم الله تعالى أنهم كانوا يقولون في أدعيتهم : اللهم إن كنت قد كتبتني في ديوان الأشقياء فانقلني الى ديوان السعداء بعبارات مختلفة هذه إحداها ، وبالجملة فالكتاب العزيز والسنة المتواترة ترد عليهم رداً أوضح من شمس النهار .

وطائفة قالت : إن الأقضية نوعان مطلقة ومقيدة ، فالمطلقة ما لم تكن مشروطة بشروط واقعة ، وإلا فلا ، وهذا القول وإن كان مردوداً مثل الأول إلا أنه أقل مفسدة منه ، وإن كان رأياً بحتاً ليس عليه دليل ، وبالجملة فالبحث يطول فلنقتصر على هذا المقدار ، والحمد لله أولاً وآخراً ، واستنبط بعضهم من هذه الآية عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن السورة رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبت بالتغابن إشارة لظهور التغابن بوفاته صلى الله عليه وسلم ، ذكره الكرخي ، وليس هذا من تفسير الكتاب في شيء ، بل من لطائف الكلام وتفنن المرام .

سورة التغابن

﴿ هي ثماني عشرة آية بالاتفاق ، وهي مدنية في قول الأكثر ﴾

وقال الضحاك : هي مكية ، وقال الكلبي : هي مدنية ومكّية . وقال ابن عباس : نزلت بالمدينة ، وعن ابن الزبير مثله ، وعن ابن عباس أيضا قال : نزلت بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي شكا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جفاء أهله وولده ، فأنزل اللّه : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ إلى آخر السورة ، وعن عطاء ابن يسار نحوه .

أخرج البخاري في تاريخه .

« عن عبد اللّه بن عمرو قال : ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن »[1] . وأخرجه ابن حبان في الضعفاء والطبراني وابن مردويه وابن عساكر مرفوعاً عنه . قال ابن كثير : وهو غريب جداً بل منكر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾
زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سمواته وأرضه ، عن كل نقص وعيب ، وكررت ﴿ما﴾ هنا ، وفي قوله : ﴿ وما تعلنون ﴾ تأكيداً وتعميماً ، وللاختلاف لأن تسبيح ما في السموات مخالف لتسبيح ما في الأرض كثرة وقلة ، وأسرارنا مخالفة لعلانيتنا ، ولم تكرر في قوله : ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى ، إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها وعلمه بما كان كعلمه بما يكون .

﴿ له الملك وله الحمد ﴾ أي يختصان به ليس لغيره منهما شيء ، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه ، وراجع اليه وتقديم الظرف يفيد الاختصاص به تعالى من حيث الحقيقة لأنه مبدىء كل شيء ومبدعه فكان الملك له حقيقة دون غيره ، ولأن أصول النعم وفروعها منه تعالى ، فالحمد له بالحقيقة ، وحمد غيره إنما يقع من حيث ظاهر الحال ، وجريان النعم على يديه ، والملك هو الاستيلاء ، والتمكن من التصرف في كل شيء على حسب ما أراد في الأزل ، قال الرازي . الملك تمام القدرة واستحكامها ، يقال : ملك بين الملك

بالضم ومالك بين الملك بالكسر ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء .

﴿ هو الذي خلقكم ﴾ اي قدر خلقكم في الأزل ، وكذا قوله : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ اي مقضي بكفره وإيمانه أزلاً ، وقيل : إنه خلق الخلق ، ثم كفروا وآمنوا ، والتقدير هو الذي خلقكم ثم وصفكم فقال : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ كقوله : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ الآية ، قالوا : فإنه خلقهم والمشي فعلهم وهذا اختيار الحسين بن الفضيل قال : لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله ﴿ فمنكم كافر ﴾ إلخ واحتجوا :

« بقوله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » ، ذكره الخطيب ، قال الضحاك : فمنكم كافر في السر مؤمن في العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن في السر وكافر في العلانية ، كعمار ابن ياسر ونحوه مما أكره على الكفر .

وقال عطاء : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ومنكم مؤمن بالله ، كافر بالكواكب . قال الزجاج : إن الله خلق الكافر ، وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر ، وخلق المؤمن ، وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان ، والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه ، لأن وجود خلاف المقدر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل ، هذا طريق أهل السنة ، فمن سلك هذا أصاب الحق وسلم من مذهب الجبرية والقدرية ، قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال ، وهو الذي عليه جمهور الأمة وقدم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ، وفيه رد لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين .

﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم .

«عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العبد يولد مؤمناً، ويعيش مؤمناً، ويموت مؤمناً، والعبد يولد كافراً، ويعيش كافراً، ويموت كافراً، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة، ثم يدركه ما كتب له، فيموت شقياً وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء، ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً»، أخرجه ابن مردويه، ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير اتبعه بخلق العالم الكبير فقال:

﴿خلق السموات والأرض﴾ خلقاً متلبساً ﴿بالحق﴾ أي بالحكمة البالغة، وقيل: خلق ذلك خلقاً يقينياً لا ريب فيه، وقيل. الباء بمعنى اللام، أي خلق ذلك لإظهار الحق، وهو أن يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ثم رجع سبحانه الى خلق العالم الصغير كذا قال مقاتل، وقيل: المراد جميع الخلائق وهو الظاهر، اي أنه سبحانه خلقهم في اكمل صورة وأحسن تقويم، وأجمل شكل وأبهاه، لا يتمنى الإنسان أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور قال بعض الحكماء شيئان لا غاية لهما، الجمال والبيان، والتصوير والتخطيط والتشكيل. قرأ الجمهور صوركم بضم الصاد وقرىء بكسرها.

﴿وإليه المصير﴾ في الدار الآخرة لا الى غيره.

«وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به الى الرب فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقي أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاق، وقرأ أبو ذر من فاتحه التغابن خمس آيات الى قوله: ﴿وإليه المصير﴾» أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ اي ما تخفونه وما تظهرونه ، والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد في الوعد والوعيد ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ جملة مقررة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم ، وهي تذييلية ، وقال الخطيب : كل واحدة من هذه الثلاث أخص مما قبلها وجمع بينها إشارة الى أن علمه تعالى محيط بالجزئيات والكليات لا يعزب عنه شيء من الأشياء .

﴿ ألم يأتكم ؟ ﴾ استفهام توبيخ او تقرير ﴿ نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ اي من قبلكم ، وهم كفار الأمم الماضية ، كقوم نوح وعاد وثمود والخطاب لكفار العرب ، وقوله : ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ معطوف عليه كفروا ، عطف المسبب على السبب ، وعبر عن العقوبة بالوبال إشارة الى أنها كالشيء الثقيل المحسوس ، وذلك لأن الوبال في الأصل الثقل والشدة ، ومنه الوبيل للطعام الذي يثقل على المعدة ، والوابل المطر الثقيل القطر ، والمراد بأمرهم هنا ما وقع منهم من الكفر والمعاصي ، والوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة وهو عذاب النار .

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من العذاب في الدارين وهو مبتدأ وخبره ﴿ بأنه ﴾ اي بسبب أنها ﴿ كانت تأتيهم رسلهم ﴾ اي الرسل المرسلة إليهم ﴿ بالبينات ﴾ أي بالحجج الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿ فقالوا : أبشر يهدوننا ﴾ اي قال قوم منهم لرسولهم هذا القول ، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر ، متعجبين من ذلك ، كما قالت ثمود : ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ ، ومن غباوتهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً وسلموا واعتقدوا أن الإله يكون حجراً ، وأراد بالبشر الجنس ولهذا قال : يهدوننا وقد أجمل في الحكاية فأسند القول الى جميع الأقوام كما أجمل الخطاب والأمر في قوله : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾

﴿ فكفروا ﴾ بالرسل وبما جاؤوا به وقيل : كفروا بسبب هذا القول الذي

قالوه للرسل، فالفاء للسببية لا للتعقيب ﴿ وتولوا ﴾ اي اعرضوا عنهم ، ولم يتدبروا فيما جاؤوا به ﴿ واستغنى الله ﴾ أي أظهر غناه عن إيمانهم وعبادتهم حيث لم يلجئهم ولم يضطرهم اليه مع قدرته على ذلك ، وقال مقاتل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان ، وأوضحه من المعجزات ، وقيل : استغنى بسلطانه عن طاعة عباده ، وقال الزمخشري : أي ظهر غناه فالسين ليست للطلب ﴿ والله غني حميد ﴾ أي غير محتاج الى العالم ولا إلى عبادتهم له ، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال .

﴿ زعم الذين كفروا ﴾ الزعم هو القول بالظن ، وادعاء العلم ، ويطلق على الكذب ، قال شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا ، وهو يتعدى الى مفعولين ، وقوله : ﴿ أن لن يبعثوا ﴾ ساد مسدهما والمعنى زعم كفار العرب وهم أهل مكة كما قاله ابو حيان : أن الشأن لن يبعثوا أبداً .

« عن ابن مسعود أنه قيل له : ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ﴿ زعموا ﴾ ؟ قال : سمعته يقول : بئس مطية الرجل » ، أخرجه أحمد والبيهقي وغيرهما ، وعنه أنه كره زعموا ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يرد عليهم ، ويبطل زعمهم فقال :

﴿ قل بلى ﴾ هي لإيجاب النفي ، فالمعنى بلى تبعثون ، ثم أقسم على ذلك بقوله ﴿ وربي ﴾ وجواب القسم ﴿ لتبعثن ﴾ اي لتخرجن من قبوركم ، اكد الإخبار باليمين ، فإن قلت : ما معنى اليمين على شيء أنكروه ، قلت : هو جائز لأن التهدد به أعظم موقعاً في القلب ، فكأنه قيل لهم : ما تنكرونه كائن لا محالة ﴿ ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ اي لتخبرن بذلك إقامة للحجة عليكم ، ثم تجزون به ﴿ وذلك ﴾ البعث والجزاء ﴿ عن الله يسير ﴾ إذ الإعادة أيسر من الابتداء .

فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ
ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ الفاء هي الفصيحة الدالة على شرط مقدر ، اي اذا كان الأمر هكذا فصدقوا يا كفار مكة بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل باليوم الآخر على ما هو المناسب لقوله : ﴿ زعم الذينَ كفروا ﴾ اكتفاء بقوله : ﴿ والنور الذي أنزلنا ﴾ فإنه مشتمل على البعث والحساب ، وهو القرآن ، لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك :

﴿ يوم يجمعكم ﴾ العامل في الظرف لتنبؤن قاله النحاس ، وقال غيره : هو خبير ، وقيل : محذوف هو أذكر ، وقال أبو البقاء : هو ما دل عليه الكلام اي تتفاوتون يوم يجمعكم ، قرأ الجمهور بفتح الياء وضم العين وروي إسكانها ولا وجه لذلك إلا التخفيف وإن لم يكن هذا موضعاً له كما قرىء في ﴿ وما يشعركم ﴾ بسكون الراء ، وقرىء نجمعكم بالنون ومعنى ﴿ ليوم الجمع ﴾ ليوم القيامة ، فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء ، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله ، وبين كل نبي وأمته ، وبين كل ظالم ومظلومه ، وبين الأولين

والآخرين من الإنس والجن وجميع أهل السماء ، وأهل الأرض .

﴿ ذلك ﴾ يعني أن يوم القيامة هو ﴿ يوم التغابن ﴾ وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر ، وأهل الطاعة أهل المعصية ، ولا غبن اعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، فتركوا منازلهم التي كانوا يستنزلونها ، لو لم يفعلوا ما يوجب النار ، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشر ، والجيد بالرديء ، والنعيم بالعذاب ، وأهل الجنة على العكس من ذلك يقال : غبنت فلاناً اذا بايعته او شاركته ، فكان النقص عليه ، والغلبة والغبن فوت الحظ ، كذا قال المفسرون ، فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة ، فإطلاق التغابن على ما يكون فيها إنما هو بطريق الاستعارة ، وان التفاعل ليس من اثنين ، وكذا المغابنة على سبيل التجريد ، قال ابن عباس يوم التغابن من أسماء يوم القيامة ، وعنه قال : غبن أهل الجنة أهل النار .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئآته ﴾ اي من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئآته ﴿ ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ قرأ الجمهور يكفر ويدخله بالتحتية وقرىء بالنون وفيه التفات من الغيبة الى التكلم ﴿ خالدين فيها ابداً ﴾ حال مقدرة فيه مراعاة معنى من ﴿ ذلك ﴾ اي ما ذكر من التكفير والإدخال ﴿ الفوز العظيم ﴾ اي الظفر الذي لا يساويه ظفر ، والعظيم أعلى حالاً من الكبير الذي ذكر في سورة البروج ، لأن ما فيها قد رتب على إدخال الجنات فقط ، وما هنا قد رتب على الأمرين المذكورين ، فهو جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ المراد بالآيات إما التنزيلية او ما هو أعم منها ، ذكر سبحانه حال السعداء وحال الأشقياء هنا لبيان ما تقدم من التغابن ، وأنه يكون سبب التكفير وإدخال الجنة للطائفة الأولى ، وسبب إدخال الطائفة الثانية النار وخلودهم فيها .

﴿ ما أصاب ﴾ كل أحد ﴿ من مصيبة ﴾ من المصائب ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بقضائه وقدره قال الفراء : اي بأمر الله وقيل : بعلم الله وقيل وسبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ، قال ابن مسعود في الآية : هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي من يصدق ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه ﴿ يهد قلبه ﴾ للصبر والرضاء بالقضاء ، قال مقاتل بن حيان : يهد قلبه عند المصيبة فيعلن أنها من الله فيسلم لقضائه ، ويسترجع عند حلوله .

وقال سعيد بن جبير : يهد قلبه عند المصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون وقال الكلبي : هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . وقال ابن عباس في الآية : يعني يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . قرأ الجمهور يهد بفتح الياء وكسر الدال اي يهده الله وقرىء بضم الياء وفتح الدال على البناء للفعول ونهد بالنون ويهدأ بهمزة ساكنة ورفع قلبه اي يطمئن ويسكن ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية .

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي هونوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله في جميع الأوقات ، والعمل بكتابه العزيز وسنة رسوله المطهرة ﴿ فإن توليتم ﴾ اي أعرضتم عن الطاعة ﴿ فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ وليس عليه غير ذلك ، وقد فعل ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فلا بأس أو فلا ضرر على الرسول ، وهذه الجملة تعليل للجواب المحذوف ، ثم أرشد الى التوحيد والتوكل فقال :

﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ اي هو المستحق للعبودية دون غيره فوحدوه ولا تشركوا به ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ اي فليفوضوا أموركم اليه ويعتمدوا عليه لا على غيره ، حث للرسول على التوكل على الله ، والتقوى به حتى ينصره على من كذبه ، وتولى عنه .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم ﴾ يدخل فيها الذكر والأنثى ﴿ وأولادكم عدواً لكم ﴾ يعني أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير وعن طاعة الله ، أو يخاصمونكم في أمر الدين والدنيا ، ويدخل في ذلك سبب النزول دخولاً أولياً ﴿ فاحذروهم ﴾ أن تطيعوهم في التخلف عن الخير كالجهاد والهجرة ، فإن سبب نزول الآية الإطاعة في ذلك ، والضمير يعود الى العدو ، وإنما جاز جمع الضمير لأن العدو يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، او الى الأزواج والأولاد ، ولكن لا على العموم ، بل الى المتصفين بالعداوة منهم ، قال مجاهد : والله ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوهم إياه ، ثم أرشدهم الى التجاوز فقال :

﴿ وإن تعفوا ﴾ عن ذنوبهم التي ارتكبوها بترك المعاقبة ﴿ وتصفحوا ﴾ بالإعراض وترك التثريب عليها ﴿ وتغفروا ﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها وتستروها ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم .

« عن ابن عباس قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم الى أن

يــأتــوا النبي صــلى الله عليــه وسلم ، فلما أتــوا رســول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الآية أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ، ثم أخبر سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال :

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنــة﴾ أي بلاء واختبــار وشغل عن الآخــرة ومحنة، يحملونكم على كسب الحرام وتناوله، ومنع حق الله، والوقوع في العظائم، وغصب مال الغير، وأكل البـاطـل ونحـو ذلـك، فـلا تـطيعـوهم في معصيـة الله، ولم يـذكـر من هنا كما ذكر في :إن مِنْ أزواجكم ،لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما ، وقدم الأموال على الأولاد لأن فتنة المال أكثر ، وترك ذكر الأزواج في الفتنة قال البقاعي : لأن منهن من تكون صلاحاً وعوناً على الآخرة .

« وعن ابي بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال صدق الله : إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، إني لما نظرت الى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت اليهما »[1] أخرجه أحمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه وابن مردويه وابن ابي شيبة .

﴿ والله عنده اجر عظيم ﴾ اي الجنة ، وهي لمن آثر طاعة الله وترك معصيته في محبة ماله وولده ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال :

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ اي ما أطقتم وبلغ اليه جهدكم وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد الى أن

هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ، لأن معناه أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، فخفف الله عنهم وأنزل هذه الآية ، وقال ابن عباس : هي محكمة ولا نسخ فيها ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فيه حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم ، وقد أوضحنا الكلام على هذا في قوله : ﴿ فاتقوا الله حق تقاته ﴾ .

﴿واسمعوا﴾ ما تؤمرون به سماع قبول لأنه لا فائدة في مجرد السماع ﴿ وأطيعوا ﴾ الأوامر قال مقاتل : اسمعوا اي اصغوا الى ما ينزل عليكم وأطيعوا الرسول فيما يأمركم وينهاكم ﴿ وأنفقوا ﴾ من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير والطاعة ولا تبخلوا بها . وقوله : ﴿ خيراً لأنفسكم ﴾ منتصب بفعل مضمر دل عليه اتقوا ، كأنه قال : ائتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم ، او قدموا خيراً لها ، كذا قال سيبويه وقال الكسائي والفراء ؛ هو نعت لمصدر محذوف ، أي إنفاقاً خيراً وقال ابو عبيدة: هو خبر لكان المقدرة اي يكن الإنفاق خيراً لكم ، وقال اهل الكوفة : نصبه على الحال ، وقيل : هو مفعول به لأنفقوا اي فأنفقوا مالاً خيراً ، والظاهر في الآية الإنفاق مطلقاً من غير تقييد بالزكاة الواجبة ، وقيل : المراد زكاة الفريضة ، وقيل : النافلة وقيل النفقة في الجهاد .

﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ فيفعل في ماله جميع ما أمر به من الإنفاق موقناً به مطمئناً اليه ، ولم يمنعه ذلك منه ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ اي الظافرون بكل خير ، الفائزون بكل مطلوب ، وقد تقدم تفسير هذه الآية مراراً .

﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية ، وطيب نفس وسماه قرضاً من حيث التزام الله المجازاة عليه ، وفي ذكر القرض ايضاً تلطف في الاستدعاء ، وترغيب في الصدقة حيث جعلها

قرضاً لله ، مع ان العبد إنما يقرض نفسه ، لأن النفع عائد عليه قال القشيري : ويتوجه الخطاب بهذا إلى الأغنياء في بذل أموالهم ، وإلى الفقراء في عدم إخلاء أوقاتهم عن مراد الحق ومراقبته على مراد انفسهم ، فالغني يقال له : آثر حكمي على مرادك في مالك وغيره ، والفقير يقال له : آثر حكمي في نفسك وقلبك ووقتك ، ذكره الخطيب .

﴿ يضاعفه لكم ﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة والحديد .

« عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني ، ويشتمني عبدي وهو لا يدري ، يقول : وادهراه ، وادهراه ، وأنا الدهر ، ثم تلا ابو هريرة هذه الآية » أخرجه ابن جرير والحاكم وصححه ﴿ ويغفر لكم ﴾ اي يضم الى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿ والله شكور حليم ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ اي ما غاب وما حضر لا تخفى عليه منه خافية وقيل ما استتر من سرائر القلوب وما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿ العزيز الحكيم ﴾ اي الغالب القاهر بإظهار السيوب[1] ذو الحكمة الباهرة في الإخبار عن الغيوب ، وفي صنعه ، وقال ابن الأنباري : الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء .

---

(١) السيوب : الركاز.

سورة الطلاق

﴿ إحدى أواثنتا أو ثلاث عشرة آية ﴾

وهي مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع . وعن ابن عباس قال : نزلت بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلفظ الجمع تعظيماً له ، أو خطاب له ولأمته ، والتقدير : يا أيها النبي وأمته ، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه ، أو خطاب لأمته فقط بعد ندائه عليه الصلاة والسلام ، وهو من تلوين الخطاب خاطب به أمته بعد أن خاطبه ، أو أنه على إضمار قول أي يا أيها النبي قل لأمتك ، أو خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب ، لأن النبي إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت اعتباراً لتقدمه وإظهاراً لترؤسه بكلام حسن قاله الزمخشري ، قال السمين : وهذا هو معنى القول الثالث الذي تقدم .

وقال المحلي . المراد أمته بقرينة ما بعده ، قال الحفناوي : فكأنه قيل : يا أيها الأمة إذا طلقتم إلخ .وهذا الأسلوب سلكه الكازروني ، وفي نسخة من تفسير المحلي المراد وأمته بزيادة الواو ، يعني أن في الكلام اكتفاء على حد قوله تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ ، فعلى هذا لفظ النبي لا تجوز فيه ، بل هو منادى مع أمته ، وهذا الوجه قرره السمين كما تقدم ، والمعنى إذا أردتم

تطليقهن وعزمتهم عليه على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه ، وإنما احتيج لهذا التجوز ليصح قوله : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ لأن الشيء لا يترتب على نفسه ، ولا يؤمر أحد بتحصيل الحاصل ، والمراد بالنساء ، المدخول بهن ذوات الأقراء ، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن بالكلية ، وأما ذوات الأشهر فسيأتين في قوله ﴿ واللائي يئسن ﴾ الخ .

ومعنى لعدتهن مستقبلات لعدتهن ، أو في قبل عدتهن ، أو لقبل عدتهن ، أو لزمان عدتهن ، وهو الطهر . وقال الجرجاني : اللام بمعنى في أي في عدتهن ، وقال أبو حيان : أي لاستقبال عدتهن على حذف مضاف ، واللام للتوقيت نحو لقيته لليلة بقيت من شهر كذا ، والمراد أن يطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع ، ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن ، فإذا طلقتموهن هكذا فقد طلقتموهن لعدتهن ، وسيأتي بيان هذا من السنة .

« عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في قبل عدتهن » رواه عبدالرزاق في المصنف وابن المنذر والحاكم وابن مردويه ، وقرأ ابن عمر لقبل عدتهن ، وعن مجاهد أنه قرأ كذلك وعن ابن عباس مثله ، وقال في الآية : أي طاهراً من غير جماع ، وعن ابن مسعود من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله فليطلقها طاهراً في غير جماع .

« وعن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأتت أهلها فأنزل الله هذه الآية فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهي من أزواجك في الجنة » أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلاً .

« وعن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ ، ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض وتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك

العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن ﴾ في قبل عدتهن أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

« وروي عن ابن عباس أنها نزلت في قصة طلاق عبد يزيد وقد أخرجها ابن أبي حاتم أثراً طويلاً قال الذهبي : إسناده واه والخبر خطأ فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام وفي الباب أحاديث .

﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي احفظوها واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق ، حتى تتم العدة ، وهي ثلاثة قروء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن ، والخطاب للأزواج لغفلة النساء ، وقيل : للزوجات ، وقيل : للمسلمين على العموم ، والأول أولى لأن الضمائر كلها لهم ، ولكن الزوجات داخلات في هذا الخطاب بالإلحاق بالأزواج ، لأن الزوج يحصي ليراجع وينفق أو يقطع ويسكن أو يخرج ويلحق نسبه أو يقطع . وهذه كلها أمور مشتركة بينه وبين المرأة ، وقيل : أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الإقراء إذا أراد ان يطلق ثلاثاً . وقيل : للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى .

﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للأمر ، ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ أي التي كن فيها عند الطلاق ما دمن في العدة وأضاف البيوت إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة ومثله قوله : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن ﴾ وقوله : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق وهن فيها نهى الزوجات عن الخروج أيضاً فقال :

﴿ ولا يخرجن ﴾ من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري كما

سيأتي بيان ذلك ، قال أبو السعود : ولـو بإذن من الأزواج فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ، وقال الخطيب : لأن في العدة حقاً لله تعالى ، فلا يسقط بتراضيهما ، وقيل : المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن لهن الأزواج فلا بأس ، والأول أولى ، وهذا كله عند عدم العذر ، أما إذا كان لعذر كشراء من ليس لها على المفارق نفقة فيجوز لها الخروج نهاراً ، قاله الخطيب ، وإذا خرجت من غير عذر فإنها تعصي ولا تنتقض عدتها قاله القرطبي .

﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ بفتح الياء وكسرها سبعيتان ، وهذا الاستثناء هو من الجملة الأولى ، قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا ، وبه قال ابن عباس ، وذلك أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ، ثم ترد إلى منزلها ، وقال الشافعي وغيره : هي البذاء في اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت ، وعن ابن عباس : الفاحشة المبينة أن تبذو المرأة على أهل الرجل ، فإذا بذت عليهم بلسانها فقد حل لهم إخراجها لسوء خلقها ، ويؤيد هذا ما قال عكرمة : إن في مصحف أبيّ إلا أن يفحشن عليكم ، وقيل : الاستثناء من الجملة الثانية للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان أن خروجها فاحشة قال الشوكاني رحمه الله : هو بعهد ، قال ابن عمر : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها هي الفاحشة المبينة ، وقيل : الفاحشة النشوز .

﴿ وتلك ﴾ أي ما ذكر من الأحكام وما في اسم الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد المشار إليه للإيذان بعلو درجتها وبعد منزلتها ﴿ حدود الله ﴾ يعني أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حدها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزها إلى غيرها ، ﴿ ومن يتعد حدود الله ﴾ أي يتجاوزها إلى غيرها أو يخل بشيء منها ،

﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ بإيرادها موارد الهلاك وأوقعها في مواقع الضرر

بعقوبة الله على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه ، وقال البيضاوي : أي بأن عرضها للعقاب ، وقال أبو السعود : تفسير الظلم بتعريضها للعقاب يأباه قوله : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية ، وقد قالوا : إن الأمر الذي يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدي إلى خلافه ، فلا بد أن يكون الظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعديه ، ولا يمكن تداركه ، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي ، ويخص التعليل بالدنيوي لكون احتراز الناس منه أشد ، واهتمامهم بدفعه أقوى والخطاب للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي لا للنبي عليه الصلاة والسلام كما توهم ، فالمعنى ومن يتعد حدود الله فقد أضر نفسه ، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدي أمراً يقتضي خلاف ما فعلته ، فيبدل ببغضها محبة وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ويتسنى تلافيه رجعة واستئناف نكاح .

قال القرطبي : قال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة ، والمعنى التحريض على طلاق الواحدة أو الاثنتين ، والنهي عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضر بنفسه عند الندم على الفراق ، والرغبة في الارتجاع . فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً ، وقال مقاتل : بعد ذلك أي بعد طلقة أو طلقتين أمراً بالمراجعة ، قال الواحدي : الأمر الذي يحدث أن يوقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين . قال الزجاج : إذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد فلا معنى لقوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ قالت فاطمة بنت قيس في الآية هي الرجعة .

« عن محارب بن دثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق » أخرجه أبو داود مرسلاً .

« وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

« وعن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ؛ تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش » .

« وعن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات » .

« عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق » أ هـ .

أقول أما حديث ابن عمر فقد رواه أبو داود وابن ماجة عن عبدالله بن عمر بن الخطاب موصولاً وصححه الحاكم وغيره ، ورواه أبو داود أيضاً والبيهقي مرسلاً عن محارب بن دثار وليس فيه ابن عمر ، ورجح أبو حاتم والدارقطني والبيهقي إرساله . وقال الخطابي : إنه المشهور ، ورواه الدارقطني عن معاذ بلفظ : ما خلق الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق ، قال الحافظ ابن حجر : وإسناده ضعيف ومنقطع أ هـ، وأما حديث علـيّ فرواه ابن عـدي في كتابه الكامل في معرفة الضعفاء عنه رضي الله عنه بإسناده ضعيف . بل قيل : موضوع ورواه الخطيب عن علي أيضاً مرفوعاً ، وفي إسناده عمر بن جميع يروي الموضوعات عن الأثبات .

وأما حديث أبي موسى فقد رواه الطبراني عنه رضي الله عنه مرفوعاً ، وكذا الدارقطني في الأفراد ، ورواه الطبراني في الكبير أيضاً عن عبادة بلفظ إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات ، وفي سنده راو لم يسم ، وبقية رجال إسناده ثبات ، وأما حديث أنس فرواه ابن عساكر في تاريخه عن أنس رضي الله عنه وسنده ضعيف جداً .

« وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيما امرأة سألت

زوجها الطلاق من غير بأس به حرام عليها رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والترمذي .

﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي قاربن انقضاء أجل العدة وشارفن آخرها ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ أي راجعوهن بحسن معاشرة ، وإنفاق مناسب ، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن بطلاق آخر ، لأجل إيجاب عدة أخرى ، وغير ذلك ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن ، فيملكن نفوسهن مع إيفائهن بما هو لهن عليكم من الحقوق ، وترك المضارة لهن بالفعل والقول ، فقد ضمنت الآية بإفصاحها الحث على فعل الخيرات وبإفهامها اجتناب المنكرات .

﴿ وأشهدوا ذويْ عدل منكم ﴾ أي صاحبي عدالة ، فإن العدل ضد الجور وهو يرجع إلى معنى العدالة ، وهذه شهادة على الرجعة ، وقيل : على الطلاق ، وقيل : عليهما قطعاً للتنازع وحسماً لمادة الخصومة ، والأمر للندب لئلا يقع بينهما التجاحد ، كما في قوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ وقيل : إنه للوجوب وإليه ذهب الشافعي ، قال : الإشهاد واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل ، وفي قول الشافعي : إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق ، وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد ، وعن ابن سيرين أن رجلاً سأل عمران بن حصين عن رجل طلق ولم يشهد ، قال : بئسما صنع طلق في بدعة وارتجع في غير سنة ، فيشهد على طلاقه وعلى مراجعته ويستغفر الله .

﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شهدوا به تقرباً إلى الله . وإنما حث على أداء الشهادة لما فيه من العسر على الشهود ، لأنه ربما يؤدي إلى أن يترك الشاهد مهماته ولما فيه من عسر لقاء الحاكم الذي يؤدي عنده ، وربما بعد مكانه ، وكان للشاهد عوائق ، وقيل : الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة أي الشهود عند الرجعة فيكون قوله : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل

منكم ﴾ أمراً بنفس الإشهاد ، ﴿ وأقيموا الشهادة ﴾ أمر بأن تكون خالصة لله لا لمشهود عليه ، أوْ لَهُ ، ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الضرر .

﴿ ذلكم ﴾ أي ما تقدم من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة لله ، أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ﴿ يوعظ به ﴾ أي يلين ويرقق به ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ خص المؤمن لأنه المنتفع بذلك دون غيره .

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ مما وقع فيه من الشدائد والمحن ، والجملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، والمعنى ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها ، واحتاط فأشهد ، يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ، ويفرج عنه ويعطيه الخلاص . قال ابن مسعود : مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله ، وأن الله هو الذي يعطيه ، وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه .

وقال ابن عباس ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة .

« وعن جابر قال : نزلت هذه الآية في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : اتق الله واصبر ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عنها وأخبره خبرها فقال : كلها فنزلت : ﴿ ومن يتق الله الآية ﴾ » أخرجه[1] الحاكم وصححه وضعفه الذهبي .

« وعن ابن عباس قال : جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن ابني أسره العدو ، وجزعت أمه

(١) رواه الحاكم .

فما تأمرني ؟ قال : آمرك وإياها أن تستكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلا يكثران منها فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم ، فجاء بها إلى أبيه فنزلت هذه الآية » أخرجه(١) ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه ، وفي الباب روايات تشهد لهذا ، وعن عائشة في الآية قالت : يكفيه هم الدنيا وغمها .

« وعن أبي ذر قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية فجعل يرددها حتى نعست ، ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » ، وفي الباب أحاديث ، وقال الكلبي : ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة ، وقال الحسن . مخرجاً مما نهى الله عنه ، قال أبو العالية مخرجاً من كل شيء ضيق على الناس ، قال الشعبي والضحاك : هذا في الطلاق خاصة أي من طلق كما أمره الله يكن له مخرجاً في الرجعة في العدة ، وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدة .

﴿ ويرزقه ﴾ فرجاً وخلفاً ﴿ من حيث لا يحتسب ﴾ قال ابن مسعود : أي من حيث لا يدري ، يعني من وجه لا يخطر بباله ، ولا يكون في حسابه وقال الحسين بن الفضل : ومن يَتّق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجاً من العقوبة ، ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب ، أي يبارك له فيما آتاه وقال سهل بن عبدالله : ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجاً من عقوبة أهل البدع ، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب ، وقيل غير ذلك ، وظاهر الآية العموم ، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص . ويدخل في ذلك ، ما فيه السياق دخولاً أولياً ، فإن قيل : نرى كثيراً من الأتقيـاء مضيقاً عليه في الرزق ، أجيب بأنه لا يخلو عن رزق ، والآية لم تدل على أن المتقي يوسع له في الرزق ، بل دلت على أنه يرزق من حيث لا يحتسب ، وهذا أمر مطرد في الأتقياء أفاده الكرخي .

(١) رواه مسلم

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أي ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه ، قال ابن مسعود في الآية : ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي ، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه ، ودفع عنه ما يكره ، وقضى حاجته ، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئآته ويعظم له أجراً .

﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ فلا بد من كونه ينفذه ، سواء حصل توكل أو لا قال ابن مسعود ، قاضٍ أمره على من توكل وعلى من لم يتوكل ، ولكن المتوكل يكفر عن سيئآته ويعظم له أجراً قرأ الجمهور بتنوين بالغ ونصب أمره وقرىء بالإضافة وهي سبعية ، وقرىء بتنوين بالغ ورفع أمره ، لأنه فاعل بالغ ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر وبالغ خبر مقدم ، قال الفراء في توجيه هذه القراءة : أي أمره بالغ ، وقرىء بالغاً بالنصب على الحال ، ويكون خبر إن قوله : ﴿ قد جعل الله لكل ﴾ الخ ، والمعنى على الأولى والثانية أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شيء ولا يعجزه مطلوب ، وعلى الثالثة أن الله نافذ أمره لا يرده شيء .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ أي تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً لا يتعداه وإن اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه فقدسجل سبحانه للشدة أجلاً تنتهي إليه ، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل ، قال السدي : هو قدر الحيض والعدة ، وقال ابن مسعود : يعني أجلاً ومنتهى ينتهي إليه .

« وعن عمر بن الخطاب قال : قال صلى الله عليه وسلم : لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه وغيرهم .

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾

﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه عن أبيّ بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدة النساء قالوا : لقد بقي من عدة النساء عدد لم يذكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع حيضهن ، وذوات الحمل ، فأنزل الله هذه الآية .

﴿ إن ارتبتم ﴾ أي شككتم وجهلتم كيف عدتهن وما قدرها ، وقيل معناه إن تيقنتم ، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك وهو الظاهر ، قال الكرخي صفة كاشفة لأن عدتهن ذلك ، سواء وجد شك أم لا ، قال الزجاج : إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن تحيض مثلها ، وقال مجاهد : إن ارتبتم يعني لم تعلموا عدة الآيسة والتي لم تحض .

﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ وقيل : المعنى إن ارتبتم في الدم الذي يظهر منها هل هو حيض أم لا ؟ بل استحاضة ؟ فالعدة هذه ، وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس ، وقد قدروه بستين سنة أو بخمس وخمسين ، فعدتهن هذه ، وهذا قول عثمان وعلي وزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود وبه

قال عطاء وإليه ذهب الشافعي وأصحاب الرأي ، وقال عمر : إنها تتربص تسعة أشهر ، وقال الحسن سنة فإن لم تحض فتعتد بثلاثة أشهر فإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك .

﴿ واللائي لم يحضن ﴾ لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض ، أو لأنهن لا حيض لهن أصلاً وإن كن بالغات ، قاله الخطيب . أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً ، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه ، والأولى أن يقدر مفرداً أي فكذلك أو مثلهن ، ولو قيل : إنه معطوف على اللائي يئسن عطف المفردات وأخبر عن الجميع بقوله : فعدتهن لكان وجهاً حسناً وأكثر ما فيه توسط الخبر بين المبتدأ وما عطف عليه ، وهذا ظاهر قول الشيخ أبي حيان .

﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ أي انتهاء عدتهن وضع الحمل وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفي عنهن أزواجهن ، وعمومها باق فهي مخصصة لآية يتربصن بأنفسهن ، أي ما لم يكن حوامل ، وإنما لم يعكس لأن المحافظة على عموم هذه الآية أولى من المحافظة على عموم تلك ، لأن أزواجاً في آية البقرة عمومه بدلي ، لا يصلح لجميع الأفراد في حال واحد ، لأنه جمع منكر في سياق الإثبات ، وأما أولات الأحمال فعمومه شمولي ، لأن الموصول من صيغ العموم ، وأيضاً الحكم هنا معلل بوصف الحملية بخلاف ما هناك ، وأيضاً هذه الآية متأخرة في النزول عن آية البقرة فتقديمها على تلك تخصيص ، وتقديم تلك فيما لو عمل بعمومها رفع لما في الخاص من الحكم ، فهو نسخ ، والتخصيص أولى منه ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة البقرة مستوفى ، وحققنا البحث في هذه الآية وفي الآية الأخرى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً . ﴾

« عن أبيّ بن كعب في الآية قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أهي المطلقة ثلاثاً ؟ أو المتوفى عنها ؟ قال هي المطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها » .

أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند ، وأبو يعلى وغيرهما .

« وروي بوجه آخر مرفوعاً عنه ، وعن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً قال : تعتد آخر الأجلين فقال : من شاء لاعنته إن الآية التي في سورة النساء القصري نزلت بعد سورة البقرة ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ بكذا وكذا شهراً وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها » ، وروي منه نحو هذا من طرق ، وبعضها في صحيح البخاري ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما .

« من حديث أم سلمة أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت فأنكحها صلى الله عليه وسلم » وفي الباب أحاديث .

﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ أي من يتقه في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة ، وقال الضحاك : من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الأحكام وتفاصيل العدة ﴿ أمر الله ﴾ أي حكمه الذي حكم به بين عباده وشرعه الذي شرعه لهم ومعنى : ﴿ أنزله إليكم ﴾ أنزله في كتابه على رسوله ، وبينه لكم ، وفصل أحكامه وأوضح حلاله وحرامه .

﴿ ومن يتق الله ﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿ يكفر عنه سيئآته ﴾ التي اقترفها لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ ويعظم له أجراً ﴾ أي يعطيه من الأجر في الآخر أجراً عظيماً وهو الجنة ﴿ اسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء المطلقات وغيرهن من المفارقات من السكنى ، ومن للتبغيض أي بعض مكان سكناكم قاله الزمخشري ، وقال الكسائي والرازي : من زائدة ، وقال الحوفي وأبو البقاء : إنها لابتداء الغاية .

﴿ من وجدكم ﴾ أي من سعتكم وطاقتكم ، وقال ابن عباس : من سعيكم والوجد بالحركات الثلاث ، والمشهور باتفاق القراء بالضم بمعنى المقدرة ، قال الفراء : يقول : على من يجد فإن كان موسعاً وسع عليها في المسكن والنفقة ، وإن كان فقيراً فعلى قدر ذلك ، قال قتادة : إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً هل لها سكنى ونفقة أم لا ؟ فذهب مالك والشافعي إلى أن لها سكنى ولا نفقة لها ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن لها النفقة والسكنى ، وذهب أحمد واسحق وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق وقد قرره الشوكاني في شرحه للمنتقي بما لا يحتاج الناظر فيها إلى غيره ، وأوضحاه في الروضة الندية شرح الدرر البهية .

﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ نهى سبحانه عن مضارتهن بالتضييق عليهن في المسكن والنفقة ، وقال مجاهد : في المسكن ، وبه قال ابن عباس ، وقال مقاتل : في النفقة ، وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها فإذا بقي يومان من عدتها راجعها ثم طلقها ﴿ وإن كن ﴾ أي المطلقات الرجعيات أو البائنات دون الحوامل المتوفي عنهن .

﴿ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ أي إلى غاية هي وضعهن للحمل ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ، فأما الحامل المتوفى عنها زوجها فقال علي وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع ، وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبدالله ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه : لا ينفق عليها إلا من نصيبها ، وهذا هو الحق للأدلة الواردة في ذلك من السنة المطهرة ، قال ابن عباس في الآية : فهذه في المرأة يطلقها زوجها وهي حامل فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت حتى تفطم فإن أبان طلاقها وليس لها حمل فلها السكنى

حتى تنقضي عدتها ولا نفقة لها .

﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ أولادكم بعد ذلك ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ أي أجور إرضاعهن ، والمعنى أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهن منهن ، فلهن أجورهن على ذلك .

﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات ، يعني تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر ، وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل ، قال الكسائي : ائتمروا تشاوروا ، وتلا قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضاً بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم ، قال مقاتل : المعنى ليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، قيل : والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر ، والمعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر .

﴿ وإن تعاسرتم ﴾ في حق الولد وأجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ أي يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده ، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة ، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر ، وقال الضحاك : إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر ، وهو خبر بمعنى الأمر ، والظاهر أنه على بابه ، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة ، لأن المبذول من جهتها اللبن ، وهو غير متمول ، ولا يضن به لا سيما على الولد بخلاف ما يبذل من الأب فإنه مال يضن به عادة .

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ أي كان رزقه بمقدار القوت أو مضيق ليس بموسع ﴿ فلينفق مما آتاه الله ﴾ أي مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك ، وفي الخطيب يقدر القاضي النفقة بحسب حال

المنفق والحاجة من المنفق عليه بالإجتهاد على مجرى العادة ، قال تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ، ولكن نفقة الزوجة مقدرة عند الشافعي محدودة ، فلا اجتهاد للحاكم ولا للمفتي فيها ، وتقديرها هو بحسب حال الزوج وحده من عسره ويسره ، ولا اعتبار بحالها ، فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارث ، فيلزم الزوج الموسر مدان والمتوسط مد ونصف ، والمعسر مد لظاهر قوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ فجعل الاعتبار بالزوج في العسر واليسر ، ولأن الاعتبار بحالها يؤدي إلى الخصومة لأن الزوج يدعي أنها تطلب فوق كفايتها ، وهي تزعم أنها تطلب قدر كفايتها فقدرت قطعاً للخصومة انتهى .

والتقدير المذكور مسلم في نفقة الزوجة ونفقة المطلقة ، إذا كانت رجعية مطلقاً أو بائناً حاملاً ، بخلاف المرضعة ، قاله سليمان الجمل . عن أبي سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار وقال للرسول : انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها ، فما لبث أن لبس ألين الثياب وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره فقال : رحمه الله تأول هذا الآية ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ .

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ أي ما أعطاها من الرزق ، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه ، بل عليه ما يقدر عليه ، وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ أي بعد ضيق وشدة سعة وغنى ، وهذا وعد لذي العسر باليسر ، وقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين عند نزول الآية ، ففتح عليهم جزيرة العرب ، ثم فارس والروم ، حتى صاروا أغنى الناس ، وصدق الآية دائم غير أنه في الصحابة أتم لأن إيمانهم أقوى من غيرهم ولما ذكر سبحانه ما تقدم من الأحكام حذر من مخالفتها وذكر عتو قوم خالفوا أوامره فحل بهم عذابه فقال :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا
﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ
لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ يعني وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسله وأعرضوا عن أمرهما على تضمين عتت معنى أعرضت أو خرجت ، وقد قدمنا الكلام في كأين في آل عمران وغيرهما ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾ أي شددنا على أهلها في الحساب بما عملوا بالمناقشة والاستقصاء ، قال مقاتل : حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب ، وهو معنى قوله : ﴿ وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ أي عذبنا أهلها عذاباً عظيماً منكراً في الآخرة ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير أي عذبنا أهلها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ ، وحاسبناهم في الآخرة حساباً شديداً . قال ابن عباس : يقول لم ترحم ، والنكر المنكر قرىء نكراً بسكون الكاف وضمها وهما سبعيتان .

﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ أي عاقبة كفرها ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ أي هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة ، وجيء به على لفظ الماضي ، لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة وما هو كائن فكأن قد كان ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ في الآخرة وهو عذاب النار والتكرير للتأكيد .

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي يا أصحاب العقول الراجحة وقوله :

﴿ الذين آمنوا ﴾ في محل نصب بتقدير أعني ، بياناً للمنادى ، أو عطف بيان له ، او نعت ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً ﴾ فيه أوجه .

أحدها : وإليه ذهب الزجاج والفارسي أنه منصوب بالمصدر المنون قبله ، لأنه ينحل بحرف مصدري وفعل ، كأنه قيل : إن ذكر رسولاً .

الثاني ؛ أنه جعل نفس الذكر مبالغة فأبدل منه .

الثالث : أنه بدل منه على حذف مضاف من الأول تقديره أنزل ذا ذكر رسولاً .

الرابع : كذلك إلا أن رسولاً نعت لذلك المحذوف .

الخامس : أنه بدل منه على حذف مضاف من الثاني ، أي ذكراً ذا رسول .

السادس : أن يكون رسولاً نعتاً لذكراً على حذف مضاف ، أي ذكراً للرسول ، فذا رسول نعت لذكراً .

السابع : أن يكون رسولاً بمعنى رسالة ، فيكون رسولاً بدلاً صريحاً من غير تأويل ، أو بياناً عند من يرى جريانه في النكرات كالفارسي ، إلا أن هذا يبعده قوله الآتي : ﴿ يتلو عليكم ﴾ لأن الرسالة لا تتلو إلا بمجاز .

الثامن : أن يكون رسولاً منصوباً بفعل مقدر أي أرسل رسولاً .

قال الزجاج : إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل .

التاسع : أن يكون منصوباً على الإغراء أي اتبعوا والزموا رسولاً ، ذكره السمين . وقيل إن الذكر ههنا بمعنى الشرف كقوله : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ ، وقوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ، ثم بين هذا الشرف فقال : ﴿ رسولاً ﴾ ، واختلف الناس في رسولاً ، هل هو النبي صلى الله عليه وسلم ؟ أو القرآن نفسه ؟ أو جبريل ؟ فقد ذهب الأكثر ومنهم ابن عباس « إلى

أن المراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الكلبي : هو جبريل ، وبه قال الزمخشري ، والمراد بالذكر القرآن ، ويختلف المعنى باختلاف وجوه الإعراب السابقة كما لا يخفى ، ثم نعت سبحانه الرسول المذكور بقوله :

﴿ يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ أي حال كونها واضحات ظاهرات قرأ الجمهور على صيغة اسم المفعول أي بينها الله وأوضحها ، وقرىء على صيغة اسم الفاعل ، أي الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام ، ورجح الأول أبو حاتم وأبو عبيدة، لقوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ بعد مجيء الذكر والرسول ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ اللام متعلقة بيتلو أي ليخرج الرسول الذي يتلو الآيات إياهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ، أو من الجهل إلى العلم ، أو من الكفر إلى الإيمان ، أو متعلقة بأنزل فيكون المخرج هو الله سبحانه .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾ أي يجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه مع اجتناب ما نهاه عنه ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ قرأ الجمهور يدخله بالتحتية وقرىء بالنون وهي سبعية وعليها ففي الكلام التفات من الغيبة إلى التكلم وجمع الضمير في قوله : ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ باعتبار معنى ﴿ من ﴾ ووحدة في ﴿ ندخله ﴾ باعتبار لفظها ﴿ قد أحسن الله له رزقاً ﴾ أي وسع له رزقه في الجنة التي لا ينقطع نعيمها ، وقيل : يرزقون طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة ، وقال القشيري : الحسن ما كان على حد الكفاية لا نقصان فيه يتعطل عن أموره بسببه ، ولا زيادة تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه ، كذلك أرزاق القلوب أحسنها أن يكون له من الأحوال ما يستقل بها من غير نقصان ، ولا زيادة لا يقدر على الاستمرار عليها ، ذكره الخطيب .

﴿ الله الذي خلق ﴾ أي أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه ، على هذا المنوال الغريب البديع ﴿ سبع سموات ﴾ يعني بعضها فوق

بعض ، قال النسفي : أجمع المفسرون على أن السموات سبع ، وقال الخطيب : لا خلاف فيه لحديث الإسراء وغيره ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ في العدد يعني سبعاً ، قرأ الجمهور مثلهن بالنصب على أنه عطف على سبع سموات ، قاله الزمخشري ، أو على تقدير فعل أي وخلق من الأرض مثلهن ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبله خبره ، قيل : ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية ، واختلف الناس في المثلية وكيفية طبقات الأرض على قولين .

أحدهما : وهو قول الجمهور : إنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفي كل أرض سكان من خلق الله ، وقال الضحاك : إنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق ، بخلاف السموات ، قال القرطبي : والأول أصح لأن الأخبار دالة عليه في البخاري والترمذي وغيرهما .

وفي صحيح مسلم :

« عن سعيد بن زيد قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين إلى آخر كلامه[1] » .

« وفي الحديث لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع ، وما أقللن الحديث » ، وقد مضى في سورة البقرة قول الماوردي وعلى أنها سبع أرضين تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا ، ولا نلزم في غيرها من الأرضين ، وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان أحدهما أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ، ويستمدون الضياء منها ، قال ابن عادل : وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة ، والثاني أنهم لا

(١) رواه مسلم .

يشاهدون السماء وأن الله خلق لهم ضياء يشاهدونه ، قال ابن عادل : وهذا قول من جعل الأرض كرويّة.

وعن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار ، وتظل جميعها السماء حكاه الكلبي عن أبي صالح عنه ، فعلى هذا إن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام لإمكان الوصول إليهم ، واحتمل أن لا تلزمهم لأنها لو لزمتهم لكان النص بها وارداً ، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم بها مأموراً ذكره الخطيب في تفسيره ، وقال بعض العلماء : السماء في اللغة عبارة عما علاك فالأولى بالنسبة الى السماء الثانية أرض وكذلك السماء الثانية بالنسبة الى السماء الثالثة أرض ، وكذا البقية بالنسبة إلى ما تحته سماء ، وبالنسبة إلى ما فوقه أرض ، فعلى هذا تكون السموات السبع وهذه الأرض الواحدة سبع سموات وسبع أرضين انتهى .

« وعن ابن عباس أنه قال له رجل : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ إلى آخر السورة ، فقال ابن عباس : ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر ؟ » أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير .

« وعنه في قوله : ومن الأرض مثلهن قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى » أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الضحى ، قال البيهقي : هذا إسناد صحيح ، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً .

« وعنه قال : في كل أرض مثل إبراهيم ونحو ما على الأرض من الخلق» أخرجه ابن جرير الطبري من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى قال الحافظ في الفتح : هكذا أخرجه مختصراً وإسناده صحيح .

وقال ابن كثير : هذا وأمثاله إذا لم يصح سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله انتهى ، وتصحيح الحاكم له ليس بذلك قال السيوطي : ولم أزل أتعجب من تصحيح الحاكم له حتى رأيت البيهقي قال : إسناده صحيح ، لكن شاذ بمرة إنتهى ، ولا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن فقد يصح الإسناد ويكون في المتن علة وشذوذ تقدح في صحته ، قاله القسطلاني ، وقال في البداية ؛ هذا محمول إن صح نقله على أن ابن عباس أخذه من الإسرائيليات ونحوه ، قال السخاوي في المقاصد الحسنة : ومثله في تفسير روح البيان وزاد نقلاً عن السيوطي أنه قال : يمكن أن يؤول على أن المراد بهم الذين كانوا يبلغون الجن عن أنبياء البشر ، ولا يبعد أن يسمى كل منهم باسم النبي الذي يبلغ عنه انتهى ونحوه في إرشاد الساري والحاصل أن الأثر المذكور وإن صح فهو موقوف شاذ ، والشاذ لا يحتج به كما قال الطيبي في الخلاصة وغيره في غيرها ولفظها ، والموقوف هو مطلق ما روي عن الصحابي من قول أو فعل متصلاً كان أو منقطعاً ، وهو ليس بحجة على الصحيح ، وقال النووي في شرح مسلم : الموقوف ليس بحجة على المختار عند الغزالي وهو الصحيح انتهى .

قال الخفاجي : الذي نعتقد أن الأرض سبع ولها سكان من خلقه يعلمهم الله تعالى انتهى ، وهذا أعدل الأقوال وأحوطها ، وقال النيسابوري : ذكر الثعالبي في تفسيره فصلاً في خلق السموات والأرض وأشكالهم وأسمائهم أضربا عن إيرادها لعدم الوثوق بمثل تلك الروايات انتهى ، وما جاء عن كعب ووهب وأمثالها في هذا الباب فكلها لا يعتد به لأنهم أخذوه من الإسرائيليات .

« وعن جابر بن عبدالله في حديث طويل يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ثم قال : يا محمد ما تحت هذه ؟ يعني الأرض قال : خلق ، قال : فما تحت الأرض ؟ قال : الماء قال : فما تحت الماء ؟ قال : ظلمة قال : فما تحت الظلمة ؟ **قال:** الهواء ، قال : فما تحت الهواء ؟ ففاضت عينا رسول الله

صلى الله عليه وسلم وقال : انقطع علم الخلائق أيها السائل ، فقال : صدقت أشهد أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون من هذا ؟ قالو : الله ورسوله أعلم قال : هذا جبريل » الحديث مختصراً أخرجه الحافظ ابن كثير بسنده ، وأخرجه ابن مردويه أيضاً عنه بطوله ، وهذا الحديث يرد ما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنه إن كان قد صح قوله .

وبسط الكلام على هذا لا يأتي بفائدة يعتد بها ، ويكفي الإعتقاد بكون السموات سبعاً والأرضين سبعاً كما ورد به الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، ولا ينبغي الخوض في خلقهما وما فيهما فإنها شيء استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه . لا يحيط به أحد سواه ولم يكلفنا الله تعالى بالخوض في أمثال هذه المسائل والتفكير فيها والكلام عليها وبالله التوفيق .

« وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك ، والثانية تسجل الريح ، والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم الحديث بطوله » وتفصيله قال الذهبي : متعقباً للحاكم : هو حديث منكر ، قال بعض أهل العلم : لا ينبغي لأحد لأن يغتر بتصيحح الحاكم للأحاديث حتى ينظر في تعقبات الذهبي له ، أو كما قال ، وعن ابن عباس قال : سيد السموات السماء التي فيها العرش وسيد الأرضين الأرض التي نحن فيها .

﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ مستأنفة أو صفة لما قبلها ، قرأ الجمهور يتنزل من التنزل ، ورفع الأمر على الفاعلية ، وقرىء ينزل من الإنزال ونصب الأمر على المفعولية والفاعل الله سبحانه ، والأمر الوحي ، وقيل : القضاء والقدر ، والضمير عائد على السموات والأرضين عند الجمهور ، أو على السموات والأرض عند من يقول إنها أرض واحدة قاله السمين ، قال المحلي في

تفسيره : ينزل به جبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة انتهى ، قال علي القاري: لم نجد هذا القول لغيره من المفسرين إذ غاية من فسر الأمر بالوحي قال في تفسير قوله : ﴿ بينهن ﴾ أي بين هذه الأرض العليا التي هي أولاها ، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها انتهى ، قال سليمان الجمل : وهذا التوقف من القاري مبني على أن المراد بالوحي وحي التكليف بالأحكام ، وليس بلازم لإمكان حمله على وحي التصرف في الكائنات ، وعبارة الخطيب والأكثرون على أن الأمر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله : ﴿بينهن﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ، فيجري أمر الله وقضاؤه بينهن ، وينفذ حكمه فيهن انتهى .

وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق ؟ قال: نعم قال : فما الخلق ؟ قال: إما ملائكة أو جن قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع ، وقال الحسن : بين كل سماءين أرض ، وأمر ، وقال قتادة : في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه . وقيل : يتنزل الأمر بينهن بحياة بعض وموت بعض ، وغنى قوم وفقر قوم ، وقيل هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيأتها فينقلهم من حال إلى حال ، قال ابن كيسان : وهذا على مجال اللغة واتساعها كما يقول للموت : أمر الله ، وللريح والسحاب ونحوهما .

﴿ لتعلموا ﴾ اللام متعلقة بخلق او بيتنزل او بمقدر اي فعل ذلك لتعلموا ﴿ أن الله على كل شيء قدير ﴾ من غير هذا العالم يمكن أن يدخل تحت المشيئة ﴿ قدير ﴾ اي بالغ القدرة فيأتي بعالم آخر مثل هذا العالم وأبدع منه وأبدع من ذلك الى ما لا نهاية له ، بالاستدلال بهذا العالم ، فإن من قدر

على إيجاد ذرة من العدم قدر على إيجاد ما هو دونها ومثلها وفوقها الى ما لا نهاية له ، لأنه لا فرق في ذلك بين قليل وكثير ، وجليل وحقير ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت قاله الخطيب .

وفي حاشية سليمان الجمل هذا كله بالنظر للإمكان العقلي وهذا لا يخالف ما نقل عن الغزالي من قوله : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، لأن معناه أنه قد تعلق علم الله في الأزل بأنه لا يخلق عالماً غير هذا العالم ، وإن كان خلقه جائزاً ممكناً ، فمن حيث تعلق العلم بعدمه صار غير ممكن لأنه لو وقع لخالف مقتضى العلم الأزلي ، فيلزم إنقلاب العلم جهلاً فصار إيجاد عالم آخر محالاً عرضياً ، وإن كان ممكناً ذاتياً فهذا معنى قول الشيخ : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، اي لا يمكن أن يخلق الله عالماً غير هذا العالم ، ونفي الإمكان هو الإستحالة فكأنه قال هو محال أن يخلق عالماً غير هذا العالم ، وقد عرفت أن هذه الاستحالة عرضية لا ذاتية ، وبهذا نعرف سقوط ما نقل عن البقاعي هنا تأمل انتهى .

أقول: وهذا كله ليس بالنظر للإمكان العقلي فقط كما قال سليمان الجمل ، بل الكتاب العزيز والسنة المطهرة يدلان على عموم قدرته وكمال قوته على إيجاد كل شيء فيدخل فيه إيجاد مثل هذا العالم دخولاً أولياً ، وإن لم يوجد على مقتضى العلم الأزلي ، وقول الغزالي عبارة ساقطة ونفس فلسفية لا يليق التفوه بمثلها ، وإن كان معناه صحيحاً بالتأويل البعيد الفاسد ، والتوجيه البارد الكاسد ، ونظم الكتاب العزيز العالي يغني عن مثل عبارة كلام الغزالي .

﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان وانتصاب علماً على المصدرية لأن أحاط بمعنى علم أو هو صفة لمصدر محذوف اي أحاط إحاطة علماً ، ويجوز أن يكون تمييزاً محولاً عن الفاعل من غير لفظ الأول .

سورة التحريم

﴿ وقال القرطبي : وتسمى سورة النبي صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة آية ﴾

وهي مدنية قال القرطبي في قول الجميع قال ابن عباس : نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير نحوه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ
اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ
أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا
بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ
قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤)

﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ المراد بالتحريم هنا الامتناع من الاستمتاع لا اعتقاد كونه حراماً بعد ما أحله الله له ، فإن هذا الاعتقاد لا يصدر منه صلى الله عليه وسلم ، لأنه كفر قاله الخطيب ﴿ تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ استئناف او تفسير لقوله : تحرم او حال ، والمرضاة اسم مصدر وهو الرضا ، وأصله مرضوة ، وهو مضاف الى المفعول اي أن ترضي أزواجك او الى الفاعل ، اي أن يرضين هن ، والمعنى لا ينبغي منك أن تشتغل بما يرضي الخلق بل اللائق أن أزواجك وسائر الخلق تسعى في رضاك ، وتتفرغ انت لما يوحى اليك من ربك ، قال الخطيب : وفيه تنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي ، وقيل : كان ذلك ذنباً من الصغائر ، فلذا عاتبه الله عليه ، وقيل : إنها معاتبة على ترك الأولى ، وقال النسفي : كان هذا زلة منه .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ اي بليغ المغفرة ،والرحمة لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك ، واختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال ، الأول قول أكثر المفسرين : قال الواحدي : قال المفسرون : كان النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة فزارت أباها ، فلما رجعت أبصرت مارية القبطية في بيتها

مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في وجه حفصة الغيرة والكآبة ، قال لها : لا تخبري عائشة ، ولك علي أن لا أقربها أبداً ، فأخبرت حفصة عائشة ، وكانتا متصافيتين فغضبت عائشة ، ولم تزل بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى حلف أن لا يقرب مارية فأنزل الله هذه السورة[1] ، وبه قال المحلي ، وقال القرطبي : أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة ، وذكر القصة وقال ابو السعود والنسفي روي أن النبي صلى الله عليه وسلم ، خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة . فقال لها اكتمي علي فقد حرمت مارية على نفسي ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي ، فأخبرت به عائشة وكانتا متصافيتين إنتهى .

« عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له امة يطؤها فلم تزل عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً ، فأنزل الله هذه الآية » أخرجه النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه .

« وعن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب . من المرأتان اللتان تظاهرتا ؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدء الحديث في شأن مارية القبطية ام إبراهيم ، أصابها النبي صلى الله عليه في بيت حفصة في يومها فوجدت حفصة فقالت : يا رسول الله لقد جئت الي بشيء ما جئته الى أحد من ازواجك في يومي ، وفي دوري على فراشي ، قال : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ابداً ؟ قالت : بلى ، فحرمها وقال : لا تذكري ذلك لأحد فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفَّر عن يمينه وأصاب مارية » أخرجه البزار والطبراني قال السيوطي بسند صحيح .

وأخرجه ابن سعد وابن مردويه عنه بأطول من هذا وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه بأخصر منه ، وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عنه

(١) ضعيف الجامع ـ ١٧٠٤.

مختصراً بلفظ : قال حرم سريته ، وجعل ذلك سبب النزول في جميع ما روي من هذه الطرق .

« وعن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة لا تحدثي احداً ، وإن أم إبراهيم عليّ حرام ، قالت : أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال : فوالله لا أقربها فلم يقربها حتى أخبرت عائشة ، فأنزل الله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ » ، أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده والضياء المقدسي في المختارة من طريق نافع .

« وعن أبي هريرة أن سبب النزول تحريم مارية كما سلف » ، أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وسنده ضعيف .

الثاني قيل : السبب انه كان صلى الله عليه وسلم يشرب عسلاً ، وهو الذي رواه الشيخان ، والتي شرب عندها هي زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة ان يقولا له اذا دخل عليهما : إنا نجد منك ريح مغافير فحرم العسل فنزلت هذه الآية ، أخرج البخاري وغيره :

« عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها لبناً او عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل : إني أجد منك ريح مغافير فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال : لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعود ، فنزلت ﴿ يا أيها النبي ﴾ الى قوله ﴿ إن تتوبا الى الله ﴾ لعائشة وحفصة ، ﴿ وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ﴾ **لقوله**: بل شربت عسلاً » .

وقيل : هي سودة كما روي :

« عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحاً فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحاً ، **فقال**: أراه من شراب

شربته عند سودة ، والله لا أشربه ابداً فأنزل الله هذه الآية » أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند صحيح ، وقيل : هي أم سلمة كما روي :

« عن عبد الله بن رافع قال : سألت أم سلمة عن هذه الآية يا أيها النبي لم تحرم ؟ قالت كانت عندي عكة من عسل أبيض فكان النبي صلى الله عليه وسلم يلعق منها ، وكان يحبه فقالت له عائشة نحلها تجرس عرفطاً فنزلت هذه الآية » أخرجه ابن سعد وذكره الخطيب والخازن ، وقيل : هي حفصة فواطأت عائشة وسودة وصفية فقلن له إنا نشم منك ريح المغافير ، فحرم العسل فنزلت الآية، قاله البيضاوي .

الثالث قيل : السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فالأولان سببان صحيحان لنزول الآية والجمع ممكن بوقوع القصتين ، قصة مارية وقصة العسل ، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً ، وفي كل واحد منهما انه أسر الحديث الى بعض أزواجه ، وأما الثالث فقال شيخنا الشوكاني : أنه ليس في ذلك إلا ما روى ابن ابي حاتم وابن مردويه .

« عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية للمرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم » ، قال السيوطي : وسنده ضعيف ، ويرد هذا ايضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل تلك الواهبة نفسها ، فكيف يصح أن يقال : إنه نزل في شأنها ؟ فإن من رد ما وهب له لم يصح أن يقال : أنه حرم على نفسه ، وأيضاً لا ينطبق على هذا السبب قوله : وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً الى آخر ما حكاه الله .

وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهما عائشة وحفصة ثم ذكر قصة الإيلاء كما في الحديث الطويل ، فليس في هذا نفي كون السبب هو ما قدمنا من قصة العسل والسرية ، لأنه إنما أخبره

بالمتظاهرتين ، وذكر فيه أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه وتهجره إحداهن من اليوم الى الليل ، وأن ذلك سبب الاعتزال ، لا سبب نزول : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟ ويؤيد هذا ما قدمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب : من المرأتان اللتان تظاهرتا فأخبره بأنهما حفصة وعائشة وبيّن له أن السبب قصة مارية ، هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية ، ودفع الاختلاف في شأنه ، فاشدد عليه يديك لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين .

﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ اي شرع لكم تحليل أيمانكم ، وبيّن لكم الخروج والخلاص منها بالكفارة ، وقول النسفي : أو شرع لكم الاستثناء في أيمانكم من قولك حلل فلان في يمينه اذا استثنى فيها ، وذلك أن يقول : إن شاء الله عقيبها حتى لا يحنث ، وتحريم الحلال يمين عندنا انتهى ، وتحلة أصلها تحللة فأُدغمت وهي من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأن اليمين عقد والكفارة حل لأنها تحل للحالف ما حرمه على نفسه ، قال مقاتل : المعنى قد بيّن الله كفارة أيمانكم في سورة المائدة ، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكفر يمينه ، ويراجع وليدته ، فأعتق رقبة ،

وعن الحسن أنه لم يكفر لأنه صلى الله عليه وسلم مغفور له ذكره المحلي والنسفي ، قال الزجاج : وليس لأحد أن يحرم ما أحل الله وهذا هو الحق ، إن تحريم ما أحل الله لا ينعقد ولا يلزم صاحبه ، فالتحليل والتحريم هو الى الله سبحانه لا الى غيره ، ومعاتبته لنبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أبلغ دليل على ذلك ، والبحث طويل ، والمذاهب فيه كثيرة ، والمقالات فيه طويلة وقد حققه الشوكاني في مؤلفاته بما يشفي ، وذكر رضي الله عنه في شرحه للمنتقي خمسة عشر قولاً ، واختلف العلماء هل مجرد التحريم يمين توجب الكفارة أم لا ؟ وفي ذلك خلاف ، وليس في الآية ما يدل على أنه يمين ، لأن الله سبحانه عاتبه على تحريم ما أحله له ، ثم قال : قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، وقد ورد في القصة التي ذهب أكثر المفسرين الى أنها هي

سبب نزول الآية حرم أولاً ثم حلف ثانياً ، كما قدمنا .

عن ابن عباس قال : في الحرام يكفر ، وقال : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة ﴾ ، وعنه أنه جاءه رجل فقال : إني جعلت امرأتي عليّ حراماً فقال كذبت ليست عليك بحرام ، ثم تلا ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟ قال : عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة .

« وعن عائشة قالت لما حلف ابو بكر أن لا ينفق على مسطح فأنزل الله ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ فأحل يمينه ، وأنفق عليه » أخرجه الحرث ابن أسامة .

﴿ والله مولاكم ﴾ اي وليكم وناصركم ، والمتولي لأموركم ، وقيل : مولاكم أولى بكم من أنفسكم ، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم أنفسكم ذكره النسفي ﴿ وهو العليم ﴾ بما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله .

﴿ وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ﴾ قال أكثر المفسرين ومنهم النسفي والمحلي والخازن : هي حفصة كما سبق ، والحديث هو تحريم مارية او العسل او تحريم التي وهبت نفسها له ، والعامل في الظرف فعل مقدر ، أي واذكر إذ أسر ، وقال الكلبي : أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر .

« عن عائشة في الآية قالت : أسر اليها أن ابا بكر خليفتي من بعدي » . وأخرج ابن عدي وأبو نعيم في الصحابة والعشاري في فضائل الصديق وابن مردويه وابن عساكر من طرق :

« عن علي وابن عباس قالا : والله إن إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب . ﴿ وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً ﴾ ، قال لحفصة أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي ، فإياك أن تخبري احداً بهذا » ، قال الشوكاني رحمه الله : وهذا ليس فيه أنه سبب نزول قوله : يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، بل فيه أن الحديث الذي أسره النبي هو هذا فعلى فرض أن له إسناداً يصلح للاعتبار هو معارض بما سبق من تلك الروايات الصحيحة ، وهي مقدمة عليه ومرجحة بالنسبة اليه .

﴿ فلما نبأت به ﴾ اخبرت به غيرها ظناً منها أن لا حرج في ذلك فهو باجتهاد منها ، وهي مأجورة فيه ، وذلك لأن الاجتهاد جائز في عصره صلى الله عليه وسلم على الصحيح ، كما في جمع الجوامع وأصل نبأ وأنبأ وخبر وأخبر وحدث أن تتعدى لاثنين الى الأول بنفسها ، وإلى الثاني بحرف الجر ، وقد يحذف الجار تخفيفاً ، وقد يحذف الأول للدلالة عليه ، وقد جاءت الاستعمالات الثلاث في هذه الآية ،فقوله :﴿فلما نبأت به﴾تعدى لاثنين حذف أولها ، والثاني مجرور بالباء ، وقوله : ﴿ فلما نبأها به ﴾ ذكرهما ، وقوله : ﴿ من أنبأك هذا ﴾ ؟ ذكرهما وحذف الجار .

﴿ وأظهره الله عليه ﴾ اي أطلع الله نبيه على ذلك الواقع منها من الإخبار لغيرها على لسان جبريل ﴿ عرف بعضه ﴾ اي بعض ما أخبرت به وهو تحريم مارية او العسل قرأ الجمهور : عرف مشدداً من التعريف ، ومعناه عرف حفصة بعض الحديث ، وأخبرها ببعض ما كان منها ، وقرىء بالتخفيف اي عرف بعض الذي فعلته حفصة واختار ابو عبيد وابو حاتم الأولى لقوله : ﴿ وأعرض عن بعض ﴾ ولو كان مخففاً لقال في ضده : وأنكر بعضاً ، والمعنى لم يعرفها إيّاه ولم يخبرها به تكرماً منه وحياء وحسن عشرة .

قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من

فعل الكرام ، وقيل : أعرض عن تعريف بعض ذلك كرامة أن ينتشر في الناس وقيل : الذي أعرض عنه هو حديث مارية ، وقيل : هو أن أباها وأبا بكر يكونان خليفتين بعده وللمفسرين ههنا خلط وخبط وكل جماعة منهم ذهبوا الى تفسير التعريف والإعراض بما يطابق بعض ما ورد في سبب النزول ، وقد أوضحنا ذلك من قبل .

﴿ فلما نبأها به ﴾ أي أخبرها بما أفشت من الحديث ﴿ قالت من أنبأك هذا ؟ ﴾ اي من أخبرك به ﴿ قال : نبأني العليم الخبير ﴾ اي أخبرني الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ إن تتوبا ﴾ الخطاب لعائشة وحفصة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما ،وجواب الشرط محذوف اي ان تتوبا ﴿ الى الله ﴾ فهو الواجب ودل على المحذوف قوله :﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ اي زاغت وأثمت ومالت عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه ، ووجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو إفشاء الحديث ، وقيل : المعنى فقد مالت قلوبكما الى التوبة ، وقال : ﴿ قلوبكما ﴾ ولم يقل قلباكما لأن العرب تستكره الجمع بين تثنيتين في لفظ واحد ، ومجموع المضاف والمضاف اليه كالشيء الواحد من تمام العلقة والنسبة بينهما .

﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ قرأ الجمهور بحذف إحدى التاءين ، وقرىء على الأصل ، وقرىء تظهر بتشديد الظاء والهاء بدون ألف ، وهي سبعية والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون ، والمعنى وإن تعاضدا وتعاونا بما يسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره وقيل : كان التظاهر بين عائشة وحفصة في التحكم على النبي صلى الله عليه وسلم في النفقة .

﴿ فإن الله هو ﴾ ضمير متصل ضمير منفصل ﴿ مولاه ﴾ تعليل لجواب

الشرط المحذوف تقديره فلا يعدم ناصراً ولا معيناً ، فإن الله يتولى نصره بذاته ﴿ و ﴾ كذلك ﴿ جبريل ﴾ أيضاً وليه ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ اي من صلح من عباده المؤمنين وقيل : من بريء من النفاق ، وقيل : الصحابة ، وقيل : واحد اريد به الجمع وقيل : أصله صالحو المؤمنين فحذفت الواو من الخط موافقة للفظ قال بريدة : ابو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وعن ابن مسعود مثله .

« وعن ابي أمامة مرفوعاً مثله » أخرجه الحاكم ،

« وعن علي بسند ضعيف قال : هو علي بن ابي طالب كرم الله وجهه » .

« وعن أسماء بنت عميس قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وصالح المؤمنين علي بن ابي طالب » أخرجه ابن مردويه .

﴿ والملائكة ﴾ على تكاثر عددهم ﴿ بعد ذلك ﴾ اي بعد نصر الله والمذكورين ﴿ ظهير ﴾ اي أعوان يظاهرونه ، قال ابو علي الفارسي : قد جاء فعيل للكثرة كقوله : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ ، قال الواحدي : وهذا من الواحد الذي يؤدي عن معنى الجمع كقوله : ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ وقد تقرر في علم النحو أن مثل جريح وصبور وظهير يوصف به الواحد والمثنى والجمع ، وإنما عدل عن عطف المفرد الى عطف الجملة ليؤذن بالفرق فإن نصرة الله هي النصرة في الحقيقة ، وأنه تعالى إنما ضم إليها المظاهرة بجبريل وبصالح المؤمنين وبالملائكة للتتميم ، تطبيباً لقلوب المؤمنين ، وتوقيراً للنبي الرسول وإظهاراً للآيات البينات ، كما في يوم بدر وحنين . قال تعالى : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله ﴾ .

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ
عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا
وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى
ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ
ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله ﴾ بالتخفيف والتشديد سبعيتان ، اي يعطيه بدلكن ﴿ أزواجاً خيراً ﴾ اي أفضل ﴿ منكن ﴾ وقد علم الله سبحانه انه لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن ، وهو كقوله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ فإنه إخبار عن القدرة ، وتخويف لهم ، والممتنع بمقتضى الآية إنما هو تطليق الكل ، فلا ينافي أنه طلق واحدة ، وأنها لم تبدل ، لأن التبديل إنما هو للكل ، وإنما هو مرتب على تطليق الكل ، وفي الخطيب قيل : كل ﴿ عسى ﴾ في القرآن واجب الوقوع إلا هذه الآية ، وقيل : هي من الواجب ايضاً ، ولكن الله علمه بشرط وهو التطليق للكل ، ولم يطلقهن وفي الكرخي ، قال ابن عرفة : عسى هنا للتخويف لا للوجوب .

ثم نعت سبحانه الأزواج بقوله : ﴿ مسلمات ﴾ اي قائمات بفرائض الإسلام إما نعت او حال أو منصوب على الاختصاص وقال سعيد بن جبير

مسلمات اي مخلصات مقرات ، وقيل : معناه مسلمات لأمر الله ورسوله ﴿ مؤمنات ﴾ اي مصدقات بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره ﴿ قانتات ﴾ مطيعات لله ، والقنوت الطاعة ، وقيل : مصليات بالليل ، وقيل : داعيات ، وقيل : طائعات .

﴿ تائبات ﴾ يعني كثيرات التوبة من الذنوب ، تاركات لها ، راجعات الى الله والى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم عن الهفوات والزلات ﴿ عابدات ﴾ لله متذللات له قال الحسن وسعيد بن جبير : كثيرات العبادة ﴿ سائحات ﴾ اي صائمات قاله ابن عباس ، وقال زيد بن أسلم والحسن : مهاجرات ، وليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة الا الهجرة ، قال ابن قتيبة والفراء وغيرهما : وسمي الصيام سياحة لأن السائح لا زاد معه ، وقيل : المعنى ذاهبات في طاعة الله من ساح الماء اذا ذهب ، وأصل السياحة الجولان في الأرض ، وقيل : يسحن معه حيث ساح وقد مضى الكلام على السياحة في سورة براءة .

﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ اي بعضهن كذا وبعضهن كذا ووسط بينهما العاطف لتنافيهما دون سائر الصفات . والثيبات جمع ثيب لا ينقاس ، لأنه اسم جنس مؤنث ووزنها فيعل من ثاب يثوب اي رجع ، وهي المرأة التي قد تزوجت ثم ثابت عن زوجها فعادت كما كانت غير ذات زوج ، وقيل : لأنها ثابت الى بيت أبويها وهذا صح : لأنه ليس كل ثيب تعود الى زوجها ، والأبكار جمع بكر وهي العذراء سميت بذلك لأنها على أول حالها التي خلقت عليها ، عن بريدة في الآية قال : وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يزوجه بالثيب آسية امرأة فرعون وبالبكر مريم بنت عمران . ولا يقال : اي مدح في كونهن ثيبات لأن الثيب قد تمدح من جهة أنها أكثر تجربة وعقلاً ، وأسرع حبلاً غالباً ، والبكر تمدح من جهة أنها أطهر وأطيب وأكثر مداعبة وملاعبة غالباً ،

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم ﴾ بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه اي اجعلوا لها وقاية بالتأسي به صلى الله عليه وسلم في ترك المعاصي ،

وفعل الطاعات ﴿ وأهليكم ﴾ من النساء والولدان ، وكل من يدخل في هذا الاسم بأمرهم بطاعة الله ، ونهيهم عن معاصيه ، وبأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم نصحاً وتأديباً .

﴿ ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ اي ناراً عظيمة ، تتوقد بالناس الكفار والحجارة ، كالأصنام منها ، كما يتوقد قد غيرها بالحطب ، وقيل : الكبريت لأنه أشد الأشياء حراً وأسرع إيقاداً ، وقد تقدم بيان هذا في سورة البقرة ، قال مقاتل بن سليمان : قوا أنفسكم وأهليكم بالأدب الصالح النار في الآخرة وقال قتادة ومجاهد . قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم ، قال ابن جرير : فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير ، وما لا يستغنى عنه من الأدب ، ومن هذا قوله : ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ، وقوله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، وعن علي بن ابي طالب في الآية قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم ، وعن ابن عباس قال : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار ، وعنه قال : أدبوا أهليكم .

﴿ عليها ملائكة ﴾ اي على النار خزنة من الملائكة يولون أمرها وتعذيب أهلها ، وهم الزبانية ﴿ غلاظ ﴾ على أهل النار ﴿ شداد ﴾ عليهم لا يرحمونهم اذا استرحموهم ، لأن الله سبحانه وتعالى خلقهم من غضبه ، وحبب اليهم تعذيب خلقه ، وقيل : غلاظ الأقوال شداد الأفعال ، وقيل : الغلاظ ضخام الأجسام والشداد الأقوياء ، وقيل : المراد غلاظ القلوب شداد الأبدان ، من غلظ القلب اي قسوته ، لا من غلظ الجسم ولا من غلظ القول .

«عن ابي عمران الجوني قال : بلغنا أن خزنة النار تسعة عشر ما بين منكب أحدهم مسيرة مائة خريف ، ليس في قلوبهم رحمة إنما خلقوا للعذاب يضرب الملك منهم الرجل من أهل النار الضربة فيتركه طحناً من لدن قرنه الى قدمه » أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد .

﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾ اي لا يخالفونه في أمره وما موصولة ، والعائد محذوف ، اي لا يعصون الله الذي امرهم به ، او مصدرية اي لا يعصون الله أمره على أن يكون ما أمرهم بدل اشتمال من الاسم الشريف ، او على تقدير نزع الخافض ، اى لا يعصون الله في أمره ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ به اي يؤدونه في وقته من غير تراخ ، لا يؤخرونه عنه ولا يقدمونه ، وليست الجملتان في معنى واحد إذ معنى الأولى أنهم يتقبلون اوامره ويلتزمونها ، ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه ، وقيل : الثانية تأكيد للأولى ، وبه قال المحلي لأن مفادها هو مفادها ، وقيل : الأولى فيما مضى ، والثانية فيما يستقبل ، وصرح بهذا البيضاوي ، والآية تخويف للمؤمنين عن الارتداد ، وللمنافقين المؤمنين بألسنتهم دون قلوبهم .

﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ﴾ يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ، لأنه يوم الجزاء ، وقد فات زمان الاعتذار ، وصار الأمر الى ما صار ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ من الأعمال في الدنيا ، ومثل هذا قوله : ﴿ فاليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ، ولا هم يستعتبون ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً ﴾ قرأ الجمهور بفتح النون على الوصف للتوبة اي توبة بالغة في النصح ، وقرىء بضمها اي توبة نصح لأنفسكم ، ويجوز أن يكون جمع ناصح وأن يكون مصدراً ، تنصح صاحبها بترك العود الى ما ناب عنه ، وصفت بذلك على الإسناد المجازي ، وهو في الأصل وصف للتائبين أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم بالعزم على الترك للذنب ، وترك المعاودة له .

قال قتادة : التوبة النَّصوح الصادقة ، وقيل : الخالصة ، وقال الحسن : التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه اذا ذكره ، وقال الكلبي : التوبة النصوح الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإقلاع بالبدن ، والاطمئنان على أن لا يعود وقال سعيد بن جبير : هي التوبة المقبولة ، وعن

النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح قال : أن يتوب الرجل من العمل السيء ، ثم لا يعود اليه ابداً ، وروي عن معاذ مرفوعاً هي أن لا يحتاج بعدها الى توبة أخرى .

« وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود اليه ابداً[1] أخرجه أحمد وابن مردويه والبيهقي ، وفي إسناده ابراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف ، والصحيح الموقوف كما أُخرجه موقوفاً عليه ابن ابي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي وابن المنذر .

« وعن ابن مسعود قال : التوبة النصوح تكفر كل سيئة ، وهو في القرآن ، ثم قرأ هذه الآية »[2] أخرجه الحاكم وصححه .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة ، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال ، وفي كل الأزمان ، واختلف في معناها ، وذكروا في تفسيرها ثلاثة وعشرين قولاً متقاربة المعنى لا يسعها هذا الموضع ، وملاك الأمر فيها أن يتوب ثم لا يعود الى الذنب ، كما لا يعود اللبن الى الضرع ، ولو حز بالسيف وأحرق بالنار ، وهي واجبة من كل معصية كبيرة او صغيرة على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ، وتجب من جميع الذنوب ، وإن تاب ، من بعضها صحت توبته عما تاب منه ، وبقي الذي لم يتب منه هذا مذهب أهل السنة والجماعة .

وقد أخرج مسلم :

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه الحاكم .

« عن الأغر بن يسار المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ايها الناس توبوا الى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة[١] .

« وعن ابي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : والله إني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[٢] أخرجه البخاري ، وأخرجا :

« عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لله افرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله في أرض الفلاة » ، الحديث .

« وعن ابي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم .

« وعن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أخرجه الترمذي وحسنه .

﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئآتكم ويدخلكم ﴾ بسبب تلك التوبة ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ معطوف على يكفر منصوب بناصبه ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرىء بالجزم عطفاً على محل عيسى ، كأنه قال توبوا يوجب تكفير سيئآتكم ، ويدخلكم ، وعسى وإن كان أصلها للإطماع فهي من الله واجبة تفضلاً وتكرماً لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وليس واجباً

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري .

عقلياً ﴿ يوم ﴾ اي يدخلكم يوم ﴿ لا يخزي الله النبي ﴾ او منصوب باذكر ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ اي صاحبوه في وصف الإيمان معطوف على النبي ، وقيل : الموصول مبتدأ وخبره قوله : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾ يسعى ﴿ بأيمانهم ﴾ والأول أولى ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والجملة حالية او مستأنفة لبيان حالهم .

وقد تقدم في سورة الحديد أن النور يكون معهم حال مشيهم على الصراط والمراد بأيمانهم جهاتهم كلها والتقييد بالأمام والإيمان لا ينفي أن لهم نوراً على شمائلهم ، بل لهم نور لكن لا يلتفتون اليه ، لأنهم إما من السابقين فيمشون فيما هو أمامهم ، وإما من أهل اليمين فيمشون فيما هو عن أيمانهم ، عن ابن عباس في الآية قال : ليس أحد من الموحدين لا يعطي نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيطفىء نوره ، وما من مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، قال ابن مسعود : يمرون على صراط على قدر اعمالهم ، يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ذكره السيوطي في البدور السافرة .

﴿ يقولون ﴾ خبر ثان او حال : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ هذا دعاء المؤمنين حين إطفاء الله نور المنافقين كما تقدم بيانه وتفصيله .

﴿ يا ايها النبي جاهد الكفار ﴾ بالسيف والرمح ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجة والوعظ البليغ ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة براءة ﴿ واغلظ عليهم ﴾ بالانتهار والزجر ، والمقت والبغض ، اي شدد عليهم في الدعوة والخطاب والقتال والمحاجة باللسان ، واستعمل الخشونة في أمرهم بالشرائع ، ولا تعاملهم باللين ، وقال الحسن : اي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم ، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ اي مصير الكفار والمنافقين اليها ﴿ وبئس المصير ﴾ اي المرجع الذي يرجعون اليه .

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ﴾ قد تقدم غير مرة أن المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة تعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة ، اي جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفار في أنهم يعاقبون لكفرهم ، وأنه لا يغني أحد عن أحد ﴿ امرأة نوح ﴾ واسمها واهلة ، وقيل : والهة ﴿ وامرأة لوط ﴾ واسمها واعلة ، وقيل : والعة ، وهذا هو المفعول الأول ،(ومثلاً)المفعول الثاني حسبما قدمنا تحقيقه ، وإنما أخر ليتصل به ما هو تفسير له وإيضاح لمعناه ،وترسم (آمرأت) في هذه المواضع الثلاثة(وابنت)بالتاء المجرورة ، ويوقف عليهم بالهاء والتاء .

﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام ، أي كانتا في عصمة نكاحهما ، وهذه جملة مستأنفة كأنها مفسرة لضرب المثل ، ولم يؤت بضميرهما فيقال : تحتهما لما قصد من تشريفهما بهذه الإضافة الشريفة وفي ذلك مبالغة في المعنى المقصود وهو أن الإنسان لا ينفعه عادة إلا صلاح نفسه لا صلاح غيره ، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى ﴿ فخانتاهما ﴾ اي فوقعت منهما الخيانة لهما .

« قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط » ، ورواه ابن عساكر مرفوعاً .

« عنه قال : مازنتا ، اما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط ، فكانت تدل على الضيف فتلك خيانتهما » .

وقال عكرمة والضحاك : بالكفر ، وقد وقعت الأدلة الإجماعية على أنها ما زنت امرأة نبي قط ، وقيل : كانت خيانتهما النفاق وقيل : خانتاهما بالنميمة .

﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ اي فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئاً من النفع ، ولا دفعا عنهما من عذاب الله مع كرامتهما على الله ، ونبوتهما شيئاً من الدفع ، وفيه تنبيه على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة ﴿ وقيل ﴾ اي ويقال لهما في الآخرة او عند موتهما :

﴿ ادخلا النار مع الداخلين ﴾ لها من أهل الكفر والمعاصي ، وقال يحيى ابن سلام : ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة ، وحفصة من المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين تظاهرتا عليه ، وما أحسن ما قال ، فإن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشد أتم إرشاد ويلوح أبلغ تلويح الى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين ، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله ، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً ، وقد عصمهما الله سبحانه عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة .

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ هي آسية بنت مزاحم قيل : إنها إسرائيلية وإنها عمة موسى ، وقيل : إنها ابنة عم فرعون ، وإنها من العمالقة ، وكانت ذات فراسة صادقة آمنت بموسى عليه السلام فعذّبها فرعون بالأوتاد الأربعة ، والكلام في هذا كالكلام في المثل الذي قبله ، اي جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة ، والتمسك بالدين ، والصبر في الشدة ، وأن وصلة الكفر لا تضرهم ، كما لم

تضر امرأة فرعون ، وقد كانت تحت أكفر الكافرين ، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم ، وفيـه دليل على أن وصلة الكفرة لا تضر مع الإيمان.

﴿ اذ ﴾ ظرف لمثلاً او لضرب ﴿ قالت : رب ابن لي عندك ﴾ حال من ضمير المتكلم او من ﴿ بيتاً ﴾ لتقدمه عليه وقوله : ﴿ في الجنة ﴾ بدل او عطف بيان لقوله : عندك ، او متعلق بقوله : ابن ، وقدم عندك هنا للإشارة الى قولهم : الجار قبل الدار ، ومعناه بيتاً قريباً من رحمتك او في أعلى درجات المقربين منك ، او في مكان لا يتصرف فيه إلا بإذنك وهو الجنة .

﴿ ونجني من فرعون وعمله ﴾ اي من ذاته الخبيثة وشركه ، وما يصدر عنه من اعمال الشر ، وقال ابن عباس : عمله يعني جماعة ، وعن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فاذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة ، وعن ابي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد ، وأضجعها ، وجعل على صدرهـا رحى ، واستقبل بهـا عين الشمس ، فرفعت رأسها الى السماء فقال : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة الى قوله : ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ ففرج الله لها عن بيتها في الجنة فرأته ، وقبض الله روحها ،قال الكلبي هم أهل مصر،وقال مقاتل : هم القبط ، قال الحسن وابن كيسان : نجاها الله أكرم نجاة ، ورفعها الى الجنة ، فهي تأكل وتشرب ، وفيه دليل على أن الآستعاذة بالله والالتجاء اليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ، وديدن المؤمنين بيوم الدين .

﴿ و ﴾ ضرب الله مثلاً للذين آمنوا ﴿ مريم ابنة عمران ﴾ اي حالها وصفتها فمثل حال المؤمنين بامرأتين ، كما مثل حال الكفار بامرأتين ، وقيل : التقدير اذكر مريم والمقصود من ذكرها أن الله سبحانه جمع لها بين كرامتي الدنيا والآخرة ، واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿ التي أحصنت ﴾ حفظت ﴿ فرجها ﴾ عن الفواحش وعن الرجال فلم يصل اليها رجل لا بنكاح ولا بزنا ، والمحصنة العفيفة ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة

النساء ، قال المفسرون : المراد بالفرج هنا الجيب لقوله : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ المخلوقة لنا ، وذلك ان جبريل نفخ في جيب درعها اي طوق قميصها ، فحملت بعيسى عقب النفخ ، فالنفخ والحمل والوضع في ساعة واحدة ، والإسناد في نفخنا مجازي ، اي فأسند الى الله من حيث أنه الخالق والموجد ، وقيل المراد بالروح روح عيسى التي صار بها حياً فوصلت الى فرجها بواسطة نفخ جبريل ، وإضافة الروح الى الله إضافة مخلوق لخالقه للتشريف .

﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ يعني بشرائعه التي شرعها الله لعباده ، وقيل : المراد بالكلمات عيسى وقيل صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ، قرأ الجمهور صدقت بالتشديد ، وقرىء بالجمع والمراد على الأول الجنس ، فيكون في معنى الجمع وهي الكتب المنزلة على الأنبياء كإبراهيم وموسى وابنها عيسى .

﴿ وكانت من القانتين ﴾ قال قتادة من القوم المطيعين لربهم ، وقال عطاء : من المصلين كانت تصلي بين المغرب والعشاء ، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم ، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة ، ولما كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين غلب ذكوره على إناثه ، وفيه إشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم ، ومن للتبعيض ، ويجوز أن تكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين ، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام .

« عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون ، ما قص الله علينا من خبرها في القرآن قالت رب ابن لي عندك الآية[1] أخرجه أحمد والطبراني والحاكم ، وفي الصحيحين وغيرهما :

---

(١) رواه أحمد .

« من حديث ابي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[1].

(١) رواه مسلم .

سورة الملك

وتسمى سورة تبارك والواقية والمنجية . وتدعى في التوراة[1] المانعة . وهي ثلاثون آية . وهي مكية قال القرطبي : في قول الجميع . وعن ابن عباس قال : نزلت بمكة .

« وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له تبارك الذي بيده الملك »[2] . أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن الضريس والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في الشعب والترمذي وقال : هذا حديث حسن .

و « عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : تبارك » الآية أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه والضياء في المختارة .

و « عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه

---

(١) كيف ورد ذكرها في التوراة لا ندري ؟؟ سامح الله المؤلف .

(٢) رواه أحمد؛ المسند وأصحاب السنن الأربعة بسند حسن.

وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فأخبره فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر» أخرجه الحاكم وابن مردويه وابن نصر والبيهقي في الدلائل والترمذي وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه.

و «عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر»[1] أخرجه ابن مردويه والنسائي وصححه الحاكم.

و «عن رافع بن خديج وأبي هريرة أنهما سمعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: أنزلت عليّ سورة تبارك وهي ثلاثون آية جملة واحدة وهي المانعة في القبور، أخرجه ابن مردويه.

و «عن ابن عباس أنه قال لرجل ألا أتحفك بحديث تفرح به، قال بلى قال اقرأ تبارك الذي بيده الملك وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له أن ينجيه اللّه من عذاب النار وينجو بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» أخرجه عبد بن حميد في مسنده والطبراني والحاكم وابن مردويه.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٦/٢٤٦ من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود موقوفاً عليه وهو ضعيف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ
ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ
إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا
لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ تبارك تفاعل من البركة ، والبركة النماء والزيادة وقيل : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ، وقيل : دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه ، وقال الحسن : تبارك تقدس ، وصيغة تفاعل للمبالغة ، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء عند المتكلمة ، وصفة من صفاته عند المحدثين وهو الأولى .

والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء ويرفع من يشاء ويضع من يشاء ، وقيل : المراد بالملك ملك النبوة ، وقيل : الملك الأمر والنهي والسلطان أي التمكن من سائر الموجودات يتصرف فيها كيفما أراد ، قال الرازي : الملك تمام القدرة واستحكامها ، والأول أولى لأن الحمل على العموم أكثر مدحا ، وأبلغ ثناء ولا وجه للتخصيص .

﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ورفع ووضع وإعطاء ومنع ، قال أبو السعود : الجملة معطوفة على الصلة مقررة لمضونها مفيدة لجريان أحكام ملكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها ، وفي الكرخي لما اقترن الشيء بقوله

قدير علم أن المراد من المعدوم الذي يدخل تحت القدرة دون غيره .

﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ الموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته له ، والحياة تعلق الروح بالبدن واتصاله به ، وقيل : ما يوجب كون الشيء حياً ، وقيل : الموت صفة وجودية مضادة للحياة ، وقيل : المراد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة وفيه بعد ، وقدم الموت على الحياة لأن أصل الأشياء عدم الحياة والحياة عارضة لها ، وقيل : لأن الموت أقرب إلى القهر ، وقال مقاتل : خلق الموت يعني النطفة والمضغة والعلقة ، والحياة يعني خلقه إنساناً وخلق فيه الروح ، وقيل : خلق الموت على صورة كبش لا يمر على شيء إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس لا يمر بشيء إلا حيي قاله مقاتل والكلبي وقد ورد في التنزيل ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ وقوله ﴿ إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ وقوله ﴿ توفته رسلنا ﴾ وقوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وغير ذلك من الآيات .

وقال النسفي : الحياة ما يصح بوجوده الإحساس ، والموت ضده ، ومعنى خلقهما إيجاد ذلك المصحح وإعدامه أي خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون .

﴿ ليبلوكم ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يختبركم وإلا فعلمه محيط بكل شيء ، قال الشهاب : الاختبار يقتضي عدم علم المختبر بالكسر بحال المختبر بالفتح فلهذا جعلوه استعارة تمثيلية أو تبعية على تشبيه حالهم في تكليفه تعالى لهم بتكاليفه ، وخلق الموت والحياة لهم وإثابته لهم وعقوبته بحال المختبر مع من اختبره وجربه لينظر طاعته وعصيانه فيكرمه أو يهينه .

﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ فيجازيكم على ذلك ، وقيل : المعنى ليبلوكم ربكم أيكم أكثر ذكراً للموت وأحسن استعداداً وأشد منه خوفاً ، وقيل : أيكم أحسن عقلاً وأسرع إلى طاعة الله وأورع عن محارم الله ؛ وقيل : أخلص عملاً وأصوبه والخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة ؛ وقيل : أزهد في

الدنيا وأترك لها ؛ والعموم أولى .

قال الزجاج : اللام متعلقة بخلق الحياة لا بخلق الموت وقال الفراء : إن قوله ﴿ ليبلوكم ﴾ لم يقع على أي لأن فيما بين البلوى وأي إضمار فعل كما تقول بلوتكم لأنظر أيكم أطوع ومثله وقوله ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ أي سلهم ثم أنظر أيهم ؛ فأيكم في الآية مبتدأ وخبره أحسن ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإيراد صيغة التفضيل مع أن الإبتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين .

﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يغالب ولا يعجزه من أساء العمل ﴿ الغفور ﴾ لمن تاب وأناب ، والستور الذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل .

﴿ الذي ﴾ نعت لما قبله أو بيان له أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف، أو نصب على المدح ﴿ خلق سبع سموات ﴾ قيل : الأولى من كذا والثانية من كذا إلى السابعة ولم أقف على دليله من الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

﴿ طباقاً ﴾ أي مطبقاً بعضها فوق بعض كل سماء مقبية على الأخرى وسماء الدنيا كالقبة على الأرض وهو جمع طبق نحو جبل وجبال ، أو جمع طبقة نحو رحبة ورحاب أو مصدر طابق يقال طابق مطابقة وطباقاً ، وعلى هذا الوصف بالمصدر للمبالغة أو على حذف مضاف أي ذات طباق أو طوبقت طباقاً ، قال البقاعي : طباق بحيث يكون كل جزء منها مطابقا للجزء من الأخرى ولا يكون جزء منها خارجاً عن ذلك .

﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ صفة ثانية لسبع سموات أو مستأنفة لتقرير ما قبلها ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له و« من » مزيدة لتأكيد النفي وإضافة خلق الرحمن من إضافة المصدر إلى فاعله والمفعول محذوف تقديره لهن أو لغيرهن .

قرأ الجمهور من تفاوت وقرىء تفوت مشدداً بدون ألف ، وهما لغتان كالتعاهد والتعهد والتحامل والتحمل ، والمعنى من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخالف ، بل هي مستقيمة دالة على خالقها وإن اختلفت صورها وصفاتها فقد اتفقت من هذه الحيثية ، وقال ابن عباس : من تشقق وقيل من اضطراب وقيل من عيب ، وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً .

﴿ فارجع البصر ﴾ أي أردد طرفك حتى يتضح لك ذلك بالمعاينة ، أخبر أولاً بأنه لا تفاوت في خلقه ثم أمر ثانياً بترديد البصر في ذلك لزيادة التأكيد وحصول الطمأنينة .

﴿ هل ترى من فطور ﴾ قال مجاهد : والضحاك الفطور الصدوع والشقوق ، جمع فطر وهو الشق ، وقال قتادة : هل ترى من خلل ، وقال السدي : من خروق ، وأصله من التفطر والانفطار هو التشقق والانشقاق ، وعن ابن عباس قال : الفطور الوهي ، وعنه قال : من تشقق وخلل .

﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أي رجعتين مرة بعد مرة وانتصابه على المصدر والمراد بالتثنية التكثير كما في لبيك وسعديك وحنانيك وهذاذيك لا يريدون بهذه التثنية شفع الواحد إنما يريدون التكثير أي رجعة بعد رجعة وإن كثرت ، وإجابة لك بعد أخرى ، وإلا تناقض الغرض ، ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية ولهذا قال أولاً ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ثم قال ثانياً ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ فيكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة وأقطع للمعذرة ، وقيل : الأولى ليرى حسنها واستواءها والثانية ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها .

﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ أي يرجع إليك البصر خاشعاً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك ، وقيل : معنى خاسئاً مبعداً مطروداً عن أن يبصر

ما التمسه من العيب ، يقال : خسأت الكلب أي أبعدته وطردته ، وقال ابن عباس : خاسئاً صاغراً ذليلاً ، قرأ الجمهور ينقلب بالجزم جواباً للأمر ، وقرىء بالرفع على الاستئناف .

﴿ وهو حسير ﴾ أي كليل لا يرى شيئاً قاله ابن عباس : أي منقطع وعنه قال عيي مرتجع ، قال الزجاج : أي وقد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً ، وهو فعيل بمعنى فاعل من الحسور وهو الإعياء ، يقال : حسر بصره يحسر حسوراً أي كل وانقطع[1] وبلغ الغاية في الإعياء .

ولما فرغ سبحانه من تفاصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة وبيان ابتنائها على قوانين الحكم والمصالح ، شرع في ذكر دلائل أخرى على تمام قدرته بعد تلك الدلائل فقال ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا ﴾[2] أي القربى إلى الأرض من بقية السموات وهي التي يراها الناس .

﴿ بمصابيح ﴾ أي بنجوم فصارت بهذه الزينة في أحسن خلق ، وأكمل صورة وأبهج شكل ، والمجيء بالقسم لإبراز كمال العناية ، والمصابيح جمع مصباح وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضيء كإضاءة السراج ، ففي الكلام استعارة تصريحية لأن حقيقة المصباح كما في المختار السراج ، وبعض الكواكب

(١) ومنه قول الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إليّ الطرف وهو حسير

(٢) قال المقبلي في حاشية الكشاف إن قوله ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ يكذب المنجمين والزاعمين علم الفلك في قولهم إن بعض النجوم في السموات كقولهم أن زحل في السابعة والمشتري في السادسة والمريخ في الخامسة والشمس في الرابعة والزهرة في الثالثة والعطارد في الثانية والقمر في الدنيا وهذا من واضحات علمهم بزعمهم فغيره أكذب منه وكان البيضاوي يتعاطى هذه الحرفة البائرة لأنه قال هنا لا ينافي ذلك كون بعض النجوم مركوزاً في سموات فوق هذه وتقدم له في البقرة أنه اذا ضم العرش الى السبع السموات وافق كلام الأوائل أن الأفلاك ثمانية وتمام البحث حققناه في هداية السائل إلى أدلة المسائل أ هـ منه .

وإن كان في غير سماء الدنيا من السموات التي فوقها تتراءى كأنها كلها في السماء الدنيا لأن أجرام السموات لا تمنع من رؤية ما فوقها مما له إضاءة لكونها أجراماً صقيلة شفافة .

﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ هذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى وهي كونها زينة للسماء الدنيا . والمعنى أنها ترجم الشياطين الذين يسترقون السمع ، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو في الأصل مصدر أطلق على المرجوم به كما في قولهم الدرهم ضرب الأمير أي مضرابه والمعنى ذات رجم وجمع المصدر باعتبار أنواعه وقيل إن الضمير في جعلناها إلى المصابيح على حذف مضاف أي جعلنا شهبها وهي نارها المقتبسة منها لا هي نفسها لقوله .

﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ ووجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول عن مكانها ولا يرجم بها بل ينفصل شهاب عن الكوكب فيقتل الجني أو يخبله . كذا قال أبو علي الفارسي : جواباً لمن سأله كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم ، قال القشيري : وأمثل من قوله هذا أن نقول هي زينة قبل أن ترجم بها الشياطين .

قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها في البر والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدى وظلم ، وقيل : معنى الآية وجعلناها ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجمون قال أبو السعود : ولا يساعده المقام .

﴿ وأعتدنا لهم ﴾ أي للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب ﴿ عذاب السعير ﴾ هو النار الموقدة وأشد الحريق ، يقال : سعرت النار فهي مسعورة .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ
تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾
قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾
وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾

﴿ وللذين كفروا بربهم ﴾ من كفار أو بني آدم من الفريقين ﴿ عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي ما يصيرون إليه وهو جهنم ﴿ إذا ألقوا ﴾ أي طرحوا ﴿ فيها ﴾ كما يطرح الحطب في النار .

﴿ سمعوا لها شهيقاً ﴾ أي صوتاً منكراً كصوت الحمير عند أول نهيقها وهو أقبح الأصوات ، وتشهق إليهم شهقة البغل للشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف وقوله ﴿ لها ﴾ في محل نصب على الحال أي كائناً لها لأنه في الأصل صفة فلما قدمت صارت حالاً وقال عطاء الشهيق هو من الكفار عند إلقائهم في النار . ﴿ وهي تفور ﴾ أي والحال أنها تغلي بهم غليان المرجل بما فيه .

﴿ تكاد تميز ﴾ أي تتميز يعني تتقطع ﴿ من الغيظ ﴾ على الكفار فجعلت كالمغتاظة استعارة لشدة غليانهم بهم ، قال ابن قتيبة : تكاد تنشق غيظاً على الكفار ، وقال ابن عباس : تميز أي تتفرق ويفارق بعضها بعضاً ، قرأ الجمهور تميز بتاء واحدة مخففة وقرىء بتاءين على الأصل وبتشديدها بإدغام إحداهما في الأخرى ، وقرىء تمايز والأصل تتمايز وتميز من ماز يميز .

﴿ كلما ألقي فيها فوج ﴾ مستأنفة لبيان حال أهلها ، والفوج الجماعة من الناس أي كلما ألقي في جهنم جماعة من الكفار ﴿ سألهم ﴾ أي الفوج والجمع باعتبار معناه ﴿ خزنتها ﴾ من الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ﴿ ألم يأتكم ﴾ في الدنيا ﴿ نذير ﴾ ينذركم هذا اليوم ويحذركم منه .

﴿ قالوا بلى ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قالوا بعد هذا السؤال فقال : قالوا بلى ﴿ قد جاءنا ﴾ أي جاء كلاً منا ﴿ نذير ﴾ فأنذرنا وخوفنا وأخبرنا بهذا اليوم ، أو هذا من كلام الفوج وكل فوج له نذير ، فلا يحتاج إلى التأويل ، وهذا اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأنه تعالى أزاح عللهم ببعث الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ، وجمعوا بين حرف الجواب ونفس الجملة المفادة به تأكيداً إذ لو اقتصروا على « بلى » لفهم المعنى ولكنهم صرحوا بالمفاد ببلى تحسراً وزيادة ندم في تفريطهم وليعطفوا عليه قولهم .

﴿ فكذبنا ﴾ ذلك النذير في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وقلنا ﴾ في حق ما تلاه علينا من الآيات إفراطاً في التكذيب ﴿ ما نزل الله ﴾ على أحد ﴿ من شي ﴾ من الأشياء فضلا عن تنزيل الآيات على ألسنتكم من الوعد والوعيد وغيرهما .

﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ أي في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب ، وخطأ عظيم لا يقادر قدره . وهذا يحتمل أن يكون من كلام الكفار للنذر ، وأن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول ، ومرادهم بالضلال الهلاك أو سموا جزاء الضلال باسمه كما يسمى جزاء السيئة والاعتداء سيئة ، وهذا يسمى المشاكلة في علم البيان ، وأن يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة ، والاحتمال الأول هو الذي استظهره جمهور المفسرين .

ثم حكى الله عنهم مقالة أخرى قالوها بعد تلك المقالة فقال ﴿ وقالوا لو كنا نسمع ﴾ ما خاطبنا به الرسل ﴿ أو نعقل ﴾ شيئاً من ذلك ﴿ ما كنا في أصحاب السعير ﴾ أي في عداد أهل النار ، ومن جملة من يعذب بالسعير وهم الشياطين كما سلف ، قال الزجاج : لو كنا نسمع سماع من يعي ، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار ، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملتزمتان .

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

فلما اعترفوا هذا الاعتراف قال الله سبحانه ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ الذي استحقوا به عذاب النار وهو الكفر وتكذيب الأنبياء ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ أي فبعداً لهم من الله ورحمته ، قال ابن عباس : سحقاً بعداً وقال سعيد بن جبير وأبو صالح : هو واد في جهنم يقال له السحق ، قرأ الجمهور سحقاً بإسكان الحاء وقرىء بضمها وهما لغتان مثل السحت والرعب ، وسحقاً منصوب على المفعول به أي ألزمهم الله سحقاً ، وقال الزجاج وأبو علي الفارسي : منصوب على المصدر أن أسحقهم الله سحقاً ، وقال أبو علي الفارسي : كان القياس إسحاقاً فجاء المصدر على الحذف ، واللام في ﴿ لأصحاب ﴾ السعير للبيان كما في ﴿ هيت لك ﴾ .

ولما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار شرع في ذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ حال من الفاعل أو من المفعول أي غائبين عنه أو غائباً عنهم والمعنى أنهم يخشون عذابه ولم يروه فيؤمنون به خوفاً من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، وذلك في خلواتهم فيطيعونه سراً فيكون علانية أولى ، أو المراد بالغيب كون العذاب غائباً عنهم لأنهم في الدنيا وهو إنما يكون يوم القيامة ، والباء على هذا سببية .

قال ابن عباس في الآية : هم أبو بكر وعمر وعلي وأبو عبيدة بن الجراح ، أخرجه ابن مردويه ﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة يغفر الله بها ذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ لا يقادر قدره وهو الجنة ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ من خشى

الرحمن بالغيب ﴾ وظاهر الآية العموم .

ثم عاد سبحانه إلى خطاب الكفار فقال : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان تساوي الأسرار والجهر بالنسبة إلى علم الله سبحانه . والمعنى إن أخفيتم كلامكم أو جهرتم به في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكل ذلك يعلمه الله لا تخفى عليه منه خافية ، وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر ، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط بجميع المعلومات كان علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به مع كونها في الحقيقة على السوية .

فإن علمه تعالى بمعلومات ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى ، أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر إذ ما من شيء يجهر به إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية .

وقوله ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل للاستواء المذكور وتقرير له ، وفي صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق ووصف الضمائر بصاحبيتها من الجزالة ما لا غاية وراءه ، كأنه قيل : إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكمنة في صدورهم بحث لا تكاد تفارقها أصلاً ، فكيف يخفى عليه ما تسرونه وتجهرون به ، ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب التي في الصدور ، والمعنى إنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها .

﴿ ألا يعلم ﴾ الاستفهام للإنكار والمقصود نفي عدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر والمعنى ألا يعلم السر ومضمرات القلوب ﴿ من خلق ﴾ ذلك وأوجده ، فالموصول عبارة عن الخالق ، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق ، وفي ﴿ يعلم ﴾ ضمير يعود إلى الله المخلوق الذي هو من جملة خلقه فإن الأسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه وفيه إثبات خلق الأقوال فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد ، وقال أبو بكر بن الأصم وجعفر بن

حرب : « من » مفعول والفاعل مضمر وهو الله تعالى ، فاحتالا بهذا لنفي خلق الأفعال ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ أي الذي لطف علمه بما في القلوب الخبير بما تسره وتضمره من الأمور لا تخفى عليه من ذلك خافية .

ثم امتن سبحانه على عباده فقال ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ أي سهلة لينة مذللة تستقرون عليها منقادة لما تريدون منها من مشي عليها ، وزرع وحبوب وغرس وغير ذلك ، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون والمشي عليها ، والذلول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك ولا يستصعب عليك ، والمصدر الذل ، وتقديم «لكم» على مفعولي الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر ، فإن ما حقه التقديم إذا أخر لاسيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن .

﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ استدلالاً واسترزاقاً، والفاء لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المذكور والأمر للإباحة قال مجاهد والكلبي ومقاتل مناكبها طرقها وأطرافها ونواحيها وجوانبها ، وقال قتادة وشهر بن حوشب : مناكبها جبالها وقيل : فجاجها وبه قال ابن عباس ، وقال أيضاً : أطرافها ، وأصل المنكب الجانب ومنه منكب الرجل ومنه الريح النكباء لأنها تأتي من جانب دون جانب .

﴿ وكلوا من رزقه ﴾ أي مما رزقكم وخلقه لكم والتمسوا من نعم الله تعالى .

« عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف »[1] أخرجه الطبراني وابن عدي والبيهقي في الشعب والحكيم الترمذي ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ النشور ﴾ من قبوركم للجزاء فيسألكم عن شكر ما أنعم عليكم ، فبالغوا في شكر نعمه وآلائه ، وفي هذا وعيد شديد .

---

(١) حديث ضعيف انظر ضعيف الجامع ـ ١٧٠٤ .

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ
أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ
بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا
فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

ثم خوف سبحانه الكفار فقال : ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ قال الواحدي قال المفسرون : يعني عقوبة من في السماء ، وقيل : من في السماء عرشه وقدرته وسلطانه أي محل سلطانه ومحل قدرته ، وهو العالم العلوي ، وخص بالذكر وإن كان كل موجود محلاً للتصرف فيه ومقدوراً له تعالى لأن العالم العلوي أعجب وأغرب ، فالتخويف به أشد من التخويف بغيره .

وقيل : الملائكة وقيل : المراد جبريل وقيل : هو الله سبحانه وهو الحق ، لأن ظاهر النظم القرآني يقتضي أن الباري تعالى فوق السماء « وفي » بمعنى على والمعنى من ثبت واستقر في السماء أي على العالي وهو العرش ، قرأ الجمهور أأمنتم بهمزتين وقرىء بالتخفيف وبقلب الأولى واواً .

وقوله ﴿ أن يخسف بكم الأرض ﴾ بدل اشتمال من الموصول أي أأمنتم خسفة أو على حذف(من)أي من أن يخسف ، والمعنى يقلبها متلبسة بكم كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها .

﴿ فإذا هي تمور ﴾ أي تضطرب وتتحرك بكم على خلاف ما كانت عليه من السكون والاطمئنان ، وقيل : تهوي بهم ، وقيل : تجيء وتذهب ، والأول أولى ، قال الرازي : إن الله يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فتنقلب فوقهم وتخسفهم إلى أسفل سافلين .

ثم كرر سبحانه التهديد لهم بوجه آخر فقال ﴿ أم أمنتم ﴾ إضراب عن التهديد بما ذكر ، وانتقال إلى التهديد بوجه آخر أي بل أأمنتم ﴿ من في السماء ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى وفيه دليل على علوه ومباينته عن خلقه باستوائه على عرشه .

﴿ أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي حجارة من السماء كما أرسلها على قرية قوم لوط وأصحاب الفيل ، وقيل : سحاب فيها حجارة وقيل : ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء لشدتها وقوتها ، والكلام فيه كالكلام في أن يخسف بكم الأرض فهو إما بدل اشتمال أو بتقدير من .

﴿ فستعلمون ﴾ عند معاينة العذاب[1] ﴿ كيف نذير ﴾ أي إنذاري بالعذاب أي أنه حق ، قاله المحلي ، وقيل : النذير هنا محمد صلى الله عليه وسلم قاله عطاء والضحاك والمعنى : ستعلمون رسولي وصدقه ، والأول أولى .

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم ولوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس وقوم فرعون والالتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم .

﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع ، وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط ، وفيه من المبالغة في تسلية رسول الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى .

(١) قال الحفناوي ظاهر السياق أن المراد العذاب الموعود به وهو خسف الأرض وكذا في قوله الآتي ﴿ فكيف كان نكير ﴾ فيقتضي أن كفار مكة قد خسف بهم ورموا بالأحجار مع أنهم لم يقع لهم ذلك ، فإن قيل : المراد بقوله فستعلمون الخ التخويف بعذاب الآخرة قلنا يصير في الكلام نوع تفكيك خصوصاً وقد قال ابو السعود اي بإنذاري عند مشاهدتكم للمنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ انتهى وهذا يقتضي أن الكلام في العذاب المخوف به وقد علمت ما فيه ولم نر من الشراح من نبه على هذا والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

﴿ أو لم يروا ﴾ الهمزة للاستفهام والواو للعطف على مقدّر أي أغفلوا ولم ينظروا ولم يروا وأجمع القراء على قراءته بياء الغيبة لأن السياق للرد على المكذبين بخلاف ما في النحل ففيه الغيبة والخطاب ﴿ إلى الطير ﴾ جمع طائر ويقع على الواحد والجمع ، وقال ابن الانباري : الطير جماعة وتأنيثها أكثر من تذكيرها ولا يقال للواحد طير بل طائر ، وقلما يقال للأنثى طائرة ﴿ فوقهم ﴾ في الهواء ﴿ صافات ﴾ حال أي صافة لأجنحتها في الهواء والجو وتبسطها عند طيرانها .

﴿ ويقبضن ﴾ أي يضممن أجنحتهن إلى جنوبهن إذا ضربنها بها حيناً فحيناً للاستظهار والاستعانة على التحرك والطيران قال النحاس : يقال للطائر إذا بسط جناحه صاف ، وإذا ضمها قابض ، كأنه يقبضها وهذا معنى الطيران وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط ، وإنما قال ويقبضن ولم يقل قابضات كما قال صافات لأن القبض يتجدد تارة فتارة وأما البسط فهو الأصل كذا قيل ، وقيل : المعنى قبضهن لأجنحتهن عند الوقوف من الطيران لا قبضها في حال الطيران .

﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ حالية أو مستأنفة لبيان كمال قدرة الله سبحانه ، والثاني أظهر ، والمعنى أنه ما يمسكهن في الهواء عن الوقوع عند الطيران إلا الرحمن القادر على كل شيء وإلا فالثقيل يتسفل طبعاً ولا يعلو وكذا لو أمسك حفظه وتدبيره عن العالم لتهافتت الأفلاك ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان ، يعلم كيف يخلق الغرائب وكيف يدبر العجائب ، فبصير بمعنى العالم بالأشياء الدقيقة الغريبة .

﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والالتفات عن الغيبة إلى الخطاب للتشديد في ذلك التبكيت ، والمعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله ، والجند الحزب والمنعة ، قرأ الجمهور « أمن » بتشديد الميم على إدغام ميم أم في ميم من ، وأم بمعنى بل

ولا سبيل إلى تقدير الهمزة بعدها كما هو الغالب في تقدير أم المنقطعة ببل والهمزة لأن ما بعدها ههنا من الاستفهامية فأغنت عن ذلك التقدير ، ومن الاستفهامية مبتدأ واسم الإشارة خبره ، والموصول مع صلته صفة اسم الاشارة وينصركم صفة لجند ومن دون الرحمن في محل نصب على الحال من فاعل ينصركم ، والمعنى بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم متجاوزاً نصر الرحمن .

﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ معترضة مقررة لما قبلها ناعية عليهم ما هم فيه من غاية الضلال ، والالتفات عن الخطاب إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم ، والإظهار في موضع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به ، والمعنى ما الكافرون إلا في غرور عظيم من جهة الشيطان يغرهم به .

﴿ أمن ﴾ تكتب أم موصولة في « من » وكذا يقال فيما تقدم ﴿ هذا الذي يرزقكم ﴾ الكلام في هذا كالكلام في الذي قبله أي من الذي يدر عليكم الرزق من المطر وغيره ﴿ إن أمسك رزقه ﴾ أي أسباب رزقه التي ينشأ عنها كالمطر ، بل لو كان الرزق موجوداً كثيراً سهل التناول فوضع الآكل لقمة في فيه فأمسك الله تعالى عنه قوة الازدراد لعجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوا تلك اللقمة .وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره .

وقوله ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ ينبىء عن مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل : اثر تمام التبكيت والتعجيز لم يتأثروا لذلك ولم يذعنوا للحق ، بل تمادوا في عناد واستكبار عن الحق ونفور عنه ولم يعتبروا ولا تفكروا ، قال الرازي : واللجاج تقحم الأمر مع كثرة الصوارف عنه ، والعتو العناد والطغيان ، والنفور الشرود وقال ابن عباس : في عتو ونفور أي في ضلال .

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾

﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى﴾ مثل ضرب للمشرك والموحد توضيحاً لحالهما وتحقيقاً لشأن مذهبهما، والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سوء حالهم وخرورهم في مهاوي الغرور، وركوبهم متن عشواء العتو والنفور، وعدم اهتدائهم في مسلك المحاجة إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة، فإن تقدم الهمزة عليها صورة إنما هو لاقتضائها الصدارة، وأما بحسب المعنى فالأمر بالعكس كما هو المشهور حتى لو كان مكان الهمزة هل لقيل: فهل من يمشي مكباً الخ.

والمكب والمنكب الساقط على وجهه يقال: كببته فأكب وانكب وقيل هو الذي يكب رأسه فلا ينظر يميناً ولا شمالاً ولا أماماً فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه، وقيل: أراد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق، فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه، والمكب اسم فاعل من أكب اللازم المطاوع لكبه، يقال: كبه الله على وجهه في النار فأكب أي سقط.

وهذا على خلاف القاعدة من أن الهمزة إذا دخلت على اللازم تصيره متعدياً، وهنا قد دخلت على المتعدي فصيرته لازما. قال قتادة: هو الكافر يكب على معاصي الله سبحانه في الدنيا فيحشره الله يوم القيامة على وجهه، والهمزة للاستفهام الإنكاري، والمعنى هل هذا الذي يمشي على وجهه أهدى إلى المقصد الذي يريده.

﴿أمَّن يمشي سوياً﴾ قائماً معتدلاً ناظراً إلى ما بين يديه سالماً من الخبط والعثار ﴿على صراط مستقيم﴾ أي على طريق مستوٍ، لا اعوجاج به ولا

انحراف فيه ، قال ابن عباس : مكباً في الضلالة وسوياً مهتدياً قيل يعني بالمكب أبا جهل وبالسوي النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : أراد بمن يمشي مكباً من يحشر على وجهه إلى النار . ومن يمشي سوياً من يحشر على قدميه إلى الجنة ، وهو كقول قتادة الذي ذكرناه ومثله قوله :

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ وخبر « من » محذوف لدلالة خبر « من » الأولى وهو أهدى عليه ، وقيل : لا حاجة إلى ذلك لأن « من » الثانية معطوف على « من » الأولى عطف المفرد على المفرد كقولك : أزيد قائم أم عمرو ، ووحد الخبر لأن أم لأحد الشيئين .

﴿ قل ﴾ لهم يا أشرف الخلق مذكراً لهم بما دفع عنه المولى من المفاسد . وجمع لهم من المصالح ليرجعوا إليه ولا يعولوا في حال من الأحوال إلا عليه ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ إنشاء بديعاً ﴿ وجعل لكم السمع ﴾ لتسمعوا به آيات الله وتتمسكوا بما فيها من الأوامر والنواهي وتتعظوا بموعظها .

﴿ والأبصار ﴾ لتبصروا بها الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله عز وجل ، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على الكثير والقليل ، وقد قدمنا بيان هذا في مواضع مع زيادة البيان .

﴿ والأفئدة ﴾ لتفكروا بها في مخلوقات الله وآياته التنزيلية والتكوينية وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة ، وخصها بالذكر لأنها آلات العلم ، وذكر الله سبحانه ههنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحاً للحجة وقطعاً للمعذرة وذماً لهم على عدم شكر نعم الله ولهذا قال:

﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة وقليلاً نعت لمحذوف « وما » مزيدة لتأكيد التقليل أي شكراً قليلاً أو زماناً قليلاً فالقلة على ظاهرها وقيل أراد بقلة الشكر عدم وجوده منهم إن كان الخطاب للكفرة ، قال مقاتل : يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه .

« عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه وليقرأ هذه الآية ﴿ هو الذي أنشأكم الى قوله تشكرون ﴾» أخرجه الخطيب في تاريخه وابن النجار .

و«عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشتكى ضرسه فليضع أصبعه عليه ويقرأ هاتين الآيتين سبع مرات ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴾ الى قوله ﴿ يفقهون ﴾ و﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ إلى ﴿ تشكرون ﴾ فانه يبرأ باذن الله » أخرجه[1] الدارقطني في الأفراد .

﴿ قل هو الذي ذرأكم في الارض واليه تحشرون ﴾ أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبرهم أن الله هو الذي خلقهم في الارض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها وبثهم وأنشأهم بعدما كانوا كالذر ، وأن حشرهم اليه للجزاء لا إلى غيره اشتراكاً أو استقلالاً فليبنوا أمورهم على ذلك .

ثم ذكر سبحانه انهم يستعجلون العذاب فقال : ﴿ ويقولون ﴾ من فرط عتوهم استهزاء وسخرية وتكذيباً ﴿ متى هذا الوعد ﴾ الذي تذكرون من الحشر والقيامة والنار والعذاب ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ذلك والخطاب منهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن معه من المؤمنين لأنهم كانوا مشاركين له في الوعد وتلاوة الآيات المتضمنة له ، وجواب الشرط محذوف والتقدير إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوا وقته لنا .

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عليهم فقال ﴿ قل إنما العلم ﴾ أي أن وقت قيام الساعة علمه ﴿ عند الله ﴾ لا يعلمه غيره ومثله قوله ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال :

﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي أنذركم عاقبة كفركم وأبيّن لكم ما أمرني الله ببيانه بإقامة الأدلة حتى يصير ذلك كأنه مشاهد ، والإنذار يكفي له العلم بل الظن بوقوع المحذر منه .

(١) هذا الحديث والذي قبله لا يطمئن اليهما القلب . ولم أجدهما في كتب الحديث عندي .

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

ثم ذكر سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال ﴿ فلما رأوه زلفة ﴾ الفاء فصيحة معربة عن تقدير جملتين وترتيب الشرطية عليهما كأنه قيل وقد أتاهم الموعود به فرأوه فلما رأوه الخ ، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل أي مزدلفاً أو حال من المفعول أو ذا زلفة وقرب ، أو رأوه في مكان ذا زلفة قال مجاهد : أي قريباً وقال الحسن : عياناً . وأكثر المفسرين على أن المراد عذاب الآخرة يوم القيامة ، وقال مجاهد : المراد عذاب بدر وقيل رأوا ما وعدوا به من الحشر قريباً منهم كما يدل عليه قوله ﴿ وإليه تحشرون ﴾ وقيل لما رأوا عملهم السيء قريباً .

﴿ سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أي اسودت وعلتها الكآبة والقترة وغشيتها الذلة والسواد يقال ساء الشيء يسوء فهي سيء إذا قبح ، والأصل ساء وجوههم العذاب ورؤيته أي حزنها ، وساءت هنا ليست هي المرادفة لبئس . والمقام للضمير وأتى بالمظهر توصلاً لذمهم بالكفر وتعليل المساءة به ، قال الزجاج المعنى تبين فيها السوء أي ساءهم ذلك العذاب فظهر عليه بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قرأ الجمهور سيئت بكسر السين بدون إشمام وقرىء بالإشمام .

﴿ وقيل ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً ﴿ هذا ﴾ المشاهد الحاضر من العذاب هو العذاب ﴿ الذي كنتم به تدعون ﴾ في الدنيا أي تطلبونه وتستعجلون به استهزاء ، على أن معنى تدعون الدعاء قال الفراء : تدعون تفتعلون من

الدعاء أي تتمنون وتسألون ، وبهذا قال الأكثر من المفسرين ، وقال الزجاج : تدعون الأباطيل والأحاديث . وقيل معنى تدعون تكذبون ، هذا على قراءة الجمهور تدعون بالتشديد فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه .

والمعنى أنهم كانوا يدعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار ، وقرىء تدعون مخففاً ومعناها ظاهر وهي مؤيدة للقول بأنها من الدعاء ، قال قتادة : هو قولهم ﴿ ربنا عجل لنا قطنا ﴾ وقال الضحاك : هو قولهم ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ الآية ، قال النحاس تدَّعون وتدعون بمعنى واحد كما تقول قدر واقتدر ، وغدى واغتدى ، إلا أن افتعل معناه مضى شيئاً بعد شيء وفعل يقع على القليل والكثير .

﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ﴾ بموت أو قتل كقوله وإن أمرؤ هلك أو بالعذاب ﴿ ومن معي ﴾ من المؤمنين ﴿ أو رحمنا ﴾ بتأخير ذلك إلى أجل أو لم يعذبنا ﴿ فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ أي فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب . والمعنى أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك الله رسوله والمؤمنين معه كما كان الكفار يتمنونه أو أمهلهم .

وقيل المعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء . فمن يجيركم مع كفركم من العذاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم . وتعليل نفي الإجارة به ؛ وأرأيتم بمعنى أخبروني كما ذكره بعض المفسرين وأنها إذا كانت كذلك تنصب مفعولين الأول مفرد والثاني جملة استفهامية ولا شيء منهما هنا ؛ فكأن الجملة الشرطية سدت مسد المفعولين .

وقوله ﴿ فمن يجير ﴾ الخ جواب الشرط وفي تسببه على الشرط بعد ، ويمكن أن يقال الجواب محذوف تقديره ، فلا فائدة لكم في ذلك ولا نفع يعود عليكم لأنكم لا مجير لكم من عذاب الله .

﴿ قل هو الرحمن ﴾ أي الذي أدعوكم إلى عبادته مولى النعم كلها ﴿ آمنا به ﴾ وحده لا نشرك به شيئاً لما علمنا أن كل ما سواه إما نعمة أو منعم عليه ﴿ وعليه ﴾ لا على غيره ﴿ توكلنا ﴾ أي فوضنا الأمور إليه عز وجل لعلمنا بأن ما عداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضر .

﴿ فستعلمون ﴾ إذا نزل بكم العذاب ﴿ من هو في ضلال مبين ﴾ منا ومنكم، وفي هذا تهديد شديد مع إخراج الكلام مخرج الإنصاف . قرأ الجمهور فستعلمون بالفوقية على الخطاب وقرىء بالتحتية على الخبر .

ثم احتج سبحانه عليهم ببعض نعمه وخوّفهم سلب تلك النعمة عنهم فقال ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن أصبح ماؤكم ﴾ الذي تعدونه في أيديكم كما نبهت عليه الإضافة ﴿ غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد بحيث لا تناله الدلاء ، يقال غار الماء غوراً أي نضب والغور الغائر وصف بالمصدر للمبالغة ، كما يقال رجل عدل ، وقد تقدم مثل هذا في سورة الكهف ، وكان ماؤهم من بئر زمزم وبئر ميمون ؛ قال ابن عباس غوراً داخلاً في الأرض وعنه يرجع في الأرض .

﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي ظاهر تراه العيون وتناله الدلاء ، وقيل هو من معن الماء إذا كثر، وقال قتادة والضحاك أي جار وقد تقدم معنى المعين في سورة المؤمنون، وقرأ ابن عباس بماء عذب . وعنه قال بماء معين أي الجاري ، وعنه قال معين ظاهر وعنه قال عذب .

والمقصود من الآية أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه عليهم ويريهم قبح ما هم عليه من الكفر والعناد والكبر ، قال المحلي ويستحب أن يقول القارىء عقب معين : « الله رب العالمين » كما ورد في الحديث ، وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال تأتي به الفؤوس والمعاول ، فذهب ماء عينه وعمي ، نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته .

سورة نون

وتسمى سورة القلم اثنتان وخمسون آية . وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وعن ابن عباس وقتادة أن من أولها الى قوله : ﴿ أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ مدني . ومن بعد ذلك الى قوله : ﴿ فهم يكتبون ﴾ مكي ومن بعد ذلك الى قوله : ﴿ فهم يكتبون ﴾ مكي ومن بعد ذلك الى قوله : ﴿ من الصالحين ﴾ مدني وباقيها مكي . كذا قال الماوردي . وعن ابن عباس قال كانت اذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء . وكان أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم نون ثم المزمل ثم المدثر . وعنه نزلت نون بمكة وعن عائشة مثله .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ (٤) فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ (٦)

﴿ نٓ ﴾ قرىء بإدغام النون الثانية من هجائها في الواو وقرىء بالإظهار وبالفتح على إضمار فعل وبكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وبضمها على البناء ؛ عن ابن عباس أنه قال نون : الدواة ، أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد ، وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النون السمكة[1] التي عليها قرار الأرضين » ، وقال مجاهد والسدي ومقاتل : هو الحوت الذي يحمل الأرض ، وبه قال مرة الهمداني ، وعطاء الخراساني والكلبي .

وقيل إن نون آخر حرف من حروف الرحمن ؛ وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به ؛ وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة وقال عطاء وأبو العالية : هي النون من نصر وناصر ؛ وقال محمد بن كعب : أقسم الله بنصره المؤمنين ، وقيل إسم للسورة وقيل اسم للقرآن وقيل هو حرف من حروف الهجاء كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتتحة بذلك ، وقد اختاره المحلي حيث قال أحد حروف الهجاء ؛ وأراد بذلك الرد على من قال أنه مقتطع من اسمه تعالى الرحمن أو النصير أو الناصر أو النور .

وقال النسفي : الظاهر أن المراد به هذا الحرف من حروف المعجم ؛ وأما قول الحسن أنه الدواة وقول ابن عباس أنه الحوت الذي عليه الأرض

---

(١) هذا من المروي بغير تحقيق . رواه الطبري ٢٩/١٤ وابو ظبيان قابوس وفيه لين كما قال ابن حجر في التقريب .

واسمه بهموت فمشكل سواء كان جنس أو إسم علم ، فالسكون دليل على أنه من حروف المعجم انتهى وقد عرفناك ما هو الحق في مثل هذه الفواتح في أول سورة البقرة .

﴿ والقلم ﴾ الواو واو القسم أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به في الأرض والسماء ، وقال جماعة من المفسرين ومنهم المحلي المراد به القلم الذي كتب به الكائنات في اللوح المحفوظ، أقسم الله به تعظيماً له ، قال قتادة القلم من نعمة الله على عباده وعن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد[1] أخرجه الترمذي وصححه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه .

وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعاً نحوه ، وعن ابن عباس قال : « إن الله خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال : اكتب ، قال: وما أكتب ؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه ابن جرير وابن المنذر ، وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه[2] .

وعن ابن عباس أن أول شيء خلقه الله القلم فقال الله له اكتب فقال : يا رب ما أكتب؟فقال : اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ثم طوى الكتاب ورفع القلم وكان عرشه على الماء فارتفع بخار

---

(١) زاد المسير، ٣٢٧/٨.

(٢) رواه ابن عساكر ١/٢٤٧/١٧ عن الحسن بن يحي الخشني عن أبي عبد الله مولى بني أمية عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه بأطول منه ، وتمامه : « ثم قال له : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما يكون ـ أو ما هو كائن من عمل أو رزق أو أجل ، فكتب ذلك الى يوم القيامة ، فذلك قوله : (نٓ والقلم وما يسطرون) ثم ختم على القلم فلم يتكلم الى يوم القيامة ، ثم خلق العقل وقال : وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ، ولأنقصنّك ممن أبغضت » . والحسن بن يحيي صدوق كثير الغلط كما قال الحافظ في « التقريب » ، والحديث رواه أحمد في « المسند » ٣١٧/٥ من طرق عن الوليد بن عبادة عن أبيه عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وليس فيه ذكر النون في أوله ولا ذكر العقل في آخره ، ورواه الترمذي ١٦٢/٢ بنحو رواية أحمد وقال : حديث حسن صحيح غريب ، ورواه ايضاً ابو داود في « سننه » رقم (٤٧٠٠) والطبري ١٧/٢٩ وهو حديث صحيح بهذا القدر .

الماء ففتقت منه السموات ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه والأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ثم قرأ ﴿ نون والقلم وما يسطرون ﴾ أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات وأبو الشيخ وغيرهم .

﴿ وما يسطرون ﴾ ما موصولة والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره لأن ذكر آلة الكتابة تدل على الكاتب ، والمعنى والذي يكتبون كل ما يكتب أو الحفظة الكاتبون على بني آدم قال ابن عباس يسطرون يكتبون ، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي وسطرهم ، وقيل الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء ، وعن ابن عباس أيضاً قال : ﴿ وما يسطرون ﴾ ما يعلمون .

﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ جواب القسم وما نافية أي انتفى عنك الجنون بنعمة ربك كما يقال أنت بحمد الله عاقل ، قيل الباء متعلقة بمضمر هو حال كأنه قيل أنت بريء من الجنون متلبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرسالة العامة ، وقيل الباء للقسم أي ما أنت ونعمة ربك بمجنون ، وقيل النعمة هنا الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ﴾

﴿ وإن لك لأجراً ﴾ أي ثواباً على ما تحملت من أثقال النبوة وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع ، يقال مننت الحبل اذا قطعته وقال مجاهد غير محسوب ، وقال الحسن غير مكدر بالمن ، وقال الضحاك أجراً بغير عمل وقيل غير مقدر ، وقيل غير ممنون به عليك من جهة الناس ، وقيل غير منقوص .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قيل هو الإسلام والدين ، حكاه الواحدي عن الأكثرين ، قال الحفناوي أقسم أولاً بالقلم ثم بسطر الملائكة أو بسطورهم ، فالمقسم به شيئآن على ثلاثة أشياء نفي الجنون عنه وثبوت الأجر

له وكونه على دين الإسلام ، وقيل هو القرآن ، روي هذا عن الحسن والعوفي ، وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه من نهي الله ، قال الزجاج المعنى أنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن ، وقيل هو لرفقه بأمته وإكرامه إياهم ، وقيل المعنى إنك على طبع كريم ، قال الماوردي وهذا هو الظاهر وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب .

عن سعد بن هشام **قال**: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين « اخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن »(١) أما تقرأ القرآن ﴿ إنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، أخرجه مسلم وابن المنذر والحاكم وغيرهم ، وعنها قالت : « ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته الا قال لبيك ، فلذلك أنزل الله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ » أخرجه ابن مردويه وابن نعيم في الدلائل والواحدي .

وعن أبي الدرداء قال : « سئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه » أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه وابن المنذر .

وعن أبي عبد الله الحدلي قال :« قلت لعائشة: كيف خلق رسول الله صلى

---

(١) هو قطعة من حديث طويل رواه الإمام احمد في « مسنده » ٥١/٦ ، ٥٢ ، ورواه مسلم ٥١٢/١ بنحو حديث أحمد . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٤٩٩/٢ مختصراً ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في « الدر » ٢٥٠/٦ مختصراً ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها . قال ابن كثير : ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن امراً ونهياً سجيّة له وخُلُقاً تطبعه وترك طبعه الجبلّي ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء ، والكرم ، والشجاعة ، والصفح ، والحلم ، وكل خلق جميل .

الله عليه وسلم قالت : لم يكن فاحشاً ولا متفاحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة . ولكن يعفو ويصفح » . أخرجه ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن مردويه . وقيل غير ذلك مما يطول ذكره وهو في كتب الشمائل والسير مستوفى .

﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ أي ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء ، وذلك يوم القيامة ، قال ابن عباس : أي ستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتميز الحق من الباطل ، وقيل في الدنيا بظهور عاقبة أمرك بغلبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب ، وهذا وعد له ووعيد لهم .

﴿ بأيكم المفتون ﴾ قال الخطيب : ترسم بأيكم ههنا بيائين انتهى ، والباء زائدة للتأكيد أي أيكم المفتون بالجنون كذا قال الأخفش وأبو عبيدة وغيرهما الا أنه ضعيف من حيث أن الباء لا تزاد في المبتدأ الا في بحسبك فقط ، وقيل ليست الباء زائدة ، والمفتون مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور ، والتقدير بأيكم الفتون أو الفتنة ، وقال الفراء ومجاهد : إن الباء بمعنى في فهي ظرفية أي في أيكم الفتون في الفريق الذي أنت فيه أم في الفريق الآخر ، ويؤيد هذا قراءة ابن ابي عبلة بفي .

وقيل في الكلام حذف مضاف أي بأيكم فتن المفتون فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، روي هذا عن الأخفش أيضاً تكون الباء سببية وقيل المفتون المعذب . من قول العرب فتنت الذهب بالنار اذا أحميته ومنه قوله تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ وقيل المفتون هو الشيطان ، لأنه مفتون في دينه والمعنى بأيكم الشيطان ، قال ابن عباس : كانوا يقولون إنه شيطان وانه مجنون ، وعنه قال : المفتون المجنون ، وقال قتادة ومقاتل : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى سترى ويرى أهل مكة اذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾
وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾
مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ تعليل للجملة التي قبلها فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم في العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما ، وتأكيد لما فيه من الوعد والوعيد ، والمعنى هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة فهو مجاز كل عامل بعمله إن خيراً فخير وان شراً فشر .

﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ الفاء لترتيب النهي على ما ينبىء عنه ما قبله من اهتدائه صلى الله عليه وآله وسلم وضلالهم ، أو على جميع ما فصل من أول السورة ، وهذا تهييج للتصميم على مباينتهم ، نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين وهم رؤساء كفار مكة لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه الله عن طاعتهم ، أو هو تعريض لغيره عن أن يطيع الكفار أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير فنهاه الله عن ذلك كما يدل عليه قوله .

﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ فإن الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة ، قال الفراء المعنى لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبي وقال الضحاك والسدي ودوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر ، وقال الربيع بن أنس ودوا لو تكذب فيكذبون ، وقال قتادة لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك ، وقال الحسن لو تصانعهم عن دينك فيصانعونك وقال مجاهد لو تركن اليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك ، قال ابن قتيبة كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا الله مدة ، وقال ابن عباس لو ترخص لهم فيرخصون .

وقوله فيدهنون عطف على تدهن داخل في حيز لو أو هو خبر مبتدأ محذوف أي فهم يدهنون ، قال سيبويه وزعم قالون أنها في بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا بغير نون والنصب على جواب التمني المفهوم من « ودوا » والظاهر من اللغة في معنى الإدهان هو ما ذكرناه أولاً[١] .

﴿ ولا تطع كل حلاف ﴾ أي كثير الحلف بالباطل وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ﴿ مهين ﴾ فعيل من المهانة وهي القلة في الرأي والتمييز ، وقال مجاهد : هو الكذاب ، وقال قتادة : المكثار في الشر ، وكذا قال الحسن : وقيل هو الفاجر العاجز وقيل هو الحقير عند الله ، وقيل هو الذليل ، وقيل هو الوضيع .

وأخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي قال : قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبي بكر وعمر ، فقال : عبد الرحمن بن أبي بكر إنها ليست بسنة أبي بكر وعمر لكنها سنة هرقل ، فقال مروان : هذا الذي أنزل فيه ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية . قال فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل في عبد الرحمن . ولكن نزل في أبيك ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾[٢] .

﴿ هماز ﴾ هو المغتاب للناس ، قال زيد هو الذي يهمز بأخيه ، وقيل الهماز العياب ، وقيل الهماز الذي يذكر الناس في وجوههم ، واللماز الذي

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : ودَّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك باجابتك إياهم الى الركون الى آلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلهك ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ قال : وإنما هو مأخوذ من الدُّهن ، شبه التليين في القول بتليين الدُّهن .

(٢) راجع دفاع عائشة هذا بالتفصيل في كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) مطبعة الإمام ، وهو من النوادر وقد تم طباعة الكتاب في بيروت .

يذكرهم في مغيبهم ، كذا قال أبو العالية والحسن وعطاء بن أبي رباح ، وقال مقاتل : عكس هذا ، وقيل الهماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللمز باللسان ، وقيل الهمز كاللمز وزناً ومعنى وبابه ضرب ، وهمزات الشيطان خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان .

﴿مشّاء بنميم﴾ هو الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال نم ينم إذا سعى بالفساد بين الناس ، وقيل النميم جمع نميمة أي نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم[١] .

﴿ مناع للخير﴾ أي بخيل بالمال لا ينفقه في وجهه ، وقيل هو الذي يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام ، قال الحسن : يقول لهم من دخل منكم في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا أنفعه بشيء أبداً ﴿ معتد ﴾ أي متجاوز الحد في الظلم[٢] ﴿ أثيم ﴾ كثير الآثام .

﴿ عتل ﴾ قال الواحدي : المفسرون يقولون هو الشديد الخلق الفاحش الخلق وقال الفراء : هو الشديد الخصومة في الباطل ، وقال الزجاج : هو الغليظ الجافي في الطبع من عتله إذا قاده بعنف وغلظة ، وقال الليث : هو الأكول المنوع ، وقيل قاسي القلب وقيل الذي يعتل الناس أي يحملهم ويجرهم إلى ما يكرهون من حبس وضرب ، ومنه ﴿ خذوه فأعتلوه ﴾ وقيل هو الفاحش اللئيم .

---

(١) وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : «إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » . وفي « الصحيحين » أيضاً من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة قتاتٌ » أي : نمام ، كما في رواية اخرى لمسلم .

(٢) في « الصحيحين » عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأهل الجنة ، كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرَّه ، ألا أنبئكم بأهل النار كل عُتلّ جَوَّاظ مستكبر » . والجوَّاظ : الجموع المنوع .

﴿ بعد ذلك زنيم ﴾ أي هو بعد ما عد من معايبه ومثالبه الثمانية دعيٌّ ملصق مستلحق بالقوم ، وليس هو منهم ، مأخوذ من الزنمة المتدلية في حلق الشاة أو الماعز ، وقال سعيد بن جبير : الزنيم المعروف بالشر وقيل هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة . وقيل هو الظلوم ، وقال ابن عباس : له زنمة كزنمة الشاة والعتل هو الدعي والزنيم هو المريب الذي يعرف بالشر وعنه قال : الزنيم الدعي وعنه الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وعنه قال هو الرجل يمر على القوم فيقولون رجل سوء ، وقال : أيضاً الزنيم الظلوم .

وهذه البعدية في الرتبة لا في الخارج ، قال الشهاب فبعد هنا كثم للتراخي في الرتبة قال أبو السعود وفيه دلالة على أن دعوته أشد معايبه وأقبح قبائحه ؛ وقد قيل أن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق لأنه حليف ملحق في بني زهرة ؛ وقيل في الوليد بن المغيرة وبه قال الجمهور ، وقيل في أبي جهل بن هشام ، وقيل في الأسود ابن عَبْد يغوث، قاله ابن عباس

﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ ولا تطع ﴾ أي لا تطع من هذه مثالبه لأن كان متمولاً مستظهراً بالبنين ، قاله الفراء والزجاج ، وقيل متعلق بما دل عليه جملة ﴿ إذا تتلى ﴾ من معنى الجحود والتكذيب لا يقال الذي هو جواب الشرط لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله كأنه قيل لكونه مستظهراً بالمال والبنين كذب بآياتنا ، وفيه أنه يدل على أن مدار تكذيبه كونه ذا مال وبنين من غير أن يكون لسائر قبائحه دخل في ذلك .

قرىء أن كان بهمزة واحدة على الخبر وقرىء بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام ؛ والمراد به التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التي خوَّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله ، وقرىء بهمزتين مخففتين وقرأ نافع في رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط وجوابه مقدر أي إن كان كذا يكفر وجحد دل عليه ما بعده .

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ أي القرآن ﴿قال﴾ هي ﴿أساطير﴾ أي أكذوبة ﴿الأولين﴾ والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي .

﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي سنكويه بالكي على أنفه مهانة له وعلامة يعير بها ما عاش ، قال أبو عبيدة وأبو زيد والمبرد : الخرطوم الأنف وتخصيص الأنف بالذكر لأن الوسم عليه أبشع ؛ وفي التعبير عن الأنف بالخرطوم استهجان واستهزاء باللعين ، لأن الخرطوم أنف السباع وغالب ما يستعمل في أنف الفيل والخنزير ، وفي القاموس الخرطوم كزنبور الأنف أو مقدمه أو ما ضممت عليه الحنكين كالخرطم كقنفذ . وفي السمين هو هنا عبارة عن الوجه كله من التعبير عن الكل باسم الجزء لأنه أظهر ما فيه وأعلاه ، والأول أولى ، وقد جرح أنف هذا اللعين يوم بدر فبقى أثر الجرح في أنفه بقية عمره .

وقال مقاتل سنسمه بالسواد على الأنف وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار وقال الزجاج : سنجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم ، وقال قتادة : سنلحق به شيئاً لا يفارقه . واختار هذا ابن قتيبة قال : والعرب تقول قد وسمه ميسم سوء يكون ألصق به عاراً لا يفارقه فالمعنى أن الله ألحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم ، وقيل معنى سنسمه سنحطمه بالسيف وقال النضر بن شميل : المعنى سنجده على شرب الخمر وقد يسمى الخمر بالخرطوم ومنه قول الشاعر :

تظل يومك في لهو وفي طرب   وأنت بالليل شراب الخراطيم

﴿إنا بلوناهم﴾ يعني كفار مكة فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكلوا الجيف والرمم ، والابتلاء الاختبار ، والمعنى أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا فلما بطروا وعادوا محمداً صلى الله عليه وسلم ابتليناهم ابتلاء .

﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ المعروف خبرهم عندهم ، وذلك انها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها ، قال الواحدي هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه المال قليل والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله في كتابه[1] .

وقال الحسن : كانوا كفاراً قال النسفي : والجمهور على الأول ، وقال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ، ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم وقيل هي جنة كانت بصروان وصروان بالصاد المهملة على فراسخ من صنعاء وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بزمن يسير ، قاله الزرقاني : في شرح المواهب ، وذكره القرطبي أيضاً ومثله في حواشي البيضاوي ، وقال ابن عباس : هم ناس من أهل الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين فمات أبوهم فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق كان يطعم المساكين .

---

(١) ذكر أهل التفسير أن رجلاً كان بناحية اليمن له بستان ، وكان مؤمناً . وذلك بعد عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وكان يأخذ منه قدر قوته ، وكان يتصدّق بالباقي . وقيل : كان يترك للمساكين ما تعدَّاه المنجل ، وما يسقط من رؤوس النخل ، وما ينتثر عند الدِّراس ، فكان يجتمع من هذا شيء كثير ، فمات الرجل عن ثلاث بنين ، فقالوا : والله إن المال لقليل ، وإن العيال لكثير ، وإنما كان أبونا يفعل هذا إذْ كان المال كثيراً ، والعيال قليلاً ، وأما الآن فلا نستطيع أن نفعل هذا . فعزموا على حرمان المساكين ، وتحالفوا بينهم ليغدُنَّ قبل خروج الناس ، فليصرمُنَّ نخلهم ، فذلك قوله تعالى : (اذا أقسموا) أي : حلفوا (ليصرمُنّها) أي : ليقطّعن نخلهم (مصبحين) أي : في أول الصباح . وقد بقيت من الليل ظُلمة لئلا يبقى للمساكين شيء .

﴿ إذ أقسموا ﴾ أي حلف معظمهم إلاّ الأوسط قال لهم لا تفعلوا واصنعوا من الإحسان ما كان يصنعه أبوكم ، قال البقاعي وكأنه تعالى طواه لأنه مع الدلالة عليه بما يأتي لم يؤثر شيئاً .

﴿ ليصرمنها مصبحين ﴾ أي ليقطعنها داخلين في وقت الصباح قبل انتشار الفقراء ، والصرام القطع للثمر والزرع ، يقال صرم العذق عن النخلة وأصرم النخل أي حان وقت صرامه ، والانصرام الانقطاع والتصارم التقاطع والتصرم التقطع ، وإذ تعليلية أو ظرفية بنوع تسمح لأن الإقسام كان قبل ابتلائهم ، وليصرمنها جواب القسم .

﴿ ولا يستثنون ﴾ يعني ولا يقولون إن شاء الله وسمي استثناء وهو الشرط لأن معنى لأخرجن إن شاء الله ، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد قاله الزمخشري ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم أو حال ، وقيل المعنى ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إليهم قاله عكرمة ، وقيل المعنى لا يثنون عزمهم عن الحرمان .

﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أي فنزل على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه أي هلاك أو بلاء في حال نومهم ، والطائف غلب في الشر ، قال الفراء هو الأمر الذي يأتي ليلاً ورد عليه بقوله تعالى : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ وذلك لا يختص بليل ولا نهار ، وقرىء طيف ، والطائف قيل هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء كذا قال مقاتل ، وقيل الطائف جبريل اقتلعها ، وقال ابن عباس طائف أي أمر من الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف عليها الآية قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » .

وفي هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان لأنهم عزموا على

أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل: يا رسول هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »[1] وهذا محمول على العزم المصمم . وأما ما يخطر بالبال من غير عزم فلا يؤاخذ به قاله القرطبي .

﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ فعيل بمعنى مفعول أي صارت كالشيء الذي صرمت ثماره أي قطعت . وقال الفراء : كالصريم كالليل المظلم ، والمعنى أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال : والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة ، وقال الأخفش أي كالصبح الصريم من الليل يعني أنها يبست وابيضت بلا شجر ، وقال المبرد : الصريم الليل والصريم النهار أي ينصرم هذا عن هذا وذاك عن هذا ، وقيل سمي الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرف ، وقال المؤرج : الصريم الرملة لأنها لا ينبت عليها شيء ينتفع به ، وقال الحسن : صرم منها الخير أي قطع .

﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً داخلين في الصباح معطوف على أقسموا ، وما بينهما اعتراض لبيان ما نزل بتلك الجنة ، قال مقاتل لما أصبحوا قال بعضهم لبعض ﴿ أن اغدوا ﴾ أن هي المفسرة لأن في التنادي معنى القول أو هي المصدرية أي بأن اغدوا والمراد اخرجوا غدوة .

﴿ على حرثكم ﴾ وأقبلوا عليه باكرين ، والغدو يتعدى بإلى وعلى فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، والمراد بالحرث الثمار والزرع والعنب ﴿ إن كنتم صارمين ﴾ أي قاصدين للصرم ، وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم مريدين صرامه فاغدوا ، وقيل معنى صارمين ماضين في العزم من قولك سيف صارم .

---

(١) صحيح الجامع / ٣٨٠

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿فانطلقوا﴾ أي ذهبوا إلى جنتهم ﴿وهم يتخافتون﴾ أي يسرون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم، يقال خفت يخفت إذا سكن ولم ينبس، قال ابن عباس الخفت الإسرار والكلام الخفي، وقيل المعنى يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، والأول أولى لقوله:

﴿أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ فإن «أن» هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول، والمعنى يسر بعضهم إلى بعض هذا القول وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم، وأوقع النهي على دخول المساكين لأنه أبلغ لأن دخولهم أعم من أن يكون بإدخالهم أو بدونه.

﴿وغدوا﴾ أي ساروا إليها غدوة ﴿على حرد﴾ الحرد يكون بمعنى المنع والغضب والقصد، قال قتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد لأن القاصد إلى الشيء حارد، يقال حرد يحرد إذا قصد تقول حردت حردك أي قصدت قصدك وبابه ضرب، وقال أبو نصر صاحب الأصمعي: هو مخفف فعلى هذا بابه فهم، وقال ابن السكيت: وقد يحرك فعلى هذا بابه طرب فهو حارد وحردان انتهى، وقال أبو عبيدة والمبرد

والقتيبي : على حرد على منع من قولهم حردت الإبل حرداً إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هي القليلة اللبن ، وقال السدي وسفيان والشعبي : على حرد على غضب ، وعن قتادة ومجاهد أيضاً : على حرد على حسد ، وقال الحسن أيضاً : على حاجة وفاقة ، وقيل على حرد على انفراد يقال حرد يحرد حرداً وحروداً إذا تنحى عن قومه ونزل منفرداً عنهم ولم يخالطهم . وبه قال الأصمعي وغيره . وقد فسرت الآية الكريمة بجميع ما ذكرت ، وقال الأزهري « حرد » اسم قريتهم ، وقال السدي اسم جنتهم ، قرأ الجمهور حرد بسكون الراء وقرىء بفتحها .

قال الفراء ومعنى ﴿ قادرين ﴾ قد قدروا أمرهم وبنوا عليه في ظنهم ، وأما في الواقع فليس كذلك لهلاك الثمر عليهم وعلى الفقراء ، ففي نفس الأمر لم يمنعوهم منه ، وقال قتادة قادرين على جنتهم عند أنفسهم ، وقال الشعبي يعني قادرين على المساكين . وقال ابن عباس ذوو قدرة أو من التقدير ، وهو التضييق أي مضيقين على المساكين .

﴿ فلما رأوها ﴾ أي جنتهم وشاهدوا ما قد حل بها من الآفة التي أذهبت ما فيها ﴿ قالوا إنا لضالون ﴾ أي قال بعضهم لبعض بديهة وصولهم قبل التأمل قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه ، قال ابن عباس : أي أضللنا مكان جنتنا وقيل معنى قولهم :

﴿ إنا لضالون ﴾ أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم ، ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا مضربين إضراباً إبطالياً لكونهم ضالين .

﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأول إلى هذا القول ، قيل إن الحق الذي منعه أصحاب الجنة والمساكين يحتمل أنه كان واجباً عليهم ، ويحتمل أنه كان تطوعاً والأول أظهر ، والله أعلم .

﴿ قال أوسطهم ﴾ أي أمثلهم وأعقلهم وخيرهم رأياً وعقلاً ونفساً ، وقال ابن عباس : أعدلهم وقيل أفضلهم فأنكر عليهم بقوله ﴿ ألم أقل لكم ﴾ إن ما فعلتموه لا ينبغي وإن الله لبالمرصاد لمن حاد وغير ما في نفسه .

﴿ لولا تسبحون ﴾ أي هلا تستثنون ، وسمى الاستثناء تسبيحاً لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدل على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحاً ، قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل فجعل التسبيح في موضع إن شاء الله لأنه ينزه عن أن يجري في ملكه ما لا يريده ، وقيل المعنى هلا تستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك . وقيل المعنى هلا تتركون شيئاً للمساكين من ثمر جنتكم والأول أولى .

فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الحالة ﴿ قالوا سبحان ربنا ﴾ أي تنزيهاً له عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا ، ثم أكدوا قباحة فعلهم هضماً لأنفسهم وتحقيقاً لتوبتهم بقوله ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ أي إن ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه ، قيل معنى تسبيحهم الاستغفار أي نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين .

﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، يقول هذا لهذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول ذاك لهذا أنت خوفتنا الفقر ، ويقول الثالث لغيره أنت رغبتني في جمع المال ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث :

﴿ قالوا يا ويلنا ﴾ هذا وقت حضورك إلينا ومنادمتك لنا فإنه لا نديم لنا الآن غيرك ﴿ إنا كنا طاغين ﴾ أي عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء ، قال ابن كيسان أي طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل .

عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾

ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ﴾ قيل إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها بأن أمر الله جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام ويأخذ من الشام جنة فيجعلها بمكانها ، قرأ الجمهور يبدلنا بالتخفيف وقرىء بالتشديد وهما لغتان وقراءتان سبعيتان ، والتبديل تغيير ذات الشيء أو تغيير صفته ، والإبدال رفع الشيء جملة ووضع آخر مكانه كما مضى في سورة سبأ .

﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ أي طالبون منه الخير راجون لعفوه راجعون إليه وعدّىٰ بإلى وهو إنما يتعدى بعن أو بفي لتضمينه معنى الرجوع .

عن ابن مسعود بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة تسمى الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً ، وقال اليماني أبو خالد : دخلت تلك الجنة فرأيت فيها كل عنقود منها كالرجل القائم الأسود ، قال الحسن قول أهل الجنة :

﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ لا أدري أكان إيماناً منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ، فتوقف في كونهم مؤمنين ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة أهم من أهل الجنة أم من أهل النار قال لقد كلفتني تعباً ، والمعظم يقولون إنهم تابوا وأخلصوا ، حكاه القشيري .

﴿ كذلك العذاب ﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ أي أشد

وأعظم من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا﴾ أي المشركون ﴿يعلمون﴾ أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون .

ولما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ذكر حال المتقين وما أعده لهم من الخير فقال: ﴿إن للمتقين﴾ ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصي ﴿عند ربهم﴾ عز وجل في الدار الآخرة ﴿جنات النعيم﴾ الخالص الذي لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال كما يشوب جنات الدنيا .

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للكفار على هذا القول الذي قالوه وقد وبخوا وقرعوا باستفهامات سبعة أولها هذا ، والسابع ﴿أم لهم شركاء﴾ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ، وكأن العبارة مقلوبة والأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين لأنهم جعلوا أنفسهم كالمسلمين بل أفضل لأنه كان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها فلما سمعوا بذكر الآخرة وما يعطي الله المسلمين فيها قالوا إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا ، فقال الله مكذباً لهم راداً عليهم ﴿أفنجعل﴾ الآية والمعنى أفنجعل المجرمين مساوين للمسلمين في العطاء ، لا ، كما ذكر في آية أخرى ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ قاله علي القاري ، وبعد ذلك ليس في الآية إلا نفي المساواة ، والكفار ادعوا الأفضلية أو المساواة إلا أن يقال إذا انتفت المساواة انتفت الأفضلية بالأولى .

ثم قال سبحانه على طريقة الالتفات ﴿مالكم كيف تحكمون﴾ هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ أي تقرأون فيه فتجدون المطيع كالعاصي ، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم﴾ ثم قال سبحانه ﴿إن﴾ قرأ الجمهور بالكسر على أنها معمولة لتدرسون أي تدرسون في الكتاب .

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ
أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ
وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

﴿ إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة أو على الحكاية للمدروس ، وقيل قد تم الكلام عند قوله ﴿ تدرسون ﴾ ثم ابتدأ فقال إن لكم الخ أي ليس لكم ذلك ، وقرىء بفتح أن على العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التأكيد ، ومعنى تخيرون تختارون وتشتهون .

ثم زاد سبحانه في التوبيخ فقال ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة ﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان موثقة متناهية إذ العهد كلام مؤكد بالقسم فاطلق الجزء وأريد الكل والمعنى أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة ثابتة لكم ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ لا يخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ ، قرأ الجمهور ﴿ بالغة ﴾ بالرفع على النعت لأيمان وقرىء بنصبها على الحال من أيمان لأنها قد تخصصت بالعمل أو بالوصف أو من الضمير في لكم أو في علينا ، وجواب القسم قوله :

﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ به لأنفسكم لأن معنى أم لكم أيمان أم أقسمنا لكم ، وقيل قد تم الكلام عند قوله ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ ثم ابتدأ فقال إن لكم الخ أي ليس الأمر كذلك .

﴿ سلهم ﴾ موبخاً لهم ومقرعاً ﴿ أيهم بذلك ﴾ الحكم الخارج عن الصواب ﴿زعيم ﴾ أي كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها ، وقال ابن كيسان الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى ، وقال الحسن الزعيم الرسول .

﴿ أم لهم شركاء ﴾ غيرهم يشاركونهم في هذا القول ويوافقونهم فيه ،

ويذهبون مذهبهم فيه وقيل معناه شهداء يشهدون بصدق ما ادعوه ، وقيل المراد بهم الأصنام والأول أولى وأظهر ، وقيل المعنى أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين في الآخرة ،

﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ فيما يقولـون إذ لا أقل من التقليد وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف ، قال القاضي وقد نبه سبحانه في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به لدعواهم من عقل أو نقل أو وعد أو محض تقليد على الترتيب تنبيهاً على مراتب النظر وتزييفاً لما لا سند له .

﴿ يوم ﴾ ظرف لقوله فليأتوا أي فليأتوا بها يوم ﴿ يكشف عن ساق ﴾ ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل مقدر أي اذكر يوم يكشف ، قال الواحدي : قال المفسرون : في قوله ﴿ عن ساق ﴾ عن شدة من الأمر وصعوبة الخطب ، قال ابن قتيبة : أصل هذا إن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه شمر عن ساقه فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدة قال :

وتأويل الآية يوم يشتد الأمر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق ، قال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل كشف الأمر عن ساقه والأصل فيه من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدة وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب في أشعارها وكثر في كلامهم حتى صار كالمثـل للأمـر العظيم الشديد فهذا التركيب من قبيل الكناية أو الاستعارة التمثيلية .

قال الزمخشري : الكشف عن الساق والإبداء عن الحزام مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب ، وقيل ساق الشيء أصله وقوامه كساق الشجرة وساق الإنسان أي يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه ، وقيل يكشف عن ساق جهنم ، وقيل عن ساق العرش ، وقيل هو عبارة عن القرب ، وقيل يكشف عن ساق الرب سبحانه عن نوره .

وقال النسفي : لا كشف ثمة ولا ساق ولكن كني به عن الشدة لأنهم إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق ، وأما من شبه فلضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان ولو كان الأمر كما زعم المشبه لكان من حق الساق أن تعرف لأنها ساق معهودة عنده انتهى وسيأتي ما هو الحق ، قرأ الجمهور يكشف بالتحتية مبنياً للمفعول ،وقرأ ابن مسعود وابن عباس وغيرهما بالفوقية مبنياً للفاعل أي الشدة أو الساعة ، وقرىء بالفوقية مبنياً للمفعول وقرىء بالنون وقرىء بالفوقية المضمومة وكسر الشين من أكشف الأمر أي دخل في الكشف .

عن أبي هريرة في الآية قال « يكشف الله عز وجل عن ساقه »[١] ، وعن ابن مسعود قال « يكشف عن ساقه تبارك وتعالى » ، وعن ابن عباس قال يكشف عن أمر عظيم ، وقال : قال ابن مسعود يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ويقسو ظهر الكافر فيصير عظماً واحداً .

وعن ابن عباس أنه سئل عن قوله يوم يكشف عن ساق ، قال اذا خفي عليكم شيء من القرآن فاتبعوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس هذا يوم كرب شديد ، وروي عنه نحو هذا من طرق أخرى وعنه هو أشد ساعة يوم القيامة وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد أخرج البخاري وغيره عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً

(١) هو جزء من حديث طويل مشهور في البخاري ١٣ / ٣٥٩ ومسلم ١ / ١٦٨ ورواه البخاري مختصر ٨ / ٥٠٨ ونصه : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » .

واحداً » وهذا الحديث ثابت من طرق في الصحيحين وغيرهما وله ألفاظ في بعضها طول وهو حديث مشهور معروف .

وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية « قال عن نور عظيم فيخرون له سجداً » أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً فليس كمثله شيء

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

وهكذا تهيب القول فيه شيوخ الإسلام فأجروه على ظاهر لفظه ، ولم يكشفوا عن باطن معناه ، والتأويل هو مذهب معظم المتكلمين ومنهم النسفي في المدارك والبيضاوي في أنوار التنزيل .

قال الشيخ أحمد ولي الله المحدث في كتابه حجة الله البالغة واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة ومشبهة وقالوا هم المستترون بالبلكفة[1] وقد وضح عليّ وضوحاً بيناً أن استطالتهم هذه ليست بشيء وأنهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى .

﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ قال الواحدي قال المفسرون يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا ﴿ فلا يستطيعون ﴾ لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود ، وقال الربيع ابن أنس : يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله في الدنيا فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله في الدنيا ، والدعاء إلى السجود يكون امتحاناً لإيمانهم لا تكليفاً بالسجود إذ تلك الدار ليست دار تكليف :

(١) أي قولهم « بلا كيف »

خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ حال من ضمير يدعون ونسبة الخشوع إلى الأبصار وهو الخضوع والذلة لظهور أثره فيها ﴿ ترهقهم ﴾ أي تغشاهم ﴿ ذلة ﴾ شديدة وحسرة وندامة وصغار ﴿ وقد كانوا ﴾ في الدنيا ﴿ يدعون إلى السجود ﴾ دعوة تكليف .

﴿ وهم سالمون ﴾ أي معافون من العلل متمكنون من الفعل فلا يجيبون ، قال إبراهيم التيمي يدعون بالأذان والإقامة فيأبون ؛ وقال سعيد ابن جبير : يسمعون حي على الفلاح فلا يجيبون ، قال كعب الأحبار : والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات . وقال ابن عباس : هم الكفار يدعون في الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون . وعنه قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة . أخرجه البيهقي في الشعب .

﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم . أي خل بيني وبينه وكل أمره إلي فأنا أكفيكه . قال الزجاج : معناه لا تشغل به قلبك بل كله إليّ فأنا أكفيك أمره . والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها من أحوالهم المحكية ، والمراد بالحديث القرآن قاله السدي . وقيل يوم القيامة .

﴿ سنستدرجهم ﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله فذرني الخ . . والضمير عائد إلى ﴿من﴾ باعتبار معناها والمعنى سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه ﴿ من حيث لا يعلمون ﴾ أن ذلك استدراج لأنهم يظنونه إنعاماً ولا يفكرون في عاقبته وما سيلقون في نهايته .

قال سفيان الثوري : نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر ، وقال الحسن : من مستدرج بالإحسان اليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه ، والاستدراج ترك المعاجلة ، وأصله النقل من حال إلى حال ، ويقال استدرج فلان فلاناً أي استخرج ما عنده قليلاً قليلاً ، ويقال درجه إلى كذا واستدرجه يعني أدناه إلى التدريج فتدرج هو ، ومعنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن ، ولا يجوز أن يسمى الله سبحانه كائداً وماكراً ومستدرجاً .

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين فقال : ﴿ وأملي لهم ﴾ أي أمهلهم ليزدادوا إثماً ، وقد مضى تفسير هذا في سورة الأعراف والطور ، وأصل الملاوة المدة من الدهر ، يقال أملى الله له أي أطال له المدة والملا مقصوراً الأرض الواسعة سميت به لامتدادها ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي قوي شديد فلا يفوتني شيء ، وسمى سبحانه إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد باعتبار عاقبته ، ووصفه بالمتانة لقوة أثره في التسبب للهلاك .

﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدم من قوله أم لهم شركاء أي أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿ فهم من مغرم ﴾ المغرم الغرامة أي فهم من غرامة ذلك الأجر ﴿ مثقلون ﴾ أي يثقل عليهم حمله لشحهم ببذل المال فأعرضوا عن إجابتك لهذا السبب ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ لهم ، والمعنى أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم .

﴿ أم عندهم الغيب ﴾ أي اللوح المحفوظ عند الجمهور أو كل ما غاب عنهم ﴿ فهم ﴾ من ذلك الغيب ﴿ يكتبون ﴾ ما يريدون من الحجج التي يزعمون أنها تدل على قولهم ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ، ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله .

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ (٤٨) لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ (٤٩) فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (٥٢)﴾

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي لقضائه الذي قد قضاه في سابق علمه ، وقيل الحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم . لأنهم إن أمهلوا لم يهملوا ، وقيل هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة قيل وهذا منسوخ بآية السيف .

﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعني يونس عليه السلام أي لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة حتى لا تبتلي ببلائه ﴿ إذ نادى ﴾ أي لا يكن حالك كحاله أو قصتك كقصته في وقت ندائه ، ويدل على المحذوف أن الذوات لا ينصب عليها النهي ، وإنما ينصب على أحوالها وصفاتها ﴿ وهو مكظوم ﴾ مملوء غيظاً وكرباً ، وقيل غماً ، قال الماوردي والفرق بينهما أن الغم في القلب والكرب في الأنفاس .

قال قتادة : إن الله يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم ويأمره بالصبر وأن لا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدم بيان قصته في سورة الأنبياء ويونس والصافات ، وكان النداء منه بقوله : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وقيل إن المكظوم المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ، قاله المبرد ، وقيل هو المحبوس ، والكظم الحبس ، ومنه قولهم فلان يكظم غيظه أي يحبس غضبه ، قاله ابن بحر . والأول أولى ، والجملة حال من ضمير نادى وعليها يدور النهي لا على النداء لأنه أمر مستحسن .

﴿ لولا أن تداركه ﴾ أي صاحب الحوت ﴿ نعمة من ربه ﴾ وهي توفيقه للتوبة فتاب الله عليه قال الضحاك : إن النعمة هنا النبوة ، وقال سعيد بن

جبير : عبادته التي سلفت ، وقال ابن زيد : هي نداؤه بقوله لا إلّه إلا أنت ، وقيل إخراجه من بطن الحوت ، قاله ابن بحر . وقيل الرحمة .

قرأ الجمهور تداركه على صيغة الماضي ، وقرىء بتشديد الدال وهو مضارع أدغمت التاء في الدال ، والأصل تتداركه بتاءين ، وهذه على حكاية الحال الماضية ، وقرىء تداركته بتاء التأنيث وهو خلاف المرسوم ، وتداركه فعل ماضٍ مذكر حمل على معنى النعمة لأن تأنيث النعمة غير حقيقي ، وتداركته على لفظها .

﴿ لنبذ بالعراء ﴾ أي لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات والأشجار والجبال ﴿ وهو مذموم ﴾ أي يذم ويلام بالذنب الذي أذنبه ويطرد من الرحمة ، وقيل مذموم مبعد من كل خير ، وقيل مذنب وقيل معاتب ، قال الرازي : مذموم على كونه فاعلاً للذنب ، قال : والجواب أن كلمة لولا دالة على أن هذه المذمومية لم تحصل أو المراد منه ترك الأفضل ، فإن حسنات الأبرار سيئآت المقربين ، أو هذه الواقعة كانت قبل النبوة لقوله تعالى :

﴿ فاجتباه ربه ﴾ أي استخلصه واصطفاه لدعائه وعذره واختاره لنبوته ، وهذا مبني على أنه وقت هذه الواقعة لم يكن نبياً ، وإنما نبىء بعدها وهو أحد قولين للمفسرين ، والثاني أنه كان نبياً ومعنى اجتباه أنه رد عليه الوحي بعد أن كان قد انقطع عنه ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ أي من الكاملين في الصلاح وعصمه من الذنب ، وقيل رد إليه النبوة وشفعه في نفسه وفي قومه وقبل توبته وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون بسبب صبره كما تقدم .

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك ﴾ أي ينفذونك قاله ابن عباس ، وإن هي المخففة من الثقيلة ، قرأ الجمهور بضم الياء من أزلقه أي أزل رجله ، يقال أزلقه عن موضعه إذا نحاه ، وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه إذا تنحى وهما سبعيتان ، قال الهروي أي يغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مكانك الذي أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس

وابن مسعود وغيرهما ليرهقونك أي يهلكونك ، وقال الكلبي : يزلقونك أي يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة وكذا قال السدي وسعيد بن جبير : وقال النضر بن شميل والأخفش : يفتنونك ، وقال الحسن وابن كيسان : ليقتلونك .

﴿ بأبصارهم ﴾ أي ينظرون إليك نظراً شديداً يكاد أن يصرعك ويسقطك عن مكانك والباء إما للتعدية كالداخلة على الآلة أي جعلوا أبصارهم كالآلة المزلقة لك كما تقول عملت بالقدوم ، وإما للسببية أي بسبب عيونهم ، قال الزجاج : في الآية مذهب أهل اللغة والتأويل أنهم من شدة إبغاضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك . وهذا مستعمل في الكلام يقول القائل نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ونظراً يكاد يأكلني ، قال ابن قتيبة : ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه . وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك كما قال الشاعر :

يتقارضون إذا التقوا في مجلس نظراً يزيل مواطىء الأقدام

وقيل : « أرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش المجربة إصابتهم فعصمه الله وحماه من أعينهم فلم تؤثر فيه فنزلت هذه الآية » ؛ وذكر الماوردي أن العين كانت في بني أسد من العرب ؛ وفيه دليل على أن العين حق ، وقد رواه أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ والحديث متفق عليه[1] .

---

(١) قال ابن كثير : وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة . وقد روى مسلم في « صحيحه » ٤ / ١٧١٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين ، واذا استغسلتم فاغسلوا » .
وروى البخاري وأصحاب «السنن» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوِّذ الحسن والحسين يقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامَّة » .

وأخذ بظاهر الحديث جماهير العلماء وقالوا إنه حق وإنه ليدخل الرجل القبر والجمل القدر ؛ وأنكره طوائف من المبتدعة ولا اعتداد بهم بعدما ورد في كلام النبوة وصح . قال الحسن : رقية العين هذه الآية(١) .

﴿ لما سمعوا الذكر ﴾ أي وقت سماعهم القرآن لكراهتهم لذلك أشد كراهة ، ولما ظرفية منصوبة بيزلقونك . وقيل هي حرف وجوابها محذوف لدلالة ما قبلها عليه أي لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿ ويقولون ﴾ حسداً وتنفيراً عنه ﴿ إنه لمجنون ﴾ أي ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن . فرد الله عليهم بقوله :

﴿ وما هو الا ذكر للعالمين ﴾ لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأمتنهم رأياً ، والجملة مستأنفة أو في محل نصب على الحال من فاعل يقولون أي والحال أنه تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون اليه أو شرف لهم كما قال سبحانه ﴿ وانه لذكر لك ولقومك ﴾ وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه مذكر للعالمين أو شرف لهم .

---

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٤٤ .

سورة الحاقة

(هي إحدى أو اثنتان وخمسون آية وهي مكية)

قال القرطبي في قول الجميع قال ابن عباس نزلت بمكة ، وعن ابن الزبير مثله وعن أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الفجر بالحاقة ونحوها » أخرجه الطبراني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾

﴿ الحاقة ﴾ هي القيامة لأن الأمر يحق فيها وهي تحق في نفسها من غير شك ، قاله الطبري كأنه جعلها من باب ليله قائم ونهاره صائم فالإسناد مجازي ، قال الأزهري يقال حاققته فحققته أحقه غالبته فغلبته أغلبه ، فالقيامة حاقة لأنها تحاق كل محاق في دين الله بالباطل وتخصم كل مخاصم .

وقال في الصحاح : حاقه أي خاصمه في صغار الأشياء ويقال ما له فيها حق ولا حقاق ولا خصومة والتحاق التخاصم ، والحاقة والحقة والحق ثلاث لغات بمعنى ، قال الواحدي : هي القيامة في قول كل المفسرين ، وسميت بذلك لأنها ذات الحواق من الأمور وهي الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود .

قال الكسائي والمؤرج : الحاقة يوم الحق ، وقيل سميت بذلك لأن كل إنسان فيها حقيق بأن يجزى بعمله ، وقيل سميت بذلك لأنها أحقت لقوم النار ، وأحقت لقوم الجنة ، وقال ابن عباس : الحاقة من أسماء يوم القيامة وهي مبتدأ وخبرها قوله :

﴿ ما الحاقة ﴾ على أن ما الاستفهامية مبتدأ ثان وخبره الحاقة ، والجملة خبر للمبتدأ الأول والمعنى أي شيء هي في حالها أو صفاتها لا تحيط بها العبارة « وما » يسأل بها عن الصفة والحال والمقام للضمير أي ما هي ؟ فوضع الظاهر موضعه لتأكيد هولها وزيادة تفظيعه ، وقيل هذه الجملة وإن كان لفظها لفظ الاستفهام فمعناها التعظيم والتفخيم لشأنها كما تقول زيد ما زيد ، وقد قدمنا تحقيق هذا المعنى في سورة الواقعة .

ثم زاد سبحانه في تفظيع شأنها وتفخيم أمرها وتهويل حالها فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ أي أيّ شيء أعلمك ما هي؟ أي كأنك لست تعلمها اذ لم تعاينها وتشاهد ما فيها من الأهوال فكأنها خارجة عن دائرة علم المخلوقين ، لا تبلغها دراية أحد منهم ولا وهمه .

والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالماً بالقيامة ولكن لا علم له بكنهها وصفتها فقيل له ذلك كأنه ليس عالماً بها رأساً ، قال يحيى بن سلام : بلغني أن كل شيء في القرآن ﴿ وما أدراك ﴾ فقد أدراه إياه وعلمه صلى الله عليه وسلم وكل شيء قال فيه ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه ما أخبره به .

وقال سفيان بن عيينة : كل ما في القرآن قال فيه : ﴿ وما أدراك ﴾ فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر به وكل شيء قال فيه ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه لم يخبر به ذكره الخطيب ، وما مبتدأ وخبره أدراك و﴿ما الحاقة﴾ جملة من مبتدأ وخبر محلها النصب بإسقاط الخافض أدرى يتعدى إلى المفعول الثاني بالباء كما في قوله :

﴿ ولا أدراكم به ﴾ فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة له كانت في موضع المفعول الثاني وبدون الهمزة يتعدى إلى مفعول واحد بالباء نحو دريت بكذا وإن كان بمعنى العلم تعدى إلى مفعولين والجملة معطوفة على جملة ما الحاقة .

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ أي بالقيامة وسميت بذلك لأنها تقرع قلوب الناس بشدة أهوالها وتؤثر فيها خوفاً وفزعاً كتأثير القرع المحسوس ، فإن القرع في اللغة نوع من الضرب وهو إمساس جسم لجسم بعنف ، وفي المصباح وقرعت الباب من باب نفع طرقته ونقرت عليه وقال المبرد : عنى بالقارعة القرآن الذي نزل في الدنيا على أنبيائهم ، وكانوا يخوفونهم بذلك فيكذبونهم ، وقيل القارعة مأخوذة من القرعة لأنها ترفع أقواماً وتحط آخرين والأول أولى ، ويكون وضع ضمير الحاقة للدلالة على عظيم هولها وفظاعة حالها ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوال الحاقة .

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩﴾

﴿ فأما ثمود ﴾ هم قوم صالح وكانت منازلهم بالحجر ، بين الشام والحجاز ، وقال ابن اسحاق هو وادي القرى والمقصود من ذكر هذه القصص زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهؤلاء الأمم في المعاصي لئلا يحل بها ما حل بهم .

﴿ فأهلكوا بالطاغية ﴾ هي الصيحة التي تجاوزت الحد وهي صيحة جبريل ، وقيل الرجفة أي الزلزلة ، وقيل هي الفرقة التي عقرت الناقة فأهلك قوم ثمود بسببهم وقال ابن زيد : الطاغية عاقر الناقة أن أهلكوا بما أقدم عليه طاغيتهم من عقر الناقة وكان واحداً وإنما أهلكوا جميعاً لأنهم علموا بفعله ورضوا به ، وقيل له طاغيه كما يقال فلان راوية الشعر ، وداهية وعلامة ونسابة ، وقيل الطاغية مصدر كالعافية أي بطغيانهم وكفرهم ، ولكن هذا لا يطابق قوله :

﴿ وأما عاد ﴾ هم قوم هود ، وقد تقدم بيان هذا وذكر منازلهم وأين كانت في غير موضع وهي الأحقاف وهو رمل بين عمان وحضرموت باليمن ، وقدم ذكر ثمود لأن بلادهم أقرب إلى قريش ، وواعظ القريب أكبر ، ولأن إهلاكهم بالصيحة وهي أشبه النفخ في الصور .

﴿ فأهلكوا بريح ﴾ أي بالدبور ﴿ صرصر ﴾ هي الشديدة البرد مأخوذ من الصر وهو البرد ، وقيل الشديدة الصوت وقال مجاهد الشديدة السموم ﴿ عاتية ﴾ عن الطاعة فكأنها عتت على خزانها فلم تطعهم ولم يقدروا على ردها لشدة هبوبها أو عتت على عاد فلم يقدروا على ردها بل أهلكتهم .

قال ابن عباس ما أرسل الله شيئاً من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من ماء

الا بمكيال الا يوم عاد ويوم قوم نوح ، فأما يوم نوح فإن الماء طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل ، ثم قرأ ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ وأما يوم عاد فإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ وعنه قال عاتية غالبة ، وعن علي بن أبي طالب نحوه .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد الدبور» ، وعن ابن عمر مرفوعاً « قال ما أمر الخزان على عاد إلّا مثْل موضع الخاتم من الريح فعتت على الخزان فخرجت من نواحي الأبواب فذلك قوله ﴿ بريح صرصر عاتية ﴾ قال عتوها عتت على الخزان » أخرجه ابن أبي حاتم .

﴿ سخرها عليهم سبع ليال ﴾ اي سلطها كذا قال مقاتل ، وقيل أرسلها وقال الزجاج أقامها عليهم كما شاء ، والتسخير استعمال الشيء بالاقتدار ، وفيه رد على من قال إن سبب ذلك كان باتصال الكواكب ، فنفى هذا المذهب بقوله ﴿ سخرها عليهم ﴾ وبين الله تعالى أن ذلك بقضائه وقدره وبمشيئته لا باتصال الكواكب ، ذكره الخازن ، والجملة مستأنفة لبيان كيفية إهلاكهم ، ويجوز أن تكون صفة لريح أو تكون حالاً منها لتخصيصها بالصفة أو من الضمير في عاتية .

﴿ وثمانية أيام حسوماً ﴾ معطوف على سبع ليال وانتصاب حسوماً على الحال أي ذات حسوم أو على المصدر لفعل مقدر أي تحسمهم حسوماً أو على أنه مفعول له أو على أنه نعت لسبع ليال إلخ ويتضح ذلك بقول الزمخشري الحسوم لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشاهد وشهود أو مصدراً كالشكور والكفور ، فإن كان جمعاً فمعنى قوله حسوماً : نحسات حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة أو متتابعة هبوب الريح ما خفت ساعة تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرة بعد أخرى حتى ينحسم ، وإن كان مصدراً فإما أن ينتصب بقول مضمر أي تحسمهم حسوماً أي

تستأصلهم استئصالاً أو يكون مفعولاً له أي سخرها عليهم للاستئصال .

قال الشهاب : حسوماً أي متتابعات فهو مجاز مرسل من استعمال المقيد وهو الحسم الذي هو تتابع الكي المطلق التتابع ، أو استعارة بتشبيه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكي القاطع للداء انتهى ، والحسوم التتابع فإذا تتابع الشيء لم ينقطع أوله عن آخره قيل له الحسوم .

قال الزجاج : الذي توجبه اللغة في معنى قوله حسوماً أي تحسمهم حسوماً تفنيهم وتذهبهم ، قال النضر بن شميل : حسمتهم قطعتهم وأهلكتهم ، وقال الفراء : الحسوم الإتباع من حسم الداء وهو الكي لأن صاحبه يكوى بالمكواة ثم يتابع ذلك عليه .

وقال المبرد : هو من قولك حسمت الشيء إذا قطعته وفصلته عن غيره وبه قال عبد العزيز بن زرارة الكلابي وقيل الحسم الاستئصال ويقال للسيف حسام لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته ، وقال ابن زيد : حسمتهم فلم يبق منهم أحد ، وروي عنه أنه قال حسمت الأيام والليالي . حتى استوفتها لأنها بدأت بطلوع الشمس من أول يوم وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم ، وقال الليث : الحسوم هي الشؤم أي تحسم الخير عن أهلها كقوله : ﴿ في أيام نحسات ﴾ وقال ابن مسعود : حسوماً متتابعات .

وقال ابن عباس تباعاً وفي لفظ متتابعات ، واختلف في أولها فقيل غداة الأحد وقيل غداة الجمعة وقيل غداة الأربعاء قال وهب : وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز كان فيها بردٌ شديد وريح شديدة ، وكان أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء وكان الشهر كاملاً فكان آخرها هو اليوم الأخير منه .

﴿ فترى ﴾ الخطاب لكل من يصلح له أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالكلام على سبيل الفرض والتقدير أي أنه لو كان حاضراً حينئذ لرأى ﴿ القوم ﴾ والضمير في ﴿ فيها ﴾ يعود إلى الليالي والأيام وقيل إلى مهاب الريح

أو الى البيوت والأول أولى وأظهر ، ﴿ صرعى ﴾ جمع صريع يعني موتى وهو حال ، وقوله :

﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ حال من القوم أو مستأنف أي أصول نخل بلا رؤوس ساقطة أو بالية وقيل خالية لا جوف فيها ، وقال ابن عباس أعجاز نخل هي أصولها والنخل يذكر ويؤنث ومثله ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ وقد تقدم تفسيره وهو إخبار عن عظم أجسامهم ، قال يحيى بن سلام إنما قال خاوية لأن أبدانهم خلت من أرواحهم مثل النخل الخاوية أو أن الريح كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم .

﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أي من فرقة باقية أو نفس باقية أو من بقية على أن باقية مصدر كالعاقبة والعافية و« من » زائدة في المفعول ، قال ابن جرير أقاموا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الريح فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر .

﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف وسكون الباء أي ومن تقدمه من القرون الماضية والأمم الخالية ، وقرىء بكسر القاف وفتح الباء أي ومن هو في جهته من أتباعه ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد الثانية لقراءة ابن مسعود وأبيّ ومن معه ولقراءة أبي موسى ومن تلقاه .

﴿ والمؤتفكات ﴾ قرأ الجمهور بالجمع وقرىء بالأفراد ، واللام للجنس فهي في معنى الجمع هي قرى قوم لوط وكانت خمساً صنعة وصعرة وعمرة ودوما وسروم ، وهي القرية العظمى قاله القرطبي ، وقيل يريد الأمم الذين ائتفكوا ، والمعنى وجاءت المؤتفكات أي المنقلبات من ائتفك أي انقلب أي التي اقتلعها جبريل على جناحه ورفعها إلى أقرب السماء ثم قلبها أي أهلها .

﴿ بالخاطئة ﴾ أي بالفعلة الخاطئة أو الخطأ على أنها مصدر أو ذات الخطأ والمراد أنها جاءت بالشرك والمعاصي ، قال مجاهد بالخطايا وقال الجرجاني بالخطأ العظيم .

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾

﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها المرسل إليها ، قال الكلبي هو موسى وقيل لوط لأنه أقرب قيل ورسول هنا بمعنى رسالة ﴿ فأخذهم ﴾ الله سبحانه ﴿ أخذة رابية ﴾ أي نامية زائدة على أخذات الأمم كما قاله الزجاج ، وقال مجاهد : شديدة ، والمعنى أنها بالغة في الشدة إلى الغاية يقال ربا الشيء يربو إذا زاد وتضاعف ، ومنه الربا إذا أخذ وزاد في الذهب أو الفضة أكثر مما أعطى .

﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ أي تجاوز حده في الارتفاع والعلو وزاد على أعلى جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً وذلك في زمن نوح لما أصر قومه على الكفر وكذبوه ، وقيل طغى على خزانه من الملائكة غضباً لربه فلم يقدروا على حبسه ، قاله علي ، قال قتّادة زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً قال ابن عباس طغى على خزانه فنزل ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح فإنه طغى فنزل بغير كيل ولا وزن .

﴿ حملناكم في الجارية ﴾ أي في أصلاب آبائكم أو حملناهم وحملناكم في أصلابهم تغليباً للمخاطبين على الغائبين ، والجارية سفينة نوح وسميت جارية لأنها تجري في الماء وهو أول من صنع السفن وكان يعلمه جبريل صنعتها فاتخذها على هيئة صدر الطائر ليكون ما يجري في الماء مقارباً لما يجري في الهواء ، ومحل في الجارية النصب على الحال أي رفعناكم فوق الماء حال كونكم في السفينة .

ولما كان المقصود من ذكر قصص هذه الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول قال ﴿ لنجعلها ﴾

أي هـذه الأمور المـذكورة ﴿ لكم ﴾ يـا أمة محمـد صـلى الله عليـه وسلم ﴿ تذكرة ﴾ أي عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله سبحانه وبديع صنعه أو لنجعل هـذه الفعلة التي هي عبارة عن إنجـاء المؤمنين وإغـراق الكافرين لكم تذكرة أو هذه السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، قال ابن جريج كانت ألواحها على الجودي ، والمعنى أبقيت لكم تلك الخشبات حتى تذكر .

﴿ وتعيها أُذن واعية ﴾ أي تحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت ، قال الزجاج يقال أوعيت كذا أي حفظته في نفسي أعيه وعياً ووعيت العلم ووعيت ما قلته كله بمعنى وأوعيت المتاع في الوعاء ، ويقال لكل ما وعيته في غير نفسك أوعيته بالألف ولما حفظته في نفسك وعيته بغير ألف.

قال قتادة : في تفسير هذه الآية أذن سمعت وعقلت ما سمعت ، قال الفراء : المعنى لتحفظها كل أذن عظة لمن يأتي بعد ، وتعيهـا بكسر العين باتفاق القراء السبعة ، وقرئ بإسكانها تشبيهاً لهذه الكلمة برحم وشهد وإن لم تكن من ذلك وجعل الأذن حافظة ومستمعة ومتذكرة ومتفكرة وعاملة تجوز لأن الفاعل لذلك صاحبها ولا ينسب إليها غير السمع ، وإنما أتى به مشاكلة لقوله واعية .

عن علي في الآية قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي فقال علي ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فنسيته » أخرجه سعيد بن منصور وأبو نعيم وغيرهما . قال ابن كثير وهو حديث مرسل .

وعن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي « إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيكَ وأن أعلمك وأن تعي ، وحق لك أن تعي ، فنزلت هذه الآية ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ فأنت أُذنٌ واعيةٌ لعلـي» أخرجه ابن جرير وغيره ، قال ابن كثير ولا يصح وعن ابن عمر قال أذن عقلت عن الله .

ولما ذكر الله سبحانه القيامة وهول أمرها بالتعبير بالحاقة وغيرها شرع في

تفاصيل أحوالها وبدأ بذكر مقدماتها فقال ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ﴾ قال عطاء يريد النفخة الأولى وبه قال القاضي كالكشاف : أي التي عندها خراب العالم ، وقال الكلبي ومقاتل : يريد النفخة الأخيرة ولم يؤنث الفعل وهو نفخ لأن التأنيث مجازي وحسنه الفضل ، قرأ الجمهور بالرفع فيهما على أن نفخة مرتفعة على النيابة وواحدة تأكيد لها وقريء بنصبهما على أن النائب هو الجار والمجرور ، وقال الزجاج : قوله في الصور يقوم مقام ما لم يسم فاعله .

﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ أي رفعت من أماكنها وقلعت عن مقرها بمجرد القدرة الآلهية أو بتوسط الزلزلة أو الريح العاصفة أو الملائكة ، وهذا الرفع بعد خروج الناس من قبورهم ، قرأ الجمهور بالتخفيف وقريء بتشديد الميم للتكثير أو للتعدية .

﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ أو فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ و ﴿ هباء منبثاً ﴾ فلم يتميز شيء من أجزائهما عن الآخر ، وقيل بسطتا بسطة واحدة فصارتا ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ من قولهم اندك سنام البعير إذ تفرش على ظهره ، وبعير أدك وناقة دكاء ومنه الدكان وهذه الدكة كالزلزلة .

قال أبيّ بن كعب في الآية تصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين وذلك قوله ﴿ وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ﴾ قال الفراء ولم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة ومثله قوله تعالى ﴿ إن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ .

﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ أي انشقت جنبها وانصدعت وتفطرت بنزول ما فيها من الملائكة فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية ساقطة القوة من هول ذلك اليوم بعد ما كانت محكمة ، قال الزجاج يقال لكل ما ضعف جداً قد وهى فهو واهٍ وقال الفراء وَهْيُها تَشَقُّقُها ، وقال ابن عباس واهية متخرقة أي متساقطة خفيفة لا تتماسك كالعهن المنفوش .

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿ والملك على أرجائها ﴾ أي جنس الملك واقفون على أطرافها وجوانبها التي لم تسقط وهؤلاء من جملة المستثنى بقوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾ وقال القاضي لعل هلاك الملائكة أثر ذلك وقيل يحيون بالنفخة الثانية ويقفون على ارجائها الباقية وهي جمع رجى مقصور وتثنيته رجوان مثل قفى وقفوان .

والمعنى أنها لما تشققت السماء وهي مساكنهم لجؤوا إلى أطرافها قال الضحاك إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض ويحيطون بها ومن عليها ، وقال سعيد بن جبير : المعنى والملك على حافات الدنيا أي ينزلون إلى الأرض وقيل إذا صارت السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها ، وقال ابن عباس : على حافاتها على ما لم يهي منها .

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم ﴾ أي فوق رؤوسهم ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثمانية ﴾ أي ثمانية أملاك وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، وقيل ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة قاله الكلبي وغيره .

وقال ابن عباس : أيضاً ثمانية أملاك صورة الأوعال رؤوسهم عند العرش في السماء السابعة وأقدامهم في الأرض السفلى ولهم قرون كقرون الوعلة ما بين أصل قرن أحدهم إلى منتهاه خمسمائة عام[1] ، واليوم تحمله

(١) زاد السير ٨/ ٣٥٠.

أربعة .

وعن ابن مسعود قال ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وما بين كل سماء وأرض خمسمائة عام ، وفضاء كل سماء وأرض خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وما بين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، أخرجه أبو سعيد الدارمي وابن خزيمة وغيرهما موقوفاً على ابن مسعود وفي الباب أحاديث كثيرة وصحيحة[1] .

﴿ يومئذ تعرضون ﴾ أي تعرض العباد على الله لحسابهم ومثله ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالماً به ، وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال .

عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ، معاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله[2] » أخرجه أحمد والترمذي ، وابن ماجة وغيرهم ، وأخرج ابن جرير والبيهقي في البعث عن ابن مسعود نحوه[3] .

وجملة ﴿ لا تخفى منكم خافية ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير

---

(١) رواه الطبري من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو خبر مقطوع . ورواه الطبري أيضاً من طريق ابن اسحاق قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هم اليوم أربعة » يعني حملة العرش « فإذا كانوا يوم القيامة أمدَّهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية » وقد قال الله : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وهذا خبر مقطوع أيضاً .
قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أي : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ، قال : ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش ، العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب أ هـ .

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٥١

(٣) زاد المسير ٨/ ٣٥١

تعرضون أي تعرضون حال كونكم لا يخفى على الله سبحانه من ذواتكم أو أقوالكم وأفعالكم وسرائركم التي كنتم تخفونها في الدنيا خافية كائنة ما كانت ، والتقدير أي نفس خافية أو فعلة خافية ، قريء بالتاء والياء وهما سبعيتان(١).

ولما ذكر سبحانه العرض ذكر تفصيل ما يكون فيه فقال ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ أي أعطي كتابه الذي كتبه الحفظة عليه من أعماله ﴿ فيقول ﴾ خطاباً لجماعته لما سر به أو لأهله وأقربائه .

﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾ قال ابن السكيت والكسائي : العرب تقول « ها » يا رجل ، وللإثنين هاؤما يا رجلان وللجمع هاؤم يا رجال ، قيل والأصل هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف ، قال ابن زيد ومعنى هاؤم تعالوا وقال مقاتل هلم وقيل خذوا ، والذي صرح به النحاة أنها بمعنى خذ تقول ها بمعنى خذ ، هاؤما بمعنى خذا ، وهاؤم بمعنى خذوا فهي اسم فعل ، وقد يكون فعلاً صريحاً لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها ، وفيها ثلاث لغات كما هو معروف في علم الإعراب(٢).

والهاء في كتابيه وسلطانيه وماليه ، هي هاء السكت ، وقرأ الجمهور في هذه بإثبات الهاء وقفاً ووصلاً مطابقة لرسم المصحف ، ولولا ذلك لحذفت في

---

(١) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٤٧٢٧) وسنده جيد ، وذكره ابن كثير في « تفسيره » من رواية ابن أبي حاتم وقال : وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات .

(٢) رواه احمد في « المسند » وابن ماجة : ٢ / ١٤٣٠ من رواية وكيع عن علي بن رفاعة عن الحسن عن أبي موسى . قال البوصيري في «الزوائد» : رجال الإسناد ثقات . إلا أنه منقطع ، والحسن لم يسمع من أبي موسى ، قاله علي بن المديني ، وأبو حاتم ، وأبو زرعة ، وقد رواه الترمذي عن الحسن عن أبي هريرة وقال : لا يصح هذا الحديث من قِبَل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ورواه الطبري ٢٩ / ٥٩ من رواية مجاهد بن موسى عن زيد ، عن سليمان بن حامد عن مروان الأصغر عن أبي وائل عن عبد الله نحوه ، وقال ابن كثير : ورواه سعيد بن أبي عَروبة عن قتادة مرسلاً مثله .

الوصل كما هو شأن هاء السكت ، واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة في الحاق الهاء في السكت ، ويوافق الخط يعني خط المصحف ، وقرأ جماعة بحذفها وصلاً ، وإثباتها وقفاً في جميع هذه الألفاظ واختار أبو حاتم هذه إتباعاً للغة ، وقريء بحذفها وصلاً ووقفاً ، تنازع في كتابيه هاؤم واقرأوا فاعمل الأول عند الكوفيين والثاني عند البصريين ، وأضمر في الآخر اي: هاؤموه قرأوا كتابيه أو هاؤم اقرأوه كتابيه .

﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ أي علمت وأيقنت في الدنيا أني أحاسب في الآخرة ، وقيل المعنى إني ظننت أن يؤاخذني الله بسيئآتي فقد تفضل عليّ بعفوه ولم يؤاخذني ، قال الضحاك كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك ، قال مجاهد ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك ، قال الحسن في هذه الآية أن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة وأن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل .

قيل والتعبير بالظن للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً ، قال ابن عباس : ظننت أي أيقنت ، قال النسفي : وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العبادات والأحكام ، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلما يخلو عن الوسواس والخواطر وهي تفضي إلى الظنون ، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه .

﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية لا مكروهة أو ذات رضا يرضى بها صاحبها لا يضجر منها ولا يملها ولا يسأمها قال أبو عبيدة والفراء : راضية أي مرضية كقوله ﴿ ماء دافق ﴾ أي مدفوق فقد أسند إلى العيشة ما هو لصاحبها فكان ذلك من المجاز في الإسناد ، والعرب لا تعبر عن أكثر السعادات بأكثر من العيشة الراضية والمعتبر في كمال اللذة الرضا ، وقيل المعنى أنه لو كان للمعيشة عقل لرضيت لنفسها بحالتها .

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ
﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ في جنة عالية ﴾ أي مرتفعة المكان لأنها في السماء السابعة أو مرتفعة المنازل والمباني أو عظيمة في النفوس ، وهو خبر بعد خبر ﴿ قطوفها دانية ﴾ القطوف جمع قطف بكسر القاف ما يقطف من الثمار بالفتح مصدر ، والقطاف بالفتح والكسر وقت القطف ، والمعنى أن ثمارها قريبة ممن يتناولها من قائم أو قاعد أو مضطجع أو متكىء ، عن البراء بن عازب دانية قريبة يتناول الرجل من فواكهها وهو قائم .

﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي يقال لهم كلوا واشربوا في الجنة ، وجمع الضمير مراعاة للمعنى وهذا أمر امتنان لا أمر تكليف ﴿ هنيئاً ﴾ أي أكلاً طيباً لذيذاً وشرباً هنيئاً شهياً مرياً لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا ، وقال مجاهد هي أيام الصيام .

﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ قيل تكون يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه بها وقيل تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ﴿ فيقول ﴾ حزناً كرباً لما رأى فيه من سيئآته وسوء عاقبته التي كشف له عنها الغطاء ﴿ يا ليتني لم أوت ﴾ أي لم أعط ﴿ كتابيه ﴾ لما يرى فيه من الفضائح ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾ أي لم أدر أي شيء حسابي لأن كله عليه ، والاستفهام للتعظيم

والتهويل ، أي بل استمريت جاهلاً كذلك كما كنت في الدنيا .

﴿ يا ليتها ﴾ أي ليت الموتة التي متها ﴿ كانت القاضية ﴾ ولم أحي بعدها ، ومعنى القاضية القاطعة للحياة ، والمعنى أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله ، وما يصير اليه العذاب فالضمير في « ليتها » يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة لأنها لظهورها كانت كالمذكورة .

قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره من الموت ، وشر من الموت ما يطلب منه الموت وقيل الضمير يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب ، والمعنى يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت عليّ، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت .

﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ أي لم يدفع عني من عذاب الله شيئاً ، على أن « ما نافية » أو استفهامية والمعنى أي شيء أغنى عني مالي الذي منعت منه حق الفقراء وتعظمت به على عباد الله ، وصيغ الخطاب يقتضي أن مالي كلمة واحدة بمعنى المال ، وفي أبي السعود ما كان لي من اليسار .

﴿ هلك عني سلطانيه ﴾ أي هلكت وضلت وغابت عني حجتي ، كذا قال مجاهد وعكرمة والسدي والضحاك ، وقال ابن زيد : يعني سلطاني الذي في الدنيا وهو الملك لم أجد له الآن نفعاً وبقيت حقيراً ذليلاً ، وقيل تسلطي على جوارحي ، قال مقاتل يعني حين شهدت عليه الجوارح بالشرك .

وحينئذ يقول الله عز وجل ﴿ خذوه فغلوه ﴾ أي اجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال والخطاب لخزنة جهنم أي زبانيتها ، وسيأتي في سورة المدثر أن عدتهم تسعة عشر ، قيل ملكاً وقيل صفاً وقيل صنفاً ، حكى الثلاثة الرازي .

﴿ ثم الجحيم صلوه ﴾ أي ادخلوه الجحيم والمعنى لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظيمة ، والترتيب بثم في الزمان فإن إدخاله النار بعد غله ، وكذلك إدخاله في السلسلة كما يأتي بعد إدخاله النار ، والتراخي المفاد بها

للتفاوت في الرتب ، فكل واحد من المعطوفين بها أشد من العذاب وأغلى مما قبله ، وفي الخطيب صلوه أي بالغوا في تصليته إياها ، وكرروها بغمسه في النار كالشاة المصلية مرة بعد مرة لأنه كان يتعاظم على الناس ، فناسب أن يصلى أعظم النيران .

﴿ ثم في سلسلة ﴾ عظيمة جداً ، والسلسلة حلق منتظمة كل حلقة منها في حلقة ﴿ ذرعها ﴾ أي طولها ﴿ سبعون ذراعاً ﴾ قال الحسن الله أعلم بأي ذراع هو ، وقيل بذراع الملك ، قال نوف الشامي : كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد ما بينك وبين مكة وكان نوف في رحبة الكوفة ، قال مقاتل لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، وقال ابن جريج لا يعرف قدرها إلا الله ، وهذا العدد حقيقة أو مبالغة ، ومعنى :

﴿ فاسلكوه ﴾ فاجعلوه فيها بحيث يكون كأنه السلك أي الحبل الذي يدخل في ثقب الخرزات بعسر لضيق ذلك الثقب إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف عليه ، يقال سلكته الطريق إذا أدخلته فيه ، ولم تمنع الفاء من تعلق الفعل أي الداخلة عليه بالظرف المتقدم وهو في سلسلة ، وتقديمها كتقديم الجحيم للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذبون به ؛ وثم لتفاوت ما بينها في الشدة لا للدلالة على تراخي المدة .

قال سفيان : بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه . قال الكلبي : تسلك سلك الخيط في اللؤلؤ وقال سويد بن أبي نجيح : بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة ، قال ابن عباس : السلسة تدخل في استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى .

وجملة ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ تعليل لما قبلها على طريق الاستئناف ، وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة ، فمن لا يعظمه فقد استوجب ذلك .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يحث ولا يحرض نفسه على إطعامه من ماله أو لا يحث الغير على إطعامه ، ووضع الطعام موضع الإطعام كما يوضع العطاء موضع الإعطاء ، والإضافة للمفعول ، ويجوز أن يكون في الكلام حذف المضاف أي على بذل طعام المسكين والإضافة له لكونه مستحقة وآخذه فهي لأدنى ملابسة فالحض البعث والحث على الفعل والحرص على وقوعه ، ومنه حروف التحضيض المبوب له في النحو لأنه يطلب به وقوع الفعل وإيجاده .

وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث لأن الناس لا يطلبون على المساكين الجزاء فيما يطعمونهم ، وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاء الثواب في الآخرة فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم .

وفي جعل هذا قريناً لترك الإيمان بالله من الترغيب في التصدق على المساكين وسد فاقتهم وحث النفس والناس على ذلك ما يدل أبلغ دلالة ويفيد أكمل فائدة على أن منعهم من أعظم الجرائم وأشد المآثم ، وعن أبي الدرداء قال : « إن لله سلسلة لم تزل تغلي منها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تلقى في أعناق الناس ، وقد نجانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحضني على طعام المسكين يا أم الدرداء » أخرجه أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر .

وقال الحسن أدركت أقواماً يعزمون على أهليهم أن لا يردوا سائلاً وكان بعضهم يأمر أهله بتكثير المرقة لأجل المساكين ويقول خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الثاني بالإطعام ، وقيل لعل وجه التخصيص لهذين الأمرين بالذكر أن أقبح العقائد الكفر بالله تعالى ، وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب .

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا
تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا
بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ
حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾

﴿ فليس له اليوم ههنا ﴾ أي يوم القيامة في الآخرة ﴿ حميم ﴾ أي قريب ينفعه أو يشفع له يحرق له قلبه لأنه يوم يفر فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيب من حبيبه ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ أي وليس له طعام يأكله إلا من صديد أهل النار وما ينغسل من أبدانهم من القيح والصديد ، وغسلين فعلين من الغسل أو الغسالة فنونه وياؤه زائدتان .

قال أهل اللغة هو ما يجري من الجراح إذا ما غسلت ، وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو شجر يأكله أهل النار ، وقال قتادة : هو شر الطعام ، وقال ابن زيد : لا يعلم ما هو ولا ما الزقوم إلا الله تعالى ، وعن ابن عباس قال : الغسلين الدم والماء والصديد الذي يسيل من لحومهم .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن دلواً من غسلين يهراق في الدنيا لانتن أهل الدنيا »[1] أخرجه الحاكم وصححه ، وعن ابن عباس أيضاً قال الغسلين اسم طعام من أطعمة أهل النار ، وقال سبحانه في موضع آخر .

﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ فيجوز أن يكون الضريع هو الغسلين ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فليس له اليوم ههنا حميم

(١) الحاكم ٥٠١ / ٢

إلا من غسلين ، على أن الحميم هو الماء الحار ، ولا طعام أي ليس لهم طعام يأكلونه ، قاله أبو البقاء ، ولا ملجىء لهذا التقديم والتأخير .

والتوفيق بين ما هنا وبين قوله في محل آخر ﴿ إلا من ضريع ﴾ وفي موضع آخر ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ وفي موضع آخر ﴿ ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ أنه يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك وأن العذاب أنواع والمعذبين طبقات فمنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع ومنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة النار لكل باب منهم جزء مقسوم .

﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ المراد بهم أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب ، قال الكلبي : المراد أهل الشرك ، قرأ الجمهور الخاطئون مهموزاً وهو اسم فاعل من خطىء يخطأ من باب علم إذا فعل غير الصواب متعمداً والمخطىء من يفعله غير متعمد ، وقرىء الخاطيون بالياء المضمومة بدل الهمزة وقرىء بالطاء المضمومة بدون همزة .

﴿ فلا أقسم بما تبصرون ﴾ من المخلوقات ﴿ وما لا تبصرون ﴾ منها قال قتادة أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، فيدخل في هذا جميع المخلوقات ، والإقسام بغير الله إنما نهى عنه في حقنا وأما هو تعالى فيقسم بما شاء على ما شاء ، وهذا رد لكلام المشركين كأنه قال ليس الأمر كما تقولون ، و ﴿ لا ﴾ زائدة والتقدير فأقسم بما تشاهدونه وما لا تشاهدونه .

وقيل إن ﴿لا﴾ليست بزائدة بل هي أصلية لنفي القسم أي لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق في ذلك والأول أولى ، وقال البيضاوي : فلا أقسم لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم . أو فلا ،رد لانكارهم البعث و ﴿أُقسمُ﴾ مستأنف ، قال الكرخي : وأما حمله على معنى نفي الإقسام لظهور الأمر فيرده تعيين المقسم به بقوله بما تبصرون الخ أ هـ .

﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ أي أن القرآن لتلاوة رسول كريم على الله فهو في غاية الكرم الذي هو البعد عن مساوىء الأخلاق ، على أن المراد

بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو أنه لقول يبلغه رسول كريم ، قال الحسن والكلبي ومقاتل يريد به جبريل ، دليله قوله :

﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرشْ مكين ﴾ وعلى كل حال فالقرآن ليس من قول محمد صلى الله عليه وسلم ولا من قول جبريل عليه السلام ، بل هو من قول الله عز وجل ، فلا بد من تقدير التلاوة أو التبليغ ، وفي لفظ الرسول ما يدل على ذلك فاكتفى به عن أن يقول عن الله تعالى .

﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ كما تزعمون لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابهاً لها والشاعر هو الذي يأتي بكلام مقفى موزون بقصد الوزن ﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ أي إيماناً قليلاً تؤمنون وتصديقاً يسيراً تصدقون ، وقال البغوي أراد بالقليل نفي إيمانهم وتذكرهم أصلاً كقولك لمن لا يزورك قلما تأتينا ، وأنت تريد لا تأتينا أصلاً .

﴿ ولا بقول كاهن ﴾ كما تزعمون فإن الكهانة أمر آخر لا جامع بينها وبين هذا ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ قرىء بالتاء وقرىء بالياء التفاتاً عن الخطاب إلى الغيبة أي تذكراً أو زماناً تتذكرون و﴿ ما ﴾ زائدة في الموضعين .

وذكر الإيمان مع نفي الشعر ، والتذكر مع نفي الكهانة لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن لا ينكره إلا معاند كافر بخلاف مباينته للكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله صلى الله عليه وآله وسلم وتذكر معاني القرآن المنافية لطريقة الكهانة ومعاني أقوالهم ، قال أبو جهل إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم شاعر وقال الوليد بن المغيرة ساحر ، وقال عقبة كاهن ؛ فنزلت هذه الآية كذا قال مقاتل ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هو تنزيل منه على لسانه .

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ قرأ الجمهور مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول مع رفع بعض ، وقرىء ﴿ ولو يقول ﴾ على صيغة المضارع ،

والتقول تكلف القول وسمي الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف وكل كاذب يتكلف ما يكذبه ؛ والأقاويل جمع أقوال وهي جمع قول فهو نظير أبابيت جمع أبيات جمع بيت ، «سميت الأقوال المنقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً كقولك الأعاجيب والأضاحيك كأنها جمع أقوولة من القول ، والمعنى ولو تقول ذلك الرسول وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو جبريل عليه السلام على ما تقدم وجاء به من جهة نفسه ؛ وادعى علينا شيئاً لم نقله ؛

﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي بيده اليمين ؛ قال ابن جرير : إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب ؛ وقال الفراء والمبرد والزجاج وابن قتيبة : باليمين أي بالقوة والقدرة ؛ وبه قال : ابن عباس ؛ وقال ابن قتيبة : إنما أقام اليمين مقام القسوة لأن قوة كل شيء في ميامنه ؛ وقيل المعنى لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام ، وقيل المعنى لأذللناه وأهناه .

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ هو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب وهو مناطه إذا قطع مات صاحبه ؛ قال الواحدي والمفسرون يقولون إنه نياط القلب ؛ وقال ابن عباس عرق القلب وعنه قال نياط القلب وعن مجاهد هو حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع ، وقال محمد بن كعب إنه القلب ومراقه وما يليه ؛ وقال الكلبي إنه عرق بين العلباء والحلقوم . والعلباء عصب العنق وهما علباوان بينهما العرق : قال ابن قتينة لم يرد أنا نقطعه بعينه بل المراد منه أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه .

﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أي ليس منكم أحد يحجزنا عنه ويدفعنا منه فكيف يتكلف الكذب على الله لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ولا تقدرون على الدفع عنه ، وإنما قال « حاجزين » بلفظ الجمع وهو وصف « أحد » رداً على معناه .

وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾
وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿ وإنه لتذكره للمتقين ﴾ أي أن القرآن لتذكرة لأهل التقوى لأنهم المنتفعون به لإقبالهم عليه إقبال مستفيد ، والظاهر أن هذا وما بعده معطوف على جواب القسم السابق فهو من جملة المقسم عليه. وما بينهما اعتراض .

﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أي أن بعضكم يكذب بالقرآن فنحن نجازيهم على ذلك بما يليق به إظهاراً للعدل وفي هذا وعيد شديد ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لحسرة ﴾ وندامة ﴿ على الكافرين ﴾ يوم القيامة عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين . وقيل هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله .

﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لحق اليقين ﴾ أي عينه ومحضه لكونه من عند الله فلا يحول حوله ريب ولا يتطرّقُ اليه شك وهو من إضافة الصفة للموصوف ، أي اليقين الحق ، وحق اليقين فوق علم اليقين ، وقيل هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي نزهه عما لا يليق به وقيل فصل لربك والأول أولى ، وقيل هو قوله سبحان الله .

سورة سأل و يقال سورة المعارج

هي أربع وأربعون آية وهي مكية

قال القرطبي بالاتفاق عن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)

﴿ سأل سائل ﴾ قرأ الجمهور سأل بالهمزة من السؤال وهي اللغة الفاشية ، وهو إما مضمن معنى الدعاء فلذلك عدي بالباء كما تقول دعوت بكذا والمعنى دعا داع على نفسه ﴿ بعذاب واقع ﴾ ويجوز أن يكون على أصله والباء بمعنى عن كقوله فاسأل به خبيراً ، وقرىء بغير همزة وهو إما من باب التخفيف بقلب الهمزة ألفاً فيكون معناها معنى قراءة من همز أو يكون من السيلان والمعنى سال واد في جهنم يقال له سائل كما قال زيد بن ثابت . ويؤيده قراءة ابن عباس سال سيل أي اندفع واد بعذاب واقع وصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه ، وقيل إن سال بمعنى التمس والمعنى التمس ملتمس عذاباً .

﴿ للكافرين ﴾ فتكون الباء زائدة كقوله ﴿ تنبت بالدهن ﴾ ، والوجه الأول هو الظاهر . قال الأخفش يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان قال أبو علي الفارسي وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما ويتعدى إليه بحرف الجر فيكون التقدير سأل سائل الله أو النبي صلى الله عليه وسلم أو المسلمين بعذاب أو عن عذاب ، وهذا السائل هو النضر بن الحرث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وهو ممن قتل يوم بدر صبراً ، وعن ابن عباس مثله[1] .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٥٠٢ عن سعيد بن جبير وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي فقال : على شرط البخاري فقط ، وأورد السيوطي في « الدر » ٦ / ٢٦٣ وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما

وقال الربيع هو أبو جهل . وقيل هو الحرث بن النعمان الفهري ، وقيل إنها نزلت في جماعة من كفار قريش والأول أولى ، وقرىء سال سال مثل مال مال على أن الأحل سائل فحذفت العين تخفيفاً كما قيل شاك في شائك السلاح .

وقيل السائل هو نوح عليه السلام سأل العذاب للكافرين وقيل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالعقاب عليهم ، والمراد بالعذاب الواقع إما في الدنيا كيوم بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار .

وقوله ﴿ للكافرين ﴾ صفة أخرى لعذاب أي كائن لهم أو متعلق بواقع ، واللام للعلة او يسأل على تضمينه معنى دعا أو في محل رفع على تقدير هو للكافرين أو اللام بمعنى على ، ويؤيده قراءة أبيّ على الكافرين ، قال الفراء التقدير بعذاب للكافرين واقع بهم ، فالواقع من نعت العذاب ، وجملة ﴿ ليس له دافع ﴾ صفة أخرى لعذاب أو حال منه أو مستأنفة ، والمعنى أنه لا يدفع ذلك العذاب الواقع به أحد .

وقوله : ﴿ من الله ﴾ متعلق بواقع أي واقع من جهته سبحانه ، ولم يمنع النفي من ذلك لأن « ليس » فعل لا حرف فصح أن يعمل ما قبلها فيما بعدها أو متعلق بدافع أي ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته .

﴿ ذي المعارج ﴾ أي ذي الدرجات التي تصعد فيها الملائكة ، وقال ابن عباس ذي العلو والفواضل ، وقال الكلبي هي السموات وسماها معارج لأن الملائكة تعرج فيها ، وقيل المعارج مراتب نعم الله سبحانه على الخلق ، وقيل المعارج العظمة . وقيل هي الغرف وقيل الأعمال الصالحة فإنها تتفاوت بحسب اجتماع الآداب والسنن وخلوص النية وحضور القلب .

وقرأ ابن مسعود ﴿ ذي المعاريج ﴾ يقال معارج ومعاريج مثل مفاتح ومفاتيح جمع معريج بفتح الميم وهو موضع الصعود لا بكسرها لأنه آلة الصعود ، وهو غير مناسب لهذا المقام .

﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ أي تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم ، قرأ الجمهور تعرج بالفوقية ، وقرىء بالتحتية ، والروح جبريل أفرد بالذكر بعد الملائكة لشرفه ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وقيل الروح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل ، وقال أبو صالح : إنه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة الناس وليسوا من الناس ، وقال قبيصة بن ذؤيب : إنه روح الميت حين يقبض والأول أولى ، ومعنى « إليه » إلى المكان الذي ينتهون إليه وقيل إلى عرشه » ، وقيل إلى مهبط أمره من السماء ، وقيل هو كقول إبراهيم : ﴿ إني ذاهب إلى ربي ﴾ أي إلى حيث أمرني ربي .

﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال ابن إسحق والكلبي ووهب بن منبه أي تعرج الملائكة إلى المكان الذي هو محلها في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد وقال عكرمة : وروي عن مجاهد أن مدة عمر الدنيا هذا المقدار لا يدري أحدكم مضى ولا كم بقي ولا يعلم ذلك إلا الله .

والكلام على مدة عمر الدنيا ماضيها وباقيها مبسوط في كتابنا لقطة العجلان مما تمس اليه حاجة الإنسان ، وقال قتادة والكلبي ومحمد بن كعب أن المراد يوم القيامة يعني أن مقدار الأمر فيه لو تولاه غيره سبحانه خمسون ألف سنة ، وهو سبحانه يفرغ منه فى ساعة ، وقيل إن مدة موقف العباد للحساب هي هذا المقدار ثم يستقر بعد ذلك أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، وقيل أن مقدار يوم القيامة على الكافرين خمسون سنة وعلى المؤمنين مقدار ما بين الظهر والعصر .

وقيل ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخييل لغاية ارتفاع تلك المعارج

وبعد مداها أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره كما تصف العرب أيام الشدة بالطول ، وأيام الفرح بالقصر . ويشبهون اليوم القصير بإبهام القطاة ، والطويل بظل الرمح ، وحينئذ لا تنافي بين هذه الآية وبين آية السجدة ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ لأنه أيضاً مسوق على سبيل التشديد على الكافرين .

وقيل في الكلام تقديم وتأخير أي ليس له دافع من الله ذي المعارج في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه ، وقال ابن عباس : في الآية منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق سبع سموات مقدار خمسين ألف سنة .

وقوله ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ قال يعني ينزل الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقداره ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وعنه قال غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء خمسمائة عام وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام ، ومن السماء إلى السماء خمسمائة عام ، فذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام فذلك قوله : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

وعنه في قوله : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ قال هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، وفي قوله : ﴿ مقداره خمسين ألف سنة ﴾ فهذا يوم القيامة جعله الله سبحانه على الكافرين خمسين ألف سنة ، وعنه قال لو قدرتموه لكان خمسين ألف سنة من أيامكم يعني يوم القيامة .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال : « والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن

المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا »[1] أخرجه أحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث وفي إسناده دراج عن أبي الهيثم وهما ضعيفان .

وعن أبي هريرة مرفوعاً قال : « ما قدر طول يوم القيامة على المؤمنين إلا كقدر ما بين الظهر إلى العصر » أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في البعث .

ولو كان المراد حقيقة العدد لم يعقل أن الزمان الواحد يكون مقداره خمسين ألف سنة ، ويكون مقداره ألف سنة ، ويكون مقداره قدر صلاة ركعتين ، وقيل العدد على حقيقته فإن يوم القيامة خمسون موطناً كل موطن ألف سنة والله أعلم بمراده بذلك .

وقد قيل في الجمع أن من أسفل العالم إلى العرش خمسين ألف سنة ، ومن أعلى سماء الدنيا إلى الأرض ألف سنة لأن غلظ كل سماء خمسمائة عام . وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة عام كما تقدم ، فالمعنى أن الملائكة إذا عرجت من أسفل العالم إلى العرش كان مسافة ذلك خمسين ألف سنة . وإن عرجوا من هذه الأرض التي نحن فيها إلى باطن هذه السماء التي هي سماء الدنيا كان مسافة ذلك ألف سنة . وقد تقدم ما يؤيد هذا عن ابن عباس . وقد قدمنا الجمع بين هذه الآية وآية السجدة في سورة السجدة فتذكر .

---

(١) رواه الامام أحمد عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه : « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا » ورواه ابن جرير الطبري عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به ، ودراج وشيخه أبو الهيثم ضعيفان .

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر ﴿فاصبر﴾ يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به ﴿صبراً جميلاً﴾ لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله . وهذا معنى الصبر الجميل . وقيل هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب . قال ابن زيد وغيره : هي منسوخة بآية السيف . قال ابن عباس : في الآية لا تشكو إلى أحد غيري .

﴿إنهم يرونه﴾ أي يرون العذاب الواقع بهم ويعتقدونه ، أو يرون يوم القيامة أو يرون يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ﴿بعيداً﴾ أي غير كائن لأنهم لا يؤمنون به ، فمعنى بعيداً أي مستبعداً محالاً ، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب ، قال الأعمش يرون البعث بعيداً لأنهم لا يؤمنون به ، كأنهم يستبعدونه على جهة الاستحالة ، كما تقول لمن تناظره : هذا بعيد أي لا يكون ﴿ونراه قريباً﴾ أي نعلمه كائناً قريباً لأن ما هو آت قريب ، وقيل المعنى ونراه هيناً في قدرتنا غير متعسر ولا متعذر ، والجملة تعليل للأمر بالصبر .

ثم أخبر سبحانه متى يقع بهم العذاب فقال : ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ أي يقع بهم العذاب يوم كذا والمهل ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة ، وقال مجاهد : هو القيح من الصديد والدم ، وقال عكرمة وغيره : هو دردي الزيت ، وبه قال ابن عباس : وقد تقدم تفسيره في سورة الكهف والدخان .

﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي كالصوف المصبوغ ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً ، قال الحسن تكون الجبال كالصوف الأحمر ، وهو أضعف الصوف ، وقيل العهن الصوف ذو الألوان فشبه الجبال به في تكونها

ألواناً كما في قوله : ﴿ جدد بيض وحمر وغرابيب سود ﴾ فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ، وهذه الأقوال في معنى العهن في اللغة ، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهناً منفوشاً ثم هباء منثوراً .

﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ أي لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه ، والخليل عن خليله كما قال سبحانه : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وقيل المعنى لا يسأل حميم عن حميم لشغله عنه فحذف الحرف ووصل الفعل .

قرأ العامة يسأل مبنياً للفاعل والمفعول الثاني محذوف أي لا يسأله نصره ولا شفاعته لعلمه أن ذلك مفقود ، وقيل لا يسأل شيئاً من حمل أوزاره ، وقرىء على البناء للمفعول والمعنى لا يسأل حميم إحضار حميمه ، وقيل هذه القراءة على إسقاط حرف الجر ، أي لا يسأل حميم عن حميم بل كل إنسان يسأل عن نفسه وعن عمله ، وقيل لا يطالب به ولا يؤخذ بذنبه .

وجملة ﴿ يبصرونهم ﴾ مستأنفة أو صفة لقوله حميماً أي يبصر كل حميم حميمه لا يخفى منهم أحد عن أحد ، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه ولا يتساءلون ولا يكلم بعضهم بعضاً لاشتغال كل أحد منهم بنفسه ، وقال ابن زيد يبصر الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدنيا وهم الرؤساء المتبوعون ، وقيل إن قوله :

﴿ يبصرونهم ﴾ يرجع إلى الملائكة أي يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم ، وإنما جمع الضميرين في يبصرونهم وهما للحميمين حملاً على معنى العموم لأنهما نكرتان في سياق النفي ، قاله السمين والزمخشري ، قال الطيبي : وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين في سياق النفي يعمان كما التزم في قوله والله لا أشرب ماء من إداوة أنه يعم في المياه والأداوي ، خلافاً لبعضهم في الاداوة .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾
وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً
لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾

قال ابن عباس ﴿ يبصرونهم ﴾ يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض ، قرأ الجمهور يبصرونهم بالتشديد وقرىء بالتخفيف .

﴿ يود المجرم ﴾ أي الكافر أو كل مذنب يذنب ذنباً يستحق به النار ﴿ لو ﴾ بمعنى أن ﴿ يفتدي من عذاب يومئذ ﴾ أي العذاب الذي ابتلوا به يومئذ ، قرأ الجمهور بإضافة العذاب وكسر الميم من يومئذ وقرىء بالتنوين وقطع الإضافة وبفتح الميم .

﴿ ببنيه وصاحبته ﴾ زوجته ﴿ وأخيه ﴾ فإن هؤلاء أعز الناس عليه وأكرمهم لديه ، فلو قبل منه الفداء لفدى بهم نفسه ، وخلص مما نزل به من العذاب ، والجملة مستأنفة لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ بحد يود الافتداء من العذاب بمن ذكر ، وقيل حال من الضمير المرفوع أو المنصوب من يبصرون .

﴿ وفصيلته التي تؤويه ﴾ أي عشيرته الأقربين الذين يضمونه في النسب أو عند الشدائد ويأوي إليهم ، قال أبو عبيدة الفصيلة دون القبيلة ، وقال ثعلب هم آباؤهم الأدنون ، قال المبرد الفصيلة القطيعة من أعضاء الجسد وسميت عشيرة الرجل فصيلة تشبيهاً لها بالبعض منه ، وقال مالك إن الفصيلة هي التي تربيه .

﴿ ومن ﴾ أي ويود المجرم لو افتدى بمن ﴿ في الأرض جميعاً ﴾ من

الثقلين وغيرهما من الخلائق . وقوله ﴿ ثم ينجيه ﴾ معطوف على يفتدي أي يود لو يفتدي ثم ينجيه الافتداء ، وكأن العطف بثم لدلالتها على استبعاد النجاة وقيل ثم ينجيه جواب يود ، والأول أولى .

﴿ كلا ﴾ ردع للمجرم عن تلك الودادة ، وبيان امتناع ما وده من الافتداء ، وكلا يأتي بمعنى حقاً وبمعنى لا النافية مع تضمنها لمعنى الزجر والردع ، وهي هنا تحتمل الأمرين ﴿ إنها لظى ﴾ الضمير عائد إلى النار المدلول عليها بذكر العذاب أو هو ضمير مبهم يفسره ما بعده ، ويترجم عنه الخبر ، قاله الزمخشري ، ولظى علم لجهنم واشتقاقها من التلظي في النار ، وهو التلهب ، ولذلك منع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وقيل أصله لظظ بمعنى دوام العذاب فقلبت إحدى الظائين ألفاً ، وقيل لظى هي الدركة الثانية من طباق جهنم .

﴿ نزاعة للشوى ﴾ قرأ الجمهور نزاعة بالرفع على أنه خبر ثان لأن ، أو خبر مبتدأ محذوف أو تكون لظى بدلاً من الضمير المنصوب ونزاعة خبر « أن » أو على أن نزاعة صفة للظى على تقدير عدم كونها علماً أن يكون الضمير في ﴿إنها﴾ للقصة ويكون لظى مبتدأ ونزاعة خبره والجملة خبر « إن » وقرىء بالنصب على الحال وقال أبو علي الفارسي حمله على الحال بعيد لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال ، وقيل العامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلظي أو النصب على الاختصاص والشوى الأطراف أو جمع شواة كنوى ونواة وهي جلدة الرأس .

وقال الحسن وثابت البناني : للشوى أي لمكارم الوجه وحسنه وكذا قال أبو العالية وقتادة ، وقال قتادة : تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك فيه شيئاً ، وقال الكسائي : هي المفاصل وقال أبو صالح هي أطراف اليدين والرجلين ، وقال ابن عباس : تنزع أم الرأس ، وقيل الشوى الأعضاء التي ليست بمقتل ، وقيل هو جلد الإنسان .

﴿ تدعو﴾ لظى ﴿ من أدبر﴾ عن الحق في الدنيا ﴿ وتولى ﴾ أي أعرض عنه قيل إنها تقول إلي يا مشرك إلي يا منافق ثم تلتقطهم التقاط الطير للحب ، وقيل معنى تدعو تهلك تقول العرب دعاك الله أي أهلكك ، وقيل ليس هو الدعاء باللسان ، ولكن دعاؤها إياهم تمكنها من عذابهم ، وقيل المراد إن خزنة جهنم تدعو الكافرين والمنافقين ، فإسناد الدعاء إلى النار من باب إسناد ما هو للحال إلى المحل ، وقيل هو تمثيل وتخييل ولا دعاء في الحقيقة . والمعنى أن مصيرهم إليها والأول أولى لقوله ﴿ وتقول هل من مزيد﴾ ولا موجب للصرف عن الظاهر ، والله على كل شيء قدير .

﴿ وجمع فأوعى ﴾ أي جمع المال فجعله في وعاء ولم يؤد حق الله منه ، وفي هذا ذم لمن جمع المال فأوعاه وكثره ولم ينفقه في سبيل الخير أو لم يؤد زكاته .

﴿ إن الإنسان ﴾ أي الجنس عبر به لما له من الإنس لنفسه والرؤية لمحاسنها والنسيان لربه ولدينه ﴿ خلق هلوعاً ﴾ قال في الصحاح الهلع في اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه ، يقال هلوع بالكسر فهو هلع وهلوع ، وقال عكرمة : هو الضجور ، وقال ابن عباس : هو الشره ، وقال الواحدي : والمفسرون يقولون تفسير الهلع ما بعده يعني قوله :

﴿ إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ وبه قال ابن عباس أي إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو كثير الجزع ، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك ، وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع فقال قد فسره الله ، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره وهو الذي إذا أصابه شر أظهر شدة الجزع وإذا مسه الخير بخل به ومنعه الناس .

والعرب تقول ناقة هلوع وهلواع إذا كانت سريعة السير خفيفته ، وقال أبو عبيدة الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشر لم يصبر ،

وانتصاب هلوعاً وجزوعاً ومنوعاً على أنها أحوال مقدرة لأنه ليس متصفاً بالصفات المذكورة وقت خلقه ولا وقت ولادته ، أو محققة لكونها طبائع جبل الإنسان عليها والظرفان معمولان لجزوعاً ومنوعاً .

وقوله : ﴿ إلا المصلين ﴾ من قبيل استثناء الجمع من الواحد ، لأن الإنسان واحد وفيه معنى الجمع أي المؤمنين المقيمين للصلاة لأن الصلاة الشرعية تستلزم الإيمان يعني أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع ، وإنهم على صفات محمودة وخلال مرضية لأن إيمانهم وما تمسكوا به من التوحيد ودين الحق يزجرهم عن الاتصاف بتلك الصفات ، ويحملهم على الاتصاف بصفات الخير .

ثم بينهم سبحانه فقال : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ أي مواظبون أي لا يشغلهم عنها شاغل ولا يصرفهم عنها صارف ، ولا يتركونها أداء ولا قضاء أي يفعلونها ولو قضاء[1] وليس المراد بالدوام أنهم يصلون أبداً .

قال الزجاج : هم الذين لا يزيلون وجوههم عن سمت القبلة وقال الحسن وابن جريج : هو التطوع منها قال النخعي : المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة المكتوبة . وقال ابن مسعود : الذين يصلونها لوقتها .

وعن عمران بن حصين : قال الذي لا يلتفت في صلاته ، وعن عقبة بن عامر قال: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا ، والمراد بالآية جميع المؤمنين وقيل الصحابة خاصة ، ولا وجه لهذا التخصيص لاتصاف كل مؤمن بأنه من المصلين .

---

(١) قوله « أي يفعلونها ولو قضاء » له معنيان (أحدهما) قضاء النائم والناسي فيقضي ما فاته نسياناً أو نوماً عند قيامه من النوم او عندما يتذكر ، وهذه صلاة مقبولة كما جاء في الحديث « من نام عن صلاة أو نسيها » الخ .

والمعنى الثاني لقضاء الصلاة هو أن يترك الصلاة عامداً سنين طويلة ثم يتوب فيصلي مع كل صلاة صلاة وهذا غير مقبول فمن تاب بسقط عنه ما مضى .

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ﴾ قال قتادة ومحمد بن سيرين المراد الزكاة المفروضة ، وقال مجاهد سوى الزكاة ، وقيل صلة الرحم ، وحمل الكل ؛ والظاهر أنه الزكاة المفروضة لوصفه بكونه معلوماً وجعله قريناً للصلاة .

﴿ للسائل ﴾ أي الذي يسأل الناس ﴿ والمحروم ﴾ أي الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم على حد ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقد تقدم تفسير السائل والمحروم في سورة الذاريات وفي سورة المؤمنين مستوفى .

﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي بيوم الجزاء وهو يوم القيامة لا يشكون فيه ولا يجحدونه ، وقيل يصدقونه بأعمالهم فيتعبون أنفسهم في الطاعات ، لأن التصديق به يستلزم الاستعداد له بالأعمال الصالحة ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة استحقاراً لأعمالهم واعترافاً بما يجب لله سبحانه عليهم .

وجملة ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمنه أحد لجواز أن يحل به وإن بلغ في الطاعة ما بلغ ، وأن حق كل أحد أن يخافه ، ويكون مترجماً بين الخوف والرجاء .

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ من الإماء ، ولشبههن في جريان التصرف عليهن عبر عنهن « بما » التي لغير العاقل ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ على ترك الحفظ ﴿ فمن ابتغى ﴾ أي طلب منكحاً ﴿ وراء ذلك ﴾ أي غير الزوجات والمملوكات .

﴿ فأولئك هم العادون ﴾ أي المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام والمتعدون ما حد لهم ، وهذه الآية تدل على حرمة المتعة ووطء الذكران والبهائم والزنا والاستمناء بالكف ، وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين مستوفى .

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها ، ولا ينقضون شيئاً من العهود التي يعقدونها على أنفسهم ، قرأ الجمهور لأماناتهم بالجمع وقرىء بالإفراد وهما سبعيتان ، والمراد الجنس وهي تتناول أمانات الشرع ، وأمانات العباد ، ويدخل فيها عهود الخلق والنذور والأيمان ، وقيل الأمانات ما تدل عليه العقول . والعهود ما أتى بها الرسول .

﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أي يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام وحسن الأداء ، ويقيمونها عند الحكام على من كانت عليه من قريب أو بعيد ، أو رفيع أو وضيع ، بلا ترجيح للقوي على الضعيف ، ولا يكتمونها ولا يغيرونها إظهاراً للصلابة في الدين ، ورغبة في إحياء حقوق المسلمين .

وقد تقدم القول على الشهادة في سورة البقرة قرأ الجمهور بشهادتهم بالإفراد وقرىء بالجمع ، قال الواحدي : والإفراد أولى لأنه مصدر ، ومن جمع ذهب إلى اختلاف الشهادات ، قال الفراء ويدل على قراءة التوحيد قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ وقيل أراد بالشهادة الشهادة بكلمة التوحيد ، والأول أولى .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ
مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ
نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ
﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ أي على أذكارها وأركانها وشرائطها لا يخلون بشيء من ذلك قال قتادة : على وضوئها وركوعها وسجودها ، قال ابن جريج : المراد التطوع ، وكرر ذكر الصلاة للدلالة على فضلها وأنافتها على غيرها ، ولاختلاف ما وصفهم به أولاً وما وصفهم به ثانياً فإن معنى الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف ، ومعنى المحافظة أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها .

وقيل المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها ، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف منفرد ، وقال الكرخي : وفي هذه الصلاة مبالغات لا تخفى وهي تقديم الضمير وبناء الجملة عليه وتقديم الجار والمجرور على الفعل ، وجعل بعض الجمل اسميه مفيدة للدوام والثبات ، وبعضها فعلية مفيدة للاستمرار التجددي .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات مستقرون ﴿ في جنات مكرمون ﴾ بأنواع الكرامات وهما خبران .

﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ أي أيّ شيء ثبت لهم فهم

حواليك مسرعين ، قال الأخفش مهطعين مسرعين ، وقيل المعنى ما بالهم يسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم ، وقيل ما بالهم مسرعين إلى التكذيب ، وقيل ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع إليك فيكذبونك ويستهزئون بك ، وقال الكلبي إن معنى مهطعين ناظرين إليك ، وقال قتادة عامدين ، وقيل مسرعين إليك مادي أعناقهم مديمي النظر إليك .

﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ أي عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن شماله جماعات متفرقة وعزين جمع عزة وهي العصبة من الناس ، وقيل أصلها عزوة من العزو ، وكأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الفرقة الأخرى وقال في الصحاح العزة الفرقة من الناس ، والهاء عوض عن الياء والجمع عزى وعزون ، قال ابن عباس عزين العصب من الناس معرضين يستهزئون به ، وأخرج مسلم وغيره عن جابر قال دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ونحن حلق متفرقون فقال ما لي أراكم عزين »[1] .

﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ كالمؤمنين المسلمين قال المفسرون : كان المشركون يقولون لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلن قبلهم ، فنزلت الآية ، قرأ الجمهور ويدخل مبنياً للمفعول ، وقرىء مبنياً للفاعل .

ثم رد الله سبحانه عليهم فقال : ﴿ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ أي من القذر الذي يعلمون به يعني من النطفة المذرة ، وأبهم إشعاراً بأنه منصب يستحي من ذكره فلا ينبغي لهم هذا التكبر ، وهذا استدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية التي بنوا الطمع على فرضها فرضاً محالاً عندهم بعد ردعهم

(١) روى مسلم في « صحيحه » ١ / ٣٢٢ عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآنا حلقاً ، فقال : « ما لي أراكم عِزينَ ؟ » أي جماعات في تفرقة ، جمع عزة ، وأصلها «عزوة » فحذفت الواو وجمعت جمع السلامة على غير قياس كثُبين جمع ثُبة . والحديث رواه أيضاً أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير الطبري . وفي هذا الحديث دلالة على أن التفرقة في الأجسام تولّد التفرقة في القلوب .

عنه ، وقيل المعنى إنا خلقناهم من أجل ما يعلمون وهو امتثال الأمر والنهي وتكميل النفس بالعلم والعمل ، وتعريضهم للثواب والعقاب كما في قوله : ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾ .

أخرج أحمد وابن ماجة وابن سعد وابن أبي عاصم والباردوي وابن قانع والحاكم والبيهقي في الشعب والضياء عن بشر بن جحاش قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فما للذين كفروا إلى قوله مما يعلمون ﴾ ثم بزق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كفه ووضع عليها أصبعه وقال : « يقول الله ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أنى أوان الصدقة »[1] .

قال ابن العربي في الفتوحات خلق الله تعالى الناس على أربعة أقسام قسم لا من ذكر ولا من أنثى وهو آدم عليه السلام وقسم من ذكر فقط وهو حواء وقسم من أنثى فقط وهو عيسى عليه السلام وقسم من ذكر وأنثى وهو بقية الناس .

﴿ فلا أقسم ﴾ لا زائدة كما تقدم قريباً والمعنى فأقسم ﴿ برب المشارق والمغارب ﴾ قرأهما الجمهور بالجمع يعني مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه ، وقال ابن عباس للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه وكل يوم مغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس . وغير مغربها بالأمس ، وقيل مشرق كل نجم ومغربه وقرىء بالإفراد ، وقوله :

﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴾ جواب القسم ، والمعنى إنا

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤ / ٢١٠ من حديث حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش ، وإسناده حسن ، ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢ / ٥٠٢ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي فقال : صحيح ورواه ابن ماجة رقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد» : إسناده صحيح . وأورده السيوطي في « الدر » ٦ / ١٦٧ من رواية البيهقي في « شعب الايمان »

لقادرون على أن نخلق أمثل منهم وأطوع لله حين عصوه ، ونهلك هؤلاء أو نبدلهم بتحويل الوصف فيكونوا أشد بطشاً في الدنيا وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأعلى قدراً ، وأكثر حشماً وجاهاً وخدماً فيكونوا عندك على قلب واحد في سماع قولك وتوقيرك وتعظيمك ، والسعي في كل ما يشرح صدرك بدل ما يعمل هؤلاء من الهزء والتصفيق والصفير ، وكل ما يضيق به صدرك .

وقد فعل سبحانه ما ذكر من هذه الأوصاف بالمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بالإحسان ، مع السعة في الرزق بأخذ أموال الجبارين من كسرى وقيصر ، والتمكن في الأرض حتى كانوا ملوك الدنيا مع العمل بما يوجب لهم ملك الآخرة ، ففرجوا الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبذلوا في مرضاته الأنفس والأموال .

ومن جملة المقسم عليه قوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي بمغلوبين إن أردنا ذلك بل نفعل ما أردنا لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر ، ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلق آخر ﴿ فذرهم ﴾ أي دعهم واتركهم ﴿ يخوضوا ﴾ في باطلهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم واشتغل بما أمرت به ، ولا يعظمن عليك ما هم فيه فليس عليك إلا البلاغ ، وهذا تهديد لهم وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ هو يوم كشف الغطاء الذي أوله عند الغرغرة وتناهيه النفخة الثانية ودخول كل من الفريقين في داره ومحل استقراره ، وقيل هو يوم القيامة ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف كما قال البقاعي وابن عادل ، قرأ الجمهور يلاقوا وقرىء يلقوا ، وفيه إشارة إلى أن التفاعل ليس على بابه .

﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ﴾ « يوم » بدل من يومهم ؛ بدل بعض من كل على ما يقتضيه تفسير يومهم بما ذكر ؛ قرأ الجمهور يخرجون على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول ؛ والأجداث جمع جدث وهو القبر ؛

والسراع جمع سريع وانتصابه على الحال من ضمير يخرجون .

﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ قرأ الجمهور نصب بفتح النون وسكون الصاد وهو اسم مفرد بمعنى العلم المنصوب الذي يسرع الشخص نحوه ، وقال أبو عمرو هو شبكة الصائد يسرع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته . وقرىء بضمهما ، وفيه ثلاثة أوجه أحدها أنه اسم مفرد بمعنى الصنم المنصوب للعبادة ، وثانيها أنه جمع نصاب ككتب في كتاب ، وثالثها أنه جمع نصب كرهن في رهن ، وسقف في سقف ، وجمع الجمع أنصاب ، وقرىء بفتحتين ففعل بمعنى مفعول أي منصوب كالقبض ، وقرىء بضم فسكون وهي تخفيف من الثانية .

وقال النحاس : نصب ونصب بمعنى واحد قيل معنى إلى نصب ، إلى غاية وهي التي تنصب إليها بصرك ، وقال الكلبي : إلى شيء منصوب كعلم أو راية أي كأنهم إلى علم يدعون إليه أو راية تنصب لهم يوفضون ، قال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم .

قيل معنى يوفضون يسرعون إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها ، والإيفاض الإسراع يقال أوفض إيفاضاً أي أسرع إسراعاً ، وفي القاموس : وفض يفض وفضاً بالسكون وبالتحريك عدا وأسرع كأوفض واستوفض ، والأوفاض الفرق من الناس والأخلاط والجماعة من قبائل شتى كأصحاب الصفة ، قال ابن عباس في الآية إلى علم يستبقون ، وقيل يسعون وقيل ينطلقون والمعاني متقاربة.

وانتصاب ﴿ خاشعة ﴾ على الحال من ضمير يرفضون وهو الأقرب أو من فاعل يخرجون وفيه بعد ، والخشوع الذلة والخضوع و﴿ أبصارهم ﴾ مرتفعة به والمعنى لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب .

﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي تغشاهم ذلة شديدة ضد ما كانوا عليه في الدنيا

لأن من تعزز فيها عن الحق ذل في الآخرة ومن ذل للحق في الدنيا عز في الآخرة ، قال قتادة هي سواد الوجوه ومنه غلام مراهق إذا غشيه الاحتلام ، يقال رهقه بالكسر يرهقه رهقاً غشيه ، ومثل هذا قوله ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ والجملة مستأنفة أو حال من قال يوفضون أو يخرجون .

﴿ ذلك ﴾ الذي تقدم ذكره ﴿ اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ أي يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به وإن كان مستقبلاً فهو في حكم الذي قد وقع لتحقق وقوعه ، قال الخطيب وهذا هو العذاب الذي سألوا عنه أول السورة فقد رجع آخرها على أولها .

سورة نوح

﴿ هي تسع أو ثمان وعشرون آية وهي مكية عن الزبير قال نزلت بمكة ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾

﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ وكانوا جميع أهل الأرض من الآدميين أهل عصره ، ولذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً ، وقد تقدم أن نوحاً أول رسول أرسله الله بالنهي عن عبادة غير الله ، لأن عبادة غيره إنما حدثت في زمن نوح ، وإلا فمن المعلوم إن قبله رسلاً آدم وشيث وإدريس .

وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ بن قينان بن شيث بن آدم ، وكان أطول الأنبياء عمراً بل أطول الناس وهو أول من شرعت له الشرائع ، وأول رسول أنذر من الشرك وقد تقدم مدة لبثة في قومه وبيان جميع عمره وبيان السن التي أرسل هو فيها في سورة العنكبوت ، قيل النوح معناه بالسريانية الساكن .

﴿ أن أنذر قومك ﴾ أي بأن أنذر على أنها مصدرية أو هي المفسرة لأن في الإرسال معنى القول ، وقرأ ابن مسعود أنذر بدون أن أي فقلنا له أنذر ﴿ من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ أي شديد الألم وهو عذاب النار على ما هم عليه من الأعمال الخبيثة ، وقال الكلبي هو ما نزل بهم من الطوفان .

﴿ قال يا قوم ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً على تقدير سؤال ﴿ إني لكم نذير ﴾ من عقاب الله ومخوف لكم

﴿ مبين ﴾ أي بين الإنذار ، أو مبين لما فيه نجاتكم بلغة تعرفونها أو أمري بين في نفسه بحيث صار في شدة وضوحه كأنه مظهر لما يتضمنه مناد بذلك للقريب والبعيد والفطن والغبي .

﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ «أن » هي التفسيرية لنذير أو هي المصدرية كأختها السابقة أي بأن اعبدوا الله ولا تشركوا به غيره ، واجتنبوا ما يوقعكم في عذابه ، وأطيعوني فيما آمركم به فإني رسول إليكم من عند الله ، وإنما أضاف الإطاعة الى نفسه لأن الطاعة قد تكون لغير الله بخلاف العبادة .

﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ هذا جواب الأوامر الثلاثة ، « ومن » للتبعيض أي بعض ذنوبكم وهو ما سلف منها قبل طاعة الرسول وإجابة دعوته ، وقيل المراد بالبعض ما لا يتعلق بحقوق العباد ، فإنها لا تغفر بالإسلام ، وهذا كلام ظاهري إذ الحق أنها تغفر من حيث المؤاخذة الأخروية بمعنى أنهم لا يعاقبون عليها في الآخرة ، وإن كانت من حيث المؤاخذة عليها في الدنيا لا تغفر ، فيطالب الكافر إذا أسلم بالحدود كحد القذف وبالمال الذي ظلم به في الكفر تأمل .

وقيل هي لبيان الجنس ، وقيل زائدة قاله السدي فإن الإسلام يغفر ما قبله ، وهذا على رأي الأخفش الذي لا يشترط في زيادتها تقدم نفي ولا تنكير المجرور بها ، والأولى هو الوجه الأول وقيل يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها .

﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي يؤخر موتكم إلى الأمد الأقصى المعلوم المعين الذي قدره الله لكم لا يزيد ولا ينقص بشرط الإيمان والطاعة فوق ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر والعصيان ، وقيل التأخير بمعنى البركة في أعمارهم إن آمنوا ، وعدم البركة فيها إن لم يؤمنوا ، قال مقاتل : يؤخركم إلى منتهى آجالكم ، وقال الزجاج : أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير ميتة المستأصلين بالعذاب ، فالمؤخر إنما هو العذاب فلا يخالف

هذا قوله ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ لأن المنفي تأخيره فيه هو الأجل نفسه ، فلا تخالف بين هذين المحلين ، وقال الفراء : المعنى لا يميتكم غرقاً ولا حرقاً ولا قتلاً .

﴿ إن أجل الله ﴾ أي ما قدره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب ﴿ إذا جاء ﴾ وأنتم باقون على الكفر ﴿ لا يؤخر ﴾ بل يقع لا محالة فبادروا الى الإيمان والطاعة ، وقيل المعنى إن أجل الله وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان .

وقيل المعنى إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب ، وإضافة الأجل اليه سبحانه لأنه هو الذي أثبته ، وقد يضاف إلى القوم كقوله ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ لأنه مضروب لهم ﴿ لو كنتم تعلمون ﴾ شيئاً من العلم لسارعتم الى ما أمرتكم به ولعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر .

هذا : وقد سئل الشوكاني رحمه الله تعالى عما ورد في الآيات الكريمات الدالة على أن العمر لا يزيد ولا ينقص ، والأحاديث الدالة على أن صلة الرحم تزيد في العمر ، فأجاب بما لفظه :

قد طال الكلام في هذا البحث ، وقد وقفت قبل الآن بنحو ثمان سنين على مؤلف بسيط لبعض الحنابلة في خصوص هذه المسألة ، وقد غاب عني اسم الكتاب واسم صاحبه ، والأحاديث القاضية بأن صلة الرحم تزيد في العمر أحاديث صحيحة كثيرة منها ما أخرجه البخاري والترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه »[1] .

وعند الترمذي « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر » ، والأثر الأجل وإنساؤه تأخيره .

(١) الحاكم / ٤ / ١٦٠

وأخرج أحمد في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان ورمز السيوطي في الجامع لصحته من حديث عائشة مرفوعاً [صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار][1] .

وأخرج القضاعي من حديث ابن مسعود مرفوعاً « صلة الرحم تزيد في العمر وصدقة السر تطفىء غضب الرب »[2] .

وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن سهيل مرفوعاً « صلة الرحم مثراة في المال محبة في الأهل منسأة في الأجل »[3] .

إذا تقرر هذا فالعمر محدود ومعلوم لا يتقدم ولا يتأخر إلا إذا وصل الرجل رحمه مد الله في عمره وزاده ، وهكذا حكم سائر الأمور التي وردت الأدلة بأنها تزيد في العمر أو تنقص منه لأنها خاصة ، والخاص مقدم على العام ، والمقام يحتمل البسط ، وفي هذا كفاية والله أعلم .

﴿ قال رب ﴾ أي قال نوح مناجياً لربه وحاكياً له ما جرى بينه وبين قومه وهو أعلم به منه ﴿ إني دعوت قومي ﴾ إلى ما أمرتني بأن أدعوهم إليه من الإيمان ﴿ ليلاً ونهاراً ﴾ أي دعاء دائماً دائباً بلا فتور في الليل والنهار من غير تقصير .

﴿ فلم يزدهم دعائي ﴾ شيئاً من أحوالهم التي كانوا عليها ﴿ إلا فراراً ﴾ إعراضاً عما دعوتهم إليه ، وبعداً عنه ، قال مقاتل يعني تباعداً من الإيمان ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ وإسناد الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها كما في قوله ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ قرأ الجمهور دعائي بفتح الياء ، وقرىء بإسكانها والاستثناء مفرغ .

---

(١) صحيح الجامع / ٣٦٦١

(٢) صحيح الجامع / ٣٦٦٠

(٣) صحيح الجامع / ٣٦٦٢

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟
وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

﴿ وإني كلما ﴾ دعوتهم الى سبب المغفرة وهو الايمان بك والطاعة لك ﴿ لتغفر لهم ﴾ أي لأجل مغفرتك لهم ، أو اللام للتعدية ويكون قد عبر عن السبب بالمسبب ، والأصل دعوتهم للتوبة التي هي سبب في الغفران ، فأطلق الغفران وأريد به التوبة ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ لئلا يسمعوا صوتي ، وقال ابن عباس لئلا يسمعوا ما يقول .

﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ أي غطوا بها وجوههم لئلا يروني ، وقيل جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامي ، فيكون استغشاء الثياب على هذا زيادة في سد الأذان ، وقيل هو كناية عن العدواة ، يقال لبس فلان ثياب العدواة ، وقيل استغشوا ثيابهم لئلا يعرفهم فيدعوهم ، وقال ابن عباس : ليتنكروا فلا يعرفهم ، وعنه قال : غطوا وجوههم لئلا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه ، وقد أفادت هذه الآية بالتصريح أنهم عصوا نوحاً وخالفوه مخالفة لا أقبح منها ظاهراً بتعطيل الأسماع والأبصار ، وباطناً بالإصرار والاستكبار كما قال تعالى ﴿ وأصروا ﴾ أي استمروا على الكفر ولم يقلعوا عنه ولا تابوا عنه ﴿ واستكبروا ﴾ عن قبول الحق وعن امتثال ما أمرهم به ﴿ استكباراً ﴾ شديداً وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم قال ابن عباس : تركوا التوبة .

﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي مظهراً لهم الدعوة مجاهراً لهم بها ، وانتصاب ﴿جهاراً﴾ على المصدرية لأن الدعاء يكون جهاراً ويكون غير جهار ،

فالجهار نوع من الدعاء كقولهم قعد القرفصاء ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف أي دعاء جهاراً ، وأن يكون مصدراً في موضع الحال أي مجاهراً أو ذا جهار ، أو جعل نفس المصدر مبالغة ، ومعنى « ثم » الدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من السر ، والجمع بين الأمرين أغلظ من أحدهما ، قرأ الجمهور ﴿ إني ﴾ بسكون الياء وقرىء بفتحها .

﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي دعوتهم معلناً لهم بالدعاء ﴿ وأسررت لهم ﴾ الدعوة ﴿ إسراراً ﴾ كثيراً قيل المعنى أنه يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سراً فيما بينه وبينه ، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة ، فلم ينجح ذلك فيهم ، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يبتدىء بالأهون ثم بالأشد فالأشد ، قال مجاهد معنى أعلنت صحت ، وقيل معنى أسررت أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها .

﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة أعيانها وآثارها بإخلاص النية ﴿ إنه كان غفاراً ﴾ أي كثير المغفرة للمذنبين ، وقيل لمعنى توبوا عن الكفر إنه كان غفاراً للتائبين .

﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ أي يرسل ماء السماء عليكم ، ففيه إضمار وقيل المراد بالسماء المطر ، والمدرار الدرور ، وهو التحلب بالمطر ، وانتصابه إما على الحال من السماء ولم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث بل يستوي فيه المذكر والمؤنث ، تقول امرأة مئناث ومذكار أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي إرسالاً مدراراً ، وقد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام ، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر ، وفي هذه الآية دليل « على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر ، وحصول أنواع الأرزاق ومن لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً »[1] .

(١) قال ابن كثير : أي : اذا تبتم الى الله واستغفرتموه وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرّ لكم الضرع ، وأمدّكم

ولهذا قال : ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ﴾ أي بساتين الدنيا ليكون مما وعدوا به عاجلاً ﴿ ويجعل لكم أنهاراً ﴾ جارية ، قال عطاء المعنى يكثر أموالكم وأولادكم وكانوا يحبونهما فحركوا بهذا على الايمان وأعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا ، وأعاد فعل الجعل ولم يقل وأنهاراً لتغايرهما فإن الأول مما لفعلهم فيه مدخل بخلاف الثاني .

وعن الحسن : أن رجلاً شكا اليه الجدب فقال استغفر الله وشكا اليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع ابن صبيح : أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألونك أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فتلا هذه الآية ولله دره ما أفقهه ، قال القشيري من وقعت له حاجة الى الله لم يصل الى مراده إلا بتقديم الاستغفار ، وقال الشهاب وليس المراد بالاستغفار مجرد قول استغفر الله بل الرجوع عن الذنوب وتطهير الألسنة والقلوب .

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ أي أيّ عذر لكم في ترك الرجاء ، والرجاء هنا الخوف أي ما لكم لا تخافون الله والوقار العظمة من التوقير ، وهو التعظيم ، والمعنى لا تخافون حق عظمته فتوحدونه وتطيعونه ، وقيل المعنى ما لكم لا تؤملون من الله توقيرا لكم بأن تؤمنوا به فتصيروا موقرين عنده ، وهذا المعنى هو ما سلكه البيضاوي أولاً ، وقال أبو السعود : إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد انتهى .

وهذا حث على رجاء الوقار لله ، والمراد الحث على الايمان والطاعة

= بأموال وبنين ، أي : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها . ثم قال : هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم الى دعوتهم بالترهيب فقال : (ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟) .

الموجبين لرجاء ثواب الله ، فهو من الكناية التلويحية لأن من أراد رجاء تعظيم الله ، وتوقيره إياه آمن به وعبده وعمل صالحاً ومن عمل الصالحات رجا ثواب الله وتعظيمه إياه في دار الثواب ، فإن الحث على تحصيل الرجاء مسبوق بالحث على تحصيل الإيمان . فهو من باب مقدمة الواجب .

قال الكرخي : أي أنكم إذا وقرتم نوحاً وتركتمْ استخفافه كان ذلك لأجل الله ، فما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح : ما لكم لا ترجون لله ثواباً ولا تخافون منه عقاباً ، وقال مجاهد والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة ، قال قطرب : هذه لغة حجازية وهذيل وخزاعة ومضر يقولون لم أرج لم أبل ، وقال قتادة ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان ، وقال ابن كيسان ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً ، وقال ابن زيد : ما لكم لا تؤدون لله طاعة ، وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة ، وقال ابن عباس : لا تعلمون لله عظمة ، وعنه قال : لا تخافون لله عظمة ولا تخشون له عقاباً ، ولا ترجون له ثواباً ، وعن علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم : « رأى ناساً يغتسلون عراة ليس عليهم أزر فوقف فنادى بأعلى صوته ما لكم لا ترجون لله وقاراً » أخرجه عبد الرزاق في المصنف .

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أي والحال أنه سبحانه قد خلقكم على أطوار مختلفة وأحوال منافية لما أنتم عليه بالكلية ، فخلقكم تارة عناصر ثم أغذية ثم اخلاطاً ثم نطفاً ثم مضغاً ثم علقاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأكم خلقاً آخر ، والطور في اللغة المرة ، وقال ابن الأنباري : الطور الحال والهيئة وجمعه أطوار ، وقيل أطواراً صبياناً ثم شباناً ثم شيوخاً ، وقيل الأطوار اختلافهم في الأفعال والأقوال والأخلاق ، والمعنى كيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة تارات وكرات ، فهذا مما لا يكاد يصدر عن العاقل .

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١)

ثم لما نبههم سبحانه وتعالى أولاً على النظر في أنفسهم لأنها أقرب ، نبههم ثانياً على النظر في العالم وما سوى فيه من العجائب الدالة على الصانع الحكيم فقال ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سمٰوات طباقاً ﴾ الخطاب لمن يصلح له ، والمراد الاستدلال بخلق السمٰوات على كمال قدرته وبديع صنعه ، وأنه الحقيق بالعبادة ، والطباق المتطابقة بعضها فوق بعض كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب من غير مماسة ، قال الحسن خلق الله سبع سموات على سبع أرضين بين كل سماء وسماء وأرض وأرض خلق وأمر .

وقد تقدم تحقيق هذا في قوله ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ وانتصاب طباقاً على المصدرية تقول طابقه طباقاً ومطابقة أو حال بمعنى ذات طباق فحذف ذات وأقام طباقاً مقامه ، وأجاز الفراء في غير القرآن جر طباق على النعت .

﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ أي منوراً لوجه الأرض وجعل القمر في السموات مع كونه في سماء الدنيا لأنه إذا كان في إحداهن فهو فيهن كذا قال ابن كيسان وأبو السعود ، قال الأخفش : كما تقول أتاني بنو تميم والمراد بعضهم أو لأن كل واحدة منها شفافة لا تحجب ما وراءها فيرى الكل كأنه سماء واحدة ، ومن ضرورة ذلك أن يكون ما في كل واحدة منها كأنه في الكل ، وقال قطرب « فيهن » بمعنى معهن أي خلق الشمس والقمر مع خلق السموات والأرض ، قال ابن عباس : وجهه في السماء الى العرش وقفاه الى

الأرض وعنه قال خلق فيهن حين خلقهن ضياء لأهل الأرض وليس من ضوئه في السماء شيء .

﴿ وجعل الشمس ﴾ فيهن ﴿ سراجاً ﴾ أي كالمصباح لأهل الأرض ليتوصلوا بذلك الى التصرف فيما يحتاجون اليه من المعاش ، عن ابن عمرو : قال الشمس والقمر وجوههما قبل السماء وأقفيتهما قبل الأرض، وأنا أقرأ بذلك عليكم آية من كتاب الله يعني هذه الآية ، وعن ابن عمر قال في الآية تضيء لأهل السموات كما تضيء لأهل الأرض ، وعن شهر بن حوشب قال : اجتمع عبد الله بن العاص وكعب الأحبار ، وكان بينهما بعض العتب فتعاتبا فذهب ذلك فقال ابن عمرو لكعب سلني عما شئت فلا تسألني عن شيء إلا أخبرتك بتصديق قولي من القرآن ، فقال له أرأيت ضوء الشمس والقمر أهو في السموات السبع كما هو في الأرض ؟ قال نعم ألم تر الى قول الله ، يعني هذه الآية ، قال النسفي : وأجمعوا على أن الشمس في السماء الرابعة وضوءها أقوى من نور القمر ، وقيل في الخامسة وقيل في الشتاء في الرابعة وفي الصيف في السابعة[1] .

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ يعني آدم خلقه الله من أديم الأرض ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ يقول : وجعل القمر في السموات السبع نوراً ، وجعل الشمس فيهن سراجاً ،وقال ابن كثير : المقصود أن الله سبحانه وتعالى : خلق سبع سمٰوات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ، أي : فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدَّر للقمر منازل وبروجاً ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستسر ليدل على مضي الشهور والأعوام ، كما قال تعالى ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ . وقال الآلوسي : ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ منوِّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل ، وجعله فيهن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا ، كما يقال : زيد في بغداد وهو في بقعة منها ، والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية وكونها طباقاً شفافة .

والمعنى أنشأكم منها إنشاء ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين من الأرض ، ونباتاً إما مصدر لأنبت على حذف الزوائد ويسمى اسم مصدر ، ويجوز أن يكون مصدراً لنبتم مقدراً أي أنبتكم فنبتم نباتاً فيكون منصوباً بالمطاوع المقدر . وقال الخليل والزجاج : هو مصدر محمول على المعنى لأن معنى أنبتكم جعلكم تنبتون نباتاً ، وقيل المعنى والله أنبت لكم من الأرض النبات ، فنباتاً على هذا مفعول به ، قال ابن بحر : أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر

﴿ ثم يعيدكم ﴾ في الأرض بعد الموت مقبورين ﴿ فيها ويخرجكم ﴾ منها بالبعث يوم القيامة ﴿ إخراجاً ﴾ حقاً لا محالة .

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي فرشها وبسطها لكم تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم ، ولم يجعلها مسنمة ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أي طرقاً واسعة ، وقال ابن عباس طرقاً مختلفة ، والفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع ، كذا قال الفراء وغيره ، وقيل هو المسلك بين الجبلين ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة الأنبياء وفي سورة الحج مستوفى ، وفي الأنبياء تقديم الفجاج فقال فجاجاً سبلاً لتناسب الفواصل هنا .

﴿ قال نوح ﴾ بعد يأسه من إيمانهم ﴿ رب إنهم عصوني ﴾ أي كلهم استمروا على عصياني ولم يجيبوا دعوتي ، شكاهم الى الله عز وجل وأخبره بأنهم عصوه ولم يتبعوه وهو أعلم بذلك ﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾ أي أتبع الأصاغر رؤساءهم وأهل الثروة منهم الذين لم تزدهم كثرة المال والولد الا ضلالاً وطغياناً وكفراً في الدنيا ، وعقوبة في الآخرة ، واستمروا على اتباعهم لا أنهم أحدثوا الاتباع ، قرىء ولده بفتح الواو واللام ، وبضم الواو وسكون اللام ، هما سبعيتان وبفتح الأول وسكون الثاني ، وهي لغة في الولد ، ويجوز أن يكون جمعاً وقد تقدم تحقيقه .

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ
وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ
أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى
ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

﴿ ومكروا ﴾ أي الرؤساء ﴿ مكراً كباراً ﴾ قرأ الجمهور بالتشديد أي كبيراً عظيماً جداً ، يقال كبير وكبار وكبار مثل عجيب وعجاب وعجاب ، وحميل وحمال وحمال ، قال المبرد : كباراً بالتشديد للمبالغة ومثل كبار قراء لكثير القراءة ، وقرىء بالضم والتخفيف وهو بناء مبالغة أيضاً دون الأول ، وقرىء بكسر الكاف وتخفيف الباء ، قال أبو بكر : هو جمع كبير كأنه جعل مكراً مكان ذنوب أو أفاعيل فلذلك وصفه بالجمع ، وقال عيسى بن عمر هي لغة يمانية ، قيل جمع الضمير حملاً على معنى من بعد حمله على لفظها في قوله ﴿ من لم يزده ماله وولده ﴾ قاله السمين .

واختلف في مكرهم هذا ما هو فقيل هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح وأذاه وصد الناس عن الإيمان به والميل اليه ، والاستماع منه ، وقيل هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قلل الضعفة لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم ، وقال الكلبي : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد ، وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لأتباعهم ﴿ لا تذرن آلهتكم ﴾ وقيل مكرهم كفرهم وقيل : افتروا على الله الكذب وكذبوا رسله .

﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ﴾ أي لا تتركوا عبادة آلهتكم وهي الأصنام

والصور التي كانت لهم ثم عبدتها العرب من بعدهم ، وبهذا قال الجمهور ﴿ ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ أي لا تتركوا عبادة هذه الأوثان .

قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح ، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة . فقال لهم إبليس لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة ففعلوا ، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم ، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت ، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم .

وقال عروة بن الزبير وغيره إن هذه كانت أسماء أولاد آدم وكان ود أكبرهم ، وكانوا عباداً فمات رجل منهم فحزنوا عليه ، فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم اليه ذكرتموه ، قالوا افعل فصوره في المسجد من صفر ورصاص ، ثم مات آخر فصوره حتى ماتوا كلهم وصورهم ، فلما تقدم الزمان تركت الناس عبادة الله فقال لهم الشيطان ما لكم لا تعبدون شيئاً قالوا وما نعبد ، قال آلهتكم وآلهة آبائكم ، ألا ترون أنها في مصلاكم فعبدوها من دون الله حتى بعث الله نوحاً عليه السلام فقالوا ﴿ لا تذرن آلهتكم ﴾ الآية .

قال الماوردي : فأما ود فهو أول صنم معبود سمي وداً لودهم له وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل ، في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل ، وفيه يقول شاعرهم :

حياك ود فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد غربا

وأما سواع فكان لهذيل بساحل البحر ، وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجرف من سبأ في قول قتادة ، وقال المهدوي : لمراد ثم لغطفان ، وأما يعوق فكان لهمدان في قول قتادة وعكرمة وعطاء ، وقال الثعلبي : كان لكهلان بن سبأ ثم توارثوه حتى صار في همدان وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني .

يريش الله في الدنيـا ويبري ولا يبـري يعوق ولا يـريش

وأما نسر فكان بذي الكـلاع من حمير في قـول قتادة ومقـاتل ، قـال ابن عباس هذه الأصنام كانت تعبد في زمن نوح ، قال الواقدي كان ود على صورة رجـل ، وسواع على صـورة امرأة ، ويغـوث على صـورة أسـد ، ويعـوق على صورة فرس ، ونسر على صورة النسر الطائر .

قال البقاعي : ولا يعارض هذا أنهم صور لناس صالحين لأن تصويـرهم لهم يمكن أن يكون منتزعاً من معانيهم ، فكان ود كاملاً في الرجولية ، وكان سواع امرأة كاملة في العبادة ، وكان يغوث شجاعاً وكان يعوق سابقاً قوياً وكان نسر عظيماً طويل العمر ، ومثله في القرطبي .

وأخرج البخاري وابن المنذر ، وابن مردويـه عن ابن عباس قـال : « صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب . أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجلسهم الذي كانـوا يجلسون فيـه أنصابـاً وسموهـا بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى هلك أولئك ونسخ العلم فعبدت » .

وفي الصحيحين من حديث عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة « ذكرتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأيتاها بأرض الحبشة تسمى مارية فيها تصاوير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أولئك كان إذا مات الرجل الصالح منهم بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شر الخلق عند الله يوم القيامة » قرأ الجمهور وداً بفتح الواو ، وقرىء بضمها ، قال الليث : ود بضم الواو صنم لقريش ، وبفتحها صنم كان لقوم نوح وبه سمي عمرو بن ود قال في الصحاح : والود بالفتح الوتد في لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال ، وقرأ الجمهور يغوث ويعوق بغير تنوين ، فإن كانا عربيين فالمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانـا أعجميين

فللعجمة والعلمية ، وقرىء يغوثاً ويعوقاً بالنصب مصروفين لأمرين (أحدهما) أنه صرفهما للتناسب إذ قبلهما اسمان منصرفان وبعدهما اسم منصرف كما صرف سلاسل (والثاني) أنه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقاً ، وهي لغة حكاها الكسائي ذكره السمين . وقال ابن عطية وذلك وهم ، ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الآلهة أنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها ، ولم يذكر النفي مع يعوق ونسرا لكثرة التكرار وعدم اللبس .

﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ أي وقال نوح قد أضل كبراؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس ، وقيل الضمير راجع إلى الأصنام أي ضل بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ وأجرى عليهم صيغة من يعقل لاعتقاد الكفار الذين يعبدونها أنها تعقل .

﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾ معطوف على ﴿ رب إنهم عصوني ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم ، وقال أبو حيان : إنه معطوف على قد أضلوا ومعنى ﴿ إلا ضلالاً ﴾ إلا عذاباً كذا قال ابن بحر واستدل على ذلك بقوله ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ وقيل إلا خسراناً ، وقيل إلا فتنة بالمال والولد ، وقيل الضياع وقيل ضلالاً في مكرهم ، وهذا دعاء عليهم من نوح بعد أن أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

﴿ مما ﴾ ما مزيدة للتأكيد والمعنى من ﴿ خطيئاتهم ﴾ قرأ الجمهور على جمع السلامة وهي سبعية وقرىء خطاياهم على جمع التكسير وخطيئتهم على الإفراد والمعنى من أجلها وبسببها ﴿ أغرقوا ﴾ بالطوفان قرأ الجمهور من أغرق وقرىء غرقوا بالتشديد .

﴿ فأدخلوا ﴾ عقب الإغراق ﴿ ناراً ﴾ وهي نار الآخرة ، وهذا من التعبير عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه نحو ﴿ أتى أمر الله ﴾ وقيل عذاب القبر ، وعلى هذا هو على بابه كقوله في آل فرعون ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ أي لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله ويدفعه عنهم .

﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ يعني لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر ، دعا عليهم بالهلاك ، قال قتادة دعا عليهم بعد أن أوحى إليه أنه ﴿ لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فأجاب الله دعوته وأغرقهم ، وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد وعطيه : إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم ، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة ، وقيل بأربعين ، قال قتادة : لم يكن فيهم صبي وقت العذاب وقال الحسن وأبو العالية : لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذاباً من الله وعدلاً فيهم ، ولكن أهلك ذريتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب .

ومعنى﴿ديّاراً﴾من يسكن الديار ويدور في الأرض وأصله ديوار على فيعال من دار يدور فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى مثل القيام أصله قيوام ، وقال القتيبي أصله من الدار أي نازل بالدار يقال ما بالدار ديار وديور أي أحد كقيام وقيوم ، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام ، وقيل الديار صاحب الديار ، والمعنى لا تدع أحداً منهم إلا أهلكته ، وقيل هو مأخوذ من الدوران وهو التحرك .

قال سليمان الجمل : انظر ما الحكمة في تأخيره عن قوله ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ مع أن مقتضى الظاهر تقديمه عليه لكونه سبباً لإغراقهم ، تأمل ، ثم رأيت ، أبا السعود : قال هذا عطف على نظيره السابق وقوله ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ اعتراض وسط بين دعائه عليه السلام للإيذان من أول الامر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطاياهم التي عددها نوح ، وإشارة إلى أن استحقاقهم للإهلاك لأجلها أ هـ كلام الجمل .

﴿ إنك إن تذرهم ﴾ أي إن تركتهم على الأرض ﴿ يضلوا عبادك ﴾ عن طريق الحق ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً ﴾ بترك طاعتك ﴿ كفّاراً ﴾ لنعمتك أي كثير الكفران لها ، والمعنى إلا من سيفجر ويكفر ، ففي الكلام مجاز الأول لأنهم لم يفجروا وقت الولاده بل بعدها بزمان طويل ، وقال عليه السلام هذا القول

لعلمه بالتجربة من أحوالهم أن أولادهم يكونون مثلهم .

ثم لما دعا على الكافرين أتبعه بالدعاء لنفسه ووالديه وللمؤمنين فقال ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ﴾ قرأ العامة بكسر اللام وفتح الدال على أنه تثنية والد ، يريد أبويه وكانا مؤمنين وأبوه لامك أو لمك بفتحتين أو بفتح فسكون ابن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس[1]، وأمه شمخابوزن سكرى بنت أنوش .

وقيل أراد آدم وحواء والأول أولى ، وقال سعيد بن جبير أراد بوالديه أباه وجده وقرىء ولولدي بكسر الدال على الإفراد وعلى التثنية يعني ابنيه ساماً وحاماً ، وقرىء ولوالدي بكسر الدال يعني أباه فيجوز أن يكون أراد أباه الأقرب الذي ولده ، وخصه بالذكر لأنه أشرف من الأم ، وأن يريد جميع من ولده من لدن آدم إلى من ولده » .

﴿ ولمن دخل بيتي ﴾ قال الضحاك والكلبي يعني مسجده وقيل منزله الذي هو ساكن فيه وقيل سفينته وقيل لمن دخل في دينه ، وانتصاب ﴿ مؤمناً ﴾ على الحال أي لمن دخل بيتي متصفاً بصفة الإيمان فيخرج من دخله غير متصف بهذه الصفة كامرأته وولده الذي قال ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ ثم عمم الدعوة فقال :

﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أي واغفر لكل متصف بالايمان من الذكور والإناث ، ثم عاد إلى الدعاء على الكافرين فقال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ مفعول ثان والاستثناء مفرغ أي لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكاً وخسراناً ودماراً فأهلكوا وغرق معهم صبيانهم أيضاً لكن لا على وجه العقاب لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعز عليهم من أنفسهم .

وفي الحديث «يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى » وعن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب ، وقد يشمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

---

١ ـ نرى اختلافاً في اسم نوح عليه السلام انظر ما ذكره المؤلف في أول تفسيره للسورة ولا ارى لهذا سبباً .

سورة الجن

ثمان وعشرون آية وهي مكية قال القرطبي في قول الجميع . عن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن عائشة وابن الزبير مثله وتسمى سورة قل أوحي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾

﴿ قل ﴾ يا محمد للناس ﴿ أوحي إليّ ﴾ ليعرفوا بذلك وأنك مبعوث إلى الجن كالإنس ، ولتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن وعرفوا إعجازه آمنوا قرأ الجمهور أوحي رباعياً وقرىء وحي ثلاثياً وهما لغتان ، والمعنى أخبرت بالوحي من الله .

﴿ أنه استمع نفر من الجن ﴾ واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لم يرهم ، فظاهر القرآن أنه لم يرهم لأن المعنى قل يا محمد لأمتك أوحي إليّ على لسان جبريل أنه استمع نفر من الجن ، ومثله قوله ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ .

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح قال « ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم » ، وروى ابن مسعود أنه رآهم ، ورجحه العلماء والحق صحتهما وإن الأول وقع أولا ثم نزلت السورة ، ثم أمر بالخروج إليهم ، قال عكرمة والسورة التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي ﴿ اقرأ باسم ربك الذين خلق ﴾ وقد تقدم في سورة الأحقاف ذكر ما يفيد زيادة في هذا .

والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة ، قال البغوي كانوا تسعة وقيل سبعة وقد اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت وجود الجن فأنكر

وجودهم معظم الفلاسفة ، واعترف به جمع منهم وسموهم بالارواح السفلية ، وزعموا أنهم أسرع إجابة من الأرواح الفلكية إلا أنهم أضعف .

وأما جمهور أرباب الملل وهم أتباع الرسل والشرائع فقد اعترفوا بوجودهم ، لكن اختلفوا في ماهيتهم وقد نطق الكتاب العزيز والسنة المطهرة بوجودهم فلا اعتداد بمنكريهم ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، قال الضحاك : والجن ولد الجان وليسوا بشياطين ، وقال الحسن : إنهم ولد إبليس وقيل هم أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية والهوائية ، وقيل نوع من الأرواح المجردة وقيل هي النفوس البشرية المفارقة لأبدانها .

وقد اختلف أهل العلم في دخول مؤمني الجن الجنة كما تدخل عصاتهم النار لقوله في سورة تبارك ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ وقول الجن فيما سيأتي في هذه السورة ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ وغير ذلك من الآيات ، فقال الحسن : يدخلون الجنة وقال مجاهد : لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار والأول أولى لقوله في سورة الرحمن .

﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ وفي سورة الرحمن آيات غير هذه تدل على ذلك فراجعها ، وقد قدمنا أن الحق أنه لم يرسل الله اليهم رسلاً منهم بل الرسل جميعاً من الإنس ، وإن أشعر قوله ﴿ قد أرسلنا اليكم رسلاً منكم ﴾ بخلاف هذا فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالة على أن الله سبحانه لم يرسل الرسل إلا من بني آدم ، وهذه الأبحاث الكلام فيها يطول ، والمراد الإشارة بأخصر عبارة ، قال ابن مسعود في الآية : كانوا من جن نصيبين .

وقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن ابن عباس « قال انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم، فقيل حيل بيننا وبين خبر السماء

وأرسلت علينا الشهب ، قالوا ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحي إليه قول الحق .

﴿ فقالوا ﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم ﴿ إنا سمعنا قرآناً ﴾ أي كلامامقروءاً ﴿ عجباً ﴾ في فصاحته وبلاغته وغزارة معانيه وغير ذلك ، وقيل عجباً في مواعظه ، وقيل في بركته ، وعجباً مصدر وصف به للمبالغة أو على حذف المضاف أي ذا عجب أو المصدر بمعنى اسم الفاعل أي معجباً .

﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ أي إلى مراشد الأمور ، وهي الحق والصواب والإيمان ، وقيل إلى معرفة الله والتوحيد ، والجملة صفة أخرى للقرآن ﴿ فآمنا به ﴾ أي صدقنا بأنه من عندالله ﴿ ولن نشرك ﴾ بعد اليوم ﴿ بربنا أحداً ﴾ من خلقه ولا نتخذ معه إلهاً آخر لأنه المتفرد بالربوبية ، وفيه دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين قيل كانوا يهوداً وقيل كانوا نصارى وقيل مجوساً ومشركين .

وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنت الجن بسماع القرآن مرة واحدة وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه ، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله وآمنوا به ، ولم ينتفع كفار الإنس لاسيما رؤساؤهم وعظماؤهم بسماعه مراراً متعددة ، وتلاوته عليهم في أوقات مختلفة ، مع كون الرسول منهم يتلوه عليهم بلسانهم ، لا جرم صرعهم الله أذل مصرع وقتلهم أقبح مقتل ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون .

وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ قرىء بفتح أن وكذا فيما بعدها وذلك أحد عشر موضعاً إلى قوله ﴿ وأنه لما قام عبدالله ﴾ وقرىء بالكسر في هذه المواضع كلها إلا في قوله ﴿ وأن المساجد الله ﴾ فإنهم اتفقوا على الفتح ، أما من قرأ بالفتح في هذه المواضع فعلى العطف على محل الجار والمجرور في ﴿ فآمنا به ﴾ كأنه قيل فصدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا الخ .

وأما من قرأ بالكسر في هذه المواضع فعلى العطف على ﴿ إنا سمعنا ﴾ أي ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا ﴾ وقالوا ﴿ إنه تعالى جد ربنا ﴾ الخ : واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة الكسر لأنه كله من كلام الجن . ومما هو محكي عنهم بقوله ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ .

وقرىء بالفتح في ثلاثة مواضع وهي ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ، وأنه كان يقول سفيهنا ، وأنه كان رجال من الإنس ﴾ لأنه من الوحي وكسر ما بقي لأنه من كلام الجن ، وقرأ الجمهور ﴿ وأنه لما قام عبدالله ﴾ بالفتح لأنه معطوف على قوله أنه استمع . وقرىء بالكسر في هذا الموضع عطفاً على ﴿ فآمنا به ﴾ بذلك التقدير السابق .

واتفقوا على الفتح في ﴿ أنه استمع ﴾ كما اتفقوا على الفتح في ﴿ أن المساجد ﴾ وفي ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ واتفقوا على الكسر في ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ وقال إنما أدعو ربي وقل إن أدري وقل إني لا أملك لكم .

والجد عن أهل اللغة العظمة والجلال ، يقال جد في عيني أي أعظم ، فالمعنى ارتفع عظمة ربنا وجلاله ، وبه قال عكرمة ومجاهد وقال الحسن : المراد

تعالى غناؤه ومنه قيل للحظ جد ورجل مجدود أي محظوظ ، وفي الحديث « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » قال أبو عبيد والخليل أنه لا ينفع ذا الغنى منك الغنى ، أي وإنما ينفعه الطاعة ، وقال القرطبي والضحاك : جده آلاؤه وعظمته وأمره وقدرته ، وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه وقال السدي : أمره وقال سعيد بن جبير .

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ أي تعالى ربنا وقيل جده قدرته ، وقال محمد بن علي بن الحسن وابنه جعفر الصادق والربيع بن أنس : ليس لله جد ، وإنما قالته الجن للجهالة ، والجد أيضاً أبو الأب قرأ الجمهور جد بفتح الجيم وقرىء بكسرها وهو ضد الهزل . وقرىء جدي ربنا أي جدواه ومنفعته وقرىء بتنوين جد ورفع ربنا على أنه بدل من جدٍ .

﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ هذا بيان لتعالى جده سبحانه قال الزجاج : تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً لأن الصاحبة تتخذ للحاجة والولد للاستئناس به ، والله تعالى منزه عن كل نقص ، وكأن الجن نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة والولد ، ونزهوا الله سبحانه عنهما .

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ أي جاهلنا ﴿ على الله شططاً ﴾ أي غلواً في الكذب بوصفه بالصاحبة والولد ، والضمير في « أنه » للحديث أو الأمر وسفيهنا يجوز أن يكون اسم كان ويقول الخبر ، ويجوز أن يكون سفيهنا فاعل يقول ، والجملة خبر كان واسمها ضمير يرجع إلى الحديث أو الأمر ، ويجوز أن تكون كان زائدة ، ومرادهم بسفيههم عصاتهم ومشركوهم .

وقال مجاهد وابن جريج وقتادة : أرادوا به إبليس ، عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً « قال إبليس » ، أخرجه ابن مردويه والديلمي قال السيوطي بسند واه ، والشطط الغلو في الكفر ، وقال أبو مالك الجور وقال الكلبي الكذب ، وأصله البعد عن القصد ومجاوزة الحد .

﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ أي إنا حسبنا أن

الإنس والجن كانوا لا يكذبون على الله بأن له شريكاً وصاحبة وولداً ، فلذلك صدقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن فعلمنا بطلان قولهم ، وبطلان ما كنا نظنه بهم من الصدق ، وانتصاب كذباً على أنه مصدر مؤكد ليقول ، لأن الكذب نوع من القول أو صفة لمصدر محذوف أي قولاً كذباً ، وقرىء أن لن تقول من التقول فعلى هذا كذباً مفعول به .

﴿ وأنه كان رجال ﴾ في الجاهلية ﴿ من الإنس يعوذون ﴾ أي يستعيذون ﴿ برجال من الجن ﴾ حين ينزلون في سفرهم بمخوف ، قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فيبيت في جواره حتى يصبح ، فنزلت هذه الآية ، قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ثم من بني حنيفة ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم .

وعن عكرمة بن أبي السائب الأنصاري « قال خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال يا عامر الوادي أنا جارك ، فنادى مناد يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم ، وأنزل الله على رسوله بمكة ﴿ وأنه كان رجال ﴾ الآية وذكر ابن الجوزي في تفسيره بغير سند .(١)

(١) ذكر هذا الحديث ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم ، وفي سنده عبد الرحمن بن اسحاق الكوفي ، وهو ضعيف ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧ / ١٢٩ وقال : رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمن بن اسحاق الكوفي ، وهو ضعيف ، قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة » في ترجمة « كردم بن أبي السائب » بعدما ساق حديثه هذا من رواية العقيلي من طريق عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب : وأخرجه ابن مردويه في « التفسير » من هذا الوجه ، وأخرج له شاهداً من حديث معاوية بن قرة عن أبيه . وأورده السيوطي في « الدر » ٦ / ٢٧١ وزاد نسبته لابن المنذر ، وأبي الشيخ في « العظمة » وبأن عساكر عن كردم بن أبي السائب الأنصاري رضي الله عنه . قال ابن كثير : وروي عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وابراهيم النخعي نحوه ، ثم قال : وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة ، كان جنّياً حتى يرهب الانسي ويخاف منه ، ثم ردَّه عليه لما استجار به ليضله ويخرجه عن دينه ، والله أعلم . اهـ .

﴿ فزادوهم﴾ أي زاد رجال الجن من يعوذ بهم من رجال الإنس ، أو زاد المستعيذون من رجال الإنس من استعاذوا بهم من رجال الجن ﴿ رهقاً ﴾ لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون سدنا الجن والإنس ، وبالأول قال مجاهد وقتادة وبالثاني قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد .

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم ، ورجل رهق إذا كان كذلك ، ومنه قوله ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي تغشاهم وقيل الرهق الخوف أي أن الجن زادت الإنس بهذا التعوذ بهم خوفاً منهم ، وقيل كان الرجل من الإنس يقول أعوذ بفلان من سادات العرب من جن هذا الوادي .

ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجن فيكون قوله برجال وصفاً لمن يستعيذون به من رجال الإنس أي يعوذون بهم من شر الجن ، وهذا فيه بعد ، وإطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة ، قال ابن عباس : كان القوم في الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه ، فلا يكون شيء أشد ولعاً منهم بهم ، فذلك قوله : ﴿ فزادهم رهقاً ﴾ .

﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴾ أي وأن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الناس أنه لا بعث بعد الموت ، فتكون هذه الآية وما قبلها من جملة الكلام الموحى به ، وقيل المعنى : وأن الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن . على أنه كلام بعض الجن لبعض ، والمعنى أنهم لا يؤمنون بالبعث كما أنكم لا تؤمنون به . وهذان القولان من كلام الله تعالى معترضان في خلال كلام الجن المحكي عنهم عند بعض المفسرين . وعند بعضهم هما من جملة كلام الجن ، وعليه فلا اعتراض في الكلام ، تأمل .

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا
طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا
سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا
ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾

﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ هذا من قول الجن أيضاً أي طلبنا خبرها كما جرت به عادتنا ، واللمس المس فاستعير للطلب لأن الماس طالب متعرف ﴿ فوجدناها ملئت حرساً شديداً ﴾ أي جمعاً أقوياء من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع ، والحرس جمع حارس وهو الرقيب ، والمصدر الحراسة ، وقيل إسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ، ولذا وصف بشديد ، ولو نظر إلى معناه لقيل شداداً ، وشهباً جمع شهاب وهو الشعلة المقتبسة من نار الكوكب . كما تقدم بيانه في تفسير قوله : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ أي وإنا كنا معشر الجن قبل هذا نقعد من السماء مواضع نقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء ؛ وللسمع متعلق بنقعد أي لأجل السمع أو بمضمر هو صفة لمقاعد أي مقاعد كائنة للسمع ، والمقاعد جمع مقعد إسم مكان وذلك أن مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة ، فحرسها الله سبحانه ببعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهب المحرقة .

عن ابن عباس قال : « كانت الشياطين لهم مقاعد في السماء يسمعون فيها الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً فأما الكلمة فتكون حقاً . وأما ما زادوا فيكون باطلاً فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا

مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك فقال لهم ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي بين جبلين بمكة ، فأتوه فأخبروه فقال هذا الحدث الذي حدث في الأرض » أخرجه أحمد والترمذي وصححه النسائي وغيرهم .

﴿ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أي أرصد له ليرمي به أو لأجله لمنعه من الاستماع ، وقوله ﴿ الآن ﴾ هو ظرف للحال واستعير هنا للاستقبال لأنهم لا يريدون به وقت قولهم فقط ، وانتصاب رصداً على أنه صفة لشهاباً أو مفعول له وهو مفرد ، ويجوز أن يكون اسم جمع كالحرس .

وقد اختلف أهل العلم هل كانت الشياطين ترمى بالشهب وتقذف قبل المبعث أم لا ؟ فقال قوم لم يكن ذلك وحكى الواحدي عن معمر قال قلت للزهري؟أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال نعم قلت أفرأيت قوله ﴿ وأنا كنا نقعد منها ﴾ الآية؟قال غلظ وشدد أمرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، قال ابن قتيبة : إن الرجم قد كان قبل مبعثه ولكنه لم يكن مثله في شدة الحراسة بعد مبعثه ، وكانوا يسترقون السمع في بعض الأحوال ، فلما بعث منعوا من ذلك أصلا .

وقال عبد الملك بن سابور : ولم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام : فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرست السماء ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنو إلى السماء ، وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله رميت بالشهب ، قال الزمخشري : والصحيح أنه كان قبل البعث ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم كثر الرجم وازداد زيادة ظاهرة حتى تنبه لها الإنس والجن ومنع الاستراق أصلاً ؛ وقد تقدم البحث عن هذا .

﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ﴾ بسبب هذه الحراسة

للسماء . وارتفاع الشر على الاشتغال أو على الابتداء وخبره ما بعده . والأول أولى لتقدم طالب الفعل على الاشتغال أو على الابتداء وخبره ما بعده . والأول ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ أي خيراً : قال ابن زيد قال إبليس لا ندري أأراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً أو يرسل إليهم رسولاً ؟ والجملة سادة مسد مفعولي ندري ، والأولى أن هذا من قول الجن فيما بينهم ، وليس من قول إبليس كما قال ابن زيد .

﴿ وأنا منا الصالحون ﴾ أي قال بعض لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الموصوفون بالصلاح ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ أي قوم دون الموصوفين بالصلاح ، وقيل أراد بأهل الصلاح المؤمنين وبمن هم دون ذلك الكافرين ، والأول أولى ، وقال ابن عباس يقول منا المسلم ومنا المشرك .

﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ أي جماعات متفرقة وفرقاً شتى ، وأصنافاً مختلفة وذوي مذاهب متفاوتة ، والقدة القطعة من الشيء وصار القوم قددا إذا تفرقت أحوالهم ، واستعمال القدد في الفرق مجاز ، والمعنى كنا ذوي طرائق قددا أو كانت طرائقنا طرقاً قدداً أو كنا مثل طرائق قدداً أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة : وقال السدي والضحاك : أدياناً مختلفة ، وقال قتادة : أهواء متباينة ، وقال ابن عباس : أهواء شتى . وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً ، وكذا قال مجاهد : قال الحسن : الجن أمثالكم قدرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية وكذا قال السدي .

﴿وأنا ظننا ﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين أي وأنا علمنا وتيقنا بالتفكر والاستدلال في آيات الله ﴿ أن لن نعجز الله في الأرض ﴾ أينما كنا فيها ولن نفوته بهرب ولا غيره إن أراد بنا أمراً ﴿ ولن نعجزه هرباً ﴾ مصدر في موضع الحال أي ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء . وهذه صفة الجن وما هم عليه

من أحوالهم وعقائدهم .

﴿ وأنا لما سمعنا الهدى ﴾ يعنون القرآن ﴿ آمنا به ﴾ وصدقنا أنه من عند الله ولم نكذب به كما كذبت به كفرة الإنس ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ أي لا يخاف نقصاً في عمله وثوابه ولا ظلماً ومكروهاً يغشاه ، والبخس النقصان ، والرهق العدوان والطغيان ، والمعنى لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزاد في سيئآته ، وقد تقدم تحقيق الرهق قريباً ، قرأ الجمهور بخساً بسكون الخاء ، وقرىء بفتحها وقرىء فلا يخف جزماً على جواب الشرط ، ولا وجه لهذا بعد دخول الفاء والتقدير فهو لا يخاف ، والأمر ظاهر ، وفي الآية دليل على أن العمل ليس من الإيمان ، قاله النسفي .

﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ وهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ومنا القاسطون ﴾ أي الجائرون الكافرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق . ومالوا إلى طريق الباطل ، يقال قسط إذا جار وأقسط إذا عدل[1] قال ابن عباس القاسطون العادلون عن الحق . وعن سعيد بن جبير أن الحجاج قال له حين أراد قتله ما تقول فيَّ قال قاسط عادل فقال القوم ما أحسن ما قال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل فقال الحجاج يا جهلة إنه سماني ظالماً مشركاً ، وتلا لهم قوله تعالى ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ وقوله ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ذكره الخطيب .

﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخوه باجتهاد ، ومنه التحري في الشيء، قال الراغب : حرى الشيء يحريه أي قصد حراه أي جانبه وتحراه كذلك . وقال الفراء : أموا الهدى قال النسفي : تحرى طلب الأحرى . أي الأولى وفيه دليل على أن الجن يثاب بالجنة .

---

(١) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في « صحيحه » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور » .

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً
غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا
﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿وأما القاسطون فكانوا﴾ في علم الله ﴿لجهنم حطباً﴾ أي وقوداً للنار يوقد بهم كما يوقد بكفرة الإنس ، وفيه دليل على أن الجني الكافر يعذب في النار ، وأنهم وإن خلقوا منها لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية فصاروا لحماً ودماً هكذا قيل ، وأيضاً النار قويها قد يأكل ضعيفها فيكون الضعيف حطباً للقوي .

﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو من « لو » لالتقاء الساكنين وقرىء بضمها تشبيهاً بواو الضمير ، وهذا ليس من قول الجن بل هو معطوف على أنه استمع نفر من الجن ، والمعنى وأوحي الى أن الشأن لو استقام الجن والإنس ، أو كلاهما على الطريقة وهي طريقة الإسلام .

وقد قدمنا أن القراء اتفقوا على فتح « أن » ههنا . قال ابن الأنباري والفتح ههنا على إضمار يمين تأويلها ، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما يقال في الكلام : والله لو قمت قمت ، قال أو على (أوحي إليّ أنه استمع) (وأن لو استقاموا) أو على (آمنا به) أي آمنا به وبأن لو استقاموا ، وعلى هذا يكون جميع ما تقدم معترضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، قال ابن عباس : لو أقاموا على ما أمروا به .

﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ وليس المراد خصوص السقيا بل المراد لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق ، وقال ابن عباس : معيناً ، وقال مقاتل : ماء كثيراً من السماء ، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين ،

وقال ابن قتيبة : المعنى لو آمنوا جميعاً لوسعنا عليهم في الدنيا ، وضرب الماء الغدق مثلاً لأن الخير والرزق كله بالمطر ، وهذا كقوله :

﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ﴾ الآية وقوله ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وقوله ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ﴾ الآية .

وقيل المعنى وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم ولم يكفر . وتبعه ولده على الإسلام لأنعمناعليهم ، واختار هذا الزجاج ، والماء الغدق هو الكثير في لغة العرب ، قرأ العامة غدقاً بفتحتين وقرىء بفتح الغين وكسر الدال ، وهما لغتان في الماء الغزير ، ومنه الغيداق للماء الكثير وللرجل الكثير العدو ، والكثير النطق ويقال غدقت عينه تغدق أي هطل دمعها ، وفي المصباح غدقت العين غدقاً من باب تعب كثر ماؤها فهي غدقة وأغدقت إغداقاً كذلك .

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم علم ظهور للخلائق وإلا فهو تعالى لا يخفى عليه شيء ، وقال الكلبي المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفاراً لأوسعنا أرزاقهم مكراً بهم واستدراجاً حتى يفتنوا بها فنعذبهم في الدنيا والآخرة ، وبه قال الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن والثمالي ويمان بن ريان وابن كيسان وأبو مجلز ، واستدلوا بقوله :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ وقوله ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ﴾ الاية والأول أولى ، وقال عمر : في الآية حيثما كان الماء كان المال وحيثما كان المال كانت الفتنة ، وقال ابن عباس : لنبتليهم به .

﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ أي ومن يعرض عن القرآن أو عن العبادة أو عن الموعظة أو عن التوحيد أو عن جميع ذلك ﴿ يسلكه ﴾ أي يدخله

﴿ عذاباً صعداً ﴾ أي شاقاً ، قرأ الجمهور نسلكه بالنون مفتوحة من سلكه ، وقرىء بالياء التحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله (عن ذكر ربه) ولم يقل عن ذكرنا ، وقرىء بضم النون وكسر اللام من أسلكه ، والصعد في اللغة المشقة تقول تصعد بي الأمر إذا شق عليك ، وهو مصدر صعد يقال صعد صعداً وصعوداً فوصف به العذاب مبالغة لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغمره ويغلبه فلا يطيقه .

قال ابو عبيدة: الصعد مصدر أي عذاباً ذا صعد ، وقال عكرمة : الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها فإذا انتهى الى أعلاها حدر الى جهنم كما في قوله ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ والصعود العقبة الكؤود ، وقال ابن عباس : عذاباً صعداً شقة من العذاب يصعد فيها ، وعنه قال جبلاً في جهنم ، وعنه قال لا راحة فيه .

﴿ وأن المساجد لله ﴾ أي وأوحي إليَّ أن المساجد مختصة بالله ، وقال الخليل التقدير ولأن المساجد ، والمساجد المواضع التي بنيت للصلاة فيها ، جمع مسجد بكسر الجيم وهو موضع السجود ، قال سعيد بن جبير : قالت الجن كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون فنزلت ، وقال الحسن أراد بها كل البقاع لأن الأرض جعلت كلها مسجداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد(١) ، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة والأنف ، وهو على هذا جمع مسجد بالفتح يقول هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء وقيل المساجد هي الصلاة لأن السجود من جملة أركانها قاله الحسن ، قال ابن عباس : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا

---

(١) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة (وأشار بيده الى أنفه) ، واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين » .

ببيت المقدس ، وقيل المراد بها البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة ، والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة أظهر الأقوال إن شاء الله تعالى وهو مروي عن ابن ابن عباس ، وإضافة المساجد الى الله إضافة تشريف وتكريم وقد تنسب الى غيره تعريفاً ، قال صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا خير من الف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »[1] ذكره القرطبي .

﴿ فلا تدعوا ﴾ أي فلا تعبدوا ﴿ مع الله أحداً ﴾ من خلقه كائناً من كان ، هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام ، قال مجاهد كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة اذا دخلوا المساجد كلها ، يقول فلا تشركوا فيها صنماً أو غيره مما يعبد ، وقيل المعنى أفردوا المساجد بذكر الله تعالى ولا تجعلوا لغير الله تعالى فيها نصيباً ، وفي الصحيح « من نشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا »

﴿ وأنه ﴾ أي وأوحي إليَّ أن الشأن ﴿ لما قام عبد الله ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل نبي الله او رسول الله لأنه من أحب الأسماء الى النبي صلى الله عليه وسلم . ولأنه لما كان واقعاً في كلامه صلى الله عليه وسلم عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع ؛ أو لأن عبادة عبد الله المستفادة من قوله :

﴿ يدعوه ﴾ ليست بمستبعدة ؛ ثم كان وقوع هذا الأمر ببطن نخل على ما قاله المحلي ؛ وقال الحفناوي سياق هذه الآية إنما يظهر في المرة الثانية من مرَّتي الجن وهي التي كانت بحجون مكة ؛ وكان معه فيها ابن مسعود وكان الجن إثني عشر ألفاً أو أكثر ، وأما المرة الأولى التي تقدم الكلام فيها التي كانت ببطن نخل فكانوا فيها تسعة او سبعة ولا يظهر في حقهم أن يقال ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ كما لا يخفى فليتأمل ا هـ .

ومعنى الآية أنه لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويتلو

(١) صحيح الجامع / ٢٧٣٣ .

القرآن كاد الجن أن يكونوا عليه صلى الله عليه وسلم متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه ؛ قال الزجاج : ومعنى لبداً يركب بعضهم بعضاً ؛ ومن هذا اشتقاق هذه اللبود التي تفرش . قرأ الجمهور لبداً بكسر اللام وفتح الباء وقرىء بضم اللام وفتح الباء وبضم الباء واللام وبضم اللام وتشديد الباء مفتوحة فعلى القراءة الأولى المعنى ما ذكرناه وعلى الثانية المعنى كثيراً كما في قوله .

﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ وقيل المعنى كاد المشركون يركب بعضهم بعضاً حرداً على النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحسن وقتادة وابن زيد : لما قام عبد الله محمد بالدعوى تلبدت الجن والإنس على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره ، واختار هذا ابن جرير .

قال مجاهد : لبداً أي جماعات وهو من تلبد الشيء أي اجتمع ، ومنه اللبد الذي يفرش لتراكم صوفه وكل شيء ألصقته الصاقاً شديداً فقد لبدته ، ويقال للشعر الذي على ظهر الأسد لبدة وجمعها لبد ، ويقال للجراد الكثير لبد ويطلق اللبد بضم اللام وفتح الباء على الشيء الدائم ، ومنه قيل لنسر لقمان لبد لطول بقائه .

وعن ابن مسعود قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة الى نواحي مكة فخط لي خطاً وقال لا تحدثن شيئاً حتى آتيك ؛ ثم قال لا يهولنك شيء تراه ؛ فتقدم شيئاً ثم جلس فاذا رجال سود كأنهم رجال الزط وكانوا كما قال الله تعالى ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل » .

وعن ابن عباس في الآية قال : « لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ أخرجه ابن جرير وابن مردويه .

وعنه في الآية قال : « لما أتى الجن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده فعجبوا من طواعية أصحابه ، فقالوا لقومهم لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » أخرجه عبد بن حميد والحاكم والترمذي وصححاه وغيرهم ؛ وعنه قال لبداً أي أعواناً .

﴿ قل ﴾ يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجيباً للكفار ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ وحده وأعبده ﴿ ولا أشرك به ﴾ في العبادة ﴿ أحداً ﴾ من خلقه ، قرأ الجمهور « قال » وقرىء قل على الأمر ، وهي سبعية ، ففي الكلام التفات من الغيبة الى الخطاب ، وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك .

﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ أي لا أقدر أن أدفع عنكم غياً[1] ولا أسوق اليكم خيراً لأن الضار والنافع هو الله سبحانه وقيل الضر الكفر والرشد الهدى ، والأول أولى لوقوع النكرتين في سياق النفي فهما يعمان كل ضرر وكل رشد في الدنيا والدين .

﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ﴾ أي لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي كقول صالح ﴿ فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وهذا بيان لعجزه عن شؤون نفسه بعد بيان عجزه عن شؤون غيره ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ أي ملجأً ومعدلاً وحرزاً ألجأ اليه وأحترز به ، والملتحد معناه في اللغة الممال أي موضعاً أميل إليه ، في القاموس ألحد إليه مال كالملتحد ، والملتحد الملتجأ ، وفي المصباح الملتحد بالفتح اسم الموضع وهو الملجأ أ هـ قال قتادة : مولى ، وقال السدي : حرزاً ، وقال الكلبي : مدخلاً في الأرض مثل السرب ، وقيل مذهباً ومسلكاً ، والمعنى متقارب .

---

(١) استعمال الضر في الغي من استعمال المسبب في السبب فهو مجاز مرسل اهـ منه .

إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
(٢٣) حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ
أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا (٢٥) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ
عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ
رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ
عَدَدًۢا (٢٨)

والاستثناء في قوله ﴿ إلا بلاغاً ﴾ هو من قوله لا أملك اي لا أملك ضراً ولا رشداً إلا التبليغ ﴿ من الله ﴾ فإن فيه أعظم الرشد أو من ملتحداً أي لن أجد من دونه ملجأً الا التبليغ ، وقال مقاتل : ذلك الذي يجيرني من عذابه ، وقال قتادة : إلا بلاغاً من الله فذلك الذي أملكه بتوفيق الله ، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما ، قال الفراء لكن أبلغكم ما أرسلت به فهو على هذا منقطع ، وقال الزجاج هو منصوب على البدل من ملتحداً اي لن أجد من دونه ملتحداً إلا أن أبلغ ما يأتي من الله .

﴿ ورسالاته ﴾ معطوف على بلاغاً أي إلا بلاغاً من الله وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالاته ، فآخذ نفسي بما آمر به غيري ، وقيل معطوف على الاسم الشريف اي إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته كذا قال أبو حيان ورجحه واستظهره الكرخي .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ﴾ في الأمر بالتوحيد ولم يؤمن لأن السياق فيه ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ قرأ الجمهور بكسر « إن » على أنها جملة مستأنفة مستقلة ، وقرىء بفتحها لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء ، وان مع في حيزها خبر لمبتدأ مضمر ، والتقدير فجزاؤه أو فحكمه أن له نار جهنم .

﴿ خالدين فيها ﴾ أي يدخلون في النار أو في جهنم مقدار خلودهم والجمع باعتبار معنى « من » كما أن التوحيد في قوله فإن له باعتبار لفظه ﴿ أبداً ﴾ تأكيد لمعنى الخلود أي خالدين فيها بلا نهاية .

﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون ﴾ من العذاب في الدنيا أو في الآخرة ، والمعنى لا يزالون على ما هم عليه من الإصرار على الكفر وعداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الى أن يروا الذي يوعدون به من العذاب ، وحتى ابتدائية فيها معنى الغاية لمقدر قبلها يدل عليه الحال وهي قوله ﴿ خالدين ﴾ فإن الخلود في النار يستلزم استمرارهم على كفرهم وعدم انقطاعه بالإيمان إذ لو آمنوا لم يخلدوا في النار ، ولو جعلت لمجرد الابتداء من غير ملاحظة معنى الغاية كما أشار اليه القرطبي لكان أسهل وأوضح فتكون جملة مستقلة بالاستفادة .

﴿ فسيعلمون ﴾ عند حلوله بهم يوم بدر أو يوم القيامة ﴿ من أضعف ناصراً ﴾ « من » موصولة أي هو أضعف جنداً ينتصر به او استفهامية ، والأول أولى ﴿ وأقل عدداً ﴾ أي أعواناً أهم أم المؤمنون قال الخطيب أي أنا وإن كنت في هذا الوقت وحيداً مستضعفاً وأقل عدداً ، أو هم وإن كانوا الآن بحيث لا يحصيهم عدداً إلا الله تعالى .

فيا لله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك وله جنود السموات والأرض بخلاف الجبابرة فإنهم لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم ، وازدراء غيرهم ، والظاهر أن « إذا » شرطية وأن قوله (فسيعلمون) جوابها لكن يشكل عليه الاستقبال المفاد بالسين وذلك لأن وقت رؤية العذاب يحصل علم الضعيف من القوي ، والسين تقتضي أنه يتأخر عنه ، فليتأمل هذا المحل فإنه لم ينبه عليه أحد من المفسرين ، ولا يتلخص منه إلا بجعل السين لمجرد التأكيد لا للاستقبال وله نظائر كثيرة ، قاله الحفناوي .

﴿ قل إن ﴾ أي ما ﴿ أدري أقريب ﴾ حصول ﴿ ما توعدون ﴾ من العذاب او يوم القيامة أي فيكون واقعاً الآن أو قريباً من هذا الأوان بحيث يتوقع عن قريب ﴿ أم يجعل له ربي أمداً ﴾ أي غاية ومدة فلا يتوقع دون ذلك الأمد ، أمره الله سبحانه أن يقول لهم هذا القول لما قالوا له متى يكون هذا الذي توعدنا به ، ولا يقال إنه صلى الله عليه وسلم قال « بعثت أنا والساعة كهاتين »[1] فكان عالماً بقرب وقوع القيامة ، فكيف قال ههنا لا أدري أقريب الخ لأن المراد بقرب وقوعه الذي علمه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى ، فهذا القدر من القرب معلوم ، وأما معرفة مقدار القرب فغير معلوم لا يعلمه إلا الله ، وهو على كل حال متوقع لا كلام فيه ، وإنما الكلام في تعيين وقته وليس إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، قال عطاء : يريد أنه لا يعرف يوم القيامة إلا الله سبحانه وحده ، والمعنى أن علم وقت العذاب علم غيب لا يعلمه إلا الله[2] .

﴿ عالم الغيب ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي أو بيان له أو خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من عدم الدراية ، وقرىء بالنصب على المدح ، وقرأ السري (علم الغيب) بصيغة الماضي ونصب الغيب والفاء في قوله :

﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ لترتيب عدم الإظهار على تفرده سبحانه بعلم الغيب أي لا يطلع على الغيب الذي يعلمه وهو ما غاب عن العباد أحداً

(١) قال ابن كثير : وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلّف تحت الأرض ، كذب لا أصل له ، ولم نره في شيء من الكتب ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يسأل عن وقت الساعة ، فلا يجيب عنها ، ولما تبدّى له جبريل في صورة أعرابي ، كان فيما سأله أن قال : يا محمد : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال : يا محمد متى الساعة؟ قال : « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » قال : أما إني لم أعدّ لها كثير صلاة ولا صيام. ولكني أحب الله ورسوله ، قال : « فأنت مع من أحببت » قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث .

(٢) زاد المسير ٨/ ٣٨٥

منهم ، ثم استثنى فقال ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ أي إلا من اصطفاه من الرسل أو من ارتضاه منهم لإظهاره على بعض غيبه ليكون ذلك دالاً على نبوته .

قال القرطبي قال العلماء لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضى من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي اليهم وجعله معجزة لهم ، ودلالة على نبوتهم .

وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى ، وينظر في الكفّ ويزجر بالطير ، ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، فهو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه ، وقال سعيد بن جبير ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ هو جبريل وفيه بعد ، وقيل المراد أنه يطلعه على بعض غيبه وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما يبينه من أحوال الآخرة لاما لا يتعلق برسالته من الغيوب كوقت قيام الساعة ونحوه .

قال الواحدي : وفي هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدله على ما يكون من حادث فقد كفر بما في القرآن ، قال في الكشاف : وفي هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف اليهم الكرامات وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وفيه أيضاً إبطال للكهانة والسحر والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط .

قال الرازي وعندي أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه إذ لا صيغة عموم في غيبه فيحمل على غيب واحد ، وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله (أقريب ما توعدون) الآية .

فإن قيل فما معنى الاستثناء حينئذ ، قلنا لعله اذا قربت القيامة يظهره وكيف لا وقد قال ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً) فتعلم

الملائكة حينئذ قيام الساعة ، أو هو استثناء منقطع اي من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الجن والإنس ، ويدل على أنه ليس المراد أنه لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل أنه ثبت كما يقارب التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين وقد عرفا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره ، وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتى رجع اليهما كسرى ، فثبت أن الله قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات .

وأيضاً أطبق أهل الملل على أن معبر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة ويكون صادقاً فيها ، وأيضاً قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد الى خراسان وسألها عن أمور مستقبلة فأخبرته بها فوقعت على وفق كلامها ، قال وأخبرني ناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل فكانت على وفق خبرها ، وبالغ أبو البركات في كتاب المعتبر في شرح حالها ، وقال فحصت عن حالها ثلاثين سنة فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً ، وأيضاً فإنا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة ، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضاً ، وقد نرى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف ، فلو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن الى القرآن فيكون التأويل ما ذكرنا انتهى كلامه بمعناه .

قال محمد بن علي الشوكاني : أما قوله : إذ لا صيغة عموم في غيبه ، فباطل فإن إضافة المصدر واسم الجنس من صيغ العموم كما صرح به أئمة الأصول وغيرهم ، وأما قوله : أو هو استثناء منقطع ، فمجرد دعوى يأباه النظم القرآني ، وأما قوله : إن شقاً وسطيحاً الخ فقد كانا في زمن تسترق فيه الشياطين السمع ويلقون ما يسمعونه الى الكهان فيخلطون الصدق بالكذب ، كما ثبت في الحديث الصحيح ، وفي قوله ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ ونحوها من الآيات ، فباب الكهانة قد ورد بيانه في هذه الشريعة وإنه كان طريقاً لبعض

الغيب بواسطة استراق الشياطين حتى منعوا ذلك بالبعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ، وقالوا ﴿ وأَنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً★ وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ فباب الكهانة في الوقت الذي كانت فيه مخصوص بأدلته ، فهو من جملة ما يخصص به هذا العموم ، فلا يرد ما زعمه من إيراد الكهانة على هذه الآية .

وأما حديث المرأة الذي أورده فحديث خرافة ، ولو سلم وقوع شيء مما حكاه عنها من الأخبار لكان من باب ما ورد في الحديث « إن في هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر » فيكون كالتخصيص لعموم هذه الآية لا نقضاً ، وأما ما اجترأ به على الله وعلى كتابه من قوله في آخر كلامه : فلو قلنا إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن الى القرآن ، فيقال له ما هذه بأول زلة من زلاتك وسقطة من سقطاتك ، وكم لها لديك من أشباه وأمثال نبض بها عرق فلسفتك ، وركض بها الشيطان الذي صار يتخبطك في مباحث تفسيرك ، يا عجباً لك أيكون ما بلغك من خبر هذه المرأة ونحوه موجباً لتطرق الطعن الى القرآن ، وما أحسن ما قاله بعض أدباء عصرنا .

وإذا رامت الذبابة للشمـ ـس غطاء مدت عليها جناحا

وقلت من أبيات منها :

مهب رياح سده بجناح وقابل بالمصباح ضوء صباح

فإن قلت : إذاً قد تقرر بهذا الدليل القرآني أن الله يظهر من ارتضى من رسله على ما شاء من غيبه فهل للرسول الذي أظهره الله على ما شاء من غيبه أن يخبر بعض أمته .

قلت نعم ، ولا مانع من ذلك ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ما لا يخفى على عارف بالسنة المطهرة ، فمن ذلك ما صح أنه قام مقاماً أخبر فيه بما سيكون الى يوم القيامة ، وما ترك شيئاً مما يتعلق بالفتن

ونحوها ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه ، وكذلك ما ثبت من أن حذيفة ابن اليمان كان قد أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحدث من الفتن بعده حتى سأله عن ذلك أكابر الصحابة ورجعوا اليه .

وثبت في الصحيح وغيره أن عمر بن الخطاب سأله عن الفتنة التي تموج كموج البحر فقال إن بينك وبينها باباً فقال عمر هل يفتح أو يكسر؟ فقال بل يكسر ، فعلم عمر أنه الباب وأن كسره قتله كما في الحديث الصحيح المعروف أنه قيل لحذيفة هل كان عمر يعلم ذلك؟ فقال نعم كما يعلم ان دون غد الليلة .

وكذلك ما ثبت من إخباره لأبي ذر بما حدث له وإخباره لعلي بن أبي طالب بخبر ذي الثدية ونحو هذا مما يكثر تعداده ، ولو جمع لجاء منه مصنف مستقل .

واذا تقرر هذا فلا مانع من أن يختص بعض صلحاء هذه الأمة بشيء من أخبار الغيب التي أظهرها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأظهرها رسوله لبعض أمته وأظهرها هذا البعض من الأمة لمن بعدهم ، فتكون كرامات الصالحين من هذا القبيل ، والكل من الفيض الرباني بواسطة الجناب النبوي اهـ كلامه رحمة الله تعالى عليه .

قال ابن عباس « في الآية أعلم الله رسوله من الغيب الوحي وأظهر عليه مما أوحى اليهم من غيبه وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره » أخرجه ابن المنذر وابن مردويه .

ثم ذكر سبحانه أنه يحفظ ذلك الغيب الذي يطلع عليه الرسول فقال : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ والجملة تقرير للإظهار المستفاد من الاستثناء والمعنى أنه يجعل سبحانه بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين لما أظهره عليه من الغيب ، أو يجعل بين يدي الوحي وخلفه حرساً من الملائكة يحوطونه من أن يسترقه الشياطين

فتلقيه الى الكهنة والمراد من جميع الجوانب ، قال الضحاك : ما بعث الله نبياً الا ومعه ملائكة يحفظونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ، فاذا جاءه شيطان في صورة الملك قالوا هذا شيطان فاحذره ، وإن جاءه الملك قالوا هذا رسول ربك .

قال ابن زيد : رصداً أي حفظة يحفظون النبي صلى الله عليه وسلم من أمامه وورائه من الجن والشياطين ، قال قتادة ، وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظة ، وقال الفراء : المراد جبريل قال في الصحاح : الرصد القوم يرصدون كالحرس يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث والمذكر والراصد الشيء الراقب له ، يقال رَصَدَهُ يَرْصُدُهُ رَصْداً ورَصَداً والترصد الترقب والمرصد موضع الرصد .

قال ابن عباس في قوله (رصداً) هي معقبات من الملائكة يحفظون رسول الله من الشياطين حتى يبين الذي أرسل إليهم به ، وذلك حتى يقول أهل الشرك قد أبلغوا رسالات ربهم وعنه قال ما أنزل الله على نبيه آية من القرآن إلا ومعها أربعة من الملائكة يحفظونها حتى يؤدوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ الآية .

﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ اللام متعلقة بيسلك والمراد به العلم المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذي أريد إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول ، وضمير أبلغوا يعود الى الرصد ، وقال قتادة ومقاتل ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة ، وفيه حذف يتعلق به اللام أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أُن الرسل قبله كانوا على حالته من التبليغ ، وقيل ليعلم محمد أن جبريل ومن معه قد أبلغوا اليه رسالات ربه ، قاله سعيد بن جبير .

وقيل ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات ربهم ، وقيل ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير تخليط ، وقال ابن قتيبة :

ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا ما أنزل اليهم ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم ، وقال مجاهد ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

قرأ الجمهور ليعلم بفتح التحتية على البناء للفاعل اي ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا ، وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته اي ليعلم ذلك عن مشاهدة كما علمه غيباً ، وقرىء بضم الياء على البناء للمفعول ، وقرىء بضم الياء وكسر اللام .

﴿ وأحاط بما لديهم ﴾ أي بما عند الرصد من الملائكة أو بما عند الرسل المبلغين لرسالاته ، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يسلك بإضمار قد أي والحال أنه تعالى قد أحاط بما لديهم من الأحوال ، قال سعيد بن جبير ليعلم أن ربهم قد أحاط بما لديهم فبلغوا رسالاته .

﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ معطوف على أحاط ، وعدداً يجوز أن يكون منتصباً على التميز محولاً من المفعول به أي وأحصى عدد كل شيء كما في قوله : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً على المصدرية أو في موضع الحال أي معدوداً ، والمعنى أن علمه سبحانه بالأشياء ليس على وجه الإجمال بل على وجه التفصيل ، أي أحصى كل فرد من مخلوقاته التي كانت والتي ستكون على حدة فلم يخف عليه منها شيء على حدة .

سورة المزمل

هي تسع عشرة آية وقيل عشرون آية وهي مكية

قال الماوردي كلها مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. قال وقال ابن عباس وقتادة الا آيتين منها ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ والتي تليها. وقال الثعلبي الا قوله: ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم ﴾ الى آخر السورة فانه نزل بالمدينة. وأخرج النحاس عن ابن عباس أنه قال نزلت بمكة الا آيتين ﴿ إن ربك يعلم ﴾ الخ. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال نزلت يا أيها المزمل بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وعن جابر «قال اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا سموا هذا الرجل اسما تصدون الناس عنه فقالوا كاهن. قالوا ليس بكاهن. قالوا مجنون قالوا ليس بمجنون. قالوا ساحر. قالوا ليس بساحر فتفرق المشركون على ذلك. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبريل فقال: ﴿ يا أيها المزمل. يا أيها المدثر ﴾» أخرجه البزار والطبراني في الأوسط وأبو

نعيم في الدلائل . وقال البزار بعد إخراجه من طريق معلى بن عبد الرحمن أن معلى قد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه لكنه اذا تفرد بالأحاديث لا يتابع عليها . وعن ابن عباس « قال بت عند خالتي ميمونة فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي من الليل فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر . فحرزت قيامه في كل ركعة بقدر يا أيها المزمل » . أخرجه ابو داود والبيهقي في السنن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾

﴿ يا أيها المزمل ﴾ أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي ، والتزمل التلفف في الثوب ، وفي المصباح زملته بثوبه فتزمل مثل لففته فتلفف وزملت الشيء حملته ، ومنه قيل للبعير زاملة بالهاء للمبالغة لأنه يحمل متاع المسافر ، قرأ الجمهور بالادغام ، وقرأ أبيّ (المتزمل) على الأصل وقرأ عكرمة بتخفيف الزاي ، وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اختلف في معناه فقال جماعة إنه كان يتزمل صلى الله عليه وآله وسلم بثيابه في أول ما جاءه جبريل بالوحي فرقاً منه حتى أنس به ، وقيل المعنى يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم للرسالة ، وبهذا قال عكرمة وكان يقرأ يا أيها المزمل بتخفيف الزاي وفتح الميم المشددة اسم مفعول ، وعنه أيضاً يا أيها الذي زمل هذا الأمر أي حمله ثم فتر ، وقيل المعنى يا أيها المزمل بالقرآن وقال الضحاك تزمل بثيابه لمنامه ونحوه عن قتادة ، وقيل بلغه من المشركين سوء قول فتزمل في ثيابه وتدثر ، فنزلت يا أيها المزمل ويا أيها المدثر .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع صوت الملك ونظر اليه أخذته الرعدة فأتى أهله وقال زملوني دثروني ، وكان خطابه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الخطاب في أول نزول الوحي ، ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة ، وقال ابن عباس زملت هذا الأمر فقم به ، وعنه قال يتزمل بالثياب ، قال السهيلي ليس المزمل من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه بعض الناس وعدوه في أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وإنما المزمل

اسم مشتق من حاله التي كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثر .

وفي خطابه صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم فائدتان (إحداهما) الملاطفة فإن العرب اذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها « كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : « قم أبا تراب » ، إشعاراً له بأنه غير عاتب عليه وملاطف له . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة « قم يا نومان وكان نائماً » ملاطفة له وإشعاراً بترك العتب ، فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها المزمل ﴾ فيه تأنيس له وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يتنبه الى قيام الليل وذكر الله تعالى ، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة ، ذكره الخطيب .

﴿ قم الليل ﴾ أي قم للصلاة في الليل الذي هو وقت الخلوة والخفية والستر ، وقيل أن معنى قم صلِّ عَبّر به عنه واستعير له ، واختلف هل كان هذا القيام الذي أمره به فرضاً عليه او نفلاً فقيل الأمر للوجوب ، وكان واجباً عليه وعلى أمته ، بل وعلى سائر الأنبياء قبله ، وأول ما فرض عليه صلى الله عليه وسلم بعد الدعاء والإنذار قيام الليل ، قال القرطبي ؛ والدلائل تقوي أن قيامه كان فرضاً عليه صلى الله عليه وآله وسلم وحده أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء او عليه وعلى أمته ، ثلاثة أقوال : الأول قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب له ، والثاني قول ابن عباس ، والثالث قول عائشة وابن عباس أيضاً . كذا في الخطيب والخازن وغيرهما .

والعامة على كسر الميم لالتقاء الساكنين ، وأبو السماك يضمها إتباعاً لحركة القاف ، وقرىء بفتحها طلباً للخفة ، قال ابو الفتح والغرض الهرب من التقاء الساكنين فبأي حركة حرك الأول حصل الغرض .

قلت إلا أن الأصل الكسر لدليل ذكره النحويون ، والليل ظرف للقيام وإن استغرقه الحدث الواقع فيه ، هذا قول البصريين ، وأما الكوفيون فيجعلون هذا النوع مفعولاً به .

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم عن سعد بن هشام قال قلت لعائشة « أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت ألست تقرأ هذه السورة ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قلت بلى ، قالت فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً . ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة ، وصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه » وقد روي هذا الحديث عنها من طرق .

وعن ابن عباس قال : « لما نزل أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة » أخرجه البيهقي والحاكم وصححه والطبراني وغيرهم ، وعن ابي عبد الرحمن السلمي قال : « لما نزلت يا أيها المزمل قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ فاستراح الناس » وأخرج أبو داود في ناسخه وابن نصر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طريق عكرمة عن ابن عباس « في الآية قال نسختها الآية التي فيها ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن ﴾ » .

وقوله ﴿ إلا قليلاً ﴾ استثناء من الليل أي صل الليل كله إلا يسيراً منه ، والقليل من الشيء هو ما دون النصف ، وقيل ما دون السدس ، وقيل ما دون العشر ، وقال مقاتل والكلبي المراد بالقليل هنا الثلث وقد أغنانا عن هذا الاختلاف قوله ﴿ نصفه ﴾ قال الزجاج هو بدل من الليل والاستثناء هو من النصف .

﴿ أو انقص منه قليلاً ﴾ الضمير في منه وعليه عائد الى النصف والمعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً الى الثلث .

﴿ أو زد عليه ﴾ قليلاً الى الثلثين فكأنه قال قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه . وأو للتخيير بين قيام النصف وقيام الثلث الذي هو مفاد قوله أو انقص منه قليلاً ، وقيام الثلثين الذي هو مفاد أو زد عليه ، وقيل إن نصفه بدل من قوله قليلاً فيكون المعنى قم الليل إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه ، وقال المحلي بدل من قليلاً ، وقلته بالنظر الى الكل انتهى .

قال الحفناوي قوله وقلته الخ جواب عما يقال أن النصف مساو للنصف الآخر فكيف يوصف بالقلة ومحصل الجواب أنه يوصف بها بالنظر لكل الليل لا بالنظر للنصف الآخر منه قال الأخفش نصفه أي أو نصفه كما يقال أعطه درهماً درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة ، قال الواحدي قال المفسرون او انقص من النصف قليلاً الى الثلث او زد على النصف الى الثلثين جعل له سعة في مدة قيامه في الليل ، وخيره في هذه الساعات للقيام ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم وطائفة معه يقومون على هذه المقادير ، وشق ذلك عليهم فكان الرجل لا يدري كم صلى أو كم بقي من الليل ، فكان يقوم الليل كله حتى خفف الله عنهم ورحمهم ونسخ وجوب قيام الليل في حقه وحقنا .

وقيل الضميران في (منه وعليه) راجعان للأقل من النصف كأنه قال قم أقل من نصفه أو قم أنقص من ذلك الأقل ، او أزيد منه قليلاً ، وهو بعيد جداً : والظاهر أن نصفه بدل من قليلاً ، والضميران راجعان الى النصف المبدل من قليلاً .

واختلف في الناسخ لهذا الأمر فقيل هو قوله ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ﴾ الى آخر السورة كما تقدم وقيل هو قوله ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ الخ وقيل هو قوله ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ الخ وقيل هو منسوخ بالصلوات الخمس . وبهذا قال مقاتل والشافعي وابن كيسان ، وقيل هو قوله .

﴿ فاقرؤا ما تيسر منه ﴾ وليس في القرآن سورة نسخ آخرها أولها إلا هذه

السورة ، وكان بين نزول أولها المنسوخ وآخرها الناسخ سنة ، وقيل ستة عشر شهراً ، وهذا على القول بأن السورة كلها مكية .

وأما على القول بأن قوله ﴿ إن ربك يعلم ﴾ مدني فبين الناسخ والمنسوخ عشر سنين لما علمت أن نزول المنسوخ كان في أول الوحي بمكة ، ونزول الناسخ كان بالمدينة ، وأقل ما يتحقق بينهما عشر سنين ، وقد قال به سعيد بن جبير ، وقيل نسخ التقدير بمكة وبقي التهجد حتى نسخ بالمدينة ، وقيل نسخ أولها بآخرها ثم نسخ آخرها بإيجاب الصلوات الخمس ، وذهب الحسن وابن سيربن الى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو قدر حلب شاة .

﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ أي اقرأه على مهل مع تدبر ، وقيل بين وفصل من الثغر المرتل اي المفلج الأسنان ، وكلام رتل بالتحريك أي مرتل ، وثغر رتل أيضاً اذا كان مستوي البنيان ، أو اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف وحفظ الوقوف وإشباع الحركات ، بحيث يتمكن السامع من عدها ، وقال الضحاك : اقرأه حرفاً حرفاً ، وقال الزجاج : هو أن يبين جميع الحروف ويوفي حقها من الإشباع ، وأصل الترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، وقال ابن عباس : بينه تبيينا، وتأكيد الفعل بالمصدر يدل على المبالغة ، وإيجاب الأمر على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض ، ولا ينقص من النطق بالحرف من مخرجه المعلوم ، مع استيفاء حركته المعتبرة وأنه لا بد منه للقارىء .

عن قتادة قال سئل أنس « كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال كانت مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم » أخرجه البخاري[1] ، وعن أم سلمة وقد سألها يعلى بن

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ورتّل القرآن ترتيلاً) أي : اقرأه على تمهُّل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبُّره ، قال ، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتِّلها حتى تكون أطول من أطوال منها . وفي « صحيح البخاري » عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كانت مَدّاً ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم) . ثم قال : وروى الإمام

مالك عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ، فقالت « مالكم وصلاته ، ثم نعتت قراءته فاذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً »[1] أخرجه النسائي .

وللترمذي قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول الحمد لله رب العالمين ، ثم يقف ، الرحمن الرحيم ، ثم يقف ، وكان يقول مالك يوم الدين ثم يقف » وفي رواية أبي داود قالت « قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ؛ الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، يقطع قراءته آية آية »

وعن عبد الله بن مغفل قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح فرجع في قراءته » أخرجه الشيخان . وعن جابر قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وفينا العربي والعجمي فقال اقرأوا وكل حسن ، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه » أخرجه أبو داود ، وزاد غيره في رواية « لا يجاوز تراقيهم » .

وعن ابن مسعود قال لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هَذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكن هَمُّ أحدكم آخر السورة ، وفي الباب أحاديث .

والمقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة لا مجرد إخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الوجه والفم وألحان الغناء كما يعتاده قراء هذا الزمان من أهل مصر وغيره ، في مكة المكرمة وغيرها ، بل هو بدعة أحدثها البطالون الأكالون ، والحمقاء الجاهلون بالشرائع وأدلتها الصادقة ، وليس هذا بأول قارورة كسرت في الإسلام .

أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقال لقارىء القرآن : اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(١) زاد المسير ٣٨٩/٨ .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

وقوله ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ اعْتراض بين الأمر بقيام الليل وبين تعليله بقوله الآتي ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ والقصد بهذا الاعتراض تسهيل ما كلفه من القيام كأنه يقول إن قيام الليل وإن كان عليك فيه مشقة لكنه أسهل من غيره من التكاليف فإنا سنلقي الخ . وقال السمين هذه الجملة مستأنفة ، وقال الزمخشري هذه الآية اعتراض ويعني بالاعتراض من حيث المعنى لا من حيث الصناعة ، والمعنى سنوحي وسننزل اليك القرآن وهو قول ثقيل ، وكلام عظيم ذو خطر وعظمة ، لأنه كلام رب العالمين وكل شيء له خطر ومقدار فهو ثقيل .

قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده ، وقال مجاهد : حلاله وحرامه ، وقال الحسن : العمل به ، وقال ابو العالية : ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام ، وقال محمد بن كعب : ثقيل على المنافقين والكفار بما فيها من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالهم وهتك أسرارهم ، وبطلان أديانهم وسب آلهتهم ، وقال السدي : ثقيل بمعنى كريم من قولهم فلان ثقل عليّ أي كرم عليّ ، قال الفراء : ثقيلاً أي رزيناً ليس بالخفيف السفساف ، لأنه كلام ربنا ، وقال الحسين بن الفضل : ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد ، وقيل هو خفيف على اللسان بالتلاوة ثقيل في الميزان بالثواب يوم القيامة ، وقيل ثقيل أي ثابت كثبوت الثقيل في محله ، ومعناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً ، وقيل وصفه بكونه ثقيلاً حقيقة لما ثبت « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوحي اليه وهو على ناقته وضعت جرانها[1] على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه » أخرجه أحمد

(١) الجران : باطن العنق .

وعبد بن حميد والحاكم وصححه عن عائشة[1] .

وقيل ثقيلاً بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بادراك فوائده ومعانيه بالكلية ، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته ، والفقهاء بحثوا عن أحكامه وكذا أهل اللغة والنحو والمعاني والبيان ، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل اليها المتقدمون ، فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله فصار كالجبل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله ، والأولى أن جميع هذه المعاني فيه ، وقال القشيري القول الثقيل هو قول لا إلّه إلا الله لأنه ورد في الخبر « لا إلّه إلا الله خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان » .

﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أي ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أولاً فأولاً ، يقال نشأ الشيء ينشأ إذا ابتدىء وأقبل شيئاً بعد شيء فهو ناشىء وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحاب إذا بدأت ، فناشئة فاعلة من نشأت تنشىء فهي ناشئة ، قال الزجاج : ناشئة الليل كل ما نشأ منه أي حدث فهو ناشئة ، قال الواحدي : قال المفسرون الليل كله ناشئة ، والمراد أن ساعات الليل الناشئة فاكتفى بالوصف عن الاسم الموصوف ، وقيل إن ناشئة الليل هي النفس التي تنشأ من مضجعها للعبادة أي تنهض ، من نشأ من مكانه اذا نهض ، وقيل إنما يقال لقيام الليل ناشئة اذا كان بعد نوم ، فلو لم يتقدمه نوم لم يكن ناشئة ،وقيل ما ينشأ فيه من الطاعات .

قال ابن الأعرابي اذا نمت من أول الليل ثم قمت فتلك المنشأة والنشأة ومنه ناشئة الليل قيل وناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء لأن معنى نشأ ابتدأ وكان زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما يصلي بين المغرب والعشاء ويقول : هذه ناشئة الليل ، وقال عكرمة وعطاء : هي بدو

---

(1) رواه البخاري في « صحيحه » عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليَّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول : قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصّد عرقاً .

الليل ، وقال مجاهد وغيره : هي في الليل كله لأنه ينشأ بعد النهار ، واختار هذا مالك ، وقال ابن كيسان هي القيام من آخر الليل .

وقال في الصحاح : ناشئة الليل أول ساعاته ، وقال الحسن : هي ما بعد العشاء الآخرة الى الصبح ، وقال ابن عباس : هي قيام الليل بلسان الحبشة اذا قام الرجل قالوا نشأ ، قال الشيخ فعلى هذا هي جمع ناشىء أي قائم (قلت) يعني أنها صفة لشيء يفهم الجمع اي طائفة أو فرقة ناشئة وإلا ففاعل لا يجمع على فاعلة .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : هي أوله ، وعنه قال الليل كله ناشئة ، وعن ابن مسعود قال ناشئة الليل بالحبشية قيام الليل ، وعن انس بن مالك : قال هي ما بين المغرب والعشاء .

﴿ هي أشد وطأً ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة واختارها أبو حاتم وقرىء بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة واختار هذه الفراء وأبو عبيدة ، فالمعنى على الأولى أن الصلاة ناشئة الليل أثقل على المصلي من صلاة النهار ، لأن الليل للنوم ، قال ابن قتيبة المعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار من قول العرب اشتدت على القوم وطأة السلطان اذا ثقل عليهم ما يلزمهم منه ، ومنه قوله صلى الله عليه عليه وآله وسلم « اللهم اشدد وطأتك على مضر »[1] .

والمعنى على القراءة الثانية أنها أشد مواطأة أي موافقة السمع للقلب على تفهم القرآن من قولهم واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطاء اذا وافقته عليه ، قال مجاهد وابن أبي مليكة : اي أشد موافقة بين القلب والسمع والبصر واللسان ، لانقطاع الأصوات والحركات فيها ، ومنه ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ اي ليوافقوا ، وقال الأخفش : أشد قياماً ، وقال الفراء : أي أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت الفراغ عن الاشتغال

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله في قصة القنوت في صلاة الصبح .

بالمعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع ، وقال الكلبي أشد نشاطاً .

﴿ وأقوم قيلاً ﴾ أي أبين قولاً ، وأسد مقالاً ، وأثبت قراءة وأصح قولاً من النهار لحضور القلب فيها وهدو الأصوات وسكونها ، وأشد استقامة واستمراراً على الصواب ، لأن الأصوات فيها هادئة والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلي ما يقرأه ، قال قتادة ومجاهد : أي أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم ، قال أبو علي الفارسي : أقوم قيلاً أي أشد استقامة بفراغ البال بالليل ، قال الكلبي : أي أبين قولاً بالقرآن ، وقال عكرمة : أي أتم نشاطاً وإخلاصاً وأكثر بركة ، وقال ابن زيد : أجدر أن يتفقه في القرآن وقيل أعجل إجابة للدعاء .

﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ قرأ الجمهور بالحاء المهملة أي تصرفاً في حوائجك وأشغالك وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً ، والسبح الجري والدوران ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيديه ورجليه ، وفرس سابح أي شديد الجري ، وقد استعير من السباحة في الماء للتصرف في الحوائج ، وقيل السبح الفراغ أي أن لك فراغاً بالنهار للحاجات فصل بالليل .

وقال ابن عباس : السبح الفراغ للحاجة والنوم ، قال ابن قتيبة : أي تصرفاً وإقبالاً وإدباراً في حوائجك وأشغالك وقيل فراغاً وسعة لنومك وراحتك ، وقال الخليل : سبحاً أي نوماً والسبح التمدد ، وقال الزجاج : المعنى إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ للاستدراك .

وقرىء سبخاً بالخاء المعجمة قيل ومعنى هذه القراءة الخفة والسعة والاستراحة ، قال الأصمعي يقال سبخ الله الحمى أي خففها ، وسبخ الحر فتر وخف ومنه قول الشاعر .

فسبخ عليك الهم واعلم بأنه إذا قدر الرحمن شيئاً فكائن

أي خفف عنك الهم ، والتسبيخ من القطن ما ينسبخ بعد الندف ، وقال ثعلب السبخ بالخاء المعجمة التردد والاضطراب ، والسبخ السكون ، وقال ابو عمر السبخ النوم والفراغ .

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا
﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ
وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ
تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

﴿ واذكر اسم ربك ﴾ أي ادعه بأسمائه الحسنى ، وقيل اقرأ باسم ربك في ابتداء صلاتك وقيل اذكر اسم ربك في وعده ووعيده لتوفر على طاعته وتبعد عن معصيته ، وقيل المعنى دم على ذكر ربك وتلاوة القرآن ودراسة العلم ليلاً ونهاراً ، واستكثر من ذلك على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ، قاله القاضي كالكشاف ، وقال الكلبي : المعنى صل لربك وقال المحلي : أي قل بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء قراءتك انتهى تبع فيه سهلاً وزاد عليه سهل توصلك ببركة قراءتها الى ربك وتقطعك عما سواه ، ذكره الكرخي ، ومعنى في ابتداء قراءتك سواء قرأت في الصلاة أو في خارجها ، وهذا اذا قرأ من أول سورة ، وأما اذا قرأ من اثناء سورة فانه إن كان في غير الصلاة سن له أن يبسمل ، وإن كان فيها لم تسن له البسملة لأن قراءة السورة بعد الفاتحة تعد قراءة واحدة فتأمل .

﴿ وتبتل تبتيلاً ﴾ أي انقطع اليه انقطاعاً بالإشتغال لعبادته ، والتبتل الانقطاع يقال تبتلت الشيء اي قطعته وميزته عن غيره ، وصدقة بتلة اي منقطعة من مال صاحبها ، ويقال للراهب تبتل لانقطاعه عن الناس ، ووضع تبتيلاً مكان تبتلاً لرعاية الفواصل ، قال الواحدي والتبتل رفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله ، وقيل المعنى أخلص اليه إخلاصاً ، وقيل توكل عليه توكلاً .

﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر بجر ﴿ رب ﴾ على النعت لربك او البدل منه أو البيان له ، وقرأ الباقون برفعه على أنه مبتدأ وخبره .

﴿ لا إلَه الا هو ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف اي هورب الخ وقرأ زيد بن علي بنصبه على المدح ، وقرأ الجمهور المشرق والمغرب مفردين ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم المشارق والمغارب على الجمع ، وقد قدمنا تفسير المشرق والمغرب والمشرقين والمغربين والمشارق والمغارب .

﴿ فاتخذه وكيلاً ﴾ اي اذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه قائماً بأمورك وعول عليه في جميعها ، وقيل كفيلاً بما وعدك من الجزاء والنصر ، وفائدة الفاء أن لا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور الى الواحد القهار اذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار .

قال البقاعي وليس ذلك بأن يترك الإنسان كل عمل فإن ذلك طمع فارغ بل بالإجمال في طلب كل ما ندب الانسان الى طلبه ليكون متوكلاً في السبب ، منتظراً المسبب ، فلا يهمل الأسباب ويتركها طامعاً في المسببات ، لأنه حينئذ يكون كمن يطلب الولد من غير زوجة ، وهو مخالف لحكمة هذه الدار المبنية على الأسباب .

﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ فيَّ من الصاحبة والولد ، وفيك من الساحر والشاعر ، والأذى والسب والاستهزاء ولا تجزع من ذلك ﴿ واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ أي لا تتعرض لهم ولا تشتغل بمكافآتهم وتجانبهم وتداريهم وكل أمرهم الى الله فالله يكفيكهم ، وقيل الهجر الجميل الذي لا جزع فيه . وهذا كان قبل الأمر بالقتال .

﴿ وذرني والمكذبين ﴾ أي دعني وإياهم ولا تهتم بهم ، فإني أكفيك أمرهم وأنتقم لك منهم ، وقيل نزلت في المطعمين يوم بدر ، وهم عشرة ،

وقد تقدم ذكرهم ، وقال يحيي بن سلام : هم بنو المغيرة ، وقال سعيد بن جبير : أخبرت أنهم إثنا عشر .

﴿ أولي النعمة ﴾ أي أرباب الغنى والسعة والترفه واللذة في الدنيا ، والنعمة بالفتح التنعم بالكسر الإنعام وبالضم المسرة .

﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ أي تمهيلاً قليلاً ، على أنه نعت لمصدر محذوف ، أو زماناً قليلاً على أنه صفة لزمان محذوف ، والمعنى أمهلهم الى انقضاء آجالهم ، وقيل الى نزول عقوبة الدنيا بهم كيوم بدر ، قالت عائشة « لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى كانت وقعة بدر » وقيل الى يوم القيامة ، والأول أولى لقوله :

﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ وما بعده فإنه وعيد لهم بعذاب الآخرة ، والأنكال جمع نكل وهو القيد كما قال الحسن ومجاهد وغيرهما ، قال ابن مسعود : أنكالاً قيوداً ، وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال من حديد ، والأول أعرف في اللغة ، وقال مقاتل : هي أنواع العذاب الشديد ، وقال أبو عمران الجوني هي قيود لا تحل .

﴿ وجحيماً ﴾ أي ناراً مؤججة محرقة ﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ أي لا يسوغ في الحلق بل ينشب فيه فلا ينزل ولا يخرج ،، قال ابن عباس : هو شجرة الزقوم ، وبه قال مجاهد ، وقال الزجاج : هو الضريع كما قال تعالى :

﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ وقال : هو شوك العوسج ، قال عكرمة : هو شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج والغصة الشجى في الحلق وهو ما ينشب فيه من عظم أو غيره وجمعها غصص ﴿ وعذاباً اليماً ﴾ أي ونوعاً آخر من العذاب غير ما ذكر وجعاً يخلص وجعه الى القلب .

﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ انتصاب الظرف إما بذرني او بالاستقرار المتعلق به لدينا او هو صفة لعذاب فيتعلق بمحذوف أي عذاباً واقعاً يوم ترجف ، أو متعلق بأليمٍ ، قرأ الجمهور ترجف بفتح التاء وضم الجيم مبنياً

للفاعل ، وقرىء مبنياً للمفعول مأخوذ أرجفها ، والمعنى تتحرك وتتزلزل وتضطرب بمن عليها وهو يوم القيامة ، والرجفة الزلزلة والرعدة الشديدة .

﴿ وكانت الجبال ﴾ أي وتكون الجبال التي هي مراسي الأرض وأوتادها ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ وإنما عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ، والكثيب الرمل المجتمع من كثب الشيء اذا جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول ، والمهيل الذي يمر تحت الأرجل ، قال الواحدي : أي رملاً سائلاً يقال لكل شيء أرسلته إرسالاً من تراب أو طعام أهلته هيلاً ، قال الضحاك والكلبي : المهيل الذي اذا وطئته بالقدم زل من تحتها ، واذا أخذت أسفله انهال . وقال ابن عباس : المهيل الذي اذا أخذت منه شيئاً تبعك آخره ، وعنه قال المهيل الرمل السائل .

﴿ إنا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ الخطاب لأهل مكة أو لكفار قريش أو لجميع الكفار ففيه التفات من الغيبة في قوله ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ وقوله : ﴿ والمكذبين ﴾ والرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم .

﴿ كما أرسلنا الى فرعون رسولاً ﴾ يعني موسى ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ الذي أرسلناه اليه وكذبه ولم يؤمن بما جاء به ، والنكرة اذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول ، وإنما خص موسى وفرعون بالذكر لأن خبرهما كان منتشراً بين أهل مكة ، لأنهم كانوا جيران اليهود ، والمعنى إنا أرسلنا اليكم رسولاً فعصيتموه كما أرسلنا الى فرعون رسولاً فعصاه .

﴿ فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ أي شديداً ثقيلاً غليظاً ، ومنه قيل للمطر وابل ، وقال الأخفش شديداً ، وبه قال ابن عباس ، والمعنى متقارب ، ومنه طعام وبيل اذا كان لا يستمرأ .

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ فكيف تتقون ﴾ أي فكيف تقون أنفسكم وتوجدون الوقاية التي تقي أنفسكم ، والمعنى لا سبيل لكم الى التقوى اذا رأيتم القيامة ، وقيل معناه فكيف تتقون العذاب يوم القيامة ﴿ إن كفرتم ﴾ أي اذا بقيتم على كفركم في الدنيا ﴿ يوماً ﴾ أي عذاب يوم .

﴿ يجعل الولدان شيباً ﴾ لشدة هوله أي يصير الولدان شيوخاً شمطاً ، والشيب جمع أشيب ، وهذا يجوز أن يكون حقيقة وأنهم يصيرون كذلك ، أو تمثيلاً لأن من شاهد الهول العظيم تقاصرت قواه وضعفت أعضاؤه وصار كالشيخ في الضعف وسقوط القوة ، قال الشاعر :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

قال في المصباح والشيب ابيضاض الشعر المسود وشيب الحزن رأسه وبرأسه بالتشديد وأشابه بالألف وأشاب به فشاب في المطاوع انتهى . وفي القاموس الشيب الشعر وبياضه كالمشيب وهو أشيب ، ولا فعلاء له أي لا يقال امرأة شيباء كما في المصباح ، وقومٌ شِيبٌ وَشُيُبٌ بضمتين ، وقيل يحتمل أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول وأن الأطفال يبلغون منه الشيخوخة والشيب ، والأول أولى . وفي هذا توبيخ لهم شديد وتقريع عظيم .

قال الحسن أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم وكذا قرأ ابن مسعود وعطية ، ويوماً مفعول به لتتقون ، قال ابن الأنباري : ومنهم من نصب اليوم بكفرتم ، وهذا قبيح ، والولدان الصبيان .

وعن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يجعل الولدان شيباً قال ذلك يوم القيامة . وذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعثاً الى النار ، قال من كم يا رب ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين

وينجو واحد ، فاشتد ذلك على المسلمين فقال حين أبصر ذلك في وجوههم إن بني آدم كثير ، وأن يأجوج ومأجوج من ولد آدم إنه لا يموت رجل منهم حتى يرثه لصلبه الف رجل ففيهم وفي أشباههم جنة لكم » أخرجه الطبراني وابن مردويه ، وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود بأخصر منه .

ثم زاد سبحانه في وصف ذلك اليوم بالشدة فقال : ﴿ السماء منفطر به ﴾ أي منشقة به لشدته وعظيم هوله ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ، والجملة صفة أخرى ليوم والباء سببية ، وجوز الزمخشري أن تكون للاستعانة فإنه قال والباء في « به » مثلها في قولك فطرت العود بالقدوم فانفطر به ، وقال القرطبي إنها بمعنى « في » أي منفطر فيه وهو ظاهر ، وقيل بمعنى اللام أي منفطر له ، وإنما قال منفطر ولم يقل منفطرة لتنزيل السماء منزلة شيء لكونها قد تغيرت ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء .

وقال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل منفطرة لأن مجازها السقف ، فيكون هذا كما في قوله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ وقال الفراء : السماء تذكر وتؤنث ، وقال ابو علي الفارسي : هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر و ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ وقال أيضاً أي السماء ذات انفطار كقولهم امرأة مرضع ، أي ذات إرضاع على طريق النسب . وانفطارها لنزول الملائكة قال :

﴿ اذا السماء انفطرت ﴾ وقوله : ﴿ والسموات يتفطرن من فوقهن ﴾ وقيل منفطر به أي بالله والمراد بأمره ، والأول أولى ، وقال ابن عباس : منفطر به ممتلئة بلسان الحبشة وعنه قال مثقلة موقرة ، وعنه قال يعني تشقق السماء .

﴿ وكان وعده مفعولاً ﴾ أي كان وعد الله بما وعد به من البعث والحساب وغير ذلك كائناً لا محالة ، والمصدر مضاف الى فاعله ، أو وكان وعد اليوم مفعولاً فالمصدر مضاف الى مفعوله ، ومعنى مفعولاً أنه مقضي نافذ لا يرد على حد ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ قال مقاتل كان وعده أن يظهر دينه على الدين كله .

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾

﴿ إن هذه ﴾ أي ما تقدم من الآيات ﴿ تذكرة ﴾ أي موعظة ، وقيل الاشارة الى جميع آيات القرآن لا الى ما في هذه السورة فقط ﴿ فمن شاء ﴾ النجاة ﴿ اتخذ ﴾ بالطاعة التي هي أهم أنواعها التوحيد ﴿ الى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً توصله الى الجنة ، وقال القرطبي أي من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك الى ربه سبيلاً أي طريقاً الى رضاه ورحمته فليرغب فقد أمكن له لأنه أظهر له الحجج والدلائل .

﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ﴾ أي أقل ، استعير له الأدنى لأن المسافة بين الشيئين اذا دنت قل ما بينهما من الإحياز ، واذا بعدت كثر ذلك ﴿ من ثلثي الليل ونصفه ﴾ معطوف على أدنى ، وقوله : ﴿ وثلثه ﴾ معطوف على نصفه ، والمعنى أن الله يعلم أن رسوله صلى الله عليه وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل ويقوم نصفه ويقوم ثلثه وبالنصب قرأ ابن كثير والكوفيون ، وقرأ الجمهور ونصفه وثلثه بالجر عطفاً على ثلثي الليل ، والمعنى أن الله يعلم أن رسوله يقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه وأقل من ثلثه ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد وأبو حاتم لقوله الآتي :

﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ فكيف يقومون نصفه وثلثه وهم لا يحصونه ، وقال الفراء النصب أشد بالصواب ، لأنه قال أقل من ثلثي الليل ثم فسر نفس القلة .

﴿ وطائفة من الـذين معك ﴾ معـطوف على الضمير ﴿ تقـوم ﴾ وجاز من غير تأكيد للفصل أي وتقوم ذلك القدر معك طائفة من أصحـابك ﴿ والله يقـدر الليل والنهار ﴾ أي يعلم مقاديرهما على حقائقها ، ويختص بذلك دون غيره ، وأنتم لا تعلمون ذلك على الحقيقة ، قال عـطاء يريـد لا يفوتـه علم ما يفعلون أي أنـه يعلم مقاديـر الليل والنهـار فيعلم قدر الـذي يقومـونه من الليـل والذي ينامون منه .

﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أي لن تطيقـوا علم مقاديـرهما على الحقيقـة ، وفي أن ضمير شأن محذوف أي أنه وقيـل المعنى لن تطيقـوا قيام الليـل ، قال القرطبي والأول أصح ، فان قيام الليل ما فـرض كله قط قال مقـاتل وغيـره لما نزل ﴿ قم الليل إلا قليـلاً نصفه أو انقص منـه قليلاً ، أو زد عليـه ﴾ شق ذلك عليهم وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخـطىء فانتفخت أقدامهم وامْتُقِعَتْ[1] ألـوانهم ، فـرحمهم الله وخفف عنهم فقال ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ لأنكم إن زدتم ثقـل عليكم واحتجتم الى تكلف ما ليس فرضاً ، وإن نقصتم شق ذلك عليكم .

﴿ فتاب عليكم ﴾ أي فعاد عليكم بـالعفو ورخص لكم في تـرك القيام ، وقيل أسقط عنكم فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجـوع كما تقـدم ، فـالمعنى رجع بكم من التثقيـل الى التخفيـف ، ومن العسـر الى اليسـر ، قـال المحلي رجـع بكم الى التخفيف ، قال الحفنـاوي فالمـراد التوبـة اللغـويـة لا التوبة من الـذنب والمراد بـالتخفيف الذي رجـع بهم اليه مـا كان قبـل وجوب القيام لكن الرجوع في الجملة لأنه قبل وجوب قيـام الليل لم يكن عليهم قيـام شيء منه ، وفي هذا الرجوع والتخفيـف وجوب جزء مطلق يصدق بركعتين .

﴿ فاقرأوا مـا تيسر من القـرآن ﴾ بيان للبـدل الذي وقـع النسخ اليـه أي فنسخ التقدير بالأجزاء الثلاثة الى جزء مطلق من الليل ، وسيأتي أن هذا الجـزء نسخ أيضاً بوجوب الصلوات الخمس ، والمعنى فاقرأوا في الصـلاة بالليـل ما

(١) امتُقِعَ لونه (بالبناء للمجهول) تغيَّر من حزن أو فزع أو مرض .

خف عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتاً ، قاله القرطبي ورجحه ، قال الحسن هو ما يقرأ في صلاة المغرب والعشاء ، وقال السدي : ما تيسر منه هو مائة آية ، وقال الحسن أيضاً : من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين ، وقال سعيد خمسون آية وعن ابن عباس مرفوعاً قال مائة آية أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وعن قيس بن أبي حازم قال : « صليت خلف ابن عباس فقرأ في أول ركعة بالحمد لله رب العالمين وأول آية من البقرة ثم ركع فلما انصرفنا أقبل علينا فقال إن الله يقول فاقرأوا ما تيسر منه » أخرجه الدارقطني والبيهقي في سننه وحسناه ، قال ابن كثير هذا حديث غريب جداً لم أره إلا في معجم الطبراني .

وعن ابي سعيد عند أحمد والبيهقي في سننه قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر » وقد قدمنا في أول هذه السورة ما روي أن هذه الآيات المذكورة هنا هي الناسخة لوجوب قيام الليل وقيل المعنى فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، والصلاة تسمى قرآناً كقوله ﴿ وقرآن الفجر ﴾ قيل إن هذه الآية نسخت قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه فيحتمل أن يكون ما تضمنته هذه الآية فرضاً ثابتاً ويحتمل أن يكون منسوخاً لقوله ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

قال الشافعي : الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس ، وقد ذهب قوم الى أن قيام الليل نسخ في حقه صلى الله عليه وسلم وفي حق أمته ، وقيل نسخ التقدير بمقدار ، وبقي أصل الوجوب وقيل أنه نسخ في حق الأمة وبقي فرضاً في حقه صلى الله عليه وسلم ، والأول القول بنسخ قيام الليل على العموم في حقه صلى الله عليه وسلم وفي حق

أمته ، وليس في قوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ ما يدل على بقاء شيء من الوجوب ، لأنه إن كان المراد به القراءة من القرآن فقد وجدت في المغرب والعشاء وما يتبعهما من النوافل المؤكدة ، وإن كان المراد به الصلاة من الليل فقد وجدت صلاة الليل بصلاة المغرب والعشاء وما يتبعهما من التطوع .

وأيضاً الأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل على غيرها يعني الصلوات الخمس ، فقال « لا إلا أن تطوع » تدل على عدم وجوب غيرها فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة كما ارتفع وجوب ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قال الواحدي قال المفسرون في قوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ كان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بالصلوات الخمس عن المؤمنين وثبت على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وذلك قوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ .

قلت فيه نظر لأن وجوب الصلوات الخمس لا ينافي وجوب قيام الليل ، وشرط الناسخ أن يكون حكمه منافياً ومعارضاً لحكم المنسوخ كوجوب العدة بحول مع وجوبها بأربعة أشهر فليتأمل ، فالصواب أن يكون النسخ بغير ذلك كالحديث الذي قدمنا .

ثم ذكر سبحانه عذرهم فقال : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾ فلا يطيقون قيام الليل ويشق عليهم ذلك ، وقال الحفناوي هذا استئناف مبين لحكمة أخرى ، فالحكمة الأولى هي قوله : ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ والثانية هي قوله ﴿ علم أن سيكون ﴾ الخ

﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ أي يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجونه اليه في معاشهم فلا يطيقون قيام الليل ﴿ وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ يعني الغزاة والمجاهدين فلا يطيقون قيام الليل ، قال النسفي : سوى سبحانه وتعالى في هذه الآية بين

درجة المجاهد والمكتسب ، لأن كسب الحلال جهاد .

قال ابن مسعود أيما رجل جلب شيئاً الى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ثم قرأ هذه الآية ، وقال ابن عمر ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله احب إليَّ من أن أموت بين شعبتي رحل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله ، وقال طاوس الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله .

ثم لما ذكر سبحانه ههنا ثلاثة أسباب مقتضية للترخيص ورفع وجوب القيام فرفعه عن جميع الأمة لأجل هذه الأعذار التي تنوب بعضهم ، ذكر ما يفعلونه بعد هذا الترخيص فقال ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ وقد تقدم تفسيره قريباً والتكرير للتأكيد ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ يعني الواجبة في الأموال[1] ، وقال الحرث العكلي صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك ، وقيل صدقة التطوع ، وقيل كل أفعال الخير .

﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي أنفقوا ما سوى المفروض في سبل الخير من أموالكم إنفاقاً حسناً عن طيب قلب ، وإنما أضافه الى نفسه لئلا يمن على الفقير فيما يتصدق به عليه ، وهذا لأن الفقير معاون له في تلك القربة فلا تكون له عليه منة ، بل المنة للفقير عليه ، وقد مضى تفسيره في سورة الحديد .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أي : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة ، قال : وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النُّصُب والمخرَج لم تُبيَّن إلا بالمدينة ، والله أعلم . قال : وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال ، وقد ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لذلك الرجل الذي سأل : ماذا فرض الله عليه من الصلوات ؟ : « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » .

قال زيد بن أسلم القرض الحسن الإنفاق على الأهل وقيل الإنفاق من الحلال بالإخلاص والصرف الى المستحق ، وقيل النفقة في الجهاد ، وقيل هو إخراج الزكاة المفترضة على وجه حسن فيكون تفسيراً لقوله : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ والأول أولى لقوله ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ فإن ظاهره العموم أي أيّ خير كان مما ذكر ومما لم يذكر .

﴿ هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ أي أجزل ثواباً مما تؤخرونه الى عند الموت او توصون به ليخرج بعد موتكم ، وانتصاب خيراً على أنه ثاني مفعولي تجدوه وضمير هو ضمير فصل وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرىء بالرفع على أنه خبر هو ، والجملة في محل نصب على أنها ثاني مفعولي تجدوه ، قال أبو زيد وهي لغة تميم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وقرأ الجمهور أيضاً أعظم بالنصب عطفاً على ﴿ خيراً ﴾ وقرىء بالرفع مثل خير وانتصاب أجراً على التمييز .

﴿ واستغفروا الله ﴾ أي اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم في مجامع أحوالكم فإنكم لا تخلون من ذنوب تقترفونها ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي كثير المغفرة لمن استغفره كثير الرحمة لمن استرحمه ، ويستر على أهل الذنب والتقصير ، ويخفف عن أهل الجهد والتوفير ، وهو على ما يشاء قدير[1] .

---

(١) قال ابن جرير الطبري في تتمة الآية من آخر السورة (واستغفروا الله) يقول تعالى ذكره : سلوا الله غفران ذنوبكم ، يصفح لكم عنها ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يقول : إن الله ذو مغفرة لذنوب من تاب من عباده من ذنوبه ، وذو رحمة أن يعاقبهم عليها من بعد توبتهم منها .

سورة المدثر

هي خمس أو ست وخمسون آية وهي مكّية في قول الجميع .
قال ابن عباس نزلت بمكة . وعن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا
تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ
﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾

قال الواحدي قال المفسرون لما بدىء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي أتاه جبريل فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألىء ففزع ووقع مغشياً عليه ، فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه ، وقال دثروني ، فدثروه بقطيفة فقال ﴿ يا أيها المدثر ﴾ أي يا أيها الذي قد تدثر بثيابه ، أي تغشى بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي ، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما ، وقد قرأ الجمهور بالإدغام ، وقرأ أبيّ على الاصل ، والدثار هو ما يلبس فوق الشعار ، والشعار هو الذي يلي الجسد ، وفي الحديث الأنصار شعار ، والناس دثار ، وسيف داثر بعيد العهد بالصقال ، ومنه قيل للمنزل الدارس داثر لذهاب أعلامه ، وقال عكرمة المعنى يا أيها المدثر بالنبوة وأثقالها ، قال ابن العربي وهذا مجاز بعيد لأنه لم يكن نبياً اذ ذاك .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبدالله أن أبا سلمة بن عبدالرحمن قال إن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيها المدثر ﴾ فقال له يحيى بن أبي كثير يقولون إن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبدالله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت فقال جابر لا أحدثنك الا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ،

ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض ، فجئثت منه رعباً فرجعت فقلت دثروني فنزلت ﴿ يا أيها المدثر ﴾ إلى قوله ﴿ والرجز فاهجر ﴾[1] » وعن ابن عباس قال دثر هذا الأمر فقم به ، وعنه قال المدثر النائم ، وسيأتي في سورة اقرأ ما يدل على أنها أول سورة أنزلت ، والجمع ممكن .

قال الخطيب اختلف في أول ما نزل من القرآن اختلافاً طويلاً ، وتحقيق المعتمد منه وطريق الجمع بين الأحاديث المتناقضة فيه أن أول ما نزل على الإطلاق ﴿اقرأ باسم ربك﴾ إلى ﴿ما لم يعلم﴾ ، وأول ما نزل بعد فترة الوحي يا أيها المدثر إلى فاهجر ، وفي صدر حاشية سليمان الجمل استيفاء الكلام على ترتيب القرآن نزولاً نقلاً عن الخازن فراجعه إن شئت .

﴿ قم فأنذر ﴾ أي انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا ، أو قم من مضجعك واترك الدثر بالثياب واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله له وهو الإنذار ، أو قم قيام عزم وتصميم ، وقيل الإنذار هنا هو اعلامهم بنبوته ، وقيل إعلامهم بالتوحيد ، وقال الفراء المعنى قم فصل وأمر بالصلاة .

﴿ وربك فكبر ﴾ أي واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير ، وهو وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة عقداً وقولاً ، وأنه أكبر من أن يكون له شريك كما يعتقده الكفار ، وأعظم من أن تكون له صاحبة أو ولد ، قال ابن العربي المراد به تكبير التقديس والتنزيه لخلع الأضداد والأنداد والأصنام ، ولا

(١) رواه البخاري ٨/٥٢٠ ومسلم ١/١٤٤ وأحمد في « المسند » ٣/٣٠٦ والطبري ٢٩/١٤٣ والواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٣ وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٨٠ وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن الضريس ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن الأنباري في « المصاحف » عن جابر رضي الله عنه .

تتخذ ولياً غيره ، ولا تعبد سواه ، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له ولا نعمة الا منه .

قال الزجاج إن الفاء في ﴿ فكبر ﴾ دخلت على معنى الجزاء كما دخلت في قوله فأنذر ، وقال ابن جني هو كقولك زيداً فاضرب أي زيداً اضرب فالفاء زائدة وعبارة الكرخي دخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل وأياماً كان فلا تدع تكبيره .

﴿ وثيابك فطهر ﴾ المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي ، أمره الله سبحانه بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات وإزالة ما وقع فيها منها ، وقال مجاهد وابن زيد وأبو رزين أي عملك فأصلح وقال قتادة نفسك فطهر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس ، وقال سعيد بن جبير قلبك فطهر ، وقال الحسن والقرطبي أخلاقك فطهر ، لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه .

وقال الزجاج المعنى وثيابك فقصر ، لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسات إذا انجر على الأرض ، وبه قال طاوس ، وذلك لان العرب كانت عادتهم تطويل الثياب وجر الذيول ولا يؤمن معه إصابة النجاسة ، وفي الثوب الطويل من الخيلاء والكبر والفخر ما ليس في الثوب القصير ، فنهى عن تطويل الثوب وأمر بتقصيره لذلك .

وقال أبيّ ابن كعب معناه لا تلبسها على غدر ولا على ظلم ولا على إثم ، البسها وأنت بر طاهر ، وقال ابن عباس أي لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب باطل ، وعنه قال فطهر من الإثم قال وهي في كلام العرب نقي الثياب ، وعنه قال من الغدر لا تكن غداراً ، وفي لفظ لا تلبسها على غدرة ، والأول أولى لأنه المعنى الحقيقي ، وليس في استعمال الثياب مجاز عن غيرها لعلاقة مع قرينة ما يدل على أنه المراد عند الإطلاق ، وليس في مثل هذا الأصل أعني الحمل على الحقيقة عند الإطلاق خلاف .

وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة .

قال الرازي إذا حملنا التطهير على حقيقته ففي الآية ثلاث احتمالات ﴿ الأول ﴾ قال الشافعي المقصود من الآية الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس (وثانيها) قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم كان المشركون لا يصونون ثيابهم عن النجاسات فأمره الله أن يصون ثيابه عنها (وثالثها) روي أنهم ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قذراً فقيل له وثيابك فطهر عن تلك النجاسات والقاذورات .

﴿ والرجز فاهجر ﴾ الرجز معناه في اللغة العذاب ، وفيه لغتان كسر الراء وضمها وهما قراءتان سبعيتان ، والزاي منقلبة عن السين ، والعرب تعاقب بين السين والزاي ومعناهما واحد ، وإنما سمي الشرك وعبادة الأوثان رجزاً لأنها سبب الرجز ، وقال مجاهد وعكرمة الرجز الأوثان كما في قوله .

﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وبه قال ابن زيد ، وقال إبراهيم النخعي الرجز المأثم ، والهجر الترك ، وقال قتادة الرجز أساف ونائلة ، وهما صنمان كانا عند البيت ، وقال أبو العالية والربيع والكسائي الرجز بالضم الوثن ، وبالكسر العذاب ، وقال السدي الرجز بضم الراء الوعيد والأول أولى ، وقال ابن عباس الرجز الأصنام .

﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قرىء لا تمن بالإدغام ، وقرأ الجمهور بفك الإدغام ، وتستكثر بالرفع على أنه حال أي ولا تمنن حال كونك مستكثراً وقيل على حذف « أن » والأصل ولا تمنن أن تستكثر ، فلما حذفت رفع ، قال الكسائي فإذا حذف « أن » رفع الفعل ، وقرىء تستكثر بالنصب على تقدير « أن » وبقاء عملها ، ويؤيدها قراءة ابن مسعود أن تستكثر بزيادة أن ، وقرىء بالجزم على أنه بدل من تمنن كما في قوله ﴿ يلق أثاما يضاعف له العذاب ﴾ أو الجزم لإجراء الوصل مجرى الوقف .

وقد أعترض على قراءة الجزم لأن قوله تستكثر لا يصح أن يكون بدلاً من تمنن ، لأن المن غير الاستكثار ، ولا يصح أن يكون جواباً للنهي ، والمن الإنعام وبابه رد .

واختلف السلف في معنى الآية فقيل المعنى لا تنعم بشيء مستكثراً أي طالباً للكثرة ، كارهاً أن ينقص المال بسبب العطاء فيكون الاستكثار هنا عبارة عن طلب العوض كيف كان ، وقيل المعنى لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء الرسالة والنبوة كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير ، وقيل لا تعط عطية تلتمس فيها أكثر منها قاله عكرمة وقتادة ، وقال ابن عباس لا تعط تلتمس بها أفضل منها وعنه قال لا تعط الرجل عطاء رجاء أن يعطيك أكثر منه ، قال الضحاك هذا حرمه الله على رسوله لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأمته ، وقال مجاهد لا تضعف أن تستكثر من الخير من قولك حبل متين إذا كان ضعيفاً ، وقال الربيع ابن أنس لا يعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير .

وقال ابن كيسان لا تستكثر عملاً فتراه من نفسك إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته ، وقيل لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثره ، وقال محمد بن كعب لا تعط مالك مصانعة وقال زيد بن أسلم إذا أعطيت عطية فأعطها لربك .

﴿ ولربك فاصبر ﴾ على طاعته وفرائضه ، والمعنى لأجل ربك وثوابه ، وقال مقاتل ومجاهد اصبر على الأذى والتكذيب ، وقال ابن زيد حملت أمراً عظيماً فحاربتك العرب والعجم فاصبر عليه لله ، وقيل اصبر تحت موارد القضاء لله ، وقيل فاصبر على البلوى وقيل على الأوامر والنواهي .

﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه

للتصويت ، والنقر في كلام العرب الصوت ويقولون نقر باسم الرجل إذا دعاه ، والمراد هنا النفخ في الصور ، والمراد النفخة الثانية وقيل الأولى ، وقد تقدم الكلام على هذا في سورة الأنعام وسورة النحل ، والفاء للسببية كأنه قيل اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم .

قال ابن عباس : الناقور الصور أي القرن الذي هو مستطيل وفيه ثقب بعدد الارواح كلها وتجمع الأرواح في تلك الثقب ، فيخرج من كل ثقبة روح الى الجسد الذي نزعت منه فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى كما مر غير مرة ، والعامل في « إذا » ما دل عليه قوله الآتي ﴿ فذلك يومئذ ﴾ الخ فإن معناه عسر الأمر عليهم ، وقيل العامل فيه ما دل عليه قوله ﴿ فذلك ﴾ لأنه إشارة إلى النقر أي وقت النقر وهو النفخة يوم القيامة ﴿ يومئذ ﴾ بدل مما قبله وهو اسم الإشارة ، وبنى يوم لإضافته إلى غير متمكن وهو إذ وتنوينها عوض عن الجملة أي يوم إذ نفخ في الصور ، وخبر ذلك ﴿ يوم عسير ﴾ أي شديد .

﴿ على الكافرين غير يسير ﴾ تأكيد العسر عليهم لأن كونه غير يسير قد فهم من قوله ﴿ يوم عسير ﴾ وفيه إيذان بأنه يسير على المؤمنين ، وقال الرازي : يحتمل أنه عسير على المؤمنين والكافرين إلا أنه على الكافرين أشد . أهـ وما قاله الرازي يفهمه التقييد بالجار والمجرور إن جعل متعلقاً بيسير، وإن كان مضافاً إليه لأنه قد أجازه بعضهم كما ذكره السمين .

﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي دعني واتركني وهي كلمة تهديد ووعيد ، والمعنى دعني والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه لا مال ولا ولد ، هذا على أن وحيداً منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد المحذوف ، ويجوز أن يكون حالاً من الياء في ذرني أي دعني وحدي معه

فإني أكفيك في الانتقام منه ، والأول أولى ، قال المفسرون وهو الوليد بن المغيرة وبه قال ابن عباس ، قال مقاتل خل بيني وبينه فأنا أنفرد بهلكته ، وإنما خص بالذكر لمزيد كفره وعظيم جحوده لنعم الله عليه .

وقيل أراد بالوحيد الذي لا يُعرف أبوه وكان يقال في الوليد أنه دعي ، وعن ابن عباس قال « إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال فقل فيه قولاً يبلغ قومك انك منكر له وانك كاره له ، قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال فدعني حتى أفكر فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ » أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل وقد أخرجه عبدالرزاق عن عكرمة مرسلاً وكذا غير واحد[1] .

---

(١) رواه بهذا اللفظ الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٠ من رواية عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السختياني عن عكرمة عن ابن عباس ، وسنده صحيح . ورواه الحاكم به وقال :
زاد المسير ٨/٤٠٣ .

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾

﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ أي كثيراً أو يمد بالزيادة والنماء شيئاً بعد شيء ، قال الزجاج مال غير منقطع عنه وقد كان الوليد بن المغيرة مشهوراً بكثرة المال على اختلاف أنواعه كالزرع والضرع والتجارة ، قيل كان يحصل له من غلة أمواله ألف ألف دينار ، وقيل أربعة آلاف دينار ، وقيل ألف دينار قاله ابن عباس وعن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال غلة شهر بشهر قيل كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره شتاء ولا صيفاً ، وكان له عبيد وجوار كثيرة .

﴿ وبنين شهوداً ﴾ أي وجعلت له بنين حضوراً بمكة معه لا يسافرون ولا يحتاجون إلى التفرق في طلب الرزق لكثرة مال أبيهم ، قال الضحاك كانوا سبعة ولدوا بمكة وخمسة ولدوا بالطائف ، وقال سعيد بن جبير كانوا ثلاثة عشر ولداً ، وقال مقاتل كانوا سبعة كلهم رجال أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام والوليد بن الوليد ، وقيل عمارة وفيه نظر لأن ابن حجر قال في الإصابة إن عمارة مات كافراً ، وقيل معنى شهوداً أنه إذا ذكر ذكروا معه وقيل كانوا يشهدون ما كان يشهده من المحافل والمجامع ، ويقومون بما كان يباشره .

﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي بسطت له في العيش الرغيد وطول العمر ، والجاه العريض والرياسة في قريش حتى كان يدعى ريحانة قريش ، وهو الكمال عند أهل الدنيا ، والتمهيد عند العرب التوطئة ومنه مهد الصبي ، وأصله التسوية والتهيئة ويتجوز به عن بسط المال والجاه وهو المراد هنا ، وقال مجاهد إنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ أي يطمع بعد هذا كله في الزيادة لكثرة حرصه وشدة طمعه مع كفرانه بالنعم وإشراكه بالله ، قال الحسن ثم يطمع ان أدخله الجنة . وكان يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي . فردعه الله سبحانه وزجره فقال ﴿ كلا ﴾ أي لست أزيده بل أنقصه فقد ورد أنه بعد نزول هذه الآية ما زال في نقصان ماله وولده حتى هلك فقيراً .

ثم علل ذلك على وجه الاستئناف التحقيقي بقوله ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي معانداً لها كافراً بما أنزلناه منها على رسولنا ، فإن معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفرانها مع شيوعها مما يوجب الحرمان بالكلية ، وإنما أوتي ما أوتي استدراجاً ،يقال عند يعند بالكسر إذا خالف الحق ورده وهو يعرفه فهو عنيد وعاند ، والعاند الذي يجوز عن الطريق ويعدل عن القصد ، قال أبو صالح : عنيداً معناه مباعداً ، وقال قتادة : جاحداً وقال مقاتل : معرضاً وقال ابن عباس : جحوداً .

﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ أي سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة فيها وهو مثل لما يلقاه من العذاب الصعب الذي لا يطاق ، وقيل المعنى انه يكلف أن يصعد جبلاً من نار ، والإرهاق في كلام العرب أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل ، قال ابو سعيد الخدري في قوله صعوداً هو جبل في النار يكلفون أن يصعدوا فيه ، فكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت فاذا رفعوها عادت كما كانت ، وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي ، وهو كذلك فيه أبداً » أخرجه أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي ، قال الترمذي غريب لا نعرفه الا من حديث ابن لهيعة عن دراج . قال ابن كثير وفيه غرابة ونكارة انتهى . وقد أخرجه جماعة من قول أبي سعيد[1] .

---

(١) هذا الحديث ذكره المؤلف ملفقاً من حديثين ، الأول رواه ابن جرير الطبري من رواية شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي عن عمارة بن القعقاع عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري ،

وقال ابن عباس صعوداً صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه . وعنه قال جبل في النار .

وجملة ﴿ إنه فكر ﴾ تعليل لما تقدم من الوعيد أي أنه فكر في شأن النبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن ﴿ وقدر ﴾ أي هيأ الكلام في نفسه ، والعرب تقول هيأت الشيء إذا قدرته وقدرت الشيء إذا هيأته ، وذلك أنه لما سمع القرآن لم يزل يتفكر ماذا يقول فيه وقدر في نفسه ما يقول فذمه الله وقال ﴿ فقتل ﴾ أي لعن وعذب ﴿ كيف قدر ﴾ أي على أي حال قدر ما قدر من الكلام كما يقال في الكلام لأضربنه كيف صنع أي على أيّ حال كانت منه ، وقيل المعنى قهر وغلب كيف قدر ، وقال الزهري عذب ، وهو من باب الدعاء عليه .

والتكرير في قوله ﴿ ثم قتل كيف قدر ﴾ للمبالغة والتأكيد ، وقيل فقتل في الدنيا ثم قتل فيما بعد الموت في البرزخِ والقيامة،و﴿ثم﴾يشعر بأن الدعاء الثاني أبلغ من الأول فهي للتفاوت في الرتبة وقيل بل للتراخي في الزمان أيضاً .

﴿ ثم نظر ﴾ بأي شيء يدفع القرآن ويقدح فيه ، فالنظر بمعنى التأمل وعلى هذا فتتكرر هذه الجملة مع قوله أنه فكر وقدر أو فكر في القرآن وتدبر ما هو .

ورواه ابن أبي حاتم من رواية شريك عن عمار الدهني عن عطية به ، بلفظ « (سأرهقه صعوداً) » قال : « هو جبل من نار يكلّف أن يصعده ، فإذا وضع يده ذابت ، واذا رفعها عادت ، فإذا وضع رجله ذابت ، واذا رفعها عادت » . وعطية العوفي ضعيف . والحديث الثاني رواه أحمد من حديث ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، والطبري عن عمرو بن الحارث عن دراج به ، بلفظ « الصُعود : جبل من نار ، يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي به كذلك منه أبداً » ودراج عن شيخه أبي الهيثم ضعيفان . وقال ابن كثير بعدما ذكر حديث أحمد والطبري (وهو الرواية الثانية) : وفيه غرابة ونكارة .

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ثم عبس﴾ أي قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به في القرآن ، والعبس مصدر عبس مخففاً يعبس عبساً وعبوساً إذا قطب وقيل عبس في وجوه المؤمنين ، وقيل عبس في وجه النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿وبسر﴾ أي كلح وجهه وتغير ، وقيل إن ظهور العبس في الوجه يكون بعد المحاورة وظهور البسور في الوجه قبلها ، والعرب تقول وجه باسر إذا تغير واسود ، وقال الراغب : البسر استعمال الشر قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته أي طلبها في غير أوانها قال ومنه قوله عبس وبسر أي أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته ، وأهل اليمن يقولون بسر المركب وأبسر أي وقف لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد أبسرنا أي صرنا إلى البسور .

﴿ثم أدبر واستكبر﴾ أي أعرض عن الحق وذهب إلى أهله وتعظم عن أن يؤمن ﴿فقال﴾ عقب ما جره إليه طبعه الخبيث من الكفر القائم به ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أي يأثره عن غيره ويرويه عن السحرة كمسيلمة وأهل بابل ، والسحر إظهار الباطل في صورة الحق أو الخديعة على ما تقدم بيانه في سورة البقرة ، يقال أثرت الحديث تأثره إذا ذكرته عن غيرك أي أمور تخييلية لا حقائق لها وهي لدقتها بحيث تخفي أسبابها شؤون تمويهية .

﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ يعني أنه كلام الإنس ، وليس بكلام الله ، وهو تأكيد لما قبله وقد تقدم أن الوليد بن المغيرة إنما قال هذا القول إرضاء لقومه بعد اعترافه أن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة إلى آخر كلامه .

ولما قال هذا القول الذي حكاه الله عنه قال الله عز وجل ﴿سأصليه سقر﴾ أي سأدخله النار ، وسقر من أسماء النار ومن دركات جهنم ولم

تتصرف للتعريف والتأنيث ، قال السمين هذا بدل من قوله سأرهقه صعوداً قاله الزمخشري ، فإن كان المراد بالصعود المشقة فالبدل واضح ، وإن كان المراد صخرة في جهنم كما جاء في بعض التفاسير فيعسر البدل ويكون فيه شبه من بدل الاشتمال لأن جهنم مشتملة على تلك الصخرة .

ثم بالغ في وصف النار وشدة أمرها فقال ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ أي وما أعلمك أي شيء هي ، والعرب تقول وما أدراك ما كذا إذا أرادوا المبالغة في أمره وتعظيم شأنه وتهويل خطبه ،و ﴿ما﴾ الأولى مبتدأ وجملة ﴿ما سقر﴾ خبر المبتدأ ثم فسر حالها فقال .

﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ والجملة مستأنفة لبيان حال سقر والكشف عن وصفها ، وقيل هي في محل نصب على الحال والعامل فيها معنى التعظيم لأن قوله وما أدراك ما سقر يدل على التعظيم فكأنه قال استعظموا سقر في هذه الحال ، والأول أولى ومفعول الفعلين محذوف قال السدي لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ، وقال عطاء لا تبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً ، وقيل هما لفظان بمعنى واحد كررا للتأكيد كقولك صدر عني وأعرض عني ، وقال ابن عباس لا تبقي منهم شيئاً وإذا بدلوا خلقاً آخر لم تذر أن تعاودهم سبيل العذاب الأول .

﴿ لواحة للبشر ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقيل على أنه نعت لسقر والأول أولى ، وقرىء بالنصب على الحال أو الاختصاص للتهويل يقال لاح يلوح أي ظهر ، والمعنى أنها تظهر للبشر ، قال الحسن تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً كقوله ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ وقيل معنى لواحة للبشر مغيرة لهم ومسودة قال مجاهد والعرب تقول لاحه الحر والبرد والحزن والسقم إذا غيره وهذا أرجح من الأول ، وإليه ذهب جمهور المفسرين .

وقال الأخفش المعنى : أنها معطشة للبشر قال ابن عباس : تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه فيصير أسود من الليل ، وعنه قال لواحة محرقة والمراد بالبشر

إما جلدة الإنسان الظاهرة كما قاله الأكثر أو المراد به أهل النار من الإنس كما قال الأخفش .

﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال المفسرون يقول سبحانه على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ، وقيل تسعة عشر صنفاً من أصناف الملائكة ، وقيل تسعة عشر صفاً من صفوفهم وقيل تسعة عشر نقيباً مع كل نقيب جماعة من الملائكة والأول أولى ، قال الثعلبي ولا ينكر هذا فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح الخلائق كان أحرى أن يكونوا تسعة عشر على عذاب بعض الخلق ، قرأ الجمهور عشر بفتح الشين وقرىء بإسكانها .

عن البراء « أن رهطاً من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن خزنة جهنم فقال : الله ورسوله أعلم فجاء جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فنزل عليه ساعتئذ ﴿ عليه تسعة عشر ﴾ رواه البيهقي في البعث وابن أبي حاتم وابن مردويه » .

وقال الكرخي وخص هذا العدد بالذكر لكونه موافقاً لعدد أسباب فساد النفس الإنسانية وهي القوى الإنسانية والطبيعية إذ القوى الإنسانية اثنتا عشرة الخمسة الظاهرة والخمسة الباطنة والشهوة والغضب ، والقوى الطبيعية سبعة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمجموع تسعة عشر انتهى .

قلت : وهذا ليس بتفسير للآية ، بل الحكمة المودعة في هذا العدد مفوضة إلى علم الله تعالى ، قال الرازي وتخصيص هذا العدد لحكمة اختص الله بها .

ولما نزل هذا قال أبو جهل أما لمحمد من الأعوان إلا تسعة عشر ، يخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم ، أفيعجز كل مائة رجل منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم يخرجوا من النار ، فقال أبو الأشد : وهو رجل من بني جمح يا معشر قريش إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر ، ونمضى ندخل الجنة فأنزل الله سبحانه :

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥)﴾

﴿وما جعلنا أصحاب النار﴾ يعني ما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها ﴿إلا ملائكة﴾ فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم، فكيف تتعاطون أيها الكافرون مغالبتهم.

قال ابن عباس لما سمع أبو جهل ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال لقريش ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم، أخرجه ابن جرير وابن مردويه، قيل جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المخلوقين من الجن والإنس فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرقة والرأفة، وقيل لأنهم أقوم خلق الله بحقه والغضب له وأشدهم بأساً وأقواهم بطشاً.

﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة﴾ أي سبب ضلالة ﴿للذين كفروا﴾ أي للذين استقلوا، عددهم، والمعنى ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم حتى قالوا ليتضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم، وقيل المعنى إلا عذاباً كما في قوله ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي يعذبون.

قال ابن عباس في الآية. قال أبو الأشد خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤونتهم قال وحدثت أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف خزان جهنم فقال «كأن أعينهم البرق وكأن أفواههم الصياصي يجرون أشعارهم، لهم مثل

قوة الثقلين يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل حتى يرمي بهم في النار فيرمي بالجبل عليهم » أخرجه ابن مردويه .

﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم قاله الضحاك وقتادة ومجاهد وغيرهم ، والمعنى أن الله سبحانه جعل عدة خزنة جهنم هذه العدة ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم .

﴿ ويزداد الذين آمنوا ﴾ من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام ، وقيل أراد المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إيماناً ﴾ أي ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم .

وجملة ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ مقررة لما تقدم من الإستيقان وازدياد الإيمان ، والمعنى نفي الارتياب عنهم في الدين أو في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر ، ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك من المنافقين .

﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ المراد بأهل المرض المنافقون ، والسورة وإن كانت مكية ولم يكن إذ ذاك نفاق فهو إخبار بما سيكون في المدينة فهو معجزة له صلى الله عليه وسلم حيث أخبر وهو بمكة عما سيكون بالمدينة بعد الهجرة ، أو المراد بالمرض مجرد حصول الشك والريب وهو كائن في الكفار ، قال الحسين بن الفضل السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض في هذه الآية الخلاف .

والمراد بقوله ﴿ والكافرون ﴾ كفار مكة من العرب وغيرهم ﴿ ماذا ﴾ مجموع الكلمتين اسم استفهام فـ ﴿ذا﴾ ملغاة أي أيّ شيء ﴿ أراد الله بهذا ﴾ العدد المستغرب استغراب المثل ﴿ مثلاً ﴾ تسير به الركبان سيرها بالأمثال ، قال الليث المثل الحديث ومنه قوله ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي حديثها والخبر عنها .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإضلال المتقدم ذكره وهو قوله ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ ﴿ يضل الله من يشاء ﴾ من عباده ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ منهم والمعنى مثل ذلك الإضلال للكافرين والهداية للمؤمنين يضل الله من يشاء الإضلال ويهدي من يشاء هدايته ، وهو الذي علم منه اختيار الاهتداء ، وفيه دليل على خلق الأفعال ، وقيل المعنى كذلك يضل الله عن الجنة من يشأ ويهدي إليها من يشاء .

﴿ وما يعلم جنود ربك ﴾ أي ما يعلم عدد خلقه ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم ﴿ إلا هو ﴾ وحده لا يقدر على علم ذلك أحد ، قال عطاء يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار لا يعلم عدتهم إلا الله وحده ، والمعنى أن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر فلهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه .

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال « فصعدت أنا وجبريل إلى السماء الدنيا فإذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف ، وتلا هذه الآية » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أطَّت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد » ، أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة قال الترمذي حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفاً .

ثم رجع سبحانه إلى ذكر سقر فقال ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ أي وما سقر وما ذكر من عدد خزنتها إلا تذكرة وموعظة للعالم يتذكرون بها ويعلمون كمال قدرته تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ، وقيل ما هي الدلائل والحجج والقرآن إلا تذكرة للبشر ، وقال الزجاج : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة وهو بعيد ، وقيل الضمير في ﴿ وما هي ﴾ يرجع إلى الجنود .

ثم ردع سبحانه المكذبين وزجرهم فقال ﴿ كلا والقمر ﴾ قال الفراء ﴿ كلا ﴾ صلة للقسم والتقدير أي والقمر ، وقيل المعنى حقاً والقمر .

قال الكرخي ﴿ كلا ﴾ استفتاح بمعنى ألا بفتح الهمزة وتخفيف اللام المفيدة للتنبيه على تحقق ما بعدها ، وقال النضر بن شميل حرف جواب بمعنى أي ونعم ، وهو مذهب البصريين ، وجعلها ، الزمخشري في الآية للإنكار أو الردع قال الكافيجي : ولا منافاة بينه وبين كلام البصريين فإن مدار كلامهم على ما يتبادر من ظاهر القول ، ومدار كلامه على أساس البلاغة والإعجاز وهو أحسن .

قال ابن جرير الطبري رَدّ زَعْم مَنْ زَعَمَ أنه يقاوم خزنة جهنم أي ليس الأمر كما يقول ، ثم أقسم على ذلك بالقمر وبما بعده وهذا هو الظاهر من معنى الآية .

﴿ والليل إذ أدبر ﴾ أي ولى ، قرأ الجمهور إذا بزيادة الألف ودبر بزنة ضرب على أنه ظرف لما يستقبل من الزمان ، وقرىء إذ أدبر بزنة أكرم ظرف لما مضى من الزمان ودبر وأدبر لغتان كما يقال أقبل الزمان وقبل الزمان ، ويقال دبر الليل وأدبر الليل إذا تولى ذاهباً ، عن مجاهد قال سألت ابن عباس عن قوله إذا دبر فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان ناداني يا مجاهد هذا حين دبر الليل ، وعن ابن عباس قال دبوره ظلامه .

﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أي أضاء وتبين وظهر ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ قرأ الجمهور لإحدى بالهمزة وقرىء لحدى بدونها وهذا جواب القسم ، والضمير راجع إلى سقر أي أن سقر لإحدى الدواهي أو البلايا الكبر ، والكبر جمع كبرى وقال مقاتل إن الكبر اسم من أسماء النار ، وقيل إنها تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم لإحدى الكبر ، وقيل إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، والأول أولى ، وقال الكلبي أراد بالكبر دركات جهنم وأبوابها .

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ
الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ
مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾

﴿ نذيراً للبشر ﴾ حال من ضمير في (إنها) قاله الزجاج وروي عنه وعن الكسائي وأبي علي الفارسي أنه حال من قوله ﴿ قم فأنذر ﴾ أي قم يا محمد فأنذر حال كونك نذيراً للبشر ، وقال الفراء هو مصدر بمعنى الإنذار منصوب بفعل مقدر ، وقيل إنه منتصب على التمييز لإحدى لتضمنها معنى التعظيم ، كأنه قيل أعظم الكبر إنذاراً ، وقيل التقدير لأجل إنذاراً للبشر ، وقيل غير ذلك .

قرأ الجمهور بالنصب ، وقرىء بالرفع أي هي نذير أو هو نذير ، وقد اختلف النذير فقال الحسن هي النار وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال أبو رزين المعنى أنا نذير لكم منها وقيل القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد.

﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من قوله للبشر ﴿ أن يتقدم ﴾ يسبق إلى الطاعة ﴿ أو يتأخر ﴾ يتخلف عنها ، والمعنى أن الإنذار قد حصل لكل من آمن وكفر ، وقيل فاعل المشيئة هو الله سبحانه أي لمن شاء الله أن يتقدم منكم بالإيمان أو يتأخر بالكفر والأول أولى ، وقال السدي لمن شاء أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها أو يتأخر إلى الجنة ، وقال ابن عباس من شاء اتبع طاعة الله ومن شاء تأخر عنها قال الحسن هذا وعد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر كقوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي مأخوذة بعملها مرتهنة به إما خلصها

وإما أوبقها والرهينة اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم ، وليست صفة ولو كانت صفة لقيل رهين لأن فعيلاً يستوي فيه المذكر والمونث، والمعنى كل نفس رهينة بكسبها غير مفكوكة ، كافرة كانت أو مؤمنة ، عاصية أو غير عاصية ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم ، والاستثناء متصل لأن المستثنى هو المؤمنون الخالصون من الذنوب .

وقوله رهينة أي على الدوام بالنسبة للكفار ، وعلى وجه الانقطاع بالنسبة لعصاة المؤمنين ، واختلف في تعيينهم فقيل هم الملائكة وقيل المؤمنون وقيل أولاد المسلمين وأطفالهم ، وقيل الذين كانوا عن يمين آدم وقيل أصحاب الحق ، وقيل هم المعتمدون على الفضل دون العمل ، وقيل هم الذين اختارهم الله لخدمته ، وقال ابن عباس : هم المسلمون ، وقال علي : هم أطفال المسلمين ، قيل هو أشبه بالصواب لأن الأطفال لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به .

﴿ في جنات ﴾ هو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم في جنات لا يكتنه وصفها . والجملة استئناف جواباً عن سؤال نشأ مما قبله أو حال من أصحاب اليمين أو من فاعل قوله ﴿ يتساءلون ﴾ ويجوز أن يكون ظرفاً له ، ويتساءلون أي يسألون غيرهم نحو دعيته وتداعيته ، فعلى الوجه الأول يكون ﴿ عن المجرمين ﴾ متعلقاً بيتساءلون أي يسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم ، وعلى الوجه الثاني تكون عن زائدة أي يسألون المجرمين ، ثم المراد بهم الكافرون .

وهذا التساؤل فيما بينهم قبل أن يروا المجرمين فلما يرونهم يسألونهم ويقولون في سؤالهم ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ أي ما أدخلكم فيها تقول سلكت الخيط في كذا إذا أدخلته فيه ، قال الكلبي يسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه فيقول له يا فلان ما سلكك في النار ، وقيل إن الملائكة

يسألون الملائكة عن أقربائهم فتسأل الملائكة المشركين يقولون لهم ﴿ما سلككم في سقر﴾ قال الفراء في هذا ما يقوي أن أصحاب اليمين هم الولدان لأنهم لا يعرفون الذنوب ، وهذا سؤال توبيخ وتقريع .

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به أهل النار فقال ﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ أي من المؤمنين الذين يصلون لله في الدنيا ولم نعتقد فرضيتها[1] ﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ أي لم نتصدق على المساكين ، وقيل وهذان محمولان على الصلاة الواجبة والصدقة لأنه لا تعذيب على غير الواجب ، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالشرعيات والفروع ، فقول صاحب الكشاف يحتمل أن يدخل بعضهم النار بمجموع ذلك وهو ترك الصلاة وترك الإطعام والخوض في الباطل مع الخائضين والتكذيب بيوم القيامة ، وبعضهم بمجرد ترك الصلاة أو ترك الطعام تخيل منه كما قال صاحب الانتصاف أن تارك الصلاة يخلد في النار .

﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ أي نخالط أهل الباطل في باطلهم ، قال قتادة كلما غوى غاو غوينا معه ، وقال السدي كنا نكذب مع المكذبين ، وقال ابن زيد نخوض مع الخائضين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وهو قولهم كاذب ساحر مجنون شاعر ، وعبارة الخطيب أي نشرع في الباطل مع الخائضين فنقول في القرآن إنه سحر وشعر وكهانة وغير ذلك من الأباطيل ، لا نتورع عن شيء من ذلك ولا نقف مع صريح عقل ، ولا نرجع إلى صحيح نقل ، فمن هذا يحذر الذين يبادرون بالجواب في كل ما يسألون عنه من أنواع العلم من غير تثبت .

---

(١) الآية صريحة في انهم تركو الصلاة فاستحقوا سقر ، أما قوله : ولم نعتقد فرضيتها فليس في الآية .

وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَىٰنَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ الشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا
لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ
كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُۥ
تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ
الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ أي بيوم الجزاء والحساب آخره لتعظيمه وهذا تخصيص بعد تعميم ، لأن الخوض في الباطل عام شامل لتكذيب يوم الدين وغيره أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم القيامة ، والصحيح أن الآية في الكفار أي لم نكن من أهل الصلاة وكذلك البقية ، ولا تصح منه هذه الطاعات وإنما يتأسفون على فوات ما ينفع ، ذكره سليمان الجمل .

﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ وهو الموت كما في قوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وبه قال ابن عباس ، وهذا غاية في الأمور الأربعة .

﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي شفاعة الملائكة والنبيين كما تنفع الصالحين ، والمعنى لا شفاعة لهم ، قال الحفناوي فالنفي مسلط على المقيد وقيده وليس المراد أن ثم شفاعة غير نافعة كما يتوهم من ظاهر اللفظ من حيث أن الغالب في النفي إذا دخل على مقيد بقيد أن يتسلط على القيد فقط ، وفيه دليل على ثبوت الشفاعة للمؤمنين ، وفي الحديث أن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر ، قال ابن مسعود تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ الآيات ، وقال عمران بن حصين الشفاعة نافعة لكل أحد دون هؤلاء الذين تسمعون .

﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ التذكرة التذكير بمواعظ القرآن ،

والفاء لترتيب إنكار إعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها ، وانتصاب معرضين على الحال من الضمير في متعلق الجار والمجرور أي أيّ شيء حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى ، والموعظة العظمى .

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بالحمر فقال ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ أي نافرة يقال نفر واستنفر مثل عجب واستعجب ، والمراد الحمر الوحشية ، والجملة حال من الضمير في معرضين على التداخل ، قرىء في السبع بكسر الفاء بمعنى نافرة وقرىء بفتحها أي منفرة مذعورة ، واختار هذا أبو حاتم وأبو عبيد قال في الكشاف المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه .

﴿ فرت من قسورة ﴾ حال بتقدير قد أي قد فرت من رماة يرمونها ، والقسور الرامي وجمعه قسورة قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن كيسان ، وقيل هو الأسد قاله عطاء والكلبي ، قال ابن عرفة هو من القسر وهو القهر لأنه يقهر السباع ، وقيل القسورة أصوات الناس وقيل القسورة بلسان العرب الأسد ، وبلسان الحبشة جماعة الرماة ولا واحد له من لفظه ، وقال ابن الاعرابي : القسورة أول الليل أي فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة ، والأول أولى ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة ، قال أبو موسى الأشعري : القسورة الرماة رجال القسى ، وقال ابن عباس : القسورة الرجال الرماة القنص ، وقيل هي حبال الصيادين .

وعن أبي حمزة قال قلت لابن عباس القسورة الأسد ، فقال ما أعلمه بلغة أحد من العرب الأسد ، هم عصبة الرجال ، وعن ابن عباس قال هو ركز الناس يعني أصواتهم شبههم في إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر بحمر جدت في نفارها .

﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ عطف على مقدر

يقتضيه المقام كأنه قيل لا يكتفون بتلك التذكرة بل يريد الخ فهو اضراب انتقالي عن محذوف هو جواب الاستفهام السابق كأنه قيل فلا جواب لهم عن هذا السؤال أي لا سبب لهم في الإعراض بل يريد الخ .

قال المفسرون ان كفار قريش قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ليصبح عند رأس كل رجل منا كتاب منشور من الله أنك لرسول الله ، والصحف الكتب واحدتها صحيفة والمنشرة المنشورة المبسوطة المفتوحة أي غير مطوية أي طرية لم تطو ، بل تأتينا وقت كتابتها ، وهذا من زيادة تعنتهم ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه ﴿ حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ﴾ قرأ الجمهور منشرة بالتشديد ، وقرأ سعيد بن جبير بالتخفيف وقرأ الجمهور أيضاً بضم الحاء من صحف وقرأ سعيد بإسكانها .

ثم ردعهم الله سبحانه عن هذه المقالة وزجرهم فقال ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ يعني عذابها لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات ، وهذا إضراب انتقالي لبيان سبب هذا التعنت والاقتراح ، وقيل كلا بمعنى حقاً .

ثم كرر الردع والزجر لهم فقال ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أو بمعنى « ألا » الاستفتاحية أو حقاً أن القرآن تذكرة بليغة كافية ، والمعنى أنه يتذكر به ويتعظ بمواعظه ، أو إنكار لأن يتذكروا بها ، قاله القاضي كالكشاف .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن شاء أن يذكره ولا ينساه فعل واتعظ فإن نفع ذلك عائد إليه .

ثم رد سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ قرأ الجمهور يذكرون بالياء التحتية ، وقرأ نافع ويعقوب بالفوقية وهما سبعيتان ، واتفقوا على التخفيف والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، قال مقاتل إلا أن يشاء الله لهم الهدى ، وقال في الكشاف يعني إلا أن يقسرهم على الذكر قال الإمام إنه تعالى نفى الذكر مطلقاً واستثنى منه حال المشيئة المطلقة ، فيلزم أنه متى حصلت المشيئة يحصل الذكر ، فحيث لم يحصل الذكر علمنا أنه

لم تحصل المشيئة ، وتخصيص المشيئة بالمشيئة القسرية ترك للظاهر ، وقال وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى ذكره الكرخي .

﴿ هو أهل التقوى ﴾ أي هو الحقيق بأن يتقيه المتقون بترك معاصيه والعمل بطاعاته ﴿ وأهل المغفرة ﴾ أي هو الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب ، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم .

عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال: قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إلّه فمن اتقاني فلم يجعل معي إلّهاً فأنا أهل أن أغفر له » أخرجه أحمد والدارمي والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وصححه وابن مردويه ، وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس مرفوعاً نحوه[1] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » والترمذي ٢/١٦٨ والحاكم ٢/٥٠٨ ، وابن ماجة ، والدارمي ، والطبراني في « الأوسط » وابن عدي ، وأبو يعلى . والبزار ، كلهم من رواية سهيل بن أبي حزم القُطَعي عن ثابت بن أنس ، وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » قال الترمذي : حديث حسن غريب ، وسهيل ليس بالقوي في الحديث ، وقد تفرد سهيل بهذا الحديث عن ثابت . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٨٠ : ورواه الحكيم الترمذي في السابع والسبعين بعد المائة بلفظ ؛ « قال : هو أهل أن يتقى ، فمن اتقى فهو أهل أن يغفر له » وله شاهد من رواية عبد الله قال : سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم يقولون : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى . . . فذكره .

تعليق هام للناشر:

إبراز حقيقة قرآنية

هذه سورة «المدثر» وهي مكية من أوائل ما نزل من القرآن ، وقد ختمها بقوله :

١ - ﴿ فما لهم عن التذكره معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة﴾ . الخ كما ختم سورة ﴿ اقرأ ﴾ وهي أول سورة نزلت بقوله :

٢ - ﴿ كلالئن لم ينته لنسفعاً[١] بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه سندع الزبانية﴾ .

كما نزلت سورة بأسرها تقول :

٣ - ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد ﴾ .

كذلك جاء في سورة المزمل وهي كذلك من أوائل ما نزل :

٤ - ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً[٢] ﴾ .

إذا تأملت هذه الآيات وكلها سب وتسفيه وتهديد للمشركين وزعمائهم ، مع ملاحظة أنها من أوائل ما نزل ، برزت لك حقيقة قرآنية عجيبة ، هي أن القرآن يدعو إلى مواجهة خصومه بكل شدة وعنف ، فلا هوادة ولا خنوع ،

---

(١) السفع : الجذب بقوة واللطم بشدة ، والناصية شعر الجبهة .

(٢) أولي النعمة الذين يتمتعون بنعم الله وهم الأغنياء والزعماء . والأنكال : الأغلال والقيود . والكثيب تل الرمل ، والمهيل الرخو المتداعي للتبعثر .

مهما كانت الظروف ، فهذه الآيات صرخ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الأيام الأولى ولم يكن معه من يغني عنه فتيلاً ، في الوقت الذي تمالأ عليه الشرك وأهله لمحوه من الوجود .

ولم أر من المفسرين للقرآن من أدرك هذه النقطة غير صاحب التفسير الحديث حيث يقول تعليقاً على آيات سورة اقرأ ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ : والتهديد والتحدي والإنذار والتنديد بالطاغية قوي كل القوة عنيف كل العنف . وتبدو روعة هذه القوة حينما يلاحظ أن النبي عليه السلام لم يكن قد آمن به من يستطيع له نصراً ويقف الى جانبه ، وأن المتصدي له زعيم معتد بقوته وماله وجاهه وناديه .

وإذ يتصور المرء النبي صلى الله عليه وسلم ، يصرخ بملء فيه صرخته المدوية « كلا ، كلا » ثم يقذف بكلمات التنديد والتهديد والتحدي والإنذار القرآنية النارية غير مبال بالزعامة وقوتها ، وهو من دون نصير من الناس ، يدرك من دون ريب تلك الشجاعة التي كان يتحلى بها والتي استمدها من إيمان قوي عميق متول على مشاعره ، جعله لا يرى إلا عظمة لله ولا قوة إلا لله ولا سلطاناً إلا لله ، وجعله يرى كل ما عداه أضعف من أن يخشى ، وأعجز من أن يستطيع له نفعاً أو ضراً ، أو يقف أمام دين الله ويحول دون الدعوة إليه . ويدرك بهذا ما تحلى به من عظمة الخلق وقوة الجنان وعمق اليقين .

ويتبادر من عنف الآيات وقوتها القارعة أن الحكمة الربانية اقتضت أن يكون الرد على أول متصد للنبي صلى الله عليه وسلم ، من الزعماء الأقوياء بهذا الأسلوب لتثبيت النبي وأصحابه القلائل الذين آمنوا به ومواجهة الزعيم القوي بقوة وعنف يصدمانه على غير توقع .

ولا شك في أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد تلا الآيات على أصحابه ، فقوت من روحهم وزادتهم إيماناً ، ووصلت الى صاحبها وناديه فصعقهم بعنفها وجعلتهم يشعرون بالقوة الروحية التي يستمد منها النبي ،

وازداد النبي بهذا وذاك قوة وعزماً على الاستمرار في مهمته ، غير مبال بالزعيم القوي وناديه .

وقد روى الطبري أن الذي عنته الآيات هو عمرو بن هشام المخزومي الذي عرف في التاريخ الإسلامي بأبي جهل وكان من كبار الزعماء وأشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، ورسالته والمؤلبين عليه . « وقد روي أنه لما تصدى للنبي صلى الله عليه وسلم ، انتهره وأغلظ له وتوعده ، وأنه قال : علام يتوعدني محمد وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ؟ وأنه قال : لئن رأيته يصلي ثانية لأطأن عنقه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، استمر على الصلاة في فناء الكعبة فرآه أبو جهل ولكنه لم يلبث أن نكص على عقبيه رافعاً يديه كأنما يقي بهما نفسه فقيل له ما لك ؟ فقال إن بيني وبينه خندقاً من نار ، وقد اسود ما بيني وبينه من الكتائب » .

على أن جملة ﴿ فليدع ناديه ﴾ تسوغ القول إن أبا جهل لم يكن وحيداً في موقفه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما تدل عليه الآيات التي نزلت بعد هذه الآيات في مناسبات عديدة مبكرة .

وليس بعيداً أن يكون تعبير «ناديه » قد عنى دار الندوة التي كان يجتمع فيها أهل الحل والعقد في مكة الذين هم رؤساء الأسر القرشية البارزة ، وقد كانت هذه الدار قرب الكعبة . فإذا صح هذا فإن من السائغ أن يقال إن السلطات الرسمية قد رأت في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ، علناً بصلاة جديدة لا عهد للناس بها وفي دعوته الناس جهاراً إلى دين يخالف ما عليه الناس بدعة ، ورأت وجوب الوقوف في وجهها ، وأنها عمدت الى أعضائها بتنفيذ ذلك ، أو أن هذا العضو كان أشد حماساً ضدها من غيره فكان هو المتصدي ا هـ .

ومنطق القوة هذا يذكرنا بموقف لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في بدء توليه الخلافة فقد ارتد كثير من العرب بعد موت النبي صلى

الله عليه وسلم ، وكان هناك جيش أعده النبي قبل وفاته ، فرأى بعض الصحابة أن لا يمضي هـذا الجيش إلى وجهته ، وأن يبقى لتـأديب أهـل الـردة ، ولكن الخليفـة الراشـد أبى ، وأصر على أن يمضي الجيش الـذي أمـر بـه النبي إلى وجهته ، فكانت النتيجة أن أهل الردة اضطربوا وقالوا لولا أن الخليفـة أعد لنـا قـوة كبرى مـا سمح لهـذا الجيش أن يذهب الى غيـرنـا ـ وكـان النصـر حليف المؤمنين .

* * *

وهناك نكتة أخرى وهي أن القرآن كـان حريصـاً على مواجهـة المشركين ومصارحتهم وإعلانهم بأوصافهم كما في الآيات السابقة ولم يسمح بأدنى تـردد أو كتمان أو إخفاء مراعاة للظروف ، مع أن هناك آية تقول ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ وهذه الآيـة نزلت في قصـة زيـد وزينب ، وخلاصتهـا أن العرب كـانت من عادتهـا التبني ، وهو أن يتخـذ الرجل ولداً من غيره يتبناه ، فإذا كبر الولد وتزوج لا يجوز للرجل الذي تبناه أن يتزوج امرأته إذا طلقها وجاء الإسلام بإبطال هذه العادة ، وكـان الرسـول صلى الله عليه وسلم ، قد تبنى زيداً في صغره فلما كبر تزوج زيد بزينب بنت جحش وهي من الأشـراف وهو دونهـا في الشرف ، فلم يستقم الحـال بينهما فـطلقهـا زيد ، فجاء القرآن يكلف رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، أن يتزوج بـزينب ليكون هو أول من يبـطل هذه العـادة ، وكأن الـرسول صلى الله عليـه وسلم ، تـردد بعض الشيء في التنفيذ لمـا فيه من إتـاحة الفـرصة للمنـافقين أن يلمزوه صلى الله عليه وسلم ، ويقولوا إن محمداً تزوج حليلة ولده ، وما هو بولده .

فأنت ترى أنه صلى الله عليه وسلم ، قد يخفي بعض الأمور الفرعية إلى حين مـراعاة للظروف ، أمـا الشرك وهـدمه من جـذوره ، وهي وظيفة الـرسـل الأصلية ، فكان يؤدي دوره فيه بكل صراحة ووضوح .

﴿ علنية الدعوة في بدئها ﴾

وهذه الآيات التي سبقت في صدر هذا التعليق تدل على خلاف ما روي بأن الدعوة النبوية قد بدأت سرية ، وتدل بقوة على أنها بدأت علنية ، وكل ما يمكن أن يقال إزاء ما ورد في الأحاديث التي تروي أقوال بعض أصحاب رسول الله مثل ما روي عن عمر في قصة إسلامه حيث سأل بعد إسلامه « أنحن على حق أم باطل ؟ فقال له رسول الله : بل على حق ، فقال ففيم التخفي إذا » هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حماية لأصحابه كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم ، غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرة .

وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة وإيمان النبي بالله ورسالته .

سورة القيامة

هي تسع وثلاثون أو أربعون آية وهي مكية بلا خلاف . وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾
بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا
بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال أبو عبيدة وجماعة من المفسرين أن (لا) زائدة والتقدير أقسم ، قال السمرقندي أجمع المفسرون أن معنى ﴿ لا أقسم ﴾ أقسم ، واختلفوا في تفسير لا فقال بعضهم هي زائدة وزيادتها جارية في كلام العرب كقوله ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ يعني أن تسجد ﴿ ولئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ .

واعترضوا هذا بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله ، وأجيب بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض ، يدل على ذلك أنه قد يجيء ذكر الشيء في سورة ويذكر جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وجوابه في سورة أخرى ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ وإذا كان كذلك كان أول هذه السورة جارياً مجرى الوسط ، ورد هذا بأن القرآن في حكم السورة الواحدة في عدم التناقض ، لا في أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز .

وقال الزمخشري إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم ، وفائدتها توكيد القسم ، وقال بعضهم هي رد لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال ليس الأمر كما ذكرتم ، أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين ، كقول القائل لا والله فـ ﴿ لا ﴾ رد لكلام قد تقدمها ، وقيل هي للنفي لكن لا لنفي الأقسام بل لنفي ما ينبىء عنه من إعظام

المقسم بـه وتفخيمه ، كـأن معنى لا أقسم بكذا لا أعـظمـه بـإقسـامي بـه حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك ، وقيل إنهـا لنفي الإقسام لـوضوح الأمـر ، وقد تقدم الكلام على هذا في تفسير قوله ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

وقـرأ الحسن وابن كثير في روايـة عنه والـزهري وابن هـرمز ﴿ لأقسم ﴾ بـدون ألف على أن اللام لام الابتـداء والقول الأول هـو أرجح الأقـوال ، وقد اعترض عليه ، الرازي بما لا يقدح في قوته ولا يفت في عضد رجحانه .

وإقسامه سبحانه بيوم القيامـة لتعظيمـه وتفخيمه ، ولله أن يقسم بمـا شاء من مخلوقاته ، قال سعيد بن جبير سألت ابن عبـاس عن قولـه ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال يقسم ربك بما شاء من خلقه .

﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ ذهب قـوم الى أنه سبحـانه أقسم بـالنفس اللوامـة كما أقسم بيـوم القيامـة فيكون الكلام في ﴿لا﴾ هذه كالكلام في الأولى وهـذا قـول الجمهـور ، وقـال الحسن أقسم بيـوم القيـامــة ولم يقسم بـالنفس اللوامـة ، قال الثعلبي : والصحيـح أنـه أقسم بهمـا جميعـاً ، وجـرى الجـلال المحلى على زيـادتهـا في المـوضعين وهـو الصـواب ، ومعنى النفس اللوامـة النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها في الدنيا أو في القيامة ، قـال الحسن : هي والله نفس المؤمن لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ، ما أردت بكذا ، والفاجر لا يعاتب نفسه .

وقال مجاهد : هي التي تلوم على ما فات وتندم فتلوم نفسها على الشر لِمَ عمله وعلى الخير لِمَ لَمْ يستكثر منه ، قال ابن عباس التي تلوم على الخير والشر يقول لو فعلت كذا وكذا ، وعنه تندم على ما فات وتلوم عليه .

قال الفراء : ليس من نفس برة ولا فاجـرة إلا وهي تلوم نفسها إن كـانت عملت خيراً قالت هلا ازددت ، وإن كانت عملت سوءاً قالت ليتني لم أفعل .

وعلى هـذا فالكـلام خارج مخـرج المدح للنفس ، فيكـون الإقسام بهـا حسناً سائغاً ، وقيل اللوامة هي الملومة المذمومة ، قالـه ابن عباس فهي صفـة

ذم وبهذا أحتج من نفي أن يكون قسماً إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به ، وقال مقاتل هي نفس الكافر تلوم نفسه وتتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله ، والأول أولى .

وقيل هي آدم لم تزل تلوم على فعلها التي خرجت به من الجنة وما أبعده ، وقال ابن عباس اللوامة اللؤم . قال القاضي ضمها بيوم القيامة بهما لأن المقصود من إقامة القيامة مجازاة النفوس ا هـ فهو من بديع القسم لتناسب الأمرين المقسم بهما حيث أقسم بيوم البعث والنفوس المجزية فيه على حقية البعث والجزاء .

﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ المراد بالإنسان الجنس ، وقيل الانسان الكافر والهمزة للإنكار وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن محذوف والمعنى أيحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتاً مختلطة بالتراب ، وبعد ما نسفتها الريح فطيرتها في أباعد الأرض فنعيدها خلقاً جديداً ، وذلك الحسبان باطل فإنا نجمعها ، وما يدل عليه هذا الكلام هو جواب القسم .

قال الزجاج : أقسم ليجمعن العظام للبعث فهذا جواب القسم ، وقال النحاس جوابه محذوف أي لتبعثن ، والمعنى أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان ، وإنما خص العظام لأنها قالب الخلق[1] .

---

(١) قال البغوي : نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة خَتَن الأخنس بن شريق الثقفي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اكفني جَارَيِ السوء ، يعني عدياً والأخنس ، وذلك أن عدي بن ربيعة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد حدثني عن القيامة متى تكون ؟ وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك ، أو يجمع الله العظام ؟ ! فأنزل الله عز وجل : (أيحسب الإنسان) يعني الكافر (أن لن نجمع عظامه) بعد التفرق والبلي فنحييه قبل ذكر العظام ، وذكره كذلك بغير سند القرطبي والخازن . والله أعلم . وفي القرطبي و « البحر المحيط » : وقيل : نزلت في أبي جهل .

﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ بلى إيجاب لما بعد النفي المنسحب اليه الاستفهام والوقف على هذا اللفظ وقف حسن ، ثم يبتدىء الكلام بقوله ﴿ قادرين ﴾ وانتصابه على الحال أي بلى نجمعها قادرين ، فالحال من ضمير الفعل المقدر ، وقيل المعنى بل نجمعها نقدر قادرين ، قال الفراء أي نقدر ونقوي قادرين على أكثر من ذلك ، وقال أيضا إنه يصلح نصبه على التكرير أي بلى فليحسبنا قادرين ، وقيل التقدير بلى كنا قادرين وهذا ليس بواضح .

وقرأ ابن أبي عبله وابن السميفع ﴿ بلى قادرون ﴾ على تقدير مبتدأ أي بلى نحن قادرون ، ومعنى تسوية البنان نقدر على أن نجمع بعضها الى بعض فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها فكيف بكبار الأعضاء ، فنبه سبحانه بالبنان ، وهي الأصابع على بقية الأعضاء وأن الاقتدار على بعثها وارجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظفار والعروق اللطاف والعظام الدقاق فهذا وجه تخصيصها بالذكر ، وبهذا قال الزجاج وابن قتيبة .

وقال جمهور المفسرين إن معنى الآية أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار صفحة واحدة لا شقوق فيها فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما ، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها ، وقيل المعنى بل نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم فكيف في صورته التي كان عليها والأول أولى .

قال ابن عباس لو شاء لجعله خفاً أو حافراً ، وبنان جمع أو اسم جمع لبنانة قولان . وفي المختار البنانة واحد البنان وهي أطراف الأصابع ، ويقال بنان مخضب لأن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يؤنث ويذكر .

﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ عطف على ﴿ أيحسب ﴾ إما على أنه استفهام مثله واضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام ، والمعنى بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات وما يستقبله من الزمان ، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة .

قال ابن الأنباري : يريد أن يفجر ما امتد عمره وليس في نيته أن يرجع من ذنب يرتكبه ، قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي وسعيد بن جبير يقول : سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت وهو على أشر أحواله ، قال الضحاك : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت ، وقال ابن عباس : يمضي قدماً ، وعنه قال : هو الكافر الذي يكذب بالحساب ، وعنه قال : يعني الأمل يقول أعمل ثم أتوب وعنه قال : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، وعنه قال : يقول سوف أتوب ، والفجور أصله الميل عن الحق فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل .

﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ مستأنفة ، وقال أبو البقاء تفسير لبيان معنى يفجر فتكون مفسرة مستأنفة أو بدلاً من الجملة قبلها لأن التفسير يكون بالاستئناف وبالبدل ، وأيان خبر مقدم ويوم القيامة مبتدأ مؤخر ، والمعنى يسأل متى يقوم يوم القيامة ، سؤال استبعاد واستهزاء ، قال ابن عباس أي يقول متى يوم القيامة .

﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي فزع وتحير ، من برق الرجل إذا نظر الى البرق فدهش بصره ، قرأ الجمهور برق بكسر الراء قال أبو عمرو بن العلاء والزجاج وغيرهما المعنى تحير فلم يطرف ، وقال الخليل والفراء : برق بالكسر فزع وبهت وتحير ، والعرب تقول للإنسان المبهوت قد برق فهو برق ، وقرىء بفتح الراء أي لمع بصره من شدة شخوصه للموت ، قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت ، وقيل برق يبرق شق عينيه وفتحهما ، وقال أبو عبيدة : فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى ، قال ابن عباس : يعني الموت .

وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ
رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾
وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا
قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

﴿ وخسف القمر ﴾ قرأ الجمهور بفتح الخاء والسين مبنياً للفاعل ، وقرىء بضم الخاء وكسر السين مبنياً للمفعول ، والمعنى ذهب ضوؤه وأظلم ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا ، ويقال خسف إذا ذهب جميع ضوئه ، وكسف إذا ذهب بعض ضوئه .

﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ أي ذهب ضوؤهما جميعاً ولم يقل جمعت لأن التأنيث مجازي ، قاله المبرد وقال أبو عبيدة هو لتغليب المذكر على المؤنث ، وقال الكسائي حمل على معنى جمع النيران ، وقال الزجاج والفراء : لم يقل جمعت لأن المعنى جمع بينهما في ذهاب نورهما ، وقيل جمع بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين . قال عطاء : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى ، وقيل يجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار ، وقرأ ابن مسعود وجمع بين الشمس والقمر .

﴿ يقول الإنسان ﴾ جواب إذا ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذا برق البصر الخ ﴿ أين المفر ﴾ أي يقول عند وقوع هذه الأمور أين الفرار ، والمراد بالإنسان الكافر أو المؤمن أيضا يقول ذلك من الهول ، والمفر مصدر بمعنى الفرار ، قال الفراء : يجوز أن يكون موضع الفرار .

قال الماوردي يحتمل وجهين (أحدهما) أين المفر من الله سبحانه استحياء منه (والثاني) أين المفر من جهنم حذراً منها ، قرأ الجمهور بفتح

الميم والفاء مصدراً كما تقدم ، وقرىء بضم الميم على أنه اسم مكان أي أين مكان الفرار وقال الكسائي هما لغتان مثل مَدَب ومُدَب ومَصَح ومُصَح ، وقرأ الزهري بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار .

﴿ كلا ﴾ للردع عن طلب الفرار أو لنفي ما قبلها أو بمعنى حقاً ﴿ لا وزر ﴾ أي لا سلاح ولا جبل ولا حصن ولا ملجأ يتحصن به من الله ، وقال ابن جبير لا محيص ولا منعة ، والوزر في اللغة ما يلجأ اليه الإنسان من حصن أو جبل وغيرهما ، مني يومئذ ، قال ابن مسعود : لا وزر لا حصن ، وقال ابن عباس : لا ملجأ وفي لفظ لا حرز وفي لفظ لا جبل ولا حصن ، وخبر لا محذوف أي لا وزر له .

﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي إليه المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره ، وقيل إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره ، وقيل : المستقر الاستقرار حيث يقره الله من جنة أو نار .

﴿يُنَبَّؤُ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر ﴾ أي يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشر ، وقال قتادة : بما عمل من طاعة الله وما أخر من طاعته فلم يعمل بها ، وقال زيد ابن أسلم : بما قدم من أمواله وما خلف للورثة ، وقال مجاهد : بأول عمله وآخره ، وقال الضحاك : بما قدم من فرض وأخر من فرض .

قال القشيري : هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند الموت ، قال القرطبي : والأول أظهر ، قال ابن مسعود : بما قدم من عمل وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شر ، وعن ابن عباس نحوه ، وعنه قال : بما قدم من معصية وآخر من طاعة فينبأ بذلك .

﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ قال الأخفش جعله هو البصيرة كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك ، وقيل المعنى أن جوارحه تشهد عليه بما عمل كما في قوله ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ، وأرجلهم بما كانوا

يعملون ﴾ فيكون المعنى بل جوارح الإنسان عليه شاهدة ، قال أبو عبيدة والقتيبي أن هذه الهاء في البصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كما في قولهم علامة ، وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشر ، والتاء على هذا للتأنيث . وقال الحسن : أي بصير بعيوب نفسه ، وقال ابن عباس : شهد على نفسه وحده ، وعنه قال سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه .

﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أي ولو اعتذر وتجرد من ثيابه وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك يقال معذرة ومعاذير على غير قياس كملاقيح ومذاكير جمع لقحة وذكر ، قال الفراء أي وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره ، وقال الزجاج : المعاذير الستور والواحد معذار أي وإن أرخى الستور وأغلق الأبواب ، يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه ، وكذا قال الضحاك والسدي ، والستر بلغة اليمن يقال له معذار كذا قال المبرد والأول أولى ، وبه قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وابن زيد وأبو العالية ومقاتل ومثله قوله ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ وقوله ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ وقول الشاعر :

فما سن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

وقال النسفي والمعاذير ليس بجمع معذرة لأن جمعها معاذر بل هي اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر ، قال الشيخ وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع وإنما هو من أبنية جموع التكسير وهو الصحيح .

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك ، ومثل هذا قوله ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ﴾ الآية .

﴿ إن علينا جمعه ﴾ في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء ﴿ وقرآنه ﴾ أي إثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي ، قال الفراء القراءة والقرآن مصدران .

﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام وبيناه ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أي فاستمع قراءته وكررها حتى يرسخ في ذهنك ، وقال ابن عباس يقول اعمل به ، وقال قتادة فاتبع قرآنه أي شرائعه وأحكامه .

﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أي تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل من معانيه . قال الزجاج : المعنى أن علينا أن ننزله عليك قرآناً عربياً فقه بيان للناس ، وقيل المعنى أن علينا أن نبينه بلسانك ، وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره .

والمناسبة بين هذه الآية وما قبلها أن تلك تضمنت الإعراض عن آيات الله ، وهذه تضمنت المبادرة اليها بحفظها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه ، يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾[1] يقول إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم نقرأه فإذا قرأناه يقول إذا أنزلناه عليك فاتبع قرآنه فاستمع له وأنصت ، ثم إن علينا بيانه أن نبينه بلسانك ، وفي لفظ علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق ، وفي لفظ استمع ، فاذا ذهب قرأه كما وعده الله .

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس، والبخاري ٨/٣٢٥ ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وذكره السيوطي في « الدر » ٦ / ٢١٩ وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في « المصاحف » والطبراني ، وابن مردويه ، وأبي نعيم والبيهقي معاً في « الدلائل » عن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ
أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
(٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣)﴾

﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ كلا للردع عن العجلة ، والترغيب في الأناة ، وقيل هي ردع لمن لا يؤمن بالقرآن وبكونه بيّنا من الكفار ، قال عطاء : أي لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه ، قرأ أهل المدينة والكوفيون تحبون وتذرون بالفوقية في الفعلين جميعاً ، وقرأ الباقون بالتحتية فيهما وهما سبعيتان ، فعلى الأولى يكون الخطاب لهم تقريعاً وتوبيخاً ، والمعنى تحبون الدنيا وتختارونها وتتركون الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها ، وعلى الثانية يكون الكلام عائداً إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس ، قال ابن مسعود عجلت لهم الدنيا خيرها وشرها ، وغيبت الآخرة ، أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد .

﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي ناعمة غضة حسنة يقال شجر ناضر ، وروض ناضر أي حسن ناعم ، ونضارة العيش حسنه وبهجته ، قال الواحدي : قال المفسرون : مضيئة مسفرة مشرقة ، وقال ابن عباس : ناعمة وقيل مسرورة بالنعيم ، وقيل بيض يعلوها نور ، والأول أولى ، ووجوه مبتدأ وناضرة صفة لوجوه ، ويومئذ ظرف لناضرة ، وناظرة خبر مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة هنا العطف عليها وكون الموضع موضع تفصيل ، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله ناضرة مسوغاً للابتداء بها ، ولكن مقام التفصيل بمجرده مسوغ للابتداء بالنكرة .

﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي تنظر اليه عياناً بلا حجاب ، هكذا قال جمهور أهل العلم والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون

الى ربهم يوم القيامة كما ينظرون الى القمر ليلة البدر .

قال ابن كثير وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام ، وقال مجاهد إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، وروي نحوه عن عكرمة ، وقيل لا يصح هذا الا عن مجاهد وحده ، قال الأزهري وقول مجاهد خطأ لأنه لا يقال نظر الى كذا بمعنى الانتظار لأن قول القائل نظرت الى فلان ليس إلا رؤية عين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته ، فاذا أرادوا نظر العين قالوا نظرت اليه ، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جداً .

ويشهد لصحة هذا أن النظر الوارد في التنزيل بمعنى الانتظار كثير ولم يوصل في موضع بإلى قوله ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وقوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ وقوله ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ﴾ والوجه إذا وصف بالنظر وعدِّي بإلى لم يحتمل غير الرؤية .

والأحاديث الصحيحة تعضد قول من فسر النظر في هذه الآية بالرؤية وسيأتي بعضها قال ابن عباس في الآية تنظر الى الخالق ، وعنه قال تنظر الى وجه ربها .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الآية ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة . أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي هريرة قال: «قال الناس يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ، قالوا لا يا رسول الله ، قال فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، قالوا لا يا رسول الله ، قال فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما[1] .

---

(١) وقد ثبت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحد الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها ، كحديث أبيّ وأبي هريرة ، وهما في « الصحيحين » أن ناساً

وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والدارقطني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر الى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ » وأخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ « وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » .

وأخرج النسائي والدارقطني وصححه وأبو نعيم عن أبي هريرة قال : « قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا قال هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه ، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها قلنا نعم ، قال فإنكم سترون ربكم عز وجل حتى أن أحدكم ليحاور ربه محاورة فيقول عبدي هل تعرف ذنب كذا وكذا فيقول:ألم تغفر لي؟فيقول بمغفرتي صرت إلى هذا » .

وقد تظافرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى ، وقد رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآيات القرآن فيها مشهورة ، ولاعتراضات المبتدعة من المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة عليها أجوبة معروفة في كتب الكلام من أهل السنة ، وكذلك باقي شبههم وأجوبتها مستفاضة في كتب أهل الحق ، وليس هذا موضع ذكرها ، وقد قدمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها وهي تأتي في مصنف مستقل ، ولم يتمسك

قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « إنكم ترون ربكم كذلك » وفي « الصحيحين » عن جرير قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم القمر ليلة البدر فقال : «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تقلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » .

من نفاها واستبعدها بشيء يصلح للتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله .
وقد أطال الحافظ المتكلم محمد بن أبي بكر القيم الجوزي رحمه الله تعالى في إثبات رؤيته تعالى يوم القيامة في كتابه ﴿ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ﴾ ومن أحب النظر في أدلة الفريقين فعليه برسالة الشوكاني المسماة بالبغية في مسألة الرؤية جمع فيها جميع ما استدل به النافون والمثبتون من الأدلة العقلية والنقلية .

﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ أي كالحة عابسة كئيبة قال في الصحاح : بسر الرجل وجهه بسوراً أي كلح قال السدي : باسرة أي متغيرة ، وقيل مصفرة والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار .

﴿ تظن ﴾ أي توقن ﴿ أن يفعل بها فاقرة ﴾ الفاقرة الداهية العظيمة ، يقال فقرته الفاقرة أي كسرت فقار ظهره ، قال قتادة : الفاقرة الشر ، وقال السدي : الهلاك وقال ابن زيد : دخول النار ، وقيل الحجاب عن رؤية الله تعالى ، والأول أولى .

وأصل الفاقرة الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى تخلص الى العظم ، كذا قال الأصمعي ومن هذا قولهم قد عمل به الفاقرة .

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ثم استأنف فقال ﴿ إذا بلغت ﴾ النفس أو الروح أي نفس المحتضر مؤمناً كان أو كافراً ، وإنما أضمرت وإن لم يجر لها ذكر لأن السياق يدل عليها ﴿ التراقي ﴾ جمع ترقوة وهي عظم بين ثغرة النحر والعاتق يميناً وشمالاً ، ولكل إنسان ترقوتان ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت ، ومثله قوله تعالى ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ وقيل معنى كلا حقاً أي حقاً أن المساق الى الله إذا بلغت التراقي ، والمقصود تذكيرهم بشدة الحال عند نزول الموت قال دريد بن الصمة :

ورب كريهة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

﴿ وقيل ﴾ هذا الفعل وما بعده من الفعلين معطوف على بلغت ﴿ من

راق ﴾ أي قال من حضر صاحبها من يرقيه ويشتفي برقيته ، قال قتادة إلتمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً وبه قال أبو قلابة ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الموت من واقٍ ؟ أم هل له من حمام الموت من راقِ ؟

وقال أبو الجوزاء هو من رقى يرقى إذا صعد والمعنى من يرقى بروحه إلى السماء أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ، وقيل إنه يقول ذلك ملك الموت وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ، وقال ابن عباس : في قوله ﴿ وقيل من راق ﴾ قال تنتزع نفسه حتى إذا كانت في تراقيه قيل من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، وهذا الاستفهام يجوز أن يكون على بابه وأن يكون استبعاداً وإنكاراً ، وراق اسم فاعل إما من رقى يرقي بالفتح في الماضي والكسر في المضارع من الرقية وهي كلام معد للاستشفاء يرقى به المريض ليشفى ، وفي الحديث « وما أدراك أنها رقية »[1] ، يعني الفاتحة وهي من أسمائها ، وإما من رقي يرقى بالكسر في الماضي والفتح في المضارع من الرقي وهو الصعود ،يقال رقى بالفتح من الرقية وبالكسر من الرقي .

﴿ وظن ﴾ أي أيقن الذي بلغت روحه التراقي وسمي اليقين ظناً لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لها ولا ينقطع رجاؤه منها ﴿ أنه ﴾ أي ما نزل به ﴿ الفراق ﴾ من الدنيا ومن الأهل والمال والولد .

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أي التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به ، وقال جمهور المفسرين المعنى تتابعت عليه الشدائد وقال الحسن : هما ساقاه اذا التفتا في الكفن ، وقال زيد بن أسلم التفت ساق الكفن بساق الميت ، وقيل ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه ، وقد كان جوالاً عليهما ، وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران شديدان الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه ، وبه قال ابن زيد :

والعرب لا تذكر الساق الا في الشدائد الكبار والمحن العظام ، ومنه قولهم قامت الحرب على ساق ، وقيل الساق الأول تعذيب روحه عند خروج

(١) سبق شرحها في تفسير سورة الفاتحة .

نفسه ، والساق الآخر شدة البعث وما بعده ، وقال ابن عباس التفت عليه الدنيا والآخرة ، وعنه قول يقول آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فيلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله ، وقال الشعبي وغيره المعنى التفت ساق الإنسان عند الموت من شدة الكرب ، وقال قتادة أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى ، قال النحاس القول الأول أحسنها .

﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أي إلى خالقك يوم القيامة المرجع ، وذلك جمع العباد الى الله يساقون اليه وقيل التنوين عوض عن جمل أربع أي يوم إذ بلغت الروح التراقي الخ .

﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ أي لم يصدق الإنسان المذكور في أول هذه السورة بالرسالة ولا بالقرآن ولا صلى لربه أي الصلاة الشرعية ، فهو ذم له يترك العقائد والفروع ، قال قتادة فلا صدق بالكتاب ولا صلى لله ، وقيل فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه ، وقيل صدق من التصدق أي فلا صدق بشيء يدخره عند الله تعالى ، قاله القرطبي قال الكسائي : لا بمعنى لم وكذا قال الأخفش والعرب تقول لا لا ذهب أي لم يذهب ، وهذا مستفيض في كلام العرب ومنه :

إن تغفر اللهم فاغفر جما وأي عبد لك لا ألما

ولما كان عدم التصديق يصدق بالشك والسكوت والتكذيب استدرك على عمومه وبين أن المراد منه خصوص التكذيب فقال : ﴿ ولكن كذب وتولى ﴾ أي كذب بالرسول وبما جاء به ، وتولى عن الطاعة والإيمان ، ولم يستدرك على نفي الصلاة لأنه لا يصدق إلا بصورة واحدة فلم يحتج للاستدراك عليه .

﴿ ثم ذهب الى أهله يتمطى ﴾ أي يتبختر ويختال في مشيه افتخاراً بذلك ، وقيل هو مأخوذ من المطا ، وهو الظهر والمعنى يلوي مطاه وقيل أصله يتمطط وهو التمدد والتثاقل أي يتثاقل ويتكاسل عن الداعي الى الحق .

قال الإمام هذا ذكر لما يتعلق بدنياه بعد ذكر ما يتعلق بدينه ، وثم للاستبعاد لأن من صدر عنه مثل ذلك ينبغي أن يخاف من حلول غضب الله به فيمشي خائفاً منه متطامناً لا فرحاً متبختراً ، ذكره الشهاب .

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً
مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ
ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ أولى لـك ﴾ فيه التفـات عن الغيبـة ، والكلمـة اسم فعـل مبنيـة على السكون لا محل لها من الإعراب ، والفـاعل ضميـر مستتر يعـود على ما يفهم من السياق وهو كون هذه الكلمة تستعمل في الدعاء بالمكروه ، والـلام مزيـدة والمعنى وليك ما تكرهه ﴿ فأولى ﴾ أي فهو أولى بك من غيرك ، فدلت الأولى على الدعاء عليه بقرب المكروه منه ، ودلت الثانية على الدعاء عليه بأن يكون أقرب اليه من غيره ، هذا ما سلكه الجلال المحلي في تقرير هذا المقام وانفرد به عـن غيره من المفسرين وهو حسن جداً .

﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ الأولى تأكيد للأولى والثانية تأكيد للثانية ، وقيل أي وليك الويل وأصله أولاك الله ما تكـرهه والـلام مزيـدة كما في ردف لكم ، وهذا تهديد شديد ووعيد بعد وعيد ، والتكـرير للتـأكيد أي يتكـرر عليك ذلـك مرة بعد مرة .

قال الواحدي قال المفسرون : « أخذ رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، بيد أبي جهل فقال أولى لك فأولى فقال أبو جهل بأي شيء تهددني؟لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعز أهل هذا الوادي » فنزلت هذه الآية ، وقيل معناه الويل لك وعلى هذا القول قيل هو من المقلوب ، كأنه قيل أويل لك ثم أخر الحرف المعتل، قيل ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات الويل لك حياً والويل لك ميتاً والويل لك يوم البعث والويل لك يوم تدخل

النار ، وقيل المعنى أن الذم لك أولى لك من تركه ، وقيل المعنى أنت أولى وأحق وأجدر بهذا العذاب قاله محي السنة ، وقال الأصمعي أولى في كلام العرب معناه مقاربة الهلاك ، قال المبرد كأنه يقول قد وليت الهلاك وقد دانيته ، وأصله من الولي وهو القرب .

قال ثعلب : لم يقل أحد في ﴿ أولى ﴾ أحسن وأصح مما قاله الأصمعي ، وعن سعيد بن جبير قال : « سألت ابن عباس عن قوله أولى لك فأولى أشيء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأبي جهل من قبل نفسه أم أمره الله به قال بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله » أخرجه النسائي والحاكم وصححه والطبراني وغيرهم .

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب ولا يكلف في الدنيا ولا يبعث ولا يجازى ، وقال السدي معناه المهمل ومنه إبل سدى أي ترعى بلا راع ، وقيل المعنى أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث ، وهو يتضمن تكرير إنكاره للحشر ، والدلالة عليه من حيث أن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح ، والتكليف لا يتحقق إلا بالمجازاة وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة .

﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ مستأنفة أي ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني تراق وتصب في الرحم ، وسمي المني منياً لإراقته ، والنطفة الماء القليل ، يقال نطف الماء إذا قطر ، قرأ الجمهور ألم يك بالتحتية على إرجاع الضمير الى الإنسان ، وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخاً له ، وقرأ الجمهور تمنى أيضاً بالفوقية على أن الضمير للنطفة ، وقرىء بالتحتية على أن

الضمير للمني ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو واختارها أبو حاتم وفائدته بعد قوله ﴿ من مني ﴾ الإشارة الى حقارة حاله كأنه قيل إنه مخلوق من مني الذي يجري على مخرج النجاسة .

﴿ ثم كان علقة ﴾ أي كان بعد النطفة دماً أحمر شديد الحمرة ﴿ فخلق ﴾ أي فقدر الله منها الانسان بأن جعلها مضغة مخلقه ﴿ فسوى ﴾ أي فعدله وكمل نشأته ونفخ فيه الروح وجعله بشراً سوياً ﴿ فجعل منه ﴾ أي حصل من الإنسان وقيل من المني ﴿ الزوجين ﴾ أي الصنفين من نوع الإنسان ، قال الكرخي أي لا خصوص الفردين وإلا فقد تحمل المرأة بذكرين وأنثى وبالعكس ، ثم بين ذلك فقال ﴿ الذكر والانثى ﴾ أي الرجل والمرأة يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر أخرى .

﴿ أليس ذلك ﴾ الفعال الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه ﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ أي يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا ، فإن الإعادة أهون من الإبداء وأيسر مؤنة منه ، قرأ الجمهور بقادر ، وقرأ زيد بن علي (يقدر) فعلاً مضارعاً ، وقرأ الجمهور أيضاً يحيى بنصبه بأن ، وقرىء بسكونها تخفيفاً أو على إجراء الوصل مجرى الوقف كما مر في مواضع .

عن صالح أبي الخليل قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا قرأ هذه الآية قال سبحانك اللهم وبلى »[(١)] ، أخرجه عبد بن حميد وابن الأنباري .

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير من رواية ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً من حديث أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وأبو إسحاق السبيعي ثقة عابد لكنه اختلط بأخرة . ورواه أبو داود والترمذي مطولاً عن أبي هريرة رضي الله مرفوعاً وفي سنده أعرابي لم يسم ، وعنه أخرجه احمد ٢ / ٢٤٩ والترمذي ٢ / ٢٣٨ مختصراً وأعله بالأعرابي . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٢ / ٥١٠ وصححه ووافقه الذهبي ، وفي سنده يزيد بن عياض ، وهو متروك كما قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » . ورواه أبو داود رقم (٨٨٤) من رواية موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ابن كثير : تفرد به أبو داود ، ولم يسم هذا الصحابي ، ولا يضر ذلك .

وعن البراء بن عازب قال « لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، سبحانك ربي وبلى » أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي أمامة أنه « سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند قراءته لهذه الآية بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أخرجه ابن النجار في تاريخه .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها أليس الله بأحكم الحاكمين ، فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى قوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل بلى ، ومن قرأ والمرسلات عرفاً فبلغ فبأي حديث بعد يؤمنون ، فليقل آمنا بالله » ، أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وفي إسناده رجل مجهول .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا قرأت لا أقسم بيوم القيامة فبلغت أليس ذلك بقادر إلى آخرها فقل بلى » أخرجه ابن المنذر وابن مردويه .

قال ابن عباس من قرأ سبح اسم ربك الأعلى إماماً كان أو غيره فليقل سبحان ربي الأعلى ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة إلى آخرها فليقل سبحانك اللهم بلى ، إماماً كان أو غيره ، ذكره الخطيب .

قال الحفناوي : قوله إماماً كان أو غيره يقتضي أن هذه الكلمة وهي (بلى) لا تبطل الصلاة وهو كذلك لأنها ذكر وتقديس وتنزيه لله تعالى .

سورة الانسان

﴿ وتسمى سورة هل أتى وسورة الأمشاج وسورة الدهر وهي إحدى وثلاثون آية ﴾

قال الجمهور هي مدنية . وقال مقاتل والكلبي : هي مكيّة . وجرى عليه البيضاوي والزمخشري . وقال المحلي : مكيّة أو مدنية ولم يجزم بشيء قال ابن عباس : نزلت بمكة . وعن ابن الزبير مثله . وقيل فيها مكي من قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن ﴾ الى آخر السورة وما قبله مدني وقال الحسن وعكرمة هي مدنية الا آية وهي ﴿ فاصبر لحكم ربك الى كفوراً ﴾ وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرر قال : « جاء رجل من الحبشة الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « سل واستفهم » فقال يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوة أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به أني كائن معك في الجنة قال نعم والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام ثم قال من قال لا آله الا الله كان له عهد عند الله ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة . وأربعة وعشرون ألف حسنة . ونزلت هذه السورة الى قوله : ﴿ ملكاً كبيراً ﴾ فقال الحبشي وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة قال نعم . فاستبكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدليه في حفرته بيده » .

وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال حدثني الثقة « أن رجلاً أسود كان يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التسبيح والتهليل فقال له عمر بن الخطاب أكثرت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال مه يا عمر. وأنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ حتى اذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « مات شوقاً الى الجنة » وأخرج نحوه ابن وهب عن ابن زيد مرفوعاً مرسلاً.

وأخرج أحمد والترمذي وحسنة وابن ماجة وغيرهم عن ابي ذر قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ حتى ختمها ثم قال « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربعة أصابع الا وملك واضع جبهته ساجداً لله. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله عز وجل »[1].

(١) حديث حسن ـ صحيح الجامع ٢٤٤٥ ـ المشكاة ٥٣٤٧ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا
﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ
مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

﴿ هل أتى ﴾ حكى الواحدي عن المفسرين وأهل المعاني أن هل هنا بمعنى قد ، وليس باستفهام لأن الاستفهام محال على الله تعالى ، وقد قال بهذا سيبويه والكسائي والفراء وأبو عبيدة ، قال الفراء ﴿ هل ﴾ يكون جحداً ويكون خبراً فهذا من الخبر ، لأنك تقول هل أعطيتك تقرره بأنك أعطيته والجحد أن تقول هل يقدر أحد على مثل هذا ، وقيل هي وإن كانت بمعنى قد ففيها معنى الاستفهام ، والأصل أهل أتى ، فالمعنى أقد أتى ، والاستفهام للتقرير والتقريب وبه قال مكي وهو تقرير لمن أنكر البعث أن يقول نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه ، قال السمين : جعلها للاستفهام التقريري لا للاستفهام المحض ، وهذا هو الذي يجب أن يكون لأن الاستفهام لا يرد من الله إلا على هذا النحو وما أشبهه انتهى والأول أنسب .

﴿ على الإنسان ﴾ المراد بالإنسان هنا آدم قاله قتادة والثوري وعكرمة والسدي وغيرهم وقال ابن عباس كل إنسان ﴿ حين من الدهر ﴾ أي طائفة محدودة من الزمان الممتد غير المحدود ، فإنه عند الجمهور يقع على مدة العالم جميعها ، وعلى كل زمان طويل غير معين قيل أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح ، وهو ملقى بين مكة والطائف ، وقيل إنه خلق من طين أربعين سنة ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح ، وقيل الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره .

وجملة ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ في محل نصب على الحال من الإنسان

أو في محل رفع صفة لحين ، قال الفراء وقطرب وثعلب المعنى أنه كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا يذكر في السماء ولا في الأرض ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما المراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً ، وقال يحيي : لم يكن شيئاً مذكوراً في الخلق وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً ، وقيل ليس المراد بالذكر هنا الإخبار فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف كما في قوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قال القشيري ما كان مذكوراً لله سبحانه .

قال الفراء : كان شيئاً ولم يكن مذكوراً ، فجعل النفي متوجهاً الى القيد وقيل المعنى قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة .

وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير وتقديره هل أتى حين من الدهر على الإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيوان، وعن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية لم يكن شيئاً مذكوراً فقال عمر ليتها تمت ، يعني ليته بقي على ما كان عليه ، ويروى نحوه عن ابي بكر وابن مسعود ، وقيل المراد بالإنسان جنس الإنسان وهو بنو آدم بدليل قوله .

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة ﴾ فإن المراد بالإنسان هنا بنو آدم ، قال القرطبي من غير خلاف ، والنطفة الماء الذي يقطر ، وهو المني وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة وجمعها نطف أي خلقناه من مادة هي شيء يسير جداً من الرجل والمرأة ، والنطفة ماء الرجل والمرأة وأيضاً الماء الصافي قل أو كثر ، ولا فعل للنطفة اي لا يستعمل لها فعل من لفظها .

﴿ أمشاج ﴾ صفة لنطفة وهي جمع مشج بفتحتين أو مشج كعدل وأعدال أو مشيج كشريف وأشراف وهي الأخلاط ، ووقع الجمع صفة لمفرد لأنه في معنى الجمع أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فاعتبر ذلك فوصف بالجمع والمراد نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما يقال مشج هذا بهذا فهو

ممشوج اي خلط هذا بهذا فهو مخلوط .

قال المبرد مشج يمشج اذا اختلط وهو هنا اختلاط النطفة بالدم ، قال الفراء أمشاج اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة ، ويقال مشج هذا اذا خلط ، وقيل الأمشاج الحمرة في البياض ، والبياض في الحمرة :

قال القرطبي : وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة اصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، قيل وما كان من عصب وعظم فمن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة ، حتى لو زنت المرأة بامرأة واجتمع الماءآن في رحم إحداهما خلق الولد بلا عظم ، وقد وقع ذلك في عصر السلطان غياث الدين فلم يدر السلطان ، فجمع الأطباء والعلماء فلم يدركوا شيئاً من شأنه فأرسل الاستفتاء الى علماء ظفر أباد فقال محمد بن الحاج إنه خلق من ماء امرأتين فتفحص السلطان فظهر أنه كذلك ، وقيل الأمشاج أطوار الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر .

قال ابن السكيت : الأمشاج الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة ، وقيل الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار ، ويؤيد هذا وقوعه نعتاً للنطفة ، قال ابن مسعود : أمشاجها عروقها ، وعن ابن عباس : قال ماء الرجل وماء المرأة حين يختلطان ، وعنه قال : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء ، وعنه قال : الأمشاج الذي يخرج على أثر البول كقطع الأوتار ، ومنه يكون الولد .

وجملة ﴿ نبتليه ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل خلقنا أي مريدين ابتلاءه حين تأهله ويجوز أن يكون حالاً من الإنسان ، والمعنى نبتليه بالخير والشر والتكاليف قال الفراء معناه والله أعلم ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ نبتليه وهي مقدمة معناها التأخير ، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا هذه حال مقدرة وقيل مقارنة .

وقال الكرخي : لا حاجة الى دعوى التقديم والتأخير مع صحة المعنى بدونه ، وقيل معنى الابتلاء نقله من حال الى حال على طريقة الاستعارة والأول أولى ، والمراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها قال الخطيب أي جعلناه عظيم السمع والبصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره ، وسماع الآيات بسمعه ومعرفة الحجج ببصيرته فيصح تكليفه وابتلاؤه ، وقدم السمع لأنه أنفع في المخاطبات ، ولأن الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية وقيل المراد بالسميع المطيع كقولهم سمعاً وطاعة ، وبالبصير العالم يقال لفلان بصر في هذا الأمر أي علم ، والأول أولى .

ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء فقال : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ أي بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر بأدلة السمع والعقل ، كما في قوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال مجاهد : أي بينا السبيل الى الشقاوة والى السعادة ، وقال الضحاك والسدي وأبو صالح : السبيل هنا خروجه من الرحم ، وقيل منافعه ومضاره التي يهتدي اليها بطبعه وكمال عقله ، وانتصاب شاكراً وكفوراً على الحال من مفعول هديناه أي مكناه من سلوك الطريق في حالتيه جميعاً ، وقيل على الحال من السبيل على المجاز أي عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً(١) .

وحكى مكي عن الكوفيين إن قوله إما هي إن الشرطية زيدت بعدها ما أي بينا له الطريق إن شكر وإن كفر ، واختار هذا الفراء ولا يجيزه البصريون لأن ﴿ إن ﴾ الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل ، ولا يصح هنا إضمار الفعل لأنه كان يلزم رفع شاكراً وكفوراً ، ويمكن أن يضمر فعل ينصب شاكراً وكفوراً وتقديره إن خلقناه شاكراً فشكوراً ، وإن خلقناه كافراً

---

(١) قال ابن كثير : فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

فكفوراً ، وهذا على قراءة الجمهور﴿إمّا﴾ بكسر الهمزة وقرأ أبو السماك وأبو العجاج بفتحها وعلى الفتح هي ﴿أمّا﴾العاطفة في لغة بعض العرب أو هي التفصيلية وجوابها مقدرة وقيل انتصب شاكراً وكفوراً بإضمار كان والتقدير سواء كان شاكراً أو كان كفوراً .

ولما كان الشكر قل من يتصف به قال شاكراً ، ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه عن الإنسان بخلاف الشكر قال كفوراً بصيغة المبالغة ، كذا في النهر أو هو مراعاة لرؤوس الآي .

ثم بين سبحانه ما أعد للكافرين فقال : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ قرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر ﴿سلاسلاً﴾ بالتنوين ووقف قنبل عن ابن كثير وحمزة بغير الف ، والباقون وقفوا بالألف ، ووجه من قرأ بالتنوين في سلاسل مع كونه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب لأن ما قبله وهو إما شاكراً وإما كفوراً ، وما بعده وهو أغلالاً وسعيراً منون أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف كما حكاه الكسائي وغيره من الكوفيين عن بعض العرب .

قال الأخفش : سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف لأن الأصل في الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها ، قال الفراء هو على لغة من يجر الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يجرونه ، وقيل إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها فيها بالألف ، وقيل إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف .

والسلاسل قد تقدم تفسيرها ، والخلاف فيها هل هي القيود أو ما يجعل في الأعناق كما في قول الشاعر :

ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

والسلاسل جمع سلسلة أي يشدون ويسحبون بها في النار ، والأغلال جمع غل تغل به الأيدي الى الأعناق ، وقد تقدم تفسير السعير وهي نار مهيجة يعذبون بها .

ولما أوجز في جزاء الكافرين ذكر ما أعده للشاكرين وأطنب تأكيداً للترغيب فقال : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس ﴾ الأبرار أهل الطاعة والإخلاص والصدق جمع بر أو بار ، قال في الصحاح : جمع البر الأبرار ، وجمع البار البررة ، وفلان يبر خالقه ويبرره أي يطيعه ، وقال الحسن : البر الذي لا يؤذي الذر ، وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر ، وقيل هم الصادقون في إيمانهم المطيعون لربهم الذين سمت همتهم عن المحقرات فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة ، وقيل سماهم الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، والكأس في اللغة هو الإناء الذي فيه الشراب ، واذا لم يكن فيه الشراب لم يسم كأساً ، بل هو إناء ، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصيني وغير ذلك ، وقد كانت كؤوس العرب من أجناس مختلفة ، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر كما في قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ أي ما يخالطها وتمزج به ، يقال مزجه يمزجه مزجاً أي خلطه يخلطه خلطاً ومنه مزاج البدن وهو ما يمازجه من الإخلاط ، والكافور قيل هو اسم عين في الجنة يقال لها الكافور أي تمزج خمر الجنة بماء هذه العين ، وقال قتادة ومجاهد : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك ، وقال عكرمة : مزاجها طعمها ، وقيل إنما الكافور في ريحها لا في طعمها ، وقيل إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده ، لأن الكافور لا يشرب كما في قوله ﴿ حتى اذا جعله ناراً ﴾ أي كنار ، وقال ابن كيسان : طيبها المسك والكافور والزنجبيل ، وقال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا وإنما سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب .

والجملة في محل جر صفة لكأس ، وقيل إن « كان » ههنا زائدة أي من كأس مزاجها كافور ، وقرأ عبد الله قافوراً بالقاف بدل الكاف ، قال السمين وهذا من التعاقب بين الحرفين .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً
وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

وقوله ﴿ عيناً ﴾ بدل من كافور لأن ماءها في بياض الكافور ، وقال مكي انها بدل من محل من كأس على حذف مضاف كأنه قيل يشربون خمراً خمر عين ، وقيل إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون أي عيناً من كأس ، وقيل هي منتصبة على الاختصاص ، قاله الأخفش وقيل بإضمار فعل يفسره ما بعده أي يشربون عيناً ، وذكر السمين في نصبها وجوهاً والأول أولى .

﴿ يشرب بها عباد الله ﴾ أي أولياؤه أو المؤمنون ، والجملة صفة لعيناً ، وقيل الباء في بها زائدة ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة يشربها ، وقيل بمعنى (من) قاله الزجاج ، وقيل إن يشرب مضمن معنى يلتذ وقيل هي متعلقة بيشرب والضمير يعود على الكأس ، وقيل إنها حالية أي ممزوجة بها ، وقال الفراء يشربها ويشرب بها سواء في المعنى وكأن يشرب بها يروى بها وينتفع .

﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ أي يجرونها الى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاؤون ويتبعهم ماؤها الى كل مكان يريدون وصوله إليه ، فهم يشقونها شقاً كما يشق النهر ويفجر الى هنا وهنا ، قال مجاهد : يقودونها حيث شاؤوا وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم أي فهي سهلة لا تمتنع عليهم ، والجملة صفة أخرى لعيناً .

وجملة ﴿ يوفون بالنذر ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر ، وكذا ما عطف عليها ، ومعنى النذر في اللغة الإيجاب ، والمعنى يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات ، قال قتادة ومجاهد : يوفون بطاعة الله من

الصلاة والحج ونحوهما ، وفيه مبالغة في وصفهم بالتوفيق على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله تعالى كان بما أوجب الله عليه أوفى .

وقال عكرمة : يوفون اذا نذروا في حق الله سبحانه ، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه ، فالمعنى يوفون بما أوجبوه على أنفسهم(١) .

قال الفراء : في الكلام إضمار أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا ، وقال الكلبي : يوفون بالنذر أي يتممون العهود لقوله تعالى ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ وقوله : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ أمروا بالوفاء بها لأنهم عقدوهما على أنفسهم باعتقادهم الإيمان ، والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص .

﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ المراد يوم القيامة ، ومعنى استطارة شره فشوه وانتشاره غاية الانتشار ، يقال استطار يستطير فهو مستطير ، وهو استفعل من الطيران ، والعرب تقول استطار الصدع في القارورة والزجاجة اذا امتد ويقال استطار الحريق اذا انتشر ، وهو أبلغ من طار ، قال الفراء : المستطير المستطيل ، قال قتادة استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض .

قال مقاتل كان شره فاشياً في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (يوفون بالنذر) أي : يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . قال الإمام مالك في «الموطأ » ٢ / ٤٧٦ عن طلحة بن عبد الملك الأيلي عن القاسم بن محمد بن الصديق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » ورواه البخاري في صحيحه « كتاب الأيمان والنذور » : باب النذر في الطاعة من حديث مالك .

المياه ، وفي الآية إشارة لحسن عقيدتهم واجتنابهم المعاصي .

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ أي يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام مع حبه لديهم وقلته عندهم ، قال مجاهد على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له ، فقوله (على حبه) في محل نصب على الحال أي كائنين على حبه ومثله قوله ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقيل على حب الإطعام لرغبتهم في الخير قال الفضيل بن عياض على حب إطعام الطعام ، وقيل الضمير يرجع الى الله أي يطعمون إطعاماً كائناً على حب الله ، ويؤيد هذا قوله الآتي ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ والأول أمدح لأن فيه الإيثار على النفس ، والطعام محبوب للفقراء والأغنياء ، والمسكين ذو المسكنة وهو الفقير أو من هو أفقر من الفقير ، والمراد باليتيم يتامى المسلمين . والأسير الذي يؤسر فيحبس ، قال قتادة ومجاهد الأسير المحبوس ، وقال عكرمة الأسير العبد ، وقال ابو حمزة الثمالي الأسير المرأة .

قال سعيد بن جبير : نسخ هذا الإطعام آية الصدقات وآية السيف في حق الأسير الكافر ، وقال غيره بل هي محكمة ، وإطعام المسكين واليتيم على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه الى أن يتخير فيه الإمام ، قال ابن عباس أسيراً هو المشرك .

وعن أبي سعيد الخدري « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله (مسكيناً) قال فقيراً ﴿ ويتيماً ﴾ قال لا أب له ﴿وأسيراً﴾ قال المملوك والمسجون » أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم ، وعن ابن عباس قال : « نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه ابن مردويه ، وقيل عامة في كل من أطعم هؤلاء لله وآثر على نفسه[1] .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣١ والبغوي من رواية عطاء عن ابن عباس بغير سند . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٢٩٩ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله اعلم .

وجملة ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول أي يقولون بلسان المقال أو بلسان الحال ، أو قائلين إنما نطعمكم يعني أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك ، وهذا الوصف من باب التكميل ، فقد وصفهم أولاً بالجود والبذل وكمله بأن ذلك عن إخلاص لا رياء فيه .

قال الواحدي قال المفسرون لم يتكلموا بهذا ، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم وعلم من ثنائه أنهم ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه .

﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ أي لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ولا نريد منكم الشكر لنا ، بل هو خالص لوجه الله ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه .

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ أي نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين ومعنى عبوساً أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى أنه ذو عبوس ، قال الفراء وأبو عبيده والمبرد : يوم قمطرير وقماطر اذا كان صعباً شديداً ، قال الأخفش القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء . قال الكسائي اقمطر اليوم وازمهر اذا كان شديداً صعباً .

وقال مجاهد إن العبوس بالشفتين والقمطرير بالجبهة والحاجبين فجعلهما من صفات اليوم والمتغير في ذلك اليوم بما يراه من الشدائد ، قال ابو عبيدة يقال قمطرير أي منقبض ما بين العينين والحاجبين .

قال الزجاج يقال اقمطرت الناقة اذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها ما سبقها من القطر ، وجعل الميم مزيدة .

وقال ابن عباس : عبوساً ضيقاً قمطريراً طويلاً ، وعن أنس بن مالك « عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عبوساً قمطريراً قال يقبض ما بين الأبصار » وقال ابن عباس القمطرير الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه .

﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ أي دفع عنهم شره بسبب خوفهم منه واطعامهم لوجهه ، والفاء سببيه ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ أي أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب بدل الخوف ، قال الضحاك النضرة البياض والنقاء في وجوههم ، وقال سعيد بن جبير : الحسن والبهاء ، وقيل النضرة أثر النعمة ، وعن ابن عباس : قال نضرة في وجوههم ، وسروراً في صدورهم .

﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم على التكاليف ، وقيل على الفقر ، وقيل على الجوع ، وقيل على الصوم والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ﴿ جنة وحريراً ﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضاً عن تركه في الدنيا امتثالاً لما ورد في الشرع من تحريمه .

والمراد بالجنة هنا بستان المأكولات لا ما يقابل النار ، وهي دار الكرامة حتى يقال أي حاجة الى ذكر الحرير بعد ذكر الجنة مع أنها مشتملة عليه في جملة ما أعد فيها للمؤمنين .

وظاهر هذه الآيات العموم في كل من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه ، والسبب وإن كان خاصاً كما تقدم فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويدخل سبب النزول تحت عمومها دخولاً أولياً .

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾﴾

وقوله ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ منصوب على الحال من مفعول جزاهم ، والعامل فيها جزي ولا يعمل فيها صبروا ، لأن الصبر إنما كان في الدنيا قال الفراء وإن شئت جعلت متكئين تابعاً كأنه قال وجزاهم جنة متكئين فيها .

وقال الأخفش يجوز أن يكون منصوباً على المدح والضمير في (فيها) يعود الى الجنة ، وجوز أبو البقاء والزمخشري أن يكون متكئين صفة لجنة ، وهذا لا يجوز عند البصريين لأنه كان يلزم بروز الضمير فيقال متكئين هم فيها لجريان الصفة على غير من هي له ، وقد منعه مكي لما ذكر من عدم بروز الضمير ، ولا يجوز كونه حالاً من فاعل صبروا لأن الصبر كان في الدنيا واتكاؤهم إنما هو في الآخرة .

والأرائك جمع أريكة وهي السرر في الحجال وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور ، وقد تقدم تفسيرها في سورة الكهف .

﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من مفعول جزاهم ، فتكون من الحال المترادفة او من الضمير في متكئين فتكون من الحال المتداخلة ، أو صفة أخرى لجنة ، قال ابن مسعود الزمهرير هو البرد الشديد ، والمعنى أنهم لا يرون في الجنة حر الشمس ولا برد لزمهرير ، ومنه قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها لم تر شمساً ولا زمهريرا

وفي الحديث « هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر » قاله النسفي ، وقال ثعلب الزمهرير القمر بلغة طي وأنشد لشاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر[1]

ويروي ما ظهر أي ما طلع القمر ، وقد تقدم تفسير هذا في سورة مريم .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكت النار الى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً ، فجعل لها نفسين نفساً في الصيف ونفساً في الشتاء ، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وشدة ما تجدون في الصيف من الحر من سمومها » .

﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ قرأ الجمهور دانية بالنصب عطفاً على محل لا يرون أو على متكئين أو صفة لمحذوف أي وجنة دانية كأنه قال وجزاهم جنة دانية ، وقال الزجاج هو صفة لجنة المتقدم ذكرها ، وقال الفراء منصوب على المدح ، وقرىء بالرفع على أنه خبر مقدم وظلالها مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب على الحال ، والمعنى أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظلة عليهم ، زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس هنالك ، قال مقاتل : يعني شجرها قريب منهم ، وقرأ ابن مسعود ودانياً عليهم قال البراء بن عازب : دانية قريبة .

﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ معطوف على دانية كأنه قال ومذللة ، ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ عليهم ﴾ ويجوز أن تكون مستأنفة ، والقطوف الثمار جمع قطف بالكسر وهو العنقود .

والمعنى أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيراً كثيراً بحيث يتناولها القائم

(١) البيت غير منسوب راجع القرطبي ١٩/١٣٦ والألوسي ٢٩/١٥٨

والقاعد ، والمضطجع والمتكىء ، ولا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ، قال النحاس المذلل القريب التناول ، ومنه قولهم حائط ذليل أي قصير ، قال ابن قتيبة ذللت أدنيت من قولهم حائط ذليل إذا كان قصير السمك وقيل ذللت اي جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا .

عن البراء ابن عازب قال إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أي حال شاؤوا وفي لفظ قال ذللت فيتناولون منها كيف شاؤوا .

ولما وصف تعالى طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف شرابهم بقوله ﴿ ويطاف عليهم ﴾ وقال هنا يطاف وفيما بعد يطوف لأن المقصود في الأول ما يطاف به لا الطائفون بقرينة قوله : ﴿ بآنية من فضة وأكواب ﴾ والمقصود في الثاني الطائفون ، فذكر في كل منهما ما يناسبه كما أشار اليه في التقرير ، والمعنى يدور عليهم الخدم اذا أرادوا الشراب بآنية الفضة ، والآنية جمع إناء والأصل أأنية بهمزتين الأولى مزيدة للجمع ، والثانية فاء الكلمة فقلبت الثانية الفاً وجوباً ، وهذا نظير كساء وأكسية وغطاء وأغطية ونظيره في الصحيح اللام حمار وأحمرة قاله السمين وهو وعاء الماء .

والأكواب جمع كوب وهو الكوز العظيم والإبريق الذي لا أذن له ولا عروة ، وهو من عطف الخاص على العام ، ولم تنف الآية آنية الذهب ، بل نبه سبحانه بذكر أحدهما على الآخر كقوله ﴿ تقيكم الحر ﴾ والمعنى قد يسقون في أواني الفضة ، وقد يسقون في أواني الذهب وقد مضى تفسيره في سورة الزخرف .

﴿ كانت قواريراً ﴾ بتكوين الله تعالى تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين وكذا كان مزاجها كافوراً .

﴿ قوارير من فضة ﴾ أي في وصف القوارير في الصفاء وفي بياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ولونها الفضة ، قال ابن عباس آنية من فضة

وصفاؤها كصفاء القوارير ، وعنه قال ليس في الدنيا شيء مما في الجنة الا الأسماء اذ الذي في الجنة أشرف وأعلى .

قرأ نافع الكسائي وأبو بكر قواريراً بالتنوين فيهما مع الوصل وبالوقوف عليهما وبالألف ، وقد تقدم وجه هذه القراءة في تفسير قوله (سلاسلاً) من هذه السورة ، وبينا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع .

وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما وعدم الوقف بالألف ، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع .

وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف .

وقرأ ابن كثير بتنوين الأول دون الثاني والوقف على الأول بالألف دون الثاني .

وقرأ أبو عمرو وحفص وابن ذكوان بعدم التنوين فيهما والوقف على الأول بالألف دون الثاني ، وبسط السمين في ذكر هذه الوجوه الخمسة في القراءة .

والجملة في محل جر صفة لأكواب ، وقوارير جمع قارورة وهي ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف ، وقيل هو خاص بالزجاج .

قال أبو البقاء : وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها ، ولولا التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية لشدة اتصال الصفة بالموصوف .

قال الواحدي قال المفسرون : جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير .

قال الزجاج القوارير التي في الدنيا من الرمل فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما في داخلها ، قال ابن عباس : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة في صفاء القوارير : وعنه قال :

ليس في الجنة شيء إلا وقد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة .

وجملة ﴿ قدروها تقديراً ﴾ صفة لقوارير ، قرأ الجمهور قدروها بفتح القاف على البناء للفاعل أي قدرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج اليه الشاربون من اهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان ، وذلك ألذ الشراب لكونه على مقدار الحاجة لا يفضل عنه ولا يعجز ، قال مجاهد : وغيره أتوا بها على قدر ربهم أي شهوتهم بغير زيادة ولا نقصان إذ لا عطش في الجنة قال الكلبي : وذلك ألذ وأشهى .

وقيل تدرها الملائكة وقيل قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهوتهم وحاجتهم فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد ولا تنقص .

وقرىء قدروها بضم القاف وكسر الدال مبنياً للمفعول أي جعلت لهم على قدر إرادتهم .

قال أبو علي الفارسي : هو من باب القلب قال لأن حقيقة المعنى أن يقال قدرت عليهم لا قدروها لأنه في معنى قدروا عليها .

وقال ابو حاتم التقدير قدرت الأواني على قدر ريِّهم ، فمفعول ما لم يسم محذوف . قال أبو حيان والأقرب في تخريج هذه الآية الشاذة أن يقال قدر ريهم منها تقديراً ، فحذف المضاف فصار قدروها .

قال المهدوي : هذه القراءة يرجع معناها الى القراءة الأولى ، وكان الأصل قدروا عليها فحذف حرف الجر ، وقال ابن عباس : قدرت للكف ، وقال أيضاً أتوا بها على قدر الفم لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً ، وعنه قال : قدرتها السقاة .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ
ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿ ويسقون ﴾ أي يسقيهم من أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة ﴿ فيها ﴾ أي في الجنة أو الأكواب ﴿ كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ قد تقدم أن الكأس هو الإناء الذي فيه الخمر ، واذا كان خالياً عن الخمر فلا يقال له كأس .

والمعنى أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل ، وقد كانت العرب تستلذ مزيج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته ، وقال مجاهد وقتادة الزنجبيل اسم للعين التي يشرب بها المقربون ، وقال مقاتل هو زنجبيل لا يشبه الدنيا أي يلذع الحلق فتصعب إساغته .

قلت : وكذلك ما في الجنان من الأشجار والثمار والقصور والنساء والحور والمأكولات والمشروبات والملبوسات لا يشبه ما في الدنيا إلا في مجرد الاسم ، لكن الله سبحانه وتعالى يرغب الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شيء وألذه وأطيبه مما يعرفونه في الدنيا لأجل أن يرغبوا ويسعوا فيما يوصلهم الى هذا النعيم المقيم .

﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ انتصاب عيناً على أنها بدل من كأس

ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدر أي يسقون عيناً ، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض أي ومن عين ، والسلسبيل الشراب اللذيذ مأخوذ من السلاسة ، تقول العرب هذا شراب سلس وسلسال وسلسبيل اي طيب لذيذ .

قال الزمخشري : وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة ، قال الزجاج السلسبيل في اللغة اسم لماء في غاية السلاسة سريع الجريان يسوغ في حلوقهم ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريض عليهم كأساً يصفق بالرحيق السلسل

وقال ابن الأعرابي لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن ، وقال مكي هو اسم عجمي نكرة فلذلك صرف وزنه مثل دردبيس ، وقيل فعفليل لأن الفاء مكررة وقيل سلسة منقادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا والأول أولى .

وقال الخازن معنى (تسمى) توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلاً صفة لا اسم انتهى .

قال مقاتل ابن حيان سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن الى أهل الجنان .

قال البغوي وشراب الجنة في برد الكافور ، وطعم الزنجبيل ، وريح المسك من غير لذع ، قال مقاتل يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة .

ولما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ووصف آنيته ووصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب فقال : ﴿ ويطوف عليهم ﴾ بالشراب ﴿ ولدان ﴾ بكسر الواو باتفاق السبعة أي غلمان هم في سن من هو دون البلوغ ، قال بعض المفسرين هم غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ، وقال بعضهم أطفال المؤمنين لأنهم ماتوا على الفطرة .

وقال ابن برحان : وأرى والله أعلم أنهم من علم الله تعالى إيمانه من أولاد الكفار ، ويكونون خدماً لأهل الجنة كما كانوا في الدنيا لنا سبياً وخدماً ، وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم تأنساً وسروراً بهم .

وفي الخازن في سورة الواقعة والصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله تعالى أنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور ولم يولدوا ، ولم يخلقوا عن ولادة انتهى .

قلت الله أعلم بهم ، ولا أقول فيهم بشيء ظناً وتخميناً إذ لم يرد نص صريح صحيح في كتاب الله ولا في سنة رسوله فالوقف أولى وأحوط .

﴿ مخلدون ﴾ أي باقون على ما هم عليه من الشباب والطراوة والنضارة لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقيل المعنى لا يموتون ، وقيل التخليد التحلية أي محلون .

﴿ اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أي اذا نظرت اليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم ، وانبثاثهم في مجالسهم ، لؤلؤاً مفرقاً ، قال عطاء يريد في بياض اللون وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً .

قال أهل المعاني إنما شبهوا الانتثار لأنهم في الخدمة ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم ، قيل إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهن بالخدمة .

عن أبي عمرو قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه الف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وتلا ﴿ اذا رأيتهم حسبتهم ، الخ » أخرجه ابن المبارك وهناد وعبد بن حميد والبيهقي في البعث .

﴿ واذا رأيت ثم ﴾ أي وإذا رميت ببصرك هناك يعني في الجنة ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يدخل الجنة ، وثم ظرف مكان مختص بالبعد ، والعامل فيها رأيت .

قال الفراء في الكلام « ما » مضمرة أي واذا رأيت ما ثم كقوله لقد انقطع بينكم أي ما بينكم .

قال الزجاج معترضاً على الفراء أنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ولكن رأيت يتعدى في المعنى الى ثم ، والمعنى اذا رأيت ببصرك ثم ويعني بثم الجنة ، وقيل إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوي بل معناه أن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿ رأيت نعيماً ﴾ لا يوصف ، والنعيم سائر ما يتنعم به .

﴿ وملكاً كبيراً ﴾ لا يقادر قدره ، قال السدي الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم وكذا قال مقاتل والكلبي وقيل واسعاً لا غاية له ، وقيل كون التيجان على رؤوسهم كما تكون على رؤوس الملوك وأعظمهم منزلة من ينظر الى وجه ربه كل يوم .

﴿ عاليهم ثياب سندس ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن عاليهم بسكون الياء وكسر الهاء وهي سبعية على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر او على أن عاليهم مبتدأ ثياب مرتفع بالفاعلية وأن لم يعتمد الوصف كما هو مذهب الأخفش ، وقال الفراء : هو مرفوع بالابتداء وخبره ثياب واسم الفاعل مراد به الجمع .

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء لتحرك ما قبلها على أنه ظرف كأنه قيل فوقهم ثياب قال الفراء إن عاليهم بمعنى فوقهم ، وكذا قال ابن عطية .

قال أبو حيان عال وعالية اسم فاعل فيحتاج في كونهما ظرفين الى أن يكون منقولاً من كلام العرب ، وقد تقدمه الى هذا الزجاج ، وقال هذا مما لا نعرفه في الظروف ، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء ولكنه نصب على الحال من شيئين أحدهما الهاء والميم في قوله يطوف عليهم ، أي على الأبرار ثياب

سندس ، أي يطوف عليهم في هذه الحال .

والثاني أن يكون حالاً من الولدان أي اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً في حال علو الثياب أبدانهم .

قلت : قد وردت الفاظ من صيغ أسماء الفاعلين ظروفاً نحو خارج الدار وداخلها وباطنها وظاهرها فكذلك هذا فلا وجه للإنكار ، وقال أبو علي الفارسي : العامل في الحال إما لقاهم نضرة وإما جزاهم بما صبروا قال ويجوز أن يكون ظرفاً .

وقرىء ﴿ عليهم ﴾ وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، واختار ابو عبيد الأولى لقراءة ابن مسعود ﴿ عاليتهم ﴾ .

وقرأ الجمهور ثياب سندس بالإضافة على معنى « من » وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة بفكها ورفع سندس ، و ﴿ خضر واستبرق ﴾ على أن السندس نعت للثياب لأن السندس نوع منها وعلى أن خضر نعت لسندس لأنه يكون أخضر وغير أخضر ، وعلى أن استبرق معطوف على سندس أي وثياب استبرق .

والجمهور من القراء اختلفوا في خضر واستبرق مع اتفاقهم على جر سندس بإضافة ثياب اليه ، فقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن بجر خضر نعتاً لسندس ، ورفع استبرق عطفاً على ثياب اي عليهم ثياب سندس ، وعليهم استبرق .

وقرأ ابو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتاً لثياب وجر استبرق نعتاً لسندس ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد لان الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة ولاستبرق من جنس السندس .

وقرأ نافع وحفص برفع خضر واستبرق لأن خضراً نعت للثياب واستبرق عطف على الثياب .

وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي بجر خضر واستبرق على أن خضراً نعت للسندس واستبرق معطوف على سندس .

واستشكل على هذه القراءة وكذا على قراءة جر الأول ورفع الثاني بوقوع خضر الذي هو جمع نعتاً لسندس الذي هو مفرد .

والجواب أن السندس اسم جنس واحده سندسة ، ووصف اسم الجنس بالجمع شائع فصيح على حد ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾وقرأوا كلهم بصرف استبرق إلا ابن محيصن فإنه قرأ بعدم صرفه قال لأنه أعجمي ، ولا وجه لهذا لأنه نكرة إلا أن يقول أنه علم لهذا الجنس من الثياب ، والسندس ترقّ من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه ، وقد تقدم تفسيرهما في سورة الكهف .

﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ عطف على يطوف عليهم ماض لفظاً مستقبل معنى وأبرزه بالماضي لتحققه .

ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضة ، وفي سورة فاطر ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ وفي سورة الحج ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾

ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن تجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ لتجتمع لهم محاسن الجنة أو بأن المراد لهم يلبسون سوارات الذهب تارة ، وسوارات الفضة تارة ، وسوارات اللؤلؤ تارة ، وأنه يلبس كل أحد منه ما تميل اليه نفسه من ذلك أو حلي الرجال الفضة وحلي النساء الذهب ، وقيل أسورة الفضة إنما تكون للولدان ، وأسورة الذهب للنسوان ، وقيل هذا بحسب الأوقات والأعمال .

﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ هذا نوع آخر من الشراب الذي يمن الله عليهم به يفوق على النوعين المتقدمين ، ولذلك أسند سقياه الى الله

ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل الى اللذات الحسية ، والركون الى ما سوى الحق فيتجرد لمطالعة جماله ، متلذذاً بلقائه باقياً ببقائه ، وهو منتهى درجات الصديقين .

قال الفراء يقول هو طهور ليس بنجس كما كان في الدنيا موصوفاً بالنجاسة أي لم تمسه الأيدي ولم تدنسه الأرجل ، وقيل لا يستحيل بولاً ، وطهور صيغة مبالغة في الطهارة والنظافة .

والمعنى أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا ، فشتان ما بين الشرابين والآنيتين والمنزلتين ، قال مقاتل هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غش وغل وحسد .

قال أبو قلابة وإبراهيم والنخعي يؤتون بالطعام فاذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك ثم يقال لهم بعد دخولهم في الجنة ومشاهدتهم نعيمها .

﴿ إن هذا ﴾ الذي ذكر من أنواع النعم ﴿ كان ﴾ في علم الله ﴿ لكم جزاء ﴾ بأعمالكم أي ثواباً لها أعده لكم الى هذا الوقت ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي كان عملكم في الدنيا بطاعة الله مرضياً مقبولاً مقابلاً بالثواب ، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته .

﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ أي فرقناه في الإنزال ولم ننزله جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين ، قيل المعنى نزلناه عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون ، والمقصود من ذلك تثبيت قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشرح صدره وان الذي أنزل عليه وحي ليس بكهانة ولا سحر لتزول الوحشة الحاصلة له من قول الكفار إنه كهانة أو سحر .

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا
أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾
وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي
رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي لقضائه ومن حكمه وقضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته ، قيل هذا منسوخ بآية السيف ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ أي لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال في كفر ، فنهاه الله سبحانه وتعالى عن ذلك .

قال الزجاج : إن الألف هنا آكد من الواو وحدها لأنك اذا قلت لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاص لأنك أمرته أن لا يطيع الاثنين ، فاذا قال منهم آثماً او كفوراً دل ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، كما أنك اذا قلت لا تخالف الحسن أو ابن سيرين فقد قلت أنهما أهل أن يتبعا ، وكل واحد منهما أهل أن يتبع .

وقال الفراء « أو » هنا بمنزلة لا كأنه قال ولا كفوراً ، وقيل المراد بقوله ﴿ آثماً ﴾ عتبه ابن ربيعة وبقوله ﴿ أو كفوراً ﴾ الوليد بن المغيرة لأنهما قالا للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج .

﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ أي دم على ذكره في جميع الأوقات وقيل المعنى صل لربك أول النهار وآخره ، فأول النهار صلاة الصبح ، وآخره صلاة العصر ، قال البيضاوي دم على صلاة الفجر والظهر والعصر ، فإن

الأصيل يتناول وقتيهما ، وفي الشهاب تناول الأصيل للعصر ظاهر ، وأما تناوله للظهر فباعتبار آخره إذ الزوال وما يقرب منه لا يسمى أصيلاً .

﴿ ومن الليل فاسجد له ﴾ اي صل المغرب والعشاء وقيل المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين ، ومن للتبعيض على كل تقدير والفاء دالة على معنى الشرطية والتقدير مهما يكن من شيء فصل من الليل ، وهو يفيد أيضاً بتأكيده الاعتناء التام ﴿ وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ أي نزهه عما لا يليق به فيكون المراد الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة أو في غيرها ، وقيل المراد التطوع في الليل .

قال ابن زيد وغيره إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس ، وقيل الأمر للندب وقيل هو مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وفيه دليل على عدم صحة ما قاله بعض أهل علم المعاني والبيان أن الجمع بين الحاء والهاء مثلا يخرج الكلمة عن فصاحتها وجعلوا من ذلك قول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي ، واذا ما لمته لمته وحدي

ويمكن أن يفرق بين ما أنشدوه وبين الآية الكريمة بأن التكرار في البيت هو المخرج له عن الفصاحة بخلاف الآية فإنه لا تكرار فيها ذكره السمين .

﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني كفار مكة ومن هو موافق لهم ﴿ يحبون ﴾ الدار ﴿ العاجلة ﴾ وهي دار الدنيا ﴿ ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ أي يتركون ويدعون خلفهم أو بين أيديهم وأمامهم يوماً شديداً عسيراً وهو القيامة ، وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال ، ووصفه بالثقل على المجاز لأنه من صفات الأعيان لا المعاني ، ومعنى كونهم يذرونه وراءهم أنهم لا يستعدون له ولا يعبأون به ، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به واستخفافاً بشأنه ، وإن كانوا في الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم .

﴿ نحن خلقناهم ﴾ أي ابتدأنا خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من مضغة ثم من علقة الى أن كمل خلقهم ، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي ، لا اشتراكاً ولا استقلالاً ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ الأسر شدة الخلق يقال شد الله أسر فلان أي قوى خلقه ، قال مجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم : شددنا خلقهم ، قال الحسن شددنا وربطنا أوصالهم بعضاً الى بعض بالعروق والعصب .

قال أبو عبيدة: يقال فرس شديد الأسر اي الخلق وقال ابن زيد الأسر القوة واشتقاقه من الأسار وهو القد الذي تشد به الأقتاب ، قال ابن عباس : أسرهم خلقهم وقال : ابو هريرة هي المفاصل ، وقيل المراد بالأسر عَجْبُ الذنب لأنه لا يتفتت في القبر والأسر بالضم احتباس البول كالحصر في الغائط .

﴿ واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أي لو شئنا لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم ، وقيل المعنى مسخناهم الى أسمج صورة وأقبح خلقه .

﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يعني أن هذه السورة تذكير وموعظة للخلق لأن في تصفحها تنبيهات للغافلين ، وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه ، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى اليه سمعه ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً يتوصل به اليه ، وذلك بالايمان والطاعة والمراد الى ثوابه او الى جنته ، لأنا بينا الأمور غاية البيان وكشفنا اللبس ، وأزلنا جميع موانع الفهم ، فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئة العبد .

﴿ وما تشاؤون ﴾ أن تتخذوا الى الله سبيلاً ، وفيه التفات عن الغيبة في خاتمناهم الى الخطاب ، وقرىء بالياء التحتية لمناسبة قوله خلقناهم .

وقوله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ منصوب على الظرفية وأصله إلا وقت مشيئة الله فالأمر اليه سبحانه ليس اليكم والخير والشر بيده لا مانع لما أعطى ، ولا

معطي لما منع ، فمشيئة العبد مجردة لا تأتي بخير ، ولا تدفع شراً وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ويؤجر على قصد الخير كما في حديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى »[1] قال الزجاج أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله ، والآية حجة على المعتزلة والقدرية ﴿ إن الله كان عليماً ﴾ أي بليغ العلم بما يكون من الأحوال ﴿ حكيماً ﴾ بليغ الحكمة في أمره ونهيه ، مصيباً في جميع الأقوال والأحوال .

﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها أو يدخل في جنته من يشاء من عباده لأنها برحمته تنال ، وهو حجة على المعتزلة ، قال عطاء من صدقت نيته أدخله الله تعالى جنته ﴿ والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ انتصاب الظالمين بفعل مقدر يدل عليه ما قبله أي يعذب الظالمين لأن ما قبله منصوب أي يدخل من يشاء في رحمته ، ويعذب الظالمين أي المشركين ، ويكون أعد لهم تفسيراً لهذا المضمر والاختيار النصب وإن جاز الرفع ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء ، ووجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه .

---

(١) سبق ذكره

خاتمة الجزء الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تم بعون الله سبحانه وتعالى الجزء الرابع عشر من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن ويليه الجزء الخامس عشر وأوله سورة المرسلات.

فهرس الجزء الرابع عشر

فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والكلامية
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبدالله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الخامس عشر

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١٩٨

الجزء الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ويشتمل على:

سورة المرسلات.
سورة عم.
سورة النازعات.
سورة عبس.
سورة التكوير.
سورة الانفطار.
سورة المطففين.
سورة الانشقاق.
سورة البروج.
سورة الطارق.
سورة أعلى.
سورة الغاشية.

سورة الفجر.
سورة البلد.
سورة الشمس.
سورة الليل.
سورة الضحى.
سورة ألم نشرح.
سورة التين.
سورة اقرأ.
سورة القدر.
سورة لم يكن.
سورة الزلزلة.
سورة العاديات.
سورة القارعة.

سورة التكاثر.
سورة العصر.
سورة الهمزة.
سورة الفيل.
سورة قريش.
سورة أرأيت.
سورة الكوثر.
سورة الكافرون.
سورة النصر.
سورة تبت.
سورة الاخلاص.
سورة الفلق.
سورة الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المرسلات

هي خمسون آية وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر

قال قتادة إلا آية منها وهي قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ فإنها مدنية وروي هذا عن ابن عباس.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت سورة ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه. وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اقتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيت شركم كما وقيتم شرها».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفاً فقالت: «يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها آخر ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في المغرب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾
فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾
وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾

﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال جمهور المفسرين هي الرياح ، روي عن ابن مسعود قال إنه الريح وقيل هي الملائكة ، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبي ، وقال أبو هريرة : هي الملائكة أرسلت بالعرف ، وعن ابن مسعود مثله ، وقيل هم الأنبياء .

فعلى الأول أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به كما في قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقوله ﴿ ويرسل الرياح ﴾ وغير ذلك وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة لوحيه وأمره ونهيه ، وعلى الثالث أقسم برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وقيل المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نقمة ونعمة [1] .

وإنتصاب (عرفاً) إما على أنه مفعول لأجله أي المرسلات لأجل العرف وهو ضد النكر أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضاً كعرف

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عُرفاً ، وقد ترسل عرفاً الملائكة ، وترسل كذلك الرياح ، ولا دلالة تدل على أن المعني بذلك أحد الحزبين دون الآخر ، وقد عم جل ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف ، فكل من كانت صفته كذلك ، فداخل في قسمه ذلك ، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً . وقال ابن كثير : والأظهر أن المرسلات : هي الرياح ، كما قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ وهكذا العاصفات هي الرياح ، يقال : عصفت الرياح : إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات : هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل .

الفرس ، تقول العرب سار الناس إلى فلان عرفاً واحداً إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع إذا تألبوا عليه ، أو على أنه مصدر كأنه قال والمرسلات إرسالاً أي متتابعة ، أو على أنه منصوب بنزع الخافض أي والمرسلات بالعرف ، قرأ الجمهور (عرفاً) بسكون الراء ، وقرأ عيسى بن عمر بضمها .

﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب ، وقال القرطبي : بغير اختلاف ، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة ، ويقال عصفت الحرب بالقوم إذا ذهبت بهم ، وقيل هي الملائكة الموكلون بالريح ، يعصفون بها ، وقيل يعصفون بروح الكافر ، وقيل هي الآيات المهلكة كالزلازل ونحوها ، وقال ابن مسعود هي الريح ، وعن علي قال هي الرياح ، وبه قال ابن عباس .

﴿ والناشرات نشراً ﴾ يعني الرياح تأتي بالمطر وهي تنشر السحاب نشراً ، قال ابن مسعود هي الريح أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها أو ينشرون أجنحتهم في الجو عند النزول بالوحي ، أو هي الأمطار لأنها تنشر النبات ، وقال الضحاك : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم ، قال الربيع : أنه البعث للقيامة ينشر الأرواح وجاء بالواو هنا لأنه إستئناف قسم آخر .

﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام وقال مجاهد هي الريح تفرق بين السحاب فتبدده ، وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل ، وقيل هي الرسل فرقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه ، وبه قال الحسن قال ابن عباس هي الملائكة فرقت بين الحق والباطل .

﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ هي الملائكة قال القرطبي : بإجماع أي تلقي الوحي إلى الأنبياء ، وقيل هو جبريل وسمي بإسم الجمع تعظيماً له ، وقيل هي الرسل

يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب ، قال ابن عباس : فالملقيات ذكراً قال بالتنزيل .

قرأ الجمهور ملقيات بسكون اللام وتخفيف القاف إسم فاعل .

وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال الكلام إلى المخاطب .

أقسم سبحانه بصفات خمسة موصوفها محذوف فجعله بعضهم الرياح في الكل ، وبعضهم جعله الملائكة في الكل ، وبعضهم غاير فجعله تارة الرياح وتارة الملائكة ، وجعل الجلال المحلي الصفات الثلاث الأول لموصوف واحد وهو الرياح ، وجعل الرابعة لموصوف ثان وهو الآيات وجعل الخامسة لموصوف ثالث وهو الملائكة ، ولم يسلك هذه الطريق غيره من المفسرين .

وعبارة النهر : ولما كان للمقسم به موصوفات قد حذفت وأقيمت صفاتها مقامها وقع الخلاف في تلك الموصوفات ، والذي يظهر أن المقسم به شيئآن ، ولذلك جاء العطف بالواو في ﴿ والناشرات ﴾ والعطف بالواو يشعر بالتغاير ، وأما العطف بالفاء إذا كان في الصفات فيدل على أنها راجعة لموصوف واحد :

وإذا تقرر هذا فالظاهر أنه أقسم أولاً بالرياح ويدل عليه عطف الصفة بالفاء ، والقسم الثاني فيه ترق إلى أشرف من المقسم به الأول وهم الملائكة ، ويكون قوله (فالفارقات ، فالملقيات) من صفاتهم وإلقاؤهم للذكر وهو ما أنزل الله تعالى صحيح إسناده إليهم .

وما ذكر من اختلاف المفسرين في المراد بهذه الأوصاف ينبغي أن يحمل على التمثيل لا على التعيين ، والراجح أن الأوصاف الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة ، وهو الذي اختاره الزجاج والقاضي وغيرهما .

﴿ عذراً أو نذراً ﴾ انتصابهما على البدل من ﴿ ذكراً ﴾ أو على المفعولية والعامل فيهما المصدر المنون كما في قوله تعالى ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة

يتيماً ﴾ أو على المفعول لأجله أي للإعذار والإنذار ، أو على الحال بالتأويل المعروف أي معذرين أو منذرين .

قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما ، وقريء بضمها وبسكونها في (عذراً) وضمها في نذراً .

وقرأ الجمهور عذراً أو نذراً على العطف بأو ، وقرىء بالواو .

والمعنى أن الملائكة تلقي الوحي إعذاراً من الله إلى خلقه وإنذاراً من عذابه ، كذا قال الفراء ، وقيل عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين .

قال أبو علي الفارسي : يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيل جمع عاذر وناذر كقوله ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ فيكون نصباً على الحال من الإلقاء أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار ، قال المبرد هما بالتثقيل جمع والواحد عذير ونذير ، وقيل الإعذار محو الإساءة ، والإنذار التخويف ، والأول أظهر .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ أي ان الذي توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة ما إسم الموصول ، والقاعدة أنها إذا كانت كذلك ترسم مفصولة من أن ورسمت هنا موصولة بها إتباعاً لرسم المصحف الإمام .

ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي محي نورها وذهب ضوؤها يقال طمس الشيء إذا درس وذهب أثره ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي فتحت وشقت ومثله قوله ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي قلعت من مكانها بسرعة ، يقال نسفت الشيء وأنسفته إذا أخذته بسرعة ، وقال الكلبي سويت بالأرض ، والعرب تقول نسفت الناقة الكلأ إذا رعته ، وقيل جعلته كالحب الذي ينسف بالمنسف ، ومنه قوله ﴿ وبست الجبال بسّا ﴾ والأول أولى ، قال المبرد : نسفت قلعت من مواضعها .

وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ
نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى
قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ الهمزة بدل من الواو المضمومة ، وكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة ، وقد قرىء بالواو ، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه .

والمعنى جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما في قوله سبحانه ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ وقيل هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبها ، والأول أولى ، قال أبو علي الفارسي أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً ، وقيل أقتت أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به .

﴿ لأي يوم أجلت ﴾ هذا الإستفهام للتعظيم والتعجيب ، أي لأي يوم عظيم تعجب العباد منه لشدته ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا أو في محل نصب على الحال من الضمير في أقتت ، قال الزجاج المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم .

ثم بيّن هذا اليوم فقال ﴿ ليوم الفصل ﴾ قال قتادة يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم أتبع ذلك تعظيماً وتهويلاً فقال ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل يعني أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره ، وما مبتدأ وأدراك خبره أو العكس كما اختاره سيبويه .

ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم في ذلك اليوم الهائل ، قال الزمخشري ويل أصله مصدر ساد مسد فعله لكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات .

قلت : سوغ الإبتداء به كونه دعاء لا ما ذكره الزمخشري ، ويجوز ويلاً بالنصب ولكنه لم يقرأ به ، والويل الهلاك أو هو إسم واد في جهنم ، قال ابن مسعود يسيل فيه صديد أهل النار فجعل للمكذبين .

وكررت هذه الآية في هذه السورة عشر مرات لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر ، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب .

وقال الكرخي : التكرار في مقام الترغيب والترهيب مستحسن لا سيما إذا تغيرت الآيات السابقة على المرات المكررة كما هنا .

ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم كقوم نوح وعاد وثمود ، قال مقاتل يعني بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم ، والإستفهام إنكاري وهو داخل على نفي ، ونفي النفي إثبات ، ويعبر عنه بالإستفهام التقريري والمراد به طلب الإقرار بما بعد النفي .

﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ يعني كفار مكة ومن وافقهم حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، قرأ الجمهور نتبعهم بالرفع على الإستئناف أي ثم نحن نتبعهم ، كذا قدره أبو البقاء ، وقال ليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين في الهلاك ، وليس كذلك لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد ، ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود ﴿ثم سنتبعهم الآخرين﴾ بسين التنفيس .

وقرىء بالجزم عطفاً على نهلك ، قال شهاب الدين على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله ألم نهلك ، والمراد بالآخرين حينئذ قوم شعيب ولوط وموسى ، وبالأولين قوم نوح وعاد وثمود .

﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله ، قيل والويل الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا، والتكرير للتوكيد شائع في كلام العرب .

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ أي ضعيف حقير قذر منتن ذليل وهو النطفة ، قال ابن عباس مهين ضعيف ، هذا نوع آخر من تخويف الكفار . ونظيره قوله سبحانه ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ أي مكان حريز وهو الرحم يحفظ فيه المني من الآفات المفسدة له كالهواء ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أي إلى مقدار قدره الله تعالى للولادة وهو مدة الحمل وهو تسعة أشهر أو ما فوقها أو ما دونها ، وقيل إلى أن يصور .

﴿ فقدرنا ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف من القدرة ويدل عليه ﴿ فنعم القادرون﴾ وقرىء بالتشديد من التقدير ، وهو موافق لقوله ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ قال الكسائي والفراء وهما لغتان بمعنى قدرت كذا وقدرته ﴿ فنعم القادرون ﴾ أي نعم المقدرون نحن ، قيل المعنى قدرناه قصيراً أو طويلاً ، وقيل قدرنا أي ملكنا .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة وبنعمة الفطرة .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ثم بين لهم بديع صنعه وعظيم قدرته ليعتبروا فقال ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا﴾ معنى الكفت في اللغة الضم والجمع ، ويقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال للجراب والقدر كفت ، والكفات بالكسر الموضع الذي يكفت فيه شيء أي يضم ، ذكره المختار والقاموس ، وقال المحلي : مصدر كفت وفيه نظر لأن كفت من باب ضرب ، فالحق أنه إسم مكان وقيل جمع كافت كصيام وقيام، وقيل مصدر كالكتاب والحساب .

وقال الأخفش : كفاتا جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكفت تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطنا لظهر ، ويقال إنكفت القوم إلى منازلهم أي ذهبوا .

والمعنى ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها ، والأموات في بطنها ، تضمهم وتجمعهم قال الفراء يريد تكفتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم ، وتكفتهم أمواتاً في بطنها أي تحوزهم ، وهو معنى قوله ﴿أحياء وأمواتاً﴾ والتنكير فيهما للتفخيم أي تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون ، وقال أبو عبيدة : (كفاتاً) أوعية ، وقيل معنى جعلها كفاتاً أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات ، وقال ابن عباس : (كفاتاً) كنا .

وقال الأخفش وأبو عبيدة : الأحياء والأموات وصفان للأرض أي

الأرض منقسمة إلى حي وهو الذي ينبت ، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت .

قال الفراء : إنتصاب أحياء وأمواتاً لوقوع الكفات عليه أي ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نون نصب ما بعده ، وقيل نصباً على الحال من الأرض أي منها كذا ومنها كذا ، وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة .

﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ أي جبالاً مرتفعات طوالاً ، والرواسي الثوابت ، والشامخات الطوال وكل عال فهو شامخ ، وقال ابن عباس : جبالاً مشرفات وقيل ثوابت عاليات .

﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ أي عذباً قاله ابن عباس ، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به ، قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث ، روي أن في الأرض من الجنة سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التي هذه من جملتها .

﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ في الدنيا يقول لهم ذلك خزنة جهنم توبيخاً وتقريعاً أي سيروا إليه من العذاب ، وهو عذاب النار .

﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ أي إلى ظل من دخان جهنم قد سطع ثم افترق ثلاث فرق يكونون فيه حتى يفرغ من الحساب ، وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعباً .

قرأ الجمهور انطلقوا في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد ، وقرىء بصيغة الماضي في الثاني أي لما أمروا بالإنطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا، وقيل المراد بالظل هنا هو السرادق ، وهو لسان من النار تحيط بهم ثم تتشعب ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم ثم يصيرون إلى النار ، وقيل هو الظل من يحموم كما في قوله ﴿ في سموم وحميم ، وظل من يحموم ﴾ على ما تقدم ، وقيل أن الشعب الثلاث هي الضريع والزقوم والغسلين لأنها أوصاف النار .

ثم وصف سبحانه هـذا الظل تهكـماً بهم فقال ﴿ لا ظليـل ﴾ كنين يظلهـم من حر ذلك اليوم ، وهذا تهكم بهم ورد لما أوهمه لفظ الظل ﴿ ولا يغني ﴾ أي لا يرد عنهم شيئاً ﴿ من اللهب ﴾ أي النار ، قال الكلبي لا يرد حر جهنم عنكم .

ثم وصف سبحانه النار فقال ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ العظيم أي كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها ، والشرر ما تطاير من النار متفرقاً ، والقصر البناء العظيم ، وقيل القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل جمـر وجمرة وتمـر وتمرة وهي الـواحدة من جـزل الحطب الغليظ ، قال سعيد بن جبير والضحاك وهي أصول الشجر العظام ، وقيل أعناقه .

قرأ الجمهور كالقصر بإسكان الصاد وهو واحد القصور كما تقـدم ، وقرىء بفتحها أي أعناق النخل والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات ، وقال قتادة : أعناق الإبل .

وقرأ سعيد بن جبير : بكسر القاف وفتح الصاد وهي جمع أيضاً لقصرة مثل بدر وبدرة وقصع قصعة .

وقرأ الجمهور بشرر بفتح الشين ، وقرأ ابن عباس وابن مقسم شرار بكسرها مع ألف بين الراءين ، وقرأ عيسى كذلك إلا أنه بفتح الشين وهي لغات ، قال ابن عباس قصر النخل يعني الأعناق ، وعنه قال كانت العرب في الجاهلية تقول اقصروا لنا الحطب فيقطع على قدر الذراع والذراعين ، وقال ابن مسعود : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون .

ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال ﴿ كأنه جمالة صفر ﴾ قرأ حمزه والكسائي وحفص جمالة جمع جمل ، وقرأ الجمهور جمالات بكسر الجيم وهي جمع جمال وهي الإبل أو جمع جمالة ، وقرىء بضم الجيم وهي حبال السفن ، قال ابن عباس : جمالات صفر قطع النحاس .

عن عبد الرحمن بن عابس قال : « سمعت ابن عباس يسأل عن قوله ﴿ بشرر كالقصر ﴾ قال كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ، قال وسمعته يسأل عن قوله ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال » .

ولفظ البخاري « كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال» وعنه قال هي الإبل.

قال الواحدي الصفر معناها السود في قول المفسرين ، قال الفراء الصفر سود الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة لذلك سمت العرب سود الإبل صفراً ، قيل والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود .

قيل وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل فينسب كله إلى ذلك الشائب فالعجب لمن قال بهذا وقد قال تعالى ﴿ جمالات صفر ﴾

وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور فهي مضيئة ، فلما خلق الله جهنم هي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار وبعث اليها سلطانه وغضبه فاسودت من سلطانه وإزدادت سواداً وصارت أشد سواداً من كل شيء فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت هذا الجواب البارد لا يدفع ما قاله القائل لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراً ، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار واسوداد شررها لقال الله تعالى كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ويدل عليه الحديث في صفة جهنم وفي آخره « فهي سوداء مظلمة » فكان ما في القرآن هنا وارداً على هذا الإستعمال العربي ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لرسل الله وآياته .

هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ
الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا
إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون ، قرأ الجمهور برفع يوم على أنه خبر لإسم الإشارة ، وقرأ زيد بن علي والأعرج والأعمش وغيرهم بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ومحله الرفع على الخبرية ، وقيل هو منصوب على الظرفية .

قال الواحدي قال المفسرون : في يوم القيامة مواقف ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون ، وقد قدمنا الجمع بهذا في غير موضع ، وقيل إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت ، وقال الحسن لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون ، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الوعيد كأنه قيل هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون .

وعن عكرمة قال : « سأل نافع بن الأزرق : ابن عباس عن قوله ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ و ﴿ لا تسمع لهم إلاّ همساً ﴾ و ﴿ أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ ، و ﴿ هاؤم إقرأوا كتابيه ﴾ فقال له ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي؟ قال لا قال أما إنك لو كنت سألت هلكت . أليس قال الله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال بلى ، قال فإن لكل مقدار يوم من

هذه الأيام لوناً من الألوان » .

﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ قرأ الجمهور يؤذن على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن علي لا يأذن على البناء للفاعل أي لا يأذن الله لهم أي لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعلِ الإعتذار مسبباً عن الأذن كما لو نصب ، قال الفراء الفاء في ﴿ فيعتذرون ﴾ نسق على يؤذن وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون ولو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ بالنصب والكل صواب ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته .

﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ أي ويقال لهم هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب في ﴿ جمعناكم ﴾ للكفار في زمن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية .

﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ أي إن قدرتم على حيلة في دفع العذاب عنكم الآن ﴿فيكيدون﴾ أي فافعلوها، وهذا تقريع لهم وتهكم وتوبيخ قال مقاتل يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ، وقيل المعنى فإن قدرتم على حرب فحاربون ، وقيل إن هذا من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيكون كقول هود ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا .

ثم لما ذكر سبحانه في سورة الدهر أحوال الكفار في الآخرة على سبيل الإختصار وأطنب في أحوال المؤمنين فيها ، ذكر في هذه السورة أحوال الكفار على سبيل الإطناب، وأحوال المؤمنين على سبيل الإيجاز فوقع بذلك التعادل بين السورتين فقال ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ أي في ظلال الأشجار وظلال القصور لا كالظل الذي للكفار من الدخان ومن النار كما تقدم، قال المحلي أي تكاثف أشجار ، وعبارة الكازروني أي تحت أشجار .

قرأ الجمهور ﴿ في ظلال ﴾ وقرىء في ظل جمع ظلة ، قال مقاتل والكلبي :المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم .

قال الرازي: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلاّ لتفككت السورة في نظمها وترتيبها ، وإنما يتم النظم بأن يكون هذا الوعد حاصلاً للمؤمنين بسبب إيمانهم ، لأنه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره وجب أن يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب إيمانه حتى يصير ذلك سبباً في الزجر عن الكفر ، فأما أن يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته فلا يليق بالنظر ، كذا قال .

والمراد بالعيون الأنهار أي نابعة من ماء وعسل ولبن وخمر كما قال تعالى ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ إلخ .

﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ المراد بالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم فمتى اشتهوا فاكهة وجدوها حاضرة فليست فاكهة الجنة مقيدة بوقت دون وقت كما في أنواع فاكهة الدنيا .

﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم ذلك ، والقائل لهم الملائكة إكراماً لهم ، أو يقال لهم من قبل الله ، فالجملة مقدرة بالقول والباء للسببية أي بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ في أعمالهم وعقائدهم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث صاروا في شقاء عظيم وصار المؤمنون في نعيم مقيم .

﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ خطاب للكفار أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا أو يقال لهم هذا في الدنيا ، وانما قال ﴿ قليلاً ﴾ لأن متاع الدنيا وزمانه قليل لأنه زائل مع قصر مدته في مقابلة مدة الآخرة ، وذلك إلى منتهى آجالهم .

قال بعض العلماء التمتع بالدنيا من أفعال الكافرين ، والسعي لها من أفعال الظالمين والاطمئنان اليها من أفعال الكاذبين ، والسكون فيها على حد الاذن والأخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين ، والاعراض عنها من أفعال الزاهدين ، وأهل الحقيقة أجل خطراً من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها .

﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي المشركون بالله ، وهذا وإن كان في اللفظ أمر فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لهؤلاء المجرمين من أي قائل كان ﴿ اركعوا لا يركعون ﴾ أي وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون ، قال مقاتل : « نزلت في ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بها فقالوا لا ننحني فإنها سبة علينا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود» وقيل إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا لله سبحانه ، قاله ابن عباس[1] .

وفي هذه الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وسميت الصلاة باسم جزئها وهو الركوع ، وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ، ولأنه خاص بصلاة المسلمين ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه .

﴿ فبأي حديث بعده ﴾ أي بعد القرآن ﴿ يؤمنون ﴾ أي يصدقون إذا لم

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨١ : هكذا ذكره الثعلبي ، قال : وأخرجه أبو داود ٣/٢٢٢ ، وأحمد ٤/٢١٨ وابن أبي شيبة ، والطبراني ، من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به ، وأتم منه . قلت : وفيه عنعنة الحسن .

يؤمنوا به ، مع أنه آية مبصرة ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية ، قرأ الجمهور يؤمنون بالتحتية على الغيبة ، وقرأ ابن عامر في رواية عنه ويعقوب بالفوقية على الخطاب .

سورة عمّ

كذا في الخازن والخطيب، وتسمى سورة التساؤل وسورة النبأ، وهي أربعون آية وقيل إحدى وأربعون آية وهي مكيّة عند الجميع، وقال ابن عباس نزلت بمكة، وعن ابن الزبير ومثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾

﴿ عم يتساءلون ﴾ أصله عن ما، فأدغمت النون في الميم لأن الميم تشاركها في الغنة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم وبم ، ونحو ذلك ، والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً .

قرأ الجمهور: عمَّ بحذف الألف لما ذكرنا، وقرىء بإثباتها، ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، وقرىء بهاء السكت عوضاً عن الألف ، قال الزجاج : اللفظ لفظ الاستفهام والمعنى تفخيم القصة ، كما تقول أي شيء تريد ، إذا عظمت شأنه .

قال الشهاب : وهذا الاستفهام لا يمكن حمله على حقيقته لأن المطلوب به لا بد أن يكون مجهولاً عند الطالب ، فلذا جعل مجازاً عن الفخامة، لأنه ورد على طريق مخاطبات العرب فالاستفهام بالنسبة إلى الناس .

وقال في النهر : هذا الاستفهام فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب .

قال الواحدي قال المفسرون: « لما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم ، يقولون ماذا جاء به محمد ، وما الذي أتى به ؟ فأنزل الله عمَّ يتساءلون »[1] قال الفراء التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل ، وقد

(١) روى ابن جرير الطبري سبب النزول هذا عن الحسن ٣٠/١ وأورده السيوطي في «الدر» ٣٠٥/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن الحسن.

يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا بهِ وإن لم يكن بينهم سؤال . قال تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ وهذا يدل على أنه التحدث . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة لما ذكر في قوله : ﴿ فبأي حديث بعده ﴾ أي بعد هذا الحديث وهو القرآن وكانوا يتجادلون فيه ويتساءلون عنه فقال : ﴿ عمّ يتساءلون ﴾

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عما ذا وبينه فقال : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ أورده سبحانه أولاً على طريقة الاستفهام مبهماً لتتوجه إليه أذهانهم ، وتلتفت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه ، كأنه قيل عن أي شيء يتساءلون ، هل أخبركم به ، ثم قيل بطريق الجواب ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ على منهاج قوله : ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ وإنما كان ذلك النبأ أي القرآن عظيماً لأنه ينبيء عن التوحيد وتصديق الرسول ، ووقوع البعث والنشور .

وقال الضحاك : يعني نبأ يوم القيامة وكذا قال قتادة .

وقد استدل على أن النبأ هو القرآنبقوله الآتي : ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن فجعله بعضهم سحراً وبعضهم شعراً وبعضهم كهانه وبعضهم قال هو أساطير الأولين ، وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره ، ويمكن أن يقال أنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة فصدق به المؤمنون ، وكذب به الكافرون ، فقد وقع الخلاف فيه من هذه الحيثية وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل .

ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه : ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة .

وأيضاً فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث فأثبتت النصارى المعاد الروحاني ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني ، وفي

التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جنعيذا بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مهملة مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف ، وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين ، والعذاب للعاصين .

وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنه بقوله : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما نحن بمبعوثين ﴾ وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكة فيه كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ وما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى ﴾ فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة .

وقد قيل إن الضمير في قوله يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه : فأما المسلم فيزداد يقيناً واستعداداً وبصيرة في دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية .

قال الرازي : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة ، قال ابن عباس : النبأ العظيم القرآن ، وهذا مروي عن جماعة من التابعين .

﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ الموصول صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيماً فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه .

﴿ كلا سيعلمون ﴾ ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل أن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه انما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل كلا بمعنى حقاً .

ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد ، وقرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة ، وقرىء بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الضحاك الأولى بالفوقية ، وقرأ الثانية

بالتحتية ، قال الضحاك أيضاً ﴿ كلا سيعلمون ﴾ يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم ، وقيل بالعكس ، وقيل هو وعيد بعد وعيد .

وقيل: المعنى ﴿ كلا سيعلمون ﴾ عند النزع ما يحل بهم ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ عند البعث لأنه يكشف لهم الغطاء حينئذ ، وقيل الأول للبعث والثاني للجزاء .

وقال ابن مالك تأكيد لفظي ولا يضر توسط حرف العطف، قال السمين : والنحويون يأبون هذا ولا يسمونه إلا عطفاً وإن أفاد التأكيد ، قال زاده « ثم » موضوعة للتراخي الزماني وقد تستعمل في التراخي الرتبي كما هنا تشبيهاً لتباعد الرتبة بتباعد الزمان .

ثم ذكر سبحانه بديع صنعه وعظيم قدرته على البعث وأشار إلى الأدلة الدالة عليها وذكر منها تسعة ليعرفوا توحيده ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال :

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ﴾ أي قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ، فما وجه إنكاركم ، لأنه قد تقرر أن الأجسام متساوية الأقدام في قبول الصفات والأعراض .

وهذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق خلا إنه مختص بالإنشاء التكويني ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، وهذا عام له كما في الآية الكريمة ، وقيل: الجعل بمعنى التصيير ، والمهاد الوطاء والفراش كما في قوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ قرأ الجمهور بالجمع ، وقرىء مهداً .

والمعنى أنها كالمهد للصبي وهو ما يمهد له فينام عليه ، وسمي الممهود بالمهد تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير ، والأوتاد جمع وتد أي جعلنا الجبال أوتاداً للأرض لتسكن ولا تتحرك كما ترسى الخيام بالأوتاد .

وفي هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث لا عن القرآن ولا عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما قيل ، لأن هذا الدليل إنما يصلح للإستدلال به على البعث .

وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ
مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ
مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾

﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ معطوف على المضارع المنفي داخل في حكمه ، فهو في قوة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا الأصناف أي الذكور والإناث ، وقيل المراد بها الألوان ، وقيل يدخل في هذا كل زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير .

﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ قال الزجاج السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه أي جعلنا نومكم راحة لكم ، قال ابن الأنباري جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم لأن أصل السبت القطع ، وقيل أصله التمدد يقال سبتت المرأة شعرها إذا حلته وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق أي ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدد فسمي النوم سباتاً .

وفي المختار السبات النوم وأصله الراحة وبابه نصر . وفي المصباح السبات كغراب النوم الثقيل ، وأصله الراحة يقال سبت يسبت من باب قتل وسبت بالبناء للمفعول غشي عليه وأيضاً مات ، ومن هنا قيل المعنى وجعلنا نومكم موتاً ، والنوم أحد الموتتين فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم يفارقه الروح ، ومن هذا قوله : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ .

﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أي نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس ، فشبه الليل باللباس ، لأن في كل منهما ستراً . فهو استعارة . وقال سعيد بن جبير والسدي أي سكناً لكم ، وقيل المراد ما يستره عند النوم من

اللحاف ونحوه وهو بعيد لأن الجعل وقع على الليل لا على ما يستتر به النائم عند نومه .

﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ أي وقت معاش ، والمعاش مصدر ميمي بمعنى المعيشة ، وقع هنا ظرفاً ، وكل شيء يعاش به فهو معاش ، والمعنى أن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه الله لهم من الرزق .

﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مرور الزمان ، ولهذا وصفها بالشدة وغلظ كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام كما ورد ذلك .

﴿ وجعلنا سراجاً ﴾ منيراً ﴿ وهاجاً ﴾ وقاداً يعني الشمس ، والوهاج المضيء المتلألىء من قولهم وهج الجوهر أي تلألأ ، ويقال وهج يوهج كوجل يوجل وكوعد يعد ، قال الزجاج الوهاج الوقاد ، وهو الذي وهج يقال وهجت النار تهج وهجاً ووهجاناً ، قال مقاتل جعل فيه نوراً وحراً ، والوهج يجمع النور والحرارة ، وقال ابن عباس وهاجاً مضيئاً .

﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ المعصرات هي السحاب التي تنعصر بالماء ولم تمطر بعد كالمرأة المعتصرة التي قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك ، وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبي هي الرياح ، والرياح تسمى معصرات يقال أعصرت الريح تعصر إعصاراً إذا أثارت العجاج ، قال الأزهري هي الرياح ذوات الأعاصير ، وذلك أن الرياح تستدر المطر ، وقال الفراء المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر .

قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر ، ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات المعصرات .

قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعتصر بالمطر ، وعصر القوم أي

مطروا ، قال المبرد يقال سحاب معصر أي ممسك للماء ويعتصر منه شيء بعد شيء .

وقال أبيّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات السموات وقال ابن عباس : السحاب ، وقال ابن مسعود : يبعث الله الريح فتحمل الماء فتمر به السحاب فتدر كما تدر اللقحة .

وقرأ ابن عباس ﴿وأنزلنا من المعصرات بالرياح﴾ وقيل المعصرات المغيثات والعاصر هو الغيث .

والثجاج هو المنصب بكثرة على وجه التتابع ، يقال ثج الماء أي سال بكثرة وثجه أي أساله فيكون لازماً ومتعدياً ، وبابه رد ، ومطر ثجاج أي منصب جداً ، والثج أيضاً سيلان دماء الهدي ، وفي الحديث « أحب العمل إلى الله العج والثج » فالعج رفع الصوت بالتلبية ، والثج إراقة دماء الهدى .

وقال الزجاج : الثجاج الصباب ، وقال ابن زيد ثجاجاً كثيراً ، وقال ابن عباس : منصباً ، وقيل مدراراً متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ، وقال ابن مسعود الثجاج ينزل من السماء أمثال العزالى فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً .

﴿ لنخرج به حباً ونباتاً ﴾ أي لنخرج بذلك الماء حباً يقتات به كالحنطة والشعير ونحوهما والنبات ما تأكله الدواب من الحشيش والتبن وسائر النبات والكلأ .

﴿ وجنات ألفافاً ﴾ أي بساتين ملتف بعضها ببعض تتشعب أغصانها ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخياف ، وقيل واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائي ، وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشراف ، وروي عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء ونبت لف والجمع لف بالضم مثل حمر ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف ، وقيل هو جمع ملتفة بحذف الزوائد .

وقال ابن عباس : ألفافاً ملتفة ، وقال : يقول التف بعضها ببعض ، قال الفراء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم .

ولما أثبت الله البعث بالأدلة التسعة المتقدمة كأن سائلاً سأل عن وقته ما هو فقال ﴿ إن يوم الفصل ﴾ بين المحسن والمسيء ، والمحق والمبطل ، وأكده بأن لأنه مما ارتابوا فيه ﴿ كان ﴾ في علمه وحكمه ﴿ ميقاتاً ﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا من البعث ، وقيل معنى ميعاداً انه حد توقت به الدنيا وتنتهي عنده وقيل حد للخلائق ينتهون اليه أو منتهى معلوماً لوقوع الجزاء أو ميعاداً للثواب والعقاب .

﴿ يوم ينفخ ﴾ بدل من يوم الفصل أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخراً عن النفخ ﴿ في الصور ﴾ هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث ﴿ فتأتون ﴾ من قبوركم إلى الموقف ﴿ أفواجاً ﴾ أي زمراً زمراً وجماعات جماعات ، وهي جمع فوج والفاء في ﴿ فتأتون ﴾ فصيحة تدل على محذوف أي فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجاً أي أمماً مع كل أمة إمامهم .

﴿ وفتحت السماء ﴾ معطوف على ﴿ ينفخ ﴾ وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي فتحت لنزول الملائكة ، وقال علي القارىء عطف على ﴿ فتأتون ﴾ أو حال أي والحال انها قد فتحت ، وقرىء بالتخفيف والتشديد وهما سبعيتان .

قال الشهاب المراد بالفتح ليس ما عرف من فتح الأبواب ، وهو موافق لقوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وعبر عن التشقيق بالفتح اشارة إلى كمال قدرته حتى كان تشقيق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ﴿ فكانت أبواباً ﴾ كما في قوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب ، وقيل أبوابها طرقها ، وقيل تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق ، وقيل أن لكل عبد بابين في السماء باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب .

وظاهر قوله : ﴿ فكانت أبواباً ﴾ انها صارت كلها أبواباً ، وليس المراد ذلك بل المراد انها صارت ذات أبواب كثيرة .

وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

﴿ وسيرت الجبال ﴾ عن أماكنها في الهواء كالهباء الذي هو الغبار وقلعت عن مقارها ، وقيل معنى سيرت أنها نسفت من أصولها ، ومثل هـذا قوله : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي هباء منبثاً يظن الناظر أنها سراب ، وتخيل الشمس أنها ماء ، والمعنى أن الجبال صارت كلا شيء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء وليس بماء .

ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ويمكن الجمع بينها بأن نقول أول أحوالها الإندكاك وهـو قولـه : ﴿ وحملت الأرض والجبال فـدكتا دكـة واحدة ﴾ وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وثالث أحوالها أن تصير كالهباء وهو قوله : ﴿ وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً ﴾ ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح كما في قوله : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحـاب ﴾ وخامس أحوالها أن تصير سراباً أي لا شيء كما في هذه الآية .

ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال : ﴿ إن جهنم كانت مـرصاداً ﴾ قال الأزهري المرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو ، وقال المبرد مـرصاداً يرصدون به أي هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار ، قال الحسن إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ومن لم يجيء بجواز حبس وقال مقاتل محبساً ، وقيل طريقاً وممراً .

قال في الصحاح الراصد للشيء الراقب له ، يقال رصده يـرصده رصداً

والرصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد ، قال الأصمعي رصدته أرصده ترقبته .

ومعنى الآية إن جهنم كانت في حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هي في نفسها متطلعة لما يأتي إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمر بهم ، ويأتي إليهم ، والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

ثم ذكر من هي مرصد له فقال ﴿للطاغين مئآباً﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه ، والمئآب المرجع يقال آب يؤوب إذا رجع ، والطاغي من طغى بالكفر، وللطاغين نعت لمرصاداً متعلق بمحذوف ومئآباً بدل من مرصاداً ، ويجوز أن يكون للطاغين في محل نصب على الحال من مئآباً قدمت عليه لكونه نكرة .

وانتصاب ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ على الحال المقدرة من الضمير المستكن في الطاغين قرأ الجمهور لابثين بالألف ، وقرىء بدون ألف ، وانتصاب (أحقاباً) على الظرفية أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب ، وهي لا تنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهي جمع حقب بضمتين وهو الدهر ، والأحقاب الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف قيل هو ثمانون سنة .

وحكى الواحدي عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوماً اليوم ألف سنة من أيام الدنيا ، وقال السدي الحقب سبعون سنة ، وقال بشير بن كعب ثلثمائة سنة ، وقال ابن عمر أربعون سنة ، وقيل ثلاثون ألف سنة .

قال الحسن الأحقاب لا يدري أحد كم هي ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة ، قال ابن عباس أحقاباً سنين .

وعن سالم بن أبي الجعد قال سأل علي بن أبي طالب : هلال الهجري ما تجدون الحقب في كتاب الله ؟ قال نجده ثمانين سنة كل سنة منها إثنا عشر

شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة ، وعن ابن مسعود في الآية قال الحقب الواحد ثمانون سنة .

وعن أبي هريرة رفعه « قال الحقب ثمـانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون » .

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « قال الحقب ألف شهر والشهر ثلاثون يوماً والسنة إثنا عشر شهراً ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة مما تعدون فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة » أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً ، واليوم ألف سنة مما تعدون » ، قال ابن عمر: فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار » أخرجه البزار وابن مردويه والبيهقي .

وعن ابن عمرو قال: الحقب الواحد ثمانون سنة وعن ابن عباس مثله ، وعن عبادة ابن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحقب أربعون سنة » أخرجه ابن مردويه .

وقيل الأحقاب وقت شربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب ، وعن خالد بن معدان في الآية وفي قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ أنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة .

وقيل إن الآية منسوخة بقوله : ﴿ فلن يزيدكم إلا عذاباً ﴾ يعني أن العدد قد ارتفع ، والخلود قد حصل ، والأول أولى ، وقيل الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار ، والأولى ما ذكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التأييد لا التقييد ، وحكى الواحدي عن الحسن أنه قال : والله ما هي إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم أخر كذلك إلى الأبد .

﴿ لا يذوقون فيها ﴾ حال من الضمير في ﴿ لابثين ﴾ أو صفة لأحقاباً أو مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب ﴿ برداً ﴾ ينفعهم من حرها ﴿ ولا شراباً ﴾ ينفعهم من عطشها .

﴿ إلا حميماً ﴾ هو الماء الحار ﴿ وغساقاً ﴾ هو صديد أهل النار ، وقيل هو ماء يسيل من صديد أهل النار ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، وبه قال الزمخشري ، ويجوز أن يكون متصلاً من قوله : ﴿ ولا شراباً ﴾ وبه قال أبو حيان ، وقضية كلام الكواشي تجويز الأمرين ، وقيل أنه بدل من ﴿ شراباً ﴾ وهو الأحسن لأن الكلام غير موجب .

وقال مجاهد والسدي وأبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي : البرد المذكور في هذه الآية النوم ، قال الزجاج : أي لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور ، وإطلاق البرد على النوم لغة هذيل وسمي بذلك لأنه يقطع سورة العطش ، ألا ترى أن العطشان إذا نام سكن عطشه ولأنه يبرد صاحبه ، والعرب تقول منع البرد البرد يعني أذهب البرد النوم .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم : « سئل هل في الجنة نوم فقال: لا ، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها » وكذلك النار وقد قال تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ وقيل البرد برد الشراب ، والشراب الماء ، وجعل الزجاج البرد برد كل شيء له راحة ، وهذا ينفعهم . فأما الزمهرير فهو برد يتأذون به فلا ينفعهم فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به ، وقال الحسن وعطاء وابن زيد برداً أي روحاً وراحة .

قرأ الجمهور غساقاً بالتخفيف ، وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين وهما سبعيتان ، وقد تقدم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما في سورة (صٓ).

عن ابن مسعود قال زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً ، قال قد انتهى حره ، وغساقاً قد

انتهى حره ، وأن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه حتى يبقى عظاماً تقعقع .

﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي موافقاً لأعمالهم على أن ﴿ وفاقاً ﴾ صفة لجزاء بتأويله باسم الفاعل ، ويصح أن يكون على حذف مضاف أي ذا وفاق أو باق على مصدريته لقصد المبالغة ، قال الفراء والأخفش : جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ، وقال الزجاج : جوزوا جزاء وافق أعمالهم .

قال الفراء : الوفاق جمع الوفق ، والوفق والموافق واحد ، قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار ، وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوءهم .

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي ثواب حساب ، قال الزجاج كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم . والجملة مستأنفة وتعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور.

﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ أي كذبوا بالآيات القرآنية أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيباً شديداً ، وفعال من مصادر التفعيل قال الفراء هي لغة فصيحة يمانية تقول كذبت كذاباً وخرقت القميص خراقاً .

قال في الصحاح هو أحد مصادر المشدد لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعل مثل ومزقناهم كل ممزق .

وقرأ الجمهور كذاباً بالتشديد وقرأ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالتخفيف ، قال أبو علي الفارسي التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكاذبة ، وقرأ ابن عمر كذاباً بضم الكاف والتشديد جمع كاذب ، قال أبو حاتم ونصبه على الحال ، قال الزمخشري وقد يكون يعني على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ في الكذب تقول رجل كذاب كقولك حسان وبخال .

قرأ الجمهور ﴿ وكل شيء ﴾ بالنصب على الاشتغال أي وأحصينا كل شيء ﴿ أحصيناه ﴾ وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وفائدة الاعتراض تقرير ما ادعاه من قوله ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ .

وفي انتصاب قوله : ﴿ كتاباً ﴾ أوجه .

أحدها : أنه مصدر من معنى أحصينا أي إحصاء فالتجوز في نفس المصدر .

والثاني : أنه مصدر لأحصينا لأنه في معنى كتبنا ، فالتجوز في نفس الفعل أي لالتقاء الإحصاء والكتب في معنى الضبط والتحصيل .

والثالث : أن يكون منصوباً على الحال أي مكتوباً في اللوح لتعرفه الملائكة ، وقيل أراد ما كتبته الحفظة على العباد من أعمالهم ، وقيل المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأول أولى لقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات ، والأمر أمر إهانة وتحقير ، قال الرازي هذه الفاء للجزاء فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً ، قيل هذه أشد آية في القرآن على أهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه .

قال الرازي وفي هذه الآية مبالغات منها التأكيد بلن ، ومنها الالتفات ، ومنها إعادة قوله فذوقوا بعد ذكر العذاب .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا
لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ
لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ
عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

﴿ إن للمتقين مفازاً﴾ هذا شروع في بيان حال المؤمنين وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعد الله لهم من الشر ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالبغية والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة مفازة تفاؤلاً بالخلاص منها ، ويصلح أن يراد به الجنة على أنه مصدر ميمي بمعنى المكان أو بمعنى الحدث ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً ، لأنهم فازوا بمعنى نجوا من العذاب ، وفازوا بما حصل لهم من النعيم ، وفي المختار الفوز النجاة ، وهو الهلاك أيضاً ، وعلى هذا فإطلاق المفازة على الفلاة الخالية من الماء حقيقي لأنها مهلكة ، ومن معاني الفوز الهلاك كما رأيت وبابهما قال :

ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال : ﴿ حدائق وأعناباً ﴾ وانتصابهما على أنهما بدل اشتمال من ﴿ مفازاً ﴾ أو بدل كل من كل على طرق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازاً ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز فيقدر مضاف أي فوز حدائق ، وهي جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه فيه أنواع الشجر المثمر ، والأعناب جمع عنب أي كروم أعناب ، والتكرير يدل على تعظيم ذلك العنب .

قال المحلي ﴿ وأعناباً ﴾ عطف على مفاز أي ذكرت بعد الحدائق تنويهاً لعظم شأنها وإلا فهي من جملة الحدائق ، قال القاري وهذا بعيد جداً والظاهر

عطفه على حدائق وكذا كواعب وكأساً انتهى .

﴿ وكواعب أتراباً ﴾ الكواعب جمع كاعبة وهي الناهدة قال ابن عباس أي نواهد ، يقال كعبت الجارية تكعب تكعيباً وكعوباً ، ونهدت تنهد نهوداً ، والمراد أن لهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت حتى صارت كالكعب في صدورهن ، أي استدارت مع ارتفاع يسير ، قال الضحاك الكواعب العذارى ، والأتراب الأقران في السن ، وقد تقدم تحقيقه في سورة البقرة ، وقال ابن عباس أي لدات مستويات .

﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد : أي مترعة مملوءة ، يقال أدهقت الكأس أي ملأتها ، وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ﴿ دهاقاً ﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضاً ، وقال زيد بن أسلم : دهاقاً صافية ، قال ابن عباس : دهاقاً ممتلئاً ، وعنه قال : هي الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول يا غلام إسقنا وأدهق لنا . وعنه قال ﴿ دهاقا ﴾ دراكاً ، وعنه قال إذا كان فيها خمر فهي كأس ، وإذا لم تكن فيهاخمر فليس بكأس .

﴿ لا يسمعون ﴾ حال من المتقين ﴿ فيها ﴾ أي في الجنة عند شرب الخمر وغيره من الأحوال ﴿ لغواً ﴾ وهو الباطل من الكلام ﴿ ولا كذاباً ﴾ أي لا يكذب بعضهم بعضاً قرأ الجمهور كذاباً مشدداً وقرأ الكسائي هنا مخففاً ، ووافق الجماعة على التشديد في الآية المتقدمة للتصريح بفعله المشدد هناك ، وقد قدمنا الخلاف في كذاباً هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة .

﴿ جزاء من ربك ﴾ أي جازاهم بما تقدم ذكره جزاء ، قال الزجاج : المعنى جزاهم جزاء أي بمقتضى وعده وكذا ﴿ عطاء ﴾ أي وأعطاهم عطاء تفضلاً منه ، إذ لا يجب عليه شيء ، وقيل عطاء بدل من جزاء أي بدل كل من كل ، وفي إبداله منه نكتة لطيفة ، وهي الدلالة على أن بيان كونه عطاء وتفضلاً منه هو المقصود وبيان كونه جزاء وسيلة له .

﴿ حساباً ﴾ قال أبو عبيدة كافياً فهو مصدر أقيم مقام الوصف أو باق على مصدريته مبالغة أو هو على حذف مضاف ، وقال ابن قتيبة كثيراً ، يقال أحسبت فلاناً أي أكثرت له العطاء . قال الزجاج حساباً أي ما يكفيهم قال الأخفش يقال أحسبني كذا أي كفاني .

قال الكلبي حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشراً وقال مجاهد حساباً لما عملوه ، فالحساب بمعنى القدر أي بقدر ما وجب له.في وعد الرب سبحانه فإنه وعد للحسنة عشراً ، ووعد لقوم سبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وقرأ أبو هاشم حساباً بفتح الحاء وتشديد السين أي كفافاً قال الأصمعي تقول العرب حسبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ، وفي القاموس حسبك درهم كفاك ، وشيء حساب كاف ومنه ﴿ عطاء حساباً ﴾ وأحسبه كفاه وقرأ ابن عباس حساناً بالنون .

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ قرىء بخفض رب والرحمن على أن رب بدل من ربك والرحمن صفة له ، وقرىء برفعهما على أن رب مبتدأ والرحمن خبره أو الرحمن صفته ولا يملكون خبره أو على أن رب خبر مبتدأ مقدر أي هو رب ، والرحمن صفته ، أو على أن رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول .

وقرأ ابن عباس وحمزة والكسائي بخفض الأول ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وقال هذه أعدلها فخفض رب لقربه من ربك فيكون نعتاً له ، ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره قوله:

﴿ لا يملكون ﴾ أي الخلق ﴿ منه ﴾ تعالى أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه ﴿ خطاباً ﴾ بالشفاعة إلا باذنه ، وقيل الخطاب الكلام أي لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه خوفاً إلا بإذنه ، دليله ﴿ لا تكلم نفس الا باذنه ﴾ وقيل

اراد الكفار وأما المؤمنون فيشفعون ، والجملة مستأنفة مقررة لما تفيده الربوبية العامة من العظمَة والكبرياء .

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة ﴾ الظرف منتصب بـلا يملكون أو بـلا يتكلمون وقوله ﴿ صفاً ﴾ منتصب على الحال أي مصطفين أو على المصدرية أي يصفون صفاً ، والجملة حالية أو مستأنفة لتقرير ما قبله .

واختلف في الروح على أقوال ثمانية فقيل أنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال ، وقيل هو جبريل ، قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير ، وقيل الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة قاله أبو صالح ومجاهد ، وعن ابن عباس مثله مرفوعاً وزاد لهم رؤوس وأيد وأرجل ثم قرأ هذه الآية ، وقال هؤلاء جند وهؤلاء جند ، أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وقيل هم أشراف الملائكة ، قاله مقاتل بن حيان ، وقيل هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيح .

وقيل هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة ، وقيل هم أرواح بني آدم تقوم صفاً وتقوم الملائكة صفاً وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام ، قاله عطية العوفي ، وقيل إنه القرآن قاله زيد بن أسلم ، وقال ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وعن ابن مسعود قال : الروح في السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاً واحداً[1] ، أخرجه ابن جرير ، وعن ابن عباس قال : ﴿ إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله يقول سبحانك لا إله الا انت ما

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٦/٣٠٩ من رواية ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة» وابن مردويه عن ابن عباس ، والله أعلم بصحة سنده . وقد ذكر ابن كثير هذا المعنى عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وذكره ابن كثير والشوكاني عن مجاهد وأبي صالح ، ولعله مما تلقاه ابن عباس من الاسرائيليات . والله أعلم .

عبدناك حق عبادتك ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول الله :

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾[1] أخرجه أبو الشيخ ، وعنه قال يقول حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الروح إلى الأجساد ، أخرجه البيهقي في الاسماء والصفات .

﴿ لا يتكلمون ﴾ أي الخلائق ثم خوفاً وإجلالاً لعظمة الله جل جلاله من هول ذلك اليوم ولا يشفعون لأحد ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ بالشفاعة أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن .

﴿ و ﴾ كان ذلك الشخص ممن ﴿ قال صواباً ﴾ قال الضحاك ومجاهد : صواباً يعني حقاً وقال أبو صالح : لا إله إلا الله ، وبه قال ابن عباس ، وأصل الصواب السداد من القول والفعل ، قيل لا يتكلمون يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفاً هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة ، وهم قد قالوا صواباً ، قال الحسن : إن الروح يقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل .

قال الواحدي : فهم لا يتكلمون يعني الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال في الدنيا صواباً أي شهد بالتوحيد .

قال البيضاوي : قوله لا يتكلمون الخ تقرير وتأكيد لقوله : ﴿ لا يملكون ﴾ فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذ لم يقدروا أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه فكيف يملكه غيرهم .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة وهو مبتدأ وخبره ﴿ اليوم الحق ﴾ أي الكائن الواقع المتحقق الثابت وقوعه ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ أي مرجعاً يرجع اليه بالعمل الصالح لأنه إذا عمل خيراً

---

(١) روى هذا المعنى ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٢٢/٣٠ عن ابن مسعود قال ابن كثير: وهذا قول غريب جداً.

قربه إلى الله ، وإذا عمل شراً باعده منه ، قال قتادة مآباً سبيلاً .

قال أبو السعود : الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف ، وقوله : ﴿ إلى ربه ﴾ أي إلى ثوابه ، وهو متعلق بمآباً كأنه قيل وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه الذي ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالإيمان والطاعة ، وتعلق الجار به لما فيه من معنى الافضاء والإيصال انتهى .

ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال : ﴿ إنا أنذرناكم ﴾ يا كفار مكة ﴿ عذاباً قريباً ﴾ يعني العذاب في الآخرة وكل ما هو آت فهو قريب ، ومثله قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ كذا قال الكلبي وغيره ، وقال قتادة هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين ، قال مقاتل هو قتل قريش ببدر ، والأول أولى لقوله :

﴿ يوم ينظر المرء ﴾ أي كل امرىء مسلماً كان أو كافراً ﴿ ما قدمت يداه ﴾ أي يشاهد كل ما قدمه من خير أو شر لقوله : ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ وتخصيص الأيدي لأن أكثر الأعمال يقع بها ، وإن احتمل أن لا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ، و « ما » موصولة أو استفهامية قال الحسن والمرء هنا هو المؤمن أي يجد لنفسه عملاً ، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً فيتمنى أن يكون تراباً ، وقيل المراد به الكافر على العموم ، وقيل أبيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط ، والأول أولى لقوله :

﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ فإن الكافر واقع في مقابلة المرء . والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون تراباً لما يشاهده مما قد أعده الله له من أنواع العذاب . والمعنى أنه يتمنى أنه كان تراباً في الدنيا فلم يخلق ولم يكلف ، أو تراباً يوم القيامة فلم يبعث ، وقيل المراد بالكافر أبو جهل ، وقيل أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وقيل إبليس ، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ ولا ينافيه خصوص السبب كما تقدم غير مرة، ووضع الظاهر موضع

المضمر لزيادة الذم .

عن أبي هريرة : « قال يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجمّاء من القرناء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور .

وأما الجن فقال أبو الزناد يعودون تراباً أيضاً . وقال عمر بن عبد العزيز ومجاهد وغيرهما مؤمنو الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها ، والذي عليه الأكثرون أنهم مكلفون مثابون ومعاقبون ، فالمؤمن يدخل الجنة ، والكافر يدخل النار كبني آدم ، ذكره الخطيب والله أعلم بالصواب .

سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة خمس أو ست وأربعون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾

﴿والنازعات غرقاً﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات ، يعني الملائكة[1] ، والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي ، وإنما جاءت هذه الأقسام بلفظ التأنيث والكل وصف للملائكة مع أنهم ليسوا إناثاً لأن المقسم به طوائف من الملائكة ، والطوائف جمع طائفة وهي مؤنثة ، وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال السدي : النازعات هي النفوس حين تغرق في الصدور ، وقال مجاهد : هي الموت ينزع النفس ، وقال قتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم نزع إليه إذا ذهب ، أو من قولهم نزعت بالحبل أي أنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر ، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان .

وقال عطاء وعكرمة : النازعات القسي تنزع بالسهام ، وإغراق النازع في القوس أن يمده غاية المد حتى ينتهي به إلى النصل ، وقيل أراد بالنازعات

---

(١) ذكر ابن كثير أن الصحيح في قوله : ﴿والنازعات غرقاً﴾ : الملائكة ، قال : يعنون حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرقه في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله : ﴿والناشطات نشطاً﴾ .

الغزاة الرماة ، وانتصاب غرقاً على أنه مصدر محذوف الزوائد أي إغراقاً ، والناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي إغراقاً في النزع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد ، أو على الحال أي ذوات إغراق يقال أغرق في الشيء يغرق فيه اذا أوغل فيه وبلغ غايته ، وعن علي قال : هي الملائكة تنزع أرواح الكفار ، وعن ابن عباس قال : هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار وقال ابن مسعود الملائكة الذين يلون أنفس الكفار .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ الناشطات نشطاً ﴾ أنها تنشط النفوس أن تخرجها من الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه حلاً رفيقاً ، ونشط الرجل الدلو في البئر إذا أخرجها ، والنشاط الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة للعقدة التي يسهل حلها .

قال أبو زيد نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقدته ، وأنشطته أي حللته وأنشطت الحبل أي مددته ، قال الفراء أنشط العقال أي حل ونشط أي ربط الحبل في يديه ، قال الأصمعي بئراً نشاط أي قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة ، وبئر نشوط وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيراً ، وقال مجاهد هو الموت ينشط نفس الإنسان ، وبه قال ابن عباس ، وقال السدي : هي النفوس حين تنشط من القدمين ، وقال عكرمة وعطاء : هي الأوهاق التي تنشط السهام ، وقال قتادة والحسن والأخفش هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي تذهب .

قال في الصحاح والناشطات نشطاً يعني النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد والهموم تنشط بصاحبها ، وقال أبو عبيدة وقتادة هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد ، وقيل الناشطات لأرواح المؤمنين والنازعات لأرواح الكافرين لأنها تجذب روح المؤمن برفق ، وتجذب روح الكافر بعنف .

وقوله نشطاً مصدر وكذا سبحاً وسبقاً ، قال علي : هي الملائكة تنشط

أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ، وعن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار ، قال الله والناشطات نشطاً أتدري ما هو ؟ قلت يا نبي الله ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط اللحم والعظم » أخرجه ابن مردويه .

﴿ والسابحات سبحاً ﴾ هي الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الأرواح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه ، يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رفيقاً ثم يدعونها حتى تستريح ثم يستخرجونها كالسابح في الماء يتحرك فيه برفق ولطافة .

وقال مجاهد وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع في جريه ، وقال مجاهد : أيضاً السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم ، وقيل هي الخيل السابحة في الغزو ، وقال قتادة والحسن هي النجوم تسبح في أفلاكها كما في قوله : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ وقال عطاء هي السفن تسبح في الماء . وقيل هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض .

﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف ، قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ، وقال أبو روق هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح . وروي نحوه عن مجاهد ، وقال مقاتل هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، وقال الربيع هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله ، وقال علي كرم الله وجهه : هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى ، وقال مجاهد : أيضاً هو الموت يسبق الإنسان ، وقال قتادة والحسن ومعمر : هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضاً .

وقال عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد ، وقيل هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار .

قال الجرجاني عطف السابقات بالفاء لأنها مسببة عن التي قبلها أي واللاتي يسبحن فيسبقن . تقول قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب ، ولو قلت قام وذهب بالواو ، لم يكن القيام سبباً للذهاب ، قال الواحدي : وهذا غير مطرد في قوله الآتي : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير .

قال الرازي ويمكن الجواب عما قاله الواحدي بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض ، كقوله قام زيد فذهب فضرب عمراً .

ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوض إليهم التدبير .

ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير كسببية السبح للسبق ، والقيام للذهاب ومجرد الإتصال لا يوجب السببية والمسببية .

والأولى أن يقال العطف بالفاء في المدبرات طوبق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته .

﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال علي هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وعنه يدبرون ذكر الرحمن وأمره ، وقال ابن عباس ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمن على الدعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه ويدلى في حفرته ، قال القشيري اجمعوا على أن المراد هنا الملائكة .

وقال الماوردي فيه قولان : (أحدهما) الملائكة وهو قول الجمهور ، والثاني إنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وفي تدبيرها الأمر وجهان (أحدهما) تدبر طلوعها وأفولها (الثاني) تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال .

ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما والفاعل للتدبير في الحقيقة وإن كان هو الله عز وجل لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به ، وقيل إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها مدبرات .

قال عبد الرحمن بن سابط تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، أما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف أي والنازعات وكذا وكذا لتبعثن . قال الفراء وحذف لمعرفة السامعين به ويدل عليه قوله ﴿أإذا كنا عظاماً نخرة﴾ وقيل إن جواب القسم لقوله ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أي أن في يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى ، قال ابن الأنباري وهذا قبيح لأن الكلام قد طال بينهما .

وقيل جواب القسم ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ لأن المعنى قد أتاك وهذا ضعيف جداً .

وقيل الجواب ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة .

قال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال فإذا هم بالساهرة والنازعات ، قال ابن الأنباري وهذا خطأ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام والأول أولى .

وقال الكرخي الفاء فيها للدلالة على ترتبها بغير مهلة ، وهو من عطف المقسم به والمعطوف بالواو من عطف الصفات بعضها على بعض ، والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيق بأن يكون على حياله

مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه .

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم أو بإضمار اذكر ، والراجفة المضطربة ، يقال رجف يرجف إذا اضطرب ، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق ، قاله ابن عباس .

﴿ تتبعها الرادفة ﴾ هي النفخة الثانية التي تكون عند البعث ، قاله ابن عباس وبينهما أربعون سنة ، فاليوم واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقب الثانية ، وسميت رادفة لأنها ردفت النفخة الأولى ، كذا قال جمهور المفسرين وقال ابن زيد : الراجفة الأرض ، والرادفة الساعة ، وقال مجاهد الراجفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة ، وقيل الراجفة اضطراب الأرض والرادفة الزلزلة .

وأصل الرجفة الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف لإضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها ، ومحل تتبعها الرادفة النصب على الحال من الراجفة .

والمعنى لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها ، وعن أبيّ بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال: يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ترجف الأرض رجفاً وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ يقول مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائها . أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي .

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾
أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا
هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قلوب مبتدأ ويومئذ منصوب بواجفة . وواجفة صفة لقلوب وهو المسوغ للإبتداء بالنكرة أي قلوب مضطربة خائفة قلقة خافقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة ، قال جمهور المفسرين . اي خائفة وجلة ، وقال ابن عباس : وجلة متحركة ، وقال السدي زائلة عن أماكنها نظيره ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وقال المؤرج : قلقة مستوفزة ، وقال المبرد : مضطربة يقال وجف القلب يجف وجيفاً إذا خفق كما يقال وجب يجب وجيباً ، والإيجاف السير السريع فأصل الوجيف إضطراب القلب ، وقال ابن عباس : خائفة .

﴿ أبصارها ﴾ مبتدأ ثان وخبره ﴿ خاشعة ﴾ والجملة خبر الأول ، في الكلام حذف مضاف تقديره أبصار أصحاب القلوب ذليلة ، والضمير راجع إلى أصحاب القلوب فهو من الإستخدام والمراد أنها تظهر عليهم الذلة والخشوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ، كقوله ﴿ خاشعين من الذل ﴾ قال عطاء يريد أبصار من مات على غير الإسلام ويدل على هذا أن السياق في منكري البعث .

﴿ يقولون أإنا لمردودون في الحافرة ﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للنعت في الدنيا إستهزاء وإنكاراً للبعث إذا قيل لهم أنكم تبعثون ، أي أنرد إلى أول حالنا وإبتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ، يقال رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء والحافرة عند العرب إسم لأول الشيء وإبتداء الأمر ، ومنه قولهم رجع فلان على حافرته أي على الطريق الذي جاء منه ، يقال النقد عند

الحافرة أي عند الحالة الأولى وهي الصفقة ، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة أي عند أول ما التقوا ، وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة ، وقيل الحافرة العاجلة .

والمعنى إنا لمردودون إلى الدنيا وقيل الحافرة جمع حافر بمعنى القدم أي نمشي أحياء على أقدامنا ونطأ بها الأرض ، وقيل فاعلة بمعنى مفعولة ، وقيل على النسب أي ذات حفر ، والمراد الأرض ، وقيل الحافرة الأرض التي يحفر فيها قبورهم ، والمعنى إنا لمردودون في قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء وبه قال مجاهد ، وقال ابن زيد : الحافرة النار ، واستدل بقوله ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ قال ابن عباس في الحافرة أي الحياة وعنه قال خلقاً جديداً ، قرأ الجمهور في الحافرة ، وقرأ أبو حيوة في الحفرة .

ثم زادوا في الاستبعاد بقولهم ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ أي بالية متفتتة يقال نخر العظم بالكسر إذا بلي ، وهذا تأكيد لإنكار البعث أي كيف نرد أحياء ونبعث إذا كنا عظاماً نخرة ، والعامل في « إذا » مضمر يدل عليه مردودون أي أئذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة .

قرأ الجمهور نخرة ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ناخرة ، واختار الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم ، والثانية الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوي .

قال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التي لم تنخر بعد أي لم تبل ولا بد أن تنخر ، وقيل هما بمعنى ، تقول العرب نخر الشيء فهو ناخر ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك ، قال الأخفش هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن .

وقيل الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة التي فسدت كلها ، وقال مجاهد نخرة أي مرفوتة كما في قوله ﴿ رفاتاً ﴾ وقيل الناخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتنخر أي تصوت ، وقد قرىء إذا كنا وأإذا كنا بالإستفهام وبعدمه .

ثم ذكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال ﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ أي رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد ، وهذا إستهزاء منهم ، وقيل معنى خاسرة كاذبة أي ليست بكائنة كذا قال الحسن وغيره ، وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها ، وقال قتادة ومحمد بن كعب : أي لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرة الرجعة والجمع كرات .

وقوله ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى لا تستبعدوا ذلك فإنما هي زجرة واحدة وكان ذلك الإحياء والبعث ، والمراد بالزجرة الصيحة وهي النفخة الثانية التي يكون البعث بها ، وقيل أن الضمير في ﴿ إنما هي ﴾ راجع إلى الرادفة المتقدم ذكرها التي يعقبها البعث وسميت هذه النفخة زجرة لأنه يفهم منها النهي عن التخلف والمنع منه ، وعبارة الخطيب وعبر بالزجرة لأنها أشد من النهي لأنها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلاً .

﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ أي فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض ، قال الواحدي المراد بالساهرة وجه الأرض وظاهرها في قول الجميع ، قال الفراء سميت بهذا الإسم لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم ، وقيل لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها فسميت بذلك ، قال في الصحاح الساهرة وجه الأرض ، ومنه قوله ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال الساهرة أرض بيضاء ، وقيل أرض من فضة لم يعص الله فيها ، وقيل الساهرة الأرض السابعة يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق .

وقال سفيان الثوري : الساهرة أرض الشام أو أرض مكة أو أرض القيامة ، وقال قتادة هي جهنم ، أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم ، وإنما قيل لها ساهرة لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم ، وقال ابن عباس هي وجه

الأرض وفي لفظ الأرض كلها ساهرة .

وجملة ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تكذيب قومه ، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ، ومعنى ﴿ هل أتاك ﴾ قد جاءك وبلغك ، وهذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه في شأنهما فيكون المعنى على الإستفهام إذ لا وجه لحملة على الإقرار حينئذ أي هل أتاك حديثه؟ أنا أخبرك به .

﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ الظرف متعلق بحديث لا بأتاك لاختلاف وقتيهما ، وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية .

والواد المقدس المبارك المطهر غاية الطهر بتشريف الله له بإنزال النبوة فيه المفيضة للبركات ، قال الفراء ﴿ طوى ﴾ واد بين المدينة ومصر سمي طوى لأنه طوى فيه الشر عن بني إسرائيل أو لأن موسى طواه بالليل إذ مر به فارتفع إلى أعلى الوادي ، وقيل واد بالشام عند الصور بين أيلة ومصر ، وهو معدول من طاو كما عدل عمر من عامر ، قاله الفراء ، قال : والصرف أحب إلي إذ لم أجد في المعدول نظيراً له .

وقيل طوى معناه بالعبرانية يا رجل فكأنه قيل يا رجل ، وقيل المعنى أن الوادي المقدس بورك فيه مرتين والأول أولى ، وقد مضى تحقيق القول فيه ، قرىء طوى بالتنوين وتركه وهما سبعيتان ، قال الجوهري طوى اسم موضع بالشام تكسر طاؤه وتضم ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله إسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة .

﴿ إذهب إلى فرعون ﴾ قيل هو على تقدير القول ، وقيل هو تفسير للنداء أي ناداه نداء هو قوله إذهب ، وقيل هو على حذف ﴿ أن ﴾ المفسرة ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ أن اذهب ﴾ لأن في النداء معنى القول .

وجملة ﴿ إنه طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الإمتثال أي جاوز الحد في العصيان والفساد والتكبر والكفر بالله ، قال الرازي ولم يبين أنه طغى في أي شيء فقيل تكبر على الله وكفر به ، وقيل تكبر على الخلق واستعبدهم .

﴿ فقل هل لك أن تزكى ﴾ أي قل له بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك ، وأصله تتزكى ، قرأ الجمهور بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاي على إدغام التاء في الزاي .

قال أبو عمرو ابن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ، ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفي الكلام مبتدأ مقدر تتعلق به إلى ، والتقدير هل لك رغبة أو توجه أو سبيل إلى التزكي ، ومثل هذا قولهم هل لك في الخير يريدون هل لك رغبة في الخير ، وقال ابن عباس : هل لك أن تقولِ لا إلّه إلّا الله ، وقيل معناه هل لك أن تسلم وتصلح العمل ، أمر عليه السلام أن يخاطبه بالإستفهام الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف ويستنزله بالمداراة من عتوه ، وهذا نوع تفصيل لقوله ﴿ فقولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ .

﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ أي أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتخشى عقابه ، والفاء لترتيب الخشية على الهداية لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ، قال ابن عطاء الخشية أتم من الخوف ، لأنها صفة العلماء في قوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ أي العلماء به رواه السلمي .

وعن الواسطي : أوائل العلم الخشية ثم الإجلال ثم الهيبة ثم التعظيم ثم الفناء(١) وعن بعضهم من تحقق بالخوف ألهاه خوفه عن كل مفروح به ، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له الأمن من خوفه ، ذكره الكرخي .

---

(١) الفناء اصطلاح صوفي لا يعرفه الإسلام

فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠
رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ
خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ
بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ هذه الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف يعني فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله في غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال: إن كنت جئت بآية فأت بها فعند ذلك أراه الآية الكبرى .

واختلف فيها ما هي فقيل العصا ، وقيل يده وقيل فلق البحر ، وقيل هي جميع ما جاء به من الآيات التسع ، والأول أولى ثم اليد ، والأكثرون على أنه أراهما له ، وأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحادهما معنى أو أراد بالكبرى العصا وحدها لأنها كانت مقدمة على الأخرى .

ولا ينافي هذا قوله في الآية الأخرى ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾ وكل آياته كبرى لأن الإخبار هنا عما أراه له أول ملاقاته إياه وهو العصا واليد ، ثم أردف ذلك برؤية الكل .

ولا مساغ لحمل الآية على مجموع معجزاته فإن ما عدا هاتين الأيتين من الآيات التسع إنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما في سورة الأعراف ، ولا ريب في أن هذا مطلع القضية وأمر السحرة مترقب بعده .

﴿ فكذب وعصى ﴾ أي فلما أراه الآية الكبرى كذب فرعون بموسى وبما جاء به وعصى الله عز وجل بعد ظهور الآية وتحقق الأمر فلم يطعه .

﴿ ثم أدبر ﴾ أي تولى وأعرض عن الإيمان ، وأتى بثم لأن إبطال الأمر ونقضه يقتضي زماناً طويلاً ﴿ يسعى ﴾ أي يعمل بالفساد في الأرض ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى ، وقيل أدبر هارباً من الحية يسعى خوفاً منها ، وقال الرازي معنى أدبر يسعى أقبل يسعى كما يقال أقبل يفعل كذا أي أنشأ يفعل كذا فوضع أدبر موضع أقبل ، لئلا يوصف بالإقبال ، ويسعى حال من الضمير في أدبر .

﴿ فحشر ﴾ أي فجمع جنوده للقتال والمحاربة أو جمع السحرة للمعارضة أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿ فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ أي قال لهم بصوت عال أو أمر من ينادي بهذا القول بعدما قال له موسى ربي أرسلني إليك ، والمعنى أنه لا رب فوقي ، قال عطاء كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وقال أنا رب أصنامكم ، وقيل أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم والأول أولى لقوله في آية أخرى ﴿ ما علمت لكم من إلـه غيري ﴾ .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ النكال نعت مصدر محذوف أي أخذه أخذ نكال أو هو مصدر لفعل محذوف أي أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له أي أخذه الله لاجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي بنكال ، ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال لأن معنى أخذه الله نكل الله به فأخرج من معناه لا من لفظه .

وقال الفراء أي أخذه الله أخذاً نكالاً أي للنكال ، والنكال اسم لما جعل نكالاً للغير أي عقوبة له ، يقال نكل فلان بفلان إذا عاقبه وأصل الكلمة من الإمتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد ، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار ، ونكال الأولى عذاب الدنيـا بالغرق ، وقال مجاهد عذاب أول عمره وآخره ، وقال قتادة : الآخرة قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى تكذيبه لموسى ، وقيل الآخرة قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى قوله ﴿ ما

علمت لكم من إله غيري ﴾ قاله ابن عباس وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، قاله ابن عمرو[١] .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به ﴿ لعبرة ﴾ عظيمة ﴿ لمن ﴾ شأنه أن ﴿ يخشى ﴾ الله ويتقيه ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .

﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ أي أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم أم خلق السماء ، والخطاب لكفار مكة والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت لان من قدر على خلق السماء التي لها هذ الجرم العظيم ، وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بيّن للناظرين ، كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة ، ومثل هذا قوله سبحانه ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله ﴿ أليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ .

ثم بيّن سبحانه كيفية خلق السماء فقال ﴿ بناها ﴾ أي جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض ﴿ رفع سمكها ﴾ أي أعلاه في الهواء ، وهذا بيان للبناء ، أو جعل مقدار ذهابها وارتفاعها في سمت العلو رفيعاً مسيرة خمسمائة عام ، يقال سمكت الشيء أي رفعته في الهواء وسمك الشيء سموكاً ارتفع قال الفراء كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سمك ، وبناء مسموك وسنام سامك أي عال والسموكات السموات .

وقال ابن جزي : السمك غلظ السماء وهو الإرتفاع الذي بين السطح السفلي الأسفل الذي يلينا ، وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ، قال البغوي : رفع سمكها أي سقفها ولينظر ما المراد بسقفها ، ويمكن أن يقال

(١) قال ابن كثير: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي : انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا﴿ويوم القيامة بئس الوفد المرفود﴾ كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ قال: وهذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي الدنيا والآخرة.

سقف كل سماء هو السماء التي فوقها كما أن السماء الدنيا سقف للأرض تأمل .

قال الكسائي والفراء والزجاج : تمّ الكلام عند قوله بناها لأنه من صلة السماء والتقدير أم السماء التي بناها فحذف التي ، ومثل هذا الحذف جائز .

ومعنى ﴿ فسواها ﴾ جعلها مستوية الخلق معتدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ، ولا فروج ولا شقوق ﴿ وأغطش ليلها ﴾ الغطش الظلمة بلغة أنمار أي جعله مظلماً يقال أغطش الليل وأغطشه الله كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله ، ورجل أغطش وامرأة غطشى لا يهتديان .

قال الراغب وأصله من الأغطش وهو الذي في عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى لا يهتدى فبها والتغاطش التعامي ، وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس ، والشمس مضافة إلى السماء .

﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أي أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس وعبر عن النهار بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهي منسوبة إلى السماء .

﴿ والأرض بعد ذلك ﴾ أي بعد خلق السماء ﴿ دحاها ﴾ بسطها يقال دحا يدحو دحوا ودحى يدحي دحياً أي بسط ومد فهو من ذوات الواو والياء فيكتب بالألف والياء ويقال لعش النعامة أدحى لأنه مبسوط على الأرض ، قال أمية ابن الصلت :

دحوت البلاد فسويتها وأنت على طيها قادر

قيل دحيت من مكة بعد خلق السماء بألفي عام[1] .

(١) قال ابن كثير ٤/٩٢ : أما خلق الأرض ، فقبل خلق السماء بالنص ، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما فيما ذكره البخاري . انظر «صحيح البخاري» ٨/٤٢٧ ، ٤٢٨ . ثم قال ابن كثير ٤/٤٦٨ : ولكن إنما دحيت الأرض بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل ، قال : وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله ﴿ ثم استوى الى السماء ﴾ بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحى الأرض ، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك ، وقدمنا أيضاً بحثاً في هذا في أول سورة البقرة عند قوله ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ وذكر بعض أهل العلم أن (بعد) بمعنى مع كما في قوله ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ وقيل (بعد) بمعنى قبل كقوله ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ أي من قبل الذكر ، والجمع الذي ذكرناه أولى وهو قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير .

وعن ابن عباس أن رجلاً قال له آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال إنما أتيت من قبل رأيك قال اقرأ ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، حتى بلغ ، ثم استوى الى السماء ﴾ وقوله ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء وإنما قوله ﴿ دحاها ﴾ بسطها ، وعنه قال دحاها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما في يومين .

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال وقرىء بالرفع على الابتداء .

ثم فسر سبحانه الدحو فقال : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ فجرت من الأرض الأنهار والبحار والعيون ، والمرعى النبات الذي يرعى والمرعى مصدر سمي أي رعيها وهو في الأصل موضع الرعي ، واستعير الرعي للانسان على سبيل التجوز .

قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الانسان فأريد به مجازاً

مطلق المأكول للانسان وغيره ، فهو مجاز مرسل من باب استعمال المقيد في المطلق انتهى ، وهو استعارة تصريحية حيث شبه اكل الناس برعي الدواب او فيه جمع بين الحقيقة والمجاز ، وقال الكرخي يجوز ان يكون استعارة معنوية .

والظاهر انه تغليب لأن قوله الآتي ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ وارد عليه ومن حقه أن تغلب ذوو العقول على الأنعام فعكس تجهيلاً لأن الكلام مع منكري الحشر بشهادة قوله ﴿ أأنتم أشد خلقاً ﴾ كما مر كأنه قيل أيها المعاندون الداخلون في زمرة البهائم الملزوزون في قرنها في تمتعكم بالدنيا وذهولكم عن الأخرى .

والجملة إما بيان وتفسير لدحاها لأن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط بل لا بد من تسوية امر المعاش من المأكل والمشرب ، وإما في محل نصب على الحال .

﴿ والجبال أرساها ﴾ أي أثبتها في الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لا تميد بأهلها ، قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، قيل ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الارساء عليه الاهتمام بأمر المأكل والمشرب .

﴿ متاعاً ﴾ أي منفعة ﴿ لكم ولأنعامكم ﴾ من البقر والابل والغنم ، وانتصاب متاعاً على المصدرية أي متعكم بذلك متاعاً أو هو مصدر من عير لفظه لأن قوله ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ بمعنى متع بذلك أو على أنه مفعول له أي فعل ذلك لأجل التمتع وإنما قال لكم ولأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى يعم ما يأكله الناس والدواب .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ
﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ
رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا
﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ فإذا جاءت الطامة ﴾ أي الداهية التي تعلو سائر الدواهي ﴿ الكبرى ﴾ أي العظمى التي تطم على سائر الطامات ، فالوصف بالكبرى تأسيس لا تأكيد فهي أكبر من داهية فرعون ، وهي قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

وهذا شروع في بيان أحوال معادهم إثر بيان احوال معاشهم ، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها كما ينبىء عنه لفظ المتاع ، وفي الكرخي وخص ما هنا بالطامة موافقة لما قبله من داهية فرعون ، ولذلك وصفت بالكبرى ، موافقة لقوله ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ بخلاف ما في عبس فإنه لم يتقدمه شيء من ذلك فخصت بالصاخة وإن شاركت الطامة في أنها النفخة الثانية لأنها الصوت الشديد والصوت يكون بعد الطم فناسب جعل الطم للسابقة ، والصخ للاحقة انتهى .

قال الحسن وغيره : هي النفخة الثانية ، وقال الضحاك وغيره : هي القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها قال المبرد : الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم طم الفرس طميماً اذا استفرغ جهده في الجري ، وطم الماء إذا ملأ النهر كله . وقال غيره هو من طم السيل الركية أي دفنها ، والطم الدفن .

قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار ، قال ابن عباس : الطامة اسم من أسماء يوم القيامة ،

وجـواب « إذا » قيل هـو قولـه ﴿ فأمـا من طغى ﴾ وقيل محـذوف أي فـإن الأمـر كذلك أو عاينوا أو علموا أو أدخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، وقـدره بعضهم بقوله كان من عظائم الشؤون ما لم تشاهده العيون .

وقال أبو البقاء العامـل فيها جـوابها وهـو معنى ﴿ يوم يتـذكر الانسـان ما سعى ﴾ لأنه منصوب بفعل مضمر أي أعني يوم يتذكر أو يوم يتذكر بكون كيت وكيت ، وقيل إن الظرف بـدل من «إذا » وقيل هو بدل من الطامة الكبرى ، ومعنى تذكر الانسان ما سعى أنه يتذكر ما عمله من خير أو شر لأنه يشاهده مدوناً في صحائف أعماله ، و « ما » مصدرية أو موصولة .

﴿ وبُرزت الجحيم لمن يرى ﴾ معـطوف على ﴿ جاءت ﴾ أي أظهـرت النار المحرقة إظهاراً بيناً مكشوفاً لا تخفى على أحد ، قال مقاتـل فكشف عنها الغطاء فينظر اليها الخلق ، وقيل لمن يرى من الكفار لا من المؤمنين .

والظاهر أنها تبرز لكـل راء ، فأمـا المؤمن فيعرف بـرؤيتها قـدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غماً الى غمه وحسرة الى حسرته .

قرأ الجمهور لمن يرى بالتحتية وقرأت عـائشة ومـالك بن دينـار وعكرمـة وزيد بن علي : بالفوقية أي لمن تـراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يـا محمد ، وقرأ ابن مسعود لمن رأى على صيغة الفعل الماضي .

﴿ فأما من طغى ﴾ أي جـاوز الحد في الكفـر والمعاصي ﴿ وآثـر الحياة الدنيا ﴾ أي قدمها على الآخرة باتباع الشهوات المحـرمات ولم يستعـد لها ولا عمـل عملها ﴿ فـإن الجحيم هي المأوى ﴾ أي مـأواه ، والألف واللام عـوض عن المضـاف اليه ، وهـذا عند الكـوفيين ، وعند سيبـويه وعنـد البصريين هي المأوى له ، ولا بد من أحد هذين التأويلين في الآيـة لأجل العـائد من الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ الذي هو من طغى ، وحسن عدم ذكر ذلك العائد كون الكلمة وقعت فاصلة ورأس آية ، والمعنى انها منزله الـذي ينزلـه ومأواه الـذي يأوي اليه لا غيرها .

ثم ذكر القسم الثاني من القسمين فقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ أي حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة لعلمه بالمبدأ والمعاد ، قال الربيع مقامه يوم الحساب ، قال قتادة يقول ان لله عز وجل مقاماً قد خافه المؤمنون ، وقال مجاهد هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل مواقعة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ والأول أولى .

﴿ونهى النفس﴾ الامارة بالسوء ﴿ عن الهوى ﴾ أي زجرها من الميل الى المعاصي والمحارم التي تشتهيها ، قال مقاتل هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ، والهوى ميل النفس الى شهواتها ﴿ فان الجنة هي المأوى ﴾ أي المنزل الذي ينزله والمكان الذي يأوي اليه لا غيرها .

﴿ يسألونك ﴾ يا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)﴿ عن الساعة أيان مرساها ﴾ أي متى وقوعها وقيامها ، قال الفراء أي منتهى قيامها كرسو السفينة ، قال أبو عبيدة ومرسى السفينة حين تنتهي ، والمعنى يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا في سورة الاعراف .

﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها والمعنى لست في شيء من علمها وذكرها انما يعلمها الله سبحانه ، وهو استفهام انكار ورد لسؤال المشركين عنها أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك عنها ولست تعلمها وأنت آخر الأنبياء وعلامة من علاماتها فلا معنى لسؤالهم عنها فكفاهم ذلك دليلاً على دنوها ووجوب الاستعداد لها ، والأول أولى .

عن علي بن أبي طالب قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة فنزلت فيم أنت من ذكراها » أخرجه ابن مردويه .

وعن عائشة قالت : ما زال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله فيم أنت من ذكراها الخ فانتهى فلم يسأل عنها » أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه .

وعن طارق بن شهاب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت هذه الآية فكف عنها » أخرجه عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وغيرهم .

وعن ابن عباس : « أن مشركي مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا متى الساعة استهزاء منهم ، فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ يعني مجيئها فيم أنت من ذكراها يعني ما أنت ممن علمها يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم)﴿ الى ربك منتهاها ﴾ يعني منتهى علمها » أخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند ضعيف .

وعن عائشة قالت : « كانت الأعراب اذا قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم يسألوه عن الساعة فينظر الى أحدث انسان منهم فيقول إن يعش هذا قامت عليكم ساعتكم » ، أخرجه ابن مردويه .

وجملة ﴿ الى ربك منتهاها ﴾ مستأنفة أي منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره وهذا كقوله : ﴿ قل انما علمها عند ربي ﴾ وقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها .

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي مخوف لمن يخشى قيام الساعة وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الاخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر لله بعلمه إذ لا مدخل لتعيين وقتها في الانذار ، فإن محض الانذار لا يتوقف على علم المنذر بوقت قيامها ، فقصر حاله على الانذار فلا يتعداه الى علم الوقت وخص الانذار بمن يخشى لأنهم المنتفعون بالانذار ، وإن كان منذراً لكل مكلف من مسلم وكافر .

قرأ الجمهور بإضافة منذر الى ما بعده ، وقرىء بالتنوين قال الفراء كلاهما صواب كقوله بالغ أمره وموهن كيد الكافرين ، قال ابو علي الفارسي يجوز أن تكون الاضافة للماضي نحو ضارب زيد أمس ، وقال الزمخشري التنوين هو الأصل والاضافة تخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال .

﴿ كأنهم ﴾ أي كفار قريش ﴿ يوم يرونها ﴾ أي يوم يرون الساعة ويعاينونها ﴿ لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي يستقصرون مدة لبثهم ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله ، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، وقيل لم يلبثوا في قبورهم .

قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى الى العشية إضافته الى يوم العشية على عادة العرب يقولون آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها فتكون العشية في معنى آخر النهار ، والغداة في معنى أول النهار ، وزاد زاده أن الضحى والعشية لما كانتا من يوم واحد كان بينهما ملابسة مصححة لإضافة إحداهما الى الأخرى .

قال المحلي : وحسن الاضافة وقوع الكلمة فاصلة أي من الفواصل .

والجملة تقرير لما يدل عليه الانذار من سرعة مجيء المنذر به ، والعشية هي من الزوال الى غروب الشمس ، والضحى هو البكرة الى الزوال .

سورة عبس

وتسمى سورة السفرة وسورة الأعمى . وهي إحدى أو اثنتان وأربعون آية وهي مكية في قول الجميع وعن ابن عباس رضي اللّه عنه نزلت بمكة . وعن ابن الزبير رضي اللّه عنه مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾
أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ
يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾

﴿ عبس وتولى ﴾ أي كلح بوجهه وقطب وأعرص ، وقرىء عبس بالتشديد ، جيء في هذه المواضع بضمائر الغائب إجلالاً له صلى الله عليه وسلم ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى .

﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ مفعول لأجله أي لأن جاءه ، والعامل فيه إما عبس أو تولى ، على الاختلاف بين البصريين والكوفيين في التنازع هل المختار اعمال الأول أو الثاني ، والمختار مذهب البصريين لعدم الاضمار في الثاني .

وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية « أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع في إسلامهم ، فأقبل عبد الله ابن أم مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه ، فأعرض عنه ، فنزلت »[1] .

وعن عائشة قالت : « أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول

(١) قوله تعالى : ﴿ عبس وتولّى ﴾ قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ يوما يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، وأمية وأُبيّاً ابني خلف ، ويَدعُوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فجاء بن أم مكتوم الأعمى ، فقال : علّمني يا رسول الله مما علّمك الله ، وجعل يناديه ، ويكرِّر النداء ، ولا يدري أنه مشتغل بكلام عيره ، حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطعه كلامه ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وأقبل على القوم يكلّمهم ، فنزلت هذه الآيات ، فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعد ذلك ، ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي .

الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول أترى بما أقول بأساً ، فيقول لا ، ففي هذا أنزلت » أخرجه الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه .

وعن أنس قال : « جاء ابن أم مكتوم وهو يكلم أبيّ بن خلف فأعرض عنه ، فأنزل الله ﴿ عبس ﴾ الخ وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه » أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى .

وعن ابن عباس قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد الله ابن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرىء النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن ، قال يا رسول الله علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجواه وأخذ ينقلب الى أهله أمسك الله ببعض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل الله ﴿ عبس وتولى ﴾ الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمه وقال له:ما حاجتك هل تريد من شيء؟ واذا ذهب من عنده قال:هل لك حاجة في شيء » أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، قال ابن كثير فيه غرابة وقد تكلم في إسناده[1] .

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٣٣ بغير سند، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف ١٨١ ذكره الثعلبي بلا إسناد، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه. وأخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه، وابن حبان عن عائشة قالت: أُنزلت سورة «عبس وتولى» في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، ففي هذا أُنزلت.

وقال المحلي : فكان بعد ذلك يقول له إذا جاء مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويبسط له رداءه ، وقال الخازن استخلفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته(١) وكان من المهاجرين الأولين ، قيل قتل شهيداً بالقادسية . قال أنس بن مالك رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء(٢) .

قرأ الجمهور ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ على الخبر بدون الاستفهام ، ووجهه ما تقدم .

وقرأ الحسن ﴿ آن جاءه ﴾ بالمد على الاستفهام فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عبس وتولى والتقدير أن جاءه الأعمى تولى وأعرض .

﴿ وما يدريك ﴾ التفت سبحانه من الغيبة الى خطاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لأن المشافهة أدخل في العتاب . أي أيّ شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه .

وجملة ﴿ لعله يَزَّكى ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأناً ينافي الاعراض عنه أي لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك لا من الشرك لأنه أسلم قديما بمكة ، فالضمير في لعله راجع الى الأعمى ، وقيل هو راجع الى الكافر أي وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأول أولى ، وكلمة الترجي باعتبار من وجه اليه الخطاب للتنبيه على أن الاعراض عنه مع كونه مرجو التزكي مما لا يجوز .

ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنعام ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ وكذلك قوله : في سورة الكهف : ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ .

---

(١) أي يستخلفه للصلاة بالناس .

(٢) كلمة انس لا تصح لأن الرجل أعمى .

﴿ أو يذكر ﴾ عطف على يزكى داخل معه في حكم الترجي ، أي أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ أي الموعظة المسموعة منك ، قرأ الجمهور بالرفع وقرىء بالنصب على جواب الترجي أي أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزكي أو تذكر ولو دريت ما فرط ذلك منك .

﴿ أما من استغنى ﴾ أي كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الايمان وعما عندك من العلم الذي ينطوي عليه القرآن ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أي تصغي لكلامه ، والتصدي الاصغاء وقيل هو من الصدى وهو الصوت المسموع في الأماكن الخالية والأجرام الصلبة ، وقيل من الصدى وهو العطش ، والمعنى على التعريض ، قرأ الجمهور تصدى بالتخفيف على طرح احدى التاءين تخفيفاً ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الادغام ، وفي هذا مزيد تنفير له صلى الله عليه وآله وسلم عن الاقبال عليهم والاصغاء الى كلامهم .

﴿ وما عليك ان لا يزكى ﴾ أي أيُّ شيء عليك في أن لا يسلم ولا يهتدي ، فإنه ليس عليك الا البلاغ فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ، ويجوز ان تكون (ما) نافية أي ليس عليك بأس في أن لا يتزكى من تصديت له وأقبلت عليه ، وتكون الجملة في محل نصب على الحال من ضمير تصدى .

ثم زاد سبحانه في معاتبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أي وصل اليك حال كونه مسرعاً في المجيء اليك طالباً منك ان ترشده الى الخير وتعظه بمواعظ الله ﴿ وهو يخشى ﴾ حال من فاعل ﴿ يسعى ﴾ على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف أي يخشى الله أو أذى الكفار يعني ابن أم مكتوم ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تتشاغل عنه وتعرض عن الاقبال عليه . والتلهي التشاغل والتغافل ، يقال لهيت عن الأمر ألهى أي تشاغلت عنه وكذا تلهيت . وليس هو من اللهو في شيء ولم يجعل من اللهو

لأنه مسند الى ضمير النبي ، ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب اليه الفعل من اللهو بخلاف الاشتغال فإنه يجوز ان يصدر منه في بعض الأحيان ، ولا ينبغي أن يعتقد غير هذا .

وقوله ﴿ كلا ﴾ ردع له صلى الله عليه وآله وسلم عما عوتب عليه أي لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الاعراض عن الفقير ، والتصدي للغني والتشاغل به مع كونه ليس ممن يتزكى . عن ارشاد من جاءك من أهل التزكي والقبول للموعظة ، وهذا الواقع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه الى ما هو الأولى به .

﴿ إنها تذكرة ﴾ أي أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها أو تعمل بها كل أمتك .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة الى الاهتمام بأمره ، قيل الضميران في ﴿ إنها ﴾ وفي ﴿ ذكره ﴾ للقرآن وتأنيث الأول لتأنيث خبره ، وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة لأنها في معنى الذكر ، وقيل المعنى فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به والأول أولى .

ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال : ﴿ في صحف ﴾ أي أنها تذكرة كائنة في صحف ، فالجار والمجرور صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة .

ومعنى ﴿ مكرمة ﴾ أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ ، وقيل المراد بالصحف كتب الأنبياء كما في قوله ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى ﴾ .

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ
﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

﴿ مرفوعة ﴾ أي أنها رفيعة القدر عند الله ، وقيل مرفوعة في السماء السابعة ، قال الواحدي قال المفسرون مكرمة يعني في اللوح المحفوظ ، مرفوعة يعني في السماء السابعة ، قال ابن جرير مرفوعة القدر والذكر ، وقيل مرفوعة عن الشبه والتناقض .

﴿ مطهرة ﴾ أي منزهة لا يمسها إلا المطهرون ، قال الحسن مطهرة من كل دنس . قال السدي مصانة عن الكفار لا ينالونها ، وقال المحلي منزهة عن مس الشياطين انتهى .

وفيه ان الصحف بأيدي الملائكة في السماء ، والشياطين لا يصلون الى السماء فلا يظهر مدح الصحف بتطهيرها من مسهم فليتأمل ، قاله سليمان الجمل .

﴿ بأيدي سفرة ﴾ جمع سافر ككتبة وكاتب ، قال ابن عباس سفرة كتبة ، وقال هم النبطية القراء ، والمعنى أنها بأيدي كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، قال الفراء السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله من السفارة وهي السعي بين القوم .

قال الزجاج إنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر لأن معناه أنه بين ، يقال أسفر الصبح اذا أضاء وسفرت المرأة اذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي أصلحت بينهم ، قال مجاهد هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد .

وقال قتادة : السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرأون الأسفار ، وقال وهب بن منبه هم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال : ﴿ كرام ﴾ على ربهم كذا قال الكلبي ، وقال الحسن كرام عن المعاصي فهم يرفعون انفسهم عنها ، وقيل يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم اذا خلا بزوجته أو قضى حاجته ، وقيل يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم ، وقيل يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم .

﴿ بررة ﴾ جمع بار مثل كفرة وكافر أي أتقياء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم وقد تقدم تفسيره ، وقال ابن عباس هم الملائكة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران » .

﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ أي لعن الانسان الكافر ما أشد كفره ، قال الكرخي وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات وإن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقاقه لأعظم العقاب حيث أتى بأعظم القبائح كقولهم اذا تعجبوا من شيء قاتله الله ما أخبثه ، أخزاه الله ما أظلمه ، قال الشاعر :

يتمنى المرء في الصيف الشتا فإذا جاء الشتا أنكره
لا بذا يرضى ولا يرضى بذا قتل الانسان ما أكفره

وقيل معناه أي شيء أكفره أي دعاه الى الكفر ، وهو استفهام توبيخ ، والظاهر هو الأول ، قيل المراد بالانسان عتبة بن أبي لهب ، ومعنى ما أكفره التعجب من افراط كفره ، قال الزجاج معناه اعجبوا أنتم من كفره ، وقيل المراد بالانسان من تقدم ذكره في قوله ﴿ أما من استغنى ﴾ وقيل المراد به الجنس وهذا هو الأولى فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولاً أولياً .

ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكف عن طغيانه فقال: ﴿من أي شيء خلقه﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير أو تحقير له والأول أظهر، لأن الاستفهام ذكروا من معانيه التقرير ، لكن التحقير أخص بالمقام ، وجمع بعضهم بينهما فقال الاستفهام هنا لتقرير التحقير ، قال الشهاب ولو قيل أنه للتقرير والتحقير مستفاد من شيء المنكر لكان له وجه .

ثم فسر سبحانه ذلك فقال : ﴿ من نطفة ﴾ أي من ماء مهين ، وهذا كمال تحقير له قال الحسن كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين .

﴿ خلقه فقدره ﴾ أي فسواه وهيأه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواس ، وقيل قدره أطواراً من حال أي حال ، نطفة ثم علقة الى أن تم خلقه ، والفاء للترتيب في الذكر .

﴿ ثم السبيل يسره ﴾ أي يسر له الطريق الى الخير والشر ، وقال السدي ومقاتل وعطاء وقتادة يسره للخروج من بطن أمه ، قال بعضهم إن رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجليه من تحت فهو في بطن أمه على الانتصاب ، فاذا جاء وقت خروجه انقلب بإلهام من الله تعالى ، ذكره الرازي والأول أولى ، ومثله قوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور أي يسر السبيل يسره .

﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كذا قال الفراء ، وقال أبو عبيدة جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه ، وقال أقبره ولم يقل قبره لأن القابر هو الدافن بيده والمقبر هو الله تعالى ، ويقال قبر الميت اذا دفنه بيده ، وأقبره اذا أمر غيره أن يجعله في قبر ، وعد الاماتة من النعم لأنها وصلة في الجملة الى الحياة الأبدية والنعيم المقيم .

﴿ ثم إذا شاء ﴾ إنشاره ﴿ أنشره ﴾ أي أحياه بعد موته ، وعلق الانشار

بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين بل هو تابع للمشيئة ، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل ذلك فانها تعلم أوقاتها من بعض الوجوه فلم تفوض الى مشيئته تعالى ، قرأ الجمهور أنشره وقرىء نشره ، وهما لغتان فصيحتان .

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر للانسان الكافر عما هو عليه من التكبر والتجبر والترفع والاصرار على انكار التوحيد والبعث والحساب أي ليس الأمر كما يقول ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل المراد الانسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة لأنه لا يخلو من تقصير[١] ، قال الحسن أي حقاً لم يعمل ما أمر به ، وقال ابن فورك : أي كلا لم يقض لهذا الكافر ما أمره به من الاتيان بل أمره بما لم يقض له .

قال ابن الأنباري : الوقف على كلا قبيح ، والوقف على أمره وانشره جيد ، وكلا على هذا بمعنى حقاً . وقيل المعنى لما يقض جميع أفراد الانسان ما أمره بل أخل به بعضها بالكفر ، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله به الا القليل .

وقال بعضهم : ما لإبن آدم والفخر ، أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو بينهما حامل عذرة .

ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده ليشكروها وينزجروا عن كفرانها ، بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثهم فقال ﴿ فلينظر الانسان الى طعامه ﴾ أي ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الأخروية ، قال مجاهد الى مدخله

(٣) قال ابن كثير: وحكاه البغوي عن الحسن البصري بنحو من هذا، قال: ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المعنى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي: بعثه ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عن الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

ومخرجه ، وبه قال ابن الزبير ، والأول أولى ، وعن ابن عباس قال الى خرئه ، أخرجه ابن أبي الدنيا .

ثم بين سبحانه ذلك فقال : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ قرأ الجمهور إنا بالكسر على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون وورش عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتمال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام فهو كالمشتمل عليه أو بتقدير لام العلة ، قال الزجاج الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام .

والمعنى فلينظر الانسان الى أنا صببنا الماء صباً ، وأراد بصب الماء المطر ، وبه قال ابن عباس ، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما بالفتح والإمالة

﴿ ثم شققنا الأرض ﴾ بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر ﴿ شقاً ﴾ بديعاً لائقاً بما يخرج منه في الصغر والكبر والشكل والهيئة ، قال ابن عباس شقاً عن النبات .

قال البيضاوي أسند الشق الى نفسه تعالى اسناد الفعل الى السبب ، وتبع في ذلك الزمخشري ، وقد رده في الانتصاف بأنه تعالى موجد الأشياء فالاسناد اليه تعالى حقيقة ، وانما ذكره الزمخشري اعتزالاً فإن أفعال العباد مخلوقة لهم عنده ، ورده المدقق في الكشف بأنه ليس مبنياً على ما ذكر ، بل لأن الفعل إنما يسند حقيقة لمن قام به لا لمن أوجده ، فالاعتراض عليه ناشىء من قلة التدبر ، أفاده الشهاب .

ثم بين سبب هذا الشق وما وقع لأجله فقال : ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها ، والمعنى أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد الى أن يصير حباً ﴿ و ﴾ أنبتنا فيها ﴿ عنباً ﴾ قيل وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف

بجميع ما قيد به المعطوف عليه ، فلا ضير في خلو نبات العنب عن شق الأرض .

قلت بل يمكن التقييد ويكون باعتبار أصل نبات العنب ففيه شق الأرض .

﴿ وقضباً ﴾ هو القت الرطب الذي يقضب مرة بعد أخرى تعلف به الدواب ، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضبه أي قطعه ، كأنه لتكرر قطعه نفس القطع ، قال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة فاذا يبست فهي القت ، قال في الصحاح والقضبة والقضب الرطبة ، قال والموضع الذي تنبت فيه المقضبة قال القتيبي وثعلب وأهل مكة يسمون العنب القضب ، قال ابن عباس القضب الفصفصة يعني القت .

﴿ وزيتوناً ﴾ هو ما يعصر منه الزيت وهي شجرة الزيتون المعروفة ﴿ ونخلاً ﴾ هو جمع نخلة ﴿ وحدائق غلباً ﴾ جمع حديقة وهي البستان ، والغلب العظام الغلاظ الرقاب ، قال مقاتل ومجاهد الغلب الملتف بعضها ببعض ، يقال رجل أغلب اذا كان عظيم الرقبة ، ويقال للأسد أغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً ، وجمع أغلب وغلباء غلب كما جمع أحمر وحمراء حمر ، يقال حديقة غلباء أي غليظة الشجر ملتفة فالحدائق ذات أشجار غلاظ فهو مجاز مرسل ، وفيه تجوز في الاسناد أيضاً لأن الحدائق نفسها ليست غليظة بل الغليظ أشجارها .

وقال قتادة وابن زيد الغلب النخل الكرام ، وعن ابن زيد أيضاً وعكرمة هي غلاظ الأوساط والجذوع ، وقال ابن عباس : غلباً طوالاً ، وعنه قال : الحدائق كل ملتف ، والغلب ما غلظ ، وعنه قال شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئاً .

وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿ وفاكهة ﴾ عطف عام فيدخل رطب وعنب ورمان وأترج وتمر وزبيب وغير ذلك وهذا بالنظر لعطفه على عنباً ، وأما اذا عطف على حدائق كما هو المتبادر فهو عطف خاص على عام كما لا يخفى ، ثم الفاكهة ما يأكله الناس من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوه .

﴿ وأباً ﴾ هو كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ، ولا يزرعونه من الكلأ وسائر انواع المراعي ، قال الضحاك الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض ، وقال ابن أبي طلحة : هو الثمار الرطبة وبه قال ابن عباس ، وروي عن الضحاك أيضاً أنه قال : هو التين خاصة والأول أولى .

وعن ابن عباس أيضاً الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس وعنه قال الأب الكلأ والمرعى ، وعن ابراهيم التيمي قال : « سئل أبو بكر الصديق عن الأب ما هو فقال أيّ سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم » أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد .

وعن عبد الله بن يزيد « أن رجلاً سأل عمر عن قوله ﴿ أباً ﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرة » أخرجه عبد بن حميد .

وعن أنس « أن عمر قرأ على المنبر فأنبتنا فيها حباً وعنباً الى قوله ﴿ وأبا ﴾ قال كل هذا قد عرفناه فما الأب ، ثم رفض عصاً كانت في يده فقال هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب ، اتبعوا ما بين لكم

من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربه » أخرجه ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب والخطيب[1] .

قال المحلي ﴿ أبا ﴾ أي ما ترعاه البهائم أي سواء كان رطباً أو يابساً فهو أعم من القضب وقيل التين وعليه فالمغايرة بينه وبين القضب ظاهرة .

﴿ متاعاً لكم ﴾ منصوب بأنبتنا لأنه مصدر مؤكد لعامله لأن انباته الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات ، ويحتمل ان العامل محذوف تقديره فعل ذلك متاعاً لكم أو متعكم بذلك تمتيعاً لكم ﴿ ولأنعامكم ﴾ جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم .

ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال : ﴿ فاذا جاءت الصاخة ﴾ يعني صيحة يوم القيامة ، وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الآذان أي تصمها فلا تسمع ، وقيل لأنها تصخ لها الأسماع من قولك أصاخ الى كذا أي استمع اليه ، والأول أصح قال الخليل : الصاخة صيحة تصخ الآذان حتى تصمها لشدة وقعها ، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذ من الصك الشديد يقال ، صخه الحجر اذا صكه به ، وقال ابن عباس : الصاخة من أسماء يوم القيامة .

قال ابن الأعرابي : الصاخة التي تورث الصمم وأنها لمسمعة ، وهذا

---

(١) وما ورد من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: (وفاكهة وأباً) فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلّني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم، فقد رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن»، من رواية محمد بن زيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي بكر رضي الله عنه، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وبين أبي بكر رضي الله عنه. وقد روى ابن جرير قال: حدثنا بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (عبس وتولى) حتى أتى على هذه الآية (وفاكهة وأباً) قال: قد عرفنا ما الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد رواه غير واحد عن أنس به، ولكن هذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله تعالى: (فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً).

من بديع الفصاحة والفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم ، وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف يدل عليه قوله الآتي ﴿ لكل امرىء منهم ﴾ الخ أي فاذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه .

﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ الظرف إما بدل من إذا جاءت او منصوب بمقدر أي أعني ، ويكون تفسيراً للصاخة أو بدلاً منها مبني على الفتح ، وخص هؤلاء بالذكر لأنهم أخص القرابة وأولاهم بالحنو والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع ، وتبعات بينه وبينهم ، والمراد بالفرار التباعد .

والمعنى أنه لا يلتفت الى واحد من هؤلاء لشغله بنفسه ، قيل أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه ابراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح ، والعموم أولى ، وقيل انما يفر عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم . وقيل يفر عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدة وقيل لعلمه بأنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً كما قال تعالى ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ .

قال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما يتبين له من عجزهم وقلة حيلتهم ، الى من يملك كشف تلك الكروب عنه ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوى ربه تعالى .

﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي لكل انسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم ، والجملة مستأنفة لبيان سبب الفرار ، قال ابن قتيبة يغنيه اي يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال أغن عني وجهك أي أصرفه .

عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تحشرون حفاة عراة فقالت امرأة أيبصر أحدنا أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن

صحيح[١] .

قرأ الجمهور يغنيه بالغين المعجمة وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء أي يهمه من عناه الأمر إذا أهمه .

ثم بين مآل أمر المذكورين وانقسامهم الى الأشقياء والسعداء بعد وقوعهم في داهية عظيمة فقال ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة لأنه في مقام التفصيل وحيز التنويع ، وهو من مسوغات الابتداء بالنكرة ﴿ يومئذ ﴾ متعلق به ومعنى ﴿ مسفرة ﴾ مشرقة متهللة مضيئة ، وبه قال ابن عباس ، وهي وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا اذا ذاك ما لهم من النعيم والكرامة ، يقال أسفر الصبح اذا اضاء قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء وقيل من قيام الليل ، وقيل من الغبار في سبيل الله ﴿ ضاحكة ﴾ عند الفراغ من الحساب ﴿ مستبشرة ﴾ أي فرحة بما نالته من الثواب الجزيل وكرامة الله ورضوانه .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أي غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب ﴿ ترهقها قترة ﴾ أي يغشاها ويعلوها سواد وكسوف ، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ، والقتر في كلام العرب الغبار كذا قال أبو عبيدة ، ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فانها واحدة الغبار ، وقال زيد

---

(١) رواه بنحوه الطبري ٣٠/٦١ من رواية الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح عن أنس، ورواه ابن أبي حاتم من رواية أزهر بن حاتم عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح به، وعائذ بن شريح، قال أبو حاتم الرازي في «الجرح والتعديل»: في حديثه ضعف. وروى الترمذي في «سننه» ٢/١٦٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غُرلاً» فقالت امرأة: أيُبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟! قال: يا فلانة ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه عن ابن عباس. وروى مسلم في «صحيح» ٤/٢١٩٤ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً (غير مختونين) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

بن أسلم القترة ما ارتفعت الى السماء والغبرة ما انحطت الى الأرض ، قال ابن عباس : ذلة وشدة وعنه أنه قال قترة سواد الوجه .

﴿ أولئك ﴾ يعني أصحاب الوجوه وأهل هذه الحالة ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ جمع كافر وفاجر أي الجامعون بين الكفر بالله والفجور ، ولذلك جمع الى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور الى الكفر ، يقال فجر أي فسق ، وفجر أي كذب ، وبابهما دخل ، وأصله الميل ، والفاجر المائل عن الحق .

سورة التكوير

تسع وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن عائشة وابن الزبير مثله .

وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت . وإذا السماء انشقت ﴾ » أخرجه الترمذي وحسنه وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه[1] .

قال الكازروني : مناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر بعض أحوال القيامة فيما قبلها أردفه ببعض أحوالها الأخر .

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» رقم ٤٨١٦ و ٤٩٣٤ و ٤٩٤١ و ٥٧٥٥ وإسناده صحيح ، والترمذي ١٦٨/٢ ، والحاكم ٥١٥/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في «الدر» ٣١٩/٦ وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾

﴿ إذا الشمس كورت ﴾ أي أظلمت ، قاله ابن عباس ، ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال ، وهذا عند البصريين ، وأعرب الزمخشري الشمس فاعلاً لفعل مقدر يدل عليه كورت ، ومنع أن يرتفع بالإبتداء لأن « إذا » تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط ، وما منعه من وقوع المبتدأ بعدها أجازه الأخفش والكوفيون ، وأجازوا إذا زيد أكرمك فأكرمه ، ولكن الأولى ما ذكره .

والتكوير الجمع وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها قال الزجاج لفت كما تلف العمامة يقال كورت العمامة على رأسي أكورها كوراً وكورتها تكويراً إذا لففتها .

قال أبو عبيدة كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع ، قال الربيع بن خثيم كورت أي رمى بها ومنه كورته فتكور أي سقط قال مقاتل وقتادة والكلبي ذهب ضوؤها ، وقال مجاهد اضمحلت وقيل غورت .

قال الواحدي قال المفسرون تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لف جرمها أو لف ضوئها أو الرمي بها ، والمعنى طويت كطي السجل .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الشمس والقمر

يكوران يوم القيامة » اخرجه[١] البخاري ، قيل أنهما جمادان فإلقاؤهما في النار يكون سبباً لازدياد الحر في جهنم ، وإذا ظرف في هذه المواضع الاثنى عشر وجوابها ﴿ علمت نفس ﴾ كما سيأتي .

﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أي تهافتت وتساقطت وانقضت وتناثرت ، يقال انكدر الطائر من الهوى إذا انقض ، والأصل في الانكدار الانصباب . قال الخليل يقال انكدر عليهم القوم إذا جاؤوا أرسالاً فانصبوا عليهم ، قال أبو عبيدة انصبت كما ينصب العقاب ، قال الكلبي وعطاء تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض وقيل انكدارها طمس نورها ، وقال ابن عباس تغيرت .

وعن أبي مريم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كورت في جهنم وانكدرت في جهنم فكل من عبد دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه ولو رضيا أن يعبدا ، لدخلاها » أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي .

﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أي قلعت عن وجه الأرض وأبعدت ورفعت عن مكانها بعد تفتيتها وسيرت في الهواء سير السحاب ، ومنه قوله ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ .

﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ العشار النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ، الواحدة عشراء وهي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وخص العشار لأنها أنفس مال عند العرب وأعزه عندهم . ومعنى عطلت تركت هملاً بلا راع وبلا حلب ، قال أبيّ بن كعب أي أهملها أهلها ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم ، أو لاشتغالهم بأنفسهم .

قيل وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه ناقة عشراء . بل

(١) وقد ورد في حديث مرفوع أخرجه الطماوي واسناده صحيح .

المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء في ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالاً بما هو فيه من هول يوم القيامة ، وسيأتي ما يفيد أن هذا في الدنيا .

وقيل العشار السحاب فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله تعالى ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ وتعطيلها عدم إمطارها ، وقيل المراد أن الديار تعطل فلا تسكن ، وقيل الأرض التي تعشر زرعها تعطل فلا تزرع ، قرأ الجمهور عطلت بالتشديد وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف .

﴿ وإذا الوحوش ﴾ أي ما توحش من دواب البر ﴿ حشرت ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف ، وقرىء بالتشديد أي بعثت وجمعت بعد البعث من كل ناحية حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتص للجماء من القرناء .

قال قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص ، فإذا اقتص منها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاووس ونحوه .

وقيل حشرها موتها وقيل أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبددها في الصحاري تضم ذلك اليوم إليهم ، قال أبيّ بن كعب حشرت اختلطت .

قال الشهاب في ريحانة الألباء : وههنا أمر نفيس نمحو به السيئآت وبحث عظيم نحيي به عظام الرفات وهو أن الحيوانات هل يحييها الله تعالى وتحشر ويقتص لبعضها من بعض ؟ فأكثر أهل الحديث والسنة والأصول على أنه كذلك لوروده في القرآن في قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ولقول سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في خبر القصاص يوم القيامة يؤخذ للجماء من القرناء .

وخالفهم أبو الحسن الأشعري فقال في كتاب الإيجاز ما نصه لا يجب على الله أن يعوض البهائم والأطفال والمجانين وجميع الخلق الذين خلق فيهم الألم خلافاً للقدرية حيث قالوا إن الله تعالى إذا آلم الحيوان لا على سبيل

الإستحقاق ويجب عليه أن يعوضهم وإلا يكون ظالماً .

ودليلنا أن العقل لا يوجب على الله شيئاً ، وإذا ثبت أن البهائم وغيرها من الحيوان الذي خلق فيه الألم من غير جرم ولا ذنب لا يستحقون ذلك لم تجب إعادتهم ولا نشرهم ولا حشرهم يوم القيامة .

وقال القدرية إن لم يعوضهم في الدنيا فإنه يجب عليه حشرهم في الآخرة وبعثهم كبعث المكلفين .

فإن قالوا قد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خبر القصاص « حتى يؤخذ للجماء من القرناء » .

قلنا المراد به حتى يؤخذ للضعيف من القوي ، فكنى بذلك عنهم لأن الدليل قد قام على أنهم غير مكلفين ، ومن لا تكليف عليه لا يعاقب ولا يقتص منه انتهى .

وفي سراج الملوك اختلف السلف في هذا فقال ابن عباس حشرها موتها ، وهو تأويل بعيد لأن الحشر الجمع ، وليس في موتها جمعها ، بل تفريقها بتمزيقها ، ومعظم المفسرين على أنها تحشر كلها حتى الذباب يقتص منها ثم يقال لها كوني تراباً .

وقال بعضهم لا نقطع باعادتها كالمجانين ومن لم تبلغه الدعوة ، وتوقف بعضهم في ذلك والدليل عليه الآية المذكورة والحديث الصحيح عن أبي هريرة « ليؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » وانكرها الأشعري لأنها غير مكلفة والخبر تمثيل لشدة التقصي في الحساب .

وقال الأسفراييني يقتص منها بما تفعله في الدنيا ، ورد بأنها ليست بمكلفة فهي في المشيئة يفعل بها ما أراد انتهى .

أقول قد تصل بهذا التفصيل الوقوف على الأقوال الأربعة وأدلتها ، والحق الذي تشتفي به الصدور أن لا تؤول الآية والحديث بما هو خلاف الظاهر ، والشبهة الداعية له بأنها غير عاقلة ولا مكلفة ، والحشر والحساب مبني على ذلك ، فإذا سقط الأساس سقط ما بني عليه .

فالجواب عنها أن نسلم أنها غير مكلفة لأنها لا تعقل ، والنزاع فيه مكابرة إلا أنها لما كانت في المشيئة يفعل الله بها ما يريد ، وهو لا يسأل عما يفعل باتفاق أهل السنة بل العقلاء فنقول إن الله تعالى يعيدها وينصف بعضها من بعض بما فعلته بإرداتها لإدراكها للجزئيات ، وليس هذا بتكليف ولا مبنى عليه ، لأن جزاء التكليف إنما يكون في داري الخلود والنار وهي تعود تراباً قبل دخول أهليهما فيهما .

وأما فعل الحكيم القدير لذلك فليعرف أهل المحشر أنه عز وجل لا يترك مثقال ذرة من العدل ، ليتحقق أهل النعيم ما لهم من النعيم المقيم وأهل الجحيم ما أعد لهم من العذاب الأليم تنويراً لهم وإرشاداً لأن يعلموا عظمة كبريائه ، وتساوي جمع مخلوقاته عنده بالنسبة لذلك .

ولك أن تقول قول ابن عباس حشرها موتها معناه أن حشرها لأجل أن يفنيها ويقول لها كوني تراباً ، ولولا بعد كلام الأشعري بتصريحه بما ينافيه حملنا أنه تمثيل على ما ذكر ، أو قلنا أنه إنما أنكر الوجوب ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، وهذا مما ينبغي أن يكتب بالنور ، على صفحات خدود الحور ، وإنما ذكرنا هذا مع طوله وعدم مناسبته لموضوع التفسير تصدقاً على من طالعه بجواهر الفرائد .

﴿ وإذا البحار سجرت ﴾[1] أي أوقدت فصارت ناراً تضطرم وقال الفراء

(١) في هذه الآية عجيبة قرآنية تقطع ألسنة الملحدين الذين يقولون إن القرآن من عند محمد ، من أين لمحمد أو لعصر محمد ما في هذه الآية من علوم لم يعرفها العالم إلا في العصر الحديث .
لم يكن عصر محمد يعرف في البحار الا الري والإنبات ، أما أن البحار تنقلب ناراً فهذا ما لم يخطر لهم =

ملئت بأن صارت بحراً واحداً وكثر ماؤها وبه قال الربيع بن خيثم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك ، وقيل أرسل عذبها على مالحها ، ومالحها على عذبها حتى امتلأت . وقيل فجرت فصارت بحراً واحداً وروي عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية يبست ولا يبقى فيها قطرة يقال سجرت الحوض أسجره سجراً إذا ملأته ، وقال القشيري هو من سجرت التنور أسجره سجراً إذا أحميته .

قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم أوقدت فصارت ناراً ، وقيل معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم من قولهم عين سجراء أي حمراء .

قرأ الجمهور سجّرت بتشديد الجيم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها عن أبي العالية قال ست من آيات هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون إليها ، وست في الآخرة ﴿ إذا الشمس كورت - إلى - وإذا البحار سجرت ﴾ هذه في الدنيا والناس ينظرون إليها ، ﴿ وإذا النفوس زوجت - إلى - وإذا الجنة أزلفت ﴾ هذه في الآخرة أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر .

وعن أبيّ بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، وفزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فماجوا بعضهم في بعض .

وقال أيضاً في الآية قال الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر ، فإذا هو نار تأجج فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة

ببال . وإليك كلمة لأستاذ جامعي .

ونرى كذلك أن المعامل الطبيعية والكيمائية اثبتت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق فيما بلغه من كتاب الله ، ذلك أن قوله تعالى ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ معناه التهبت وصارت ناراً . والبحوث العلمية أثبتت أن الماء مكون من عنصرين : اكسوجين وهيدروجين ، وأن الهيدروجين يشتعل . والاكسوجين يساعد على الاشتعال . فإذا فصلت القدرة بين عنصري الماء تحولت البحار إلى نيران . وهذا دليل جديد على صدق القرآن. الناشر .

إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم ، وقال ابن عباس : تسجر حتى تصير ناراً ، وقال أيضاً سجرت أي اختلط ماؤها بماء الأرض .

﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أي قرنت بأجسادها أي ردت الأرواح إلى أبدانها ، وهذا بناء على ان التزويج بمعنى جعل الشيء زوجاً ، والنفوس على هذا بمعنى الأرواح وقيل معناه قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، وقرن بين الرجل السوء مع رجل السوء في النار كذلك تزويج الأنفس ، قاله عمر بن الخطاب ، وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعاً .

وقال عطاء زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين ، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين ، وقيل قرن كل شكل إلى شكله في العمل ، وهو راجع إلى القول الثاني .

وقيل قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان كما في قوله ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وقال الحسن ألحق كل امرىء بشيعته ، اليهود باليهود والنصارى بالنصارى والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين .

وقيل يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين .

وقيل قرنت النفوس بأعمالها وكتبها فأصحاب اليمين زوج . وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ﴿ وإذا الموؤودة ﴾ أي المدفونة حية ﴿ سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ وقد كانت العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة والإملاق ، وخشية الاسترقاق ، يقال وأد يئد فهو وائد والمفعول به موؤود، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن فيطرح عليها التراب

فيثقلها فتموت ، ومنه ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله وهنا قول متمم بن نويرة * ومؤودة مقبورة في مغارة * ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور « المؤودة » بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة ، وقرأ البزي في رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة ، وقرأ الأعمش المودة بزنة الموزة ، وقرأ الجمهور سئلت مبنياً للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل ، وقرأ علي وابن مسعود وابن عباس سألت مبنياً للفاعل ، وقتلت بضم التاء الأخيرة ، وهذه قراءة شاذة .

والمعنى على الأولى أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كأنه لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد بصرف الخطاب كقوله ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ وهذه الطريقة أفظع في ظهور جناية القاتل وإلزام الحجة عليه .

قال الحسن أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وقيل لتدل على قاتلها وقيل لتقول بلا ذنب قتلت ، وعلى هذا هو سؤال تلطف .

وقرأ الجمهور قتلت بالتخفيف مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير وقرىء بكسر التاء الثانية على أنها تاء المؤنثة المخاطبة والفعل مبني للمفعول ، وهذه قراءة شاذة وفي مصحف أُبيّ وإذا الموؤودة سألت بأي ذنب قتلتني .

وفي الآية دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب .

عن عمر بن الخطاب قال « جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأعتق عن كل واحدة رقبة ، قال إني: صاحب إبل قال: فاهد عن كل واحدة بدنة » أخرجه البزار والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه .

وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾

﴿ وإذا الصحف ﴾ أي صحائف الأعمال ﴿ نشرت ﴾ أي فتحت وبسطت للحساب لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها أي فرقت بينهم ، قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو نشرت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير وهما سبعيتان .

﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ أي أزيلت عن أماكنها وعدمت بالمرة ، والكشط قلع عن شدة التزاق ، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش ، والقشط بالقاف لغة في الكشط وهي قراءة ابن مسعود ، قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف ، وقال الفراء : نزعت فطويت ، وقال مقاتل كشفت عما فيها ، قال الواحدي ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أي أججت وأوقدت لأعداء الله إيقاداً شديداً ، وزيد في إحمائها قرأ الجمهور سعرت بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وورش بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة وهما سبعيتان ، قال قتادة سعرها غضب الله وخطايا بني آدم .

﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي قربت إلى المتقين وأدنيت منهم ليدخلوها ، قال الحسن إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها ، وقال ابن زيد معنى أزلفت تزينت ، والأول أولى لأن الزلفى القرب في كلام العرب .

قيل هذه الأمور الإثنا عشر ست منها في الدنيا وهي من أول السورة إلى قوله ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ وست في الآخرة هي ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ إلى هنا وقد سبق بيانها .

وجواب الجميع قوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ على أن المراد الزمان الممتد من الدنيا إلى الآخرة لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء هذا الوقت الممتد أو عند وقوع كل داهية من تلك الدواهي ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف أو في موقف المحاسبة أو عند الميزان إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهي من مباديه وبعضها من روادفه نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع كلها تهويلاً للخطب ، وتفظيعاً للحال.

والمراد بما أحضرت أعمالها من الخير والشر وبحضورها حضور صحائف الأعمال لأن الأعمال أعراض لا يمكن إحضارها أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصور بصور تدل عليها ، وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس أي لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لا يخفى على أحد ، ويدل على هذا قوله :

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ وقيل يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت ، فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه « لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله » .

﴿ فلا أقسم ﴾ لا زائدة كما تقدم تحقيقه وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة أي فأقسم ﴿ بالخنس ﴾ وهي الكواكب ، وسميت الخنس من خنس إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى وهي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره أهل التفسير ، ووجه تخصيصها بالذكر من

بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس وتقطع المجرة .

وقال في الصحاح الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغيب أو لأنها تخفى نهاراً أو يقال هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة .

قال الفراء إنها الكواكب الخمس المذكورة لأنها تخنس في مجراها وتكنس أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار ، وقيل سميت خنساً لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم ، يقال خنس عنه يخنس خنوساً إذا تأخر وأخنسه غيره إذا خلفه ومضى عنه والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة .

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : هي الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى ، وعنه قال خمسة أنجم زحل وعطارد والمشتري وبهرام والزهرة ليس شيء يقطع المجرة غيرها .

وعن ابن عباس قال : هي النجوم السبعة وزاد الشمس والقمر وخنوسها رجوعها وكنوسها تغيبها بالنهار .

﴿ الجوار ﴾ أي السيارة لأنها تجري مع الشمس والقمر ﴿ الكنس ﴾ أي أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها وقيل خنوسها خفاؤها بالنهار وكنوسها غروبها ، قال الحسن وقتادة هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخفائها فلا ترى وتظهر بالليل وتكنس في وقت غروبها .

وقيل المراد بها بقر الوحش وبه قال ابن مسعود : لأنها تتصف بالخنس وبالجواري وبالكنس ، وقال عكرمة : اخنس البقر والكنس الظباء فهي تخنس إذا رأت الإنسان وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها ، وقيل هي الملائكة والأول أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا .

والكنس مأخوذ من الكناس الذي يختفي فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة .

وقال ابن عباس هي البقرة تكنس إلى الظل ، وعنه قال تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه ، وعنه قال هي الظباء وعنه الخنس البقر ، والجوار الكنس الظباء ، ألم ترها إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت نظرها .

وعن أبي العديس قال : « كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل فقال يا أمير المؤمنين ما الجواري الكنس فطعن عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن رأسه فقال عمر: أحروري ؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقاً لأنحيت القمل عن رأسك » أخرجه الحاكم في الكنى ، وهذا منكر ، فإن الحرورية لم يكونوا في زمن عمر رضي الله عنه ولا كان لهم في ذلك الوقت ذكر .

﴿ والليل إذا عسعس ﴾ أي أقبل بظلامه أو أدبر ، قال أهل اللغة : هو من الأضداد . يقال عسعس الليل إذا أقبل ، وعسعس إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله الآتي ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر كذا حكاه عنه الجوهري ، وقال الحسن : أقبل ظلامه ، قال الفراء العرب تقول عسعس الليل إذا أقبل وإذا أدبر .

وهذا لا ينافي ما تقدم عنه لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدبر ، وإن كان في الأصل مشتركاً بين الإقبال والادبار ، قال المبرد هو من الأضداد ، قال والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره ، قال ابن عباس عسعس أدبر وعنه قال إقبال سواده .

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي امتد حتى يصير نهاراً بيناً ، والتنفس في الأصل خروج النسيم من الجوف ، وتنفس الصبح إقباله لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفساً له مجازاً أو شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي حبس بحيث لا يتحرك فإذا تنفس وجد راحة ، وههنا لما طلع الصبح

فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس .

قال الواحدي تنفس أي امتد ضوؤه حتى يصير نهاراً ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس ، وقيل المعنى إذا انشق وانفلق ومنه تنفست القوس أي تصدعت قال ابن عباس إذا تنفس إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

قال الشهاب مناسبته لقرينه ظاهرة على التفسيرين لأن ما قبله إن كان للإقبال فهو أول الليل وهذا أول النهار ، وإن كان للإدبار فهذا ملاصق له فبينهما مناسبة الجوار فلا وجه لما قيل من أنه على الأول أنسب انتهى .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال ﴿ إنه ﴾ أي القرآن ﴿ لقول رسول كريم ﴾ على الله تعالى يعني جبريل وبه قال ابن عباس لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلاً به وقيل المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والأول أولى .

ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ أي ذي قوة شديدة في القيام بما كلف به كما في قوله ﴿ شديد القوى ﴾ ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط الأربع من الماء الأسود وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها ، وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ثم يصعد في أسرع من رد الطرف .

والمعنى أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكينة عند الله سبحانه ، وهو في محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف فلما قدم صار حالاً ، ويجوز أن يكون نعتاً لرسول يقال مكن فلان عند فلان مكانة أي صار ذا منزلة عنده ومكانة قال أبو صالح من مكانته عند ذي العرش أنه يدخل سبعين سرادقاً بغير إذن .

مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ
بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾
لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

ومعنى قوله ﴿ مطاع ﴾ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه ومن طاعتهم له أنهم فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج بقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله .

قال الحسن فرض الله على أهل السموات طاعة جبريل كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ ثَمَّ أمين ﴾ قرأ الجمهور بفتح ثم على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو ما بعد ، والمعنى أنه مطاع في السموات أو أمين فيها أي مؤتمن على الوحي وغيره .

وقرىء بضمها على أنها عاطفة وكأن العطف بها للتراخي في الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها ومن قال أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالمعنى أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة ، مطاع يطيعه من أطاع الله ، أمين على الوحي .

﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ الخطاب لأهل مكة والمراد بصاحبكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للاشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم .

وهذه الجملة داخلة في جواب القسم فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل وأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه .

والمقصود[1] رد قولهم ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ﴿ افترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ لا تعداد فضلها والموازنة بينهما .

ثم إنك إذا أمعنت النظر وقفت على أن إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام إدماج لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه بلغ من المكانة وعلو المنزلة عند ذي العرش بأن جعل السفير بينه وبينه مثل هذا الملك المقرب المطاع الأمين ، فالقول في هذه الصفات بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعة منزلة له كالقول في قوله ذي العرش بالنسبة إلى رفعة منزلة جبريل عليه السلام ، كذا ذكره الكرخي .

﴿ ولقد رآه بالافق المبين ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي وتالله لقد رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم جبريل بمطلع الشمس من قبل المشرق ، لان هذا الافق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين ، لأن من جهته ترى الاشياء وهذه الرؤية هي الواقعة في غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والارض ، وقيل الافق المبين اقطار السماء ونواحيها .

وانما قال سبحانه ذلك مع أنه قد رآه غير مرة لانه رآه هذه المرة في صورته له ستمائة جناح .

قال سفيان : إنه رآه في أفق السماء الشرقي أي لانه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس ، وقال ابن بحر في أفق السماء الغربي ، وقال مجاهد : رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة ، والمبين صفة للافق ، قاله الربيع : وقيل صفة لمن رآه قاله مجاهد .

وقيل معنى الآية ولقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم .

---

(١) جواب سؤال تقريره أن بعضهم استدل بالآية على فضل جبريل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث عد فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأجاب المؤلف العلامة عن هذا بقوله والمقصود رد قولهم الخ أ هـ السيد ذو الفقار .

قال ابن عباس في الآية انما عنى جبريل أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رآه في صورته عند سدرة المنتهى ، والافق المبين السماء السابعة .

﴿ وما هو ﴾ أي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ على الغيب ﴾ يعني خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائباً علمه عن أهل مكة ﴿ بظنين ﴾ أي بمتهم أي هو ثقة فيم يؤدي عن الله سبحانه ، وقيل بضنين بالضاد أي ببخيل ، قاله ابن عباس أي لا يبخل بالوحي ولا يقصر في التبليغ .

وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء أي بمتهم والظنة التهمة واختارها أبو عبيد ، قال لأنهم لم يبخلوه ولكن كذبوه واتهموه .

وقرأ الباقون بالضاد من ضننت بالشيء أضن ضناً إذا بخلت ، قال مجاهد أي لا يضن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه ، وقيل المراد جبريل انه ليس على الغيب بضنين والاول أولى .

وقرأ ابن مسعود بالظاء بمعنى متهم .

وعن عائشة : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأها بالظاء » أخرجه الدارقطني في الافراد والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب ، فإن البخل وما في معناه لا يتعدى بعلى وانما يتعدى بالباء ، .

﴿ وما هو ﴾ أي القرآن ﴿ بقول شيطان رجيم ﴾ طريد من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب ، قال الكلبي يقول أن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش كقوله ﴿ وماتنزلت به الشياطين ﴾ قال عطاء يريد بالشيطان الشيطان الابيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه .

ثم بكتهم الله سبحانه ووبخهم فقال ﴿ فأين تذهبون ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور انه وحي مبين ، وليس مما يقولون في شيء أي

اين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته ، قاله قتادة ، وقال الزجاج : معناه أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم .

وهذا استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في جنبات الطريق اين تذهب وإلى أين تذهب، وحكى الفراء عن العرب ذهبت الشام وخرجت العراق وانطلقت السوق أي اليها قال سمعناه في هذه الاحرف الثلاثة يريد إلى أي أرض تذهب فحذف إلى .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم .

وقوله ﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من العالمين باعادة الجار ومفعول المشيئة ﴿ أن يستقيم ﴾ أي لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة .

﴿ وما تشاؤون ﴾ الاستقامة ﴿ إلا أن ﴾ أي بأن ﴿ يشاء الله ﴾ تلك المشيئة فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه وانهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ وقوله ﴿ ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ وقوله ﴿ انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ والآيات القرآنية في هذا المعنى كثير .

والخطاب هنا ليس للمخاطبين في قوله ﴿ فأين تذهبون ﴾ بل هو لمن عبر عنهم بقوله لمن شاء منكم أن يستقيم ﴿ رب العالمين ﴾ أي مالك الخلق أجمعين .

عن ابي هريرة قال « لما نزلت لمن شاء منكم أن يستقيم قالوا الأمر الينا إن شئنا استقمنا وأن شئنا لم نستقم فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبوا يا محمد ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ اخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه » .

سورة الانفطار

هي تسع عشرة آية وهي مكية بلا خلاف وقال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله. وأخرج النسائي عن جابر قال: «قام معاذ فصلى العشاء فطول فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفتّان انت يا معاذ أين أنت عن سبح اسم ربك.والضحى، واذا السماء انفطرت» وأصل الحديث في الصحيحين ولكن بدون ذكر اذا السماء انفطرت وقد تفرد بها النسائي. وقد تقدم في سورة التكوير حديث «من سره أن ينظر الى يوم القيامة رأي عين فليقرأ اذا الشمس كورت واذا السماء انفطرت الحديث».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ
﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

﴿ اذا السماء انفطرت ﴾ السماء فاعل فعل محذوف يدل عليه المذكور ، قال الواحدي قال المفسرون انفطارها انشقاقها كقوله ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلاً ﴾ والفطر الشق يقال فطرته فانفطر ، ومنه فطر ناب البعير اذا طلع ، قيل والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها وقيل انفطرت لهيبة الله عز وجل .

﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ اي اذا انقضت وتساقطت متفرقة ، يقال نثرت الشيء انثره نثراً ، والانتثار استعارة لازالة الكواكب حيث شبهت بجواهر قطع سلكها وهي مصرحة أو مكنية .

﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أي فجر بعضها من أعلاها أو أسفلها في بعض فصارت بحراً واحداً واختلط العذب منها بالمالح ، وازال ما بينهما من البرزخ الحاجز ، وقال الحسن معنى فجرت ذهب ماؤها ويبست ، قال ابن عباس فجرت بعضها في بعض ، وقيل فاضت .

العامة على بناء فجرت للمفعول مثقلاً ، وقرأ مجاهد مبنياً للفاعل مخففاً من الفجور نظراً الى قوله ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ فلما زال البرزخ بغياً ، وقرأ مجاهد أيضاً والربيع بن خيثم والزعفراني والثوري مبنياً للمفعول مخففاً .

﴿ واذا القبور بعثرت ﴾ أي قلب ترابها الذي أهيل على الأموات وقت الدفن ، وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال بعثر يبعثر بعثرة اذا قلب التراب ، ويقال بعثر المتاع قلبه ظهراً لبطن وبعثرت الحوض وبعثرته اذا هدمته ، وجعلت أعلاه أسفله .

قال الفراء بعثرت أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها ، وقال ابن عباس أي بحثت .

وكررت « اذا » لتهويل ما في حيزها من الدواهي .

قال الرازي المراد من هذه الآيات أنه اذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة فهناك يحصل الحشر والنشر ، وهي ههنا أربعة اثنان منها يتعلقان بالعلويات واثنان يتعلقان بالسفليات .

والمراد بهذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا وانقطاع التكاليف ، والسماء كالسقف ، والأرض كالبناء ، ومن أراد تخريب دار فانه يبدأ أولاً بتخريب السقف ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب ، ثم بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض من البحار ، ثم بعد ذلك تخرب الأرض التي فيها الأموات ، وأشار لذلك بقوله ﴿ واذا القبور بعثرت ﴾

ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدم فقال ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ والمعنى أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث الى عند مصير أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار ، والكلام في افراد نفس هنا كما تقدم في السورة الأولى في قوله :

﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ ومعنى ما قدمت وأخرت ما قدمت من عمل خير أو شر أو أخرت من سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة واجر من عمل بها ، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها .

وقال قتادة ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة ، وقيل ما قدم من فرض وأخر من فرض وقيل أول عمله وآخره .

وقيل أن النفس تعلم عند البعث بما قدمت وأخرت علماً إجمالياً لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصي يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند نشر الصحف .

عن ابن مسعود قال ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها بعده فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً أو سنة سيئة يعمل بها بعده فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً ، وعن ابن عباس نحوه .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم من استن خيراً فاستن به فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استن شراً فاستن به فعليه وزره ومثل أوزاره من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم[١] وتلا حذيفة ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ .

ولما أخبر سبحانه في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على وقوعه فقال :

﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ هذا خطاب للكفار وقال بعضهم المراد بالانسان ما يشمل الكافر والمؤمن العاصي ، قال الشهاب وهذا أرجح كما في الكشف وغيره .

والمعنى ما الذي غرك وخدعك أو جعلك غاراً حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك وجعلك عاقلاً فاهماً ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها ، قال قتادة غره شيطانه المسلط عليه ، وقال الحسن غره شيطانه الخبيث وقيل غره حمقه وجهله .

---

(١) الحاكم ٢/٥١٦ .

وقيل غره عفو الله اذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة كذا قال مقاتل ، وذكر الكريم للمبالغة في المنع من الاغترار ، فإن محض الكرم لا يقتضي اهمال الظالم وتسوية الموالي والمعادي والمطيع والعاصي ، فكيف اذا انضم اليه صفة القهر والانتقام والاشعار بما به يغره الشيطان فانه يقول له افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحداً ولا يعاجل بالعقوبة ، والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجد في طاعته لا الانهماك في عصيانه إغتراراً بكرمه ، وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية وقال : غره والله جهله .

﴿ الذي خلقك ﴾ من نطفة ولم تك شيئاً ﴿ فسواك ﴾ رجلاً تسمع وتبصر وتعقل ﴿ فعدلك ﴾ أي فجعلك معتدلاً قال عطاء جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة وقال مقاتل عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى عدل بين ما خلق لك من الأعضاء .

قرأ الجمهور فعدلك مشدداً وقرىء بالتخفيف واختار الأولى أبو عبيد وأبو حاتم قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليها قوله ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ ومعنى القراءة الأولى أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها ، ومعنى الثانية أنه صرفه وأماله الى أي صورة شاء إما حسناً وإما قبيحاً وإما طويلاً وإما قصيراً .

﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ في أي صورة متعلق بركبك وما مزيدة وشاء صفة لصورة أي ركبك في أي صورة شاءها ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي ركبك حاصلاً في أي صورة .

ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدلك ، واعترض عليه بأن أي لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها ، قال مقاتل والكلبي ومجاهد : في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم ، وقال مكحول ان شاء ذكراً وإن شاء أنثى .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا
هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ
لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة الى الكفر به والمعاصي له أو بمعنى حقاً ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ اضراب عن جملة مقدرة ينساق اليها الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجاوزونه الى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء أو بدين الاسلام .

قال ابن الانباري الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى كلا قبيح ، والمعنى بل تكذبون يا أهل مكة بالدين أي بالحساب وبل لنفي شيء تقدم ، وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم وإن لم يجر له ذكر .

قال الفراء كلا ليس الأمر كما غررت به ، قرأ الجمهور تكذبون بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحتية على الغيبة .

وجملة ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تكذبون أي تكذبون والحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم ، أو مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم ، والحافظون الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها في الصحف .

قال ابن عباس : جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل والنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره .

وهـذا الخطاب وإن كـان مشافهـة إلا أن الأمة أجمعت على عمـوم هـذا الخطاب في حق المكلفين .

وقوله تعالى حافظين جمع يحتمل أن يكونوا حافظين لجميع بني آدم من غيـر أن يختص واحد من المـلائكة بـواحـد من بني آدم ، ويحتمـل أن يكـون الموكل بكل احد منهم غير الموكل بالآحـر ، ويحتمل أن يكـون الموكـل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة كما قيل إثنان بالليل وإثنان بالنهار أو كما قيل أنهم خمسـة ، واختلفوا في الكفـار هل عليهم حفـظة فقيل لا ، لأن أمـرهـم ظـاهـر وعملهم واحد ، قال تعالى ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ وقيل عليهم حفـظة وهو ظاهر قوله تعالى في هـذه الآية وفي قـوله تعـالى : ﴿ وأما من أوتي كتـابه وراء ظهره ﴾ فأخبر أن لهم كتاباً ، وأن عليهم حفظه .

ثم وصفهم سبحانه فقال ﴿ كراماً كاتبين ﴾ أي أنهم كرام لديه يكتبون ما يـأمـرهم بـه من أعمـال العبـاد ﴿ يعلمـون ﴾ على التجـدد والاستقـرار ﴿ مـا تفعلون ﴾ في الآيـة دلالـة على أن الشـاهـد لا يشهـد إلا بعـد العلم لـوصف الملائكة بكونهم ﴿ حافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ فـدل على أنهم يكونون عالمين بها حتى أنهم يكتبـونها فـاذا كتبوهـا يكونـون عالمين عنـد أداء الشهادة .

قـال الرازي المعنى التعجيب من حـالهم كأنـه قال إنكم تكـذبـون بيـوم الدين وملائكة الله موكلون يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ونظيره قوله تعالى ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قـول إلا لديـه رقيب عتيد ﴾ .

وفي تعـظيم الكتبة بـالثناء عليهم تعـظيم لأمر الجـزاء وأنـه عنـد الله من جلائل الأمور فيه انذار وتهويل للمجرمين ، ولطف للمتقين ، وعن الفضيل انه كان اذا قرأها قال ما أشدها من آية على الغافلين .

ثم بين سبحـانه حـال الفريقين فقـال ﴿ إن الأبـرار لفي نعيم ﴾ أي جنـة

﴿ وإن الفجار لفي جحيم ﴾ أي نار ، والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سيقت له وهي كقوله سبحانه ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾

لفظ الفجار عائد على الكافرين الذين تقدم ذكرهم ، وليس شاملاً لعصاة المؤمنين ، لأنا لا نسلم أن مرتكب الكبيرة من المؤمنين فاجر على الاطلاق (فأل) في الفجار للعهد لا الذكرى بدليل قوله ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ .

﴿ يَصْلَوْنها يوم الدين ﴾ صفة لجحيم أو مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما حالهم فقيل يصلونها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار والمجرور ، ومعنى يصلونها أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرها يومئذ .

قرأ الجمهور يصلونها مخففاً مبنياً للفاعل ، وقرىء بالتشديد مبنياً للمفعول .

﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي لا يفارقونها أبداً ولا يغيبون عنها بل هم فيها وقيل المعنى وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرها في قبورهم .

ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ أي يوم الجزاء والحساب ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ كرره تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره وتهويلاً لأمره كما في قوله ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ و ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ والمعنى أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين قال الكلبي الخطاب للانسان الكافر .

ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال ﴿ يوم لا تملك نفس ﴾ من النفوس ﴿ لنفس ﴾ أخرى ﴿ شيئاً ﴾ من النفع والضر ، وملك الشفاعة لبعض الناس إذ ذاك إنما هو بإذن الله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ذكره الحفناوي .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع يوم على أنه بدل من يوم الدين أو خبر مبتدأ محذوف .

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه ﴿ يوم ﴾ بالتنوين والقطع عن الاضافة .

وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير أعني أو أذكر فيكون مفعولاً به أو على أنها فتحة بناء لاضافته الى الجملة على رأي الكوفيين وهو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على أنه بدل من يوم الدين .

قال الزجاج يجوز ان يكون في موضع رفع إلا أنه بني على الفتح لاضافته الى قوله ﴿ لا تملك ﴾ وما أضيف الى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح وإن كان في موضع رفع ، وهذا الذي ذكره إنما يجوز عند الخليل وسيبويه اذا كانت الاضافة الى الفعل الماضي وأما الى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو علي الفارسي والفراء وغيرهما .

﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وحده لا يملك شيئاً من الأمر غيره كائناً من كان . قال مقاتل يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة ، قال قتادة : ليس ثم أحد يقضي شيئاً أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين ، والمعنى أن الله لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً من الأمور كما ملكهم في الدنيا ، ومثل هذا قوله ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ .

سورة المطففين

هي ست وثلاثون آية . قال القرطبي وهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية في قول الحسن وعكرمة . وقال مقاتل أيضا هي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة هي مدنية الا ثمان آيات من قوله : ﴿ ان الذين أجرموا ﴾ الى آخرها . وقال الكلبي وجابر بن زيد نزلت بين مكة والمدينة . وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

وعن ابن عباس قال آخر ما نزل بمكة سورة المطففين . وعنه قال : « لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك » أخرجه ابن مردويه والبيهقي في الشعب . قال السيوطي : بسند صحيح[1] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة ٧٤٨/٢ ، والطبري ٩١/٣٠ ، والواحدي : ٣٣٣ ، وقال الحافظ في « تخريج الكشاف » ٢١٨ : رواه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٢٣/٦ وزاد نسبته إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في « شعب الإيمان » بسند صحيح عن ابن عباس .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

﴿ ويل للمطففين ﴾ ويل مبتدأ ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز ، قال مكي والمختار في ويل وشبهه اذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فان كان مضافاً أو معرفاً كان الاختيار فيه النصب كقوله ﴿ ويلكم لا تفتروا ﴾ والمطفف المنقص ، وحقيقته الأخذ في الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً أي نزراً خفيفاً حقيراً .

قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف وهو القليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن .

قال الزجاج : إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف .

قال أبو عبيدة والمبرد : المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن .

والمراد بالويل هنا شدة العذاب أو نفس العذاب أو الشر الشديد أو هو واد في جهنم .

قال الكلبي « قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وهم يسيئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم فنزلت هذه الآية »[1] .

وقال السدي قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان بها رجل

(١) قال الألوسي و « هم » ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع وهو الواو يعني في «كالوا» .

يقال له أبو جهينة ومعه صاعان ، يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله هذه الآية .

قال الفراء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً الى يومهم هذا .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما نقص قوم العهد إلا سلط الله عليهم العدو ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » وهذا الوعيد يلحق كل من يأخذ لنفسه زائداً أو يدفع الى غيره ناقصاً قليلاً أو كثيراً ، لكن ان لم يتب منه فإن تاب قبلت توبته ، ومن فعل ذلك وأصر عليه كان مصراً على كبيرة من الكبائر ، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون الى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن والزرع ، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن .

ثم بين سبحانه المطففين من هم فقال ﴿ الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ الاكتيال الأخذ بالكيل ، قال الفراء يريد اكتالوا من الناس ، « وعلى » « ومن » في هذا الموضع يعتقبان ، يقال اكتلت منك أي استوفيت منك وتقول اكتلت عليك أي أخذت ما عليك ، قال الزجاج : اذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل .

قال الزمخشري : لما كان اكتيالهم اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل « على » مكان « من » للدلالة على ذلك ، ويجوز أن يتعلق بيستوفون،» وقدم المفعول على الفعل لافادة الخصوصية أي يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها قال السمين : وهو حسن .

ولم يذكر اتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر ، قال الواحدي قال المفسرون : يعني الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا وهو معنى قوله :

﴿ واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي كالوا لهم أو وزنوا لهم

فحـذفت اللام فتعـدى الفعل الى المفعـول فهو من بـاب الحذف والايصـال ، ومثله نصحتك ونصحت لك كذا قال الأخفش والكسائي والفراء .

وقال الفراء : سمعت أعرابية تقـول اذا صدر النـاس أتينا التـاجر فيكيلنـا المـد والمدين الى المـوسم المقبـل ، قـال وهـو من كـلام اهـل الحجـاز ومن جاورهم من قيس .

قال الزجاج : لا يجوز الـوقف على كالـوا حتى يوصـل بالضميـر ، ومن الناس من يجعله تأكيداً أي توكيـداً للضمير المستكن في الفعـل فيجيز الـوقف على كالوا أو وزنوا قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ويقف على كالوا أو وزنوا ثم يقول هم يخسرون ، قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك .

قال ابو عبيد الاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين .

(إحداهما) الخط ولذلك كتبوهما بغير الف ولو كانتا مقطوعتين لكانتـا كالوا أو وزنوا بالألف .

(والأخرى) انه يقال كلتك ووزنتك بمعنى كلتّ لك ووزنت لـك وهو كلام عربي كما يقال صـدتك وصـدت لك وكسبتـك وكسبت لك ، وشكـرتك وشكرت لك ونحو ذلك ، وقيل هو على حذف المضاف وإقـامة المضـاف اليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون اي واذا كالوا مكيلهم أو وزنوا موزونهم ، ومعنى يخسرون ينقصون كقوله ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ والعرب تقول خسرت الميزان وأخسرته .

ثم خوفهم سبحانـه فقال : ﴿ ألا يـظن أولئك أنهم مبعـوثون ﴾ مستـأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف وتفظيعه وللتعجيب من حالهم في الاجتراء عليه ، والاشارة بـأولئك الى المـطففين وما فيـه من معنى البعد لـلاشعار ببعـد درجتهم في الشرارة والفساد .

والمعنى أنهم لا يخـطرون ببالهم أنهم مبعـوثون فمسؤولـون عما يفعلون

قيل والظن هنا بمعنى اليقين أي لا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن ، وقيل الظن على بابه والمعنى إن كانوا لا يستيقنون البعث فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ، ويتركوا ما يخشون من عاقبته ويأخذوا بالأحوط .

﴿ ليوم عظيم ﴾ هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

عن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له قد سمعت ما قال الله في المطففين ، أراد بذلك ان المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن .

ثم زجر عن ذلك اليوم فقال ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين أو لجزائه أو لحسابه أو لحكمه وقضائه ، وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ، ووصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ومزيد إثمه وفظاعة عقابه ، وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وعطاء بل في كل قول وعمل وحال .

وقيل المراد بقوله يوم يقوم الناس قيامهم في رشحهم الى أنصاف آذانهم .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى أنصاف أذنيه »(١)

وقيل المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد ، وقيل المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء ، والأول أولى .

---

(١) رواه مالك والبخاري ٥/٥٣٥ ومسلم ٤/٢١٩ .

وعن ابن عمر قال:قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية « فكيف بكم اذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين الف سنة لا ينظر اليكم » أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس الى الغروب الى أن تغرب ، أخرجه أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه .

وعن ابن مسعود قال « إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً » أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعاً .

وعن ابن عمر أنه قال : « يا رسول الله كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال ألف سنة لا يؤذن لهم » أخرجه الطبراني وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ هنا بكى نحيباً وامتنع عن قراءة ما بعدها .

﴿ كلا ﴾ هي للردع والزجر للمطففين الغافلين عن البعث وما بعده أو بمعنى حقاً . ثم استأنف فقال ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ أظهر في موضع الاضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ، يعني أن كتب اعمال الكفار ﴿ لفي سجين ﴾ وهو ما فسره به سبحانه من قوله :

﴿ وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ﴾ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم أي مسطور ، قيل هو كتاب جامع لأعمال الشر الصادرة من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم به .

وقال قتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب : أنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها وبه قال مجاهد فيكون في الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير محل كتاب مرقوم ، وقال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : لفي حبس وضيق شديد ، والمعنى كأنهم في حبس جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم وهوانهم .

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ
إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾

قال الواحدي ذكر قوم أن قوله ﴿ كتاب مرقوم ﴾ تفسير سجين وهو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب في شيء غلى ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بياناً لكتاب المذكور في قوله ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ على تقدير هو كتاب مرقوم أي مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه .

ويكون المعنى أن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أي ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون للقبائح المختص بالشر ، وهو سجين .

ثم ذكر ما يدل على تهويله وتعظيمه فقال ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ثم بينه بقوله كتاب مرقوم .

قال الزجاج : معنى قوله وما أدراك ما سجين ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك أي في الدنيا قبل نزول الوحي عليك وإنما علمته بالوحي .

قال قتادة : ومعنى مرقوم رقم لهم بشر ، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر وكذا قال مقاتل .

وقد اختلفوا في نون سجين فقيل هي أصلية واشتقاقه من السجن وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق من الخمر والسكر والفسق ، وكذا قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج ، قال الواحدي : وهذا ضعيف لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً ، ويجاب عنه بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة

وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ... ضرباً تواصت به الأبطال سجيناً

وقيل النون بدل من اللام والأصل سجيل مشتقاً من السجل وهو الكتاب ، قال ابن عطية : من قال ان سجيناً موضع ، فكتاب مرفوع على أنه خبر « إن » والظرف وهو قوله لفي سجين ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب ، فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسر السجين ما هو كذا قال الضحاك ، وقوله مرقوم مختوم بلغة حمير ، وأصل الرقم الكتابة .

وقال كعب الأحبار في الآية أن روح الفاجر يصعد بها الى السماء فتأبى السماء أن تقبلها فتهبط بها الى الأرض فتأبى أن تقبلها ، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها الى سجين ، وهو خد إبليس فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم ويوضع تحت خد إبليس[١] وعن ابن عباس قال سجين أسفل الأرضين .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الفلق جب في جهنم مغطى ، وأما سجين مفتوح ، قال ابن كثير هو حديث غريب منكر لا يصح[٢] .

---

(١) هذا من إسرائيليات كعب الأحبار ولا خير فيها .

(٢) قال ابن كثير : والصحيح أن « سجيناً » مأخوذ من السجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كلُّ ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الارض السابعة ، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم ، وهي أسفل السافلين ، كما قال تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال ها هنا : ﴿ كلا إن والأخص الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال تعالى : ﴿ إذا حبس نجـ مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال سجين الأرض السابعة السفلى » .

وأخرج هو عن جابر نحوه مرفوعاً .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك قال لما حضرت كعباً الوفاة أتته ام بشر بنت البراء فقالت إن لقيت إبني فاقرأه مني السلام فقال غفر الله لك يا أم بشر ، نحن أشغل من ذلك ، فقالت أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت وان نسمة الكافر في سجين ، قال بلى قالت فهو ذاك » أخرجه ابن ماجه والطبراني والبيهقي في البعث وعبد بن حميد .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا متصل بقوله ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل .

ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أي بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء والحساب ، والموصول بدل من المكذبين أو صفة .

﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أي فاجر جائر متجاوز في الاثم منهمك في أسبابه ﴿ اذا تتلى عليه آياتنا ﴾ المنزلة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن الكريم ﴿ قال أساطير الأولين ﴾ أي أحاديثهم وأباطيلهم التي زخرفوها والحكايات التي سطرت قديماً جمع أسطورة بالضم أو إسطاره بالكسر ، قرأ الجمهور تتلى بفوقيتين ، وقرىء بالتحتية .

وقوله ﴿كلا﴾ للردع والزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له وقال الحسن : بمعنى حقاً ، وقوله ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ بيان للسبب الذي حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين .

وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، رينا وريوناً وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك ، قال الفراء هو أنها كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب .

قال مجاهد : القلب مثل الكف ورفع كفه فاذا أذنب انقبض وضم إصبعه ، فاذا أذنب ذنباً آخر انقبض وضم أخرى ، حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه ، قال وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابو زيد يقال قد رين بالرجل ريناً اذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به .

وقال ابو معاذ النحوي الرين أن يسود القلب من الذنوب ، والطبع ان يطبع على القلب وهو أشد من الرين ، والاقفال أشد من الطبع .

قال الزجاج : الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ومثله الغين .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن العبد إذا أذنب ذنباً تكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ الخ أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وغيرهم[١] .

---

(١) روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح ، ولفظ النسائي « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

ثم ذكر سبحانه الردع والزجر فقال ﴿ كلا ﴾ وقيل كلا بمعنى حقاً أي حقاً ﴿ انهم ﴾ يعني الكفار ﴿ عن ربهم ﴾ أي عن رؤيته ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لمحجوبون ﴾ لا يرونه أبداً ، قال مقاتل يعني أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون الى ربهم نظر المؤمنين إليه ، قال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته .

قال الزجاج في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، وقال جل ثناؤه ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ فأعلم سبحانه ان المؤمنين ينظرون ، وأعلم ان الكفار محجوبون .

وقيل هو تمثيل لاهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك ، وقال قتادة وابن أبي مليكة : هو أن لا ينظر اليهم برحمته ولا يزكيهم ، وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان والأول أولى .

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ أي لداخلو النار وملازموها غير خارجين منها ، وثم لتراخي الرتبة لأن صلي الجحيم أشد من الاهانة وحرمان الكرامة .

﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم تبكيتاً وتوبيخاً هذا ما كذبتم به في الدنيا وأنكرتم وقوعه فانظروه وذوقوه .

وقوله ﴿ كلا ﴾ للردع والزجر عما كانوا عليه والتكرير للتأكيد .

وجملة ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته ، ويجوز أن تكون كلا بمعنى حقاً فتلخص أن في كل واحدة من الأربعة الواقعة في هذه السورة قولين ، والأبرار هم المطيعون وكتابهم صحائف حسناتهم ، قال الفراء عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له .

ووجه هذا أنه منقول من جمع علي من العلو قال الزجاج : هو أعلى الأمكنة قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين وعشرين وقنسرين قيل هو علم لديوان الخير

الـذي دون فيه مـا عمله الصالحـون وحكى الولـد عن المفسـرين أنـه السمـاء السـابعة . قـال الضحاك ومجـاهـد وقتـادة يعني السمـاء السـابعـة فيهـا أرواح المؤمنين ، وقال الضحاك أيضاً هو سـدرة المنتهى ينتهي اليه كـل شيء من أمر الله لا يعدوها . وقيل هو الجنة وبه قال ابن عباس : وقال قتادة أيضـاً هو فـوق السماء السابعة عند قائمة العـرش اليمنى ، وقيل أن عليين صفـة للملائكـة في الملأ الأعلى كما يقال فلان بني فلان أي في جملتهم ، وقيل هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش مكتوبة فيه أعمالهم وقيل هو قائمة العرش اليمنى وقيل هو مراتب عالية محفوفة بالجلالة وقد عظمها الله وأعلاها .

﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ أي ما أعلمك يا محمد أي شيء عليون ، على جهة التفخيم والتعظيم لعليين .

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمـر ابن عـطية أن ابن عبـاس سأل كعب الأحبـار عن قولـه ﴿ إن كتاب الأبـرار لفي عليين ﴾ قـال « روح المؤمن اذا قبضت عرج بهـا الى السماء ففتـح لها أبـواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى ينتهى بها الى العرش ، وتعرج الملائكة فيخرج لها من تحت العـرش رق فيرقم ويختم ويـوضع تحت العـرش لمعرفـة النجاة لحساب يوم الدين » .

وعن أبي أمـامة ، قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وآلـه سلم « صلاة على إثـر صـلاة لا لغـو بينهمـا كتـاب في عليين » أخـرجــه أحمـد وأبــو داود والطبراني وابن مردويه .

ثم فسره سبحانه بقوله ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أي مسطور ، وقيل مكتـوب فيه أعمالهم أو ما أعد لهم في الآخرة من الكرامة ، وهذا التفسير الآلهي يغني عن تفاسير الخلق ، قال الخطيب مكتوب فيه أن فلاناً آمن من النار ، رقماً يا له من رقم ما أبهاه وأجمله .

والكـلام في هذا كـالكلام المتقـدم في قولـه ﴿ ومـا أدراك مـا سجين ﴾ الخ .

﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) ﴾

وجملة ﴿ يشهده المقربون ﴾ صفة أخرى لكتاب والمعنى أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم ويحفظونه ، وقيل يشهدون بما فيه يوم القيامة لتعظيمه ، والأول من الشهود والثاني من الشهادة .

قال وهب وابن إسحق المقربون هنا إسرافيل فاذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض حتى ينتهى بها الى اسرافيل فيختم عليها . وقال ابن عباس المقربون أهل السماء .

ثم ذكر سبحانه حالهم في الجنة بعد ذكر كتابهم فقال ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أي أن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم لا يقادر قدره ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ الأرائك الأسرة التي في الحجال[1] وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة .

قال الحسن : ما كنا ندري ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة اذا كان فيها سرير ، قال الشهاب الحجلة بفتحتين بيت مربع من الثياب الفاخرة يرخى على السرير يسمى في عرف الناس بالناموسية والمعنى أنهم ينظرون الى ما أعد الله لهم من الكرامات ،

(١) قال الجوهري الحجال جمع حجلة بالتحريك واحدهُ حجال العروس وهو بيت يزين بالثياب والأسرة ذكره الكرخي أ هـ .

كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما ، وقال مقاتل ينظرون الى أهل النار وقيل ينظرون الى وجهه وجلاله .

﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي اذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه في وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والتنعم والرونق .

أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب في الآية قال « عين في الجنة يتوضؤون منها ويغتسلون فتجري عليهم نضرة النعيم » أي بهجة التنعم وطراوته ، والخطاب ، لكل راء يصلح لذلك ، يقال أنضر النبات اذا أزهر ونور قال عطاء وذلك أن الله زاد في جمالهم وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف .

قرأ الجمهور تعرف بفتح الفوقية وكسر الراء ونصب نضرة ، وقرىء بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ورفع نضرة بالنيابة .

﴿ يسقون من رحيق ﴾ خمر خالصة من الدنس فهي بيضاء ﴿ مختوم ﴾ على إنائها لا يفك ختمها الا هم قال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج الرحيق من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده ، والمختوم الذي له ختام .

وقال الخليل : الرحيق أجود الخمر ، وفي الصحاح : الرحيق صفوة الخمر . وقال مجاهد ؛ هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية قال مجاهد : مختوم مطين كأنه ذهب الى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى أنه ممنوع أن تمسه يد الى أن يفك ختمه للأبرار . وقال تعالى : في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنهار من خمر ﴾ والنهر لا يختم عليه فطريق الجمع بينهما أن المذكور في هذه الآية في أوان مختوم عليها لشرفها ونفاستها ، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار :

﴿ ختامه مسك ﴾ أي آخر طعمه اذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك ، وقيل مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته .

والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه .

وقال ابن مسعود : الرحيق الخمر والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك ، وعنه ﴿ مختوم ﴾ ممزوج ﴿ختامه مسك﴾ قال طعمه في ريحه ، وقيل يمزج لهم بالكافور ، ويختم لهم بالمسك .

وقال ابن عباس رحيق خمر ومختوم ختم بالمسك .

عن ابن مسعود قال : ليس بخاتم فيختم به ولكن خلطه بمسك ، ألم تر الى المرأة من نسائكم تقول خلطة من الطيب كذا كذا ، وعن أبي الدرداء ختامه مسك قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها .

قرأ الجمهور ﴿ ختامه ﴾ وقرىء ﴿ خاتمه ﴾ بفتح الخاء قال علقمة أما رأيت المرأة تقول للعطار إجعل خاتمه مسكاً أي آخره ، والخاتم والختام يتقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء ، وقال في الصحاح : والختام الطين الذي يختم به ، وكذا قال ابن زيد .

﴿ وفي ذلك ﴾ الرحيق الموصوف بتلك الصفة ﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ أي فليرغب الراغبون وقيل ان « في » بمعنى الى أي والى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل ، كما في قوله ﴿ لمِثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وأصل التنافس التشاجر على الشيء والتنازع فيه بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه .

يقال نفست الشيء عليه نفاسة أي ضننت به ولم أحب ان يصير اليه ، قال البغوي أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه وينفس به على غيره أي يضن به ، قال عطاء المعنى فليستبق

المستبقـون ، وقال مقـاتل بن سليمـان فليتنازع المتنـازعون ، وذا لا يكـون الا بالمسارعة الى الخيرات ، والانتهـاء عن السيئآت ، وقال الزمخشـري فليرتقب المرتقبون والمعنى في الجميع واحد .

﴿ ومـزاجه ﴾ معـطوف على ختامـه صفة أخـرى لرحيق أي ومـزاج ذلك الـرحيق ﴿ من تسنيم ﴾ وهو شـراب ينصب عليهم من علو وهو أشـرف شراب الجنـة وأصـل التسنيم في اللغـة الارتفـاع فهي عين مــاء تجـري من علو الى أسفل ، ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور .

قال ابن عباس : لما سئل عن هـذا : هذا مما قالـه الله ﴿ فلا تعلم نفس مـا أُخفي لهم من قرة أعين ﴾ وقـال ابن مسعود : عين في الجنـة تمـزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفاً .

ثم بـين سبحانـه ذلك فقـال ﴿ عيناً يشـرب بهـا المقـربـون ﴾ انتصـاب عينـاً عـلى المدح ، وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن يكون عيناً حالاً مع كونهـا جامدة غير مشتقة لاتصافها بقـوله ﴿ يشـرب بها ﴾ وقـال الأخفش أنها منصـوبة بيسقون ، وقال الفراء بتسنيم والأول أولى ، وبه قال المبرد قيـل والباء في بهـا زائدة أي يشربها أو بمعنى « من » أي يشـرب منها قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش .

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقـال ﴿ إن الذين أجـرموا ﴾ وهم كفار قريش كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وأصحابهم من اهـل مكـة ومن وافقهم على الكفـر ، حكى الله عنهم أربعـة أشيـاء من العــلامـات القبيحة أولها :

﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ كعمار وبلال وخبـاب وصهيب وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿ يضحكون ﴾ أي يستهزئون بهم في الدنيا ويسخرون منهم ، وآخرها قولهم ﴿ ان هؤلاء لضالون ﴾ وتقديم الجار والمجرور إما للقصر إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا أو لمراعاة الفواصل .

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

﴿ وإذا مروا بهم ﴾ أي وإذا مر المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم ﴿ يتغامزون ﴾ من الغمز وهو الاشارة بالجفون والحواجب اي يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم وحواجبهم طعناً فيهم وعيباً لهم ، وقيل يعيرونهم بالاسلام ويعيبونهم به .

﴿ واذا انقلبوا ﴾ أي اذا انقلب الكفار من مجالسهم ﴿ الى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي معجبين بما هم فيه متلذذين به يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم ، والانقلاب الانصراف .

قرأ الجمهور فاكهين وقرىء فكهين بغير ألف ، قال الفراء هما لغتان مثل طمع وطامع وحذر وحاذر ، وقد تقدم بيانه في سورة الدخان ان الفكه الأشر البطر والفاكه الناعم المتنعم .

﴿ واذا رأوهم ﴾ أي اذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان ﴿ قالوا ان هؤلاء لضالون ﴾ في اتباعهم محمداً صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر يعني خدع محمد هؤلاء فضلوا وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة من الكرامات فقد تركوا الحقيقة بالخيال ، وهذا هو عين الضلال أو المعنى واذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول ، والأول أولى .

﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أي والحال أنهم لم يرسلوا على

المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم ، بل أمروا بإصلاح أنفسهم ، فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع عورات غيرهم وتسفيه أحلامهم ، وهذا تهكم بهم واشعار بان ما اجترؤا عليه من القول من وظائف الرسل من جهته تعالى .

ويجوز أن يكون ذلك من جملة قول المؤمنين كأنهم ﴿ قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين ﴾ إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم الى الاسلام ، قاله ابو السعود والأول أولى وأظهر .

﴿ فاليوم ﴾ أي يوم الآخر ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ يعني أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب كما ضحك الكفار منهم في الدنيا .

﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أي يضحكون منهم ناظرين اليهم والى ما هم فيه من الحال الفظيع والهوان والصغار بعد العزة والاستكبار ، وقد تقدم تفسير الأرائك قريباً .

قال الواحدي قال المفسرون أن أهل الجنة اذا أرادوا نظروا من منازلهم الى أعداء الله وهم يعذبون في النار فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم في الدنيا .

وقال أبو صالح يقال لأهل النار اخرجوا ويفتح لهم أبوابها فاذا رأوها قد فتحت أقبلوا اليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون اليهم على الأرائك فاذا انتهوا الى ابوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ الخ .

وجملة ﴿ هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوب بمعنى أثيب والمعنى هل جوزي الكفار بما

كانوا يفعلونه بالمؤمنين ، وقيل الجملة في محل نصب بينظرون وقيل هي على إضمار القول أي يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار ، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ، ويطلق على الخير والشر .

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام لام هل في ثاء ثوب ، وقرأ الباقون بترك الادغام .

سورة الانشقاق

هي ثلاث أو خمس وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف . قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

وعن أبي رافع صليت مع أبي هريرة العتمة[1] فقرأ إذا السماء انشقت فسجد فقلت له، فقال سجدت خلف أبي القاسم صلى الله عليه وآله وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه[2] أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة « قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إذا السماء انشقت واقرأ باسم ربك الذي خلق » .

وعن بريدة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر «اذا السماء انشقت ونحوها» أخرجه ابن خزيمة والروياني في مسنده والضياء المقدسي في المختارة .

---

(١) أي العشاء .

(٢) أي سجود التلاوة إذا وصل إلى آية ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أي انصدعت وتفطرت ، فيه حذف ، والتقدير إذا انشقت السماء انشقت لأن إذا الشرطية يختص دخولها بالجمل الفعلية ، وما جاء من هذا ونحوه فمؤول محافظة على قاعدة الاختصاص ، فالسماء فاعل لفعل محذوف .

قال الواحدي قال المفسرون انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها انفطارها بالغمام الأبيض كما في قوله ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ وقيل تنشق من المجرة وبه قال علي بن أبي طالب والمجرة باب السماء ، وأهل الهيئة يقولون أنها نجوم صغار مختلطة غير متميزة في الحس .

واختلف في جواب « إذا » فقال الفراء أنه أذنت ، والواو زائدة . وكذلك ألقت . قال ابن الانباري هذا غلط لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ ومع لما كقوله ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ﴾ ولا تقحم مع غير هذين .

وقيل أن الجواب قوله ﴿ فملاقيه ﴾ أي فأنت ملاقيه . وبه قال الأخفش . وقال المبرد إن في الكلام تقديماً وتأخيراً أي ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ إذا السماء انشقت .

وقال المبرد أيضاً إن الجواب قوله ﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ وبه قال الكسائي ، والتقدير إذا السماء انشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا ، وقيل هو يا أيها الإنسان على إضمار الفاء أو على إضمار القول أي يقال له يا

أيها الإنسان ، وقيل الجواب محذوف تقديره بعثتم أو لاقى كل إنسان عمله . وقيل هو ما صرح به في سورة التكوير أي ﴿ علمت نفس ﴾ ، هذا على تقدير أن « إذا » شرطية ، وقيل ليست بشرطية وهي منصوبة باذكر المحذوف وهي مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة وتقديره وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض .

ومعنى ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أنها أطاعته في الانشقاق ولم تأب ولم تمتنع ، مشتق من الأذن وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه . وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع : وقد استعمل الأذن في الاستماع في أشعار العرب ، وفي الحديث « ما أذن الله لشيء اذنه لنبي يتغنى بالقرآن » قال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذن[1]

وقال الحجار بن حكيم : أذنت لكم لما سمعت هديركم .

وفي المختار أذن له استمع وبابه طرب ، وقيل المعنى وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق أي جعلها حقيقة بذلك ، قال الضحاك حقت أطاعت وحق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال فلان محقوق بكذا . ومعنى طاعتها انها لا تمتنع مما أراده الله بها . قال قتادة حق لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فإن تكن العتبى فأهلاً ومرحبا وحقت لها العتبى لدنيا وقلت

﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أي بسطت كما تبسط الأدم ودكت جبالها وكل

---

(١) البيت لقَعْنَب بن ضمرة بن أم صاحب أم قعنب ، وكان في أيام الوليد ، وهو في «مجاز القرآن » ١/١٧٧ ، و« الطبري » ١١٢/٣٠ . و« السمط » : ٣٦٢ ، و« الاقتضاب » : ٢٩٢ و« شواهد الكشاف » ١٤٣ ، و« القرطبي » ٢٦٧/١٩ ، و« اللسان » أذن ، وأورد بيتاً قبله ، هو :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً مني وما علموا من صالحٍ دفنوا

أمت فيها حتى صارت ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها ، وقيل مدت زيد في سعتها من المدد ، وهو الزيادة ، قال ابن عبّاس : تمد يوم القيامة .

وأخرج الحاكم قال السيوطي بسند جيد عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه »

﴿ وألقت ما فيها ﴾ أي أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها ورمت ﴿ وتخلت ﴾ من ذلك ، قال ابن عباس أخرجت ما فيها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الاحياء ومثل هذا قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ والمعنى تخلت غاية الخلو لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو يقال تكرم الكريم إذا بلغ جهده في الكرم ، وتكلف فوق ما في طبعه ، وذلك يؤذن بعظم الأمر .

وقيل ألقت ما استودعته وتخلت مما استحفظته . ووصفت الأرض بالإلقاء والتخلية توسعاً وإلا فالتحقيق أن المخرج لتلك الأشياء هو الله تعالى .

﴿ وأذنت لربها ﴾ أي سمعت وأجابت وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلي ، وقال ابن عباس سمعت حين كلمها وعنه قال أطاعت وحقت بالطاعة وعنه قال سمعت وأطاعت ﴿ وحقت ﴾ أي وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ، وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا ، وليس تكراراً لأن الأول في السماء وهذا في الأرض ، وتكرير إذا لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة .

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)﴾

﴿ يا أيها الأنسان ﴾ المراد جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر وقيل هو الإنسان الكافر والأول أولى لما سيأتي من التفصيل ﴿ إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ الكدح في كلام العرب السعي في الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شراً ، والمعنى أنك ساع إلى ربك في عملك أو إلى لقاء ربك مأخوذ من كدح جلده إذا خدشه ، قال قتادة والضحاك والكلبي : عامل لربك عملاً ، وفي المختار الكدح العمل والسعي والكد والكسب ، وهو الخدش أيضاً وباب الكل قطع .

﴿ فملاقيه ﴾ أي فملاق عملك وبه قال ابن عباس ، والمعنى أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب ، قال الشهاب : أي ملاق كدحه بنفسه من غير تقدير لوجوده في صحفه ، وعلى هذا فما بعده تفصيل له .

قال القتيبي معنى الآية انك كادح أي عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك لا مفر لك منه ، والملاقاة بمعنى اللقاء أي تلقى ربك بعملك ، وقيل فملاق كتاب عملك لأن العمل قد انقضى .

﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ أي كتاب عمله ﴿ بيمينه ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ سهلاً هيناً لا مناقشة فيه ، قال مقاتل لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب عليها .

وقال المفسرون هو أن تعرض عليه سيئآته ثم يغفرها الله فهو الحساب

اليسير ، وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد يحاسب إلا هلك فقلت أليس يقول الله فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً قال ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

وعنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في بعض صلاته « اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، أنه من نوقش الحساب هلك » أخرجه أحمد وعبد ابن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ، وفي بعض ألفاظ الحديث الأول وهذا الحديث « عُذِّب » مكان هلك .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من كن فيه يحاسبه الله حساباًيسيراً ، ويدخله الجنة برحمته: تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك » أخرجه البزار والطبراني في الأوسط والبيهقي والحاكم .

﴿ وينقلب ﴾ أي يرجع وينصرف بنفسه بعد الحساب اليسير من غير مزعج برغبة وقبول ﴿ إلى أهله ﴾ الذين أهل بهم في الجنة من عشيرته أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة أو إلى من أعده الله له في الجنة من الحور العين والولدان المخلدين أو إلى جميع هؤلاء ﴿ مسروراً ﴾ مبتهجاً فرحاً بما أوتي من الخير والكرامة .

﴿ وأما من أوتي كتابه ﴾ بشماله و﴿ وراء ظهره ﴾ قال الكلبي لأن يمينه مغلولة إلى عنقه وتكون يده اليسرى خلفه وقال قتادة ومقاتل تفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أي ينادي هلاكه ويتمنى فإن نداء ما لا يعقل يراد به التمني فالدعاء بمعنى الطلب بالنداء ، والمعنى إذا قرأ كتابه قال يا ويلاه يا ثبوراً ، والثبور الهلاك ، وقال ابن عباس ثبوراً الويل .

﴿ ويصلى سعيراً ﴾ أي يدخلها ويقاسي حر نارها وشدتها ، قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم يصلى بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام ، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديدها ، وقرىء بضم الياء واسكان الصاد من أصلى يصلي .

﴿ إنه كان في أهله ﴾ أي عشيرته في الدنيا ﴿ مسروراً ﴾ باتباع هواه وركون شهوته بطراً أشراً لعدم خطور الآخر بباله أي كان لنفسه متابعاً ، وفي مراتع هواه راتعاً ، والجملة تعليل لما قبلها .

﴿ إنه ظن ﴾ أي علم وتيقن ﴿ أن لن يحور ﴾ تعليل لكونه كان في الدنيا بين أهله مسروراً والمعنى أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده لدار الآخرة ، وأن هي المخففة من الثقيل سادَّة مع ما في حيزها مسد مفعولي ظن ، والحور في اللغة الرجوع يقال حار يحور إذا رجع وقال الراغب الحور التردد في الأمر ، ومحاورة الكلام مراجعته والمحار المرجع والمصير .

قال عكرمة وداود بن أبي هند : « يحور » كلمة بالحبشية ومعناها يرجع ، قال القرطبي : الحور في كلام العرب الرجوع ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم أني أعوذ بك من الحور بعد الكور » يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفي المثل حور في محار أي نقصان في نقصان ، والحور أيضاً الهلكة ، قال ابن عباس : يحور يبعث ويرجع .

﴿ بلى إن ربه كان به بصيراً ﴾ أي كان به وبأعماله عالماً لا يخفى عليه منها خافية ، وبلى إيجاب للمنفي بان أي بلى ليحورن وليبعثن ، وأن ربه جواب قسم مقدر فالجملة بمنزلة التعليل لما أفادته بلى ، قال الزجاج كان به بصيراً قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ لا زائدة كما تقدم في امثال هذه العبارة وقد قدمنا الخلاف فيها في سورة القيامة فارجع إليه .

أقسم بمخلوقاته تشريفاً لها وتعريضاً للاعتبار بها ، والشفق الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة ، قال الواحدي : هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعاً ، قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمراً ، وحكاه القرطبي عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء .

وقال أسد بن عمرو وأبو حنيفة رحمه الله : في إحدى الروايتين عنه أنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع ، قال الخليل الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة .

قال في الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا[1] .

وقال مجاهد : الشفق النهار كله ، ألا تراه قال ﴿ والليل وما وسق ﴾

---

(١) أخرجه الدارقطني في « سننه » ص ١٠٠ ، وصحح البيهقي وقفه ، وقال في « المعرفة » : روي هذا الحديث عن عمر ، وعلي ، وابن عباس ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وأبي هريرة ، ولا يصح عن النبي ﷺ فيه شيء ، وذكره السيوطي في « الدر » موقوفاً على ابن عمر ، وعزاه إلى عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه .

وقال عكرمة هو ما بقي من النهار ، وإنما قالا هذا لقوله بعده ﴿ والليل وما وسق ﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا على أنه قد روي عن عكرمة أنه قال الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء ، وروي عن أسد بن عمرو الرجوع ، وعن عمر بن الخطاب قال الشفق الحمرة، وعن ابن عباس نحوه ، وعن أبي هريرة الشفق النهار كله .

وقال الراغب الشفق اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس ، وقال الزمخشري الشفق الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء إلا ما يروى عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين أنه البياض وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه انتهى ، وسمي شفقاً لرقته ومنه الشفقة على الإنسان وهي رقة القلب عليه .

﴿ والليل وما وسق ﴾ أي جمع ما دخل عليه من الدواب وغيرها ، والوسق عند أهل اللغة ضم الشيء بعضه إلى بعض يقال استوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت والراعي يسقها أي يجمعها ، قال الواحدي : المفسرون يقولون وما جمع وضم وحوى ولف .

والمعنى أنه جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار في تصرفه وذلك الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه ، وقال عكرمة وما وسق أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوي فجعله من السوق لا من الجمع ، وقيل وما وسق أي وما جن ما ستر ، وقيل وما حمل وكل شيء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول لا احمله وما وسقت عيني الماء أي حملته ووسقت الناقة تسق وسقاً أي حملت .

قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : وما وسق وما حمل من الظلمة أو حمل من الكواكب ، قال القشيري ومعنى حمل ضم وجمع والليل يحمل بظلمته كل شيء ، وقال سعيد بن جبير وما وسق أي وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالاسحار ، والأول أولى ، وقال ابن عباس : ما وسق ما دخل فيه وعنه ما جمع .

﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أي اجتمع وتكامل ، قال الفراء : اتساقه امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة ورابع عشرة إلى ست عشرة ، وهو افتعل من الوسق الذي هو الجمع ، قال الحسن اتسق امتلأ واجتمع ، وقال قتادة استدار يقال وسقته فاتسق كما يقال وصلته فاتصل ، ويقال أمر فلان متسق أي مجتمع منتظم ، ويقال اتسق الشيء إذا تتابع ، قال ابن عباس اتسق استوى ، وعنه قال ليلة ثلاث عشرة .

﴿ لتركبن ﴾ أيها الناس ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ حالاً بعد حال ، هذا جواب القسم ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقاً مجاوزاً لطبق ، أو على الحال من ضمير لتركبن أي مجاوزين أو مجاوزاً ، قرىء بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له ، وقرىء بضم الموحدة خطاباً للجمع وهم الناس . قال الشعبي ومجاهد لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، قال الكلبي يعني تصعد فيها وهذا على القراءة الأولى ، وقيل درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله ورفعة المنزله .

وقيل المعنى لتركبن حالاً بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها في الشدة ، وقيل المعنى لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً ، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ واختار أبو حاتم وأبو عبيدة القراءة الثانية قالا لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقرأ عمر رضي الله عنه ليركبن بالتحتية وضم الموحدة على الإخبار ، وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة وفتح الموحدة أي ليركبن الإنسان ، وروي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهي لغة ، وقرىء بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس .

وقيل أن معنى الآية ليركبن القمر أحوالاً من سرار واستهلال وهو بعيد ،

قال مقاتل : طبقاً عن طبق يعني الموت والحياة ، وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ . وعن ابن مسعود : قال يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر ، وعنه قال : السماء تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتنشق فتكون حالاً بعد حال ، وقيل يعني الشدائد وأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ، وقيل «لتركبن سنن من كان قبلكم» كما ورد في الحديث الصحيح .

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من احوال يوم القيامة الموجبة للإيمان والسجود أو من غيرها على الإختلاف السابق ، والمعنى أي شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك من التغيرات العلوية والسفلية الدالة على خالق عظيم القدرة .

﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ الجملة في محل نصب على الحال أي أيّ مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن ، قال الحسن وعطاء والكلبي ومقاتل ما لهم لا يصلّون ، وقال أبو مسلم المراد الخضوع والاستكانة . وقيل المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة ، وقد وقع الخلاف على هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الدليل على السجود ، وهذه السجدة آخر سجدات القرآن عند الشافعي ومن وافقه .

﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب . وقال مقاتل : بما يكتمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع فيه ، ويقال وعاء حفظه وعيت الحديث أعيه وعياً ومنه ﴿ أذن واعية ﴾ وقال ابن عباس يوعون يسرون .

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم المؤلم الموجع ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الاستثناء منقطع لأن الموصول مبتدأ ، والجملة خبره والاستثناء من قبيل المفردات أي لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ﴿ لهم أجر ﴾ عند الله ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص ، يقال مننت الحبل إذا قطعته ، قال المبرد : المنين الغبار لأنه يقطعه وراءه وكل ضعيف منين وممنون ، وقيل المعنى أنه لا يمن عليهم به وقيل متصل وليس بذلك لأن الضمير راجع إلى الذين كفروا ، والذين كفروا قد وضع موضع المظهر للاشعار بأنهم لا يؤمنون ولا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم لأنهم كافرون مكذبون .

قال أبو السعود استئناف مقرر لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته الثواب العظيم .

سورة البروج

هي اثنتان وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة. وعن أبي هريرة «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج. والسماء والطارق» أخرجه أحمد وعن جابر بن سمرة أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء والطارق والسماء ذات البروج» أخرجه أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والسماء ذات البروج ﴾ قد تقدم الكلام في البروج عند قوله ﴿ هو الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : هي النجوم والسماء ذات النجوم ، وقال عكرمة ومجاهد أيضاً هي قصور في السماء وبه قال ابن عباس ، وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن ، وقال أبو عبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هي المنازل للكواكب وهي إثنا عشر برجاً لاثني عشر كوكباً وهي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، قيل وهي منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة ولها الثور والميزان ، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر وله السرطان ، والشمس ولها الأسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو .

والبروج في كلام العرب القصور ، ومنه قوله ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها ، وقيل هي أبواب السماء . وقيل هي منازل القمر ، وأصل البرج الظهور سميت بذلك لظهورها .

وعن جابر بن عبدالله « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السماء ذات البروج فقال الكواكب ، وسئل عن قوله ﴿جعل في السماء بروجاً﴾ قال الكواكب وعن قوله ﴿في بروج مشيدة﴾ قال القصور » أخرجه ابن مردويه .

﴿ واليوم الموعود ﴾ أي الموعود به وهو يوم القيامة قال الواحدي : في قول جميع المفسرين ، وبه قال ابن عباس .

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ نكرهما دون بقية ما أقسم به لاختصاصهما من بين الأيام بفضيلة ليست لغيرهما فلم يجمع بينهما وبين البقية بلام الجنس . وهذا جواب أيضاً عما يقال لم خصصهما بالذكر دون بقية الأيام ؟ وإنما لم يعرفا بلام العهد لأن التنكير أدل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ والمراد بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب .

وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود يوم عرفة لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج وتحضره الملائكة ، قال الواحدي وهذا قول الأكثر ، قال ابن عباس : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وهو الحج الأكبر .

فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله وأحب الأعمال إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، أخرجه ابن مردويه .

وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى ، وقال سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة ، وقال النخعي : الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر : وقيل الشاهد هو الله سبحانه ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير لقوله ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ وقوله ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ .

وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ وقوله ﴿ يا أيها الرسول إنا أرسلناك شاهداً ﴾ وقوله ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وقيل الشاهد جميع

الأنبياء لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ .

وقيل هو عيسى ابن مريم لقوله ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ .

والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو أمم الأنبياء أو أمة عيسى .

وقيل الشاهد آدم والمشهود ذريته ، وقال محمد بن كعب : الشاهد الإنسان لقوله ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وقال مقاتل أعضاؤه لقوله ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾ .

وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم لقوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقيل الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم « وقيل الأيام والليالي ، وقيل الشاهد الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه . وسيأتي بيان ما هو الحق .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة» وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذ منه » أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه .

وعن أبي هريرة رفعه « قال الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة والمشهود هو الموعود يوم القيامة » أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه[1] .

---

(١) رواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وفي سنده موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » ، وقال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن =

وعن علي بن أبي طالب اليوم الموعود يوم القيامة والمشهود يوم النحر والشاهد يوم الجمعة .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » أخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه .

وعن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية « الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » أخرجه ابن عساكر وابن مردويه ، وعن أبي هريرة مثله موقوفاً .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا مرسل من مراسيله أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » أخرجه ابن ماجه والطبراني وابن جرير .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال في الآية الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سأله عن قوله ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال هل سألت أحداً قبلي قال نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا يوم الذبح ويوم الجمعة قال لا ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم قرأ ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ ﴿ ذلك يوم مشهود ﴾ وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما في الآية قال الشاهد جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشهود يوم القيامة ثم تلا ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ ﴿ ذلك يوم مشهود ﴾ .

وعن ابن عباس قال اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد محمد صلى الله عليه

= عبيدة ، وموسى بن عبيدة : يضعف في الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه ، وقال ابن كثير : وروى هذا الحديث ابن خزيمة من طرق عن موسى بن عبيدة الربذي ، وهو ضعيف ، وقد روي موقوفاً على أبي هريرة ، وهو أشبه .

وسلم والمشهود يوم القيامة ثم تلا ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود .

وعنه قال الشاهد الله والمشهود يوم القيامة .

قلت وهذه التفاسير عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم ، واستدل من استدل منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود ، فجعله دليلاً على أنه المراد بالشاهد والمشهود في هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين في هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذي ذكر في آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا وشاهد ومشهود هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل ذلك .

فإن قلت هل في المرفوع الذي ذكرته من حديثي أبي هريرة وحديث أبي مالك الأشعري وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود والشاهد والمشهود .

قلت أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التي ذكر فيها بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفي حديث الأشعري أنه يوم الجمعة ، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني .

وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة وفي حديث جبير أنه يوم عرفة ، وكذا في حديث سعيد ، فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة ، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدمنا أنه

وقع الإجماع على أنه يوم القيامة .

﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ هذا جواب القسم واللام فيه مضمرة وهو الظاهر ، وبه قال الفراء وغيره وقيل تقديره لقد قتل فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية والظاهر أنها دعائية لأن معنى قتل لعن ، قال الواحدي : في قول الجميع والدعائية لا تكون جواباً للقسم فقيل الجواب قوله ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ وقيل قوله ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ وبه قال المبرد واعترض عليه بطول الفصل .

وقيل هو مقدر يدل عليه قوله قتل أصحاب الأخدود كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم .

وقيل تقدير الجواب أن الأمر حق في الجزاء ، وقيل تقدير الجواب لتبعثن ، واختاره ابن الانباري .

وقال أبو حاتم السجستاني وابن الانباري أيضاً في الكلام تقديم وتأخير أي ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال والله قام زيد .

وعن ابن مسعود قال : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ إلى قوله ﴿ شاهد ومشهود ﴾ هذا قسم على ﴿ أن بطش ربك لشديد ﴾ إلى آخرها ، والأخدود جمع خد وهو الحق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد ومنه الخد لمجاري الدموع والمخدة لأن الخد يوضع عليها ، ويقال تخدد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح .

أخرج عبد الرازق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي والطبراني عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن انظروا لي غلاماً فهماً أو قال فطناً لقناً فأعلمه علمي فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ، ولا يكون فيكم من يعلمه قال فنظروا له على

ما وصف فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه فجعل الغلام يختلف إليه وكان على طريق الغلام راهب في صومعة فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به فلم يزل به حتى أخبره فقال إنما أعبد الله فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ، ويبطىء عن الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني ، فأخبر الغلام الراهب بذلك فقال له الراهب إذا قال لك أين كنت فقل عند أهلي ، وإذا قال لك أهلك أين كنت فأخبرهم أني كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة يقال أنها كانت أسداً فأخذ الغلام حجراً فقال اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً فأسألك أن أقتل هذا الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها ، ثم رمى فقتل الدابة فقال الناس من قتلها قالوا الغلام ففزع الناس وقالوا قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له إن أنت رددت عليّ بصري فلك كذا وكذا فقال الغلام لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك قال نعم ، فدعا الله فرد عليه بصره فآمن الأعمى فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فالقوه من رأسه فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرّق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك إنك لن تقتلني حتى تصلبني وترميني وتقول إذا رميتني بسم الله رب الغلام ، فأمر به فصلب ثم رماه وقال بسم الله رب الغلام فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ، فقال الناس لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد ، فإنا نؤمن برب هذا الغلام ، فقيل للملك

أجزعت أن خالفك ثلاثة فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال فخد أخدوداً ثم ألقي فيها الحطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار ، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود ، فقال يقول الله ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ﴾ حتى بلغ ﴿ العزيز الحميد ﴾ فأما الغلام فإنه دفن ثم أخرج فيذكر أنه خرج في زمن عمر بن الخطاب وإصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل .

ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف ، وقد رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب .

وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به .

وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به .

وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به .

وعن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ قال هم الحبشة أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وعن ابن عباس « قال هم ناس من بني إسرائيل خدوا اخدوداً في الأرض أوقدوا فيه ناراً ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء فعرضوا عليها » أخرجه ابن جرير وقال مقاتل كانت الأخاديد ثلاثة واحدة بنجران باليمن وأخرى بالشام . وأخرى بفارس ، حرق أصحابها بالنار فأما التي بالشام فهو أبطاموس الرومي ، وأما التي بفارس فبختنصر ، ويزعمون أنهم أصحاب دانيال ، وأما التي باليمن فذو نواس .

فأما التي بالشام وفارس فلم ينزل الله فيهم قرآنا وأنزل في التي بنجران اليمن وذلك لأن هذه القصة كانت مشهورة عند أهل مكة فذكرها الله تعالى لأصحاب رسوله يحملهم بذلك على الصبر وتحمل المكاره في الدين .

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧
وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟
فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ
يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾

﴿ النار ذات الوقود ﴾ قرأ الجمهور النار بالجر على أنها بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل عليها وحينئذ فلا بد من ضمير مقدر أي النار فيه وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة والوقود الحطب الذي توقد به ، وقيل هو بدل كل من كل ، وقيل أن النار مخفوضة على الجوار حكاه مكي عن الكوفيين .

قرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرىء بضمها وبرفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي النار أو على أنها فاعل فعل محذوف أي أحرقتهم النار .

﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ العامل في الظرف قتل أي لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ويقرب إليها ، قال مقاتل يعني عند النار قعود يعرضونهم على الكفر ، وقال مجاهد كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود ، قال زاده عبر عن القعود على حافة النار بالقعود على نفس النار للدلالة على أنهم حال قعودهم على شفيرها مستولون عليها يقذفون فيها من شاؤوه ويخلون سبيل من شاؤوه .

﴿ وهم ﴾ أي الذين خدّدوا الأخدود وهم الملك وأصحابه ﴿ على ما يفعلون بالمؤمنين ﴾ بالله تعالى من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم ﴿ شهود ﴾ أي

حضور أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به ، وقيل يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، وقيل على بمعنى مع والتقدير وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من الإحراق شهود لا يرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم ، هذا هو الذي يستدعيه النظم وتنطق به الروايات المشهورة

قال الزجاج أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله ، وفيه حث للمؤمنين على الصبر وتحمل أذى أهل الكفر والعناد .

روي أن الله أنجى المؤمنين الملقين في النار وكانوا سبعة وسبعين بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار إلى من ثم فأحرقتهم ، وهؤلاء لم يرجعوا عن دينهم ، والذين رجعوا عشرة أو أحد عشر ، ولم يرد نص بتعيين عدد أصحاب الأخدود .

﴿ وما نقموا منهم ﴾ قرأ الجمهور نقموا بفتح النون ، وقرىء بكسرها والفصيح الفتح في المختار نقم الأمر كرهه ، وبابه ضرب ونقم من باب فهم لغة أي ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال ، قال الزجاج ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم ، وهذا كقوله ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بآيات ربنا ﴾ وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله :

لاعيب فيهم سوى أن النزيل بهم ... يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكلة عينها ... كذاك عتاق الطير شكلاً عيونها

وقول الآخر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ثم وصف سبحانه بما يدل على العظم والفخامة فقال ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ ومن كان هذا شأنه فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا تخفى عليه منه خافية ، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين .

ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الـذين فعلوا بالمؤمنـين ما فعلوا من التحريق فقال ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي حرقوهم بالنار ، والعرب تقول فتنت الشيء أي أحرقته وفتنت الدرهم والدينار إذا أدخلته النار لتنظر جودته ، ويقال دينار مفتون ويسمى الصائغ الفتان ، ومنه قوله ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي يحرقون وقيل معنى فتنوا المؤمنين محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه .

قال الرازي : ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك ، قال وهذا أولى ، لأن اللفظ عام والحكم بالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ من قبح صنعهم ولم يرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ﴿ فلهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب جهنم ﴾ بسبب كفـرهم ﴿ ولهم ﴾ عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم وهو ﴿ عذاب الحريق ﴾ الذي وقع منهم للمؤمنين . وقيل أن الحريق إسم من أسماء النار كالسعير وقيل أنهم يعذبون في جهنم بالزمهريـر ، ثم يعذبون بعذاب الحريق فالأول عذاب ببردها ، والثاني عذاب بحرها .

وقال الربيع بن أنس أن عذاب الحريق أصيبوا به في الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبي ، ومفهوم الآية انهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد ، وإنما عبر سبحانه بأداة التراخي لأن التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان .

ثم لما ذكر سبحانه وعيد المجرمين أتبعه بذكر ما أعده للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وظاهر الآية العموم

فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولاً أولياً ، والمعنى أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ لهم ﴾ بسبب الإيمان والعمل الصالح ﴿ جنات تجري من تحتها ﴾ أي تحت أسرتها وغرفها وجميع أماكنها ﴿ الأنهار ﴾ يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا .

وقد تقدم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات في غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجري الأنهار من تحتها واضح وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها وأرضها .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره مما أعده الله لهم ﴿ الفوز الكبير ﴾ الذي لا يعدله فوز ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز الظفر بالمطلوب ، وما في « ذلك » من معنى البعد للإيذان بعلو درجته في الفضل والشرف .

﴿ إن بطش ربك ﴾ بالكفار ﴿ لشديد ﴾ بحسب إرادته قاله الجلال المحلي، وفيه إشارة إلى الرد على الفلاسفة القائلين بأنه موجب بالذات ، وقد نطق القرآن بأنه فعال لما يريد ، والجملة مستأنفة لخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه ، والمعنى أن أخذه تعالى للجبابرة والظلمة شديد ، والبطش الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم . ومثل هذا **قوله**: ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ .

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ أي يخلق الخلق أولاً في الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت كذا قال الجمهور ، وقيل يبدىء للكفار عذاب الحريق في الدنيا ثم يعيده لهم في الآخرة ، واختار هذا ابن جرير والأول أولى ، وقال ابن عباس : يبدىء العذاب ويعيده انتهى ، ومن كان قادراً على الإيجاد والاعادة إذا بطش كان بطشه في غاية الشدة ، وبهذا ظهر التعليل بهذه الجملة لما سبق من شدة البطش .

وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أي بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه ، قال مجاهد الواد لأوليائه فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد معنى الودود الرحيم ، وحكى المبرد عن إسماعيل القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له ، وقيل الودود بمعنى المودود أي يوده عباده الصالحون ويحبونه كذا قال الأزهري .

قال ويجوز أن يكون فعولاً بمعنى فاعل أي يكون محباً لهم ، قال وكلتا الصفتين مدح لأنه جل ذكره إن أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه ، قال ابن عباس : الودود الحبيب .

وقالت المعتزلة غفور لمن تاب ، وقال أصحاب السنة غفور مطلقاً لمن تاب ومن لم يتب ، لأن الآية مذكورة في معرض التمدح بكونه غفوراً مطلقاً أتم ، فالحمل عليه أولى ، ولأن الغفور صيغة مبالغة فالمناسب أن يحمل على الإطلاق . قاله زاده .

﴿ ذو العرش المجيد ﴾ قرأ الجمهور برفع المجيد على أنه نعت لذو ، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم قالا لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك .

وقرىء بالجر على أنه نعت للعرش ومجده علوه وعظمته .

وقدم وصف سبحانه عرشه بالكرم كما في آخر سورة المؤمنين ، قال ابن عباس : المجيد الكريم ، قيل أن العرش أحسن الأجسام ، وقيل هو نعت

لربك ، ولا يضر الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه ، وقال مكي : هو خبر بعد خبر . والأول أولى . ومعنى ذو العرش ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه ، وقيل المراد خالق العرش .

﴿ فعال لما يريد ﴾ من الإبداء والاعادة ، قال عطاء لا يعجز عن شيء يريده ولا يمتنع منه شيء طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف لأنه نكرة محضة ، قال ابن جرير : رفع فعال وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب ﴿ الغفور الودود ﴾

وإنما قال : « فعال » لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة ، والإرادة هنا تكوينية فيكون فيه دلالة على خلق أفعالهم ، وختم به الصفات لأنه كالنتيجة للأوصاف السابقة .

قال الكرخي : نكره لضرب من التعظيم تتلاشى عنده الأوهام والعقول ، قال بعضهم : وفيه دلالة على أنه لا يجب عليه شيء لأنها دالة على أن فعله بحسب إرادته ، ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال :

﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ والجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من شدة بطشه سبحانه وكونه فعالاً لما يريد ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة الطاغية في الأمم الخالية المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها .

ثم بيّنهم فقال ﴿ فرعون وثمود ﴾ وهو بدل من الجنود ، فالمراد بفرعون هو وقومه والمراد بثمود القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد والضلال ، وما وقع عليهم من العذاب والنكال ، وقصتهم مشهورة ، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب ، وعند مشركي العرب ودل بهما على أمثالهما .

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره صلى الله عليه

وآله وسلم إضراباً إنتقالياً لمن تقدم ذكرهم وبيّن أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ شديد لك ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار .

﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك لا عاصم لهم منه ، والاحاطة بالشيء الحصر له من جميع جوانبه فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط .

ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي متناه في الشرف والكرم والبركة والنفع ، معجز بنظمه عالي الطبقة من بين الكتب ، وحيد في النظم والمعنى لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا وليس هو كما يقولون أنه شعر وكهانة وسحر .

﴿ في لوح محفوظ ﴾ أي مكتوب في لوح وهو أم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين اليه ، قرأ الجمهور لوح بفتح اللام واتفق عليها القراء وقرأ الجمهور محفوظ بالجر على أنه نعت للوح وقرىء برفعه على أنه نعت للقرآن ، أي ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ محفوظ في لوح ، قيل والمراد باللوح بضم اللام الهواء والفضاء الذي فوق السماء السابعة ، وبه قال أبو الفضل وكذا قال ابن خالويه .

وقال في الصحاح اللوح بالضم الهواء بين السماء والأرض ، وعن ابن عباس قال « أخبرت أن لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر » وأن ذلك اللوح نور ، وأنه مسيرة ثلمائة سنة » أخرجه ابن المنذر ، وعن انس ان اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في الآية في جبهة اسرافيل .

وأخرج أبو الشيخ قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال : «خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق اكتب علمي في خلقي ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

سورة الطارق

هي سبع عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن خالد العدواني « أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي النصر عندهم. فسمعه يقرأ ﴿ والسماء والطارق ﴾ حتى ختمها قال فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام. قال فدعتني ثقيف فقالوا ماذا سمعت من هذا الرجل. فقرأتها فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا. لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه » أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه والطبراني وابن مردويه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ
ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾

﴿ والسماء والطارق ﴾ أقسم سبحانه بالسماء والطارق ، وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر والنجوم ، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة ، والطارق هو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل .

قال الواحدي : قال المفسرون أقسم الله بالطارق يعني الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار ، قال الفراء : الطارق النجم لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلاً فهو طارق ، وكذا قال الزجاج والمبرد .

وقد اختلف في الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ، فقيل هو زحل وقيل الثريا وقيل هو الذي ترمى به الشياطين ، وقيل هو جنس النجم ، قال في الصحاح : والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح .

قال الماوردي : أصل الطروق الدق فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق ، ثم اتسع به في كل ما ظهر بالليل كائناً ما كان ، ثم اتسع كل التوسع حتى أطلق على الصور الخالية البادية بالليل .

وقال قوم إن الطروق قد يكون نهاراً والعرب تقول أتيتك اليوم طرقتين أي مرتين ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير » قال ابن عباس أقسم ربك بالطارق وكل شيء طرقك بالليل فهو طارق .

ثم بين سبحانه ما هو الطارق تفخيماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ وفيه تنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك

الخلق ، فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم .

﴿ النجم الثاقب ﴾ أي المضيء ومنه يقال ثقب النجم ثقوباً إذا أضاء وثقوبه ضوؤه ، قال مجاهد : الثاقب المتوهج وقيل المرتفع العالي ، قال سفيان : كل ما في القرآن « وما أدراك » فقد أخبره ، وكل شيء قال « ما يدريك » لم يخبره به .

وقيل هو نجم في السماء السابعة وهو زحل لا يسكنها غيره من النجوم ، وإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة ، فهو طارق حين ينزل وحين يصعد .

ولم يقل : والنجم الثاقب ، مع أنه أخصر وأظهر فعدل عنه تفخيماً لشأنه فأقسم أولاً بما يشترك فيه هو وغيره وهو الطارق ، ثم فسره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله كأنه قيل ما هو فقيل هو النجم الثاقب .

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض جيء به لتأكيد فخامة القسم المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها ، وقد تقدم في سورة هود اختلاف القراء في « لما » فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدر وهو اسمها ، واللام هي الفارقة و « ما » مزيدة ، وهذا كله تفريع على قول البصريين أي أن الشأن كل نفس لعليها حافظ .

ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، قيل والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشر ، وقيل الحافظ هو الله عز وجل .

وعدى حافظ بعلى لتضمينه معنى القيام ، فإنه تعالى قائم على خلقه

بعلمه واطلاعه على أحوالهم وقيل هو العقل يرشدهم إلى المصالح ويكفهم عن المفاسد ، والأول أولى لقوله ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ وقوله ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ وقوله ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ والحافظ في الحقيقة هو الله عز وجل كما في قوله ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ وقوله ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ فإن الممكنات كما تحتاج إلى الواجب لذاته في وجودها تحتاج إليه في بقائها ، وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم يحفظونه بأمره .

﴿ فلينظر الإنسان ﴾ الفاء للدلالة على أن كون حافظ على كل نفس يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث ، قال مقاتل يعني المكذب بالبعث ﴿ مم خلق ﴾ أي من أي شيء خلقه الله ، والمعنى فلينظر نظر التفكر والإستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته .

ثم بيّن سبحانه ذلك فقال ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والماء هو المني والدفق الصب ، يقال دفقت الماء أي صببته ويقال ﴿ ماء دافق ﴾ أي مدفوق مثل ﴿ عيشة راضية ﴾ أي مرضية .

قال الفراء والأخفش أي مصبوب في الرحم ، قال الفراء وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم سر كاتم أي مكتوم وهم ناصب أي منصوب وليل نائم ونحو ذلك .

قال الزجاج : من ماء ذي اندفاق يقال دارع وقايس ونابل أي ذو درع وقوس ونبل ، يعني من صيغ النسب كلابن وتامر ، وهو صادق على الفاعل والمفعول أو هو مجاز في الأسناد ، فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة أو هو استعارة مكنية وتخييلية أو مصرحة بجعله دافقاً لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أي يدفعه كما أشار له ابن عطية .

وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما .

﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾

ثم وصف هذا الماء فقال ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ أي صلب الرجل وترائب المرأة وهي جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر ، والولد لا يكون إلا من الماءين ، قرأ الجمهور يخرج مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول ، وفي الصلب وهو الظهر لغات قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة بضمها ، وقرأ اليماني بفتحهما ، ويقال صالب على وزن قالب ومنه قول العباس بن عبد المطلب * تنقل من صالب إلى رحم * في أبياته المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم كلام في هذا عند تفسير قوله ﴿ الذين من أصلابكم ﴾ وقيل الترائب ما بين الثديين .

وقال الضحاك : ترائب المرأة اليدان والرجلان والعينان وقال : سعيد بن جبير هي الجيد ، وقال مجاهد هي ما بين المنكبين والصدر ، وروي عنه أنه قال : هي الصدر ، وعنه قال هي : التراقي ، وحكى الزجاج أن الترائب عصارة القلب ومنه يكون الولد ، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر والنحر ، قال عكرمة الترائب الصدر .

قال في الصحاح التريبة واحدة الترائب وهي عظام الصدر ، قال أبو عبيدة جمع التريبة تريب ، وحكى الزجاج أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر ، وأربع أضلاع من يسرة الصدر .

قال قتادة والحسن المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة ، وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي من العرب يكون معنى من بين الصلب من الصلب ، وقيل إن ماء الرجل ينزل من الدماغ .

ولا يخالف هذا ما في الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والترائب ، وقيل أن المنى يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما في الآية لأن نسبة خروجه إلى ما بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها .

قال ابن عباس في الآية : ما بين الجيد والنحر ، وعنه قال : تريبة المرأة وهي موضع القلادة وعنه الترائب ما بين ثدي المرأة وعنه الترائب أربع أضلاع من كل جانب من أسفل الاضلاع ، قال ابن عادل أن الولد يخرج من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ، ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم .

﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ الضمير في « إنه » يرجع إلى الله سبحانه بدلالة قوله ﴿ خلق ﴾ عليه ، فان الذي خلقه هو الله سبحانه ، والضمير في رجعه عائد إلى الإنسان ، والمعنى أن الله سبحانه على اعادة الإنسان بالبعث بعد الموت لقادر ، هكذا قال جماعة من المفسرين .

وقال مجاهد : على أن يرد الماء في الإحليل ، وقال عكرمة والضحاك على أن يرد الماء في الصلب ، وقال مقاتل بن حيان يقول إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة وقال ابن زيد إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر ، والأول أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبي والقرطبي . قال ابن عباس : على أن يجعل الشيخ شاباً والشاب شيخاً .

﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ العامل في الظرف على تفسير الأول هو رجعه ، وقيل لقادر ، واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم ، وقيل العامل فيه مقدر أي يرجعه أو اذكر فيكون مفعولاً به .

وأما على قول من قال أن المراد رجع الماء فالعامل فيه اذكر ، والمعنى تختبر وتعرف وتكشف السرائر التي تسر في القلوب من العقائد والنيات

وغيرها ، وقيل يظهر الخبايا وقيل يبدي كل سر فيكون زيناً في وجوه ، وشيناً في وجوه ، والمراد هنا عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغث من السمين ، وفي المختار السر الذي يكتم وجمعه أسرار ، والسريرة مثله والجمع سرائر .

﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ أي فما للأنسان من قوة ومنعة في نفسه يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره مما نزل به ، قال عكرمة هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر ، قال سفيان القوة العشيرة والناصر الحليف والأول أولى .

﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ أي التي ترجع بالدوران إلى الموضع الذي تتحرك عنه ، قال الزجاج : الرجع المطر ، لانه يجيء ويرجع ويتكرر ، قال الخليل الرجع المطَر نفسه ، والرجع نبات الربيع .

قال الواحدي : الرجع المطر في قول جميع المفسرين ، وفي هذا نظر فإن ابن زيد قال الرجع الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء تطلع من ناحية وتغيب في ناحية ، وقال بعض المفسرين ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد ، وقال بعضهم معناه ذات النفع .

ووجه تسمية المطر رجعاً ما قاله القفال أنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعاً ، وقيل إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب تحمل الماء من بحار الأرض ثم ترجعه إلى الأرض ، وقيل سمته العرب رجعاً لاجل التفاؤل ليرجع عليهم وقيل لان الله يرجعه وقتاً بعد وقت ، وقال ابن عباس الرجع المطر بعد المطر .

﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر والأنهار والعيون ، والصدع الشق لانه يصدع الأرض فتنصدع له قال أبو عبيدة والفراء : تتصدع بالنبات ، قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه وقيل ذات الحرث لانه يصدعها ، وقيل ذات

الاموات لانصداعها عنهم عند البعث .

والحاصل أن الصدع إن كان اسماً للنبات فكأنه قال والأرض ذات النبات ، وان كان المراد به الشق فكأنه قال والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه ، وقال ابن عباس صدعها عن النبات وعنه قال تصدع الاودية .

وعن معاذ بن أنس مرفوعاً قال « تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات » ، اخرجه ابن منده والديلمي .

قال الرازي إنه تعالى كما جعل كيفية خلقه الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد ، ذكر في هذا القسم كيفية خلقه النبات ، فقوله تعالى ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ كالأب وقوله ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ كالأم ، وكلاهما من النعم العظام لان نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء مكرراً ، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك .

وجواب القسم الثاني قوله ﴿ إنه لقول فصل ﴾ أي أن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما كما قيل له فرقان ، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم الجازم ، ويقال هذا قول فصل أي قاطع للشر والنزاع ، وقال ابن عباس فصل حق .

﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي لم ينزل القرآن الكريم باللعب فهو جد كلمة ليس بالهزل ، والهزل ضد الجد ، فيجب أن يكون مهيباً في الصدور ، ومعظماً في القلوب ، يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ، وقال ابن عباس بالهزل بالباطل .

﴿ انهم يكيدون كيداً ﴾ أي يمكرون في إبطال ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين الحق ، قال الزجاج يخاتلون النبي صلى الله عليه وسلم ويظهرون ما هم على خلافه ، وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا فيه وقيل الكيد القاء الشبهات كقولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾

﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ وما أشبه ذلك .

﴿ وأكيد كيداً ﴾ أي أستدرجهم من حيث لا يعلمون وأجازيهم جزاء كيدهم ، قيل هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والاسر ، وقيل كيد الله لهم نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم وإعلاء درجته ، تسمية لإحدى المتقابلين بالاسم الآخر كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ .

﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي أخرهم ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم والدعاء عليهم باهلاكهم فإنّا لا نعجل لان العجلة وهي ايقاع الشيء في غير وقته اللائق به نقص ، وارض بما يريده لك في أمورهم ﴿ أمهلهم ﴾ بدل من مهل ومهل ، وأمهل بمعنى مثل نزل وأنزل ، والامهال الانظار ، وتمهل في الامر اتأد ، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ، وانتصاب ﴿ رويداً ﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور أو نعت لمصدر محذوف أي أمهلهم امهالاً رويداً أي قليلاً أو قريباً .

وقد أخذهم الله تعالى ، ونسخ الامهال بآية السيف والامر بالقتال والجهاد ، قال أبو عبيدة الرويد في كلام العرب تصغير الرود والرود المهل ، وقيل تصغير أرواد مصدر أرود تصغير الترخيم ، ويأتي اسم فعل نحو : رويد زيداً أي أمهله ويأتي حالاً نحو سار القوم رويداً أي متمهلين ذكر معنى هذا الجوهري والبحث مستوفى في علم النحو .

سورة الأعلى

ويقال سورة سبح وهي تسع عشرة آية هي مكية في قول الجمهور، وقال الضحاك مدنية، وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير وعائشة مثله.

وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال «أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله عليه وآله وسلم قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وسورة مثلها[1].

---

(١) روى البخاري في «صحيحه» ٥٣٧/٨ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ (يعني المدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ في سور مثلها أهـ. وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بها وبسورة الغاشية في صلاة الجمعة والعيدين ووتر العشاء، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلاَّ صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى»؟.

وعن علي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحب هذه السورة سبح اسم ربك الأعلى» أخرجه أحمد والبزار وابن مردويه أي لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات الحسان.

وأخرج احمد ومسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾و﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ وان وافق يوم جمعة قرأهما جميعاً» وفي لفظ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وفي الباب أحاديث.

وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر سبح اسم ربك الأعلى».

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبيّ بن كعب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بـ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ وقل يا أيها الكافرون ﴾ ﴿ وقل هو الله أحد ﴾.

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بسبح وفي الركعة الثانية ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثالثة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين».

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ هلا صليت بـ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ والليل اذا يغشى ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ أي نزهه عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه ، قال السدي : أي عظمه قيل والإسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، قال ابن جرير المعنى نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون لفظة « اسم » على هذا مقحمة وقيل المعنى نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت له خاشع معظم ولذكره محترم ، وقال الحسن معنى سبح صل له وقيل المعنى صل بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية وقيل المعنى ارفع صوتك بذكر ربك ومنه قول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما سبح الحجيج وكبروا تكبيرا

وقال جماعة من الصحابة والتابعين قل سبحان ربي الأعلى ، وقيل معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون ، فعلى هذا يكون الإسم صلة ، والأعلى صفة للرب ، وقيل للاسم ، والأول أولى .

وعن عقبة بن عامر الجهني قال لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم ، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه ولا مطعن في إسناده » .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى » أخرجه أحمد والطبراني وابن مردويه

والبيهقي ، وقال أبو داود خولف فيه وكيع فرواه شعبة عن أبي إسحق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً ، واخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عنه أنه « كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى » .

وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى فقل سبحان ربي الأعلى ، وعن علي بن أبي طالب « أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة فقيل له أتزيد في القرآن قال لا إنما أمرنا بشيء فقلته » .

وعن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى .

وعن سعيد بن جبير قال سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى .

وكذلك هي في قراءة أُبيّ بن كعب وعن عمر أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى وعن ابن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة .

وقوله ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ صفة أخرى للرب قال الزجاج خلق الإنسان مستوياً ، ومعنى سوى عدل قامته وحسن خلقه ، قال الضحاك خلقه فسوى خلقه وقيل خلق الأجساد فسوى الأفهام وقيل خلق الإنسان وهيأه للتكليف والقيام بأداء العبادات وقيل خلق في أصلاب الآباء وسوى في أرحام الأمهات .

وقيل خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم حكيم أو سوّاه على ما فيه منفعة ومصلحة وقيل خلق كل ذي روح فسوى اليدين والرجلين والعينين .

وقوله ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ صفة أخرى للرب او معطوف على الموصول الذي قبله ، قرىء قدر مخففاً ومثقلاً ، قال الواحدي قال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها .

وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والسعادة والشقاوة ، وروي عنه أيضاً أنه قال : قدر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الانعام لمراعيها وقيل قدر أرزاقهم وأقواتهم وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً .

وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له وقيل خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها ، وقال السدي : قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر ، وأقل وأكثر ثم هداه للخروج من الرحم .

قال الفراء أي قدر فهدى وأضل ، فاكتفى بأحدهما .

وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى إلا بدليل يدل عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين إما على البدل أو على الشمول ، والمعنى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه .

ولما ذكر ما يختص بالناس أتبعه بما يختص بالحيوان فقال ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ صفة أخرى للرب أي أنبت العشب وما ترعاه الدواب والنعم من النبات الأخضر .

﴿ فجعله غثاء ﴾ أي فجعل المرعى بعد أن كان أخضر هشيماً يابساً جافاً بالياً كالغثاء الذي يكون فوق السيل ، وفي القاموس الغثاء القماش والزبد والهالك البالي من ورق الشجر ، قال قتادة الغثاء الشيء اليابس ، ريقال للبقل والحشيش إذا انحطم ويبس « غثاء » وهشيم ، قال الكسائي غثاء حال من المرعى أي أخرجه أحوى من شدة الخضرة والري فجعله غثاء بعد ذلك .

﴿ أحوى ﴾ أي اسود بعد اخضراره ، وذلك أن الكلأ إذا يبس أسود ، والأحوى مأخوذ من الحوة وهي سواد يضرب إلى الخضرة ، وقيل خضرة عليها سواد ، وفي القاموس الحوة سواد إلى خضرة أو حمرة إلى السواد ، حوى كرضى حوى ، قال في الصحاح والحوة أي بالضم حمرة الشفة ، قال ابن عباس غثاء هشيماً أحوى متغيراً ، وقال ابن زيد وهذا مثل ضربه الله للكفار بذهاب الدنيا بعد نضارتها .

﴿ سنقرئك ﴾ أي سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القـراءة ، والسين إمـا للتأكيد وإما لأن المراد إقراء ما أوحى الله إليه حينئذ وما سيوحي إليه بعد ذلك ، فهو وعد باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء ﴿ فلا تنسى ﴾ ما نقـرأه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة لكافة خلقه ، وهو هدايته صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ القرآن وتلقي الوحي ، وهدايته للناس أجمعين .

قيل هو نفي ، وقيل نهي والألف اشباع ، ومنع مكي أن يكون نهياً لأنه لا ينهى عما ليس باختياره ، وهذا غير لازم إذ المعنى أن النهي عن تعاطي أسباب النسيان وهو شائع فسقط ما قاله .

قال مجاهد والكلبي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت هذه الآية فلم ينس شيئاً بعد ذلك .

وعن ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى فقيل له قد كفيناك ذلك ، ونزلت هذه الآية » وعن سعد بن أبي وقاص نحوه .

وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين :

﴿ الأول ﴾ أنه كان رجلاً أمياً فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة

ولا تكرار خارق للعادة فيكون معجزة .

﴿ الثاني ﴾ أن هذه السورة من أول ما نزل بمكة فهذا إخبار عن أمر عجيب مخالف للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع فكان هذا إخباراً فيكون معجزاً .

وقوله ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه ، قال ابن عباس يقول إلا ما شئت أنا فأنسيك .

قال الفراء وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيأ كقوله ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ وقيل إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك فإذن قد ينسى ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً ، وقيل هو بمعنى النسخ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، وأما ما نسخت تلاوته فقط أو حكمه فقط فلا يصح أن تنساه للاحتياج إلى تلاوته في الأول ، وإلى حكمه في الثاني .

وقيل المعنى فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه ، وقيل إلا ما شاء أن يؤخر إنزاله ، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة والايذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات .

﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ تعليل لما قبله أي يعلم ما ظهر وما بطن ، والاعلان والاسرار ، وظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل ان الجهر ما حفظه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أنْ الجهر هو إعلان الصدقة وما يخفى هو أخفاؤها .

ويدخل تحته أيضاً ما قيل ان الجهر جهره صلى الله عليه وسلم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى ما في نفسه مما يدعوه إلى الجهر .

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا
ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾
وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ ونيسرك لليسرى﴾ معطوف على سنقرئك كما ينبىء عنه الالتفات إلى الحكاية فهو داخل في حيز التنفيس ، وما بينهما اعتراض وارد للتعليل .

قال مقاتل : أن نهون عليك عمل الجنة ، وقيل نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل ، وقيل للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السهلة السمحة البيضاء التي ليلها كنهارها ، وقيل نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به .

والأولى حمل الآية على العموم أي نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك ، ولهذه النكتة قال ﴿ نيسرك ﴾ ولم يقل نيسر لك أي لإفادة انك موفق لها ، وقال ابن عباس لليسرى للخير ، وقال ابن مسعود للجنة .

﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ أي عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير، واهدهم إلى شرائع الدين ، قال الحسن تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر .

قال الواحدي : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث مبلغاً للإعذار والإنذار فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع ، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ : قال الجرجاني : التذكير واجب وان لم ينفع فالمعنى ان نفعت الذكرى أو لم تنفع ، وقيل انه مخصوص في قوم بأعيانهم ، وقيل ان بمعنى ما أي فذكر ما نفعت الذكرى لأن الذكرى

نافعة بكل حال وقيل انها بمعنى (قد) ذكره ابن خالويه وهو بعيد جداً ، وقيل انها بمعنى اذ .

وما قاله الواحدي والجرجاني أولى وقد سبقهما إلى القول به الفراء والنحاس والزهراوي قال الرازي : قوله ﴿ ان نفعت الذكرى ﴾ للتنبيه على أشرف الحالين وهو وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى والمعلق بإن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ويدل عليه آيات منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ومنها قوله ﴿ ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ﴾ فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه ، ومنها قوله ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ والمراجعة جائزة بدون هذا الظن .

فهذا الشرط فيه فوائد منها ما تقدم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكر كما يقول الرجل لمن يرشد ، قد أوضحت لك أن كنت تعقل ، وهو تنبيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا في تكرير الدعوة فأما الدعاء الأول فهو عام انتهى .

ثم بيّن سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال: ﴿ سيذَّكر ﴾ أي سيتعظ بوعظك ، والسين بمعنى سوف ، وسوف من الله واجب كقوله سنقرئك فلا تنسى ﴿ من يخشى ﴾ الله فيزداد بالتذكير خشية وصلاحاً .

﴿ ويتجنبها ﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها فلا يقبلها ﴿ الأشقى ﴾ من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه في معاصيه .

ثم وصف الأشقى فقال ﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾ أي العظيمة الفظيعة لأنها أشد حراً من غيرها . قال الحسن النار الكبرى نار جهنم والنار الصغرى نار الدنيا ، وقال الزجاج هي السفلى من أطباق النار ، وقيل أن في الاخرة نيراناً ودركات متفاضلة ، فكما أن الكافر أشقى العصاة فكذا يصلى

أعظم النيران .

﴿ ثم لا يموت فيها ﴾ فيستريح مما هو فيه من العذاب ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عناها ولا تحيى حياة لها طعم

وثم للتراخي في مراتب الشدة لأن التردد بين الموت والحياة أفظع من صلي النار الكبرى .

ولما ذكر تعالى وعيد من أعرض عن النظر في دلائل الله أتبعه بالوعد لضده فقال ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي نال الفوز من تطهر من الشرك فآمن بالله ووحده وعمل بشرائعه ، قال عطاء والربيع من كان عمله زاكياً نامياً ، وقال قتادة : تزكى بعمل صالح ، وقال عطاء وقتادة وأبو العالية نزلت في صدقة الفطر ، قال عكرمة كان الرجل يقول أقدم زكاتي بين يدي صلاتي ، وأصل الزكاء في اللغة النماء .

وقيل المراد بالآية زكاة الأموال كلها . وقيل المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكى لا تزكى ، قال ابن عباس : من تزكى من قال لا إلّه إلا الله .

وعن عوف عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية » أخرجه البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه وابن مردويه ، وفي لفظ قال « سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن زكاة الفطر فقال ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال هي زكاة الفطر » وكثير بن عبدالله ضعيف جداً[1] قال أبو داود وهو ركن من أركان الكذب وقد صحح الترمذي حديثاً من طرقه وخطىء في ذلك .

ولكن يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري « قد كان

(١) أحد رجال إسناد هذا الحديث ولم يذكره المؤلف اقتصاراً .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر » .

وليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول بل فيهما أنه صلى الله عليه وسلم تلا الآية ، وقوله هي زكاة الفطر يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكي ، وقد قدمنا أن السورة مكية ولم يكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة .

وعن أبي سعيد الخدري في الآية قال « أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد وخرج إلى العيد فصلى » وعن ابن عمر قال إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد ، وعن عطاء قال قلت لابن عباس أرأيت قوله ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ للفطر قال لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها ، ثم عاودته فقال لي : والصدقات كلها .

﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قيل المعنى ذكر اسم ربه بالخوف فعبده وصلى له ، وقيل ذكر اسم ربه بلسانه وكبر للافتتاح فصلى أي فأقام الصلوات الخمس ، وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة عطفت عليها وهو يقتضي المغايرة ، على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل ، قاله النسفي وفيه نظر ، وقيل ذكر موقفه ومعاده فعبده وهو كالقول الأول .

وقيل ذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره وهو قوله الله أكبر ، وقيل ذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى ، وقيل هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة ، وقيل المراد بالصلاة هنا صلاة العيد كما أن المراد بالتزكي في الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة .

عن جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال « من شهد أن لا إله إلا الله وقطع الأنداد وشهد أني

رسول الله ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها » أخرجه ابن مردويه ، وقال البزار لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه وعن ابن عباس قال من تزكى من الشرك ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ قال وحد الله فصلى قال الصلوات الخمس .

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق وينساق إليه الكلام أي أنتم لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية العاجلة الكائنة في الدنيا على الدار الآخرة الآجلة الباقية فلا تفعلون ما به تفلحون .

قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب للكفار فقط أو لمطلق الناس ، ويؤيدها قراءة أبيّ بل أنتم تؤثرون وقرىء بالتحتية على الغيبة وعلى هذا يكون الضمير راجعاً للأشقى ، قيل والمراد بالآية الكفرة والمراد بالايثار للحياة الدنيا هو الرضا بها والاطمئنان إليها والاعراض عن الآخرة بالكلية .

وقيل المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر ، والمراد بإيثارها هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من إيثار جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات .

وعن عرفجة الثقفي قال استقرأت ابن مسعود ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فلما بلغ ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه فقال آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم فقال آثرنا الدنيا لأن رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وقال ﴿ بل يؤثرون الحياة الدنيا ﴾ بالياء .

قال عرفجة عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة قلنا لا ، قال لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساءها ولذاتها وبهجتها ، وأن الآخرة تغيبت وزويت عنا فأصبنا العاجل وتركنا الآجل .

﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أي والحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل وأدوم من الدنيا ، لأنها تشتمل على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، ولأن الدنيا لذاتها مخلوقة بالآلام ، والآخرة ليست كذلك ، ولأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني .

قال مالك بن دينار لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى .

﴿ إن هذا ﴾ أي ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده ، وقيل إنه إشارة إلى جميع السورة ﴿ لفي الصحف الأولى ﴾ أي ثابت فيها قال النسفي وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة ، لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة انتهى .

قال الخطيب : لم يُرد تعالى أن هذه الالفاظ بعينها في تلك الصحف بل معناه أن معنى هذا الكلام في تلك الصحف وفيه بعد لأن أبا حنيفة قد رجع عنه وعليه الإعتماد عند الحنفية وعليه الفتوى منهم وقد وصف الله سبحانه القرآن بكونه عربياً فلا يتم هذا الإستدلال .

﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ بدل من الصحف الأولى قال قتادة وابن زيد يريد بقوله ﴿ إن هذا : والآخرة خير وأبقى ﴾ وقالا تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا وقال الحسن تتابعت كتب الله عز وجل إن هذا لفي الصحف الأولى ، وهو قوله ﴿ قد أفلح ﴾ إلى آخر السورة .

قرأ الجمهور صحف بضم الحاء في الموضعين ، وقرىء بسكونها فيهما ، وقرأ الجمهور « إبراهيم » بالألف بعد الراء وبالياء بعد الهاء ، وقرىء بحذفهما وفتح الهاء ، وقرأ أبو موسى وابن الزبير إبراهام بألفين .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هي كلها في صحف إبراهيم وموسى » أخرجه البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن

مردويه ، وعنه في الآية قال « نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى » وفي لفظ « هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى » .

وعن أبي ذر قال : قلت « يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال مائة كتاب وأربعة كتب » الحديث وأخرجه عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر .

سورة الغاشية

هي ست وعشرون آية وهي مكّية بلا خلاف . وعن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا
حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ قال جماعة من المفسرين هل هنا بمعنى قد ، وبه قال قطرب أي قد جاءك يا محمد ، حديث الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها ، وقيل أن بقاء (هل) على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في حيزه والتشويق الى استماعه أولى .

وقد ذهب الى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين ، وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ وقيل الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها ويقتحمونها ، والأول أولى .

قال الكلبي المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك قال ابن عباس : الغاشية من أسماء القيامة وعنه قال الغاشية الساعة ، وفي المصباح الغشاء الغطاء ويقال أن الغشى يعطل القوى المحركة والأوردة الحساسة لضعف القلب بسبب وجع شديد أو برد أو جوع مفرط ، وقيل الغشي هو الاغماء وقيل الإغماد امتلاء بطون الدماغ من بلغم بارد غليظ وقيل الاغماء سهو يلحق الانسان مع فتور الأعضاء لعلة ، وغشيته أغشاه من باب تعب أتيته ، والاسم الغشيان بالكسر .

وجملة ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما هو أو مستأنفة استئنافاً نحوياً لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفات المذكورة ، ووجوه مرتفع على الابتداء وإن كان نكرة لوقوعه في مقام التفصيل ، وقد تقدم مثل هذا في سورة القيامة وفي سورة النازعات .

والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف اليه أي يوم غشيان الغاشية ، والخاشعة الذليلة الخاضعة وكل متضائل ساكن يقال له خاشع ، يقال خشع الصوت إذا خفي ، وخشع في صلاته إذا تذلل ونكس رأسه ، والمراد بالوجوه هنا أصحابها قال المحلي عبر بها عن الذوات في الموضعين أي بالجزء عن الكل ، وخص الوجه لأنه أشرف أعضاء الانسان ولأن الذل يظهر عليه أولاً دون غيره ، قال مقاتل يعني الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله ، قال قتادة وابن زيد خاشعة في النار .

وقيل أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص ، والأول أولى ، وفي البحر : الآية نزلت في القسيسين وعباد الأوثان ، وفي كل مجتهد في كفر .

﴿ عاملة ﴾ أي أنها تعمل عملاً شاقاً ، قال أهل اللغة يقال للرجل إذا دأب في سيره عمل يعمل عملاً ، ويقال للسحاب إذا دام برقه قد عمل يعمل عملاً ، قيل وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال والخوض في النار والصعود والهبوط في تلالها ووهادها .

﴿ ناصبة ﴾ أي تعبة يقال نصب بالكسر ينصب نصباً إذا تعب ، والمعنى أنها في الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله ، وقيل أن قوله ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة أي تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي ، وتنصب في ذلك ، وقيل انها ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا ﴿ ناصبة ﴾ في الآخرة ، والأول أولى .

قال قتادة عاملة ناصبة تكبرت في الدنيا عن طاعة الله فأعملها الله

وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب فاعملها وانصبها في جهنم ، قال الكلبي : يجرون على وجوههم في جهنم ، وقال أيضاً يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار كما تخوض الابل في الوحل .

قال ابن عباس : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ تعمل وتنصب ، وعنه قال يعني اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها ، قرأ الجمهور ﴿ عاملة ناصبة ﴾ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ أو على تقدير مبتدأ وهما خبران له ، وقرىء بنصبهما على الحال أو على الذم .

وقوله ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ خبر آخر للمبتدأ أي تدخل ناراً متناهية في الحر ، يقال حمى النار وحمى التنور أي اشتد حرهما ، قال الكسائي يقال اشتد حمى النهار وحموه بمعنى ، والمعنى قد أحميت وأوقد عليها مدة طويلة ، وفي الحديث « أحمى عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة » .

قرأ الجمهور تصلى بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرىء بضمها مبنياً للمفعول وبضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام ، والضمير راجع الى الوجوه على جميع هذه القراآت السبعية ، والمراد أصحابها كما تقدم .

وهكذا الضمير في ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي متناهية في الحر ، والآني الذي قد انتهى حره من الايناء بمعنى التأخر ، يقال آناه يؤنيه إيناء أي أخره وحبسه ، كما في قوله ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ قال الواحدي

قال المفسرون لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت ، قال ابن عباس هي التي قد طال أينها وقال أيضا قد أنى غليانها ، وعنه قال انتهى حرها .

ولما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ هو نوع من الشوك لا ترعاه دابة لخبثه يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً فإذا يبس فهو الضريع ، كذا قال مجاهد ، وقتادة وغيرهما من المفسرين ، قيل وهو سم قاتل ، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه ، وقيل هو شيء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس ، فاذا رعت منه الابل لا تشبع وتهلك هزالاً . قال الخليل الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر ، وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول .

وقال سعيد بن جبير : الضريع الحجارة وقيل هو شجرة في نار جهنم ، وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون الى الله بالخلاص منه ، فسمي بذلك لأن آكله يتضرع إلى الله في أن يعفى عنه لكراهته وخشونته ، قال النحاس : قد يكون مشتقاً من الضارع وهو الذليل أي من شربه تلحقه ضراعة وذلة ، وقال الحسن أيضاً هو الزقوم وقيل هو واد في جهنم .

وقد تقدم في سورة الحاقة ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ﴾ والغسلين غير الضريع كما تقدم ، وجمع بين الآيتين بأن النار دركات ، والعذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الزقوم ، فلا تناقض بين هذه الآيات .

قال ابن عباس الضريع الشبرق ، وقال أيضاً شجر من نار ، وعنه قال الشبرق اليابس .

لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ ۝١٥

ثم وصف سبحانه الضريع فقال : ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ أي لا يسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه ما به من الجوع يعني هما منفعتا الغذاء وكلاهما منتفيان عنه .

قال المفسرون : لما نزلت ليس لهم طعام الخ قال المشركون إن إبلنا تسمن من الضريع فنزلت ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ وكذبوا في قولهم هذا فإن الابل لا تأكل الضريع ولا تقربه ، وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع .

قال أبو السعود وتحقيق ذلك أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة الى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب ، ويستغنى بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة ويستفيد منهما قوة وسمناً عند انهضامهما ، بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند إضرام النار في أحشائهم الى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب ، وأما أن يكون لهم شوق الى مطعوم ما أو التذاذ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادة قوة فهيهات .

وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم الى شيء مائع بارد يطفئه من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة في الجملة ، وهو المعنى بما روي أنه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم

الى أكل الضريع . فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم الى شرب الحميم فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم .

وتنكير الجوع للتحقير أي لا يغني من جوع ما .

ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أي ذات نعمة وبهجة فى لين العيش ، وهي وجوه المؤمنين صارت ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم وما أعده الله لهم من الخير الذي يفوق الوصف ، ومثله قوله ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ والمراد بالوجوه هنا أصحابها كما تقدم .

ثم قال ﴿ لسعيها راضية ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها .

﴿ في جنة عالية ﴾ أي عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة أو عالية القدر لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية ونصب لاغية أي لا تسمع أنت أيها المخاطب أو لا تسمع تلك الوجوه وقرىء بضم التحتية مبنياً للمفعول ورفع لاغية ، وقرىء بالفوقية مضمومة ورفع لاغية وقرىء بفتح التحتية مبنياً للفاعل ونصب لاغية . واللغو الكلام الساقط .

قال الفراء والأخفش : أي لا تسمع فيها كلمة لغو قيل المراد بذلك الكذب والبهتان والكفر ، قاله قتادة وقال مجاهد أي الشتم ، وقال الفراء لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب ، قال الكلبي لا تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة ، وقال الفراء أيضا لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم ، وهذا أرجح الأقوال لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص .

ولاغية إما صفة موصوف محذوف أي كلمة لاغية أو جماعة لاغية أو

نفس لاغية أو مصدر أي لا تسمع فيها لغواً قال ابن عباس لا تسمع أذى ولا باطلاً .

﴿ فيها عين جارية ﴾ قد تقدم في سورة الانسان أن فيها عيوناً ، والعين هنا بمعنى العيون كما في قوله ﴿ علمت نفس ﴾ ومعنى جري العين أنها تجري مياهها على وجه الأرض في غير أخدود تتدفق بأنواع الأشربة المستلذة لا ينقطع جريها أبداً ، قال الكلبي لا أدري بماء أو بغيره .

﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أي عالية مرتفعة السمك أو عالية القدر أو شريفة الذات قال ابن عباس بعضها فوق بعض .

﴿ وأكواب موضوعة ﴾ قد تقدم أن الأكواب جمع كوب وأنه القدح الذي لا عروة له ولا خرطوم أي انها موضوعة بين أيديهم يشربون منها أو معدة لأهلها أو موضوعة على حافات العين الجارية أو موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الكبر والصغر كقوله ﴿ قدروها تقديراً ﴾ .

﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ هي الوسائد قال الواحدي في قول الجميع واحدتها نمرقة بضم النون وزاد الفراء سماعاً عن العرب نمرقة بكسرها وهما لغتان أشهرهما الأولى ، قال الكلبي وسائد مصفوفة بعضها الى بعض ، ومنه قول الشاعر :

كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

قال في الصحاح : النمرق والنمرقة وسادة صغيرة وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب وقال ابن عباس : نمارق مجالس ، وعنه قال : مرافق ، وقيل مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على موسدة واستند الى الأخرى ، قال الواحدي مصفوفة أي فوق الطنافس .

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ
﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ
مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ يعني البسط العراض الفاخرة واحدها زربى وزربية قال أبو عبيدة والفراء الزرابي الطنافس التي لها خمل رقيق واحدها زربية ، وفي القاموس الزرابي النمارق والبسط أو كل ما يبسط ويتكأ عليها : الواحد زربى بالكسر ويضم والمبثوثة المبسوطة قاله قتادة وقال عكرمة بعضها فوق بعض .

قال الواحدي ويجوز أن يكون المعنى أنها متفرقة في المجالس ، وبه قال القتيبي ، وقال الفراء مبثوثة كثيرة ، والظاهر أن معنى البث التفريق مع كثره ومنه ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ قال القرطبي وغيره هذا أصح .

﴿ أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره مما مر غير مرة ، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه ، وكذا ما بعدها ، وقيل الجملة في محل جر على انها بدل اشتمال من الإبل .

والمعنى ينكرون أمر البعث ويستبعدون وقوعه أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكثر ما يشاهدونه من المخلوقات كيف خلقت معدولاً عن سنن خلق سائر أنواع الحيوانات على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ومزيد قوتها وبديع أوصافها .

قال أبو عمرو بن العلاء إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع تبرك

فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم .

قال الزجاج نبههم على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده وينيخه ، وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك في شيء من الحوامل غيره فأراهم عظيماً من خلقه ليدل بذلك على توحيده .

وسئل الحسن عن هذه الآية وقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة فقال أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به ، ثم هو خنزير لا يركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا يحلب دره ، والابل من أعز مال العرب وأنفسه يأكل النوى والقت ويخرج اللبن ويأخذ الصبي بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها .

وقال المبرد : الابل هنا هي القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة .

وروي عن الأصمعي أنه قال : من قرأ خلقت بالتخفيف عنى به البعير ، ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب .

قال أبو السعود : بدأ بالإبل لكثرة منافعها كأكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد البعيدة ، وعيشها بأي نبات أكلته كالشجر والشوك وصبرها على العطش عشرة أيام فأكثر ، وطواعيتها لكل من قادها ولو صبياً صغيراً ونهوضها وهي باركة بالأحمال الثقيلة وتأثرها بالصوت الحسن مع غلظ أكبادها ولا شيء من الحيوان جمع هذه الأشياء غيرها ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل .

والابل اسم جمع لا واحد له من لفظه وإنما واحده بعير وناقة وجمل .

﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل وقيل رفعت فلا ينالها شيء .

﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ على وجه الأرض مرساة راسخة لا تميد

ولا تميل ولا تزول ﴿ والى الأرض كيف سطحت ﴾ أي بسطت ، والسطح بسط الشيء يقال لظهر البيت إذا كان مستويا سطح ، قرأ الجمهور مبنياً للمفعول مخففاً ، وقرأ الحسن : مشدداً ، وقرأ علي بن أبي طالب وغيره خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وضم التاء فيها كلها .

قال المحلي قوله سطحت ظاهر في أن الأرض سطح ، وعليه علماء الشرع لا كرة كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركناً من أركان الشرع .

قال الكرخي هي كرة بطبعها وحقيقتها لكن الله أخرجها عن طبعها بفضله وكرمه بتسطيح بعضها لاقامة الحيوانات عليها فأخرجها عما يقتضيه طبعها انتهى .

وفي التكميل للشيخ رفيع الدين ابن ولي الله الدهلوي رحمه الله : أهل الشرائع يفهمون من مثل قوله تعالى ﴿ الأرض فراشاً ، ودحاها ، وسطحت ﴾ انها سطح مستو ، والحكماء يثبتون كرويتها بالأدلة الصحيحة فيتوهم الخلاف ، ويدفع بأن القدر المحسوس منها في كل بقعة سطح مستو ، فإن الدائرة كلما عظمت قل انجذاب أجزائها فاستواؤها باعتبار محسوسية ، أجزائها ، وكرويتها باعتبار معقولية جملتها انتهى .

ثم لما ذكر تعالى دليل توحيده ولم يعتبروا ولم يتفكروا فيها خاطب نبيه وأمره بأن يذكرهم فقال ﴿ فذكر ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فعظهم يا محمد وخوفهم ، ثم علل الأمر بالتذكير فقال ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ أي ليس عليك إلا ذلك و ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ حتى تكرههم على الايمان ، ومصيطر بالصاد والسين المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ، كذا في الصحاح قال ابن عباس أي بجبار ، وعنه قال ثم نسخ ذلك فقال ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع من الهاء في عليهم أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب جهنم

الدائم ، وقيل هو استثناء متصل من قوله ﴿ فذكر ﴾ أي فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر ، والأول أولى ، وإنما قال الأكبر لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر .

وقرأ ابن مسعود ﴿ فإنه يعذبه الله ﴾ وقرأ ابن عباس وقتادة ﴿ ألا من تولى ﴾ على أنها ألا التي للتنبيه والاستفتاح .

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أي رجوعهم بعد الموت بالبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالاً ولا اشتراكاً وفائدة تقديم الظرف التشديد في الوعيد وان إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وقال ابن عباس أي مرجعهم يقال آب يؤوب إذا رجع ، قرأ الجمهور إيابهم بالتخفيف وقرىء بالتشديد ، قال أبو حاتم لا يجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام ، وقيل هما لغتان بمعنى ، قال الواحدي وأما إيابهم بتشديد الياء فانه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج .

﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ يعني جزاءهم بعد رجوعهم الينا بالبعث في المحشر لا على غيرنا وثم للتراخي في الرتبة لا في الزمان لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب ، وعلى لتأكيد الوعيد لا للوجوب إذ لا يجب على الله شيء ،وجمع الضمير في إيابهم وحسابهم باعتبار معنى من كما أن أفراده في يعذبه باعتبار لفظها ، وفي تصدير الجملتين بإن وتقديم خبرها وعطف الثانية على الأولى بكلمة ثم المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب ما لا يخفى .

سورة الفجر

هي ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون وهي مكّية بلا خلاف في قول الجمهور قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير وعائشة مثله، ومدنية في قول علي ابن أبي طلحة.

أخرج النسائي عن جابر قال صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول. فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف. فبلغ ذلك معاذاً فقال منافق. فذكر ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فقال يا رسول اللّه جئت أصلي معه فطول عليّ فانصرفت فصليت في ناحية المسجد فعلفت ناضحي. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، «أفتان أنت يا معاذ، أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾

﴿ والفجر ﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته ، واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا فقيل هو الوقت المعروف ، وسمي فجراً لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، قاله علي وابن الزبير ، وقال قتادة انه فجر أول يوم من شهر محرم ، لأن منه تنفجر السنة ، وقال مجاهد يريد يوم النحر .

وقال الضحاك فجر ذي الحجة لأن الله قرن الأيام به فقال ﴿ وليال عشر ﴾ أي ليالي عشر من ذي الحجة ، وبه قال السدي والكلبي ، وقيل المعنى وصلاة الفجر أو ورب الفجر ، والأول أولى ، وقال ابن عباس فجر النهار ، وعنه قال يعني صلاة الفجر ، وعنه قال هو المحرم فجر السنة .

وقد ورد في فضل صوم شهر محرم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدل على انه المراد بالآية لا مطابقة ولا تضمناً ولا التزاماً ، وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ . قاله ابن الانباري ، وقيل محذوف لدلالة السياق عليه أي ليجازين كل أحد بما عمل أو ليعذبن ، وقدره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التي قبله أي والفجر الخ لإيابهم الينا وحسابهم علينا ، وهذا ضعيف جداً ، وأضعف منه قول من قال أن الجواب قوله ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ وأن هل بمعنى قد ، لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً .

وليـال عشر هي عشـر ذي الحجة في قـول جمهـور المفسـرين ، وإنمـا نكرت ولـم تعرف لفضيلتها على غيرها لأنها أفضل ليالي السنة ، ولو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، فنكرت من بين مـا أقسم به للفضيلة التي ليست لغيـرها ، وقـال الضحاك انهـا العشر الأواخـر من رمضـان ، وقيـل العشر الأول من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء .

قرأ الجمهور ليال بالتنوين وعشر صفة لها ، وقرأ ابن عباس بالاضافة قيل والمـراد ليالي أيـام عشر ، وكـان حقه على هـذا أن يقـال عشـرة لأن المعـدود مذكر ، وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان .

وعن جابر مرفوعاً « هي ليالي العشر من ذي الحجة »[1] ، أخرجه أحمد والنسـائي والحاكم وصححـه والبيهقي وغيرهم ، وعن طلحـة بن عبـد الله أنـه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن فدعاهم ابن عمر الى الغداء يوم عرفـة فقال أبـو سلمة أليس هـذه الليالي العشـر التي ذكرهـا الله تعالى في القرآن ؟ فقال ابن عمر وما يدريك قال ما أشك ، قال بلى فاشكك .

وقـد ورد في فضل هـذه العشر أحـاديث ، وليس فيها مـا يدل على انهـا المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه ، قال ابن عباس هي العشر الأواخر من رمضان .

﴿ والشفـع والوتـر ﴾ هما يعمـان الأشياء كلهـا شفعها ووتـرها ، كـالكفر والايمان ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقـاوة ، والليل والنهـار ، والسماء والأرض ، والبـر والبحـر ، والشمس والقمـر ، والجن والانس ، وقيـل شفـع الليالي ووترها ، وقال قتادة الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها منهـا شفع ومنهـا

---

(١) المراد بها عشر ذي الحجة ، كما قـاله ابن عبـاس ، وابن الزبـير ، ومجاهـد وغير واحـد من السلف والخلف ، قال : وقد ثبت في « صحيح البخاري » عن ابن عباس مرفـوعاً : « مـا من أيام العمـل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » يعني عشر ذي الحجة ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء » .

وتر ، وقيل الشفع يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة يوم النحر ، وقال مجاهد وعطية العوفي الشفع الخلق والوتر الله الواحد الصمد وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة ، وقال الربيع بن أنس وأبو العالية هي صلاة المغرب فيها ركعتان الوتر الركعة .

وقال الضحاك الشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام منى الثلاثة ، وبه قال عطاء وقيل هما آدم وحواء لأن آدم كان وتراً فشفع بحواء ، وقيل الشفع درجات الجنة وهي ثمان والوتر دركات النار وهي سبع وبه قال الحسين بن الفضل وقيل الشفع الصفا والمروة والوتر الكعبة ، وقال مقاتل الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة .

وقال سفيان بن عيينة الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضا لقوله ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ الآية وقال الحسن المراد بالشفع والوتر العدد كله لأن العدد لا يخلو عنهما ، وقيل الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر مسجد بيت المقدس ، وقيل الشفع حج القِران والوتر الافراد ، وقيل الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى والوتر الجماد ، وقيل الشفع ما سمي ، والوتر ما لم يسم .

ولا يخفاك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين ، والضعف الظاهر ، والاتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف والخاطر الخاطىء ، والذي ينبغي التعويل عليه ويتعين المصير اليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب وهما معروفان واضحان ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد .

فالمراد بالآية إما نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر ، وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك ، وإن كان الدليل يدل على انه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره .

عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الشفع والوتر ، فقال : « هو الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر » أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما وفي اسناده رجل مجهول وهو الراوي له عن عمران[1] .

وقد روي عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين باسقاطه الرجل المجهول ، وقال الترمذي في الرواية الأولى غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة .

قال ابن كثير وعندي أن وقفه على عمران أشبه والله تعالى أعلم ، قال ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير هذا الحديث موقوفاً على عمران ، فهذا يقوي ما قاله ابن كثير .

وعن جابر مرفوعاً « أن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر » أخرجه أحمد والنسائي والبزار والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن ابن عباس قال كل شيء شفع فهو اثنان ، والوتر واحد . وعن أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه سئل عن الشفع والوتر فقال يومان وليلة يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » أخرجه الطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الشفع

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤٤٢/٤ من حديث همام عن قتادة عن عمران بن عصام الضبعي أبو عمارة البصري ، عن شيخ أهل البصرة ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه . ورواه أيضاً الترمذي ١٧٠/٢ من حديث همام عن قتادة به ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة ، ورواه ابن جرير الطبري ١٧٢/٣٠ عن خالد بن قيس عن قتادة به ، والحاكم في « المستدرك » ٥٢٢/٢ من حديث همام عن قتادة به ، وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وفيه نظر ، لأن الراوي عن عمران بن حصين مجهول ، ولم يوثقه إلا ابن حبان . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٤٦/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

اليومان والوتر اليوم الثالث » أخرجه ابن جرير ، وعن ابن الزبير قال الشفع قول الله ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ والوتر اليوم الثالث وفي لفظ الوتر أوسط أيام التشريق .

وعن ابن عباس قال الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .

قرأ الجمهور الـوتر بفتـح الواو ، وقـرأ حمزة والكسـائي وخلف بكسرهـا وهي قـراءة ابن مسعود وأصحـابه ، وهمـا لغتـان ، والفتـح لغـة قـريش وأهـل الحجـاز ، والكسر لغـة تميم . قال الأصمعي كـل فـرد وتـر ، وأهـل الحجـاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد ، وحكى يونس عن ابن كثيـر أنه قـرأ بفتح الـواو وكسر التاء فيحتمل أن يكون لغة ثالثة . ويحتمل انه نقل كسـرة الراء الى التـاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ قرأ الجمهور يسـر بحذف اليـاء وصـلاً ووقفـاً اتباعـاً لـرسم المصحف ، وقرأ نـافـع وأبـو عمـرو بحـذفها في الـوقف وإثبـاتهـا في الـوصل ، وقـرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقـوب بإثبـاتها فيهمـا ، قال الخليـل تسقط الياء منها موافقة لـرؤوس الأي ، قال الـزجاج والحـذف أحب إليّ لأنها فـاصلة والفواصـل تحذف منهـا اليآت ، قـال الفراء قـد تحذف العـرب اليـاء وتكتفي بكسر ما قبلها .

قـال المؤرج سألت الأخفش عن العلة في إسقـاط الياء من ﴿ يسـري ﴾ فقال لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة فبت على بـاب داره سنة فقـال الليل لا يسري وانما يسرى فيه فهو مصروف عن جهته وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله ﴿ ومـا كانت أمـك بغياً ﴾ ولم يقـل بغية لأنه صرفها عن باغية .

وفي كـلام الأخفش هـذا نـظر فـإن صـــرف الشيء عن معنـاه بسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه ، ولو صـح ذلك للزم في كل المجازات العقلية واللفظيـة ، واللازم بـاطل فـالملزوم مثله ، والأصل هنـا

إثبات الياء لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ولم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رؤوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي .

ومعنى ﴿ والليل إذا يسر ﴾ إذا يمضي كقوله ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ ، ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ وقيل معنى يسر يسار فيه كما يقال ليل نائم ونهار صائم وبهذا قال الأخفش والقتيبي وغيرهما من أهل المعاني ، وعلى هذا نسبة السري إلى الليل مجاز والمراد يسرى فيه فهو مجاز في الاسناد بإسناد ما للشيء للزمان كما يسند للمكان ، والظاهر أنه مجاز مرسل أو استعارة ، وبالأول قال جمهور المفسرين .

وقال قتادة وأبو العالية ﴿ والليل إذا يسر ﴾ أي جاء وأقبل ، وقال النخعي أي استوى ، قال عكرمة وقتادة والكلبي ومحمد بن كعب هي ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه ، وقيل ليلة القدر لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب ، والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى .

قال ابن عباس ﴿ إذا يسر ﴾ إذا ذهب ، ويسر مأخوذ من السري وهو خاص بسير الليل ، يقال سريت الليل وسريت به ، وقد استعملت العرب سرى في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً ، واتساعاً نحو طاف الخيال وذهب الهم وأخذه الكسل والنشاط .

وقول الفقهاء سرى الجرح الى النفس معناه دام ألمه حتى حدث منه الموت ، وقطع كفه فسرى الى ساعده أي تعدى أثر الجرح ، وسرى التحريم وسرى العتق بمعنى التعدية . وهذه الألفاظ جارية على ألسنة الفقهاء ، وليس لها ذكر في الكتب المشهورة لكنها موافقة لما تقدم .

قال الفارابي سرى فيه السم والخمر ونحوهما ، وقال السرقسطي سرى عرق السوء من الانسان ، وقال ابن القطاع سرى عليه الهم أتاه ليلاً ، وسرى همه ذهب .

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

﴿ هل في ذلك قسم ﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم الله سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة ، والاشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ الى تلك الأمور . والتذكير بتأويل المذكور ، أي هل في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها قسم أي مقنع ومكتفى في القسم أو مقسم به حقيق بأن يؤكد به الأخبار ، وأيا ما كان فما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل والشرف .

﴿ لذي حجر ﴾ أي عقل ولب ، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به ، ومثل هذا قوله ﴿ وانه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ قال الحسن : لذي حجر أي لذي حلم ، وقال أبو مالك : لذي ستر من الناس ، وقال الجمهور : الحجر العقل قال الفراء : الكل يرجع الى معنى واحد لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر ، الكل بمعنى العقل .

وأصل الحجر المنع يقال لمن ملك نفسه ومنعها أنه لذو حجر ، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته ومنه حجر الحاكم على فلان أي منعه ، قال والعرب تقول انه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها ، قال ابن عباس لذي حجر لذي حجى وعقل ونهي .

ثم ذكر سبحانه على طريق الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل تحذيراً للكفار في عصر نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتخويفاً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الايقان وهو استفهام تقرير ، قرأ الجمهور بتنوين عاد على أن يكون قوله ﴿ إرم ذات العماد ﴾ عطف بيان لعاد ، والمراد بعاد اسم أبيهم وإرم إسم القبيلة أو بدلاً منه ، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث ، وقيل المراد بعاد أولاد عاد وهم عاد الأولى ، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى .

ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين أي أهل إرم أو سبط إرم فإن إرم هو جد عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقرأ الحسن وأبو العالية باضافة عاد الى إرم ، وقرأ الجمهور إرم بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ، وقرىء بفتح الهمزة والراء وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً وقرىء باضافة إرم الى ذات العماد .

وقال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الأعلام واحدها أرم . وفي الكلام تقديم وتأخير أي والفجر وكذا وكذا إن ربك لبالمرصاد ألم تر أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد ، وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له .

وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب ، لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون .

وقال مجاهد أيضا إرم أمة من الأمم ، وقال قتادة هي قبيلة من عاد ، وقيل هما عادان فالأولى هي إرم ، قال معمر إرم اليه مجتمع عاد وثمود وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود وكانت القبيلتان تنسب الى إرم ، قال أبو عبيدة هما عادان فالأولى إرم .

ومعنى ذات العماد ذات القوة والشدة مأخوذ من قوة الأعمدة ، كذا قال الضحاك وقال قتادة ومجاهد انهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم ، وقال مقاتل ذات العماد يعني طولهم ، وكان طول

الرجل منهم إثني عشر ذراعاً ، يقال رجل طويل العماد أي القامة .

قال أبو عبيدة ذات العماد ذات الطول ، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً ، وقال مجاهد وقتادة أيضاً كان عماداً لقومهم يقال فلان عميد القوم وعمودهم أي سيدهم ، وقال ابن زيد ذات العماد يعني إحكام البنيان بالعمد .

قال في الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث ، وقال عكرمة وسعيد المقبري : هى دمشق ، وعن مالك مثله ، وقال محمد بن كعب : هي الاسكندرية ، قال ابن عباس يعني بالارم الهالك ، ألا ترى أنك تقول إرم بنو فلان ، وذات العماد يعني طولهم مثل العماد .

وعن المقدام بن معد يكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه ذكر إرم ذات العماد فقال كان الرجل منهم يأتي الى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وفي اسناده رجل مجهول لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدثه عن المقدام .

﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ هذه صفة لعاد أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة وهم الذين قالوا ﴿ من أشد منا قوة ﴾ أو صفة للقرية على قول من قال أن إرم اسم لقريتهم أو للأرض التي كانوا فيها ، والأول أولى ويدل عليه قراءة أبيّ بن كعب ﴿ التي لم يخلق مثلهم في البلاد ﴾ وقيل الإرم الهلاك قال الضحاك إرم ذات العماد أي أهلكهم فجعلهم رميماً ، وبه قال شهر بن حوشب .

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها وأن حصباءها جواهر ، وترابها مسك ، وليس بها أنيس ولا فيها ساكن من بني آدم وأنها لا تزال تنتقل من موضع الى موضع تارة تكون باليمن وتارة تكون بالشام وتارة تكون بالعراق وتارة تكون بسائر البلاد . وهذا كذب بحت لا ينفق[1] على من له أدنى تمييز .

(١) لا يروج .

وزاد الثعلبي في تفسيره فقال أن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة ، وهذا كذب على كذب ، وافتراء على افتراء .

وقد أصيب الاسلام وأهله بداهية دهياء وفاقرة عظمى . ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترئون على الكذب تارة على بني اسرائيل وتارة على الأنبياء وتارة على الصالحين ، وتارة على رب العالمين ، وتضاعف هذا الشر وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها بل موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة ، والأقاصيص المنحولة والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرفوا وغيروا وبدلوا ، ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر في كتاب الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني .

قال الحافظ ابن كثير لا تغتر بما ذكر جماعة من المفسرين من ذكر مدينة يقال لها إرم ذات العماد فإن ذلك كله من خرافات الاسرائيليين من وضع الزنادقة منهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ، فهذا وأمثاله مختلق لا حقيقة له .

وأما قوله تعالى فالمراد من الآية إنما هو الاخبار عن هلاك القبيلة المسماة بعاد الذين أرسل الله فيهم هوداً فكذبوه فأهلكهم الله ، وإرم عطف بيان لعاد أو بدل منه للاعلام بأنهم عاد الأولى فسموا باسم جدهم إرم كما يقال لبني هاشم « هاشم » لأن عاد هو ابن عوض بن إرم سام بن نوح ، وقيل إرم اسم بلدتهم وأرضهم بالتقدير بعاد أهل إرم كقوله تعالى ﴿ واسأل القرية ﴾ أي أهلها وذات العماد إن كان صفة للقبيلة فمعناها أنهم أصحاب خيام لها أعمدة يظعنون بها ، أو هو كناية عن طول اجسامهم وتشبيهها بالأعمدة ، وإن كان صفة للبلدة فمعناه أنها ذات عمد من الحجارة .

وتعقب هذا القول بأنه لو كان ذلك مراداً لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد وانما قال ﴿ لم يخلق ﴾ فالقول الأول هو الصواب انتهى ، وبه قال شيخ

الاسلام نجم الدين محمد الغيظي رحمه الله تعالى .

قال عبد الرحمن بن خلدون في كتاب العبر بعد ذكر أغلاط المؤرخين :

وأبعد من ذلك وأغرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في قوله تعالى ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فيجعلون لفظة إرم إسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وهي كذا وكذا ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين ، وينقلون عن عبد الله ابن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها الخ وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض ، وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقباً والأدلاء تقص طرقه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر . ولا ذكرها أحد من الاخباريين ، ولا من الأمم ، ولو قالوا أنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه إلا أن ظاهر كلامهم انها موجودة ، وبعضهم يقول أنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها ، وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى أنها غائبة ، وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر ، مزاعم كلها أشبه بالخرافات .

والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الأعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين فتعين أن يكون بناء ، ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات ، وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام وإن أريد بها الأساطين فلا بدع وصفهم بأنه أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا انه بناء خاص في مدينة معينة كما تقول قريش كنانة والياس مضر ، وربيعة نزار ، وأي ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذي تمحل لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله تعالى عن مثلها لبعدها عن الصحة انتهى كلامه .

ثم عـطف سبحانه . القبيلة الآخـرة وهي ثمـود على قبيلة عـاد فقـال ﴿ وثمود ﴾ هم قوم صالح سموا باسم جدهم ثمود بن عـابر بن إرم بن سـام بن نـوح . قرأ الجمهـور ثمـود بمنـع الصـرف على انـه إسم للقبيلة ففيـه التـأنيث والتعريف ، وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيهم .

﴿ الذين جابوا الصخر ﴾ أي قطعوه وقـال ابن عباس : خـرقوه والجـوب القطع ومنه جـاب البلاد إذا قـطعها ، ومنـه سمي جيب القميص لأنه جيب أي قطع ، قال المفسرون أول من نحت الجبال والصخـور ثمود فبنـوا من المدائن ألفـاً وسبعمائـة مدينـة كلها من الحجـارة ، ومنه قـوله سبحـانه ﴿ وتنحتـون من الجبال بيوتـاً آمنين ﴾ وكانـوا ينحتون الجبـال وينقبونهـا ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها .

وقوله ﴿ بـالواد ﴾ متعلق بجـابوا أو بمحـذوف على أنه حـال من الصخر وهو وادي القرى ، وهو موضع بقرب المدينة من جهة الشام ، وقيل الوادي بين جبال ، وكانـوا ينقبون في تلك الجبـال بيوتـاً ودوراً وأحواضـاً وكل منفـرج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو واد ، وقرأ الجمهور بالواد بحذف الياء وصلاً ووقفاً إتباعاً لرسم المصحف ، وقرأ ابن كثير بـاثباتهـا فيهما وقـرىء باثباتها في الوصل دون الوقف .

﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ أي ذي الجنود الذين لهم خيام كثيـرة يشدونهـا بالأوتاد أو جعل الجنود والجيوش والجموع أنفسهم أوتـاداً لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام ، وقيل كان له أوتاد يعذب الناس بهـا ويشدهم اليهـا ، والـوتد بكسـر التاء في لغـة الحجاز وهي الفصحى وجمعـه أوتاد ، وفتـح التاء لغة ، وأهل نجد يسكنون التاء قال ابن عباس الأوتاد الجنـود الذين يشـدون له أمره .

وقال ابن مسعود : وتد فرعون لامرأته أربعة أوتـاداً ثم جعل على ظهـرها رحى عظيمة حتى ماتت .

ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ
﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ
أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ
ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا
لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

﴿ الذين طغوا في البلاد ﴾ الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون أي طغت كل طائفة منهم في بلادهم وتمردت وعتت ، والطغيان مجاوزة الحد ، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين طغوا أو في محل نصب على الذم .

﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ بالكفر ومعاصي الله والجور على عباده ﴿ فصب ﴾ أي أفرغ ﴿ عليهم ربك ﴾ وألقى على تلك الطوائف ﴿ سوط عذاب ﴾ وهو ما عذبهم به قال الزجاج جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب ، يقال صب على فلان خلعة أي ألقاها عليه ، ومعنى سوط عذاب نصيب عذاب أو نوع من العذاب . فأهلكت عاد بالريح وثمود بالصيحة وفرعون بالغرق ﴿ فكلًّا أخذنا بذنبه ﴾ .

وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة الى ما أعده لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به ، وقيل ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به .

وقال الفراء هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى لكل عذاب إذ كان فيه عندهم غاية العذاب ، وقيل معناه عذاب يخالط اللحم والدم من قولهم ساطه

يسوطه سوطاً أي خلطه فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض ، والأولى أنه مجاز واستعارة عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه وأكملها إذ الصب يشعر بالدوام والسوط بزيادة الايلام أي عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً .

وقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تعليل لما قبله إيذاناً بأن كفار قومه عليه السلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام .

وقد قدمنا قول من قال أن هذا جواب القسم ، وبه قال ابن مسعود ، والأولى أن الجواب محذوف والمعنى أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً وبالشر شراً ففيه استعارة تمثيلية قال الحسن وعكرمة أي عليه طريق العباد لا يفوته أحد ، والرصد والمرصاد الطريق .

وقد تقدم بيانه في سورة براءة ، وقد تقدم أيضاً عند قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ وقال ابن عباس : بالمرصاد أي يسمع ويرى ، وقال ابن مسعود في الآية من وراء الصراط جسور جسر عليه الأمانة وجسر عليه الرحم وجسر عليه الرب عز وجل .

ولما ذكر سبحانه أنه ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشر ، وإن مطمح أنظارهم ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أي اختبره وامتحنه بالنعم ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ أي أكرمه بالمال ووسع عليه رزقه ﴿ فيقول ربي أكرمن ﴾ فرحاً بما نال وسروراً بما أعطي ، غير شاكر لله على ذلك ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله ، وكشف ما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرانها ، وأما هنا لمجرد التأكيد لا لتفصيل المجمل مع التأكيد ، وما في ﴿ إذا ما ﴾ زائدة ، وقوله فأكرمه ونعمه تفسير للإبتلاء .

ومعنى أكرمن أي فضلني بما أعطاني من المال وأسبغه عليّ من النعم لمزيد استحقاقي لذلك وكوني موضعاً له ، ودخلت الفاء فيه لتضمن « أما » معنى الشرط أي فأما الإنسان فيقول ربي أكرمن وقت ابتلائه بالإنعام ، قال الكلبي الإنسان هنا هو الكافر ، أبيّ بن خلف ، وقال مقاتل نزلت في أمية بن خلف وقيل نزلت في عتبة ابن ربيعة وأبي حذيفة بن المغيرة .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ أي اختبره وعامله معاملة من يختبره ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ أي ضيقه ولم يوسعه له ولا بسط له فيه ﴿ فيقول ربي أهانن ﴾ أي أولاني هواناً ، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع في متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ويوفقه لعمل الآخرة .

ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والإمتحان ، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء .

قرىء باثبات الياء في أكرمن وأهانن وصلاً ، وحذفها وقفاً ، وقرىء بإثباتها فيهما ، وقرىء بحذفها في الوصل والوقف اتباعاً لرسم المصحف وموافقة لرؤوس الآي ، والأصل إثباتها لأنها اسم ، وقرأ الجمهور ﴿ فقدر ﴾ بالتخفيف وقرىء بالتشديد وهما لغتان ، وقرىء ربي بفتح الياء في الموضعين وبسكونها فيهما .

وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته ، ويضيقه عليه لا لإهانته بل للإختبار والإمتحان كما تقدم ونحوه قوله تعالى :﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ قال الفراء « كلا » في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا ولكن يحمد الله على الغنى والفقر .

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال :

﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية ، وقرىء بالتحتية على الخبر ، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور تحضون وتأكلون وتحبون بالفوقية على الخطاب فيها ، وقرىء بالتحتية فيها والجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان لأن المراد به الجنس أي بل لكم أفعال هي أقبح مما ذكر ، وهي أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم ، قال مقاتل نزلت في قدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أميَّة ابن خلف .

﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ قرأ الجمهور تحضون من حضه على كذا أي اغراه به ومفعوله محذوف أي لا تحضون أنفسكم أو لا يحض بعضكم بعضاً على ذلك ولا يأمر به ولا يرشد إليه ، وقرىء تحاضون وأصله تتحاضون أي لا يحض بعضكم بعضاً وقرىء تحاضون بضم التاء من الحض وهو الحث ، والطعام إما اسم مصدر أي على إطعام المسكين أو اسم للمطعوم على حذف مضاف أي على بذل أو على إعطاء طعام المسكين .

﴿ وتأكلون التراث ﴾ أصله الوراث فأبدلت التاء من الواو المضمومة كما في تجاه ووجاه ، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم ، وكذلك أموال النساء وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أموالهم ﴿ أكلاً لماً ﴾ أي أكلاً شديداً ، وقيل معنى « لماً » جمعاً من قولهم لممت الطعام إذا أكلته جميعاً ، قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب اليتيم ، وكذا قال أبو عبيدة .

وأصل اللّم في كلام العرب الجمع يقال لممت الشيء ألمّه لمّاً جمعته ، ومنه قولهم لَمَّ الله شعثه أي جمع ما تفرق من أموره ، قال الليث : اللّم الجمع

الشديد ، ومنه حجر ملموم وكتيبة ملمومة ، والآكل يلم الثريد فيجمعه ثم يأكله وقال مجاهد : يسفه سفاً وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ألم بمال غيره فأكله ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب قال ابن عباس :« لماً » سفاً وعنه قال شديداً .

وكان حكم الارث عندهم من بقايا شريعة إسماعيل أو مما هو معلوم لهم وثابت عندهم بطريق عادتهم ، فلا يقال السورة مكية وآية المواريث مدنية ولا يعلم الحل والحرمة إلا من الشرع .

﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ أي حباً كثيراً ، والجم الكثير ، يقال جم الماء في الحوض إذا كثر واجتمع ، والجمة المكان الذي يجتمع فيه الماء ، وقال ابن عباس جماً شديداً .

ثم كرر سبحانه الردع لهم والزجر فقال ﴿ كلا ﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم ثم استأنف سبحانه فقال : ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر ، والدك الكسر والدق والمعنى هنا أنها زلزلت وحركت تحريكاً بعد تحريك ، قال ابن قتيبة : دكت جبالها حتى استوت ، قال الزجاج : أي تزلزلت فدك بعضها بعضاً قال المبرد أي بسطت وذهب ارتفاعها قال والدك حط المرتفع بالبسط .

وقد تقدم الكلام على الدك في سورة الاعراف وفي سورة الحاقة ، والمعنى أنها دكت مرة بعد أخرى ، ونصب دكاً الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل ، ودكاً الثاني تأكيد للأول ، وكذا قال ابن عصفور .

ويجوز أن يكون النصب على الحال ، والمعنى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة ، كما يقال : علمته الحساب باباً باباً ، وعلمته الخط حرفاً حرفاً ، والمعنى أنه كرر الدك عليها حتى صارت ﴿ هباء منبثاً ﴾ قال ابن عباس يعني تحريكها .

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ
وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾
فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

﴿ وجاء ربك ﴾ أي جاء أمره وقضاؤه وظهرت آياته وقيل المعنى أنها زالت الشبه في ذلك اليوم وظهرت المعارف وصارت ضرورية كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه ، وقيل جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك ، وقيل تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه ، وقيل جاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء وقيل غير ذلك .

والحق أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة سلف الأمة وأئمتها وبعض الخلف فلم يتكلموا فيها ،بل أجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وإجراؤها على ظاهرها ، والتأويل ديدن المتكلمين ودين المتأخرين ، وهو خلاف ما عليه جمهور السلف الصالحين .

وقوله ﴿ والملك صفاً صفاً ﴾ منتصب على الحال أي مصطفين أو ذوي الصفوف ، قال عطاء يريد صفوف الملائكة وأهل كل سماء صف على حدة قال الضحاك أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً محيطين بالأرض ومن فيها فيكونون سبعة صفوف .

﴿ وجيء يومئذ ﴾ منصوب بجيء والقائم مقام الفاعل قوله : ﴿ بجهنم ﴾ وجوز مكي أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل وليس بذاك ، قال الواحدي قال جماعة المفسرين جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف

زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه يقول : يا رب نفسي نفسي .

وهذا الذي نقله عن جماعة المفسرين قد أتى مرفوعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[1] وعلى هذا فالآية مجراة على ظاهرها وقيل المعنى أنها برزت لأهلها كقوله : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ والأول أولى .

﴿ يومئذ ﴾ بدل من يومئذ الذي قبله أي يوم جيء بجهنم ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ أي يتعظ ويذكر ما فرط منه ويندم على ما قدمه في الدنيا من الكفر والمعاصي ، وقيل إن قوله : ﴿ يومئذ ﴾ الثاني بدل من قوله ﴿ إذا دكت ﴾ والعامل فيهما هو قوله : يتذكر الإنسان ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أي ومن أين له التذكرة والاتعاظ . وقيل هو على حذف مضاف أي ومن أين له منفعة الذكرى ، قال الزجاج : يظهر التوبة ومن أين له التوبة .

﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ بدل اشتمال من يتذكر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ماذا يقول الإنسان فقيل يقول الخ والمعنى أنه يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح لأجل حياته . والمراد حياة الآخرة فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة ، وقيل أن اللام بمعنى في ، والمراد حياة الدنيا أي يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة في وقت حياتي في الدنيا أنتفع بها يوم القيامة ، والأول أولى ، قال الحسن علم والله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها .

﴿ فيومئذ ﴾ أي يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال ﴿ لا يعذب عذابه

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢١٨٤ .

أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ أي لا يعذب كعذاب الله أحد ، ولا يوثق كوثاقه ولا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له ، والضميران في عذابه ووثاقه لله عز وجل ، وهذا على قراءة الجمهور يعذب ويوثق مبنيين للفاعل ، وقرىء على البناء للمفعول فيهما فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أي لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ولا يوثق كوثاقه أحد ، والمراد بالإنسان الكافر أي لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر ، وقيل إبليس وقيل المراد به أبيّ بن خلف .

قال الفراء المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ، لتناهيه في الكفر والعناد ، وقيل المعنى إنه لا يعذب مكانه أحد ولا يوثق مكانه أحد فلا تؤخذ منه فدية وهو كقوله ؛ ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ والعذاب بمعنى التعذيب والوثاق بمعنى التوثيق .

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة المبني للمفعول وقالا تكون الهاء في الموضعين ضميراً لكافر لأنه معروف أنه لا يعذب كعذاب الله أحد ، وقال أبو علي الفارسي يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة أي لا يعذب أحد أحداً مثل تعذيب هذا الكافر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ والقائل هو الله سبحانه إكراماً للمؤمن كما كلم موسى ، أو الملك ، وإنما يقال لها ذلك عند الموت أو البعث أو عند دخول الجنة ، والنفس المطمئنة هي الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك ولا يعتريها ريب .

قال الحسن هي المؤمنة الموقنة ، وقال مجاهد الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها ، وقال مقاتل هي الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان المطمئنة بذكر الله تعالى وقيل المخلصة ، قال ابن زيد المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ،

وقال ابن عباس المطمئنة المؤمنة .

﴿ إرجعي إلى ربك راضية ﴾ بالثواب الذي أعطاك ﴿ مرضية ﴾ عنده . والمعنى ارجعي إلى الله وقيل إلى موعده وقيل إلى أمره ، وقال عكرمة وعطاء إلى جسدك الذي كنت فيه ، واختاره ابن جرير ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس ﴿ فادخلي في عبدي ﴾ بالإفراد والأول أولى .

قال القفال : هذا وإن كان أمراً في الظاهر فهو خبر في المعنى ، والتقدير أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت في القيامة إلى الله بسبب هذا الأمر . قال ابن عباس : « نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا فقال أما أنه سيقال لك هذا » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة ، وعن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً ، وعن أبي بكر الصديق نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنه قال : المطمئنة المصدقة ، وعنه قال ترد الأرواح يوم القيامة في الأجساد ، وعنه قال : راضية بما أعطيت من الثواب ، مرضية عنها بعملها .

﴿ فادخلي في عبادي ﴾ المؤمنين أي في زمرة عبادي الصالحين وكوني من جملتهم ، وانتظمي في سلكهم : وهذا يشعر بأن النفس بمعنى الذات ، ويجوز أن تكون بمعنى الروح كما أشار له البيضاوي ﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم قيل أنه يقال لها ارجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا ويقال لها ادخلي في عبادي وادخلي جنتي يوم القيامة .

وأتى بالفاء فيما لم يتراخ عن الموت وبالواو فيما يتراخى عنه .

والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم لأن السورة مكية ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

عن سعيد بن جبير قال : « مات ابن عباس في الطائف فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندري من تلاها ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ . الآية أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني ، وعن عكرمة مثله ، أخرجه أبو نعيم في الدلائل .

سورة البلد

ويقال سورة لا أقسم وهي عشرون آية وهي مكية بلا خلاف.

عن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ
أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قد تقدم الكلام على هذا في تفسير ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ ولا زائدة ومن زيادة لا في الكلام في غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابـة   وكاد صميم القلب لا يتصدع

أي يتصدع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ أي أن تسجد ، قال الواحدي : أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة ، وبه قال ابن عباس : قرأ الجمهور لا أقسم وقرىء لأقسم من غير ألف ، وقيل هو نفي للقسم .

والمعنى لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه ، وقال مجاهد إن « لا » رد على من أنكر البعث ثم ابتدأ فقال : « أقسم » والمعنى ليس الأمر كما تحسبون والأول أولى .

والمعنى أقسم بالبلد الحرام وقال الواسطي : أن المراد بالبلد المدينة وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضاً مدفوع بكون السورة مكية لا مدنية ، ومكة جعلها الله تعالى : ﴿ حراماً آمناً ﴾ ﴿ ومثابة للناس ﴾ وجعل مسجدها قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وشرفه بمقام إبراهيم وحرم فيه الصيد ، وجعل البيت المعمور بإزائه ، ودحيت الأرض من تحته فهذه الفضائل وغيرها لما اجتمعت في مكة دون غيرها أقسم بها .

﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ البلد يذكر ويؤنث والجمع بلدان ، والبلدة البلد وجمعها بلاد مثل كلبة وكلاب ، وقال الواحدي الحل والحلال والمحل

واحد ، وهو ضد الحرام ، أحل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح حتى قاتل وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار » .

قال والمعنى أن الله تعالى لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظيم قدرها مع كونها حراماً فوعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً انتهى .

فالمعنى وأنت حل بهذا البلد في المستقبل كما في قوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ قال النسفي رحمه الله وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وإن تفسيره بالحال محال أن السورة مكية بالإتفاق ، وأين الهجرة من وقت نزولها ، فما بال الفتح انتهى .

قال مجاهد المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حل ، قال قتادة أنت حل به لست بآثم يعني أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي .

وقيل المعنى لا أقسم بهذا البلد وأنت حال به ومقيم فيه وهو محلك ، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى لا أقسم به وأنت حال به فأنت أحق بالإقسام بك ، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم .

ولكن هذا إذا تقرر في لغة الغرب أن لفظ حل يجيىء بمعنى حال ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال .

قال ابن عباس في الآية يعني بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيي من شاء فقتل يومئذ ابن خطل صبراً وهو آخذ بأستار الكعبة فلم يحل لأحد بعد النبي صلى الله

عليه وآله وسلم أن يفعل فيها حراماً حرمه الله فأحل الله ما صنع بأهل مكة ، وعنه فيها قال أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه وأما غيرك فلا .

وعن أبي برزة الأسلمي قال : « نزلت هذه الآية فيَّ خرجت فوجدت عبد الله ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام » أخرجه ابن مردويه .

وقوله : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ عطف على البلد قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح : ووالد أي آدم وما ولد أي وما تناسل من ولده ، ومثله عن ابن عباس .

وأقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، واستخراج العلوم ، وفيهم الأنبياء والأولياء والصالحون والدعاة إلى الله والانتصار لدينه ، وكل ما في الأرض من مخلوق لأجلهم ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الاسماء كلها ، فيكون قد أقسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم .

وقيل هو قسم بآدم والصالحين من ذريته ، وأما الطالحون فكأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم بهائم ، وفائدة التنكير في ﴿ والد ﴾ التعجب والمدح ، قاله الرازي .

وقال أبو عمران الجوني ﴿ الوالد ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ وما ولد ﴾ ذريته ، قال الفراء إن ﴿ ما ﴾ عبارة عن الناس كقوله : ﴿ ما طاب لكم ﴾ وقيل الوالد إبراهيم والولد اسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال عكرمة وسعيد بن جبير ﴿ ووالد ﴾ يعني الذي يولد له ﴿ وما ولد ﴾ يعني العاقر الذي لا يولد له وكأنهما جعلا ﴿ ما ﴾ نافية هو بعيد ولا يصح ذلك إلا باضمار الموصول أي ووالد والذي ما ولد ولا يجوز اضمار الموصول عند البصريين ، وقال عطية العوفي هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات واختار هذا ابن جرير .

وعن ابن عباس ﴿ الوالد ﴾ الذي يلد ﴿ وما ولد ﴾ العاقر لا يلد من الرجال والنساء ، وقد استدل بعض الجهال بهذه الآية على جواز الاحتفال لمولده صلى الله عليه وسلم ، وهذا تحريف لمعاني كتاب الله لم يذهب إليه أحد من المفسرين بل هو خلاف إجماع المسلمين .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ هذا جواب القسم ، والإنسان هو هذا النوع الإنساني والكبد الشدة والمشقة ، يقال كابدت الأمر قاسيت شدته ، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت .

قال ذو النون لم يزل مربوطاً بحبل القضاء ، مدعواً إلى الائتمار والانتهاء ، وأصل الكبد الشدة ومنه تكبد اللبن إذا اشتد وغلظ ، ويقال كبد الرجل إذا وجعت كبده ثم استعمل في كل مشقة وشدة ، قال الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وقال أيضاً يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء لا يخلو عن أحدهما .

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له أبو الأشدين وكان يأخذ الاديم العكاظي ويجعله تحت رجليه ويقول من أزالني عنه فله كذا فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وفيه نزل :

﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ يعني لقوته ويكون معنى في كبد على هذا في شدة خلق ، وقيل معنى في كبد انه جريء القلب غليظ الكبد ، وقال ابن عباس في كبد في اعتدال وانتصاب ، وعنه قال في نصب ، وعنه قال في شدة ، وقال أيضاً في شدة خلق ولادته ونبت أسنانه ومعيشته وختانه .

وقال أيضاً : خلق الله كل شيء يمشي على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً ، وقال أيضاً منتصباً في بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه ، لولا ذلك لغرق في الدم ، والكبد الاستواء والاستقامة فهذا امتنان عليه في الخلقة ولم يخلق الله جل جلاله دابة في بطن أمها إلا منكبة

على وجهها إلا ابن آدم فإنه منتصب انتصاباً .

قال اليماني : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق .

قال العلماء : أول ما يكابد قطع سرته ، ثم إذا قمط قماطاً وشدد عليه يكابد الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ولو فاته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه وتحريك لسانه ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ثم يكابد الختان والأوجاع والأحزان ثم يكابد المعلم وصولته والمؤدب وسياسته ، والاستاذ وهيبته ، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه والترويج ثم يكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد ثم يكابد شغل الدور وبناء القصور ثم الكبر والهرم وضعف الركبة والقدم ، في مصائب يكثر تعدادها ونوائب يطول إيرادها من صداع الرأس ووجع الأضراس ، ورمد العين وغم الدين ووجع السن ، وألم الأذن ويكابد محناً من المال والنفس مثل الضرب والحبس ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة ويكابد مشقة ثم الموت بعد ذلك كله ثم سؤال الملك وضغطة القبر وظلمته ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقر به القرار إما في جنة وإما في نار .

فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد ودل على أن له خالقاً دبره وقضى عليه بهذه الأحوال فليمتثل أمره ، ذكره القرطبي .

﴿ أيحسب ﴾ الانسان ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أي أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر .

ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال : ﴿ يقول ﴾ مفتخراً ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض ، قال الليث مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته ، قال الكلبي ومقاتل : يقول أهلكت في عداوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مالاً كثيراً ، وفي أبي السعود يريد كثرة ما أنفقه فيما

كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم ويدعونه معالي ومفاخر .

وقال مقاتل نزلت في الحرث بن عامر بن نوفل أذنب فاستفتى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يكفر فقال لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قرأ الجمهور ﴿ لبداً ﴾ بضم اللام وفتح الباء مخففاً وقرىء بضمها بالتخفيف وقرىء بضم اللام وفتح الباء مشدداً قال أبو عبيدة لبد فعل من التلبيد وهو المال الكثير بعضه على بعض ، قال الزجاج : فعل للكثرة يقال رجل حطم إذا كان كثير الحطم ، قال الفراء واحدته لبدة والجمع لبد ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الجن .

﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي أيظن أنه لم يعاينه أحد ، قال قتادة أيظن ان الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وأين أنفقه ، وقال الكلبي كان كاذباً لم ينفق ما قال ، فقال الله أيظن أن الله لم ير ذلك منه فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق .

ثم ذكر سبحانه ما أنعم عليه ليعتبر فقال : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ يبصر بهما المرئيات شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب . لا تزيد إحداهما على الأخرى شيئاً وقدرنا البياض والسواد والسمرة والزرقة وغير ذلك على ما ترون ، وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن إدراكها .

﴿ ولساناً ﴾ ينطق به ويعبر عما في ضميره ﴿ وشفتين ﴾ يستر بهما ثغره وفاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ، قال الزجاج : المعنى ألم نفعل به ما يدله على أن الله قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة وجمعها على شفاه نظير سنة في إحدى اللغتين وشافهته أي كلمته من غير واسطة ، ولا تجمع بالألف والتاء استغناء بتكسيرها عن تصحيحها .

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)

﴿ وهديناه النجدين ﴾ النجد الطريق في ارتفاع ، قال المفسرون : بيّنا له طريق الخير وطريق الشر ، قال الزجاج المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبينتين كتبيين الطريقين العاليتين .

وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك : النجدان الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والأول أولى .

وأصل النجد المكان المرتفع وجمعه نجود ، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة فالنجدان الطريقان العاليان .

قال ابن مسعود في الآية : سبيل الخير والشر ، وقال ابن عباس : الهدى والضلالة ، وعنه نحو قول ابن مسعود ، وعن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هما نجدان فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » أخرجه ابن أبي حاتم تفرد به سنان بن سعد ، ويقال سعد بن سنان وقد وثقه يحيى بن معين ، وقال الامام أحمد والنسائي والجوزجاني منكر الحديث ، وقال أحمد تركت حديثه لاضطرابه قد روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها ما أعرف منها حديثاً واحداً ، يشبه حديثه حديث البصري لا يشبه حديث أنس .

وروي نحوه عن الحسن وقتادة مرسلاً ، ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن أبي امامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيها الناس أنهما نجدان نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » .

ويشهد له أيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انما هما نجد الخير ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير » .

قال الشهاب لا يخفى أنه ذكره في سياق الامتنان والمراد الامتنان عليه بأن هداه وبين له الطريق فسلكها تارة وعدل عنها أخرى ، فلا امتنان عليه بالشر ولذا جعله الإمام بمعنى قوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ووصف مكان الخير بالرفعة والنجدية ظاهر بخلاف الشر فإنه هبوط من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقوة فهو على سبيل التغليب أوعلى توهم المخيلة أن فيه صعوداً فتدبر انتهى .

قلت الامتنان بالهداية إلى سبيل الشر يصح بمعنى أن الله عرف الإنسان طريق الشر ليجتنبه وطريق الخير ليسلكه ، ولو لم يعرفه سبيل الشر لما اجتنبه ، والأشياء تعرف بأضدادها ، فالامتنان بهدايته إليه ثابت عقلاً . والمعنى بينا ووضحنا له أن سلوك الأول ينجي وأن سلوك الثاني يردي . وأن سلوك الأول ممدوح وأن سلوك الثاني مذموم ، فالذي ذكره الشهاب تدفعه الأحاديث المرفوعة المتقدم ذكرها .

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ الاقتحام الرمي بالنفس في شيء من غيررويةٍ ، يقال منه قحم في الأمر قحوماً أي رمى بنفسه في الأمر من غير روية وتقحيم النفس في الشيء إدخالها فيه عن غير روية ، والقحمة بالضم المهلكة ، والعقبة في الأصل الطريق الصعب التي في الجبل سميت بذلك لصعوبة سلوكها .

وهو مثل ضربه الله سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة .

قال الفراء والزجاج : ذكر سبحانه هنا ﴿ لا ﴾ مرة واحدة والعرب لا تكاد تفرد ﴿ لا ﴾ مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام

آخر كقوله : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ وإنما أفرد ههنا لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ قائماً مقام التكرير ، كأنه قال فلا اقتحم العقبة ولا آمن .

قال المبرد وأبو علي الفارسي : أن « لا » هنا بمعنى لم أي فلم يقتحم ، وروي نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، وقيل هو جار مجرى الدعاء كقوله لا نجا .

قال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار تقديره أفلا اقتحم العقبة أو هلا اقتحم العقبة ، قال ابن عمر في العقبة جبل زلال في جهنم ، وقال ابن عباس العقبة النار ، وعنه قال عقبة بين الجنة والنار ، وقال قتادة وكعب : هي نار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله ، وقال الحسن : هي والله عقبة شديدة مجاهدة نفسه وهواه وعداوة الشيطان . وقيل العقبة خلاصه من هول العرض ، وقال مجاهد والضحاك والكلبي هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف .

وعن عائشة قالت لما نزل ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قيل يا رسول الله ما عند أحدنا ما يعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه فلو أمرناهن بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ « لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا » .

ثم بين سبحانه العقبة فقال : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أي أيُّ شيء أعلمك ما اقتحامها والمعرف باللام إذا أعيد كان الثاني عين الأول فتكون الجملة معترضة مقحمة لبيان العقبة مقررة لمعنى الإبهام والتفسير ، فإن ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ مفسرة بقوله : ﴿ فك رقبة ﴾ والمفسر منفي والمفسر كذلك لاتحادهما في الاعتبار كأنه قيل فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً .

قال محيي السنة ذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة .

قال صاحب الفرائد هذا تنبيه على أن النفس لا توافق صاحبها في الإنفاق لوجه الله البتة فلا بد من التكليف وتحمل المشقة ، والذي توافقه النفس هو الافتخار والمراآتفكأنه تعالى ذكر هذا المثل بإزاء ما قال : ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ والمراد الإنفاق المفيد ، وأن ذلك الإنفاق لمضر انتهى .

وفي التمثيل بالعقبة بعد ذكر النجدين ترشيح ثم التفريع عليه بالاقتحام قرينة لتلك المبالغة ذكره الكرخي ، ومعنى ﴿ فك رقبة ﴾ إعتاق رقبة وتخليصها من إسار الرق وكل شيء أطلقته فقد فككته ، ومنه فك الرهن وفك الكتاب ، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المذكورة التي تكون بها النجاة من النار ، قرىء فك رقبة على أنه فعل ماض وهكذا أطعم ، وقرىء فك وإطعام على أنهما مصدران ، وعلى الأولى المعنى فلا أفك ولا أطعم ، والفك في الأصل حل القيد سمي العتق فكاً لأن الرق كالقيد ، وسمي المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته .

وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة منها ما في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من النار حتى الفرج بالفرج » .

﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ أي مجاعة . والسغب الجوع ، والساغب الجائع ، قال الراغب يقال منه سغب الرجل سغباً وسغوباً فهو ساغب وسغبان والمسغبة مفعلة منه ، قال النخعي في يوم ذي مسغبة أي عزيز فيه الطعام .

قال ابن عباس مسغبة مجاعة ، وعنه جوع ، وقيد الإطعام في هذا اليوم لأن إخراج المال في ذلك الوقت أثقل على النفس وأوجب للأجر ، قرأ الجمهور

بالجر على أنه صفة ليوم ، ويتيماً هو مفعول إطعام ، وقرأ الحسن بالنصب على أنه مفعول إطعام أي يطعمون ذا مسغبة ويتيماً بدلاً منه .

﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي قرابة قاله ابن عباس . يقال فلان ذو قرابتي وذو مقربتي ، واليتيم في الأصل الضعيف يقال يتم الرجل إذا ضعف ، واليتيم عند أهل اللغة من لا أب له ، وقيل هو من لا أب له ولا أم ، ومنه قول قيس بن الملوح .

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أي لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره ، وليس له مأوى إلا التراب ، يقال ترب الرجل يترب ترباً ومتربة إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضراً ، قال مجاهد هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره ، وقال قتادة هو ذو العيال وقال عكرمة هو المديون ، وقال أبو سنان هو ذو الزمانة وقال ابن جبير هو الذي ليس له أحد ، وقال عكرمة أيضاً هو البعيد التربة الغريب عن وطنه وبه قال ابن عباس ، والأول أولى ومنه قول الهذلي .

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البدن في تربة الحال

وعن ابن عباس أيضاً قال هو المطروح الذي ليس له بيت ، وفي لفظ هو الذي لا يقيه من التراب شيء ، وفي لفظ هو اللازق بالتراب من شدة الفقر ، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « هو الذي مأواه المزابل » أخرجه ابن مردويه والمتربة والمقربة والمسغبة أي كل واحد منها مصدر ميمي على وزن مفعلة .

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ عطف على المنفي بلا ، وجاء بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان وقيل التراخي في الذكر ، وقيل المعنى ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم وقيل المعنى أنه أتى بهذه القرب لوجه الله .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ معطوف على آمنوا أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب والمحن والشدائد ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي بالرحمة على عباد الله فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها قال ابن عباس: يعني بذلك رحمة الناس.

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات هم ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أي أصحاب جهة اليمين أو أصحاب اليمين أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وقيل غير ذلك مما قدمنا ذكره في سورة الواقعة.

﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ أي بالقرآن أو بما هو أعم منه فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التي تدل على الصانع سبحانه ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أي أصحاب الشمال أو أصحاب الشؤم أو الذين يعطون كتبهم في شمائلهم أو غير ذلك مما تقدم.

﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أي مطبقة مغلقة يقال أصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته. قرأ الجمهور موصدة بالواو، وقرىء بالهمزة وهما لغتان والمعنى واحد قال ابن عباس مغلقة الأبواب، وقال أبو هريرة مطبقة.

سورة الشمس

هي خمس عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة . وعن ابن الزبير مثله . وعن بريده «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة العشاء ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وأشباهها من السور» أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي . وقد تقدم حديث جابر في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل اذا يغشى .

وعن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بالليل اذا يغشى والشمس وضحاها» أخرجه الطبراني . وعن عقبة بن عامر قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما بالشمس وضحاها والضحى » أخرجه البيهقي في الشعب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

﴿ والشمس وضحاها ﴾ أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وقال قوم إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف أي ورب الشمس ، وهكذا سائرها ، ولا ملجىء إلى هذا ولا موجب له ، وقوله : ﴿ وضحاها ﴾ هو قسم ثان ، وقال الرازي المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي .

وقد أقسم تعالى بأنواع مخلوقاته المشتملة على المنافع العظيمة ليتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لأن ما أقسم الله تعالى به يحصل منه وقع في القلب ، وأقسم الله في هذه السورة بسبعة أشياء إلى قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فأقسم بالشمس وضحاها فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل ، فلما ظهر أثر الصبح صارت الأموات أحياء ، وتكاملت الحياة وقت الضحوة ، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها انتهى .

قال مجاهد أي ضوؤها وإشراقها ، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبي ، وقال قتادة : ضحاها نهارها كله ، قال الفراء : الضحى هو النهار ، وقال المبرد : أصل الضحى الصبح ، وهو نور الشمس ، وقيل الضحوة ارتفاع النهار ، والضحى فوق ذلك .

قال القرطبي : الضحى مؤنثة يقال ارتفعت الضحى فوق الضحو ، وقد تذكر ، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة ومن ذكّر ذهب إلى أنها اسم فعل

نخو صرد ونغر ، قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظل : وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفاً قيل والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد .

قال المبرد : الضحى والضحوة مشتقان من الضح وهو النور فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف في جواب القسم ماذا هو ، فقيل هو قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قاله الزجاج وغيره وحذفت اللام لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها ، وقيل محذوف أي لتبعثن وقيل تقديره ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً ، وأما قوله : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء ، وقيل هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ والأول أولى .

﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أي تبعها وذلك بأن طلع بعد غروبها ، يقال تلا يتلو تلواً إذا تبع ، قال المفسرون وذلك إنما يكون في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الاضاءة وخلفها في النور ، وقال الزجاج تلاها حين استدار فكان يتلو الشمس في الضياء والنور ، يعني إذا كمل ضوؤه فصار تابعاً للشمس في الإنارة يعني كان مثلها في الإضاءة وذلك في الليالي البيض .

وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها ، قال قتادة إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال ، قال ابن زيد إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب ، وقال الفراء تلاها أخذ منها يعني أن القمر يأخذ من ضوء الشمس ، قال ابن عباس تلاها تبعها .

والأولى أن يفسر تلوه لها بكون ضوئه يخلفها ويجيء بعد مغيبها سواء كان ذلك من غير تراخ وهو في النصف الأول من الشهر ، أو بعد مدة وذلك في النصف الثاني من الشهر فإن القمر إذا طلع في نصف الليل يقال أنه تلاها في ظهور الضوء أي خلفها فيه ولو بعد تخلل مدة ظلمة فليتأمل .

﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أي أضاءها ، قاله ابن عباس ، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الإنجلاء فكأنه جلاها مع أنها التي تبسطه وقيل الضمير عائد إلى الظلمة أي جلى الظلمة وإن لم يجر للظلمة ذكر لأن المعنى معروف ، قال الفراء تقول أصبحت باردة أي أصبحت غداتنا باردة ، والأول أولى ، ومنه قول قيس ابن الخطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل المعنى جلى ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل ، وقيل جلى الدنيا وقيل جلى الأرض .

﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أي يغشى الشمس فيذهب بضوئها فتغيب وتظلم الآفاق وقيل يغشى الآفاق وقيل الأرض ، وإن لم يجر لها ذكر لأن ذلك معروف ، والأول أولى .

قال الخطيب : وجيء به مضارعاً دون ما قبله وما بعده مراعاة للفواصل إذ لو أتى به ماضياً لكان التركيب : إذا غشيها فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع انتهى .

والمعنى يغطيها بظلمته أي فيزيل ضوؤها فالنهار يجليها ويظهرها والليل يغطيها ويزيل ضوؤها فالضمير في الفواصل من أول السورة إلى هنا للشمس .

وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا للشمس في الحقيقة لكن بحسب أربعة أوصاف أولها الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار ، وذلك هو الوقت الذي يكمل فيه انتشار

الحيوان وتحرك الإنسان للمعاش ، ومنها تلو القمر للشمس بأخذه الضوء عنها ،ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجيء النهار ، ومنها وجود خلاف ذلك بمجيء الليل ، ومن تأمل قليلاً في عظمة الشمس انتقل منها إلى عظمة خالقها فسبحانه ما أعظم شأنه .

﴿ والسماء وما بناها ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية أي والسماء وبنيانها ، ويجوز أن تكون موصولة وبه قال أبو البقاء أي والذي بناها ، وايثار (ما) على (من) لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال والقادر العظيم الشأن الذي بناها ورجح الأول الفراء والزجاج ولا وجه لقول من قال أن جعلها مصدرية مخل بالنظم ورجح الثاني ابن جرير قال ابن عباس الله بنى السماء .

﴿ والأرض وما طحاها ﴾ الكلام في ﴿ ما ﴾ هذه كالكلام في التي قبلها ومعنى طحاها بسطها على الماء كذا قال عامة المفسرين كما في قوله : ﴿ دحاها ﴾ قالوا طحاها ودحاها واحد أي بسطها من كل جانب ، والطحو البسط ، وقيل معنى طحاها قسمها وقيل خلقها والأول أولى ، والطحو أيضاً الذهاب ، قال أبو عمرو بن العلاء طحا الرجل إذا ذهب في الأرض ، يقال ما أدري أين طحا ، ويقال طحا به قلبه إذا ذهب به .

﴿ ونفس وما سواها ﴾ الكلام في (ما) هذه كما تقدم ، ومعنى سواها خلقها وأنشأها وسوى أعضائها وعدلها على هذا القانون الأحكم في أعضائها وما فيها من الجواهر والأعراض والمعاني وغير ذلك . قال عطاء يريد جميع ما خلق من الأنس والجن ، التنكير للتفخيم أو للتكثير ، وقيل المراد نفس آدم :

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي عرفها وأفهمها حالها وما فيها من الحسن والقبح ، والإلهام القاء الشيء في القلب بطريق الفيض ينشرح له الصدر ويطمئن ، فإطلاقه على الفجور تسامح ، وقد دفع بحمل الإلهام على مطلق البيان .

قال مجاهد عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية ، قال الفراء

فألهمها عرفها طريق الخير والشر كما قال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ .

قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به ، قال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه اياها للفجور ، واختار هذا الزجاج ، وحمل الالهام على التوفيق والخذلان .

قال الواحدي : وهذا هو الوجه لتفسير الالهام فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والالهام أن يوقع في قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله في قلب عبد شيئاً فقد ألزمه ذلك الشيء قال : وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه ، وفي الكافر فجوره ، قال ابن عباس : في الآية علمها الطاعة والمعصية ، وعنه قال ألهمها من الخير والشر وعنه قال : ألزمها فجورها وتقواها .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين أن رجلاً قال : « يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قد قضي عليهم ومضى في قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم به الحجة قال بل شيء قد قضي عليهم ، قال فلم يعملون اذن ؟ قال من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم آت نفسي **تقواها** ، » وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وزاد كان إذا تلا هذه الآية ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال فذكره وزاد أيضاً وهو في الصلاة ، وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة .

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أي قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب وظفر بكل محبوب ، وقد قدمنا ان هذا جواب القسم على الراجح ، قال الزجاج : صار طول الكلام عوضاً عن اللام ، أي والأصل فيه (لقد) وتبعه القاضي قال الشهاب وعند النحاة أن الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على احداهما إلا عند طول الكلام أو في ضرورة ، وأصل الزكاة النمو والزيادة ومنه زكا الزرع إذا كثر ، قال ابن عباس يقول قد أفلح من زكى الله نفسه أي بالطاعة .

﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي خسر من أضلها وأغواها بالمعصية قال أهل اللغة دساها أصله دسسها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فمعنى دساها في الآية أخفاها وأخملها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح .

وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها فتقصدها الضيوف ، وكانت لئام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفى مكانها عن الوافدين .

وقال ابن الأعرابي المعنى دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم قال ابن عباس قد خاب من دس الله نفسه فأضله ، وعنه قال دساها يعني مكر بها ، وعنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الآية « أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس خيبها الله من كل خير » أخرجه أبو حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك ،

وجويبر ضعيف ، وتكرير (قد) فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونها والإيذان بتعلق القسم به أيضاً اصالة .

﴿ كذبت ثمود ﴾ رسولها صالحاً ﴿ بطغواها ﴾ أنث الفعل لضعف أثر تكذيبهم لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم ، والطغوى اسم من الطغيان كالدعوى .

قال الواحدي قال المفسرون : معناه الطغيان حملهم على التكذيب ، والطغيان مجاوزة الحد في المعاصي والباء للسببية كما قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ، وقيل بطغواها أي بعذابها الذي وعدت به وسمي العذاب طغوى لأنه طغى عليهم فتكون الباء على هذا للتعدية ، وبدأ في الكشاف بأنها للاستعانة مجازاً يعني فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول ظلمني بجرأته على الله ، وقال محمد بن كعب بطغواها أي بأجمعها .

قرأ الجمهور بفتح الطاء وهو مصدر بمعنى الطغيان ، وإنما قلبت الياء واواً للفرق بين الاسم والصفة لأنهم يقلبون الياء في الأسماء كثيراً نحو تقوى وسروى ، وقرىء بضم الطاء وهو مصدر أيضاً كالرجعى والحسنى ونحوهما ، وقيل هما لغتان ، واختير التعبير بالطغوى لأنه أشبه برؤوس الآيات قال ابن عباس اسم العذاب الذي جاءها الطغوى فقال كذبت ثمود بعذابها .

﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ العامل في الظرف كذبت أو بطغواها أي حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف فعقر الناقة ، ومعنى انبعث انتدب لذلك وقام به يقال بعثته على الأمر فانبعث به ، ويضرب بقدار المثل فيقال أشأم من قدار ، وهو أشقى الأولين وكان رجلاً أشقر أزرق قصيراً ، ومعنى قدار في الأصل الجزار ، وقد تقدم بيان هذا في الأعراف .

﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحاً بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل على قصدهم لها بالأذى ﴿ ناقة الله ﴾ قال الزجاج أي ذروا ناقة الله ، وقال الفراء حذرهم اياها وكل تحذير فهو نصب أي ذروا عقرها ،

والاضافة للتشريف كبيت الله ﴿ و ﴾ احذروا ﴿ سقياها ﴾ وهو شربها من الماء وكان لها يوم ولهم يوم ، قال الكلبي ومقاتل قال لهم صالح ذروا ناقة الله فلا تعقروها وذروا سقياها وهو شربها من النهر فلا تعرضوا لها يوم شربها .

﴿ فكذبوه ﴾ بتحذيره اياهم واستمروا على تكذيبه ﴿ فعقروها ﴾ أي عقرها الأشقى وإنما اسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله ، قال قتادة انه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، قال الفراء عقرها اثنان ، والعرب تقول هذان أفضل الناس ،وهذان خير الناس ، فلهذا لم يقل أشقياها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : ﴿ إذ انبعث اشقاها ﴾ قال انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة »[1] .

وعن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي « ألا أحدثك بأشقى الناس قال بلى قال رجلان احيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا يعني قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ، يعني لحيته » أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والبغوي والطبراني وابن مردويه والحاكم وأبو نعيم في الدلائل .

﴿ فدمدم عليهم ربهم ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب ﴿ بذنبهم ﴾ الذي هو الكفر والتكذيب والعقر ، وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده يقال دمدمت على الشيء أي أطبقت عليه ودمدم عليه القبر

---

(١) وهو قدار بن سالف . روى البخاري في « صحيحه » ٥٤٢/٨ عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة ، والذي عقر ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة » ورواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم .

أي أطبقه ، وناقة مدمومة إذا لبسها الشحم والدمدمة إهلاك باستئصال ، كذا قال المؤرج .

قال في الصحاح دمدمت الشيء إذا ألزقته بالأرض وطحطحته ، ودمدم الله عليهم أهلكهم ودمدمت على الميت التراب أي سويته عليه .

قال ابن الأنباري دمدم أي غضب ، والدمدمة الكلام الذي يزعج الرجل ، وقال ابن الاعرابي دمدم إذا عذب عذاباً تاماً .

والضمير في ﴿ فسواها ﴾ يعود إلى الدمدمة أي فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت في صغيرهم وكبيرهم ، وقيل : يعود إلى الأرض أي فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب ، وقيل يعود إلى الأمة أي ثمود ، قال الفراء : سوى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم فلم يفلت منهم أحداً إلا من آمن مع صالح وكانوا أربعة آلاف .

قرأ الجمهور فدمدم بميم بين الدالين وقرأ ابن الزبير فدهدم بهاء بينهما : قال القرطبي وهما لغتان كما يقال امتقع لونه واهتقع لونه ، وفي القاموس دمم الأرض سواها كدهدم ودمدم عليهم ، فتلخص ان دمدم بدال واحدة ودمدم بدالين معناهما واحد .

﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أي فعل الله بهم ذلك غير خائف من عاقبة ولا تبعة ، والضمير في عقباها يرجع إلى الفعلة ، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم .

قال السدي والضحاك والكلبي إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه أي لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع ، وقيل لا يخاف رسول الله عليه الصلاة والسلام عاقبة اهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم ، والأول أولى .

قرأ الجمهور ولا يخاف بالواو ، وقرىء بالفاء وهما قراءتان سبعيتان ، أما

الواو فيجوز أن تكون للحال أو لاستئناف الأخبار ، والفاء للتعقيب ، وهو ظاهر ، والمعنى لا يخاف عاقبتها كما تخاف الملوك عاقبة ما تفعله ، فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم ، وأنهم أذلاء عند الله .

وفي القاموس أعقبه الله بطاعته جازاه ، والعقبى جزاء الأمر .

سورة والليل

هي احدى وعشرون آية وهي مكية عند الجمهور، وقيل مدنية قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله. عن جابر بن سمرة قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الظهر والعصر ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ونحوها» أخرجه البيهقي في سننه.

وعن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الهاجرة فرفع صوته فقرأ والشمس وضحاها، والليل اذا يغشى، فقال له أبيّ بن كعب يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء قال لا ولكن أردت أن أوقت لكم» أخرجه الطبراني في الاوسط وقد تقدم حديث فهلا صليت بسبح اسم ربك الاعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى.

وعن ابن عباس إني لأقول أن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل، قال الرازي نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وانفاقه على المسلمين، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره بالله، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ
أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾
وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

﴿ والليل إذا يغشى ﴾ أي يغطي بظلمته ما كان مضيئاً ، قال الزجاج يغشى الليل الأفق وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار وقيل يغشى النهار وقيل يغشى الأرض ، والأول أولى ، قال ابن عباس إذا يغشى إذا أظلم .

وعن ابن مسعود قال « إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أميَّة بن خلف ببردة وعشر أواق فأعتقه لله فأنزل الله ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى قوله ، ﴿إن سعيكم لشتى ﴾ سعى أبي بكر وأمية وأبيّ إلى قوله ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ قال لا إلّه إلا الله إلى قوله ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال النار » أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر .

أقسم سبحانه بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه وتسكن الخلق فيه عن التحرك ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم ، وغذاء لأرواحهم ، ثم أقسم بالنهار فقال ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التي كانت في الليل بطلوع الشمس لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة ، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعايشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكانها ، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش ، ولو كان كله نهاراً لبطلت الراحة فكانت المصلحة في تعاقبهما .

﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ ﴿ ما ﴾ هنا الموصولة أي والذي خلقهما وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ولقصد التفخيم أي والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى ، قال الحسن والكلبي معناه الذي خلق الذكر والأنثى ، فيكون قد أقسم بنفسه الكريمة ، قال أبو عبيدة وما خلق أي ومن خلق .

وقال مقاتل يعني وخلق الذكر والأنثى فتكون (ما) على هذا مصدرية قال الكلبي ومقاتل يعني آدم وحواء والظاهر العموم .

قرأ الجمهور ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ وقرأ ابن مسعود ﴿ والذكر والأنثى ﴾ بدون ما خلق ، قال المحلي والخنثى المشكل عندنا ذكر أو أنثى عند الله تعالى فيحنث بتكليمه من حلف لا يكلم ذكراً ولا أنثى انتهى ، وعبارة الخطيب الخنثى وان أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة انتهت ، وقال الكرخي يحنث بتكليمه لأن الله تعالى لم يخلق من ذوي الأرواح من ليس ذكراً ولا أنثى ، والخنثى إنما هو مشكل بالنسبة إلينا ، خلافاً لأبي الفضل الهمداني فيما حكاه وجهاً أنه نوع ثالث ، ويدفعه قوله ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ ونحو ذلك قاله الأسنوي .

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم أي أن عملكم مختلف فمنه عمل للجنة ومنه عمل للنار أو منكم مؤمن وكافر أو منكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار ، أو منكم راحم وقاس وحليم وطائش وجواد وبخيل(١) .

قال جمهور المفسرين السعي العمل ، فساع في فكاك نفسه وساع في عطبها ، وشتى جمع شتيت كمرضى جمع مريض ، وقيل للمختلف شتى لتباعد

---

(٢) روى مسلم في « صحيحه » ١/٢٠٣ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يغدوُ ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » أي : كل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها ، أي : يهلكها .

ما بين بعضه وبعض ، والشتات هو الافتراق ، وسعيكم مصدر مضاف فيفيد العموم فهو جمع معنى وإن كان مفرداً في اللفظ ولذا أخبر عنه بالجمع وهو شتى فهو بمعنى مساعيكم .

﴿ فأما من أعطى ﴾ أي بذل ماله في وجوه الخير ﴿ واتقى ﴾ محارم الله التي نهى عنها ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى أيقن بالخلف الذي من الله ، قال المفسرون فأما من أعطى المعسرين ، وقال قتادة أعطى حق الله الذي عليه ، وقال الحسن أعطى الصدق من قلبه وصدق بالحسنى أي بـ﴿لا إله إلا الله﴾ وبه قال الضحاك والسلمي وابن عباس . وقال مجاهد بالحسنى بالجنة ، وقال زيد ابن أسلم بالصلاة والزكاة والصوم ، والأول أولى ، قال قتادة بالحسنى أي بموعود الله الذي وعده أن يثيبه ، قال الحسن بالخلف من عطائه ، واختار هذا ابن جرير ، وقال ابن عباس أعطى من الفضل واتقى ربه وصدق بالخلف من الله .

﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ أي فسنهيئه للخصلة التي هي حسنى وهي عمل الخير حتى يسهل عليه فعله ، والمعنى فسنيسر له الانفاق في سبيل الخير والعمل بالطاعة لله ، والسين في الموضوعين للتسويف وهو من الله محقق ، وذكر القسطلاني أن هذه السين للتلطيف .

قال الشريف الصفوي مرادهم به ترقيق الكلام بمعنى أن لا يكون نصاً في المقصود بل يكون محتملاً لغير المقصود فهو كالشيء الرقيق الذي يمكن تغييره ويسهل ويقابله الكثيف بمعنى أن يكون نصاً في المقصود لأنه لا يمكن تغييره ، وتبديله فهو كالشيء الكثيف الذي لا يمكن فيه ذلك .

فالمقصود ههنا أن التيسير حاصل في الحال لكن أتى بالسين الدالة على الاستقبال والتأخير لتلطيف الكلام وترقيقه باحتمال أن لا يكون التيسير حاصلاً في الحال لنكات تقتضي ذلك والله أعلم .

قال الواحدي قال المفسرون : نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق

اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله ، قال ابن عباس لليسرى للخير من الله ، وقال زيد بن أسلم للجنة .

وعن عامر بن عبدالله بن الزبير قال « كان ابو بكر الصديق يعتق على الإسلام بمكة وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن فقال له أبوه أي بني أراك تعتق ناساً ضعفاء فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي أبت إنما أريد ما عند الله ، قال فحدثني بعض أهل بيتي ان هذه الآية نزلت فيه[1] »

﴿ وأما من بخل ﴾ بماله فلم يبذله في سبل الخير ﴿ واستغنى ﴾ أي زهد في الأجر والثواب أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ، قال ابن عباس بخل بماله واستغنى عن ربه ، وعنه قال يقول من أغناه الله فبخل بالزكاة ، وعنه هو أبو سفيان بن حرب ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالخلف من الله عز وجل ، وقال مجاهد بالجنة ، وعنه قال بلا إلّه إلا الله .

﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أي فسنهيئه للخصلة العسرى ونسهلها له حتى يتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ويضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار ، قال مقاتل يعسر عليه أن يعطي خيراً ، قيل العسرى الشر ، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب ، والعسرة في العذاب والمعنى سنهيئه للشر بأن نجريه على يديه ، قال الفراء سنيسره سنهيئه ، والعرب تقول قد يسرت الغنم إذا ولدت أو تهيأت للولادة ، قال ابن عباس للعسرى للشر من الله وقيل للنار .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر

---

(١) رواه الواحدي في اسباب النزول ٣٣٥ .

لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ فأما من أعطى ، إلى قوله ، للعسرى »

واخرج احمد ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبدالله أن سراقة بن مالك قال « يا رسول الله في أي شيء يعمل ، أفي شيء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام أم في شيء يستقبل فيه العمل ، قال بل في شيء ثبتت فيه المقادير ، وجرت فيه الأقلام ، قال سراقة: ففيم العمل اذن يا رسول الله ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية فأما من أعطى ، إلى آخرها »

وقد تقدم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه ، وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة قال الفراء : لقائل أن يقول كيف قال ذلك وهل في العسرى تيسير؟ انتهى .

وإيضاح الجواب عن هذا ما ورد في الحديث «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»أي عليكم بشأن العبودية وما خلقتم لأجله وأمرتم به ، وكلوا أمور الربوبية الغيبية إلى صاحبها فلا عليكم بشأنها ، ونظيره الرزق المقسوم مع الأمر بالكسب ، والأجل المضروب في العمر مع المعالجة بالطب ، فانك تجد المغيب فيهما علة موجبة ، والظاهر البادي سبباً مخيلاً وقد اصطلح الناس خاصتهم وعامتهم أن الظاهر فيهما لا يترك بسبب الباطن ، قاله الكرخي .

﴿ وما ﴾ أي لا ﴿ يغني عنه ﴾ شيئاً ﴿ ماله ﴾ الذي بخل به وتركه لوارثه ولم يصحبه منه إلى آخرته التي هي موضع فقره وحاجته شيء أو أي شيء يغني عنه ﴿ إذا تردى ﴾ أي هلك ، يقال ردي الرجل يردى ردى وتردى يتردى إذا هلك ، وقال قتادة وأبو صالح وزيد بن أسلم إذا تردى إذا سقط في جهنم ، يقال ردى في البئر وتردى إذا سقط فيها ، ويقال ما أدري أين ردي أي أين ذهب .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى
﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا
لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

﴿ إن علينا للهدى ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أي علينا البيان بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة ، قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال أي وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه حيث بينا حل من سلك كِلا الطريقين ترغيباً وترهيباً .

قال قتادة على الله البيان ، بيان حرامه وطاعته ومعصيته ، قال الفراء من سلك الهدى فعلى الله سبيله لقوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد ، قال الفراء أيضاً المعنى إن علينا للهدى والاضلال فحذف الاضلال كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ أي والبرد ، وقيل المعنى ان علينا ثواب هداه الذي هديناه ، والأول أولى .

﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي لنا كل ما في الآخرة وكل ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء ، فمن أرادهما أو أخذهما ذلك منا ، وقيل المعنى أن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا فمن طلبها من غيرنا فقد أخطأ الطريق .

﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ أي حذرتكم وخوفتكم ناراً تتوقد وتتوهج ، وأصله تتلظى فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، وقرىء على الأصل ﴿ لا يصلاها ﴾ صلياً لازماً على جهة الخلود ﴿ إلا الاشقى ﴾ وهو الكافر وان صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه والمعنى يدخلها أو يجد صليها وهو حرها .

ثم وصف الأشقى فقال ﴿ الذي كذب وتولى ﴾ أي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وأعرض عن الطاعة والإيمان ، قال الفراء إلا الأشقى إلا من

كان شقياً في علم الله جل ثناؤه ، وقال أيضاً لم يكن كذب برد ظاهر ، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً كما تقول لقي فلان العدو فكذب ، إذا نكل ورجع عن اتباعه .

قال الزجاج : هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر .

ولأهل النار منازل فمنها ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، والله سبحانه كلما وعد عليه بجنس من العذاب فجدير أن يعذب به ، وقد قال الله ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كان من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فائدة .

وقال في الكشاف الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتهما المتناقضتين فقيل الأشقى وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف ، وبالأتقى أبو بكر الصديق .

قال المحلي وهذا الحصر مؤول لقوله تعالى ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فيكون المراد الصلي المؤبد انتهى أي مصروف عن ظاهره فلا يرد الفاسق لأنه إما أن لا يدخلها إن عفي عنه أو يدخلها ويخلص منها ، فالمعنى لا يدخلها دخولاً مؤبداً إلا الكافر الذي هو شقي لأنه كذب النبي .

والأولى أن يقال مؤول بحمل الصلي على التأبيد والخلود .

وعن أبي هريرة قال«لتدخلن الجنة إلا من يأبى قالوا ومن يأبى أن يدخل الجنة فقرأ ﴿ الذي كذب وتولى ﴾»أخرجه ابن جرير .

وعن أبي أمامة « لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الجنة إلا من

شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله فمن لم يصدقني فإن الله يقول ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ﴾ كذب بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عنه ». أخرجه سعيد بن منصور وغيره.

وعنه أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على اهله » اخرجه احمد والحاكم والضياء.

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل النار الا الاشقى ، قيل ومن الشقي قال: الذي لا يعمل لله بطاعة ولا يترك لله معصية » أخرجه أحمد وابن ماجه وابن مردويه .

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل أمتي يدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسول الله قال: من اطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » اخرجه احمد والبخاري .

﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ اي سيباعد عنها المتقي للكفر اتقاء بالغاً ، قال الواحدي الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين ا هـ ، والاولى حمل الاشقى والأتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين ، ويكون المعنى انه لا يصلاها صلياً تاماً لازماً إلا الكامل في الشقاء وهو الكافر . ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى ، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ تبعيد الكامل في التقوى عنها .

والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ زاعماً ان الاشقى الكافر لأنه الذي كذب وتولى ، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين .

فيقال له فماذا تقول في قوله ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ فإنه يدل على انه

لا يجنب النار إلا الكامل في التقوى ، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار ، فإن أولت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى .فخـذ اليك هذه مع تلك وكن كما قال الشاعر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخـــرج منـه لا عـلي ولا ليـا

وقيل أراد بالأشقى والأتقى الشقي والتقي كما قال طرفة بن العبد:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد ، ولا يخفاك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكذيب ، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر فلا يتم ما اراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين .

عن عروة « ان ابا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله : بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وام عيسى وأمة بني المؤمل ، وفيه نزلت ﴿ وسيجنبها الاتقى ﴾ الى آخر السورة » اخرجه ابن ابي حاتم ، وفي الباب روايات .

ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال ﴿ الذي يؤتي ماله ﴾ اي يعـطيه ويصرفه في وجوه الخير ، وقوله ﴿ يتزكى ﴾ في محل يصب على الحال من فاعل يؤتي اي حال كونه يطلب ان يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة ، ويجوز ان يكون بدلاً من يؤتي داخلاً معه في حكم الصلة ، قرأ الجمهور يتزكى مضارع تزكى ، قرأ علي بن الحسين رضي الله عنهما بادغام التاء في الزاي .

﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ قال أبو السعود أي من شأنها ان تجازى وتكافأ ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشـائبة تنـافي الخلوص ، اي ليس ممن يتصدق بمـاله ليجـازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها ، وإنمـا يبتغي بصدقته وجه الله تعالى .

ومعنى الآية أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها ان يجازى عليها حتى يقصد بايتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها ، وإنما قال نجزي مضارعاً مبنياً للمفعول لأجل الفواصل ، والأصل يجزيها إياه أو يجزيه إياها .

﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ قرأ الجمهور بالنصب على الإستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة أي لكن ابتغاء وجه ربه ، ويجوز ان يكون منصوباً على انه مفعول له على المعنى اي لا يؤتي إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة ، قال الفراء هو منصوب على التأويل أي ما اعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله ، وقرىء بالرفع على البدل من محل نعمة لأن محلها الرفع إما على الفاعلية وإما على الابتداء او (من) مزيدة والرفع لغة تميم لأنهم يجوزون البدل في المنقطع في غير الإيجاب ويجرونه مجرى المتصل .

قال مكي وأجاز الفراء في ابتغاء على البدل من موضع نعمة وهو بعيد .

قلت كأنه لم يطلع عليها قراءة ، واستبعاده هو البعيد فإنها لغة فاشية ، وقرأ الجمهور أيضاً ابتغاء بالمد ، وقرىء بالقصر . والأعلى نعت للرب .

﴿ ولسوف يرضى ﴾ اللام هن الموطئة للقسم أي وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم ، وهو وعد من الكريم تعالى لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجلها إذ به يتحقق الرضا ، قاله أبو السعود ، وقرأ الجمهور يرضى مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول من أرضاه الله وهو قريب من قوله تعالى في آخر طه ﴿ لعلك ترضى ﴾ وترضى .

سورة الضحى

هي احدى عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقري قال : « سمعت عكرمة ابن سليمان يقول قرأت على اسماعيل بن قسطنطين . فلما بلغت ﴿ والضحى ﴾ قال كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبيّ بن كعب أخبره بذلك . وأخبره أبيّ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره بذلك » وأبو الحسن المقري المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقري .

قال ابن كثير فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن المقري وكان اماما في القرآت . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي قال هو منكر الحديث .

قال ابن كثير ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته فقال بعضهم يكبر من آخر الليل اذا يغشى . وقال آخرون من آخر الضحى . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول الله أكبر ويقتصر . ومنهم من يقول الله أكبر لا آله الا الله . الله أكبر .

وذكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى اليه ﴿ والضحى ﴾ كبر فرحاً وسروراً. ولم يرووا ذلك باسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جندب البجلي قال : « اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثة فأتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك الا قد تركك فلم يقربك ليلتين أو ثلاثة فأنزل الله والضحى » .

وعن جندب قال : « أبطأ جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون قد ودع محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت ﴿ ما ودعك ﴾ وعنه قال : « احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت بعض بنات عمه ما أرى صاحبك الا قد قلاك ، فنزلت ﴿والضحى﴾[1] » وقيل في سبب نزولها غير ذلك وما ذكرنا هو الأولى .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٥٤٥/٨ ومسلم ١٤٢٣/٣ وأحمد في « المسند « ٣١٢/٤ وابن جرير الطبري ٢٣١/٣٠ والواحدي في « أسباب النزول » وأورده السيوطي في « الدر » ٣٦٠/٦ وزاد نسبته للترمذي ، والنسائي ، والبيهقي وأبي نعيم معاً في « الدلائل » عن جندب بن عبد الله بن شفيان البجلي رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٥٤٥/٨ : وجدت في الطبري باسناد فيه من لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ لم يشعر به ، فأبطأ عنه جبريل لذلك ، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة ، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب ، بل شاذ مردود بما في الصحيح والله أعلم . وورد لذلك سبب ثالث ، وهو ما أخرجه الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال : لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فتغير بذلك ، قالوا : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ . . ومن طريق اسماعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه ، فقال : لقد خشيت أن . . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)

﴿ والضحى ﴾ المراد بالضحى هنا النهار كله لقوله ﴿ والليل إذا سجى ﴾ فلما قابل الضحى بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه ، وهو في الأصل إسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم في قوله ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وعلى هذا يكون في الكلام مجاز من إطلاق إسم الجزء وإرادة الكل ، والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين ، وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق أن المراد به الضحى الذي كلم الله فيه موسى والمراد بقوله الآتي ﴿ والليل إذا سجى ﴾ ليلة المعراج .

وقيل المراد بالضحى هو الساعة التي خر فيها السحرة سجداً كما في قوله ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ وقيل المقسم به مضاف مقدر كما تقدم في نظائره أي ورب الضحى وقيل تقديره وضحاوة الضحى ، ولا وجه لهذا فللّه سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه . وقيل الضحى نور الجنة والليل ظلمة النار ، وقيل الضحى نور قلوب العارفين ، والليل سواد قلوب الكافرين ، والأول أولى .

وقدم هنا الضحى ، على الليل . وفي السورة قبلها قدم الليل لأن لكل منهما أثراً في صلاح العالم ولليل فضيلة السبق ، وللنهار فضيلة النور ، فقدم هذا تارة وهذا أخرى ، أو أنه قدم الليل في سورة أبي بكر لأن أبا بكر سبق له كفر ، وقدم الضحى في سورة محمد لأنه نور محض ولم يتقدمه ذنب ، ولم يفصل بين السورتين إشارة إلى أنه لا واسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر .

قلت هذه الأقوال من قبيل لطائف النكات وليس من تفسير كتاب الله في شيء .

﴿ والليل إذا سجى ﴾ أي سكن كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم ، يقال ليلة ساجية أي ساكنة ، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية ، يقال سجى الشيء يسجو سجواً إذا سكن ، قال عطاء إذا سجا إذا غطى بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي سجا امتد ظلامه ، وقال الأصمعي سجو الليل تغطيته النهار مثل ما يسجى الرجل بالثوب ، وقال الحسن غشي بظلامه كل شيء ، وقال سعيد بن جبير أقبل ، وقال مجاهد أيضاً استوى والأول أولى وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة ، ومعنى سكونه استقرار ظلامه واستواؤه فلا يزاد بعد ذلك ، وقال ابن عباس إذا أقبل وعنه قال إذا ذهب .

﴿ ما ودعك ربك ﴾ أي ما تركك ، قاله ابن عباس وهذا جواب القسم أي ما قطعك قطع المودع ، قرأ الجمهور بتشديد الدال من التوديع وهو توديع المفارق ، وقرىء بتخفيفها من قولهم ودعه أي تركه والتوديع أبلغ من الودع لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في ترك .

قال المبرد لا يكادون يقولون ودع ولا وزر لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، قال أبو عبيدة ودعك من التوديع كما يودع المفارق ، وقال الزجاج لم يقطع الوحي ، والتوديع مستعار استعارة تبعية للترك فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته ، وهذه الحقيقة لا تتصور هنا .

﴿ وما قلى ﴾ أي ما أبغضك ، قاله ابن عباس : القلاء البغض ، يقال قلاه يقليه قلاً وقال ما قلى ، ولم يقل وما قلاك لموافقة رؤوس الآي .

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي الجنة خير لك من الدنيا مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ، وتتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة في

الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم أو كظل زائل ، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئاً ، ولما كانت طريقاً إلى الآخرة وسبباً لنيل ما أعده الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الجملة من هذه الحيثية .

وإنما قيد بقوله « لك » لأنها ليست خيراً لكل أحد .

قال البقاعي إن الناس على أربعة أقسام منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء ، ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر في الآخرة وهم الكفرة الأغنياء ، ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم الفقراء المؤمنون ، ذكره الخطيب .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « عرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي فأنزل الله » ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ أخرجه[1] الطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل ، وعنه قال « عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هو مفتوح على أمته من بعده فسر بذلك فأنزل الله » .

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك ، وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة ، وقيل هي

---

(١) رواه ابن جرير الطبري ٢٣٢/٣٠ من رواية الإمام الأوزاعي عن اسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر المخزومي عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عبد الله بن عباس ، ورواه ابن أبي حاتم من طريقه به . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ومثل هذا ما يقال عن توقيف . ورواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٨ والحاكم ٥٢٦/٢ ورواه الطبراني في « الكبير » . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٣٩/٧ : وإسناد الطبراني في « الكبير » حسن . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٦١/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، والبيهقي وأبي نعيم كلاهما في « الدلائل » وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

للقسم ، قال أبو علي الفارسي ليست هذه اللام هي التي في قولك إن زيداً لقائم بل هي التي في قولك لأقومن ، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد فكأنه قال ولنعطيك أي أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة .

قيل والمعنى ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة فترضى ، وقال البيضاوي هذا وعد شامل لما أعطاه له من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين ، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواه ، وقيل الحوض والشفاعة في الأمة ، وقيل ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك ، وبه قال ابن عباس وزاد في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم وعنه قال رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة .

وأخرج ابن جرير عنه قال من رضا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار .

وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه قال لا يرضي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وواحد من أمته في النار[1] .

ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله في إبراهيم ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ وقول عيسى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال الله يا جبريل إذهب إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال قلت لابي جعفر محمد بن علي بن الحسين « أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي ؟ قال أي والله حدثني محمد بن الحنفية

(١) أي من أمته الذين ساروا على نهجه عقيدة وعبادة لا أولئك الذين اكتفوا من الدين بالأسماء .

عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أشفع لأمتي حتى يناديني ربي أرضيت يا محمد فأقول نعم يا رب رضيت » ثم أقبل علي فقال إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ قلت إنا لنقول ذلك ، قال فكنا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وهي الشفاعة » .

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنّا أهل البيت اختارَ اللهُ لنا الآخرةَ على الدنيا ولسوف يعطيك ربك فترضى » أخرجه ابن أبي شيبة .

وعن جابر بن عبدالله قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من جلد الإبل ، فلما نظر إليها قال يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة فأنزل الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن النجار .

قيل في الآية غير ذلك ، والظاهر انه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة ، ومن أهم ذلك عنده وأقدمه قبول شفاعته لأمته

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم الثلاث والقصد من تعداد هذه النعم تقوية قلبه صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف قوله تعالى ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ لأنه في معرض الذم .

ثم أمره بعذ ذلك أن يذكر نعم ربه كأنه قال له فالطريق في حقك أن تفعل مع عبيدي مثل ما فعلت في حقك ، والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفى على أبلغ وجه فكأنه قال قد وجدك يتيماً والوجود بمعنى العلم ، وقيل بمعنى المصادفة ، والمعنى وجدك يتيماً لا أب لك قبل ولادتك أي بعد حمله بشهرين وهو الارجح ، وقيل غير ذلك ، والتفصيل في المواهب وشرحه .

وكانت وفاة أبيه بالمدينة ، ودفن في دار التابعة وقيل بالابواء من أعمال الفرع ، وتوفيت أمه وهو ابن أربع أو خمس أو ست أو سبع أو ثمان أو تسع أو اثنتي عشرة سنة وشهر وعشر أيام ، وكانت وفاتها بالابواء ، وقيل بالحجون ، ومات جده وهو صلى الله عليه وآله وسلم ابن ثمان .

﴿ فآوى ﴾ أي جعل لك مأوى تأوي إليه ، فرأ الجمهور فآوى بالالف بعد الهمزة رباعياً من آواه يؤويه ، وقرىء ثلاثياً وهو إما بمعنى الرباعي أو هو من أوى له إذا رحمه ، وعن مجاهد قال معنى الآية ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك فأواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك ، فجعل يتيماً من قولهم درة يتيمة ، وهو بعيد جداً .

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ معطوف على المضارع المنفي وقيل على ما يقتضيه الكلام الذي قبله كما ذكرنا أي قد وجدك يتيماً الخ والضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ وكما في قوله ﴿ وإن كنت من

قبله لمن الغافلين ﴾ والمعنى أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة ، واختار هذا الزجاج وقيل معنى ضالاً لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع فهداك لذلك ، يعنى ليس المراد به الإنحراف عن الحق ، فهذا كقوله تعالى ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ تأمل .

وقال الكلبي والسدي والفراء وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك ، أو فهداك إلى إرشادهم أو ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك الله تعالى إليها ، وقيل وجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها ، وقيل ناسياً شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فذكرك كقوله تعالى ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ وقيل وجدك طالباً للقبلة فهداك إليها كما في قوله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ ويكون الضلال بمعنى الطلب لأن الضال طالب .

وقيل وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليهم .ويكون الضلال بمعنى الضياع ، وقيل وجدك محباً للهداية فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة ، كقوله تعالى ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ وقيل وجدك ضالاً في شعاب مكة فهداك أي ردك إلى جدك عبدالمطلب .

وعن ابن عباس قال وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلالتهم ، وقيل ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب فرده إلى القافلة .

ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في باطل ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان ، وقاذورات أهل الفسق والعصيان .

وقيل ضالاً نفسك لا تدري من انت فعرفك نفسك وحالك ، وقيل ضالاً ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش ، وقيل معناه لا أحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق ، وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد غيره

وفيه بعد ، وأيضاً يأباه النظم الكريم .

وعندي أن الضلال والهدى عامان في هذ الآية فيشملان كل نوع من أنواع الضلالة والهداية بيد الكفر والشرك لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أي وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك ، يقال عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر ، قال الكلبي فأغنى أي رضاك بما أعطاك من الرزق واختار هذا الفراء قال : لأنه لم يكن غنياً من كثرة ، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه وذلك حقيقة الغنى ، وقيل بإعانة الأنصار حين الهجرة وقيل فأغنى بما فتح لك من الفتوح والغنائم ، وفيه نظر ، لأن السورة مكية وقيل بمال خديجة بنت خويلد وتربية أبي طالب أولاً وبمال أبي بكر ثانياً ، وقيل وجدك فقيراً من الحجج والبراهين فأغناك بها وفيه بعد .

قرأ الجمهور عائلاً وقرىء عيلاً بزنة سيد ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت قد كانت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فقال تعالى يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك ألم أجدك ضالاً فهديتك ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ألم أشرح لك صدرك ألم أضع عنك وزرك ألم أرفع لك ذكرك قلت بلى يا رب » أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر .

وأخرج ابن مردويه عنه قال « لما نزلت والضحى على رسول صلى الله عليه وآله وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمن عليّ ربي وأهل أن يمن ربي » .

ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان قال مجاهد لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيماً قال الاخفش لا تسلط عليه بالظلم ادفع إليه حقه واذكر يتمك ، قال

الفراء والزجاج لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه وكذا كانت العرب تفعل في حق اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحسن إلى اليتيم ويبره ويوصي باليتامى .

قرأ الجمهور فلا تقهر بالقاف وقرىء بالكاف ، والعرب تعاقب بين القاف والكاف ، قال النحاس إنما يقال كهره إذا اشتد عليه وغلظ ، وقيل القهر الغلبة والكهر الزجر ، قال أبو حيان هي لغة يعني قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور .

عن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة وفرج بينهما » أخرجه البخاري وفي الباب أحاديث[1] .

واليتيم منصوب بتقهر ، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل ألا ترى أن اليتيم منصوب بالمجزوم ، وقد تقدم على الجازم ، ولو قدمت تقهر على « لا » امتنع لأن المجزوم لا يتقدم على جازمه كالمجرور لا يتقدم على جاره قاله السمين .

﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره فهو نهي عن زجر السائل والاغلاظ له ، ولكن يبذل اليسير القليل ، أو يرده بالجميل .

قال الواحدي قال المفسرون يريد السائل على الباب ، يقول لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً لينا قال قتادة معناه رد السائل برحمة ولين .

وقيل المراد بالسائل طالب العلم والذي يسأل عن الدين فلا تنهره بالغلظة والجفوة وأجبه برفق ولين ، كذا قال سفيان ، والسائل منصوب بتنهره

(١) صحيح البخاري .

والتقدير مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل ، وهذه النواهي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي نواه له ولأمته صلى الله عليه وآله وسلم لانهم أسوته ، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكل فرد من أفراد هذه النواهي .

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس واشهارهـا بينهم ، والظاهـر النعمة عـلى العموم من غـير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعهـا ، وقال مجاهد والكلبي المراد بالنعمة هنا القرآن ، قال الكلبي وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرأه ، قال الفراء وكان يقرأه ويحدث به ، وقال مجاهد أيضاً المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله ، واختار هذا الزجاج فقال أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أعطاك الله وهي أجل النعم ، وقال مقاتل يعني أشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة وجبر اليتيم والاغناء بعد العيلة ، فاشكر هذه النعم ، والتحدث بنعمة الله شكر .

وهذا الامر له صلى الله عليه وآله وسلم هو أمر له ولأمته لأنهم اسوته في كل ما يأتي ويذر ، قال الحسن بن علي في الآية ما عملت من الخير وعنه قال إذا أصبت خيراً فحدث اخوانك ، وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفـر ، والجماعة رحمة » أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند والبيهقي في الشعب والخطيب في المتفق ، قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي والضياء .

وأخرج البخاري في الادب وأبو داود والضياء عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم « من أعطى عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور » .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أولِيَ معروفاً فليكافىء به فإن لم يستطع فليذكره فإن من ذكره فقد شكره » أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي .

قال الكرخي والجار والمجرور متعلق بحدث والفاء غير مانعة من ذلك لانها كالزائدة والتحدث بها نشرها بالشكر والثناء عليه تعالى .

وقوله تعالى ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ مقابل لقوله ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ وقوله ﴿ وأما السائل ﴾ الخ مقابل لقوله ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ وأما قوله ﴿ وأما بنعمة ربك ﴾ الخ فجيء به على العموم .

وفي حكمة تأخير حق الله تعالى عن حق اليتيم والسائل وجوه .

احدهما أن الله غني وهما محتاجان ، وتقديم المحتاج أولى .

وثانيها انه وضع في حظهما الفعل ورضى لنفسه بالقول .

وثالثها أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله فختمت به ، وأوثر فحدث على فخبر ليكون عنده حديثاً لا ينساه .

سورة ألم نشرح

هي ثمان آيات وهي مكية بلا خلاف . عن عائشة قالت نزلت سورة ألم نشرح بمكة ومثله عن ابن عباس وزاد بعد الضحى .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا
لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ
فَٱرۡغَب ﴿٨﴾

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ معنى شرح الصدر فتحه باذهاب ما يصدرعن الادراك ، والاستفهام التقريري إذا دخل على النفي قرره فصار المعنى قد شرحنا لك صدرك حتى وسع مناجاة الحق ، ودعوة الخلق ، فكان غائباً عنهم بروحه ، وحاضراً معهم بجسده الشريف .

والمعنى ألم نفسحه بما اودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل ، أو بما يسرنا لك من تلقي الوحي بعد ما كان يشق عليك .

قال الراغب أصل الشرح بسط اللحم ونحوه يقال شرحت اللحم وشرحته ، ومنه شرح الصدر وهو بسطه بنور إلهي وسكينته من جهة الله وروح منه وإنما خص الصدر لانه محل أحوال النفس من العلوم والادراكات ، وقيل لان الصدر محل الوسوسة كما قال تعالى ﴿ يوسوس في صدور الناس ﴾ فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح .

والقلب محل العقل والمعرفة وهو الذي يقصده الشيطان فيجيء أولاً إلى الصدر الذي هو حصن القلب فإذا وجد مسلكاً نزل فيه هو وجنده وبث فيه الغموم والهموم والحرص ، فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة ، وإذا لم يجد له مسلكاً وطرد حصل الأمن وانشرح الصدر ، وتيسر القيام بأداء العبودية .

ولم يقل نشرح صدرك تنبيهاً على أن منافع الرسالة عائدة عليه صلى الله عليه وآله وسلم كأنه يقول إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي ، والمراد بالامتنان عليه صلى الله عليه وآله وسلم بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء وحفظ الوحي . وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾ قال ابن عباس في الآية شرح الله صدره للاسلام .

قرأ الجمهور نشرح بسكون الحاء بالجزم ، وبفتحها قرأ أبو جعفر المنصور العباسي قال الزمخشري قالوا : لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها .

وقال ابن عطية إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة ثم إبدالها ألفاً ثم حذفها تخفيفاً ، وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بلم وهو قليل جداً ، وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلن ، وهذه ما أظنها تصح . وإن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها .

وعلى كل حال فقراءة هذ الرجل مع شدة جوره ومزيد ظلمه وكثرة جبروته وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها .

﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ معطوف على معنى ما تقدم لا على لفظه أي قد شرحنا لك صدرك ووضعنا الخ والوزر الذنب أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ، قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل المعنى حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية ، وهذا كقوله ﴿ ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لتعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر .

ولما أن في وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم .

ثم وصف هذا الوزر فقال ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ قال المفسرون : أي ثقل ظهرك ، قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض أي صوت . وهذا مثل معناه أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره ، وأهل اللغة يقولون ، أنقض الحمل ظهر الناقة إذا سمع له صرير من شدة الحمل ، قال قتادة : كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له .

وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له ، وكذا قال أبو عبيدة وغيره ، وقرأ ابن مسعود ﴿ وحللنا عنك وقرك ﴾ وقيل معناه عصمناك من الوزر الذي ينقض ظهرك ولو كان ذلك الوزر حاصلاً ، قاله الرازي وفيه استعارة تمثيلية حيث سمى العصمة وضعاً مجازاً .

ثم ذكر سبحانه منته وكرامته عليه فقال ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وزيادة لك في الموضعين وعنك في موضع تفيد إبهام المشروح والموضوع والمرفوع ثم توضيحه . والإيضاح بعد الإبهام أوقع في الذهن ، قال الحسن وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر صلى الله عليه وسلم معه .

قال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ؛ ولا صاحب صلاة إلا ينادي فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله ، قال مجاهد يعني بالتأذين ، وعبارة الخطيب تذكر معي في الأذان والإقامة والتشهد ويوم الجمعة على المنابر ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، ويوم عرفة وأيام التشريق وعند الجمار وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ومشارق الأرض ومغاربها ، ولو أن رجلاً عبدالله وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء وكان كافراً انتهى .

وقيل المعنى ذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك وأمرناهم بالبشارة بك ، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه ، وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وعند المؤمنين في الأرض ، ونرفع ذكرك في الآخرة بما نعطيك من المقام

المحمود وكرائم الدرجات وجلائل المراتب ، قال الضحاك لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به .

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله .

والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور ، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر ، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه وإخباره صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشراً .

وكم من موضع في القرآن يذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الله سبحانه من ذلك قوله تعالى ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ وأمر الله بطاعته صلى الله عليه وآله وسلم كقوله ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ وقوله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا عنه ﴾ وقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وغير ذلك .

وبالجملة فقد ملأ ذكره الجميل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان .

وما أحسن قول حسان رضي الله تعالى عنه :

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتاني جبريل فقال إن ربك يقول تدري كيف رفعت ذكرك . قلت الله ورسوله

أعلم ، قال إذا ذكرت ذكرت معي»[١] أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبـو نعيم في الدلائل وقـد روي بطرق .

وقال ابن عباس في الآية لا يذكر الله إلا ذكر معه فهو الذي يطوى به الذكر الجميل ويبدأ .

﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ أي أن مع الضيقة سعة ، ومع الشدة رخاء ومع الكرب فرجاً ، وفي هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين ، ومع بمعنى (بعد) ، وفي التعبير بها إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر كأنه مقارن .

عن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالساً وحياله جحر فقال : « لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه فأنزل الله ﴿ إن مـع العسر يسراً ﴾ الـخ ولفظ الطبـراني : وتلا رسـول الله صـلى الله عليـه وآله وسلم ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ » وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه مرفوعاً نحوه . قال السيوطي وسنده ضعيف .

وعن ابن مسعود مرفوعاً « لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يـدخل فيـه فيخرجـه ولن يغلب عسر يسرين إن الله يقـول إن مع العسر يسـراً »[٢] الخ أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الصبر ، وابن المنذر والبيهقي في الشعب ، قال البزار لا نعلم رواه عن أنس

---

(١) سقطت هذه الكلمة من الأصل ، واستدركناها من الطبري وغيره .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٣٠/٢٣٥ من رواية يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، ودراج ، وإن كان صدوقاً في حديثه فإنه في روايته عن أبي الهيثم ضعيف ، كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » ومع ذلك فقد صححه ابن حبان . وقال ابن كثير : وكذا روى الحديث ابن أبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به ، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٣٦٤ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الدلائل » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

إلا عائذ بن شريح قال فيه أبو حاتم الرازي في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن ابن مسعود .

ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتوكيداً فقال مكرراً له بلفظ ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ أي أن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر لما تقرر من أنه إذا أعيد المعرف يكون الثاني عين الأول سواء كان المراد به الجنس أو العهد بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في الغالب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في معنى هذه الآية أنه لن يغلب عسر يسرين .

قال الواحدي : وهذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والمفسرين على أن العسر واحد واليسر إثنان قال الزجاج ذكر العسر مع الألف واللام ، ثم ثنى ذكره فصار المعنى أن مع العسر يسرين ، قيل والتنكير في اليسر للتفخيم والتعظيم وهو في مصحف ابن مسعود غير مكرر .

قرأ الجمهور بسكون السين في العسر واليسر في الموضعين ، وقرىء بضمها في الجميع وفيه خلاف هل هو أصل أو مثقل من المسكن

وعن الحسن قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً » أخرجه عبدالرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي ، وهذا مرسل وروي نحوه مرفوعاً مرسلاً عن قتادة .

ولما عدد سبحانه عليه-صلى الله عليه وسلم-نعمه السالفة ووعده بالنعم الآتية بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة فقال ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أي إذا فرغت من صلاتك أو من التبليغ أو من الغزو فاجتهد في الدعاء واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب في العبادة أو اتعب في الدعاء قبل السلام وبعده ، والنصب التعب يقال نصب ينصب نصباً أي تعب .

قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبي : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة

فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب اليه في المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد .

قال الشعبي إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك ، وكذا قال الزهري وقال الكلبي أيضاً إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب أي ﴿ استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

وقال الحسن وقتادة وزيد بن أسلم : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك ، وفيه نظر ، لان السورة مكية والامر بالجهاد انما كان بعد الهجرة فلعله تفسير الذاهب إلى أن السورة مدنية ، قال مجاهد أيضاً : إذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك .

وقال ابن عباس : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء واسأل الله وارغب اليه ، وعنه قال:قال الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغت من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك .

وعن ابن مسعود قال : فانصب إلى الدعاء وإلى ربك فارغب في المسألة ، وعنه قال إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، قال عمر ابن الخطاب : اني أكره أن أرى أحدكم فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة .

﴿ وإلى ربك ﴾ المحسن اليك بفضائل النعم خصوصاً بما ذكر في هاتين السورتين ﴿ فارغب ﴾ أي أجعل رغبتك اليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه ، وقيل تضرع اليه ، قال الزجاج أي اجعل رغبتك إلى الله وحده وقال عطاء يريد أنه يضرع اليه راهباً من النار ، راغباً في الجنة .

والمعنى انه يرغب اليه سبحانه لا إلى غيره كائناً من كان فلا يطلب حاجاته إلا منه ، ولا يعول في جميع أموره إلا عليه ، قرأ الجمهور فارغب وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة فرغب بتشديد الغين أي فرغب الناس إلى الله وشوقهم إلى ما عنده من الخير .

سورة التين

هي ثمان آيات وهي مكية في قول الجمهور وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال أنزلت سورة التين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب « قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فصلى العشاء فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً ولا قراءة منه » .

وعنه قال : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المغرب فقرأ بالتين » أخرجه الخطيب وعن عبد الله بن يزيد نحوه عند الطبراني وابن شيبة .

وعن زرعة بن خليفة قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من اليمامة فعرض علينا الاسلام فأسلمنا فلما صلينا الغداة قرأ بالتين والزيتون وإنا أنزلناه في ليلة القدر » وأخرجه ابن قانع وابن الساكن والشيرازي في الألقاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ
تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿ والتين ﴾ قال أكثر المفسرين هو التين الذي يأكله الناس ، وإنما أقسم بالتين لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك وجعلها على مقدار اللقمة .

قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن وأكثرها غذاء ، وذكروا له فوائد كما في كتب المفردات والمركبات وهو غذاء ودواء .

أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الرشح ، ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ، ويسمن البدن ، ويفتح مسام الكبد وسدده والطحال ويقطع البواسير ، ويزيل نكهة الفم ، ويطول الشعر ، وهو أمان من الفالج .

وأما كونه دواء فلأنه سبب في إخراج فضلات البدن وهو مأكول الظاهر والباطن دون غيره كالجوز والتمر .

والتين في النوم رجل غير جبار ، ومن نالها في المنام نال مالاً ومن أكلها مناماً رزقه الله أولاداً ، وتستر آدم بورق التين حين فارق الجنة ، ويشبه فواكه الجنة لأنه بلا عجم وفاكهة طيبة لا فضل له ينفع من النقرس .

وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، وقيل : مسجد أصحاب الكهف ، وقال ابن زيد : مسجد دمشق ، وقال قتادة التين الجبل الذي عليه

دمشق ، وقال عكرمة وكعب الاحبار : التين دمشق ، وعن ابن عباس : قال التين بلاد الشام ، وفي سنده مجهول وعنه قال مسجد نوح الذي بني على الجودي ، وعنه قال الفاكهة التي يأكلها الناس .

﴿ والزيتون ﴾ وهو الذي يعصرون منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم ويدخل في كثير من الأدوية ، وقال الضحاك المسجد الأقصى ، وقال ابن زيد مسجد بيت المقدس ، وقال قتادة الجبل الذي عليه بيت المقدس ، وقال عكرمة وكعب الأحبار بيت المقدس ، وعن ابن عباس قال بلاد فلسطين وفي سنده مجهول ، وقال أيضاً بيت المقدس .

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ونقل ، وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية ، قال الفراء ؛ سمعت رجلاً يقول التين جبال حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام .

قلت هب إنك سمعت هذا الرجل فكان ماذا ، فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل عن الشارع ، وقال محمد بن كعب الزيتون مسجد إيليا ، وقيل إنه على حذف مضاف أي ومنابت التين والزيتون ، قال النحاس لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه .

قال الرازي أما الزيتون فهو فاكهة من وجه ودواء من وجه ، ويستصبح به ، ومن رأى ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى .

﴿ وطور سينين ﴾ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام اسمه الطور ، ومعنى سينين المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة ، وقال مجاهد هو المبارك بالسريانية وقال مجاهد والكلبي سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط ، قال الأخفش طور جبل وسينين شجر ، واحدته سينة .

قال أبو علي الفارسي سينين فعليل فكررت اللام التي هي نون فيه ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سينا لأنه جعل اسماً للبقعة

وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام وهي الأرض المقدسة كما في قوله ﴿ إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه السلام ، قرأ الجمهور سينين بكسر السين وقرىء بفتحها وهي لغة بكر وتميم ، وقرىء سيناء بالكسر والمد ، وهذه لغات اختلفت في هذا الإسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالاسماء العجمية .

﴿ وهـذا البلد الأمين ﴾ يعني مكة سمـاه أميناً لأنـه آمن كما قـال الله تعـالى ﴿ إنا جعلنا حرماً آمناً ﴾ يقال أمن الرجل أمانة فهـو أمين ، قال الفـراء وغيره الأمين بمعنى الآمن أو فعيل بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل ، قال ابن عباس أي مكة يعنى لأمن الناس فيها جاهلية وإسلاماً(١) .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ هذا جواب القسم أي خلقنا جنس الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل لصورته ، وقال ابن عباس في أحسن خلق .

قال الواحدي قال المفسرون : إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده ، مزيناً بالعلم والفهم

---

(١) قال ابن كثير : وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة ، بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول محلة التين والزيتون ، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام ، والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ، والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ ، قالوا : وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله في طور سيناء ـ يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ـ وأشرق من ساعير ـ يعني جبل بيت المقدس الـذي بعث الله منه عيسى ، ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم الأشرف منهما .

والنطق والعقل ، والتمييز والأدب ، فهو أحسن الخلق بحسب الظاهر والباطن ، ومعنى التقويم التعديل يقال قومته فاستقام والمراد القوام لأن التقويم فعل الباري تعالى .

قال القرطبي هو اعتداله واستواء شأنه ، كذا قال عامة المفسرين ، قال ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً ، وهذه صفات الرب سبحانه وعليها حمل بعض العلماء قوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » يعني على صفاته التي تقدم ذكرها .

قلت وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ .

ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع فلينظر في كتاب العبر والإعتبار للجاحظ ، وفي الكتاب الذي عقده النيسابوري على قوله ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وهو في مجلدين ضخمين .

روي أن رجلاً قال لامرأته إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالق فأفتى بعض أهل العلم بأنها صارت مطلقة ، وقال الشافعي لم تطلق لأنها من جنس الإنسان ، والله تعالى يقول ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ فلو كان القمر أحسن صورة من الإنسان لم يصفه الله سبحانه بأحسن تقويم ، ولنعم ما قيل :

ما أنت مادحها يا من يشبهها ... بالشمس والبدر لا بل أنت هاجيها[1]
من أين للشمس خال فوق وجنتها ... ومضحك من نظام الدر في فيها
من أين للبدر أجفان مكحلة ... بالسحر والغنج تجري في حواشيها

(٢) البيت من شواهد الفراء (٣٧١) ، وهو في الطبري ٢٤١/٣٠ ، والقرطبي ١١٣/٢٠ .

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أي رددناه إلى أرذل العمر ، قاله ابن عباس وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة حتى يصير كالصبي فيخرف وينقص عقله ، كذا قال جماعة من المفسرين ، قال الواحدي : والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً لأنه لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله ، قاله الخازن .

وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة ، ولا ينافي هذا قوله تعالى ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل .

وقوله أسفل سافلين إما حال من المفعول أي رددناه حال كونه أسفل سافلين أو صفة لمقدر محذوف أي مكاناً أسفل سافلين .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هذا الاستثناء منقطع على القول الأول أي لكن الذين آمنوا الخ ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الإتصال معنى ، وعلى القول الثاني متصل من ضمير رددناه فإنه في معنى الجمع أي رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقال الشهاب الإستثناء منقطع لأنه لم يقصد إخراجهم من الحكم وهو مدار الاتصال والانقطاع كما صرح به في الأصول لا الخروج والدخول كما توهم ، فلا يرد عليه أنه كيف يكون منقطعاً مع أنهم مردودون أيضاً فهو للإستدراك لدفع ما يتوهم من أن التساوي في أرذل العمر يقتضي التساوي في غيره ، ويكون ﴿ الذين ﴾ حينئذ مبتدأ والفاء داخلة في خبره لا للتفريع كما في الإتصال ، وقيل المعنى رددناه إلى الضلال كما قال ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك .

﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم . فهذه الجملة على القول الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى الثاني مقررة لما يفيده الإستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد .

قال ابن عباس في الآية أجر غير منقوص ، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ولم يضره ما عمل في كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر ، وعنه قال من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر . وذلك قوله ﴿ ثم رددناه ـ إلى قوله ـ الصالحات ﴾ قال لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وعنه قال يقول إلى الكبر وضعفه فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبيبته .

وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » .

﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ الخطاب للإنسان الكافر والإستفهام للتقريع والتوبيخ ولإلزام الحجة أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم وأنه يردك أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ، وعليه ينبغي أن يذهب إلى الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب لما جرى من قوله ﴿ ولقد خلقنا الانسان ﴾ وعليه جرى في الكشاف .

وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اي اي شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين ، وإلى هذا ذهب القاضي وقدمه على القول الأول .

قال الفراء المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين كأنه قال من يقدر على ذلك أي على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من

قدرتنا على خلق الانسان ما ظهر ، واختار هذا ابن جرير ، والدين الجزاء .

﴿ أليس الله ﴾ أي أليس الذي فعل ما فعل مما ذكرنا ﴿ بأحكم الحاكمين ﴾ صنعاً وتدبيراً ، وأقضى القاضين وأصحهم وأنفذهم حكماً وقضاء حتى تتوهم عدم الاعادة والجزاء ، وفيه وعيد شديد للكفار ، والمعنى اتقن الحاكمين في كل ما يخلق ، وقيل أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً ، والاستفهام إذا دخل على النفي صار الكلام إيجاباً وتقريراً كما تقدم في ﴿ ألم نشرح ﴾ .

وعن أبي هريرة مرفوعاً « من قرأ والتين والزيتون فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أخرجه الترمذي وابن مردويه .

وعن جابر مرفوعاً « إذا قرأت التين فقرأت أليس الله الخ فقل بلى » أخرجه ابن مردويه وعن ابن عباس « أنه كان إذا قرأ الآية قال : سبحانك اللهم فبلى » أخرجه ابن جرير وابن المنذر .

سورة اقرأ

ويقال لها سورة العلق وسورة القلم، وهي تسع عشرة آية وقيل عشرون آية، وهي مكية بلا خلاف وهي أول ما نزل من القرآن، قاله ابن عباس وعن أبي موسى الأشعري قال هي أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله تعالى عنها نحوه.

ويدل على هذا الحديث الطويل الثابت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديثها وفيه: فجاءه الحق وهو في غار حراء فقال له الملك اقرأ، الحديث. وفي الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة، وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن ثم بعده نون والقلم ثم المزمل ثم المدثر إلى آخر ما ذكره الخازن في أول تفسيره، فإنه استوفى الكلام على ترتيب السور من جهة النزول بمكة ثم بالمدينة.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة، وذكر

ذلك مكي في تفسير سورة براءة . وذكر أن ترتيب الآيات ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسملة وهذا أصح ما قيل في ذلك .

وقال قوم ان ترتيب السور عن توقيف من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأما ما روي من اختلاف مصحف أبيّ وعلي وعبد الله فانما كان قبل عرض القرآن على جبريل في المرة الاخيرة وان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك .

روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكاً يقول انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذكر أبو بكر ابن الانباري في كتاب الرد أن الله أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ثم فرقه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة . فكانت السورة تنزل في أمر يحدث ،والآية تنزل جواباً لمستخبر يسأل ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية . فانتظام السور كانتظام الآيات والحروف فكله عن رسول الله خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عن رب العالمين . فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات . وغير الحروف والكلمات . ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الانعام . والانعام نزلت قبل البقرة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب وهو كان يقول « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن » وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الآيات . انتهى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ
﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ
﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿ اقرأ ﴾ قرأالجمهور بسكون الهمزة أمراً من القراءة وقرىء بفتح الراء وكأنه قلب الهمزة ألفاً ثم حذفها للأمر ، والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً فالتقدير اقرأ ما يوحى إليك أو ما نزل عليك أو ما أمرت بقراءته .

وقوله ﴿ باسم ربك ﴾ متعلق بمحذوف هو حال أي اقرأ متلبساً باسم ربك أو مبتدأ به أو مفتتحاً أو الباء زائدة أي اقرأ اسم ربك قاله أبو عبيدة ، وقال أيضاً والاسم صلة أي اذكر ربك ، وقيل الباء بمعنى على أي اقرأ على اسم ربك ، يقال افعل كذا باسم الله وعلى اسم الله قاله الأخفش ، وقيل الباء للاستعانة أي مستعيناً به ، وبسم الله تكتب من غير ألف استغناء عنها بباء الالصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال بخلاف قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فانها لم تحذف فيه لقلة الاستعمال .

عن عبدالله بن شداد قال « أتى جبريل محمداً صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اقرأ فقال وما اقرأ فضمه ثم قال يا محمد اقرأ قال وما اقرأ قال اقرأ باسم ربك-حتى بلغ-ما لم يعلم » اخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة فجاءه الملك فقال اقرأ فقال قلت ما أنا بقارىء قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال

اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فقال اقرأ باسم ربك الخ » .

ثم الظاهر أن هذه الجملة ليست من القرآن لأن الأمر بتحصيل الشيء غير ذلك الشيء ، ولكن قام الاجماع على أنها من جملة القرآن خصوصاً مع اثباتها في المصاحف بخطها سلفاً وخلفاً من غير نكير ، فعلم منه أنها من جملة القرآن ، تأمل .

قال السيوطي في اتقانه إن أول سورة اقرأ مشتمل على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال لكونها أول ما نزل من القرآن فان فيها الأمر بالقراءة وفيها البداءة باسم الله وفيها الاشارة إلى علم الاحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب واثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل ، وفي هذا الاشارة إلى أصول الدين وفيها ما يتعلق بالاخبار من قوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ولهذا قيل انها جديرة أن تسمى عنوان القرآن لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله انتهى ذكره ابن لقيمة في حاشية البيضاوي ، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وآله وسلم للاشعار بتبليغه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغاية القاصية من الكمالات ، البشرية ، قاله أبو السعود .

ثم وصف الرب بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ لتذكير أول النعم الفائضة عليه منه تعالى ، لأن الخلق هو أعظم النعم وعليه يترتب سائر النعم ، قال الكلبي يعني الخلائق وفيه تنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات قادر على تعليم القراءة .

﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ يعني بني آدم ، والعلقة الدم الجامد ، وإذا جرى فهو المسفوح ، وقال من علق بجمع علقة لأن المراد بالإنسان الجنس ،

والمعنى خلق جنس الإنسان من جنس العلق ، وإذا كان المراد بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ كل المخلوقات فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفاً له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع ، وإذا كان المراد بالذي خلق ، الذي خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للأول ، والنكتة ما في الابهام ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولاً ثم فسر ثانياً ، وقال من علق ولم يقل من نطفة مراعاة للفواصل .

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال ﴿ اقرأ ﴾ أي افعل ما أمرت به من القراءة وجملة ﴿ وربك الأكرم ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلى الله عليه وسلم من قوله « ما أنا بقارىء » يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ ، وهو أمي فقيل له اقرأ وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم ، قال الكلبي يعني الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم .

وقيل انه أمره بالقراءة أولاً لنفسه ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ ، فلا يكون من باب التأكيد والأول أولى ، والأكرم صفة تدل على المبالغة في الكرم إذ كرمه يزيد على كل كرم ، لأنه ينعم بالنعم التي لا تحصى .

قال في البحر : ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة الله تعالى يسمون الأكرم والرشيد وفخر السعداء وسعيد السعداء في ديار مصر ويدعوهم بها المسلون ويزيدون عليها على سبيل التعظيم : الشيخ الأكرم ، والشيخ الأسعد والشيخ الرشيد ، فيالها من خزي يوم عرض الأقوال والأفعال على الله تعالى .

﴿ الذي علم بالقلم ﴾ أي علم الإنسان الخط بالقلم فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب ، قال الزجاج علم الإنسان الكتابة بالقلم قال قتادة : بالقلم نعمة من الله عز وجل عظيمة لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش ، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة

التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا القلم والخط لكفى به ، وسمي قلماً لأنه يقلم أي يقطع وأول من خط به ادريس ، وقيل آدم وقد حققنا أحوال القلم وما يتعلق به في كتابنا الاكبر في أصول التفسير فإن شئت فارجع إليه .

وجملة ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ بدل اشتمال من التي قبلها أي علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها قيل المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ وقيل الإنسان هنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم .

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه وان لم يتقدم له ذكر ، وقيل معناه حقاً ، وهو مذهب الكسائي ومن تبعه لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون ﴿ كلا ﴾ رداً له كما قالوا في كلا والقمر ، ومذهب أبي حيان أنها بمعنى ألا الاستفتاحية وصوبه ابن هشام لكسر همزة إن بعدها أي لكونه مظنة جملة كما بعد حرف التنبيه نحو ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ولو كانت بمعنى حقاً لما كسرت إن بعدها لكونها مظنة مفرد ، وفي الكواشي يجوز في ﴿ كلا ﴾ أن تكون تنبيهاً فيقف على ما قبلها ، وردعاً فيقف عليها .

ومعنى ﴿ ان الإنسان ليطغى ﴾ أنه يجاوز الحد ويستكبر على ربه ، قيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل وهو المراد بهذا وما بعده إلى آخر السورة ، وانه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة في أول هذه السورة .

وقوله ﴿ أن رآه استغنى ﴾ علة ليطغى أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً ، والرؤية هنا بمعنى العلم ولو كانت بصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد ، لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه ، قال الفراء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي ترد

اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول رأيتني وحسبتني ومتى نراك خارجاً ومتى نظنك خارجاً .

قيل والمراد هنا انه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال ، قرأ الجمهور أن رآه بمد الهمزة وقرىء بقصرها ، قال مقاتل كان أبو جهل إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه وكذا قال الكلبي .

قال الرازي أول السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها يدل على ذم المال وكفى بذلك مرغباً في الدين والعلم ، ومنفراً عن الدنيا والمال .

ثم هدد سبحانه وخوف فقال ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي المرجع ، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر ، يقال رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى ، وتقدم الجار والمجرور للقصر أي الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان ، فإن الله يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت كما رده من النقصان إلى الكمال حيث نقله من الجمادية إلى الحيوانية ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة ، قاله الرازي .

﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ قال المفسرون الذي ينهى أبو جهل ، والمراد بالعبد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال ابن عباس هو أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلى(١) على ظهره وهو ساجد لله عز وجل ، وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله ، حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية .

وعن ابن عباس قال: قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال لو فعل لأخذته الملائكة عياناً .

---

(١) كرش الجزور بما فيه من القاذورات .

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ يعني العبد المنهي إذا صلى ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ أي بالاخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تتقي به النار .

﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ يعني أبا جهل كذب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عن الايمان ، وقوله ﴿ أرأيت ﴾ في الثلاثة المواضع بمعنى أخبرني ، لأن الرؤية لما كانت سبباً للأخبار عن المرئي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها ، والخطاب لكل من يصلح له .

وقد ذكر هنا أرأيت ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية فيكون في موضع المفعول الثاني لها ، ومفعولها الأول محذوف وهو ضمير يعود على الذي ينهى الواقع مفعولاً أول لأرأيت الأولى ، ومفعول أرأيت الأولى الثاني محذوف وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد أرأيت الثانية ، وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثان ، حذف الأول لدلالة مفعول أرأيت الثالثة عليه ، فقد حذف الثاني من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية ، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع ، لأنه يستدعي إضماراً ، والجمل لا تضمر إنما تضمر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة .

وأما جواب الشرط المذكور مع أرأيت في الموضعين الأخيرين فهو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى .

﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط

الثاني ، ومعنى ألم يعلم الخ أي ألم يطلع على أحواله فيجازيه بها فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقيل أرأيت الأولى مفعولها الأول الموصول ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور ، وأرأيت في الموضعين تكرير للتأكيد ، وقيل كل واحد من أرأيت بدل من الأولى ، وألم يعلم بأن الله يرى : الخبر .

﴿ كلا ﴾ ردع للناهي ومنع له عن نهيه ، واللام في ﴿ لئن لم ينته ﴾ هي الموطئة للقسم أي والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ السفع الجذب الشديد ، ويقال سفعت الشيء إذا قبضته وجذبته ، ويقال سفع بناصية فرسه .

قال الراغب : السفع الأخذ بسفعة الفرس أي بسواد ناصيته ، وباعتبار السواد قيل به سفعة غضب ، اعتباراً بما يعلو من اللون الدخاني من اشتد به الغضب ، وقيل للصقر أسفع لما فيه من لمع السواد ، أو امرأة سفعاء اللون . انتهى .

وقيل مأخوذ من سفعته النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى سواد ، والمعنى لنأخذن بناصيته ولنجرنه إلى النار ، وهذا كقوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ وقيل في الدنيا يوم بدر فقد جره المسلمون إلى القتل فقتله ابن مسعود وهو طريح بين الجرحى وبه رمق وهو يخور ، وعبر بالناصية عن جميع الشخص ، واكتفى بتعريف العهد عن الاضافة لأنه علم أنها ناصية الناهي .

﴿ ناصية ﴾ وهي شعر مقدم الرأس ، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله ﴿ كاذبة ﴾ أي في قولها ﴿ خاطئة ﴾ في فعلها ، وهذا على مذهب الكوفيين ، فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها ، وأما على مذهب البصريين فيجوز بلا شرط .

قرأ الجمهور بالجر وقرىء بالرفع على إضمار مبتدأ أي هي ناصية ، وقرىء بالنصب على الذم ، قال مقاتل أخبر عنه بأنه فاجر خاطىء فقال ناصية

كاذبة خاطئة ، تأويلها صاحبها كاذب خاطىء ، وفي هذا الاسناد المجازي من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطىء .

﴿ فليدع ناديه ﴾ أي أهل ناديه لأن النادي هو المجلس الذي يجلس وينتدي فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، والمعنى ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، قيل إن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزلت ﴿ فليدع ناديه ﴾ قال ابن عباس أي ناصره .

﴿ سندع الزبانية ﴾[1] أي الملائكة الغلاظ الشداد وهم خزنة جهنم كذا قال الزجاج ، وقال الكسائي والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم زابن ، وقال أبو عبيدة زبنية[2] وقيل زباني بتشديد الياء ، وقيل هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبابيل ، وقال قتادة هم الشرط[3] في كلام العرب ، وأصل الزبن الدفع ، والعرب تطلق هذا الإسم على من اشتد بطشه .

قرأ الجمهور سندع بالنون ، ولم يرسم الواو كما في قوله ﴿ يوم يدع الداع ﴾ وقرىء سيدعى على البناء للمفعول ، ورفع الزبانية على النيابة ، والسين في ﴿ سندع ﴾ ليست للشك فإنه من الله واجب لأنه ينتقم لرسوله من عدوه .

وعن ابن عباس قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فجاء أبو جهل فقال ألم أنهك عن هذا إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني ، فأنزل الله هذه الآية فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي فقيل ما يمنعك فقال

---

(١) راجع تعليق هام على هذه الآية في آخر سورة المدثر .

(٢) بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه وتخفيف الياء من الزبن وهو الدفع أو واحدها زبني على النسب وأصله زباني بتشديد الياء فالتاء عوض عن الياء قاله البيضاوي وفي المختار واحد الزبانية زبان أو زابان أ هـ .

(٣) وهم الشرطة (البوليس) في لغة العصر .

قد اسود ما بيني وبينه ، قال ابن عباس والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه » أخرجه أحمد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وغيرهم[١]

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والبيهقي وغيرهم عن ابي هريرة قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قالوا نعم قال واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأن على رقبته ، قال فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده ، فقيل له مالك فقال إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً قال وأنزل الله ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ إلى آخر السورة يعني أبا جهل ﴿ فليدع ناديه ﴾ يعني قومه ﴿ سندع الزبانية ﴾ يعني الملائكة[٢] .

ثم كرر سبحانه الردع والزجر فقال ﴿ كلا لا تطعه ﴾ فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿ واسجد ﴾ أي صل لله غير مكترث به ولا مبال بنهيه ﴿ واقترب ﴾ أي تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ، وقيل المعنى إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء ، وقال زيد ابن أسلم واسجد أنت يا محمد واقترب أنت يا أبا جهل من النار ، والأول أولى .

والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة وعبر عنها بالسجود لأنه أفضل أركانها بعد القيام ، وقيل سجود التلاوة ، ويدل على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من السجود عند تلاوة هذه الآية ، وقد قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسجد في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وفي ﴿ اقرأ باسم ربك الذي

(١) مسلم/ ٢١٥٤ .
(٢) البخاري ٨/٥٥٧ .

خلق ﴾ وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا من الدعاء » أخرجه مسلم [١].

سورة القدر

وهي خمس آيات، قال المحلي أو ست آيات قال سليمان الجمل ولم يذكر غيره هذا القول من المفسرين فيما رأينا بل اقتصروا على كونها خمساً. ولعل قائل هذا القول يعد ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم ﴾ آية مستقلة. ثم رأيت في السمين ما يشير اليه انتهى. وهي مكيّة عند أكثر المفسرين. كذا قال الماوردي. وقال الثعلبي هي مدنية في قول أكثر المفسرين وهو الاصح. وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة وعن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت بمكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿ إنا أنزلناه ﴾ الضمير للقرآن وإن لم يتقدم له ذكر ، عظمه حيث أسند إنزاله إليه دون غيره وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه ، ورفع مقدار الوقت الذي أنزله فيه ، والنون في إنا للتعظيم ، روي أنه أنزل جملة واحدة ﴿ في ليلة القدر ﴾ الى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، نجوماً على حسب الحاجة وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاث وعشرون سنة .

وفي آية أخرى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وهي ليلة القدر ، وفي آية أخرى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾ وليلة القدر في شهر رمضان ، قال مجاهد في ليلة القدر ، ليلة الحكم .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وغيرهم عن ابن عباس « أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ثم جعل جبريل ينزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، بجواب كلام العباد وأعمالهم » .

ومعلوم أن الإنزال مستعار للمعاني من الأجرام ، شبه نقل القرآن من اللوح الى السماء وثبوته فيها بنزول جسم من علو إلى سفل ، فعلى هذا هو مجاز مستعار قيل : سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره

الى السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق وغير ذلك .

وقيل انها سميت بذلك لعظم قدرها وشرفها ، من قولهم لفلان قدر ، أي شرف ومنزلة كذا قال الزهري : وقيل سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً وقال الخليل : سميت ليلة القدر لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة كقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ أي ضيق .

والأحاديث في فضل ليلة القدر كثيرة وكذا في تعيينها وليس هذا موضع بسطها وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً قد ذكرناها بأدلتها وبيّنا الراجح منها في شرحنا لبلوغ المرام المسمى بمسك الختام ، وذكرها الشوكاني في شرحه لمنتقى الأخبار المسمى بنيل الأوطار .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ في هذا الاستفهام تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا الله سبحانه ، والمعنى ما غاية فضلها ومنتهى علو قدرها . قال سفيان : كل ما في القرآن من قوله وما أدراك فقد أدراه ، وكل ما فيه من قوله ﴿ وما يدريك ﴾ فلم يدره ، وكذا قال الفراء . والمعنى أي شيء يجعلك دارياً بها .

ثم بين فضلها من ثلاثة أوجه أولها قوله ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، قال كثير من المفسرين : أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، واختار هذا الفراء والزجاج ، وذلك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع ، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة .

وقيل أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر لأن العرب تذكر الألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة ، وقيل وجه ذكر ألف شهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر ، فجعل الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ،عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها .

وقيل أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى أعمار أمته قصيرة فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم ، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته .

عن أنس في الآية قال العمل في ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر ، وعن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أرى بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت إنا أعطيناك الكوثر يا محمد يعني نهر في الجنة ونزلت ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ إلى قوله ﴿ ألف شهر ﴾ يملكها بعدك بنو أمية ، قال القاسم فعددنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما » والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده أخرجه الترمذي وضعفه وابن جرير والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي .

قال الترمذي أن يوسف هذا مجهول يعني يوسف بن سعد الذي رواه عن الحسن بن علي ، قال ابن كثير فيه نظر فإنه قد روى عنه جماعة منهم حماد بن سلمة وخالد الحذاء ويونس بن عبيد ، وقال فيه يحيى بن معين هو مشهور وفي رواية عنه هو ثقة ، ورواه ابن جرير من طريق القاسم ابن الفضل عن عيسى بن مازن .

قال ابن كثير ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً ، قال المزني هو حديث منكر .

وقول القاسم بن الفضل أنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر الخ ليس بصحيح فان جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية وهي سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهي سنة اثنتين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة ، وعن ابن عباس نحو ما روي عن الحسن بن علي ، وعن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلاً نحوه .

﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾ هي مستأنفة مبينة لوجه

فضلها موضحة للعلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر ، وهذا هو الوجه الثاني ، والمعنى متلبسين بإذن ربهم والاذن الأمر ، ومعنى تنزل تهبط من السموات إلى الأرض ، والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين أي ومعهم جبريل ، ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه ، وقيل الروح صنف من الملائكة هم أشرافهم ، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة وقيل الروح الرحمة .

وقد تقدم الخلاف في الروح عند قوله ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قرأ الجمهور تنزل بفتح التاء وقرىء بضمها على البناء للمفعول .

﴿ من ﴾ أجل ﴿ كل أمر ﴾ من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة ، وقيل أن من بمعنى اللام أي لكل أمر ، وقيل هي بمعنى الباء أي بكل أمر ، فهي للتعدية ، قاله أبو حاتم ، قرأ الجمهور « أمر » وهو واحد الأمور ، وقرىء امرىء مذكر امرأة أي من أجل كل إنسان ، وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان ، فـ ﴿ من ﴾ على هذا بمعنى على ، والأول أولى .

وقد تم الكلام عندقوله﴿من كل أمر﴾ثم ابتدأ بفضلها الثالث فقال ﴿ سلام هي ﴾ أي ما هي إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها ، وقيل هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة ، قال مجاهد هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيهاسوءاًولا أذى .

وقال الشعبي هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، يمرون على كل مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن ، وقيل يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض ، وقال عطاء يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته .

وعن ابن عباس في الآية قال في تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغل عفاريت الجن وتفتح فيها أبواب السماء كلها ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب ،

فلذا قال سلام هي ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ قـال وذلك من غـروب الشمس الى أن يطلع الفجر أي حتى وقت طلوعه .

قرأ الجمهور مـطلع بفتح الـلام ، وقرىء بكسـرها فقيـل هما لغتـان في المصدر ، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل ، وقيل بالفتح اسم مكان وبالكسر المصدر ، وقيل العكس و « حتى » متعلقـة بتنزل على أنهـا غايـة لحكم التنزل أي لمكثهم في محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر وقيل متعلقة بسلام بناءً على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر .

سورة لم يكن

تسمى سورة البينة، وسورة المنفكين، وسورة القيامة، وسورة البرية، هي ثمان آيات أو تسع آيات وهي مدنية في قول الجمهور، وقيل مكيّة، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نزلت بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، أن يقرأ عليه.

وعن أبي حية البدري قال: «لما نزلت (لم يكن) الى آخرها قال جبريل يا رسول اللّه ان اللّه يأمرك أن تقرئها أبياً فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لأبيّ إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة فقال أبيّ وقد ذكرت ثَمّ يا رسول اللّه قال نعم فبكى»[1]، أخرجه أحمد وابن قانع في معجم الصحابة والطبراني وابن مردويه.

قيل ان أبياً كان أسرع أخذاً لالفاظ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم. فأراد بقراءته صلى اللّه عليه وآله وسلم. عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم. يقرأ ويعلم غيره.

وعن اسمعيل بن أبي حكيم المزني أحد بني فضل سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم. يقول: «أن اللّه يستمع قراءة ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ فيقول أبشر عبدي وعزتي وجلالي لامكنن لك في الجنة حتى ترضى»[1] أخرجه أبو نعيم في المعرفة. قال ابن كثير حديث غريب جداً. وأخرجه أبو موسى المديني عن مطر المزني أو المدني بنحوه.

---

(١) ثَمَّ بفتح الثاء أي هناك وتأمل تجد أنه بكى خشية لله ولم يغتر.

(٢) مسلم ٤/١٩١٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى ، ومن للبيان ﴿ والمشركين ﴾ المراد بهم مشركو العرب ، وهم عبدة الأوثان ، وقرأ ابن مسعود ﴿ لم يكن المشركون وأهل الكتاب ﴾ قال ابن العربي وهي قراءة في معرض البيان لا في معرض التلاوة .

وقرأ أبيّ : فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون ، وقرأ الأعمش والنخعي والمشركون بالرفع عطفاً على الموصول .

وسمي أهل الكتاب كفاراً مع إيمانهم بكتابهم ونبيهم لأنهم عدلوا عن الطريق المستقيم في التوحيد فكفروا بذلك ، فإنه قيل إن اليهود مجسمة وكذلك النصارى لقولهم بالتثليث ، وهذا يقتضي كفر جميع أهل الكتاب قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والظاهر خلافه ، ولذا قال الماتريدي أن (من) تبعيضية لأن منهم من آمن .

﴿ منفكين ﴾ يقال فككت الشيء فانفك أي انفصل ، والمعنى أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عما هم عليه ﴿ حتى تأتيهم ﴾ أي أتتهم ﴿ البينة ﴾ أي الحجة الواضحة وقيل الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية التي لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة .

وقيل منفكين زائلين أي لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة ، يقال

ما انفك فلان قائماً أي ما زال فلان قائماً ، وأصل الفك الفتح ومنه فك الخلخال وقال الأزهري : ليس هو من باب ما انفك وما برح ، وانما هو من باب انفكاك الشيء عن الشيء وهو انفصاله عنه .

وقيل منفكين بارحين أي لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة ، وقال ابن كيسان المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه وهو كقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وعلى هذا فيكون معنى قوله ﴿ والمشركين ﴾ انهم ما كانوا يسيئون القول في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى بعث فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، فلما بعث عادوه وأساؤوا القول فيه .

وقيل منفكين هالكين ، من قولهم انفك صلبه أي انفصل فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم ، وقيل إن المشركين هم أهل الكتاب فيكون وصفاً لهم لأنهم قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله .

قال أبو السعود منفكين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والايمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان ، والعزم على انجازه ، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه ، وأما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعد ما شاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم .

وانفكاك الشيء عن الشيء أن يزيله بعد التحامه كالعظم إذا انفك من مفصله ، وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدهم ، انتهى ملخصاً .

قال الواحدي : ومعنى الآية إخبار الله تعالى عن الكفار انهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان ، وهذا بيان عن النعمة والانقاذ به من الجهل والضلالة ، والآية فيمن آمن من الفريقين .

قال : وهذه الآيـة من أصعب ما في القـرآن نظمـاً وتفسيراً ، وقـد تخبط فيها الكبار من العلماء وسلكوا في تفسيرها طـرقاً لا تفضي بهم إلى الصـواب ، والوجه ما أخبرتك فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال .

قال ويدل على كون البينة محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إنه فسرهـا وأبدل بقـوله الآتي ﴿ رسـول من الله يتلو صحفاً مـطهرة ﴾ يعني مـا تتضمنه الصحف من المكتوب فيها وهو القرآن ، ويدل على ذلك انه كـان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، انتهى كلامه .

وقيـل إن الآية حكـاية لمـا كان يقـوله أهـل الكتاب والمشـركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود بـه ، فلما بعث تفـرقوا كمـا حكاه الله عنهم في هذه السورة ، والمراد بالبينة على ما قـاله الجمهـور هو محمـد صلى الله عليـه وآله وسلم ، لأنـه في نفسه بينـة وحجة ، ولـذلـك سمـاه ﴿ سـراجـاً منيراً ﴾ .

وقـد فسر الله سبحـانـه هـذه البينـة المجملة بقـولـه ﴿ رسـول من الله ﴾ فاتضح الأمـر وتبين أنه المـراد بالبينـة ، وقال قتـادة وابن زيد البينـة هي القرآن كقوله ﴿ أو لم تأتهم بينة مـا في الصحف الأولى ﴾ وقال أبـو مسلـم المراد بهـا مطلق الرسل والمعنى حتى تأتيهم رسل من الله وهم الملائكة ، والأول أولى .

قرأ الجمهور برفع رسول على أنه بدل كل من كل على سبيل المبالغة أو بدل اشتمال ، قال الزجاج : رسول رفع على البدل من البينـة ، وقال الفـراء : رفع على أنه خبر مبتدأ مضمـر أي هي رسول أو هـو رسول ، وقـرأ ابن مسعود وأبيّ رسولاً بالنصب على القطع ، وقوله ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول أي كائن من الله ويجوز تعلقه بنفس رسول .

﴿ يتلو صحفاً مطهرة ﴾ صفة أخرى لرسول أو حال ، وقـال أبو البقـاء : التقدير يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله ، ومعنى يتلو يقرأ يقال تلا يتلو تـلاوة ، والصحف جمع صحيفة وهي ظرف المكتوب ، ومعنى مـطهرة أنهـا منزهـة من

الزور والضلال ، قال قتادة : مطهرة من الباطل .

قال الشهاب : تطهير الصحف كناية عن كونها ليس فيها باطل على الاستعارة المصرحة أو المكنية وقيل مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد ، وقيل معظمة وقيل لا ينبغي أن يمسها الا المطهرون ، والأول أولى .

والمعنى أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف والقراطيس من المكتوب فيها فالكتب بمعنى المكتوبات في القراطيس ، فالقرآن يجمع ثمرة كتب الله المتقدمة عليه ، والرسول وان كان أمياً لكنه لما تلا ما في الصحف كان كالتالي لها فصح نسبة تلاوة الصحف اليه وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وإنما يقرأ بالوحي عن ظهر قلب .

﴿ فيها كتب ﴾ صفة لصحف من كتاب أو حال من ضميرها والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها التي هي مدلول القرآن المكتوب لفظه ونقشه ﴿ قيمة ﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة ، من قول العرب قام الشيء إذا استوى وصح ، قال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ أي حكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، في قصة العسيف لأقضين بينكما بكتاب الله ، ثم قضى بالرجم وليس الرجم في كتاب الله فالمراد لأقضين بينكما بحكم الله ، وبهذا يندفع ما قيل أن الصحف هي الكتب ، فكيف قال ﴿ صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ﴾ وقال الحسن يعني بالصحف التي في السماء يعني في اللوح المحفوظ كما في قوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم وبيان أن ما نسب اليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب ، وأيضاً تصريح بما أفادته الغاية قبله ، وإفراد أهل الكتاب بالذكر بعد الجمع بينهم وبين

المشركين للدلالة على شناعة حالهم وإنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى ، فاقتصر عليهم لأنهم أشد جرماً ، أو أنه يعلم حال غيرهم بالطريق الأولى فهو من باب الاكتفاء .

فالمعنى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ولا المشركون إلا من بعد الخ قال المفسرون لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا فآمن به بعضهم وكفر آخرون .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات أي وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، وهي بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بالشريعة الغراء والمحجمة البيضاء أو هو صلى الله عليه وسلم ، وقيل البينة القرآن وقيل البينة هو البيان الواضح الذي في كتبهم أنه نبي مرسل كقوله ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ .

قال القرطبي قال العلماء : من أول السورة الى قوله ﴿ كتب قيمة ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ، وقوله ﴿ وما تفرق الذين ﴾ الخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج .

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ
وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

وجملة ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ حالية مقيدة لغاية قبح ما فعلوا وتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة أي والحال انهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحدوه ، وقيل إن اللام في ليعبدوا بمعنى أن أي ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ أي أن يبين ، وقوله ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ أي أن يطفئوا ، والعبادة هي التذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ لأن جماعة عبدوا المسيح والملائكة والأصنام وما أطاعوهم ، ولكنها في الشرع صارت إسما لكل طاعة أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم .

﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي حال كونهم جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين ، قرأ الجمهور مخلصين بكسر اللام ، وقرأ الحسن بفتحها .

وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات لأن الإخلاص في العمل من عمل القلب ، قال الكرخي : الاخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله سبحانه ولا تطلب منه ثوابا ، وقال الشهاب الاخلاص عدم الشرك وانه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف .

وانتصاب ﴿ حنفاء ﴾ على الحال من ضمير مخلصين فيكون من باب

التداخل ، ويجوز أن يكون من فاعل يعبدوا ، والمعنى مائلين عن الأديان كلها إلى دين الاسلام وقيل متبعين ملة ابراهيم ، وقيل حجاجاً ، وقيل مختونين محرمين لنكاح المحارم ، وقيل الحنيف الذي آمن بجميع الأنبياء والرسل ، ولا يفرق بين أحد منهم ، والأول أولى .

وأصل الحنف في اللغة الميل وخصه العرف بالميل الى الخير ، وسموا الميل الى الشر إلحاداً .

والحنيف المطلق هو الذي يكون متبرئاً عن أصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ، وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات ، وعن توابعها من الخطأ والنسيان إلى العمل الصالح ، وهو مقام التقى ، وعن المكروهات إلى المستحبات ، وهو المقام الأول من الورع ، وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعني إلى ما يعني وهو المقام الثاني من الورع ، وعما يجر الى الفضول وهو مقام الزهد فالآية جامعة لمقامي الاخلاص الناظر أحدهما إلى الحق ، والثاني إلى الخلق .

﴿ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾ أي يفعلوا الصلوات في أوقاتها ويعطوا الزكاة عند محلها ، وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين ، قيل إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها .

﴿ وذلك ﴾ المذكور من عبادة الله وإخلاصها وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ دين القيمة ﴾ أي دين الملة المستقيمة والشريعة المتبوعة ، قاله الزجاج ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف ، قال الخليل القيمة جمع القيم ، والقيم القائم .

قال الفراء أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته لاختلاف اللفظين ، وأنث القيمة رداً إلى الملة ، وقال الفراء أيضاً هو من إضافة الشيء إلى نفسه ،

ودخلت الهاء للمدح والمبالغة ، وما في الاشارة من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته وسمو مكانته .

ثم بيّن سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ عطف على الموصول أو المجرور ، وخبر إن ﴿ في نار جهنم ﴾ أي أنهم يصيرون إليها يوم القيامة . وبدأ بأهل الكتاب لأنهم كانوا يطعنون في نبوته فجنايتهم أعظم لأنهم أنكروه مع العلم به .

﴿ خالدين فيها ﴾ حال من المستكن في الخبر ، ولم يقل خالدين فيها أبداً كما قال بعد في صفة أهل الثواب لأن رحمته أزيد من غضبه ، فلم يتفق الخلودان في الأبدية ﴿ أولئك ﴾ المذكورون من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم والخلود فيها ﴿ هم شر البرية ﴾ يقال برأ أي خلق والبارىء الخالق ، والبرية الخليقة .

قرأ الجمهور البرية في الموضعين بغير همز وقرىء بالهمز فيهما قال الفراء إن أخذت البرية من البراء وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ ، وإن أخذتها من بريت القلم أي قدرته دخلت ، وقيل أن الهمز هو الأصل لأنه يقال برأ الله الخلق بالهمز أي ابتدعه واخترعه ، ومنه قوله ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ ولكنها خففت الهمزة والتزم تخفيفها عند عامة العرب ، وظاهر الآية العموم ، وقيل شر البرية الذين عاصروا الرسول إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر من هؤلاء كفرعون وعاقر ناقة صالح (عليه السلام).

وشر البرية أفعل تفضيل أي لأنهم يخفون من كتاب الله صفة محمد وأشر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق دين الحق على الخلق ، وأشر من الجهال لأن الكفر مع العلم يكون عناداً ، وهذا فيه تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .

ثم بيّن سبحانه حال الفريق الآخر فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي جمعوا بين الايمان والعمل الصالح ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون

بهذا ﴿ هم خير البرية ﴾ أي في عصره صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد أن يكون في مؤمني الأمم السالفة من هو خير منهم .

وعن أبي هريرة قال أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك . واقرأوا إن شئتم ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية .

وعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله قال : يا عائشة أما تقرأين ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية : أخرجه ابن مردويه :

وعن جابر بن عبد الله قال : « كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل علي فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية فكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، إذا أقبل قالوا قد جاء خير البرية » أخرجه ابن عساكر .

وعن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية قال رسول الله لعلي هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » أخرجه ابن مردويه ، وأخرج الضياء عن علي مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً « عليّ خير البرية » وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أخبركم بخير البرية قالوا بلى يا رسول الله قال رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بشر البرية قالوا بلى قال الذي يسأل بالله ولا يعطي به » أخرجه أحمد .

﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح ﴿ جنات عدن ﴾ هذا من مقابلة الجمع بالجمع وهو يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد فيكون لكل واحد جنة ، وقيل الجمع باق على حقيقته وأن لكل واحد جنات كما يدل عليه قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه

جنتان ﴾ ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ فذكر للواحد أربع جنات وأدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات .

والمـراد بجنات عـدن هي أوسط الجنات وأفضلهـا يقال عـدن بالمكـان يعدن عدناً أي أقام ومعدن الشيء مركزه ومستقره ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ الأربعة وهي الخمر والماء والعسل واللبن ، وقد قدمنـا في غير مـوضع انـه إن أريـد بالجنـات الأشجار الملتفـة فجريـان الأنهار من تحتهـا ظاهـر ، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر فجري الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر .

﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ لا يخرجون منها ولا يظعنون عنها بـل هم دائمون في نعيمـها مستمرون في لذاتها .

وجملة ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ مستـأنفة لبيـان ما تفضـل الله به عليهم من الزيادة على مجـرد الجزاء وهـو رضوانـه عنهم حيث أطاعـوا أمره ، وقبلوا شـرائعه ، ورضـاهم عنه حيث بلغـوا من المطالب « مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ويجوز أن تكون الجملة خبـراً ثانيـاً وأن تكون في محل نصب على الحال بإضمار قد .

﴿ ذلـك لمن خشي ربه ﴾ أي ذلـك الجزاء والـرضـوان لمن وقعت منـه الخشيـة لله سبحانـه في الـدنيـا وانتهى عن معـاصيـه بسبب تلك الخشيـة التي وقعت لـه لا مجرد الخشيـة مع الانهمـاك في معاصي الله سبحـانه فـانها ليست بخشية على الحقيقة .

سورة الزلزلة

هي ثمان أو تسع آيات . وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر .

عن عبد الله بن عمرو قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « أقرئني يا سول الله قال اقرأ ثلاثاً من ذوات آلر فقال الرجل كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني . قال اقرأ ثلاثاً من ذوات حم فقال مثل مقالته الاولى ، فقال اقرأ ثلاثاً من المسبحات فقال مثل مقالته الاولى وقال ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه اذا زلزلت الارض حتى فرغ منها قال الرجل والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ اذا زلزلت الارض عدلت له بنصف القرآن ، ومن قرأ قل هو الله أحد عدلت له بثلث القرآن ، ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن . أخرجه الترمذي وابن مردويه والبيهقي .

وعن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم اذا زلزلت الارض تعدل نصف القرآن ، وقل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن ، أخرجه الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي ، قال الترمذي غريب لا نعرفه الا من حديث يمان بن المغيرة .

وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لرجل من أصحابه «هل تزوجت يا فلان قال : لا واللّه يا رسول اللّه ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك قل هو اللّه أحد قال بلى، قال ثلث القرآن.قال أليس معك اذا جاء نصر اللّه والفتح ، قال بلى ، قال ربع القرآن ، قال أليس معك قل يا أيها الكافرون ، قال بلى قال ربع القرآن ، قال أليس معك اذا زلزلت الارض ؟ قال بلى ، قال ربع القرآن ، تزوج » قال الترمذي هذا حديث حسن .

وعن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « من قرأ في ليلة اذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن » أخرجه ابن مردويه .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا
﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ
أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي إذا حركت حركة شديدة وجواب الشرط «تحدث» والمراد تحركها عند قيام الساعة فإنها تضطرب من شدة صوت إسرافيل حتى ينكسر كل شيء عليها ، قال مجاهد وهي النفخة الأولى لقوله تعالى ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ .

وفي الخازن في وقت هذه الزلزلة قولان :

(أحدهما) وهو قول الأكثرين أنها في الدنيا وهي من أشراط الساعة .

(والثاني) أنها زلزلة يوم القيامة إنتهى .

ويؤيد القول الثاني قوله تعالى ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ فإن الإخراج **إنما هو في النفخة الثانية ، وكذا شهادتها بما وقع عليها إنما هو بعد النفخة الثانية ، وكذلك إنصراف الناس من الموقف إنما يكون بعد الثانية تأمل .**

وذكر المصدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله والمعنى زلزالها المخصوص الذي يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها ، قرأ الجمهور زلزالها بكسر الزاي ، وقرىء بفتحها وهما مصدران بمعنى . وقيل المكسور مصدر . والمفتوح إسم قال القرطبي : والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال ، قال ابن عباس في الآية أي تحركت من أسفلها .

« ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ » أي ما في جوفها من الأموات والدفائن ، والأثقال جمع ثقل . قال أبو عبيدة والأخفش إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذاكان فوقها فهو ثقل عليها ، قال مجاهد أثقالها موتاها تخرجهم في النفخة الثانية ، وقد قيل للجن والإنس الثقلان ، وإظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير قال ابن عباس : أثقالها الموتى والكنوز .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي . ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي . ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً » .

﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ أي قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت ، لما يدهمه من أمرها ويبهره من خطبها، وقيل المراد بالإنسان الكافر، وقوله ما لها مبتدأ وخبر ، وفيه معنى التعجب أي أيّ شيء لها أو لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها . قال ابن عباس الكافر يقول ما لها .

وقوله ﴿ يومئذ ﴾ بدل من إذا والعامل فيهما قوله ﴿ تحدث أخبارها ﴾ ويجوز أن يكون العامل في إذا محذوفاً والعامل في يومئذ تحدث ، والمعنى يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر ، وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة أو بلسان المقال بأن ينطقها الله سبحانه ، وقيل هذا متصل بقوله ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ أي قال ما لها تحدث أخبارها متعجباً من ذلك .

وقال يحيى بن سلام تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها ، وقيل تحدث بقيام الساعة وأنها قد أتت ، وأن الدنيا قد انقضت ، قال ابن جرير تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة وإخراج الموتى ، ومفعول تحدث الأول محذوف ، والثاني هو أخبارها أي تحدث الخلق أخبارها .

عن أبي هريرة قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال « أتدرون ما أخبارها ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا فهذا أخبارها ». أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم[1] .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الأرض لتجيء يوم القيامة بكل عمل عُمِلَ على ظهرها . وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ حتى بلغ ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ أخرجه ابن مردويه والبيهقي .

وعن ربيعة الجرشي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم وأنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة » أخرجه الطبراني .

﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ متعلق بتحدث أو بنفس أخبارها والباء زائدة ، وقيل سببية أي بسبب إيحاء الله إليها ، قال الفراء تحدث أخبارها بوحي الله وإذنه لها ، واللام في لها بمعنى (إلى) وإنما أوثرت على (إلى) لموافقة الفواصل ، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى ، كذا قال أبو عبيدة .

وقيل إن أوحى يتعدى باللام تارة وبإلى أخرى ، وقيل إن اللام على بابها من كونها العلة والموحى إليه محذوف وهو الملائكة ، والتقدير أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض أي لأجل ما يفعلون فيها ، والأول أولى .

وقوله ﴿ يومئذ ﴾ إما بدل من يومئذ الذي قبله ، وإما منصوب بمقدر هو أذكر ، وإما منصوب بما بعده والمعنى يوم إذ يقع ما ذكر ﴿ يصدر الناس ﴾ من قبورهم إلى موقف الحساب ﴿ أشتاتاً ﴾ أي متفرقين ، والصدر الرجوع ، وهو ضد الورود ، وقيل يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار ،

---

(١) الترمذي ٢/١٧١ .

وانتصاب أشتاتاً على الحال والمعنى أن بعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بلون أهل الجنة وهو البياض ، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد ، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين وبعضهم إلى جهة الشمال مع تفرقهم في الأديان وإختلافهم في الأعمال .

﴿ ليروا أعمالهم ﴾ متعلق بيصدر وقيل فيه تقديم وتأخير أي تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشتاتاً . قرأ الجمهور ليروا مبنياً للمفعول وهو من رؤية البصر أي ليريهم الله أعمالهم ، وقرىء مبنياً للفاعل والمعنى ليروا جزاء أعمالهم .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ أي وزن نملة وهي أصغر ما يكون من النمل . قرأ الجمهور يره في الموضعين بضم الهاء وصلاً وسكونها وقفاً وقرأ هشام بسكونها وصلاً ووقفاً .

وقرأ الجمهور أيضاً مبنياً للفاعل في الموضعين ، وقرىء على البناء للمفعول فيهما أي يريه الله إياه ، وقرىء يراه على توهم أن من موصولة أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة في الفعل .

قال مقاتل : فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره يوم القيامة في كتابه فيفرح به ، وكذلك من يعمل مثقال ذرة في الدنيا شراً يره يوم القيامة فيسؤه ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ .

وقال بعض أهل اللغة أن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو ذرة ، وقيل الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء ، والأول أولى .

و « من » الأولى عبارة عن السعداء ، ومن الثانية عبارة عن الأشقياء ، وقال محمد بن كعب فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر فيرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله

وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر ، والأول أولى .

قال مقاتل نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ويقول إنما أوعد الله النار على الكفارين .

قال ابن مسعود : هذه الآية أحكم آية في القرآن وأصدق ، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية .

قال كعب الأحبار لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيتان أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿ فمـن يعمل ﴾ إلخ .

وروى محيي السنة : عن ابن عباس ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً كان أو شراً إلا أراه الله تعالى : فأما المؤمن فيغفر له سيئآته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فترد حسناته تحسراً ويعذب بسيئآته، وهذا الإحتمال يساعده النظم والمعنى .

عن أنس قال بينما أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ نزلت عليه ﴿ فمن يعمل ﴾ إلخ فرفع أبو بكر يده وقال يا رسول الله « إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر ، فقال يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدخر لك ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة » أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم في تاريخه وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

عن أبي أسماء قال بينما أبو بكر يتغدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت هذه الآية فأمسك أبو بكر وقال يا رسول الله ما عملنا من شر رأيناه فقال ما ترون مما تكرهون فذاك مما تجزون ، ويؤخر الخير لأهله في الآخرة . أخرجه إسحق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال أنزلت إذا زلزلت وأبو بكر الصديق قاعد فبكى فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يبكيك يا

أبا بكر قال تبكيني هذه السورة فقال« لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم لخلق الله قوماً يخطئون ويذنبون فيغفر لهم» . أخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الخيل لثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر ، الحديث قال.

وسئل عن الحمر[٢] فقال ما أنزل عليّ إلا هذه الآية الجامعة الفاذة، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

سورة العاديات

في إحدى عشرة آية وهي مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنية في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة.

وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن والعاديات تعدل نصف القرآن» وهو مرسل، اخرجه ابو عبيدة في فضائله، وعن ابن عباس مرفوعاً مثله، أخرجه محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رباح وزاد «وقل هو الله احد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾
فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾
وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ
مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿ والعاديات ﴾ جمع عادية وهي الجارية بسرعة من العدو ، وهو المشي بسرعة فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها كالغازيات من الغزو ، والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العدو ، و﴿ ضبحاً ﴾ مصدر مؤكد لإسم الفاعل فإن الضبح نوع من السير ونوع من العدو ، ويقل ضبح الفرس إذا عدا بشدة مأخوذ من الضبح وهو الدفع ، وكأن الحاء بدل من العين ، قال أبو عبيدة والمبرد الضبح من اضباعها في السير .

ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي ضابحات أو ذوات ضبح ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف أن يضبح ضبحاً . وقيل الضبح صوت حوافرها إذا عدت . وقال الفراء الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت قيل كانت تكمم لئلا تصهل فيعلم العدو ، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقـوة .

وقيل الضبح صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو وليس بصهيل .

وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن العاديات ضبحـاً هي الخيل ، وقال عبيد ابن عمير ومحمد بن كعب والسدي هي الإبل ، ونقل أهل اللغة إن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل .

قال ابن عباس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ ضبحت بأرجلها وفي

لفظ ضبحت بمناخرها وعنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية إلى العدو فأبطأ خبرها فشق ذلك عليه فأخبره الله خبرهم وما كان من أمرهم فقال ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال هي الخيل والضبح نخير الخيل حين تنخر .

وعنه قال هي الخيل في القتال وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت ، وعن ابن مسعود قال هي الإبل ، قال إبراهيم النخعي قال علي هي الإبل ، وقال ابن عباس هي الخيل ، فبلغ علياً قول ابن عباس فقال ما كانت لنا خيل يوم بدر ، قال ابن عباس إنما كانت تلك في سرية بعثت .

وعن عامر الشعبي قال تمارى علي وابن عباس في العاديات ضبحاً فقال ابن عباس هي الخيل[1] وقال علي كذبت يا ابن فلانة والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق ، قال وكان يقول هي الإبل فقال ابن عباس ألا ترى أنها تثير نقعاً فما شيء يثير إلا بحوافرها ، وعن ابن عباس قال هي الخيل في القتال وعن ابن مسعود قال في الحج ، وعن ابن عباس ليس شيء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس ، وقد روي عنه بطرق أنه الخيل ، وعنه قال الخيل ضبحها زخيرها ألم تر أن الفرس إذا عدا قال اح اح

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن العاديات ضبحاً فقلت الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو جالس تحت سقاية زمزم فسأله عن العاديات ضبحاً فقال سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت عنها ابن عباس فقال هي الخيل حين تغير في سبيل الله فقال اذهب فادعه لي ، فلما وقفت على رأسه قال تفتي الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير ، وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف يكون العاديات ضبحاً إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة فإذا أووا إلى المزدلفة أوقدوا النيران ، والمغيرات صبحاً من المزدلفة إلى منى فذلك جمع ، وأما قوله فأثرن به نقعاً فهي نقع الأرض حتى تطؤه بأخفافها وحوافرها قال ابن عباس فنـزعت من قولي ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه ، ذكره الشوكاني رحمه الله في فتح القدير انتهى سيد ذو الفقار أحمد .

فذلك ضبحها ، وعن علي قال الضبح من الخيل الحمحمة ومن الإبل النفس .

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ هي الخيل حين توري النار بسنابكها ، والإيراء إخراج النار ، والقدح الصك ، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد .

قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران والكلام في انتصاب قدحاً كالكلام في انتصاب ضبحاً والخلاف في كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذي تقدم في العاديات ، والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتي فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل ، وتقدم ما في ذلك من الخلاف بين الصحابة .

قال ابن عِباس في الآية قدحت بحوافرها الحجارة ، وعنه قال حين تجرِي الخيل توري ناراً أصابت سنابكها الحجارة ، وعنه قال الرجل إذا أورى زنده ، وعنه قال هو مكر الرجل قدح فأورى ، وقال ابن مسعود إذا سفت الحصى بمناسمها فضرب الحصى بعضه بعضاً فتخرج منه النار .

﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ أي التي تغير على العدو وقت الصباح ، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوه لقتل أو أسر أو نهب ، وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم ، وصبحاً منصوب على الظرفية قال ابن عباس صبحت القوم بغارة .

وعنه قال هي الخيل أغارت فصبحت العدو ، وعنه قال إذا أصبحت العدو ، وعنه قال الخيل تصبح العدو ، وقال أيضاً غارت الخيل صبحاً ، وقال ابن مسعود حين يفيضون من جمع ، وإنما أقسم الله عز وجل بخيل الغزاة تنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله ، ولما فيها من المنافع الدينية والدنيوية والأجر والغنيمة .

﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل إذ المعنى واللاتي غدرن فأثرن أو على إسم الفاعل نفسه لكونه في تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول فإن الألف واللام في الصفات أسماء موصولة ، فالكلام في قوة واللاتي غدرن فأورين فأغرن فأثرن ، والنقع الغبار الذي أثارته في وجه العدو عند الغزو .

وتخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة ولكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح . وقيل المعنى فأثرن بمكان عدوهن نقعاً يقال ثار النقع وأثرته أي هاج وهيجته .

قرأ الجمهور فأثرن بتخفيف الثاء وقريء بتشديدها أي فأظهرن غباراً ، وقال أبو عبيدة النقع رفع الصوت ، وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم ، انتهى .

والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع الغبار ، وهذا هو المناسب لمعنى الآية وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى ، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صبحاً فأثرن به صوتاً قليل الجدوى مغسول المعنى ، بعيد من بلاغة القرآن المعجزة .

وقيل النقع شق الجيوب ، وقال محمد بن كعب النقع ما بين مزدلفة إلى منى ، وقيل أنه طريق الوادي ، قال في الصحاح النقع الغبار والجمع انقاع والنقع محبس الماء وكذلك ما اجتمع في البئر منه . والنقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء .

قال ابن عباس في الآية أثارت بحوافرها التراب وقال أيضاً هي الخيل أثرن بحوافرها يقول بعدو الخيل والنقع الغبار . وعنه قال التراب وقال أيضاً نقعاً غباراً وقال ابن مسعود إذا سرن يثرن التراب .

﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أي توسطن بذلك الوقت أو توسطن متلبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء ، والباء إما

للتعدية أو للحالية أو زائدة يقال وسطت القوم والمكان أسط وسطاً من باب وعد إذا توسطت بين ذلك . والفاعل واسط وبه سمي البلد المشهور بالعراق لأنه توسط الإقليم . تقول جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف وجلست وسط الدار بالتحريك لأنه اسم لما يكتنفه غيره من جهاته .

وكل موضع صلح فيه بين فهو وسط بالسكون وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك ، وربما سكن وليس بالوجه ، و ﴿جمعاً﴾ مفعول به ، والفاآت في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها .

قرأ الجمهور فوسطن بتخفيف السين وقرىء بالتشديد قال ابن عباس في الآية صبحت القوم جميعاً وفي لفظ الجمع العدو وفي لفظ إذا توسطت العدو ، وفي لفظ جمع العدو .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ هذا جواب القسم والمراد بالإنسان بعض أفراده وهو الكافر والكنود الكفور للنعمة ، وقوله لربه متعلق بكنود قدم لرعاية الفواصل وقيل هو الجاحد للحق ، وقيل الكنود مأخوذ من الكند وهو القطع كأنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر ، يقال كند الحبل إذا قطعه ، وقيل الكنود البخيل بلغة بني مالك وقيل الحسود وقيل الجهول لقدره ، وقيل العاصي بلغة كند .

وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام والجاحد للنعمة كافر لها ، ولا يناسب المقام سائر ما قيل . وعن ابن عباس قال الكنود بلساننا أهل البلد الكفور . وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الكنود الكفور » أخرجه ابن عساكر وعنه قال : « الكنود الذي يمنع رفده وينزل وحده ويضرب عبده »[1] ، وروي نحوه مرفوعاً عنه وسنده ضعيف . والموقوف أصح .

---

(١) الطبري ٢٧٨/٣٠ .

﴿ وإنه على ذلك ﴾ أي وأن الإنسان على كنوده ﴿ لشهيد ﴾ يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه ، وقيل المعنى وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد ؛ وبه قال الجمهور؛ وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب؛ وهو أرجح من قول الجمهور لقوله ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان والمعنى أنه لحب المال قوي مجد في طلبه وتحصيله متهالك عليه .

يقال هو شديد لهذا الأمر وقوي له . إذا كان مطيقاً له . ومنه قوله تعالى ﴿ إن ترك خيراً ﴾ وقيل المعنى وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل والأول أولى ، واللام في ﴿ لحب ﴾ متعلقة بشديد ، قال ابن زيد سمى الله المال خيراً وعسى أن يكون شراً ولكن الناس يجدونه خيراً فسماه خيراً .

قال الفراء أصل نظم الآية أن يقال وإنه لشديد الحب للخير ، فلما قدم الحب قال لشديد وحذف من آخره ذكر الحب لأنه قد جرى ذكره ولرؤوس الآي كقوله ﴿ في يوم عاصف ﴾ والعصوف للريح لا لليوم كأنه قال في يوم عاصف الريح ، قال ابن عباس الخير المال .

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ الإستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم ، وهذا تهديد ووعيد ، وبعثر معناه نثر وبحث أي نثر ما في القبور من الموتى وبحث عنهم وأخرجوا قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه ، وقال الفراء سمعت بعض العرب من بني أسد يقول بحثر بالحاء مكان العين ، وقد تقدم الكلام على هذا في قوله ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ .

﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ أي ميز وبين ما فيها من الخير والشر ، والتحصيل التمييز ، كذا قال المفسرون ،وقيل حصل أبرز ، قرأ الجمهور حصل بضم الحاء وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول ، وقريء حصل بفتح

الحاء وتخفيف الصاد مبنياً للفاعل أي ظهر ، قال ابن عباس : بعثر بحث ، وحصل أبرز .

والمعنى أخرج وجمع بغاية السهولة ما في الصدور من خير وشر مما يظن مضمره إنه لا يعلمه أحد أصلاً وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال ، وهذا يدل على أن الإنسان يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها وخص أعمال القلوب بالذكر ، وترك ذكر أعمال الجوارح لأنها تابعة لأعمال القلوب ، فإنه لولا تحقق البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح .

﴿ إن ربهم ﴾ أي إن رب المبعوثين ﴿ بهم يومئذ لخبير ﴾ لا تخفى عليه خافية فيجازيهم بالخير خيراً وبالشر شراً ، قال الزجاج الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ولكن المعنى أن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم ، ومثله قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، معناه أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم .

قال الإمام دلت الآية على أنه تعالى عالم بالجزئيات الزمانيات وغيرها لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم ، فكيف لا يكون منكره كافراً ذكره الكرخي .

قرأ الجمهور بكسر إن وباللام في الخبير ، وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة وإسقاط اللام .

سورة القارعة

وهي ثمان آيات وقيل احدى عشرة آية وقيل عشر آيات ، وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ
كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾
فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ القارعة ﴾ هي من أسماء القيامة ، قاله ابن عباس لأنها تقرع القلوب بالفزع ، وتقرع أعداء الله بالعذاب . والعرب تقول قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع . وقيل أصل القرع الصوت الشديد ، ومنه قوارع الدهر ، وسميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته وهي مبتدأ وخبره ﴿ ما القارعة ﴾ .

قرأ الجمهور بالرفع وقريء بنصبها على تقدير احذروا القارعة ، والإستفهام للتفخيم والتعظيم لشأنها كما تقدم بيانه في قوله ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ وقيل معنى الكلام على التحذير .

قال الزجاج والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب ، والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ويؤيده وضع الظاهر موضع المضمر ، فإنه أدل على هذا المعنى ويؤيده أيضاً قوله :

﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم ، وما الإستفهامية مبتدأ وإدراك خبرها ، وما القارعة مبتدأ وخبر ، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني ، والمعنى وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة .

ثم بين سبحانه متى تكون القارعة فقال ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ إنتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة أي تقرعهم يوم يكون إلخ ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير أذكر .

وقال ابن عطية ومكي وأبو البقاء هو منصوب بنفس القارعة وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وإنما نصب لإضافته إلى الفعل ، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب أي هي يوم يكون إلخ وقيل التقدير ستأتيكم القارعة يوم يكون إلخ .

وقرأ زيد بن علي برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدر . والفراش الطير الذي تراه يتساقط في النار والسراج ، الواحدة فراشة كذا قال أبو عبيدة وغيره .

قال الفراء الفراش هو الطائر من بعوض وغيره ومنه الجراد قال وبه يضرب المثل في الطيش والهوج ، يقال أطيش من فراشة .

والمراد بالمبثوث المتفرق المنتشر يقال بثه إذا فرقه . ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ .

وقال المبثوث ولم يقل مبثوثة لأن الكل جائز كما في قوله ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ وقد تقدم بيان وجه ذلك .

وفي تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى منها الطيش الذي يلحقهم وإنتشارهم في الأرض وركوب بعضهم بعضاً . والكثرة والضعف والتذلل إجابة الداعي من كل جهة والتطاير إلى النار .

﴿ وتكون الجبال ﴾ بعد أن تتفتت كالرمل السائل ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ ي كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نفش بالندف . والعهن عند أهل اللغة الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة ، وقد تقدم بيان هذا في سورة ﴿ سأل سائل ﴾ وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة ، وقد قدمنا بيان الجمع بينها .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس وتفرقهم فريقين على جهة الإجمال فقال : « ﴿فـأما من ثقلت موازينه﴾ » بإتباعه الحق ، وقدتقدم القول في الميزان في سورة الأعراف وسورة الكهف وسورة الأنبياء ، وقد اختلف فيها هنا فقيل هي جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وبه قال الفراء وغيره وقيل هي جمع ميزان وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع كما يقال لكل حـادثة ميـزان . وقيل المـراد بالمـوازين الحجج والدلائل .

« ﴿فهو في عيشة﴾ » حياة « ﴿راضية﴾ » طيبة أو مرضية فهو إسناد مجازي أو استعارة مكنية وتخييلية أو هي بمعنى المفعول على التجوز في الكلمة نفسها ، قال الزجاج : أي ذات رضا يرضاها صاحبها يعني أنها للنسب . وقيل المعنى فاعلة للرضاء وهو اللين والإنقياد لأهلها ، والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة .

« ﴿وأما من خفت موازينه﴾ » أي رجحت سيئآته على حسناته أو لم تكن له حسنات يعتد بها « ﴿فأمه هاوية﴾ » أي فمسكنه جهنم وسماها أمه لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه ، والهاوية من أسماء جهنم ، وهي آخر الطبقات السبع وسميت هاوية لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها ، والمهوى والمهواة ما بين الجبلين ، وتهاوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم في إثر بعض .

قال قتادة يعني فمصيره إلى النار ، قال عكرمة لأنه يهوي فيها على أم رأسه ، قال الأخفش أمه مستقرة ، قال ابن عباس هاوية كقوله هوت أمه ، وعن عكرمة قال أم رأسه هاوية في جهنم .

قال الخطيب أي نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوي فيها نازلاً فهو في عيشة ساخطة فالآية من الإحتباك : ذكر العيشة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً وذكر الأم ثانياً دليلاً على حذفها أولاً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

(إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية) وأخرج ابن مردويه من حديث أبي أيوب الأنصاري نحوه ، وأخرج ابن المبارك من حديثه نحوه أيضاً .

وبقي قسم ثالث غير مذكور في الآية وهو من استوت حسناته وسيئآته ، قال المناوي من رجحت حسناته بسبب زيادتها على السيئآت فهو في الجنة بغير حساب ، ومن استوت حسناته وسيئآته فيحاسب حساباً يسيراً ، ومن رجحت سيئآته على حسناته أي بسبب زيادتها فيشفع فيه أو يعذب .

﴿ وما أدراك ماهيه ﴾ هذا الإستفهام للتهويل والتفظيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، ولا تدري كنهها ، والضمير يعود إلى الهاوية والهاء للسكت .

ثم بينها سبحانه بقوله ﴿ نار حامية ﴾ أي قد انتهى حرها وبلغ في الشدة إلى الغاية ، وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي نار حامية ، نعوذ بالله منها .

سورة التكاثر

هي ثمان آيات وهي مكية عند الجميع وروى البخاري أنها مدنية: قال ابن عباس نزلت بمكة.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم. قالوا ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل يوم. قال أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾» أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب. قال المنذري رجال اسناده ثقات الّا أن عقبة لا أعرفه.

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من قرأ في ليلة ألف آية لقي الله وهو ضاحك في وجهه قيل يا رسول الله ومن يقوى على ألف آية فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر الى آخرها ثم قال والذي نفسي بيده إنها لتعدل ألف آية. أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق والديلمي.

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ

ألهاكم التكاثر . وفي لفظ وقد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر وهو يقول : « يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مال إلا ما أكلت فأفنيت » وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها بلفظ « يقول العبد مالي مالي وإنما له من ماله ثلاثة ما أكل فأفنى وما لبس فأبلى وما تصدق فأبقى . وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »

وعن جرير بن عبدالله قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر فمن بكى فله الجنة ، فقرأها فمنا من بكى ، ومنا من لم يبك فقال الذين لم يبكوا قد جهدنا يا رسول الله أن نبكي فلم نقدر عليه ، فقال إني قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنة ، ومن لم يقدر أن يبكي فليتباك » أخرجه البيهقي في الشعب وضعفه ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾

﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ أي شغلكم التباري في التكاثر بالأموال والأولاد ، والتباهي والتفاخر بكثرتها عن طاعة الله تعالى والتغالب فيها ، يقال ألهاه عن كذا وأقهاه إذا شغله ، وقال الحسن معناه أنساكم حتى أدرككم الموت وأنتم على تلك الحال ، وقال قتادة إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر ، وقال الضحاك ألهاكم التشاغل بالمعاش وقيل المعنى متم ودفنتم في المقابر والمقابر جمع مقبرة وقال مقاتل وقتادة أيضاً وغيرهما نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا .

وقال الكلبي نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني سهم وتعادوا أو تكاثروا بالسيادة والإشراف في الإسلام ، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر قائداً فكثر بنو عبد مناف بني سهم ، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم ، فنزلت ألهاكم التكاثر فلم ترضوا حتى زرتم المقابر مفتخرين بالأموات .

وعن أبي بردة في الآية قال : « نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحرث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما فيكم مثل فلان وفلان ، وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية » أي لقد كان لكم فيما زرتم

عبرة وشغل ، أخرجه ابن أبي حاتم[1] .

وفي الآية دليل على أن الإشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة ، والشرع دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم ، فيجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته وحسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدي به .

وقال سبحانه ألهاكم التكاثر ولم يقل عن كذا بل أطلقه لان الإطلاق أبلغ في الذم لأنه يذهب فيه الوهم كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام ، لأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم كما تقرر في علم البيان .

والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن علم كل شيء يجب عليكم الإشتغال به من طاعة الله .

والعمل للآخرة ، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذي يزوره ، هذا على قول من قال إن معنى زرتم المقابر متم ، وأما على قول من قال إن معنى زرتم المقابر ، ذكرتم الموتى وعددتموهم للمفاخرة والمكاثرة فيكون ذلك على طريق التهكم بهم وقيل إنهم كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك .

﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة ، وفيه وعيد شديد ، قال الفراء أي ليس

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٢٩٥٨) عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿ الهاكم التكاثر ﴾ ، قال : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » . وروى مسلم أيضاً رقم (٢٩٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول العبد : مالي ، مالي ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى (ادخره لآخرته) وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » . وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر.

ثم كرر الردع والزجر والوعيد فقال ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ ثم للدلالة على ، أن الثاني أبلغ من الأول ، وقيل الأول عند الموت أو في القبر ، والثاني يوم القيامة قال الفراء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد ، قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد ، وكذا قال الحسن ومقاتل .

وجعله الشيخ جمال الدين بن مالك من التوكيد اللفظي مع توسط حرف العطف ، وقال الزمخشري والتكرير تأكيد للردع والرد عليهم ، ونقل عن علي ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ في الدنيا ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ في الآخرة ، فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغاير بينهما لأجل تغاير المتعلقين ، وثم على بابها من المهلة وحذف متعلق العلم في الأفعال الثلاثة لأن الغرض هو الفعل لا متعلقه ، والعلم بمعنى المعرفة فيتعدى لمفعول واحد قاله السمين .

﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقينياً كعلمكم ما هو متيقن عندكم في الدنيا ، وجواب لو محذوف أي لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير ، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه .

وقال الأخفش : التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم ، و ﴿ كلا ﴾ في هذا الموضع الثالث للردع والزجر كالموضعين الأولين ، وقال الفراء : هي بمعنى حقاً ، وقيل هي في المواضع الثلاثة بمعنى ألا ، قاله ابن أبي حاتم ، قال قتادة اليقين هنا الموت ، وعنه قال هو البعث ، وعنه كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعثه بعد الموت .

وإضافة العلم إلى اليقين من إضافة الموصوف إلى صفته ، وفي السمين وعلم اليقين مصدر قيل وأصله العلم اليقين ، وقيل لا حاجة إلى ذلك لأن العلم يكون يقيناً وغير يقين فأضيف إليه إضافة العلم للخاص ، وهذا يدل على أن اليقين أخص .

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

وقوله ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواب قسم محذوف ، وفيه زيادة وعيد وتهديد أي والله لترون الجحيم في الآخرة ، قال الرازي وليس هذا جواب لو لان جواب لو يكون منفياً وهذا مثبت ، ولأنه عطف عليه ﴿ ثم لتسئلن ﴾ وهو مستقبل لا بد من وقوعه ، قال وحذف جواب ﴿ لو ﴾ كثير ، والخطاب لكفار ، وقيل عام كقوله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ .

قرأ الجمهور لترون بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرىء بضمها مبنياً للمفعول ، والرؤية هنا بصرية فلذلك تعدت إلى مفعول واحد .

ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين ، وهي المشاهدة والمعاينة ، وقيل المعنى لترون الجحيم بأبصاركم على البعد منكم ثم لترونها مشاهدة على القرب ، وقيل المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها ، وبالثاني رؤيتها حال دخولها ، وقيل هو إخبار عن دوام بقائهم في النار أي هي رؤية دائمة متصلة ، وقيل المعنى لو تعلمون اليوم علم اليقين وأنتم في الدنيا لترون الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأهوالها .

﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ أي عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة ، وثم للترتيب الإخباري لا المعنوي ، لأن السؤال قبل رؤية الجحيم .

قال قتادة : يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به ، قال الحسن : لا يسأل عن النعم إلا أهل النار .

وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه وهذا هو الظاهر ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع ، لأن

تعريفه للجنس أو للاستغراق .

ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التي سئل عنها فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها وبم عمل فيها ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر .

قيل السؤال عن الأمن والصحة ، وقيل عن الصحة والفراغ ، وقيل عن الإدراك بالحواس ، وقيل عن ملاذ المؤكول والمشروب ، وقيل عن الغداء والعشاء ، وقيل عن بارد الشراب وظلال المساكن ، وقيل عن اعتدال الخلق ، وقيل عن لذة النوم ، وقيل غير ذلك والأولى العموم كما ذكرنا .

وعن ابن عباس في الآية قال صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ يعني عن الطاعة ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ يقول حتى يأتيكم الموت » ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعني لو قد دخلتم قبوركم ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ يقول لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ قال لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿ لترون الجحيم ﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكدوش في نار جهنم ﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ يعني شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم .

وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه ، وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « الأمن والصحة » رواه عبد الله بن أحمد في زائد الزهد وابن أبي حاتم وغيرهما .

وعن علي قال النعيم العافية ، وعنه قال من أكل خبز البر وشرب ماء

الفرات مبرداً وكان له منزل يسكنه فذلك من النعيم الذي يسأل عنه .

عن أبي الدرداء قال: قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم في الآية : « أكل خبز البر والنوم في الظل وشرب ماء الفرات مبرداً » أخرجه ابن مردويه ، ولعل رفع هذا لا يصح فربما كان من قول أبي الدرداء .

وعن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل بالنقى فيأكلونه » أخرجه أحمد في الزهد وابن مردويه وهذا مرسل .

وعن عكرمة قال لما نزلت هذه الآية قال الصحابة يا رسول الله أي نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل في انصاف بطوننا خبز الشعير ، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن قل لهم « أليس تحتذون النعال وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم » أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم .

وعن محمود بن لبيد قال لما نزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فقرأ حتى بلغ النعيم ، قالوا يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال « أما إن ذلك سيكون » أخرجه ابن أبي شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وأخرجه الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة .

وأخرجه أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما من حديث الزبير بن العوام .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له ألم نصح لك جسدك ونرويك من الماء البارد »(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي

(١) روى البخاري في « صحيحه » ١١/١٩٦ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح »

وغيرهم .

وعن جابر بن عبد الله قال : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فأطعمناهم رطباً وسقيناهم ماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا من النعيم الذي تسألون عنه » أخرجه أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد وغيرهم .

وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله ، قال والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت مرحباً فقال النبي صلى الله عليه وسلم أين فلان؟ فقالت انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فقال الحمدلله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني ، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال كلوا من هذا ، وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر « والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة » وفي الباب أحاديث .

١٩٧/١١ : وقوله في الحديث : « مغبون فيهما كثير من الناس » كقوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية ، ونقل عن ابن بطال أن معنى الحديث : أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك ، فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون . قال ابن حجر : وأشار بقوله : « كثير من الناس » إلى أن الذي يوفق لذلك قليل . ونقل عن ابن الجوزي قوله : قد يكون الانسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون ، لأن الفراغ يعقبه الشغل ، والصحة يعقبها السقم .

سورة العصر

هي ثلاث آيات وهي مكية عند الجمهور. وقال قتادة: هي مدنية قال ابن عباس نزلت بمكة: عن أبي مزينة الدارمي وكانت له صحبة قال «كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ احدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم احدهما على الآخر» اخرجه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿ والعصر ﴾ أقسم سبحانه بالعصر وهو الدهر لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده ، ويقال لليل عصر ، وللنهار عصر ، ويقال للغداة والعشي عصران .

قال الرازي أقسم تعالى بالدهر لما فيه من الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء والصحة والسقم والغنى والفقر ، ولأن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة فيها لا يعني ثم ثبتت السعادة في اللمحة الأخيرة من العصر بقيت في الجنة أبد الآباد ، فعلمت أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة ، فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، ولأن الزمان أشرف من المكان ، فأقسم به لكونه نعمة خالصة لا غيب فيه .

وقال قتادة والحسن : المراد به في الآية العشي وهو ما بين زوال الشمس وغروبها . وعن قتادة أيضاً أنه آخر ساعة من ساعات النهار ، وقال مقاتل : إن المراد به صلاة العصر ، وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه وتعالى بالمحافظة عليها ، وأخرجه أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما من حديث الزبير بن العوام .

وقيل هو قسم(١) بعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) قال الرازي أقسم سبحانه بمكانه صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ وأقسم بعمره

قال الزجاج : قال بعضهم معناه ورب العصر والأول أولى وبه قال ابن عباس ، وعنه هو ساعة من ساعات النهار ، وقال أيضاً هو ما قبل مغيب الشمس من العشي .

وأخرج الفريابي وأبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الانباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب « أنه كان يقرأ والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وانه فيه إلى آخر الدهر » وعن ابن مسعود أيضا أنه كان يقرأ « إن الإنسان لفي خسر وانه لفيه إلى آخر الدهر » ، أخرجه عبد بن حميد .

﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ هذا جواب القسم ، والخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمعنى ان كل إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت ، وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقيل جماعة من الكفار وهم الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ، ولدلالة الاستثناء عليه

قال الأخفش : في خسر في هلكة ، وقال الفراء : في عقوبة ، وقال ابن زيد : لفي شر ، وقيل لفي نقص ، والمعاني متقاربة ، قرأ الجمهور ﴿ والعصر ﴾ بسكون الصاد وقرىء بكسر الصاد وقرأ الجمهور أيضاً ﴿ خسر ﴾ بضم الخاء وسكون السين وقرىء بضمها .

والتنكير في خسر يفيد التعظيم أي في خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، فقد جعل الانسان معموراً في الخسر للمبالغة وانه أحاط به من كل جانب لأن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسر ، وإن كانت مشغولة بالمباحثات فالخسران أيضاً حاصل ، وإن كانت

في قوله : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ وبعصره هنا فكأنه قال وعصرك وبلدك وعمرك فأقسم بهذه الظروف الثلاثة فإذا وجب تعظيم الظرف فحال المظروف من باب أولى انتهى .

مشغولة بالطاعات فهي غير متناهية ، وترك الأعلى والاقتصار على الأدنى نوع خسران ، ولا ينافيه قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ لأن الكلام ثَمّ في[1] أحوال البدن وهنا في أحوال النفس .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح فانهم في ربح لا في خسر ، لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ، والاستثناء متصل ، ومن قال ان المراد بالإنسان الكافر فقط فيكون منقطعاً ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة ، ولا وجه لما قيل ان المراد الصحابة أو بعضهم فان اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ وتواصوا ﴾ أي أوصى[2] بعضهم بعضاً ﴿ بالحق ﴾ الذي يحق القيام به وهو الإيمان بالله والتوحيد والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه ، قال قتادة بالحق أي بالقرآن وقيل بالتوحيد والحمل على العموم أولى .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ عن معاصي الله سبحانه وعلى فرائضه وعلى البلايا ، وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه ان الله مع الصابرين .

وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها ، وكرر الفعل لاختلاف المفعولين .

---

(١) ثم بفتح الثاء أي هناك .

(٢) أشار به إلى أن تواصوا فعل ماض لا أمر ، ويؤخذ منه أن الوصية هي التقديم إلى الغير بما يعمل به مقروناً بوعظ ونصيحة من قولهم أرض واصية أي متصلة النبات ، يقال قدمت إليه بكذا إذا أمرته قبل وقت الحاجة إلى الفعل ،(سيد ذو الفقار أحمد).

سورة الهمزة

هي تسع آيات وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وقال المحلي أو مدنية والاول أولى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

﴿ ويل ﴾ هو مرتفع على الإبتداء ، وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم ، وخبره ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ والمعنى خزي أو عذاب أو هلكة أو واد في جهنم لكل همزة لمزة ، والتاء فيهما للمبالغة في الوصف ، وقد أطرد أن بناء فعلة لمبالغة الفاعل أي المكثر لمأخذ الاشتقاق ، واذا سكنت العين يكون لمبالغة المفعول ، يقال رجل لعنة بفتح العين لمن كان يكثر لعن غيره ، ولعنة بسكون العين اذا كان ملعوناً للناس يكثرون لعنه :

قال أبو عبيدة والزجاج الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس ، وعلى هذا هما بمعنى ، وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح (الهمزة) الذي يغتاب الرجل في وجهه ﴿ واللمزة ﴾ الذي يغتابه من خلفه ، وقال قتادة عكس هذا ، وروي عن قتادة ومجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يغتاب الناس في أنسابهم وعن مجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يهمز الناس بيده ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه .

وقال سفيان الثوري يهمزهم بلسانه ويلمزهم بعينه ، وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ واللمزة الذي يكسر عينه على جليسه ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، وقيل هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون العيب للبريء .

وحاصل هذه الأقاويل يرجع الى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ،

ويدخل في ذلك من يحاكي الناس في أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه . والأولى أولى .

وأصل الهمزة الكسر يقال همز رأسه كسره ، وقيل أصل الهمز واللمز الضرب والدفع ، يقال همزه يهمزه همزاً ولمزه يلمزه لمزاً اذا دفعه وضربه .

قرأ الجمهور يقال همزة لمزة بضم أولهما وفتح الميم فيهما ، وقرىء بسكون الميم فيهما وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش ﴿ ويل للهمزة اللمزة ﴾ والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك ولا ينافيه نزولها على سبب خاص ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وعن ابن عباس أنه سئل عن همزة لمزة قال : هو المشاء بالنميمة المفرق بين الجمع المغري بين الأخوان ، وعنه قال همزة طعان ولمزة مغتاب .

وقوله ﴿ الذي جمع مالاً وعدده ﴾ بدل من كل ، أو في محل نصب على الذم ، وهذا أرجح لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح أو تعليل لما قبله ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز وهو اعجابه بما جمع من المال ، وظنه انه الفضل فلأجل ذلك يتنقص غيره .

قرأ الجمهور جمع مخففاًوقرىء مثقلاً . قال الرازي الفرق أن التشديد يفيد انه جمعه من ههنا ومن ههنا ولم يجمعه في يوم واحد ، ولا في يومين ، ولا في شهر ولا في شهرين ، وان التخفيف لا يفيد ذلك ، ونكر ﴿ مالاً ﴾ للتعظيم اي مالاً بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به .

وقرأ الجمهور ﴿ وعدده ﴾ مشدداً وقرىء بالتخفيف والتشديد في الكلمتين يدل على التكثير ، وهو جمع الشيء بعد الشيء وتعديده مرة بعد أخرى ، قال الفراء معنى عدده أحصاه فهو مأخوذ من العد ، وقال الزجاج

وعدده لنوائب الدهور يقال أعددت الشيء وعددته اذا أمسكته ، قال السدي أحصى عدده ، وقال الضحاك أعد ماله لمن يرثه ، وقيل المعنى فاخر بكثرته وعدده .

والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه وعدم انفاقه في سبل الخير ، وقيل المعنى على قراءة التخفيف في عدده أنه جمع عشيرته وأقاربه ، قال المهدوي من خفف وعدده فهو معطوف على المال أي وجمع عدده .

وجملة ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من فاعل جمع أي يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت ، وأخلده ماض معناه المضارع أي يخلده ، وقال عكرمة يحسب أن ماله يزيد في عمره .

والاظهار في موضع الاضمار للتقريع والتوبيخ ، وقيل هو تعريض بالعمل الصالح وانه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال ، والخلد بالضم البقاء والدوام وبابه دخل ، وأخلده الله وخلد تخليداً .

﴿ كلا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان أي ليس الأمر كما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده أو معناه حقاً ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي ليطرحن في النار وليلقين فيها . قرأ الجمهور لينبذن وقرىء لينبذان بالتثنية اي لينبذ هو وماله في النار ، وقرىء لينبذن أي لينبذن ماله في النار .

والمعنى تحطم وتكسر كل ما القي فيها ففي الحطمة مماثلة لعمله لفظاً ومعنى لأنها على وزن همزة لمزة وفيهما كسر كما فيها ، وحطمة من باب ضرب ، والتحطيم التكسير والحطمة من أسماء النار لأنها تحطم ما تلتقم .

﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول ، وتبلغه الأفهام ، قيل هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم وقيل الطبقة الثانية منها ، وقيل الطبقة الرابعة .

ثم بيّنها سبحانه فقال ﴿ نار الله الموقدة ﴾ بأمر الله سبحانه التي لا تخمد أبداً ووجب وتحتم إيقادها ، وفي إضافتها الى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك في وصفها بالايقاد .

﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ أي يخلص حرها الى القلوب فيعلوها ويغشاها ، وخص الأفئدة بالذكر مع كونها تغشى جميع أبدانهم لأنها محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة ، او لكون الألم اذا وصل اليها مات صاحبها لأن الفؤاد الطف ما في الجسد وأشد تألماً بأدنى أذى يمسه أي أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وقيل المعنى انها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد من العذاب وذلك بأمارات عرفها الله بها .

﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة مغلقة كما تقدم بيانه في سورة البلد ، يقال أصدت الباب أذا أغلقته ، وقال ابن عباس مطبقة ، وجمع الضمير في عليهم رعاية لمعنى كل .

﴿ في عمد ممددة ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم أي كائنين في عمد ممددة موثقين فيها أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم في عمد أو صفة لمؤصدة أي مؤصدة بعمد ممددة .

قال مقاتل أطبقت الأبواب عليهم ثم شدت بأوتاد من حديد فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم روح .

ومعنى كون العمدة ممددة أنها مطولة وهي أرسخ من القصيرة ، وقيل العمد أغلال في جهنم ، وقيل القيود ، وقال قتادة المعنى هم في عمد يعذبون بها ، واختار هذا ابن جرير .

قرأ الجمهور عمد بفتح العين والميم ، وقيل هو اسم جمع لعمود ، وقيل جمع له ، قال الفراء هي جمع لعمود كأديم وأدم ، وقال أبو عبيدة هي جمع عماد .

وقرىء بضم العين والميم جمع عمود ، قال الفراء هما جمعان صحيحان لعمود ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور .

قال الجوهري : العمود عمود البيت وجمع القلة أعمدة وجمع الكثرة عمد وعمد ، وقرىء بهما وهما سبعيتان .

قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، قال ابن عباس عمد من نار ، وقال ابن مسعود هي الأدهم ، وعن ابن عباس أيضاً الأبواب هي الممددة ، وعنه قال أدخلهم في عمد فمدت عليهم في أعناقهم فسدت بها الأبواب .

قال ابن جزي : المعنى أن أبواب جهنم أغلقت عليهم بعمد ممدودة على أبوابها تشديداً في الاغلاق ، وقيل معناه في دهر ممدود أي لا انقطاع له ، قال القشيري أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار تشد تلك الأطباق حتى يرجع عليهم غمها وحرها فلا يدخل عليهم روح .

سورة الفيل

هي خمس آيات وهي مكية بلا خلاف. قال ابن عباس نزلت بمكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ الاستفهام بتقرير رؤيته صلى الله عليه وسلم بإنكار عدمها ، والمراد بالرؤية هنا رؤية القلب ، وهي العلم عبر عنه بالرؤية لكونه علماً ضرورياً مساوياً في القوة والجلاء للمشاهدة والعيان ، وحذفت الألف من ﴿ تر ﴾ للجازم ، قال الفراء المعنى ألم تخبر ، وقال الزجاج ألم تعلم .

وهو تعجيب له صلى الله عليه وآله وسلم بما فعله الله ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة ، وكيف منصوب على المصدرية أو الحالية واختار الأول ابن هشام في المغني ، والمعنى أي فعل فعل .

وأما نصبه على الحالية من الفاعل فممتنع لأن فيه وصفه تعالى بالكيفية وهو غير جائز ، والجملة سدت مسد مفعولي ترى ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له .

والمعنى قد علمت يا محمد أو علم الناس الموجودون في عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل ، وما فعل الله بهم ، فما لكم لا تؤمنون ، وصاحب الأفيال أبرهة ملك اليمن واسمه الأشرم سمي بذلك لأن أباه ضربه بحربة فشرم أنفه وجبينه ، قال القرطبي، وأبرهة لقب لكل من فيه بياض وكان نصرانياً .

والفيل هو الحيوان المعروف وجمعه فيول وأفيال وفيلة . وقال ابن

السكيت ولا تقول أفيلة وصاحبه فيال وكانت الفيلة ثلاثة عشر ، وإنما وحده لأنه نسبهم الى الفيل الأعظم الذي كان يقال له محمود وهو الذي برك وضرب في رأسه ، وقيل انما وحده موافقة لرؤوس الآي .

وعن ابن عباس قال : « جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح فأتاهم عبد المطلب فقال إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحد قالوا لا نرجع حتى نهدمه ، وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر فدعا الله الطير الأبابيل فأعطاها حجارة سوداء عليها الطين فلما حاذتهم رمتهم فما بقي منهم أحد إلا أخذته الحكة وكان لا يحك الانسان منهم جلده الا تساقط لحمه »[١] أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي .

﴿ ألم يجعل كيدهم ﴾ أي مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة وهدمها واستباحة أهلها ﴿ في تضليل ﴾ أي في خسارة وهلاك عما قصدوا اليه حتى لم يصلوا الى البيت ولا الى ما أرادوا بكيدهم ، والهمزة للتقرير ، كأنه قيل قد جعل كيدهم في تضليل .

والكيد هو إرادة المضرة بالغير ، لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي . ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم .

قال ابن عباس « أقبل أصحاب الفيل حتى اذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم ما جاء بك الينا ألا بعثت فنأتيك بكل شيء فقال أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله احد إلا أمن فجئت أخيف أهله ، فقال إنا نأتيك بكل شيء تريد . فارجع فأبى إلا أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التي قال الله ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ فجعل الفيل يعج عجاً ﴿ فجعلهم كعصف

(١) زاد السير ٢٣٢ .

مأكول ﴾[1] أخرجه البيهقي وابن المنذر والحاكم وغيرهم ، وقصة أصحاب الفيل مبسوطة في كتب التفسير والتاريخ والسير فلا نطول بذكرها .

﴿ وأرسل عليهم ﴾ عطف على ﴿ ألم يجعل ﴾ لأن الاستفهام فيه للتقرير فكان المعنى قد جعل ذلك وأرسل ﴿ طيراً ﴾ هو اسم جنس يذكر ويؤنث ﴿ أبابيل ﴾ نعت لطير لأنه اسم جمع أي أقاطيع يتبع بعضها بعضاً كالابل المؤبلة ، فرجعوا هاربين يتساقطون بكل طريق . وكان هلاكهم قرب عرفة قبل دخول الحرم على الأصح .

وقال جماعة : بوادي محسر بين مزدلفة ومنى ، قاله ابن حجر ، قال ابو عبيدة : أبابيل جماعات في تفرقة يقال جاءت الخيل أبابيل أي جماعات من ههنا وههنا ، قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان يؤبل على فلان أي يعظم عليه ويكبره ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له ، وقال بعضهم واحده إبول بكسر الهمزة مثل عجول ، وقال بعضهم إبيل كسكين .

قال الواحدي : ولم نر أحداً يجعل لها واحداً ، قال الفراء : لا واحد له من لفظه ، وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها إبالة مشدداً ، وحكى الفراء : أيضاً إبالة بالتخفيف .

---

(١) ذكر أهل التفسير أن أبرهة لما سار بجنوده إلى الكعبة ليهدمها خرج معه بالفيل ، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نعم الناس ، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ، وبعث بعض جنوده ، فقال : شب عن شريف مكة ، وأخبره أني لم آتِ لقتال ، وإنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حتى دخل مكة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم ، فقال : إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأتِ لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ، ثم ينصرف عنكم ، فقال عبد المطلب : ما له عندنا قتال، وما لنا به يد ، إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه ، فهو بيته وحرمه ، وإن يخلِّ بينه وبين ذلك ، فوالله ما لنا به قوة . قال : فانطلق معي إلى الملك ، فلما دخل عبد لمطلب على أبرهة أعظمه ، وكرمه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك إلى الملك ؟ فقال له الترجمان ، فقال : حاجتي أن يرد عليّ بعير أصابها . فقال أبرهة لترجمانه : . . .

قال سعيد بن جبير كانت طيرا من السماء لم ير قبلها ولا بعدها قال قتادة هي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره لا يصيب شيئاً إلا هشمه ، وقيل كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع .

وقيل كان لها خراطيم كخراطيم الطير . وأكف كأكف الكلاب ، وقيل أنها العنقاء المغرب التي تضرب بها الأمثال ، وقيل في صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبابيل في الطير وفي غير الطير .

ولما تم هلاكهم رجعت الطير من حيث جاءت .

﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية ، وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة بالتحتية واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل والجملة في محل نصب صفة أخرى لطير .

قال الزجاج ﴿ من سجيل ﴾ أي مما كتب عليهم العذاب به مشتقاً من السجل .

قال في الصحاح قالوا هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم وأصله سنك وكل ، وقيل السجيل الشديد ، وقال عبد الرحمن بن أبزي من سجيل من السماء وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط وقيل من الجحيم التي هي سجين ، ثم أبدلت النون لاماً ، قال عكرمة كانت ترميهم بحجارة معها فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري . وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة ، وقد قدمنا الكلام في سجيل في سورة هود .

وعن ابن عباس قال حجارة كالبندق وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره حلقت عليهم من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم ، وعنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل يريد مجتمعة لها

خراطيم تحمل حصاتين في رجليها وحصاة في منقارها ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ، ويبقى عظاماً خاوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع اذا أكلته الدواب فرمت به من اسفل ، شبه لقطع أوصالهم بتفرق أجزائه ، وقيل المعنى أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه بقايا أو أكلت حبه فبقي بدون حبه والعصف جمع عصفه وعصافة وعصيفة وقد قدمنا الكلام في العصف في سورة الرحمن فارجع اليه .

قال ابن عباس يقول كالتبن ، وعن عائشة قالت لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان ونحوه عن أسماء بنت أبي بكر .

وعن ابن عباس قال ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل ، قال القرطبي أي قبل مولده لخمسين يوماً ، قال الخازن وهذا هو القول الأصح فإنهم يقولون ولد عام الفيل ، ويجعلونه تاريخاً لمولده صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن قيس بن محرم قال ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل ، وقيل كان عام الفيل قبل ولادته صلى الله عليه وآله وسلم بأربعين سنة ، وقيل بثلاث وعشرين سنة ، وقيل غير ذلك .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة قريش

ويقال سورة لإيلاف هي أربع آيات وهي مكية عند الجمهور. وقال الضحاك والكلبي هي مدنية والأول أصح. قال ابن عباس نزلت بمكة. وعن أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ولا يعطيها أحداً بعدهم أني فيهم. وفي لفظ النبوة فيهم والخلافة فيهم والحجابة فيهم. والسقاية فيهم. ونصروا على الفيل وعبدوا الله سبع سنين. وفي لفظ عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم. ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لايلاف قريش» أخرجه البخاري في تاريخه والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

قال ابن كثير هو حديث غريب ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم « فضل الله قريشاً بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده الا قرشي وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون . وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم وهي لإيلاف قريش . وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية ».

وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه وهو مرسل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَافِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

﴿لإيلاف قريش﴾ اللام قيل متعلقة بآخر السورة التي قبلها كأنه قال سبحانه أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش ، قال الفراء هذه السورة متصلة بالسورة الأولى لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال لايلاف قريش ، أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك ان قريشاً كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهلية ، يقولون هم أهل بيت الله عز وجل حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله عز وجل ، فذكرهم نعمته ؛ أي فعل ذلك لإيلاف قريش أي ليألفوا الخروج ولا يجترىء عليهم ؛ وذكر هذا ابن قتيبة .

قال الزجاج : والمعنى فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش ، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ولهذا جعل أبيّ بن كعب هذه السورة وسورة الفيل واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة .

والذي عليه الجمهور من الصحابة وغيرهم وهو المستفيض المشهور أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل وأنه لا تعلق بينهما .

وقال في الكشاف ان اللام متعلقة بقوله ﴿ فليعبدوا ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلاف الرحلتين ، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى إما لا فليعبدوه .

وقد تقدم صاحب الكشاف الى هذا القول الخليل بن أحمد ؛ والمعنى ان لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ، وقال الكسائي والأخفش : اللام لام العجب أي إعجبوا لايلاف قريش وقيل هي بمعنى الى وقرىء لإلف وقرىء ليألف بفتح اللام على أنها لام الأمر ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود وفتح لام الأمر لغة معروفة .

قال سليمان الجمل قرأ ابن عامر لإلاف قريش دون ياء قبل اللام الثانية والباقون لإيلاف بياء قبلها ، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني وهو إيلافهم .

ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين ان القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على اثباتها خطاً واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطاً فهو أدل دليل على أن القراء متبعون الأثر والرواية لا مجرد الخط انتهى .

وقريش هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ومن لم يلد النضر فليس بقرشي ، وقريش يأتي منصرفاً إن أريد به الحي ، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ، وقيل إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر والأول أصح .

وقوله ﴿إيلافهم﴾ تأكيد لفظي ولذلك اتصل بضمير ما أضيف اليه الأول وقيل هو بدل لأنه أطلق المبدل منه وقيد البدل بالمفعول وهو قوله ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ لما فيه من الابهام في المبدل منه ثم التبيين في البدل ، وإنما أفرد الرحلة ولم يقل رحلتي الشتاء لأمن الإلباس ، وقيل إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر أي ارتحالهم رحلة الشتاء وقيل منصوبة على الظرفية والرحلة الارتحال وكانت إحدى الرحلتين الى اليمن في الشتاء لأنها بلاد حارة ، والرحلة الأخرى الى الشام في الصيف لأنها بلاد باردة ، وروي أنهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون في الطائف والأول أولى فان ارتحال قريش للتجارة

معلوم معروف في الجاهلية والاسلام .

قال ابن قتيبة إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان كل سنة رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام ، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف .

قال ابن عباس في الآية نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف ، وعنه قال إيلافهم لزومهم ، وقيل رحلة اسم جنس وكانت لهم أربع رحلات وجعله بعضهم غلطاً ، وليس كذلك وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف .

﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة ، والبيت الكعبة وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها وقيل لأنهم شرفوا بالبيت على سائر العرب فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته .

﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وقيل إن هذا الاطعام هو إنهم لما كذبوا النبي صلى الله‌عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم إجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فاشتد القحط فقالوا يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون فدعا فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط ، قال ابن عباس يعني قريشاً أهل مكة بدعوة ابراهيم حيث قال ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

﴿وآمنهم من خوف ﴾ أي من خوف شديد كانوا فيه ، قال ابن زيد كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم .

وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان آمنهم من خوف الحبشة مع

الفيل ، وقال ابن عباس من الجذام وعنه في الآية قال آمنهم من خوف حيث قال ابراهيم ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ قال ابن عباس نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف ولم تكن لهم راحة في شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع وآمنهم من خوف ، وكان ذلك من نعمة الله عليهم ، وعنه قال أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف .

وقد وردت أحاديث في فضل قريش وإن الناس تبع لهم في الخير والشر ، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان وهي في دواوين الاسلام .

سورة أرأيت

ويقال لها سورة الدين وسورة الماعون وسورة اليتيم وهي ست أو سبع آيات وهي مكية في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس ، ومدنية في قول قتادة وآخرين ، وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله . وقيل نصفها الاول مكي ونصفها الثاني مدني ، والأول في العاص بن وائل والثاني في عبد الله بن أبيّ ابن سلول . وقال مقاتل والكلبي نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وقال السدي في الوليد بن المغيرة ، وقال الضحاك في عمرو بن عائذ وقال ابن جريج في أبي سفيان ، وقيل في رجل من المنافقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿ أرأيت ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له ، والاستفهام لقصد التعجيب من حال ﴿ الذي يكذب بالدين ﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة . وقال ابن عباس بحكم الله .

قرأ الجمهور أرأيت بإثبات الهمزة الثانية وقرىء بإسقاطها ، قال الزجاج : لا يقال في رأيت ريت ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة الفاً ، والرؤية بمعنى المعرفة وقيل هي البصرية فتتعدى الى مفعول واحد ، وهو الموصول أي أبصرت المكذب وقيل إنها بمعنى أخبرني فتتعدى الى مفعولين الثاني محذوف أي من هو ، والأول أولى ، قيل وفي الكلام حذف والمعنى ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ أمصيب هو أم مخطىء .

﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ الفاء جواب شرط مقدر أي إن تأملته او طلبته فذلك الخ ويجوز ان تكون عاطفة على الذي يكذب إما عطف ذات على ذات او صفة على صفة ، فعلى الأول يكون اسم الاشارة مبتدأ وخبره الموصول أو خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ذلك والموصول صفته ، وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب ، ومعنى يدع يدفع دفعاً بعنف وجفوة أي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً ، ومنه قوله سبحانه ﴿ يوم يدعون الى نار جهنم دعاً ﴾ وقد كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، قال ابن عباس يدفعه عن حقه .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلاً بالمال أو تكذيباً للجزاء ، وهو مثل قوله في سورة الحاقة ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ .

﴿ فويل للمصلين ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل اذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل لهم ، ووضع المصلين موضع لهم للتوسل بذلك الى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما ذكر ، والمعنى عذاب لهم أو هلاك أو واد في جهنم لهم كما سبق الخلاف في معنى الويل ، ويجوز أن يكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم .

﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أي غافلون غير مبالين . وإنما عبر بعن دون في لأن صلاة المؤمن لا تخلو عن سهو بدليل وقوعه للأنبياء ولأن المراد السهو عن الصلاة بتأخيرها عن وقتها لا السهو فيها .

قال الواحدي نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً ان صلوا ولا يخافون عليها عقاباً ان تركوا فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، واذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء واذا لم يكونوا معهم لم يصلوا .

قال النخعي الذي هم عن صلاتهم ساهون هو الذي اذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً . وقال قطرب هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله ؛ وقرأ ابن مسعود لاهون مكان ساهون قال ابن عباس هم المنافقون يتركون الصلاة في السر ويصلون في العلانية .

عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبيّ أرأيت قول الله ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أينا لا يسهو أينا لا يحدث نفسه ، قال إنه ليس كذلك إنه إضاعة الوقت .

وعن سعد بن أبي وقاص قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الآية قال « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » قال الحاكم والبيهقي الموقوف

أصح إسناداً ، قال ابن كثير : ضعف البيهقي رفعه وصحح وقفه وكذلك الحاكم .

وعن أبي برزة الأسلمي قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الله أكبر هذه الآية خير لكم من أن يعطي كل رجل منكم جميع الدنيا هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته . وان تركها لم يخف ربه » رآه ابن جرير وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف ففي اسناده جابر الجعفي وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسم ، وعن ابن عباس قال هم الذين يؤخرونها عن وقتها .

﴿ الذين هم يراؤون ﴾ الناس بصلاتهم إن صلوا أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم ، قال ابن عباس هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم اذا حضروا ويتركونها اذا غابوا ، قال الخازن أما من يظهر النوافل ليقتدى به ويأمن على نفسه من الرياء فلا بأس بذلك وليس بمراء .

﴿ ويمنعون ﴾ الناس أو الطالبين ﴿ الماعون ﴾ فاعول من المعن الشيء وهو القليل يقال مال معن أي قليل ، قاله قطرب ، أو اسم مفعول من عانه يعينه ، والأصل معوون ، وكان من حقه على هذا ان يقال معون ، كمصون ومقول اسمي مفعول من صان وقال ، ولكنه قلبت الكلمة بأن قدمت عيناً على فائها فصار موعون ، ثم قلبت الواو الأولى ألفاً فوزنه الآن معقول .

قال اكثر المفسرين : الماعون اسم لما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفاس والقدر ، وما لا يمنع كالماء والملح ، وقيل هو الزكاة أي يمنعون زكاة أموالهم ، قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفاس والدلو والقدر والقادحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير .

وقالوا أيضاً الماعون في الاسلام الطاعة والزكاة ، وقال الفراء سمعت بعض العرب يقول الماعون الماء ، وقيل الماعون هو الحق على العبد على العموم ، وقيل هو المستقل من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن وهو القليل .

قال قطرب أصل الماعون من القلة والمعن الشيء القليل فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير ، وقيل هو ما يبخل به كالماء والملح والنار .

وعن ابن مسعود قال « كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عارية الدلو والقدر والفاس والميزان وما تتعاطون بينكم » وعنه قال « كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفاس وشبهه فيمنعونهم فانزل الله ويمنعون الماعون .

وعن ابي هريرة عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم في الآية قال « ما تعاور الناس بينهم الفاس والقدر والدلو وأشباهه » أخرجه ابو نعيم والديلمي وابن عساكر .

وعن قره بن دعموص النمري أنهم وفدوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا رسول الله ما تعهد الينا قال « لا تمنعوا الماعون قالوا وما الماعون قال في الحجر والحديدة وفي الماء قالوا فأي الحديدة قال قدركم النحاس ، وحديد الفاس الذي تمتهنون به ، قالوا وما الحجر ، قال قدوركم الحجارة » أخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه . قال ابن كثير غريب جداً ورفعه منكر ، وفي إسناده من لا يعرف .

وعن سعيد بن عياض عن اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الماعون الفاس والقدر والدلو وقال ابن عباس عارية متاع البيت ، وعن علي ابن أبي طالب قال الماعون الزكاة المفروضة يراؤون بصلاتهم ويمنعون زكاتهم .

سورة الكوثر

وتسمى سورة النحر هي ثلاث آيات وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة ، وعن ابن عباس وابن الزبير وعائشة انها نزلت سورة الكوثر بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قرأ الجمهور هكذا ، وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفراني أنطيناك بالنون قيل هي لغة العرب العاربة أي قضينا لك وخصصناك به فهو لك ولأمتك من قبل وجودك وإن لم تستول عليه وتتصرف فيه إلا في القيامة ، فالعطاء ناجز والتمكن والاستيلاء مستقبل ، والكوثر فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر ، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثراً .

فالمعنى على هذا إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة الى الغاية ، وذهب اكثر المفسرين كما حكاه الواحدي الى أن الكوثر نهر في الجنة ، وقيل هو حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف ، قاله عطاء وقال عكرمة الكوثر النبوة ، وقال الحسن هو القرآن وقال الحسن بن الفضل هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع .

وقال ابو بكر بن عياش هو كثرة الأصحاب والأمة ، وقال ابن كيسان هو الايثار ، وقيل هو الاسلام ، وقيل رفعة الذكر ، وقيل نور القلب ، وقيل الشفاعة ، وقيل المعجزات ، وقيل إجابة الدعوة ، وقيل لا إله إلا الله وقيل الفقه في الدين ، وقيل الصلوات الخمس ، وسيأتي بيان ما هو الحق .

وعن أنس قال أغفى رسول الله إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقال : « إنه أنزل عليّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر ، حتى ختمها قال هل تدرون ما الكوثر ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال هو نهر أعطانيه

ربي في الجنة عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته كعدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك » أخرجه احمد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه ، وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه(١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر ، قلت ما هذا يا جبريل ؟ « قال هذا الكوثر الذي أعطاكه الله » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما(٢) .

وقد روي عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذي في الجنة ، وعن عائشة قالت هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم في بطنان الجنة ، وعن ابن عباس انه نهر في الجنة وعن حذيفة قال « نهر في الجنة » وحسن السيوطي إسناده .

وعن أسامة بن زيد مرفوعاً أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر فقال أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ ، هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » أخرجه ابن مردويه .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكوثر ؟ قال « هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » أخرجه ابن مردويه .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » بهذا اللفظ في كتاب الرقاق ، باب الحوض ٤١٢/١١ وشك الراوي في آخره ، وهو (هدبة بن خالد) في رواية ، « فإذا طينه أو طيبه » قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤١٢/١١ : أراد بذلك أن أبا الوليد لم يشك في روايته ، أنه بالنون ، وهو المعتمد . قال : وتقدم في تفسير سورة الكوثر من طريق شيبان عن قتادة : فأهوى الملك بيده فاستخرج من طينه مسكاً أذفر . والأذفر : طيب الريح .

(١) أي ليلة الإسراء ، كما في رواية البخاري في التفسير ٥٦٢/٨ : عن أنس رضي الله عنه قال : لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال : « أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » .

فهـذه الأحاديث تـدل على أن الكوثـر هو النهـر الـذي في الجنـة فيتعين المصير اليها ، وعدم التعويـل على غيرهـا ، وإن كان معنى الكـوثر هـو الخير الكثيـر في لغة العـرب ، فمن فسره بمـا هو أعم ممـا ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو تفسير ناظر الى المعنى اللغوي كما أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجة وغيرهم عن عطاء بن السائب قال :قال محارب بن دثار قال سعيد بن عبيد في الكوثر قلت حـدثنا عن ابن عبـاس انه قـال هو الخيـر الكثير فقال صدق انه للخير الكثير ، ولكن حدثنـا ابن عمر قـال نزلـت إنـا أعطينـاك الكوثر فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم « الكـوثر نهـر في الجنة حـافتاه من ذهب يجري علٰى الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل »

وأخرج البخاري وابن جـرير والحـاكم من طريق أبي بشـر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر هو الخير الذي أعطاه الله اياه ، قال ابـو بشر قلت لسعيد ابن جبير فان ناساً بزعمون أنـه نهر في الجنـة قال النهـر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .

وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهمـا ناظـر الى المعنى اللغوي كما عرفناك ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فسره فيما صح عنه أنه النهر الذي في الجنة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

قال القرطبي أصح هذه الأقوال أنه النهر أو الحوض لأنـه ثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصاً في الكوثر .

قـال القاضي عيـاض : أحاديث الحـوض صحيحـة والإيمـان بـه فـرض والتصديق به من الإيمان وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة ، وقد جمع ذلك كله البيهقي في كتابه البعث والنشور بأسانيده وطرقه المتكاثرة .

وذهب صـاحب القوت وغيـره الى أن حوض النبي صلى الله عليـه وآلـه

وسلم إنما هو بعد الصراط ، والصحيح أن له صلى الله عليه وآله وسلم حوضين وكلاهما يسمى كوثراً .

واختلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر فقيل الميزان وقيل الحوض قال ابو الحسن الفاسي والصحيح ان الحوض قبل .

قلت والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فيقدم قبل الصراط والميزان والله أعلم .

﴿ فصل لربك ﴾ وكان الظاهر ان يقول لنا فانتقل الى الاسم المظهر على طريق الالتفات لأنه يوجب عظمة ومهابة ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة ، قال ابن عباس الصلاة المكتوبة وقيل صلاة عيد النحر ، وهذا يناسب كونها مدنية ، والأول يناسب كونها مكية .

﴿ وانحر ﴾ البدن التي هي خيار اموال العرب ، قال محمد بن كعب : أن ناساً كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون صلاته ونحره له ، وقال قتادة وعطاء وعكرمة المراد صلاة العيد ونحر الأضحية ، وقال سعيد بن جبير : صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن في منى .

وقيل النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر ، قاله محمد بن كعب ، وقيل هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة الى حذاء نحره ، وقيل هو أن يستقبل القبلة بنحره ، قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص ، قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول نتناحر أي نتقابل نحر هذا الى نحر هذا أي قبالته .

وقال ابن الأعرابي هو انتصاب الرجل في الصلاة بازاء المحراب ، من قولهم : منازلهم تتناحر أي تتقابل ، وروي عن عطاء أنه قال أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره ، وقال سليمان التيمي المعنى وارفع

يديك بالدعاء الى نحرك .

وظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلهما لله عز وجل لا لغيره ، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو في حكم المقيد له .

عن علي بن أبي طالب قال لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل « ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ، فقال إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك اذا تحرمت للصلاة ان ترفع يديك اذا كبرت واذا ركعت واذا رفعت رأسك من الركوع فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وان لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ » أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه وهو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نباتة عن علي .

وعن ابن عباس في الآية قال إن الله أوحى الى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن ارفع يديك حذاء نحرك اذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر ، وعن علي في الآية قال : « وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعهما على صدره في الصلاة » وعن أنس « عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله » أخرجه أبو الشيخ والبيهقي في سننه .

وعن ابن عباس أيضاً اذا صليت فرفعت رأسك من الركوع فاستو قائماً ، وعنه قال هو الذبح يوم الأضحى يقول اذبح يوم النحر .

﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم ، فيعم خيري الدنيا والآخرة ، أو الذي لا عقب له أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته .

وظاهر الآية العموم ، وإن هذا شأن كل من يبغض النبي صلى الله عليه

وسلم ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مر غير مرة .

قيل كان أهل الجاهلية اذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا قد بتر فلان ، فلما مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم خرج أبو جهل الى أصحابه فقال بتر محمد ، فنزلت الآية ، وقيل القائل بذلك عقبة بن أبي معيط .

قال أهل اللغة الأبتر من الرجال الذي لا ولد له ، ومن الدواب الذي لا ذنب له ، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر ، وأصل البتر القطع ، يقال بترت الشيء بتراً قطعته ، وفي المختار بتره قطعه قبل التمام ، وبابه نصر ، والانبتار الانقطاع ، والأبتر المقطوع الذنب ، وبابه طرب .

وعن ابن عباس قال : « قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى الى هذا الصابىء المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة ، قال أنتم خير منه فنزلت ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ونزلت ﴿ الم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب الى قوله فلن تجد له نصيراً ﴾ » أخرجه البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه ، قال ابن كثير وإسناده صحيح .

وعن أبي أيوب قال : « لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشى المشركون بعضهم الى بعض فقالوا إن هذا الصابىء قد بتر الليلة ، فأنزل الله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ إلى آخر السورة أخرجه الطبراني وابن مردويه .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال « كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية رضي الله تعالى عنهم ، فمات القاسم وهو أول ميت من أهله وولده بمكة ، ثم مات عبد الله فقال العاص بن

وائل السهمي قد انقطع نسله فهو أبتر ، فأنزل الله ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ » وفي اسناده الكلبي ، وعنه قال هو أبو جهل وعنه قال يقول عدوك وقيل ولد القاسم ثم زينب ثم عبد الله قال الكلبي : ولدت زينب ثم القاسم ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيب والطاهر ، قال وهذا هو الصحيح ، وغيره تخليط .

سورة الكافرون

هي ست آيات وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة . ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك . وعن ابن الزبير أنها نزلت بالمدينة .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر: « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قرأ بهذه السورة وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف » .

وفي مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قرأ بهما في ركعتي الفجر » . وعن ابن عمر قال : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ﴿ وقل هو الله أحد ﴾ » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يوتر بـ﴿ سبح ﴾ و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن . وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر » أخرجه محمد بن نصر والطبراني في الاوسط .

وعن نوفل بن معاوية الاشجعي أنه قال يا رسول الله علمني ما أقول اذا أويت الى فراشي قال اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على خاتمتها فانها براءة من الشرك » . أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الاشراك بالله تقرأون قل يا أيها الكافرون عند منامكم » . أخرجه أبو يعلى والطبراني .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لقي الله بسورتين فلا حساب عليه ﴿ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ﴾ » أخرجه ابن مردويه .

وعن خباب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : اذا أخذت مضجعك فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . لم يأت فراشه قط الا قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى ختمها » أخرجه البزار والطبراني وابن مردويه . وفي الباب أحاديث كثيرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ
أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ
وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ الألف واللام للجنس ، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه .

وسبب نزول هذه السورة إن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فأمره الله سبحانه أن يقول لهم ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي لا أفعل في الحال ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام . قيل والمراد فيما يستقبل من الزمان لأن لا النافية لا تدخل في الغالب إلا على المضارع الذي في معنى الاستقبال كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال .

وذكر الحافظ ابن القيم في بدائع الفوائد عشر مسائل تحت هذه الآية وقال وقع (ما) فيها بدلا عن (من) ومعناه أنتم لا تعبدون معبودي فالمقصود المعبود لا العبادة ، ولا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ (ما) لإيهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية انتهى .

عن ابن عباس : « أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فإنا نعرض

عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح ، قال ما هي ؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ إلى آخر السورة وأنـزل الله ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشـاكرين ﴾ أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني .

وعن سعيـد بن ميناء مـولى أبي البختري قـال : لقى الوليـد بن المغيـرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف رسـول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ؛ « يا محمد هلم فلنعبد مـا تعبد ، وتعبـد ما نعبـد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فان كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليـه كنت قد أخذت منه حظاً ، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الـذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله هذه السورة » أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري .

وعن ابن عباس أن قريشاً قالت لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك فأنـزل الله هذه السورة كلها .

﴿ ولا أنتم عـابـدون مـا أعبـد ﴾ أي ولا أنتم فـاعلون في المستقبـل مـا أطلب منكم من عبادة إلهي .

قـال الحافظ ابن القيم في البـدائع : اشتمـال هـذه على النفي المحض خاصة هذه السورة العظيمة فـانها سـورة براءة من الشـرك كما جـاء في وصفها فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلقة بين الموحـدين والمشركين ، ولهـذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المـطلوبة ، هـذا مع انهـا متضمنة لـلاثبات صريحاً .

فقوله ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ براءة محضة ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ اثبات أن له معبوداً يعبده وأنهم بـريئون من عبـادته ، فتضمنت النفي والاثبـات فطابقت قول امام الحنفاء ﴿ انني براء مما تعبدون إلا الذي فـطرني ﴾ وطابقت

قول الفئة الموحدين ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقرأ بها وبقل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب ، فان هاتين السورتين سورتا الاخلاص ، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما وهما توحيد العمل والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وانه إلَه واحد صمد لم يلد ولم يولد .

والثاني توحيد القصد والارادة وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه بل يكون وحده المعبود ، وهذه السورة مشتملة على هذا التوحيد انتهى .

﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه ، والمعنى أنه لم يعهد مني ذلك ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، كذا قيل ، وهذا على قول من قال انه لا تكرار في هذه الآيات لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قدمنا من أن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال .

والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما ينفيه (لا) قال الخليل في لن أن أصله (لا) فالمعنى لا أعبد ما تعبدون في المستقبل ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي .

ثم قال : ولا أنا عابد ما عبدتم أي ولست في الحال بعابد معبودكم ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي وقيل بعكس هذا ،وهو أن الجملتين الأوليتين للحال ، والجملتين الآخرتين للاستقبال بدليل قوله ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ كما لو قال القائل أنا ضارب زيداً وأنا قاتل عمراً ، فانه لا يفهم منه إلا الاستقبال .

قال الأخفش والفراء : المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ولا أنتم عابدون في

المستقبل ما أعبد .

قال الزجاج : نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال وفي المستقبل ، ونفى عنهم عبادة الله في الحال ، وفيما يستقبل ، وقيل ان كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال ولكنا نخص أحدهما بالحال والثاني بالاستقبال رفعاً للتكرار .

وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف ، فان جعل قوله لا أعبد ما تعبدون للاستقبال وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية ولكنه لا يتم جعل قوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ للاستقبال لأن الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات فدخول النفي عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام والثبات في كل الأوقات ، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ وفي قوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الآخرتين على الحال .

وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيها بعده منفية كلها بحرف واحد وهو لفظ لا في كل واحدٍ منها فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة .

وأما قول من قال ان كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال فهو إقرار منه بالتكرار ، لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى ، مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل .

وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التي لا تجحد ، واستعمالاتهم التي لا تنكر ، انهم إذا أرادوا التأكيد كرروا كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا ، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب ، وهذا مما لا يحتاج الى إقامة البرهان عليه ، لأنه إنما

يستدل على ما فيه خفاء ، ويبرهن على ما هو متنازع فيه .

وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ولا يرتاب فيه مرتاب ، فهو مستغن عن التطويل ، غير محتاج الى تكثير القال والقيل .

وقد وقع في القرآن الكريم من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن ، وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن وسورة المرسلات ، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر .

وقد ثبت عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات .

وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم ، وإنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك كما في قوله سبحان ما سخركن لنا ونحوه .

والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد ، ولا يختلف ، وقيل أنه أراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق ، وقيل أن (ما) في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة أي لا أعبد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي الخ .

وجملة ﴿ لكم دينكم ﴾ مستأنفة لتقرير قوله لا أعبد ما تعبدون وقوله ولا أنا عابد ما عبدتم كما أن قوله ﴿ ولي دين ﴾ تقرير لقوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الموضعين أي إن رضيتم بدينكم وشرككم فقد رضيت بديني وتوحيدي كما في قوله ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ والمعنى أن دينكم الذي هو الاشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه الى الحصول لي كما تطمعون ، وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم .

وقيل المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي ، لأن الدين الجزاء .

قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل ليست بمنسوخة لأنها اخبار ، والاخبار لا يدخلها النسخ ، وقيل السورة كلها منسوخة .

وقال القاضي : ﴿ ولي ديني ﴾ الذي أنا عليه لا أرفضه ، فليس فيه إذن في الكفر ، ولا منع عن الجهاد فلا يكون منسوخاً بآية القتال ، وقد فسر الدين بالحساب والجزاء والعبادة .

وقال الحافظ بن القيم في البدائع : وقد غلط في السورة خلائق وظنوا انها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب ، وكلا القولين غلط محض فلا نسخ في السورة ولا تخصيص ، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ فيها .

وهذه السورة أخلصت للتوحيد ، ولهذا تسمى سورة الاخلاص ، والآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا أوافقكم عليه فانه دين باطل ، فهو مختص بكم لانشرككم فيه ، ولا تشركوننا في ديننا الحق ، فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم ، فأين الاقرار حتى يدعى النسخ والتخصيص ؟ أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لهم لكم دينكم ولي دين .

بل هذه الآية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم بلاده وعباده وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته إذ قال لهم خلفاء الرسول وذريته لكم دينكم ولنا ديننا هذا فلا يقتضي إقرارهم على بدعهم بل يقولون لهم هذا براءة منها وهم مع ذلك منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الامكان انتهى حاصله .

وقـرأ الجمهور ﴿ ولي ﴾ بـإسكان اليـاء وحذف اليـاء من (ديني) وصلاً ووقفاً ، وقرىء بفتح الياء من قوله لي وإثباتها من ديني وصلاً ووقفاً وقالوا لأنها إسم فلا تحذف ، ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسمـاً ، ويجاب أيضاً بأنها من ياءات الزوائـد فيراعى فيـه اتباع رسم المصحف ، وهي غير ثابتة فيه اكتفاء بالكسرة .

سورة النصر

وتسمى سورة التوديع ، وهي ثلاث آيات وهي مدنية بالاجماع بلا خلاف قال ابن عباس أنزل بالمدينة اذا جاء نصر الله والفتح وعن ابن عمر قال هذه السورة « نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختمها فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنها الوداع » أخرجه البزار وأبو يعلى والبيهقي[1] .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعيت الي نفسي » أخرجه أحمد وغيره ، وزاد ابن مردويه في لفظ : وقرب الي أجلي ، وفي لفظ لما نزلت نعيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسه حين أنزلت فأخذ في أشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة .

وعن أم حبيبة قالت : « لما أنزل ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إن الله لم يبعث نبياً الا عمر من أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله ، فإن عيسى بن مريم كان أربعين سنة في بني اسرائيل وهذه لي عشرون سنة وأنا ميت في هذه السنة فبكيت فاطمة رضي الله تعالى عنها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنت أول أهلي بي لحوقاً فتبسمت » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وعن ابن عباس قال لما نزلت ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاطمة وقال : « إنه قد نعيت الي نفسي فبكت ثم ضحكت .وقالت أخبرني أنه نعيت اليه نفسه فبكيت . فقال اصبري فانك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت » أخرجه البيهقي[1] .

وتقد تقدم في سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن وهي آخر سورة نزلت جميعاً .

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٨/٥٦٥ : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟! فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم ، قال : ماتقولون في قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وفي الحديث فضيلة ظاهرة لابن عباس ، وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين ، وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا ، لإظهار نعمة الله عليه ، وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته ، وغير ذلك من المقاصد الصالحة ، لا للمفاخرة والمباهاة ، وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات ، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم ، ولهذا قال علي رضي الله عنه : أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٣٠٢٤) عن عبيد الله بن عتبة ، قال : قال لي ابن عباس : تعلم (وقال هارون : تدري) آخر سورة نزلت في القرآن ، نزلت جميعاً ؟ .

قلت : نعم ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : صدقت . قال مسلم : وفي رواية ابن أبي شيبة (أحد الرواة) : تعلم أي سورة ، ولم يقل : آخر . قال الحافظ في « الفتح » ٨/٥٦٤ : وأخرج النسائي من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت في القرآن . قال : وقد تقدم في تفسير (براءة) أنها آخر سورة نزلت ، قال : والجمع بينهما أن آخرية سورة النصر ، نزولها كاملة ، بخلاف (براءة) ، فالمراد نزول بعضها أو معظمها ، وإلا ففيها آيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النبوية ، وأوضح في ذلك أن أول (براءة) نزل عقب فتح مكة في سنة تسع عام حج أبي بكر ، وقد نزل (اليوم أكملت لكم دينكم) وهي في (المائدة) في حجة الوداع سنة عشر ، فالظاهر أن المراد معظمها ، ولا شك أن غالبها نزل في غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ النصر العون مأخوذ من قولهم قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها ، يقال نصره على عدوه ينصره نصراً إذا أعانه ، والإسم النصرة واستنصره على عدوه إذا سأله أن ينصره عليه .

قال الواحدي قال المفسرون إذا جاءك يا محمد نصر الله على من عاداك وهم قريش ، وقيل المراد نصره صلى الله عليه وآله وسلم على قريش من غير تعيين ، وقيل نصره على من قاتله من الكفار ، وقيل « إذا » بمعنى قد وقيل بمعنى إذ ، ومعنى جاء حصل .

وإنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للاشعار بأن المقدرات متوجهة من الازل إلى أوقاتها المعينة فتقرب منها شيئاً فشيئاً ، وقد قرب النصر من وقته فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره ، قاله القاضي وهو استعارة تبعية لكن قول الراغب المجيء الحصول ويكون في المعاني والأعيان يقتضي خلافه .

وفي الخطيب ﴿ جاء ﴾ بمعنى استقر وثبت في المستقبل بمجيء وقته

هذا بالنسبة للسورة ، وأما بالنسبة لآخر آية نزلت ، فقد روى البخاري عن ابن عباس : آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا وفي « الفتح » : وجاء عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر : « آخر آية نزلت على النبي ﷺ : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ أخرجه الطبري من طرق . قال الحافظ : وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية ختام الآيات المنزلة في الربا ، وهي معطوفة عليهن ، ثم قال : وأما ما سيأتي في آخر سورة (النساء) من حديث البراء : آخر آية نزلت ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ فيجمع بينه وبين قول ابن عباس ، بأن الآيتين نزلتا جميعاً ، فيصدق أن . . .

المضروب له في الأزل ، وإذا منصوبة بسبح الذي هو جوابها ونصر الله مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف أي نصره اياك والمؤمنين .

﴿ والفتح ﴾ أي فتح مكة وقيل هو فتح سائر البلاد ، وقيل هو ما فتح الله عليه من العلوم والأول أظهر والثاني أنسب والثالث أبعد .

عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقالوا فتح المدائن والقصور ، قال فأنت يا ابن عباس ما تقول ، قال قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نعيت له نفسه .

وأخرج البخاري غيره عن ابن عباس قال « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، وكان بعضهم وجد في نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر أنه من قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا فقال ما تقول ، فقلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلمه الله له قال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر لا أعلم منها إلا ما تقول .

قال الرازي الفرق بين النصر والفتح ان الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقاً ، والنصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف عليه الفتح ، أو يقال النصر كمال الدين ، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة ، أو يقال النصر الظفر ، والفتح الجنة هذا معنى كلامه ، ويقال الأمر أوضح من هذا وأظهر فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم ، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم .

﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ أي أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به وهو الإسلام جماعات فوجاً

بعد فوج .

قال الحسن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة قال العرب أما إذا ظفر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأهل الحرم وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا أي جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً ، واثنين اثنين فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام .

قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين .

وانتصاب أفواجاً على الحال من فاعل يدخلون ومحل يدخلون النصب على الحال إن كان الرؤية بصرية ، وإن كانت بمعنى العلم فهو في محل نصب على أنه المفعول الثاني .

وعن أبي هريرة قال لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاء أهل اليمن وهم أرق قلوباً ، الايمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية » أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة إذ قال « الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الايمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » أخرجه الطبراني وابن مردويه .

وعن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا » أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً قال ليخرجن منه أفواجاً ، كما دخلوا فيه أفواجاً » أخرجه الحاكم وصححه .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ هذا جواب الشرط وهو العامل فيه ، والتقدير فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله كما مر ، وقال مكي العامل في (إذا) هو جاء ، ورجحه أبو حيان وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها .

وقوله ﴿ بحمد ربك ﴾ في محل نصب على الحال أي فقل سبحان الله متلبساً بحمده أو حامداً له ، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس ، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلقة ما هو معروف من قولهم هو مجنون هو ساحر هو شاعر هو كاهن ونحو ذلك .

ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمره نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار فقال ﴿ واستغفره ﴾ أي اطلب منه المغفرة لذنبك ، وسله الغفران هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك ، واستدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى .

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله ويكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقيل ان الاستغفار منه صلى الله عليه وآله وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم ، وقيل إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته وتعريضاً بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار .

وقيل ان الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلاة ، والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة ، وفرحاً بما حباه الله من نصر الدين وكبت أعدائه ونزول الذلة بهم ، وحصول القهر لهم .

قال الحسن : أعلم الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم انه قد اقترب أجله فأمره بالتسبيح والتوبة ليختم لـه في آخر عمـره بالـزيادة في العمـل الصالح ، فكان يكثر أن يقول «سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لي أنك أنت التواب » .

قال قتادة ومقاتل : وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين .

وعن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول « سبحان الله وبحمده وأستغفره وأتوب إليه » فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده واستغفر الله وأتوب إليه ، فقال أخبرني ربي اني سأرى علامة من أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فتح مكة ورأيت الناس يدخلون الخ » أخرجه ابن أبي شيبة وابن جـرير وابن المنـذر وابن مردويه .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهـم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، بتأويل القرآن تعني ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وفي الباب أحاديث .

وقوله ﴿ إنه كان تواباً ﴾ تعليل لأمره سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار أي من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليه ويرحمهم بقبول توبتهم ، وتواب من صيغ المبالغة ، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين .

وقد حكى الرازي في تفسير اتفاق الصحابة رضي الله عنهم على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل ﴿ اليوم

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوماً ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً ، وقيل سبعة أيام ، وقيل غير ذلك .

وكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان ، وتوفي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول على رأس العاشرة بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة وإن كانت لشهرين وشيء مضت من الحادية عشرة إذا اعتبر التاريخ من أول السنة الشرعية وهو المحرم ، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم لاثني عشر من ربيع الأول حسبوا الباقي من هذه السنة سنة مع أنها ناقصة شهرين واثني عشر يوماً ، فلما كانت وفاته لاثني عشر من ربيع الأول كان الماضي من هذه السنة وهو شهران واثنا عشر يوماً مكملاً ومتمماً لما نقصته السنة الأولى فصح قولهم أنه توفي في العاشرة أي على رأسها وحين كمالها بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة ، ويصح أن يقال توفي في الحادية عشرة بالنظر لجعل التاريخ من أول السنة الشرعية تأمل والله تعالى أعلم .

سورة تبت

وتسمى سورة أبي لهب كما في البحر هي خمس آيات وهي مكية بلا خلاف وبه قال ابن عباس وابن الزبير وعائشة .

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال مقاتل وابن عباس : خسرت ، وقيل خابت ، وقال عطاء : ضلت ، وقيل صفرت من كل خير ، ومنه قولهم شابت أم تابت أي هالكة من الهرم وقيل المعنى هلكت والأول أولى ، وخص اليدين بالتباب لأن أكثر العمل يكون بهما ، وقيل المراد باليدين نفسه وقد يعبر باليد عن النفس كما في قوله ﴿ بما قدمت يداك ﴾ أي نفسك ، والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله كقولهم أصابته يد الدهر وأصابته يد المنايا .

قرأ العامة لهب بفتح الهاء وقرىء بسكونها فقيل لغتان بمعنى كالنهر والنهر ، والشعر والشعر .

وقال الزمخشري هو من تغيير الأعلام ، ولم يختلف القراء في قوله ﴿ ذات لهب ﴾ إنها بالفتح ، والفرق أنها فاصلة فلو سكنت زال التشاكل .

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، وذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها ولكن اسمه كما تقدم عبد العزى ، والعزى اسم صنم ، ولكون في هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار لأن اللهب هو لهب النار ، وإن كان إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلاً وإن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار .

قال القرطبي أو لأن الله أراد أن يحقق نسبته بأن يدخله النار فيكون أبا لهب تحقيقاً للنسب وامضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه ، وقيل اسمه

كنيته ، وروى صاحب الكشاف أنه قرئ تبت يدا أبو لهب وذكر وجه ذلك .

﴿ وتب ﴾ أي هلك ، قال الفراء : الأول دعاء عليه ، والثاني خبر كما تقول أهلكه الله وقد هلك ، والمعنى أنه قد وقع ما دعى به عليه ، وتدل عليه قراءة ابن مسعود (وقد تب) وقيل كلاهما إخبار أراد بالأول هلاك عمله وبالثاني هلاك نفسه ، وقيل كلاهما دعاء عليه ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : « لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذباً قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تباً لك إنما جمعتنا لهذا ، ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾[1] .

﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أي ما دفع عنه ما حل به من التباب وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من الأرباح والجاه ، أو المراد بقوله ﴿ ماله ﴾ ما ورثه من أبيه ﴿ وما كسب ﴾ الذي كسبه بنفسه .

قال مجاهد : وما كسب من ولد وولد الرجل من كسبه ، ويجوز أن تكون (ما) في قوله ما أغنى استفهامية أي أيّ شيء أغنى عنه وكذا في قوله (وما كسب) أي وأيّ شيء كسب أو مصدرية أي وكسبه .

والظاهر أن (ما) الأولى نافية والثانية موصولة .

عن عائشة « قالت إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ابنه من كسبه

---

(١) رواه البخاري ٨/٥٦٧ ورواه مسلم ١/١٩٤ بمعناه . وقوله : يا صباحاه : كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم ، فيقولونها ليجتمعوا ويتأهبوا له . ورواه ابن جرير الطبري ٣٠/٣٣٦ وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٤٠٨ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن المنذر .

ثم قرأت ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ قالت وما كسب ولده » أخرجه ابن أبي حاتم ، وعن ابن عباس قال كسبه ولده أي عتيبة بالتصغير وأما عتبة فقد أسلم ، وفسر الكسب بالولد ليغاير ما قبله فيسلم من التكرار .

ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال ، قال الشهاب العدسة قرحة تعتري الانسان كانت العرب تهرب منها لأنها بزعمهم تعدي أشد العدوى .

ثم أوعده الله سبحانه بالنار فقال ﴿ سيصلى ناراً ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام واسكان الصاد وتخفيف اللام أي سيصلى هو بنفسه النار ويحترق بها ، وصلي من باب تعب ، وقرىء بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام والمعنى سيصليه الله .

ومعنى ﴿ ذات لهب ﴾ ذات اشتعال وتوقد وهي نار جهنم ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ معطوف على الضمير في يصلى وجاز ذلك للفصل ، أي وتصلى امرأته ناراً ذات لهب ، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وكانت عوراء تحمل الغضى والشوك والسعدان فتطرحها بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم ، كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمداني .

وقال مجاهد وقتادة والسدي : أنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس ، والعرب تقول فلان يحطب على فلان إذا نم به ، وقال سعيد بن جبير معنى حمالة الحطب انها حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحتطب على ظهره كما في قوله ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ وقيل المعنى حمالة الحطب في النار .

قرأ الجمهور حمالة بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للاخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب ، وأما على ما قدمنا من عطف (وامرأته) على الضمير في (يصلى) فيكون رفع حمالة على النعت لامرأته والاضافة

حقيقية لأنها بمعنى المضي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي حمالة .

وقرأ عاصم بالنصب على الذم أو على أنه حال من امرأته ، وقرىء حاملة الحطب ، وعن ابن عباس في الآية قال كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لتعقره وأصحابه ، وقال حمالة الحطب : نقالة الحديث .

﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ الجيد العنق والمسد الليف الذي تفتل منه الحبال ، قال أبو عبيدة المسد هو الحبل من صوف ، وقال الحسن هي حبال تكون من شجر ينبت باليمن يسمى بالمسد ، وقد تكون الحبال من جلود الابل أو من أوبارها والمسد أيضاً ليف المقل أو مطلق الليف ، والمقل شجر الدوم كما في المصباح والمختار .

وفي القاموس ﴿ المسد ﴾ بسكون السين مصدر بمعنى الفتل ، وبفتحها المحور من الحديد أو حبل من ليف أو كل حبل محكم الفتل ، والجمع مساد وأمساد .

قال الضحاك وغيره هذا في الدنيا كانت تعير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في عنقها فخنقها اللّه به فأهلكها ، وهو في الآخرة حبل من نار .

وقال مجاهد وعروة بن الزبير هو سلسلة من نار يدخل في فيها ويخرج من أسفلها ، وقال قتادة هو قلادة من ودع كانت لها قال الحسن إنما كان خرزاً في عنقها ، وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات والعزى لأنفقتها في عداوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيكون ذلك عذاباً في جسدها يوم القيامة .

والمسد الفتل يقال مسد حبله يمسده مسداً أجاد فتله ، قال ابن عباس هي حبال تكون بمكة ، ويقال المسد العصا التي تكون في البكرة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر قالت « لما نزلت

﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً ابينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنها لن تراني » .

قال تعالى ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسرل الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، قال لا ورب الكعبة ما هجاك فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدهاوأخرجه البزار بمعناه وقال لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الاسناد .

سورة الاخلاص

ولها أسماء كثيرة ذكرها الخطيب ، وزيادة اسماء تدل على شرف المسمى، وهذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأصنام والاوثان والقائلين بالثنوية والتثليث ، هي أربع أو خمس آيات وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي.

عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا محمد انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قل هو الله أحد﴾ الخ الیس شيء يولد الا سيموت وليس شيء يموت الا سيورث وان الله لا يموت ولا يورث ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء رواه أحمد والبخاري في تاريخه وابن خزيمة والحاكم وصححه وغيرهم . ورواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالية مرسلاً ولم يذكر أبياً ثم قال وهذا أصح .

وعن جابر قال « جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿ قل هو الله ﴾ الى آخر السورة أخرجه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم وغيرهم وحسن السيوطي اسناده .

وعن ابن مسعود قال : « قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنسب لنا ربك فنزلت هذه السورة » أخرجه أبو الشيخ في العظمة والطبراني .

وعن ابن عباس « أن اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم كعب ابن الأشرف وحيي بن أخطب فقالوا يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ﴾ فيخرج من الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج من شيء » رواه البيهقي وغيره .

وعن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما[٣] .

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » ١/٥٥٧ ولفظه بتمامه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : احشدوا (اجتمعوا) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبرٌ جاء من السماء ، فذاك الذي أدخله ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : « إني قلت لكم : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٥/١٣٣ ، والترمذي ٢/١٧٢ ، والطبري ٣٠/٣٤٢ ، والواحدي في « أسباب النزول » ٣٤٦ من حديث أبي سعد الصغاني عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب وفي سنده ضعف . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٣/٥٤٠ أيضاً من حديث أبي سعد الصغاني به ، وصححه ، ووافقه الذهبي . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٤٠٩ وزاد نسبته للبخاري في « تاريخه » ، وابن خزيمة ، وابن أبي حاتم في « السنة » والبغوي في « معجمه » ، وابن المنذر في « العظمة » ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه . ورواه الترمذي ٢/١٧٢ عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية فذكره مرسلاً ، ولم يذكر فيه عن أبيّ بن كعب ، وقال : وهذا أصح من حديث أبي سعد الصغاني . ورواه الطبري عن محمد بن عوف عن شريح بن إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر . وذكره ابن كثير من رواية أبي يعلى الموصلي من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر ، وأورده الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧/١٤٦ من رواية الطبراني في « الأوسط » .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » ٦/١٠٥ باب فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ولفظه بتمامه : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يردِّدها ، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالُّها ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وعن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أحب هذه السورة قل هو الله أحد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبك اياها أدخلك الجنة . رواه أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في سننه .

وقد وردت أحاديث كثيرة في أن من قرأ هذه السورة كذا غفر له ذنوب كذا وكذا . وهي في السنن وغيرها ولكنها ضعيفة غريبة . وفيها من هو متهم بالوضع . وقد روي من غير وجه أنها تعدل ثلث القرآن وفيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن .

فمن ذلك ما أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم : والذي نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرآن يعني ﴿ قل هو الله أحد ﴾ . قيل ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الآلهية . والرد على من ألحد فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن . فان مقاصده محصورة في بيان العقائد والاحكام والقصص . وما في الكشاف من أنها تعدل القرآن كله قال الدواني لم أره في شيء من كتب التفسير والحديث انتهى .

ولو لم يرد في فضل هذه السورة الا حديث عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلاً في سرية فكان يقرأ لاصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد . فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لاي شيء يصنع ذلك . فسألوه فقال لانها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال أخبروه أن الله تعالى يحبه : .

هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد . وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال : كان رجل من الانصار يؤمهم في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كل ركعة . فكلمه أصحابه فقالوا انك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بالاخرى . فاما أن تقرأ بها واما أن تدعها وتقرأ

بآخرى قال ما أنا بتاركها ان أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وان كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم. فكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبروه الخبر فقال يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة. فقال اني أحبها قال حبك اياها أدخلك الجنة» وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري.

وهذه السورة قد تجردت للتوحيد والصفات. وفيه دليل على شرف علم التوحيد وكيف لا والعلم يشرف بشرف المعلوم. ويتضع بضعته. ومعلوم هذا العلم هو الله سبحانه وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله.

وفي التوحيد وصفاته سبحانه كتب ورسائل مستقلة مفرزة تصدّى لجمعها وتأليفها عصابة من أهل العلم بالكتاب العزيز والسنة المطهرة منهم شيخ الاسلام أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني وتلميذه الحافظ محمد بن أبي بكر بن القيم وغيرهما من سلف الائمة وخلفها كالمقريزي والشوكاني ومحمد ابن اسماعيل الامير اليماني ومحمد بن اسماعيل الدهلوي وأمثالهم رحمنا الله واياهم أجمعين. اللهم اجعلنا من الموحدين اياك واحشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك. الراجين لثوابك الخائفين من عقابك المكرمين بلقائك. وتقبل منا انك أنت السميع العليم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

﴿ قل هو الله أحد ﴾ الضمير يجوز أن يكون عـائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول وإن المشركين قالوا يا محمد انسب لنا ربك فيكون مبتدأ ، والله مبتدأ ثان واحـداً خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو والخبر أحد ، ويجوز أن يكون الله خبراً أول وأحـد خبراً ثانياً ، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف أي هو أحد ، ويجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم ، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه والأول أولى .

قال الزجاج هو كناية عن ذكر الله والمعنى أن ما سألتم تبيين نسبته هو الله أحد ، قيل وهمزة أحد بدل من الواو وأصله واحد ، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل ، وقال أبو البقاء همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد .

ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال رجل واحد ودرهم واحد ، قيل والواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه ، فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه إثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد .

وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد ، وأحد لا يدخل فيه ورد عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى انتهى .

وذكر أحد في الإثبات مع أن المشهور أنه يستعمل بعد النفي كما أن الواحد لا يستعمل إلا بعد الإثبات يقال في الدار واحد وما في الدار أحد .

فالجواب عنه ما قال ابن عباس أنه لا فرق بينهما في المعنى ، واختاره أبو عبيدة ويؤيده قوله تعالى ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ وعليه فلا يختص أحدهما بمحل دون آخر ، وإن اشتهر استعمال أحدهما في النفي والآخر في الإثبات .

ويجوز أن يكون العدول عن المشهور هنا رعاية الفاصلة بعد فدل بقوله ﴿ الله ﴾ على جميع صفات الكمال وهي الثبوتية كالعلم والقدرة والارادة وبالأحد على صفات الجلال وهي الصفات السلبية كالقدم والبقاء كذا قال الكرخي .

قرأ الجمهور قل هو الله بإثبات قل ، وقرأ ابن مسعود وأبيّ ﴿ الله أحد ﴾ بدون قل ، وقرىء ﴿ قل هو الله الواحد ﴾ وقرأ الجمهور بتنوين أحد وهو الأصل وقرىء بحذفه للخفة ، وقيل إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين ، ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر .

﴿ الله الصمد ﴾ الإسم الشريف مبتدأ والصمد خبره ، والصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات أي يقصد لكونه قادراً على قضائها فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض ، لأنه مصمود إليه أي مقصود إليه .

قال الزجاج : الصمد السيد الذي انتهى إليه السؤدد فلا سيد فوقه ، وقيل معنى الصمد الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول ، وقيل معنى الصمد ما ذكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد ، وقيل هو المستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد ، وقيل هو المقصود في الرغائب والمستعان به في المصائب ، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول ، وقيل هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقيل هو الكامل الذي لا عيب فيه .

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب

ومجاهد وعبدالله بن بريدة وعطاء وعطية العوفي والسدي : ﴿ الصمد ﴾ هو المصمت الذي لا جوف له ، وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير .

وتكرير الإسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى .

وقيل أن الصمد صفة للإسم الشريف ، والخبر هو ما بعده والأول أولى لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة .

وعن بريد قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا جوف له وروي عنه مرفوعاً ولا يصح رفعه وعن ابن مسعود مثله وفي لفظ ليس له أحشاء ، وعن ابن عباس مثله ، وعنه قال الصمد الذي لا يطعم وهو المصمت ، وقد روي عنه أنه الذي يصمد إليه في الحوائج ، وفي لفظ الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده الشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفة لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثله شيء .

وعن ابن مسعود قال الصمد وهو السيد الذي قد انتهى سؤدده فلا شيء أسود منه ، وعن ابن عباس قال الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ أي لم يصدر عنه ولد كما ولدت مريم . ولم يصدر هو عن شيء كما ولد عيسى وعزير لأنه لا يجانسه شيء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً وقد دل على هذا قوله تعالى ﴿ أنى يكون له ولد ولم

تكن له صاحبة ﴾ قال قتادة إن مشركي العرب قالوا الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، فأكذبهم الله فقال لم يلد ولم يولد .

قال الرازي قدم ذكر نفي الولد مع أن الوالد مقدم للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين الملائكة بنات الله واليهود عزيرابن الله والنصارى المسيح ابن الله ، ولم يدع أحد أن له والداً فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال لم يلد .

ثم أشار إلى الحجة فقال ولم يولد كأنه قيل الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل لأنه ورد جواباً عن قولهم (ولد الله) كما حكى الله عنهم بقوله ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله .

فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد المنفي فيما مضى وردت الآية لدفع قولهم هذا .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ولم يماثله ولا يشاركه في شيء ، وآخر اسم كان لرعاية الفواصل .

وقوله (له) متعلق بقوله كفواً قدم عليه لرعاية الاهتمام لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته . وقيل أنه في محل نصب على الحال والأول أولى .

وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدم الظرف كان هو الخبر وههنا لم يجعل خبراً مع تقدمه ، وقد رد على المبرد بوجهين .

(أحدهما) أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوزه .

(والثاني) أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال .

وحكي في الكشاف عن سيبويه أن الكلام العربي الفصيح ان يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ولم ينظر إلى آخره فإنه قال في آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير انتهى .

قال الشهاب ولعل الوصل بين هذه الجمل الثلاث وهي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد بالعاطف دون ما عداها من هذه السورة لأنها سيقت لمعنى وغرض واحد وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه وهذه أقسامها لأن المماثل إما ولد أو والد أو نظير ، فلتغاير الأقسام واجتماعها في المقسم لزم العطف فيها بالواو وكما هو مقتضى قواعد المعاني . وترك العطف في الله الصمد لأنه محقق ومقرر لما قبله . وكذا ترك العطف في لم يلد لأنه مؤكد للصمدية لأن الغني عن كل شيء المحتاج إليه كل ما سواه لا يكون والداً ولا مولوداً انتهى .

قرأ الجمهور كفواً بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء مع إبدال الهمزة واواً في الوقف وأبدلت الواو وصلاً ووقفاً أيضاً وقرىء كفاً بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد وكذلك مع المد ، والكفء في لغة العرب النظير ، تقول هذا كفؤك أي نظيرك والاسم الكفاءة بالفتح قال ابن عباس ليس له كفء ولا مثل ، ومن زعم أن نفي الكفء وهو المثل في الماضي لا يدل على نفيه للحال والكفار يدعونه في الحال فقد تاه في غيه ، لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة إذ الحادث لا يكون كفأ للقديم ، وحاصل كلام الكفرة يؤول إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل والسورة الكريمة تدفع الكل .

أخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال

« كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك : فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

سورة الفلق

هي خمس آيات وهي مكّية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة قيل وهو الصحيح. وعن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف يقول لا تخلطوا القرن بما ليس منه أنهما ليستا من كتاب الله انما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعوذ بهما وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما أخرجه أحمد الطبراني وابن مردويه من طرق قال السيوطي صحيحة. قال البزار لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة. وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة وأثبتتا في المصحف.

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن زر بن حبيش قال أتيت المدينة فلقيت أبيّ بن كعب فقلت له أبا المنذر «اني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه. فقال أما والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهما وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك. قال قيل لي قل فقلت فقولوا فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

قال القرطبي زعم ابن مسعود أن هاتين السورتين دعاء يتعوذ به وليستا من القرآن وقد خالف الاجماع من الصحابة وأهل البيت.

وقال ابن قتيبة لم يكتب ابن مسعود المعوذتين في مصحفه لأنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعوذ الحسن والحسين بهما فقدر أنهما بمنزلة « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » .

قال أبو بكر بن الانباري وهذا مردود على ابن قتيبة لأن المعوذتين من كلام رب العالمين المعجز لجميع المخلوقين . وأعيذكما الخ من كلام البشر . وكلام الخالق الذي هو آية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وحجة له باقية على جماعة الكافرين لا يلتبس بكلام الآدمين فضلاً عن مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان العالم باللغة العارف بأجناس الكلام وأفانين القول .

وقال بعض الناس لم يكتب عبد الله المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان فأسقطهما وهو يحفظهما كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزلت عليّ الليلة آيات لم أر مثلهن قط . قل أعوذ برب الفلق . وقل أعوذ برب الناس » .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من عين الجان ومن عين الإنس . فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما وترك ما سوى ذلك » .

وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يكره عشر خصال ومنها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوذتين » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه .

وعن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحب السور الى الله قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس » أخرجه ابن مردويه .

وعن عائشة قالت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان اذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت اقرأ

عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتها» أخرجه مالك في الموطأ وهو في الصحيحين من طريق مالك.

وعن زيد ابن أرقم قال: «سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال ان رجلا من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان. فأرسل علياً فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقرأ بآية ويحل حتى قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأنما نشط من عقال» أخرجه عبد بن حميد في مسنده وأخرجه ابن مردويه من حديث عائشة مطولا وكذلك من حديث ابن عباس.

قيل وكانت مدة سحره صلى الله عليه وسلم أربعين يوما وقيل ستة أشهر وقيل عاماً قال الحافظ ابن حجر وهو المعتمد.

قال الراغب تأثير السحر في النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من حيث أنه نبي. وانما كان في بدنه حيث أنه انسان أو بشر كما كان يأكل ويتغوط ويغضب ويشتهي ويمرض فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي.

وانما يكون ذلك قادحاً في النبوة لو وجد للسحر تأثير في امر يرجع للنبوة كما أن جرحه وكسر ثنيته يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته في قوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ وكما لا اعتداد بما يقع في الاسلام من غلبة بعض المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الاسلام في قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم).

قال القاضي ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور لانهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحر.

ومذهب أهل السنة أن السحر حق وله حقيقة ويكون بالقول والفعل. ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين. وتمام الكلام على هذا في حاشية سليمان الجمل فارجع اليه.

وقد ورد في فضل المعوذتين وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما في الصلاة وغيرها أحاديث. وفيما ذكرناه كفاية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ الفلق الصبح يقال هو أبين من فلق الصبح ، وسمي فلقاً لأنه يفلق عنه الليل وهو فعل بمعنى مفعول ، قال الزجاج لأن الليل ينفلق عنه الصبح ويكون بمعنى مفعول وهذا قول جمهور المفسرين ، وقيل هو سجن في جهنم ، وقيل هو اسم من أسماء جهنم وقيل شجرة في النار ، وقيل هو الجبال والصخور لأنها تفلق بالمياه أي تشقق ، وقيل هو التفليق بين الجبال لأنها تنشق من خوف الله .

قال النحاس يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق ، وقيل هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحب والنوى وكل شيء من نبات وغيره ، قاله الحسن والضحاك .

قال القرطبي : هذا القول يشهد له الإنشقاق فإن الفلق الشق يقال فلقت الشيء فلقاً شققته والتفليق مثله يقال فلقته فانفلق وتفلق فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق ، قال الله سبحانه (فالق الأصباح) وقال (فالق الحب والنوى) انتهى .

والقول الأول أولى لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق ، وقد قيل في وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه وقيل طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح .

وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير .

عن عمرو بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وقال يا ابن عبسة أتدري ما الفلق ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال بئر في جهنم » أخرجه ابن مردويه ، وأخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عليه غير مرفوع .

وعن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ هل تدري ما الفلق ، باب في النار إذا فتح سعرت جهنم » أخرجه ابن مردويه .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمستكبرون وأن جهنم لتتعوذ بالله منه » أخرجه ابن مردويه والديلمي .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الفلق جب في جهنم » أخرجه ابن جرير .

وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان المصير إليها واجباً ، والقول بها متعيناً .

وعن ابن عباس قال الفلق سجن في جهنم ، وعن جابر بن عبدالله قال الفلق الصبح ، وعن ابن عباس أيضاً الفلق الخلق .

﴿ من شر ما خلق ﴾ متعلق بأعوذ أي أعوذ بالله من شر كل ما خلقه من جميع مخلوقاته فيعم جميع الشرور ، فهذا عام وما بعده من الشرور الثلاثة خاص فهو من ذكر الخاص بعد العام ، وقيل هو إبليس وذريته ، وقيل جهنم ، ولا وجه لهذا التخصيص كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية .

وقد حرف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه ، وتقويماً لباطله ، فقرأ بتنوين شر على أن ما نافية ، والمعنى من شر لم يخلقه ، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن فائد ، وفي المدارك قرأ أبو حنيفة رحمه الله تعالى من شر بالتنوين (وما) على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر بدل من شر أي شر خلقه أي من خلق شر أو ما زائدة انتهى وفيه أيضاً بعد وضعف كما ترى .

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ الغاسق الليل والغسق الظلمة ، قال الفراء يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم ، وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه ابرد من النهار والغاسق البارد ، والغسق البرد ، ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من أماكنها وينبعث أهل الشر على العبث والفساد كذا قال وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين ، ووقوبه دخول ظلامه يقال وقبت الشمس إذا غابت ، وقيل الغاسق الثريا وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت إرتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد ، وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق .

وقال الزهري : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ولم يلاحظ معنى الغسوق ، وقيل هو القمر إذا خسف ، وقيل إذا غاب ، وبهذا قال قتادة وغيره .

واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت « نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً إلى القمر لما طلع فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » قال الترمذي بعد إخراجه حسن صحيح .

وهذا لا ينافي قول الجمهور لأن القمرآية الليل ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وهكذا يقال في جواب من قال أنه الثريا .

قال ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر ، وقيل الغاسق الحية إذا لدغت وقيل الغاسق كل هاجم يضر كائناً ما كان من قولهم غسقت القرحة إذا جرى صديدها ، وقيل الغاسق هو السائل .

وقد عرفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم الليل أخفى للويل .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « النجم هو الغاسق وهو الثريا » أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وغيرهما ، وروي من وجه آخر عنه غير مرفوع .

وقد قدمنا تأويل ما ورد أن الغاسق القمر .

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عاهة عن كل بلد » وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم » وعن ابن عباس في الآية قال : الليل إذا أقبل .

﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ النفاثات هن السواحر أي وأعوذ برب الفلق من شر النفوس النفاثات أو النساء النفاثات والنفث النفخ كما يفعل ذلك من يرقي ويسحر ، قيل مع ريق ، وقيل بدون ريق ، وهو دليل بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور اثره .

والعقد جمع عقدة وذلك أنهن كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها . قال أبو عبيدة النفاثات هن بنات لبيد بن الأعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

قرأ الجمهور النفاثات جمع نفاثة على المبالغة ، وقرىء النفاثات جمع نافثة والنفاثات بضم النون والنفثات بدون ألف. وقال ابن عباس الساحرات وعنه قال هو ما خالط السحر من الرقى .

وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه » .

وعنه قال جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعوذني فقال : « ألا أرقيك برقية رقاني بها جبريل فقلت بلى بأبي أنت وأمي قال بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك ﴿ من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ ، فرقى بها ثلاث مرات » أخرجه ابن ماجه وابن سعد والحاكم وغيرهم .

واختلفوا في جواز النفخ في الرقي والتعاويذ الشرعية فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يدل عليه حديث عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات » الحديث .

وأنكر جماعة التفل والنفث في الرقى وأجازوا النفخ بلا ريق ، قال عكرمة لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد .

قال النسفي جوز الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا بما كان بالسريانية والعبرانية والهندية فإنه لا يحل اعتقاده ولا اعتماد عليه .

﴿ ومن شر حاسد ﴾ الحسد تمني زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود ، ومعنى ﴿ إذا حسد ﴾ إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود ، قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد ، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة   يا ظالما وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على

الخصوص مع اندارجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضره وهو الغاسق والنفاثات والحاسد ، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر ، وختم بالحسد ليعلم أنه أشد وأشر ، وهو أول ذنب عصى الله به في السماء من إبليس وفي الأرض من قابيل ، وإنما عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه لأن كل نفاثة شريرة فلذا عرفت النفاثات ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر ، وربما حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات ، ذكره النسفي في المدارك . وعن ابن عباس في قوله ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال نفس ابن آدم وعينه .

سورة الناس

هي ست آيات والخلاف في كونها مكية او مدنية كالخلاف الذي تقدم في سورة الفلق . قال ابن عباس انزل بمكة قل أعوذ برب الناس ، وعن ابن الزبير قال انزل بالمدينة .

وقد قدمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة وما ورد في فضلها فارجع اليه . وأتى الحافظ ابن القيم في البدائع بفوائد بديعة كثيرة تتعلق بالمعوذتين . وكتب عشرين ورقة في بيان ذلك لا يتسع هذا المقام لبسطها ان شئت فراجعه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿ قل أعوذ ﴾ قرأ الجمهور بالهمزة وقرىء بحذفها ونقل حركتها إلى اللام ﴿ برب الناس ﴾ قرأ الجمهور بترك الامالة في الناس وقرىء بالإمالة ، والمعنى مالك أمرهم ومربيهم ومصلح أحوالهم وانما قال رب الناس مع انه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم .

وقوله ﴿ ملك الناس ﴾ عطف بيان جيء به لبيان ان رتبته سبحانه ليست كرتبة سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والسلطان القاهر وقد أجمع جميع القراء في هذه السورة على إسقاط الألف بخلاف الفاتحة فاختلفوا فيها كما مضى .

﴿ إلّه الناس ﴾ هو أيضاً عطف بيان لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالايجاد والإعدام .

وأيضاً الرب قد يكون ملكاً وقد لا يكون ملكاً كما يقال رب الدار ، ورب المتاع ، ومنه قوله ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ فبين أنه ملك الناس ، ثم الملك قد يكون إلّهاً وقد لا يكون فبين إنه إلّه لأن اسم الإلّه خاص به لا يشاركه فيه أحد .

وأيضاً بدأ باسم الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس .

ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه وأنه عبد مخلوق وإن خالقه إلّه معبود بين سبحانه أنه إلّه الناس ، وكرر لفظ الناس في الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار والبيان ، ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس ، وقيل أراد بالأول الأطفال ، ومعنى الربوبية يدل عليه ، وبالثاني الشباب ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه ، وبالثالث الشيوخ ولفظ الإلّه المنبىء عن العبادة يدل عليه ، وبالرابع الصالحين إذ الشيطان مولع باغوائهم ، وبالخامس المفسدين لعطفه على المعوذ منه ، ذكره النسفي ، ولا وجه لهذا التخصيص وإنما هذا الكلام من لطائف البيان .

﴿ من شر الوسواس ﴾ قال الفراء هو بفتح الواو بمعنى الاسم أي الموسوس وبكسرها المصدر أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وقيل هو بالفتح اسم لمعنى الوسوسة ، والوسوسة هي حديث النفس يقال وسوست إليه نفسه وسوسة أي حدثته حديثاً ، وأصلها الصوت الخفي ، ومنه قيل لأصوات الحلي وسواس .

قال الزجاج الوسواس هو الشيطان أي ذي الوسواس ويقال إن الوسواس ابن لإبليس وسمى بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها شغله الذي هو عاكف عليه ، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ ومعنى ﴿ الخناس ﴾ كثير الخنس وهو التأخر يقال خنس إذا تأخر ، قال مجاهد إذا ذكر الله خنس وانقبض وإذا لم يذكر انبسط على القلب.

ووصف بالخناس لأنه كثير الإختفاء ومنه قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم ، وقيل الخناس اسم لابن إبليس كما تقدم في الوسواس .

وعن ابن عباس في قوله الوسواس الخناس قال مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس وإن سكت عاد إليه فهو الوسواس الخناس .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسيه التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين والبيهقي في الشعب .

وعن ابن عباس في الآية قال الشيطان جاث على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس وعنه قال ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله الوسواس الخناس .

وقد ورد في معنى هذا غيره وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان وإن لم يكن على طريق الإستعاذة ، ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة .

﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ قال قتادة أن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له وإذا ذكر العبد ربه خنس .

قال مقاتل إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك ، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت .

والجملة في محل الجر على الصفة أو الرفع على تقدير مبتدأ والنصب على الذم ، وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على الخناس .

ثم بين سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان جني وإنسي فقال ﴿ من الجنة

والناس ﴾ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فوسوسته ، في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ ويجوز أن يكون متعلقاً بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس ويجوز أن يكون بياناً للناس .

قال الرازي وقال قوم من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله ﴿ في صدور الناس ﴾ لأن القدر المشترك بين الجن والإنس سمي إنساناً ، والإنسان أيضاً سمى إنساناً فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس والنوع بالإشتراك .

والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن ما روي أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم من أنتم قالوا ناس من الجن وأيضاً قد سماهم الله تعالى رجالاً في قوله ﴿ وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ وقيل يجوز أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس .

وقيل المراد بالناس « الناسي » وسقطت الياء كسقوطها في قوله يوم يدع الداع ، ثم بين بالجنة والناس لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان .

وأحسن من هذا أن يكون قوله ﴿ والناس ﴾ معطوفاً على الوسواس أي من شر الوسواس ومن شر الناس كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس ، قال الحسن أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس مباشرة أما شيطان الإنس فيأتي علانية .

وقال قتادة : إن من الجن شياطين وإن من الإنس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الجن والإنس ، وقيل إن إبليس يوسوس في صدور الإنس .

وواحد الجنة جني كما أن واحد الإنس إنسي والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذي قدمنا ويكون هذا البيان تذكر الثقلين للارشاد إلى ان من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وعن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله « أي الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الحال المرتحل ، قيل وما الحال المرتحل ، قال الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل » ، أخرجه الترمذي .

الخاتمة

يقول العبد الضعيف الخامل المتواري ، مؤلف هذا التفسير صديق ابن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري ، ختم الله له بـالحسنى ، وأذاقه حلاوة رضوانه الأسنى .

وإلى هنا انتهى هذا التفسير الجامع بين فني الرواية والدراية ، الرافع من ألوية التحقيق والتنقيح أعظم راية ، وكان الفراغ منه في ضحوة يوم الجمعة لعله التاسع والعشرون من شهر ذي الحجة أحد شهور سنة تسع وثمانين بعد مائتين وألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ، وقد تم بتمامه ، وانتهى بانتهائه الأسبوع والشهر والسنة اللهم كما مننت علي باكمال هذا التفسير وأعنتني على تحصيله وتفضلت عليّ بالفراغ منه على ما أردت فامنن علي بقبوله واجعله لي ذخيرة خير عندك وأجزل لي المثوبة بما صرفت الوقت في تحريره كما قلتَ في كتابك ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ وكما قلت في هذا الباب .

كـل يجيء بكسبـه وكتـابـه يـوم القيـامـة آخـر الأزمـان
في حضـرة الرحمن جـل جلالـه عم الـورى بـالعفـو والغفـران
ويجيء هـذا العبـد وهـو مقصر بكتـابـه التفسـير فتـح بيـان

ثم اللهم انفع به من أخلفه من بعدي من ولدي ومن شئت من عبادك المؤمنين ليدوم لي الانتفاع به بعد موتي ، فإن هذا هو المقصد الجليل ، والمطلب الجميل ، من هذا الجمع والتأليف واجعله خالصاً لوجهك الكريم وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص والتوحيد ، واغفر لي مالايطابق مرادك ، فإني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه ، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيآت ومسبل ذيل الستر على الهفوات ، وإن أصبت فأنت قابل الطاعات ، ومـانح العـطيات يـا بارىء

الباريات ، وقد جمعته في زمن أهله بغير الكتاب والسنة يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح عليه السلام الفلك ومنه يسخرون ، ولله در من يقول :

إذا رضيت علي كرام عشيرتي فلا زال غضباناً عليّ لئامها

ثم اللهم أحمدك على ما أوليتني من نعمك الوافرة من الأموال والأولاد والعلم النافع من الكتاب العزيز والسنة المطهّرة لا أحصي حمداً لك ، وأشكرك على مارزقتني من خلوص النية في القول والعمل والاعتقاد ، لا أحصي شكرك أنت كما أثنيت على نفسك ، وقد رويت في صحيح مسلم بن الحجاج بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله عليه وآله وسلم « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » اللهم فهذا علم ينتفع به وقد علمت نيتي وعدم انتصاري في تفسير كتابك لمذهب ذاهب أو قول قائل ما عدا قولك وما صح عن رسولك[1] صلى الله عليه وآله وسلم فانفعني به في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأجزني بما أنت له أهل يا أهل التقوى وأهل المغفرة ، وهذه اولادي فاجعلهم من عبادك الصالحين وممن يدعو لي بعد مماتي ووفقهم للعلم النافع والعمل الصالح ، واحفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم مما لا تحبه ولا ترضاه واجعل لي ولهم لسان صدق في الآخرين ، رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ، وقد طعنت في العشر الخامس من عمري و ﴿وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ فاعذرني ﴿ فلم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ .

ولنختتم الكلام بالحمد لله رب العالمين كما بدأنا به أول مرة ، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه كرة بعد كرة .

انتهى الكتاب بعون الله

---

١ ـ قوله «وما صحّ عن رسولك» فيه نظر كما تقدم فهناك أحاديث ضعيفة واسرائيليات .

خاتمة الجزء
الخامس عشر

تم بعونه تعالى الجزء الخامس عشر من كتاب فتح البيان في مقاصد القرآن وبذلك نكون قد اتممنا الكتاب بأجزائه الخمسة عشر.

ان المؤلف رحمه الله وضع بعض الحواشي ثم وضع الاستاذ المطيعي عند طبعه الكتاب الطبعة الأولى في الهند بعض الحواشي ووضعنا قربها كلمة المطيعي .

أما معظم الحواشي وتخريج الآيات والأحاديث من كتب الحديث وبعض التعليقات المفيدة التي وضعت في الكتاب فهي من كتابة فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وقد قام عدة علماء أجلاء بقراءتها والموافقة عليها.

الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

فهرس الجزء الخامس عشر